الوجيز

من التحرير و التنوير

للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور

(1879م- 1973م / 1296هـ- 1393هـ)

محمد بن عبد القادر الزغواني

1446 / 2025

بسم الله الرحمان الرحيم

الإهداء

إلى أئمتنا و دعاتنا وطلبة العلوم الشرعيّة

إلى كلّ العاملين في مجال الدعوة،

السالكين سبل الهداية والمبشّرين بها بين النّاس.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للأنام، سيّدنا محمد سيّد الأوّلين والآخرين. اللّهم لا علم لنا إلاّ ما علّمتنا إنّك أنت العليم الحكيم. اللّهم علّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علّمتنا، وزدنا علما، اللّهم اهدنا واهد بنا واجعلنا سببا لمن اهتدى.

وبعد، قد لا نحتاج إلى الكثير من القول كي نضع هذا (الوجيز) في سياقه و نحيل على منهجه وخياراته إن نحن أفصحنا عن الأهداف و المرامي التي نتقصّدها والأبواب التي نطرقها.

فلا شك أنّ تفسير (التحرير والتنوير) للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، رحمه الله، عماد مكتبة كلّ مشتغل في مجال العلوم الشرعيّة، سواء أكان أستاذا مدرّسا، أو طالبا دارسا، أو إماما خطيبا، أو واعظا مرشدا لكلّ العلم الذي يحتويه والمجهود الذي بُذل فيه.

لكن كلّ هذا الحضور في " المكتبات " وحتّى في مواضيع البحوث والأطاريح الجامعيّة لا يستطيع أن يخفي ذلك الغياب الذي يسم علاقة (التحرير والتنوير) بواقع الخطاب الديني المتداول بين المشتغلين بالوعظ و الإرشاد، والملقى من فوق المنابر، والمبثوث بين سواري المساجد، أو حتّى ذلك الرائج والمقدّم في المحافل العلميّة.

فالشيخ بكلّ تلك الترسانة المعرفيّة العميقة، وتلك الخيارات التي اعتمدها في بناء تفسيره، وخصوصا التركيز الدقيق على الجانب اللغوي والبلاغي، قد ضيّق دائرة الأشخاص القادرين على التعامل معه مباشرة.

فاللغة قضيّة جوهريّة بالنسبة للشيخ، والتعامل معها كانت رسالة نذر الشيخ حياته لخدمتها، فهي ليست مجرّد رَكوب يمتطيه يسيح من خلاله بين جنان القرآن. هو يبعث اللغة من جديد عبر استفزازنا وإرباكنا كي نعلم مدى تقصيرنا وتخاذلنا تجاه لغتنا، لغة القرآن الكريم. لذلك هو لا يتوانى عن استعمال ما تقادم من الألفاظ، ودرس من التراكيب، ممّا أثقل الخطى عن مسايرته، وأرهق العقول أن تدرك منتهى سهامه، فكانت القناعة بالتماس البركة، و بعض النتف من أقواله بين الأسطر.

أمّا أن يكون (التحرير والتنوير) الخيار الأوّل لدى الخطيب و الداعية والواعظ فمسألة محرجة بعض الشيء، وواقع الشأن الديني عموما ليس يغري بها. فالكلّ اليوم يطلب ما راج من القول و سهل على الفهم، لذلك تجد الإمام الخطيب والواعظ يقنع بالسهل و البسيط من الكتب، ويتحاشى المطوّلات.

لذلك نحن نزعم أن بعض ما نشتكيه من علل، و نتكبّده من إحن له في (التحرير والتنوير) بعض أدوية، فقط متى مددنا جسور التواصل مع (المعنى السديد)، و بُعث فينا قول الشيخ مرشدا وملهما.

من أجل كلّ ذلك كان (**الوجيز من التحرير والتنوير**) جسرا نقيمه بين الشيخ و خطابنا الديني عساه يتجاوز بعض عثراته ويدرك نهضته.

وقد حرصنا أن يكون (الوجيز) ترجمانا صادقا عمّا أراد الشيخ تحريره من المعاني، واجتهدنا في النسج لعلّنا نبسط لإخوتنا فُرشا يسهل السير عبرها.

وهذا يفضي بنا إلى المخاطبين بـ (الوجيز). فقد اجتهدنا أنّ نستحضر أدوارهم و همومهم ونحن نغوص في أعماق (التحرير والتنوير)، من أجل أن نعود من بحاره بكلّ ما يحتاجه هؤلاء.

وأوّل هؤلاء طلبة العلوم الشرعيّة وخصوصا من كانوا في مراحلها الأولى، حيث يحتاج أولئك بساطا من القول سلسا يرغّبهم في الشيخ و كتابه، ويسهّل عليهم التجوال غدا في تلك الجنان التي أحسن الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور غرسها.

كذلك كان الأئمة الخطباء والوعّاظ، وكلّ من نذر نفسه لنشر العلوم الشرعيّة بين النّاس، بما يطلبونه ويحتاجونه من كتب التفسير، هم الأسطر و الفواصل التي راعيناها في نظم هذا الوجيز وانتقاء مادته.

منهج الوجيز

لعلّه من المفيد، في سياق الحديث عن منهجنا في الوجيز، أن نورد بعض الملاحظات و رؤوس الأقلام حول المنهج الذي اعتمده الشيخ في تفسيره، وذلك كي يتسنّى لنا تنزيل الخيارات والضوابط التي اعتمدناها في (الوجيز).

ينطلق الشيخ في استخراج معاني الآيات من خلال منهجيّة شديدة الصرامة، ولكن مع ذلك هي في منتهى الوضوح. فهو أوّلا يدقّق ما للآية من تعلّق، يسمّيه الشيخ **المناسبة،** مع ما يسبقها من الآيات، و يسوق من خلال ذلك المعنى العام للآية أو للمقطع الذي يشتغل عليه. ثمّ بعد ذلك يعود ليضبط المعنى اللغوي للمفردات. طبعا الشيخ هنا يسمح لنفسه بكلّ أنواع الاستطرادات و التفصيلات التي تحيلنا على أمّهات كتب اللغة والبلاغة. الشعر يمكن اعتباره المَعين الأوّل الذي يُعمّد الشيخ فيه مفرداته دون أن يهمل ما للتراكيب من جماليّة وأفنان، وهو من أجل ذلك يُجلسنا حِلق أساطين اللغة و البلاغة، فتجد نفسك محاطا بقامات سامقة في مجال التفسير واللغة و الآداب؛ كسيبويه (180 هـ)، والفرّاء (207 هـ)، والزمخشري (ت 538هـ)، وابن عطيّة (542هـ)، والبيضاوي (691 هـ)، والرازي (727هـ)، وغيرهم كثير، إلّا أنّ من ذكرنا هم الأخلّاء. ومع ذلك الشيخ لا يتردّد في التنصيص على ما يراه لا يستقيم، فيردّ أقوالا أرهق القوم أنفسهم في تثبيتها، ويختار أخرى ضعّفوها. وتمتد بك المجالس حتّى تغفل عمّا جئت من أجله، لكن الشيخ ليس يغفل، فهو بعد أن يستوفي ما للآية من فذلكات ولطائف بلاغيّة، يعود ليدقّق المعنى، ليس فقط على ضوء المناسبة، كما في المستهلّ، وإنّما بما أحالت عليه اللغة وأفانينها من معابرو آفاق.

هذه الأسفار التي لا تهدأ جيئة و ذهوبا بين علوم اللغة وعلوم الشريعة (خصوصا أصول الفقه والفقه) هي ولا شك من أبرز الأسباب التي جعلت الكثيرين يتهيّبون صحبة الشيخ، ويستبدلون الذي أدنى بالذي

هو خير. وربّما كان للقوم بعض العذر. فعندما حيل بيننا و بين النشأة على فصيح القول، وتوقّفت المرابد أن تكون سوقا للكلم قلّ فينا الفرسان، وأصبحت المُهج تستثقل الغريب و تستطيب البسيط من القول وتقنع بالقريب من المعنى، عندها هُجرت تلك الأسفار التي أجهد أصحابها أنفسهم فيها من أجل أن يقدّموا للنّاس موائد عامرة من بديع القول وجميل النظم . وهذا للأسف ما وقع لـ (التحرير والتنوير).

وقبل أن نضبط الموازين التي وفقها كان إيقاع (الوجيز)، نشير فقط أنّ لـ (التحرير و التنوير) علاقة خاصة بالشعر، فالشيخ متيّم به، يكفي أن تعلم أنّ بداياته في التأليف كانت بتحقيق ونشر(ديوان بشار بن برد) في أربعة أجزاء، وجمع أشعار النابغة، والبحث في سرقات المتنبي. لذلك يندر أن تخلو صفحة أو مبحث لغوي من استشهاد بالقديم من الشعر. وهو خيار منهجيّ صائب ولابد، لمن كانت هممهم عالية، ومقاصدهم ابعد من مجرّد فهم المعنى العام للآيات، وسبيلهم التعمّق. لكن بالنسبة للواعظ الباحث عن الموعظة من الآية، والإمام الخطيب الراغب في المعنى الذي يحرّك النفوس، والمدرّس الذي يطلب سلاسة المتن وترابط الجمل من اجل التلميذ و المستمع، بالنسبة لكلّ هؤلاء قد يصبح الإغراق في الشعر والتدقيقات اللغوية من المربكات.

لذلك كانت أولى خياراتنا المنهجيّة في (الوجيز) تجاوز الشعر، إلّا ما رأينا له كبير تعلّق بالمعنى، أو ما قدّرنا أنّه يمكن الاستفادة منه في الدرس والموعظة والخطبة. لكن مع ذلك، ولأنّ اللغة هي قضيّة ورسالة بالنسبة للشيخ، فقد حرصنا على المحافظة على ذلك المعجم البديع الذي يوظّفه ابن عاشور في ثنايا نسجه كخرّاز يوشي الثياب بخيوط من ذهب، فأنّى لك أن تنتزعها. فقط تدخّلنا في بعض المناسبات القليلة جدا باستبدال لفظة أو تبسيط تركيب، وذلك خدمة للمعنى.

كذلك اضطرّتنا منهجيّة الشيخ في تفسير الآيات، والتي أسلفنا الحديث حولها، إلى أن نعتمد أسلوب الحذف و تحويل مكان بعض الجمل تقديما وتأخيرا حتّى يكون للنص ترابطه وللمعاني سلاستها.

فالتفسير كان بالأساس مجموعة الدروس الملقاة على طلبة التعليم العالي من التعليم الزيتوني، لذلك تلمس روح الدرس خلاله و يحضر المخاطَبون فيه، استفسارا و استطرادا.

كذلك من بين استراتيجيّات (الوجيز) في التلخيص أنّنا حذفنا أغلب الآراء و الخيارات التي يسوقها الشيخ ثمّ يفنّدها تلميحا أو تصريحا، من مثل قوله: " وهذا بعيد " أو " لا يصح " ونحوه.

كذلك عندما كان الشيخ يدخل في تلك المجادلات اللغويّة، التي كان يبرع فيها، كنّا نتريّث بالقلم حتّى ينتهي صخب تلك المعارك، فنحن المغانم نطلب.

وفي كثير من الأحيان يورد الشيخ للآية أو للمقطع أكثر من تفسير، أو يستصحب الآراء السابقة معدّدا إيّاها، وحتّى لا نثقل (الوجيز) فقد كنّا في أغلب الأوقات نكتفي بالرأي الذي نرجّح أنّ الشيخ يقدّمه.

فيما يتعلّق بالأحاديث و الآثار فقد أسقطنا كلّ الأحاديث و الآثار و القصص التي لم يركن إليها الشيخ، ولم يوردها إلّا في سياق التوهين والتحذير. والحقيقة أنّ ما يُحسب لشيخنا أنّه استطاع أن يعصم (تحريره) من الوقوع في تلك المزالق التي أودت بقامات جليلة في التفسير.

طبعا احترمنا خيارات الشيخ ومواقفه في كلّ تلك المسائل الخلافيّة، سواء المتعلّقة بجليل الكلام أو دقيقه.

في الفقه كنّا نحرص أن نخفّف المتن من كلّ تلك الحواشي و التفريعات التي لا يحتاجها إلّا صاحب الاختصاص أو الباحث عن المقارنات. فكتاب الشيخ في المتناول، وفي كتب الفقه غنية لمستزيد.

المسألة الأخيرة التي كنّا فيها صارمين بعض الشيء ، ونرجو أن يكون التوفيق قد حالفنا، هي مسألة القراءات، فقد كان خيارنا ألاّ نتوقّف عندها إلّا في حدودها الدنيا، وذلك عندما يكون للخلاف بين القراءات تأثير فارق في تفسير الآية وإدراك معانيها، غير ذلك تجنّبنا إثقال النص بانقطاعات رأيناها مربكة بعض الشيء.

فقط ملاحظة نسوقها هنا، وهي إلى الاعتذار أقرب، فقد اضطرّتنا مسائل تقنية إلى استبدال متن المصحف المشتغل عليه من رواية قالون إلى رواية حفص وهي مسألة لا يد لنا فيها. ونرجو في الطبعة القادمة أن نعالج هذا الإشكال.

و في ختام هذه الأسطر التي نضعها بين يديّ (الوجيز) نسأل الله إن يكون عملنا خالصا لوجهه الكريم وأن يبارك فيه وأن يجازي عنّا إمامنا و شيخنا محمد الطاهر ابن عاشور خير جزاء، و أن نكون قد وفّقنا في تبليغ الأمانة على الوجه الذي يرضاه عنّا .

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين

الحمد لله على أن بيّن للمستهدين معالم مراده، ونصب لجحافل المستفتحين أعلام أمداده فأنزل القرآن قانونا عاما معصوما، وأعجز بعجائبه فظهرت يوما فيوما، وجعله مصدّقا لما بين يديه ومهيمنا، وما فرط فيه من شيء يعظ مسيئا ويعد محسنا، حتّى عرفه المنصفون من مؤمن وجاحد، وشهد له الراغب والمحتار والحاسد، فكان الحال بتصديقه أنطق من اللسان، وبرهان العقل فيه أبصر من شاهد العيان، وأبرز آياته في الآفاق فتبيّن للمؤمنين أنّه الحقّ، كما أنزله على أفضل رسول فبشّر بأنّ لهم قدم صدق، فبه أصبح الرّسول الأمّيّ سيّد الحكماء المربين، وبه شرح صدره إذ قال { إِنَّكَ عَلَى الحقّ الْمُبِينِ } [النمل:79]، فلم يزل كتابه مشعّا نيّرا، محفوظا من لدنه أن يترك فيكون مبدّلا ومغيّرا. ثم قيّض لتبيينه أصحابه الأشداء الرحماء، وأبان أسراره من بعدهم في الأمّة من العلماء. فصلاة الله وسلامه على رسوله وآله الطاهرين، وعلى أصحابه نجوم الاقتداء للسائرين والمأخّرين.

أمّا بعد فقد كان أكبر أمنيّتي منذ أمد بعيد، تفسير الكتاب المجيد، الجامع لمصالح الدنيا والدين، وموثق شديد العرى من الحقّ المتين، والحاوي لكليات العلوم ومعاقد استنباطها، والآخذ قوس البلاغة من محلّ نياطها، طمعا في بيان نكت من العلم وكليات من التشريع، وتفاصيل من مكارم الأخلاق، كان يلوح أنموذج من جميعها في خلال تدبّره، أو مطالعة كلام مفسّره، ولكنّي كنت على كلفي بذلك أتجهم التقحّم على هذا المجال، وأحجم عن الزج بسيّة قوسي في هذا النضال. اتقاء ما عسى أن يعرّض له المرء نفسه من متاعب تنوء بالقوّة، أو فلتات سهام الفهم وإن بلغ ساعد الذهن كمال الفتوّة. فبقيت أسوّف النفس مرّة، ومرّة أسومها زجرا، فإن رأيت منها تصميما أحلتها على فرصة أخرى، وأنا آمل أن يمنح من التيسير، ما يشجّع على قصد هذا الغرض العسير. وفيما أنا بين إقدام وإحجام، أتخيل هذا الحقل مرّة القتاد وأخرى الثمام. إذا أنا بأملي قد خيّل إليّ أنّه تباعد أو انقضى، إذ قدّر أن تسند إلي خطّة القضا (في 26 رمضان 1331هـ). فبقيت متلهّفا ولات حين مناص، وأضمرت تحقيق هاته الأمنية متى أجمل الله الخلاص، وكنت أحادث بذلك الأصحاب والإخوان، وأضرب المثل بأبي الوليد ابن رشد في كتاب (البيان) [حيث ذكر أنّه شرع فيه، ثم عاقه عنه تقليد خطة القضاء بقرطبة فعزم على الرجوع إليه إن أريح من القضاء وأنّه عرض عزمه على أمير المؤمنين علي بن يوسف بن تاشفين، فأجابه لذلك وأعفاه من القضاء ليعود إلى إكمال كتابه (البيان والتحصيل)] ولم أزل كلّما مضت مدّة يزداد التمنّي وأرجو إنجازه، إلى أن أوشك أن تمضي عليه مدة الحيازة، فإذا الله قد منّ بالنقلة إلى خطة الفتيا (في 26 رجب 1341هـ). وأصبحت الهمّة مصروفة إلى ما تنصرف إليه الهمم العليا، فتحول إلى الرجاء ذلك اليأس، وطمعت أن

أكون ممّن أوتي الحكمة فهو يقضي بها ويعلّمها الناس. هنالك عقدت العزم على تحقيق ما كنت أضمرته، واستعنت بالله تعالى واستخرته. وعلمت أنّ ما يهول من توقّع كلل أو غلط، لا ينبغي أن يحول بيني وبين نسج هذا النمط، إذا بذلت الوسع من الاجتهاد، وتوخّيت طرق الصواب والسداد.

أقدمت على هذا المهمّ إقدام الشجاع على وادي السباع متوسطا في معترك أنظار الناظرين، وزائرا بين ضباح الزائرين، فجعلت حقا عليّ أن أبدي في تفسير القرآن نكتا لم أر من سبقني إليها، وأن أقف موقف الحكم بين طوائف المفسّرين تارة لها وآونة عليها، فإن الاقتصار على الحديث المعاد، تعطيل لفيض القرآن الذي ما له من نفاد.

والتفاسير وإن كانت كثيرة فإنّك لا تجد الكثير منها إلّا عالة على كلام سابق بحيث لا حظ لمؤلفه إلّا الجمع على تفاوت بين اختصار وتطويل. وإنّ أهم التفاسير تفسير (الكشاف) و (المحرر الوجيز) لابن عطية و (مفاتيح الغيب) لفخر الدين الرازي، وتفسير البيضاوي الملخّص من الكشاف ومن مفاتيح الغيب بتحقيق بديع، و(تفسير الشهاب الآلوسي)، وما كتبه الطيبي والقزويني والقطب والتفتزاني على الكشاف، وما كتبه الخفاجي على (تفسير البيضاوي)، و(تفسير أبي السعود)، و(تفسير القرطبي) والموجود من (تفسير الشيخ محمد بن عرفة التونسي) من تقييد تلميذه الآبي وهو بكونه تعليقا على تفسير ابن عطية أشبه منه بالتفسير لذلك لا يأتي على جميع آي القرآن، وتفاسير الأحكام، و(تفسير الإمام محمد ابن جرير الطبري)، وكتاب (درّة التنزيل) المنسوب لفخر الدين الرازي، وربما ينسب للراغب الأصفهاني.

ولقصد الاختصار أعرض عن العزو إليها، وقد ميّزت ما يفتح الله لي من فهم في معاني كتابه وما أجلبه من المسائل العلمية، مما لا يذكره المفسرون، وإنّما حسبي في ذلك عدم عثوري عليه فيما بين يدي من التفاسير في تلك الآية خاصة، ولست أدعي انفرادي به في نفس الأمر، فكم من كلام تنشئه تجدك قد سبقك إليه متكلّم، وكم من فهم تستظهره وقد تقدّمك إليه متفهّم.

وقد اهتممت في تفسيري هذا ببيان وجوه الإعجاز ونكت البلاغة العربية وأساليب الاستعمال، واهتممت أيضا ببيان تناسب اتصال الآي بعضها ببعض، وهو منزع جليل قد عني به فخر الدين الرازي، وألف فيه برهان الدين البقاعي كتابه المسمى (نظم الدرر في تناسب الآي والسور)، إلّا أنّهما لم يأتيا في كثير من الآي بما فيه مقنع، فلم تزل أنظار المتأمّلين لفصل القول تتطلع، أمّا البحث عن تناسب مواقع السور بعضها إثر بعض، فلا أراه حقّا على المفسّر.

ولم أغادر سورة إلّا بيّنت ما أحيط به من أغراضها لئلّا يكون الناظر في تفسير القرآن مقصورا على بيان مفرداته ومعاني جمله كأنّها فقر متفرّقة تصرفه عن روعة انسجامه وتحجب عنه روائع جماله.

واهتممت بتبيين معاني المفردات في اللغة العربية بضبط وتحقيق ممّا خلت عن ضبط كثير منه قواميس اللغة. وعسى أن يجد فيه المطالع تحقيق مراده، ويتناول منه فوائد ونكتا على قدر استعداده، فإنّي بذلت الجهد في الكشف عن نكت من معاني القرآن وإعجازه خلت عنها التفاسير، ومن أساليب الاستعمال

الفصيح ما تصبو إليه همم النحارير، بحيث ساوى هذا التفسير على اختصاره مطولات القماطير، ففيه أحسن ما في التفاسير، وفيه أحسن مما في التفاسير. وسميته " تحرير المعنى السديد، وتنوير العقل الجديد، من تفسير الكتاب المجيد" واختصرت هذا الاسم باسم "التحرير والتنوير من التفسير" وها أنا أبتدئ بتقديم مقدّمات تكون عونا للباحث في التفسير، وتغنيه عن معاد كثير.

المقدّمة الأولى

في التفسير والتأويل وكون التفسير علما

التفسير مصدر فسّر بتشديد السين الذي هو مضاعف فسر بالتخفيف الذي مصدره الفسر. والفسر الإبانة والكشف لمدلول كلام أو لفظ بكلام آخر هو أوضح لمعنى المفسَّر عند السامع، ثم قيل المصدران والفعلان متساويان في المعنى، وقيل يختص المضاعف بإبانة المعقولات.

والتفسير في **الاصطلاح** هو اسم للعلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن وما يستفاد منها باختصار أو توسّع.

وموضوع التفسير: ألفاظ القرآن من حيث البحث عن معانيه، وما يُستنبط منه وبهذه الحيثية خالف علم القراءات لأنّ تمايز العلوم- كما يقولون- بتمايز الموضوعات، وحيثيات الموضوعات.

والتفسير أوّل العلوم الإسلامية ظهورا، إذ قد ظهر الخوض فيه في عصر النبيّ صلى الله عليه وسلم، إذ كان بعض أصحابه قد سأل عن بعض معاني القرآن كما سأله عمر رضي الله عنه عن الكلالة، ثم اشتهر فيه بعد من الصحابة علي وابن عباس وهما أكثر الصحابة قولا في التفسير، وزيد بن ثابت وأبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم، وكثر الخوض فيه، حين دخل في الإسلام من لم يكن عربي السجيّة، فلزم التصدي لبيان معاني القرآن لهم، وشاع عن التابعين وأشهرهم في ذلك مجاهد وابن جبير. وهو أيضا أشرف العلوم الإسلامية ورأسها على التحقيق.

وأمّا تصنيفه: فأوّل من صنّف فيه عبد الملك بن جريج المكي المولود سنة (ت 149 هـ) صنف كتابه في تفسير آيات كثيرة وجمع فيه آثارا وغيرها وأكثر روايته عن أصحاب ابن عباس مثل عطاء ومجاهد. وصُنفت تفاسير ونسبت روايتها إلى ابن عباس، لكن أهل الأثر تكلموا فيها وهي (تفسير محمد بن السائب الكلبي) (ت 146 هـ)عن أبي صالح عن ابن عباس، وقد رُمي أبو صالح بالكذب حتّى لقب بكلمة (دروغدت) بالفارسية بمعنى الكذاب، وهي أوهى الروايات فإذا انضم إليها رواية محمد بن مروان السدي عن الكلبي فهي سلسلة الكذب، أرادوا بذلك أنّها ضدّ ما لقبوه بسلسلة الذهب، وهي مالك عن نافع عن ابن عمر. وهنالك رواية مقاتل ورواية الضحاك، ورواية علي بن أبي طلحة الهاشمي كلّها عن ابن عباس، وأصحها رواية علي بن أبي طلحة، وهي التي اعتمدها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه فيما يصدّر به من تفسير المفردات على طريقة التعليق.

والحاصل أنّ الرواية عن ابن عباس، قد اتخذها الوضّاعون والمدلّسون ملجأ لتصحيح ما يروونه، كدأب النّاس في نسبة كلّ أمر مجهول من الأخبار والنوادر، لأشهر النّاس في ذلك المقصد.

وهنالك روايات تسند لعلي رضي الله عنه، أكثرها من الموضوعات، إلّا ما روي بسند صحيح، مثل ما في صحيح البخاري ونحوه، لأنّ لعلي أفهاما في القرآن كما ورد في صحيح البخاري، عن أبي جحيفة

قال: قلت لعلي هل عندكم شيء من الوحي ليس في كتاب الله؟ فقال: " لا والذي فلق الحبّة، وبرأ النسمة، ما أعلمه إلّا فهما يعطيه الله رجلا في القرآن ".

ثم تلاحق العلماء في تفسير القرآن وسلك كلّ فريق مسلكا يأوي إليه وذوقا يعتمد عليه .فمنهم من سلك **مسلك نقل ما يؤثر عن السلف**: وأوّل من صنف في هذا المعنى، مالك ابن أنس، وكذلك الداودي تلميذ السيوطي في طبقات المفسّرين، وذكره عياض في المدارك إجمالا. وأشهر أهل هذه الطريقة فيما هو بأيدي النّاس **محمد بن جرير الطبري**. ومنهم من سلك **مسلك النظر** كأبي إسحاق الزجاج وأبي علي الفارسي.

وشغف كثير بنقل القصص عن الإسرائيليات، فكثرت في كتبهم الموضوعات، إلى أن جاء في عصر واحد عالمان جليلان أحدهما بالمشرق، وهو العلامة **أبو القاسم محمود الزمخشري**، صاحب **(الكشاف)**، والآخر بالمغرب بالأندلس وهو الشيخ **عبد الحقّ بن عطية**، فألف تفسيره المسمى بـ **(المحرر الوجيز)**. كلاهما يغوص على معاني الآيات، ويأتي بشواهدها من كلام العرب ويذكر كلام المفسّرين إلا أن منحي البلاغة والعربية بالزمخشري أخص، ومنحي الشريعة على ابن عطية أغلب، وكلاهما عضادتا الباب، ومرجع من بعدهما من أولي الألباب.

وقد جرت عادة المفسّرين بالخوض في بيان معنى التأويل، وهل هو مساو للتفسير أو أخصّ منه أو مباين. وجماع القول في ذلك أنّ من العلماء من جعلهما متساويين، وإلى ذلك ذهب ثعلب وابن الأعرابي وأبو عبيدة، وهو ظاهر كلام الراغب، ومنهم من جعل التفسير للمعنى الظاهر والتأويل للمتشابه، ومنهم من قال: التأويل صرف اللفظ عن ظاهر معناه إلى معنى آخر محتمل لدليل فيكون هنا بالمعنى الأصولي.

المقدّمة الثانية

في استمداد علم التفسير

استمداد العلم يراد به توقّفه على معلومات سابق وجودها على وجود ذلك العلم عند مدوّنيه، لتكون عونا لهم على إتقان تدوين ذلك العلم، ولا ينحصر ذلك ولا ينضبط، بل هو متفاوت على حسب مقادير توسع المفسّرين ومستطرداتهم، فاستمداد علم التفسير للمفسر العربي والمولّد، من المجموع الملتئم من علم العربية وعلم الآثار، ومن أخبار العرب وأصول الفقه، وقيل: وعلم الكلام وعلم القراءات.

أمّا العربية فالمراد منها معرفة مقاصد العرب من كلامهم وأدب لغتهم سواء حصلت تلك المعرفة، بالسجية والسليقة، كالمعرفة الحاصلة للعرب الذين نزل القرآن بين ظهرانيهم، أم حصلت بالتلقّي والتعلّم كالمعرفة الحاصلة للمولّدين، الذين شافهوا بقية العرب ومارسوهم، والمولّدين الذين درسوا علوم اللسان ودوّنوها.

إنّ القرآن كلام عربي فكانت قواعد العربية طريقا لفهم معانيه، وبدون ذلك يقع الغلط وسوء الفهم، لمن ليس بعربي بالسليقة، ونعني بقواعد العربية مجموع علوم اللسان العربي، وهي: متن اللغة، والتصريف، والنحو، والمعاني، والبيان. ومن وراء ذلك استعمال العرب المتّبع من أساليبهم في خطبهم وأشعارهم وتراكيب بلغائهم.

واعلم أنّ استمداد علم التفسير، من هذه المواد لا ينافي كونه رأس العلوم الإسلامية كما تقدّم، لأنّ كونه رأس العلوم الإسلامية، معناه أنّه أصل لعلوم الإسلام على وجه الإجمال، فأمّا استمداده من بعض العلوم الإسلامية، فذلك استمداد لقصد تفصيل التفسير على وجه أتم من الإجمال.

المقدّمة الثالثة

في صحة التفسير بغير المأثور ومعنى التفسير بالرأي ونحوه

ثم لو كان التفسير مقصورا على بيان معاني مفردات القرآن من جهة العربية لكان التفسير نزرا، ونحن نشاهد كثرة أقوال السلف من الصحابة، فمن يليهم في تفسير آيات القرآن وما أكثَر ذلك الاستنباط برأيهم وعلمهم.

قال الغزالي والقرطبي: لا يصح أن يكون كلّ ما قاله الصحابة في التفسير مسموعا من النبيّ صلى الله عليه وسلم لوجهين:

أحدهما: أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يثبت عنه من التفسير إلّا تفسير آيات قليلة وهي ما تقدّم عن عائشة.

الثاني: أنّهم اختلفوا في التفسير على وجوه مختلفة لا يمكن الجمع بينها. وسماع جميعها من رسول الله محال، ولو كان بعضها مسموعا لترك الآخر، أي لو كان بعضها مسموعا لقال قائله: إنه سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجع إليه من خالفه. فتبيّن على القطع أنّ كل مفسّر قال في معنى الآية بما ظهر له باستنباطه. روى البخاري في صحيحه عن أبي جحيفة قال: قلت لعلي: هل عندكم شيء من الوحي إلّا ما في كتاب الله؟ قال: " لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لا أعلمه إلّا فهما يعطيه الله رجلا في القرآن ". وقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عباس فقال: " اللّهم فقهه في الدين وعلمه التأويل ". واتّفق العلماء على أن المراد بالتأويل تأويل القرآن.

وقد ذكر فقهاؤنا في آداب قراءة القرآن أنّ التفهّم مع قلة القراءة أفضل من كثرة القراءة بلا تفهّم. قال الغزالي في الإحياء " التدبّر في قراءته، إعادة النظر في الآية. والتفهّم، أن يستوضح من كل آية ما يليق بها، كي تتكشّف له من الأسرار معان مكنونة لا تتكشّف إلا للموفقين " وقال: " ومن موانع الفهم أن يكون قد قرأ تفسيرا واعتقد أن لا معنى لكلمات القرآن إلّا ما تناوله النقل عن ابن عباس وابن مجاهد، وأن ما وراء ذلك تفسير بالرأي فهذا من الحجب العظيمة ."

قال شرف الدين الطيبي في شرح الكشاف في سورة الشعراء: " شرط التفسير الصحيح أن يكون مطابقا للفظ من حيث الاستعمال، سليما من التكلّف عريًّا من التعسّف، وصاحب الكشاف يسمّي ما كان على خلاف ذلك بدع التفاسير".

وأمّا الجواب عن الشبهة التي نشأت من الآثار المروية في التحذير من تفسير القرآن بالرأي فمرجعه إلى أحد خمسة وجوه:

أولها: أنّ المراد بالرأي هو القول عن مجرد خاطر دون استناد إلى نظر في أدلّة العربية ومقاصد الشريعة وتصاريفها، وما لا بد منه من معرفة الناسخ والمنسوخ وسبب النزول، فهذا لا محالة إن أصاب فقد أخطأ في تصوّره بلا علم، لأنّه لم يكن مضمون الصواب.

ثانيها: أن لا يتدبّر القرآن حق تدبّره فيفسّره بما يخطر له من بادئ الرأي دون إحاطة بجوانب الآية ومواد التفسير، مقتصرا على بعض الأدلة دون بعض، كأن يعتمد على ما يبدو من وجه في العربية فقط.
ثالثها: أن يكون له ميل إلى نزعة أو مذهب أو نحلة فيتأوّل القرآن على وفق رأيه ويصرفه عن المراد ويرغمه على تحمّله، ما لا يساعد عليه المعنى المتعارف، فيجرّ شهادة القرآن لتقرير رأيه، ويمنعه عن فهم القرآن حقّ فهمه ما قيّد عقله من التعصب.
رابعها: أن يفسّر القرآن برأي مستند إلى ما يقتضيه اللفظ ثم يزعم أنّ ذلك هو المراد دون غيره، لما في ذلك من التضييق على المتأوّلين.
خامسها: أن يكون القصد من التحذير أخذ الحيطة في التدبّر والتأويل ونبذ التسرّع.
أمّا ما يتكلم به أهل الإشارات من الصوفية في بعض آيات القرآن من معان لا تجري على ألفاظ القرآن ولكن بتأويل ونحوه فينبغي أن تعلموا أنّهم ما كانوا يدّعون أنّ كلامهم في ذلك تفسير للقرآن، بل يعنون أنّ الآية تصلح للتمثل بها في الغرض المتكلّم فيه، وحسبكم في ذلك أنّهم سموها (**إشارات**) ولم يسمّوها معاني، فبذلك فارق قولهم قول الباطنية.
ولعلماء الحقّ فيها رأيان: فالغزالي يراها مقبولة، وابن العربي في كتاب العواصم يرى إبطال هذه الإشارات كلّها. وعندي إن هذه الإشارات لا تعدو واحدا من ثلاثة أنحاء:
الأول: ما كان يجري فيه معنى الآية مجرى التمثيل لحال شبيه بذلك المعنى كما يقولون مثلا { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ} أنّه إشارة للقلوب لأنّها مواضع الخضوع لله تعالى إذ بها يُعرف فتسجد له القلوب بفناء النفوس.
الثاني: ما كان من نحو التفاؤل فقد يكون للكلمة معنى يسبق من صورتها إلى السمع هو غير معناها المراد، وذلك من باب انصراف ذهن السامع إلى ما هو المهمّ عنده، والذي يجول في خاطره.
الثالث: عبر ومواعظ وشأن أهل النفوس اليقظى أن ينتفعوا من كل شيء ويأخذوا الحكمة حيث وجدوها فما ظنّك بهم إذا قرأوا القرآن وتدبّروه فاتعظوا بمواعظه. فإذا أخذوا من قوله تعالى { فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً } [المزمل:16] اقتبسوا أنّ القلب الذي لم يمتثل رسول المعارف العليا تكون عاقبته وبالا.

المقدمة الرابعة

فيما يحقّ أن يكون غرض المفسّر

إنّ القرآن أنزله الله تعالى كتابا لصلاح أمر النّاس كافة رحمة لهم لتبليغهم مراد الله منهم، قال الله تعالى {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } [النحل: 89] فكان المقصد الأعلى منه صلاح الأحوال الفردية، والجماعية، والعمرانية. فالصلاح الفردي يعتمد تهذيب النفس وتزكيتها، ورأس الأمر فيه صلاح الاعتقاد، لأنّ الاعتقاد مصدر الآداب والتفكير، ثم صلاح السريرة الخاصة، وهي العبادات الظاهرة كالصلاة، والباطنة كالتخلّق بترك الحسد والحقد والكبر. وأمّا الصلاح الجماعي فيحصل أوّلا من الصلاح الفردي إذ الأفراد أجزاء المجتمع، ولا يصلح الكلّ إلّا بصلاح أجزائه، ومن شيء زائد على ذلك وهو ضبط تصرّف النّاس بعضهم مع بعض، على وجه يعصمهم من مزاحمة الشهوات ومواثبة القوى النفسانيّة. وهذا هو علم المعاملات، ويعبّر عنه عند الحكماء بالسياسة المدنية. وأمّا الصلاح العمراني فهو أوسع من ذلك، إذ هو حفظ نظام العالم الإسلامي، وضبط تصرّف الجماعات والأقاليم بعضهم مع بعض على وجه يحفظ مصالح الجميع، ورعي المصالح الكليّة الإسلامية، وحفظ المصلحة الجامعة عند معارضة المصلحة القاصرة لها، ويسمّى هذا بعلم العمران وعلم الاجتماع. أليس قد وجب على الآخذ في هذا الفنّ أن يعلم المقاصد الأصلية التي جاء القرآن لتبيانها فلنلمّ بها الآن بحسب ما بلغ إليه استقراؤنا وهي ثمانية أمور:

الأوّل: إصلاح الاعتقاد وتعليم العقد الصحيح. وهذا أعظم سبب لإصلاح الخلق، لأنّه يزيل عن النفس عادة الإذعان لغير ما قام عليه الدليل، ويطهّر القلب من الأوهام الناشئة عن الإشراك والدهريّة وما بينهما.

الثاني: تهذيب الأخلاق قال تعالى { وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ } [القلم:4]، وفسّرت عائشة رضي الله تعالى عنها لمّا سئلت عن خلقه صلى الله عليه وسلم فقالت: " كان خلقه القرآن ". وفي الحديث الذي رواه مالك في الموطأ بلاغا أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " بعثت لأتمم مكارم حسن الأخلاق ".

الثالث: التشريع وهو الأحكام خاصة وعامة.

الرابع : سياسة الأمّة وهو باب عظيم في القرآن، القصد منه صلاح الأمّة وحفظ نظامها.

الخامس: القصص وأخبار الأمم السالفة للتأسّي بصالح أحوالهم.

السادس: التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين، وما يؤهّلهم إلى تلقي الشريعة ونشرها، وذلك علم الشرائع وعلم الأخبار، وكان ذلك مبلغ علم مخالطي العرب من أهل الكتاب.

السابع: المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير، وهذا يجمع جميع آيات الوعد والوعيد، وكذلك المحاجة والمجادلة للمعاندين، وهذا باب الترغيب والترهيب.

الثامن: الإعجاز بالقرآن ليكون آية دالة على صدق الرسول، إذ التصديق يتوقّف على دلالة المعجزة بعد

التّحدي، والقرآن جمع كونه معجزة بلفظه ومتحدِّي لأجله بمعناه.

فغرض المفسّر بيان ما يصل إليه أو ما يقصده من مراد الله تعالى في كتابه بأتمّ بيان يحتمله المعنى ولا يأباه اللفظ، من كلّ ما يوضح المراد من مقاصد القرآن، أو ما يتوقّف عليه فهمه أكمل فهم، أو يخدم المقصد تفصيلا وتفريعا، كما أشرنا إليه في المقدّمة الأولى، مع إقامة الحجّة على ذلك، إن كان به خفاء، أو لتوقّع مكابرة من معاند أو جاهل، فلا جرم كان رائد المفسّر في ذلك أن يعرف على الإجمال مقاصد القرآن ممّا جاء لأجله، ويعرف اصطلاحه في إطلاق الألفاظ، فللتنزيل اصطلاح وعادات.

وقد تعرّض صاحب الكشاف إلى شيء من عادات القرآن في متناثر كلامه في تفسيره.

فطرائق المفسّرين للقرآن ثلاث:

إمّا الاقتصار على الظاهر من المعنى الأصلي للتركيب، مع بيانه وإيضاحه وهذا هو الأصل.

وإمّا استنباط معان من وراء الظاهر تقتضيها دلالة اللفظ أو المقام ولا يجافيها الاستعمال ولا مقصد القرآن، وتلك هي مستتبعات التراكيب وهي من خصائص اللغة العربية المبحوث فيها في علم البلاغة، ككون التأكيد يدلّ على إنكار المخاطب أو تردّده، وكفحوى الخطاب، ودلالة الإشارة، واحتمال المجاز مع الحقيقة.

وإمّا أن يجلب المسائل ويبسطها لمناسبة بينها وبين المعنى، أو لأنّ زيادة فهم المعنى متوقفة عليها، أو للتوفيق بين المعنى القرآني وبين بعض العلوم مما له تعلّق بمقصد من مقاصد التشريع، لزيادة تنبيه إليه، أو لردّ مطاعن من يزعم أنّه ينافيه. لا على أنّها ممّا هو مراد الله من تلك الآية بل لقصد التوسّع كما أشرنا إليه في المقدمة الثانية.

المقدّمة الخامسة

في أسباب النزول

أولع كثير من المفسّرين بتطلّب أسباب نزول آي القرآن، وهي حوادث يروى أنّ آيات من القرآن نزلت لأجلها لبيان حكمها أو لحكايتها أو إنكارها أو نحو ذلك، وأغربوا في ذلك وأكثروا حتّى كاد بعضهم أن يوهم النّاس أنّ كل آية من القرآن نزلت على سبب، وحتى رفعوا الثقة بما ذكروا. بيد أنّا نجد في بعض آي القرآن إشارة إلى الأسباب التي دعت إلى نزولها، ونجد لبعض الآي أسبابا ثبتت بالنقل دون احتمال أن يكون ذلك رأي الناقل، فكان أمر أسباب نزول القرآن دائرا بين القصد والإسراف، وكان في غض النظر عنه وإرسال حبله على غاربه خطر عظيم في فهم القرآن.

وقد تصفّحت أسباب النزول التي صحت أسانيدها فوجدتها خمسة أقسام:

الأوّل: هو المقصود من الآية يتوقّف فهم المراد منها على علمه فلابد من البحث عنه للمفسّر، وهذا منه تفسير مبهمات القرآن مثل قوله تعالى { قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا } [المجادلة:1].

الثاني: هو حوادث تسبّبت عليها تشريعات أحكام، وصور تلك الحوادث لا تبيّن مجملا ولا تخالف مدلول الآية بوجه تخصيص أو تعميم أو تقييد، ولكنّها إذا ذكرت أمثالها وجدت مساوية لمدلولات الآيات النازلة عند حدوثها. مثل حديث كعب بن عجرة الذي نزلت عنه آية { فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ } [البقرة:196] فقد قال كعب بن عجرة: " هي لي خاصة ولكم عامة ".

الثالث: هو حوادث تكثر أمثالها تختصّ بشخص واحد فنزلت الآية لإعلانها وبيان أحكامها وزجر من يرتكبها، فكثيرا ما تجد المفسّرين وغيرهم يقولون نزلت في كذا وكذا، وهم يريدون أنّ من الأحوال التي تشير إليها تلك الآية تلك الحالة الخاصة فكأنهم يريدون التمثيل. ففي كتاب الأيمان من صحيح البخاري في باب قول الله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً } [آل عمران:77] أنّ عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من حلف على يمين صبر يقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان "، فأنزل الله تصديق ذلك { إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً}، فدخل الأشعث بن قيس فقال ما حدثكم أبو عبد الرحمان؟ فقالوا كذا وكذا، قال فيّ أنزلت، لي بئر في أرض بن عم لي...". فابن مسعود جعل الآية عامة لأنّه جعلها تصديقا لحديث عام، والأشعث بن قيس ظنّها خاصة به إذ قال فيّ أنزلت بصيغة الحصر .

الرابع: هو حوادث حدثت وفي القرآن آيات تناسب معانيها سابقة أو لاحقة، فيقع في عبارات بعض السلف ما يوهم أنّ تلك الحوادث هي المقصود من تلك الآيات، مع أنّ المراد أنّها مما يدخل في معنى الآية. ويدلّ لهذا النوع وجود اختلاف كثير بين الصحابة في كثير من أسباب النزول كما هو مبسوط في المسألة الخامسة من بحث أسباب النزول من (الإتقان).

الخامس: قسم يبيّن مجملات ويدفع متشابهات، مثل قوله تعالى { وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ } [المائدة:44]، فإذا ظن أحد أن (من) للشرط أشكل عليه كيف يكون الجور في الحكم كفرا، ثم إذا علم أنّ سبب النزول هم النصارى علم أن (من) موصولة وعلم أن الذين تركوا الحكم بالإنجيل لا يتعجّب منهم أن يكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم.

المقدمة السادسة

في القراءات

أرى أن للقراءات حالتين: **إحداهما** لا تعلق لها بالتفسير بحال، و**الثانية** لها تعلق به من جهات متفاوتة.

الحالة الأولى: هي اختلاف القرّاء في وجوه النطق بالحروف والحركات، كمقادير المد والإمالات والتخفيف والتسهيل والتحقيق والجهر والهمس والغنّة، مثل { عَذَابِي } [الأعراف:156] بسكون الياء و{عَذَابِيَ } بفتحها. وفي تعدّد وجوه الإعراب مثل { حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ } [البقرة:214] بفتح لام يقول وضمّها. ومزية القراءات من هذه الجهة عائدة إلى أنّها حفظت على أبناء العربية ما لم يحفظه غيرها، وهو تحديد كيفيّات نطق العرب بالحروف في مخارجها وصفاتها وبيان اختلاف العرب في لهجات النطق، بتلقّي ذلك عن قرّاء القرآن من الصحابة بالأسانيد الصحيحة، وهذا غرض مهمّ جدّا لكنّه لا علاقة له بالتفسير لعدم تأثيره في اختلاف معاني الآي، ولم أر من عرف لفن القراءات حقه من هذه الجهة، وفيها أيضا سعة من بيان وجوه الإعراب في العربية، فهي لذلك مادة كبرى لعلوم اللغة العربية.

من أجل ذلك اتفق علماء القراءات والفقهاء على **أنّ كل قراءة وافقت وجها في العربية ووافقت خطّ المصحف (مصحف عثمان) وصحّ سند راويها، فهي قراءة صحيحة لا يجوز ردّها**، قال أبو بكر ابن العربي: " ومعنى ذلك عندي أن تواترها تبع لتواتر المصحف الذي وافقته وما دون ذلك فهو شاذ ".

قلت: وهذه الشروط الثلاثة، هي شروط في قبول القراءة إذا كانت غير متواترة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، بأن كانت صحيحة السند إلى النبيّ ولكنها لم تبلغ حد التواتر فهي بمنزلة الحديث الصحيح، وأمّا القراءة المتواترة فهي غنية عن هذه الشروط لأنّ تواترها يجعلها حجّة في العربية، ويغنيها عن الاعتضاد بموافقة المصحف المجمع عليه، ألا ترى أن جمعا من أهل القراءات المتواترة قرؤوا قوله تعالى { وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضنِينٍ } [التكوير:24] بظاء مشالة (بِظَنِينٍ) أي بمتهم، وقد كتبت في المصاحف كلّها بالضاد الساقطة.

الحالة الثانية: فهي اختلاف القراء في حروف الكلمات مثل { مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ } [الفاتحة:4] و{ ملك يوم الدين }، و{ ننشرها } و { نُنْشِزُهَا } [البقرة:259]، و{ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا } بتشديد الذال أو{ قَدْ كُذِبُوا} [يوسف: 110] بتخفيفه.

والظنّ أنّ الوحي نزل بالوجهين وأكثر، تكثيرا للمعاني، إذا جزمنا بأنّ جميع الوجوه في القراءات المشهورة هي مأثورة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، على أنّه لا مانع من أن يكون مجيء ألفاظ القرآن على ما يحتمل تلك الوجوه مرادا لله تعالى ليقرأ القرّاء بوجوه فتكثر من جراء ذلك المعاني، فيكون وجود الوجهين فأكثر في مختلف القراءات مجزئا عن آيتين فأكثر، وهذا نظير التضمين في استعمال العرب، ونظير التورية والتوجيه في البديع، ونظير مستتبعات التراكيب في علم المعاني، وهو من زيادة ملاءمة بلاغة القرآن.

وأنا أرى أنّ **على المفسّر أن يبيّن اختلاف القراءات المتواترة لأنّ في اختلافها توفيرا لمعاني الآية غالبا فيقوم تعدد القراءات مقام تعدد كلمات القرآن.** وهذا يبيّن لنا أنّ اختلاف القراءات قد ثبت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم كما ورد في حديث عمر بن الخطاب مع هشام بن حكيم بن حزام، ففي صحيح البخاري أنّ عمر بن الخطاب قال: " سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ في الصلاة سورة الفرقان في حياة رسول الله فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله، فكدت أساوره في الصلاة فتصبّرت حتّى سلم فلببته بردائه فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال أقرأنيها رسول الله، فقلت كذبت فإنّ رسول الله أقرأنيها على غير ما قرأت، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله فقلت إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها، فقال رسول الله: **" اقرأ يا هشام"** فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ فقال رسول الله: **" كذلك أنزلت"** ، ثم قال: **" اقرأ يا عمر"** فقرأت القراءة التي أقرأني فقال رسول الله: **" كذلك أنزلت، إنّ هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسّر منه ".**

المقدّمة السابعة

القصص القرآن

القصّة: الخبر عن حادثة غائبة عن المخبر بها، فليس ما في القرآن من ذكر الأحوال الحاضرة في زمن نزوله قصصا مثل ذكر وقائع المسلمين مع عدوهم. وجمع القصّة قِصص (بكسر القاف)، وأمّا القَصص بفتح القاف فاسم للخبر المقصوص، وهو مصدر سمّي به المفعول، يقال قصّ على فلان إذا أخبره بخبر.

وللقصص القرآني **عشر فوائد**:

الفائدة الأولى: أنّ قصارى علم أهل الكتاب في ذلك العصر كان معرفة أخبار الأنبياء وأيامهم وأخبار من جاورهم من الأمم، فكان اشتمال القرآن على تلك القصص التي لا يعلمها إلّا الراسخون في العلم من أهل الكتاب تحدّيا عظيما لأهل الكتاب، وتعجيزا لهم بقطع حجّتهم على المسلمين، قال تعالى { تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا} [هود: 49]، فكان حملة القرآن بذلك أحقاء بأن يوصفوا بالعلم الذي وصفت به أحبار اليهود، وبذلك انقطعت صفة الأمّيّة عن المسلمين في نظر اليهود، وانقطعت ألسنة المعرّضين بهم بأنّهم أمة جاهلية، وهذه فائدة لم يبيّنها من سلفنا من المفسّرين.

الفائدة الثانية: أنّ من أدب الشريعة معرفة تاريخ سلفها في التشريع من الأنبياء بشرائعهم، فكان اشتمال القرآن على قصص الأنبياء وأقوامهم تكليلا لهامة التشريع الإسلامي بذكر تاريخ المشرّعين، قال تعالى {وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ } [آل عمران: 146]. وهذه فائدة من فتوحات الله لنا أيضا.

الفائدة الثالثة: ما فيها من فائدة التاريخ، من معرفة ترتيب المسبّبات على أسبابها في الخير والشرّ والتعمير والتخريب، لتقتدي الأمة وتحذر، قال تعالى { فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا } [النمل: 52]. وما فيها من فائدة ظهور المثل العليا في الفضيلة وزكاء النفوس أو ضدّ ذلك.

الفائدة الرابعة: ما فيها من موعظة المشركين بما لحق الأمم التي عاندت رسلها، وعصت أوامر ربّها حتّى يرعووا عن غلوائهم، ويتّعظوا بمصارع نظرائهم وآبائهم، وكيف يورث الأرض أولياءه وعباده الصالحين قال تعالى { فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } [الأعراف: 176].

الفائدة الخامسة: أنّ في حكاية القصص سلوك أسلوب التوصيف والمحاورة، وذلك أسلوب لم يكن معهودا للعرب فكان مجيئه في القرآن ابتكار أسلوب جديد في البلاغة العربية شديد التأثير في نفوس أهل اللسان، وهو من إعجاز القرآن، إذ لا ينكرون أنّه أسلوب بديع ولا يستطيعون الإتيان بمثله إذ لم يعتادوه.

الفائدة السادسة: أنّ العرب بتوغل الأمّيّة والجهل فيهم أصبحوا لا تهتدي عقولهم إلّا بما يقع تحت الحس، أو ما ينتزع منه، ففقدوا فائدة الاتعاظ بأحوال الأمم الماضية وجهلوا معظمها وجهلوا أحوال البعض الذي علموا أسماءه، فأعقبهم ذلك إعراضا عن السعي لإصلاح أحوالهم بتطهيرها ممّا كان سبب هلاك من قبلهم.

الفائدة السابعة: تعويد المسلمين على معرفة سعة العالم وعظمة الأمم والاعتراف لها بمزاياها حتّى تدفع عنهم وصمة الغرور، كما وعظهم قوله تعالى عن قوم عاد { وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً } [فصلت:15]، فإذا علمت الأمّة جوامع الخيرات وملائمات حياة النّاس تطلبت كل ما ينقصها مما يتوقف عليه كمال حياتها وعظمتها.

الفائدة الثامنة: أن ينشئ في المسلمين همّة السعي إلى سيادة العالم كما ساده أمم من قبلهم، ليخرجوا من الخمول الذي كان عليه العرب، إذ رضوا من العزّة باغتيال بعضهم بعضا، فكان منتهى السيّد منهم أن يغنم صريمة، ومنتهى أمل العامي أن يرعى غنيمة، وتقاصرت هممهم عن تطلب السيادة حتّى آل بهم الحال إلى أن فقدوا عزّتهم فأصبحوا كالأتباع للفرس والروم، فالعراق كلّه واليمن كلّه وبلاد البحرين تبع لسيادة الفرس. والشام ومشارفه تبع لسيادة الروم. وبقي الحجاز ونجد لا غنية لهم عن الاعتزاز بملوك العجم والروم في رحلاتهم وتجارتهم.

الفائدة التاسعة: معرفة أنّ قوة الله تعالى فوق كلّ قوة، وأنّ الله ينصر من ينصره، وأنّهم إن أخذوا بوسيلتي البقاء: من الاستعداد والاعتماد، سلموا من تسلط غيرهم عليهم.

وذكر العواقب الصالحة لأهل الخير، وكيف ينصرهم الله كما في قوله { فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ } [الأنبياء:88/87].

الفائدة العاشرة: أنّها يحصل منها بالتبع فوائد في تاريخ التشريع والحضارة، وذلك يفتق أذهان المسلمين للإلمام بفوائد المدنية كقوله تعالى { كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ } [يوسف:76].

المقدّمة الثامنة

في اسم القرآن وآياته وسوره وترتيبها وأسمائها

فاسم القرآن هو الاسم الذي جعل علما على الوحي المنزّل على محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يسبق أن أطلق على غيره قبله، وهو أشهر أسمائه وأكثرها ورودا في آياته وأشهرها دورانا على ألسنة السلف.

وله أسماء أخرى هي في الأصل أوصاف أو أجناس أنهاها في الإتقان إلى نيف وعشرين. والذي اشتهر إطلاقه عليه منها ستة: (التنزيل - الكتاب – الفرقان – الذكر – الوحي - كلام الله).

الفرقان: في الأصل اسم لما يفرق به بين الحقّ والباطل وهو مصدر، وقد وصف يوم بدر بيوم الفرقان وأطلق على القرآن في قوله تعالى { تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ } [الفرقان:1] وقد جعل هذا الاسم علما على القرآن بالغلبة، مثل التوراة على الكتاب الذي جاء به موسى والإنجيل على الوحي الذي أنزل على عيسى، قال تعالى { نزل عَلَيْكَ الْكِتَابَ - إلى قوله - وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ } [آل عمران: 3/4]، فوصفه أوّلا بالكتاب وهو اسم الجنس العام ثم عبّر عنه باسم الفرقان عقب ذكر التوراة والإنجيل ليعلم أنّ الفرقان علم على الكتاب الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم.

التنزيل: مصدر نزل، أطلق على المنزّل باعتبار أنّ ألفاظ القرآن أنزلت من السماء قال تعالى { تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } [فصلت:3/2].

الكتاب: فأصله اسم جنس مطلق ومعهود. وباعتبار عهده أطلق على القرآن كثيرا قال تعالى { ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ } [البقرة:2] وقال { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ} [الكهف:1]، وإنّما سمّي كتابا لأن الله جعله جامعا للشريعة فأشبه التوراة لأنّها كانت مكتوبة في زمن الرسول المرسل بها، وأشبه الإنجيل الذي لم يكتب في زمن الرسول الذي أرسل به، ولكنّه كتبه بعض أصحابه وأصحابهم، ولأنّ الله أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يكتب كلّ ما أنزل عليه منه، ليكون حجّة على الذين يدخلون في الإسلام ولم يتلقوه بحفظ قلوبهم. ولذلك اتخذ النبيّ صلى الله عليه وسلم من أصحابه كتّابا يكتبون ما أنزل إليه، من أوّل ما ابتدئ نزوله، ومن أوّلهم عبد الله ابن سعد بن أبي سرح، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وزيد بن ثابت، ومعاوية بن أبي سفيان. وقد وجد جميع ما حفظه المسلمون في قلوبهم على قدر ما وجدوه مكتوبا يوم أمر أبو بكر بكتابة المصحف.

الذكر: فقال تعالى { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ } [النحل: 44] أي لتبينه للنّاس، وذلك أنّه تذكير بما يجب على النّاس اعتقاده والعمل به.

الوحي: فقال تعالى { قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ } [الانبياء: 45] ووجه هذه التسمية أنّه ألقي إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم بواسطة الملك وذلك الإلقاء يسمّى وحيا لأنّه يترجم عن مراد الله تعالى، فهو كالكلام المترجم عن مراد الإنسان، ولأنّه لم يكن تأليف تراكيبه من فعل البشر.

كلام الله: فقال تعالى { وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حتّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ } [التوبة: 6] واعلم أنّ أبا بكر رضي الله عنه لما أمر بجمع القرآن وكتابته كتبوه على الورق فقال للصحابة: التمسوا اسما، فقال بعضهم سمّوه إنجيلا فكرهوا ذلك من أجل النصارى، وقال بعضهم سمّوه السفر فكرهوه من أجل أنّ اليهود يسمون التوراة السفر. فقال عبد الله ابن مسعود: رأيت بالحبشة كتابا يدعونه المصحف فسموه مصحفا يعني أنّه رأى كتابا غير الإنجيل.

آيات القرآن

الآية: هي مقدار من القرآن مركّب ولو تقديرا أو إلحاقا، فقولي: ولو تقديرا لإدخال قوله { مُدْهَامَّتَانِ } [الرحمن:64] إذ التقدير هما مدها متان، ونحو { وَالْفَجْرِ } [الفجر:1] إذ التقدير أقسم بالفجر. وقولي: أو إلحاقا لإدخال بعض فواتح السور من الحروف المقطّعة، فقد عُدّ أكثرها في المصاحف آيات ما عدا (آلر، وآلمر، وطس)، وذلك أمر توقيفي وسنّة متّبعة، ولا يظهر فرق بينها وبين غيرها.

وتسمية هذه الأجزاء آيات هو من مبتكرات القرآن، قال تعالى { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ } [آل عمران:7] وقال { كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ } [هود:1]. وإنّما سمّيت آية لأنّها دليل على أنّها موحى بها من عند الله إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّها تشتمل على ما هو من الحد الأعلى في بلاغة نظم الكلام، ولأنّها لوقوعها مع غيرها من الآيات جعلت دليلا على أنّ القرآن منزّل من عند الله وليس من تأليف البش، إذ قد تحدى النبيّ به أهل الفصاحة والبلاغة من أهل اللسان العربي فعجزوا عن تأليف مثل سورة من سوره. والعبرة فيها بتماثل صيغ الكلمات من حركات وسكون، وهي أكثر شبها بالتزام ما لا يلزم في القوافي. وأكثرها جار على أسلوب الأسجاع.

قال أبو عمرو الداني في كتاب (العدد): " أجمعوا على أنّ عدد آيات القرآن يبلغ ستة آلاف آية، واختلفوا فيما زاد على ذلك، فمنهم من لم يزد، ومنهم من قال ومائتين وأربع آيات، وقيل وأربع عشرة، وقيل وتسع عشرة، وقيل وخمسا وعشرين، وقيل وستا وثلاثين، وقيل وستمائة وست عشرة ".

ترتيب الآي

وأمّا ترتيب الآي بعضها عقب بعض فهو بتوقيف من النبيّ صلى الله عليه وسلم حسب نزول الوحي، ومن المعلوم أنّ القرآن نزل منجّمًا آيات، فربما نزلت عدة آيات متتابعة أو سورة كاملة، كما سيأتي قريبا، وذلك الترتيب مما يدخل في وجوه إعجازه من بداعة أسلوبه كما سيأتي في المقدمة العاشرة، فلذلك كان ترتيب آيات السورة الواحدة على ما بلغتنا عليه متعيّنا بحيث لو غُيّر عنه إلى ترتيب آخر لنزل على حد الإعجاز الذي امتاز به، فلم تختلف قراءة النبيّ صلى الله عليه وسلم في ترتيب آي السور على نحو ما هو في المصحف الذي بأيدي المسلمين اليوم، وهو ما استقرّت عليه رواية الحفّاظ من الصحابة عن العرضات الأخيرة التي كان يقرأ بها النبيّ صلى الله عليه وسلم في أواخر سني حياته الشريفة، وحسبك أن زيد بن ثابت حين كتب المصحف لأبي بكر لم يخالف في ترتيب آي القرآن.

وعلى ترتيب قراءة النبيّ صلى الله عليه وسلم في الصلوات الجهريّة وفي عديد المناسبات حفظ القرآن كلّ من حفظه كلّا أو بعضا، وليس لهم معتمد في ذلك إلّا ما عرفوا به من قوة الحوافظ، ولم يكونوا يعتمدون على الكتابة، وإنّما كان كتاب الوحي يكتبون ما أنزل من القرآن بأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم، وذلك بتوقيف إلهي. ولعلّ حكمة الأمر بالكتابة أن يرجع إليها المسلمون عندما يحدث لهم شك أو نسيان، ولكن ذلك لم يقع.

ولمّا جُمع القرآن في عهد أبي بكر لم يؤثر عنهم أنّهم تردّدوا في ترتيب آيات من إحدى السور، ولا أثر عنهم إنكار أو اختلاف فيما جمع من القرآن، فكان موافقا لما حفظته حوافظهم. قال ابن وهب: سمعت مالكا يقول: " إنّما ألّف القرآن على ما كانوا يسمعونه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ". وقال ابن الأنباري: " كانت الآية تنزل جوابا لمستخبر يسأل ويوقف جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم على موضع الآية ".

وقوف القرآن

<u>الوقف هو قطع الصوت عن الكلمة حصّة يتنفس في مثلها المتنفس عادة</u>، والوقف عند انتهاء جملة من جمل القرآن قد يكون أصلا لمعنى الكلام، فقد يختلف المعنى باختلاف الوقف مثل قوله تعالى { وكأيّن من نبي قتل معه ربيون كثير } [آل عمران:146] فإذا وقف عند كلمة { قتل } كان المعنى أنّ أنبياء كثيرين قتلهم قومهم وأعداؤهم. ومع الأنبياء أصحابهم فما تزلزلوا لقتل أنبيائهم فكان المقصود تأييس المشركين من وهن المسلمين على فرض قتل النبيّ صلى الله عليه وسلم في غزوته.

وعلى جميع التقادير لا تجد في القرآن مكانا يجب الوقف فيه ولا يحرم الوقف فيه كما قال ابن الجزري في أرجوزته، ولكن الوقف ينقسم إلى أكيد حسن ودونه وكلّ ذلك تقسيم بحسب المعنى.

وبعضهم استحسن أن يكون الوقف عند نهاية الكلام، وأن يكون ما يتطلّب المعنى الوقف عليه، قبل تمام المعنى، سكتا، وهو قطع الصوت حصّة أقلّ من حصّة قطعه عند الوقف، **فإنّ اللغة العربية واضحة، وسياق الكلام حارس من الفهم المخطئ**، فنحو قوله تعالى { يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ} [الممتحنة: 1] لو وقف القاري على قوله { الرَّسُولَ } لا يخطر ببال العارف باللغة أنّ قوله {وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ} تحذير من الإيمان بالله، وكيف يخطر ذلك وهو موصوف بقوله { رَبِّكُمْ } فهل يحذّر أحد من الإيمان بربه.

على أنّ التعدد في الوقف قد يحصل به ما يحصل بتعدد وجوه القراءات من تعدّد المعنى مع اتحاد الكلمات. فقوله تعالى { وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً } [الانسان:16] فإذا وقف على { قَوَارِيرَا } الأوّل كان { قَوَارِيرَا } الثاني تأكيدا لرفع احتمال المجاز في لفظ { قَوَارِيرَا }، واذا وقف على { قَوَارِيرَا } الثاني كان المعنى الترتيب والتصنيف.

ولمّا كان القرآن مرادا منه فهم معانيه وإعجاز الجاحدين به وكان قد نزل بين أهل اللسان كان فهم معانيه مفروغا من حصوله عند جميعهم، لذلك لم يشتد اعتناء السلف بتحديد أوقافه لظهور أمرها.

فأمّا التحدّي بعجز بلغائهم عن معارضته فأمر يرتبط بما فيه من الخصوصيات البلاغية التي لا يستوي في القدرة عليها جميعهم بل خاصة بلغائهم من خطباء وشعراء، وكان من جملة طرق الإعجاز ما يرجع إلى محسّنات الكلام من فنّ البديع، ومن ذلك فواصل الآيات التي هي شبه قوافي الشعر وأزجاع النثر، وهي مراده في نظم القرآن لا محالة، كما قدّمناه عند الكلام على آيات القرآن، فكان عدم الوقف عليها تفريطا في الغرض المقصود منها.

فكان الاعتبار بفواصله التي هي مقاطع آياته عندهم أهم لأن عجز قادتهم وأولي البلاغة والرأي منهم تقوم به الحجّة عليهم وعلى دهمائهم، فلمّا كثر الداخلون في الإسلام من دهماء العرب ومن عموم بقيّة الأمم، توجّه اعتناء أهل القرآن إلى ضبط وقوفه تيسيرا لفهمه على قارئيه، فظهر الاعتناء بالوقوف وروعي فيها ما يراعى في تفسير الآيات، فكان ضبط الوقوف مقدّمة لما يفاد من المعاني عند واضع الوقف.

وأشهر من تصدى لضبط الوقوف أبو محمد بن الانباري، وأبو جعفر بن النحاس، وللنكزاوي أو النكزوي كتاب في الوقف ذكره في الإتقان، واشتهر بالمغرب من المتأخرين محمد بن أبي جمعه الهبطي (ت 930هـ)

سور القرآن

السورة قطعة من القرآن معيّنة بمبدأ ونهاية لا يتغيران، مسمّاة باسم مخصوص، تشتمل على ثلاث آيات فأكثر في غرض تام ترتكز عليه معاني آيات تلك السورة، ناشئ عن أسباب النزول، أو عن مقتضيات ما تشتمل عليه من المعاني المتناسبة. وتسمية القطعة المعينة من عدة آيات القرآن سورة من مصطلحات القرآن، وشاعت تلك التسمية عند العرب حتّى المشركين منهم. فالتحدّي للعرب بقوله تعالى { فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ } [هود: 13] وقوله { فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ } [البقرة: 23] لا يكون إلّا تحدّيا باسم معلوم المسمّى والمقدار عندهم وقت التحدّي، فإن آيات التحدّي نزلت بعد السور الأول، وقد جاء في القرآن تسمية سورة النور باسم سورة في قوله تعالى { سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا } [النور: 1] أي هذه سورة، وقد زادته السنّة بيانا.

ولم تكن أجزاء التوراة والإنجيل والزبور مسمّاة سورا عند العرب في الجاهلية ولا في الإسلام.

ووجه تسمية الجزء المعيّن من القرآن سورة قيل مأخوذة من **السُور** (بضم السين وتسكين الواو) وهو الجدار المحيط بالمدينة أو بمحلة قوم. وقيل مأخوذة من **السؤر** (بهمزة بعد السين) وهو البقية مما يشرب الشارب، بمناسبة أنّ السؤر جزء مما يشرب، ثم خففوا الهمزة بعد الضمة فصارت واوا.

وتسوير القرآن من السنّة في زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقد كان القرآن يومئذ مقسّما إلى مائة

وأربع عشرة سورة بأسمائها، ولم يخالف في ذلك إلّا عبد الله بن مسعود فإنّه لم يثبت المعوذتين في سور القرآن، وكان يقول: " إنّما هما تعوّذ أمر الله رسوله بأن يقوله وليس هو من القرآن". وأثبت القنوت الذي يقال في صلاة الصبح، على أنّه سورة من القرآن سماها سورة الخلع والخنع. وجعل سورة الفيل وسورة قريش سورة واحدة. وكل ذلك استنادا لما فهمه من نزول القرآن.

ولم يُحفظ عن جمهور الصحابة حين جمعوا القرآن أنّهم تردّدوا ولا اختلفوا في عدد سوره، وأنّها مائة وأربع عشرة سورة. روى أصحاب السنن عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا نزلت الآية يقول: "ضعوها في السورة التي يذكر فيها كذا " ، وكانت السور معلومة المقادير منذ زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم محفوظة عنه في قراءة الصلاة وفي عرض القرآن.

وأما ترتيب السور بعضها إثر بعض، فقال أبو بكر الباقلاني: يحتمل أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم هو الذي أمر بترتيبها كذلك، ويحتمل أن يكون ذلك من اجتهاد الصحابة، وقال الداني: " كان جبريل يوقف رسول الله على موضع الآية وعلى موضع السورة ". وفي المستدرك عن زيد بن ثابت أنّه قال: " كنّا عند رسول الله نؤلّف القرآن من الرقاع "، قال البيهقي: " تأويله أنّهم كانوا يؤلّفون آيات السور ".

ونقل ابن عطية عن الباقلاني الجزم بأنّ ترتيب السور بعضها إثر بعض هو من وضع زيد بن ثابت بمشاركة عثمان، قال ابن عطية: " وظاهر الأثر أنّ السبع الطوال والحواميم والمفصّل كانت مرتبة في زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم، وكان من السور مالم يرتب فذلك هو الذي رتّب وقت كتابة المصحف ".

أقول: لا شك أن طوائف من سور القرآن كانت مرتبة في زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم على ترتيبها في المصحف الذي بأيدينا اليوم، الذي هو نسخة من المصحف الإمام الذي جمع وكتب في خلافة أبي بكر الصديق ووزعت على الأمصار نسخ منه في خلافة عثمان ذي النورين، فلا شك في أنّ سور المفصّل كانت هي آخر القرآن ولذلك كانت سنّة قراءة السورة في الصلوات المفروضة أن يكون في بعض الصلوات من طوال المفصّل وفي بعضها من وسط المفصّل وفي بعضها من قصار المفصّل. وأنّ طائفة السور الطولى الأوائل في المصحف كانت مرتّبة في زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم أول القرآن.

والاحتمال فيما عدا ذلك.

أقول: لا شك في أنّ زيد بن ثابت وعثمان بن عفان، وهما من أكبر حفاظ القرآن من الصحابة، توخّيا ما استطاعا ترتيب قراءة النبيّ صلى الله عليه وسلم للسور، وترتيب قراءة الحفّاظ التي لا تخفى على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان زيد بن ثابت من أكبر حفّاظ القرآن وقد لازم النبيّ صلى الله عليه وسلم مدّة حياته بالمدينة، ولم يتردد في ترتيب سور القرآن على نحو ما كان يقرؤها النبيّ صلى الله عليه وسلم حين نسخ المصاحف في زمن عثمان. ذلك أنّ القرآن حين جُمع في خلافة أبي بكر لم يجمع في مصحف مرتّب وإنّما جعلوا لكل سورة صحيفة مفردة ولذلك عبّروا عنها بالصحف، وفي موطأ ابن وهب عن مالك أنّ ابن عمر قال: " جمع أبو بكر القرآن في قراطيس ". وكانت تلك الصحف عند أبي بكر ثم عند

عمر ثم عند حفصة بنت عمر أم المؤمنين، بسبب أنّها كانت وصيّة أبيها على تركته، فلمّا أراد عثمان جمع القرآن في مصحف واحد أرسل إلى حفصة فأرسلت بها إليه ولمّا نسخت في مصحف واحد أرجع الصحف إليها.

قال في (فتح الباري): وهذا وقع في رواية عمارة ابن غزية أنّ زيد بن ثابت قال: "أمرني أبو بكر فكتبت في قطع الأديم والعسب، فلمّا هلك أبو بكر وكان عمر، كتبت ذلك في صحيفة واحدة فكانت عنده ".

والأصحّ أنّ القرآن جمع في زمن أبي بكر في مصحف واحد.

وقد يوجد في آي من القرآن ما يقتضي سبق سورة على أخرى مثل قوله في سورة النحل { وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ } [118] يشير إلى قوله {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ} [الأنعام: 146] فدلّت على أنّ سورة الأنعام نزلت قبل سورة النحل، وكذلك هي مرتبة في المصحف، وقد ثبت أنّ آخر آية نزلت آية في سورة البقرة أو في سورة النساء أو في براءة، وثلاثتها في الترتيب مقدّمة على سور كثيرة.

فالمصاحف الأولى التي كتبها الصحابة لأنفسهم في حياة النبيّ صلى الله عليه وسلم كانت مختلفة في ترتيب وضع السور.

وممّن كان له مصحف عبد الله بن مسعود وأُبَي بن كعب، وروي أنّ أوّل من جمع القرآن في مصحف سالم مولى أبي حذيفة. قال في الإتقان: إنّ من الصحابة من رتب مصحفه على ترتيب النزول أي بحسب ما بلغ إليه علمه وكذلك كان مصحف علي رضي الله عنه وكان أوله { اقْرَأْ بِاسْمِ } [العلق]، ثمّ المدّثر، ثم المزمل، ثم التكوير وهكذا إلى آخر المكّي ثم المدني.

ومنهم من رتّب على حسب الطول والقصر، وكذلك كان مصحف أبَي وابن مسعود فكانا ابتدأ بالبقرة ثم النساء ثم آل عمران، وعلى هذه الطريقة أمر عثمان رضي الله عنه بترتيب المصحف المدعو بالإمام.

قال ابن بطال: " لا نعلم أحدا قال بوجوب القراءة على ترتيب السور في المصحف بل يجوز أن تقرأ الكهف قبل البقرة، وأمّا ما جاء عن السلف من النهي عن قراءة القرآن منكّسا، فالمراد منه أن يقرأ من آخر السورة إلى أولها ". قلت أو يحمل النهي على الكراهة.

واعلم أن معنى الطُولى والقُصرى في السور مراعى فيه عدد الآيات لا عدد الكلمات والحروف. وأنّ الاختلاف بينهم في تعيين المكي والمدني من سور القرآن خلاف ليس بكثير. وأنّ ترتيب المصحف تخللت فيه السور المكية والمدنية.

وأمّا ترتيب نزول السور المكية ونزول السور المدنية ففيه ثلاث روايات:

إحداها رواية مجاهد عن ابن عباس، و**الثانية** رواية عطاء الخراساني عن ابن عباس، و**الثالثة** لجابر بن زيد، ولا يكون إلّا عن ابن عباس، وهي التي اعتمدها الجعبري في منظومته التي سماها (تقريب المأمول في ترتيب النزول)، وذكرها السيوطي في الإتقان وهي التي جرينا عليها في تفسيرنا هذا.

أسماء السور

وأمّا أسماء السور فقد جعلت لها من عهد نزول الوحي، والمقصود من تسميتها تيسير المراجعة والمذاكرة، وقد دلّ حديث ابن عباس الذي ذكر آنفا أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا نزلت الآية **"ضعوها في السورة التي يذكر فيها كذا"**، فسورة البقرة مثلا كانت بالسورة التي تذكر فيها البقرة. وفائدة التسمية أن تكون بما يميز السورة عن غيرها. وأصل أسماء السور أن تكون بالوصف كقولهم السورة التي يذكر فيها كذا، ثم شاع فحذفوا الموصول وعوضوا عنه الإضافة فقالوا سورة ذكر البقرة مثلا، ثم حذفوا المضاف وأقاموا المضاف إليه مقامه فقالوا سورة البقرة. أو أنهم لم يقدروا مضافا وأضافوا السورة لما يذكر فيها لأدنى ملابسة. وقد ثبت في صحيح البخاري قول عائشة رضي الله عنها: **" لما نزلت الآيات من آخر البقرة..."** ، وفيه عن ابن مسعود قال: " قرأ رسول الله النجم". وعن ابن عباس: " أن رسول الله سجد بالنجم ". وما روى من حديث عن أنس مرفوعا " لا تقولوا سورة البقرة ولا سورة آل عمران ولا سورة النساء وكذلك القرآن كلّه، ولكن قولوا السورة التي يذكر فيها آل عمران وكذا القرآن كلّه "، فقال أحمد بن حنبل هو حديث منكر، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات، ولكن ابن حجر أثبت صحته. ويذكر عن ابن عمر أنه كان يقول مثل ذلك ولا يرفعه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم، ذكره البيهقي في شعب الإيمان. والذين صحّحوا حديث أنس تأوّلوه وتأولوا قول ابن عمر بأنّ ذلك كان في مكّة حين كان المسلمون إذ قالوا: سورة الفيل وسورة العنكبوت مثلا هزأ بهم المشركون، وقد روى أنّ هذا سبب نزول قوله تعالى {إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ } [الحجر:95] فلما هاجر المسلمون إلى المدينة زال سبب النهي فنسخ.

ولم يشتهر هذا المنع ولهذا ترجم البخاري في كتاب فضائل القرآن بقوله: باب من لم ير بأسا أن يقول سورة البقرة وسورة كذا وسورة كذا، وأخرج فيه أحاديث تدل على أنّهم قالوا سورة البقرة، سورة الفتح، سورة النساء، سورة الفرقان، سورة براءة، وبعضها من لفظ النبيّ صلى الله عليه وسلم، وعليه فللقائل أن يقول سورة البقرة أو التي يذكر فيها البقرة، وأن يقول سورة والنجم وسورة النجم، وقرأت النجم وقرأت والنجم، كما جاءت هذه الإطلاقات في حديث السجود في سورة النجم عن ابن عباس.

والظاهر أن الصحابة سمّوا بما حفظوه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أو أخذوا لها أشهر الأسماء التي كان النّاس يعرفونها بها، ولو كانت التسمية غير مأثورة.

واعلم أن أسماء السور إمّا أن تكون بأوصافها مثل الفاتحة وسورة الحمد، وإمّا أن تكون بالإضافة لشيء اختصّت بذكره، نحو سورة لقمان وسورة يوسف وسورة البقرة، وإمّا بالإضافة لما كان ذكره فيها أوفى نحو سورة هود وسورة إبراهيم، وإمّا بالإضافة لكلمات تقع في السورة نحو سورة براءة، وسورة حم عسق، وسورة حم السجدة، كما سماها بعض السلف، وسورة فاطر. وقد سمّوا مجموع السور المفتتحة بكلمة حم (آل حم)، وربّما سموا السورتين بوصف واحد، فقد سمّوا سورة الكافرون وسورة الإخلاص

المقشقشتين.

واعلم أنّ الصحابة لم يثبتوا في المصحف أسماء السور، بل اكتفوا بإثبات البسملة في مبدأ كل سورة علامة على الفصل بين السورتين، وإنّما فعلوا ذلك كراهة أن يكتبوا في أثناء القرآن ما ليس بآية قرآنية، فاختاروا البسملة لأنّها مناسبة للافتتاح مع كونها آية من القرآن، وفي الإتقان أنّ سورة البينة سمّيت في مصحف أُبَى سورة أهل الكتاب، وهذا يؤذن بأنّه كان يسمّي السور في مصحفه.

وكتبت أسماء السور في المصاحف باطراد في عصر التابعين ولم ينكر عليهم.

وأمّا ترتيب آيات السورة فإنّ التنجيم في النزول من المعلوم كما تقدّم آنفا، وذلك في آياته وسوره فربما نزلت السورة جميعا دفعة واحدة، كما نزلت سورة الفاتحة وسورة المرسلات من السور القصيرة، وربّما نزلت نزولا متتابعا كسورة الأنعام، وفي صحيح البخاري عن البراء ابن عازب قال: " آخر سورة نزلت كاملة براءة "، وربّما نزلت السورة مفرّقة ونزلت السورتان مفرقتان في أوقات متداخلة، روى الترمذي عن ابن عباس عن عثمان بن عفان قال: " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ممّا يأتي عليه الزمان وهو تنزل عليه السور ذوات العدد، (أي في أوقات متقاربة) فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من يكتب الوحي فيقول ضعوا هؤلاء الآيات في السورة كذا ". ولذلك فقد تكون السورة بعضها مكّيّا وبعضها مدنيّا.

وكذلك تنهية كلّ سورة كان بتوقيف من النبيّ صلى الله عليه وسلم، فكانت نهايات السور معلومة، كما يشير إليه حديث: "من قرأ الآيات الخواتم من سورة آل عمران". وقول زيد بن ثابت: " فقدت آخر سورة براءة ".

وقد توفي رسول الله والقرآن مسوّر سورا معيّنة، كما دلّ عليه حديث اختلاف عمر بن الخطاب مع هشام بن حكيم بن حزام في آيات من سورة الفرقان في حياة النبيّ صلى الله عليه وسلم كما تقدّم في المقدمة الخامسة.

وقال عبد الله بن مسعود في سور بني إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء: " هن من العتاق الأُوَل وهن من تلادي".

وقد **جمع من الصحابة القرآن كلّه** في حياة رسول الله زيد بن ثابت، ومعاذ بن جبل، وأبو زيد، وأبي بن كعب، وأبو الدرداء، وعبد الله بن عمر، وعبادة بن الصامت، وأبو أيوب، وسعد بن عبيد، ومجمع بن جارية، وأبو موسى الأشعري، وحفظ كثير من الصحابة أكثر القرآن على تفاوت بينهم.

وفي حديث غزوة حنين لما انكشف المسلمون قال النبيّ صلى الله عليه وسلم للعباس: " **اصرخ يا معشر الأنصار، يا أصحاب السَّمُرة، يا أصحاب سورة البقرة** "، فلعلّ الأنصار كانوا قد عكفوا على حفظ ما نزل من سورة البقرة لأنّها أول السور النازلة بالمدينة.

المقدّمة التاسعة

في أن المعاني التي تتحمَّلها جمل القرآن، تعتبر مرادة بها

إنّ العرب أمّة جُبلت على ذكاء القرائح وفطنة الأفهام، فعلى دعامة فطنتهم وذكائهم أقيمت أساليب كلامهم، وبخاصة كلام بلغائهم، ولذلك كان الإيجاز عمود بلاغتهم لاعتماد المتكلّمين على أفهام السامعين كما يقال: (لمحة دالة). لأجل ذلك كثر في كلامهم: المجاز، والاستعارة، والتمثيل، والكناية، والتعريض، والاشتراك والتسامح في الاستعمال كالمبالغة...

وملاك ذلك كلّه توفير المعاني، وأداء ما في نفس المتكلّم بأوضح عبارة وأخصرها ليسهل اعتلاقها بالأذهان، وإذ قد كان القرآن وحيا من العلّام سبحانه، وقد أراد أن يجعله آية على صدق رسوله وتحدّى بلغاء العرب بمعارضة أقصر سورة منه، كما سيأتي في المقدمة العاشرة، فقد نسج نظمه نسجا بالغا منتهى ما تسمح به اللغة العربية من الدقائق واللطائف، لفظا ومعنى، بما يفي بأقصى ما يُراد بلاغه إلى المرسَل إليهم. فجاء القرآن على أسلوب أبدع ممّا كانوا يعهدون وأعجب، فأعجز بلغاء المعاندين عن معارضته ولم يسعهم إلّا الإذعان، سواء في ذلك من آمن منهم مثل لبيد ابن ربيعة وكعب ابن زهير والنابغة الجعدي، ومن استمر على كفره عنادا مثل الوليد بن المغيرة.

فالقرآن من جانب إعجازه يكون أكثر معاني من المعاني المعتادة التي يودعها البلغاء في كلامهم. وهو لكونه كتاب تشريع وتأديب وتعليم كان حقيقا بأن يُودع فيه من المعاني والمقاصد أكثر ما تحتمله الألفاظ، في أقل ما يمكن من المقدار، بحسب ما تسمح به اللغة الوارد هو بها .

والقرآن ينبغي أن يودع من المعاني كلّ ما يحتاج السامعون إلى علمه، وكلّ ما له حظّ في البلاغة، سواء كانت متساوية أم متفاوتة في البلاغة، إذا كان المعنى الأعلى مقصودا وكان ما هو أدنى منه مرادا معه لا مرادا دونه سواء كانت دلالة التركيب عليها متساوية في الاحتمال والظهور أم كانت متفاوتة بعضها أظهر من بعض، ولو أن تبلغ حدّ التأويل، وهو حمل اللفظ على المعنى المحتمل المرجوح.

أمّا إذا تساوى المعنيان فالأمر أظهر، مثل قوله تعالى { وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً } [النساء:157] أي ما تيقّنوا قتله ولكن توهّموه، أو ما أيقن النصارى الذين اختلفوا في قتل عيسى علم ذلك يقينا بل فهموه خطأ.

ولمّا كان القرآن نازلا من المحيط علمه بكل شيء، كان ما تسمح تراكيبه الجارية على فصيح استعمال الكلام البليغ باحتماله من المعاني المألوفة للعرب في أمثال تلك التراكيب، مظنونا بأنّه مراد لمُنزِله، ما لم يمنع من ذلك مانع صريح أو غالب من دلالة شرعية أو لغوية أو توقيفيّة.

وقد جعل الله القرآن كتاب الأمّة كلّها وفيه هديها، ودعاهم إلى تدبّره وبذل الجهد في استخراج معانيه في غير ما أية، كقوله تعالى { فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ } [التغابن: 16] وقوله { وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ } [النساء:83].

على أنّ القرآن هو الحجّة العامة بين علماء الإسلام لا يختلفون في كونه حجّة شريعتهم، وإن اختلفوا في حجّيّة ما عداه من الأخبار المروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لشدّة الخلاف في شروط تصحيح الخبر، ولتفاوتهم في مقدار ما يبلغهم من الأخبار مع تفرّق العصور والأقطار، فلا مرجع لهم عند الاختلاف يرجعون إليه أقوى من القرآن ودلالته.

ويدلّ لتأصيلنا هذا ما وقع إلينا من تفسيرات مروية عن النبيّ صلى الله عليه وسلم لآيات، فنرى منها ما نوقن بأنّه ليس هو المعنى الأسبق من التركيب، ولكنّا بالتأمّل نعلم أنّ الرسول عليه الصلاة والسلام ما أراد بتفسيره إلّا إيقاظ الأذهان إلى أخذ أقصى المعاني من ألفاظ القرآن، مثال ذلك ما رواه أبو سعيد بن المعلى قال: "دعاني رسول الله وأنا في الصلاة فلم أجبه فلما فرغت أقبلت إليه فقال: " ما منعك أن تجيبني؟ " فقلت: يا رسول الله كنت أصلي، فقال: " ألم يقل الله تعالى { اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ } [لأنفال: 24] ". فلا شكّ أن المعنى المسوقة فيه الآية هو الاستجابة بمعنى الامتثال، كقوله تعالى { الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ } [آل عمران: 172]، وأنّ المراد من الدعوة الهداية كقوله { يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ } [آل عمران: 104] وقد تعلق فعل دعاكم بقوله {لِمَا يُحْيِيكُمْ} [لأنفال: 24] أي لما فيه صلاحكم، غير أنّ لفظ الاستجابة لمّا كان صالحا للحمل على المعنى الحقيقي أيضا، وهو إجابة النداء، حمل النبيّ صلى الله عليه وسلم الآية على ذلك في المقام الصالح له، بقطع النظر عن المتعلّق وهو قوله { لِمَا يُحْيِيكُمْ }.

ومن هذا القبيل استدلال الشافعي على حجّيّة الإجماع وتحريم خرقه بقوله تعالى { وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً } [النساء:115] مع أنّ سياق الآية في أحوال المشركين، فالمراد مشاقة خاصة واتباع غير سبيل خاص، ولكن الشافعي جعل حجّيّة الإجماع من كمال الآية.

وإنّك لتمرّ بالآية الواحدة فتتأملها وتتدبرها فتنهال عليك معان كثيرة يسمح بها التركيب على اختلاف الاعتبارات في أساليب الاستعمال العربي. وقد تتكاثر عليك فلا تك من كثرتها في حصر ولا تجعل الحمل على بعضها منافيا للحمل على البعض الآخر إن كان التركيب سمحا بذلك.

فمختلف المحامل التي تسمح بها كلمات القرآن وتراكيبه وإعرابه ودلالته، من اشتراك وحقيقة ومجاز، وصريح وكناية، وبديع، ووصل، ووقف، إذا لم تفض إلى خلاف المقصود من السياق، يجب حمل الكلام على جميعها كالوصل والوقف في قوله تعالى { لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ } [البقرة: 2]، إذا وقف على {لا رَيْبَ } أو على { فِيهِ }.

وقد أراد الله تعالى أن يكون القرآن كتابا مخاطَبا به كلّ الأمم في جميع العصور، لذلك جعله بلغة هي أفصح كلام بين لغات البشر وهي اللغة العربية، لأسباب يلوح لي منها:

أنّ تلك اللغة أوفر اللغات مادة، وأقلّها حروفا، وأفصحها لهجة، وأكثرها تصرّفا في الدلالة على أغراض المتكلّم، وأوفرها ألفاظا. وجعله جامعا لأكثر ما يمكن أن تتحمله اللغة العربية في نظم تراكيبها من المعاني، في أقل ما يسمح به نظم تلك اللغة، فكان قوام أساليبه جاريا على أسلوب الإيجاز، فلذلك كثر فيه ما لم يكثر مثله في كلام بلغاء العرب.

المقدمة العاشرة

في إعجاز القرآن

لم أر غرضا تناضلت له سهام الأفهام، ولا غاية تسابقت إليها جياد الهمم فرجعت دونها حسرى، واقتنعت بما بلغته من صبابة نزرا، مثل الخوض في وجوه إعجاز القرآن، فإنّه لم يزل شغل أهل البلاغة الشاغل. وموردها للمعلول والناهل. ومُغْلَي سِبائها للنديم والواغل.

وعلم البلاغة مشتمل على نماذج من وجوه إعجازه، والتفرقة بين حقيقته ومجازه، إلّا أنّه باحث عن كل خصائص الكلام العربي البليغ ليكون معيارا للنقد أو آلة للصنع. ثم ليظهر من جراء ذلك كيف تفوّق القرآن على كلّ كلام بليغ بما توفر فيه من الخصائص التي لا تجتمع في كلام آخر للبلغاء، حتّى عجز السابقون واللاحقون منهم عن الإتيان بمثله.

فأمّا أنا فأردت في هذه المقدّمة أن ألمّ بك، أيّها المتأمل، إلمامة ليست كخطرة طيف، ولا هي كإقامة المنتجع في المربع حتّى يظله الصيف، وإنّما هي لمحة ترى منها كيف كان القرآن معجزا وتتبصّر منها نواحي إعجازه، وما أنا بمستقص دلائل الإعجاز في آحاد الآيات والسور، فذلك له مصنّفاته وكل صغير وكبير مستطر. ثم ترى منها بلاغة القرآن ولطائف أدبه التي هي فتح لفنون رائعة من أدب لغة العرب، حتّى ترى كيف كان هذا القرآن فتح بصائر، وفتح عقول، وفتح ممالك، وفتح أدب غض ارتقى به الأدب العربي مرتقى لم يبلغه أدب أمّة من قبل.

وكنت أرى الباحثين ممّن تقدّمني يخلطون هذين الغرضين خلطا، وربّما أهملوا معظم الفنّ الثاني، وربّما ألموا به إلماما وخلطوه بقسم الإعجاز، وهو الذي يحقّ أن يكون البحث فيه من مقدّمات علم التفسير.

ولعلّك تجد في هذه المقدّمة أصولا ونكتا أغفلها من تقدّموا ممن تكلّموا في إعجاز القرآن مثل الباقلاني، والرُّماني، وعبد القاهر، والخطابي، وعياض، والسكاكي. فمن أعجب ما نراه خلو معظم التفاسير عن الاهتمام بالوصول إلى هذا الغرض الأسمى، إلّا عيون التفاسير، فمن مقلّ مثل **(معاني القرآن)** لأبي إسحاق الزجاج، و**(المحرر الوجيز)** للشيخ عبد الحقّ بن عطية الأندلسي، ومن مكثر مثل **(الكشاف)**.

ولا يعذر في الخلوّ عن ذلك إلّا التفاسير التي نحت ناحية خاصة من معاني القرآن مثل أحكام القرآن. على أن بعض أهل الهمم العليّة من أصحاب هذه التفاسير لم يهمل هذا العِلق النفيس كما يصف بعض العلماء كتاب **(أحكام القرآن)** لإسماعيل بن إسحاق بن حماد المالكي **البغدادي**، وكما نراه في مواضع من **(أحكام القرآن)** لأبي بكر **بن العربي**.

ثم إنّ العناية بما نحن بصدده من بيان وجوه إعجاز القرآن إنّما نبعت من مختزن أصل كبير من أصول الإسلام وهو كونه المعجزة الكبرى للنبيّ صلى الله عليه وسلم، وكونه المعجزة الباقية، وهو المعجزة التي تحدّى بها الرسول معانديه تحدّيا صريحا.

قال الله تعالى { وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ } [البقرة: 24]

وقال تعالى { قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [يونس: 38]، وقال تعالى { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ } [هود: 14,13] فعجز جميع المتحدين عن الإتيان بمثل القرآن أمر متواتر بتواتر هذه الآيات بينهم وسكوتهم عن المعارضة مع توفّر دواعيهم عليها.

وقد اختلف العلماء في تعليل عجزهم عن ذلك فذهبت طائفة قليلة إلى تعليله بأن الله صرفهم عن معارضة القرآن، فسلبهم المقدرة أو سلبهم الداعي، لتقوم الحجّة عليهم بمرأى ومسمع من جميع العرب. ويعرف هذا القول بـ (**الصرفة**) وقد عزاه صاحب المقاصد في شرحه إلى كثير من المعتزلة، وأشهرهم (**النظّام**). وأمّا الذي عليه جمهرة أهل العلم والتحقيق، واقتصر عليه أئمة الأشعرية وإمام الحرمين وعليه الجاحظ وأهل العربية كما في (المواقف)، فالتعليل، لعجز المتحدين به، بأنه بلوغ القرآن في درجات البلاغة والفصاحة مبلغا تعجز قدرة بلغاء العرب عن الإتيان بمثله، وهو الذي نعتمده ونسير عليه في هذه المقدمة العاشرة.

وإذ قد كان تفصيل وجوه الإعجاز لا يحصره المتأمل كان علينا أن نضبط معاقدها التي هي ملاكها، فنرى ملاك وجوه الإعجاز راجعا إلى ثلاث جهات:

الجهة الأولى: بلوغه الغاية القصوى ممّا يمكن أن يبلغه الكلام العربي البليغ من حصول كيفيّات في نظمه مفيدة معاني دقيقة ونكتا من أغراض الخاصة من بلغاء العرب مما لا يفيده أصل وضع اللغة، بحيث يكثر فيه ذلك كثرة لا يدانيها شيء من كلام البلغاء من شعرائهم وخطبائهم.

الجهة الثانية : ما أبدعه القرآن من أفانين التصرّف في نظم الكلام مما لم يكن معهودا في أساليب العرب، ولكنّه غير خارج عما تسمح به اللغة.

الجهة الثالثة: ما أودع فيه من المعاني الحكمية والإشارات إلى الحقائق العقلية والعلمية مما لم تبلغ إليه عقول البشر في عصر نزول القرآن وفي عصور بعده متفاوتة، وهذه الجهة أغفلها المتكلّمون في إعجاز القرآن من علمائنا، مثل أبي بكر الباقلاني والقاضي عياض.

وقد عدّ كثير من العلماء من وجوه إعجاز القرآن ما يعدّ

جهة رابعة: هي ما انطوى عليه من الأخبار عن المغيّبات ممّا دل على أنه منزّل من علّام الغيوب، وقد يدخل في هذه الجهة ما عدّه عياض في الشفاء وجها رابعا من وجوه إعجاز القرآن وهو ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة ممّا كان لا يعلم منه القصّة الواحدة إلّا الفذّ من أحبار أهل الكتاب. فهذا معجز للعرب الأميين خاصة وليس معجزا لأهل الكتاب.

فأعجاز القرآن من الجهتين الأولى والثانية متوجّه إلى العرب، إذ هو معجز لفصحائهم وخطبائهم وشعرائهم مباشرة، ومعجز لعامتهم بواسطة إدراكهم أنّ عجز مقارعيه عن معارضته مع توفر الدواعي عليه هو برهان ساطع على أنه تجاوز طاقة جميعهم.

والقرآن معجز من الجهة الثالثة للبشر قاطبة، إعجازا مستمرا على ممر العصور، وهذا من جملة ما شمله قول أئمة الدين: إن القرآن هو المعجزة المستمرة على تعاقب السنين، لأنه قد يدرك إعجازه العقلاء من غير الأمّة العربية بواسطة ترجمة معانيه التشريعية والحكمية والعلمية والأخلاقية.

وهو من الجهة الرابعة، عند الذين اعتبروها زائدة على الجهات الثلاث، معجز لأهل عصر نزوله إعجازا تفصيليا، ومعجز لمن يجيء بعدهم ممن يبلغه ذلك بسبب تواتر نقل القرآن، وتعين صرف الآيات المشتملة على هذا الإخبار إلى ما أريد منها.

مبتكرات القرآن

هذا وللقرآن مبتكرات تميَّز بها نظمه عن بقيّة كلام العرب.

*/ فمنها أنّه جاء على أسلوب يخالف الشعر لا محالة، وأسلوب الخطابة بعض المخالفة، فقد جاء بطريقة كتاب يُقصد حفظه وتلاوته، وذلك من وجوه إعجازه.

وأعُدُّ من ذلك أنّه جاء بالجمل الدالة على معان مفيدة محرّرة شأن الجُمل العلميّة والقواعد التشريعيّة. من مثل قوله تعالى { لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ وَالمُجَاهِدُونَ } [النساء:95].

*/ ومنها أنّه جاء على **أسلوب التقسيم والتسوير**، وهي سنّة جديدة في الكلام العربي أدخل بها عليه طريقة التبويب والتصنيف.

*/ ومنها **الأسلوب القصصي** في حكاية أحوال النعيم والعذاب في الآخرة، وفي تمثيل الأحوال، وقد كان لذلك تأثير عظيم على نفوس العرب إذ كان فنّ القصص مفقودا من أدب العربيّة إلّا نادرا. وممّا يتبع هذا أنّ القرآن يتصرّف في حكاية أقوال المحكي عنهم فيصوغها على ما يقتضيه أسلوب إعجازه لا على الصيغة التي صدرت فيها. فهو إذا حكى أقوالا غير عربيّة صاغ مدلولها في صيغة تبلغ حدّ الإعجاز بالعربيّة، وإذا حكى أقوالا عربيّة تصرّف فيها تصرّفا يناسب أسلوب المعبّر مثل ما يحكيه عن العرب، فإنّه لا يلتزم حكاية ألفاظهم بل يحكي حاصل كلامهم. فالإعجاز الثابت للأقوال المحكيّة في القرآن هو إعجاز للقرآن لا للأقوال المحكيّة.

ومن هذا القبيل حكاية الأسماء الواقعة في القصص، فإنّ القرآن يغيّرها إلى ما يناسب حسن موقعها في الكلام من الفصاحة، مثل تغيير (شاول) إلى (طالوت)، وتغيير اسم (تارح) أبي إبراهيم إلى (آزر).

وكذلك **التمثيل**، فقد أوضح الأمثال وأبدع تركيبها، والأمثلة في القرآن كثيرة منها قوله تعالى { وَالذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ الله لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم إلّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ { [الرعد:14].

لم يلتزم القرآن أسلوبا واحدا، واختلفت سوره وتفنّنت، فتكاد تكون لكلّ سورة لهجة خاصة، فإنّ بعضها بني على فواصل وبعضها ليس كذلك.

*/ وكذلك **فواتحها**، منها ما **افتتح بالاحتفال** كالحمد والتنبيه والقسم، وهي قريب ممّا نعبّر عنه في صناعة الإنشاء بالمقدّمات، ومنها ما **افتتح بالهجوم على الغرض** من أوّل الأمر نحو { الذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ } [محمد:1]، و { بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ } [التوبة:1].

*/ ومن أبدع الأساليب في كلام العرب **الإيجاز**، وقد جاء القرآن بأبدعه إذ كان مع ما فيه من الإيجاز المبيّن في علم المعاني فيه إيجاز آخر وهو صلوحيّة معظم آياته لأن تؤخذ منها معانٍ متعدّدة كلّها تصلح لها العبارة باحتمالات لا ينافيها اللفظ. فإنّك تجد في كثير من تراكيب القرآن حذفًا ولكنّك لا تعثر على حذف يخلو الكلام من دليل عليه من لفظ أو سياق. وسنفصّل كلّ ذلك في ثنايا التفسير إن شاء الله تعالى.

ومن بديع الإيجاز في القرآن وأكثره ما يسمَّى **بالتضمين**، وهو يرجع إلى **إيجاز الحذف**، والتضمين أن يضمّن الفعل أو الوصف معنى فعل أو وصف آخر ويشار إلى المعنى المضمَّن بذكر ما هو من متعلّقاته من حرف أو معمول فيحصل في الجملة معنيان.

*/ ومن هذا الباب ما اشتمل عليه من **الجمل الجارية مجرى الأمثال**، وهذا باب من أبواب البلاغة نادر في كلام بلغاء العرب.

*/ وسلك القرآن مسلك **الإطناب** لأغراض من البلاغة، ومن أهم مقامات الإطناب مقام توصيف الأحوال التي يراد بتفصيل وصفها إدخال الروع في قلب السامع.

*/ ومن أساليب القرآن المنفرد بها التي أغفل المفسّرون اعتبارها، أنّه يرد فيه استعمال **اللفظ المشترك** في معنيين أو معانٍ إذا صلح المقام بحسب اللغة العربية لإرادة ما يصلح منها، واستعمال اللفظ في معناه الحقيقي والمجازي إذا صلح المقام لإرادتهما، وبذلك تكثر معاني الكلام مع الإيجاز.

*/ ومن أساليبه الإتيان بالألفظ التي **تختلف معانيها باختلاف حروفها** أو اختلاف حركات حروفها، وهو من أسباب اختلاف كثير من القراءات.

*/ واعلم أنّ ممّا يندرج تحت جهة الأسلوب ما سمَّاه أئمة نقد الأدب **بالجزالة**، وما سمَّوْه **بالرقة**، وبيّنوا لكلّ منهما مقاماته، وهما راجعتان إلى معاني الكلام، ولا تخلو سورة من القرآن من تكرّر هذين الأسلوبين، وكلّ منهما بالغ غايته في موقعه.

عادات القرآن

يحقّ على المفسّر أن يتعرّف عادات القرآن من نظمه وكلمه. وقد تعرَّض بعض السلف لشيء منها، فعن ابن عبّاس: كلّ كأس في القرآن فالمراد بها الخمر.

وفي صحيح البخاري في تفسير سورة الأنفال قال ابن عيينة: ما سمَّى الله مطرا في القرآن إلّا عذابا، وتسمَيه العرب الغيث.

وعن ابن عبّاس أنّ كلّ ما جاء من { يَا أَيُّهَا النَّاسُ } فالمقصود به أهل مكّة.

وقال الجاحظ في البيان: وفي القرآن معان لا تكاد تفترق، مثل الصلاة والزكا، والجوع والخوف، والجنّة والنّار، والرغبة والرهبة، والمهاجرين والأنصار، والجنّ والإنس. قلتُ: والنفع والضرّ والسماء والأرض.

وذكر صاحب الكشّاف والفخر الدين الرازي أنّ من عادة القرآن أنّه ما جاء بوعيد إلّا أعقبه بوعد، وما جاء بنذارة إلّا أعقبها ببشارة. ويكون بأسلوب الاستطراد والاعتراض لمناسبة التضاد.

وقال فخر الدين: عادة هذا الكتاب الكريم أنّه إذا ذكر أنواعا كثيرة من الشرائع والتكاليف أتبعها إمّا بالإلهيّات وإمّا بشرح أحوال الأنبياء وأحوال القيامة ليصير ذلك مؤكّدا.

وقد استقريت بجهدي عادات كثيرة في اصطلاح القرآن سأذكرها في مواضعه.

منها أنّ كلمة (**هؤلاء**) إذا لم يرد بعدها عطف بيان يبيّن المشار إليهم فإنّها يراد بها المشركون من أهل مكّة.

وقد استقريت أنا من أساليب القرآن أنّه إذا حكى المحاورات والمجاوبات حكاها بلفظ: (قال) دون حروف عطف، إلّا إذا انتقل من محاورة إلى أخرى.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفاتحة

سورة الفاتحة من السور ذات الأسماء الكثيرة: أنهاها صاحب الإتقان إلى نيف وعشرين بين ألقاب وصفات جرت على ألسنة القرّاء من عهد السلف، ولم يثبت في السنة الصحيحة والمأثور من أسمائها إلا **(فاتحة الكتاب، والسبع المثاني، وأم القرآن، أو أم الكتاب)**، فلنقتصر على بيان هذه الأسماء الثلاثة.

فاتحة الكتاب: ثبتت في السنّة في أحاديث كثيرة منها قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : **" لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب "**، وفاتحة مشتقّة من الفتح وهو إزالة حاجز عن مكان مقصود ولوجه فصيغتها تقتضي أنّ موصوفها شيء يزيل حاجزا، فقيل الفاتحة في الأصل مصدر بمعنى الفتح. ومعنى فتحها الكتاب أنّها جعلت أوّل القرآن لمن يريد أن يقرأ القرآن من أوّله فتكون فاتحة بالجعل النبويّ في ترتيب السور.

أم القرآن وأم الكتاب: ثبتت في السنّة من ذلك ما في صحيح البخاري في كتاب الطب أنّ أبا سعيد الخدري رقى ملدوغا فجعل يقرأ عليه بأم القرآن، وفي الحديث قصّة، ووجه تسميتها أم القرآن أنّ **(الأم)** يطلق على أصل الشيء ومنشئه، وفي الحديث الصحيح قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" كل صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج "**، أي منقوصة مخدوجة.

وقد ذكروا لتسمية الفاتحة أم القرآن وجوها ثلاثة:

أحدها: أنّها مبدؤه ومفتتحه فكأنّها أصله ومنشؤه، يعني أن افتتاحه الذي هو وجود أوّل أجزاء لقرآن قد ظهر فيها فجعلت كالأم للولد في أنّها الأصل والمنشأ.

الثاني: تشتمل محتوياتها على أنواع مقاصد القرآن وهي ثلاثة أنواع: الثناء على الله ثناء جامعا لوصفه بجميع المحامد وتنزيهه من جميع النقائص، ولإثبات تفرّده بالإلهية وإثبات البعث والجزاء وذلك من قوله { الْحَمْدُ لِلَّهِ - إلى قوله - مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ }، والأوامر والنواهي من قوله تعالى { إِيَّاكَ نَعْبُدُ }، والوعد والوعيد من قوله تعالى { صِرَاطَ الَّذِينَ } إلى آخرها، فهذه هي أنواع مقاصد القرآن كلّه.

وقد يؤيّد هذا الوجه بما ورد في الصحيح في { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ } [الإخلاص:1] أنّها تعدل ثلث القرآن، لأنّ ألفاظها كلها ثناء على الله تعالى.

الثالث: تشتمل معانيها على جملة معاني القرآن؛ من الحكم النظرية والأحكام العملية، فإنّ معاني القرآن إمّا علوم تقصد معرفتها وإمّا أحكام يقصد منها العمل بها، فالعلوم كالتوحيد والصفات والنبوءات والمواعظ والأمثال والحكم والقصص، إمّا عمل الجوارح وهو العبادات والمعاملات، وإمّا عمل القلوب أي العقول وهو تهذيب الأخلاق وآداب الشريعة، وكلّها تشتمل عليها معاني الفاتحة بدلالة المطابقة أو التضمّن أو الالتزام.

السبع المثاني: تسمية ثبتت بالسنّة، ففي صحيح البخاري عن أبي سعيد ابن المعلّى (ت74هـ) أنّ رسول الله قال: **" { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته "**.

وأمّا وصفها بـ (**المثاني**) فهو مفاعل جمع مُثنّى (بضم الميم وتشديد النون)، مشتق من التثنية وهي ضم ثان إلى أول. ووجه الوصف به أنّ تلك الآيات تُثنّى في كلّ ركعة، كذا في الكشّاف. قيل وهو مأثور عن عمر بن الخطاب، وهو مستقيم لأنّ معناه أنّها تضم إليها السورة في كل ركعة، ولعلّ التسمية بذلك كانت في أوّل فرض الصلاة، فإنّ الصلوات فُرضت ركعتين ثم أُقرّت صلاة السفر وأطيلت صلاة الحضر، كذا ثبت في حديث عائشة في الصحيح، وقيل العكس.

وقيل لأنّها تُثنّى في الصلاة أي تكرّر فتكون التثنية بمعنى التكرير، بناء على ما شاع عند العرب من استعمال المثنّى في مطلق المكرّر، وعليه فيكون المراد بالمثاني هنا مثل المراد بالمثاني في قوله تعالى { كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ } [الزمر:23]، أي: مكرّر القصص والأغراض.

وهذه السورة مكّيّة باتفاق الجمهور، نزل قبلها { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ } [العلق:1] وسورة المدثر ثم الفاتحة، وقيل: نزل قبلها أيضا { نْ وَالْقَلَمِ } [القلم: 1] وسورة المزمل. وقال بعضهم هي أوّل سورة نزلت كاملة. وقد عدّت في رواية عن جابر بن زيد **السورة الخامسة** في ترتيب نزول السور.

وأيّا ما كان فإنّها قد سمّاها النبيّ صلى الله عليه وسلم فاتحة الكتاب وأمر بأن تكون أول القرآن.

وهي سبع آيات باتفاق القراء والمفسرين، ولم يشذ عن ذلك إلّا الحسن البصري، قال هي ثمان آيات.

فعند أهل المدينة لا تعدّ البسملة آية وتعد { أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ } آية، وعند أهل مكة وأهل الكوفة تعد البسملة آية وتعد { أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ } جزء آية، والحسن البصري عد البسملة آية وعد { أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ } آية.

وتحديد هذه الآيات السبع هو ما دلّ عليه حديث الصحيحين عن أبي هريرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **" قال الله عز وجل، قسمت الصلاة نصفين بيني وبين عبدي، فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل، يقول العبد { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } ، فأقول حمدني عبدي، فإذا قال العبد { الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } يقول الله أثنى علي عبدي، وإذا قال العبد { مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ } ، قال الله مجّدني عبدي، وإذا قال {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } قال الله: هذا بيني وبين عبدي، وإذا قال { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ } ، قال الله هؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل"**.

أغراض السورة

قد عُلمت من بيان وجه تسميتها أمّ القرآن.

الكلام على البسملة

{ بسم الله الرحمن الرحيم }

البسملة اسم لكلمة (باسم الله)، صيغ هذا الاسم على مادة مؤلّفة من حروف الكلمتين (باسم) و(الله) على طريقة تسمّى النحت، وهو صوغ فعل ماضي على زنة (فَعْلَلَ) مؤلّفة مادته من حروف جملة أو حروف مركب إضافي، مما ينطق به النّاس، اختصارا عن ذكر الجملة كلّها، لقصد التخفيف لكثرة دوران ذلك على الألسنة.

ولما كان كثير من أئمة الدين قائلا بأنّها آية من أوائل جميع السور غير براءة أو بعض السور تعيّن على المفسّر أن يفسّر معناها وحكمها وموقعها عند من عدّوها آية من بعض السور. وينحصر الكلام عليها في ثلاثة مباحث:

الأول في بيان أهي آية من أوائل السور أم لا.

الثاني في حكم الابتداء بها عند القراءة.

الثالث في تفسير معناها المختصّ بها.

المبحث الأول: لا خلاف بين المسلمين في أن لفظ { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } هو لفظ قرآني لأنّه جزء آية من قوله تعالى { إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } [النمل:30]، كما أنّهم لم يختلفوا في أنّ الافتتاح بالتسمية في الأمور المهمّة ذوات البال ورد في الإسلام، وروي فيه حديث: **" كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فهو أقطع "** (لم يروه أصحاب السنن ولا المستدركات، وقيل حسن).

ولم يختلفوا في أنّها كتبت في المصحف في أوّل سورة الفاتحة وذلك ليس موضع فصل السورة عمّا قبلها، وإنّما اختلفوا في أنّ البسملة هل هي آية من سورة الفاتحة ومن أوائل السور غير براءة.

فذهب مالك والأوزاعي وفقهاء المدينة والشام والبصرة، وقيل باستثناء عبد الله بن عمرو ابن شهاب من فقهاء المدينة، إلى أنّها ليست بآية من أوائل السور، لكنها جزء آية من سورة النمل.

وذهب الشافعي في أحد قوليه وأحمد وإسحاق وأبو ثور وفقهاء مكّة والكوفة غير أبي حنيفة، إلى أنّها آية في أوّل سورة الفاتحة خاصة، وذهب عبد الله بن مبارك والشافعي في أحد قوليه وهو الأصح عنه إلى أنّها آية من كل سورة. ولم ينقل عن أبي حنيفة من فقهاء الكوفة فيها شيء.

أمّا حجّة مذهب مالك ومن وافقه فلهم فيها مسالك: أحدها من طريق النظر، والثاني من طريق الأثر، والثالث من طريق الذوق العربي.

المسلك الأول: فللمالكية فيه مقالة فائقة للقاضي أبي بكر الباقلاني وتابعه أبو بكر ابن العربي في أحكام القرآن والقاضي عبد الوهاب في كتاب الاشراف، قال الباقلاني: لو كانت التسمية من القرآن لكان طريق إثباتها إمّا التواتر أو الآحاد، والأوّل باطل لأنّه لو ثبت بالتواتر كونها من القرآن لحصل العلم الضروري بذلك ولامتنع وقوع الخلاف فيه بين الأمّة، والثاني أيضا باطل لأن خبر الواحد لا يفيد إلّا الظنّ فلو

جعلناه طريقا إلى إثبات القرآن لخرج القرآن عن كونه حجّة يقينية، ولصار ذلك ظنّيّا، ولو جاز ذلك لجاز ادعاء الروافض أن القرآن دخله الزيادة والنقصان والتغيير والتحريف

زاد أبو بكر بن العربي في أحكام القرآن فقال: يكفيك أنهّا ليست من القرآن الاختلاف فيها، والقرآن لا يختلف فيه .

المسلك الثاني: وهو الاستدلال من الأثر فلا نجد في صحيح السنة ما يشهد بأن البسملة آية من أوائل سور القرآن والأدلة ستة:

الدليل الأول: ما روى مالك في الموطأ عن العلاء بن عبد الرحمن إلى أبي هريرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " قال الله تعالى قسمت الصلاة نصفين بيني وبين عبدي فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل، يقول العبد {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} فأقول حمدني عبدي ..." إلخ. والمراد في الصلاة القراءة في الصلاة، ووجه الدليل منه أنّه لم يذكر بسم الله الرحمن الرحيم.

الدليل الثاني : حديث أبَي بن كعب في الموطأ والصحيحين أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: ألّا أعلمك سورة لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل مثلها قبل أن تخرج من المسجد؟ قال: بلى، فلما قارب الخروج قال له: كيف تقرأ إذا افتتحت الصلاة؟ قال أبي: فقرأت { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } حتّى أتيت على آخرها". فهذا دليل على أنه لم يقرأ منها البسملة.

الدليل الثالث : ما في صحيح مسلم وسنن أبي داود وسنن النسائي عن أنس بن مالك من طرق كثيرة أنّه قال: صليت خلف رسول الله وأبي بكر وعمر فكانوا يستفتحون بـ { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } لا يذكرون (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) لا في أوّل قراءة ولا في آخرها.

الدليل الرابع : حديث عائشة في صحيح مسلم وسنن أبي داود قالت: كان رسول الله يستفتح الصلاة بالتكبير والقراءة بـ { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }.

الدليل الخامس: ما في سنن الترمذي والنسائي عن عبد الله بن مغفل قال: صليت مع النبيّ وأبي بكر وعمر وعثمان، فلم أسمع أحدا منهم يقول (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، إذا أنت صليت فقل { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }.

الدليل السادس : وهو الحاسم، عمل أهل المدينة، فإن المسجد النبوي من وقت نزول الوحي إلى زمن مالك، صلى فيه رسول الله والخلفاء الراشدون والأمراء وصلى وراءهم الصحابة وأهل العلم ولم يسمع أحد قرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) في الصلاة الجهرية، وهل يقول عالم أنّ بعض السورة جهر وبعضها سر، فقد حصل التواتر بأنّ النبيّ والخلفاء لم يجهروا بها في الجهرية، فدلّ على أنّها ليست من السورة ولو جهروا بها لما اختلف النّاس فيها.

وهناك دليل آخر لم يذكروه هنا وهو حديث عائشة، في بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو معتبر مرفوعا إلى النبيّ، وذلك قولها: ففاجأه الملك فقال: اقرأ قال رسول الله فقلت ما أنا بقارئ،

إلى أن قال فغطّني الثالثة ثم قال: { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ } [العلق:1]. فلم يقل فقال لي: بسم الله الرحمن الرحيم { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ }. وقد ذكروا هذا في تفسير سورة العلق وفي شرح حديث بدء الوحي.

المسلك الثالث: وهو الاستدلال من طريق الاستعمال العربي فيأتي القول فيه على مراعاة قول القائلين بأن البسملة آية من سورة الفاتحة خاصة، وذلك يوجب أن يتكرر لفظان وهما { الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } في كلام غير طويل ليس بينهما فصل كثير وذلك مما لا يحمد في باب البلاغة.

وأنا أرى في الاستدلال بمسلك الذوق العربي أن يكون على مراعاة قول القائلين بكون البسملة آية من كل سورة فينشأ من هذا القول أن تكون فواتح سور القرآن كلها متماثلة وذلك مما لا يحمد في كلام البلغاء إذ الشأن أن يقع التفنن في الفواتح، بل قد عد علماء البلاغة أهم مواضع التأنق فاتحة الكلام وخاتمته، وذكروا أن فواتح السور وخواتمها واردة على أحسن وجوه البيان وأكملها فكيف يسوغ أن يُدّعى أنّ فواتح سوره جملة واحدة، مع أنّ عامة البلغاء من الخطباء والشعراء والكتاب يتنافسون في تفنّن فواتح منشآتهم ويعيبون من يلتزم في كلامه طريقة واحدة، فما ظنك بأبلغ الكلام.

وأمّا عن الإجماع على أنّ ما بين الدفّتين كلام الله، فالجواب: أنّه لا يقتضي إلّا أنّ البسملة قرآن وهذا لا نزاع فيه، وأمّا كون المواضع التي رسمت فيها في المصحف مما تجب قراءتها فيها، فذلك أمر يتبع رواية القرّاء وأخبار السنة الصحيحة فيعود إلى الأدلة السابقة.

والحقّ البين في أمر البسملة في أوائل السور، أنها كتبت للفصل بين السور ليكون الفصل مناسبا لابتداء المصحف.

{ **بِسْمِ اللَّهِ** } اعلم أنّ متعلّق المجرور محذوف تقديره هنا أقرأ، والباء باء الملابسة، هي المصاحبة، وهي الإلصاق أيضا، فهذه مترادفات في الدلالة على هذا المعنى. وهذا المعنى هو أكثر معاني الباء وأشهرها .

الاسم: لفظ جعل دالا على ذات حسّية أو معنوية بشخصها أو نوعها.

فكلّ مقام يَقصد فيه طلب التيسير والعون من الله تعالى يُعدّى فيه الفعل إلى لفظ اسم الله. وكذلك المقام الذي يقصد فيه توجّه الفعل إلى الله تعالى كقوله تعالى { فَاسْجُدْ لَهُ }.

{ **بسم الله الرحمن الرحيم** } اقرأ قراءة ملابسه لبركة هذا الاسم المبارك . وقال الأستاذ الإمام محمد عبده: إنّ النصارى كانوا يبتدئون أدعيتهم ونحوها باسم الأب والابن والروح القدس، إشارة إلى الأقانيم الثلاثة عندهم، فجاءت فاتحة كتاب الإسلام بالردّ عليهم موقظة لهم بأنّ الإله الواحد وإن تعدّدت أسماؤه فإنّما هو تعدد الأوصاف دون تعدّد المسمّيات، يعني فهو رد عليهم بتغليط وتبليد. وإذا صحّ أن فواتح النصارى وأدعيتهم كانت تشتمل على ذلك إذ الناقل أمين، فهي نكتة لطيفة.

وعندي أنّ البسملة كان ما يرادفها قد جرى على ألسنة الأنبياء من عهد إبراهيم عليه السلام فهي من كلام الحنيفيّة، فقد حكى الله عن إبراهيم أنّه قال لأبيه { يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ }

[مريم: 45]، وقال { سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً } [مريم:47]، ومعنى الحفي قريب من معنى الرحيم. وحكى عنه قوله { وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } [البقرة:128].

وورد ذكر مرادفها في كتاب سليمان إلى ملكة سبأ { إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ } [النمل:31] والمظنون أنّ سليمان اقتدى في افتتاح كتابه بالبسملة بسنّة موروثة من عهد إبراهيم، كلمة باقية في وارثي نبوّته، وأنّ الله أحيا هذه السنّة في الإسلام في جملة ما أحي له من الحنيفيّة، كما قال تعالى { مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ } [الحج:78].

{ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [1].

{ **الْحَمْدُ لِلَّهِ** } والحمد هو الثناء على الجميل، أي الوصف الجميل الاختياري، فعلا كان كالكرم وإغاثة الملهوف أم غيره كالشجاعة. وقد جعلوا الثناء جنسا للحمد فهو أعمّ منه ولا يكون ضدّه. فالثناء الذكر بخير مطلقا. وأمّا المدح فقد أُختلف فيه، فذهب الجمهور إلى أنّ المدح أعمّ من الحمد، فإنّه يكون على الوصف الاختياري وغيره. وقال صاحب الكشاف: الحمد والمدح أخوان.

{ **الْحَمْدُ** } مرفوع بالابتداء في جميع القراءات المروية وقوله { لِلَّهِ } خبره فلام { لِلَّهِ } متعلّق بالكون والاستقرار العام كسائر المجرورات المخبر بها، وهو هنا من المصادر التي أتت بدلا عن أفعالها في معنى الإخبار، فأصله النصب على المفعوليّة المطلقة على أنّه بدل من فعله وتقدير الكلام نحمد حمدا لله، فلذلك التزموا حذف أفعالها معها.

الله: هو اسم الذات الواجب الوجود المستحقّ لجميع المحامد. وأصل هذا الاسم الإله بالتعريف وهو تعريف (إله) الذي هو اسم جنس للمعبود مشتق من (**أَلَه**) بفتح اللام بمعنى عبد، أو من أَلِه (بكسر اللام) بمعنى تحيّر أو سكن أو فزع. أطلقه العرب على كل معبود من أصنامهم لأنّهم يرونها حقيقة بالعبادة، ولذلك جمعوه على (آلهة) بوزن أفعِلة مع تخفيف الهمزة الثانية مدة.

{ **رَبِّ الْعَالَمِينَ** } وصف لاسم الجلالة، فإنّه بعد أن أسند الحمد لاسم ذاته تعالى تنبيها على الاستحقاق الذاتي، عقّب بالوصف، وهو الربّ، ليكون الحمد متعلّقا به أيضا ،لأنّ وصف المتعلّق متعلق أيضا، فلذلك لم يقل الحمد لرب العالمين كما قال { يَوْمَ يَقُومُ النّاس لِرَبِّ الْعَالَمِينَ } [المطففين:6] ليؤذن باستحقاقه الوصفي أيضا للحمد كما استحقه بذاته.

{ **رَبِّ** } الأظهر أنّه مشتق من ربَّه يرُبُّه بمعنى ربَّاه وساسه، لا من ربه بمعنى ملكه لأنّ الأوّل الأنسب بالمقام هنا إذ المراد أنّه مدبّر الخلائق وسائس أمورها ومبلّغها غاية كمالها، ولأنّه لو حُمل على معنى المالك لكان قوله تعالى بعد ذلك { مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ } كالتأكيد ولا داعي إليه هنا، إلّا أن يجاب بأن العالمين لا يشمل إلا عوالم الدنيا، فيحتاج إلى بيان أنه ملك الآخرة كما أنه ملك الدنيا. وإن كان الأكثر في كلام العرب ورود الربّ بمعنى الملك والسيد.

العالمين: جمع عالم، والعالم الجنس من أجناس الموجودات وقد بنته العرب على وزن فاعل بفتح العين مشتقا من العلم أو من العلامة، لأنّ كل جنس له تميّز عن غيره فهو له علامة، أو هو سبب العلم به فلا يختلط بغيره. وهذا البناء مختصّ بالدلالة على الآلة غالبا كخاتم، فجعلوا العوالم لكونها كالآلة للعلم بالصانع، أو العلم بالحقائق. ولقد أبدع العرب في هذه اللطيفة إذ بنوا اسم جنس الحوادث على وزن فاعل لهذه النكتة، ولقد أبدعوا إذ جمعوه جمع العقلاء مع أنّ منه ما ليس بعاقل تغليبا للعاقل.
وقد قال التفتزاني في شرح الكشاف: " العالم اسم لذوي العلم ولكلّ جنس يعلم به الخالق، يقال عالم الملك، عالم الإنسان، عالم النبات، يريد أنّه لا يطلق بالإفراد إلّا مضافا لنوع يخصصه، يقال عالم الإنس عالم الحيوان، عالم النبات، وليس اسما لمجموع ما سواه تعالى، بحيث لا يكون له إجراء فيمتنع جمعه ". وهذا هو تحقيق اللغة، فإنّه لا يوجد في كلام العرب إطلاق عالم على مجموع ما سوى الله تعالى، وإنّما أطلقه على هذا علماء الكلام في قولهم العالم حادث فهو من المصطلحات.

{ **الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** } [2].
وصفان مشتقان من رحم، واسم الرحمة موضوع في اللغة العربية لرقّة الخاطر وانعطافه نحو حي بحيث تحمل من اتصف بها على الرفق بالمرحوم والإحسان إليه ودفع الضرّ عنه وإعانته على المشاق. فهي من الكيفيات النفسانية لأنّها انفعال.
ولا خلاف بين أهل اللغة في أن الوصفين دالان على المبالغة في صفة الرحمة، أي تمكنها وتعلّقها بكثير من المرحومين، وإنّما الخلاف في طريقة استفادة المبالغة منهما، وهل هما مترادفان في الوصف بصفة الرحمة أو بينهما فارق. والحقّ أن استفادة المبالغة حاصلة من تتبّع الاستعمال وأن الاستعمال جرى على نكتة في مراعاة واضعي اللغة، زيادة المبنى لقصد زيادة في معنى المادة.
وقد رأيت للمفسّرين في توجيه الارتقاء من الرحمان إلى الرحيم أجوبة كثيرة مرجعها إلى اعتبار الرحمان أخصّ من الرحيم، فتعقيب الأوّل بالثاني تعميم بعد خاص ولذلك كان وصف الرحمان مختصّا به تعالى وكان أوّل إطلاقه ممّا خصّه به القرآن على التحقيق بحيث لم يكن التوصيف به معروفا عند العرب كما سيأتي.
ومدلول الرحيم كون الرحمة كثيرة التعلّق إذ هو من أمثلة المبالغة، ولذلك كان يطلق على غير الله تعالى كما في قوله تعالى في حق رسوله { بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ } [التوبة: 128] فليس ذكر إحدى الصفتين بمغن عن الأخرى.
وقد ذكر جمهور الأئمة أنّ وصف الرحمان لم يطلق في كلام العرب قبل الإسلام، وأن القرآن هو الذي جاء به صفة لله تعالى، فلذلك اختصّ به تعالى، حتّى قيل إنّه اسم له وليس بصفة، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ } [الفرقان:60] وقوله تعالى { وَهُمْ

يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ } [الرعد:30] وقد تكرر مثل هاتين الآيتين في القرآن وخاصة في السور المكية مثل سورة الفرقان وسورة الملك. وقد ذكر الرحمان في سورة الملك باسمه الظاهر وضميره ثماني مرّات، مما يفيد الاهتمام بتقرير هذا الاسم لله تعالى في نفوس السامعين، فالظاهر أنّ هذا الوصف تنوسي في كلامهم. أو أنكروا أن يكون من أسماء الله.

فإن قلتَ إنّ الربوبيّة تقتضي الرحمة لأنّها إبلاغ الشيء إلى كماله شيئا فشيئا وذلك يجمع النعم كلّها، فلماذا احتيج إلى ذكر كونه رحمانا؟ **قلتُ** لأن الرحمة تتضمّن أن ذلك الإبلاغ إلى الكمال لم يكن على وجه الإعنات بل كان برعاية ما يناسب كل نوع وفرد ويلائم طوقه واستعداده، فكانت الربوبيّة نعمة، والنعمة قد تحصل بضرب من الشدّة والأذى، فأتبع ذلك بوصفه بالرحمان تنبيها على أنّ تلك النعم الجليلة وصلت إلينا بطريق الرفق واليسر ونفي الحرج، حتّى في أحكام التكاليف والمناهي والزواجر فإنّها مرفوقة باليسر بقدر ما لا يبطل المقصود منها.

{ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ } [3].

إتباع الأوصاف الثلاثة المتقدّمة بهذا ليس لمجرّد سرد صفات من صفاته تعالى، بل هو ممّا أثارته الأوصاف المتقدمة، فإنّه لمّا وُصف تعالى بأنّه ربّ العالمين الرحمن الرحيم، وكان ذلك مفيدا لما قدّمناه من التنبيه على كمال رفقه تعالى بالمربوبين في سائر أكوانهم، ثم التنبيه بأنّ تصرّفه تعالى في الأكوان والأطوار تصرّف رحمة عند المعتبر، وكان من جملة تلك التصرّفات تصرّفات الأمر والنهي، المعبّر عنها بالتشريع الراجع إلى حفظ مصالح النّاس عامة وخاصة، وكان معظم تلك التشريعات مشتملا على إخراج المكلّف عن داعية الهوى، الذي يلائمه اتّباعه، وفي نزعه عنه إرغام له ومشقّة، خيف أن تكون تلك الأوصاف المتقدّمة في فاتحة الكتاب مخفِّفا عن المكلفين عبء العصيان لما أمروا به، ومثيرا لأطماعهم في العفو عن استخفافهم بذلك، وأن يمتلكهم الطمع فيعتمدوا على ما علموا من الربوبيّة والرحمة المؤكدة، فلا يخشوا غائلة الإعراض عن التكاليف، لذلك كان من مقتضى المقام تعقيبه بذكر أنّه صاحب الحكم في يوم الجزاء { الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ } [غافر:17]، لأنّ الجزاء على الفعل سبب في الامتثال والاجتناب لحفظ مصالح العالم، وأحيط ذلك بالوعد والوعيد، وجعل مصداق ذلك الجزاء يوم القيامة. ولذلك اختير هنا وصف ملك أو مالك مضافا إلى يوم الدين.

فأمّا ملك فهو مؤذن بإقامة العدل وعدم الهوادة فيه، لأنّ شأن الملك أن يدبّر صلاح الرعيّة ويذبّ عنهم، ولذلك أقام النّاس الملوك عليهم. ولو قيل رب يوم الدين لكان فيه مطمع للمفسدين، يجدون من شأن الربّ رحمة وصفحا.

ثم قوله تعالى { مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ } إشارة إلى أنّه وليّ التصرف في الدنيا والآخرة فهو إذن تتميم.

{ **مَالِكِ** } قرأه الجمهور { مَلِكِ } بدون ألف بعد الميم وقرأه عاصم والكسائي ويعقوب وخلف {مَالِكِ}

بالألف، فالأوّل صفة مشبّهة صارت اسما لصاحب المُلك (بضم الميم) والثاني اسم فاعل من (ملِك) إذا اتصف بالمِلك (بكسر الميم) وكلاهما مشتق من ملك.

وأصل مادة (ملك) في اللغة ترجع تصاريفها إلى معنى **الشدّ والضبط**، كما قاله ابن عطية، ثم يتصرّف ذلك بالحقيقة والمجاز، والتحقيق والاعتبار.

{ **يَوْمِ الدِّينِ** } يوم القيامة، ومبدأ الدار الآخرة، فالدين فيه بمعنى الجزاء.

واعلم أنّ وصفه تعالى بملك يوم الدين تكملة لإجراء مجامع صفات العظمة والكمال على اسمه تعالى، فإنّه بعد أن وُصف بأنّه ربّ العالمين، وذلك معنى الإلهية الحقّة، إذ يفوق ما كانوا ينعتون به آلهتهم من قولهم: إله بني فلان، فقد كانت الأمم تتخذ آلهة خاصة لها، كما حكى الله عن بعضهم { فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى } [طه:88] وقال { قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ } [لأعراف:138]، وكانت لبعض قبائل العرب آلهة خاصة، فقد عبدت ثقيف اللات. وفي حديث عائشة في الموطأ كان الأنصار قبل أن يسلموا يهلّون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المُشلّل ". (بضم الميم وفتح الشين المعجمة ولام مشددة مفتوحة ولام أخرى – اسم ثنية مشرفة على قديد بين مكة والمدينة) .[متفق عليه واللفظ للبخاري]

فوصف الله تعالى بأنّه رب العالمين كلّهم، ثم عقّب بوصفي الرحمان الرحيم لإفادة عظم رحمته، ثم وُصف بأنّه ملك يوم الدين، وهو وصف بما هو أعظم مما قبله، لأنّه ينبئ عن عموم التصرّف في المخلوقات في يوم الجزاء، الذي هو أول أيام الخلود. فملك ذلك الزمان هو صاحب الملك الذي لا يشذّ شيء عن الدخول تحت ملكه، وهو الذي لا ينتهي ملكه ولا ينقضي.

{ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } [4].

إذا أتّم الحامد حمد ربّه يأخذ في التوجّه إليه بإظهار الإخلاص له، انتقالا من الإفصاح عن حقّ الربّ إلى إظهار مراعاة ما يقتضيه حقّه تعالى على عبده من إفراده بالعبادة والاستعانة، فهذا الكلام استئناف ابتدائي.

والانتقال من أسلوب الحديث بطريق الغائب المبتدإ من قوله { الْحَمْدُ لِلَّهِ - إلى قوله - مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ } إلى أسلوب طريق الخطاب ابتداء من قوله تعالى { إِيَّاكَ نَعْبُدُ } إلى آخر السورة، فن بديع من فنون نظم الكلام البليغ عند العرب، وهو المسمَّى في علم الأدب العربي والبلاغة **التفاتا**.

ولأهل البلاغة عناية بالالتفات لأنّ فيه تجديد أسلوب التعبير عن المعنى بعينه تحاشيا من تكرر الأسلوب الواحد، فيحصل بتجديد الأسلوب تجديد نشاط السامع كي لا يمل.

{ **إِيَّاكَ** } ضمير خطاب في حالة النصب والأظهر أنّ كلمة (إيّا) جُعلت ليعتمد عليها الضمير عند انفصاله ولذلك لزمتها الضمائر نحو: إيّاي تعني، وإيّاك أعني، وإيّاهم أرجو.

العبادة: فعل يدلّ على الخضوع أو التعظيم الزائدين على المتعارف بين النّاس. وأمّا إطلاقها على الطاعة فهو مجاز. والعبادة في الشرع أخصّ، فتعرّف بأنّها: **فعل ما يرضي الربّ من خضوع وامتثال واجتناب،** أو هي فعل المكلّف على خلاف هوى نفسه تعظيما لربّه، وقال الرازي في تفسير قوله تعالى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } [الذاريات:56] : " العبادة تعظيم أمر الله والشفقة على الخلق. وهذا المعنى هو الذي اتفقت عليه الشرائع وإن اختلفوا في الوضع والهيئة والقلة والكثرة " . فهي بهذا التفسير تشمل الامتثال لأحكام الشريعة كلّها.

وفسّر **الصوفيّة** العبادة بأنها فعل ما يرضي الرب، والعبودية بالرضا بما يفعل الرب. فهي أقوى. وقال بعضهم: العبودية الوفاء بالعهود، وحفظ الحدود، والرضا بالموجود. والصبر على المفقود، وهذه اصطلاحات لا مشاحة فيها.

واعلم أنّ من أهم المباحث البحث عن **سرّ العبادة وتأثيرها وسر مشروعيتها** لنا، وذلك أنّ الله تعالى خلق هذا العالم ليكون مظهرا لكمال صفاته تعالى (الوجود، والعلم، والقدرة). وجعل قبول الإنسان للكمالات التي بمقياسها يعلم نسبة مبلغ علمه وقدرته من علم الله تعالى وقدرته، وأودع فيه الروح والعقل اللذين بهما يزداد التدرّج في الكمال، ليكون غير قانع بما بلغه من المراتب في أوج الكمال والمعرفة، وأرشده وهداه إلى ما يستعين به على مرامه ليحصل له بالارتقاء العاجل رقيّ آجل لا يضمحل، وجعل استعداده لقبول الخيرات كلّها، عاجلها وآجلها، متوقفا على التلقين من السفرة الموحى إليهم بأصول الفضائل. ولمّا توقّف ذلك على مراقبة النفس، في نفراتها وشرداتها، وكانت تلك المراقبة تحتاج إلى تذكّر المُجازي بالخير وضدّه، شُرعت العبادة لتذكّر ذلك المُجازي، لأنّ عدم حضور ذاته واحتجابه بسبحات الجلال يسرّب نسيانه إلى النفوس.

كما أنّه جعل نظامه في هذا العالم متّصل الارتباط بين أفراده فأمرهم بلزوم آداب المعاشرة والمعاملة لئلّا يفسد النظام، ولمراقبة الدوام على ذلك أيضا شرعت العبادة لتذكّر به، على أنّ في ذلك التذكّر دوام الفكر في الخالق وشؤونه، وفي ذلك تخلّق بالكمالات تدريجا.

فظهر أنّ العبادة هي طريق الكمال الذاتي والاجتماعي مبدأ ونهاية، وبه يتّضح معنى قوله تعالى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ } [الذاريات:56]، فالعبادة على الجملة لا تخرج عن كونها محقّقة للمقصد من الخلق، ولمّا كان سرّ الخلق والغاية منه خفية الإدراك عرّفنا الله تعالى إيّاها بمظهرها وما يحقّقها، جمعا لعظيم المعاني في جملة واحدة وهي جملة { إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ }.

{ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** } الحصر المستفاد من تقديم المعمول حصر حقيقي، لأنّ المؤمنين الملقّنين لهذا الحمد لا يعبدون إلّا الله.

{ **وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** } معطوفة على جملة { إِيَّاكَ نَعْبُدُ } وإنّما لم تفصل للإشارة إلى حضور الفعلين جميعا في إرادة المتكلمين بهذا التخصيص، أي نخصّك بالاستعانة أيضا مع تخصيصك بالعبادة. والحصر

المستفاد من التقديم حصر ادعائي للمبالغة لعدم الاعتداد بالاستعانات المتعارفة بين النّاس بعضهم ببعض في شئونهم، ومعنى الحصر هنا: لا نستعين على عظائم الأمور إلّا بالله تعالى.

الاستعانة: طلب العون. والعون والإعانة تسهيل فعل شيء يشقّ ويعسر على المستعين وحده، فهي تحصل بإعداد طريق تحصيله من إعارة آلة، أو مشاركة بعمل البدن كالحمل والقود، أو بقول كالإرشاد والتعليم، أو برأي كالنصيحة.

وأمّا الاستعانة بالله فهي طلب المعونة على مالا قبل للبشر بالإعانة عليه، ولا قبل للمستعين بتحصيله بمفرده، ولذلك فهي مشعرة بأنّ المستعين يصرف مقدرته لتحصيل الفعل ويطلب من الله العون عليه.

فهذه هي المعونة شرعا.

وقد فسّرها العلماء بأنّها: خَلق ما به تمام الفعل أو تيسيره، فتنقسم قسمين:

معونة ضرورية: أي ما يتوقّف الفعل عليها، فلا يحصل بدونها، أي لا يحصل بدون توفر متعلقها وهي إعطاء الاقتدار للفاعل، وتصوّره للفعل، وحصول المادة، والآلة، ومجموع هاته الأربعة يعبّر عنه بالاستطاعة، ويعبّر عنها بسلامة الأسباب والآلات وبها يصح تكليف المستطيع.

معونة غير ضرورية: وينبغي أن تُخص باسم الإعانة، وهي إيجاد المعين ما يتيسّر به الفعل للمعان حتّى يسهل عليه ويقرب منه، كإعداد الراحلة في السفر للقادر على المشي. وبانضمام هذا المعنى للمعنى الأوّل تتم حقيقة **التوفيق** المعرف عندهم بأنه خلق القدرة والداعية إلى الطاعة.

وفي الآية، ومن خلال القصر في الموضعين، تعريض بالمشركين الذين يعبدون غير الله ويستعينون بغيره، لأنّهم كانوا فريقين:

منهم من عبد غير الله على قصد التشريك، إلّا أنّ ولعه واستهتاره بغير الله تعالى أنساه عبادة الله تعالى كما عبدت سبأ الشمس وعبد الفرس النور والظلمة، وعبد القبط العجل وألّهوا الفراعنة، وعبدت أمم السودان الحيوانات كالثعابين.

ومن المشركين من أشرك مع عبادة الله عبادة غيره وهذا حال معظم العرب ممّن عبد الأصنام أو عبد الكواكب، فقد عبدت ضبة وتيم وعكل الشمس، وعبدت كنانة القمر، وعبدت لخم وخزاعة وبعض قريش الشِّعرى، وعبدت تميم الدبران، وعبدت طيّء الثريّا، وهؤلاء كلّهم جعلوا الآلهة بزعمهم وسيلة يتقرّبون بها إلى الله تعالى، فهؤلاء جمعوا العبادة والاستعانة بهم، لأنّ جعلهم وسيلة إلى الله ضرب من الاستعانة.

ضميرا { نَعْبُدُ – نَسْتَعِينُ } ، يعودان إلى تالي السورة ذاكرا معه جماعة المؤمنين. وفي العدول عن ضمير الواحد إلى الإتيان بضمير المتكلّم المشارك دلالة على أنّ هذه المحامد صادرة من جماعات. ففيه إغاظة للمشركين إذ يعلمون أن المسلمين صاروا في عزّة ومنعة، ولأنّه أبلغ في الثناء من أعبد وأستعين، لئلّا تخلو المناجاة عن ثناء أيضا بأن المحمود المعبود المستعان قد شهد له الجماعات وعرفوا فضله.

ووجه تقديم قوله { إِيَّاكَ نَعْبُدُ } على قوله { وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } أنّ العبادة تقرّب للخالق تعالى فهي أجدر

بالتقديم في المناجاة. وأمّا الاستعانة فهي لنفع المخلوق للتيسير عليه، فناسب أن يُقدّم المناجي ما هو من عزمه وصنعه على ما يسأله.

وأعيد لفظ { إِيَّاكَ } في الاستعانة دون العطف، لأنّ بين الحصرين فرقا، فالحصر في { إِيَّاكَ نَعْبُدُ } حقيقي والقصر في { وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } ادعائي، فإن المسلم قد يستعين غير الله تعالى، كيف وقد قال تعالى { وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى } [المائدة: 2]، ولكنه لا يستعين في عظائم الأمور إلّا بالله، ولا يعد الاستعانة حقيقة إلّا الاستعانة بالله تعالى.

{ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } [5].

تهيّأ لأصحاب هذه المناجاة أن يسعوا إلى طلب حظوظهم الشريفة من الهداية بعد أن حمدوا الله ووصفوه بصفات الجلالة ثم أتبعوا ذلك بقولهم { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } الذي هو واسطة جامع بين تمجيد الله تعالى وبين إظهار العبودية، وهي حظّ العبد بأنّه عابد ومستعين وأنّه قاصر ذلك على الله تعالى، فكان ذلك واسطة بين الثناء وبين الطلب، حتّى إذا ظنّوا بربّهم الإقبال عليهم ورجوا من فضله، أفضوا إلى سؤل حظهم فقالوا { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } فهو حظ الطالبين خاصة لما ينفعهم في عاجلهم وآجلهم.
فهذا هو التوجيه المناسب لكون الفاتحة بمنزلة الديباجة للكتاب الذي أنزل هدى للناس ورحمة.
فتتنزّل هاته الجملة، ممّا قبلها، منزلة المقصد من الديباجة، أو الموضوع من الخطبة، أو التخلّص من القصيدة.
ولاختلاف الجمل المتقدّمة معها بالخبرية والإنشائية فصلت هذه عنهن، وهذا أولى في التوجيه من جعلها جوابا لسؤال مقدّر، على ما ذهب إليه صاحب الكشاف.
الهداية: الدلالة بتلطّف، ولذلك خصّت بالدلالة لما فيه خير المدلول، لأن التلطّف يناسب من أريد به الخير، وهو يتعدى إلى مفعول واحد بنفسه لأن معناه معنى الإرشاد، ويتعدى إلى المفعول الثاني وهو المهدى إليه بـ(إلى) وبـ (اللام) والاستعمالان واردان، تقول: <u>هديته إلى كذا</u> على معنى أوصلته إلى معرفته، و<u>هديته لكذا</u> على معنى أرشدته لأجل كذا. كقوله تعالى { فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ } [الصافات: 23]، وقوله { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا } [الأعراف: 43]
واختلف علماء الكلام في اعتبار قيد الإيصال إلى الخير في حقيقة الهداية، فالجمهور على عدم اعتباره وأنّها <u>الدلالة على طريق الوصول، سواء حصل الوصول أم لم يحصل، وهو قول الأشاعرة</u> وهو الحق.
وذهب جماعة منهم **الزمخشري** إلى أنّ <u>الهداية هي الدلالة مع الإيصال</u> وإلّا لما امتازت عن الضلالة، أي حيث كان الله قادرا على أن يوصل من يهديه إلى ما هداه إليه، ومرجع الخلاف إلى اختلافهم في أصل آخر وهو أصل معنى رضى الله ومشيئته وإرادته وأمره، فأصحاب الأشعري اعتبروا الهداية التي هي من متعلق الأمر، والمعتزلة نظروا إلى الهداية التي هي من متعلّق التكوين والخلق.

ولا خلاف في أنّ الهداية مع الوصول هي المطلوبة شرعا من الهادي والمهدي، مع أنّه قد يحصل الخطأ للهادي وسوء القبول من المهدي.

والهداية أنواع تندرج كثرتها تحت أربعة أجناس مترتّبة:

الأول: إعطاء القوى المحرّكة والمدركة التي بها يكون الاهتداء إلى انتظام وجود ذات الإنسان، ويندرج تحتها أنواع تبتدئ من إلهام الصبي التقام الثدي، والبكاء عند الألم، إلى غاية الوجدانيات التي بها يدفع عن نفسه، كإدراك هول المهلكات وبشاعة المنافرات، ويجلب مصالحه الوجودية كطلب الطعام والماء وذود الحشرات عنه وحك الجلد واختلاج العين عند مرور ما يؤذي تجاهها، ونهايتها أحوال الفكر وهو حركة النفس في المعقولات، أعني ملاحظة المعقول لتحصيل المجهول في البديهيات، وهي القوّة الناطقة التي انفرد بها الإنسان، المنتزعة من العلوم المحسوسة.

الثاني: نصب الأدلة الفارقة بين الحقّ والباطل والصواب والخطأ، وهي هداية العلوم النظريّة.

الثالث: الهداية إلى ما قد تقصر عنه الأدلة أو يفضي إعمالها في مثله إلى مشقّة، وذلك بإرسال الرّسل وإنزال الكتب وموازين القسط، وإليها الإشارة بقوله تعالى في شأن الرسل { وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا} [الانبياء:73].

الرابع: أقصى أجناس الهداية وهي كشف الحقائق العليا وإظهار أسرار المعاني التي حارت فيها ألباب العقلاء إمّا بواسطة الوحي والإلهام الصحيح أو التجلّيّات، وقد سمّى الله تعالى هذا هدى حين أضافه للأنبياء فقال { أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ } [الأنعام: 90].

الصراط: الطريق وهو بالصاد وبالسين ومن العرب من قلب السين زايا، والقراءة بالصاد هي الراجحة لموافقتها رسم المصحف وكونها اللغة الفصحى.

والصراط هنا، مستعار لمعنى الحقّ الذي يبلغ به مدركه الى الفوز برضاء الله، لأنّ ذلك الفوز هو الذي جاء الإسلام بطلبه.

المستقيم: اسم فاعل استقام، مطاوع قوّمته فاستقام، والمستقيم الذي لا عوج فيه ولا تعاريج ، والمستقيم هنا مستعار للحقّ البيّن الذي لا تخلطه شبهة باطل. والتعريف للعهد الذهني.

والأظهر عندي أنّ المراد بالصراط المستقيم المعارف الصالحات كلّها، من اعتقاد وعمل، بأن يوفّقهم إلى الحقّ والتمييز بينه وبين الضلال.

{ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ [6] غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ [7] }.

{ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ } بدل أو عطف بيان من { الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } ، وإنّما جاء نظم الآية بأسلوب الإبدال أو البيان دون أن يقال: اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم المستقيم، لفائدتين:

الفائدة الأولى: أنّ المقصود من الطلب ابتداءً هو كون المهدى إليه وسيلة للنجاة واضحة سمحة سهلة، وأمّا كونها سبيل الذين أنعم الله عليهم فأمر زائد لبيان فضله.

الفائدة الثانية: ما في أسلوب الإبدال من الإجمال المعقّب بالتفصيل ليتمكن معنى الصراط المستقيم في نفوس المؤمنين، فيكون له من الفائدة مثل ما للتوكيد المعنوي. ثم إن في اختيار وصف الصراط المستقيم بأنه صراط الذين أنعمت عليهم، دون بقية أوصافه، تمهيدا لبساط الإجابة، فإن الكريم إذا قلت له أعطني كما أعطيت فلانا كان ذلك أنشط لكرمه، وتوطئة لما سيأتي بعد من التبرؤ من أحوال المغضوب عليهم والضالين فتضمن ذلك تفاؤلا وتعّوذا.

النِعمة: (بالكسر وبالفتح) مشتقّة من النعيم وهو راحة العيش وملائم الإنسان والترفّه. والنعمة: الحالة الحسنة. وهنا، النعمة التي لم يشبها ما يكدّرها ولا تكون عاقبتها سوأى، فهي شاملة لخيرات الدنيا الخالصة من العواقب السيئة، ولخيرات الآخرة، وهي الأهم، فيشمل النعم الدنيوية الموهوبي منها والكسبي، والروحاني والجثماني، ويشمل النعم الأخروية.

النعمة بهذا المعنى يرجع معظمها إلى الهداية، فإن الهداية إلى الكسبي من الدنيوي وإلى الأخروي كلّه ظاهرة فيها حقيقة الهداية. فالمراد من المنعم عليهم، الذين أفيضت عليهم النعم الكاملة.

ولا تخفى تمام المناسبة بين المنعم عليهم وبين المهديين حينئذ فيكون في إبدال { صِرَاطَ الَّذِينَ } من {الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } معنى بديع، وهو أنّ الهداية نعمة، وأن المنعم عليهم بالنعمة الكاملة قد هدوا إلى الصراط المستقيم. والذين أنعم الله عليهم هم خيار الأمم السابقة من الرسل والأنبياء الذين حصلت لهم النعمة الكاملة.

{ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ }

صفة للذين أنعمت عليهم. أو بدل منه والوصف والبدليّة سواء في المقصود. ومن غرض وصف الذين أنعمت عليهم بأنهم { غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ }؛

التعوّذ مما عرض لأمم أنعم الله عليهم بالهداية إلى صراط الخير بحسب زمانهم بدعوة الّرسل إلى الحقّ فتقلّدوها ثم طرأ عليهم سوء الفهم فيها فغيّروها وما رعوها حق رعايتها، والتبرؤ من أن يكونوا مثلهم في بطر النعمة وسوء الامتثال وفساد التأويل وتغليب الشهوات الدنيوية على إقامة الدين حتّى حقّ عليهم غضب الله تعالى.

وكذا التبرؤ من حال الذين هدوا إلى صراط مستقيم فما صرفوا عنايتهم للحفاظ على السير فيه باستقامة، فأصبحوا من الضالين بعد الهداية إذ أساءوا صفة العلم بالنعمة فانقلبت هدايتهم ضلالا.

واليهود من جملة الفريق الأول، والنصارى من جملة الفريق الثاني كما يعلم من الاطلاع على تاريخ ظهور الدينين فيهم. **وليس يلزم اختصاص أول الوصفين باليهود والثاني بالنصارى**، فإنّ في الأمم

أمثالهم وهذا الوجه في التفسير هو الذي يستقيم معه مقام الدعاء بالهداية إلى الصراط المستقيم، ولو كان المراد دين اليهودية ودين النصرانية لكان الدعاء تحصيلا للحاصل، فإن الإسلام جاء ناسخا لهما.

وما ورد في الأثر مما ظاهره تفسير المغضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارى فهو إشارة إلى أنّ في الآية تعريضا بهذين الفريقين اللذين حقّ عليهما هذان الوصفان، لأن كلّا منهما صار علما فيما أريد التعريض به فيه.

فغضب الله تعالى على العموم يرجع إلى معاملته الحائدين عن هديه العاصين لأوامره ويترتّب عليه الانتقام، وهو مراتب أقصاها عقاب المشركين والمنافقين بالخلود في الدرك الأسفل من النار. ودون الغضب الكراهية فقد ورد في الحديث **" ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال "** ، ويقابلهما الرضى والمحبة، وكل ذلك غير المشيئة والإرادة، بمعنى التقدير والتكوين، { وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ } [الزمر:7]، وقوله تعالى { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ } [الأنعام: 112]، وقوله تعالى { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً } [يونس:99]. وتفصيل هذه الجملة في علم الكلام.

الضلال: سلوك غير الطريق المراد عن خطأ، سواء علم بذلك أم لم يعلم، ومنه ضالة الإبل. وهو مقابل الهدى، وإطلاق الضال على المخطئ في الدين أو العلم استعارة كما هنا. والضلال في لسان الشرع مقابل الاهتداء، والاهتداء هو الإيمان الكامل والضلال ما دون ذلك. قالوا وله عرض عريض أدناه ترك السنن وأقصاه الكفر. وقد فسّرنا الهداية فيما تقدم أنّها الدلالة بلطف، فالضلال عدم ذلك، ويطلق على أقصى أنواعه الختم والطبع والأكنة.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة البقرة

(**سورة البقرة**) كذا سمّيت في المروي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وما جرى في كلام السلف. فقد ورد في الصحيح أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: **" من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة كفتاه "**. وفيه عن عائشة : لما نزلت الآيات من آخر البقرة في الربا قرأهن رسول الله ثم قام فحرّم التجارة في الخمر. ووجه تسميتها أنّها ذكرت فيها قصّة البقرة التي أمر الله بني إسرائيل بذبحها لتكون آية، ووصف سوء فهمهم لذلك. وهي ممّا انفردت به هذه السورة بذكره. وفي الاتفاق عن المستدرك أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: **" إنّها سنام القرآن"**، وسنام كل شيء أعلاه. وكذلك قول خالد بن معدان: إنّها فسطاط القرآن. وفي البخاري عن عائشة : " ما نزلت سورة البقرة إلّا وأنا عنده ". وكان بناء رسول الله على عائشة في شوال من السنة الأولى للهجرة. إلّا أنّ اشتمال سورة البقرة على أحكام الحجّ والعمرة وعلى أحكام قتال المشركين في الشهر الحرام والبلد الحرام، ينبئ بأنّها استمر نزولها إلى سنة خمس وسنة ست، وقد يكون ممتدّا إلى ما بعد سنة ثمان، كما يقتضيه قوله تعالى { الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ } [197]، على أنه قد قيل إن قوله تعالى { وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ} [281] هو آخر ما نزل من القرآن، وقد بيّنّا في المقدمة الثامنة أنّه قد يستمر نزول السورة فتنزل في أثناء مدة نزولها سور أخرى.

وقد **عدّت سورة البقرة السابعة والثمانين** في ترتيب نزول السور نزلت بعد سورة المطففين وقبل آل عمران.

وإذ كانت أوّل سورة نزلت بعد الهجرة فقد عني بها الأنصار وأكبّوا على حفظها، يدلّ لذلك ما جاء في السيرة أنّه لما انكشف المسلمون يوم حنين قال النبيّ صلى الله عليه وسلم للعبا : **" اصرخ يا معشر الأنصار يا أهل السمُرة** (يعني شجرة البيعة في الحديبية) **يا أهل سورة البقرة "**، فقال الأنصار لبيك لبيك يا رسول الله أبشر".

وعدد آيها مائتان وخمس وثمانون آية عند أهل العدد بالمدينة ومكة والشام، وست وثمانون عند أهل العدد بالكوفة، وسبع وثمانون عند أهل العدد بالبصرة.

أغراض السورة

هذه السورة مترامية أطرافها، وأساليبها ذات أفنان. قد جمعت من وشائج أغراض السور ما كان مصداقا لتلقيبها **فسطاط القرآن**. ومعظم أغراضها ينقسم إلى قسمين؛

قسم يثبت سموّ هذا الدين على ما سبقه وعلو هديه وأصول تطهيره النفوس،

وقسم يبيّن شرائع هذا الدين لأتباعه وإصلاح مجتمعهم.

وكان أسلوبها أحسن ما يأتي عليه أسلوب جامع لمحاسن الأساليب الخطابية، وأساليب الكتب التشريعية، وأساليب التذكير والموعظة، يتجدّد بمثله نشاط السامعين بتفنّن الأفانين.

ويحضر لنا من أغراضها:

*/ ابتدئت بالرمز إلى تحدي العرب المعاندين تحدّيا إجماليا بحروف التهجّي المفتتح بها، رمزا يقتضي استشرافهم لما يرد بعده وانتظارهم لبيان مقصده.

*/ التنويه بشأن القرآن في انتظار ما يتعقبه من صريح التعجيز الذي سيأتي بعد قوله تعالى { وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ } [23].

*/ تصنيف النّاس تجاه تلقيهم هذا الكتاب وانتفاعهم بهديه أصنافا أربعة - وكانوا قبل الهجرة صنفين - بحسب اختلاف أحوالهم في ذلك التلقي .

*/ ثم كان خاتمة ما قرعت به أنوفهم صريح التحدّي الذي رمز إليه بدءا تحديا يلجئهم إلى الاستكانة ويخرس ألسنتهم عن التطاول والإبانة، ويلقي في قرارات أنفسهم مذلّة الهزيمة وصدق الرسول الذي تحدّاهم.

*/ دعوة المنصفين إلى عبادة الربّ الحقّ الذي خلقهم وخلق السماوات والأرض، وأنعم عليهم بما في الأرض جميعا.

*/ تخلّص إلى صفة بدء خلق الإنسان ،فإنّ في ذلك تذكيرا لهم بالخلق الأوّل قبل أن توجد أصنامهم التي يزعمونها من صالحي قوم نوح ومن بعدهم، ومنّة على النوع ،بتفضيل أصلهم على مخلوقات هذا العالم، وبمزيّته بعلم ما لم يعلمه أهل الملأ الأعلى.

*/ كيف نشأت عداوة الشيطان لآدم ولنسله، لتهيئة نفوس السامعين لاتهام شهواتها ولمحاسبتها على دعواتها.

*/ التخلص إلى منّة عظمى تخصّ الفريق الرابع ،وهم أهل الكتاب، الذين هم أشدّ النّاس مقاومة لهدى القرآن، وأنفذ الفرق قولا في عامة العرب، لأنّ أهل الكتاب يومئذ هم أهل العلم ومظنة اقتداء العامة لهم من قوله تعالى { يَا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي } [40]، فأطنب في تذكيرهم بنعم الله وأيامه لهم، ووصف ما لاقوا به نعمه الجمّة من الانحراف عن الصراط السوي، انحرافا بلغ بهم حدّ الكفر، وذلك جامع لخلاصة تكوين أمة إسرائيل وجامعتهم في عهد موسى.

*/ ما كان من أهم أحداثهم مع الأنبياء الذين قفوا موسى إلى أن تلقوا دعوة الإسلام بالحسد والعداوة حتّى على الملك جبريل، وبيان أخطائهم، لأنّ ذلك يلقي في النفوس شكا في تأهلهم للاقتداء بهم .وذكر من ذلك نموذجا من أخلاقهم من تعلق الحياة { وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النّاس عَلَى حَيَاةٍ } [96] ومحاولة العمل بالسحر { وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ } [102]، وأذى النبيّ بموجع الكلام { لا تَقُولُوا رَاعِنَا } [104].

*/ ثم قرن اليهود والنصارى والمشركون في حسدهم المسلمين والسخط على الشريعة الجديدة { مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ - إلى قوله - وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ } [105-112].

*/ ما أثير من الخلاف بين اليهود والنصارى وادعاء كل فريق أنّه هو المحق، ثمّ خُصّ المشركون بأنّهم أظلم هؤلاء الأصناف الثلاثة، لأنّهم منعوا المسلمين من ذكر الله في المسجد الحرام وسعوا بذلك في خرابه، وأنهم تشابهوا في ذلك هم واليهود والنصارى واتّحدوا في كراهية الإسلام.

*/ انتقل بهذه المناسبة إلى فضائل المسجد الحرام، وبانيه، ودعوته لذرّيّته بالهدى، والاحتراز عن إجابتها في الذين كفروا منهم، وأنّ الإسلام على أساس ملّة إبراهيم وهو التوحيد، وأنّ اليهودية والنصرانية ليستا ملّة إبراهيم، وأنّ من ذلك الرجوع إلى استقبال الكعبة، ادّخره الله للمسلمين، آية على أنّ الإسلام هو القائم على أساس الحنيفيّة.

*/ وذكر شعائر الله بمكة، وإبكات أهل الكتاب في طعنهم على تحويل القبلة، وأن العناية بتزكية النفوس أجدر من العناية باستقبال الجهات { لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ } [177].

*/ ذكّروا بنسخ الشرائع لصلاح الأمم وأنّه لا بدع في نسخ شريعة التوراة أو الإنجيل بما هو خير منهما.

*/ عاد إلى محاجة المشركين بالاستدلال بآثار صنعة الله { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ } [164]، ومحاجة المشركين في يوم يتبرأون فيه من قادتهم.

*/ إبطال مزاعم دين الفريقين في محرّمات من الأكل.

*/ ذكر صنف من النّاس قليل، وهم المشركون الذين لم يظهروا الإسلام ولكنهم أظهروا مودة المسلمين.

*/ لمّا قضي حق ذلك كله بأبدع بيان وأوضح برهان، انتقل إلى قسم تشريعات الإسلام إجمالا بقوله تعالى { لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ } [17]، ثم تفصيلا : القصاص، الوصية، الصيام، الاعتكاف، الحج، الجهاد، ونظام المعاشرة والعائلة، المعاملات المالية، والإنفاق في سبيل الله، والصدقات، والمسكرات، واليتامى، والمواريث، والبيوع والربا، والديون، والإشهاد، والرهن، والنكاح، وأحكام النساء، والعدة، والطلاق، والرضاع، والنفقات، والأيمان.

*/ وختمت السورة بالدعاء المتضمّن لخصائص الشريعة الإسلامية وذلك من جوامع الكلم، فكان هذا الختام تذييلا وفذلكة { لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَو تُخْفُوهُ} [284].

وكانت في خلال ذلك كلّه أغراض شتّى سيقت في معرض الاستطراد في متفرّق المناسبات تجديدا لنشاط القارئ والسامع:

من تمجيد الله وصفاته { اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ } [255] ورحمته وسماحة الإسلام، وضرب أمثال كقوله تعالى { أَوْ كَصَيِّبٍ } [19]، واستحضار نظائر كقوله تعالى { وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ } [74]، وقوله تعالى { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ } [243] وعلم وحكمة، ومعاني الإيمان والإسلام، وتثبيت المسلمين، كقوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ} [153]، والكمالات الأصلية، والمزايا التحسينية، وأخذ الأعمال والمعاني من حقائقها وفوائدها لا من هيئاتها، وعدم الاعتداد بالمصطلحات إذا لم ترم إلى غايات، كقوله تعالى { وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا } [189]، وقوله تعالى { لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ } [177]، وقوله تعالى { وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ } [217] والنظر والاستدلال، ونظام المحاجّة، وأخبار الأمم الماضية، والرسل وتفاضلهم، واختلاف الشرائع.

{ **ألم** } [1].

تحيّر المفسّرون في محلّ هاته الحروف الواقعة في أوّل هاته السور، وفي فواتح سور أخرى عدّة جميعها (**تسع وعشرون سورة**) ومعظمها في السور المكية عدا البقرة وآل عمران ، وكان بعضها في ثاني سورة نزلت وهي (القلم) ومجموع ما وقع من حروف الهجاء أوائل السور(**أربعة عشر حرفا**) وهي نصف حروف الهجاء، والحروف الواقعة في السور هي (ا، ح، ر، س، ص، ط، ع، ق، ك، ل، م، ن، ه، ي)، بعضها تكرّر، وهي من القرآن لا محالة ومن المتشابه في تأويلها.

ولا خلاف أنّ هاته الفواتح حين ينطق بها القارئ أسماء الحروف التهجّي ولذلك إنّما يقول القارئ (ألف لام ميم) مثلا ولا يقول (ألم). وإنّما كتبوها في المصاحف بصور الحروف التي يتهجّى بها في الكلام التي يقوم رسم شكلها مقام المنطوق به في الكلام ولم يكتبوها بدوال ما يقرأونها به في القرآن، لأنّ المقصود التهجّي بها، وحروف التهجّي تكتب بصورها لا بأسمائها.

وأرجح الأقوال في تفسيرها ثلاثة وهي:

*/ كون القرآن من تلك الحروف، لتبكيت المعاندين وتسجيلا لعجزهم عن المعارضة.

*/ أو كونها أسماء للسور الواقعة هي فيها.

*/ أو كونها أقساما أقسم الله بها لتشريف قدر الكتابة، وتنبيه العرب الأميين إلى فوائد الكتابة لإخراجهم من حالة الأمية.

وأرجح هذه الأقوال الثلاثة هو أوّلها.

وهاته الفواتح قرآن لا محالة ولكن اختلف في أنها آيات مستقلّة، والأظهر أنّها ليست بآيات مستقلّة بل هي أجزاء من الآيات الموالية لها على المختار من مذاهب جمهور القراء. ويدل لإجراء السلف حكم أجزاء الآيات عليها أنهم يقرأونها إذا قرأوا الآية المتصلة بها، ففي جامع الترمذي في كتاب التفسير في ذكر سبب نزول سورة الروم .فنزلت { آلم غُلِبَتِ الرُّومُ } [الروم:2/1]، وفيه أيضا فخرج أبو بكر الصديق يصيح في نواحي مكة { آلم غُلِبَتِ الرُّومُ }، وفي سيرة ابن إسحاق من رواية ابن هشام عنه فقرأ رسول الله على عتبة بن ربيعة { حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ - حتّى بلغ قوله - فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ }[فصلت:1 - 13].

وعلى هذا الخلاف اختلف في إجزاء قراءتها في الصلاة عند الذين يكتفون في قراءة السورة مع الفاتحة بآية واحدة مثل أصحاب أبي حنيفة.

{ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ } [2].

{ ذَلِكَ الْكِتَابُ } مبدأ كلام لا اتصال له في الإعراب بحروف {الم }، واسم الإشارة مبتدأ والكتاب خبرا. وعلى الأظهر تكون الإشارة إلى القرآن المعروف لديهم يومئذ، ويجوز أن تكون الإشارة إلى جميع القرآن، ما نزل منه وما سينزل، لأنّ نزوله مترقّب فهو حاضر في الأذهان.

الكتاب: فعال بمعنى المكتوب، إمّا مصدر كاتب المصوغ للمبالغة في الكتابة، وإمّا فعال بمعنى مفعول كلباس بمعنى ملبوس. واشتقاقه من (كتب) بمعنى جمع وضمّ، لأنّ الكتاب تُجمع أوراقه وحروفه، فإنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أمر بكتابة كلّ ما ينزل من الوحي وجعل للوحي كتّابا.

وتسمية القرآن كتابا إشارة إلى وجوب كتابته لحفظه. وكتابة القرآن فرض كفاية على المسلمين.

{ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ } حال من الكتاب أو خبر أوّل أو ثان على ما مر قريبا.

الريب: الشك وأصل الريب القلق واضطراب النفس، وريب الزمان وريب المنون: نوائب ذلك، قال تعالى { نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ } [الطور:30] ولما كان الشك يلزمه اضطراب النفس وقلقها غلب عليه الريب فصار حقيقة عرفية، قال بشار

أخـوك الـذي إن رِبْتـه قـال إنـمـا ... أرَبْـتَ وإن عـاتـبـتـه لان جـانـبُـه

وفي الحديث:**" دع ما يريبك إلى ما لا يريبك "**، أي دع الفعل الذي يقربك من الشك في التحريم إلى فعل آخر لا يدخل عليك في فعله شك في أنّه مباح.

ومن المفسّرين من فسّر قوله تعالى { لا رَيْبَ فِيهِ } بمعنى أنّه ليس فيه ما يوجب ارتيابا في صحّته، أي ليس فيه اضطراب ولا اختلاف، فيكون الريب هنا مجازا في سببه، كقوله تعالى { أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً} [النساء:82] أي أن القرآن لا يشتمل على كلام يوجب الريبة في أنّه من عند الحقّ رب العالمين، من كلام يناقض بعضه بعضا أو كلام يجافي الحقيقة والفضيلة، أو يأمر بارتكاب الشرّ والفساد، أو يصرف عن الأخلاق الفاضلة.

{ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ }

الهدى اسم مصدر الهدى ليس له نظير في لغة العرب إلا سرى وبكى، والهدى على التحقيق هو الدلالة التي من شأنها الإيصال إلى البغية، وهذا هو الظاهر في معناه لأنّ الأصل عدم الترادف فلا يكون هدى مرادفا لدل.

الهدى الشرعي: هو الإرشاد إلى ما فيه صلاح العاجل الذي لا ينقض صلاح الآجل. وأثر هذا الهدى هو الاهتداء، فالمتّقون يهتدون بهديه والمعاندون لا يهتدون لأنهم لا يتدبرون.

المتّقي: من اتصف بالاتقاء وهو طلب الوقاية، والوقاية الصيانة والحفظ من المكروه، فالمتّقي هو الحذر المتطلّب للنجاة من شيء مكروه مضرّ.

والمراد هنا: المتقين الله، أي الذين هم خائفون غضبه، واستعدّوا لطلب مرضاته واستجابة طلبه، فإذا قرئ عليهم القرآن استمعوا له وتدبّروا ما يدعو إليه فاهتدوا.

التقوى الشرعيّة: هي امتثال الأوامر واجتناب المنهيّات من الكبائر وعدم الاسترسال على الصغائر ظاهرا وباطنا، أي اتقاء ما جعل الله الاقتحام فيه موجبا غضبه وعقابه، فالكبائر كلّها متوعَّد فاعلها بالعقاب دون اللمم.

والمراد من الهدى ومن المتقين في الآية معناهما اللغوي، فالمراد أن القرآن من شأنه الإيصال إلى المطالب الخيريّة وأنّ المستعدّين للوصول به إليها هم المتّقون، أي هم الذين تجرّدوا عن المكابرة ونزّهوا أنفسهم عن حضيض التقليد للمضلّين وخشوا العاقبة، وصانوا أنفسهم من خطر غضب الله. وهم المؤمنون الذين آمنوا بالله وبمحمد وتلقوا القرآن بقوّة وعزم على العمل به.

{ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } [3].

{ **الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ** } يتعيّن أن يكون كلاما متصلا بقوله { لِلْمُتَّقِينَ } على أنّه صفة لإرداف صفتهم الإجمالية بتفصيل يعرف به المراد، ويكون مع ذلك مبدأ استطراد لتصنيف أصناف النّاس بحسب اختلاف أحوالهم في تلقي الكتاب المنوّه به إلى أربعة أصناف، بعد أن كانوا قبل الهجرة صنفين، فقد كانوا قبل الهجرة صنفا مؤمنين وصنفا كافرين مصارحين، فزاد بعد الهجرة صنفان هما المنافقون وأهل الكتاب، فالمشركون الصرحاء هم أعداء الإسلام الأولون، والمنافقون ظهروا بالمدينة فاعتز بهم الأوّلون الذين تركهم المسلمون بدار الكفر، وأهل الكتاب كانوا في شغل عن التصدّي لمناوأة الإسلام، فلمّا أصبح الإسلام في المدينة بجوارهم أوجسوا خيفة فالتفوا مع المنافقين وظاهروا المشركين.

وقد أشير إلى أنّ المؤمنين المتّقين فريقان فريق هم المتقون الذين أسلموا ممن كانوا مشركين وكان القرآن هدى لهم بقرينة مقابلة هذا الموصول بالموصول الآخر المعطوف بقوله {وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ}، فالمثني عليهم هنا هم الذين كانوا مشركين فسمعوا الدعوة المحمديّة فتدبّروا في النجاة واتقوا عاقبة الشرك فآمنوا، فالباعث الذي بعثهم على الإسلام هو التقوى دون الطمع أو التجربة، فوائل بن حجر مثلا لما جاء من اليمن راغبا في الإسلام هو من المتقين، ومسيلمة حين وفد مع بني حنيفة مضمر العداء طامعا في الملك هو من غير المتقين. وفريق آخر يجيء ذكره بقوله { وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ }.

{ **بِالْغَيْبِ** } خص بالذكر الإيمان بالغيب دون غيره من متعلّقات الإيمان لأنّ الإيمان بالغيب، أي ما غاب عن الحس، هو الأصل في اعتقاد إمكان ما تخبر به الرّسل عن وجود الله والعالم العلوي، فإذا آمن به المرء تصدّى لسماع دعوة الرسول، وللنظر فيما يبلّغه عن الله تعالى فسهل عليه إدراك الأدلّة.

{ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ }

الإقامة: مصدر أقام الذي هو معدَّى قام، عُدِّي إليه بالهمزة الدالة على الجمل، والإقامة جعلها قائمة، مأخوذ من قامت السوق إذا نفقت وتداول النّاس فيها البيع والشراء. وأصل القيام في اللغة هو الانتصاب المضاد للجلوس والاضطجاع، وأحسب أنّ تعليق هذا الفعل بالصلاة من مصطلحات القرآن، وقد جاء به القرآن في أوائل نزوله فقد ورد في سورة المزمل { وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ } وهي ثالثة السور نزولا.

وقد حصل من إفادة المضارع التجدد تأكيد ما دل عليه مادة الإقامة من المواظبة والتكرّر ليكون الثناء عليهم بالمواظبة على الصلاة أصرح.

الصلاة: اسم جامد بوزن فعله محرك العين (صَلَوة) ورد هذا اللفظ في كلام العرب بمعنى الدعاء.

فأمّا الصلاة المقصودة في الآية فهي العبادة المخصوصة المشتملة على قيام وقراءة وركوع وسجود وتسليم .ولا شك أنّ العرب عرفوا الصلاة والسجود والركوع وقد أخبر الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام فقال { رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ} [إبراهيم:37]، وقد كان بين ظهرانيهم اليهود يصلّون، أي يأتون عبادتهم بهيأة مخصوصة، وسمّوا كنيستهم (صلاة)، وكان بينهم النصارى وهم يصلّون.

وإنما أطلقت على **الدعاء** لأنّه يلازم الخشوع والانخفاض والتذلّل.

ثم اشتقّوا من الصلاة التي هي اسم جامد (صلّى). وقد نقلت الصلاة في لسان الشرع إلى الخضوع بهيأة مخصوصة ودعاء مخصوص وقراءة وعدد.

{ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ }

صلة ثالثة في وصف المتّقين ممّا يحقّق معنى التقوى وصدق الإيمان من بذل عزيز على النفس في مرضاة الله، لأنّ الإيمان لمّا كان مقره القلب ومترجمه اللسان كان محتاجا إلى دلائل صدق صاحبه وهي عظائم الأعمال.

الرزق: ما يناله الإنسان من موجودات هذا العالم التي يسدّ بها ضروراته وحاجاته وينال بها ملائمه، فيطلق على كلّ ما يحصل به سدّ الحاجة في الحياة من الأطعمة والأنعام والحيوان والشجر المثمر والثياب، وما يقتنى به ذلك من النقدين.

والرزق شرعا عند أهل السنة كالرزق لغة، إذ الأصل عدم النقل إلا لدليل، فيصدق اسم الرزق على الحلال والحرام، لأنّ صفة الحلّ والحرمة غير ملتفت إليها هنا، فبيان الحلال من الحرام له مواقع أخرى ولا يقبل الله إلا طيبا وذلك يختلف باختلاف أحوال التشريع مثل الخمر والتجارة فيها قبل تحريمها. المقصود أنّهم ينفقون مما في أيديهم .

الإنفاق: إعطاء الرزق فيما يعود بالمنفعة على النفس والأهل والعيال ومن يرغب في صلته أو التقرب لله بالنفع له من طعام أو لباس. وأريد به هنا بثّه في نفع الفقراء وأهل الحاجة وتسديد نوائب المسلمين بقرينة المدح واقترانه بالإيمان والصلاة، فلا شك أنّه هنا خصلة من خصال الإيمان الكامل، وما هي إلّا

الإنفاق في سبيل الخير والمصالح العامة، إذ لا يمدح أحد بإنفاقه على نفسه وعياله، إذ ذلك ممّا تدعو إليه الجبلّة فلا يعتني الدين بالتحريض عليه.

فمن الإنفاق ما هو واجب وهو حقّ على صاحب الرزق، للقرابة وللمحاويج من الأمّة ونوائب الأمة كتجهيز الجيوش والزكاة، وبعضه محدّد وبعضه تفرضه المصلحة الشرعية الضرورية أو الحاجة وذلك مفصّل في تضاعيف الأحكام الشرعية في كتب الفقه.

ومن الإنفاق تطوع وهو ما فيه نفع من دعا الدين إلى نفعه.

وتقديم المجرور المعمول على عامله وهو{ يُنْفِقُونَ } لمجرّد الاهتمام بالرزق في عرف النّاس فيكون في التقديم إيذان بأنّهم ينفقون مع ما للرزق من المعزّة على النفس كقوله تعالى { وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ} [الانسان:8]، مع رعي فواصل الآيات على حرف النون.

وفي الإتيان بـ (من) التي هي للتبعيض إيماء إلى كون الإنفاق المطلوب شرعا هو إنفاق بعض المال، لأنّ الشريعة لم تكلّف النّاس حرجا.

{ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ } [4].

طائفة ثانية على الطائفة الأولى المعنية بقوله تعالى { الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ } وهما معا قسمان للمتقين، فإنّه بعد أن أخبر أنّ القرآن هدى للمتقين، الذين آمنوا بعد الشرك، وهم العرب من أهل مكة وغيرهم ووصفهم بالذين يؤمنون بالغيب، لأنّهم لم يكونوا يؤمنون به حين كانوا مشركين، ذكر فريقا آخر من المتّقين وهم الذين آمنوا بما أنزل من الكتب الإلهية قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ثم آمنوا بمحمد، وهؤلاء هم مؤمنو أهل الكتاب، وهم يومئذ اليهود الذين كانوا كثيرين في المدينة وما حولها، في قريظة والنضير وخيبر، مثل عبد الله بن سلام، وبعض النصارى مثل صهيب الرومي ودحية الكلبي، وهم وإن شاركوا مسلمي العرب في الاهتداء بالقرآن والإيمان بالغيب وإقامة الصلاة فإنّ ذلك كان من صفاتهم قبل مجيء الإسلام فذكرت لهم خصلة أخرى زائدة على ما وصف به المسلمون الأولون.

{ أُنْزِلَ إِلَيْكَ } المقدار الذي تحقّق نزوله من القرآن قبل نزول هذه الآية، فإن الثناء على المهتدين إنما يكون بأنّهم حصل منهم إيمان بما نزل.

{ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ } عطف صفة ثانية، أي اعتقادهم بحياة ثانية بعد هذه الحياة، وإنّما خصّ هذا الوصف بالذكر، عند الثناء عليهم من بين بقية أوصافهم، لأنّه ملاك التقوى والخشية التي جُعلوا موصوفين بها، لأنّ هذه الأوصاف كلّها جارية على ما أجمله الوصف بالمتقين ،فإن اليقين بدار الثواب والعقاب هو الذي يوجب الحذر والفكرة فيما ينجي النفس من العقاب وينعمها بالثواب ،وذلك الذي ساقهم إلى الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم، ولأنّ هذا الإيقان بالآخرة من مزايا أهل الكتاب من العرب في عهد الجاهلية، فإن المشركين لا يوقنون بحياة ثانية، فهم دهريون.

الآخرة: في اصطلاح القرآن هي الحياة الآخرة، مراعاة لضدّه وهو الحياة الدنيا أي القريبة بمعنى الحاضرة، ولذلك يقال لها العاجلة. ثم صارت الآخرة علما بالغلبة على الحياة الحاصلة بعد الموت وهي الحاصلة بعد البعث لإجراء الجزاء على الأعمال .فالمعنى: أنّهم يؤمنون بالبعث والحياة بعد الموت.
اليقين: هو العلم بالشيء عن نظر واستدلال أو بعد شك سابق ولا يكون شك إلّا في أمر ذي نظر فيكون أخص من الإيمان ومن العلم. واحتج الراغب لذلك بقوله تعالى { لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ } [التكاثر:6] ولذلك لا يطلقون الإيقان على علم الله ولا على العلوم الضرورية.
وقيل هو العلم الذي لا يقبل الاحتمال وقد يطلق على الظنّ القويّ إطلاقا عرفيا حيث لا يخطر بالبال أنّه ظن، ويشتبه بالعلم الجازم فيكون مرادفا للإيمان والعلم. فالتعبير عن إيمانهم بالآخرة بمادة الإيقان لأنّ هاته المادة، تشعر بأنّه علم حاصل عن تأمّل وغوص الفكر في طريق الاستدلال.

{ أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [5].

{ أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ } اسم الإشارة متوجّه إلى { الْمُتَّقِينَ } الذين أجري عليهم من الصفات ما تقدّم، فكانوا فريقين .وأصل الإشارة أن تعود إلى ذات مشاهدة معيّنة إلّا أنّ العرب قد يخرجون بها عن الأصل فتعود إلى ذات مستحضرة من الكلام بعد أن يذكر من صفاتها وأحوالها. أي أنّ تلك الأوصاف هي سبب تمكّنهم من هدي ربهم إياهم .
وإنّما وصف الهدى بأنّه من ربّهم للتنويه بذلك الهدى وتشريفه مع الإشارة بأنّهم بمحل العناية من الله، وكذلك إضافة الربّ إليهم هي إضافة تعظيم لشأن المضاف إليه بالقرينة.
{ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } مرجع الإشارة الثانية عين مرجع الأولى، ووجه تكرير اسم الإشارة التنبيه على أن كلتا الأثرتين جديرة بالاعتناء والتنويه، فلا تذكر إحداهما تبعا للأخرى بل تخص بجملة وإشارة خاصة ليكون اشتهارهم بذلك اشتهارا بكلتا الجملتين وأنّهم ممن يقال فيه كلا القولين.
ووجه العطف بالواو دون الفصل أن بين الجملتين توسطا بين كمالي الاتصال والانقطاع لأنك إن نظرت إلى اختلاف مفهومهما وزمن حصولهما فإنّ مفهوم إحداهما وهو الهدى حاصل في الدنيا ومفهوم الأخرى، وهو الفلاح حاصل في الآخرة، كانتا منقطعتين .وإن نظرت إلى تسبب مفهوم إحداهما عن مفهوم الأخرى، وكون كل منهما مقصودا بالوصف كانتا متصلتين، فكان التعارض بين كمالي الاتصال والانقطاع منزلا إياهما منزلة المتوسطتين، كذا قرر شراح الكشاف.
{ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } الفلاح الفوز وصلاح الحال، فيكون في أحوال الدنيا وأحوال الآخرة، والمراد به في اصطلاح الدين الفوز بالنجاة من العذاب في الآخرة.

{ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ** } [6] .

هذا انتقال من الثناء على الكتاب ومتقلّديه إلى الكلام على الذين لا يحصل لهم الاهتداء بهذا الكتاب، وسجّل أنّ حرمانهم من الاهتداء بهديه إنّما كان من خبث أنفسهم، فما كانوا من الذين يفكّرون في عاقبة أمورهم ويحذرون من سوء العواقب، فلم يكونوا من المتّقين، وكان سواء عندهم الإنذار وعدمه .

{ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا** } هم فريق من المشركين الذين هم مأيوس من إيمانهم، فالإتيان في ذكرهم بالتعريف بالموصول إمّا أن يكون لتعريف العهد، مرادا منه قوم معهودون، كأبي جهل والوليد بن المغيرة وأضرابهم من رؤوس الشرك وزعماء العناد.

ومن المفسّرين من تأوّلهم على معنى الذين قضي عليهم بالكفر والشقاء وهو تأويل بعيد من اللفظ، ومن المفسّرين من حملهم على رؤساء اليهود مثل حيى بن أخطب وأبي رافع وهذا بعيد من عادة القرآن وإعراض عن السياق المقصود منه ذكر من حرم من هدى القرآن في مقابلة من حصل لهم الاهتداء به.

الكُفر: (بالضم) إخفاء النعمة، والكَفر (بالفتح) الستر مطلقا وهو مشتق من (**كَفَرَ**) إذا ستر. ولمّا كان إنكار الخالق أو إنكار كماله أو إنكار ما جاءت به رسله ضربا من كفران، أطلق عليه اسم الكفر.

وهو في الشرع إنكار ما دلّت عليه الأدلة القاطعة وتناقلته جميع الشرائع الصحيحة الماضية حتّى علمه البشر وتوجّهت عقولهم إلى البحث عنه ونصبت عليه الأدلة كوحدانية الله تعالى ووجوده ولذلك عُدَّ أهل الشرك فيما بين الفترة كفارا.

وإنكار ما عُلم بالضرورة كمجيء النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم به وما عُدّ في أصول الإسلام، أو المكابرة في الاعتراف بذلك ولو مع اعتقاد صدقه ولذلك عبر بالإنكار دون التكذيب.

ويلحق بالكفر، في إجراء أحكام الكفر عليه، كلّ قول أو فعل لا يجترئ عليه مؤمن مصدّق بحيث يدلّ على قلّة اكتراث فاعله بالإيمان، وعلى إضماره الطعن في الدين وتوسّله بذلك إلى نقض أصوله وإهانته بوجه لا يقبل التأويل الظاهر. وفي هذا النوع الأخير مجال لاجتهاد الفقهاء وفتاوى أساطين العلماء إثباتا ونفيا بحسب مبلغ دلالة القول والفعل على طعن أو شك.

ومن اعتبر الأعمال أو بعضها المعيّن في الإيمان اعتبر فقدها أو فقد بعضها المعين في الكفر.

{ **سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ** } خبر.

{ **سَوَاءٌ** } اسم بمعنى الاستواء فهو اسم مصدر، فالتقدير في الآية سواء عليهم إنذارك وعدمه.

{ **لا يُؤْمِنُونَ** } ليس محل الإخبار، إنّما المهم أن يخبر عنهم باستواء الإنذار وعدمه عندهم، فإن في ذلك نداء على مكابرتهم وغباوتهم، وعذرا للنبي صلى الله عليه وسلم في الحرص على إيمانهم، وتسجيلا بأن من لم يفتح سمعه وقلبه لتلقّي الحقّ والرشاد لا ينفع فيه حرص ولا ارتياد.

{ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [7].

هذه الجملة جارية مجرى التعليل للحكم السابق في قوله { سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُ } وبيان لسببه في الواقع، ليدفع بذلك تعجّب المتعجبين من استواء الإنذار وعدمه عندهم ومن عدم نفوذ الإيمان إلى نفوسهم مع وضوح دلائله، فإذا علم أنّ على قلوبهم ختما وعلى أسماعهم، وأنّ على أبصارهم غشاوة علم سبب ذلك كلّه وبطل العجب.

الختم: حقيقته السدّ على الإناء والغلق على الكتاب بطين ونحوه مع وضع علامة مرسومة في خاتم ليمنع ذلك من فتح المختوم، وقد اتّخذ النبيّ صلى الله عليه وسلم خاتما لذلك، وقد كانت العرب تختم على قوارير الخمر ليصلحها انحباس الهواء عنها وتسلم من الأقذار في مدة تعتيقها. والخاتَم(بفتح التاء) الطين الموضوع على المكان المختوم، وأطلق على القالب المنقوش فيه علامة أو كتابة يطبع بها على الطين الذي يختم به. وكان نقش خاتم النبيّ صلى الله عليه وسلم (**محمد رسول الله**).

{ **قُلُوبِهِمْ** } هنا الألباب والعقول، والعرب تطلق القلب على اللحمة الصنوبرية، وتطلقه على الإدراك والعقل، ومقرّه الدماغ لا محالة ولكن القلب هو الذي يمدّه بالقوة التي بها عمل الإدراك.

وأُسند ذلك الوصف إلى الله تعالى لأنّه المقدّر له على طريقة إسناد نظائره في غير ما آية من القرآن نحو قوله تعالى { أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ } [النحل:108] وقوله تعالى { وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا } [الكهف:28]، ونظائر ذلك كثيرة في القرآن.

ومحملها عندنا على التحقيق أنّها واردة على اعتبار أنّ كل واقع هو بقدر الله تعالى، وأنّ الله هدى ووفّق بعضا، وأضلّ وخذل بعضا في التقدير والتكوين، فلا ينافي ذلك ورود الآية ونظائرها في معنى النعي على الموصوفين بذلك والتشنيع بحالهم، لأنّ ذلك باعتبار ما لهم من الميل والاكتساب. فالله تعالى قدّر الشرور وأوجد في النّاس القدرة على فعلها ولكنّه نهاهم عنها لأنّه أوجد في النّاس القدرة على تركها أيضا. فلا تعارض بين القدر والتكليف، إذ كلّ راجع إلى جهة، خلاف ما توهّمته القدريّة فنفوا القدر وهو التقدير والعلم، وخلاف ما توهّمته المعتزلة من عدم تعلّق قدرة الله تعالى بأفعال المكلفين ولا هي مخلوقة له، وإنّما المخلوق له ذواتهم وآلات أفعالهم، ليتوسّلوا بذلك إلى إنكار صحة إسناد مثل هاته الأفعال إلى الله تعالى تنزيها له عن إيجاد الفساد. وتأويل ما ورد من ذلك على أنّ ذلك لم يغن عنهم شيئا لأنّهم قائلون بعلمه تعالى بأنهم سيفعلون وهو قادر على سلب القدر منهم فبتركه إياهم على تلك القدرة إمهال لهم على فعل القبيح وهو قبيح، فالتحقيق ما ذهب إليه الأشاعرة وغيرهم من أهل السنة أنّ الله هو مقدّر أفعال العباد، إلّا أن فعلها هو من العبد لا من الله ، وهو الذي أفصح عنه إمام الحرمين وأضرابه من المحقّقين .فكان مذهب الأشاعرة أسعد بالتحقيق وأجرى على طريق الجمع بين ما طفح به الكتاب والسنة من الأدلة .ولنا فيه تحقيق أعلى من هذا بسطناه في (رسالة القدرة والتقدّر) التي لما تظهر.

{ **وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيم** } العذاب، الألم. وقد قيل إنّ أصله الإعذاب مصدر أعذب إذا أزال العذوبة، لأنّ العذاب يزيل حلاوة العيش، أو هو اسم موضوع للألم بدون ملاحظة اشتقاق من العذوبة إذ ليس يلزم مصير الكلمة إلى نظيرتها في الحروف. والعذاب في الآية، إمّا عذاب النار في الآخرة، وإما عذاب القتل والمسبغة في الدنيا.

{ وَمِنَ النّاس مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ } [8].

هذا فريق آخر وهو فريق له ظاهر الإيمان وباطنه الكفر، وهو لا يعدوا أن يكون مبطنا الشرك أو مبطنا التمسّك باليهودية ويجمعه كلّه إظهار الإيمان كذبا.

{ **مِنَ النّاسِ** } مؤذن بأنّ المتحدث عنهم ستساق في شأنهم قصّة مذمومة وحالة شنيعة إذ لا يستر ذكرهم إلّا لأنّ حالهم من الشناعة بحيث يستحيي المتكلّم أن يصرح بموصوفها، وفي ذلك من تحقير شأن النفاق ومذمّته أمر كبير، فوردت في شأنهم ثلاث عشرة آية نعى عليهم فيها خبثهم، ومكرهم، وسوء عواقبهم، وسفّه أحلامهم، وجهالتهم، وأردف ذلك بشتم واستهزاء وتمثيل حالهم في أشنع الصور وهم أحرياء بذلك فإنّ الخطة التي تدرّجوا فيها تجمع مذام كثيرة، إذ النفاق يجمع:

الكذب: ظاهر، أشار إليه قوله تعالى { وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ }.

الجبن: لأنّه لولاه لما دعاه داع إلى مخالفة ما يبطن.

المكيدة: لإنّه يحمل على اتقاء الاطلاع عليه بكل ما يمكن، وقوله تعالى { يُخَادِعُونَ } أشار إلى المكيدة والجبن.

أفن الرأي: لأنّ ذلك دليل على ضعف في العقل، إذ لا داعي إلى ذلك، أشار إليه قوله تعالى { وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ }.

البله: للجهل بأنّ ذلك لا يطول الاغترار به، أشار إليه قوله تعالى { وَمَا يَشْعُرُونَ }.

سوء السلوك: لأنّ طبع النفاق إخفاء الصفات المذمومة، والصفات المذمومة إذا لم تظهر لا يمكن للمربّي ولا للصديق ولا لعموم النّاس تغييرها على صاحبها فتبقى كما هي وتزيد تمكّنا بطول الزمان حتّى تصير ملكة يتعذّر زوالها، أشار إليه قوله تعالى { فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ}.

الطمع: لأنّ غالب أحوال النفاق يكون للرغبة في حصول النفع.

إضاعة العمر: لأنّ العقل ينصرف إلى ترويج أحوال النفاق ونصب الحيل لإخفاء ذلك وفي ذلك ما يصرف الذهن عن الشغل بما يجدي، أشار إليه قوله تعالى { قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ }.

زوال الثق: لأنّ النّاس إن اطلعوا عليه ساء ظنّهم فلا يثقون بشيء يقع منه ولو حقّا، أشار إليه قوله تعالى { قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ }.

عداوة الأصحاب: لأنّه إذا عُلم أن ذلك خلق لصاحبه خشي غدره فحذره فأدى ذلك إلى عداوته.

اضمحلال الفضيلة: نتيجة ذلك كلّه، أشار إليه قوله تعالى { صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ }.
{ **فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ** } جمع كلّ ذلك، وقوله تعالى { **فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً** } أشار إلى دوام ذلك وتزايده مع الزمان.
وسيجيء تفصيل لهذا.
النّاس: اسم جمع إنسي (بكسر الهمزة وياء النسب) فهو عوض عن أناسي الذي هو الجمع بالقياس لإنس وقد عوضوا عن أناسي أُناس (بضم الهمزة وطرح ياء النسب).
والتعريف للجنس لأنّ ما علمت من استعماله في كلامهم يؤيد إرادة الجنس، ويجوز أن يكون التعريف للعهد والمعهود هم النّاس المتقدم ذكرهم في قوله { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا } [6]، أو النّاس الذين يعاهدهم النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمون في هذا الشأن.
{ **وَمِنَ النّاس مَنْ يَقُولُ** } قسم ثالث مقابل للقسمين المتقدمين للتمايز بين الجميع بأشهر الصفات، وإن كان بين البعض أو الجميع صفات متفقة في الجملة.
{ **يَقُولُ** } إيماء إلى أنّ ذلك غير مطابق للواقع، لأنّ الخبر المحكي عن الغير إذا لم يتعلّق الغرض بذكر نصه وحكي بلفظ { يَقُولُ } أومأ ذلك إلى أنّه غير مطابق لاعتقاده، أو أن المتكلّم يكذّبه في ذلك، ففيه تمهيد لقوله { وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ }.
{ **وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ** } في موضع الحال، أي يقولون هذا القول في حال أنّهم غير مؤمنين.
والآية أشارت إلى طائفة من الكفار وهم المنافقون الذين كان بعضهم من أهل يثرب وبعضهم من اليهود الذين أظهروا الإسلام، وبقيّتهم من الأعراب المجاورين لهم.
ورد في **حديث كعب بن مالك** أنّ المنافقين الذين تخلّفوا في غزوة تبوك **بضعة وثمانون**، وقد عرف من أسمائهم عبد الله بن أُبَي بن سلول، وهو رأس المنافقين، والجدّ بن قيس، ومعتب بن قشير، والجلاس بن سويد الذي نزل فيه { يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا } [التوبة:74]، وعبد الله بن سبأ اليهودي، ولبيد ابن الأعصم من بني زريق، حليف اليهود، كما في باب السحر من كتاب الطب من صحيح البخاري، والأخنس أبي بن شريق الثقفي كان يظهر الود والإيمان ،وسيأتي عند قوله تعالى { وَمِنَ النّاس مَنْ يُعْجِبُكَ } [204]، وزيد بن اللصيت القينقاعي ووديعة بن ثابت من بني عمرو بن عوف، ومخشن بن حمير الأشجعي اللذين كانا يثبطان المسلمين،من غزوة تبوك، وقد قيل: إن زيد بن اللصيت تاب وحسن حاله، وقيل: لا، وأمّا مخشن فتاب وعفا الله عنه وقتل شهيدا يوم اليمامة.
ومن المنافقات عصماء بنت مروان من بني أمية ابن زيد نافقت لمّا قتل أبو عفك وقالت شعرا تعرض بالنبيّ قتلها عمير بن عدي الخطمي وقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم" **لا ينتطح فيها عنزان** ".
ومن المنافقين بشير بن أبيرق كان منافقا يهجو أصحاب رسول الله وشهد أحدا، ومنهم ثعلبة بن حاطب وهو قد أسلم وعد من أهل بدر، ومنهم بشر المنافق كان من الأنصار، وهو الذي خاصم يهوديا فدعا

اليهودي بشرا إلى حكم النبيّ فامتنع بشر وطلب المحاكمة إلى كعب بن الأشرف، وهذا هو الذي قتله عمر وقصته في قوله تعالى { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ} [النساء:60] .

وعن ابن عباس أنّ المنافقين على عهد رسول الله كانوا **ثلاثمائة من الرجال ومائة وسبعين من النساء**.

فأمّا المنافقون من الأوس والخزرج فالذي سنّ لهم النفاق وجمعهم عليه هو عبد الله بن أبَي حسدا وحنقا على الإسلام لأنّه قد كان أهل يثرب بعد أن انقضت حروب بعاث بينهم وهلك جل ساداتهم فيها قد اصطلحوا على أن يجعلوه ملكا عليهم ويعصّبوه بالعصابة.

قال سعد بن عبادة للنبيّ صلى الله عليه وسلم في حديث البخاري: " اعف عنه يا رسول الله واصفح فوالله لقد أعطاك الله الذي أعطاك ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة أن يعصّبوه بالعصابة فلمّا ردّ الله ذلك بالحقّ الذي أعطاكه شرق بذلك ".

وأمّا اليهود فلأنّهم أهل مكر بكلّ دين يظهر، ولأنّهم خافوا زوال شوكتهم الحالية من جهات الحجاز.

وأمّا الأعراب فهم تبع لهؤلاء، ولذلك جاء { الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً } [التوبة:97]، لأنّهم يقلّدون عن غير بصيرة.

وكل من جاء بعدهم على مثل صفاتهم فهو لاحق بهم فيما نعى الله عليهم، وهذا معنى قول سلمان الفارسي في تفسير هذه الآية: " لم يجيء هؤلاء بعد"، قال ابن عطية: أي أنّهم لم ينقرضوا بل يجيئون من كل زمان، يعني أنّ سلمان لا ينكر ثبوت هذا الوصف لطائفة في زمن النبوّة ولكن لا يرى المقصد من الآية حصر المذمة فيهم.

{ **وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ** } والجملة الاسميّة تدلّ على الاهتمام بشأن الفاعل، أي: أنّ القائلين { آمَنَّا } لم يقع منهم إيمان، فالاهتمام بهم في الفعل المنفي تسجيل لكذبهم، وهذا من مواطن الفروق بين الفعلية والاسمية. ونفى الإيمان عنهم مع قولهم { آمَنَّا } **دليل صريح على أنّ مسمّى الإيمان التصديق.**

والإيمان في الشرع هو الاعتقاد الجازم بثبوت ما يعلم أنّه من الدين علما ضروريا بحيث يكون ثابتا بدليل قطعي عند جميع أئمة الدين، ويشتهر كونه من مقوّمات الاعتقاد الإسلامي اللازم لكل مسلم، اشتهارا بين الخاصة من علماء الدين والعامة من المسلمين بحيث لا نزاع فيه.

فقد نقل الإيمان في الشرع إلى تصديق خاص وقد أفصح عنه الحديث الصحيح عن عمر أنّ جبريل جاء فسأل النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقال: " **الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره** ".

وقد اختلفت علماء الأمة في ماهية الإيمان ما هو ومتفرق أقوالهم في ذلك إلى **خمسة أقوال**:

القول الأول: قول جمهور المحقّقين من علماء الأمّة، قالوا إنّ الإيمان **هو التصديق** واحتجّوا بعدة أدلة هي من أخبار الآحاد، ولكنّها كثيرة كثرة تُلحقها بالمستفيض، من ذلك حديث جبريل المتقدّم وحديث سعد أنّه قال: يا رسول الله مالك عن فلان فإنّي لأراه مؤمنا، فقال:" **أو مسلما** ".

قالوا وأمّا النطق والأعمال فهي من الإسلام لا من مفهوم الإيمان، لأنّ الإسلام الاستسلام والانقياد بالجسد دون القلب. ودليل التفرقة بينهما اللغة وحديث جبريل، وقوله تعالى { قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا} [الحجرات:14] ،ولما رواه مسلم عن طلحة بن عبيد الله: أنّه جاء رجل من نجد ثائر الرأس نسمع دوي صوته ولا نفقه ما يقول فإذا هو يسأل عن الإسلام، فبيّن له النبيّ صلى الله عليه وسلم أن الإسلام (شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا).

ونسب هذا القول إلى مالك بن أنس أخذا من قوله في (المدونة) من اغتسل وقد أجمع على الإسلام بقلبه أجزأه. ونسب هذا أيضا إلى الأشعري قال إمام الحرمين في الإرشاد وهو المرضي عندنا. وبه قال الزهري من التابعين.

القول الثاني: هو الاعتقاد بالقلب والنطق باللسان بالشهادتين للإقرار بذلك الاعتقاد ،ونقل هذا عن أبي حنيفة، ونسبه النووي إلى جمهور الفقهاء والمحدّثين والمتكلمين، ونسبه الفخر إلى الأشعري وبشر المريسي. ونسبه الخفاجي إلى محققي الأشاعرة واختاره ابن العربي، قال النووي : وبذلك يكون الإنسان من أهل القبلة.

قلت: ولا أحسب أنّ بين هذا والقول الأوّل فرقا وإنما نظر كل قائل إلى جانب، فالأوّل نظر إلى جانب المفهوم والثاني نظر إلى الاعتداد، ولم يعتنوا بضبط عباراتهم حتّى يرتفع الخلاف بينهم ، وإن كان قد وقع الخلاف بينهم في أنّ الاقتصار على الاعتقاد هل هو منج فيما بين المرء وبين ربه أو لابد من الإقرار، حكاه البيضاوي في التفسير ومال إلى الثاني.

ويؤخذ من كلامهم أنه لو ترك الإقرار لا عن مكابرة كان ناجيا مثل الأخرس والمغفل والمشتغل شغلا اتصل بموته. واحتجّوا بإطلاق الإيمان على الإسلام والعكس في مواضع من الكتاب والسنة، قال تعالى { فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ } [الذاريات:36]، وفي حديث وفد عبد القيس أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لهم: **" آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع، الإيمان بالله، أتدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة... "**.

وهذه أخبار آحاد، فالاستدلال بها في أصل من الدين إنّما هو مجرد تقريب، على أن معظمها لا يدل على إطلاق الإيمان على حالة ليس معها حالة إسلام.

القول الثالث: قول جمهور السلف من الصحابة والتابعين، أنّ الإيمان اعتقاد وقول وعمل، ذلك أنّهم لكمال حالهم ومجيئهم في فاتحة انبثاق أنوار الدين لم يكونوا يفرضون في الإيمان أحوالا تقصّر في الامتثال، ونسب ذلك إلى مالك وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة والأوزاعي وابن جريج والنخمي والحسن وعطاء وطاووس ومجاهد وابن المبارك والبخاري، ونسب لابن مسعود وحذيفة، وبه قال ابن حزم من الظاهرية ،وتمسّك به أهل الحديث لأخذهم بظاهر ألفاظ الأحاديث.

وبذلك أثبتوا الزيادة والنقص في الإيمان بزيادة الأعمال ونقصها لقوله { لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ } [الفتح:4]. وجاء في الحديث: **" الإيمان بضع وسبعون شعبة"**، فدلّ ذلك على قبوله للتفاضل. وعلى ذلك حُمل قوله صلى الله عليه وسلم: **" لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن "**، أي ليس متّصفا حينئذ بكمال الإيمان.

ونقل عن مالك أنّه يزيد ولا ينقص، فقيل: إنّما أمسك مالك عن القول بنقصانه خشية أنّ يُظّن به موافقة الخوارج الذين يكفّرون بالذنوب. قال ابن بطال: وهذا لا يخالف قول مالك بأنّ الإيمان هو التصديق وهو لا يزيد ولا ينقص، لأنّ التصديق أوّل منازل الإيمان ويوجب للمصدق الدخول فيه ولا يوجب له استكمال منازله، وإنّما أراد هؤلاء الأئمة الردّ على المرجئة في قولهم إنّ الإيمان قول بلا عمل.

القول الرابع: قول **الخوارج والمعتزلة** إن الإيمان **اعتقاد ونطق وعمل**، كما جاء في القول الثالث، إلّا أنّهم أرادوا من قولهم حقيقة ظاهره من تركيب الإيمان من مجموع الثلاثة بحيث إذا اختل واحد منها بطل الإيمان، فالأعمال جزء من الإيمان، وأرادوا من الأعمال فعل الواجبات وترك المحرّمات ولو صغائر، إذ جميع الذنوب عندهم كبائر. وأمّا غير ذلك من الأعمال كالمندوبات والمستحبّات فلا يوجب تركها خلودا، إذ لا يقول مسلم إن ترك السنن والمندوبات يوجب الكفر، وكذلك فعل المكروهات.

وقالت الإباضية من الخوارج إنّ تارك بعض الواجبات كافر لكن كفره كفر نعمة لا شرك.

والمعتزلة وافقوا الخوارج في أنّ للأعمال حظا من الإيمان إلّا أنّهم خالفوهم في مقاديرها ومذاهبهم في هذا الموضع غير منضبطة، فقال قدماؤهم وهو المشهور عنهم إنّ العاصي مخلّد في النّار لكنّه لا يوصف بالكفر ولا بالإيمان، ووصفوه بالفسق وجعلوا استحقاق الخلود لارتكاب الكبيرة خاصة، وكذلك نسب إليهم ابن حزم في كتاب الفصل، وقال **واصل بن عطاء** الغزال إن مرتكب الكبيرة في **منزلة بين المنزلتين** أي لا يوصف بإيمان ولا بكفر، ففارق بذلك قول الخوارج وقول المرجئة ووافقه عمرو بن عبيد على ذلك. وهذه هي المسألة التي بسببها قال الحسن البصري لواصل وعمرو بن عبيد اعتزل مجلسنا .

القول الخامس: قالت الكرَّامية الإيمان هو الإقرار باللسان إذا لم يخالف الاعتقادُ القول، فلا يشترط في مسمّى الإيمان شيء من المعرفة والتصديق، فأمّا إذا كان يعتقد خلاف مقاله بطل إيمانه ،وهذا يرجع إلى الاعتداد بإيمان من نطق بالشهادتين وإن لم يشغل عقله باعتقاد مدلولهما بل يكتفي منه بأنّه لا يضمر خلاف مدلولهما .

وأنا أقو: كلمة أربأ بها عن الانحياز إلى نصرةٍ، وهي أن اختلاف المسلمين في أوّل خطوات مسيرهم وأوّل موقف من مواقف أنظارهم، وقد مضت عليه الأيام بعد الأيام وتعاقبت الأقوام بعد الأقوام يعدُّ نقصا علميّا لا ينبغي البقاء عليه، ولا أعرفني بعد هذا اليوم ملتفتا إليه .لا جرم أنّ الشريعة أوّل ما

طلبت من النّاس الإيمان والإسلام ليخرجوا بذلك من عقائد الشرك ومناوأة هذا الدين فإذا حصل ذلك تهيأت النفوس لقبول الخيرات وأفاضت الشريعة عليها من تلك النيّرات فكانت في تلقي ذلك على حسب استعدادها، زينة لمعاشها في هذا العالم ومعادها. فالإيمان والإسلام هما الأصلان اللذان تنبعث عنهما الخيرات، وهما الحدّ الفاصل بين أهل الشقاء وأهل الخير، حدا لا يقبل تفاوتا ولا تشكّكا، لأنّ شأن الحدود أن تكون متفاوتة كما قال الله تعالى { فَمَاذَا بَعْدَ الحقّ إِلَّا الضَّلالُ } [يونس:32]، ولا يدّعي أحد أن مفهوم الإيمان هو مفهوم الإسلام، فيكابر لغة تتلى عليه. كيف وقد فسّره الرسول لذلك الجالس عند ركبتيه.

إن موجب اضطراب الأقوال في التمييز بين حقيقة الإيمان وحقيقة الإسلام أمران:

أحدهما: أنّ الرسالة المحمدية دعت إلى الاعتقاد بوجود الله ووحدانيته وبصدق محمد صلى الله عليه وسلم والإيمان بالغيب ودعت إلى النطق بما يدلّ على حصول هذا الاعتقاد في نفس المؤمن، لأنّ الاعتقاد لا يعرف إلّا بواسطة النطق ولم يقتنع الرسول من أحد بما يحصل الظنّ بأنّه حصل له هذا الاعتقاد إلّا بأن يعترف بذلك بنطقه إذا كان قادرا.

الثاني: أنّ المؤمنين الذين استجابوا دعوة الرسول لم تكن ظواهرهم مخالفة لعقائدهم، إذ لم يكن منهم مسلم يبطن الكفر، فكان حصول معنى الإيمان لهم مقارنا لحصول معنى الإسلام وصدق عليهم أنّهم مؤمنون ومسلمون، ثم لمّا نبع النفاق بعد الهجرة طرأ الاحتياج إلى التفرقة بين حال الذين اتصفوا بالإيمان والإسلام وبين حال الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، تفرقة بالتحذير والتنبيه لا بالتعيين وتمييز الموصوف، لذا كانت ألفاظ القرآن وكلام النبيّ تجري في الغالب على مراعاة غالب أحوال المسلمين الجامعين بين المعنيين وربما جرت على مراعاة الأحوال النادرة عند الحاجة إلى التنبيه عليها كما في قوله تعالى { قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ } [الحجرات:14]، وكما في قول النبيّ لمن قال له : " مالك عن فلان فوالله إني لأراه مؤمنا قال: **" أو مسلما "**.

فحاصل معنى الإيمان حصول الاعتقاد بما يجب اعتقاده، وحاصل معنى الإسلام إظهار المرء أنّه أسلم نفسه لاتباع الدين ودعوة الرسول { إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ } [الأحزاب:35]. وهل يخامركم شك في أن الشريعة ما طلبت من النّاس الإيمان والإسلام لمجرد تعمير العالم الأخروي، من جنّة ونار، لأنّ الله تعالى قادر على أن يخلق لهذين الموضعين خلقا يعمرونهما، ولكن الله أراد تعمير العالمين الدنيوي والأخروي، وجعل الدنيا مصقلة النفوس البشريّة تهيئها للتأهّل إلى تعمير العالم الأخروي لتلتحق بالملائكة، فجعل الله الشرائع لكفّ النّاس عن سيء الأفعال التي تصدر عنهم بدواعي شهواتهم المفسدة لفطرتهم، وأراد الله حفظ نظام هذا العالم أيضا ليبقى صالحا للوفاء بمراد الله إلى أمد أراده، فشرع للنّاس شرعا ودعا النّاس إلى اتباعه والدخول إلى حظيرته ذلك الدخول المسمّى بالإيمان وبالإسلام، ثم يستتبع ذلك إظهار تمكين أنفسهم من قبول ما يرسم لهم من السلوك عن طيب نفس.

وهذه الغاية هي التي تتفاوت فيها المراتب إلّا أن تفاوت أهلها فيها لا يُنقص الأصل الذي به دخلوا، فإنّ الآتي بالبعض من الخير قد أتى بما كان أحسن من حاله قبل الإيمان، والآتي بمعظم الخير قد فاق الذي دونه، والآتي بالجميع بقدر الطاقة هو الفائز، بحيث إنّ الشريعة لا تعدم منفعة تحصل من أفراد هؤلاء الذين تسمّوا بالمؤمنين والمسلمين، ومن تلك المراتب حماية الحوزة والدفاع عن البيضة.

فالأعمال إذن لها المرتبة الثانية بعد الإيمان والإسلام لأنّها مكمّلة المقصد لا ينازع في هذين، أعني كونها في الدرجة الثانية وكونها مقصودة، إلّا مكابر.

وممّا يؤيد هذا أكمل تأييد، ما ورد في الصحاح في حديث معاذ بن جبل أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان بعثه إلى اليمن فقال له: **" إنك ستأتي قوما من أهل الكتاب فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله** [أي ينطقوا بذلك نطقا مطابقا لاعتقادهم] **فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ".** فلولا أنّ للإيمان وللإسلام الحظّ الأوّل لما قدّمه، ولولا أنّ الأعمال لا دخل لها في مسمّى الإسلام لما فرق بينهما.

وممّا لا شبهة فيه أن استحقاق الثواب والعقاب على قدر الأعمال القلبية والجوارحيّة، فالأمر الذي لا يحصل شيء من المطلوب دونه لا ينجي من العذاب إلّا جميعه، فوجب أن يكون من لم يؤمن ولم يسلم مخلدا في النّار، لأنّه لا يحصل منه شيء من المقصود بدون الإيمان والإسلام، وأمّا الأمور التي يقرب فاعلها من الغاية بمقدار ما يخطو في طرقها فثوابها على قدر ارتكابها والعقوبة على قدر تركها، ولا ينبغي أن ينازع في هذا غير مكابر، إذ كيف يستوي عند الله العليم الحكيم رجلان أحدهما لم يؤمن ولم يسلم والآخر آمن وأسلم وامتثل وانتهى، إلّا أنه اتبع الأمّارة بالسوء في خصلة أو زلة فيحكم بأن كلا الرجلين في عذاب وخلود!

وهل تبقى فائدة لكل مرتكب معصية في البقاء على الإسلام إذا كان الذي فرّ من أجله للإسلام حاصلا على كلّ تقدير وهو الخلود في النار حتّى إذا أراد أن يتوب آمن يومئذ.

ثم على العالم المتشبّع بالاطلاع على مقاصد الشريعة وتصاريفها أن يفرّق بين مقامات خطابها، فإنّ منها مقام موعظة وترغيب وترهيب وتبشير وتحذير، ومنها مقام تعليم وتحقيق، فيردّ كلّ وارد من نصوص الشريعة إلى مورده. فلا ينبغي لمنتسب أن يجازف بقولة سخيفة ناشئة عن قلّة تأمل وإحاطة بموارد الشريعة وإغضاء عن غرضها ويؤول إلى تكفير جمهور المسلمين وانتقاض الجامعة الإسلامية، بل إنّما ينظر إلى موارد الشريعة نظرة محيطة حتّى لا يكون ممن غابت عنه أشياء وحضره شيء.

أمّا مسألة العفو عن العصاة فهي مسألة تتعلّق بغرضنا وليست منه، والأشاعرة قد توسّعوا فيها وغيرهم ضيّقها، وأمرها موكول إلى علم الله، إلّا أنّ الذي بلغنا من الشرع هو اعتبار الوعد والوعيد وإلّا لكان الزواجر كضرب في بارد الحديد.

{ **يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ** } [9].

{ **يُخَادِعُونَ** } بدل اشتمال من جملة { يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ }، لأنّ قولهم ذلك يشتمل على المخادعة.

الخداع: مصدر خادع الدال على معنى مفاعلة الخدع، والخدع هو فعل أو قول، معه ما يوهم أن فاعله يريد بمدلوله نفع غيره وهو إنّما يريد خلاف ذلك. وفي الحديث **" المؤمن غر كريم "** أي: من صفاته الصفح والتغاضي حتّى يظنّ أنّه غرّ، ولذلك عقّبه بكريم لدفع الغِرْيَة المؤذنة بالبله، فإن الإيمان يزيد الفطنة.

{ **يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا** } صدور الخداع من جانبهم للمؤمنين ظاهر، وأمّا مخادعتهم الله تعالى فمقتضية أنّ المنافقين قصدوا التمويه على الله تعالى، مع أنّ ذلك لا يقصده عاقل يعلم أنّ الله مطّلع على الضمائر . وصيغة المفاعلة تقتضي التأويل، وهي على وجوه:

*/ أنّ مفعول خادع لا يلزم أن يكون مقصودا للمخادِع (بالكسر) إذ قد يقصد خداع أحد فيصادف غيره كما يخادع أحد وكيل أحد في مال فيقال له أنت تخادع فلانا وفلانا تعني الوكيل وموكّله، فهم قصدوا خداع المؤمنين لأنّهم يكذّبون أن يكون الإسلام من عند الله، فلمّا كانت مخادعتهم المؤمنين لأجل الدين كان خداعهم راجعا لشارع ذلك الدين. وأمّا تأويل معنى خداع الله تعالى والمؤمنين إيّاهم فهو إغضاء المؤمنين عن بوادرهم وفلتات ألسنهم وكبوات أفعالهم وهفواتهم الدال جميعها على نفاقهم، حتّى لم يزالوا يعاملونهم معاملة المؤمنين، فإنّ ذلك لمّا كان من المؤمنين بإذن الرسول صلى الله عليه وسلم، حتّى لقد نهى من استأذنه في أن يقتل أبَي بن سلول، كان ذلك الصنيع بإذن الله، فكان مرجعه إلى الله .

*/ أن يكون خادع بمعنى خدع أي غير مقصود به حصول الفعل من الجانبين. وهذا يرجع إلى جعل صيغة المفاعلة مستعارة لمعنى المبالغة بتشبيه الفعل القويّ بالفعل الحاصل من فاعلين على وجه التبعية.

{ **وَمَا يَشْعُرُونَ** } عطف على جملة { وَمَا يُخادَعُونَ} والشعور يطلق على العلم بالأشياء الخفيّة. فهو وصف بعدم الفطنة لا بعدم الإحساس وهو أبلغ في الذم.

{ **فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ** } [10] .

استئناف محض لعدِّ مساويهم، ويجوز أن يكون بيانيّا لجواب سؤال متعجب. فإنّ من يسمع أن طائفة تخادع الله تعالى وتخادع قوما عديدين وتطمع أن خداعها يتمشى عليهم ثم لا تشعر بأنّ ضرر الخداع لاحق بها لطائفة جديرة بأن يُتعجب من أمرها المتعجِّبُ، ويتساءل كيف خطر هذا بخواطرها.

{ **فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ** } بياناوهو أن في قلوبهم خللا تزايد إلى أن بلغ حد الأفن.

المرض: حقيقة في عارض للمزاج يُخرجه عن الاعتدال الخاص بنوع ذلك الجسم خروجا غير تام وبمقدار الخروج يشتدّ الألم، فإن تمّ الخروج فهو الموت. وهو مجاز في الأعراض النفسانيّة العارضة للأخلاق البشرية عروضا يخرجها عن كمالها.

{ **فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً** } أنّ تلك الأخلاق الذميمية الناشئة عن النفاق والملازمة له كانت تتزايد فيهم بتزايد الأيام، لأنّ من شأن الأخلاق إذا تمكنت أن تتزايد بتزايد الأيام حتّى تصير ملكات، ولذلك قيل من لم يتحلّم في الصغر لا يتحلّم في الكبر.

وإنّما كان النفاق موجبا لازدياد ما يقارنه من سيء الأخلاق لأنّه يستر الأخلاق الذميمة فتكون محجوبة عن الناصحين والمربّين والمرشدين وبذلك تتأصّل وتتوالد إلى غير حدّ، فالنفاق في كتمه مساوئ الأخلاق بمنزلة كتم المريض داءه عن الطبيب.

الأمراض الأخلاقية الناشئة عن النفاق

اعلم أنّ هذه طباع تنشأ عن النفاق أو تقارنه من حيث هو، ولا سيما النفاق في الدين، فقد نبّهنا الله تعالى لمذام ذلك تعليما وتربية، فإنّ النفاق يعتمد على ثلاث خصال ؛ وهي **الكذب القولي**، و**الكذب الفعلي** وهو الخداع، ويقارن ذلك **الخوف**، لأنّ الكذب والخداع إنّما يصدران ممن يتوقّى إظهار حقيقة أمره وذلك لا يكون إلّا لخوف ضرّ أو لخوف إخفاق سعي، وكلاهما مؤذن بقلة الشجاعة والثبات والثقة بالنفس وبحسن السلوك. ثم إنّ كل خصلة من هاته الخصال الثلاث الذميمة توكد هنوات أخرى:

فالكذب ينشأ عن شيء من البله، لأنّ الكاذب يعتقد أنّ كذبه يتمشى عند النّاس وهذا من قلة الذكاء، لأنّ النبيه يعلم أنّ في النّاس مثله وخيرا منه.

ثمّ البله يؤدي إلى الجهل بالحقائق وبمراتب العقول، ولأن الكذب يعوّد فكر صاحبه بالحقائق المحرفة وتشتبه عليه مع طول الاسترسال في ذلك حتّى إنّه ربما اعتقد ما اختلقه واقعا، وينشأ عن الأمرين السفه وهو خلل في الرأي وأفن في العقل، وقد أصبح علماء الأخلاق والطب يعدّون الكذب من أمراض الدماغ.

وأمّا نشأة العجب والغرور والكفر وفساد الرأي عن الغباوة والجهل والسفه فظاهرة، وكذلك نشأة العزلة والجبن والتستّر عن الخوف.

وأمّا نشأة عداوة النّاس عن الخداع فلأنّ عداوة الأضداد تبدأ من شعورهم بخداعه، وتعقُبها عداوة الأصحاب لأنّهم إذا رأوا تفنن ذلك الصاحب في النفاق والخداع داخلهم الشك أن يكون إخلاصه الذي يظهره لهم هو من المخادعة، فإذا حصلت عداوة الفريقين تصدّى النّاس كلّهم للتوقي منه والنكاية به، وتصدّى هو للمكر بهم والفساد ليصل إلى مرامه، فرمته النّاس عن قوس واحدة واجتني من ذلك أن يصير هزأة للنّاس أجمعين.

{ **فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً** } وإنما أسندت زيادة مرض قلوبهم إلى الله تعالى مع أنّ زيادة هاته الأمراض القلبية من ذاتها لأنّ الله تعالى لمّا خلق هذا التولّد وأسبابه وكان أمرا خفيّا نبه النّاس على خطر الاسترسال في النوايا الخبيثة والأعمال المنكرة، وأنّه من شأنه أن يزيد تلك النوايا تمكّنا من القلب فيعسر أو يتعذّر الإقلاع عنها بعد تمكّنها. وأسندت تلك الزيادة إلى اسمه تعالى لأنّ الله تعالى غضب عليهم فأهملهم وشأنهم ولم يتداركهم بلطفه الذي يوقظهم من غفلاتهم، لينبّه المسلمين إلى خطر أمرها وأنّها ممّا يعسر إقلاع أصحابها عنها، ليكون حذرهم من معاملتهم أشد ما يمكن.

والجملة خبرية معطوفة على قوله { فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ } واقعة موقع الاستئناف للبيان، داخلة في دفع التعجّب، أي أن سبب توغلهم في الفساد ومحاولتهم ما لا ينال، لأنّ في قلوبهم مرضا، ولأنّه مرض يتزايد مع الأيام تزايدا مجعولا من الله فلا طمع في زواله.

{ **وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ** } معطوف على قوله { فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً } إكمالا للفائدة فكمّل بهذا العطف بيان ما جرّه النفاق إليهم من فساد الحال في الدنيا والعذاب في الآخرة.

الأليم: فعيل بمعنى مفعول وأصله عذاب مؤلم بصيغة اسم المفعول أي مؤلم من يعذَّب به، لأنّ المؤلم هو المعذب دون العذاب، أو هو فعيل بمعنى فاعل من ألم بمعنى صار ذا ألم، أي موجع.

{ **بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ** } الباء للسببية وقرأ الجمهور{ **يُكذِّبون** } (بضم أوله وتشديد الذال). وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وخلف(بفتح أوله وتخفيف الذال)، أي بسبب تكذيبهم الرسول. والكذب ضد الصدق.

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ } [11].

{ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ** } عطف على جملة في قلوبهم مرض، وهو إخبار عن بعض عجيب أحوالهم، ومن تلك الأحوال أنّهم قالوا إنّما نحن مصلحون في حين أنّهم مفسدون.

{ **وَإِذَا** } هنا لمجرّد الظرفيّة وليست متضمّنة معنى الشرط، كما أنّها هنا للماضي وليست للمستقبل.

ومن نكت القرآن المغفول عنها تقييد هذا الفعل بالظرف، فإنّ الذي يتبادر إلى الذهن أنّ محل المذمّة هو أنّهم يقولون { إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ } مع كونهم مفسدين، ولكن عند التأمّل يظهر أنّ هذا القول يكون قائلوه أجدر بالمذمّة حين يقولونه في جواب من يقول لهم { لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ }، فإنّ هذا الجواب الصادر من المفسدين لا ينشأ إلّا عن مرض القلب وأفن الرأي. وعندي أن هذا هو المقتضي لتقديم الظرف على جملة { قَالُوا...} ، لأنّه أهم إذ هو محل التعجيب من حالهم، ونكت الإعجاز لا تتناهى.

{ **لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ** } القائل بعض من وقف على حالهم من المؤمنين الذين لهم اطلاع على شؤونهم لقرابة أو صحبة، فيخلصون لهم النصيحة والموعظة رجاء إيمانهم ويسترون عليهم خشية عليهم من العقوبة، وعلما بأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم يغضي عن زلاتهم كما أشار إليه ابن عطية.

الإفساد: فعل ما به الفساد، والهمزة فيه للجعل، أي جعل الأشياء فاسدة في الأرض. والفساد أصله استحالة منفعة الشيء النافع إلى مضرّة به أو بغيره، وقد يطلق على وجود الشيء مشتملا على مضرّة، وإن لم يكن فيه نفع من قبل، يقال فسد الشيء بعد أن كان صالحا ويقال فاسد إذا وُجد فاسدا من أول وهلة، وكذلك يقال أفسد إذا عمد إلى شيء صالح فأزال صلاحه، ويقال أفسد إذا أوجد فسادا من أول الأمر.

مراتب الفساد

الأولى: إفسادهم أنفسهم بالإصرار على تلك الأدواء القلبية التي أشرنا إليها فيما مضى وما يترتّب عليها من المذام ويتولّد من المفاسد.

الثانية: إفسادهم النّاس ببثّ تلك الصفات والدعوة إليها، وإفسادهم أبناءهم وعيالهم في اقتدائهم بهم في مساويهم، كما قال نوح عليه السلام { إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً} [نوح:27].

الثالثة: إفسادهم بالأفعال التي ينشأ عنها فساد المجتمع، كإلقاء النميمة والعداوة وتسعير الفتن وتأليب الأحزاب على المسلمين وإحداث العقبات في طريق المصلحين.

{ **فِي الْأَرْضِ** } هذه الكرة الأرضية بما تحتوي عليه من الأشياء القابلة للإفساد من النّاس والحيوان والنبات وسائر الأنظمة والنواميس التي وضعها الله تعالى لها، ونظيره قوله تعالى { وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ } [البقرة:205].

{ **إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ** } في جوابهم ما يفيد أن الذين قالوا لهم { لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ } كانوا جازمين بأنّهم مفسدونّ لأن ذلك مقتضى حرف (إنما) كما سيأتي، ويدلّ لذلك عندي بناء فعل(قيل) للمجهول بحسب ما يأتي في قوله تعالى { وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا }.

والقائل أثبت لهم وصف الفساد إمّا باعتقاد أنّهم ليسوا من الصلاح في شيء أو باعتقاد أنّهم قد خلطوا عملا صالحا وفاسدا.

{ **أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ** } [12] .

ردّ عليهم في غرورهم وحصرهم أنفسهم في الصلاح، فردّ عليهم بطريق من طرق القصر هو أبلغ فيه من الطريق افلذي قالوه. وحرف (ألا) للتنبيه إعلانا لوصفهم بالإفساد.

وقد أكد قصر الفساد عليهم بضمير الفصل (هم) كما أكّد به القصر في قوله { وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }.

ودخول (إنّ) على الجملة وقرنها بـ (ألا) المفيدة للتنبيه، من الاهتمام بالخبر وتقويته، دلالة على سخط الله تعالى عليهم.

{ **وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ** } مَحْمَلُهُ مَحْمَلُ قوله تعالى قبله { وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} [9]، فإنّ أفعالهم التي يبتهجون بها ويزعمونها منتهى الحذق والفطنة وخدمة المصلحة الخالصة آيلة إلى فساد عام

لا محالة، إلّا أنّهم لم يهتدوا إلى ذلك لخفائه وللغشاوة التي ألقيت على قلوبهم من أثر النفاق ومخالطة عظماء أهله.

{ **وَلَكِنْ** } حرف الاستدراك هنا لأن الكلام دفع لما أثبتوه لأنفسهم من الخلوص للإصلاح، فرفع ذلك التوهم بحرف الاستدراك.

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النّاس قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ } [13].

{ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النّاس قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ** } هو من تمام المقول قبله، ويجوز هنا أن يكون القائل أيضا طائفة من المنافقين يشيرون عليهم بالإقلاع عن النفاق لأنهم ضجروه وسئموا كلفه ومتَّقياته.

{ **آمِنُوا** } حذف المفعول استغناء عنه بالتشبيه في قوله { كَمَا آمَنَ النّاسُ} أو لأنّه معلوم للسامعين.

{ **كَمَا آمَنَ النّاس** } الكاف فيه للتشبيه أو للتعليل، واللام في النّاس للجنس أو للاستغراق العرفي.

والمراد بالنّاس من عدا المخاطبين.

{ **أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ** } استفهام للإنكار، قصدوا منه التبرؤ من الإيمان على أبلغ وجه، وجعلوا الإيمان المتبرأ منه شبيها بإيمان السفهاء، تشنيعا له وتعريضا بالمسلمين، بأنّهم حملهم على الإيمان سفاهة عقولهم.

السفاهة: خفّة العقل وقلة ضبطه للأمور، قال السموأل

نخافُ أن تسفه أحلامُنا ... فنخملُ الدهر مع الخامل

والعرب تطلق السفاهة على أفن الرأي وضعفه، وتطلقها على سوء التدبير للمال. قال تعالى { وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ } [النساء:5]، وقال { فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الحقّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً } [البقرة:282]، لأنّ ذلك إنّما يجيء من ضعف الرأي. ووصفهم المؤمنين بالسفاهة بهتان لزعمهم أن مخالفتهم لا تكون إلّا لخفة في عقولهم، وليس ذلك لتحقيرهم، كيف وفي المسلمين سادة العرب من المهاجرين والأنصار.

وهذه شنشنة أهل الفساد والسفه أن يرموا المصلحين بالمذمّات بهتانا ووقاحة ليلهوهم عن تتبع مفاسدهم ، ولذلك قال أبو الطيب

وإذا أتتك مذمتي من ناقص ... فهي الشهادة لي بأني كامل

{ **أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ**}

أتى بما يقابل جفاء طبعهم انتصارا للمؤمنين، ولأنّه مقام بيان الحقّ من الباطل فتحسن فيه الصراحة والصرامة كما تقرّر في آداب الخطابة، وأعلن ذلك بكلمة (**ألا**) المؤذنة بالتنبيه للخبر، وجاء بصيغة

القصر على نحو ما قرّر في { أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ } ليدلّ على أنّ السفاهة مقصورة عليهم دون المؤمنين، فهو إضافي لا محالة.

{ **وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ** } نفى عنهم العلم بكونهم سفهاء بكلمة { يَعْلَمُونَ } دون (يشعرون) خلافا للآيتين السابقتين، لأنّ اتصافهم بالسفه ليس ممّا شأنه الخفاء حتّى يكون العلم به شعورا ويكون الجهل به نفي شعور، بل هو وصف ظاهر لا يخفى.

{ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ } [14].

المقصود هنا وصف ما كانوا يعملون مع المؤمنين وإيهامهم أنّهم منهم ولقائهم بوجوه الصادقين، فإذا فارقوهم وخلصوا إلى قومهم وقادتهم خلعوا ثوب التستر وصرّحوا بما يبطنون .

الشياطين: جمع شيطان جمع تكسير وحقيقة الشيطان أنّه نوع من المخلوقات المجرّدة، طبيعتها الحرارة النارية وهم من جنس الجنّ قال تعالى في إبليس { كَانَ مِنَ الْجِنِّ } [الكهف:50]، وقد اشتهر ذكره في كلام الأنبياء والحكماء. ويطلق الشيطان على المفسد ومثير الشرّ، تقول العرب فلان من الشياطين، ومن شياطين العرب، وذلك استعارة. وأطلق هنا على قادة المنافقين في النفاق، قال تعالى { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ } [الأنعام:112].

وعندي أنّه اسم جامد شابه في حروفه مادة مشتقة، ودخل في العربية من لغة سابقة لأن هذا الاسم من الأسماء المتعلّقة بالعقائد والأديان، وقد كان لعرب العراق فيها السبق قبل انتقالهم إلى الحجاز واليمن، ويدلّ لذلك تقارب الألفاظ الدالة على هذا المعنى في أكثر اللغات القديمة .

{ **وَإِذَا خَلَوْا** } معنى انفردوا، ليشير إلى أنّ الخلوة كانت في مواضع هي مآبهم ومرجعهم، وأنّ لقاءهم للمؤمنين إنّما هو صدفة ولمحات قليلة، أفاد ذلك كله قوله { لَقُوالا} و{ خَلَوْا }. وهذا من بديع فصاحة الكلمات وصراحتها.

{ **إِنَّا مَعَكُمْ** } لمّا بدا من إبداعهم في النفاق عند لقاء المسلمين ما يوجب شك كبرائهم في البقاء على الكفر وتطرقُ به التهمةُ أبواب قلوبهم احتاجوا إلى تأكيد ما يدل على أنهم باقون على دينهم .

{ **إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ** } تقرير لقوله { إِنَّا مَعَكُمْ }.

الاستهزا: السخرية، يقال هزأ به واستهزأ به، فالسين والتاء للتأكيد.

{ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } [15].

{ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ } جملة مستأنفة استئنافا بيانيّا جوابا لسؤال مقدّر، ولأجل اعتبار الاستئناف قدّم اسم الله تعالى على الخبر الفعلي، ولم يقل (يستهزئ الله بهم)، وفي ذلك تنويه بشأن المنتصر لهم وهم المؤمنون كما قال تعالى { إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا } [الحج:38].

كان المنافقون يغرّهم ما يرون من صفح النبيّ صلى الله عليه وسلم عنهم وإعراض المؤمنين عن التنازل لهم فيحسبون رواج حيلتهم ونفاقهم.

وفعل { يَسْتَهْزِئُ } المسند إلى الله ليس مستعملا في حقيقته لأنّ المراد هنا أنّه يفعل بهم في الدنيا ما يسمّى بالاستهزاء، وذلك بالإملاء لهم حتّى يظنّوا أنّهم سلموا من المؤاخذة على استهزائهم فيظنوا أنّ الله راض عنهم أو أنّ أصنامهم نفعوهم، حتّى إذا نزل بهم عذاب الدنيا من القتل والفضح علموا خلاف ما توهّموا فكان ذلك كهيئة الاستهزاء بهم. والمضارع في قوله تعالى { يَسْتَهْزِئُ } لزمن الحال .

ولا يحمل على اتصاف الله بالاستهزاء حقيقة عند الأشاعرة، لأنّه لم يقع من الله معنى الاستهزاء في الدنيا، ويحسّن هذا التمثيل ما فيه من المشاكلة، لأنّ الاستهزاء لا يليق إسناده إلى الله حقيقة لأنه فعل قبيح ينزّه الله تعالى عنه.

وجيء في حكاية كلامهم بالمسند الإسمّي في قولهم { إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ} لإفادة كلامهم معنى دوام صدور الاستهزاء منهم وثباته بحيث لا يحولون عنه، وجيء في قوله { اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ } بإفادة التجدّد من الفعل المضارع، أي تجدّد إملاء الله لهم زمانا إلى أن يأخذهم العذاب، ليعلم المسلمون أنّ ما عليه أهل النفاق من النعمة إنّما هو إملاء وإن طال، كما قال تعالى { لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ } [آل عمران:196].

{ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} يتعيّن أنه معطوف على قوله تعالى { اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ }.

يمدّ: فعل مشتقّ من (المدد) وهو الزيادة، يقال مدّه إذا زاده .

الطغيان: مصدر بوزن الغفران والشكران، وهو مبالغة في الطغي وهو الإفراط في الشرّ والكبر.

وإنّما أضاف الطغيان لضمير المنافقين ولم يقل في الطغيان، إشارة إلى تفظيع شأن هذا الطغيان وغرابته في بابه وإنّهم اختصّوا به حتّى صار يعرف بإضافته إليهم.

العمه: انطماس البصيرة وتحيّر الرأي، وفعله: عَمِه فهو عامِه وأعْمَه .فإسناد ازدياده إلى الله لأنه خالق النظم التي هي أسباب ازدياده، وهذا يعدّ من الحقيقة العقلية الشائعة.

{ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ } [16] .

{أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى} الإشارة إلى من يقول { آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ} وما عطف على صلته من صفاتهم. وموقع هذه الجملة من نظم الكلام مقابل موقع جملة { أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ } ومقابل موقع جملة { خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ }.

الاشتراء: افتعال من الشري وفعله شرى الذي هو بمعنى باع. وإطلاق الاشتراء هنا مجاز مرسل بعلاقة اللزوم، أي حرصوا على الضلالة، وزهدوا في الهدى ،إذ ليس في ما وقع من المنافقين استبدال شيء بشيء، إذ لم يكونوا من قبل مهتدين.

{ الَّذِينَ اشْتَرَوُا } الموصول باعتبار أنّهم بلغوا الغاية في اشتراء الضلالة والحرص عليها، إذ جمعوا الكفر والسفه والخداع والإفساد والاستهزاء بالمهتدين.

{ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ} رتّبت الفاء عدم الربح المعطوف بها وعدم الاهتداء المعطوف عليه، لأنّهم لمّا اشتروا الضلالة بالهدى فقد اشتروا ما لا ينفع وبذلوا ما ينفع فلا جرم أن يكونوا خاسرين وأنّ يتحقّق أنّهم لم يكونوا مهتدين. ومعنى نفي الاهتداء كناية عن إضاعة القصد، أي أنّهم أضاعوا ما سعوا له ولم يعرفوا ما يوصل لخير الآخر ولا ما يضرّ المسلمين.

{ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ } [17]

{ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً} أعقبت تفاصيل صفاتهم بتصوير مجموعها في صورة واحدة، بتشبيه حالهم بهيئة محسوسة، وهذه طريقة تشبيه التمثيل، والتمثيل منزع جليل بديع من منازع البلغاء لا يبلغ إلى محاسنه غير خاصتهم. وهو هنا من قبيل التشبيه لا من الاستعارة، لأنّ فيه ذكر المشبّه والمشبّه به وأداة التشبيه وهي لفظ مثل.

{ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً } مفردا مراد به مشبه واحد، لأنّ مستوقد النّار واحد ولا معنى لاجتماع جماعة على استيقاد نار ولا يريبك كون الحالة المشبه حالة جماعة المنافقين، كأنّ تشبيه الهيئة بالهيئة إنّما يتعلّق بتصوير الهيئة المشبهة بها، لا بكونها على وزن الهيئة المشبهة، فإن المراد تشبيه حال المنافقين في ظهور أثر الإيمان ونوره مع تعقّبه بالضلالة ودوامه، بحال من استوقد نارا.

واستوقد بمعنى أوقد، فالسين والتاء فيه للتأكيد.

{ فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ } مفرَّع على{ اسْتَوْقَدَ} و(لمّا) حرف وجود لوجود، أي حرف يدلّ على وجود الجواب لوجود شرطها، أي أن يكون جوابها كالمعلول لوجود شرطها.

أضاء: يجيء متعدّيا وهو الأصل، لأنّ مجرّده(ضاء) فتكون حينئذ همزته للتعدية، والآية تحتملهما.

{ **حَوْلَهُ** } ظرف للمكان القريب ولا يلزم أن يراد به الإحاطة فحوله هنا بمعنى: **لديه**.

{ **بِنُورِهِمْ** } جمع الضمير مع كونه بلصق الضمير المفرد في قوله { مَا حَوْلَهُ } مراعاة للحال المشبّهة، وهي حال المنافقين لا للحال المشبّه بها، وهي حال المستوقد الواحد، على وجه بديع في الرجوع إلى الغرض الأصلي وهو انطماس نور الإيمان منهم، فهو عائد إلى المنافقين.

ولذلك اختير هنا لفظ (النور) عوضا عن النار المبتدأ به، للتنبيه على الانتقال من التمثيل إلى الحقيقة ليدلّ على أنّ الله أذهب نور الإيمان من قلوب المنافقين. وهو أسلوب لا عهد للعرب بمثله فهو من أساليب الإعجاز.

{ **وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ** } هذه الجملة تتضمّن تقريرا لمضمون { ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ } لأنّ من ذهب نوره بقى في ظلمة لا يبصر، والقصد منه زيادة إيضاح الحالة التي صاروا إليها.

{ **ظُلُمَاتٍ** } الجمع لقصد بيان شدّة الظلمة ، كقوله تعالى { قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ } [الأنعام:63]، وقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" الظلم ظلمات يوم القيامة "**. فإنّ الكثرة لمّا كانت في العرف سبب القوة أطلقوها على مطلق القوة.

وهذا التمثيل تمثيل لحال المنافقين في تردّدهم بين مظاهر الإيمان وبواطن الكفر فوجه الشبه هو ظهور أمر نافع ثم انعدامه قبل الانتفاع به، فإنّ في إظهارهم الإسلام مع المؤمنين صورة من حسن الإيمان وبشاشته، لأنّ للإسلام نورا وبركة، ثم لا يلبثون أن يرجعوا عند خلوّهم بشياطينهم فيزول عنهم ذلك ويرجعوا في ظلمة الكفر أشدّ مما كانوا، عليه لأنّهم كانوا في كفر فصاروا في كفر وكذب وما يتفرّع عن النفاق من المذام. فإن الذي يستوقد النار في الظلام يتطلب رؤية الأشياء فإذا انطفأت النّار صار أشد حيرة منه في أوّل الأمر، لأنّ ضوء النّار قد عوّد بصره فيظهر أثر الظلمة في المرّة الثانية أقوى.

{ **لا يُبْصِرُونَ** } نكتة البيان لتصوير حال من انطفأ نوره بعد أن استضاء به.

{ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ } [18].

جمع أصم وأعمى وأبكم، وهم من اتصف بالصمم والبكم والعمى.

{ **فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ** } تفريع، لأنّ من اعتراه هذه الصفات انعدم منه الفهم والإفهام وتعذّر طمع رجوعه إلى رشد أو صواب.

{ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ } [19].

{ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ } عطف على التمثيل السابق في قوله تعالى { كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً }، أعيد تشبيه حالهم بتمثيل آخر وبمراعاة أوصاف أخرى، فهو تمثيل لحال المنافقين المختلطة بين جواذب ودوافع، حين يجاذب نفوسهم جاذب الخير عند سماع مواعظ القرآن وإرشاده، وجاذب الشرّ والسخرية بالمسلمين، بحال صيّب من السماء اختلطت فيه غيوث وأنوار ومزعجات وأكدار. وهو تفنّن في التشبيه.

الصيّب: فيعل من صاب يصوب صوبا إذا نزل بشدة. وهو مستعار للقرآن وهدى الإسلام وتشبيهه بالغيث وارد. وفي الحديث الصحيح: **" مثل ما بعثني الله به من الهدى كمثل الغيث أصاب أرضا فكان منها نقيّة..."**. وفي القرآن { كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ } [الحديد:20]. ولا تجد حالة صالحة لتمثيل هيئة اختلاط نفع وضرّ مثل حالة المطر والسحاب، وهو من بديع التمثيل القرآن.

السماء: تطلق على الجو المرتفع فوقنا الذي نخاله قبة زرقاء، وعلى الهواء المرتفع، قال تعالى { كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ } [إبراهيم:24]، وتطلق على السحاب، وتطلق على المطر نفسه ففي الحديث : **" خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إثر سماء"**.

الظلمات: مستعار لما يعتري الكافرين من الوحشة عند سماعه، كما تعتري السائر في الليل وحشة الغيم لأنّه يحجب عنه ضوء النجوم والقمر.

الرعد: مستعار لقوارع القرآن وزواجره.

البرق: مستعار لظهور أنوار هديه من خلال الزواجر.

فظهر أن هذا المركب التمثيلي صالح لاعتبارات تفريق التشبيه وهو أعلى التمثيل.

{ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ }

الجعل والأصابع مستعملان في حقيقتهما على قول بعض المفسّرين، لأنّ الجعل هو هنا بمعنى النوط، والظرفية لا تقتضي الإحاطة، فجعل بعض الإصبع في الأذن هو جعل للإصبع، وقيل ذلك مجاز في الأصابع، وقيل مجاز في الجعل.

{ مِنَ الصَّوَاعِقِ } للتعليل أي لأجل الصواعق، إذ الصواعق هي علّة الجعل.

الصواعق: جمع صاعقة وهي نار تندفع من كهربائية الأسحبة.

{ حَذَرَ الْمَوْتِ } مفعول لأجله وهو هنا علّة وغاية معا.

الإحاطة: استعارة للقدرة الكاملة، شبهت القدرة التي لا يفوتها المقدور.

{ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [20].

الخطف: الأخذ بسرعة

{ **كُلَّمَا** } كلمة تفيد عموم مدخولها.

{ **أَضَاءَ** } المفعول محذوف لدلالة { مَشَوْا } عليه، أي أضاء لهم البرق الطريق.

{ **وَإِذَا أَظْلَمَ** } أي وإذا أظلم عليهم البرق الطريق بأن أمسك وميضه، فإسناد الإظلام إلى البرق مجاز لأنّه تسبّب في الإظلام.

{ **قَامُوا** } القيام هنا عدم المشي، أي الوقوف في الموضع.

{ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ** } المقصود أنّ الرعد والبرق بلغا منتهى قوّة جنسيهما بحيث لا يمنع قصيف الرعد من إتلاف أسماع سامعيه ولا يمنع وميض البرق من إتلاف أبصار ناظريه إلّا مشيئة الله، استدراجا لهم وإملاء ليزدادوا إثما، أو تلوّما لهم وإعذارا، لعلّ منهم من يثوب إلى الهدى.

{ **إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } تذييل، وفيه ترشيح للتوجيه المقصود للتهديد، زيادة في تذكيرهم، وإبلاغا لهم، وقطعا لمعذرتهم في الدنيا والآخرة.

{ يَا أَيُّهَا النّاس اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [21].

لما استوفى أحوالا للمؤمنين وأضدادهم من المشركين والمنافقين لا جرم تهيّأ المقام لخطاب عمومهم بما ينفعهم، إرشادا لهم ورحمة بهم، لأنّه لا يرضى لهم الضلال، ولم يكن ما ذُكر آنفا من سوء صنعهم حائلا دون إعادة إرشادهم والإقبال عليهم بالخطاب، ففيه تأنيس لأنفسهم بعد أن هدّدهم ولامهم وذم صنعهم ليعلموا أنّ الإغلاظ عليهم ليس إلّا حرصا على صلاحهم، وأنّه غنيّ عنهم، كما يفعله المربّي الناصح حين يزجر أو يوبّخ فيرى انكسار نفس مربَّاه فيجبر خاطره بكلمة ليّنة ليريه أنّه إنّما أساء إليه استصلاحا وحبّا لخيره.

فإن نظرت إلى صورة الخطاب فهو إنّما واجه به ناسا سامعين، فعمومه لمن لم يحضر وقت سماع هذه الآية ولمن سيوجد من بعد. وهذا هو تحقيق المسألة التي يفرضها الأصوليون ويعبرون عنها **بخطاب المشافهة والمواجهة** هل يعم أم لا؟

قال الجمهور: إنّ شمول الحكم لمن يأتي بعدهم هو ممّا تواتر من عموم البعثة، وأنّ أحكامها شاملة للخلق في جميع العصور، كما أشار إليه البيضاوي. فقرينة عدم قصد الحاضرين ثابتة واضحة، غاية ما في الباب أن **تعلّقه بالحاضرين تعلّق أصلي إلزامي وتعلقه بالذين يأتون من بعد تعلق معنوي إعلامي**، على نحو ما تقرر في تعلّق الأمر في علم أصول الفقه فنفرض مثله في توجّه الخطاب.

العبادة: في الأصل التذلّل والخضوع. وليس في هذه الآية حجّة للقول بخطاب الكفّار بفروع الشريعة، لأنّ الأمر بالعبادة بالنسبة إليهم إنّما يعنى به الإيمان والتوحيد وتصديق الرّسول، وخطابهم بذلك متّفق عليه، وهي مسألة سمجة.

{ **اعْبُدُوا رَبَّكُمُ** } دعوة صريحة إلى توحيد الله، ولذلك فقوله { **الَّذِي خَلَقَكُمْ** } زيادة بيان لموجب العبادة، أو زيادة بيان لما اقتضته الإضافة من تضمّن معنى الاختصاص بأحقية العبادة.

{ **الَّذِي خَلَقَكُمْ** } أطلق الخلق في القرآن وكلام الشريعة على إيجاد الأشياء المعدومة، فهو إخراج الأشياء من العدم إلى الوجود إخراجا لا صنعة فيه للبشر، فإنّ إيجاد البشر، بصنعتهم، أشياء إنّما هو تصويرها بتركيب متفرق أجزائها وتقدير مقادير مطلوبة منها.

{ **وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ** } يفيد تذكير الدهريين من المخاطبين الذين يزعمون أنّهم إنّما خلقهم آباؤهم، فقالوا { نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ } [الجاثية:24] ،فكان القول تذكيرا لهم بأنّ آباؤهم الأولين لا بد أن ينتهوا إلى أب أوّل، وهو مخلوق لله تعالى.

{ **لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** } تعليل للأمر(اعبدوا) فلذلك فصلت، أي أمرتكم بعبادته لرجاء منكم أن تتقوا.

(لعلّ) حرف يدلّ على الرجاء. ولمّا كانت التقوى نتيجة العبادة جعل رجاؤها أثرا للأمر بالعبادة.

فالمعنى اعبدوا ربكم رجاء أن تتّقوا فتصبحوا كاملين متّقين، فإنّ التقوى هي الغاية من العبادة، فرجاء حصولها عند الأمر بالعبادة وعند عبادة العابد أو عند إرادة الخلق والتكوين واضح الفائدة.

{ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [22].

{ **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً** } صفة ثانية للربّ، والمقصود الإيماء إلى سبب آخر لاستحقاقه العبادة وإفراده بها، فإنّه لمّا أوجب عبادته لأنّه خالق النّاس كلّهم أتبع ذلك بصفة أخرى تقتضي عبادتهم إيّاه وحده، وهي نعمه المستمرّة عليهم، مع ما فيها من دلائل عظيم قدرته، فإنّه مكّن لهم سبل العيش، وأوّلها المكان الصالح للاستقرار عليه بدون لغوب، فجعله كالفراش لهم، ومن إحاطة هذا القرار بالهواء النافع لحياتهم، والذي هو غذاء الروح الحيواني، وذلك ما أشير إليه بقوله { وَالسَّمَاءَ بِنَاءً }، وبكون تلك الكرة الهوائية واقية النّاس من إضرار طبقات فوقها متناهية في العلو، من زمهرير أو عناصر غريبة قاتلة خانقة، فالكرة الهوائية جعلت فوق هذا العالم، فهي كالبناء له ونفعها كنفع البناء، فشبّهت به على طريقة التشبيه البليغ ، وبأن أخرج لهم ما فيه إقامة أود حياتهم باجتماع ماء السماء مع قوة الأرض وهو الثمار.

{ **فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ** } أتت الفاء لترتيب هاته الجملة على الكلام السابق، والمراد أنّ الذي أمركم بعبادته هو المستحقّ للإفراد بها، فهو أخصّ من مطلق ضدّ العبادة، لأنّ ضدّ العبادة عدم العبادة .لأنّ الإشراك ما هو إلّا ترك لعبادة الله في أوقات تعظيم شركائهم.

النِدّ: (بكسر النون) المساوي والمماثل، والمعنى: لا تثبتوا لله أندادا ،تجعلونها جعلا وهي ليست كذلك، وسمّاها أندادا تعريضا بزعمهم، لأنّ حال العرب في عبادتهم لها كحال من يسوّي بين الله وبينها، وإن كان أهل الجاهلية يقولون إنّ الآلهة شفعاء، ويقولون ما نعبدهم إلّا ليقربونا إلى الله، وجعلوا الله خالق الآلهة ،فقالوا في التلبية : (لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك) ، لكنّهم لمّا عبدوها ونسوا، بعبادتها والسعي إليها والنذور عندها وإقامة المواسم حولها، عبادة الله، أصبح عملهم عمل من يعتقد التسوية بينها وبين الله تعالى، لأنّ العبرة بالفعل لا بالقول.

{ **وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ** } وأنتم ذو علم. وقد جعلت هاته الحال محط النهي والنفي، تمليحا في الكلام للجمع بين التوبيخ وإثارة الهمّة، فإنّه أثبت لهم علما ورجاحة الرأي ليثير همتهم ويلفت بصائرهم إلى دلائل الوحدانية، ونهاهم عن اتخاذ الآلهة أو نفي ذلك، مع تلبسهم به، وجعله لا يجتمع مع العلم، توبيخا لهم على ما أهملوا من مواهب عقولهم وأضاعوا من سلامة مداركهم .

وقد أومأ القول إلى أنّهم يعلمون أنّ الله لا ندّ له ولكنّهم تعاموا وتناسوا فقالوا: إلّا شريكا هو لك.

{ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [23] .

جاء القرآن على فصاحة وبلاغة ما عهدوا مثلهما من فحول بلغائهم، وهم فيهم متوافرون متكاثرون، حتّى لقد سجد بعضهم لبلاغته، واعترف بعضهم بأنّه ليس بكلام بشر. وقد اشتمل من المعاني على ما لم يطرقه شعراؤهم وخطباؤهم وحكماؤهم، بل وعلى ما لم يبلغ إلى بعضه علماء الأمم. ولم يزل العلم في طول الزمان يظهر خبايا القرآن ويبرهن على صدق كونه من عند الله. فهذه الصفات كافية لهم في إدراك ذلك ،وهم أهل العقول الراجحة والفطنة الواضحة التي دلت عليها أشعارهم وأخبارهم ومناظرتهم، والتي شهد لهم بها الأمم في كل زمان.

السورة: قطعة من القرآن معيّنة عن غيرها من أمثالها بمبدأ ونهاية، تشتمل على ثلاث آيات فأكثر في غرض تام أو عدّة أغراض. وجعل لفظ سورة اسما جنسيا لأجزاء من القرآن اصطلاح جاء به القرآن . وهي مشتقة من السور، وهو الجدار الذي يحيط بالقرية أو الحظيرة.

وإنّما كان التحدّي بسورة ولم يكن بمقدار سورة من آيات القرآن لأنّ من جملة وجوه الإعجاز أمورا لا تظهر خصائصها إلّا بالنظر إلى كلام مستوفى في غرض من الأغراض، وإنما تنزل سور القرآن في أغراض مقصودة فلا غنى عن مراعاة الخصوصيات المناسبة لفواتح الكلام وخواتمه بحسب الغرض، واستيفاء الغرض المسوق له الكلام، وصحة التقسيم، ونكت الإجمال والتفصيل، وأحكام الانتقال من فنّ إلى آخر من فنون الغرض، ومناسبات الاستطراد والاعتراض والخروج والرجوع، وفصل الجمل

ووصلها، والإيجاز والإطناب، ونحو ذلك مما يرجع إلى نكت مجموع نظم الكلام، وتلك لا تظهر مطابقتها جليّة إلّا إذا تمّ الكلام واستوفى الغرض حقه.

{ **بِسُورَةٍ** } التنكير للإفراد أو النوعية، أي بسورة واحدة من نوع السور، وذلك صادق بأقل سورة ترجمت باسم يخصّها، وأقل السور عدد آيات سورة الكوثر. وقد كان المشركون بالمدينة تبعا للمشركين بمكّة، وكان نزول هذه السورة في أوّل العهد بالهجرة إلى المدينة فكان المشركون كلّهم ألبا على النبيّ صلى الله عليه وسلم يتداولون الإغراء بتكذيبه وصد النّاس عن اتباعه، فأعيد لهم التحدّي بإعجاز القرآن الذي كان قد سبق تحديهم به في سورة يونس وسورة هود وسورة الإسراء.

وعندي أنّ الاحتمالات التي احتملها قوله { **مِنْ مِثْلِهِ** } كلّها مرادة لردّ دعاوي المكذبين في اختلاف دعاويهم، فإنّ منهم من قال القرآن كلام بشر، ومنهم من قال هو مكتتب من أساطير الأولين، ومنهم من قال إنّما يعلمه بشر.

وهاته الوجوه في معنى الآية تفنّد جميع الدعاوي فإن كان كلام بشر فأتوا بمماثلة أو بمثله، وإن كان من أساطير الأولين فأتوا أنتم بجزء من هذه الأساطير، وإن كان يعلّمه فأتوا أنتم من عنده بسورة، فما هو ببخيل عنكم إن سألتموه. وكلّ هذا إرخاء لعنان المعارضة وتسجيل للإعجاز عند عدمها.

فالتحدّي على صدق القرآن هو مجموع مماثلة القرآن في ألفاظه وتراكيبه، ومماثلة الرّسول المنزّل عليه في أنّه أمّيّ لم يسبق له تعليم، ولا يعلم الكتب السالفة.

{ **وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ** } معطوف على { فَأْتُوا بِسُورَةٍ }، أي ائتوا بها وادعوا شهداءكم .

الشهداء: جمع شهيد فعيل بمعنى فاعل من شهد إذا حضر، وأصله الحاضر، وأطلق على النصير على طريقة الكناية، فإنّ الشاهد يؤيّد قول المشهود فينصره على معارضه.

وعلى هذا التفسير يجيء قول الفقهاء إن شهادة أهل المعرفة بإثبات العيوب أو بالسلامة لا تشترط فيها العدالة، وكنتَ أعلّل ذلك في دروس الفقه بأنّ المقصود من العدالة تحقق الوازع عن شهادة الزور، وقد قام الوازع العلمي في شهادة أهل المعرفة مقام الوازع الديني، لأنّ العارف حريص ما استطاع أن لا يؤثر عنه الغلط والخطأ، وكفى بذلك وازعا عن تعمده، وكفى بعلمه مظنّة لإصابة ،الصواب فحصل المقصود من الشهادة.

{ **إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } اعتراض في آخر الكلام وتذييل.

الصدق: ضدّ الكذب وهما وصفان للخبر، فالصدق أن يكون مدلول الكلام الخبري مطابقا ومماثلا للواقع في الخارج، أي في الوجود الخارجي، احترازا عن الوجود الذهني. والكذب ضد الصدق وهو أن يكون مدلول الكلام الخبري غير مطابق، أي غير مماثل للواقع في الخارج .

وفي هذه الآية إثارة لحماسهم إذ عرّض بعدم صدقهم، فتتوفّر دواعيهم على المعارضة.

{ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النّاس وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ } [24].

تفريع على الشرط وجوابه، أي: فإن لم تأتوا بسورة فاعلموا أنّكم اجترأتم على الله بتكذيب رسوله المؤيَّد بمعجزة القرآن، فاتقوا عقابه المعدَّ لأمثالكم.

وجيء بإن الشرطية التي الأصل فيها عدم القطع مع أنّ عدم فعلهم هو الأرجح بقرينة مقام التحدي والتعجيز، لأنّ القصد إظهار الملاينة والتحريض، كأن المتحدي يتدبر في شأنهم، ويزن أمرهم فيقول أوّلا: ائتوا بسورة، ثم يقول: قدّروا أنّكم لا تستطيعون الإتيان بمثله وأعدّوا لهاته الحالة مخلصا منها، ثمّ يقول: ها قد أيقنت وأيقنتم أنّكم لا تستطيعون الإتيان بمثله.

مع ما في هذا من توفير دواعيهم على المعارضة بطريق المخاشنة والتحذير.

{ **فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا** } فأيقنوا بأن ما جاء به محمد منزّل من عندنا وأنّه صادق فيما أمركم به من وجوب عبادة الله وحده واحذروا إن لم تمتثلوا أمره عذاب النار.

{ **وَلَنْ تَفْعَلُوا** } من أكبر معجزات القرآن، فإنها معجزة من جهتين:

الأولى: أنّها أثبتت أنّهم لم يعارضوا، لأنّ ذلك أبعث لهم على المعارضة لو كانوا قادرين.

الثانية: أخبر بأنّهم لا يأتون بذلك في المستقبل، فما أتى أحد منهم ولا ممّن خلفهم بما يعارض القرآن.

فكانت هاته الآية معجزة من نوع **الإعجاز بالإخبار عن الغيب** مستمرّة على تعاقب السنين.

{ **فَاتَّقُوا النَّارَ** } في موقع الجواب لدلالته عليه وإيذانه به، وهو إيجاز بديع وذلك أنّ اتقاء النّار لم يكن ممّا يؤمنون به من قبل لتكذيبهم بالبعث فإذا تبين صدق الرسول لزمهم الإيمان بالبعث والجزاء .

الوَقود: (بفتح الواو) اسم لما يوقد به.

النّاس: أريد به صنف منهم وهم **الكافرون**، فتعريفه تعريف الاستغراق العرفي.

الحجارة: جمع حجر على غير قياس وهو وزن نادر في كلامهم. ومعنى **وقودها الحجارة**: أنّ الحجر جُعل لها مكان الحطب، لأنّه إذا اشتعل صار أشدّ إحراقا وأبطأ انطفاء.

{ **أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ** } استئناف لم يعطف لقصد التنبيه على أنّه مقصود بالخبرية.

{ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [25]

{**وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ**} في الكشّاف: " من عادته عزّ وجلّ في كتابه أن يذكر الترغيب مع الترهيب، ويشفع البشارة بالإنذار، إرادة التنشيط

لاكتساب ما يزلف، والتثبيط عن اقتراف ما يتلف، فلمّا ذكر الكفّار وأعمالهم وأوعدهم بالعقاب قفّاه ببشارة عباده الذين جمعوا بين التصديق والأعمال الصالحة ".

وجعل السيد الجرجاني لهذا النوع من العطف لقب (عطف القصة على القصة)، لأنّ المعطوف ليس جملة على جملة بل طائفة من الجمل على طائفة أخرى .

التبشير: الإخبار بالأمر المحبوب فهو أخصّ من الخبر.

الصالحات: جمع صالحة وهي الفعلة الحسنة، فأصلها صفة جرت مجرى الأسماء.

الجنّات: جمع جنّة، والجنّة في الأصل فعلة من جنّه إذا ستره، نقلوه للمكان الذي تكاثرت أشجاره والتف بعضها ببعض حتّى كثر ظلّها، وذلك من وسائل التنعم والترفه عند البشر قاطبة لا سيما في بلد تغلب عليه الحرارة كبلاد العرب قال تعالى { وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً } [النبأ:16].

الجري: حقيقته سرعة شديدة في المشي، ويطلق مجازا على سيل الماء سيلا متكرّرا متعاقبا. وأحسن الماء ما كان جاريا غير قار، لأنّه يكون بذلك جديدا.

{ **مِنْ تَحْتِهَا** } اسم لجهة المكان الأسفل وهو ضد الأعلى. ولكلّ مكان علو وسفل ولا يقتضي ذلك ارتفاع ما أضيف إليه التحت على التحت بل غاية مدلوله أنّه بجهة سفلة، قال تعالى حكاية عن فرعون { وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي } [الزخرف:51]، فلا حاجة إلى تأويل الجنّة هنا بالأشجار لتصحيح التحت.

الأنهار: جمع نهَر (بفتح الهاء وسكونها والفتح أفصح)، والنهر الأخدود الجاري فيه الماء على الأرض وهو مشتقّ من مادة (نهر) الدالة على الانشقاق والاتساع ويكون كبيرا وصغيرا .

{ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }.

{ **كُلَّمَا رُزِقُوا** } يجوز أن تكون صفة ثانية لـ { جَنَّاتٍ }. ويجوز أن تكون خبرا عن مبتدأ محذوف وهو ضمير { الَّذِينَ آمَنُوا } فتكون جملة ابتدائية الغرض منها بيان شأن آخر من شؤون الذين آمنوا.

{ **وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً** } وهذا إمّا أن يكون حكاية لصفة ثمار الجنّة، وليس فيه قصد امتنان خاص، فيكون المعنى: أنّ ثمار الجنّة متّحدة الصورة مختلفة الطعوم .ويحتمل أن في ذلك تعجيبا لهم، والشيء العجيب لذيذ الوقع عند النفوس ولذلك يرغب النّاس في مشاهدة العجائب والنوادر. وهذا الاحتمال هو الأظهر من السياق.

{ **وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ** } ثمّ منّ الله عليهم بنعمة التأنّس بالأزواج، ونزّه النساء عن عوارض نساء الدنيا، فجمع لهم سبحانه اللذّات على نحو ما ألفوه، فكانت نعمة على نعمة.

الأزواج: جمع زوج، يقال للذكر والأنثى لأنّه جعل الآخر بعد أن كان منفردا زوجا، وقد يقال للأنثى زوجة بالتاء.

{ **وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** } احتراس من توهّم الانقطاع بما تعوّدوا من انقطاع اللذات في الدنيا، لأنّ جميع اللذات في الدنيا معرّضة للزوال وذلك ينغّصها.

{ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحقّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ } [26]

{ **إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا** } اشتملت الآيات السابقة على تحدّي البلغاء بأن يأتوا بسورة مثل القرآن، فلمّا عجزوا عن معارضة النظم سلكوا في المعارضة طريقة الطعن في المعاني فلبّسوا على النّاس بأنّ في القرآن من سخيف المعنى ما ينزّه عنه كلام الله، ليصلوا بذلك إلى إبطال أن يكون القرآن من عند الله، بإلقاء الشكّ في نفوس المؤمنين وبذر الخصيب في تنفير المشركين والمنافقين.

روى الواحدي في أسباب النزول عن ابن عباس أنّ الله تعالى لما أنزل قوله { إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ }[الحج:73]، وقوله { مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا } [العنكبوت:41] قال المشركون: أرأيتم أيّ شيء يصنع بهذا، فأنزل الله { إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا}.

وروى عن الحسن وقتادة أنّ الله لمّا ذكر الذباب والعنكبوت في كتابه وضرب بها المثل ضحك اليهود وقالوا ما يشبه أن يكون هذا كلام الله، فأنزل الله { إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي }.

يحتمل أنّ ذلك قاله علماء اليهود الذين لا حظّ لهم في البلاغة، أو قد قالوه مع علمهم بفنون ضرب الأمثال، مكابرة وتجاهلا. وإمّا أن يكون قائله المشركون من أهل مكة مع علمهم بوقوع مثله في كلام بلغائهم كقولهم: (أجرأ من ذبابة، وأسمع من قراد، وأطيش من فراشة، وأضعف من بعوضة). وهذا الاحتمال أدلّ، على أنّهم ما قالوا: ما هذا التمثيل، إلّا مكابرة ومعاندة، فإنّهم لمّا غلبوا بالتحدّي وعجزوا عن الإتيان بسورة من مثله تعلقوا في معاذيرهم بهاته السفاسف.

{ **إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي** } قد يكون ذكر الاستحياء هنا محاكاة لقولهم: أما يستحيي ربّ محمد أن يضرب مثلا بالذباب والعنكبوت.

الاستحياء والحياء واحد، فالسين والتاء فيه للمبالغة، مثل استقدم. هو انقباض النفس من صدور فعل أو تلقّيه لاستشعار أنّه لا يليق، أو لا يحسن في متعارف أمثاله، فهو هيئة تعرض للنفس هي من قبيل الانفعال يظهر أثرها على الوجه وفي الإمساك عن ما من شأنه أن يفعل.

{ **أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً** } مستعمل مجازا في الوضع والجعل، من قولهم: ضرب خيمة وضرب بيتا.

{ **بَعُوضَةً** } بدل أو بيان من قوله { مَثَلاً }، واحدة البعوض، وقد جُعلت هنا مثلا لشدّة الضعف والحقارة.
{ **فَمَا فَوْقَهَا** } أي ما هو أشدّ من البعوضة في الحقارة وما هو أكبر حجما. ونظيره قول النبيّ صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه مسلم : " **ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلّا كُتبت له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة** ".

{ **فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحقّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً** }
ولمّا كان في النّاس مؤمنون وكافرون وكلا الفريقين تلقى ذلك المثل واختلفت حالهم في الانتفاع به، نشأ في الكلام إجمال مقدّر اقتضى تفصيل حالهم. وإنّما عطف بالفاء لأنّ التفصيل حاصل عقب الإجمال.
والمقصود من ذكر المؤمنين هنا الثناء عليهم بثبات إيمانهم، وتاييس الذين أرادوا إلقاء الشكّ عليهم، فيعلمون أنّ قلوبهم لا مدخل فيها لذلك الشك.

{ **مِنْ رَبِّهِمْ** } حال من الحقّ و(من) ابتدائية، أي وارد من الله، لا كما زعم الذين كفروا أنّه مخالف للصواب.

{ **الَّذِينَ كَفَرُوا** } إمّا خصوص المشركين كما هو مصطلح القرآن غالبا، وإمّا ما يشملهم ويشمل اليهود، بناء على ما سلف في سبب نزول الآية.

{ **يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ** } بيان وتفسير للجملتين المصدرتين بأمّا.
الفاسق: لفظ من منقولات الشريعة أصله اسم فاعل من الفِسق (بكسر الفاء)، وحقيقة الفسق خروج الثمرة من قشرها، وهو عاهة أو رداءة في الثمر، فهو خروج مذموم. قالوا: ولم يُسمع في كلامهم في غير هذا المعنى حتّى نقله القرآن للخروج عن أمر الله تعالى الجازم بارتكاب المعاصي الكبائر.
والفسق مراتب كثيرة تبلغ بعضها إلى الكفر. وقد أطلق الفسق في الكتاب والسنة على جميعها لكن الذي يُستخلص من الجمع بين الأدلة هو ما اصطلح عليه أهل السنة من المتكلمين والفقهاء: وهو أنّ الفسق غير الكفر، وأنّ المعاصي وإن كثرت لا تزيل الإيمان، وهو الحق.
وقد لُقب الله اليهود في مواضع كثيرة من القرآن بالفاسقين .

{ **وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ** } إمّا مسوق لبيان أنّ للفسق تأثيرا في زيادة الضلال، وإمّا مسوق لبيان أنّ الضلال والفسق أخوان، فحيثما تحقّق أحدهما أنبأ بتحقّق الآخر.
وإن كان محمل الفاسقين على اليهود، كان القصر حقيقيا ادعائيا، فهم أهل كتاب وشأنهم أن يعلموا أفانين الكتب السماوية وضرب الأمثال فإنكارهم إيّاها غاية الضلال، فكأنّه لا ضلال سواه.

{ **الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** } [27]

{ **الَّذِينَ يَنْقُضُونَ** } إلى آخره، صفة للفاسقين، لتقرير اتصافهم بالفسق، لأنّ هاته الخِلال من أكبر أنواع الفسوق، بمعنى الخروج عن أمر الله تعالى.

النقض: في اللغة حقيقة في فسخ وحلّ ما ركّب. وقد استعمل النقض هنا مجازا في إبطال العهد بقرينة إضافته إلى عهد الله، وهي استعارة من مخترعات القرآن بنيت على ما شاع في كلام العرب في تشبيه العهد وكل ما فيه وصل بالحبل، وهو تشبيه شائع في كلامهم. والنقض أبلغ في الدلالة على الإبطال من القطع والصرم ونحوهما، لأنّ في النقض إفساد.

{ **عَهْدَ اللَّهِ** } الصحيح عندي، أنّ المراد بالعهد هو العهد الذي أخذه الله على بني إسرائيل غير مرة، من إقامة الدين وتأييد الرسل، وأن لا يسفك بعضهم دماء بعض وأن يؤمنوا بالدين كلّه.

وقد ذكّرهم القرآن بعهود الله تعالى ونقضهم إيّاها في غير ما آية. بل إنّ كتبهم قد صرّحت بعهود الله تعالى لهم وأنْحت عليهم نقضهم لها، بل قد صار لفظ العهد عندهم لقبا للشريعة التي جاء بها موسى.

{ **مِيثَاقِهِ** } الضمير للعهد، أي: من بعد توكيد العهد وتوثيقه.

{ **وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ** } إن مراد الله تعالى ممّا شرع للنّاس منذ النشأة إلى ختم الرسالة واحد وهو إبلاغ البشر إلى الغاية التي خلقوا لها، وحفظ نظام عالمهم، وضبط تصرفاتهم فيه على وجه لا يعتوره خلل، وإنّما اختلفت الشرائع في تفاريع أصولها اختلافا مراعى فيه مبلغ طاقة البشر، لطفا من الله تعالى بالنّاس، إلى أن جاءت الشريعة الإسلامية في وقت راهق فيه البشر مبلغ غاية الكمال. فلا جرم أن كانت الشرائع السابقة تمهيدا له لتهيئ البشر لقبول تعاليمه وتفاريعها التي هي غاية مراد الله تعالى من النّاس، ولذا قال تعالى { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ } [آل عمران:19].

فما من شريعة سلفت إلّا وهي حلقة من سلسلة جعلت وصلة للعروة الوثقى التي لا انفصام لها، وهي عروة الإسلام، فمتى بلغها النّاس فقد فصموا ما قبلها من الحلق وبلغوا المراد، ومتى انقطعوا في أثناء بعض الحلق فقد قطعوا ما أراد الله وصله.

فاليهود لما زعموا انّهم لا يحل لهم العدول عن شريعة التوراة قد قطعوا ما أمر الله به أن يوصل ففرقوا مجتمعه. فالتصميم على عدم تلقّي النّاسخ وعلى ملازمة المنسوخ هو عمل بما لم يبق فيه صلاح للبشر فيصير ذلك فسادا في الأرض.

{ **أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** } قصر قلب لأنّهم ظنوا أنفسهم رابحين. فهذه الآية ظاهرة في أنّها موجّهة إلى اليهود.

واعلم أنّ الله قد وصف المؤمنين بضدّ هذه الصفات في قوله تعالى { إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ } [الرعد:25]

واعلم أن نزول هذه الآيات ونحوها في بعض أهل الكتاب أو المشركين هو وعيد وتوبيخ للمشركين وأهل الكتاب، وهو أيضا موعظة وذكرى للمؤمنين، ليعلم سامعوه أنّ كل من شارك هؤلاء المذمومين فيما أوجب ذمّهم وسبّب وعيدهم هو آخذ بحظ ممّا نالهم من ذلك، على حسب مقدار المشاركة في الموجب.

{ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [28]

الاستفهام هنا مستعمل في التعجيب.

الكُفر: (بضم الكاف) مصدر سماعي لكفر الثلاثي القاصر، وأصله جَحْد المنعَم عليه نعمة المنعِم اشتق من مادة الكَفر (بفتح الكاف) وهو **الحجب والتغطي**، لأنّ جاحد النعمة قد أخفى الاعتراف بها كما أن شاكرها أعلنها . وضدّه الشكر وقالوا أيضا كفران.

وأطلق الكفر في القرآن على الإشراك بالله في العبادة، بناء على أنّه أشد صور كفر النعمة.

وقد ورد إطلاق الكفر في كلام الرسول عليه السلام وكلام بعض السلف على ارتكاب جريمة عظيمة في الإسلام إطلاقا على وجه التغليظ، ولكن بعض فرق المسلمين يتشبثون بظاهر ذلك الإطلاق فيقضون بالكفر على مرتكب الكبائر.

ومذهب أهل الحقّ من السلف والخلف أنّه لا يكفّر أحد من المسلمين بذنب أو ذنوب من الكبائر، فقد ارتكبت الذنوب الكبائر في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء فلم يعاملوا المجرمين معاملة المرتدين عن الدين. **والقول بتكفير العصاة، خطر على الدين** لأنّه يؤول إلى انحلال جامعة الإسلام ويهوّن على المذنب الانسلاخ من الإسلام.

ولا يكفر أحد بإثبات صفة لله لا تنافي كماله، ولا نفي صفة عنه ليس في نفيها نقصان لجلاله، فإنّ كثيرا من الفرق نفوا صفات ما قصدوا بنفيها إلّا إجلالا لله تعالى، وربما أفرطوا في ذلك، كما نفى المعتزلة صفات المعاني وجواز رؤية الله تعالى، وكثير من الفرق أثبتوا صفات ما قصدوا من إثباتها إلّا احترام ظواهر كلامه تعالى، كما أثبت بعض السلف اليد والإصبع، مع جزمهم بأنّ الله لا يشبه الحوادث.

{ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ } جملة حالية وهي تخلّص إلى بيان ما دلّت عليه (كيف) بطريق الإجمال، وبيان أولى الدلائل على وجوده وقدرته، وهي ما يشعر به كل أحد من أنّه وُجد بعد عدم.

{ أَمْوَاتاً } مجاز شائع بناء على أنّ الموت هو عدم اتصاف الجسم بالحياة سواء كان متصفا بها من قبل كما هو الإطلاق المشهور في العرف أم لم يكن متصفا.

{ **فَأَحْيَاكُمْ** } ضد الموت وهي في نظر الشرع نفخ الروح في الجسم، وأوضح تعاريفها بالرسم أنّها قوة ينشأ عنها الحس والحركة، وأنها مشروطة باعتدال المزاج والأعضاء الرئيسية.

فالموت عدم والحياة ملكة، وكلاهما موجود مخلوق قال تعالى { الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ } [الملك:2] وليس المقصود من قوله { وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ } الامتنان بل استدلال.

{ **ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** } أي يكون رجوعكم إليه، شبّه الحضور للحساب برجوع السائر إلى منزله، باعتبار أنّ الله خلق الخلق فكأنهم صدروا من حضرته فإذا أحياهم بعد الموت فكأنّه أرجعهم إليه، وهذا إثبات للحشر والجزاء.

{ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [29].

هذا إما استدلال ثان على شناعة كفرهم بالله تعالى وعلى أنّه مما يقتضي التعجّب، فإنّ دلائل ربوبيّة الله ووحدانيّته ظاهرة في خلق الإنسان وفي خلق جميع ما في الأرض. فهو ارتقاء في الاستدلال بكثرة المخلوقات. وفي هذه الآية فائدتان:

الفائدة الأولى: أنّ لام التعليل دلّت على أنّ خلق ما في الأرض كان لأجل النّاس، وفي هذا تعليل للخلق وبيان لثمرته وفائدته.

فتثار عنه مسألة **تعليل أفعال الله** تعالى وتعلّقها بالأغراض. والمسألة مختلف فيها بين المتكلّمين اختلافا يشبه أن يكون لفظيّا، فإنّ جميع المسلمين اتفقوا على أن أفعال الله تعالى ناشئة عن إرادة واختيار وعلى وفق علمه، وأنّ جميعها مشتمل على حكِم ومصالح، وأنّ تلك الحكم هي ثمرات لأفعاله تعالى ناشئة عن حصول الفعل فهي لأجل حصولها عند الفعل تثمر غايات، هذا كله لا خلاف فيه.

ويترجّح عندي أنّ هاته المسألة اقتضاها طرد الأصول في المناظرة، فإنّ الأشاعرة لمّا أنكروا وجوب فعل الصلاح والأصلح، فالتزموا أنّ أفعال الله تعالى لا تناط بالأغراض ولا يعبّر عنها بالعلل، وينبئ عن هذا أنهم لمّا ذكروا هذه المسألة ذكروا في أدلتهم الإحسان للغير ورعي المصلحة.

الفائدة الثانية: أخذوا من قوله تعالى { هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً } أنّ أصل استعمال الأشياء **الإباحة** حتّى يدلّ دليل على عدمها. وذهب المالكيّة وجمهور الحنفية والمعتزلة في نقل ابن عرفة، إلى أن الأصل في الأشياء **الوقف** ولم يروا الآية دليلا. والحقّ أنّ الآية مجملة قصد منها التنبيه على قدرة الخالق بخلق ما في الأرض، وأنّه خلق لأجلنا، إلاّ أنّ خلقه لأجلنا لا يستلزم إباحة استعماله. وذهب جماعة إلى أن أصل الأشياء **الحظر**.

{ **ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** } انتقال إلى الاستدلال بخلق ما

هو أعظم من خلق الأرض، وهو أيضا قد يُغفل عن النظر في الاستدلال به على وجود الله، وذلك خلق السماوات. ويشبه أن يكون هذا الانتقال استطرادا لإكمال تنبيه النّاس إلى عظيم القدرة.

الاستواء: أصله الاستقامة وعدم الاعوجاج يقال صراط مستو. و**سواهن**: خلقهن في استقامة، واستقامة الخلق هي انتظامه على وجه لا خلل فيه ولا ثلم .

السماء: مشتقة من السموّ وهو العلو، واسم السماء يطلق على الواحد وعلى الجنس من العوالم العليا التي هي فوق العالم الأرضي. وقد عدّ الله تعالى، في هذه الآية وغيرها، السماوات سبعا وهو أعلم بها وبالمراد منها، إلّا أن الظاهر الذي دلت عليه القواعد العلمية أنّ المراد من السماوات الأجرام العلوية العظيمة وهي الكواكب السيارة المنتظمة مع الأرض في النظام الشمسي.

{ **وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** } نتيجة لما ذكره من دلائل القدرة التي لا تصدر إلاّ من عليم، فلذلك قال المتكلّمون إنّ القدرة يجري تعلقها على وفق الإرادة، والإرادة على وفق العلم. وفيه تعريض بالإنكار على كفرهم والتعجيب منه فإن العليم بكل شيء يقبح الكفر به.

{ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ} [30].

{ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً** } عطف قصّة خلق أول البشر على قصّة خلق السماوات والأرض، انتقالا بهم في الاستدلال على أنّ الله واحد وعلى بطلان شركهم، وتخلّصا من ذكر خلق السماوات والأرض إلى خلق النوع الذي هو سلطان الأرض والمتصرف في أحوالها، ليجمع بين تعدّد الأدلّة وبين مختلف تكوين العوالم وأصلها، ليعلم المسلمون ما علمه أهل الكتاب من العلم الذي كانوا يباهون به العرب، وهو ما في سفر التكوين من التوراة.

{ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ** } كلام الله تعالى للملائكة أطلق على ما يفهمون منه إرادته، وهو المعبّر عنه بالكلام النفسي، فيحتمل أنّه كلام سمعوه، فإطلاق القول عليه حقيقة، وإسناده إلى الله لأنّه خلق ذلك القول بدون وسيلة معتادة، ويحتمل أنّه دال آخر على الإرادة، فإطلاق القول عليه مجاز، لأنّه دلالة للعقلاء، والمجاز فيه أقوى من المجاز الذي في نحو قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" اشتكت النّار إلى ربّها "**، وقوله تعالى { فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ } [فصلت:11].

الملائكة: جمع ملك وأصل صيغة الجمع، والظاهر أنّ تأنيث ملائكة سرى إلى لغة العرب من كلام المتنصّرين منهم، إذ كانوا يعتقدون أنّ الأملاك بنات الله، واعتقده العرب أيضا قال تعالى{ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ } [النحل:57]. والملائكة مخلوقات نورانية سماوية مجبولة على الخير، قادرة على التشكّل في خرق العادة، لأنّ النور قابل للتشكّل.

الخليفة: في الأصل الذي يخلف غيره أو يكون بدلا عنه في عمل يعمله. والمراد من الخليفة هنا إمّا

المعنى المجازي، وهو الذي يتولّى عملا يريده المستخلِف، مثل الوكيل والوصي، أي: جاعل في الأرض مدبّرا يعمل ما نريده في الأرض، فهو استعارة أو مجاز مرسل وليس بحقيقة، لأنّ الله تعالى لم يكن حالا في الأرض ولا عاملا فيها العمل.

وإمّا أن يراد من الخليفة معناه الحقيقي، إذا صحّ أنّ الأرض كانت معمورة من قبل بطائفة من المخلوقات، وأحسبه من المزاعم، ولعلّ هذا من خرافات الفرس أو اليونان، فالخليفة آدم وخَلَفِيَّته قيامه بتنفيذ مراد الله تعالى من تعمير الأرض بالإلهام أو بالوحي، وتلقين ذريّته مراد الله تعالى.

{ **إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً** } وقول الله هذا موجّه إلى الملائكة على وجه الإخبار ليسوقهم إلى معرفة فضل الجنس الإنساني على وجه يزيل ما علم الله أنّه في نفوسهم من سوء الظن بهذا الجنس، وليكون كالاستشارة لهم، تكريما لهم، فيكون تعليما في قالب تكريم، مثل إلقاء المعلم فائدة للتلميذ في صورة سؤال وجواب وليسنّ الاستشارة في الأمور، ولتنبيه الملائكة على ما دقّ وخفي من حكمه خلق.

{ **قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ** } الاستفهام المحكي عن كلام الملائكة محمول على حقيقته، مضمّن معنى التعجّب. وعطف سفك الدماء على الإفساد للاهتمام به.

السفك: الإراقة وقد غلب في كلامهم تعديته إلى الدماء، وأمّا إراقة غير الدم فهي سفح بالحاء.

وإنّما ظنّوا هذا الظنّ بهذا المخلوق من جهة ما استشعروه من صفات هذا المخلوق المستخلف بإدراكهم النوراني لهيئة تكوينه الجسدية والعقلية والنطقية، إمّا بوصف الله لهم هذا الخليفة، أو برؤيتهم صورة تركيبه قبل نفخ الروح فيه وبعده.

{ **ونحن نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ** } يحتمل معنيين؛ أحدهما أن يكون الغرض منه تفويض الأمر إلى الله تعالى واتهام علمهم فيما أشاروا به، أو هو إعلان بالتنزيه للخالق عن أن يخفى عليه ما بدا لهم من مانع استخلاف آدم، وفيه براءة من شائبة الاعتراض.

التسبيح: قول أو مجموع قول مع عمل يدلّ على تعظيم الله تعالى وتنزيهه، ولذلك سمّي ذكر الله تسبيحا، والصلاة سبحة، ويطلق التسبيح على قول سبحان الله.

التقديس: التنزيه والتطهير، وهو إمّا بالفعل كما أطلق المقدَّس على الراهب ، وإمّا بالاعتقاد، كما في الحديث: **" لا قدّست أمة لا يؤخذ لضعيفها من قويها "**، أي لا نزّهها الله تعالى وطهّرها.

{ **قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ** } جواب لكلامهم، فهو جار على أسلوب المقاولة في المحاورات كما تقدّم، أي أعلم ما في البشر من صفات الصلاح ومن صفات الفساد، وأعلم أنّ صلاحه يحصل منه المقصد من تعمير الأرض، وأنّ فساده لا يأتي على المقصد بالإبطال، وأن في ذلك كله مصالح عظيمة، ومظاهر لتفاوت البشر في المراتب .

{ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [31].

{وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا}

آدم: اسم الإنسان الأوّل أبي البشر في لغة العرب، وقيل منقول من العبرانية لأنّ (أداما) بالعبرانية بمعنى الأرض وهو قريب، لأنّ التوراة تكلّمت على خلق آدم وأطالت في أحواله، فلا يبعد أن يكون اسم أبي البشر قد اشتهر عند العرب من اليهود وسماع حكايتهم.

الأسماء: جمع اسم وهو في اللغة لفظ يدلّ على معنى يفهمه ذهن السامع ، والظاهر أن الأسماء التي عُلِّمها آدم هي ألفاظ تدلّ على ذوات الأشياء التي يحتاج نوع الإنسان إلى التعبير عنها لحاجته.

وتعريف الأسماء يفيد أنّ الله علم آدم كلّ اسم، ما هو مسمّاه ومدلوله.

{ **كُلَّهَا** } تأكيد لمعنى الاستغراق، لئلا يتوهّم منه العهد.

وتعليم الله تعالى آدم الأسماء إمّا بطريقة التلقين بعرض المسمّى عليه، فإذا أراه لقّن اسمه بصوت مخلوق يسمعه فيعلم أنّ ذلك اللفظ دال على تلك الذات بعلم ضروري. أو يكون التعليم بإلقاء علم ضروري في نفس آدم بحيث يخطر في ذهنه اسم شيء عند ما يعرض عليه فيضع له اسما، بأن ألهمه وضع الأسماء للأشياء ليمكنه أن يفيدها غيره، وذلك بأن خلق قوّة النطق فيه وجعله قادرا على وضع اللغة، كما قال تعالى { خَلَقَ الإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ } [الرحمن:3-4] .

وأيًّا ما كانت كيفيّة التعليم فقد كان سببا لتفضيل الإنسان على بقية أنواع جنسه بقوة النطق وإحداث الموضوعات اللغوية للتعبير عمّا في الضمير.

وليس في هذه الآية دليل على أنّ اللغات توقيفيّة، أي لقّنها الله تعالى البشر على لسان آدم، ولا على عدمه لأنّ طريقة التعليم في قوله تعالى{ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ } مجملة محتملة لكيفيّات كما قدمناه .

{ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ }

{ **ثُمَّ** } لأنّ بين ابتداء التعليم وبين العرض مهلة، وهي مدّة تلقين الأسماء لآدم أو مدّة إلهامه وضع الأسماء للمسمّيات.

{ **عَرَضَهُمْ** } الضمير للمسمّيات لأنّها التي تعرض.

الإنباء: الإخبار بالنبأ، وهو الخبر ذو الفائدة العظيمة والأهمية بحيث يحرص السامعون على اكتسابه.

{ **إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } إمّا أراد به إن كنتم صادقين في أنكم أفضل من هذا المخلوق ، أو أراد إن كنتم صادقين في عدم جدارة آدم.

{ **قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** } [32].

افتتاح كلامهم بالتسبيح وقوف في مقام الأدب والتعظيم لذي العظمة المطلقة.

ثمّ إنّ كلامهم هذا يدلّ على أنّ علومهم محدودة غير قابلة للزيادة، فهي مقصورة على ما ألهمهم الله تعالى وما يأمرهم، فللملائكة علم قبول المعاني لا علم استنباطها.

{ **العليم** } الكثير العلم، وهو من أمثلة المبالغة على الصحيح، ويجوز كونه صفة مشبّهة.

{ **الحكيم** } فعيل من أحكم إذا أتقن الصنع بأن حاطه من الخلل. وتعقيب العليم بالحكيم من إتباع الوصف بأخص منه، فإنّ مفهوم الحكمة زائد على مفهوم العلم، لأنّ الحكمة كمال في العلم.

{ **قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ** } [33].

{ **قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ** } النداء للتنويه بشأن آدم وإظهار اسمه في الملأ الأعلى حتّى ينال حسن السمعة، مع ما فيه من التكريم.

{ **أَنْبَأَهُمْ** } الإنباء إخبارهم بالأسماء، وفيه إيماء بأنّ المخبر به شيء مهم. والضمير المجرور بالإضافة ضمير المسمّيات.

{ **قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } تذكير لهم بقوله لهم في أول المحاورة { إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ }، بيانا لما أجمل في القول الأوّل. وإنما جيء بالإجمال قبل ظهور البرهان وجئ بالتفصيل بعد ظهوره على طريقة الحجاج وهو إجمال الدعوى وتفصيل النتيجة، لأنّ الدعوى قبل البرهان قد يتطرّقها شك السامع بأن يحملها على المبالغة ونحوها، وبعد البرهان يصحّ للمدّعي أن يوقف المحجوج على غلطه ونحوه.

{ **وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ** } وقد جعل الله تعالى علم آدم بالأسماء وعجز الملائكة عن ذلك علامة على أهليّة النوع البشرى لخلافته، ولا شك أنّ هذه الخلافة لا تتقوّم إلاّ بالعلم، أعني اكتساب المجهول من المعلوم وتحقيق المناسبة بين الأشياء ومواقعها، والملائكة لم يكونوا مؤهّلين لاستفادة المجهولات من المعلومات، ولم يكونوا مصادر للشرور التي يتعين صدورها لإصلاح العالم، فخيريّتهم وإن كانت صالحة لاستقامة عالمهم الطاهر لم تكن صالحة لنظام عالم مخلوط. والآية تقتضي مزية عظمى لهذا النوع في هذا الباب، وفي فضل العلم، ولكنها لا تدل على أفضلية النوع البشرى على الملائكة.

{ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ** } [34].

عطف القصّة على القصّة، وقد أريد من هذه القصّة إظهار مزيّة نوع الإنسان، وأنّ الله يخصّ أجناس مخلوقاته وأنواعها بما اقتضته حكمته من الخصائص والمزايا لئلا يخلو شيء منها عن فائدة من وجوده في هذا العالم، وإظهار فضيلة المعرفة، وإظهار ما للنفوس الشريرة الشيطانية من الخبث والفساد، وبيان أنّ الاعتراف بالحقّ من خصال الفضائل الملائكيّة، وأنّ الفساد والحسد والكبر من مذام ذوي العقول.

السجود: حقيقته طأطأة الجسد أو إيقاعه على الأرض بقصد التعظيم، فكان السجود أوّل تحية تلقاها البشر عند خلق العالم. وقد عُرف السجود منذ أقدم عصور التاريخ، فقد وجد على الآثار الكلدانية منذ القرن (19ق م) صورة حمورابي ملك كلدية راكعا أمام الشمس. ووُجدت على الآثار المصرية صور أسرى الحرب سجّدا لفرعون.

وهيآت السجود تختلف باختلاف العوائد. وهيئة سجود الصلاة مختلفة باختلاف الأديان. والسجود في صلاة الإسلام الخرور على الأرض بالجبهة واليدين والرجلين.

ولا يعكّر عليه أنّ السجود في الإسلام لغير الله محرّم، لأنّ سجود الملائكة من عمل العالم الأعلى وليس ذلك بداخل تحت تكاليف أهل الأرض، فلا طائل تحت إطالة البحث فيالمسألة.

وفي الآية منزع بديع لتعظيم شأن العلم وجدارة العلماء بالتعظيم والتبجيل، لأنّ الله لما علّم آدم علما لم يؤهل له الملائكة كان قد جعل آدم أنموذجا للمبدعات والمخترعات والعلوم التي ظهرت في البشر من بعد والتي ستظهر إلى فناء هذا العالم.

{ **فَسَجَدُوا** } العطف بفاء التعقيب يشير إلى مبادرة الملائكة بالامتثال، ولم يصدّهم ما كان في نفوسهم من التخوّف من أن يكون هذا المخلوق مظهر فساد وسفك دماء، لأنّهم منزّهون عن المعاصي.

{ **إِلاَّ إِبْلِيسَ** } واستثناء إبليس من ضمير الملائكة في { فَسَجَدُوا} **استثناء منقطع**، لأنّ إبليس لم يكن من جنس الملائكة، ولكنّ الله جعل أحواله كأحوال النفوس الملكيّة بتوفيق غلب على جبلّته لتتأتى معاشرته بهم، وسيّره على سيرتهم، فساغ استثناء حاله من أحوالهم، في مظنة أن يكون مماثلا لمن هو فيهم.

ولم يخلق الله من نوع الجنّ إلاّ أصلهم وهو إبليس، وخلق من نوع الإنسان أصلهم وهو آدم.

إبليس: اسم معرّب من لغة غير عربية لم يعيّنها أهل اللغة.

{ **أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ** } استئناف بياني مشير إلى أنّ مخالفة حاله لحال الملائكة في السجود لآدم، شأنه أن يثير سؤالا في نفس السامع كيف لم يفعل إبليس ما أمر به؟ وكيف خالف حال جماعته؟ وما سبب ذلك؟ لأنّ مخالفته لحالة معشره مخالفة عجيبة، إذ الشأن الموافقة بين الجماعات.

والمعنى أنّه استكبر على الله بإنكار أن يكون آدم مستحقا لأن يسجد هو له، إنكارا عن تصميم لا عن مراجعة أو استشارة، كما دلّت عليه آيات أخرى مثل قوله تعالى { قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ } [الأعراف:12].

{ **وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ** } معطوفة على الجمل المستأنفة، و(كان) لا تفيد إلاّ أنّه اتصف بالكفر في زمن مضى قبل زمن نزول الآية، وليس المعنى أنّه اتصف به قبل امتناعه من السجود لآدم.
وقد تحيّر أكثر المفسّرين في بيان معنى الآية، والذي أراه أحسن الوجوه في معناها أنّ مقتضى الظاهر أن يقال: وكفر، كما في قوله { أَبَى وَاسْتَكْبَرَ } فعدل عن مقتضى الظاهر لدلالة (كان) في مثل هذا الاستعمال، على رسوخ معنى الخبر في اسمها ، أي: أبى واستكبر وكفر كفرا عميقا في نفسه.

{ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ } [35].

وهذه تكرمة أكرم الله بها آدم بعد أن أكرمه بكرامة الإجلال من تلقاء الملائكة.
والنداء تنويه بذكر اسمه بين الملأ الأعلى.
{ **اسْكُنْ** } الأمر مستعمل في الامتنان بالتمكين والتخويل، وليس أمرا له بأن يسعى بنفسه لسكنى الجنّة.
الزوج: كلّ شيء ثان مع شيء آخر بينهما تقارن. وسمّيت الأنثى القرينة للرجل بنكاح زوجا لأنّها اقترنت به وصيرته ثانيا، ويسمّى الرجل زوجا لها لذلك بلا فرق، فمن ثمّ لا يقال للمرأة زوجة، وتسامح الفقهاء في إلحاق علامة التأنيث للزوج إذا أرادوا به امرأة الرجل، لقصد نفي الالتباس في تقرير الأحكام.
{ **وَزَوْجُكَ** } ولم يرد اسم زوج آدم في القرآن، واسمها عند العرب (**حواء**) واسمها في العبرانية مضطرب فيه، ففي سفر التكوين في الإصحاح الثاني أن اسمها (امرأة). وفي الإصحاح الثالث أن آدم دعا اسم امرأته (حواء)، لأنّها أم كل حيّ.
الجنة: قطعة من الأرض فيها الأشجار المثمرة والمياه، وهي أحسن مقرّ للإنسان إذا لفحه حر الشمس، ويأكل من ثمره إذا جاع ويشرب من المياه التي يشرب منها الشجر ويروقه منظر ذلك كله. فالجنة تجمع ما تطمح إليه طبيعة الإنسان من اللذات.
وقد اختلف علماء الإسلام في تعيين هذه الجنة فالذي ذهب إليه جمهور السلف أنّها جنّة الخلد التي وعد الله المؤمنين والمصدقين رسله، وجزموا بأنّها موجودة في العالم العلوي عالم الغيب، وهذا الذي تقلّده أهل السنة من علماء الكلام وأبو علي الجبّائي، وهو الذي تشهد به ظواهر الآيات والأخبار المروية عن النبيّ صلى الله عليه وسلم. ولا تعدو أنّها ظواهر كثيرة لكنها تفيد غلبة الظنّ.
وليس لهذه القضية تأثير في العقيدة. وذهب أبو مسلم الأصفهاني محمد بن بحر وأبو القاسم البلخي والمعتزلة عدا الجبّائي، إلى أنّها جنة في الأرض خلقها الله لإسكان آدم وزوجه.
والحاصل أنّ الأظهر أنّ الجنّة التي أُسكنها آدم هي الجنة المعدودة دارا لجزاء المحسنين.
الرغد: الهنيء الذي لا عناء فيه ولا تقتير.

{ **حَيْثُ شِئْتُمَا** } ظرف مكان، أي من أي مواضع أردتما الأكل منها.

{ **وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ** } يعنى به ولا تأكلا من الشجرة، لأنّ قربانها إنّما هو لقصد الأكل منها، فالنهي عن القربان أبلغ من النهي عن الأكل، لأنّ القرب من الشيء ينشئ داعية وميلا إليه. ففي الحديث:" **من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه** ". وفي تعليق النهي بقربان الشجرة إشارة إلى منزع سد الذرائع، وهو أصل من أصول مذهب مالك رحمه الله.

{ **هَذِهِ الشَّجَرَةَ** } الإشارة إلى شجرة مرئيّة لآدم وزوجه، والمراد شجرة من نوعها أو كانت شجرة وحيدة في الجنة. وقد اختلف في تعيين نوع هذه الشجرة، فعن علي وابن مسعود أنّها الكرمة، وعن ابن عباس والحسن وجمهور المفسّرين أنّها الحنطة، وعن قتادة وابن جريج ونسبه ابن جريج إلى جمع من الصحابة أنّها شجرة التين. ووقع في سفر التكوين من التوراة إبهامها وعبّر عنها بشجرة معرفة الخير والشرّ.

{ **فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ** } أي من المعتدين، وأشهر معاني الظلم في استعمال العرب هو الاعتداء.

{ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ } [36].

الإزلال: جعل الغير زالا، أي قائما به الزلل وهو كالزلق، أي ذاهبة رجلاه بدون إرادة، وهو مجاز مشهور في صدور الخطيئة والغلط المضر، ومنه سمِّي العصيان ونحوه الزلل. أي أزلّهما إزلالا عن الشجرة، أي: عن الأكل منها. ويجوز كون الضمير للجنّة وتكون (عن) على ظاهرها، والإزلال مجازا في الإخراج بكره، والمراد منه الهبوط من الجنّة مكرهين، كمن يزل عن موقفه فيسقط.

{ **فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ** } تفيد الآية إثارة الحسرة في نفوس بني آدم على ما أصاب آدم من جراء عدم امتثاله لوصاية الله تعالى، وموعظة تنبّه بوجوب الوقوف عند الأمر والنهي، والترغيب في السعي إلى ما يعيدهم إلى هذه الجنّة التي كانت لأبيهم، وتربية العداوة بينهم وبين الشيطان وجنده.

{ **وَقُلْنَا اهْبِطُوا** } قيل: الخطاب لهما ولإبليس، وهو وإن أُهبط عند إبايته السجود، فهذا إهباط ثان فيه تحجير دخول الجنّة عليه، والإهباط الأول كان إهباط منع من الكرامة.

<u>والذي أراه</u> أن جمع الضمير مراد به التثنية لكراهية توالي المثنيات بالإظهار والإضمار من قوله { وَكُلا مِنْهَا رَغَداً } والعرب يستثقلون ذلك.

{ **بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ** } <u>يحتمل</u> أن يراد بالبعض بعض الأنواع، وهو عداوة الإنس والجنّ، إن كان الضمير في { اهْبِطُوا } لآدم وزوجه وإبليس، <u>ويحتمل</u> أن يراد عداوة بعض أفراد نوع البشر، إن كان ضمير { اهْبِطُوا } لآدام وحواء، فيكون ذلك إعلاما لهما بأثر من آثار عملهما يُورَث في بنيهما. ولذلك مبدأ ظهور آثار الاختلال في تكوين خلقتهما بأن كان عصيانهما يورث في أنفسهما وأنفس ذرّيّتهما

داعية التغرير والحيلة، على حد قوله تعالى { إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ } [التغابن:14]، فإنّ الأخلاق تورث، وكيف لا وهي ممّا يُعدى بكثرة الملابسة والمصاحبة، ووجه المناسبة بين هذا الأثر وبين منشئه، الذي هو الأكل من الشجرة، أن الأكل من الشجرة كان مخالفة لأمر الله تعالى ورفضا له وسوء الظن بالفائدة منه.

أصل الأخلاق :

وفي الآية إشارة إلى مسألة أخلاقيّة وهي أنّ أصل الأخلاق حسنها وقبيحها هو الخواطر الخيرة والشريرة، ثم ينقلب الخاطر،إذا ترتب عليه فعل، فيصير خلقا، وإذا قاومه صاحبه ولم يفعل صارت تلك المقاومة سببا في اضمحلال ذلك الخاطر، ولذلك حذّرت الشريعة من الهمّ بالمعاصي وكان جزاء ترك فعل ما يهم به منها حسنة، وأمرت بخواطر الخير فكان جزاء مجرّد الهمّ بالحسنة حسنة ولو لم يعملها، وكان العمل بذلك الهمّ عشر حسنات، كما ورد في الحديث الصحيح:**" من همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة "**، ثم قال: **" ومن هم بسيئة فعملها كتبت له سيئة واحدة "**، وجعل العفو عن حديث النفس منّة من الله تعالى ومغفرة في حديث: **" إن الله تجاوز عن أمتي فيما حدثت به نفوسها "**.

إنّ الله تعالى خلق الإنسان خيّرًا، أي سالما من الشرور والخواطر الشريرة على صفة ملكية، وهو معنى { لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ } [التين:4]، ثم جعله أطوارا:

الطور الأوّل: طور تعليمه النطق ووضع الأسماء للمسمّيات، لأنّ ذلك مبدأ المعرفة وبه يكون التعليم، أي يعلّم أفراده بعضا ما علمه وجهله الآخر، فكان إلهامه اللغة مبدأ حركة الفكر الإنساني، وهو مبدأ صالح للخير ومعين عليه، لأنّ به علم النّاس بعضهم بعضا، ولذلك ترى الصبي يرى الشيء فيسرع إلى قرنائه ليروه معه ، حرصا على إفادتهم. فكان الإنسان معلّما بالطبع، وكان ذلك معينا على خيريّته.

إلّا أنّه صالح أيضا لاستعمال النطق في التمويه والكذب.

الطور الثاني: ثم إنّ الله تعالى لمّا نهاه عن أمر كلّفه بما في استطاعته أن يمتثله وأن يخالفه، فتلك الاستطاعة، مبدأ حركة نفسه في الحرص والاستئثار، فكان خلق الله تعالى إيّاه على تلك الاستطاعة مبدأ طور جديد هو المشار إليه بقوله تعالى { ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ } [التين:5].

الطور الثالث: ثم هداه بواسطة الشرائع فصار باتباعها يبلغ إلى مراتب الملائكة ويرجع إلى تقويمه الأوّل وذلك معنى قوله تعالى { إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } [التين:6]، وقد أشير إلى هذا الطور الأخير بقوله فيما يأتي { فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ } [البقرة:38].

{ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ } أي: ولكلّ واحد منكم في الأرض مستقرّ ومتاع إلى حين . وإنّما كان ذلك متاعا لأنّ الحياة أمر مرغوب لسائر البشر، على أنّ الحياة لا تخلو من لذّات وتمتّع بما وهبنا الله من الملائمات .

{ **فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** } [37].

جيء بـ (الفاء) إيذانا بمبادرة آدم بطلب العفو.

التلقي: استقبال إكرام ومسرّة قال تعالى { وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ } [الانبياء:103]، بخلاف (لاقى)، فلا يدلّ على كون الملاقى محبوبا.

{ **مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ** } التعبير بـ { فَتَلَقَّى } هنا مؤذن بأنّ الكلمات التي أخذها آدم ليست كلمات زجر وتوبيخ بل كلمات عفو ومغفرة ورضى، وهي إمّا كلمات لُقّنها آدم من قبل الله تعالى ليقولها طالبا المغفرة، وإمّا كلمات إعلام من الله إيّاه بأنّه عفا عنه بعد أن أهبطه من الجنة، اكتفاء بذلك في العقوبة. وممّا يدلّ على أنّها كلمات عفو عطف { فَتَابَ عَلَيْهِ } بالفاء. وتلقي آدم للكلمات إمّا بطريق الوحي أو الإلهام.

ولم تذكر توبة حواء هنا لظهور أنّها تتبعه في سائر أحواله، وأنّه أرشدها إلى ما أُرْشد إليه، وإنّما لم تذكر في هذه الآية لأنّ الكلام جرى على الابتداء بتكريم آدم وجعله في الأرض خليفة، فكان الاعتناء بذكر تقلباته هو الغرض المقصود.

{ **فَتَابَ عَلَيْهِ** } أصل معنى تاب رجع ونظيره ثاب، ولمّا كانت التوبة رجوعا من التائب إلى الطاعة ونبذًا للعصيان، وكان قبولها رجوعا من المتوب إليه إلى الرضى وحسن المعاملة وصف بذلك رجوع العاصي عن العصيان، ورجوع المُعصي عن العقاب.

وتتركّب التوبة من علم وحال وعمل ؛ فالعلم هو معرفة الذنب، والحال هو تألّم النفس من ذلك الضرر، ويسمّى ندما، والعمل هو الترك للإثم وتدارك ما يمكن تداركه وهو المقصود من التوبة.

وعندي، وبعضه مأخوذ من كلامهم، أنّ ذلك العالم لم يكن عالم تكليف، بالمعنى المتعارف عند أهل الشرائع، بل عالم تربية فقط، فتكون خطيئة آدم ومعصيته مخالفة تأديبية، ولذلك كان الجزاء عليها جاريا على طريقة العقوبات التأديبية بالحرمان ممّا جرّه إلى المعصية، فإطلاق المعصية والتوبة وظلم النفس على جميع ذلك هو بغير المعنى الشرعي المعروف، بل هي معصية كبيرة وتوبة بمعنى الندم والرجوع إلى التزام حسن السلوك، وتوبة الله عليه بمعنى الرضى لا بمعنى غفران الذنوب، وظلم النفس بمعنى التسبّب في حرمانها من لذات كثيرة بسبب لذة قليلة، فهو قد خالف ما كان ينبغي أن لا يخالفه.

فأورد علي بعض الحذّاق من طلبة الدرس أنّه إذا لم يكن العالم عالم تكليف فكيف كفر إبليس باعتراضه وامتناعه من السجود؟ فأجبته بأنّ دلالة ألوهية الله تعالى في ذلك العالم حاصلة بالمشاهدة حصولا أقوى من كل دلالة، زيادة على دلالة العقل، لأن إبليس شاهد بالحس الدلائل على تفرّده تعالى بالألوهية والخلق والتصرف المطلق وبعلمه وحكمته واتصافه بصفات الكمال، كما حصل العلم بمثله للملائكة، فكان اعتراضه على فعله والتغليط إنكارا لمقتضى تلك الصفات، فكان مخالفة لدلائل الإيمان فكفر به.

وأمّا الأمر والنهي والطاعة والمعصية وجزاء ذلك فلا يُتلقى إلّا بالإخبارات الشرعية، وهي لم تحصل يومئذ فظهر الفرق.

{ **إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** } التوّاب هنا معناه المُلْهِم التوبة وهو كناية عن قبول توبة التائب. وتعقيبه بالرحيم لأن الرحيم جار مجرى العلّة للتوّاب، إذ قبوله التوبة عن عباده ضرب من الرحمة بهم.

{ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ [38] وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [39] }.

على عادة القرآن في التفنّن أعيد قوله تعالى { قُلْنَا اهْبِطُوا }، فهو قول واحد كُرّر مرتين لربط الكلام، ولذلك لم يعطف { قُلْنَا } لأنّ بينهما شبه كمال الاتصال لتنزل هذا القول منزلة التوكيد اللفظي، ثم بُني عليه قوله تعالى { فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً }، وهو مغاير لما بني ليحصل شيء من تجدّد فائدة في الكلام لكي لا يكون إعادة {اهْبِطُوا } مجرّد توكيد، ويسمَّى هذا الأسلوب في علم البديع بالترديد.

{ **فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ** } هو في معنى العهد أخذه الله على آدم فلزم ذرّيّته أن يتّبعوا كلّ هدى يأتيهم من الله، وأنّ من أعرض عن ذلك فقد استوجب العذاب.

{ **فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ** } يشمل جميع الشرائع الإلهية المخاطب بها طوائف النّاس لوقوع { **هُدىً** } نكرة في سياق الشرط، وهو من صيغ العموم، وأوْلى الهدى وأجدره بوجوب اتباعه الهدى الذي أتى من الله لسائر البشر، وهو دين الإسلام الذي خوطب به جميع بني آدم، وبذلك تهيأ الموقع { وَالَّذِينَ كَفَرُوا }.
وهذه الآية تدلّ على أنّ الله لا يؤاخذ البشر بما يقترفونه من الضلال إلّا بعد أن يرسل إليهم من يهديهم. فأمّا في تفاصيل الشرائع فلا شك في ذلك ولا اختلاف، وأمّا في توحيد الله تعالى وما يقتضيه من صفات الكمال فيجرى على الخلاف بين علمائنا في مؤاخذة أهل الفترة على الإشراك، ولعلّ الآية تدلّ على أنّ الهدى الآتي من عند الله في ذلك قد حصل من عهد آدم ونوح وعرفه البشر كلّهم، فيكون خطابا ثابتا لا يسع البشر ادعاء جهله، وهوأحد قولين عن الأشعري وقيل لا. وعند المعتزلة والماتريدية أنّه دليل عقلي.
{ **فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** } نفى لجنس الخوف، فإنّه بشارة يؤذن مفهومها بنذارة من لم يتّبعه، فهو خائف حزين فيترقّب السامع ما يبين هذا الخوف والحزن فيحصل ذلك بقوله:
{ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** } المراد بهم الذين أنكروا الخالق وأنبياءه وجحدوا عهده، كما هو اصطلاح القرآن، والمعنى: والذين كفروا بي وبهداي.
الآيات: جمع آية وهي الشيء الدال على أمر من شأنه أن يخفى، ولذلك قيل لأعلام الطريق آيات، وتسمّى الحجّة آية، لأنّها تظهر الحقّ الخفي. وسمي الله الدلائل على وجوده وعلى وحدانيته وعلى إبطال عقيدة الشرك آيات.

فالمراد بآياتنا هنا آيات القرآن أي وكذبوا بالقرآن، أي كونه وحيا من عند الله .

{ يَا بَنِي إِسْرائيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ } [40].

انتقال من موعظة المشركين إلى موعظة الكافرين من أهل الكتاب، وبذلك تتمّ موعظة الفرق المتقدّم ذكرها، لأنّ فريق المنافقين لا يعدوا أن يكونوا من المشركين أو من أهل الكتاب اليهود.

ووجّه الخطاب هنا إلى بني إسرائيل، وهم أشهر الأمم المتديّنة ذات الكتاب الشهير والشريعة الواسعة.

وقد روعيت في هذا الانتقال مسايرة ترتيب كتب التوراة، إذا عقّبت كتاب (التكوين) بكتاب (الخروج)، أي وصف أحوال بني إسرائيل في مدّة فرعون، ثم بعثة موسى. وقد اقتصر ممّا في(سفر التكوين) على ذكر خلق آدم وإسكانه الأرض، لأنّه موضع العبرة، وانتقل من ذلك إلى أحوال بني إسرائيل، لأنّ فيها عبرا جمة لهم وللأمّة.

{ يَا بَنِي إِسْرائيلَ } خطاب لذريّة يعقوب، وفي ذريّته انحصر سائر الأمّة اليهوديّة، وقد خاطبهم بهذا الوصف دون أن يقول: يا أيّها اليهود، لكونه هو اسم القبيلة، أمّا اليهود فهو اسم النحلة والديانة، ولأنّ من كان متّبعا دين اليهوديّة من غير بني إسرائيل، كحمير لم يعتدّ بهم، لأنّهم تبع لبني إسرائيل، فلو آمن بنو إسرائيل بالنبيّ صلى الله عليه وسلم لآمن أتباعهم لأنّ.

ولأنّ هذا الخطاب للتذكير بنعم أنعم الله بها على أسلافهم وكرامات أكرمهم بها، فكان لندائهم بعنوان كونهم أبناء يعقوب وأعقابه مزيد مناسبة لذلك. وتوجيه الخطاب إلى جميع بني إسرائيل يشمل علماءهم وعامتهم، لأنّ ما خوطبوا به هو من التذكير بنعمة الله على أسلافهم وبعهد الله لهم.

إسرائيل: لقب يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، قال ابن عباس: معناه عبد الله، لأنّ (**إسرا**) بمعنى عبد و(**إيل**) اسم الله، أي مركّب من كلمتين (**إسرا-- إيل**). ثم إنّ يعقوب له اثنا عشر أبنًا وهم المشهورون بـ (**الأسباط**)، لأنّهم أسباط إسحاق بن إبراهيم، وإلى هؤلاء الأسباط يرجع نسب جميع بني إسرائيل، وسيأتي ذكر الأسباط في هذه السورة.

{ اذْكُرُوا } أمر من الذكر، ويطلق على النطق باسم الشيء الخاطر ببال النّاس. والمقصود هنا الذكر العقلي، إذ ليس المراد ذكر النعمة باللسان.

{ نِعْمَتِيَ } جميع ما أنعم الله به على المخاطبين مباشرة أو بواسطة الإنعام على أسلافهم. ولولا تلك النعم لهلك سلفهم، أو لساءت حالهم فجاء أبناؤهم في شرّ حال . فيشمل هذا جميع النعم التي أنعم الله بها عليهم، فهو بمنزلة اذكروا نعمي عليكم .

والأمر بذكر النعمة هنا مراد منه لازمه وهو شكرها، ومن أوّل مراتب الشكر ترك المكابرة في تلقّي ما ينسب إلى الله من الرسالة بالنظر في أدلتها ومتابعة ما يأتي به المرسلون .

{ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ } وصف أشير به إلى وجوب شكر النعم، ويفيد مع ذلك أمرهم بتفكّر النعم التي أنعم بها عليهم لينصرفوا بذلك عن حسد غيرهم ، وهذا تعريض بهم أنّهم حاسدون للعرب فيما أوتوا من

الكتاب والحكمة ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم، وانتقال النبوة من بني إسرائيل إلى العرب.
{ **وَأَوْفُوا بِعَهْدِي** } أصل معنى (وَفَى) أتمّ الأمر، تقول وفّيْته حقّه وأوفيته حقّه. وقد أطلق الوفاء على تحقيق الوعد والعهد إطلاقا شائعا صيّره حقيقة. وأمّا (وفّى) بالتضعيف فهو أبلغ من أوفى.

العهد: هنا هو الالتزام للغير، واستعمل مجازا لقبول التكاليف والدخول في الدين.

ومن لطائف القرآن في اختيار لفظ (العهد) للاستعارة هنا لتكليف الله تعالى إيّاهم، أنّ ذلك خطاب لهم باللفظ المعروف عندهم في كتبهم، فإنّ التوراة المنزّلة على موسى عليه السلام تُلقَّب عندهم بالعهد، ولا يعرف ذلك إلّا خاصة أهل الدين، فمجيئه على لسان النبيّ العربي الأمّيّ دليل على أنّه وحي من العلّام بالغيوب.

والعهد قد أخذ على أسلافهم بواسطة رسلهم وأنبيائهم، قال تعالى { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ } [آل عمران:81].

{ **وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ** } تتميم لذلك الأمر السابق بالنهي عمّا يحول بينهم وبين الإيفاء بالعهد على وجهه، وذلك هو صدّ كبرائهم وأحبارهم إيّاهم عن الانتقال عمّا هم عليه من التمسك بالتوراة.

{ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ } [41].

{ **وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ** } شروع في دعوة بني إسرائيل إلى الإسلام وهدى القرآن، وهذا هو المقصود من خطابهم، ولكن قدّم بين يديه ما يهيئ نفوسهم إلى قبوله، كما تتقدّم المقدّمة على الغرض. وفي تعليق الأمر باسم الموصول { بِمَا أَنْزَلْتُ } إيماء إلى تعليل الأمر بالإيمان به، وهو أنّه منزّل من الله وهم قد أوصوا بالإيمان بكل كتاب يثبت أنّه منزّل من الله.

{ **مُصَدِّقاً** } حال، لما في التوراة، علامة على أنّه من عند الله. وهي العلامة الدينية المناسبة لأهل العلم من أهل الكتاب، فكما جعل الإعجاز اللفظي علامة على كون القرآن من عند الله لأهل الفصاحة والبلاغة من العرب، كذلك جعل الإعجاز المعنوي، وهو اشتماله على الهدى الذي هو شأن الكتب الإلهية، علامة على أنّه من عنده، لأهل الدين والعلم بالشرائع .

{ **لِمَا مَعَكُمْ** } كتب التوراة الأربعة، وما الحقّ بها من كتب الأنبياء من بني إسرائيل كالزبور، وكتاب أشعياء، وأرمياء، وحزقيال، ودانيال، وغيرها.

والمراد من كون القرآن مصدِّقا لما معهم أنّه يشتمل على الهدى الذي دعت إليه أنبياؤهم من التوحيد والأمر بالفضائل واجتناب الرذائل وإقامة العدل، ومن الوعد والوعيد والمواعظ والقصص، فما تماثل منه بها فأمره ظاهر وما اختلف فإنما هو لاختلاف المصالح والعصور، مع دخول الجميع تحت أصل

واحد. ولذلك سُمِّي ذلك الاختلاف نسخا، لأنّ النسخ إزالة حكم ثابت، ولم يسمّ إبطالا أو تكذيبا، فظهر أنّه مصدّق لما معهم.

{ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ } جمع الضمير في { تَكُونُوا } مع إفراد لفظ { كَافِرٍ } يدلّ على أنّ المراد من الكافر فريق ثبت له الكفر لا فرد واحد. وهو ارتقاء في الدعوة واستجلاب القلوب، فإنّه لمّا أمرهم بالإيمان بالقرآن، وكانت صيغة الأمر محتملة لطلب الامتثال بالفور أو بالتأخير، وكانوا معروفين بشدّة العداوة لدين الإسلام، عطف على أمرهم بالإيمان بالقرآن نهيهم عن أن يكونوا أوّل كافر به.

{ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً } وهذا النهي موجّه إلى علماء بني إسرائيل، وهم القدوة لقومهم، والمناسبة أنّ الذي صدّهم عن قبول دعوة الإسلام هو خشيتهم أن تزول رئاستهم في قومهم، فكانوا يتظاهرون بإنكار القرآن ليلتفّ حولهم عامة قومهم فتبقى رئاستهم عليهم، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم:" **لو آمن بي عشرة من اليهود لآمن بي اليهود كلّهم** ".

الاشتراء: تقدّم عند قوله تعالى { أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى } [16].

الآيات: جمع آية وأصلها في اللغة العلامة على المنزل أو على الطريق، ولذلك سمّيت معجزة الرسول آية كما في قوله تعالى { فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ } [النمل:12].

وإضافة آيات إلى ضمير الجلالة للتشريف قال الشيخ محمد بن عرفة: "عظّم الآيات بشيئين؛ الجمع والإضافة إلى ضمير الجلالة، وحقّر العوض بتحقيرين؛ التنكير والوصف بالقلة ".

والخطاب وإن كان لبني إسرائيل غير أنّ خطابات القرآن وقصصه المتعلّقة بالأمم الأخرى إنّما يقصد منها الاعتبار والاتعاظ، فنحن محذَّرون من مثل ما وقعوا فيه بطريق الأولى، لأنّنا أولى بالكمالات النفسية .

ومن هنا فرضت مسألة أخذ الأجرة على تعليم القرآن والدين، ويتفرّع عنها أخذ الأجرة على تعليم العلم، وعلى بعض ما فيه عبادة؛ كالأذان والإمامة. وحاصل القول فيها أنّ الجمهور من العلماء **أجازوا أخذ الأجر على تعليم القرآن فضلا عن الفقه والعلم**، فقال بجواز ذلك الحسن وعطاء والشعبي وابن سيرين ومالك والشافعي وأحمد وأبو ثور والجمهور، وحجّتهم في ذلك الحديث الصحيح عن ابن عباس أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: " **إنّ أحقّ ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله** ". وقد نقل ابن رشد إجماع أهل المدينة على الجواز، ولعلّه يريد إجماع جمهور فقهائهم.

وعليه فلا محلّ لهاته الآية على هذا المعنى عندهم بحال، لأنّ المراد بالاشتراء فيها معناه المجازي، وليس في التعليم استبدال ولا عدول ولا إضاعة.

{ وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ } القول فيه كالقول في { وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ }، لأنّ الآية المتقدّمة تأمرهم بالوفاء بالعهد فناسبها أن يخوّفوا من نكثه، وهذه الآية تأمرهم بالإيمان بالقرآن الذي منعهم منه بقيّة دهمائهم فناسبها الأمر بأن لا يتّقوا إلّا الله.

وللتقوى معنى شرعي تقدم في قوله تعالى { هُدىً لِلْمُتَّقِينَ } وهي بذلك المعنى أخصّ لا محالة من الرهبة ولا أحسب أنّ ذلك هو المقصود هنا.

{ وَلا تَلْبِسُوا الحقّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الحقّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [42].

معطوف على جميع ما تقدّم .

اللَّبس: خلط بين متشابهات في الصفات يعسر معه التمييز. فلبس الحقّ بالباطل ترويج الباطل في صورة الحقّ.

الحقّ: الأمر الثابت، من حقّ إذا ثبت ووجب، وهو ما تعترف به سائر النفوس بقطع النظر عن شهواتها .**الباطل**: في كلامهم ضدّ الحقّ، فإنّه الأمر الزائل الضائع، يقال بطل بطلا وبطولا وبطلانا إذا ذهب ضياعا وخسرا، وذهب دمه بطلا أي هدرا .

{ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } حال، وهو أبلغ في النهي، لأن صدور ذلك من العالم أشدّ.

{ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ } [43].

الأمر بالتلبّس بشعار الإسلام عقب الأمر باعتقاد عقيدة الإسلام، وقد تخلّل ذلك نهي عن مفاسد تصدّهم عن المأمورات. وفيه تعريض بحسن الظنّ بإجابتهم وامتثالهم للأوامر السالفة، وأنّهم كملت لهم الأمور المطلوبة.

{ وَارْكَعُوا } تأكيد لمعنى الصلاة، لأنّ لليهود صلاة لا ركوع فيها، فلكي لا يقولوا إنّنا نقيم صلاتنا.

الركوع: طأطأة وانحناء الظهر لقصد التعظيم أو التبجيل. وقد كانت العرب تفعله لبعض كبرائهم.

قال الأعشى: إذا مـا أتـانـا أبـو مـالـك ... ركـعـنـا لـه وخـلـعـنـا الـعِـمـامـة

{ مَعَ الرَّاكِعِينَ } إيماء إلى وجوب ممثالة المسلمين في أداء شعائر الإسلام المفروضة، فالمراد بالراكعين المسلمون، وفيه إشارة إلى الإتيان بالصلاة بأركانها وشرائطها.

{ أَتَأْمُرُونَ النّاس بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ } [44].

النداء على كمال خسارهم ومبلغ سوء حالهم الذي صاروا إليه، فهم يقومون بالوعظ والتعليم كما يقوم الصانع بصناعته والتاجر بتجارته، لا يقصدون إلّا إيفاء وظائفهم الدينية حقّها ليستحقوا بذلك ما يعوّضون عليه من مراتب ورواتب، فهم لا ينظرون إلى حال أنفسهم تجاه تلك الأوامر التي يأمرون بها النّاس.

{ **أَتَأْمُرُونَ النّاس بِالْبِرِّ** } الاستفهام هنا للتوبيخ، وهو مجاز مرسل، لأنّ التوبيخ يلازم الاستفهام.
البِرّ: (بكسر الباء) الخير في الأعمال في أمور الدنيا وأمور الآخرة والمعاملة.
النسيان: ذهاب الأمر المعلوم من حافظة الإنسان لضعف الذهن أو الغفلة. وهو هنا مستعار للترك عن عمد أو عن التهاون بما يذكّر المرء في البرّ على نحو ما.
{ **وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ** } هو توبيخ على اتصاف بحالة فظيعة ليست من شيم الناصحين.
{ **وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ** } جملة حالية قيّد بها التوبيخ والتعجيب. لأنّ نسيان أنفسهم يكون أغرب وأفظع إذا قدّر أنّه في غفلة عن نفسه.
{ **أَفَلا تَعْقِلُونَ** } استفهام عن انتفاء تعقّلهم، استفهاما مستعملا في الإنكار والتوبيخ. وفي هذا نداء على كمال غفلتهم واضطراب حالهم.

{ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ [45] الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ [46] }.
خطاب لبني إسرائيل بالإرشاد إلى ما يعينهم على التخلّق بجميع ما عدّد لهم من الأوامر والنواهي الراجعة إلى التحلّي بالمحامد والتخلي عن المذمّات. فوصف لهم الدواء الذي به الصلاح.
فالأمر بالاستعانة بالصبر، لأنّ الصبر ملاك الهدى، فإنّ ممّا يصد الأمم عن اتباع دين قويم إلفهم بأحوالهم القديمة وضعف النفوس عن تحمل مفارقتها.
وأمّا الاستعانة بالصلاة، فالمراد تأكيد الأمر بها، وهذا إظهار لحسن الظنّ بهم، وهو طريق بديع من طرق الترغيب.
ومن المفسّرين من زعم أنّ الخطاب في قوله تعالى { وَاسْتَعِينُوا } للمسلمين على وجه الانتقال من خطاب إلى خطاب آخر، وهذا وهم، لأنّ وجود حرف العطف ينادي على خلاف ذلك.
{ **وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ** } هنا الصعبة التي تشقّ على النفوس، وإطلاق الكبر على الأمر الصعب والشاق مجاز مشهور في كلام العرب.
{ **إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ** } أي: الذين اتصفوا بالخشوع. والخشوع لغة هوالانزواء والانخفاض. والمراد بالخاشع هنا هوالذي ذلّل نفسه وكسر سَورتها وعوّدها أن تطمئنّ إلى أمر الله وتطلب حُسن العواقب.
الملاقاة والرجوع: هنا مجازان عن الحساب والحشر، أو عن رؤية الثواب، لأنّ حقيقة اللقاء هو تقارب الجسمين، وحقيقة الرجوع هو الانتهاء إلى مكان خرج منه المنتهي.

{ يَا بَنِي إِسْرائيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ } [47].

أعيد خطاب بني إسرائيل بطريق النداء مماثلا لما وقع في خطابهم الأوّل للاهتمام بهذا الخطاب وما يترتّب عليه. والنعمة هنا مراد بها جميع النعم.

{ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ } أي: واذكروا تفضيلي إيّاكم على العالمين، وهذا التفضيل نعمة خاصة، فعطفه على { نِعْمَتِيَ } نعمتي عطف خاص على عام، وهو مبدأ لتفصيل النعم وتعدادها، وربّما كان تعداد النعم مغنيا عن الأمر بالطاعة والامتثال، لأنّ من طبع النفوس الكريمة امتثال أمر المنعم، لأنّ النعمة تورث المحبة. قال منصور الوراق

تعصى الإله وأنت تظهر حبّه ... هذا لعمري في القياس بديع

لو كان حبّك صادقا لأطعته ... إنّ المحبَّ لمن يحب مطيع

وهذا التذكير مقصود به الحث على الاتسام بما يناسب تلك النعمة ويستبقي ذلك الفضل.

ومعنى هذا التفضيل أنّ الله جمع لهم من المحامد التي تتصف بها القبائل والأمم ما لم يجمعه لغيرهم، وهي: شرف النسب، وكمال الخلق، وسلامة العقيدة، وسعة الشريعة، والحرية، والشجاعة، وعناية الله تعالى بهم في سائر أحوالهم.

{ وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ } [48].

عطف التحذير على التذكير، فإنّه لمّا ذكّرهم بالنعمة، وخاصة تفضيلهم على العالمين في زمانهم، عقّب بالتحذير من ذلك.

{ وَاتَّقُوا يَوْماً } اتقاؤه من حيث ما يحدث فيه من الأهوال والعذاب.

{ لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً }، مضارع (جزى) بمعنى قضى حقّا عن غيره.

{ نَفْسٌ } التنكير يفيد عموم النفس، أي: لا يعني أحدٌ كائنا من كان.

والجملة صفة لـ **{ يَوْماً }**. نظيرها قوله { يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ } [الانفطار:19].

{ وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ } الضميران عائدان للنفس الثانية المجرورة بـ (عن)، أي لا يُقبل من نفس شفاعة تأتي بها ولا عدل تعتاض به، لأنّ المقصود الأصلي إبطال عقيدة تنصّل المجرم من عقاب الله، ما لم يشأ الله. وهذا التأييس يستتبع تحقير من توهّمهم الكفرة شفعاء، وإبطال ما زعموه مغنيا عنهم من غضب الله من قرابين قرّبوها ومجادلات أعدّوها.

الشفاعة: السعي والوساطة في حصول نفع أو دفع ضرّ، سواء كانت الوساطة بطلب من المنتفع بها أم كانت بمجرّد سعي المتوسّط. ويقال لطالب الشفاعة مُسْتَشْفِعٌ .

العَدل: (بفتح العين) العوض والفداء، سمِّي بالمصدر لأنّ الفادي يعدل المفدى بمثله في القيمة أو العين ويسوّيه به، يقال عدل كذا بكذا أي سوّاه به.

النصر: هو إعانة الخصم في الحرب وغيره بقوّة الناصر وغلبته. وإنّما قدّم المسند إليه لزيادة التأكيد المفيد أنّ انتفاء نصرهم محقّق.

واتفق المسلمون على ثبوت الشفاعة يوم القيامة للطائعين والتائبين لرفع الدرجات. ولم يختلف في ذلك الأشاعرة والمعتزلة، فهذا اتفاق على تخصيص العموم ابتداء. والخلاف في الشفاعة لأهل الكبائر، فعندنا تقع الشفاعة لهم في حظ السيّئات وقت الحساب أو بعد دخول جهنّم، لما اشتهر من الأحاديث الصحيحة، من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: **" لكل نبيّ دعوة مستجابة، وقد ادّخرت دعوتي شفاعة لأمتي "**.

وعند المعتزلة لا شفاعة لأهل الكبائر لوجوه، منها هاته الآية، لعموم { نَفْسٌ } في سياق النفي المقتضي أنّ كلّ نفس لا يقبل منها شفاعة، وهو عموم لم يرد ما يخصصه عندهم. ومن أدلتهم كذلك قوله تعالى {فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ } [المدثر:48]، وقوله تعالى { مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ } [البقرة: 254].

والحقّ أنّ المسألة أعلق بالفروع منها بالأصول، لأنّها لا تتعلق بذات الله ولا بصفاته. وبعد فمن حقّ الحكمة أن لا يستوي الكافرون والعصاة في مدّة العذاب ولا في مقداره. وأمّا الشفاعة الكبرى العامة لجميع أهل موقف الحساب الوارد فيها الحديث الصحيح المشهور فأنّ أصول المعتزلة لا تأباها.

{ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ } [49].

عطف على قوله { نعمتي }، وعدّى فعل { أنجينا } إلى ضمير المخاطبين، مع أنّ التنجية إنّما كانت تنجية أسلافهم، فإنّه لو بقي أسلافهم في عذاب فرعون لكان ذلك لاحقا لأخلافهم، فلذلك كانت منّة التنجية منّتين، منّة على السلف ومنّة على الخلف، فوجب شكرها على كلّ جيل منهم.

{ آلِ } أصلها (أهل) قلبت هاؤه همزة تخفيفا ليتوصل بذلك إلى تسهيل الهمزة مدّا . يراد به الأقارب والعشيرة والموالي، وخاصة الإنسان وأتباعه.

جاء في التاريخ أنّ مبدأ استقرار بني إسرائيل بمصر كان سببه دخول يوسف عليه السلام في تربية العزيز(طيفار) كبير شرط فرعون، وكانت مصر منقسمة إلى قسمين؛

*/ مصر العليا الجنوبية المعروفة اليوم بـ (الصعيد) الخاضعة لحكم فراعنة من القبط، وقاعدتها (طيوة). */ مصر السفلى وهي الشمالية وقاعدتها (منفيس) وهي القاعدة الكبرى التي هي مقر الفراعنة، وهذه قد تغلّب عليها العمالقة من الساميين، أبناء عم ثمود، وهم الذين يلقّبون في التاريخ المصري بــ

الرعاة الرحّالين وبـ (الهكسوس) وذلك في سنة (3300 أو سنة 1900 ق م) على خلاف ناشئ عن الاختلاف في مدة بقائهم بمصر الذي انتهى سنة (1700ق م)، عند ظهور العائلة الثامنة عشرة.

فكان يوسف عند رئيس شرط فرعون العمليقي، واسم فرعون يومئذ (أبو فيس أو أبيبي) وكان ذلك في حدود سنة (1739 ق م). ثم كانت سكنى بني إسرائيل مصر بسبب تنقل يعقوب وأبنائه إلى مصر حين ظهر أمر يوسف وصار بيده حكم المملكة المصرية السفلى.

وكانت معاشرة الإسرائيليين للمصريين حسنة زمنا طويلا، غير أنّ الإسرائيليين قد حافظوا على دينهم ولغتهم وعاداتهم فلم يعبدوا آلهة المصريين، وسكنوا جميعا بجهة يقال لها أرض (جاسان). ومكث الإسرائيليون على ذلك نحوا من (400 سنة) تغلّب في خلالها ملوك المصريين على ملوك العمالقة وطردوهم من مصر، حتّى ظهرت في مصر العائلة التاسعة عشرة وملك ملوكها جميع البلاد المصريّة ونبغ فيهم (**رعمسيس الثاني**) الملقّب بالأكبر في حدود سنة (1311 ق م)، وكان محاربا باسلا وثارت في وجهه الممالك التي أخضعها أبوه، ومنهم الأمم الكائنة بأطراف جزيرة العرب، فحدثت أسباب أو سوء ظنون أوجبت تنكّر القبط على الإسرائيليين، وكلّفوهم أشق الأعمال وسخّروهم في خدمة المزارع والمباني وصنع الآجر.

وتقول التوراة إنّهم بنوا لفرعون مدينة مخازن (فيثوم) ومدينة رعمسيس، ثم خشي فرعون أن يكون الإسرائيليون أعوانا لأعدائه عليه فأمر باستئصالهم، وكأنّه اطلع على مساعدة منهم لأبناء نسبهم من العمالقة والعرب، فكان يأمر بقتل أبنائهم وسبي نسائهم وتسخير كبارهم، ولا بدّ أن يكون ذلك لما رأى منهم من التنكّر، أو لأنّ القبط لمّا أفرطوا في استخدام العبرانيين، علم فرعون أنّه إن اختلطت جيوشه في حرب لا يسلم من ثورة الإسرائيليين، فأمر باستئصالهم.

وأما ما يحكيه القصاصون أنّ فرعون أخبره كاهن أنّ ذهاب ملكه يكون على يد فتى من إسرائيل، **فلا أحسبه صحيحا** إذ يبعد أن يروج مثل هذا على رئيس مملكة، فيفني به فريقا من رعاياه، اللّهم إلّا أن يكون الكهنة قد أغروا فرعون باليهود قصدًا لتخليص المملكة من الغرباء، أو تفرّسوا من بني إسرائيل سوء النوايا، فابتكروا ذلك الإنباء الكهنوتي لإقناع فرعون بوجوب الحذر من الإسرائيليين.

ولعلّ ذبح الأبناء كان من فعل المصريين استخفافا باليهود، فكانوا يقتلون اليهودي في الخصام القليل، كما أنبأت بذلك آية { فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ } [القصص:15].

والحاصل أنّ التاريخ يفيد على الإجمال أنّ عداوة عظيمة نشأت بين القبط واليهود آلت إلى أن استأصل القبط الإسرائيليين.

ولقد أبدع القرآن في إجمالها، إذ كانت تفاصيل إجمالها كثيرة لا يتعلّق غرض التذكير ببيانها.

{ **يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ** } حال، يقال سامه خسفا إذا أذله واحتقره. وسوء العذاب أشدّه وأفظعه، وهو عذاب التسخير والإرهاق وتسليط العقاب الشديد بتذبيح الأبناء وسبي النساء.

الاستحياء: استفعال، ووجه ذكره هنا في معرض التذكير بما نالهم من المصائب، أنّ هذا الاستحياء للإناث كان المقصد منه خبيثا، وهو أن يعتدوا على أعراضهن ولا يجدن بدا من الإجابة بحكم الأسر والاسترقاق.

البلاء: الاختبار بالخير والشرّ، قال تعالى { وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ } [لأعراف:168] وهو مجاز مشهور .حقيقته بلاء الثوب وهو تخلّقه وترهّله، ولمّا كان الاختبار يوجب الضجر والتعب سمِّي بلاء كأنه يخلق النفس، ثم شاع في اختبار الشرّ، لأنّه أكثر إعناتا للنفس، فيطلق غالبا على المصيبة.

{ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ } [50].

هذا زيادة في التفصيل بذكر نعمة أخرى عظيمة خارقة للعادة، بها كان تمام الإنجاء من آل فرعون، وفيها بيان مقدار إكرام الله تعالى لهم، ومعجزة لموسى عليه السلام.

{ **فَرَقْنَا** } وفرق وفرّق بالتخفيف والتشديد بمعنى واحد، ومعناه الفصل بين أجزاء شيء متّصل الأجزاء.

{ **الْبَحْرَ** } هو بحر القلزم المسمّى اليوم بالبحر الأحمر، وسمّته التوراة بحر(**سوف**).

{ **بِكُمُ** } الباء إمّا للملابسة، أي أنّه يفرق وهم يدخلونه، فكان الفرق حاصلا بجانبهم، وجوّز صاحب الكشاف كون الباء للسببية، أي بسببكم يعني لأجلكم.

{ **فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ** }، هو محلّ المنّة وذكر النعمة، وهو نجاتهم من الهلاك وهلاك عدوّهم. وقد أشارت الآية إلى ما حدث لبني إسرائيل بعد خروجهم من مصر من لحاق جند فرعون بهم لمنعهم من مغادرة البلاد المصريّة. وذلك أنّهم لما خرجوا ليلا، إمّا بإذن من فرعون كما تقول التوراة في بعض المواضع، وإمّا خفية كما عبّرت عنه التوراة بالهروب، حصل لفرعون ندم على إطلاقهم، أو أغراه بعض أعوانه بصدّهم عن الخروج، لما في خروجهم من إضاعة الأعمال التي كانوا يسخّرون فيها، أو لأنّه لمّا رآهم سلكوا غير الطريق المألوف لاجتياز مصر إلى الشام ظنّهم يرومون الانتشار في بعض جهات مملكته المصرية، فخشى شرّهم إن هم بعدوا عن مركز ملكه ومجتمع قوته وجنده.

ذلك أنّ بني إسرائيل لمّا خرجوا من جهات حاضرة مصر، وهي يومئذ مدينة منفيس، لم يسلكوا الطريق المألوف لبلاد الشام، إذ تركوا أن يسلكوا طريق شاطئ بحر الروم المتوسط فيدخلوا برّيّة سينا من غير أن يخترقوا البحر، ولا يقطعوا أكثر من اثنتي عشرة مرحلة (مائتين وخمسين ميلا)، وسلكوا طريقا جنوبية شرقية حول أعلى البحر الأحمر، لئلّا يسلكوا الطريق المألوفة الآهلة بقوافل المصريين وجيوش الفراعنة، خشية أن يصدّوهم عن الاسترسال في سيرهم، أو يُلحق بهم فرعون من يردّهم ، لأنّ موسى علم بوحي أنّ فرعون لا يلبث أن يصدّهم عن المضي في سيرهم، كما قال تعالى { وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ } [الشعراء:52]، فلذلك سلك بهم، بالأمر الإلهي، طريقا غير مطروقة ،

فكانوا مضطرّين للوقوف أمام البحر في موضع يقال له (فم الحيروث)، فهنالك ظهرت المعجزة، إذ فلق الله لهم البحر بباهر قدرته، فأمر موسى أن يضربه بعصاه، فانفلق وصار فيه طريق يبس مرّت عليه بنو إسرائيل، وكان جند فرعون قد لحق بهم ورام اقتحام البحر وراءهم فانطبق البحر عليهم فغرقوا.

{ **وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ** } أي جنده وأنصاره. ولم يذكر في هاته الآية غرق فرعون، لأنّ محل المنّة هو إهلاك الذين كانوا المباشرين لتسخير بني إسرائيل وتعذيبهم، والذين هم قوّة فرعون. وقد ذكر غرق فرعون في آيات أخرى. وكان ذلك في زمن الملك (منفتاح) ويقال له (منفطة أو مينيتاه)، من فراعنة العائلة التاسعة عشرة في ترتيب فراعنة مصر عند المؤرخين.

{ **وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ** } جملة حالية، زيادة في تقرير النعمة وتعظيمها، فإنّ مشاهدة المنعَم عليه للنعمة لذّة عظيمة. وإسناد النظر إليهم باعتبار أن أسلافهم كانوا ناظرين ذلك، لأنّ النعمة على السلف نعمة على الأبناء لا محالة، فضمير الخطاب مجاز.

{ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ [51] ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [52] }.

تذكير لهم بنعمة عفو الله عن جرمهم العظيم بعبادة غيره، وذلك ممّا فعله سلفهم.

{ **وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى** } المراد هنا أمر الله موسى أن ينقطع أربعين ليلة لمناجاة الله تعالى. وإطلاق الوعد على هذا الأمر من حيث إنّ ذلك تشريف لموسى ووعد له بكلام الله وبإعطاء الشريعة .

موسى: هو رسول الله إلى بني إسرائيل وصاحب شريعة التوراة، وهو موسى بن عمران ولم يذكر اسم جدّه، ولكن الذي جاء في التوراة أنّه هو وأخوه هارون **من سبط لاوي بن يعقوب**. ولد بمصر في حدود سنة (1500 ق م)، ولمّا ولدته أمّه خافت عليه أن يأخذه القبط فيقتلوه، لأنّه في أيام ولادته كان القبط قد ساموا بني إسرائيل سوء العذاب. وأمّه تسمّى (**يوحانذ**) وهي أيضا من سبط لاوي، وكان زوجها قد توفي حين ولدت موسى، فتحيّلت لإخفائه عن القبط مدة ثلاثة أشهر ثم ألهما الله فأرضعته رضعة ووضعته في سفط منسوج من خوص البردي وطلته بالمغرة والقار، لئلا يدخله الماء، ووضعت فيه الولد وألقته في النيل بمقربة من مساكن فرعون على شاطئ النيل، ووكّلت أختا له اسمها مريم بأن ترقب الجهة التي يلقيه النيل فيها، وماذا يُصنع به، وكان ملك مصر في ذلك الوقت تقريبا هو فرعون رعمسيس الثاني، ولمّا حمله النهر كانت ابنة فرعون المسمّاة (ثرموت) مع جوار لها يمشين على حافة النهر لقصد السباحة والتبرّد في مائه، قيل كانوا في مدينة (عين شمس)، فلمّا بصرت بالسفط أرسلت أمة لها لتنظر السفط، فلما فتحنه وجدن الصبيّ، فأخذته ابنة فرعون إلى أمّها، وأظهرت مريم أخت موسى نفسها لابنة فرعون، فلما رأت رقة ابنة فرعون على الصبي، قالت: إنّ فينا مرضعا،

أفأذهب فادعوها لترضعه؟ فقالت: نعم، فذهبت وأتت بأم موسى. وأخذت امرأة فرعون الولد وتبنته وسمته موشى قيل إنه مركب من كلمة(**مو**) بمعنى الماء وكلمة (**شى**) بمعنى المنقذ، وقد صارت في العربية **موسى**.

والأظهر أنّ هذا الاسم مركب من اللغة العبرية لا من القبطية، فلعله كان له اسم آخر في قصر فرعون وأنّه غيّر اسمه بعد ذلك.

ونشأ موسى في بيت فرعون كولد له، ولما كبر علم أنّه ليس بابن فرعون وأنه إسرائيلي، ولعلّ أمّه أعلمته بذلك وجعلت له أمارات يوقن بها، وأنشأه الله على حبّ العدل ونصر الضعيف. وكان موسى شديدا قوي البنية ولما بلغ أشده في حدود نيف وثلاثين من عمره حدث له حادث قتلَ فيه قبطيا، انتصارا لإسرائيلي، ولعلّ ذلك كان بعد مفارقته لقصر فرعون، أي بعد موت مربيه، فخاف موسى أن يُقتصّ منه وهاجر من مصر، ومرّ في مهاجرته بمدين، وتزوّج ابنة شعيب، ثم خرج من مدين بعد عشر سنين، وعمره يومئذ نيف وأربعون سنة. وأوحى الله إليه في طريقه أن يُخرج بني إسرائيل من مصر، وينقذهم من ظلم فرعون، فدخل مصر ولقي أخاه هارون في جملة قومه في مصر، وسعى في إخراج بني إسرائيل من مصر، بما قصّه الله في كتابه، وكان خروجه ببني إسرائيل من مصر في حدود سنة ستين وأربعمائة وألف قبل المسيح (1460 ق م) في زمن (منفطاح الثاني).

وتوفي موسى عليه السلام قرب أريحا على جبل (**نيبو**) سنة ثمانين وثلاثمائة وألف قبل ميلاد عيسى (1380 ق م)، ودفن هنالك، وقبره غير معروف لأحد، كما هو نصّ التوراة.

{ **أَرْبَعِينَ لَيْلَةً** } اللقاء الموعود به، ناب هذا الظرف عن المتعلّق، أي المناجاة وغيرها في أربعين ليلة.

{ **ثُمّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ** } وإنّما اتخذوا العجل تشبّها بالكنعانيين الذين دخلوا إلى أرضهم، وهم الفنيقيّون، سكاّن سواحل بلاد الشام، فإنّهم كانوا عبدة أوثان، وكان العجل مقدّسا عندهم، وكانوا يمثّلون أعظم الآلهة عندهم بصورة إنسان من نحاس له رأس عجل جالس على كرسي مادا ذراعيه كمتناول شيء يحتضنه، وكانوا يُحمُّونه بالنار من حفرة تحت كرسيه، لا يتفطن لها النّاس، فكانوا يقرّبون إليه القرابين، وربّما قربوا له أطفالهم صغارا، فإذا وضع الطفل على ذراعيه اشتوى، فظنّوا ذلك أمارة قبول القربان، فتبا لجهلهم وما يصنعون .

وكان يسمى عندهم (بعلا) وربّما سمّوه (مولوك)، وهم أمّة سامية، لغتها وعوائدها تشبه في الغالب لغة وعوائد العرب، فلمّا مرّ بهم بنو إسرائيل قالوا لموسى: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، فانتهرهم موسى وكانوا يخشونه، فلما ذهب للمناجاة واستخلف عليهم هارون، استضعفوه وظنوا أن موسى هلك، فاتخذوا العجل الذي صنعوه من ذهب وفضة من حليّهم وعبدوه.

{ **وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ**} حال مقيّدة ، وفائدة الحال الإشعار بانقطاع عذرهم فيما صنعوا، وأن لا تأويل لهم في عبادة العجل. وقد اطلعت بعد هذا على تفسير الشيخ محمد بن عرفة التونسي فوجدته قال في تفسير قوله

تعالى { وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ }: لا شبهة لكم في اتخاذه.
{ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ } هو محلّ المنّة.
{ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ } حال من ضمير { عفونا } مقيدة للعفو، إعجابا به، أي بعد ذلك الذنب العظيم.
{ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } رجاء لحصول شكركم، وللغزالي فيه باب حافل، فارجع إليه في كتاب الإحياء.

{ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } [53].

هذا تذكير بنعمة نزول الشريعة التي بها صلاح أمورهم وانتظام حياتهم وتأليف جماعتهم، وهم يعدّونها شعار مجدهم وشرفهم، لسعة الشريعة المنزّلة لهم، حتّى كانت كتابا، فكانوا به أهل كتاب.
الكتاب: التوراة التي أوتيها موسى، فالتعريف للعهد، ويعتبر معها ما أُلْحق بها.
الفرقان: مصدر بوزن فعلان مشتق من الفرق وهو الفصل، استعير لتمييز الحقّ من الباطل، فهو وصف لغوي للتفرقة، فقد يطلق على كتاب الشريعة وعلى المعجزة، وعلى نصر الحقّ على الباطل، وعلى الحجّة القائمة على الحقّ.
والظاهر أنّ المراد به هنا المعجزة أو الحجّة، لئلا يلزم عطف الصفة على موصوفها.
{ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } هو محل المنّة، لأنّ إتيان الشريعة لو لم يكن لاهتدائهم وكان قاصرا على عمل موسى به، لم يكن فيه نعمة عليهم.

{ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } [54].

هذه نعمة أخرى، وهي نعمة نسخ تكليف شديد عليهم كان قد جُعل جابرا لما اقترفوه من إثم عبادة الوثن.
{ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ } فهذا القول من موسى لا يكون مثله إلّا عن وحي لا عن اجتهاد، وإن جاز الاجتهاد للأنبياء، فإنّ هذا حكم مخالف لقاعدة حفظ النفوس التي قيل: قد اتفقت عليها شرائع الله. فهو يدلّ على أنّه كلّفهم بقتل أنفسهم، قتلا حقيقة، إمّا بأن يقتل كل من عبد العجل نفسه، وإمّا بأن يقتل من لم يعبدوا العجل عابديه. وكلام التوراة في هذا الغرض في غاية الإبهام، وظاهره أنّ موسى أمره الله أن يأمر اللاويين (الذين هم من سبط لاوي الذي منه موسى وهارون) أن يقتلوا من عبد العجل بالسيف، وأنّهم فعلوا، وقتلوا ثلاثة آلاف نفس، ثم استشفع لهم موسى فغفر الله لهم، أي فيكون حكم قتل أنفسهم منسوخا بعد العمل به، ويكون المعنى: فليقتل بعضكم بعضا.
ومن النّاس من حمل الأمر بقتل النفس هنا على معنى القتل المجازي، وهو التذييل والقهر. وفيه بعد عن اللفظ، بل مخالفة لغرض الامتنان، لأنّ تذليل النفس وقهرها شريعة غير منسوخة.

{ **ظَلَمْتُمْ** } الظلم هنا الجناية والمعصية.

{ **فتاب عليكم** } ظاهر في أنّه من كلام الله تعالى ، وعطف بالفاء إشارة إلى تعقيب جرمهم بتوبته تعالى عليهم وعدم تأخيرها إلى ما بعد استئصال جميع الذين عبدوا العجل، بل نسخ ذلك بقرب نزوله بعد العمل به قليلا أو دون العمل به، وفي ذلك رحمة عظيمة بهم، إذ حصل العفو عن ذنب عظيم بدون تكليفهم توبة شاقة، بل اكتفاء بمجرد ندمهم وعزمهم على عدم العود لذلك.

{ **إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** } وإنّما جمع التوّاب مع الرحيم لأنّ توبته تعالى عليهم كانت بالعفو عن زلّة اتخاذهم العجل، وهي زلة عظيمة لا يغفرها إلّا الغفار، وبالنسخ لحكم قتلهم، وذلك رحمة.

فكان للرحيم موقع عظيم هنا، وليس هو لمجرد الثناء.

{ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حتّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ [55] ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [56] }.

الظاهر أنّ هذا القول وقع منهم بعد العفو عن عبادتهم العجل، وقيل سألوه عند مناجاته، وأنّ السائلين هم السبعون الذين اختارهم موسى للميقات، وقيل سأل ذلك جمع من عامة بني إسرائيل، وليس في التوراة ما هو صريح لترجيح أحد القولين. والظاهر أنّ ذلك كان في الشهر الثالث بعد خروجهم من مصر.

{ **لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ** } دالة على عجرفتهم وقلّة اكتراثهم بما أوتوا من النعم وما شاهدوا من المعجزات، حتّى راموا أن يروا الله جهرة، وإن لم يروه دخلهم الشك في صدق موسى.

الجهرة: مصدر بوزن فعلة من الجهر وهو الظهور، نحو رأيته جهارا، ومنه جهر البئر إذا أظهر ماءها. { **فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ** } أي عقوبة لهم عمّا بدا منهم من العجرفة وقلة الاكتراث بالمعجزات.

وهذه عقوبة دنيوية لا تدل على أنّ المعاقب عليه حرام أو كفر. وبه تعلم أن ليس في إصابة الصاعقة لهم دلالة على أنّ رؤية الله تعالى مستحيلة، وأن سؤالها والإلحاح فيه كفر، كما زعم المعتزلة، كيف وقد سأل الرؤية موسى عليه السلام.

الصاعقة: نار كهربائية من السحاب تحرق من أصابته، وقد قيل إن الذي أصابهم نار، وقيل سمعوا صعقة فماتوا.

{ **وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ** } قال القرطبي، أي وأنتم ينظر بعضكم لبعض، أي مجتمعون. وعندي أن المفعول محذوف والمعنى: تحدّقون الأنظار عند رؤية السحاب على جبل الطور طمعا أن يظهر لهم الله من خلاله، لأنّهم اعتادوا أنّ الله يكلم موسى كلاما يسمعه من خلال السحاب، كما تقوله التوراة في مواضع. ففائدة الحال إظهار أنّ العقوبة أصابتهم في حين الإساءة والعجرفة، إذ طمعوا فيما لم يكن ليُنال لهم.

{ **ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ** } إيجاز بديع، أي فمتم من الصاعقة { ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ }، وهذا

خارق عادة الله، معجزة لموسى، استجابة لدعائه وشفاعته أو كرامة لهم من بعد تأديبهم، إن كان السائلون هم السبعون، فإنّهم من صالحي بني إسرائيل.

{ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [57].

الظاهر أن تظليل الغمام ونزول المن والسلوى كان قبل سؤالهم رؤية الله جهرة لأنّ التوراة ذكرت نزول المنّ والسلوى حين دخولهم في برّيّة سينا بين (إيليم) و(سينا) في اليوم الثاني عشر من الشهر الثاني من خروجهم من مصر حين اشتاقوا أكل الخبز واللحم، لأنّهم في رحلتهم ما كانوا يطبخون بل الظاهر أنّهم كانوا يقتاتون من ألبان مواشيهم التي أخرجوها معهم، ومما تنبته الأرض.

وأمّا تظليلهم بالغمام فالظاهر أنّه وقع بعد أن سألوا رؤية الله، لأنّ تظليل الغمام وقع بعد أن نصب لهم موسى خيمة الاجتماع، محلّ القرابين ومحل مناجاة موسى وقبلة الداعين من بني إسرائيل في برية سينا. فلمّا تمت الخيمة، سنة اثنتين من خروجهم من مصر، غطت سحابة خيمة الشهادة، ومتى ارتفعت السحابة عن الخيمة فذلك إذن لبني إسرائيل بالرحيل، فإذا حلّت السحابة حلّوا.

فلمّا سأل بنو إسرائيل الخبز واللحم كان المنّ ينزل عليهم في الصباح، والسلوى تسقط عليهم في المساء، بمقدار ما يكفي جميعهم ليومه أو ليلته، إلّا يوم الجمعة فينزل عليهم منهما ضعف الكمّيّة، لأنّ في السبت انقطاع النزول.

المنّ: مادة صمغية جوّية ينزل على شجر البادية **شبه الدقيق المبلول**. وقد وصفته التوراة بأنّه، دقيق مثل القشور، يسقط ندى كالجليد على الأرض، وهو مثل بزر الكزبرة أبيض، وطعمه كرقاق بعسل. وسمَّته بنو إسرائيل (**منًّا**). وقد أمروا أن لا يبقوا منه للصباح، لأنّه يتولّد فيه دود، وأن يلتقطوه قبل أن تحمي الشمس، لأنّها تذيبه فكانوا إذا التقطوه طحنوه بالرحى أو دقوه بالهاون وطبخوه في القدور وعملوه ملات، وكان طعمه كطعم قطائف بزيت [سفر العدد، الإصحاح:11]، وأنّهم أكلوه أربعين سنة.

السلو: فهو طائر برّي لذيذ اللحم سهل الصيد، كانت تسوقه لهم ريح الجنوب كل مساء فيمسكونه قبضا ويسمَّى هذا الطائر أيضا السُّماني.

{ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ } بقية الخبر عن أسلافهم.

{ وما ظلمونا } غير الأسلوب في هذه الجملة إذ انتقل من خطاب بني إسرائيل إلى الحديث عنهم بضمير الغيبة لقصد الاتعاظ بحالهم وتعريضا بأنّهم متمادون على غيّهم وليسوا مستفيقين من ضلالهم فهم بحيث لا يقرّون بأنّهم ظلموا أنفسهم. وهذا الظلم الذي قدّر في نظم الآية هو ضجرهم من مداومة أكل المنّ والسلوى، الذي سيأتي ذكره بقوله تعالى { وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ } [البقرة:61].

{ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } أكّد بالقصر والتقديم، تعجّبا من حالهم، حيث يصدق عليهم القول: يفعل

الجاهل بنفسه ما يفعل العدو بعدوه.

{ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ [58] فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُون [59] }.

أشارت الآية إلى قصّة معلومة تضمَّنتها كتبهم، وهي أنّ بني إسرائيل لمّا طوحت بهم الرحلة إلى برّيّة (فاران) نزلوا بمدينة (قادش) فأصبحوا على حدود أرض كنعان، التي هي الأرض المقدّسة التي وعدها الله بني إسرائيل، وذلك في أثناء السنة الثانية بعد خروجهم من مصر، فأرسل موسى اثني عشر رجلا ليتجسّسوا أرض كنعان من كل سبط رجل وفيهم (**يوشع بن نون**) و(**كالب بن يُفَنَّة**) فصعدوا وأتوا إلى مدينة (حبرون) فوجدوا الأرض ذات خيرات، وقطعوا من عنبها ورمانها وتينها، ورجعوا لقومهم بعد أربعين يوما، وأخبروا موسى وهارون وجميع بني إسرائيل، وأروهم ثمر الأرض وأخبروهم أنّها حقًا تفيض لبنا وعسلا، غير أنّ أهلها ذوو عزّة ومدنها حصينة جدًا. فأمر موسى (كالبا) فأنصت بنو إسرائيل إلى موسى، وقال: إننا نصعد ونمتلكها. وكذلك قال يوشع، أمّا العشرة الآخرون فأشاعوا في بني إسرائيل مذمّة الأرض وأنّ سكّانها جبابرة، فخافت بنو إسرائيل من سكّان الأرض وجبنوا عن القتال فقام فيهم يوشع وكالب قائلين: لا تخافوا من العدو فإنّهم لقمة لنا والله معنا، فلم يصغ القوم لهم.

وأوحى الله لموسى أنّ بني إسرائيل أساءوا الظنّ بربّهم وأنّه مهلكهم، فاستشفع لهم موسى، فعفا الله عنهم ولكنه حرمهم من الدخول إلى الأرض المقدسة أربعين سنة يتيهون فلا يدخل لها أحد من الحاضرين يومئذ إلّا يوشعا وكالبا، وأرسل الله على الجواسيس العشرة المثبّطين وباء أهلكهم.

{ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ } يتعين أنّه إشارة إلى ما أشاعه الجواسيس العشرة من مذمّة الأرض وصعوبتها، وأنّهم لم يقولوا مثل ما قال موسى ، وأنّ الرجز الذي أصاب الذين ظلموا هو الوباء الذي أصاب العشرة الجواسيس.

{ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ } أي على لسان موسى فبلّغه للقوم بواسطة استنصات (كالب بن يُفَنَّة)، وهذا هو الذي يوافق قوله تعالى { يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ } [المائدة:21].

وعلى هذا الوجه فقوله { **ادخلوا** } إمّا أمر بدخول قرية قريبة منهم وهي (حبرون) لتكون مركزا أوّلا لهم. والأمر بالدخول أمر بما يتوقف الدخول عليه أعني **القتال،** كما دلّت عليه آية المائدة { ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ - إلى قوله - وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ } [21]، فإنّ الارتداد على الأدبار من الألفاظ المتعارفة في الحروب كما قال تعالى { فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ } [لأنفال:15].

ولعلّ في الإشارة بـ { **هَذِهِ** } المفيدة للقرب، ما يرجّح أنّ القرية هي (حبرون) التي زارها جواسيسهم.
القرية: بفتح القاف، البلدة المشتملة على المساكن المبنيّة من حجارة، وهي مشتقّة من **القَرْي** (بفتح فسكون وبالياء) وهو الجمع. يقال: قَرَى الشيء يقريه إذا جمعه. وهي تطلق على البلدة الصغيرة وعلى المدينة الكبيرة ذات الأسوار والأبواب.

{ **وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً** } الظاهر أنّ المقصود من السجود مطلق الانحناء لإظهار العجز والضعف كيلا يفطن لهم أهل القرية، وهذا من أحوال الجوسسة، ولم تتعرّض لها التوراة.
ويبعد أن يكون السجود المأمور به سجود الشكر.

{ **وَقُولُوا حِطَّةٌ** } الحطة فعلة من الحط وهوالخفض. والظاهر أنّ هذا القول كان معروفا في ذلك المكان للدلالة على العجز، أو هو من أقوال السؤال والشحاذين كيلا يحسب لهم أهل القرية حسابا ولا يأخذوا حذرا منهم. فيكون القول الذي أمروا به قولا يخاطبون به أهل القرية.
وقيل: المراد من الحطة سؤال غفران الذنوب، أي: حطّ عنا ذنوبنا. وقيل: من الحطّ، بمعنى حط الرحال، أي: إقامة، أي: ادخلوا قائلين إنكم ناوون الإقامة. وهذان التأويلان بعيدان.

{ **وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ** } وعد بالزيادة من خيري الدنيا والآخرة، ولذلك حذف مفعول نزيد .

{ **فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ** } أي: بدّل العشرة القول الذي أمر موسى بإعلانه في القوم، وهو الترغيب في دخول القرية وتهوين العدو عليهم. فقالوا لهم لا تستطيعون قتالهم، وثبّطوهم، ولذلك عوقبوا.

{ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ } [60]

تذكير بنعمة أخرى جمعت ثلاث نعم، وهي الري من العطش، وكون السقي في مظنّة عدم تحصيله، وكون العيون اثنتى عشرة، ليستقلّ كلّ سبط بمشرب فلا يتدافعوا. وقد أشارت الآية إلى حادثة معروفة عند اليهود، وذلك أنّهم في حدود الشهر الثالث من الخروج عطشوا ولم يكن بالموضع ماء فتذمّروا على موسى، فدعا موسى ربّه فأمره الله أن يضرب بعصاه صخرة فانفجر منها الماء. ولم تذكر التوراة أنّ العيون اثنتا عشرة عينا، فهذا ممّا بيّنه الله في القرآن.

أخذ المازري من هذه الآية جواز استسقاء المخصب للمجدب، والمسألة مختلف فيها عندنا واختار اللخمي جواز استسقاء المخصب للمجدب لأنه من التعاون على البر، ولأنّ دعوة المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة.

{ **اضْرِبْ بِعَصَاكَ** } وعصا موسى هي التي ألقاها في مجلس فرعون فتلقفت ثعابين السحرة، وهي التي كانت في يد موسى حين كلمه الله في برّيّة سينا قبل دخوله مصر، وقد رويت في شأنها أخبار لا يصح

منها شيء.

{ **الْحَجَرَ** } التعريف يجوز أن يكون للجنس، أي: أضرب أي حجر شئت، أو للعهد مشيرا إلى حجر عرفه موسى بوحي من الله، وقد وردت فيه أخبار ضعيفة.

{ **قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ** } المراد بالأناس كل ناس سبط من الأسباط.

{ **كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ** } مقول قول محذوف، وقد جمع بين الأكل والشرب وإن كان الحديث على السقي، لأنّه قد تقدمه إنزال المن والسلوى.

{ **وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ** } من جملة ما قيل لهم، ووجه النهي عنه أنّ النعمة قد تُنسي العبد حاجته إلى الخالق فيهجر الشريعة فيقع في الفساد، وهو أشد الفساد. وقيل: هو الفساد مطلقا.

في الكشاف جعل معنى لا تعثوا لا تتمادوا في فسادكم فجعل المنهي عنه هو الدوام على الفعل.

{ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الحقّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ } [61].

الآية عندي انتقال من تعداد النعم المعقّبة بنعم أخرى إلى بيان سوء اختيارهم في شهواتهم، والاختيار دليل عقل اللبيب، وإن كان يختار مباحا. مع ما في صيغة طلبهم من الجفاء وقلّة الأدب مع الرسول ومع المنعِم . وفي ذلك إلجاء لموسى أن يبادر بالسؤال. فكان جواب الله لهم في هذه الطلبة أن قطع عنايته بهم وأهملهم ووكّلهم إلى نفوسهم، ولم يرهم ما عوّدهم من إنزال الطعام وتفجير العيون، بعد فلق البحر وتظليل الغمام، بل قال لهم { اهْبِطُوا مِصْراً }، فأمرهم بالسعي لأنفسهم، وكفى بذلك تأديبا وتوبيخا.

وقد أشارت الآية إلى قصّة ذكرتها التوراة مجملة منتثرة، وهي أنّهم لما ارتحلوا من برّيّة سينا من (حوريب) ونزلوا في برّيّة (فاران) في آخر الشهر الثاني من السنة الثانية من الخروج سائرين إلى جهات (حبرون)، فقالوا: تذكّرنا السمك الذي كنّا نأكله في مصر مجانا (أي يصطادونه بأنفسهم)، والقثاء والبطيخ والكراث والبصل والثوم وقد يبست نفوسنا فلا نرى إلا هذا المن، فبكوا، فغضب الله عليهم، وسأله موسى العفو، فعفا عنهم وأرسل عليهم السلوى، فادخروا منها طعام شهر كامل.

{ **طَعَامٍ وَاحِدٍ** } ووصفوا الطعام بواحد وإن كان هو شيئين المن والسلوى، لأن المراد أنه متكرّر كل يوم.

{ **قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ** } هو من كلام موسى، وقيل من كلام الله، وهو توبيخ شديد، واقتصر على الاستفهام المقصود منه التعجّب فالتوبيخ. وفي الاستبدال للخير بالأدنى النداء

بنهاية حماقتهم وسوء اختيارهم.

{ **اهبطوا** } للإباحة المشوبة بالتوبيخ، أي: إن كان هذا همّكم فاهبطوا مصرا من الأمصار. وفيه إعراض عن طلبهم، إذ ليس حولهم يومئذ بلد قريب يستطيعون وصوله. وقيل :أراد اهبطوا **مصر** ، أي: بلد القبط، أي: ارجعوا إلى مصر التي خرجتم منها. ويكون القول أمرا قُصد منه التهديد على تذكّرهم أيّام ذلّهم وعنائهم وتمنيهم الرجوع لتلك المعيشة.

{ **فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ** } للدلالة على حصول سؤلهم بمجرّد هبوطهم مصر.

{ **وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ** } الضمير عائدة إلى جميع بني إسرائيل لا إلى خصوص الذين أبوا دخول القرية، والذين قالوا لن نصبر على طعام واحد، بدليل قوله تعالى { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ }، فإنّ الذين قتلوا النبيين هم أبناء الذين أبوا دخول القرية ، فالإتيان بضمير الغيبة هنا جار على مقتضى الظاهر، لأنّهم غير المخاطبين، فليس هو من بقية جواب موسى إيّاهم.

{ **وَضُرِبَتْ** } استعارة مكنية إذ شبهت الذلة والمسكنة في الإحاطة بهم واللزوم بالبيت أو القبة يضربها الساكن ليلزمها.

المسكنة: الفقر، مشتقّة من السكون، لأنّ الفقر يقلّل حركة صاحبه. وتطلق على الضعف، ومنه المسكين للفقير.

ومعنى لزوم الذلّة والمسكنة لليهود أنّهم فقدوا البأس والشجاعة وبدا عليهم سيما الفقر والحاجة مع وفرة ما أنعم الله عليهم.

البوء: الرجوع وهو هنا مستعار لانقلاب الحالة ممّا يرضي الله إلى غضبه.

{ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الحقّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ** } استئناف بياني أثاره ما شنَّع به حالهم من لزوم الذلة والمسكنة لهم.

{ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ** } الباء سببيّة، أي: أنّ كفرهم وما معه كان سببا لعقابهم في الدنيا بالذلة والمسكنة، وفي الآخرة بغضب الله، وفيه تحذير من الوقوع في مثل ما وقعوا فيه.

{ **وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الحقّ** } خاص بأجيال اليهود الذين اجترموا هذه الجريمة العظيمة سواء في ذلك من باشر القتل وأمر به ومن سكت عنه ولم ينصر الأنبياء. وقد قتل اليهود من الأنبياء:

أشعياء بن أموص، الذي كان حيّا في منتصف القرن الثامن قبل المسيح، قتله الملك منسي ملك اليهود سنة (700 ق م)، نشر نشرا على جذع شجرة .

أرمياء: النبيّ الذي كان حيّا في أواسط القرن السابع قبل المسيح، وذلك لأنّه أكثر التوبيخات والنصائح لليهود، فرجموه بالحجارة حتّى قتلوه، وفي ذلك خلاف.

زكرياء: الأخير أبا يحي، قتله هيرودس العبراني ملك اليهود من قبل الرومان لأنّ زكرياء حاول تخليص ابنه يحيى من القتل، وذلك في مدة نبوّة عيسى. ويحيى بن زكرياء قتله هيرودس لغضب ابنة أخت هيرودس عليه.

{ **بِغَيْرِ الحقّ** } أي: بدون وجه معتبر في شريعتهم فإن فيها { أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاس جَمِيعاً } [المائدة:32]، فهذا القيد من الاحتجاج على اليهود بأصول دينهم لتخليد مذمّتهم، وإلّا فإنّ قتل الأنبياء لا يكون بحقّ في حال من الأحوال.

وإنما قال الأنبياء لأن الرسل لا تسلط عليهم أعداؤهم، لأنّه مناف لحكمة الرسالة التي هي التبليغ، قال تعالى { إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا } [غافر:51] وقال { وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ } [المائدة:67]، ومن ثَمَّ كان ادّعاء النصارى أن عيسى قتله اليهود ادعاء منافيا لحكمة الإرسال. ولكنّ الله أنهى مدّة رسالته بحصول المقصد ممّا أرسل إليه.

{ **ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ** } إشارة إلى سبب ضرب الذلة والمسكنة والغضب في الآخرة. فما بعد كلمة (ذلك) هو سبب السبب، تنبيها على أنّ إدمان العاصي يفضي إلى التغلغل فيها والتنقل من أصغرها إلى أكبرها.

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ } [62].

توسطت هاته الآية بين آيات ذكر بني إسرائيل بما أنعم الله عليهم وبما قابلوا به تلك النعم من الكفران وقلة الاكتراث، فجاءت معترضة بينها لمناسبة يدركها كلّ بليغ، وهي أنّ ما تقدّم من حكاية سوء مقابلتهم لنعم الله تعالى قد جرّت عليهم ضرب الذلة والمسكنة ورجوعهم بغضب من الله تعالى عليهم، ولما كان الإنْحاء عليهم بذلك من شأنه أن يفزعهم إلى طلب الخلاص من غضب الله تعالى لم يترك الله تعالى عادته مع خلقه من الرحمة بهم وإرادته صلاح حالهم فبيّن لهم في هاته الآية أنّ باب الله مفتوح لهم، وأنّ اللجأ إليه أمر هيّن عليهم، وذلك بأن يؤمنوا ويعملوا الصالحات.

ومن بديع البلاغة أن قرن معهم في ذلك ذكر بقيّة من الأمم ليكون ذلك تأنيسا لوحشة اليهود من القوارع السابقة في الآيات الماضية، وإنصافا للصالحين منهم، واعترافا بفضلهم، وتبشيرا لصالحي الأمم من اليهود وغيرهم الذين مضوا، مثل الذين كانوا قبل عيسى وامتثلوا لأنبيائهم، ومثل الحواريين، والموجودين في زمن نزول الآية، مثل عبد الله بن سلام وصهيب. فقد وفّت الآية حق الفريقين من الترغيب والبشارة، وراعت المناسبتين للآيات المتقدمة، مناسبة اقتران الترغيب بالترهيب، ومناسبة ذكر الضدّ بعد الكلام على ضدّه.

{ **الَّذِينَ آمَنُوا** } المراد بهم في هذه الآية هم المسلمون الذين صدّقوا بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا لقب للأمّة الإسلامية في عرف القرآن.

{ **وَالَّذِينَ هَادُوا** } هم بنو إسرائيل ، ومعنى هادوا كانوا يهودا أو دانوا بدين اليهود. وأصل اسم **يهود** منقول في العربية من العبرانية وهو في العبرانية بذال معجمة في آخره وهو **علم أحد أسباط إسرائيل.** وهذا الاسم أطلق على بني إسرائيل بعد موت سليمان (975 ق م)، فإنّ مملكة إسرائيل انقسمت بعد موته إلى مملكتين:

*/ <u>مملكة (رحبعام بن سليمان)،</u> ولم يتبعه إلّا سبط يهوذا وسبط بنيامين، وتلقّب **بمملكة يهوذ** لأنّ معظم أتباعه من سبط يهوذا، وجعل مقرّ مملكته هو مقر أبيه أورشليم.

*/ <u>مملكة ملكها (يوربعام بن بناط) غلام سليمان،</u> وكان شجاعا نجيبا فملّكته بقية الأسباط العشرة عليهم وجعل مقرّ مملكته السامرة، وتلقّب بملك إسرائيل، إلّا أنّه وقومه أفسدوا الديانة الموسوية وعبدوا الأوثان فلأجل ذلك انفصلوا عن الجامعة الإسرائيلية ولم يدم ملكهم في السامرة إلّا مائتين ونيفا وخمسين سنة، ثم انقرض على يد ملوك الآشوريين، فاستأصلوا الإسرائيليين الذين بالسامرة وخربوها ونقلوا بني إسرائيل إلى بلاد آشور عبيدا لهم وأسكنوا بلاد السامرة فريقا من الآشوريين. فمن يومئذ لم يبق لبني إسرائيل ملك إلّا ملك يهوذا بأورشليم يتداوله أبناء سليمان عليه السلام. فمنذ ذلك غلب على بني إسرائيل اسم يهود، أي يهوذا ودام ملكهم هذا إلى حد سنة 120 ق م) في زمن الأمبراطور (أدريان) الروماني الذي أجلى اليهود الجلاء الأخير فتفرّقوا في الأقطار باسم اليهود، هم ومن التحق بهم من فلول بقيّة الأسباط.

ولعل هذا وجه اختيار لفظ { وَالَّذِينَ هَادُوا } في الآية دون اليهود للإشارة إلى أنّهم الذين انتسبوا إلى اليهود ولو لم يكونوا من سبط يهوذا. ثم صار اسم اليهود مطلقا على المتدينين بدين التوراة.

{ **النَّصَارَى** } اسم جمع **نَصْري** (بفتح فسكون) أو **ناصري** نسبة إلى الناصرة، وهي قرية نشأت منها مريم أمّ المسيح عليهما السلام، وقد خرجت مريم من الناصرة قاصدة بيت المقدس فولدت المسيح في بيت لحم، ولذلك كان بنو إسرائيل يدعونه يشوع الناصري أو النصري، فهذا وجه تسمية أتباعه بالنصارى.

{ **الصَّابِئِينَ** } الأظهر عندي أنّ أصل كلمة الصابي أو الصابئة أو ما تفرّع منها هو لفظ قديم من لغة عربية أو سامية قديمة هي لغة عرب ما بين النهرين من العراق. وفي دائرة المعارف الإسلاميّة أنّ اسم الصابئة مأخوذ من أصل عبري هو (ص~ ب~ع) أي غطس، عرفت به طائفة (المنديا)، وهي طائفة يهودية نصرانية في العراق يقومون بالتعميد كالنصارى.

ويقال :الصابئون بصيغة جمع صابئ، والصابئة، على أنّه وصف لمقدّر، أي: الأمة الصابئة. ولا يعرف لهذا الدين إلّا اسم الصابئة. وهذا الدين دين قديم ظهر في بلاد الكلدان في العراق وانتشر معظم أتباعه

فيما بين الخابور ودجلة وفيما بين الخابور والفرات فكانوا في (البطائح) و(كَسْكَر) في سواد واسط، وفي (حران) من بلاد الجزيرة.

وكان أهل هذا الدين نَبَطًا في بلاد العراق، فلما ظهر الفرس على إقليم العراق أزالوا مملكة الصابئين ومنعوهم من عبادة الأصنام، فلم يجسروا بعد على عبادة أوثانهم. وكذلك منع الروم أهل الشام والجزيرة من الصابئين. فلمّا تنصّر (قسطنطين) حملهم بالسيف على التنصّر، فبطلت عبادة الأوثان منهم من ذلك الوقت وتظاهروا بالنصرانية، فلمّا ظهر الإسلام على بلادهم أُعتبروا في جملة النصارى.

وقد كانت صابئة بلاد (كَسْكَر) و(البطائح) معتبرين صنفا من النصارى ينتمون إلى النبيّ يحيى بن زكرياء، ومع ذلك لهم كتب يزعمون أن الله أنزلها على شيث بن آدم ويسمونه (أغاثا ديمون)، والنصارى يسمُّونهم (**يوحنَّاسية**)، نسبة إلى يوحنّا وهو يحيى.

وجامع أصل هذا الدين هو عبادة الكواكب السيّارة والقمر وبعض النجوم مثل نجم القطب الشمالي، وهم يؤمنون بخالق العالم، وأنّه واحد حكيم مقدّس عن سمات الحوادث، غير أنّهم قالوا: إنّ البشر عاجزون عن الوصول إلى جلال الخالق فلزم التقرّب إليه بواسطة مخلوقات مقربين لديه، وهي الأرواح المجردات الطاهرة المقدسة، وزعموا أنّ هذه الأرواح ساكنة في الكواكب، وأنّها تنزل إلى النفوس الإنسانية وتتصل بها بمقدار ما تقترب نفوس البشر من طبيعة الروحانيات، فعبدوا الكواكب بقصد الاتجاه إلى روحانيّاتها. ولأجل نزول تلك الروحانيّات على النفوس البشرية يتعيّن تزكية النفس بتطهيرها من آثار القوى الشهوانية والغضبية بقدر الإمكان، والإقبال على العبادة بالتضرّع إلى الأرواح ،وبتطهير الجسم والصيام والصدقة والطيب، وألزموا أنفسهم فضائل النفس الأربع الأصلية وهي: **العفة** و**العدالة** و**الحكمة** و**الشجاعة**، والأخذ بالفضائل الجزئيّة المتشعبة عن الفضائل الأربع وهي الأعمال الصالحة، وتجنب الرذائل الجزئية وهي أضداد الفضائل، وهي الأعمال السيئة.

ومن العلماء من يقول: إنّهم يقولون بعدم الحاجة إلى بعثة الرُّسل، وأنهم يعلِّلون ذلك بأنّ مُدَّعي الرسالة من البشر، فلا يمكن لهم أن يكونوا واسطة بين النّاس والخالق. ومن العلماء من ينقل عنهم أنّهم يدّعون أنّهم على دين نوح.

وهم يقولون: إنّ المعلمين الأوّلين لدين الصابئة هما (أغاثا ديمون/ شيث بن آدم) و(هرمس/ إدريس). وهم يأخذون من كلام الحكماء ما فيه عون على الكمال، فلذلك يكثر في كلامهم المماثلة لأقوال حكماء اليونان وخاصة سولون وأفلاطون وأرسطو طاليس.

ولا يبعد عندي أن يكون أولئك الحكماء اقتبسوا بعض الآراء من قدماء الصابئة في العراق، فإنّ ثمّة تشابها بينهم في عبادة الكواكب وجعلها آلهة وفي إثبات إلاه الآلهة.

وقد بنوا هياكل للكواكب لتكون مهابط لأرواح الكواكب، وحرصوا على تطهيرها وتطييبها لكي تألفها الروحانيّات. وقد يجعلون للكواكب تماثيل من الصور يتوخون فيها محاكاة صور الروحانيات.

ومن دينهم صلوات ثلاث في كل يوم، وقبلتهم نحو مهب ريح الشمال، ويتطهّرون قبل الصلاة وقراءاتهم ودعواتهم تسمَّى الزمزمة. ولهم صيام ثلاثين يوما في السنة، موزعة على ثلاثة مواقيت من العام.
ويجب غسل الجنابة، وغسل المرأة الحائض .وتحرم العزوبة، ويجوز للرجل تزوج ما شاء من النساء، ولا يتزوج إلّا امرأة صابئة على دينه، فإذا تزوّج غير صابئة أو تزوجت الصابئة غير صابئ خرجا من الدين ولا تقبل منهما توبة.
ويغسلون موتاهم ويكفنونهم ويدفنونهم في الأرض. ولهم رئيس للدين يسمونه (الكمر).
وقد اشتهر هذا الدين في حرَّان من بلاد الجزيرة، ولذلك تعرف الصابئة في كتب العقائد الإسلامية بـ (الحَرْنَانِيَّة). قال ابن حزم في كتاب الفصل: " كان الذي ينتحله الصابئون أقدم الأديان على وجه الدهر والغالب على الدنيا، إلى أن أحدثوا فيه الحوادث فبعث الله إبراهيم عليه السلام بالحنيفيّة ".
ودين الصابئة كان معروفا للعرب في الجاهلية، بسبب جوار بلاد الصابئة في العراق والشام لمنازل بعض قبائل العرب، مثل ديار بكر وبلاد الأنباط المجاورة لبلاد تغلب وقضاعة. ألا ترى أنه لما بُعث محمد صلى الله عليه وسلم وصفه المشركون بالصابئ، وربّما دعوه بابن أبي كبشة، الذي هو أحد أجداد آمنة الزهرية، أمّ النبيّ صلى الله عليه وسلم، كان أظهر عبادة الكواكب في قومه، فزعموا أنّ النبيّ ورث ذلك منه، وكذبوا. وفي حديث عمران ابن حصين أنّهم كانوا في سفر مع النبيّ صلى الله عليه وسلم، ونفد ماؤهم فابتغوا الماء فلقوا امرأة بين مزادتين على بعير فقالوا لها انطلقي إلى رسول الله ،فقالت: الذي يقال له الصابئ، قالوا: هو الذي تعنين.
وكانوا يسمّون المسلمين **الصُّباة**، كما ورد في خبر سعد بن معاذ، أنّه كان صديقا لأميّة بن خلف وكان سعد إذا مر بمكّة نزل على أميّة، فلما هاجر النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى المدينة انطلق سعد ذات يوم معتمرا فنزل على أميّة بمكة، وقال لأمية: انظر لي ساعة خلوة لعلي أطوف بالبيت، فخرج به فلقيهما أبو جهل فقال لأمية: يا أبا صفوان من هذا معك، قال: سعد، فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكّة آمنا وقد أويتم الصُّباة.
وقد اختلف علماء الإسلام في إجراء الأحكام على الصابئة، فمن العلماء من ألحقهم بأهل الكتاب، ومن العلماء من ألحقهم بالمجوس، وسبب هذا الاضطراب هو اشتباه أحوالهم وتكتّمهم في دينهم، وما دخل عليه من التخليط بسبب قهر الأمم التي تغلبت على بلادهم. فالقسم الذي تغلّب عليهم الفرس اختلط دينهم بالمجوسية، والذين غلب عليهم الروم اختلط دينهم بالنصرانيّة.
قال ابن شاس في كتاب (الجواهر الثمينة) قال الشيخ أبو الطاهر (يعني ابن بشير التنوخي القيرواني): منعوا ذبائح الصابئة لأنهم بين النصرانية والمجوسية. وقال الطرطوشي: لا تؤكل ذبيحة الصابيء. وقال مالك: لا يؤكل صيد الصابئ ولا ذبيحته. وعنه أيضا: لا يتزوّج المسلم المرأة الصائبة.

و روي عن أبي حنيفة أن الصابئة أهل الكتاب، وأبو يوسف ومحمد قالا: إن الصابئين ليسوا أهل كتاب، وكذا قول الأوزاعي ومالك بن أنس.

ووجه الاقتصار في الآية، على ذكر هذه الأديان الثلاثة مع الإسلام دون غيرها من نحو المجوسيّة والدهريين والزنادقة أنّ هذا مقام دعوتهم للدخول في الإسلام والمتاب عن أديانهم التي أبطلت، لأنّهم أرجي لقبول الإسلام من المجوس والدهريين، لأنّهم يثبتون الإله المتفرّد بخلق العالم ويتبعون الفضائل على تفاوت بينهم في ذلك.

{ **مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ** } الإيمان الكامل، وهو الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، بقرينة المقام وقرينة قوله تعالى { وَعَمِلَ صَالِحاً } إذ شرط قبول الأعمال، الإيمان الشرعي، وقد عدّ عدم الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم بمنزلة عدم الإيمان بالله، لأنّ مكابرة المعجزات، القائمة مقام تصديق الله تعالى للرّسول المتحدي بها، يؤول إلى تكذيب الله تعالى في ذلك التصديق، فذلك المكابر غير مؤمن بالله الإيمان الحقّ.

{ **فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ** } أطلق الأجر على الثواب مجازا، لأنّه في مقابلة العمل الصالح، والمراد به نعيم الآخرة، وليس أجرا دنيويا، بقرينة المقام { عِنْدَ رَبِّهِمْ }.

{ **وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** } وهو خوف الآخرة. ولمّا كان الخوف والحزن متلازمين كانت خصوصية كل منهما سارية في الآخر.

{ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ [63] ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ [64] }.

تذكير بقصّة أخرى وذلك حينما تجلّى الله لموسى عليه السلام في الطور، تجليا خاصا للجبل، فتزعزع الجبل وتزلزل وارتجف وأحاط به دخان وضباب ورعود وبرق، كما ورد في صفة ذلك في الفصل التاسع عشر من سفر الخروج، وفي الفصل الخامس من سفر التثنية، فلعل الجبل من شدة الزلازل ممّا ظهر حوله من الأسحبة والدخان والرعود صار يلوح كأنه سحابة، ولذلك وصف في آية الأعراف بقوله { وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ } [171] (نتقه: زعزعه ونقضه).

فأعطوا العهد وامتثلوا لجميع ما أمرهم الله تعالى وقالوا: " كلّ ما تكلم الله به نفعله، فقال الله لموسى: فليؤمنوا بك إلى الأبد".

وضمائر الخطاب لتحميل الخلف تبعات السلف، كيلا يقعوا في مثلها، وليستغفروا لأسلافهم عنها.

الميثاق: في هاته الآية كالعهد في الآيات المتقدمة، مراد به الشريعة، ووعدهم بالعمل بها، وقد سمّته كتبهم عهدا، كما قدّمنا، وهو إلى الآن كذلك في كتبهم.

الطور: علم على جبل ببرّيّة سينا، ويقال: إنّ الطور اسم جنس للجبال في لغة الكنعانيين نقل إلى العربية.

فإذا صحّ ذلك فإطلاقه على هذا الجبل علم بالغلبة في العبرية لأنّهم وجدوا الكنعانيين يذكرونه فيقولون الطور، يعنون الجبل، كلمة لم يسبق لهم أن عرفوها فحسبوها علما له فسمّوه الطور.

{ **خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ** } مقول قول محذوف تقديره: قائلين لهم خذوا، وذلك هو الذي أخذ الميثاق عليه .

الأخذ: مجاز عن التلقّي والتفهّم .

{ **مَا آتَيْنَاكُمْ** } ما أوحاه إلى موسى، وهو الكلمات العشر التي هي قواعد شريعة التوراة.

القوة: مجاز في إتقان التلقّي والعزيمة على العمل به، كقوله { يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ } [مريم:12].

{ **وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ** } يجوز أن يكون الذكر مجازا عن الامتثال، أي: اذكروه عند عزمكم على الأعمال، حتّى تكون أعمالكم جارية على وفق ما فيه.

{ **لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** } الرجاء الذي يقتضيه حرف (لعل) مستعمل في معنى تقريب سبب التقوى، بحضّهم على الأخذ بقوة، وتعهّد التذكّر لما فيه.

{ **ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ** } إشارة إلى عبادتهم العجل في مدة مناجاة موسى، وأنّ الله تاب عليهم بفضله ولولا ذلك لكانوا من الخاسرين الهالكين في الدنيا أو فيها وفي الآخرة.

{ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ [65] فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ [66] }.

القصّة المشار إليها بهذه الآية ليست من القصص التي تضمّنتها كتب التوراة مثل القصص الأخرى، بل هذه القصّة وقعت في زمن داود عليه السلام، فكانت غير مسطورة في الأسفار القديمة، وكانت معروفة لعلمائهم وأحبارهم، فأطلع الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم عليها، وتلك معجزة غيبية، وأوحى إليه في لفظها ما يؤذن بأنّ العلم بها أخفى من العلم بالقصص الأخرى، فأسند الأمر فيها لعلمهم إذ قال { وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ }.

الاعتداء: هو تجاوز حدّ السير والحد والغاية. وغلب إطلاق الاعتداء على مخالفة الحقّ وظلم النّاس.

والاعتداء الواقع منهم هو اعتداء أمر الله تعالى إيّاهم من عهد موسى بأن يحافظوا على حكم السبت وعدم الاكتساب فيه، ليتفرّغوا فيه للعبادة بقلب خالص من الشغل بالدنيا، فكانت طائفة من سكان بلدة (**أَيْلَة**) [بلدة عند خليج صغير من البحر الأحمر في أطرف مشارف الشام، وتعرف اليوم بـ (العقبة) وهي غير إيلياء الذي هو اسم بيت المقدس] رأوا تكاثر الحيتان يوم السبت بالشاطئ، لأنّها إذا لم تر سفن الصيادين وشباكهم أمنت فتقدمت إلى الشاطئ تفتح أفواهها في الماء لابتلاع ما يكون على الشواطئ من آثار الطعام ومن صغير الحيتان وغيرها، فقالوا لو حفرنا لها حياضا وشرعنا إليها جداول يوم الجمعة فتمسك الحياض الحوت إلى يوم الأحد فنصطادها، وفعلوا ذلك، فعاقبهم الله تعالى بما ذكره هنا.

{ **فِي السَّبْتِ** } المعنى اعتدوا في حال تعظيم السبت أو في زمن تعظيم السبت. ويجوز أن تكون (في) للعلّة، أي: اعتدوا اعتداء لأجل ما أوجبه احترام السبت من قطع العمل.

ولعلّ تحريم الصيد فيه ليكون أمنا للدواب.

{ **فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ** } كونوا، أمر تكوين.

القِرَدة: (بكسر القاف وفتح الراء) جمع قرد، وتكوينهم قردة يحتمل أن يكون بتصيير أجسامهم أجسام قردة مع بقاء الإدراك الإنساني، وهذا قول جمهور العلماء والمفسرين، ويحتمل أن يكون بتصيير عقولهم كعقول القردة مع بقاء الهيكل الإنساني، وهذا قول مجاهد، والعبرة حاصلة على كلا الاعتبارين، والأوّل أظهر في العبرة، لأنّ فيه اعتبارهم بأنفسهم واعتبار النّاس بهم بخلاف الثاني. والثاني أقرب للتاريخ إذ لم ينقل مسخ في كتب تاريخ العبرانيين. والقدرة صالحة للأمرين والكلّ معجزة للشريعة أو لداود. ولذلك قال الفخر: " ليس قول مجاهد ببعيد جدا لكنّه خلاف الظاهر من الآية، وليس الآية صريحة في المسخ ".

ومعنى كونهم قردة أنّهم لما لم يتلقوا الشريعة بفهم مقاصدها ومعانيها وأخذوا بصورة الألفاظ فقد أشبهوا العجماوات في وقوفها عند المحسوسات فلم يتميّزوا عن العجماوات إلا بالشكل الإنساني، وهذه القردة تشاركهم في هذا الشبه، وهذا معنى قول مجاهد: " هو مسخ قلوب لا مسخ ذوات ".

وهذا الأمر التكويني كان لأجل العقوبة على ما اجترأوا من الاستخفاف بالأمر الإلهي حتّى تحيّلوا عليه. وفي ذلك دليل على أنّ الله تعالى لا يرضى بالحيل على تجاوز أوامره ونواهيه، فإنّ شرائع الله تعالى مشروعة لمصالح وحكم، فالتحيّل على خرق تلك الحكم بإجراء الأفعال على صور مشروعة مع تحقّق تعطيل الحكمة منها جراءة على الله تعالى. ولا حجّة لمن ينتحل جواز الحيل الشرعيّة بما ورد في قصّة أيوب عليه السلام. ولعلّنا نتعرّض للمسألة في سورة(ص)، وفيها تمحيص.

{ **فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ** }.

النَّكال: (بفتح النون) العقاب الشديد الذي يردع المعاقَب عن العود للجناية ويردع غيره عن ارتكاب مثلها.

{ **لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا** } ما قارنها من معاصيهم وما سبق. يعني أنّ تلك الفعله كانت آخر ما فعلوه فنزلت العقوبة عندها.

الموعظة: ما به الوعظ، وهو الترهيب من الشرّ.

{ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ } [67].

قيل: إنّ أوّل هذه القصّة هو المذكور بقوله تعالى { وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا } [72]، وإنّ قول موسى {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً } ناشيء عن قتل النفس المذكورة، وإنّ قول موسى قدّم هنا لأنّ خطاب

موسى عليه السلام لهم قد نشأ عنه ضرب من مذامِّهم في تلقي التشريع، وهو الاستخفاف بالأمر حين ظنّوه هزؤا، والإعنات في المسألة، فأريد من تقديم جزء القصّة تعدد تقريعهم، كذا ذكر صاحب الكشاف.

والذي يظهر لي، أنّهما قصّتان أشارت الأولى، وهي المحكيّة هنا، إلى أمر موسى إيّاهم بذبح بقرة، وهذه هي القصّة التي أشارت إليها التوراة في [سفر التشريع الثاني(تثنية)، الإصحاح:21] أنّه: " إذا وُجد قتيل لا يعلم قاتله فإنّ أقرب القرى إلى موقع القتيل يخرج شيوخها ويخرجون عجلة من البقر، لم يحرث عليها ولم تنجر بالنير، فيأتون بها إلى واد دائم السيلان، لم يحرث ولم يزرع، ويقطعون عنقها هنالك، ويتقدّم الكهنة من بني لاوي، فيغسل شيوخ تلك القرية أيديهم على العجلة في الوادي ويقولون: لم تسفك أيدينا هذا الدم ولم تبصر أعيننا سافكه، فيغفر لهم الدم ".

هكذا ذُكرت القصة بإجمال أضاع المقصود وأبهم الغرض من هذا الذبح، أهو إضاعة ذلك الدم باطلا، أم هو عند تعذّر معرفة المتهم بالقتل. وكيفما كان فهذه بقرة مشروعة عند كل قتل نفس جهل قاتلها، وهي المشار إليها هنا.

ثم كان ما حدث من قتل القتيل الذي قتله أبناء عمّه وجاءوا مظهرين المطالبة بدمه، وكانت تلك النازلة نزلت في يوم ذبح البقرة، فأمرهم الله بأن يضربوا القتيل ببعض تلك البقرة التي شأنها أن تُذبح عند جهل قاتل نفس. وبذلك يظهر وجه ذكرهما قصّتين.

وقد أجمل القرآن ذكر القصّتين، لأنّ موضع التذكير والعبرة منهما هو ما حدث في خلالهما، لا تفصيل الوقائع، فكانت القصّة الأولى تشريعا سبق ذكره لما قارنه من تلقّيهم الأمر بكثرة السؤال الدال على ضعف الفهم للشريعة وعلى تطلّب أشياء لا ينبغي أن يُظنّ اهتمام التشريع بها، وكانت القصة الثانية منّة عليهم بآية من آيات الله ومعجزة من معجزات رسولهم، بيّنها الله لهم ليزدادوا إيمانا.

{ **أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً** } بمعنى تجعلنا.

الهزؤ: (بضم الهمزة والزاي وبسكون الزاي) مصدر أهزأ به هزءا، وهو هنا مصدر بمعنى المفعول.

{ **قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ** } تبرّؤ وتنزه عن الهزء، لأنّه لا يليق بالعقلاء الأفاضل، فإنّه أخص من المزح، لأنّ في الهزؤ مزحا مع استخفاف واحتقار للممزوح معه، على أنّ المزح لا يليق في المجامع العامة والخطابة. كما أنّه لا يليق بمقام الرّسول، ولذا تبرّأ منه موسى بأن نفى أن يكون من الجاهلين.

{ **أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ** } الصيغة أبلغ في انتفاء الجهالة من أن لو قال: أعوذ بالله أن أجهل.

{ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ } [68].

{ **ادْعُ لَنَا** } يحتمل أن يراد منه الدعاء الذي هو طلب بخضوع وحرص على إجابة المطلوب، فيكون في الكلام رغبتهم في حصول البيان لتحصيل المنفعة المرجوّة من ذبح بقرة مستوفية للصّفات المطلوبة في القرابين المختلفة المقاصد، ويحتمل أنّهم أرادوا مطلق السؤال، فعبّروا عنه بالدعاء، لأنّه طلب من الأدنى إلى الأعلى. ويحتمل أنّهم أرادوا من الدعاء النداء.

{ **لَنَا** } لام الأجل، أي: ادع عنا.

{ **يُبَيِّنْ** } والجزم في جواب { ادْعُ } لتنزيل المسبّب منزلة السبب، أي إن تدعه يسمع فيبين، وقد تقدّم.

{ **مَا هِيَ** } سؤال عن الصفة.

{ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بين ذلك }.

الفارض: المسنّة، لأنّها فرضت سنّها، أي: قطعتها.

البكر: الفتيّة: مشتقّة من البُكرة (بالضم) وهي أوّل النهار، لأنّ البكر في أول السنوات عمرها.

العوان: هي المتوسطة السنّ.

{ **فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ** } فبادروا إلى ما أُمرتم به، وهو ذبح البقرة.

وفي حثّ موسى إيّاهم على المبادرة بذبح البقرة بعد ما كلّفوا به من اختيارها عوانا، دليل على أنّهم مأمورون بذبح بقرة ما، غير مراد منها صفة مقيّدة، وبذلك يعلم أنّ أمرهم بهاته الصفات كلّها هو تشريع طارئ قُصد منه تأديبهم على سؤالهم، فإنّ كان سؤالهم للمطل والتنصّل، فطلب تلك الصفات المشِقّة عليهم تأديب على سوء الخلق والتذرع للعصيان.

وممّا يدلّ على أنّه تكليف لقصد التأديب أنّ الآية سيقت مساق الذمّ لهم، وعُدّت القصّة في عداد قصص مساويهم وسوء تلقّيهم للشريعة. ولذلك قال ابن عبّاس: " لو ذبحوا أي بقرة اجزاتهم، ولكن شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم".

{ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ } [69].

{ **صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا** } احتيج إلى تأكيد الصفرة بالفقوع، وهو شدّة الصفرة، لأنّ صفرة البقر تقرب من الحمرة غالبا، فأكّده بفاقع، والفقوع خاص بالصفرة، كما اختصّ الأحمر بقان والأسود بحالك. والنصوع يعمّ جميع الألوان، وهو خلوص اللون من أن يخالطه لون آخر.

{ **تَسُرُّ النَّاظِرِينَ** } أي تُدخل رؤيتها عليهم مسرّة في نفوسهم. وهذا اللون من أحسن ألوان البقر، فلذلك

أسند فعل { تَسُرُّ } إلى ضمير البقرة لا إلى ضمير اللون، فلا يقتضي أنّ لون الأصفر ممّا يسر الناظرين.

{ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ [70] قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالحقّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ [71] }.

{ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا } اعتذار عن إعادة السؤال، وإنّما لم يعتذروا في المرّتين الأوليين واعتذروا الآن لأنّ للثالثة في التكرير وقعا من النفس في التأكيد والسآمة وغير ذلك، ولذلك كثر في أحوال البشر وشرائعهم التوقيت بالثلاثة.

{ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ } تنشيط لموسى ووعد له بالامتثال لينشط إلى دعاء ربه بالبيان، ولتندفع عنه سآمة مراجعتهم، ولإظهار حسن المقصد من كثرة السؤال وأنّ ليس قصدهم الإعنات، تفاديا من غضب موسى عليهم.

{ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيهَا }

الذلول: (بفتح الذال) فعول من ذلّ ذِلًّا (بكسر الذال) في المصدر، بمعنى لان وسهل. وأمّا الذُّل (بضم الذال) فهو ضدّ العزّ. وهما مصدران لفعل واحد. والمعنى أنّها لم تبلغ سنّ أن يحرث عليها وأن يسقى بجرِّها، أي: هي عجلة قاربت هذا السن، وهو الموافق لمّا حدّد به سنّها في التوراة.

إثارة الأرض: حرثها. فإنّه لمّا قيّدت صفة ذلول بجملة تسقي الحرث صار تقدير الكلام: أنّها بقرة **لا تثير الأرض** ولا تسقي الحرث، فجرت الآية على الاستعمال الفصيح من إعادة (لا).

{ مسلّمة } أي سليمة من عيوب نوعها.

{ لا شِيَةَ فِيهَا } صفة أخرى تميّز هذه البقرة عن غيرها.

الشية: العلامة، ويقول العرب ثوب موشّى وثوب وشِيّ.

{ قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالحقّ } أرادوا بالحقّ الأمر الثابت الذي لا احتمال فيه ، ولم يريدوا من الحقّ ضد الباطل، لأنّهم ما كانوا يكذّبون نبيّهم.

{ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ } تعريض بهم بذكر حال من سوء تلقّيهم الشريعة، تارة بالإعراض والتفريط، وتارة بكثرة التوقّف والإفراط وفيه. وفيه تعليم للمسلمين بأصول التفقّه في الشريعة، والأخذ بالأوصاف المؤثّرة في معنى التشريع دون الأوصاف الطرديّة، ولذلك قال ابن عباس: " لو ذبحوا أية بقرة لأجزأتهم، ولكن شدّدوا فشدد الله عليهم". وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم ينهى أصحابه عن كثرة السؤال، وقال: **" فإنّما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على انبيائهم".**

{ **وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ** } أي ذبحوها في حال تقرُب من حال من لا يفعل، والمعنى: أنّهم ذبحوها مكرهين، أو كالمكرهين، لما أظهروا من المماطلة. ولم يقل: يذبحون، كراهة إعادة اللفظة، تفنّنا في البيان.

{ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ [72] فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ [73] }.

{ **وَإِذْ** } تصدير يومئ إلى أنّ هذه قصّة غير قصّة الذبح ولكنّها حدثت عقب الأمر بالذبح. وقد قيل إنّ ما حكي في هذه الآية هو أوّل القصّة، وإنّ ما تقدّم هو آخرها. وليس فيما رأيت من كتب اليهود ما يشير إلى هذه القصّة، فلعلّها ممّا أدمج في قصّة البقرة المتقدّمة لم تتعرض السورة لذكرها لأنّها كانت معجزة لموسى عليه السلام ولم تكن تشريعا بعده.

{ **قَتَلْتُمْ نَفْساً** } إشارة إلى وقوع قتل فيهم، وهي طريقة القرآن في إسناد أفعال البعض إلى الجميع، جريا على طريقة العرب في قولهم: قتلت بنو فلان فلانا.

ذلك أنّ نفرا من اليهود قتلوا ابن عمّهم الوحيد ليرثوا عمّهم وطرحوه في محلّة قوم وجاءوا موسى يطالبون بدم ابن عمهم بهتانا، وأنكر المتّهمون، فأمره الله بأن يُضرب القتيل ببعض تلك البقرة فينطق ويخبر بقاتله.

{ **فَادَّارَأْتُمْ** } أي تدارأتم، تفاعل من **الدَّرْءِ**، وهو الدفع، لأنّ كل فريق يدفع الجناية عن نفسه.

وإنّما تعلقت إرادة الله تعالى بكشف حال قاتلي هذا القتيل، مع أن دمه ليس بأول دم طلّ في الأمم، إكراما لموسى عليه السلام أن يضيع دم في قومه وهو بين أظهرهم وبمرآى منه ومسمع، لا سيما وقد قصد القاتلون استغفال موسى ودبّروا المكيدة في إظهارهم المطالبة بدمه، فلو لم يُظهر الله تعالى هذا الدم في أمّة لضعف يقينها برسولها، ولكان ذلك ممّا يزيدهم شكّا في صدقه، فينقلبوا كافرين. فكان إظهار هذا الدم كرامة لموسى ورحمة بالأمّة لئلّا تضلّ.

ولا يُشكل أنّه قد ضاع دم في زمن نبيّنا صلى الله عليه وسلم، كما في حديث حويصة ومحيصة الآتي، لظهور الفرق بين الحالين، بانتفاء تدبير المكيدة، وانتفاء شكّ الأمة في رسولها، وهي خير أمّة أخرجت للنّاس.

{ **كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى** } الإشارة إلى محذوف للإيجاز، أي: فضربوه فحيي، فأخبر بمن قتله ، أي: كذلك الإحياء ،يحيي الله الموتى، فالتشبيه في التحقّق، وإن كانت كيفية المشبّه أقوى وأعظم.

{ **لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** } رجاء لأن يعقلوا، فلم يبلغ الظنّ بهم مبلغ القطع مع هذه الدلائل كلّها.

{ **ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** } [74].

{ **ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ** } زيادة تعجيب من طرق القساوة للقلب بعد تكرّر جميع الآيات السابقة المشار إلى مجموعها. أي ومع ذلك كلّه لم تلن قلوبكم ولم تنفعكم الآيات.

{ **قَسَتْ** } القسوة والقساوة توصف بها الأجسام وتوصف بها النفوس المعبّر عنها بالقلوب، وقد شاع هذا المجاز حتّى ساوى الحقيقة وصار غير محاج إلى قرينة.

{ **فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ** } لأنّ أشهر الأشياء في هذا الوصف هو الحجر، فإذا ذُكرت القسوة فقد تهيّأ التشبيه بالحجر، وقد كانت صلابة الحجر أعرف للنّاس وأشهر، لأنّها محسوسة، فلذلك شبّه بها. وهذا الأسلوب يسمّى عندي تهيئة التشبيه، وهو من محاسنه.

{ **أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً** } فهذه القلوب قساوتها عند التمحيص أشدّ من قساوة الحجارة، لأنّ الحجارة قد يعتريها التحوّل عن صلابتها وشدتها بالتفرّق والتشقّق، وهذه القلوب لم تُجْدِ فيها محاولة.

{ **وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ** } تعليل لوجه التفضيل، إذ من شأنه أن يُستغرب. وكأنّه يجعل مضمون هذه المعطوفات غير راجع إلى معنى تشبيه القلوب بالحجارة في القساوة بل يجعلها إخبارا عن مزايا فُضّلت بها الحجارة على قلوب هؤلاء، بما يحصل عن هذه الحجارة من منافع.

الخشية: في الحقيقة الخوف الباعث على تقوى الخائف غيره. وهي <u>حقيقة شرعية في امتثال الأمر التكليفي، لأنّها الباعث على الامتثال</u>. وجعلت هنا مجازا عن قبول الأمر التكويني، إمّا مرسلا بالإطلاق والتقييد، وإمّا تمثيلا للهيئة عند التكوين بهيئة المكلّف، إذ ليست للحجارة خشية إذ لا عقل لها .

{ **وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** } تذييل في محل الحال، أي فعلتم ما فعلتم وما الله بغافل عن كلّ صنعكم.

{ **أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** } [75]

فكأنّه قيل فلا تطمعوا أن يؤمنوا لكم، تعريضا بهم بأنّهم لم يؤمنوا بالحقّ الذي جاءهم على ألسنة أنبيائهم، وهم أخصّ النّاس بهم، أفتطمعون أن يعترفوا به لأجلكم .

فإن قلتَ: كيف ينهى عن الطمع في إيمانهم أو يعجّبه والنبيّ والمسلمون مأمورون بدعوة أولئك إلى الإيمان دائما؟ وهل لمعنى هذه الآية ارتباط بمسألة التكليف بالمحال الذي استحالته، لتعلّق علم الله بعدم وقوعه؟

قلتُ: إنّما نُهينا عن الطمع في إيمانهم لا عن دعائهم للإيمان، لأنّنا ندعوهم للإيمان وإن كنا آيسين منه، لإقامة الحجّة عليهم في الدنيا وفي الآخرة أيضا، ولأنّ الدعوة إلى الحقّ قد تصادف نفسا نيّرة فتنفعها، فإنّ استبعاد إيمانهم حكم على غالبهم وجمهرتهم، أمّا الدعوة فإنّها تقع على كل فرد منهم.

وهذه المسألة أخصّ من مسألة التكليف بالمحال التي تعلّقها بعلم الله الذي لم يطلعنا عليه، وإن كان جواب إقامة الحجّة يصدق عليها، كما يورده أصحابنا.

{ **وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ** } جملة حالية هي قيد إنكار الطمع في إيمانهم.

{ **ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ** } التحريف أصله مصدر **حرّف** الشيء إذا مال به إلى الحرف، وهو يقتضي الخروج عن جادة الطريق. ولمّا شاع تشبيه الحقّ والصواب والرشد والمكارم بالجادة وبالصراط المستقيم، شاع في عكسه تشبيه ما خالف ذلك بالانحراف.

{ **وَهُمْ يَعْلَمُونَ** } حال، يعني يسمعونه ثم يعقلونه ثم يحرفونه، أي يعلمون أنّهم يحرّفون.

{ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ [76] أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ [77] }.

{ **وَإِذَا لَقُوا** } الضمير عائد على بني إسرائيل باعتبار فريق منهم، وهم الذين أظهروا الإيمان نفاقا، أو تفاديا من مُرّ المقارعة والمحاجّة.

{ **أتحدثونهم** } استفهام للإنكار أو التوبيخ. والظاهر عندي أنّ معناه أنّهم لمّا سمعوا من القرآن ما فيه فضيحة أحوالهم وذكر ما لا يعلمه إلّا خاصتهم، ظنّوا أنّ ذلك خَلُصَ للنبيّ من بعض الذين أظهروا الإيمان من أتباعهم، وأنّ نفاقهم كان قد بلغ بهم إلى أن أخبروا المسلمين ببعض قصص قومهم، سترا لكفرهم الباطن، فوبّخوهم على ذلك، توبيخ إنكار. فحكى الله ذلك عنهم حكاية لحيرتهم واضطراب أمرهم، لأنّهم كانوا يرسلون نفرا من قومهم جواسيس على النبيّ صلى الله عليه وسلّم والمسلمين.

{ **بِمَا فَتَحَ اللَّهُ** } إمّا ما قضى الله به من الأحوال والمصائب، فإنّ الفتح بمعنى القضاء، وعليه قوله تعالى { رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ } [الأعراف:89]، وإمّا بمعنى البيان والتعليم.

{ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ } وذلك يوم القيامة لا محالة، أي: يجعلون ذلك حجّة عليكم أمام الله على صدق رسولهم، وعلى تَبِعَتكم في عدم الإيمان به. وذلك جار حكاية حال عقيدة اليهود من تشبيههم الربّ سبحانه وتعالى بحكّام البشر في تمشّي الحيل عليه، وفي أنّه إنّما يأخذ المسبّبات من أسبابها الظاهرية، فلذلك كانوا يرتكبون التحيّل في شرعهم، وتجد كتبهم ملآى بما يدلّ على أنّ الله ظهر له كذا وعلم أنّ الأمر الفلاني كان على خلاف المظنون، وكقولهم في سفر التكوين: " وقال الرب هو ذا الإنسان قد

صار كواحد منا يعرف الخير والشرّ". فما ظنك بقوم هذه مبالغ عقائدهم!
{ **أَفَلا تَعْقِلُونَ** } من بقيّة مقولهم، ولا يصحّ جعله خطابا من الله للمسلمين تذييلا.
{ **أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ** }، أي هلا كان ذلك دليلا على صدق الرسول عوض عن أن يكون موجبا لتهمة قومهم الذين تحقّقوا صدقهم في اليهوديّة.

{ **وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ** } [78].

وإذا انتفى إيمان أهل العلم منهم المظنون بهم تطلّب الحقّ المنجى والاهتداء إلى التفرقة بينه وبين الباطل، فكيف تطمعون في إيمان الأميين الذين هم أبعد عن معرفة الحقّ وألهى عن تطلّبه وأضلّ في التفرقة بين الحقّ والباطل.

الأمّيّ: من لا يعرف القراءة والكتابة، والأظهر أنّه منسوب إلى الأمّة بمعنى عامة النّاس، فهو يرادف العاميّ. وقيل: منسوب إلى الأمّ وهي الوالدة، أي: أنّه بقي على الحال التي كان عليها مدّة حضانة أمّه إيّاه، فلم يكتسب علما جديدا.

وقد اشتهر اليهود عند العرب بوصف أهل الكتاب، فلذلك قيل هنا { وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ }، أي: ليس جميعهم أهل كتاب.

ولم تكن الأمّيّة في العرب وصف ذمّ، و لكنها كذلك عند اليهود، كما أشار إليه قوله تعالى { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ }. وقال ابن صيّاد للنبيّ صلى الله عليه وسلم: " أشهد أنّك رسول الأمّيّين ". وذلك لما تقتضيه الأمّيّة من قلة المعرفة. ومن أجل ذلك كانت الأمّيّة معجزة للنبيّ صلى الله عليه وسلم، حيث كان أعلم النّاس مع كونه نشأ أمّيّا قبل النبوءة.

{ **لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ** } أي لا يعلمون التوراة إلّا علما مختلطا حاصلا ممّا يسمعونه ولا يتقنونه.
الأمانيّ: بالتشديد جمع أمنية، قيل تمنّى بمعنى تكلّف تقدير حصول شيء متعذّر أو متعسّر، فالأماني هي التقادير النفسية ، أي: الاعتقادات التي يحسبها صاحبها حقّا وليست بحقّ.
أو هي التقادير التي وضعها الأحبار موضع الوحي الإلهي، إمّا زيادة عليه حتّى أنستهم الأصل، وإمّا تضليلا، وهذا أظهر الوجوه.

{ **فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ** } [79].

{ **يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ** } أي: أنّهم يكتبون شيئا لم يأتيهم من رسلهم، بل يضعونه ويبتكرونه ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.

الويل: لفظ دال على الشرّ أو الهلاك والبليّة. لو لم يسمع له فعل من لفظه.

{ **لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً** } هو كقوله { وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً } [البقرة:41].

والثمن المقصود هنا هو إرضاء العامة، بأن غيّروا لهم أحكام الدين على ما يوافق أهواءهم، أو انتحال العلم لأنفسهم، مع أنّهم جاهلون، فوضعوا كتابا تافهة.

{ **فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ** } تفصيل لجنس الويل إلى ويلين، وهما ما يحصل لهم من الشرّ لأجل ما وضعوه، وما يحصل لهم لأجل ما اكتسبوه من جراء ذلك. فهو جزاء بالشرّ على الوسيلة وعلى المقصد، وليس في الآية ثلاث ويلات كما قد توهّم البعض ذلك.

وكأنّ هذه الآية تشير إلى ما كان في بني إسرائيل من تلاشي التوراة بعد تخريب بيت المقدس في زمن (بختنصر) ثم في زمن (طيطس) القائد الروماني، وذلك أنّ التوراة التي كتبها موسى عليه السلام قد أمر بوضعها في تابوت العهد، حسبما ذلك مذكور في سفر التثنية، وكان هذا التابوت قد وضعه موسى في خيمة الاجتماع، ثم وضعه سليمان في الهيكل، فلمّا غزاهم بختنصر سنة (588 ق م) أحرق الهيكل والمدينة كلّها بالنّار وأخذ معظم اليهود فباعهم عبيدا في بلده، وترك فئة قليلة بأورشليم قصرهم على الغراسة والزراعة. فهذا دليل قويّ على أنّ التوراة كانت مجهولة عندهم منذ زمان.

{ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ [80] بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [81] وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [82] }.

اعتقاد مقرّر في نفوسهم يشيعونه بين النّاس بألسنتهم قد أنبأ عن غرور عظيم، فهم لا يتردّدون أن يقدموا على تلك الجريمة وغيرها، إذ هم قد أمنوا من المؤاخذة إلّا أيّاما معدودة تعادل أيّام عبادة العجل، أو أيّاما عن كل ألف سنة من عالم يوم، وإنّ ذلك عذابٌ مكتوب على جميعهم، فهم لا يتوقّون الإقدام على المعاصي لأجل ذلك.

{ **قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** } جواب لكلامهم، والمراد بالعهد الوعد المؤكد فهو استعارة، لأنّ أصل العهد هو الوعد المؤكّد بقسم والتزام. والتقدير: فإن كان ذلك فلكم العذر في قولكم، لأنّ الله لا يخلف عهده. والاستفهام أفاد الإلجاء والتقرير. وفي الجواب تبكيت وتهكّم.

{ **بلى** } إبطال لقولهم: لن تمسنا النار إلّا أياما معدودة.

{ **مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً** } سند لما تضمّنته (بلى) من إبطال قولهم، أي: ما أنتم إلّا ممّن كسب سيئة، ومن

كسب سيئة وأحاطت به خطيئاته فأولئك أصحاب النار، فأنتم منهم لا محالة.

{ وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ }

الإحاطة: مستعارة لعدم الخلو عن الشيء، لأنّ ما يحيط بالمرء لا يترك له منفذا للإقبال على غير ذلك.

الخطيئة: اسم لما يقترفه الإنسان من الجرائم، وهي فعيلة بمعنى مفعولة، من خطى إذا أساء.

{ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } تذييل لتعقيب النذارة بالبشارة على عادة القرآن. والمراد بالخلود هنا حقيقته.

{ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرائيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ } [83]

أريد به أسلافهم لأنّهم الذين أعطوا الميثاق لموسى على امتثال ما أنزل الله من التوراة، كما قدمناه، أو المراد بلفظ (بني إسرائيل) المتقدّمون والمتأخرون.

{ لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ } خبر في معنى الأمر، ومجيء الخبر للأمر أبلغ من صيغة الأمر.

{ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً } التقدير: وأحسنوا بالوالدين إحسانا.

{ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً } وجعل الإحسان لسائر النّاس بالقول لأنّه القدر الذي يمكن معاملة جميع النّاس به، وذلك أنّ أصل القول أن يكون عن اعتقاد، وذلك أصل حسن المعاملة مع الخلق، قال النبيء صلى الله عليه وسلم: **" لا يؤمن أحدكم حتّى يحبّ لأخيه ما يحب لنفسه "**.

{ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ } أطلقت الزكاة على الصدقة مطلقا، وليس المراد الكناية عن شريعة الإسلام، لما علمت من أنّ هاته تابعة لبيان الميثاق، وهو عهد موسى عليه السلام.

{ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ } خطاب للحاضرين وليس بالتفات. والمعنى أخذنا ميثاق الأمة الإسرائيلية على التوحيد وأصول الإحسان فكنتم ممن تولى عن ذلك وعصيتم شرعا اتّبعتموه.

التولّي، الإعراض وإبطال ما التزموه ، أي تولّيتم عن جميع ما أخذ عليكم الميثاق به.

{ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ } إنصاف لهم في توبيخهم ومذمّتهم، وإعلان بفضل من حافظ على العهد.

{ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ } جملة حالية ولكونها اسميّة أفادت أنّ الإعراض وصف ثابت لهم وعادة معروفة منهم.

{ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ[84] ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ[85] أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ [86] }.

{ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ } أشارت هذه الآية إلى وصيتين من الوصايا الإلهية الواقعة في العهد المعروف بالكلمات العشر المنزّلة على موسى عليه السلام من قوله: لا تقتل، لا تشته بيت قريبك.

السفك: الصبّ. والمراد أن لا يسفك أحد دم غيره ولا يخرج غيره من داره. وقيل: إنّ المعنى لا تسفكون دماءكم بالتسبّب في قتل الغير فيقتصّ منكم، ولا تخرجون أنفسكم من دياركم بالجناية على الغير فتنفوا من دياركم.

{ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ } أي: لا تنكرون إقراركم بذلك، إذ قد تقلّدتموه والتزمتم التديّن به.

{ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ } العطف بـ (ثمّ) للترتيب الرتبي، أي: وقع ذلك كلّه وأنتم هؤلاء تقتلون. والخطاب لليهود الحاضرين في وقت نزول القرآن بقرينة قوله {هؤلاء}،لأنّ الإشارة لا تكون إلى غائب.

{ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ } أشارت هذه الآية إلى ما حدث بين اليهود من التخاذل وإهمال ما أمرتهم به شريعتهم.

وقد ابتدأ التخاذل بين اليهود بعد وفات سليمان وبيعة ابنه (رحبعام) ملكا على إسرائيل، إذ شقّ عليه عصا الطاعة غلام أبيه المسمّى (يربعام) وتحزّب الأسباط ،عدا سبطي يهوذا وبنيامين، مع (يربعام) وقد همّ (رحبعام) أن يقاتل من خرج عنه فنهاه النبيّ (شمعيا) وبذلك كفّ (رحبعام) عن القتال ورضي بمن بقي معه[إصحاح 12، ملوك أول]، ولمّا مات (رحبعام) وولى ابنه (أبيا) جمع جيشا لقتال (يربعام) عبد جدّه وصارت بينهم مقاتلات كثيرة في جبل (إفرايم)، قيل أنّ القتلى من الفريقين بلغت خمسمائة ألف [إصحاح 13 ، الأيام الثاني]، ثم نشأت بينهم حروب سنة (40 م).

والأظهر أنّ المقصود يهود قريظة والنضير وقينقاع. وأراد من ذلك بخاصة ما حدث بينهم في حروب بعاث القائمة بين الأوس والخزرج، وذلك أنّه لما تقاتل الأوس والخزرج اعتزل اليهود الفريقين زمنا طويلا، والأوس مغلوبون في سائر أيام القتال، فدبّر الأوس أن يخرجوا يسعون لمحالفة قريظة والنضير فلمّا علم الخزرج توعدوا اليهود إن فعلوا ذلك، فقالوا لهم: إنّا لا نحالف الأوس ولا نحالفكم، فطلب الخزرج على اليهود رهائن أربعين غلاما من غلمان قريظة والنضير فسلّموهم لهم. ثم إنّ عمرو بن

النعمان البياضي الخزرجي أطمع قومه أن يتحوّلوا لقريظة والنضير، لحسن أرضهم ونخلهم، وأرسل إلى قريظة والنضير يقول لهم: إمّا أن تخلّوا لنا دياركم وإمّا أن نقتل الرهائن، فخشى القوم على رهائنهم واستشاروا كعب ابن أسيد القرظي فقال لهم: يا قوم امنعوا دياركم وخلوه يقتل الغلمان، فما هي إلا ليلة يصيب أحدكم فيها امرأته حتّى يولد له مثل أحدكم، فلمّا أجابت قريظة والنضير عمرا بأنّهم يمنعون ديارهم عدا عمرو على الغلمان فقتلهم، فلذلك تحالفت قريظة والنضير مع الأوس، فسعى الخزرج في محالفة بني قينقاع من اليهود، وبذلك نشأ قتال بين فرق اليهود.

وكان بينهم يوم (بُعاث) قبل الهجرة بخمس سنين، فكانت اليهود تتقاتل وتجلى المغلوبين من ديارهم وتأسرهم، ثم لما ارتفعت الحرب جمعوا مالا وفدوا به أسرى اليهود الواقعين في أسر أحلاف أحد الفريقين من الأوس أو الخزرج فعيرت العرب اليهود بذلك وقالت كيف تقاتلونهم ثم تفدونهم بأموالكم فقالوا قد حرّم علينا قتالهم، ولكنّا نستحي أن نخذل حلفاءنا، وقد أمرنا أن نفدي الأسرى، فذلك قوله تعالى { وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ }.

الأسارى: (بضم الهمزة) جمع أسير وهو جمع نادر. وقيل: جمع الجمع، فالأسير يُجمع على أسرى ثمّ يُجمع أسرى على أُسارى، وهو الأظهر.

{ **أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ** } استفهام إنكاري توبيخي، أي كيف تعمّدتم مخالفة التوراة في قتال إخوانكم واتّبعتموها في فداء أسراهم.

{ **فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** }

الخِزي: (بالكسر) ذلّ في النفس طارئ عليها فجأة لإهانة لحقتها أو معرّة صدرت منها.

وقد دلّت هذه الآية على أنّ الله يعاقب الحائدين عن الطريق بعقوبات في الدنيا وعقوبات في الآخرة.

والمراد بالخزي ما لحق اليهود بعد تلك الحروب من المذلّة بإجلاء النضير عن ديارهم، وقتل قريظة، وفتح خيبر، وما قدّر لهم من الذلّ بين الأمم.

{ **أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ** } لأنّ المجرم بمثل هذا الجرم العظيم يناسبه العذاب العظيم ولا يجد نصيرا يدفع عنه أو يخفّف.

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ } [87].

انتقال من الإنحاء على بني إسرائيل في فعالهم مع الرّسول موسى عليه السلام، بما قابلوه به من العصيان والتبرم والتعلّل في قبول الشريعة، وبما خالفوا من أحكام التوراة بعد موته إلى قرب مجيء الإسلام، إلى الإنحاء عليهم بسوء مقابلتهم للرّسل الذين أتوا بعد موسى، مثل(يوشع، وإلياس، وأرمياء وداود،)، مؤيِّدين لشريعته ومفسّرين، وباعثين للأمّة على تجديد العمل بالشريعة، مع تعدد هؤلاء الرسل واختلاف مشاربهم في الدعوة لذلك المقصد من لين وشدّة، ومن رغبة ورهبة، ثم جاء عيسى مؤيّدا وناسخا ومبشرا، فكانت مقابلتهم لأولئك كلّهم بالإعراض والاستكبار وسوء الصنيع، وتلك أمارة على أنّهم إنّما يعرضون عن الحقّ لأجل مخالفة الحقّ أهواءهم، وإلّا فكيف لم يجدوا في خلال هاته العصور ومن بين تلك المشارب ما يوافق الحقّ ويتمحض للنصح.

وإنّ قوما هذا دأبهم، يرثه الخلف عن السلف، لجديرون بزيادة التوبيخ، ليكون هذا حجّة عليهم في أنّ تكذيبهم للدعوة المحمدية مكابرة وحسد، حتّى تنقطع حجّتهم، إذ لو كانت معاندتهم للإسلام هي أولى فعلاتهم لأوهّموا النّاس أنّهم ما أعرضوا إلّا لما تبيّن لهم من بطلان.

وسُمِّي أنبياء بني إسرائيل الذين من بعد موسى رسلا، مع أنّهم لم يأتوا بشرع جديد، اعتبارا بأنّ الله أمرهم بإقامة التوراة وتفسيرها والتفريع منها، فقد جعل لهم تصرّفا شرعيّا، وبذلك كانوا زائدين على مطلق النبوّة التي لا تعلّق لها بالتشريع لا تأصيلا ولا تفريعا. وقال الباقلاني فيما نقله عنه الفخر: " لا بد أن يكون هؤلاء الرسل جاءوا بشرع جديد ولو مع المحافظة على الشرع الأول أو تجديد ما اندرس".

وما كان عيسى عليه السلام إلّا مثلهم في أنّه ما أتى بأحكام جديدة إلّا شيئا قليلا، وخُصّ عيسى بالذكر من بين سائر الأنبياء الذين جاءوا بعد موسى زيادة في التنكيل على اليهود، لأنّهم يكفرون به ويكذّبونه، ولذلك أيضا خصّه بقوله { وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ }، ولأنّ من جاء بعد موسى من الرسل لم يخبروا أن جبريل جاءهم بوحي، وعيسى كان أوسع منهم في الرسالة.

عيسى: اسم معرَّب من(**يشوع** أو **يسوع**) وهو اسم عيسى ابن مريم قلبوه في تعريبه قلبا مكانيا ليجري على وزن خفيف كراهية اجتماع ثقل العجمة وثقل ترتيب حروف. ومعنى يشوع بالعبرانية **السيد** أو **المبارك**. وعيسى عليه السلام هو ابن مريم كوّنه الله في بطنها بدون مسّ رجل، وأمّه مريم ابنة عمران من سبط يهوذا. ولد عيسى في مدّة سلطنة (أغسطس) ملك رومية، وفي مدة حكم (هيردوس) على القدس، من جهة سلطان الرومان، وذلك في سنة عشرين وستمائة قبل الهجرة المحمدية، وكانت ولادته بقرية تعرف بـ (بيت لحم) اليهودية، ولمّا بلغ ثلاثين سنة بُعث رسولا إلى بني إسرائيل، وبقي في الدنيا

إلى أن بلغ سنّه ثلاثة وثلاثين سنة.

مريم: هي أم عيسى، وهذا اسمها بالعبرانية نقل للعربية على حاله لخفّته، ولا معنى لمريم في العربية غير العلمية، إلّا أنّ العرب المتنصّرة عاملوه معاملة الصفة في معنى المرأة المتباعدة عن مشاهدة النساء لأنّ هاته الصفة اشتهرت بها مريم، إذ هي أوّل امرأة عبرانية خدمت بيت المقدس.

وهي مريم ابنة عمران بن ماثان من سبط يهوذا، ولدت عيسى وهي ابنة ثلاث عشرة سنة، فتكون ولادتها في سنة ثلاث عشرة قبل ميلاد عيسى، وتوفّيت بعد أن شاخت، ولا تعرف سنة وفاتها. وكان أبوها مات قبل ولادتها فكفلها زكرياء من بني (أبيا) وهو زوج (اليصابات) خالة مريم، وكان كاهنا من أحبار اليهود، كما سيأتي في سورة آل عمران.

البيّنات: صفة لمحذوف، أي: الآيات والمعجزات الواضحات.

{ **وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ** } قوّيناه وشددنا عضده ونصرناه.

الروح: جوهر نوراني لطيف، أي غير مدرك بالحواس فيطلق على النفس الإنساني الذي به حياة الإنس، ولا يطلق على ما به حياة العجماوات إلّا لفظ نفس.

روح القدس: روح مضاف إلى النزاهة، فيجوز أن يكون المراد به الروح الذي نفخ الله في بطن مريم ، فتكوّن منه عيسى، وإنّما كان ذلك تأييدا له، لأنّ تكوينه في ذلك الروح اللّدني المطهّر هو الذي هيّأه لأن يأتي بالمعجزات العظيمة.

ويجوز أ ن يكون المراد به جبريل، والتأييد به ظاهر، لأنّه الذي يأتيه بالوحي، وينطق على لسانه في المهد وحين الدعوة إلى الدين، وهذا الإطلاق أظهر هنا. وفي الحديث الصحيح: " **أنّ روح القدس نفث في رُوعي أنّ نفسا لن تموت حتّى تستوفيَ أجلها** ".

{ **أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ** } الاستفهام للتعجيب من طغيانهم ومقابلتهم جميع الرّسل في جميع الأزمان بمقابلة واحدة، ساوى فيها الخلف السلف، ممّا دلّ على أنّ ذلك سجيّة في الجميع.

وقد دلّ العموم الذي في (كلّما) على شمول التكذيب أو القتل لجميع الرّسل المرسلين إليهم، لأنّ عموم الأزمان يستلزم عموم الأفراد المظروفة فيها.

{ **تهوى** } مضارع **هوِيَ** (بكسر الواو) إذا أحبّ. والمراد به ما تميل إليه أنفسهم من الانخلاع عن القيود الشرعيّة والانغماس في أنواع الملذّات، والتصميم على العقائد الضالة.

الاستكبار: الاتصاف بالكبر، وهو هنا الترفّع عن اتباع الرّسل، وإعجاب المتكبّرين بأنفسهم، واعتقاد أنّهم أعلى من أن يطيعوا الرُّسل ويكونوا أتباعا لهم.

{ **فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ** } مسبَّب عن الاستكبار، فالفاء للسببية، فإنّهم لمّا استكبروا بلغ بهم العصيان إلى حدّ أن كذّبوا فريقا، أي صرّحوا بتكذيبهم، أو عاملوهم معاملة الكاذب، وقتلوا فريقا.

وتقديم المفعول هنا لما فيه من الدلالة على التفصيل. وشمل هذا موسى عليه السلام، فإنّهم وإن لم يكذّبوه بصريح اللفظ لكنّهم عاملوه معاملة المكذّبين به، إذ شكّوا غير مرة فيما يخبرهم عن الله تعالى، وأساءوا الظنّ به مرارا في أوامره الاجتهادية، وحمّلوه على قصد التغرير بهم والسعي لإهلاكهم، كما قالوا حين بلغوا البحر الأحمر، وحين أمرهم بالحضور لسماع كلام الله تعالى، وحين أمرهم بدخول أريحا، وغير ذلك. وأمّا بقية الرّسل فكذّبوهم بصريح القول، مثل عيسى، وقتلوا بعض الرسل مثل أشعياء، وزكرياء ويحيى ابنه، وأرمياء.

{ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ } [88].

التفات من الخطاب إلى الغيبة، وابعاد لهم عن مقام الحضور، فهو التفات الذي نكتته أنّ ما أُجري على المخاطب من صفات النقص والفظاعة قد أوجب إبعاده عن البال، وقد حسَّن الالتفات أنّه مؤذن بانتقال الكلام إلى سوء مقابلتهم للدعوة المحمّديّة، وهو غرض جديد.

القلوب: مستعملة في معنى الأذهان على طريقة كلام العرب في إطلاق القلب على العقل.

الغُلْف: (بضم فسكون) جمع أغلف وهو الشديد الغلاف، مشتقّ من غلفه إذا جعل له غلافا، وهو الوعاء الحافظ للشيء والساتر له من وصول ما يكره له.

وهذا كلام كانوا يقولونه للنبي صلى الله عليه وسلم حين يدعوهم للإسلام، قصدوا به التهكّم وقطع طمعه في إسلامهم، وهو كقول المشركين { قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ }[فصلت:5].

{ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ } فلمّا صمّموا على ذلك عاقبهم الله باللعن والإبعاد عن الرحمة والخير، فحرمهم التوفيق والتبصّر في دلائل صدق الرَّسول.

{ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ } مشارا به إلى إيمانهم ببعض الكتاب، أو إلى إيمانهم ببعض ما يدعو له النبيّ صلى الله عليه وسلم ممّا يوافق دينهم القديم، كالتوحيد ونبوّة موسى. ويجوز أن يكون (قليلا) هنا مستعملا في معنى العدم، فإنّ القلّة تستعمل في العدم في كلام العرب.

{ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ } [89]

زيادة في الإنحاء عليهم بالتوبيخ لكونهم أعرضوا وكفروا بالكتاب الذي جاء مصدّقا لما معهم، والذي كانوا من قبل يستفتحون به على المشركين.

{ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ } متعلّق بجاءهم وليس صفة، لأنّه ليس أمرا مشاهدا معلوما حتّى يوصف به .

{ **مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ** } تفسيره قد مضى عند قوله { وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ } [البقرة:41].

الاستفتاح: ظاهره طلب الفتح، أي النصر. والمراد: كانوا يخبرون المشركين بأنّ رسولا سيبعث فيؤيّد المؤمنين ويعاقب المشركين.

{ **فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا** } أي لمّا جاء الكتاب (القرآن) الذي عرفوه كفروا به. وقد عدل عن أن يقال: فلما جاءهم الكتاب، ليكون اللفظ أشمل، فيشمل الكتاب والرسول الذي جاء به، فإنّه لا يجيء كتاب إلّا مع رسول.

{ **فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ** } جملة دعاء عليهم وعلى أمثالهم، والدعاء من الله تعالى تقدير وقضاء، لأنّه تعالى لا يعجزه شيء.

{ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ } [90]

استئناف لذمّهم وتسفيه رايهم إذ رضوا لأنفسهم الكفر بالقرآن وبمحمّد صلى الله عليه وسلّم، وأعرضوا عن النظر فيما اشتملت عليه كتبهم من الوعد بمجيء رسول بعد موسى.

{ **بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ** } أي بئس العوض بذلهم الكفر ورضاهم به لبقاء الرئاسة والسمعة وعدم الاعتراف برسالة الصادق.

الاشتراء: الابتياع

{ **أَنْ يَكْفُرُوا** } مجيء المضارع نبّه على أنّهم لم يزالوا يكفرون.

{ **بغيا** } بمعنى حسدا.

{ **أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ** } فاليهود كفروا حسدا على خروج النبوءة منهم إلى العرب.

{ **فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ** } أي فرجعوا من تلك الصفقة، وهي اشتراء أنفسهم، بالخسران المبين.

والظاهر أن المراد بـ (غضب على غضب): الغضب الشديد.

{ **وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ** } أي ولهم عذاب مهين لأنّهم من الكافرين.

المهين: المذلّ، أي: فيه كيفيّة احتقارهم.

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الحقّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } [91].

عطف حكايات أحوالهم في معاذيرهم عن الإعراض عن الدعوة الإسلامية، فإذا دُعوا قالوا: قلوبنا غلف، وإذا سمعوا الكتاب أعرضوا عنه، بعد أن كانوا منتظريه، حسدا أن نزل على رجل من غيرهم، وإذا وُعظوا وأُنذروا ودُعوا إلى الإيمان بالقرآن وبأنّه أنزله الله، وأن ينظروا في دلائل كونه منزلا من عند الله، أعرضوا وقالوا: نؤمن بما أنزله الله على رسولنا موسى، وهذا هو مجمع ضلالاتهم ومنبع عنادهم، فلذلك تصدّى القرآن لتطويل المحاجة فيه.

{ **نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا** } أي أنّ فضيلة الانتساب للإيمان بما أنزل الله قد حصلت لهم، أي فنحن نكتفي بما أُنزل علينا.

{ **وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ** } فهم يرون أنّ الإيمان بما أُنزل عليهم مقتضٍ للكفر بغيره. والمراد بما وراءه في الآية بما عداه وتجاوزه، أي بغيره، والمقصود بهذا الغير هنا خصوص القرآن بقرينة السياق.

{ **وَهُوَ الحقّ** } حالية، أي هو المنحصر في كونه حقًّا. ففي الآية تحذير لبني إسرائيل من مقابلة القرآن بمثل ما قابلوا به الإنجيل، وفيها زيادة في التوبيخ.

{ **مصدقا** } قيل حال مؤكّدة لقوله { وَهُوَ الْحَقُّ } ، وعندي أنها حال مؤسّسة مشعر بوصف زائد على مضمون { وَهُوَ الْحَقُّ }، إذ قد يكون الكتاب حقَّ ولا يصدّق كتابا آخر ولا يكذّبه.

{ **قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** } المراد بأنبياء الله الذين ذكرناهم عند قوله تعالى {وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الحقّ }[البقرة:61]. والإتيان بالمضارع { تَقْتُلُونَ }، مع أنّ القتل قد مضى لقصد استحضار الحالة الفظيعة.

{ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ [92] وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [93] }.

ذكر أحوالهم في مقابلتهم دعوة موسى الذي يزعمون أنّهم لا يؤمنون إلّا بما جاءهم به، فإنّهم مع ذلك قد قابلوا دعوته بالعصيان قولا وفعلا، فإذا كانوا أعرضوا عن الدعوة المحمدية بمعذرة أنّهم لا يؤمنون إلّا بما أنزل عليهم، فلماذا قابلوا دعوة أنبيائهم، بعد موسى، بالقتل؟ ولماذا قابلوا دعوة موسى بما قابلوا؟ فهذا وجه ذكر هذه الآيات هنا، وإن كان قد تقدّم نظائرها فيما مضى، فإن ذكرها هنا في محاجة أخرى وغرض جديد.

وقد بيّنتُ أنّ القرآن ليس مثل تأليف في علم يُحال فيه على ما تقدّم، بل هو جامع مواعظ وتذكيرات وقوارع ومجادلات، نزلت في أوقات كثيرة وأحوال مختلفة، فلذلك تتكرّر فيه الأغراض لاقتضاء المقام ذكرها حينئذ عند سبب نزول تلك الآيات.

والقول في هاته الآيات كالقول في سابقتها وكذلك القول في { بِالْبَيِّنَاتِ }.

{ **وَاسْمَعُوا** } المراد به هنا الامتثال. واعلم أنّ من دلائل النبوّة والمعجزات العلميّة إشارات القرآن إلى العبارات التي نطق بها موسى في بني إسرائل وكتبت في التوراة، فإنّ الأمر بالسماع تكرّر في مواضع مخاطبات موسى لملإ بني إسرائيل بقوله : " اسمع يا إسرائيل "، فهذا من نكت اختيار هذا اللفظ للدلالة على الامتثال دون غيره ممّا هو أوضح منه، وهذا مثل ما ذكرنا في التعبير بـ (العهد).

{ **وَعَصَيْنَا** } الوجه المختار في معنى هذه الآية هو ما نقله الفخر عن أبي مسلم أن قولهم { عصينا } كان بلسان الحال يعني، قالوا سمعنا وعصوا، فكأنّ لسانهم يقول: عصينا .

الإشراب: استعير لجعل الشيء متصلا بشيء وداخلا فيه، ووجه الشبه هو شدّة الاتصال والسريان، لأنّ الماء أسرى الأجسام في غيره.

وإنّما جعل حبّهم العجل إشرابا لهم للإشارة إلى أنّه بلغ مبلغ الأمر الذي لا اختيار لهم فيه، كأنّ غيرهم أشربهم إيّاه، كقولهم: أُولع بكذا وشغف.

{ **قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** } تذييل واعتراض. والمعنى قل لهم: إن كنتم مؤمنين بما أنزل عليكم كما زعمتم، يعني التوراة، فبئسما أمركم به هذا الإيمان، إذ فعلتم ما فعلتم من الشنائع من قتل الأنبياء ومن الإشراك بالله. والمقصود منه القدح في دعواهم الإيمان بالتوراة، وإبطال ذلك بطريق يستنزل طائرهم ويرمى بهم في مهواة الاستسلام للحجّة.

{ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النّاس فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [94] وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ [95] }.

قيل إنّ هذه الآية ردّ لدعوى أخرى صدرت عنهم تدلّ على أنّهم يجعلون الجنّة خاصة بهم، مثل قولهم : { نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ } [المائدة:18]، وقولهم { لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً } [البقرة:111].

وإلى هذا مال القرطبي والبيضاوي، وعليه فيكون ذكر الردّ عليهم بيّنا لمجرّد المناسبة في ردّ معتقد لهم باطل. وأيًّا ما كان فهذه الآية تحدّت اليهود كما تحدّى القرآن مشركي العرب، وإنّما فصلت هاته الجملة عمّا قبلها لاختلاف السياق، لأنّ هذه الآية إلقاء حجّة عليهم، والآيات السابقة تفظيع لأحوالهم.

{ **وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاس عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ** } [96].

للإشارة إلى أنّ عدم تمنّيهم الموت ليس على الوجه المعتاد عند البشر من كراهة الموت ما دام المرء بعافية بل هم تجاوزوا ذلك إلى كونهم أحرص من سائر البشر على الحياة، حتّى المشركين الذين لا يرجون بعثا ولا نشورا ولا نعيما.

{ **وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا** } عطف على { النّاس}.

{ **يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ** } بيان لحرصهم على الحياة، وتحقيق لعموم النوعيّة في الحياة.

{ **وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ** } والمزحزَح المبعد.

{ **وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ** } البصير هنا بمعنى العليم، وهو خبر مستعمل في التهديد والتوبيخ.

{ **قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ [97] مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ [98]** }.

العدوّ: المُبغِض، وهو مشتق من عدا عليه يعدو بمعنى وثب، لأنّ المبغِض يثب على المبغوض لينتقم منه

جبريل: اسم عبراني للملك المرسل من الله تعالى بالوحي لرسله. وفيه لغات أشهرها { **جِبْرِيل** } كقِطمير، وهي لغة أهل الحجاز، وبها قرأ الجمهور. وقرأ ابن كثير { **جَبرِيل** } بفتح الجيم وكسر الراء، وهذا وزن فَعلِيل لا يوجد له مثال في كلام العرب، قاله الفراء و النحاس. وقرأ حمزة والكسائي { **جَبْرَئِيل** } بفتح الجيم وفتح الراء وبين الراء و الياء همزة مكسورة، وهي لغة تميم وقيس وبعض أهل نجد. وقرأ أبو بكر عن عاصم { **جَبْرَئِل** } بفتح الجيم والراء بينها وبين اللام همزة مكسورة.

وهو اسم مركّب من كلمتين (**جبر – إيل**):

(**جبر**)، عند الجمهور، نقلا عن العبرانية **عبد**، والتحقيق أنها في العبرانية بمعنى: **القوّة** .

(**إيل**) ، عند الجمهور اسم من أسماء الله تعالى.

وعداوة اليهود لجبريل نشأت من وقت نزوله بالقرآن على محمد صلى الله عليه وسلم. وقيل: لأنّه ينزل على الأمم التي كذّبت رسلها بالعذاب والوعيد، نقله القرطبي عن حديث خرّجه الترمذي. وفي حديث عبد الله بن سلام: " ... قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فإنّهم أبغضوه لأنّه يجيء بما فيه شدّة وبالأمر بالقتال " [البخاري]. وقد عُرف اليهود في المدينة بأنّهم أعداء جبريل.

ومن عجيب تهافت اعتقادهم أنّهم يثبتون أنّه ملك مرسل من الله ويبغضونه ! وهذا من أحطّ دركات الانحطاط في العقل والعقيدة.

{ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ }

{ **فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ** } الضمير المنصوب بـ { نزّلَهُ } عائد للقرآن. وهذه الجملة قائمة مقام جواب الشرط لظهور أنّ المراد أن لا موجب لعداوته لأنّه واسطة أذنه الله بالنزول بالقرآن، فهم بمعاداته إنّما يعادون الله تعالى.

{ **قَلْبِكَ** } القلب هنا بمعنى النفس وما به الحفظ والفهم، والعرب تُطلق القلب على هذا الأمر المعنوي.

{ **مُصَدِّقاً** } أي أنزله مقارنا لحالة لا توجب عداوتهم إيّاه، لأنّه أنزله مصدّقا لما بين يديه من الكتب، وذلك التوراة والإنجيل.

{ **وَهُدىً** } وصف للقرآن بالمصدر لقصد المبالغة في حصول الهدى به.

البُشرى: الإخبار بحصول أمر سار أو بترقّب حصوله. فالقرآن بشّر المؤمنين بأنّهم على هدى وكمال ورضى من الله تعالى، وبشّرهم بأنّ الله سيؤتيهم خير الدنيا وخير الآخرة.

{ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ }.

لمّا كانت عداوتهم جبريل لأجل عداوتهم الرّسول، ورجعت بالآخرة إلى إلزامهم بعداوتهم الله المرسِل، لأنّ سبب العداوة هو مجيئه بالرسالة، تسنّى أن سجّل عليهم أنّهم أعداء الله لأنه المرسِل، وأعداء رسله، لأنّهم عادوا الرّسول، وأعداء الملائكة لذلك.

وخُصّ جبريل بالذكر هنا لزيادة الاهتمام بعقاب معاديه وليذكر معه ميكائيل، ولعلّهم عادوهما معا، أو لأنّهم زعموا أن جبريل رسول الخسف والعذاب، وأنّ ميكائيل رسول الخصب والسلام، وقالوا: نحن نحب ميكائيل. فلمّا أريد إنذارهم بأنّ عداوتهم الملائكة تجرّ إليهم عداوة الله، وأعيد ذكر جبريل للتنويه به عطف عليه ميكائيل لئلّا يتوهّموا أنّ محبّتهم ميكائيل تكسب المؤمنين عداوته.

{ **وَمِيكَالَ** }، وفيه لغات:

إحداها: { **ميكائيل** } بهمزة بعد الألف وياء بعد الهمزة، وبها قرأ الجمهور.

الثانية: { **ميكائل** } بهمزة بعد الألف وبلا ياء بعد الهمزة، وبها قرأ نافع.

الثالثة: { **ميكال** } بدون همز ولا ياء، وبها قرأ عمرو وحفص، وهي لغة أهل الحجاز.

{ **فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ** } جواب الشرط. والعدوّ مستعمل في معناه المجازي، وهوما يستلزم من الانتقام.

{ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ [99] أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ [100] وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ [101] }.

وفي الانتقال إلى خطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم إقبال عليه وتسلية له عمّا لقي منهم، وأنّ ما أنزل إليه لا يُكذِّب به إلّا من لا يؤبه بتكذيبه، لكون دلائله واضحة لا تقصر عن إقناعهم بأحقيّتها، ولكنّهم يُظهرون أنفسهم أنّهم لم يوقنوا بحقيّتها.

{ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ }

الفاسق: هو الخارج عن شيء، من فسقت التمرة، كما تقدّم في قوله تعالى { وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الفَاسِقِينَ } [البقرة:26]. والمعنى ما يكفر بهاته الآيات إلّا من كان الفسق شأنه ودأبه، لأنّ ذلك يهيّئه للكفر بمثل هذه الآيات .فالمراد بالفاسقين: المتجاوزون الحدّ في الكفر، المتمرّدون فيه .

{ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ } استفهام مستعمل في التوبيخ.

{ عَاهَدُوا عَهْداً } عهد التوراة، أي ما اشتملت عليه من أخذ العهد على بني إسرائيل بالعمل بما أُمروا به أخذا مكرّرا حتّى سمّيت التوراة (**العهد**).

النبذ: إلقاء الشيء من اليد، وهو هنا استعارة لنقض العهد. وأسند النبذ إلى فريق، إمّا باعتبار العصور التي نقضوا فيها العهود كما تؤذن به (كلّما)، أو احتراسا من شمول الذمّ للذين آمنوا منهم. وليس المراد أن ذلك الفريق قليل منهم، فنبّه على أنّه أكثرهم { بَلْ أَكْثَرُهُمْ }.

{ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ } هو محمد صلى الله عليه وسلم، لقوله { مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ }.

النبذ: طرح الشيء من اليد فهو يقتضي سبق الأخذ.

{ كتاب الله } ظاهر في أنّ المراد به القرآن، لأنّه الأتم في نسبته إلى الله . فالنبذ على هذا مراد به تركه بعد سماعه، فنزل السماع منزلة الأخذ ونزل الكفر به بعد سماعه منزلة النبذ.

{ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ } تمثيل للإعراض، لأنّ من أعرض عن شيء تجاوزه فخلّفه وراء ظهره.

{ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ } كأنّهم لا يعلمون التوراة وما فيها من البشارة ببعثة رسول من ولد إسماعيل.

{ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاس السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حتّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } [102]

المعنى: أنّهم لمّا جاءهم رسول الله مصدّقا لما معهم نبذوا كتابه بعلّة أنّهم متمسّكون بالتوراة فلا يتبعون ما خالف أحكامها، وقد اتّبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان، وهو مخالف للتوراة لأنّها تنهى عن السحر والشرك.

{ الشياطين } يحتمل أن يكونوا شياطين من الجنّ، وهو الإطلاق المشهور، ويحتمل أن يراد به ناس تمرّدوا وكفروا وأتوا بالفظائع الخفيّة فأطلق عليهم الشياطين على وجه التشبيه، كما في قوله { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْأِنْسِ وَالْجِنِّ} [الأنعام:112]، وقرينة ذلك قوله تعالى { يُعَلِّمُونَ النّاس السِّحْرَ } فإنه ظاهر في أنهم يدرّسونه للناس وكذلك قوله بعده { وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا }، إذ هذا الاستدراك في الإخبار يدلّ على أنّهم من الإنس، لأنّ كفر الشياطين من الجنّ أمر مقرّر لا يحتاج للإخبار عنه.

سليمان: هو النبيّ سليمان بن داود بن يسي من سبط يهوذا ولد سنة (1032 ق م) وتوفي في أورشليم سنة(975 ق م) وولي ملك إسرائيل سنة (1014 ق م) بعد وفاة أبيه داود النبيّ ملك إسرائيل، وعظم ملك بني إسرائيل في مدّته، وهو الذي أمر ببناء مسجد بيت المقدس، وكان نبيّا حكيما شاعرا وجعل لمملكته أسطولا بحريّا عظيما كانت تمخر سفنه البحار إلى جهات قاصية مثل شرق إفريقيا.

{ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ } وقد كان اليهود يعتقدون كفر سليمان في كتبهم، فقد جاء في سفر الملوك الأوّل أنّ سليمان في زمن شيخوخته أمالت نساؤه المصريات والصيدونيات والعمونيات قلبه إلى آلهتهنّ، مثل (عشتروت) إله الصيدونيين، و(مولوك) إله العمونيين (الفينيقيين)، وبني لهاته الآلهة هياكل، فغضب الله عليه، لأنّ قلبه مال عن إله إسرائيل الذي أوصاه أن لا يتبع آلهة أخرى. ولعلّ في انقسام مملكة سليمان بعد وفاته بين ابنه (رحبعام) و مولاه (يربعام)، دور كبير في نشر واختلاق تلك الأقاويل. وقد تقدّم الحديث عن تلك الانقسامات عند قوله تعالى { إنَّ الذِينَ أَمَنُوا وَالذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَابِينَ } [البقرة:62].

{ يُعَلِّمُونَ النّاس السِّحْرَ } والمقصد منه تشنيع حال كفرهم إذ كان مصحوبا بتعليم السحر على حد قولهم: كفر دون كفر، فهي حال مؤسِّسة.

السحر: الشعوذة، وهي تمويه الحيل بإخفائها تحت حركات وأحوال يظنّ الرائي أنّها هي المؤثر، مع أنّ المؤثر خفيّ. ولذلك أطلق السحر على الخديعة.

{ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حتّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ}

<u>الظاهر عندي</u> أن ليس المراد بالإنزال إنزال السحر، إذ السحر أمر موجود من قبل، ولكنّه إنزال الأمر للملكين، أو إنزال الوحي، أو الإلهام للملكين بأن يتصدّيا لبث خفايا السحر بين المتعلّمين ليبطل انفراد شرمذة بعلمه.

والحكمة من تعميم تعليمه أنّ السحرة في بابل كانوا اتّخذوا السحر وسيلة لتسخير العامة لهم في أبدانهم وعقولهم وأموالهم، ثمّ تطلعوا منه إلى تأسيس عبادة الأصنام والكواكب، وزعموا أنّهم، أي السحرة، مترجمون عنهم وناطقون بإرادة الآلهة، فحدث فساد عظيم وعمّت الضلالة، فأراد الله على معتاد حكمته، إنقاذ الخلق من ذلك، فأرسل أو أوحى أو ألهم **هاروت** و**ماروت** أن يكشفا دقائق هذا الفن للنّاس حتّى يشترك النّاس كلّهم في ذلك فيعلموا أنّ السحرة ليسوا على ذلك، ويرجع النّاس إلى صلاح الحال.

{ هَارُوتَ وَمَارُوتَ } الأظهر أنهما رجلان صالحان كان حكما مدينة بابل وكانا قد اطّلعا على أسرار السحر التي كانت تأتيها السحرة ببابل، أو هما وضعا أصله ولم يكن فيه كفر، فأدخل عليه النّاس الكفر بعد ذلك.

بابل: بلد قديم من مدن العالم، وأصل الاسم باللغة الكلدانية (**باب إيلو**) أي: **باب الله**، ويرادفه بالعبرانية (باب إيل) وهو بلد كائن على ضفتي الفرات، بحيث يخترقه الفرات، يقرب موضعه من موقع بلد (الحلة) الآن على بعد أميال من ملتقى الفرات والدجلة. كانت من أعظم مدن العالم القديم، بناها أوّلا أبناء نوح بعد الطوفان فيما يقال، ثم توالى عليها اعتناء أصحاب الحضارة بمواطن العراق في زمن الملك **النمروذ** في الجيل الثالث من أبناء نوح، ولكن ابتداء عظمة بابل كان في حدود سنة (3755 ق م)، فكانت إحدى عواصم أربعة لمملكة الكلدانيين وهي أعظمها وأشهرها، ولم تزل همم ملوك الدولتين الكلدانية والأشورية منصرفة إلى تعمير هذا البلد وتنميقه، فكان بلد العجائب، من الأبنية والبساتين، ومنبع المعارف الأسيوية والعجائب السحرية.

{ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ } جملة حالية من { هَارُوتَ وَمَارُوتَ } و(ما) نافية، والتعبير بالمضارع لحكاية الحال، إشارة إلى أنّ قولهما لمتعلمي السحر { إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ } قول مقارن لوقت التعليم لا متأخّر عنه. وقد علم من هذا أنّهما كانا معلِّمين.

{ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ } والمقصد من ذلك أنّهما كانا يصرّحان أن ليس في علمهما شيء من الخير الإلهي، وأنّه فتنة محضة، ابتلاء من الله لعباده في مقدار تمسّكهم بدينهم. وإنّما كانا فتنة لأنّ كلّ من تعلّم منهما عمل به. ووجه ابتدائهما لمن يعلّمانه بهذه الجملة أن يبيّنا له أنّ هذا العلم في مبادئه يظهر كأنّه فتنة وشرّ

فيوشك أن يكفر متعلمه عند مفاجأة تلك التعاليم إيّاه إذا كانت نفسه قد توطنت على اعتقاد أن ظهور خوارق العادات علامة على ألوهية من يظهرها.

{ **فَلا تَكْفُرْ**} فلا تكفر كما كفر السحرة حين نسبوا التأثيرات للآلهة وقد علمت سرّها. أي لا تعجل باعتقاد ذلك فينا، فإنّك إذا توغّلت في معارف السحر علمت أنّها معلولة لعلل من خصائص النفوس أو خصائص الأشياء.

{ **فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ** }

إشارة إلى جزئي من جزئيات السحر، وهو أقصى تأثيراته، إذ فيه التفرقة بين طرفي آصرة متينة (الزواج)، وهذا التفريق يكون إمّا باستعمال مفسدات لعقل أحد الزوجين حتّى يبغض زوجه، وإمّا بإلقاء الحيل والتمويهات والنميمة حتّى يفرّق بينهما.

{ **وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ** } وهذا تنبيه على أنّ السحر لا تأثير له بذاته وإنّما يختلف تأثير حيله باختلاف قابلية المسحور، وتلك القابلية متفاوتة ولها أحوال كثيرة أجملتها الآية بالاستثناء من قوله { إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ }، أي يجعل الله أسباب القابلية لأثر السحر في بعض النفوس. فهذا إجمال حسن مناسب لحال المسلمين الموجّه إليهم الكلام، لأنّهم تخلّقوا بتعظيم الله تعالى وقدرته، وليس المقام مقام تفصيل الأسباب والمؤثّرات، ولكنّ المقصود إبطال أن تكون للسحر حالة ذاتيّة وقواعد غير مموّهة.

الإذن: أصله في اللغة إباحة الفعل، واستأذن طلب الإذن في الفعل، وقد استعمله القرآن مجازا في معنى التمكين، إمّا بخلق أسباب الفعل الخارقة للعادة، نحو قوله تعالى { وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي } [المائدة:110]، وإمّا باستمرار الأسباب المودعة في الأشياء والقوى، كقوله تعالى { وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ } [آل عمران:166]. ومن هذا القبيل ونظيره لفظة الأمر في قوله تعالى { لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ } [الرعد:11].

{ **وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ** } والمعنى أنّ أمور السحر لا يأتي منها إلّا الضرّ، فالساحر لا يستطيع سحر أحد ليصير ذكيّا بعد أن كان بليدا، أو ليصير غنيا بعد الفقر، وهذا زيادة تنبيه على سخافة عقول المشتغلين به، وهو مقصد الآية .

{ **وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** }

فالمعنى أنهم اكتسبوه ببذل إيمانهم المعبّر عنه بقوله { أنفسهم }.

الخَلاق: الحظ من الخير خاصة. ونفي الخلاق دليل على أنّ تعاطي هذا السحر جرم كفر أو دونه، فلذلك لم يكن لمتعاطيه حظ من الخير في الآخرة.

{ **شَرَوْا** } بمعنى باعوا وبذلوا. ومعنى بذل النفس هو التسبّب لها في الخسار والبوار.

{ **لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** } والعلم المنفي عنهم هنا هو غير العلم المثبت لهم في قوله { وَلَقَدْ عَلِمُوا } إلّا أنّ

الذي علموه هو أنّ مكتسب السحر ما له من خلاق، والذي جهلوه هنا هو أنّ السحر شيء مذموم، وفيه تجهيل لهم، حيث علموا أنّ صاحبه لا خلاق له ولم يهتدوا إلى أنّ نفي الخلاق يستلزم الخسران.

وبذلك يندفع الإشكال عن إثبات العلم ونفيه في معلوم واحد، بناء على أنّ العلم بأنّه لا خلاق لصاحب السحر عينُ معنى كون السحر مذموما، فكيف يعدُّون غير عالمين بذمّه، وقد علمت وجهه، وهذا هو الذي تحمل عليه الآية.

وللمفسرين في الجواب عن دفع الإشكال وجوه أخرى أقربها للقول الذي اخترناه، أنّ المراد لو كانوا يعلمون ما يتبعه من العذاب في الآخرة، أي فهم ظنّوا أنّ عدم الخلاف لا يستلزم العذاب.

{ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } [103].

أي: لو آمنوا بمحمد واتقوا الله فلم يقدموا على إنكار ما بشَّرت به كتبهم لكانت لهم مثوبة من عند الله، ومثوبة الله خير من كل نفع حملهم على المكابرة.

المثوبة: اسم مصدر أثاب إذا أعطى الثواب، والثواب الجزاء الذي يعطى. ويقال: ثوَّب وأثوب.

{ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } أي لو كانوا يعلمون مثوبة الله لما اشتروا السحر. وفائدة هذا التكرير في الفاصلة التسجيل عليهم بأنّهم لا يعلمون ما هو النفع الحقّ.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [104].

يتعيّن في هذه الآية تطلّب سبب نزولها ليظهر موقعها ووجه معناها، فإنّ النهي عن أن يقول المؤمنون كلمة لا ذمّ فيها ولا سخف لابد أن يكون لسبب، وقد ذكروا في سبب نزولها أنّ المسلمين كانوا إذا ألقى عليهم النبيّ صلى الله عليه وسلم الشريعة والقرآن يتطلّبون منه الإعادة والتأنّي في إلقائه حتّى يفهموه ويعوه، فكانوا يقولون له: راعنا يا رسول الله، أي: لا تتحرّج منا وارفق، وكان المنافقون من اليهود يشتمون النبيّ صلى الله عليه وسلم في خلواتهم سرّا، وكانت لهم كلمة بالعبرانية تشبه كلمة راعنا بالعربية ومعناها في العبرانية سبّ، وقيل: معناها لا سمعت دعاء، فقال بعضهم لبعض: كنّا نسبّ محمدا سرا فأعلنوا به الآن. أو قالوا هذا وأرادوا به اسم فاعل من (رعن) إذا اتصف بالرعونة، وسيأتي.

فكانوا يقولون هاته الكلمة مع المسلمين ناوين بها السبّ، فكشفهم الله وأبطل عملهم بنهي المسلمين عن قول هاته الكلمة حتّى ينتهي المنافقون عنها ويعلموا أنّ الله أطلع نبيه على سرّهم.

ومناسبة نزول هاته الآية عقب الآيات المتقدّمة في السحر وما نشأ عن ذمّه، أنّ السحر، كما قدّمنا، راجع إلى التمويه، وأنّ من ضروب السحر ما هو تمويه ألفاظ وما مبناه اعتقاد تأثير الألفاظ في المسحور وتوجيهه النفسي للمسحور، وقد تأصّل هذا عند اليهود واقتنعوا به في مقاومة أعدائهم.

{ **راعنا** } أمر من راعاه يراعيه وهو مبالغة في رعاه. وأطلق مجازا على حفظ مصلحة الشخص والرفق به ومراقبة نفعه، وشاع هذا المجاز حتّى صار حقيقة عرفية ومنه رعاك الله.

{ **وَقُولُوا انْظُرْنَا** } كلمة تساويها في الحقيقة والمجاز وعدد الحروف والمقصود من غير أن يتذرّع بها الكفار لأذى النبيّ صلى الله عليه وسلم. وهذا من أبدع البلاغة.

انظرنا: (بضمّ همزة الوصل وضمّ الظاء) من النظر لا من الانتظار. و(نظر) في الحقيقة بمعنى حرس، وصار مجازا على تدبير المصالح، ومنه قول الفقهاء: هذا من النظر، والمقصود منه الرفق والمراقبة في التيسير.

وقد دلّت هذه الآية على مشروعية أصل من أصول الفقه وهو من أصول المذهب المالكي يلقب بـ (**سدّ الذرائع**)، وهي الوسائل التي يُتوسل بها إلى أمر محظور.

{ **واسمعوا** } أي: امتثلوا لأوامر الرسول، قاله ابن عطية، وهو أظهر.

{ **وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ** } التعريف للعهد والمراد بالكافرين اليهود خاصة، أي: تأدّبوا أنتم مع الرسول ولا تتأسّوا باليهود في أقوالهم، فلهم عذاب أليم.

{ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ } [105].

هذه الآية رجوع إلى كشف السبب الذي دعا لامتناع اليهود من الإيمان. فليس الصارف لهم تمسّكهم بما أنزل إليهم بل هو الحسد على ما أنزل على النبيّ صلى الله عليه وسلّم والمسلمين من خير.

الوُدّ: (بضم الواو) المحبّة، ومن أحبّ شيئا تمنّاه.

{ **الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ** } لقصد شمول هذا الحكم اليهود والنصارى معا.

{ **وَلا الْمُشْرِكِينَ** } كالاحتراس وليكون جمعا للحكم بين الجميع، فيكون له حظّ في التمهيد لقوله فيما يأتي.

الخير: النعمة والفضل. وأراد به هنا النبوّة وما أيّدها من الوحي والقرآن والنصر، وهو المعبّر عنه بالرحمة { بِرَحْمَتِهِ }.

{ **وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ** } والرحمة هنا مثل الخير المنزّل عليه، وذلك إدماج للامتنان عليهم بأنّ ما نزل عليهم هو رحمة بهم. ومعنى الاختصاص جعلها لأحد دون غيره.

المشيئة: هي الإرادة، ولمّا كانت إرادة الله تتعلق بالمراد على وفق علمه تعالى كانت مشيئته،

أي: إرادته، جارية على وفق حكمته التي هي من كيفيّات علم الله تعالى، فهي من تعلّقات العلم الإلهي. فالله يختصّ برحمته من عَلِم أنّه حقيق بها، لا سيما الرحمة المراد منها النبوءة، فإنّ الله يختصّ بها من خَلَقه قابلا لها، فهو يخلقه على صفاء سريرة وسلامة فطرة صالحة لتلقّي الوحي شيئا فشيئا، ولذلك لم

تكن النبوءة حاصلة بالاكتساب.

{ **وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** } تذييل، لأن الفضل يشمل إعطاء الخير والمعاملة بالرحمة، وتنبيه على أن واجب مريد الخير التعرّض لفضل الله تعالى بالتخلّي عن المعاصي والخبائث والتحلّي بالفضائل.

{ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [106].

مناسبة هذه الآية للآيات قبلها أنّ اليهود اعتذروا أنّ شريعتهم لا تنسخ، وأنّ محمدا وصف التوراة بأنّها حقّ وأنّه جاء مصدّقا لها، فكيف يكون شرعه مبطلا للتوراة ؟ ويموّهون على النّاس بما سمّوه (**البداء**)، وهو لزوم أن يكون الله تعالى غير عالم بما يحسُن تشريعه، وأنّه يبدو له الأمر ثم يعرض عنه، ويبدّل شريعة بشريعة. وقد قدّمنا أنّ الله تعالى ردّ عليهم عذرهم وفضحهم بأنّهم ليسوا متمسّكين بشرعهم حتّى يتصلّبوا فيه، وبأنّهم لا داعي لهم غير الحسد. فلمّا بيّن الردّ عليهم في ذلك كلّه أراد نقض تلك السفسطة أو الشبهة التي راموا ترويجها على النّاس بمنع النسخ.

والمقصد الأصلي من هذا هو تعليم المسلمين أصلا من أصول الشرائع، **وهو أصل النسخ** الذي يطرأ على شريعة بشريعة بعدها، ويطرأ على بعض أحكام شريعة بأحكام تبطلها من تلك الشريعة. ولكون هذا هو المقصد الأصلي وجّه الخطاب إلى المسلمين كما دلّ عليه قوله تعالى { **أَلَمْ تَعْلَمْ** }.

وقد ذكر بعض المفسّرين لهاته الآية سبب نزول، ففي الكشاف والمعالم: نزلت لمّا قال اليهود: ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه. وفي تفسير القرطبي: أنّ اليهود طعنوا في تغيير القبلة وقالوا: إنّ محمدا يأمر أصحابه بشيء وينهاهم عنه، فما كان هذا القرآن إلّا من جهته ولذلك يخالف بعضه بعضا.

{ **مِنْ آيَةٍ** } المراد هنا حكم الآية، سواء أُزيل لفظها أم أُبقي. لأنّ المقصود بيان حكمة إبطال الأحكام لا إزالة ألفاظ القرآن.

النسخ: إزالة الشيء بشيء آخر، قاله الراغب. فهو عبارة عن إزالة صورة أو ذات وإثبات غيرها عوضها. تقول نسخت الشمس الظلّ لأنّ شعاعها أزال الظل وخلفه في موضعه. وقد يطلق على الإزالة فقط دون تعويض كقولهم: نسخت الريح الأثر. وعلى الإثبات لكن على إثبات خاص وهو إثبات المزيل، وأمّا أن يطلق على مجرد الإثبات فلا أحسبه صحيحا في اللغة، لأنّ إطلاق النسخ على محاكاة حروف الكتاب إطلاق مجازي بالصورة أو تمثيلية الحالة بحالة من يزيل الحروف من الكتاب الأصلي إلى الكتاب المنتسخ.

المراد من النسخ هنا الإزالة وإثبات العوض بدليل { نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا } وهو المعروف عند الأصوليين بأنّه **رفع الحكم الشرعي بخطاب**، فخرج التشريع المستأنف إذ ليس برفع، وخرج بقولنا

(الحكم الشرعي) رفع البراءة الأصلية بالشرع المستأنف، إذ ليست حكما شرعيّا بل هي البقاء على عدم التكليف الذي كان عليه النّاس قبل مجيء الشرع، بحيث إنّ الشريعة لا تتعرّض للتنصيص على إباحة المباحات إلّا في مظنّة اعتقاد تحريمها أو في موضع حصر المحرّمات أو الواجبات.

أحوال النسخ

وحيث تبيّنت حكمة فسخ الآيات علم منه حكمة نسخ الشرائع بعضها ببعض، وهو أحوال:

الأول: مجيء شريعة لقوم مجيئا مؤقّتا لمدّة حياة الرسول المرسل بها، فإذا توفّي ارتفعت الشريعة، كشريعة نوح وإبراهيم وشريعة يوسف وشريعة شعيب، وبقي النّاس في(فترة)، وكان لكلّ أحد يريد الاهتداء أنّ يتبع تلك الشريعة أو بعضها، كما كانوا يتّبعون شريعة إبراهيم، فإذا جاءت شريعة بعدها فليست الثانية بناسخة للأولى في الحقيقة. كما كانت عبس مثلا يجوز لها اتباع شريعة إبراهيم فلمّا جاءهم (**خالد بن سنان**) بشريعتة تعيّن عليهم اتّباعه.

الثاني: أن تجيء شريعة لقوم مأمورين بالدوام عليها كشرع موسى، ثم تجيء بعدها شريعة ليست رافعة لتلك الشريعة بأسرها ولكنها ترفع بعض أحكامها وتثبت بعضا كشريعة عيسى، فهذه شريعة ناسخة في الجملة، لأنّها تنسخ بعضا وتفسّر بعضا، فالمسيح رسول نسخ بعض التوراة، وهو ما نصّ على نسخه، وأمّا غيره فباق على أحكام التوراة، فهو في معظمها مبيّن ومذكّر ومفسّر كمن سبقه من أنبياء بني إسرائيل مثل: أشعياء وأرمياء وزكرياء الأوّل ودانيال وأضرابهم، ولا يخالف هذا النوع نسخ أحكام شريعة واحدة إلّا بكونه بواسطة رسول ثان.

الثالث: مجيء شريعة بعد أخرى بحيث تبطل الثانية الأولى إبطالا عاما بحيث تعدّ تلك الشريعة باطلة سواء في ذلك الأحكام التي نصت الشريعة الثانية فيها بشيء يخالف ما في الأولى أم فيما سكتت الشريعة الثانية عنه، وهذا هو الإسلام بالنسبة لما تقدّمه من الشرائع، فإنّه رفع الشرائع كلّها بحيث لا يجوز لأحد من المسلمين أن يتلقّى شيئا من الشرائع السالفة فيما لم يتكلّم الإسلام فيه بشيء، بل يأخذ أحكام ذلك بالاستنباط والقياس وغير ذلك من طرق أصول الإسلام.

وقد أُختلف في (أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ) لكن ذلك الخلاف ناظر إلى دليل آخر وهو قوله تعالى { فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ } [الأنعام: 90].

{ **أَوْ نُنْسِهَا** } أي ننس النّاس إيّاها، وذلك بأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بترك قراءتها حتّى ينساها المسلمون. وحينئذ فالمعنى بقاء الحكم مدّة غير منسوخ أو بقاء الآية من القرآن مدّة غير منسوخة.

أو يكون المراد إنساء الآية بمعنى تأخير مجيئها مع إرادة الله تعالى وقوع ذلك بعد حين.

{ **نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا** } الخيريّة تكون من حيث الاشتمال على ما يناسب مصلحة النّاس، أو ما يدفع

عنهم مضرّة، أو ما فيه جلب عواقب حميدة، أو ما فيه ثواب جزيل، أو ما فيه رفق بالمكلّفين ورحمة بهم في مواضع الشدّة، وإن كان حملهم على الشدّة قد يكون أكثر مصلحة.

والمقصد إظهار منتهى الحكمة والردّ عليهم بأنهم لا يهمّهم أن تنسخ شريعة بشريعة، أو حكم في شريعة بحكم آخر، ولا يقدح ذلك في علم الله تعالى ولا في حكمته ولا ربوبيّته.

وقد دلّت هذه الآية على أنّ النسخ واقع، وقد اتفق علماء الإسلام على جواز النسخ ووقوعه ولم يخالف في ذلك إلّا أبو مسلم الأصفهاني محمد بن بحر، فقيل: إنّ خلافه لفظي.

وتفصيل الأدلة في كتب أصول الفقه. وقد قسمّوا نسخ أدلة الأحكام ومدلولاتها إلى أقسام:

نسخ التلاوة والحكم معا: وهو الأصل ومثّلوه بما روي عن أبي بكر: كان فيما أنزل: لا ترغبوا عن آبائكم فإنّه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم.

نسخ الحكم وبقاء التلاوة وهذا واقع لأنّ إبقاء التلاوة يقصد منه بقاء الإعجاز ببلاغة الآية ومثاله { إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ } [لأنفال:65] إلى آخر الآيات.

نسخ التلاوة وبقاء الحكم ومثلوه بما روى عن عمر: كان فيما يتلى الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما. وعندي أنّه لا فائدة في نسخ التلاوة وبقاء الحكم، وقد تأوّلوا قول عمر:" كان فيما يتلى"، أنّه كان يتلى بين النّاس تشهيرا بحكمه. وقد كان كثير من الصحابة يرى أنّ الآية إذا نسخ حكمها لا تبقى كتابتها.

{ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ } [107].

مسوق لبيان حكمة النسخ، والاتيان بالخير والمثل بيانا غير مفصّل على طريقة الأسلوب الحكيم.

{ **أَلَمْ تَعْلَمْ** } الخطاب إمّا لغير معيَّن على طريقة المجاز بتشبيه من ليس حاضرا منزلة المخاطب، والمقصد من ذلك ليعمّ كلّ مخاطب يُظنّ به أو يُتوهّم منه أنّه لا يعلم أنّ الله على كلّ شيء قدير.

وإمّا أن يكون الخطاب مرادا به ظاهره، وهو الواحد، فيكون المخاطب هو النبيّ صلى الله عليه وسلّم لكن المقصود المسلمون، فينتقل من خطاب النبيّ إلى خطاب أمّته انتقالا كنائيّا.

والاستفهام تقريري، أي أنّكم تعلمون أنّ الله قدير، وتعلمون أنّه مالك السماوات والأرض بما يجري فيهما من الأحوال، فهو ملكه أيضا، فهو يصرف الخلق كيف يشاء.

{ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْأِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ } [108].

{ **أَمْ** } حرف عطف مختصّ بالاستفهام وهو هنا إنكار وتحذير، والمناسبة في هذا الانتقال تامة، فإنّ

التقرير الذي قبلها مراد منه التحذير من الغلط، وأن يكونوا كمن لا يعلم، والاستفهام الذي بعدها مراد منه التحذير كذلك، والمحذَّر منه في الجميع مشترك في كونه من أحوال اليهود المذمومة.

{ **تُرِيدُونَ** } خطاب للمسلمين لا محالة بقرينة { رسولكم }. قال الفخر: " إنّ المسلمين كانوا يسألون النبيّ صلى الله عليه وسلم عن أمور لا خير لهم في البحث عنها ليعلموها كما سأل اليهود موسى".

وقد ذكر غيره أسبابا أخرى للنزول، منها أنّ المسلمين سألوا النبيّ صلى الله عليه وسلم في غزوة خيبر لمّا مرّوا بذات الأنواط التي كانت للمشركين أن يجعل لهم مثلها، ونحو هذا، ممّا هو مبنيّ على أخبار ضعيفة، وكل ذلك تكلّف لما لا حاجة إليه، فإنّ الآية مسوقة مساق الإنكار التحذيري. والمقصود التحذير من تطرّق الشك في صلاحية الأحكام المنسوخة قبل نسخها لا في صلاحية الأحكام النّاسخة عند وقوعها، بدليل قوله { تُرِيدُونَ } المؤذن بأنّ السؤال لم يقع ولكنّه ربّما جاش في نفوس بعضهم، أو ربّما أثارته شبه اليهود.

{ **وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْأِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ** } تذييل للتحذير الماضي، للدلالة على أنّ المحذَّر منه كفر أو يفضي إلى الكفر لأنّه ينافي حرمة الرّسول والثقة به وبحكم الله تعالى.

ويحتمل أنّ المراد بالكفر أحوال أهل الكفر، أي لا تتبدّلوا بآدابكم تقلّد عوائد أهل الكفر في سؤالهم، كما قال صلى الله عليه وسلم في حديث الصحيحين: " **فإنّما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم** ".

وإطلاق الكفر على أحوال أهله وإن لم تكن كفرا، شائع في ألفاظ الشريعة وألفاظ السلف، كما قالت جميلة بنت عبد الله بن أُبيّ زوجة ثابت بن قيس: إنّي أكره الكفر ، تريد الزنا.

{ **سَوَاءَ** } الوسط من كلّ شيء. ووسط الطريق هو الطريق الجادة الواضحة، لأنّه يكون بين بُنيَّات الطريق التي لا تنتهي إلى غاية.

{ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحقّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حتّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [109] وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ [110] }.

ما تقدّم إخبار عن حسد أهل الكتاب وخاصة اليهود منهم، وآخرتها شبهة النسخ، لأنّهم إذا لم يودّوا مجيء هذا الدين الذي اتّبعه المسلمون فهم يودّون بقاء من أسلم على كفره ويودّون أن يرجع بعد إسلامه إلى الكفر. وفي تفسير ابن عطية، والكشاف، وأسباب النزول للواحدي: أنّ حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر أتيا بيت المِدراس (بيت تعليم التوراة لتلامذة اليهود) وفيه فنحاص بن عازوراء وزيد بن قيس

وغيرهما من اليهود فقالوا لحذيفة وعمار: " ألم تروا ما أصابكم يوم أحد ولو كنتم على الحقّ ما هزمتم فارجعوا إلى ديننا فهو خير ونحن أهدى منكم "، فردا عليهم وثبتا على الإسلام.

الودّ: تقدم في الآية السالفة.

{ **وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ** } وإنّما أسند هذا الحكم إلى الكثير منهم وقد أسند قوله تعالى { مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ } [105] إلى جميعهم لأنّ تمنّيهم أن يتّبع المشركون دين اليهود أو النصارى حتّى يعم ذلك الدين جميع بلاد العرب، فلمّا جاء الإسلام شرقت لذلك صدورهم جميعا؛ فأمّا علماؤهم وأحبارهم فخابوا وعلموا أنّ ما صار إليه المسلمون خير ممّا كانوا عليه من الإشراك، لأنّهم صاروا إلى توحيد الله والإيمان بأنبيائه ورسله وكتبه، وفي ذلك إيمان بموسى وعيسى، فهؤلاء وإن لم يتّبعوا الإسلام فهم لا يودّون رجوع المسلمين إلى الشرك القديم، لأنّ في مودّة ذلك تمنّي الكفر وهو رضى به.

وأمّا عامة اليهود وجهلتهم فقد بلغ بهم الحسد والغيظ إلى مودّة أن يرجع المسلمون إلى الشرك ولا يبقوا على هذه الحالة الحسنة الموافقة لدين موسى في معظمه، نكاية بالمسلمين وبالنبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ **حَسَدًا** } حال، أي: أنّ هذا الودّ لا سبب له إلّا الحسد لا الرغبة في الكفر.

{ **مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ** } جيء فيه بمن الابتدائية للإشارة إلى تأصّل هذا الحسد فيهم وصدوره عن نفوسهم.

{ **مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحقّ** } فإنّه تبيّن أنّ ما عليه المسلمون حقّ من جهة التوحيد والإيمان بالرسل بخلاف الشرك. أو من بعد ما تبيّن لهم صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم عندهم، إذا كان المراد بالكثير منهم خاصة علمائهم والله مطلع عليهم.

{ **فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا** } وإنّما أُمر المسلمون بالعفو والصفح عنهم في هذا الموضع خاصة لأنّ ما حكي عن أهل الكتاب هنا مما يثير غضب المسلمين لشدّة كراهيتهم للكفر، فلمّا كان هذا الخبر مثيرا للغضب خيف أن يفتكوا باليهود وذلك ما لا يريده الله منهم لأنّ الله أراد منهم أن يكونوا مستودع عفو وحلم حتّى يكونوا قدوة في الفضائل.

العفو: ترك عقوبة المذنب.

الصفح: (بفتح الصاد) مصدر، أعرض، لأنّ الإنسان إذا أعرض عن شيء ولّاه من صفحة وجهه، أي: جانبه وعرضه، وهو مجاز في عدم مواجهته بذكر الذنب، وهو أبلغ من العفو كما نُقل عن الراغب.

{ **حتّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ** } الظاهر أنّه غاية مبهمة للعفو والصفح تطمينا لخواطر المأمورين حتّى لا ييأسوا من ذهاب أذى المجرمين لهم بطلا. وهذا أسلوب مسلوك في حمل الشخص على شيء لا يلائمه، كقول النّاس: حتّى يقضي الله أمرا كان مفعولا. فإذا جاء أمر الله بترك العفو انتهت الغاية، ومن ذلك إجلاء بني النضير.

{ **إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } تعليم للمسلمين فضيلة العفو، فإنّ الله قدير على كل شيء وهو يعفو ويصفح، وفي الحديث الصحيح: **" لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله عز وجل، يدعون له ندّا وهو**

يرزقهم ". أو أراد أنّه على كل شيء قدير فلو شاء لأهلكهم الآن، ولكنّه لحكمته أمركم بالعفو عنهم، وكلّ ذلك يرجع إلى الائتساء بصنع الله تعالى. وقد قيل: إنّ الحكمة كلّها التشبّه بالخالق بقدر الطاقة.

{ **وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ** } أريد به الأمر بالثبات على الإسلام، فإنّ الصلاة والزكاة ركناه، فالأمر بهما يستلزم الأمر بالدوام على ما أنتم عليه على طريق الكناية.

{ **وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ** } مناسب للأمر بالثبات على الإسلام وللأمر بالعفو والصفح، وفيه تعريض باليهود بأنّهم لا يقدّرون قدر عفوكم وصفحكم، ولكنّه لا يضيع عند الله.

{ **إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** } والبصير العليم كما تقدّم، والعليم القدير إذا علم شيئا فهو يرتّب عليه ما يناسبه، إذ لا يذهله جهل ولا يعوزه عجز، وفي هذا وعد لهم يتضمّن وعيدا لغيرهم، لأنّه إذا كان بصيرا بما يعمل المسلمون كان بصيرا بما يعمل غيرهم.

{ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [111] بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ [112] }.

الضمير لأهل الكتاب كلهم من اليهود والنصارى. ومقول القول مختلف باختلاف القائل، فاليهود قالت: لن يدخل الجنّة إلا من كان هودا، والنصارى قالت: لن يدخل الجنّة إلا من كان نصارى، فجمع القرآن بين قوليهما على طريقة الإيجاز.

الهود: جمع هائد، أي متّبع اليهوديّة.

الأمانيّ: تقدّمت في قوله تعالى { لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ } [البقرة:78].

{ **قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } أمر بأن يُجابوا بهذا، ولذلك فَصَله لأنّه في سياق المحاورة، وأتى بـ (إن) المفيدة للشك في صدقهم مع القطع بعدم الصدق، لاستدراجهم حتّى يعلموا أنّهم غير صادقين حين يعجزون عن البرهان.

{ **بلى** } كلمة يجاب بها المنفي لإثبات نقيض النفي وهو الإثبات سواء وقعت بعد استفهام عن نفي، وهو الغالب، أو بعد خبر منفي نحو { أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَى } [القيامة:43].

{ **مَنْ أَسْلَمَ** } جملة مستأنفة أريد بها بيان أنّ الجنّة ليست حكرة لأحد ولكن إنّما يستحقها من أسلم وجهه لله. وإسلام الوجه لله هو تسليم الذات لأوامر الله تعالى، أي: شدّة الامتثال.

{ **وَهُوَ مُحْسِنٌ** } جيء به جملة حالية لإظهار أنّه لا يغني إسلام القلب وحده ولا العمل بدون إخلاص، بل لا نجاة إلّا بهما، ورحمة الله فوق ذلك، إذ لا يخلو امرؤ عن تقصير.

{ **فَلَهُ أَجْرُهُ** } هو في معنى له دخول الجنّة، وهو جواب الشرط لأنّ (من) شرطية لا محالة.

{ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** } [113].

قالوا هذا بالصراحة حين جاء وفد نَجْران [نجران (بفتح النون وسكون الجيم) قبيلة من عرب اليمن كانوا ينزلون قرية كبيرة تسمّى نجران بين اليمن واليمامة وهم على دين النصرانية ولهم الكعبة اليمانية وهي كنيستهم] إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيهم أعيان دينهم من النصارى، فلمّا بلغ مقدمهم اليهود أتوهم وهم عند النبيّ صلى الله عليه وسلم فناظروهم في الدِّين وجادلوهم حتّى تسابُّوا فكفروا بعيسى وبالإنجيل وقالوا للنصارى: ما أنتم على شيء، فكفر وفد نجران بموسى وبالتوراة وقالوا لليهود: لستم على شيء.

{ **عَلَى شَيْءٍ** } أي ليسوا على أمر يعتدّ به. فالصيغة صيغة عموم. أي: ليسوا على حظّ من الحقّ، وذلك كناية عن عدم صحّة ما بين أيديهم من الكتاب الشرعي، فكلّ فريق رمى الآخر بأنّ ما عنده من الكتاب لا حظّ فيه من الخير.

{ **وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ** } جملة حالية جيء بها لمزيد التعجّب من شأنهم أن يقولوا ذلك، وكل فريق منهم يتلون الكتاب.

{ **كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ** } أريد بهم مشركو العرب، وهم لا يعلمون لأنّهم أميون. وإطلاق { الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ } على المشركين وارد في القرآن، من ذلك قوله تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ } [118].

والمعنى هنا أنّ المشركين كذّبوا الأديان كلّها اليهودية والنصرانية والإسلام.

{ **فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ** } التوعّد بالحكم بينهم يوم القيامة وإظهار ما أكنّته ضمائرهم من الهوى والحسد.

{ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ** } [114].

استطراد واقع معترضا بين ذكر أحوال اليهود والنصارى لذكر مساوئ المشركين في سوء تلقّيهم دعوة الإسلام الذي جاء لهديهم ونجاتهم. وهي تشير إلى منع أهل مكّة النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين من الدخول لمكّة، كما جاء في حديث سعد بن معاذ حين دخل مكة خفية وقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بالبيت آمنا وقد أويتم الصباء، وتكرّر ذلك في عام الحديبية. فالمناسبة أنّه بعد أن وفّى أهل الكتاب حقّهم من فضح نواياهم في دين الإسلام وأهله وبيان أنّ تلك شنشنة متأصّلة فيهم مع كلّ من جاءهم بما يخالف هواهم، وكان قد أشار إلى أنّ المشركين شابهوهم في ذلك، عطف الكلام إلى بيان ما تفرّع عن

عدم ودادة المشركين نزول القرآن، إذ منعوا مساجد الله وسدّوا طريق الهدى وحالوا بين النّاس وبين زيارة المسجد الحرام.

{ **وَمَنْ أَظْلَمُ** } والاستفهام إنكاري. ولمّا كان أصل (من) أنّها نكرة موصوفة أشربت معنى الاستفهام، فلذلك فسّروه بمعنى: لا أحد أظلم.

الظلم: الاعتداء على حقّ الغير بالتصرّف فيه بما لا يرضى به، ويطلق على وضع الشيء في غير ما يستحق ان يوضع فيه.

{ **مَسَاجِدَ اللَّهِ** } وجمع المساجد لقصد دخول جميع مساجد الله، ليشمل الوعيد كلّ مخرّب لمسجد أو مانع من العبادة بتعطيله عن إقامة العبادات.

وليس منه غلق المساجد في غير أوقات الجماعة، لأنّ صلاة الفذ لا تفضل في المسجد على غيره، وكذلك غلقها من دخول الصبيان والمسافرين للنوم، وقد سئل ابن عرفة في درس التفسير عن هذا فقال: غلق باب المسجد في غير أوقات الصلاة حفظ وصيانة. وكذلك منع غير المتأهّل لدخوله، وقد منع رسول الله المشركين الطواف والحجّ، ومنع مالك الكافر من دخول المسجد، ومعلوم منع الجنب والحائض.

السعي: أصله المشي ثم صار مجازا مشهورا في التسبّب المقصود كالحقيقة العرفية. ويعدى بـ (في) الدالة على التعليل نحو: سعيت في حاجتك.

{ **أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ** } لأنّ السامع إذا علم أنّ فاعل هذا أظلم النّاس، أو سمع هذه الجرأة، وهي السعي في الخراب تطلّب بيان جزاء من اتصف بذلك أو فعل هذا.

{ **لهم** } للاستحقاق، أي: ما كان يحقّ لهم الدخول إلاّ في حالة الخوف، فهم حقيقون بها وأحرياء في علم الله تعالى، وهذا وعيد.

{ **لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ** } استئناف ثان ولم يعطف على ما قبله ليكون مقصودا بالاستئناف اهتماما به، **الخزي**: الذلّ والهوان.

{ **وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ** } وعندي أنّ نزول هذه الآية مؤذن بالاحتجاج على المشركين من سبب انصراف النبيّ عن استقبال الكعبة بعد هجرته، فإنّ منعهم المسلمين من المسجد الحرام أشدّ من استقبال غير الكعبة في الصلاة، على حد قوله تعالى { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ } [البقرة:217].

{ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } [115].

لما جاء بوعيدهم ووعد المؤمنين عطف على ذلك تسلية المؤمنين على خروجهم من مكّة ونكاية المشركين بفسخ ابتهاجهم بخروج المؤمنين منها وانفرادهم هم بمزيّة الكعبة، فبيّن أنّ الأرض كلّها لله

تعالى وأنّها ما تفاضلت جهاتها إلّا بكونها مظنّة للتقرّب إليه تعالى وتذكّر نعمه وآياته العظيمة، فإذا كانت وجهة الإنسان نحو مرضاة الله تعالى فأينما تولّى فقد صادف رضى الله تعالى، وإذا كانت وجهته الكفر والغرور والظلم فما يغني عنه العياذ بالمواضع المقدّسة بل هو فيها دخيل لا يلبث أن يُقلع منها.

{ **الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ** } المراد تعميم جهات الأرض. وقد قيل: إنّ هذه الآية إذن للرسول صلى الله عليه وسلم بأن يتوجّه في الصلاة إلى أية جهة شاء، ولعلّ مراد هذا القائل أنّ الآية تشير إلى تلك المشروعيّة لأنّ الظاهر أنّها نزلت قبيل نسخ استقبال بيت المقدس.

{ **وَجْهُ اللَّهِ** } بمعنى الذات، وهو حقيقة لغويّة، تقول: لوجه زيد، أي: ذاته، كما تقدّم عند قوله { مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ } [البقرة:112]، وهو كناية عن أمره، فحيث أمرهم باستقبال بيت المقدس فرضاه منوط بالامتثال لذلك. وهو كناية رمزية عن رضاه بهجرة المؤمنين في سبيل الدين لبلاد الحبشة ثمّ للمدينة.

{ **إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** } تذييل، والمراد سعة ملكه أو سعة تيسيره، والمقصود عظمة الله وأنّه لا جهة له وإنّما الجهات التي يقصد منها رضى الله تفضل غيرها. وهو عليم بمن يتوجّه لقصد مرضاته .

وقد فُسّرت هذه الآية بأنّ المراد بها القبلة في الصلاة.

{ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ } [116].

وقد اجتمع على هذه الضلالة الفرق الثلاث كما اتفقوا على ما قبلها، فقالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقال المشركون: الملائكة بنات الله. وجمع قول الكلّ هنا، إلّا أنّه لم يكن فريق من الثلاثة فيه مقتبسا من الآخر بل جميعه ناشيء من الغلو في التقديس الموجودات الفاضلة ومنشؤه سوء الفهم في العقيدة سواء كانت مأخوذة من كتاب، كما في منشأ قول أهل الكتابين { اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا }، أم مأخوذا من أقوال قادتهم كما قالت العرب: الملائكة بنات الله.

{ **وَقَالُوا** } القول هنا على حقيقته وهو الكلام اللساني ولذلك نصب الجملة، وأريد أنّهم اعتقدوا ذلك أيضا لأنّ الغالب في الكلام أن يكون على وفق الاعتقاد.

{ **اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً** } جاء بلفظ (اتخذ) تعريضا بالاستهزاء بهم بأنّ كلامهم لا يلتئم لأنّهم أثبتوا ولدا لله ويقولون: اتخذه الله.

الاتخاذ: الاكتساب، وهو ينافي الوَلديّة، إذ الوَلديّة تولّد بدون صنع فإذا جاء الصنع جاءت العبوديّة لا محالة، وهذا التخالف هو ما يعبّر عنه في علم الجدل بـ (**فساد الوضع**)، وهو أن يستنتج وجود الشيء من وجود ضده.

وأصل هذه المقالة بالنسبة للمشركين ناشيء عن جهالة، وبالنسبة لأهل الكتابين ناشئ عن توغّلهما في سوء فهم الدين حتّى توهّموا التشبيهات والمجازات حقائق، فقد ورد وصف الصالحين بأنّهم أبناء الله على طريقة التشبيه، وورد في كتاب النصارى وصف الله تعالى بأنّه أبو عيسى وأبو الأمّة.

جاء في التوراة: " أنتم أولاد للربّ إلهكم لا تخمشوا أجسامكم " [سفر التثنية، الإصحاح:5]. وفي الإنجيل: " طوبى لصانعي السلام لأنّهم أبناء الله يُدعون" [إنجيل متّى، الإصحاح: 5]، وتكرّر في الأناجيل غير مرّة ففهموها بسوء الفهم على ظاهر عبارتها ولم يراعوا أصول الديانة التي توجب تأويلها، ألا ترى أنّ المسلمين لما جاءتهم أمثال هاته العبارات أحسنوا تأويلها وتبيّنوا دليلها كما في الحديث: **" الخلق عيال الله "**.

{ **سبحانه** } تنزيه لله عن شنيع هذا القول، وفيه إشارة إلى أنّ الولديّة نقص بالنسبة إلى الله تعالى، وإن كانت كمالا في الشاهد، من حيث إنهّا تسدّ بعض نقائصه عند العجز والفقر وتسدّ مكانه عند الاضمحلال، والله منزّه عن جميع ذلك، فلو كان له ولد لآذن بالحدوث وبالحاجة إليه.

{ **بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ** } أي ما هو موجود، فإنّ السماوات والأرض هي مجموع العوالم العلوية والسفلية. و(**ما**) من صيغ العموم تقع على العاقل وغيره على المجموع، وهذا هو الأصح الذي ذهب إليه في المفصّل واختاره الرضي.

القنوت: الخضوع والانقياد مع خوف، وإنّما جاء بجمع المذكر السالم المختص بالعقلاء تغليبا، لأنّهم أهل القنوت عن إرادة وبصيرة.

{ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } [117].

البديع: مشتقّ من الإبداع وهو الإنشاء على غير مثال، وذلك هو خلق أصول الأنواع وما يتولّد من متولّداتها. فخلق السماوات إبداع، وخلق الأرض، إبداع وخلق آدم إبداع، وخلق نظام التناسل إبداع، فلا شيء من تلك الموجودات أهل لأن يكون ولدا له، بل جميع ما بينهما عبيد لله تعالى، ولهذا رتّب نفي الولد على كونه بديع السماوات والأرض في سورة الأنعام بقوله { بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ } [101].

{ **وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** } استدلال على أنّه لا يتّخذ ولدا بل يُكوِّن الكائنات بتكوين واحد وكلّها خاضعة لتكوينه، وفيها كشف لشبهة النصارى، وذلك أنّهم توهّموا أنّ مجيء المسيح من غير أب دليل على أنّه ابن الله، فبيّن الله تعالى أنّ تكوين أحوال الموجودات من لا شيء أعجب من ذلك.

{ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ } [118].

تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّ ما لقيه من قومه مثل ما لاقاه الرسل قبله، ولذلك أردفت هذه الآية بقوله { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ }.

{ **وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** } قدّم قول المشركين هنا، لأنّ هذا القول أعلق بالمشركين، إذ هو جديد فيهم وفاش بينهم. فلمّا كانوا مخترعي هذا القول نُسب إليهم ثمّ نظّر بهم الذين من قبلهم وهم اليهود والنصارى، إذ قالوا مثل ذلك لرسلهم.
{ **لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ** } و(لولا) حرف تحضيض قُصد منه التعجيز والاعتذار عن عدم الإصغاء للرّسول استكبارا بأنّ عدُّوا أنفسهم أحرياء بالرسالة وسماع كلام الله تعالى. وهذا مبالغة في الجهالة لا يقولها أهل الكتاب الذين أثبتوا الرسالة والحاجة إلى الرّسل.
{ **كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ** } يجوز أن تكون واقعة موقع الجواب لمقالة الذين لا يعلمون، وهو جواب إجمالي اقتصر فيه على تنظير حالهم بحال من قبلهم، فيكون ذلك التنظير كناية عن الإعراض عن جواب مقالهم وأنّه لا يستأهل أن يجاب لأنّهم ليسوا بمرتبة من يكلّمهم الله، وليست أفهامهم بأهل لإدراك ما في نزول القرآن من أعظم آية. وفي ذلك تسلية للنبيّ كما أسلفنا.
{ **تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ** } جملة تقريريّة، أي تشابهت عقولهم في الأفن وسوء النظر.
{ **قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ** } تعليل للإعراض عن جوابهم بأنّهم غير أهل للجواب، لأنّ أهل الجواب هم القوم الذين يوقنون، وقد بيّنت لهم آياتُ القرآن بما اشتملت عليه من الدلائل، وأمّا هؤلاء فديدنهم المكابرة.

{ **إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالحقّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ** } [119].
جملة معترضة القصد منها تأنيس الرّسول عليه الصلاة والسلام من أسفه على ما لقيه من أهل الكتاب ممّا يماثل ما لقيه من المشركين، وقد كان يودّ أن يؤمن به أهل الكتاب فيتأيّد بهم الإسلام على المشركين فإذا هو يلقى منهم ما لقي من المشركين أو أشدّ.
{ **إِنَّا** } جيء بالمسند إليه ضمير الجلالة تشريفا للنبيّ صلى الله عليه وسلم بعزّ الحضور لمقام التكلم مع الخالق تعالى وتقدّس، كأنّ الله يشافهه بهذا الكلام بدون واسطة، فلذا لم يقل له: إنّ الله أرسلك.
{ **بالحقّ** } متعلق بـ { أَرْسَلْنَاكَ }. و**الحقّ**: هو الهدى والإسلام والقرآن وغير ذلك من وجوه القرآن والمعجزات، وهي كلّها ملابسة للنبيء صلى الله عليه وسلم في رسالته، بعضها بملابسة التبليغ وبعضها بملابسة التأييد. فالمعنى: أنّك رسول الله وأنّ القرآن حقّ منزل من الله.
{ **بَشِيراً وَنَذِيراً** } حالان وهما بزنة فعيل بمعنى فاعل، مأخوذان من(بشّر) المضاعف و(أنذر) المزيد
{ **وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ** } قرأ نافع ويعقوب { تَسْأَلْ } بفتح الفوقية وسكون اللام على أنّ (لا) حرف نهي جازم للمضارع وهو عطف إنشاء على خبر. وقرأه جمهور العشرة { تُسْأَلُ } بضم الفوقية

ورفع اللام على أنّ (لا) نافية، أي لا يسألك الله عن أصحاب الجحيم، أي لست مؤاخذا ببقاء الكافرين على كفرهم بعد أن بلّغت لهم الدعوة.

السؤال: كناية عن فظاعة أحوال المشركين والكافرين، حتّى أنّ المتفكّر في مصير حالهم يُنهى عن الاشتغال بذلك لأنّها أحوال لا يحيط بها الوصف ولا يبلغ إلى كنهها العقل في فظاعتها وشناعتها.

وما قيل: إنّ الرواية نزلت في نهيه صلى الله عليه وسلّم عن السؤال عن حال أبويه في الآخرة فهو استناد لرواية واهية، ولو صحّت لكان حمل الآية على ذلك مجافيا للبلاغة، إذ قد علمتَ أنّ قوله { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ } تأنيس وتسكين، فالإتيان معه بما يذكر المكدّرات خروج عن الغرض، وهو ممّا يُعبّر عنه بـ (فساد الوضع).

{ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حتّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ } [120].

جاء هذا الكلام المؤيّس من إيمانهم بعد أن قدّم قبله التأنيس والتسلية على نحو مجيء العتاب بعد تقديم العفو. والنفي بـ (لن) مبالغة في التأييس، لأنّها لنفي المستقبل وتأبيده.

المِلّة: (بكسر الميم) الدين والشريعة، وهي مجموع عقائد وأعمال يلتزمها طائفة من النّاس يتفقون عليها وتكون جامعة لهم كطريقة يتّبعونها. ويحتمل أنّها مشتقّة من أملَّ الكتاب، فسمِّت الشريعة ملّة لأنّ الرسول أو واضع الدِّين يعلّمها للنّاس ويُمْلِلُها عليهم، كما سمِّيت دينا باعتبار قَبول الأمّة لها وطاعتهم وانقيادهم.

{ **حتّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ** } معنى الغاية هنا للكناية عن اليأس من اتّباع اليهود والنصارى لشريعة الإسلام يومئذ، لأنّهم إذ كانوا لا يرضون إلّا باتّباعه ملّتهم فهم لا يتّبعون ملّته، ولمّا كان اتّباع النبيّ ملّتهم مستحيلا كان رضاهم عنه كذلك.

{ **قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى** } أمر بالجواب عن أقوال لهم يقتضي مضمونها أنّهم لا يرضيهم شيء ممّا يدعوهم النبيّ إليه إلّا أن يتّبع ملّتهم، وأنّهم يقولون: إنّ ملّتهم هدى فلا ضير عليه إن اتّبعها.

ويجوز أن يكون المعنى أنّ القرآن هو الهدى، وما أنتم عليه ليس من الهدى لأنّ أكثره من الباطل. وفي القول تعريض بأنّ ما هم عليه يومئذ شيء حرّفوه ووضعوه.

ولعلّ الآية تشير إلى أنّ استقبال النبيّ صلى الله عليه وسلّم في الصلاة إلى القبلة التي يستقبلها اليهود لقطع معذرتهم كما سيأتي في قوله تعالى { وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ } [143]، فأعلم رسوله بأنّ ذلك لا يُلين من تصلّب اليهود في عنادهم، فتكون الآية إيماء إلى تمهيد نسخ استقبال بيت المقدس.

{ **وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ** } وعبّر عن طريقتهم هنالك بالملّة نظرا لاعتقادهم

وشهرة ذلك عند العرب، وعبّر عنها هنا بـ { أَهْوَاءَهُمْ } بعد أن مهّد له بقوله تعالى { إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى }، فإنّ الهوى رأى ناشئ عن شهوة لا عن دليل.

{ **مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ** } تحذير لكلّ من تلقّى الإسلام أن لا يتّبع بعد الإسلام أهواء الأمم الأخرى، جاء على طريقة تحذير النبيّ صلى الله عليه وسلم. من مثل قوله تعالى { لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ} [الزمر:65].

الولي: القريب والحليف.

النصير: كل من يعين أحدا على من يريد به ضرّا.

{ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } [121].

كأنّ سائلا سأل كيف وهم متمسّكون بشريعة؟ ومن الذي هو على هدى ممّن اتبع هاتين الشريعتين؟ فأجيب: بأنّ الذين أوتوا الكتاب وتلوه حقّ تلاوته هم الذين يؤمنون به. ويجوز أن يكون اعتراضا في آخر الكلام لبيان حال المؤمنين الصادقين من أهل الكتاب.

{ **يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ** } حال من الذين أوتوا الكتاب.

الحقّ: هنا ضدّ الباطل، أي: تلاوة مستوفية قوام نوعها لا ينقصها شيء ممّا يعتبر في التلاوة، فإنّ الكلام يراد منه إفهام السامع فإذا تلاه القارئ ولم يُفهم جميع ما أراده قائله كانت تلاوته غامضة، فحقّ التلاوة هو العلم بما في المتلو.

{ **أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ** } قال بعض المفسّرين إنّ ضمير{ بِهِ } عائد إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم مع أنّه لم يتقدّم له معاد. ويجوز أن يعود الضمير إلى الهدى في قوله تعالى { قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى } [120]، أي: يؤمنون بالقرآن أنّه منزّل من الله.

{ **وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** } وفيه تصريح بحكم المنطوق، وهو أنّ المؤمنين به هم الرابحون، ففي الآية إيجاز بديع لدلالتها على أنّ الذين أوتوا الكتاب يتلونه حق تلاوته هم المؤمنون دون غيرهم. فالمؤمنون به هم الفائزون والكافرون هم الخاسرون.

{ يَا بَنِي إِسْرائيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ [122] **وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ** [123] }.

أعيدت هذه الآية بالألفاظ التي ذكرت بها هنالك [البقرة: 48] للتذكير ولم يخالف بين الآيتين إلّا في الترتيب بين العدل والشفاعة، وهو تفنّن، والتفنّن في الكلام تنتفي به سآمة الإعادة مع حصول المقصود من التكرير. وأمّا نفي القبول مرّة عن الشفاعة ومرّة عن العدل فلأنّ أحوال الأقوام في طلب الفكاك عن الجناة تختلف، فمرة يقدمون الفداء فإذا لم يقبل قدموا الشفعاء، ومرّة يقدمون الشفعاء فإذا لم تقبل شفاعتهم عرضوا الفداء.

والقول في بقيّة الآيتين مستغنى عنه بما تقدّم في نظيرتها.

وهنا ختم الحجاج مع أهل الكتاب في هذه السورة، وذلك من براعة المقطع.

{ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ } [124].

لمّا أخذ اليهود والنصارى حظّهم من الإنذار والموعظة كاملا فيما اختصّوا به، وأخذوا مع المشركين حظّهم من ذلك فيما اشتركوا فيه تهيأ المقام للتوجّه إلى مشركي العرب لإعطائهم حظهم من الموعظة كاملا فيما اختصوا به، فمناسبة ذكر فضائل إبراهيم ومنزلته عند ربّه ودعوته لعقبه عقب ذكر أحوال بني إسرائيل، هي الاتحاد في المقصد، فإنّ المقصود من تذكير بني إسرائيل بالنعم والتخويف، تحريضهم على الإنصاف في تلقّي الدعوة الإسلامية والتجرّد من المكابرة والحسد وترك الحظوظ الدنيويّة لنيل السعادة الأخروية. والمقصود من ذكر قصّة إبراهيم موعظة المشركين ابتداء وبني إسرائيل تبعا له، لأنّ العرب أشد اختصاصا بإبراهيم من حيث إنّهم يزيدون على نسبهم إليه بكونهم حفظة حرمه، ومنتمين قديما للحنيفيّة ولم يطرأ عليهم دين يخالف الحنيفيّة بخلاف أهل الكتابين.

{ وَإِذِ ابْتَلَى } عطفا على قوله تعالى { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً } [30].

فقد تهيّأ المقام لتذكير الفريقين بأبيهم الأقرب وهو إبراهيم، وجه يكون المقصود بالخطاب فيه ابتداء العرب، ويضم الفريق الآخر معهم في قرن، ولذلك كان معظم الثناء على إبراهيم بذكر بناء البيت الحرام وما تبعه إلى ان ذُكرت القبلة وسط ذلك.

وفي هذه الآية مقصد آخر وهو تمهيد الانتقال إلى فضائل البلد الحرام والبيت الحرام، لإقامة الحجّة على الذين عجبوا من نسخ استقبال بيت المقدس وتذرّعوا بذلك إلى الطعن في الإسلام بوقوع النسخ فيه، وإلى تنفير عامة أهل الكتاب من اتّباعه لأنّه غير قبلتهم، ليظهر لهم أنّ الكعبة هي أجدر بالاستقبال، وأن الله

استبقاها لهذه الأمّة تنبيها على مزيّة هذا الدين.

الابتلاء: افتعال من البلاء، وصيغة الافتعال هنا للمبالغة ،والبلاء **الاختبار**، وهومجاز مشهور فيه لأنّ الذي يكلّف غيره بشيء يكون تكليفه متضمّنا انتظار فعله أو تركه فيلزمه الاختبار، فهو مجاز على مجاز، والمراد هنا **التكليف**، لأنّ الله كلّفه بأوامر ونواه، إمّا من الفضائل والآداب وإمّا من الأحكام التكليفية الخاصة به. وهذا يدلّ على أنّ إبراهيم أُوحي إليه بنبوّة لتتهيأ نفسه لتلقي الشريعة، فلمّا امتثل ما أُمر به أوحي إليه بالرسالة، وهي في قوله تعالى { إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً }، فتكون الجملة بدل بعض من جملة { وَإِذِ ابْتَلَى }.

ويجوز أن يكون الابتلاء هو الوحي بالرسالة ويكون قوله { إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً} تفسيرا لابتلى.

الإمام: الرسول والقدوة.

{ **إبراهيم** } اسم الرسول العظيم الملقّب بـ (**الخليل**) وهو إبراهيم بن تارح (وتسمِّي العرب تارح آزر) بن ناحور بن سروج، ابن رعو، ابن فالح، ابن عابر ابن شالح ابن ارفكشاد، ابن سام ابن نوح هكذا تقول التوراة، ومعنى إبراهيم في لغة الكلدانيين (**أب رحيم** أو **أب راحم**). وفي التوراة أنّ اسم إبراهيم **إبرام** وأن الله لمّا أوحى إليه وكلّمه أمره أن يُسمّى إبراهيم لأنّه يجعله أبا لجمهور من الأمم، فمعنى إبراهيم على هذا (**أبو أمم كثيرة**).

ولد في أور الكلدانيين سنة (1996 ق م). ثم انتقل به والده إلى أرض كنعان (وهي أرض الفينيقيين) فأقاموا بحاران (حوران) ثم خرج منها لقحط أصابها فدخل مصر وزوجه (**سارة**)، وهنالك رام ملك مصر افتكاك سارة فرأى آية صرفته عن مرامه فأكرمها وأهداها جارية مصريّة اسمها (**هاجر**) وهي أم ولده إسماعيل، وأسكن ابنه إسماعيل وأمّه هاجر بوادي مكّة، ثم لما شب إسماعيل بنى إبراهيم البيت الحرام هنالك.

توفّي إبراهيم سنة (**1773 ق م**).

وذكر أبو شامة في شرح حرز الأماني عن الفراء في إبراهيم ست لغات : إبراهيم، أبراهام، إبراهوم، إبراهِم، (بكسر الهاء) ، إبراهَم(بفتح الهاء)، إبراهُم (بضم الهاء). ولم يقرأ جمهور القراء العشرة إلّا بالأولى وقرأ بعضهم بالثانية.

وتقديم المفعول { إبراهيم } لأنّ المقصود تشريف إبراهيم بإضافة اسم ربّ إلى اسمه مع مراعاة الإيجاز فلذلك لم يقل: وإذ ابتلى الله إبراهيم.

الكلمات: الكلام الذي أوحى الله به إلى إبراهيم، وأجملها هنا إذ ليس الغرض تفصيل شريعة إبراهيم ولا بسط القصّة والحكاية وإنّما الغرض بيان فضل إبراهيم ببيان عزمه وامتثاله لتكاليف أتى بها كاملة فجوزي بعظيم الجزاء.

ولعلّ جمع كلمات جمع السلامة يؤذن بأنّ المراد بها أصول الحنيفيّة، وهي قليلة العدد كثيرة الكلفة، فلعلّ منها الأمر بذبح ولده، وأمره بالاختتان، وبالمهاجرة بهاجر إلى شقّة بعيدة. وأعظم ذلك كلّه أمره بذبح ولده إسماعيل بوحي من الله إليه في الرؤيا، وقد سمِّي ذلك بلاء في قوله { إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ المُبِينُ } [الصافات:106].

{ **فَأَتَمَّهُنَّ** } جيء فيه بالفاء للدلالة على الفور في الامتثال، وذلك من شدّة العزم.

الإتمام: في الأصل الإتيان بنهاية الفعل أو إكمال آخر أجزاء المصنوع. وتعليقه بـ (كلمات) مجاز عقلي.

{ **إِمَاماً** } مشتق من الأَمّ وهو القصد، والمراد هنا: **رسولا،** فإنّ الرسالة أكمل أنواع الإمامة.

{ **قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي** } سأل أن يكون في ذرّيّته الإمامة بأنواعها؛ من رسالة ومُلك وقدوة على حسب التهيّؤ فيهم وأقلّ أنواع الإمامة كون الرجل الكامل قدوة لبنيه وأهل بيته وتلاميذه.

الذرّيّة: نسل الرجل وما توالد منه ومن أبنائه وبناته. وهي مشتقّة إمّا من **الذَّر** اسمًا وهو صغار النمل، أو من الذر مصدرا بمعنى التفريق، وإمّا من **الذَّرَى** والذرو(بالياء والواو) وهو مصدر ذرت الريح إذ سَفَت، وإمّا من **الذَّرْء** بالهمزة وهو الخلق.

{ **قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** } استجابة مطويّة بإيجاز وبيان للفريق الذي تتحقق فيه الدعوة والذي لا تتحقق فيه بالاقتصار على أحدهما، لأنّ حكم أحد الضدّين يثبت نقيضه. وإنّما لم يذكر الصنف الذي تتحقق فيه الدعوة لأنّ المقصد ذكر الصنف الآخر تعريضا بالذين يزعمون يومئذ أنّهم أولى النّاس بإبراهيم، وهم أهل الكتاب ومشركو العرب هم الذين يحرمون من دعوته.

العهد: هنا بمعنى الوعد المؤكّد. وسمِّي وعد الله عهدا لأنّ الله لا يخلف وعده كما أخبر. ولذلك سمَّاه النبيّ صلى الله عليه وسلّم عهدا في قوله: **" أنشدك عهدك ووعدك ".**

الظالمين: المراد ابتداءً المشركون، أي الذين ظلموا أنفسهم إذ أشركوا بالله، قال تعالى { إِنَّ الشِرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان: 13]. والظلم يشمل أيضا عمل المعاصي الكبائر.

وفي الآية تنبيه على أنّ أهل الكتاب والمشركين يومئذ ليسوا جديرين بالإمامة لاتصافهم بأنواع من الظلم كالشرك و تحريف الكتاب وتأويله على حسب شهواتهم، والانهماك في المعاصي.

وفي الآية أنّ المتّصف بالكبيرة ليس مستحقّا لإسناد الإمامة إليه، أعني سائر ولايات المسلمين: الخلافة والإمارة والقضاء والفتوى ورواية العلم وإمامة الصلاة ونحو ذلك. وللمسألة تفصيلات في كتب الفقه والكلام، فانظرها هناك.

{ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ } [125].

تدرّج في ذكر منقبة إبراهيم، إذ جعل الله بيته بهذه الفضيلة، وإذ أضافها إلى جلالته فقال { بَيْتِيَ }، واستهلال لفضيلة القبلة الإسلامية.

{ **جَعَلْنَا** } الجعل في الآية إمّا الجعل التكويني، لأنّ ذلك قدّره الله وأوجد أسبابه فاستقر ذلك بين أهل الجاهلية ويسّرهم إلى تعظيمه، وإمّا أن أمر الله إبراهيم بذلك فأبلّغه إبراهيم ابنه إسماعيل وبثّه في ذرّيّته فتلقاه أعقابهم إلى أن أغنى الله عنه بما شرع من أحكام الأمن في الإسلام، وتمّ مراد الله تعالى.

{ **الْبَيْتَ** } علم بالغلبة على الكعبة، وهو البيت الذي بناه إبراهيم عليه السلام لعبادة الله وحده دون شريك فيأوي إليه من يدين بالتوحيد، ويطوف به من يقصد تعظيم الله تعالى.

المثابة: من ثاب يثوب إذا رجع، والمراد من المثابة هنا أنّه يقصده النّاس بالتعظيم ويلوذون به.

{ **لِلنَّاسِ** } سكّان مكّة من ذرّيّة إسماعيل وكلّ من يجاورهم ويدخل في حلفهم.

الأمن: مصدر أخبر به عن البيت باعتبار أنّه سبب أمن، فجُعل كأنّه نفس الأمن، مبالغة. والأمن حفظ النّاس من الأضرار. وهو إخبار عن تعظيم حرمته في الجاهلية نعمة منه تعالى على أهل مكّة، فكان في ذلك مصلحة لذرّيّة إسماعيل عليه السلام.

وقد اختلف الفقهاء في الاستدلال بهذه الآية وأضرابها على حكم إقامة الحدود والعقوبات في الحرم، وسيأتي تفصيلها عند قوله تعالى { وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } [191].

{ **وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً** } قرأه نافع وابن عامر بصيغة الماضي عطفا على { جَعَلْنَا } فالمعنى ألهمنا النّاس أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، وقرأه باقي العشرة بكسر الخاء بصيغة الأمر.

مقام إبراهيم: يطلق على الكعبة، لأنّ إبراهيم كان يقوم عندها يعبد الله تعالى ويدعو إلى توحيده. وبهذا الإطلاق جاء قوله تعالى { مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا } [آل عمران:97].

ويطلق مقام إبراهيم على الحَجَر الذي كان يقف عليه إبراهيم عليه السلام حين بنائه الكعبة ليرتفع لوضع الحجارة في أعلى الجدار كما أخرجه البخاري. وهذا الحَجَر يعرف إلى اليوم بالمقام، وقد ركع النبيّ صلى الله عليه وسلم في موضعه ركعتين بعد طواف القدوم فكان الركوع عنده من سنة الفراغ من الطواف.

والقراءتان تقتضيان أن اتخاذ مقام إبراهيم مصلى كان من عهد إبراهيم عليه السلام ولم يكن الحَجَر الذي اعتلى عليه إبراهيم في البناء مخصوصا بصلاة عنده ولكنه مشمول للصلاة في المسجد الحرام، ولمّا جاء الإسلام بقي الأمر على ذلك إلى أن كان عام حجة الوداع أوعام الفتح، دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد الحرام ومعه عمربن الخطاب ثم سُنّت الصلاة عند المقام في طواف القدوم.

{ **وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ** } العهد أصله الوعد المؤكّد وقوعه، فإذا عدي بـ (إلى) كان بمعنى الوصية المؤكّد على الموصي العمل بها. فالمعنى وأوصينا إلى إبراهيم وإسماعيل { أَنْ طَهِّرَا}.

{ **أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ** } المراد من تطهير البيت ما يدلّ عليه لفظ التطهير من تطهيرمحسوس، بأن يحفظ من القاذورات والأوساخ ليكون المتعبّد فيه مقبلا على العبادة دون تكدير، ومن تطهير معنوي، وهو أن يُبعد عنه ما لا يليق بالقصد من بنائه؛ من الأصنام والأفعال المنافية للحقّ، كالعدوان والفسوق، والمنافية للمروءة كالطواف عريًا.

وفي هذا تعريض بأن المشركين ليسوا أهلا لعمارة المسجد الحرام، لأنّهم لم يطهّروه مما يجب تطهيره.

{ **لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ** } أصناف المتعبّدين في البيت من طواف واعتكاف وصلاة.

{ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } [126]

منقبة ثالثة لإبراهيم عليه السلام في استجابة دعوته بفضل مكّة والنعمة على ساكنيها إذا شكروا، وتنبيه ثالث لمشركي مكّة يومئذ ليتذكّروا دعوة أبيهم إبراهيم المشعرة بحرصه على إيمانهم بالله واليوم الآخر، حتّى خص من ذرّيّته بدعوته المؤمنين، فيعرض المشركون أنفسهم على الحال التي سألها أبوهم فيتّضح لهم أنّهم على غير تلك الحالة، وفي ذلك بعث لهم على الاتّصاف بذلك، لأنّ للنّاس رغبة في الاقتداء بأسلافهم وحنين اإلى أحوالهم.

{ **هَذَا بَلَداً** } اسم الإشارة للموضع القائم به إبراهيم حين دعائه، وهو المكان الذي جعل به امرأته وابنه وعزم على بناء الكعبة فيه، إن كان الدعاء قبل البناء، أو الذي بنى فيه الكعبة، إن كان الدعاء بعد البناء.

وقد عدل هنا عن بيان المشار إليه لأن الغرض ليس تفصيل حالة الدعاء إنّما هو بيان استجابة دعائه، وفضيلة محلّ الدعوة، وجعلُ مكّة بلدا آمنا، ورزقُ أهله من الثمرات، وتلك عادة القرآن في الإعراض عمّا لا تعلّق به.

والظاهر أن دعوة إبراهيم المحكية في هذه الآية كانت قبل أن تتقرَّى مكة حيث لم يكن بها إلّا بيت إسماعيل أو بيت أو بيتان آخران، لأنّ إبراهيم ابتدأ عمارته ببناء البيت من حجر، ولأنّ إلهام الله إيّاه لذلك لإرادته تعالى مصيرها مهيع الحضارة لتلك الجهة إرهاصًا لنبوّة سيدنا امحمد صلى الله عليه وسلم.

ويحتمل أنّ ذلك المكان كان مأهولا بسكّان وقت مجيء إبراهيم وامرأته وابنه، والعرب يذكرون أنّه كان في تلك الجهة عشائر من جرهم وقطور او العمالقة والكركر في جهات أجياد وعرفات.

الآمن: اسم فاعل من أمِن ضدّ خاف. فالتقدير: اجعله هذا المكان بلدا آمنا، أي: قرية آمنة، فيكون دعاء بأن يصير قرية وأن تكون آمنة.

وإن كان المشار إليه في وقت دعائه قرية بنى أناس حولها ونزلوا حذوها، وهو الأظهر الذي يشعر به كلام الكشّاف هنا وفي سورة إبراهيم، كان دعاء للبلد بحصول الأمن له.

{ **مِنَ الثَّمَرَاتِ** } التعريف في الثمرات تعريف الاستغراق، أي من جميع الثمرات المعروفة للنّاس، وفي هذا دعاء لهم بالرفاهيّة حتّى لا تطمح نفوسهم للارتحال عنه.

{ **مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ** } خصّ إبراهيم المؤمنين بطلب الرزق لهم حرصا على شيوع الإيمان لساكنيه، فجعل تيسير الرزق لهم على شرط إيمانهم باعثا لهم على الإيمان. أو أراد التأدّب مع الله تعالى فسأله سؤالا أقرب إلى الإجابة، ولعلّه استشعر من رد الله عليه عموم دعائه السابق إذ قال { وَمِنْ ذُرِّيَّتِي } [124] فقال { لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ }، أنّ غير المؤمنين ليسوا أهلا لإجراء رزق الله عليهم.

{ **قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ** } المعنى هنا إلى أنّ الله تعالى أظهر فضله على إبراهيم بأنّه يرزق ذرّيّته مؤمنهم وكافرهم، أو أظهر سعة رحمته برزق سكان مكّة كلهم مؤمنهم وكافرهم.

وفي هذه الآية دليل لقول الباقلاني والماتريدية والمعتزلة بأنّ الكفار منعم عليهم بنعم الدنيا، وقال الأشعري لم ينعم على الكافر لا في الدنيا ولا في الآخرة وإنّما أعطاهم الله في الدنيا على وجه الاستدراج، والمسألة معدودة في مسائل الخلاف بين الأشعري والماتريدي، ويشبه أن يكون الخلاف بينهما لفظيّا.

{ **ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** } احتراس من أن يغترّ الكافر بأنّ تخويله النعم في الدنيا يؤذن برضى الله، فلذلك ذكر العذاب هنا.

الاضطرار: في الأصل الالتجاء، وهو بوزن افتعل مطاوع أضرَّه إذا صيَّره ذا ضرورة، أي: حاجة.

{ **وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** } [127].

منقبة ثالثة لإبراهيم عليه السلام، وتذكير بشرف الكعبة، ووسيلة ثالثة إلى التعريض، وتمهيد للردّ على اليهود إنكارهم استقبال الكعبة.

{ **وَإِذْ يَرْفَعُ** } وحكايتها كأنها مشاهدة لأنّ المضارع دال على زمن الحال، فاستعماله هنا استعارة تبعيّة، شبّه الماضي بالحال لشهرته ولتكرّر الحديث عنه بينهم فإنّهم لحبهم إبراهيم وإجلالهم إيّاه لا يزالون يذكرون مناقبه وأعظمها بناء الكعبة، ولأنّ ما مضى من الآيات في ذكر إبراهيم يوجب امتلاء أذهان السامعين بإبراهيم وشؤونه حتّى كأنّه حاضر بينهم وكأن أحواله حاضرة مشاهدة.

القواعد: جمع قاعدة وهي أساس البناء. **ورفع القواعد** إبرازها من الأرض والاعتلاء بها لتصير جدارا. ويجوز أن يفاد من اختيار مادة الرفع دون مادة الإطالة ونحوها معنى التشريف.

{ **وَإِسْمَاعِيلُ** } للإشارة إلى التفاوت بين عمل إبراهيم وعمل إسماعيل أوقع العطف على الفاعل بعد ذكر

المفعول والمتعلّقات، وهذا من خصوصيات العربية في أسلوب العطف في ما ظهر، وذلك أنّك إذا أردت أن تدلّ على التفاوت بين الفاعلين في صدور الفعل تجعل عطف أحدهما بعد انتهاء ما يتعلّق بالفاعل الأوّل، وإذا أردت أن تجعل المعطوف والمعطوف عليه سواء في صدور الفعل تجعل المعطوف مواليا للمعطوف عليه.

إسماعيل: اسم الابن البكر لإبراهيم عليه السلام، وهو ولده من جاريته هاجر القبطية، ولد في أرض الكنعانيين بي نقادش وبارد سنة (**1910 ق م**). ومعنى إسماعيل بالعبرية **سمع الله** أي: **إجابة الله،** لأن الله استجاب دعاء أمّه هاجر إذ خرجت حاملا بإسماعيل مفارقة الموضع الذي فيه سارة مولاتها حين حدث لسارة من الغيرة منها لمّا حملت هاجر ولم يكن لسارة أبناء يومئذ.

وقيل هو معرب عن (**يشمعيل**) بالعبرانية، ومعناه (**الذي يسمع له الله**).

ولمّا كبر إسماعيل رأى إبراهيم رؤيا وحي أن يذبحه فعزم على ذبحه ففداه الله، واسماعيل يومئذ الابن الوحيد لإبراهيم قبل ولادة إسحاق، وكان إسماعيل مقيما بمكّة حول الكعبة.

توفي بمكة سنة (**1773ق م** تقريبا)، ودفن بالحجر الذي حول الكعبة.

{ **رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** } من كلام إبراهيم لأنّه الذي يناسبه الدعاء لذرّيّته، لأنّ إسماعيل كان حينئذ صغيرا. والإتيان بضمير الفصل يفيد قصرين للمبالغة في كمال الوصفين له تعالى.

ويجوز أن يكون قصرا حقيقيا باعتبار متعلّق خاص، أي: السميع العليم لدعائنا لا يعلمه غيرك، وهذا قصر حقيقي مقيّد وهو نوع مغاير للقصر الإضافي لم ينبّه عليه علماء المعاني.

{ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } [128]

{ **ربّنا** } فائدة التكرير إظهار الضراعة إلى الله تعالى، وإظهار أنّ كل دعوى من هاته الدعوات مقصودة بالذات؛ فالدعوة الأولى: لطلب تقبّل العمل، والثانية: لطلب الاهتداء.

{ **مُسْلِمَيْنِ لَكَ** } المنقادان إلى الله تعالى، إذ الإسلام الانقياد، ولمّا كان الانقياد للخالق بحقّ يشمل الإيمان بوجوده وأن لا يشرك في عبادته غيره ومعرفة صفاته التي دلّ عليها فعله كانت حقيقة الإسلام ملازمة لحقيقة الإيمان والتوحيد، فالإيمان والإسلام متغايران مفهوما وبينهما عموم وخصوص.

أَلْهَم الله إبراهيم اسم الإسلام ثم ادّخره بعده للدين المحمّدي فنُسي هذا الاسم بعد إبراهيم ولم يلقّب به دين آخر، لأنّ الله أراد أن يكون الدين المحمّدي إتماما للحنيفيّة، دين إبراهيم.

ومعنى طلب أن يجعلهما مسلمين هو طلب الزيادة فيما هماعليه من الإسلام، وطلب الدوام عليه.

{ **وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ** } وإنّما سألا ذلك لبعض الذّرّية جمعا بين الحرص على حصول الفضيلة للذّرّية وبين الأدب في الدعاء، فدعا الله بالممكن عادة، وهذا من أدب الدعاء.

ومن هنا ابتدئ التعريض بالمشركين الذين أعرضوا عن التوحيد واتبعوا الشرك، والتمهيد لشرف الدين المحمّدي.

الأمّة: اسم مشترك يطلق على معان كثيرة، والمراد منها هنا: الجماعة العظيمة التي يجمعها جامع له بال من نسب أو دين أو زمان. ويقال: أمّة محمد مثلا للمسلمين، لأنّهم اجتمعوا على الإيمان بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم. وأمّا قوله تعالى { وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ} [الأنعام :38]، فهو في معنى التشبيه البليغ، أي: كأمم إذا تدبّرتم في حكمة إتقان خلقهم ونظام أحوالهم وجدتموه كأمم أمثالكم، لأنّ هذا الاعتبار كان النّاس في غفلة عنه.

وقد استجيبت دعوة إبراهيم في المسلمين من العرب الذين تلاحقوا بالإسلام قبل الهجرة وبعدها حتّى أسلم كلّ العرب إلّا قبائل قليلة لا تنخرم بهم جامعة الأمّة.

{ **وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا** } سؤال لإرشادهم لكيفيّة الحجّ الذي أُمرا به من قبل أمرا مجملا.

المناسك: جمع منسك وهو اسم مكان من نسك، أي: تعبّد، أو من نسُك (بضم السين) نساكة: بمعنى ذبح تقرّبا، والأظهر هو الأوّل لأنّه الذي يحق طلب التوفيق له.

{ **إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** } تعليل لجمل الدعاء.

{ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [129].

كرّر النداء لأنّه عطف غرض آخر في هذا الدعاء، وهو غرض الدعاء بمجيء الرسالة في ذرّيّته لتشريفهم وحرصا على تمام هديهم.

{ **فِيهِمْ** } ولم يقل لهم، لتكون الدعوة بمجيء رسول برسالة. ومظهر هذه الدعوة هو محمد صلى الله عليه وسلم، فإنّه الرسول الذي هو من ذرّيّة إبراهيم وإسماعيل كليهما، وأمّا غيره من رسل غير العرب فليسوا من ذرية إسماعيل، وشعيب من ذرية إبراهيم وليس من ذرية إسماعيل، وهود وصالح هما من العرب العاربة فليسا من ذرية إبراهيم ولا من ذرية إسماعيل.

{ **يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ** } يقرؤها عليهم قراءة تذكير، وفي هذا إيماء إلى أنّه يأتيهم بكتاب فيه شرع.

الحكمة، العلم بالله ودقائق شرائعه، وهي معاني الكتاب وتفصيل مقاصده.

التزكية، التطهير من النقائص، وأكبر النقائص الشرك بالله. وفي هذا تعريض بالذين أعرضوا عن متابعة القرآن وأبوا إلاّ البقاء على الشرك.

وقد جاء ترتيب هذه الجمل في الذكر على حسب ترتيب وجودها لأنّ أوّل تبليغ الرسالة تلاوة القرآن ثمّ يكون تعليم معانيه، ثمّ العلم تحصل به التزكية، وهي في العمل بإرشاد القرآن.

{ **إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } تذييل لتقريب الإجابة، أي: لأنّك لا يغلبك أمر عظيم ولا يعزب عن علمك وحكمتك شيء.

{ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ [130] إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ [131] }.

موقع هاته الآيات من سوابقها موقع النتيجة بعد الدليل، فإنّه لمّا بين فضائل إبراهيم عُلم أنّ صاحب هاته الفضائل لا يَعْدل عن دينه والاقتداء به إلّا سفيه العقل أفن الرأي. والاستفهام للإنكار والاستبعاد.

الرغبة: طلب أمر محبوب.

الملّة: الدين، وتقدّم بيانها عند قوله { وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حتّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ } [120]

{ **سَفِهَ نَفْسَهُ** } سفه بمعنى استخفّ، لأنّ السفاهة خفّة العقل واضطرابه، ومنه السفاهة في الفعل وهو ارتكاب أفعال لا يرضى بها أهل المروءة، والسفه في المال إضاعته. وسفِه نفسه أهملها، ويجوز انتصاب { نَفْسَهُ } على التمييز للملابسة قصدا للمبالغة، وهي أنّ السفاهة سرت من النفس إلى صاحبها من شدّة تمكّنها بنفسه حتّى صارت صفة لجثمانه.

والمقصود تسفيه المشركين في إعراضهم عن دعوة الإسلام بعد أن بيّن لهم الرسول صلى الله عليه وسلم أنّ الإسلام مُقام على أساس الحنيفيّة، وهي معروفة عندهم بأنّها ملّة إبراهيم.

{ **وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ** } معطوفة على الجمل التي قبلها الدالة على رفعة درجة إبراهيم عند الله تعالى، إذ جعله للنّاس إماما وضمن له النبوءة في ذريته، وأمره ببناء مسجد لتوحيده واستجاب له دعواته، فلا جرم أعقبت بعطف هذه الجملة عليها لأنّها جامعة لفذلكتها وزائدة بذكر أنّه سيكون في الآخرة من الصالحين.

{ **إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ** } هو دليل اصطفائه حيث خاطبه الله بوحي وأمره بما تضمّنه قوله { أسلم } من معان جماعها التوحيد والبراءة من الحول والقوة وإخلاص الطاعة.

وقد فُهم أنّ مفعول { أَسْلِمْ } ومتعلّقه محذوفان يُعْلَمان من المقام، أي: أسلم نفسك لي. وشاع الاستغناء عن مفعول (أسلم) فنزل منزلة الفعل اللازم، يقال: أسلم، أي: دان بالإسلام.

{ **قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** } مشعر بأنّه بادر بالفور دون تريّث، كما اقتضاه وقوعه جوابا. قال ابن عرفة: " إنّما قال لربّ العالمين دون أن يقول أسلمت لك، ليكون قد أتى بالإسلام وبدليله ".

{ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } [132].

لما كان من شأن أهل الحقّ والحكمة أن يكونوا حريصين على صلاح أنفسهم وصلاح أمّتهم كان من مكمّلات ذلك أن يحرصوا على دوام الحقّ في النّاس متبعا مشهورا، فكان من سننهم التوصية لمن يظنّونهم خلفا عنهم في النّاس بأن لا يحيدوا عن طريق الحقّ ولا يفرّطوا في ما حصل لهم منه، فإنّ حصوله بمجاهدة نفوس ومرور أزمان فكان لذلك أمرا نفيسا يجدر أن يُحتفظ به.

الإيصاء: أمر أونهي يتعلّق بصلاح المخاطب خصوصا أو عموما، وفي فوته ضر. فالوصية أبلغ من مطلق أمر ونهي، فلا تطلق إلّا حيث يُخاف الفوات، ولذلك كثر الإيصاء عند توقع الموت أو الرحيل، كالوصية عند السفر في حديث معاذ حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم لليمن: " كان آخر ما أوصاني رسول الله حين وضعت رجلي في الغرز أن قال: **حَسِّنْ خُلُقك للناس** ".

وجاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال له: أوصني، قال: **" لا تغضب "**.

فوصية إبراهيم ويعقوب إمّا عند الموت كما تشعر به الآية الآتية { إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ } [133] وإمّا في مظان خشية الفوات.

{ **بِهَا** } الضمير المجرور بالباء عائد على الملّة أو على الكلمة، فإن كان بالملّة، فالمعنى أنّه أوصى أن يلازموا ما كانوا عليه معه في حياته، وإن كان الثاني فالمعنى أنه أوصى بهذا الكلام { **أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** } [131]، الذي هو شعار جامع لمعاني ما في الملّة.

بنو إبراهيم ثمانية: **إسماعيل** وهوأكبر بنيه وأمّه هاجر، و**إسحاق** وأمّه سارة وهو ثاني بنيه، و(**مديان- مدان - زمران - يقشان - بشباق - شوح**) وهؤلاء أمهم قطورة التي تزوجها إبراهيم بعد موت سارة، وليس لغير إسماعيل وإسحاق خبر مفصّل في التوراة، سوى أنّ ظاهر التوراة أنّ (مديان) هو جدّ أمّة مدين أصحاب الأيكة، وأنّ موسى عليه السلام لما خرج خائفا من مصر نزل أرض مديان وأن يثرون أو رعوئيل هو شعيب كان كاهن أهل مدين.

يعقوب: ابن إسحاق من زوجه رفقة الأرامية تزوجها سنة (1836 ق م) في حياة جدّه إبراهيم فكان في زمن إبراهيم رجلا، ولَقِّب بـ (**إسرائيل**) وهو جدّ جميع بني إسرائيل. ومات يعقوب بأرض مصر سنة (1989 ق م)، ودفن بمغارة المكفيلة بأرض كنعان بلد الخليل، حيث دُفن جدّه وأبوه عليهم السلام.

{ **وَيَعْقُوبُ** } عطف يعقوب على إبراهيم هنا إدماج المقصود به تذكير بني إسرائيل بوصيّة جدّهم. فكما عرّض بالمشركين في إعراضهم عن دين أوصى به أبوهم، عرّض باليهود كذلك، لتقام الحجّة عليهم بحقّ اتّباعهم الإسلام.

{ **يَا بَنِيَّ** } حكاية صيغة وصيّة إبراهيم، وسيجيء ذكر وصيّة يعقوب لاحقا.

{ **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ** } اختار لكم الدين، أي: الدين الكامل، وفيه إشارة إلى أنّه أختاره لهم من بين

الأديان، وأنّه فضّلهم به، لأنّ (اصطفى لك) يدلّ على أنّه ادّخره لأجله. وأراد به دين الحنيفيّة: الإسلام.
{ فَلا تَمُوتُنَّ إلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } النهي عن مفارقة الإسلام، أعنى ملّة إبراهيم في جميع أوقات حياتهم، فالمراد من مثل هذا النهي شدة الحرص على ترك المنهي.

{ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَ إِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } [133].

تفصيل لوصيّة يعقوب بأنّه أمر أبناءه أن يكونوا على ملّة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، وهذا تنويه بالحنيفيّة التي هي أساس الإسلام، وتمهيد لإبطال قولهم { كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا } [135]، وإبطال لزعمهم أنّ يعقوب كان على اليهوديّة وأنّه أوصى بها بنيه، فلزمت ذرّيّته فلا يحولون عنها.
{ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ } المخاطَب اليهود والإنكار متوجّه إلى اعتقاد اعتقدوه يُعلم من سياق الكلام وسوابقه وهو ادّعاؤهم أنّ يعقوب مات على اليهوديّة وأوصى بها فلزمت ذرّيّته، فكان موقع الإنكار على اليهود واضحا وهو أنّهم ادعوا ما لا قبل لهم بعلمه إذ لم يشهدوا كما سيأتي.
الشهداء: جمع شهيد بمعنى الشاهد، أي الحاضر للأمر والشأن.
{ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ } وهذه الوصيّة جاءت عند الموت، وهو وقت التعجيل بالحرص على إبلاغ النصيحة في آخر ما يبقى من كلام الموصي في كون له رسوخ في نفوس الموصين. أخرج أبو داوود والترمذي عن العرباض بن سارية قال: " وعظنا رسول الله موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون فقلنا: يا رسول الله كأنّها موعظة مودع فأوصنا ".
وجاء يعقوب في وصيّته بأسلوب الاستفهام لينظر مقدار ثباتهم على الدين حتّى يطّلع على خالص طويّتهم ليلقي إليهم ما سيوصيهم به من التذكير.
بنو يعقوب: هم الأسباط، أي أسباط إسحاق، ومنهم تشعبت قبائل بني إسرائيل وهم اثنا عشر ابنا:
*/ رأوبين / شمعون / لاوى / يهوذا / يساكر / زبولون، وهؤلاء أمّهم **ليئة**.
*/ يوسف / بنيامين، أمّهما **راحيل**.
*/ دان / نفتالي، أمّهما **بلهة**.
*/ جاد / أشير، أمهما **زلفة**.
وواحد الأسباط سبط بكسر (السين وسكون الباء) وهو ابن الابن أي **الحفيد**. وقد أخبرالقرآن بأن جميعهم صاروا أنبياء، وأن يوسف كان رسولا.
{ قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَ إِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ } جاءت على طريقة المحاورات، و تعريف الذي يعبدونه بطريق الإضافة إلى ضمير أبيهم وإلى لفظ آبائه إيماء إلى أنّهم مقتدون بسلفهم.
إبراهيم و **إسماعيل**: مضى التعريف بهما.

إسحاق: ابن إبراهيم وهو أصغر من إسماعيل بأربع عشرة سنة وأمّه سارة ولد سنة (1896ق م)، وهو جدّ بني إسرائيل وغيرهم من أمم تقرب لهم. وتوفي إسحاق سنة (1708ق م) ودفن مع أبيه وأمّه في مغارة المكفيلة في حبرون (بلد الخليل).

واليهود يقولون إنّ الابن الذي أمر الله إبراهيم بذبحه وفداه الله هو إسحاق، والحقّ أنّ الذي أمر بذبحه هو إسماعيل في صغره حين لم يكن لإبراهيم ولد غيره ليظهر كمال الامتثال. ومن الغريب أنّ التوراة لمّا ذكرت قصّة الذبيح وصفته بالابن الوحيد لإبراهيم، ولم يكن إسحاق وحيدا قطّ.

{ **إِلَهاً وَاحِداً** } توضيح لصفة الإله الذي يعبدونه، وإنّما أعيد لفظ (إلها) ولم يقتصر على وصف (واحد) لزيادة الإيضاح، لأنّ المقام مقام إطناب ففي الإعادة تنويه بالمعاد وتوكيد لما قبله، وهذا أسلوب من الفصاحة، إذ يعاد اللفظ ليُبني عليه وصف أو متعلق ويحصل مع ذلك توكيد اللفظ السابق تبعا، وليس المقصود من ذلك مجرد التوكيد.

{ **وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** } جملة في موضع الحال لإفادة ثبات الوصف لهم ودوامه بعد أن أفيد بالجملة الفعلية المعطوف عليها معنى التجدّد والاستمرار.

{ **تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } [134].

لمّا كانت الآيات السابقة قد تضمّنت الثناء على إبراهيم وبنيه والتنويه بشأنهم، والتعريض بمن لم يقتف آثارهم من ذرّيّتهم، وكأنّ ذلك قد ينتحل منه المغرورون عذرا لأنفسهم فيقولون: نحن وإن قصّرنا فإنّ لنا من فضل آبائنا مسلكا لنجاتنا، فجاءت هذه الآية لإفادة أنّ الجزاء بالأعمال لا بالاتكال.

الأمة: تقدم بيانها آنفا عند قوله تعالى { وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ } [128].

{ **قَدْ خَلَتْ** } مضت، كناية عن عدم انتفاع غيرهم بأعمالهم الصالحة، وإلاّ فإنّ كونها خلت ممّا لا يحتاج إلى الإخبار به. والخطاب موجّه إلى اليهود، أي: لا ينفعكم صلاح آبائكم إذا كنتم غير متّبعين طريقتهم.

{ **لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ** } المراد ثواب الأعمال. وهو قصر إضافي لقلب اعتقاد المخاطبين، فإنّهم لغرورهم يزعمون أنّ ما كان لأسلافهم من الفضائل يزيل ما ارتكبوه هم من المعاصي، أو يحمله عنهم الأسلاف.

ومن هذه الآية ونظائرها انتزع الأشعري التعبير عن فعل العبد بالكسب.

{ **وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } أي: لا تحاسبون بأعمال سلفكم وإنما تحاسبون بأعمالكم.

{ وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [135].

{ وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا } بعد أن ذمّهم بالعدول عن تلقّي الإسلام الذي شمل خصال الحنيفيّة بيّن كيفيّة إعراضهم ومقدار غرورهم بأنّهم حصروا الهدى في اليهوديّة والنصرانيّة، أي كلّ فريق منهم حصر الهدى في دينه. أي: نفوا الهدى عن متّبع ملّة إبراهيم وهذا غاية الغرور.

{ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً } أي بل لا اهتداء إلّا باتباع ملّة إبراهيم، فإنّها لمّا جاء بها الإسلام أبطل ماكان قبله من الأديان.

الحنيف: فعيل بمعنى فاعل مشتقّ من الحَنَف (بالتحريك) وهو الميل في الرجل، والمراد الميل في المذهب، وإنّما كان هذا مدحا للملّة لأنّ النّاس يوم ظهور ملّة إبراهيم كانوا في ضلالة عمياء فجاء دين إبراهيم مائلا عنهم فلقّب بالحنيف، ثم صار الحنيف لقب مدح بالغلبة.

{ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } لئلّا يغترّ المشركون، لأنّهم يزعمون أنّهم على ملّة إبراهيم، وإلّا فليس ذلك من المدح له بعدما تقدّم من فضائله.

{ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } [136].

المقصود من الأمر بهذا القول الإعلان به والدعوة إليه لما يشتمل عليه من الفضيلة الظاهرة بحصول فضيلة سائر الأديان لأهل هاته الملّة، ولما فيه من الإنصاف وسلامة الطويّة، ليرغب في ذلك الراغبون ويكمد عند سماعه المعاندون، أي نحن لا نطعن في شريعة موسى وشريعة عيسى وما أوتي النبيئون، ولا نكذّبهم، ولكنّا مسلمون لله بدين الإسلام الذي بقي على أساس ملّة إبراهيم وكان تفصيلا له او كمال المراد الله منها حين أراد الله إكمالها، فكانت الشرائع التي جاءت بعد إبراهيم كمنعرجات الطريق سلك بالأمم فيه المصالح ناسبت أحوالهم وعصورهم بعد إبراهيم.

{ قُولُوا } جمع الضمير ليشمل النبيّ صلى الله عليه وسلّم والمسلمين، فهم مأمورون بأن يقولوا ذلك.

{ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ ...} قدّم الإيمان بالله لأنّه لا يختلف باختلاف الشرائع الحقّ، ثم عطف عليه الإيمان بما أنزل من الشرائع. والمراد بما أنزل إلينا: **القرآن**، وبما عطف عليه ما أنزل على الأنبياء والرسل من وحي وما أوتوه من الكتب.

{ **وَمَا أُنْزِلَ / وَمَا أُوتِيَ** } تفنّن لتجنّب إعادة اللفظ الواحد مرارا.
{ **لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ** } وهذا ردّ على اليهود والنصارى إذا آمنوا بأنبيائهم وكفروا بمن جاء بعدهم. والمقصود عدم التفرقة بينهم في الإيمان ببعضهم، وهذا لا ينافي اعتقاد أنّ بعضهم أفضل من بعض.

{ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيم } [137].

كلام معترض بين قوله تعالى { قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ } [136]، وقوله تعالى { صِبْغَةَ اللَّهِ } [138]. والمراد من القول أن يكون إعلانا، أي: أعلنوا دينكم واجهروا بالدعوة إليه فإن اتبعوكم فقد اهتدوا.
وجاء الشرط هنا بحرف (إن) المفيدة للشك في حصول شرطها، إيذانا بأنّ إيمانهم غير مرجو.
{ **بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ** } الباء للملابسة وليست للتعدية، أي: إيمانا مماثلا لإيمانكم، فالمماثلة بمعنى المساواة في العقيدة والمشابهة فيها باعتبار أصحاب العقيدة وليست مشابهة معتبرا فيها تعدّد الأديان لأنّ ذلك ينبو عنه السياق.
{ **وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ** } أي: فقد تبيّن أنّهم ليسوا طالبي هدى ولا حقّ.
الشقاق: شدّة المخالفة، مشتقّ من الشَق (بفتح الشين) وهو الفلق وتفريق الجسم.
{ **فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ** } تثبيتا للنبيّ صلى الله عليه وسلم. أي: كفاية شرهم وشقاقهم، وكفاية النبيّ كفاية لأمّته لأنّه ما جاء لشيء ينفع ذاته.
{ **وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** } أي: السميع لأذاهم بالقول، العليم بضمائرهم أي اطمئن بأنّ الله كافيك ما تتوجس من شرهم وأذاهم بكثرتهم.
وفي الآية وعد وعيد.

{ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ } [138].

صبغة: (بكسر الصاد) أصلها صِبغ بدون علامة تأنيث، وهو الشيء الذي يُصبغ به.
الصبغة عند اليهود: اسم للماء الذي يغتسل به اليهود عنوانا على التوبة لمغفرة الذنوب. والأصل فيها عندهم الاغتسال الذي جاء فرضه في التوراة على الكاهن إذا أراد تقديم قربان كفارة عن الخطيئة عن نفسه أو عن أهل بيته، والاغتسال الذي يغتسله الكاهن أيضا في عيد الكفّارة عن خطايا بني إسرائيل في كل عام.
الصبغة عند النصارى: أصلها التطهّر في نهر الأردن، وهو اغتسال سنّه النبيّ يحيى بن زكرياء لمن يتوب من الذنوب، فكان يحيى يعظ النّاس بالتوبة فإذا تابوا أتوه فيأمرهم بأن يغتسلوا في نهر الأردن

رمزا للتطهر الروحاني، وكانوا يسمّون ذلك **معموذيت** (بذال معجمة وبتاء فوقية في آخره) ويقولون أيضا: **معموذيتا** (بألف بعد التاء) وهي كلمة من اللغة الآرامية معناها **الطهارة**.

وقد عرّبه العرب فقالوا **معمودية** بالدال المهملة وهاء تأنيث في آخره وياؤه التحتية مخففة.

وكان عيسى بن مريم حين تعمّد بماء المعمودية أنزل الله عليه الوحي بالرسالة فدعا اليهود إلى ما أوحى الله به إليه، لكن اليهود كفروا بما جاء به عيسى، ولما آمن يحيى بعيسى نشأ الشقاق بينه و بين اليهود، فرفضوا التعميد.

وكان عيسى قد عمّد الحواريين الذين آمنوا به، فتقرّر في سنة النصارى تعميد من يدخل في دين النصرانية كبيرا، وقد تعمّد قسطنطين قيصر الروم، حين دخل في دين النصرانية، أمّا من يولد للنصارى فيعمّدونه في اليوم السابع من ولادته.

{ **صِبْغَةَ اللَّهِ** } ردّ على اليهود والنصارى معا، أمّا اليهود فلأنّ الصبغة نشأت فيهم، وأمّا النصارى فلأنّها سنّة مستمرّة فيهم. ولمّا كانت المعمودية مشروعة لهم لغلبة تأثير المحسوسات على عقائدهم ردّ عليهم بأنّ صبغة الإسلام: الاعتقاد و العمل، أي إن كان إيمانكم حاصلا بصبغة القسيس فإيماننا بصبغ الله وتلوينه، أي: تكييفه الإيمان في الفطرة مع إرشاده إليه، فإطلاق الصبغة على الإيمان استعارة.

{ **وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ** } ومعناه: لا أحسن من الله في شأن صبغته. وفي تقديم الجار والمجرور (له) على عامله إفادة قصر إضافي على النصارى الذين اصطبغوا بالمعمودية لكنهم عبدوا المسيح.

{ **قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ** } [139].

خطاب لأهل الكتاب، والاستفهام للتعجّب والتوبيخ، ومعنى المحاجّة في الله الجدال في شؤونه، بدلالة الاقتضاء. ومحاجّتهم راجعة إلى الحسد، واعتقاد اختصاصهم بفضل الله تعالى وكرامته.

{ **وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ** } تأييد الإنكار، أي كيف تحاجّوننا في هاته الحالة المعروفة التي لا تقبل الشكّ.

{ **وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ** } فإذا كان الله قد أكرمكم لأجل الأعمال الصالحة فلعلّه أكرمنا لأجل صالحات أعمالنا.

{ **وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ** } عطف آخر على جملة الحال وهي ارتقاء ثالث لإظهار أنّ المسلمين أحقّ بإفاضة الخير، فإنّهم وإن اشتركوا مع الآخرين في المربوبيّة وفي الصلاحية لصدور الأعمال الصالحة، فالمسلمون قد أخلصوا دينهم لله. والجملة الاسمية مفيدة الدوام على الإخلاص.

{ **أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**}[140]

{ **أَمْ** } منقطعة بمعنى (بل) وهي إضراب للانتقال من غرض إلى غرض، وفيها تقدير استفهام للتوبيخ والإنكار، وذلك لمبلغهم من الجهل بتاريخ شرائعهم، حيث زعموا أنّ إبراهيم وأبناءه كانوا على اليهوديّة أو على النصرانية. والأمّة إذا انغمست في الجهالة وصارت عقائدها غرورا ومن دون تدبر اعتقدت ما لا ينتظم مع الدليل واجتمعت في عقائدها المتناقضات. وقد وجد النبيّ صلى الله عليه وسلّم يوم الفتح في الكعبة صورة إبراهيم يستقسم بالأزلام في الكعبة، فتلا قوله تعالى { مَا كَانَ إبْرَاهِيمُ يهوديًّا ولا نصرانيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِيَن } [آل عمران:67]، وقال: **والله إن استقسم بها قط** ".

{ **قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ** } التقدير، وقد أعلمنا الله أنّ إبراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا. وقد يُستفاد من القول أنّه أعْلمهم بأمرٍ جهلته عامتهم وكتمته خاصتهم، وهم الأحبار والرهبان الذين تركوا عامة أمّتهم مسترسلين على عقائد الخطا والغرور والضلالة، وهم ساكتون لا يغيّرون عليهم إرضاءً لهم واستجلابا لمحبّتهم.

{ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** } أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ذلك تذكيرا لهم بالعهد الذي في كتبهم عسى أن يراجعوا أنفسهم ويعيدوا النظر إن كانوا متردّدين، أو أن يفيئوا إلى الحقّ إن كانوا متعمّدين المكابرة. وهذا الاستفهام التقريري كناية عن عدم اغترار المسلمين بقولهم: إن إبراهيم وأبناءه كانوا هودا أو نصارى، وليس هذا احتجاجا عليهم.

{ **وَمَااللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** } بقيّة مقول القول، وهو تهديد، لأنّ القادر إذا لم يكن غافلا لم يكن له مانع من العمل بمقتضى علمه، وقد تقدّمت نظائر هذا في مواضع.

{ **تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } [141].

تكرير لنظيره الذي تقدّم آنفا لزيادة رسوخ مدلوله في نفوس السامعين اهتماما بما تضمنه، لكونه معنى لم يسبق سماعه للمخاطبين فلم يقتنع فيه بمرّة واحدة، ومثل هذا التكرير وارد في كلام العرب.

{ **سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النّاس مَا وَلّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** } [142]

قد خفي موقع هذه الآية من الآي التي بعدها لأنّ الظاهر منها أنّها إخبار عن أمر يقع في المستقبل، وأنّ القبلة المذكورة فيها هي القبلة التي كانت في أوّل الهجرة بالمدينة وهي استقبال بيت المقدس، وأنّ التولّي عنها هو نسخها باستقبال الكعبة، ولم يشف أحد من المفسّرين وأصحاب أسباب النزول الغليل في هذا.

والذي استقر عليه فهمي أنّ الآيات التي قبلها تكرّر فيها التنويه بإبراهيم وملّته والكعبة، وأنّ من يرغب عنها قد سفه نفسه، فكانت مثارا لأنّ يقول المشركون، ما ولّى محمدا وأتباعه عن قبلتهم التي كانوا عليها بمكّة، مع أنّه يقول إنّه على ملّة إبراهيم ويأبى عن اتباع اليهودية والنصرانية، وبهذا يظهر وجه نزولها قبل آية النسخ، لأنّ مقالة المشركين أو توقّعها حاصل قبل نسخ استقبال بيت المقدس، وناشئ عن التنويه بملّة إبراهيم والكعبة.

فالمراد بالسفهاء المشركون، ويجوز أنّ يكون المراد بهم المنافقين، وقد سبق وصفهم بهذا في أوّل السورة فيكون المقصود المنافقين الذين يبطنون الشرك.

السفهاء: جمع سفيه وتقدّم عند قوله تعالى { وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ } [130].

{ **مَا وَلَّاهُمْ** } أصله مضاعف ولَّى: إذا دنا وقرب، فيقال: ولاّه من كذا أي قرّبه منه، وولّاه عن كذا أي: صرفه عنه.

القبلة: الأظهر عندي أن تكون القبلة أسم مفعول على وزن فَعْل كالذبح، وتأنيثه باعتبار الجهة، كما قالوا: ماله في هذا الأمر قبلة ولا دبرة، أي وجهة.

{ **عَنْ قِبْلَتِهِمُ** } إضافة القبلة إلى ضمير المسلمين للدلالة على مزيد اختصاصها بهم، إذ لم يستقبلها غيرهم من الأمم، لأنّ المشركين لم يكونوا من المصلّين، وأهل الكتاب لم يكونوا يستقبلون في صلاتهم. وهذا ممّا يعضد حمل { السفهاء } على المشركين.

{ **الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا** } للإنكار والاستغراب، أي كيف عدلوا عنها بعد أن لازموها ولم يكن استقبالهم إيّاها مجرد صدفة، فإنّهم استقبلوا الكعبة ثلاث عشرة سنة قبل الهجرة.

واعلم أنّ اليهود يستقبلون بيت المقدس وليس هذا الاستقبال من أصل دينهم لأنّ بيت المقدس إنّما بني بعد موسى عليه السلام، بناه سليمان عليه السلام، فلا تجد في أسفار التوراة الخمسة ذكرا لاستقبال جهة معيّنة في عبادة الله تعالى والصلاة والدعاء، ولكن سليمان عليه السلام هو الذي سنّ استقبال بيت المقدس ففي سفر الملوك الأوّل أنّ سليمان لمّا أتمّ بناء بيت المقدس جمع شيوخ إسرائيل وجمهورهم ووقف أمام المذبح في بيت المقدس وبسط يديه ودعا الله دعاء جاء فيه: " إذا انكسر شعب إسرائيل أمام العدو ثمّ رجعوا واعترفوا وصلّوا نحو هذا البيت فأرجعهم إلى الأرض التي أعطيت لآبائهم، وإذا خرج الشعب لمحاربة العدو وصلّوا إلى الربّ نحو المدينة التي اخترتها والبيت الذي بنيته لاسمك فأسمع صلاتهم وتضرّعهم ". وذُكر بعد ذلك أنّ الله تجلى لسليمان وقال له: " قد سمعت صلاتك وتضرعك الذي تضرعت به أمامي" . وهذا لا يدل على أنّ استقبال بيت المقدس شرط في الصلاة في دين اليهود، وقصاراه الدلالة على أنّ التوجّه نحو بيت المقدس بالصلاة والدعاء هيئة فاضلة، فلعلّ بني إسرائيل التزموه لاسيما بعد خروجهم من بيت المقدس، أو أنّ أنبياءهم الموجودين بعد خروجهم أمروهم بذلك بوحي من الله.

وأمّا النصارى فإنّهم لم يقع في إنجيلهم تغيير لما كان عليه اليهود في أمر الاستقبال في الصلاة ولا تعيين جهة معيّنة، ولكنّهم لمّا وجدوا الروم يجعلون أبواب هياكلهم مستقبلة لمشرق الشمس بحيث تدخل أشعة الشمس عند طلوعها من باب الهيكل على الصنم صاحب الهيكل الموضوع في منتهى الهيكل عكسوا ذلك فجعلوا أبواب الكنائس إلى الغرب، وبذلك يكون المذبح إلى الغرب والمصلون مستقبلين الشرق. وذكر الخفاجي أنّ **بولس** هو الذي أمرهم بذلك. فهذه حالة النصارى في وقت نزول الآية.

ثم إنّ النصارى من العصور الوسطى إلى الآن توسّعوا فتركوا استقبال جهة معيّنة، فلذلك تكون كنائسهم مختلفة الاتجاه، وكذلك المذابح المتعدّدة في الكنيسة الواحدة.

وأمّا استقبال الكعبة في الحنيفيّة فالظاهر أنّ إبراهيم عليه السلام لمّا بنى الكعبة استقبلها عند الدعاء وعند الصلاة، لأنّه بناها للصلاة حولها، فإنّ داخلها لايسع الجماهير من النّاس. وإذا كان بناؤها للصلاة حولها فهي أوّل قبلة وضعت للمصلي تجاهها، وبذلك اشتهرت عند العرب.

أمّا توجهه إلى جهتها من بلد بعيد عنها فلا دليل على وقوعه، فيكون الأمر بالتزام الاستقبال في الصلاة من خصائص هذه الشريعة ومن جملة معاني إكمال الدين بها كما سنبيّنه. والأحاديث الصحيحة في هذا ثلاث.

أوّلها وأصحها، حديث الموطأ عن ابن دينار عن ابن عمر: " بينما النّاس في صلاة الصبح بقباء إذ جاءهم آت فقال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنزل عليه الليلة قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبِلوها وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة "، ورواه أيضا البخاري من طريق مالك، ومسلم من طريق مالك ومن طريق عبد العزيز بن مسلم وموسى بن عقبة، وفيه أن نزول آية تحويل القبلة كان قبل صلاة الصبح وأنّه لم يكن في أثناء الصلاة، وأنّه صلى الصبح للكعبة، وهذا الحديث هو أصل الباب وهو فصل الخطاب.

ثانيها: حديث مسلم عن أنس بن مالك وفيه: " فمر رجل من بني سلمة وهم ركوع في صلاة الفجر وقد صلوا ركعة فنادى ألا إنّ القبلة قد حُوِّلت فمالوا كما هم نحو القبلة ".

الثالث: حديث البخاري ومسلم، واللفظ للبخاري في كتاب التفسير، عن البراء بن عازب قال: " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم صلّى نحو بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا، وكان رسول الله يحبّ أن يوجَّه إلى الكعبة، فأنزل الله تعالى { قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ } [البقرة144] فتوجّه نحو الكعبة، ثم قال: فصلى مع النبيّ رجل ثم خرج بعدما صلى فمرّ على قوم من الأنصار في صلاة العصر يصلّون نحو بيت المقدس فقال: هو يشهد أنّه صلى مع رسول الله وأنّه توجه نحو الكعبة، فتحرَّف القومُ حتّى توجهوا نحو الكعبة ".

وهنالك آثار أخرى تخالف هذه لم يصح سندها ذكرها القرطبي. <u>فتحويل القبلة كان في رجب سنة اثنتين من الهجرة قبل بدر بشهرين</u>، وقيل: يوم الثلاثاء نصف شعبان منها.

واختلفوا هل كان استقبال بيت المقدس بأمر من الله؟ فقال ابن عباس والجمهور: أوجبه الله عليه بوحي ثم نسخه باستقبال الكعبة ودليلهم قوله تعالى { وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا } [البقرة:14]، وقال الطبري كان مخيّرا بين الكعبة وبيت المقدس واختار بيت المقدس استئلافا لليهود، وقال الحسن وعكرمة وأبو العالية، كان ذلك عن اجتهاد من النبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } جواب قاطع معناه أنّ الجهات كلّها سواء، وليست مستحقّة للتوجه والاستقبال استحقاقا ذاتيا. والمقصود أن ليس لبعض الجهات اختصاص بقرب من الله تعالى، لأنّه منزه عن الجهة، وإنّما يكون أمره باستقبال بعض الجهات لحكمة يريدها.

{ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } إيماء إلى قبلة الإسلام. والمراد بالصراط المستقيم هنا وسيلة الخير وما يوصل إليه فيشمل ذلك كلّ هدي إلى خير، ومنه الهدي إلى استقبال أفضل جهة .

واتفق علماء الإسلام على أنّ استقبال الكعبة شرط من شروط صحة الصلاة المفروضة والنافلة إلاّ لضرورة في الفريضة كالقتال والمريض لا يجد من يوجهه إلى جهة القبلة، أو لرخصة في النافلة للمسافر إذا كان راكبا على دابة أو في سفينة لا يستقربها. فأمّا الذي هو في المسجد الحرام ففرض عليه استقبال عين الكعبة من أحد جوانبها، ومن كان بمكّة في موضع يعاين منه الكعبة فعليه التوجّه إلى جهة الكعبة التي يعاينها، فإذا طال الصف من أحد جوانب الكعبة وجب على من كان من أهل الصفّ غير مقابل لركن من أركان الكعبة أن يستدير بحيث يصلون دائرين بالكعبة صفا وراء صف بالاستدارة، وأمّا الذي تغيب ذات الكعبة عن بصره فعليه الاجتهاد بأن يتوخّى أن يستقبل جهتها، فمن العلماء من قال يتوخّى المصلي جهة مصادفة عين الكعبة بحيث لو فرض خط بينه وبين الكعبة لوجد وجهه قبالة جدارها، وهذا شاق يعسر تحققه إلّا بطريق إرصاد علم الهيئة. ويعبّر عن هذا باستقبال العين وباستقبال السمت وهذا قول ابن القصار وأختاره أحد أشياخ أبي الطيب عبد المنعم الكندي ونقله المالكية عن الشافعي، ومن العلماء من قال يتوخّى المصلي أن يستقبل جهة أقرب ما بينه وبين الكعبة بحيث لو مشى باستقامة لوصل حول الكعبة، ويعبر عن هذا باستقبال الجهة، أي جهة الكعبة وهذا قول أكثر المالكية، واختاره الأبهري والباجي، وهو قول أبي حنيفة وأحمد بن حنبل، وهو من التيسير ورفع الحرج.

فإذا طالت الصفوف فلا حرج عليهم لأنّهم إنما يجب عليهم أن يكونوا متوجّهين نحو الجهة التي يعبّرون عنها بأنّها قبلة الصلاة.

ومن أخطأ القبلة أونسى الاستقبال حتّى فرغ من صلاته لا يجب عليه إعادة صلاته عند مالك وأبي حنيفة وأحمد، إلّا أنّ مالكا استحبّ له أن يعيدها ما لم يخرج الوقت ولم ير ذلك أبو حنيفة وأحمد، وهذا بناء على أنّ فرض المكلّف هو الاجتهاد في استقبال الجهة، وأما الشافعي فأوجب عليه الإعادة أبدا.

{ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النّاس وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ } [143].

{ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النّاس وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً } جملة معترضة، فالآية السابقة لمّا أشارت إلى أنّ الذين هدوا إلى صراط مستقيم هم المسلمون وأنّ ذلك فضل لهم ناسب أن يستطرد لذكر فضيلة أخرى لهم هي خير ممّا تقدّم وهي فضيلة كون المسلمين عدولا خيارا ليشهدوا على الأمم، لأنّ الآيات الواقعة بعدها هي في ذكر أمر القبلة، وهذه الآية لا تتعلق بأمر القبلة.

الوسط: اسم للمكان الواقع بين أمكنة تحيط به، أو للشيء الواقع بين أشياء محيطة به. وأمّا إطلاق الوسط على الصفة الواقعة عدلا بين خُلقين ذميمين فيهما إفراط وتفريط، كالشجاعة بين الجبن والتهور، فذلك مجاز بتشبيه الشيء الموهوم بالشيء المحسوس.

فالوسط في هذه الآية فُسِّر بالخيار، لقوله تعالى { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاس } [آل عمران:110].

ووصفت الأمة بـ (وسط) بصيغة المذكر لأنّه اسم جامد فهو لجموده يستوي فيه التذكير والتأنيث.

وضمير المخاطبين هنا مراد به جمع المسلمين. والآية ثناء على المسلمين.

واستدل أهل أصول الفقه بهذه الآية على أنّ إجماع علماء الأمّة، أي المجتهدين، حجّة شرعية.

{ **لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ** } علة لجعلهم وسطا.

{ **عَلَى النّاس** } المراد بهم الأمم الماضون والحاضرون، وهذه الشهادة دنيوية وأخروية:

الشهادة الدنيوية: فهي حكم هاته الأمّة على الأمم الماضين والحاضرين بصواب المؤمنين منهم بالرسل المبعوثين في كلّ زمان، وبضلال الكافرين منهم برسلهم والمكابرين في العكوف على مللهم بعد مجيء ناسخها وظهور الحقّ، وهذا حكم تاريخي ديني عظيم، إذا نشأت عليه الأمّة نشأت على تعوّد عرض الحوادث كلّها على معيار النقد المصيب. ومن مكمّلات معنى الشهادة على النّاس في الدنيا وجوب دعوتنا الأمم للإسلام، ليقوم ذلك مقام دعوة الرسول إيّاهم، حتّى تتمّ الشهادة للمؤمنين منهم على المعرضين.

الشهادة الأخروية: هي ما رواه البخاري والترمذي عن أبي سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" يُجاء بنوح يوم القيامة فيقال له: هل بلّغت، فيقول: نعم يا رب، فتُسأل أمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ماجاءنا من نذير، فيقول الله: من شهودك، فيقول: محمد وأمّته، فيُجاء بكم فتشهدون "**، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: { وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً } قال: عدلا { لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النّاس وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدا } ". فقوله " ثم قرأ " يدلّ على أنّ هذه الشهادة من جملة معنى الآية لا أنّها عين معنى الآية.

{ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً }

فأمّا الدنيوية: فشهادة الرسول علينا فيها هي شهادته بذاته على معاصريه، وشهادة شرعه على الذين أتوا بعده، إمّا بوفائهم ما أوجبه عليهم شرعُه وإمّا بعكس ذلك.

وأمّا الأخروية: فهي ما روي في الحديث المتقدّم من شهادة الرسول بصدق الأمّة فيما شهدت به، وما روي في الحديث الآخر في الموطأ و الصحاح : **" فليُذادن أقوام عن حوضي، فأقول: يا ربّ أمّتي، فيقال: إنّك لا تدري ما أحدثوا بعدك، إنّهم بدّلوا وغيروا، فأقول: سحقا سحقا لمن بدل بعدي "**.

وقد دلّت هذه الآية على التنويه بالشهادة وتشريفها حتّى أظهر العليم بكل شيء أنّه لا يقضي إلّا بعد حصولها، وأنّ الأمّة لا تشهد على النبيّ صلى الله عليه وسلم، ولهذا كان يقول في حجّة الوداع: **" ألا هل بلغت،** فيقولون: نعم، فيقول: **اللّهم اشهد "** ، فجعل الله هو الشاهد على تبليغه، وهذا من أدق النكت.

{ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ } بيان للحكمة من استقبال بيت المقدس ثمّ تحويل ذلك إلى استقبال الكعبة.

{ وَمَا جَعَلْنَا } بمعنى شرعنا.

{ الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا } هذه الآيات نزلت بعد الأمر بالتوجّه إلى الكعبة فيكون المراد بيت المقدس.

{ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ } استثناء، أي لنُظهر من كان صادق الإيمان في الحالتين، حالة تشريع استقبال بيت المقدس وحالة تحويل الاستقبال إلى الكعبة. وروي أنّ بعض العرب ارتدّوا عن الإسلام لما استقبل رسول الله بيت المقدس حميَّة لقبلة العرب.

وبعض اليهود تأوّلوا لأنفسهم العذر في التظاهر بالإسلام أنّ صلاتهم مع المسلمين لا تشتمل على ما ينافي تعظيم شعائرهم إذ هم مستقبلون بيت المقدس، فلمّا حُوِّلت القبلة صارت صفة الصلاة منافية لتعظيم شعائرهم لأنّها استدبار لما يجب استقباله، فلم تبقَ لهم سعة للتأويل، فظهر من دام على الإسلام وأعرض المنافقون عن الصلاة.

الانقلاب: الرجوع إلى المكان الذي جاء منه، يقال انقلب إلى الدار.

{ عَلَى عَقِبَيْهِ } زيادة تأكيد في الرجوع إلى ما كان وراءه، لأنّ العقبين هما خلف الساقين، أي: انقلب على طريق عقبيه، وهو هنا استعارة تمثيليّة للارتداد عن الإسلام رجوعا إلى الكفر السابق.

{ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ } عطف على جملة { وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا }، فإنّها ما كانت دالة على الاتّباع والانقلاب إلّا لأنّها أمر عظيم لا تساهل فيه، فيظهر به المؤمن الخالص من المشوب.

{ لَكَبِيرَةً } هنا بمعنى الشديدة المحرجة للنفوس.

{ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ } روى الترمذي عن ابن عباس قال : لمّا وُجّه النبيّ إلى الكعبة قالوا: يا رسول الله كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلّون إلى بيت المقدس؟ فأنزل

الله { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ } [حديث حسن صحيح].

الإضاعة: إتلاف الشيء وإبطال آثاره.

{ **إِيمَانَكُمْ** } فُسِّر على ظاهره وفُسّر أيضا بالصلاة. فإن فسّر الإيمان على ظاهره كان التقدير: ما كان الله ليضيع حقّ إيمانكم حين لم تُزلزله وساوس الشيطان عند الاستقبال إلى قبلة لا تودّونها، وإن فُسّر الإيمان بالصلاة كان التقدير: ما كان الله ليضيع فضل صلاتكم أو ثوابها.

وفي إطلاق اسم الإيمان على الصلاة تنويه بالصلاة لأنّها اعظم أركان الإيمان.

{ **إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ** } تأكيد لعدم إضاعة إيمانهم، ومنّة، وتعليم بأنّ الحكم المنسوخ إنّما يلغي العمل في المستقبل لا في ماضي.

الرؤوف الرحيم: صفتان مشبَّهتان، مشتقّة أولاهما من الرأفة والثانية من الرحمة. وخصّ المحقّقون من أهل اللغة الرأفة بمعنى رحمة خاصة، فقال أبو عمرو ابن العلاء: الرأفة أكثر من الرحمة، أي: أقوى، أي: هي رحمة قويّة. وهذا احسن ما قيل فيها واختاره الفخر وعبد الحكيم. وأيًّا ما كان معنى الرأفة فالجمع بين رؤوف ورحيم في الآية يفيد توكيد مدلول أحدهما بمدلول الآخر بالمساواة أو بالزيادة.

{ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحقّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ } [144].

استئناف ابتدائي وإفضاء لشرع استقبال الكعبة ونسخ استقبال بيت المقدس، فهذا هو المقصود من الكلام المفتتح بقوله تعالى { سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النّاس مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا } [142]، بعد أنّ مهّد الله بما تقدّم من أفانين التهيئة وإعداد النّاس إلى ترقّبه.

التقلّب: مطاوع قَلَّبه إذا حوّله، وهو مثل قَلَبه بالتخفيف، فالمراد بتقليب الوجه: **الالتفات**، فهو هنا ترديده في السماء. وصيغة التفعيل للدلالة على معنى التكثير، وقد يكون ذلك لما في هذا التحويل من الترقّب والشدة، فالتفعيل لقوّة الكيفيّة.

{ **فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا** } فاء التعقيب لتأكيد الوعد، أي: لنوجّهنَّك إلى قبلة ترضاها.

{ **تَرْضَاهَا** } للدلالة على أنّ ميله إلى الكعبة ميل لقصد الخير، بناء على أنّ الكعبة أجدر بيوت الله بأن يدلّ على التوحيد، ولأنّ في استقبالها إيماء إلى استقلال هذا الدين عن دين أهل الكتاب.

{ **فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** } الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم، والأمر متوجّه إليه باعتبار ما فيه من إرضاء رغبته، وسيعقبه بتشريك الأمّة.

الشطر: (بفتح الشين وسكون الطاء) الجهة والناحية.
القبلة: هنا اسم للمكان الذي يستقبله المصلي، وهو إمّا مشتقّ من اسم الهيئة، وإمّا من اسم المفعول.
المسجد الحرام: المسجد المعهود عند المسلمين، و**الحرام** الممنوع، أي الممنوع منع تعظيم وحرمة، فإنّ مادة التحريم تؤذن بتجنب الشيء، فيُفْهم التجنب في كل مقام بما يناسبه.
وقد اشتهرعند العرب وصف مكّة بالبلد الحرام، أي: الممنوع من الجبابرة والظلمة والمعتدين. ووُصف بالمحرّم في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم { عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ } [ابراهيم:37]، أي: المعظّم المحترم. وسمِّي الحرم كما في قوله تعالى { أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا } [القصص:57]، فوصْف الكعبة بالبيت الحرام، وحرم مكّة بالحرم، أوصاف قديمة شائعة عند العرب.
أمّا اسم **المسجد الحرام** فهو من الألقاب القرآنيّة جُعل علما على حرم الكعبة المحيط بها، وهو محلّ الطواف والاعتكاف، ولم يكن يعرف بالمسجد في زمن الجاهلية، إذ لم تكن لهم صلاة ذات سجود، والمسجد مكان السجود.
فالمسجد الحرام من الأسماء الإسلاميّة قبل الهجرة وقد ورد ذكره في سورة الإسراء وهي مكّية.
{ **وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ** } تنصيص على تعميم حكم استقبال الكعبة لجميع المسلمين، لأنّ الأصل في التشريعات الإسلاميّة أن تعمّ الرسول وأمته إلّا إذا دلّ دليل على تخصيص أحدهما. ولمّا خيف إيهام أن يكون هذا الحكم خاصًّا به، أو أن تجزي فيه المرّة أو بعض الجهات كالمدينة ومكة، أريد التعميم في المكلّفين وفي جميع البلاد.
وهذه الآيات دليل على وجوب هذا الاستقبال، وهو حكمة عظيمة، ذلك أنّ المقصود من الصلاة العبادة والخضوع لله تعالى، وبمقدار استحضار المعبود يقوى الخضوع له، فتترتّب عليه آثاره الطيّبة في إخلاص العبد لربّه وإقباله على عبادته، وذلك ملاك الامتثال والاجتناب. ولهذا جاء في الحديث الصحيح **" الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك "**.
ولمّا تنزه الله تعالى عن أن يحيط به الحسّ تعيّن لمحاوِل استحضار عظمته أن يجعل له مذكّرا به من شيء له انتساب خاص إليه.

{ **وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحقّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ** } معنى كونهم يعلمون أنّه الحقّ، أنّ علمهم بصدق محمد صلى الله عليه وسلم حسب البشارة به في كتبهم يتضمّن أن ما جاء به حقّ. أي: يعلمون أنّ الاستقبال للكعبة هو الحقّ دون غيره، تبعا للعلم بنسخ شريعتهم بشريعة الإسلام.
وقيل: إنّهم كانوا يجدون في كتبهم أنّ قبلتهم ستُبطل، ولعلّ هذا مأخوذ من إنذارات أنبيائهم مثل أرميا وأشعيا المنادية بخراب بيت المقدس، فإنّ استقباله يصير استقبال للشيء المعدوم.
{ **وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ** } قرأه الجمهور بياء الغيبة، والضمير للذين أوتوا الكتاب، أي: عن عملهم بغير ما علموا، فالمراد بما يعملون: هذا العمل ونحوه من المكابرة والعناد والسفه.

وقرأه ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو جعفر وروح عن يعقوب { تَعْمَلُونَ } بتاء الخطاب، فهو كناية عن وعد المسلمين على الامتثال لاستقبال الكعبة.

{ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ } [145].

{ **وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ** } المناسبة أنّهم يعلمون ولا يعملون، فلمّا أفيد أنّهم يعلمون أنّه الحقّ، على الوجه المتقدّم في إفادته التعريض بأنّهم مكابرون ناسبت أن يحقّق نفي الطمع في اتّباعهم القبلة لدفع توهّم أن يطمع السامع باتّباعهم، لأنّهم يعلمون أحقّيتها، فلذا أُكّدت الجملة الدالة على نفي اتباعهم بالقسم واللام الموطئة، وبالتعليق على أقصى ما يمكن عادة. والمراد بالذين أوتوا الكتاب أحبارهم، فهم قدوتهم.
{ **بِكُلِّ آيَةٍ** } آيات متكاثرة، وإطلاق لفظ (كلّ) على الكثرة شائع في كلام العرب. و**الآية**: الحجّة والدليل. والمعنى أنّ إنكارهم أحقيّة الكعبة بالاستقبال ليس عن شبهة حتّى تزيله الحجّة ولكنّه مكابرة وعناد، فلا جدوى في إطناب الاحتجاج عليهم أنّ استقبال الكعبة هو قبلة الحنيفيّة.
{ **مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ** } إظهار مكابرتهم تأييسا من إيمانهم. وإضافة قبلة إلى ضمير الرسول لأنّها أخصّ به لكونها قبلة شرعه، ولأنّه سألها بلسان الحال.
{ **وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ** } تنزيه النبيّ، وتعريض لهم باليأس من رجوع المؤمنين إلى استقبال بيت المقدس.
{ **وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ** } تأنيس للنبيّ بأنّ هذا دأبهم وشنشنتهم من الخلاف، فقديما خالف بعضهم بعضا في قبلتهم، حتّى خالفت النصارى قبلة اليهود مع أنّ شريعة اليهود هي أصل النصرانيّة.
{ **وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ** } معطوفة على جملة { وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ } وما بينهما اعتراض وفائدة هذا العطف بعد الإخبار بأنّه لا يتبع قبلتهم زيادة تأكيد الأمر باستقبال الكعبة، والتحذير من التهاون في ذلك.
الأهواء: جمع هوى وهو الحبّ البليغ بحيث يقتضي طلب حصول الشيء المحبوب ولو بحصول ضرّ لمحصّله، فلذلك غلب إطلاق الهوى على حبّ لا يقتضيه الرشد ولا العقل، ومن ثمّ أطلق على العشق. وشاع إطلاق الهوى في القرآن على عقيدة الضلال، ومن ثم سمّى علماء الإسلام أهل العقائد المنحرفة بأهل الأهواء.
{ **مِنَ الْعِلْمِ** } بيان لما جاءك، أي: بعد الذي جاءك، والذي هو العلم، فجعل ما أنزل إليه هو العلم كلّه على وجه المبالغة. والتعبير بالعلم هنا عن الوحي واليقين الإلهي إعلان تنويه شأن العلم ولفت لعقول هذه الأمّة إليه لما يتكرّر من لفظه على أسماعهم.
{ **إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ** } أقوى دلالة على الاتصاف بالظلم من: إنك لظالم

قد يقول قائل: إنّ قريبا من هذه الجملة تقدّم عند قوله تعالى { قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ} [120]، فعبّر هنالك باسم الموصول (الذي) وعبّر هنا باسم الموصول (ما)، وقال هنالك (بعد) وقال هنا (من بعد)، وجعل جزاء الشرط هنالك انتفاء ولي ونصير، وجعل الجزاء هنا أن يكون من الظالمين.

نقول: إنّ (الذي) و(ما) وإن كانا مشتركين في أنّهما اسما موصول إلّا أنّهما الأصل في الأسماء الموصولة، ولمّا كان العلم الذي جاء النبيّ صلى الله عليه وسلم في غرض الآية الأولى هوالعلم المتعلّق بأصل ملّة الإسلام وببطلان ملّة اليهود وملّة النصارى بعد النسخ، وبإثبات عناد الفريقين في صحّة رسالة محمد صلى الله عليه، فلا جرم كان العلم الذي جاء في ذلك هو أصرح العلم وأقدمه، وكان حقيقا بأن يعبّر عنه باسم الموصول الصريح في التعريف (الذي). وأمّا الآية الثانية التي نحن بصددها فهي متعلّقة بإبطال قبلة اليهود والنصارى، لأنّها مسبوقة ببيان ذلك، وذلك تشريع فرعيّ، فالتحذير الواقع بعده تحذير من اتباع الفريقين في أمر القبلة، وذلك ليس له أهميّة مثلما للتحذير من اتباع ملّتهم بأسرها فلم يكن للعلم الذي جاء النبيّ في أمر قبلتهم من الأهمية ما للعلم الذي جاءه في بطلان أصول ملّتهم، فلذلك جيء في تعريفه باسم الموصول الملحق بالمعارف وهو (ما)، لأنّها في الأصل نكرة موصوفة نقلت للموصوليّة.

وأُدخلت (من) في هذه الآية الثانية على (بعد) بقوله { مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ } لأنّ هذه الآية وقعت بعد الآية الأولى في سورة واحدة وليس بينهما بعيد فصل فكان العلم الذي جاءه فيها منقوله { مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ } وهو جزئي من عموم العلم الذي جاء في إبطال جميع ملّتهم، فكان جديرا بأن يشار إلى كونه جزئيا له بإيراد (من) الابتدائية.

{ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحقّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } [146].

اعتراض استطراد بمناسبة ذكر مطاعن أهل الكتاب في القبلة الإسلامية، فإنّ طعنهم كان عن مكابرة مع علمهم بأنّ القبلة الإسلاميّة حقّ، وما هو إلاّ من مجموع طعنهم في الإسلام وفي النبيّ صلى الله عليه وسلم. والدليل على الاستطراد قوله بعده { وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا } فقد عاد الكلام إلى استقبال القبلة.

{ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ** } أحبار اليهود والنصارى، ولذلك عرّفوا بأنّهم أوتوا الكتاب، أي علموا علم التوراة وعلم الإنجيل.

{ **يَعْرِفُونَهُ** } الضمير المنصوب لا يعود إلى تحويل القبلة لأنّه لو كان كذلك لصارت الجملة تكريرا لمضمون قوله { وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحقّ مِنْ رَبِّهِمْ }، بل هو عائد إمّا إلى **الرسول** وإن لم يسبق ذكر لمعاد مناسب لضمير الغيبة، لكنه قد علم من الكلام السابق { قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهَكَ ....

فَلَنُوَلِّيَنَّكَ ... فَوَلِّ وَجْهَك } [144]، فالإتيان بالضمير بطريق الغيبة من الالتفات. وإمّا أن يعود إلى **{الحقّ}** في قوله { لَيَكْتُمُونَ الحقّ }، فيشمل الرسول وجميع ما جاء به. وإمّا أن يعود الضمير إلى **العلم** في قوله { مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ } [145].

{ **كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ** } تشبيه في جلاء المعرفة وتحققها فإنّ معرفة المرء بعلائقه معرفة لا تقبل اللبس. وخصّ الأبناء لشدّة تعلّق الآباء بهم.

{ **يَعْرِفُونَ** } ولم يعلمونه، لأنّ المعرفة تتعلّق غالبا بالذوات والأمور. فالمعنى: يعرفون صفات الرّسول صلى الله عليه وسلم وعلاماته المذكورة في كتبهم، ويعرفون الحقّ كالشيء المشاهد.

{ **وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحقّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** } تخصيص لبعض الذين أوتوا الكتاب بالعناد في أمر القبلة، وفي غيره ممّا جاء به النبيّ صلى الله عليه وسلم، وذمٌّ لهم بأنّهم يكتمون الحقّ وهم يعلمونه.

{ الحقّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ } [147].

تذييل لجملة { وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحقّ } نهي عن أن يكون من الشاكين.

الامتراء: افتعال من المِراء وهو الشك.

والمقصود من خطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى { وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ } وقوله تعالى { فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ } تحذير الأمّة، وهذه عادة القرآن في كل تحذير مهم.

{ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [148].

ذلك أنّه بعد أن لقّن الرسول صلى الله عليه وسلم ما يجيب به عن قولهم { مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ }، وبعد أن بيّن للمسلمين فضيلة قبلتهم وأنّهم على الحقّ، وأيأسهم من ترقّب اعتراف اليهود بصحة استقبال الكعبة، ذيّل ذلك بهذا التذييل الجامع لمعان سامية، طيّا لبساط المجادلة مع اليهود في أمر القبلة. والمعنى أنّ لكلّ فريق اتجاها من الفهم والخشية عند طلب الوصول إلى الحقّ. وهذا الكلام موجّه إلى المسلمين، أي: اتركوا مجادلة أهل الكتاب في أمر القبلة ولا يهمنّكم خلافهم، فإن خلاف المخالف لا يناكد حقّ المحقّ. وفيه صرف للمسلمين بأن يهتموا بالمقاصد ويعتنوا بإصلاح مجتمعهم.

{ **وَلِكُلٍّ** } اسم دال على الإحاطة والشمول، وهو مبهم بتعين بما يضاف هو إليه، فإذا حذف المضاف إليه عوض عنه تنوين (كل) وهوالتنوين المسمّى تنوين العوض لأنّه يدل على المضاف إليه فهو عوض عنه. ومنه ما في هذه الآية لأنّ الكلام على تخالف اليهود والنصارى والمسلمين في قبلة الصلاة، فالتقدير: ولكلّ من المسلمين واليهود والنصارى وجهة.

الوجهة: حقيقتها البقعة التي يُتوجّه إليها، وتستعار الوجهة لمّا يهتم به المرء من الأمور تشبيها بالمكان الموجه إليه تشبيه معقول بمحسوس. وذهب بعض المفسّرين إلى أنّ المراد من الوجهة **القبلة،** أي: فاستبقوا أنتم إلى الخير، وهو استقبال الكعبة.

وقيل: المراد لكلّ أمّة قبلة فلا سبيل إلى اجتماعكم على قبلة واحدة فالزموا قبلتكم التي هي قبلة إبراهيم فإنكم على الخيرات. وقيل: غير ذلك، ومعاني القرآن تُحمل على أجمع الوجوه وأشملها.

{ **فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ** } المراد من الاستباق هنا المعنى المجازي وهو الحرص على مصادفة الخير والإكثار منه.

{ **أَيْنَمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً** } جملة في معنى العلّة للأمر باستباق الخيرات، والمعنى فاستبقوا إلى الخير لتكونوا مع الذين يأتي بهم الله للرفيق الحسن.

{ **إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ** } تذييل يناسب جميع المعاني المذكورة.

{ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ [149] وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ [150] }.

{ **وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ** } من كلّ مكان خرجت مسافرا، لأنّ السفر مظنّة المشقّة في الاهتداء لجهة الكعبة فربّما يتوهّم متوهّم سقوط الاستقبال عنه.

{ **وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** } زيادة تحذير من التساهل في أمر القبلة.

{ **وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ** } عطف على الجملة التي قبله ، وأعيد لفظ الجملة السالفة ليبنى عليه التعليل.

{ **وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ** } المقصد التعميم في هذا الحكم في السفر للمسلمين، لئلّا يُتوهّم تخصيصه بالنبّي صلى الله عليه وسلم. وحصل من تكرير معظم الكلمات تأكيد للحكم، وقد تكرّر الأمر باستقبال النبيّ الكعبة ثلاث مرّات، وتكرّر الأمر باستقبال المسلمين الكعبة مرّتين، وتكرّر أنّه الحقّ ثلاث مرّات، وتكرّر تعميم الجهات ثلاث مرّات. والقصد من ذلك كلّه التنويه بشان استقبال الكعبة والتحذير من تطرّق التساهل في ذلك، تقريرا للحق في نفوس المسلمين، وزيادة في الردّ على المنكرين.

{ **لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ** } أي شرعت لكم ذلك لندحض حجّة الأمم عليكم.

{ **لِلنَّاسِ** } التعريف للاستغراق، أي: ليكون هذا الدين مخالفا في الاستقبال لكلّ دين سبقه، فلا يدّعي أهل دين من الأديان أنّ الإسلام مقتبس منه.

الحجّة: في كلام العرب ما يقصد به إثبات المخالف، بحيث لايجد منه تَفَصِّيًا، ولذلك يقال للذي غلب مخالفه بحجته قد حجّه. وأمّا **الاحتجاج** فهو إتيان المحتجّ بما يظنّه حجّة ولو مغالطة، يقال: احتجّ، ويقال: حاجّ إذا أتى بما يظنّه حجّة، قال تعالى { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ } [البقرة:258]. فالحجّة لا تطلق حقيقة إلّا على البرهان والدليل الناهض المبكت للمخالف.

المعنى: أمرتكم بذلك لأتمّ نعمتي عليكم باستيفاء أسباب ذلك الإتمام، ومنها أن تكون قبلتكم إلى أفضل بيت بُني لله تعالى، ومعلوم أنّ تمام النعمة بامتثال ما امرنا به، وجماع ذلك الاستقامة وبها دخول الجنة.

{ **وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** } أي: أمرتكم بذلك رجاء امتثالكم في حصول الاهتداء منكم إلى الحقّ. وحرف (لعلّ) مجاز في لازم معنى الرجاء وهو قرب ذلك وتوقّعه.

{ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ } [151].

{ **فِيكُمْ** } وما بعده للمؤمنين من المهاجرين والأنصارتذكيرا لهم بنعمة الله عليهم بأن بعث إليهم رسولا بين ظهرانيهم ومن قومهم، لأنّ ذلك أقوى تيسيرا لهدايتهم. وهذا مقام امتنان فناسب أن يذكر ما به تمام المنّة، وهي أن جعل رسولهم فيهم ومنهم، أي: هو موجود في قومهم وهو عربي مثلهم، والمسلمون يومئذ هم العرب، أي: الذين يتكلمون باللغة العربية، فالأمة العربية يومئذ تتكلم بلسان واحد سواء في ذلك العدنانيون والقحطانيون ومن تبعهم من الأحلاف والموالى مثل سلمان الفارسي وبلال الحبشي وعبد الله بن سلام الإسرائيلي.

{ **يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا** } يقرأ عليكم القرآن، لأنّ نزول القرآن مستمرّ، وقراءة النبيّ له متوالية، وفي كل قراءة يحصل علم بالمعجزة للسامعين.

وسمّاه أولا **آيات** باعتبار كون كل كلام منه معجزة، وسمّاه ثانيا **كتابا** باعتبار كونه كتاب شريعة، وقد تقدّم نظيره آنفا { رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ } [129].

{ **وَيُزَكِّيكُمْ** } التزكية تطهير النفس، مشتقّة من الزكاة وهي النماء، وذلك لأنّ في أصل خلقة النفوس كمالات وطهارات تعترضها أرجاس ناشئة عن ضلال أو تضليل.

{ **وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ** } أي: يعلّمكم الشريعة ويعلمكم أصول الفضائل، فالحكمة هي التعاليم المانعة من الوقوع في الخطأ والفساد.

وقُدّمت جملة { وَيُزَكِّيكُمْ } هنا عكس ما في الآية السابقة في حكاية قول إبراهيم { يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ } [129]، لأنّ المقام هنا للامتنان على المسلمين، فقُدّم فيها ما يفيد معنى المنفعة الحاصلة من تلاوة الآيات عليهم وهي منفعة تزكية نفوسهم اهتماما بها وبعثا لها بالحرص على تحصيل وسائلها وتعجيلا للبشارة بها. وأمّا في دعوة إبراهيم فقد رتبت الجمل على حسب ترتيب

حصول ما تضمنته في الخارج، مع ما في ذلك التخالف من التفنّن.

{ **وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ** } تعميم لكلّ ما كان غير شريعة ولا حكمة، من معرفة أحوال الأمم وأحوال سياسة الدول وأحوال الآخرة وغيرذلك.

وإنّما أعاد قوله { وَيُعَلِّمُكُمْ } مع صحة الاستغناء عنه بالعطف تنصيصا على المغايرة لئلا يظن أنّ { مَالَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ } هو الكتاب والحكمة.

{ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ } [152].

الفاء للتفريع عاطفة جملة الأمر بذكر الله وشكره على جمل النعم المتقدّمة، أي: إذ قد أنعمت عليكم بهاته النعم فأنا آمركم بذكري.

{ **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ** } فعلان مشتقّان من الذِكر (بكسر الذال) ومن الذُكر (بضمّها) والكل مأمور به، لأنّنا مأمورون بتذكّر الله تعالى عند الإقدام على الأفعال لنستحضر أوامره ونواهيه، قال تعالى { والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم } [آل عمران:135]، وعن عمر بن الخطاب: " أفضل من ذكر الله باللسان ذكر الله عند أمره ونهيه ".

ومأمورون بذكر اسم الله تعالى بألسنتنا في جمل تدلّ على حمده وتقديسه والدعوة إلى طاعته ونحو ذلك، ففي الحديث القدسي: **" وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منه "**.

{ **فَاذْكُرُونِي** } يجيء على المعنيين، ولابد من تقدير في قوله { فَاذْكُرُونِي } على الوجهين، لأنّ الذكر لايتعلق بذات الله تعالى، فالتقدير: اذكروا عظمتي وصفاتي وثنائي وما ترتّب عليها من الأمر والنهي. أو اذكروا نعمي ومحامدي، وهو تقدير من دلالة الاقتضاء.

{ **أَذْكُرْكُمْ** } مجاز، أي: أعاملكم بزيادة النعم والنصر والعناية في الدنيا، وبالثواب ورفع الدرجات في الآخرة، أو أخلق ما يفهم منه النّاس في الملأ الأعلى وفي الأرض فضلكم والرضى عنكم، وحسن مصيركم في الآخرة، لأنّ الذكر بمعنييه الحقيقيين مستحيل على الله تعالى.

{ **وَاشْكُرُوا لِي وَلاتَكْفُرُونِ** } أمر بالشكر ونهى عن الكفران للنعمة.

الكفران: مراتب أعلاها جحد النعمة وإنكارها، ثم قصد إخفائها، ثم السكوت عن شكرها غفلة، وهذا أضعف المراتب، وقد يعرض عن غير سوء قصد لكنّه تقصير.

قال ابن عرفة: " ليس عطف قوله { وَلا تَكْفُرُونِ } بدليل على أنّ الأمر بالشيء ليس نهيا عن ضدّه، وذلك لأنّ الأمر بالشكر مطلق فلا يدلّ على التكرار فلا عموم له، فلمّا قال { ولا تكفرون } أفاد النهي عن الكفر دائما ". يريد لأنّ الأمر في سياق النهي يعمّ، مثل الأمر في سياق النفي.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ [153] وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ [154] }.

افتتح الكلام بالنداء لأنّ فيه إشعارا بخبر مهمّ عظيم. وفي افتتاح هذا الخطاب بالاستعانة بالصبر إيذان بأنّه سيعقّب بالندب إلى عمل عظيم وبلوى شديدة، وذلك تهيئة للجهاد، ولعلّه إعداد لغزوة بدر الكبرى. فإن ابتداء المغازي كان قبيل زمن تحويل القبلة، إذ كان تحويل القبلة في رجب أو شعبان من السنة الثانية للهجرة وكانت غزوة بواط والعشيرة وبدر الأولى في ربيع وجمادى من السنة الثانية ولم يكن فيهما قتال، وكانت بدر الكبرى في رمضان من السنة الثانية فكانت بعد تحويل القبلة بنحو شهرين.

فالوجه في تفسير هذه الآية أنّها تهيئة للمسلمين للصبر على شدائد الحرب، وتحبيب للشهادة إليهم. ولذلك وقع التعبير بالمضارع في قوله { لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } المشعر بأنّه أمر مستقبل، وهم الذين قتلوا في وقعة بدر بُعيد نزول هذه الآية.

وقد تقدم القول في نظير هذه الآية عند قوله تعالى { وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ } [45]، إلاّ أنّا نقول هنا: إنّ الله تعالى قال لبني إسرائيل: { إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ } علما منه بضعف عزائمهم عن عظائم الأعمال، وقال هنالك { إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ } ولم يذكر مثل هذا هنا، وفي هذا إيماء إلى أنّ المسلمين قد يسّر لهم ما يصعب على غيرهم، وأنّهم الخاشعون الذين استثناهم الله هنالك، وزاد هنا فقال { إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } فبشّرهم بأنهم ممن يمتثل هذا الأمر ويُعدّ لذلك في زمرة الصابرين.

{ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** } تذييل في معنى التعليل، أي: اصبروا ليكون الله معكم، لأنّه مع الصابرين.

{ **وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ** } عطفَ النهى على الأمر قبله لمناسبة التعرّض للغزو ممّا يُتوقع معه القتلُ في سبيل الله. فالصبر الذي أمروابه ينقلب شكرا عندما يرى الشهيد كرامته بعد الشهادة، وعندما يوقن ذووه بمصيره من الحياة الأبدية.

{ **وَلا تَقُولُوا** } وليس المعنى: بل قولوا هم أحياء المعنى، وإنّما لا تعتقدوا ذلك، لأن المراد إخبار المخاطبين هذا الخبر العظيم.

{ **وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ** } للإشارة إلى أنّها حياة غير جسميّة ولا مادية، بل حياة روحيّة.

{ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ [155] الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ [156] أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ [157] }.

{ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ } ليعلّم المسلمين أنّ تمام النعمة ومنزلة الكرامة عند الله لا يحول بينهم وبين لحاق المصائب الدنيوية المرتبطة بأسبابها، وأنّ تلك المصائب مظهر لثباتهم على الإيمان ومحبّة الله تعالى والتسليم لقضائه، فينالون بذلك بهجة نفوسهم بما أصابهم في مرضاة الله، ويزدادون به رفعة وزكاء، ويعظم يقينهم بأنّ اتّباعهم لهذا الدين لم يكن لنوال حظوظ في الدنيا، وينجرّ لهم من ذلك ثواب.

{ بِشَيْءٍ } جئ بهذه الكلمة تهوينا للخبر المفجع، وإشارة إلى الفرق بين هذا الابتلاء وبين الجوع والخوف اللذين سلطهما الله على بعض الأمم عقوبة.

{ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ } المراد معانيها المتبادرة؛

أمّا **الخوف**، فما أصاب المسلمين من القلّة وتألّب المشركين عليهم بعد الهجرة، كما وقع في يوم الأحزاب. وأمّا **الجوع**، فكما أصابهم من قلّة الأزواد في بعض الغزوات، **ونقص الأموال**، ما ينشأ عن قلة العناية بنخيلهم في خروجهم إلى الغزو، **ونقص الأنفس**، يكون بقلة الولادة لبعدهم عن نسائهم، وكذلك بالاستشهاد في سبيل الله، وما يصيبهم في خلال ذلك وفيما بعده من مصائب ترجع إلى هاته الأمور.

{ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ [155] الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ [156] أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ [157] }.

الخطاب للرّسول صلى الله عليه وسلّم. وأفيد مضمون الجملة، الذي هو حصول الصلوات والرحمة والهدى للصابرين، بطريقة التبشير على لسان الرسول تكريما لشأنه، وزيادة في تعلّق المؤمنين به، بحيث تحصل خيراتهم بواسطته. فلذلك كان من لطائف القرآن إسناد البلوى إلى الله بدون واسطة الرسول، وإسناد البشارة بالخير الآتي من قبل الله إلى الرسول.

{ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ } لإفادة أنّ صبرهم أكمل الصبر، إذ هو صبر مقترن ببصيرة في أمر الله تعالى، فلا يجزعون ممّا يأتيهم، ويعلمون أنّهم صائرون إليه فيثيبهم على ذلك. وقد علّمهم الله هذه الكلمة الجامعة لتكون شعارهم عند المصيبة.

{ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ } مجاز في التزكيات والمغفرات، ولذلك عطفت عليها الرحمة التي هي من معاني الصلاة مجازا في مثل قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ } [الأحزاب:56].

الصلاة: حقيقتها في كلام العرب أنّها أقوال تنبئ عن محبة الخير لأحد، ولذلك كان أشهر معانيها هو الدعاء. ولأجل ذلك كان إسناد هذا الفعل لمن لا يُطلب الخير إلّا منه، متعيّنا للمجاز في لازم المعنى، وهو حصول الخير، فكانت الصلاة إذا أسندت إلى الله أو أضيفت إليه دالة على الرحمة وإيصال ما به النفع من رحمة أو مغفرة أو تزكية.

{ **وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ** } بيان لفضيلة صفتهم إذ اهتدوا لما هو حقّ كل عبد عارف، فلم تزعجهم المصائب، ولم تكن لهم حاجبا عن التحقّق في مقام الصبر، لعلمهم أنّ الحياة لا تخلو من الأكدار.

{ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ } [158]

فهذه الآية نزلت بعد الآيات التي قبلها وبعد الآيات التي نقرؤها بعدها، لأنّ الحجّ لم يكن قد فرض، وهي من الآيات التي أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإلحاقها ببعض السور التي نزلت قبل نزولها بمدّة. وفي (أسباب النزول) للواحدي: أنّ سؤالهم كان عام حجّة الوداع. وبذلك كلّه يظهر أنّ هذه الآية نزلت بعد نزول آية تحويل القبلة بسنين، فوضعُها في هذا الموضع لمراعاة المناسبة مع الآيات الواردة في اضطراب الفرق في أمر القبلة والمناسك.

والمناسبة بينها وبين ما قبلها هو أنّ العدول عن السعي بين الصفا والمروة يشبه فعل من عبّر عنهم بالسفهاء الذين أنكروا تحويل القبلة. فموقع هذه الآية بعد إلحاقها بهذا المكان موقع الاعتراض في أثناء الاعتراض.

فقد كان السعي بين الصفا والمروة من أعمال الحجّ من زمن إبراهيم عليه السلام، تذكيرا بنعمة الله على هاجر وابنها إسماعيل إذ أنقذه الله من العطش، كما في حديث البخاري في كتاب بدء الخلق، عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: " أنّ هاجر أمّ إسماعيل لمّا تركها إبراهيم بموضع مكّة ومعها ابنها وهو رضيع وترك لها جرابا من تمر وسقاء فيه ماء، فلّما نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوّى فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدا فلم تر أحدا، فهبطت من الصفا وأتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا، ففعلت ذلك سبع مرات ". قال ابن عباس: فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "**فلذلك سعى النّاس بينهما** ".

فيحتمل أنّ إبراهيم سعى بين الصفا والمروة تذكّرا لشكر النعمة وأمر به إسماعيل، ويحتمل أنّ إسماعيل ألحقه بأفعال الحج، أو أنّ من جاء من أبنائه فعل ذلك، فتقرّر في الشعائر عند قريش لا محالة.

وقد كان حوالي الكعبة في الجاهلية حَجَران كانا من جملة الأصنام التي جاء بها **عمرو ابن لُحَيٍّ** إلى مكة فعبدها العرب، إحداهما يسمى **إسافا** والآخر يسمى **نائلة**، كان أحدهما موضوعا قرب جدار الكعبة

والآخر موضوعا قرب زمزم، ثم نقلوا الذي قرب الكعبة إلى جهة زمزم، وكان العرب يذبحون لهما، فلمّا جدّد عبد المطلب احتفار زمزم، بعد أن دَثَرَتْها جُرهم حين خروجهم من مكّة، وبنى سقاية زمزم نقل ذينك الصنمين فوضع إسافا على الصفا ونائلة على المروة، وجعل المشركون بعد ذلك أصناما صغيرة وتماثيل بين الجبلين في طريق المسعى، فتوهّم العرب الذين جاءوا من بعد ذلك أنّ السعي بين الصفا والمروة طواف بالصنمين. وكانت الأوس والخزرج وغسان يعبدون مناة وهو صنم بالمشلل قرب قديد فكانوا لا يسعون بين الصفا والمروة تحرّجا من أن يطوفوا بغير صنمهم.

وقد روى مالك رحمه الله في الموطأ عن هشام بن عروة عن أبيه عروة بن الزبير قال: قلت لعائشة، وأنا يومئذ حديث السنّ، أرأيت قول الله تعالى { إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا }، فما على الرجل شيء أن لا يطوف بهم، قالت عائشة: كلا، لو كان كما تقول لكانت فلا جناح عليه أن لا يطّوّف بهما، إنّما أنزلت في الأنصار كانوا يهلّون لمناة، وكانت مناة حذو قديد، وكانوا يتحرّجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله عن ذلك فأنزل الله { إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ } ".

الصفا والمروة: اسمان لجبلين متقابلين، فأمّا الصفا فهو رأس نهاية جبل أبي قبيس، وأمّا المروة فرأس هو منتهى جبل قعيقعان. وسُمِّي الصفا لأنّ حجارته من الصفا، وهو الحجر الأملس الصلب، وسُمِّيت المروة مروة لأن حجارتها من المرو، وهي الحجارة البيضاء الليّنة التي توري النار ويذبح بها، لأنّ شذرها يخرج قطعا محددة الأطراف وهي تضرب بحجارة من الصفا فتتشقق.

وكأنّ الله تعالى لطف بأهل مكّة فجعل لهم جبلا من المروة للانتفاع به في اقتداحهم وفي ذبائحهم، وجعل قبالته الصفا للانتفاع به في بنائهم.

والصفا والمروة بقرب المسجد الحرام وبينهما مسافة سبعمائة وسبعين ذراعا، وطريق السعي بينهما يمر حذو جدار المسجد الحرام، والصفا قريب من باب يسمى (باب الصفا) من أبواب المسجد الحرام ويصعد الساعي إلى الصفا والمروة بمثل المدرجة.

الشعائر: جمع شَعيرة (بفتح الشين) وشِعارة (بكسر الشين) بمعنى **العلامة**، مشتقّ من شعر إذا علم وفطن، وهي فعلية بمعنى مفعولة أي معلّم بها، ومنه قولهم :أشعر البعير إذا جعل له سمة في سنامه بأنّه معدّ للهدى. فالشعائر ما جعل علامة على أداء عمل من أعمال الحجّ والعمرة، وهي المواضع المعظّمة، مثل المواقيت التي يقع عندها الإحرام، ومنها الكعبة والمسجد الحرام والمقام والصفا والمروة وعرفة والمشعر الحرام بمزدلفة ومنى والجمار.

ومعنى وصف الصفا والمروة بأنّهما من شعائر الله، أنّ الله جعلهما علامتين على مكان عبادة، كتسمية مواقيت الحجّ مواقيت، فوصفهما بذلك تصريح بأنّ السعي بينهما عبادة.

{ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ } تفريع على كونهما من شعائر الله، وأن السعي بينهما في الحجّ والعمرة من المناسك

فلا يريبه ما حصل فيهما من صنع الجاهلية، لأنّ الشيء المقدّس لا يُزيل تقديسه ما يحفّ به من سيّئ العوارض.

{ **فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا** } تنبيه على نفى ما اختلج في نفوسهم بعد الإسلام، كما في حديث عروة عن عائشة رضى الله عنها.

الجناح: (بضم الجيم) الإثم، مشتق من جنح إذا مال، لأنّ الإثم يميل به المرء عن طريق الخير، فاعتبروا فيه الميل عن الخير، عكس اعتبارهم في حَنَف أنه ميل عن الشر إلى الخير.

الحجّ: اسم في اللغة للقصد، وفي العرف على قصد البيت الحرام الذي بمكّة لعبادة الله تعالى فيه بالطواف والوقوف بعرفة والإحرام، ولذلك صار بالإطلاق حقيقة عرفيهة في هذا المعنى.

العمرة: اسم لزيارة البيت الحرام في غير موقت الحجّ أو في وقته بدون حضور عرفة، فالعمرة بالنسبة إلى الحجّ مثل صلاة الفذ بالنسبة لصلاة الجماعة.

والآية تدل على وجوب السعي بين الصفا والمروة بالإخبار عنهما بأنهما من شعائر الله، فلأجل هذا اختلفت المذاهب في حكم السعي، فذهب مالك رحمه الله في أشهر الروايتين عنه إلى أنّه فرض من أركان الحج، وهو قول الشافعي وأحمد والجمهور. وفي كتب الفقه تفصيل ذلك.

{ **وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ** } والمقصد من هذا التذييل الإتيان بحكم كُلّي في أفعال الخيرات كلّها من فرائض ونوافل أو نوافل فقط، فليس المقصود خصوص السعي، لأنّ خيرا نكرة في سياق الشرط فهي عامة.

تطوّع: يطلق بمعنى فَعَل طاعة وتكلّفها، ويطلق مطاوع طوَّعَه أي جعله مطيعا، فيدلّ على معنى التبرّع غالبا: لأنّ التبرّع زائد في الطاعة.

{ **فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ** } التقدير: ومن تطوّع خيرا جوزي به لأنّ الله شاكر، أي: لا يضيع أجر محسن، عليم لا يخفى عنه إحسانه.

{ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ [159] إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ [160]** }

قال المفسّرون إنّ هاته الآية نزلت في علماء اليهود، في كتمهم دلائل صدق النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم وصفاته وصفات دينه الموجودة في التوراة، وفي كتمهم آية الرجم.

{ **يَكْتُمُونَ** } الكَتم والكِتمان عدم الإخبار بما من شأنه أن يُخبر به من حادث مسموع أو مرئي، ومنه كتم السر، وهو الخبر الذي تخبر به غيرك وتأمره بأن يكتمه فلا يخبره غيره.

والمضارع للدلالة على أنّهم في الحال كاتمون للبيّنات والهدى.

{ **مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى** } ما اشتملت عليه التوراة من الدلائل والإرشاد، والمراد بالكتاب التوراة.

البيّنات: جمع بيّنة وهي الحجّة، وشمل ذلك ما هو من أصول الشريعة ممّا يكون دليلا على أحكام كثيرة، ويشمل الأدلة المرشدة إلى الصفات الإلهية وأحوال الرّسل وأخذ العهد عليهم في اتّباع كلّ رسول جاء بدلائل صدق.

الهدى: هو ما به الهدى، أي: الإرشاد إلى طريق الخير، فيشمل آيات الأحكام التي بها صلاح النّاس في أنفسهم وصلاحهم في مجتمعهم.

{ **لِلنَّاسِ** } أي بيّناه في الكتاب لأجل النّاس، أي: أردنا إعلانه وإشاعته، أي: جعلناه بيّنا. وفي هذا زيادة تشنيع عليهم فيما أتوه من الكتمان، وهو أنّه مع كونه كتمانا للحقّ وحرمانا منه هو اعتداء على مستحقّه الذي جُعل لأجله، ففعلهم هذا تضليل وظلم.

{ **أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ** } الإبعاد عن الرحمة مع إذلال وغضب، وأثره يظهر في الآخرة بالحرمان من الجنّة وبالعذاب في جهنم، وأمّا لعن النّاس إياهم فهو الدعاء منهم بأن يبعدهم الله عن رحمته.

{ **وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ** } تذكير لهم باللعنة المسطورة في التوراة، فإنّ التوراة متلوّة دائما بينهم، فكلّما قرأ القارئون هذا الكلام تجدّدت لعنة المقصودين.

فالعالِم يحرم عليه أن يكتم من علْمه ما فيه هدى للنّاس، لأنّ كتم الهدى إيقاع في الضلالة، سواء في ذلك العلم الذي بلغ إليه بطريق الخبر كالقرآن والسنة الصحيحة، والعلم الذي يحصل عن نظر كالاجتهادات إذا بلغت مبلغ غلبة الظن بأنّ فيها خيرا للمسلمين، ويحرم عليه بطريق القياس الذي تومئ إليه العلّة، أن يبثّ في النّاس ما يوقعهم في أوهام، بأن يلقّنها وهو لا يحسن تنزيلها ولا تأويلها، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" حدِّثوا النّاس بما يفهمون، أتحبّون أن يكذَّب الله ورسوله ".**

وكذلك كلّ ما يعلم أنّ النّاس لا يحسنون وضعه، أو يتلقّفون من ظاهره ما يوافق هواهم فيجعلونه معذرة لهم فيما يعاملون به النّاس من الظلم. ففي صحيح البخاري أنّ الحجّاج قال لأنس بن مالك: حدّثني بأشدّ عقوبة عاقبها النبيّ، فذكر له أنس حديث العرنيين الذين قتلوا الراعي واستاقوا الذود، فقطع النبيّ صلى الله عليه وسلّم أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم وتركهم في الحرّة يستقون فلا يسقون حتّ ماتوا. فلمّا بلغ ذلك الحسن البصري قال: وددت أنّه لم يحدّثه ". وفقه الدعوة والتنزيل مبحث جليل يحسُن الرجوع إليه.

{ **إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا** } شرط للتوبة أن يصلحوا ما كانوا أفسدوا، وهو بإظهار ما كتموه وأن يبيّنوه للنّاس، فلا يكفي اعترافهم وحدهم أو في خلواتهم. فالتوبة هنا: الإيمان بمحمّد صلى الله عليه وسلم، فإنّه رجوع عن كتمانهم الشهادة له الواردة في كتبهم. وإطلاق التوبة على الإيمان بعد الكفر وارد كثيرا.

{ **وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا** } لأنّ شرط كلّ توبة أن يتدارك التائب ما يمكن تداركه ممّا أضاعه بفعله.
{ **فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** } جملة مستأنفة لفائدة جديدة وهو أنّ توبتهم يعقبها رضى الله.

{ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ** [161] **خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ** [162] }.

لمّا استؤنف الكلام ببيان لعنة أهل الكتاب الذين يكتمون عقّب ذلك ببيان عقوبة المشركين أيضا. وذلك أنّ المشركين قد قُرنوا سابقا مع أهل الكتاب [البقرة: 105 / 118] . والكفر يطلق كثيرا في القرآن مرادا به الشرك.

{ **وَالنّاسِ أَجْمَعِينَ** } لأنّ المشركين يلعنهم أهل الكتاب وسائر المتديّنين الموحّدين للخالق بخلاف الذين يكتمون ما أنزل من البيّنات، فإنّما يعلنهم الله والصالحون من أهل دينهم، كما تقدّم، وتلعنهم الملائكة.

وعموم { النّاس } عرفي، أي: الذين هم من أهل التوحيد.

{ **خَالِدِينَ فِيهَا** } تصريح بلازم اللعنة الدائمة، فالضمير عائد لجهنم.

{ **لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ** } لأنّ كفرهم عظيم يصدّهم عن خيرات كثيرة، بخلاف كفر أهل الكتاب.

الإنظار: الإمهال، نظره نظرة أمهله. والظاهر أنّ المراد: ولا هم يمهلون في نزول العذاب بهم في الدنيا، وهو عذاب القتل، إذ لا يُقبل منهم إلّا الإسلام دون الجزية بخلاف أهل الكتاب.

{ **وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ** } [163].

لمّا ذكر ما ينالهم على الشرك من اللعنة والخلود في النار بيّن أنّ الذي كفروا به وأشركوا هو إله واحد، وفي هذا العطف زيادة ترجيح لما انتقيناه من كون المراد من { الَّذِينَ كَفَرُوا } المشركين، لأنّ أهل الكتاب يؤمنون بإله واحد.

الإله: في كلام العرب هو **المعبود**، ولذلك تعدّدت الآلهة عندهم، وأطلق لفظ الإله على كل صنم عبدوه، وهو إطلاق ناشئ عن الضلال في حقيقة الإله، لأنّ عبادة من لا يُغني عن نفسه ولا عن عابده شيئا عبث وغلط.

{ **إِلَهٌ وَاحِدٌ** } فوصف الإله هنا بالواحد لأنّه في نفس الأمر هو المعبود بحقّ، فليس إطلاق الإله على المعبود بحق نقلًا في لغة الإسلام ولكنّه تحقيق للحقّ. ولذلك لم يطلق في القرآن الإله بالإفراد على المعبود بغير حقّ.

{ **لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ** } تأكيد لمعنى التوحيد لأنّها نفت حقيقة الألوهية عن غير الله تعالى.

{ **الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ** } وصفان للضمير، أي المنعم بجلائل النعم ودقائقها، وهما وصفان للمدح، وفيهما تلميح لدليل الألوهية والانفراد بها لأنّه منعم وغيره ليس بمنعم.

{ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النّاس وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ }
[164]

موقع هاته الآية عقب سابقتها موقع الحجّة من الدعوى، ذلك أنّ الله تعالى أعلن أنّ الإله إله واحد لا إله غيره وهي قضية من شأنها أن تُتلقى بالإنكار من كثير من النّاس فناسب إقامة الحجّة لمن لا يقتنع، فجاء بهذه الدلائل الواضحة التي لا يسع الناظر إلّا التسليم إليها.

ولعلّ الآية تشير إلى ما يُعبّر عنه في علم الهيئة بـ (النظام الشمسي)، وهو النظام المنضبط في أحوال الأرض مع الكواكب السيّارة المّعبّر عنها بالسماوات.

{ **السَّمَاوَاتُ** } جمع سماء، والسماء إذا أطلقت مفردة فالمراد بها الجو المرتفع فوقنا الذي يبدو كأنّه قبّة زرقاء، وهو الفضاء العظيم الذي تسبح فيه الكواكب، وإذا جُمعت فالمراد بها أجرام عظيمة ذات نظام خاص مثل الأرض وهي السيّارات العظيمة المعروفة (عطارد – الزهرة – المريخ – الشمس - المشتري – زحل – أرانوس - نبتون).

ولعلّها السماوات السبع والعرش العظيم، وهذا السر في جمع (السماوات) هنا وإفراد (الأرض)، لأنّ الأرض عالم واحد، وأمّا جمعها في بعض الآيات فهو على معنى طبقاتها أو أقسام سطحها.

قلت: ومن بديع هذا الخلق أن جعله الله تعالى يمدّ بعضه بعضا بما يحتاجه كلا فلا ينقص من المدّ شيء، لأنّه يمدّه غيره بما يخلف له ما نقص، وهكذا نجد الموجودات متفاعلة، فالبحر يمدّ الجو بالرطوبة فتكون منه المياه النازلة ثم هو لا ينقص مع طول الآباد لأنّه يمدّه كل نهر وواد.

{ **وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ** } تذكير بأية أخرى عظيمة لا تخفى على أحد العقلاء وهي اختلاف الليل والنهار، أعني اختلاف حالتي الأرض في ضياء وظلمة.

الاختلاف: افتعال من الخلف وهو أن يجيء شيء عوضا عن شيء آخر يخلفه في مكانه، والخِلفة (بكسر الخاء) الخلف. وقد أضيف الاختلاف لكلّ من الليل والنهار لأنّ كلّ واحد منهما يخلف الآخر فتحصل منه فوائد تعاكس فوائد الآخر، بحيث لو دام أحدهما لانقلب النفع ضرّا، قال تعالى { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ }

[القصص:72/71].

وللاختلاف معنى آخر هو مراد أيضا وهو تفاوتهما في الطول والقصر فمرّة يعتدلان ومرة يزيد أحدهما على الآخر وذلك بحسب أزمنة الفصول وبحسب أمكنة الأرض في أطوال البلاد وأعراضها.

الليل: اسم لعرض الظلمة والسواد الذي يعمّ مقدار نصف من كرة الأرض الذي يكون غير مقابل للشمس فإذا حجب قرص الشمس عن مقدار نصف الكرة الأرضية بسبب التقابل الكروي تقلّص شعاع الشمس عن ذلك المقدار من الكرة الأرضية فأخذ النور في الضعف وعادت إليه الظلمة الأصلية التي ما أزالها إلّا شعاع الشمس، ويكون تقلّص النور مدرَّجًا من وقت مغيب قرص الشمس عن مقابلة الأفق ابتداء من وقت الغروب ثم وقت الشفق الأحمر ثم الشفق الأبيض إلى أن يحلك السواد في وقت العشاء حين بعُد قرص الشمس عن الأفق الذي ابتدأ منه المغيب، وكلّما اقترب قرص الشمس من الأفق الآخر أكسبه ضياء من شعاعها ابتداء من وقت الفجر إلى الإسفار إلى الشروق إلى الضحى.

{ **وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النّاس** } كونها نعمة من حيث أنّها تجري بما ينفع النّاس، فأمّا جريها في البحر فهو يتضمّن آيتين:

إحداهما: آية خلق البحر الذي تجري فيه الفلك خلقا عجيبا عظيما.

الثانية: آية سير السفن فيه وهو ماء من شأنه أن يتعذر المشي عليه.

فجري السفن آية من آيات إلهام الله تعالى الإنسان للتفطّن لهذا التسخير العجيب الذي استطاع به أن يسلك البحر كما يمشي في الأرض. ثم إنّ الله تعالى سخّر للفلك الرياح الدوريّة.

{ **وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ** } ووجه العبرة أنّ شأن الماء الذي يسقي الأرض أن ينبع منها، فجعْلُ الماء نازلا عليها من ضدّها وهو السماء عبرة عجيبة.

{ **فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ** } مجاز عقلي، والمراد إحياء ما تراد له الأرض وهو النبات.

{ **وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ** } أي أكثر فيها عددا من كل نوع من أنواع الدواب، بمعنى أنّ كلّ نوع من أنواع الدواب ينبث بعض كثير من كل أنواعه.

البثّ: في الأصل نشرُ ما كان خفيا، ومنه بثّ الشكوى وبثّ السر أي: أظهره.

الدابة: ما دب على وجه الأرض.

{ **وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ** } وهو من آيات وجود الخالق وعظيم قدرته، لأنّ هبوب الريح وركودها آية، واختلاف مهابها آية ، فلولا الصانع الحكيم الذي أودع أسرار الكائنات لما هبّت الريح أو لما ركدت، ولَمَا اختلف مهابها بل دامت من جهة واحدة وهذا موضع العبرة، وفي تصريف الرياح موضع نعمة.

التصريف: اختير التعبير ب هذا اللفظ دون غيره نحو (التبديل أو الاختلاف) لأنه اللفظ الذي يصلح معناه لحكاية ما في الأمر من حال الرياح، لأنّ التصريف تفعيل من الصرف للمبالغة ، وقد علمت أن

منشأ الريح هو صرف بعض الهواء إلى مكان وصرف غيره إلى مكانه الذي كان فيه.

{ **وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ** } نقله من موضع إلى موضع، وهو عبرة ومنّة:

أمّا العبرة ففي تكوينه بعد أن لم يكن، وتسخيره وكونه في الفضاء.

وأمّا المنّة ففي جميع ذلك؛ فتكوينه منّة وتسخيره من موضع إلى موضع منّة، وكونه بين السماء والأرض منّة، لأنّه ينزل منه المطر على الأرض من ارتفاع فيفيد اختراق الماء في الأرض، ولأنّه لو كان على سطح الأرض لاختنق النّاس فهذا ما يبدو لكل أحد.

وفي ذلك أيضا عبرة ومنّة لأهل العلم فتكوينه عبرة لهم.

{ **لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** } أي دلائل، وقد تقدّم الكلام على الآية والآيات، وجمع الآيات لأنّ في كل ما ذكر من خلق السماوات والأرض وما عطف عليه آيات. فالمعنى أنّ في ذلك آيات للذين سجيّتهم العقل، وهو تعريض بأنّ الذين لم ينتفعوا بآيات ذلك ليست عقولهم براسخة ولا هي ملكات لهم، وقد تكرّر هذا في سورة يونس.

{ **وَمِنَ النّاس مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ** } [165].

{ **وَمِنَ النّاس مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ** } تضمّنت الجملة السابقة أنّ قوما يعقلون استدلّوا بخلق السماوات والأرض وما عطف عليه على أنّ الله واحد فوحّدوه، فناسب أن يعطف عليه شأن الذين لم يهتدوا لذلك فاتخذوا لأنفسهم شركاء مع قيام تلك الدلائل الواضحة، فهؤلاء الذين اتخذوا من دون الله شركاء هم المتحدَّث عنهم.

{ **أَنْدَاداً** } الأمثال في الألوهية والعبادة، وقد مضى الكلام على الندّ (بكسر النون) عند قوله تعالى { فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [22].

{ **مِنْ دُونِ اللَّهِ** } معناه **مع الله**، لأنّ دون تؤذن بالحيلولة، بمعنى: وراء، فإذا قالوا: أتخذ دون الله. فالمعنى: أنّه أفرده وأعرض عن الله، وإذا قالوا: من دون الله، فالمعنى: أنه جعله بعض حائل عن الله، أي: أشركه مع الله، لأنّ الإشراك يستلزم الإعراض عن الله في أوقات الشغل بعبادة ذلك الشريك.

والمراد بالأنداد هنا وفي مواقعه من القرآن، الأصنام لا الرؤساء.

{ **يُحِبُّونَهُمْ** } المحبة هنا مستعملة في معناها الحقيقي وهو ميل النفس إلى الحسن عندها.

{ **كَحُبِّ اللَّهِ** } المراد إنكار محبّتهم الأنداد من أصلها لا إنكار تسويتها بحب الله تعالى، وإنّما قيّدت بمماثلة محبّة الله لتشويهها وللنداء على انحطاط عقول أصحابها، وفيه إيقاظ لعيون معظم المشركين، وهم الذين زعموا أنّ الأصنام شفعاء لهم، كما كثرت حكاية ذلك عنهم في القرآن، فنُبِّهوا إلى أنهم سووا

بين محبة التابع ومحبة المتبوع ومحبة الخالق ومحبة المخلوق لعلهم يستفيقون، فإذا ذهبوا يبحثون عمّا تستحقه الأصنام من المحبّة وتطلّبوا أسبابها وجدوها مفقودة.

{ **وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ** } أي أشدّ حبّا لله من محبّة أصحاب الأنداد أندادهم، لأنّ محبة جميع هؤلاء المحبين، وإن بلغوا ما بلغوا من التصلّب في محبوبيهم، لمّا كانت محبّة مجردة عن الحجّة، لا تبلغ مبلغ أصحاب الاعتقاد الصميم المعضود بالبرهان.

{ **وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ** } انتقال إلى ذكر عاقبتهم ووصف فظاعة حالهم في الآخرة، كما فظّع حالهم في الدنيا.

وقرأ نافع وابن عامر ويعقوب { وَلَوْ ترَى } بتاء فوقية، وذلك لتناهي حالهم في الفظاعة والسوء، حتّى لو حضرها النّاس لظهرت لجميعهم. ويجوز أن يكون الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، والرؤية بصرية في الأول والثاني لتعلقها في الموضعين بالمرئيات، ولأن ذلك مورد المعنى، إلّا أنّ وقت الرؤيتين مختلف، إذ المعنى: لو تراهم الآن حين يرون العذاب يوم القيامة، أي: لو ترى الآن حالهم.

وقرأ الجمهور { وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا } بالتحتيّة فيكون المعنى أيضا: لو يرون الآن، وتقديره: لو يرون عذابهم أو لو يرون أنفسهم.

{ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ [166] وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ [167] }.

التبرّؤ: تكلّف البراءة، وهي التباعد من الأمر الذي من شأن قربه أن يكون مضرًّا.

{ **الَّذِينَ اتُّبِعُوا** } بالبناء إلى المجهول، هم الذين ضلّلوا المشركين ونصبوا لهم الأنصاب مثل عمرو بن لُحَيّ، فقد أشعر قوله { اتُّبِعُوا } أنّهم كانوا يدعون إلى متابعتهم. ومعنى براءتهم منهم: تنصّلهم وتنكّرهم لأتباعهم، وعدم اعترافهم بمسؤوليّتهم لما حلّ بهم.

{ **وَرَأَوُا الْعَذَابَ** } حالية، أي: تبرءوا في حال رؤيتهم العذاب، ومعنى رؤيتهم إيّاه أنّهم رأوا أسبابه وعلموا أنّه أُعدّ لمن أضلّ النّاس، فجعلوا يتباعدون من أتباعهم لئلا يحقّ عليهم عذاب المضلِّلين، ويجوز أن تكون رؤية العذاب مجازا في إحساس التعذيب.

{ **وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ** } الانقطاع الشديد لأنّ أصله مطاوع قطّعه بالتشديد مضاعف قَطَع بالتخفيف.

الأسباب: جمع سبب وهو الحبل الذي يمدّ ليُرتقي عليه.

استعارة تمثيليّة شبَّهت هيئتهم عند خيبة أملهم حين لم يجدوا النعيم الذي تعبوا لأجله مدّة حياتهم بحال المرتقي إلى النخلة ليجتني التمر الذي كدّ لأجله طول السنة فتقطّع به السبب عند ارتقائه فسقط هالكا.

{ **وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا** }

{ **لَوْ** } مستعملة في التمنّي، وهو استعمال كثير لحرف (لو).

الكرَّةُ: الرجعة إلى محلّ كان فيه الراجع، وهي مرّة من الكرّ، ولذلك تطلق في القرآن على الرجوع إلى الدنيا لأنّه رجوع لمكان سابق.

والمعنى أنّهم تمنّوا أن يعودوا إلى الدنيا بعدما علموا الحقيقة وانكشف لهم سوء صنيعهم فيدعوهم الرؤساء إلى دينهم فلا يجيبونهم ليشفوا غيظهم من رؤسائهم الذين خذلوهم، ولتحصل للرؤساء خيبة وانكسار كما خيّبوهم في الآخرة.

{ **كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ** } تذييل وفذلكة لقصة تبري المتبوعين من أتباعهم.

والمعنى أنّ الله يريهم عواقب أعمالهم، لأنّ الأعمال لا تدرك بالبصر لأنّها انقضت فلا يحسّون بها.

الحسرة: حزن في ندامة وتلهّف.

{ **وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ** } حال أو اعتراض، لأنّهم إذا كانوا لا يخرجون من النّار تعيّن أنّ تمنّيهم الرجوع إلى الدنيا وحدوث الخيبة لهم من صنع رؤسائهم لا فائدة فيه إلّا إدخال ألم الحسرات عليهم، وإلّا فهم يُلقون في النار على كل حال.

{ يَا أَيُّهَا النّاس كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ [168] إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ [169] }.

استئناف ابتدائي هو كالخاتمة لتشويه أحوال أهل الشرك من أصول دينهم وفروعه التي ابتدأ الكلام فيها من قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ } [161].

{ **يَا أَيُّهَا النّاس** } الخطاب موجّه إلى المشركين كما هو شأن خطاب القرآن.

{ **كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ** } الأمر مستعمل في التوبيخ على ترك ذلك وليس للوجوب ولا للإباحة، إذ ليس الكفار بأهل للخطاب بفروع الشريعة.

{ **حَلالاً طَيِّباً** } تعريض بتحميقهم فيما اعتنوا به أنفسهم فحرموها من نعم طيبة، افتراء على الله.

والمقصود إبطال ما اختلقوه من منع أكل (**البحيرة** و **السائبة** و **الوصيلة** و **الحامي**). قيل نزلت في ثقيف وبنى عامر بن صعصعة وخزاعة وبنى مدلج حرَّموا على أنفسهم أنواعا من الأنعام، سيأتي ذكرها في سورة الأنعام.

الطيّب: هنا ما تستطيعه النفوس بالإدراك المستقيم السليم من الشذوذ، وهي النفوس التي تشتهي الملائم الكامل أو الراجح بحيث لا يعود تناوله بضر جثماني أو روحاني. فلذلك قال علماؤنا :إنّ حكم الأشياء التي لم ينصّ الشرع فيها بشيء أنّ أصل المضار منها التحريم وأصل المنافع الحلّ.

{ **وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ** } الضمير للنّاس لا محالة وهم المشركون المتلبّسون بالمنهي عنه دوما، وأمّا المؤمنون فحظّهم منه التحذير والموعظة.

اتباع الخطوات: تمثيليّة، يقولون هو يتّبع خطا فلان بمعنى يقتدي به ويمتثل له.

الخُطْوات: (بضم فسكون) جمع خطوة، اسم لمسافة بين القدمين عند مشي الماشي فهو يخطوها، وأمّا الخَطوة(بفتح الخاء) فهي المرّة .

والاقتداء بالشيطان إرسال النفس على العمل بما يوسوسه لها من الخواطر البشريّة، فإنّ الشياطين موجودات مدركة لها اتصال بالنفوس البشريّة، لعلّه كاتصال الجاذبية بالأفلاك والمغناطيس بالحديد، فإذا حصل التوجّه من أحدهما إلى الآخر بأسباب غير معلومة حدثت في النفس خواطر سيّئة، فإن أرسل المكلّف نفسه لاتّباعها ولم يردعها بما له من الإرادة والعزيمة حقّقها في فعله، وإن كبحها وصدّها عن ذلك غلبها. ولذلك أودع الله فينا العقل والإرادة والقدرة، وكمّل لنا ذلك بالهدى الديني عونا وعصمة عن تلبيتها، لئلا تضلّنا الخواطر الشيطانية حتّى نرى حسنا ما ليس بالحسن. ولهذا جاء في الحديث: **" من همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة "**. لأنّه لمّا همّ بها فذلك حين تسلّطت عليه القوّة الشيطانية ولمّا عدل عنها فذلك حين غلّب الإرادة الخيرية عليها. ومثل هذا يقال في الخواطر الخيريّة، وهي الناشئة عن التوجهات الملكية.

فإذا تنازع الداعيان في نفوسنا احتجنا في التغلّب إلى الاستعانة بعقولنا وآرائنا وقدرتنا وهدى الله تعالى إيانا، وذلك هو المعبّر عنه عند الأشعري **بالكسب**، وعنه يترتب الثواب والعقاب.

{ **إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ** } وإنّما كان عدوّا لأنّ عنصر خلقته مخالف لعنصر خلقة الإنسان، فاتصاله بالإنسان يؤثّر خلاف ما يلائمه. وقد كثر في القرآن تمثيل الشيطان في صورة العدو المتربّص بنا الدوائر لإثارة داعية مخالفته في نفوسنا كي لا نغترّ حين نجد الخواطر الشريرة في أنفسنا فنظنها ما نشأت فينا إلاّ وهي نافعة لنا لأنّها تولدت من نفوسنا، ولأجل هذا أيضا صوّرت لنا النفس في صورة العدو في مثل هاته الأحوال.

المبين: الظاهر العداوة، من أبان الذي هو بمعنى بان، وليس هو من أبان الذي همزته للاعدية والذي بمعنى أظهر، لأنّ الشيطان لا يظهر لنا العداوة بل يُلبس لنا وسوسته في لباس النصيحة أو جلب الملائم، ولذلك سمّاه الله وليًّا فقال { وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدِ خَسِرَ خُسْرَانًا مِبِينًا } [النساء:119].

{ **إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ** } استئناف بياني، أي: لأنّه لا يأمركم إلّا بالسوء.

يَأْمُرُكُمْ: مجاز عن الوسوسة والتزيين.

السوء: الضُرّ، من ساءه سوءا.

الفحشاء: اسم مشتقّ من فحش إذا تجاوز الحدّ المعروف في فعله أو قوله، واختصّ في كلام العرب بما تجاوز حد الآداب وعظم إنكاره.

{ **وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** } يشير إلى ما اختلقه المشركون وأهل الضلال من رسوم العبادات، هو نسبة أشياء لدين الله ما أمر الله بها. وخصّه بالعطف مع أنّه بعض السوء والفحشاء لاشتماله على أكبر الكبائر، وهو الشرك والافتراء على الله.

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ } [170].

زيادة تفظيع لحال أهل الشرك، فبعد أن أثبت لهم اتّباعهم خطوات الشيطان فيما حرّموا على أنفسهم من الطيّبات، أعقب ذلك بذكر إعراضهم عمّن يدعوهم إلى اتباع ما أنزل الله، وتشبّثوا بعدم مخالفتهم ما ألفوا عليه آباءهم، وأعرضوا عن الدعوة إلى غير ذلك دون تأمّل ولا تدبّر.

{ **بَلْ** } حرف إضراب ، أي: أضربوا عن قول الرسول { اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ }، إضراب إعراض بدون حجّة إلّا أنّه مخالف لما ألفوا عليع آباءهم.

{ **مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا** } ما وجدوهم عليه من أمور الشرك.

{ **أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ** } الهمزة مستعملة في الإنكار كناية وفي التعجيب إيماء، والمراد بالإنكار الردّ والتخطئة لا الإنكار بمعنى النفي.

{ **لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً** } أي لا يدركون شيئا من المدركات، وهذا مبالغة في إلزامهم بالخطأ في إتباع آبائهم عن غير تبصّر ولا تأمّل. ومتعلّق { وَلا يَهْتَدُونَ } محذوف، أي: إلى شيء.

{ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ } [171] .

لمّا ذكر تلقّيهم الدعوة إلى اتباع الدين بالإعراض، وذكر فساد عقيدتهم، عقّب ذلك كلّه بتمثيل فظيع حالهم إبلاغا في البيان واستحضارا لهم بالمثال ، وإنّما عطفه بالواو هنا ولم يفصله لأنّه أريد هنا جعل هذه صفة مستقلّة لهم في تلقي دعوة الإسلام ولو لم يعطفه لما صحّ ذلك.

{ **كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ** } تشبيه حالهم عند سماع دعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم إيّاهم إلى الإسلام بحال الأنعام عند سماع دعوة من ينعق بها في أنّهم لا يفهمون. ويجوز أن يكون تشبيه الأصنام حين يدعوها المشركون بالغنم حين ينعق بها رعاتها فهي لا تسمع إلّا دعاء ونداء، ومعلوم أنّ الأصنام لا تسمع. فالنبيّ صلى الله عليه وسلّم يدعوهم كناعق بغنم لا تفقه دليلا، وهم يدعون أصنامهم كناعق بغنم لا تفقه شيئا. ومن بلاغة القرآن صلوحيّة آياته لمعان كثيرة يفرضها السامع.

النعق: نداء الغنم.

الدعاء والنداء: قيل بمعنى واحد، والظاهر أنّ المراد بهما نوعان من الأصوات التي تفهمها الغنم.
{ **صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ** } الأوصاف إن رجعت للمشركين فهي تشبيه بليغ وهو الظاهر، وإن رجعت إلى الأصنام فهي حقيقة.
{ **فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ** } أي إن تأملتم وجدتموهم لا يعقلون، لأنّهم كالأنعام، وإن كان راجعا للأصنام فالاستنتاج للتنبيه على غباوة المشركين الذين عبدوها. ومجيء الضمير لهم بضمير العقلاء تهكّم بالمشركين لأنّهم جعلوا الأصنام في أعلى مراتب العقلاء.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ } [172]

اعتراض بخطاب المسلمين بالامتنان عليهم بإباحة ما في الأرض من الطيّبات، جرت إليه مناسبة الانتقال، فقد انتقل من توبيخ أهل الشرك على أن حرّموا ما خلقه الله من الطيبات إلى تحذير المسلمين من مثل ذلك، مع بيان ما حرّم عليهم من المطعومات.
{ **وَاشْكُرُوا لِلَّهِ** } معطوف على الأمر بأكل الطيّبات الدال على الإباحة والامتنان، والأمر للوجوب لأنّ شكر المنعم واجب. وتعديته للمفعول بـ (اللام) هو الأفصح، وتسمّى لام التبليغ ولام التبيين. كما قالوا: نصح له ونصحه.
والعدول عن الضمير إلى الاسم الظاهر لأنّ في الاسم الظاهر إشعارا بالإلهيّة، فكأنّه يومئ إلى قبح شكر الأصنام، لأنّها لم تخلق شيئا ممّا على الأرض باعتراف المشركين أنفسهم فلا تستحق شكرا.
{ **إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ** } أي اشكروه على ما رزقكم إن كنتم ممّن يتّصف بأنّه لا يعبد إلّا الله، أي: إن كنتم هذا الفريق وهذه سجيّتكم.

{ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [173].

استئناف بياني، ذلك أنّ الإذن بأكل الطيّبات يثير سؤال من يسأل ما هي الطيّبات؟ فجاء هذا الاستئناف مبيّنا المحّرمات وهي أضداد الطيّبات، لتعرف الطيبات بطريق المضادة المستفاد من صيغة الحصر. وذلك للاختصار، فإنّ المحرمات قليلة، و فيه تعريض بالمشركين الذين حرّموا على أنفسهم كثيرا من الطّيبات وأحلّوا الميتة والدم.
الحرام: الممنوع منعا شديدا.
{ **الْمَيْتَةَ** } بالتخفيف هي في أصل اللغة الذات التي أصابها الموت فمخفّفها ومشدَّدها سواء كالمَيْت والمَيِّت، ثم خصّ المخفَّف مع التأنيث بالدابة التي تقصد ذكاتها إذا ماتت بدون ذكاة، فقيل: إنّ هذا من

نقل الشرع، وقيل: هو حقيقة عرفية قبل الشرع، وهو الظاهر بدليل إطلاقها في القرآن على هذا المعنى. وإضافة التحريم إلى ذات الميتة وما عطف عليها هو من المسألة الملقبة في أصول الفقه بإضافة التحليل والتحريم إلى الأعيان، ومحمله على تحريم ما يقصد من تلك العين باعتبار نوعها، فيقدر في جميع ذلك مضاف يدل عليه السياق، أو يقال أقيم اسم الذات مقام الفعل المقصود منها للمبالغة. فتحريم أكل الميتة هو نص الآية وصريحها. ونحو ذلك قوله تعالى { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ } [النساء:23] فهو متعيّن لحرمة تزوّجهنّ وما هو من توابع ذلك، كما اقتضاه السياق، فلا يخطر بالبال أن يحرم تقبيلهنّ أو محادثتهنّ. ونحو { فَاجْتَنِبُوهُ} [المائدة:90] بالنسبة إلى الميسر والأزلام متعيّن لاجتناب اللعب بها دون نجاسة ذواتها.

وحرمة أكل الميتة متفق عليها بين علماء الإسلام، واختلفوا فيما عدا الأكل من الانتفاع بأجزاء الميتة كالانتفاع بصوفها ومالا يتصل بلحمها ممّا كان ينتزع منها في وقت حياتها:

فقال مالك: يجوز الانتفاع بذلك، ولا ينتفع بقرنها وأظلافها وريشها وأنيابها لأنّ فيها حياة، إلّا ناب الفيل المسمّى العاج، وليس دليله على هذا التحريم منتزعا من هذه الآية ولكنّه أخذ بدلالة الإشارة، لأنّ تحريم أكل الميتة أشار إلى خباثة لحمها وما في معناها.

قال الشافعي: يحرم الانتفاع بكل أجزاء الميتة.

قال أبو حنيفة: لا يجوز الانتفاع بالميتة بوجه ولا يطعمها الكلاب ولا الجوارح.

واختلف الفقهاء في **الانتفاع بجلد الميتة** إذا دبغ:

فقال أحمد أبن حنبل: لا يطهر جلد الميتة بالدبغ.

وقال أبو حنيفه والشافعي: يطهر بالدبغ ما عدا جلد الخنزير، لأنّه محرّم العين.

وقال مالك: يطهر ظاهر الجلد بالدبغ لأنّه يصير صلبا لا يداخله ما يجاوره، وأمّا باطنه فلا يطهر بالدبغ ولذلك قال: يجوز استعمال جلد الميتة المدبوغ في غير وضع الماء فيه، ومنع أن يصلّى به أو عليه.

وقول أبي حنيفة أرجح للحديث الصحيح أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم رأى شاة ميتة كانت لميمونة أمّ المؤمنين فقال: **" هلّا أخذتم إهابها فدبغتموه فانتفعتم به "**، ولما جاء في الحديث الآخر من قوله: **" أيّما إهاب دّبغ فقد طهر"**.[الترمذي والنسائي وأحمد وابن ماجه عن ابن عبّاس].

ويظهر أنّ هذين الخبرين لم يبلغا مبلغ الصحّة عند مالك ولكن صحتهما ثبتت عند غيره. والقياس يقتضي طهارة الجلد المدبوغ لأنّ الدبغ يزيل ما في الجلد من توقع العفونة العارضة للحيوان غير المذكّى، فهو مزيل لمعنى القذارة والخباثة العارضتين للميتة. ويُستثنى من عموم الميتة ميتة الحوت ونحوه من دواب البحر التي لا تعيش في البرّ.

واعلم أن حكمة تحريم الميتة فيما أرى هي أنّ الحيوان لا يموت غالبا إلّا وقد أصيب بعلّة، والعلل مختلفة وهي تترك في لحم الحيوان أجزاء منها فإذا أكلها الإنسان قد يخالط جزءا من دمه جراثيم

الأمراض، مع أنّ الدم الذي في الحيوان إذا وقفت دورته غلبت فيه الأجزاء الضارة على الأجزاء النافعة، ولذلك شرعت الذكاة، لأنّ المذكّى مات من غير علّة غالبا، ولأنّ إراقة الدم الذي فيه تجعل لحمه نقيّا ممّا يخشى منه.

ومن أجل هذا قال مالك في جنين الدابة: أنّ ذكاته ذكاة أمّه، لأنّه لاتصاله بأجزاء أمه صار استفراغ دم أمّه استفراغا لدمه، ولذلك يموت بموتها، فسلم من عاهة الميتة، وهو مدلول الحديث الصحيح **" ذكاة الجنين ذكاة أمه "**، وبه أخذ الشافعي، وقال أبو حنيفة: لا يؤكل الجنين إذا خرج ميتا، فاعتبر أنّه ميتة لم يذك. وتناول الحديث بما هو معلوم في الأصول، ولكن القياس الذي ذكرناه في تأييد مذهب مالك لا يقبل تأويلا.

وقد الحقّ بعض الفقهاء بالحوت الجراد تؤكل ميتته لأنه تتعذر ذكاته وهو قول ابن نافع وابن عبد الحكيم من المالكية تمسكا بما في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن أبي أوفى:" غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات كنّا نأكل الجراد معه ". فهو يقتضي الإباحة إمّا بأكله صلى الله عليه وسلم إيّاه وإمّا بتقريره ذلك، فتخص به الآية لأنه حديث صحيح.

وأمّا حديث: **" أحلت لنا ميتتان السمك والجراد "** فلا يصلح للتخصيص لأنّه **ضعيف** كما قال ابن العربي في (الأحكام)، ومنعه مالك وجمهور أصحابه إلّا أن يذكّى ذكاة أمثاله ،كالطرح في الماء السخن أو قطع ما لا يعيش بقطعه. ولعل مالك رحمة الله استضعف الحديث الذي في مسلم أو حمله على الاضطرار في السفر أو حمله على أنّهم كانوا يصنعون به ما يقوم مقام الذكاة .

{ وَالدَّمَ } فإنّما نصّ الله على تحريمه لأنّ العرب كانت تأكل الدم، كانوا يأخذون المباعر فيملأونها دما ثم يشوونها بالنار ويأكلونها. وحكمة تحريم الدم أنّ شربه يورث ضراوة في الإنسان فتغلظ طباعه ويصير كالحيوان المفترس، وهذا مناف لمقصد الشريعة، لأنّها جاءت لإتمام مكارم الأخلاق وإبعاد الإنسان عن التهوّر والهمجيّة. ولذلك قيّد في بعض الآيات بالمسفوح أي المهراق، لأنّه كثير لو تناوله الإنسان اعتاده أورثه ضراوة، ولذا عفت الشريعة عما يبقى في العروق بعد خروج الدم المسفوح بالذبح أو النحر.

وقاس كثير من الفقهاء نجاسة الدم على تحريم أكله وهو مذهب مالك، ومداركهم في ذلك ضعيفة.

{ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ } هو لحم الحيوان المعروف بهذا الاسم. وقد قال بعض المفسّرين: إنّ العرب كانوا يأكلون الخنزير الوحشي دون الإنسي، أي: لأنّهم لم يعتادوا تربية الخنازير.

وإذا كان التحريم واردا على الخنزير الوحشي، فالخنزير الإنسي أولى بالتحريم، أو مساو للوحشي.

وذكر اللحم هنا لأنّه المقصود للأكل فلا دلالة في ذكره على إباحة شيء آخر منه ولا على عدمها، فإنّه قد يعبّر ببعض الجسم على جميعه، وأمّا نجاسته ونجاسة شعره أو إباحتها فذلك غرض آخر وهو ليس المراد من الآية.

وعندي أن إقحام لفظ اللحم هنا إمّا مجرّد تفنّن في الفصاحة، وإمّا للإيماء إلى طهارة ذاته كسائر الحيوان، وإنّما المحرّم أكله، لئلّا يفضي تحريمه إلى قتله أو تعذيبه. فيكون فيه حجّة لمذهب مالك بطهارة عين الخنزير كسائر الحيوان الحي، وإمّا للترخيص في الانتفاع بشعره، لأنّهم كانوا يغرزون به الجلد.

{ **وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ** } أي ما أعلن به أو نودي عليه بغير اسم الله تعالى.

أهلّ: إذا رفع صوته بالكلام، ومثله استهلّ الصبي صارخا إذا رفع صوته بالبكاء، وأهلّ بالحج أو العمرة إذا رفع صوته بالتلبية عند الشروع فيهما. وكانت العرب في الجاهلية إذا ذبحت أو نحرت للصنم صاحوا باسم الصنم عند الذبح فقالوا: باسم اللات أو باسم العزى أو نحوهما، وكذلك كان عند الأمم التي يعبد آلهة إذا قربت لها القرابين.

{ **فَمَنِ اضْطُرَّ** } هو الذي ألجأته الضرورة، أي: الحاجة إلى أكل شئ من هذه المحرّمات فلا إثم عليه.

{ **غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ** } حال. و**البغي**: الظلم. و**العدوان**: المحاربة والقتال.

ومجي هذه الحال هنا للتنويه بشأن المضطّر في حال إباحة هاته المحرّمات له بأنّه بأكلها يكون غير باغ ولا عاد، لأنّ الضرورة تلجئ إلى البغي والاعتداء، فالآية إيماء إلى علّة الرخصة وهي رفع البغي والعدوان بين الأمّة، وهي أيضا إيماء إلى حدّ الضرورة، وهي الحاجة التي يشعر عندها من لم يكن دأبه البغي والعدوان بأنّه سيبغي ويعتدي وهذا تحديد منضبط.

{ **فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ** } نفي الإثم عن المضطرّ فيما يتناوله من هذه المحرّمات منوط بحالة الاضطرار، فإذا تناول ما أزال به الضرورة فقد عاد التحريم كما كان. فالجائع يأكل من هاته المحرّمات إن لم يجد غيرها أكلا يغنيه عن الجوع، وإذا خاف أن تستمرّ به الحاجة، كمن توسّط فلاة في سفر، أن يتزوّد من بعض هاته الأشياء حتّى إن استغنى عنها طرحها، لأنه لا يدري هل يتفق له وجدانها مرّة أخرى.

{ **إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } تذييل قُصد به الامتنان، ومعنى الآية: أنّ رفع الإثم عن المضطرّ حكم يناسب من اتصف بالمغفرة والرحمة.

{ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [174].

عود إلى محاجّة أهل الكتاب، تحذيرا للمسلمين ممّا أحدثه اليهود في دينهم من تحريم بعض ما أحلّ الله لهم، وتحليل بعض ما حرّم الله عليهم، لأنّهم كانوا إذا أرادوا التوسيع والتضييق تركوا أن يقرؤوا من كتابهم ما غيّروا العمل بأحكامه، كما فعلوا في ترك قراءة حكم رجم الزاني في التوراة حين دعا النبيّ صلى الله عليه وسلم أحد اليهود ليقرأ ذلك الحكم من التوراة فوضع اليهودي يده على الكلام الوارد في ذلك، كما أخرجه البخاري في كتاب الحدود.

وفي هذا تهيئة للتخلّص إلى ابتداء شرائع الإسلام، فإنّ هذا الكلام فيه إبطال لما شرعه أهل الكتاب في دينهم فكون التخلص ملونًا بلوني الغرض السابق والغرض اللاحق.

{ **يَكْتُمُونَ** } القول في الكتمان تقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُون } [159].

{ **مِنَ الْكِتَابِ** } هو الكتاب المعهود من السياق، وهو كتاب الَّذِينَ يَكْتُمُونَ.

{ **وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً** } وهو المال الذي يأخذونه من النّاس جزاء على إفتائهم بما يلائم هواهم مخالفا لشرعهم، فالثمن يطلق على الرشوة، لأنّها ثمن يدفع عوضا عن جور الحاكم وتحريف المفتي.

{ **أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ**} مستعار لأخذ الرشا المعبّر عنها بالثمن، والظاهر أنّه مستعمل في زمان الحال، أي ما يأكلون وقت كتمانهم واشترائهم إلّا النار. وجوَّزوا أن يكون { يأكلون } مستقبلا، أي: ما سيأكلون إلّا النار، على أنّه تهديد ووعيد بعذاب الآخرة، وهو وجيه، ونكتة استعارة الأكل هنا إلى اصطلائهم بنار جهنّم هي مشاكلة تقديريّة. فقد شاع تسميّة أخذ الرشوة أكلا.

{ **وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ** } المراد به لازم معناه وهو الكناية عن الغضب، فالمراد نفي كلام التكريم.

{ **وَلا يُزَكِّيهِمْ** } أي لا يثني عليهم في ذلك المجمع، وذلك إشعار لهم بأنّهم صائرون إلى العذاب، لأنّه إذا نفيت التزكية أعقبها الذمّ والتوبيخ.

{ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ} [175].

إن جعلتَ الجملة خبر ثان عن المبتدأ الأول { إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ } [174]، للتنبيه على أنّ المشار إليه جدير بأحكام أخرى غير الحكم السابق، وأنّ تلك الأحكام لأهميتها ينبغي ألا تُجعل معطوفة تابعة للحكم الأول بل تفرد بالحكميّة، وإن جعلتَ { أُولَئِكَ } مبتدأ مستقلا مع جملته، فالجملة مستأنفة استئنافا بيانيّا لبيان سبب انغماسهم في عذاب النار، لأنّه وعيد عظيم جدا.

{ **اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى** } المعنى: أنّ كل آية أخفوها أو أفسدوها بالتأويل فقد ارتفع مدلولها المقصود منها، وإذا ارتفع مدلولها نُسي العمل بها فأقدم النّاس على ما حذّرتهم منه، ففي كتمانهم حقٌّ رُفِع وباطلٌ وُضِع.

{ **وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ** } المعنى: أنّهم فعلوا ذلك الكتمان عن عمد وعلم بسوء عاقبته، فهم قد رضوا بالعذاب وإضاعة المغفرة، فكأنّهم استبدلوا بالمغفرة العذاب.

{ **فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ** } بُني التعجيب على تنزيل غير الواقع منزلة الواقع لشدّة استحضار السامع إيّاه بما وصف به من الصفات الماضية، وهذا من طُرق جعل المحقّق الحصول في المستقبل بمنزلة الحاصل، ومنه التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي، وتنزيل المتخيَّل منزلة الشاهد.

{ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالحقّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ } [176].

جيء باسم الإشارة لربط الكلام اللاحق بالسابق على طريقة العرب في أمثاله إذا طال الفصل بين الشيء وما ارتبط به من حكم أو علّة أو نحوهما، والكلام السابق الأظهر أنّه قوله { **فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ** } [175]، والمعنى أنّهم استحقّوا العذاب على كتمانهم بسبب أنّ الله أنزل الكتاب بالحقّ فكتمانهم شيئا من الكتاب كتمان للحقّ، وذلك فساد وتغيير لمراد الله. لأنّ ما يُكتم من الحقّ يخلفه الباطل.

ويجوز أن يكون المشار إليه السابق هو الكتمان المأخوذ من يكتمون، أي: كتموا ما كتموا بسبب أنّ الله نزّل الكتاب بالحقّ، فعلموا أنّه على النعت الذي بشّر الله به على لسان التوراة. والمعنى أنّهم كتموا دلائل صدق النبيّ حسدا وعنادا. لأنّ الله أنزل القرآن على محمد، فالكتاب هنا غير الكتاب في قوله { إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ } [174].

{ **وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ** } هم عين المراد من {الَّذِينَ يَكْتُمُونَ} و{الَّذِينَ اشْتَرَوُا}، فالموصولات كلّها على نسق واحد.

{ **فِي الْكِتَابِ** } هو القرآن، فيكون مراد بـ {***اخْتَلَفُوا***} على هذا الوجه، أنّهم اختلفوا مع الذين آمنوا منهم، أو اختلفوا فيما يصفون به القرآن من تكذيب به كلّه أو تكذيب مالا يوافق هواهم وتصديق ما يؤيد كتبهم. ويحتمل أنّ المراد من الكتاب التوراة .

{ **شِقَاقٍ بَعِيدٍ** } مجاز عقلي أي بعيد صاحبه عن الوفاق.

{ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ } [177].

متّصل بقوله تعالى { سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النّاس مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا } [142] وختام للمحاجّة في شأن تحويل القبلة، وما بين هذا وذلك كلّه اعتراض أُطنِب فيه وأُطيل لأخذ معانيه بعضها بحُجَز بعض.

فهذا إقبال على خطاب المؤمنين بمناسبة ذكر أحوال أهل الكتاب وحسدهم المؤمنين على اتّباع الإسلام مرادٌ منه تلقين المسلمين الحجّة على أهل الكتاب في تهويلهم على المسلمين إبطال القبلة التي كانوا يصلُّون إليها، ففي ذلك تعريض بأهل الكتاب.

البرّ: سعة الإحسان وشدّة المرضاة والخير الكامل الشامل، ولذلك توصف به الأفعال قويّة الإحسان فيقال: برّ الوالدين وبرّ الحجّ. والمراد به هنا برّ العبد ربّه بحسن المعاملة في تلقّي شرائعه وأوامره.
{ **قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ** } اقتصار على أشهر الجهات. ونفى البرّ عن استقبال الجهات، إمّا لأنّه من الوسائل لا من المقاصد، فلا ينبغي أن يكون الاشتغال به قصارى همّة المؤمنين، ولذلك أسقطه الله عن النّاس في حال العجز والنسيان وصلوات النوافل على الدابة في السفر، وإمّا لأنّ المنفيَّ عنه البر هو استقبال قبلتَي اليهود والنصارى، فقد تقدّم لنا أنّ ذلك الاستقبال غير مشروع في أصل دينهم ولكنّه شيء استحسنه أنبياؤهم ورهبانهم، ولذلك نفى البرّ عن تولية المشرق والمغرب تنبيها على ذلك.
{ **وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ** } فإنّ ذلك كلّه من أهمّ مقاصد الشريعة، وفيه جِماع صلاح النفس والجماعة. وتعريف { الْكِتَابِ } تعريف الجنس المفيد للاستغراق، أي: آمن بكتب الله مثل التوراة والإنجيل والقرآن.
{ **وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ...** } إلى آخر الآية، والمراد أنّه يعطي المال مع حبّه للمال وعدم زهادته فيه، فيدلّ على أنّه إنّما يعطيه مرضاة لله تعالى، ولذلك كان فعله هذا برّا.
وذكر أصنافا ممن يؤتَوْن المال، لأنّ إتيانهم المال ينجم عنه خيرات ومصالح:
ذوي القربى: أي: أصحاب قرابة المعطي.
اليتامى: وهم مظنّة الضعف.
السائلين: وهم الفقراء، كنّى عنهم بالسائلين لأنّ شأن المرء أن تمنعه نفسه من أن يسأل النّاس لغير حاجة غالبا، فالسؤال علامة الحاجة عموما.
ابن السبيل: وهو الغريب، أعني: الضيف في البوادي، إذ لم يكن في القبائل نزل أو خانات أو فنادق، ولم يكن السائر يستصحب معه المال وإنّما يحمل زاد يومه، ولذلك كان حقّ الضيافة فرضا على المسلمين، أي: في البوادي ونحوها.
وَفِي الرِّقَابِ: والمراد فداء الأسرى وعتق العبيد.
وَأَقَامَ الصَّلاةَ: لأنّها حقّ الله على العباد، والصلة التي بها النجاة في الدنيا والآخرة.
وَآتَى الزَّكَاةَ: وهي حقّ المال لأجل الغنى، ومصارفها مذكورة في آيتها.
الوفاء بالعهد: لما فيه من الثقة بالمعاهد، ومن كرم النفس، وكون الجِد والحقّ لها دُربة وسجية، وإنّما قيد بالظرف، وهو إذا عاهدوا، أي: وقت حصول العهد، فلا يتأخّر وفاؤهم طرفة عين، وفيه تنبيه على وجوب الاحتياط عند بذل العهد بحيث لا يعاهد حتّى يتحقّق أنّه يستطيع الوفاء.
الصابرين في البأساء: لما في الصبر من الخصائص التي ذكرناها عند قوله تعالى { وَاسْتَعِينُوا بِالصَبْرِ وَالصَلَاةِ } [45]، ثم ذكر مواقعه التي لا يعدوها وهي حالة الشدة، وحالة الضرّ، وحالة القتال.

فلله هذا الاستقراء البديع الذي يعجز عنه كل خطيب وحكيم غير العلّام الحكيم، وقد جمعت هذه الخصال جماع الفضائل الفردية والاجتماعية الناشئ عنها صلاح أفراد المجتمع، من أصول العقيدة وصالحات الأعمال.

فالإيمان وإقام الصلاة هما منبع الفضائل الفردية، والزكاة وإيتاء المال أصل نظام الجماعة صغيرها وكبيرها، والمواساة تقوى عنها الأخوّة والاتحاد وتسدّد مصالح للأمّة كثيرة، وببذل المال في الرقاب يتعزّز جانب الحريّة المطلوبة للشارع حتّى يصير النّاس كلّهم أحرارا، والوفاء بالعهد فيه فضيلة فرديّة وهي عنوان كمال النفس، وفضيلة اجتماعية وهي ثقة النّاس بعضهم ببعض، والصبر فيه جماع الفضائل وشجاعة الأمّة.

وقد دلّت الآية على أنّ المسلمين قد تحقّق فيهم معنى البرّ، وفيها تعريض بأنّ أهل الكتاب لم يتحقّق فيهم، لأنّهم لم يؤمنوا ببعض الملائكة وبعض النبيين، ولأنّهم حَرموا كثيرا من النّاس حقوقهم، ولم يفوا بالعهد، ولم يصبروا. وفيه أيضا تعريض بالمشركين إذ لم يؤمنوا باليوم الآخر والنبيين والكتاب، وسلبوا اليتامى أموالهم، ولم يقيموا الصلاة ولم يؤتوا الزكاة.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [178].

صنف من التشريع لأحكام ذات بال في صلاح المجتمع الإسلامي واستتباب نظامه وأمنه حين صار المسلمون بعد الهجرة جماعة ذات استقلال بنفسها ومدينتها، فإنّ هاته الآيات كانت من أوّل ما أُنزل بالمدينة عام الهجرة كما ذكره المفسّرون في سبب نزولها.

وقد أفرط العرب في إضاعة هذا الأصل، فقد بلغ بهم تطرّفهم في ذلك إلى وشك الفناء، فكانوا يغير بعضهم على بعض، وتتلف نفوس بين الفريقين ثم ينشأ عن ذلك طلب الثارات فيسعى كل من قُتل له قتيل في قتل قاتلزليّه وإن أعوزه ذلك قتل به غيره من واحد كفء له، أو عدد يراهم لا يوازونه ويسمّون ذلك بالتكايل في الدم، أي: كأن دم الشريف يكال بدماء كثيرة فربما قدروه باثنين أو بعشرة أو بمائة، وهكذا يدور الأمر ويتزايد تزايدا فاحشا حتّى يصير تفانيا. وينتقل الأمر من قبيلة إلى قبيلة بالولاء والنسب والحلف والنصرة، حتّى صارت الإحن فاشية فتخاذلوا بينهم واستنصر بعض القبائل على بعض، فوجد الفرس والروم مدخلا إلى التفرقة بينهم فحكموهم وأرهبوهم.

{ كُتِبَ عَلَيْكُمُ } أنّه حقّ لازم للأمّة لا محيد عن الأخذ به.

الكتابة: اصلها نقش الحروف في حجر أو رقش أو ثوب، ولمّا كان ذلك النقش يُراد به التوثّق لما نُقش به ودوام تذكّره أطلق (كُتب) على معنى حقَّ وثبُت، أي: حقَّ لأهل القتيل.

القصاص: اسم لتعويض حقّ جناية أو حقّ غُرم على أحد بمثل ذلك من عند المحقوق إنصافا وعدلا، فإطلاقاته كلّها تدلّ على التعادل والتناصف في الحقوق والتبعات.

{ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى** } يتحمَّل معنى الجزاء على القتل بالقتل للقاتل، وتتحمَّل معنى التعادل والتماثل في ذلك الجزاء بما هو كالعوض له والمثل، فلا يذهب حقّ قتيل باطلا ولا يقتل غير القاتل باطلا، وذلك إبطال لما كانوا عليه في الجاهلية من إهمال دم الوضيع إذا قتله الشريف وإهمال حقّ الضعيف إذا قتله القويّ الذي يُخشى قومه.

وقد ثبت بهذه الآية شرع القصاص في قتل العمد، وحكمة ذلك ردع أهل العدوان عند الإقدام على قتل الأنفس إذا علموا أنّ جزاءهم القتل، فإن الحياة أعزّ شئ على الإنسان في الجبلّة، فلا تعادلُ عقوبةٌ القتلَ في الردع والانزجار، ومن حكمة ذلك أيضا تطمين أولياء القتلى بأنّ القضاء ينتقم لهم ممن اعتدى على قتيلهم، أي: لئلا يتصدّى أولياء القتيل للانتقام من قاتل مولاهم بأنفسهم.

وأوّل دم أقيد به في الإسلام دم رجل من هذيل قتله رجل من بني ليث، فأقاد منه النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو سائر إلى فتح الطائف بموضع يقال له (بحرة الرغاء) في طريق الطائف، وذلك سنة (8هـ).

{ **الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى** } متعلّقة بمحذوف دلّ عليه معنى القصاص، والتقدير: الحرّ يُقتص أو يقتل بالحر... الخ. ومفهوم القيد مع ما في الحُرّ والعبد والأنثى من معنى الوصفية يقتضي أنّ الحُرّ يُقتل بالحرّ لا بغيره، والعبد يُقتل بالعبد لا بغيره، والأنثى تقتل بالأنثى لا بغيرها.

ففي الموطأ : أنّ القصاص يكون بين الإناث كما يكون بين الذكور والمرأة الحُرّة تُقتل بالمرأة الحُرّة كما يُقتل الحُرّ بالحُرّ، والأمَة تقتل بالأمَة، كما يقتل العبد بالعبد، والقصاص يكون بين النساء كما يكون بين الرجال، والقصاص أيضا يكون بين الرجال والنساء.

وخصّت الآية الأنثى بالذكر مع أنّها مشمولة لعموم الحرّ بالحرّ والعبد بالعبد، لئلاّ يُتوهّم أنّ صيغة التذكير مراد بها خصوص الذكور. يعني أنّ الآية لم يقصد منها إلاّ إبطال ما كان عليه أمر الجاهلية من ترك القصاص لشرف أو لقلة اكتراث، فقصدت التسوية بقوله { **الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ** }، أي: لا فضل لحُرّ شريف على حُرّ ضعيف ولا لعبيد السادة على عبيد العامة، وقصدت من ذكر الأنثى إبطال ما كان عليه الجاهلية من عدم الاعتداد بجناية الأنثى واعتبارها غير مؤاخذة بجناياتها.

{ **فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ** } هو وليّ المقتول، والمراد بـ {أَخِيهِ} هو القاتل وُصف بأنّه أخ تذكيرا بأخوّة الإسلام وترقيقا لنفس وليّ المقتول، لأنّه إذا اعتبر القاتل أخًا له كان من المروءة ألّا يرضى بالقود منه، لأنّه كمن رضي بقتل أخيه.

{ **شَيْءٌ** } هو عوض الصلح، والتعبير عن عوض الدم بشيء لأنّ العوض يختلف، فقد يُعرض على وليّ الدم مال من ذهب أو فضة وقد يُعرض عليه إبل أو عروض أو مقاصة دماء بين الحيين، إذ ليس العوض في قتل العمد معيّنا كما هو في ديّة قتل الخطأ.

وإطلاق وصف الأخ على المماثل في دين الإسلام تأسيس أصل جاء به القرآن جعل به التوافق في العقيدة كالتوافق في نسب الإخوة، وحقا فإن التوافق في الدين آصرة نفسانية والتوافق في النسب آصرة جسدية والروح أشرف من الجسد. واحتجّ ابن عباس بهذه الآية على الخوارج في أنّ المعصية لا تزيل الإيمان، لأنّ الله سمَّى القاتل أخا لولي الدم، وتلك أخوة الإسلام مع كون القاتل عاصيا.

الاتباع: مستعمل في القبول و الرضا، أي: فليرضى بما بُذل له من الصلح المتيسّر، وليؤد باذل الصلح ما بذله دون مماطلة ولا نقص. ومقصد الآية الترغيب في الرضا بأخذ العوض عن دم القتيل بدلا من القصاص لتغيير ما كان أهل الجاهلية يتعيّرون به من أخذ الصلح في قتل العمد ويعدّونه بيعا لدم مولاهم. وهذا كلّه في العفو على قتل العمد وأما قتل الخطأ فإنّ شأنه الديّة عن عاقلة القاتل وسيأتي في سورة النساء.

{ **بِالْمَعْرُوفِ** } المعروف هو الذي تألفه النفوس وتستحسنه فهو مما تسرّ به النفوس ولا تشمئز منه ولا تنكره، ويقال لضده منكر.

{ **ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ** } إشارة إلى الحكم المذكور، وهو قبول العفو وإحسان الأداء والعدول عن القصاص، تخفيف من الله على النّاس، فهو رحمة منه، أي: أثر رحمته، فالأخذ بالقصاص عدل والأخذ بالعفو رحمة.

قيل: إنّ الآية أشارت إلى ما كان في الشريعة الإسرائيلية من تعيين القصاص من قاتل العمد دون العفو ودون الديّة، كما ذكره كثير من المفسّرين، وهو في صحيح البخاري عن ابن عباس، وهو ظاهر ما في سفر الخروج الإصحاح الثالث " من ضرب إنسانًا فمات يُقتل قتلا، ولكن الذي لم يتعمّد بل أوقع الله في يده فأنا أجعل لك مكانا يهرب إليه ".

{ **فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ** } فإن عاد فله عذاب أليم، وقد فسّر الجمهور العذاب الأليم بعذاب الدنيا، فقالوا إن عاد المعفو عنه إلى القتل مرّة أخرى فلا بد من قتله ولا يمكِّن الحاكم الوليّ من العفو، ونقلوا ذلك عن قتادة وعكرمة والسدي، ورواه أبو داود عن سمرة بن جندب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، ورُوي عن عمر بن عبد العزيز أنّه موكول إلى اجتهاد الإمام. غير أنّ هذا لا يمنع حكم العفو إن رضي به الوليّ، لأنّ الحقّ حقّه. وهذا موضع نظر في الفقه دقيق.

{ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [179].

تذييل لهاته الأحكام الكبرى طمأن به نفوس الفريقين؛ أولياء الدم والقاتلين في قَبول أحكام القصاص، فبيّن أنّ في القصاص حياة، أي: في القصاص حياة لكم، أي: لنفوسكم، فإنّ فيه ارتداع النّاس عن قتل النفوس، فلو أهمل حكم القصاص لما ارتدع النّاس، لأنّ أشد ما تتوقّاه نفوس البشر من الحوادث هو الموت، فلو علم القاتل أنّه يسلم من الموت لأقدم على القتل مستخفّا بالعقوبات، ولو ترك الأمر للأخذ بالثأر كما كان عليه في الجاهلية لأفرطوا في القتل وتسلسل الأمر كما تقدّم، فكان في مشروعيّة القصاص حياة عظيمة من الجانبين. وليس الترغيب في أخذ مال الصلح والعفو بناقض لحكمة القصاص، لأنّ الازدجار يحصل بتخيير الوليّ في قبول الديّة فلا يطمئنّ مضمر القتل إلى عفو الوليّ إلا نادرا، وكفى بهذا في الازدجار.

{ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ } تنبيه بحرف النداء على التأمّل في حكمة التي لا يدركها إلّا أهل النظر الصحيح؛ إذ هو في بادئ الرأي كأنّه عقوبة بمثل الجناية، لكنّه عند التأمّل هو حياة لا رزية، للوجهين المتقدمين.

{ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } لعلّ للرجاء. عسى أن تتقوا فلا تتجاوزوا في أخذ الثأر حدّ العدل والإنصاف.

{ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ } [180].

استئناف ابتدائي لبيان حكم المال بعد موت، ومناسبة ذكره أنّه تغيير لما كانوا عليه في أوّل الإسلام من بقايا عوائد الجاهلية في أموال الأموات، فإنّهم كانوا كثيرا ما يمنعون القريب من الإرث بتوهّم أنّه يتمنّى موت قريبه ليرثه، وربما فضلّوا بعض الأقارب على بعض، ولمّا كان هذا ممّا يفضي بهم إلى الإحن، كان تغييرها إلى حال العدل فيها من أهمّ مقاصد الإسلام، كما بيّنّا تفصيله فيما تقدّم في آية { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى }، أمّا مناسبة ذكره عقب حكم القصاص فهو جريان ذكر موت القتيل وموت القاتل قصاصا.

{ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ } حضور أسبابه وعلاماته الدالة.

{ إِنْ تَرَكَ خَيْراً } وعبّر بالفعل الماضي عن معنى المستقبل، للتنبيه على اقتراب المستقبل من الماضي إذا أوشك أن يصير ماضيا، والمعنى: إن أوشك أن يترك خيرا أو شارف أن يترك خيرا.

الخير: المال، وقيل: الكثير منه. والجمهور على أنّ الوصيّة مشروعة في المال قليله وكثيره. ورُوي عن علي وعائشة وابن عباس: " أنّ الوصيّة لا تجب إلّا في المال الكثير ".

كانت عادة العرب في الجاهلية أنّ الميّت إذا كان له ولد أو أولاد ذكور استأثروا بماله كلّه، وإن لم يكن له ولد ذكر استأثر بماله أقرب الذكور له من أب أو عم أو ابن عم الأدنين فالأدنين، وكان صاحب المال

ربّما أوصى ببعض ماله أو بجميعه لبعض أولاده أو قرابته أو أصدقائه، فلمّا استقر المسلمون بدار الهجرة واختصّوا بجماعتهم شرع الله لهم تشريك بعض القرابة في أموالهم ممّن كانوا قد يُهملون توريثه من البنات والأخوات والوالدين في حال وجود البنين، ولذلك لم يذكر الأبناء في هذه الآية.

الوصيّة: فعيلة من وصَّى فهي الأمر بفعل شيء أو تركه ممّا فيه نفع للمأمور أو للآمر، في مغيب الآمر في حياته أو فيما بعد موته، وشاع إطلاقها على أمر بشيء يصلح بعد موت الموصي، وفي حديث العرباض بن سارية قال: " وعظنا رسول الله موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون فقلنا يا رسول الله كأنّها موعظة مودِّع فأوصنا ".

{ **لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ** } وخصّ الوالدين والأقربين لأنّهم مظنّة النسيان من الموصي، لأنّهم كانوا يورّثون الأولاد أو يوصون لسادة القبيلة. وقدّم الوالدين للدلالة على أنّهما أرجح في التبدية بالوصية، وكانوا قد يوصون بإيثار بعض أولادهم على بعض أو يوصون بكيفية توزيع أموالهم على أولادهم، وقد قيل إنّ العرب كانوا يوصون للأباعد طلبا للفخر ويتركون الأقربين في الفقر.

{ **الْمَعْرُوفِ** } الفعل الذي تألفه العقول ولا تنكره النفوس، فهو الشيء المحبوب المُرضي، سمِّي معروفا لأنّه لكثرة تداوله والتأنّس به صار معروفا بين النّاس، وضدّه يسمّى المنكر. والمراد هنا العدل الذي لا مضارة فيه ولا يحدث منه تحاسد بين الأقارب، بأن ينظر الموصي في ترجيح من هو الأولى بأن يوصي إليه، لقوة قرابة أو شدّة حاجة، فإنّه إن توخّى ذلك استحسن فعله النّاس ولم يلوموه.

ومن المعروف في الوصيّة ألّا تكون للإضرار بوارث أو زوج أو قريب.

وقد شمل قوله { بِالْمَعْرُوفِ } تقدير ما يوصى به وتمييز من يوصى له ووكل ذلك إلى نظر الموصي فهو مؤتمن على ترجيح من هو أهل للترجيح في العطاء، كما أشار إليه قوله تعالى { عَلَى الْمُتَّقِينَ }.

{ **حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ** } قال ابن عطية خصّ المتقون بالذكر تشريفا للرتبة ليتبارى النّاس إليها.

وهذه الآية صريحة في إيجاب الوصيّة، ثمّ إنّ آية المواريث التي في سورة النساء نسخت هذه الآية نسخا مجملا فبيّنت ميراث كلّ قريب معيّن فلم يبق حقّه موقوفا على إيصاء الميّت له بل صار حقّه ثابتا معيّنا رضي الميّت أم كره. فيكون تقرّر حكم الوصيّة في أوّل الأمر استئناسا لمشروعيّة فرائض الميراث، ولذلك صدَّر الله تعالى آية الفرائض بقوله { يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ }[النساء:11] فجعلها وصية نفسه سبحانه، إبطالا للمنّة التي كانت للموصي.

وبالفرائض نُسخ وجوب الوصيّة الذي اقتضته هذه الآية وبقيت الوصيّة مندوبة، بناء على أنّ الوجوب إذا نسخ بقي الندب، وإلى هذا ذهب جمهور أهل النظر من العلماء كالحسن وقتادة والنخعي والشعبي ومالك وأبو حنيفة والأوزاعي والشافعي وأحمد.

وففي البخاري في تفسير سورة النساء عن جابر بن عبد الله قال: عادني النبيّ وأبو بكر في بني سلمة ماشيين فوجدني النبيّ لا أعقل فدعا بماء فتوضأ منه ثم رش عليّ فأفقت فقلت: ما تأمرني أن أصنع في مالي يا رسول الله؟ فنزلت { يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ } ".

وفي البخاري عن ابن عباس: كان المال للولد وكانت الوصية للوالدين فنسخ الله من ذلك ما أحبّ.

وقد اتفق علماء الإسلام على أنّ الوصيّة لا تكون لوارث لما رواه أصحاب السنن عن عمر بن خارجة وما رواه أبو داود والترمذي عن أبي أمامة كلاهما يقول: سنعت النبيّ صلى الله عليه وسلّم قال: " إنّ الله أعطى كلّ ذي حقّ حقّه، ألا لا وصيّة لوارث"، وذلك في حجّة الوداع.

والجمهور على أنّ الوصيّة بأكثر من الثلث باطلة، للحديث المشهور عن سعد بن أبي وقاص أنّه مرض فعاده النبيّ صلى الله عليه وسلم فاستأذنه في أن يوصي بجميع ماله فمنعه إلى أن قال له: **" الثلث والثلث كثير إنّك أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكفّفون النّاس ".**

واختلف في إمضائها للوارث إذا أجازها بقية الورثة، ومذهب العلماء من أهل الأمصار أنّها إذا أجازها الوارث مضت.

هذا وقد اتفق المسلمون على أنّ الله تعالى عيّن كيفية قسمة تركة الميّت بآية المواريث، وإن آية الوصيّة المذكورة هنا صارت بعد ذلك غير مراد منها ظاهرها.

{ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [181].

المعنى: فمن بدلّ الوصيّة الواقعة بالمعروف، لأنّ الإثم في تبديل المعروف.

التبديل: هنا الإبطال أو النقض.

{ **مَنْ بَدَّلَهُ** } هو الذي بيده تنفيذ الوصيّة من خاصة الورثة كالأبناء، ومن الشهود عليها بإشهاد من الموصي أو بحضور موطن الوصيّة كما في الوصيّة في السفر. فالتبديل مستعمل في معناه المجازي.

{ **بَعْدَ مَا سَمِعَهُ** } التقييد لتعليل الوعيد، أي: لأنّه بدّل ما سمعه وتحقّقه.

{ **فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ** } وإنّما انتفى الإثم عن الموصي لأنّه استبرأ لنفسه حين أوصى بالمعروف، فلا وزر عليه في مخالفة النّاس بعده لما أوصى به. والمقصود من هذا القصر إبطال تعلّل بعض النّاس بترك الوصيّة بعلّة خيفة ألّا ينفّذها الموكول إليهم تنفيذها.

{ **إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** } وعيد للمبدّل، لأنّ الله لا يخفى عليه شيء.

{ فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [182].

تفريع على الحكم الذي تقدّمه وهو تحريم التبديل، فكما تفرّع عن الأمر بالعدل في الوصيّة وعيد المبدّل

لها، وتفرّع عن وعيد المبدِّل الإذن في تبديلٍ هو من المعروف، وهو تبديل الوصيّة التي فيها جور وحيف بطريقة الإصلاح بين الموصى لهم وبين من ناله الحيف من تلك الوصية بأن كان جديرا بالإيصاء إليه فتركه الموصي، أو كان جديرا بمقدار فأجحف به الموصي، لأنّ آية الوصيّة حصرت قسمة تركة الميّت في اتباع وصيّته وجعلت ذلك موكولا إلى أمانته بالمعروف، فإذا حاف حيفا واضحا وجنف عن المعروف أمر ولّاة الأمور بالصلح.

{ **فَمَنْ خَافَ** } هنا الظنّ والتوقّع، لأنّ ظنّ المكروه خوف.

الجنف: الحيف والميل والجور.

الإثم: المعصية، والمراد بالإثم ما كان قصد الموصي به حرمان من يستحق أو تفضيل غيره عليه.

{ **فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ** } والإصلاح جعل الشيء صالحا، ولذلك يطلق على الدخول بين الخصمين بالمراضاة. والضمير المجرور بـ (بين) عائد إلى الموصي والموصى لهم.

{ **فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ** } أنّه لا يلحقه حرج من تغيير الوصيّة، لأنّه تغيير إلى ما فيه خير.

والمعنى: أنّ من وجد في وصيّة الموصي إضرارا ببعض أقربائه، بأن حرمه من وصيّته أو قدّم عليه من هو أبعد نسبا، أو أوصى إلى غني من أقربائه وترك فقيرهم، أو حدث شقاق بين الأقربين بعد موت الموصي لأنّه آثر بعضهم، فسعى في إصلاح ذلك وطلب من الموصي تبديل وصيّته، فلا إثم عليه.

{ **إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } تنويه بالمحافظة على تنفيذ وصايا الموصين حتّى جعل تغيير جورهم محتاجا للإذن من الله تعالى، والتنصيص على أنّه مغفور.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ [183] أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ [184] }.

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ** }

حكم الصيام حكم عظيم من الأحكام التي شرعها الله تعالى للأمّة، وهو من العبادات الرامية إلى تزكية النفس ورياضتها، وفي ذلك صلاح حال الأفراد فردا فردا، إذ منها يتكوّن المجتمع.

{ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ** } القول في معناه ودلالته على الوجوب تقدّم آنفا.

الصيام: ويقال **الصوم**، هو في اصطلاح الشرع اسم لترك جميع الأكل وجميع الشرب وقربان النساء مدّة مقدّرة بالشرع بنيّة الامتثال لأمر الله أو لقصد التقرّب بنذر للتقرّب إلى الله.

فلا يطلق الصيام حقيقة في اللغة إلّا على ترك كلّ طعام وشراب، وأُلحق به في الإسلام ترك قربان كلّ النساء، فلو ترك أحد بعض أصناف المأكول أو بعض النساء لم يكن صياما.

والظاهر أنّ اسم الصوم في اللغة حقيقة في ترك الأكل والمشرب بقصد القربة، فقد عرف العرب الصوم في الجاهلية من اليهود في صومهم يوم عاشوراء كما سنذكره. وقول الفقهاء إنّ **الصوم في اللغة مطلق الإمساك** وإنّ إطلاقه على الإمساك عن الشهوتين اصطلاح شرعي، **لا يصح،** لأنّه مخالف لأقوال أهل اللغة كما في (الأساس) وغيره.

وأمّا إطلاق الصوم على ترك الكلام في قوله تعالى { فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً } [مريم:26]، فليس إطلاقا للصوم على ترك الكلام، ولكن المراد أنّ الصوم كان يتبعه ترك الكلام على وجه الكمال والفضل.

فالتعريف في الصيام في الآية تعريف العهد الذهني، أي كتب عليكم جنس الصيام المعروف، وقد كان العرب يعرفون الصوم، فقد جاء في الصحيحين عن عائشة قالت: " كان يوم عاشوراء يوما تصومه قريش في الجاهلية "، وفي بعض الروايات قولها: " وكان رسول الله يصومه ".

وعن ابن عباس: " لمّا هاجر رسول الله إلى المدينة وجد اليهود يصومون في يوم عاشوراء، فقال: **ما هذا؟** فقالوا: يوم نجّى الله فيه موسى، فنحن نصومه فقال رسول الله: **" نحن أحقّ بموسى منكم"** فصامه وأمر بصومه ".

وفي حديث عائشة: " فلمّا نزل رمضان كان رمضان الفريضة، وقال رسول الله: **من شاء صام يوم عاشوراء ومن شاء لم يصمه** "، فوجب صوم يوم عاشوراء بالسنّة ثم نسخ ذلك بالقرآن، فالمأمور به صوم معروف زيدت في كيفيّته المعتبرة شرعا قيود تحديد أحواله وأوقاته.

{ **كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ** } تشبيه في أصل فرض ماهية الصوم. وليس المقصود من هذا التشبيه صفة الصوم على ما كان عليه عند الأمم السابقة، ولكن فيه أغراضا ثلاثة تضمّنها التشبيه:

الغرض الأوّل: الاهتمام بهذه العبادة والتنويه بها لأنّها شرعها الله قبل السلام، وذلك يقتضي اطّراد صلاحها ووفرة ثوابها، وإنهاض همم المسلمين لتلقّي هذه العبادة كي لا يتميّز بها من كان قبلهم.

الغرض الثاني: أنّ في التشبيه بالسابقين تهوينا على المكلّفين بهذه العبادة أن يستثقلوها، فإنّ في الاقتداء بالغير أُسوة في المصاعب، فهذه فائدة لمن قد يستعظم الصوم من المشركين فيمنعه من الإيمان، ولمن يستثقله من قريبي العهد بالإسلام، وقد أكّد هذا المعنى الضمني قوله بعده { أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ }.

الغرض الثالث: إثارة العزائم للقيام بهذه الفريضة حتّى لا يكونوا مقصّرين في قبول هذا الفرض، بل ليأخذوه بقوّة تفوق ما أدى به الأمم السابقة.

وفي الصحيح أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم صام تسع رمضانات، فلاشك أنّه صام أوّل رمضان في العام الثاني من الهجرة، ويكون صوم عاشوراء قد فُرض عاما فقط، وهو أوّل العام الثاني من الهجرة.

صوم اليهود: كان لليهود صوم فرضه الله عليهم وهو صوم اليوم العاشر من الشهر السابع من سنتهم وهو الشهر المسمَّى عندهم (تِسْرِي) يبتدئ الصوم من غروب اليوم التاسع إلى غروب اليوم العاشر، وهو يوم كفارة الخطايا ويسمُّونه (كَبُّور). ثمّ إنّ أحبارهم شرعوا صوم أربعة أيام أخرى وهي اليوم الأول من الأشهر الرابع والخامس والسابع والعاشر من سنتهم، تذكارا لوقائع بيت المقدس، وصوم يوم (بُوريم) تذكارا لنجاتهم من غضب ملك الأعاجم (أحشويروش) في واقعة (استير).

وعندهم صوم التطوع. وفي الحديث: " **أحبّ الصيام إلى الله صيام داود كان يصوم يوما ويفطر يوما** ".

صوم النصارى: ليس في شريعتهم نصّ على تشريع صوم زائد على ما في التوراة، فكانوا يتبعون صوم اليهود. ثم إنّ رهبانهم شرعوا صوم أربعين يوما اقتداء بالمسيح، إذ صام أربعين يومّا قبل بعثته.

ويشرع عندهم نذر الصوم عند التوبة وغيرها. إلاّ أنّهم يتوسّعون في صفة الصوم، فهو عندهم ترك الأقوات القويّة والمشروبات، أو هو تناول طعام واحد في اليوم يجوز أن تلحقه أكلة خفيفة.

{ **لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** } بيان لحكمة الصيام وما لأجله شرع، فهو في قوة المفعول لأجله لـ (كتب).

التقوى الشرعية: هي اتقاء المعاصي، وإنّما كان الصيام موجبا لاتقاء المعاصي، لأن المعاصي قسمان:

قسم ينجع في تركه التفكّر كالخمر والميسر والسرقة والغصب، فتركه يحصل بالوعد على تركه والوعيد على فعله والموعظة بأحوال الغير.

قسم ينشأ من دواع طبيعيّة كالأمور الناشئة عن الغضب وعن الشهوة الطبيعية التي قد يصعب تركها بمجرّد التفكر، فجُعل الصيام وسيلة لاتقائها، لأنّه يعدّل القوى الطبيعية التي هي داعية تلك المعاصي، ليرتقي المسلم به عن حضيض الانغماس في المادة إلى أوجّ العالم الروحاني، فهو وسيلة للارتياض بالصفات المَلَكية والانتفاض من غبار الكدرات الحيوانيّة.

وفي الحديث الصحيح: " **الصوم جُنّة** "، أي: وقاية من الوقوع في المآثم ووقاية من الوقوع في عذاب الآخرة، ووقاية من العلل والأدواء الناشئة عن الإفراط في تناول اللذّات.

{ **أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ** } ظرف للصيام ، شهر رمضان عند جمهور المفسّرين، وإنّما عبّر عن رمضان بأيام وهي جمع قلة، ووصفت بمعدودات وهي جمع قلة أيضا، تهوينا لأمر الصيام على المكلّفين.

{ **فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ** } تعقيب لحكم العزيمة بحكم الرخصة، تعجيل بتطمين نفوس السامعين لئلّا يظنّوا وجوب الصوم عليهم في كلّ حال. وقد اختلف الفقهاء في تحديد المرض الموجب للفطر:

فأمّا المرض الغالب الذي لا يستطيع المريض معه الصوم بحال بحيث يخشى الهلاك أو مقاربته فلا خلاف بينهم في أنّه مبيح للفطر بل يوجب الفطر.

وأمّا المرض الذي دون ذلك فقد اختلفوا في مقداره ، فذهب محققو الفقهاء إلى أنّه المرض الذي تحصل به مع الصيام مشقّة زائدة على مشقة الصوم الصحيح من الجوع والعطش المعتادين، بحيث يسبّب له

أوجاعا أو ضعفا منهكا، أو تعاوده به أمراض ساكنة، أو يزيد في انحرافه إلى حدّ المرض، أو يخاف تمادي المرض بسببه. وهذا قول مالك وأبي حنيفة والشافعي على تفاوت بينهم في التعبير، وأعدل العبارات ما نقل من مالك، لأنّ الله أطلق المرض ولم يقيّده.

{ **أَوْ عَلَى سَفَرٍ** } أي: أو كان بحالة السفر.على أنّ المسافر لا يفطر حتّى يأخذ في السير في السفر دون مجرّد النيّة، والمسألة مختلف فيها، قال جماعة إذا أصبح مقيما ثم سافر بعد ذلك فلا يفطر يومه ذلك، وهو قول الزهري، ومالك والشافعي والأوزاعي وأبي حنيفة وأبي ثور، فإن أفطر فعليه القضاء دون الكفارة، وبالغ بعض المالكية فقال عليه الكفارة. وقال أحمد وإسحاق والشعبي يفطر إذا سافر بعد الصبح ورووه عن ابن عمر، وهو الصحيح الذي يشهد له حديث ابن عباس في البخاري ومسلم : " خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى مكّة، فصام حتّى بلغ عسفان ثم دعا بماء فرفعه إلى يديه ليريَه فأفطر حتّى قدم مكة "، قال القرطبي: وهذا نصّ في الباب فسقط ما يخالفه.

{ **فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ** } تنصيص على وجوب صوم أيّام بعدد أيام الفطر في المرض والسفر.

ولم تبيّن الآية صفة قضاء صوم رمضان، أتكون متتابعة أم يجوز تفريقها، ولا وجوب المبادرة بها أو جواز تأخيرها، ولا وجوب الكفّارة على الفطر متعمّدا في بعض أيام القضاء، ويتجاذب النظر في هذه الثلاثة دليلُ التمسك بالإطلاق لعدم وجود ما يقيّده كما يُتمسّك بالعام إذا لم يظهر المخصّص، ودليلُ أنّ الأصل في قضاء العبادة أن يكون على صفة العبادة المقضية.

<u>فأمّا حكم تتابع أيام القضاء</u>، فروى الدارقطني بسند صحيح قالت عائشة: نزلت (فعدّة من أيّام أخر متتابعات) فسقطت متتابعات "، تريد نُسخت، وهو قول الأئمة الأربعة، وبه قال من الصحابة أبو هريرة وأبو عبيدة ومعاذ بن جبل وابن عباس، وتلك رخصة من الله، ولأجل التنبيه عليها أطلق قوله { مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ } ولم يقيّد بالتتابع كما قال في كفارة الظهار وفي كفّارة قتل الخطأ.

فلذلك ألغى الجمهور إعمال قاعدة جريان قضاء العبادة على صفة المقضي، ولم يقيّدوا مطلق آية قضاء الصوم بما قُيّدت به آية كفّارة الظهار وكفّارة قتل الخطأ.

<u>وأمّا المبادرة بالقضاء</u>، فليس في الكتاب ولا في السنّة ما يقتضيها، وأصل الأمر لا يقتضي الفور. ومضت السنّة على أنّ قضاء رمضان لا يجب فيه الفور بل هو موسّع إلى شهر شعبان من السنة الموالية للشهر الذي أفطر فيه، وفي الصحيح عن عائشة قالت: يكون عليّ الصوم من رمضان فما أستطيع أن أقضيه إلّا في شعبان ". وهذا واضح الدلالة على عدم وجوب الفور، وبذلك قال جمهور العلماء وشذّ داود الظاهري فقال: يشرع في قضاء رمضان ثاني يوم شوال المعاقب له.

<u>وأمّا من أفطر متعمّدا في يوم من أيام قضاء رمضان</u>، فالجمهور على أنّه لا كفارة عليه، لأنّ الكفّارة شُرعت حفظا لحرمة شهر رمضان وليس لأيام القضاء حرمة. وقال قتادة: تجب عليه الكفّارة بناء على

أنّ قضاء العبادة يساوي أصله.

{ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ } أي :وكتب على الذين يطيقونه فدية.

المطيق: هو الذي أطاق الفعل أي كان في طوقه أن يفعله، ولذلك يقولون فيما فوق الطاقة هذا ما لا يطاق. وفسّرها الفراء بالجَهد (بفتح الجيم) وهو المشقة. وقيل: الطاقة القدرة مطلقا.

فعلى تفسير الإطاقة بالجهد، فالآية مراد منها الرخصة على من تشتد به مشقّة الصوم في الإفطار والفدية وقد سمُّوا من هؤلاء الشيخ الهرم والمرأة المرضع والحامل، فهؤلاء يفطرون ويطعمون عن كلّ يوم يفطرونه، وهذا قول ابن عباس وأنس بن مالك والحسن البصري وإبراهيم النخعي، وهو مذهب مالك والشافعي. ثم من استطاع منهم القضاء قضى ومن لم يستطعه لم يقض مثل الهرم.

ووافق أبو حنيفة في الفطر، إلاّ أنّه لم ير الفدية إلاّ على الهرم لأنّه لا يقضي بخلاف الحامل والمرضع. ومرجع الاختلاف إلى أنّ قوله تعالى { وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ } هل هي لأجل الفطر أم لأجل سقوط القضاء؟ والآية تحتملهما، إلاّ أنّها في الأوّل أظهر، ويؤيد ذلك فعل السلف، فقد كان أنس بن مالك حين هرم وبلغ عشرا بعد المائة يفطر ويطعم لكل يوم مسكينا خبزا ولحما.

وعلى تفسير الطاقة بالقدرة، فالآية تدلّ على أنّ الذي يقدر على الصوم له أن يعوّضه بالإطعام، ولمّا كان هذا الحكم غير مستمر بالإجماع قالوا في حمل الآية عليه: إنّها حينئذ تضمّنت حكما بأنّ فيه توسعة ورخصة ثم انعقد الإجماع على نسخه. وذكر أهل النّاسخ والمنسوخ أنّ ذلك فُرض في أوّل الإسلام لمّا شقّ عليهم الصوم ثم نسخ بقوله تعالى { فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ }، وفي البخاري عن ابن أبي ليلى قال: حدثنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم: " نزل رمضان فشقّ عليهم فكان من أطعم كلّ يوم مسكينا ترك الصوم ممّن يطيقه، ورخّص لهم في ذلك فنسختها { وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ } ".

ورويت في ذلك آثار كثيرة عن التابعين، وهو الأقرب من عادة الشارع في تدرّج تشريع التكاليف التي فيها مشقّة على النّاس من تغيير معتادهم، كما تدرّج في تشريع منع الخمر.

ونُلحق بالهرم والمرضع والحامل كلّ من تلحقه مشقّة أو توقّع ضرّ مثلهم، وذلك يختلف باختلاف الأمزجة واختلاف أزمان الصوم من اعتدال أو شدّة برد أو حرّ، وباختلاف أعمال الصائم التي يعملها.

الإطعام: هو ما يُشبع عادة من الطعام المتغذّى به في البلد، وقدره فقهاء المدينة **(مُدًّا)** بمُدّ النبيّ صلى الله عليه وسلم من بُر أو شعير أو تمر.

{ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ }

التطوع: السعي من تلقاء نفسه. فيحتمل أن يكون المراد: فمن زاد على إطعام مسكين واحد فهو خير، وهذا قول ابن عباس، أو أن يكون من أراد الإطعام مع الصيام، قاله ابن شهاب. وقد أطعم أنس بن مالك خبزا ولحما عن كل يوم أفطره حين شاخ.

{ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } الظاهر رجوعه لقوله { وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ } فإن كان

قوله ذلك نازلا في إباحة الفطر للقادر فقوله { وَأَنْ تَصُومُوا } ترغيب في الصوم وتأنيس به، وإن كان نازلا في إباحته لصاحب المشقة كالهرم فكذلك.

ويحتمل أن يرجع إلى قوله { وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً } وما بعده، فيكون تفضيلا للصوم على الفطر، إلّا أنّ هذا في السفر مختلف فيه بين الأئمة، ومذهب مالك رحمة الله أنّ الصوم أفضل من الفطر، وأمّا في المرض ففيه تفصيل بحسب شدّة المرض.

{ **إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** } أي إن كنتم تعلمون فوائد الصوم دنيا وثوابه أخرى.

{ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [185].

{ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ }

الشهر: يبتدئ من ظهور الهلال إلى المحاق ثم ظهور الهلال مرّة أخرى، وهو مشتقّ من الشهرة لأنّ الهلال يظهر لهم فيُشهرونه ليراه النّاس فيثبت الشهر عندهم.

رمضان: عَلَم وليس منقولا، إذ لم يُسمع مصدر على وزن الفعلان. من رمِض (بكسر الميم) إذا احترق. ومن الرمضاء وهي الحرارة. وهو عَلَم على الشهر التاسع من أشهر السنة العربية القمرية المفتتحة بالمحرَّم، فقد كان العرب يفتتحون أشهر العام بالمحرّم لأنّ نهاية العام عندهم هي انقضاء الحجّ ومدة الرجوع إلى آفاقهم.

وإنّما أضيف الشهر إلى رمضان للدلالة على استيعاب جميع أيّامه بالصوم، لأنّه لو قال رمضان لكان ظاهرا لا نصّا، فيتوهّم السامعون أنّها أيام من رمضان. فالمعنى أن الجزء المعروف بشهر رمضان من السنة العربية القمرية هو الذي جُعل ظرفا لأداء فريضة الصيام المكتوبة في الدّين.

{ **الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ** } الكلام تذكيرا بهذا الفضل العظيم، ويجوز أيضا أن يكون إعلاما بهذا الفضل. والمراد بإنزال القرآن ابتداء إنزاله على النبيّ صلى الله عليه وسلم، فإنّ فيه ابتداء النزول من عام واحد وأربعين من الفيل، فعبّر عن إنزال أوّله باسم جميعه.

جعل الله للمواقيت المحدودة اعتبارا يشبه اعتبار الشيء الواحد المتجدّد، وإنّما هذا اعتبار للتذكير بالأيام عظيمة المقدار، فخلع الله على المواقيت التي قارنها شيء عظيم في الفضل أنّ جعل لتلك المواقيت فضلا مستمرّا تنويها بكونها تذكرة لأمر عظيم، ولعلّ هذا هو الذي جعل الله لأجله سنّة الهدي في الحجّ، لأن في مثل ذلك الوقت ابتلى الله إبراهيم بذبح ولده إسماعيل وأظهر عزم إبراهيم وطاعته ربّه، وذلك

المقصد هو الذي أخذ منه العلماء تعظيم اليوم الموافق ليوم ولادة النبيّ صلى الله عليه وسلم.
واختير شهر رمضان من بين الأشهر لأنّه قد شرُف بنزول القرآن فيه، فإنّ نزول القرآن لمّا كان لقصد تنزيه الأمّة وهداها ناسب أن يكون ما به تطهير النفوس، والأغلب على ظنّي أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يصوم أيّام تحنّثه في غار حراء قبل أن ينزل عليه الوحي إلهاما من الله تعالى وتلقينا لبقية من الملة الحنفيّة، فلما أنزل عليه الوحي في شهر رمضان أمر الله الأمّة الإسلامية بالصوم في ذلك الشهر.
روى ابن إسحاق أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **" جاورت بِحِراء شهر رمضان "** .
وقال ابن سعد جاء الوحي وهو في غار حراء يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من رمضان.
{ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ }
هُدىً لِلنَّاسِ: ما في القرآن من الإرشاد إلى المصالح العامة والخاصة التي لا تنافي العادة.
بَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى: ما في القرآن من الاستدلال على الهدى الخفي الذي ينكره كثير من النّاس مثل أدلّة التوحيد وصدق الرسول، وغير ذلك من الحجج القرآنية.
الفرقان: مصدر فرق، وقد شاع في الفَرْق بين الحقّ والباطل، أي: إعلان التفرقة بين الحقّ الذي جاءهم من الله وبين الباطل الذي كانوا عليه قبل الإسلام.
{ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ } رجوع إلى ما حفّ الله به فرضه على الأمّة من تيسير عند حصول مشقّة من الصيام. أي: كلّ من حضر الشهر فليصمه، يقال: إن فلانا شهد بدرا، أي: حضرها. ويجوز أن يكون شهد بمعنى علم بحلول الشهر.
وليس شهد بمعنى رأى، وإنّما يقال: شاهد، و{ الشَّهْرَ } هنا بمعنى: هلاله. ومن يفهم الآية على ذلك فقد أخطأ خطأ بيّنا وهو يفضي إلى أنّ كل فرد من الأمّة معلّق وجوب صومه على مشاهدته هلال رمضان، فمن لم ير الهلال لا يجب عليه الصوم وهذا باطل، ولهذا فليس في الآية تصريح على طريق ثبوت الشهر وإنّما بيّنته السنّة بحديث: **" لا تصوموا حتّى تروا الهلال ولا تفطروا حتّى تروه فإن غُمّ عليكم فاقدروا له "**.
{ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ } قالوا في وجه إعادته مع تقدّم نظيره إنّه لمّا كان صوم رمضان واجبا على التخيير بينه وبين الفدية بالإطعام بالآية الأول، وقد سقط الوجوب عن المريض والمسافر بنصّها فلمّا نُسخ حكم تلك الآية بقوله { شَهْرُ رَمَضَانَ } وصار الصوم واجبا على التعيين خيف أن يظنّ النّاس أنّ جميع ما كان في الآية الأولى من الرخصة قد نسخ فوجب الصوم أيضا حتّى على المريض والمسافر فأعيد ذلك في هذه الآية النّاسخة تصريحا ببقاء تلك الرخصة، ونسخت رخصة الإطعام مع القدرة والحصر والصحة لا غير.
فإن درجنا على أنّهما نزلتا في وقت واحد كان الوجه في إعادة هذا الحكم هو أنّ هذا الموضع هو الجدير، لأنّه جاء بعد تعيين أيام الصوم، وأمّا ما تقدم في الآية الأولى فهو تعجيل بالإعلام بالرخصة

رفقا بالسامعين.

{ **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ** } عدل عن جملة القصر إلى جملتي إثبات ونفي لأنّ المقصود ابتداء هو جملة الإثبات لتكون تعليلا للرخصة، وجاءت بعدها جملة النفي تأكيدا لها. ويجوز أن يكون تعليلا لجميع ما تقدّم، فيكون إيماء إلى أنّ مشروعية الصيام، وإن كانت تلوح في صورة المشقّة والعسر، فإن في طيّها من المصالح ما يدلّ على أنّ الله أراد بها اليسر، أي تيسير تحصيل رياضة النفس بطريقة سليمة من إرهاق أصحاب بعض الأديان الأخرى أنفسهم.

{ **وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ** } وإكمال العدّة يحصل بقضاء الأيام التي أفطرها من وجب عليه الصوم ليأتي بعدّة أيام شهر رمضان كاملة، فإنّ في تلك العدّة حكمة تجب المحافظة عليها، فبالقضاء حصلت حكمة التشريع وبرخصة الإفطار لصاحب العذر حصلت رحمة التخفيف.

{ **وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ** } أي لتقولوا الله أكبر، وهي جملة تدل على أنّ الله أعظم من كل عظيم. وإثبات الأعظميّة لله في كلمة (الله أكبر) كناية عن وحدانيته بالإلهية، ولذلك شرع التكبير في الصلاة لإبطال ما كانوا يتقربون به إلى أصنامهم، وكذلك شرع التكبير عند انتهاء الصيام بهذه الآية، فمن أجل ذلك مضت السنّة بأن يكبّر المسلمون عند الخروج إلى صلاة العيد، ويكبّر الإمام في خطبة العيد.

{ **وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** } تعليل آخر وهو أعمّ من مضمون جملة { وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ }، فإنّ التكبير تعظيم يتضمّن شكرا والشكر أعمّ، لأنّه يكون بالأقوال التي فيها تعظيم لله تعالى ويكون بفعل القُرَب من الصدقات في أيام الصيام وأيام الفطر، ومن مظاهر الشكر لبس أحسن الثياب يوم الفطر.

وقد دلّت الآية على الأمر بالتكبير، و بيّنت السنة القولية والفعلية ذلك على اختلاف بين الفقهاء في الأحوال.

فأمّا لفظ التكبير: فظاهر الآية أنّه كلّ قول فيه لفظ (الله أكبر) ، والمشهور في السنّة أنّه يكرّر الله أكبر ثلاثا، وبهذا أخذ مالك وأبو حنيفة والشافعي، وقال مالك والشافعي إذا شاء المرء زاد على التكبير تهليلا وتحميدا فهو حسن، ولا يترك الله أكبر. فإذا أراد الزيادة على التكبير قال: الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر ولله الحمد، وهو قول ابن عمر وابن عباس، وقال أحمد: هو واسع، وقال أبو حنيفة: لا يجزئ غير ثلاث تكبيرات.

وأمّا وقته: فتكبير الفطر يبتدئ من وقت خروج المصلّي من بيته إلى محلّ الصلاة، وكذلك الإمام ومن خرج معه، فإذا بلغ محلّ الصلاة قطع التكبير. ويسنّ في أوّل كلّ ركعة من ركعتي صلاة العيد افتتاح الأولى بسبع تكبيرات والثانية بست، ثمّ يكبّر الإمام في خطبة صلاة العيد بعد الصلاة ويكبّر معه المصلّون حين تكبيره وينصتون للخطبة فيما سوى التكبير.

فأمّا في الأضحى فيزاد على ما يذكر في الفطر التكبير عقب الصلوات المفروضة من صلاة الظهر من يوم الأضحى إلى صلاة الصبح من اليوم الرابع منه.

{ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ } [186].

تعظيم شأن النبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّه يسأله المسلمون عن أمر الله تعالى، وليكون نظم الآية مؤذنا بأنّ الله تعالى بعد أن أمرهم بما يجب له عليهم أكرمهم فقال: وإذا سألوا عن حقّهم عليّ فإنّي قريب منهم أجيب دعوتهم، وجُعل هذا الخير مرتّبا على تقدير سؤالهم إشارة إلى أنّ هذا يهجس في نفوسهم بعد أن يسمعوا الأمر بالإكمال والتكبير والشكر أن يقولوا: هل لنا جزاء على ذلك؟

{ **وَإِذَا** } استعمال مثل هذا الشرط مع مادة السؤال لقصد الاهتمام بما سيذكر بعده.

قيل ذكر الدعاء هنا بعد ذكر الشكر للدلالة على أنّ الدعاء يجب أن يسبقه الثناء.

{ **عِبَادِي** } هم المؤمنون، لأنّ الآيات كلّها في بيان أحكام الصوم ولوازمه وجزائه.

{ **فَإِنِّي قَرِيبٌ** } ولم يقل: فقل لهم إني قريب، إيجازا وتنبيها على أنّ السؤال مفروض غير واقع منهم بالفعل، وفيه لطيفة قرآنية وهي إيهام أنّ الله تعالى تولّى جوابهم عن سؤالهم بنفسه، إذ حذف في اللفظ ما يدلّ على وساطة النبيّ صلى الله عليه وسلم تنبيها على شدّة قرب العبد من ربّه في مقام الدعاء.

وفي هذه الآية إيماء إلى أنّ الصائم مرجوّ الإجابة، وإلى أنّ شهر رمضان مرجوّة دعواته، وإلى مشروعية الدعاء عند انتهاء كلّ يوم من رمضان.

{ **فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي** } أي: إذا كنت أجيب دعوة الداعي فليجيبوا أوامري. واستجاب وأجاب بمعنى واحد. فيجوز أن يكون المراد بالاستجابة امتثال أمر الله.

{ **لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ** } تقدم القول في مثله، و**الرشد**: إصابة الحقّ.

{ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حتّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } [187]

{ **أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ** } انتقال في أحكام الصيام إلى بيان أعمال في بعض أزمنة رمضان قد يُظنّ أنّها تنافي عبادة الصيام. روى أبو داود عن معاذ بن جبل: " كان المسلمون إذا نام أحدهم إذا صلّى العشاء وسهر بعدها لم يأكل ولم يباشر أهله بعد ذلك، فجاء عمر يريد امرأته فقالت: إنّي قد نمت فظنّ أنّها تعتلّ فباشرها ". وروى البخاري عن البراء بن عازب أنّ قيس

بن صرمة جاء منزله بعد الغروب يريد طعامه فقالت له امرأته: حتّى نسخّن لك شيئًا فنام، فجاءت امرأته فوجدته نائما فقالت: خيبة لك، فبقي كذلك، فلمّا انتصف النهار أغمي عليه من الجوع ". ووقع لكعب بن مالك مثل ما وقع لعمر.

قيل: كان ترك الأكل ومباشرة النساء من بعد النوم أو من بعد صلاة العشاء حكما مشروعا بالسنّة ثمّ نُسخ، وهذا قول جمهور المفسّرين، وأنكر أبو مسلم الأصفهاني أن يكون هذا نسخا لشيء تقرّر في شرعنا وقال: هو نسخ لما كان في شريعة النصارى.

وما شرع الصوم إلّا إمساكا في النهار دون الليل، فلا أحسب أنّ الآية إنشاء للإباحة ولكنّها إخبار عن الإباحة المتقرّرة في أصل توقيت الصيام، والمقصود منها إبطال شيء توهّمه بعض المسلمين وهو أنّ الأكل بين الليل لا يتجاوز وقتين وقت الإفطار ووقت السحور، وجعلوا وقت الإفطار هو ما بين المغرب إلى العشاء، لأنّهم كانوا ينامون إثر صلاة العشاء وقيامها، فإذا صلّوا العشاء لم يأكلوا إلّا أكلة السحور، وأنّهم كانوا في أمر الجماع كشأنهم في أمر الطعام، وأنّهم لمّا اعتادوا جعل النوم مبدأ وقت الإمساك الليلي ظنّوا أنّ النوم إن حصل في غير إبّانة المعتاد يكون أيضا مانعا من الأكل والجماع إلى وقت السحور، وإنّ وقت السحور لا يباح فيه إلّا الأكل دون الجماع، إذ كانوا يتأثّمون من الإصباح في رمضان على جنابة. ولعلّ هذا قد سرى إليهم من أهل الكتاب، ولعلّهم التزموا ذلك ولم يسألوا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحسب ذلك لم يتجاوز بعض شهر رمضان من السنة التي شرع لها صيام رمضان، فحدثت تلك الحوادث المختلفة المتقاربة.

فأمّا <u>أن يكون ذلك قد شرع ثم نسخ فلا أحسبه</u>، إذ ليس من شأن الدين الذي شرع الصوم أوّل مرة يوما في السنة ثم درَّجه فشرع الصوم شهرا على التخيير بينه وبين الإطعام تخفيفا على المسلمين، أن يفرضه بعد ذلك ليلا ونهارا فلا يبيح الفطر إلّا ساعات قليلة من الليل.

{ **لَيْلَةَ الصِّيَامِ** } الليلة التي يعقبها صيام اليوم الموالي لها، جريا على استعمال العرب في إضافة الليلة لليوم الموالي لها. إلّا ليلة عرفة فإنّ المراد بها الليلة التي بعد يوم عرفة.

الرفث: حقيقته الكلام مع النساء في شؤون الالتذاذ بهنّ، ثم أطلق على الجماع كناية، وقيل هو حقيقة فيهما، وهو الظاهر.

{ **هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ** } ذلك أنّ الصوم لو فرض على النّاس في الليل وهو وقت الاضطجاع لكان الإمساك عن قربان النساء في ذلك الوقت عنتا ومشقة شديدة.

{ **تَخْتَانُونَ** } قال الراغب الاختيان، مراودة الخيانة بمعنى أنّه افتعال من الخَون، وخيانة الأنفس تمثيل لتكليفها ما لم تكلّف به، كأنّ ذلك تغرير بها، إذ يوهمها أنّ المشقة مشروعة عليها وهي ليست بمشروعة. { **فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ** } الأمر للإباحة.

الابتغاء: الطلب.

ما كتبه الله: ما أباحه من مباشرة النساء في غير وقت الصيام. أو اطلبوا ما قدّر الله لكم من الولد، تحريضا للناس على مباشرة النساء عسى أن يتكوّن النسل من ذلك، وذلك لتكثير الأمّة وبقاء النوع.

{ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حتّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ }

{ **حتّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ** } للدلالة على أنّ الإمساك يكون عند اتضاح الفجر الصادق.

الخيط الأبيض: هنا يراد به الشعاع الممتدّ في الظلام.

الخيط الأسود: السواد الممتدّ بجانبه.

{ **ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ** } بيان لنهاية وقت الصيام. واختيار (إلى) للغاية، للدلالة على تعجيل الفطر عند غروب الشمس.

وقد رويت قصّة في فهم بعض الصحابة لهذه الآية، فقد روى البخاري ومسلم عن عديّ بن حاتم قال لمّا نزلت { حتّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ} عمدت إلى عقال أسود وإلى عقال أبيض فجعلتهما تحت وسادتي فجعلت أنظر في الليل فلا يستبين لي الأبيض من الأسود فغدوت على رسول الله فذكرت له ذلك فقال رسول الله: **" إنّ وسادك لعريض "**، وفي رواية **" إنك لعريض القفا، وإنّما ذلك سواد الليل وبياض النهار"**. كناية عن قلّة الفطنة.

{ **وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ** } أجمعوا على أنّ الاعتكاف لا يكون إلّا في المسجد لهاته الآية، واختلفوا في صفة المسجد فقيل: لابد من المسجد الجامع، وقيل: مطلق مسجد وهو التحقيق، وهو مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي رحمهم الله، وأحكام الاعتكاف في كتب الفقه.

{ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ }

الحدود: الحواجز ونهايات الأشياء التي إذا تجاوزها المرء دخل في شيء آخر. وشُبّهت الأحكام بالحدود لأنّ تجاوزها يُخرج من حِلٍّ إلى منع، وفي الحديث: **" وحدّ حدودا فلا تعتدوها "**.

{ **فَلا تَقْرَبُوهَا** } نهى عن مقاربتها الموقعة في الخروج منها على طريق الكناية، لأنّ القرب من الحدّ يستلزم قصد الخروج غالبا. وفي معنى الآية حديث: **" من حام حول الحِمى يوشك أن يقع فيه "**.

{ **كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ** } أي: كما بيّن أحكام الصيام يبيّن آياته للنّاس، أي: جميع آياته لجميع النّاس، والمقصد أنّ هذا شأن الله في إيضاح أحكامه لئلّا يلتبس شيء منها على النّاس .

{ **لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** } أي إرادة لاتقائهم الوقوع في المخالفة، لأنّه لو لم يبيّن لهم الأحكام لما اهتدوا لطريق الامتثال.

{ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوَالِ النّاس بِالْأِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [188].

المناسبة أنّ قوله تعالى { تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا } تحذير من الجرأة على مخالفة الصيام بالإفطار غير المأذون فيه، وهو ضرب من الأكل الحرام، فعطف عليه أكل آخر محرّم وهو أكل المال بالباطل. وهو من جملة الأحكام المشروعة لإصلاح ما اختلّ من أحوالهم في الجاهلية، فقد كان أكل المال بالباطل شنشنة معروفة لأهل الجاهلية، بل كان أكثر أحوالهم الماليّة، فإنّ اكتسابهم كان من الإغارة ومن الميسر، ومن غصب القوي مال الضعيف، ومن أكل الأولياء أموال اليتامى، ومن الربا ونحو ذلك، وكلّ ذلك من الباطل الذي ليس من طيب نفس.

الأكل: هنا للأخذ بقصد الانتفاع دون إرجاع.

الأموال: جمع مال ونعرّفه بأنّه: " ما بقدره إقامة نظام معاش أفراد النّاس في تناول الضروريّات والحاجات والتحسينيات بحسب مبلغ حضارتهم حاصلا بكدح"، فلا يُعدّ الهواء مالا، ولا ماء المطر والأودية والبحار مالا، ولا التراب مالا، ولا كهوف الجبال وظلال الأشجار مالا، ويعدّ الماء المحتفر بالآبار مالا، وتراب المقاطع مالا، والحشيش والحطب مالا، وما ينحته المرء لنفسه في جبل مالا.

والمال ثلاثة أنواع:

النوع الأول: ما تحصل تلك الإقامة بذاته دون توقّف على شيء وهو الأطعمة كالحبوب، والثمار، والحيوان لأكله وللانتفاع بصوفه وشعره ولبنه وجلوده ولركوبه، وهذا النوع هو أعلى أنواع الأموال وأثبتها.

النوع الثاني: ما تحصل تلك الإقامة به وبما يكمّله ممّا يتوقّف نفعه عليه، كالأرض للزرع وللبناء عليها، والنّار للطبخ والإذابة، والماء لسقي الأشجار، وآلات الصناعات لصنع الأشياء من الحطب والصوف ونحو ذلك، وهذا النوع دون النوع الأوّل لتوقّفه على أشياء ربّما كانت في أيدي النّاس.

النوع الثالث: ما تحصل الإقامة بعوضه ممّا اصطلح البشر على جعله عوضا لما يراد تحصيله من الأشياء، وهذا هو المعبّر عنه بالنقد أو بالعملة.

{ **بِالْبَاطِلِ** } أكلها بدون وجه حقّ.

{ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوَالِ النّاس بِالْأِثْمِ }

الإدلاء: في الأصل إرسال الدلو في البئر، وهو هنا مجاز في التوسّل والدفع.

فالآية دلّت على تحريم أكل الأموال بالباطل، وعلى تحريم إرشاء الحكّام لأكل الأموال بالباطل، وعلى أنّ قضاء القاضي لا يغيّر صفة أكل المال بالباطل، وعلى تحريم الجور في الحكم بالباطل ولو بدون إرشاء، ولا جرم أنّ هاته الأشياء من أهمّ ما تصدّى الإسلام لتأسيسه تغييرا لما كانوا عليه في الجاهليّة، فإنّهم كانوا يستحلّون أموال الذين لم يستطيعوا منع أموالهم من الأكل فكانوا يأكلون أموال الضعفاء.

{ **وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ** } فالمراد من هذه الحال تشنيع الأمر وتفظيعه إعلانا بأنّ آكل المال بهذه الكيفية هو من الذين أكلوا أموال النّاس عن علم وعمد فجرمه أشد.

{ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [189]

{ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ** } اعتراض بين شرائع الأحكام الراجعة إلى إصلاح النظام، دعا إليه ما حدث من السؤال، فقد روى الواحدي أنّها نزلت بسبب أنّ أحد اليهود سأل أنصاريا عن الأهلّة وأحوالها في الدقّة إلى أن تصير بدرا ثم تتناقص حتّى تختفي، فسأل الأنصاري رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية. ويظهر أنّ نزولها متأخّر عن نزول آيات فرض الصيام ببضع سنين، لأنّ آية { وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا } متّصلة بها. وسيأتي أنّ تلك الآية نزلت في عام الحديبية أو عام عمرة القضاء. فمناسبة وضعها في هذا الموضع هي توقيت الصيام بحلول شهر رمضان، فكان من المناسبة ذكر المواقيت لإقامة نظام الجامعة الإسلاميّة على أكمل وجه.

{ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ** } والسؤال لا يتعلّق بذواتها، إذ الذوات لا يُسأل إلّا عن أحوالها. أي: يسألونك عن أحوال الأهلّة، وهو يحتمل السؤال عن الحكمة ويحتمل السؤال عن السبب. فإن كان عن الحكمة فالجواب بقوله { هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ } جارٍ على وفق السؤال، ولعلّ المقصود من السؤال حينئذ استثبات كون المراد الشرعي منها موافقا لما اصطلحوا عليه.

وإن كان السؤال عن السبب فالجواب بقوله { هِيَ مَوَاقِيتُ } غير مطابق للسؤال، فيكون إخراجا للكلام على خلاف مقتضى الظاهر بصرف السائل إلى غير ما يتطلّب، تنبيها على أنّ ما صُرف إليه هو المهمّ له. لا سيما والرسول لم يجئ مبيّنا لعلل اختلاف أحوال الأجرام السماويّة.

الْأَهِلَّةِ: جمع هلال وهو القمر في أوّل استقباله الشمس كلّ شهر قمري في الليلة الأولى والثانية وقيل: والثالثة، ومن قال: إلى السابعة فإنّما أراد المجاز، لأنّه لا يشبه الهلال. ويطلق الهلال على القمر ليلة ست وعشرين، وسبع وعشرين، لأنّه في قدر الهلال في أوّل الشهر.

وإنّما سمّي الهلال هلالا لأنّ النّاس إذا رأوه رفعوا أصواتهم بالإخبار عنه، ينادي بعضهم بعضا بذلك.

{ **مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ** } أي مواقيت لما يوقّت من أعمالهم. واحتياج الحجّ للتوقيت ضروري، إذ لو لم يوقّت لجاء النّاس للحجّ متخالفين، فلم يحصل المقصود من اجتماعهم، ولم يجدوا ما يحتاجون إليه في أسفارهم وحلولهم بمكة وأسواقها. بخلاف الصلاة فليست مؤقّتة بالأهلة، وبخلاف الصوم فإنّ توقيته بالهلال تكميليّ له، لأنّه عبادة مقصورة على الذات، فلو جاء بها المنفرد لحمل المقصد الشرعي ولكن شرع فيه توحيد الوقت ليكون أخف على المكلّفين، فإنّ الصعب يخفّ بالاجتماع، وليكون حالهم في تلك المدّة مماثلا فلا يشقّ أحد على آخر في اختلاف الأكل والنوم ونحوهما.

المواقيت: جمع ميقات والميقات جاء بوزن اسم الآلة وقَّت ، وسمَّى العرب به الوقت، وكذلك سمِّي الشهر شهرا مشتقا من الشهرة.

والاقتصار على الحجّ دون العمرة لأنّ العمرة لا وقت لها فلا تكون للأهلة فائدة في فعلها.

وقيل: إنّ مجيء ذكر الحجّ في هاته الآية، وهي من أوّل ما نزل بالمدينة، ولم يكن المسلمون يستطيعون الحجّ لأنّ المشركين يمنعونهم، إشارة إلى أنّ وجوب الحجّ ثابت ولكن المشركين حالوا دون المسلمين ودونه. وهذا القول فيه نظر، إذ الأظهر أنّ هذه الآية نزلت بعد فرض الحجّ كما قدّمنا قريبا.

{ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }

معطوفة على { يَسْأَلونَكَ } ومناسبة هذه الجملة للتي قبلها أنّ سبب نزولها كان مواليا أو مقارنا لسبب نزول الآية التي قبلها وأنّ مضمون كلتا الجملتين كان مثار تردّد وإشكال عليهم من شأنه أن يُسأل عنه. فقد كانوا إذا أحرموا بالحجّ أو العمرة من بلادهم جعلوا من أحكام الإحرام ألّا يدخل المحرم بيته من بابه أو لا يدخل تحت سقف يحول بينه وبين السماء، وكان المحرمون إذا أرادوا أخذ شيء من بيوتهم تسنّموا على ظهور البيوت أو اتخذوا نقبا في ظهور البيوت إن كانوا من أهل المدر، وإن كانوا من أهل الخيام دخلوا خلف الخيمة، وكان الأنصار يدينون بذلك، وأمّا الحُمس فلم يكونوا يفعلون هذا.

الحُمس: جمع أحمس والأحمس المتشدّد بأمر الدّين لا يخالفه، وهم: (قريش - كنانة - خزاعة - ثقيف - جشم - بنو نصر ابن معاوية - مدلج - عُدوان - عَضَل - بنو الحارث بن عبد مناف - بنو عامر بن صعصعة) وكلّهم من سكّان مكّة وحرمها ما عدا بني عامر بن صعصعة فإنّهم تحمّسوا لأنّ أمّهم قرشية.

{ وَلَيْسَ الْبِرُّ } نفى أن يكون مشروعا أو من الحنيفيّة، لأنّه غلو في أفعال الحجّ، فإنّ الحج وإن اشتمل على أفعال راجعة إلى ترك الترفّه عن البدن كترك المخيط وترك تغطية الرأس، إلّا أنّه لم يكن المقصد من تشريعه إعنات النّاس. ولذلك لم يكن الحُمس يفعلونه لأنّهم أقرب إلى دين إبراهيم.

{ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى } القول فيه كالقول في قوله { وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ } [177]. لأن المراد به: من اتصف بالتقوى الشرعية بامتثال المأمورات واجتناب المنهيّات.

{ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا } هذه الآية يتعيّن أن تكون نزلت في سنة خمس حين أزمع النبيّ صلى الله عليه وسلم الخروج إلى العمرة في ذي القعدة سنة خمس من الهجرة، والظاهر أنّ رسول الله نوى أن يحجّ بالمسلمين إن لم يصدّه المشركون، فيحتمل أنّها نزلت في ذي القعدة أو قبله بقليل.

{ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } أي تظفرون بمطلبكم من البرّ، فإنّ البرّ في اتباع الشرع، فلا تفعلوا شيئا إلّا إذا كان فيه مرضاة الله، ولا تتّبعوا خطوات المبتدعين الذين زادوا في الحجّ ما ليس من شرع إبراهيم.

{ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } [190].

استطراد دعا إليه استعداد النبيّ صلى الله عليه وسلم لعمرة القضاء سنة ست وتوقّع المسلمين غدر المشركين بالعهد. ونزول هذه الآيات عقب الآيات التي أشارت إلى الإحرام بالعمرة، والتي نراها نزلت في شأن الخروج إلى الحديبيّة، ينبئ بأنّ المشركين كانوا قد أضمروا صدّ النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين ثم أعرضوا عن ذلك لمّا رأوا تهيّؤ المسلمين لقتالهم، فقد ثبت في الصحيح: " أنّ رسول الله أرسل عثمان بن عفان إلى أهل مكّة فأُرجف بأنّهم قتلوه فبايع النّاس الرسول على الموت في قتال العدوّ، ثمّ انكشف الأمر عن سلامة عثمان".

والآية إذن في قتال الدفاع لدفع هجوم العدوّ، وهي وإن نزلت لسبب خاص فهي عامة في كل حال يبادئ المشركون فيه المسلمين بالقتال، لأنّ السبب لا يُخصِّص.

وعن ابن عباس وعمر بن عبد العزيز ومجاهد أنّ هاته الآية محكمة لم تنسخ، لأنّ المراد بالذين يقاتلونكم الذين هم متهيّئون لقتالكم أي لا تقاتلوا الشيوخ والنساء والصبيان، فالقيد لإخراج طائفة من المقاتلين لا لإخراج المحاربين.

{ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } أي: لا تبتدئوا بالقتال، وفيه تحذير من الاعتداء، وذلك مسالمة للعدوّ واستبقاء لهم وإمهال حتّى يجيئوا مؤمنين. وقيل: أراد ولا تعتدوا في القتال إن قاتلتم، ففُسّر الاعتداء بوجوه كثيرة ترجع إلى تجاوز أحكام الحرب.

الاعتداء: الابتداء بالظلم.

{ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حتّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِين [191] فإن انتهوا فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [192] }.

{ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ } هذا أمر بقتل من يُعثر عليه منهم وإن لم يكن في ساحة القتال، فإنّه بعد أن أمرهم بقتال من يقاتلهم عمّم المواقع والبقاع ليكون المسلمون مأذونين بذلك، فكلّ مكان يحلّ فيه العدو فهو موضع قتال. ولذلك قال هنا { وَاقْتُلُوهُمْ } ولم يقل: وقاتلوهم مثل الآية قبلها، تنبيها على قتل المحارب ولو كان وقت العثور عليه غير مباشر للقتال، وأنّه من خرج محاربا فهو قاتل وإن لم يَقْتُل.

{ ثَقِفْتُمُوهُمْ } بمعنى لقيتموهم لقاء حرب.

{ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ } أي يحلّ لكم حينئذ أن تخرجوهم من مكّة التي أخرجوكم منها، وفي هذا تهديد للمشركين ووعد بفتح مكّة.

{ **وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ** } هو حجّة للمسلمين ونفي للتبعة عنهم في القتال بمكّة إن اضطرّوا إليه.

الفتنة: إلقاء الخوف واختلال نظام العيش، إشارة إلى ما لقيه المؤمنون في مكّة من الأذى بالشتم والضرب والسخرية، إلى أن كان آخره الإخراج من الديار والأموال، فالمشركون محقوقون من قبل، فإذا خفروا العهد استحقّوا المؤاخذة بما مضى فيما كان الصلح مانعا من مؤاخذتهم عليه.

وليس المراد من الفتنة الإخراج من الديار، لأنّ التذييل يجب أن يكون أعمّ من الكلام المذيّل.

{ **وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** } خصّ المكان الذي عند المسجد الحرام من عموم الأمكنة التي شملها قوله { حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ } أي: إن ثقفتموهم عند المسجد الحرام غير مشتبكين في قتال معكم فلا تقتلوهم، والمقصد من هذا حفظ حرمة المسجد الحرام.

{ **حتّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ** } أي: فإن قاتلوكم عند المسجد فاقتلوهم، لأنّهم خرقوا حرمة المسجد الحرام فلو تركت معاملتهم بالمثل لكان ذلك ذريعة إلى هزيمة المسلمين.

وقد دلّت الآية بالنصّ على إباحة قتل المحارب إذ حارب في الحرم أو استولى عليه لأنّ الاستلاء مقاتلة. فالإجماع على أنّه لو استولى على مكّة عدوّ وقال: لا أقاتلكم وأمنعكم من الحج ولا أبرح من مكّة لوجب قتاله وإن لم يبدأ القتال.

واختلفوا في دلالتها على جواز قتل الكافر المحارب إذا لجأ إلى الحرم بدون أن يكون قتال، وكذا الجاني إذا لجأ إلى الحرم فارّا من القصاص والعقوبة، فقال مالك بجواز ذلك، واحتجّ على ذلك بأنّ قوله تعالى {فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ } [التوبة:5] قد نسخت هاته الآية، وهو قول قتادة ومقاتل. وفي المسألة تفصيل في كتب الفقه.

{ **كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِين** } أي: كذلك القتل جزاؤهم، وهذا تهديد لهم.

{ **فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } أي: فإن انتهوا عن قتالكم فلا تقتلوهم؛ لأن الله غفور رحيم، فينبغي أن يكون الغفران سنّة المؤمنين.

{ وَقَاتِلُوهُمْ حتّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ } [193].

هذه الجملة مبيّنة لما أُجمل من غاية الأمر بقتال المشركين. وانتفاء الفتنة يتحقّق بأحد أمرين: إمّا بأن يدخل المشركون في الإسلام فتزول فتنتهم فيه، وإمّا بأن يُقتلوا جميعا فتزول الفتنة بفناء الفاتنين. وقد يعرض انتفاء الفتنة بظهور المسلمين عليهم ومصير المشركين ضعفاء أمام قوّة المسلمين بحيث يخشون بأسهم، إلاّ أنّ الفتنة لمّا كانت ناشئة عن التصلّب في دينهم وشركهم لم تكن بالتي تضمحلّ عند ضعفهم، ولذلك فليس المقصود هنا إلاّ أحد أمرين؛ إمّا دخولهم في الإسلام وإمّا إفناؤهم بالقتل. وقد حصل كلا الأمرين في المشركين ففريق أسلموا، وفريق قُتلوا يوم بدر وغيره من الغزوات.

{ **وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ** } ويكون دين الذين تقاتلونهم من أجله خالصا لله لا حظ للإشراك فيه.
والمقصود من هذا تخليص بلاد العرب من دين الشرك وعموم الإسلام لها، لأنّ الله اختارها لأن تكون قلب الإسلام ومنبع معينه، فلا يكون القلب صالحا إذا كان مخلوط العناصر.
وقد أخرج البخاري عن عبد الله بن عمر أثرا جيّدا قال: " جاء رجلان إلى ابن عمر أيام فتنة ابن الزبير فقالا إنّ النّاس صنعوا ما ترى وأنت ابن عمر وصاحب النبيّ صلى الله عليه وسلم فما يمنعك أن تخرج؟ فقال: يمنعني أنّ الله حرّم دم أخي، فقالا: ألم يقل الله { وَقَاتِلُوهُمْ حتّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ }، فقال ابن عمر: قاتلنا مع رسول الله حتّى لم تكن فتنة وكان الدين لله وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتّى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله ".
{ **فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ** } والمعنى فإن انتهوا عن قتالكم ولم يقدموا عليه فلا تأخذوهم بالظنّة ولا تبدءوهم بالقتال، لأنّهم غير ظالمين، إذ لا عدوان إلاّ على الظالمين، وهو مجاز بديع.
العدوان: هنا إمّا مصدر عدا بمعنى وثب وقاتل، أي: فلا هجوم عليهم، وإمّا مصدر عدا بمعنى ظلم كاعتدى فتكون تسميته عدوانا مشاكلة.

{ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ } [194].

لمّا بيّن تعميم الأمكنة في القتال وأخرج منها المسجد الحرام إلّا في حالة خاصة، كان السامع بحيث يتساءل عمّا يماثل البقاع الحرام وهو الأزمنة الحرام، أعني الأشهر الحُرم التي يُتوقّع حظر القتال فيها. فإن كان هذا تشريعا نازلا على غير حادثة فهو استكمال واستفصال لما تدعو الحاجة إلى بيانه في هذا المقام المهمّ، وإن كان نازلا على سبب كما قيل: إنّ المسلمين في عام القضاء لمّا قصدوا مكّة في ذي القعدة سنة سبع معتمرين خشوا ألاّ يفي لهم المشركون بدخول مكّة أو أن يغدروهم ويتعرّضوا لهم بالقتال قبل دخول مكّة وهم في شهر حرام، فإن دافعوا عن أنفسهم انتهكوا حرمة الشهر فنزلت هذه الآية. فهي على هذا الوجه جواب ورفع شبهة، أي: إن استحلّوا قتالكم في الشهر الحرام فقاتلوهم، أي: أباح الله لهم قتال المدافعة في الأشهر الحرم.
<u>وقيل:</u> معنى { الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ } أنّ قريشا صدّتهم عن البيت عام الحديبية سنة ست ويسّر الله لهم الرجوع عام القضاء سنة سبع، فكأنّه قيل لهم: هذا الشهر الذي دخلتم فيه بدل عن الذي صُددتم فيه، ونُقل هذا عن ابن عباس وقتادة والضحاك والسدي.
الأشهر الحُرم: أربعة، ثلاثة متتابعة هي (ذو القعدة - ذو الحجة - المحرم)، وحرمتها لوقوع الحجّ فيها ذهابا ورجوعا وأداء، وشهر واحد مفرد هو(رجب) وكان في الجاهلية شهر العمرة، وقد حرَّمته مضر كلّها ولذلك يقال له: رجب مضر، وقد أشير إليها في قوله تعالى { مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ } [التوبة:36].

{ **وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ** } الجملة تذييل والواو اعتراضية، وهي تفيد تعميم الحكم. ومعنى كونها قصاصا أي: مماثلة في المجازاة والانتصاف، فمن انتهكها بجناية يُعاقب فيها جزاء جنايته، وذلك أنّ الله جعل الحرمة للأشهر الحرم لقصد الأمن فإذا أراد أحد أن يتّخذ ذلك ذريعة إلى غدر الأمن أو الإضرار به فعلى الآخر الدفاع عن نفسه، لأنّ حرمة النّاس مقدّمة على حرمة الأزمنة.

{ **فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ** } وسُمِّي جزاء الاعتداء اعتداء مشاكلة، ويشمل المماثلة في المقدار وفي الأحوال، ككونه في الشهر الحرام أو البلد الحرام.

{ **وَاتَّقُوا اللَّهَ** } أمر بالاتقاء في الاعتداء، أي: بألّا يتجاوز الحدّ، لأنّ شأن المنتقم أن يكون عن غضب فهو مظنّة الإفراط.

{ **وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** } المعيّة هنا مجاز في الإعانة بالنصر والوقاية، فهو يجعلهم بمحل عنايته.

{ **وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** } [195].

لمّا أُمروا بقتال عدوّهم وكان العدو أوفر منهم عدّة حرب أيقظهم إلى الاستعداد بإنفاق الأموال في سبيل الله، فالمخاطبون بالأمر بالإنفاق جميع المسلمين لا خصوص المقاتلين.

ووجه الحاجة إلى هذا الأمر، لأنّهم قد مُلئت قلوبهم إيمانا بالله وثقة به، ومُلئت أسماعهم بوعد الله إيّاهم النصر ، فنُبّهوا على أنّ تعهّد الله لهم بالتأييد والنصر لا يُسقط عنهم أخذ العدّة المعروفة، فلا يحسبوا أنّهم غير مأمورين ببذل الوسع لوسائل النصر التي هي أسباب ناط الله تعالى بها مسبّباتها على حسب الحكمة التي اقتضاها النظام الذي سنّه الله في الأسباب ومسبّباتها.

{ **سَبِيلِ اللَّهِ** } طريقه، ولمّا عُلم أنّ الله لا يصل إليه النّاس تعيّن أن يكون المراد من الطريق العمل الموصل إلى مرضاة الله وثوابه. فهو مجاز في اللفظ ومجاز في الإسناد. وقد غلب في اصطلاح الشرع في الجهاد، أي: القتال للذبّ عن دينه وإعلاء كلمته.

{ **وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ** } عقّب الأمر بالإنفاق في سبيل الله بالنهي عن الأعمال التي لها عواقب ضارة ، إبلاغا للنصيحة والإرشاد لئلّا يدفع بهم يقينهم بتأييد الله إيّاهم إلى التفريط في وسائل الحذر من غلبة العدوّ. فالنهي عن الإلقاء بالنفوس إلى التهلكة يجمع معنى الأمر بالإنفاق وغيره من تصاريف الحرب وحفظ النفوس. وفي البخاري عن ابن عباس وجماعة من التابعين: لا تتركوا النفقة في سبيل الله وتخافوا العيلة، وإن لم يكن إلّا سهم أو مقص فأت به.

وروى الترمذي عن أسلم أبي عمران قال: كنّا بمدينة الروم (القسطنطينية) فأخرجوا إلينا صفّا عظيما من الروم فخرج إليهم من المسلمين مثلهم فحمل رجل من المسلمين على صفّ للروم حتّى دخل فيهم فصاح النّاس وقالوا: سبحان الله يلقي بيديه إلى التهلكة، فقام أبو أيوب الأنصاري فقال: " يا أيها النّاس

إنّكم تتأوّلون هذه الآية هذا التأويل وإنّما أنزلت فينا معاشر الأنصار، لمّا أعزّ الله الإسلام وكثر ناصروه وقال بعضنا لبعض سرا دون رسول الله: إنّ أموالنا قد ضاعت وإنّ الله قد أعزّ الإسلام وكثر ناصروه فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها، فانزل الله على نبيّه يرد علينا ما قلنا { وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ } فكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها وتركنا الغزو" .

والآية تتحمّل جميع المعاني المقبولة.

{ **وَأَحْسِنُوا** } الإحسان: فعل النافع الملائم، وفي الأمر بالإحسان بعد ذكر الأمر بالاعتداء على المعتدي والإنفاق في سبيل الله والنهي عن الإلقاء باليد إلى التهلكة إشارة إلى أنّ كل هاته الأحوال يلابسها الإحسان ويحفّ بها.

{ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** } تذييل للترغيب في الإحسان، لأنّ محبّة الله عبده غاية ما يطلبه النّاس إذ محبة الله العبد سبب الصلاح والخير دنيا وآخرة.

{ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حتّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } [196].

لا خلاف في أنّ هذه الآية نزلت في الحديبيّة سنة ست حين صدّ المشركون المسلمين عن البيت كما سيأتي في حديث كعب بن عجزة، وقد كانوا ناوين العمرة وذلك قبل أن يفرض الحجّ، فالمقصود من الكلام هو العمرة، وإنّما ذكر الحجّ على وجه الإدماج، تبشيرا بأنّهم سيتمكّنون من الحجّ فيما بعد، وهذا من معجزات القرآن.

الإتمام: إكمال الشيء والإتيان على بقايا ما بقي منه حتّى يُستوعب جميعه.

أمر بإكمال الحج والعمرة، بمعنى ألاّ يكون حجّا وعمرة مشوبين بشغب وفتنة واضطراب، أو هي أمر بإكمالهما وعدم الرجوع عنهما بعد الإهلال بهما ولا يصدّهم عنهما شنآن العدو. أوهي أمر بالإتيان بهما تامين، أي: مستكملين ما شرع فيهما. والمعنى الأوّل أظهر وأنسب بالآيات التي قبلها.

{ **الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ** } اللام لتعريف الجنس، وهما عبادتان مشهورتان عند المخاطبين.

الحجّ: هو زيارة الكعبة في موسم معيّن في وقت واحد للجماعة وفيه وقوف عرفة. وأصل الحجّ في اللغة (بفتح الحاء وكسرها) تكرّر القصد إلى الشيء أو كثرة قاصديه.

والحجّ من أشهر العبادات عند العرب وهو ممّا ورثوه عن شريعة إبراهيم عليه السلام كما حكى الله ذلك، { وَأَذِّنْ فِي النَّاس بِالْحَجِّ } [الحجّ:27]، حتّى قيل: إنّ العرب هم أقدم أمّة عُرفت عندها عادة الحجّ، وهم يعتقدون أنّ زيارة الكعبة سعي لله تعالى، وكانوا يتجرّدون عند الإحرام من مخيط الثياب ولا يمسّون الطيب ولا يقربون النساء ولا يصطادون، وكان الحجّ طوافا بالبيت وسعيا بين الصفا والمروة ووقوفا بعرفة ونحرا بمنى. وربّما كان بعض العرب لا يأكل مدّة الحج أقطا ولا سمنا، لأنّه أكل المترفّهين، ولا يستظل بسقف، ومنهم من يحجّ متجرّدا من الثياب، ومنهم من لا يستظلّ من الشمس، ومنهم من يحجّ صامتا لا يتكلّم، ولا يشربون الخمر في أشهر الحجّ، ولهم فيه مناسك وأحكام.

اليهود: كانوا يحجّون إلى الموضع الذي فيه تابوت العهد، أي إلى هيكل (أورشليم) وهوالمسجد الأقصى، ثلاث مرّات في السنة ليذبحوا هناك، فإنّ القرابين لا تصحّ إلّا هناك، منها مرّة في عيد الفصح.

النصارى: اتّخذت زيارات كثيرة حجّا، أشهرها زياراتهم لمنازل ولادة عيسى عليه السلام وزيارة (أورشليم)، وكذا زيارة قبر(مار بولس) وقبر(مار بطرس) بروما. ومن حجّ النصارى الذي لا يعرفه كثير من النّاس، وهو أقدم حجّهم، أنّهم كانوا قبل الإسلام يحجّون إلى مدينة (عسقلان) من بلاد السواحل الشامية، والمظنّون أنّ الذين ابتدعوا حجّها هم نصارى الشام من الغساسنة لقصد صرف النّاس عن زيارة الكعبة.

وقد كان للمصريين والكلدان حجّ إلى البلدان المقدّسة عندهم، ولليونان زيارات كثيرة لمواقع مقدّسة مثل أولمبيا وهيكل (زفس)، وللهنود حجوج كثيرة.

العمرة: مشتقّة من التعمير وهو شغل المكان ضد الإخلاء، ولكنّها بهذا الوزن لا تطلق إلّا على زيارة الكعبة في غير أشهر الحجّ، وهي معروفة عند العرب، وكانوا يجعلون ميقاتها ما عدا أشهر ذي الحجّة والمحرم وصفر، فكانوا يقولون: " إذا برئ الدبر، وعفا الأثر، وخرج صفر، حلت العمرة لمن اعتمر". ولعلّهم جعلوا ذلك لتكون العمرة بعد الرجوع من الحجّ وإراحة الرواحل.

واصطلح المُضَرِيُّون، على جعل رجب هو شهر العمرة ولذلك حرّمته مُضر فلقّب **برجب مضر**، وتبعهم بقيّة العرب، ليكون المسافر للعمرة آمنا من عدوّه، ولذلك لقبوا رجبا (منصل الأسنة) ويرون العمرة في أشهر الحجّ فجورا.

{ **لله** } التقييد هنا تلويح إلى أنّ الحجّ والعمرة ليسا لأجل المشركين، وإن كان لهم فيهما منفعة وكانوا هم سدنة الحرم، وهم الذين منعوا المسلمين منه، كي لا يسأم المسلمون من الحجّ الذي لاقوا فيه أذى المشركين، فقيل لهم إنّ ذلك لا يصدّ عن الرغبة في الحجّ والعمرة، لأنّكم إنّما تحجّون لله، ولأنّ الشيء الصالح المرغوب فيه إذا حفّ به ما يُكره لا ينبغي أن يكون ذلك صارفا عنه، بل يجب إزالة ذلك العارض عنه، ومن طرق إزالته القتال المشار إليه بالآيات السابقة.

<u>ويجوز</u> أن يكون التقييد لتجريد النيّة ممّا كان يخامر نوايا النّاس في الجاهلية من التقرّب إلى الأصنام.

والآية عند مالك وأبي حنيفة دليل على وجوب هاتين العبادتين لمن أحرم لهما، فأمّا مالك فقد عدّها من العبادات التي تجب بالشروع فيها وهي سبع عبادات: (الصلاة، والصيام، والاعتكاف، والحجّ، والعمرة، والطواف، والإتمام)، وأمّا أبو حنيفة فقد أوجب النوافل كلّها بالشروع. وجعلها الشافعي دليلا على وجوب العمرة كالحجّ، ووجه الاستدلال له أنّ الله أمر بإتمامها.

حكم العمرة: اختلف العلماء في حكمها، فذهب مالك وأبو حنيفة إلى أنّها سنّة، قال مالك: لا أعلم أحدا رخّص في تركها، وهذا هو مذهب جابر ابن عبد الله وابن مسعود من الصحابة، والنخعي من التابعين. وذهب الشافعي وأحمد وابن الجهم من المالكية إلى وجوبها، وبه قال عمر وابن عمر وابن عباس من الصحابة، وعطاء، وطاووس، ومجاهد، والحسن، وابن سيرين، والشعبي وسعيد بن جبير.

ودليلنا حديث جابر بن عبد الله: " قيل يا رسول الله العمرة واجبة مثل الحج؟ فقال:" **لا، وأن تعتمروا فهو أفضل** " [الترمذي]. واحتجّ أصحابنا أيضا بحديث: " **بني الإسلام على خمس**"، وحديث جبريل في الإيمان والإسلام ولم يذكر فيها العمرة، وحديث الأعرابي الذي قال: " لا أزيد ولا أنقص، فقال صلى الله عليه وسلّم: " **أفلح إن صدق** "، ولم يذكر العمرة.

{ **فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ** } لمّا أمر بإتمام الحجّ والعمرة ذكر حكم ما يمنع من ذلك الإتمام. ولا سيما الحجّ، لأنّ وقته يفوت غالبا بعد ارتفاع المانع، بخلاف العمرة.

الإحصار: في كلام العرب منع الذات من فعل ما، قال تعالى { لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ } [273]، أي: منعهم الفقر من السفر للجهاد. والمقصود إشعارهم بأنّ المشركين سيمنعونهم من العمرة. وقد اختلف الفقهاء في المراد من الإحصار. والأظهر عندي أن الإحصار هنا أطلق على ما يعمّ المنع من عدوّ أو من غيره، وأنّ هذا التعميم فيه قضاء حقّ الإيجاز في جمع أحكام الإحصار، وكأنّ هذا هو الذي يراه مالك رحمه الله، ولذلك لم يحتج في الموطأ على حكم الإحصار بغير عدوّ بهذه الآية، وإنّما احتج بالسنة. وقال جمهور أصحابه: أريد بها المنع الحاصل من مرض ونحوه دون منع العدوّ، بناء على أنّ إطلاق الإحصار على هذا المنع هو الأكثر في اللغة. و للمسألة تفصيل تجده في كتب الفقه.

{ **فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ** } دال على وجوب الهدي، ووجوبه في الحج وفي العمرة بعد الإحرام باتفاق الجمهور.

{ **اسْتَيْسَرَ** } هنا بمعنى **يَسُر** فالسين والتاء للتأكيد، أي ما أمكن من الهدي بإمكان تحصيله وإمكان توجيهه، فاستيسر هنا مراد به جميع وجوه التيسّر.

الهدي: اسم الحيوان المتقرّب به لله في الحجّ. فهو فعل من أهدى، وقيل هو جمع هديّة، وأقل ما هو معروف عندهم من الهدي الغنم، ولذلك لم يبيّنه الله تعالى هنا، وهذا الهدي إن كان قد ساقه قاصد الحجّ والعمرة معه ثم أحصر فالبعث به إن أمكن واجب، وإن لم يكن ساقه معه فعلية توجيهه، على الخلاف في حكمه من وجوبه وعدمه. والمقصود من هذا تحصيل بعض مصالح الحجّ بقدر الإمكان، فإذا فاتت

المناسك لا يفوت ما ينفع فقراء مكّة ومن حولها.

{ **وَلا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ** } بيان لملازمة حالة الإحرام حتّى ينحر الهدي. ويعلم استمرار حكم الإحرام في البقية بدلالة القياس والسياق. والمقصود من هذا تحصيل بعض ما أمكن من أحوال المناسك وهو استبقاء الشعث المقصود في المناسك.

المَحِل: (بفتح الميم وكسر الحاء) مكان الحلول أو زمانه، والمراد به هنا مبلغه وهو ذبحه للفقراء، وقيل محله هو محل ذبح الهدايا وهو منى، والأوّل قول مالك.

{ **فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً** } المراد مرض يقتضي الحلق سواء كان المرض بالجسد أم بالرأس.

{ **أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ** } كناية عن الوسخ الشديد والقمل، لكراهية التصريح بالقمل. وفي البخاري عن كعب بن عجرة قال: " حُملت إلى النبيّ والقمل يتناثر على وجهي، فقال: " **ما كنت أرى الجهد قد بلغ بك هذا، أما تجد شاة؟** قلت: لا، قال: **صم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين لكلّ مسكين نصف صاع من طعام واحلق رأسك** " ، فنزلت هذه الآية فيّ خاصة وهي لكم عامة ".

{ **فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ** } والمعنى فليحلق رأسه وعليه فدية، وقد أجمل الله الفدية ومقدارها وبيّنه حديث كعب بن عجرة.

النسك: العبادة، ويطلق على الذبيحة المقصود منها التعبّد، وهو المراد هنا. وسُمِّي العابد ناسكا، وأغلب إطلاقه على الذبيحة المتقرّب بها إلى معبود. وفي الحديث: " **والآخر يوم تأكلون فيه من نسككم** "، يعني الضحية.

{ **فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** }

الفاء للعطف على { أُحْصِرْتُمْ } إن كان المراد من الأمن زوال الإحصار المتقدّم، ولعلّها نزلت بعد أن فُرض الحجّ، لأنّ فيها ذكر التمتّع، وذكر صيام المتمتّع إن لم يجد هديا ثلاثة أيام في مدّة الحج وسبعة إذا رجع إلى أُفُقه وذلك لا يكون إلا بعد تمكّنهم من فعل الحجّ.

الأمن: ضدّ الخوف، وهو أيضا السلامة من كلّ ما يُخاف منه، والأظهر أنّ الأمن ضدّ الخوف من العدو ما لم يصرَّح بمتعلّقه، فإن لم يذكر له متعلّق نزل منزلة اللازم فدلّ على عدم الخوف من القتال.

{ **فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ** } المعنى انتفع بالعمرة عاجلا، والانتفاع بها إمّا بمعنى الانتفاع بثوابها، أو بسقوط وجوبها إن قيل إنّها واجبة مع إسقاط السفر لها إذ هو قد أدّاها في سفر الحجّ، وإمّا بمعنى الانتفاع بالحلّ منها ثم إعادة الإحرام بالحجّ، فانتفع بألّا يبقى في كُلفة الإحرام مدة طويلة، وهذا رخصة من الله تعالى، إذ أباح العمرة في مدّة الحجّ بعد أن كان ذلك محظور في عهد الجاهلية إذ كانوا يرون العمرة في أشهر الحجّ من أعظم الفجور.

والآية جاءت بلفظ التمتّع على المعنى اللغوي، أي: **الانتفاع**، وأشارت إلى ما سمّاه المسلمون بالتمتّع وبالقِران، وهو من شرائع الإسلام التي أبطل بها شريعة الجاهلية. واسم التمتع يشملهما (التمتع والقِران) لكنّه خصّ التمتع بأن يحرم الحاج بعمرة في أشهر الحج ثم يحلّ منها ثم يحجّ من عامه ذلك قبل الرجوع إلى أفقه. وخصّ القِران بأن يقترن الحجّ والعمرة في إهلال واحد ويبدأ في فعله بالعمرة ثم يحلّ منها، ويجوز له أن يردف الحج عل العمرة.

كلّ ذلك شرعه الله رخصة للناس، وإبطالا لما كانت عليه الجاهلية من منع العمرة في أشهر الحجّ، وفرض الله عليه الهدي جبرا لما كان يتجشّمه من مشقّة الرجوع إلى مكّة لأداء العمرة، كما كانوا في الجاهلية، ولذلك سماه تمتّعا.

وقد اختلف السلف في التمتع وفي صغته فالجمهور على جوازه، وأنه يحلّ من عمرته التي أحرم بها في أشهر الحجّ ثم يحرم بعد ذلك في حجّة في عامه ذلك، وكان عثمان بن عفان لا يرى التمتّع وينهى عنه في خلافته، وكان عمر بن الخطاب لا يرى للقارن إذا أحرم بعمرة وبحجة معا وتمّم السعي بين الصفا والمروة أن يحلّ من إحرامه حتّى يحلّ من إحرام حجّه، فقال له أبو موسى الأشعري إني جئت من اليمن فوجدت رسول الله بمكة محرما [أي: عام الوداع] فقال لي:" **بم أهللت؟** "، قلت: أهللت بإهلال كإهلال النبيّ فقال لي: " **هل معك هدي؟** "، قلت: لا، فأمرني فطفت وسعيت فأحللت وغسلت رأسي ومشطتني امرأة من عبد القيس"، فلمّا حدّث أبو موسى عمر بهذا قال عمر: " إن نأخذ بكتاب الله فهو يأمرنا بالإتمام، وإن نأخذ بسنّة رسوله فإنّه لم يحل حتّى بلغ الهدي محلّه ". وجمهور الصحابة والفقهاء يخالفون رأي عمر ويأخذون بخبر أبي موسى.

وكان أبو بكر وعمر يريان إفراد الحجّ أفضل من التمتع والقِران، وبه أخذ مالك.

{ **فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ** } جعل الله الصيام بدلا عن الهدي زيادة في الرخصة والرحمة، ولذلك شرع الصوم مفرقا فجعله عشر أيام ثلاثة منها في أيام الحجّ وسبعة بعد الرجوع من الحجّ.

وقد سئلتُ عن حكمة كون الأيام عشرة فأجبت بأنّه لعلّه نشأ من جمع سبعة وثلاثة، لأنّهما عددان مباركان، ضبطت بمثلهما أعمال دينية وقضائية، وفائدة التوزيع ظاهرة، وحكمة كون التوزيع كان إلى عددين متفاوتين لا متساويين ظاهرة أيضا لاختلاف حالة الاشتغال بالحج، ففيها مشقة، وحالة الاستقرار بالمنزل. وفائدة جعل بعض الصوم في مدّة الحجّ جعل بعض العبادة عن سببها.

{ **كَامِلَةٌ** } فيفيد التحريض على الإتيان بصيام الأيام كلّها لا ينقص منها شيء، مع التنويه بذلك الصوم وأنّه طريق كمال لصائمة، فالكمال مستعمل في حقيقته ومجازه.

{ **ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** } والمعنى أنّ الهدي على الغريب من مكّة كي لا يعيد السفر للعمرة، فأمّا المكّيّ فلم ينتفع بالاستغناء عن إعادة السفر فلذا لم يكن عليه هدي، وهذا قول مالك

والشافعي والجمهور، فلذلك لم يكن عندهما على أهل مكة هدي في التمتع والقران، لأنّهم لا مشقة عليهم في إعادة العمرة.

{ **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** } وصاية بالتقوى بعد بيان الأحكام التي لا تخلوا من مشقة للتحذير من التهاون بها، فلأمر بالتقوى عام، وكون الحجّ من جملة ذلك هو من جملة العموم وهو أجدر أفراد العموم، ولأن الكلام فيه.

{ **الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ** } [197]

استئناف ابتدائي للإعلام بتفصيل مناسك الحجّ. والذي أراه أنّ هذه الآية نزلت بعد نزول قوله { وَلِلَّهِ عَلَى النّاس حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً } [آل عمران:97]. فإنّ تلك الآية نزلت بفرض الحجّ إجمالا، وهذه الآية فيها بيان أعماله،، وهو بيان مؤخّر عن المبيَّن، وتأخير البيان إلى وقت الحاجة واقع غير مرة، فيظهر أنّ هذه الآية نزلت في سنة تسع، تهيئة لحجّ المسلمين مع أبي بكر الصديق.

وبين نزول هذه الآية و التي قبلها نحو من ثلاث سنين فتكون، فيما نرى، من الآيات التي أمر الرسول عليه السلام بوضعها في هذا الموضع من هذه السورة للجمع بين أعمال الحجّ وأعمال العمرة.

وهي وصاية بفرائض الحجّ وسننه وممّا يحقّ أن يُراعى في أدائه، وذكر ما أراد الله الوصاية به من أركانه وشعائره.

{ **الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ** } والأشهر المقصودة هي شوال وذو القعدة وذو الحجة لا غير، وإنّما اختلفوا في أنّ ذا الحجة كلّه شهر أو العشر الأوائل منه أو التسع فقط، أو ثلاثة عشر يوما منه.

فقال بالأوّل (الشهر كلّه)، ابن مسعود وابن عمر والزهري وعروة بن الزبير وهو رواية ابن المنذر عن مالك. وقال بالثاني (العشر الأوائل) ابن عباس والسدي وأبو حنيفة وهو رواية ابن حبيب عن مالك. وقال بالثالث (التسع فقط) الشافعي، والرابع (ثلاثة عشر يوما) هو مذهب مالك، ذكره ابن الحاجب في (المختصر) غير معزو.

وثمرة هذا الخلاف تظهر فيمن أوقع بعض أعمال الحجّ ممّا يصحّ تأخيره كطواف الزيارة بعد عاشر ذي الحجة، فمن يراه أوقعه في أيام الحج لم ير عليه دما ومن يرى خلافه يرى خلافه.

وقد اختلفوا في الإهلال بالحجّ قبل دخول أشهر الحج، فقال مجاهد وعطاء والأوزاعي والشافعي وأبو ثور: لا يجزي ويكون له عمرة كمن أحرم للصلاة قبل وقتها، وعليه يجب عليه إعادة الإحرام من الميقات عند ابتداء أشهر الحجّ، وقال أحمد: يجزئ ولكنّه مكروه، وقال مالك وأبو حنيفة والنخعي يجوز الإحرام في جميع السنة بالحجّ والعمرة، إلّا أنّ مالكا كره العمرة في بقية ذي الحجة.

{ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ }

فرض: نوى وعزم، فنيّة الحجّ هي العزم عليه وهو الإحرام، ويشترط في النيّة عند مالك وأبي حنيفة مقارنتها لقول من أقوال الحج وهو التلبية، أو عمل من أعماله كسوق الهدي، وعند الشافعي يدخل الحجّ بنيّة ولو لم يصاحب قولا أو عملا، وهو أرجح، لأنّ النيّة في العبادات لم يشترط فيها مقارنتها لجزء من أعمال العبادة، ولا خلاف أنّ السنّة مقارنة الإهلال للاغتسال والتلبية واستواء الراحلة براكبها.

{ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ } وقد نفى الرفث والفسوق والجدال نفي الجنس مبالغة في النهي عنها وإبعادها عن الحاج.

الرفث: اللغو من الكلام والفحش منه، والمراد به هنا الكناية عن قربان النساء، وأحسب أنّ الكناية بهذا اللفظ دون غيره لقصد جمع المعنيين الصريح والكناية.

وهذه مبالغة النهي اقتضت أنّ الجماع في الحج حرام إلى الإحلال بطواف الإفاضة، فإن حصل نسيان قال مالك: هو مفسد ويعيد حجّه إذا لم يمض وقوف عرفة، وإلّا قضاه في القابل، وقال الشافعي في أحد قوليه وداود الظاهري: لا يفسد الحجّ وعليه هدي. وأمّا مغازلة النساء والحديث في شأن الجماع المباح فذريعة ينبغي سدّها، لأنّه يصرف القلب عن الانقطاع إلى ذكر الله في الحجّ. وليس من الرفث إنشاد الشعر القديم الذي فيه ذكر الغزل.

الفسوق: معروف وقد تقدّم القول فيه غير مرّة، ولم أر لأحد من الفقهاء أنّ الفسوق مفسد للحجّ ولا أنّه غير مفسد سوى ابن حزم فقال في (المحلّى): إنّ مذهب الظاهرية أنّ المعاصي كلّها مفسدة للحج.

والذي يظهر أنّ غير الكبائر لا يفسد الحجّ، وأنّ تعمّد الكبائر مفسد.

الجدال: مصدر جادله إذا خاصمه خصاما شديدا. واختُلف في المراد بالجدال هنا فقيل: السباب والمغاضبة. واتفق العلماء على أنّ مدارسة العلم والمناظرة فيه ليست من الجدال المنهي عنه. كما اتفقوا على أنّ المجادلة في إنكار المنكر وإقامة حدود الدين ليست من المنهي عنه.

{ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ } عقّب به النهي عن المنهيّات لقصد الاتصاف بأضداد تلك المنهيّات فكأنّه قال: لا تفعلوا ما نُهيتم عنه وافعلوا الخير، فما تفعلوا يعلمه الله.

{ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى } التزوّد مستعار للاستكثار من فعل الخير استعدادا ليوم الجزاء، شُبّه بإعداد المسافر الزاد لسفره. ويجوز أن يُستعمل التزوّد مع ذلك في معناه الحقيقي، فيكون أمرا بإعداد الزاد لسفر الحج تعريضا بقوم من أهل اليمن كانوا يجيئون إلى الحجّ دون أي زاد ويقولون: نحن متوكّلون على الله، فيكونون كلًّا على النّاس بالإلحاف.

{ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ }

التقوى: مصدر اتّقى إذا حذر شيئا. وقد أطلقت شرعا على الحذر من عقاب الله تعالى باتباع أوامره واجتناب نواهيه.

الألباب: جمع لبّ وهو العقل، واللبّ من كلّ شيء الخالص منه. على احتمال أن يراد بالتزوّد معناه الحقيقي مع المجازي إفادة الأمر بالتقوى التي هي زاد الآخرة بمناسبة الأمر بالتزوّد لحصول التقوى الدنيوية بصون العرض.

{ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ } [198].

{ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ } جملة معترضة بين المتعاطفين بمناسبة النهي عن أعمال في الحجّ تنافي المقصد منه فنقل الكلام إلى إباحة ما كانوا يتحرّجون منه في الحجّ وهو التجارة، ببيان أنّها لا تنافي المقصد الشرعي، إبطالا لما كان عليه المشركون، إذ كانوا يرون التجارة للمحرم بالحجّ حراما.

{ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ }

الإفاضة: هنا الخروج بسرعة، وأصلها من فاض الماء إذا كثر على ما يحويه فبرز منه وسال، وسمّوا الخروج من عرفة إفاضة لأنّهم يخرجون في وقت واحد وهم عدد كثير فتكون لخروجهم شدّة.

والإفاضة أطلقت في هاته الآية على الخروج من عرفة والخروج من مزدلفة. والعرب كانوا يسمُّون الخروج من عرفة الدفع، ويسمُّون الخروج من مزدلفة إفاضة.

عرفات: اسم واد ويقال: بطن، وهو مسيل متّسع تنحدر إليه مياه جبال تحيط به تُعرف بجبال عرفة بالإفراد، وقد جعل عرفات علما على ذلك الوادي بصيغة الجمع بألف وتاء، ويقال له عرفة بصيغة المفرد. وفي وسط وادي عرفة جُبيل يقف عليه ناس ممّن يقفون بعرفة ويخطب عليه الخطيب بالنّاس يوم تاسع ذي الحجة عند الظهر، ووقف عليه النبيّ صلى الله عليه وسلم راكبا يوم عرفة، وبُني في أعلى ذلك الجُبيل عَلَم في الموضع الذي وقف فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم.

ولا يُدرى وجه اشتقاق في تسمية المكان عرفات أو عرفة، ولا أنّه علم منقول أو مرتجل، والذي اختاره الزمخشري وابن عطية أنّه عَلَم مرتجل، والذي يظهر أنّ أحد الاسمين أصل والآخر طارئ عليه.

وذكر **عرفات** باسمه في القرآن يشير إلى أنّ الوقوف بعرفة ركن الحجّ، وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : **"الحج عرفة ".**

وذكر الإفاضة من عرفات يقتضي سبق الوقوف به، لأنّه لا إفاضة إلّا بعد الحلول بها، ولم يذكر من المناسك غير عرفة والصفا والمروة، وفي ذلك دلالة على أنّهما من الأركان، خلافا لأبي حنيفة في الصفا والمروة، ويُؤخذ ركن الإحرام من قوله { فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ } [197]، وأمّا طواف الإفاضة فثبت بالسنّة وإجماع الفقهاء.

المعنى: فإذا أفضتم خارجين من عرفات إلى المزدلفة.

والتصريح باسم **عرفات** في هذه الآية للردّ على قريش، إذ كانوا في الجاهلية يقفون في (جَمْع) وهو المزدلفة، لأنّهم حُمس، فيرون أنّ الوقوف لا يكون خارج الحرم، ولمّا كانت مزدلفة من الحرم كانوا يقفون بها، ولا يرضون بالوقوف بعرفة، لأنّ عرفة من الحِلّ.

المَشْعَر: اسم مشتقّ من الشُعور أي: العِلم، أو من الشِعار أي: العلامة، لأنّه أقيمت فيه علامة كالمنار من عهد الجاهلية، ولعلّهم فعلوا ذلك لأنّهم يدفعون من عرفات آخر المساء فيدركهم غبسُ ما بعد الغروب وهم جماعات كثيرة فخشوا أن يضلّوا الطريق فيضيق عليهم الوقت.

{ **الْحَرَامِ** } لأنّه من أرض الحرم بخلاف عرفات.

والمشعر الحرام هو **المزدلفة**، سُمّيت مزدلفة لأنّها ازدلفت من منى أي: اقتربت، لأنّهم يبيتون بها قاصدين التصبيح في منى. ويقال للمزدلفة أيضا (جَمْع) لأنّ جميع الحجيج يجتمعون في الوقوف بها، الحُمس وغيرهم من عهد الجاهلية.

ومذهب مالك أنّ المبيت سنّة وأمّا النزول حصة فواجب.

{ **وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ** } الواو عاطفة على قوله { فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ } فيكون هذا أمرا بالذكر على العموم بعد الأمر بذكر خاص، فهو في معنى التذييل بعد الأمر بالذكر الخاص في المشعر الحرام. أي: اذكروه ذكرا مساويا لهدايته. والمراد ضلالهم في الجاهلية بعبادة الأصنام وتغيير المناسك وغير ذلك.

{ **ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النّاس وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } [199].

{ **ثُمَّ** } الذي عليه جمهور المفسّرين أنّها للتراخي الإخباري للترقّي في الخبر.

{ **أَفِيضُوا** } هي عين الإفاضة المذكورة سابقا. فالمقصود من الأمر هو إشارة إلى عرفات، فيكون متضمّنا الأمر بالوقوف بعرفة لا بغيرها، إبطالا لعمل قريش الذين كانوا يقفون يوم الحجّ الأكبر على **(قُزح)** المسمَّى بـ (جَمْع وبالمشعر الحرام) فهو من المزدلفة، وكان سائر العرب وغيرهم يقف بعرفات فيكون المراد بالنّاس في جمهورهم مَن عدا قريشا. عن عائشة أنّها قالت: " كانت قريش ومن دان دينها يقفون بيوم عرفة في المزدلفة وكانوا يسمَّون الحُمس وكان سائر العرب يقفون بعرفة فلما جاء الإسلام أمر الله نبيّه أن يأتي عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها، فذلك قوله {ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النّاس}".

{ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاس مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ [200] وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ [201] أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ [202] }.

أشارت الآية إلى رمي جمرة العقبة يوم عاشر ذي الحجة، فأمرت بأن يذكروا الله عند الرمي ثم الهدي بعد ذلك، وقد تمّ الحجّ عند ذلك، وقُضيت مناسكه. وقد أجمعوا على أنّ الحاج لا يرمي يوم النحر إلّا جمرة العقبة من بعد طلوع الشمس إلى الزوال ثم ينحر بعد ذلك، ثم يأتي الكعبة فيطوف طواف الإفاضة وقد تمّ الحجّ وحلَّ للحاج كلّ شيء إلّا قربان النساء.

{ فَاذْكُرُوا اللَّهَ } أعاد الأمر بالذكر بعد أن أمر به وبالاستغفار، والمقصد أن يكون الحاج منغمسا في العبادة فعلا وقولا واعتقادا.

{ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً } إشارة إلى ما كانوا عليه من الاشتغال في أيّام منى بالتفاخر بالأنساب ومفاخر أيّامهم. فالمراد من التشبيه أوّلا إظهار أنّ الله حقيق بالذكر هنالك مثل آبائهم، ثمّ بيّن بأنّ ذكر الله يكون أشدّ لأنّه أحقّ بالذكر. فالمقصود أن يذكروا الله كثيرا، وفيه تعريض بإبطال ذكر الآباء بالتفاخر.

{ فَمِنَ النَّاس مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ } الفاء للتفصيل، لأنّ ما بعدها تقسيم للفريقين من النّاس المخاطبين بقوله { فَاذْكُرُوا الله }. فقد علم السامعون أنّ الذكر يشمل الدعاء، ثمّ أريد تفصيل الداعين للتنبيه على تفاوت الذين تجمعهم تلك المناسك. والمقسّم إلى الفريقين جميع النّاس من المسلمين والمشركين، لأنّ الآية نزلت قبل تحجير الحجّ على المشركين بآية براءة.

{ آتِنَا } أي أعطنا عطاء في الدنيا.

{ وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ } يتعيّن أنّ المراد هم المشركون، لأنّ المسلمين لا يهملون الدعاء لخير الآخرة ما بلغت بهم الغفلة، فالمقصود من الآية التعريض بذمّ حالة المشركين، فإنّهم لا يؤمنون بالآخرة.

الخَلاق: (بفتح الخاء) الحظ من الخير والنفيس، مشتقّ من الخَلاقة وهي الجدارة، يقال: خلُق بالشيء إذا كان جديرا به. وفي الحديث: **" إنّما يلبس هذه من لا خلاق له "**، أي: في الخير.

والمقصود إخبار الله تعالى عن هذا الفريق أنّه لا حظ له في الآخرة، لأنّ المراد من هذا الفريق الكفّار.

{ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ }

{ حَسَنَةً } أصلها صفة لفعلة أو خصلة، فحذف الموصوف ونزل الوصف منزلة الاسم، مثل تنزيلهم الخير منزلة الاسم. ووقعت حسنة في سياق الدعاء فيفيد العموم.

{ **وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** } زيادة في الدعاء، لأنّ حصول الحسنة في الآخرة قد يكون بعد عذاب ما فأريد التصريح في الدعاء بطلب الوقاية من النار.

{ **أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا** } إشارة إلى الفريق الثاني. واسم الاشارة للتنبيه على أنّ اتّصافهم بما بعد اسم الاشارة شيء استحقّوه بسبب الإخبار عنهم بما قبله، أي: أنّ الله استجاب لهم لأجل إيمانهم بالآخرة.

النصيب: الحظّ المعطى لأحد في خير أو شر، قليلا كان أو كثيرا.

وهذا وعد من الله تعالى بإجابة دعاء المسلمين الداعين في تلك المواقف المباركة، إلّا أنّه وعد بإجابة شيء ممّا دعوا به بحسب ما تقتضيه أحوالهم وحكمة الله تعالى، ويجوز أن يراد بـ **(كَسَبُوا)** هنا العمل والنصيب، نصيب الثواب فتكون (من) ابتدائية.

{ **وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ** } تذييل قُصد به تحقيق الوعد بحصول الإجابة، وزيادة تبشير لأهل ذلك الموقف، لأنّ إجابة الدعاء فيه سريعة الحصول.

الحساب: في الاصل العدّ، ثمّ أطلق على عدّ الأشياء التي يراد الجزاء عليها أو قضاؤها، فصار الحساب يطلق على الوفاء بالحقّ، يقال: حاسبه، أي: كافاه أو دفع إليه حقّه، ومنه سُمِّي يوم القيامة يوم الحساب.

والمعنى: فإذا أتممتم أيّها المسلمون مناسك حجّكم فلا تنقطعوا عن أن تذكروا الله بتعظيمه وحمده، وبالالتجاء إليه بالدعاء لتحصيل خير الدنيا وخير الآخرة، ولا تشتغلوا بالتفاخر، فإنّ ذكر الله خير من ذكركم آباءكم كما كنتم تذكرونهم بعد قضاء المناسك قبل الإسلام وكما يذكرهم المشركون الآن. ولا تكونوا كالذين لا يدعون إلّا بطلب خير الدنيا ولا يتفكّرون في الحياة الآخرة، لأنّهم ينكرون الحياة بعد الموت، فإنّكم إن سألتموه أعطاكم نصيبا ممّا سألتم في الدنيا وفي الآخرة، وإن الله يعجل باستجابة دعائكم.

{ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } [203].

معطوف على { فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ } وما بينهما اعتراض.

{ **أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ** } أيام منى، وهي ثلاثة أيّام بعد يوم النحر، يقيم النّاس فيها بمنى وتُسمَّى أيام التشريق، لأنّ النّاس يقدّدون فيها اللحم، والتقديد تشريق، أو لأنّ الهدايا لا تنحر فيها حتّى تشرق الشمس. وكانوا يعلمون أنّ إقامتهم بمنى بعد يوم النحر بعد طواف الإفاضة ثلاثة أيّام فيعلمون أنّها المراد هنا بالأيام المعدودات، ولذلك قال جمهور الفقهاء الأيّام المعدودات أيام منى وهي بعد اليوم العاشر وهو قول ابن عمر ومجاهد وعطاء وقتادة والسدي والضحاك وجابر بن زيد ومالك، وهي غير المراد من الأيام المعلومات التي في قوله تعالى { وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ } [الحج:28].

<u>فالأيام المعلومات</u> أيّام النحر الثلاثة، وهي اليوم العاشر ويومان بعده، والمعدودات أيام منى بعد يوم

النحر، فاليوم العاشر من المعلومات لا من المعدودات واليومان بعده من المعلومات والمعدودات، واليوم الرابع من المعدودات فقط. لأنّ اليوم الرابع لا نحر فيه ولا ذبح إجماعا.

وقال أبو يوسف محمد بن الحسن لا فرق بين الأيام المعلومات والأيام المعدودات وهي يوم النحر ويومان بعده فليس اليوم الرابع عندهما معلوما ولا معدودا.

وعن الشافعي: الأيام المعلومات من أوّل ذي الحجة حتّى يوم النحر وما بعد ذلك معدودات، وهو رواية عن أبي حنيفة.

ودلّت الآية على طلب ذكر الله تعالى في أيّام رمي الجمار، وهو الذكر عند الرمي وعند نحر الهدايا.

وإنّما أُمروا بالذكر في هذه الأيام لأنّ أهل الجاهلية كانوا يشغلونها بالتفاخر ومغازلة النساء، لأنّهم كانوا يرون أنّ الحج قد انتهى بانتهاء العاشر.

والأيام المعدودات الثلاثة تُرمى الجمار الثلاثة في كلّ يوم منها بعد الزوال، يبتدأ بالجمرة التي تلي مسجد منى بسبع حصيات، ترمى الجمرتان الأخريان كلّ جمرة بمثل ذلك ويكبّر مع كل حصاة، وآخرها جمرة العقبة، وفي أحكام الرمي ووقته وعكس الابتداء فيه بجمرة مسجد منى والمبيت بغير منى خلافات بين الفقهاء.

والآية تدلّ على أنّ الإقامة في منى في الأيام المعدودات واجبة فليس للحاج أن يبيت في تلك الليالي إلّا في منى، ومن لم يبت في منى فقد أخل بواجب فعليه هدي، ولا يرخّص في المبيت في غير منى إلّا لأهل الأعمال التي تقتضي المغيب عن منى، فقد رخّص النبيّ صلى الله عليه وسلم للعباس المبيت بمكّة لأجل أنّه على سقاية زمزم، ورخّص لرعاة الإبل من أجل حاجتهم إلى رعي الإبل في المراعي البعيدة عن منى، وذلك كلّه بعد أن يرموا جمرة العقبة يوم النحر، ويرجعوا من الغد فيرمون، ورخّص للرعاة الرمي بليل، ورخص الله في هذه الآية لمن تعجّل إلى وطنه أن يترك الإقامة بمنى اليومين الأخيرين من الأيام المعدودات.

{ **فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ** } تفريع لفظي للإذن بالرخصة في ترك حضور بعض أيّام منى لمن أعجله الرجوع إلى وطنه.

التعجّل: عدم اللبث وهو النفر عن منى.

التأخّر: اللبث في منى إلى يوم نفر جميع الحجيج.

{ **فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ** } ظاهر المعنى في نفي الإثم عنه.

{ **وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ** } يشكل بأنّ نفي الإثم يقتضي توهّم حصوله، فيصير التأخّر إلى اليوم الرابع رخصة مع أنّه هو العزيمة، ودُفع هذا التوهم بما روي أنّ أهل الجاهلية كانوا على فريقين؛ فريق منهم يبيحون التعجيل، وفريق يبيحون التأخير إلى الرابع فوردت الآية للتوسعة في الأمرين.

المعنى: ليكن ذكركم الله ودعاؤكم في أيّام إقامتكم في منى، وهي الأيام المعدودات الثلاثة الموالية ليوم الأضحى، وأقيموا في منى تلك الأيام فمن دعته حاجته إلى التعجيل بالرجوع إلى وطنه فلا إثم عليه أن يترك يومين من أيام منى وهما الثاني عشر من ذي الحجة والثالث عشر منه.

وعندي أنّ وجه ذكر { وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ }، أنّ الله لمّا أمر بالذكر في أيام منى وترك ما كانوا عليه في الجاهليّة، وقال بعد ذلك { فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ } خيف أن يُتوهّم أنّ التعجيل بالنفر أوْلى فدفع ذلك بقوله { وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ } فإذا نفى هذا التوهّم علم السامع أنّه قد ثبتت للمتأخّر فضيلة الإقامة بتلك المنازل المباركة والمشاركة فيها بذكر الله تعالى، ولذلك عقّبه بقوله { **لِمَنِ اتَّقَى** }، أي: لمن اتقى الله في تأخّره فلم يرفث ولم يفسق في أيام منى.

{ **وَاتَّقُوا اللَّهَ** } وصيّة جامعة للراجعين من الحجّ أن يراقبوا تقوى الله في سائر أحوالهم وأماكنهم ولا يجعلوا تقواه خاصة بمدّة الحجّ كما كان حال المشركين، فقد كانوا إذا انقضى الحجّ رجعوا يتقاتلون ويغيرون ويفسدون، وكما يفعله كثير من عصاة المسلمين عند انقضاء رمضان.

{ **وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** } تحريض على التقوى وتحذير من خلافها.

الحشر: الجمع بعد التفرّق. فلذلك ناسب قوله { **تُحْشَرُونَ** } حالتي تفرّق الحجيج بعد انقضاء الحجّ واجتماع أفراد كلّ فريق منهم إلى بلده بعد ذلك.

{ وَمِنَ النّاس مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ [204] وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ [205] وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ [206] }.

عطف على جملة { فَمِنَ النّاس مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا }، لأنّه ذكر هنالك حال المشركين الصرحاء الذين لا حظ لهم في الآخرة، وقابل ذكرهم بذكر المؤمنين الذين لهم رغبة في الحسنة في الدنيا والآخرة، فانتقل هنا إلى حال فريق آخرين ممّن لا حظ لهم في الآخرة وهم متظاهرون بأنّهم راغبون فيها، مع مقابلة حالهم بحال المؤمنين الخالصين الذين يؤثرون الآخرة والحياة الأبدية على الحياة الدنيا.

{ **يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ** } والاعجاب إيجاد العَجَب في النفس، والعَجَب : انفعال للنفس عند مشاهدة أمر غير مألوف خفي سببه. والمراد من القول هنا: ما فيه من دلالته على حاله في الإيمان والنصح للمسلمين، لأنّ ذلك هو الذي يهمّ الرسول ويعجبه. أي: يحسن عندك قوله.

والخطاب إمّا للنبيّ صلى الله عليه وسلم، أي: ومن النّاس من يُظهر لك ما يعجبك من القول، وهو الإيمان وحب الخير والإعراض عن الكفّار. فيكون المراد المنافقين ومعظمهم من اليهود وفيهم من المشركين من أهل يثرب وهذا هو الأظهر عندي. أو طائفة معيّنة من المنافقين.

وقيل: أريد به الأخنس بن شريف الثقفي واسمه أُبَي، وكان لمولى لبني زهرة من قريش وهم أخوال النبيّ صلى الله عليه وسلم، وكان يظهر المودّة للنبيّ صلى الله عليه وسلم، ولم ينضم إلى المشركين في واقعة بدر بل خنس، أي تأخّر عن الخروج معهم إلى بدر وكان له ثلاثمائة من بني زهرة أحلافه فصدّهم على الانضمام إلى المشركين. فقيل: إنّه كان يظهر الإسلام وهو منافق. وقال ابن عطية: لم يثبت أنّه أسلم قط، ولكن كان يظهر الودّ للرسول، فلمّا انقضت وقعة بدر قيل: إنّه حرق زرعا للمسلمين وقتل حميرا لهم فنزلت فيه هاته الآية، ونزلت فيه أيضا { وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ } [القلم:11]، ونزلت فيه { وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ } [الهمزة:1]. وقيل: بل كانت بينه وبين قومه ثقيف عداوة فبيّتهم ليلا فأحرق زرعهم وقتل مواشيهم فنزلت فيه الآية، وعلى هذا فتقريعه لأنّه غدرهم وأفسد.

ويجوز أنّ الخطاب لغير معيّن ليعمّ كل مخاطب، تحذيرا للمسلمين من أن تروج عليهم حيل المنافقين وتنبيهه لهم إلى استطلاع أحوال النّاس، وذلك لا بد منه.

{ **فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** } يجوز أن يتعلّق بـ { يُعْجِبُكَ } فيراد به أنّ اعجابك بهم وبقولهم لا يتجاوز الحصول في الحياة الدنيا لأنّك في الآخرة تجدهم بحالة لا تعجبك. ويجوز أن يتعلّق بكلمة { قَوْلُهُ }، أي: كلامه عن شؤون الدنيا من محامد الوفاء في الحلف مع المسلمين والودّ للنبيّ صلى الله عليه وسلّم.

{ **ويُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ** } أنه يُقرن حُسن قوله وظاهر تودّده بإشهاد الله تعالى على أنّ ما في قلبه مطابق لما في لفظه، ومعنى إشهاد الله حلفه بأنّ الله يعلم أنّه لصادق.

{ **وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ** } شديد الخصومة ، أي: العداوة، فهو لادّ ولدود. فاللدّة : شدّة الخصومة، والألدّ: شديد الخصومة. وفي إضافته للخصام إشكال، لأنّه يصير معناه: شديد الخصام من جهة الخصام، فقال في الكشّاف: إمّا أن تكون الإضافة على المبالغة على طريقة المجاز العقلي، كأنّه قيل: خصامه شديد الخصام، كما قالوا: جنّ جنونه. أو أن تكون الإضافة على معنى (في)، أي: في حال الخصام.

{ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا }

{ **وَإِذَا تَوَلَّى** } إمّا مشتق من التولية: وهي الإدبار والانصراف، يقال: ولّى وتولّى. أي: وإذا فارقك سعى في الأرض ليفسد. وإمّا مشتق من الوَلاية: يقال وَلِيَ البلد وتولّاه، أي: إذا صار واليًا، أي: إذا تزعّم ورأس النّاس سعى في الأرض بالفساد. وقد كان الأخنس زعيم مواليه وهم بنو زهرة.

السعي: حقيقته المشي الحثيث، ويطلق على العمل والكسب، ويطلق على التوسّط بين النّاس لإصلاح ذات البين، ويطلق على الحرص وبذل العزم لتحصيل شيء.

فيجوز أن يكون هنا بالمعنيين الأوّل والرابع، أي: ذهب يسير في الأرض غازيا ومغيرا ليفسد فيها. فيكون إشارة إلى ما فعله الأخنس بزرع بعض المسلمين، لأنّ ذلك مؤذن بكفره وكذبه في مودّة النبيّ صلى الله عليه وسلم، إذ لو كان ودّه صادقا لما آذى أتباعه، أو إلى ما صنعه بزرع ثقيف على قول من قال من المفسّرين أنّ الأخنس بيّت ثقيفا. لأنّ صنيعه هذا بقوم وإن كانوا يومئذ كفارا ينمّ عن خبث

طويّة لا تتطابق مع ما يظهره من الخير ولين القول.

{ **وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ** } **يُهلك**: (بضم الياء) أي: يتلفه. و**الحرث**: هنا مراد منه الزرع. و**النسل**: أطفال الحيوان مشتقّ من نَسَلَ الصوف نسولا إذا سقط وانفصل.

وعندي أنّ إهلاك الحرث والنسل كناية عن اختلال ما به قوام أحوال النّاس، وأيّا ما كان فالآية دالة على أنّ من يتسبّب في مثل ذلك صريحا و كناية مستحقّ للعقاب في الآخرة، ولذلك عقّب بجملة التذييل.

{ **وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ** } تحذير وتوبيخ. ومعنى نفي المحبّة: نفي الرضا بالفساد.

{ **وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ** } إي: وإذا وعظه واعظ بما يقتضي تذكيره بتقوى الله تعالى غضب لذلك.

العزّة: صفة يرى صاحبها أنّه لا يقدر عليه غيره، ولا يُعارض في كلامه لأجل مكانته في قومه واعتزازه بقوتهم.

{ **بالإثم** } الباء فيه للمصاحبة، أي: أخذته العزّة الملابسة للإثم والظلم.

{ **فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ** } تفريع على هاته الحالة، وأصل الحسب هو الكافي، ولمّا كان كافي الشيء من شأنه أن يكون على قدره وممّا يرضيه أطلق الحسب على الجزاء كما هنا.

جهنّم: علم على دار العقاب الموقدة نارا. جاء من لغة غير عربيّة، ولذلك لا حاجة إلى البحث عن اشتقاقه.

{ **وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ** } والمهاد ما يُمْهَد، أي: يُهيّأ لمن ينام. وإنّما سمَّى جهنم مهادا تهكّما، لأنّ العصاة يلقون فيها فتصادف جنوبهم وظهورهم.

{ وَمِنَ النّاس مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ } [207].

هذا قسيم { وَمِنَ النّاس مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ } [204] وذكره هنا بمنزلة الاستطراد استيعابا لقسمي النّاس، فهذا القسم هو الذي تمحّض فعله للخير حتّى بلغ غاية ذلك، وهو تعريض نفسه، التي هي أنفس الأشياء عليه، للهلاك لأجل تحصيل ما يرضي الله تعالى.

{ **يَشْرِي** } معناه يبيع، كما يشتري بمعنى يبتاع. واستعمل يَشْرِي هنا في البذل مجازا.

في أسباب النزول قال سعيد بن المسيّب: نزلت في صهيب بن سنان النمري الملقّب بالرومي [ت 37هـ]، لأنّه كان أسره الروم في الجاهلية في جهات الموصل واشتراه بنو كلب وكان مولاهم وأثْرى في الجاهلية بمكّة وكان من المسلمين الأوّلين، أسلم هو وعمّار بن ياسر في يوم واحد، فلمّا هاجر النبيّ صلى الله عليه وسلم خرج صهيب مهاجرا فلحق به نفر من قريش ليوثقوه فنزل عن راحلته وانتثل كنانه وكان راميا وقال لهم: لقد علمتم أنّي من أرماكم وأيّم الله لا تصلون إلي حتّى أرمي بما في كنانتي ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي منه شيء، فقالوا: لا نتركك تخرج من عندنا غنيّا وقد جئتنا صعلوكا،

ولكن دلّنا على مالك ونخلي عنك، وعاهدوه على ذلك، فدلّهم على ماله، فلمّا قدم على النبيّ صلى الله عليه وسلم قال له حين رآه: **" ربح البيع أبا يحيى "**، وتلا عليه هذه الآية. وقيل غير ذلك، والأظهر أنّها عامة.

{ **وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ** } ومناسبة هذا التذييل للجملة أنّ المخبر عنهم قد بذلوا أنفسهم لله وجعلوا أنفسهم عبيده، فالله رؤوف بهم. فالرأفة كناية عن لازمها وهو إيتاء الخيرات كالرحمة.

{ **بِالْعِبَادِ** } الظاهر أنّ التعريف تعريف استغراق، لأنّ الله رؤوف بجميع عباده وهم متفاوتون فيها، فمنهم من تناله رأفة الله في الدنيا وفي الآخرة، على تفاوت فيهما يقتضيه علم الله وحكمته، ومنهم من تناله رأفة الله في الدنيا دون الآخرة وهم المشركون والكافرون، فإنّ من رأفته بهم أنّه أعطاهم العافية والرزق.

{ **وَمِنَ النّاس مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** - إلى قوله - **رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ** } [204–207] في هذه الآيات معان من معاني أدب النفوس ومراتبها وأخلاقها تعلّم المؤمنين واجب التوسّم في الحقائق ودواخل الأمور وعدم الاغترار بالظواهر إلّا بعد التجربة والامتحان، فإنّ من النّاس من يَغُر بحسن ظاهره وهو منطو على باطن سوء، ويعطي من لسانه حلاوة تعبير وهو يضمر الشرّ والكيد، وتبلغ هلهلة دينه إلى حدّ أن يُشهد الله على أنّ ما يقوله صدق وهو بعكس ذلك يبيّت في نفسه الخصام والكراهية.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِين [208] فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [209] }.

خطاب للمسلمين على عادة القرآن في إطلاق هذا العنوان { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا }، ولأنّ شأن الموصول أن يكون بمنزلة المعرّف بلام العهد.

{ **ادْخُلُوا** } هنا مستعار للاتّباع والالتزام وشدّة التلبّس بالفعل.

{ **السِّلْمِ** } (بفتح السين وكسرها مع سكون اللام)، واشتقاقه من السلامة وهي النجاة من ألم أو ضرّ أو عناد، يقال: أسلم نفسه لفلان أي: أعطاه إياها بدون مقاومة، واستسلم طلب السلم، أي: ترك المقاومة، وتقول العرب أسِلم أم حرب؟ أي: أأنت مسالم أم محارب؟

فالذي يبدو لي أن تكون مناسبة ذكر هذه الآية عقب ما تقدّم هي أنّ قوله تعالى { وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ } تهيئة لقتال المشركين لصدّهم المسلمين عن البيت وإرجافهم بأنّهم أجمعوا أمرهم على قتالهم، والإرجاف بقتل عثمان بن عفان بمكّة حين أرسله رسول الله إلى قريش، فذكر ذلك واستطرد بعده ببيان أحكام الحجّ والعمرة، فلمّا قضى حقّ ذلك كلّه والْحق به ما أمر الله بوضعه في موضعه بين تلك الآيات، أستؤنف هنا أمرهم بالرضا بالسلم والصلح الذي عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أهل مكّة عام الحديبيّة، لأنّ كثيرا من المسلمين كانوا آسفين من وقوعه، ومنهم عمر بن الخطاب فقد قال:

"ألسنا على الحقّ وعدونا على الباطل فكيف نعطي الدنيّة في ديننا ". [رواه أهل الصحيح]
ويجوز أن يكون المراد من السلم هنا المعنى الحقيقي، ويراد السلم بين المسلمين، يأمرهم الله تعالى، بعد أن اتصفوا بالإيمان، بألّا يكون بعضهم حربا لبعض كما كانوا عليه في الجاهلية.
{ **كَافَّةً** } اسم يفيد الإحاطة بأجزاء ما وصف به.
{ **وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ** } ، تحذير ممّا يصدّهم عن الدخول في السلم المأمور به بطريق النهي، عن خلاف المأمور به، وفائدته التنبيه على أنّ ما يصدّ عن الدخول في السلم هو من مسالك الشيطان المعروف بأنّه لا يشير بالخير.
{ **فَإِنْ زَلَلْتُمْ** } أصل الزلل الزلق، أي: اضطراب القدم وتحرّكها في الموضع المقصود إثباتها به، واستعمل الزلل هنا مجازا في الضرّ الناشئ عن اتباع الشيطان، لأنّه لمّا شُبِّهت هيئة من يعمل بوسوسة الشيطان بهيئة الماشي على أثر غيره، شبّه ما يعتريه من الضرّ في ذلك المشي بزلل الرجل في المشي في الطريق المزلقة.
{ **مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ** } إعذار لهم، وفيه إشارة إلى أنّهم يجب عليهم تفويض العلم إلى الله الذي أوحى إلى رسوله بإبرام الصلح مع المشركين، لأنّه ما أوحاه الله إلاّ لمصلحة وليس ذلك بموهن للمسلمين.
البيّنات: الأدلّة والمعجزات الدالة على صدق الرسول.
{ **فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** }
العزيز: فعيل من عزّ إذا قوي ولم يُغلب، أصله من العِزّة. فكان العلم بأنّه تعالى عزيز مستلزما تحقّقهم أنّه معاقبهم لا يفلتهم، لأنّ العزيز لا ينجو مَن يناوئه.
الحكيم: يجوز أن يكون اسم فاعل من حكم، أي: قويّ الحكم، ويحتمل أنّه المُحكِم للأمور، ومناسبته هنا أنّ المتقن للأمور لا يفلت مستحقّ العقوبة، فالكلام وعيد.

{ **هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ** } [210].
إن كان الضمير لمن يعجبك أو له ولمن يشري نفسه، فالجملة استئناف بياني، لأنّ هاتين الحالتين العجيبتين في الخير والشر تثيران سؤال من يسأل عن جزاء كلا الفريقين، فيكون قوله { هَلْ يَنْظُرُونَ } جوابا لذلك.
وإن كان الضمير راجعا إلى الذين آمنوا فجملة { هَلْ يَنْظُرُونَ } استئناف للتحريض على الدخول في الإسلام خشية يوم الجزاء أو طمعا في ثوابه.

وإن كان الضمير للذين زلّوا فالجملة بدل اشتمال لأنّ معناه { فَإِنْ زَلَلْتُمْ } فالله لا يفلتكم لأنّه عزيز حكيم، وعدم الإفلات يشتمل على إتيان أمر الله والملائكة.

وإن كان الضمير عائدا إلى اليهود فهو توبيخ لهم على مكابرتهم عن الاعتراف بحقية الإسلام.

وعلى كلّ الاحتمالات التي لا تتنافى فقد جاء نظم قوله { هَلْ يَنْظُرُونَ } بضمير الجمع نظما جامعا للمحامل كلّها ممّا هو أثر من آثار إعجاز هذا الكلام المجيد الدال على علم الله تعالى بكلّ شيء.

{ **هَلْ يَنْظُرُونَ** } حرف (هل) مفيد الاستفهام ومفيد التحقيق، ويظهر أنّه موضوع للاستفهام عن أمر يراد تحقيقه. والاستفهام إنكاري لا محال بدليل الاستثناء، فالكلام خبر في صورة الاستفهام.

النظر: الانتظار والترقّب، يقال نظره بمعنى ترقَّبه.

وهذا المركّب ليس مستعملا فيما وضع له من الإنكار بل مستعملا في التهديد والوعيد وهو الظاهر الجاري على غالب الوجوه المتقدّمة في الضمير، وإمّا في الوعد إن كان الضمير لمن يشري نفسه، وإمّا في القدر المشترك وهو العِدَة بظهور الجزاء إن كان الضمير راجعا للمنافقين، وإمّا في التهكّم إن كان المقصود المنافقين اليهود أو المشركين.

{ **ظُلَلٍ** } مشتقّة من اسم الظلّ، والظُلّة ما يجلس تحتها لتوقّي شعاع الشمس. وهي هنا مستعارة أو مشبّه بها تشبيها بليغا السحابات العظيمة التي تشبه كل سحابة منها ظلّة القصر.

{ **إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ** } والإتيان حضور الذات في موضع آخر سبق حصولها فيه، وأسند الإتيان إلى الله تعالى في هذه الآية على وجه الإثبات فاقتضى ظاهره اتصاف الله تعالى به، ولمّا كان الإتيان يستلزم التنقّل أو التمدّد ليكون حالًّا في مكان بعد أن لم يكن به حتّى يصحّ الإتيان، وكان ذلك يستلزم الجسم، والله منزّه عنه، تعيّن صرف اللفظ عن ظاهره بالدليل العقلي، فإن كان الكلام خبرا أو تهكّما فلا حاجة للتأويل، لأنّ اعتقادهم ذلك مدفوع بالأدلة، وإن كان الكلام وعيدا من الله لزم التأويل، لأنّ الله تعالى موجود في نفس الأمر لكنّه لا يتّصف بما هو من صفات الحوادث كالتنقّل والتمدّد لما علمت، فلا بد من تأويل هذا عندنا، على أصل الاشعري في تأويل المتشابه، وهذا التأويل إمّا في معنى الإتيان أو في إسناده إلى الله، أو بتقدير محذوف من مضاف أو مفعول، وإلى هذه الاحتمالات ترجع الوجوه التي ذكرها المفسّرون:

الوجه الأوّل: ذهب سلف الأمّة قبل حدوث تشكيكات الملاحدة إلى إقرار الصفات المتشابهة دون تأويل فالإتيان ثابت لله تعالى، لكن (الكيف) من المتشابه الذي لا نخوض فيه.

الوجه الثاني: على طريقة الخلف من أئمة الأشعريّة، أقول يجوز تأويل إتيان الله بأنّه في التجلّي والاعتناء إذا كان الضمير راجعا لمن يشتري نفسه ابتغاء مرضاة الله، أو بأنّه مجاز في تعلّق القدرة بإظهار الجزاء إن كان الضمير راجعا للفريقين، أو هو مجاز في الاستئصال، يقال: أتاهم الملك إذا عاقبهم. ولذلك يقولون: أتى عليه بمعنى أهلكه واستأصله، فلمّا شاع ذلك شاع الإتيان على لازمه وهو

الإهلاك والاستئصال، قال تعالى { فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا } [الحشر:2].

الوجه الثالث: إسناد الإتيان إلى الله تعالى إسناد مجازي وإنّما يأتيهم عذاب الله يوم القيامة أو في الدنيا.

الوجه الرابع: يأتيهم كلام الله الدال على الأمر، ويكون ذلك الكلام مسموعا من قبل ظلل من الغمام تحفّه الملائكة.

الوجه الخامس: أنّ هنالك مضافا مقدرا، أي: يأتيهم أمر الله، أي: قضاؤه بين الخلق ،أو يأتيهم بأس الله .

الوجه السادس: حذف مضاف تقديره، آيات الله أو بيّناته، أي: دلائل قدرته، أو دلائل صدق رسله. وهو بعيد.

الوجه السابع: أنّ هنالك معمولا محذوفا دلّ عليه قوله { فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [209] والتقدير لأن يأتيهم الله بالعذاب أو ببأسه. والأحسن: تقدير أمر عام يشمل الخير والشرّ لتكون الجملة وعدا ووعيدا.

وقد ذكرت في تفسير قوله تعالى { مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنّ أُمْ الكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ } [آل عمران:7] ما يتحصّل منه أنّ ما يجري على اسمه تعالى من الصفات والأحكام وما يسند إليه من الافعال في الكتاب والسنّة أربعة أقسام:

قسم اتصف الله به على الحقيقة كالوجود و الحياة، لكن بما يخالف المتعارف فينا.

قسم اتصف الله بلازم مدلوله وشاع ذلك حتّى صار المتبادر في المعنى دون الملزومات مثل الرحمة والغضب والرضا والمحبة.

قسم هو متشابه وتأويله ظاهر.

قسم متشابه شديد التشابه.

{ **فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ** } أشد إشكالا من إسناد الإتيان إلى الله تعالى لاقتضائه الظرفية، وهي مستحيلة على الله تعالى، وتأويله إمّا بأنّ (في) بمعنى الباء، أي: يأتيهم بظلل من الغمام، وهي ظلل تحمل العذاب من الصواعق أو الريح العاصفة أو نحو ذلك إن كان العذاب دنيويّا، أوتشتمل على ما يدلّ على أمر الله تعالى أو عذابه. وفي تفسير القرطبي والفخر قيل: إنّ في الآية تقديما وتأخيرا، وأصل الكلام أن يأتيهم الله والملائكة في ظلل من الغمام، فالغمام ظرف لإتيان الملائكة.

{ **وَالْمَلائِكَةُ** } بالرفع عطفا على اسم الجلالة، وإسناد الإتيان إلى الملائكة لأنّهم الذين يأتون بأمر الله أو عذابه وهم الموكل إليهم تنفيذ قضائه، فإسناد الإتيان إليهم حقيقة، فإن كان الإتيان المسند إلى الله تعالى مستعملا في معنى مجازي فهو مستعمل بالنسبة للملائكة في معناه الحقيقي.

{ **وَقُضِيَ الْأَمْرُ** } إمّا عطف على جملة { هَلْ يَنْظُرُونَ } والمعنى ما ينتظرون إلّا أن يأتيهم الله وسوف يُقضى الأمر. وإن كانت جملة { هَلْ يَنْظُرُونَ } وعيدا أو وعدا والفعل كذلك للاستقبال، والمعنى ما يترقّبون إلّا مجيء أمر الله وقضاء الأمر.

وإمّا جملة حالية، أي: وحينئذ قد قضي الأمر. وإمّا تنبيه على أنّهم إذا كانوا ينتظرون لتصديق محمد أن يأتيهم الله والملائكة فإنّ ذلك إن وقع يكون قد قضي الأمر، أي: حقّ عليهم الهلاك.

القضاء: الفراغ والإتمام.

{ **وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ** } الرجوع في الأصل المآب إلى الموضع الذي خرج منه الراجع، ويستعمل مجازا في نهاية الشيء وغايته وظهور أثره.

{ **سَلْ بَنِي إِسْرائيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** } [211].

تتنزل هذه الآية من التي قبلها منزلة البرهان، فإنّ قولهتعالى { هَلْ يَنْظُرُونَ } قد دلّ بكل احتمالات معاد الضمير على تعريض بفرق ذوي غرور وتماد في الكفر وقلّة انتفاع بالآيات البيّنات، فناسب أن يعقّب ذلك بإلفاتهم إلى ما بلغهم من قلّة انتفاع بني إسرائيل بما أوتوه من آيات الاهتداء، فإنّهم عاندوا رسولهم ثم آمنوا به إيمانا ضعيفا ثم بدلوا الدين بعد ذلك تبديلا.

{ **سَلْ** } أمر من سأل يسأل أصله اسأل، والمأمور بالسؤال هو الرسول.

بَنِي إِسْرائيلَ: الحاضرون من اليهود.

{ **آتَيْنَاهُمْ** } المقصود إيتاء سلفهم، لأنّ الخصال الثابتة للأسلاف يصح إثباتها للخلف لترتّب الآثار للجميع، ويجوز أن يكون معنى إيتائهم الآيات أنّهم لمّا تناقلوا آيات رسلهم في كتبهم وأيقنوا بها فكأنّهم أوتوها مباشرة.

{ **مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ** } تمييز { كَمْ }.

الآية: هنا المعجزة ودليل صدق الرسل، أو الكلمات الدالة على مجيء محمد صلى الله عليه وسلم، فإنّها آية لموسى، إذ أخبر بها قبل قرون، وآية لحمد عليه الصلاة والسلام، إذ كان التبشير به قبل وجوده بقرون.

{ **وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ** } المقصود أوّلا من هذا الوعيد بنو إسرائيل، وأفاد أنّ بني إسرائيل قد بدّلوا نعمة الله تعالى فدلّ ذلك على أنّ الآيات التي أوتيها بنو إسرائيل هي نعم عليهم، فبدّلوا نعمة الله بضدّها بعد ظهورها فاستحقّوا العقاب.

التبديل: على الوجه الأوّل تبديل الوصف بأن أعرضوا عن تلك الآيات فتبدّل المقصود منها، إذ صارت بالإعراض سبب شقاوتهم في الدنيا والآخرة.

{ **مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ** } المجيء فيه كاية عن الوضوح والمشاهدة والتمكّن، لأنّها من لوازم المجيء عرفا.

{ **فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** } وإنّما جعل العقاب مترتّبا على التبديل بعد هذا التمكّن للدلالة على أنّه تبديل عن بصيرة لا عن جهل أو غلط . وإظهار اسم الجلالة هنا مع أن مقتضى الظاهر أن يقال: فإنّه شديد

العقاب، لإدخال الروع في ضمير السامع وتربية المهابة، ولتكون هذه الجملة كالكلام الجامع مستقلّا بنفسه، لأنّها بمنزلة المثل أمر قد علمه النّاس من قبل.

العقاب: هو الجزاء المؤلم عن جناية وجرم، سُمِّي عقابا لأنه يعقب الجناية.

{ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [212].

استئناف بالرجوع إلى أحوال كفّار العرب المعنيين من الآيات السابقة قصدا وتعريضا، استئنافا لبيان خُلُقهم العجيب المفضي بهم إلى قلّة الاكتراث بالإيمان وأهله وإلى الاستمرار على الكفر. فعن ابن عباس المراد: رؤساء قريش. وليس المراد بالذين كفروا أهل الكتاب من معلن ومنافق كما روى عن مقاتل، لأنّه ليس من اصطلاح القرآن التعبير عنهم بالذين كفروا، ولأنّ قوله { وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا } يناسب حال المشركين لا حال أهل الكتاب كما سيأتي.

التزيين: جعل الشيء زَيِنًا أو الاحتجاج لكونه زينا، والزين شدّة الحسن.

الحياة الدنيا: مراد بها ما تشتمل عليه الحياة من اللذّات.

ومعنى تزيين الحياة لهم، أنّ ما خلق زينا في الدنيا قد تمكّن من نفوسهم واشتد توغّلهم في استحسانه.

{ وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا } وهذه حالة أعجب من التي قبلها وهي حالة التناهي في الغرور، إذ لم يقتصروا على افتتانهم بزهرة الحياة الدنيا حتّى سخروا بمن لم ينسج على منوالهم من المؤمنين الذين تركوا كثيرا من زهرة الحياة الدنيا لمّا هداهم الدين إلى وجوب ترك ما انطوى على خبائث.

السَخَر: بفتحتين كالفرح، وهو تعجّب مشوب باحتقار الحال المتعجّب منها، وفعله قاصر لدلالته على وصف نفسي مثل عجب. ووجه سخيرتهم بالمؤمنين أنّهم احتقروا رأيهم في إعراضهم عن اللذّات لامتثال أمر الرسول وأفّنوهم في ذلك ورأوهم قد أضاعوا حظوظهم وراء أوهام باطلة.

{ وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } أريد من الذين اتقوا المؤمنون الذين سخر منهم الذين كفروا، لأنّ أولئك المؤمنين كانوا متّقين. على عادة القرآن في انتهاز فرص الهدى والإرشاد ليفيد فضل المؤمنين على الذين كفروا، وينبّه المؤمنين على وجوب التقوى لتكون سبب تفوّقهم على الذين كفروا يوم القيامة، وأمّا المؤمنون غير المتّقين فليس من غرض القرآن أن يعبأ بذكر حالهم ليكونوا دوما بين شدّة الخوف وقليل الرجاء، وهذه عادة القرآن في مثل هذا المقام.

{ فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } الفوقيّة هنا فوقيّة تشريف، وهي مجاز في تناهي الفضل والسيادة، وقيّدت بيوم القيامة، لأنّ ذلك اليوم هو مبدأ الحياة الأبدية. روى عن ابن عباس أنّ الآية نزلت في سادة قريش بمكّة سخروا من فقراء المؤمنين وضعفائهم فأعلمهم الله أنّ فقراء المؤمنين خير منهم عند الله.

{ **وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** } تذييل قصد منه تعظيم تشريف المؤمنين يوم القيامة، ولأنّ سخرية الذين كفروا بالذين آمنوا أنّهم سخروا بفقراء المؤمنين لإقلالهم. ، وفيه وعد لفقراء المؤمنين بالرزق.

الحساب: هنا حصر المقدار، فنفي الحساب نفي لعلم مقدّرات الرزق.

{ كَانَ النّاس أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالحقّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النّاس فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحقّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } [213]

استئناف لبيان أنّ اختلاف الأديان أمر كان من البشر لحكمة اقتضته، وأنّه ارتفع ذلك ورجع الله بالنّاس إلى وحدة الدين بالإسلام.

والظاهر عندي أنّ موقع هذه الآية هنا جامع لموقع تذييل لما قبلها ومقدّمة لما بعدها:

فأمّا التذييل، فلأنّها أفادت بيان حالة الأمم الماضية كيف نشأ الخلاف بينهم في الحقّ ممّا لأجله تداركهم الله ببعثات الرسل في العصور والأجيال التي اقتضتها حكمة الله ولطفه ممّا يماثل الحالة التي نشأت فيها البعثة المحمدية وما لقيه الرسول والمسلمون من المشركين.

وأمّا التقديم، فلأنّها مقدّمة لما يرد بعدها من ذكر اختصاص الإسلام بالهداية إلى الحقّ الذي اختلف فيه الأمم، وذلك من خصائص كون الإسلام مهيمنا على ما سبقه من الشرائع الإلهية وتفضيله على جميع الأديان، وأنّ هذه المزيّة العظمى يجب الاعتراف بها وألّا تكون مثار حسد للنبيّ وأمته.

النّاس: اسم جمع، و(أل) فيه للاستغراق وهو هنا للعموم، أي البشر كلّهم.

الأمّة: (بضم الهمزة) اسم للجماعة الذين أمرهم واحد، مشتقّة من الأَمّ (بفتح الهمزة) وهو القصد، أي: يؤمّون غاية واحدة، وإنّما تكون الجماعة أمّة إذا اتفقوا في الموطن أو الدين أو اللغة أو في جميعها.

ويتعيّن تقدير(فاختلفوا) بعد قوله { أُمَّةً وَاحِدَةً }، لأنّ البعثة ترتّبت على الاختلاف لا على الكون أمّة واحدة، وعلى هذا الفهم قرأ ابن مسعود (كان النّاس أمّة واحدة فاختلفوا فبعث الله).

ويؤيّد هذا التقدير قوله { وَمَا كَانَ النّاس إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا } [يونس:19]، لأنّ الظاهر اتّحاد غرض الآيتين، ولأنّه لمّا أخبر هنا عن النّاس بأنّهم كانوا أمّة واحدة، ونحن نرى اختلافهم، علمنا أنّهم لم يدوموا على تلك الحالة.

والمقصود من الآية على هذا الوجه التنبيه على أنّ التوحيد والهدى والصلاح هي الفطرة التي فطر الله النّاس عليها حين خلقهم ، وأنّها ما غشّاها إلّا تلقين الضلال وترويج الباطل، وأنّ الله بعث النبيين

لإصلاح الفطرة إصلاحا جزئيا، فكان هديهم مختلف الأساليب على حسب اختلاف المصالح والأهلية وشدّة الشكائم، فكان من الأنبياء الميسّر ومنهم المغلظ، وأنّه بعث محمدا لإكمال ذلك الإصلاح، وإعادة النّاس إلى الوحدة على الخير والهدي .

وقيل غير ذلك، غير أن الذي اخترناه وأثبتناه هو الراجح عندنا، ذلك أنّ الله تعالى لمّا خلق نوع الإنسان أراده ليكون أفضل الموجودات في هذا العالم الأرضي فلا جرم أن يكون خلقه على حالة صالحة للكمال والخير.

{ فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالحقّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النّاس فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ }

البعث: الإرسال والإنهاض للمشي، ومنه بعث البعير إذا أنهضه بعد أن برك، والبعث هنا مستعمل في أمر الله النبيّ بتبليغ الشريعة للأمة.

النبيّين: جمع نبيّ وهو فعيل بمعنى مفعول مشتق من النبأ وهو الخبر المهم، لأنّ الله أخبره بالوحي وعلم ما فيه صلاح نفسه وصلاح من ينتسب إليه، فإنّ أمره بتبليغ شريعة الأمّة فهو رسول، فكلّ رسول نبيّ. والقرآن يذكر في الغالب النبيّ مرادا به الرسول، وقد ورد أنّ عدد الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا لا يعلم تفصيلهم وأزمانهم إلّا الله، وعدد الرسل ثلاثمائة وثلاثة عشر.

البشارة: الإعلام بخير حصل أو سيحصل.

النِذارة: (بكسر النون) الإعلام بشرٍّ وضرٍّ حصل أو سيحصل.

وذلك هو الوعد والوعيد الذي تشتمل عليه الشرائع، فالرسل هم الذين جاءوا بالوعد والوعيد، وأمّا الأنبياء غير الرسل فإنّ وظيفتهم هي ظهور صلاحهم بين قومهم حتّى يكونوا قدوة لهم، وإرشاد أهلهم وذويهم ومريديهم للاستقامة من دون دعوة، حتّى يكون بين قومهم رجال صالحون، وإرشاد من يسترشدهم من قومهم، وتعليم من يرونه أهلا .

ثم هم قد يجيئون مؤيدين لشريعة مضت كمجيء إسحاق ويعقوب والأسباط لتأييد شريعة إبراهيم عليه السلام، ومجيء أنبياء بني إسرائيل بعد موسى لتأييد التوراة، وقد لا يكون لهم تعلّق بشرع من قبلهم كمجيء خالد بن سنان العبسي نبيّا في عبس من العرب.

{ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ } هنا مجاز في وصول الشيء من الأعلى مرتبة إلى من هو دونه، وذلك أنّ الوحي جاء من قبل الله تعالى، ودال على مراده من الخلق، فهو وارد للرّسل في جانب له علو منزلة.

الكتاب: هو المكتوب، وأطلق في اصطلاح الشرع على الشريعة لأنّ الله يأمر النّاس بكتابتها لدوام حفظها والتمكّن من مدارستها. وإنّما أفرد الكتاب ولم يقل الكتب، لأنّ المفرد والجمع في مقام الاستغراق سواء، فتعيّن أن يكون المراد الاستغراق لا العهد.

{ لِيَحْكُمَ } الضمير راجع إلى الكتاب فإسناد الحكم إلى الكتاب مجاز عقلي، لأنّه مبيّن ما به الحكم، أو فعل يحكم مجاز في البيان، ويجوز رجوع الضمير إلى اسم الجلالة، أي: أنزل الله الكتاب ليحكم بينهم

وإسناد الحكم مجاز عقلي، لأنّه المسبّب له والآمر بالقضاء به.

{ بَيْنَ النّاس فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ } وحكم الكتاب بين النّاس بيان الحقّ والرشد والاستدلال عليه، وكونه فيما اختلفوا فيه كناية عن إظهار الحق، لأنّ الحقّ واحد لا يختلف فيه إلّا عن ضلال أو خطأ، ولهذا قال جمهور علمائنا: إنّ المصيب في الاجتهاديّات واحد.

{ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحقّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }

بيان حقيقة أخرى من أحوال اختلاف الأمم وهو الاختلاف بين أهل الكتاب بعضهم مع بعض وبين أهل الكتاب الواحد مع تلقّيهم دينا واحدا. والمعنى: وما اختلف فيه إلّا أقوامهم الذين أوتوا كتبهم، فالله بعث الرسل لإبطال الضلال الحاصل من جهل البشر بصلاحهم فجاءت الرسل بالهدى، اتّبعهم من اتبعهم فاهتدى وأعرض عنهم من أعرض فبقي في ضلالة.

ثمّ أحدث اتباع الرسل بعدهم اختلافا آخر وهو اختلاف كلّ قوم في نفس شريعتهم، والمقصود من هذا بيان عجيب حال البشر في تسرّعهم إلى الضلال، وهي حقيقة تاريخية من تاريخ الشرائع. وفيه تحذير المسلمين من الوقوع في مثل ذلك.

الاختلاف في الكتاب، ذهاب كل فريق في تحريف المراد منه مذهبا يخالف مذهب الآخر في أصول الشرع لا في الفروع، فإنّ الاختلاف في أصوله يعطّل المقصود منه.

{ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ } المراد بالبيّنات هنا الدلائل التي من شأنها الصدّ عن الاختلاف في مقاصد الشريعة وهي:

*/ النصوص التي لا تحتمل غير مدلولاتها، أعني قواطع الشريعة.

*/ الظواهر المتعاضدة التي التحقت بالقواطع.

*/ الظواهر التي لم يدع داع إلى تأويلها ولا عارضها معارض.

*/ الظواهر المتعارضة التي دلّ تعارضها على أنّ محمل كل منها على حالة لا تعارض حالة محمل الآخر، وهو المعبّر عنه في الأصول بالجمع بين الأدلة .

*/ تواريخ التشريع الدالة على نسخ حكم حكما آخر.

*/ ما يقوم مقام التاريخ من نحو (هذا ناسخ) أو(كان الحكم كذا فصار كذا).

فهذه بيّنات مانعة من الاختلاف لو كان غرض الأمم اتّباع الحقّ.

{ بَغْياً بَيْنَهُمْ } الظلم، وأصل البغي في كلام العرب الطلب، ثم شاع في طلب ما للغير بدون حقّ فصار بمعنى الظلم معنى ثانيا. وأطلق هنا على الحسد لأنّ الحسد ظلم.

والمعنى: أنّ داعي الاختلاف هو التحاسد وقصد كلّ فريق تغليط الآخر.

والآية تقتضي تحذير المسلمين من الوقوع فيما وقعت فيه الأمم السابقة من الاختلاف في الدين، أي: في أصول الإسلام.

{ **فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا** } القرآن إنّما نزل لهدي المسلمين للحقّ في كلّ ما اختلف فيه أهل الكتب السالفة. والمراد من الذين آمنوا المسلمون لا محالة.

{ **اخْتَلَفُوا** } الضمير عائد للمختلفين كلّهم، سواء الذين اختلفوا في الحقّ قبل مجيء الرسل والذين اختلفوا في الشرائع بعد مجيء الرسل والبيّنات.

الإذن: الخطاب بإباحة فعل، وأصله مشتق من فعل أذن إذا أصغى أذنه إلى كلام من يكلّمه، ثم أطلق على الخطاب بإباحة فعل على طريقة المجاز بعلاقة اللزوم، لأنّ الإصغاء إلى كلام المتكلّم يستلزم الإقبال عليه وإجابة مطلبه، وشاع ذلك حتّى صار الإذن أشْيع في معنى الخطاب بإباحة الفعل، وبذلك صار لفظ الإذن قابلا لأن يستعمل مجازا في معان من مشابهات الخطاب بالإباحة، فأطلق في هذه الآية على التمكين من الاهتداء وتيسيره، بما في الشرائع من بيان الهدى والإرشاد إلى وسائل الاهتداء على وجه الاستعارة، لأنّ من يسّر لك شيئا فكأنّه أباح لك تناوله.

{ **وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** } تذييل لبيان أنّ فضل الله يعطيه من يشاء.

وهذا إجمال وتفصيله أنّ حكمة الله اقتضت أن يتأخّر تمام الهدى إلى وقت مجيء شريعة الإسلام، لمّا تهيّأ البشر بمجيء الشرائع السابقة لقبول هذه الشريعة الجامعة.

{ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حتّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ } [214].

القصد من ذكر الأمم السالفة، حيثما وقع في القرآن، هو العبرة والموعظة والتحذير من الوقوع فيما وقعوا فيه بسوء عملهم، والاقتداء في المحامد، فكان في قوله تعالى { كَانَ النّاس أُمَّةً وَاحِدَةً } إجمال لذلك وقد ختم بقوله { فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحقّ بِإِذْنِهِ }، ولمّا كان هذا الختام منقبة للمسلمين أوقظوا أن لا يزهوا بهذا الثناء فيحسبوا أنّهم قضوا حقّ شكر النعمة فعقّب بأنّ عليهم أن يصبروا لما عسى أن يعترضهم في طريق إيمانهم من البأساء والضراء اقتداء بصالحي الأمم السالفة، فكما حذّرهم الله من الوقوع فيما وقع فيه الضالون من أولئك الأمم، حرّضهم هنا على الاقتداء بهدى المهتدين منهم على عادة القرآن في تعقيب البشارة بالنذارة وعكس ذلك.

وفي الآية تصبير لهم على ما نالهم يوم الحديبية من تطاول المشركين عليهم بمنعهم من العمرة وما اشترطوا عليهم للعام القابل. وقد روي عن أكثر المفسّرين الأوّلين أنّ هذه الآية نزلت في غزوة الخندق حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد والشدائد، فتكون تلك الحادثة زيادة في المناسبة.

وقد لقي المسلمون في صدر الإسلام من أذى المشركين البأساء والضراء وأخرجوا من ديارهم وتحمّلوا مضض الغربة، فلمّا وردوا المدينة لقوا من أذى اليهود في أنفسهم وأذى المشركين في قرابتهم وأموالهم بمكّة ما كدّر عليهم صفو حفاوة الأنصار بهم، كما أنّ الأنصار لقوا من ذلك شدة المضايقة.

{ **الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ** } هم الأمم الذين مضوا وانقرضوا.

المسّ: حقيقته اتصال الجسم بجسم آخر وهو مجاز في إصابة الشيء وحلوله، ومسّه الفقر والضرّ إذا حلّ به، وأكثر ما يطلق في إصابة الشرّ.

{ **وَزُلْزِلُوا** } أي أُزعجوا أو اضطربوا، وإنّما الذي اضطرب نظام معيشتهم.

{ **حتّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ** } و(حتّى) غاية للمسّ والزلزال، أي بلغ بهم الأمر إلى غاية يقول عندها الرسول والذين معه متى نصر الله.

{ **أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ** } بشارة من الله تعالى للمسلمين بقرب النصر بعد أن حصل لهم من قوارع صدر الآية ما ملأ القلوب رعبا، والقصد منه إكرام هذه الأمّة بأنّها لا يبلغ ما يمسّها مبلغ ما مسّ مَن قبلها .وإكرام للرسول صلى الله عليه وسلم بألّا يحتاج إلى قول ما قالته الرّسل قبله من استبطاء نصر الله بأن يجيء نصر الله لهاته الأمة قبل استبطائه، وهذا يشير إلى فتح مكة.

{ **يَسْأَلونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ** } [215].

روى الواحدي عن ابن عباس أنّ السائل عمرو بن الجموح الأنصاري، وكان ذا مال فقال: يا رسول الله بماذا يُتصدّق وعلى من يُنفق؟ وقال ابن عطية: " السائلون هم المؤمنون "، يعني أنّه تكرّر السؤال عن تفصيل الإنفاق الذي أُمروا به غير مرة على الإجمال، فطلبوا بيان من يُنفق عليهم.

وموقع هذه الآية في هذا الموضع إمّا لأنّ نزولها وقع عقب نزول التي قبلها وإمّا لأمر بوضعها في هذا الموضع جمعا لطائفة من الأحكام المفتتحة بجملة { يَسْأَلونَكَ } وهي ستة أحكام.

{ **مَاذَا يُنْفِقُونَ** } ومعنى الاستفهام عن المنفَق السؤال عن أحواله التي يقع بها موقع القبول عند الله، فإنّ الإنفاق حقيقة معروفة في البشر وقد عرفها السائلون في الجاهلية، إذ لا يعقل أن يسألوا عن المال المنفق بمعنى السؤال عن النوع الذي ينفق من ذهب أم من ورق أم من طعام، لأنّ هذا لا تتعلّق بالسؤال عنه أغراض العقلاء، فيتعيّن أنّ السؤال عن كيفيّات الإنفاق ومواقعه.

الخير: المال كما تقدّم في آية الوصيّة { إِنْ تَرَكَ خَيْرًا } [البقرة:180].

والآية دالة على الأمر بالإنفاق على هؤلاء والترغيب فيه، وهي في النفقة التي ليست من حقّ المال أعني الزكاة، ولا هي من حق الذات من حيث إنّها ذات كالزوجة، بل هذه النفقة التي هي من حق المسلمين بعضهم على بعض لكفاية الحاجة وللتوسعة، وأولى المسلمين بأن يقوم بها أشدّهم قرابة بالمعوزين منهم، فمنها واجبة كنفقة الأبوين الفقيرين والأولاد الصغار الذين لا مال لهم إلى أن يقدروا على التكسّب أو ينتقل حق الإنفاق إلى غير الأبوين، وذلك كلّه بحسب عادة أمثالهم.

وفي تحديد القربى الموجبة للإنفاق خلاف بين الفقهاء. فليست هاته الآية بمنسوخة بآية الزكاة، إذ لا تعارض بينهما حتّى نحتاج للنسخ، وليس في لفظ هاته الآية ما يدلّ على الوجوب حتّى يُظنّ أنّها نزلت في صدقة واجبة قبل فرض الزكاة.

ابن السبيل: هو الغريب عن الحي المار في سفره، يُنفق عليه ما يحتاج إليه.

{ **وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ** } الكناية عن الجزاء عليه، لأنّ العليم القدير إذا امتثل أحد لأمره لا يحول بينه وبين جزائه عليه حائل.

{ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ } [216].

هذه الآية نزلت في واقعة سَرِيَّة عبد الله بن جحش كما يأتي، وذلك في الشهر السابع عشر من الهجرة، فالآية وردت في هذه السورة مع جملة التشريعات والنظم التي حوتها. فعلى المختار يكون قوله { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ } خبرا عن حكم سبق لزيادة تقريره.

{ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ** } من صيغ الوجوب وقد تقدّم في آية الوصية. ولا يكون القتال إلاّ للأعداء، فهو عام عموما عرفيا، أي كتب عليكم قتال عدو الدين. والخطاب للمسلمين، وأعداؤهم يومئذ المشركون، لأنّهم خالفوهم في الدين وآذوا الرسول والمؤمنين، فالقتال المأمور به هو الجهاد لإعلاء كلمة الله، وقد كان النبيّ صلى الله عليه وسلم غير مأذون في القتال في أوّل ظهور الإسلام، ثمّ أُذن له في ذلك بقوله { أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا } [الحج:39] ثم نزلت آية قتال المبادئين بقتال المسلمين في قوله { وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ } [البقرة:190] كما تقدّم آنفا.

{ **وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ** } حال، أي: كتبناه عليكم ونحن عالمون أنّه شاق عليكم.

الكُره: (بضم الكاف) الكراهية ونفرة الطبع من الشيء، ومثله الكَره(بالفتح) على الأصح. ومعلوم أنّ كراهية الطبع لا تنافي تلقّي التكليف به برضا لأنّ أكثر التكليف لا يخلو عن مشقة.

{ **وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ** } تذييل احتيج إليه لدفع الاستغراب، لأنّه إذا كان مكروها فكان شأن رحمة الله بخلقه ألّا يكتبه عليهم فذيّل بهذا لدفع ذلك.

{ **وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ** } يحتمل أن يكون نزلت في شأن صلح الحديبية، وقد كانوا

كرهوا الصلح واستحبّوا القتال، لأنّهم يومئذ جيش كثير فيكون تذكيرا لهم بأنّ الله أعلم بمصالحهم، فقد أوجب عليهم القتال حين كانوا يكرهونه وأوجب عليهم الصلح في وقت أحبوا فيه القتال، فحذف ذلك لقرينة المقام.

وهذا الكلام تلطّف من الله تعالى لرسوله والمؤمنين، وإن كان سبحانه غنيّا عن البيان والتعليل، لأنّه يأمر فيطاع، ولكن في بيان الحكمة تخفيفا من مشقّة التكليف، وفيه تعويد المسلمين بتلقّي الشريعة معلّلة مذلّلة فأشار إلى أنّ حكمة التكليف تعتمد جلب المصالح ودرء المفاسد، ولا تعتمد ملاءمة الطبع ومنافرته، إذ يكره الطبع شيئا وفيه نفعه وقد يحب شيئا وفيه هلاكه، وذلك باعتبار العواقب والغايات، فإنّ الشيء قد يكون لذيذا ملائما ولكن ارتكابه يفضي إلى الهلاك، وقد يكون كريها منافرا وفي ارتكابه صلاح.

فإن قلتَ: ما الحكمة في جعل أشياء كثيرة نافعة مكروهة، وأشياء كثيرة ضارة محبوبة، وهلّا جعل الله تعالى النافع كلّه محبوبا والضّار كلّه مكروها فتنساق النفوس للنافع باختيارها وتجتنب الضّار كذلك فنُكْفى كُلفة مسألة الصلاح والأصلح التي تناظر فيها الأشعري مع شيخه الجبائي وفارق الأشعري من أجلها نحلة الاعتزال؟

قلتُ: إنّ حكمة الله تعالى بَنَت نظام العالم على وجود النافع والضّار والطيب والخبيث من الذوات والصفات والأحداث، وأوكل للإنسان سلطة هذا العالم بحكم خلقه الإنسان صالحا للأمرين وأراه طريقي الخير والشر، وقد أقام نظام هذا العالم على وجود المتضادات، وجعل الكمال الإنساني حاصلا عند حصول جميع الصفات النافعة فيه، بحيث إذا اختلت بعض الصفات النافعة منه انتقصت بقية الصفات النافعة منه أو اضمحلت، وجعل الله الكمال أقلّ من النقص لتظهر مراتب النفوس في هذا العالم ومبالغ العقول البشرية فيه، فاكتسب النّاس وضيَّعوا وضرّوا ونفعوا فكثر الضار وقلّ النافع.

وكلّما صارت الذوات الكاملة الفاضلة أقلّ من ضدّها صارت صفات الكمال عزيزة المنال، وأحيطت عزّتها ونفاستها بصعوبة منالها على البشر وبما يحفّ بها من الخطر والمتاعب. لأنّها لو كانت ممّا تنساق لها النفوس بسهولة لاستوى فيها النّاس فلم تظهر مراتب الكمال ولم يقع التنافس بين النّاس في تحصيل الفضائل واقتحام المصاعب لتحصيلها، فهذا سبب صعوبة الكمالات على النفوس.

ووراء ذلك فالله حدّد للنّاس نظاما لاستعمال الأشياء النافعة والضارة فيما خُلقت لأجله، فالتبعة في صورة استعمالها على الإنسان، وهذا النظام كلّه تهيئة لمراتب المخلوقات في العالم الأبدي عالم الخلود وهو الدار الآخرة، كما يقال: " الدنيا مزرعة الآخرة ".

وبهذا تكمل نظريّة النقض الذي نقض به الشيخ الأشعري على شيخه الجبائي أصلهم في وجوب الصلاح والأصلح فيكون بحث الأشعري نقضا وكلامنا هذا سندا وانقلابا إلى استدلال.

{ **وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ** } تعليم المسلمين تلقّي أمر الله تعالى باعتقاد أنّه الصلاح والخير، وأنّ ما لم

تتبيّن لنا صفته من الأفعال المكلّف بها نوقن بأنّ فيه صفة مناسبة لحكم الشرع فيه فنطلبها بقدر الإمكان عسى أن ندركها، لنفرّع عليها ونقيس، ويدخل تحت هذا مسائل مسالك العلّة، لأنّ الله تعالى لا يجري أمره ونهيه إلّا على وفق علمه.

{ يَسْأَلونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حتّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [217]

{ **يَسْأَلونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ** } روى الواحدي في أسباب النزول أنّ هذه الآية نزلت في شأن سريّة عبد الله بن جحش، فإنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أرسله في ثمانية من أصحابه يتلقّى عيرا لقريش ببطن نخلة في جمادى الآخرة في السنة الثانية من الهجرة، فلقي المسلمون العير فيها تجارة من الطائف وعلى العير عمرو بن الحضرمي، فقتل رجل من المسلمين عمروا وأسر اثنين من أصحابه وهما عثمان بن عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيسان وفر منهم نوفل بن عبد الله بن المغيرة وغنم المسلمون غنيمة، وذلك أوّل يوم من رجب وهم يظنّونه من جمادى الآخرة، فعظم ذلك على قريش وقالوا استحلّ محمد الشهر الحرام وشنّعوا ذلك فنزلت هذه الآية. فقيل إنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ردّ عليهم الغنيمة والأسيرين، وقيل ردّ الأسيرين وأخذ الغنيمة.

فإذا صحّ ذلك كان نزول هذه الآية قبل نزول الآية السابقة { كُتِبَ عَلَيْكُمْ القِتَالُ } [216] وآية { وقاتلوا في سبيل الله } [190] بمدّة طويلة، وكان وضعهما في التلاوة قبلها بتوقيف. والأظهر عندي أنّ هذه الآية نزلت بعد الآية التي قبلها وأنّها تكملة وتأكيد لآية { الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ } [194].

والسؤال المذكور هنا هو سؤال المشركين النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم الحديبيّة، هل يقاتل في الشهر الحرام، وهذا هو المناسب لقوله هنا { وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ }.

{ **قِتَالٍ فِيهِ** } وإنّما اختير طريق الإبدال هنا وكان مقتضى الظاهر أن يقال: يسألونك عن القتال في الشهر الحرام، لأجل الاهتمام بالشهر الحرام تنبيها على أنّ السؤال لأجل الشهر أيقع فيه قتال؟ لا لأجل القتال هل يقع في الشهر، وهما متآيلان، لكن التقديم لقضاء حقّ الاهتمام.

{ **قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ** } إظهار لفظ القتال في مقام الإضمار ليكون الجواب صريحا حتّى لا يُتوهّم أنّ الشهر الحرام هو الكبير، وليكون الجواب على طبق السؤال في اللفظ.

والجواب تشريع إن كان السؤال من المسلمين، واعتراف وإبكات إن كان السؤال إنكارا من المشركين، لأنّهم توقّعوا أن يجيبهم بإباحة القتال فيثوّروا بذلك العرب ومن في قلبه مرض.

والمعنى أن القتال في الأشهر الحرم إثم كبير، فالنكرة هنا للعموم بقرينة المقام، إذ لا خصوصية لقتال قوم دون آخرين، ولا لقتل في شهر دون غيره، لا سيما ومطابقة الجواب للسؤال قد أكّدت العموم.
والآية دليل على تحريم القتال في الأشهر الحرم وتقرير لما تلك الأشهر من الحرمة التي جعلها الله لها منذ زمن قديم، لعلّه من عهد إبراهيم عليه السلام، فإنّ حرمة الزمان تقتضي ترك الإثم في مدّته.
وتحريم القتال في الشهر الحرام قد خُصِّص بعد هذه الآية ثم نسخ، فأمّا تخصيصه فبقوله تعالى { وَلَا تُقَاتِلُوا عِنْدَ المَسْجِدِ الحرام } [191-194]، وأمّا نسخه فبقوله تعالى { بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ - إلى قوله - حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ } [التوبة:1-5]، فإنّها صرَّحت بإبطال العهد الذي عاهد المسلمون المشركين فيه على الهدنة، وهو الواقع في صلح الحديبيّة. ولذلك قاتل النبيّ ثقيفا في شهر ذي القعدة عقب فتح مكّة كما في كتب الصحاح. وأغزى عامر إلى أوطاس في الشهر الحرام. وقد أجمع المسلمون على مشروعيّة الغزو في جميع أشهر السنة.
فإن قلتَ: إذا نُسخ تحريم القتال في الأشهر الحرم فما معنى قوله صلى الله عليه وسلّم في حجّة الوداع: **"إنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا" ؟**
قلتُ: إنّ تحريم القتال فيها تبع لتعظيمها وحرمتها وتنزيهها عن وقوع الجرائم والمظالم فيها. والقتال محرّم في كلّ وقت، والقتال لأجل الحقّ عبادة، فنُسخ تحريم القتال فيها لذلك وبقيت حرمة الاشهر بالنسبة لبقيّة الجرائم.

وأحسن من هذا أنّ الآية قرّرت حرمة القتال في الأشهر الحرم لحكمة تأمين سبل الحج والعمرة، إذ العمرة أكثرها في رجب ولذلك قال { قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ } واستمر ذلك إلى أن أبطل النبيّ صلى الله عليه وسلم الحجّ على المشركين في عام حجة أبي بكر بالنّاس،إذ قد صارت مكّة بيد المسلمين ودخل في الإسلام قريش ومعظم قبائل العرب والبقية مُنعوا من زيارة مكّة، وأنّ ذلك كان يقتضي إبطال تحريم القتال في الأشهر الحرم، لأنّ تحريمه فيها لأجل تأمين سبيل الحج والعمرة، وقد تعطّل ذلك بالنسبة للمشركين ولم يبق الحجّ إلّا للمسلمين وهم لا قتال بينهم، إذ قتال الظلم محرّم في كل زمان، وقتال الحقّ يقع في كل وقت ما لم يشغل عنه شاغل مثل الحجّ، فتسميته نسخا تسامح، وإنّما هو انتهاء مورد الحكم، ومثل هذا التسامح في الأسماء معروف في كلام المتقدّمين. كما انتهى مصرف المؤلفة قلوبهم من مصارف الزكاة بالإجماع لانقراضهم.
{ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ }
إنحاء على المشركين وإظهار لظلمهم بعد أن بكّتهم بتقرير حرمة الأشهر الحرم الدال على أنّ ما وقع من أهل السريّة من قتل رجل فيه كان عن خطأ في الشهر أو ظنّ سقوط الحرمة بالنسبة لقتال العدو، فإنّ المشركين استعظموا فعلا واستنكروه وهم يأتون ما هو أفظع منه.
والمعنى أنّ الصدّ وما عطف عليه من أفعال المشركين أكبر إثما عند الله من إثم القتال في الشهر الحرام.

{ **وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ** } منع من يريد الدخول في الإسلام.

{ **وَكُفْرٌ بِهِ** } الإشراك به بالنسبة للمشركين وهم أكثر العرب، وكذلك إنكار وجوده بالنسبة للدهريين منهم وقدّم قوله { وَكُفْرٌ بِهِ } فجُعل معطوفا على { صَدٌّ } قبل أن يستوفي { صَدٌّ } ما تعلّق به وهو { وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } فإنّه معطوف على { سبيل الله }، والداعي إلى هذا الترتيب هو أن يكون نظم الكلام على أسلوب أدق من مقتضى الظاهر، وهو الاهتمام بتقديم ما هو أفظع من جرائمهم، فإنّ الكفر بالله أفظع من الصدّ عن المسجد الحرام، فكان ترتيب النظم على تقديم الأهم فالأهم، فإنّ الصد عن سبيل الإسلام يجمع مظالم كثيرة، لأنّه اعتداء على النّاس في ما يختارونه لأنفسهم، وجحد لرسالة رسول الله، والباعث عليه انتصارهم لأصنامهم، فليس الكفر بالله إلّا ركنا من أركان الصدّ عن الإسلام فلذلك قدّم الصدّ عن سبيل الله ثم ثنَّى بالكفر بالله ليفاد بدلالة المطابقة بعد أن دلّ عليه الصدّ عن سبيل الله بدلالة التضمّن، ثم عدّ عليهم الصدّ عن المسجد الحرام ثم إخراج أهله منه.

{ **وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ** } أي إخراج المسلمين من مكّة، فإنّهم كانوا حول المسجد الحرام، لأنّ في إخراجهم مظالم كثيرة. على أنّ التفضيل إنما تعلّق بوقوع القتال في الأشهر الحرم لا بنفس القتل فإنّ له حكما يخصّه.

الأهل: الفريق الذين لهم مزيد اختصاص بما يضاف إليه اللفظ، فمنه أهل الرجل: عشيرته، وأهل البلد: المستوطنون به، وأهل الكرم: المتّصفون به. وأراد به هنا المستوطنين بمكّة وهم المسلمون، وفيه إيماء إلى أنّهم أحقّ بالمسجد الحرام.

{ **أَكْبَرُ** } تفضيل الإثم، أي: كلّ واحد من تلك المذكورات أعظم إثما.

الفتنة: التشغيب والإيقاع في الحيرة، واضطراب العيش فهي اسم شامل لما يعظم من الأذى الداخل على أحد أو جماعة من غيرهم. وأريد بها هنا ما لقيه المسلمون من المشركين من المصائب في الدين بالتعرّض لهم بالأذى بالقول والفعل، ومنعهم من إظهار عبادتهم، وقطيعتهم في المعاملة، والسخرية بهم والضرب المدمي والتمالؤ على قتل الرسول صلى الله عليه وسلّم، والإخراج من مكّة ومنعهم من أموالهم ونسائهم وصدّهم عن البيت. ولا يخفى أن مجموع ذلك أكبر من قتل المسلمين واحدا من رجال المشركين وهو عمرو الحضرمي وأسرهم رجلين منهم.

{ **وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حتّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا** } إعلام بأنّ المشركين مضمرون غزو المسلمين ومستعدّون له، وإنّما تأخّروا عنه بعد الهجرة لأنّهم كانوا يقاسون آثار سني جدب، وأنّهم إن شرعوا فيه لا ينقطعون عنه.

الردّ: الصرف عن شيء والإرجاع إلى ما كان قبل ذلك.

{ **إِنِ اسْتَطَاعُوا** } تعريض بأنّهم لا يستطيعون ردّ المسلمين عن دينهم.

{ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }

اعتراض ثان المقصد منه التحذير، لأنّه لمّا ذكر حرص المشركين على ردّ المسلمين عن الإسلام وعقَّبه باستبعاد أن يصدر ذلك من المسلمين، أعقبه بالتحذير منه، ولم يلاحظ اعتبار الدين المرجوع إليه وإنّما نيط الحكم بالارتداد عن الإسلام إلى أي دين، ومن يومئذ صار اسم الردّة لقبا شرعيا على الخروج من دين الإسلام وإن لم يكن في هذا الخروج رجوع إلى دين كان عليه هذا الخارج.

حبط: من باب سمع ويتعدّى بالهمزة، قال اللغويون أصله من الحبَط (بفتح الباء) وهو انتفاخ في بطون الإبل من كثرة الأكل فتموت من ذلك، فإطلاقه على إبطال الأعمال تمثيل. وحبط الأعمال زوال آثارها المجعولة مرتّبة عليها شرعا، فيشمل آثارها في الدنيا والثواب في الآخرة.

{ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } عطف على جملة الجزاء على الكفر، إذ الأمور بخواتمها، فقد ترتب على الكفر أمران: بطلان فضل الأعمال السالفة، والعقوبة بالخلود في النار، ولكون الخلود عقوبة أخرى أعيد اسم الإشارة .

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [218].

تعقيب الإنذار بالبشارة وتنزيه للمؤمنين من احتمال ارتدادهم، فإنّ المهاجرين لم يرتد منهم أحد.

والجملة معترضة بين آيات التشريع.

{ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا } هم الذين خرجوا من مكّة إلى المدينة فرارا بدينهم، مشتقّ من الهجر وهو الفراق، وإنّما اشتق منه وزن المفاعلة للدلالة على أنّه هجر نشأ عن عداوة من الجانبين فكلّ من المنتقل والمنتقل عنه قد هجر الآخر وطلب بعده.

المجاهدة: مفاعلة مشتقّة من الجهد وهو المشقّة. وهي القتال لما فيه من بذل الجهد، وقيل لأنّه يضمّ جهده إلى جهد آخر في نصر الدين مثل المساعدة وهي ضم الرجل ساعده إلى ساعد آخر للإعانة والقوة.

وقيل: لأنّ المجاهد يبذل جهده في قتال من يبذل جهده كذلك لقتاله، فهي مفاعلة حقيقية.

والجهاد والمجاهدة من المصطلحات القرآنية والإسلامية.

سبيل الله: ما يوصل إلى رضاه وإقامة دينه.

{ إِنَّ الَّذِينَ - وَالَّذِينَ } كرّر الموصول لتعظيم الهجرة والجهاد، كأنّهما مستقلان في تحقيق الرجاء.

الرجاء: ترقّب الخير مع تغليب ظنّ حصوله، فإنّ وعد الله وإنّ كان لا يخلف، فضلا منه وصدقا، ولكن الخواتم مجهولة ومصادفة العمل لمراد الله قد تفوت لموانع لا يدريها المكلّف، وأيضا لئلّا يتكلوا في الاعتماد على العمل.

{ يَسْأَلونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ[219] فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [220] }

{ يَسْأَلونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا } استئناف لإبطال عملين غالبين على النّاس في الجاهلية وهما شرب الخمر والميسر، وهذا من عداد الأحكام التي بيّنها في هاته السورة مما يرجع إلى إصلاح الأحوال التي كان عليها النّاس في الجاهلية.

قال الواحدي نزلت في عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل ونفر من الأنصار أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله افتنا في الخمر فإنّها مذهبة للعقل متلفة للمال، فنزلت هذه الآية.

قال في الكشّاف: فلمّا نزلت هذه الآية ترك الخمر قوم وشربها آخرون، ثم نزلت بعدها آية المائدة { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ}.

{ الْخَمْرِ } شرب الخمر عمل متأصّل في البشر قديما لم تحرّمه شريعة من الشرائع لا القدر المسكر بله ما دونه، وأمّا ما يذكره بعض علماء الإسلام إنّ الإسكار حرام في الشرائع كلّها فكلام لا شاهد لهم عليه بل الشواهد على ضدّه متوافرة، وإنّما جرّأهم على هذا القول ما قعّدوه في أصول الفقه من أنّ الكليّات التشريعية وهي (حفظ الدين والنفس والعقل والنسب والمال والعرض) هي مما اتفقت عليه الشرائع، وهذا القول وإن كنّا نساعد عليه فإنّ معناه عندي أنّ الشرائع كلّها نظرت إلى حفظ هاته الأمور في تشريعاتها، وأمّا أن تكون مراعاة باطراد في غير شريعة الإسلام فلا أحسب ذلك يتمّ، على أنّ في مراعاتها درجات. ولا حاجة إلى البحث في هذا.

بيد أن كتب أهل الكتاب ليس فيها تحريم الخمر ولا التنزيه عن شربها، وفي التوراة التي بيد اليهود أنّ نوحا شرب الخمر حتّى سكر، وأنّ لوطا شرب الخمر حتّى سكر سكرا أفضى بزعمهم إلى أمر شنيع، والأخير من الأكاذيب، لأنّ النبوّة تستلزم العصمة، والشرائع وإن اختلفت في إباحة أشياء فهنالك ما يستحيل على الأنبياء، ممّا يؤدّي إلى نقصهم في أنظار العقلاء. والذي يجب اعتقاده أنّ شرب الخمر لا يأتيه الأنبياء، لأنّها لا يشربها شاربوها إلّا للطرب واللهو والسكر وكلّ ذلك مما يتنزه عنه الأنبياء.

وفي سفر اللاويين من التوراة: " وكلّم الله هارون قائلا خمرا ومسكرا لا تشرب أنت وبنوك معك عند دخولكم إلى خيمة الاجتماع لكي لا تموتوا فرضا دهريّا في أجيالكم، وللتمييز بين المقدّس والمحلَّل وبين النجس والطاهر ".

وشيوع شرب الخمر في الجاهلية معلوم لمن علم أدبهم وتاريخهم، فقد كانت الخمر قوام أود حياتهم، وقصارى لذاتهم ومسرّة زمانهم وملهى أوقاتهم. وعن أنس بن مالك: " حرّمت الخمر ولم يكن يومئذ

للعرب عيش أعجب منها، وما حرّم عليهم شيء أشدّ عليهم من الخمر ". فلا جرم أن جاء الإسلام في تحريمها بطريقة التدريج فأقر حقبة إباحة شربها وحسبكم في هذا الامتنان بذلك في قوله { وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً } [النحل:67] على تفسير من فسّر السكر بالخمر، وقيل: السكر هو النبيذ غير المسكر، والأظهر التفسير الأوّل. فقد امتن الله على النّاس بأن اتخذوا سكرا من الثمرات التي خلقها لهم، ثمّ إنّ الله لم يهمل رحمته بالنّاس حتّى في حملهم على مصالحهم فجاءهم في ذلك بالتدريج. وآية سورة النحل نزلت بمكة، واتفق أهل الأثر على أن تحريم الخمر وقع في المدينة بعد غزوة الأحزاب بأيام، أي في آخر سنة أربع، وهو أصحّ الأقوال.

وجمهور المفسّرين على أنّ هذه الآية نزلت قبل آية سورة النساء وقبل آية سورة المائدة، وهذا رأي عمر بن الخطاب كما روى أبو داود. ورُوي أيضا عن ابن عباس أنّه رأى أنّ آية المائدة نسخت { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى } [النساء:43] ونسخت آية { يَسْأَلونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ }، ونُسب لابن عمر والشعبي ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقد رُوي في بعض الآثار أنّ ناسا شربوا الخمر بعد نزول هذه الآية فصلّى رجلان فجعلا يهجران كلاما لا يُدرى ما هو، وشربها رجل من المسلمين فجعل ينوح على قتلى بدر من المشركين، فبلغ ذلك النبيّ صلى الله عليه وسلم فجاءه فزعا ورفع شيئا كان بيده ليضربه فقال الرجل: أعوذ بالله من غضب الله ورسوله وآلله لا أطعمها أبدا، فأنزل الله تحريمها بآية سورة المائدة.

والخمر اسم مشتق من مصدر خمر الشيء خمره إذا ستره، سمّي به عصير العنب إذا غلى واشتد وقذف بالزبد فصار مسكرا، لأنه يستر العقل. والحقّ أنّ الخمر كلّ شراب مسكر، إلاّ أنّه غلب على عصير العنب المسكر، لأنّهم كانوا يتنافسون فيه، وأنّ غيره يطلق عليه خمر ونبيذ وفضيخ، وقد وردت أخبار صحيحة تدلّ على أنّ معظم شراب العرب يوم تحريم الخمر من فضيخ التمر، وأنّ أشربة أهل المدينة يومئذ خمسة غير عصير العنب، وهي من التمر والزبيب والعسل والذرة والشعير وبعضها يسمَّى الفضيخ، والنقيع، والسُّكَرْكة، والبِتْع.

وقد أنبنى على الخلاف في مسمَّى الخمر في كلام العرب خلاف في الأحكام، فقد أجمع العلماء كلّهم على أنّ خمر العنب حرام كثيرها إجماعا وقليلها عند معظم العلماء، ويحدّ شارب الكثير منها عند الجمهور وفي القليل خلاف كما سيأتي في سورة المائدة إن شاء الله تعالى. ثم اختلفوا فيما عداها فقال الجمهور كلّ شراب أسكر كثيره فقليله حرام، وحكمه كحكم الخمر في كل شيء أخذا بمسمّى الخمر عندهم، وبالقياس الجليّ الواضح أنّ حكمة التحريم هي الإسكار وهو ثابت لجميعها وهذا هو الصواب. وقال أبو حنيفة وأبو يوسف وسفيان الثوري يختصّ شراب العنب بتلك الأحكام أمّا ما عداه فلا يحرم منه إلّا القدر المسكر، هكذا ينقل المخالفون عن أبي حنيفة، وكان العلماء في القديم ينقلون ذلك مطلقا حتّى

ربما أوهم نقلهم أنّه لا يرى على من سكر بغير الخمر شيئا، ويزيد ذلك إيهاما قاعدة أن المأذون فيه شرعا لا يتقيّد بالسلامة. ولكن الذي استقر عليه الحنفيّة هو أنّ الأشربة المسكرة قسمان:

القسم الأوّل: محرّم شربه وهو أربعة:

*/ **الخمر**: وهو النّيء من عصير العنب، إذا غَلَى واشتدّ وقذف بالزبد.

*/ **الطِلاء**: (بكسر الطاء) وهو عصير العنب إذا طبخ حتّى ذهب أقلّ من ثلثيه ثم ترك حتّى صار مسكرا.

*/ **السَّكر**: (بفتح السين والكاف) وهو النّيء من ماء الرطب، أي: من الماء الحار المصبوب على الرطب ثم يصير مسكرا.

*/ **النقيع**: وهو النّيء من نبيذ الزبيب.

وهذه الأربعة حرام قليلها وكثيرها ونجسة العين. لكن **الخمر** يكفّر مستحلّها ويحدّ شارب القليل والكثير منها، وأمّا الثلاثة الباقية فلا يكفّر مستحلّها ولا يحد شاربها إلّا إذا سكر.

القسم الثاني: الأشربة الحلال شربها:

*/ نبيذ التمر والزبيب إذا طبخ ولو أدنى طبخة.

*/ نبيذ الخليطين منهما إذا طبخ أدنى طبخة.

*/ نبيذ العسل والتين والرز والشعير والذرة طبخ أم لم يطبخ.

*/ المثلّث وهو ما طبخ من ماء العنب حتّى ذهب ثلثاه وبقي ثلثه.

فهذه الأربعة يحلّ شربها إذا لم يقصد به اللهو والطرب بل إصلاح هضم الطعام أو التداوي وإلّا حرمت ولا يُحدّ شاربها إلّا إذا سكر. وفي كتب الفقه تفصيل الاستدلال ورد الجمهور عليهم.

{ **وَالْمَيْسِرِ** } قمار كان للعرب في الجاهلية، وهو من القمار القديم المتوغّل في القدم. وأصل المقصد من الميسر هو المقصد من القمار كلّه، وهو الربح واللهو، يدلّ لذلك تمدّحهم وتفاخرهم بإعطاء ربح الميسر للفقراء. فالمنافع في الميسر خاصة وعامة وهي دنيوية كلّها، والإثم الذي فيه هو ما يوقعه من العداوة والبغضاء ومن إضاعة الوقت والاعتياد بالكسل والبطالة واللهو والصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة وعن التفقه في الدين وعن التجارة ونحوها ممّا به قوام المدنية، وتلك آثام لها آثارها الضّارة في الآخرة، ولهذه الاعتبارات أُلحق الفقهاء بالميسر كل لعب فيه قمار كالنرد.

{ **قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا** }

الإثم: في اصطلاح الشريعة هو الفعل المذموم في الشرع، فهو ضدّ القربة.

{ **فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ** } أنّهما يتسبّب منهما ما هو إثم في حال العربدة وحال الربح والخسارة من التشاجر. والمراد من الكبير الشديد في نوعه كما تقدّم آنفا. واختير التعبير بالإثم للدلالة على أنّه يعود على متعاطي شربها بالعقوبة في الدنيا والآخرة.

المنافع: جمع منفعة، قصد منه قوّة النفع.

والإثم الذي في الخمر نشأ عمّا يترتّب على شربها تارة من الإفراط فيه والعربدة من تشاجر يجر إلى البغضاء والصدّ عن سبيل الله وعن الصلاة، وفيها ذهاب العقل والتعرّض للسخرية، وفيها ذهاب المال في شربها. ومن آثامها ما قرّره الأطباء المتأخّرون أنّها تورث المدمنين عليها أضرارا في الكبد والرئتين والقلب وضعفا في النسل.

وقد انفرد الإسلام عن جميع الشرائع بتحريمها.

وذُكر في هذه الآية الميسر عطفا على الخمر، فما قيل في تحريم الخمر أو من التنزيه عن شربها يقال مثله في الميسر. وقد بان أنّ الميسر قرين الخمر في التمكّن من نفوس العرب يومئذ وهو أكبر لهو يلهون به، فلأجل هذا قُرن في هذه الآية ذكر الخمر بذكر الميسر، ولأجله اقترنا في سؤال السائلين عنهما، إن كان ثمة سؤال.

فإن قلتَ: ما الوجه في ذكر منافع الخمر والميسر مع أنّ سياق التحريم والتمهيد إليه يقتضي تناسي المنافع؟

قلتُ: إن كانت الآية نازلة لتحريم الخمر والميسر فالفائدة في ذكر المنافع هي بيان حكمة التشريع ليعتاد المسلمون مراعاة علل الأشياء، لأنّ الله جعل هذا الدين دينا دائما وأودعه أمّة أراد أن يكون منها مشرّعون لمختلف ومتجدّد الحوادث، فلذلك أشار لعلل الأحكام في غير موضع، وتخصيص التنصيص على العلل ببعض الأحكام في بعض الآيات إنّما هو في مواضع خفاء العلل، فإنّ الخمر قد اشتهر بينهم نفعها، والميسر قد اتخذوه ذريعة لنفع الفقراء فوجب بيان ما فيهما من المفاسد إنباء بحكمة التحريم.

وفائدة أخرى وهي تأنيس المكلّفين عند فطامهم عن أكبر لذائذهم تذكيرا لهم بأنّ ربّهم لا يريد إلّا صلاحهم دون نكايتهم، وهنالك أيضا فائدة أخرى وهي عذرهم عمّا سلف منهم .

{ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ } كان سؤالهم عن الخمر والميسر حاصلا مع سؤالهم { مَاذَا يُنْفِقُونَ}، ومناسبة التركيب أنّ النهي عن الخمر والميسر يُتوقّع منه تعطّل إنفاق عظيم كان ينتفع به المحاويج، فبيّنت لهم الآية وجه الإنفاق الحقّ، ولإظهار ما يدفع توقّعهم تعطيل نفع المحاويج وصلت هذه الآية بالتي قبلها بواو العطف.

العفو: مصدر عفا يعفو إذا زاد ونمى، وهو هنا ما زاد على حاجة المرء من المال، أي: فضل بعد نفقته ونفقة عياله بمعتاد أمثاله. فالمعنى أنّ المرء ليس مطالبا بارتكاب المآثم لينفق على المحاويج، وإنّما ينفق عليهم مما استفضله من ماله. وهذا أمر بإنفاق لا يشقّ عليهم وهذا أفضل الإنفاق، لأنّ مقصد الشريعة من الإنفاق إقامة مصالح ضعفاء المسلمين.

وجعل الله العفو كلّه مَنفقًا ترغيبا في الإنفاق، وهذا دليل على أنّ المراد من الإنفاق هنا الإنفاق المتطوّع به، إذ قد تضافرت أدلة الشريعة وانعقد إجماع العلماء على أنّه لا يجب على المسلم إنفاق إلّا النفقات

الواجبة وإلّا الزكوات وهي قد تكون من بعض ما يفضل من أموال أهل الثروة.
{ **كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ** } أي: كذلك البيان يبيّن الله لكم الآيات، والإشارة راجعة إلى البيان الواقع في { قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ } وقرن اسم الإشارة بعلامة البعد تعظيما لشأن المشار إليه لكماله في البيان، إذ هو بيان للحكم مع بيان علّته حتّى تتلقاه الأمّة بطيب نفس، وحتّى يُلحقوا به نظائره.
{ **لَكُمُ** } اللام للتعليل والأجل، وهو امتنان وتشريف بهذه الفضيلة لإشعاره بأنّ البيان على هذا الأسلوب ممّا اختصت به هاته الأمّة، ليتلقوا التكاليف على بصيرة بمنزلة الموعظة التي تلقى إلى كامل العقل موضَّحة بالعواقب، لأنّ الله أراد لهاته الأمّة أن يكون علماؤها مشرّعين.
{ **لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ** } ليحصل للأمّة تفكُّر وعلم في أمور الدنيا والآخرة.

{ وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لاعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }
عطف تبيين معاملة اليتامى على تبيين الإنفاق لتعلّق الأمرين بحكم تحريم الميسر أو التنويه عنه، فإنّ الميسر كان بابا واسعا للإنفاق على المحاويج وعلى اليتامى. فكان تحريم الميسر ممّا يثير سؤالا عن سدّ هذا الباب على اليتامى وفيه صلاح عظيم لهم، وكان ذلك السؤال مناسبة حسنة للتخلّص إلى الوصاية باليتامى وذكر مجمل أحوالهم في جملة إصلاح الأحوال التي كانوا عليها قبل الإسلام، فكان هذا وجه عطف هذه الجملة على التي قبلها بواو العطف لاتصال بعض هذه الأسئلة ببعض.
ففي تفسير الطبري بسنده إلى ابن عباس لما نزلت { وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } عزلوا أموال اليتامى فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت { وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ }. فقد ثبت أنّ النظر في مصالح الأيتام من أهم مقاصد الشريعة في حفظ النظام.
كان العرب في الجاهلية كسائر الأمم في حال البساطة، يكون المال بيد كبير العائلة فقلّما تجد لصغير مالا، وكان جمهور أموالهم حاصلا من اكتسابهم لقلّة أهل الثروة فيهم، فكان جمهور العرب إمّا زارعا أو غارسا أو مغيرا أو صائدا، وكلّ هذه الأعمال تنقطع بموت مباشريها، فإذا مات كبير العائلة وترك أبناء صغارا لم يستطيعوا أن يكتسبوا كما اكتسب آباؤهم، إلاّ أبناء أهل الثروة، والثروة عندهم هي الأنعام والحوائط، إذ لم يكن العرب أهل ذهب وفضة، وأنّ الأنعام لا تصلح إلّا بمن يرعاها، فإنّها عروض زائلة، وأنّ الغروس كذلك، ولم يكن في ثروة العرب ملك الأرض، إذ الأرض لم تكن مفيدة إلّا للعامل فيها، على أنّ من يتولّى أمر اليتيم يستضعفه ويستحلّ ماله فينتفع به لنفسه. وكرم العربي وسرفه وشربه وميسره لا تغادر له مالا وإن كثر. وتغلّب ذلك على ملاك شهوات أصحابه فلا يستطيعون تركه يدفعهم إلى تطلّب إرضاء نعمتهم بكلّ وسيلة، فلا جرم أن يصبح اليتيم بينهم فقيرا مدحورا.

وزد إلى ذلك أنّ أهل الجاهلية قد تأصّل فيهم الكبر على الضعيف وتوقير القوي فلمّا عدم اليتيم ناصره ومن يذبّ عنه كان بحيث يعرض للمهانة والإضاعة ويُتّخذ كالعبد لوليّه، من أجل ذلك كلّه صار وصف اليتيم عندهم ملازما لمعنى الخصاصة والإهمال والذلّ، وبه يظهر معنى امتنان الله تعالى على نبيّه أن حفظه في حال اليتم { أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى }.

فلمّا جاء الإسلام أمرهم بإصلاح حال اليتامى في أموالهم وسائر أحوالهم حتّى قيل إنّ أولياء اليتامى تركوا التصرّف في أموالهم واعتزلوا اليتامى ومخالطتهم، خوفا واحتياطا، فنزلت هذه الآية .

{ **إِصْلاحٌ لَهُمْ** } الإصلاح جعل الشيء صالحا، أي: ذا صلاح. والصلاح ضد الفساد. فصلاح الرجل صدور الأفعال والأقوال الحسنة منه، وصلاح الثمرة كونها بحيث ينتفع بأكلها دون ضرّ، وصلاح المال نماؤه المقصود منه، وصلاح الحال كونها بحيث تترتّب عليها الآثار الحسنة. والمقصود هنا جميع الإصلاح لا خصوص إصلاح ذواتهم، فيشمل إصلاح ذواتهم وهو في الدرجة الأولى ويتضمّن ذلك إصلاح عقائدهم وأخلاقهم بالتعليم الصحيح والآداب الإسلامية، ويتضمّن إصلاح أمزجتهم بالمحافظة عليهم من المهلكات والأخطار والأمراض وبمداواتهم، ودفع الأضرار عنهم بكفاية مؤنهم من الطعام واللباس والمسكن بحسب معتاد أمثالهم دون تقتير ولا سرف، ويشمل إصلاح أموالهم بتنميتها وتعهدها وحفظها.

{ **خير** } إن كان خطابا للذين حملهم الخوف من أكل أموال اليتامى على اعتزال أمورهم وترك التصرّف فيها، فالمعنى إصلاح أمورهم خير من إهمالهم، أي: أفضل ثوابا وأبعد عن العقاب.

وإن كان خطابا لتغيير الأحوال التي كانوا عليها قبل الإسلام، فالمعنى إصلاحهم في أموالهم وأبدانهم وترك إضاعتهم في الأمرين، وهو تعريض بأنّ ما كانوا عليه في معاملتهم ليس بخير.

{ **وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ** } عطف على { إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ }.

المخالطة: مفاعلة من الخلط وهو جمع الأشياء جمعا يتعذّر معه تمييز بعضها عن بعض. وهو هنا مجاز في شدّة الملابسة والمصاحبة. والمراد بذلك ما زاد على إصلاح المال والتربية، فيشمل المصاحبة والمشاركة والكفالة والمصاهرة، إذ الكلّ من أنواع المخالطة.

{ **فَإِخْوَانُكُمْ** } خبر مبتدأ محذوف تقديره: فهم إخوانكم، وهو على معنى التشبيه البليغ، والمراد بالأخوّة أخوة الإسلام التي تقتضي المشاورة والرفق والنصح. والمقصود من هذه الجملة الحث على مخالطتهم لأنّه لمّا جعلهم إخوانا كان من المتأكّد مخالطتهم والوصاية بهم في هاته المخالطة، ويتضمّن ذلك التعريض بإبطال ما كانوا عليه من احتقار اليتامى والترفّع عن مخالطتهم ومصاهرتهم.

{ **وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ** } وعد ووعيد، لأنّ المقصود من الإخبار بعلم الله الإخبار بترتّب آثار العلم عليه، وفي هذا إشارة إلى أنّ ما فعله المسلمون من تجنّب التصرّف في أموال اليتامى تنزه لا طائل تحته لأنّ الله يعلم المتصرّف بصلاح والمتصرّف بغير صلاح. فإنّ المقصد الأعظم هو إرضاء الله

تعالى لا إرضاء المخلوقات، وفي هذه إشارة إلى أنّه ليس من المصلحة أن يُعرض النّاس عن النظر في أموال اليتامى اتقاء لألسنة السوء، وتهمة الظنّ بالإثم فلو تمالأ النّاس على ذلك وقاية لأعراضهم لضاعت اليتامى، وليس هذا من شأن المسلمين فإنّ على الصلاح والفساد دلائل، ووراء المتصرّفين عدالة القضاة، وولّاة الأمور يجازون المصلح بالثناء والحمد العلن ويجازون المفسد بالبعد بينه وبين اليتامى وبالتغريم لما أفاته بدون نظر.

{ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأعْنَتَكُمْ** } العنت المشقّة والصعوبة الشديدة، أي: ولو شاء الله لكلّفكم ما فيه العنت، وهو أن يحرّم عليكم مخالطة اليتامى فتجدوا ذلك شاقا عليكم وعنتا، لأنّ تجنّب المرء مخالطة أقاربه من اخوة وأبناء عم ورؤيته إيّاهم مضيعة أمورهم.

{ **إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** } أي إنّ الله عزيز غالب قادر فلو شاء لكلّفكم العنت، لكنّه حكيم يضع الأشياء مواضعها فلذا لم يكلفكموه. وفي جمع الصفتين إشارة إلى أنّ تصرفات الله تعالى تجري على ما تقتضيه صفاته كلّها، وبذلك تندفع إشكالات عظيمة فيما يعبر عنه بالقضاء والقدر.

{ وَلا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حتّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حتّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } [221]

كان المسلمون أيّام نزول هذه السورة مختلطين مع المشركين بالمدينة وما هم ببعيد عن أقربائهم من أهل مكّة فربما رغب بعضهم في تزوّج المشركات أو رغب بعض المشركين في تزوّج نساء مسلمات، فبيّن الله الحكم في هذه الأحوال. وقد أوقع هذا البيان بحكمته في أرشق موقعه وأسعده به وهو موقع تعقيب حكم مخالطة اليتامى، فإنّ للمسلمين يومئذ أقارب وموالي لم يزالوا مشركين ومنهم يتامى فقدوا آباءهم في يوم بدر وما بعده فلمّا ذكر الله بيان مخالطة اليتامى، وكانت المصاهرة من أعظم أحوال المخالطة تطلعت النفوس إلى حكم هاته المصاهرة بالنسبة للمشركات والمشركين، فعطف حكم ذلك على حكم اليتامى لهاته المناسبة.

روى الواحدي وغيره من المفسّرين أنّ سبب نزول هذه الآية أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا مَرْثَد الغنوي، ويقال مرثد بن أبي مرثد واسمه كنَّاز بن حصين وكان حليفا لبني هاشم، بعثه إلى مكة سرّا ليُخرج رجلا من المسلمين فسمعت بقدومه امرأة يقال لها عَناق، وكانت خليلة له في الجاهلية، فأتته فقالت: ويحك يا مرثد ألا تخلو؟ فقال: إنّ الإسلام حرّم ما كان في الجاهلية، فقالت: فتزوّجني قال حتّى أستأذن رسول الله فأتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فاستأذنه فنهاه عن التزوّج بها، لأنّها مشركة، فنزلت هذه الآية بسببه.

النكاح: حقيقة في العقد على المرأة، ولذلك يقولون: نكح فلان فلانة، ويقولون: نكحت فلانة فلانا، وأمّا استعماله في الوطء فكناية، وقيل العكس، واختاره فقهاء الشافعية، وهو قول ضعيف في اللغة. وقيل: حقيقة فيهما فهو مشترك، وهو أضعف. قالوا: ولم يرد في القرآن إلّا بمعنى العقد.

المشرك: في لسان الشرع من يدين بتعدّد آلهة مع الله سبحانه، والمراد به في مواضعه من القرآن مشركو العرب الذين عبدوا آلهة أخرى مع الله تعالى، ويقابلهم في تقسيم الكفّار أهل الكتاب، وهم الذين آمنوا بالله ورسله وكتبه ولكنهم أنكروا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم.

ونص هذه الآية تحريم تزوّج المسلم المرأة المشركة وتحريم تزويج المسلمة الرجل المشرك، فهي صريحة في ذلك. وأمّا تزوّج المسلم المرأة الكتابية وتزويج المسلمة الرجل الكتابي فالآية ساكتة عنه.

فلذلك قال جمهور العلماء بجواز تزوّج المسلم الكتابية دون المشركة والمجوسيّة، وعلى هذا الأئمة الأربعة والأوزاعي والثوري، فبقي تزويج المسلمة من الكتابي لا نصّ عليه، ومنعه جميع المسلمين إمّا استنادا منهم إلى الاقتصار في مقام بيان التشريع، وإمّا إلى أدلة من السنّة ومن القياس، وسنشير إليه، أو من الإجماع وهو أظهر.

ومن علماء الإسلام من كره تزوّج الكتابية وهو قول مالك في رواية ابن حبيب، وهو رواية عن عمر بن الخطاب أنّه كتب إلى حذيفة بن اليمان وقد بلغه أنّه تزوّج يهودية أو نصرانية: أن خل سبيلها، فكتب إليه حذيفة: أتزعم أنّها حرام؟ فقال عمر: لا ولكنّي أخاف أن تعاطوا الموسات منهنّ.

وقال شذوذ من العلماء بمنع تزوّج المسلم الكتابية، وقال الطبري هو مخالف لما أجمعت عليه الأمّة.

{ **حَتَّى يُؤْمِنَّ** } غاية للنهي، فإذا آمن زال النهي.

{ **وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ** } تحذير من تزوّجهن ومن الاغترار بما يكون للمشركة من حسب أو جمال أو مال، وأنّ من لم يستطع تزوّج حرّة مؤمنة فليتزوّج أمة مؤمنة خير له من أن يتزوّج حرّة مشركة. فالأمة هنا هي المملوكة، والمشركة الحرة بقرينة المقابلة بقوله { وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ }.

فالكلام وارد مورد التناهي في تفضيل أقل أفراد هذا الصنف على أتم أفراد الصنف الآخر.

{ **خَيْرٌ** } المقصود من التفضيل التفضيل في المنافع الحاصلة من المرأتين، فإنّ في تزوّج الأمة المؤمنة منافع دينية وفي الحرة المشركة منافع دنيوية، ومعاني الدين خير من أعراض الدنيا المنافية للدين.

فالمقصود منه بيان حكمة التحريم استئناسا للمسلمين.

ووقع في الكشاف حمل الأمة على مطلق المرأة، لأنّ النّاس كلّهم إماء الله وعبيده، وأصله منقول عن القاضي أبي الحسن الجرجاني كما في القرطبي، وهذا باطل من جهة المعنى ومن جهة اللفظ.

{وَلا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حتّى يُؤْمِنُوا} تحريم لتزويج المسلمة من المشرك، فإنّ كان المشرك محمولا على ظاهره في لسان الشرع فالآية لم تتعرض لحكم تزويج المسلمة من الكتابي، فيكون دليل تحريم ذلك الإجماع، وهو إمّا مستند إلى دليل تلقّاه الصحابة من النبيّ صلى الله عليه وسلم وتواتر بينهم، وإمّا مستند

إلى تضافر الأدلة الشرعية كقوله { فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ } [الممتحنة:10]، فعلّق النهي بالكفر وهو أعم من الشرك، وإن كان المراد حينئذ المشركين، وكقوله تعالى هنا { أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ } كما سنبينه.

{ **حَتَّى يُؤْمِنُوا** } غاية للنهي، وأخذ منه أنّ الكافر إذا أسلمت زوجته يفسخ النكاح بينهما ثم إذا أسلم هو كان أحقّ بها ما دامت في العدّة.

{ **وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ** } هو كقوله { وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ } والمراد به المملوك وليس الحر المشرك وقد تقدّم ذلك.

{ **أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ** } الجملة مستأنفة استئنافا بيانيّا لتعليل النهي عن نكاح المشركات وإنكاح المشركين، ومعنى الدعاء إلى النّار الدعاء إلى أسبابها، فإسناد الدعاء إليهم حقيقة عقلية.

ولمّا كانت رابطة النكاح رابطة اتصال ومعاشرة نهى عن وقوعها مع من يدعون إلى النار خشية أن تؤثّر تلك الدعوة في النفس، فإنّ بين الزوجين مودّة وإلفا يبعثان على إرضاء أحدهما الآخر، فلم يبح الله مخالطتهم بالتزوّج من كلا الجانبين.

أمّا أهل الكتاب فيجمع بينهم وبين المسلمين اعتقاد وجود الله وانفراده بالخلق والإيمان بالأنبياء ويفرّق بيننا وبين النصارى الاعتقاد ببنوّة عيسى والإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، ويفرّق بيننا وبين اليهود الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وتصديق عيسى، فأباح الله تعالى للمسلم أن يتزوّج الكتابية ولم يبح تزويج المسلمة من الكتابي اعتدادا بقوّة تأثير الرجل على امرأته، فالمسلم يؤمن بأنبياء الكتابية وبصحة دينها قبل النسخ فيوشك أن يكون ذلك جالبا إياها إلى الإسلام، لأنّها أضعف منه جانبا، وأمّا الكافر فهو لا يؤمن بدين المسلمة ولا برسولها فيوشك أن يجرّها إلى دينه.

وهذا كان يجيب به شيخنا الأستاذ سالم أبو حاجب عن وجه إباحة تزوّج الكتابية ومنع تزويج الكتابي.

{**وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** } أي: إنّ الله يدعو بهذا الدين إلى الجنّة، فلذلك كانت دعوة المشركين مضادة لدعوة الله تعالى، والمقصود من هذا تفظيع دعوتهم وأنّها خلاف دعوة الله. والدعاء إلى الجنة والمغفرة دعاء لأسبابهما.

{ **بِإِذْنِهِ** } أي: حاصلتين بإرادته وتقديره بما بيّن من طريقهما. ومن المفسّرين من حمل الإذن على التيسير والقضاء.

{ **وَيُبَيِّنُ** } يعني يدعو إلى الخير مع بيانه وإيضاحه حتّى تتلقاه النفوس بمزيد القبول وتمام البصيرة.

{ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حتّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ } [222].

بمناسبة أنّ تحريم نكاح المشركات يؤذن بالتنزّه عن أحوال المشركين وكان المشركون لا يقربون نساءهم إذا كنّ حيَّضًا وكانوا يُفرطون في الابتعاد منهن مدّة الحيض فناسب تحديد ما يكثر وقوعه وهو من الأحوال التي يخالف فيها المشركون غيرهم، ويتساءل المسلمون عن أحقّ المناهج في شأنها.

والباعث على السؤال أنّ أهل يثرب قد امتزجوا باليهود واستنّوا بسنّتهم في كثير من الأشياء، وكان اليهود يتباعدون عن الحائض أشدّ التباعد بحكم التوراة: " إذا كانت امرأة لها سيل دما في لحمها فسبعة أيام تكون في طمثها وكلّ من مسّها يكون نجسا إلى المساء وكلّ ما تضطجع عليه يكون نجسا وكل من مس فراشها يغسل ثيابه ويستحمّ بماء ويكون نجسا إلى المساء وإن اضطجع معها رجل فكان طمثها عليه يكون نجسا سبعة أيام " [سفر اللاويين، الإصحاح:15].

وذكر القرطبي أنّ النصارى لا يمتنعون عن ذلك، ولا أحسب ذلك صحيحا فليس في الإنجيل ما يدلّ عليه، وإنّ من قبائل العرب من كانت الحائض عندهم مبغوضة، فكانت الحال مظنّة حيرة المسلمين في هذا الأمر تبعث على السؤال عنه.

المحيض: هو اسم للدم الذي يسيل من رحم المرأة في أوقات منتظمة، يقال: حاضت المرأة إذا سال منها، كما يقال: حاض السيل إذا فاض ماؤه، ومنه سمِّي الحوض حوضا لأنّه يسيل.

والمراد من السؤال عن المحيض السؤال عن قربان النساء في المحيض.

الأذى: الضرّ الذي ليس بفاحش.

بيّن لهم أنّ الحيض أذى ليكون ما يأتي من النهي عن قربان المرأة معلّلا فتتلقّاه النفوس على بصيرة، وتتهيّأ به الأمّة للتشريع في أمثاله، وعبّر عنه بـ (أذى) إشارة إلى إبطال ما كان من التغليظ في شأنه وشأن المرأة الحائض في شريعة التوراة.

{ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ } تفريع الحكم على العلّة. والاعتزال التباعد بمعزل وهو هنا كناية عن ترك مجامعتهنّ في زمن المحيض.

{ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حتّى يَطْهُرْنَ } جاء النهي عن قربانهنّ تأكيدا للأمر باعتزالهنّ وتبيينا للمراد من الاعتزال وأنّه ليس التباعد عن الأزواج بالأبدان كما كان عند اليهود، بل هو عدم الجماع.

{ حَتَّى يَطْهُرْنَ } الطُهر(بضم الطاء) مصدر معناه النقاء من الوسخ والقذر وفعله **طهُر** (بضم الهاء)، وحقيقة الطُهر نقاء الذات، وأطلق في اصطلاح الشرع على النقاء المعنوي وهو طهر الحدث الذي يقدّر حصوله للمسلم بسبب.

ولما ذكر أنّ المحيض أذى علم السامع أنّ الطهر هنا هو النقاء من ذلك الأذى، فإنّ وصف حائض يقابل بطاهر وقد سمّيت الأقراء أطهارا، وقد يراد بالتطهّر الغسل بالماء.

{ **فَإِذَا تَطَهَّرْنَ** } دلّت الآية على أنّ غاية اعتزال النساء في المحيض هي حصول الطهر، فإن حملنا الطهر على معناه اللغوي فهو النقاء من الدم ويتعيّن أن يحمل التطهر في قوله { فَإِذَا تَطَهَّرْنَ } على المعنى الشرعي، فيحصل من الغاية والشرط اشتراط النقاء والغسل وإلى هذا المعنى ذهب، علماء المالكية. وأمّا اشتراط طهارة الحدث فاختلف فقهاء الإسلام في مجمل الطهر الشرعي هنا، فقال قوم: هو غسل محل الأذى بالماء فذلك يُحل قربانها، وهذا الذي تدل عليه الآية، لأنّ الطهر الشرعي يطلق على إزالة النجاسة وعلى رفع الحدث، والحائض اتصفت بالأمرين، والذي يمنع زوجها من قربانها هو الأذى ولا علاقة للقربان بالحدث فوجب أن يكون المراد غسل ذلك الأذى، وإن كان الطهران متلازمين بالنسبة للمرأة المسلمة فهما غير متلازمين بالنسبة للكتابية، وقال الجمهور، منهم مالك والشافعي، هو غسل الجنابة، وكأنّهم أخذوا بأكمل أفراد هذا الاسم احتياطا، وذهب مجاهد وطاووس وعكرمة إلى أنّ الطهر هو وضوء كوضوء الصلاة أي مع الاستنجاء بالماء وهذا شاذ، وذهب أبو حنيفة وصاحباه إلى التفصيل. وفي كتب الفقه تفصيل كلّ ذلك.

{ **فَأْتُوهُنَّ** } الأمر هنا للإباحة لا محالة لوقوعه عقب النهي.

{ **مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ** } حيث اسم مكان مبهم مبني على الضم ملازم الإضافة إلى جملة تحدّده لزوال إبهامها، وقد أشكل المراد من هذا الظرف على الذين تصدّوا لتأويل القرآن وما أرى سبب إشكاله إلّا أن المعنى قد اعتاد العرب في التعبير عنه سلوك طريق الكناية والإغماض، وكان فهمه موكولا إلى فطنهم ومعتاد تعبيرهم. قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والربيع: أي إلّا من حيث أمركم الله بأن تعتزلوهنّ منه مدة الحيض، يعني القبل.

{ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** } ارتفاق بالمخاطبين بأنّ ذلك المنع كان لمنفعتهم ليكونوا متطهّرين. وأمّا ذكر التوّابين فهو إدماج للتنويه بشأن التوبة عند ذكر ما يدل على امتثال ما أمرهم الله به من اعتزال النساء في المحيض، أي: إنّ التوبة أعظم شأنا من التطهّر، أي: أنّ نية الامتثال أعظم من تحقّق مصلحة التطهّر لكم، لأنّ التوبة تطهّر روحاني والتطهر جثماني.

{ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ } [223].

{ **نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ** } تذييل قُصد به الارتفاق بالمخاطبين والتأنّس لهم لإشعارهم بأنّ منعهم من قربان النساء في مدّة المحيض منع مؤقّت لفائدتهم، وأنّ الله يعلم أنّ نساءهم محلّ تعهّدهم وملابستهم ليس منعهم منهنّ في بعض الأحوال بأمر هيّن عليهم لولا إرادة حفظهم من الأذى.

وفيها معنى التعليل للإذن بإتيانهن أنّى شاؤوا.
{ **حَرْثٌ لَكُمْ** } تشبيه لطيف، كما شبّه النسل بالزرع في قول أبي طالب في خطبته خديجة للنبيّ صلى الله عليه وسلم: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل .
{ **أَنَّى** } اسم لمكان مبهم تبيّنه جملة مضاف هو إليها، وقد كثر استعماله مجازا في معنى كيف.
والذي يتبادر من موقع الآية وتساعد عليه معاني ألفاظها، أنّها تذييل وارد بعد النهي عن قربان النساء في حال الحيض، فتُحمل(أنّى) على معنى (**متى**) ويكون المعنى: فأتوا نساءكم متى شئتم إذا تطهّرن.
والآية فيها أقوال كثيرة ومذاهب مختلفة لفقهاء الأمصار مستقصاة في كتب أحكام القرآن وكتب السنة، وفي دواوين الفقه.
{ **وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ** } تحريض على امتثال الشرع بتجنّب المخالفة، فيدخل تحته التخلّي عن السيّئات والتحلّي بالواجبات والقربات. وقوله { وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ } يجمع التحذير والترغيب. وقد رُتّبت الجمل الثلاث على عكس ترتيب حصول مضامينها في الخارج، فإنّ الظاهر أن يكون الإعلام بملاقاة الله هو الحاصل أوّلا ثمّ يعقبه الأمر بالتقوى ثم الأمر بأن يقدّموا لأنفسهم، فخولف الظاهر للمبادرة بالأمر بالاستعداد ليوم الجزاء، وأعقب بالأمر بالتقوى إشعارا بأنّها هي الاستعداد ثم ذُكّروا بأنّهم ملاقو الله فجاء ذلك بمنزلة التعليل.
{ **وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ** } تعقيب للتحذير بالبشارة، والمراد المؤمنون الكاملون وهم الذين يُسرّون بلقاء الله كما جاء في الحديث: **" من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه "**. وذكر هذه البشارة عقب ما تقدّم إشارة إلى أنّ امتثال الأحكام المتقدّمة من كمال الإيمان.

{ وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاس وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [224].

<u>قيل</u>: تمهيد في موقع الاعتراض بين جملة { نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ } وجملة { لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ }.
<u>وقيل</u>: أنّه لمّا أمرهم باستحضار يوم لقائه بيّن لهم شيئا من التقوى دقيق المسلك شديد الخفاء وهو التقوى باحترام الاسم المعظّم، فإنّ التقوى من الأحداث التي إذا تعلّقت بالأسماء كان مفادها التعلّق بمسمّى الاسم لا بلفظه، فجيء بهذه الآية لبيان ما يترتّب على تعظيم اسم الله واتقائه في حرمة أسمائه عند الحنث، مع بيان ما رخّص فيه من الحنث، أو لبيان التحذير من تعريض اسمه تعالى للاستخفاف بكثرة الحلف حتّى لا يضطرّ إلى الحنث على الوجهين الآتيين.
{ **وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ** } وتعلق الجعل بالذات هنا هو على معنى التعليق بالاسم، فالتقدير: ولا تجعلوا اسم الله.
{ **عُرْضَةً** } العرض هنا جعل الشيء حاجزا، من قولهم: عَرَضَ العود على الإناء، فنشأ عن ذلك إطلاق العرضة على الحاجز المتعرّض.

{ **لِأَيْمَانِكُمْ** } أي: لا تجعلوا اسم الله معرَّضًا لأيمانكم فتحلفوا به، ويجوز أن تكون اللام للتعليل، أي: لا تجعلوا الله عرضة لأجل أيمانكم الصادرة على ألّا تبروا.

الأيمان: جمع يمين، وهو الحلف، وسمِّي الحلف يمينا لأنّ العرب كان من عادتهم إذا تحالفوا أن يمسك المتحالفان أحدهما باليد اليمنى من الآخر، فكانوا يقولون: أعطى يمينه، إذا أكّد العهد.

والقصد من الحلف يرجع إلى قصد أن يُشهد الإنسان الله تعالى على صدقه في خبر أو وعد .

ومعنى الآية إنّ كانت العرضة بمعنى الحاجز، نهي المسلمين عن أن يجعلوا اسم الله **حائلا معنويّا دون فعل** ما حلفوا على تركه من البرّ، والتقوى، والإصلاح بين النّاس. أي: ولا تجعلوا الله لأجل أن حلفتم به عرضة حاجزا عن فعل البرّ والإصلاح والتقوى، فالآية، على هذا الوجه، نهي عن المحافظة على اليمين إذا كانت المحافظة عليها تمنع من فعل خير شرعي، وهو نهي تحريم أو تنزيه بحسب حكم الشيء المحلوف على تركه، ومن لوازمه التحرّز حين الحلف وعدم التسرّع للأيمان، إذ لا ينبغي التعرّض لكثرة الترخّص.

وفي الكشاف: كان الرجل يحلف على ترك الخير من صلة الرحم، أو إصلاح ذات البين، أو إحسان، ثم يقول أخاف أن أحنث في يميني، فيترك فعل البرّ، فتكون الآية واردة لإصلاح خلل من أحوالهم.

وقد قيل: إنّ سبب نزولها حلف أبي بكر ألّا ينفق على ابن خالته (مسطح بن أثاثة) لأنّه ممّن خاضوا في الإفك، ولا تظهر لهذا القول مناسبة بموقع الآية. وقيل: نزلت في حلف عبد الله بن رواحة ألّا يكلّم ختنه بشير بن النعمان الأنصاري، وكان قد طلق أخت عبد الله ثم أراد الرجوع والصلح، فحلف عبد الله ألّا يصلح بينهما.

وإمّا على تقدير أن تكون العرضة بمعنى الشيء المعرَّض لفعل في غرض، فالمعنى لا تجعلوا اسم الله معرَّضا لأن تحلفوا به في الامتناع من البر، والتقوى، والإصلاح بين النّاس. وعليه فتكون الآية **نهيا عن الإسراع بالحلف**، لأنّ كثرة الحلف تعرِّض الحالف للحنث، وكانت كثرة الأيمان من عادات الجاهلية في جملة العوائد الناشئة عن الغضب ونُعر الحمق، فنهى الإسلام عن ذلك.

{ **وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** } تذييل، والمراد منه العلم بالأقوال والنيّات، والمقصود لازمه وهو الوعد على الامتثال على جميع التقادير، والعذر في الحنث على التقدير الأول، والتحذير من الحلف على الثاني.

وقد دلّت الآية على معنى عظيم وهو أنّ تعظيم الله لا ينبغي أن يُجعل وسيلة لتعطيل ما يحبّه الله من الخير، فبرّ اليمين أدب مع اسم الله تعالى، والإتيان بالأعمال الصالحة مرضاة لله، فأمر الله بتقديم مرضاته على الأدب مع اسمه، كما قيل: الامتثال مقدّم على الأدب، وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : **" إنّي لأحلف على يمين، فأرى غيرها خيرا منها، إلاّ كفّرت عن يميني، وفعلت الذي هو خير"**. ولأجل ذلك لمّا أقسم أيوب عليه السلام أن يضرب امرأته مائة جلدة، أمره الله أن يأخذ ضغثا من مائة عصا فيضربها به، فهذا وجه من التحلّة أفتى الله به نبيّه، ولعل الكفارة لم تكن مشروعة، فهي من يسر الإسلام

وسماحته، فقد كفانا الله ذلك إذ شرع لنا تحلّة اليمين بالكفارة، ولذلك صار لا يجزئ في الإسلام، أن يفعل الحالف مثل ما فعل أيوب.

{ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ } [225].

استئناف بياني، لأنّ الآية السابقة لمّا أفادت النهي عن التسرّع بالحلف إفادة صريحة أو التزامية، كانت نفوس السامعين بحيث يهجس بها التفكّر والتطلّع إلى حكم اليمين التي تجري على الألسن.

المؤاخذة: مفاعلة من الأخذ بمعنى العدّ والمحاسبة، يقال: أخذه بكذا، أي: عدّه عليه ليعاتبه أو يعاقبه.

اللغو: مصدر لغا، إذا قال كلاما خطأً، ويطلق اللغو أيضا على الكلام الساقط، الذي لا يعتدّ به، وهو الخطأ، وهو إطلاق شائع.

فيكون المعنى: لا يؤاخذكم بالأيمان الصادرة صدور اللغو، أي غير المقصود من القول.

الأيمان: جمع يمين، واليمين القسم والحلف، وهو ذكر اسم الله تعالى، أو بعض صفاته.

فقد كانت العرب تحلف بالله، وبربّ الكعبة، وبالهدي، وبمناسك الحج. والقسم عندهم بحرف من حروف القسم الثلاثة (الواو - الباء - التاء)، وربّما ذكروا لفظ (حلفت أو أقسمت)، وربّما حلفوا بدماء البُدن، وربما قالوا: **والدماء**، وقد يدخلون لاما على عمر الله، يقال: **لعمر الله**، ويقولون: **عمرك الله**.

ولم أر أنّهم كانوا يحلفون بأسماء الأصنام. فهذا الحلف الذي يراد به التزام فعل، أو براءة من حقّ.

وقد يحلفون بأشياء عزيزة عندهم لقصد تأكيد الخبر أو الالتزام، كقولهم: وأبيك ولعمرك ولعمري، ويحلفون بآبائهم. ولمّا جاء الإسلام نهى عن الحلف بغير الله.

{ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ } اختلف العلماء في المراد من لغو اليمين في هذه الآية، فذهب الجمهور إلى أنّ اللغو هو اليمين التي تجري على اللسان، لم يقصد المتكلّم بها الحلف، ولكنّها جرت مجرى التأكيد أو التنبيه، كقول العرب: لا والله، وبلى والله، وقول القائل: والله لقد سمعت من فلان كلاما عجبا، وغير هذا ليس بلغو، وهذا قول عائشة، رواه عنها في الموطأ والصحاح، وإليه ذهب الشعبي، وأبو قلابة، وعكرمة ومجاهد، وأبو صالح، وأخذ به الشافعي.

وقال مالك: " لغو اليمين أن يحلف على شيء يظنّه كذلك ثم يتبيّن خلاف ظنّه "، قال في الموطأ: " وهذا أحسن ما سمعت في ذلك "، وهو مروي، في غير الموطأ، عن أبي هريرة، وممّن قال به؛ الحسن، وإبراهيم، وقتادة، والسدي، ومكحول، وابن أبي نجيح.

فالحالف على ظنّ يظهر بعد خلافه لا تعمد عنده للحنث، فهو اللغو، فلا مؤاخذة فيه، أي لا كفارة، وأمّا قول الرجل: لا والله، وبلى والله، وهو كاذب، فهو عند مالك قسم ليس بلغو.

وقال جماعة: اللغو ما لم يقصد به الكذب، فتشمل القسمين، سواء كان بلا قصد، كالتي تجري على الألسن في (لا والله، وبلى والله)، أم كان بقصد مع اعتقاد الصدق فتبيّن خلافه، وممّن قال بهذا؛ ابن عباس، والشعبي، وقال به أبو حنيفة، فقال: اللغو لا كفّارة فيها ولا إثم.

{ **وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ** } تذييل لحكم نفي المؤاخذة، ومناسبة اقتران وصف الغفور بالحليم هنا، دون الرحيم، لأنّ هذه مغفرة لذنب هو من قبيل التقصير في الأدب مع الله تعالى، فلذلك وصف الله نفسه بالحليم، لأنّ الحليم هو الذي لا يستفزّه التقصير في جانبه، ولا يغضب للغفلة، ويقبل المعذرة.

{ **لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [226] وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [227]** }.

استئناف ابتدائي، للانتقال إلى تشريع في عمل كان يغلب على الرجال أن يعملوه في الجاهلية والإسلام. وقد كان الرجل في الجاهلية يولي من امرأته السنة والسنتين، ولا تنحلّ يمينه إلّا بعد مضيّ تلك المدّة، ولا كلام للمرأة في ذلك.

وعن سعيد بن المسيّب: " كان الرجل في الجاهلية لا يريد المرأة، ولا يحب أن يطلّقها، لئلا يتزوّجها غيره، فكان يحلف ألّا يقربها مضارَّة للمرأة [أي: ويقسم على ذلك لكيلا يعود إليها إذا حصل له شيء من الندم] ثمّ كان أهل الإسلام يفعلون ذلك فأزال الله ذلك، وأمهل للزوج مدّة حتّى يتروّى".

فكان هذا الحكم من أهم المقاصد في أحكام الأيمان التي مهّد لها بقوله { وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً }.

الإيلاء: الحلف، وظاهر كلام أهل اللغة أنّه الحلف مطلقا، يقال: آلى يولي إيلاء. وقال الراغب: " الإيلاء حلف يقتضي التقصير في المحلوف عليه ،مشتق من الألو، وهو التقصير. قال تعالى { لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا} [آل عمران:118] ". وصار في الشرع الحلف المخصوص، فيؤخذ من كلام الراغب أنّ الإيلاء **حلف على الامتناع والترك**، لأنّ التقصير لا يتحقّق بغير معنى الترك، وهو الذي يشهد به أصل الاشتقاق من الألو، وتشهد به موارد الاستعمال.

وأيّا ما كان فالإيلاء، بعد نزول هذه الآية، صار حقيقة شرعية في هذا الحلف على الوصف المخصوص.

{ **لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ** } مجيء اللام لبيان أنّ التربّص جعل توسعة عليهم، فاللام للأجل مثل (هذا لك)، ويُعلم منه معنى التخيير فيه، أي ليس التربّص بواجب، فللمولي أن يفيء في أقل من الأشهر الأربعة.

{ **مِنْ نِسَائِهِمْ** } الزوجات، وتعليق الإيلاء باسم النساء من باب إضافة التحليل والتحريم ونحوهما إلى الأعيان.

التربّص: انتظار حصول شيء لغير المنتظر.

{ **فَاءُوا** } رجعوا، أي: رجعوا إلى قربان النساء، والفيئة تكون بالتكفير عن اليمين المذكورة في المائدة.

{ **فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } أي فحنثهم في يمين الإيلاء، مغفور لهم، لأنّ الله غفور رحيم. وفيه إيذان بأنّ

الإيلاء حرام إذا قُصد به الإضرار بالمرأة. وقد يكون الإيلاء مباحا إذا لم يقصد به الإضرار، ولم تطل مدّته، كالذي يكون لقصد التأديب، أو لقصد آخر معتبر شرعا. وقد آلى النبيّ صلى الله عليه وسلم من نسائه شهرا، قيل لمرض كان برجله، وقيل لأجل تأديبهنّ. والله ورسوله أعلم ببواطن الأمور.

وأما جواز الإيلاء للمصلحة كالحمية من بعض الأمراض في الرجل والمرأة، فإباحته حاصلة من أدلّة المصلحة ونفي المضرّة. وإنّما يحصل ذلك بالحلف عند بعض النّاس، لما فيهم من ضعف العزم، واتهام أنفسهم بالفلتة في الأمر، إن لم يقيّدوها بالحلف.

{ **وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ** } التصميم عليه، فالتقدير: وإن لم يفيئوا فقد وجب عليهم الطلاق، فهم بين أن يفيئوا أو يطلّقوا، فإنّ عزموا الطلاق فقد وقع طلاقهم.

{ **فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** } دليل الجواب، أي: فقد لزمهم وأُمضي طلاقهم، فقد حدّ الله للرجال في الإيلاء أجلا محدودا، لا يتجاوزونه، فإمّا أن يعودوا إلى مضاجعة أزواجهم، وإمّا أن يطلّقوا، ولا مندوحة لهم غير هذين. وقد جعل الله للمولي أجلا وغاية:

أما الأجل، فاتفق عليه علماء الإسلام، واختلفوا في الحالف على أقل من أربعة أشهر، فالأئمة الأربعة على أنّه ليس بإيلاء.

وأما الغاية، فاختلفوا أيضا في الحاصل بعد مضي الأجل، فقال مالك والشافعي: إن رفعته امرأته بعد ذلك، يُوقف لدى الحاكم، فإمّا أن يفيء، أو يطلق بنفسه، أو يطلق الحاكم عليه، وروي ذلك عن اثني عشر من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم. وقال أبو حنيفة إن مضت المدّة ولم يفئ فقد بانت منه، واتفق الجميع على أنّ غير القادر يكفي أن يفئ بالعزم والنيّة، وبالتصريح لدى الحاكم، كالمريض والمسجون والمسافر.

{ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحاً وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [228]

عطف على التي قبلها، لشدّة المناسبة، وللاتّحاد في الحكم وهو التربّص، لأنّ هذه الآي جاءت متناسقة، منتظمة على حسب مناسبات الانتقال، على عادة القرآن في إبداع الأحكام وإلقائها، بأسلوب سهل لا تسأم له النفس، ولا يجيء على صورة التعليم والدرس.

{ **وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ** } خبريّة مراد بها الأمر، ويجوز جعله مجازا تمثيليّا، كما اختاره الزمخشري إذ قال: " فكأنّهنّ امتثلن الأمر بالتربّص فهو يخبر عنه موجودا، ونحوه قولهم في الدعاء: رحمه الله، ثقة بالاستجابة ".

فالآية عامة في المطلّقات ذوات القروء، ولا علاقة لها بغيرهنّ من المطلّقات، مثل المطلقات اللاتي لسن من ذوات القروء، وهّن النساء اللاتي لم يبلغن سنّ المحيض، والآيسات من المحيض، والحوامل، وقد بيّن حكمهنّ في سورة الطلاق، إلّا أنّها يخرج عن دلالتها المطلّقات قبل البناء من ذوات القروء، فهنّ مخصوصات من هذا العموم بقوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا } [الأحزاب:49]، فهي في ذلك عام مخصوص بمخصص منفصل.

{ **يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ** } أي: يتلبثن وينتظرن مرور ثلاثة قروء، وزيد { بِأَنْفُسِهِنَّ } تعريضا بهنّ، بإظهار حالهنّ في مظهر المستعجلات، الراميات بأنفسهن إلى التزوّج، فلذلك أُمرن أن يتربّصن بأنفسهنّ.

القروء: جمع قَرء (بفتح القاف وضمها) وهو مشترك للحيض والطهر.

واختلف العلماء في المراد من القروء، في هذه الآية، والذي عليه فقهاء المدينة، وجمهور أهل الأثر، أنّ القرء هو الطهر، وهذا قول عائشة، وزيد بن ثابت، وابن عمر، وجماعة من الصحابة، من فقهاء المدينة، ومالك، والشافعي، في أوضح كلاميه، وابن حنبل. والمراد به الطهر الواقع بين دمين.

وقال عليّ، وعمر، وابن مسعود، وأبو حنيفة، والثوري وابن أبي ليلى، وجماعة: إنّه الحيض.

ومرجع النظر عندي، في هذا، إلى الجمع بين مقصدي الشارع من العدّة. وذلك أنّ العدّة قصد منها تحقّق براءة رحم المطلّقة من حمل المطلِّق، وانتظار الزوج لعلّه أن يرجع، فبراءة الرحم تحصل بحيضة أو طهر واحد، وما زاد عليه تمديد في المدّة انتظارا للرجعة، فالذين جعلوا القروء أطهارا راعوا التخفيف عن المرأة، مع حصول الإمهال للزوج، واعتضدوا بالأثر، والذين جعلوا القروء حيضات، زادوا للمطلّق إمهالا، لأنّ الطلاق لا يكون إلّا في طهر عند الجميع، كما ورد في حديث عمر بن الخطاب في الصحيح، واتفقوا على أنّ الطهر الذي وقع الطلاق فيه معدود في الثلاثة القروء.

وبانتهاء القروء الثلاثة تنقضي مدّة العدّة، وتبين المطلّقة الرجعيّة من مفارقها، وذلك حين ينقضي الطهر الثالث، قال الجمهور: إذا رأت أوّل نقطة الحيضة الثالثة خرجت من العدّة، بعد تحقّق أنّه دم حيض.

{ **وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ** } يجوز حمله على العهد، أي: ما خلق من الحيض بقرينة السياق، ويجوز حمله على معنى المعرف بلام الجنس فيعمّ الحيض والحمل، وهو الظاهر.

وهذا محمل اختلاف المفسرين، فقال عكرمة، والزهري، والنخعي: ما خلق الله في أرحامهن: الحيض. وقال ابن عباس وعمر: الحمل. وقال مجاهد: الحمل والحيض، وهو أظهر. وقال قتادة: " كانت عادة نساء الجاهلية أن يكتمن الحمل، ليلحق الولد بالزوج الجديد" ، أي: لئلّا يبقى بين المطلّقة ومطلِّقها صلة ولا تنازع في الأولاد، وفي ذلك نزلت. وهذا يقتضي أنّ العدة لم تكن موجودة فيهم، وأمّا مع مشروعية العدّة، فلا يُتصور كتمان الحمل، لأنّ الحمل لا يكون إلّا مع انقطاع الحيض، وإذ مضت مدّة الأقراء تبيّن أنّ الحمل من الزوج الجديد.

{ **إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ** } شرط أريد به التهديد دون التقييد، لأنّه لا معنى لتقييد نفي الحمل بكونهنّ مؤمنات. والمعنى أنّهنّ إن كتمن، فهنّ لا يؤمن بالله واليوم الآخر، إذ ليس من شأن المؤمنات هذا الكتمان. والمراد الإيمان الكامل، وهو الإيمان بما جاء به دين الإسلام، فليس إيمان أهل الكتاب بالله واليوم الآخر بمراد هنا، إذ لا معنى لربط نفي الحمل في الإسلام بثبوت إيمان أهل الكتاب.

ومتى ارتيب في صدقهنّ، وجب المصير إلى قول الأطبّاء والعارفين، ولذلك قال مالك: " لو ادّعت ذات القروء انقضاء عدتها في مدّة شهر من يوم الطلاق لم تصدّق، ولا تصدّق في أقّل من خمسة وأربعين يوما مع يمينها ". وقال عبد الملك: خمسون يوما، وقال ابن العربي: لا تصدّق في أقل من ثلاثة أشهر، لأنّه الغالب في المدّة التي تحصل فيها ثلاثة قروء.

وجرى به عمل تونس، كما نقله ابن ناجي، وعمل فاس، كما نقله السجلماسي.

{ **وَبُعُولَتُهُنَّ** } البعولة جمع بعل، والبعل اسم زوج المرأة، وأصل البعل في كلامهم السيّد، وهو كلمة سامية قديمة، فقد سمَّى الكنعانيّون (الفينيقيّون) معبودهم بعلا. وسمِّي به الزوج لأنّه ملك أمر عصمة زوجه، ولأنّ الزوج كان يعتبر مالكا للمرأة وسيّدا لها، ثم لمّا ارتقى نظام العائلة من عهد إبراهيم عليه السلام، فما بعده من الشرائع، أخذ معنى الملك في الزوجيّة يضعف، فأطلق العرب لفظ الزوج على كل من الرجل والمرأة، للذين بينهما عصمة نكاح، وهو إطلاق عادل، لأنّ الزوج هو الذي يثني الفرد، فصارا سواء في الاسم، وقد عبّر القرآن بهذا الاسم في أغلب المواضع، غير التي حكى فيها أحوال الأمم الماضية كقوله { وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً } [هود:72]، وغير المواضع التي أشار فيها إلى التذكير بما للزوج من سيادة، نحو قوله تعالى { وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً } [النساء:128]. وهاته الآية كذلك، لأنّه لمّا جعل حقّ الرجعة للرجل جبرا على المرأة، ذكّر المرأة بأنّه بعلها قديما.

وقيل: البعل الذكر، وتسمية المعبود بعلا لأنّه رمز إلى قوّة الذكورة، ولذلك سُمِّي الشجر الذي لا يسقى بعلا.

وقد حمل الجمهور البعولة على المجاز، فإنّهم اعتبروا المطلّقة طلاقا رجعيا امرأة أجنبية عن المطلِّق، بحسب الطلاق، ولكن لمّا كان للمطلّق حق المراجعة، ما دامت المرأة في العدّة، ولو بدون رضاها، وجب إعمال مقتضى الحالتين، وهذا قول مالك والشافعي. قال مالك:" لا يجوز للمطلّق أن يستمتع بمطلقته الرجعية، ولا أن يدخل عليها بدون أذن، ولو وطئها بدون قصد مراجعة أثم، ولكن لا حدّ عليه للشبهة، ووجب استبراؤها من الماء الفاسد، ولو كانت رابعة لم يكن له تزوّج امرأة أخرى، ما دامت تلك في العدة ".

وإنّما وجبت لها النفقة لأنّها محبوسة لانتظار مراجعته، ويشكل على قولهم أنّ عثمان قضى لها بالميراث إذا مات مطلقها وهي في العدة، قضى بذلك في امرأة عبد الرحمن بن عوف، بموافقة علي، رواه في الموطأ، فيُدفع الإشكال بأنّ انقضاء العدّة شرط في إنفاذ الطلاق، وإنفاذ الطلاق مانع من

الميراث، فما لم تنقض العدّة، فالطلاق متردّد بين الإعمال والإلغاء، فصار ذلك شكّا في مانع الإرث، والشك في المانع يبطل إعماله.

وحمل أبو حنيفة، والليث بن سعد البعولة على الحقيقة، فقالا: " الزوجيّة مستمرّة بين المطلّق الرجعي ومطلّقته، لأنّ الله سمّاهم بعولة "، وسوّغا دخول المطلق عليها، ولو وطئها فذلك ارتجاع عند أبي حنيفة .وقال به الأوزاعي، والثوري، وابن أبي ليلى، ونُسب إلى سعيد بن المسيّب، والحسن، والزهري، وابن سيرين، وعطاء، وبعض أصحاب مالك، وأحسب أن هؤلاء قائلون ببقاء الزوجيّة بين المطلق ومطلقته الرجعية.

{ **أَحَقُّ** } قيل: هو بمعنى اسم الفاعل مسلوب المفاضلة، أتى به لإفادة قوّة حقّهم. قال التفتازاني بما تحصيله وتبيينه: أنّ التفضيل بين صنفي حق مختلفين باختلاف المتعلّق؛ هما حقّ الزوج إن رغب فيها، وحقّ المرأة في الامتناع من المراجعة إن أبتها، فصار المعنى: وبعولتهنّ أحقّ برد المطلّقات من حقّ المطلّقات بالامتناع، وقد نسج التركيب على طريقة الإيجاز.

{ **فِي ذَٰلِكَ** } الإشارة إلى التربّص، بمعنى مدّته، أي: للبعولة حقّ الإرجاع في مدّة القروء الثلاثة.

وعندي أنّ هذا ليس مجرّد تشريع للمراجعة، بل الآية جامعة لأمرين؛ حكم المراجعة، وتحضيض المطلِّقين على مراجعة المطلَّقات، وذلك أنّ المتفارقين لا بد أن يكون لأحدهما، أو لكليهما، رغبة في الرجوع.

الردّ: المراد به هنا الرجوع إلى المعاشرة، وهو المراجعة، وتسمية المراجعة ردًّا يرجّح أنّ الطلاق قد اعتبر في الشرع قطعا لعصمة النكاح، فهو إطلاق حقيقي على قول مالك، وأمّا أبو حنيفة ومن وافقوه فتأوّلوا التعبير بالردّ بأنّ العصمة في مدّة العدّة سائرة في سبيل الزوال عند انقضاء العدّة، فسمِّيت المراجعة ردًّا عن هذا السبيل الذي أخذت في سلوكه، وهو ردّ مجازي.

{ **إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحاً** } شرط قُصد به الحثّ على إرادة الإصلاح، وليس هو للتقييد.

{ **وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** } لا يجوز أن يكون ضمير { لَهُنَّ } عائد إلى أقرب مذكور، وهو { الْمُطَلَّقَاتُ }، على نسق الضمائر قبله، لأنّ المطلّقات لم تبق بينهنّ وبين الرجال علقة، حتّى يكون لهنّ حقوق وعليهنّ حقوق، فتعيّن أن يكون ضمير { لَهُنَّ } ضمير الأزواج النساء اللائي اقتضاهن قوله { بِرَدِّهِنَّ } بقرينة مقابلته بقوله { وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ }. لأنّه لمّا اختتم حكم الطلاق بقوله { وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ } صار أولئك النساء المطلّقات زوجات، فعاد الضمير إليهنّ باعتبار هذا الوصف الجديد، الذي هو الوصف المبتدأ به في الحكم، فكان في الآية ضرب من ردّ العجز على الصدر، فعادت إلى أحكام الزوجات، بأسلوب عجيب. والمناسبة أنّ في الإيلاء من النساء تطاولا عليهنّ، وتظاهرا بما جعل الله للزوج من حقّ التصرّف في العصمة،

فناسب أن يُذكّروا بأنّ للنساء من الحقّ مثل ما للرجال. فالتقدير: ولهنّ على الرجال مثل الذي للرجال عليهنّ.

والاعتناء بذكر ما للنساء من الحقوق على الرجال، وتشبيهه بما للرجال على النساء، لأنّ حقوق الرجال على النساء مشهورة، مسلّمة من أقدم عصور البشر، وأمّا حقوق النساء فلم تكن ممّا يُلتفت إليه أو كانت متهاونا بها، وموكولة إلى مقدار حظوة المرأة عند زوجها، حتّى جاء الإسلام فأقامها، وأعظم ما أسست به هو ما جمعته هذه الآية، وفي هذا إعلان لحقوق النساء، وإصداع بها وإشادة بذكرها.

وحال المرأة إزاء الرجل في الجاهلية، كانت زوجة أم غيرها، هي حالة كانت مختلطة بين مظهر كرامة وتنافس عند الرغبة، ومظهر استخفاف وقلّة إنصاف عند الغضب.

فأمّا الأوّل (مظهر كرامة): فناشئ عمّا جُبل عليه العربيّ من الميل إلى المرأة وصدق المحبّة، فكانت المرأة مطمح نظر الرجل ومحلّ تنافسه، رغبة في الحصول عليها بوجه من وجوه المعاشرة المعروفة عندهم، وكانت الزوجة مرموقة من الزوج بعين الاعتبار والكرامة.

وأمّا الثاني (مظهر استخفاف): والرجل، مع ذلك، يرى الزوجة مجعولة لخدمته، فكان إذا غاضبها أو ناشزته، ربّما اشتدّ معها في خشونة المعاملة، وإذا تخالف رأيهما أرغمها على متابعته، بحقّ أو بدونه.

وكان شأن العرب في هذين المظهرين متفاوتا تفاوتهم في الحضارة والبداوة، وتفاوت أفرادهم في الكياسة والجلافة، وتفاوت حال نسائهم في الاستسلام والإباء والشرف وخلافه.

روى البخاري عن عمر بن الخطاب أنّه قال: " كنّا معشر قريش نغلب النساء فلمّا قدمنا على الأنصار إذا قوم تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذون من أدب الأنصار، فصخبت عليّ امرأتي فراجعتني فأنكرت أن تراجعني، قالت: ولمَ تنكر أن أراجعك فوالله إنّ أزواج النبيّ ليراجعنه، وإنّ إحداهنّ لتهجره اليوم حتّى الليل، فراعني ذلك وقلت: وقد خابت من فعلت ذلك منهنّ، ثم جمعت عليّ ثيابي فنزلت فدخلت على حفصة فقلت لها: أي حفصة أتغاضب إحداكنّ النبيّ اليوم حتّى الليل؟ قالت: نعم، فقلت: قد خبتِ وخسرتِ". وفي رواية عن ابن عباس عنه : " كنّا في الجاهلية لا نعدّ النساء شيئا فلمّا جاء الإسلام، وذكرهنّ الله رأينا لهنّ بذلك علينا حقًّا من غير أن ندخلهنّ في شيء من أمورنا ".

دلّ هذا القول على أنّ أهل مكّة كانوا أشدّ من أهل المدينة في معاملة النساء. وأحسب أنّ سبب ذلك أنّ أهل المدينة كانوا من أزد اليمن، واليمن أقدم بلاد العرب حضارة، فكانت فيهم رقّة زائدة.

وكانوا في الجاهلية إذا مات الرجل كان أولياؤه أحقّ بامرأته، إن شاء بعضهم تزوّجها إذا حلَّت له، وإن شاؤوا زوّجوها بمن شاؤوا، وإن شاؤوا لم يزوّجوها فبقيت بينهم، فهم أحقّ بذلك، فنزلت { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً } [النساء:19].

فلمّا جاء الإسلام بالإصلاح، كان من جملة ما أصلحه من أحوال البشر كافة ضبط حقوق الزوجين بوجه لم يبق معه مدخل للهضيمة، حتّى الأشياءُ التي قد يخفى أمرها قد جُعل لها التحكيم قال تعالى { وَإِنْ

خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا} [النساء:35] وهذا لم يكن للشرائع عهد بمثله. وأوّل إعلان هذا العدل بين الزوجين في الحقوق، كان بهاته الآية العظيمة، فكانت هذه الآية من أوّل ما أُنزل في الإسلام.

{ **وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ** } والمِثل أصله النظير والمشابه، كالشبه، وقد يكون الشيء مثلا لشيء في جميع صفاته، وقد يكون مثلا في بعض صفاته، وقد يكون وجه المماثلة ظاهرا وقد يكون خفيّا. وقد ظهر هنا أنّه لا يستقيم معنى المماثلة في سائر الأحوال والحقوق، لأنّ مقتضى الخلقة، ومقتضى المقصد من المرأة والرجل، ومقتضى الشريعة، التخالف بين كثير من أحوال الرجال والنساء في نظام العمران والمعاشرة. فلا جرم يعلم كلّ السامعين أنّ ليست المماثلة في كلّ الأحوال، وتعيّن صرفها إلى معنى المماثلة في أنواع الحقوق على إجمالٍ تبيّنه الشريعة. وتفاصيل هاته المماثلة تؤخذ من تفاصيل أحكام الشريعة، ومرجعها إلى نفي الإضرار، وإلى حفظ مقاصد الشريعة من الأمّة، وقد أومأ إليها قوله تعالى { بِالْمَعْرُوفِ }، أي: لهن حق متلبّسا بالمعروف، غير المنكر، من مقتضى الفطرة والآداب والمصالح، ونفي الإضرار، ومتابعة الشرع. وكلّها مجال أنظار المجتهدين.

{ **بِالْمَعْرُوفِ** } الباء للملابسة، والمراد به ما تعرفه العقول السالمة، المجرّدة من الانحياز إلى الأهواء، أو العادات أو التعاليم الضالة، وذلك هو الحسن، وهو ما جاء به الشرع نصا أو قياسا، أو اقتضته المقاصد الشرعيّة، أو المصلحة العامة، التي ليس في الشرع ما يعارضها.

والعرب تطلق المعروف على ما قابل المنكر. أي: وللنساء من الحقوق، مثل الذي عليهم ملابسا ذلك دائما للوجه غير المنكر شرعا وعقلا. وتحت هذا تفاصيل كبيرة تؤخذ من الشريعة، وهي مجال لأنظار المجتهدين في مختلف العصور والأقطار

فقول من يرى أنّ البنت البكر يجبرها أبوها على النكاح، قد سلبها حقّ المماثلة للابن، وقول من منع جبرها وقال لا تزوّج إلّا برضاها قد أثبت لها حقّ المماثلة للذكر. وقول من منع المرأة من التبرّع بما زاد على ثلثها إلّا بإذن زوجها، قد سلبها حقّ المماثلة للرجل، وقول من جعلها كالرجل في تبرّعها بمالها قد أثبت لها حقّ المماثلة للرجل، وقول من جعل للمرأة حقّ الخيار في فراق زوجها، إذا كانت به عاهة، قد جعل لها حقّ المماثلة، وقول من لم يجعل لها ذلك قد سلبها هذا الحقّ. فكونوا من ذلك بمحل التيقّظ، وخذوا بالمعنى دون التلفّظ.

ودين الإسلام حريّ بالعناية بإصلاح شأن المرأة، وكيف لا وهي نصف النوع الإنساني، والمربّية الأولى، التي تُفيض التربية السالكة إلى النفوس قبل غيرها، والتي تصادف عقولا لم تمسّها وسائل الشرّ، وقلوبا لم تنفذ إليها خراطيم الشيطان. فإذا كانت تلك التربية خيرا، وصدقا، وصوابا، وحقّا، كانت أوّل ما ينتقش في تلك الجواهر الكريمة، وأسبق ما يمتزج بتلك الفطر السليمة، فهيّأت لأمثالها، من خواطر الخير، منزلا رحبا، ولم تغادر لأغيارها من الشرور كرامة ولا حبا.

ودين الإسلام دين تشريع ونظام، فلذلك جاء بإصلاح حال المرأة، ورفع شأنها لتتهيّأ الأمّة الداخلة تحت حكم الإسلام، إلى الارتقاء وسيادة العالم.

{ **وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ** } لكيلّا يُظنّ أنّ المساواة المشروعة بقوله تعالى { وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ } مُطّردة، ولزيادة بيان المراد من قوله { بِالْمَعْرُوفِ }، وهذا التفضيل ثابت على الإجمال لكلّ رجل، ويظهر أثر هذا التفضيل عند نزول المقتضيات الشرعية والعادية.

{ **وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** } تذييل وإقناع للمخاطبين.

العزيز: القويّ، لأنّ العزّة في كلام العرب القوّة. و**الحكيم**: المتقن الأمور في وضعها.

بيّن الله تعالى أنّ الله عزيز، أي: قويّ لا يُعجزه أحد، ولا يتّقي أحدا، وأنّه حكيم يعلم صلاح النّاس، وأنّ عزّته تؤيّد حكمته، فينفذ ما اقتضته الحكمة بالتشريع، والأمر الواجب امتثاله، ويحمل النّاس على ذلك وإن كرهوا.

{ الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } [229].

{ **الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ** } استئناف لذكر غاية الطلاق، الذي يملكه الزوج من امرأته، فإنّ الله تعالى أعلن أنّ للنساء حقّا، كحق الرجال، وجعل للرجال درجة زائدة منها، أنّ لهم حقّ الطلاق، ولهم حقّ الرجعة، ولمّا كان أمر العرب في الجاهلية جاريا على عدم تحديد نهاية الطلاق، كما سيأتي قريبا، ناسب أن يذكر عقب ذلك كلّه حكم تحديد الطلاق، إفادة للتشريع في هذا الباب ودفعا لما قد يعلق أو علق بالأوهام في شأنه.

روى مالك في (جامع الطلاق) من الموطأ عن هشام بن عروة عن أبيه أنّه قال : " كان الرجل إذا طلّق امرأته ثم ارتجعها قبل أن تنقضي عدّتها كان له ذلك، وإن طلقها ألف مرة، فعمد رجل إلى امرأته فطلّقها حتّى إذا شارفت انقضاء عدّتها راجعها ثم طلقها ثم قال: والله لا آويك ولا تحلّين أبدا، فأنزل الله { الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ } فاستقبل النّاس الطلاق جديدا من يومئذ من كان طلق منهم أو لم يطلق ".

{ **الطَّلاقُ مَرَّتَانِ** } تعريف الجنس، فالمقصود هنا الطلاق الرجعيّ الذي سبق الكلام عليه آنفا في قوله تعالى { وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ }، فإنّه الطلاق الأصليّ، وليس في أصل الشريعة طلاق بائن غير قابل للمراجعة لذاته إلّا الطلقة الواقعة ثالثة، بعد سبق طلقتين قبلها فإنّها مبينة بعد، وأمّا ما عداها

من الطلاق البائن الثابت بالسنّة، فبينونته لحقّ عارض، كحقّ الزوجة فيما تعطيه من مالها في الخلع، ومثل الحقّ الشرعي في تطليق اللعان، لمظنّة انتفاء حسن المعاشرة، بعد أن تلاعنا، ومثل حقّ المرأة في حكم الحاكم لها بالطلاق للإضرار بها.

وحُذف وصف الطلاق، لأنّ السياق دال عليه، فصار التقدير: الطلاق الرجعيّ مرّتان. وقد أخبر عن الطلاق بأنّه مرتان، فعلم أنّ التقدير: حقّ الزوج في إيقاع التطليق الرجعيّ مرتان، فأما الطلقة الثالثة فليست برجعية.

{ **فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ** } وإذ قد كان الامساك والتسريح ممكنين عند كلّ مرّة من مرّتي الطلاق، كان المعنى: فإمساك أو تسريح في كلّ مرّة من المرتين، أي شأن الطلاق أن تكون كلّ مرّة منه معقّبة بإرجاع بمعروف أو ترك بإحسان، أي دون ضرار في كلتا الحالتين. فإنّ الله كتب الإحسان على كل شيء، إبطالا لأفعال أهل الجاهلية، إذ كانوا قد يراجعون المرأة بعد الطلاق ثم يطلقونها دواليك، لتبقى زمنا طويلا في حالة ترك، إضرارا بها، إذ لم يكن الطلاق عندهم منتهيا إلى عدد لا يملك بعده المراجعة.

وقدّم الإمساك على التسريح إيماء إلى أنّه الأهم، المرغب فيه في نظر الشرع .

الإمساك: حقيقته قبض اليد على شيء، وهو هنا استعارة لدوام المعاشرة.

التسريح: ضدّ الإمساك، وهو مستعار هنا لإبطال سبب المعاشرة بعد الطلاق.

المعروف: هنا هو ما عرفه النّاس في معاملاتهم من الحقوق التي قرّرها الإسلام أو قرّرتها العادات التي لا تنافي أحكام الإسلام، وهو يناسب الإمساك. وأمّا التسريح فهو فراق ومعروفه منحصر في الإحسان إلى المفارقة بالقول الحسن، والبذل بالمتعة.

{ وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ }

يجوز أن تكون معطوفة على { أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ } لأنّ من إحسان التسريح ألّا يأخذ المسرِّح، وهو المطلِّق، عوضا عن الطلاق، وهذه مناسبة مجيء هذا الاعتراض، وهو تفنّن بديع في جمع التشريعات. والخطاب للأمّة، ليأخذ منه كل أفرادها ما يختصّ به، فالزوج يقف عن أخذ المال، ووليّ الأمر يحكم بعدم لزومه، ووليّ الزوجة أو كبير قبيلة الزوج يسعى ويأمر وينهى. وهذا شأن خطابات القرآن في التشريع.

وقال ابن عطيّة والقرطبي وصاحب الكشّاف: الخطاب في قوله { وَلا يَحِلُّ لَكُمْ } للأزواج، والخطاب في قوله { فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ } للحكّام، لأنّه لو كان للأزواج لقيل: فإن خفتم ألّا تقيموا أو ألّا تقيما.

{ **وَلا يَحِلُّ لَكُمْ** } لا يجوز ولا يسمح به.
{ **شَيْئاً** } من النكرات المتوغّلة في الإبهام، تحذيرا من أخذ أقلّ قليل، بخلاف ما لو قال: مالا أو نحوه. وهذا الموقع من محاسن مواقع كلمة (شيء) التي أشار إليها الشيخ في (دلائل الإعجاز).
{ **إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ** } قال بعض المفسّرين إنّ الخوف هنا بمعنى الظنّ، يريد ظنّ المكروه، إذ الخوف لا يطلق إلّا على حصول ظنّ المكروه، وهو خوف بمعناه الأصلي.
الإقامة: في الحقيقة، الإظهار والإيجاد، يقال: أقام حدّا لأرضه، وهي هنا استعارة للعمل بالشرع تبعا لاستعارة الحدود للأحكام الشرعية. وإقامة حدود الله فسّرها مالك رحمه الله بأنّها حقوق الزوج وطاعته والبرّ به، فإذا أضاعت المرأة ذلك فقد خالفت حدود الله.
{ **فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ** } ولم يختلف علماء الأمّة أنّ المراد بالآية أخذ العوض على الفراق، وإنّما اختلفوا في هذا الفراق هل هو طلاق أو فسخ، فذهب الجمهور إلى أنّه طلاق ولا يكون إلّا بائنا، إذ لو لم يكن بائنا لما ظهرت الفائدة في بذل العوض، وبه قال عثمان، وعليّ، وابن مسعود، والحسن، وعطاء، وابن المسيب، والزهري، ومالك، وأبو حنيفة، والثوري، والأوزاعي، والشعبي، والنخعي، ومجاهد، ومكحول.
وذهب فريق إلى أنّه فسخ، وعليه ابن عباس، وطاووس، وعكرمة، وإسحاق، وأبو ثور، وأحمد بن حنبل، وكلّ من قال إنّ الخلع لا يكون إلّا بحكم الحاكم، واختلف قول الشافعي في ذلك، فقال مرّة هو طلاق، وقال مرة ليس بطلاق.
وتظهر فائدة هذا الخلاف في الخلع الواقع بينهما بعد أن طلّق الرجل طلقتين، فعند الجمهور طلقة الخلع ثالثة فلا تحلّ لمخالعها إلّا بعد زواج، وعند ابن عباس، وأحمد بن حنبل، وإسحاق، ومن وافقهم لا تعدّ طلقة، ولهما أن يعقدا نكاحا مستأنفا.
والجمهور على جواز إجراء الخلع بدون تخاصم، لأنّ الخطاب ليس صريحا للحكّام، وقد صحّ عن عمر، وعثمان، وابن عمر، أنّهم رأوا جوازه بدون حكم حاكم.
والجمهور أيضا على جواز أخذ العوض على الطلاق، إن طابت به نفس المرأة، ولم يكن عن إضرار بها. وأجمعوا على أنّه إن كان عن إضرار بهنّ فهو حرام عليه.
والحقّ أنّ الآية صريحة في تحريم أخذ العوض عن الطلاق إلّا إذا خيف فساد المعاشرة بألّا تحبّ المرأة زوجها. وقد بين ذلك كلّه قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بين جميلة بنت أو أخت عبد الله بن أُبيّ بن سلول، وبين زوجها ثابت بن قيس بن شماس، إذ قالت له: يا رسول الله لا أنا ولا ثابت، أو لا يجمع رأسي ورأس ثابت شيء، والله ما أعتب عليه في دين ولا خُلق ولكني أكره الكفر في الإسلام، لا أطيقه بُغضا، فقال لها النبيّ صلى الله عليه وسلم: **أتردّين عليه حديقته التي أصدقك؟**، قالت: نعم وأزيده " [زاد في رواية قال: **أما الزائد فلا**].

{ **تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا** } جملة معترضة، ومناسبة الاعتراض ما جرى في الكلام الذي قبلها من منع أخذ العوض عن الطلاق، إلّا في حالة الخوف من ألّا يقيما حدود الله، وكانت حدود الله مبيّنة في الكتاب والسنّة، فجيء بهذه الجملة المعترضة تبيينا، لأنّ منع أخذ العوض على الطلاق هو من حدود الله. استعارة للأوامر والنواهي الشرعية، شُبّهت بالحدود التي هي الفواصل المجعولة بين أملاك النّاس، لأنّ الأحكام الشرعية تفصل بين الحلال والحرام، والحقّ والباطل، وتفصل بين ما كان عليه النّاس قبل الإسلام وما هم عليه بعده.

الاعتداء: هو تجاوز الحدّ، وهنا أطلق على مخالفة حكم الشرع، هو استعارة تابعة لتشبيه الحكم بالحدّ.

{ **وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** } تذييل، وأفادة جملة { فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } حصرا وهو حصر حقيقي، إذ ما من ظالم إلّا وهو متعدّ لحدود الله، فظهر حصر حال المتعدّي حدود الله في أنّه ظالم.

{ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حتّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } [230].

تفريع مرتّب على قوله { الطَّلاقُ مَرَّتَانِ } وما بينهما بمنزلة الاعتراض. أي: فإن راجعها فطلقها. لبيان حكم الطلقة الثالثة. والآية بيان لحقّ المراجعة صراحة، وهي إمّا إبطال لما كانوا عليه في الجاهلية وتشريع إسلامي جديد، وإمّا نسخ لما تقرّر أوّل الإسلام إذا صحّ ما رواه أبو داود، في(سننه)، في باب المراجعة بعد التطليقات الثلاث، عن ابن عباس: " أنّ الرجل كان إذا طلّق امرأته فهو أحقّ برجعتها وإن طلقها ثلاثا فنسخ ذلك ونزل { الطَّلاقُ مَرَّتَانِ } ".

{ **فَلا تَحِلُّ لَهُ** } أي تحرم عليه.

{ **مِنْ بَعْدُ** } أي: من بعد ثلاث تطليقات، تسجيلا على المطلّق، وإيماء إلى علّة التحريم، وهي تهاون المطلّق بشأن امرأته، واستخفافه بحق المعاشرة، حتّى جعلها لعبة تقلّبها عواطف غضبه وحماقته.

{ **حتّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ** } أن تعقد على زوج آخر، لأن لفظ النكاح في كلام العرب لا معنى له إلّا العقد بين الزوجين، ولم أر لهم إطلاقا آخر فيه لا حقيقة ولا مجازا، وأيّا ما كان إطلاقه في الكلام فالمراد في هاته الآية العقد بدليل إسناده إلى المرأة، فإنّ المعنى الذي ادّعى المدّعون أنّه من معاني النكاح بالاشتراك والمجاز، لا يسند في كلام العرب للمرأة أصلا، وهذه نكتة غفلوا عنها في هذا المقام.

وحكمة هذا التشريع العظيم ردع الأزواج عن الاستخفاف بحقوق أزواجهم، وجعلهن لعبا في بيوتهم، فجعل للزوج الطلقة الأولى هفوة والثانية تجربة والثالثة فراقا.

إلّا أنّ العقد لمّا كان وسيلة لما يقصد له في غالب الأحوال من البناء وما بعده، كان العقد الذي لا يعقبه وطء العاقد لزوجه غير معتدّ به فيما قصد منه.

ولذلك لمّا طلّق رفاعة بن سموأل القرظي زوجه تميمة ابنة وهب طلقة صادفت أخرى الثلاث، وتزوّجت بعده عبد الرحمن بن الزبير القرظي، جاءت النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالت له: يا رسول الله إنّ رفاعة طلقني فبتَّ طلاقي، وإنّ عبد الرحمن بن الزبير تزوّجني وإنّما معه مثل هُدْبة هذا الثوب، وأشارت إلى هُدْب ثوب لها فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة ؟** قالت: نعم، قال: **لا، حتّى تذوقي عسيلته"**. [الهُدْبة: نهاية الثوب التي تترك ولا تنسج، وربما فتلوها، وهي في لسان بلدنا: الفتول]

فدلّ سؤالها على أنّها تتوقّع عدم الاعتداد بنكاح ابن الزبير في تحليل من بتّها، لعدم حصول المقصود من النكاية والتربية بالمطلِّق. فاتفق علماء الإسلام على أنّ النكاح الذي يحلّ المبتوتة هو دخول الزوج الثاني بالمرأة، ومسيسه لها. ولم يشذ عن ذلك إلّا سعيد بن المسيب فإنّه قال يحلّ المبتوتة مجرد العقد على زوج ثان، وهو شذوذ ينافي المقصود.

وقد أمر الله بهذا الحكم، مرتّبا على حصول الطلاق الثالث بعد طلقتين تقدمتاه، فوجب امتثاله وعلمت حكمته، فلا شك في أن يقتصر به على مورده، ولا يُتعدّى حكمه ذلك إلى كلّ طلاق عبّر فيه المطلّق بلفظ الثلاث تغليظا، أو تأكيدا، أو كذبا، لأنّ ذلك ليس طلاقا بعد طلاقين، ولا تتحقّق فيه حكمة التأديب على سوء الصنيع.

وعلى هذا الحكم استمر العمل في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبي بكر، وصدر من خلافة عمر. ثمّ إنّ عمر بن الخطاب، في السنة الثالثة من خلافته، حدثت حوادث من الطلاق بلفظ الثلاث في كلمة واحدة فقال: أرى النّاس قد استعجلوا في أمر قد كانت لهم فيه أناة فلو أمضيناه عليهم، فأمضاه عليهم.

وقد اختلف علماء الإسلام فيما يلزم من تلفظ بطلاق الثلاث في طلقة ليست ثالثة فقال الجمهور يلزمه الثلاث أخذا بما قضي به عمر بن الخطاب وتأيّد قضاؤه بسكوت الصحابة لم يغيروا عليه فهو إجماع سكوتي، وبناء على تشبيه الطلاق بالنذور والأيمان، يلزم المكلف فيها ما التزمه.

ولا خلاف في أنّ عمر بن الخطاب قضى بذلك ولم ينكر عليه أحد، ولكنّه قضى بذلك عن اجتهاد، فهو مذهب له، ومذهب الصحابي لا يقوم حجّة على غيره، وما أيّدوه به من سكوت الصحابة لا دليل فيه، لأنّ الإجماع السكوتي ليس بحجّة عند النحارير من الأئمة مثل الشافعي والباقلاني والغزالي والإمام الرازي، وخاصة أنّه صدر من عمر بن الخطاب مصدر القضاء والزجر، فهو قضاء في مجال الاجتهاد لا يجب على أحد تغييره، ولكنّ القضاء جزئي لا يلزم اطراد العمل به، وتصرّف الإمام بتحجير المباح لمصلحة مجالٌ للنظر. فهذا ليس من الإجماع الذي لا تجوز مخالفته.

وقال علي بن أبي طالب، وابن مسعود، وعبد الرحمن ابن عوف، والزبير بن العوام، ومحمد بن إسحاق، وحجاج بن أرطاة، وطاووس، والظاهرية وجماعة من مالكية الأندلس منهم محمد بن زنباع،

ومحمد بن بقي بن مخلد، ومحمد بن عبد السلام الخشني، فقيه عصره بقرطبة، وأصبغ بن الحباب من فقهاء قرطبة، وأحمد بن مغيث الطليطلي الفقيه الجليل، وقال ابن تيمية من الحنابلة: إن طلاق الثلاث في كلمة واحدة لا يقع إلّا طلقة واحدة، وهو الأرجح من جهة النظر والأثر. [وللقوم حجج كثيرة أنظرها في كتب الفقه]

{ **زَوْجاً غَيْرَهُ** } تحذير للأزواج من الطلقة الثالثة، لأنّه بذكر المغايرة يتذكّر أنّ زوجته ستصير لغيره.

{ **وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** } وتبيين الحدود ذكرها للنّاس موضّحة، مفصّلة، معلّلة. ووصف القوم بأنّهم يعلمون صريح في التنويه بالذين يدركون ما في أحكام الله من المصالح، وهو تعريض بالمشركين الذين يعرضون عن اتباع الإسلام.

{ **لِقَوْمٍ** } للإيذان بأنّ صفة العلم سجيّتهم وملكة فيهم.

{ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [231]

{ **وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ** } عطف حكم على حكم، وتشريع على تشريع، لقصد زيادة الوصاية بحسن المعاملة في الاجتماع والفرقة، وما تبع ذلك من التحذير الذي سيأتي بيانه.

{ **فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ** } طلاقا فيه أجل، والأجل هنا هو العدّة، وهو التربّص في الآية السابقة.

وبلوغ الأجل المراد به هنا مشارفة الوصول إليه بإجماع العلماء، لأنّ الأجل إذا انقضى زال التخيير بين الإمساك والتسريح، وقد يُطلق البلوغ على مشارفة الوصول ومقاربته توسّعا، أي مجازا بالأول.

{ **فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ** } مضى قريبا، ويستتبع هذا التذكير الإشارة إلى الترغيب في الإمساك من جهة إعادة التخيير بعد تقدّم ذكره، وذكر التسريح هنا مع الإمساك ليظهر معنى التخيير بين أمرين، وليتوسّل بذلك إلى الإشارة إلى رغبة الشريعة في الإمساك، وليبني عليه ما قُصد من النهي عن الضرار، وما تلا ذلك من التحذير والموعظة، وذلك كلّه ممّا أبعد عن تذكّره الجملُ السابقة التي اقتضى الحال الاعتراض بها.

{ **أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ** } قيّد التسريح هنا بالمعروف، وقيّد في قوله السالف { بِإِحْسَانٍ } للإشارة إلى أنّ الإحسان المذكور هنالك، هو عين المعروف الذي يعرض للتسريح، لأنّ إعادة أحوال الإمساك والتسريح هنا ليبني عليه النهي عن المضارة، والذي تخاف مضارته بمنزلة بعيدة عن أن يطلب منه

الإحسان، فطلب منه الحقّ، وهو المعروف الذي عدم المضارة من فروعه، سواء في الإمساك أو في التسريح.

{ **وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً** } تصريح بمفهوم ما قبله { فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ } إذ الضرار ضدّ المعروف، ونكتته تقرير المعنى المراد في الذهن بطريقتين غايتهما واحدة.

الضرار: مصدر ضار، وأصل هذه الصيغة أن تدلّ على وقوع الفعل من الجانبين، والظاهر أنّها هنا مستعملة للمبالغة في الضرّ، تشنيعا على من يقصده بأنّه مفحش فيه.

{ **لِتَعْتَدُوا** } حذف المفعول ليشمل الاعتداء عليهنّ، وعلى أحكام الله تعالى، فتكون اللام مستعملة في التعليل والعاقبة. والاعتداء على أحكام الله لا يكون علّة للمسلمين، فنزل منزلة العلّة مجازا في الحصول، تشنيعا على المخالفين.

{ **فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ** } جعل ظلمهم نساءهم ظلما لأنفسهم، لأنّه يؤدي إلى اختلال المعاشرة، واضطراب حال البيت، وظلم نفسه أيضا بتعريضها لعقاب الله في الآخرة.

{ **وَلا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً** } عطف هذا النهي على النهي في قوله { وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا } لزيادة التحذير من صنيعهم في تطويل العدّة، لقصد المضارة، بأنّ في ذلك استهزاء بأحكام الله التي شرع فيها حقّ المراجعة، مريدا رحمة النّاس، فيجب الحذر من أن يجعلوها هزءا.

آيات الله: هي ما في القرآن من شرائع.

الهزء: (بضمّتين) مصدر هزأ به إذا سخر ولعب، أي: لا تتخذوها مستهزأ به، ولمّا كان المخاطب بهذا المؤمنين، وقد علم أنّهم لم يكونوا بالذين يستهزئون بالآيات، تعيّن أنّ الهزء مراد به الاستخفاف وعدم الرعاية، لأنّ المستخفّ بالشيء المهمّ يعدّ كالساخر واللاعب.

وهو تحذير للنّاس من التوصّل بأحكام الشريعة إلى ما يخالف مراد الله، ومقاصد شرعه، ومن هذا التوصّل المنهي عنه، ما يسمَّى بالحيل الشرعية، بمعنى أنّها جارية على صور صحيحة الظاهر بمقتضى حكم الشرع، كمن يهب ماله لزوجه ليلة الحول ليتخلّص من وجوب زكاته. ومن أبعد الأوصاف عنها الوصف بالشرعية.

فالمخاطَبون بهذه الآيات محذَّرون أن يجعلوا حكم الله في العدّة، الذي قُصد منه انتظار الندامة وتذكّر حسن المعاشرة، لعلّهما يحملان المطلِّق على إمساك زوجته حرصا على بقاء المودة والرحمة، فيغيّروا ذلك ويجعلوه وسيلة إلى زيادة النكاية، وتفاقم الشرّ والعداوة.

وفي الموطأ أنّ رجلا قال لابن عباس: إنّي طلقت امرأتي مائة طلقة، فقال له ابن عباس: " بانت منك بثلاث، وسبع وتسعون اتّخذت بها آيات الله هزءا ".

{ **وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ** } ذكّرهم بما أنعم عليهم، بعد الجاهلية بالإسلام، الذي سمّاه نعمة كما سمّاه

بذلك في قوله تعالى { وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً } [آل عمران:103]

{ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ } الكتاب: القرآن، والحكمة: العلم المستفاد من الشريعة، وهو العبرة بأحوال الأمم الماضية وإدراك مصالح الدين وأسرار الشريعة.

إنزال الحكمة: أنّها كانت حاصلة من آيات القرآن، كما ذكرنا، ومن الإيماء إلى العلّل، وممّا يحصل أثناء ممارسة الدين، وكلّ ذلك منزّل من الله تعالى بالوحي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم .

ومن فسّر الحكمة بالسنة فقد فسّرها ببعض دلائلها.

الموعظة: من الوعظ وهو النصح والتذكير بما يلين القلوب، ويحذّر الموعوظ.

{ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } تذكير بالتقوى وبمراعاة علمهم بأنّ الله عليم بكلّ شيء، تنزيلا لهم في حين مخالفتهم بأفعالهم لمقاصد الشريعة، منزلة من يجهل أنّ الله عليم، وهو إذا علم مخالفتهم لا يحول بين عقابه وبينهم شيء، لأنّ هذا العليم قدير.

{ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ } [232].

المراد من هذه الآية مخاطبة أولياء النساء، بألّا يمنعوهنّ من مراجعة أزواجهنّ، بعد أن أمر المفارقين بإمساكهنّ بمعروف ورغّبهم في ذلك. إذ قد عُلم أنّ المرأة إذا رأت الرغبة من الرجل الذي كانت تألفه وتعاشره لم تلبث أن تقرن رغبته برغبتها، فإنّ المرأة سريعة الانفعال قريبة القلب، فإذا جاء منع فإنّما يجيء من قبل الأولياء، ولذلك لم يذكر الله ترغيب النساء في الرضا بمراجعة أزواجهنّ ونهى الأولياء عن منعهن من ذلك.

وقد روي في (الصحيح) أنّ البداح بن عاصم الأنصاري طلّق زوجه جميلة ابنة معقل بن يسار فلمّا انقضت عدّتها، أراد مراجعتها، فقال له أبوها معقل ابن يسار: إنك طلّقتها طلاقا له الرجعة، ثم تركتها حتّى انقضت عدّتها، فلما خُطبت إليّ أتيتني تخطبها مع الخطّاب، والله لا أنكحتكها أبدا، فنزلت هذه الآية، قال معقل: فكفَّرت عن يميني وأرجعتها إليه.

وقال الواحدي نزلت في جابر بن عبد الله كانت له ابنة عم طلّقها زوجها وانقضت عدّتها، ثم جاء يريد مراجعتها، وكانت راغبة فيه، فمنعه جابر من ذلك فنزلت.

{ أجلهنّ } هو العدّة.

{ طَلَّقْتُمُ / تَعْضُلُوهُنَّ } الخطاب ينبغي أن يُحمل على أنّه موجّه إلى جهة واحدة دون اختلاف التوجّه،

فيكون موجّها إلى جميع المسلمين، لأنّ كل واحد صالح لأن يقع منه الطلاق، إن كان زوجا، ويقع منه العضل، إن كان وليّا، والقرينة ظاهرة على مثله فلا يكاد يخفى في استعمالهم.

العضل: المنع والحبس وعدم الانتقال، فمنه عضّلت المرأة (بالتشديد) إذا عسرت ولادتها، والمُعاضلة في الكلام احتباس المعنى حتّى لا يبدو من الألفاظ، وهو التعقيد. وشاع في كلام العرب في منع الولي مولاته من النكاح، وفي الشرع هو المنع بدون وجه صلاح.

{ **أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ** } سمَّاهن أزواجا مجازا باعتبار ما كان، لقرب تلك الحالة، وللإشارة إلى أنّ المنع ظلم، فإنّهم كانوا أزواجا لهنّ من قبل، فهم أحقّ بأن يرجعن إليهم.

{ **إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ** } شرط للنهي، لأنّ الوليّ إذا علم عدم التراضي بين الزوجين، ورأى أنّ المراجعة ستعود إلى دَخَل وفساد فله أن يمنع مولاته، نصحا لها، وفي هذا الشرط إيماء إلى علّة النهي، وهي أنّ الوليّ لا يحقّ له منعها مع تراضي الزوجين بعود المعاشرة.

وفي الآية إشارة إلى اعتبار الولاية للمرأة في النكاح، بناء على غالب الأحوال يومئذ، لأنّ جانب المرأة جانب ضعيف، مطموع فيه، معصوم عن الامتهان، فلا يليق تركها تتولّى مثل هذا الأمر بنفسها، لأنّه ينافي نفاستها وضعفها، فقد يستخفّ بحقوقها الرجال، حرصا على منافعهم وهي تضعف عن المعارضة.

ووجه الإشارة، أن الله أشار إلى حقّين:

حقّ الولي، بالنهي عن العضل، إذ لو لم يكن الأمر بيده لما نهي عن منعه، لأنّه لو كان كذلك لكان النهي عن البغي والعدوان كافيا، ولجيء بصيغة (ما يكون لكم) ونحوها.

حق المرأة في الرضا، ولأجله أسند الله النكاح إلى ضمير النساء، ولم يقل: أن تُنكحوهنّ أزواجهنّ، وهذا مذهب مالك، والشافعي، وجمهور فقهاء الإسلام. وشذّ أبو حنيفة، في المشهور عنه، فلم يشترط الولاية في النكاح.

{ **ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ** }

إشارة إلى حكم النهي عن العضل.

{ **أَزْكَى لَكُمْ** } دال على النماء والوفر، وذلك أنّهم كانوا يعضلونهنّ حمية وحفاظا على المروءة من لحاق ما فيه شائبة الحطيطة، فأعلمهم الله أنّ عدم العضل أوفر للعِرض، لأنّ فيه سعيا إلى استبقاء الودّ بين العائلات التي تقاربت بالصهر والنسب.

{ **وَأَطْهَرُ** } فهو معنى أنزه، أي: أنّه أقطع لأسباب العداوات والإحن والأحقاد، بخلاف العضل الذي قصدتم منه قطع العود إلى الخصومة.

{ **وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ** } تذييل، وإزالة لاستغرابهم حين تلقّي هذا الحكم، لمخالفته لعاداتهم القديمة، وما اعتقدوا نفعا وصلاحا وإبقاء على أعراضهم، فعلّمهم الله أنّ ما أمرهم به ونهاهم عنه هو الحقّ، لأنّ الله يعلم النافع، وهم لا يعلمون إلّا ظاهرا.

{ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } [233].

انتقال من أحكام الطلاق والبينونة، فإنّه لمّا نهى عن العضل، وكانت بعض المطلّقات لهنّ أولاد في الرضاعة ويتعذّر عليهنّ التزوّج وهنّ مرضعات، كانت تلك الحالة مثار خلاف بين الآباء والأمّهات، فلذلك ناسب التعرّض لوجه الفصل بينهم في ذلك، ولأنّ تنظيم أمره من أهم شؤون أحكام العائلة.

{ **وَالْوَالِدَاتُ** } المطلّقات اللائي لهنّ أولاد في سن الرضاعة، ودليل التخصيص أنّ الخلاف في مدّة الإرضاع لا يقع بين الأب والأم، إلّا بعد الفراق، ولا يقع في حالة العصمة، إذ من العادة المعروفة عند العرب ومعظم الأمم أنّ الأمّهات يرضعن أولادهن في مدّة العصمة.

{ **يُرْضِعْنَ** } خبر مراد به التشريع، وإثبات حقّ الاستحقاق، وليس بمعنى الأمر للوالدات والإيجاب عليهن، لأنّه قد ذُكر بعد أحكام المطلّقات، ولأنّه عقّب بقوله { وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا } فإنّ الضمير شامل للاباء والأمّهات. وقد صرّح بذلك في سورة الطلاق { وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى } ولأنّه عقَّب بقوله { وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ } وذلك أجر الرضاعة، والزوجة في العصمة ليس لها نفقة وكسوة لأجل الرضاعة، بل لأجل العصمة.

على أنّه ليس المراد بقوله { يُرْضِعْنَ } تشريع وجوب الإرضاع على الأمهات، بل المقصود تحديد مدّة الإرضاع، وواجبات المرضع على الأب، وأمّا إرضاع الأمهات فموكول إلى ما تعارفه النّاس، فالمرأة التي في العصمة، إذا كان مثلها يرضع، يعتبر إرضاعها أولادها من حقوق الزوج عليها في العصمة، إذ العرف كالشرط. والمرأة المطلّقة لا حقّ لزوجها عليها، فلا ترضع له إلّا باختيارها، ما لم يعرض في الحالين مانع أو موجب، مثل عجز المرأة في العصمة عن الإرضاع لمرض، ومثل امتناع الصبي من رضاع غيرها، إذا كانت مطلّقة بحيث يُخشى عليه، والمرأة التي لا يرضع مثلها وهي ذات القدر، قد علم الزوج حينما تزوّجها أن مثلها لا يُرضع، فلم يكن له عليها حق الإرضاع . هذا قول مالك، وقد كان ذلك عرفا من قبل الإسلام وتقرّر في الإسلام، وقد جرى في كلام المالكية، ولكنّي الآن لا أرى ذلك متّجها ولا أرى مالكا عمد إلى التخصيص أصلا، لأنّ الآية غير مسوقة لإيجاب الإرضاع، كما تقدم.

{ **أَوْلادَهُنَّ** } صرّح بالمفعول، مع كونه معلوما، إيماءً إلى أحقيّة الوالدات بذلك وإلى ترغيبهنّ فيه.

والذي عليه جمهور السلف: ليست الآية واردة إلّا لبيان إرضاع المطلّقات أولادهن، فإذا رامت المطلّقة إرضاع ولدها، فهي أولى به، سواء كانت بغير أجر أم طلبت أجر مثلها، ولذلك كان المشهور عن مالك:

أنّ الأب إذا وجد من ترضع له غير الأم بدون أجر، وبأقل من أجر المثل، لم يُجب إلى ذلك، كما سنبيّنه.
ومن العلماء من تأوّل الوالدات على العموم، سواء كنّ في العصمة، أو بعد الطلاق كما في القرطبي.
والظاهر أنّ حكم إرضاع الأمّ ولدها في العصمة يُستدل له بغير هذه الآية، وممّا يدل على أنّه ليس المراد الوالدات اللائي في العصمة، قوله تعالى { وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ } فإنّ اللائي في العصمة لهن النفقة والكسوة بالأصالة.

{ **حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ** } وصف الحولين بكاملين، تأكيد لرفع توهّم أنّ يكون المراد حولا وبعض الثاني.
الحول: في كلام العرب العام، وهو مشتقّ من تحوّل دورة القمر أو الشمس في فلكه من مبدأ مصطلح عليه إلى أن يرجع إلى السمت الذي ابتدأ منه، فتلك المدّة التي ما بين المبدأ والمرجع تسمّى حولا.
وحول العرب قمري وكذلك أقرّه الإسلام.

{ **لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ** } بيان لمن يهمّه ذلك وهو الأب، والأم، ومن يقوم مقامهما، من وليّ الرضيع، وحاضنه، والمعنى: أنّ هذا الحكم يستحقّه من أراد إتمام الرضاعة، وأباه الآخر.
وقد جعل الله الرضاع حولين، رعيا لكونهما أقصى مدّة يحتاج فيها الطفل للرضاع. وقد كانت الأمم في عصور قلة التجربة، وانعدام الأطباء، لا يهتدون إلى ما يقوم للطفل مقام الرضاع، لأنّهم كانوا إذا افطموه أعطوه الطعام، فكانت أمزجة بعض الأطفال بحاجة إلى تطويل الرضاع، لعدم القدرة على هضم الطعام وهذه عوارض تختلف. وفي عصرنا أصبح الأطباء يعتاضون لبعض الصبيان بالإرضاع الصناعي، وهم مع ذلك مجمعون على أنّه لا أصلح للصبي من لبن أمّه، ما لم تكن بها عاهة أو كان اللبن غير مستوف الأجزاء التي بها تغذية الطفل.
والجمهور على أنّ الحولين غاية لإرضاع كل مولود. وأخذوا من الآية أنّ الرضاع المعتبر هو ما كان في الحولين، وأنّ ما بعدهما لا حاجة إليه، فلذلك لا يُجاب إليه طالبه.

{ **وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ** } عبّر عن الوالد بالمولود له، إيماء إلى أنّه الحقيق بهذا الحكم، لأنّ منافع الولد منجرّة إليه، وهو لاحق به ومعتزّ به في القبيلة، حسب مصطلح الأمم، فهو الأجدر بإعاشته، وتقويم وسائلها.
الرزق والكسوة هنا، ما تأخذه المرضع، أجرا عن رضاعتها، من طعام ولباس، لأنّهم كانوا يجعلون للمراضع كسوة ونفقة، إذ لم يكن أكثر قبائل العرب أهل ذهب وفضة، بل كانوا يتعاملون بالأشياء، وكان الأجراء لا يرغبون في الدرهم والدينار، وإنّما يطلبون كفاية ضروراتهم، ولذلك أحال الله تقديرهما على المعروف عندهم من مراتب النّاس وسعتهم.

{ **لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا** } تعليل، وهو اعتراض يفيد أصولا عظيمة للتشريع ونظام الاجتماع.
التكليف: تفعيل بمعنى جعله ذا كلفة، والكلفة المشقّة، ويطلق التكليف على الأمر بفعل فيه كلفة، وهو اصطلاح شرعي جديد.

الوسع، الطاقة، وأصله من وسع الإناء الشيء إذا حواه ولم يبق منه شيء، وأصله استعارة، فكأنّهم شبّهوا تحمّل النفس عملا ذا مشقة باتساع الظرف للمحوي. والتكليف بما فوق الطاقة منفي في الشريعة.

{ **إِلَّا وُسْعَهَا** } تشريع من الله للأمّة بأن ليس لأحد أن يكلّف أحدا إلّا بما يستطيعه، وذلك أيضا وعد من الله بأنّه لا يكلّف في التشريع الإسلامي إلّا بما يُستطاع في العامة والخاصة.

والآية تدلّ على عدم وقوع التكليف بما لا يطاق، في شريعة الإسلام وسيأتي تفصيل هذه المسألة عند قوله تعالى { لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا } في آخر السورة.

{ **لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا** } اعتراض ثان، فإنّها تشريع مستقل، لأنّ إدخال الضرّ على أحد، بسبب ما هو بضعة منه، يكاد يخرج عن طاقة الإنسان، وكونه بسبب من يُترقّب منه أن يكون سبب نفع أشدّ ألما على النفس، فكان ضرّه أشدّ.

وهذا الحكم عام في جميع الأحوال من فراق، أو دوام عصمة، فهو كالتذييل، وهو نهي لهما عن أن يكلّف أحدهما الآخر ما هو فوق طاقته، ويستغل ما يعلمه من شفقة الآخر على ولده لإحراجه، والإشقاق عليه. وفي المدوّنة: " ليس لها أن تلقي ولدها عليه، ولا يجد من يرضعه، وليس له أن ينتزع منها ولدها، وهي تحب أن ترضعه ". وهو يؤيد ما ذكرناه .

ويجوز أن يكون المعنى: لا يكن أحد الأبوين بتعنّته وتحريجه سببا في إلحاق الضرّ بولده.

{ **وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ** } معطوف على قوله { وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنّ } والإشارة بقوله { **ذَلِكَ** } إلى الحكم المتقدّم وهو الرزق والكسوة. والمعنى: فإن مات المولود له فعلى وارثه مثل ما كان عليه. فالظاهر أنّ المراد وارث الأب.

واتفق علماء الإسلام على أنّ ظاهر الآية غير مراد، إذ لا قائل بوجوب نفقة المرضع على وارث الأب سواء كان إيجابها على الوارث في المال بأن يكون مبدأه على المواريث، للإجماع على أنّه لا يبدأ إلّا بالتجهيز ثم الدين ثم الوصية، ولأنّ الرضيع له حظّه في المال الموروث وهو إذا صار ذا مال لم تجب نفقته على غيره.

وتفرّقت أنظار المفسريّن في تفسير الآية **والرأي عندي** أنّ الحكم منسوخ، والنّاسخ لهذا الحكم هو إجماع الأمّة على أنّه لا حقّ في مال الميّت، بعد جهازه وقضاء دينه، وتنفيذ وصيته، إلّا الميراث فنسخ بذلك كلّ ما كان مأمورا به أن يدفع من مال الميّت مثل الوصيّة في قوله تعالى { كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ } [180]، و قوله صلى الله عليه وسلم: " **إنّ الله أعطى كل ذي حق حقّه ألا لا وصية لوارث** ". ومثل الوصية بسكنى الزوجة وإنفاقها { وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ } [240].

هذا إذا حمل الوارث في الآية على وارث الميّت، أي: إنّ ذلك حق على جميع الورثة أيّا كانوا، بمعنى أنّه مبدأ المواريث. وإذا حمل الوارث على من هو بحيث يرث الميّت لو ترك الميت مالا، أعني قريبه،

بمعنى أنّ عليه إنفاق ابن قريبه، فذلك منسوخ بوضع بيت المال، وذلك أنّ هذه الآية شرعت هذا الحكم في وقت ضعف المسلمين، لإقامة أود نظامهم بتربية أطفال فقرائهم، وكان أولى المسلمين بذلك أقربهم من الطفل فكما كان يرث قريبه، لو ترك مالا ولم يترك ولدا، فكذلك عليه أن يقوم ببنيه، كما كان حكم القبيلة في الجاهلية، في ضم أيتامهم ودفع ديّاتهم. فلما اعتزّ الإسلام وصار لجامعة المسلمين مال، كان حقّا على جماعة المسلمين القيام بتربية أبناء فقرائهم. وفي الحديث الصحيح: **" من ترك كلاً أو ضياعا، فعليَّ، ومن ترك مالا، فلوارثه "**. ولا فرق بين إطعام الفقير وبين إرضاعه، وما هو إلّا نفقة، ولمثله وضع بيت المال.

{ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا }

الفصال: الفطام عن الإرضاع، لأنّه فصل عن ثدي مرضعة.

{ عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ } عطف التشاور على التراضي تعليما للزوجين شؤون تدبير العائلة، فإنّ التشاور يُظهر الصواب ويحصل به التراضي.

{ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا } أفاد أنّ ذلك مباح، وأنّ حق إرضاع الحولين مراعى فيه حقّ الأبوين وحقّ الرضيع، فإذا تشاور الأبوان وتراضيا، بعد ذلك، على الفصال كان تراضيهما دليلا على أنّهما رأيا من حال الرضيع ما يغنيه عن الزيادة، إذ لا يُظن بهما التمالؤ على ضرّ الولد، ولا يُظن إخفاء المصلحة عليهما، بعد تشاورهما.

{ وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ } انتقال إلى حالة إرضاع الطفل غير والدته، إذا تعذّر على الوالدة إرضاعه لمرضها أو تزوّجها، أو إن أبت ذلك، حيث يجوز لها الإباء، كما تقدّم في الآية السابقة، أي: إن أردتم أن تطلبوا الإرضاع لأولادكم فلا إثم في ذلك.

{ وَإِنْ أَرَدْتُمْ } والمخاطب الأبوان وليس المخاطب خصوص الرجال، وهذا الحكم خاص بحالة تراضي الأبوين على ذلك، لعذر الأم، أو بحالة فقد الأم. وقد عُلم من قوله { فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ } أنّ حالة التراضي هي المقصودة أوّلا، لأنّ نفي الجناح مؤذن بتوقّعه، وإنّما يتوقع ذلك إذا كانت الأم موجودة، وأريد صرف الابن عنها إلى موضع أخرى، لسبب مصطلح عليه.

الاسترضاع: أصله طلب إرضاع الطفل، أي: طلب أن ترضع الطفل غير أمّه.

{ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ } أي: إذا سلّمتم أجور المراضع بالمعروف، دون إجحاف ولا مطل.

{ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } تذييل للتخويف، والحث على مراقبة ما شرع الله، من غير محاولة ولا مكايدة، وقد تقدم نظيره آنفا.

{ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } [234]

انتقال إلى بيان عدّة الوفاة، بعد الكلام عن عدّة الطلاق، وما اتصل بذلك من أحكام الإرضاع عقب الطلاق، تقصّيا لما به إصلاح أحوال العائلات، فهو عطف قصّة على قصة.

{ **يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ** } أزواج المتوفّين. وتأنيث اسم العدد في قوله { وعشرا } لمراعاة الليالي، والمراد الليالي بأيامها، إذ لا تكون ليلة بلا يوم، ولا يوم بلا ليلة، والعرب تعتبر الليالي في التأريخ والتأجيل.

جعل الله عدّة الوفاة منوطة بالأمد الذي يتحرّك في مثله الجنين تحرّكا بيّنا، محافظة على أنساب الأموات، فإنّه جعل عدّة الطلاق ما يدلّ على براءة الرحم دلالة ظنّية وهو الأقراء، لأنّ المطلّق يعلم حال مطلّقته من طهر وعدمه، ومن قربانه إيّاها قبل الطلاق وعدمه، وكذلك العلوق لا يخفى، فلو أنّها ادعت عليه نسبا، وهو يوقن بانتفائه، كان له في اللعان مندوحة، أمّا الميّت فلا يدافع عن نفسه، فجُعلت عدّته أمدا مقطوعا بانتفاء الحمل في مثله، وهو الأربعة الأشهر والعشرة. فإنّ الحمل يكون نطفة أربعين يوما، ثمّ علقة أربعين يوما، ثمّ مضغة أربعين يوما، ثمّ ينفخ فيه الروح. فما بين استقرار النطفة في الرحم إلى نفخ الروح في الجنين أربعة أشهر، وإذ قد كان الجنين، عقب نفخ الروح فيه، يقوى تدريجا، جعلت العشر الليالي الزائدة على الأربعة الأشهر، لتحقّق تحرك الجنين تحركا بيّنا، فإذا مضت هذه المدة حصل اليقين بانتفاء الحمل.

{ **الَّذِينَ** } يقتضي عموم هذا الحكم في المتوفّى عنهنّ، سواء كنّ حوامل أم غير حوامل، وسواء كنّ مدخولا بهنّ أم غير مدخول بهنّ.

أمّا الحوامل، فالخلاف فيهنّ قويّ، ذهب الجمهور إلى أنّ عدّتهم من الوفاة وضع حملهنّ، وهو قول عمر وابنه وأبي سلمة بن عبد الرحمن وأبي هريرة، وهو قول مالك، قال عمر: " لو وضعت حملها وزوجها على سريره لم يدفن لحلت للأزواج ". وحجّتهم حديث سبيعة الأسلمية زوج سعد بن خولة، توفّي عنها بمكّة عام حجّة الوداع وهي حامل فوضعت حملها بعد نصف شهر كما في الموطأ، أو بعد أربعين ليلة، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها: **" قد حللت فانكحي إن بدا لك ".**

واحتجّوا أيضا بقوله تعالى { وَأُولاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ } [الطلاق:4] وعموم أولات الأحمال، مع تأخّر نزول تلك السورة عن سورة البقرة، يقضي بالمصير إلى اعتبار تخصيص عموم ما في سورة البقرة.

وعندي أنّ حجّة الجمهور، ترجع إلى ما قدّمناه من أنّ حكمة عدّة الوفاة هي تيقّن حفظ النسب، فلمّا كان وضع الحمل أدلّ شيء على براءة الرحم، كان مغنيا عن غيره. وكان ابن مسعود يقول: " أتجعلون عليها التغليظ ولا تجعلون عليها الرخصة "، يريد أنّها لو طال أمد حملها لما حلّت.

وعن عليّ وابن مسعود أنّ عدة الحامل في الوفاة أقصى الأجلين، واختاره سحنون من المالكية. وقد قيل إنّ ابن عباس رجع إلى قول الجمهور وهو ظاهر حديث الموطأ في اختلافه وأبي سلمة في ذلك، وإرسالهما من سأل أم سلمة رضى الله عنها، فأخبرتهما بحديث سبيعة.

أمّا الأزواج غير المدخول بهنّ، فعليهن عدّة الوفاة، دون عدّة الطلاق، لعموم هذه الآية ولأنّ لهنّ الميراث، فالعصمة تقرّرت بوجه معتبر، حتّى كانت سبب إرث، وعدم الدخول بالزوجة لا ينفي احتمال أن يكون الزوج قد قاربها خفية، إذ هي حلال له، فأوجب عليها الاعتداد احتياطا لحفظ النسب.

وقد ذكروا حديث بروع بنت واشق الأشجعية، رواه الترمذي عن معقل بن سنان الأشجعي: " أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قضي في بروع بنت واشق وقد مات زوجها، ولم يفرض لها صداقا، ولم يدخل بها أنّ لها مثل صداق نسائها، وعليها العدّة ولها الميراث ".

ولم يخالف أحد في وجوب الاعتداد عليها، وإنّما اختلفوا في وجوب مهر المثل لها.

{ **فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** }

أي إذا انتهت المدّة المعنيّة بالتربّص.

الجناح: هنا الحرج، لإزالة ما عسى أن يكون قد بقي في نفوس النّاس من استفظاع تسرّع النساء إلى التزوّج بعد عدة الوفاة.

{ **بِالْمَعْرُوفِ** } ثمّ بيّن الله ذلك وقيّده، نهيا للمرأة أن تفعل ما ليس من المعروف شرعا وعادة، كالإفراط في الحزن المنكر شرعا، أو التظاهر بترك التزوّج بعد زوجها، وتغليظا للذين ينكرون على النساء تسرّعهنّ بعد العدّة، أو بعد وضع الحمل.

وقد دلّ مفهوم الشرط على أنّهنّ، في مدّة الأجل، منهيّات عن أفعال في أنفسهن كالتزوّج وما يتقدّمه من الخطبة والتزيّن. فأمّا التزوّج في العدّة فقد اتفق المسلمون على منعه، وأمّا ما عداه، فالخلاف مفروض في أمرين في الإحداد، وفي ملازمة البيت:

فأمّا الإحداد: مصدر أحدَّت المرأة إذا حزنت، ولبست ثياب الحزن، وتركت الزينة، ويقال حداد. والمراد به في الإسلام ترك المعتدّة من الوفاة الزينة، والطيب، ومصبوغ الثياب، إلّا الأبيض، وترك الحليّ، وهو واجب بالسنّة، ففي الصحيح : **" لا يحلّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحدّ على ميت فوق ثلاث، إلّا على زوج أربعة أشهر وعشرا ".**

والحكمة من الإحداد سدّ ذريعة كلّ ما يوسوس إلى الرجال من رؤية محاسن المرأة المعتدّة، حتّى يبتعدوا عن الرغبة في التعجّل بما لا يليق، ولذلك اختلف العلماء في الإحداد على المطلّقة، فقال مالك، والشافعي، وربيعة، وعطاء لا إحداد على مطلّقة، أخذا بصريح الحديث، وبأنّ المطلقة يرقبها مطلّقها، ويحول بينها وبين ما عسى أن تتساهل فيه، بخلاف المتوفّى عنها كما قدمناه.

وقال أبو حنيفة، والثوري، وسعيد بن المسيّب، وسليمان بن يسار، وابن سيرين: تحدّ المطلقة طلاق الثلاث، كالمتوفّى عنها، لأنّهما جميعا في عدّة يحفظ فيها النسب.

والزوجة الكتابية كالمسلمة في ذلك، عند مالك، تجبر عليه وبه قال الشافعي، والليث، وأبو ثور، لاتحاد العلة. وقال أبو حنيفة، وأشهب، وابن نافع، وابن كنانة، من المالكية لا إحداد عليها، وقوفا عند قول الرسول صلى الله عليه وسلم: " لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر" فوصفها بالإيمان، وهو متمسَّك ضئيل.

وقد أباح النبيّ صلى الله عليه وسلم لأمّ سلمة في مدّة إحدادها على أبي سلمة أن تجعل الصبر في عينيها بالليل، وتمسحه بالنهار، وبمثل ذلك أفتت أم سلمة امرأة حادًّا اشتكت عينيها أن تكتحل بكحل الجلاء بالليل، وتمسحه بالنهار، روي ذلك كلّه في الموطأ، قال مالك: " وإذا كانت الضرورة فإن دين الله يسر".

وأما ملازمة معتدّة الوفاة بيت زوجها، قال المفسرون والفقهاء ثبت وجوب ملازمة البيت بالسنّة، ففي الموطأ والصحاح أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال للفريعة ابنة مالك بن سنان الخدري، أخت أبي سعيد الخدري لمّا توفّى عنها زوجها: " **امكثي في بيتك حتّى يبلغ الكتاب أجله** "، وهو حديث مشهور، وقضى به عثمان بن عفان. وفي الموطأ أنّ عمر بن الخطاب كان يردُّ المتوفّى عنهنّ أزواجهن من البيداء يمنعهنّ الحجّ. وبذلك قال ابن عمر، وبه أخذ جمهور فقهاء المدينة، والحجاز، والعراق، والشام، ومصر، ولم يخالف في ذلك إلّا علي، وابن عباس، وعائشة. قال الزهري: " فأخذ المترخّصون بقول عائشة، وأخذ أهل العزم والورع بقول ابن عمر ".

واتفق الكلّ على أنّ المرأة المعتدّة تخرج للضرورة، وتخرج نهارا، لحوائجها، من وقت انتشار النّاس إلى وقت هدوئهم بعد العتمة، ولا تبيت إلّا في المنزل، وشروط ذلك وأحكامه، ووجود المحلّ للزوج، أو في كرائه، وانتظار الورثة بيع المنزل إلى ما بعد العدّة، وحكم ما لو ارتابت في الحمل فطالت العدّة... وغيرها من المسائل مبسوطة في كتب الفقه والخلاف، فلا حاجة بنا إليها هنا.

{ وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلاً مَعْرُوفاً وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حتّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ } [235]

لمّا كان من عادتهم أن يتسابقوا إلى خطبة المعتدّة ومواعدتها، حرصا على الاستئثار بها بعد انقضاء العدة بيّنت الشريعة لهم تحريم ذلك، ورخصت في شيء منه.

الجناح: الإثم وقد تقدّم.

{ **مَا عَرَّضْتُمْ بِهِ** } أي كلام عرضتم به، لأنّ التعريض يطلق على ضرب من ضروب المعاني المستفاد من الكلام. فالتعريض أن يريد المتكلّم من كلامه شيئا، غير المدلول عليه بالتركيب وضعا، لمناسبة بين مدلول الكلام وبين الشيء المقصود، مع قرينة على إرادة المعنى للتعريض.

والمعرِّض بالخطبة قد يكون تعريضه لنفسه، وقد يكون لغيره، وبين الحالتين فرق ينبغي أن يكون الحكم في المتشابه من التعريض، فقد روي أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لفاطمة ابنة قيس، وهي في عدّتها من طلاق زوجها، عمرو بن حفص، آخر الثلاث: " **كوني عند أمّ شريك ولا تسبقيني بنفسك** "، أي: لا تستبدّي بالتزوّج قبل استئذاني. وفي رواية: " **فإذا حللت فآذنيني** " وبعد انقضاء عدّتها، خطبها لأسامة بن زيد. فهذا قول لا خطبة فيه، وإرادة المشورة فيه واضحة.

وفي تفسير ابن عرفة : " قيل إنّ شيخنا محمد بن أحمد بن حيدرة، كان يقول: " إذا كان التعريض من أحد الجانبين فقط، وأمّا إذا وقع التعريض منهما فظاهر المذهب أنّه كصريح المواعدة ".

{ **النِّسَاءِ** } لفظ عام لكن خُصّ منه ذوات الأزواج، ويُخصّ منه المطلّقات الرجعيّات بدليل القياس ودليل الإجماع، لأنّ الرجعيّة لها حكم الزوجة بإلغاء الفارق، وحكى القرطبي الإجماع على منع خطبة المطلّقة الرجعيّة في عدّتها. وحكى ابن عبد السلام عن مذهب مالك جواز التعريض لكلّ معتدّة من وفاة أو طلاق، وهو يخالف كلام القرطبي. وأجاز الشافعي التعريض في المعتدّة بعدّة وفاة، ومنعه في عدّة الطلاق، وهو ظاهر ما حكاه في الموطأ عن القاسم بن محمد.

{ **أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ** } الإكنان: الإخفاء.

وفائدة عطف الإكنان على التعريض في نفي الجناح، مع ظهور أنّ التعريض لا يكون إلّا عن عزم في النفس، فنفي الجناح عن عزم النفس المجرّد ضروري من نفي الجناح عن التعريض. وأخّر الإكنان، في الذكر، <u>للتنبيه على أنّه أفضل وأبقى على ما للعدّة من حرمة</u>، مع التنبيه على أنّه نادر وقوعه، لأنّه لو قدّمه لكان الانتقال من ذكر الإكنان إلى ذكر التعريض جاريا على مقتضى ظاهر نظم الكلام في أن يكون اللاحق زائد المعنى على ما يشمله الكلام السابق، فلم يتفطن السامع لهذه النكتة، فلما خولف مقتضى الظاهر علم السامع أنّ هذه المخالفة ترمي إلى غرض، كما هو شأن البليغ في مخالفة مقتضى الظاهر، وجاء النظم بديعا معجزا، ولقد أهمل معظم المفسّرين التعرّض لفائدة هذا العطف.

{ **عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ** } أي: علم أنّكم لا تستطيعون كتمان ما في أنفسكم، فأباح لكم التعريض تيسيرا عليكم.

{ **وَلَكِنْ لا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً** } استدراك دلّ عليه الكلام، أي: علم الله أنّكم ستذكرونهنّ صراحة وتعريضا. وقيل: هذا استدراك على كلام محذوف، أي: فاذكروهنّ ولكن لا تواعدوهنّ، أي لا تصرّحوا وتواعدوهنّ أي: تعدوهنّ ويَعِدْنَكم بالتزوّج.

السرّ: أصله ما قابل الجهر، وكنَّى به عن قِربان المرأة. والظاهر أنّ المراد به في هاته الآية: وعدا صريحا سرّا، وهذا مبالغة في تجنّب مواعدة صريح الخطبة في العدّة.

{ **إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلاً مَعْرُوفاً** } استثناء من المفعول المطلق، أي: إلّا وعدا معروفا، وهو التعريض.

فإن قلتم: إن مآل التصريح والتعريض واحد، فإذا كان قد حصل بين الخاطب والمعتدّة العلم بأنّه يخطبها وبأنّها توافقه، فما فائدة تعلّق التحريم والتحليل بالألفاظ والأساليب إن كان المفاد واحد؟

قلتُ: قصد الشارع من هذا حماية أن يكون التعجّل ذريعة إلى الوقوع فيما يعطّل حكمة العدّة، فالتعريض أسلوب من أساليب الكلام يؤذن بما لصاحبه من وقار الحياء، فهو يقبض عن التدرّج إلى ما نُهي عنه، وإيذانه بهذا الاستحياء يزيد ما طبعت عليه المرأة من الحياء، فتنقبض نفسها عن صريح الإجابة، بله المواعدة، فيبقى حجاب الحياء مسدولا بينهما. وذلك من توقير شأن العدّة، فلذلك رخّص التعريض تيسيرا على النّاس، ومنع التصريح إبقاء على حرمات العدّة.

{ **وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حتّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ** } العزم هنا عقد النكاح، لا التصميم على العقد. والمعنى: لا تعقدوا عقدة النكاح. ولك أن تجعله بمعناه المشهور، أي: لا تصمّموا على عقدة النكاح، ونهى عن التصميم لأنّه إذا وقع وقع ما صمّم عليه. وقيل: نهى عن العزم مبالغة، والمراد النهي عن المعزوم عليه.

الكتاب: هنا بمعنى المكتوب، أي: المفروض من الله، وهو العدّة المذكورة بالتعريف للعهد.

{ **أَجَلَهُ** } الأجل: المدّة المعيَّنة لعمل ما، والمراد به هنا مدة العدّة المعيّنة بتمام.

والآية صريحة في النهي عن النكاح في العدّة، وفي تحريم الخطبة في العدّة، وفي إباحة التعريض.

<u>فأمّا النكاح، أي:عقده في العدة</u>، فهو إذا وقع ولم يقع بناء بها في العدّة فالنكاح مفسوخ اتفاقا، وإنّما اختلفوا هل يتأبّد به تحريم المرأة على العاقد أولا ؟ فالجمهور على أنّه لا يتأبّد، وهو قول عمر بن الخطاب.

<u>وأمّا الدخول في العدّة</u>، ففيه الفسخ اتفاقا، واختلف في تأبيد تحريمها عليه فقال عمر ابن الخطاب، ومالك، والليث، والأوزاعي، وأحمد بن حنبل، بتأبّد تحريمها عليه، ولا دليل لهم على ذلك إلّا أنّهم بنوه على أصل المعاملة بنقيض المقصود الفاسد، وهو أصل ضعيف، وقال علي، وابن مسعود، وأبو حنيفة، والثوري، والشافعي بفسخ النكاح، ولا يتأبّد التحريم، وهو بعد العدّة خاطب من الخطاب، وقد قيل: إنّ عمر رجع إليه، وهو الأصح، وعلى الزوج مهرها بما استحل منها.

واستحسن المتأخّرون من فقهاء المالكية للقاضي إذا حكم بفسخ نكاح الناكح في العدّة ألّا يتعرّض في حكمه للحكم بتأبيد تحريمها، لأنّه لم يقع التنازع في شأنه لديه، فينبغي له أن يترك التعريج عليه، لعلّهما أن يأخذا بقول من لا يرون تأبيد التحريم.

وأمّا الخطبة في العدة، والمواعدة، فحرام مواجهة المرأة بها، قال الشافعي: الخطبة حرام، والنكاح الواقع بعد العدّة صحيح.

{ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ } أريد قطع هواجس التساهل والتأوّل في هذا الشأن، ليأتي النّاس ما شرع الله لهم عن صفاء سريرة من كل دَخَل وحيلة، أي: فكما يؤاخذكم على ما تضمرون من المخالفة، يغفر لكم ما وعد بالمغفرة عنه كالتعريض، لأنّه حليم بكم.

وهذا دليل على أنّ إباحة التعريض رخصة، كما قدّمنا، وأنّ الذريعة تقتضي تحريمه، لولا أنّ الله علم مشقّة تحريمه على النّاس للوجوه التي قدّمناها. فلعلّ المراد من المغفرة هنا التجاوز، لا مغفرة الذنب، لأنّ التعريض ليس بإثم، أو يراد به المعنى الأعم الشامل لمغفرة الذنب والتجاوز عن المشاق. وشأن التذييل التعميم.

{ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ [236] وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ [237] }.

استئناف تشريع لبيان حكم ما يترتّب على الطلاق من دفع المهر كلّه، أو بعضه، وسقوطه، وحكم المتعة، مع إفادة إباحة الطلاق قبل المسيس. فالجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا، ومناسبة موقعها لا تخفى، فإنّه لمّا جرى الكلام، في الآيات السابقة، على الطلاق الذي تجب فيه العدّة، وهو طلاق المدخول بهنّ، عرّج هنا على الطلاق الواقع قبل الدخول.

{ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ } لا يعرف إطلاق الجناح على غير معنى الإثم، ولذلك حمله جمهور المفسّرين هنا على نفي الإثم في الطلاق. قال ابن عطية وغيره: إنّه لكثرة ما حضّ الرسول صلى الله عليه وسلم المؤمنين على أن يقصدوا من التزوّج دوام المعاشرة، وكان ينهى عن فعل الذوّاقين الذين يكثرون تزوّج النساء وتبديلهنّ،

ويكثر النهي عن الطلاق حتّى قد يُظنّ محرّما، فأبانت الآية إباحته بنفي الجُناح بمعنى الوزر.

النساء: الأزواج.

المسيس: هنا كناية عن قربان المرأة.

{ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً } و(أو) هنا عاطفة على { تَمَسُّوهُنَّ } المنفي. و(أو) إذا وقعت في سياق النفي تفيد مفاد (واو) العطف، فتدل على انتفاء المعطوف والمعطوف عليه معا، ولا تفيد المفاد الذي

تفيده في الإثبات، وهو كون الحكم لأحد المتعاطفين.

وقد أفادت الآية حكما بمنطوقها وهو أنّ المطلّقة قبل البناء إذا لم يُسم لها مهر لا تستحق شيئا من المال، وهذا مجمع عليه فيما حكاه ابن العربي، وحكى القرطبي عن حماد بن سليمان أنّ لها نصف صداق أمثالها، والجمهور على خلافه وأن ليس لها إلّا المتعة، ثم اختلفوا في وجوبها كما سيأتي.

وهذا الحكم دلّنا على أن الشريعة قد اعتبرت النكاح عقدا لازما بالقول، واعتبرت المهر الذي هو من متمّماته غير لازم بمجرد صيغة النكاح، بل يلزم بواحد من أمرين؛ إمّا بصيغة تخصّه، وهي تعيين مقداره بالقول، وهي المعبر عنها في الفقه بنكاح التسمية، وإمّا بالفعل وهو الشروع في اجتناء المنفعة المقصودة ابتداء من النكاح وهي المسيس، فالمهر إذن من توابع العقود التي لا تثبت بمجرد ثبوت متبوعها، بل تحتاج إلى موجب آخر كالحوز في عقود التبرّعات، وفيه نظر. والنفس لقول حماد بن سليمان أميل (لها نصف صداق أمثالها).

{ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ }

عطف التشريع على التشريع، والضمير عائد إلى النساء ، أي متّعوا المطلّقات قبل المسيس وقبل الفرض. ولا أحسب أحدا يجعل معاد الضمير على غير ما ذكرنا. وأمّا ما يوجد من الخلاف بين العلماء في حكم المتعة للمطلّقة المدخول بها، فذلك لأدلة أخرى غير هذه الآية.

{ **وَمَتِّعُوهُنَّ** } الأمر ظاهره الوجوب وهو قول عليّ، وابن عمر، والحسن، والزهري، وقاله أبو حنيفة والشافعي وأحمد، لأنّ أصل الصيغة للوجوب مع قرينة قوله تعالى { حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ } وقوله، بعد ذلك، في الآية الآتية { حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ }، وهؤلاء جعلوا المتعة للمطلقة غير المدخول بها وغير المسمّى لها مهر واجبة، وهو الأرجح لئلّا يكون عقد نكاحها خليًّا عن عوض المهر.

وجعل جماعة الأمر هنا للندب، وهو قول مالك وشريح، لقوله بعد { حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ }، ولو كانت واجبة لجعلها حقا على جميع النّاس، وكذلك قوله { حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ } لأنّ المتّقي هو كثير الامتثال، على أنّنا لو حملنا المتّقين على كل مؤمن لكان بين الآيتين تعارض المفهوم والعموم، فإنّ المفهوم الخاص يخصّص العموم.

على أنّ لمذهب مالك أنّ المتعة عطيّة ومؤاساة، والمؤاساة في مرتبة التحسيني، فلا تبلغ مبلغ الوجوب، ولأنّها مال بذل في غير عوض، فيرجع إلى التبرّعات، والتبرّعات مندوبة لا واجبة، وقرينة ذلك قوله تعالى { حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ } فإنّ فيه إيماء إلى أنّ ذلك من الإحسان لا من الحقوق، على أنّه قد نفى الله الجناح عن المطلّق، ثم أثبت المتعة، فلو كانت المتعة واجبة لانتقض نفي الجناح، إلّا أن يقال إنّ الجناح نفي لأنّ المهر شيء معين، قد يجحف بالمطلق، بخلاف المتعة، فإنّها على حسب وسعه، ولذلك نفى مالك ندب المتعة للتي طلقت قبل البناء وقد سمّى لها مهرا، قال: فحسبها ما فرض لها، رفقا بالمطلق، أي فلا تندب لها ندبا خاصا، بأمر القرآن. وقد قال مالك: بأنّ المطلّقة المدخول بها، يُستحب تمتيعها،

أي: بقاعدة الإحسان الأعمّ ولما مضى من عمل السلف.

{ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ }

الموسع: من أوسع، إذا صار ذا سعة. و**المقتر**: من أقتر إذا صار ذا قتر وهو ضيق العيش.

القدْر: (بسكون الدال وبفتحها) ما به تعيين ذات الشيء، أو حاله، فيطلق على ما يساوي الشيء من الأجرام، ويطلق على ما يساويه في القيمة، والمراد به هنا الحال التي يقدر بها المرء، في مراتب النّاس في الثروة، وهو الطبقة من القوم، والطاقة من المال.

{ **فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ** } أي فنصف ما فرضتم لهنّ، بدليل قوله { وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ }، لا يحسن فيها إلّا هذا الوجه. والاقتصار على قوله { فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ } يدلّ على أنّها حينئذ لا متعة لها.

{ **إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ** } استثناء من عموم الأحوال، أي: إلّا في حالة عفوهنّ، أي النساء، بأن يسقطن هذا النصف، وتسمية هذا الإسقاط عفوا ظاهرة، لأنّ نصف المهر حقّ وجب على المطلق للمطلقة قبل البناء بما استخفّ بها، أو بما أوحشها، فهو حقّ وجب لغرم ضرّ، فإسقاطه عفو لا محالة.

{ **أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ** } هو غير النساء لا محالة فهو ذكر، وهو غير المطلّق أيضا، فتعيّن أن يكون أريد به ولي المرأة، لأنّ بيده عقدة نكاحها، إذ لا ينعقد نكاحها إلّا به، فإن كان المراد به الوليّ المجبر وهو الأب في ابنته البكر، فكونه بيده عقدة النكاح ظاهر، إلّا أنّه جعل ذلك من صفته باعتبار ما كان، إذ لا يحتمل غير ذلك. وإن كان المراد مُطْلَقُ الولي، فكونه بيده عقدة النكاح، من حيث توقف عقد المرأة على حضوره، وكان شأنهم أن يخطبوا الأولياء في ولاياهم فالعفو في الموضعين حقيقة.

فتكون الآية ذكرت عفو الرشيدة، والمولّى عليها، ونُسب ما يقرب من هذا القول إلى جماعة من السلف، منهم ابن عباس، وعلقمة، والحسن، وقتادة.

وقيل الذي بيده عقدة النكاح، هو المطلّق لأنّ بيده عقد نفسه وهو القَبول، ونسب هذا إلى علي، وشريح، وطاوس، ومجاهد، وهو قول أبي حنيفة، والشافعي في الجديد. ومعنى عفوه تكميلة الصداق، أي إعطاؤه كاملا. وهذا قول بعيد من وجهين:

أحدهما: أنّ فعل المطلّق حينئذ لا يسمَّى عفوا بل تكميلا.

الثاني: أنّ دفع المطلّق المهر كاملا للمطلّقة، إحسان لا يحتاج إلى تشريع مخصوص.

{ **وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى** } تذييل، والخطاب لجميع الأمّة، وليس خطابا للمطلقين.

ومعنى كون العفو أقرب للتقوى أنّ العفو أقرب إلى صفة التقوى من التمسّك بالحق، لأنّ التمسّك بالحقّ لا ينافي التقوى لكنه يؤذن بتصلّب صاحبه وشدّته، والعفو يؤذن بسماحة صاحبه ورحمته، والقلب المطبوع على السماحة والرحمة، أقرب إلى التقوى من القلب الصلب الشديد.

{ **وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ** } تذييل ثان، لزيادة الترغيب في العفو بما فيه من التفضل الدنيوي، وفي الطباع السليمة حب الفضل. فأمروا في هاته الآية بأن يتعاهدوا الفضل، ولا ينسوه.

{ **إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** } تعليل للترغيب في عدم إهمال الفضل، وتعريض بأنّ في العفو مرضاة الله تعالى، فهو يرى ذلك منا فيجازى عليه.

{ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ } [238].

الانتقال من غرض إلى غرض، في آي القرآن، لا تلزم له قوّة ارتباط، لأنّ القرآن ليس كتاب تدريس يرتّب بالتبويب وتفريع المسائل بعضها على بعض، ولكنّه كتاب تذكير وموعظة، فهو مجموع ما نزل من الوحي في هدي الأمّة، وتشريعها وموعظتها، وتعليمها، فقد يجمع فيه الشيء للشيء، من غير لزوم ارتباط، وتفرّع مناسبة، وربما كفى في ذلك نزول الغرض الثاني عقب الغرض الأوّل، أو تكون الآية مأمورا بإلحاقها بموضع معيّن من إحدى سور القرآن، كما تقدّم في المقدّمة الثامنة، ولا يخلو ذلك من مناسبة في المعاني، أو في انسجام نظم الكلام.

فلعلّها نزلت عقب آيات تشريع العدّة والطلاق، لسبب اقتضى ذلك من غفلة عن الصلاة الوسطى، أو استشعار مشقّة في المحافظة عليها، فموقع هذه الآية موقع الجملة المعترضة بين أحكام الطلاق والعدد.

وقد تكون المناسبة أنّه لمّا طال تبيان أحكام كثيرة متوالية جاءت هذه الآية مرتبطة بالتذييل الذي ذيّلت به الآية السابق { وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ } فإنّ الله دعانا إلى خُلق حميد، وهو العفو عن الحقوق، ولمّا كان ذلك الخلق قد يعسر على النفس، علّمنا الله تعالى دواء هذا الداء بدواءين:

أحدهما دنيوي عقلي، وهو قوله { وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ }، المذكّر بأنّ العفو يقرّب إليك البعيد، ويصيّر العدو صديقا.

الثاني أخروي روحاني، وهو الصلاة التي وصفها الله تعالى في آية أخرى بأنّها تنهي عن الفحشاء والمنكر، فلمّا كانت معينة على التقوى، ومكارم الأخلاق، حثّ الله على المحافظة عليها.

قال البيضاوي: " أمر بالمحافظة عليها في تضاعيف أحكام الأولاد والأزواج، لئلّا يلهيهم الاشتغال بشأنهم عنها ". وقال بعضهم: " لمّا ذكر حقوق النّاس دلّهم على المحافظة على حقوق الله ".

{ **حَافِظُوا** } صيغة مفاعلة استعملت هنا للمبالغة، والمحافظة عليها هي المحافظة على أوقاتها، والمراد الصلوات المفروضة.

{ **وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى** } لا شك أنّها صلاة من جملة الصلوات المفروضة وقد ذكرها الله تعالى في هذه الآية معرّفة بلام التعريف، وموصوفة بأنّها وسطى، فسمعها المسلمون وقرأوها، فإمّا عرفوا المقصود منها في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم طرأ عليهم الاحتمال بعده فاختلفوا، وإمّا شغلتهم العناية بالسؤال عن مهمّات الدين في حياة الرسول عن السؤال عن تعيينها، لأنّهم كانوا عازمين على المحافظة

على الجميع، فلمّا تذاكروها بعد وفاته صلى الله عليه وسلم اختلفوا في ذلك فنبع من ذلك خلاف شديد أنهيت الأقوال فيه إلى نيف وعشرين. وأصح ما في هذا الخلاف ما جاء من جهة الأثر وذلك قولان:

القول الأوّل: أنّها الصبح، هذا قول جمهور فقهاء المدينة، وهو قول عمر، وابنه عبد الله وعليّ، وابن عباس، وعائشة، وحفصة، وجابر بن عبد الله، وبه قال مالك، وهو عن الشافعي أيضا، لأنّ الشائع عندهم أنّها الصبح، وهم أعلم النّاس بما يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول، أو فعل، أو قرينة حال.

القول الثاني: أنّها العصر، وهذا قول جمهور من أهل الحديث، وهو قول عبد الله بن مسعود، وروي عن علي أيضا، وهو الأصحّ عن ابن عباس أيضا، وأبي هريرة، وأبي سعيد الخدري، ونسب إلى عائشة، وحفصة، والحسن، وبه قال أبو حنيفة، والشافعي في رواية، ومال إليه ابن حبيب من المالكية، وحجّتهم ما روي أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال يوم الخندق حين نسى أن يصلي العصر من شدّة الشغل في حفر الخندق، حتّى غربت الشمس فقال : **" شغلونا** [أي المشركين] **عن الصلاة الوسطى، أضرم الله قبورهم نارا ".**

والأصحّ من هذين القولين أوّلهما: (الصبح)

من جهة الأثر لما في الموطأ والصحيحين، أنّ عائشة وحفصة أمرتا كاتبي مصحفيهما أن يكتبا قوله تعالى (حافظوا على الصلوات الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين) وأسندت عائشة ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم تسنده حفصة، فإذا بطل أن تكون الوسطى هي العصر، بحكم عطفها على الوسطى تعيّن كونها الصبح.

وأمّا من جهة مسالك الأدلة المتقدّمة، فأفضلية الصبح ثابتة بالقرآن، قال تعالى { وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً } [الإسراء:78]. وفي الصحيح أنّ ملائكة الليل، وملائكة النهار، يجتمعون عند صلاة الصبح. وتوسّطها بالمعنى الحقيقي ظاهر، لأنّ وقتها بين الليل والنهار، فالظهر والعصر نهاريّتان، والمغرب والعشاء ليليّتان، والصبح وقت متردّد بين الوقتين، حتّى إن الشرع عامل نافلته معاملة نوافل النهار فشرع فيها الإسرار، وفريضته معاملة فرائض الليل فشرع فيها الجهر.

ومن جهة الوصايا بالمحافظة عليها، هي أجدر الصلوات بذلك لأنّها الصلاة التي تكثر المطبّات عنها، باختلاف الأقاليم والعصور والأمم، بخلاف غيرها فقد تشقّ إحدى الصلوات الأخرى على طائفة دون أخرى، بحسب الأحوال والأقاليم والفصول.

{ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ } أمر بالقيام في الصلاة بخضوع. فالقيام الوقوف، وهو ركن في الصلاة فلا يترك إلّا لعذر.

القنوت: فهو الخضوع والخشوع. وعن زيد بن أرقم كان الرجل يكلّم الرجل إلى جنبه في الصلاة، حتّى نزلت { وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ } فأمرنا بالسكوت. وسمّي به الدعاء المخصوص الذي يدعى به في صلاة

الصبح أوفي صلاة المغرب، على خلاف بينهم، فليس هنا بمعنى قارئين دعاء القنوت، لأنّ ذلك الدعاء إنّما سمّي قنوتا استرواحا من هذه الآية عند الذين فسّروا الوسطى بصلاة الصبح.

{ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ }[239]

للتنبيه على أنّ حالة الخوف لا تكون عذرا في ترك المحافظة على الصلوات، ولكنّها عذر في ترك القيام. { **فَإِنْ خِفْتُمْ** } هنا خوف العدو، وبذلك سمِّيت صلاة الخوف. و يشمل الخوف أيضا خوف السباع وقطاع الطريق، وغيرها.

{ **رِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً** } جمع راجل و جمع راكب، وهما حالان من محذوف، أي: فصلّوا رجالا أو ركبانا. والآية إشارة إلى أنّ صلاة الخوف لا يُشترط فيها الخشوع، لأنّها تكون مع الاشتغال بالقتال ولا يشترط فيها القيام. وهي هنا صلاة الناس فُرادى، وذلك عند مالك إذا اشتدّ الخوف وأظلّهم العدو ولم يكن حصن، بحيث تتعذّر الصلاة جماعة مع الإمام، وليست هذه الآية لبيان صلاة الجيش في الحرب جماعة المذكورة في سورة النساء، والظاهر أنّ الله شرع للنّاس في أوّل الأمر صلاة الخوف فرادى على الحال التي يتمكّنون معها من مواجهة العدو، ثمّ شرع لهم صلاة الخوف جماعة في سورة النساء.

وأيضا شملت هذه الآية كلّ خوف من سباع أو قطّاع طريق أو من سيل الماء. قال مالك وتُستحب إعادة الصلاة، وقال أبو حنيفة يصلّون كما وصف الله ويعيدون، لأنّ القتال في الصلاة مفسد عنده.

{ **فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ** } أراد الصلاة، أي: ارجعوا إلى الذكر المعروف.

وجاء في الأمن بـ (إذا) وفي الخوف بـ (إن) بشارة للمسلمين بأنّهم سيكون لهم النصر والأمن.

{ **كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ** } الكاف للتشبيه، أي: اذكروه ذكرا يشابه ما منّ عليكم من علم الشريعة في تفاصيل هذه الآيات المتقدّمة. وقد يسمّون هذه (الكاف) كاف التعليل، والتعليل مستفاد من التشبيه، لأنّ العلة على قدر المعلول.

{ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [240]

موقع هذه الآية هنا، بعد { وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ } [234] في غاية الإشكال فإنّ حكمها يخالف، في الظاهر، حكم نظيرتها التي تقدّمت، وعلى قول الجمهور هي سابقة في النزول متأخّرة في الوضع.

والجمهور على أنّ هذه الآية شرعت حكم تربّص المتوفَّى عنها حولا في بيت زوجها وذلك في أوّل الإسلام، ثم نسخ ذلك بعدة الوفاة بالميراث، روي هذا عن ابن عباس، وقتادة، والربيع، وجابر بن زيد.

وفي البخاري، في كتاب التفسير، عن عبد الله بن الزبير قال: " قلت لعثمان هذه الآية { وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ } قد نسختها الآية لأخرى، فلم تكتبها؟ قال: لا أغيّر شيئا منه عن مكانه يابن أخي". فاقتضى أنّ هذا هو موضع هذه الآية، وأنّ الآية التي قبلها ناسخة لها، وعليه فيكون وضعها هنا بتوقيف من النبيّ صلى الله عليه وسلم. ويحتمل أنّ ابن الزبير أراد بالآية الأخرى آية النساء في الميراث.

وفي البخاري قال مجاهد: " شرع الله العدّة أربعة أشهر وعشرا، تعتدّعند أهل زوجها واجبا، ثم نزلت {وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ } فجعل لله لها تمام السنة وصيّة، إن شاءت سكنت في وصيّتها وإن شاءت خرجت، ولم يكن لها يومئذ ميراث معيّن، فكان ذلك حقّها في تركة زوجها، ثم نسخ ذلك بالميراث "، فلا تعرُّض في هذه الآية للعدّة، ولكنّها في بيان حكم آخر وهو إيجاب الوصيّة لها بالسكنى حولا إن شاءت أن تحتبس عن التزوّج حولا، مراعاة لما كانوا عليه. ويكون الحول تكميلا لمدّة السكنى لا العدّة. وهذا الذي قاله مجاهد أصرح ما في هذا الباب، وهو المقبول.

واعلموا أن العرب في الجاهلية كان من عادتهم المتّبعة أنّ المرأة إذا توفي عنها زوجها تمكث في شرّ بيت لها حولا، محدّة لابسة شرّ ثيابها متجنبة الزينة والطيب، كما تقدّم، فلمّا جاء الإسلام أبطل ذلك الغلوّ في سوء الحالة، وشرع عدّة الوفاة والإحداد، فلمّا ثقل ذلك على النّاس، في مبدأ أمر تغيير العادة، أمر الأزواج بالوصية لأزواجهم بسكنى الحول بمنزل الزوج والإنفاق عليها من ماله، إن شاءت السكنى بمنزل الزوج، فإن خرجت وأبت السكنى هنالك لم ينفق عليها، فصار الخيار للمرأة في ذلك بعد أن كان حقا عليها لا تستطيع تركه، ثم نسخ الإنفاق والوصية بالميراث.

فالله لما أراد نسخ عدّة الجاهلية، وراعى لطفه بالنّاس في قطعهم عن معتادهم، أقرّ الاعتداد بالحول، وأقرّ ما معه من المكث في البيت مدّة العدّة، لكنه أوقفه على وصية الزوج، عند وفاته، لزوجه بالحسنى، وعلى قبول الزوجة ذلك، فإن لم يوص لها أو لم تقبل، فليس عليها السكنى، ولها الخروج، وتعتدّ حيث شاءت، ونسخ { وَصِيَّةً } السكنى حولا بالمواريث، وبقي لها السكنى في محل زوجها مدة العدة مشروعا بحديث الفريعة.

وقال ابن عطية قالت فرقة منهم ابن عباس، والضحاك، وعطاء، والربيع: هي { وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ } تعالى للأزواج بلزوم البيوت حولا، فذلك لا يتوقّف عن إيصاء المتوفّين ولا على قبول الزوجات، بل هو حكم من الله يجب تنفيذه.

{ مَتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ } والمتاع هنا هو السكنى، وهو منصوب على حذف فعله، أي: ليمتعوهنّ متاعا.

الْحَوْلِ: تعريف العهد، وهو الحول المعروف عند العرب من عهد الجاهلية الذي تعتدّ به المرأة المتوفّى عنها.

{ غَيْرَ إِخْرَاجٍ } حال من متاعا مؤكّدة.

{ **فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** } هو على قول فرقة معناه: فإن أَبَيْنَ قبول الوصيّة فخرجن، فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من الخروج وغيره من المعروف، عدا الخطبة والتزوّج والتزيّن في العدّة، فذلك ليس من المعروف.

وعلى قول الفرقة الأخرى التي جعلت الوصية من الله، فإنّ تمّ الحول فخرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن، أي: من تزوّج وغيره من المعروف عدا المنكر كالزنا وغيره. والحاصل أنّ المعروف يفسّر بغير ما حُرّم عليها في الحالة التي وقع فيها الخروج، وكل ذلك فعل في نفسها.

{ **وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ** } [241].

بعد أن تقدّم حكم متعة المطلّقات قبل المسيس وقبل الفرض، عمّم بهذه الآية طلب المتعة للمطلّقات كلّهن. فالذين حملوا الطلب في الآية السابقة على الاستحباب، حملوه في هذه الآية على الاستحباب بالأولى، ومعوّلهم في محمل الطلب في كلتا الآيتين ليس إلّا على استنباط علّة مشروعية المتعة وهي جبر خاطر المطلّقة استبقاء للمودة، ولذلك لم يستثن مالك من مشمولات هذه الآية إلّا المختلعة، لأنّها هي التي دعت إلى الفرقة دون المطلِّق.

والذين حملوا الطلب في الآية المتقدّمة على الوجوب، اختلفوا في محمل الطلب في هذه الآية؛ فمنهم من طرَّد قوله بوجوب المتعة لجميع المطلّقات، ومن هؤلاء: عطاء، وجابر بن زيد، وسعيد ابن جبير، وابن شهاب، والقاسم بن محمد، وأبو ثور، ومنهم من حمل الطلب في هذه الآية على الاستحباب، وهو قول الشافعي.

{ **كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** } [242]

أي كهذا البيان الواضح، يبيّن الله آياته، فالآيات هنا دلائل الشريعة. وقد تقدّم القول في نظيره عند قوله تعالى { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا } [143].

{ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاس وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لا يَشْكُرُونَ [243] وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** [244] }.

استئناف ابتدائي للتحريض على الجهاد، والتذكير بأنّ الحذر لا يؤخّر الأجل، وقد تقدّم أنّ هذه السورة نزلت في مدّة صلح الحديبية وأنّها تمهيد لفتح مكّة، فالقتال من أهم أغراضها، فالكلام رجوع إلى قوله

تعالى { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ }، وفصلت بين الكلامين الآيات النازلة خلالهما المفتتحة بـ {يَسْأَلونَكَ}.

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ } موقعها قبل قوله { وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ } موقع ذكر الدليل قبل المقصود. واعلم أن تركيب (ألم تر إلى كذا) إذا جاء فعل الرؤية فيه متعدّيا إلى ما ليس من شأن السامع أن يكون رآه، كان كلاما مقصودا منه التحريض على علم ما عدّي إليه فعل الرؤية، وهذا ممّا اتفق عليه المفسّرون ولذلك تكون همزة الاستفهام مستعملة في غير معنى الاستفهام بل في معنى مجازي أو كنائي يفيد التحريض.

{ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ } وقد اختلف في المراد من هؤلاء، والأظهر أنّهم قوم خرجوا خائفين من أعدائهم فتركوا ديارهم جبنا. فقيل هم من بني إسرائيل خالفوا على نبيّ لهم في دعوته إيّاهم للجهاد، ففارقوا وطنهم فرارا من الجهاد، وهذا أرجح الوجوه، لأنّ أكثر أمثال القرآن أن تكون بأحوال الأمم الشهيرة وبخاصة بني إسرائيل.

وفي تفسير ابن كثير، عن ابن جريج عن عطاء: أنّ هذا مثل لا قصّة واقعة، وهذا بعيد.

والأظهر أنّهم قوم فرّوا من عدوّهم، مع كثرتهم، وأخلوا له الديار، فوقعت لهم في طريقهم مصائب أشرفوا بها على الهلاك، ثم نجوا، أو أوبئة وأمراض، كانت أعراضها تشبه أعراض الموت، مثل داء السكت ثم برئوا منها.

{ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ } القول فيه إمّا مجاز في التكوين والموت حقيقة، أي: جعل فيهم حالة الموت، ثم أحياهم بزوال ذلك العارض فعلموا أنّهم أصيبوا بما لو دام لكان موتا مستمرا، وقد يكون هذا من الأدواء النادرة المُشْبِهة داء السكت.

وإمّا أن يكون القول مجازا عن الإنذار بالموت، والموت حقيقة، أي أراهم الله مهالك شموا منها رائحة الموت، ثم فرّج الله عنهم فأحياهم.

وإمّا أن يكون كلاما حقيقيّا بوحي الله لبعض الأنبياء، والموت موت مجازي، وهو أمر للتحقير شتما لهم، ورماهم بالذلّ والصغار، ثمّ أحياهم، ثمّ ثبّت فيهم روح الشجاعة.

والمقصود من هذا موعظة المسلمين بترك الجبن، وأنّ الخوف من الموت لا يدفع الموت، فهؤلاء الذين ضُرب بهم المثل خرجوا من ديارهم خائفين من الموت، فلم يغن خوفهم عنهم شيئا، وأراهم الله الموت ثمّ أحياهم، ليصير خُلق الشجاعة لهم حاصلا بإدراك الحسّ. ومحلّ العبرة من القصة هو أنّهم ذاقوا الموت الذي فرّوا منه، ليعلموا أنّ الفرار لا يغني عنهم شيئا، وأنّهم ذاقوا الحياة بعد الموت، ليعلموا أنّ الموت والحياة بيد الله، كما قال تعالى { قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ } [الأحزاب:16].

{ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } هي المقصود الأوّل، فإنّ ما قبلها تمهيد لها. والآية حث على القتال، وتحذير من تركه، بتذكيرهم بإحاطة علم الله تعالى بجميع المعلومات ظاهرها وباطنها.

{ **سَمِيعٌ** }، قُدم، وهو أخصّ من عليم، اهتماما به لأنّ معظم أحوال القتال في سبيل الله من الأمور المسموعة، مثل جلبة الجيش، وقعقعة السلاح، وصهيل الخيل.

{ **عَلِيمٌ** } لأنّه يعمّ العلم بجميع المعلومات، وفيها ما هو من حديث النفس مثل خُلق الخوف، وتسويل النفس القعود عن القتال، وفي هذا تعريض بالوعد والوعيد.

{ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [245].

اعتراض بين جملة { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ } وجملة { أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأِ مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ } قصد به الاستطراد للحثّ على الإنفاق لوجه الله في طرق البرّ، لمناسبة الحثّ على القتال.

{ **مَنْ ذَا الَّذِي** } الاستفهام مستعمل في التحضيض والتهييج على الاتصاف بالخير.

القرض: إسلاف المال ونحوه بنيّة إرجاع مثله، ويطلق مجازا على البذل لأجل الجزاء، فيشمل بهذا المعنى بذل النفس والجسم رجاء الثواب، فالفعل مستعمل في حقيقته ومجازه.

{ **فَيُضَاعِفَهُ** } قرأ الجمهور بألف بعد الضاد، وقرأه ابن كثير، وابن عامر، وأبو جعفر، ويعقوب دون ألف بعد الضاد وبتشديد العين. والمعني على كلتا القراءتين واحد.

{ **وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ** } أصل القبض الشدّ والتماسك، وأصل البسط ضد القبض وهو الإطلاق والإرسال. يحتمل أنّ المراد هنا يقبض العطايا والصدقات، ويبسط الجزاء والثواب. ويحتمل أنّ المراد يقبض نفوسا عن الخير، ويبسط نفوسا للخير، وفيه تعريض بالوعد بالتوسعة على المنفق في سبيل الله، والتقتير على البخيل. وفي الحديث: **" اللّهم أعط منفقا خلفا وممسكا تلفا "**.

{ **وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** } خبر مستعمل في التنبيه والتذكير بأنّ ما أُعدّ لهم في الآخرة من الجزاء على الإنفاق في سبيل الله أعظم ممّا وُعدوا به من الخير في الدنيا، وفيه تعريض بأنّ الممسك البخيل عن الإنفاق في سبيل الله محروم من خير كثير.

روي أنّه لما نزلت الآية جاء أبو الدحداح إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " أو أنّ الله يريد منا القرض؟ قال :   **" نعم يا أبا الدحداح "**، قال: " أرني يدك، فناوله يده فقال: فإنّي أقرضت الله حائطا فيه ستمائة نخلة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" كم من عِذقٍ رداح ودار فَساح في الجنة لأبي الدحداح "**.

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأِ مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ } [246].

استئناف ثان بعد جملة { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ } وفيها زيادة تأكيد لفظاعة حال التقاعس عن القتال بعد التهيؤ في سبيل الله. فإنّ المأمورين بالجهاد لا يَخْلون من نَفَر تعتريهم هواجس تثبّطهم عن القتال، حبا للحياة، ومن نفر تعترضهم خواطر تهوّن عليهم الموت عند مشاهدة أكدار الحياة، ومصائب المذلّة، فضرب الله لهذين الحالين مثلين أحدهما ما تقدم في قوله { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ } والثاني قوله { أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأِ مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ }، ومناسبة تقديم الأولى أنّها تشنّع حال الذين استسلموا واستضعفوا أنفسهم، فخرجوا من ديارهم مع كثرتهم، وهذه الحالة أنسب بأن تقدّم بين يدي الأمر بالقتال والدفاع عن البيضة، لأنّ الأمر بذلك بعدها يقع موقع القبول من السامعين لا محالة، ومناسبة تأخير الثانية أنّها تمثيل حال الذين عرفوا فائدة القتال في سبيل الله فسألوه دون أن يفرض عليهم فلمّا عيّن لهم القتال نكصوا على أعقابهم. وموضع العبرة هو التحذير من الوقوع في مثل حالهم، بعد الشروع في القتال، أو بعد كتبه عليهم، فلله بلاغة هذا الكلام، وبراعة هذا الأسلوب تقديما وتأخيرا.

الملأ: الجماعة الذين أمرهم واحد، وهو اسم جمع كالقوم والرهط.

{ **مِنْ بَعْدِ مُوسَى** } إعلام بأنّ أصحاب هذه القصة كانوا مع نبيّ بعد موسى.

{ **لِنَبِيٍّ لَهُمُ** } التنكير للإشارة إلى أنّ محل العبرة ليس هو شخص النبيّ فلا حاجة إلى تعيينه، وإنّما المقصود حال القوم، وهذا دأب القرآن في قصصه. وهذا النبيّ هو صمويل وهو بالعربية (**شمويل**)، ولذلك لم يقل إذ قالوا لنبيهم، إذ لم يكن هذا النبيّ معهودا عند السامعين حتّى يعرّف لهم بالإضافة.

{ **ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً** } عين لنا ملكا.

{ **قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا** } استفهام تقريري وتحذير، وهذا من أبدع الإيجاز فقد حكى جملا كثيرة وقعت في كلام بينهم، وذلك أنّه قرّرهم على إضمارهم نيّة عدم القتال اختبارا وسبرا لمقدار عزمهم عليه. والمقصود من هذا الكلام التحريض لأنّ ذا الهمّة يأنف من نسبته إلى التقصير، فإذا سُجّل ذلك عليه قبل وجود دواعيه كان على حذر من وقوعه في المستقبل، كما يقول من يوصي غيره: افعل كذا وكذا وما أظنك تفعل.

{ **قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** } أرادوا تأكيد رغبتهم في تعيين ملك يدبّر أمور القتال. والاستفهام إنكاري وتعجّبي من قول نبيّهم. فيكون معنى الكلام إنكارهم أن يثبت لهم سبب يحملهم على تركهم القتال، أو سبب لأجل تركهم القتال، أي: لا يكون لهم ذلك.

{ وَقَدْ أُخْرِجْنَا } حال معلّلة لوجه الإنكار أي: أنّهم في هذه الحال أبعد النّاس عن ترك القتال، لأنّ أسباب حبّ الحياة تضعف في حالة الضرّ والكدر بالإخراج من الديار والأبناء.

{ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ } جملة معترضة، وهي محلّ العبرة والموعظة لتحذير المسلمين من حال هؤلاء أن يتولّوا عن القتال بعد أن أخرجهم المشركون من ديارهم وأبنائهم، وبعد أن تمنّوا قتال أعدائهم وفرضه الله عليهم .

وهذه الآية أشارت إلى قصّة عظيمة من تاريخ بني إسرائيل، لما فيها من العلم والعبرة، وهي حادث انتقال نظام حكومة بني إسرائيل من الصبغة الشورية، المعبّر عنها عندهم بـ (عصر القضاة)، إلى الصبغة الملكيّة، المعبر عنها بـ (عصر الملوك)، وذلك أنّه لمّا توفّي موسى عليه السلام في حدود سنة (1380ق م)، خلفه في الأمة الإسرائيلية (**يوشع بن نون**)، الذي عهد له موسى في آخر حياته بأن يخلفه فلمّا صار أمر بني إسرائيل إلى يوشع جعل لأسباط بني إسرائيل حكاما يسوسونهم ويقضون بينهم، وسمّاهم القضاة، فكانوا في مدن متعدّدة، وكان من أولئك الحكّام أنبياء، وكان هنالك أنبياء غير حكّام، وكان كلّ سبط من بني إسرائيل يسيرون على ما يظهر لهم، وكان من قضاتهم وأنبيائهم (**صمويل بن القانة**)، من سبط أفرايم، قاضيا لجميع بني إسرائيل، وكان محبوبا عندهم، فلما شاخ وكبر وقعت حروب بين بني إسرائيل والفلسطينيين وكانت سجالا بينهم، ثم كان الانتصار للفلسطينيين، فأخذوا بعض قرى بني إسرائيل حتّى إن تابوت العهد أسره الفلسطينيون، وذهبوا به إلى (**أَشدود**) بلادهم وبقي بأيديهم عدة أشهر، فلمّا رأت بنو إسرائيل ما حلّ بهم من الهزيمة، ظنّوا أنّ سبب ذلك هو ضعف صمويل عن تدبير أمورهم، وظنّوا أنّ انتظام أمر الفلسطينيين، لم يكن إلّا بسبب النظام الملكي، وكانوا يومئذ يتوقّعون هجوم ناحاش ملك العمونيين عليهم أيضا، فاجتمعت إسرائيل وأرسلوا عرفاءهم من كل مدينة، وطلبوا من صمويل أن يقيم لهم ملكا يقاتل بهم في سبيل الله، فاستاء صمويل من ذلك، وحذّرهم عواقب حكم الملوك قائلا: " إنّ الملك يأخذ بنيكم لخدمته وخدمة خيله، ويتّخذ منكم من يركض أمام مراكبه، ويسخّر منكم حرّاثين لحرثه، وعَمَلَة لعُدد حربه، وأدوات مراكبه، ويجعل بناتكم عطّارات وطبّاخات وخبّازات، ويصطفى من حقولكم، وكرومكم، وزياتينكم، أجودها فيعطيها لعبيده، ويتّخذكم عبيدا، فإذا صرختم بعد ذلك في وجه ملككم لا يستجيب الله لكم، فقالوا: لا بدّ لنا من ملك لنكون مثل سائر الأمم ". وكان ذلك في أوائل القرن الحادي عشر قبل المسيح.

{ **وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** } [247].

{ **طَالُوتَ مَلِكاً** } وهو (**شاول**) وطالوت لقبه، وهو وزن اسم مصدر من الطول، على وزن فعلوت مثل جبروت وملكوت، وطالوت وصف به للمبالغة في طول قامته، ولعلّه جعل لقبا له في القرآن للإشارة إلى الصفة التي عُرّف بها لصمويل، في الوحي الذي أوحى الله إليه، ولمراعاة التنظير بينه وبين جالوت غريمه في الحرب، أو كان ذلك لقبا له في قومه قبل أن يؤتى الملك.

{ **أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا** } بمعنى كيف؟ وهو استفهام مستعمل في التعجيب، تعجّبوا من جعل مثله ملكا، وكان رجلا فلّاحا من بيت حقير، إلّا أنّه كان شجاعا، وكان أطول القوم، ورضيت به بعض بني إسرائيل، وأباه بعضهم. ففي سفر صمويل أنّ الذين لم يرضوا به هم (بنو بليعال) والقرآن ذكر أنّ بني إسرائيل قالوا { أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا }، لأنّهم لا بد أن يكونوا قد ظنّوا أنّ ملكهم سيكون من كبرائهم وقوّادهم. والسرّ في اختيار نبيّهم لهم هذا الملك أنّه أراد أن تبقى لهم حالتهم الشورية بقدر الإمكان. وقوّاد بني إسرائيل لم يتفطّنوا لهذه الحكمة لقصر أنظارهم، وإنّما نظروا إلى قلة جِدَّته، فتوهّموا ذلك مانعا من تمليكه عليهم، ولم يعلموا أنّ الاعتبار بالخلال النفسانية.

{ **وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ** } وجعلوا الجملة حالا للدلالة على أنّهم لمّا ذكروا أحقيّتهم بالملك لم يحتاجوا إلى الاستدلال على ذلك، لأنّ هذا الأمر عندهم مسلّم معروف، إذ هم قادة وعرفاء، وشاول رجل من السوقة.

{ **وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ** } وإنّما قالوا هذا لقصورهم في معرفة سياسة الأمم ونظام الملك، فإنّهم رأوا الملوك المجاورين لهم في بذخة وسعة، فظنّوا ذلك من شروط الملك. ولذا أجابهم نبيهم بقوله:

{ **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ** } أي: أنّه أرجح منهم لأنّ الله اصطفاه.

{ **وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ** } أعلمهم نبيّهم أنّ الصفات المحتاج إليها في سياسة أمر الأمّة ترجع إلى أصالة الرأي وقوّة البدن، لأنّه بالرأي يهتدي لمصالح الأمة.

البسطة: اسم من البسط وهو السعة والانتشار، فالبسطة الوفرة والقوّة من الشيء.

العلم: هنا هو علم تدبير الحرب وسياسة الأمّة.

{ **وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** } يحتمل أن يكون من كلام النبيّ، فيكون قد رجع بهم إلى التسليم إلى أمر الله، بعد أن بيّن لهم شيئا من حكمة الله في ذلك، ويحتمل أن يكون تذييلا للقصة من كلام الله تعالى.

{ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } [248].

أراد نبيّهم أن يتحدّاهم بمعجزة تدلّ على أنّ الله تعالى اختار لهم شاول ملكا، فجعل لهم آية تدلّ على ذلك وهي أن يأتيهم التابوت، أي تابوت العهد، بعد أن كان في يد الفلسطينيين كما تقدّم، وهذا إشارة إلى قصّة تيسير الله تعالى لإرجاع التابوت إلى بني إسرائيل بدون قتال.

والذي يظهر لي أنّ الفلسطينيين لمّا علموا اتحاد الإسرائيليين تحت ملك علموا أنّهم ما أجمعوا أمرهم إلّا لقصد أخذ الثأر من أعدائهم وتخليص تابوت العهد من أيديهم، فدبّروا أن يظهروا إرجاع التابوت بسبب آيات شاهدوها، ظنّا منهم أنّ حدّة بني إسرائيل تفلّ إذا أرجع إليهم التابوت. ولا يمكن أن يكون هذا الرعب حصل لهم قبل تمليك شاول.

التابوت: اسم عجمي معرّب فوزنه فاعول، وهذا الوزن قليل في الأسماء العربية. والتابوت بمعنى الصندوق المستطيل، وهو صندوق أمر موسى عليه السلام بصنعه، صنعه (بصلئيل)، الملهم في صناعة الذهب والفضة والنحاس والخشب، صنعه من خشب السنط، وهو شجر من صنف القرظ، وجعل طوله ذراعين ونصفا وعرضه ذراعا ونصفا وارتفاعه ذراعا ونصفا، وغشاه بذهب من داخل ومن خارج، وصنع له إكليلا من ذهب، وسبك له أربع حلق من ذهب على قوائمه الأربع، وجعل له عصوين من خشب مغشّاتين بذهب لتدخل في الحلقات لحمل التابوت، وجعل غطاءه من ذهب، وجعل على طريق الغطاء صورة تخيّل بها اثنين من الملائكة من ذهب باسطين أجنحتهما فوق الغطاء، وأمر الله موسى أن يضع في هذا التابوت لوحي الشهادة اللذين أعطاه الله إيّاهما، وهي الألواح التي ذكرها الله في قوله تعالى { وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ } [الأعراف:154].

السكينة: فعيلة بمعنى الاطمئنان والهدوء، وذلك أنّ من بركة التابوت أنّه إذا كان بينهم في حرب أو سلم كانت نفوسهم واثقة بحسن المنقلب.

{ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ } البقيّة: في الأصل ما يفضل من شيء بعد انقضاء معظمه. وهي بقايا من آثار الألواح، ومن الثياب التي ألبسها موسى أخاه هارون، حين جعله الكاهن لبني إسرائيل والحافظ لأمور الدين، وشعائر العبادة. قيل: ومن ذلك عصا موسى.

ويجوز أن تكون البقيّة مجازا عن النفيس من الأشياء.

آل موسى وآل هارون: أهل بيتهما من أبناء هارون، فإنهم عصبة موسى، لأنّ موسى لم يترك أولادا.

هارون: هو أخو موسى عليهما السلام وهو هارون بن عمران من سبط لاوي ولد قبل أن يأمر فرعون بقتل أطفال بني إسرائيل، وهو أكبر من موسى، ولمّا كلم الله موسى بالرسالة أعلمه بأنّه سيشرك معه أخاه هارون فيكون كالوزير له، وأوحى إلى هارون أيضا، وكان موسى هو الرسول الأعظم، وكان معظم وحي الله إلى هارون على لسان موسى، وقد جعل الله هارون أوّل كاهن لبني إسرائيل لمّا أقام لهم

خدمة خيمة العبادة، وجعل الكهانة في نسله، فهم يختّصون بأحكام لا تشاركهم فيها بقيّة الأمّة منها تحريم الخمر على الكاهن، ومات هارون سنة (1457 ق م) في جبل هور على تخوم أرض أدوم في مدّة التيه في السنة الثالثة من الخروج من مصر.

{ **تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ** } هو تسييرهم بإذن الله البقرتين السائرتين بالعجلة التي عليها التابوت إلى محلّة بني إسرائيل، من غير أن يسبق لهما إلف بالسير إلى تلك الجهة، هذا هو الملاقى لما في كتب بني إسرائيل.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** } أي: في رجوع التابوت من يد أعدائكم إليكم دون قتال، وفيما يشتمل عليه التابوت من آثار موسى عليه السلام، وفي مجيئه من غير سائق ولا إلف سابق.

{ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ [249] وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ [250] فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاس بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ [251] }.

كلام كثير مقدّر وهو الرضا بالملك، ومجيء التابوت، وتجنيد الجنود، لأنّ ذلك ممّا دلّ عليه جملة:

{ **فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ** } قطع وابتعد بهم، أي تجاوزوا مساكنهم وقراهم التي خرجوا منها.

{ **قال** } ضمير راجع إلى طالوت، ولا يصحّ رجوعه إلى نبيّهم، لأنّه لم يخرج معهم، وإنّما أخبر طالوتُ عن الله تعالى بأنّه مبتليهم، مع أنّه لم يكن نبيّا يوحى إليه، إمّا استنادا لإخبار تلقّاه من صموئيل، وإمّا لأنّه اجتهد أن يختبرهم بالشرب من النهر لمصلحة رآها في ذلك.

والظاهر أنّ الملك لمّا علم أنّه سائر بهم إلى عدوّ كثير العدد، قويّ العُدد أراد أن يختبر قوّة يقينهم في نصرة الدين، فقال لهم: إنّكم ستمرّون على نهر، وهو نهر الأردن، فلا تشربوا منه، فمن شرب منه فليس منّي، ورخّص لهم في غرفة يغترفها الواحد بيده يبلّ بها ريقه، وهذا غاية ما يختبر به طاعة الجيش. ويحتمل أنّه أراد إبقاء نشاطهم لأنّ المحارب إذا شرب ماء كثيرا بعد التعب، انحلت عراه ومال إلى الراحة، وأثقله الماء.

{ **فَلَيْسَ مِنِّي** } يحتمل أنّه أراد الغضب عليه والبعد المعنوي، ويحتمل أنّه أراد أنه يفصله عن الجيش، فلا يكمل الجهاد معه، والظاهر الأول لقوله بعد:

{ **وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي** } بمعنى لم يذقه. أراد به إظهار مكانة من ترك الشرب من النهر وولائه.
{ **إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ** }، والمقصود من هذا الاستثناء الرخصة للمضطرّ في بلال ريقه، ولم تذكر كتب اليهود هذا الأمر بترك شرب الماء من النهر حين مرور الجيش في قصّة شاول، والظاهر أنّ الواقعة تكرّرت لأنّ مثلها يتكرّر فأهملتها كتبهم في أخبار شاول.

الغَرفة: بفتح الغين، المرّة من الغرف وهو أخذ الماء باليد، وقرأه حمزة، وعاصم، والكسائي، ويعقوب، وخلف، بضم الغين،وهو المقدار المغروف من الماء.

{ **فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً** } دلّ على قلة صبرهم، وأنّهم ليسوا بأهل لمزاولة الحرب.

{ **قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ** } يحتمل أنّ ذلك قالوه لمّا رأوا جنود الأعداء، ويحتمل أنّهم كانوا يعلمون قوّة العدو، وكانوا يسرّون الخوف، فلمّا اقترب الجيشان، لم يستطيعوا كتمان ما بهم.

وفي الآية انتقال بديع إلى ذكر جند جالوت، والتصريح باسمه، وهو قائد من قوّاد الفلسطينيين اسمه في كتب اليهود (**جليات**) ، وكان لا يستطيع أن يبارزه أحد من بني إسرائيل، فكان إذا خرج للصف عرض عليهم مبارزته وعيّرهم بجبنهم.

{ **قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو اللَّهِ** } لقاء الله هنا كناية عن الموت في مرضاة الله شهادة، وفي الحديث : **" من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ".**

{ **كَمْ مِنْ فِئَةٍ** } و(كم) خبرية لا محالة إذ لا موقع للاستفهام، فإنّهم قصدوا بقولهم هذا تثبيت أنفسهم وأنفس رفاقهم، ولذلك دعوا إلى ما به النصر وهو الصبر والتوكّل.

الفئة: الجماعة من الناس، مشتقّة من الفيء وهو الرجوع، لأنّ بعضهم يرجع إلى بعض، ومنه سمّيت مؤخَّرة الجيش فئة، لأنّ الجيش يفيء إليها.

{ **وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً** } وهذا دعاؤهم حين اللقاء بطلب الصبر من الله، وعبّروا عن إلهامهم إلى الصبر بالإفراغ استعارة لقوّة الصبر والكثرة والتعميم والإحاطة.

{ **وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا** } استعارة لعدم الفرار، شبّه الفرار والخوف بزلق القدم.

{ **فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ** } أشارت الآية إلى انتصار بني إسرائيل على الفلسطينيين، وهو انتصار عظيم كان به نجاح بني إسرائيل في فلسطين وبلاد العمالقة، مع قلّة عددهم. فقد قال مؤرّخوهم: إنّ طالوت لمّا خرج لحرب الفلسطينيين جمع جيشا فيه ثلاثة آلاف رجل، فلمّا رأوا كثرة الفلسطينيين حصل لهم ضنك شديد واختبأ معظم الجيش في جبل (افرايم) في المغارات والغياض والآبار، ولم يعبروانهر الأردن، فلمّا اجتاز نهر الأردن عدّ الجيش الذي معه فلم يجد إلّا نحو ستمائة رجل، ثم وقعت مقاتلات كان النصر فيها لبني إسرائيل، وتشجّع الذين جبنوا واختبأوا في المغارات وغيّرها فخرجوا وراء الفلسطينيين. وساق الله داود إلى طالوت بتقدير، وكان داود من قبل راعي غنم أبيه، وكان ذا شجاعة ونشاط وحسن سمت، وله نبوغ في رمي المقلاع،

مما مكّنه من قتل جالوت (جليات) فكانت بداية المكانة حيث زوّجه طالوت ابنته المسمّاة (ميكال)، وصار بعد حين ملكا عوض شاول، ثم آتاه الله النبوّة فصار ملكا نبيّا.

{ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النّاس بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ }

ذيّلت هذه الآية العظيمة كلّ الوقائع العجيبة التي أشارت إليها الآيات السالفة، لتدفع عن السامع المتبصّر ما يخامره من تطلّب الحكمة في حدثان هذه الوقائع وأمثالها في هذا العالم، ولكون مضمون هذه الآية عبرة من عبر الأكوان، وحكمة من حكم التاريخ، ونظم العمران التي لم يهتد إليها أحد قبل نزول هذه الآية، وقبل إدراك ما في مطاويها.

{ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ** } بصيغة المجرّد، وقرأ نافع وأبو جعفر ويعقوب { وَلَوْلا دِفَاعُ اللَّهِ } بصيغة المفاعلة. والدفاع مصدر دافع الذي هو مبالغة في دفع لا للمفاعلة. وإضافته إلى الله مجاز عقليّ، لأنّ الذي يدفع حقيقة هو الذي يباشر الدفع، وإنّما أسند إلى الله لأنّه الذي قدّره وقدّر أسبابه.

ذلك أنّ الله تعالى لمّا خلق الموجودات التي على الأرض من أجناس وأنواع وأصناف، خلقها قابلة للاضمحلال وأودع في أفرادها سننا دلّت على أنّ مراد الله بقاؤها إلى أمد أراده، ولذلك نجد قانون الخَلَفيّة منبثّا في جميع أنواع الموجودات، فما من نوع إلّا وفي أفراده قوّة إيجاد أمثالها لتكون تلك الامثال أخلافا عن الأفراد عند اضمحلالها، وهي القوّة المعبّر عنها بالتناسل.

ثمّ إنّ الله تعالى كما أودع في جميع الكائنات إدراكات تنساق بها، بدون تأمّل أو بتأمّل، إلى ما فيه صلاحها وبقاؤها، أودع أيضا فيها إدراكات تندفع بها إلى الذبّ عن نفسها، ودفع العوادي عنها، عن غير بصيرة، كتعريض اليد بين الهاجم وبين الوجه...، ثمّ تتوسع هاته الإدراكات فتتفرّع إلى كلّ ما فيه دفع المنافر. وهي القوّة المعبّر عنها هنا بالتدافع.

وأعظم مظاهر هذا التدافع هو الحروب، فبالحرب الجائرة يطلب المحارب غصب منافع غيره، وبالحرب العادلة ينتصف المُحقّ من المبطل، ولأجلها تتألّف العصبيّات والدعوات إلى الحقّ، والإنحاء على الظالمين وهزم الكافرين. ثم إن دفاع النّاس بعضهم بعضا يصدّ المفسد عن محاولة الفساد، ونفس شعور المفسد بتأهّب غيره لدفاعه يصدُّه عن اقتحام مفاسد جمّة.

{ **لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ** } ومعنى فساد الأرض إمّا فساد الجامعة البشريّة، كما دلّ عليه تعليق الدفاع بالنّاس، أي: لفسد أهل الأرض، وإمّا فساد جميع ما يقبل الفساد.

{ **وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ** } وعلّق الفضل بالعالمين كلّهم لأنّ المنّة لا تختص.

{ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالحقّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ } [252].

الإشارة إلى ما تضمّنته القصص الماضية وما فيها من العبر.

{ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ } خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم تنويها بشأنه، وتثبيتا لقلبه، وتعريضا بالمنكرين رسالته، وجيء بقوله { مِنَ الْمُرْسَلِينَ } دون أن يقول: وإنك لرسول الله، للردّ على المنكرين بتذكيرهم أنّه ما كان بدعا من الرسل، وأنّه أرسله كما أرسل من قبله، وليس في حالةهما ينقص عن أحوالهم.

{ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ } [253].

{ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ }

موقع هذه الآية موقع الفذلكة لما قبلها والمقدّمة لما بعدها؛

فأمّا الأول (الفذلكة): إعلامه صلى الله عليه وسلم بأخبار الأمم والرسل آية على صدق رسالته، إذ ما كان لمثله قِبَلٌ بعلم ذلك لولا وحي الله إليه، وفي هذا كلّه حجّة على المشركين وعلى أهل الكتاب الذين جحدوا رسالته.

وأمّا الثاني (المقدّمة): فلأنّه لمّا أفيض القول في القتال وفي الحثّ على الجهاد والاعتبار بقتال الأمم الماضية، عقّب ذلك بأنّه لو شاء الله ما اختلف النّاس في أمر الدين من بعد ما جاءتهم البيّنات ولكنّهم أساءوا الفهم فجحدوا البيّنات فأفضى بهم سوء فهمهم إلى اشتطاط الخلاف بينهم حتّى أفضى إلى الاقتتال.

والمقصود من هذه الآية تمجيد سمعة الرّسل عليهم السلام، وتعليم المسلمين أنّ هاته الفئة الطيّبة مع عظيم شأنها قد فضّل الله بعضها على بعض، وأسباب التفضيل لا يعلمها إلّا الله تعالى، غير أنّها ترجع إلى ما جرى على أيديهم من الخيرات المُصْلِحة للبشر ومن نصر الحقّ، وما لاقوه من الأذى في سبيل ذلك وما أُيّدوا به من الشرائع العظيمة المتفاوتة في هدي البشر، وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: **" لأن يهدي الله بك رجلا خير لك مما طلعت عليه الشمس"**، فما بالك بمن هدى الله بهم أمما في أزمان متعاقبة.

وقد خصّ الله من جملة الرّسل بعضا بصفات يتعيّن بها المقصود منهم، أو بذكر اسمه، فذكر ثلاثة إذ قال { **مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ** }، وهذا موسى عليه السلام، لاشتهاره بهذه الخصلة العظيمة في القرآن، وذكر

عيسى عليه السلام، ووسّط بينهما الإيماء إلى محمد صلى الله عليه وسلم بوصفه بقوله تعالى { وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ }.

فإذا كان التفضيل قد أنبأ به ربُّ الجميع، ومن إليه التفضيل، فليس من قدر النّاس أن يتصدّوا لوضع الرّسل في مراتبهم ، وحسبهم الوقوف عندما ينبئهم الله في كتابه أو على لسان رسوله. وهذا مورد الحديث الصحيح: **" لا تفضِّلوا بين الأنبياء "**، يعني به النهي عن التفضيل التفصيلي، بخلاف التفضيل على سبيل الإجمال، كما نقول: الرسل أفضل من الأنبياء الذين ليسوا رسلا.

{ **مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ** } وتكليم الله موسى هو ما أوحاه إليه بدون واسطة جبريل، بأن أسمعه كلاما أيقن بأنّه صادر بتكوين الله، بأن خلق الله أصواتا من لغة موسى تضمّنت أصول الشريعة، وسيجيء بيان ذلك عند قوله { وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً } [النساء:164]

{ **وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ** } وهذه الدرجات، التي خُصّ بها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كثيرة عرفنا منها عموم الرسالة لكافة النّاس، ودوامها طول الدهر، وختمها للرسالات، والتأييد بالمعجزة العظيمة التي لا تلتبس بالسحر والشعوذة، وبدوام تلك المعجزة.

وقد عطف ما دلّ على نبيّنا على ما دلّ على موسى، عليهما السلام، لشدّة الشبه بين شريعَتَيْهما، ولأنّ شريعة موسى عليه السلام أوسع الشرائع، ممّا قبلها.

{ **وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ** }

البيّنات: هي المعجزات الظاهرة البيّنة.

روح القدس: هو جبريل، قال تعالى { قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالحقّ } [النحل:102]. وفي الحديث: **" إنّ روح القدس نفث في رُوعي أنّ نفسا لن تموت حتّى تستكمل أجلها "**.

القدس: بمعنى الخلوص والنزاهة، فإضافة روح إلى القدس، من إضافة الموصوف إلى الصفة، ولذلك يقال الروح القدس. وقيل القدس اسم الله، كالقدّوس، فإضافة روح إليه إضافة أصلية، أي روح من ملائكة الله.

وإنّما وصف عيسى بن مريم بهذين مع أنّ سائر الرسل أُيّدوا بالبيّنات وبروح القدس، للردّ على اليهود الذين أنكروا رسالته ومعجزاته، وللردّ على النصارى الذين غلوا فزعموا ألوهيّته، ولأجل هذا ذكر معه اسم أمّه للتنبيه على أنّ ابن الإنسان لا يكون إلاها.

{ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ** }

اعتراض بين الفذلكة المستفادة من جملة { تِلْكَ الرُّسُلُ } إلى آخرها، و بين جملة { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ }، بيّن الله بهذا الاعتراض حجّة الذين يقاتلون في سبيل الله على الذين كفروا، بأنّ الكافرين هم الظالمون، إذ اختلفوا على ما جاءتهم به الرسل، ولو اتّبعوا الحقّ لسلموا وسالموا.

{ **مِنْ بَعْدِهِمْ** } يجوز أن يكون الضميرمرادا به جملة الرسل، أي: ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعد أولئك الرسل من الأمم المختلفة في العقائد، مثل اقتتال اليهود والنصارى في اليمن في قصّة أصحاب الأخدود، ومقاتلة الفلسطينيين لبني إسرائيل انتصارا لأصنامهم، ومقاتلة الحبشة لمشركي العرب انتصارا لبيعة القليس التي بناها الحبشة في اليمن، والأمم الذين كانوا في زمن الإسلام وناوَوْه وقاتلوا المسلمين. ويكون المراد بالبيّنات دلائل صدق محمد صلى الله عليه وسلم.

ويجوز أن يكون ضمير { مِنْ بَعْدِهِمْ } ضمير الرسل على إرادة التوزيع، أي الذين من بعد كلّ رسول من الرسل، فيكون مفيدا أنّ أمّة كل رسول من الرسل اختلفوا واقتتلوا.

والمقصود تحذير المسلمين من الوقوع في مثل ما وقع فيه أولئك، وقد حذّر النبيّ صلى الله عليه وسلم من ذلك تحذيرا متواترا بقوله في خطبة حجة الوداع: **" فلا ترجعوا بعدي كفّارا يضرب بعضكم رقاب بعض "**،

وورد في الصحيح قوله: **" إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار**، قيل: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول، قال: **أما إنّه كان حريصا على قتل أخيه "**، وذلك يفسر بعضه بعضا أنّه القتال على اختلاف العقيدة.

والمراد بالبيّنات على هذا الاحتمال أدلّة الشريعة الواضحة التي تفرّق بين متّبع الشريعة ومعاندها، والتي لا تقبل خطأ الفهم والتأويل لو لم يكن دأبهم المكابرة ودحض الدين لأجل عرض الدنيا.

{ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ** } المشيئة هنا مشيئة تكوين وتقدير لا مشيئة الرضا، لأنّ الكلام مسوق مساق التمنّي للجواب، والتحسير على امتناعه وانتفائه المفاد بـ (لو).

{ **ولكن اختلفوا** } لأنّهم لمّا اختلفوا اقتتلوا ولو لم يختلفوا لما اقتتلوا. وإنّما جيء بلازم الضدّ في الاستدراك للإيماء إلى سبب الاقتتال ليظهر أنّ معنى نفي مشيئة الله تركهم الاقتتال، هو أنّه خلق داعية الاختلاف فيهم، فبتلك الداعية اختلفوا فجرّهم الخلاف إلى أقصاه، وهو الخلاف في العقيدة، فمنهم من آمن ومنهم من كفر فاقتتلوا لأنّ لزوم الاقتتال لهذه الحالة أمر عرفي شائع.

فإن كان المراد اختلاف أمّة الرسول الواحد فالإيمان والكفر في الآية عبارة عن خطأ أهل الدين فيه إلى الحدّ الذي يفضي ببعضهم إلى الكفر به. وإن كان المراد اختلاف أمم الرسل كلٌّ للأخرى، أي فمنهم من آمن بالرسول الخاتم فاتّبعه ومنهم من كفر به فعاداه، فاقتتل الفريقان.

وأيا ما كان المراد من الوجهين فإنّ الاختلاف الذي لا يبلغ بالمختلفين إلى كفر بعضهم بما آمن به الآخر لا يبلغ بالمختلفين إلى التقاتل، لأنّ فيما أقام الله لهم من بيّنات الشرع ما فيه كفاية الفصل بين المختلفين في اختلافهم إذا لم تغلب عليهم المكابرة والهوى، أو لم يُعْمِهم سوء الفهم وقلة الهدى.

فالآية تنادي على التعجيب والتحذير من فعل الأمم في التقاتل للتخالف، حيث لم يبلغوا في أصالة القول أو في سلامة الطوايا إلى الوسائل التي يتفادون بها عن التقاتل. فانتفاء المشيئة راجع إلى حكمة الخلقة

ليعلم الواقف على كلام الله تعالى أن في هدى الله تعالى مقنعا لهم لو أرادا الاهتداء، وأن في سعة قدرته تعالى عصمة لهم.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ } [254] .

لمّا دعاهم لبذل نفوسهم للقتال في سبيل الله، شفّعه بالدعوة إلى بذل المال في الجهاد، وفي هذه الآية توسعة في عموم الإنفاق المطلوب في الإسلام. فالمراد بالإنفاق هنا ما هو أعمّ من الإنفاق في سبيل الله.

{ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ } حثٌّ آخر، لأنّه يذكّر بأنّ هنالك وقتا تنتهي الأعمال إليه ويتعذّر الاستدراك فيه.

{ يَأْتِيَ يَوْمٌ } هو يوم القيامة، وانتفاء البيع والخُلّة والشفاعة كناية عن تعذر التدارك للفائت، لأنّ المرء يحصّل ما يعوزه بطرق هي المعاوضة المعبّر عنها بالبيع، والإرتفاق من الغير وذلك بسبب الخلّة، أو بسبب توسّط الواسطة إلى من ليس بخليل.

الخلة: (بضم الخاء)، المودّة والصحبة.

الشفاعة: الوساطة في طلب النفع، فالشفاعة – في العرف – تقتضي إدلال الشفيع عند المشفوع لديه، ولهذا نفاها الله تعالى هنا بمعنى نفي استحقاق أحد من المخلوقات أن يكون شفيعا عند الله بإدلال، وأثبتها في آيات أخرى كقوله { مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِه } [البقرة:255] وقوله { وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى } [الأنبياء:28]، وثبتت للرسول صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة، وأشير إليها بقوله تعالى { عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً } [الإسراء:79] وفسرت الآية بذلك في الحديث الصحيح، ولذلك كان من أصول اعتقادنا إثبات الشفاعة للنبيّ صلى الله عليه وسلم.

وأنكرها المعتزلة وهم مخطئون في إنكارها، والمسألة مبسوطة في كتب الكلام.

والشفاعة المنفيّة هنا المراد بها الشفاعة التي لا يسع المشفوع إليه ردّها، فلا يعارض ما ورد من شفاعة النبيّ صلى الله عليه وسلم في الأحاديث الصحيحة، لأنّ تلك كرامة أكرمه الله تعالى بها وأذن له فيها إذ يقول: **" اشفع تشفّع "**، فهي ترجع إلى قوله تعالى { مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِه } [البقرة:255].

{ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ } صيغة قصر للتعقيب بزيادة التغليظ عليهم والتنديد بأنّ ذلك التهديد والمهدّد به قد جلبوه لأنفسهم بمكابرتهم، فما ظلمهم الله. فالقصر قصر قلب، بتنزيلهم منزلة من يُعتقد أنّهم مظلومون. ولك أن تجعله قصرا حقيقيا ادعائيّا، لأنّ ظلمهم لمّا كان أشد الظلم جعلوا كمن انحصر الظلم فيهم.

وذكر الكافرين فيه تنزيه للمؤمنين عن أن يتركوا الإنفاق إذ لا يُظنّ بهم ذلك، فتركه والكفر متلازمان، فالكافرون يظلمون أنفسهم، والمؤمنون لا يظلمونها. وذلك أنّ القرآن يصوّر المؤمنين في أكمل مراتب الإيمان ويقابل حالهم بحال الكفار تغليظا وتنزيها.

ومن هذه الآية وأمثالها اعتقد بعض فرق الإسلام أنّ المعاصي تبطل الإيمان كما قدّمناه.

{ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ } [255].

لمّا ذكر هول يوم القيامة وذكر حال الكافرين استأنف بذكر تمجيد الله تعالى وذكر صفاته إبطالا لكفر الكافرين وقطعا لرجائهم، لأنّ فيها { مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ }، وجُعلت هذه الآية ابتداء لآيات تقرير الوحدانية والبعث، وأُودعت هذه الآية العظيمة هنا لأنّها كالبرزخ بين الأغراض السابقة واللاحقة.

{ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ** } إثبات الوحدانية وقد تقدّم الكلام على دلالتها على التوحيد ونفي الآلهة عند قوله تعالى { وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ } [163].

{ الْحَيُّ الْقَيُّومُ }

الحيّ: في كلام العرب من قامت به الحياة، وهي صفة بها الإدراك والتصرّف، أعني كمال الوجود المتعارف، فهي في المخلوقات بانبثاث الروح واستقامة جريان الدم في الشرايين، وبالنسبة إلى الخالق ما يقارب أثر صفة الحياة فينا، أعني انتفاء الجماديّة مع التنزيه عن عوارض المخلوقات. وفسرها المتكلمون بأنّها " صفة تصحّح لمن قامت به الإدراك والفعل"، وفسّر صاحب الكشاف الحي بالباقي، أي: الدائم الحياة، بحيث لا يعتريه العدم. وقال الفخر: " كمال الشيء في جنسه، فالمفهوم الأصلي من لفظ الحيّ كونه واقعا على أكمل أحواله وصفاته ".

القيّوم: فيْعول من قام يقوم وهو وزن مبالغة، وأصله قَيْوُوم فاجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت، والمراد به المبالغة في القيام المستعمل، مجازا مشهورا، في تدبير شؤون النّاس.

{ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ } الجملة منزّلة منزلة البيان لمعنى الحي القيوم ولذلك فصلت عن التي قبلها.

السِّنة: فعلة من الوسن، وهو أوّل النوم.

ونفي استيلاء السِّنة والنوم على الله تعالى تحقيق لكمال الحياة ودوام التدبير، وإثبات لكمال العلم.

{ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } تقرير لانفراده بالإلهية، إذ جميع الموجودات مخلوقاته، وتعليل

لاتصافه بالقيّوميّة، لأنّ من كانت جميع الموجودات ملكا له فهو حقيق بأن يكون قيّومها وألاّ يهملها، ولذلك فصلت الجملة عن التي قبلها. والمراد بالسماوات والأرض استغراق أمكنة الموجودات.

{ **مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ** } لا يشفع عنده أحد بحقّ وإدلال، لأنّ المخلوقات كلّها ملكه، ولكن يشفع عنده من أراد هو أن يظهر كرامته عنده، فيأذَنُه بأن يشفع فيمن أراد هو العفو عنه. ولذلك جاء في حديث الشفاعة: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيه النّاس ليكلّم ربه فيخفف عنهم هول موقف الحساب، فيأتي حتّى يسجد تحت العرش ويتكلّم بكلمات يعلّمه الله تعالى إيّاها، فيقال: يا محمد ارفع رأسك، سل تعْطَه، واشفع تُشفَّع، فسجوده استئذان في الكلام، ولا يشفع حتّى يقال اشفع، وتعليمه الكلمات مقدّمة للإذن.

{ **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ** } تقدير وتكميل لما تضمّنه مجموع الجملتين السابقتين، وهي أيضا تعليل لجملة { مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ } إذ قد يتجّه السؤال لماذا حرموا الشفاعة إلاّ بعد الإذن؟ فقيل: لأنّهم لا يعلمون من يستحقّ الشفاعة وربما غرّتهم الظواهر، والله يعلم من يستحقّها، فهو يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، ولأجل هذين المعنيين فصلت الجملة عمّا قبلها.

{ **مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ** } ما هو ملاحظ لهم من المعلومات وما خفي عنهم أو ذهلوا عنه منها، أو ما هو واقع بعدهم وما وقع قبلهم.

{ **إِلَّا بِمَا شَاءَ** } تنبيه على أنّه سبحانه قد يُطلع بعض أصفيائه على ما هو من خواص علمه.

{ **وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ** } تقرير لما تضمّنته الجمل كلّها من عظمة الله تعلى وكبريائه وعلمه وقدرته وبيان عظمة مخلوقاته المستلزمة عظمة شأنه، أو لبيان سعة ملكه. وليس المراد في الآية حقيقة الكرسي إذ لا يليق بالله تعالى، لاقتضاءه التحيّز، فتعيّن أن يكون مرادا به غير حقيقته.

<u>والجمهور قالوا</u>: **هو العرش،** وهو قول حسن، وهو الظاهر، لأنّ الكرسي لم يذكر في القرآن إلّا في هذه الآية وتكرّر ذكر العرش، ولم يرد ذكرهما مقترنين، فلو كان الكرسي غير العرش لذكر معه.

<u>وقيل</u>: الكرسي **مثل لعلم الله،** وروي عن ابن عباس، لأنّ العالم يجلس على كرسي ليعلم النّاس .

<u>وقيل</u>: **مثل لملك الله تعالى،** كما يقولون: فلان صاحب كرسي العراق، أي: ملك العراق.

فيكون المعنى على هذا: أنّ الله تعالى نبّهنا إلى عظيم قدرته وسعة ملكوته بما يدلّ على ذلك مع موافقته لما في نفس الأمر، ولكنّه لم يفصِّل لنا ذلك لأنّ تفصيله ليس من غرض الاستدلال على عظمته، ولأنّ العقول لا تصل إلى فهمه لتوقّفه على علوم واستكمالات فيها لم تتم إلى الآن، قال تعالى { وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ }. [ص:88].

{ **وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا** } أي إن الذي أوجد هاته العوالم لا يعجز عن حفظها.

وآده جعله ذا أود. والأوَد (بالتحريك) العِوَج، ومعنى آده: أثقله، لأنّ المثقَل ينحني فيصير ذا أود.

{ **وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ** } والعلو والعظمة مستعاران لشرف القدر وجلال القدرة.

ولهذه الآية فضل كبير لم اشتملت عليه من أصول معرفة صفات الله تعالى، كما اشتملت سورة الإخلاص على ذلك وكما اشتملت كلمة الشهادة. أخرج مسلم عن أُبيّ بن كعب أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: **" يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم ؟** قلت: { اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ }، فضرب في صدري وقال: **والله لِيَهْنِك العلمُ أبا المنذر ".**

{ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [256]

استئناف بياني ناشئ عن الأمر بالقتال في سبيل الله، إذ يبدو للسامع أنّ القتال لأجل دخول العدو في الإسلام، فبيّن في هذه الآية أنّه لا إكراه على الدخول في الإسلام.

وتعقيب آية الكرسي بهاته الآية بمناسبة أنّ ما اشتملت عليه الآية السابقة من دلائل الوحدانية وعظمة الخالق وتنزيهه عن الشوائب ما كفرت به الأمم، من شأنه أن يسوق ذوي العقول إلى قبول هذا الدين الواضح العقيدة، المستقيم الشريعة، باختيارهم دون جبر ولا إكراه.

الإكراه: الحمل على فعل مكروه، فالهمزة فيه للجعل، أي: جعله ذا كراهية، ولا يكون ذلك إلّا بتخويف وقوع ما هو أشدّ كراهية من الفعل المدعو إليه.

ونفي الإكراه خبر في معنى النهي، أي: لا تكرهوا أحدا على اتباع الإسلام قسرا. وهو دليل واضح على إبطال الإكراه على الدين بسائر أنواعه، لأنّ أمر الإيمان يجري على الاستدلال، والتمكين من النظر.

{ **قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** } واقع موقع العلّة لقوله { لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ } ولذلك فصلت الجملة.

تبيّن: ضمِّن هنا معنى تميّز ولذلك عدِّي بـ (مِن). وإنّما تبيّن ذلك بدعوة الإسلام وظهوره في بلد مستقل بعد الهجرة.

الرشد: (بضم فسكون، وبفتح ففتح) الهُدى وسداد الرأي، ويقابله الغيّ والسَّفه.

الغيّ: الضلال، وأصله مصدر غَوَى.

{ **فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى** } تفريع على القول السابق، إذ لم يبق بعد التبيين إلّا الكفر بالطاغوت، وفيه بيان لنفي الإكراه في الدين.

الطاغوت: الأوثان والأصنام، والمسلمون يسمّون الصنم الطاغية. وفي الحديث: **" كانوا يهلُّون لمناة الطاغية "**. ويجمعون الطاغوت على طواغيت، ولا أحسبه إلّا من مصطلحات القرآن. وهو مشتق من الطغيان وهو الارتفاع والغلو في الكبر، وهو مذموم و مكروه .

{ **وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ** } شرط، لأنّ نبذ عبادة الأصنام لا مزيّة فيه إن لم يكن عوَّضها بعبادة الله تعالى.

{ **فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى** } ومعنى استمسك: تمسّك. فالسين والتاء للتأكيد، لأنّ الإيمان تمسّك.

العُروة: (بضم العين) ما يُجعل كالحلقة في طرف شيء ليقبض على الشيء منه، فللدلو عروة. فلذلك قال في الكشاف: العروة الوثقى من الحبل الوثيق.

{ **الْوُثْقَى** } المحكمة الشدّ.

{ **لا انْفِصَامَ لَهَا** } أي لا انقطاع، والفصم القطع بتفريق الاتصال دون تجزئة بخلاف القصم (بالقاف) فهو قطع مع إبانة وتجزئة.

والاستمساك بالعروة الوثقى تمثيلي، شُبّهت هيئة المؤمن في ثباته على الإيمان بهيئة من أمسك بعروة وثقى من حبل وهو راكب على صعب أو سفينة في هول البحر، وهي هيئة معقولة شُبّهت بمحسوسة.

{ **وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** } تعريض بالوعد والثواب.

{ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [257].

الذين كفروا بالطاغوت وآمنوا بالله قد تولّوا الله فصار وليّهم، فهو يقدّر لهم ما فيه نفعهم، وهو ذبّ الشبهات عنهم، فبذلك يستمرّ تمسّكهم بالعروة الوثقى ويأمنون انفصامها، أي: فإذا اختار أحد أن يكون مسلما فإنّ الله يزيده هدى.

الوليّ: الحليف، فهو ينصر مولاه.

{ **مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** } المراد بـ (**النور**) نور البرهان والحقّ، وبـ (**الظلمات**) ظلمات الشبهة والشكّ. فالله يزيد الذين اهتدوا هدى لأنّ اتّباعهم الإسلام تيسير لطُرق اليقين، فهم يزدادون توغّلا فيها يوما فيومًا، وبعكسهم الذين اختاروا الكفر على الإسلام، فإنّ اختيارهم ذلك دلّ على ختم ضُرب على عقولهم فلم يهتدوا، فهم يزدادون في الضلال يوما فيوما.

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [258]

جرى هذا الكلام مجرى الحجّة على مضمون الجملة الماضية أو المثال لها، فإنّه لما ذكر بأنّ الله يخرج الذين آمنوا من الظلمات إلى النور وأنّ الطاغوت يُخرجون الذين كفروا من النور إلى الظلمات، ساق ثلاثة شواهد على ذلك، هذا أوّلها وأجمعها، لأنّه اشتمل على ضلال الكافر وهدى المؤمن، فكان هذا في قوّة المثال.

{ **أَلَمْ تَرَ** } استفهام مجازي مضمّن معنى التعجيب. وهذا استدلال مسوق لإثبات الوحدانية لله تعالى وإبطال إلهية غيره لانفراده بالإحياء والإماتة وانفراده بخلق العوالم المشهودة للناس .

{ **حاجّ** } خاصم وهو فعل جاء على زنة المفاعلة، ولا يعرف لحاجَّ في الاستعمال فعل مجرّد دال على وقوع الخصام، ولا تعرف المادة التي اشتق منها، ومن العجيب أنّ الحجّة في كلام العرب: البرهان المصدّق للدعوى، مع أن حاجَّ لا يستعمل غالبا إلّا في معنى المخاصمة، قال تعالى { وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ} [غافر:47]، وأنّ الأغلب أنّه يفيد الخصام بباطل، قال تعالى { وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ } [الأنعام:80].

{ **الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ** } الذي خاصمه خصاما باطلا في شأن صفات الله ربّ إبراهيم.

قيل: إنّه **نمرود** (بالدال المهملة في آخره ويقال بالذال المعجمة) بن فالخ بن عابر بن شالح بن أرفخشد بن سام بن قوش بن حام بن نوح. والذي يُعتمد أنّه ملك جبّار، كان ملكا في بابل وأنّه الذي بنى مدينة بابل، وبنى الصرح الذي في بابل، ولم تتعرّض كتب اليهود لهذه القصّة وهي في المرويّات.

{ **أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ** } تعليل حذفت منه لام التعليل، وهو تعليل لما يتضمّنه حاجَّ من الإقدام على هذا الغلط العظيم الذي سهّله عنده ازدراءه وإعجابه بنفسه، فهو تعليل محض وليس علّة غائيّة مقصودة للمحاجّ من حجاجه.

{ **إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ** } دلّ هذا على أنّ إبراهيم هو الذي بدأ بالدعوة إلى التوحيد واتى بحجّة واضحة يدركها كلّ عاقل وهي أنّ الربّ الحقّ هو الذي يحيي ويميت، فإنّ كلّ أحد يعلم بالضرورة أنّه لا يستطيع إحياء ميت. وأراد بأن الله يحيي أنّه يخلق الأجسام الحيّة من الإنسان والحيوان وهذا معلوم بالضرورة. وذلك موضع العبرة من سياق الآية في القرآن على مسامع أهل الشرك. ثمّ أعقبه بدلالة الإماتة. ففي الإحياء والإماتة دلالة على أنّهما من فعل فاعل غير البشر، فالله هو الذي يحيي ويميت.

{ **قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ** } جاء بمغالطة عن جهل وغرور في الإحياء والإماتة، إذ زعم أنّه يعمد إلى من حكم عليه بالموت فيعفو عنه، وإلى بريء فيقتله، كذا نقلوه.

{ **قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ** } عدل إبراهيم عن الاعتراض بأنّ هذا ليس من الإحياء المحتجّ به ولا من الإماتة المحتجّ بها، فأعرض عنه لما علم من مكابرة خصمه وانتقل إلى ما لا يستطيع الخصم انتحاله، ولذلك بهت أي عجز لم يجد معارضة.

بُهت: فعل مبني للمجهول يقال: بَهَتَه فبُهت بمعنى أعجزه عن الجواب فعَجَز، أو فاجأه بما لم يعرف دفعه

{ **وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** } وإنّما انتفى هدي الله للقوم الظالمين لأنّ الظلم حائل بين صاحبه وبين التنازل إلى التأمّل من الحجج وإعمال النظر فيما فيه النفع، إذ الذهن في شاغل عن ذلك بزهوه وغروره.

والآية دليل على جواز المجادلة والمناظرة في إثبات العقائد، والقرآن مملوء بذلك، وأمّا ما نهي عنه من الجدل فهو جدال المكابرة والتعصّب وترويج الباطل والخطأ.

{ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [259].

بعد أن قرّر بالآية السابقة ثبوت انفراد الله بالإلهية أعقب باثبات البعث.

{ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ } قيل: هو أرْمِيا بن حلقيا، وقيل: هو عزير بن شرخيا. والقرية بيت المقدس. **والذي يظهر لي** أنّه (حزقيال ابن بوزي) نبيّ إسرائيل، كان معاصرا لـ (أرميا) و(دانيال) وكان من جملة الذين أسرهم بختنصر إلى بابل في أوائل القرن السادس قبل المسيح، وذلك أنّه لمّا رأى عزم بختنصر على استئصال اليهود وجمعه آثار الهيكل ليأتي بها إلى بابل، جمع كتب شريعة موسى وتابوت العهد وعصا موسى ورماها في بئر أرشليم خشية أن يحرقها بختنصر، ولعلّه اتخذ علامة يعرفها بها وجعلها سرا بينه وبين أنبياء زمانه وورثتهم من الأنبياء. فلمّا أُخرج إلى بابل بقي هنالك وكتب كتابا في مَرَاءٍ رآها وَحْيًا تدلّ على مصائب اليهود وما يُرجى لهم من الخلاص، وكان آخر ما كتبه في السنّة الخمسة والعشرين بعد سبي اليهود، ولم يعرف له خبر بعد كما ورد في تاريخهم، ويُظنّ أنّه مات أو قتل .ومن جملة ما كتبه: " أخرجني روح الربّ وأنزلني في وسط البقعة وهي ملآنة عظاما كثيرة وأمرَّني عليها وإذا تلك البقعة يابسة فقال لي: أتحيَى هذه العظام، فقلت: يا سيدي الربّ أنت تعلم .فقال لي: تنبأ على هذه العظام وقل لها: أيّتها العظام اليابسة اسمعي كلمة الربّ، قال: ها أنا ذا أُدخل فيكم الروح وأضع عليكم عصبا وأكسوكم لحما وجلدا، فتنبّأتُ، كما أمرني، فتقاربت العظام كلّ عظم إلى عظمه، ونظرت وإذا باللحم والعصب كساها وبسط الجلد عليها من فوق ودخل فيهم الروح فحيوا وقاموا على أقدامهم جيش عظيم جدا ".

ولمّا كانت رؤيا الأنبياء وحيا فلا شك أنّ الله لما أعاد عمران أورشليم في عهد عزرا النبيّ في حدود سنة (450 ق م) أحيا النبيّ حزقيال – عليه السلام – ليرى مصداق نبوّته، وأراه إحياء العظام، وأراه آية في طعامه وشرابه وحماره، وهذه مخاطبة بين الخالق وبعض أصفيائه على طريق المعجزة، وجعل خبره آية للنّاس من أهل الإيمان الذين يوقنون بما أخبرهم الله تعالى، أو لقوم أطلعهم الله على ذلك من أصفيائه، أو لأهل القرية التي كان فيها وفُقد من بينهم فجاءهم من بعد مائة سنة وتحقَّقه من يعرفه

بصفاته.

{ **أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا** } استفهام إنكار واستبعاد.

{ **فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ** } التعقيب فيه بحسب المعقّب، فلا يلزم أن يكون أماته في وقت قوله { أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ }. وقد قيل: إنّه نام فأماته الله في نومه.

{ **ثُمَّ بَعَثَهُ** } أي: أحياه وهي حياة خاصة رُدّت بها روحه إلى جسده، لأنّ جسده لم يبل كسائر الأنبياء. وهذا بعث خارق للعادة وهو غير بعث الحشر.

{ **لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ** } اعتقد ذلك بعلم أودعه الله فيه، أو لأنّه تذكر أنّه نام في أوّل النهار ووجد الوقت الذي أفاق فيه آخر النهار.

{ **فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ** } والظاهر أنّ الطعام والشراب كانا معه حين أُميت.

{ **لَمْ يَتَسَنَّهْ** } لم يتغيّر، وأصله مشتقّ من السنة، لأنّ مرّ السنين يوجب التغيّر.

{ **وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ** } قيل كان حماره قد بلِيَ فلم تبق إلّا عظامه فأحياه الله أمامه.

{ **وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً** } والمقصود اعتباره في استبعاده أن يحيي الله القرية بعد موتها، فكان من قوّة الكلام: انظر إلى ما ذُكر جعلناه آية لك على البعث وجعلناك آية للنّاس، لأنّهم لم يروا طعامه وشرابه وحماره، ولكن رأوا ذاته وتحقّقوه بصفاته.

{ **نُنْشِرهَا** } بالراء مضارع أنشر الرباعي بمعنى **الإحياء.** وقرأه ابن عامر وحمزة وعاصم والكسائي وخلف { **نُنْشِزُهَا** } (بالزاي) مضارع أنشزه إذا **رفعه،** والنشز الارتفاع، والمراد ارتفاعها حين تغلظ بإحاطة العصب واللحم والدم بها. فحصل من القراءتين معنيان لكلمة واحدة.

وفي كتاب حزقيال: " فتقاربت العظام كل عظم إلى عظمه، ونظرتُ وإذا بالعصب واللحم كساها وبسط الجلد عليها ".

{ **قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } قرأ الجمهور أعلم بهمزة قطع على أنّه مضارع (علم) فيكون جواب الذي مر على قرية، وجاء بالمضارع ليدلّ على ما في كلام هذا النبيّ من الدلالة على تجدّد علمه بذلك لأنّه علمه في قبل وتجدّد علمه إيّاه.

وقرأه حمزة والكسائي بهمزة وصل على أنّه من كلام الله تعالى.

{ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [260].

فإنّ إبراهيم لفرط محبّته الوصول إلى مرتبة المعاينة في دليل البعث رام الانتقال من العلم النظري البرهاني، إلى العلم الضروري، فسأل الله أن يريه إحياء الموتى بالمحسوس.

{ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ } واو الحال، والهمزة استفهام تقريري ، وهو تقرير مجازي مراد به لفت عقله إلى دفع هواجس الشك.

{ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي } معناه ليثبت ويتحقّق علمي وينتقل من معالجة الفكر والنظر إلى بساطة الضرورة بيقين المشاهدة.

يطمئنّ: يسكن، ومصدره الاطمئنان، واسم المصدر الطمأنينة، فهو حقيقة في سكون الأجسام، وإطلاقه على استقرار العلم في النفس مجاز، وشاع ذلك المجاز حتّى صار مساويا للحقيقة، يقال: اطمئن باله واطمئن قلبه.

القلب: مراد به العلم، إذ القلب لا يضطرب عند الشكّ، وإنّما ذلك للفكر. وأراد بالاطمئنان العلم المحسوس وانشراح النفس به، وقد دلّه الله على طريقة يرى بها إحياء الموتى رأي العين.

{ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ} وجيء بـ (من) للتبعيض لدلالة على أنّ الأربعة مختلفة الأنواع، والظاهر أنّ حكمة التعدّد والاختلاف زيادة في التحقّق أنّ الإحياء لم يكن أهون في بعض الأنواع دون بعض، فلذلك عدّدت الأنواع، ولعلّ جعلها أربعة ليكون وضعها على الجهات الأربعة (المشرق والمغرب والجنوب والشمال) لئلّا يُظنّ لبعض الجهات مزيد اختصاص بتأتّي الإحياء.

ويجوز أن يكون المراد بالأربعة أربعة أجزاء من طير واحد، أي خذ أربعة من أجزائه ثم ادعهن.

{ صُرْهُنَّ } أدنِهن، يقال صاره يصُوره ويصيره بمعنى واحد، وهو لفظ عربي على الأصحّ وقيل: معرّب. وفائدة الأمر بإدنائها أن يتأمّل أحوالها حتّى يعلم بعد إحيائها أنّها لم ينتقل جزء منها عن موضعه.

{ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً } عطف على محذوف، فالتقدير فاذبحهنّ ثم اجعل.

وذكر كلّ جبل يدلّ على أنّه أمر بجعل كل جزء من أجزاء الطير على جبل لأنّ وضعها على الجبال تقوية لتفرّق تلك الأجزاء، فإنّها فرقت بالفصل من أجسادها وبوضعها في أمكنة متباعدة وعسِرة التناول.

{ ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً } من أنواع المشي لا من أنواع الطيران، فجعل ذلك آية على أنّهنّ أعيدت إليهنّ حياة مخالفة للحياة السابقة، لئلّا يظنّ أنّهنّ لم يمتن تماما.

{ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ [261] الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنّاً وَلا أَذىً لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُون[262] }.

عود إلى التحريض على الإنفاق في سبيل الله.

{ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ } شبّه حال إعطاء النفقة ومصادفتها موقعها وما أعطي من الثواب لهم بحال حبّة أنبتت سبع سنابل. فهو من تشبيه المعقول بالمحسوس، والمشبّه به هيأة معلومة، وجعل أصل التمثيل في التضعيف (حبّة)، لأنّ تضعيفها من ذاتها لا بشيء يزاد عليها.

قال الواحدي في أسباب النزول وغيره: نزلت في عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف، ذلك أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراد الخروج إلى غزوة التبوك حث النّاس على الإنفاق في سبيل الله، وكان الجيش يومئذ بحاجة إلى الجهاز (جيش العسرة) فجاءه عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف، وقال عثمان بن عفان: " عليَّ جهاز من لا جهاز له "، فجهّز الجيش بألف بعير. وقيل جاء بألف دينار ذهبا فصبّها في حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

{ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ } المضاعفة درجات كثيرة لا يعلمها إلّا الله تعالى، لأنّها تترتّب على أحوال المتصدِّق وأحوال المتصدَّق عليه وأوقات ذلك وأماكنه، وللإخلاص وقصد الامتثال ومحبة الخير للناس والإيثار على النفس وغير ذلك مما يحف بالصدقة والإنفاق، تأثير في تضعيف الأجر، والله واسع عليم.

{ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ } الإعادة لإظهار الاهتمام بهذه الصفة.

{ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنّاً وَلا أَذىً لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ } جاء في عطفه بـ (ثُمّ) مع أن الظاهر أن يعطف بالواو، قال في الكشاف: " لإظهار التفاوت بين الإنفاق وترك المن والأذى، وإنّ تركهما خير من نفس الإنفاق "، يعني أنّ (ثُمّ) للترتيب الرتبي لا للمهلة الزمنية، ترفيعا لرُتبة ترك المنّ والأذى على رتبة الصدقة، لأنّ العطاء قد يصدر عن كرم النفس وحبّ المحمدة، فللنفوس حظٌ فيه مع حظ المعطى، بخلاف ترك المن والأذى فلا حظ فيه لنفس المعطي، فإنّ الأكثر يميلون إلى التبجحّ والتطاول على المعطَى".

المنّ: أصله الإنعام والفضل، يقال: منّ عليه منّا، ثم أطلق على عدّ الإنعام على المنعَم عليه، وهو إذ ذكر بعد الصدقة والعطاء تعيّن للمعنى الثاني. فالمقصد الشرعي أن يكون إنفاق المنفق في سبيل الله مرادا به نصر الدين ولا حظ للنفس فيه، فذالك هو أعلى درجات الإنفاق، وهو الموعود عليه بهذا الأجر الجزيل، ودون ذلك مراتب كثيرة تتفاوت أحوالها.

{ **قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذىً وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ [263] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاس وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ [264]** }.

تخلّص من غرض التنويه بالإنفاق في سبيل الله إلى التنويه بضرب آخر من الإنفاق وهو الصدقات. فلمّا وصف الإنفاق في سبيل الله بصفة الإخلاص لله فيه، انتقل بمناسبة ذلك إلى طرد ذلك الوصف في الإنفاق على المحتاجين، فإنّ المنّ والأذى في الصدقة أكثر حصولا، لكون الصدقة متعلّقة بأشخاص معيّنين، بخلاف الإنفاق في سبيل الله فإنّ أكثر من تنالهم النفقة لا يعلمهم المنفق.

الأذى: الإساءة والضرّ القليل للمنعَم عليه، والمراد به الأذى الصريح من المنعِم للمنعَم عليه، كالتطاول عليه بأنّه أعطاه، أو أن يتكبّر عليه لأجل العطاء، بله تعييره بالفقر، وهو غير الأذى الذي يحصل عند المنّ.

أوسع الله تعالى هذا المقام بيانا وترغيبا وزجرا بأساليب مختلفة وتفنّنات بديعة فنبّهنا بذلك إلى شدّة عناية الإسلام بالإنفاق في وجوه البرّ والمعونة. وكيف لا تكون كذلك وقوام الأمّة دوران أموالها بينها. وإنّ من أكبر مقاصد الشريعة الانتفاع بالثروة العامة بين أفراد الأمّة على وجوه جامعة بين رعي المنفعة العامة ورعي الوجدان الخاص، وذلك بمراعاة العدل مع الذي كدّ لجمع المال وكسبه، ومراعاة الإحسان للذي بطَّأَ به جهده، وهذا المقصد من أشرف المقاصد التشريعية. ولقد كان مقدار الإصابة والخطأ فيه هو ميزان ارتقاء الأمم وتدهورها، ولا تجد شريعة ظهرت ولا دعاة خير دعوا إلّا وهم يجعلون لتنويل أفراد الأمّة حظا من الأموال التي بين أيدي أهل الثروة، موضعا عظيما من تشريعهم أو دعوتهم، إلّا أنّهم في ذلك متفاوتون بين مقارب ومقصّر أو آمل ومدبر.

غير أنّك لا تجد شريعة سدّدت السهم لهذا الغرض وعرفت كيف تفرّق بين المستحبّ فيه والمفترض، مثل هذه الشريعة المباركة، فإنّها قد تصرّفت في نظام الثروة العامة تصرّفا عجيبا أقامته على قاعدة توزيع الثروة بين أفراد الأمّة، وذلك بكفاية المحتاج من الأمّة مؤونة حاجته، على وجوه لا تحرم المكتسب للمال فائدة اكتسابه وانتفاعه به قبل كلّ أحد.

فأوّل ما ابتدأت به تأمين ثقة المكتسب (بالأمن على ماله) من أن ينتزعه منه منتزع، فكان من قواعد التشريع العامة قاعدة حفظ الأموال، لا يستطيع مسلم إبطالها. وقد أتبعت إعلان هذه الثقة بحفظ الأموال بتفاريع الأحكام المتعلّقة بالمعاملات والتوثيقات، كمشروعيّة الرهن في السلف والتوثّق بالإشهاد، كما تصرّح به الآيات الآتية، وما سوى ذلك من نصوص الشريعة تنصيصا واستنباطا.

ثم أشارت إلى أنّ من مقاصدها ألّا تبقى الأموال منتقلة في جهة واحدة أو عائلة أو قبيلة من الأمّة بل

المقصد دورانها بقوله تعالى في آية الفيء { مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ } [الحشر:7] فضمير {يكون} عائد إلى { ما أفاء الله } باعتبار كونه مالا، أي: كي لا يكون المال دولة، لينال الفقراء منه حظوظهم فيصبحوا أغنياء، فلا يكون مدالا بين طائفة الأغنياء، كما كانوا في الجاهلية.

ثم عمدت إلى الانتزاع من هذا المال انتزاعا منظّما، فجعلت منه انتزاعا جبريّا بعضه في حياة صاحب المال وبعضه بعد موته؛

فأمّا الذي في حياته: فهو الصدقات الواجبة، ومنها الزكاة، وهي في غالب الأحوال عشر المملوكات أو نصف عشرها أو ربع عشرها. وقد بين النبيّ صلى الله عليه وسلم وجه تشريعها بقوله لمعاذ بن جبل حين أرسله إلى اليمن: **" إنّ الله فرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم فتردّ على فقرائهم"**، وجعل نصيبا من هذا المال لإقامة مصالح النّاس وكفاية مؤن الضعفاء منهم، فصاروا بذلك ذوي حقّ في أموال الأغنياء، غير مهانين. والتفت إلى الأغنياء فوعدهم على هذا العطاء بأفضل ما وعد به المحسنين، من تسميته قرضا لله تعالى، ومن توفير ثوابه، كما جاءت به الآيات التي نحن بصدد تفسيرها.

ويلحق بهذا النوع أخذ الخمس من الغنيمة، مع أنّها حقّ المحاربين، فانتزع منهم ذلك، وحرّضهم على الرضا بذلك.

وكذلك يلحق به النفقات الواجبة غير نفقة الزوجة لأنّها غير منظور فيها إلى الانتزاع إذ هي في مقابلة تآلف العائلة ولا نفقة الأولاد كذلك، لأنّ الداعي إليها جبلّيّ. أمّا نفقة غير البنين عند من يوجب نفقة القرابة فهي من قسم الانتزاع الواجب.

ومن الانتزاع الواجب الكفّارات في حنث اليمين، وفطر رمضان، والظهار، والإيلاء، وجزاء الصيد .

فهذا توزيع بعض مال الحي في حياته.

وأمّا توزيع المال بعد وفاة صاحبه فذلك ببيان فرائض الإرث على وجه لا يقبل الزيادة والنقصان.

وجعل توزيع هذه الفرائض على وجه الرحمة، فلم تعط أموالهم إلّا لأقرب النّاس إليهم، وكان توزيعه بحسب القرب كما هو معروف في مسائل الحجب من الفرائض، وبحسب الأحوجيّة إلى المال، كتفضيل الذكر على الأنثى لأنّه يعول غيره والأنثى يعولها غيرها. والتفت في هذا الباب إلى أصحاب الأموال فترك لهم حقّ التصرّف في ثلث أموالهم يعيّنون من يأخذه بعد موتهم على شرط ألّا يكون وارثا، حتّى لا يتوصّلوا بذلك إلى تنفيل وارث على غيره.

وجعلت الشريعة من الانتزاع **انتزاعا مندوبا** إليه غير واجب، وذلك أنواع المواساة بالصدقات والعطايا والهدايا والوصايا وإسلاف المعسر بدون مرابات. وليس في الشريعة انتزاع أعيان المملوكات من الأصول، فالانتزاع لا يعدو انتزاع الفوائد بالعدالة والمساواة.

{ **قَوْلٌ مَعْرُوفٌ** } التنكير للتقليل، أي: أقلّ قول معروف. والمعروف هو الذي يعرفه النّاس، أي: لا ينكرونه، فالمراد به القول الحسن وهو ضد الأذى.

المغفرة: هنا يراد بها التجاوز عن الإساءة، أي تجاوز المتصدّق عن الجافي في سؤاله، إلحاحه أو جفاءه. ويراد بها أيضا تجاوز الله تعالى عن الذنوب بسبب تلك الصدقة إذا كان معها قول معروف.

{ **وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ** } تذييل للتذكير بصفتين من صفات الله تعالى ليتخلّق بهما المؤمنون، وهما الغني الراجع إلى الترفّع، والحلم الراجع إليه العفو والصفح.

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى** }

الإبطال: جعل الشيء باطلا، فمعنى بطلان العمل عدم ترتّب أثره الشرعي، فإنّ كان العمل واجبا فبطلانه عدم إجزائه بحيث لا تبرأ ذمّة المكلّف من تكليفه بذلك العمل، وذلك إذا اختلّ ركن أو شرط من العمل. وإن كان العمل متطوّعا به رجع البطلان إلى عدم الثواب على العمل لمانع شرعي، وهو المراد هنا جمعا بين أدلة الشريعة.

{ **كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النّاس** } أي: لا تكونوا في اتباع صدقاتكم بالمنّ والأذى كالذي ينفق ماله رئاء النّاس وهو كافر لا يؤمن بالله واليوم الآخر، وإنّما يعطي ليراه النّاس، وذلك عطاء أهل الجاهلية.

الرئاء (بهمزتين) فِعال من رأى، وهو أن يكثر من إظهار أعماله الحسنة للنّاس، فصيغة الفِعال فيه للمبالغة والكثرة، وأولى الهمزتين أصلية والأخيرة مبدلة عن الياء بعد الألف الزائدة. ويقال: رياء .

والمعنى تشبيه بعض المتصدّقين المسلمين الذين يتصدّقون طلبا للثواب ويعقبون صدقاتهم بالمن والأذى، بالمنفقين الكافرين الذين ينفقون أموالهم لا يطلبون من إنفاقها إلّا الرئاء والمدحة.

{ **فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا** }

مُثّل حال الكافر الذي ينفق ماله رئاء النّاس بحال صفوان عليه تراب يغشيه، يعني يخاله الناظر تربة كريمة صالحة للبذر، فتقدير الكلام: عليه تراب صالح للزرع، فحذفت صفة التراب إيجازا اعتمادا على أنّ التراب الذي يرقب النّاس أن يصيبه وابل هو التراب الذي يبذرون فيه، فإذا زرعه الزارع وأصابه وابل وطمع الزارع في زكاء زرعه، جرفه الماء من وجه الصفوان فلم يترك منه شيئا وبقي مكانه صلدا أملس فخاب أمل زارعه.

ووجه الشبه الأمل في حالة تغرّ بالنفع ثم لا تلبث ألّا تأتي لآملها بما أمّله فخاب أمله. ذلك أنّ المؤمنين لا يخْلون من رجاء حصول الثواب لهم من صدقاتهم، ويكثر أن تعرض الغفلة للمتصدِّق فيتبع صدقته بالمنّ والأذى اندفاعا مع خواطر خبيثة.

{ **لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا** } لا يستطيعون أن يسترجعوه ولا انتفعوا بثوابه، فلم يبق لهم منه شيء. ويجوز أن يكون المعنى: لا يحسنون وضع شيء ممّا كسبوا موضعه، فهم يبذلون مالهم لغير فائدة تعود عليهم في آجالهم، بدليل قوله { وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ }.

{ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } تذييل و(الواو) اعتراضية، وهذا التذييل مسوق لتحذير المؤمنين من تسرّب أحوال الكافرين إلى أعمالهم، فإنّ من أحوالهم المنّ على من ينفقون.

{ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } [265]

تأكيد للثناء على المنفقين بإخلاص، وتفنّن في التمثيل. فإنّه قد مثّله فيما سلف بحبة أنبتت سبع سنابل، وهو تمثيل غير كثير التركيب لتحصل السرعة بتخيّل مضاعفة الثواب، فلما مثّل حال المنفق رئاء بالتمثيل الذي مضى، أعيد تمثيل حال المنفق ابتغاء مرضاة الله بما هو أعجب في حسن التخيّل، فإنّ الأمثال تبهج السامع كلّما كانت أكثر تركيبا وضمّنت الهيأة المشبه بها أحوالا حسنة تكسبها حسنا ليسري ذلك التحسين إلى المشبّه، وهذا من جملة مقاصد التشبيه.

{ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً } أي مبتغين مرضاة الله ومثبّتين من أنفسهم.

التثبيت: تحقيق الشيء وترسيخه، أي أنّهم يمنعون أنفسهم من التردّد في الإنفاق في وجوه البرّ ولا يتركون مجالا لخواطر الشحّ، فإنّ إراضة النفس على فعل ما يشقّ عليها لها أثر في رسوخ الأعمال حتّى تعتاد الفضائل وتصير لها ديدنا.

ويجوز أن يكون { وَتَثْبِيتاً } تمثيلا للتصديق، أي: تصديقا لوعد الله وإخلاصا في الدين ليخالف حال المنافقين، فإنّ امتثال الأحكام الشاقة لا يكون إلّا عن تصديق للآمر بها.

{ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ }

الجنة: مكان من الأرض ذو شجر كثير بحيث يجِنُّ، أي: يستر الكائن فيه، فاسمها مشتقّ من جَنَّ إذا ستر، وأكثر ما تطلق الجنةّ في كلامهم عل ذات الشجر المثمر المختلف الأصناف، فأمّا ما كان مغروسا نخيلا بحتا فإنّما يسمَّى حائطا.

وقد حصل من تمثيل حال الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله بحبة ثم بجنة جناس مصحَّف.

الرّبوة: (بضم الراء وفتحها) مكان من الأرض مرتفع دون الجُبيل، وتخصيص الجنّة بأنّها في ربوة لأنّ أشجار الرُبى تكون أحسن منظرا وأزكى ثمرا.

الأُكل: (بضم الهمزة وسكون الكاف وبضم الكاف أيضا)، وقد قيل: إن كل فُعْل في كلام العرب فهو مخفّف فُعُل كعنق وفلك وحمق، وهو في الأصل ما يؤكل وشاع في ثمار الشجر.

{ ضِعْفَيْنِ } أي أتت أكلها مضاعفا على تفاوتها.

{ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ }، أي فإن لم يصبها مطر غزير كفاها مطر قليل فأتت أكلها دون الضعفين. والمعنى أنّ الإنفاق لابتغاء مرضاة الله له ثواب عظيم، وهو مع ذلك متفاوت على مقدار تفاوت

الإخلاص في الابتغاء والتثبيت، كما تتفاوت أحوال الجنّات الزكية في مقدار زكائها ولكنها لا تخيب صاحبها.

{ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ } [266].

ضرب الله هذا مثلا لمقابل مثل النفقة لمرضاة الله والتصديق، وهو نفقة الرئاء، ووجه الشبه هو حصول خيبة ويأس في وقت تمام الرجاء وإشراف الإنتاج. وقد وصف الجنّة بأعظم ما يحسن به أحوال الجنّات وما يرجى منه توفّر ريعها، ثم وصف صاحبها بأقصى صفات الحاجة إلى فائدة جنّته، بأنّه ذو عيال، فهو في حاجة إلى نفعهم وأنّهم ضعفاء، أي صغار، وقد أصابه الكبر ولا قدرة له على الكسب غير تلك الجنّة، فهذه أشد أحوال الحرص. فحصل من تفصيل هذه الحالة أعظم الترقّب لثمرة هذه الجنّة كما كان المعطي صدقته في ترقّب لثوابها.

{ **أَيَوَدُّ** } استفهام انكار وتحذير.

{ **فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ** } ريح قويّة شديدة الحرارة، وهي المسمَّاة بريح السموم، فأحرقت الجنة، أي: صارت أعوادها يابسة، فهذا مفاجأة الخيبة في حين رجاء المنفعة.

{ **كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ** } تذييل، أي كهذا البيان الذي فيه تقريب المعقول بالمحسوس بيّن الله نصحا لكم رجاء تفكّركم في العواقب حتّى لا تكونوا على غفلة.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ } [267]

إفضاء إلى المقصود وهو الأمر بالصدقات بعد أن قُدّم بين يديه مواعظ وترغيب وتحذير. والأمر يجوز أن يكون للوجوب فتكون الآية في الأمر بالزكاة، أو للندب وهي في صدقة التطوع، أو هو للقدر المشترك في الطلب، فتشمل الزكاة وصدقة التطوع، والأدلة الأخرى تبيّن حكم الكلّ.

{ **مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ** } خيار الأموال، فيطلق الطيّب على الأحسن في صنفه. و**الكسب** ما يناله المرء بسعيه. ويطلق الطيّب على المال المكتسب بوجه حلال لا يخالطه ظلم ولا غش، وهو الطيب عند الله كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " **من تصدّق بصدقة من كسب طيّب، ولا يقبل الله إلّا طيّبا، تلقّاها الرحمان بيمينه** ". وفي الحديث الآخر: " **إنّ الله طيّب لا يقبل إلّا طيّبا** ".

{ **وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ** } لم يقيّد بالطيّبات، لأنّه مما اكتسبه المرء بعمله بالحرث والغرس ونحو ذلك، لأنّ الأموال الخبيثة تحصل غالبا من ظلم النّاس أو التحيّل عليهم وغشّهم .

وبعض المفسّرين عدّ المعادن داخلة في { مَا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ }. وتجب على المعدن الزكاة عند مالك إذا بلغ النصاب، وفيه ربع العشر، وهو من الأموال المفروضة. وليس بزكاة عند أبي حنيفة ولذلك قال فيه الخمس. وبعضهم عدّ الركاز داخلا فيما أخرج من الأرض ولكنه يخمّس.

{ **وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ** } أصل تيمّموا تتيمّموا، حذفت تاء المضارعة في المضارع.

تيمّم: قصد وعمد.

الخبيث: الشديد سوءا في صنفه ولذلك يطلق على الحرام وعلى المستقذر. وهو الضدّ الأقصى للطيّب فلا يطلق على الرديء إلّا على وجه المبالغة، ووقوع لفظه في سياق النهي يفيد عموم ما يصدق عليه اللفظ.

محلّ النهي أن يُخرج الرجل صدقته من خصوص رديء ماله. أمّا إخراجه من الجيّد ومن الرديء فليس بمنهي، لاسيما في الزكاة الواجبة لأنّه يُخرج عن كلّ ما عنده من نوعه.

وفي حديث الموطأ (في البيوع): أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أرسل عاملا على صدقات خيبر فأتاه بتمر جنيب (صنف طيّب) فقال له: **أكل تمر خيبر هكذا؟** قال: لا، ولكنّي أبيع الصاعين من الجمع (صنف رديء) بصاع من جنيب فقال له: **بع الجمع بالدراهم ثم ابتع بالدراهم جنيبا "**. وأمّا في الحيوان فيؤخذ الوسط لتعذّر التنويع غالبا إلّا إذا أكثر عدده فلا إشكال.

{ **وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ** } أي كما تكرهون كسبه كذلك ينبغي أن تكرهوا إعطاءه. وكأنّ كراهية كسبه كانت معلومة لديهم متقرّرة في نفوسهم، ولذلك وقع القياس عليها.

ويجوز أن يكون الكلام مستعملا في النهي عن أخذ المال الخبيث، فيكون الكلام منصرفا إلى غرض ثان وهو النهي عن أخذ المال الخبيث، والمعنى: لا تأخذوه.

الإغماض: إطباق الجفن، فيطلق تارة على الهناء والاستراحة، لأنّ من لوازم الإغماض راحة النائم. ويطلق تارة على لازمه من عدم الرؤية فيدلّ على التسامح في الأمر المكروه. فإذا أرادوا المبالغة في التغافل عن المكروه الشديد قالوا: أغمض عينه على قذى.

{ **وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ** } تذييل، أي شاكر لمن تصدّق صدقة طيّبة.

الغنيّ: الذي لا يحتاج إلى ما تكثر حاجة غالب النّاس إليه، ولله الغني المطلق.

الحميد: من أمثلة المبالغة، أي شديد الحمد، لأنّه يثني على فاعل الخيرات. ويجوز أن يكون المراد أنّه محمود، فيكون حميد بمعنى مفعول. أي: فتخلّقوا بذلك، لأنّ صفات الله تعالى كمالات، فكونوا أغنياء القلوب عن الشحّ، محمودين على صدقاتكم، ولا تعطوا صدقات تؤذن بالشحّ ولا تُشكرون عليها.

{ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } [268].

الشيطان يصدّ النّاس عن إعطاء خيار أموالهم، ويغريهم بالشحّ أو بإعطاء الرديء والخبيث، ويخوّفهم من الفقر إن أعطوا بعض مالهم. وتقديم اسم الشيطان مؤذن بذمّ الحكم.

{ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ } يسوّل لكم وقوعه في المستقبل إذا أنفقتم خيار أموالكم، وذلك بما يلقيه في قلوب الذين تخلّقوا بالأخلاق الشيطانية. شبّه إلقاء الشيطان في نفوسهم توقّع الفقر بوعد منه بحصوله لا محالة.

الفقر: شدّة الحاجة إلى لوازم الحياة لعلّة أو فقد ما يعاوض به، وهو مشتق من فقار الظهر، فأصله مصدر فَقَرَه إذا كسر ظهره، جعلوا العاجز بمنزلة من لا يستطيع أدنى حركة، لأنّ الظهر هو مجمع الحركات، ومن هذا تسميتهم المصيبة فاقرة، وقاصمة الظهر.

الفحشاء: اسم لفعل أو قول شديد السوء واستحقاق الذمّ عرفا أو شرعا. مشتقّ من الفُحْش (بضم الفاء وسكون الحاء) تجاوز الحدّ، وخصّه الاستعمال بالتجاوز في القبيح. أي: يأمركم بفعل قبيح.

وهذا ارتقاء في التحذير من الخواطر الشيطانية التي تدعو إلى الأفعال الذميمة.

{ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ }

عطف على الجملة السابقة لإظهار الفرق بين ما تدعو إليه وساوس الشيطان وما تدعوا إليه أوامر الله تعالى، والوعد فيه حقيقة لا محالة.

واسع: أي: أنّه واسع الفضل، والوصف بالواسع مشتقّ من وَسِعَ المتعدّي: إذا عمّ بالعطاء ونحوه. فالمعنى هنا: أنّه وسِع النّاس والعالمين بعطائه.

{ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} [269].

هذه الجملة اعتراض وتذييل لما تضمّنته آيات الإنفاق من المواعظ والآداب وتلقين الأخلاق الكريمة، ممّا يكسب العاملين بالانفاق رجاحة العقل واستقامة العمل. فالمقصود التنبيه إلى نفاسة ما وعظهم الله به، وتنبيههم إلى أنّهم قد أصبحوا به حكماء بعد أن كانوا في جاهلية جهلاء. فالمعنى: هذا من الحكمة التي آتاكم الله.

الحكمة: إتقان العلم وإجراء الفعل على وفق ذلك العلم، وهي مشتقة من الحُكم وهو المنع، لأنّها تمنع صاحبها من الوقوع في الغلط والضلال، قال تعالى { كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ } [هود:1]، ومنه سمّيت الحديدة التي في اللجام وتُجعل في فمّ الفرس، حَكَمَة.

{ **وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً** } لأنّنا إذا تتبّعنا ما يحلّ بالنّاس من المصائب نجد معظمها من جراء الجهالة والضلالة وأفن الرأي. وبعكس ذلك نجد ما يجتنيه النّاس من المنافع والملائمات منجرّا من المعارف والعلم بالحقائق. ولو أنّنا علمنا الحقائق كلّها لاجتنبنا كلّ ما نراه موقعا في البؤس والشقاء.

{ **وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ** } تذييل للتنبيه على أنّ من يشاء الله إيتاءَ الحكمة هو ذو اللبّ، وأنّ تذكّر الحكمة واستصحاب إرشادها بمقدار استحضار اللبّ وقوته.

اللبّ: في الأصل خلاصة الشيء وقلبه. وأطلق هنا على عقل الإنسان، لأنّه أنفع شيء فيه.

{ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ } [270].

تذييل للكلام السابق المسوق للأمر بالإنفاق وصفاته المقبولة والتحذير من المثبّطات عنه. والمقصود من هذا التذييل التذكير بأنّ الله لا يخفى عليه شيء من النفقات وصفاتها. وأدمج النذر مع الإنفاق.

النذر: التزام قربة أو صدقة بصيغة الإيجاب على النفس كقوله: عليَّ صدقة. ويكون مطلقا ومعلّقا.

وقد عرفت العرب النذر من الجاهلية، فقد نذر عبد المطلب أنّه إن رزق عشرة أولاد ليذبحنّ عاشرهم قربانا للكعبة، وكان ابنه العاشر هو عبد الله ثاني الذبيحين، وأكرم بها مزيّة.

ونذرت نُتيلة زوج عبد المطلب، لما افتقدت ابنها العباس وهو صغير، أنّها إن وجدته لتكْسُوَنّ الكعبة الديباج ففعلت، وهي أوّل من كسى الكعبة الديباج.

وفي حديث البخاري أنّ عمر بن الخطاب قال: يا رسول الله إني نذرت في الجاهلية أن اعتكف ليلة في المسجد الحرام، فقال: " **أوف بنذرك** ".

والآية دلت على مشروعيّته في الإسلام ورجاء ثوابه، لعطفه على ما هو من فعل الخير سواء كان النذر مطلقا أو معلّقا. وقد مدح الله عباده فقال { يُوفُونَ بِالنَّذْرِ } [الإنسان:7]. وفي الموطأ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم :" **من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه** ".

{ **فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ** } كناية عن الجزاء عليه، لأنّ علم الله بالكائنات لا يشك فيه السامعون، فأريد لازم معناه. لأنّ القادر لا يصدّه شيء عن الجزاء.

{ **وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ**} هذا وعيد. والمراد بالظالمين المشركون علنا والمنافقون، لأنّهم إن منعوا الصدقات الواجبة فقد ظلموا مصارفها في حقّهم في المال، وظلموا أنفسهم بإلقائها في تبعات المنع، وإن منعوا صدقة التطّوع فقد ظلموا أنفسهم بحرمانها من فضائل الصدقات وثوابها في الآخرة.

الأنصار: جمع نصير، ونفي الأنصار كناية عن نفي النصر والغوث في الآخرة وهو ظاهر، وفي الدنيا لأنّهم لمّا بخلوا بنصرهم الفقير بأموالهم فإنّ الله يعدمهم النصير في المضايق.

{ **إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** } [271].

هذا الاستئناف يدفع توهّما من شأنه تعطيل الصدقات والنفقات، وهو أن يمسك المرء عنها إذا لم يجد بدّا من ظهورها فيخشى أن يصيبه الرياء.

{ **الصَّدَقَاتِ** } تعريف الجنس، ومحمله على العموم فيشمل كلّ الصدقات فرضها ونفلها.

{ **فَنِعِمَّا** } أصله فنعمَ ما، فأدغم المثلان وكسرت عين نِعم لأجل التقاء الساكنين. و(ما) نكرة تامة، متوغّلة في الإبهام تفسّر بشيء.

{ **وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ** } تفضيل لصدقة السرّ لأنّ فيها إبقاء على ماء وجه الفقير، حيث لم يطّلع عليه غير المعطي. وفي الحديث الصحيح، عدّ من السبعة الذين يظلّهم الله بظله: " **ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتّى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه** ".

وعن المهدوي: كان الإخفاء أفضل فيهما في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم ساءت ظنون النّاس بالنّاس فاستحسن العلماء إظهار صدقة الفرض. وقال ابن عباس والحسن: إظهار الزكاة أفضل، وإخفاء صدقة التطوع أفضل من إظهارها، وهو قول الشافعي.

{ **وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ** } توقّف المفسرون في حكمة ذكره، مع العلم بأنّ الصدقة لا تكون إلّا للفقراء.

قال العصام: " كأنّ نكتة ذكره هنا أنّ الإبْدَاء لا ينفكّ عن إيتاء الفقراء، لأنّ الفقير يظهر فيه ويمتاز عن غيره إذ يعلمه النّاس بحاله، بخلاف الإخفاء فاشترط معه إيتاؤها للفقير **حثّا على الفحص** عن حال من يعطيه الصدقة ".

وقال الشيخ ابن عاشور جدي في تعليق له على حديث فضل إخفاء الصدقة من صحيح مسلم : "عطف إيتاء الفقراء على الإخفاء المجعول شرطا للخيرية في الآية، مع العلم بأنّ الصدقة للفقراء، يؤذن بأنّ الخيرية <u>لإخفاء حال الفقير</u> وعدم إظهار اليد العليا عليه "، أي: فهو <u>إيماء إلى العلّة</u>، وأنّها الإبقاء على ماء وجه الفقير، وهو القول الفصل لانتفاء شائبة الرياء.

{ **وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ** } قرأه ابن عامر وحفص بالتحتيّة وبالرفع على أنّ الضمير عائد إلى الله.

وقرأه نافع والكسائي وأبو بكر وأبو جعفر وخلف بنون العظمة وبجزم الراء { وَنُكَفِّرْ } عطفا على موضع جملة الجواب وهي جملة { فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ }، فيكون التكفير معلّقا على الإخفاء.

وقرأه ابن كثير وأبو عمرو بالنون أيضا وبرفع الراء { وَنُكَفِّرُ } على أنّه وعد على إعطاء الصدقات ظهرت أو خفيت.

{ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ } [272].

الآيات المتقدّمة يلوح من خلالها أصناف من النّاس منهم الذين ينفقون أموالهم رئاء النّاس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ومنهم الذين يبطلون صدقاتهم بالمنّ والأذى، ومنهم الذين يتيمّمون الخبيث منه ينفقون، ومنهم من يعدهم الشيطان الفقر ويأمرهم بالفحشاء، وكان وجود هذه الفرق مما يثقل على النبيّ صلى الله عليه وسلم، فعقّب الله ذلك بتسكين نفس رسوله والتهوين عليه بأن ليس عليه هداهم ولكن عليه البلاغ.

الهدى: هنا بمعنى الإلجاء لحصول الهدي في قلوبهم، وأمّا الهدي بمعنى التبليغ والإرشاد فهو على النبيّ. فالضمير راجع إلى جميع من بقي فيهم شيء من عدم الهدى، وأشدّهم المشركون والمنافقون.

وقيل الضمير راجع إلى ناس معروفين، وأنّ البعض أراد الصدقة على قرابتهم وأصهاره، فنهى النبيّ صلى الله عليه وسلم المسلمين عن الصدقة على الكفار، إلجاء لأولئك الكفّار على الدخول في الإسلام، فأنزل الله { لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ } أي: فرخّص الله للمسلمين الصدقة على أولئك الكفرة، فالضمير عائد إلى معلوم للمخاطب.

{ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ } ظاهره أنّه خطاب للرسول، ويجوز أن يكون خطابا لمن يسمع، إذا اعتبرنا ما ذكروه في سبب النزول، أي: ليس عليك أيّها المتردّد في إعطاء قريبك.

{ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ } جيء فيه بحرف الاستدراك لما في الكلام المنفي من توهّم إمكان هديهم بالحرص أو بالإلجاء، والتقدير: ولكن هداهم بيد الله، وهو يهدي من يشاء، فإذا شاء الله أن يهديهم هداهم.

{ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ } زيادة بيان فضل الصدقات كلّها، وأنّها لمّا كانت منفعتها لنفس المتصدّق فليختر لنفسه ما هو خير، وعليه أن يكثر منها بنبذ كلّ ما يدعو لترك بعضها.

{ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ } جملة حالية، وهو خبر مستعمل في معنى الأمر، أي: إنّما تكون منفعة الصدقات لأنفسكم إن كنتم ما تنفقون إلّا ابتغاء وجه الله لا للرياء.

ويجوز كونها معطوفة عليها، إذا كان الخبر بمعنى النهي، أي: لا تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله.

{ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ } عطف على التي قبلها لبيان أنّ جزاء النفقات بمقدارها. وكرّر فعل (تنفقون) ثلاث مرات في الآية لمزيد الاهتمام بمدلوله.

وقد أُخذ من الآيات الأخيرة، على أحد التفسيرين، جواز الصدقة على الكفّار، والمراد بالكفار الذين يختلطون بالمسلمين، وهم أهل العهد وأهل الذمّة والجيران. واتفق فقهاء الإسلام على جواز إعطاء صدقة التطوّع للكافرين، وحكمة ذلك أن الصدقة من إغاثة الملهوف والكافر من عباد الله، ونحن قد

أُمرنا بالإحسان إلى الحيوان.

على أنّ الصدقة المفروضة، أعني الزكاة، لا تعطى للكفّار، وحكمة ذلك أنّها إنّما فرضت لإقامة أود المسلمين ومواساتهم، فهي مال الجامعة الإسلامية يؤخذ بمقادير معيّنة، ففيه غنى للمسلمين.

واختلفوا في صدقة الفطر، فالجمهور ألحقوه بالصدقات المفروضة، وأبو حنيفة ألحقها بصدقة التطوع فأجاز إعطاؤها إلى الكفار، ولعلّه رآها صدقة شكر على القدرة على الصيام، فكان المنظور فيها حال المتصدّق لا حال المتصدّق عليه، وليكونوا في ذلك اليوم أوسع حالا منهم في سائر المدّة. وهذا القدر لا تظهر حكمته في فقراء الكافرين.

{ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلونَ النّاس إِلْحَافاً وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ } [273].

{ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ } أي: حُبسوا وأرصدوا. ويحتمل أنّ المراد بسبيل الله هنا: **الجهاد**. والمعنى أنّهم أحقّاء بأن يُنفق عليهم لعجزهم الحاصل بالجهاد، وإن كانوا قوما بصدد القتال يحتاجون للمعونة، فـ (في) للظرفية المجازية.

وإن كان المراد بهم أهل الصفّة، وهم فقراء المهاجرين الذين خرجوا من ديارهم وأموالهم بمكة وجاءوا دار الهجرة لا يستطيعون الزراعة ولا تجارة، فمعنى أُحصروا في سبيل الله منعوا عن أعمالهم لأجل سبيل الله وهو **الهجرة**.

{ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ } الظاهر أنّ المراد أنّهم عاجزون عن التجارة لقلّة ذات اليد.

والضرب في الأرض: كناية عن التجارة.

{ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ } حال من الفقراء، أي الجاهل بحالهم من الفقر يظنّهم أغنياء.

التعفّف: تكلّف العفاف وهو النزاهة عما يليق. وفي البخاري باب الاستعفاف عن المسألة، أخرج فيه حديث أبي سعيد: أنّ الأنصار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتّى نفد ما عنده فقال : **" ما يكون عندي من خير فلن أدَّخره عنكم، ومن يستعفف يُعفه الله، ومن يستغني يغنه الله، ومن يتصبّر يصبّره الله "**.

{ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ } أي: بعلامة الحاجة. والخطاب لغير معيّن ليعمّ كلّ مخاطب، وليس للرسول لأنّه أعلم بحالهم.

السِّيما: العلامة، مشتقّة من سام الذي هو مقلوب وَسَمَ، فإن أصلها وسْمة.

{ **لا يَسْأَلونَ النّاس إِلْحَافاً** } بيان لقوله يحسبهم الجاهل أغنياء، بيانا ثانيا لكيفية حسبانهم أغنياء في أنّهم لا يسألون النّاس.

الإلحاف: الإلحاح في المسألة.

فأنت تري كيف لم يغادر القرآن شيئا من الحثّ على إبلاغ الصدقات إلى أيدي الفقراء إلّا وقد جاء به، وأظهر به مزيد الاعتناء.

{ **وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ** } أعيد التحريض على الإنفاق فذكر مرّة رابعة. وقد حصل بمجموع هذه المرات الأربع من التحريض ما أفاد شدّة فضل الإنفاق بأنّه نفع للمنفق، وصلة بينه وبين ربّه، ونوال الجزاء من الله، وأنّه ثابت له في علم الله.

{ **فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ** } كناية عن الجزاء عليه، لأنّ العلم يكنَّى به عن أثره كثيرا.

{ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ } [274]

جملة مستأنفة تفيد تعميم أحوال فضائل الإنفاق بعد أنّ خصّص الكلام بالإنفاق للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله.

{ **عِنْدَ رَبِّهِمْ** } لتعظيم شأن الأجر.

{ **وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** } هذا بشارة للمنفقين بطيب العيش في الدنيا، فلا يخافون اعتداء المعتدين، لأنّ الله أكسبهم محبّة النّاس إيّاهم، ولا تحلّ بهم المصائب المحزنة إلاّ ما لا يسلم منه أحد ممّا هو معتاد في إبّانه. أمّا انتفاء الخوف والحزن عنهم في الآخرة فقد علم من قوله { عِنْدَ رَبِّهِمْ }.

{ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [275].

نَظَم القرآن أهمّ أصول حفظ مال الأمّة في سلك هاته الآيات، فبعد أن ابتدأ بأعظم تلك الأصول وهو تأسيس مالٍ للأمّة به قوام أمرها، يؤخذ من أهل الأموال أخذا عدلا ممّا كان فضلا عن الغنى ففرضه على النّاس، يؤخذ من أغنيائهم فيردّ على فقرائهم، سواء في ذلك ما كان مفروضا، وهو الزكاة، أو تطوعا، وهو الصدقة، فأطنب في الحثّ عليه، والترغيب في ثوابه، والتحذير من إمساكه، ما كان فيه موعظة لمن اتعظ، بعد ذلك عطف الكلام إلى إبطال وسيلة كانت من أسباب ابتزاز الأغنياء أموال المحتاجين إليهم، وهي المعاملة بالربا الذي لقبه النبيّ صلى الله عليه وسلم ربا الجاهلية، وهو أن يعطي

المدين مالا لدائنه زائدا على قدر الدين لأجل الانتظار، فإذا حلّ الأجل ولم يدفع زاد في الدين. يقولون: إمّا أن تقضي وإمّا أن تُرْبي. وقد كان ذلك شائعا في الجاهلية، كذا قال الفقهاء.
والظاهر أنّهم كانوا يأخذون الربا على المدين من وقت إسلافه وكلمّا طلب النظرة أعطى ربا آخر، وربّما تسامح بعضهم في ذلك. وكان العباس بن عبد المطلب مشتهرا بالمراباة في الجاهلية، وجاء في خطبة حجّة الوداع: **" ألا وإنّ ربا الجاهلية موضوع وإنّ أوّل ربا أبدأ به ربا عمّي عباس بن عبد المطلب ".**

{ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا }

الأكل: في الحقيقة ابتلاع الطعام، ثم أطلق على الانتفاع بالشيء وأخذه بحرص، وأصله تمثيل، ثم صار حقيقة عرفيّة فقالوا: أكل مال النّاس.

الربا: اسم على وزن فِعَل (بكسر الفاء وفتح العين) لعلّهم خفّفوه من الرباء .

وأريد بالذين يأكلون الربا هنا من كان على دين الجاهلية، لأنّ هذا الوعيد والتشنيع لا يناسب إلّا التوجّه إليهم، لأنّ ذلك من جملة أحوال كفرهم وهم لا يرعوون عنها ما داموا على كفرهم. أمّا المسلمون فسبق لهم تشريع بتحريم الربا بقوله { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً } [آل عمران:130] وهم لا يقولون: إنّما البيع مثل الربا، فجعل الله هذا الوعيد من جملة أصناف العذاب خاصا للكافرين لأجل ما تفرّع عن كفرهم من وضع الربا. وتقدّم ذلك كلّه إنكار القرآن على أهل الجاهلية إعطاءهم الربا، وهو من أوّل ما نعاه القرآن عليهم في مكّة.

ومن عادات القرآن أن يذكر أحوال الكفار إغلاظا عليهم، وتعريضا بتخويف المسلمين. قال ابن عباس : " كلّ ما جاء في القرآن من ذمّ أحوال الكفّار فمراد منه أيضا تحذير المسلمين من مثله في الإسلام ".

ولعلّ بعض المسلمين لم ينكفّ عن تعاطي الربا، أو لعلّ بعضهم فُتن بقول الكفار: إنّما البيع مثل الربا. فكانت آية سورة آل عمران مبدأ التحريم، وكانت هذه الآية إغلاق باب المعذرة في أكل الربا، وبيان لكيفيّة تدارك ما سلف منه.

والربا يقع على وجهين:

أحدهما، السلف بزيادة على ما يعطيه المُسلف.

الثاني، السلف بدون زيادة إلى أجل، يعني فإذا لم يوف المستسلِف أداء الدين عند الأجل كان عليه أن يزيد فيه زيادة يتّفقان عليها عند حلول كلّ أجل.

{ لا يَقُومُونَ } حقيقة القيام النهوض والاستقلال، ويطلق مجازا على تحسّن الحال، وعلى القوّة.

فإن كان القيام المنفي هنا القيام الحقيقي فالمعنى لا يُبعثون يوم القيامة إلّا في حالة الذي يتخبّطه الشيطان. فالآية على هذا وعيد لهم بابتداء تعذيبهم من وقت القيام للحساب إلى أن يدخلوا النار، وهذا هو الظاهر.

وإن كان القيام المجازي، فالمعنى أنّ حرصهم ونشاطهم في معاملات الربا كقيام المجنون، تشنيعا لجشعهم، قاله ابن عطيّة. والآية على هذا المعنى تشنيع، أو توعّد بسوء الحال في الدنيا.

التخبّط: مطاوع خَبَطه إذا ضربه ضربا شديدا فاضطرب له، أي: تحرّك تحرّكا شديدا. والذي يتخبّطه الشيطان هو المجنون الذي أصابه الصرع، فيضطرب به اضطرابات.

المسّ: في الأصل هو اللمس باليد، وهو إذا أطلق معرّفا بدون عهد دلّ عندهم على مسّ الجنّ، فيقولون: رجل ممسوس، أي: مجنون، وإنّما أحتيج إلى زيادة قوله: من المس، ليظهر المراد من تخبّط الشيطان، فلا يُظنّ أنّه تخبّط مجازي بمعنى الوسوسة.

{ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا }

المحكي عنهم، إن كان قولا لسانيا، فالمراد به قول بعضهم أو قول دعاتهم، وهم المنافقون بالمدينة، لقصد أن يفتنوا المسلمين في صحّة أحكام شريعتهم.

ويجوز أن يكون مجازا، لأنّ اعتقادهم مساواة البيع للربا يستلزم أن يقوله قائل، فأطلق القول وأريد الاعتقاد.

قد يقال: إنّ الظاهر أن يقولوا: إنّما الربا مثل البيع، لأنّه هو الذي قصد إلحاقه به.

نقول: ليسوا هم بصدد إلحاق الفروع بالأصول على طريقة القياس بل هم كانوا يتعاطون الربا والبيع، فهما في الحضور بأذهانهم سواء، غير أنّهم لمّا سمعوا بتحريم الربا وبقاء البيع على الإباحة سبق البيع حينئذ إلى أذهانهم فأحضروه ليثبتوا به إباحة الربا.

{ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا } من كلام الله تعالى جواب لهم وللمسلمين، فهو إعراض عن مجادلتهم إذ لا جدوى فيها لأنّهم قالوا ذلك كفرا ونفاقا فليسوا ممن تشملهم أحكام الإسلام. وهو إقناع للمسلمين بأنّ ما قاله الكفّار هو شبهة محضة، وأنّ الله العليم قد حرّم هذا وأباح ذاك، وما ذلك إلّا لحكمة وفروق معتبرة لو تدبّرها أهل التدبّر لأدركوا الفرق بين البيع والربا.

والوجه عندي في التفرقة بين البيع والربا أنّ مرجعها إلى التعليل بالمظنّة، مراعاة للفرق بين حاليّ المقترض والمشتري، فقد كان الاقتراض لدفع حاجة المقترض للإنفاق على نفسه وأهله، لأنّهم كانوا يعدّون التداين هما وكربا، وقد استعاذ منه النبيّ صلى الله عليه وسلم، وحال التاجر حال التفضّل. فالمتسلّف مظنّة الفقر، والمشتري مظنّة الغنى، فلذلك حُرّم الربا لأنّه استغلال لحاجة الفقير، وأُحلّ البيع لأنّه إعانة لطلب الحاجات. فتبيّن أنّ الإقراض من نوع المواساة والمعروف، وأنّها مؤكّدة التعيّن على المواسي وجوبا أو ندبا، وأيّا ما كان فلا يحلّ للمقرض أن يأخذ أجرا على عمل المعروف.

فأمّا الذي يستقرض مالا ليتّجر به أو ليوسع تجارته فليس مظنّة الحاجة فلم يكن من أهل استحقاق مواساة المسلمين، فلذلك لا يجب على الغني إقراضه بحال، فإذا قرضه فقد تطوع بمعروف. وكفى بهذا تفرقة بين الحالين.

ثم اختلف علماء الإسلام في أنّ لفظ الربا في الآية باق على معناه المعروف في اللغة، أو هو منقول إلى معنى جديد في اصطلاح الشرع.

فذهب ابن عباس وابن عمر ومعاوية إلى أنّه باق معناه المعروف وهو ربا الجاهلية، أعني الزيادة لأجل التأخير، وتمسّك ابن عباس بحديث أسامة: **" إنّما الربا في النسيئة "**.

وأمّا جمهور العلماء فذهبوا إلى أنّ الربا منقول في عرف الشرع إلى معنى جديد كما دلّت عليه أحاديث كثيرة، وإلى هذا نحا عمر بن الخطاب وعائشة وأبو سعيد الخدري وعبادة بن الصامت، بل رأى عمر أنّ لفظ الربا نقل إلى معنى جديد ولم يبيّن جميع المراد منه، فكأنّه عنده ممّا يشبه المجمل، فقد حكى عنه ابن رشد في (المقدّمات) أنّه قال: " كان من آخر ما أنزل الله على رسوله آية الربا فتوفّي رسول الله ولم يفسّرها، وإنّكم تزعمون أنّا نعلم أبواب الربا، ولأن أكون أعلمُها أحبُّ إليّ من أن يكون لي مثل مصرَ وكورها ".

والوجه عندي أن ليس مراد عمر أنّ لفظ الربا مجمل، لأنّه قابله بالبيان وبالتفسير، بل أراد أنّ تحقيق حكمه في صور البيوع الكثيرة لم يعمَّه النبيّ صلى الله عليه وسلم بالتنصيص.

والذي حمل الجمهور على اعتبار لفظ الربا مستعملا في معنى جديد أحاديث وردت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، من قول أو فعل، دلّت على تفسير الربا بما هو أعمّ من ربا الجاهلية المعروف عندهم قبل الإسلام، وأصولها ستة أحاديث:

<u>الحديث الأول</u>: حديث أبي سعيد الخدري: **" الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبُر بالبر، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح، مثلا بمثل يدا بيد فمن زاد وازداد فقد أربى، الآخذ والمعطي في ذلك سواء "**.

<u>الحديث الثاني</u>: حديث عبادة بن الصامت: **" الذهب بالذهب تبرُها وعينها والفضة بالفضة تبرُها وعينها والبُر بالبر مُدًّا بمد والشعير بالشعير مُدًّا بمُد والتمر بالتمر مُدًّا بمُد والملح بالملح مُدًّا بمُد، فمن زاد واستزاد فقد أربى، ولا بأس ببيع الذهب بالفضة والفضة بالذهب أكثرهما يدا بيد، وأمّا النسيئة فلا "**. رواه أبو داود، فسماه في هذين الحديثين ربا.

<u>الحديث الثالث</u>: حديث أبي سعيد: أنّ بلالا جاء إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم بتمر بَرْنِيٍّ فقال له: **من أين هذا؟** فقال بلال: تمر كان عندنا رديء فبعت منه صاعين بصاع لطعم النبيّ، فقال صلى الله عليه وسلم : **أوّه عين الربا، لا تفعل، ولكن إذا أردت أن تشتري التمر فبعه ثم اشتر من هذا "**، فسمَّى التفاضل ربا.

<u>الحديث الرابع</u>: حديث الموطأ والبخاري: عن ابن سعيد وأبي هريرة أنّ سواد بن غَزِيَّة جاء من خيبر بتمر جنيب فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : **أكُلُّ تمر خيبر هكذا**، فقال: يا رسول الله إنّا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين والثلاثة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **لا تفعل، بع الجمع بالدراهم ، ثم ابتع**

بالدراهم جنيبا ".

__الحديث الخامس__: حديث عائشة في صحيح البخاري قالت: " لمّا نزلت الآيات من آخر البقرة في الربا قرأها النبيّ ثم حرّم التجارة في الخمر"، فظاهره أنّ تحريم التجارة في الخمر كان عملا بآية النهي عن الربا، وليس في تجارة الخمر معنى من معاني الربا المعروف عندهم وإنّما هو بيع فاسد.

__الحديث السادس__: حديث الدارقطني (رواه ابن وهب عن مالك): أنّ العالية بنت أينع وفدت إلى المدينة من الكوفة، فلقيت عائشة فأخبرتها أنّها باعت لزيد بن أرقم في الكوفة جارية بثمانمائة درهما إلى العطاء، ثم إن زيدا باع الجارية فاشترتها العالية منه بستمائة نقدا، فقالت لها عائشة: بئس ما شريت وما اشتريت، أبلغي زيدا أنّه قد أبطل جهاده مع رسول الله إلّا أن يتوب، قالت: فقلت لها: أرأيت إن لم آخذ منه إلّا رأس مالي ، قالت: { فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ} ". فجعلته عائشة من الربا، ولذلك تلت الآية

فلأجل الأحاديث الستة أثبت الفقهاء **ثلاثة أنواع للربا** في اصطلاح الشرع

الأوّل: __ربا الجاهلية__: وهو زيادة على الدين لأجل التأخير.

الثاني: __ربا الفضل__: وهو زيادة في أحد العوضين في بيع الصنف بصنفه من الأصناف، المذكورة في حديث أبي سعيد وعبادة بن الصامت.

الثالث: __ربا النسيئة__: وهو بيع شيء من تلك الأصناف بمثله مؤخّرا.

وزاد المالكية نوعا رابعا: وهو ما يؤول إلى واحد من الأصناف بتهمة التحيّل على الربا، وترجمه في المدونة **ببيوع الآجال،** ودليل مالك فيه حديث العالية.

ومن العلماء من زعم أنّ لفظ الربا يشمل كل بيع فاسد أخذا من حديث عائشة في تحريم تجارة الخمر، وإليه مال ابن العربي.

وعندي أنّ أظهر المذاهب في هذا مذهب ابن عباس، وأنّ أحاديث ربا الفضل تُحمل على حديث أسامة **"إنما الربا في النسيئة "** ليجمع بين الحديثين، وتسمية التفاضل بالربا في حديثي أبي سعيد وعبادة بن الصامت دليل على ما قلناه. ولا متمسّك في نحو حديث عائشة في زيد بن أرقم، لأنّ المسلمين في أمرهم الأوّل كانوا قريبي عهد بربا الجاهلية، فكان حالهم مقتضيا لسد الذرائع.

والظاهر أنّ الآية لم يُقصد منها إلّا ربا الجاهلية، وأنّ ما عداه من المعاملات الباطلة التي فيها أكل مال بالباطل مندرجة في أدلة أخرى.

{ **فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى** } المجيء بمعنى العلم والبلاغ، أي من علم هذا الوعيد، وهذا عذر لمن استرسل على معاملة الربا قبل بلوغ التحريم إليه. فالمراد بالموعظة هذه الآية وآية آل عمران.

الانتهاء: مطاوع نهاه إذا صدّه عما لا يليق.

{ **فَلَهُ مَا سَلَفَ** }،أي: ما سلف قبضه من مال الربا لا ما سلف عقده ولم يقبض.

{ **وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ** } أنّ أمر جزائه على الانتهاء موكول إلى الله تعالى، وهذا من الإيهام المقصود منه التفخيم، فالمقصود الوعد بقرينة مقابلته بالوعيد في قوله:

{ **وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** } وجعل العائد خالدا في النار إمّا لأنّ المراد العود إلى استحلال الربا وذلك نفاق، فإنّ كثيرا منهم قد شقّ عليهم ترك التعامل بالربا، فعلم الله منهم ذلك وجعل عدم إقلاعهم عنه أمارة على كذب إيمانهم، فالخلود على حقيقته.

وإمّا لأنّ المراد العود إلى المعاملة بالربا، وهو الظاهر من مقابلتهم، بقوله تعالى { فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى }. وتمسّك بظاهر هاته الآية ونحوها الخوارج القائلون بتكفير مرتكب الكبيرة، كما تمسّكوا بنظائرها، وغفلوا عن تغليظ وعيد الله تعالى في وقت نزول القرآن، إذ النّاس يومئذ قريب عهدهم بالكفر. ولا بدّ من الجمع بين أدلة الكتاب والسنة.

{ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ } [276].

استئناف لبيان سوء عاقبة الربا في الدنيا بعد أن بيّنت عاقبته في الآخرة، فهو استئناف بياني لتوقّع سؤال من يسأل عن حال هؤلاء الذين لا ينتهون بموعظة الله.

{ **وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ** } أي: يضاعف ثوابها لأن الصدقة لا تقبل الزيادة إلّا بمعنى زيادة ثوابها.والجملة استطراد لبيان عاقبة الصدقة في الدنيا أيضا ببيان أنّ المتصدّق يفوز بالخير في الدارين كما باء المرابي بالشرّ فيهما، فهذا وعد.

{ **يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا** } المحق: هو كالمحو بمعنى إزالة الشيء، ومنه مُحاق القمر ذهاب نوره. والمعنى: أنّه يتلف ما حصل منه في الدنيا. وهذا وعيد.

{ **وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ** } معترضة بين أحكام الربا، ولما كان شأن الاعتراض ألّا يخلو من مناسبة بينه وبين سياق الكلام، كان الإخبار بأنّ الله لا يحبّ جميع الكافرين مؤذنا بأنّ الربا من شعار أهل الكفر، وأنّهم الذين استباحوه فقالوا: إنّما البيع مثل الربا، فكان هذا تعريضا بأن المرابي متّسم بخلال أهل الشرك.

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ } [277].

جملة معترضة لمقابلة الذمّ بالمدح، وقد تقدّم تفسير نظيرتها قريبا. والمقصود التعريض بأنّ الصفات المقابلة لهاته الصفات صفة غير المؤمنين. والمناسبة تزداد ظهورا لقوله تعالى { وَآتَوُا الزَّكَاةَ }.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [278] **فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ** [279] }.

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبا** } إفضاء إلى التشريع بعد أن قدّم أمامه من الموعظة ما هيأ النفوس إليه. فلم يكتف بتشريع غير مقصود، ولذا احتيج إلى هذا التشريع الصريح المقصود، وما تقدّم كلّه وصف لحال أهل الجاهلية وما بقي منه في صدر الإسلام قبل التحريم.

وأُمروا بتقوى الله قبل الأمر بترك الربا لأنّ تقوى الله هي أصل الامتثال والاجتناب، ولأنّ ترك الربا من جملتها، فهو كالأمر بطريق برهاني.

{ **وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبا** } اتركوا ما بقي في ذمم الذين عاملتموهم بالربا، فهذا مقابل { فَلَهُ مَا سَلَفَ } فكان الذي سلف قبضه قبل نزول الآية معفوا عنه وما لم يقبض مأمورا بتركه.

قيل نزلت هذه الآية خطابا لثقيف (أهل الطائف) إذ دخلوا في الإسلام بعد فتح مكة وبعد حصار الطائف على صلح وقع بينهم وبين عتَّاب بن أُسَيْد – الذي أولاه النبيّ صلى الله عليه وسلم مكة بعد الفتح – بسبب أنّهم كانت لهم معاملات بالربا مع قريش، فاشترطت ثقيف قبل النزول على الإسلام أنّ كل ربا لهم على النّاس يأخذونه، وكلّ ربا عليهم فهو موضوع، وقبل منه رسول الله شرطهم، ثم أنزل الله تعالى هذه الآية خطابا لهم.

{ **إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** } معناه إن كنتم مؤمنين حقّا.

{ **فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ** } يعني إن تمسّكتم بالشرط فقد انتقض الصلح بيننا، وتنكير { **بِحَرْبٍ** } لقصد تعظيم أمرها، ولأجل هذا المقصد عدل عن إضافة الحرب إلى الله وجيء عوضا عنها بـ (من) ونسبت إلى الله، لأنّها بإذنه على سبيل مجاز الإسناد، وإلى رسوله لأنّه المبلّغ والمباشر، وهذا هو الظاهر.

فإذا صحّ ما ذكر في سبب نزولها فهو من تجويز الاجتهاد للنبيّ صلى الله عليه وسلم في الأحكام إذ قبل من ثقيف النزول على اقتضاء ما لهم من الربا عند أهل مكّة، وذلك قبل أن ينزل قوله تعالى { وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبا }، فيحتمل أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم رأى الصلح مع ثقيف على دخولهم في الإسلام مع تمكينهم ممّا لهم قِبل قريش من أموال الربا الثابتة في ذممهم قبل التحريم مصلحة، إذ الشأن أنّ ما سبق التشريع لا يُنقض، كتقرير أنكحة المشركين. فلم يقرّه الله على ذلك وأمر بالانكفاف عن قبض مال الربا بعد التحريم ولو كان العقد قبل التحريم، ولذلك جعلهم على خيرة من أمرهم في الصلح الذي عقدوه. ودلّت الآية على أنّ مجرّد العقد الفاسد لا يوجب فوات التدارك إلّا بعد القبض، ولذلك جاء قبلها { فَلَهُ مَا سَلَفَ} وجاء هنا { وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبا }.

وهذه الآية أصل عظيم في البيوع الفاسدة تقتضي نقضها، وانتقال الضمان بالقبض، والفوات بانتقال الملك، والرجوع بها إلى رؤوس الأموال أو إلى القيم إن فاتت، لأنّ القيمة بدل من رأس المال. ورؤوس الأموال أصولها، فهو من إطلاق الرأس على الأصل، وفي الحديث: **" رأس الأمر الإسلام ".**

{ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ } لا تأخذون مال الغير ولا يأخذ غيركم أموالكم.

{ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [280] .

النظِرة: (بكسر الظاء) الانتظار.

الميسُرة: (بضم السين في قراءة نافع، وبفتحها في قراءة الباقين) اسم لليسر وهو ضدّ العُسر .

عطف على قوله { فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ } لأنّ ظاهر الجواب أنّهم يسترجعونها معجّلة، إذ العقود قد فُسخت. فعطف عليها حالة أخرى، وهي حالة ذو عسرة، أي غريم معسر. والصيغة طلب، وهي محتملة للوجوب والندب.

<u>فإن أريد بالعسرة العُدْم</u>، أي: نفاد مالِهِ كلّه، فالطلب { فَنَظِرَةٌ } **للوجوب**، والمقصود به إبطال حكم بيع المعسر واسترقاقه في الدين إذا لم يكن له وفاء. وقد قيل إنّ ذلك كان حكماً في الجاهلية، وهو حكم قديم في الأمم كان من حكم المصريين، ففي القرآن الإشارة إلى ذلك بقوله تعالى { مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ } [يوسف:79]. وكان في شريعة الرومان استرقاق المدين، وأحسب أن في شريعة التوراة قريباً من هذا.

<u>وإن أريد بالعسرة ضيق الحال</u> وإضرار المدين بتعجيل القضاء **فالطلب يحتمل الوجوب**، وقد قال به بعض الفقهاء، **ويحتمل الندب**، وهو قول مالك والجمهور، فمن لم يشأ لم ينظره ولو ببيع جميع ماله، لأنّ هذا حق يمكن استيفاؤه، والإنظار معروف، والمعروف لا يجب. غير أنّ المتأخّرين بقرطبة كانوا لا يقضون عليه بتعجيل الدفع، ويؤجّلونه بالاجتهاد لئلّا يدخل عليه مضرة بتعجيل بيع ما به الخلاصُ.

ومورد الآية على ديون معاملات الربا، لكن الجمهور عمّموها في جميع المعاملات ولم يعتبروا خصوص السبب. وخالف شريح فخصَّ الآية بالديون التي كانت على ربا ثم أُبطل رباها.

{ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ } أي أنّ إسقاط الدين عن المعسر والتنفيس عليه بإغنائه أفضل، وجعله الله صدقة لأنّ فيه تفريج الكرب وإغاثة الملهوف.

{ وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ } [281]

تذييل للأحكام السابقة، لأنّه صالح للترهيب من ارتكاب ما نهي عنه والترغيب في فعل ما أمر به أو ندب إليه، لأنّ في ترك المنهيّات سلامة من آثامها، وفي فعل المطلوبات استكثاراً من ثوابها، والكلّ يرجع إلى اتقاء ذلك اليوم الذي تُطلب فيه السلامة وكثرة أسباب النجاح.

وفي البخاري عن ابن عباس أنّ هذه آخر آية نزلت. وهذا الذي عليه الجمهور، قاله ابن عباس والسدي والضحاك وابن جريج وابن جبير ومقاتل.

ورُوي أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عاش بعد نزولها واحداً وعشرين يوماً، وقيل واحداً وثمانين، وقيل سبعة أيام، وقيل تسعة، وقيل ثلاث ساعات. وقد قيل إن آخر آية هي آية الكلالة، وقيل غير ذلك، وقد استقصى الأقوال صاحب الإتقان.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلْ الَّذِي عَلَيْهِ الحقّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الحقّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنْ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُوا إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمْ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [282].

لمّا اهتم القرآن بنظام أحوال المسلمين في أموالهم فابتدأ بما به قوام عامتهم من مواساة الفقير وإغاثة الملهوف، ووضّح ذلك بما فيه عبرة للمعتبر، ثم عطف عليه التحذير من مضايقة المحتاجين إلى المواساة مضايقة الربا مع ما في تلك المعاملات من المفاسد، ثلّث ببيان التوثّقات المالية من الإشهاد، وما يقوم مقامه وهو الرهن والائتمان. وتحديد التوثّق في المعاملات من أعظم وسائل بث الثقة بين المتعاملين، وذلك من شأنه تكثير عقود المعاملات ودوران دولاب التموّل.

والتداين من أعظم أسباب رواج المعاملات، لأنّ المقتدر على تنمية المال قد يعوزه المال فيضطرّ إلى التداين ليظهر مواهبه في التجارة أو الصناعة أو الزراعة، ولأنّ المترفّه قد ينضب المال من بين يديه وله قِبل به بعد حين، فإذا لم يتداين اختلّ نظام ماله، فشرع الله تعالى للنّاس بقاء التداين المتعارف بينهم كيلا يظنّوا أنّ تحريم الربا والرجوع بالمتعاملين إلى رؤوس أموالهم إبطال للتداين كلّه. وأفاد ذلك التشريع بوضعه في تشريع آخر مكمّل له وهو التوثّق له بالكتابة والإشهاد.

والخطاب موجّه للمؤمنين، والمقصود منه خصوص المتداينين، والأخصّ بالخطاب هو المدين لأنّ من الحقّ عليه أن يجعل دائنه مطمئن البال على ماله. فعلى المستقرض أن يطلب الكتابة وإن لم يسألها الدائن.

التداين: تفاعل، وأطلق هنا (مع أنّ الفعل صادر من جهة واحدة وهي جهة المُسَلِّف) لأنك تقول أدّان منه فدانه، فالمفاعلة منظور فيها إلى المخاطبين وهم مجموع الأمّة، لأنّ في المجموع دائناً ومديناً.

{ **بدين** } الزيادة إمّا لمجرد الإطناب، كما يقولون: رأيته بعيني ولمسته بيدي، وإمّا ليكون معاداً للضمير في قوله { فَاكْتُبُوهُ }، ولولا ذكره لقال فاكتبوا الدين، فلم يكن النظم بذلك الحسن.

والدين في كلام العرب العوض المؤخّر.

{ **إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً** } طلب تعيين الآجال للديون لئلّا يقعوا في الخصومات والتداعي في المرادات، فأدمج تشريع التأجيل في أثناء تشريع التسجيل.

الأجل: مدّة من الزمان محدودة النهاية مجعولة ظرفاً لعمل غير مطلوب فيه المبادرة، لرغبة تمام ذلك العمل عند انتهاء تلك المدة أو في أثنائها.

المسمّى: حقيقته المميّز باسم يميّزه عمّا يشابهه في جنسه أو نوعه، والمسمّى هنا مستعار للمعيّن المحدود، فالمعنى: أجل معيّن بنهايته . فالمقصود الأمر بتعيين الأجل.

وعن ابن عباس: أنّها نزلت في السَّلَم (يعني بيع الثمار ونحوها من المثليات في ذمة البائع إذا كان ذا ذمّة إلى أجل) وكان السَّلَم من معاملات أهل المدينة. ومعنى كلامه أنّ بيع السَّلَم سبب نزول الآية، ومن المقرّر في الأصول أنّ السبب الخاص لا يخصّص العموم.

{ **فَاكْتُبُوهُ** } قيل الأمر للاستحباب، وهو قول مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد، وقيل الأمر للوجوب، قاله ابن جريج والشعبي وعطاء والنخعي، وروي عن أبي سعيد الخدري، وهو قول داوود، والطبري.

والأرجح أنّ الأمر للوجوب فإنّه الأصل في الأمر، وأنّ قوله { فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً } رخصة خاصة بحالة الائتمان بين المتعاقدين، فإنّ حالة الائتمان حالة سالمة من تطرق التناكر والخصام.

ويظهر لي أنّ في الوجوب نفياً للحرج عن الدائن إذا طلب من مدينه الكتب حتّى لا يَعُدَّ المدين ذلك من سوء الظنّ به، فإنّ في القوانين معذرة للمتعاملين. كما أنّ من مقاصدها دفع موجدة الغريم من توثّق دائنه إذا علم أنّه بأمر من الله. ومن مقاصدها قطع أسباب الخصام.

{ **فَاكْتُبُوهُ** } يشمل حالتين:

الأولى: حالة كتابة المتداينين بخطيّهما أو خط أحدهما ويسلّمه للآخر إذا كانا يحسنان الكتابة معاً، لأنّ جهل أحدهما بها ينفي ثقته بكتابة الآخر.

الثانية: حالة كتابة ثالث يتوسّط بينهما، فيكتب ما تعاقدا عليه ويشهد عليه شاهدان ويسلّمه بيد صاحب الحقّ إذا كانا لا يحسنان الكتابة أو أحدهما، وهذه غالب أحوال العرب عند نزول الآية.

{ **وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ** } أمر للمتداينين بأن يتوسّطوا كاتباً يكتب بينهم.

{ **وليكتب** } فعل الأمر إلى الكاتب مبالغة في أمر المتعاقدين بالاستكتاب. فمتعلّق فعل الطلب هو ظرف { بَيْنَكُمْ } وليس هذا أمراً للكاتب، وأما أمر الكاتب فهو قوله { وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ

فَلْيَكْتُبْ }.
{ **بِالْعَدْلِ** } أي: بالحقّ، وليس العدل هنا بمعنى العدالة التي يوصف بها الشاهد فيقال: رجل عدل.
ولذلك كانت الآية حجّة عند جمهور العلماء لصحة الاحتجاج بالخط، فإنّ استكتاب الكاتب إنّما ينفع بقراءة خطّه.
{ **وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ** } نهي لمن تُطلب منه الكتابة بين المتداينين عن الامتناع منها إذا دُعي إليها، فهذا حكم آخر. وهذا النهي قد أُختلف في مقتضاه، فقيل: نهي تحريم، فالذي يُدعى لأن يكتب بين المتداينين يحرم عليه الامتناع. وعليه فالإجابة للكتابة فرض عين، وهو قول الربيع ومجاهد وعطاء والطبري، وهو الذي لا ينبغي أن يعدل عنه.
وقيل إنّما تجب الإجابة وجوباً عينياً إذا لم يكن في الموضع إلّا كاتب واحد، فإن كان غيره فهو واجب على الكفاية، وهو قول الحسن، ومعناه أنّه موكول إلى ديانتهم، لأنّهم إذا تمالؤوا على الامتناع أثموا جميعاً.
وعلى هذا الخلاف يُختلف في جواز الأجر على الكتابة بين المتداينين، لأنّها إن كانت واجبة فلا أجر عليها، وإلّا فالأجر جائز. ويلحق بالتداين جميع المعاملات التي يطلب فيها التوثق بالكتابة والإشهاد.
{ **كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ** } أي كتابة تشابه الذي علّمه الله أن يكتبها، أي ما يعتقده ولا يجحف أو يوارب، لأنّ الله ما علّم إلّا الحقّ وهو المستقرّ في فطرة الإنسان، وإنّما ينصرف النّاس عنه بالهوى فيبدّلون ويغيّرون.
{ **فَلْيَكْتُبْ** } تأكيد الأمر وتأكيد النهي أيضاً، وإنّما أعيد ليُرتَّب عليه قوله { وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الحقّ } لبعد الأمر الأول بما وليه.
{ **وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الحقّ** } أملّ وأملى لغتان فالأولى لغة أهل الحجاز وبني أسد، والثانية لغة تميم. وقد جاء القرآن بهما؛ هذه الآية، وقوله تعالى { فَهْيَ تُمْلَي عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا } [الفرقان:5].
ومعنى اللفظين أن يلقي كلاماً على سامعه ليكتبه عنه.
الحقّ: هنا ما حقَّ، أي: ثبتَ للدائن.
وفي هذا الأمر عبرة للشهود، فإنّ منهم من يكتبون في شروط الحبس ونحوه ما لم يملله عليهم المشهود عليه، إلّا إذا كان قد فوّض إلى الشاهد الإحاطة بما فيه توثّقه لحقّه، أو أوقفه عليه قبل عقده.
{ **وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً** } يحتمل أن يعود الضميران إلى { الَّذِي عَلَيْهِ الحقّ } لأنّه أقرب مذكور من الضميرين، وعندي أنّ هذا بعيد، إذ لا فائدة بهذه الوصاية، فلو أخفى المدين شيئاً أو غبن لأنكر عليه ربّ الدين، لأنّ الكتابة يحضرها كلاهما. **والأرجح** أن يعود الضميران إلى { كَاتِبٌ } بقرينة أنّ هذا النهي أشدّ تعلّقاً بالكاتب، فإنّه الذي قد يغفل عن بعض ما وقع إملاؤه عليه.
{ **مِنْهَ** } الضمير عائد إلى الحقّ، وهو حقّ لكلا المتداينين، فإذا بخس منه شيئاً أضرّ بأحدهما لا محالة، وهذا إيجاز بديع.

البخس: فسّره أهل اللغة بالنقص، ويظهر أنّه أخصّ من النقص، فهو نقص بإخفاء، أي عن غفلة من صاحب الحقّ، وهذا هو المناسب في معنى الآية.

{ **فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الحقّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً** }

السفيه: هو مختلّ العقل، وتقدم بيانه عند قوله تعالى { سَيَقُولُ السُفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ } [266].

الضعيف: الصغير.

{ **أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ** } العاجز، كمن به بكم وعمىً وصمم جميعاً.

{ **فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ** } لئلّا يتوهّم النّاس أنّ عجزه يُسقط عنه واجب الإشهاد عليه بما يستدينه.

الوليّ: من له ولاية على السفيه والضعيف ومن لا يستطيع أن يملّ؛ كالأب والوصي وعرفاء القبيلة.

{ **بالعدل** } أي: بالحقّ.

{ **وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنْ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى** }.

{ **وَاسْتَشْهِدُوا** } بمعنى أشهدوا، فالسين والتاء فيه لمجرّد التأكيد، ولك أن تجعلهما للطلب، أي: أطلبوا شهادة شاهدين، فيكون تكليفاً بالسعي للإشهاد، وهو التكليف المتعلّق بصاحب الحقّ.

{ **وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا** } تكليف لمن يطلب منه صاحب الحقّ أن يشهد عليهما ألّا يمتنع.

الشهادة: حقيقتها الحضور والمشاهدة، والمراد بها هنا حضور خاص وهو حضور لأجل الاطلاع على التداين، وهذا إطلاق معروف للشهادة على حضور لمشاهدة تعاقد بين متعاقدين، أو لسماع عقد من عاقد واحد مثل الطلاق والحبس.

{ **وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ** } قيل: الأمر للوجوب، وهو قول جمهور السلف. وقيل للندب، وهو قول جمهور الفقهاء المتأخّرين: مالك وأبي حنيفة والشافعي.

{ **مِنْ رِجَالِكُمْ** } الرجل في أصل اللغة يفيد وصف **الذكورة** فخرجت الإناث، ويفيد **البلوغ** فخرج الصبيان. والضمير المضاف إليه أفاد وصف **الإسلام**. فأمّا الأنثى فيذكر حكمها بعد هذا.

ولأجل هذا اتفق علماء الإسلام على عدم قبول شهادة أهل الكتاب بين المسلمين في غير الوصيّة في السفر، واختلفوا في الإشهاد على الوصية في السفر، فقال ابن عباس ومجاهد وأبو موسى الأشعري وشريح بقبول شهادة غير المسلمين في الوصية في السفر، وقضى به أبو موسى الأشعري مدة قضائه في الكوفة، وهو قول أحمد وسفيان الثوري وجماعة من العلماء. وقال الجمهور لا تجوز شهادة غير المسلمين على المسلمين، ورأوا أنّ ما في آية الوصيّة منسوخ، وهو قول زيد بن أسلم ومالك وأبي حنيفة والشافعي، واختلفوا في شهادة بعضهم على بعض عند قاضي المسلمين فأجازها أبو حنيفة ناظراً في ذلك إلى انتفاء تهمة تساهلهم بحقوق المسلمين، وخالفه الجمهور، والوجه أنّه يتعذّر لقاضي المسلمين معرفة أمانة بعضهم مع بعض وصدق أخبارهم.

{ شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ } واشترط العدد في الشاهد ولم يكتف بشهادة عدل واحد لأنّ الشهادة لمّا تعلّقت بحق معيّن لمعيّن اتهم الشاهد باحتمال أن يتوسّل إليه الظالم الطالب لحقّ مزعوم فيحمله على تحريف الشهادة، فاحتيج إلى حيطة تدفع التهمة فاشترط فيه الإسلام وكفى به وازعاً، والعدالة لأنّها تزع من حيث الدين والمروءة، وزيد انضمام ثان إليه لاستبعاد أن يتواطأ كلا الشاهدين على الزور. فثبت بهذه الآية أنّ التعدّد شرط في الشهادة من حيث هي، بخلاف الرواية لانتفاء التهمة فيها إذ لا تتعلّق بحقّ معيّن، ولهذا لو روى راوٍ حديثاً هو حجّة في قضية للراوي فيها حقّ لما قبلت روايته، وقد كلّف عمر أبا موسى الأشعري أن يأتي بشاهد معه على أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:**" إذا استأذن أحدكم ثلاثاً ولم يؤذن له فليرجع"**، إذ كان ذلك في ادّعاء أبي موسى أنّه لمّا لم يأذن له عمر في الثالثة رجع، فشهد له أبو سعيد الخدري في ملإٍ من الأنصار. والعدد هو اثنان في المعاملات المالية، كما هنا.

{ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ } أي: إذا لم يحضر المعاملة رجلان بل حضر واحد، فرجل وامرأتان يشهدان. لأنّ مقصود الشارع التوسعة على المتعاملين. وفيه مرمى آخر وهو تعويدهم بإدخال المرأة في شؤون الحياة، إذ كانت في الجاهلية لا تشترك في هذه الشؤون، فجعل الله المرأتين مقام الرجل الواحد وعلّل ذلك بقوله:

{ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى }، وهذه حيطة أخرى من تحريف الشهادة، وهي خشية الاشتباه والنسيان، لأنّ المرأة أضعف من الرجل بأصل الجبلّة بحسب الغالب.

الضلال: هنا بمعنى النسيان. فالمقصود من التعدّد خشية حصول النسيان للمرأة المنفردة، فلذا أُخذ بقولها حقّ المشهود عليه، وقُصد تذكير المرأة الثانية إيّاها.

{ وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا } لأنّه لمّا أمر المتعاقدين باستشهاد شاهدين نهى من يُطلب إشهاده عن أن يأبى، ليتمّ المطلوب، وهو الإشهاد. وإنّما جيء في خطاب المتعاقدين بصيغة الأمر وجيء في خطاب الشهداء بصيغة النهي اهتماماً بما فيه التفريط، فإنّ المتعاقدين يُظنّ بهما إهمال الإشهاد فأمرا به، والشهود يُظنّ بهما الامتناع فنهوا عنه، وكلّ يستلزم ضدّه.

{ الشُّهَدَاءُ } تسمية المدعوين شهداء نكتة عظيمة، وهي الإيماء إلى أنّهم بمجرّد دعوتهم إلى الإشهاد، قد تعيّنت عليهم الإجابة، فصاروا شهداء.

قال القرطبي: " يؤخذ من هذه الآية أنّه يجوز للإمام أن يقيم للنّاس شهوداً، ويجعل لهم كفايتهم من بيت المال، فلا يكون لهم شغل إلاّ تحمّل حقوق النّاس حفظاً لها ".

قلت: وقد أحسن قضاة تونس المتقدّمون وأمراؤها، في تعيين شهود منتصبين للشهادة بين النّاس، يؤخذون ممّن يقبلهم القضاة ويعرفونهم بالعدالة، وكذلك كان الأمر في الأندلس، وذلك من النظر للأمّة، ولم يكن ذلك متّبعاً في بلاد المشرق، بل كانوا يكتفون بشهرة عدالة بعض الفقهاء وضبطهم للشروط وكتب الوثائق فيعتمدهم القضاة، ويكلون إليهم ما يجري في النوازل من كتابة الدعوى والأحكام. وكان

ممّا يعدّ في ترجمة بعض العلماء أن يقال: كان مقبولاً عند القاضي فلان.

{ **وَلا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ** } والنهي عنها نهي عن أثرها، وهو ترك الكتابة، لأنّ السآمة تحصل للنفس من غير اختيار، فلا يُنهى عنها في ذاتها، وقيل: **السآمة** هنا كناية عن التهاون.

{ **صَغِيراً أَوْ كَبِيراً** } وتقديم الصغير على الكبير هنا، مع أن مقتضى الظاهر العكس، لأنّه قصد هنا إلى التنصيص على العموم لدفع ما يطرأ من التوهّمات في قلة الاعتناء بالصغير، وهو أكثر، أو اعتقاد عدم وجوب كتابة الكبير لو اقتصر في اللفظ على الصغير.

{ **إلى أجله** } حال من الضمير المنصوب بـ { تَكْتُبُوهُ }، أي مغيَّى الدَّيْن إلى أجله الذي تعاقداً عليه، والمراد التغْيية في الكتابة.

{ **ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُوا** } تصريح بالعلّة لتشريع الأمر بالكتابة، بأنّ الكتابة فيها زيادة التوثّق.

أقسط: أي: أشدّ قسطاً، أي: عدلاً، لأنّه أحفظ للحقّ.

أقوم للشهادة: أي أعون على إقامتها، وأقرب إلى نفي الريبة والشك.

فهذه ثلاث علل، ويستخرج منها أنّ المقصد الشرعي أن تكون الشهادة في الحقوق بيّنة، واضحة، بعيدة عن الاحتمالات، والتوهّمات. وفي الآية حجّة لجواز تعليل الحكم الشرعي بعلل متعدّدة.

{ **إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا** } استثناء من عموم {صَغِيراً أَوْ كَبِيراً } وهو استثناء منقطع، لأنّ التجارة الحاضرة ليست من الدين في شيء.

الحاضرة: الناجزة، التي لا تأخير فيها، إذ الحاضر والعاجل والناجز مترادفة.

{ **تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ** } بيان لجملة { أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً }.

{ **فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا** } إشارة إلى أنّ هذا الحكم رخصة، لأنّ رفع الجناح مؤذن بأنّ الكتابة أولى وأحسن.

{ **وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ** } تشريع للإشهاد عند البيع ولو بغير دين إذا كان البيع غير تجارة حاضرة، وهذا إكمال لصور المعاملة: فإنّها إمّا تداين، أو آيل إليه كالبيع بدين، وإمّا تناجز في تجارة، وإما تناجز في غير تجارة، كبيع العقار والعروض في غير التجر.

{ **وَأَشْهِدُو** } قيل هو للوجوب، وهذا قول أبي موسى الأشعري، وابن عمر، وأبي سعيد الخدري، وسعيد بن المسيّب، ومجاهد، والضحاك، وعطاء، وابن جريج، والنخعي، وجابر بن زيد، وداوود الظاهري، والطبري. وقيل هو للندب، وذهب إليه من السلف الحسن، والشعبي، وهو قول مالك، وأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد، وتمسّكوا بالسنة: أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم باع ولم يُشهد. قاله ابن العربي.

وجوابه أنّ ذلك في مواضع الائتمان.

{ وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ }

المُضارّة: إدخال الضُرّ بأن يوقع المتعاقدان الشاهدين والكاتب في الجرم والخسارة، أو ما يجرّ إلى العقوبة، وأن يوقع الشاهدان أحد المتعاقدين في إضاعة حقّ أو تعب في الإجابة إلى الشهادة.

وقد أخذ فقهاؤنا من هاته الآية أحكاماً كثيرة تتفرّع عن الإضرار منها؛ ركوب الشاهد من المسافة البعيدة، ومنها ترك استفساره بعد المدّة الطويلة التي هي مظنّة النسيان، ومنها استفساره استفساراً يوقعه في الاضطراب، ويؤخذ منها أنّه ينبغي لولّاة الأمور جعل جانب من مال بيت المال لدفع مصاريف انتقال الشهود وإقامتهم في غير بلدهم وتعويض ما سينالهم من ذلك الانتقال من الخسائر المالية في إضاعة عائلاتهم، إعانة على إقامة العدل بقدر الطاقة والسعة.

{ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ } والفسوق الإثم العظيم.

{ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمْ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } أمر بالتقوى لأنّها ملاك الخير، وبها يكون ترك الفسوق، وتذكير بنعمة الإسلام، الذي أخرجهم من الجهالة إلى العلم بالشريعة، ونظام العالم، وهو أكبر العلوم وأنفعها، وفي عطفه على الأمر بالتقوى إيماء إلى أنّ التقوى سبب إفاضة العلوم.

وإظهار اسم الجلالة في الجمل الثلاث لقصد التنويه بكل جملة منها حتّى تكون مستقلة الدلالة.

{ وَإِنْ كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ } [283].

{ وَإِنْ كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ } جميع ما تقدّم حكم في الحضر، فإن كانوا على سفر ولم يتمكّنوا من الكتابة لعدم وجود من يكتب ويشهد فقد شرع لهم حكم آخر وهو الرهن، وهذا آخر الأقسام المتوقّعة في صور المعاملة، وهي حالة السفر غالباً، ويلحق بها ما يماثل السفر في هاته الحالة. **الرهان**: جمع رَهْن (ويجمع أيضاً على رُهُن بضم الراء وضم الهاء)، وهو أن يُجعل شيء من متاع المدين بيد الدائن توثقة له في دَينه .

وأصل الرهن في كلام العرب يدلّ على الحبس، قال تعالى { كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ } [المدثر:38]، والرهن شائع عند العرب، فربّما رهنوا أبناءهم، وربّما رهنوا واحداً من صناديدهم.

{ فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ } ومعنى فرهانٌ أي: فرهان تعوّض بها الكتابة. ووصفها بمقبوضة إمّا لمجرد الكشف، لأنّ الرهان لا تكون إلّا مقبوضة، وإمّا للاحتراز عن الرهن للتوثقة في الديون في الحضر.

فيؤخذ من الإذن في الرهن أنّه **مباح**. فلذلك إذا سأله ربّ الدين أجيب إليه، فدلّت الآية على أنّ الرهن توثقة في الدين.

والآية دالة على مشروعية الرهن في السفر بتصريحها. وأمّا مشروعية الرهن في الحضر فلأنّ تعليقه هنا على حال السفر ليس تعليقاً بمعنى التقييد بل هو تعليق بمعنى الفرض والتقدير، إذا لم يوجد الشاهد في السفر. وقد أخذ مجاهد، والضحاك، وداود الظاهري، بظاهر الآية من تقييد الرهن بحال السفر، مع أنّ السنّة أثبتت وقوع الرهن من الرسول صلى الله عليه وسلم ومن أصحابه في الحضر.

والآية دليل على أنّ القبض من متمّمات الرهن شرعاً، ولم يختلف العلماء في ذلك، وإنّما اختلفوا في الأحكام الناشئة عن ترك القبض، فقال الشافعي القبض شرط في صحة الرهن، لظاهر الآية، فلو لم يقارن عقدة الرهن قبضٌ فسدت العقدة عنده، وقال محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة: لا يجوز الرهن بدون قبض، وذهب مالك إلى أنّ القبض شرط في اللزوم، لأنّ الرهن عقد يثبت بالصيغة كالبيع، والقبض من لوازمه. وأهل تونس يكتفون في رهن الرباع والعقار برهن رسوم التملّك، ويعدّون ذلك في رهن الدين حوزاً.

وفي الآية دليل واضح على بطلان الانتفاع، لأنّ الله تعالى جعل الرهن عوضاً عن الشهادة في التوثّق فلا وجه للانتفاع، واشتراط الانتفاع بالرهن يخرجه عن كونه توثقاً إلى ماهية البيع.

{ **فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ** } متفرّع على جميع ما تقدّم من أحكام الدين، أي: إن أَمِن كلّ من المتداينين الآخر، أي: وثق بعضكم بأمانة بعض فلم يطالبه بإشهاد ولا رهن.

{ **بَعْضُكُمْ** } هو الدائن، و{ **بَعْضاً** } هو المدين وهو الذي اؤتمن.

الأمانة: مصدر آمنه إذا جعله آمناً. وقد أطلق هنا اسم الأمانة على الدَّين في الذمّة وعلى الرهن لتعظيم ذلك الحقّ، لأنّ اسم الأمانات له مهابة في النفوس، فذلك تحذير من عدم الوفاء به، لأنّه لمّا سُمِّي أمانة فعدم أدائه ينعكس خيانة، لأنّها ضدها. وفي الحديث: **" أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك "**.

الأداء: الدفع والتوفية.

وبيّنت الآية أنّ الكتابة والإشهاد بين المتداينين، مقصود بهما حسن التعامل بينهما، فإن بدا لهما أن يأخذا بهما فنعمَّا، وإن اكتفيا بما يعلمانه من أمان بينهما فلهما تركهما.

{ **وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ** } وأتبع هذا البيان بوصاية كلا المتعاملين بأن يؤدّيا الأمانة ويتّقيا الله.

والمدين يأتمن الدائن إذا سلّم له رهناً أغلى ثمناً بكثير من قيمة الدين المرتهن فيه، والغالب أنّ الرهان تكون أوفر قيمة من الديون التي أرهنت لأجلها، فأمر كلّ جانب مؤتمن أن يؤدي أمانته، فأداء المدين أمانته بدفع الدين، دون مطل ولا جحود، وأداء الدائن أمانته إذا أعطى رهناً متجاوز القيمة على الدين أن يردّ الرهن ولا يجحده غير مكترث بالدين، لأن الرهن أوفر منه، ولا ينقص شيئاً من الرهن.

{ **وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ** } وصاية ثانية للشهداء تجمع الشهادات في جميع الأحوال، فإنّه أمر أن يكتب الشاهد بالعدل، ثم نهى عن الامتناع من الكتابة بين المتداينين، وأعقب ذلك بالنهي عن كتمان الشهادة كلّها. فكان هذا النهي، بعمومه، بمنزلة التذييل لأحكام الشهادة في الدَّين.

فعلم من ذلك كلّه الاهتمام بإظهار الشهادة إظهاراً للحق. ويؤيد هذا المعنى ويزيده بياناً قول النبيّ صلى الله عليه وسلم" **ألا أخبركم بخير الشهداء الذي يأتي بشهادته قبل أن يُسألها** " رواه مالك ومسلم.

{ **وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ** } زيادة في التحذير. و**الإثم**: الذنب والفجور.

{ **وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ** } تهديد، كناية عن المجازاة بمثل الصنيع، لأنّ القادر لا يحول بينه وبين المؤاخذة إلّا الجهل، فإذا كان عليماً أقام قسطاس الجزاء.

{ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [284].

تعليل واستدلال على ما سبق، فإذا كان ذلك تعريضاً بالوعد والوعيد، فقد جاء هذا الكلام تصريحاً واستدلالاً عليه.

{ **وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ** } إلى آخرها هي محط التصريح، وهي المقصود بالكلام.

{ **لله ما في السماوات وما في الأرض** } هي موقع الاستدلال. فالمعنى إنّكم عبيده فلا يفوته عملكم والجزاء عليه.

ومعنى الاستدلال هنا: إنّ النّاس قد علموا أنّ الله ربّ السماوات والأرض. وعموم علمه تعالى بأحوال مخلوقاته من تمام معنى الخالقيّة والربوبية، لأنّه لو خفي عليه شيء لكان العبد في حالة اختفاء حاله عن علم الله مستقلاً عن خالقه. ومالكيّة الله تعالى أتم أنواع الملك على الحقيقة كسائر الصفات الثابتة لله تعالى.

{ **وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ** } وإبداء ما في النفس إظهاره، وهو إعلانه بالقول، فيما سبيله القول، وبالعمل فيما يترتّب عليه عمل، وإخفاؤه بخلاف ذلك.

المحاسبة: مشتقّة من الحسبان وهو العدل، فمعنى يحاسبكم في أصل اللغة يعدُّه عليكم، إلاّ أنّه شاع إطلاقه على لازم المعنى وهو المؤاخذة والمجازاة.

وقد أجمل الله تعالى هنا الأحوال؛ المغفورة وغير المغفورة ليكون المؤمنون بين الخوف والرجاء، فلا يقصّروا في اتّباع الخيرات النفسية والعملية، إلاّ أنّه أثبت غفراناً وتعذيباً بوجه الإجمال على كلّ ممّا نبديه وما نخفيه.

وللعلماء في معنى هذه الآية، والجمع بينها وبين قوله صلى الله عليه وسلم: " **من همَّ بسيئة فلم يعملها كُتبت له حسنة** " وقوله: " **إنّ الله تجاوز لأمتي عمَّا حدثتها به أنفسها** " أقوال، وأحسن كلام فيه ما يأتلف من كلامي المازري وعياضفي شرحيهما لصحيح مسلم : أنّ ما يخطر في النفس إن كان مجرّد خاطر وتردّد من غير عزم فلا خلاف في عدم المؤاخذة به، إذ لا طاقة للمكلّف بصرفه عنه، وهو مورد حديث التجاوز للأمّة عمَّا حدثت به أنفسها. وإن كان قد جاش في النفس عزم، فإمّا أن يكون من الخواطر التي تترتب عليها أفعال بدنية أو لا، فإن كان من الخواطر التي لا تترتّب عليها أفعال مثل

الإيمان، والكفر، والحسد، فلا خلاف في المؤاخذة به، لأنّ ممّا يدخل في طوق المكلّف أن يصرفه عن نفسه، وإن كان من الخواطر التي تترتب عليها آثار في الخارج، فإن حصلت الآثار فقد خرج من أحوال الخواطر إلى الأفعال كمن يعزم على السرقة فيسرق، وإن عزم عليه ورجع عن فعله اختياراً لغير مانع منعه، فلا خلاف في عدم المؤاخذة به وهو مورد حديث: **" من همّ بسيئة فلم يعملها كُتبت له حسنة "** وإن رجع لمانع قهره على الرجوع ففي المؤاخذة به قولان.

{ **وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } تذييل لما دلّ على عموم العلم، بما يدلّ على عموم القدرة.

{ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } [285].

انتقال من المواعظ، والإرشاد، والتشريع، وما تخلّل ذلك ممّا هو عون على تلك المقاصد، إلى الثناء على رسوله والمؤمنين في إيمانهم بجميع ذلك إيماناً خالصاً يتفرّع عليه العمل، لأنّ الإيمان بالرسول والكتاب، يقتضي الامتثال لما جاء به من عمل. فالجملة استئناف ابتدائي وضعت في هذا الموقع لمناسبة ما تقدّم، وهو انتقال مؤذن بانتهاء السورة، لأنّه لمّا انتقل من أغراض متناسبة إلى غرض آخر هو كالحاصل والفذلكة، فقد أشعر بأنّه استوفى تلك الأغراض.

الرسول: علم بالغلبة على محمد صلى الله عليه وسلم.

المؤمنون: هنا لقب للذين استجابوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

{ **كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ** } جمع بعد التفصيل ، وكذلك شأن (كلّ) إذا جاءت بعد ذكر متعدد في حكم.

{ **لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ** } تقدّم الكلام على نظيره عند قوله تعالى { لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } [136].

{ **وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا** } والسمع هنا كناية عن الرضا، والقبول، والامتثال، وعكسه لا يسمعون، أي: لا يطيعون. والمعنى: إنّهم آمنوا، واطمأنوا وامتثلوا. وإنّما جيء بلفظ الماضي، ليدلّوا على رسوخ ذلك.

غفرانك: نصب على المفعول المطلق، أي: اغفر غفرانك، فهو بدل من فعله.

المصير: يحتمل أن يكون حقيقة، فيكون اعترافاً بالبعث. وجعل منتهياً إلى الله { وَإِلَيْكَ }، لأنّه منتهٍ إلى يوم، أو عالم، تظهر فيه قدرة الله بالضرورة.

{ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ }[286]

الأظهر أنّه من كلام الله تعالى، لا من حكاية كلام الرسول والمؤمنين، فيكون اعتراضاً بين الجمل المحكيّة بالقول، وفائدته إظهار ثمرة الإيمان، والتسليم، والطاعة، فأعلمهم الله بأنّه لم يجعل عليهم في هذا الدين التكليف بما فيه مشقة، وهو مع ذلك تبشير باستجابة دعوتهم الملقّنة، أو التي أُلهموها وهي { رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا - إلى قوله - مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ } قبل أن يحكي دعواتهم تلك.

فعلى أنّه من كلام الله **فهو نسخ** لقوله تعالى { وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَو تُخْفُوهُ } وهذا مروي في صحيح مسلم عن أبي هريرة وابن عباس أنّه قال: لمّا نزلت { وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَو تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ } [284] اشتد ذلك على أصحاب رسول الله فأتوه وقالوا: لا نطيقها، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم:**" قولوا سمعنا وأطعنا وسلَّمنا "** فألقى الله الإيمان في قلوبهم، فلمّا فعلوا ذلك نسخها الله تعالى فأنزل { لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا }. وإطلاق النسخ على هذا اصطلاح للمتقدّمين، والمراد البيان والتخصيص، لأنّ الذي تطمئن له النفس أنّ هذه الآيات متتابعة النظم.

ومع ذلك يجوز أن تكون نزلت منجّمة، فحدث بين فترة نزولها ما ظنّه بعض المسلمين حرجاً.

الوسع: الطاقة والاستطاعة، والمراد به هنا ما يطاق ويستطاع، والمستطاع هو ما اعتاد النّاس قدرتهم على أن يفعلوه إن توجّهت إرادتهم لفعله مع السلامة وانتفاء الموانع.

وهذا دليل على عدم وقوع التكليف بما فوق الطاقة في أديان الله تعالى لعموم { نفساً } في سياق النفي، لأنّ الله تعالى ما شرع التكليف إلّا للعمل واستقامة أحوال الخلق، فلا يكلّفهم ما لا يطيقون فعله، وما ورد من ذلك فهو في سياق العقوبات، هذا حكم عام في الشرائع كلّها.

وامتازت شريعة الإسلام باليسر والرفق، ولذلك كان من قواعد الفقه العامة (المشقة تجلب التيسير) وكانت المشقة مظنّة الرخصة، وضبط المشاق المسقطة للعبادة مذكور في الأصول، وقد أشبعتُ القول فيه في كتابي المسمّى **(مقاصد الشريعة)**. وما ورد من التكاليف الشاقة فأمر نادر، في أوقات الضرورة، كتكليف الواحد من المسلمين بالثبات للعشرة من المشركين، في أوّل الإسلام، وقلّة المسلمين.

{ **لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ** } حال من { نفساً } لبيان كيفيّة الوسع الذي كلّفت به النفس وهو أنّه إن جاءت بخير كان نفعه لها وإن جاءت بشر كان ضرّه عليها.

{ **كَسَبَتْ / اكْتَسَبَتْ** } بمعنى واحد في كلام العرب، وظن بعض المفسّرين أنّ الكسب هو اجتناء الخير، والاكتساب هو اجتناء الشر، وهو خلاف التحقيق لقوله { وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا } [الأنعام: 164].

وفي هذه الآية مأخذ حسن لأبي الحسن الأشعري في تسميته استطاعة العبد كسباً واكتساباً، فإنّ الله وصف نفسه بالقدرة، ولم يصف العباد بالقدرة، ولا أسند إليهم فعل قدر وإنّما أسند إليهم **الكسب**، وهو قول يجمع بين المتعارضات ويفي بتحقيق إضافة الأفعال إلى العباد، مع الأدب في عدم إثبات صفة القدرة للعباد. وقد قيل: إن أوّل من استعمل كلمة الكسب هو **الحسين بن محمد النجّار**، رأس الفرقة النجّارية من الجبرية، كان معاصراً للنظّام في القرن الثالث، ولكن شاهر بها أبو الحسن الأشعري حتّى قال الطلبة في وصف الأمر الخفي: " أدق من كسب الأشعري ".

وتعريف الكسب عند الأشعري: هو حالة للعبد يقارنها خَلْقُ الله فعلا متعلِّقًا بها.

{ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ }

يجوز أن يكون هذا الدعاء محكيًّا من قول المؤمنين، بأن اتبعوا القَبول والرضا، فتوجّهوا إلى طلب الجزاء ومناجاة الله تعالى. واختيار حكاية هذا عنهم في آخر السورة تكملة للإيذان بانتهائها.

{ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا } ويجوز أن يكون تلقينا من جانب الله تعالى إيّاهم بأن يقولوا هذا الدعاء، مثل ما لقّنوا التحميد في سورة الفاتحة فيكون التقدير: إن الله بعد أن قرّر لهم أنّه لا يكلّف نفساً إلى وسعها، لقّنهم مناجاة بدعوات هي من آثار انتفاء التكليف بما ليس في الوسع. والمراد من الدعاء به طلب الدوام على ذلك لئلّا ينسخ من جراء غضب الله.

المؤاخذة: مشتقّة من الأخذ بمعنى العقوبة، والمفاعلة فيه للمبالغة، أي: لا تؤاخذنا بالنسيان والخطأ. والمراد ما يترتّب على النسيان والخطأ من فعل أو ترك لا يرضيان الله تعالى، فهذه دعوة من المؤمنين دعوها قبل أن يعلموا أنّ الله رفع عنهم ذلك بقوله { لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا } وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : **" رُفِع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه"** [وفي رواية **(وُضع)** رواه ابن ماجة وتكلّم العلماء في صحته وقد حسّنه النووي، وأنكره أحمد، ومعناه صحيح في غير ما يرجع إلى خطاب الوضع]. ولذلك جاء في هذه الدعوة { لا تؤاخذنا } أي: لا تؤاخذنا بالعقاب على فعل نسيان أو خطأ، فلا يرد إشكال الدعاء بما علم حصوله.

{ رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً }

الإصر: أصل معناه ما يؤصر به، أي: يُربط، وتعقد به الأشياء، ويقال له الإصار (بكسر الهمزة) ثمّ استعمل مجازاً في العهد والميثاق المؤكّد فيما يصعب الوفاء به، ومنه قوله تعالى { قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي } [آل عمران:81]، وأطلق أيضاً على ما يثقل عمله، والامتثال فيه.

{ كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا } كالعهد الذي كلّف به من قبلنا في المشقة، من الأحكام الشاقة مثل أمر بني إسرائيل بتيه أربعين سنة، وبصفات في البقرة، التي أمروا بذبحها، نادرة، ونحو ذلك، وكلّ ذلك تأديب لهم على مخالفات، وعلى قلّة اهتمامهم بأوامر الله ورسوله، قال تعالى في صفة محمد صلى الله

عليه وسلم { وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ }.

{ رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ } أي: ما لا نستطيع حمله من العقوبات. وقيل هذا دعاء بمعافاتهم من التكاليف الشديدة، والذي قبله دعاء بمعافاتهم من العقوبات التي عوقبت بها الأمم.

الطاقة: في الأصل الإطاقة. والقول في هذين الدعائين كالقول في قوله { رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا }.

{ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا } لم يأت مع هذه الدعوات بقوله ربنا، إمّا لأنّه تكرر ثلاث مرات، والعرب تكره تكرير اللفظ أكثر من ثلاث مرّات إلّا في مقام التهويل، وإمّا لأن تلك الدعوات المقترنة بقوله { ربّنا } فروع لهذه الدعوات الثلاث، فإذا استجيب تلك حصلت إجابة هذه الأولى، فإنّ العفو أصل لعدم المؤاخذة، والمغفرة أصل لرفع المشقة، والرحمة أصل لعدم العقوبة الدنيوية والأخروية، فلمّا كان تعميماً بعد تخصيص، كان كأنّه دعاء واحد.

{ أَنْتَ مَوْلانَا } فصله لأنّه كالعلّة للدعوات الماضية، أي: دعوناك ورجونا منك ذلك لأنّك مولانا، ومن شأن المولى الرفق بالمملوك، وليكون هذا أيضاً كالمقدّمة للدعوة الآتية.

{ فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } جيء فيه بالفاء للتفريع عن كونه مولى، لأنّ شأن المولى أن ينصر مولاه. ووجه الاهتمام بهذه الدعوة أنّها جامعة لخيري الدنيا والآخرة، لأنّهم إذا نُصروا على العدو، فقد طاب عيشهم وظهر دينهم، وسلموا من الفتنة، ودخل النّاس فيه أفواجاً.

وفي الصحيح عن أبي مسعود الأنصاري البدري أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **" من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه "**.

وهما من قوله تعالى { آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ} إلى آخر السورة. قيل معناه كفتاة عن قيام الليل، فيكون معنى من قرأ: من صلى بهما، وقيل معناه كفتاه بركةً وتعوذاً من الشياطين، والمضار، ولعلّ كلا الاحتمالين مراد.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة آل عمران

سمّيت هذه السورة في كلام النبيّ صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة (**سورة آل عمران**)، ففي صحيح مسلم عن أبي أمامة، قال سمعت رسول الله يقول: **" إقرؤوا الزهراوين، البقرة وآل عمران ".**

وفيه عن النوّاس بن سمعان قال: سمعت النبيّ يقول: **" يؤتى بالقرآن يوم القيامة تقدُمه سورة البقرة وآل عمران "**. وكذلك سمّاها ابن عباس في حديثه في الصحيح قال: " بت في بيت رسول الله فنام رسول الله حتّى إذا كان نصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل استيقظ رسول الله فقرأ الآيات من آخر سورة آل عمران " .

ووجه تسميتها بذلك أنّها ذُكرت فيها فضائل آل عمران، وهو عمران بن ماتان أبو مريم، وآله هم زوجه حنّة وأختها زوجة زكرياء النبيّ. وزكرياء كافل مريم إذ كان أبوها عمران توفّي وتركها حملا فكفلها زوج خالتها.

وهذه السورة **نزلت بالمدينة** بالاتفاق، بعد سورة البقرة. ويجوز أن يكون بعضها نزل متأخّرا.

وذكر الواحدي في أسباب النزول عن المفسرين: أنّ أوّل هذه السورة إلى قوله { وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } [84] نزل بسبب وفد نجران سنة اثنين من الهجرة.

ويجوز أن يكون أوّلها نزل بعد البقرة إلى نهاية ما يشير إلى حديث وفد نجران، وذلك مقدار ثمانين آية من أولها إلى قوله { وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ } [121]، قاله القرطبي.

وقد عدّت هذه السورة **الثامنة أربعون** في عداد سور القرآن.

وعدد آيها مائتان في عدّ الجمهور، وعددها عند أهل العدد بالشام مائة وتسع وتسعون.

أغراض السورة

*/ ابتدأت السورة بالتنويه بالقرآن، ومحمد صلى الله عليه وسلم، وتقسيم آيات القرآن، ومراتب الأفهام في تلقّيها، والتنويه بفضيلة الإسلام وأنّه لا يعدله دين، وأنّه لا يقبل دين عند الله، بعد ظهور الإسلام، غير الإسلام، والتنويه بالتوراة والإنجيل، والإيماء إلى أنّهما أنزلا قبل القرآن، تمهيدا لهذا الدين فلا يحقّ للنّاس أن يكفروا به.

*/ التعريف بدلائل إلهية الله تعالى، وانفراده، وإبطال ضلالة الذين اتخذوا آلهة من دون الله.

*/ تهديد المشركين بأنّ أمرهم إلى زوال، وألاّ يغرّهم ما هم فيه من البذخ، وأنّ ما أعد للمؤمنين خير من ذلك، وتهديدهم بزوال سلطانهم.

*/ الثناء على عيسى عليه السلام وآل بيته، وذكر معجزة ظهوره، وأنّه مخلوق لله، وذكر الذين آمنوا به حقّا، وإبطال إلهية عيسى.

*/ ثمّ أفضت السورة إلى قضيّة وفد نجران ولجاجتهم، ثم محاجة أهل الكتابين في حقيقة الحنفيّة وأنّهم بعداء عنها، وما أخذ الله من العهد على الرسل كلّهم، أن يؤمنوا بالرسول الخاتم، وأنّ الله جعل الكعبة أوّل بيت وضع للناس، وقد أعاد إليه الدين الحنيف كما ابتدأه فيه، وأوجب حجّه على المؤمنين، وأظهر ضلالات اليهود، وسوء مقالتهم، وافترائهم في دينهم وكتمانهم ما أنزل إليهم.

*/ ذكّر المسلمين بنعمته عليهم بدين الإسلام، وأمرهم بالاتحاد والوفاق، وذكّرهم بسابق سوء حالهم في الجاهلية، وهوّن عليهم تظاهر معانديهم من أهل الكتاب والمشركين، وذكّرهم بالحذر من كيدهم وكيد الذين أظهروا الإسلام ثم عادوا إلى الكفر، فكانوا مثلا لتمييز الخبيث من الطيب، وأمرهم بالاعتزاز بأنفسهم، والصبر على تلقّي الشدائد، والبلاء، وأذى العدو، ووعدهم على ذلك بالنصر والتأييد وإلقاء الرعب منهم في نفوس عدوّهم، ثم ذكّرهم بيوم أحد، ويوم بدر، وضرب لهم الأمثال بما حصل فيهما، ونوّه، بشأن الشهداء من المسلمين، وأمر المسلمين بفضائل الأعمال، من بذل المال في مواساة الأمّة، والإحسان، وفضائل الأعمال، وترك البخل، ومذمة الربا وختمت السورة بآيات التفكير في ملكوت الله.

<u>وقد علمت أنّ سبب نزول هذه السورة قضية وفد نجران من بلاد اليمن</u>.

وفد نجران: هم قوم من نجران بلغهم مبعث النبيّ صلى الله عليه وسلم، وكان أهل نجران متديّنين بالنصرانية، وهم من أصدق العرب تمسّكا بدين المسيح، وفيهم رهبان مشاهير، وقد أقاموا للمسيحية كعبة ببلادهم. فاجتمع وفد منهم يرأسه **العاقب** فيه ستون رجلا وأسمه عبد المسيح، فلقوا النبي صلى الله عليه وسلم، وجادلهم في دينهم، وفي شأن إلوهية المسيح، فلما قامت الحجّة عليهم أصرّوا على كفرهم وكابروا، فدعاهم النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى المباهلة، فأجابوا ثم استعظموا ذلك. ونزلت بضع وثمانون آية من أول هذه السورة في شأنهم كما في سيرة ابن هشام عن ابن إسحاق. وذكر ذلك الواحدي والفخر.

{ **ألم** } [1]

لمّا كان أوّل أغراض هذه السورة، الذي نزلت فيه، هو قضية مجادلة نصارى نجران حين وفدوا إلى المدينة، وبيان فضل الإسلام على النصرانيّة، لا جرم افتتحت بحروف التهجّي، المرموز لها إلى تحدّي المكذّبين بهذا الكتاب، وكان الحظ الأوفر من التكذيب بالقرآن للمشركين منهم، ثم للنصارى من العرب، لأنّ اليهود لم يكونوا معدودين من أهل اللسان، ويندر فيهم البلغاء بالعربية مثل السَّمَوْأل.

وتقدّم القول في معاني { آلم } أول البقرة.

{ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ [2] نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ [3] مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ [4]** }.

{ **اللَّهُ** } جيء بالاسم العلم لتربية المهابة عند سماعه، ثم أردف بجملة { **لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ** } ، جملة معترضة أو حالية، ردا على المشركين، وعلى النصارى خاصة. وأتبع بالوصفين { **الْحَيُّ الْقَيُّومُ** } لنفي اللبس عن مسمّى هذا الاسم، والإيماء إلى وجه انفراده بالإلهية، وأنّ غيره لا يستأهلها.

{ **الْحَيُّ الْقَيُّومُ** } مضى القول في معناه في تفسير آية الكرسي.

{ **نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ** } تعريض ونكاية بأهل الكتاب الذين أنكروا ذلك، أي الله لا غيره نزّل عليك الكتاب إبطالا لقول المشركين: إنّ القرآن من طرائق الكهانة، أو يعلّمه بشر.

{ **نَزَّلَ** } التضعيف للتعدية فهو يساوي الهمز في أنزل. و**الكتاب**: القرآن.

{ **بِالْحَقِّ** } اشتماله عليه في جميع ما يشتمل عليه من المعاني قال تعالى { وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ } [الإسراء:105].

{ **مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ** } أي: مصدق للكتب السابقة له، وجعل السابق بين يديه، لأنه يجيء قبله. فكأنه يمشي أمامه.

التوراة: اسم للألواح التي فيها الكلمات العشر التي نزلت على موسى عليه السلام في جبل الطور، لأنّها أصل الشريعة التي جاءت في كتب موسى، فأطلق ذلك الاسم على جميع كتب موسى.

الإنجيل: اسم للوحي الذي أوحي به إلى عيسى عليه السلام فجمعه أصحابه.

{ **مِنْ قَبْلُ** } يتعلق { بأنزل } ، والأحسن أن يكون حالا أولى من التوراة والإنجيل، و{ هُدىً } حال ثانية. والتقدير: من قبل هذا الزمان، وهو زمان نزول القرآن. وفيه إشارة إلى أنّها كالمقدّمات لنزول القرآن، الذي هو تمام مراد الله من البشر.

{ لِلنَّاسِ } وهم النّاس الذين خوطبوا بالكتابين.

الفرقان: ما يفرّق به بين الحق والباطل قال تعالى { وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ } [الفرقان:41] وهو يوم بدر. والمراد بالفرقان **هنا القرآن**، وفي وصفه بذلك تفضيل لهديه، لأنّ التفرقة بين الحقّ والباطل أعظم أحوال الهدي، لما فيها من البرهان، وإزالة الشبهة.

{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ }

{ **الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ** } شمل المشركين واليهود والنصارى في مرتبة واحدة، لأنّ جميعهم اشتركوا في الكفر بالقرآن، وهو المراد بآيات الله هنا لأنه الكتاب الوحيد الذي يصحّ أن يوصف بأنّه آية من آيات الله، لأنّه معجزة.

العزيز: تقدّم عند قوله تعالى { فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [البقرة:209].

الانتقام: العقاب على الاعتداء بغضب، ولذلك قيل للكاره: ناقم. وجيء في هذا الوصف بكلمة { **ذو** } الدالة على الملك، للإشارة إلى أنّه انتقام عن اختيار، لإقامة مصالح العباد وليس هو تعالى مندفعا للانتقام بدافع الطبع أو الحنق.

{ إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ } [5].

استئناف يتنزّل منزلة البيان لوصف الحيّ، لأنّ عموم العلم يبيّن كمال الحياة.

{ **فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ** } قصد منه عموم أمكنة الأشياء، وابتدئ في الذكر بالأرض ليتسنّى التدرّج في العطف إلى الأبعد في الحكم، لأنّ أشياء الأرض يعلم كثيرا منها كثير من النّاس، أمّا أشياء السماء فلا يعلم أحد بعضها فضلا عن علم جميعها.

{ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [6]

استئناف ثان يبيّن شيئا من معنى القيّوميّة، و فيه تعريض بالردّ على النصارى في اعتقادهم إلهية عيسى من أجل أن الله صوره بكيفية غير معتادة، فبيّن لهم أنّ الكيفيّات العارضة للموجودات كلّها من صنع الله وتصويره، سواء المعتاد وغير المعتاد.

{ **كَيْفَ** } هنا ليس فيها معنى الاستفهام، بل هي دالة على مجرّد معنى الكيفيّة، أي الحالة، وهذا إيماء إلى كشف شبهة النصارى إذ توهّموا أنّ تخلّق عيسى بدون ماء أب دليل على أنّه غير بشر وأنّه إله وجهلوا أنّ التصوير في الأرحام وإن اختلفت كيفيّاته لا يخرج عن كونه خلقا لما كان معدوما، فكيف يكون ذلك المخلوق المصور في الرحم إلها.

{ **لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } تذييل لتقرير الأحكام المتقدّمة. وتقدّم معنى العزيز الحكيم في قوله تعالى { فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [البقرة:209].

وفي افتتاح السورة بهذه الآيات براعة استهلال لنزولها في مجادلة نصارى نجران.

{ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ } .[7]

{ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ }.

استئناف ثالث بإخبار عن إنزال القرآن والكتابين من قبله، وتمهيد لقوله { مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ } لأنّ الآيات نزلت في مجادلة وفد نجران، وصدرت بإبطال عقيدتهم في إلهية المسيح، بالإشارة إلى أوصاف الإله الحقّة، ثمّ توجّه الكلام إلى إزالة شبهتهم في شأن زعمهم اعتراف نصوص القرآن بإلهية المسيح، إذ وصف فيها بأنّه روح الله، وأنّه يحي الموتى وأنّه كلمة الله، فنودي عليهم بأنّ ما تعلّقوا به تعلق اشتباه وسوء تأويل.

{ **هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ** } قصر صفة إنزال القرآن على الله تعالى، وذلك أنّهم قالوا: هو قول كاهن، وقول شاعر، واعتقدوا أنّ أقوال الكهّان وأقوال الشعراء من إملاء الأرئيّاء (جمع رِئِيّ).

ومن بدائع البلاغة أنّ فعل أنزل يرادف الوحي ولا يكون إلّا من الله بخلاف ما لو قال: هو الذي آتاك الكتاب.

الإحكام: في الأصل المنع، قال جرير:

أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم ... إني أخاف عليكم أن أغضبا

واستعمل الإحكام في الإتقان والتوثيق، لأنّ ذلك يمنع تطرّق ما يضاد المقصود.

{ **أُمُّ الْكِتَابِ** } أمّ الشيء أصله وما ينضم إليه كثيره وتتفرع عنه فروعه، وسمّيت الراية الأمّ، لأنّ الجيش ينضوي إليها، وسمّيت المدينة العظيمة أمّ القرى، وأصل ذلك أنّ الأمّ حقيقة في الوالدة، فباعتبار هذين المعنيين، أطلق اسم الأمّ على ما ذكرنا، على وجه التشبيه البليغ. ثم شاع ذلك الإطلاق حتّى ساوى الحقيقة. و**الكتاب**: القرآن لا محالة.

{ **وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ** } المتشابهات المتماثلات، والتماثل يكون في صفات كثيرة فيبين بما يدلّ على وجه التماثل، وقد يترك بيانه إذا كان وجه التماثل ظاهرا.

وقد أشارت الآية، إلى أنّ آيات القرآن صنفان: محكمات وأضدادها، التي سميت متشابهات، ثم بيّن أنّ المحكمات هي أمّ الكتاب، فعلمنا أنّ صفة المحكمات، والمتشابهات، راجعة إلى ألفاظ الآيات.

المحكمات: هي أصول الاعتقاد والتشريع، والآداب والمواعظ، وكانت أصولا لذلك باتضاح دلالتها، بحيث تدلّ على معان لا تحتمل غيرها أو تحتمله احتمالا ضعيفا غير معتد به. وباتضاح معانيها بحيث تتناولها أفهام معظم المخاطبين بها وتتأهّل لفهمها، فهي أصل القرآن المرجوع إليه في حمل معاني غيرها عليها للبيان أو التفريع.

المتشابهات، مقابل المحكمات، فهي التي دلت على معان تشابهت في أن يكون كلّ منها هو المراد. ومعنى تشابهها، أنّها تشابهت في صحة القصد إليها، أي: لم يكن بعضها أرجح من بعض، أو يكون معناها صادقا بصور كثيرة متناقضة أو غير مناسبة لأنّ تكون مرادا، فلا يتبيّن الغرض منها، فهذا وجه تفسير الآية فيما أرى.

وقد اختلف علماء الإسلام في تعيين المقصود من المحكمات والمتشابهات على أقوال، مرجعها إلى تعيين مقدار الوضوح والخفاء. فعن ابن عباس: أنّ المحكم مالا تختلف فيه الشرائع كتوحيد الله تعالى، وتحريم الفواحش، وذلك ما تضمّنته الآيات الثلاث من أواخر سورة الأنعام، وأنّ المتشابه المجملات التي لم تبيّن كحروف أوائل السور.

وللجمهور مذهبان:

أوّلهما: أنّ المحكم ما اتضحت دلالته، والمتشابه ما استأثر الله بعلمه، ونسب هذا القول لمالك، في رواية أشهب، من جامع العتبيّة، ونسبه الخفاجي إلى الحنفيّه، وإليه مال الشاطبي في الموافقات.

ثانيهما: أنّ المحكم الواضح الدلالة، والمتشابه الخفيّها، وإليه مال الفخر، فالنص والظاهر هما المحكم، لاتضاح دلالتهما، وإن كان أحدهما أي الظاهر يتطرقه احتمال ضعيف، والمجمل والمؤوّل هما المتشابه، لاشتراكهما في خفاء الدلالة وإن كان أحدهما، أي المؤول، دالا على معنى مرجوح، يقابله معنى راجح، والمجمل دالا على معنى مرجوح يقابله مرجوح آخر، ونسبت هذه الطريقة إلى الشافعية.

وقد دلّت هذه الآية على أنّ من القرآن محكما ومتشابها، ودلّت آيات أخر على أنّ القرآن كلّه محكم، قال تعالى { كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ } [هود:1] وقال { تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ } [يونس:1]، والمراد أنّه أحكم وأتقن في بلاغته. كما دلّت آيات على أنّ القرآن كلّه متشابه، قال تعالى { اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً } [الزمر:23] والمعنى أنّه تشابه في الحسن والبلاغة والحقيّة، وهو معنى { وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنِدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا } [النساء:82] فلا تعارض بين هذه الآيات، لاختلاف المراد بالإحكام والتشابه في مواضعها، بحسب ما تقتضيه المقامات.

وسبب وقوع المتشابهات في القرآن، هو كونه دعوة، وموعظة، وتعليما، وتشريعا باقيا، ومعجزة، وخوطب به قوم لم يسبق لهم عهد بالتعليم والتشريع، فجاء على أسلوب مناسب لجمع هذه الأمور، بحسب حال المخاطبين الذين لم يعتادوا الأساليب التدريسيّة، وهو لذلك لا يأتي على أساليب الكتب المؤلفة للعلم، أو القوانين الموضوعة للتشريع، فأودعت العلوم المقصودة منه في تضاعيف الموعظة والدعوة. وكذلك أودع فيه التشريع، فلا تجد أحكام نوع من المعاملات، كالبيع، متصلا بعضها ببعض، بل تلفيه موزعا على حسب ما اقتضته مقامات الموعظة والدعوة، ليخف تلقّيه على السامعين، ويعتادوا علم ما لم يألفوه في أسلوب قد ألفوه فكانت متفرقة يضم بعضها إلى بعض بالتدبر.

ثم إنّ إلقاء تلك الأحكام كان في زمن طويل، يزيد على عشرين سنة، ألقي إليهم فيها من الأحكام بمقدار ما دعت إليه حاجتهم، وتحمّلته مقدرتهم، على أنّ بعض تشريعه أصول لا تتغير، وبعضه فروع تختلف باختلاف أحوالهم، فلذلك تجد بعضها عاما، أو مطلقا، أو مجملا، وبعضها خاصا، أو مقيدا، أو مبيّنا.

ثم إنّ العلوم التي تعرّض لها القرآن هي من العلوم العليا، وهي علوم فيما بعد الطبيعة، وعلوم مراتب النفوس، وعلوم النظام العمراني، والحكمة، وعلوم الحقوق. وفي ضيق اللغة الموضوعة عن الإيفاء بغايات المرادات في هاته العلوم، وقصور حالة استعداد أفهام عموم المخاطبين لها، ما أوجب تشابها في مدلولات الآيات الدالة عليها.

وإعجاز القرآن، منه إعجاز نظمي ومنه إعجاز علمي، وهو فنّ جليل من الإعجاز بيّنته في المقدمة العاشرة من مقدمات هذا التفسير. فلمّا تعرّض القرآن إلى بعض دلائل الأكوان وخصائصها، فيما تعرّض إليه، جاء به محكيّا بعبارة تصلح لحكاية حالته على ما هو في نفس الأمر، وربما إدراك كنه حالته في نفس الأمر مجهولا لأقوام، فيعدّون تلك الآي الدالة عليه من المتشابه فإذا جاء من بعدهم علموا أنّ ما عدّه الذين قبلهم متشابها ما هو إلّا محكم.

على أنّ من مقاصد القرآن أمرين آخرين:

أحدهما: كونه شريعة دائمة، وذلك يقتضي فتح أبواب عباراته لمختلف استنباط المستنبطين، حتّى تؤخذ منه أحكام الأوّلين والآخرين.

ثانيهما: تعويد حملة هذه الشريعة، وعلماء هذه الأمّة، بالتنقيب والبحث، واستخراج المقاصد من عويصات الأدلة. ولو صيغ لهم التشريع في أسلوب سهل التناول لاعتادوا العكوف على ما بين أنظارهم في المطالعة الواحدة. من أجل هذا كانت صلوحيّة عباراته لاختلاف منازع المجتهدين، قائمة مقام تلاحق المؤلفين في تدوين كتب العلوم، تبعا لاختلاف مراتب العصور.

فإذا علمت هذا علمت أصل السبب في وجود ما يسمّى بالمتشابه في القرآن.

مراتب التشابه وتفاوت أسبابها، وأنّها فيما انتهى إليه استقراؤنا الآن عشر مراتب:

أولاها: معان قُصد إجمالها، لعدم قابلية البشر لفهمها، فألقيت إليهم على وجه الجملة، ومن هذا أحوال القيامة، وبعض شؤون الربوبية، كالإتيان في ظلل من الغمام، والرؤية، والكلام، ونحو ذلك.

ثانيتها: معان قُصد إشعار المسلمين بها، وتعيّن إجمالها، مع إمكان حملها على معان معلومة، لكن بتأويلات، كحروف أوائل السور، ونحو { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } [طه:5] .

ثالثتها: معان عالية ضاقت عن إيفاء كنهها اللغة، فعبّر عن تلك المعاني بأقصى ما يقرّب معانيها إلى الأفهام، وهذا مثل أكثر صفات الله نحو الرحمان، الرؤوف.

رابعتها: معان قصرت عنها الأفهام في بعض أحوال العصور، وأودعت في القرآن ليكون وجودها معجزة قرآنية عند أهل العلم في عصور قد يضعف فيها إدراك الإعجاز النظمي.

خامستها: مجازات وكنايات مستعملة في لغة العرب، إلّا أنّ ظاهرها أوهم معاني لا يليق الحمل عليها في جانب الله تعالى، لإشعارها بصفات تخالف كمال الإلهية، وتوقف فريق في محملها تنزيها، نحو قوله { فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا } [الطور:48].

وسادستها: ألفاظ من لغات العرب لم تُعرف لدى الذين نزل القرآن بينهم(قريش). روي أنّ عمر قرأ على المنبر { أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ } [النحل:47] فقال: ما تقولون في التخوّف، فقام شيخ من هذيل فقال: هذه لغتنا، التخوّف التنقّص. وعن ابن عباس: لا أدري ما الأوّاه وما الغسلين، [التوبة:114] و[الحاقة:36].

سابعتها: مصطلحات شرعيّة لم يكن للعرب علم بخصوصها، فما اشتهر منها بين المسلمين معناه، صار حقيقة عرفية، كالتيمم، والزكاة، وما لم يشتهر بقي فيه إجمال.

ثامنتها: أساليب عربية خفيت على أقوام فظنّوا الكلام بها متشابها، وهذا مثل زيادة الكاف في قوله تعالى { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } [الشورى:11]، ومثل المشاكلة في قوله تعالى { يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ } [النساء:142] فيعلم أنّ إسناد خادع إلى ضمير الجلالة إسناد بمعنى مجازي اقتضته المشاكلة.

وتاسعتها: آيات جاءت على عادات العرب، ففهمها المخاطبون، وجاء من بعدهم فلم يفهموها، فظنّوها من المتشابه، مثل قوله { لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا } [المائدة:93] فإنّ المراد فيما شربوا من الخمر قبل تحريمها.

عاشرتها: أفهام ضعيفة عدّت كثيرا من المتشابه وما هو منه، وذلك كأفهام الباطنية.

<u>وليس من المتشابه</u> ما صرّح فيه بأنّا لا نصل إلى علمه كقوله { قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي } [الإسراء:85] ولا ما صرّح فيه بجهل وقته كقوله { لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً } الأعراف:187].

<u>وليس من المتشابه</u> ما دلّ على معنى يعارض الحمل عليه دليل آخر، منفصل عنه، لأنّ ذلك يرجع إلى قاعدة الجمع بين الدليلين المتعارضين، أو ترجيح أحدهما على الآخر.

<u>وقد علمتم من هذا أنّ ملاك التشابه هو عدم التواطؤ بين المعاني واللغة، إمّا لضيقها عن المعاني، وإمّا لضيق الأفهام عن استعمال اللغة في المعنى، وإما لتناسي بعض اللغة، فيتبين لك أن الإحكام والتشابه، صفتان للألفاظ، باعتبار فهم المعاني.</u>

{ **أُمُّ** } وإنّما أخبر عن ضمير آيات محكمات باسم مفرد، لأنّ المراد أن صنف الآيات المحكمات يتنزّل من الكتاب منزلة أمّه، أي: أصله ومرجعه الذي يرجع إليه في فهم الكتاب ومقاصده.

{ **فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ** }

تفصيل لإجمال اقتضاه الكلام السابق، لأنّه لمّا قسّم الكتاب إلى محكم ومتشابه، وكان ذلك التقسيم باعتبار دلالة الألفاظ على المعاني، تشوّقت النفس إلى معرفة تلقّي النّاس للمتشابه. أمّا المحكم فتلقّي النّاس له على طريقة واحدة، فلا حاجة إلى تفصيل فيه. واقتصر في التفصيل على ذكر حال الذين في قلوبهم زيغ

كيف تلقيهم للمتشابهات، لأنّ بيان هذا هو الأهم في الغرض المسوق له الكلام، وهو كشف شبهة الذين غرّتهم المتشابهات ولم يهتدوا إلى حق تأويلها.

والقلوب: محال الإدراك، وهي العقول، وتقدّم ذلك عند قوله تعالى { وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ } [البقرة:283].

الزيغ: الانحراف عن المقصود. فالزيغ أخصّ من الميل، لأنّه ميل عن الصواب والمقصود.

الإتباع: هنا مجاز عن الملازمة والمعاودة، أي: يعكفون على الخوض في المتشابه، يحصونه. شُبّهت تلك الملازمة بملازمة التابع متبوعه. وقد ذكر علّة الإتباع، وهو طلب الفتنة، وطلب أن يؤوّلوه، وليس طلب تأويله في ذاته بمذمّة، بدليل قوله { وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ } وإنّما محل الذمّ أنّهم يطلبون تأويلا ليسوا أهلا له فيؤولونه بما يوافق أهواءهم.

فالذين اتبعوا المتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله المنافقون، والزنادقة، والمشركون. أخرج البخاري، عن عائشة، قالت: " تلا رسول الله هذه الآية إلى قوله { أولو الألباب } قالت: قال رسول الله: **فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمّاهم الله فاحذروهم** ".

وفي الكلام تعريض بنصارى نجران، إذ ألزموا المسلمين بأنّ القرآن يشهد لكون الله ثالث ثلاثة بما يقع في القرآن من ضمير المتكلّم ومعه غيره من نحو: خلقنا وأمرنا وقضينا، وزعموا أنّ ذلك الضمير له وعيسى ومريم، ولاشك أنّ هذا إن صح عنهم هو تمويه، إذ من المعروف أنّ في ذلك الضمير طريقتين مشهورتين: إمّا إرادة التشريك أو إرادة التعظيم.

{ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ }

ومن هنا أمسك السلف عن تأويل المتشابهات، غير الراجعة إلى التشريع، فقال أبو بكر رضي الله عنه: " أي أرض تقلّني وأيّ سماء تظلّني إن قلت في كتاب الله بما لا أعلم ". وجاء في زمن عمر رضي الله عنه رجل إلى المدينة من البصرة، يُقال له صَبيغ بن شريك أو ابن عسل التميمي، فجعل يسأل النّاس عن متشابه القرآن، وعن أشياء فأحضره عمر، وضربه ضربا موجعا، وكرّر ذلك أيّاما، فقال: حسبك يا أمير المؤمنين فقد ذهب ما كنت أجد في رأسي، ثم أرجعه إلى البصرة وكتب إلى أبي موسى الأشعري أن يمنع النّاس من مخالطته. ومنهم من تأوّل عند عروض الشبهة لبعض النّاس، كما فعل ابن عباس.

الراسخون في العلم: الذين تمكّنوا في علم الكتاب، ومعرفة محامله، وقام عندهم من الأدلة ما أرشدهم إلى مراد الله تعالى، بحيث لا تروج عليهم الشبه. و**الرسوخ** في كلام العرب: الثبات والتمكّن في المكان، واستعير الرسوخ لكمال العقل والعلم بحيث لا تضلّله الشبه،غالبا، وشاعت هذه الاستعارة حتى صارت كالحقيقة.

{ **وَالرَّاسِخُونَ** } قيل: معطوف على اسم الجلالة، وفي هذا العطف تشريف عظيم، كقوله { شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ } [18]، وإلى هذا التفسير مال ابن عباس، ومجاهد، والربيع بن سليمان، والقاسم بن محمد، والشافعية، وابن فورك، والشيخ أحمد القرطبي، وابن عطية. وعلى هذا، فليس في القرآن آية استأثر الله بعلمها، ويؤيد هذا أنّ الله أثبت للراسخين في العلم فضيلة، فآذن بأنّ لهم مزيّة في فهم المتشابه، لأنّ المحكم يستوي في علمه جميع من يفهم الكلام، وحكى إمام الحرمين، عن ابن عباس أنّه قال في هاته الآية: " أنا ممّن يعلم تأويله ".

وقيل: الوقف على قوله { إِلَّا اللَّهَ } وإنّ جملة { وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ } مستأنفة، وهذا مروي عن جمهور السلف، وهو قول ابن عمر، وعائشة، وابن مسعود، وأُبَي، ورواه أشهب عن مالك في جامع العتبيّة، وقاله عروة بن الزبير، والكسائي، والأخفش والفراء، والحنفيّة، وإليه مال فخر الدين. واحتج أصحاب هذا الرأي ، بقوله تعالى { يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا }، قال الفخر: لو كانوا عالمين بتأويله لم يكن لهذا الكلام فائدة، إذ الإيمان بما ظهر معناه أمر غير غريب، وسنجيب عن هذا عند الكلام على هذه الجملة، وذكر الفخر حججا غير مستقيمة.

ويؤيّد الأوّل وصفهم بالرسوخ في العلم، فإنّه دليل بيّن على أنّ الحكم الذي أثبت لهذا الفريق، هو حكم من معنى العلم والفهم في المعضلات، وهو تأويل المتشابه، على أنّ أصل العطف هو عطف المفردات دون عطف الجمل، فيكون الراسخون معطوفا على اسم الجلالة فيدخلون في أنّهم يعلمون تأويله. ولو كان الراسخون مبتدأ وجملة يقولون آمنا به خبرا، لكان حاصل هذا الخبر مما يستوي فيه سائر المسلمين الذين لا زيغ في قلوبهم، فلا يكون لتخصيص الراسخين فائدة.

ولا يخفى أنّ المتشابه عند أهل القول الأوّل هو ما خفي المراد منه، وأنّ خفاء المراد متفاوت، وأنّ أهل القول الثاني يثبتون متشابها استأثر الله بعلمه، وهو أيضا متفاوت، لأنّ منه ما يقبل تأويلات قريبة، وهو ممّا ينبغي ألاّ يعدّ من المتشابه في اصطلاحهم، لكن صنيعهم في الإمساك عن تأويل آيات كثيرة دلّ على أنّهم يسدون باب التأويل في المتشابه.

وعلى هذين القولين انبنى اختلاف بين علماء الأمّة في تأويل ما كان متشابها، من آيات القرآن، ومن صحاح الأخبار، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم.

فكان رأي فريق منهم الإيمان بها، على إبهامها وإجمالها، وتفويض العلم بكنه المراد منها إلى الله تعالى، وهذه طريقة سلف علمائنا، وذلك في عصر الصحابة والتابعين وبعض عصر تابعيهم، ويعبّر عنها بطريقة السلف، ويقولون، طريقة السلف أسلم.

وكان رأي جمهور من جاء بعد عصر السلف تأويلها بمعان من طرائق استعمال الكلام العربي البليغ من مجاز، واستعارة، وتمثيل، مع وجود الداعي إلى التأويل، وهو تعطّش العلماء الذين اعتادوا التفكّر والنظر وفهم الجمع بين أدلة القرآن والسنة، ويعبر عن هذه الطريقة بطريقة الخلف، ويقولون: طريقة

الخلف أعلم، أي أنسب بقواعد العلم وأقوى في تحصيل العلم لجدال الملحدين.
واعلم أن التأويل، منه ما هو واضح بيّن، فصرف اللفظ المتشابه عن ظاهره إلى ذلك التأويل يعادل حمل اللفظ على أحد معنييه المشهورين، وتسمية هذا النوع بالمتشابه ليست مرادة في الآية. وعدّه من المتشابه جمود. وليس قولهم في علم الأصول بأنّ الحقيقة أرجح من المجاز بمقبول على عمومه.
ومن التأويل ما ظاهر معنى اللفظ فيه أشهر من معنى تأويله ولكن القرائن أو الأدلة أوجبت صرف اللفظ عن ظاهر معناه، فهذا حقيق بأن يعد من المتشابه.
ثم إن تأويل اللفظ في مثله يتيسّر بمعنى مستقيم يغلب على الظنّ أنّه المراد إذا جرى حمل اللفظ على ما هو من مستعملاته في الكلام البليغ مثل الأيدي والأعين في قوله، { بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ } [الذاريات:47] وقوله { فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا } [الطور:48]، فمن قالوا: إنّ لله أعينا لا يعرف كنهها، أو له يدا ليست كأيدينا، فقد زادوا في قوة الاشتباه.
ومنه ما يعتبر تأويله احتمالا وتجويزا، بأن يكون الصرف عن الظاهر متعيّنا، وهذا مثل قوله تعالى { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } [طه:5]، وقوله تعالى { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ } [البقرة:210] . فمثل ذلك مقطوع بوجوب تأويله، ولا يدّعي أحد أنّ ما أوّله به المراد منه، ولكنّه وجه تابع لإمكان التأويل، وهذا النوع أشد مواقع التشابه والتأويل.
{ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ } يحتمل أن يكون المراد من القول الكناية عن الاعتقاد، لأنّ شأن المعتقد أن يقول معتقده. ويحتمل أنّ المراد يقولون لغيرهم، أي: من لم يبلغ مرتبة الرسوخ من عامة المسلمين، ليعلّموهم الوقوف عند حدود الإيمان، وهذا يقرب ممّا قاله أهل الأصول: إنّ المجتهد لا يلزمه بيان مدركه للعامي، إذا سأله عن مأخذ الحكم، إذا كان المدرك خفيّا. وبهذا يحصل الجواب عن احتجاج الفخر بهذه الجملة لترجيح الوقف على اسم الجلالة.
وعلى قول المتقدّمين يكون قوله تعالى { يَقُولُونَ } خبرا، ومعنى قوله تعالى { آمَنَّا بِهِ } آمنا بكونه من عند الله، وإن لم نفهم معناه.
{ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا } أي: كلّ من المحكم والمتشابه، منزّل من الله.
{ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ } تذييل، ليس من كلام الراسخين، مسوق مساق الثناء عليهم في اهتدائهم إلى صحيح الفهم. و**الألباب**: العقول.

{ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ [8] رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاس لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ [9] }.
دعاء علّمه النبيّ صلى الله عليه وسلم للأمّة، لأنّ الموقع المحكي موقع عبرة ومثار لهواجس الخوف من سوء المصير إلى حال الذين في قلوبهم زيغ. فمن جملة ما قُصد بوصف الكتاب بأنّ منه محكما ومنه

متشابها، إيقاظ الأمّة إلى ذلك لتكون على بصيرة في تدبّر كتابها، تحذيرا لها من الوقوع في الضلال.
ولذا كان دأب القرآن قرن الثناء بالتحذير، والبشارة بالإنذار.

{ **بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا** } تحقيق للدعوة على سبيل التلطّف، إذ أسندوا الهدى إلى الله تعالى، وقد استعاذ النبيّ صلى الله عليه وسلم من السلب بعد العطاء.

{ **إِذْ** } اسم للزمن الماضي متصرّف، أي: بعد زمن هدايتك إيّانا.

{ **وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً** } طلبوا أثر الدوام على الهدى وهو الرحمة في الدنيا والآخرة، ومنع دواعي الزيغ والشر. وجُعلت الرحمة من عند الله لأنّ تيسير أسبابها وتكوين مهيّئاتها، بتقدير الله.

{ **إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ** } القصر للمبالغة، لأجل كمال الصفة فيه تعالى.

{ **رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النّاس لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ** } أعقبوا بذكر هذا اليوم دعاءهم على سبيل الإيجاز، كأنّهم قالوا: هب لنا من لدنك رحمة، وخاصة يوم تجمع النّاس.

{ **لا رَيْبَ فِيهِ** } المراد نفي الريب في وقوعه.

{ **إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ** } تعليل لنفي الريب، أي: لأنّ الله وعد بجمع النّاس له، فلا يخلف ذلك.

الميعاد: هنا اسم مكان.

{ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ** [10] **كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ** [11] }.

استئناف كلام ناشئ عن حكاية ما دعا به المؤمنون من دوام الهداية، وسؤال الرحمة، وانتظار الفوز يوم القيامة، بذكر حال الكافرين في ذلك اليوم، على عادة القرآن في إرداف البشارة بالنذارة.

وتعقيب دعاء المؤمنين، بذكر حال المشركين، إيماء إلى أنّ دعوتهم استجيبت.

{ **الَّذِينَ كَفَرُوا** } المشركون، ويجوز أن يكون المراد جميع الكافرين، من المشركين وأهل الكتابين.

تغني: تجزي وتكفي وتدفع، وهو فعل قاصر يتعدّى إلى المفعول بـ (عن) نحو { مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ } [الحاقة:28].

{ **مِنَ اللَّهِ** } أي: من أمر يضاف إلى الله. والتقدير هنا من رحمة الله أو من طاعته، إذا كانت (مِن) للبدل وكذا قدّره في الكشّاف، و قال ابن عطية: تقدّر من غضب الله أو من عذابه.

{ **شَيْئاً** } انتصب على النيابة عن المفعول المطلق، أي: شيئا من الغناء. ولا يجوز أن يكون مفعول به لعدم استقامة معنى الفعل في التعدّي.

وإنّما خُصّ **الأموال والأولاد** من بين أعلاق الذي كفروا لأنّ الغناء يكون بالفداء لمال، كدفع الديّات والغرامات، ويكون بالنصر والقتال، وأولى من يدافع عن الرجل، من عشيرته، أبناؤه، وعن القبيلة

أبناؤها.

والظاهر أنّ هذا وعيد بعذاب الدنيا، لأنّه شُبّه بأنّه { كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ }، ولأنّه عطف عليه عذاب الآخرة في قوله { وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ }.

{ **وَأُولَئِكَ** } لاستحضارهم كأنّهم بحيث يشار إلهم. وعطفت هذه الجملة، ولم تفصل، لأنّ المراد من التي قبلها وعيد في الدنيا وهذه وعيد في الآخرة.

الوَقود: (بفتح الواو) ما يوقد به كالضوء، وقد تقدّم نظيره في قوله { الَّتِي وَقُودُهَا النّاس وَالْحِجَارَةُ } [البقرة:24].

{ **كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ** } أي: عادتهم وشأنهم كشأن آل فرعون.

الدأب: أصله الكدح في العمل وتكريره. وقد ضرب الله لهم هذا المثل عبرة وموعظة، لأنّهم إذا اسْتَقْرُوا الأمم التي أصابها العذاب، وجدوا جميعهم قد تماثلوا في الكفر، بالله، وبرسله، وبآياته، وكفى بهذا الاستقراء موعظة لأمثال مشركي العرب.

{ **فأخذهم الله بذنوبهم** } هو أخذ الانتقام في الدنيا.

آل فرعون: فرعون وآله، لأنّ (الآل) يطلق على أشدّ النّاس اختصاصا بالمضاف إليه، والاختصاص هنا اختصاص في المتابعة والتواطؤ على الكفر، فلذكر الآل هنا من الخصوصية ما ليس لذكر القوم، إذ قوم الرجل قد يخالفونه، فلا يدلّ الحكم المتعلق بهم على أنّه مساو لهم في الحكم، قال تعالى { أَلا بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ } [هود:60] في كثير من الآيات نظائرها. وتخصيص آل فرعون بالذكر من بين بقية الأمم لأنّ هلكهم معلوم عند أهل الكتاب.

كذّبوا: بيان لدأبهم، استئناف بياني.

{ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ [12] قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ [13] }.

استئناف ابتدائي، للانتقال من النذارة إلى التهديد، ومن ضرب المثل لهم بأحوال سلفهم في الكفر، إلى ضرب المثل لهم بسابق أحوالهم المؤذنة بأنّ أمرهم صائر إلى زوال، وأنّ أمر الإسلام ستندك له صم الجبال.

{ **لِلَّذِينَ كَفَرُوا** } الظاهر أنّ المراد بهم المشركون خاصة. و قيل: أريد بالذين كفروا خصوص اليهود، وذكروا لذلك سببا رواه الواحدي في أسباب النزول، أنّ يهود يثرب كانوا عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مدة فلمّا أصاب المسلمين يوم أحد ما أصابهم من النكبة نقضوا العهد، وانطلق كعب بن

الأشرف في ستين راكبا إلى أبي سفيان بمكة وقالوا لهم: لتكوننّ كلمتنا واحدة، فلما رجعوا إلى المدينة أنزلت هذه الآية.

{ **قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ** } خطاب للذين كفروا، كما هو الظاهر، لأنّ المقام للمحاجة، فأعقب الإنذار والوعيد بإقامة الحجة. و**الفئتان**: هما المسلمون والمشركون يوم بدر.

الالتقاء: اللقاء، وصيغة الافتعال فيه للمبالغة، ويطلق اللقاء على البروز للقتال { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ } [الأنفال:15]

{ **فِئَةٌ تُقَاتِلُ** } تفصيل للفئتين، و**الفئة**: الجماعة من النّاس، وقد تقدم الكلام عليها في قوله تعالى { كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ } [البقرة:249].

{ **يَرَوْنَهُمْ** } والرؤية هنا بصرية لقوله { رَأْيَ الْعَيْنِ }. والظاهر أنّ الكفار رأوا المسلمين يوم بدر عند اللقاء والتلاحم مثلي عددهم، فوقع الرعب في قلوبهم فانهزموا. فهذه الرؤية جعلت آية لمن رأوها وتحققوا بعد الهزيمة أنّهم كانوا واهمين فيما رأوه، ليكون ذلك أشدّ حسرة لهم، وتكون هذه الرؤية غير الرؤية المذكورة في الأنفال بقوله { وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ } [الأنفال:44]، فإنّ تلك يناسب أن تكون وقعت قبل التلاحم، حتى يستخفّ المشركون بالمسلمين، فلا يأخذوا أهبتهم للقائهم، فلمّا لاقوهم رأوهم مثلي عددهم فدخلهم الرعب والهزيمة، وتحقّقوا قلّة المسلمين بعد انكشاف الملحمة، فقد كانت إراءة القلة وإراءة الكثرة سببي نصر للمسلمين بعجيب صنع الله تعالى.

وجُوِّز أن يكون المسلمون رأوا المشركين مثلي عدد المؤمنين، وكان المشركون ثلاثة أمثالهم، فقلّلهم الله في أعين المسلمين لئلّا يفشلوا، لأنّهم قد علموا من قبل أن المسلم يغلب كافرين فلو علموا أنّهم ثلاثة أضعافهم لخافوا الهزيمة، وتكون هذه الإراءة هي الإراءة المذكورة في سورة الأنفال { وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً } [الأنفال:44] ويكون ضمير الغيبة في قوله { مِثْلَيْهِمْ } راجعا للمسلمين على طريقة الالتفات، وأصله ترونهم مثليكم على أنّه من المقول.

{ **وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ** } تذييل، لأنّ تلك الرؤية كيفما فسرت تأييد للمسلمين.

{ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ } [14]

استئناف، قصد منه عظة المسلمين ألاّ يغتروا بحال الذين كفروا فتعجبهم زينة الدنيا، فإنّ التحذير يستدعي التحذير من البدايات، وقد صدّر هذا الوعظ والتأديب ببيان مدخل هذه الحالة إلى النفوس، حتى يكونوا على أشدّ الحذر منها.

التزيين: تصيير الشيء حسنا. فالزينة هي ما في الشيء من المحاسن، التي ترغّب الناظرين في اقتنائه.

{ **حُبُّ الشَّهَوَاتِ** } جمع شهوة، وأصل الشهوة مصدر شهي كرضي. ولمّا رجع التزيين إلى انفعال في

الجبلّة، كان فاعله على الحقيقة هو خالق هذه الجبلاّت، فالمزيّن هو الله بخلقه لا بدعوته، وروي مثل هذا عن عمر بن الخطاب، وإذا التفتنا إلى الأسباب القريبة المباشرة، كان المزيّن هو ميل النفس إلى المشتهى. والحبّ ينشأ عن الاستحسان، وليس الحب بمزيّن، وهذا إيجاز يغني عن أن يقال: زيّنت للناس الشهوات فأحبّوها.

{ **مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ** } بيان بأصول الشهوات البشرية، التي تجمع مشتهيات كثيرة، والتي لا تختلف باختلاف الأمم والعصور والأقطار، فالميل إلى النساء مركوز في الطبع، وضعه الله تعالى لحكمة بقاء النوع بداعي طلب التناسل، إذ المرأة هي موضع التناسل، فجعل ميل الرجل إليها في الطبع حتّى لا يحتاج بقاء النوع إلى تكلّف ربّما تعقبه سآمة. ومحبة الأبناء أيضا في الطبع، إذ جعل الله في الوالدين، من الرجال والنساء، شعورا وجدانيا يُشعر بأنّ الولد قطعة منهما، ليكون ذلك مدعاة إلى المحافظة على الولد الذي هو الجيل المستقبل، وببقائه بقاء النوع.

{ **وَالْقَنَاطِيرِ** } جمع قنطار وهو ما يزن مائة رطل، وأصله معرّب قيل عن الرومية اللاتينية الشرقية كما نقله النقاش عن الكلبي، وهو الصحيح، فإنّ أصله في اللاتينية **كينتال** وهو مائة رطل. وقد كان القنطار عند العرب، وزنا ومقدارا من الثروة، يقولون: قنطر الرجل إذا بلغ ماله قنطارا، وهو اثنا عشر ألف دينار أي: ما يساوي قنطارا من الفضة.

{ **المقنطرة** } أريد بها هنا المضاعفة المتكاثرة، لأنّ اشتقاق الوصف من اسم الشيء الموصوف، إذا اشتهر صاحب الاسم بصفة، كقولهم، ليل أليل، وظل ظليل، وآلاف مؤلفة.

{ **مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ** } شهوتان بحسن منظرهما وما يتّخذ منهما من حليّ للرجال والنساء، والنقدان منهما، الدنانير والدراهم، شهوة لما أودع الله في النفوس منذ العصور المتوغّلة في القدم من حب النقود التي بها دفع أعواض الأشياء المحتاج إليها.

{ **وَالْخَيْلِ** } محبوبة مرغوبة، في العصور الماضية وفيما بعدها، لم يُنسها ما تفنن فيه البشر من صنوف المراكب برّا وبحرا وجوّا، فالأمم المتحضّرة اليوم مع ما لديهم من القطارات، ومن سفائن البحر، ومن السيّارات، ومن الطيّارات، كلّ ذلك لم يغن النّاس عن ركوب ظهور الخيل، وجرّ العربات بمطهّمات الأفراس، والعناية بالمسابقة بين الأفراس.

{ **الْمُسَوَّمَةِ** } مشتق من السوم وهو الرعي، أي: التي تُترك في المراعي مددا طويلة وإنّما يكون ذلك لسعة أصحابها وكثرة مراعيهم، فتكون خيلهم مكرّمة في المروج والرياض. وقيل المسوّمة من السُومة (بضم السين) وهي السمة، أي: العلامة من صوف أو نحوه، وإنّما يجعلون لها ذلك تنويها بكرمها وحسن بلائها في الحرب.

{ **وَالْأَنْعَامِ** } زينة لأهل الوبر، وقد لا تتعلّق شهوات أهل المدن بشدة الإقبال على الأنعام لكنّهم يحبّون مشاهدها، ويُعْنَون بالارتياح إليها إجمالا.

{ **وَالْحَرْثِ** } أصله مصدر حرث الأرض إذا شقّها بآلة ليزرع فيها أو يغرس، وأطلق هذا المصدر على المحروث فصار يطلق على الجنّات والحوائط وحقول الزرع.

{ **ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** } الإشارة إلى جميع ما تقدّم ذكره. والمتاع مؤذن بالقلّة وهو ما يستمتع به مدّة.

{ **وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ** } أنّ ثواب الله خير من ذلك.

المآب: المرجع، وهو هنا مصدر، مَفْعَل من آب يؤوب، والمراد به العاقبة في الدنيا والآخرة.

وسياق الآية تفضيل معالي الأمور وصالح الأعمال على المشتهيات المخلوطة أنواعها بحلال منها وحرام، والمعرّضة للزوال، فإنّ الكمال بتزكية النفس لتبلغ الدرجات القدسية، وتناول النعيم الأبدي العظيم، كما أشار إليه قوله { ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ}.

{ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ [15] الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ [16] الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ [17] }.

استئناف بياني افتتح بكلمة { قُلْ } للاهتمام بالمقول، والمخاطب بقل النبيّ صلى الله عليه وسلم.

والاستفهام للعرض، تشويقا من نفوس المخاطبين إلى تلقّي ما سيقص عليهم .

{ **لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ** } ألغي ما يقابل شهوات الدنيا في ذكر نعيم الآخرة، لأنّ لذّة البنين ولذّة المال هنالك مفقودة، للاستغناء عنها، وكذلك لذّة الخيل والأنعام، إذ لا دواب في الجنّة، فبقي ما يقابل النساء والحرث، وهو الجنّات والأزواج، لأنّ بهما تمام النعيم والتأنّس.

المطهّرة: المنزّهة مما يعتري نساء البشر ، فالطهارة هنا حسية و معنوية.

{ **وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ** } عطف على ما أعدّ للذين اتقوا عند الله، لأنّ رضوانه أعظم من ذلك النعيم المادي، فهو تقريب روحاني. وأظهر اسم الجلالة لما في ذلك من الإيماء إلى عظمة ذلك الرضوان.

{ **والله بصير بالعباد** } أي أنّه عليم بالذين اتقوا ومراتب تقواهم، فهو يجازيهم. وإظهار اسم الجلالة لقصد استقلال الجملة لتكون كالمثل.

{ **الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** } عطف بيان { لِلَّذِينَ اتَّقَوْا } بالتوجّه إلى الله تعالى بطلب المغفرة. ومعنى القول هنا الكلام المطابق للواقع في الخبر، وإنّما يجري كذلك إذا سعى الداعي في وسائل الإجابة وترقّبها بأسبابها التي ترشد إليها التقوى، فلا يجازى هذا الجزاء من قال ذلك بفمه ولم يعمل له.

{ **الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ** } الآية صفات للذين اتقوا، وذكر هنا أصول فضائل صفات المتدينين، وهي:

الصبر: هو ملاك فعل الطاعات وترك المعاصي.

الصدق: هو ملاك الاستقامة وبث الثقة بين أفراد الأمّة.

القنوت: هو ملازمة العبادات في أوقاتها وإتقانها وهو عبادة نفسية جسدية.

الإنفاق: هو أصل إقامة أود الأمّة بكفاية حاجة المحتاجين، وهو قربة مالية والمال شقيق النفس.

الاستغفار بالأسحار: هو الدعاء والصلاة المشتملة عليه في أواخر الليل، والسحر سدس الليل الأخير، لأنّ العبادة فيه أشد إخلاصا، لما في ذلك الوقت من هدوء النفوس، ولدلالته على اهتمام صاحبه بأمر آخرته.

{ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**} [18].

استئناف وتمهيد لقوله تعالى { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ } ذلك أنّ أساس الإسلام هو توحيد الله. وإعلان هذا التوحيد، وتخليصه من شوائب الإشراك. وفيه تعريض بالمشركين وبالنصارى واليهود، وإن تفاوتوا في مراتب الإشراك.

الشهادة: حقيقتها خبر يصدَّق به خبر مُخْبِر وقد يكذَّب به خبرُ آخرَ، فشهادة الله تحقيقه وحدانيته بالدلائل التي نصبها على ذلك، وشهادة الملائكة تحقيقهم ذلك فيما بينهم، وتبليغ بعضهم ذلك إلى الرسل، وشهادة أولي العلم تحقيقهم ذلك بالحجج والأدلة.

{ **قَائِماً بِالْقِسْطِ** } انتصب على الحال، لأنّ الشهادة هذه قيام بالقسط، فالشاهد بها قائم بالقسط، قال تعالى { كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ } [المائدة:8].

القيام: هنا بمعنى المواظبة كقوله { أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ } [الرعد:33].

القسط: العدل وهو مختصر من القُسطاس (بضم القاف). روى البخاري عن مجاهد أنّه قال: القسطاس، العدل بالرومية، وهي من اللاتينية، ويطلق القسط والقسطاس على الميزان، لأنّه آلة للعدل قال تعالى { وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ } [الإسراء:35].

وقد أقام الله القسط في تكوين العوالم على نظمها، وفي تقدير بقاء الأنواع، وإيداع أسباب المدافعة في نفوس الموجودات، وفيما شرع للبشر من الشرائع في الاعتقاد والعمل، لدفع ظلم بعضهم بعضا، وظلمهم أنفسهم، فهو القائم بالعدل سبحانه، وعدل النّاس مقتبس من محاكاة عدله.

{ **لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } تمجيد وتصديق، نشأ عن شهادة الموجودات كلّها له بذلك فهو تلقين الإقرار له بذلك، أي اقتداء بالله وملائكته.

{ **إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** } [19].

هذا شروع في أوّل غرض أنزلت فيه هذه السورة، غرض محاجّة نصارى نجران. روى الواحدي، ومحمد بن إسحاق، أنّ وفد نجران لمّا دخلوا المسجد النبوي تكلّم السيد والعاقب فقال لهما رسول الله: " **أسلما** " قالا: " قد أسلمنا قبلك "، قال: " **كذبتما، يمنعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولدا، وعبادتكما الصليب** ".

{ **إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ** } لمّا كان الكلام المتقدّم مشتملا على تعريض باليهود والنصارى الذي كذبوا بالقرآن، وإبطال لقول وفد نجران، ناسب أن ينوّه بعد ذلك بالإسلام الذي جاء به القرآن.

{ **أَنَّ** } تحقيق لما تضمنه من حصر حقيقة الدين عند الله في الإسلام، أي الدين الكامل.

{ **الدين** } حقيقته في الأصل: الجزاء، ثم صار حقيقة عرفية يطلق على: مجموع عقائد وأعمال يلقّنها رسول من عند الله، ويعد العاملين بها بالنعيم والمعرضين عنها بالعقاب. ثم أطلق على ما يشبه ذلك ممّا يضعه بعض زعماء النّاس من تلقاء عقله فتلتزمه طائفة من النّاس. وسمّي الدين دينا لأنّه يترقّب منه متّبعه الجزاء عاجلا أو آجلا، فما من أهل دين إلّا وهم يترقّبون جزاء من ربّ ذلك الدين.

فأوّل دين إلهي كان حقًّا وبه كان اهتداء الإنسان، ثم طرأت الأديان المكذوبة، وتشبّهت بالأديان الصحيحة وقد عرّف العلماء الدين الصحيح بأنّه: وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم المحمود إلى الخير باطنا وظاهرا.

{ **الإسلام** } علم بالغلبة على مجموع الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، كما أطلق على ذلك: **الإيمان** أيضا، ولذلك لقّب أتباع هذا الدين بالمسلمين وبالمؤمنين، وهو الإطلاق المراد به هنا.

وهذا اللقب أولى بالإطلاق على هذا الدين من لقب الإيمان، لأنّ الإسلام هو المظهر البيّن لمتابعة الرسول فيما جاء به من الحق. وربّما أطلق الإسلام على خصوص الأعمال، والإيمان على الاعتقاد، وهو إطلاق مناسب لحالتي التفكيك بين الأمرين في الواقع، أو التفكيك في تصوير الماهية عند التعليم لحقائق المعاني الشرعية أو اللغوية كما في حديث جبريل، من ذكر معنى الإيمان والإسلام والإحسان.

والصيغة حصر، وهي تقتضي في اللسان حصر المسند إليه، وهو الدين، في المسند، وهو الإسلام، أي لا دين إلا الإسلام، وقد أكّد هذا الانحصار بحرف التوكيد. والعنديّة { **عِنْدَ اللَّهِ** }، عنديّة الاعتبار والاعتناء وليست عنديّة علم، فأفاد أنّ الدين الصحيح هو الإسلام، إذ لا أكمل من هذا الدين، وما تقدّمه من الأديان لم يكن بالغا غاية المراد من البشر في صلاح شؤونهم، وهذا المعنى أولى محملي الآية.

ذلك أنّ مراد الله تعالى من توجيه الشرائع وإرسال الرسل هو عملهم بتعاليم رسله وكتبه، فجعل الله الشرائع مناسبة لقابليّات المخاطبين بها، وجارية على قدر قبول عقولهم ومقدرتهم، ليتمكّنوا من العمل

بها بدوام وانتظام، فلذلك كان المقصود من التديّن أن يكون ذلك التعليم الديني دأبا وعادة لمنتحليه. وحيث النفوس لا تستطيع الانصياع إلى ما لا يتفق مع مدركاتها، لا جرم تعيّن مراعاة حال المخاطبين في سائر الأديان، ليمكن للأمم العمل بتعاليم شرائعها بانتظام ومواظبة.

فلمّا بلغ الأجل المراد والمعيّن لمجيء الشريعة الحقّ الخاتمة العامة، أظهر الله دين الإسلام في وقت مناسب لظهوره، واختار أن يكون ظهوره بين ظهراني أمّة لم تسبق لها سابقة سلطان، ولا كانت ذات سيادة يومئذ على شيء من جهات الأرض، ولكنّها أمّة سلّمها الله من معظم رعونات الجماعات البشرية، لتكون أقرب إلى قبول الحقّ، وأظهر هذا الدين بواسطة رجل منها، لم يكن من أهل العلم، ولا من أهل الدولة، ولا من ذريّة ملوك، ولا اكتسب خبرة سابقة بهجرة أو مخالطة، ليكون ظهور هذا الحق الصريح، والعلم الصحيح.

ثم جعل أسس هذا الدين متباعدة عن ذميم العوائد في الأمم، حتّى الأمّة التي ظهر بينها، وموافقة للحق ولو كان قد سبق إليه أعداؤها، وكانت أصوله مبنيّة على الفطرة بمعنى ألا تكون ناظرة إلاّ إلى ما فيه الصلاح في حكم العقل السليم، غير مأسور للعوائد ولا للمذاهب.

ويدخل في الفطرة الآداب العتيقة التي اصطلح عليها كافة عقلاء البشر، وارتاضت نفوسهم بها، إذا كانت تفيدهم كمالا، ولا تفضي إلى فساد، وذلك أصول قواعد حفظ النسب والعرض خاص.

فبهذا الأصل، أصل الفطرة كان الإسلام دينا صالحا لجميع الأمم في جميع الأعصر. وظهر هذا الأصل في عشرة مظاهر خادمة له ومهيّئة جميع النّاس لقبوله.

مظاهر أصل الفطرة:(10 مظاهر)

المظهر الأوّل: إصلاح العقيدة بحمل الذهن على اعتقاد لا يشوبه تردّد ولا تمويه ولا أوهام ولا خرافات، ثم بكون عقيدته مبنيّة على الخضوع لواحد عظيم، وعلى الاعتراف باتصاف هذا الواحد بصفات الكمال التامة التي تجعل الخضوع إليه اختيارا، ثم لتصيير تلك الكمالات مطمح أنظار المعتقد في التخلّق بها، ثمّ بحمل جميع النّاس على تطهير عقائدهم حتّى يتّحد مبدأ التخلق فيهم. ثم نشأ عن هذا الاعتقاد الإسلامي، عزة النفس، وأصالة الرأي، وحرية العقل، ومساواة النّاس فيما عدا الفضائل. وقد أكثر الإسلام شرح العقائد إكثارا لا يشبهه فيه دين آخر.

المظهر الثاني: جمعه بين إصلاح النفوس، بالتزكية، وبين إصلاح نظام الحياة، بالتشريع، في حين كان معظم الأديان لا يتطرّق إلى نظام الحياة بشيء، وبعضها وإن تطرّق إليه إلاّ أنّه لم يوفّه حقّه، بل كان معظم اهتمامها منصرفا إلى المواعظ والعبادات.

المظهر الثالث: اختصاصه بإقامة الحجّة، ومجادلة المخاطبين بصنوف المجادلات، وتعليل أحكامه، بالترغيب وبالترهيب، وذلك رعي لمراتب نفوس المخاطبين، فمنهم العالم الحكيم الذي لا يقتنع إلّا بالحجّة والدليل، ومنهم المكابر الذي لا يرعوي إلّا بالجدل والخطابة، ومنهم المترهّب الذي اعتاد الرغبة

فيما عند الله، ومنهم المكابر المعاند، الذي لا يقلعه عن شغبه إلا القوارع والزواجر.

المظهر الرابع: أنّه جاء بعموم الدعوة لسائر البشر، وهذا شيء لم يسبق في دين قبله قط، وقد ذكر الله تعالى الرسل كلّهم فذكر أنّه أرسلهم إلى أقوامهم.

المظهر الخامس: الدوام ولم يدع رسول من الرسل أنّ شريعته دائمة، بل ما من رسول، ولا كتاب، إلّا تجد فيه بشارة برسول يأتي من بعده.

المظهر السادس: الإقلال من التفريع في الأحكام بل تأتي بأصولها ويترك التفريع لاستنباط المجتهدين، وقد بيّن ذلك أبو إسحاق الشاطبي في تفسير قوله تعالى { مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ } [الأنعام:38] لتكون الأحكام صالحة لكل زمان.

المظهر السابع: أنّ المقصود من وصايا الأديان إمكان العمل بها، وفي أصول الأخلاق أنّ التربية الصحيحة هي التي تأتي إلى النفوس بالحيلولة بينها وبين خواطر الشرور، لأنّ الشرور، إذا تسرّبت إلى النفوس، تعذّر أو عسر اقتلاعها منها، وكانت الشرائع تحمل النّاس على متابعة وصاياها بالمباشرة، فجاء الإسلام يحمل النّاس على الخير بطريقتين، طريقة مباشرة، وطريقة سدّ الذرائع الموصلة إلى الفساد، وغالب أحكام الإسلام من هذا القبيل، وأحسبها أنّها من جملة ما أريد بالمشتبهات في حديث: **" إنّ الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من النّاس "**.

المظهر الثامن: الرأفة بالنّاس حتّى في حملهم على مصالحهم بالاقتصار في التشريع على مراعاة المصلحة، مع تطلّب إبراز ذلك التشريع في صورة ليّنة، وفي الحديث الصحيح: **" بعثت بالحنفيّة السَّمحة ولن يشادَّ هذا الدين أحدا إلا غلبه "**، وكانت الشرائع السابقة تحمل على المتابعة بالشدّة، فلذلك لم تكن صالحة للبقاء.

المظهر التاسع: امتزاج الشريعة بالسلطان في الإسلام، وذلك من خصائصه، إذ لا معنى للتشريع إلاّ تأسيس قانون للأمّة، وما قيمة قانون لا تحميه القوة والحكومة. وبامتزاج الحكومة مع الشريعة أمكن تعميم الشريعة، واتّحاد الأمّة في العمل والنظام.

المظهر العاشر: صراحة أصول الدين، بحيث يتكرّر في القرآن ما تُستقرى منه قواطع الشريعة، حتّى تكون الشريعة معصومة من التأويلات الباطلة، والتحريفات التي طرأت على أهل الكتب السابقة.

{ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ }

إخبار عن حال أهل الكتاب من سوء تلقيهم لدين الإسلام، ومن سوء فهمهم في دينهم. وجيء بصيغة الحصر، لبيان سبب اختلافهم، وكأنّ اختلافهم أمر معلوم للسامع. وهذا أسلوب عجيب في الإخبار عن حالهم إخبارا يتضمن بيان سببه، مع إظهار المقابلة بين حال الدين الذي هم عليه يومئذ من الاختلاف، وبين سلامة الإسلام من ذلك.

وقد جاءت الآية على نظم عجيب يشتمل على معان:

منها التحذير من الاختلاف في الدين، أي: في أصوله، ووجوب تطلّب المعاني التي لا تناقض مقصد الدين، عبرة بما طرأ على أهل الكتاب من الاختلاف.

ومنها للتنبيه على أنّ اختلاف أهل الكتاب حصل مع قيام أسباب العلم بالحقّ، فهو تعريض بأنّهم أساءوا فهم الدين.

ومنها الإشارة إلى أنّ الاختلاف الحاصل في أهل الكتاب نوعان: أحدهما اختلاف كل أمّة مع الأخرى في صحة دينها كما قال تعالى { وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ } [البقرة:113]، وثانيهما اختلاف كل أمّة منهما فيما بينها وافتراقها فرقا متباينة المنازع.

ومنها أنّ اختلافهم ناشئ عن بغي بعضهم على بعض.

ومنها أنّهم أجمعوا على مخالفة الإسلام والإعراض عنه بغيا منهم وحسدا، مع ظهور أحقّيته عند علمائهم وأحبارهم.

ولأجل أن يسمح نظم الآية بهذه المعاني، حذف متعلّق الاختلاف في قوله { وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ } ليشمل كل اختلاف منهم، من مخالفة بعضهم بعضا في الدين الواحد، ومخالفة أهل كلّ دين لأهل الدين الآخر، ومخالفة جميعهم للمسلمين في صحة الدين.

وقد لمّحت الآية إلى أنّ هذا الاختلاف والبغي كفر، لأنّه أفضى بهم إلى نقض قواعد أديانهم، وإلى نكران دين الإسلام، ولذلك ذيله بقوله { **وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ** }.

{ **فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** } تعريض بالتهديد، لأنّ سريع الحساب إنّما يبتدئ بحساب من يكفر بآياته. فالحساب هنا كناية عن الجزاء.

{ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ } [20].

المحاجّة: المخاصمة، وأكثر استعمال فعل حاجّ في معنى المخاصمة بالباطل، كما في قوله { وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ } [الأنعام:80]. فالمعنى: فإن خاصموك خصام مكابرة فقل أسلمت وجهي لله.

{ **فَإِنْ حَاجُّوكَ** } ضمير الجمع عائد إلى معلوم من المقام، أعني قضية وفد نجران، فإنّهم الذين اهتموا بالمحاجّة حينئذ. فأمّا المشركون فقد تباعد ما بينهم وبين النبيّ صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة، وأمّا اليهود فقد تظاهروا بمسالمة المسلمين في المدينة.

{ **أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ** } لقّن الله رسوله أن يجب مجادلتهم بذلك.

الوجه: أطلق هنا على النفس كما في قوله تعالى { كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ } [القصص:88] أي ذاته.

وللمفسّرين في المراد من هذا القول طرائق ثلاث:

الطريقة الأولى: أنّه متاركة وإعراض عن المجادلة، أي: اعترفت بأن لا قدرة لي على أن أزيدكم بيانا، فليست محاجّتكم إيّاي إلاّ مكابرة وإنكارا للبديهيّات والضروريّات، ومباهتة.

الطريقة الثانية: أنّ قوله { فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ } تلخيص للحجّة. فاليهود والنصارى والمشركون كانوا متّفقين على أحقيّة دين إبراهيم عليه السلام إلاّ زيادات زادتها شرائعهم. فكما أمر الله رسوله أن يتّبع ملة إبراهيم، أمره هنا أن يجادل النّاس بمثل قول إبراهيم {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} [الأنعام:79]. لذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم هنا: { أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ }، أي: فقد قلت ما قاله إبراهيم، وأنتم معترفون بحقيقة ذلك، فكيف تنكرون أنّي على الحق، وهذا من باب التمسّك بالإلزامات.

الطريقة الثالثة: أي: فإن حاجّوك في أنّ الدين عند الله الإسلام، فقل: إنّي بالإسلام أسلمت وجهي لله فلا ألتفت إلى عبادة غيره مثلكم، فديني الذي أرسلت به هو الدين عند الله، أي: هو الدين الحق وما أنتم عليه ليس دينا عند الله.

وعندي أنّ المراد بفعل حاجّوك الاستمرار على المحاجّة، أي: فإن استمر وفد نجران على محاجّتهم فقل لهم قولا فصلا جامعا للفرق بين دينك الذي أرسلت به وبين ما هم متديّنون به.

واعلم أنّ قوله { أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ } كلمة جامعة لمعاني كنه الإسلام وأصوله ألقيت إلى النّاس ليتدبّروا مطاويها فيهتدي الضالون، ويزداد المسلمون يقينا بدينهم.

إسلام النفس لله: معناه إسلامها لأجله وصيرورتها ملكا له، بحيث يكون جميع أعمال النفس في مرضاة الله. وتحت هذا معان جمّة هي جماع الإسلام، نحصرها في عشرة:

<u>المعنى الأول</u>: تمام العبودية لله تعالى، وذلك بألاّ يعبد غير الله، وهذا إبطال للشرك، لأنّ المشرك بالله لم يسلم نفسه بل أسلم بعضها.

<u>المعنى الثاني</u>: إخلاص العمل لله تعالى فلا يلحظ في عمله غير الله تعالى، فلا يُرائي ولا يصانع فيما لا يرضي الله، ولا يقدّم مرضاة غير الله تعالى على مرضاة الله.

<u>المعنى الثالث</u>: إخلاص القول لله تعالى فلا يقول مالا يرضى به الله، ولا يصدر عنه قول إلاّ فيما أذن الله فيه أن يقال. وفي هذا المعنى تجيء الصراحة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، على حسب المقدرة والعلم.

<u>المعنى الرابع</u>: أن يكون ساعيا لتعرّف مراد الله تعالى من النّاس، ليجري أعماله على وفقه، وذلك بالإصغاء إلى دعوة الرّسل المخبرين بأنّهم مرسلون من الله، وتلقّيها بالتأمل في وجود صدقها، والتمييز بينها وبين الدعاوى الباطلة، بدون تحفّز للتكذيب، بحيث يكون علمه بمراد الله من الخلق هو ضالته المنشودة.

<u>المعنى الخامس</u>: امتثال ما أمر الله به، واجتناب ما نهى عنه، على لسان الرسل الصادقين، والمحافظة

على اتباع ذلك بدون تغيير ولا تحريف، وأن يذود عنه من يريد تغييره.

المعنى السادس: ألّا يجعل لنفسه حكما مع الله فيما حكم به، وقد وصف الله المسلمين بقوله { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ } [الأحزاب:36].

المعنى السابع: أن يكون متطلّبا لمراد الله ممّا أشكل عليه فيه، واحتاج إلى جريه فيه على مراد الله، ولهذا أدخل علماء الإسلام حكم التفقّه في الدين والاجتهاد، تحت التقوى المأمور بها في قوله تعالى { فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ } [التغابن:16].

المعنى الثامن: الإعراض عن الهوى المذموم في الدين، وعن القول فيه بغير سلطان { وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ } [القصص:50].

المعنى التاسع: أن تكون معاملة أفراد الأمّة بعضها بعضا، وجماعاتها، ومعاملتها الأمم كذلك، جارية على مراد الله تعالى من تلك المعاملات.

المعنى العاشر: التصديق بما غيّب عنا، مما أنبأنا الله به، من صفاته، ومن القضاء والقدر، وأنّ الله هو المتصرّف المطلق.

{ **وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ** } كرّر دعوتهم إلى الإسلام، والاستفهام مستعمل في الاستبطاء والتحضيض كما في قوله تعالى { فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ }، وجيء بصيغة الماضي في قوله تعالى { **أَأَسْلَمْتُمْ** } دون أن يقول: أتسلمون، على خلاف مقتضى الظاهر، للتنبيه على أنّه يرجو تحقّق إسلامهم، حتى يكون كالحاصل في الماضي.

والقول إبطال لكونهم حاصلين على هذا المعنى، فأمّا المشركون فبعدهم عنه أشدّ البعد ظاهر، وأمّا النصارى فقد ألّهوا عيسى، وجعلوا مريم صاحبة لله تعالى، فهذا أصل لبطلان أن يكونوا أسلموا وجوههم لله، لأنهّم عبدوا مع الله غيره، وصانعوا الأمم الحاكمة والملوك، فأسّسوا الدين على حسب ما يلذّ لهم ويكسبهم الحظوة عندهم.

وأمّا اليهود فإنّهم وإن لم يشركوا بالله قد نقضوا أصول التقوى، فسفّهوا الأنبياء وقتلوا بعضهم، واستهزؤوا بدعوة الخير إلى الله، وغيّروا الأحكام إتباعا للهوى، وكذّبوا الرسل، وقتلوا الأحبار، فأنّى يكون هؤلاء قد أسلموا لله، وأكبر مبطل لذلك هو تكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم دون النظر في دلائل صدقه.

{ **فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا** } معناه: فإن التزموا النزول إلى التحقّق بمعنى أسلمت وجهي لله فقد اهتدوا، ولم يبق إلّا أن يتّبعوك لتلقّي ما تبلّغهم عن الله، لأنّ ذلك أول معاني إسلام الوجه لله، وإن تولّوا وأعرضوا عن قولك لهم: أأسلمتم، فليس عليك من إعراضهم تبعة، فإنّما عليك البلاغ.

{ **وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ** } أي لا تحزن، ولا تظنّنّ أنّ عدم اهتدائهم، وخيبتك في تحصيل إسلامهم، كان لتقصير منك، إذ لم تبعث إلّا للتبليغ، لا لتحصيل اهتداء المبلغ إليهم.

{ **وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ** } أي: مطّلع عليهم أتمّ الاطلاع، فهو الذي يتولّى جزاءهم، وهو يعلم أنّك بلّغت ما أمرت به.

{ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النّاس فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ [21] أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ [22] }.

استئناف لبيان بعض أحوال اليهود، المنافية إسلام الوجه لله، فالمراد بأصحاب هذه الصلات خصوص اليهود، وهم قد عُرفوا بمضمون هذه الصلات في مواضع كثيرة من القرآن. وجيء في هاته الصلات بالأفعال المضارعة لتدلّ على استحضار الحالة الفظيعة، لأنّهم قتلوا الأنبياء والذين يأمرون بالقسط في زمن مضى. والمراد من أصحاب هذه الصلات يهود العصر النبوي، لأنّهم الذين توعّدهم بعذاب أليم، وإنّما حمل هؤلاء تبعة أسلافهم لأنّهم معتقدون سداد ما فعله أسلافهم.

{ **بِغَيْرِ حَقٍّ** } ولا يكون قتل النبيين إلّا بغير حق، والمقصود من هذه الحال زيادة تشويه فعلهم.

{ **وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النّاس** } إنّما قتلوهم لأنّهم يأمرون بالقسط ،أي: بالحقّ، فقد اكتفي بها في الدلالة على الشناعة، فلم تحتج إلى زيادة التشنيع.

{ **فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** } حقيقة التبشير الإخبار بما يظهر سرور المخبَر بفتح الباء وهو هنا مستعمل في ضدّ حقيقته، إذ أريد به الإخبار بحصول العذاب، وهو موجب لحزن المخبرين، فهذا الاستعمال في الضدّ معدود عند علماء البيان من الاستعارة، ويسمّونها تهكّميّة .

{ **أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ** } وحبط الأعمال إزالة آثارها النافعة من ثواب ونعيم الآخرة، وحياة طيّبة في الدنيا. وإطلاق الحبط على ذلك تمثيل بحال الإبل التي يصيبها الحبط وهو انتفاخ في بطونها من كثرة الأكل، يكون سبب موتها، في حين أكلت ما أكلت للالتذاذ به.

والمعنى هنا: أنّ اليهود جحدوا نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم، وصوّبوا الذين قتلوا الأنبياء والذين يأمرون بالقسط، فقد ارتدّوا عن دينهم فاستحقّوا العذاب الأليم. فلا جرم أن تحبط أعمالهم فلا ينتفعون بثوابها في الآخرة، ولا بآثارها الطيّبة في الدنيا.

{ **وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ** } مالهم من ينقذهم من العذاب الذي أنذروا به. وجيء بـ (من) الدالة على تنصيص العموم لئلّا يترك لهم مدخل إلى التأويل.

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ [23] ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ[24] فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ [25] } .

{ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا** } للتقرير والتعجيب، والرؤية بصرية، وجوّز صاحب الكشّاف أن تكون الرؤية قلبية. وعرّف المتحدث عنهم بطريق الموصوليّة دون لقبهم، أعني اليهود، وقيل، أريد النصارى، أي أهل نجران.

{ **نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ** } النصيب: القسط والحظ، و**الكتاب**: التوراة. والمراد، أوتوا بعض كتابهم، تعريضا بأنّهم لا يعلمون من كتابهم إلاّ حظا يسيرا.

{ **يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ** } والمعنى: يُدعون إلى اتباع القرآن والنظر في معانيه ليحكم بينهم فيأبون. ويجوز أن يكون كتاب الله عين المراد من الكتاب، وإنّما غير اللفظ تفنّنا وتنويها بالمدعو إليه، أي: يُدعون إلى كتابهم ليتأمّلوا منه، فيعلموا تبشيره برسول يأتي من بعد.

روي في سبب نزول هذه الآية: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل مدراس اليهود فدعاهم إلى الإسلام، فقال له نعيم بن عمرو، والحارث بن زيد: على أي دين أنت؟ قال: **"على ملة إبراهيم "** قالا: فإنّ إبراهيم كان يهوديا. فقال لهما: **" إنّ بيننا وبينكم التوراة فهلمّوا إليها "**، فأبيا.

{ **ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ** } ثمّ للدلالة على التراخي الرتبي، أي أنّهم لا يرعوون فهم يتولّون ثم يتولّون.

{ **وهم معرضون** } حال مؤكّدة لجملة { يَتَوَلَّى فَرِيقٌ } إذ التولّي هو الإعراض، ولمّا كانت حالا لم تكن فيها دلالة على الدوام والثبات فكانت دالة على تجدّد الإعراض.

{ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ** } الإشارة إلى تولّيهم وإعراضهم، والباء للسببية، أي: إنّهم فعلوا ما فعلوا بسبب زعمهم أنّهم في أمان من العذاب إلّا أياما قليلة، فانعدم اكتراثهم باتباع الحق، لأنّ اعتقادهم النجاة من عذاب الله على كل حال جرّأهم على ارتكاب مثل هذا الإعراض. وعبّر عن الاعتقاد بالقول دلالة على أنّ هذا الاعتقاد لا دليل عليه وأنّه مفترى مدلّس.

{ **وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ** } أي: ما تقوّلوه على الدين وأدخلوه فيه، فلذلك أتي بـ (في) الدالة على الظرفية المجازية، وكانوا أيضا يزعمون أنّ الله وعد يعقوب ألّا يعذب أبناءه.

{ **فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ** } أي: إذا كان ذلك غرورا فكيف حالهم أو جزاؤهم إذا جمعناهم ووفّيناهم جزاءهم، والاستفهام هنا مستعمل في التعجيب والتفظيع مجازا.

{ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [26] تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ [27]}

استئناف ابتدائي المقصود منه التعريض بأهل الكتاب بأنّ إعراضهم إنّما هو حسد على زوال النبوّة منهم، وانقراض الملك منهم، بتهديدهم وبإقامة الحجّة عليهم في أنّه لا عجب أن تنتقل النبوّة من بني إسرائيل إلى العرب، مع الإيماء إلى أنّ الشريعة الإسلامية شريعة مقارنة للسلطان والملك.

{ **اللَّهُمَّ** } في كلام العرب خاص بنداء الله تعالى في الدعاء، ومعناه يا الله.

{ **مَالِكَ الْمُلْكِ** } المالك: هو المختصّ بالتصرف، والتعريف في الملك الأول لاستغراق الجنس، أي: كلّ ملك هو في الدنيا. ومعنى كون الله مالك الملك أنّه المالك لتصريف الملك، أي: لإعطائه، وتوزيعه، وتوسيعه، وتضييقه. والتعريف في الملك الثاني والثالث للجنس، دون استغراق، أي: طائفة وحصة من جنس الملك.

{ **تَنْزِعُ الْمُلْكَ** } النزع حقيقة إزالة الجرم من مكانه، كنزع الثوب، ويستعار لإزالة الصفات والمعاني كقوله { وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ } [الأعراف:43] . والمراد: تزيل وصف الملك ممّن تشاء.

{ **بِيَدِكَ الخَيْرُ** } تمثيل للتصرّف في الأمر، لأنّ المتصرّف يكون أقوى تصرّفه بوضع شيء بيده، ولو كان لا يوضع في اليد. ولا تشابه فيه، لظهور المراد من استعماله في الكلام العربي.

تولج: تدخل، وهو هنا استعارة لتعاقب ضوء النهار وظلمة الليل، فكأنّ أحدهما يدخل في الآخر، ولازدياد مدّة النهار على مدة الليل وعكسه في الأيام والفصول.

وفي هذا رمز إلى ما حدث في العالم من ظلمات الجهالة والإشراك، بعد أن كان النّاس على دين صحيح كدين موسى، وإلى ما حدث بظهور الإسلام من إبطال الضلالات، والذي دلّ على هذا الرمز افتتاح الكلام بقوله { اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ }.

إخراج الحيّ من الميّت كخروج الحيوان من المضغة، ومن مح البيضة، و**إخراج الميت من الحي** عكس ذلك كله. وهذا رمز إلى ظهور الهدى والملك في أمّة أمّيّة، وظهور ضلال الكفر في أهل الكتابين،

{ **وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** } هو كالتذييل لذلك كلّه.

الرزق: ما ينتفع به الإنسان فيطلق على الطعام والثمار، ويطلق على أعم من ذلك ممّا ينتفع به، ومن ثمّ سمّيت الدراهم والدنانير رزقا، لأنّ بها يعوّض ما هو رزق. وفي هذا إيماء إلى بشارة للمسلمين بما أخبئ لهم من كنوز الممالك الفارسية والقيصرية وغيرها.

{ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ } [28].

استئناف عقّب به الآي المتقدّمة، المتضمّنة عداء المشركين للإسلام وأهله، وحسد اليهود لهم، وتولّيهم عنه. فالمناسبة أنّ هذه كالنتيجة لما تقدّمها.

نهى الله المؤمنين بعد ما بيّن لهم بغي المخالفين وإعراضهم، أن يتّخذوا الكفّار أولياء من دون المؤمنين، لأنّ اتخاذهم أولياء بعد أن سفّه الآخرون دينهم وسفهوا أحلامهم في اتباعه، يعدّ ضعفا في الدين وتصويبا للمعتدين.

وشاع في اصطلاح القرآن إطلاق وصف الكفر على الشرك، والكافرين والذين كفروا على المشركين. وقد يكون المراد بالكافرين جميع المخالفين في الدين، فلذلك كلّه.

قيل: إنّ الآية نزلت في حاطب بن أبي بلتعه وكان من أفاضل المهاجرين وخلّص المؤمنين، إلاّ أنّه تأوّل فكتب كتابا إلى قريش يعلمهم بتجهّز النبي صلى الله عليه وسلم لفتح مكة.

وقيل: نزلت في أسماء ابنة أبي بكر لما استفتت رسول الله صلى الله عليه وسلم في برّ والدتها وصلتها، أي قبل أن تجيء أمها إلى المدينة راغبة، فإنّه ثبتت في الصحيح أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال لها: **صلي أمك**.

وقيل: نزلت في عمّار بن ياسر لمّا أخذه المشركون فعذّبوه عذابا شديدا، فقال ما أرادوا منه، فكفّوا عنه، فشكا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له: **كيف تجد قلبك** قال: مطمئنا بالإيمان فقال: **فإن عادوا فعد**.

{ **مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ** } أي: مباعدين المؤمنين في الولاية، وهو تقييد للنهي بحسب الظاهر. فيكون المنهي عنه اتخاذ الكافرين أولياء عندما يكون في تولي الكافرين إضرار بالمؤمنين.

وقيل: لا مفهوم لقوله { مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ } لأن آيات كثيرة دلت على النهي عن ولاية الكافرين مطلقا، كقوله { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ } [المائدة:51] وقوله { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ } [المائدة:57]، وإلى هذا الوجه مال الفخر.

{ **وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ** } تصريح بعموم النفي في جميع الأحوال لرفع احتمال تأويل نفي الاتصال بأغلب الأحوال، فالمعنى أنّ فاعل ذلك مقطوع عن الانتماء إلى الله، وهذا ينادى على أنّ المنهي عنه هنا ضرب من ضروب الكفر، وهو الحال التي كان عليها المنافقون، ولذلك قيل: إنّ هذه الآية نزلت في المنافقين.

الموالاة: تكون بالظاهر والباطن وبالظاهر فقط، وتعتورها أحوال تتبعها أحكام، وقد استخلصت من ذلك ثمانية أحوال:

الحالة الأولى: أن يتّخذ المسلم جماعة الكفر، أو طائفته، أولياء له في باطن أمره، ميلا إلى كفرهم، ونواء لأهل الإسلام، وهذه الحالة كفر، وهي حال المنافقين.

الحالة الثانية: الركون إلى طوائف الكفر ومظاهرتهم لأجل قرابة ومحبّة دون الميل إلى دينهم، في وقت يكون فيه الكفار متجاهرين بعداوة المسلمين، مع عدم الانقطاع عن مودة المسلمين. وهذه حالة لا توجب كفر صاحبها، إلاّ أنّ ارتكابها إثم عظيم، لأنّ صاحبها يوشك أن يواليهم على مضرّة الإسلام، لأنّه من الواجب إظهار الحميّة للإسلام، والغيرة عليه، وفي مثلها نزل قوله تعالى { أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ } [المائدة:57].

الحالة الثالثة: كالحالة الثانية ولكن بدون أن يكون طوائف الكفّار متجاهرين ببغض المسلمين ولا بأذاهم، كما كان نصارى العرب عند ظهور الإسلام. وكذلك كان حال الحبشة فإنّهم حموا المؤمنين، وآووهم.

الحالة الرابعة: موالاة طائفة من الكفّار لأجل الإضرار بطائفة معينة من المسلمين مثل الانتصار بالكفار على جماعة من المسلمين، وهذه الحالة أحكامها متفاوتة.

الحالة الخامسة: أن يتّخذ المؤمنون طائفة من الكفّار أولياء لنصر المسلمين على أعدائهم، في حين إظهار أولئك الكفار محبة المسلمين وعرضهم النصرة لهم، وهذه قد اختلف العلماء في حكمها، ففي المدونة قال ابن القاسم: لا يستعان بالمشركين في القتال لقوله عليه السلام لكافر تبعه يوم خروجه إلى بدر: " **ارجع فلن أستعين بمشرك** "، وروى أبو الفرج وعبد الملك بن حبيب، أنّ مالكا قال: لا بأس بالاستعانة بهم عند الحاجة، قال ابن عبد البر: حديث، **لن أستعين بمشرك** ، مختلف في سنده، وقال جماعة: هو منسوخ، واحتج هؤلاء بغزو صفوان بن أمية مع النبيّ صلى الله عليه وسلم، في حنين وفي غزوة الطائف، وهو يومئذ غير مسلم، واحتجّوا أيضا بأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لما بلغه أنّ أبا سفيان يجمع الجموع ليوم أحد قال لبني النضير من اليهود: " **إنّا وأنتم أهل كتاب وإن لأهل الكتاب على أهل الكتاب النصر، فإما قاتلتم معنا وإلا أعرتمونا السلاح** "، وإلى هذا ذهب أبو حنيفة، والشافعي، والليث، والأوزاعي.

الحالة السادسة: أن يتخذ واحد من المسلمين واحدا من الكافرين بعينه وليّا له، لقرابة أو لكمال فيه، من غير أن يكون في ذلك إضرار بالمسلمين، وذلك غير ممنوع، فقد قال تعالى في الأبوين { وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً} [لقمان:15] واستأذنت أسماء النبي صلى الله عليه وسلم في بر والدتها وصلتها، وهي كافرة، فقال لها: " **صلي أمك** ". وعن مالك تجوز تعزية الكافر بمن يموت له. وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يرتاح للأخنس بن شريق الثقفي، لما يبديه من محبة النبيّ، والتردد عليه، وقد نفعهم يوم الطائف إذ صرف بني زهرة، وكانوا ثلاثمائة فارس، عن قتال المسلمين.

الحالة السابعة: حالة المعاملات الدنيوية، كالتجارات، والعهود، والمصالحات، أحكامها مختلفة باختلاف الأحوال وتفاصيلها في الفقه.

الحالة الثامنة: حالة إظهار الموالاة لهم لاتقاء الضرّ وهذه هي المشار إليها بقوله تعالى { إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً }.

{ **إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً** } استثناء منقطع ناشئ عن جملة { فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ } لأنّ الاتقاء ليس ممّا تضمّنه اسم الإشارة، لكنّه أشبه الولاية في المعاملة.

الاتقاء: تجنّب المكروه، وتعديته بحرف (من) إمّا لأنّ الاتقاء تستّر فعدّي بـ (من) كما يعدّى فعل تستّر، وإمّا لتضمينه معنى تخافوا.

{ **تُقَاةً** } اسم مصدر الاتقاء، وأصله وقية.

وفائدة التأكيد هنا، الإشارة إلى تحقّق كون الحالة حالة تقيّة، وهذه التقيّة مثل الحال التي كان عليها المستضعفون من المؤمنين الذين لم يجدوا سبيلا للهجرة، ومثل الحالة التي لقيها مسلمو الأندلس حين أكرههم النصارى على الكفر فتظاهروا به إلى أن تمكّنت طوائف منهم من الفرار، لكن يجب أن تكون التقاة غير دائمة، لأنّها إذا طالت دخل الكفر في الذراري.

{ **وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ** } تحذير من المخالفة ومن التساهل في دعوى التقيّة واستمرارها أو طول زمانها. وانتصاب { نَفْسَهُ } على نزع الخافض وأصله: ويحذركم الله من نفسه، وهذا النزع هو أصل انتصاب الاسمين في باب التحذير في قولهم: إياك الأسد، وأصله أحذّرك من الأسد. وقد جعل التحذير هنا من نفس الله أي ذاته ليكون أعم في الأحوال، والعرب إذا أرادت تعميم أحوال الذات علقت الحكم بالذات. وهذا إعذار وموعظة وتهديد بالعقاب على مخالفة ما نهاهم الله عنه.

{ **وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ** } هو الرجوع، وأريد به البعث بعد الموت، وقد علم مثبتو البعث أنّه لا يكون إلّا إلى الله، فالتقديم في قوله {وَإِلَى اللَّهِ} لمجرّد الاهتمام. وهذا تعريض بالوعيد أكّد به صريح التهديد الذي قبله.

{ قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [29].

انتقال من التحذير المجمل إلى ضرب من ضروب تفصيله، وهو إشعار المحذّرين باطلاع الله على ما يخفونه من الأمر.

الصدور: المراد هنا البواطن والضمائر، جريا على معروف اللغة من إضافة الخواطر النفسية إلى الصدر والقلب.

أو تبدوه: أفاد تعميم العلم، تعليما لهم بسعة علم الله تعالى، لأنّ مقام إثبات صفات الله تعالى يقتضي الإيضاح.

{ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } معطوفة على (قل)، وليست معطوفة على جواب الشرط، لأنّ علم الله بما في السماوات وما في الأرض ثابت مطلقا غير معلق على إخفاء ما في نفوسهم وإبدائه.
{ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } إعلام بأنّه مع العلم ذو قدرة على كل شيء، وهذا من التهديد. وإظهار اسم الله دون ضميره، فلم يقل: وهو على كل شيء قدير، لتكون الجملة مستقلّة فتجري مجرى المثل.

{ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ } [30].

جملة مستأنفة، أصل نظم الكلام فيها: تودّ كل نفس لو أنّ بينها وبين ما عملت من سوء أمدا بعيدا يوم تجد ما عملت من خير محضرا. فقدّم ظرفها على عامله على طريقة عربية مشهورة الاستعمال في أسماء الزمان، إذ كانت هي المقصود من الكلام، قضاء لحق الإيجاز بنسخ بديع. ذلك أنّه إذا كان اسم الزمان هو الأهم في الغرض المسوق له الكلام جيء به منصوبا على الظرفية.
أو أصل الكلام: يحضر لكلّ نفس يوم الإحضار ما عملت من خير وما عملت من سوء، فتود في ذلك اليوم لو أنّ بينها وبين ما عملت من سوء أمدا بعيدا، أي زمانا متأخّرا، وأنّه لم يحضر ذلك اليوم.
أو يكون أصل الكلام: يوم تجد كل نفس ما عملت من خير ومن شر محضرا، تود لو أن بينها وبين ذلك اليوم أمدا بعيدا.
{ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ } يجوز أن يكون تكريرا للتحذير الأوّل لزيادة التأكيد، ويجوز أن يكون الأوّل تحذيرا من موالاة الكافرين، والثاني تحذيرا من أن يجدوا يوم القيامة ما عملوا من سوء محضرا.
والخطاب للمؤمنين ولذلك سمّى الموعظة تحذيرا، لأنّ المحذّر لا يكون متلبسا بالوقوع في الخطر، فإنّ التحذير تبعيد من الوقوع وليس انتشالا بعد الوقوع.
{ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ } تذييل، للتذكير بأنّ هذا التحذير لمصلحة المحذّرين.
العباد: التعريف للاستغراق، لأنّ رأفة الله شاملة لكلّ النّاس مسلمهم وكافرهم، وما وعيدهم إلاّ لجلب صلاحهم، وما تنفيذه بعد فوات المقصود منه إلاّ لصدق كلماته، وانتظام حكمته سبحانه.
ولك أن تجعل (**أل**) عوضا عن المضاف إليه، أي: بعباده، فيكون بشارة للمؤمنين.

{ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [31].

انتقال إلى الترغيب بعد الترهيب على عادة القرآن. والمناسبة أنّ الترهيب المتقدّم ختم بقوله { وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ }، والرأفة تستلزم محبّة المرؤوف به، والمؤمن غاية قصده تحصيل رضا الله عنه ومحبته إياه.

المحبة: انفعال نفساني ينشأ عند الشعور بحسن شيء، من صفات ذاتيّة. أو إحسان، أو اعتقاد أنّه يجب المستحسن ويجر إليه الخير. فإذا حصل ذلك الانفعال عقبه ميل وانجذاب إلى الشيء المشعور بمحاسنه، فيكون المنفعل محِبّا، ويكون المشعور بمحاسنه محبوبا، وتعدّ الصفات التي أوجبت هذا الانفعال جمالا.

فتعليق لزوم اتباع الرسول على محبة الله تعالى لأنّ الرسول دعا إلى ما يأمر الله به وإلى إفراد الوجهة إليه، وذلك كمال المحبة.

{ **يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ** } مجاز أريد به لازم المحبة وهو الرضى وسوق المنفعة ونحو ذلك من تجليّات لله يعلمها سبحانه.

وتعليق محبة الله إياهم على {فَاتَبِعُونِي} المعلّق على قوله { إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ } ينتظم منه قياس شرطي اقتراني. ويدلّ على الحبّ المزعوم إذا لم يكن معه اتباع الرسول فهو حبّ كاذب، لأنّ المحب لمن يحب مطيع.

{ **وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } ولم يذكر متعلّق للصفتين ليكون النّاس ساعين في تحصيل أسباب المغفرة والرحمة

{ **قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ** } [32].

عود إلى الموعظة بطريق الإجمال البحث، فذلكةً للكلام، وحرصا على الإجابة.

{ **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إبراهيم وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ** [33] **ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** } [34].

انتقال من تمهيدات سبب السورة إلى واسطة التمهيد والمقصد، فهذا تخلّص لمحاجّة وفد نجران وقد ذكرناه في أوّل السورة. فابتدئ هنا بذكر آدم ونوح وهما أبوا البشر، أو أحدهما، وذكر إبراهيم وهو أبو المقصودين بالتفضيل وبالخطاب.

آدم: اسم أبي البشر عند جميع أهل الأديان، وهو علَم عليه وضعه لنفسه بإلهام من الله تعالى كما وضع مبدأ اللغة. ولا شك أنّ من أوّل ما يحتاج إليه هو وزوجه أن يعبّر أحدهما للآخر، وظاهر القرآن أنّ الله أسماه بهذا الاسم من قبل خروجه من جنة عدن ولا يجوز أن يكون اسمه مشتقا من الأدمة، وهي اللون المخصوص لأنّ تسمية ذلك اللون بالأدمة خاص بكلام العرب فلعلّ العرب وضعوا اسم ذلك اللون أخذا من وصف لون آدم أبي البشر.

جاء في سفر التكوين من كتاب العهد عند اليهود ما يقتضي، أنّ آدم وجد على الأرض في وقت يوافق سنة (3942 ق م) وأنّه عاش تسعمائة وثلاثين سنة فتكون وفاته في سنة(3012 ق م). والمظنون عند المحقّقين الناظرين في شواهد حضارة البشرية أنّ هذا الضبط لا يعتمد، وأنّ وجود آدم متقادم في أزمنة

مترامية البعد هي أكثر بكثير مما حدّده سفر التكوين.

نوح: فتقول التوراة، إنّه ابن لامك وسمّي عند العرب لمك بن متوشالخ بن أخنوخ (وهو إدريس عند العرب) ابن يارد (بتحتية في أوّله) بن مَهْلَئيل (بميم مفتوحة فهاء ساكنة فلام مفتوحة) بن قينان بن أنوش بن شيت بن آدم. وعلى تقديرها وتقدير سنّي أعمارهم يكون قد ولد سنة (2886 ق م)، والقول فيه كما تقدّم في ضبط تاريخ وجود آدم.

وفي زمن نوح وقع الطوفان على جميع الأرض ونجّاه الله وأولاده وأزواجهم في الفلك فيكون أبا ثانيا للبشر. ومن النّاس من يدّعي أنّ الطوفان لم يعمّ الأرض وعلى هذا الرأي ذهب مؤرخو الصين وزعموا أنّ الطوفان لم يشمل قطرهم فلا يكون نوح عندهم أبا ثانيا للبشر.

وعلى رأي الجمهور فالبشر كلّهم يرجعون إلى أبناء نوح الثلاثة: **سام**، و**حام**، و**يافث**. وهو أوّل رسول بعثه الله إلى النّاس حسب الحديث الصحيح. وعمّر نوح تسعمائة وخمسين سنة على ما في التوراة فهو ظاهر قوله تعالى، {فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً} [العنكبوت:14]. وفي التوراة: أنّ الطوفان حدث وعمر نوح ستمائة سنة، وأنّ نوحا صار بعد الطوفان فلّاحا. قيل: إنّ مدفنه بالعراق في نواحي الكوفة، وقيل: في ذيل جبل لبنان، وقيل: بمدينة الكرك. وسيأتي ذكر الطوفان، في سورة الأعراف، وفي سورة العنكبوت، وذكر شريعته في سورة الشورى، وفي سورة نوح.

الآل: الرهط، و**آل إبراهيم**: أبناؤه وحفيده وأسباطه، والمقصود تفضيل فريق منهم. وشمل آل إبراهيم الأنبياء من عقبه كموسى، ومن قبله، ومن بعده، وكمحمد عليه الصلاة والسلام، وإسماعيل، وحنظلة بن صفوان، وخالد بن سنان.

آل عمران: فهم مريم، وعيسى.

مريم بنت عمران بن ماتان كذا سمّاه المفسرون، وكان من أحبار اليهود، وصالحيهم، وأصله بالعبرانية عمرام (بميم في آخره) فهو أبو مريم، وهو من نسل هارون أخي موسى كما سيأتي قريبا. وفي كتب النصارى، أن اسمه يوهاقيم، فلعلّه كان له اسمان ومثله كثير. وليس المراد عمران والد موسى وهارون.

واصطفاء هؤلاء على العالمين اصطفاء المجموع على غيرهم، أو اصطفاء كل فاضل منهم على أهل زمانه.

{ **ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ** } والذريّة تقدّم تفسيرها عند قوله تعالى { قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي } [البقرة:124].

البعض: أجمل هنا، لأنّ المقصود بيان شدّة الاتصال بين هذه الذريّة. فـ (من) للاتصال لا للتبعيض، فكلّ بعض فيها هو متصل بالبعض الآخر، كما تقدّم { فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ } [28].

والغرض من ذكر هؤلاء تذكير اليهود والنصارى بشدّة انتساب أنبيائهم إلى النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم، فما كان ينبغي أن يجعلوا موجب القرابة موجب عداوة وتفريق.

{ **وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** } أي سميع بأقوال بعضكم في بعض هذه الذريّة، كقول اليهود في عيسى وأمّه، وتكذيبهم، وتكذيب اليهود والنصارى لمحمد صلى الله عليه وسلم.

{ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [35] **فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ** [36] **}.**

امرأة عمران: حنّة بنت فاقوذا، قيل: مات زوجها وتركها حبلى فنذرت حبلها ذلك **محرّرا** أي: مخلّصا لخدمة بيت المقدس، وكانوا ينذرون ذلك إذا كان المولود ذكرا. وإطلاق المحرّر على هذا المعنى إطلاق تشريف لأنّه لمّا خلص لخدمة بيت المقدس فكأنّه حُرّر من أسر الدنيا وقيودها إلى حرية عبادة الله تعالى.

{ **إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى** } تأكيد الخبر بـ (إنّ) مراعاة لأصل الخبرية، وهذا التركيب بما اشتمل عليه من الخصوصيات يحكي ما تضمّنه كلامها في لغتها من المعاني، وهي الروعة والكراهية لولادتها أنثى، ومحاولتها مغالطة نفسها في الإذعان لهذا الحكم، ثم تحقيقها ذلك لنفسها وتطمينها بها، ثمّ التنقّل إلى التحسير على ذلك، فلذلك أودع حكاية كلامها خصوصيات من العربية تعبّر عن معان كثيرة قصدتها في مناجاتها بلغتها.

{ **وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ** } جملة معترضة، وقرأ الجمهور، وضعتْ (بسكون التاء)، وهو حينئذ من كلام الله تعالى، والمقصود منه، أنّ الله أعلم منها بنفاسة ما وضعت. فالكلام إعلام لأهل القرآن بتغليطها، وتعليم بأنّ من فوّض أمره إلى الله لا ينبغي أن يتعقب تدبيره.

وقرأ ابن عامر، وأبو بكر عن عاصم، ويعقوب، بضم التاء، فتكون الجملة من كلامها المحكي، وعليه فاسم الجلالة التفات من الخطاب إلى الغيبة فيكون قرينة لفظية على أنّ الخبر مستعمل في التحسر.

{ **وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى** } خبر مستعمل في التحسّر لفوات ما قصدته من أن يكون المولود ذكرا، فتحرّره لخدمة بيت المقدس. ويجوز أن يكون المعنى، وليس الذكر الذي رغبت فيه بمساو للأنثى التي أعطيتها لو كانت تعلم علو شأن هاته الأنثى ، فتكون جملة { وَلَيْسَ الذَّكَرُ } تكملة للاعتراض.

{ **وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ** } الظاهر أنّها أرادت تسميتها باسم أفضل نبيئة في بني إسرائيل وهي مريم أخت موسى وهارون، وخوّلها ذلك أنّ أباها سَمِيُّ أبي مريم أخت موسى.

{**وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا / وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ** } تكرر التأكيد، إظهارا للرضا بما قدّر الله تعالى، ولذلك انتقلت إلى الدعاء لها الدال على الرضا والمحبة.

{ **فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زكرياء كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زكرياء الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** } [37].

{ **فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً** } تفريع على الدعاء مؤذن بسرعة الإجابة.

{ **فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا** } تقبّل تحريرها لخدمة بيت المقدس، أي: أقامها الله مقام منقطع لله تعالى، ولم يكن ذلك للنساء قبلها، وكل هذا إرهاص بأنّه سيكون منها رسول.

{ **بِقَبُولٍ حَسَنٍ** } الباء فيه للتأكيد، وهذا إظهار للعناية بها في هذا القول.

{ **وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً** } أنشأها إنشاء صالحا. وذلك في الخُلق ونزاهة الباطن، فشبّه إنشاؤها وشبابها بإنبات النبات الغضّ على طريق الاستعارة.

{ **وَكَفَّلَهَا زكرياء** } عدّ هذا في فضائل مريم، لأنّه من جملة ما يزيد فضلها لأنّ أب التربية يُكسب خلُقه وصلاحه مربّاه.

زكرياء: كاهن إسرائيلي، جاءته النبوءة في كبره، وهو ثاني من اسمه زكرياء من أنبياء بني إسرائيل وكان متزوجا امرأة من ذريّة هارون اسمها **اليصابات** وكانت خالة مريم، أو من قرابة أمّها. ولمّا ولدت مريم كان أبوها قد مات فتنازع كفالتها جماعة من أحبار بني إسرائيل ، واقترعوا على ذلك، فطارت القرعة لزكرياء.

{ **كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زكرياء الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً** } دل على كلام محذوف، أي: فكانت مريم ملازمة لخدمة بيت المقدس، وكانت تتعبّد بمكان تتخذه لها محرابا، وكان زكرياء يتعهّد تعبّدها فيرى كرامة لها أنّ عندها ثمارا في غير وقت وجود صنفها.

{ **الْمِحْرَابَ** } بناء يتّخذه أحد ليخلو فيه بتعبّده وصلاته، وأكثر ما يتّخذ في علو يرتقي إليه بسلم أو درج، وهو غير المسجد. وقد قيل: إنّ المحراب مشتق من الحرب لأنّ المتعبّد كأنّه يحارب الشيطان فيه.

وأطلق المحراب عند المسلمين على موضع كشكل نصف قبّة في طول قامة ونصف، يُجعل بموضع القبلة ليقف فيه الإمام للصلاة. وأوّل محراب في الإسلام محراب مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، صنع في خلافة الوليد بن عبد الملك، مدة إمارة عمر بن عبد العزيز على المدينة.

أنّى: استفهام عن المكان، أي من أين لك هذا، فلذلك كان جواب استفهامه قولها { **مِنْ عِنْدِ اللَّهِ** }.

{ **إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** } من كلام مريم المحكي، و**الحساب** بمعنى الحصر، فالمعنى: إنّ الله يرزق من يريد رزقه بما لا يُعرف مقداره لأنّه موكول إلى فضل الله.

{ هُنَالِكَ دَعَا زكرياء رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ } [38].

وقد نبّهه إلى الدعاء مشاهدة خوارق العادة مع قول مريم { إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ }، وأهل النفوس الزكيّة يعتبرون بما يرون ويسمعون، فلذلك عمد إلى الدعاء بطلب الولد، وقد كان في حسرة من عدم الولد، كما حكى الله عنه في سورة مريم. ولم يزل أهل الخير يتوخّون الأمكنة بما حدث فيها من خير، والأزمنة الصالحة كذلك، فهي محال تجلّيات رضا الله.

وسأل الذريّة الطيبة لأنّها التي يُرجى منها خير الدنيا والآخرة بحصول الآثار الصالحة النافعة. ومشاهدة خوارق العادات خوّلت لزكرياء الدعاء بما هو من الخوارق، أو من المستبعدات، لأنّه رأى نفسه غير بعيد عن عناية الله تعالى.

سميع: هنا بمعنى مجيب.

{ فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ [39] **قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ** [40] **قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النّاس ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ** [41] }.

{ **فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ** } الفاء للتعقيب، أي: استجيبت دعوته للوقت.

{ **وَهُوَ قَائِمٌ** } جملة حاليّة، والمقصود من ذكرها بيان سرعة إجابته.

{ **أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى** } يبشّرك بمولود يسمّى يحيى. ويحيى معرّب **يوحنّا** بالعبرانيّة فهو عجمي. وقُتل يحيى في كهولته عليه السلام بأمر هيرودس قبل رفع المسيح بمدّة قليلة.

وقد ضُمّت إلى بشارته بالابن بشارة بطيبه كما رجا زكرياء.

{ **مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ** } حال من يحيى أي كامل التوفيق لا يتردّد في كلمة تأتي من عند الله.

الكلمة: إشارة إلى مجيء عيسى عليه السلام. فقد وُصف عيسى كلمةً من اللهّ لأنّه خُلق بمجرّد أمر التكوين الإلهي المعبّر عنه بكلمة (كن)، وسيجيء عند قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ } [45].

وقيل: الكلمة هنا التوراة، وأطلق عليها الكلمة لأنّ الكلمة تطلق على الكلام.

ولا شك أنّ تصديق الرسول، ومعرفة كونه صادقا بدون تردّد، هدي عظيم من الله لدلالته على صدق التأمّل السريع لمعرفة الحق، وقد فاز بهذا الوصف يحيى في الأوّلين، وخديجة وأبو بكر في الآخرين.

{ **وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ** } السيّد فَيْعِل من ساد يسود إذا فاق قومه في محامد الخصال حتى قدّموه على أنفسهم، واعترفوا له بالفضل. وفي اصطلاح الشرع من يقوم بإصلاح حال النّاس في دنياهم

وأخراهم معا، وفي الحديث: **" أنا سيّد ولد آدم ولا فخر ".**

ووصف الله يحيى بالسيّد لتحصيله الرئاسة الدينيّة فيه من صباه، فنشأ محترما من جميع قومه، قال تعالى { وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً } [مريم: 13/12].

الحصور: فعول بمعنى مفعول مثل رسول، أي: حصور عن قربان النساء. وذكر هذه الصفة في أثناء صفات المدح إمّا أن يكون مدحا له، لما تستلزمه هذه الصفة من البعد عن الشهوات المحرّمة، بأصل الخلقة. وإمّا ألاّ يكون المقصود بذكر هذه الصفة مدحا له، لأنّ من هو أفضل من يحيى من الأنبياء والرسل كانوا مستكملين المقدرة على قربان النساء، فتعيّن أن يكون ذكر هذه الصفة ليحيى إعلاما لزكرياء بأنّ الله وهبه ولدا إجابة لدعوته، وأنّه قد أتم مراده تعالى من انقطاع عقب زكرياء لحكمة علمها، وذلك إظهار لكرامة زكرياء عند الله تعالى.

ووسِّطت هذه الصفة بين صفات الكمال تأنيسا لزكرياء وتخفيفا من وحشته لانقطاع نسله بعد يحيى.

{ **أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ** } استفهام مراد منه التعجّب، وليس من الشك في صدق الوعد، وهو كقول إبراهيم { لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي } [البقرة:260].

{ **وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ** } جاء على طريق القلب، وأصله: وقد بلغت الكبر، وفائدته إظهار تمكّن الكبر منه كقوله تعالى { أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ } [النساء: 78].

العاقر: المرأة التي لا تلد. ولأنّه وصف خاص بالأنثى لم يؤنّث، كقولهم حائض ونافس ومرضع. وفيه تعريض بأن يكون الولد من زوجه العاقر دون أن يؤمر بتزوّج امرأة أخرى وهذه كرامة لامرأة زكرياء.

{ **كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ** } أي: هو تكوين قدّره الله وأوجد أسبابه، ومن أجل ذلك لم يقل هنا: يخلق ما يشاء، كما قاله في جانب تكوين عيسى.

{ **قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً** } الآية: هي العلامة الدالة على ابتداء حمل زوجه.

وقيل: آية تحقّق كون الخطاب الوارد عليه واردا من قبل الله تعالى، وهو ما في إنجيل لوقا. وعندي في هذا نظر، لأنّ الأنبياء لا يلتبس عليهم الخطاب الوارد عليهم من الله ويعلمونه بعلم ضروري.

{ **آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النّاس ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً** } جعل الله حُبْسة لسانه عن الكلام آية على الوقت الذي تحمل فيه زوجته، أو أمره بالامتناع من الكلام مع النّاس.

{ **وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ** } الذّكر بالقلب والصلاة إن كان قد سُلب قوّة النطق، أو الذّكر اللساني إن كان قد نهي عن الكلام فقط. وهو أمر بالشكر

{ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ [42] يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ [43] }.

انتقال من ذكر أمّ مريم إلى ذكر مريم. و**مريم** علم عبراني، وهو في العبرانية بكسر الميم، وهو اسم قديم سمّيت به أخت موسى عليه السلام. وليس في كتب النصارى ذكر لاسم أبي مريم أم عيسى ولا لمولدها ولكنها تبتدئ فجأة بأنّ عذراء في بلد الناصرة مخطوبة ليوسف النجّار، قد حملت من غير زوج. وفي الكشّاف ، مريم في لغة العبرانيين بمعنى العابدة.

{ **اصطفاك** } تكرّر الفعل لأنّ الاصطفاء الأوّل ذاتي، وهو جعلها منزّهة زكية، والثاني بمعنى التفضيل على الغير، فلذلك لم يُعدّ الأوّل إلى متعلّق وعدّي الثاني.

نساء العالمين: نساء زمانها، أو نساء سائر الأزمنة.

وتكليم الملائكة والاصطفاء يدلّان على نبوءتها، والنبوءة تكون للنساء دون الرسالة.

{ **يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي** } إعادة النداء لقصد الإعجاب بحالها، لأنّ النداء الأوّل كفى في تحصيل المقصود من إقبالها لسماع كلام الملائكة.

القنوت: ملازمة العبادة. وقدّم السجود على الركوع، لأنّه أدخل في الشكر، والمقام هنا مقام شكر.

{ **مَعَ الرَّاكِعِينَ** } إذن لها بالصلاة مع الجماعة، وهذه خصوصية لها من بين نساء إسرائيل إظهارا لمعنى ارتفاعها عن بقية النساء، ولذلك جيء في الراكعين بعلامة جمع التذكير.

وهذا الخطاب مقدّمة للخطاب الذي بعده وهو { يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ } [45]، لقصد تأنيسها بالخبر الموالي لأنّه لمّا كان حاصله يجلب لها حزنا وسوء قالة بين النّاس، مهّد له بما يجلب إليها مسرّة، ويوقنها بأنّها بمحل عناية الله، فلا جرم أن تعلم بأنّ الله جاعل لها مخرجا وأنّه لا يخزيها.

{ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ } [44].

{ **وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ** } إيماء إلى خلوّ كتبهم عن بعض ذلك. أي إنّك تخبرهم عن أحوالهم كأنك كنت لديهم.

{ **إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ** } الأقلام التي يكتبون بها التوراة كانوا يقترعون بها في المشكلات، وجعل اليهود الاقتراع بالأقلام التي يكتبون بها التوراة في المدارس رجاء أن تكون بركتها مرشدة إلى ما هو الخير.

وأشارت الآية إلى أنّهم تنازعوا في كفالة مريم، إذ كانت يتيمة كما تقدّم.

وليس لإعمال القرعة في الإسلام إلّا مواضع تمييز الحقوق المتساوية من كل الجهات، وتفصيله في الفقه.

{ إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ [45] وَيُكَلِّمُ النّاس فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ [46]}

بدل اشتمال من جملة { وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ } [42] قصد منه التكرير لتكميل المقول بعد الجمل المعترضة. ولكونه بدلا لم يعطف.

الكلمة: مراد بها كلمة التكوين، ووصف عيسى { بِكَلِمَةٍ مِنْهُ } مراد به كلمة خاصة مخالفة للمعتاد في تكوين الجنين، أي: بدون الأسباب المعتادة.

{ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ } عبّر عن العلم واللقب والوصف بالاسم، لأنّ لثلاثتها أثرا في تمييز المسمّى. فأمّا اللقب والعلم فظاهر. وأمّا الوصف المفيد للنسب فلأنّ السامعين تعارفوا ذكر اسم الأب في ذكر الأعلام للتمييز وهو المتعارف، وتذكر الأمّ في النسب إمّا للجهل بالأب، كقول بعضهم: زياد بن سُميّة قبل أن يُلحق بأبي سفيان في زمن معاوية، وإمّا لأنّ لأمّه مفخرا عظيما كقولهم، عمرو ابن هند، وهو عمرو بن المنذر ملك العرب.

المسيح: كلمة عبرانية بمعنى الوصف، ونقلت إلى العربية بالغلبة على عيسى وقد سمَّى متنصّرة العرب بعض أبنائهم عبد السميح، ومعنى مسيح: ممسوح بدهن المسحة، وهو الزيت المعطّر الذي أمر الله موسى أن يتّخذه ليسكبه على رأس أخيه هارون حينما جعله كاهنا لبني إسرائيل، وصارت كهنة بني إسرائيل يمسحون بمثله من يملّكونهم عليهم من عهد شاول الملك، فصار المسيح عندهم **بمعنى الملك**. فيحتمل أنّ عيسى سُمّي بهذا الوصف كما يسمّون بملِك، ويحتمل أنّه لقب لقّبه به اليهود تهكّما عليه إذ اتهموه بأنّه يحاول أن يصير ملكا على إسرائيل ثم غلب عليه إطلاق هذا الوصف بينهم واشتهر بعد ذلك، فلذلك سمِّي به في القرآن.

الوجيه: ذو الوجاهة، وهي التقدّم على الأمثال، والكرامة بين القوم، وهي وصف مشتقّ من الوجه للإنسان وهو أفضل أعضائه الظاهرة منه، وأجمعها لوسائل الإدراك وتصريف الأعمال، فأطلق على أوّل الشيء على طريقة الاستعارة الشائعة. ويقولون: هو وجه القوم، أي سيّدهم والمقدّم بينهم. قال تعالى في وصف موسى عليه السلام { وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً } [الأحزاب:69].

{ وَيُكَلِّمُ النّاس فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً } المهد: شبه الصندوق من خشب لا غطاء له يمهّد فيه مضجع للصبيّ مدّة رضاعه، يوضع فيه لحفظه من السقوط.

وخصّ تكليمه بحالين، في المهد و كهلا، مع أنّه يتكلّم فيما بين ذلك، لأنّ لذينك الحالين مزيد اختصاص بتشريف الله إيّاه، فأمّا تكليمه النّاس في المهد فلأنّه خارق عادة إرهاصا لنبوءته. وأمّا تكليمهم كهلا فمراد به دعوته النّاس إلى الشريعة. فالتكليم مستعمل في صريحه وفي كنايته باعتبار القرينة المعينة للمعنيين وهي ما تعلّق بالفعل من المجرورين.

الكهل: من دخل في عشرة الأربعين وهو الذي فارق عصر الشباب، والمرأة شهلة بالشين، ولا يقال كهلة كما لا يقال شهل للرجل إلاّ أنّ العرب قديما سموا شهلا مثل شهل بن شيبان الملقب الفِنْد الزِّماني فدلنا ذلك على أنّ الوصف أميت. وقد كان عيسى عليه السلام حين بعث ابن نيف وثلاثين.

{ **وَمِنَ الصَّالِحِينَ** } الذين صفتهم الصلاح لا تفارقهم، والصلاح استقامة الأعمال وطهارة النفس.

{ **قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُون** } [47].

{ **قَالَتْ رَبِّ** } جملة معترضة، من كلامها، بين كلام الملائكة. والنداء للتحسّر وليس للخطاب، لأنّ الذي كلّمها هو الملك، وهي قد توجهت إلى الله.

{ **أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ** } الاستفهام للإنكار والتعجّب، ولذلك أجيب جوابين" أحدهما كذلك الله يخلق ما يشاء فهو لرفع إنكارها، والثاني: إذا قضى أمر، لرفع تعجّبها.

{ **قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُون** } جواب استفهامها ولم تعطف لأنّها جاءت على طريقة المحاورات، والقائل لها هو الله تعالى بطريق الوحي. أي: مثل ذلك الخلق المذكور يخلق الله ما يشاء. وتقديم اسم الجلالة على الفعل في قوله { اللَّهُ يَخْلُقُ } لإفادة تقوّي الحكم وتحقيق الخبر.

وعبّر عن تكوين الله لعيسى بفعل يخلق، لأنّه إيجاد كائن من غير الأسباب المعتادة، فهو خلق أنُفٌ غير ناشئ عن أسباب إيجاد النّاس، فكان لفعل يخلق هنا موقع متعيّن.

{ **وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ** [48] **وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** [49] }.

{ **ويُعَلِّمُهُ** } معطوفة على { وَيُكَلِّمُ النّاس فِي الْمَهْدِ } بعد انتهاء الاعتراض. قرأ نافع، وعاصم، ويعلمه بالتحتية أي يعلمه الله. وقرأه الباقون بنون العظمة، على الالتفات.

الكتاب: مراد به الكتاب المعهود. ويجوز أن يكون الكتاب بمعنى الكتابة.

{ **ورسولا** } نصب رسولا على الحال، وصاحب الحال هو قوله: بكلمة، فهو من بقية كلام الملائكة.

{ **أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآية** } أرسلت إليكم من جانب الله. لأنّ المقصود الإخبار بأنّه رسول لا بأنّه جاء بآية، شبّه أمر الله إيّاه بأن يبلّغ رسالة، بمجيء المرسل من قوم إلى آخرين ولذلك سمّي النبي رسولا.

{ **أَنِّي أَخْلُقُ** } والخلق، حقيقته تقدير شيء بقدر، ويستعمل مجازا مشهورا أو مشتركا في الإنشاء والإبداع على غير مثال ولا احتذاء. وهو هنا مستعمل في حقيقته، أي أقدّر لكم من الطين كهيئة الطير، بمعنى مثل، وليس المراد به خلق الحيوان، بدليل قوله { فَأَنْفُخُ فِيهِ }.

{ **فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ** } جعل لنفسه التقدير، وأسند لله تكوين الحياة فيه، لإظهار العبودية، ونفي توهم المشاركة في خلق الكائنات.

{ **الأكمه** } الأعمى، أو الذي ولد أعمى.

{ **الأبرص** } المصاب بداء البرص وهو داء جلدي، فهو البَهق. وقد اهتمت التوراة بأحكام الأبرص، وأطالت في بيانها، ولهذا كان إعجاز المسيح بإبراء الأبرص أهم المعجزات فائدة عندهم دينا ودنيا.

{ **وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ** } معجزة للمسيح، كنفخ الروح في الطير المصوّر من الطين، فكان إذا أحيا ميّتا كلمه ثم رجع ميّتا، وكلّ ذلك بإذن الله له أن يفعل ذلك.

{ **وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ** } يخبرهم عن أحوالهم التي لا يطّلع عليها أحد، فيخبرهم بما أكلوه في بيوتهم، وما عندهم مدخر فيها.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** } جعل هذه الأشياء كلّها آيات تدعو إلى الإيمان به. والخطاب موجّه منه إلى بني إسرائيل فإنّهم بادروا دعوته بالتكذيب والشتم.

وتعرُّض القرآن لذكر هذه المعجزات تعريض بالنصارى الذين جعلوا منها دليلا على ألوهية عيسى، بعلّة أنّ هذه الأعمال لا تدخل تحت مقدرة البشر، فمن قدر عليها فهو الإله، وهذا دليل سفسطائي أشار الله إلى كشفه بقوله، { بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ } وقوله { بِإِذْنِ اللَّهِ } مرتين. وقد روى أهل السير أنّ نصارى نجران استدلوا بهذه الأعمال لدى النبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ [50] إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ [51] }.

{ **ومُصَدّقا** } حال من ضمير المقدّر معه، وليس عطفا على { ورسولا } لأنّ رسولا من كلام الملائكة، { ومصدّقا } من كلام عيسى بدليل قوله { لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ }.

المصدِّق: المخبر بصدق غيره، وأدخلت اللام على المفعول للتقوية، للدلالة على تصديق مثبت محقّق.

{ **لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ** } ما تقدّم قبلي، لأنّ المتقدّم السابق يمشي بين يدي الجائي، فهو هنا تمثيل لحالة السبق، وإن كان بينه وبين نزول التوراة أزمنة طويلة، لأنّها لمّا اتصل العمل بها إلى مجيئه، فكأنّها لم تسبقه بزمن طويل. والآية تنبيه على أنّ النسخ لا ينافي التصديق، لأنّ النسخ إعلام بتغيّر الحكم. وانحصرت شريعة عيسى في إحياء أحكام التوراة وما تركوه فيها، وهو في هذا كغيره من أنبياء بني إسرائيل، وفي تحليل بعض ما حرّمه الله عليهم رعيا لحالهم في أزمنة مختلفة، وبهذا كان رسولا.

{ **وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ** } تأكيد لقوله الأوّل { أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ }.

{ **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ** } قرأ الجمهور قوله { وأطيعون } بحذف ياء المتكلم في الوصل والوقف، وقرأه يعقوب، بإثبات الياء فيهما.

{ **إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ** } وهي واقعة موقع التعليل للأمر بالتقوى والطاعة كشأنها إذا وقعت لمجرد الاهتمام، فهو لكونه ربّهم حقيق بالتقوى، ولكونه رب عيسى وأرسله تقتضي تقواه طاعة رسوله.

{ **فاعبدوه** } تفريع على الربوبية، فقد جعل { إِنَّ اللَّهَ رَبِّي } تعليلا ثم أصلا للتفريع.

{ **هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ** } الإشارة إلى ما قاله كلّه، أي: أنّه الحقّ الواضح فشبّهه بصراط مستقيم لا يضل سالكه ولا يتحيّر.

{ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ[52] رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ [53] }.

أي أحسّ الكفر من جماعة من الذين خاطبهم بدعوته في قوله { وأطيعون } أي: سمع تكذيبهم إيّاه وأخبر بتمالئهم عليه. و{ **منهم** } متعلّق بـ { أحسّ }.

وطلب النصر لإظهار الدعوة لله، موقف من مواقف الرسل، فقد أخبر الله عن نوح { فدعا ربه أني مغلوب فانتصر} وقال موسى { وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي } [طه:29] وقد عرض النبي صلى الله عليه وسلم نفسه على قبائل العرب لينصروه حتى يبلّغ دعوة ربّه.

{ **قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ** } لعلّه قاله في ملإ بني إسرائيل إبلاغا للدعوة، وقطعا للمعذرة.

النصر: يشمل إعلان الدين والدعوة إليه.

{ **الْحَوَارِيُّونَ** } لقب لأصحاب عيسى عليه السلام، الذين آمنوا به ولازموه، وهو اسم معرّب من النبطية ومفرده حواري، وفسّره علماء العربية بأنّه من يكون من خاصة من يضاف هو إليه ومن قرابته.

وغلب على أصحاب عيسى وفي الحديث قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" لكلّ نبيّ حواريّ وحواريّ الزبير بن العوام".**

والحواريون اثنا عشر رجلا وهم: [سمعان بطرس - أخوه أندراوس - يوحنا بن زبدي - أخوه يعقوب وهؤلاء كلهم صيادو سمك - متى العشّار، - توما - فيلبيس – برثولماوس - يعقوب بن حلفي – لباوس - سمعان القانوي - يهوذا الأسخريوطي].

{ **قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ** } كان جواب الحواريين دالا على أنّهم علموا أنّ نصر عيسى ليس

لذاته بل هو نصر لدين الله، وليس في قولهم، ما يفيد حصر. وقد آمن مع الحواريين أفراد متفرّقون من اليهود، مثل الذين شفى المسيح مرضاهم.

وآمن به من النساء أمّه عليها السلام، ومريم المجدليّة، وأم يوحنا، وحماة سمعان، ويوثا امرأة حوزي وكيل هيرودس، وسوسة، ونساء أخر، ولكن النساء لا تطلب منهن نصرة.

{ **رَبَّنَا آمَنَّا** } من كلام الحواريين بقيّة قولهم، وفرعوا على ذلك الدعاء دعاء بأن يجعلهم الله مع الشاهدين أي: مع الذين شهدوا لرّسل الله بالتبليغ، وبالصدق، وهذا مؤذن بأنّهم تلقوا من عيسى فيما علّمهم إيّاه فضائل من يشهد للرّسل بالصدق.

{ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ } [54].

عطف على جملة { فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ } فإنّه أحسّ منهم الكفر وأحس منهم بالغدر والمكر. وضمير مكروا عائد إلى اليهود وقد بيّن ذلك قوله تعالى { قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ } [الصف:14] .

المكر: فعل يقصد به ضرّ أحد في هيئة تخفى عليه، أو تلبيس فعل الإضرار بصورة النفع. والمراد هنا، تدبير اليهود لأخذ المسيح، وسعيهم لدى ولاة الأمور ليمكّنوهم من قتله. ومكر الله بهم هو تمثيل لإخفاق الله تعالى مساعيهم في حال ظنّهم أن قد نجحت مساعيهم، **وهو هنا مشاكلة**. وجاز إطلاق المكر على فعل الله تعالى دون مشاكلة كما في قوله { أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ } [الأعراف:99]، وبعض أساتذتنا يسمِّي مثل ذلك مشاكلة تقديرية.

{ **وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** } أي أقواهم عند إرادة مقابلة مكرهم بخذلانه إيّاهم. ويجوز أن يكون معنى خير الماكرين، أنّ الإملاء والاستدراج، الذي يقدّره للفجّار والجبابرة والمنافقين، الشبيه بالمكر في أنّه حسن الظاهر سيئ العاقبة، هو خير محض لا يترتّب عليه إلّا الصلاح العام، وإن كان يؤذي شخصا أو أشخاصا، فهو من هذه الجهة مجرّد عما في المكر من القبح، ولذلك كانت أفعاله تعالى منزّهة عن الوصف بالقبح أو الشناعة، لأنّها لا تقارنها الأحوال التي بها تقبح بعض أفعال العباد، من دلالة على سفاهة رأي، أو سوء طويّة، أو جبن، أو ضعف، أو طمع، أو نحو ذلك. أي فإنّ كان في المكر قبح فمكر الله خير محض.

{ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ [55] فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ [56] وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ [57] }.

حكاية لأمر رفع المسيح وإخفائه عن أنظار أعدائه. وقدّم الله في خطابه إعلامه بذلك استئناسا له، إذ لم يتم ما يرغبه من هداية قومه. وتبشيرا له بأنّ الله مظهر دينه، لأنّ غاية همّ الرسول هو الهدى، وإبلاغ الشريعة، فلذلك قال له { وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا }.

{ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ } ظاهر معناه: إنّي مميتك، هذا هو معنى هذا الفعل في مواقع استعماله لأنّ أصل فعل توفّى الشيء أنّه قبضه تاما واستوفاه. فيقال: توفاه الله، أي: قدّر موته، ويطلق التوفّي على النوم مجازا بعلاقة المشابهة في نحو قوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ } [الأنعام:60]. فالكلّ إماتة في التحقيق، وإنّما فصل بينهما العرف والاستعمال.

وأصرح من هذه الآية آية المائدة { فلمّا توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم } [117]، لأنّه دلّ على أنّه قد توفّي الوفاة المعروفة التي تحول بين المرء وبين علم ما يقع في الأرض، وحملها على النوم بالنسبة لعيسى لا معنى له. ولذلك قال ابن عباس، ووهب بن منبه، إنّها وفاة موت، وهو ظاهر قول مالك في جامع العتبيّة. قال مالك: " مات عيسى وهو ابن إحدى وثلاثين سنة ".

وقال الربيع: هي وفاة نوم رفعه الله في منامه، وقال الحسن وجماعة: معناه إنّي قابضك من الأرض، ومخلصك في السماء. وقيل، متوفيك متقبل عملك. والذي دعاهم إلى تأويل معنى الوفاة ما ورد في الأحاديث الصحيحة: أنّ عيسى ينزل في آخر مدة الدنيا.

والوجه <u>أن يحمل قوله تعالى، { إِنِّي مُتَوَفِّيكَ } على حقيقته، وهو الظاهر</u>، وأن تؤوّل الأخبار التي يفيد ظاهرها أنّه حي على معنى حياة كرامة عند الله، كحياة الشهداء وأقوى، وأنّه إذا حمل نزوله على ظاهره دون تأويل، أنّ ذلك يقوم مقام البعث، وأنّ قوله في حديث أبي هريرة: ثم يتوفّى فيصلّي عليه المسلمون، مدرج من أبي هريرة لأنّه لم يروه غيره ممن رووا حديث نزول عيسى، وهم جمع من الصحابة، والروايات مختلفة وغير صريحة. ولم يتعرّض القرآن في عدّ مزاياه إلى أنّه ينزل في آخر الزمان.

{ ومطهّرك } مجازي بمعنى العصمة والتنزيه، لأنّ طهارة عيسى هي هي. ولكن لو سلّط عليه أعداؤه لكان ذلك إهانة له.

{ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا } حذف متعلق كفروا لظهوره، أي: الذين كفروا بك وهم اليهود، لأنّ اليهود ما كفروا

بالله بل كفروا برسالة عيسى، لأنّ عيسى لم يبعث لغيرهم فتطهيره لا يظن أنه تطهير من المشركين بقرينة السياق.

{ **وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا** } بمعنى الظهور والانتصار، وهي فوقية دنيويّة بدليل قوله تعالى { إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَة }، والمراد بالذين اتبعوه: الحواريّون ومن اتّبعه بعد ذلك، إلى أن نسخت شريعته بمجيء محمد صلى الله عليه وسلم.

{ **ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ** } عطف على { وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا } إذ مضمون كلتا الجملتين من شأن جزاء الله متّبعي عيسى والكافرين به.

ثمّ: للتراخي الرتبي، لأنّ الجزاء الحاصل عند مرجع النّاس إلى الله يوم القيامة، مع ما يقارنه من الحكم بين الفريقين فيما اختلفوا فيه، أعظم درجة وأهمّ من جعل متّبعي عيسى فوق الذين كفروا في الدنيا.

والظاهر أنّ هذه الجملة مما خاطب الله به عيسى، وأنّ ضمير (مرجعكم)، وما معه من ضمائر المخاطبين، عائد إلى عيسى والذين اتّبعوه والذين كفروا به.

المرجع: مصدر ميمي معناه الرجوع. وحقيقة الرجوع غير مستقيمة هنا فتعيّن أنّه رجوع مجازي، فيجوز أن يكون المراد به البعث للحساب بعد الموت، وإطلاقه على هذا المعنى كثير في القرآن بلفظه وبمرادفه نحو المصير.

{ **فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ** - إلى قوله - **فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ** } تفصيل لما أجمل في قوله { فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ }. وإنّما يكون ذلك في الآخرة، فذكر عذاب الدنيا هنا إدماج. فإن كان هذا ممّا خاطب الله عيسى فهو مستعمل في صريح معناه، وإن كان كلاما من الله في القرآن خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون، صح أن يكون مرادا منه أيضا التعريض بالمشركين في ظلمهم محمدا صلى الله عليه وسلم عن مكابرة منهم وحسد.

{ **وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ** } أنّهم لا يجدون ناصرا يدفع عنهم ذلك وإن حاوله لم يظفر به.

{ **فيوفيهم** } وقرأ الجمهور { فنوفيهم } بالنون وقرأه حفص عن عاصم، ورويس عن يعقوب { فيوفّيهم } بياء الغائب على الالتفات. والتقدير: فيوفيهم أجورهم في الدنيا والآخرة. وتوفية الأجور في الدنيا تظهر في أمور كثيرة، منها رضا الله عنهم، وبركاته معهم، والحياة الطيبة، وحسن الذكر.

{ **وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ** } تذييل للتفصيل، أي: أعذبهم لأنّهم ظالمون والله لا يحب الظالمين. ومعنى كونهم ظالمين أنّهم ظلموا أنفسهم بكفرهم، وظلم النصارى اللهَ بأن نقّصوه، بإثبات ولد له، وظلموا عيسى بأن نسبوه ابنا لله تعالى، وظلمه اليهود بتكذيبهم إيّاه وأذاهم.

<u>وعذاب الدنيا</u> هو زوال الملك وضرب الذلّة والمسكنة والجزية، والتشريد في الأقطار، وكونهم يعيشون تبعا للناس، <u>وعذاب الآخرة</u> هو جهنم.

{ **ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ** } [58].

تذييل، فإنّ الآيات والذكر أعمّ من الذي تلي هنا. أي: إنّ تلاوة ذلك عليك من آيات صدقك في دعوى الرسالة، فإنّك لم تكن تعلم ذلك، وهو ذكر وموعظة للناس.

الحكيم: بمعنى المُحكم، أو هو مجاز عقلي، أي: الحكيم عالمه أو تاليه.

{ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** [59] **الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ** [60] }.

استئناف بياني، بيّن به ما نشأ من الأوهام، عند النصارى، عن وصف عيسى بأنّه كلمة من الله، فضلُّوا بتوهّمهم أنّه ليس خالص النّاسوت. وهذا شروع في إبطال عقيدة النصارى من تأليه عيسى، وردّ مطاعنهم في الإسلام، وهو أقطع دليل بطريق الإلزام، لأنّهم قالوا بإلهيّة عيسى من أجل أنّه خلق بكلمة من الله وليس له أب، فقالوا: هو ابن الله، فأراهم الله أنّ آدم أولى بأن يدعى له بذلك، فإذا لم يكن آدم إلاها مع أنّه خلق بدون أبوين فعيسى أولى بالمخلوقيّة من آدم.

وإنّما قال: عند الله، أي: نسبته إلى الله لا يزيد على آدم في كونه خلقا غير معتاد لكم، لأنّهم جعلوا خلقه العجيب موجبا للمسيح نسبة خاصة عند الله، وهي البنوّة.

{ **فيكون** } ولم يقل: فكان لاستحضاره صورة تكوُّنه، ولا يحمل المضارع في مثل هذا إلاّ على هذا المعنى، وحمله على غير هذا هنا لا وجه له.

{ **الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ** } خبر مبتدأ محذوف، أي: هذا الحق. ومن ربك حال من الحق.

{ **فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ** } الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمقصود التعريض بغيره، والمعرَّض بهم هنا هم النصارى الممترون الذين امتروا في الإلهيّة بسبب تحقّق أن لا أب لعيسى.

{ **فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ** } [61].

تفريع على قوله { الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فلا تكن من الممترين } لما فيه من إيماء إلى أنّ وفد نجران ممترون في هذا الذي بيّن الله لهم في هذه الآيات، أي: فإن استمروا على محاجّتهم إيّاك مكابرة في هذا الحقّ أو في شأن عيسى فادعهم إلى المباهلة والملاعنة.

{ **تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ** } ائتوا وادعوا أبناءكم ونحن ندعو أبناءنا.

الابتهال: مشتقّ من البَهْل وهو الدعاء باللعن، ويطلق على الاجتهاد في الدعاء مطلقا لأنّ الداعي باللعن يجتهد في دعائه، والمراد في الآية المعنى الأوّل.

{ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ } فندع بإيقاع اللعنة على الكاذبين. وهذا الدعاء إلى المباهلة إلجاءٌ لهم إلى أن يعترفوا بالحقّ أو يكفّوا. روى المفسّرون وأهل السيرة أنّ وفد نجران لمّا دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الملاعنة قال لهم العاقب: نلاعنه، فوالله لئن كان نبيّا فلاعننا لا نفلح أبدا ولا عقبنا من بعدنا، فلم يجيبوا إلى المباهلة وعدلوا إلى المصالحة كما سيأتي.

ولعلّها المباهلة من طرق التناصف عند النصارى فدعاهم إليها النبيّ صلى الله عليه وسلم لإقامة الحجّة عليهم.

وإنّما جمع في الملاعنة الأبناء والنساء، لأنّه لمّا ظهرت مكابرتهم في الحقّ وحب الدنيا، علم أنّ من هذه صفته يكون أهله ونساؤه أحبّ إليه من الحقّ.

والظاهر أنّ المراد بضمير المتكلّم المشارك أنّه عائد إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم، ومن معه من المسلمين، وأبناء أهل الوفد ونساؤهم اللائي كنّ معهم.

النساء: الأزواج لا محالة، وهو إطلاق معروف عند العرب إذا أضيف لفظ النساء إلى واحد أو جماعة.

الأنفس: أنفس المتكلمين وأنفس المخاطبين ،

الأبناء: فيحتمل أنّ المراد شبّانهم، ويحتمل أنّه يشمل الصبيان، والمقصود أن تعود عليهم آثار الملاعنة. وهذه دعوة إنصاف لا يدعو لها إلاّ واثق بأنّه على الحقّ. وهذه المباهلة لم تقع لأنّ نصارى نجران لم يستجيبوا إليها. وقد روى أبو نعيم في الدلائل أنّ النبيّ هيّأ عليّا وفاطمة وحسنا وحسينا ليصحبهم معه للمباهلة. ولم يذكروا فيه إحضار نسائه ولا إحضار بعض المسلمين.

{ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [62] فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ [63] }.

أي هذا هو القصص الحقّ، لا ما تقصّه كتب النصارى وعقائدهم .

القَصص: بفتح القاف والصاد اسم لما يُقَصّ. والقَصّ أخصّ من الإخبار، فإنّ القصّ إخبار بخبر فيه طول وتفصيل وتسمّى الحادثة التي من شأنها أن يخبر بها قِصّة بكسر. قال تعالى { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ } [يوسف:3].

{ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ } تأكيد لحقيَّة هذا القصص. ودخلت (من) الزائدة بعد حرف النفي تنصيصا على قصد نفي الجنس لتدلّ الجملة على التوحيد ونفي الشريك بالصراحة، ودلالة المطابقة.

{ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } أفاد تقوية الخبر عن الله تعالى بالعزّة والحكم، والمقصود إبطال إلهيّة المسيح على حسب اعتقاد المخاطبين من النصارى، فإنّهم زعموا أنّه قتله اليهود وذلك ذلّة وعجز لا يلتئمان مع الإلهيّة، فكيف يكون إله وهو غير عزيز وهو محكوم عليه، وهو أيضا لإبطال لإلهيّته على اعتقادنا، لأنّه كان محتاجا لإنقاذه من أيدي الظالمين.

{ **فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ** } هذا تسجيل عليهم إذ نكصوا عن المباهلة، وقد علم بذلك أنّهم قصدوا المكابرة ولم يتطلّبوا الحقّ. روي أنّهم لمّا أبوا المباهلة قال لهم النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **فإن أبيتم فأسلموا** " فأبوا، فقال: " **فإن أبيتم فأعطوا الجزية عن يد** " فأبوا، فقال لهم: " **فإنّي أنبذ إليكم على سواء** " أي: أترك لكم العهد الذي بيننا، فقالوا: " ما لنا طاقة بحرب العرب، ولكنّا نصالحك على ألا تغزونا ولا تخيفنا ولا تردنا عن ديننا (أي بالإكراه) على أن نؤدّي إليك كل عام ألفيّ حلّة حمراء، ألفا في صفر وألفا في رجب، وثلاثين درعا عاديّة من حديد ". وطلبوا منه أن يبعث معهم رجلا أمينا يحكم بينهم فقال: " **لأبعثنّ معكم أمينا حقَّ أمينٍ** "، فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، ولم أقف على ما دعاهم إلى طلب أمين ولا على مقدار المدة التي مكث فيها أبو عبيدة بينهم.

{ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** } [64].

رجوع إلى المجادلة، بعد انقطاعها بالدعاء إلى المباهلة، بعث عليه الحرص على إيمانهم، وإشارة إلى شيء من زيغ أهل الكتابين عن حقيقة إسلام الوجه لله كما تقدّم بيانه. وقد جيء في هذه المجادلة بحجّة لا يجدون عنها موئلا، وهي دعوتهم إلى تخصيص الله بالعبادة ونبذ عقيدة إشراك غيره في الإلهيّة.

{ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ** } بمنزلة التأكيد لجملة { فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا } لأنّ مدلول الأولى احتجاج عليهم بضعف ثقتهم بأحقيّة اعتقادهم، ومدلول هذه احتجاج عليهم بصحة عقيدة الإسلام، ولذلك لم تعطف هذه الجملة. والمراد بأهل الكتاب هنا النصارى، لأنّهم هم الذين اتخذوا المخلوق ربا وعبدوه مع الله.

{ **تَعَالَوْا** } مستعملة هنا في طلب الاجتماع على كلمة سواء وهو تمثيل، جعلت الكلمة المجتمع عليها بشبه المكان المراد الاجتماع عنده.

{ **كَلِمَةٍ** } أطلقت هنا على الكلام الوجيز كما في قوله { كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا } [المؤمنون: 100].

{ **سَوَاءٍ** } هنا اسم مصدر الاستواء، قيل بمعنى العدل، وقيل بمعنى قصد لا شطط فيها، وهذان يكونان من قولهم: مكان سَواء وسِوَى وسُوى بمعنى متوسّط، قال { فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ } [الصافات:55].

{ **أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ** } بدل من { كلمة }، يستفاد منه التعريض بالذين عبدوا المسيح كلِّهم.

{ **فَإِنْ تَوَلَّوْا** } جيء في هذا الشرط بحرف **(إن)** لأنّ التولّي بعد نهوض هذه الحجّة وما قبلها من الأدلة غريب الوقوع.

{ **فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** } معنى هذا الإشهاد التسجيل عليهم لئلّا يُظهروا إعراض المسلمين عن الاسترسال في محاجّتهم في صورة العجز والتسليم بأحقيّة ما عليه أهل الكتاب، فهذا معنى الإشهاد عليهم بأنّا مسلمون.

{ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إبراهيم وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ [65] هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ [66] }.

استئناف ابتدائي للانتقال من دعائهم لكلمة الحقّ الجامعة لحقّ الدين، إلى الإنكار عليهم محاجّتهم الباطلة للمسلمين في دين إبراهيم.

فيجوز أن تكون هذه الجملة من مقول القول المأمور به الرسول في قوله تعالى، { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا }، أي: قل لهم، يا أهل الكتاب لم تحاجّون. ويجوز أن يكون الاستئناف من كلام الله تعالى، فيكون توجيه خطاب إلى أهل الكتاب مباشرة، ويكون جعل الجملة الأولى من مقول الرسول دون هذه لأنّ الأولى من شؤون الدعوة، وهذه من طرق المحاجّة.

ومناسبة الانتقال من الكلام السابق إلى هذا الكلام نشأت من قوله { فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} لأنّه قد شاع فيما نزل من القرآن في مكّة وبعدها أنّ الإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم يرجع إلى الحنيفيّة دين إبراهيم، وقد اشتهر هذا وأعلن بين المشركين في مكّة، وبين اليهود في المدينة، وبين النصارى في وفد نجران، وقد عُلم أنّ المشركين بمكة كانوا يدّعون أنّهم ورثة شريعة إبراهيم وسدنة بيته، وكان أهل الكتاب قد ادّعوا أنّهم على دين إبراهيم، ولم يتبيّن لي أكان ذلك منهم ادعاء قديما أم كانوا قد تفطنوا إليه من دعوة محمد صلى الله عليه وسلم، فاستيقظوا لتقليده في ذلك، أم كانوا قالوا ذلك على وجه الإفحام للرّسول حين حاجّهم بأنّ دينه الحقّ، وأنّ الدين عند الله الإسلام.

وأحسب أنّ ادعاءهم أنّهم على ملّة إبراهيم إنّما انتحلوه لبث كلّ من الفريقين الدعوة إلى دينه بين العرب، ولاسيما النصرانيّة، فإن دعاتها كانوا يحاولون انتشارها بين العرب فلا يجدون شيئا يَرُوج عندهم سوى أن يقولوا: إنّها ملّة إبراهيم، ومن أجل ذلك اتُّبعت في بعض قبائل العرب.

روي أنّ وفد نجران قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم، حين دعاهم إلى اتباع دينه: " على أي دين أنت " قال: **"على ملّة إبراهيم "** قالوا: " فقد زدت فيه ما لم يكن فيه ". فعلى هذه الرواية يكون المخاطب بأهل الكتاب هنا خصوص النصارى كالخطاب الذي قبله.

وروي أنّه تنازعت اليهود ونصارى نجران بالمدينة، عند النبيّ صلى الله عليه وسلم، فأدّعى كلّ فريق أنّه على دين إبراهيم دون الآخر، فيكون الخطاب لأهل الكتاب كلّهم، من يهود ونصارى.

{ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ } <u>يكون على حسب الرواية الأولى</u> منعا لقولهم: فقد زدت فيه ما ليس منه، وتفصيل هذا المنع: إنّكم لا قبل لكم بمعرفة دين إبراهيم، فمن أين لكم أنّ الإسلام زاد فيما جاء به على دين إبراهيم، فإنّكم لا مستند لكم في عملكم بأمور الدين إلّا التوراة والإنجيل، وهما قد نزلا

من بعد إبراهيم، فمن أين يعلم ما كانت شريعة إبراهيم حتى يعلم المزيد عليها، وذكر التوراة على هذا لأنّها أصل الإنجيل.

ويكون على حسب الرواية الثانية نفيا لدعوى كلّ فريق منهما أنّه على دين إبراهيم، بأنّ دين اليهود هو التوراة، ودين النصارى هو الإنجيل، وكلاهما نزل بعد إبراهيم، فكيف يكون شريعة له.

{ **هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ** } تقدم نظيره عند قوله تعالى { ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ } [البقرة:85]. تنبيه، وأصل: الكلام أنتم حاججتم، وإنّما يجيء مثل هذا التركيب في محل التعجّب والتنكير والتنبيه ونحو ذلك، ولذلك يؤكّد غالبا باسم إشارة بعده فيقال: ها أنا ذا، وها أنتم أولاء أو هؤلاء .

{ **وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ** } تكميل للحجّة، أي: أنّ القرآن الذي هو من عند الله أثبت أنّه ملّة إبراهيم، وأنتم لم تهتدوا لذلك لأنّكم لا تعلمون.

{ **مَا كَانَ إبراهيم يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** } [67].

نتيجة للاستدلال، إذ قد تحصحص من الحجّة الماضية أنّ اليهودية والنصرانية غير الحنيفيّة، وأنّ موسى وعيسى، عليهما السلام، لم يخبرا بأنّهما على الحنيفيّة، فأنتج أنّ إبراهيم لم يكن على حال اليهودية أو النصرانية، إذ لم يؤثر ذلك عن موسى ولا عيسى، عليهما السلام، فهذا سنده خلو كتبهم عن ادعاء ذلك. وكيف تكون اليهودية أو النصرانية من الحنيفيّة مع خلوها من فريضة الحجّ.

الحنيف: تقدّم عند قوله تعالى { قُلْ بَلْ مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفاً } [البقرة:135].

{ **وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً** } أفاد الاستدراك بعد نفي الضدّ حصرا لحال إبراهيم فيما يوافق أصول الإسلام، ولذلك بيّن حنيفا بقوله { مُسْلِماً } لأنّهم يعرفون معنى الحنيفيّة ولا يؤمنون بالإسلام، فأعلمهم أنّ الإسلام هو الحنيفيّة.

{ **وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** } فنفي عن إبراهيم موافقة اليهودية، وموافقة النصرانية، وموافقة المشركين، وإنه كان مسلما. ولييأس مشركو العرب من أن يكونوا على ملّة إبراهيم، وحتّى لا يتوهّم متوهّم أن القصر المستفاد من قوله: ولكن حنيفا مسلما قصر إضافي بالنسبة لليهودية والنصرانية، حيث كان العرب يزعمون أنهم على ملة إبراهيم لكنّهم مشركون.

{ **إِنَّ أَوْلَى النّاس بِإبراهيم لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ** } [68].

استئناف ناشئ عن نفي اليهودية والنصرانية عن إبراهيم، فليس اليهود ولا النصارى ولا المشركون بأولى النّاس به، وهذا يدل على أنّهم كانوا يقولون، نحن أولى بدينكم.

{ **أَوْلَى** } اسم تفضيل، أي: أشد وَلْيًا أي قُربا، مشتق من **وَلِيَ** إذا صار وليًّا، وعدّي بالباء لتضمّنه معنى الاتصال، أي: أخصّ النّاس بإبراهيم وأقربهم منه. ومن المفسرين من جعل أولى هنا بمعنى أجدر فيضطر إلى تقدير مضاف أي بدين إبراهيم.

{ **لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ** } هم الذين اتبعوه في حياته، مثل لوط وإسماعيل وإسحاق، ولا اعتداد بمحاولة الذين حاولوا اتّباع الحنيفيّة ولم يهتدوا إليها، مثل زيد بن عمرو بن نُفَيْل، وأمية ابن أبي الصَّلت، وأبيه أبي الصَّلت، وأبي قيس صِرْمة بن أبي أنس من بني النجار، وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" كاد أميّة بن أبي الصَّلت أن يسلم "**، وهو لم يدرك الإسلام فالمعنى كاد أن يكون حنيفا. وفي صحيح البخاري عن أسماء بنت أبي بكر قالت: رأيت زيد بن عمرو بن نُفَيْل قبل الإسلام مسندا ظهره إلى الكعبة وهو يقول: " يا معشر قريش ليس منكم على دين إبراهيم غيري ". ويُروى أنّه كان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول: " الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء الماء وأنبت لها من الأرض ثم تذبحونها على غير اسم الله ".

{ **وهذا النَّبيُّ** } اسم الإشارة مستعمل مجازا في المشتهر بوصف بين المخاطبين. ويجوز أن تكون الإشارة مستعملة في حضور المتكلِّم باعتبار كون النبيّ هو الناطق بهذا الكلام. وعطف النبيّ على الذين اتبعوا إبراهيم للاهتمام به، وفيه إيماء إلى أنّ متابعته إبراهيم عليه السلام ليست متابعة عامة فكون الإسلام من الحنيفيّة أنّه موافق لها في أصولها.

{ **وَالَّذِينَ آمَنُوا** } المراد المسلمون. فالمقصود معناه اللقَبي، فإن وصف الذين آمنوا صار لقبا لأمّة محمد صلى الله عليه وسلم، ولذلك كثر خطابهم في القرآن بـ (يأيّها الذين آمنوا).

ووجه كون هذا النبي والذين آمنوا أولى النّاس بإبراهيم، مثل الذين اتبعوه، إنّهم قد تخلّقوا بأصول شرعه، وعرفوا قدره، وكانوا له لسان صدق دائبا بذكره، فهؤلاء أحقّ به ممّن انتسبوا إليه لكنّهم نقضوا أصول شرعه وهم المشركون، ومن الذين انتسبوا إليه وأنسوا ذكر شرعه، وهم اليهود والنصارى. ومن هذا المعنى قول النبيّ صلى الله عليه وسلم، لما سأل عن صوم اليهود يوم عاشوراء فقالوا: " هو يوم نجّى الله فيه موسى " فقال: **" نحن أحقّ بموسى منهم "** وصامه وأمر المسلمين بصومه.

{ **وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ** } تذييل، أي هؤلاء هم أولى النّاس بإبراهيم، والله ولي إبراهيم، والذين اتبعوه، وهذا النبيّ، والذين آمنوا. وفيه تعريض بأنّ الذين لم يكن إبراهيم منهم ليسوا بمؤمنين.

{ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ } [69].

استئناف مناسبته قوله { فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ }. والمراد بأهل الكتاب هنا اليهود خاصة، ولذلك عبّر عنهم بطائفة من أهل الكتاب. والمراد بالطائفة جماعة منهم من **قريظة**، و**النضير**، و**قينُقاع**، دعوا عمّار بن ياسر، ومعاذ بن جبل، وحذيفة بن اليمان، إلى الرجوع إلى الشرك.

{ **لَوْ يُضِلُّونَكُمْ** } جملة مبيّنة لمضمون جملة ودّت على طريقة الإجمال والتفصيل. فـ (لو) شرطية

مستعملة في التمنّي مجازا، لأنّ التمنّي من لوازم الشرط الامتناعي. أي: ودّوا إضلالكم، وهو يحتمل أنّهم ودّوا أن يجعلوهم على غير هدى في نظر أهل الكتاب، أي يُذبذبوهم. ويحتمل أنّ المراد أن يهوّدوهم.
{ **وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ** } على المعنى الأوّل، إنّهم إذا أضلّوا النّاس فقد صاروا هم أيضا ضالين، لأنّ الإضلال ضلال، وعلى المعنى الثاني، إنّهم كانوا من قبل ضالين برضاهم بالبقاء على دين منسوخ.
{ **وَمَا يَشْعُرُونَ** } يناسب الاحتمالين لأنّ العلم بالحالتين دقيق.

{ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ [70] يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ [71] }.

التفات إلى خطاب اليهود. والاستفهام إنكاري. والآيات: المعجزات، ولذلك قال: وأنتم تشهدون. وإعادة ندائهم بقوله: { **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ** } ثانية لقصد التوبيخ وتسجيل باطلهم عليهم.
لبس الحق بالباطل: تلبيس دينهم بما أدخلوا فيه من الأكاذيب والخرافات والتأويلات الباطلة، حتى ارتفعت الثقة بجميعه.
كتمان الحق: يحتمل أنّ يراد به كتمانهم تصديق محمد صلى الله عليه وسلم، ويحتمل أن يراد به كتمانهم ما في التوراة من الأحكام التي أماتوها وعوّضوها بأعمال أحبارهم وآثار تأويلاتهم، وهم يعلمونها ولا يعملون بها.

{ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [72] وَلا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ [73] يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ [74] }.

عطف على { وَدَّتْ طَائِفَةٌ }. فالطائفة الأولى حاولت الإضلال بالمجاهرة، وهذه الطائفة حاولته بالمخادعة. قيل أشير إلى طائفة من اليهود منهم كعب بن الأشرف، ومالك بن الصيف، وغيرهما من يهود خيبر، أغواهم العجب بدينهم فتوهّموا أنّهم قدوة للنّاس، فلمّا أعيتهم المجاهرة بالمكابرة دبّروا للكيد مكيدة أخرى، فقالوا لطائفة من أتباعهم: آمنوا بمحمّد أوّل النهار مظهرين أنّكم صدّقتموه ثمّ اكفروا آخر النّهار ليظهر أنّكم كفرتم به عن بصيرة وتجربة، فيقول المسلمون ما صرف هؤلاء عنّا إلاّ ما انكشف لهم من حقيقة أمر هذا الدين، وأنّه ليس هو الدين المبشّر به في الكتب السالفة ففعلوا ذلك.

{ **أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا** } يحتمل أنّه من لفظ الحكاية بأن يكون اليهود قالوا: آمنوا بالذي أنزل على أتباع محمد، فحوّله الله تعالى فقال: على الذين آمنوا تنويها بصدق إيمانهم. ويحتمل أنّه من المحكي بأن يكون اليهود أطلقوا هذه الصلة على أتباع محمد إذ صارت علما بالغلبة عليهم.

وجه النهار: أوله.

{ **وَلا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ** } من كلام الطائفة من أهل الكتاب قصدوا به الاحتراس ألّا يظنّوا من قولهم: آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار أنّه إيمان حق، فالمعنى: ولا تؤمنوا إيمانا حقا إلّا لمن تبع دينكم.

{ **قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ** } كلام معترض، أمر النبيّ عليه الصلاة والسلام أن يقوله لهم. كناية عن استبعاد حصول اهتدائهم.

{ **أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُم** } أشكل موقع هذه الآية بعد سابقتها، وصفَ نظمها، ومصرَف معناها، إلى أيّ فريق. وقال القرطبي: إنّها أشكل آية في هذه السورة. وذكر ابن عطية وجوها ثمانية ترجع إلى احتمالين أصليين:

الاحتمال الأول: أنّها تكملة لمحاورة الطائفة من أهل الكتاب بعضهم بعضا، وأنّ جملة { قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ } معترضة في أثناء ذلك الحوار، وعلى هذا الاحتمال تأتي وجوه نقتصر منها على وجهين واضحين:

<u>الوجه الأوّل</u>: أنّهم أرادوا تعليل قولهم { وَلا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ } على أنّ سياق الكلام يقتضي إرادتهم استحالة نسخ شريعة التوراة، واستحالة بعثة رسول بعد موسى. فتقدير الكلام: لأن لا يُؤتى أحد مثل ما أوتيتم. والمعنى: أنّ قصدهم من هذا الكلام تثبيت أنفسهم على ملازمة دين اليهودية، لأنّ اليهود لا يجوّزون نسخ أحكام الله ويتوهّمون أنّ النسخ يقتضي البداء.

<u>الوجه الثاني</u>: أنّهم أرادوا إنكار أن يؤتى أحد بالنبوّة كما أوتيها أنبياء بني إسرائيل، فيكون الكلام استفهاما إنكاريّا حذفت منه أداة الاستفهام لدلالة السياق، ويؤيّده قراءة ابن كثير قوله { أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ } بهمزتين.

وأمّا قوله { أو يحاجّوكم } عند ربكم فحرف(أو) فيه للتقسيم، وما بعده معطوف على النفي، أو على الاستفهام الإنكاري، على اختلاف التقديرين، والمعنى: ولا يحاجّوكم عند ربكم، أو وكيف يحاجّوكم عند ربكم، أي لا حجّة لهم عليكم عند الله.

وفائدة الاعتراض في أثناء كلامهم المبادرة بما يفيد ضلالهم لأن الله حرمهم التوفيق.

الاحتمال الثاني: أن تكون الجملة ممّا أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّ يقوله لهم بقيّة لقوله: إّن الهدى هدى الله.

والكلام على هذا ردّ على قولهم، على طريقة اللف والنشر المعكوس، فقوله { أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ} إبطال لقولهم { وَلا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ }، أي: قلتم ذلك حسدا من { أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا

أُوتِيتُمْ } وقوله { أو يحاجّوكم } ردّ لقولهم { آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ} على طريقة التهكّم، أي: مرادكم التنصّل من أن يحاجّوكم، أي الذين آمنوا ،عند الله يوم القيامة، فجمعتم بين الإيمان بما آمن به المسلمون، حتى إذا كان لهم الفوز يوم القيامة لا يحاجّونكم عند الله بأنكم كافرون، وإذا كان الفوز لكم كنتم قد أخذتم بالحزم إذ لم تبطلوا دين اليهودية، وعلى هذا فواو الجماعة في قوله تعالى { أو يحاجوكم } عائد إلى الذين آمنوا.

والاحتمال الثاني أنسب نظما بقوله تعالى { قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ } ليكون لكلّ كلام حُكي عنهم تلقين جواب عنه.

{ **أحد** } اسم نكرة غلب استعمالها في سياق النفي ومعناها شخص أو إنسان، وهو معدود من الأسماء التي لا تقع إلّا في حيّز النفي فيفيد العموم، وندر وقوعه في حيز الإيجاب، وهمزته مبدلة من الواو وأصله وحد بمعنى: واحد، ويرد وصفا بمعنى واحد.

{ **قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ** } زيادة تذكير لهم وإبطال لإحالتهم أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم رسولا من الله، وتذكير لهم على طرح الحسد على نعم الله تعالى، أي: كما أعطى الله الرسالة موسى كذلك أعطاها محمدا. وتأكيد الكلام بـ **(إنّ)** لتنزيلهم منزلة من ينكر أنّ الفضل بيد الله ومن يحسب أنّ الفضل تبع لشهواتهم.

{ **وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** } عطف على جملة { إنّ الفضل بيد الله }.

{ **واسع** } اسم فاعل الموصوف بالسعة. يقال أرض واسعة وثوب واسع، ويطلق الاتساع وما يشتق منه على وفاء الشيء بالعمل الذي يعمله نوعه دون مشقة، يقال: فلان واسع البال، وواسع العطاء، فتدلّ على شدّة أو كثرة ما يسند إليه أو يوصف به أو يتعلق به من أشياء ومعان، وشاع ذلك حتى صار معنى ثانيا.

و{ واسع } من صفات الله وأسمائه الحسنى وهو بالمعنى المجازي لا محالة، ومعنى هذا الاسم عدم تناهي التعلّقات لصفاته ذات التعلّق فهو واسع العلم، واسع الرحمة، واسع العطاء، فسعة صفاته تعالى لا حدّ لتعلّقاتها. فهو أحق الموجودات بوصف واسع، لأنّه الواسع المطلق.

فوصفه في هذه الآية بأنّه واسع، هو سعة الفضل لأنّه وقع تذييلا لقوله { ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء }. وأحسب أنّ وصف الله بصفة واسع في العربية من مبتكرات القرآن.

{ **عليم** } صفة ثانية بقوّة علمه، أي: كثرة متعلّقات صفة علمه تعالى. ووصفه بأنّه عليم هنا لإفادة أنّه عليم بمن يستأهل أن يؤتيه فضله.

{ **يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ** } بدل بعض من كلّ لجملة { إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ } فإنّ رحمته بعض ممّا هو فضله.

{ **وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** } تذييل وتقدّم تفسير نظيره عند قوله تعالى { وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ } [البقرة:105].

{ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ [75] بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ [76] }.

عطف على { وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ } أو على قوله { وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ } عطف القصة على القصة، والمناسبة بيان دخائل أحوال اليهود في معاملة المسلمين الناشئة عن حسدهم وفي انحرافهم عن ملة إبراهيم مع ادعائهم أنّهم أولى النّاس به، فقد حكى في هذه الآية خيانة فريق منهم. وقد ذكر الله هنا فريقين، فريقا يؤدّي الأمانة تعفّفا عن الخيانة، وفريقا لا يؤدي الأمانة متعلّلين لإباحة الخيانة في دينهم. قيل، ومن الفريق الأوّل عبد الله بن سلام، ومن الفريق الثاني فنحاص بن عازوراء وكلاهما من يهود يثرب. والمقصود من الآية ذم الفريق الثاني إذ كان من دينهم، في زعمهم، إباحة الخَون، { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ }.

{ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ } قُدّم إنصافا لحق هذا الفريق، لأنّ الإنصاف مما أشتهر به الإسلام، وإذ كان في زعمهم أنّ دينهم يبيح لهم خيانة غيرهم، فقد صار النعي عليهم، والتعبير بهذا القول لازما لجميعهم أمينهم وخائنهم، لأنّ الأمين حينئذ لا مزيّة له إلاّ في أنّه ترك حقا يبيح له دينه أخذه، فترفّع عن ذلك كما يترفّع المتغالي في المروءة عن بعض المباحات.

{ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ } تقديم المسند، في الموضعين للتعجيب من مضمون صلة المسند إليهما، ففي الأوّل للتعجيب من قوة الأمانة، مع إمكان الخيانة ووجود العذر له في عادة أهل دينه، والثاني للتعجيب من أن يكون الخَون خلقا لمتّبع كتاب من كتب الله، ثم يزيد التعجيب عند قوله { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا } فيكسب المسند إليهما زيادة عجب حال.

{ تأمنه } عدّي بالباء مع إنّ مثله يتعدّى بـ (على)، لتضمينه معنى تعامله بقنطار ليشمل الأمانة بالوديعة، والأمانة بالمعاملة على الاستيمان.

القنطار: تقدّم آنفا في قوله تعالى { وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ } [14].

وقد جعل القنطار والدينار مثلين للكثرة والقلة، والمقصود ما يفيده الفحوى من أداء الأمانة فيما هو دون القنطار، ووقوع الخيانة فيما هو فوق الدينار.

{ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً } أطلق القيام هنا على الحرص والمواظبة. وعدّي { قائما } بحرف (على) لأنّ القيام مجاز على الإلحاح والترداد فتعديته بحرف الاستعلاء قرينة وتجريد للاستعارة.

الدوام: حقيقته استمرار الفعل وهو هنا مجاز في طول المدّة، لتعذّر المعنى الحقيقي مع وجود أداة الاستثناء، لأنّه إذا انتهى العمر لم يحصل الإلحاح بعد الموت.

وقدّم المجرور على متعلّقه {عَلَيْهِ قَائِماً } للاهتمام بمعنى المجرور، ففي تقديمه معنى الإلحاح، أي: إذا لم

يكن قيامك عليه لا يرجع لك أمانتك.

{ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا** } الباء للسبب، أي: ذلك مسبّب عن أقوال اختلقوها، وأرادوا بالأميين من ليسوا من أهل الكتاب في القديم، وقد تقدّم بيان معنى الأمّيّ في سورة البقرة. والمعنى: ليس علينا في أكل حقوقهم حرج ولا إثم. وقصدهم من ذلك أن يحقّروا المسلمين، ويتطاولوا بما أوتوه من معرفة القراءة والكتابة من قبلهم. أو أرادوا الأمّيّين بمعرفة التوراة، أي الجاهلين، كناية عن كونهم ليسوا من أتباع دين موسى عليه السلام.

وأيّا ما كان، فقد أنبأ هذا عن خلق عجيب فيهم، وهو استخفافهم بحقوق المخالفين لهم في الدين، واستباحة ظلمهم مع اعتقادهم أنّ الجاهل أو الأمّيّ جدير بأن يدحض حقّه. والظاهر أنّ الذي جرّأهم على هذا سوء فهمهم في التوراة، فإنّ التوراة ذكرت أحكاما فرّقت فيها بين الإسرائيلي وغيره في الحقوق، غير أنّ ذلك فيما يرجع إلى المؤاساة والمخالطة بين الأمّة.

فقد جاء في سفر التثنية الإصحاح الخامس عشر: " في آخر سبع سنين تعمل إبراء يبرئ كلّ صاحب دين يده مما أقرض صاحبه. الأجنبي تطالب، وأمّا ما كان لك عند أخيك فتبرئه ". وجاء في الإصحاح 23 منه: " لا تقرض أخاك بربا فضة أو ربا طعام وللأجنبي تقرض بربا ". ولكن شتان بين الحقوق والمؤاساة فإنّ تحريم الربا إنّما كان لقصد المؤاساة، والمؤاساة غير مفروضة مع غير أهل الملّة الواحدة. وعن ابن الكلبي قالت اليهود: " الأموال كلّها كانت لنا، فما في أيدي العرب منها فهو لنا، وإنّهم ظلمونا وغصبونا فلا إثم علينا في أخذ أموالنا منهم ".

وهذان الخلقان الذميمان اللذان حكاهما الله عن اليهود قد اتّصف بهما كثير من المسلمين، فاستحل بعضهم حقوق أهل الذمّة، وتأوّلوها بأنّهم صاروا أهل حرب، في حين لا حرب ولا ضرب.

{ **وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ** } قال المفسّرون: إنّهم ادّعوا أنّهم وجدوا ذلك في كتابهم. وروي عن سعيد بن جبير أنّه لما نزل قوله تعالى { وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ - إلى قوله - وَهُمْ يَعْلَمُونَ } قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **كذب أعداء الله ما من شيء كان في الجاهلية إلّا وهو تحت قدميَّ هاتين إلّا الأمانة فإنّها مؤدّاة إلى البرّ والفاجر**".

{ **وَهُمْ يَعْلَمُونَ** } حال، أي يتعمّدون الكذب، إمّا لأنّهم علموا أنّ ما قاسوه على ما في كتابهم ليس القياس فيه صحيح، وإمّا لأنّ التأويل الباطل بمنزلة العلم بالكذب، إذ الشبهة الضعيفة كالعهد.

{ **بلى** } حرف جواب وهو مختصّ بإبطال النفي فهو هنا لإبطال قولهم { لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ } وبلى غير مختصّة بجواب استفهام المنفي بل يجاب بها عن قصد الإبطال، وأكثر مواقعها في جواب الاستفهام المنفي.

وجيء في الجواب بحكم عام ليشمل المقصود وغيره، توفيرا للمعنى، وقصدا في اللفظ، فقال { **مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ** } أي لم يخن، لأنّ الأمانة عهد، { **واتقى** } ربّه فلم يدحض حق غيره،

{ **فإن الله يحب المتقين** } أي: الموصوفين بالتقوى، والمقصود نفي محبّة الله عن ضدّ المذكور بقرينة المقام.

{ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [77].

مناسبة هذه الآية لما قبلها أنّ في خيانة الأمانة إبطالا للعهد، وللحلف الذي بينهم وبين المسلمين، وقريش. والكلام استئناف قصد منه ذكر الخُلق الجامع لشتات مساوئ أهل الكتاب من اليهود، دعا إليه قوله تعالى { ودت طائفة من أهل الكتاب } وما بعده.

وقد جرت أمثال هذه الأوصاف على اليهود مفرّقة في سورة البقرة عند قوله تعالى { وَأَوْفُوا بِعَهْدِي } [40]، وقوله تعالى { وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً } [41]، وقوله تعالى { مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ } [102]، وقوله تعالى { وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ } [174]، فعلمنا أنّهم المراد بذلك هنا. وقد بيّنّا هنالك وجه تسمية دينهم بالعهد وبالميثاق، في مواضع، لأنّ موسى عاهدهم على العمل به، وبيّنّا معاني هذه الأوصاف والأخبار.

{ **وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** } شاع نفي الكلام في الكناية عن الغضب، وشاع استعمال النظر في الإقبال والعناية، ونفي النظر في الغضب. فالنظر المنفي هنا نظر خاص، و يجوز إرادة المعنى الحقيقي.

{ **وَلا يُزَكِّيهِمْ** } أي: لا يطهّرهم من الذنوب ولا يقلعون عن آثامهم، لأنّ من بلغ من رقة الديانة إلى حدّ أن يشتري بعهد الله وأيمانه ثمنا قليلا، فقد بلغ الغاية القصوى في الجرأة على الله، فكيف يُرجى له صلاح بعد ذلك. ويحتمل ولا ينمّيهم، أي لا يكثر حظوظهم في الخيرات.

وفي مجيء هذا الوعيد، عقب الصلة { بعهد الله }، إيذان بأنّ من شابههم في هذه الصفات فهو لاحق بهم، حتّى ظنّ بعض السلف أنّ هذه الآية نزلت فيمن حلف يمينا باطلة. ففي البخاري عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **من حلف يمين صبر ليقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان** " فأنزل الله تصديق ذلك { إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ }، فدخل الأشعث بن قيس وقال: " ما يحدثكم أبو عبد الرحمن "، قلنا: كذا وكذا. قال: " فيّ أنزلت، كانت لي بئر في أرض ابن عمّ لي فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **بيّنتك أو يمينك** " قلت: " إذن يحلف "، فقال رسول الله: " **من حلف على يمين صبر** " الحديث.

{ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ [78]}.

أي: من اليهود طائفة تُخيّل للمسلمين أشياء أنّها ممّا جاء في التوراة، وليست كذلك، إمّا في الاعتذار عن بعض أفعالهم الذميمة، كقولهم: ليس علينا في الأميين سبيل، وإمّا للتخليط على المسلمين حتى يشكّكوهم فيما يخالف ذلك مما ذكره القرآن، أو لإدخال الشك عليهم في بعض ما نزل به القرآن. فاللَّيُّ مجمل، ولكنّه مبيّن بقوله { لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ } وقوله { وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ }

اللّيُّ: في الأصل، الإراغة، أي: إدارة الجسم غير المتصلّب إلى غير الصوب الذي هو ممتد إليه، فمن ذلك ليّ العنان للفرس لإدارته إلى جهة غير صوب سيره، ومنه ليّ العنق، وليّ الرأس بمعنى الالتفات الشزر أو الإعراض، قال تعالى { لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ } [المنافقون: 5].

والَّيُّ في هذه الآية يحتمل أن يكون حقيقة بمعنى تحريف اللسان عن طريق حرف من حروف الهجاء إلى طريق حرف آخر يقاربه لتعطي الكلمة في أذن السامع جرس كلمة أخرى، وهذا مثل ما حكى الله عنهم في قولهم راعنا، وفي الحديث من قولهم في السلام على النبي السام عليك، أي: الموت.

{ **بِالْكِتَابِ** } الظاهر التوراة، فلعلّهم كانوا إذا قرؤوا بعض التوراة بالعربية نطقوا بحروف من كلماتها بينَ بينَ ليوهموا المسلمين معنى غير المعنى المراد. أو لعلّهم كانوا يقرؤون ما ليس من التوراة بالكيفيّات أو اللحون التي كانوا يقرؤون بها التوراة ليخيّلوا للسامعين أنّهم يقرؤون التوراة.

ويحتمل أن يكون اللّيّ هنا مجازا عن صرف المعنى إلى معنى آخر كقولهم، لوى الحجّة أي ألقى بها على غير وجهها، وهو تحريف الكلم عن مواضعه، بالتأويلات الباطلة، والأقيسة الفاسدة.

وأيّا ما كان فهذا اللّيّ يقصدون منه التمويه على المسلمين.

(**يلوون، يقولون**) جيء بالمضارع في هاته الفعال للدلالة على تجدّد ذلكّ وأنّه دأبهم.

وتكرير <u>الكتاب</u> في الآية مرتين، و<u>اسم الجلالة</u> أيضا مرتين، لقصد الاهتمام بالاسمين، وذلك يجر إلى الاهتمام بالخبر المتعلق بهما.

{ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ [79] وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ [80] }.

اعتراض واستطراد، فإنّه لمّا ذكر لَيَّ اليهود ألسنتهم بالتوراة، وهو ضرب من التحريف، استطرد بذكر التحريف الذي عند النصارى لمناسبة التشابه في التحريف، إذ تقول النصارى على المسيح أنّه أمرهم

بعبادته. فالمراد بالبشر عيسى عليه السلام، والمقصود تنزيه عيسى عن أن يكون قال ذلك، ردّا على النصارى، فيكون رجوعا إلى الغرض الذي في قوله { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ - إلى قوله - بأنا مسلمون } [64].

{ **مَا كَانَ لِبَشَرٍ** } نفي لاستحقاق أحد لذلك القول، واللام فيه للاستحقاق. ومصبّ النفي هو المعطوف من قوله { **ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي** }، أي: ما كان له أن يقول كونوا عبادا لي إذا آتاه الله الكتاب.

{ **عِبَاداً** } جمع عبد كالعبيد، وقال ابن عطية: " الذي استقريت في لفظ العباد أنّه جمع عبد لا يقصد معه التحقير، والعبيد يقصد منه ".

{ **من دون الله** } قيد قصد منه تشنيع القول بأن يكونوا عبادا للقائل، بأنّ ذلك يقتضي أنّهم انسلخوا عن العبودية لله تعالى إلى عبودية البشر، لأنّ حقيقة العبودية لا تقبل التجزئة لمعبودين، فإنّ النصارى لمّا جعلوا عيسى ربّا لهم، وجعلوه ابنا لله، قد لزمهم أنّهم انخلعوا عن عبوديّة الله، فلا جدوى لقولهم: نحن عبيد الله وعبيد عيسى.

{ **وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ** } ولكن يقول كونوا منسوبين للرب، ومعنى ذلك أن يكونوا مخلصين لله دون غيره. و**الربّاني:** نسبة إلى الربّ على غير قياس.

{ **بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ** } لأنّ علمكم بالكتاب من شأنه أن يصدّكم عن إشراك العبادة، فإنّ فائدة العلم العمل. وقرأ الجمهور، بما كنتم { تَعْلَمون } بفتح المثناة الفوقية وسكون العين وفتح اللام مضارع علم، وقرأه عامر، و حمزة، وعاصم، والكسائي، وخلف { تُعَلِّمُون } بضم ففتح فلام مشددة مكسورة مضارع علّم المضاعف.

{ **وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ** } درس الكتاب إذا قرأه بتمهّل لحفظه أو للتدبّر. وفي الحديث " **ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلّا نزلت عليهم السكينة** " رواه الترمذي.

فعطف التدارس على القراءة أفاد أنّ الدراسة أخص من القراءة. ومادة درس تستلزم التمكّن من المفعول فلذلك صار درس الكتاب مجازا في فهمه وإتقانه.

وسمّوا بيت قراءة اليهود مِدْراسا كما في الحديث: " **إنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم خرج في طائفة من أصحابه حتى أتى مدْارس اليهود فقرأ عليهم القرآن ودعاهم** ".

{ **وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً** } أقول لعلّ التعبير بـ { وَلا يَأْمُرَكُمْ } مشاكلة لقوله { ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ } لأنّهم زعموا أنّ المسيح قال: إنّه ابن الله، فلمّا نُفي أنّه يقول ذلك نُفي ما هو مثله، وهو أن يأمرهم باتخاذ الملائكة أربابا. والخطاب التفات من طريقة الغيبة في قوله { ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ } فالمواجه بالخطاب هم الذين زعموا أنّ عيسى قال لهم كونوا عبادا لي من دون الله.

{ **بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ** } أريد بالإسلام الإيمان، أي: غير مشركين، بقرينة قوله { بالكفر }. وقيل الخطاب للمسلمين بناء على ظاهر قوله { إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } لأنّ اليهود والنصارى لم يوصفوا بأنّهم مسلمون في القرآن، ولا أراه صحيحا.

{ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ [81] فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ [82] }.

{ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ** } عطف على { وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ } أي: ما أمركم الأنبياء بشيء ممّا تقولتم عليهم وقد أمروكم بغير ذلك فأضعتموه حين أخذ الله ميثاقهم ليبلّغوه إليكم، فالمعطوف هو ظرف (إذ) وما تعلّق به.

وهذا الميثاق أخذه الله على جميع الأنبياء، يؤْذِنهم فيه بأنّ رسولا يجيء مصدّقا لما معهم، ويأمرهم بالإيمان به وبنصره، والمقصود من ذلك إعلام أممهم بذلك ليكون الميثاق محفوظا لدى سائر الأجيال، بدليل قوله {فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ}، إذ لا يجوز على الأنبياء التولّي والفسق، ولكن المقصود أممهم. وبدليل { فاشهدوا } أي: على أممكم. وإلى هذا يرجع ما ورد في القرآن من دعوة إبراهيم عليه السلام { رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ } [البقرة:129]، وقد جاء في سفر التثنية قول موسى عليه السلام: " قال لي الرب أقيم لهم نبيّا منهم من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به". وإخوة بني إسرائيل هم بنو إسماعيل، ولو كان المراد نبيّا إسرائيليا لقال: أقيم لهم نبيا منهم، على ما في ترجمة التوراة من غموض، ولعلّ النص الأصلي أصلح من هذا المترجم. والبشارات في كتب أنبياء بني إسرائيل وفي الإنجيل كثيرة.

وفي أخذ العهد على الأنبياء زيادة تنويه برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا المعنى هو ظاهر الآية، وبه فسّر محققو المفسّرين من السلف، منهم علي بن أبي طالب، وابن عباس، وطاووس، والسدي.

{ **لَما آتيناكم** } الذي آتيناكموه وجاءكم بعده رسول. وقرأه حمزة، بكسر لام (لِما) فتكون اللام للتعليل متعلقة بقوله { لتؤمنن به } أي: شكرا على ما آتيتكم، وعلى أن بعثت إليكم رسولا مصدّقا لما كنتم عليه من الدين. وقرأ نافع، وأبو جعفر، آتيناكم بنون العظمة وقرأه الباقون { آتيتكم } بتاء المتكلّم.

{ **قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا** } بدل اشتمال من جملة { أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ }.

الإقرار: هنا مستعمل في معنى التحقيق بالوفاء ممّا أخذ من الميثاق.

الإصر: بكسر الهمزة، العهد المؤكّد الموثّق، واشتقاقه من الإصار بكسر الهمزة وهو ما يعقد ويسد به، وقد تقدّم الكلام على حقيقته ومجازه في قوله تعالى { رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً } [البقرة:286].

{ **قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ** } إن كانت شهادة على أنفسهم فهي بمعنى: التوثّق والتحقيق،

وإن كانت شهادة على أممهم بتبليغ ذلك الميثاق، فالمعنى: فاشهدوا على أممكم بذلك، والله شاهد على الجميع كما شهد النبيّون على الأمم.

{ **فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ** } أي: من تولّى ممن شهدتم عليهم، وهم الأمم، ولذلك لم يقل فمن تولى بعد ذلك منكم. كما قال في الآية التي خوطب فيها بنو إسرائيل في سورة المائدة { فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ } [12].

{ **فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** } الحصر للمبالغة لأنّ فسقهم في هذه الحالة أشدّ فسق .

{ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ } [83].

قرأه الجمهور { **تبغون** } بتاء خطاب لأهل الكتاب جار على طريقة الخطاب في قوله آنفا { وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ }، وقرأه أبو عمرو، وحفص، ويعقوب، بياء الغيبة فهو التفات من الخطاب إلى الغيبة، إعراضا عن مخاطبتهم إلى مخاطبة المسلمين بالتعجيب من أهل الكتاب. وكلّه تفريع ذكر أحوال خلف أولئك الأمم كيف اتّبعوا غير ما أخذ عليهم العهد به. والاستفهام حينئذ للتعجيب.

{ **دِينِ اللَّهِ** } هو الإسلام لقوله تعالى { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ } [19] وإضافته إلى الله لتشريفه على غيره من الأديان، أو لأنّ غيره يومئذ قد نسخ بما هو دين الله.

تبغون: تطلبون يقال بَغى الأمر يبغيه بُغاء، ويقال ابتغى بمعنى بغى، وهو موضوع للطلب ويتعدّى إلى مفعول واحد. وقياس مصدره البغي، لكنه لم يسمع البغي إلّا في معنى الاعتداء والجور، وذلك فعله قاصر، ولعلهم أرادوا التفرقة بين الطلب وبين الاعتداء، فأماتوا المصدر القياسي لبغى بمعنى طلب وخصّوه ببغى بمعنى اعتدى وظلم قال تعالى { إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النّاس وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ } [الشورى:42].

{ **وله أسلم** } حال من اسم الجلالة وتقدّم عند قوله تعالى { فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ } [20].

{ **طَوْعاً وَكَرْهاً** } لأنّ من العقلاء من أسلم عن اختيار لظهور الحقّ له، ومنهم من أسلم بالجبلّة والفطرة كالملائكة. أو الإسلام كرها هو الإسلام بعد الامتناع أي أكرهته الأدلة والآيات، أو هو إسلام الكافرين عند الموت ورؤية سوء العاقبة.

الكَره: بفتح الكاف هو الإكراه، والكُره بضم الكاف المكروه.

{ **وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** } أنّه يُرجعكم إليه، ففعل رجع، المتعدّي، أسند إلى المجهول لظهور فاعله، أي يرجعكم الله بعد الموت وعند القيامة، ومناسبة ذكر هذا، عقب التوبيخ والتحذير، أنّ الربّ الذي لا مفرّ من حكمه لا يجوز للعاقل أن يعدل عن دين أمره به، وحقّه أن يسلم إليه نفسه مختارا قبل أن يسلمها اضطرارا.

{ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إبراهيم وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } [84].

المخاطب بفعل قل هو النبيّ صلى الله عليه وسلم، ليقول ذلك بمسمع من النّاس، مسلمهم، وكافرهم، ولذلك جاء في هذه الآية قوله { وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا } أي: أنزل عليّ لتبليغكم، فجعل إنزاله على الرسول والأمّة لاشتراكهم في وجوب العمل بما أنزل. والجملة اعتراض واستئناف، لتلقين النبيّ عليه السلام والمسلمين كلاما جامعا لمعنى الإسلام ليدوموا عليه، ويُعلن به للأمم.

{ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ } أنّنا لا نعادي الأنبياء، ولا يحملنا حب نبيّنا على كراهتهم، وهذا تعريض باليهود والنصارى. وتقدّم نظير هذه الآية في سورة البقرة. وهذه الآية شعار الإسلام.

وهنا انتهت المجادلة مع نصارى نجران.

{ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الخاسِرِينَ } [85].

عطف على جملة { أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ } وما بينهما اعتراض. وهذا تأييس لأهل الكتاب من النجاة في الآخرة، وردّ لقولهم: نحن على ملّة إبراهيم، فنحن ناجون على كل حال.

{ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [86].

استئناف ابتدائي يناسب ما سبقه من التنويه بشرف الإسلام. يجوز أن يكون الاستفهام مستعملا في الاستبعاد، فإنّهم آمنوا وعلموا ما في كتب الله، ثم كفروا بعد ذلك بأنبيائهم، إذ عبد اليهود الأصنام غير مرة، وعبد النصارى المسيح، وقد شهدوا أنّ محمدا صادق لقيام دلائل الصدق، ثم كابروا، وشكّكوا النّاس. وجاءتهم الآيات فلم يتّعظوا، فلا مطمع في هديهم بعد هذه الأحوال، وإنّما تسري الهداية لمن أنصف وتهيّأ لإدراك الآيات.

قيل نزلت في اليهود خاصة، وقيل نزلت في جماعة من العرب أسلموا ثم كفروا ولحقوا بقريش ثم ندموا فراسلوا قومهم من المسلمين يسألونهم هل من توبة فنزلت، منهم الحارث بن سويد، وأبو عامر الراهب، وطُعيمة بن أُبَيْرق.

{ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنّاس أَجْمَعِينَ [87] خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ [88] إلاَّ الذين تابوا من بعد ذلك وأصْلَحوا فإنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ [89] }.

الإشارة للتنبيه على أنّهم أحرياء بما يرد بعد اسم الإشارة من الحكم عليهم. وتقدم معنى { لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ - إلى قوله- أجمعين } [البقرة:161]. وتقدّم أيضا معنى { إِلَّا الَّذِينَ تابوا وَأَصْلَحُوا } [البقرة: 160].

{ إلاَّ الذين تابوا من بعد ذلك وأصْلَحوا فإنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ } قيل نزلت في الحارث بن سويد الأنصاري من بني عمرو بن عوف الذي ارتدّ ولحق بقريش وقيل بنصارى الشام، ثم كتب إلى قومه ليسألهم هل من توبة، فسألوا رسول الله فنزلت هذه الآية فأسلم ورجع إلى المدينة.

{ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } علة لكلام محذوف تقديره: الله يغفر لهم لأنّه غفور رحيم.

{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ } [90].

قال قتادة، وعطاء، والحسن: نزلت هذه الآية في اليهود، وعليه فالموصول بمعنى لام العهد، فاليهود بعد أن آمنوا بموسى كفروا بعيسى وازدادوا كفرا بمحمد صلى الله عليه وسلم. وقيل: أريد به اليهود والنصارى، فاليهود كما علمت، والنصارى آمنوا بعيسى ثم كفروا فعبدوه وألّهوه ثم ازدادوا كفرا بمحمد صلى الله عليه وسلم.

وتأويل {لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ} إمّا انّه كناية عن أنّهم لا يتوبون فتقبل توبتهم كقوله تعالى، {وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ} [البقرة، 48] أي لا شفاعة لها فتقبل

وإمّا أنّ الله نهى نبيّه عن الاغترار بما يظهرونه من الإسلام نفاقا، فالمراد بعدم القبول عدم تصديقهم في إيمانهم. وإمّا الإخبار بأنّ الكفر قد رسخ في قلوبهم فصار لهم سجيّة لا يحوّلون عنها، فإذا أظهروا التوبة فهم كاذبون، فيكون عدم القبول بمعنى عدم الاطمئنان لهم، وأسرارهم موكولة إلى الله تعالى.

وقد أسلم بعض اليهود قبل نزول الآية، مثل عبد الله بن سلام، فلا إشكال فيه، وأسلم بعضهم بعد نزولها.

وقيل المراد الذين ارتدوا من المسلمين وماتوا على الكفر، فالمراد بـ**(الازدياد)**: الاستمرار وعدم الإقلاع.

وأيّا ما كان فتأويل الآية متعيّن، لأنّ ظاهرها تعارضه الأدلة القاطعة على أنّ إسلام الكافر مقبول. ولو تكرّر منه الكفر، وأنّ توبة العصاة مقبولة، ولو وقع نقضها على أصح الأقوال وسيجيء مثل هذه الآية في سورة النساء { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً } [137].

{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ } [91].

استئناف لبيان حال الكافرين الذين ماتوا على كفرهم، نشأ عن حكم فريق من الكفّار تكرّر منهم الكفر حتّى رسخ فيهم وصار لهم ديدنا. وإن كان المراد في الآية السابقة من الذين ازدادوا كفرا الذين ماتوا على الكفر، كانت هذه الآية كالتوكيد اللفظي للأولى أعيدت ليبنى عليها قوله { فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ } . وأيّا ما كان فالمراد بالموصول هنا العموم مثل المعرّف بلام الاستغراق.

{ **فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ** } لن يقبل منهم بشيء يفتدون به في الآخرة لظهور أن ليس المراد نفي قبول الافتداء في الدنيا. ضرورة أنّهم وصفوا بأنّهم ماتوا وهم كفار.

{ **ملء الأرض** } في كلامهم كناية عن الكثرة المتعذّرة، لأنّ الأرض لا يملؤها شيء من الموجودات المقدّرة، وهذا كقولهم: عدد الرمال ، وعدد الحصى.

{ **ذَهَباً** } تمييز لعزّة الذهب وتنافس النّاس في اقتنائه وقبول حاجة من بذله.

{ **وَلَوِ افْتَدَى بِهِ** } جملة في موقع الحال، أي: لا يقبل منهم ولو في حال فرض الافتداء به.

{ **أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ** } تكميل لنفي أحوال الغَناء عنهم، وذلك أن المأخوذ بشيء قد يعطي فدية من مال، وقد يكفله من يوثق بكفالتهم، أو يشفع له من هو مسموع الكلمة، وكلّ من الكفيل والشفيع ناصر.

{ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ } [92].

استئناف وقع معترضا بين { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ } [91] وبين { كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرائيلَ } [93]. وافتتاح الكلام ببيان بعض وسائل البرّ إيذان بأنّ شرائع الإسلام تدور على محور البرّ، فالمقصود من هذه الآية أمران:

<u>أوّلهما:</u> التحريض على الإنفاق والتنويه بأنّه من البرّ.

<u>ثانيهما:</u> التنويه بالبرّ الذي الإنفاق خصلة من خصاله.

ومناسبة موقع هذه الآية تلو سابقتها أنّ الآية السابقة لمّا بيّنت أنّ الذين كفروا لن يقبل من أحدهم أعظم ما ينفقه، بيّنت هذه الآية ما ينفع أهل الإيمان من بذل المال، وأنّه يبلغ بصاحبه مرتبة البرّ. والخطاب للمؤمنين لأنّهم المقصود من كلّ خطاب لم يتقدّم قبله ما يعيّن المقصود منه.

البرّ: كمال الخير وشموله في نوعه، إذ الخير قد يعظم بالكيفيّة، وبالكميّة، وبهما معا، فبذل النفس في نصر الدين يعظم بالكيفيّة في ملاقاة العدو الكثير بالعدد القليل، وإطعام الجائع يعظم بالتعدّد، والإنفاق يعظم بالأمرين جميعا، والجزاء على فعل الخير إذا بلغ كمال الجزاء وشموله كان برّا أيضا.

روى النوّاس بن سمعان عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّه قال: " **البر حسن الخلق والإثم ما حاك في النفس وكرهت أن يطّلع عليه النّاس** " رواه مسلم.

{ **حَتَّى تُنْفِقُوا** } لـ (حتّى) هنا موقع من البلاغة لا يخلفها فيه غيرها، لأنّه لو قيل (إلاّ أن تنفقوا مما تحبون)، لتوهّم السامع أنّ الإنفاق من المحبّ وحده يوجب نوال البرّ، وفاتت الدلالة على المسافات والدرجات التي أشعرت بها (حتّى) الغائية.

{ **ممّا تحبّون** } المال، أي: المال النفيس العزيز على النفس، وسوّغ هذا الإبهام هنا وجود (تنفقوا) إذ الإنفاق لا يطلق على غير بذل المال فـ (من) للتبعيض لا غير.

والمال المحبوب يختلف باختلاف أحوال المتصدّقين، ورغباتهم، وسعة ثرواتهم، والإنفاق منه - أي التصدق - دليل على سخاء لوجه الله تعالى، وفي ذلك تزكية للنفس من بقيّة ما فيها من الشحّ، قال تعالى { وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [الحشر: 9]. وفي ذلك صلاح عظيم للأمّة.

روى مالك في الموطأ عن أنس بن مالك قال: " كان أبو طلحة أكثر أنصاريّ بالمدينة مالا، وكان أحبّ أمواله بئرَ حاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، فلمّا نزل قوله تعالى { لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ } جاء أبو طلحة فقال: يا رسول الله إنّ الله قال { لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ }، وإنّ أحبّ أموالي بئر حاء وإنّها صدقة لله وأرجو برّها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **فبخ ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعتُ ما قلت وإنّي أرى أن تجعلها في الأقربين** "، فقال: أفعل يا رسول الله. فجعلها لحسان بن ثابت، وأبيّ بن كعب ".

{ **وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ** } تذييل قُصد به تعميم أنواع الإنفاق، وتبيين أنّ الله لا يخفى عليه شيء من مقاصد المنفقين، وقد يكون الشيء القليل نفيسا بحسب حال صاحبه.

{ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرائيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرائيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [93] فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ [94] قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [95] }.

هذا يرتبط بالآي السابقة في قوله تعالى { مَا كَانَ إبراهيم يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً } [67] وما بينهما اعتراضات وانتقالات في فنون الخطاب.

ويحتمل أنّ اليهود طعنوا في الإسلام، وأنّه لم يكن على شريعة إبراهيم، إذ أباح للمسلمين أكل المحرّمات على اليهود، جهلا منهم بتاريخ تشريعهم، أو تضليلا من أحبارهم لعامتهم، تنفيرا عن الإسلام.

وقد استدلّ القرآن عليهم بهذا الحكم لأنّه أصرح ما في التوراة دلالة على وقوع النسخ، فإنّ التوراة ذكرت في سفر التكوين ما يدلّ على أنّ يعقوب حرّم على نفسه أكل عرق النَّسا الذي على الفخذ، وقد قيل: إنّه حرم على نفسه لحوم الإبل وألبانها، فقيل: إنّ ذلك على وجه النذر، وقيل: إنّ الأطباء نهوه عن أكل ما فيه عرق النَّسا لأنه كان مبتلى بوجع نَساه.

وظاهر الآية أنّه لم يكن ذلك بوحي من الله إليه، بل من تلقاء نفسه، فبعضه أراد به تقرّبا إلى الله بحرمان نفسه من بعض الطيّبات المشتهاة، وهذا من جهاد النفس، وهو من مقامات الزاهدين، وكان تحريم ذلك على نفسه بالنذر أو بالعزم. وليس في ذلك دليل على جواز الاجتهاد للأنبياء في التشريع، لأنّ هذا من تصرّفه في نفسه فيما أبيح له، ولم يدع إليه غيره، ولعل أبناء يعقوب تأسّوا بأبيهم فيما حرّمه على نفسه فاستمر ذلك فيهم.

{ **مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ** } تصريح بمحلّ الحجّة من الردّ إذ المقصود تنبيههم على ما تناسوه فنزلوا منزلة الجاهل بكون يعقوب كان قبل موسى، وقصد إعلان التسجيل بخطئهم والتعريض بغباوتهم.

{ **فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } أي: إن كنتم صادقين في جميع ما تقدّم من قولكم: إنّ إبراهيم كان على دين اليهودية. وهو أمر للتعجيز، إذ قد علم أنّهم لا يأتون بها إذا استدلّوا على الصدق.

{ **إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } شرط حذف جوابه لدلالة التفريع الذي قبله عليه. والتقدير: إن كنتم صادقين فأتوا بالتوراة.

{ **فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** } أي: فمن افترى منكم بعد أن جعلنا التوراة فيصلا بيننا، إذ لم يبق لهم ما يستطيعون أن يدّعوه شبهة لهم في الاختلاق. وجعل الافتراء على الله لتعلّقه بدين الله.

الافتراء: الكذب، وهو مرادف الاختلاق. والافتراء مأخوذ من الفَرْي، وهو قطع الجلد قطعا ليصلح به مثل أن يحْذي النعل ويصنع النطع أو القِربة. وافتراء افتعال، لعلّه لإفادة المبالغة في الفري، وهو أكثر إطلاق افترى. وإردافه بقوله { **الكذب** } تأكيد للافتراء، وتكرّرت نظائر هذا الإرداف في آيات كثيرة. فانتصب الكذب على المفعول المطلق المؤكد لفعله.

{ **قُلْ صَدَقَ اللَّهُ** } بعد أن فرغ من إعلان كذبهم بالحجة القاطعة عرّض بكذبهم، لانّ صدق أحد الخبرين المتنافيين يستلزم كذب الآخر، فهو مستعمل في معناه الأصلي والكنائي.

{ **فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفاً** } تفريع، لانّ اتباع الصادق فيما أمر به منجاة من الخطر.

{ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ [96] فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إبراهيم وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النّاس حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ [97] }.

هذا الكلام واقع موقع التعليل للأمر في قوله { فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفاً } [95]، لأنّ هذا البيت المنوّه بشأنه كان مقاما لإبراهيم، ففضائل هذا البيت تحقّق فضيلة شرع بانيه في متعارف النّاس، فهذا الاستدلال خطابي، وهو أيضا إخبار بفضيلة الكعبة وحرمتها فيما مضى من الزمان.

وبيان وجه التعليل أنّ هذا البيت لمّا كان أوّل بيت وضع للهُدى وإعلان توحيد الله ليكون علما مشهودا بالحسّ على معنى الوحدانية ونفي الإشراك، فقد كان جامعا لدلائل الحنيفيّة. فإذا ثبت له شرف الأوّليّة ودوام الحرمة على ممر العصور، دون غيره من الهياكل الدينيّة التي نشأت بعده، وهو ماثل، كان ذلك دلالة إلهيّة على أنّه بمحلّ العناية من الله تعالى، فدلّ على أنّ الدّين الذي قارن إقامته هو الدين المراد لله، وهذا يؤول إلى معنى قوله { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ } [19].

وهذا التعليل خطابي جار على طريقة اللزوم العرفي.

{ **أَوّلَ** } اسم للسابق في فعل ما فإذا أضيف إلى اسم جنس فهو السابق من جنس ذلك المضاف إليه في الشأن المتحدث عنه.

البيت: بناء يأوي واحدا أو جماعة، فيكون بيت سكنى، وبيت صلاة، ويكون مبنيّا من حجر أو من أثواب نسيج شعر أو صوف، ويكون من أدم فيسمى قبّة، قال { وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتاً } [النحل:81].

{ **وضع** } أسّس وأثْبت، ومنه سمّي المكان موضعا، وأصل الوضع أنّه الحط ضد الرفع.

النّاس: تقدّم في قوله تعالى { وَمِنَ النّاس مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ } [البقرة:8].

{ **بكّة** } اسم مكّة. وهو لغة بإبدال الميم باء في كلمات كثيرة عدت من المترادف: مثل لازب في لازم، وأربد وأرمد أي: في لون لرماد. والظاهر عندي أنّ (بكّة) اسم بمعنى البلدة وضعه إبراهيم علما على المكان الذي عيّنه لسكنى ولده، بنيّة أن يكون بلدا. فيكون أصله من اللغة الكلدانية، لغة إبراهيم، ألا ترى أنهم سمّوا مدينة بعلبك أي: بلد بعل، وهو معبود الكلدانيين، ومن أعجاز القرآن هذا اللفظ عند ذكر كونه أوّل بيت، فلاحظ أيضا الاسم الأول، ويؤيد ذلك قوله { رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ } [النمل:91] وقوله { رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً } [إبراهيم:35].

وعدل عن تعريف البيت باسمه العلم بالغلبة، وهو الكعبة، إلي تعريفه بالموصوليّة بأنّه الذي ببكة، لانّ هذه الصلة صارت أشهر في تعينه عند السامعين، إذ ليس في مكة يومئذ بيت للعبادة غيره، بخلاف اسم الكعبة، فقد أطلق اسم الكعبة على القليس الذي بناه الحبشة في صنعاء لدين النصرانية ولقّبوه الكعبة اليمانية. والمقصود إثبات سبق الكعبة في الوجود قبل بيوت أخر من نوعها.

{ **أَوَّلَ بَيْتٍ** } وظاهر الآية أنّ الكعبة أوّل البيوت المبنيّة في الأرض، ولكن المحقّقين وجمهور أهل العلم لم يأخذوا بهذا الظاهر، وتأوّلوا الآية. قال علي رضي الله عنه: " كان قبل البيت بيوت كثيرة ".
ولا شك أنّ الكعبة بناها إبراهيم وقد تعدّد في القرآن ذكر ذلك.
والذي أراه في التأويل أنّ القرآن كتاب دين وهدى، فليس غرض الكلام فيه ضبط أوائل التاريخ، ولكن أوائل أسباب الهدى، فالأوّليّة في الآية على بابها، والبيت كذلك، والمعنى أنّه أوّل بيت عبادة حقّة وضع لإعلان التوحيد، بقرينة المقام، وبقرينة قوله { وُضِعَ لِلنَّاسِ } المقتضي أنّه من وضع واضعٍ لمصلحة النّاس، لأنّه لو كان بيت سكنى لقيل وضعه النّاس، وبقرينة مجيء الحالين بعد: وهما قوله { مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ }.
وإذا كان أوّل بيت عبادة حق، كان أوّل معهد للهدى، فكان كل هدى مقتبسا منه فلا محيص لكلّ قوم كانوا على هدى من الاعتراف به وبفضله، وذلك يوجب اتباع الملّة المبنيّة على أسس ملّة بانيه، وهذا المفاد من تفريع قوله { فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً } [البقرة:95] وتأوّل الآية علي بن أبي طالب، فروي عنه أنّ رجلا سأله: أهو أول بيت؟ قال: لا، قد كان قبله بيوت، ولكنّه أوّل بيت وضع للنّاس مباركا وهدى. فجعل مباركا وهدى حالين من الضمير في { وضع } لا من اسم الموصول، وهذا تأويل في النظم لا ينساق إليه الذهن إلا على معنى انه أول بيت من بيوت الهدى كما قلنا.
وقيل: أراد بالأول الأشرف مجازا.
{ **لِلنَّاسِ** } وعندي أنّه يجوز أن يكون المراد من النّاس المعهودين وهم أهل الكتب، أعني اليهود والنصارى والمسلمين، وكلّهم يعترف بأصالة دين إبراهيم عليه السلام، فأوّل معبد بإجماعهم هو الكعبة فيلزمهم الاعتراف بأنّه أفضل ممّا سواه من بيوت عبادتهم.
وإنّما كانت الأوّلية موجبة التفضيل لانّ مواضع العبادة لا تتفاضل من جهة العبادة، إذ هي في ذلك سواء، ولكنّها تتفاضل بما يحفّ بذلك من طول أزمان التعبّد فيها، وبنسبتها إلى بانيها، وبحسن المقصد في ذلك، وقد قال تعالى في مجسد قباء { لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ } [التوبة: 108].
وقد جمعت الكعبة جميع هذه المزايا فكانت أسبق بيوت العبادة الحقّ، وهي أسبق من بيت المقدس. فإنّ إبراهيم بني الكعبة في حدود سنة (1900 ق م)، وسليمان بنى بيت المقدس سنة (1000 ق م)، والكعبة بناها إبراهيم بيده فهي مبنيّة بيد رسول. وأمّا بيت المقدس فبناها العملة لسليمان بأمره.
وروي في صحيح مسلم، عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي مسجد وضع أوّل؟ قال: " **المسجد الحرام** "، قلت: ثم أي؟ قال: " **المسجد الأقصى** "، قلت: كم كان بينهما؟ قال: " **أربعون سنة** "، فاستشكله العلماء بأنّ بين إبراهيم وسليمان قرونا فكيف تكون أربعين سنة، وأجاب بعضهم بإمكان أن يكون إبراهيم بنى مسجدا في موضع بيت المقدس ثم درس فجدّده

سليمان.

أقول: لاشك أنّ بيت المقدس من بناء سليمان كما هو نصّ كتاب اليهود، وأشار إليه القرآن في قوله تعالى { يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ } [سبأ:13] ، فالظاهر أنّ إبراهيم لمّا مر ببلاد الشام ووعده الله أن يورث تلك الأرض نسله عيّن الله له الموضع الذي سيكون به أكبر مسجد تبنيه ذرّيته، فأقام هنالك مسجدا صغيرا شكرا لله تعالى، وجعله على الصخرة المجعولة مذبحا للقربان. وهي الصخرة التي بنى سليمان عليها المسجد، فلما كان أهل ذلك البلد يومئذ مشركين دثر ذلك البناء حتى هدى الله سليمان إلى إقامة المسجد الأقصى عليه، وهذا من العلم لذي أهملته كتب اليهود، وقد ثبت في سفر التكوين إنّ إبراهيم بنى مذابح في جهات مرّ عليها من أرض الكنعانيين لأنّ الله أخبره أنه يعطي تلك الأرض لنسله، فالظاهر أنّه بنى أيضا بموضع مسجد أرشليم مذبحا.

{ **مباركا** } اسم مفعول من بارك الشيء إذا جعل له بركة وهي زيادة في الخير. أي جعلت البركة فيه بجعل الله تعالى، إذ قُدّر أن يكون داخله مثابا ومحصلا على خير يبلغه على مبلغ نيّته، وقدّر لمجاوريه وسكّان بلده أن يكونوا ببركة زيادة الثواب ورفاهية الحال، وأمر بجعل داخله آمنا، وقدّر ذلك بين النّاس فكان ذلك كلّه بركة.

{ **وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ** } مبالغة لأنّه سبب هدى. وجعل هدى للعالمين كلّهم، لأنّ شهرته، وتسامع النّاس به، يحملهم على التساؤل عن سبب وضعه، وأنّه لتوحيد الله، وتطهير النفوس من خبث الشرك، فيهتدي بذلك المهتدي، ويرعوي المتشكّك.

{ **فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ** } استئناف ثناء على هذا البيت بما حفّ به من المناقب والمزايا، فغيّر الأسلوب للاهتمام، و**الآيات** عوارض عرضت في أوقات متفاوتة. ووصف الآيات(**ببيّنات**) لظهورها في علم المخاطبين. وجماع هذه الآيات هي ما يسّره الله لسكّان الحرم وزائريه من طرق الخير، وما دفع عنهم من الأضرار، على حالة اتفق عليها سائر العرب، وقمعوا بها أنفسهم وشهواتهم، مع تكالبهم على إرضاء نفوسهم. وأعظمها الأمن، الذي وطّن عليه نفوس جميع العرب في الجاهلية مع عدم تديّنهم، فكان الرجل يلاقي قاتل أبيه في الحرم فلا يناله بسوء، وتواضع مثل هذا بين مختلف القبائل، ذات اختلاف الأنساب والعوائد والأديان، آية على أنّ الله تعالى وقّر ذلك في نفوسهم. وكذلك تأمين وحشه مع افتتان العرب بحب الصيد. ومنها ما شاع بين العرب من قصم كل من رامه بسوء، وما انصراف الأحباش عنه بعد امتلاكهم جميع اليمن وتهامة إلاّ آية من آيات الله فيه. ومنها انبثاق الماء فيه لإسماعيل حين إشرافه على الهلاك. وافتداء الله تعالى إيّاه بذبح عظيم حين أراد أبوه إبراهيم عليه السلام قربانه. ومنها ما شاع بين العرب وتوارثوا خبره أبا عن جدّ من نزول الحجر الأسود من السماء على أبي قبيس بمرأى إبراهيم، ولعله حجر كوكبي. ومنها تيسير الرزق لساكنيه مع قحولة أرضه، وملوحة مائه.

{ **مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ** } أصل المقام أنّه مفعل من القيام، والقيام يطلق على المعنى الشائع وهو ضدّ القعود،

ويطلق على خصوص القيام للصلاة والدعاء، أي: هو مقام إبراهيم، أي: البيت الذي ببكة.
وقد عبّر عن المسجد الحرام بأنّه مقام إبراهيم، أي: محلّ قيامه للصلاة والطواف قال تعالى { وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً } [البقرة:125].

{ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً } عطف على مزايا البيت وفضائله من الأمن فيه على العموم، وامتنان بما تقرّر في ماضي العصور، فهو خبر لفظا مستعمل في الامتنان، فإنّ الأمن فيه قد تقرّر واطّرد.

ومن العلماء من حمل قوله تعالى { وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً } أنّه خبر مستعمل في الأمر بتأمين داخله من أن يصاب بأذى، وروي عن ابن عباس، وابن عمر، وسعيد بن جبير، وعطاء، وطاوس، والشعبي.

وقد اختلف الصائرون إلى هذا المعنى في محمل بهذا الأمر:

<u>فقال جماعة</u>: هذا حكم نسخ، يعنون نسخته الأدلة التي دلت على أنّ الحرم لا يُعيذ عاصيا. وقد قال مالك والشافعي: إنّ من أصاب جناية في الحرم أو خارجه ثم عاذ بالحرم يقام عليه الحدّ في الحرم ويقاد منه.

<u>وقال أبو حنيفة وأصحابه الأربعة</u>: لا يقتص في الحرم من اللاجئ إليه من خارجه مادام فيه، لكنّه لا يبايع ولا يؤاكل ولا يجالس إلى أن يخرج من الحرم. ويروون ذلك عن ابن عباس، وابن عمر، ومن ذكرناه معهما آنفا.

<u>وقال فريق</u>: هو حكم محكم غير منسوخ.

وقد ألممنا بذلك عند قوله تعالى { وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ} [البقرة:191].

{ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاس حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ }

حكم أعقب به الامتنان، لما في هذا الحكم من التنويه بشأن البيت فلذلك حسن عطفه. والتقدير، مباركا، وهدى، وواجبا حجّه، فهو عطف على الأحوال.

الحجّ: تقدم عند قوله تعالى { الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ } [البقرة:197]، وفيه لغتان فتح الحاء وكسرها ولم يقرأ في جميع مواقعه في القرآن بكسر الحاء إلّا في هذه الآية.

ويتّجه أن تكون هذه الآية هي التي فُرض بها الحجّ على المسلمين، وقد استدلّ بها علماؤنا على فرضية الحجّ، فما كان يقع من حج النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين، قبل نزولها، فإنّما كان تقرّبا إلى الله، واستصحابا للحنفيّة. وقد ثبت أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم حجّ مرّتين بمكة قبل الهجرة ووقف مع النّاس.

وقد صحّ أنّها نزلت سنة ثلاث من الهجرة، عقب غزوة أحد، فيكون الحجّ فرض يومئذ. وذكر القرطبي الاختلاف في وقت فرضية الحج على ثلاثة أقوال: فقيل: سنة خمس، وقيل: سنة سبع، وقيل: سنة تسع. ولم يعز الأقوال إلى أصحابها.

وأظهر من هذه الأقوال قول رابع تمالأ عليه الفقهاء وهو أنّ دليل وجوب الحج قوله تعالى { وَلِلَّهِ عَلَى النّاس حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً }، وقد استدل الشافعي بها على إنّ وجوبه على التراخي، فيكون

وجوبه على المسلمين قد تقرر سنة ثلاث، وأصبح المسلمون منذ يومئذ مُحْصَرين عن أداء هذه الفريضة إلى أن فتح الله مكّة ووقعت حجة سنة تسع.

وفي هذه الآية من صيغ الوجوب صيغتان: لام الاستحقاق، وحرف (على) الدال على تقرّر حقّ في ذمة المجرور بها. وقد تعسّر أو تعذر قيام المسلمين بأداء الحجّ عقب نزولها، لأنّ المشركين كانوا لا يسمحون لهم بذلك. فلعلّ حكمة إيجاب الحجّ يومئذ أن يكون المسلمون على استعداد لأداء الحجّ متى تمكّنوا من ذلك، ولتقوم الحجّة على المشركين بأنّهم يمنعون هذه العبادة، ويصدون عن المسجد الحرام، ويمنعون مساجد الله أن يذكر فيها اسمه.

{ **مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً** } بدل من النّاس لتقييد حال الوجوب.

استطاع سبيل: وجد سبيلا وتمكّن منه، والكلام بأواخره. و**السبيل** هنا مجاز فيما يتمكّن به المكلّف من الحجّ. وللعلماء في تفسير السبيل أقوال اختلفت ألفاظها، واتحدت أغراضها. قال مالك: " السبيل القدرة والنّاس على قدر طاقتهم وسيرهم وجلدهم ". واختلف فيمن لا زاد له ويستطيع الاحتراف في طريقه، فقال مالك: " إذا كان ذلك لا يزري فليسافر ويكتسب في طريقه ". وقال بمثله ابن الزبير، والشعبي، وعكرمة.

وظاهر قوله تعالى { مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً } أنّ الخطاب بالحجّ والاستطاعة للمرء في عمله لا في عمل غيره، ولذلك قال مالك: " لا تصحّ النيابة في الحجّ في الحياة لعذر ". فالعاجز يسقط عنه الحجّ عنده، ولم ير فيه إلاّ أنّ للرجل أن يوصي بأن يُحجّ عنه بعد موته حجّ التّطوع. وقال الشافعي، وأحمد، وإسحاق ابن راهويه: إذا كان له عذر مانع من الحجّ وكان له من يطيعه لو أمره بأن يحجّ عنه، أو كان له مال يستأجر به من يحجّ عنه، صار قادرا في الجملة، فيلزمه الحجّ، واحتجّ بحديث ابن عبّاس: أنّ امرأة من خثعم سألت النبي صلى الله عليه وسلم يوم حجة الوداع فقالت: إنّ فريضة الله على عباده في الحجّ أدركت أبي شيخا كبيرا لا يثبت على الراحلة أفيُجْزِئُ أن أحجّ عنه؟ قال: **" نعم، حجّي عنه، أرأيت لو كان على أبيك دين أكنت قاضيته؟** قالت: نعم، قال: **" فدين الله أحق أن يقضى"**. وأجاب عنه المالكية بأنّ الحديث لم يدل على الوجوب بل أجابها بما فيه حثّ على طاعة أبيها، وطاعة ربّها.

قال علي بن أبي طالب، وسفيان الثوري، وأبو حنيفة، وابن المبارك. لا تجزئ إلّا إنابة الأجرة دون إنابة الطاعة.

وظاهر الآية أنّه إذا تحققت الاستطاعة وجب الحجّ على المستطيع على الفور، وذلك يندرج تحت مسألة اقتضاء الأمر الفور أو عدم اقتضائه إيّاه، وقد اختلف علماء الإسلام في ذلك.

فذهب إلى أنّه على الفور البغداديون من المالكية، وتأوّلوه من قول مالك، وهو الصحيح من مذهب أبي حنيفة، وهو قول أحمد بن حنبل، وداوود الظاهري.

وذهب جمهور العلماء إلى أنّه على التراخي وهو الصحيح من مذهب مالك ورواية ابن نافع وأشهب عنه، وهو قول الشافعي وأبي يوسف. واحتج الشافعي بأنّ الحجّ فرض قبل حجّ النبيّ صلى الله عليه وسلم بسنين، فلو كان على الفور لما أخّره، ولو أخره لعذر لبيّنه.

{ **وَمَنْ كَفَرَ** } ظاهره أنّه مقابل قوله { مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً } فيكون المراد بمن كفر: من لم يحجّ مع الاستطاعة، ولذلك قال جمع من المحققين: إنّ الإخبار عنه بالكفر هنا تغليظ لأمر ترك الحج، والمراد **كفر النعمة**. ويجوز أيضا أن يراد تشويه صنعه بأنّه كصنيع من لا يؤمن بالله ورسله وفضيلة حَرمه.

وقال قوم: أراد ومن كفر بفرض الحج. وقال قوم بظاهره: إن ترك الحجّ مع القدرة عليه كفر، ونسب للحسن.

وعندي أنّه يجوز أن يكون المراد بمن كفر، من كفر بالإسلام، وذلك تعريض بالمشركين من أهل مكّة بأنّه لا اعتداد بحجّهم عند الله وإنّما يريد الله أن يحجّ المؤمنون به والموحدون له.

{ **فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ** } رمز إلى نزعه ولاية الحرم من أيديهم، لأنّه لمّا فُرض الحج وهم يصدّون عنه، وأعلمنا أنّه غني عن النّاس، فهو لا يعجزه من يصدّ النّاس عن مراده تعالى.

{ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ [98] قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ [99]** }.

ابتداء كلام رجع به إلى مجادلة أهل الكتاب وموعظتهم فهو مرتبط بقوله تعالى { قُلْ صَدَقَ اللَّهُ }.

أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بالصدع بالإنكار على أهل الكتاب، ولذلك افتتح بفعل { **قل** } اهتماما بالمقول.

{ **بِآيَاتِ اللَّهِ** } إمّا القرآن، وإمّا دلائل صدق الرسول صلى الله عليه وسلم. والكفر على هذين الوجهين بمعناه الشرعي واضح. وإمّا آيات فضيلة المسجد الحرام على غيره، والكفر على هذا الوجه بمعناه اللغوي، والاستفهام إنكار.

{ **وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ** } في موضع الحال لأنّ أهل الكتاب يوقنون بعموم علم الله تعالى، وأنّه لا يخفى عليه شيء فجحدهم لآياته مع ذلك اليقين أشدّ إنكارا.

{ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ** } توبيخ ثان وإنكار على مجادلتهم لإضلالهم المؤمنين بعد أن أنكر عليهم ضلالهم في نفوسهم.

الصدّ: يستعمل قاصرا ومتعدّيا: يقال صدَّه عن كذا فصُدَّ عنه. وقاصره بمعنى الاعراض. فمتعدّيه بمعنى جعل المصدود مُعرضا، أي: صرفه. ويقال: أصدُّه عن كذا.

{ **سَبِيلِ اللَّهِ** } مجاز في الأقوال والأدلة الموصلة إلى الدين والحق.

والمراد بالصدّ عن سبيل الله إمّا محاولة إرجاع المؤمنين إلى الكفر بإلقاء التشكيك عليهم. وإمّا صدّ النّاس عن الحجّ، أي صدّ أتباعهم عن حجّ الكعبة، وهذا يلاقي الكفر بمعناه اللغوي المتقدّم. ويجوز أن يكون إشارة إلى إنكارهم القبلة، فيكون المقصود صدّ المؤمنين عن استقبال الكعبة.

{ **تَبْغُونَهَا عِوَجاً** } أي: تبغون السبيل، فأنَّث ضميره لأنّ السبيل يذكر ويؤنث، كما في قوله تعالى { قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي } [يوسف: 108].

البغي: الطلب أي: تطلبون.

العِوج: (بكسر العين وفتح الواو) ضدّ الاستقامة.

المعنى: تصدّون عن السبيل المستقيم وتريدون السبيل المعوج، والسبيل التي يريدونها هي ما هم عليه من الدين بعد نسخه وتحريفه.

{ **وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ** } ومعناه وأنتم عالمون أنّها سبيل الله. وقد أحالهم في هذا الكلام على ما في ضمائرهم ممّا لا يعلمه إلّا الله، لأنّ ذلك هو المقصود من وخز قلوبهم، وانثنائهم باللائمة على أنفسهم، ولذلك عقبه بقوله { **وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** } وهو وعيد وتهديد وتذكير لأنّهم يعلمون أنّ الله يعلم ما تخفي الصدور.

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ** [100] **وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** [101] }.

إقبال على خطاب المؤمنين لتحذيرهم من كيد أهل الكتاب وسوء دعائهم المؤمنين، وقد تفضّل الله على المؤمنين بأن خاطبهم بغير واسطة فلم يقل: قل يا أيّها الذين آمنوا.

الفريق: الجماعة من النّاس، وأشار به هنا إلى فريق من اليهود وهم: شَاس ابن قيس وأصحابه، أو أراد شاسا وحده، وجعله فريقا كما جعل أبا سفيان ناسا في قوله { إِنَّ النّاس قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ } [آل عمران:173] وسبب نزول هذه الآية، أنّ الأوس والخزرج كانوا في الجاهلية قد تخاذلوا وتحاربوا حتّى تفانوا، وكانت بينهم حروب وآخرها **يوم بُعاث** التي انتهت قبل الهجرة بثلاث سنين، فلمّا اجتمعوا على الإسلام زالت تلك الأحقاد من بينهم وأصبحوا عُدّة لإسلام، فساء ذلك يهود يثرب فقام شاس بن قيس اليهودي، وهو شيخ قديم منهم، فجلس إلى الأوس والخزرج، أو أرسل إليهم من جلس إليهم يذكّرهم حروب بُعاث، فكادوا أن يقتتلوا، ونادى كل فريق: يا للأوس ويا للخزرج وأخذوا السلاح، فجاء النبيّ صلى الله عليه وسلم فدخل بينهم وقال: " **أتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم؟** " وفي رواية " **أبدعوى الجاهلية؟** "، أي أتدعون بدعوى الجاهلية وقرأ هذه الآية، فما فرغ منها حتّى ألقوا السلاح، وعانق بعضهم بعضا، قال جابر بن عبد الله: ما كان طالع أكره إلينا من طلوع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلمّا أصلح الله بيننا

ما كان شخص أحبّ إلينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما رأيت يوما أقبحَ ولا أوحشَ أوّلا وأحسنَ آخرا من ذلك اليوم ".

الردّ: أصله الصرف والإرجاع، قال تعالى { وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ } [الحج:5] وهو هنا مستعار لتغيّر الحال بعد المخالطة فيفيد معنى التصيير.

{ **كافرين** } مفعوله الثاني، و{ **بعد إيمانكم** } تأكيد لما أفاده قوله { يَرُدُّوكُمْ }، والقصد من التصريح توضيح فوات نعمة عظيمة كانوا فيها لو يكفرون.

{ **وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ** } استفهام مستعمل في الاستبعاد، استبعادا لكفرهم ونفيا له.

{ **وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ** } حالية، لأنّ كلاّ من تلاوة آيات الله وإقامة الرسول عليه الصلاة والسلام فيهم وازع لهم عن الكفر، وأي وازع، **فالآيات** هنا هي القرآن ومواعظه.

{ **وَفِيكُمْ رَسُولُهُ** } الظرفية حقيقيّة ومؤذنة بمنقبة عظيمة، ومنّة جليلة، وهي وجود هذا الرسول العظيم بينهم، تلك المزيّة التي فاز بها أصحابه المخاطبون، وبها يظهر معنى قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه الترمذي عن أبي سعيد الخدري: **" لا تسبّوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنّ أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه "** (النصيف: نصف مد).

{ **وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** } من يتمسّك بالدين فلا يُخشى عليه الضلال.

الاعتصام: هنا استعارة للتمسّك. وفي هذا إشارة إلى التمسّك بكتاب الله ودينه لسائر المسلمين الذين لم يشهدوا حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ [102] وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ [103] }.

انتقل من تحذير المخاطبين من الانخداع لوساوس بعض أهل الكتاب، إلى تحريضهم على تمام التقوى، لأنّ في ذلك زيادة صلاح لهم ورسوخا لإيمانهم، وهو خطاب لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ويسري إلى جميع من يكون بعدهم. وهذه الآية أصل عظيم من أصول الأخلاق الإسلاميّة.

التقوى: تقدّم تفسيرها عند قوله تعالى { هُدىً لِلْمُتَّقِينَ } [البقرة:2]، وحاصلها امتثال الأمر، واجتناب المنهي عنه، في الأعمال الظاهرة والنوايا الباطلة.

{ **حَقَّ تُقَاتِهِ** } هو أن لا يكون فيها تقصير، وتظاهر بما ليس من عمله، وذلك هو معنى قوله { فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ } [التغابن:16] لأنّ الاستطاعة هي القدرة، والتقوى مقدورة للنّاس. وبذلك لم يكن تعارض بين الآيتين، ولا نسخ.

وقيل: هاته منسوخة بقوله تعالى { فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ } لأنّ هاته دلت على تقوى كاملة كما فسّرها ابن مسعود: " أن يُطاع فلا يُعصى، ويُشكر فلا يُكفر، ويُذكر فلا يُنسى". والحق أنّ هذا بيان لا نسخ، كما حقّقه المحقّقون، ولكن شاع عند المتقدّمين إطلاق النسخ على ما يشمل البيان.

{ **وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ** } نهي عن أن يموتوا على حالة في الدين إلاّ على حالة الإسلام، فمحطّ النهي هو القيد. وهو مجاز تمثيلي علاقته اللزوم. لمّا شاع بين النّاس من أنّ ساعة الموت أمر غير معلوم، فالنهي عن الموت على غير الإسلام يستلزم النهي عن مفارقة الإسلام في سائر أحيان الحياة.

{ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا** } ثَنَّى أمرهم بما فيه صلاح أنفسهم لأُخراهم، بأمرهم بما فيه صلاح حالهم في دنياهم، وذلك بالاجتماع على هذا الدين وعدم التفرّق ليكتسبوا باتّحادهم قوّة ونماء.

الاعتصام: افتعال من عصم وهو طلب ما يعصمن أي: يمنع.

{ **بِحَبْلِ اللَّهِ** } الكلام تمثيل لهيئة اجتماعهم والتفافهم على دين الله ووصاياه وعهوده، بهيئة استمساك جماعة بحبل ألقي إليهم منقذ لهم من غرق أو سقوط، وإضافة الحبل إلى الله قرينة هذا التمثيل.

{ **جميعا** } حال وهو الذي رجّح إرادة التمثيل، إذ ليس المقصود الأمر باعتصام كلّ مسلم في حال انفراده اعتصاما بهذا الدين، بل المقصود الأمر باعتصام الأمّة كلّها، ويحصل في ضمن ذلك أمر كلّ واحد بالتمسك بهذا الدين. فالكلام أمر لهم بأن يكونوا على هاته الهيئة، وهذا هو الوجه المناسب لتمام البلاغة لكثرة ما فيه من المعاني. ويصير { جميعا } محتملا لتأكيد العموم المستفاد من واو الجماعة.

{ **ولا تفرّقوا** } تأكيد لمضمون اعتصموا جميعا، أو أمر ثان للدلالة على طلب الاتحاد في الدين، وقد ذكرنا أنّ الشيء قد يؤكّد بنفي ضده . وفي الآية دليل على أنّ الأمر بالشيء يستلزم النهي عن ضدّه.

{ **وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ** } تذكير بنعمة الله تعالى، الذي اختار لهم هذا الدين، وفي ذلك تحريض على إجابة أمره تعالى إيّاهم بالاتفاق. والتذكير بنعمة الله تعالى طريق من طرق مواعظ الرسل. وهذا التذكير خاص بمن أسلم بعد أن كان في الجاهلية، لأنّ الآية خطاب للصحابة، ولكن المنّة به مستمرّة على سائر المسلمين، لأنّ كلّ جيل يُقدّر أن لو لم يَسبق إسلام الجيل الذي قبله لكانوا هم أعداء وكانوا على شفا حفرة من النار.

والخطاب للمؤمنين وهم يومئذ المهاجرين والأنصار وأفراد قليلون من بعض القبائل القريبة، وكان جميعهم قبل الإسلام في عداوة وحروب؛ فالأوس والخزرج كانت بينهم حروب دامت مائة وعشرين سنة قبل الهجرة، ومنها كان **يوم بُعاث**، والعرب كانوا في حروب وغارات، بل وسائر الأمم التي دعاها الإسلام كانوا في تفرّق وتخاذل فصار الذين دخلوا في الإسلام إخوانا وأولياء بعضهم لبعض، لا يصدّهم

عن ذلك اختلاف أنساب، ولا تباعد مواطن.

الإخوان: جمع الأخ، مثل الأخوة، وقيل: يختصّ الإخوان بالأخ المجازي والأخوة بالأخ الحقيقي، وليس بصحيح قال تعالى { أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ } [النور:61] وقال { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ } [الحجرات:10]. وليس يصحّ أن يكون للمعنى المجازي صيغة خاصة في الجمع أو المفرد، وإلاّ لبطل كون اللفظ مجازا وصار مشتركا، لكن للاستعمال أن يُغلِّب إطلاق إحدى الصيغتين الموضوعتين لمعنى واحد فيغلِّبها في المعنى المجازي والأخرى في الحقيقي.

وقد امتن الله عليهم بتغيير أحوالهم من أشنع حالة إلى أحسنها: فحالة كانوا عليها هي حالة العداوة والتفاني والتقاتل، وحالة أصبحوا عليها وهي حالة الأخوّة، ولأجل هذا المعنى جمعت لهم هذه الآية في الامتنان بين ذكر الحالتين وما بينهما { إِذْ كُنْتُمْ **أَعْدَاءً** فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ **إِخْوَاناً** }.

{ **بنعمته** } الباء فيه للملابسة بمعنى (مع)، أي أصبحتم إخوانا مصاحبين نعمة الله، وهي نعمة الأخوّة.

{ **وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا** } عطف على { كنتم أعداء } فهو نعمة أخرى، وهي نعمة الإنقاذ من حالة أخرى بئيسة وهي حالة الإشراف على المهلكات.

الشَّفَا: مثل الشَّفَة هو حرف القليب وطرفه. فأرى أنّ { شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ} هنا تمثيل لحالهم في الجاهليّة حين كانوا على وشك الهلاك والتفاني، بحال قوم بلغ بهم المشي إلى شفا حفير من النّار كالأُخدود فليس بينهم وبين الهلاك السريع التام إلاّ خطوة قصيرة، واختيار الحالة المشبَّه بها هنا لأنّ النار أشدّ المهلكات إهلاكا، وأسرعها، وهذا هو المناسب في حمل الآية ليكون الامتنان بنعمتين محسوستين هما؛ نعمة الأُخوّة بعد العداوة، ونعمة السلامة بعد الخطر، والإنقاذ من حالتين شنيعتين.

{ **كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** } نعمة أخرى وهي نعمة التعليم والإرشاد، وإيضاح الحقائق حتّى تكمل عقولهم، ويتبيّنوا ما فيه صلاحهم. والبيان هنا بمعنى الإظهار والإيضاح. والآيات يجوز أن يكون المراد بها النعم، ويجوز أن يراد بها دلائل عنايته تعالى بهم، وتثقيف عقولهم وقلوبهم بأنوار المعارف الإلهية. وأن يُراد بها آيات القرآن فإنّها غاية في الإفصاح عن المقاصد وإبلاغ المعاني إلى الأذهان.

{ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [104] وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ [105] }.

هذا مفرّع عن الكلام السّابق، لأنّه لمّا أظهر لهم نعمة نقلهم من حالتي شقاء وشناعة إلى حالتي نعيم وكمال، وكانوا قد ذاقوا بين الحالتين الأمَرَّيْن ثم الأَحْلَوَيْن، فحلبوا الدّهر أشطريه، كانوا أحرياء بأن

يسعوا بكل عزمهم إلى انتشال غيرهم من سوء ما هم فيه إلى حسنى ما هم عليه، حتّى يكون النّاس أمّة واحدة خيّرة.

وفيه من حسن المقابلة في التقسيم ضرب من ضروب الخطابة، وذلك أنّه أنكر على أهل الكتاب كفرهم وصدّهم النّاس عن الإيمان، فقال { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } [98 / 99]، وقابل ذلك بأن أمر المؤمنين بالإيمان والدعاء إليه إذ قال { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ } [102] وقوله:

{ **وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ** } صيغة وجوب لأنّها أصرح في الأمر من صيغة (افعلوا) لأنّها أصلها. فإذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر غير معلوم بينهم من قبل نزول هذه الآية، فالأمر لتشريع الوجوب، وإذا كان ذلك حاصلا بينهم من قبل فالأمر لتأكيد ما كانوا يفعلونه ووجوبه، وفيه زيادة الأمر بالدعوة إلى الخير. وقد كان الوجوب مقرّرا من قبل بآيات أخرى مثل { وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ } [العصر:3]، أو بأوامر نبويّة. فالأمر لتأكيد الوجوب أيضا للدلالة على الدوام والثبات عليه.

الأمّة: الجماعة والطائفة كقوله تعالى { كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا } [الأعراف:38].

وأصل الأمّة من كلام العرب الطائفة من النّاس التي تؤمّ قصدا واحدا؛ من نسب أو موطن أو دين، أو مجموع ذلك، كقولهم: أمّة العرب، وأمّة غسان، وأمّة النصارى.

{ **مِنْكُمْ** } المخاطب هم أصحاب رسول الله كما هو ظاهر الخطابات السابقة آنفا، فتكون (من) بيانيّه وقدّم البيان على المبين، ويكون ما صدق الأمّة نفس الصحابة، وهم أهل العصر الأوّل من المسلمين.

والمقصود: ولتكونوا آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر حتّى تكونوا أمّة هذه صفتها، وهذا هو الأظهر، فيكون جميع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خوطبوا بأن يكونوا دعاة إلى الخير، ولا جرم فهم الذين تلقّوا الشريعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم مباشرة، فهم أولى النّاس بتبليغها، وأعلم بمشاهدها وأحوالها، ويشهد لهذا قوله صلى الله عليه وسلم في مواطن كثيرة: " **ليبلغ الشاهد الغائب، ألا هل بلّغت** "، وإلى هذا المحمل مال الزجّاج وغير واحد من المفسّرين، كما قاله ابن عطية.

ويجوز أيضا، على اعتبار الضمير خطابا لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، أن تكون (من) للتبعيض، والمراد من الأمّة الجماعة والفريق، أي: وليكن بعضكم فريقا يدعون إلى الخير، فيكون الوجوب على جماعة من الصحابة فقد قال ابن عطية: قال الضحاك والطبري: " أمر المؤمنين أن تكون منهم جماعة بهذه الصفة. فهم خاصة أصحاب الرسول وهم خاصة الرواة ".

أقول: على هذا يثبت حكم الوجوب على كل جيل بعدهم بطريق القياس لئلّا يتعطّل الهدى. قال { فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ } [التوبة:122].

{ **يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ** } الدعوة إلى الخير تتفاوت؛ فمنها ما هو بيّن يقوم به كل مسلم، ومنها ما يحتاج إلى علم فيقوم به أهله، وهذا هو المسمّى بفرض الكفاية.

الدعاء إلى الخير: الدعاء إلى الإسلام، وبثّ دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، فإنّ الخير اسم يجمع خصال الإسلام. ولذلك يكون عطف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عليه من عطف الشيء على مغايره، وهو أصل العطف. وقيل: أريد بالخير ما يشمل جميع الخيرات، ومنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيكون العطف من عطف الخاص على العام للاهتمام به.

وحذفت مفاعيل يدعون ويأمرون وينهون لقصد التعميم أي يدعون كل أحد.

المعروف: هو ما يعرف وهو مَجاز في المقبول المرضي به، لأنّ الشيء إذا كان معروفا كان مألوفا مقبولا مرضيّا به، وأريد به هنا ما يُقبل عند أهل العقول، وفي الشرائع، وهو الحقّ والصلاح، لأنّ ذلك مقبول عند انتفاء العوارض.

المنكر: مَجاز في المكروه، والكره لازم للإنكار لأنّ المنكر في أصل اللسان هو الجهل ومنه تسمية غير المألوف نكرة، وأريد به هنا الباطل والفساد، لأنّهما من المكروه في الجبلّة عند انتفاء العوارض.

(الخير، والمعروف، والمنكر) التعريف للاستغراق، فيفيد العموم في المعاملات بحسب ما ينتهي إليه العلم والمقدرة، فيشبه الاستغراق العرفي.

{ **وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** } معطوفة على صفات أمّة وهي التي تضمّنتها جمل { يَدْعُونَ إِلَى الخيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } والتقدير: وهم مفلحون، لأنّ الفلاح لمّا كان مسبَّبا على تلك الصفات الثلاث جعل بمنزلة صفة لهم، ويجوز جعل الجملة حالا من أمّة.

والمقصود بشارتهم بالفلاح الكامل إن فعلوا ذلك.

ومفاد هذه الجملة قصر صفة الفلاح عليهم، فهو إمّا قصر إضافي بالنسبة لمن لم يقم بذلك مع المقدرة عليه، وإمّا قصر أريد به المبالغة لعدم الاعتداد في هذا المقام بفلاح غيرهم، وهو معنى قصد الدلالة على معنى الكمال.

{ **وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا** } معطوف على قوله تعالى { وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ } وهو يرجع إلى قوله تعالى { وَلا تَفَرَّقُوا }، لما فيه من تمثيل حال التفرّق في أبشع صوره المعروفة لديهم من مطالعة أحوال اليهود.

وفيه إشارة إلى أنّ ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يفضي إلى التفرّق والاختلاف إذ تكثر النزعات والنزغات وتنشقّ الأمّة بذلك انشقاقا شديدا.

لاشكّ في أنّ حكم هذه الآية يعمّ سائر المسلمين، إمّا بطريق اللفظ، وإمّا بطريق لحن الخطاب، لأنّ المنهي عنه هو الحالة الشبيهة بحال اللذين تفرّقوا واختلفوا.

وأريد بالذين تفرّقوا واختلفوا الذين اختلفوا في أصول الدين من اليهود والنصارى، من بعد ما جاءهم من الدلائل المانعة من الاختلاف والافتراق. وقدّم الافتراق على الاختلاف للإيذان بأنّ الاختلاف علة التفرّق، وهذا من المفادات الحاصلة من ترتيب الكلام وذكر الأشياء مع مقارنتها، وفي عكسه قوله تعالى { وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ } [البقرة:282].

وفيه إشارة إلى أن الاختلاف المذموم والذي يؤدي إلى الافتراق، هو الاختلاف في أصول الديانة الذي يفضي إلى تكفير بعض الأمّة بعضا، أو تفسيقه، دون الاختلاف في الفروع المبنيّة على اختلاف مصالح الأمّة في الأقطار والأعصار، وهو المعبّر عنه بالاجتهاد.

{ **البيّنات** } الدلائل التي فيها عصمة من الوقوع في الاختلاف لو قيّضت لها أفهام.

{ **وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** } مقابل قوله في الفريق الآخر { وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } فالقول فيه كالقول في نظيره، وهذا جزاء على التفرّق والاختلاف وعلى تفريطهم في تجنب أسبابه.

{ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ [106] وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [107] }.

في تعريف هذا اليوم بحصول بياض وجوه وسواد وجوه فيه، تهويل لأمره، وتشويق لما يرد بعده من تفصيل أصحاب الوجوه المبيّضة، والوجوه المسوّدة، ترهيبا لفريق وترغيبا لفريق آخر.

والبياض والسواد، بياض وسواد حقيقيان يوسم بهما المؤمن والكافر يوم القيامة، وهما بياض وسواد خاصان لأنّ هذا من أحوال الآخرة فلا داعي لصرفه عن حقيقته.

{ **فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ** } تفصيل للإجمال السابق، سلك فيه طريق النشر المعكوس. وقدّم عند وصف اليوم ذكر البياض، الذي هو شعار أهل النعيم، تشريفا لذلك اليوم بأنّه يوم ظهور رحمة الله ونعمته، ولأنّ رحمة الله سبقت غضبه. ثم قدّم في التفصيل ذكر سمة أهل العذاب تعجيلا بمساءلتهم.

{ **أكفرتم** } مقول قول محذوف، وقائل هذا القول مجهول، إذ لم يتقدّم ما يدلّ عليه، فيحتمل أنّ ذلك يقوله أهل المحشر لهم وهم الذين عرفوهم في الدنيا مؤمنين، ثم رأوهم وعليهم سمة الكفر، كما ورد في حديث الحوض " **فليردنّ عليّ أقوام أعرفهم ثم يُختلجُون دوني، فأقول: أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك** ". ويحتمل أنّه يقوله تعالى لهم، فالاستفهام مجاز عن الإنكار والتغليط.

ثم إن كان المراد بالذين اسودت وجوههم أهل الكتاب فمعنى كفرهم بعد إيمانهم تغييرهم شريعة أنبيائهم وكتمانهم ما كتموه فيها، أو كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم بعد أيمانهم بموسى وعيسى، كما تقدّم في قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ } [90]، وهذا هو المحمل البيّن، وسياق الكلام ولفظه يقتضيه، فإنّه مسوق لوعيد أولئك.

وقال مالك بن أنس : " إنّما هذه لأهل القبلة ". يعني أنّها ليست للذين تفرّقوا واختلفوا من الأمم قبلنا بدليل قوله: { أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ }، وروي مثل هذا عن ابن عباس.

{ **فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ** } مجاز للإحساس، وهو مجاز مشهور علاقته التقييد.

{ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالمينَ [108] وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ [109] }.

{ **تلك** } إشارة إلى طائفة من آيات القرآن السابقة من هذه السورة.

التلاوة :أسم لحكاية كلام لإرادة تبليغه بلفظة وهي كالقراءة إلّا أنّ القراءة تختصّ بحكاية كلام مكتوب.

فيتّجه أن تكون الطائفة المقصودة بالإشارة هي الآيات المبدوءة بقوله تعالى { إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ } [59] إلى هنا،لأنّ ما قبله ختم بتذييل قريب من هذا التذييل، وهو قوله { ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ } [58] فيكون كلّ تذييل مستقلا بطائفة الجمل التي وقع هو عقبها.

وخصّت هذه الطائفة من القرآن بالإشارة لما فيها من الدلائل المثبتة صحة عقيدة الإسلام، والمبطلة لدعاوى الفرق الثلاث من اليهود والنصارى والمشركين.

{ **بالحق** } الباء للملابسة، وهي ملابسة الإخبار للمخبَر عنه، أي: لما في نفس الأمر والواقع، فهذه الآيات بيّنت عقائد أهل الكتاب وفصّلت أحوالهم في الدنيا والآخرة.

{ **وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالمينَ** } جئ بالمسند فعلا لإفادة تقوّي الحكم، وهو انتفاء إرادة ظلم العالمين عن الله تعالى، وتنكير (ظلما) في سياق النفي يدل على انتفاء جنس الظلم عن أن تتعلّق به إرادة الله، فكلّ ما يعدّ ظلما في مجال العقول السليمة منتف أن يكون مراد الله تعالى.

{ **وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ** } عطف على التذييل، لأنّه إذا كان له ما في السماوات وما في الأرض فهو يريد صلاح حالهم، ولا حاجة له بإضرارهم إلّا للجزاء على أفعالهم، فلا يريد ظلمهم. وإليه ترجع الأشياء كلّها فلا يفوته ثواب محسن ولا جزاء مسيء.

{ **آيَاتُ اللَّهِ / وَمَا اللهُ / وَلِلَّهِ** } تكرير أسم الجلالة ثلاث مرات في الجمل الثلاث للقصد إلى أن تكون كلّ جملة مستقلّة الدلالة بنفسها، غير متوقّفة على غيرها، حتى تصلح لأن يُتمثّل بها، وتستحضرها النفوس وتحفظها الأسماع.

{ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ } [110].

{ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ }

يتنزّل هذا منزلة التعليل لأمرهم بالدعوة إلى الخير، فهو مؤذن بتعليل كونهم خير أمّة، فيترتّب عليه أنّ ما كان فيه خيريّتهم يجدُر أن يُفرض عليهم.

{ **كنتم** } الخطاب إمّا لأصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، ونُقل ذلك عن عمر بن الخطاب، وأبن عباس. فالمراد بالأمّة الجماعة، وأهل العصر النبوي، مثل القرن، وهو إطلاق مشهور ومنه قوله تعالى { وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ } [يوسف:45]، أي: بعد مدّة طويلة كمدّة عصر كامل.

وإمّا أن يكون الخطاب بضمير{ كنتم } للمسلمين كلّهم في كل جيل ظهروا فيه، ومعنى تفضيلهم بالأمر بالمعروف مع كونه من فروض الكفايات لا تقوم به جميع أفراد الأمّة، أنّه لا يخلو مسلم من القيام بما يستطيع القيام به من هذا الأمر، على حسب مبلغ العلم ومنتهى القدرة، فمن التغيير على الأهل والولد إلى التغيير على جميع أهل البلد. أو لأنّ وجود طوائف القائمين بهذا الأمر في مجموع الأمّة أوجب فضيلة لجميع الأمّة، لكون هذه الطوائف منها، كما كانت القبيلة تفتخر بمحامد طوائفها، وفي هذا ضمان من الله تعالى بأنّ ذلك لا ينقطع من المسلمين إن شاء الله تعالى.

ويجوز أن يكون المعنى { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ } موصوفين بتلك الصفات فيما مضى تفعلونها إمّا من تلقاء أنفسكم حرصا على إقامة الدين واستحسانا وتوفيقا من الله في مصادفتكم لمرضاته ومراده، وإمّا بوجوب سابق حاصل من آيات أخرى مثل قوله { وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ } [العصر:3]. وحينئذ فلمّا أمرهم بذلك على سبيل الجزم، أثنى عليهم بأنّهم لم يكونوا تاركيه من قبل.

أمّة: عموم الأمم كلّها على ما هو المعروف في إضافة أفعل التفضيل إلى النكرة أن تكون للجنس فتفيد الاستغراق.

{ **أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** } الإخراج مجاز في الإيجاد والإظهار.

{ **تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ** } حال في معنى التعليل إذ مدلولها ليس من الكيفيّات المحسوسة حتّى تحكي الخيرية في حال مقارنتها لها، بل هي من الأعمال النفسية الصالحة للتعليل لا للتوصيف، ويجوز أن يكون استئنافا لبيان كونهم خير أمّة. والمعروف والمنكر تقدّم بيانها قريبا.

وإنّما قدّم { تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } على قوله { **وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** } لأنّهما الأهم في هذا المقام المسوق للتنويه بفضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والاهتمام الذي هو سبب التقديم يختلف باختلاف مقامات الكلام ولا ينظر فيه إلى ما في نفس الأمر لأنّ إيمانهم ثابت محقّق من قبل.

وإنّما ذكر الإيمان بالله في عداد الأحوال التي استحقوا بها التفضيل على الأمم، لأنّ لكلّ من تلك الأحوال الموجبة للأفضلية أثرا في التفضيل على بعض الفرق:

فالإيمان قُصد به التفضيل على المشركين الذين كانوا يفتخرون بأنّهم أهل حرم الله وسدنة بيته .

وذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قُصد به التفضيل على أهل الكتاب الذين أضاعوا ذلك بينهم، وقد قال تعالى فيهم { كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ } [المائدة:79].

وقد شاع عند العلماء الاستدلال بهذه الآية على حجيّة الإجماع وعصمته من الخطأ بناء على أن التعريف في المعروف والمنكر للاستغراق، فإذا أجمعت الأمّة على حكم، لم يجز أن يكون ما أجمعوا عليه منكرا،

وتعيّن أن يكون معروفا، لأنّ الطائفة المأمورة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ضمنهم، ولا يجوز سكوتها عن منكر يقع، ولا عن معروف يترك، وهذا الاستدلال إن كان على حجيّة الإجماع بمعنى الشرع المتواتر المعلوم من الدين بالضرورة فهو استدلال صحيح، لأنّ المعروف والمنكر في هذا النوع بديهي ضروري، وان كان استدلالا على حجيّة الإجماعات المنعقدة عن اجتهاد، وهو الذي يقصده المستدلّون بالآية، فاستدلالهم بها عليه سفسطائي لأنّ المنكر لا يعتبر منكرا إلّا بعد إثبات حكمه شرعا، وطريق إثبات حكمه الإجماع، فلو أجمعوا على منكر عند الله خطأ منهم لما كان منكرا حتى ينهى عنه طائفة منهم لأنّ اجتهادهم هو غاية وسعهم.

{ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ }

عطف على قوله تعالى { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ } لأنّ ذلك التفضيل قد غمز أهل الكتاب من اليهود وغيرهم فنبّههم هذا العطف إلى إمكان تحصيلهم على هذا الفضل، مع ما فيه من التعريض بهم بأنّهم متردّدون في أتباع الإسلام.

{ **أَهْلُ الْكِتَابِ** } يشمل اليهود والنصارى، لكن المقصود الأوّل هنا هم اليهود، لأنّهم كانوا مختلطين بالمسلمين في المدينة، وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم دعاهم إلى الإسلام، وقصد بيت مدراسهم، ولأنّهم قد أسلم منهم نفر قليل. قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" لو آمن بي عشرة من اليهود لآمن بي اليهود كلهم ".**

ولم يُذكر متعلّق آمن هنا لأنّ المراد لو اتصفوا بالإيمان الذي هو لقب لدين الإسلام، وهو الذي منه أطلقت صلة الذين آمنوا على المسلمين فصار كالعلم بالغلبة.

{ **لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ** } لتذهب نفوسهم كلّ مذهب في الرجاء والإشفاق.

{ **مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ** } أي منهم من آمن بالنبيّ محمد صلى الله عليه وسلم فصدق عليه لقب المؤمن، مثل عبد الله بن سلام، ومثل أصْحَمة النّجاشي، فإنّه آمن بقلبه وعوّض عن إظهاره أعمالَ الإسلام نصره للمسلمين، وحمايته لهم ببلده، حتى ظهر دين الله، فقبل الله منه ذلك، ولذلك أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه بأنّه كان مؤمنا وصلى عليه حين أوحي إليه بموته.

ويحتمل إن يكون المعني من أهل الكتاب فريق متّق في دينه، فهو قريب من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، وهؤلاء مثل من بقي متردّدا في الإيمان من دون أن يتعرّض لأذى المسلمين، مثل النصارى من نجران ونصارى الحبشة، ومثل مخيريق اليهودي، فإنّه أوصى بماله لرسول الله صلى الله عليه وسلم. فالمراد بإيمانهم صدق الأيمان بالله وبدينهم.

وفريق منهم فاسق عن دينه، محرّف له، مناوئ لأهل الخير، كما قال تعالى { وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النّاس } [21]، مثل الذين سمّوا الشاة لرسول الله يوم خيبر، والذين حاولوا أن يرموا عليه صخرة.

{ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ } [111].

استئناف نشأ عن قوله { وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ }، لأنّ الإخبار عن أكثرهم بأنّهم غير مؤمنين يؤذن بمعاداتهم للمؤمنين، وذلك من شأنه أن يوقع في نفوس المسلمين خشية من بأسهم، وهذا يختص باليهود، فإنّهم كانوا منتشرين حيال المدينة في خيبر، والنضير، وقينقاع، وقريظة، وكانوا أهل مكر، وقوّة، ومال، وعِدّة، وعدد، والمسلمون يومئذ في قلّة فطمأن الله المسلمين بأنّهم لا يخشون بأس أهل الكتاب، ولا يخشون ضرّهم، ولا أذاهم. أمّا النصارى فلا ملابسة بينهم وبين المسلمين حتّى يخشوهم.

الأذى: هو الألم الخفيف وهو لا يبلغ حدّ الضرّ الذي هو الألم، وقد قيل: هو الضرّ بالقول.

{ **يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ** } يفرّون منهزمين.

{ **ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ** } أي: يولّوكم الأدبار تولية منهزمين لا تولية متحرّفين لقتال أو متحيّزين إلى فئة، أو متأمّلين في الأمر. وهذا كلّه وعيد لهم بأنّهم سيقاتلون المسلمين، وأنّهم ينهزمون، وطمأنة للمسلمين.

{ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاس وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ } [112].

هو خاص باليهود لا محالة، وهو كالبيان لقوله تعالى { ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ }، والجملة بيانيّة لذكر حال شديد من شقائهم في الدنيا.

{ **ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ** } اتّصالها بهم وأحاطتها، ففيه استعارة مكنيّة وتبعيّة، شبّهت الذلة، وهي أمر معقول، بقبّة أو خيمة شملتهم، وشبّه اتصالها وثباتها بضرب القبة وشدّة أطنابها، وقد تقدم نظيره في البقرة.

{ **أَيْنَ مَا ثُقِفُوا** } في الأصل أخذوا في الحرب { فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ } [الأنفال:57] وهذه المادة تدلّ على تمكّن من أخذ الشيء، وتصرّف فيه بشدّة، ومنها سمّي الأسر ثِقافا. والمعنى: أينما عُثر عليهم، أي: هم لا يوجدون إلاّ محكومين. شبّه حال ملاقاتهم في غير الحرب بحال أخذ الأسير لشدّة ذلّهم.

{ **إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاس** } الحبل مستعار للعهد، وتقدّم ما يتعلق بذلك عند قوله تعالى { فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى } [البقرة:256]، وعهد الله ذمّته، وعهد النّاس حلفهم، ونصرهم.

والمعنى: لا يسلمون من الذلّة إلاّ إذا تلبّسوا بعهد من الله، أي ذمّة الإسلام، أو إذا استنصروا بقبائل أولي بأس شديد، وأمّا هم في أنفسهم فلا نصر لهم.

{ **وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ** } أي: رجعوا، وهو مجاز لمعنى صاروا إذ لا رجوع هنا.

{ **وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ** } و**المسكنة** الفقر الشديد مشتقّة من أسم المسكين وهو الفقير، ولعلّ اشتقاقه من السكون وهو سكون خيالي أطلق على قلة الحيلة في العيش.

والمراد بضرب المسكنة عليهم تقديرها لهم، وهو إخبار بمغيب، لأنّ اليهود المخبر عنهم قد أصابهم الفقر حين أخذت منازلهم في خيبر والنضير وقينقاع وقريظة، ثم في إجلائهم بعد ذلك في زمن عمر.

{ **ذَلِكَ** } الإشارة إلى ضرب الذلة المأخوذ من { ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ }.

{ **بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ** } تقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ } [21].

{ **ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ** } يحتمل أن يكون إشارة إلى كفرهم وقتلهم الأنبياء بغير حق، فالباء سبب السبب، ويحتمل أن يكون إشارة ثانية إلى ضرب الذلّة والمسكنة فيكون سببا ثانيا. وما مصدرية أي: بسبب عصيانهم واعتدائهم.

{ **لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ [113] يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ [114]** }.

استئناف قُصد به إنصاف طائفة من أهل الكتاب، بعد الحكم على معظمهم بصيغة تعمّهم، فالضمير لأهل الكتاب المتحدّث عنهم آنفا، وهم اليهود، وهذه الجملة تتنزل من التي بعدها منزلة التمهيد.

{ **سواء** } أسم بمعنى المماثل وأصله مصدر مشتقّ من التسوية.

{ **مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ** } جملة مبيّنة، للاهتمام بهؤلاء الأمّة، التي هنا بمعنى الفريق.

وعدل عن أن يقال: منهم أمّة قائمة إلى قوله من أهل الكتاب، ليكون هذا الثناء شاملا لصالحي اليهود، وصالحي النصارى، فلا يختصّ بصالحي اليهود، فإنّ صالحي اليهود قبل بعثة عيسى كانوا متمسّكين بدينهم، مستقيمين عليه، ومنهم الذين آمنوا بعيسى وأتّبعوه، وكذلك صالحو النصارى قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم كانوا مستقيمين على شريعة عيسى، وكثير منهم أهل تهجّد في الأديرة والصوامع وقد صاروا مسلمين بعد البعثة المحمدية.

قائمة: تمثيل للعمل بدينها على الوجه الحقّ، كما يقال: سوق قائمة وشريعة قائمة.

الآناء: أصله أأناء بهمزتين بوزن أفعال، وهو جمع **إِنَى** (بكسر الهمزة وفتح النون مقصورا) ويقال: أَنَى (بفتح الهمزة)، قال تعالى {غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ} [الأحزاب: 53] أي غير منتظرين وقته.

{ **وَهُمْ يَسْجُدُونَ** } حال، أي يتهجّدون في الليل بتلاوة كتابهم.

{ **يُسَارِعُونَ فِي الخيْرَاتِ** } المسارعة مستعارة للاستكثار من الفعل، والمبادرة إليه، وهي تخييليّة تؤذن بتشبيه الخيرات بطريق يسير فيه السائرون، ولهؤلاء مزية السرعة في قطعه.

{ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ } [115].

تذييل للجمل المخاطبة أهل الكتاب. وقرأ الجمهور: { تَفْعَلُوا } بالفوقيّه فهو وعد للحاضرين، ويعلم منه أنّ الصالحين السابقين مثلهم، بقرينة مقام الامتنان. وقرأه حمزة، والكسائي، وحفص، وخلف بياء الغيبة عائدا إلى أمّة قائمة.

{ **فَلَنْ يُكْفَرُوهُ** } الكفر، ضد الشكر، أي: هو إنكار وصول النعمة الواصلة

وأطلق الكفر هنا على ترك جزاء فعل الخير، تشبيها لفعل الخير بالنعمة. كأنّ فاعل الخير أنعم على الله تعالى بنعمته مثل قوله { إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً } [التغابن:17]، وقد امتنّ الله علينا إذ جعل طاعتنا إيّاه كنعمة عليه تعالى، وجعل ثوابها شكرا، وترك ثوابها كفرا فنفاه. وسمَّى نفسه الشكور.

{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُـهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [116].

استئناف ابتدائي للانتقال إلى ذكر وعيد المشركين بمناسبة ذكر وعد الذين آمنوا من أهل الكتاب.

وإنّما عطف الأولاد هنا لأنّ الغناء في متعارف النّاس يكون بالمال والولد، وقد تقدّم القول في مثله في طالعة هذه السورة. وكرّر حرف النفي مع المعطوف في قوله { وَلا أَوْلادُهُمْ } لتأكيد عدم غناء.

{ **شَيْئًا** } مفعول مطلق لفعل { لن تغني } أي: شيئا من غناء. وتنكير شيئا للتقليل.

{ **وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** } جيء بالجملة معطوفة، على خلاف الغالب، لقصد أن تكون الجملة منصبًّا عليها التأكيد بحرف (إنّ) فيكمل لها من أدلة تحقيق مضمونها خمسة أدلة هي: التأكيد بـ <u>(إنّ)</u> ، <u>وموقع أسم الإشارة</u>، <u>والإخبار عنهم بأنّهم أصحاب النار</u>، <u>وضمير الفصل</u>، <u>ووصف خالدون</u>.

{ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [117].

استئناف بياني لأنّ قوله { لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ } يثير سؤال سائل عن إنفاقهم الأموال في الخير من إغاثة الملهوف وإعطاء الديّات في الصلح عن القتلى.

ضَرَبَ لأعمالهم المتعلّقة بالأموال مثلا، فشبّه هيئة إنفاقهم المعجِب ظاهرها، المخيِّب آخرها، حين يحبطها الكفر، بهيئة زرع أصابته ريح باردة فأهلكته، تشبيه المعقول بالمحسوس. ولمّا كان التّشبيه

تمثيليّا لم يُتوخ فيه موالاة ما شبّه به إنفاقهم لأداة التمثيل، فقيل: كمثل ريح، ولم يقل كمثل حرث قوم.

الصِرُّ: البرد الشديد المميت لكلّ زرع أو ورق يهبّ عليه فيتركه كالمحترق، ولم يعرف في كلام العرب إطلاق الصرّ على الريح الشديد البرد وإنّما الصرّ أسم البرد. وأمّا **الصَرْصَرُ** فهو الريح الشديدة وقد تكون باردة. وجعله الكشّاف مرادف الصرصر، ولم يُذكر هذا الإطلاق في (الأساس) ولا ذكره الراغب.

الحرث: هنا مصدر بمعنى المفعول، أي أرضا محروثة. وتقدّم الكلام على معاني الحرث عند قوله تعالى { وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ } [14].

{ **ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ** } إدماج في خلال التمثيل يكسب التمثيل تفظيعا وتشويها، وقد يذكر البلغاء مع المشبّه به صفات لا يقصدون منها غير التحسين أو التقبيح.

{ **وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** } الضمائر فيه عائدة على الذين كفروا. والمعنى أن الله لم يظلمهم حين لم يتقبّل نفقاتهم بل هم تسبّبوا في ذلك، إذ لم يؤمنوا، لأنّ الإيمان جعله الله شرطا في قبول الأعمال، فلمّا أعلمهم بذلك وأنذرهم لم يكن عقابه بعد ذلك ظلما لهم.

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ** } [118]

الآن إذ كشف الله دخائل مَنْ حول المسلمين من أهل الكتاب، أتمّ كشف، جاء موقع التحذير من فريق منهم، والتحذير من الاغترار بهم، والنهي عن الإلقاء إليهم بالمودّة، وهؤلاء هم المنافقون، وأكثرهم من اليهود، دون الذين كانوا مشركين من الأوس والخزرج. وهذا موقع الاستنتاج في صناعة الخطابة بعد ذكر التمهيدات والإقناعات. وحقّه الاستئناف الابتدائي كما هنا.

البِطانة: (بكسر الباء) في الأصل داخل الثوب، وجمعها بطائن، { بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ } [الرحمن:54] وظاهر الثوب يسمى الظِهارة (بكسر الظاء). والبطانة أيضا الثوب الذي يجعل تحت ثوب آخر، ويسمّى الشِعار، وما فوقه الدِثار، وفي الحديث: " **الأنصار شعار والنّاس دثار** ". ثم أطلقت البطانة على صديق الرجل وخصِّيصه الذي يطّلع على شؤونه، تشبيها ببطانة الثياب في شدّة القرب من صاحبها.

ومعنى اتخاذهم بطانة أنّهم كانوا يحالفونهم ويودّونهم من قبل الإسلام، فلمّا أسلم من أسلم من الأنصار بقيت المودّة بينهم وبين من كانوا أحلافهم من اليهود، ثم كان من اليهود من أظهروا الإسلام، ومنهم من بقي على دينه.

{ **من دونكم** } يجوز أن تكون (من) فيه زائدة و (دون) اسم مكان بمعنى حولكم، وهو الاحتمال الأظهر كقوله تعالى { وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً } [التوبة:16].

ويجوز أن تكون (من) للتبعيض و(دون) بمعنى غير كقوله تعالى { وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ } [الفتح:27]، أي: من غير أهل ملّتكم، وقد علم السامعون أنّ المنهيّ عن اتخاذهم بطانة هم الذين كانوا يموّهون على

المؤمنين بأنّهم منهم، ودخائلهم تقتضي التحذير من استبطانهم.

{ **لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً** } لا يقصّرون في خبالكم.

الأَلْوُ: التقصير والترك، وفعله ألا، يألو، وقد يتوسعون في هذا الفعل فيُعدّى إلى مفعولين، لأنّهم ضمّنوه معنى المنع فيما يرغب فيه المفعول، فقالوا: لا آلوك جهدا، كما قالوا: لا أدّخرك نصحا، فالظاهر انّه شاع ذلك الاستعمال حتّى صار التضمين منسيا، فلذلك تعدّى إلى ما يدل على الشرّ كما يُعدّى إلى ما يدل على الخير، فقال هنا { لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً }، أي: لا يقصّرون في خبالكم، وليس المراد لا يمنعونكم، لأنّ الخبال لا يرغب فيه ولا يسأل.

ويحتمل أنّه استعمل في هذه الآية على سبيل التهكّم بالبطانة، لأنّ شأن البطانة أن يسعوا إلى ما فيه خير من استبطنهم، فلمّا كان هؤلاء بضدّ ذلك عبّر عن سعيهم بالضرّ بالفعل الذي من شأنه أن يستعمل في السعي بالخير.

الخبال: اختلاف الأمر وفساده، ومنه سُمّي فساد العقل خبالا، وفساد الأعضاء.

{ **وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ** } **الودّ**: المحبّة، و**العنت**: التعب الشّديد، أي رغبوا فيما يُعنتكم، و(ما) هنا مصدرية.

{ **قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ** } ظهرت من فلتات أقوالهم كما قال تعالى { وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ } [محمد:30] فعبّر بالبغضاء عن دلائلها.

{ **وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ** } جملة حاليّة.

{ **قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ** } جملة مستأنفة، و**الآيات**، هنا، بمعنى دلائل سوء نوايا هذه البطانة .

ولم يزل القرآن يربّي هذه الأمّة على إعمال الفكر، والاستدلال، وتعرّف المسبّبات من أسبابها، في سائر أحوالها، في التشريع والمعاملة، لينشئها أمّة علم وفطنة.

{ **إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ** } لكون هذه الآيات آيات فراسة وتوسّم، فلم يقل: إن كنتم تعلمون أو تفقهون، لأنّ العقل أعمّ من العلم والفقه.

{ هَا أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } [119].

{ **هَا أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ** } استئناف ابتدائي، قُصد منه المقابلة بين خُلق الفريقين؛ فالمؤمنون يحبّون أهل الكتاب، وأهل الكتاب يبغضونهم، وكلّ إناء بما فيه يرشح. والشأن، أنّ المحبّة تجلب المحبّة إلاّ إذا اختلفت المقاصد والأخلاق.

{ **ها أنتم أولاء** } ونظائره مثل (هأنا) تقدم في قوله تعالى { ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ }[البقرة:85].

وليس في هذا التعجيب شيء من التغليط، ولكنّه مجرّد أيقاظ، ولذلك عقّبه بقوله {وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ } فإنّه كالعذر للمؤمنين في استبطانهم أهل الكتاب بعد أيمان المؤمنين. لأنّ المؤمنين لمّا آمنوا بجميع رسل

الله وكتبهم كانوا ينسبون أهل الكتاب إلى هدى ذهب زمانه، وأدخلوا فيه التحريف بخلاف أهل الكتاب إذ يرمقون المسلمين بعين الازدراء والضلالة واتباع ما ليس بحق.

{ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ }

معطوفة على { تُحِبُّونَهُمْ }. والتعريف في { بِالْكِتَابِ } للجنس وأكّد بصيغة المفرد مراعاة للفظه، وأراد بهذا جماعة من منافقي اليهود أشهرهم زيد بن الصتيتِ القيْنُقاعي.

العضُّ: شد الشيء بالأسنان. و**عضّ الأنامل** كناية عن شدّة الغيظ والتحسّر. فإنّ الإنسان إذا اضطرب باطنه من الانفعال صدرت عنه أفعال تناسب ذلك الانفعال، كتخبّط الصبي في الأرض إذا غضب، وضرب الرجل نفسه من الغضب، وقرعه سنّه من الندم، وضرب الكفّ بالكفّ من التحسّر، وهي ضروب من علامات الجزع، وبعضها جبلّيّ كالصياح، وبعضها عاديّ يتعارفه النّاس ويكثر بينهم، فيصيرون يفعلونه بدون تأمّل.

{ **عليكم** } للتعليل، والضمير المجرور ضمير المسلمين، أي: على التئامكم وزوال البغضاء من صدوركم

{ **من الغيظ** } للتعليل. و**الغيظ**: غضب شديد يلازمه إرادة الانتقام.

{ **قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ** } كلام لم يقصد به مخاطبون معيّنون لأنّه دعاء على الذين يعضّون الأنامل من الغيظ، وهم يفعلون ذلك إذا خلوا، فلا يتصوّر مشافهتهم بالدعاء على التعيين ولكنّه كلام قصد أسماعه لكلّ من يعلم من نفسه الاتصاف بالغيظ على المسلمين.

والدعاء عليهم بالموت بالغيظ كناية عن ملازمة الغيظ لهم طول حياتهم إن طالت أو قصرت، وذلك كناية عن دوام سبب غيظهم، وهو حسن حال المسلمين، وانتظام أمرهم، وازدياد خيرهم.

{ **إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** } تذييل لقوله { عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ } وما بينها كالاعتراض، أي: أنّ الله مطّلع عليهم وهو مُطلعك على دخائلهم.

{ إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ } [120].

زاد الله كشفا لما في صدورهم.

{ **تَمْسَسْكُمْ / تُصِبْكُمْ** } لا يختصّ أحدهما بالخير والآخر بالشر، فالتعبير بأحدهما في جانب الحسنة وبالآخر في جانب السيئة تفنّن. وتقدّم عند قوله { كَالَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ } [البقرة:275].

{ **وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ** } أرشد الله المؤمنين إلى كيفية تلقّي أذى العدو، بأن يتلقّوه بالصبر والحذر، وعبّر عن الحذر بالاتقاء، أي: اتقاء كيدهم وخداعهم. أي: بذلك ينتفي الضرّ كلّه لأنّه أثبت في أوّل الآيات أنّهم لا يضرّون المؤمنين إلاّ أذى، فالأذى ضرّ خفيف،

فلمّا انتفى الضرّ الأعظم الذي يحتاج في دفعه إلى شديد مقاومة من قتال وحراسة وإنفاق، كان انتفاء ما بقي من الضرّ هيّنا، وذلك بالصبر على الأذى إلى ما يوصل ضرّا عظيما. وفي الحديث: **" لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله يدعون له ندّا وهو يرزقهم "**.

{ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [121] إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ [122] }.

مناسبة ذكر هذه الوقعة عقب ما تقدّم أنّها من أوضح مظاهر كيد المخالفين في الدين، والمنافقين. ولمّا كان شأن المنافقين وأهل يثرب واحدا، ودخيلتهما سواء، وكانوا يعملون على ما تدبّره اليهود، جمع الله مكائد الفريقين بذكر غزوة أحد، وكان نزول هذه السورة عقب غزوة أحد كما تقدّم. فهذه الآيات تشير إلى **وقعة أُحُد** الكائنة في شوال سنة ثلاث من الهجرة، حين نزل مشركو مكّة، ومن معهم من أحلافهم، سفح جبل أحد، حول المدينة، لأخذ الثأر بما نالهم يوم بدر من الهزيمة، فأستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه فيما يفعلون وفيهم عبد الله بن أُبَي ابن سلول رأس المنافقين، فأشار جمهورهم بالتحصّن بالمدينة حتّى إذا دخل عليهم المشركون المدينة قاتلوهم في الديار والحصون فغلبوهم، وإذا رجعوا رجعوا خائبين، وأشار فريق بالخروج ورغبوا في الجهاد وألحّوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ النبيّ صلى الله عليه وسلم برأي المشيرين بالخروج، ولبس لامته، ثم عرض للمسلمين تردّد في الخروج فراجعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: **" لا ينبغي لنبيّ أن يلبس لامته فيضعها حتّى يحكم الله بينه وبين عدوّه "**. وخرج بالمسلمين إلى جبل أحد وكان الجبل وراءهم، وصفّهم للحرب، وانكشفت الحرب عن هزيمة خفيفة لحقت المسلمين بسبب مكيدة عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين، إذ انخذل هو وثلث الجيش، وكان عدد جيش المسلمين سبعمائة، وعدد جيش أهل مكة ثلاثة الآف.

وانكشفت الواقعة عن مرجوحيّة المسلمين إذ قُتل منهم سبعون، وقُتل من المشركين نيف وعشرون، وقال أبو سفيان يومئذ: " أعل هبل يوم بيوم بدر والحرب سجال"، وقُتل حمزة رضي الله عنه ومثّلت به هند بنت عتبة ابن ربيعة، زوج أبي سفيان، إذ بقرت عن بطنه وقطعت قطعة من كبده لتأكلها لإِحْنَةٍ كانت في قلبها عليه إذ قتل أباها عتبة يوم بدر، ثم أسلمت بعد وحسن إسلامها. وشج وجه النبيّ صلى الله عليه وسلم يومئذ وكسرت رباعيته.

{ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ } والغدو الخروج في وقت الغداة.

الأهل: الزوج، أي من بيت أهلك، وهو بيت عائشة رضي الله عنها.

{ تبوِّئ } تجعل مَبَاء، أي: مكان بَوْء. والبوْء: الرجوع، وهو هنا المقرّ لأنّه يبوء إليه صاحبه.

{ **المؤمنين** } انتصب على أنّه مفعول أوّل لتبوّئ، ومقاعد مفعول ثاني إجراء لفعل تبوئ مجرى تعطي.
{ **مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ** } جمع مقعد. وهو مكان القعود أي الجلوس على الأرض، وإضافة مقاعد لأسم {القتال} قرينة على انّه أطلق على المواضع اللائقة بالقتال التي يثبت فيها الجيش، فأطلق المقاعد هنا على مواضع القرار كناية، أو مجازا مرسلا بعلاقة الإطلاق، وشاع ذلك في الكلام، ومنه قوله تعالى { فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ } [القمر:55].
{ **إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا** } همّت بنو سلمة وبنو حارثة من المسلمين بالانخذال، ثم عصمهم الله، أي: ناصرهما على ذلك الهَمّ الشيطاني، الذي لو صار عزما لكان سبب شقائهما، فلعناية الله بهما برّأهما الله من فعل ما همّتا به. وفي البخاري عن جابر بن عبد الله قال: " نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سلمة وفينا نزلت { إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا } وما يسرّني أنّها لم تنزل والله يقول { وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا }".

{ **وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [123] إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ [124] بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةُ مُسَوِّمِينَ [125]** }.

إذ قد كانت وقعة أحُد لم تنكشف عن نصر المسلمين، عقّب الله ذكرها بأن ذكّرهم الله تعالى نصره إيّاهم يوم بدر، وهو نصر عظيم إذ كان نصر فئة قليلة على جيش كثير، ذي عُدد وافرة، وكان قتلى المشركين يومئذ سادة قريش، وأئمة الشرك، وحسبك بأبي جهل ابن هشام.
{ **وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ** } أي: ضعفاء. والذلّ ضد العز فهو الوهن والضعف. وهذا تعريض بأنّ انهزام يوم أحد لا يفلّ حدّة المسلمين لأنّهم صاروا أعزّة، والحرب سجال.
{ **فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** } اعتراض، فإنّه لما ذكّرهم بتلك المنّة العظيمة ذكّرهم بأنّها سبب للشكر، فأمرهم بالشكر بملازمة التقوى. ومن الشكر على ذلك النصر أن يثبتوا في قتال العدو، وامتثال أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم، وأن لا تفُلّ حدَّتَهم هزيمة يوم أحد.
{ **إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ** } ظرف زماني وهو متعلّق بنصركم لأنّ الوعد بنصرة الملائكة والمؤمنين كان يوم بدر لا يوم أحد. هذا قول جمهور المفسرين. والمعنى: إذ تعد المؤمنين بإمداد الله بالملائكة، فما كان قول النبيّ صلى الله عليه وسلم لهم تلك المقالة إلّا بوعد أوحاه الله إليه أن يقوله.
{ **أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ** } استفهام تقريري، والتقريري يكثر أن يورد على النفي. وإنّما جيء في النفي بحرف (لن) الذي يفيد تأكيد النفي للإشعار بأنّهم كانوا يوم بدر لقلّتهم، وضعفهم، مع كثرة عدوهم، وشوكته، كالآيسين من كفاية هذا المدد من الملائكة.

ولأجل كون الاستفهام غير حقيقي كان جوابه من قبل السائل بقوله { **بلى** }، لأنّه ممّا لاتسع المماراة فيه. فكان بلى إبطالا للنفي، وإثباتا لكون ذلك العدد كافيا، وهو من تمام مقالة النبيّ صلى الله عليه وسلم للمؤمنين.

وقد جاء في سورة الأنفال عند ذكره وقعة بدر أنّ الله وعدهم بمدد من الملائكة عدده ألف بقوله { إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ } [9]، وذكر هنا أنّ الله وعدهم بثلاثة آلاف ثم صيرهم إلى خمسة آلاف. ووجه الجمع بين الآيتين أنّ الله وعدهم بألف من الملائكة وأطْمعهم بالزيادة بقوله { مُرْدِفِينَ } أي، مردفين بعدد آخر، ودلّ كلامه هنا على أنّهم لم يزالوا وجلين من كثرة عدد العدو، فقال لهم النبيّ صلى الله عليه وسلم { ألن يكفيكم أن يمدّكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين } أراد الله بذلك زيادة تثبيتهم، ثم زادهم ألفين إن صبروا واتقوا. وبهذا الوجه فسّر الجمهور، وهو الذي يقتضيه السياق. وقد ثبت أن الملائكة نزلوا يوم بدر لنصرة المؤمنين، وشاهد بعض الصحابة طائفة منهم، وبعضهم شهد آثار قتلهم رجالا من المشركين.

{ **مُنْزَلِينَ** } ووصف الملائكة بمنزلين للدلالة على أنّهم ينزلون إلى الأرض في موقع القتال عناية بالمسلمين.

{ **وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ** } الضميران عائدان إلى الملائكة الذين جرى الكلام عليهم، كما هو الظاهر، وعلى هذا حمله جمع من المفسّرين.

وجعل جمع من المفسّرين ضميري الغيبة في قوله { وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ } عائدين إلى طائفة من المشركين، بلغ المسلمين أنّهم سيمدّون جيش العدو يوم بدر، وهم كرز بن جابر المحاربي، ومن معه، فشق ذلك على المسلمين وخافوا، فأنزل الله تعالى { إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ }. وعليه درج الكشّاف ومتابعوه. وحينئذ يكون و{ يأتوكم } معطوفا على الشرط، أي: إن صبرتم واتقيتم وأتاكم كرز وأصحابه يعاونون المشركين عليكم، يمددكم ربّكم بأكثر من ألف ومن ثلاثة آلاف بخمسة آلاف.

قالوا: فبلغت كرزا وأصحابه هزيمة المشركين يوم بدر فعدل عن إمدادهم فلم يمدّهم الله بالملائكة، أي: بالملائكة الزائدين على الألف. وقيل: لم يمدّهم بملائكة أصلا، والآثار تشهد بخلاف ذلك.

وذهب بعض المفسّرين الأوّلين: مثل مجاهد، وعكرمة، والضحاك والزهري، إلى أنّ القول المحكي في قوله تعالى { إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ } قول صادر يوم أحد، قالوا: وعدهم الله بالمدد من الملائكة على شرط أن يصبروا، فلمّا لم يصبروا واستبقوا إلى طلب الغنيمة لم يمددهم الله ولا بملك واحد.

{ **مُسَوِّمِينَ** } وهو مشتق من السُّومة بضم السين وهي العلامة مقلوب سمة. وتطلق السُّومة على علامة يجعلها البطل لنفسه في الحرب من صوف أو ريش ملوّن، يجعلها على رأسه أو على رأس فرسه، يرمز بها إلى أنّه لا يتّقي أن يعرفه أعداؤه، فيسدّدوا إليه سهامهم، أو يحملون عليه بسيوفهم، فهو يرمز بها إلى

أنّه واثق بحمايته نفسه بشجاعته، وتقدّم الكلام عليها في تفسير قوله تعالى { وَالخيْلِ الْمُسَوَّمَةِ } [14]. ووصف الملائكة بذلك كناية على كونهم شدادا.

{ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ [126] لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ [127] لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ [128] }.

{**وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ** } يجوز أن تكون الجملة في موضع الحال من اسم الجلالة في قوله { وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ }، والمعنى: أنّ الله ما جعل ذلك الوعد إلاّ بشرى لكم.

ويجوز أن يكون عطف الإخبار على التذكير والامتنان، للتنويه بهذه العناية من الله بهم، والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين.

{ **لَكُمْ** } متعلّق بـ { **بُشْرَى** }، وفائدة التصريح به مع ظهور أنّ البشرى إليهم هي الدلالة على تكريمة الله تعالى إيّاهم بأنّ بشّرهم. والبشرى خبر بحصول ما فيه نفع ومسرّة للمخبَر به، فإنّ الله لمّا وعدهم بالنصر أيقنوا به فكان في تبيين سببه، وهو الإمداد بالملائكة، طمأنة لنفوسهم لأنّ النفوس تركن إلى الصور المألوفة.

{ **وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ** } والطمأنة والطمأنينة: السكون وعدم الاضطراب، واستعيرت هنا ليقين النفس بحصول الأمر، وتقدّمت عند قوله تعالى{ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي } [البقرة:260].

{ **وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ** } تذييل، أيّ كلّ نصر هو من عند الله لا من الملائكة.

وإجراء وصفي العزيز الحكيم هنا لأنّهما أولى بالذكر في هذا المقام، لأنّ **العزيز** ينصر من يريد نصره، و**الحكيم** يعلم من يستحق نصره وكيف يُعطاه.

{ **لِيَقْطَعَ طَرَفاً** } متعلّق بالنصر باعتبار أنّه علّة لبعض أحوال النصر. يجوز أن يكون بمعنى النّاحية، ويخصّ بالنَّاحية التي هي منتهى المكان، فيكون استعارة لطائفة من المشركين كقوله تعالى { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا } [الرعد:41].

ويجوز أن يكون بمعنى الجزء، فيكون لأشراف المشركين، أي ليقطع من جسم الشرك أهم أعضائه، أي: ليستأصل صناديد الذين كفروا. يقال: هو من أطراف العرب، أي من أشرافها وأهل بيوتاتها.

{ **أو يكبتهم** } أي: يصيبهم بغمّ وكمد، وأصل **كبت** كَبَدَ بالدال إذا أصابه في كبده. كقولهم: صُدِرَ إذا أصيب في صدره، وكُلِيَ إذا أصيب في كليتيه. والعرب تتخيّل الغمّ والحزن مقرّه الكبد، والغضب مقره الصدر وأعضاء التنفس.

وهذا القطع والكبت قد مضيا يوم بدر قبل نزول هذه الآية بنحو سنتين، فالتعبير عنهما بصيغة المضارع

لقصد استحضار الحالة العجيبة في ذلك النصر المبين العزيز النظير.

{ **لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ** } معترضة بين المتعاطفات، والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم.

يجوز أن تُحْمل على صريح لفظها، فيكون المعنى نفي أن يكون للنبيّ، لقتاله الكفار بجيشه من المسلمين، تأثير في حصول النصر يوم بدر، فإنّ المسلمين كانوا في قلّة من كلّ جانب من جوانب القتال، أي فالنصر حصل بمحض فضل الله على المسلمين، وهذا من معنى قوله { فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى } [الأنفال:17].

ويجوز أن تُحمل الجملة على أنّها كناية عن صرف النبيّ عليه الصلاة والسلام عن الاشتغال بشأن ما صنع الله بالذين كفروا، من قطع طرفهم، وكبتهم أو توبة عليهم، أي: فذلك موكول إلينا نحقّقه متى أردنا، ويتخلّف متى أردنا، على حسب ما تقتضيه حكمتنا، وذلك كالاعتذار عن تخلّف نصر المسلمين يوم أحد.

{ **الأمر**} بمعنى: شأن المشركين.

وجعل هذه الجملة قبل قوله { **أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ** } استئناس للنبيّ صلى الله عليه وسلم، إذ قدّم ما يدلّ على الانتقام منهم لأجله، ثم أردف بما يدلّ على العفو عنهم، ثم أردف بما يدلّ على عقابهم، ففي بعض هذه الأحوال إرضاء له من جانب الانتصار له، وفي بعضها إرضاء له من جانب تطويعهم له. ولأجل هذا المقصد عاد الكلام إلى بقية عقوبات المشركين بقوله تعالى { **أَوْ يُعَذِّبَهُمْ** }

و في هذا التقسيم إيماء إلى ما يصلح بيانا لحكمة الهزيمة اللاحقة المسلمين يوم أحد. ولا يستقيم أن يكون قوله { لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ } متعلقا بأحوال يوم أحد، لأنّ سياق الكلام ينبو عنه، وحال المشركين يوم أحد لا يناسبه قوله { لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا } إلى قوله { خائبين }.

وتفسير ما وقع في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة: أنّ النبيّ ترك الدعاء على المشركين بعد نزول هذه الآية، أخذا لكامل الأدب، لأنّ الله لمّا أعلمه في هذا بما يدلّ على أنّ الله أعلم بما فيه نفع الإسلام، ونقمة الكفر، ترك الدعاء عليهم إذ لعلّهم أن يسلموا.

فإن قلت: هلاّ جمع العقوبات متوالية ، **قلتُ**: روعي قضاء حق جمع النظير أولا، وجمع الضدّين ثانيا، بجمع القطع والكبت، ثم جمع التوبة والعذاب.

{ **فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ** } إشارة إلى أنّهم بالعقوبة أجدر، وأنّ التوبة عليهم إن وقعت فضل من الله تعالى.

{ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [129].

تذييل لقوله { أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ } لأنّ أسرار تخصيص كل أحد بما يعيَّن له، أسرار خفيّة لا يعلمها إلاّ الله تعالى، وكلّ ميسّر لما خلق الله.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ [130] وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ [131] وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ [132] }.

لولا أنّ الكلام على يوم أحد لم يكمل، إذ هو سيعاد عند قوله تعالى { قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ }، لقلنا: إن قوله { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبا } اقتضاب تشريع، ولكنّه متعيّن لأن نعتبره استطرادا في خلال الحديث عن يوم أحد، ثمّ لم يظهر وجه المناسبة في وقوعه في هذا الأثناء. قال ابن عطية: ولا أحفظ سببا في ذلك مرويا. وقال الفخر: لا تعلّق لها بما قبلها.

وعندي، بادئ ذي بدء، أن لا حاجة إلى اطّراد المناسبة، فإنّ مدة نزول السورة قابلة لأن تحدث في خلالها حوادث ينزل فيها قرآن فيكون من جملة تلك السورة، كما بيّناه في المقدمة الثامنة، فتكون هاته الآية نزلت عقب ما نزل قبلها فكتبت هنا ولا تكون بينهما مناسبة، إذ هو ملحق إلحاقا بالكلام.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبا } الظاهر أنّ هذه الآية نزلت قبل نزول آية سورة البقرة فكانت هذه تمهيدا لتلك، ولم يكن النهي فيها بالغا ما في سورة البقرة، وقد روي أنّ آية البقرة نزلت بعد أن حرّم الله الربا، وأنّ ثقيفا قالوا: كيف نُنهى عن الربا، وهو مثل البيع، ويكون وصف الربا { أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً } نهيا عن الربا الفاحش وسكت عما دون ذلك مما لا يبلغ مبلغ الأضعاف، ثم نزلت الآية التي في البقرة. ويحتمل أن يكون بعض المسلمين داين بعضا بالمراباة عقب غزوة أحد فنزل تحريم الربا في مدة نزول قصة تلك الغزوة. وتقدّم الكلام على معنى أكل الربا، وعلى معنى الربا، ووجه تحريمه، في سورة البقرة.

{ أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً } حال من { الربا } والأضعاف جمع ضِعف (بكسر الضاد) وهو معادل في المقدار إذا كان الشيء ومماثلة متلازمين. و**مضاعفة** صفة للأضعاف، أي: هي أضعاف يدخلها التضعيف، وذلك أنّهم كانوا إذا داينوا أحدا إلى أجل داينوه بزيادة، ومتى أعسر عند الأجل أو رام التأخير زاد مثل تلك الزيادة، فيصير الضعف ضعفا.

ولقد قضى المسلمون قرونا طويلة لم يروا أنفسهم فيها محتاجين إلى التعامل بالربا، ولم تكن ثروتهم أيّامئذ قاصرة عن ثروة بقيّة الأمم في العالم، أزمان كانت سيادة العالم بيدهم، أو أزمان كانوا مستقلّين بإدارة شؤونهم، فلمّا صارت سيادة العالم بيد أمم غير إسلامية، وارتبط المسلمون بغيرهم في التجارة والمعاملة، وانتظمت سوق الثروة العالميّة على قواعد القوانين التي لا تتحاشى المراباة في المعاملات، ولا تعرف أساليب مواساة المسلمين، دهش المسلمون، وهم اليوم يتساءلون، وتحريم الربا في الآية صريح، وليس لمّا حرمه الله مبيح. ولا مخلص من هذا إلّا أن تجعل الدول الإسلامية قوانين مالية تُبنى على أصول الشريعة في المصارف، والبيوع، وعقود المعاملات المركبة من رؤوس الأموال وعمل العمال. وهذا يقضي بإعمال أنظار علماء الشريعة والتدارس بينهم في مجمع يحوي طائفة من كل فرقة كما أمر الله تعالى.

وقد تقدّم ذكر الربا والبيوع الربويّة عند قوله تعالى { الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ } [البقرة:275].

{ **وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ** } تحذير وتنفير من النّار وما يوقع فيها، بأنّها معدودة للكافرين. وإعدادها للكافرين عدل من الله تعالى وحكمته، لأنّ ترتيب الأشياء على أمثالها من أكبر مظاهر الحكمة. وذلك تعريض واضح في الوعيد على أخذ الربا.

{ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ [133] الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النّاس وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ [134] }.

قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر { سَارِعُوا } دون واو عطف، لأنّ الجملة تتنزّل منزلة البيان، أو بدل الاشتمال لجملة { وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ }، لأنّ طاعة الله والرسول مسارعة إلى المغفرة والجنّة، فلذلك فصلت. و قرأ بقيّة العشرة { وَسَارِعُوا } بالعطف لكون الأمر بالمسارعة إلى المغفرة والجنّة يؤول إلى الأمر بالأعمال الصالحة، فجاز عطف الجملة على جملة الأمر بالطاعة.

{ **وَسَارِعُوا** } مجاز في الحرص والمنافسة والفور إلى عمل الطاعات التي هي سبب المغفرة والجنّة. ويجوز أن تكون السرعة حقيقة، وهي سرعة الخروج إلى الجهاد عند التنفير كقوله في الحديث: **" وإذا استنفرتم فانفروا "**.

والمسارعة على التقادير كلّها تتعلّق بأسباب المغفرة، وأسباب دخول الجنّة. وجيء بصيغة المفاعلة، مجرّدة عن معنى حصول الفعل من جانبين، قصد المبالغة في طلب الإسراع.

{ **إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ** } وتنكير مغفرة ووصلها بقوله {من ربكم} لقصد الدلالة على التعظيم، ووصف الجنّة بأنّ عرضها السماوات والأرض على طريقة التشبيه البليغ، بدليل التصريح بحرف التشبيه في نظيرتها في آية سورة الحديد. ويُطلق العرض على الاتساع، لأنّ الشيء العريض هو الواسع في العرف بخلاف الطويل غير العريض فهو ضيق.

{ **أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ** } استئناف بياني لأنّ ذكر الجنّة عقب ذكر النّار الموصوفة بأنّها أعدّت للكافرين يثير في نفوس السامعين أن يتعرّفوا من الذين أعدّت لهم.

{ **الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النّاس** } وقد أجرى على المتّقين صفات ثناء وتنويه:

الصفة الأولى (<u>الإنفاق في السرّاء والضرّاء</u>): و**الإنفاق** تقدّم غير مرّة، وهو الصدقة وإعطاء المال والسلاح والعدّة في سبيل الله. و**السرّاء** فعلاء، اسم لمصدر سرّه سَرًّا وسُرورا. و**الضرّاء** من ضرّه.

فملازمة الإنفاق في هذين الحالين تدلّ على أنّ محبة نفع الغير بالمال، الذي هو عزيز على النفس، قد صار لهم خلقا لا يحجبهم عنه حاجب ولا ينشأ ذلك إلاّ عن نفس طاهرة.

الصفة الثانية (الكاظمين الغيظ): **كضم الغيظ** إمساكه وإخفاؤه حتّى لا يظهر عليه، وهو مأخوذ من كظم القربة إذا ملأها وأمسك فمها، ولا شك أنّ أقوى القُوَى تأثيرا على النّفس القوة الغاضبة فتشتهي إظهار آثار الغضب، فإذا استطاع إمساك مظاهرها، مع الامتلاء منها، دلّ ذلك على عزيمة راسخة في النّفس، وقهر الإرادة للشهوة، وهذا من أكبر قوى الأخلاق الفاضلة.

الصفة الثالثة (العفو): عن النّاس فيما أساؤوا به إليهم. وهي تكملة لصفة كظم الغيظ، بمنزلة الاحتراس، لأنّ كظم الغيظ قد تعترضه ندامة فيستعدي على من غاظه بالحقّ، فلمّا وصفوا بالعفو عمّن أساء إليهم دلّ ذلك على أنّ كظم الغيظ وصف متأصّل فيهم، مستمر معهم.

{ **وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** } وبجماع تلك الصفات يجتمع كمال الإحسان، والله يحب المحسنين.

{ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ } [135].

إن كان عطف فريق آخر، فهم غير المتّقين الكاملين، بل هم فريق من المتّقين خلطوا عملا صالحا وآخر سيّئا، وإن كان عطف صفات، فهو تفضيل آخر لحال المتّقين بأن ذكر أوّلا حال كمالهم، وذكر بعده حال تداركهم نقائصهم.

الفاحشة: الفعلة المتجاوزة الحدّ في الفساد، واشتقاقها من فحُشَ بمعنى قال قولا ذميما، كما في قول عائشة: " لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشا ولا متفحّشا "، أو فعل فعلا ذميما، ومنه { قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ } [الأعراف:28].

ظلم النفس: هو الذنوب الكبائر، وعطفها هنا على الفواحش كعطف الفواحش عليها في قوله { الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ } [التحريم:32]. فقيل: الفاحشة المعصية الكبيرة، وظلم النفس الكبيرة مطلقا، وقيل: الفاحشة هي الكبيرة المتعدّية إلى الغير، وظلم النفس الكبيرة القاصرة على النفس.

{ **ذَكَرُوا اللَّهَ** } ذكر القلب وهو ذكر ما يجب لله على عبده، وما أوصاه به، وهو الذي يتفرّع عنه طلب المغفرة، وأمّا ذكر اللسان فلا يترتب عليه ذلك. ومعنى ذكر الله هنا: ذكر أمره ونهيه ووعده ووعيده.

الاستغفار: طلب المغفرة أي الستر للذنوب، وهو مجاز في عدم المؤاخذة على الذنب. ولمّا كان طلب الصفح عن المؤاخذة بالذنب لا يصدر إلّا عن ندامة، ونيّة إقلاع عن الذنب، وعدم العودة إليه، كان الاستغفار في لسان الشارع بمعنى التوبة، إذ كيف يطلب العفو عن الذنب من هو مستمر عليه، أو عازم على معاودته، ولو طلب ذلك في تلك الحالة لكان أكثر إساءة من الذنب، فلذلك عدّ الاستغفار هنا رتبة من مراتب التقوى.

{ **وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ** } معترضة بين جملة { فاستغفروا } وجملة { وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا }. والاستفهام مستعمل في معنى النفي، بقرينة الاستثناء منه، والمقصود تسديد مبادرتهم إلى استغفار الله عقب الذنب، والتعريض بالمشركين الذين اتّخذوا أصنامهم شفعاء لهم عند الله، وبالنصارى في زعمهم أنّ عيسى رفع الخطايا عن بني آدم ببليّة صلبه.

{ **وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا** } إتمام لركني التوبة، لأنّ قوله تعالى { فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ } يشير إلى الندم. وفي الحديث: " **الندم توبة** ". وأمّا تدارك ما فرّط فيه بسبب الذنب فإنّما يكون مع الإمكان، وفيه تفصيل إذا تعذّر أو تعسّر، وكيف يؤخذ بأقصى ما يمكن من التدارك. أي: ذكروا الله في حال عدم الإصرار.

الإصرار: المقام على الذنب، ونفيه هو معنى الإقلاع.

{ **وَهُمْ يَعْلَمُونَ** } حال ثانية، وحذف مفعول يعلمون لظهوره من المقام، أي: يعلمون سوء فعلهم، وعظم غضب الربّ، ووجوب التوبة إليه، وأنّه تفضل بقبول التوبة فمحا بها الذنوب الواقعة.

وقد انتظم من قوله { ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا } وقوله { ولم يصروا } وقوله { وَهُمْ يَعْلَمُونَ } الأركان الثلاثة التي ينتظم منها معنى التوبة في كلام أبي حامد الغزالي في كتاب التوبة من (إحياء علوم الدين) إذ قال: " وهي علم، وحال، وفعل؛ فالعلم هو معرفة ضرّ الذنوب، وكونها حجابا بين العبد وبين ربّه، فإذا علم ذلك بيقين ثار من هذه المعرفة تألّم للقلب بسبب فوات ما يحبّه من القرب من ربّه، ورضاه عنه، وذلك الألم يسمّى ندما، فإذا غلب هذا الألم على القلب انبعث منه في القلب حالة تسمّى إرادة وقصد إلى فعل له تعلّق بالحال والماضي والمستقبل، فتعلّقه بالحال هو ترك الذنب (الإقلاع)، وتعلقه بالمستقبل هو العزم على ترك الذنب في المستقبل (نفي الإصرار)، وتعلقه بالماضي بتلافي ما فات.

فقوله تعالى { ذَكَرُوا اللَّهَ } إشارة إلى انفعال القلب. وقوله { ولم يصروا } إشارة إلى الفعل وهو الإقلاع ونفي العزم على العودة. وقوله { وهم يعلمون } إشارة إلى العلم المثير للانفعال النفساني".

{ **أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ** } [136].

استئناف للتنويه بسداد عملهم؛ من الاستغفار، وقبول الله منهم.

وجيء باسم الإشارة لإفادة أنّ المشار إليهم صاروا أحرياء بالحكم الوارد بعد اسم الإشارة، لأجل تلك الأوصاف التي استوجبوا الإشارة لأجلها.

وهذا الجزاء، وهو المغفرة، وعد من الله تعالى، تفضّلا منه، بأن جعل الإقلاع عن المعاصي سببا في غفران ما سلف منها. وأمّا الجنّات فإنّما خلصت لهم لأجل المغفرة، ولو أخذوا بسالف ذنوبهم لما استحقّوا الجنات. فالكلّ فضل منه تعالى.

{ **وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ** } تذييل لإنشاء مدح الجزاء. والمخصوص بالمدح محذوف تقديره هو. فهو أجر لأنّه كان عن وعد للعامل بما عمل.

{ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ } [137].

استئناف ابتدائي، تمهيد لإعادة الكلام على ما كان يوم أُحُد، وما بينهما استطراد، كما علمت آنفا، وهذا مقدّمة التسلية والبشارة الآتيتين. ابتدئت هاته المقدّمة بحقيقة تاريخية، وهي الاعتبار بأحوال الأمم الماضية.

{ **قَدْ** } دالة على تأكيد الخبر، تنزيلا لهم منزلة من ينكر ذلك لما ظهر عليهم من انكسار الخواطر من جرّاء الهزيمة الحاصلة لهم من المشركين، مع أنّهم يقاتلون لنصر دين الله، وبعد أن ذاقوا حلاوة النصر يوم بدر، فبيّن الله لهم أنّ الله جعل سنّة هذا العالم أن تكون الأحوال فيه سجالا ومداولة، وذكّرهم بأحوال الأمم الماضية، فقال { **قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ** } . والله قادر على نصرهم، ولكن الحكمة اقتضت ذلك لئلاّ يغترّ من يأتي بعدهم من المسلمين، فيحسب أنّ النصر حليفهم.

خلت: مضت وانقرضت. كقوله تعالى { قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ } [آل عمران:137].

السُنَنُ: جمع سُنَّة (بضم السين) وهي السيرة من العمل أو الخلق الذي يلازم صدور العمل على مثالها. والجاري بكثرة على ألسنة المفسرين والمعبّرين: أنّ السنّة اسم مصدر سنّ ولم يذكروا لفعل سنّ مصدرا قياسيا. وفي القرآن إطلاق السنّة على هذا المعنى كثير { فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً } [فاطر:43].

وفسّروا السنن هنا بسنن الله في الأمم الماضية. والمعنى: قد مضت من قبلكم أحوالٌ للأمم، جارية على طريقة واحدة، هي عادة الله في الخلق، وهي أنّ قوّة الظالمين وعتوّهم على الضعفاء أمر زائل، والعاقبة للمتّقين المحقّين.

{ **فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** } أي: عاقبة المكذّبين برسل ربهم. وأريد النظر في آثارهم ليحصل منه تحقّق ما بلغ من أخبارهم، أو السؤال عن أسباب هلاكهم، وكيف كانوا أولي قوّة، وكيف طغوا على المستضعفين، فاستأصلهم الله، لتطمئن نفوس المؤمنين بمشاهدة المخبر عنهم مشاهدة عيان.

ومن المكذّبين عاد وثمود وأصحاب الأيكة وأصحاب الرسّ، وكلّهم في بلاد العرب يستطيعون مشاهدة آثارهم، وقد شهدها كثير منهم في أسفارهم.

وفي الآية دلالة على أهميّة علم التاريخ لأنّ فيه فائدة معرفة أخبار الأمم ، وأسباب صلاحها وفسادها.

{ **هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ** } [138].

تذييل يعمّ المخاطبين الحاضرين ومن يجيء بعدهم من الأجيال.

{ **هَذَا** } الإشارة إمّا إلى ما تقدّم ، وإمّا إلى حاضر في الذهن عند تلاوة الآية وهو: **القرآن**.

البيان: الإيضاح وكشف الحقائق الواقعة.

الهدى: الإرشاد إلى ما فيه خير النّاس في الحال والاستقبال.

الموعظة: التحذير والتخويف.

فإن جعلت الإشارة إلى مضمون قوله { قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ }، فإنّها بيان لما غفلوا عنه من عدم التلازم بين النصر وحسن العاقبة، ولا بين الهزيمة وسوء العاقبة، وهي هدى لهم لينتزعوا المسبّبات من أسبابها، فإنّ سبب النجاح حقا هو الصلاح والاستقامة، وهي موعظة لهم ليحذروا الفساد ولا يغترّوا كما اغترّ عاد إذ قالوا: { مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً } [فصلت:15].

{ **وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** } [139].

نهي للمسلمين عن أسباب الفشل.

الوهن: الضعف، وأصله ضعف الذات، كالجسم في قوله تعالى { رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي } [مريم:4]. وهو هنا مجاز في خور العزيمة وضعف الإرادة وانقلاب الرجاء يأسا، والشجاعة جبنا، واليقين شكا، ولذلك نهوا عنه.

الحزن: شدّة الأسف البالغة حد الكآبة والانكسار.

والوهن والحزن حالتان للنفس تنشآن عن اعتقاد الخيبة والرزء فيترتّب عليهما الاستسلام وترك المقاومة.

فالنهي عن الوهن والحزن في الحقيقة نهي عن سببهما (اعتقاد الخيبة والرزء).

{ **وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** } الواو للعطف، وهذه بشارة لهم بالنصر المستقبل، فالعلو هنا مجازي وهو علو المنزلة.

{ **إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** } التعليق بالشرط قصد به تهييج غيرتهم على الإيمان، إذ قد علم الله أنّهم مؤمنين ولكنّهم لمّا لاح عليهم الوهن والحزن من الغلبة، كانوا بمنزلة من ضعف يقينه فقيل لهم: إن علمتم من أنفسكم الإيمان.

{ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاس وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ [140] وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ [141] }.

تسلية عمّا أصاب المسلمين يوم أحُد من الهزيمة بأنّ ذلك غير عجيب في الحرب، إذ لا يخلو جيش من أن يُغلب في بعض مواقع الحرب، وقد سبق أنّ العدو غُلب.

المسّ: الإصابة كقوله { مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ }[البقرة:214] .

القَرح: بفتح القاف في لغة قريش الجرح، وبضمّها في لغة غيرهم. وقرأ الجمهور: بفتح القاف، وقرأه حمزة، والكسائي، وأبو بكر، عن عاصم، وخلف، بضم القاف. وهو هنا مستعمل في غير حقيقته، بل هو استعارة للهزيمة التي أصابتهم، فإنّ الهزيمة تشبّه بالثلمة وبالانكسار. ولا يصحّ أن يراد به الحقيقة لأنّ الجراح التي تصيب الجيش لا يعبأ بها إذا كان معها النصر، فلا شكّ أنّ التسلية وقعت عما أصابهم من الهزيمة.

القوم: هم مشركو مكّة ومن معهم.

والتعبير عمّا أصاب المسلمين بصيغة المضارع في { يمسسكم } لقربه من زمن الحال، وعمّا أصاب المشركين بصيغة الماضي لبعده لأنّه حصل يوم بدر.

والمعنى إن هُزمتم يوم أحد فقد هُزم المشركون يوم بدر وكنتم كفافا. ولذلك أعقب بقوله:

{ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النّاس} .

الأيام: يجوز أن تكون جمع يوم مراد به يوم الحرب، كقولهم: يوم بدر ويوم بُعات ويوم الشَّعْثَمَيْن، ومنه أيام العرب، ويجوز أن يكون أطلق على الزمان كقول طرفة: وَمَا تَنْقُصِ الأيَّامَ وَالدَهْرُ يَنْفَدِ.

{ **نُدَاوِلُهَا** } فالتداول في الأصل تفاعل من دال، ويكون ذلك في الأشياء والكلام، يقال: كلام مداول. ثم استعملوا داولت الشيء مجازا، إذا جعلت غيرك يتداولونه، وقرينة هذا الاستعمال أن تقول(بينهم).

فالفاعل في هذا الإطلاق لا حظّ له من الفعل، ولكن له الحظّ في الجعل، وقريب منه قولهم: اضطررته إلى كذا، أي جعلته مضطرّا.

{ **النّاس** } البشر كلّهم لأنّ هذا من السنن الكونية، فلا يختص بالقوم المتحدّث عنهم.

{ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ [140] وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ [141] }.

عطف على جملة { وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النّاس }، فمضمون هذه علّة ثانية لجواب الشرط المحذوف المدلول عليه بقوله { فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ }.

{ **وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ** } علم الله بأنّهم مؤمنون متحقّق من قبل أن يمسسهم القرح.

{ **الَّذِينَ آمَنُوا** } إن كان المراد هنا الذين آمنوا إيمانا راسخا كاملا فقد صار المعنى: أنّ علم الله برسوخ إيمانهم يحصل بعد مس القرح إياهم، وهو معنى غير مستقيم، فلذلك اختلف المفسرون في المراد من هذا التعليل على اختلاف مذاهبهم في صفة العلم.

قال الفلاسفة : إن الله عالم بالكليّات بأسرها، أي حقائق الأشياء على ما هي عليه، علما كالعلم المبحوث عنه في الفلسفة لأنّ ذلك العلم صفة كمال، وأنّه يعلم الجزئيّات من الجواهر والأعراض علما بوجه كلّي.

وقال المسلمون كلّهم: إن الله يعلم الكليات والجزئيات قبل حصولها، وعند حصولها. و تفصيل هذه الأقوال مبسوط في كتب العقائد.

وإن كان المراد من قوله { الَّذِينَ آمَنُوا } ظاهره، أي: ليعلم من أتصف بالإيمان، تعيّن التأويل في هذه الآية، لا لأجل لزوم حدوث علم الله تعالى، بل لأنّ علم الله بالمؤمنين، من أهل أحُد، حاصل من قبل أن يمسّهم القرح، فقال الزجاج: أراد العلم الذي يترتّب عليه الجزاء، وهو ثباتهم على الإيمان، وعدم تزلزلهم في حالة الشدّة.

{ **وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ** } هم الذين قتلوا يوم أُحُد، وعبّر عن تقدير الشهادة بـ (الاتّخاذ) لأنّ الشهادة فضيلة من الله، واقتراب من رضوانه، ولذلك قوبل بقوله { **وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**} أي الكافرين. أي فقتلاكم في الجنّة، وقتلاهم في النار.

التّمحيص: التنقية والتخلّص من العيوب.

المَحْقُ: الإهلاك. وقد جعل الله تعالى مس القرح المؤمنين والكفار فاعلا فعلا واحدا، هو فضيلة في جانب المؤمنين، ورزيّة في جانب الكافرين. فجعله للمؤمنين تمحيصا وزيادة في تزكية أنفسهم، واعتبارا بمواعظ الله تعالى، وجعله للكافرين هلاكا.

{ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجنّة وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ } [142].

{ **أَمْ** } هنا منقطعة، هي بمعنى بل الانتقاليّة. فقوله { أَمْ حَسِبْتُمْ } عطف على جملة { وَلا تَهِنُوا } وذلك أنّهم لمّا مسّهم القرح فحزنوا واعتراهم الوهن، بيّن الله أن لا وجه للوهن للعلل التي تقدّمت، ثم بيّن لهم هنا، أنّ دخول الجنّة الذي هو مرغوبهم لا يحصل إذا لم يبذلوا نفوسهم في نصر الدين، فإذا حسبوا دخول الجنّة يحصل دون ذلك، فقد أخطأوا.

{ **وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ** } في موضع الحال، وهي مصبّ الإنكار، أي لا تحسبوا أن تدخلوا الجنّة حين لا يعلم الله الذين جاهدوا. وأريد بحالة نفي علم الله بالذين جاهدوا والصابرين، الكناية عن حالة نفي الجهاد والصبر عنهم، لأنّ الله إذا علم شيئا فذلك المعلوم محقّق الوقوع فكما كنّي بعلم الله عن التحقّق في قوله { وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا } كنّي بنفي العلم عن نفي الوقوع.

{ **وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ** } معطوفا بواو المعيّة فهو في معنى المفعول معه، لتنظيم القيود بعضها مع بعض، فيصير المعنى: أتحسبون أن تدخلوا الجنّة في حال انتفاء وقوع الجهاد مع انتفاء وقوع الصبر. والجهاد يستدعي الصبر، لأنّ الصبر هو سبب النجاح في الجهاد، وجالب الانتصار.

{ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ } [143]

كلام ألقي إليهم بإجمال بالغ غاية الإيجاز، ليكون جامعا بين الموعظة، والمعذرة، والملام. والواو عاطفة أو حالية. والخطاب للأحياء، لا محالة، الذين لم يذوقوا الموت، ولم ينالوا الشهادة، والذين كان حظّهم في ذلك اليوم هو الهزيمة.

{ **كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ** } أريد به تمنّي لقاء العدو يوم أُحُد، وعدم رضاهم بأن يتحصّنوا بالمدينة، ويقفوا موقف الدفاع، كما أشار به الرسول عليه الصلاة والسلام ولكنّهم أظهروا الشجاعة وحبّ اللقاء، ولو كان فيه الموت، نظرا لقوّة العدو وكثرته.

{ **مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ** } تعريض بأنّهم تمنّوا أمرا مع الإغضاء عن شدّته عليهم، فتمنّيهم إيّاه كتمنّي شيء قد جهلوا ما فيه من المصائب.

{ **فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ** } أي رأيتم الموت، ومعنى رؤيته مشاهدة أسبابه المحقّقة. فيجوز أن يكون قوله { فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ } تمثيلا، ويجوز أن تطلق الرؤية على شدّة التوقّع.

{ **وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ** } حال مؤكّدة لمعنى { رأيتموه }، أو هو تفريع.

ومحلّ الموعظة من الآية، أنّ المرء لا يطلب أمرا حتى يفكّر في عواقبه، ويسبر مقدار تحمّله لمصائبه.

{ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ } [144].

والآية تشير إلى ما كان من المسلمين من الاضطراب حين أُرجف بموت الرسول صلى الله عليه وسلم فقال المنافقون: لو كان نبيّا ما قتل، فارجعوا إلى دينكم القديم وإخوانكم من أهل مكّة ونكلّم عبد الله بن أبَي يأخذ لنا أمانا من أبي سفيان، فهمّوا بترك القتال والانضمام للمشركين، وثبت فريق من المسلمين، منهم أنس بن النضر الأنصاري، فقال: إن كان قتل محمد فإنّ ربّ محمد حيّ لا يموت، وما تصنعون بالحياة بعده، فقاتلوا على ما قاتل عليه.

{ **محمّد** } هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب صلى الله عليه وسلم، سمّاه به جدّه عبد المطلب. قيل له: " لم سميّته محّمدا وليس من أسماء آبائك؟ فقال: رجوت أن يحمده النّاس ". و ذكر السهيلي في الروض أنّه لم يسمّ به من العرب قبل ولادة رسول الله إلا ثلاثة: محمّد بن سفيان بن مجاشع، جدّ جدّ الفرزدق،

ومحمّد بن أُحَيْحَة بن الجُلاَح الأوسي. ومحمّد بن حمران مِن ربيعة.

{ **خَلَتْ** } مضت وانقرضت كقوله { قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ } [آل عمران:137].

{ **قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ** } صفة لـ (رسول). فهم لمّا عزموا على ترك نصرة الدين والاستسلام للعدوّ عندما بلغهم موت الرسول، كانوا أحرياء بأن ينزلوا منزلة من يعتقد انتفاء موت الرّسل من قبله. فكان حال المخاطبين، حال من يتوهّم التلازم بين بقاء الملّة و بقاء رسولها، فإذا هلك رسول ملّة ظنوا انتهاء شرعه وإبطال اتّباعه.

{ **أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ** } عطف على قوله { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ } والفاء للتعقيب وتفيد السبب. وقال صاحب الكشاف : الهمزة لإنكار تسبّب الانقلاب على موت الرسول.

الانقلاب: الرجوع إلى المكان، يقال: انقلب إلى منزله. وهو هنا مجاز في الرجوع إلى الحال التي كانوا عليها، أي حال الكفر.

الأعقاب: جمع عقب وهو مؤخرة الرجل. وفي الحديث: **" ويل للأعقاب من النار "**.

{ **وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ** } أي: شيئا من الضرّ، ولو قليلا، لأنّ الارتداد عن الدين إبطال لما فيه صلاح النّاس، فالمرتدّ يضرّ بنفسه وبالنّاس، ولا يضرّ الله شيئا، ولكن الشاكر الثابت على الإيمان يجازى بالشكر لأنّه سعى في صلاح النّاس، والله يحب الصلاح ولا يحب الفساد.

والمقصود من الآية العتاب على ما وقع من الاضطراب، والثّناء على الذين ثبتوا ووعظوا النّاس، والتحذير من وقوع الارتداد عند موت الرسول عليه السلام.

{ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ } [145].

{ **وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً** } جملة معترضة، فإن كانت من تتمّة الإنكار على هلعهم عند ظن موت الرسول، فالمقصود عموم الأنفس لا خصوص نفس الرسول عليه السلام، وتكون الآية لوما للمسلمين على ذهولهم عن حفظ الله رسوله من أن يسلّط عليه أعداؤه، ومن أن يخترم عمره قبل تبليغ الرسالة.

وإن كان هذا إنكارا مستأنفا على الذين فزعوا عند الهزيمة وخافوا الموت، فالعموم في النفس مقصودا ما كان ينبغي لكم الخوف وقد علمتم أنّ لكلّ نفس أجلا. وجيء في هذا الحكم بصيغة الجحود للمبالغة في انتفاء أن يكون موت قبل الأجل.

{ **كِتَاباً مُؤَجَّلاً** } جعله الكشّاف مصدرا مؤكّدا لجملة { وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ } ، وهو يريد أنّه مع صفته وهي { مؤجلا } يؤكّد معنى إلّا بإذن الله.

{ **وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا** }.

عطف على الجملة المعترضة. أي من يرد الدنيا دون الآخرة، وليس المراد أنّ من أراد ثواب الدنيا وحظوظها يحرم من ثواب الآخرة وحظوظها، فإنّ الأدلة الشرعية دلّت على أنّ إرادة خير الدنيا مقصد شرعي حسن، وهل جاءت الشريعة إلاّ لإصلاح الدنيا والإعداد لحياة الآخرة الأبدية الكاملة، قال الله تعالى { فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ } [آل عمران:148]، وغير هذا من الآيات والأحاديث كثير.

{ **وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ** } تذييل يعمّ الشاكرين ممّن يريد ثواب الدنيا ومن يريد ثواب الآخرة. ويعمّ الجزاء كلّ بحسبه، أي يجزي الشاكرين جزاء الدنيا والآخرة أو جزاء الدنيا فقط.

{ **وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ [146] وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ [147] فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ [148]** }.

عطف على { وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ } وما بينهما اعتراض، وهو عطف العبرة على الموعظة. فإنّ قوله { وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ } موعظة لمن يهمّ بالانقلاب، وقوله { وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ } عبرة بما سلف من صبر أتباع الرّسل والأنبياء عند إصابة أنبيائهم أو قتلهم، في حرب أو غيره، لمماثلة الحالين. فالكلام تعريض بتشبيه حال أصحاب أحُد بحال أصحاب الأنبياء السالفين، والتشبيه هو بصبر الأتباع عند حلول المصائب أو موت المتبوع.

{ **وكأيّن** } كلمة بمعنى التكثير، قيل: هي بسيطة موضوعة للتكثير، وقيل: هي مركّبة من (كاف) التشبيه و(أي) الاستفهام وهو قول الخليل وسيبويه، والأظهر أنّها بسيطة.

والتكثير المستفاد من { كأيّن } واقع على تمييزها وهو لفظ { نَبِيٍّ } فيحتمل أن يكون تكثيرا بمعنى مطلق العدد، فلا يتجاوز جمع القلّة، ويحتمل أن يكون تكثيرا في معنى جمع الكثرة. فمنهم من علمناه ومنهم من لم نعلمه، كما قال تعالى { وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ } [غافر:78]، ويحضرني أسماء ستة ممّن قُتل من الأنبياء: **أرمياء** قتله بنو إسرائيل، و**حزقيال** قتلوه أيضا لأنّه وبّخهم على سوء أعمالهم، و**أشعياء** قتله منسا بن حزقل ملك إسرائيل لأنّه وبّخه ووعظه على سوء فعله فنشره بمنشار، و**زكرياء**، و**يحيى**، قتلهما بنو إسرائيل لإيمانهما بالمسيح، وقتل أهل الرس من العرب نبيّهم **حنظلة بن صفوان** في مدّة عدنان.

وليس في هؤلاء رسول إلاّ حنظلة بن صفوان، وليس فيهم أيضا من قُتل في جهاد. قال سعيد بن جبير: ما سمعنا بنبي قُتل في القتال.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب، وأبو بكر عن عاصم: **(قُتل)** بصيغة المبنى للمجهول، وقرأه ابن عامر، وحمزة وعاصم، والكسائي، وخلف، وأبو جعفر: **(قاتل)** بصيغة المفاعلة.

وجاءت هذه الآية على هذا النظم البديع الصالح لحمل الكلام على تثبيت المسلمين في حال الهزيمة وفي حال الإرجاف بقتل النبيّ صلى الله عليه وسلم. وعلى الوجهين في موقع جملة { مَعَهُ رِبِّيُّونَ } يختلف حسن الوقف على كلمة (قتل) أو على كلمة (كثير).

{ **رِبِّيُّونَ** } جمع ربّيّ وهو المتّبع لشريعة الربّ مثل الربّانيّ، والمراد بهم هنا أتباع الرسل وتلاميذة الأنبياء. ويجوز في رائه الفتح، على القياس، والكسر.

ومحلّ العبرة هو ثبات الربّانيين على الدين مع موت أنبيائهم ودعاتهم.

{ **كثير** } صفة { رِبِّيُّونَ } وجيء به على صيغة الإفراد، مع أنّ الموصوف جميع، لأنّ لفظ كثير وقليل يعامل موصوفها معاملة لفظ شيء أو عدد، قال تعالى { وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً } [النساء:1].

{ **فَمَا وَهَنُوا** } أي الربّيّون، إذ من المعلوم أنّ الأنبياء لا يهنون فالقدوة المقصودة هنا، هي الاقتداء بأتباع الأنبياء، أي لا ينبغي أن يكون أتباع من مضى من الأنبياء، أجدر من اتباع محمد صلى الله عليه وسلم.

الوهن: قلّة القدرة على العمل، وعلى النهوض في الأمر.

الضُعف: بضم الضاد وفتحها ضدّ القوّة في البدن.

وهما هنا مجازان، فالأوّل أقرب إلى العزيمة، ودبيب اليأس في النفوس والفكر، والثاني أقرب إلى الاستسلام والفشل في المقاومة.

{ **وَمَا اسْتَكَانُوا** } وأمّا الاستكانة فهي الخضوع والمذلّة، فإنّه إذا خارت العزيمة فشلت الأعضاء وجاء الاستسلام، فتبعته المذلّة والخضوع للعدوّ.

{ **وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ** } عطف على { فَمَا وَهَنُوا } لأنّه لمّا وصفهم برباط الجأش، وثبات القلب، وصفهم بعد ذلك بما يدلّ على الثّبات من أقوال اللسان التي تجري عليه عند الاضطراب الجزع، أي أنّ ما أصابهم لم يخالجهم بسببه تردّد في صدق وعد الله، ولا بدر منهم تذمّر، بل علموا أنّ ذلك لحكمة يعلمها سبحانه، أو لعلّه كان جزاء على تقصير منهم في القيام بواجب نصر دينه، أو في الوفاء بأمانة التكليف، فلذلك ابتهلوا إليه عند نزول المصيبة بقولهم { رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا } خشية أن يكون ما أصابهم جزاء على ما فرط منهم، ثم سألوه النصر وأسبابه ثانيا فقالوا {وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} فلم يصدّهم ما لحقهم من الهزيمة عن رجاء النصر. وفي الموطأ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

" يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول: دعوت فلم يُستجب لي ".

{ **ذُنُوبَنَا** } والمراد جميعها، وعطف عليه بعض الذنوب وهو المعبّر عنه هنا بالإسراف في الأمر.

الإسراف: هو الإفراط وتجاوز الحدّ. والمراد عندي بالإسراف في الأمر التقصير في شأنهم ونظامهم فيما

يرجع إلى أهبة القتال، والاستعداد له، أو الحذر من العدو، وهذا الظاهر من كلمة { **أَمْرِنَا** }، بأن يكونوا شكوا أن يكون ما أصابهم من هزيمتهم في الحرب مع عدوهم ناشئا عن سببين: باطن وظاهر، فالباطن هو غضب الله عليهم من جهة الذنوب، والظاهر هو تقصيرهم في الاستعداد والحذر.

{ **فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ** } إعلام بتعجيل إجابة دعوتهم لحصول خيري الدنيا والآخرة، فثواب الدنيا هو الفتح والغنيمة، وثواب الآخرة هو ما كتب لهم من حسن عاقبة الآخرة، وتقدّم الكلام على الثواب عند قوله تعالى { لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ } [البقرة:103].

{ **وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** } تذييل، أي يحبّ كلّ محسن، وموقع التذييل يدلّ على أنّ المتحدّث عنهم من الذين أحسنوا، فاللام للجنس المفيد معنى الاستغراق.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ [149] بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ [150] }.

استئناف ابتدائي للانتقال من التوبيخ واللوم والعتاب إلى التحذير، ليتوسّل منه إلى معاودة التسلية، على ما حصل من الهزيمة، وفي ضمن ذلك كلّه، من الحقائق الحكميّة والمواعظ الأخلاقيّة والعبر التاريخيّة، ما لا يحصيه مريد إحصائه.

الطاعة: تطلق على امتثال أمر الآمر.

{ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا** } شائع في اصطلاح القرآن أن يراد به المشركون، واللفظ صالح بالوضع لكّل كافر من مشرك وكتابيّ، مظهر أو منافق.

{ **يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ** } الارتداد، والانقلاب: الرجوع، وقد تقدّم القول فيهما عند قوله { أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ } [144]. فالظاهر أنّه أراد من هذا الكلام تحذير المؤمنين من أن يخامرهم خاطر الدخول في صلح المشركين وأمانهم، لأنّ في ذلك إظهار الضعف أمامهم، والحاجة إليهم. والآية مشيرة إلى تسفيه رأي من قال: لو كلّمنا عبد الله بن أبَي يأخذ لنا أمانا من أبي سفيان.

{ **بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ** } إضراب لإبطال ما تضمّنه ما قبله، وتظهر المناسبة غاية الظهور، لأنّ الطاعة على ذلك الوجه هي من قبيل الموالاة والحلف فناسب إبطالها بالتذكير بأنّ مولى المؤمنين هو الله تعالى، ولهذا التذكير موقع عظيم، وهو أنّ الولاء والحلف أمر عظيم عند العرب، فإنّ للولاء عندهم شأنا كشأن النسب، فكيف إذا كان الولاء ولاء سيد الموالي كلّهم.

{ **وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ** } يقوّي المناسبة، والمعنى: هو أفضل الموصوفين بالوصف، فيما يراد منه، وفي موقعه، وفائدته. فالنصر يقصد منه دفع الغلب عن المغلوب، فمتى كان الدفع أقطع للغالب كان النصر أفضل، ويقصد منه دفع الظلم فمتى كان النصر قاطعا لظلم الظالم كان موقعه أفضل، وفائدته أكمل، فالنصر لا يخلو من مدحة لأنّ فيه ظهور الشجاعة وإباء الضيم والنجدة. ولكنّه إذا كان تأييدا لظالم أو

قاطع طريق، كان فيه دخل ومذمّة، فإذا كان إظهارا لحق المحقّ وإبطال الباطل، استكمل المَحْمَدَةَ، ولذلك فسر النبي صلى الله عليه وسلم نصر الظالم بما يناسب خلق الإسلام لمّا قال: **" انصر أخاك ظالما أو مظلوما "** فقال بعض القوم: هذا أنصره إذا كان مظلوما فكيف أنصره إذا كان ظالما؟ فقال: **" أن تنصره على نفسه فتكفّه عن ظلمه "**.

{ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ } [151].

رجوع إلى تسلية المؤمنين، وتطْمينهم، ووعدهم بالنصر على العدو.

الإلقاء: حقيقته رمي شيء { فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ } [الشعراء:44]، و{ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ } [القصص:7]، ويطلق على الإفضاء بالكلام { يُلْقُونَ السَّمْعَ } [الشعراء:223]، وعلى حصول الشيء في النفس كأنّ ملقيا ألقاه، أي من غير سبق تهيؤ { وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ } [المائدة:64]. وهو هنا مجاز في الجعل والتكوين كقوله { وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ } [الأحزاب:26].

الرعْب: الفزع من شدّة خوف، وفيه لغتان الرعب بسكون العين والرعب بضم العين وقرأه الجمهور بسكون العين وقرأه ابن عامر، والكسائي بضم العين.

{ **بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ** } الباء للعوض وتسمَّى باء المقابلة، وهذا جزاء دنيوي رتّبه الله تعالى على الإشراك به. وكثير من المفسّرين ذكروا أنّ هذا الرعب كانت له مظاهر: منها أنّ المشركين لما انتصروا على المسلمين كان في مكنتهم أن يوغلوا غي استئصالهم إلاّ أنّ الرعب صدّهم عن ذلك.

{ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ } [152].

{ **وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ** } عطف على قوله { سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ }، وهذا عود إلى التسليّة على ما أصابهم، وإظهار لاستمرار عناية الله تعالى بالمؤمنين، ورمز إلى الثقة بوعدهم بإلقاء الرعب في قلوب المشركين، وليتوسّل بذلك إلى إلقاء تبعة الهزيمة عليهم، وأنّ الله لم يخلفهم وعده، ولكن سوء صنيعهم أوقعهم في المصيبة.

صدق الوعد: تحقيقه والوفاء به، لأنّ معنى الصدق مطابقة الخبر للواقع.

{ **إذ تحسّونهم** } والحَسُّ (بفتح الحاء) القتل، أطلقه أكثر اللغويين، وقيّده في الكشاف بالقتل الذريع، وهو أصوب. أي صدقكم الله الوعد حين كنتم تحسّونهم بإذنه فإن ذلك الحَسّ تحقيق لوعد الله إيّاكم بالنصر.

{ **حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ** } (حتّى) حرف انتهاء وغاية، يفيد أنّ مضمون الجملة التي بعدها غاية لمضمون الجملة التي قبلها، فالمعنى: إذ تقتلونهم بتيسير الله، واستمر قتلكم إيّاهم إلى حصول الفشل لكم والتنازع بينكم.

الفشل: الوهن والإعياء. و**التنازع**: التخالف. والمراد **بالعصيان** هنا: عصيان أمر الرّسول.

وقد رتّبت الأفعال الثلاثة في الآية على حسب ترتيبها في الحصول، إذ كان الفشل، وهو ضجر بعض الرماة من ملازمة موقفهم للطمع في الغنيمة، قد حصل أّولا، فنشأ عنه التنازع بينهم في ملازمة الموقف وفي اللحاق بالجيش للغنيمة، ونشأ عن التنازع تصميم معظمهم على مفارقة الموقف الذي أمرهم الرسول عليه الصلاة والسلام بملازمته وعدم الانصراف منه.

وهذا هو الأصل في ترتيب الأخبار في صناعة الإنشاء ما لم يقتض الحال العدول عنه.

{ **مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ** } أراد به النصر إذ كانت الريح أوّل يوم أحد للمسلمين، فهزموا المشركين، وولّوا الأدبار، حتى شوهدت نساؤهم مشمّرات عن سوقهنّ في أعلى الجبل هاربات من الأسر، وفيهنّ هند بنت عتبة ابن ربيعة امرأة أبي سفيان، فلمّا رأى الرماة الذين أمرهم الرسول أن يثبتوا لحماية ظهور المسلمين، الغنيمة، التحقوا بالغزاة، فرأى خالد بن الوليد، وهو قائد خيل المشركين يومئذ، غرة من المسلمين فأتاهم من ورائهم فانكشفوا واضطرب بعضهم في بعض وبادروا الفرار وانهزموا.

والكلام على هذا تشديد في الملام والتنديم.

وعندي أنّه سبحانه عدل عن ذكر الغنيمة باسمها، إلى الموصول تنبيها على أنّهم عجلوا في طلب المال المحبوب، تمهيدا لبساط المعذرة إذ كان فشلهم وتنازعهم وعصيانهم عن سبب من أغراض الحرب وهو المعبر عنه بـ { إِحْدَى الحُسْنَيَيْنِ } [التوبة:52] ولم يكن ذلك عن جبن، ولا عن ضعف إيمان، أو قصد خذلان المسلمين، وكلّه تمهيد لما يأتي من قوله { وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ }.

{ **مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ** } تفصيل لـ { وَتَنَازَعْتُمْ }، وتبيين لـ { وَعَصَيْتُمْ }، وتخصيص له بأنّ العاصين بعض المخاطبين المتنازعين، إذ الذين أرادوا الآخرة ليسوا بعاصين.

{ **يُرِيدُ الدُّنْيَا** } هنا الغنيمة، فليس في هذا الكلام ما يدلّ على أنّ الفريق الذين أرادوا ثواب الدنيا قد ارتدّوا عن الإيمان حينئذ، إذ ليس الحرص على تحصيل فائدة دنيوية من فعل من الأفعال، مع عدم الحرص على تحصيل ثواب الآخرة من ذلك الفعل، بدال على استخفاف بالآخرة، وإنكار لها.

وإنّما سمّيت مخالفة من خالف أمر الرسول عصيانا، مع أن تلك المخالفة كانت عن اجتهاد لا عن استخفاف، إذ كانوا قالوا: إنّ رسول الله أمرنا بالثبات هنا لحماية ظهور المسلمين، فلمّا نصر الله المسلمين فما لنا وللوقوف هنا حتى تفوتنا الغنائم، فكانوا متأوّلين، فإنّما سمّيت هنا عصيانا، لأنّ المقام ليس مقام اجتهاد، فإنّ شأن الحرب الطاعة للقائد من دون تأويل، أو لأنّ التأويل كان بعيدا فلم يعذروا فيه، أو لأنّه كان تأويلا لإرضاء حبّ المال، فلم يكن مكافئا لدليل وجوب طاعة الرسول.

{ **ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ** } ليدلّ على أنّ ذلك الصرف بإذن الله وتقديره، كما كان القتل بإذن الله، وأنّ

حكمته الابتلاء، ليظهر للرسول وللنّاس من ثبت على الإيمان من غيره، ولأنّ في الابتلاء أسرارا عظيمة في المحاسبة بين العبد وربّه سبحانه وقد أجمل هذا الابتلاء هنا وسيبيّنه.

{ **وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ** } تسكينا لخواطرهم، وفي ذلك تلطّف معهم على عادة القرآن في تقريع المؤمنين، وأعظم من ذلك تقديم العفو على الملام في ملام الرسول عليه السلام في قوله تعالى{ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ } [التوبة:43]. فتلك رتبة أشرف من رتبة تعقيب الملام بذكر العفو. وفيه أيضا دلالة على صدق إيمانهم إذ عجّل لهم الإعلام بالعفو لكيلاّ تطير نفوسهم رهبة وخوفا من غضب الله تعالى.

{ **وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** } تأكيد لـ { وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ } والظاهر أنّه عفو لأجل التأويل. فلا يحتاج إلى التوبة، ويجوز أن يكون عفوا بعدما ظهر منهم من الندم والتوبة.

{ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } [153].

{ **إِذْ تُصْعِدُونَ** } متعلّق بقوله { صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ } أي: دفعكم عن المشركين حين أنتم مصعدون.

الإصعاد: الذهاب في الأرض، لأنّ الأرض تسمّى صعيدا، وهو أيضا السير في الوادي. والمعنى، تفرّون مصعدين.

{ **وَلا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ** } اللَّيُّ مجاز بمعنى الرحمة والرفق مثل العطف في حقيقته ومجازه، فالمعنى، فررتم لا يرحم أحد أحدا ولا يرفق به، وهذا تمثيل للجدّ في الهروب.

{ **وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ** } حال، و**الأخرى** آخر الجيش أي من ورائكم. ودعاء الرسول دعاؤه إيّاهم للثبات، وكان دعاء الرسول النّاس ساعتها **" إليَّ عباد الله من يكُرّ فله الجنّة "**.

{ **فَأَثَابَكُمْ غَمّاً** } مشاكلة تقديريّة لأنّهم لمّا خرجوا للحرب خرجوا طالبين الثواب، فسلكوا مسالك باؤوا معها بعقاب. ونكتة هذا المشاكلة أن يُتوصّل بها إلى الكلام على ما نشأ عن هذا الغم من عبرة، ومن عناية الله تعالى إليهم بعده.

{ **بِغَمٍّ** } الباء للمصاحبة أي غمًّا مع غمٍّ، من خيبة الأمل في النصر بعد ظهور بوارقه، ومن الانهزام.

{ **لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ** } تعليل أوّل لـ { فَأَثَابَكُمْ } أي: ألهاكم بذلك الغمّ لئلّا تحزنوا على ما فاتكم من الغنيمة، وما أصابكم من القتل والجراح، فهو أنساهم بمصيبة صغيرة مصيبة كبيرة.

{ **مَا فَاتَكُمْ / مَا أَصَابَكُمْ** } طباق يؤذن بطباق آخر مقدّر، لأنّ ما فات هو من النافع وما أصاب هو من الضار.

{ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } [154].

{ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ }.

المعنى: ثم أغشاكم بالنعاس بعد الهزيمة. وسُمِّي الإغشاء إنزالا لأنّه لمّا كان نعاسا مقدّرا من الله لحكمة خاصة، كان كالنازل من العوالم المشرّفة كما يقال: نزلت السكينة.

الأمَنة: بفتح الميم الأمن.

النعاس: النوم الخفيف أو أوّل النوم، وهو يزيل التعب ولا يغيّب صاحبه، فلذلك كان أمنة إذ لو ناموا ثقيلا لأخذوا، قال أبو طلحة الأنصاري، والزبير، وأنس بن مالك: غشينا نعاس حتّى أنّ السيف ليسقط من يد أحدنا. وقد استجدّوا بذلك نشاطهم، ونسوا حزنهم. ونعاسا بدل على أمنة بدل مطابق.

وقدّم الأمَنة هنا تشريفا لشأنها لأنّها جعلت كالمنزّل من الله لنصرهم، فهو كالسكينة، فناسب أن يجعل هو مفعول أنزل، ويجعل النعاس بدلا منه.

{ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا }.

لما ذكر حال طائفة المؤمنين، تخلّص منه لذكر حال طائفة المنافقين، كما علم من المقابلة، ومن قوله { يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ }.

{ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ } أي حدّثتهم أنفسهم بما يُدخل عليهم الهمّ، وذلك بعدم رضاهم بقدر الله، وبشدّة تلهّفهم على ما أصابهم وتحسّرهم على ما فاتهم.

وقيل { أهمّتهم } أدخلت عليهم الهمّ بالكفر والارتداد، وكان رأس هذه الطائفة معتّب بن قُشير.

{ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ } المعنى: أنّهم ذهبت بهم هواجسهم إلى أن يظنّوا بالله ظنونا باطلة من أوهام الجاهلية. وفي هذا تعريض بأنّهم لم يزالوا على جاهليّتهم لم يخلصوا الدين لله،

{ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ } فهؤلاء المتظاهرون بالإيمان لم يدخل الإيمان في قلوبهم فبقيت معارفهم كما هي من عهد الجاهلية.

الجاهليّة: صفة جرت على موصوف محذوف يقدّر بالفئة أو الجماعة، والظاهر أنّه نسبة إلى الجاهل أي: الذي لا يعلم الدين والتوحيد، فإنّ العرب أطلقت الجهل على ما قابل الحلم. وأحسب أن لفظ الجاهلية من مبتكرات القرآن، وصف به أهل الشرك تنفيرا من الجهل، وترغيبا في العلم، ولذلك يذكره القرآن في

مقامات الذمّ في نحو قوله { أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ } [المائدة:50] . وقالوا: شعر الجاهلية، وأيّام الجاهلية. ولم يسمع ذلك كلّه إلاّ بعد نزول القرآن وفي كلام المسلمين.

{ **يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ** } بيّن بعض ما لهم من الظن، وهو تبرئة لأنفسهم من أن يكونوا سببا في مقابلة العدو. وتعريض بأنّ الخروج للقتال يوم أحد خطأ وغرور. وهذا القول قاله عبد الله بن أُبَي ابن سلول لما أخبروه بمن استشهد من الخزرج يومئذ، وهذا تنصّل من أسباب الحرب وتعريض بالنبيّ ومن أشار بالخروج من المؤمنين الذين رغبوا في إحدى الحسنيين.

{ **يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لا يُبْدُونَ لَكَ** } إعلان بنفاقهم، وأنّ قولهم { هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ } وقولهم { لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا } هو وإن كان ظاهره صورة العتاب عن ترك مشورتهم فنيّتهم منه تخطئة النبيّ في خروجه بالمسلمين إلى أُحُد، وأنّهم أسدّ رأيا منه.

{ **يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ** } بدل اشتمال من جملة { يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ } إذ كانوا قد قالوا ذلك فيما بينهم ولم يظهروه، وهذا أظهر لأجل قوله بعده { قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ } فإنّه يقتضي أنّ تلك المقالة فشت وبلغت الرسول.

وهذه المقالة صدرت من معتِّب بن قُشير، قال الزبير بن العوام: غشيني النعاس فسمعت معتّب بن قُشير يقول: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا. فحكى القرآن مقالته كما قالها، وأسندت إلى جميعهم لأنّهم سمعوها ورضوا بها.

{ **قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ** } ردّ عليهم هذا العذر الباطل، أي: أنّ الله ورسوله غير محتاجين إلى أمركم.

{ **قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِم** }. لقّن الله رسوله الجواب عن قولهم { لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا }، والجواب إبطال لقولهم، وتعليم للمؤمنين لدفع ما عسى أن يقع في نفوسهم من الريب، إذا سمعوا كلام المنافقين. أو هو جواب للمنافقين ويحصل به علم للمؤمنين.

وهذا الجواب جار على الحقيقة، وهي جريان الأشياء على قدر من الله، والتسليم لذلك بعد استفراغ الجهد في مصادفة المأمول، فليس هذا الجواب ونظائره بمقتض ترك الأسباب، لأنّ قدر الله تعالى وقضاءه غير معلومين لنا إلّا بعد الوقوع، فنحن مأمورون بالسعي فيما عساه أن يكون كاشفا عن مصادفة الله لمأمولنا، فإن استفرغنا جهودنا وحُرمنا المأمول، علمنا أنّ قدر الله جرى من قبل على خلاف مرادنا. فأمّا ترك الأسباب فليس من شأننا، وهو مخالف لما أراد الله منّا، وإعراض عمّا أقامنا الله فيه في هذا العالم، وهو تحريف لمعنى القدر.

المضاجع: جمع مَضجَع (بفتح الميم وفتح الجيم) وهو محل الضجوع. والضجوع، وضع الجنب بالأرض للراحة والنوم، وأطلق هنا على مصارع القتلى على سبيل الاستعارة.

{ **وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**}. عطف على قوله { لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ } فهو خطاب للمؤمنين لا محالة، وهو علّة ثانية لقوله { فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ }.

الصدور: هنا بمعنى الضمائر.

الابتلاء، الاختبار، وهو هنا عن أثره، وهو إظهاره للنّاس والحجّة على أصحاب تلك الضمائر بقرينة قوله { وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } . وأطلق الصدور على الضمائر لأنّ الصدر في كلام العرب يطلق على الإحساس الباطني، وفي الحديث: **" الإثم ما حاك في صدرك "**. وعديّ إلى الصدور فعل الابتلاء لأنّه اختبار الأخلاق والضمائر، ما فيها من خير وشر، وليتميّز ما في النفس.

التمحيص: تخليص الشيء ممّا يخالطه، ممّا فيه عيب له، فهو كالتزكية.

ما في القلوب: هنا بمعنى العقائد. ومعنى تمحيص ما في قلوبهم تطهيرها مما يخامرها من الريب حين سماع شبه المنافقين التي يبثّونها بينهم. وأطلق القلب على الاعتقاد لأنّ القلب في لسان العرب هو ما به يحصل التفكّر والاعتقاد. وعديّ إلى القلوب فعل التمحيص لأنّ الظنون والعقائد محتاجة إلى التمحيص لتكون مصدر كل خير.

{ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ } [155].

استئناف لبيان سبب الهزيمة الخفيّ، وهي استزلال الشيطان إيّاهم، و{ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ } يوم أحُد.

استزلّهم: بمعنى أزلّهم أي جعلهم زالين، والزلل مستعار لفعل الخطيئة، والسين والتاء فيه للتأكيد.

والمراد بالزلل الانهزام، وإطلاق الزلل عليه معلوم مشهور كإطلاق ثبات القدم على ضدّه وهو النصر قال تعالى { وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا } [147].

{ **بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا** } الباء للسببيّة وأريد به مفارقة موقعهم، وعصيان أمر الرسول، والتنازع، والتعجيل إلى الغنيمة، والمعنى أنّ ما أصابهم كان من آثار الشيطان. والمقصد من هذا إلقاء تبعة ذلك الانهزام على عواتقهم، وإبطال ما عرّض به المنافقون من رمي تبعته على أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بالخروج، وتحريض الله المؤمنين على الجهاد.

ومناسبة ذكر هذه الآية عقب التي قبلها أنّه تعالى بعد أن بيّن لهم مرتبة حقّ اليقين بقوله { قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ } انتقل بهم إلى مرتبة الأسباب الظاهرة، فبيّن لهم أنّه إن كان للأسباب تأثير فسبب مصيبتهم هي أفعالهم التي أملاها الشيطان عليهم وأضلّهم بها، فلم يتفطنوا إلى السبب، والتبس عليهم بالمقارن، ومن شأن هذه الضلال أن يحول بين المخطئ وبين تدارك خطئه ولا يخفى ما في الجمع بيم هذه الأغراض من العلم الصحيح، وتزكية النفوس، وتحبيب الله ورسوله للمؤمنين، وتعظيمه عندهم، وتنفيرهم من الشيطان، والأفعال الذميمة، ومعصية الرسول، وتسفيه أحلام المشركين والمنافقين.

{ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ } أعيد الإخبار بالعفو تأنيسا لهم.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } [156].

تحذير من العود إلى مخالجة عقائد المشركين، وبيان لسوء عاقبة تلك العقائد في الدنيا أيضا. والكلام استئناف. والإقبال على المؤمنين بالخطاب تلطّف بهم جميعا بعد تقريع فريق منهم الذين تولوا يوم التقى الجمعان.

{ **لإخوانهم** } ليست لام تعدية فعل (القول) بل هي لام العلّة كقوله تعالى { وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً } لأنّ الإخوان ليسوا متكلّما معهم بل هم الذين ماتوا وقتلوا، والمراد بالإخوان الأقارب في النسب، أي من الخزرج المؤمنين، لأن الشهداء من المؤمنين.

الضرب في الأرض: هو السفر، لأنّ أصل الضرب هو إيقاع جسم على جسم وقرعه به، فالسير ضرب في الأرض بالأرجل، فأطلق على السفر للتجارة، وعلى مطلق السفر، والظاهر أن المراد هنا، السفر في مصالح المسلمين لأنّ ذلك هو الذي يلومهم عليه الكفار، وقيل: أريد بالضرب في الأرض التجارة.

وعليه يكون قرنه مع القتل في الغزو لكونهما كذلك في عقيدة الكفار.

{ **غُزًّى** } جمع غاز.

{ **لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ** } علّة لـ (قالوا) باعتبار ما يتضمّنه من اعتقاد ذلك مع الإعلان به، توجيها للنهي عن التشبيه بهم، أي: فإنّكم إن اعتقدتم اعتقادهم لحقكم أثره كما لحقهم.

الحسرة: شدّة الأسف أي الحزن، وكان هذا حسرة عليهم لأنّهم توهّموا أنّ مصابهم نشأ عن تضييعهم الحزم، وأنّهم لو كانوا سلكوا غير ما سلكوه لنجوا فلا يزالون متلهّفين على ما فاتهم. والمؤمن يبذل جهده فإذا خاب سلّم لحكم القدر.

{ **وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** } تحذير لهم من أن يضمروا العود إلى ما نهوا عنه.

{ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ [157] وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ [158] }.

ذكر الموت ترغيبا وترهيبا، فجعل الموت في سبيل الله والموت في غير سبيل الله، إذا أعقبتهما المغفرة خيرا من الحياة وما يجمعون فيها، وجعل الموت والقتل في سبيل الله وسيلة للحشر والحساب، فَلْيَعْلَمْ أحد بماذا يلاقي ربه.

وقدّم القتل في الأولى والموت في الثانية اعتبارا بعطف ما يظنّ أنّه أبعد عن الحكم فإنّ كون القتل في سبيل الله سببا للمغفرة أمر قريب، ولكن كون الموت في غير السبيل مثل ذلك أمر خفي مستبعد، وكذلك

تقديم الموت في الثانية لأنّ القتل في سبيل الله قد يظنّ أنّه بعيد عن أن يعقبه الحشر. مع ما فيه من التفنّن، ومن رد العجز على الصدر وجعل القتل مبدأ الكلام وعوده.

{ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ } [159].

الفاء للتفريع على ما اشتمل عليه الكلام السابق الذي حكي فيه مخالفة طوائف لأمر الرسول من مؤمنين ومنافقين، وما حُكي من عفو الله عنهم فيما صنعوا. ولأنّ في تلك الواقعة المحكيّة بالآيات السابقة مظاهر كثيرة من لين النبيّ صلى الله عليه وسلم للمسلمين، حيث استشارهم في الخروج، وحيث لم يثرّبهم على ما صنعوا من مغادرة مراكزهم، ولمّا كان عفو الله عنهم يُعرف في معاملة الرسول إيّاهم، ألان الله لهم الرسول تحقيقا لرحمته وعفوه، قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ } [الأنبياء:107].

{ **فَبِمَا** } الباء للمصاحبة، أي: لنت مع رحمة الله، إذ كان لينه في ذلك كله لينا لا تفريط معه لشيء من مصالحهم، ولا مجاراة لهم في التّساهل في أمر الدين، فلذلك كان حقيقا باسم الرحمة.

اللين: هنا في سعة الخلق مع أمّة الدعوة والمسلمين، وفي الصفح عن جفاء المشركين، وإقالة العثرات.

{ **لِنْتَ لَهُمْ** } وصف تقرّر وعرف من خلقه صلى الله عليه وسلم. فقد أُرسل محمد صلى الله عليه وسلم مفطورا على الرحمة، فكان رحمة من الله بالأمّة في تنفيذ شريعته بدون تساهل وبرفق وإعانة على تحصيلها، فلذلك جعل لينه مصاحبا لرحمة من الله أودعها الله فيه، إذ هو بُعث للنّاس كافة، ولكن اختار الله أن تكون دعوته بين العرب أوّل شيء لحكمة أرادها الله تعالى في أن يكون العرب هم مبلّغي الشريعة للعالم.

والعرب أمّة عُرفت بالأنفة، وإباء الضيم، وسلامة الفطرة. وسرعة الفهم، وهم المتلقّون الأوّلون للدين فلم تكن تليق بهم الشدّة والغلظة، ولكنّهم محتاجون إلى استنزال طائرهم في تبليغ الشريعة لهم، ليتجنّبوا بذلك المكابرة التي هي الحائل الوحيد بينهم وبين الإذعان إلى الحق. وورد أنّ صفح النبيّ صلى الله عليه وسلم وعفوه ورحمته كان سببا في دخول كثير في الإسلام، كما ذكر بعض ذلك عياض في كتاب الشفاء.

{ **لهم** } الضمير عائد على جميع الأمّة كما هو مقتضى مقام التشريع وسياسة الأمّة، وليس عائدا على المسلمين الذين عصوا أمر الرسول يوم أحُد، لأنّه لا يناسب قوله بعده { لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ } إذ لا يظن ذلك بالمسلمين، ولأنّه لا يناسب قوله بعده { وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ } إذا كان المراد المشاورة للاستعانة بآرائهم، بل المعنى، لو كنت فظا لنفرك كثير ممن استجاب لك فهلكوا.

وقد يكون الضمير عائدا على المنافقين المعبّر عنهم بقوله { وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ } [154]. فالمعنى، ولو كنت فظا لأعلنوا الكفر وتفرّقوا عنك.

الفظ: سيّئ الخلق، جافي الطبع.

غليظ القلب: القاسيه، إذ الغلظة مجاز عن القسوة وقلّة التسامح، كما كان اللين مجازا في عكس ذلك.

{ **لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** } الانفضاض: التفرّق. ومن حول: من جهتك وإزائك. والضمير، للذين حول رسول الله، أي الذين دخلوا في الدين لأنّهم لا يطيقون الشدّة، والكلام تمثيل، شبّهت هيئة النفور منه وكراهية الدخول في دينه بالانفضاض من حوله أي الفرار عنه متفرّقين.

{ **فَاعْفُ عَنْهُمْ** } التفريع على قوله { لِنْتَ لَهُمْ }، لأن جميع الأفعال المأمور بها مناسب للين، فأمّا العفو والاستغفار فأمرهما ظاهر، وأمّا عطف { وشاورهم } فلأن الخروج إلى أحد كان عن تشاور معهم وإشارتهم.

المشاورة: مصدر شاور، والاسم الشورى والمَشُورة (بفتح الميم وضم الشين) أصلها مَفْعُلة (بضم العين)، فوقع فيها نقل حركة الواو إلى الساكن. قيل: المشاورة مشتقة من شار الدابة إذا اختبر جريها عند العرض على المشتري، و المشوار هو المكان الذي تركض فيه الدواب.

وإنّما تكون المشورة في الأمر المهمّ المشكل من شؤون المرء في نفسه أو شؤون القبيلة أو شؤون الأمّة.

{ **الأمر** } و(ألـ) للجنس، والمراد بالأمر: المهم الذي يؤتمر له.

وظاهر الأمر أنّ المراد المشاورة الحقيقيّة التي يقصد منها الاستعانة برأي المستشارين بدليل قوله عقبه { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ }، أي: شاور الذين أسلموا من بين من لنت لهم، أي: لا يصدّك خطل رأيهم يوم أحُد عن أن تستعين برأيهم في مواقع أخرى، فإنّما كان ما حصل فلته منهم، وعثرة قد أقَلْتهم منها.

ويحتمل أن يراد استشارة عبد الله بن أبَي وأصحابه، فالمراد الأخذ بظاهر أحوالهم وتأليفهم، لعلّهم أن يخلصوا الإسلام أو لا يزيدوا نفاقا، وقطعا لأعذارهم فيما يستقبل.

وقد دلّت الآية على أن الشورى مأمور بها الرسول صلى الله عليه وسلم فيما عبّر عنه بالأمر، وهو مهمّات الأمّة ومصالحها في الحرب وغيره، وذلك في غير أمر التشريع لأنّ الأمر إن كان فيه وحي فلا محيد عنه، وإن لم يكن فيه وحي وقلنا بجواز الاجتهاد للنبيّ صلى الله عليه وسلم في التشريع فلا تدخل فيه الشورى لأنّ شأن الاجتهاد أن يستند إلى الأدلة لا الآراء، والمجتهد لا يستشير غيره إلّا عند القضاء باجتهاده كما فعل عمر وعثمان.

فتعيّن أنّ المشاورة المأمور بها هنا هي المشاورة في شؤون الأمّة ومصالحها، وقد أمر الله بها هنا، ومدحها في ذكر الأنصار { وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ } [الشورى:38]، واشترطها في أمر العائلة { فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا } [البقرة:233]. فشرع بهاته الآيات المشاورة في مراتب المصالح كلّها.

هذا والشورى مما جبل الله عليه الإنسان في فطرته السليمة، أي: فطره على محبة الصلاح وتطلّب النجاح في المساعي، ولذلك قرن الله تعالى خلق أصل البشر بالتشاور في شأنه إذ قال للملائكة { إِنِّي

جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً } [البقرة:30]، إذ قد غني الله عن إعانة المخلوقات في الرأي ولكنه عرض على الملائكة مراده ليكون التشاور سنة في البشر ضرورة أنّه مقترن بتكوينه، فإن مقارنة الشيء للشيء في أصل التكوين يوجب إلفه وتعارفه.

ولم تزل الشورى في أطوار التاريخ رائجة في البشر فقد استشار فرعون في شأن موسى عليه السلام فيما حكى الله عنه بقوله { فَمَاذَا تَأْمُرُونَ } [الأعراف:110]. واستشارت بلقيس في شأن سليمان عليه السلام فيما حكى الله عنها بقوله { قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ } [النمل:32]. وإنما يُلهي النّاسَ عنها حبُّ الاستبداد، وكراهيةُ سماع ما يخالف الهوى، وذلك من انحراف الطبائع وليس من أصل الفطرة، ولذلك يهرع المستبد إلى الشورى عند المضائق. قال ابن عبد البر في بهجة المجالس: " الشورى محمودة عند عامة العلماء ولا أعلم أحدا رضي الاستبداد إلاّ رجل مفتون مخادع لمن يطلب عنده فائدة، أو رجل فاتك يحاول حين الغفلة، وكلا الرجلين فاسق ".

{ **فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** } العزم هو تصميم الرأي على الفعل. وحذف متعلّق عزمت لأنّه دلّ عليه التفريع عن قوله { وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ }، فالتقدير: فإذا عزمت بعد الشورى، أي: تبيّن لك وجه السداد فيما يجب أن تسلكه فعزمت على تنفيذه، سواء كان على وفق بعض آراء أهل الشورى أم كان رأيا آخر لاح للرسول سداده، فقد يخرج من آراء أهل الشورى رأي.

{ **فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** } التوكّل حقيقته الاعتماد، وهو هنا مجاز في الشروع في الفعل مع رجاء السداد فيه من الله، وهو شأن أهل الإيمان، فالتوكّل انفعال قلبي عقلي يتوجّه به إلى الله راجيا الإعانة ومستعيذا من الخيبة والعوائق، وربّما رافقه قول لساني وهو الدعاء بذلك. والتقدير: فإذا عزمت فبادر ولا تتأخر وتوكّل على الله.

{ **إن الله يحب المتوكلين** } لأنّ التوكّل علامة صدق الإيمان، وفيه ملاحظة عظمة الله وقدرته، واعتقاده الحاجة إليه، وعدم الاستغناء عنه، وهذا أدب عظيم مع الخالق يدلّ على محبّة العبد ربه فلذلك أحبه الله.

{ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } [160].

استئناف نشأ عن قوله { وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ } أو عن قوله { لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ }. ولو حمل هذا الخبر على ظاهر الإخبار لكان إخبارا بأمر معلوم عند المخاطبين إذ هم مؤمنون، ولا يجهل مؤمن أنّ الله إذا قدّر نصر أحد فلا راد لنصره، وأنّه إذا قدّر خذله فلا ملجأ له من الهزيمة، فإنّ مثل هذا المعنى محقّق في جانب الله لا يجهله معترف بإلهيته، مؤمن بوحدانيته، فيتعيّن أن يكون هذا الخبر مرادا غير ظاهر الإخبار، وأحسن ما يُحمل عليه أن يكون تقريرا لتسلية المؤمنين على ما أصابهم من الهزيمة، حتّى لا يحزنوا على ما فات لأنّ ردّ الأمور إلى الله تعالى عند العجز عن

تداركها مسلاة للنفس، وعزاء على المصيبة، وفي ضمن ذلك تنبيه إلى أنّ نصر الله قوما في بعض الأيام، وخذله إيّاهم في بعضها، لا يكون إلّا لحكم وأسباب، فعليهم السعي في أسباب الرضا الموجب للنصر، وتجنّب أسباب السخط الموجب للخذل كما أشار إليه قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ } [محمد:7].

و يجوز أن يكون الإخبار مبنيّا على تنزيل العالم منزلة الجاهل، حيث اظهروا من الحرص على الغنيمة ومن التأوّل في أمر الرسول لهم في الثبات، ومن التلهّف على ما أصابهم من الهزيمة والقتل والجرح، ما جعل حالهم كحال من يجهل أنّ النصر والخذل بيد الله تعالى. فالخبر مستعمل في معناه على خلاف مقتضى الظاهر.

النصر: الإعانة على الخلاص من غلب العدو ومريد الإضرار.

الخِذلان: ضدّه، وهو إمساك الإعانة مع القدرة، مأخوذة من خذلت الوحشيّة إذا تخلّفت عن القطيع لأجل عجز ولدها عن المشي.

{ **فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ** } الاستفهام إنكاري، أي: فلا ينصركم أحد غيره.

{ **من بعده** } مستعملة في لازم معناها وهو المغايرة والمجاورة، أي: فمن الذي ينصركم دون الله.

{ **وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** } تذييل قُصد به الأمر بالتوكّل المستند إلى ارتكاب أسباب نصر الله تعالى؛ من أسباب عادية وهي الاستعداد، وأسباب نفسانيّة وهي تزكية النفس وإتّباع رضى الله تعالى.

{ **وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ** } [161].

الأظهر أنّه عطف على مجموع الكلام، عطف الغرض على الغرض. وموقعه عقب جملة { إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ }، لأنّها أفادت أنّ النصر بيد الله والخذل بيده، يستلزم التحريض على طلب مرضاته ليكون لطيفا بمن يرضونه. وإذ قد كانت النصائح والمواعظ موجهّة إليهم ليعملوا بها فيما يستقبل من غزواتهم، نُبّهوا إلى شيء يستخفّ به الجيش في الغزوات، وهو الغلول، ليعلموا أنّ ذلك لا يرضي الله تعالى فيحذروه ويكونوا ممّا هو أدعى لغضب الله أشدّ حذرا. فهذه مناسبة التحذير من الغلول ويعضد ذلك أنّ سبب هزيمتهم يوم أحد هو تعجّلهم إلى أخذ الغنائم.

ولا تجد غير هذا يصلح لأن يكون مناسبا لتعقيب آية النصر بآية الغلول، فإن غزوة أحد التي أتت السورة على قصّتها لم يقع فيها غلول ولا كائن للمسلمين فيها غنيمة. وما ذكره بعض المفسّرين من قضية غلول وقعت يوم بدر في قطيفة حمراء أو في سيف لا يستقيم هنا، لبعد ما بين غزوة بدر وغزوة أحد، فضلا على ما ذكره بعضهم من نزول هذه الآية في حرص الأعراب على قسمة الغنائم يوم حنين الواقع بعد غزوة أحد بخمس سنين.

{ **يُغَلَّ** } وقرأ جمهور العشرة، يُغَل (بضم التحتية وفتح الغين) وقرأه أبن كثير، وأبو عمرو، وعاصم **يَغُل** (بفتح التحتية وضم الغين). والفعل مشتقّ من الغلول وهو أخذ شيء من الغنيمة بدون إذن أمير الجيش، ويطلق على الخيانة في المال مطلقا.

{ **وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يُغَلَّ** } صيغة جحود تفيد مبالغة النفي. والمعنى على قراءة الجمهور نهي جيش النبيّ عن أن يغلّوا لأنّ الغلول في غنائم النبيّ صلى الله عليه وسلم غلول للنبيّ، إذ قسمة الغنائم إليه. وأمّا على قراءة ابن كثير وأبي عمرو وعاصم فمعنى أنّ النبيّ لا يَغل: أنّه لا يقع الغلول في جيشه.

{ **وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** } أنّه يأتي به مشهّرا مفضوحا بالسرقة.

{ **ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ** } تنبيه على العقوبة بعد التفضيح، إذ قد علم أنّ الكلام السابق مسوق مساق النهي، وجيء بـ (ثمّ) للدّلالة على طول مهلة التفضيح.

{ **وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ** } حال مؤكّدة لمضمون الجملة التي قبلها { تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ }.

والآية دلّت على تحريم الغلول وهو أخذ شيء من المغنم بغير إذن أمير الجيش، وهو من الكبائر لأنّه مثل السرقة، وأصحّ ما في الغلول حديث الموطأ ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رجع من خيبر قاصدا وادي القرى وكان له عبد أسود يدعى مِدْعَمًا، فبينما هو يحط رحل رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه سهم غائر فقتله، فقال النّاس، هنيئا له الجنّة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

" كلاّ والذي نفسي بيده إن الشَّمْلة التي أخذها يوم خيبر من الغنائم، لم تصبها المقاسم، لتشتعل عليه نارا ".

ومن غلّ في المغنم يؤخذ منه ما غلّه ويؤدّب بالاجتهاد، ولا قطع فيه باتفاق، هذه قول الجمهور.

{ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ [162] هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ [163] }.

تفريع على قوله تعالى { ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ } فهو كالبيان لتوفية كلّ نفس بما كسبت، والاستفهام إنكار للماثلة المستفادة من كاف التشبيه فهو بمعنى: لا يستوون.

الإتباع: هنا التطلّب، شبّه حال المتوخّي بأفعاله رضى الله بحال المتطلّب لطِلْبَةٍ فهو يتبعها حيث حلّ ليقتنصها، وفي هذا التشبيه، حسن التنبيه على أنّ التحصيل على رضوان الله تعالى محتاج إلى فرط اهتمام.

{ **كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ** } تمثيل لحال صاحب المعاصي بالذي خرج يطلب ما ينفعه فرجع بما يضرّه، أو رجع بالخيبة.

{ **هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ** } عاد الضمير لـ { مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ } لأنّهم المقصود من الكلام، ولقرينة قوله { دَرَجَاتٌ } لأنّ الدرجات منازل رفعة. و{ عند الله } تشريف لمنازلهم.

{ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ } [164].

استئناف لتذكير رجال يوم أحُد وغيرهم من المؤمنين بنعمة الله عليهم. ومناسبة ذكره هنا أنّ فيه من التسلية على مصيبة الهزيمة حظا عظيما، إذ قد شاع تصبير المحزون وتعزيته بتذكيره ما هو فيه من النعم.

المنّ: هنا إسداء المنّة، أي: النعمة، وليس هو تعداد النعمة على المنعم عليه مثل الذي في قوله { لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى } [البقرة:264]، والكلّ محمود من الله تعالى لأنّ المنّ إنّما كان مذموما لما فيه من إبداء التطاول على المنعم عليه، وطول الله ليس بمجحود.

{ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ } وهم الذين كانوا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم بقرينة السياق وهو قوله { إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ } أي: أمّتهم العربية. ويجوز أن يشمل المؤمنين في كلّ العصور.

{ مِنْ أَنْفُسِهِمْ } والعرب تقول: فلان من بني فلان من أنفسهم، أي: من صميمهم ليس انتسابه إليهم بولاء أو لصق. وكأنّ هذا وجه إطلاق النفس عليه التي هي في معنى المماثلة.

وهذه المنّة خاصة بالعرب ومزيّة لهم، زيادة على المنّة ببعثة محمد على جميع البشر، فالعرب وهم الذين تلقّوا الدعوة قبل النّاس كلهم، لأنّ الله أراد ظهور الدين بينهم ليتلقّوه التلقّي الكامل المناسب لصفاء أذهانهم وسرعة فهمهم لدقائق اللغة، ثم يكونوا هم حملته إلى البشر، فيكونوا أعوانا على عموم الدعوة، ولمن تخلّق بأخلاق العرب وأتقن لسانهم والتبس بعوائدهم وأذواقهم اقتراب من هذه المزيّة وهو معظمها، إذ لم يفته منها إلّا النسب والموطن، وما هما إلّا مكمّلان لحسن التلقّي، ولذلك كان المؤمنون مدّة حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم من العرب خاصة بحيث إن تلقّيهم الدعوة كان على سواء في الفهم حتّى استقر الدين. وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: **" من دخل في الإسلام فهو من العرب "**.

{ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ } أي: يقرأ عليهم القرآن، وسمّيت جمل القرآن آيات لأنّ كل واحدة منها دليل على صدق الرسول من حيث بلاغة اللفظ وكمال المعنى، كما تقدّم في المقدّمة الثامنة من مقدّمات هذا التفسير.

التزكية: التطهير، أي: يطهّر النفوس بهدي الإسلام.

تعليم الكتاب: هو تبيين مقاصد القرآن وأمرهم بحفظ ألفاظه، لتكون معانيه حاضرة عندهم.

{ وَالْحِكْمَةَ } ما اشتملت عليه الشريعة من تهذيب الأخلاق وتقنين الأحكام، لأنّ ذلك كلّه مانع الأنفس من سوء الحال واختلال النظام، وذلك من معنى الحكمة، وتقدّم عند قوله تعالى { يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ } [البقرة:269]. وعطف الحكمة على الكتاب عطف الأخصّ من وجه على الأعمّ من وجه.

{ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ } حال، ووصف الضلال بالمبين لأنّه لا يلتبس على أحد بشائبة هدى أو شبهة، فكان حاله مبيّنا كونه ضلالا. وهو الشرك والجهالة والتقاتل وأحكام الجاهليّة.

{ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [165].

عطف الاستفهام الإنكاري التعجيبي على ما تقدّم، فإنّ قولهم { أنّى هذا } مما ينكر ويتعجّب السامع من صدوره منهم بعد ما علموا ما أتَوا من أسباب المصيبة، إذ لا ينبغي أن يخفى على ذي فطنة.

وقد جاء موقع هذا الاستفهام بعد ما تكرر؛ من تسجيل تبعة الهزيمة عليهم بما ارتكبوا من عصيان أمر الرسول، ومن العجلة إلى الغنيمة، وبعد أن أمرهم بالرضا بما وقع، وذكّرهم النصر الواقع يوم بدر، عطف على ذلك هنا إنكار تعجّبهم من إصابة الهزيمة إيّاهم.

{ **أَوَلَمَّا** } اسم زمان مضمّن معنى الشرط فيدل على وجود جوابه لوجود شرطه، فالمعنى: قلتم لمّا أصابتكم مصيبة :أنّى هذا.

{ **قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا** } أي: أصبتم العدو ونلتم منه مِثْلَيْ ما أصابكم به، يقال: أصاب إذا غلب.

مثليْها: أي أنّكم قد نلتم مثليْ ما أصابكم، والمماثلة هنا مماثلة في القدر والقيمة، فالمسلمون أصابهم يوم أحد القتل، إذ قتل منهم سبعون، وكانوا قد قتلوا من المشركين يوم بدر سبعين، فهذا أحد المثلين، ثن إنّهم أصابوا من المشركين أسرى يوم بدر فذلك مثل آخر في المقدار إذ الأسير كالقتيل.

{ **قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا** } استفهام بمعنى من أين، قصدوا به التعجّب والإنكار.

{ **قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } تذييل لإنكارهم وتعجّبهم، أي: إنّ الله قدير على نصركم وعلى خذلانكم، فلمّا عصيتم وجررتم لأنفسكم الغضب قدّر الله لكم الخِذلان.

{ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ [166] وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ [167] الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [168] }.

عطف على { أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ }، وهو كلام وارد على معنى التسليم، أي: هَبُوا أنّ هذه مصيبة، ولم يكن عنها عوض، فهي بقدر الله، فالواجب التسليم. ثم رجع إلى ذكر بعض ما في ذلك من الحكمة.

{ **وَمَا أَصَابَكُمْ** } هي الهزيمة. وإنّما أعيد ما أصابكم ليعيّن اليوم بأنّه يوم التقى الجمعان، وهو يوم أحد.

{ **فَبِإِذْنِ اللَّهِ** } هنا مستعمل في غير معناه، إذ لا معنى لتوجّه الإذن إلى المصيبة، فهو مجاز في تخلية الله تعالى بين أسباب المصيبة وبين المصابين، وعدم تدارك ذلك باللطف. ذلك أنّ الله تعالى رتّب الأسباب

والمسبّبات في هذا العالم على نظام، فإذا جاءت المسبّبات من قبل أسبابها فلا عجب، والمسلمون اقلّ من المشركين عددا وعُددا فانتصار المسلمين يوم بدر كرامة لهم، وانهزامهم يوم أحد عادة وليس بإهانة.

{ **وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ** } عطف العلّة على السبب. و**العلم** هنا كناية عن الظهور والتقرّر في الخارج.

{ **الَّذِينَ نَافَقُوا** } هم عبد الله بن أبَي ومن انخذل معه يوم أحد، وهم الذين قيل فيهم { **تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا** }، قاله لهم عبد الله بن عمر بن حَرَام الأنصاري، والد جابر بن عبد الله، فإنّه لما رأى انخذالهم قال لهم: " اتقوا الله ولا تتركوا نبيكم وقاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا ".

الدفع: هنا حراسة الجيش وهو الرباط ، أي: ادفعوا عنا من يريدنا من العدو، فلمّا قال عبد الله بن عمر بن حَرَام ذلك أجابه عبد الله بن أبي وأصحابه بقولهم: لو نعلم قتالا لاتبعناكم، أي: لو نعلم أنّه قتال، قيل: أرادوا أن هذا ليس بقتال، بل إلقاء باليد إلى التهلكة.

{ **هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ** } أي: أنّ ما يُشاهد من حالهم يومئذ أقرب دلالة على الكفر من دلالة أقوالهم: إنّا مسلمون، واعتذارهم بقولهم: " لو نعلم قتالا لاتبعناكم"، ظاهر الكذب، وإرادة تفشيل المسلمين.

القرب: مجاز في ظهور الكفر عليهم.

{ **يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ** } استئناف لبيان مغزى هذا الاقتراب، لأنّ الذي يبدونه ليس موافقا لما في قلوبهم. وفي هذا الاستئناف ما يمنع أن يكون المراد من الكفر هنا، أهل الكفر.

{ **الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ** } بدل من { الَّذِينَ نَافَقُوا } أو صفة له.

{ **لِإِخْوَانِهِمْ** } اللام للتعليل وليست للتعدية. والمراد بالإخوان الخزرج الذين قتلوا يوم أحد، وهم من جلّة المؤمنين.

{ **لو أطاعونا** } أي امتثلوا إشارتنا في عدم الخروج إلى أحد، وفعلوا كما فعلنا.

{ **قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } أي: ادرأوه عند حلوله، فإنّ من لم يمت بالسيف مات بغيره. أي: إن كنتم صادقين في أن سبب موت إخوانكم هو عصيان أمركم.

{ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ [169] فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ [170] يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ [171] الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ [172] }.

{ **وَلا تَحْسَبَنَّ** } عطف على { قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ }، فلمّا أمر الله نبيّه أن يجيبهم بما فيه

تبكيتهم على طريقة إرخاء العنان لهم في ظنّهم أنّ الذين قتلوا من إخوانهم قد ذهبوا سدى، فقيل لهم: إنّ الموت لا مفرّ منه على كل حال، أعرض بعد ذلك عن خطابهم لقلّة أهليتهم، وأقبل على خطاب من يستأهل المعرفة، فقال { وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً }.

والخطاب يجوز أن يكون للنبيّ صلى الله عليه وسلم تعليما له، وليعلّم المسلمين، ويجوز أن يكون جاريا على طريقة العرب في عدم إرادة مخاطب معين.

الحسبان: الظنّ. فهو نهي عن أن يُظنّ أنّهم أموات، وبالأحرى يكون نهيا عن الجزم بأنّهم أموات.

وقرأ الجمهور: الذين قتلوا بتخفيف التاء وقرأ ابن عامر بتشديد التاء أي قتّلوا قتلا كثيرا.

{ **بل أحياء** } للإضراب عن قوله { وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا }. وقد أثبت القرآن للمجاهدين موتا ظاهرا بقوله { قتلوا }، ونفى عنهم الموت الحقيقي بقوله { بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ } فعلمنا أنّهم وإن كانوا أموات الأجسام فهم أحياء الرواح، حياة زائدة على حقيقة بقاء الأرواح، غير مضمحلّة، بل هي حياة بمعنى تحقّق آثار الحياة لأرواحهم من حصول اللذات والمدركات السارة لنفسهم، ومسرّتهم بإخوانهم، ولذلك كان قوله { عِنْدَ رَبِّهِمْ } دليلا على أنّ حياتهم خاصة بهم، ليست هي الحياة المتعارفة في هذا العالم، أعني حياة الأجسام وجريان الدم في العروق، ونبضات القلب، ولا هي حياة الأرواح الثابتة لأرواح جميع النّاس، وكذلك الرزق يجب أن يكون ملائما لحياة الأرواح وهو رزق النعيم في الجنّة.

الاستبشار: حصول البشارة، فقد جمع الله لهم بين المسرّة بأنفسهم والمسرّة بمن بقي من إخوانهم، لأنّ في بقائهم نكاية لأعدائهم، وهم مع حصول فضل الشهادة لهم على أيدي الأعداء يتمنّون هلاك أعدائهم، لأنّ في هلاكهم تحقيق أمنية أخرى لهم وهي أمنية نصر الدين.

{ **بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ** } رفقاؤهم الذي كانوا يجاهدون معهم، ومعنى لم يلحقوا بهم: لم يستشهدوا فيصيروا إلى الحياة الآخرة.

{ **مِنْ خَلْفِهِمْ** } تمثيل بمعنى من بعدهم. والتقدير: ويستبشرون بالذين لم يصيروا إلى الدار الآخرة من رفاقهم بأمنهم وانتفاء ما يحزنهم.

{ **أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ** } بدل اشتمال، وفي هذا دلالة على أنّ أرواح هؤلاء الشهداء منحت الكشف على ما يسرّها من أحوال الذين يهمّهم شأنهم في الدنيا. وأنّ هذا الكشف ثابت لجميع الشهداء في سبيل الله، وقد يكون خاصا بالأحوال السارة لأنّها لذة لها. وفي الآية بشارة لأصحاب أُحُد الأحياء بأنّهم لا تلحقهم نكبة بعد ذلك اليوم.

{ **يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ** } الأولى أن يعود الضمير إلى الذين لم يلحقوا بهم، فتكون الجملة حالا من الذين لم يلحقوا بهم، أي: لا خوف عليهم ولا حزن فهم مستبشرون بنعمة من الله.

النعمة: هي ما يكون به صلاح، و**الفضل**: الزيادة في النعمة.

{ **وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ** } قرأه الجمهور بفتح همزة (**أنّ**) على أنّه عطف على { نِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ

وَفَضْلٍ } ، والمقصود من ذلك تفخيم ما حصل لهم من الاستبشار وانشراح الأنفس بأن جمع الله لهم المسرّة الجثمانية الجزئية والمسرّة العقليّة الكليّة، فإنّ إدراك الحقائق الكلّيّة لذة روحانية عظيمة لشرفها.

وقرأ الكسائي بكسر همزة (إنّ) على أنّه عطف على جملة { يستبشرون } في معنى التذييل فهو غير داخل فيما استبشر به الشهداء.

{ **الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ** } صفة للمؤمنين أو مبتدأ خبره { لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ } وهذه الاستجابة تشير إلى ما وقع إثر أحُد من الإرجاف بأنّ المشركين، بعد أن بلغوا الرّوحاء، خطر لهم أن لو لحقوا المسلمين فاستأصلوهم. وقد مر ذكر هذا وما وقع لمعبد بن أبي معبد الخزاعي عند قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ } [149].

{ **الْقَرْحُ** } تقدّم القول فيه عند قوله { إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ } [140]. والظاهر أنّه هنا القرح المجازي، ولذلك لم يجمع فيقال القروح.

{ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النّاس إِنَّ النّاس قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ [173] فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ [174] إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين [175] }.

{ **الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النّاس** }، يجوز أن يكون بدلا من { الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ } أو صفة له، أو صفة ثانية للمؤمنين في قوله { وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ }، ويجوز أن يكون ابتداء كلام مستأنف.

وهذا تخلّص بذكر شأن من شؤون المسلمين كفاهم الله به بأس عدوّهم بعد يوم أحُد بعام، إنجازا لوعدهم مع أبي سفيان إذ قال: موعدكم بدر في العام القابل، وكان أبو سفيان قد كره الخروج إلى لقاء المسلمين في ذلك الأجل، وكاد للمسلمين ليظهر إخلاف الوعد منهم، ليجعل ذلك ذريعة إلى الإرجاف بين العرب بضعف المسلمين، فجَاعَل ركبا من عبد القيس مارين بمَرّ الظّهْران قرب مكة قاصدين المدينة للميرة، أن يخبروا المسلمين بأنّ قريشا جمعوا لهم جيشا عظيما، وكان مع الركب نعيم بن مسعود الأشجعي، فأخبر نعيم ومن معه المسلمين بذلك فزاد ذلك المسلمين استعدادا وحميّة للدين، وخرجوا إلى الموعد وهو بدر فلم يجدوا المشركين وانتظروهم هناك، وكانت هنالك سوق فاتّجروا ورجعوا سالمين غير مذمومين، فذلك قوله تعالى { الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النّاس } أي: الركب العَبْدِيُّون، { إِنَّ النّاس قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ } أي: إنّ قريشا قد جمعوا لكم.

وقال بعض المفسّرين وأهل العربية: إن لفظ { **النّاس** } هنا أطلق على نعيم بن مسعود وأبي سفيان، وجعلوه شاهدا على استعمال النّاس بمعنى الواحد والآية تحتمله. وإطلاق لفظ النّاس مرادا به واحد أو نحوه مستعمل لقصد الإبهام، ومنه قوله { أَمْ يَحْسُدُونَ النّاس عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ } [النساء:54].

قال المفسرون: يعني بالنّاس محمدا صلى الله عليه وسلم.

{ **فَزَادَهُمْ إِيمَاناً** } أي: زادهم قول النّاس. إذ لمّا كان ذلك القول مرادا به تخويف المسلمين ورجوعهم عن قصدهم، وحصل منه خلاف ما أراد به المشركون، جعل ما حصل به زائدا في إيمان المسلمين. فالظاهر أنّ الإيمان أطلق هنا على العمل، أي: العزم على النصر والجهاد. وهو بهذا المعنى يزيد وينقص.

ومسألة زيادة الإيمان ونقصه مسألة قديمة، والخلاف فيها مبني على أنّ الأعمال يطلق عليها اسم الإيمان، كما قال تعالى { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ } [البقرة:143] يعني صلاتكم. أمّا التصديق القلبي وهو عقد القلب على إثبات وجود الله وصفاته وبعثه الرسل وصدق الرسول، فلا يقبل النقص، ولا يقبل الزيادة، ولذلك لا خلاف بين المسلمين في هذا المعنى، وإنّما هو خلاف مبني على اللفظ. غير أنّه قد تقرّر في علم الأخلاق أنّ الاعتقاد الجازم إذا تكرّرت أدلّته، أو طال زمانه، أو قارنته التجارب، يزداد جلاء وانكشافا، وهو المعبر عنه بالملكة، فلعلّ هذا المعنى مما يراد بالزيادة، بقرينة أنّ القرآن لم يطلق وصف النقص في الإيمان بل ما ذكر إلا الزيادة.

{ **حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ** } كلمة لعلّهم أُلهموها أو تلقوها عن النبيّ صلى الله عليه وسلم.

حسب: كاف، قالوا: ومنه اسمه تعالى الحسيب. وقيل: الإحساب هو الإكفاء. ومعناها: إنّهم اكتفوا بالله ناصرا وإن كانوا في قلة وضعف.

{ **الوكيل** } فعيل بمعنى مفعول أي موكول إليه. يقال: وكّل حاجته إلى فلان إذا اعتمد عليه في قضائها وفوّض إليه تحصيلها.

{ **فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ** } تعقيب للإخبار عن ثبات إيمانهم. والانقلاب يقتضي أنّهم خرجوا للقاء العدو ولم يعبأوا بتخويف الشيطان.

{ **لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ** } لم يلاقوا حربا مع المشركين.

{ **إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ** } والمعنى: أنّ ذلك المقال ناشئ عن وسوسة الشيطان في نفوس الذين دبّروا مكيدة الإرجاف بتلك المقالة لتخويف المسلمين بواسطة ركب عبد القيس.

وإمّا أن تعود الإشارة إلى نعيم بن مسعود، فالشيطان بدل أو بيان من اسم الإشارة، وأطلق عليه لفظ شيطان على طريقة التشبيه البليغ.

{ **يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ** } تقديره: يخوّفكم أولياءه، فحذف المفعول الأوّل يخوّف بقرينة قوله { فَلا تَخَافُوهُمْ } فإنّ (خوّف) يتعدّى إلى مفعولين إذ هو مضاعف خاف المجرّد.

{ **إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** } شرط مؤخّر تقدّم دليل جوابه، وهو تذكير جوابه، وهو تذكير وإحماء لإيمانهم، وإلاّ فقد علم أنّهم مؤمنون حقا.

{ وَلا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [176].

نهي للرسول عن أن يحزن من فعل قوم يحرصون على الكفر، أي على أعماله.

{ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ } يتوغّلون فيه ويعْجَلون إلى إظهاره وتأييده والعمل به عند سنوح الفرص، ويحرصون على إلقائه في نفوس النّاس، فعبّر عن هذا المعنى بقوله { يُسَارِعُونَ }. وفي الكشّاف وشروحه أنّ ذلك من التضمين، ضمّن يسارعون معنى يقعون، فعدّي بـ (في)، **وعندي** أنّ هذا استعارة تمثيليّة، شبّه حال حرصهم وجدّهم في تكفير النّاس وإدخال الشك على المؤمنين وتربّصهم الدوائر وانتهازهم الفرص، بحال الطالب المسارع إلى تحصيل شيء يخشى أن يفوته وهو متوغّل فيه متلبّس به.

قيل: هؤلاء هم المنافقون، وقيل: قوم أسلموا ثم خافوا من المشركين فارتدّوا.

{ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً } تعليل للنهي عن أن يحزنه تسارعهم إلى الكفر بعلّة يوقن بها الرسول عليه الصلاة والسلام. و مراد به نفي أن يعطّلوا ما أراده الله، إذ قد كان الله وعد الرسول إظهار دينه على الدين كلّه. ووجه الحاجة إلى النهي، هو أنّ نفس الرسول، وإن بلغت مرتقى الكمال، لا تعدوا، تعتريها في بعض أوقات الشدّة أحوال النفوس البشريّة. وإذا انتفى إضرارهم الله انتفى إضرارهم المؤمنين فيما وعدهم الله.

{ يريد الله } استئناف لبيان جزائهم على كفرهم في الآخرة، بعد أن بيّن السلامة من كيدهم في الدنيا، والمعنى: أنّ الله سلبهم التوفيق فكانوا مسارعين في الكفر لأنّه أراد أن لا يكون لهم حظّ في الآخرة.

الحظ: النصيب من شيء نافع.

{ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْأِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [177].

تكرير لجملة { إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً } قصد به، مع التأكيد، إفادة هذا الخبر استقلالا للاهتمام به بعد أن ذُكر على وجه التعليل لتسلية الرسول، وفي اختلاف الصلتين إيماء إلى أنّ مضمون كلّ صلة منهما هو سبب الخبر الثابت لموصولها.

الاشتراء: مستعار للاستبدال كما في قوله تعالى { أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى } [البقرة:16]

{ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ } [178].

النهي مقصود به بلوغه إليهم، ليعلموا سوء عاقبتهم، ويُمِرَّ عيشهم بهذا الوعيد، لأنّ المسلمين لا يحسبون ذلك من قبل.

الإملاء: الإمهال في الحياة، وعدم استئصالهم في الحرب. ويجوز أن يراد بالإملاء التخلية بينهم وبين أعمالهم في كيد المسلمين وحربهم وعدم الأخذ على أيديهم بالهزيمة والقتل كما كان يوم بدر، يقال: أملى لفرسه إذا أرخى له الطول في المرعى، وقالوا أمليت لزيد في غيّه، أي: تركته.

{ **أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ** } لأنّهم لمّا فرحوا بالسلامة من القتل وبالبقاء بقيد الحياة قد أضمروا في أنفسهم اعتقاد أنّ بقاءهم ما هو إلاّ خير لهم، لأنّهم يحسبون القتل شرا لهم.

{ **إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً** } استئناف واقع موقع التعليل للنهي عن حسبان الإملاء، خيرا، أي: ما هو بخير لأنّهم يزدادون في تلك المدّة إثما. و(إنّما) أداة حصر أي: ما نملي لهم إلّا ليزدادوا إثما.

{ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ } [179].

استئناف ابتدائي، وهو رجوع إلى بيان ما في مصيبة المسلمين من الهزيمة يوم أحد من الحكم النافعة دنيا وأخرى. فهو عود إلى { وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ }. بيّن هنا أنّ الله لم يرد دوام اللبس في حال المؤمنين والمنافقين واختلاطهم، فقدّر هنا زمانا كانت الحكمة في مثله تقتضي بقاءه وذلك أيام ضعف المؤمنين عقب هجرتهم وشدّة حاجتهم إلى الاقتناع من النّاس بحسن الظاهر حتى لا يبدأ الانشقاق من أوّل أيام الهجرة، فلمّا استقر الإيمان في النفوس، وقرّ للمؤمنين الخالصين المقام في أمن، أراد الله تعالى تنهية الاختلاط وأن يميّز الخبيث من الطيب، وكان المنافقون يكتمون نفاقهم لمّا رأوا أمر المؤمنين في إقبال، ورأوا انتصارهم يوم بدر، فأراد الله أن يفضحهم ويظهر نفاقهم، بأن أصاب المؤمنين بقرح الهزيمة حتّى أظهر المنافقون فرحهم بنصرة المشركين، وسجّل الله عليهم نفاقهم.

{ **عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ** } أي من اختلاط المؤمن الخالص والمنافق، فالضمير في { أَنْتُمْ عَلَيْهِ } مُخاطب به المسلمون كلّهم باعتبار من فيهم من المنافقين.

{ **المؤمنين** } المراد الخلّص من النفاق، وغيّر الأسلوب لأجل ذلك، فلم يقل: ليذركم على ما أنتم عليه.

{ **حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ** }، فإذا حصل تمييز الخبيث من الطيب صار هذا الوذْر ممكنا.

{ **مِنَ** } معناها الفصل، أي: أحد الضدين من الآخر.

وقيل: { ما أنتم } للكفار، أي: لا يترك الله المؤمنين جاهلين بأحوالكم من النفاق.

{ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ الْغَيْبِ** } يعني أنّه أراد أن يميّز لكم الخبيث فتعرفوا أعداءكم، ولم يكن من شأن الله إطلاعكم على الغيب، فلذلك جعل أسبابا من شأنها أن تستنفر أعداءكم فيظهروا لكم العداوة فتطّلعوا عليهم، لأنّه تعالى جعل نظام هذا العالم مؤسّسا على استفادة المسبّبات من أسبابها، والنتائج من مقدّماتها.

{ **وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ** } يجوز أنّه استدراك من { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ } حتّى لا يجعله المنافقون حجّة على المؤمنين، في نفي الوحي والرسالة، فيكون المعنى: وما كان الله ليطلعكم على الغيب إلاّ ما أطلع عليه رسوله.

{ **فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ** } إن كان خطابا للمؤمنين فالمقصود منه الإيمان الخاص، وهو التصديق بأنّهم لا ينطقون عن الهوى، وبأنّ وعد الله لا يُخلف، فعليهم الطاعة في الحرب وغيره.

أو أريد الدوام على الإيمان، لأنّ الحالة المتحدّث عنها قد يُتوقع منها تزلزل إيمان الضعفاء ورواج شبه المنافقين، وموقع { **وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا** } ظاهر على الوجهين.

وإن كان { **فآمنوا** } خطابا للكفّار من المنافقين بناء على أنّ الخطاب في قوله { عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ } وقوله { لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ } للكفّار فالأمر بالأيمان ظاهر، ومناسبة تفريعه عما تقدّم، انتهاز فرص الدعوة حيثما تأتّت.

{ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [180].

عطف على { وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا }، لأنّ الظاهر أنّ هذا أُنزل في شأن أحوال المنافقين، فإنّهم كانوا يبخلون ويأمرون النّاس بالبخل، كما حكى الله عنهم { الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النّاس بِالْبُخْلِ}[النساء:37] وكانوا يقولون: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتّى ينفضّوا، وغير ذلك، ولا يجوز بحال أن يكون نازلا في شأن بعض من المسلمين لأنّ المسلمين يومئذ مبرّؤون من هذا الفعل ومن هذا الحسبان.

ولعلّ مناسبة ذكر نزول هذه الآية هنا أنّ بعضهم منع النفقة في سبيل الله في غزوة أحد.

ومعنى حسبانه خيرا أنّهم حسبوا أن قد استبقوا مالهم وتنصّلوا عن دفعه بمعاذير قُبلت منهم.

أمّا شمولها لمنع الزكاة، فإن لم يكن بعموم صلة الموصول إن كان الموصول للعهد لا للجنس، فبدلالة فحوى الخطاب.

البخل: هو ضدّ الجود، فهو الانقباض على إعطاء المال بدون عوض، هذا حقيقته.

{ **بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ** } تأكيد لنفي كونه خيرا، وهذا كثير في كلام العرب، على أنّ في هذا المقام إفادة نفي توهّم الواسطة بين الخير والشر.

{ **سيطوّقون** } واقعة موقع العلة لقوله { بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ }، الأظهر أنّه مشتق من الطوق، وهو ما يلبس تحت الرقبة فوق الصدر، أي تُجعل أموالهم أطواقا يوم القيامة فيعذّبون بحملها، وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم: **" من أغتصب شبرا من أرض طُوّقه من سبع أرضين يوم القيامة ".**

{ **وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } تذييل لموعظة الباخلين وغيرهم، بأنّ المال مال الله، وما من

بخيل إلّا سيذهب ويترك ماله، والمتصرّف في ذلك كلّه هو الله، فالآية موعظة ووعيد ووعد.

{ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ [181] ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ [182] }.

لمناسبة ذكر البخل، والذين قالوا ذلك هم اليهود، كما هو صريح آخر الآية { وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ }، وقائل ذلك قيل: هو حُيَيُّ بنُ أَخْطَبَ اليهودي، حَبر اليهود، لمّا سمع قوله تعالى { مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً } [البقرة:245] فقال حُيَيُّ: " إنّما يستقرض الفقير الغنيّ" . وقيل: قاله فِنْحَاص بن عازوراء لأبي بكر الصدّيق بسبب أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل أبا بكر إلى يهود قينقاع يدعوهم، فأتى بيت المِدْرَاس، فوجد جماعة منهم قد اجتمعوا على فِنْحاص حَبرهم، فدعاهم أبو بكر، فقال فِنْحاص: " ما بنا إلى الله من حاجة، وإنّه إلينا لفقير، ولو كان غنيّا لما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم "، فغضب أبو بكر ولطم فنحاص وهم بقتله، فنزلت الآية. وشاع قولهما في اليهود.

{ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ } تهديد، وهو يؤذن بأنّ هذا القول جراءة عظيمة، إذ قد علم أهل الأديان أنّ الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فليس المقصود إعلامهم بأنّ الله علم ذلك.

{ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا } المراد بالكتابة؛ إمّا كتابته في صحائف آثامهم ، وإمّا، وهو الظاهر، أنّه أريد من الكتابة عدم الصفح عنهم ولا العفو، بل سيثبّت لهم، ويجازون عنه فتكون الكتابة كناية عن المحاسبة. فعلى الأول يكون وعيدا وعلى الثاني يكون تهديدا.

{ وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ } زيادة في مذمّتهم بذكر مساوي أسلافهم، لأنّ الذين قتلوا الأنبياء هم غير الذين قالوا { إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ } بل هم من أسلافهم، فذكر هنا ليدلّ على أنّ هذه شنشنة قديمة فيهم، وهي الاجتراء على الله ورسله. واتحاد الضمائر مع اختلاف المعاد طريقة عربية في المحامد والمذام التي تناط بالقبائل.

{ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ } عُطف أثرُ الكتْب، أي سيجازون عن ذلك بدون صفح، وهو أمر الله بأن يدخلوا النّار.

الذوق: حقيقته إدراك الطعوم، واستعمل هنا مجازا مرسلا في الإحساس بالعذاب. وقد شاع في كلام العرب إطلاق الذوق على الإحساس بالخير أو بالشر، وورد في القرآن كثيرا.

{ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ } للعذاب المشاهد يومئذ، وفيه تهويل للعذاب. والباء للسببيّة.

{ **وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ** } عطف على مجرور الباء، ليكون لهذا العذاب سببان: ما قدّمته أيديهم، وعدل الله تعالى، فما قدّمت أيديهم أوجب حصول العذاب، وعدل الله أوجب كون هذا العذاب في مقداره المشاهد من الشدّة.

{ **الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [183] فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ [184]** }.

ذكر قولة أخرى شنيعة منهم، وهي كذبهم على الله في أنّه عهد إليهم على ألسنة أنبيائهم أن لا يؤمنوا لرسول حتى يأتيهم بقربان، أي: حتى يذبح قربانا فتأكله نار تنزل، فتلك علامة القبول.

وقد كان هذا حصل في زمن موسى عليه السلام حين ذُبح أوّل قربان على النحو الذي شرعه الله لبني إسرائيل " فخرجت نار من عند الرب فأحرقته " (كما في سفر اللاويين). إلاّ أنّه معجزة لا تطّرد لسائر الأنبياء كما زعمه اليهود، لأنّ معجزات الرسل تجيء على ما يناسب تصديق الأمّة. وفي الحديث: " **ما من الأنبياء نبيّ إلاّ أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنّما كان الذي أوتيت وحيا أوحى الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة** ".

{ **قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ** } هذا الضرب من الجدل مبني على التسليم، أي: إذا سلّمنا ذلك، فليس امتناعكم من اتباع الإسلام لأجل انتظار هذه المعجزة، فإنّكم قد كذّبتم الرسل الذين جاءوكم بها وقتلتموهم.

فعدم الثّبات على الإيمان بالأنبياء شنشنة قديمة في اليهود وأنّهم إنّما يتّبعون أهواءهم، فلا عجب أن يأتي خَلَفهم بمثل ما أتى به سلفهم.

{ **إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } ظهر في أنّ ما زعموه من العهد لهم بذلك كذب ومعاذير باطلة.

{ **فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ** } تسليّة للنبيّ صلى الله عليه وسلم . والفاء دليل الجواب لأنّه علّته، والتقدير: فإن كذّبوك فلا عجب، أو فلا تحزن، سنّة قديمة في الأمم مع الرسل مثلك، وليس ذلك لنقص فيما جئت به.

البيّنات: الدلائل على الصدق.

الزبر: جمع زبور وهو فعول بمعنى مفعول مثل رسول، أي مزبور بمعنى مخطوط. وقد قيل: إنّه مأخوذ من زَبَرَ إذا زَجَرَ أو حَبَسَ، لأنّ الكتاب يقصد للحكم. وأريد بالزبر كتب الأنبياء والرسل، ممّا يتضمّن مواعظ وتذكيرا مثل كتاب داود والإنجيل.

الكتاب المنير: إن كان التعريف للجنس فهو كتب الشرائع مثل التوراة والإنجيل، وإن كان للعهد فهو

التوراة، كقوله { إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ } [المائدة:44]. والعطف منظور فيه إلى التوزيع، فبعض الرسل جاء بالزبر، وبعضهم بالكتاب المنير، وكلّهم جاء بالبينات.

{ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الجنّة فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ } [185].

هذه الآية مرتبطة بأصل الغرض المسوق له الكلام، وهو تسلية المؤمنين على ما أصابهم يوم أحُد، وتفنيد المنافقين في مزاعمهم أنّ النّاس لو استشاروهم في القتال لأشاروا بما فيه سلامتهم فلا يهلكوا.

الذوق: هنا أطلق على وجدان الموت، وشاع إطلاقه على حصول الموت، قال تعالى { لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ } [الدخان:56]، ويقال: ذاق طعم الموت.

التوفية: إعطاء الشيء وافيا. ويطلقها الفقهاء على مطلق الإعطاء والتسليم.

الأجور: جمع الأجر بمعنى الثواب، ووجه جمعه مراعاة أنواع الأعمال.

يوم القيامة: يوم الحشر، سمي بذلك لأنّه يقوم فيه النّاس من خمود الموت إلى نهوض الحياة.

{ **فَمَنْ زُحْزِحَ** } الفاء للتفريع على { تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ} ومعنى زُحزح: أبعد. وحقيقة فعل { زُحْزِحَ } أنّها جذب بسرعة. وإنّما جمع بين { زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الجنّة }، مع أنّ في الثاني غُنية عن الأول، للدّلالة على أنّ دخول الجنّة يشمل على نعمتين عظيمتين: النجاة من النّار، ونعيم الجنّة.

{ **فَقَدْ فَازَ** } أي: نال مبتغاه من الخير، لأنّ ترتّب الفوز على دخول الجنّة والزحزحة عن النّار معلوم فلا فائدة في ذكر الشرط إلّا لهذا.

{ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } [186].

استئناف لإيقاظ المؤمنين إلى ما يعترض أهل الحقّ وأنصار الرسل من البلوى، وتنبيه لهم على أنّهم إن كانوا ممّن توهنهم الهزيمة فليسوا أحرياء بنصر الحقّ. وأكّد الفعل بلام القسم وبنون التوكيد الشديدة لإفادة تحقيق الابتلاء.

الابتلاء: الاختبار، ويراد به هنا لازمه وهو المصيبة، لأنّ في المصائب اختبارا لمقدار الثبات. والابتلاء في الأنفس هو القتل والجراح. وجمع مع ذلك سماع المكروه من أهل الكتاب والمشركين في يوم أحد وبعده.

الأذى: هو الضرّ بالقول، كما تقدّم آنفا { لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً } [111]، ولذلك وصفه هنا بالكثير، أي: الخارج عن الحدّ الذي تحتمله النفوس غالبا، وكلّ ذلك ممّا يفضي إلى الفشل، فأمرهم الله بالصبر على

ذلك حتى يحصل لهم النصر، وأمرهم بالتقوى، أي: الدوام على أمور الإيمان والإقبال على بثّه وتأييده، فأمّا الصبر على الابتلاء في الأموال والنفس فيشمل الجهاد، وأمّا الصبر على الأذى ففي وقتي الحرب والسلم، فليست الآية مقتضية عدم الإذن بالقتال من حيث إنّه أمرهم بالصبر على أذى الكفار حتّى تكون منسوخة.

{ **فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ** } الإشارة إلى ما تقدّم من الصبر والتقوى. وعزم الأمور من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: من الأمور المعزوم عليها.

العزم: إمضاء الرأي وعدم التردّد بعد تبيين السداد. والمراد هنا العزم في الخيرات. والتقدير: وإن تصبروا وتتقوا تنالوا ثواب أهل العزم.

{ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ } [187].

{ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ** } القول في معناه تقدّم في قوله { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ } [البقرة:34] ونحوه.

{ **الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ** } هم اليهود، وهذا الميثاق أُخذ على سلفهم من عهد رسولهم وأنبيائهم، وكان فيه ما يدلّ على عمومه لعلماء أمّتهم في سائر أجيالهم إلى أن يجيء رسول.

{ **لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ** } بيان الميثاق، فهي حكاية اليمين حين اقترحت عليهم، ولذلك جاءت بصيغة خطابهم بالمحلوف عليه كما قرأ بذلك الجمهور، وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم { ليُبيننه } بياء الغيبة على طريقة الحكاية بالمعنى، حيث كان المأخوذ عليهم هذا العهد غائبين في وقت الإخبار عنهم.

وقد أخذ عليهم الميثاق بأمرين؛ هما الكتاب، أي عدم إجمال معانيه أو تحريف تأويله، وعدم كتمانه، أي: إخفاء شيء منه. فقوله { وَلا تَكْتُمُونَهُ } عطف على { لتبيننّه للنّاس }.

{ **فنبذوه** } عطف بالفاء الدالة على التعقيب، للإشارة إلى مسارعتهم إلى ذلك. والذين نبذوه هم علماء اليهود في عصورهم الأخيرة القريبة من عهد الرسالة المحمّديّة.

النبذ: الطرح والإلقاء، وهو هنا مستعار لعدم العمل بالعهد، تشبيها للعهد بالشيء المنبوذ غير المنتفع به.

وراء الظهور: تمثيل للإضاعة والإهمال، لأنّ شأن الشيء المهتم به المتنافس فيه أن يجعل نصب عينيه ويحرس ويشاهد. والمراد، استخفّوا بعهد الله.

الاشتراء: مجاز في المبادلة والثمن القليل، وهو ما يأخذونه من الرُّشَى والجوائز من أهل الأهواء والظلم من الرؤساء والعامّة على تأييد المظالم والمفاسد بالتأويلات الباطلة.

وهذه الآية وإن كانت في أهل الكتاب إلاّ أنّ حكمها يشمل من يرتكب مثل صنيعهم من المسلمين لاتحاد جنس الحكم والعلّة فيه.

{ **لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** } [188].

تكملة لأحوال أهل الكتاب المتحدّث عنهم ببيان حالة خُلُقهم بعد أن بيّن اختلال أمانتهم في تبليغ الدين، وهذا ضرب آخر جاء به فريق آخر من أهل الكتاب، وهو الذي يفعل الشرّ والخسّة ثم لا يقف عند حدّ الانكسار لما فعل أو تطلّب الستر على شنعته، بل يرتقي فيترقّب ثناء النّاس على سوء صنعه، ويتطلب المَحْمَدة عليه. وقيل: نزلت في المنافقين، والخطاب لكلّ من يصلح له الخطاب.

{ **يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا** } أنّهم يفرحون بما فعلوا ممّا تقدّم ذكره، وهو نبذ الكتاب والاشتراء به ثمنا قليلا وإنّما فرحوا بما نالوا بفعلهم من نفع في الدنيا.

{ **ويُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا** } أي: أنّهم يحبّون الثناء عليهم بأنّهم حفظة الشريعة وحرّاسها والعالمون بتأويلها، وذلك خلاف الواقع. هذا ظاهر معنى الآية، وهو قول مجاهد. وفي البخاري، عن أبي سعيد الخدْري: أنّها نزلت في المنافقين، كانوا يتخلّفون عن الغزو بالمعاذير، فيقبل منهم النبيّ صلى الله عليه وسلم ويحبون أن يحمدوا بأنّ لهم نيّة المجاهدين. وفي البخاري أيضا، أنّ مروان بن الحكم قال لبوابه اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل: " لئن كان كلّ امرئ فرح بما أتى وأحبّ أنّ يحمد بما لم يفعل معذّبا، لنعذّبنّ أجمعون "، قال أبن عباس: " وما لكم ولهذه، إنّما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يهودَ، فسألهم عن شيء فاخبروه بغيره فأروه أنهّم قد استحْمدوا إليه بما أخبروه وفرحوا بما أتوا من كتمانهم "، ثم قرأ ابن عباس { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ - حتى قوله - لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا } [188/187].

المفازة: مكان الفوز. وهو المكان الذي من يحلّه يفوز بالسلامة من العدوّ. سمّيت البيداء الواسعة مفازة لأنّ المنقطع فيها يفوز بنفسه من أعدائه. ولمّا كانت المفازة مجملة بيّن ذلك بقوله {مِنَ الْعَذَابِ}.

{ **وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } [189]

تذييل بوعيد يدلّ على أنّ الله لا يخفى عليه ما يكتمون من أخلاقهم.

{ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ [190] الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ [191] رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ [192] رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ [193] رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ [194] }.

هذا غرض أُنف بالنسبة لما تتابع من أغراض السورة، انتقل به من المقدّمات والمقصد والمتخلّلات بالمناسبات، إلى غرض جديد، هو الاعتبار بخلق العوالم وأعراضها والتنويه بالذين يعتبرون.

ومثل هذا الانتقال يكون إيذانا بانتهاء الكلام على أغراض السورة، على تفنّنها، فقد كان التنقّل فيها من الغرض إلى مشاكله، وقد وقع الانتقال الآن إلى غرض عام، إيذانا بأنّه أشرف على الانتهاء، وشأن القرآن أن يختم بالموعظة لأنّها أهم أغراض الرسالة، كما وقع في ختام سورة البقرة.

{ إِنَّ } للاهتمام بالخبر.

{ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } المراد: إمّا آثار خلقها، وهو النظام الذي جُعل فيها، وإمّا أن يراد بالخلق المخلوقات كقوله تعالى { هَذَا خَلْقُ اللَّهِ } [لقمان:11].

{ أُولُو الْأَلْبَابِ } أهل العقول الكاملة، لأنّ لبّ الشيء خلاصته. وقد قدّمنا في سورة البقرة بيان ما في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنّهار من الآيات عند قوله تعالى { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ } [البقرة:164].

{ يَذْكُرُونَ اللَّهَ } إمّا من الذكر اللساني وإمّا من الذكر القلبي وهو التفكير.

{ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ } عموم الأحوال، على أنّ هذه الأحوال هي متعارف أحوال البشر في السلامة، أي: أحوال الشغل والراحة وقصد النوم. وقيل: أراد أحوال المصلّين: من قادر، وعاجز وشديد العجز. وسياق الآية بعيد عن هذا المعنى.

{ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } عطف مرادف إن كان المراد بالذكر فيما سبق التفكير، وإعادته لأجل اختلاف المتفكّر فيه، أو هو عطف مغاير إذا كان المراد من قوله { يذكرون } ذكر اللسان.

{ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً } أي: يتفكرون قائلين ذلك. لأنّ هذا الكلام أريد به حكاية قولهم بدليل ما بعده من الدعاء.

ويجوز عندي أن يكون قوله { رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً } حكاية لتفكّرهم في نفوسهم، فهو كلام النّفس يشترك فيه جميع المتفكّرين لاستوائهم في صحّة التفكّر، لأنّه تنقّل من معنى إلى متفرّع عنه.

فأوّل التفكّر أنتج لهم أنّ المخلوقات لم تخلق باطلا، ثم تفرّع عنه تنزيه الله وسؤاله أن يقيهم عذاب النار، لأنّهم رأوا في المخلوقات طائعا وعاصيا، فعلموا أنّ وراء هذا العالم ثوابا وعقابا، فاستعاذوا أن يكونوا ممن حقّت عليه كلمة العذاب. وتوسّلوا إلى ذلك بأنّهم بذلوا غاية مقدورهم في طلب النجاة إذ استجابوا منادي الإيمان وهو الرسول عليه الصلاة والسلام، وسألوا غفران الذنوب، وتكفير السيّئات، والموت على البرّ إلى آخره.

{ **مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً** } أي: خلقا باطلا، أو ما خلقت هذا في حال أنّه باطل.

{ **فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** } لأنّه ترتّب على العلم بأنّ هذا الخلق حقّ، ومن جملة الحقّ أن لا يستوي الصالح والطالح، والمطيع والعاصي، فعلموا أنّ لكلّ مستقرا مناسبا فسألوا أن يكونوا من أهل الخير المجنّبين عذاب النار.

{ **رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ** } مسوق مساق التعليل لسؤال الوقاية من النّار.

الخزي: مصدر خَزِيَ، بمعنى ذلّ وهان بمرأى من النّاس، وأخزاه أذلّه على رؤوس الأشهاد، ووجه تعليل طلب الوقاية من النار بأنّ دخولها مع ما فيها من العذاب الأليم فيها قهر للمعذّب وإهانة علنيّة،وذلك معنى مستقر في نفوس النّاس. ومنه قول إبراهيم عليه السلام { وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ } [الشعراء:87].

{ **وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ** } أي: أنصار تدفع عنهم الخزي.

{ **رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً** } أرادوا به النبيّ محمدا صلى الله عليه وسلم، والنداء، رفع الصوت بالكلام رفعا قويّا لأجل الإسماع، وهو مشتق من النداء (بكسر النون وبضمّها) وهو الصوت المرتفع. يقال: هو أندى صوتا أي أرفع، فأصل النداء الجهر بالصوت.

{ **أن آمنوا** } تفسيريّة لما في فعل ينادي من معنى القول دون حروفه.

{ **فآمنّا** } الـ (ف) للدلالة على المبادرة والسبق إلى الإيمان، وذلك دليل سلامة فطرتهم من الخطأ والمكابرة، وقد توسّموا أن تكون مبادرتهم لإجابة دعوة الإسلام مشكورة عند الله تعالى، فلذلك فرّعوا عليه قولهم:

{ **رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا** } لأنّهم لمّا بذلوا كلّ ما في وسعهم من اتّباع الدين كانوا حقيقين بترجّي المغفرة.

الغَفْر والتكفير: متقاربان في المادة المشتقيْن منها إلّا أنّه شاع الغَفْر والغفران في العفو عن الذنب، والتكفير في تعويض الذنب بعوض، فكأنّ العوض كفّر الذنب أي ستره، ومنه سمّيت كفارة الإفطار في رمضان.

{ **ذُنُوبَنَا** } قيل: أرادوا ما كان قاصرا على ذواتهم، ولذلك طلبوا مغفرته.و{ **سَيِّئَاتِنَا** } أرادوا ما كان فيه حق النّاس، فلذلك سألوا تكفيرها عنهم. وقيل: هو مجرّد تأكيد، وهو حسن. وقيل: أرادوا من الذنوب الكبائر ومن السيئات الصغائر لأنّ اجتناب الكبائر يكفّر الصغائر، بناء على أنّ الذنب أدلّ على الإثم من

السيئة.

{ **وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ** } أي: أن يموتوا على حالة البرّ، بأن يلازمهم البرّ إلى الممات وأن لا يرتدّوا على أدبارهم.

{ **وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ** } ترقّوا في السؤال إلى طلب تحقيق المثوبة.

{ **عَلَى رُسُلِكَ** } تحتمل كلمة (على) أن تكون لتعدية فعل (الوعد)، ومعناها التعليل، فيكون الرسل هم الموعود عليهم، ومعنى الوعد على الرسل: أنّه وعد على تصديقهم.

وتحتمل أن تكون (على) ظرفا مستقرا، أي وعدا منزلا عليهم، أي: على ألسنة رسلك.

والموعود على ألسنة الرسل أو على التصديق بهم الأظهر أنّه ثواب الآخرة وثواب الدنيا.

{ **رُسُلِكَ** } خصوص محمد صلى الله عليه وسلم، أطلق عليه وصف رسل تعظيما له.

{ **فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ** } [195].

دلت الفاء على سرعة الإجابة بحصول المطلوب، ودلّت على أنّ مناجاة العبد ربه بقلبه ضرب من ضروب الدعاء قابل للإجابة.

استجاب: بمعنى أجاب عند جمهور أئمة اللغة، فالسين والتاء للتأكيد.

{ **ربّنا** } وتعبيرهم في دعائهم بوصف (ربّنا) دون أسم الجلالة لما في وصف الربوبيّة من الدلالة على الشفقة بالمربوب، ومحبّة الخير له، ومن الاعتراف بأنّهم عبيده.

{ **لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ** } نفي إلغاء الجزاء عنه، تطمينا لقلوبهم من وجل عدم القبول، وفي هذا دليل على أنّهم أرادوا في قولهم { وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ } تحقيق قبول أعمالهم والاستعاذة من الحبط.

{ **مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى** } وجه الحاجة إلى هذا البيان هنا أنّ الأعمال التي أتوا بها أكبرها الإيمان، ثم الهجرة، ثم الجهاد، ولمّا كان الجهاد أكثر تكرّرا خيف أن يُتوهّم أنّ النّساء لا حظ لهنّ في ذلك. فهنّ في الإيمان والهجرة يساوين الرجال، وهنّ لهنّ حظهنّ في ثواب الجهاد لأنّهنّ يقمن على المرضى ويداوين الكلمى، ويسقين الجيش.

{ **بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ** } حملها جمهور المفسّرين على معنى أنّ نساءكم ورجالكم يجمعهم أصل واحد، وعلى هذا فموقع هذه الجملة موقع التعليل للتعميم في قوله { مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى }، أي: لأنّ شأنكم واحد.

والأظهر عندي أن ليس هذا تعليلا بل هو بيان للتّساوي في الأخبار المتعلّقة بضمائر المخاطبين، أي: أنتم في عنايتي بأعمالكم سواء، وهو قضاء لحقّ ما لهم من الأعمال الصالحة المتساوين فيها، ليكون تمهيدا لبساط تمييز المهاجرين بفضل الهجرة.

{ **فَالَّذِينَ هَاجَرُوا** } تفريع عن قوله { لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ } وهو من ذكر الخاص بعد العام للاهتمام، واشتمل على بيان ما تفاضلوا فيه من العمل، وهو الهجرة التي فاز بها المهاجرون.

المهاجَرة: هي ترك الموطن بقصد استيطان غيره، والمفاعلة فيها للتقوية، كأنّه هجر قومه وهجروه لأنّهم لم يحرصوا على بقائه، وهذا أصل المهاجرة أن تكون لمنافرة ونحوها.

{ **وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ** } عطف على { هاجروا } لتحقيق معنى المفاعلة في هاجر، أي: هاجروا مهاجرة لزّهم إليها قومهم.

ولقد هاجر المسلمون الهجرة الأولى إلى الحبشة لما لاقوه من سوء معاملة المشركين، ثم هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم هجرته إلى المدينة والتحق به المسلمون كلّهم، لما لاقوه من أذى المشركين.

ولا يوجد ما يدلّ على أنّ المشركين أخرجوا المسلمين، وكيف واختفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم عند خروجه إلى المدينة يدلّ على حرص المشركين على صدّه عن الخروج. وعليه فكلّ ما ورد ممّا فيه أنّهم أُخرجوا من ديارهم بغير حق فتأويله أنّه الإلجاء إلى الخروج.

{ **وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي** } أي: أصابهم الأذى، وهو مكروه قليل من قول أو فعل.

{ **وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا** } جمع بينهما الإشارة إلى أن للقسمين ثوابا. وهذه حالة تصدق على المهجرين والأنصار من الذين جاهدوا فاستشهدوا أو بقوا.

{ **لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ** } مؤكّد بلام القسم.

{ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ [196] مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ [197] لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ [198] }.

اعتراض في أثناء هذه الخاتمة، نشأ عن قوله { فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ } باعتبار ما يتضمّنه عدم إضاعة العمل من الجزاء عليه جزاء كاملا في الدنيا والآخرة، وما يستلزمه ذلك من حرمان الذين لم يستجيبوا لداعي الإيمان وهم المشركون، وهم المراد بالذين كفروا، كما هو مصطلح القرّاء. والخطاب لغير معيّن ممن يتوهّم أن يغرّه حسن حال المشركين في الدنيا.

الغرّ والغرور: الإطماع في أمر محبوب على نيّة عدم وقوعه، أو إظهار الأمر المضرّ في صورة النافع، وهو مشتق من الغِرّة (بكسر الغين) وهي الغفلة. وفي الحديث: **" المؤمن غرّ كريم "** أي يظنّ الخير بأهل

الشرّ إذا أظهروا له الخير.
وأسند فعل الغرور إلى التقلّب لأن التقلّب سببه، فهو مجاز عقلي، والمعنى: لا ينبغي أن يغرّك.
التقلّب: مناشط الحياة نظير قوله تعالى { مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ } [غافر:4].
البلاد: الأرض.
{ **مَتَاعٌ قَلِيلٌ** } إلى آخرها، بيان لجملة { لا يغرّنّك }. و**المتاع**، المنفعة العاجلة، قال تعالى { وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ } [آل عمران:185]
{ **لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ** } إلى آخرها افتتحت بحرف الاستدراك لأنّ مضمونها ضدّ الكلام الذي قبلها لأنّ معنى { لا يغرّنّك } الخ، وصف ما هم فيه بأنّه متاع قليل، أي: غير دائم، وأنّ المؤمنين المتّقين لهم منافع دائمة.
النُزُل: (بضم النون والزاي، وبضمها مع سكون الزاي) ما يُعدّ للنزيل والضيف من الكرامة والقِرى.
الأبرار: جمع البَرّ وهو الموصوف بالمبرّة والبرّ، وهو حسن العمل ضد الفجور.

{ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ } [199].
عطف على جملة { لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ } استكمالا لذكر الفرق في تلقى الإسلام، فهؤلاء فريق الذين آمنوا من أهل الكتاب ولم يظهروا إيمانهم لخوف قومهم مثل النجاشي أصحمة. وأثنى الله عليهم بأنّهم لا يحرّفون الدين. والآية مؤذنة بأنّهم لم يكونوا معروفين بذلك لأنّهم لو عرفوا بالإيمان لما كان من فائدة في وصفهم بأنّهم من أهل الكتاب، وهذا الصنف بعكس حال المنافقين.
وقيل: أريد بهم هنا من أظهر إيمانه وتصديقه من اليهود مثل عبد الله بن سلام ومخيريق، وكذا من آمن من نصارى نجران، أي: الذين أسلموا ورسول الله بمكّة إن صحّ خبر إسلامهم.
{ **أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ** } وجيء باسم الإشارة للتنبيه على أنّ المشار إليهم به أحرياء بما سيرد من الإخبار عنهم.
{ **إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** } أي أنّه يبادر لهم بأجرهم في الدنيا ويجعله لهم يوم القيامة.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [200].
ختمت السورة بوصاية جامعة للمؤمنين تجدّد عزيمتهم وتبعث الهمم إلى دوام الاستعداد للعدو كي لا يثبّطهم ما حصل من الهزيمة. فأمرهم بالصبر الذي هو جماع الفضائل وخصال الكمال، ثم بالمصابرة

وهي الصبر في وجه الصابر، وهذا أشدّ الصبر ثباتا في النفس وأقربه إلى التزلزل، وذلك أن الصبر في وجه صابر آخر شديد على نفس الصابر لما يلاقيه من مقاومة قِرن له في الصبر قد يساويه أو يفوقه، لأنّ نتيجة الصبر تكون لأطول الصابرين صبرا.

{ ورابطوا } أمر لهم بالمرابطة، وهي مفاعلة من الربط، وهو ربط الخيل للحراسة.

وكانت المرابطة معروفة في الجاهلية وهي ربط الفرس للحراسة في الثغور، أي الجهات التي يستطيع العدو الوصول منها إلى الحي مثل الشعاب بين الجبال.

وكان المسلمون يرابطون في ثغور بلاد فارس والشام والأندلس في البر، ثم لما اتسع سلطان الإسلام وامتلكوا البحار صار الرباط في ثغور البحار وهي الشطوط التي يخشى نزول العدو منها، مثل رباط المنستير بتونس بإفريقية، ورباط سلا بالمغرب، وربط تونس ومحارسها، مثل محروس علي بن سالم قرب صفاقس . فأمر الله بالرباط كما أمر بالجهاد بهذا المعنى.

وأعقب هذا الأمر بالأمر بالتقوى لأنّها جماع الخيرات وبها يرجى الفلاح.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النّساء

سمّيت هذه السورة في كلام السلف (**سورة النّساء**). ففي صحيح البخاري عن عائشة قالت: " ما نزلت سورة البقرة وسورة النّساء إلّا وأنا عنده". وكذلك سمّيت في المصاحف وفي كتب السنّة وكتب التفسير، ولا يعرف لها أسم آخر. ووجه تسميتها أنّها افتتحت بأحكام صلة الرحم، ثم بأحكام تخصّ النّساء، وأنّ بها أحكاما كثيرة من أحكام النّساء؛ الأزواج، والبنات، وختمت بأحكام تخصّ النّساء.

وكان ابتداء نزولها بالمدينة، لما صحّ من حديث عائشة السابق. وقد عُلم أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم بنى بعائشة في المدينة في شوّال، لثمان أشهر خلت من الهجرة. واتفق العلماء على أنّ سورة النّساء نزلت بعد البقرة، فتعيّن أن يكون نزولها متأخّرا عن الهجرة بمدة طويلة. والجمهور قالوا: نزلت بعد آل عمران، ومعلوم أنّ آل عمران نزلت في خلال سنة ثلاث، أي بعد أحّد، فيتعيّن أن تكون سورة النّساء نزلت بعدها. وعن ابن عباس: أنّ أوّل ما نزل بالمدينة سورة البقرة، ثم الأنفال ثمّ آل عمران، ثم سورة الأحزاب، ثم الممتحنة، ثم النّساء، فإذا كان كذلك تكون سورة النّساء نازلة بعد الأحزاب التي هي في أواخر سنة أربع أو أوّل سنة خمس من الهجرة، وبعد صلح الحديبية الذي هو في سنة ست، حيث تضمّنت سورة الممتحنة شرط إرجاع من يأتي من المشركين هاربا إلى المسلمين عدا النّساء { إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ } [الممتحنة:10].

وقد قيل: إن آية { وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ } نزلت في رجل من غطفان له ابن أخ له يتيم، وغطفان أسلموا بعد وقعة الأحزاب، إذ هم من جملة الأحزاب، أي بعد سنة خمس. والحقّ أنّ الخطاب بـ (يا أيّها الناس) لا يدلّ إلّا على إرادة دخول أهل مكة في الخطاب، ولا يلزم أن يكون ذلك بمكّة، ولا قبل الهجرة، فإنّ كثيرا ممّا فيه (يا أيها النّاس) مدني بالاتفاق. ولا شكّ في أنّها نزلت بعد آل عمران لأنّ فيها من تفاصيل الأحكام ما شأنه أن يكون بعد استقرار المسلمين بالمدينة، وانتظام أحوالهم وأمنهم من أعدائهم.

وفيها آية التيمّم، والتيمّم شرع يوم غزوة المريسيع سنة خمس وقيل: سنة ست.

فالذي يظهر أن نزول سورة النّساء كان في حدود سنة سبع وطالت مدة نزولها، ويؤيّد ذلك أنّ كثيرا من الأحكام التي جاءت فيها مفصّلة، تقدّمت مجملة في سورة البقرة، من أحكام الأيتام والنّساء والمواريث، فمعظم ما في سورة النّساء شرائع تفصيليّة في معظم نواحي حياة المسلمين الاجتماعية من نظم الأموال والمعاشرة والحكم وغير ذلك. على أنّه قد قيل: إنّ آخر آية منها، (**آية الكلالة**)، هي آخر آية نزلت من القرآن. و يجوز أن يكون بين نزول سائر سورة النّساء وبين نزول آية الكلالة التي في آخرها مدّة طويلة، وأنّه لمّا نزلت آية الكلالة الأخيرة أُمروا بإلحاقها بسورة النّساء التي فيها الآية الأولى.

ووردت في السنّة تسمية آية الكلالة الأولى آية الشتاء، وآية الكلالة الأخيرة آية الصيف.

ويتعيّن ابتداء نزولها قبل فتح مكّة لقوله تعالى { وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّساء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا } [75] يعني مكّة. وفيها آية { إنّ الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها }، نزلت يوم فتح مكّة في قصّة عثمان بن طلحة الشيبي، صاحب مفتاح الكعبة. وليس فيها جدال مع المشركين سوى تحقير دينهم، ممّا يدلّ على أنّ أمر المشركين قد صار إلى وهن. وأنّ معظمها، بعد التشريع، جدال كثير مع اليهود، وتشويه لأحوال المنافقين. وجدال مع النصارى، ليس بكبير، ممّا يدلّ على أنّ مخالطة المسلمين للنصارى أخذت تظهر.

وقد **عدّت الثالثة والتسعين** من السور، نزلت بعد سورة الممتحنة وقبل سورة الزلزلة.

عدد آيها مائة وخمس وسبعون في عدد أهل المدينة ومكّة والبصرة، ومائة وست وسبعون في عدد أهل الكوفة، ومائة وسبع وسبعون في عدد أهل الشام.

أغراض السورة

*/ اشتملت على أغراض وأحكام كثيرة أكثرها تشريع معاملات الأقرباء وحقوقهم.

*/ فكانت فاتحتها مناسبة لذلك بالتذكير بنعمة خلق الله، وأنّهم محقوقون بأن يشكروا ربّهم على ذلك.

*/ أن يراعوا حقوق النوع الذي خلقوا منه، بأن يصلوا أرحامهم القريبة والبعيدة.

*/ الرفق بضعفاء النوع من اليتامى، ويراعوا حقوق النّساء بإقامة العدل في معاملاتهنّ.

*/ الإشارة إلى النكاح والصداق، وشرع قوانين المعاملة مع النّساء في حالتي الاستقامة والانحراف من كلا الزوجين، ومعاشرتهنّ والمصالحة معهنّ.

*/ بيان ما يحلّ للتزوج منهنّ، والمحرّمات بالقرابة أو الصهر، وأحكام الجواري بملك اليمين.

*/ كذلك حقوق مصير المال إلى القرابة، وتقسيم ذلك، وحقوق حفظ اليتامى في أموالهم وحفظها لهم والوصاية عليهم.

*/ أحكام المعاملات بين جماعة المسلمين في الأموال والدماء وأحكام القتل عمدا وخطأ.

*/ تأصيل الحكم الشرعي بين المسلمين في الحقوق والدفاع عن المعتدى عليه، والأمر بإقامة العدل بدون مصانعة، والتحذير من اتباع الهوى.

*/ الأمر بالبرّ، والمواساة، وأداء الأمانات.

*/ التمهيد لتحريم شرب الخمر.

*/ طائفة من أحكام الصلاة، والطهارة، وصلاة الخوف.

*/ أحوال اليهود، لكثرتهم بالمدينة.

*/ أحوال المنافقين وفضائحهم.

*/ أحكام الجهاد لدفع شوكة المشركين. وأحكام معاملة المشركين ومساويهم.

*/ وجوب هجرة المؤمنين من مكّة، وإبطال مآثر الجاهليّة.

*/ وقد تخلل ذلك مواعظ وترغيب، ونهي عن الحسد، وعن تمني ما للغير من المزايا التي حُرم منها من حُرم بحكم الشرع، أو بحكم الفطرة.

*/ الترغيب في التوسّط في الخير والإصلاح. وبث المحبة بين المسلمين.

{ يَا أَيُّهَا النّاس اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً } [1]

{ يَا أَيُّهَا النّاس } جاء الخطاب ليشمل جميع أمّة الدعوة الذين يسمعون القرآن يومئذ وفيما يأتي من الزمان. فلمّا كان ما بعد هذا النداء جامعا لما يؤمر به النّاس بين مؤمن وكافر، نودي جميع الناس، فدعاهم الله إلى التذكّر بأنّ أصلهم واحد. دعوة تظهر فيها المناسبة بين وحدة النوع ووحدة الاعتقاد.

{ اتَّقُوا رَبَّكُمُ } اتقاء غضبه، ومراعاة حقوقه، وذلك حقّ توحيده والاعتراف له بصفات الكمال، وتنزيهه عن الشركاء في الوجود والأفعال والصفات.

وفي هذه الصلة براعة استهلال مناسبة لما اشتملت عليه السورة من الأغراض الأصليّة، فكانت بمنزلة الديباجة.

{ رَبَّكُمُ } عبر بربّكم، دون الاسم العلم، لأنّ في معنى الربّ ما يبعث العباد على الحرص في الإيمان بوحدانيّته. والإضافة دالة على أنّهم محقوقون بتقواه حقّ التقوى، ودالة أيضا، على أنّ بين الربّ والمخاطبين صلة تُعدّ إضاعتها حماقة وضلالا.

{ الَّذِي خَلَقَكُمْ } لأنّ الذي خلق الإنسان حقيق بأن يُتّقى.

{ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ } للتنبيه على عجيب هذا الخلق وحقّه بالاعتبار. وفي الآية تلويح للمشركين بأحقّيّة اتّباعهم دعوة الإسلام، لأنّ النّاس أبناء أب واحد، وهذا الدين يدعو النّاس كلّهم إلى متابعته ولم يخصّ أمّة من الأمم أو نسبا من الأنساب، فهو جدير بأن يكون دين جميع البشر، بخلاف بقيّة الشرائع فهي مصرّحة باختصاصها بأمم معيّنة.

وفي الآية تعريض للمشركين بأنّ أولى النّاس بأن يتّبعوه هو محمد صلى الله عليه وسلم لأنّه من ذوي رحمهم. وفي الآية تمهيد لما سيبيَّن في هذه السورة من الأحكام المرتّبة على النسب والقرابة.

النفس الواحدة: هي آدم.

{ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا } ورد في الحديث: **" أنّ حواء خلقت من ضلع آدم"** ، فلذلك يكون حرف (من) للابتداء، أي: أخرج خلق حواء من ضلع آدم. والزوج هنا أريد به الأنثى الأولى التي تناسل منها البشر، وهي حواء. وأطلق عليها اسم الزوج لأنّ الرجل يكون منفردا فإذا اتخذ امرأة فقد صار زوجا في بيت، فكلّ واحد منهما زوج للآخر بهذا الاعتبار، ولذلك استوى الرجل والمرأة لأنّه من الوصف بالجامد، فلا يقال للمرأة زوجة، ولم يسمع في فصيح الكلام، ولذلك عدّه بعض أهل اللغة لحنا. وتقدّم عند قوله { وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ } [البقرة:35]

وفي الآية منّة على الذكران بخلق النّساء لهم، ومنّة على النّساء بخلق الرجال لهم، ثم منّ على النوع بنعمة النسل في قوله { وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً } مع ما في ذلك من الاعتبار بهذا التكوين العجيب.

{ **خَلَقَكُمْ... / وَخَلَقَ مِنْهَا... / وَبَثَّ...** } وقد حصل من ذكر هذه الصلات تفصيل لكيفيّة خلق الله النّاس من نفس واحدة. وجاء الكلام على هذا النظم توفية بمقتضى الحال الداعي الإتيان باسم الموصول، ومقتضى الحال الداعي لتفصيل حالة الخلق العجيب. ولو غيّر هذا الأسلوب فجيء بالصورة المفصّلة دون سبق إجمال لفاتت الإشارة إلى الحالة العجيبة.

البث: النشر والتفريق للأشياء الكثيرة قال تعالى { يَوْمَ يَكُونُ النّاس كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ } [القارعة:4]

{ **وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً** }

{ **اتقوا** } أعيد الفعل لأنّ هذه التقوى مأمور بها المسلمون خاصة، فإنّهم قد بقيت فيهم بقيّة من عوائد الجاهليّة لا يشعرون بها، وهي التساهل في حقوق الأرحام والأيتام، وهو شروع في التشريع المقصود من السورة.

{ **اللَّهَ** } استحضر أسم الله العلم هنا لإدخال الروع في ضمائر السامعين. لأنّ المقام مقام تشريع يناسبه إيثار المهابة بخلاف مقام { اتَّقُوا رَبَّكُمُ } فهو مقام ترغيب.

{ **تَسَاءَلُونَ بِهِ** } يسأل بعضكم بعضا به في القسم، فالمساءلة به تؤذن بمنتهى العظمة، فكيف لا تتقونه.

وقرأ الجمهور (تسّاءلون) بتشديد السين لإدغام التاء الثانية. وقرأ حمزة، وعاصم، والكسائي، وخلف (تساءلون) بتخفيف السين.

{ **والأرحام** } قرأه الجمهور بالنصب عطفا على أسم الله، أي: اتقائها، أي: اتقاء حقوقها، فهو من استعمال المشترك في معنييه، وعلى هذه القراءة فالآية ابتداء تشريع.

وقرأه حمزة بالجرّ عطفا على الضمير المجرور، تعظيما لشأن الأرحام، أي: التي يسأل بعضكم بعضا بها، وذلك قول العرب: ناشدتك الله والرحم كما.

روي في الصحيح: أنّ النبيء صلى الله عليه وسلم حين قرأ على عتبة بن ربيعة سورة فصلت حتّى بلغ { فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ} [فصلت:13] فأخذت عتبة رهبة وقال: ناشدتك الله والرحم.

فتكون الآية تعريضا بعوائد الجاهليّة، إذ يتساءلون بينهم بالرحم وأواصر القرابة ثم يهملون حقوقها ولا يصلونها، ويعتدون على الأيتام من إخوتهم وأبناء أعمامهم، فناقضت أفعالُهم أقوالَهم، وأيضا هم آذوا النبيء صلى الله عليه وسلم وظلموه، وهو من ذوي رحمهم وأحقّ النّاس بصلتهم.

{ وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الخبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً } [2].

مناسبة عطف الأمر على ما قبله أنّه من فروع تقوى الله في حقوق الأرحام، لأن المتصرّفين في أموال اليتامى في غالب الأحوال هم أهل قرابتهم

الإيتاء: حقيقته الدفع والإعطاء الحسّي، ويطلق على تخصيص الشيء بالشيء وجعله حقا له، وفي الحديث: **" رجل آتاه الله مالا فسلّطه على هَلَكَته في الحقّ ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها "**.

اليتامى: جمع يتيم وجمع يتيمة. وأطلقه العرب على من فقد أبوه في حال صغره كأنه بقي منفردا لا يجد من يدفع عنه، ولم يعتد العرب بفقد الأم في إطلاق وصف اليتيم. وذلك هو إطلاق الشريعة لاسم اليتيم. وظاهر الآية الأمر بدفع المال لليتيم. ولا يجوز في حكم الشرع أن يُدفع المال له ما دام مطلقا عليه اسم اليتيم، إذ اليتيم خاص بمن لم يبلغ، وهو حينئذ غير صالح للتصرّف في ماله، فتعيّن تأويل الآية؛ إمّا بتأويل لفظ (الإيتاء) أو بتأويل (اليتيم).

فلنا أن نؤوّل { **آتوا** } بغير معنى ادفعوا. وذلك بما نقل عن جابر بن زيد أنّه قال: نزلت هذه الآية في الذين لا يورّثون الصغار مع وجود الكبار في الجاهليّة، فيكون { آتوا } بمعنى **عيّنوا لهم حقوقهم.**

وقال صاحب الكشّاف يراد بإيتائهم أموالهم أن لا يطمع فيها الأولياء والأوصياء وولاّة السوء وقضاته ويكفّوا عنها أيديهم. فهو تأويل للإيتاء بلازمه وهو **الحفظ**، أو مجاز بالمآل إذ الحفظ يؤول إلى الإيتاء. وعلى هذين الوجهين فالمراد هنا: الأمر بحفظ حقوق اليتامى من الإضاعة، لا تسليم المال إليهم وهو الظاهر.

ولنا أن نؤوّل (**اليتامى**) بالذين جاوزوا حدّ اليتم ويبقى الإيتاء بمعنى الدفع، ويكون التعبير عنهم باليتامى للإشارة إلى وجوب دفع أموالهم إليهم في فور خروجهم من حدّ اليتيم.

قيل: نزلت هذه الآية في رجل من غطفان كان له ابن أخ في حجره، فلمّا بلغ طلب ماله، فمنعه عمّه، فنزلت هذه الآية، فردّ المال لابن أخيه.

{ **وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخبِيثَ بِالطَّيِّبِ** } أي لا تأخذوا الخبيث وتعطوا الطيّب. والخبيث والطيب أريد بهما الوصف المعنوي دون الحسّي، وهما استعارتان؛ فالخبيث المذموم أو الحارم، والطيّب عكسه وهو الحلال. وتقدّم في قوله تعالى { يَا أَيُّهَا النّاس كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً } [البقرة:168].

{ **وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ** } نهي ثالث عن أخذ أموال اليتامى وضمّها إلى أموال أوليائهم، فيتّسق في الآية أمر ونهيان: أمروا أن لا يمنعوا اليتامى من مواريثهم ثم نهوا عن اكتساب الحرام، ثم نهوا عن الاستيلاء على أموالهم أو بعضها، والنهي والأمر الأخير تأكيدان للأمر الأول.

الأكل: استعارة للانتفاع المانع من انتفاع الغير وهو الملك التام، لأنّ الأكل هو أقوى أحوال الاختصاص بالشيء، لأنه يحرزه في داخل جسده، ولا مطمع في إرجاعه.

{ **إِلَى أَمْوَالِكُمْ** } ليس محطّ النهي، بل النهي واقع عن أكل أموالهم مطلقا سواء كان للآكل مال يضم إليه مال يتيمه أم لم يكن. ولكن لمّا كان الغالب وجود أموال للأوصياء، ذكر هذا القيد رعيا للغالب، ولأنّه أدخل في النهي لما فيه من التشنيع عليهم حيث يأكلون حقوق النّاس مع أنّهم أغنياء. ولذلك روي: أنّ المسلمين تجنّبوا بعد هذه الآية مخالطة أموال اليتامى فنزلت { وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ } [البقرة:220].

الحُوب: (بضم الحاء لغة الحجاز و بفتحها لغة تميم)، الإثم. والجملة تعليل للنهي، أي: نهاكم الله عن أكل أموالهم لأنّه إثم عظيم.

{ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النّساء مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا } [3].

اشتمال هذه الآية على كلمة { اليتامى } يؤذن بمناسبتها للآية السابقة، بيد أن الأمر بنكاح النّساء وعددهن في جواب شرط الخوف من عدم العدل في اليتامى، ممّا خفي وجهه على كثير من علماء سلف الأمّة، إذ لا تظهر مناسبة، أي: ملازمة بين الشرط وجوابه.

واعلم أنّ في الآية إيجازا بديعا إذ أُطلق فيها لفظ اليتامى في الشرط وقُوبل بلفظ النّساء في الجزاء، فعلم السامع أنّ اليتامى هنا يتيمة وهي صنف من اليتامى في قوله السابق { وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ } [النّساء:2] وعلم أنّ بين عدم القسط في يتامى النّساء، وبين الأمر بنكاح النّساء، ارتباطا لا محالة وإلّا لكان الشرط عبثا. وبيانه ما في صحيح البخاري: أنّ عروة بن الزبير سأل عائشة عن هذه الآية فقالت: " يابن أختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليّها تشْرَكه في ماله ويعجبه مالها وجمالها، فيريد وليُّها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها فلا يعطيها مثلما يعطيها غيره، فنهوا أن ينكحوهن إلّا أن يقسطوا لهن ويبلغوا بهنّ أعلى سنّتهن في الصداق، فأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النّساء غيرهن. ثم إنّ النّاس استفتوا رسول الله بعد هذه الآية فأنزل الله { وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النّساء قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النّساء اللَّاتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ } [النّساء:127] فقول الله تعالى { وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ } رغبة أحدكم عن يتيمة حين تكون قليلة المال والجمال، فنهوا عن أن ينكحوا من رغبوا في مالها وجمالها من يتامى النّساء إلّا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن إذا كنّ قليلات المال والجمال ".

وعائشة لم تسند هذا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن سياق كلامها يؤذن بأنّه عن توقيف، ولذلك أخرجه البخاري في باب تفسير سورة النّساء بسياق الأحاديث المرفوعة اعتدادا بأنّها ما قالت ذلك إلّا عن معاينة حال النزول، وأفهام المسلمين التي أقرّها الرسول عليه السلام، لا سيما وقد قالت: ثمّ إن النّاس استفتوا رسول الله، وعليه فيكون إيجاز لفظ الآية اعتدادا بما فهمه النّاس ممّا يعلمون من أحوالهم، وتكون قد جمعت إلى حكم حفظ حقوق اليتامى في أموالهم الموروثة حفظ حقوقهم في الأموال التي يستحقّها البنات اليتامى من مهور أمثالهن، وموعظة الرجال بأنّهم لمّا لم يجعلوا أواصر القرابة شافعة النّساء اللاتي لا مرغب فيهن لهم فيرغبون عن نكاحهن، فكذلك لا يجعلون القرابة سببا للإجحاف بهنّ في مهورهن.

وقولها: ثمّ إنّ النّاس استفتوا رسول الله، معناه استفتوه في حكم نكاح اليتامى، ولم يهتدوا إلى أخذه من هذه الآية، فنزل قوله { وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النّساء }، وأنّ الإشارة بقوله { وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النّساء }، أي: ما يتلى من هذه الآية الأولى، أي: كان هذا الاستفتاء في زمن نزول هذه السورة، وكلامها هذا أحسن تفسير لهذه الآية.

وقال ابن عباس، وسعيد بن جبير، والسدي، وقتادة: كانت العرب تتحرّج في أموال اليتامى ولا تتحرّج في العدل بين النّساء، فكانوا يتزوّجون العشر فأكثر فنزلت هذه الآية في ذلك، وعلى هذا القول فمحمل الملازمة بين الشرط والجزاء إنّما هو فيما تفرّع عن الجزاء من قوله { فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً }، فيكون نسيج الآية قد حيك على هذا الأسلوب ليدمج في خلاله تحديد النهاية إلى الأربع.

وقال عكرمة: نزلت في قريش، كان الرجل يتزوّج العشر فأكثر فإذا ضاق ماله عن إنفاقهنّ أخذ مال يتيمة فتزوج منه، وعلى هذا الوجه فالملازمة ظاهرة، لأن تزوّج ما لا يستطاع القيام به صار ذريعة إلى أموال اليتامى، فتكون الآية دليلا على مشروعية سد الذرائع إذا غلبت.

وقال مجاهد: الآية تحذير من الزنا، وذلك أنّهم كانوا يتحرّجون من أكل أموال اليتامى ولا يتحرّجون من الزنا، فقيل لهم: إن كنتم تخافون من أموال اليتامى فخافوا الزنا، لأنّ شأن المتنسّك أن يهجر جميع الآثم لا سيما ما كانت مفسدته أشدّ. وعلى هذا الوجه تضعف الملازمة بين الشرط وجوابه ويكون فعل الشرط ماضيا لفظا ومعنى.

وقيل في هذا وجوه أخر هي أضعف ممّا ذكرنا.

{ **ما طاب** } ما حسُن بدليل قوله { **لكم** } ويفهم منه أنّه: ممّا حلّ لكم، لأنّ الكلام في سياق التشريع.

والآية ليست هي المثبتة لمشروعية النكاح، لأنّ الأمر فيها معلّق على حالة الخوف من الجور في اليتامى، فالظاهر أنّ الأمر فيها للإرشاد، وأنّ النكاح شرع بالتقرير للإباحة الأصلية لما عليه النّاس قبل الإسلام مع إبطال ما لا يرضاه الدين كالزيادة على الأربع، وكنكاح المقت، والمحرّمات من الرضاعة، والأمر بأن لا يُخْلوه عن الصداق، ونحو ذلك.

{ **مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ** } أحوال من {طاب} ولا يجوز كونها أحوالا من النّساء، لأنّ النّساء أريد به الجنس كلّه. والمعنى: أنّ الله وسّع عليكم، فلكم في نكاح غير أولئك اليتامى مندوحة عن نكاحهنّ مع الإضرار بهنّ في الصداق، وفي هذا إدماج شرعي لحكم شرعي آخر في خلال حكم القسط لليتامى.

وصيغة مَفْعَل وفُعَال في أسماء العداد من واحد إلى أربعة، وقيل إلى ستة وقيل إلى عشرة، وهو الأصح، تدلّ كلها على معنى تكرير اسم العدد لقصد التوزيع كقوله تعالى { أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ } [فاطر:1] أي لطائفة جناحان، ولطائفة ثلاثة، ولطائفة أربعة.

والتوزيع هنا باعتبار اختلاف المخاطبين في السعة والطَّوْل. وقد دلّ على ذلك قوله بعد { فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً }. والظاهر أنّ تحريم الزيادة على الأربع مستفاد من غير هذه الآية، لأنّ مجرد الاقتصار

غير كاف في الاستدلال ولكنّه يستأنس به، وأن هذه الآية قرّرت ما ثبت من الاقتصار على أربع زوجات كما دلّ على ذلك الحديث الصحيح: إنّ غيلان بن سلمة أسلم على عشر نسوة فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **أمسك أربعا وفارق سائرهنّ** ".

ولعلّ الآية صدرت بذكر العدد المقرّر من قبل نزولها، تمهيدا لشروع العدل بين النّساء، فإن قوله { فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً } صريح في اعتبار العدل في التنازل في مراتب العدد إلى الواحدة.

{ **فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً** }، أي: فواحدة لكلّ من يخاف عدم العدل. وخوف عدم العدل معناه عدم العدل بين الزوجات، أي: عدم التسوية، وذلك في النفقة والكسوة والبشاشة والمعاشرة وترك الضرّ في كل ما يدخل تحت قدرة الكلّف وطوقه دون ميل القلب.

وقد شرع الله تعدّد النّساء للقادر العادل لمصالح جمة:

*/ منها أنّ في ذلك وسيلة إلى تكثير عدد الأمّة بازدياد المواليد فيها.

*/ ومنها أنّ ذلك يعين على كفالة النّساء اللائي هن أكثر من الرجال في كل أمة، لأنّ الأنوثة في المواليد أكثر من الذكور، ولأنّ الرجال يعرض لهم من أسبب الهلاك في الحروب والشدائد ما لا يعرض للنساء، ولأنّ النّساء أطول أعمارا من الرجال غالبا، بما فطرهن الله عليه.

*/ ومنها أنّ الشريعة قد حرّمت الزنا وضيّقت في تحريمه لما يجرّ إليه من الفساد في الأخلاق والأنساب ونظام العائلات، فناسب أن توسّع على النّاس في تعدد النّساء لمن كان من الرجال ميّالا للتعدّد.

*/ ومنها قصد الابتعاد عن الطلاق إلّا لضرورة.

ولم يكن في الشرائع السالفة ولا في الجاهليّة حدّ للزوجات، ولم يثبت أن جاء عيسى عليه السلام بتحديد للتزوّج، وإن كان ذلك توهّمه بعض علمائنا مثل القرافي. والإسلام هو الذي جاء بالتحديد.

فأمّا أصل التحديد فحكمته ظاهرة: من حيث إن العدل لا يستطيعه كلّ أحد، وإذا لم يقم تعدّد الزوجات على قاعدة العدل بينهن اختل نظام العائلة، وحدثت الفتن فيها، ونشأ عقوق الزوجات أزواجهنّ، وعقوق الأبناء آباءهم بأذاهم في زوجاتهم وفي أبنائهم، فلا جرم أن كان الإذن في التعدّد لمصلحة يجب أن تكون مضبوطة غير عائدة على الأصل بالإبطال.

وأمّا الانتهاء في التعدّد إلى الأربع فقد حاول كثير من العلماء توجيهه فلم يبلغوا إلى غاية مرضية.

{ **أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ** } إن عطف على قوله { فواحدة }، فقد خيّر بينه وبين الواحدة باعتبار التعدّد، أي: فواحدة من الأزواج أو عدد ممّا ملكت أيمانكم، وإن عطفته على قوله { فَانْكِحُوا مَا طَابَ } كان تخييرا بين التزوّج والتسرّي بحسب أحوال الناس.

{ **ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا** } وأدنى بمعنى أقرب، وهو قرب مجازي، أي: أحقّ وأعون على أن لا تعولوا، وتعولوا مضارع عال عولا، **بمعنى جار ومال**، وهو مشهور في كلام العرب، وبه فسّر ابن عباس

وجمهور السلف، يقال: عال الميزان عولا إذا مال، فيكون قوله { أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا } في معنى { فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا } فيفيد زيادة تأكيد كراهية الجور.

{ وَآتُوا النّساء صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً } [4].

جانبان مستضعفان في الجاهليّة؛ اليتيم، والمرأة. وحقّان مغبون فيهما أصحابهما؛ مال الأيتام ، ومال النّساء، فلذلك حرسهما القرآن أشدّ الحراسة فابتدأ بالوصاية بحقّ المرأة في مال ينجرّ إليها لا محالة، وكان توسّط حكم النكاح بين الوصايتين أحسن مناسبة تهيّئ لعطف هذا الكلام.

{ وَآتُوا النّساء } عطف على قوله { وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ } والقول في معنى الإيتاء فيه سواء. وزاده اتصالا بالكلام السابق أنّ ما قبله جرى على وجوب القسط في يتامى النّساء، فكان ذلك مناسبة الانتقال.

والخطاب لعموم الأمّة، على معنى تناوله لكلّ من له فيه يدٌ؛ من الأزواج والأولياء ثم ولاّة الأمور الذين إليهم المرجع في الضرب على أيدي ظلمة الحقوق.

والمقصود بالخطاب ابتداء هم الأزواج، لكيلا يتذرّعوا بحياء النّساء وضعفهنّ وطلبهن مرضاتهم إلى غمط حقوقهنّ في أكل مهورهم. والى كون الخطاب للأزواج ذهب ابن عباس، وقتادة، وابن زيد، وابن جريج، فالآية على هذا قرّرت دفع المهور وجعلته شرعا، فصار المهر ركنا من أركان النكاح في الإسلام. وقد تقرّر في عدّة آيات كقوله { فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً } [النّساء:24] وغير ذلك.

والمهر علامة معروفة للتفرقة بين النكاح وبين المخادنة، لكنّهم في الجاهليّة كان الزوج يعطي مالا لولي المرأة ويسمّونه حُلوانا ولا تأخذ المرأة شيئا، فأبطل الله ذلك في الإسلام بأن جعل المال للمرأة.

وقال جماعة: الخطاب للأولياء. وعن الحضرمي: خاطبت الآية المتشاغرين الذين كانوا يتزوّجون امرأة بأخرى، وكلّ ذلك ممّا يحتمله عموم النّساء وعموم الصدقات.

الصدُقات: جمع صدُقة (بضمّ الدال) مهر المرأة، مشتقّة من الصدق لأنّها عطيّة يسبقها الوعد بها فيصدقه المعطي.

النِّحلة: (بكسر النون) العطيّة بلا قصد عوض، ويقال نُحْل (بضم فسكون).

وسُمِّيت الصدقات نحلة إبعادا للصدقات عن أنواع الأعواض، وتقريبا بها إلى الهديّة، إذ ليس الصداق عوضا عن منافع المرأة عند التحقيق، فإن النكاح عقد بين الرجل والمرأة قصد منه المعاشرة، وإيجاد آصرة عظيمة، وتبادل حقوق بين الزوجين، وتلك أغلى من أن يكون لها عوض مالي، ولو جعل لكان عوضها جزيلا ومتجدّدا بتجدد المنافع، وامتداد أزمانها، شأن الأعواض كلّها، ولكنّ الله جعله هديّة واجبة على الأزواج إكراما لزوجاتهم، وإنّما أوجبه الله لأنّه تقرّر أنّه الفارق بين النكاح وبين المخادنة والسفاح.

<u>وكان أصل النكاح في البشر</u> اختصاص الرجل بامرأة تكون له دون غيره، فكان هذا الاختصاص ينال بالقوة، ثم اعتاض النّاس عن القوّة بذل الأثمان لأولياء النّساء ببيعهم بناتهم ومَوْلَيَاتِهم، ثم ارتقى التشريع

وكمل عقد النكاح، وصارت المرأة حليلة الرجل شريكته في شؤونه، وبقيت الصدُقات أمارات على ذلك الاختصاص القديم تميّز عقد النكاح عن بقية أنواع المعاشرة المذمومة شرعا وعادة، وكانت المعاشرة على غير وجه النكاح خالية عن بذل المال للأولياء إذ كانت تنشأ عن الحب أو الشهوة من الرجل للمرأة على انفراد وخفية من أهلها، فمن ذلك الزنا المؤقّت، ومنه المخادنة، فهي زنا مستمر، وأشار إليها القرآن في قوله { مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ } [النّساء:25]، ودون ذلك البغاء وهو الزنا بالإماء بأجور معيّنة، وهو الذي ذكر الله النهي عنه بقوله { وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } [النور:33] وهنالك معاشرات أخرى، مثل الضماد، وهو أن تتخذ ذات الزوج رجلا خليلا لها في سنة القحط لينفق عليها مع نفقة زوجها، فلأجل ذلك سمَّى الله الصداق نحلة.

{ **فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً** } أي: فإن طابت أنفسهنّ لكم بشيء منه. ليُعلم أنّه طيب نفس لا يشوبه شيء من الضغط والإلجاء. وحقيقة فعل طاب اتصاف الشيء بالملاءمة للنفس.

{ **فكلوه** } استعمل الأكل هنا في معنى الانتفاع الذي لا رجوع فيه، أي: في معنى تمام التملّك.

{ **هَنِيئاً مَرِيئاً** } هَنِيء (بفتح النون وكسرها) بمعنى ساغ ولم يعقب نغصا. و**المريء**: من مَرُوَ الطعام بمعنى هَنِيء، فهو تأكيد يشبه الإتباع. وقيل: الهنيء الذي يلذّه الآكل والمريء ما تحمد عاقبته. أي حلالا مباحا. وهذا عندنا في المالكات أمر أنفسهنّ دون المحجورات، تخصيصا للآية بغيرها من أدلة الحجر، فإنّ الصغيرات غير داخلات هنا بالإجماع. وقال جمهور الفقهاء: ذلك للثيّب والبكر، تمسكا بالعموم. وهو ضعيف في حمل الأدلة بعضها على بعض.

واختلف الفقهاء في رجوع المرأة في هبتها بعضَ صداقها: فقال الجمهور: لا رجوع لها، وقال شريح، وعبد الملك بن مروان: لها الرجوع، لأنّها لو طابت نفسها لما رجعت. رووا أنّ عمر بن الخطاب كتب إلى قضاته: " إنّ النّساء يعطين رغبة ورهبة فأيّما امرأة أعطته، ثم أرادت أن ترجع فذلك لها ". وهذا يظهر إذا كان بين العطيّة وبين الرجوع قريبا، وحدث من معاملة الزوج بعد العطية خلاف ما يؤذن به حسن المعاشرة السابق للعطية.

{ وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً } [5].

عطف لدفع توهّم إيجاب أن يؤتى كلّ مال لمالكه من أجل تقدّم الأمر بإتيان الأموال مالكيها مرتين.

والمقصود بيان الحال التي يُمنع فيها السفيه من ماله، والحال التي يُؤتى فيها ماله.

وقدّم حكم التسليم (وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ / وَآتُوا النّساء صَدُقَاتِهِنَّ) لأنّ النّاس أحرص على ضدّه، فلو ابتدأ بالنهي عن تسليم الأموال للسفهاء لاتخذه الظالمون حجّة لهم، وتظاهروا بأنّهم إنّما يمنعون الأيتام

أموالهم خشية من استمرار السفه فيهم، كما يفعله الآن كثير من الأوصياء والمقدّمين غير الأتقياء، إذ يتصدّون للمعارضة في بيّنات ثبوت الرشد لمجرد الشغب وإملال المحاجير من طلب حقوقهم.

{ **وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ** } الخطاب لعموم النّاس ليأخذ كلّ من يصلح لهذا الحكم حظّه من الامتثال.

السفهاء: يجوز أن يراد به اليتامى، لأنّ الصغر هو حالة السفه الغالبة، ويجوز أن يراد به مطلق من ثبت له السفه، سواء كان عن صغر أم عن اختلال تصرّف، فتكون الآية قد تعرّضت للحجر على السفيه الكبير استطرادا للمناسبة، وهذا هو الأظهر لأنّه أوفر معنى وأوسع تشريعا. وتقدّم بيان معاني السفه عند قوله تعالى { إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ } [البقرة:130].

{ **أَمْوَالَكُمُ** } أضيفت الأموال إلى ضمير المخاطبين بـ (يَا أَيُّهَا النَّاسُ) إشارة بديعة إلى أنّ المال الرائج بين النّاس هو حقّ لمالكيه المختصّين به في ظاهر الأمر، ولكنّه عند التأمّل تلوح فيه حقوق الملّة جمعاء لأنّ في حصوله منفعة للأمّة كلها، لأنّ ما في أيدي بعض أفرادها من الثروة يعود إلى الجميع بالصالحة.

فلأجل هاته الحكمة أضاف الله تعالى الأموال إلى جميع المخاطبين ليكون لهم الحقّ في إقامة الأحكام التي تحفظ الأموال والثروة العامة.

وهذه إشارة لا أحسب أن حكيما من حكماء الاقتصاد سبق القرآن إلى بيانها.

{ **وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ** } واقع موقع الاحتراس، أي: لا تؤتوهم الأموال إيتاء تصرّف مطلق، ولكن آتوهم إيّاها بمقدار انتفاعهم من نفقة وكسوة، ولذلك قال فقهاؤنا: تسلّم للمحجور نفقته وكسوته إذا أمن عليها بحسب حاله وماله.

{ **فِيهَا** } وعدل عن التعدية بـ (من) إلى التعدية بـ (في) الدالة على الظرفيّة المجازيّة، وهذا معنى بديع في الاستعمال لم يسبق إليه المفسرون هنا، فأهمل معظمهم التنبيه على وجه العدول إلى (في)، واهتدى إليه صاحب الكشاف بعض الاهتداء فقال: أي: اجعلوها مكانا لرزقهم بأنّ تتجروا فيها وتتربّحوا، حتّى تكون نفقتهم من الربح لا من صلب المال.

{ **وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً** } ليسلم إعطاؤهم النفقة والكسوة من الأذى، فإنّ شأن من يخرج المال من يده أن يستثقل سائل المال، ولأنّ السفيه غالبا يستنكر منع ما يطلبه من واسع المطالب، فقد يظهر عليه، أو يصدر منه كلمات مكروهة لوليّه، فأمر الله لأجل ذلك كلّه الأولياء بأن لا يبتدئوا محاجيرهم بسيّئ الكلام، ولا يجيبوهم بما يسوء.

{ وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حتّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً } [6].

الابتلاء: هنا هو اختبار تصرّف اليتيم في المال باتفاق العلماء. والابتلاء لأجل تسليم المال، فقد تقرّر أنّ مفهوم الغاية مراد منه لازمه وأثره، وهو تسليم الموال.

بلوغ النكاح: على حذف مضاف، أي بلوغ وقت النكاح، أي: التزوّج، وهو كناية عن الخروج من حالة الصبا للذكر والأنثى.

{ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً } شرط ثان مقيّد للشرط الأول المستفاد من { إذا بلغوا }.

وجاءت الآية على هذا التركيب لتدلّ على أن انتهاء الحجر إلى البلوغ بالأصالة، ولكن يشترط أن يعرف من المحجور الرشد، وكل ذلك قطع لمعاذير الأوصياء من أن يمسكوا أموال محاجيرهم عندهم لزيادة التمتّع بها.

إيناس الرشد: هنا علمه، أطلق على أوّل ما يتبادر من العلم { آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً } [القصص:29]. وكأنّ اختيار { آنستم } هنا دون علمتم للإشارة إلى أنّه إن حصل أوّل العلم برشدهم يدفع إليهم مالهم دون تراخ ولا مطل.

الرّشد: (بضم الراء وسكون الشين، وتفتح الراء فيفتح الشين) ، وهما مترادفان، وهو انتظام تصرّف العقل، وصدور الأفعال عن ذلك بانتظام، وأريد به هنا حفظ المال وحسن التدبير.

قيل المخاطب في الآية الأوصياء، فيكون مقتضى الآية أنّ الأوصياء هم الذين يتولّون ذلك. وقال اللخمي: " من أقامه الأب والقاضي لا يقبل قوله بترشيد المحجور إلّا بعد الكشف، لفساد النّاس اليوم". وقال ابن عطية: " والصواب في أوصياء زماننا أن لا يُستغنى عن رفعهم إلى السلطان وثبوت الرشد عنده ".

وعندي أنّ الخطاب في مثله لعموم الأمّة، ويتولّى تنفيذه من إليه تنفيذ ذلك الباب من الولاّة، كشأن خطابات القرآن الواردة لجماعة غير معيّنين، ولا شك أنّ الذي إليه تنفيذ أمور المحاجير والأوصياء هو القاضي، ويحصل المطلوب بلا كلفة.

والآية أيضا صريحة في أنّه إذا لم يحصل الشرطان معا (البلوغ والرشد) لا يدفع المال للمحجور. واتفق على ذلك عامة علماء الإسلام، فمن لم يكن رشيدا بعد بلوغه يستمر عله الحجر، و خالف أبو حنيفة.

ودلّت الآية بحكم القياس على أنّ من طرأ عليه السفه وهو بالغ، أو أختل عقله لأجل مرض في فكره، أو لأجل خرف من شدّة الكبر، أنّه يحجّر عليه إذ علّة التحجير ثابتة.

{ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا } تأكيد للنهي عن أكل أموال اليتامى الذي تقدّم، وتفضيح لحيلة

كانوا يحتالونها قبل بلوغ اليتامى أشدَّهم: وهي أن يتعجّل الأولياء استهلاك أموال اليتامى قبل أن يتهيّئوا لمطالبتهم ومحاسبتهم، فيأكلوها بالإسراف في الإنفاق.

البدار: مصدر بادره، وهو مفاعلة من البدر، وهو العجلة إلى الشيء ، وبادره عاجله. والمفاعلة هنا قصد منها تمثيل هيئة الأولياء في إسرافهم في أكل أموال محاجيرهم، كأنّ المحجور يسرع إلى البلوغ ليأخذ ماله، والوصي يسرع إلى أكله لكيلا يجد اليتيم ما يأخذ منه.

{ **وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ** } تخصيص لعموم النهي عن أكل أموال اليتامى في الآيتين السابقتين للترخيص في ضرب من ضروب الأكل، وهو أن يأكل الوصي الفقير من مال محجوره بالمعروف. وقد أرشد إلى ذلك حديث أبي داود: أنّ رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " إني فقير وليس لي شيء" قال: **" كل من مال يتيمك غير مسرف ولا مبادر ولا متأثّل ".**

[قَالَ الْخَطَّابِيُّ : أَيْ غَيْر مُتَّخِذ مِنْهُ أَصْل مَال، وَأَثْلَة الشَّيْء أَصْله].

ولذلك قال المالكية: يأخذ الوصيّ بقدر أجرة مثله، وقال عمر بن الخطاب، وابن عباس، وأبو عبيدة، وابن جبير، والشعبي، ومجاهد: إنّ الله أذن في القرض لا غير. قال عمر إنّي نزّلت نفسي من مال الله منزلة الوصي من مال اليتم، إن استغنيت استعففت وإن احتجت أكلت بالمعروف، فإذا أيسرت قضيت. وقال عطاء، وإبراهيم: لا قضاء على الوصي إن أيسر.

ثم اختلفوا في الوصيّ الغني هل يأخذ أجر مثله على عمله بناء على الخلاف في أنّ الأمر في قوله تعالى { فليستعفف } للوجوب أو للندب، فمن قال للوجوب قال: لا يأكل الغني شيئا. ومن قال الأمر للندب قال: يأخذ أجر مثله إذا كان له عمل وخدمة، أمّا إذا كان عمله مجرّد التفقّد لليتيم والإشراف عليه فلا أجر له.

{ **فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً** } هو أمر بالإشهاد عند الدفع، ليظهر جليّا ما يسلّمه الأوصياء لمحاجيرهم، حتّى يمكن الرجوع عليهم، وفيه براءة للأوصياء أيضا من دعاوي المحاجير من بعد. وحسبك بهذا التشريع قطعا للخصومات.

والأمر هنا يحتمل الوجوب ويحتمل الندب، وبكلٍّ قالت طائفة من العلماء.

{ **وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً** } تذييل لهذه الأحكام كلّها، لأنّها وصيّات وتحريضات فوكّل الأمر فيها إلى مراقبة الله تعالى. و**الحسيب**: المحاسب

{ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً } [7].

استئناف ابتدائي وكالمقدّمة لأحكام المواريث. والمناسبة، أنّهم كانوا قد اعتادوا إيثار الأقوياء والأشدّاء بالأموال، وحرمان الضعفاء حتّى يكونوا في مَقَادتهم، فكان الأولياء يمنعون عن محاجيرهم أموالهم، وكان أكبر العائلة يحرم إخوته من الميراث معه فكان لضعفهم يصبرون على الحرمان.

وأخصّ النّاس بذلك النّساء فإنهنّ يجدن ضعفا من أنفسهنّ، ويخشين عار الضيعة، ويتّقين انحراف الأزواج، فيتخذنّ رضا أوليائهن عدّة لهن من حوادث الدهر، فلمّا أمرهم الله أن يؤتوا اليتامى أموالهم، أمرهم، عقبه، بأن يجعلوا للرجال والنّساء نصيبا ممّا ترك الوالدان والأقربون.

ولا جرم أنّ أهم شرائع الإسلام الميراث، فقد كانت العرب في الجاهليّة يجعلون أموالهم بالوصيّة لعظماء القبائل ومن تلحقهم بالانتساب إليهم حسن الأحدوثة، وتجمعهم بهم صلات الحلف أو الاعتزاز والودّ، وكانوا إذا لم يوصوا، أو تركوا بعض مالهم بلا وصية، يصرف لأبناء الميت الذكور، فإن لم يكن له ذكور فقد حكي أنّهم يصرفونه إلى عصبة من أخوات وأبناء عم، ولا تعطى بناته شيئا، أمّا الزوجات فكنّ موروثات لا وارثات. وكانوا لا يورّثون بالبنوّة إلاّ إذا كان الأبناء ذكورا، فلا ميراث للنساء لأنّهم كانوا يقولون إنّما يرث أموالنا من طاعن بالرمح، وضرب بالسيف. وكانوا يورّثون بالتبني وهو أن يتّخذ الرجل ابن غيره ابنا له فتنعقد بين المتبنِّي والمتبنَّى جميع أحكام الأبوّة. ويورّثون أيضا بالحلف، وهو أن يرغب رجلان في الخلّة بينهما فيتعاقدا أنّ دمهما واحد ويتوارثان.

فلما جاء الإسلام لم يقع في مكّة تغيير لأحكام الميراث بين المسلمين لتعذّر تنفيذ ما يخالف أحكام سكّانها، ثم لمّا هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وبقي معظم أقارب المهاجرين المشركون بمكّة صار التوريث بالهجرة، فالمهاجر يرث المهاجر، وبالحلف، وبالمعاقدة، وبالأخوّة التي آخاها الرسول عليه الصلاة والسلام بين المهاجرين والأنصار، ونزل في ذلك قوله تعالى { وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ } [النّساء:33]. وشرع الله وجوب الوصيّة للوالدين والأقربين بآية سورة البقرة، ثم توالد المسلمون ولحق بهم آباؤهم وأبناؤهم مؤمنين، فشرع الله الميراث بالقرابة، وجعل للنّساء حظوظا في ذلك، فأتمّ الكلمة وأسبغ النعمة، وأومأ إلى أنّ حكمة الميراث صرف المال إلى القرابة بالولادة وما دونها.

{ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ } أوّل إعطاء لحقّ الإرث للنّساء في العرب.

ولكون هذه الآية كالمقدّمة جاءت بإجمال الحق والنصيب في الميراث، لقصد تهيئة النفوس.

روى الواحدي في (أسباب النزول) والطبري، عن عكرمة: " أنّ أوس بن ثابت الأنصاري توفي وترك امرأة يقال لها أم كُحَّة [بضم الكاف وتشديد الحاء لغة في القحّة وهي الخالصة] فجاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: " إنّ زوجي قُتل معك يوم أحد وهاتان بنتاه وقد استوفى عمّهما مالهما، فما ترى يا رسول الله؟ فوالله ما تنكحان أبدا إلّا ولهما مال "، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " **يقضي الله في ذلك** "، فنزلت سورة النّساء وفيها { يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ } [النّساء:11]. قال جابر بن عبد الله: فقال لي رسول الله: " **ادع لي المرأة وصاحبها**" فقال لعمّهما:" **أعطهما الثلثين وأعط أمّهما الثمن وما بقي فلك**".

النصيب: تقدّم عند قوله { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ } [آل عمران:23].

{ مِمَّا تَرَكَ } بيان لما ترك لقصد تعميم ما ترك الوالدان والأقربون وتنصيص على أنّ الحقّ متعلّق بكل

جزء من المال، حتّى لا يستأثر بعضهم بشيء.

{ **نَصِيباً مَفْرُوضاً** } ومعنى كونه مفروضا أنّه معيّن المقدار لكلّ صنف من الرجال والنّساء. وهذا أوضح دليل على أنّ المقصود بهذه الآية تشريع المواريث.

{ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً } [8].

معطوفة على جملة { لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ }. وهذا أمر بعطيّة تعطى من الأموال الموروثة. أمر الورثة أن يسهموا لمن يحضر القسمة من ذوي قرابتهم غير الذين لهم حقّ في الإرث، ممّن شأنهم أن يحضروا مجالس الفصل بين الأقرباء.

{ **فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ** } الأمر محمول عند جمهور أهل العلم على الندب من أوّل الأمر، إذ ليس في الصدقات الواجبة غير الزكاة، لأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال للأعرابي لمّا قال له: هل عليّ غيرها؟، قال له: **" لا إلّا أن تطوع "**. وبهذا قال مالك وأبو حنيفة وفقهاء الأمصار، وجعلوا المخاطب بقوله { فارزقوهم } الورثة المالكين أمر أنفسهم، والآية عند هؤلاء محكمة غير منسوخة.

وذهب فريق من أهل العلم إلى حمل الأمر على الوجوب. فعن ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، والزهري، وعطاء، والحسن، والشعبي: أنّ ذلك حقّ واجب على الورثة. وعن أبن عباس أيضا، وزيد بن أسلم: أنّ الأمر موجّه إلى صاحب المال في الوصيّة التي كانت مفروضة قبل شرع الميراث واجب عليه أن يجعل في وصيته شيئا لمن يحضر وصيته من أولي القربى واليتامى والمساكين غير الذين أوصى لهم، وأنّ ذلك نسخ تبعا لنسخ وجوب الوصية.وما ذهب إليه جمهور أهل العلم هو التأويل الصحيح.

{ **وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً** } أي: قولا حسنا وهو ضدّ المنكر، تسلية لبعضهم على ما حرموا منه من مال الميّت.

{ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً } [9].

موعظة لكلّ من أُمر أو نُهي أو حُذِّر أو رُغِّب في الآي السابقة، في شأن أموال اليتامى وأموال الضعفاء من النّساء والصبيان. فابتدِئَت الموعظة بالأمر بخشية الله تعالى، ثم أعقب بإثارة شفقة الآباء على ذرّيّتهم بأن ينزلوا أنفسهم منزلة الموروثين، وينزلوا ذرّيّاتهم منزلة الذريّة الذين أكلوا هم حقوقهم. وهذه الموعظة مبنيّة على قياس قول النبيّ صلى الله عليه وسلم **" لا يؤمن أحدكم حتّى يحبّ لأخيه ما يحب لنفسه "**.

وزاد، إثارة للشفقة، التنبيهَ على أنّ المعتدى عليهم خلق ضعاف. ثمّ أعقب بالرجوع إلى الغرض المنتقل منه وهو حفظ أموال اليتامى، بالتهديد على أكله بعذاب الآخرة بعد التهديد بسوء الحال في الدنيا.

{ **وَلْيَخْشَ** } الأظهر أنّ المفعل حذف لتذهب نفس السامع في تقديره كلّ مذهب محتمل، فينظر كل سامع بحسب الأهم عنده ممّا يخشاه أن يصيب ذريته.

{ **لَوْ تَرَكُوا** } ووجه اختيار (لو) هنا من بين أدوات الشرط أنّها هي الأداة الصالحة لفرض الشرط من غير تعرّض لإمكانه، فيصدق معها الشرط المتعذّر الوقوع والمُسْتَبْعَدَهُ والمُمْكِنُهُ. فالذين بلغوا اليأس من الولادة، ولهم أولاد كبار أو لا أولاد لهم، يدخلون في فرض هذا الشرط لأنّهم لو كان لهم أولاد صغار لخافوا عليهم، والذين لهم أولاد صغار أمرهم أظهر. فالمعنى: لو شارفوا أن يتركوا ذريّة ضعافا لخافوا عليهم من أولياء السوء.

والمخاطب بالأمر من يصلح له من الأصناف المتقدمة؛ من الأوصياء، ومن الرجال الذين يحرمون النّساء ميراثهم، ويحرمون صغار إخوتهم أو أبناء إخوتهم وأبناء أعمامهم من ميراث آبائهم، كلّ أولئك داخل في الأمر بالخشية، والتخويف بالموعظة.

وفي الآية ما يبعث النّاس كلّهم على أن يغضبوا للحقّ من الظلم، وأن يأخذوا على أيدي أولياء السوء، وأن يحرسوا أموال اليتامى ويبلّغوا حقوق الضعفاء إليهم.

الذرية: تقدّم تفسيرها عند قوله تعالى { ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ } [آل عمران:34].

{ **فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً** } فُرّع الأمر بالتقوى على الأمر بالخشية وإن كانا أمرين متقاربين، لأنّ الأمر الأوّل لما عُضّد بالحجّة اعتبر كالحاصل فصح التفريع عليه. والمعنى: فليتقوا الله في أموال النّاس وليحسنوا إليهم القول.

{ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً } [10].

جملة معترضة تفيد تكرير التحذير من أكل مال اليتامى، جرّته مناسبة التعرّض لقسمة أموال الأموات، فقلما يخلوا ميّت عن ورثة صغار، وهو مُؤذن بشدّة عناية الشارع بهذا الغرض، فلذلك عاد إليه بهذه المناسبة.

{ **ظلما** } حال من { يأكلون } مقيّدة ليخرج الأكل المأذون فيه كقوله { وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ}.

{ **إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً** } يجوز أن يكون مرادا بها نار جهنّم، كما هو الغالب في القرآن، فالمعنى أنّهم حين يأكلون أموال اليتامى قد أكلوا ما يفضي بهم إلى جهنّم.

ويجوز أن يكون اسم النّار مستعارا للألم، بمعنى أسباب الألم، فيكون تهديدا بعذاب دنيوي، والمعنى، إنّما يأخذون أموالا هي سبب في مصائب تعتريهم في ذواتهم وأموالهم.

{ **وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً** } جاريا على ظاهر العطف من اقتضاء المغايرة بين المتعاطفين، فالجملة الأولى تهديد بعذاب في الدنيا، والجملة الثانية وعيد بعذاب الآخرة.

يصلون: مضارع صَلِيَ كرضي، إذا قاسى حرّ النار بشدّة.

{ **والسعير** } النّار المسعَّرة، أي: الملتهبة

{ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً } [11].

{ **يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ** } من الاهتمام بهذه الأحكام تصدير تشريعها بهذا القول، لأنّ الوصاية هي الأمر بما فيه نفع المأمور، وفيه اهتمام الآمر لشدّة صلاحه، ولذلك سُمِّي ما يعهد به الإنسان، فيما يصنع بأبنائه وبماله وبذاته بعد الموت، وصيّة.

وقد رويت في سبب نزول الآية أحاديث كثيرة. ففي صحيح البخاري، عن جابر بن عبد الله أنّه قال : " مرضت فعادني رسول الله وأبو بكر في بني سلمة فوجداني لا أعقل فدعا رسول الله بماء فتوضأ، ثم رش عليّ منه فأفقت فقلت: كيف أصنع في مالي يا رسول الله فنزلت { يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ }.

وتقدّم سابقا حديث جابر في امرأة سعد بن الربيع [رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه].

بيّن الله في هذه الآيات فروض الورثة، وناط الميراث كلّه بالقرابة القريبة، سواء كانت جبليّة وهي النسب، أو قريبة من الجبليّة، وهي عصمة الزوجيّة. وبيّن أهل الفروض ولم يبيّن مرجع المال بعد إعطاء أهل الفروض فروضهم، وذلك لأنّه تركه على المتعارف عندهم قبل الإسلام من احتواء أقرب العصبة على مال الميّت، وقد بيّن هذا المقصد قول النبيّ صلى الله عليه وسلم " **ألحِقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأَوْلَى رجل ذكر**". ألا ترى قوله تعالى بعد هذا { فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ } فلم يبيّن حظ الأب، لأنّ الأب في تلك الحالة قد رجع إلى حالته المقرّرة، وهي احتواء المال فاحتيج إلى ذكر فرض الأم.

وابتدأ الله تعالى بميراث الأبناء لأنّهم أقرب الناس.

الأولاد: اسم للابن ذكرا كان أو أنثى، ويطلق على الواحد وعلى الجماعة من الأولاد، والوارد في القرآن بمعنى الواحد وجمعه أولاد.

{ **في** } هنا للظرفية المجازية، وتقديره: في إرث أولادكم.

{ **لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ** } بيان لجملة { يوصيكم }. جعل حظ الأنثيين هو المقدار الذي يُقدَّر به حظ الذكر، ولم يكن قد تقدّم تعيين حظ للأنثيين حتّى يقدَّر به، فعلم أنّ المراد تضعيف حظ الذكر من الأولاد على حظ الأنثى منهم، وقد كان هذا المراد صالحا لأن يؤدي بنحو: للأنثى نصف حظ ذكر، أو للأنثيين مثل حظ ذكر، إذ ليس المقصود إلّا بيان المضاعفة. ولكن قد أوثر هذا التعبير لنكتة لطيفة وهي الإيماء إلى أنّ حظ الأنثى صار في اعتبار الشرع أهمّ من حظ الذكر، إذ كانت مهضومة الجانب عند أهل الجاهليّة فصار الإسلام ينادي بحظّها في أوّل ما يقرع الأسماع.

{ **فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ** } صريحة في أنّ الثلثين لا يعطيان إلّا للبنات الثلاث فصاعدا لأنّ تقسيم الأنصباء لا ينتقل فيه من مقدار إلى مقدار أزيد منه إلّا عند انتهاء من يستحق المقدار الأول. ولمّا أعقبه بقوله { وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ }، بقي ميراث البنتين المنفردتين غير منصوص في الآية، فألحقها الجمهور بالثلاثة لأنّهما أكثر من واحدة. وأحسن ما وجِّه به ذلك، ما قاله القاضي إسماعيل بن إسحاق: " إذا كانت البنت تأخذ مع أخيها إذا انفرد الثلث فأحرى أن تأخذ الثلث مع أختها "، يعني أنّ كل واحدة من البنتين هي مقارنة لأختها الأخرى فلا يكون حظّها مع أخت أنثى أقل من حظها مع أخ ذكر، فإن الذكر أولى بتوفير نصيبه.

قال ابن عطية: وقد أجمع النّاس في الأمصار والأعصار على أنّ للبنتين الثلثين، أي: وهذا الإجماع مستند لسنّة عرفوها. وردّ القرطبي دعوى الإجماع بأنّ ابن عباس صحّ عنه أنّه أعطى البنتين النصف.

قلت: لعلّ الإجماع انعقد بعدما أعطى ابن عباس البنتين النصف، على أنّ اختلال الإجماع لمخالفة واحد، مختلف فيه، أمّا حديث امرأة سعد ابن الربيع المتقدّم فلا يصلح للفصل في هذا الخلاف، لأنّ في روايته اختلافا هل ترك بنتين أو ثلاثا.

{ **أولادكم** } صيغة عموم لأنّ (أولاد) جمع معرّف بالإضافة، والجمع المعرف الإضافة من صيغ العموم، وهذا العموم، خصّصه أربعة أشياء:

الأول: خُصّ منه عند أهل السنّة النبيّ صلى الله عليه وسلم لما رواه عنه أبو بكر أنّه قال **" لا نورَثُ ما تركنا صدقة "** ووافقه عليه عمر بن الخطاب وجميع الصحابة وأمّهات المؤمنين. وصحّ أنّ عليا رضي الله عنه وافق عليه في مجلس عمر بن الخطاب ومن حضر من الصحابة كما في الصحيحين.

الثاني: اختلاف الدين بالإسلام وغيره ، وقد أجمع المسلمون على أنّه لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم.

الثالث: قاتل العمد لا يرث قريبه في شيء.
الرابع: قاتل الخطأ لا يرث من الديّة شيئا.

{ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ }

{ **وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ** } زاده للدلالة على الاقتصار، أي: لا غيرهما، ليعلم من قوله { فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ } أنّ للأب الثلثين، فإن كان مع الأم صاحب فرض لا تحجبه كان على فرضه معها وهي على فرضها. واختلفوا في زوجة وأبوين وزوج وأبوين: فقال أبن عباس: للزوج أو الزوجة فرضهما وللأم ثلثها وما بقي للأب، حملا على قاعدة تعدّد أهل الفروض، وقال زيد بن ثابت: لأحد الزوجين فرضه وللأم ثلث ما بقي، وما بقي للأب، لئلّا تأخذ الأمّ أكثر من الأب في صورة زوج وأبوين، وعلى قول زيد ذهب جمهور العلماء. وفي سنن ابن أبي شيبة: أنّ ابن عباس أرسل إلى زيد أين تجد كتاب الله ثلث ما بقي؟ فأجاب زيد: إنّما أنت رجل تقول برأيك وأنا أقول برأيي.

وقد علم أنّ للأب مع الأم الثلثين، وترك ذكره لأنّ مبنى الفرائض على أنّ ما بقي بدون فرض يرجع إلى أصل العصابة عند العرب.

{ **فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ** } أي: إن كان إخوة مع الأبوين، وهو صريح في أنّ الإخوة يحجبون الأم فينقلونها من الثلث إلى السدس. والمذكور في الآية صيغة جمع فهي ظاهرة في أنّها لا ينقلها إلى السدس إلّا جماعة من الإخوة، ثلاثة فصاعدا ذكورا أو مختلطين. وقد اختلف فيما دون الجمع، وما إذا كان الإخوة إناثا: فقال الجمهور الأخوان يحجبان الأم، والأختان أيضا، وخالفهم ابن عباس أخذا بظاهر الآية. أمّا الأخ الواحد أو الأخت فلا يحجب الأم والله أعلم بحكمة ذلك.

واختلفوا في السدس الذي يحجب الإخوة عنه الأم: هل يأخذه الإخوة أم يأخذه الأب، فقال بالأوّل ابن عباس رضي الله عنه وهو أظهر، وقال بالثاني الجمهور بناء على أنّ الحاجب قد يكون محجوبا. وكيفما كان فقد اعتبر الله للأخوة حظا مع وجود الأبوين في حالة خاصة، ولو كان الإخوة مع الأم ولم يكن أب لكان للأم السدس وللأخوة بقية المال باتفاق، وربما كان في هذا تعضيد لابن عباس.

{ **مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ** } المقصد هنا التنبيه على أهميّة الوصية وتقدّمها.

{ **يُوصِي بِهَا** } لئلا يتوهّم أنّ المراد الوصيّة التي كانت مفروضة قبل شرع الفرائض، وهي التي في قوله { كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ } [البقرة:180].

{ **أو دين** } موقع عطف موقع الاحتراس، ولأجل هذا الاهتمام كرّر الله هذا القيد أربع مرات.وإنّما ذكر الدين بعد الوصيّة تتميما لما يتعيّن تقديمه على الميراث مع علم السامعين أنّ الدين يتقدّم على الوصيّة أيضا، لأنّه حق سابق في مال الميت، لأنّ المدين لا يملك من ماله إلّا ما هو فاضل عن دين دائنه.

{ **آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً** } تعريض بمسألة النفع التي كانت مدار الاعتبار في التوريث في الجاهليّة.

{ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ } [12].

{ **وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ** }.

هذه فريضة الميراث الذي سببه العصمة، وقد أعطاها الله حقّها المهجور عند الجاهليّة، إذ كانوا لا يورّثون الزوجين: أمّا الرجل فلا يرث امرأته لأنّها إن لم يكن لها أولاد منه، فهو قد صار بموتها بمنزلة الأجنبي عن قرابتها من آباء وإخوة وأعمام، وإن كان لها أولاد كان أولادها أحقّ بميراثها إن كانوا كبارا، فإن كانوا صغارا قبض أقرباؤهم مالهم وتصرّفوا فيه، وأمّا المرأة فلا ترث زوجها، بل كانت تعدّ موروثة عنه يتصرّف فيها ورثته كما سيجيء في قوله { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النّساء كَرْهاً }. فنوّه الله في هذه الآية بصلة العصمة، وهي التي وصفها بالميثاق الغليظ في قوله تعالى { وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً } النّساء:21]

{ **أزواجكم** } كالجمع في الأولاد والآباء، مراد به أفراد الوارثين من الأمّة، وهاهنا قد اتفقت الأمّة على أنّ الرجل إذا كانت له زوجات يشتركن في الربع أو في الثمن من غير زيادة لهنّ، لأنّ تعدّد الزوجات بيد صاحب المال، فكان تعدّدهن وسيلة لإدخال المضرّة على الورثة الآخرين بخلاف تعدّد البنات والأخوات فإنّه لا خيار فيه لرب المال. والمعنى: ولكلّ واحد منكم نصف ما تركت كل زوجة من أزواجه وكذلك قوله { فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ }.

{ **وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ** } أي لمجموعهنّ الربع ممّا ترك زوجهن. وكذلك قوله تعالى { **فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ** } وهذا حذق يدلّ عليه إيجاز الكلام.

{ **مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ** } لئلا يتوهّم متوهّم أنّهنّ ممنوعات من الإيصاء ومن التداين كما كان الحال في زمان الجاهليّة. وأمّا ذكر تلك الجملة عقب ذكر ميراث النّساء من رجالهن فجريا على

الأسلوب المتّبع في هذه الآيات، وهو يعقب كل صنف من الفرائض بالتنبيه على أنه لا يُستحق إلاّ بعد إخراج الوصيّة وقضاء الدين.

{ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ }

بعد أن بيّن ميراث ذي الأولاد أو الوالدين وفصّله في أحواله حتّى حالة ميراث الزوجين، انتقل هنا إلى ميراث من ليس له ولد ولا والد، هو الموروث كلالة، ولذلك قابل بها ميراث الأبوين.

الكلالة: اسم للكلال وهو التعب والإعياء. ووصفت العرب بالكلالة القرابة غير القربى، كأنّهم جعلوا وصوله لنسب قريبه عن بعد، فأطلقوا عليه الكلالة على طريق الكناية.

ثم أطلقوه على إرث البعيد، وأحسب أنّ ذلك من مصطلح القرآن إذ لم أره في كلام العرب إلاّ ما بعد نزول الآية. ومنه قولهم: ورث المجد كلالة.

وقد عدّ الصحابة معنى الكلالة هنا من مشكل القرآن حتّى قال عمر بن الخطاب: " ثلاث لأن يكون رسول الله بيّنهم أحب إلي من الدنيا: الكلالة، والربا، والخلافة ". وقال أبو بكر: " أقول فيها برأيي، فإن كان صوابا فمن الله وإن كان خطأ فمنّي ومن الشيطان والله منه بريء، الكلالة ما خلا الولد والوالد ". وهذا قول عمر، وعلي، وابن عباس، وقال به الزهري، وقتادة والشعبي، وهو قول الجمهور، وحكي الإجماع عليه. وذكْرها (الكلالة) بعد ميراث الأولاد والأبوين مؤذن بأنّها حالة مخالفة للحالين.

{ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ } يتعيّن على قول الجمهور في معنى الكلالة أن يكون المراد بهما الأخ والأخت للأم خاصة لأنّه إذا كان الميت لا ولد له ولا والد وقلنا له أخ أو أخت وجعلنا لكل واحد منهما السدس نعلم بحكم ما يشبه دلالة الاقتضاء أنّهما الأخ للأم لأنهما لمّا كانت نهاية حظهما الثلث فقد بقي الثلثان فلو كان الأخ والأخت هما الشقيقين أو الذين للأب لاقتضى أنّهما أخذا أقل المال وترك الباقي لغيرهما وهل يكون غيرهما أقرب منهما فتعيّن أنّ الأخ والأخت مراد بهما اللذان للأمّ خاصة ليكون الثلثان للإخوة الأشقاء أو الأعمام أو بني الأعمام.

وقد أثبت الله بهذا فرضا للإخوة للأمّ إبطالا لما كان عليه أهل الجاهليّة من إلغاء جانب الأمومة أصلا، لأنّه جانب نساء ولم يحتج للتنبيه على مصير بقية المال لما قدّمنا بيانه آنفا من أنّ الله تعالى أحال أمر العصابة على ما هو متعارف بين من نزل فيهم القرآن. وقد ذكر الله تعالى الكلالة في آخر السورة بصورة أخرى سنتعرّض لها.

{ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ }

{ مضارّ }، الأظهر أنّه اسم فاعل بتقدير كسر الراء الأولى المدغمة، أي: غير مضار ورثته بإكثار الوصايا، وهو نهي عن أن يقصد من وصيّته الإضرار بالورثة. والإضرار منه ما حدّده الشرع، وهو أن يتجاوز الموصي بوصيّته ثلث ماله وقد حدّده النبيّ صلى الله عليه وسلم بقوله لسعد بن أبي وقاص:

"الثلث، والثلث كثير". ومنه ما يحصل بقصد الموصي بوصيّته الإضرار بالوارث ولا يقصد القربة بوصيّته، وهذا هو المراد من قوله تعالى { غَيْرَ مُضَارٍّ }.

ولمّا كانت نيّة الموصي وقصده الإضرار لا يُطّلع عليه فهو موكول لدينه وخشية ربّه. فإنّ ما يدلّ على قصده الإضرار دلالة واضحة، فالوجه أن تكون تلك الوصية باطلة لأنّ قوله تعالى { غَيْرَ مُضَارٍّ } هي عن الإضرار، والنهي يقتضي فساد المنهي عنه.

ويتعيّن أن يكون هذا القيد للمطلق في الآي الثلاث المتقدّمة من قوله { مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ } ، لأنّ هذه المطلقات متّحدة الحكم والسبب. فيحمل المطلق منها على المقيّد كما تقرّر في الأصول.

وحكى ابن عطيّة عن مذهب مالك وابن القاسم أنّ قصد المضارة في الثلث لا تُردّ به الوصيّة لأنّ الثلث حق جعله الله له فهو على الإباحة في التصرّف فيه. ونازعه ابن عرفة في أنّ قصد الإضرار يوجب ردّ الوصيّة.، وبحث ابن عرفة مكين. وفي شرح ابن ناجي على تهذيب المدونة أنّ قصد الإضرار بالوصية في أقل من الثلث لا يوهن الوصية على الصحيح. وبه الفتوى.

{ **وصيّة** } منصوب على أنّه مفعول مطلق جاء بدلا من فعله، والتقدير: يوصيكم الله بذلك وصيّة منه، فهو ختم للأحكام بمثل ما بدئت بقوله { يُوصِيكُمُ اللَّهُ } وهذا من ردّ العجز على الصدر.

{ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ** } تذييل، وذكر وصف العلم والحلم هنا لمناسبة أنّ الأحكام المتقدّمة إبطال لكثير من أحكام الجاهليّة، وقد كانوا شرعوا مواريثهم تشريعا مثاره الجهل والقساوة. فإنّ حرمان البنت والأخ للأم من الإرث جهل بأنّ صلة النسبة من جانب الأم مماثلة لصلة نسبة جانب الأب، فهذا ونحوه جهل. وحرمانهم الصغار من الميراث قساوة منهم.

وقد بيّنت الآيات في هذه السورة الميراث وانصباءه بين أهل أصول النسب وفروعه وأطرافه وعصمة الزوجيّة، وسكتت عما عدا ذلك من العصبة وذوي الأرحام وموالي العتاقة وموالي الحلف، وقد أشار قوله تعالى { وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ } [الأنفال:75] وقوله { وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ } [الأحزاب:6] إلى ما أخذ منه كثير من الفقهاء توريث ذوي الأرحام. وأشار قوله الآتي قريبا { وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ } [33] إلى ما يؤخذ منه التوريث بالولاء على الإجمال كما سنبيّنه، وبيّن النبيّ صلى الله عليه وسلم توريث العصبة بما رواه أهل الصحيح عن ابن عباس أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: **" ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فهو لأَوْلى رجل ذكر "**، وما رواه الخمسة، غير النسائي، عن أبي هريرة، أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: **" أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن مات وترك مالا فماله لموالي العصبة ومن ترك كلا أو ضياعا فأنا وليّه "**، وسنفصّل القول في ذلك في مواضعه المذكورة.

{ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [13] وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ [14] }.

{ **تِلْكَ** } الإشارة إلى المعاني والجمل المتقدّمة.

الحدود: جمع حدّ، وهو طرف المكان الذي يميّزه، وهنا مجازا في العمل الذي لا تحلّ مخالفته.

{ **وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** } هو الذي يتابع حدوده ويلتزمها، كما دلّ عليه مقابله { ويتعد حدوده }.

{ **وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ** } أريد من عصيان الله ورسوله، العصيان الأتمُّ، وهو نبذ الإيمان، لأنّ القوم يومئذ كانوا قد دخلوا في الإيمان ونبذوا الكفر، فكانوا حريصين على العمل بوصايا الإسلام، فما يخالف ذلك إلّا من كان غير ثابت الإيمان.

{ **خَالِداً فِيهَا** } استعمل الخلود في طول المدّة.

{ **وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ** } تقسيم، لأنّ العصيان أنواع: منه ما يوجب الخلود، ومنه ما يوجب العذاب المهين، وقرينة ذلك أن عطف { وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ } على الخلود في النار لا يُحتاج إليه إذا لم يكن مرادا به التقسيم، فيضطر إلى جعله زيادة توكيد، أو تقول إن محط العطف هو وصفه بالمهين لأن العرب أباة الضيم، شم الأنوف.

وقرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر { ندخله } في الموضعين هنا بنون العظمة، وقرأ الجمهور بياء الغيبة والضمير عائد إلى اسم الجلالة.

{ وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حتّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً [15] وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا [16] }.

موقع هذه الآية في هذه السورة معضل، وافتتاحها بواو العطف أعضل، لاقتضائه اتصالها بكلام قبلها. وقد جاء حدّ الزنا في سورة النور، وهي نازلة في سنة ست بعد غزوة بني المصطلق على الصحيح، والحكم الثابت في سورة النور أشدّ من العقوبة المذكورة هنا، ولا جائز أن يكون الحدّ الذي في سورة النور قد نسخ بما هنا لأنّه لا قائل به. فإذا مضينا على معتادنا في اعتبار الآي نازلة على ترتيبها في القراءة في سورها، قلنا إنّ هذه الآية نزلت في سورة النّساء عقب أحكام المواريث وحراسة أموال اليتامى، وجعلنا الواو عاطفة هذا الحكم على ما تقدّم من الآيات في أوّل السورة بما يتعلّق بمعاشرة النّساء، وجزمنا بأنّ أول هذه السورة نزل قبل أوّل سورة النور، وأنّ هذه العقوبة كانت مبدأ شرع العقوبة

على الزنا فتكون هاته الآية منسوخة بآية سورة النور لا محالة، كما يدل عليه قوله { أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً } قال ابن عطية: " أجمع العلماء على أنّ هاتين الآيتين منسوختان بآية الجلد في سورة النور ".

فإنّ الله لمّا ذكر أحكاما من النكاح إلى قوله { وَآتُوا النّساء صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً } وما النكاح إلاّ اجتماع الرجل والمرأة على معاشرة عمادها التأنّس والسكون إلى الأنثى، ناسب أن يعطف إلى ذكر أحكام اجتماع الرجل بالمرأة على غير الوجه المذكور فيه شرعا، وهو الزنا المعبّر عنه بالفاحشة.

ولم أقف على وقوع العمل بهاتين الآيتين قبل نسخهما.

فالزنا هو أن يقع شيء من تلك المعاشرة على غير الحال المعروف المأذون فيه، فلا جرم أن كان يختلف باختلاف أحوال الأمم والقبائل في خرق القوانين المجعولة لإباحة اختصاص الرجل بالمرأة.

ففي الجاهليّة كان طريق الاختصاص بالمرأة السبي أو الغارة أو التعويض أو رغبة في مصاهرة قوم ورغبتهم فيه أو إذن الرجل امرأته بأن تستبضع من رجل ولدا كما تقدّم.

وفي الإسلام بطلت الغارة وبطل الاستبضاع، ولذلك تجد الزنا لا يقع إلّا خفية لأنّه مخالفة لقوانين النّاس في نظامهم وأخلاقهم. وسمي الزنا الفاحشة لأنّه تجاوز الحدّ في الفساد.

الفحش: أصله الأمر الشديد الكراهية والذمّ، من فعل أو قول، أو حال.

{ **يأتين** } يفعلن، وأصل الإيتاء المجيء إلى شيء فاستعير هنا الإتيان لفعل شيء، وربّما قالوا: أتى بفاحشة وبمكروه كأنّه جاء مصاحبا له.

{ **من نسائكم** } عام مراد به نساء المسلمين.

{ **فاستشهدوا** } مخصوص بمن يهمّه الأمر من الأزواج. ويعتبر في الشهادة الموجبة للإمساك في البيوت ما يعتبر في شهادة الزنى لإقامة الحدّ.

{ **فأمسكوهنّ** } ضمير مخصوص بولاّة الأمور، لأنّ الإمساك المذكور سجن وهو حكم لا يتولّاه إلّا القضاة، وهم الذين ينظرون في قبول الشهادة فهذه عمومها مراد به الخصوص.

{ **فِي الْبُيُوتِ** } البيوت التي يعيّنها ولّاة الأمور لذلك. وليس المراد إمساكهن في بيوتهنّ بل يخرجن من بيوتهن إلى بيوت أخرى، إلّا إذا حوّلت بيت المسجونة إلى الوضع تحت نظر القاضي وحراسته.

{ **يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ** } يتقاضاهنّ، فالتوفّي في هذه الآية وارد على أصل معناه الحقيقي في اللغة.

{ **أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً** } أي حكما آخر. فالسبيل مستعار للأمر البيّن بمعنى العقاب المناسب تشبيها له بالطريق الجادة. وفي هذا إشارة إلى أنّ إمساكهن في البيوت زجر مؤقّت سيعقبه حكم شاف لما يجده النّاس في نفوسهم من السخط عليهنّ ممّا فعلن.

{ **وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا** } صنفان من الرجال، وهما صنف المحصّنين، وصنف غير المحصّنين منهم، وبذلك فسره ابن عباس في رواية مجاهد، وهو الوجه في تفسير الآية.

وقد اختلف أئمة الإسلام في كيفية انتزاع هذين العقوبتين من هذه الآية، وتفصيل كلّ ذلك في كتب الفقه.

{ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا [17] وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حتّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا [18] }.

استطراد جرّ إليه قوله { فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا }.

التوبة: تقدّم الكلام حول معناها في قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ } [آل عمران:90]

{ **إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ** } مجاز في تأكيد الوعد بقبولها، حتّى جعلت كالحقّ على الله. قال ابن عطيّة: " إخباره تعالى عن أشياء أوجبها على نفسه يقتضي وجوب تلك الأشياء سمعا وليس وجوبا ".

{ **لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ** } وقد تسلّط الحصر على الخبر { لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ }، وذكر له قيدان وهما { بجهالة } و{ من قريب }.

الجهالة: تطلق على سوء المعاملة وعلى الإقدام على العمل دون رويّة، وهي ما قابل الحلم، ولذلك تطلق الجهالة على الظلم. والمراد هنا ظلم النفس ، وذكر هذا القيد هنا لمجرّد تشويه عمل السوء. وليس المراد بالجهالة ما يطلق عليه اسم الجهل، وهو انتفاء العلم بما فعله، لأنّ ذلك لا يسمّى جهالة. وإنّما هو من معاني لفظ الجهل، ولو عمل أحد معصية وهو غير عالم بأنّها معصية لم يكن آثما ولا يجب عليه إلّا أن يتعلّم ذلك ويتجنبه.

{ **من قريب** } أي من زمن قريب من وقت عمل السوء. وتأوّل بعضهم بأنّ القريب هو ما قبل الاحتضار، وجعلوا قوله بعده { حتّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ } يبيّن المراد من معنى قريب.

واختلف المفسرون من السلف ومن بعدهم، في إعمال مفهوم القيدين بجهالة ومن قريب، حتّى قيل: إنّ حكم الآية منسوخ بآية { إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ } [النّساء:48]، والأكثر على أنّ قيد بجهالة كوصف كاشف لعمل السوء، لأنّ المراد عمل السوء مع الإيمان. فقد روى عبد الرزّاق عن قتادة قال: اجمع أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فرأوا أنّ كل عمل عُصي الله به فهو جهالة عمدا كان أو غيره.

والذي يظهر أنّهما قيدان ذُكرا للتنبيه على أنّ شأن المسلم أن يكون عمله جاريا على اعتبار مفهوم القيدين وليس مفهومهما بشرطين لقبول التوبة.

{ **فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ** } أي: هؤلاء هم الذين جعلهم الله مستحقّين قبول التوبة منهم، وهو تأكيد لقوله { إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ }.

{ **وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حتّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ** } تنبيه على نفي

القبول عن نوع من التوبة، وهي التي تكون عند اليأس من الحياة، لأنّ المقصد من العزم ترتّب آثاره عليه، وصلاح الحال في هذه الدار بالاستقامة الشرعيّة، فإذا وقع اليأس من الحياة ذهبت فائدة التوبة.
{ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ } لأنّ إيمان الكافر توبة من كفره، والإيمان أشرف أنواع التوبة، فبيّن أنّ الكافر إذا مات لا تقبل توبته من الكفر.
وللعلماء في تأويله قولان:
أحدهما، الأخذ بظاهره وهو أن لا يحول بين الكافر وبين قبول توبته من الكفر بالإيمان إلّا حصول الموت، ويؤخذ منه أنّه إذا آمن قبل أن يموت قُبل إيمانه، وهو الظاهر، فقد ثبت قي الصحيح: أنّ أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبيّ صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل، وعبد الله ابن أبي أميّة فقال: **" أي عم قل لا إله إلّا الله كلمة أحاج لك بها عند الله "**، فقال أبو جهل وعبد الله: أترغب من ملّة عبد المطلب. فكان آخر ما قال أبو طالب أنّه على ملّة عبد المطلب، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" لأستغفرنَّ لك ما لم أُنْهَ عنك "**. فنزلت { مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ } [التوبة:113]. وعليه فوجه مخالفة توبته لتوبة المؤمن العاصي أنّ الإيمان عمل قلبي، ونطق لساني، وقد حصل من الكافر التائب وهو حيّ، فدخل في جماعة المسلمين وتقوّى به جانبهم وفشت بإيمانه سمعة الإسلام بين أهل الكفر.
وثانيهما: أنّ الكافر والعاصي من المؤمنين سواء في عدم قبول التوبة مما هما عليه، إذا حضرهما الموت.
قال ابن الفرس، في أحكام القرآن: وإذا صحّت توبة العبد فإن كانت عن الكفر قطعنا بقبولها، وإن كانت عن سواه من المعاصي؛ فمن العلماء من يقطع بقبولها، ومنهم من لم يقطع ويظنّه ظنًّا ".

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النّساء كَرْهًا وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا } [19].
{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النّساء كَرْهًا } حكم تابع لإبطال ما كان عليه أهل الجاهليّة من جعل زوج الميّت موروثة عنه. خطاب عام يأخذ كلّ منه بحظّه؛ ورثة الميّت، وولّاة الأمور.
{ لا يحلّ } صيغة نهي صريح، لأنّ الحلّ هو الإباحة في لسان العرب ولسان الشريعة، فنفيه يرادف معنى التحريم.
{ أَنْ تَرِثُوا النّساء } تنزيل النّساء منزلة الأموال الموروثة لإفادة تبشيع الحالة التي كانوا عليها في الجاهليّة. أخرج البخاري، عن ابن عباس، قال: كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحقّ بامرأته إن شاء

بعضهم تزوّجها، وإن شاؤوا زوّجوها، وإن شاءوا لم يزوّجوها، فهم أحقّ بها من أهلها فنزلت هذا الآية. وعن مجاهد، والسدّي، والزهري كان الابن الأكبر أحقّ بزوج أبيه، إذا لم تكن أمّه، فإن لم يكن أبناء فولي الميّت إذا سبق فألقى على امرأة الميّت ثوبه فهو أحقّ بها، وإن سبقته فذهبت إلى أهلها كانت أحقّ بنفسها.

وقيل: نزلت الآية لمّا توفّي أبو قيس بن الأسلت رام ابنه أن يتزوّج امرأته كبشة بنت معن الأنصاريّة، فنزلت هذه الآية. قال أبن عطية: وكانت هذه السيرة لازمة في الأنصار، وكانت في قريش مباحة مع التراضي.

{ **كرها** } حالا من النّساء، أي: كارهات غير راضيات، حتّى يرضين بأن يكنّ أزواجا لمن يرضينه، مع مراعاة شروط النكاح، والخطاب على هذا الوجه لورثة الميّت.

وقد تكرّر هذا الإكراه بعوائدهم التي تمالؤوا عليها، بحيث لو رامت المرأة المحيد عنها، لأصبحت سبّة لها، ولما وجدت من ينصرها، وعلى هذا فالمراد بالنّساء الأزواج، أي أزواج الأموات.

ويجوز أن يكون فعل ترثوا مستعملا في حقيقته ومتعدّيا إلى الموروث فيفيد النهي عن أحوال كانت في الجاهليّة: منها أنّ الأولياء يعضلون النّساء ذات المال من التزوّج خشية أنّهنّ إذا تزوّجن يلدن فيرثهنّ أزواجهنّ وأولادهنّ ولم يكن للولي العاصب شيء من أموالهنّ، وهنّ يرغبن أن يتزوجن.

ومنها أنّ الأزواج كانوا يكرهون أزواجهم ويأبون أن يطلقوهنّ رغبة في أن يمتن عندهم فيرثوهنّ، فذلك إكراه لهن على البقاء على حالة الكراهيّة، إذ لا ترضى المرأة بذلك مختارة، وعلى هذا فالنّساء مراد به جمع امرأة.

{ **وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ** } عطف النهي على العضل على النهي عن إرث النّساء كرها لمناسبة التماثل في الإكراه، وفي أنّ متعلّقه سوء معاملة المرأة، وفي أنّ العضل لأجل أخذ مالهنّ.

العضل: منع المرأة أن تتزوّج، وقد تقدّم الكلام عليه { فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ } [البقرة:232] فإن كان النهي عنه في قوله { لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النّساء كَرْهاً } هو المعنى المتبادر من فعل ترثوا، وهو أخذ مال المرأة كرها عليها، فعطف { وَلا تَعْضُلُوهُنَّ } إمّا خاص على عام، إن أريد خصوص منع الأزواج نساءهم من الطلاق مع الكراهية، رغبة في بقاء المرأة عنده حتّى تموت فيرث منها مالها، أو عطف مباين إن أريد النهي عن منعها من الطلاق حتّى يلجئها إلى الافتداء منه ببعض ما آتاها، وأيّا ما كان، فإطلاق العضل على هذا الإمساك مجاز باعتبار المشابهة لأنّها كالتي لا زوج لها.

وإن كان المنهيّ عنه في قوله { لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النّساء } المعنى المجازي (لترثوا) وهو كون المرأة ميراثا، وهو ما كان يفعله أهل الجاهليّة في معاملة أزواج أقاربهم وهو الأظهر، فعطف { وَلا تَعْضُلُوهُنَّ} عطف حكم آخر من أحوال المعاملة، وهو النهي عن أن يعضل الوليّ المرأة من أن تتزوّج لتبقى عنده

فإذا ماتت ورثها، ويتعيّن على هذا الاحتمال أن يكون ضمير الجمع في قوله { لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ } راجعا إلى الأزواج خاصة.

الذهاب: مجاز في الأخذ، كقوله { ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ } [البقرة:17]، أي: أزاله.

{ **إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ** } ليس إتيانهنّ بفاحشة مبيّنة بعضا ممّا قبل الاستثناء، لا من العضل ولا من الإذهاب ببعض المهر. أي: إلّا حال الإتيان بفاحشة فيجوز إذهابكم ببعض ما آتيتموهن. وقال عطاء: هذا كان حكم الزوجة التي تأتي بفاحشة وأنّه نسخ بالحدّ.

الفاحشة: هنا عند العلماء هي الزنا، أي أنّ الرجل إذا تحقّق زنى زوجه فله أن يعضلها، فإذا طلبت الطلاق فله أن لا يطلّقها حتّى تفتدي منه ببعض صداقها، لأنّها تسبّبت في بعثرة حال بيت الزوج، وأحوجته إلى تجديد زوجة أخرى، وذلك موكول لدينه وأمانة الإيمان. فإن حاد عن ذلك فللقضاء حمله على الحقّ. وإنّما لم يجعل المفاداة بجميع المهر لئلّا تصير مدّة العصمة عريَّة عن عوض مقابل.

وقال ابن مسعود، وابن عباس، والضحاك، وقتادة: الفاحشة هنا البغض والنشوز، فإذا نشزت جاز له أن يأخذ منها. قال أبن عطية: " وظاهر قول مالك بإباحة أخذ الخلع عن الناشز يناسب هذا، إلّا أنّي لا أحفظ لمالك نصًّا في الفاحشة في هذه الآية ".

{ **وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا** }

أعقب النهي عن إكراه النّساء والإضرار بهنّ بالأمر بحسن المعاشرة معهنّ، فهذا اعتراض فيه معنى التذييل لما تقدّم من النهي، لأنّ حسن المعاشرة جامع لنفي الإضرار والإكراه، وزائد بمعاني إحسان الصحبة.

{ **وَعَاشِرُوهُنَّ** } المعاشرة مفاعلة من العشرة وهي المخالطة، وأنا أراها مشتقة من العشيرة أي: الأهل، فعاشره جعله من عشيرته، كما يقال: آخاه إذا جعله أخا. أمّا العشيرة فلا يعرف أصل اشتقاقها.

{ **بِالْمَعْرُوفِ** } ضد المنكر وسُمّي المكروه منكرا لأنّ النفوس لا تأنس به، فكأنّه مجهول عندها نكرة، إذ الشأن أنّ المجهول يكون مكروها ثمّ أطلقوا اسم المنكر على المكروه، وأطلقوا ضدَّه على المحبوب، لأنّه تألفه النفوس. والمعروف هنا ما حدّده الشرع ووصفه العرف.

{ **فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ** } التفريع على لازم الأمر الذي في قوله { وعاشروهن } وهو النهي عن سوء المعاشرة، أي: فإن وُجد سبب سوء المعاشرة وهو الكراهيّة.

{ **فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا** } يفيد إمكان أن تكون المرأة المكروهة سبب خيرات، فيقتضي أن لا يتعجّل في الفراق. والمقصود من هذا: الإرشاد إلى إعماق النظر وتغلغل الرأي في عواقب الأشياء، وعدم الاغترار بالبوارق الظاهرة. ولا بميل الشهوات إلى ما في الأفعال من ملائم، حتّى يسبره بمسبار الرأي، فيتحقّق سلامة حسن الظاهر من سوء خفايا الباطن.

{ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا [20] وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا [21] }.

لا جرم أنّ الكراهيّة تعقبها إرادة استبدال المكروه بضدّه، فلذلك عطف الشرط على الذي قبله استطرادا واستيفاء للأحكام. فالمراد بالاستبدال طلاق المرأة السابقة وتزوّج امرأة أخرى.

الاستبدال: التبديل، وتقدّم عند قوله تعالى { قال أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ} [البقرة:61].

أي: إن لم يكن سبب للفراق إلاّ إرادة استبدال زوج بأخرى، نهى الله عن أن يأخذوا شيئا ممّا أعطوه أزواجهم من مهر وغيره.

القنطار: هنا مبالغة في مقدار المال المعطى صداقا، أي: مالا كثيرا، كثرة غير متعارفة. وهذه المبالغة تدلّ على أنّ إيتاء القنطار مباح شرعا لأنّ الله لا يمثّل بما لا يرضى شرعه مثل الحرام، ولذلك لمّا خطب عمر بن الخطاب فنهى عن المغالاة في الصدقات، قالت له امرأة من قريش بعد أن نزل: " يا أمير المؤمنين كتاب الله أحقّ أن يتّبع أو قولك " قال: " بل كتاب الله، بم ذلك؟ " قالت : " إنّك نهيت النّاس آنفا أن يغالوا في صداق النّساء، والله يقول في كتابه { وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً } [النّساء:20] فقال عمر: " كلّ أحد أفقه من عمر". وفي رواية قال: " امرأة أصابت وأمير أخطأ والله المستعان ". ثم رجع إلى المنبر فقال: " إنّي كنت نهيتكم أن تغالوا في صدقات النّساء فليفعل كل رجل في ماله ما شاء ".

وتقدّم الكلام على القنطار عند قوله تعالى { وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ } [آل عمران:15].

البُهتان: مصدر بَهَتَه كمنعه إذا قال عليه ما لم يفعل. وتقدّم عند قوله { فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ} [البقرة :258].

{ **أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا** } أي: مباهتين. وإنّما جعل هذا الأخذ بهتانا لأنّهم كان من عادتهم إذا كرهوا المرأة، وأرادوا طلاقها، رموها بسوء المعاشرة، واختلقوا عليها ما ليس فيها، لكي تخشى سوء السمعة فتبذل للزوج مالا فداء ليطلّقها، حكى ذلك فخر الدين الرازي، فصار أخذ المال من المرأة عند الطلاق مظنّة بأنّها أتت ما لا يرضي الزوج، فقد يصدّ ذلك الراغبين في التزوّج عن خطبتها، ولذلك لمّا أذن الله للأزواج بأخذ المال إذا أتت أزواجهم بفاحشة، صار أخذ المال منهنّ بدون ذلك يوهم أنّه أخذه في محل الإذن بأخذه، هذا أظهر الوجوه في جعل الأخذ بهتانا.

{ **وَإِثْمًا مُبِينًا** } لأنّه قد تقرّر عندهم من أنّ حكم الشريعة في الأموال أن لا تحلّ إلاّ عن طيب نفس.

{ **وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا** } استفهام تعجّبي بعد الإنكار، أي ليس من المروءة أن تطمعوا في أخذ عوض عن الفراق بعد معاشرة امتزاج وعهد متين.

الإفضاء: الوصول، مشتق من الفضاء.

الميثاق: عقدة النكاح على نيّة الإخلاص ودوام الألفة.
الغليظ: صفة مشبّهة من غلُظ (بضم اللام) إذا صلب، والغلظة في الحقيقة صلابة الذوات، قال { قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً } [التوبة:123].
وقد ظهر أن مناط التحريم هو كون أخذ المال عند طلب استبدال الزوجة بأخرى، فليس هذا الحكم منسوخا بآية البقرة.

{ وَلاَ تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنْ النّساء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً } [22].

المناسبة أنّ من جملة أحوال الجاهليّة إرثهم النّساء كرها، أن يكون ابن الميت أولى بزوجة أبيه، إذا لم تكن أمّه، فنهوا عن هذه الصورة نهيا خاصا مغلّظا، وتخلّص منه إلى إحصاء المحرّمات.
{ **ما نكح** } ولم يقل: لا تنكحوا نساء آبائكم، ليدلّ على أنّ عقد الأب على المرأة كاف في الحرمة.
النكاح: حقيقة في العقد شرعا بين الرجل والمرأة على المعاشرة و الاستمتاع بالمعنى الصحيح شرعا.
فحرام على الرجل أن يتزوّج امرأة عقد أبوه عليها عقد نكاح صحيح، ولو لم يدخل بها.
وأمّا إطلاق النكاح على الوطء بعقد فقد حمل لفظ النكاح عليه بعض العلماء، وزعموا أنّ قوله { فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حتّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ } [البقرة:230] أطلق فيه النكاح على الوطء لأنّها لا يحلها لمطلّقها ثلاثا مجرّد العقد، أي: من غير حاجة إلى الاستعانة ببيان السنّة للمقصود من قوله { تنكح }، وقد بيّنتُ ردّ ذلك في سورة البقرة عند تفسير الآية.
وقد اختلف الفقهاء فيمن زنى بامرأة هل تحرّم على ابنه أو على أبيه. فالذي ذهب إليه مالك في الموطأ، والشافعي: أن الزنى لا ينشر الحرمة، وهذا الذي حكاه الشيخ أبو محمد بن أبي زيد في الرسالة، ويروى ذلك عن عكرمة عن ابن عباس، وهو قول الزهري، وربيعة، والليث. وقال أبو حنيفة، وابن الماجشون من أصحاب مالك: الزنى ينشر الحرمة. قال ابن الماجشون: مات مالك على هذا. وهو قول الأوزاعي والثوري.
{ **مَا قَدْ سَلَفَ** } أي: لا إثم عليكم فيما قد سلف. ثم ينتقل النظر إلى أنّه هل يقرّر عليه فلا يفرّق بين الزوجين اللذين تزوجا قبل نزول الآية، وهذا لم يقل به إلّا بعض المفسرين فيما نقله الفخر، ولم أقف على أثر يثبت قضية معيّنة فرّق فيها النبيّ صلى الله عليه وسلم بين رجل وزوج أبيه ممّا كان قبل نزول الآية، ولا على تعيين قائل القول، ولعلّ النّاس قد بادروا إلى فراق أزواج الآباء عند نزول هذه الآية.
وقد تزوّج قبل الإسلام كثير أزواج آبائهم: منهم عمر بن أميّة بن عبد شمس، خلف على زوج أبيه أميّة كما تقدّم، ومنهم صفوان بن أمية بن خلف تزوج امرأة أبيه فاختة بنت السود بن المطلب بن أسد، ولم يُرْوَ أنّ أحدا من هؤلاء أسلم وقرّر على نكاح زوج أبيه.

والظاهر أنّه قصد منه بيان صحّة ما سلف من ذلك في عهد الجاهليّة، وتعذّر تداركه الآن، لموت الزوجين، من حيث إنّه يترتب عليه ثبوت أنساب، وحقوق مهور ومواريث، وأيضا بيان تصحيح أنساب الذين ولدوا من ذلك النكاح، وأنّ المسلمين انتدبوا للإقلاع عن ذلك اختيارا منهم.

{ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً }

المقت، اسم سمَّت به العرب نكاح زوج الأب، فقالوا نكاح المقت، أي: البغض، وسموا فاعل ذلك الضَّيزن، وسموا الابن من ذلك النكاح مَقيتا.

{ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنْ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمْ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ اللاَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمْ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا } [23].

تخلّص إلى ذكر المحرّمات بمناسبة ذكر تحريم نكاح ما نكح الآباء، وغيّر أسلوب النهي فيه لأنّ (لا تفعل) نهي عن المضارع الدال على زمن الحال فيؤذن بالتلبّس به، بخلاف { حُرّمت } فيدلّ على أنّ تحريمه أمر مقرّر، ولذلك قال ابن عباس: " كان أهل الجاهليّة يحرّمون ما يحرم الإسلام إلّا امرأة الأب والجمع بين الأختين ". فمن أجل هذا أيضا نجد حكم الجمع بين الأختين عبّر فيه بلفظ الفعل المضارع فقيل { وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ }.

{ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ } معناه تزوّجهنّ.

الأمّهات: جمع أمّة أو أمَّهَةٍ، والعرب أماتوا أمَّهَةٍ وأمّة وأبقوا جمعه، كما أبقوا أمّ وأماتوا جمعه.

المحرمات من النسب:

وهنّ الأمّهات وما عطف عليها: الدنيا وما فوقها، وقد أثبت الله تعالى تحريم من ذكرهنّ، وقد كنّ محرّمات عند العرب في جاهليتها، تأكيدا لذلك التحريم وتغليظا له، إذ قد استقر ذلك في النّاس من قبل، فقد قالوا: ما كانت الأمّ حلالا لأبنها قط من عهد آدم عليه السلام. وكانت الأخت التوأمة حراما وغير التوأمة حلالا، ثم حرم الله الأخوات مطلقا من عهد نوح عليه السلام، ثم حرّمت بنات الأخ، ويوجد تحريمهنّ في شريعة موسى عليه السلام، وبقي بنات الأخت حلالا في شريعة موسى، وثبت تحريمهنّ عند العرب في جاهليتها كما تقدّم من حديث ابن عباس.

{ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ } إلّا ما سلف منكم في الجاهليّة فلا إثم عليكم فيه.

واعلم أنّ شريعة الإسلام قد نوّهت ببيان القرابة القريبة، فغرست لها في النفوس وقارا ينزّه عن شوائب الاستعمال في اللهو والرفث، إذ الزواج، وإن كان غرضا صالحا باعتبار غايته، إلّا أنّه لا يفارق خاطر اللهو والتلذّذ. فوقار الولادة، أصلا وفرعا، مانع من محاولة اللهو بالوالدة أو المولودة، ولذلك اتفقت الشرائع على تحريمه، ثم تلاحق ذلك في بنات الإخوة وبنات الأخوات ، وكيف يسري الوقار إلى فروع الأخوات ولا يثبت للأصل، وكذلك سرى وقار الآباء إلى أخوات الآباء، وهن العمّات، ووقار الأمّهات إلى أخواتهنّ، وهنّ الخالات ، فمرجع تحريم هؤلاء المحرّمات إلى قاعدة المروءة التابعة لكليّة حفظ العرض، من قسم المناسب الضروري، وذلك من أوائل مظاهر الرقي البشري.

{ **وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ** } سمّى المراضع أمّهات جريا على لغة العرب، وما هنّ بأمّهات حقيقة، ولكنّهنّ تنزّلن منزلة الأمّهات لأنّ بلبانهنّ تغذّت الأطفال، ولما في فطرة الأطفال من محبّة لمرضعاتهم محبّة أمهاتهم الوالدات، ولزيادة تقرير هذا الإطلاق الذي اعتبره العرب تمّ ألحق ذلك بقوله { اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ } دفعا للتوهّم.

وقد أجملت هنا صفة الإرضاع ومدّته وعددهن إيكالا للنّاس إلى متعارَفهم. وملاك القول في ذلك: أنّ الرضاع إنّما اعتبرت له هذه الحرمة لمعنى فيه وهو أنّه الغذاء الذي لا غذاء غيره للطفل يعيش به. فكان له من الأثر في دوام حياة الطفل ما يماثل أثر الأمّ في أصل حياة طفلها. فلا يعتبر الرضاع سببا في حرمة المرضع على رضيعها إلّا ما استوفى هذا المعنى من حصول تغذية الطفل وهو ما كان في مدة عدم استغناء الطفل عنه، ولذلك قال النبيء صلى الله عليه وسلم " **إنما الرضاعة من المجاعة** ". وقد حدّدت مدّة الحاجة إلى الرضاع بالحولين { وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ } [البقرة:233]. ولا اعتداد بالرضاع الحاصل بعد مضي تجاوز الطفل حولين من عمره،وهو الأصحّ.

وأمّا مقدار الرضاع الذي يحصل به التحريم، فهو ما يصدق عليه اسم الرضاع وهو ما وصل إلى جوف الرضيع في الحولين ولو مصة واحدة عند أغلب الفقهاء. و للمسألة تفصيلات في كتب الفقه.

{ **وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ** } فلا تعتبر أخوّة الرضاعة إلاّ برضاعة البنت من المرأة التي أرضعت الولد.

المحرّمات بسبب الصهر:

وهنّ المذكورات من قوله { **وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ** } إلى قوله { **وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ** }، ولا أحسب أنّ أهل الجاهليّة كانوا يحرّمون شيئا منها، كيف وقد أباحوا أزواج الآباء وهنّ أعظم حرمة من جميع نساء الصهر، فكيف يظن أنّهم يحرّمون أمّهات النّساء والربائب.

وكذلك **حلائل الأبناء** إذ هنّ أبعد من حلائل الآباء.

وتحريم هؤلاء حكمته تسهيل الخلطة، وقطع الغيرة، بين قريب القرابة حتّى لا تفضي إلى حزازات وعداوات، قال الفخر: " لو لم يدخل على المرأة أبو الرجل وابنه، ولم تدخل على الرجل امرأته وابنتها،

لبقيت المرأة كالمحبوسة. ولتعطل على الزوج والزوجة أكثر المصالح ". أمّا إذا حصلت المحرميّة انقطعت الأطماع، وانحبست الشهوة، فلا يحصل ذلك الضرر، فيبقى النكاح بين الزوجين سليما عن هذه المفسدة.

الربائب: جمع ربيبة، من ربّه إذا كفله ودبّر شؤونه، فزوج الأم رابٌّ وابنتها مربوبة له، لذلك قيل لها ربيبة.

الحجور: جمع حجر (بفتح الحاء وكسرها مع سكون الجيم) وهو ما يحويه مجتمع الرجلين للجالس المتربع. والمراد به هنا معنى مجازي وهو الحضانة والكفالة، لأنّ أوّل كفالة الطفل تكون بوضعه في الحجر. كما سمّيت حضانة، لأنّ أوّلها وضع الطفل في الحضن.

وظاهر الآية أنّ الربيبة لا تحرم على زوج أمّها إلّا إذا كانت في كفالته، لأنّ قوله { اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ} وصف والأصل فيه إرادة التقييد، فظاهر هذا أنّها لو كانت بعيدة عن حضانته لم تحرّم. ونسب الأخذ بهذا الظاهر إلى علي بن أبي طالب. وأمّا جمهور أهل العلم فجعلوا هذا الوصف بيانا للواقع خارجا مخرج الغالب، وجعلوا الربيبة حراما على زوج أمّها، ولو لم تكن هي في حجره. وكأنّ الذي دعاهم إلى ذلك هو النظر إلى علّة تحريم المحرمات بالصهر.

وعندي أنّ الأظهر أن يكون الوصف هنا خرج مخرج التعليل: أي لأنّهنّ في حجوركم، وهو تعليل بالمظنّة فلا يقتضي اطراد العلّة في جميع مواقع الحكم.

{ **مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ** } وهو قيد في تحريم الربائب بحيث لا تحرم الربيبة إلّا إذا وقع البناء بأمّها، ولا يحرّمها مجرد العقد، وهذا القيد جرى هنا ولم يجر على قوله { وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ } بل أطلق الحكم هناك، فقال الجمهور: أُمُّ الزوجة تحرّم بمجرد عقد الرجل على ابنتها، لأنّ العقد يصيّرها امرأته، ولا يلزم الدخول ولم يحملوا المطلق منه على المقيد بعده.

وقال علي بن أبي طالب، وزيد بن ثابت، وابن عمر، وعبد الله بن عباس، ومجاهد وجابر، وابن الزبير: لا تحرّم أمّ المرأة على زوج ابنتها حتّى يدخل بابنتها حملا للمطلق على المقيد، وهو الأصح محملا، ولم يستطع الجمهور أن يوجّهوا مذهبهم بعلة بيّنة، ولا أن يستظهروا عليه بأثر. وعلّة تحريم المرأة على زوج ابنتها تساوي علة تحريم ربيبة الرجل عليه، ويظهر أنّ الله ذكر أمهات النّساء قبل أن يذكر الربائب، فلو أراد اشتراط الدخول بالأمهات في تحريمهن على أزواج بناتهن لذكره في أول الكلام قبل أن يذكره مع الربائب.

{ **وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ** } الحلائل جمع الحليلة، وهي الزوجة، والقول تفنّن لتجنّب تكرير أحد اللفظيين السابقين وتحريم حليلة الابن واضح العلة، كتحريم حليلة الأب.

{ **الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ** } تأكيد لمعنى الأبناء لدفع احتمال المجاز، إذ كانت العرب تسمّي المتبنى ابنا، وتجعل له ما للابن.

{ **وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ** } حكمته دفع الغيرة عمّن يريد الشرع بقاء تمام المودّة بينهما.
{ **إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ** } هو كنظيره السابق، والبيان فيه كالبيان هناك.
{ **إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً** } يناسب أن يكون معنى { إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ } تقرير ما عقدوه من ذلك في عهد الجاهليّة، فالمغفرة للتجاوز عن الاستمرار عليه، والرحمة لبيان سبب ذلك التجاوز.

{ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنْ النّساء إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا } [24].
{ **وَالْمُحْصَنَاتُ مِنْ النّساء إلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ** } عطف على { وَأَنْ تَجْمَعُوا } [13] والتقدير: وحرّمت عليكم المحصنات من النّساء...، فهذا الصنف من المحرّمات لعارض نظير الجمع بين الأختين.
المحصَنات: (بفتح الصاد) من أحصنها الرجل، إذا حفظها واستقلّ بها عن غيره، ويقال: امرأة مُحْصِنة (بكسر الصاد) أحصنت نفسها عن غير زوجها. ويقال أحْصَن الرجل فهو محصِن.
المعنى: أي وحرّمت عليكم ذوات الأزواج ما دمن في عصمة أزواجهنّ، فالمقصود تحريم اشتراك رجلين فأكثر في عصمة امرأة، وذلك إبطال لنوع من النكاح كان في الجاهليّة يسمّى الضِماد. ونوع آخر يسمى نكاح الاستبضاع، وهو أن يقول الزوج لامرأته إذا طهرت من حيضها: أرسلي إلى فلان، فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسّها حتّى يتبيّن حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبيّن حملها أصابها زوجها. فدلّت الآية على تحريم كلّ عقد على نكاح ذات الزوج. وأفادت الآية تعميم حرمتهنّ ولو كان أزواجهنّ مشركين.
{ **إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ** } أستثناء، أي إلّا اللائي سبيتموهن في الحرب، لأنّ اليمين في كلام العرب كناية عن اليد حين تمسك السيف. وقد جعل الله السبي هادما للنكاح تقريرا لمعتاد الأمم في الحروب.
{ **كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ** } تذييل، وهو تحريض على وجوب الوقوف عند كتاب الله.
{ **وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ** } وقرأ الجمهور { وَأَحَلَّ لَكُمْ } بالبناء للفاعل، والضمير المستتر عائد إلى اسم الجلالة. وأسند التحليل إلى الله تعالى إظهارا للمنّة. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وأبو جعفر { وأُحِلّ } بضم الهمزة وكسر الحاء.
الوراء: بمعنى غير ودون، وهو مجاز، والمعنى: أحلّ لكم ما عدا أولئكم المحرّمات، وهذا أُنزل قبل تحريم ما حرّمته السنّة نحو، لا تنكح المرأة على عمّتها ولا على خالتها، ونحو يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب.

{ **أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ** } التقدير: أن تبتغوهن بأموالكم، فإن النّساء المباحات لا تحلّ إلاّ بعد العقد وإعطاء المهور، فالعقد هو مدلول تبتغوا، وبذل المهر هو مدلول بأموالكم.

محصنين: حال، أي: محصنين أنفسكم من الزنى، والمراد: متزوّجين على الوجه المعروف.

{ **غَيْرَ مُسَافِحِينَ** } حال ثانية، والمسافح الزاني، لأنّ الزنى يسمّى السفاح، مشتقا من السفح، وهو أن يهراق الماء دون حبس. وذلك أن الرجل والمرأة يبذل كل منهما للآخر ما رامه منه دون قيد ولا رضى ولي، فكأنّهم اشتقوه من معنى البذل بلا تقيّد بأمر معروف.

{ **فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً** } تفريع لفظي لبيان حقّ المرأة في المهر وأنّه في مقابلة الاستمتاع، تأكيدا لما سبقه من قوله تعالى { وَآتُوا النّساء صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً} [4]، سواء عند الجمهور الذين يجعلون الصداق ركنا للنكاح، أو عند أبي حنيفة الذي يجعله مجرّد حقّ، للزوجة أن تطالب به، ولبيان أنّه لا يجوز إخلاء النكاح عن المهر.

الاستمتاع: الانتفاع، والسين والتاء فيه للمبالغة، وسمَّى الله النكاح استمتاعا لأنّه منفعة دنيوية، وجميع منافع الدنيا متاع، قال تعالى { وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ } [الرعد:26].

{ **فريضة** } حال من { أجورهن } أي مفروضة، أي مقدّرة بينكم. والمقصد من ذلك قطع الخصومات في أعظم معاملة يقصد منها الوثاق وحسن السمعة.

نكاح التفويض: وهو أن ينعقد النكاح مع السكوت عن المهر. وهو جائز عند جميع الفقهاء، فجوازه مبني على أنّهم لا يفوضون إلّا وهم يعلمون معتاد أمثالهم، ويكون فريضة بمعنى تقديرا.

{ **وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ** } أي: فيما زدتم لهنّ أو أسقطن لكم عن طيب نفس. وذهب جمع: منهم ابن عباس، وأبيّ بن كعب، وابن جبير: أنّها نزلت في نكاح المتعة لما وقع فيها من قوله { فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ }.

نكاح المتعة: هو الذي تعاقد الزوجان على أن تكون العصمة بينهما موجبة بزمان أو بحالة، فإذا انقضى ذلك الأجل ارتفعت العصمة، وهو نكاح قد أبيح في الإسلام لا محالة، ووقع النهي عنه يوم خيبر، أو يوم حنين على الأصح. والذين قالوا: حرّم يوم خيبر قالوا: ثم أبيح في غزوة الفتح، ثم نهي عنه في اليوم الثالث من يوم الفتح. وقيل: نهي عنه في حجة الوداع، قال أبو داود: وهو أصح. والذي استخلصناه أنّ الروايات فيها مضطربة اضطرابا كبيرا.

وقد اختلف العلماء في شأنه: فذهب الجمهور إلى أنّ الأمر استقر على تحريمه، فمنهم من قال: نسخته آية المواريث لأنّ فيها { وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ } [12]، فجعل للأزواج حظّا من الميراث، وقد كانت المتعة لا ميراث فيها. وقيل: نسخها ما رواه مسلم عن سَبْرة الجهني، أنّه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسندا ظهره إلى الكعبة ثالث يوم من الفتح يقول: **" أيّها النّاس إن كنت**

أذنت لكم في الاستمتاع من هذه النّساء إلّا أن الله حرم ذلك إلى يوم القيامة ". وانفراد سبْرة به في مثل ذلك اليوم مغمز في روايته. على أنّه ثبت أنّ النّاس استمتعوا. وعن على بن أبي طالب، وعمران بن حصين، وابن عباس، وجماعة من التابعين والصحابة أنهم قالوا بجوازه. قيل: مطلقا، وهو قول الإماميّة، وقيل: في حال الضرورة عند أصحاب ابن عباس من أهل مكة واليمن.

وروي عن ابن عباس أنّه قال: " لولا أنّ عمر نهى عن المتعة ما زنى إلّا شقي ". وعن عمران بن حصين في الصحيح أنّه قال نزلت أية المتعة في كتاب الله ولم ينزل بعدها آية تنسخها، وأمرنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال رجل برأيه ما شاء، يعني عمر بن الخطاب حين نهى عنها في زمن من خلافته بعد أن عملوا بها في معظم خلافته. وكان ابن عباس يفتي بها، فلما قال له سعيد بن جبير: أتدري ما صنعت بفتواك، فقد سارت بها الركبان، أمسك عن الفتوى وقال: إنّما أحللت مثل ما أحلّ الله الميتة والدم، يريد عند الضرورة. واختلف العلماء في ثبات عليّ على إباحتها، وفي رجوعه. والذي عليه علماؤنا أنّه رجع عن إباحتها. أمّا عمران بن حصين فثبت على الإباحة، وكذلك ابن عباس على الصحيح. وقال مالك: يفسخ نكاح المتعة قبل البناء وبعد البناء، وفسخه بغير طلاق، وقيل: بطلاق، ولا حدّ فيه على الصحيح من المذهب، وأرجح الأقوال أنّها رخصة للمسافر ونحوه من أحوال الضرورات، ووجه مخالفتها للمقصد من النكاح ما فيها من التأجيل. وللنظر في ذلك مجال.

والذي يستخلص من مختلف الأخبار أنّ المتعة أذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين، ونهى عنها مرتين، والذي يفهم من ذلك أن ليس ذلك بنسخ مكرّر ولكنّه إناطة إباحتها بحال الاضطرار، فاشتبه على الرواة تحقيق عذر الرخصة بأنّه نسخ. وقد ثبت أنّ النّاس استمتعوا في زمن أبي بكر، وعمر، ثم نهى عنها عمر في آخر خلافته.

والذي استخلصناه في حكم نكاح المتعة أنّه جائز عند الضرورة الداعية إلى تأجيل مدّة العصمة، مثل الغربة في سفر أو غزو إذا لم تكن مع الرجل زوجه. ويشترط فيه ما يشترط في النكاح من صداق وإشهاد وولي حيث يشترط، وأنّها تبين منه عند انتهاء الأجل، وأنّها لا ميراث فيها بين الرجل والمرأة، إذا مات أحدهما في مدة الاستمتاع، وأنّ عدتها حيضة واحدة، وأنّ الأولاد لاحقون بأبيهم المستمتع.

ونحن نرى أنّ هذه الآية بمعزل عن أن تكون نازلة في نكاح المتعة، وليس سياقها سامحا بذلك، ولكنها صالحة لاندراج المتعة في عموم { ما استمتعتم } فيرجع في مشروعية نكاح المتعة إلى ما سمعت آنفا.

{ **وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَت أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } [25].

الطَوْل: (بفتح الطاء وسكون الواو) القدرة، وهو مصدر طال المجازي بمعنى قدر. وظاهر الآية أنّ الطول هنا هو القدرة على بذل مهر لامرأة حرّة احتاج لتزوّجها. وهو قول مالك، وقاله ابن عباس، ومجاهد، وابن جبير، والسدي، وجابر ابن زيد، وذهب أبو حنيفة إلى أنّ من كانت له زوجة واحدة فهي طول فلا يباح له تزوّج الإماء، لأنه طالب شهوة إذ كانت عنده امرأة تعفّه عن الزنا. ووقع لمالك ما يقرب من هذا في كتاب محمد بن الموّاز، وهو قول ابن حبيب، واستحسنه اللخمي والطبري، وهو تضييق لا يناسب يسر الإسلام، على أنّ الحاجة إلى امرأة ثانية قد لا يكون لشهوة بل لحاجة لا تسدّها امرأة واحدة، فتعيّن الرجوع إلى طلب التزوج، ووجود المقدرة.

{ **أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ** } وإطلاق المحصنات على النّساء اللاتي يتزوّجهن الرجال إطلاق مجازي بعلاقة المآل، أي: اللائي يصرن محصنات بذلك النكاح إن كنّ أبكارا، أو بعلاقة ما كان، إن كنّ ثيّبات وهذا بيّن، وفيه غنية عن تأويل المحصنات بمعنى الحرائر، فإنّه إطلاق لا تساعد عليه اللغة، لا على الحقيقة ولا على المجاز، وقد تساهل المفسّرون في القول بذلك.

وقد وصف المحصنات هنا بالمؤمنات، جريا على الغالب، ومعظم علماء الإسلام على أنّ هذا الوصف خرج للغالب، ولعلّ الذي حملهم على ذلك أنّ استطاعة نكاح الحرائر الكتابيات طول.

الفتيات: جمع فتاة، وهي في الأصل الشابة كالفتى، والمراد بها هنا الأمّة، أطلق عليها الفتاة كما أطلق عليها الجارية، وعلى العبد الغلام. وهو مجاز بعلاقة اللزوم.

ووصف المؤمنات عقب الفتيات مقصود للتقييد عند كافة السلف، وجمهور أئمة الفقه، فلا يجوز عندهم نكاح أمّة كتابية.

{ **مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ** } تقدم آنفا.

والإضافة في قوله { **أيمانكم** } وقوله { **من فتياتكم** } للتقريب، وإزالة ما بقي في نفوس العرب من احتقار العبيد والإماء، والترفّع عن نكاحهم وإنكاحهم، وكذلك وصف المؤمنات، وإن كنّا نراه للتقييد، فهو لا يخلو مع ذلك من فائدة التقريب.

{ **وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ** } اعتراض جمع معاني شتّى، منها؛ أنّه أمر، وقيدٌ للأمر في قوله تعالى { وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً}، فقد تحول الشهوة والعجلة دون تحقيق شروط الله تعالى، فأحالهم على إيمانهم المطّلع

عليه ربّهم. والمعنى الثاني، أنّه تعالى أمر بنكاح الإماء عند العجز عن الحرائر، وكانوا في الجاهليّة لا يرضون بنكاح الأمة وجعلها حليلة، ولكن يقضون منهنّ شهواتهم بالبغاء، فأراد الله إكرام الإماء المؤمنات، جزاء على إيمانهنّ، وإشعار بأنّ وحدة الإيمان قرّبت الأحرار من العبيّد، فلمّا شرع ذلك كلّه ذيّله بقوله { وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ }، أي: بقوّته. فلمّا كان الإيمان هو الذي رفع المؤمنين عند الله درجات، كان إيمان الإماء مقنعا للأحرار بترك الاستنكاف عن تزوّجهنّ، ولأنّه رُبّ أمة يكون إيمانها خيرا من إيمان رجل حرّ، وهذا كقوله { إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ } [الحجرات:13].

{ **بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ** } تذييل ثان أكّد به المعنى الثاني المراد من قوله { وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ } فإنّه بعد أن قرّب إليهم الإماء من جانب الوحدة الدينية قرّبهنّ إليهم من جانب الوحدة النوعيّة، وهو أنّ الأحرار والعبيد كلّهم من بني آدم، فمن اتصاليّة.

{ **فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ** } فرّع عن الأمر بنكاح الإماء بيان كيفيّة ذلك، فشرط الإذن، لئلّا يكون سرًّا وزنى، ولأنّ نكاحهنّ دون ذلك اعتداء على حقوق أهل الإماء.

الأهل: هنا بمعنى السادة المالكين، وهو إطلاق شائع على سادة العبيد في كلام الإسلام، وأحسب أنّه من مصطلحات القرآن تلطفا بالعبيد، كما وقع النهي أن يقول العبد لسيّده: سيدي، بل يقوم: مولاي.

{ **وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ** } القول في الأجور والمعروف تقدم قريبا. غير أنّ قوله { وآتوهن } وإضافة الأجور إليهنّ، دليل على أنّ الأمة أحقّ بمهرها من سيّدها.

{ **محصنات** } حال من ضمير الإماء، والإحصان التزوّج الصحيح، فهي حال مقدّرة، أي: ليصرن محصّنات.

{ **غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ** } قصد منها تفظيع ما كانت ترتكبه الإماء في الجاهليّة بإذن مواليهنّ لاكتساب المال بالبغاء ونحوه، وكان النّاس يومئذ قريبا عصرهم بالجاهليّة.

المسافحات: الزواني مع غير معيّن.

متّخذات الأخدان: هن متّخذات أخلاّء، تتخذ الواحدة خليلا تختصّ به لا تألف غيره، وهذا وإن كان يشبه النكاح من جهة عدم التعدّد، إلاّ أنّه يخالفه من جهة التستّر وجهل النسب وخلع برقع المروءة.

{ **فَإِذَا أُحْصِنَّ** } فإذا تزوّجن. فالآية تقتضي أنّ التزوّج شرط في إقامة حدّ الزنا على الإماء، وأنّ الحدّ هو الجلد المعيّن لأنّه الذي يمكن فيه التنصيف بالعدد، واعلم أنّا إذا جرينا على ما حققناه ممّا تقدّم في معنى الآية الماضية تعيّن أن تكون هذه الآية نزلت بعد شرع حدّ الجلد للزانية والزاني بآية سورة النور. فتكون مخصّصة لعموم الزانية بغير الأمة، ويكون وضع هذه الآية في هذا الموضع مما ألحق بهذه السورة إكمالا للأحكام المتعلّقة بالإماء كما هو واقع في نظائر عديدة.

وهذه الآية تحيّر فيها المتأوّلون لاقتضائها أن لا تحدّ الأمة في الزنى إلاّ إذا كانت متزوّجة، فتأوّلها عمر بن الخطاب، وابن مسعود، وابن عمر بأنّ الإحصان هنا الإسلام، ورأوا أنّ الأمة تحدّ في الزنا سواء

كانت متزوجة أم عزباء، وإليه ذهب الأئمة الأربعة، و دليلهم ما ثبت في الصحيحين أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الأمة إذا زنت ولم تحصّن، فأوجب عليها الحدّ. قال ابن شهاب:" فالأمة المتزوّجة محدودة بالقرآن، والأمة غير المتزوّجة محدودة بالسنّة ". ونعم هذا الكلام.

وقد دلّت الآية على أنّ حدّ الأمة الجلد، ولم تذكر الرجم، فإذا كان الرجم مشروعا قبل نزولها دلّت على أنّ الأمة لا رجم عليها، وهو مذهب الجمهور، وإن كان الرجم قد شرع بعد ذلك فلا تدل الآية على نفي رجم الأمة، غير أنّ قصد التنصيف في حدّها يدلّ على أنّها لا يبلغ بها حدّ الحرة، فالرجم ينتفي لأنّه لا يقبل التجزئة.

وقد روي عن عمر بن الخطاب: أنه سئل عن حدّ الأمة فقال: الأمة ألقت فروة رأسها من وراء الدار، أي: أنّها تخرج إلى كل موضع يرسلها أهلها إليه لا تقدر على الامتناع من ذلك، فتصير إلى حيث لا تقدر على الامتناع من الفجور. قالوا: فكان يرى أن لا حدّ عليها إذا فجرت ما لم تتزوج، وكأنّه رأى أنّها إذا تزوّجت فقد منعها زوجها. وقوله هذا وإن كان غير المشهور عنه، ولكننا ذكرناه لأنّ فيه للمتبصّر بتصريف الشريعة عبرة في تغليظ العقوبة بمقدار قوة الخيانة وضعف المعذرة.

{ **ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ** } إشارة إلى أنّ حكم نكاح الإماء صالح لأنّ يتقيّد بخشية العنت.

العنت: المشقّة. قال تعالى { وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لاعْنَتَكُمْ } [البقرة:220] وأريد به هنا مشقّة العُزبة التي تكون ذريعة إلى الزنا، فلذلك قال بعضهم: أريد بالعنت الزنا.

{ **وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ** } أي: إذا استطعتم الصبر مع المشقّة إلى أن يتيسّر لكم نكاح الحرّة فذلك خير، لئلّا يوقع أبناءه في ذلّ العبوديّة المكروهة للشارع لولا الضرورة، ولئلّا يوقع نفسه في مذلّة تصرف النّاس في زوجه.

{ **وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } أي: إن خفتم العنت ولم تصبروا عليه، وتزوجتم الإماء. وعليه فهو مؤكّد لمعنى الإباحة، مؤذن بأنّ إباحة ذلك لأجل رفع الحرج، لأنّ الله رحيم بعباده، غفور.

{ **يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** } [26].

تذييل يقصد منه استئناس المؤمنين واستنزال نفوسهم إلى امتثال الأحكام المتقدّمة من أوّل السورة إلى هنا، فإنّها أحكام جمّة وأوامر ونواه تقضي إلى خلع عوائد ألفوها، وصرفهم عن شهوات استباحوها، كما أشار إليه قوله بعد هذا { وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ } [النّساء:27]، أي: الاسترسال على ما كانوا عليه في الجاهليّة. فأعقب ذلك ببيان أنّ في ذلك بيانا وهدى. حتّى لا تكون شريعة هذه الأمّة دون شرائع الأمم التي قبلها، بل تفوقها في انتظام أحوالها، فكان هذا كالاعتذار على ما ذكر من المحرّمات.

{ **يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ** } تعليل لتفصيل الأحكام في مواقع الشبهات كي لا يضلّوا كما ضلّ من قبلهم، ففيه أنّ هذه الشريعة أهدى ممّا قبلها.

الإرادة: القصد والعزم على العمل، وتطلق على الصفة الإلهية التي تخصّص الممكن ببعض ما يجوز عليه. وإنّما عبّر بصيغة المضارع هنا للدلالة على تجدّد البيان واستمراره، فإنّ هذه التشريعات دائمة مستمرّة تكون بيانا للمخاطبين ولمن جاء بعدهم، وللدلالة على أنّ الله يبقي بعدها بيانا متعاقبا.

{ **وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ** } الهداية إلى أصول ما صلح به حال الأمم التي سبقتنا، من كلّيّات الشرائع، ومقاصدها. قال الفخر: " فإنّ الشرائع والتكاليف وإن كانت مختلفة في نفسها، إلّا أنّها متفقة في باب المصالح ". قلت: فهو كقوله تعالى { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً } [الشورى:13].

{ **وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ** } أي: يتقبّل توبتكم إذ آمنتم ونبذتم ما كان عليه أهل الشرك من نكاح أزواج الآباء، ونكاح أمّهات النساء، ونكاح الربائب، والجمع بين الأختين.

فالآية تحريض على التوبة بطريق الكناية، لأنّ الوعد بقبولها يستلزم التحريض عليها مثل ما في الحديث: " **فيقول هل من مستغفر فأغفر له، هل من داع فأستجيب له** ".

{ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** } مناسب للبيان والهداية والترغيب في التوبة بطريق الوعد بقبولها، فإنّ كلّ ذلك أثر العلم والحكمة في إرشاد الأمّة وتقريبها إلى الرشد.

{ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً } [27].

كُرّر قوله تعالى { وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ } ليرتّب عليه قوله تعالى { وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً }. والمقصد من التعرّض لإرادة الذين يتّبعون الشهوات تنبيه المسلمين إلى دخائل أعدائهم، ليعلموا الفرق بين مراد الله من الخلق، ومراد أعوان الشياطين. ولذلك قدّم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله تعالى { وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ } ليدلّ على التخصّيص الإضافي، أي: الله وحده هو الذي يريد أن يتوب عليكم، وأمّا الذين يتّبعون الشهوات فيريدون انصرافكم عن الحقّ، وميلكم عنه إلى المعاصي. وإطلاق الإرادة على رغبة أصحاب الشهوات للمشاكلة.

{ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ** } الذين تغلبهم شهواتهم على مخالفة ما شرعه الله لهم، من الذين لا دين لهم. وهم الذين لا ينظرون في عواقب الذنوب ومفاسدها وعقوبتها، ولكنّهم يُرضون شهواتهم الداعية إليها.

{ **أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً** } الميل العظيم هو البعد عن أحكام الشرع والطعن فيها، فكان المشركون يحبّبون للمسلمين الزنى ويعرضون عليهم البغايا، وكان المجوس يطعنون في تحريم ابنة الأخ وابنة الأخت ويقولون: لماذا أحلّ دينكم ابنة العمّة وابنة الخالة، وكان اليهود يقولون: لا تحرّم الأخت التي للأب ولا تحرّم العمّة ولا الخالة ولا العمّ ولا الخال، وعبّر عن جميع ذلك بالشهوات.

{ **يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً** } [28].

تذكير بأنّ الله لا يزال مراعيا رفقه بهذه الأمّة وإرادته بها اليسر دون العسر، إشارة إلى أنّ هذا الدين بيّن حفظ المصالح ودرء المفاسد، في أيسر كيفيّة وأرفقها، فربّما ألغت الشريعة بعض المفاسد إذا كان في الحمل على تركها مشقّة أو تعطيل مصلحة، كما ألغت مفاسد نكاح الإماء نظرا للمشقّة على غير ذي الطول. والآيات الدالة على هذا المعنى بلغت مبلغ القطع كقوله { وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ } [الحج:78] وقوله { يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة:185] وقوله { وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ } [الأعراف:157]، وفي الحديث الصحيح: " **إن هذا الدين يسر ولن يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه** " ، وكذلك كان يأمر أصحابه الذين يرسلهم إلى بث الدين، فقال لمعاذ وأبي موسى: " **يسّرا ولا تعسّرا** " وقال " **إنّما بعثتم مبشّرين لا منفّرين** ". وقال لمعاذ لما شكا بعض المصلين خلفه من تطويله " **أفتّان أنت** " . فكان التيسير من أصول الشريعة الإسلامية، وعنه تفرّعت الرخص بنوعيها.

{ **وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً** } تذييل وتوجيه للتخفيف، وإظهار لمزيّة هذا الدين وأنّه أليق الأديان بالنّاس في كل زمان ومكان.

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً** [29] **وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً** [30] }.

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ** }

استئناف من التشريع المقصود من هذه السورة. وعلامة الاستئناف افتتاحه بـ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا }، ومناسبته لما قبله أنّ أحكام المواريث والنكاح اشتملت على أوامر بإيتاء ذي الحقّ في المال حقّه، كقوله { وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ } [2] وقوله تعالى { فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً } [24] وقوله تعالى { فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً } [4]، فانتقل من ذلك إلى تشريع عام في الأموال والأنفس.

الأكل: تقدّم أنّه مجاز في الانتفاع بالشيء انتفاعا تاما، فأكل الأموال هنا، الاستيلاء عليها بنيّة عدم إرجاعها لأربابها. وقد يطلق على الانتفاع المأذون فيه كقوله تعالى { فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً } [النّساء:4] وقوله { وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ } [النّساء:6]، ولذلك غلب تقييد المنهي عنه من ذلك بقيد { بالباطل } ونحوه.

{ **لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ** } الضمير المرفوع (تأكلوا) والضمير المضاف إليه (أموال)، راجعان إلى الذين

آمنوا، وظاهر أنّ المرء لا يُنهى عن أكل مال نفسه، ولا يسمّى انتفاعه بماله أكلا، فالمعنى: لا يأكل بعضهم مال بعض.

الباطل: ضدّ الحقّ، وهو ما لم يشرّعه الله.

{ **إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً** } الاستثناء منقطع، لأنّ التجارة ليست من أكل الأموال بالباطل، فالمعنى: لكن التجارة غير منهي عنه. فتخصيص التجارة بالاستدراك أو بالاستثناء لأنّها أشدّ أنواع أكل الأموال شبها بالباطل.

{ **عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ** } صفة لتجارة، وهو الرضا من الجانبين بما يدلّ عليه من لفظ أو عرف. وفي الآية ما يصلح أن يكون مستندا لقول مالك من نفي خيار المجلس، لأنّ الله جعل مناط الانعقاد هو التراضي، والتراضي يحصل عند التبايع بالإيجاب والقبول.

وهذه الآية أصل عظيم في حرمة الأموال، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم **" لا يحلّ مال امرئ مسلم إلاّ عن طيب نفس "** . وفي خطبة حجة الوداع **" إنّ دماءكم وأموالكم عليكم حرام "**.

وتقديم النهي عن أكل الأموال، على النهي عن قتل الأنفس، مع أنّ الثاني أخطر، لأنّ المخاطبين كانوا قريبي عهد بالجاهليّة، وكان أكل الأموال أسهل عليهم، وهم أشدّ استخفافا به منهم بقتل الأنفس، لأنّه كان يقع في مواقع الضعف حيث لا يدفع صاحبه عن نفسه كاليتيم والمرأة والزوجة. فأكل أموال هؤلاء في مأمن من التبعات بخلاف قتل النفس، فإنّ تبعاته لا يسلم منها أحد، وإن بلغ من الشجاعة والعزّة في قومه كل مبلغ، لأنّ القبائل ما كانت تهدر دماء قتلاها.

{ **وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً** }

{ **وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ** } نهي عن أن يقتل الرجل غيره، فالضميران فيه على التوزيع، إذ قد عُلم أن أحدا لا يقتل نفسه فينهي عن ذلك. وقتل الرجل نفسه داخل في النهي، لأنّ الله لم يبح للإنسان إتلاف نفسه كما أباح له صرف ماله، أمّا أن يكون المراد هنا خصوص النهي عن قتل المرء نفسه فلا. وأمّا ما في مسند أبي داود: أنّ عمرو بن العاص رضي الله عنه تيمّم في يوم شديد البرد ولم يغتسل، وذلك في غزوة ذات السلاسل وصلى بالنّاس، وبلغ ذلك رسول الله، فسأله وقال: يا رسول الله إنّ الله يقول { وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ} فلم ينكر عليه النبيّ صلى الله عليه وسلم، فذلك من الاحتجاج بعموم ضمير تقتلوا دون خصوص السبب.

{ **وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ** } أي المذكور: من أكل المال بالباطل والقتل. وإنّما قيّده بالعدوان والظلم ليخرج أكل المال بوجه الحقّ، وقتل النفس كذلك، كقتل القاتل.

العُدوان: (بضم العين) مصدر، وهو التسلّط بشدة، فقد يكون بظلم غالبا وبدون حق، وعطف { وظلما } على { عدوانا } من عطف الخاص على العام.

{ **فسوف** } حرف يدخل على المضارع فيمحّضه للزمن المستقبل.

{ **نُصْلِيهِ نَاراً** } تقدّم عند قوله { وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً } [النّساء:10]. و**نصليه** نجعله صاليا أو محترقا. والآية دلّت على كلّيّتين من كلّيّات الشريعة: وهما حفظ الأموال، وحفظ الأنفس، من قسم المناسب الضروري.

{ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً } [31].

اعتراض ناسب ذكره بعد ذكر ذنبين كبيرين: وهما قتل النفس، وأكل المال بالباطل، على عادة القرآن في التفنّن من أسلوب إلى أسلوب، وفي انتهاز الفرص في إلقاء التشريع عقب المواعظ وعكسه.

وقد دلت إضافة { **كبائر** } إلى { **ما تنهون عنه** } على أنّ المنهيّات قسمان: كبائر، ودونها، وهي التي تسمَّى الصغائر، وصفا بطريق المقابلة، وقد سُمّيت هنا سيّئات. ووعد بأنّه يغفر السيّئات للذين يجتنبون كبائر المنهيّات. وقال في [النجم:32] { الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ } فسمَّى الكبائر فواحش وسمَّى مقابلها اللمم، فثبت بذلك أنّ المعاصي عند الله قسمان: معاصي كبيرة فاحشة، ومعاصي دون ذلك يكثر أن يلمّ المؤمن بها.

واختلف السلف في تعيين الكبائر. فعن علي: هي سبع: الإشراك بالله، وقتل النفس، وقذف المحصنات، وأكل مال اليتيم، والفرار يوم الزحف، والتعرّب بعد الهجرة. واستدل لجميعها بما في القرآن من أدلّة جازم النهي عنها. وفي حديث البخاري عن النبيّ صلى الله عليه وسلم " **اتقوا السبع الموبقات...**" فذكر التي ذكرها علي إلّا أنّه جعل السحر عوض التعرّب. وقال عبد الله بن عمر: هي تسع بزيادة الإلحاد في المسجد الحرام، وعقوق الوالدين. وقال ابن مسعود: هي ما نهى عنه من أوّل سورة النّساء إلى هنا. وعن ابن عباس: كل ما ورد عليه وعيد نار أو عذاب أو لعنة فهو كبيرة. وعن ابن عباس: الكبائر ما نهى الله عنه كتابة. وأحسن ضبط الكبيرة قول إمام الحرمين: هي كلّ جريمة تؤذن بقلّة اكتراث مرتكبها بالدين وبضعف ديانته.

ويترتب على إثبات الكبائر والصغائر أحكام تكليفيّة: منها المخاطبة بتجنّب الكبيرة تجنّبا شديدا، ومنها وجوب التوبة منها عند اقترافها، ومنها أنّ ترك الكبائر يعتبر توبة من الصغائر، ومنها سلب العدالة عن مرتكب الكبائر، ومنها نقض حكم القاضي المتلبّس بها، ومنها جواز هجران المتجاهر بها، ومنها تغيير المنكر على المتلبّس بها.

وتترتّب عليها مسائل في أصول الدين: منها تكفير مرتكب الكبيرة عند طائفة من الخوارج التي تفرّق بين المعاصي الكبائر والصغائر، واعتباره منزلة بين الكفر والإسلام عند المعتزلة، خلافا لجمهور علماء الإسلام.

المَدخل: (بفتح الميم و ضمّها) اسم مكان الدخول أو مصدر أدخل. والمعنى: ندخلكم مكانا كريما، أو ندخلكم دخولا كريما. والكريم هو النفيس في نوعه. فالمراد الجنّة.

{ وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً } [32].

عطف على جملة { لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ } وجملة { وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ }، والمناسبة بين الجملتين، أنّ التمنّي يحبّب للمتمنّي الشيء الذي تمنّاه، فإذا أحبّه أتبعه نفسه فرام تحصيله وافتتن به، فربما بعثه ذلك الافتنان إلى تدبير الحيل لتحصيله إن لم يكن بيده، وإلى الاستئثار به عن صاحب الحقّ فيغمض عينه عن ملاحظة الواجب من إعطاء الحق صاحبه، وعن مناهي الشرعيّة التي تضمنتها الجمل المعطوف عليها. فالنهي عن التمنّي وتطلع النفوس إلى ما ليس لها جاء في هذه الآية عاما، فكان كالتذييل للأحكام السابقة لسد ذرائعها وذرائع غيرها، فكان من جوامع الكلم في درء الشرور.

والذي يبدوا أنّ هذا التمنّي هو تمنّي أموال المثْرين، وتمنّي انصباء الوارثين، وتمنّي الاستئثار بأموال اليتامى ذكورهم وإناثهم، وتمنّي حرمان النّساء من الميراث، ليناسب ما سبق من إيتاء اليتامى أموالهم. وإنصاف النّساء في مهورهن، وترك مضارتهنّ إلجاء إلى إسقاطها، ومن إعطاء انصباء الورثة كما قسم الله لهم. وكل ذلك من تفضيل بعض النّاس على بعض في الرزق.

وفي سنن الترمذي عن مجاهد، عن أم سلمة أنّها قالت: يا رسول الله يغزو الرجال ولا يغزو النّساء، وإنّما لنا نصف الميراث، فأنزل الله { وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ }. قال الترمذي: هذا حديث مرسل. قلت: لمّا كان مرسلا يكون قوله: فأنزل الله { ولا تتمنوا } من كلام مجاهد.

التمنّي: هو طلب حصول ما يعسر حصوله للطالب. وحاصل معنى النهي في الآية، إمّا نهي تنزيه لتربية المؤمنين على أن لا يشغلوا نفوسهم بما لا قبل لهم بنواله، لئلّا يكونوا على الحالة التي ورد فيها حديث **" يتمنى على الله الأماني "**، ويكون قوله { وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ } إرشاد إلى طلب الممكن، إذ قد علموا أنّ سؤال الله ودعاءه يكون في مرجوا الحصول، وإلّا كان سوء أدب.

وإمّا نهي تحريم، وهو الظاهر من العطف على المنهيّات المحرّمة، فيكون جريرة ظاهرة، أو قلبية كالحسد، بقرينة ذكره بعد قوله { لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ } و{ وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ } [29].

فأمّا طلب ما يمكنه تحصيله من غير ضرّ بالغير فلا نهي عنه، لأنّه بطلبه ينصرف إلى تحصيله فيحصل فائدة دينيّة أو دنيويّة. وطلب ما لا قبل له بتحصيله، إن رجع إلى الفوائد الأخروية، فلا ضير في ذلك.

{ **بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ** } صالح لأن يكون مرادا به آحاد النّاس، ولأن يكون مرادا به أصنافهم.

{ **لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ** } إن أريد بذكر الرجال والنّساء هنا قصد تعميم النّاس ، فالنهي المتقدّم على عمومه. وهذه الجملة مسوقة مساق التعليل للنهي عن التمنّي قطعا لعذر المتمنّين، وتأنيسا بالنهي، ولذلك فصلت.

وإن أريد بالرجال والنّساء كلًّا من النوعين بخصوصه، بمعنى أنّ الرجال يختصّون بما اكتسبوه، والنّساء يختصصن بما اكتسبن من الأموال، فالنهي المتقدّم متعلّق بالتمنّي الذي يفضي إلى أكل أموال اليتامى والنّساء، أي: ليس للأولياء أكل أموال مواليهم وولاياهم إذ لكلّ من هؤلاء ما اكتسب.

وهذه الجملة علّة لجملة محذوفة دلّت هي عليها، تقديرها: ولا تتمنوا فتأكلوا أموال مواليكم.

النصيب: الحظّ والمقدار، وهو صادق على الحظّ في الآخرة والحظّ في الدنيا، وتقدّم آنفا.

الاكتساب: السعي للكسب، وقد يستعار لحصول الشيء ولو بدون سعي وعلاج. و(من) للتبعيض أو للابتداء، والمعنى يحتمل أن يكون: استحقّ الرجال والنّساء كلٌ حظّه من الأجر والثواب المنجرّ له من عمله، فلا فائدة في تمنّي فريق أن يعمل عمل فريق آخر.

{ **وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ** } المعنى: للرجال مزاياهم وحقوقهم، وللنّساء مزاياهنّ وحقوقهنّ، فمن تمنّى ما لم يُعد لصنفه فقد اعتدى، لكن يسأل الله من فضله أن يعطيه ما أُعِدّ لصنفه من المزايا، ويجعل ثوابه مساويا لثواب الأعمال التي لم تُعد لصنفه، كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم للنّساء: " لكن أفضل الجهاد حج مبرور ". ويجوز أن يكون المعنى: لا تتمنّوا ما في يد الغير واسألوا الله من فضله فإنّ فضل الله يسع الإنعام على الكلّ، فلا أثر للتمنّي إلّا تعب النفس.

{ **إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً** } تذييل مناسب ، لأنّه متعلّق بعمل النفس لا يراقب فيه إلا ربّه.

{ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً } [33].

تقدير الكلام: ولكلّ الرجال والنّساء جعلنا موالي، أو لكلّ تارك جعلنا موالي.

ويجوز أن يقدّر: ولكلّ أحد أو شيء جعلنا موالي.

{ **جعلنا** } هو الجعل التشريعي، أي: شرعنا لكلّ موالي لهم حقّ في ماله.

الموالي: جمع مولى وهو محل الوَلْيِ، أي: القرب، وهو محلٌّ مجازي وقربٌ مجازي، و**الولاء** اسم المصدر للولْي المجازي.

وفي نظم الآية تقادير جديرة بالاعتبار، وجامعة لمعان من التشريع:

التقدير الأول: ولكلّ تارك، أي: تارك مالا جعلنا موالي، أي: أهل ولاء له، أي: قرب، أي: **ورثة**. ويتعلق {مما ترك} بما في موالي من معنى يلونه، أي: يرثونه.

التقدير الثاني: ولكلّ شيء ممّا تركه الوالدان والأقربون جعلنا موالي، أي: قوما يرثونه.

وهذا التقدير يناسب أن يكون ناشيء عن قوله { مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ } [النّساء:32] أي: في الأموال، أيّ ولكلّ من الذين فضلنا بعضهم على بعض جعلنا موالي يؤول إليهم المال، فلا تتمنّوا ما ليس لكم فيه حق في حياة أصحابه، ولا ما جعلناه للموالي بعد موت أصحابه.

التقدير الثالث: ولكلّ منكم جعلنا موالي، أي: عاصبين من الذين تركهم الوالدان، مثل الأعمام والأجداد والأخوال، فإنّهم قرباء الأبوين، وممّا تركهم الأقربون مثل أبناء الأعمام وأبنائهم وإن تعدّدوا، وأبناء الأخوات كذلك، فإنّهم قرباء الأقربين، فتكون الآية مشيرة إلى إرجاع الأموال إلى العصبة عند الجمهور، وإلى ذوي الأرحام عند بعض الفقهاء، وذلك إذا انعدم الورثة الذين في آية المواريث السابقة، وهو حكم مجمل بيّنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر"**، وقوله: **" ابن أخت القوم منهم أو من أنفسهم"** رواه أبو داود والنسائي، وقوله: **" الخال وارث من لا وارث له "** أخرجه أبو داود والترمذي، وقوله { وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ } [الأنفال:75]، وبذلك أخذ أبو حنيفة، وأحمد.

التقدير الرابع: ولكل منكم أيها المخاطبون بقولنا { وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ }، جعلنا موالي، أي: شرعنا أحكام الولاء لمن هم موال لكم، فحكم الولاء الذي تركه لكم أهاليكم: الوالدان والأقربون، أيّ أهل الولاء القديم في القبيلة المنجرّ من حلف قديم، أو بحكم الولاء الذي عاقدته الأيمان، أي: الأحلاف بينكم وبينهم أيها المخاطبون، وهو الولاء الجديد الشامل للتبني المحدث، وللحلف المحدث، مثل المؤاخاة التي فرضها النبيّ صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار، فإنّ الولاء منه ولاء قديم في القبائل، ومنه ما يتعاقد عليه الحاضرون. وعلى هذا التقدير يكون { وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ } معطوفا على { الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ }. وهذا التقدير يناسب أن يكون ناشئا عن قوله تعالى { تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ } [البقرة:187]، فتكون هذه الآية تكملة لآيات المواريث.

{ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ } قيل معطوف على قوله { الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ }.

المعاقدة: حصول العقد من الجانبين، أي: الذين تعاقدتم معهم على أن يكونوا بمنزلة الأبناء أو بمنزلة الإخوة أو بمنزلة أبناء العم.

الأيمان: جمع يمين: إمّا بمعنى اليد، أسند العقد إلى الأيدي مجازا لأنّها تقارن المتعاقدين، علامة على انبرام العقد، ومن أجل ذلك سُمّي العقد صفقة أيضا، لأنّه يصفق فيه اليَدُ على اليد.

وإمّا بمعنى القسم، لأنّ ذلك كان يصحبه قَسَم، ومن أجل ذلك سمي حِلْفا، وصاحبه حَليفا. وإسناد العقد إلى الإيمان بهذا المعنى مجاز أيضا، لأنّ القسم هو سبب انعقاد الحلف.

{ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ } قيل موالي الحلف الذي كان العرب يفعلونه في الجاهليّة، وهو أن يحالف الرجل الآخر فيقول له: " دمي دمك وهدمي هدمك (أي: إسقاط أحدهما للدم الذي يستحقّه يمضي على الآخر) وثأري ثأرك وحربي حربك وسلمي سلمك وترثني وأرثك وتطلب بي وأطلب بك وتعقل عني وأعقل عنك ".

قيل: كانوا جعلوا للمولى السدس في تركة الميت، فأقرّته هذه الآية، ثم نسختها آية الأنفال { وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ } [الأنفال:75]، قال ابن عباس، والحسن، وقتادة، وابن جبير: ولعل مرادهم أنّ المسلمين جعلوا للمولى السدس وصيّة لأنّ أهل الجاهليّة لم تكن عندهم مواريث معينة".

وقيل: نزلت هذه الآية في ميراث الإخوة الذين آخى النبيّ صلى الله عليه وسلم بينهم من المهاجرين والأنصار في أوّل الهجرة، فكانوا يتوارثون بذلك دون ذوي الأرحام، ثم نسخ الله ذلك بآية الأنفال، فتكون هذه الآية منسوخة.

وفي أسباب النزول للواحدي، عن سعيد بن المسيّب، أنّها نزلت في التبنّي الذي كان في الجاهليّة، فكان المتبنَّي يرث المتبنِّي (بالكسر) ثم نسخ بالمواريث.

{ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النّساء بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيرا } [34].

استئناف ابتدائي لذكر تشريع في حقوق الرجال وحقوق النّساء والمجتمع العائلي. وقد ذكر عقب ما قبله لمناسبة الأحكام الراجعة إلى نظام العائلة، لا سيما أحكام النّساء.

{ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النّساء } أصل تشريعي كلّي تتفرّع عنه الأحكام التي في الآيات بعده، فهو كالمقدّمة.

القوّام: الذي يقوم على شأن شيء ويليه ويصلحه، يقال: قوَّام وقيَّام وقيُّوم، لأنّ شأن الذي يهتمّ بالأمر ويعتني به أن يقف ليدير أمره.

وقيام الرجال على النّساء هو قيام الحفظ والدفاع، وقيام الاكتساب والإنتاج المالي، ولذلك قال تعالى { بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ}، أي: بتفضيل الله بعضهم على بعض وبإنفاقهم من أموالهم.

فالتفضيل هو المزايا الجبليّة التي تقتضي حاجة المرأة إلى الرجل في الذبّ عنها وحراستها لبقاء ذاتها. فهذا التفضيل ظهرت آثاره على مر العصور والأجيال، فصار حقّا مكتسبا للرجال، وهذه حجّة برهانيّة على كون الرجال قوامين على النّساء، فإنّ حاجة النّساء إلى الرجال من هذه الناحية مستمرّة وإن كانت تقوى وتضعف.

{ وبما أنفقوا } جيء بصيغة الماضي للإيماء إلى أمر قد تقرّر في المجتمعات الإنسانية منذ القدم، فالرجال هم العائلون لنساء العائلة من أزواج وبنات، وأضيفت الأموال إلى ضمير الرجال لأنّ الاكتساب

من شأن الرجال. وهذه حجّة خطابيّة لأنّها ترجع إلى مصطلح غالب البشر، لا سيما العرب، ويندر أن تتولّى النّساء مساعي من الاكتساب.

وقد روي في سبب نزول الآية: أنّها قول النّساء، ومنهنّ أم سلمة أم المؤمنين: " أتغزو الرجال ولا نغزو وإنّما لنا نصف الميراث "، فنزل قوله تعالى { وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ } [32].

{ **فالصالحات** } أي: إذا كان الرجال قوامين على النّساء، فمن المهمّ تفصيل أحوال الأزواج منهنّ ومعاشرتهن أزواجهنّ وهو المقصود، فوصف الله الصالحات منهنّ وصفا يفيد رضاه تعالى، فهو في معنى التشريع، أي: ليكنّ صالحات.

القانتات: المطيعات لله. والقنوت: عبادة الله، وقدّمه هنا وإن لم يكن من سياق الكلام، للدلالة على تلازم خوفهن الله وحفظ حق أزواجهن.

{ **حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ** } أي: حافظات أزواجهنّ عند غيبتهم.

{ **بِمَا حَفِظَ اللَّهُ** } الباء للملابسة، ومعنى الملابسة أنّهنّ يحفظن أزواجهنّ حفظا مطابقا لأمر الله تعالى، وأمر الله يرجع إلى ما فيه حق للأزواج وحدهم أو مع حق الله، فشمل ما يكرهه الزوج إذا لم يكن فيه حرج على المرأة.

{ **وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ** } هذه بعض الأحوال المضادة للصلاح وهو النشوز، أي: الكراهية للزوج، فقد يكون ذلك لسوء خلق المرأة، وقد يكون لأنّ لها رغبة في التزوّج بآخر، وقد يكون لقسوة في خلق الزوج، وذلك كثير. و**النشوز** في اللغة الترفّع والنهوض، وما يرجع إلى معنى الاضطراب والتباعد، ومنه نَشَزُ الأرض، وهو المرتفع منها.

قال جمهور الفقهاء: النشوز عصيان المرأة زوجها والترفّع عليه وإظهار كراهيته، أي: إظهار كراهية لم تكن معتادة منها، أي: بعد أن عاشرته.

{ **فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ** } مقصود منه الترتيب كما يقتضيه ترتيب ذكرها مع ظهور أنه لا يراد الجمع بين الثلاثة، والترتيب هو الأصل. قال سعيد بن جبير: يعظها، فإن قبلت، وإلّا هجرها، فإن هي قبلت، وإلّا ضربها، ونقل مثله عن علي.

وجعلوا الإذن بالموعظة والهجر والضرب مرتبا على هذا العصيان، واحتجوا بما ورد في بعض الآثار من الإذن للزوج في ضرب زوجته الناشز، وما ورد من الأخبار عن بعض الصحابة أنّهم فعلوا ذلك في غير ظهور الفاحشة.

فالمعنى أنّه إذا حصل النشوز مع مخائل قصد العصيان والتصميم عليه، لا مطلق المغاضبة أو عدم الامتثال، فإنّ ذلك قلّما يخلو عنه حال الزوجين، لأنّ المغاضبة والتعاصي يعرضان للنساء والرجال، ويزولان. وبذلك يبقى معنى الخوف على حقيقته، من توقّع حصول ما يضرّ، ويكون الأمر بالوعظ والهجر والضرب مراتب بمقدار الخوف من هذا النشوز والتباسه بالعدوان وسوء النيّة.

{ **تخافون** } المخاطب، إمّا الأزواج، ويجوز أن يكون المخاطب مجموع من يصلح لهذا العمل من ولاّة الأمور . فيتولّى كل فريق ما هو من شأنه.

وبهذا التأويل أخذ عطاء إذ قال: لا يضرب الزوج امرأته ولكن يغضب عليها. قال ابن العربي: هذا من فقه عطاء وفهمه الشريعة ووقوفه على مظانّ الاجتهاد، علم أنّ الأمر بالضرب هنا أمر إباحة، ووقف على الكراهية من طريق أخرى كقول النبيء صلى الله عليه وسلم **" ولن يضرب خياركم "**.

وأنا أرى لعطاء نظرا أوسع ممّا رآه له ابن العربي، وهو أنّه وضع هاته الأشياء مواضعها بحسب القرائن، ووافقه على ذلك جمع من العلماء، قال ابن الفرس: وأنكروا الأحاديث المروية بالضرب. وأقول: أو تأوّلوها. والظاهر أنّ الإذن بالضرب لمراعاة أحوال دقيقة بين الزوجين فأذن للزوج بضرب امرأته ضرب إصلاح لقصد إقامة المعاشرة بينهما، فإن تجاوز ما تقتضيه حالة نشوزها كان معتديا.

ولذلك يكون المعنى { وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ } أي: تخافون سوء مغبة نشوزهن.

والحاصل أنّه لا يجوز الهجر والضرب بمجرّد توقّع النشوز قبل حصوله اتفاقا، وإذا كان المخاطب الأزواج كان إذنا لهم بمعاملة أزواجهم النواشز بواحدة من هذه الخصال الثلاث، وكان الأزواج مؤتمنين على توخّي مواقع هذه الخصال بحسب قوة النشوز وقدره في الفساد، فأمّا الوعظ فلا حدّ له، وأمّا الهجر فشرطه أن لا يخرج إلى حدّ الإضرار بما تجده المرأة من الكمد، وقدّر بعضهم أقصاه بشهر.

وأمّا الضرب فهو خطير وتحديده عسير، ولكنّه أذن فيه في حالة ظهور الفساد، لأنّ المرأة اعتدت حينئذ، ولكن يجب تعيين حد في ذلك، يبيّن في الفقه، لأنّه لو أطلق للأزواج أن يتولوه، وهم حينئذ يشْفون غضبهم، لكان ذلك مظنّة تجاوز الحدّ، إذ قلّ من يعاقب على قدر الذنب، على أنّ أصلّ قواعد الشريعة لا تسمح بأن يقضي أحد لنفسه لولا الضرورة، بيد أن الجمهور قيدوا ذلك بالسلامة من الإضرار، وبصدوره ممّن لا يعدّ الضرب بينهم إهانة وإضرار.

فنقول: <u>يجوز لولاّة الأمور إذا علموا أنّ الأزواج لا يحسنون وضع العقوبات الشرعية مواضعها، ولا الوقوف عند حدودها أن يضربوا على أيديهم استعمال هذه العقوبة، ويعلنوا لهم أنّ من ضرب امرأته عوقب، كيلا يتفاقم أمر الإضرار بين الأزواج، لا سيما عند ضعف الوازع.</u>

{ **فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً** } المراد الطاعة بعد النشوز، أي: إن رجعن عن النشوز إلى الطاعة المعروفة فلا تطلبوا طريقا لأجراء تلك الزواجر عليهنّ، والخطاب صالح لكلّ من جعل له سبيل على الزوجات في حالة النشوز على ما تقدّم.

السبيل: حقيقته الطريق، وأطلق هنا مجازا على التوسّل والتسبّب والتذرّع إلى أخذ الحقّ.

{ **إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً** } تذييل للتهديد، أي: إنّ الله عليٌّ عليكم، حاكم فيكم، فهو يعدل بينكم، وهو كبير، أي: قويّ قادر، فبوصف العلوّ يتعين امتثال أمره ونهيه، وبوصف القدرة يحذر بطشه عند عصيان أمره ونهيه.

{ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً } [35].

عطف على جملة { وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ } وهذا حكم أحوال أخرى تعرض بين الزوجين، وهي أحوال الشقاق من مخاصمة ومغاضبة وعصيان، ونحو ذلك من أسباب الشقاق، أي: دون النشوز.

والمخاطب هنا ولاة الأمور لا محالة، وذلك يرجّح أن يكونوا هم المخاطبين في الآية التي قبلها.

الشقاق: مصدر كالمُشَاقّة، وهو مشتق من الشِق (بكسر الشين) أي: الناحية. لأنّ كل واحد يصير في ناحية. وعندي أنّه مشتقّ من الشَقّ (بفتح الشين) وهو الصدع والتفرّع، ومنه قولهم: شقّ عصا الطاعة، والخلاف شِقاق. وتقدم عند قوله تعالى { وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ } [البقرة:137].

{ حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا } أي: من أهل الزوج ومن أهل الزوجة، واشترط ذلك ليكونا أعلم بدخليّة أمرهما وأبصر في شأن ما يرجى من حالهما، ومعلوم أنّه يشترط فيهما الصفات التي تخوّلهما الحكم في الخلاف بين الزوجين. قال ملك: إذا تعذر وجود حكمين من أهلهما فيُبعث من الأجانب، وعند الشافعية كونهما من أهلهما مستحب .

والآية دالة على وجوب بعث الحكمين عند نزاع الزوجين النزاع المستمر المعبّر عنه بالشقاق، وظاهرها أنّ الباعث هو الحاكم وولي الأمر، لا الزوجان، لأنّ فعل { ابعثوا } مؤذن بتوجيههما إلى الزوجين، فلو كانا معينين من الزوجين لما كان لفعل البعث معنى. وصريح الآية: أنّ <u>المبعوثين حكمان لا وكيلان</u>، وبذلك قال أئمة العلماء من الصحابة والتابعين.

وعلى قول جمهور العلماء، فما قضى به الحكمان من فرقة أو بقاء أو مخالعة يمضي، ولا مقال للزوجين في ذلك، لأنّ ذلك معنى التحكيم، نعم لا يمنع هؤلاء من أن يوكّل الزوجان رجلين على النظر في شؤونهما، ولا من أن يحكّما حكمين على نحو تحكيم القاضي. وشروط ذلك وتفصيله في كتب الفقه.

{ إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحاً } الظاهر أنّه عائد إلى الحكمين لأنّهما المسوق لهما الكلام، واقتصر على إرادة الإصلاح لأنّها التي يجب أن تكون المقصد. فواجب الحكمين أن ينظرا في أمر الزوجين نظرا منبعثا عن نيّة الإصلاح، فإنّ تيسّر الإصلاح فذلك، وإلّا صارا إلى التفريق، وقد وعدهما الله بأن يوفق بينهما إذا نويا الإصلاح، ومعنى التوفيق بينهما إرشادهما إلى مصادفة الحقّ.

وقيل: الضمير عائد على الزوجين، وهذا تأويل من قالوا: إنّ الحكمين يبعثهما الزوجان، وكيلين عنهما. أي: إن يرد الزوجان من بعث الحكمين إصلاح أمرهما يوفق الله بينهما، بمعنى تيسير عود معاشرتهما إلى أحسن حالها.

وهذه الآية أصل في جواز التحكيم في سائر الحقوق، ومسألة التحكيم مذكورة في الفقه.

{ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً } [36].

عطف تشريع يختصّ بالمعاملة مع ذوي القربى والضعفاء، وقدّم له الأمر بعبادة الله تعالى وعدم الإشراك على وجه الإدماج، للاهتمام بهذا الأمر وأنّه أحقّ ما يتوخّاه المسلم، تجديدا لمعنى التوحيد في نفوس المسلمينّ، كما قدم لذلك في طالع السورة بقوله تعالى { اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ } [1]. والمناسبة هي ما أريد جمعه في هذه السورة من أحكام أواصر القرابة في النسب والدين والمخالطة.

والخطاب للمؤمنين، ولذلك قدّم الأمر بالعبادة على النهي عن الإشراك لأنّهم قد تقرّر نفي الشرك بينهم وأريد منهم دوام العبادة لله، والاستزادة منها، ونهوا عن الشرك تحذيرا ممّا كانوا عليه في الجاهليّة.

{ شيئا } أي: لا تجعلوا شريكا شيئا مما يعبد، ويجوز انتصابه على المصدريّة للتأكيد، أي: شيئا من الإشراك ولو ضعيفا.

{ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً } اهتمام بشأن الوالدين إذ جعل الأمر بالإحسان إليهما عقب الأمر بالعبادة.

{ وَذِي الْقُرْبَى } صاحب القرابة، والمراد بها قرابة النسب، كما هو الغالب في هذا المركب الإضافي.

وإنّما أمر بالإحسان إليه استبقاء لأواصر الودّ بين الأقارب، إذ كان العرب في الجاهليّة قد حرّفوا حقوق القرابة فجعلوها سبب تنافس وتحاسد وتقاتل. وكانوا يحسنون بالجار، فإذا كان من قرابتهم لم يكترثوا بالإحسان إليه. وقد كان المسلمون يومها عربا قريبي عهد بالجاهليّة، فلذلك حثّهم على الإحسان إلى القرابة.

وفي الأمر بالإحسان إلى الأقارب تنبيه على أن من سفالة الأخلاق أن يستخفّ أحد بالقريب لأنّه قريبه، وآمن من غوائله، ويصرف بره وودّه إلى الأباعد ليستكفي شرّهم، أو ليذكر في القبائل بالذكر الحسن.

{ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ } هذان صنفان ضعيفان عديما النصير، فلذلك أوصى بهما.

{ والْجَارِ ذِي الْقُرْبَى } الجار هو النزيل بقرب منزلك، ويطلق على النزيل بين القبيلة في جوارها. الجار ذي القربى هو النسيب من القبيلة.

{ وَالْجَارِ الْجُنُبِ } المراد به الجار الغريب الذي نزل بين القوم وليس من القبيلة، فهو جنب، أي: بعيد، مشتق من الجانب.

وقد أكّدت السنّة الوصاية بالجار في أحاديث كثيرة، ففي البخاري عن عائشة أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: **" ما زال جبريل يوصيني بالجار حتّى ظننت أنّه سيورّثه "**. وفيه عن أبي شريح، أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم خرج وهو يقول: **" والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن "**، قيل: ومن يا رسول

الله قال: " **من لا يأمن جاره بوائقه** "، وفيه عن عائشة، قلت: يا رسول الله إنّ لي جارين فإلى أيّهما أهدي قال: " **إلى أقربهما منك بابا** "، وفي صحيح مسلم: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي ذر: " **إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهده جيرانك** ".

واختلف في حدّ الجوار: فقال ابن شهاب، والأوزاعي: أربعون دارا من كل ناحية، وروي في ذلك حديث، وليس عن مالك في ذلك حدّ، والظاهر أنّه موكول إلى ما تعارفه الناس.

{ **وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ** } هو المصاحب الملازم للمكان، فمنه الضيف، ومنه الرفيق في السفر، وكلّ من هو ملمّ بك لطلب أن تنفعه، وقيل: أراد الزوجة.

{ **وَابْنَ السَّبِيلِ** } هو الغريب المجتاز بقوم غير ناو الإقامة، لأنّ من أقام فهو الجار الجنب.

{ **وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ** } لأن العبيد في ضعف الرقّ والحاجة وانقطاع سبل الخلاص من سادتهم، فلذلك كانوا أحقاء بالوصاية.

{ **إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً** } تذييل لجملة الأمر بالإحسان إلى من سمّاهم.

الاختيال: التكبّر، افتعال مشتق من الخيلاء.

الفخور: شديد الفخر بما فعل، وكلا الوصفين منشأ للغلظة والجفاء، فهما ينافيان الإحسان المأمور به، لأنّ المراد، الإحسان في المعاملة وترك الترفّع على من يظنّ به سبب يمنعه من الانتقام.

<u>ومعنى نفي محبة الله تعالى</u> نفي رضاه وتقريبه عمّن هذا وصفه، وهذا تعريض بأخلاق أهل الشرك، لما عرفوا به من الغلظة والجفاء، فهو في معنى التحذير من بقايا الأخلاق التي كانوا عليها.

{ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النّاس بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً [37] وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النّاس وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قَرِيناً [38] وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً [39] }.

يجوز أن يكون استئنافا ابتدائيا، جيء به عقب الأمر بالإحسان لمن جرى ذكرهم في الجملة السابقة. ومناسبة إرداف التحريض على الإحسان بالتحذير من ضدّه وما يشبه ضده من كل إحسان غير صالح، فقوبل الخُلق الذي دعاهم الله إليه، بأخلاق أهل الكفر وحزب الشيطان كما دلّ عليه ما في خلال هذه الجملة من ذكر الكافرين الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر.

{ **الَّذِينَ يَبْخَلُونَ** } مبتدأ، وحذف خبره ودلّ عليه قوله { وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً }. فالتقدير: الذين يبخلون أعتدنا لهم عذابا مهينا وأعتدنا ذلك للكافرين أمثالهم.

البخل: ضد الجود، وتقدّم عند قوله تعالى { وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ } [آل عمران :180].

{ **وَيَأْمُرُونَ النّاس بِالْبُخْلِ** } أي: يحضُّون النّاس عليه.

الكتمان: الإخفاء.

{ **مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ** } يحتمل أنّ المراد به المال، كقوله تعالى { وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ } [آل عمران:180].

فيكون المعنى: أنّهم يبخلون ويعتذرون بأنّهم لا يجدون ما ينفقون منه.

ويحتمل أنّه أريد به كتمان التوراة بما فيها من صفة النبيّ صلى الله عليه وسلم.

فعلى الاحتمال الأول يكون المراد بالذين يبخلون، المنافقين وعلى الثاني يكون المراد بهم: اليهود، وهذا المأثور عن ابن عباس.

{ **وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً** } يؤذن بأن المراد أحد هذين الفريقين.

{ **أعتدنا** } أصلها أعددنا، أبدلت الدال الأولى تاء، لثقل الدالين عند فك الإدغام باتصال ضمير الرفع.

ووصف العذاب بالمهين جزاء لهم على الاختيال والفخر.

{ **وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ** } عطف على { الَّذِينَ يَبْخَلُونَ }، لأنّهم أنفقوا إنفاقا لا تحصل به فائدة الإنفاق غالبا، لأنّ من ينفق ماله رئاء لا يتوخى به مواقع الحاجة، فقد يعطي الغني ويمنع الفقير، وأريد بهم هنا المنفقون من المنافقين المشركين، ولذلك وُصفوا بأنّهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر.

{ **وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فساء قرينا** } جملة معترضة. أي: فساء قرينا له، والمقصود سوء حال من كان الشيطان له قرينا.

{ **وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ** } عطف على الجملتين، وضمير الجمع عائد إلى الفريقين، والمقصود استنزال طائرهم، وإقامة الحجّة عليهم. وتقدير الكلام: لو آمنوا ماذا الذي كان يتعبهم ويثقلهم، أي: لكان خفيفا عليهم ونافعا لهم.

{ **وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً** } معترضة في آخر الكلام، وهي تعريض بالتهديد والجزاء على سوء أعمالهم.

{ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً } [40].

استئناف بعد أن وصف حالهم، وأقام الحجّة عليهم، وأراهم تفريطهم مع سهولة أخذهم بالحيطة لأنفسهم لو شاءوا. بيّن أنّ الله منزّه عن الظلم القليل، بله الظلم الشديد، فالكلام تعريض بوعيد محذوف هو من جنس العقاب، وأنّه في حقّهم عدل، لأنّهم استحقوه بكفرهم.

{ **مِثْقَالَ ذَرَّةٍ** } أي: لا يظلم ظلما مقدّرا بمثقال ذرة، والمثقال ما يظهر به الثقل، فلذلك صيغ على وزن اسم الآلة، والمراد به المقدار.

الذرّة: تطلق على بيضة النملة، وعلى ما يتطاير من التراب عند النفخ، وهذا أحقر ما يقدّر به.
المضاعفة: إضافة الضِعف (بكسر الضاد) أي: المثل.
الأجر العظيم: ما يزاد على الضعف، ولذلك أضافه الله تعالى إلى ضمير الجلالة، فقال { مِنْ لَدُنْهُ } إضافة تشريف. وسمّاه أجرا لكونه جزاء على العمل الصالح، وقد روي أنّ هذا نزل في ثواب الهجرة.

{ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً [41] يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً [42] }.

التقدير: إذا أيقنت بذلك، فكيف حال كلّ أولئك إذا جاء الشهداء وظهر موجب الشهادة على العمل الصالح وعلى العمل السيئ، فالنّاس بين مستبشر ومتحسّر.
{ **فَكَيْفَ** } الحالة التي دلّ عليها الاستفهام المستعمل في التعجيب تؤذن بحالة مهولة للمشركين وتنادي على حيرتهم ومحاولتهم التملّص من العقاب بسلوك طريق إنكار أن يكونوا أُنذِروا، ممّا دلّ عليه مجيء شهيد عليهم.
{ **عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً** } إشارة إلى الذين دعاهم النبيّ صلى الله عليه وسلم ،وقد أصطلح القرآن على إطلاق إشارة (هؤلاء) مرادا بها المشركون، وهذا معنى أُلهمنا إليه، واستقريناه فكان مطابقا.
ويجوز أن تكون الإشارة إلى { الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النّاس بِالْبُخْلِ } وهم المشركون والمنافقون، لأنّ تقدّم ذكرهم يجعلهم كالحاضرين فيشار إليهم، لأنّهم لكثرة توبيخهم ومجادلتهم صاروا كالمعيّنين.
وفي البخاري: أنّ عبد الله بن مسعود قال: قال لي النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" اقرأ علي القرآن "**، قلت: أقرأه عليك وعليك أنزل، قال: **" إنّي أحب أن أسمعه من غيري "**، فقرأت عليه سورة النّساء، حتّى بلغت { فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً }، قال: **" أمسك "**، فإذا عيناه تذرفان.
{ **يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا** } الآية استئناف بياني، وهو حال الذين كفروا حين يرون بوارق الشرّ، من شهادة شهداء الأمم على مؤمنهم وكافرهم، ويوقنون بأنّ المشهود عليهم بالكفر مأخوذون إلى العذاب، فينالهم من الخوف ما يودّون منه لو تسوّى بهم الأرض.
{ **لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ** } بيان لجملة يودّ.
{ **تُسَوَّى** } قرأه نافع، وابن عامر، وأبو جعفر { تَسَّوَّى } (بفتح التاء وتشديد السين) فهو مضارع تسَوَّى الذي هو مطاوع سوّاه إذا جعله سواء لشيء آخر، أي: مماثلا، والمماثلة المستفادة من التسوية تحتمل أن تكون مماثلة في الذات، فيكون المعنى أنّهم يصيرون ترابا مثل الأرض، وهذا تفسير الجمهور.
ويحتمل أن تكون مماثلة في المقدار، فقيل: يودّون أنّهم لم يبعثوا وبقوا مستوين مع الأرض في بطنها، وقيل: يودّون أن يدفنوا حينئذ كما كانوا قبل البعث.
والأظهر عندي: أنّ المعنى التسويةُ في البروز والظهور، أي أن ترتفع الأرض فتسّوى في الارتفاع

بأجسادهم، فلا يظهروا، وذلك كناية عن شدّة خوفهم وذلّهم. وهذا أحسن في معنى الآية وأنسب بالكناية.
{ وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً } فكأنّهم لمّا رأوا استشهاد الرسل، ورأوا عاقبة كذب المرسل إليهم حتّى احتيج إلى إشهاد رسلهم، علموا أنّ النوبة مفضية إليهم، وخامرهم أن يكتموا الله أمرهم إذا سألهم، فبيّن الله أنهم غير قادرين على ذلك.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حتّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلا جُنُباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حتّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النّساء فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً } [43].

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حتّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ } استئناف لبيان حكمين يتعلقان بالصلاة، دعا إلى نزولها عقب الآيات الماضية أنّه آن الأوان لتشريع هذا الحكم في الخمر حينئذ، وإلى قرنه بحكم مقرّر يتعلق بالصلاة أيضا، ويظهر أنّ سبب نزولها طرأ في أثناء نزول الآيات التي قبلها والتي بعدها، فوقعت في موقع وقت نزولها وجاءت كالمعترضة بين تلك الآيات.
تضمّنت حكما أوّل يتعلق بالصلاة ابتداء، وهو مقصود في ذاته أيضا بحسب الغاية، وهو قوله { لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى }. وذلك أنّ الخمر كانت حلالا لم يحرّمها الله تعالى، فبقيت على الإباحة الأصليّة في أوّل مدّة الهجرة، فقال فريق من المسلمين: نحن نشربها لمنافعها لا لإثمها، وقد علموا أنّ المراد من الإثم الحرج والمضرّة والمفسدة، وتلك الآية كانت إيذانا لهم بأنّ الخمر يوشك أن تكون حراما لأنّ ما يشتمل على الإثم متصف بوصف مناسب للتحريم، ولكن الله أبقى إباحتها رحمة لهم في معتادهم، مع تهيئة النفوس إلى قبول تحريمها، فحدث بعد ثلاث سنين ما رواه الترمذي عن علي بن أبي طالب قال: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاما فدعانا وسقانا خمرا وحضرت الصلاة فقدموني فقرأت: قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون، فأنزل الله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى }. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.
القرب: هنا مستعمل في معناه المجازي وهو التلبّس بالفعل، لأنّ قَرُب حقيقة في الدنوّ.
ولم يقل (لا تصلّوا) ونحوه للإشارة إلى أنّ تلك حالة منافية للصلاة، وصاحبها جدير بالابتعاد عن أفضل عمل في الإسلام، ومن هنا كانت مؤذنة بتغيّر شأن الخمر، والتنفير منها، لأنّ المخاطبين يومئذ هم أكمل النّاس إيمانا وأعلقهم بالصلاة، فلا يرمقون شيئا يمنعهم من الصلاة إلّا بعين الاحتقار.
سكارى، جمع سكران، والسكران من أخذ عقله في الانغلاق، مشتق من السكر، وهو الغلق.

{ **حتّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ** } غاية للنهي وإيماء إلى علّته، لظهور أنّ ذلك الحدّ من السكر قد يفضي إلى اختلال أعمال الصلاة، إذ العمل يسرع إليه الاختلال باختلال العقل قبل اختلال القول.

ولما نزلت هذه الآية اجتنب المسلمون شرب الخمر في أوقات الصلوات فكانوا لا يشربون إلّا بعد صلاة العشاء وبعد صلاة الصبح، لبعد ما بين هاتين الصلاتين وبين ما تليانهما.

{ **وَلا جُنُباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حتّى تَغْتَسِلُوا** } المراد به المباعد للعبادة من الصلاة إذا قارف امرأته حتّى يغتسل. وإطلاق الجنابة على هذا المعنى من عهد الجاهليّة، فإنّ الاغتسال من الجنابة كان معروفا عندهم، ولعلّه من بقايا الحنيفيّة، أو ممّا أخذوه عن اليهود، فقد جاء الأمر بغسل الجنابة في التوراة [سفر اللاويين، الإصحاح: 15]. والمعنى: لا تصلّوا في حال الجنابة حتّى تغتسلوا.

وذكر ابن إسحاق في السيرة أن أبا سفيان، لما رجع مهزوما من بدر، حلف أن لا يمس رأسه غسل من جنابة حتّى يغزو محمدا.

والمقصود من قوله { وَلا جُنُباً } التمهيد للتخلّص إلى شرع التيمّم، فإنّ حكم غسل الجنابة مقرّر من قبل، فذكره هنا إدماج.

والتيمّم شرع في غزوة المريسيع على الصحيح، وكانت سنة ست أو سنة خمس على الأصح. وظاهر حديث مالك عن عائشة أنّ الآية التي نزلت في غزوة المريسيع هي آية التيمّم، فيظهر أن تكون هذه الآية التي في سورة النّساء لأنّها لم يذكر منها إلّا التيمّم. ووقع في حديث عمرو عن عائشة أنّ الآية التي نزلت هي قوله { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ } التي في سورة المائدة [6]، أخرجه البخاري.

وقد جزم القرطبي بأنّ الآية التي نزلت في غزوة المريسيع هي آية سورة النّساء، قال: لأنّ آية سورة المائدة تسمى آية الوضوء. وكذلك الواحدي أورد في أسباب النزول حديث عائشة في سبب نزول آية سورة النّساء.

قال ابن العربي هذه معضلة ما وجدت لدائها من دواء لا نعلم أي الآيتين عنت عائشة. وسورة المائدة قيل: نزلت قبل سورة النّساء، وقيل بعدها.

{ **إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ** } استثناء من عموم الأحوال المستفاد من وقوع جنبا، وهو حال نكرة، في سياق النفي.

عابر السبيل: في كلام العرب المسافر حين سيره في سفره، مشتقّ من العبْر وهو القطع والاجتياز، ومن العلماء من فسّر { عَابِرِي سَبِيلٍ } بمارين في طريق، وقال: المراد منه طريق المسجد، بناء على تفسير الصلاة في قوله { لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ} بالمسجد، وجعلوا الآية رخصة في مرور الجنب في المسجد إذا كان قصده المرور لا المكث. وللمسألة تفصيل كبير في كتب الفقه، فانظرها هناك.

{ **حتّى تَغْتَسِلُوا** } غاية للنهي عن الصلاة إذا كانوا جنبا، فهو تشريع للغسل من الجنابة وإيجاب له، لأنّ وجوب الصلاة لا يسقط بحال، فلمّا نهوا عن اقترابها بدون الغسل علم من ذلك فرض الغسل. والحكمة في مشروعية الغسل النظافة، ونيط ذلك بأداء الصلاة ليكون المصلي في حالة كمال الجسد، كما كان

حينئذ في حال كمال الباطن بالمناجاة والخضوع.

ودل إسناد الاغتسال إلى الذوات في قوله تعالى { حتّى تَغْتَسِلُوا } على أنّ الاغتسال هو إحاطة البدن بالماء، وهذا متفق عليه، واختلف في وجوب الدلك، فشرطه مالك رحمة الله بناء على أنّه المعروف من معنى الغسل في لسان العرب، ولأن الوضوء لا يجزئ بدون ذلك باتفاق، فكذلك الغسل. وقال جمهور العلماء: يجزئ في الغسل إحاطة البدن بالماء بالصب أو الانغماس، واحتجّوا بحديث ميمونة وعائشة رضي الله عنهما في صفة غسل النبيّ صلى الله عليه وسلم: أنّه أفاض الماء على جسده. ولا حجّة فيه لأنّهما لم تذكرا أنه لم يتدلّك، ولكنهما سكتتا عنه، فيجوز أن يكون سكوتهما لعلمهما بأنّه المتبادر.

{ **وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى** } ذكر حالة الرخصة في ترك الاغتسال وترك الوضوء الذي لم يذكر في هذه السورة، وذكر في سورة المائدة. فالمريض أريد به الذي اختلّ نظام صحته بحيث صار الاغتسال يضرّه أو يزيد علته.

{ **أَوْ عَلَى سَفَرٍ** } بيان للإجمال الواقع في قوله تعالى { إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ } إن كان فيه إجمال، وإلا فهو استئناف حكم جديد كما تقدّم.

{ **أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ** } كناية عن قضاء الحاجة البشرية، شاع في كلامهم التكنّي بذلك لبشاعة الصريح. و**الغائط**: المنخفض من الأرض وما غاب عن البصر، يقال: غاط في الأرض إذا غاب، وكانت العرب يذهبون عند قضاء الحاجة إلى مكان منخفض من جهة الحي بعيد عن بيوت سكناهم، فيكنّون عنه: يقولون ذهب إلى الغائط أو تغوّط.

زيادة على حكم التيمّم الواقع بدلا عن الغسل، بذكر التيمّم الواقع بدلا عن الوضوء إيعابا لنوعي التيمم. وغير ذلك من أسبابه يؤخذ بالقياس على المذكور.

{ **أَوْ لامَسْتُمُ النّساء** } قرئ لامستم بصيغة المفاعلة، وقرئ لمستم بصيغة الفعل كما سيأتي، وهما بمعنى واحد على التحقيق. ومن حاول التفصيل لم يأت بما فيه تحصيل. وأصل اللمس المباشرة باليد أو بشيء من الجسد، وقد أطلق مجازا وكناية على الافتقاد (التفقّد)، قال تعالى { وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ } [الجن:8]، وعلى قربان النّساء، لأنّه مرادف المسّ، ونظيره { وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ } [البقرة:237]. والملامسة هنا يحتمل أن يكون المراد منها ظاهرها، وهو الملامسة بمباشرة اليد أو بعض جسد المرأة. فيكون ذكَر سببًا ثانيا من أساب الوضوء التي توجب التيمّم عند فقد الماء، وبذلك فسّره الشافعي، فجعل لمس الرجل بيده جسد امرأته موجبا للوضوء، وهو محمل بعيد، إذ لا يكون لمس الجسد موجبا للوضوء وإنّما الوضوء ممّا يخرج خروجا معتادا. **فالمحمل الصحيح أن الملامسة كناية عن الجماع**.

{ **فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً** } وهو قيد في المسافر، ومن جاء من الغائط، ومن لامس النّساء، وأمّا المريض فلا يتقيّد تيمّمه بعدم وجدان الماء لأنّه يتيمّم مطلقا، وذلك معلوم بدلالة معنى المرض.

{ **فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً** } التيمّم: القصد، و**الصعيد**: وجه الأرض، و**الطيب**: الطاهر الذي لم تلوّثه نجاسة ولا قذر، فيشمل الصعيد التراب والرمل والحجارة، وإنّما عبّر بالصعيد ليصرف المسلمين عن هوس أن يتطلّبوا التراب أو الرمل ممّا تحت وجه الأرض، غلوّا في تحقيق طهارته.

التيمّم: شرع بهذه الآية حكم التيمّم أو قرّر شرعه السابق في سورة المائدة على الأصح، وكان شرع التيمّم سنة ست في غزوة المريسيع، وسبب شرعه ما في الصحيح عن عائشة قالت: خرجنا مع رسول الله في بعض أسفاره حتّى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش انقطع عقد لي فأقام رسول الله على التماسه وأقام النّاس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء فأتى النّاس إلى أبي بكر الصديق فقالوا: ألا ترى إلى ما صنعت عائشة أقامت برسول الله والنّاس وليسوا على ماء وليس معهم ماء. فجاء أبو بكر ورسول الله واضع رأسه على فخذي قد نام، فقال: حبست رسول الله والنّاس وليسوا على ماء وليس معهم ماء فعاتبني أبو بكر وقال ما شاء الله أن يقول وجعل يطعنني بيده في خاصرتي فلا يمنعني من التحرّك إلاّ مكان رسول الله على فخذي، فقام رسول الله حين أصبح على غير ماء، فأنزل الله تعالى آية التيمّم، فقال أسيد بن الحُضَيْر: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر، فوالله ما نزل بك أمر تكرهينه إلّا جعل الله ذلك لك وللمسلمين فيه خيرا. قالت: فبعثنا البعير الذي كنت عليه فأصبنا العقد تحته ".

والتيمّم من خصائص شريعة الإسلام كما في حديث جابر أنّ النبيء صلى الله عليه وسلم قال: **" أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي ... وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا "**.

والتيمّم بدل جعله الشرع عن الطهارة، وأحسب أن حكمة تشريعه تقرير لزوم الطهارة في نفوس المؤمنين، وتقرير حرمة الصلاة، وترفيع شأنها في نفوسهم، فلم تترك لهم حالة يعدون فيها أنفسهم مصلين بدون طهارة تعظيما لمناجاة الله تعالى، فلذلك شرع لهم عملا يشبه الإيماء إلى الطهارة ليُشعروا أنفسهم متطهّرين، وجعل ذلك بمباشرة اليدين صعيد الأرض التي هي منبع الماء، ولأنّ التراب مستعمل في تطهير الآنية ونحوها، ينظفون به ما علق لهم من الأقذار في ثيابهم وأبدانهم وماعونهم، وما الاستجمار إلّا ضرب من ذلك، مع ما في ذلك من تجديد طلب الماء لفاقده وتذكيره بأنّه مطالب.

وإذا قد كان التيمّم طهارة رمزية اقتنعت الشريعة فيه بالوجه والكفين في الطهارتين الصغرى والكبرى، كما دلّ عليه حديث عمار بن ياسر، ويؤيد هذا المقصد أنّ المسلمين لما عدموا الماء في غزوة المريسيع صلوا بدون وضوء فنزلت آية التيمم.

{ **فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ** } جعل التيمّم قاصرا على مسح الوجه واليدين، وأسقط مسح ما سواهما من أعضاء الوضوء بله أعضاء الغسل، إذ ليس المقصود منه تطهير حسيا، ولا تجديد النشاط، ولكن مجرّد استحضار استكمال الحالة للصلاة.

{ **إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً** } تذييل لحكم الرخصة إذ عفا عن المسلمين فلم يكلّفهم الغسل أو الوضوء عند المرض، ولا ترقّب وجود الماء عند عدمه، حتّى تكثر عليهم الصلاة فيعسر عليهم القضاء.

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ [44] وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيّاً وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيراً [45] }.

استئناف كلام راجع إلى مهيع الآيات التي سبقت من قوله { وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً } [36]، فإنّه بعد نذارة المشركين، وجّه الإنذار لأهل الكتاب.

والمناسبة، أنّ الأمر بترك الخمر في أوقات الصلوات والأمر بالطهارة كان من الهدى الذي لم يسبق لليهود نظيره، فهم يحسدون المسلمين عليه، لأنّهم حرموا من مثله، وفرّطوا في هدى عظيم، وأرادوا إضلال المسلمين عَداء منهم.

{ **ألم تر** } جملة يقصد منها التعجيب، وتقدم نظيرها في قوله تعالى { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ } [آل عمران:23].

النصيب: تقدّم عند قوله { لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ } [النساء:7]، وفي اختياره هنا إلقاء احتمال قلته في نفوس السامعين. والمراد بـ { الْكِتَابِ } التوراة، لأنّ اليهود هم الذين كانوا مختلطين مع المسلمين بالمدينة، ولم يكن فيها أحد من النصارى.

{ **يشترون** } حالية، وحالة اشترائهم الضلالة وإن كانت غير مشاهدة بالبصر فقد نزلت منزلة المشاهد المرئي، لأنّ شهرة الشيء وتحقّقه تجعله بمنزلة المرئي.

الاشتراء: مجاز في الاختيار والسعي لتحصيل الشيء، وهذا يدلّ على أنّهم اقتحموا الضلالة عن عمد لضعف إيمانهم بكتابهم وقلّة جدوى علمهم عليهم.

{ **وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ** } أي: يريدون للمؤمنين الضلالة لئلّا يفضلوهم بالاهتداء. ولك أن تجعل الإرادة على الغالب في معناها وهو الباعث النفساني على العمل، أي: يسعون لأنّ تضلّوا، وذلك بإلقاء الشبه والسعي في صرف المسلمين عن الإيمان.

{ **وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ** } معترضة، وهي تعريض، فإنّ إرادتهم الضلالة للمؤمنين عن عداوة وحسد.

{ **وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيّاً وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيراً** } تذييل لتطمئن نفوس المؤمنين بنصر الله، لأنّ الإخبار عن اليهود بأنّهم يريدون ضلال المسلمين، وأنّهم أعداء للمسلمين، من شأنه أن يلقي الروع في قلوب المسلمين، إذ كان اليهود المجاورون للمسلمين ذوي عَدد وعُدد، وبيدهم الأموال، وهم مبثوثون في المدينة وما حولها (قينقاع وقريظة والنظير وخيبر)، وسوء نواياهم ليس بالأمر الذي يستهان به، فكان قوله { وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيّاً } مناسبا لقوله تعالى { وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ }، أي: إذ كانوا مضمرين لكم السوء فالله وليّكم ويهديكم ويتولّى أموركم، شأن الولي مع مولاه، وكان قوله تعالى { وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيراً } مناسبا لقوله تعالى { بأعدائكم }، أي: فالله ينصركم.

{ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً } [46].

{ **من** } تبعيضيّة، أي: ومنهم فريق، وقد دلّ ضمير الجمع في قوله { يحرّفون } أنّ هذا صنيع فريق منهم، وقد قيل: إنّ المراد به رفاعة بن زيد بن التابوت من اليهود، ولعلّ قائل هذا، يعني أنّه من جملة هؤلاء الفريق، إذ لا يجوز أن يكون المراد واحدا ويؤتى بضمير الجماعة، وليس المقام مقام إخفاء.

{ **مِنَ الَّذِينَ هَادُوا** } يجوز أن يكون صفة للذين أوتوا نصيبا من الكتاب، وعلى الوجهين فقد أثبتت لهم أوصاف التحريف والضلالة ومحبة ضلال المسلمين.

التحريف: الميل بالشيء إلى الحرف وهو جانب الشيء وحافته، وهو هنا مستعمل في الميل عن سواء المعنى، وصريحه إلى التأويل الباطل.

ويجوز أن يكون التحريف مشتقا من الحرف وهو الكلمة والكتابة، فيكون مرادا به تغيير كلمات التوراة وتبديلها بكلمات أخرى لتوافق أهواء أهل الشهوات في تأييد ما هم عليه من فاسد الأعمال.

{ **وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا** } ذكر سوء أقوالهم، وهي أقوالهم التي يواجهون به الرّسول صلى الله عليه وسلم: يقولون سمعنا دعوتك وعصيناك، وذلك إظهار لتمسكّهم بدينهم ليزول طمع الرّسول في إيمانهم.

{ **وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ** } إظهار للتأدّب معه. والحاصل أنّ هذه الكلمة كانت معروفة الإطلاق بين العرب في معنى الكرامة والتلطّف. ولكنّهم لمّا قالوها الرّسول أرادوا بها معنى آخر انتحلوه لها من شيء يسمح به تركيبها الوضعي، أي: أن لا يسمع صوتا من متكلّم، بأن يصير أصم، أو أن لا يستجاب دعاؤه. والذي دل على أنّهم أرادوا ذلك قوله بعد { وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا- إلى قوله - وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا } فأزال لهم كلمة غير مسمع.

وقصدهم من إيراد كلام ذي وجهين أن يرضوا الرّسول والمؤمنين ويرضوا أنفسهم بسوء نيّتهم مع الرّسول صلى الله عليه وسلم ويرضوا قومهم، فلا يجدوا عليهم حجّة.

{ **وَرَاعِنَا** } أتوا بلفظ ظاهره طلب المراعاة، وهم يريدون كلمة في العبرانية تدلّ على ما تدل عليه كلمة الرعونة في العربية، وقد روي أنّها كلمة (راعونا) وأنّ معناها الرعونة، فلعلّهم كانوا يأتون بها، يوهمون أنهم يعظّمون النبيّ صلى الله عليه وسلم بضمير الجماعة. ويدلّ لذلك أنّ الله نهى المسلمين عن متابعتهم في ذلك، فقال { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا } [البقرة:104]

{ **لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ** } و**الليُّ** أصله الانعطاف والانثناء، ومنه { وَلا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ } [آل عمران:153]، أي: أنّهم يثنون ألسنتهم ليكون الكلام مشبها لغتين، بأن يشبعوا حركات أو يقصروا مشبعات أو يفخّموا مرققا أو يرققوا مفخما، ليعطي اللفظ في السمع صورة تشبه صورة كلمة أخرى، فإنّه قد تخرج كلمة من

زنة إلى زنة، ومن لغة إلى لغة بمثل هذا. ويحتمل أن يراد بلفظ (الليّ) مجازُه، وبـ (الألسنة) مجازُه، فالليّ بمعنى تغيير الكلمة، أي: يأتون في كلامهم بما هو غير متمحّض لمعنى الخير.

{ **وَطَعْناً فِي الدِّينِ** } لأنّهم أضمروا في كلامهم قصدا خبيثا فكانوا يقولون لإخوانهم، ومن يليهم من حديثي العهد بالإيمان: لو كان محمد رسولا لعلم ما أردنا بقولنا، فلذلك فضحهم الله بهذه الآية ونظائرها.

{ **وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا** } أي لو قالوا ما هو قبول للإسلام لكان خيرا. والقول يشبه أنّه مما جرى مجرى المثل من مثل (سمع وطاعة).

{ **وَأَقْوَمَ** } مشتق من القيام الذي هو بمعنى الوضوح والظهور، كقولهم: قام الدليل على كذا، وقامت حجّة فلان. وإنّما كان أقوم لأنّه دال على معنى لا احتمال فيه، بخلاف قولهم.

{ **وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ** } أي: ولكن أثر اللعنة حاق بهم، فحرموا ما هو خير فلا ترشح نفوسهم إلاّ بآثار ما هو كمين فيها من فعل سيئ وقول بَذَاءٍ، لا يستطيعون صرف أنفسهم عن ذلك.

{ **فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً** } أنّهم لا يؤمنون أبدا فهو من تأكيد الشيء بما يشبه ضدّه، وأطلق القلّة على العدم.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً } [47].

أقبل على خطاب أهل الكتاب الذين أريد بهم اليهود بعد أن ذكر من عجائب ضلالهم، وإقامة الحجّة عليهم، ما فيه وازع لهم لو كان بهم وَزْع. وكذلك شأن القرآن أن لا يفلت فرصة تَعِنُّ من فُرص الموعظة والهدى إلا انتهزها.

ولأنّ المقام مقام ترغيب ناسبته صلة تؤذن بأنّهم شرّفوا بإيتاء التوراة لتثير هممهم للاتسام بميسم الراسخين في جريان أعمالهم على وفق ما يناسب ذلك، وليس بين الصلتين اختلاف في الواقع لأنّهم أوتوا الكتاب كلّه حقيقة باعتبار كونه بين أيديهم، وأوتوا نصيبا منه باعتبار جريان أعمالهم على خلاف ما جاء به كتابهم، فالذي لم يعملوا به منه كأنهم لم يؤتوه.

{ **بِمَا نَزَّلْنَا / لِمَا مَعَكُمْ** } جيء بالصلتين دون الاسمين العلمين (القرآن والتوراة)، لما في قوله { بِمَا نَزَّلْنَا } من التذكير بعظم شأن القرآن أنّه منزّل بإنزال الله، ولما في قوله { لما معكم } من التعريض بهم في أنّ التوراة كتاب مستصحب عندهم، لا يعلمون منه حقّ علمه ولا يعملون بما فيه.

{ **مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً** } تهديد بأن يحلّ بهم أمر عظيم، وهو يحتمل الحمل على حقيقة، ويحتمل أن يكون الطمس مجازا على إزالة ما به كمال الإنسان من استقامة المدارك فإنّ الوجوه مجامع الحواس. وقد يطلق الطمس مجازا على إبطال خصائص الشيء المألوفة منه. ومنه طمس القلوب، أي: إبطال آثار التميز والمعرفة منها.

{ **فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا** } عطف لمجرّد التعقيب لا للتسبّب، أي: من قبل أن يحصل الأمران: الطمس

والردّ على الأدبار، أي: تنكيس الرؤوس إلى الوراء. وإن كان الطمس هنا مجازا، وهو الظاهر، فهو وعيد بزوال وجاهة اليهود في بلاد العرب، ورميهم بالمذلّة بعد أن كانوا هناك أعزة ذوي مال وعدّة، فقد كان منهم السموأل قبل البعثة، ومنهم أبو رافع تاجر أهل الحجاز، ومنهم كعب بن الأشرف، سيد جهته في عصر الهجرة. ويحتمل أن يكون حقيقة وهو ردهم من حيث أتوا، أي إجلاؤهم من بلاد العرب إلى الشام. والوعيد حاصل، فقد رماهم الله بالذلّ، ثم أجلاهم النبيّ صلى الله عليه وسلم وأجلاهم عمر بن الخطاب إلى أذرعات.

{ **أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ** } أريد باللعن هنا الخزي، فهو غير الطمس، فإن كان الطمس مرادا به المسخ فاللعن مراد به الذلّ، وإن كان الطمس مرادا به الذل فاللعن مراد به المسخ.

{ **أَصْحَابَ السَّبْتِ** } تقدّم ذكرهم في [البقرة:65].

{ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً } [48].

<u>يجوز</u> أن تكون هذه الجملة متعلّقة بما قبلها من تهديد اليهود بعقاب في الدنيا، فالكلام مسوق لترغيب اليهود في الإسلام، فالمراد بالغفران، التجاوز في الدنيا عن المؤاخذة لهم بعظم كفرهم وذنوبهم. وتتضمّن الآية تهديدا للمشركين بعذاب الدنيا يحلّ بهم فلا ينفعهم الإيمان بعد حلول العذاب.

أو يكون المراد بالغفران التسامح، فإنّ الإسلام قبل من أهل الكتابين الدخول تحت ذمّة الإسلام دون الدخول في دين الإسلام، وذلك حكم الجزية، فقال في شأنهم { قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حتّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ } [التوبة:29]. ولم يرض من المشركين إلّا بالإيمان دون الجزية، لقوله { فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ - إلى قوله - فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ } [التوبة:5].

<u>ويجوز</u> أن تكون الجملة مستأنفة، وقعت اعتراضا بين قوارع أهل الكتاب ومواعظهم، فيكون حرف (إنّ) لتوكيد الخبر لقصد دفع احتمال المجاز أو المبالغة في الوعيد.

{ **وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً** } زيادة في تشنيع حال الشرك.

الافتراء: الكذب الذي لا شبهة للكاذب فيه، لأنّه مشتقّ من الفري. وهو قطع الجلد.

الإثم العظيم: الفاحشة الشديدة.

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً [49] انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْماً مُبِيناً [50] }.

تعجيب من حال اليهود إذ يقولون { نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ } [المائدة:18]، { وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً } [البقرة:111] ونحو ذلك من إدلالهم الكاذب.

{ **بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ** } إبطال لمعتقدهم بإثبات ضدّه، وهو أنّ التزكية شهادة من الله، ولا ينفع أحدا أن يزكّي نفسه. وفي تصدير الجملة بـ { **بَلِ** } تصريح بإبطال تزكيتهم. وأنّ الذين زكّوا أنفسهم لا حظ لهم في تزكية الله، وأنّهم ليسوا ممن يشاء الله تزكيته.

{ **وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً** } أي: أنّ الله لم يحرمهم ما هم به أحرياء، وأنّ تزكية الله غيرهم لا تعدّ ظلما لهم، لأنّ الله يقول الحق وهو يهدي السبيل ولا يظلم أحدا.

الفتيل: شبه خيط في شق نواة التمرة، وقد شاع استعارته للقلّة، إذ هو لا ينتفع به ولا له مرأى واضح.

{ **انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ** } جعل افتراءهم الكذب، لشدة تحقّق وقوعه، كأنّه أمر مرئي ينظره النّاس بأعينهم، وإنّما هو مما يسمع ويعقل.

{ **وَكَفَى بِهِ إِثْماً مُبِيناً** } نهاية في بلوغه غاية الإثم كما يؤذن به تركيب (كفى به كذا)، وقد تقدّم القول في (كفى) عند قوله آنفا { وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً }.

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً [51] أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً [52] }.

أعيد التعجيب من اليهود، الذين أوتوا نصيبا من الكتاب، بما هو أعجب من حالهم التي مرّ ذكرها، فإنّ إيمانهم بالجبت والطاغوت وتصويبهم للمشركين، تباعد منهم عن أصول شرعهم بمراحل شاسعة، لأنّ أوّل قواعد التوراة، وأولى كلماتها العشر هي: (لا يكن لك آلهة أخرى أمامي، لا تصنع لك تمثالا منحوتا، لا تسجد لهن ولا تعبدهن).

الجِبْت: كلمة معرّبة من الحبشية، أي: الشيطان والسحر، لأنّ مادة: ج - ب - ت مهملة في العربية، فتعيّن أن تكون هذه الكلمة دخيلة.

الطاغوت: الأصنام كذا فسّره الجمهور هنا ونقل عن مالك بن أنس. وهو اسم يقع على الواحد والجمع فيقال: للصنم طاغوت وللأصنام طاغوت. وهذا الاسم مشتق من طغى يطغو إذا تعاظم وترفّع، وأصله مصدر بوزن فعلوت للمبالغة، مثل: رهبوت، وملكوت، ورحموت، وجبروت. وقد ينزلون هذا الاسم

منزلة المفرد فيجمعونه جمع تكسير على طواغيت ووزنه فعاليل، وورد في الحديث: **" لا تحلفوا بالطواغيت "**. وقد يطلق الطاغوت على عظيم أهل الشرك كالكاهن، لأنّهم يعظّمونه لأجل أصنامهم.

والآية تشير إلى ما وقع من بعض اليهود، وفيهم كعب بن الأشرف، وحيي بن أخطب، فإنّهم بعد وقعة أحد طمعوا أن يسعوا في استئصال المسلمين، فخرجوا إلى مكّة ليحالفوا المشركين على قتال المسلمين، فنزل كعب عند أبي سفيان، ونزل بقيّتهم في دور قريش، فقال لهم المشركون: أنتم أهل كتاب ولعلّكم أن تكونوا أدنى إلى محمد وأتباعه منكم إلينا فلا نأمن مكركم، فقالوا لهم: إنّ عبادة الأصنام أرضى عند الله ممّا يدعوا إليه محمد، وأنتم أهدى سبيلا. فقال لهم المشركون: فاسجدوا لآلهتنا حتّى نطمئن إليكم ففعلوا، ونزلت هذه الآية إعلاما من الله لرسوله بما بيّته اليهود وأهل مكة.

{ **لِلَّذِينَ كَفَرُوا** } لام العلّة، أي: يقولون لأجل الذين كفروا وليس لام تعدية فعل القول. وأريد بهم مشركو مكّة، وذلك اصطلاح القرآن في إطلاق صفة الكفر أنّه الشرك.

{ **هَؤُلاءِ أَهْدَى** }الإشارة إلى الذين كفروا، وهو حكاية للقول بمعناه، لأنّهم إنّما قالوا أنتم أهدى من محمد وأصحابه، أو قال بعض اليهود لبعض في شأن أهل مكّة { هَؤُلاءِ أَهْدَى }، أي: حين تناجوا وزوّروا ما سيقولونه.

{ **مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا** } حكاية لقولهم بالمعنى نداء على غلطهم، لأنّهم إنّما قالوا هؤلاء أهدى من محمد وأتباعه، وإذ كان محمد وأتباعه مؤمنين فقد لزم من قولهم: إنّ المشركين أهدى من المؤمنين. وهذا محل التعجيب.

{ **أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ** } موقع اسم الإشارة هنا في نهاية الرشاقة، لأنّ من بلغ من وصف حاله هذا المبلغ صار كالمشاهد، فناسب بعد قوله { ألم تر } أن يشار إلى هذا الفريق المدّعى أنه مرئيّ، فيقال: أولئك. وفي اسم الإشارة تنبيه على أنّ المشار إليهم جديرون بما سيذكر من الحكم لأجل ما تقدّم من أحوالهم. فالمقصود، أنّ هؤلاء هم الذين إن سمعتم بقوم لعنهم الله فهم هم.

{ **وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً** } فيه إيماء إلى تعليل الإخبار الضمني عنهم: بأنّهم لا نصير لهم، لأنّهم لعنهم الله، والذي يلعنه الله لا نصير له. وهذا مقابل قوله في شأن المسلمين { والله أعلم بأعدائكم وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيّاً وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيراً } [45].

{ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لا يُؤْتُونَ النّاس نَقِيراً [53] أَمْ يَحْسُدُونَ النّاس عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً [54] فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً [55] }.

هذا الكلام تهكّم عليهم، في انتظارهم أن يرجع إليهم ملك إسرائيل، وتسجيل عليهم بالبخل الذي لا يؤاتي من يرجون الملك.

النقير: شَكْلَةٌ في النواة كالدائرة، يضرب بها المثل في القلّة.

{ **أَمْ يَحْسُدُونَ النّاس عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ** } الاستفهام إنكار على حسدهم، وليس مفيدا لنفي الحسد لأنّه واقع. والمراد بـ **النّاس** النبيّ صلى الله عليه وسلم، و**الفضل**: النبوّة، أو المراد به النبي والمؤمنون، والفضل الهدى والإيمان.

{ **فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ** } أي: فلا بدع فيما حسدوه، إذ قد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة والملك.

آل إبراهيم: أبناؤه وعقبه ونسله، وهو داخل في الحكم لأنّهم إنّما أُعطوه لأجل كرامته عند الله ووعد الله إيّاه بذلك.

الكتاب: تعريف الجنس، فيصدق بالمتعدّد، فيشمل صحف إبراهيم، وصحف موسى، وما أنزل بعد ذلك.

الحكمة: النبوّة.

الملك: هو ما وعد الله به إبراهيم أن يعطيه ذريّته، وما آتى الله داود وسليمان وملوك إسرائيل.

{ **فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ** } أي: فمن الذين أوتوا نصيبا من الكتاب من آمن بمحمد، ومنهم من أعرض.

ويجوز أن يعود ضمير { فمنهم } إلى آل إبراهيم، وضمير { به } إلى إبراهيم، أيّ فقد آتيناهم ما ذكر. ومن آله من آمن به، ومنهم من كفر مثل أبيه آزر، وامرأة ابن أخيه لوط، أي: فليس تكذيب اليهود محمدا بأعجب من ذلك، ليكون قد حصل الاحتجاج عليهم في الأمرين، في إبطال مستند تكذيبهم، بإثبات أنّ إتيان النبوّة ليس ببدع، وأنّ محمدا من آل إبراهيم، فليس إرساله بأعجب من إرسال موسى. وفي تذكيرهم بأنّ هذه سنّة الأنبياء حتّى لا يعُدُّوا تكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم ثلمة في نبوّته، إذ لا يعرف رسول أجمع أهل دعوته على تصديقه من إبراهيم فمن بعده.

{ **وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً** } تهديد ووعيد للذين يؤمنون بالجبت والطاغوت. وتفسير هذا التركيب تقدّم في قوله تعالى { وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيّاً } [النساء:45]

{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً [56] وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً [57] }.

تهديد ووعيد لجميع الكافرين، فهي أعمّ ممّا قبلها، فلها حكم التذييل، ولذلك فصلت.

الإصْلاء: مصدر أصلاه، ويقال: صَلاه صلْيا، ومعناه شيّ اللحم على النّار.

{ **نضجت** } بلغت نهاية الشيّ، يقال: نضج الشواء إذا بلغ حدّ الشيّ. والمعنى: كلّما احترقت جلودهم، فلم يبق فيها حياة وإحساس عوضناهم جلودا غيرها.

{ **غيرها** } تأكيد لما دلّ عليه فعل التبديل، والتبديل يقتضي المغايرة.

{ **لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ** } تعليل لقوله { بدّلناهم } لأنّ الجلد هو الذي يوصل إحساس العذاب إلى النفس بحسب عادة خلق الله تعالى. فلو لم يبدّل الجلد بعد احتراقه لما وصل عذاب النار إلى النفس.

{ **إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً** } واقع موقع التعليل لما قبله، فالعزّة يتأتّى بها تمام القدرة في عقوبة المجترئ على الله، والحكمة يتأتّى بها تلك الكيفيّة في إصلائهم النّار.

{ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ...** } للمقابلة وزيادة الغيظ للكافرين. واقتصر من نعيم الآخرة على لذّة الجنّات والأزواج الصالحات، لأنّهما أحبّ اللذّات المتعارفة للسامعين، فالزوجة الصالحة آنس شيء للإنسان، والجنّات محل النعيم وحسن النظر.

{ **وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً** } هو من تمام محاسن الجنّات، لأنّ الظل إنّما يكون مع الشمس، وذلك جمال الجنّات ولذّة التنعيم برؤية النور مع انتفاء حرّه. ووصف بالظليل للدلالة على بلوغه الغاية في جنسه.

{ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً } [58].

استئناف ابتدائي قصد منه الإفاضة في بيان شرائع العدل والحكم، ونظام الطاعة، وذلك من الأعراض التشريعيّة الكبرى التي تضمّنتها هذه السورة، ولا يتعيّن تطلّب المناسبة بينه وبين ما سبقه، فالمناسبة هي الانتقال من أحكام تشريعيّة إلى أحكام أخرى في أغراض أخرى. وهنا مناسبة، وهي أنّ ما استطرد من ذكر أحوال أهل الكتاب في تحريفهم الكلم عن مواضعه، وليّهم ألسنتهم بكلمات فيها توجيه من السبّ، وافترائهم على الله الكذب، وحسدهم، بإنكار فضل الله إذ آتاه الرّسول والمؤمنين، كلّ ذلك يشتمل على خيانة أمانة الدين، والعلم، والحقّ، والنعمة، وهي أمانات معنويّة، فناسب أن يعقب ذلك بالأمر بأداء الأمانة الحسيّة إلى أهلها ويتخلّص إلى هذا التشريع.

{ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ** } صريحة في الأمر والوجوب، مثل صراحة النهي في قوله في الحديث: " **إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم** ". والخطاب لكلّ من يصلح لتلقّي هذا الخطاب والعمل به من كلّ مؤتمن على شيء، ومن كلّ من تولّى الحكم بين النّاس في الحقوق.

الأداء: حقيقته في تسليم ذات لمن يستحقّها، يقال: أدّى إليه كذا، أي: دفعه وسلّمه، ومنه أداء الدين. وتقدّم في قوله تعالى { مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ } [آل عمران:75].

ويطلق الأداء مجازا على الاعتراف والوفاء بشيء، وعلى هذا فيطلق أداء الأمانة على قول الحق والاعتراف به وتبليغ العلم والشريعة على حقّها. والمراد هنا هو الأوّل من المعنيين.

الأمانة: الشيء الذي يجعله صاحبه عند شخص ليحفظه إلى أن يطلبه منه، وتطلق الأمانة مجازا على ما يجب على المكلّف إبلاغه إلى أربابه ومستحقّيه من الخاصة والعامة كالدين والعلم والعهود والجوار والنصيحة ونحوها، وضدّها الخيانة في الإطلاقين.

أهل الأمانة: هم مستحقّوها، يقال: أهل الدار، أي: أصحابها.

والأداء حينئذ مستعمل في معناه الحقيقي، لأنّ الحقّ هنا ذات يمكن إيصالها بالفعل لمستحقيها، فتكون الآية آمرة بجميع أنواع الإيصال والوفاءات، ومن جملة ذلك دفع الأمانات الحقيقية، فلا مجاز في لفظ تؤدّوا.

{ **وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النّاس أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ** } عطف على { أن تؤدّوا }

الحكم: مصدر حكم بين المتنازعين، أي: اعتنى بإظهار المحقّ منهما من المبطل، أو إظهار الحقّ لأحدهما وصرّح بذلك، وهو مشتق من الحَكم (بفتح الحاء) وهو الردع عن فعل ما لا ينبغي، ومنه سمّيت حكمة اللجام، وهي الحديدة التي تجعل في فم الفرس، ويقال: أحكم فلانا، أي: أمسكه.

العدل: ضدّ الجور، فهو في اللغة التسوية، يقال: عدل كذا بكذا، أيّ سواه به ووازنه عدلا، ثم شاع إطلاقه على إيصال الحق إلى أهله، ودفع المعتدي على الحق عن مستحقه، إطلاقا ناشئا عمّا اعتاده النّاس أنّ الجور يصدر من الطغاة الذين لا يعدّون أنفسهم سواء مع عموم الناس، فهم إن شاءوا عدلوا وأنصفوا، وإن شاءوا جاروا وظلموا.

{ **إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ** } واقعة موقع التحريض على امتثال الأمر، فكانت بمنزلة التعليل ، وأغنت (إنّ) في صدر الجملة عن ذكر فاء التعقيب.

نعمّا: أصله (نعم ما)

الوعظ: التذكير والنصح، وقد يكون فيه زجر وتخويف.

{ **إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً** } أي: عليما بما تفعلون وما تقولون، وهذه بشارة ونذارة.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرّسول وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرّسول إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً } [59]

لمّا أمر الله الأمّة بالحكم بالعدل عقّب ذلك بخطابهم بالأمر بطاعة الحكّام ولاّة أمورهم، لأنّ الطاعة لهم هي مظهر نفوذ العدل الذي يحكم به حكّامهم، فطاعة الرّسول تشتمل على احترام العدل المشروع لهم وعلى تنفيذه، وطاعة ولاّة الأمور تنفيذ للعدل، وأشار بهذا التعقيب إلى أنّ الطاعة المأمور بها هي الطاعة في المعروف، ولهذا قال عليّ: " حقٌّ على الإمام أن يحكم بالعدل ويودي الأمانة، فإذا فعل ذلك فحقٌّ على الرعيّة أن يسمعوا ويطيعوا ".

وطاعة الله ورسوله بمعنى طاعة الشريعة، فإن الله هو منزّل الشريعة، ورسوله مبلّغها والحاكم بها في حضرته.

{ وَأَطِيعُوا الرّسول } أعيد فعل الأمر مع أنّ حرف العطف يغني عن إعادته إظهارا للاهتمام بتحصيل طاعة الرّسول لتكون أعلى مرتبة من طاعة أولي الأمر، ولينبّه على وجوب طاعته فيما يأمر به، ولو كان أمره غير مقترن بقرائن تبليغ الوحي، لئلّا يتوهّم السامع أنّ طاعة الرّسول المأمور بها ترجع إلى طاعة الله فيما يبلّغه عن الله دون ما يأمر به في غير التشريع، فإنّ امتثال أمره كلّه خير. ولذلك كانوا إذا لم يعلموا مراد الرّسول من أمره ربما سألوه: أهو أمر تشريع أم هو الرأي والنظر، كما قال له الحباب بن المنذر يوم بدر حين نزل جيش المسلمين: أهذا منزل أنزله الله ليس لنا أن نجتازه أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: **" بل الرأي والحرب والمكيدة ..."**. ولمّا كلّم بريرة في أن تراجع زوجها مغيثا بعد أن عتقت، قالت له: أتأمر يا رسول الله أم تشفع، قال: **" بل أشفع "** ، قالت: لا أبقى معه.

إذ طاعة الرّسول مساوية لطاعة الله لأنّ الرّسول هو المبلّغ عن الله فلا يتلقى أمر الله إلاّ منه، وهو منفّذ أمر الله بنفسه، فطاعته طاعة تلق وطاعة امتثال، لأنّه مبلّغ ومنفذ، بخلاف أولي الأمر فإنّهم منفّذون لما بلّغه الرّسول فطاعتهم طاعة امتثال خاصة.

{ وَأُولِي الْأَمْرِ } يعني ذويه وهم أصحاب الأمر والمتولّون له. و**الأمر** هو الشأن، أيّ ما يهتمّ به من الأحوال والشؤون، فأولو الأمر من الأمّة ومن القوم هم الذين يسند النّاس إليهم تدبير شؤونهم ويعتمدون في ذلك عليهم، فيصير الأمر كأنّه من خصائصهم.

فأولو الأمر هنا هم من عدا الرّسول من الخليفة إلى والي الحسبة، ومن قواد الجيوش ومن فقهاء الصحابة والمجتهدين إلى أهل العلم في الأزمنة المتأخرة، وهم الذين يطلق عليهم أيضا **أهل الحلّ والعقد**.

وإنّما أمر بذلك بعد الأمر بالعدل وأداء الأمانة لأنّ هذين الأمرين قوام نظام الأمّة وهو تناصح الأمراء والرعيّة وانبثاث الثقة بينهم.

{ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرّسول } ولمّا كانت الحوادث لا تخلوا من حدوث الخلاف بين الرعية، وبينهم وبين ولاّة أمورهم، أرشدهم الله إلى طريقة فصل الخلاف بالردّ إلى الله وإلى الرسول.

التنازع: شدّة الاختلاف، وهو تفاعل من النزع، أي: الأخذ. فأطلق التنازع على الاختلاف الشديد على طريق الاستعارة، لأنّ الاختلاف الشديد يشبه التجاذب بين شخصين، وغلب ذلك حتّى ساوى الحقيقة.
وضمير { تنازعتم } راجع للذين آمنوا فيشمل كل من يمكن أن يقع بينهم التنازع.
قال الطبري: " يعني فإن اختلفتم أيّها المؤمنون أنتم فيما بينكم أو أنتم وأولوا أمركم فيه ".
{ **فِي شَيْءٍ** } أي: في كلّ شيء، فيصدق بالتنازع في الخصومة على الحقوق، ويصدق بالتنازع في اختلاف الآراء عند المشاورة أو عند مباشرة عمل ما، وقد تقدّم تحقيق مواقع لفظ (شيء) عند قوله تعالى { وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ } [البقرة:155]. وعموم لفظ شيء في سياق الشرط يقتضي عموم الأمر بالرد إلى الله والرّسول، وعموم أحوال التنازع، تبعا لعموم الأشياء المتنازع فيها.
{ **فَرُدُّوهُ** } الردّ هنا مجاز في التحاكم إلى الحاكم وفي تحكيم ذي الرأي عند اختلاف الآراء. وحقيقته إرجاع الشيء إلى صاحبه مثل العارية والمغصوب، ثم أطلق على التخلّي عن الانتصاف، بتفويض الحكم إلى الحاكم، وعن عدم تصويب الرأي بتفويض تصويبه إلى الغير، إطلاقا على طريق الاستعارة، وغلب هذا الإطلاق في الكلام حتّى ساوى الحقيقة.
{ **إِلَى اللَّهِ** } الردّ إلى كتابه، كما دلّ على ذلك قوله تعالى { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ } [النساء:104]. وذكر الردّ إلى الله في هذا مقصود منه مراقبة الله تعالى في طلب انجلاء الحق في مواقع النزاع، تعظيما لله تعالى.
{ **وَالرَّسُولِ** } الردّ إلى الرّسول في حياة الرّسول وحضوره ظاهر وهو المتبادر من الآية، وأمّا الردّ إليه في غيبته أو بعد وفاته، فبالتحاكم إلى الحكّام الذين أقامهم الرّسول أو أمّرهم بالتعيين، وإلى الحكّام الذين نصّبهم ولاة للحكم بين النّاس بالشريعة ممّن يظنّ به العلم بوجوه الشريعة وتصاريفها، فإنّ تعيين صفات الحكام وشروطهم وطرق توليتهم، فيما ورد عن الرّسول من أدلة صفات الحكام، يقوم مقام تعيين أشخاصهم.
{ **إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ** } تحريض وتحذير معا، لأنّ الإيمان بالله واليوم الآخر وازعان يزعان من مخالفة الشرع، والتعريض بمصالح الأمّة للتلاشي، وعن الأخذ بالحظوظ العاجلة مع العلم بأنّها لا ترضي الله، وتضرّ الأمّة، فلا جرم أن يكون دأب المسلم الصادق الإقدام عند اتضاح المصالح، والتأمّل عند التباس الأمر والصدر بعد عرض المشكلات على أصول الشريعة.
{ **إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ** } أي: إن كنتم تؤمنون حقّا، وتلازمون واجبات المؤمن.
{ **ذَلِكَ خَيْرٌ** } اسم الإشارة للتنويه. و**خير** اسم لما فيه نفع، وهو ضدّ الشر.
التأويل: مصدر أوّل الشيء إذا أرجعه، من آل يؤول إذا رجع، وهو هنا بمعنى أحسن ردّا وصرفا.
أخرج البخاري عن ابن عباس قال: نزل قوله { أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرّسول وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ } في عبد الله بن حُذافة بن قيس بن عدي إذ بعثه النبيّ في سريّة.

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً [60] وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرّسول رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً [61] }.

استئناف ابتدائي للتعجيب من حال هؤلاء، وهم فريق من المنافقين الذين كانوا من اليهود وأظهروا الإسلام . وقد اختلفت الروايات في سبب نزول هذه الآية اختلافا متقاربا: فعن قتادة والشعبي أن يهوديّا اختصم مع منافق اسمه بشر فدعا اليهودي المنافق إلى التحاكم عند النبيّ صلى الله عليه وسلم لعلمه أنّه لا يأخذ الرشوة ولا يجور في الحكم، ودعا المنافق إلى التحاكم عند كاهن من جهينة كان بالمدينة.

{ **الَّذِينَ يَزْعُمُونَ** } صيغة الجمع مراد بها واحد، لأنّ المقام مقام توبيخ، كقولهم: ما بال أقوام يقولون كذا، ليشمل المقصود ومن كان على شاكلته.

الزعم: خبر كاذب، أو مشوب بخطأ، أو بحيث يتّهمه النّاس بذلك. قال تعالى { زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا } [التغابن:7]، ويقول المحدّث عن حديث غريب: (فزعم فلان أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كذا)، أي: لإلقاء العهدة على المخبر، ولذلك قالوا: الزعم مطيّة الكذب.

وقد كان الذين أرادوا التحاكم إلى الطاغوت من المنافقين، فإطلاق الزعم على إيمانهم ظاهر.

{ **وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ** } لأن هؤلاء المنافقين كانوا من اليهود.

الطاغوت: فسّروه بالكاهن، أو بعظيم اليهود، كما رأيت في سبب نزول الآية. فإذا كان كذلك فهو إطلاق مجازي بتشبيه عظيم الكفر بالصنم المعبود لغلوّ قومه في تقديمه، وقد تقدّم عند قوله تعالى { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ } [51].

{ **وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً** } أي: يحبّ ذلك ويحسّنه لهم، لأنّه ألقى في نفوسهم الدعاء إلى تحكيم الكهّان والانصراف عن حكم الرسول، أو المعنى: يريد أن يضلّهم في المستقبل بسبب فعلتهم هذه لولا أن أيقظهم الله وتابوا ممّا صنعوا.

الضلال البعيد: هو الكفر، ووصفه بالبعيد مجاز في شدّة الضلال.

{ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا** } أي: إذا قيل لهم احضروا أو إيتوا، فإنّها تدلّ على الأمر بالحضور والإقبال. وتعالوا مستعمل هنا مجازا، إذ ليس ثمة حضور وإتيان، فهو مجاز في تحكيم كتاب الله وتحكيم الرّسول في حضوره، ولذلك قال { إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ } إذ لا يحكم الله إلا بواسطة كلامه، وأمّا تحكيم الرّسول فأريد به تحكيم ذاته لأنّ القوم المخبر عنهم كانوا من المنافقين وهم بالمدينة في حياة الرّسول صلى الله عليه وسلم.

{ **فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً** [62] **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً** [63] }.

تفريع على قوله تعالى { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ }، لأنّ الصدود عن ذلك يوجب غضب الله عليهم، فيوشك أن يصيبهم الله بمصيبة من غير فعل أحد، مثل انكشاف حالهم للمؤمنين فيُعرفوا بالكفر فيصبحوا مهدّدين، أو مصيبة من أمر الله رسوله والمؤمنين بأن يظهروا لهم العداوة وأن يقتلوهم لنفاقهم فيجيئوا يعتذرون بأنّهم ما أرادوا بالتحاكم إلى أهل الطاغوت إلاّ قصد الإحسان إليهم وتأليفهم إلى الإيمان والتوفيق بينهم وبين المؤمنين.

{ **فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ** } وهذا وعيد، أي: كيف حالهم حين تصيبهم مصيبة بسبب ما فعلوا فيجيئونك معتذرين. والاستفهام مستعمل في التهويل.

و(كيف بك) تركيب يقال إذا أريدت بشارة أو وعيد تعجيبا أو تهويلا:

فمن البشارة، قول النبيّ صلى الله عليه وسلم لسُراقة بن مالك: " **كيف بك إذا لبست سواري كسرى** "، فلما أتي بسواري كسرى في غنائم فتح فارس ألبسها عمر بن الخطاب سُراقة بن مالك.

ومن الوعيد، قوله تعالى { فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ } [آل عمران:25].

{ **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ** } جاء باسم الإشارة، لأنّهم قد حصل من ذكر صفاتهم ما جعلهم كالمشاهدين، وأراد بـ { ما في قلوبهم } الكفر الذي أبطنوه.

{ **فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ** } أمر رسوله بالإعراض عنهم.

الإعراض: حقيقته عدم الالتفات إلى الشيء بقصد التباعد عنه، مشتق من العُرض (بضم العين) وهو الجانب، ثمّ استعمل استعمالا شائعا في الترك والإمساك عن المخالطة والمحادثة. وأطلق على العفو وعدم المؤاخذة، بتشبيه حالة من يعفوا بحالة من لا يلتفت إلى الشيء فيولّيه عُرض وجهه.

الوعظ: الأمر بفعل الخير وترك الشر بطريقة فيها تخويف وترقيق يحملان على الامتثال، والاسم منه الموعظة، وتقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ } [58].

فهذا الإعراض إعراض صفح أو إعراض عدم الحزن من صدودهم عنك، أي: لا تهتم بصدودهم، فإنّ الله مجازيهم.

{ **وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً** } وذلك إبلاغ لهم في المعذرة، ورجاء لصلاح حالهم، شأن الناصح الساعي بكل وسيلة إلى الإرشاد والهدى.

البليغ: فعيل بمعنى بالغ بلوغا شديدا بقوّة، أي: بالغا إلى نفوسهم متغلغلا فيها.

{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرّسول لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً } [64].

{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ } جملة معترضة في خلال الخبر عن قضيّة المنافق الذي تحاكم إلى الطاغوت. وهو رجوع إلى الغرض الأوّل، وهو الإنحاء عليهم في إعراضهم عن التحاكم إلى الرسول، وأنّ إعراضهم ذلك مؤذن بنفاقهم، ببيان أنّ معنى الإيمان الرضا بحكم الرّسول، إذ ما جاء الرّسول إلا ليطاع فكيف يُعرض عنه.

{ بإذن الله } أي: بأمره ووصايته، إذ لا تظهر فائدة الشرائع بدون امتثالها.

{ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرّسول } عطف على جملة { فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ } [62] توبيخا لهم على تحاكمهم، إذ كان ذلك عصيانا، فإنّهم ما كفاهم أن أعرضوا عن تحكيم الرّسول حتّى زادوا فصدّوا عمن قال لهم: تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول. فلو استفاقوا حينئذ من علوائهم لعلموا أنّ إرادتهم أن يتحاكموا إلى الكفار والكهنة جريمة يجب الاستغفار منها ولكنّهم أصروا واستكبروا.

{ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً } إشارة إلى أنّهم لمّا لم يفعلوا فقد حرموا الغفران.

{ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حتّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً } [65].

تفريع عن قوله تعالى { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ } [60] وما بعده، إذ تضمّن ذلك أنّهم فعلوا ما فعلوا وهم يزعمون أنّهم مؤمنون، فكانت إشارة إلى انتفاء إيمانهم، ثم أردف بما هو أصرح وهو أنّ أفعالهم تنافي كونهم مؤمنين، وأكّده بالقسم وبالتوكيد اللفظي.

{ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ } أصل الكلام: فوربك لا يؤمنون، والعرب تأتي بحرف النفي قبل القسم للاهتمام بالنفي. ويكثر أن يأتوا مع حرف النفي بعد العاطف بحرف نفي مثله في الجواب ليحصل مع الاهتمام التأكيد، كما في هذه الآية. وقد نُفي عن هؤلاء المنافقين أن يكونوا مؤمنين كما يزعمون، فلذلك احتاج الخبر للتأكيد بالقسم وبالتوكيد اللفظي، لأنّه كشف لباطن حالهم.

أي: إذا كان انصرافهم عن تحكيم الرّسول للخشية من جوره كما هو معلوم من السياق فافتضح كفرهم، وقد علم من هذا أنّ المؤمنين لا ينصرفون عن تحكيم الرّسول ولا يجدون في أنفسهم حرجا من قضائه. وهذه الآية خاصة بحكم الرّسول صلى الله عليه وسلم، فأمّا الإعراض عن حكم غيره فليس بكفر. وهذا فيه مراتب بحسب التمكّن من الانتصاف من الحاكم وتقويمه.

{ **شَجَر** } تداخل واختلف ولم يتبيّن فيه الإنصاف، وأصله من الشجر لأنّه يلتف بعضه ببعض. وقالوا: شجر أمرهم، أي: كان بينهم الشر.

الحرج: الضيق الشديد. تقدّم عند قوله تعالى { يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً } [الأنعام:125].

وفي البخاري عن الزبير: أحسب هذه الآية نزلت في خصومة بيني وبين أحد الأنصار في شِرَاج من الحَرَّة (أيّ مسيل مياه - جمع شَرْج بفتح فسكون - وهو مسيل الماء يأتي من حرّة المدينة إلى الحوائط التي بها) فاحتكما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله: **" اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك "**، فقال الأنصاري: لأنْ كان ابن عمّتك. فتغيّر وجه النبيّ صلى الله عليه وسلم وقال: **" اسق يا زبير حتّى يبلغ الماء الجَدْرَ ثم أرسل إلى جارك واستوف حقّك "**، (والجدر هو ما يدار بالنخل من التراب كالجدار) فكان قضاؤه الأوّل صلحا، وكان قضاؤه الثاني أخذا بالحقّ. وكأنّ هذا الأنصاري ظنّ أنّ النبي صلى الله عليه وسلم أراد الصلح بينهم على وجه فيه توفير لحق الزبير جبرا لخاطره، ولم ير في ذلك ما ينافي العصمة، فقد كان الصحابة متفاوتين في العلم بحقائق صفات الرّسول، مدفوعين في سبر النفوس بما اعتادوه من الأميال والمصانعات، فنهاهم الله تعالى على أنّ ذلك يجرّ إلى الطعن في العصمة. وليس هذا الأنصاري بمنافق ولا شاك في الرسول، فإنّهم وصفوه بالأنصاري وهو وصف لخيرة من المؤمنين، وما وصفوه بالمنافق، ولكنّه جهل وغفل، فعفا عنه رسول الله ولم يستتبه.

والأنصاري غير معروف، وحبّذا إخفاؤه، وقيل: هو ثعلبة بن حاطب. والظاهر عندي أنّ الحادثتين وقعتا في زمن متقارب ونزلت الآية في شأن حادثة بشر المنافق فظنّها الزبير نزلت في حادثته مع الأنصاري.

{ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً [66] وَإِذاً لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً [67] وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً [68] }.

قال الفخر: هي توبيخ للمنافقين، أي: لو شدّدنا عليهم التكليف لما كان من العجب ظهور عنادهم، ولكنّا رحمناهم بتكليفهم اليسر فليتركوا العناد. وهي على هذا الوجه تصلح لأن تكون تحريضا للمؤمنين على امتثال الرّسول وانتفاء الحرج عنهم من أحكامه، فإنّه لم يكلّفهم إلّا اليسر، كلّ هذا محمول على أنّ المراد بقتل النفوس أن يقتل أحد نفسه بنفسه.

وعندي أنّ ذكر ذلك هنا من براعة المقطع، تهيئة لانتقال الكلام إلى التحريض على الجهاد الآتي [71].

{ **أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ** } المراد أقاربهم من المشركين في الجهاد المأمور به.

{ **أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ** } الهجرة إلى المدينة، وفي هذا تنويه بالمهاجرين والمجاهدين.

{ **مَا يُوعَظُونَ بِهِ** } أي ما يؤمرون به، أمر تحذير وترقيق، أي: لو فعلوا كلّ ما يبلّغهم الرسول.

{ **لَكَانَ خَيْراً** } أنّ فيه خير الدنيا، لأنّ الله يعلم وهم لا يعلمون.

{ **وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً** } يحتمل أنّه التثبيت على الإيمان وبذلك فسّروه، ويحتمل عندي: لبقائهم، ولعزّتهم وحياتهم الحقيقيّة، فإنّهم إنّما يكرهون القتال استبقاء لأنفسهم، ويكرهون المهاجرة حبًّا لأوطانهم، فأعلمهم الله أنّ الجهاد والتغرّب فيه أو في غيره أشدّ تثبيتا لهم، لأنّه يذود عنهم أعداءهم.

{ **وَإِذاً لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً** } قال الزمخشري هو جواب سؤال مقدّر، كأنّه: قيل وماذا يكون لهم بعد التثبيت، فقيل: { وَإِذاً لَآتَيْنَاهُمْ }.

{ **وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً** } أي: لفتحنا لهم طرق العلم والهداية. ولا شكّ أنّ الطاعة مفتاح المعارف بعد تعاطي أسبابها.

{ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرّسول فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيّينَ وَالصِّدّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً [69] ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيماً [70]}

تذييل لجملة { وَإِذاً لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً }.

{ **وَمَنْ يُطِعِ** } من يتصف بتمام معنى الطاعة، أي: أن لا يعصي الله ورسوله، وفي الحديث الصحيح:

" أنت مع من أحببت ".

الصّدّيقون: هم الذين صدّقوا الأنبياء ابتداء، مثل الحواريين والسابقين الأولين من المؤمنين.

الشهداء: فهم من قُتلوا في سبيل إعلاء كلمة الله.

الصالحون: الذين لزمتهم الاستقامة.

{ **وَحسُن** } فعل مراد به المدح ملحق بـ (نعم) ومضمّن معنى التعجيب من حسنهم، وذلك شأن فعُل (بضم العين) من الثلاثي أن يدلّ على مدح أو ذمّ بحسب مادته مع التعجّب.

{ **ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ** } يفيد الحصر وهو حصر ادّعائي، لأنّ فضل الله أنواع وأصناف، ولكنّه هنا أريد به المبالغة في قوّة هذا الفضل.

{ **وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيماً** } للإشارة إلى أنّ الذين تلبّسوا بهذه المنقبة، وإن لم يعلمهم النّاس، فإنّ الله يعلمهم والجزاء بيده فهو يوفّيهم الجزاء على قدر ما علم منهم، وقد تقدّم نظيره في هذه السورة.

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً** [71] **وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً** [72] **وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً** [73] }.

استئناف وانتقال إلى التحريض على الجهاد بمناسبة لطيفة، فإنّه انتقل من طاعة الرّسول إلى ذكر أشدّ التكاليف، ثمّ ذكر الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وكان الحال أدعى إلى التنويه بشأن الشهادة دون بقية الخلال المذكورة معها الممكنة النوال. وهذه الآية تشير لا محالة إلى تهيئة غزوة من غزوات المسلمين، وليس في كلام السلف ذكر سبب نزولها، ولا شكّ أنّها لم تكن أوّل غزوة لأنّ غزوة بدر وقعت قبل نزول هذه السورة، وكذلك غزوة أحد التي نزلت فيها سورة آل عمران، وليست نازلة في غزوة الأحزاب لأنّ قوله { فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ } يقتضي أنّهم غازون لا مغزوون، ولعلّها نزلت لمجرّد التنبيه إلى قواعد الاستعداد لغزو العدو، والتحذير من العدو الكاشح، ومن العدو الكائد، ولعلّها إعداد لغزوة الفتح، فإنّ هذه السورة نزلت في سنة ست، وكان فتح مكّة في سنة ثمان، ولا شك أنّ تلك المدّة كانت مدة اشتداد التألّب من العرب كلّهم لنصرة مشركي قريش والذبّ عن آلهتهم، ويدلّ لذلك قوله بعد { وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ } [75] ، وقوله { فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ } [141]، فإن اسم الفتح أريد به فتح مكّة في مواضع كثيرة كقوله تعالى { فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً } [الفتح:27].

{ **خُذُوا حِذْرَكُمْ** } ابتدأ بالأمر بأخذ الحذر. وهي أكبر قواعد القتال لاتقاء خدع الأعداء. وهو توقّي المكروه. ومعنى ذلك أن لا يغترّوا بما بينهم وبين العدو من هدنة صلح الحديبية، فإنّ العدو وأنصاره يتربّصون بهم الدوائر، ومن بينهم منافقون، وهم أعداء في صورة أولياء، وهم الذين عنوا بقوله { وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ }. ولفظ خذوا استعارة لمعنى شدّة الحذر وملازمته.

{ **فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً** } تفريع عن أخذ الحذر لأنّهم إذا أخذوا حذرهم تخيّروا أساليب القتال بحسب حال العدو.

{ **انفروا** } بمعنى اخرجوا للحرب، ومصدره النَفْر، بخلاف نفر ينفُر (بضم الفاء) فمصدره النفور.

ثُبَاتٍ: (بضم الثاء) جمع ثُبْةٌ (بضم الثاء) وهي الجماعة. وانتصب على الحال، لأنه في تأويل: متفرّقين، { **جميعا** } جيشا واحدا.

{ **وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ** } أي من جماعتكم وعدادكم، والخبر الوارد فيهم ظاهر منه أنّهم ليسوا بمؤمنين في خلوتهم، لأنّ المؤمن إن أبطأ عن الجهاد لا يقول { قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً } ، فهؤلاء منافقون، وقد أخبر الله عنهم بمثل هذا صراحة في آخر هذه السورة بقوله { بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً

أَلِيماً - إلى قوله - الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } [138، 141].

وقيل: أريد بهم ضعفة المؤمنين يتثاقلون عن الخروج إلى أن يتضح أمر النصر. قال الفخر وهذا اختيار جماعة من المفسرين وعلى هذا فمعنى منكم أي من أهل دينكم.

بطّأ: بمعنى تثاقل في نفسه عن أمر، وهو الإبطاء عن الخروج، إبطاء بداعي النفاق أو الجبن.

{ **فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ** } المصيبة اسم لما أصاب الإنسان من شرّ، والمراد هنا مصيبة الحرب، أعني الهزيمة من قتل وأسر.

{ **أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ** } الإنعام بالسلامة. فإنّ كان من المنافقين فوصف ذلك بالنعمة ظاهر، وإن كان من ضعفة المؤمنين فهو قد عدّ نعمة البقاء أولى من نعمة فضل الشهادة لشدّة الجبن، وهذا من تغليب الداعي الجبلّي على الداعي الشرعي.

{ **شَهِيداً** } على الوجه الأول (**وَإِنَّ مِنْكُمْ** = منافقون)، إمّا بمعنى الحاضر المشاهد للقتال، وإمّا تهكّم منه على المؤمنين مثل قوله تعالى { هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ } [المنافقون:7].

وعلى الوجه الثاني (**وَإِنَّ مِنْكُمْ** = ضعفة الإيمان)، بمعناه الشرعي وهو القتيل في الجهاد.

{ **فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً** } هو الفوز بالغنيمة والفوز بأجر الجهاد، حيث وقعت السلامة، والفوز برضا الرسول.

{ **كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ** } معترضة بين فعل القول ومقوله. و**المودّة** الصحبة والمحبّة، فإمّا أن يكون إطلاق المودّة على سبيل الاستعارة الصورية، إن كان المراد به المنافق، وإمّا أن تكون حقيقة إن أريد ضعفة المؤمنين.

{ **فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً** [74] **وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً** [75] **الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً** [76] }.

{ **فليقاتل** } الفاء: إمّا للتفريع، أو هي فاء فصيحة، أفصحت عمّا دلّ عليه ما تقدّم من قوله {خُذُوا حِذْرَكُمْ} وقوله { وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ }، لأنّ جميع ذلك اقتضى الأمر بأخذ الحذر، أي: فإذا علمتم جميع ذلك، فالذين يقاتلون في سبيل الله هم الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة لا كلّ أحد.

{ **يشرون** } معناه يبيعون، لأنّ شرى مقابل اشترى، وقد تقدّم تفصيله عند قوله تعالى { أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى} [البقرة:16]. فالذين يشرون الحياة الدنيا هم الذين يبذلونها ويرغبون في حظّ الآخرة، وهي للتنويه بفضل المقاتلين في سبيل الله، وفضيحة أمر المبطّئين حتّى يرتدعوا عن التخلّف، وحتّى يكشف المنافقون عن دخيلتهم.

{ **فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ** } وإنّما اقتصر على القتل والغلبة ولم يزد (أو يؤسر) إباية من أن يذكر لهم حالة ذميمة لا يرضاها الله للمؤمنين، وهي حالة الأسر، فسكت عنها لئلّا يذكرها في معرض الترغيب، وإن كان للمسلم عليها أجر عظيم أيضا، إذا بذل جهده في الحرب فغلب، إذ الحرب لا تخلو من ذلك.

{ **وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ** } ما يمنعكم من القتال. والاستفهام إنكاري وهو بمنزلة أمر، أي: قاتلوا في سبيل الله لا يصدّكم شيء عن القتال.

{ **فِي سَبِيلِ اللَّهِ** } لأجل دينه ولمرضاته، فحرف (في) للتعليل، ولأجل المستضعفين، أي: لنفعهم ودفع المشركين عنهم.

{ **وَالْمُسْتَضْعَفِينَ** } الذين يعدّهم النّاس ضعفاء، فالسين والتاء للحسبان، وأراد بهم من بقي من المؤمنين بمكّة من الرجال الذين منعهم المشركون من الهجرة بمقتضى الصلح الذي انعقد بين الرّسول صلى الله عليه وسلم وبين سفير قريش سهيل بن عمرو، إذ كان من الشروط التي انعقد عليها الصلح، أنّ من جاء إلى مكّة من المسلمين مرتدا عن الإسلام لا يردّ إلى المسلمين، ومن جاء إلى المدينة فارا من مكّة مؤمنا يردّ إلى مكة. وعن ابن عباس أنّه قال: كنت أنا وأمي من المستضعفين.

{ **وَالْوِلْدَانِ** } هم الصغار من أولاد المؤمنين والمؤمنات، فإنّهم كانوا يألمون من مشاهدة تعذيب آبائهم وذويهم وإيذاء أمهاتهم وحاضناتهم.

{ **هَذِهِ الْقَرْيَةِ** } هي مكّة. وسألوا الخروج منها من جهة أنّها صارت يومئذ دار شرك ومناواة لدين الإسلام وأهله، ومن أجل ذلك أحلّها الله لرسوله أنّ يقاتل أهلها.

{ **وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً** } إذ لم يكن لهم يومئذ ولي ولا نصير، فنصرهم الله بنبيّه والمؤمنين يوم الفتح.

{ **الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ** } أشارت الآية إلى أنّ الله استجاب دعوتهم وهيأ لهم النصر بيد المؤمنين، ولذلك فرّع عليه الأمر بقوله { فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً }

الطاغوت: الأصنام، وتقدم تفسيره في الآية [5] و الآية [60] من نفس السورة.

كَيْدَ الشَّيْطَانِ: تدبيره، وهو ما يظهر على أنصاره من الكيد للمسلمين والتدبير لتأليب النّاس عليهم.

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النّاس كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً [77] أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً [78] مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً [79] }.

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النّاس كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً [77] أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ }

تهيّأ المقام للتذكير بحال فريق من المسلمين اختلف أوّل حاله وآخره، فاستطرد هنا للتعجيب من شأنهم على طريقة الاعتراض في أثناء الحثّ على الجهاد، وهؤلاء فريق يودّون أن يؤذن لهم بالقتال فلمّا كتب عليهم القتال في إبّانه جبنوا. والجملة معترضة لمناسبة العبرة بحال هذا الفريق وتقلّبها.

{ **إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ** } وقد دلّت (إذا) الفجائية على أنّ هذا الفريق لم يكن تُترقّب منهم هذه الحالة، لأنّهم كانوا يظهرون من الحريصين على القتال.

قال جمهور المفسرين: إنّ هاته الآية نزلت في طائفة من المسلمين كانوا لقوا بمكّة من المشركين أذى شديدا، فقالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله كنّا في عزّ ونحن مشركون فلمّا آمنّا صرنا أذلة، واستأذنوه في قتال المشركين، فقال لهم " **إنّي أمرت بالعفو فكفّوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة** ". فلمّا هاجر النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وفُرض الجهاد جبن فريق من جملة الذين استأذنوه في القتال، ففيهم نزلت الآية.

وحكى القرطبي: أنّه قيل: إنّ هذا الفريق هم المنافقون، تظاهروا بالرغبة في ذلك تمويها للنفاق، فلمّا كتب القتال على المسلمين جبن المنافقون، وهذا هو الملائم للإخبار عنهم بأنّهم يخشون النّاس كخشية الله أو أشدّ. وهذا على غموضه هو الذي ينسجم مع أسلوب بقيّة الكلام في قوله { وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ} وما بعده، كما سيأتي.

وقال السدّي: أريد بالفريق بعض من قبائل العرب دخلوا في الإسلام حديثا قبل أن يكون القتال من فرائضه وكانوا يتمنّون أن يقاتلوا فلما كتب عليهم القتال جبنوا لضعف إيمانهم، ويكون القتال الذي خافوه هو غزو مكّة، وذلك أنّهم خشوا بأس المشركين.

وقال ابن جرير عن مجاهد: نزلت في اليهود، وعليه تكون الآية مثالا ضربه الله للمسلمين الذين أوجب عليهم القتال، تحذيرا لهم في الوقوع في مثل ذلك.

{ **كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً** } القول في هذا التركيب كالقول في نظيره { فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً } [البقرة:200]

{ **رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ** } يحتمل أن يكون قولا في نفوسهم، ويحتمل أنّه مع ذلك قول بأفواههم، ويبدو هو المتعيّن إذا كان المراد بالفريق فريق المنافقين، فهم يقولون: ربنا لم كتبت علينا القتال بألسنتهم علنا ليوقعوا الوهن في قلوب المستعدّين له.

{ **لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ** } مدّة متأخّرة ريثما يتمّ استعدادهم.

{ **قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ** } جواب عن قولهم { لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ } سواء كان قولهم لسانيّا وهو بيّن، أم كان نفسيّا، ليعلموا أنّ الله أطلع رسوله على ما تضمره نفوسهم، أي: أنّ التأخير لا يفيد، والتعلّق بالتأخير لاستبقاء الحياة لا يوازي حظ الآخرة.

{ **وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً** } موقع زيادة التوبيخ الذي اقتضاه قوله { قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ }، أي: ولا تنقصون شيئا من أعماركم المكتوبة، فلا وجه للخوف وطلب تأخير فرض القتال.

وقيل معنى نفي الظلم هنا أنّهم لا يظلمون بنقص ثواب جهادهم، فيكون موقعه موقع التشجيع لإزالة الخوف.

الفتيل: تقدّم آنفا عند قوله تعالى { بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً } [49].

{ **أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ** } مسوقة لإشعارهم بأنّ الجبن هو الذي حملهم على طلب التأخير إلى أمد قريب، لأنّهم توهّموا أنّ مواقع القتال تدني الموت من النّاس.

ويحتمل أن يكون القول قد تمّ، وأن جملة { أَيْنَمَا تَكُونُوا } توجّه إليهم بالخطاب من الله تعالى، أو توجّه لجميع الأمّة بالخطاب، فتكون على كلا الأمرين معترضة بين أجزاء الكلام.

{ **وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ** } (ولو) وصليّة وقد تقدّم تفصيل معناها واستعمالها عند قوله تعالى { فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ } [آل عمران:91]

البروج: جمع برج، وهو البناء القوي والحصن.

المشيّدة: المبنية بالشِّيد، وهو الجص، وتطلق على المرفوعة العالية، لأنّهم إذا أطالوا البناء بنوه بالجص.

{ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُل كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً [78] مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً [79] }.

يتعيّن على المختار أن يكون ضمير الجمع في قوله { وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ } عائدا إلى المنافقين لأنّهم معلومون من المقام، ولسبق ذكرهم في قوله { وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ } [72]، وتكون الجملة معطوفة عطف قصة على قصة، فإنّ ما حكي في هذه الآية لا يليق إلّا بالمنافقين، ويكون الغرض انتقل من التحريض على القتال إلى وصف الذين لا يستجيبون إلى القتال لأنّهم لا يؤمنون بما يبلّغهم النبيّ صلى الله عليه وسلم من وعد الله بنصر المؤمنين.

وقد قيل: إن بعض الأعراب كان إذا أسلم وهاجر إلى المدينة فنمت أنعامه ورفهت حاله حمد الإسلام، وإذا أصابه مرض أو موتان في أنعامه تطير بالإسلام فارتدّ عنه، ومنه حديث الأعرابي الذي أصابته الحمى في المدينة فاستقال من النبيّ بيعته وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم في شأنه: **" المدينة كالكير تنفي خبثها وينصع طيبها ".**

{ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ / يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ} هو قول نفسي، لأنّهم لم يكونوا يجترئون على أن يقولوا ذلك علنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يظهرون الإيمان به.

أو هو قول يقولونه بين إخوانهم من المنافقين، يقولون: هذه من عند محمد، فيكون الإتيان بكاف الخطاب من قبيل حكاية كلامهم بحاصل معناه.

{ حَسَنَةٌ / سَيِّئَةٌ } المراد هنا ما تعارفه العرب من قبل اصطلاح الشريعة، أعني ما كان ملائما مقبولا، وما كان منافرا لأمزجتهم، مرفوضا. أمّا الحسنة والسيئة بالاصطلاح الشرعي، أعني الفعل المثاب عليه والفعل المعاقب عليه، فلا محمل لهما هنا.

قيل: كان اليهود يقولون: لمّا جاء محمد المدينة قلت الثمار، وغلت الأسعار. فجعلوا كون الرّسول بالمدينة هو المؤثّر في حدوث السيّئات، وأنّه لولاه لكانت الحوادث كلّها جارية على ما يلائمهم.

وفي البخاري عن ابن عباس في قوله تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ } [الحج:11] كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلاما ونتجت خيله قال: هذا دين صالح، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال: هذا دين سوء. وهذا يقتضي أنّ فعل ذلك من مهاجرة العرب يقولونه إذا أرادوا الارتداد وهم أهل جفاء وغلظة، فلعل فيهم من شافه الرّسول صلى الله عليه وسلم بمثل قولهم { هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ }.

{ قُل كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ } وقد علّمه الله أن يجيب بأنّ كلاّ من عند الله، لأنّه لا معنى لكون شيء من عند الله إلّا أنّه الذي قدّر ذلك وهيأ أسبابه، إذ لا يدفعهم إلى الحسنات مباشرة. وإن كان كذلك فكما أنّ الحسنة من عنده، فكذلك السيئة بهذا المعنى بقطع النظر عمّا أراده بالإحسان والإساءة، والتفرقة بينهما من هذه الجهة لا تصدر إلا عن عقل غير منضبط التفكير، لأنهم جعلوا الحوادث من الله وبعضها من غير الله فلذلك قال

{ **فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً** } أي: يكادون أن لا يفقهوا حديثا، ولكون هذه القضية دقيقة الفهم نبّه الله على قلة فهمهم للمعاني الخفيّة.

{ **مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ** } بعد أن أمر الله رسوله بما يجيب به هؤلاء الضالين علّمه حقيقة التفصيل في إصابة الحسنة والسيئة من جهة تمحّض النسبة إلى الله تعالى أو اختلاطها بالانتساب إلى العبد. ووجه الخطاب للرسول لأنّه المبلّغ عن الله، ولأنّ هذا الجواب لإبطال ما نسبه الضالون إليه من كونه مصدر السيئات التي تصيبهم.

الإصابة: حصول حال في ذات، يقال: أصابه مرض، وأصابته نعمة، وأصابه سهم، وهي، مشتقة من اسم الصوب الذي هو المطر.

{ **وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً** } أي: أنّك بُعثت مبلغا شريعة وهاديا، ولست مؤثّرا في الحوادث، ولا تدلّ مقارنة الحوادث المؤلمة على عدم صدق الرسالة.

{ مَنْ يُطِعِ الرّسول فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً [80] وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً [81] }.

{ **مَنْ يُطِعِ الرّسول فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ** } احترس عن توهّم السامعين التفرقة بين الله ورسوله في أمور التشريع، فأثبت أنّ الرّسول في تبليغه إنّما يبلّغ عن الله، فأمره أمر الله، ونهيه نهي الله، وطاعته طاعة الله. والآية إثبات كونه رسولا واستلزامها أنّه يأمر وينهى، وأنّ ذلك تبليغ لمراد الله تعالى.

{ **وَمَنْ تَوَلَّى** } التولّي، حقيقته الانصراف والإدبار، واستعمل هنا مجازا في العصيان وعدم الإصغاء إلى الدعوة.

{ **فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً** } أي: حارسا لهم ومسؤولا عن إعراضهم، وهذا تعريض بهم وتهديد لهم بأن صرفه عن الاشتغال بهم، فيُعلم أنّ الله سيتولى عقابهم.

{ **وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ** } ثم بيّن أنّهم لضعف نفوسهم لا يُعرضون جهرا بل يظهرون الطاعة، فإذا أمرهم الرّسول أو نهاهم يقولون له { طَاعَةٌ } والمقصود، أنّنا سنطيع ولا يكون منا عصيان.

{ **برزوا** } خرجوا، وأصل معنى البروز الظهور، وشاع إطلاقه على الخروج مجازا مرسلا.

{ **بيّت** } هنا بمعنى قدّر أمرا في السرّ وأضمره، لأنّ أصل البيات هو فعل شيء في الليل، والعرب تستعير ذلك إلى معنى الإسرار، لأنّ الليل أكتم للسر.

{ **غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ** } للمؤنث الغائب، وهو الطائفة، ويجوز أن يراد خطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم، أي: غير الذي تقول لهم أنت، فيجيبون عنه بقولهم: طاعة.

{ **وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ** } التهديد بإعلامهم أنّه لن يفلتهم من عقابه، فلا يغرنّهم تأخّر العذاب مدّة.
{ **فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ** } أمر بعدم الاكتراث بهم، وأنّهم لا يُخشى خلافهم، وأنّه يتوكّل على الله.
{ **وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً** } أي: متوكّلا عليه، ولا يتوكّل على طاعة هؤلاء، ولا يحزنه خلافهم.

{ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً } [82].

الفاء تفريع على الكلام السابق المتعلّق بهؤلاء المنافقين أو الكفرة الصرحاء وبتولّيهم، فكان المقام لتفريع الاستفهام عن قلة تفهّمهم. فالاستفهام إنكاري للتوبيخ والتعجيب منهم في استمرار جهلهم مع توفّر أسباب التدبّر لديهم.

تحدى الله تعالى هؤلاء بمعاني القرآن، كما تحدّاهم بألفاظه، لبلاغته إذ كان المنافقون قد شكّوا في أنّ القرآن من عند الله، فلذلك يظهرون الطاعة بما يأمرهم به، فإذا خرجوا من مجلس النبيّ صلى الله عليه وسلم خالفوا ما أمرهم به لعدم ثقتهم، ويشكّكون ويشكّون إذا بدا لهم شيء من التعارض، فأمرهم الله تعالى بتدبّر القرآن.

التدبّر: مشتق من الدّبر، أي: الظهر، فقالوا: تدبّر إذا نظر في دبر الأمر، أي: في غائبه أو في عاقبته.
{ **يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ** } يتأملون دلالته، أي: لو تأمّلوا وتدبّروا هدي القرآن لحصل لهم خير عظيم، ولما بقوا على فتنتهم التي هي سبب إضمارهم الكفر مع إظهارهم الإسلام.
{ **وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً** } أي: ألا يتدبّرون انتفاء الاختلاف منه فيعلمون أنّه من عند الله. والاختلاف يظهر أنّه أريد به اختلاف بعضه مع بعض، أي: اضطرابه، ووصف الاختلاف بالكثير في الطرف الممتنع وقوعه بمدلول (لو) ليعلم المتدبّر أنّ انتفاء الاختلاف من أصله أكبر دليل على أنّه من عند الله.

{ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرّسول وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلاً} [83].

ضمير الجمع راجع إلى الضمائر قبله، العائدة إلى المنافقين، وقيل: راجع إلى فريق من ضعفة المؤمنين، ممن قلّت تجربته وضعف جَلَده. والكلام مسوق مساق التوبيخ للمنافقين، واللوم لمن يقبل مثل تلك الإذاعة، من المسلمين الأغرار.
{ **جَاءَهُمْ أَمْرٌ** } أي: أُخبروا به، فالمجيء مجاز عرفي في سماع الأخبار، مثل نظائره، وهي: بلغ، وانتهى إليه. و**الأمر** هنا بمعنى الشيء، وهو هنا الخبر.

{ **أذاعوا** } أفشوا، ويتعدّى إلى الخبر بنفسه، وبالباء، يقال: أذاعه وأذاع به، فالباء لتوكيد اللصوق كما في قوله تعالى { وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ } [المائدة:6]. والمعنى إذا سمعوا خبرا عن سرايا المسلمين من الأمن، أي: الظفر الذي يوجب أمن المسلمين، أو الخوف وهو ما يوجب خوف المسلمين، أي: اشتداد العدو عليهم، بادروا بإذاعته. أو إذا سمعوا خبرا عن الرّسول عليه السلام وعن أصحابه، في تدبير أحوال المسلمين من أحوال الأمن أو الخوف، تحدّثوا بتلك الأخبار في الحالين، وأرجفوها بين النّاس لقصد التثبيط. فحذّر الله المؤمنين من مكائد هؤلاء، ونبّه هؤلاء على دخيلتهم.

{ **وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرّسول وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ** } قطع معذرتهم في كيدهم، أي: لولا أنّهم يقصدون السوء لاستثبتوا الخبر من الرّسول ومن أهل الرأي.

وعلى القول بأنّ الضمير راجع إلى المؤمنين فالآية عتاب للمؤمنين في هذا التسرّع بالإذاعة، وأمرهم بإنهاء الأخبار إلى الرّسول وقادة الصحابة ليضعوه مواضعه ويعلموهم محامله.

الردّ: حقيقته إرجاع شيء إلى ما كان فيه من مكان أو يَدٍ، واستعمل هنا مجازا في إبلاغ الخبر إلى أوْلى النّاس بعلمه.

{ **أُولِي الْأَمْرِ** } هم كبراء المسلمين وأهل الرأي منهم، وهو أرجح القولين.

الاستنباط: حقيقته طلب النَّبَط (بالتحريك). وهو أوّل الماء الذي يخرج من البئر عند الحفر، وهو هنا مجاز في العلم بحقيقة الشيء ومعرفة عواقبه. وشاعت هذه الاستعارة حتّى صارت حقيقة عرفيّة، فصار الاستنباط بمعنى التفسير والتبيين.

{ **وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلاً** } امتنان بإرشادهم إلى أنواع المصالح، والتحذير من المكائد ومن حبائل الشيطان وأنصاره، واستثناء { إِلَّا قَلِيلاً }، أي: إلاّ في أحوال قليلة.

{ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً } [84].

تفريع على ما تقدّم من الأمر بالقتال، ومن وصف المثبّطين عنه، والمتذمّرين منه، والذين يفتنون المؤمنين في شأنه، لأنّ جميع ذلك قد أفاد الاهتمام بأمر القتال، والتحريض عليه، فتهيّأ الكلام لتفريع الأمر به. وهذا عود إلى ما مضى من التحريض على الجهاد، وما بينهما اعتراض.

فالآية أوجبت على الرّسول صلى الله عليه وسلم القتال، وأوجبت عليه تبليغ المؤمنين الأمر بالقتال وتحريضهم عليه، فعبّر عنه بقوله { لا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ } وهذا الأسلوب طريق من طرق الحثّ والتحريض لغير المخاطب، لأنّه إيجاب القتال على الرسول، فهو أمر للقدوة بما يجب اقتداء النّاس به فيه. وبيّن لهم علّة الأمر، وهي رجاء كفّ بأس المشركين، والمراد بهم هنا كفّار مكّة. فالآيات تهيئة لفتح مكة.

{ **وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً** } تذييل لتحقيق الرجاء أو الوعد، والمعنى أنّه أشد بأسا إذا شاء إظهار ذلك.
التنكيل: عقاب يرتدع به رائيه فضلا عن الذي عوقب به.

{ مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً } [85].

استئناف فيه معنى التذييل والتعليل لقوله تعالى { لا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ } وهو بشارة للرسول عليه الصلاة والسلام بأنّ جهاد المجاهدين بدعوته يناله منه نصيب عظيم من الأجر، فإنّ تحريضه إيّاهم وساطة بهم في خيرات عظيمة، فجاءت هذه الآية بهذا الحكم العام على عادة القرآن في انتهاز فرص الإرشاد. ويُعلم من عمومها أنّ التحريض على القتال في سبيل الله من الشفاعة الحسنة، وأنّ سعي المثبطين للنّاس من قبيل الشفاعة السيّئة، فجاءت هذه الآية إيذانا للفريقين بحالتهما. والمقصود مع ذلك الترغيب في التوسّط في الخير والترهيب من ضدّه.

الشفاعة: الوساطة في إيصال خير أو دفع شر، سواء كانت بطلب من المنتفع أم لا، وتقدّمت في قوله تعالى { لا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ } [البقرة:48]. وفي الحديث: " **اشفعوا فلتؤجروا** ".

ووصفها بالحسنة وصف كاشف، لأنّ الشفاعة لا تطلق إلاّ على الوساطة في الخير، وأمّا إطلاق الشفاعة على السعي في جلب شرّ فهو مشاكلة، وقرينتها وصفها بسيّئة، إذ لا يقال شفع للذي سعى بجلب سوء.

النصيب: الحظ من كل شيء، خيرا كان أو شرّا، وتقدّم { أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا } [البقرة:202].

الكِفْل: (بكسر الكاف وسكون الفاء) الحظ كذلك، ولم يتبيّن لي وجه اشتقاقه بوضوح. ويُستعمل الكفل بمعنى المثل. وفي مفردات الراغب أنّ الكفل هو الحظ من الشرّ والشدّة، وأنّه مستعار من الكفل وهو الشيء الرديء.

{ **وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً** } تذييل لإفادة أنّ الله يجازي على كلّ عمل بما يناسبه من حسن أو سوء.

{ **المُقِيت** } الحافظ، والرقيب، والشاهد، والمقتدر. وهو اسم فاعل من أقات إذا أعطى القُوت. واستعمل مجازا في معاني الحفظ والشهادة بعلاقة اللزوم، لأنّ من يُقيت أحدا فقد حفظه من الخصاصة أو من الهلاك، وهو هنا مستعمل في معنى الاطلاع، أو مضمّن معناه. ومن أسماء الله تعالى المقيت، وفسّره الغزالي بموصل الأقوات، فيؤول إلى معنى الرازق.

{ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً } [86].

عطف على جملة السابقة، فالمناسبة في هذا العطف، هي أنّ الشفاعة تقتضي حضور الشفيع عند المشفوع إليه، وأنّ أول بوادر اللقاء هو السلام وردّه. فعلّم الله المسلمين أدب القبول واللقاء في الشفاعة

وغيرها، وقد كان للشفاعات عندهم شأن عظيم. وهذا دأب القرآن في انتهاز فرص الإرشاد والتأديب.
{ **وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ** } على أنّ ابتداء السلام شيء معروف بينهم، ودليله قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حتّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا } [النور:27].
{ **فَحَيُّوا** } الأمر بردّ السلام، وهو للوجوب لأنّ أصل صيغة الأمر أن يكون للوجوب على مقتضى مذهب الجمهور في محمل صيغة الأمر، ولذلك اتفق الفقهاء على وجوب ردّ السلام، ثمّ اختلفوا إذا كان المسلّم عليهم جماعة هل يجب الرد على كل واحد منهم؟ فقال مالك: هو واجب على الجماعة وجوب الكفاية، فإذا ردّ واحد من الجماعة أجزأ عنهم، وورد في ذلك حديث صحيح.
{ **بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا** } التخيير بين الحالين، ويعلم من تقديم قوله { بِأَحْسَنَ مِنْهَا } أن ذلك أفضل.
حَيِيَّ: أصله في اللغة دعا له بالحياة، ولعلّه من قبيل النحت من قول القائل: حيّاك الله، أي: وهب لك طول الحياة. فيقال للملك: حيّاك الله. ولذلك جاء في دعاء التشهّد التحيّات لله، أي: هو مستحقها لا ملوك النّاس.
وهذه الآية من آداب الإسلام: علم الله بها أن يردّوا على المسلم بالحسن من سلامه أو بما يماثله، ليبطل ما كان بين الجاهلية من تفاوت السادة والدهماء. وتكون التحيّة أحسن بزيادة المعنى.
{ **إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً** } التذييل لقصد الامتنان بهذه التعليمات النافعة.
الحسيب: العليم وهو صفة مشبّهة، من حسِب (بكسر السين) الذي هو من أفعال القلب. ويجوز كونه من أمثلة المبالغة، قيل: الحسيب هنا بمعنى المحاسب.

{ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً** } [87].
استئناف ابتدائي، جمع تمجيد الله، وتهديدا، وتحذيرا من مخالفة أمره، وتقريرا للإيمان بيوم البعث، وردّا لإشراك بعض المنافقين وإنكارهم البعث.
فاسم الجلالة مبتدأ وجملة {**لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ**} معترضة بين المبتدأ وخبره لتمجيد الله. وجملة { **ليجمعنّكم** } جواب قسم محذوف واقع جميعه موقع الخبر عن اسم الجلالة. وأكّد هذا الخبر بلام القسم، ونون التوكيد، وبتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي، لتقوية تحقيق هذا الخبر، إبطالا إنكار الذين أنكروا البعث.
{ **لا رَيْبَ فِيهِ** } نفي أن يتطرّقه جنس الريب والشكّ في مجيئه.
{ **وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً** } استفهام إنكاري، أن يكون أحد أصدق من الله.

{ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً } [88].

تفريع عن أخبار المنافقين التي تقدّمت، لأنّ ما وصف من أحوالهم لا يترك شكّا عند المؤمنين في خبث طويّتهم وكفرهم، وإذ قد حدّث الله عنهم بما وصف من سابق الآي، فلا يحقّ التردّد في سوء نواياهم وكفرهم.

{ **فِئَتَيْنِ** } الفئة الطائفة، مشتقّة من الفَيْءِ وهو الرجوع، لأنّهم يرجع بعضهم إلى بعض في شؤونهم. أي: فما لكم بين مكفّر لهم ومبرّر.

قيل: نزلت هذه الآية في المنخذلين يوم أحد، عبد الله بن أبَي وأتباعه، اختلف المسلمون في وصفهم بالإيمان أو الكفر بسبب فعلتهم تلك. وفي صحيح البخاري عن زيد بن ثابت قال: رجع ناس من أصحاب النبيّ من أحد، وكان النّاس فيهم فريقين، فريق يقول: اقتلهم، وفريق يقول: لا، فنزلت { فما لكم في المنافقين فئتين }. ولم يقتلهم النبيّ صلى الله عليه وسلم جريا على ظاهر حالهم من إظهار الإسلام.

وقيل نزلت في غيرهم من الفرق، وأحسب أن هؤلاء الفرق كلّهم كانوا معروفين وقت نزول الآية، فكانوا مثلا لعمومها، وهي عامة فيهم وفي غيرهم من كلّ من عُرف بالنفاق من أهل المدينة ومن أهل مكّة.

وعلى جميع الاحتمالات فموقع الملام هو الخطأ في الاجتهاد، لضعف دليل المخطئين، لأنّ دلائل كفر المتحدّث عنهم كانت ترجح على دليل إسلامهم الذي هو مجرّد النطق بكلمة الإسلام، مع التجرّد عن إظهار موالاة المسلمين.

{ **وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا** } حالية، أي: إن كنتم اختلفتم فيهم فالله قد ردّهم إلى حالهم السوأى، لأنّ معنى أرْكس رد إلى الرِّكْس، والرِّكْسُ قريب من الرجس. وفي حديث الصحيح في الروث **" إن هذا رِكْس "**.

وقد جعل الله ردّهم إلى الكفر جزاء لسوء اعتقادهم وقلّة إخلاصهم مع رسوله صلى الله عليه وسلم.

{ **أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ** } استئناف بياني نشأ عن اللوم والتعجيب. وتقديرها، إنّهم قد أضلّهم الله، أتريدون أن تهدوا من أضل الله.

{ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حتّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً } [89].

الأظهر أنّ ضمير ودّوا عائد إلى المنافقين في قوله { فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ }. فضح الله هذا الفريق فأعلم المسلمين بأنّهم مضمرون الكفر، وأنّهم يحاولون ردّ من يستطيعون ردّه من المسلمين إلى الكفر.

{ **فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حتّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ** } الراجح تأويل المهاجرة هنا بالجهاد في سبيل الله.

فهو نهي للمسلمين عن ولايتهم إلى أن يخرجوا في سبيل الله في غزوة تقع بعد نزول الآية، لأنّ غزوة أحد، التي انخذل عنها عبد الله بن أبي وأصحابه، قد مضت قبل نزول هذه السورة. والكلام علامة على كفر المتظاهرين بالإسلام، حتّى لا يعود بينهم الاختلاف في شأنهم، وهي علامة بيّنة.

{ **فَتَكُونُونَ سَوَاءً** } قصد منها تحذير المسلمين من الوقوع في حِبالة المنافقين.

{ **فَإِنْ تَوَلَّوْا** } المعنى، فأبلغوهم هذا الحكم فإن أعرضوا عنه ولم يتقبّلوه فخذوهم واقتلوهم.

وهذا يدلّ على أنّ من صدر منه شيء يحتمل الكفر لا يؤاخذ به حتّى يتقدّم له، ويعرّف بما صدر منه، ويعذر إليه، فإن التزمه يؤاخذ به، ثم يستتاب. وهو الذي أفتى به سحنون.

الولي: الموالي الذي يضع عنده مولاه سره ومشورته. و**النصير** الذي يدافع عن وليه ويعينه.

{ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً } [90].

الاستثناء من { فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ} أي: إلّا الذين آمنوا ولم يهاجروا. أو إلاّ الذين ارتدوا على أدبارهم إلى مكّة بعد أن هاجروا، وهؤلاء يصلون إلى قوم ممّن عاهدوكم، فلا تتعرّضوا لهم بالقتل، لئلا تنقضوا عهودكم المنعقدة مع قومهم.

يصلون: ينتسبون، ويحتمل أن يكون بمعنى التحق، أي: إلّا الذين يلتحقون بقوم بينكم وبينهم ميثاق، فيدخلون في عهدهم. فعلى الاحتمال الأول هم من المعاهدين أصالة. وعلى الاحتمال الثاني هم كالمعاهدين لأنّ معاهد المعاهد كالمعاهد.

{ **إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ** } فالمراد به القبائل التي كان لهم عهد مع المسلمين. قال مجاهد: لمّا نزلت { فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ } خاف أولئك الذين نزلت فيهم، فذهبوا ببضائعهم إلى هلال بن عويمر الأسلمي، وكان قد حالف النبيّ صلى الله عليه وسلم على: أن لا يعينه ولا يعين عليه، وأنّ من لجأ إلى هلال من قومه وغيرهم فله من الجوار مثل ما له.

وقيل غير ذلك، والأولى أنّ جميع هذه القبائل مشمول للآية.

{ **أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ** } أو جاءوا إلى المدينة مهاجرين ولكنّهم شرطوا أن لا يقاتلوا مع المؤمنين قومهم فاقبلوا منهم ذلك. بمعنى ضاقت وحرجت صدورهم عن قتالكم، لأجل أنّهم مؤمنون لا يرضون قتال إخوانهم، وعن قتال قومهم لأنّهم من نسب واحد، فعظم عليهم قتالهم.

وكان هذا رخصة لهم أوّل الإسلام، إذ كان المسلمون قد هادنوا قبائل من العرب تألفا لهم، ولمن دخل في عهدهم، فلمّا قوي الإسلام صار الجهاد مع المؤمنين واجبا على كل من يدخل في الإسلام، أمّا المسلمون الأوّلون من المهاجرين والأنصار ومن أسلموا ولم يشترطوا هذا الشرط فلا تشملهم الرخصة.

وقد دل قوله تعالى { حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ } على أنّ ذلك عن صدق منهم. وأريد بهؤلاء بنو مدلِج، عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك، وقد عذرهم الله بذلك إذ صدقوا.

{ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ** } بيّن الله تعالى للمؤمنين فائدة هذا التسخير الذي سخّر لهم من قوم قد كانوا أعداء لهم فصاروا سلما يودّونهم، ولكنّهم يأبون قتال قومهم.

{ **فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً** } أمر المؤمنين بكف أيديهم عن هؤلاء إن اعتزلوهم ولم يقاتلوهم.

السبيل: هنا مستعار لوسيلة المؤاخذة.

{ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُبِيناً } [91].

هؤلاء فريق آخر لا سعي لهم إلّا في خُوَيْصَتهم، ولا يعبأون بغيرهم، فهم يُظهرون المودّة للمسلمين ليأمنوا غزوهم، ويظهرون الودّ لقومهم ليأمنوا غائلتهم، وما هم بمخلصين الودّ لأحد الفريقين، وهو معنى قوله { كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا }. وقد مرّ بيان معنى أركسوا قريبا.

وهؤلاء هم غطفان وبنو أسد ممّن كانوا حول المدينة قبل أن يخلص إسلامهم، وبنو عبد الدار من أهل مكة. كانوا يأتون المدينة فيظهرون الإسلام ويرجعون إلى مكّة فيعبدون الأصنام.

{ **إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ** } أمر الله المؤمنين في معاملة هؤلاء ومعاملة الفريق المتقدّم أمر واحد، وهو تركهم إذا تركوا المؤمنين وسالموهم، وقتالهم إذا ناصبوهم العداء.

{ **سَتَجِدُونَ آخَرِينَ** } الوجدان بمعنى العثور والاطلاع، أي: ستطلعون على قوم آخرين.

{ **وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُبِيناً** } جيء باسم الإشارة لزيادة تمييزهم.

السلطان المبين: هو الحجّة الواضحة الدالة على نفاقهم، فلا يخشى أن ينسب المسلمون في قتالهم إلى اعتداء وتفريق الجامعة.

{ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً } [92].

انتقال الغرض يعيد نشاط السامع بتفنّن الأغراض، فانتقل من تحديد أعمال المسلمين مع العدو إلى أحكام معاملة المسلمين بعضهم مع بعض، من وجوب كفّ عدوان بعضهم على بعض.

والمناسبة أنّه قد كان الكلام في قتال المتظاهرين بالإسلام الذين ظهر نفاقهم، فلا جرم أن تتشوّف النفس إلى حكم قتل المؤمنين الخلص.

{ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً } هوّل الله تعالى أمر قتل المسلم أخاه المسلم، وجعله في حيّز ما لا يكون، فجاء بصيغة المبالغة في النفي، وهي صيغة الجحود، أي: ما وجد لمؤمن أن يقتل مؤمنا في حال من الأحوال إلّا في حال الخطأ.

روى الطبري، والواحدي، في سبب نزول هذه الآية: أنّ عيّاشا بن أبي ربيعة المخزومي كان قد أسلم وهاجر إلى المدينة قبل هجرة النبيّ صلى الله عليه وسلم، وكان أخا أبي جهل لأمّه، فخرج أبو جهل وأخوه الحارث بن هشام والحارث بن زيد بن أبي أنيسة في طلبه، فأتوه بالمدينة وقالوا له: إنّ أمّك أقسمت أن لا يظلّها بيت حتّى تراك، فارجع معنا حتّى تنظر إليك ثم ارجع، وأعطوه موثقا من الله أن لا يُهيجوه، ولا يحولوا بينه وبين دينه، فخرج معهم فلما جاوزوا المدينة أوثقوه، ودخلوا به مكّة، وقالوا له لا نحلّك من وثاقك حتّى تكفر بالذي آمنت به. وكان الحارث بن زيد يجلده ويعذّبه، فقال عيّاش للحارث: والله لا ألقاك خاليا إلاّ قتلتك فبقي بمكّة حتّى خرج يوم الفتح إلى المدينة فلقي الحارث بن زيد بقباء، وكان الحارث قد أسلم ولم يعلم عيّاش بإسلامه، فضربه عيّاش فقتله، ولما أُعلم بأنّه مسلم رجع عيّاش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بالذي صنع فنزلت { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً } فتكون هذه الآية قد نزلت بعد فتح مكة.

وقيل: نزلت في اليمان، والد حذيفة بن اليمان، حين قتله المسلمون يوم أحد خطأ.

وقيل: نزلت في قضية أبي الدرداء حين كان في سريّة، فعدل إلى شعب فوجد رجلا في غنم له، فحمل عليه أبو الدرداء بالسيف، فقال الرجل لا اله إلاّ الله فضربه فقتله وجاء بغنمه إلى السرية، ثم وجد في نفسه شيئا فأتى إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له، فنزلت الآية.

{ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ } فحكمه أو فشأنه تحرير رقبة، والتحرير تفعيل من الحريّة، أي: جعل الرقبة حرّة.

ومن أسرار الشريعة الإسلاميّة حرصها على تعميم الحريّة في الإسلام بكيفيّة منتظمة، فإنّ الله لمّا بعث رسوله بدين الإسلام كانت العبودية متفشيّة في البشر، وأقيمت عليها ثروات كثيرة، وكانت أسبابها

متكاثرة، وهي الأسر في الحروب، والتصيير في الديون، والتخطّف في الغارات، وبيع الآباء والأمهات أبناءهم، والرهائن في الخوف، والتداين. فأبطل الإسلام جميع أسبابها عدا الأسر، وأبقى الأسر لمصلحة تشجيع الأبطال، والتخويف من الخروج على المسلمين. ثم داوى تلك الجراح البشرية بإيجاد أسباب الحريّة في مناسبات دينيّة جمّة، منها واجبة، ومنها مندوب إليها، ومن الأسباب الواجبة كفارة القتل المذكورة هنا. وقد جعلت كفارة قتل الخطأ أمرين:

أحدهما: تحرير رقبة مؤمنة، فمن تسبّب في موت نفس حيّة كان عليه السعي في إحياء نفس كالميتة وهي المستعبدة.

ثانيهما: الديّة، والديّة مال يدفع لأهل القتيل خطأ، جبرا لمصيبة أهله فيه من حيوان أو نقدين أو نحوهما.

الديّة: معروفة عند العرب بمعناها ومقاديرها فلذلك لم يفصّلها القرآن. وقد كان العرب جعلوا الديّة على كيفيّات مختلفة، فكانت عوضا عن دم القتيل في العمد وفي الخطأ، فأمّا في العمد فكانوا يتعيّرون بأخذها. أمّا في الخطأ فكانوا لا يأبون أخذ الديّة، قيل: إنّها كانت عشرة من الإبل وأنّ أوّل من جعلها مائة من الإبل عبد المطلب بن هاشم، إذ فدى ولده عبد الله بعد أن نذر ذبحه للكعبة بمائة من الإبل، فجرت في قريش ، ثم تبعهم العرب. وكانت ديّة الملك ألفا من الإبل، وديّة السادة مائتين من الإبل، وديّة الحليف نصف ديّة الصميم. وأوّل من وُدِيَ بالإبل هو زيد بن بكر بن هوازن، إذ قتله أخوه معاوية جد بني عامر بن صعصعة.

وأكثر ما ورد في السنّة من تقدير الديّة هو مائة من الإبل مخمّسة أخماسا: عشرون حقّة، وعشرون جذعة، وعشرون بنت مخاض، وعشرون بنت لبون، وعشرون ابن لبون.

وديّة العمد، إذا رضي أولياء القتيل بالدية، مربعة: خمس وعشرون من كل صنف من الأصناف الأربعة الأول.

{ **مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ** } لأنّ الديّة ترضية لأهل القتيل. وذكر الأهل مجملا فعلم أنّ أحقّ النّاس بها أقرب النّاس إلى القتيل، فإنّ الأهل هو القريب. وهي في حكم الإسلام يأخذها ورثة القتيل على حسب الميراث إلاّ أنّ القاتل خطأ إذا كان وارثا للقتيل لا يرث من ديته.

وقد أجمل القرآن من يجب عليه دفع الديّة وبينته السنة بأنهم العاقلة (القرابة من القبيلة) وذلك تقرير لما كان عليه الأمر قبل الإسلام.

{ **فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ** } أي: إن كان القتيل مؤمنا وكان أهله كفّارا، بينهم وبين المسلمين عداوة، يقتصر في الكفارة على تحرير الرقبة دون دفع دية لهم.

فأمّا إن كان القتيل في بلاد الإسلام وكان أولياؤه كفارا، فقال ابن عباس، ومالك، وأبو حنيفة: لا تسقط عن القاتل ديته، وتدفع لبيت مال المسلمين. وقال الشافعي، والأوزاعي، والثوري: تسقط الديّة لأنّ سبب سقوطها أن مستحقيها كفار. وظاهر قوله { فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ} أنّ العبرة بأهل القتيل لا بمكان إقامته.

{ **وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ** } أي: إن كان القتيل المؤمن. فجعل للقوم الذين بين المسلمين وبينهم ميثاق دية قتيلهم المؤمن اعتدادا بالعهد الذي بينهم، وهذا يؤذن بأنّ الدية جبر لأولياء القتيل.

{ **فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ** } وصف الشهران بأنّهما متتابعان والمقصود تتابع أيامهما، لأن تتابع الأيام يستلزم توالي الشهرين.

{ **تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً** } أي: خفّف الله عن القاتل فشرع الصيام ليتوب عليه فيما أخطأ فيه لأنّه أخطأ في عظيم.

{ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً } [93].

هذا هو المقصود من التشريع لأحكام القتل، لأنه هو المتوقع حصوله من الناس، وإنّما أخّر لتهويل أمره.

{ **مُتَعَمِّداً** } القاصد للقتل، مشتق من عمد إلى كذا بمعنى قصد وذهب.

وعند الواحدي أنّ سبب نزول هذه الآية أن مِقْيَسا بن صبابة وأخاه هشام جاءا مسلمين مهاجرين فوُجد هشام قتيلا في بني النجار، ولم يُعرف قاتله، فأمرهم النبّي صلى الله عليه وسلم بإعطاء أخيه مقيس مائة من الإبل، دية أخيه، وأرسل إليهم بذلك مع رجل من فهر فلمّا أخذ مقيس الإبل عدا على الفهري فقتله، واستاق الإبل، وانصرف إلى مكّة كافرا. وقد أهدر رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه يوم فتح مكة، فقتل بسوق مكة.

{ **خَالِداً فِيهَا** } محمله عند جمهور علماء السنّة على طول المكث في النّار لأجل قتل المؤمن عمدا، لأنّ قتل النفس ليس كفرا بالله ورسوله، ولا خلود في النار إلّا للكفر، على قول علمائنا من أهل السنة، فتعيّن تأويل الخلود بالمبالغة في طول المكث. ومحمله عند من يكفّر بالكبائر من الخوارج، وعند من يوجب الخلود على أهل الكبائر، على وتيرة إيجاب الخلود بارتكاب الكبيرة.

وكلا الفريقين متفقون على أنّ التوبة ترد على جريمة قتل النفس عمدا، كما ترد على غيرها من الكبائر. وشذّ ابن عباس، فقال لا توبة له. وحمل جماعة مراد ابن عباس على قصد التهويل والزجر، لئلا يجترئ النّاس على قتل النفس عمدا، ويرجون التوبة، ويعضدون ذلك بأنّ ابن عباس روي عنه أنّه جاءه رجل فقال: ألمن قتل مؤمنا متعمّدا توبة، فقال: لا إلّا النار، فلمّا ذهب قال له جلساؤه أهكذا كنت تفتينا فقد كنت تقول إنّ توبته مقبولة، فقال إنّي لأحسب السائل رجلا مغضبا يريد أن يقتل مؤمنا، قال: فبعثوا في أثره فوجدوه كذلك.

وآيات التوبة ناهضة مجمع عليها متظاهرة ظواهرها، حتّى بلغت حد النص المقطوع به، فيحمل عليها آيات وعيد الذنوب كلّها حتّى الكفر.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً } [94].

استئناف ابتدائي خوطب به المؤمنون، استقصاء للتحذير من قتل المؤمن بذكر أحوال قد يتساهل فيها وتعرض فيها شبه. والمناسبة ما رواه البخاري عن ابن عباس قال: كان رجل في غُنيمة له فلحقه المسلمون، فقال: السلام عليكم، فقتلوه وأخذوا غُنيمته، فأنزل الله في ذلك هذه الآية. وفي رواية أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم حمل ديّته إلى أهله ورد غُنيمته. وأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم وبخ القاتل، وقال : **" فهلا شققت عن بطنه فعلمت ما في قلبه ".**

الضرب: السير، وتقدّم عند قوله تعالى { وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ } [آل عمران:156].

التبيّن: شدّة طلب البيان، أي: التأمّل القوي.

{ وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً } قرأ نافع، وابن عامر، وحمزة، وخلف { السَّلَمَ } وهو ضد الحرب، ومعنى ألقى السلم أظهره بينكم كأنّه رماه بينهم. وقرأ البقية { السَّلامَ } وهو مشترك بين معنى السلم ضد الحرب، ومعنى تحيّة الإسلام، فهي قول: السلام عليكم.

{ لَسْتَ مُؤْمِناً } أي: لا تقولوا له: لست محصّلا تأميننا إيّاك.

{ تبتغون } جملة حالية، أي: ناقشتموه في إيمانه خشية أن يكون قصد إحراز ماله. فالمقصود من هذا القيد زيادة التوبيخ.

{ عَرَضَ الْحَيَاةِ } متاع الحياة، والمراد به الغنيمة فعبّر عنها بـ { عَرَضَ الْحَيَاةِ } تحقيرا لها بأنّها نفع عارض زائل.

{ فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ } أي: لم يحصر الله مغانمكم في هذه الغنيمة.

{ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ } زاد في التوبيخ، أي: كنتم كفارا فدخلتم الإسلام بكلمة الإسلام، فلو أنّ أحدا أبى أن يصدّقكم في إسلامكم أكان يرضيكم ذلك. وهذه تربية عظيمة، وهي أن يستشعر الإنسان عند مؤاخذته غيره أحوالا كان هو عليها تساوي أحوال من يؤاخذه.

وقد دلت الآية على حكمة عظيمة في حفظ الجامعة الدينيّة، وهي بثّ الثقة والأمان بين أفراد الأمّة، وطرح ما من شأنه إدخال الشك، لأنّه إذا فُتح هذا الباب عسر سدّه، وترتفع الثقة، ويسهل على ضعفاء الإيمان المروق، وانظر معاملة النبيّ صلى الله عليه وسلم المنافقين معاملة المسلمين. على أنّ هذا الدين سريع السريان في القلوب فيكتفي أهله بدخول الداخلين فيه من غير مناقشة، إذ لا يلبثون أن يألفوه، وتخالط بشاشته قلوبهم، فهم يقتحمونه على شكّ وتردّد فيصير إيمانا راسخا، وممّا يعين على ذلك ثقة

السابقين فيه باللاحقين بهم.

{ **فَتَبَيَّنُوا** } أعاد الله الأمر للتأكيدا .

{ **إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً** } وهو يجمع وعيدا ووعدا.

{ لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً [95] دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً [96] }.

لمّا لام الله بعض المجاهدين على ما صدر منهم من التعمّق في الغاية من الجهاد، عقّب ذلك ببيان فضل المجاهدين كيلا يكون ذلك اللوم موهما انحطاط فضيلتهم في بعض أحوالهم، على عادة القرآن في تعقيب النذارة بالبشارة دفعا لليأس من الرحمة عن أنفس المسلمين.

{ **لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** } التركيب مستعمل في معنى الكناية، وهو التعريض بالمفضول في تفريطه وزهده فيما هو خير مع المكنة منه، وكذلك هو هنا لظهور أنّ القاعد عن الجهاد لا يساوي المجاهد في فضيلة نصرة الدين، ولا في ثوابه على ذلك، فتعيّن التعريض بالقاعدين وتشنيع حالهم.

{ **غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ** } الاستثناء كيلا يحسب أصحاب الضرر أنّهم مقصودون بالتعريض ويدلّ لهذا ما في الصحيحين، عن زيد بن ثابت، أنّه قال: نزل الوحي على رسول الله وأنا إلى جنبه ثم سري عنه فقال: **"اكتب"**، فكتبت في كتف (لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم) وخلف النبيّ ابن أمّ مكتوم فقال: يا رسول الله لو أستطيع الجهاد لجاهدت، فنزلت مكانها { لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ }.

الضرر: المرض والعاهة من عمى أو عرج أو زمانة، لأنّ هذه الصيغة لمصادر الأدواء ونحوها، وأشهر استعماله في العمى، ولذلك يقال للأعمى: ضرير.

{ **بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ** } لأنّ الجهاد يقتضي الأمرين: بذل النفس وبذل المال، إلّا أنّ الجهاد على الحقيقة هو بذل النفس في سبيل الله ولو لم ينفق شيئا، بل ولو كان كلّا على المؤمنين، كما أنّ من بذل المال لإعانة الغزاة، ولم يجاهد بنفسه، لا يسمّى مجاهدا وإن كان له أجر عظيم، وكذلك من حبسه العذر وكان يتمنّى زوال عذره واللحاق بالمجاهدين، له فضل عظيم، ولكن فضل الجهاد بالفعل لا يساويه فضل الآخرين.

{ **فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً** } بيان لجملة { لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُون }.

دَرَجَةً: هنا مستعارة للعلوّ المعنوي كما في قوله { وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ } [البقرة:228]. والعلو المراد هنا علو الفضل ووفرة الأجر. والتنوين للتعظيم. وهو يساوي مفاد الجمع.

{ **وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى** } معترضة، والتقدير: وكلّ المجاهدين والقاعدين.

{ **وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً** } إعادة معظم ألفاظ الجملة من أجل التوكيد.

{ **إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً [97] إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً [98] فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَ كَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا [99]** }.

الآية مجيبة عما يجيش بنفوس السامعين من التساؤل عن مصير القاعدين عن إظهار إسلامهم من الذين عزموا عليه بمكّة، أو اتّبعوه ثم صدّهم أهل مكّة عنه وفتنوهم حتّى أرجعوهم إلى عبادة الأصنام بعذر وبدونه، فكان موقعها استئنافا بيانيّا لسائل متردّد. ولذلك فصلّت، فإن حالهم يوجب شكّا في أن يكونوا ملحقين بالكفّار، كيف وهم قد ظهر ميلهم إلى الإسلام، ومنهم من دخل فيه بالفعل ثم صُدّ عنه أو فُتن.

{ **توفّاهم** } تميتهم وتقبض أرواحهم، عدل عن يموتون أو يتوفّون، ليكون وسيلة لبيان شناعة فتنتهم عند الموت.

الملائكة: جمع أريد به الجنس، فاستوى في إفادة معنى الجنس جمعه ومفرده، كما في قوله تعالى { قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ } [السجدة:11]، فيجوز أن يكون ملك الموت الذي يقبض أرواح النّاس واحدا، ويجوز أن يكون لكل هالك ملك يقبض روحه، وهذا أوضح.

ظلم النفس: أن يفعل أحد فعلا يؤول إلى مضرّته، فهو ظالم لنفسه، لأنّه فعل بنفسه ما ليس من شأن العقلاء أن يفعلوه لوخامة عقباه. وقد اختلف في المراد به في هذه الآية.

ففي البخاري عن ابن عباس: المراد به الكفر، وأنّها نزلت في قوم من أهل مكّة كانوا قد أسلموا حين كان الرّسول صلى الله عليه وسلم بمكّة، فلمّا هاجر أقاموا مع قومهم بمكّة ففتنوهم فارتدوا، وخرجوا يوم بدر مع المشركين فكثّروا سواد المشركين، فقتلوا ببدر كافرين، فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين ولكنّهم أكرهوا على الكفر والخروج، فنزلت هذه الآية فيهم.

{ **قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ** } توبيخ وتهديد بالوعيد وتمهيد لدحض معذرتهم.

{ **كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ** } المستضعف هو المعدود ضعيفا فلا يعبأ بما يُصنع به، فليس هو في عزّة تمكّنه من إظهار إسلامه، فلذلك يضطر إلى كتمان إسلامه. و**الأرض** هي مكّة.

أرادوا: كنّا مكرهين على الكفر ما أقمنا في مكّة، وهذا جواب صادق إذ لا مطمع في الكذب في عالم الحقيقة وقد حسبوا ذلك عذرا يبيح البقاء على الشرك، أو يبيح التخلّف عن الهجرة.

{ **أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا** } رد الملائكة عليهم، أي: تخرجوا من الأرض التي تستضعفون فيها، فبذلك تظهرون الإيمان، وظاهر الآية أنّ الخروج إلى كلّ بلد غير بلد الفتنة يعد هجرة، لكن دلّ قوله بعد { مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ } [100] أنّ المقصود الهجرة إلى المدينة، وهي التي كانت واجبة، وأمّا هجرة المؤمنين إلى الحبشة فقد كانت قبل وجوب الهجرة، لأنّ النبيّ وفريقا من المؤمنين كانوا بعد بمكّة، وكانت بإذن النبيّ صلى الله عليه وسلم.

المهاجرة: الخروج من الوطن وترك القوم، مفاعلة من هجر إذا ترك، وإنّما اشتق للخروج عن الوطن اسم المهاجرة لأنّها في الغالب تكون عن كراهية بين الراحل والمقيمين، فكلّ فريق يطلب ترك الآخر، ثم شاع إطلاقها على مفارقة الوطن بدون هذا القيد.

{ **فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ** } تفريع على ما حكى من توبيخ الملائكة إيّاهم وتهديدهم.

وجيء باسم الإشارة للتنبيه على أنّهم أحرياء بالحكم الوارد بعده من أجل الصفات المذكورة قبله، لأنّهم كانوا قادرين على التخلّص من فتنة الشرك بالخروج من أرضه.

{ **إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ** } استثناء من الوعيد، والمعنى إلاّ المستضعفين حقا، أي: العاجزين عن الخروج من مكّة لقلة جهدهم، أو لإكراه المشركين إيّاهم.

وفي البخاري أنّ رسول الله كان يدعو في صلاة العشاء: **" اللّهم نج عيّاش بن أبي ربيعة، اللّهم نج الوليد بن الوليد، اللّهم نج سلمة بن هشام اللهم نج المستضعفين من المؤمنين".**

وعن ابن عباس: كنت أنا وأمي من المستضعفين.

{ **مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ** } لقصد التعميم. وتقدم ذكرهم بقوله تعالى { وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ} [75]، وإعادة ذكرهم هنا ممّا يؤكد أنّ تكون الآيات كلّها نزلت في التهيئة لفتح مكة.

{ **لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً** } حال من المستضعفين موضّحة للاستضعاف، أي لا يستطيعون حيلة في الخروج إمّا لمنع أهل مكّة إيّاهم، أو لفقرهم.{ **وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً** } أي: معرفة للطريق.

{ **فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ** } الإشارة للتنبيه على أنّهم جديرون بالحكم المذكور من المغفرة.

وفعل (عسى) مجاز بأنّ عفوه عن ذنبهم عفو عزيز المنال، فمثّل حال العفو عنهم بحال من لا يقطع بحصول العفو عنه، و مقصود من ذلك تضييق تحقّق عذرهم، لئلّا يتساهلوا في شروطه اعتمادا على عفو الله، فإنّ عذر الله لهم باستضعافهم رخصة وتوسعة من الله تعالى، لأنّ البقاء على إظهار الشرك أمر عظيم، وكان الواجب العزيمة أن يَكْلَفوا بإعلان الإيمان بين ظهراني المشركين ولو جلب لهم التعذيب

والهلاك، كما فعلت سميّة أمّ عمّار بن ياسر.

وقال كثير من العلماء: أنّ عسى ولعلّ في القرآن لليقين.

أحكام الخروج من بلد الفتنة: (ستة أحوال)

الحالة الأولى: أن يكون المؤمن ببلد يفتن فيه في إيمانه فيرغم على الكفر وهو يستطيع الخروج، فهذا حكمه حكم الذين نزلت فيهم الآية، وقد هاجر مسلمون من الأندلس حين أكرههم النصارى على التنصر، فخرجوا على وجوههم في كل واد تاركين أموالهم وديارهم ناجين بأنفسهم وإيمانهم، وهلك فريق منهم في الطريق وذلك في سنة 902 وما بعدها إلى أن كان الجلاء الأخير سنة 1016.

الحالة الثانية: أن يكون ببلد الكفر غير مفتون في إيمانه ولكن يكون عرضة للإصابة في نفسه أو ماله بأسر أو قتل أو مصادرة مال، فهذا قد عرّض نفسه للضر وهو حرام بلا نزاع، وهذا مسمّى الإقامة ببلد الحرب المفسّرة بأرض العدو.

الحالة الثالثة: أن يكون ببلد غلب عليه غير المسلمين إلاّ أنّهم لم يفتنوا النّاس في إيمانهم ولا في عباداتهم ولا في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، ولكنّه بإقامته تجري عليه أحكام غير المسلمين إذا عرض له حادث مع واحد من أهل ذلك البلد الذين هم غير مسلمين، وهذا مثل الذي يقيم اليوم ببلاد أوروبا النصرانية، وظاهر قول مالك أن المقام في مثل ذلك مكروه كراهة شديدة من أجل أنه تجري عليه أحكام غير المسلمين، وهو ظاهر المدوّنة.

الحالة الرابعة: أن يتغلّب الكفّار على بلد أهله مسلمون ولا يفتنوهم في دينهم ولا في عبادتهم ولا في أموالهم، ولكنهم يكون لهم حكم القوّة عليهم فقط، وتجري الأحكام بينهم على مقتضى شريعة الإسلام كما وقع في صقلية حين استولى عليها رجير النرمندي. وكما وقع في بلاد غرناطة حين استولى عليها طاغية الجلالقة على شروط منها احترام دينهم، فإنّ أهلها أقاموا بها مدّة وأقام منهم علماؤهم وكانوا يلون القضاء والفتوى والعدالة والأمانة ونحو ذلك، وهاجر فريق منهم فلم يعب المهاجر على القاطن، ولا القاطن على المهاجر.

الحالة الخامسة: أن يكون لغير المسلمين نفوذ وسلطان على بعض بلاد الإسلام، مع بقاء ملوك الإسلام فيها، واستمرار تصرفهم في قومهم، وولاية حكامهم منهم، واحترام أديانهم وسائر شعائرهم، ولكن تصرّف الأمراء تحت نظر غير المسلمين وبموافقتهم، وهو ما يسمى بالحماية والاحتلال والوصاية والانتداب، كما وقع في مصر مدة احتلال جيش الفرنسيس بها، ثم مدة احتلال الأنقليز، وكما وقع بتونس والمغرب الأقصى من حماية فرنسا، وكما وقع في سوريا والعراق أيام الانتداب، وهذه لا شبهة في عدم وجوب الهجرة منها.

الحالة السادسة: البلد الذي تكثر فيه المناكر والبدع، وتجري فيه أحكام كثيرة على خلاف صريح الإسلام بحيث يخلط عملا صالحا وآخر سيئا ولا يجبر المسلم فيها على ارتكابه خلاف الشرع، ولكنّه لا

يستطيع تغييرها إلّا بالقول، أو لا يستطيع ذلك أصلا. وهذه روي عن مالك وجوب الخروج منها، رواه ابن القاسم، غير أنّ ذلك قد حدث في القيروان أيام بني عبيد فلم يحفظ أنّ أحدا من فقهائها الصالحين دعا النّاس إلى الهجرة.

{ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً } [100].

المهاجرة في سبيل الله، هي المهاجرة لأجل دين الله. و**السبيل** استعارة معروفة، وزادها قبولا أنّ المهاجرة نوع من السير، فكان لذكر السبيل معها ضرب من التورية.

المُراغم: اسم مكان من راغم إذا ذهب في الأرض، وفعل راغم مشتق من الرَّغام (بفتح الراء) وهو التراب. ووصف المُراغم بالكثير لأنّه أريد به جنس الأمكنة.

السعة: ضد الضيق، وهي حقيقة اتساع الأمكنة، وتطلق على رفاهية العيش، فهي سعة مجازية.

{ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ } نوه الله بشأن الهجرة بأن جعل ثوابها حاصلا بمجرّد الخروج من بلد الكفر، ولو لم يبلغ إلى البلد المهاجر إليه. وعطف الرّسول على اسم الجلالة للإشارة إلى خصوص الهجرة إلى المدينة للالتحاق بالرّسول وتعزيز جانبه، لأنّ الذي يهاجر إلى غير المدينة قد سلم من إرهاق الكفر ولم يحصل على نصرة الرسول، ولذلك بادر أهل هجرة الحبشة إلى اللحاق بالرّسول حين بلغهم مهاجره إلى المدينة.

{ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ } أي: في الطريق، ويجوز أن يكون المعنى، ثم يدركه الموت مهاجرا، أي: لا يرجع بعد هجرته إلى بلاد الكفر وهو الأصح.

وقد اختلف في الهجرة المرادة من هذه الآية، فقيل: الهجرة إلى المدينة، وقيل: الهجرة إلى الحبشة.

{ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوّاً مُبِيناً [101] وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذىً مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً [102] }

انتقال إلى تشريع آخر بمناسبة ذكر السفر للخروج من سلطة الكفر، على عادة القرآن في تفنين أغراضه، والتماس مناسباتها. والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها.

الضرب في الأرض: السفر.

قصر الصلاة: النقص منها، وقد علم أن أجزاء الصلاة هي الركعات بسجداتها وقراءاتها، فلا جرم أنّ القصر من الصلاة هو نقص الركعات. وقد بيّنه فعل النبيّ صلى الله عليه وسلم إذ صيّر الصلاة ذات الأربع الركعات ذات ركعتين. وأجملت الآية فلم تعيّن الصلوات التي يعتريها القصر، فبيّنته السنّة بأنّها الظهر والعصر والعشاء. ولم تقصّر الصبح لأنّها تصير ركعة واحدة فتكون غير صلاة، ولم تقصّر المغرب لئلّا تصير شفعا فإنّها وتر النهار، ولئلّا تصير ركعة واحدة كما قلنا في الصبح.

وقد قيل: إنّ قصر الصلاة في السفر شرع في سنة أربع من الهجرة وهو الأصح. وقد روى أهل الصحيح قول عائشة رضي الله عنها: " فرضت الصلاة ركعتين فأقرت صلاة السفر وزيدت صلاة الحضر".

ومحمل الآية على مقتضاه، أنّ الله تعالى لمّا فرض الصلاة ركعتين فتقرّرت كذلك، فلمّا صارت الظهر والعصر والعشاء أربعا نسخ ما كان من عددها، وكان ذلك في مبدأ الهجرة. وإنّما قالت عائشة أقرت صلاة السفر حيث لم تتغير عن الحالة الأولى، وهذا يدلّ على أنّهم لم يصلّوها تامة في السفر بعد الهجرة، فلا تعارض بين قولها وبين الآية.

{ **إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا** } شرط دلّ على تخصيص الإذن بالقصر بحال الخوف من تمكّن المشركين منهم وإبطالهم عليهم صلاتهم، وأنّ الله أذن في القصر لتقع الصلاة عن اطمئنان، فالآية هذه خاصة بقصر الصلاة عند الخوف، وهو القصر الذي له هيئة خاصة في صلاة الجماعة.

وهذا رأي مالك، يدلّ عليه ما أخرجه في الموطأ: أنّ رجلا من آل خالد بن أسيد سأل عبد الله بن عمر إنّا نجد صلاة الخوف وصلاة الحضر في القرآن ولا نجد صلاة السفر، فقال ابن عمر يابن أخي إن الله بعث إلينا محمدا ولا نعلم شيئا فإنّما نفعل كما رأيناه يفعل. يعني أنّ ابن عمر أقرّ السائل وأشعره بأنّ صلاة السفر ثبتت بالسنّة، وكذلك كانت ترى عائشة وسعد بن أبي وقاص أنّ هذه الآية خاصة بالخوف، فكانا يكملان الصلاة في السفر.

وهذا التأويل هو البيّن في محمل هذه الآية، فيكون ثبوت القصر في السفر بدون الخوف وقصر الصلاة في الحضر عند الخوف ثابتين بالسنة، وأحدهما أسبق من الآخر، كما قال ابن عمر.
وعن يعلى بن أميّة أنّه قال: قلت لعمر بن الخطاب: إنّ الله تعالى يقول { إن خفتم } وقد أمن الناس. فقال: عجبتُ ممّا عجبتَ منه فسألت رسول الله عن ذلك فقال: **" صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته "،** ولا شكّ أنّ محمل هذا الخبر أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أقر عمر على فهمه تخصيص هذه الآية بالقصر لأجل الخوف، فكان القصر لأجل الخوف رخصة لدفع المشقّة.
أمّا قصر الصلاة في السفر فقد دلّت عليه السنة الفعليّة، واتّبعه جمهور الصحابة، إلاّ عائشة وسعد بن أبي وقاص، حتّى بالغ من قال بوجوبه من أجل حديث عائشة في الموطأ والصحيحين لدلالته على أن صلاة السفر بقيت على فرضها، فلو صلاها رباعية لكانت زيادة في الصلاة، ولقول عمر فيما رواه النسائي وابن ماجة: صلاة السفر ركعتان تمامٌ غيرُ قصر.
و قال مالك بأنّه سنّة، لأنّه لم يرو عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في صلاة السفر إلّا القصر، وكذلك الخلفاء من بعده. وإنّما أتمّ عثمان بن عفان الصلاة في الحجّ خشية أن يتوهّم الأعراب أنّ الصلوات كلّها ركعتان. غير أنّ مالكا لم يقل بوجوبه من أجل قوله تعالى { فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ } لمنافاته لصيغ الوجوب. ولقد أجاد محامل الأدلة.
{ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ } اتفق العلماء على أنّ هذه الآية شرعت صلاة الخوف، وأكثر الآثار تدلّ على أنّ مشروعيّتها كانت في غزوة ذات الرقاع. وكانت بين سنة ست وسنة سبع من الهجرة، وأنّ أوّل صلاة صليت بها هي صلاة العصر، وأنّ سببها أنّ المشركين لمّا رأوا حرص المسلمين على الصلاة قالوا: هذه الصلاة فرصة لنا لو أغرنا عليهم لأصبناهم على غرّة، فأنبأ الله بذلك نبيّه صلى الله عليه وسلم ونزلت الآية.
{ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ } قال إسماعيل بن عُلية، وأبو يوسف صاحب أبي حنيفة في أحد أقواله، أنّ صلاة الخوف لا تقع على هذه الصفة إلا إذا كانت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فهي خصوصية لإقامته، وهذا قول ضعيف لمخالفته فعل الصحابة، ولأنّ مقصد شرع الجماعة، هو اجتماع المسلمين في الموطن الواحد، فيؤخذ بهذا المقصد بقدر الإمكان. ولذلك جزم جمهور العلماء بأنّ هذه الآية شرعت صلاة الخوف للمسلمين أبدا. ومحمل هذا الشرط عندهم جار على غالب أحوالهم يومئذ من ملازمة النبيّ صلى الله عليه وسلم لغزواتهم وسراياهم إلّا للضرورة.
وذهب جمهور العلماء إلى أنّ الإمام يصلي بكل طائفة ركعة، وإنما اختلفوا في كيفية تقسيم الصلاة بالنسبة للمأمومين. والقول الفصل في ذلك هو ما رواه مالك في الموطأ، عن سهل بن أبي حثمة أنّه صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف يوم ذات الرقاع، فصفّت طائفة معه وطائفة وجاه العدو، فصلى بالذين معه ركعة ثم قام، وأتموا ركعة لأنفسهم، ثم انصرفوا فوقفوا وجاه العدو، وجاءت

الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التي بقيت له، ثم سلّم، ثم قضوا الركعة التي فاتتهم وسلموا. وهذه الصفة أوفق بلفظ الآية. والروايات غير هذه كثيرة.

الطائفة: الجماعة من النّاس ذات الكثرة. والحقّ أنّها لا تطلق على الواحد والاثنين. وأصلها منقولة من طائفة الشيء وهي الجزء منه.

{ **وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ** } استعمل الأخذ في حقيقته ومجازه، لأنّ أخذ الحذر مجاز وأخذ الأسلحة حقيقة. وجاء بصيغة الأمر، لأنّ أخذ السلاح فيه مصلحة شرعيّة.

{ **وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا** } المقصود أنّهم ودّوا ودّا مستقربا عندهم، لظنّهم أنّ اشتغال المسلمين بأمور دينهم يباعد بينهم وبين مصالح دنياهم، جهلا من المشركين لحقيقة الدين، فطمعوا أن تلهيهم الصلاة عن الاستعداد لأعدائهم، فنبّه الله المؤمنين إلى ذلك كيلا يكونوا عند ظن المشركين، وليعوّدهم بالأخذ بالحزم في كل الأمور، وليريهم أنّ صلاح الدين والدنيا صنوان.

الأسلحة: جمع سلاح، وهو اسم جنس لآلة الحرب كلّها؛ من الحديد، وهي السيف والرمح والنبل والحربة، وليس الدرع ولا الخوذة ولا الترس بسلاح.

الأمتعة: جمع متاع وهو كل ما ينتفع به من عروض وأثاث، ويدخل في ذلك ما له عون في الحرب كالسروج ولامة الحرب كالدروع والخوذات.

{ **فيميلون** } أي: ودّوا غفلتكم ليميلوا عليكم.

{ **مَيْلَةً وَاحِدَةً** } استعملت صيغة المرّة هنا كناية عن القوّة والشدّة، وذلك أنّ الفعل الشديد القويّ يأتي بالغرض منه سريعا دون معاودة علاج، فلا يتكرّر الفعل لتحصيل الغرض.

{ **وَاحِدَةً** } تأكيد لمعنى المرة المستفاد من صيغة فعلة.

{ **وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذىً مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ** } رخصة لهم في وضع الأسلحة عند المشقّة، وقد صار ما هو أكمل في أداء الصلاة رخصة هنا، لأنّ الأمور بمقاصدها وما يحصل عنها من المصالح والمفاسد، ولذلك قيّد الرخصة مع أخذ الحذر.

{ **إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً** } فليس الأمر بأخذ الحذر والسلاح إلاّ لتحقيق أسباب ما أعد الله لهم، لأن الله إذا أراد أمرا هيّأ أسبابه. وفيه تعليم المسلمين أن يطلبوا المسبّبات من أسبابها، أي: إن أخذتم حذركم أمنتم من عدوكم.

{ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً } [103].

القضاء: إتمام الشيء. والظاهر أنّ المراد من { **فَاذْكُرُوا** } هنا النوافل، أو ذكر اللسان كالتسبيح والتحميد،

فقد كانوا في الأمن يجلسون إلى أن يفرغوا من التسبيح ونحوه، فرخّص لهم حين الخوف أن يذكروا الله على كل حال.

{ **فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ** } الاطمئنان هنا مراد به القفول من الغزو، فإطلاق الاطمئنان عليه يشبه أن يكون حقيقة، وليس المراد الاطمئنان الذي هو عدم الخوف لعدم مناسبته هنا. وقد تقدّم القول في الاطمئنان عند قوله تعالى { وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي } [البقرة:26]

{ **فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ** } صلّوها تامّة ولا تقصروها. هذا قول مجاهد وقتادة، وهو الموافق لما تقدّم من كون الوارد في القرآن هو حكم قصر الصلاة في حال الخوف، دون قصر السفر.

الإقامة: هنا الإتيان بالشيء قائما، أي: تامّا، وهذا قول جمهور الأئمة: مالك، والشافعي، وأحمد، وسفيان. وقال أبو حنيفة وأصحابه: لا يؤدي المجاهد الصلاة حتّى يزول الخوف، لأنّه رأى مباشرة القتال فعلا يفسد الصلاة. ولكن الآيات [النساء:101، 103] ترجّح قول الجمهور، ولأنّ قوله تعالى { إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً } مسوق مساق التعليل للحرص على أدائها في أوقاتها.

الموقوت: المحدود بأوقات، والمنجّم عليها، وقد يُستعمل بمعنى المفروض على طريق المجاز. والأوّل أظهر هنا.

{ وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً } [104].

زيادة في تشجيعهم على قتال الأعداء، وفي تهوين الأعداء في قلوبهم، لأنّ المشركين كانوا أكثر عددا من المسلمين وأتمّ عدّة، وما كان شرع قصر الصلاة وأحوال صلاة الخوف، إلّا تحقيقا لنفي الوهن في الجهاد.

الابتغاء: مصدر ابتغى، أي: الطلب، وقد تقدم { أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ } [آل عمران:83]. والمراد به هنا المبادأة بالغزو، وأن لا يتقاعسوا، حتّى يكون المشركون هم المبتدئين بالغزو. تقول العرب: طلبنا بني فلان، أي غزوناهم. والمبادئ بالغزو له رعب في قلوب أعدائه.

{ **إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ** } زادهم تشجيعا على طلب العدو بأنّ تألّم الفريقين المتحاربين واحدا، إذ كلٌّ يخشى بأس الآخر، وبأنّ للمؤمنين مزية على الكافرين، وهي أنهم يرجون من الله ما لا يرجوه الكفار،

{ **وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ** } رجاء الشهادة إن قتلوا، ورجاء ظهور دينه على أيديهم إذا انتصروا، ورجاء الثواب في الأحوال كلّها.

فتكون الآية وعدا للمسلمين بأنّ الله ناصرهم، وبشارة بأنّ المشركين لا يرجون لأنفسهم نصرا، وأنّهم آيسون منه بما قذف الله في قلوبهم من الرعب، وهذا ممّا يفت في ساعدهم.

{ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاس بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً [105] وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً [106] وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً [107] يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاس وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً [108] هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً [109] }.

عاد الكلام إلى أحوال أهل النفاق. وجمهور المفسّرين على أنّ هاته الآية نزلت بسبب حادثة رواها الترمذي حاصلها: أنّ أخوة ثلاثة يقال لهم: بشر وبشير ومُبشّر، أبناء أُبَيْرِق، وكان هؤلاء الإخوة في فاقة، وكانوا جيرة لرفاعة بن زيد، وكانت عير قد أقبلت من الشام بدَرْمك (سميد) فابتاع منها رفاعة بن زيد حملا لطعامه، فعدى بنو أبيرق عليه فنقبوا مشربته وسرقوا الدقيق والسلاح، فلمّا افتضحوا طرحوا المسروق في دار أبي مليل الأنصاري. وقيل: في دار يهودي، وجاء بعض بني ظفر إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم، فاشتكوا إليه أنّ رفاعة وابن أخيه اتهما بالسرقة أهل بيت إيمان وصلاح، قال قتادة: فأتيت رسول الله، فقال ليّ **"عمدت إلى أهل بيت إسلام وصلاح فرميتهم بالسرقة على غير بيّنة "**. فما لبث أن نزلت هذه الآية، وأطلع الله رسوله على جليّة الأمر، معجزة له، حتّى لا يطمع أحد في أن يروّج على الرّسول باطلا. هذا هو الصحيح في سوق هذا الخبر، مع تفاصيل و اختلافات في بعض الأسماء.

{ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ } الباء للآلة، جعل ما أراه الله إيّاه بمنزلة آلة للحكم لأنّه وسيلة إلى مصادفة العدل والحقّ ونفي الجور. والرؤية عرفانية، فأطلقت على ما يدرك بوجه اليقين لمشابهته الشيء المشاهد.

{ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً } أي: لا تخاصم عنهم. فالخصيم هنا بمعنى المنتصر المدافع كقوله **" كنت أنا خصمه يوم القيامة "**. والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد الأمّة، لأنّ الخصام عن الخائنين لا يتوقّع من النبيّ صلى الله عليه وسلم، وإنّما المراد تحذير الذين دفعتهم الحميّة إلى الانتصار لأبناء أبيرق.

{ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً } الأمر باستغفار الله إلى الرّسول والمراد بالأمر غيره. أو أراد، واستغفر الله للخائنين ليلهمهم إلى التوبة ببركة استغفارك لهم فذلك أجدر من دفاع المدافعين عنهم.

{ وَلا تُجَادِلْ } الخطاب للرسول، والمراد نهي الأمّة عن ذلك، لأنّ مثله لا يترقّب صدوره من الرّسول عليه الصلاة والسلام.

المجادلة: مفاعلة من الجدل وهو القدرة على الخصام والحجّة فيه، وهي منازعة بالقول لإقناع الغير برأيك، ومنه سُمّي علم قواعد المناظرة والاحتجاج في الفقه علم الجدل، وكان يختلط بعلم أصول الفقه وعلم آداب البحث وعلم المنطق. ولم يسمع للجدل فعل مجرّد أصلي، والمسموع منه جادل لأنّ الخصام يستدعي خصمين.

{ **يختانون** } بمعنى يخونون، وهو افتعال دال على التكلّف والمحاولة لقصد المبالغة في الخيانة. ومعنى خيانتهم أنفسهم أنّهم بارتكابهم ما يضرّ بهم كانوا بمنزلة من يخون غيره. ولك أن تجعل { أنفسهم } بني قومهم، أي: الذين يختانون ناسا من أهلهم وقومهم. والعرب تقول: هو تميمي من أنفسهم، أي: ليس بمولى ولا لصيق.

{ **يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ**} بيان وحال، وذلك هو محل الاستغراب من حالهم وكونهم يختانون أنفسهم. والاستخفاء من الله مستعمل مجازا في الحياء، إذ لا يعتقد أحد يؤمن بالله أنّه يستطيع أن يستخفي من الله.

{ **وَهُوَ مَعَهُمْ** } حال من اسم الجلالة، والمعية هنا معيّة العلم والاطلاع.

{ **إِذْ يُبَيِّتُونَ** } ظرف، والتبييت جعل الشيء في البيات، أي: الليل، مثل التصبيح، يقال: بيّتهم العدو وصبّحهم العدو. وفي القرآن { لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ } [النمل:49] أي: لنأتينهم بالليل. والمراد هنا تدبير مكيدتهم لرمي البراء بتهمة السرقة.

{ **هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ** } والمخاطب كلّ من يصلح للمخاطبة من المسلمين. والكلام جار مجرى التعريض ببعض بني ظفر الذين جادلوا عن بني أبيرق.

{ **هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ** } تقدّم في [البقرة:85]، وتقدّم نظيره في [آل عمران:119].

{ **أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً** } منقطعة للإضراب الانتقالي. والاستفهام مستعمل في الإنكار.

الوكيل: مضى الكلام عليه عند قوله تعالى { وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ } [آل عمران:173].

{ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً [110] وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً [111] وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً [112] وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً [113] }.

عمل السوء: هو العصيان ومخالفة ما أمر به الشرع ونهى عنه.

ظلم النفس: شاع إطلاقه في القرآن على الشرك والكفر، وأطلق أيضا على ارتكاب المعاصي.

وأحسن ما قيل في الآية: أن عمل السوء أريد به عمل السوء مع النّاس، وهو الاعتداء على حقوقهم، وأنّ ظلم النفس هو المعاصي الراجعة إلى مخالفة المرء في أحواله الخاصة ما أمر به أو نهي عنه.

الاستغفار: التوبة وطلب العفو من الله عما مضى من الذنوب.

{ **يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً** } يتحقّق ذلك، لأنّ فعل وجد حقيقته الظفر بالشيء ومشاهدته، فيصير المعنى يجد الله شديد الغفران وشديد الرحمة، وذلك كناية عن العموم والتعجيل.

{ **وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً** } الخطيئة المعصية الصغيرة، و**الإثم** الكبيرة.

{ **يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً** } الرمي حقيقته قذف شيء من اليد، ويطلق مجازا على نسبة خبر أو وصف لصاحبه بالحق أو الباطل، وأكثر استعماله في نسبة غير الواقع. والمعنى، ينسبه إليه ويحتال لترويج ذلك، فكأنّه ينزع ذلك الإثم عن نفسه ويرمي به البريء.

{ **احتمل** } تمثيل لحال فاعله بحال عناء الحامل ثقلا. دلّ على عظم هذا البهتان.

البهتان: الكذب الفاحش. وجعل الرمي بالخطيئة وبالإثم مرتبة واحدة في كون ذلك إثما مبينا، لأنّ رمي البريء بالجريمة في ذاته كبيرة لما فيه من الاعتداء على حق الغير.

المبين: الذي يدلّ كلّ أحد على أنّه إثم، أي: إثمًا ظاهرا لا شبهة في كونه إثما.

{ **وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ** } المراد بالفضل والرحمة هنا نعمة إنزال الكتاب تفصيلا لوجوه الحق في الحكم وعصمته من الوقوع في الخطأ فيه. وظاهر الآية أنّ همّ طائفة من الذين يختانون أنفسهم بأن يضلّوا الرّسول غير واقع من أصله فضلا عن أن يضلّوه بالفعل.

{ **وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ** } أنّهم لو همّوا بذلك لكان الضلال لاحقا بهم دونك، أي: يكونون قد حاولوا ترويج الباطل واستغفال الرسول، فحقّ عليهم الضلال بذلك، ثم لا يجدونك مصغيا لضلالهم.

{ **وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ** } عطف على { وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ }. وموقعها لزيادة تقرير معنى قوله { وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ } ولذلك ختمها بقوله { **وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً** }، فهو مثل رد العجز على الصدر.

و**الكتاب**: القرآن. و**الحكمة**: النبوّة.

تعليمه ما لم يكن يعلم: هو ما زاد على ما في الكتاب من العلم الوارد في السنة والإنباء بالمغيبات.

{ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النّاس وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً } [114].

لم تخل الحوادث التي أشارت إليها الآي السابقة، ولا الأحوال التي حذّرت منها، من تناج وتحاور، سرّا وجهرا، لتدبير الخيانات وإخفائها وتبييتها، لذلك كان المقام حقيقا بتعقيب جميع ذلك بذكر النجوى وما تشتمل عليه، لأنّ في ذلك تعليما وتربية وتشريعا، إذ النجوى من أشهر الأحوال العارضة للنّاس في مجتمعاتهم، لا سيما في وقت ظهور المسلمين بالمدينة، فقد كان فيها المنافقون واليهود وضعفاء المؤمنين، وكان التناجي فاشيا لمقاصد مختلفة، فربّما كان يثير في نفوس الرائين لتلك المناجاة شكّا، أي: خوفا، إذ كان المؤمنون في حال مناواة من المشركين وأهل الكتاب، فلذلك تكرّر النهي عن النجوى في

القرآن نحو { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى } [المجادلة:8]، وقوله تعالى { إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى } [الإسراء:47] وقوله تعالى { وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ } [البقرة:14].

فلذلك ذمّ الله النجوى هنا أيضا. فالجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا لإفادة حكم النجوى.

النجوى: مصدر، هي المسارّة في الحديث، وهي مشتقّة من النجو، وهو المكان المستتر الذي ينجو المفضي إليه من طالبه. فالمقصود من الآية تربية اجتماعية دعت إليها المناسبة، فإنّ شأن المحادثات والمحاورات أن تكون جهرة، لأنّ الصراحة من أفضل الأخلاق لدلالتها على ثقة المتكلّم برأيه، وعلى شجاعته في إظهار ما يريد إظهاره من تفكيره، فلا يصير إلى المناجاة إلّا في أحوال شاذة يناسبها إخفاء الحديث. فمن يناجي في غير تلك الأحوال رُميَ بأنّ شأنه ذميم. وهي مبعث للريبة.

{ **لا خير** } أنّه شرّ، بناء على المتعارف في نفي الشيء أن يراد به إثبات نقيضه.

{ **إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النّاس** } هذه الثلاثة لو لم تذكر لدخلت في القليل من نجواهم الثابت له الخير، فلمّا ذكرت بطريق الاستثناء علمنا أنّ نظم الكلام جرى على أسلوب بديع فأخرج ما فيه الخير من نجواهم ابتداء بمفهوم الصفة، ثم أريد الاهتمام ببعض هذا القليل من نجواهم.

{ **وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً** } وعد بالثواب على فعل المذكورات إذا كان لابتغاء مرضاة الله، فدلّ على أنّ كونها خيرا وصف ثابت لها لما فيها من المنافع، ولأنّها مأمور بها في الشرع، إلّا أنّ الثواب لا يحصل إلّا عن فعلها ابتغاء مرضاة الله، " **إنما الأعمال بالنيات** ".

{ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرّسول مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً } [115].

المشاقة: المخالفة المقصودة، مشتقّة من الشقّ لأنّ المخالف كأنّه يختار شقّا يكون فيه غير شقّ الآخر.

{ **مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى** } من بعد ما آمن بالرّسول فتكون الآية وعيدا للمرتدّ. ومناسبتها هنا أنّ بشير بن أبيرق صاحب القصّة المتقدّمة، لمّا افتضح أمره ارتدّ ولحق بمكّة.

{**سبيل** } مستعار للاعتقادات والأفعال والعادات، التي يلازمها أحد ولا يبتغي التحوّل عنها، كما يلازم قاصد المكان طريقا يبلّغه إلى قصده.

ومعنى هذه الآية نظير معنى قوله { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرّسول مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ } [محمد:32].

وكأنّ فائدة عطف اتباع غير سبيل المؤمنين على مشاقة الرّسول الحيطة لحفظ الجامعة الإسلامية.

{ **نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى** } الإعراض عنه، أي: نتركه وشأنه لقلّة الاكتراث به.

وقد شاع عند كثير من علماء أصول الفقه الاحتجاج بهذه الآية، لكون إجماع علماء الإسلام على حكم من الأحكام حجّة، وأوّل من احتجّ بها على ذلك الشافعي. واتفقت كلمة المحقّقين: الغزالي، والإمام في المعالم، وابن الحاجب، على توهين الاستدلال بهذه الآية على حجيّة الإجماع.

{ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً } .[116]

استئناف ابتدائي، جُعل تمهيدا لما بعده من وصف أحوال شركهم. وتعقيب الآية السابقة بهذه مشير إلى أنّ المراد باتباع غير سبيل المؤمنين اتباع سبيل الكفر من شرك وغيره، فعقّبه بالتحذير من الشرك، وأكّده بـ (إنّ) للدلالة على رفع احتمال المبالغة أو المجاز.

وتقدّم القول في مثل هذه الآية قريبا، غير أنّ الآية السابقة قال فيها { فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً } لأنّ المخاطب فيها أهل الكتاب، فنبّهوا على أنّ الشرك من قبيل الافتراء تحذيرا لهم من الافتراء وتفظيعا لجنسه. وأمّا في هذه الآية فالكلام موجّه إلى المسلمين فنبّهوا على أنّ الشرك من الضلال، تحذيرا لهم من مشاقة الرّسول وأحوال المنافقين، فإنّها من جنس الضلال. وأكّد الخبر هنا بحرف (قد) اهتماما به لأنّ المواجه بالكلام هنا المؤمنون، وهم لا يشكّون في تحقق ذلك.

{ **بَعِيداً** } أريد به القوي في نوعه الذي لا يُرجى لصاحبه اهتداء، لأنّ البعيد يُقصي الكائن فيه عن الرجوع إلى حيث صدر.

{ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثاً وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَاناً مَرِيداً [117] لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً [118] وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً [119] يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً [120] أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصاً [121] }.

{ **إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثاً** } بيان لقوله { فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً }، وأي ضلال أشدّ من أن يشرك أحد بالله غيره ثم يدّعي أن شركاءه إناث. والحصر قصر ادّعائي لأنّه أعجب أحوال إشراكهم، ولأنّ أكبر آلهتهم يعتقدونها أنثى، وهي: اللات والعزى ومناة. وكانت العزى لقريش، وكانت مناة للأوس والخزرج.

{ **وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَاناً مَرِيداً** } لأنّه الذي سوّل لهم عبادة الأصنام.

المَريد: العاصي والخارج عن الملك، فالمَريد صفة مشبّهة مشتقّة من مَرُد (بضم الراء) إذا عتا في العصيان.

{ **لَعَنَهُ اللَّهُ** } صفة لشيطان، أي: أبعده، وتحتمل الدعاء عليه، لكن المقام ينبو عن الاعتراض بالدعاء في مثل هذا السياق.

{ **وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً** } يزيد احتمال الدعاء بعدا. فالمعنى أنّ الله خلق في الشيطان علما ضروريا أيقن بمقتضاه أنّ فيه المقدرة على فتنة البشر وتسخيرهم، وكانت في نظام البشر فرص تدخل في خلالها آثار فتنة الشيطان، فذلك هو النصيب المفروض.

{ **مِنْ عِبَادِكَ** } ليس إنكارا من الشيطان لعبوديته لله، ولكنّها جلافة الخطاب النّاشئة عن خباثة التفكير المتأصّلة في جبلته.

{ **وَلَأُضِلَّنَّهُمْ** } إضلالهم عن الحق.

{ **وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ** } لأعدنّهم مواعيد كاذبة، ألقيها في نفوسهم، تجعلهم يتمنّون، إغراقا في الخيال، ليستعين بذلك على تهوين انتشار الضلالات بينهم. يقال: منّاه، إذا وعده المواعيد الباطلة، وأطمعه في وقوع ما يحبّه ممّا لا يقع.

{ **وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ** } التبتيك: القطع. وقد ذكر هنا شيئا ممّا يأمر به الشيطان ممّا يخصّ أحوال العرب، إذ كانوا يقطعون آذان الأنعام التي يجعلونها لطواغيتهم، علامة على أنّها محرّرة للأصنام، فكانوا يشقّون آذان البحيرة والسائبة والوصيلة، فكان هذا الشق من عمل الشيطان، إذ كان الباعث عليه غرضا شيطانيا.

{ **وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ** } تعريض بما كانت يفعله أهل الجاهليّة من تغيير خلق الله لدواع سخيفة، فمن ذلك ما يرجع إلى شرائع الأصنام مثل فقء عين الحامي، وهو البعير الذي حُمي ظهره من الركوب لكثرة ما أنسل، ويسيّب للطواغيت. ومنه ما يرجع إلى أغراض ذميمة كالوشم إذ أرادوا به التزيّن، وهو تشويه، وكذلك وسم الوجوه بالنار.

ويدخل في معنى تغيير خلق الله وضع المخلوقات في غير ما خلقها الله له، وذلك من الضلالات الخرافية. كجعل الكواكب آلهة، وجعل الكسوفات والخسوفات دلائل على أحوال النّاس.

وليس من تغيير خلق الله التصرّف في المخلوقات بما أذن الله فيه ولا ما يدخل في معنى الحسن، فإنّ الختان من تغيير خلق الله ولكنّه لفوائد صحيّة، وكذلك حلق الشعر لفائدة دفع بعض الأضرار، وتقليم الأظفار لفائدة تيسير العمل بالأيدي، وكذلك ثقب الآذان للنساء لوضع الأقراط والتزين. وأمّا ما ورد في السنّة من لعن الواصلات والمتنمّصات والمتفلّجات للحسن فممّا أشكل تأويله. وأحسب تأويله أنّ الغرض منه النهي عن سمات كانت تعدّ من سمات العواهر في ذلك العهد، أو من سمات المشركات، وإلاّ فلو فرضنا هذه منهيّا عنها لما بلغ النهي إلى حد لعن فاعلات ذلك.

وملاك الأمر أنّ تغيير خلق الله إنّما يكون إثما إذا كان فيه حظ من طاعة الشيطان، بأن يجعل علامة لنحلة شيطانية، كما هو سياق الآية واتصال الحديث بها. وقد أوضحناه ذلك في كتابي المسمّى: النظر

الفسيح على مشكل الجامع الصحيح.

{ **وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً** } تذييل دال على أنّ ما دعاهم إليه الشيطان، من تبتيك آذان الأنعام، وتغيير خلق الله، إنّما دعاهم إليه لما يقتضيه من الدلالة على استشعارهم بشعاره، والتديّن بدعوته، وإلّا فإنّ الشيطان لا ينفعه أن يبتك أحد أذن ناقته، أو أن يغيّر شيئا من خلقته، إلّا إذا كان ذلك للتأثر بدعوته.

{ **يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ** } استئناف لبيان أنّه أنجز عزمه فوعد ومنّى وهو لا يزال يعد ويمنّي، فلذلك جيء بالمضارع.

{ **أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصاً** } اسم الإشارة لتنبيه السامعين إلى أنّ المشار إليهم أحرياء به عقب ما تقدّم من ذكر صفاتهم.

المحيص: المراغ والملجأ، من حاص إذا نفر وراغ.

{ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً } [122].

جريا على عادة القرآن في تعقيب الإنذار بالبشارة، والوعيد بالوعد.

{ **وَعَدَ اللَّهُ** } مصدر مؤكّد لمضمون جملة { سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي }، وهي بمعناه.

{ **حقّا** } مصدر مؤكّد، أي: هذا الوعد لا يتخلّف. ولمّا كان مضمون الجملة التي قبله خاليا عن معنى الإحقاق كان هذا المصدر ممّا يسميه النحاة مصدرا مؤكدا لغيره.

{ **وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً** } تذييل للوعد وتحقيق له، أي: هذا من وعد الله، ووعود الله وعود صدق، إذ لا أصدق من الله قيلا. والاستفهام إنكاري. والقيل: القول.

{ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً [123] وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً [124] }.

روى الواحدي في أسباب النزول بسنده إلى أبي صالح، وبعض الروايات يزيد على بعض، أنّ سبب نزولها: أنّه وقع تحاجّ بين المسلمين وأهل الكتاب (اليهود والنصارى) كلّ فريق يقول للآخرين: نحن خير منكم، ويحتجّ لذلك ويقول: لن يدخل الجنة إلا من كان على ديننا. فأنزل الله { لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ }. فبيّن أنّ كلّ من اتبع هدى الله فهو من أهل الجنّة وكلّ من ضلّ وخالف أمر الله فهو مجازى بسوء عمله، فكانت هذه الآية حكما فصلا بين الفرق، وتعليما لهم أن ينظروا في توفّر حقيقة

الإيمان الصحيح، وتوفّر العمل الصالح معه، ولذلك جمع الله أماني الفرق الثلاث. ثم إن الله لوحّ إلى فلج حجّة المسلمين بإشارة قوله { وَهُوَ مُؤْمِنٌ } فإنّ كلّ إيمان اختل منه بعض ما جاء به الدين الحق، فهو كالعدم. والمعنى أنّ الفوز في جانب المسلمين، لا لأنّ أمانيّهم كذلك، بل لأنّ أسباب الفوز والنجاة متوفّرة في دينهم.

{ **لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ** } استئناف ابتدائي للتنويه بفضائل الأعمال، والتشويه بمساويها، أي ليس الجزاء تابعا لأمانيّ النّاس ومشتهاهم، بل هو أمر مقدّر من الله تعالى تقديرا بحسب الأعمال.

الأماني: جمع أمنية، وهي اسم للتمنّي، أي: تقدير غير الواقع واقعا. وتقدّم ذلك في قوله تعالى { لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ } [البقرة:78].

وكأنّ ذكر المسلمين في الأماني لقصد التعميم في تفويض الأمور إلى ما حكم الله ووعد،

وقيل: الخطاب لكفّار العرب، أي ليس بأمانيّ المشركين، إذ جعلوا الأصنام شفعاءهم عند الله، ولا أمانيّ أهل الكتاب الذين زعموا أنّ أنبياءهم وأسلافهم يغنون عنهم من عذاب الله، وهو محمل وارد للآية.

{ **مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ** } استئنافا بياني ناشيء عن جملة { لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ } لأنّ السامع يتساءل عن بيان هذا النفي المجمل.

{ **وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً** } زيادة تأكيد لردّ عقيدة من يتوهّم أنّ أحدا يغني عن عذاب الله.

الوليّ: هو المولى، أي: المشارك في نسب القبيلة، والمراد به المدافع عن قريبه.

النصير: الذي إذا استنجدته نصرك، أو الحليف، وكان النصر في الجاهلية بأحد هذين النوعين.

{ **مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى** } قصد التعميم والردّ على من يحرم المرأة حظوظا كثيرة من الخير من أهل الجاهلية أو من أهل الكتاب.

{ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً [125] وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً [126] }.

لمّا ذكر ثواب المؤمنين أعقبه بتفضيل دينهم. والاستفهام إنكاري. وإسلام الوجه كناية عن تمام الطاعة والاعتراف بالعبودية، وهو أحسن الكنايات، لأنّ الوجه أشرف الأعضاء، وفيه ما كان به الإنسان إنسانا.

{ **وَهُوَ مُحْسِنٌ** } حال قصد منها اتصافه بالإحسان حين إسلامه وجهه لله، أي: خلع الشرك راغبا في الإسلام لما رأى فيه من الدعوة إلى الإحسان.

{ **وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً** } أنّه اتبع شريعة الإسلام التي هي على أسس ملّة إبراهيم. فهذه ثلاثة أوصاف بها يكمل معنى الدخول في الإسلام، ولعلّها هي: الإيمان، والإحسان، والإسلام.

ولك أن تجعل معنى { أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ } أنّه دخل في الإسلام، وأنّ قوله { وهو محسن } مخلص راغب في الخير، وأنّ اتباع ملّة إبراهيم عنى به التوحيد. وتقدم أنّ { **حَنِيفاً** } معناه مائلا عن الشرك، أو متعبّدا.
{ **وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً** } زيادة تنويه بدين إبراهيم، فأخبر أنّ الله اتخذ إبراهيم خليلا.
الخليل: في كلام العرب الصاحب الملازم الذي لا يخفى عنه شيء من أمور صاحبه، مشتقّ من الخلال، وهو النواحي المتخلّلة للمكان { فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ } [النور:43]، وقوله تعالى { وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً } [الكهف:33]. وهذا أظهر الوجوه في اشتقاق الخليل.
{ **وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً** } تذييل كالاحتراس، على أنّ المراد بالخليل لازم معنى الخلّة، وليست هي كخلّة النّاس مقتضية المساواة أو التفضيل. فالمراد منها الكناية عن عبودية إبراهيم. و**المحيط**: العليم.

{ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً } [127].

عطف تشريع على إيمان وحكمة وعظة. ولعلّ هذا الاستفتاء حدث حين نزول الآيات السابقة، فذكر حكمه عقبها معطوفا، وهذا الاستفتاء حصل من المسلمين بعد أن نزل قوله تعالى { وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ } [3]. وأحسن ما ورد في تفسير هذه الآية ما رواه البخاري عن عروة بن الزبير أنّه سأل عائشة عن قول الله تعالى { وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى } قالت: يابن أختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليّها تشركه في ماله ويُعجبه مالها وجمالها فيريد أن يتزوّجها بغير أن يقسط في صداقها، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا أن ينكحوهنّ إلاّ أن يقسطوا لهن ويبلغوا بهنّ أعلى سنتهنّ في الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن. وأن النّاس استفتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية فأنزل الله تعالى { وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ }. قالت عائشة: وقول الله تعالى { وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ } رغبة أحدكم عن يتيمته حين تكون قليلة المال والجمال، قالت: فنهوا عن أن ينكحوا من رغبوا في مالها وجمالها من يتامى النساء إلّا بالقسط من أجل رغبتهن عنهنّ إذا كنّ قليلات المال والجمال، وكان الوليّ يرغب عن أن ينكحها ويكره أن يزوّجها رجلا فيشركه في ماله بما شركته فيعضلها. فنزلت هذه الآية.
{ **وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ** } يستفتونك في أحكام النساء، إذ قد علم أنّ الاستفتاء لا يتعلّق بالذوات. وأخصّ الأحكام بالنساء: أحكام ولايتهنّ، وأحكام معاشرتهنّ. وليس المقصود هنا ميراث النساء إذ لا خطور له بالبال هنا.

{ **قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ** } وعد باستيفاء الإجابة عن الاستفتاء، وهو ضرب من تبشير المتحيّر أنّه قد وجد طلبه.

{ **وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ** } أي: ويفتيكم فيهنّ ما يتلى عليكم في القرآن من أوّل هذه السورة.

{ **فِي يَتَامَى النِّسَاءِ** } ظرفيّة مجازيّة، أي: في شأنهنّ، أو للتعليل، لأجلهنّ.

{ **مَا كُتِبَ لَهُنَّ** } فرض لهنّ من أموال يرثنها أو ما تدفعونها لهنّ، فلا توفوهنّ مهور أمثالهنّ، والكلّ يعدّ مكتوبا لهنّ، كما دلّ عليه حديث عائشة رضي الله عنها.

{ **والمستضعفين** } عطف على { يتامى النساء } والمراد المستضعفون والمستضعفات، ولكن صيغة التذكير تغليب، وكذلك الولدان. وهو تكميل وإدماج، لأنّ الاستفتاء كان في شأن النساء خاصّة. وقد كانوا في الجاهليّة يأكلون أموال من في حجرهم من الصغار.

{ **وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ** } أي وما يتلى عليكم في القيام لليتامى بالعدل. ومعنى القيام لهم، التدبير لشؤونهم، وذلك يشمل يتامى النساء.

{ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلا جُنَاحَ عَلَيهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً [128] وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً [129] وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلّاً مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً [130] }.

هذا حكم اختلال المعاشرة بين الزوجين، وقد تقدّم بعضه في قوله { وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ } [34]. فذلك حكم فصل القضاء بينهما، وما هنا حكم الانفصال بالصلح بينهما، وذلك ذكر فيه نشوز المرأة، وهنا ذكر نشوز البعل.

البعل: زوج المرأة. وقد تقدّم في قوله { وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ } [البقرة:228].

{ **فلا جناح** } من صيغ الإباحة ظاهرا، فدلّ ذلك على الإذن للزوجين في صلح يقع بينهما. وقد علم أنّ الإباحة لا تذكر إلّا حيث يُظنّ المنع.

فالمقصود الإذن في صلح يكون بخلع، أي: عوض مالي تعطيه المرأة، أو تنازل عن بعض حقوقها، فيكون مفاد هذه الآية أعمّ من مفاد قوله تعالى { وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ } [البقرة:229]، فسمّاه هناك افتداء، وسماه هنا صلحا. وقد شاع في الاستعمال إطلاق الصلح على التراضي بين الخصمين على إسقاط بعض الحق، وهو الأظهر هنا.

واصطلح الفقهاء من المالكية، على إطلاق **الافتداء** على اختلاع المرأة من زوجها بمال تعطيه، وإطلاق **الخلع** على الاختلاع بإسقاطها عنه بقية الصداق، أو النفقة لها، أو لأولادها.

ويحتمل أن تكون صيغة { **لا جناح** } مستعملة في التحريض على الصلح. أي: إصلاح أمرهما بالصلح وحسن المعاشرة. فالمراد الصلح، بمعنى إصلاح ذات البين، والأشهر فيه أن يقال: الإصلاح.

{ **نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً** } للنشوز والإعراض أحوال كثيرة، تقوى وتضعف، وتختلف عواقبها، باختلاف أحوال الأنفس.

وللصلح أحوال كثيرة؛ منها المخالعة، فيدخل في ذلك ما ورد من الآثار الدالة على حوادث من هذا القبيل. ففي صحيح البخاري، عن عائشة، قالت في قوله تعالى { وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً }: الرجل يكون عنده المرأة ليس بمستكثر منها يريد أن يفارقها، فتقول له أجعلك من شأني في حل. فنزلت هذه الآية.

وفي أسباب النزول للواحدي: أنّ ابنة محمد بن مسلمة كانت عند رافع بن خديج فكره منها أمرا، أي كبرا فأراد طلاقها، فقالت له: أمسكني واقسم لي ما بدا لك. فنزلت الآية في ذلك.

{ **وَالصُّلْحُ خَيْرٌ** } تذييل للأمر بالصلح والترغيب فيه، وليس المقصود أنّ الصلح، الذي هو بمعنى الخلع، خير من النزاع بين الزوجين، وإنّما المراد أنّ الصلح في ذاته خير عظيم. والحمل على كونه تفضيلا يستدعي أن يكون المفضل عليه هو النشوز والإعراض.

{ **وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ** } ملازمة الشحّ للنفوس البشريّة حتّى كأنّه حاضر لديها. ولكونه من أفعال الجبلّة. وأصل الشحّ في كلام العرب البخل بالمال، وفي الحديث " **أن تصدّق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى** ". وقال تعالى { وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [الحشر:9].

ويطلق على حرص النفس على الحقوق وقلّة التسامح فيها. ومنه المُشاحّة، وعكسه السماحة.

{ **وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً** } اشتهر عند العرب ذمّ الشح بالمال، وذمّ من لا سماحة فيه، فكان هذا التعقيب تنفيرا من العوارض المانعة من السماحة والصلح، لما فيه من الترغيب في الإحسان والتقوى.

{ **وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ** } أي: تمام العدل، عذر النّاس في شأن النساء. وجاء بـ (لن) للمبالغة في النفي، لأنّ الله جعل حسن المرأة وخلقها مؤثرا أشد التأثير، فرب امرأة لبيبة خفيفة الروح، وأخرى ثقيلة، فتفاوتهنّ في ذلك وخلو بعضهن منه يؤثّر لا محالة تفاوتا في محبة الزوج بعض أزواجه، ولو كان حريصا على إظهار العدل بينهنّ، فلذلك قال { **وَلَوْ حَرَصْتُمْ** } .

{ **فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ** }، أي: لا يفرط أحدكم بإظهار الميل إلى إحداهنّ أشدّ الميل حتّى يسوء الأخرى بحيث تصير الأخرى كـ { **المعلّقة** }، وهي المرأة التي يهجرها زوجها هجرا طويلا، فلا هي مطلقة ولا هي زوجة.

وقد دلت الآية على أنّ المحبّة أمر قهري، وأن للتعلّق بالمرأة أسبابا توجبه قد لا تتوفر في بعض النساء، فلا يكلّف الزوج بما ليس في وسعه من الحب والاستحسان. ولكن من الحبّ حظّا هو اختياري، وهو أن يروّض الزوج نفسه على الإحسان لامرأته، ما يقوم مقام الميل الطبيعي.

{ **وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلّاً مِنْ سَعَتِهِ** } وسّع الله عليهما إن لم تنجح المصالحة بينهما فأذن لهما في الفراق. وهو إشارة إلى أنّ الفراق قد يكون خيرا لهما لأنّ الفراق خير من سوء المعاشرة. ومعنى إغناء الله كلاّ، إغناؤه عن الآخر. وفيه إشارة إلى أنّ إغناء الله كلاّ إنّما يكون عن الفراق المسبوق بالسعي في الصلح.

{ **وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً** } تذييل وتنهية للكلام في حكم النساء.

{ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيّاً حَمِيداً [131] وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً [132] إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النّاس وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيراً [133] }.

{ **وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ** } المناسبة بين هذه الجملة والتي سبقتها أنّ الذي له ما في السماوات وما في الأرض قادر على أن يغني كلّ أحد من سعته. وهذا تمجيد لله تعالى، وتذكير بأنّه ربّ العالمين، وكناية عن تعظيم سلطانه واستحقاقه للتقوى.

{ **وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ** } جعل الأمر بالتقوى وصيّة، لأنّ الوصيّة قول فيه أمر بشيء نافع جامع لخير كثير، فلذلك كان الشأن في الوصيّة إيجاز القول لأنّها يقصد منها وعي السامع، واستحضاره كلمة الوصية في سائر أحواله.

{ **أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ** } التقوى تجمع الخيرات، لأنّها امتثال الأوامر واجتناب المناهي، ولذلك قالوا: ما تكرّر لفظ في القرآن ما تكرر لفظ التقوى، يعنون غير الأعلام، كاسم الجلالة.

{ **وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ** } الإخبار بأنّ الله أوصى الذين أوتوا الكتاب من قبل بالتقوى مقصود منه إلهاب همم المسلمين للتهمّم بتقوى الله لئلّا تفضلهم الأمم الذين من قبلهم من أهل الكتاب، فإنّ للائتِساء أثرا بالغا في النفوس، كما قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ } [البقرة:183]. والمراد بالذين أوتوا الكتاب اليهود والنصارى.

{ **وَإِنْ تَكْفُرُوا** } دلّت على أنّ التقوى المأمور بها هنا منظور فيها إلى أساسها وهو الإيمان بالله ورسله.

{ **فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ** } بيّن بها عدم حاجته تعالى إلى تقوى النّاس، ولكنّها لصلاح أنفسهم، كناية عن عدم التضرّر بعصيان من يعصونه. والتقدير، فإنّه غني عنكم.

{ **وَكَانَ اللَّهُ غَنِيّاً حَمِيداً** } تأييد لذلك القصد، أي: غنيّا عن طاعتكم، محمودا لذاته، سواء حمده الحامدون وأطاعوه، أم كفروا وعصوه.

وقد ظهر بهذا أن جملة { **وإن تكفروا** } معطوفة على جملة { **أن اتقوا الله** } فهي من تمام الوصيّة، أي: من مقول القول المعبّر عنه بـ { وصينا } ، فيحسن الوقف على قوله { حميداً }.

{ **وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً** } عطف على جملة { وَلَقَدْ وَصَّيْنَا }، أتى بها تمهيدا لقوله { إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ }، فهي مراد بها معناها الكنائي الذي هو التمكّن من التصرّف بالإيجاد والإعدام، ولذلك لا يحسن الوقف على قوله { وكيلا }.

{ **إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النّاس وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيراً** } واقعة موقع التفريع عن قوله تعالى { غَنِيّاً حَمِيداً }. والخطاب للنّاس كلّهم الذين يسمعون تنبيها لهم بهذا النداء.

{ **وَيَأْتِ بِآخَرِينَ** } يوجد ناسا آخرين يكونون خيرا منكم في تلقي الدين. وقد علم من مقابلة قوله { أيها الناس } بقوله { آخرين } أنّ المعنى: بناس آخرين غير كافرين.

وفي الآية إشارة إلى أنّ الله سيخلف من المشركين قوما آخرين مؤمنين، فإن الله أهلك بعض المشركين على شركه بعد نزول هذه الآية، ولم يشأ إهلاك جميعهم. وفي الحديث: **" لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده "**.

{ **مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً** } [134].

لمّا كان شأن التقوى عظيما على النفوس، نبّههم الله إلى أنّ خير الدنيا بيد الله، وخير الآخرة أيضا، فإن اتقوه نالوا الخيرين.

ويجوز أن تكون الآية تعليما للمؤمنين أن لا يصدّهم الإيمان عن طلب ثواب الدنيا، إذ الكلّ من فضل الله.

ويجوز أن تكون تذكيرا للمؤمنين بأن لا يلهيهم طلب خير الدنيا عن طلب الآخرة، إذ الجمع بينهما أفضل، وكلاهما من عند الله، على نحو قوله تعالى { فمن النّاس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسن وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار أولئك لهم نصيب بما كسبوا } [البقرة:200-202].

الثواب: في الآية معناه اللغوي دون الشرعي، وهو الخير وما يرجع به طالب النفع من وجوه النفع، مشتق من ثاب بمعنى رجع.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً } [135].

انتقال من الأمر بالعدل في أحوال معيّنة من معاملات اليتامى والنساء إلى الأمر بالعدل الذي يعمّ الأحوال كلّها، وما يقارنه من الشهادة الصادقة، فإنّ العدل في الحكم وأداء الشهادة بالحقّ هو قوام صلاح المجتمع الإسلامي، والانحراف عن ذلك ولو قيد أنملة يجرّ إلى فساد متسلسل.

{ **قوّامين** } دالة على الكثرة المراد لازمها، وهو عدم الإخلال بهذا القيام في حال من الأحوال.

القسط: العدل، تقدّم عند قوله تعالى { قَائِماً بِالْقِسْطِ } [آل عمران :18]. وعدل عن لفظ العدل إلى كلمة القسط لأنّ المراد هنا العدل في الحكم، ويدلّ لذلك تعقيبه بقوله { شُهَدَاءَ لِلَّهِ } فإن الشهادة من علائق القضاء والحكم. وهي كلمة معرّبة أدخلت في كلام العرب لدلالتها في اللغة المنقولة منها على ذلك، وأمّا لفظ العدل فأعمّ.

{ **شُهَدَاءَ لِلَّهِ** } أي: لأجل الله. وقد جمعت الآية أصلي التحاكم؛ وهما القضاء والشهادة.

{ **وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ** } جملة حالية.

الأنفس: جمع نفس، وأصلها أن تطلق على الذات، ويطلقها العرب أيضا على صميم القبيلة، فيقولون: هو من بني فلان من أنفسهم.

فيجوز أن يكون { أنفسكم } هنا بالمعنى المستعمل به غالبا، أي: قوموا بالعدل على أنفسكم، واشهدوا لله على أنفسكم، لأنّ أشق شيء على المرء ما يناله من أذى وضرّ في ذاته.

{ **أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ** } ثم ذكر بعد ذلك الوالدان والأقربون لأنّ أقضية القاضي وشهادة الشاهد فيما يلحق ضرّا ومشقة بوالديه وقرابته أكثر من قضائه وشهادته فيما يؤول بذلك على نفسه.

فقد كان من عادة العرب أن ينتصروا بمواليهم من القبائل ويدفعوا عنهم ما يكرهونه، ويرون ذلك من إباء الضيم، ويرون ذلك حقّا عليهم، ويعدّون التقصير في ذلك مسبّة وعارا. فكانت الآية تبطل هذه الحمية وتبعث المسلمين على الانتصار للحق والدفاع عن المظلوم.

{ **إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً** } أي: إن يكن المُقْسَط في حقه، أو المشهود له، غنيّا أو فقيرا، فلا يكن غناه ولا فقره سببا للقضاء له أو عليه والشهادة له أو عليه. فلمّا أبطلت الآية التي قبلها التأثر للحميّة أعقبت بهذه الآية لإبطال التأثّر بالمظاهر التي تستجلب النفوس إلى مراعاتها.

فمن النفوس من يتوهّم أنّ الغنى يربأ بصاحبه عن أخذ حقّ غيره. ومن النّاس من يميل إلى الفقير رقّة له، فيحسبه مظلوما، أو يحسب أن القضاء له بمال الغني لا يضرّ الغني شيئا، فنهاهم الله عن هذه التأثيرات. والتقدير، فلا يهمّكم أمرهما عند التقاضي، فالله أولى بالنظر في شأنهما.

الغني: ضد الفقير، فالغنى هو عدم الاحتياج إلى شيء. يقال: فلان غنيّ، بمعنى له ثروة يستطيع بها تحصيل حاجاته من غير فضل لأحد عليه، والغنى المطلق لا يكون إلّا لله تعالى.

الفقير، هو المحتاج، إلّا أنّه يقال: افتقر إلى كذا، بالتخصيص، فإذا قيل: هو فقير، فمعناه في العرف أنّه كثير الاحتياج إلى فضل النّاس، أو إلى الصبر على الحاجة لقلة ثروته، وكل مخلوق فقير فقرا نسبيا، قال تعالى { وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ } [محمد:38]

{ **فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا** } فجعل الميل نحو الموالي والأقارب من الهوى، والنظر إلى الفقر والغنى من الهوى كذلك. وفي قوله { أن تعدلوا } احتمل أن يكون المحذوف (لام) التعليل فيكون تعليلا للنهي، أي: لا تتبعوا الهوى لتعدلوا. واحتمل أن يكون المحذوف (عن)، أي: معرضين عن العدل.

وقد عرفت قاضيا لا مطعن في ثقته وتنزّهه، ولكنّه كان مبتلى باعتقاد أنّ مظنة القدرة والسلطان ليسوا إلّا ظلمة، من أغنياء أو رجال. فكان يعتبر هذين الصنفين محقوقين فلا يستوفي التأمّل من حججهما.

{ **وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً** } بعد أن أمر الله تعالى ونهى وحذّر عقّب ذلك كلّه بالتهديد.

وقرأ الجمهور{ **تلْوُوا** } بلام ساكنة وواوين بعدها، أوّلاهما مضمومة، فهو مضارع لوى. واللّيّ: الفتل والثني. وتفرّعت من هذا المعنى الحقيقي معان شاعت فساوت الحقيقة، منها: عدول عن جانب وإقبال على جانب آخر. فموقع فعل { تَلْوُوا } هنا موقع بليغ لأنّه صالح لتقدير متعلّقه المحذوف مجرورا بحرف (عن) أو مجرورا بحرف (على) فيشمل معاني العدول عن الحق في الحكم، والعدول عن الصدق في الشهادة، أو التثاقل في تمكين المحقّ من حقّه وأداء الشهادة لطالبها، أو الميل في أحد الخصمين في القضاء والشهادة.

وقرأه ابن عامر، وحمزة، وخلف { وإن تلوا } بلام مضمومة بعدها واو ساكنة ، تخفيف {تلووا}.

الإعراض: هو الامتناع من القضاء ومن أداء الشهادة والمماطلة في الحكم مع ظهور الحق، وهو غير اللّيّ كما رأيت.

{ **فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً** } كناية عن وعيد، لأنّ الخبير بفاعل السوء، وهو قدير، لا يعوزه أن يعذّبه على ذلك، وأكدت الجملة بـ (إنّ) و بـ (كان).

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا بَعِيداً } [136].

تذييل عقّب به أمر المؤمنين بأن يكونوا قوّامين بالقسط شهداء لله، فأمرهم الله عقب ذلك بما هو جامع لمعاني القيام بالقسط والشهادة لله: بأن يؤمنوا بالله ورسله وكتبه، ويداوموا على إيمانهم، ويحذروا

مسارب ما يخل بذلك.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا } ووصف المخاطبين بأنهم آمنوا، وإردافه بأمرهم بأن يؤمنوا بالله ورسله إلى آخره يرشد السامع إلى تأويل الكلام تأويلا يستقيم به الجمع بين كونهم آمنوا وكونهم مأمورين بإيمان، ويجوز في هذا التأويل أربعة مسالك:

المسلك الأول: تأويل الإيمان في قوله { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } بأنّه إيمان مختلّ منه بعض ما يحقّ الإيمان به، فيكون فيها خطاب لنفر من اليهود آمنوا، وهم عبد الله ابن سلام، وأسد وأسيْد ابنا كعب، وثعلبة بن قيس، وسلام ابن أخت عبد الله ابن سلام، وسلمة ابن اخيه، ويامين بن يامين، سألوا النبيّ صلى اله عليه وسلم أن يؤمنوا به وبكتابه، كما آمنوا بموسى وبالتوراة، وأن لا يؤمنوا بالإنجيل، كما جاء في رواية الواحدي عن الكلبي، ورواه غيره عن ابن عباس.

المسلك الثاني: أن يكون التأويل في الإيمان المأمور به أنّه إيمان كامل لا تشوبه كراهية بعض كتب الله، تحذيرا من ذلك. فالخطاب للمسلمين لأن وصف الذين آمنوا صار كاللقب للمسلمين، إمّا زيادة تقرير ما يجب الإيمان به، وإمّا النهي عن إنكار الكتاب المنزّل على موسى وإنكار نبوءته، لئلّا يدفعهم بغض اليهود وما بينهم وبينهم من الشنآن إلى مقابلتهم بمثل ما يصرّح به اليهود من تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وإنكار نزول القرآن. وإمّا أريد به التعريض بالذين يزعمون أنّهم يؤمنون بالله ورسله ثم ينكرون نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم وينكرون القرآن، حسدا من عند أنفسهم، ويكرهون بعض الملائكة لذلك، وهم اليهود.

المسلك الثالث: أن يراد بالأمر بالإيمان الدوام عليه تثبيتا لهم على ذلك، وتحذيرا لهم من الارتداد. روي ذلك عن الحسن واختاره الجبّائي. وهو الجاري على ألسنة أهل العلم، وبناء عليه جعلوا الآية شاهدا لاستعمال صيغة الأمر في طلب الدوام.

المسلك الرابع: أنّ الخطاب للمنافقين، يعني: يا أيها الذين أظهروا الإيمان أخلصوا إيمانكم حقا.

{ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ } الكتب التي أنزل الله من قبل القرآن، ويؤيده قوله بعده { وكتبه ورسله }.

{الَّذِي **نَزَّلَ** عَلَى رَسُولِهِ} جيء هنا بصيغة التفعيل، وفي قوله {الَّذِي **أَنْزَلَ** مِنْ قَبْلُ} بصيغة الإفعال تفننا، أو لأنّ القرآن حينئذ بصدد النزول نجوما، والتوراة يومئذ قد انقضى نزولهما.

ومن قال: لأن القرآن أنزل منجما بخلاف غيره من الكتب فقد أخطأ إذ لا يعرف كتاب نزل دفعة واحدة.

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً } [137].

<u>قيل</u>: إن الآية أشارت إلى اليهود، ويكون المراد من الآية أنّ الذين عرف من دأبهم الخفّة إلى تكذيب

الرسل، وإلى خلع ربقة الديانة، هم قوم لا يغفر لهم صنعهم، إذ كان ذلك عن استخفاف بالله ورسله.
وقيل: نزلت في المنافقين إذ كانوا يؤمنون إذا لقوا المؤمنين، فإذا رجعوا إلى قومهم كفروا.
وعندي: أنّه يعني أقواما من العرب من أهل مكّة كانوا يتّجرون إلى المدينة فيؤمنون، فإذا رجعوا إلى مكّة كفروا وتكرّر منهم ذلك، وهم الذين ذكروا عند تفسير قوله { فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ } [88].
وعلى الوجوه كلّها فالمراد فريق معهود، والآية وعيد لهم ونذارة بأنّ الله حرمهم الهدى فلم يكن ليغفر لهم، لأنّه حرمهم سبب المغفرة، ولذلك لم تكن الآية دالة على أن من أحوال الكفر ما لا ينفع الإيمان بعده. فقد أجمع المسلمون على أنّ الإيمان يجبّ ما قبله، ولو كفر المرء مائة مرة، وأن التوبة من الذنوب كذلك. وقد تقدّم مثيلها { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ } [آل عمران:190].

{ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً [138] الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً [139] وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حتّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً [140] الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً [141] }.

استئناف ابتدائي ناشيء عن وصف الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا، فإنّ أولئك كانوا مظهرين الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم، وكان ثمّة طائفة تبطن الكفر وهم أهل النفاق، ولمّا كان التظاهر بالإيمان ثم تعقيبه بالكفر ضربا من التهكّم بالإسلام وأهله، جيء في جزاء عملهم بوعيد مناسب لتهكّمهم بالمسلمين، فجاء به على طريقة التهكم إذ قال { بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ }، فإنّ البشارة هي الخبر بما يفرح المخبر به، وليس العذاب كذلك.
{ **الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ** } المراد بالكافرين مشركو مكة، أو أحبار اليهود، لأنّه لم يبق بالمدينة مشركون صرحاء في وقت نزول هذه السورة، فليس إلّا منافقون ويهود.
{ **أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً** } استئناف بياني، وفي ذلك إيماء إلى أنّ المنافقين لم تكن موالاتهم للمشركين لأجل المماثلة في الدين والعقيدة، لأنّ معظم المنافقين من اليهود، بل اتخذوهم ليعتزوا بهم على المؤمنين، وإيماء إلى أنّ المنافقين شعروا بالضعف فطلبوا الاعتزاز، وفي ذلك نهاية التجهيل والذم. والاستفهام إنكار وتوبيخ. وإن كان المراد بالكافرين اليهود فالاستفهام تهكّم بالفريقين. وهذا الكلام يفيد التحذير من مخالطتهم بطريق الكناية.

{ **وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ** } يجوز أن تكون معطوفة على جملة { بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ } تذكيرا للمسلمين بما كانوا أُعلِموا به ممّا يؤكد التحذير من مخالطتهم، فضمير الخطاب موجّه إلى المؤمنين، وضمائر الغيبة إلى المنافقين. ويجوز أن تكون في موضع الحال من ضمير يتخذون، فيكون ضمير الخطاب للمنافقين، وضمائر الغيبة للكافرين.

{ **أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حتّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ** } نهي عن مجالستهم في تلك الحالة حتّى ينتقلوا إلى غيرها، لئلاّ يتوسل الشيطان بذلك إلى استضعاف حرص المؤمنين على سماع القرآن، لأنّ للأخلاق عدوى. وهذا النهي يقتضي الأمر بمغادرة مجالسهم إذا خاضوا في الكفر بالآيات والاستهزاء بها. وفي النهي عن القعود إليهم حكمة أخرى: وهي وجوب إظهار الغضب لله.

وهذا الحكم تدريج في تحريم موالاة المسلمين للكافرين، جعل مبدأ ذلك أن لا يحضروا مجالس كفرهم ليظهر التمايز بين المسلمين الخلص وبين المنافقين، ورخّص لهم القعود معهم إذ خاضوا في حديث غير حديث الكفر، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ [23] قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حتّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ } [التوبة:24/23]

{ **إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ** } جعل جواب القعود معهم المنهي عنه أنّهم إذا لم ينتهوا عن القعود معهم يكونون مثلهم في الاستخفاف بآيات الله.

والظاهر أنّ فريقا من المؤمنين كانوا يجلسون هذه المجالس فلا يقدمون على تغيير هذا ولا يقومون عنهم تقيّة لهم فنهوا عن ذلك. وهذه المماثلة لهم خارجة مخرج التغليظ والتهديد والتخويف، ولا يصير المؤمن منافقا بجلوسه إلى المنافقين. وأريد المماثلة في المعصية لا في مقدارها، أي: أنّكم تصيرون مثلهم في التلبس بالمعاصي.

{ **إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً** } تحذير من أن يكونوا مثلهم، وإعلام بأنّ الفريقين سواء في عداوة المؤمنين، ووعيد للمنافقين بعدم جدوى إظهارهم الإسلام لهم.

{ **الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ** } صفة للمنافقين وحدهم بدليل قوله { وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ }.

التربّص: حقيقة في المكث بالمكان، وقد مر قوله { يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ } [البقرة:228]. وهو مجاز في الانتظار وترقّب الحوادث.

{ **فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ** } تفصيل التربّص. وجعل ما يحصل للمسلمين (فتحا) لأنّه انتصار دائم، ونسب إلى الله لأنّه مقدّره ومريده بأسباب خفيّة ومعجزات بيّنة. والمراد بـ {الْكَافِرِينَ } هم المشركون من أهل مكّة وغيرهم لا محالة، إذ لا حظ لليهود في الحرب، وجعل ما يحصل لهم من النصر{ نَصِيبٌ }

تحقيرا له.

{ **أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ** } الاستحواذ: الغلبة والإحاطة. والاستفهام تقريري، أي: ألم نتولّ شؤونكم ونحيط بكم إحاطة العناية والنصرة ونمنعكم من المؤمنين، أي: من أن ينالكم بأسهم، فالمنع هنا إمّا منع مكذوب يُخَيِّلونَه الكفار واقعا وهو الظاهر. وإمّا منع تقديري وهو كف النصرة عن المؤمنين، والتجسّس عليهم بإبلاغ أخبارهم للكافرين، وإلقاء الأراجيف والفتن بين جيوش المؤمنين، وكلّ ذلك ممّا يضعف بأس المؤمنين إن وقع، وهذا القول كان يقوله من يندسّ من المنافقين في جيش المسلمين في الغزوات، وخاصة إذا كانت جيوش المشركين قرب المدينة مثل غزوة الأحزاب.

{ **فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** } الفاء للفصيحة، والكلام إنذار للمنافقين وكفاية مكرهم بالمؤمنين، بأن فوّض أمر جزاء المنافقين على مكائدهم وخزعبلاتهم إليه تعالى.

{ **وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً** } تثبيت للمؤمنين، لأنّ مثل هذه الأخبار عن دخائل الأعداء وتألّبهم: من عدو مجاهر بكفره، وعدو مصانع مظهر للأخوّة، وبيان هذه الأفعال الشيطانية البالغة أقصى المكر والحيلة، يثير مخاوف في نفوس المسلمين وقد يخيّل لهم مهاوي الخيبة في مستقبلهم، فكان من شأن التلطّف بهم أن يعقّب ذلك التحذير بالشدّ على العضد، والوعد بحسن العاقبة، فوعدهم الله بأن لا يجعل للكافرين، وإن تألبت عصاباتهم، واختلفت مناحي كفرهم، سبيلا على المؤمنين.

{ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤُونَ النّاس وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً [142] مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَى هَؤُلاءِ وَلا إِلَى هَؤُلاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً [143] }.

استئناف ابتدائي، فيه زيادة بيان لمساويهم. والمناسبة ظاهرة. وتأكيد الجملة بحرف (إنّ) لتحقيق حالتهم العجيبة، وتحقيق ما عقبها من قوله { وَهُوَ خَادِعُهُمْ }، وتقدّم الكلام على معنى مخادعة المنافقين اللهَ تعالى عند قوله { يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا } [البقرة:9]

{ **وَهُوَ خَادِعُهُمْ** } أي: فقابلهم بمثل صنيعهم. فإطلاق الخداع على استدراج الله إيّاهم استعارة تمثيلية، وحسَّنتها المشاكلة. لأنّ المشاكلة لا تعدو أن تكون استعارة لفظ لغير معناه مع مزيد مناسبة مع لفظ آخر مثل اللفظ المستعار. فالمشاكلة ترجع إلى التلميح، أي: إذا لم تكن لإطلاق اللفظ على المعنى المراد علاقة بين معنى اللفظ والمعنى المراد إلّا محاكاة اللفظ، سمّيت مشاكلة.

{ **كُسَالَى** } جمع كسلان على وزن فعالى، وهو المتصف بالكسل، وهو الفتور في الأفعال لسآمة أو كراهية. والكسل في الصلاة مؤذن بقلّة اكتراث المصلي بها وزهده في فعلها، فلذلك كان من شيم المنافقين. ومن أجل ذلك حذّرت الشريعة من تجاوز حدّ النشاط في العبادة خشية السآمة، ففي الحديث :

" **عليكم من الأعمال بما تطيقون فإنّ الله لا يملّ حتّى تملوا** ". ونهى على الصلاة والإنسان يريد حاجته، وعن الصلاة عند حضور الطعام، كلّ ذلك ليكون إقبال المؤمن على الصلاة بشره وعزم، لأنّ النفس إذا تطرّقتها السآمة من الشيء دبت إليها كراهيته دبيبا حتّى تتمكن منها الكراهية، ولا خطر على النفس مثل أن تكره الخير.

{ **يُرَاؤُونَ النَّاس** } حال ثانية، أو صفة لكسالى، أو جملة مستأنفة، والمفاعلة هنا لمجرّد المبالغة في الإراءة، وهذا كثير في باب المفاعلة.

{ **وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً** } معطوفة على جملة { وإذا قاموا }، فهي خبر عن خصالهم، أي: هم لا يذكرون الله في سائر أحوالهم إلاّ حالا قليلا أو زمنا قليلا وهو الذكر الذي لا يخلو عنه عبد يحتاج لربه في المنشط والمكره، أيّ أنّهم ليسوا مثل المسلمين الذين يذكرون الله على كلّ حال، ويكثرون من ذكره.

وعلى كلّ تقدير فالآية أفادت عبوديّتهم وكفرهم بنعمة ربهم، زيادة على كفرهم برسوله وقرآنه.

{ **مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ** } حال تعبّر عن جامع نفاقهم وهو حال من ضمير { يُرَاؤُونَ }.

المذبذب، اسم مفعول من الذبذبة: شدّة الاضطراب من خوف أو خجل.

{ **بَيْنَ ذَلِكَ** } لأنّ الذي يقصد من فعله إرضاء النّاس لا يلبث أن يصير مذبذبا، إذ يجد في النّاس أصنافا متباينة المقاصد والشهوات. ويجوز جعل الإشارة راجعة إلى شيء غير مذكور، ولكن إلى ما من شأنه أن يشار إليه، أي: مذبذبين بين طرفين كالإيمان والكفر.

{ **لا إِلَى هَؤُلاءِ وَلا إِلَى هَؤُلاءِ** } إشارة إلى المؤمنين، و إشارة إلى الكافرين من غير تعيين، إذ ليس في المقام إلّا فريقان فأيّها جعلته مشارا إليه بأحد اسمي الإشارة صح ذلك، ونظيره قوله تعالى { فوجد رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه }. [القصص:15].

{ **إِلَى** } الذهاب في الموضعين ذهاب مجازي وهو الانتماء والانتساب، أيّ هم أضاعوا النسبتين فلا هم مسلمون ولا هم كافرون ثابتون، والعرب تأتي بمثل هذا التركيب المشتمل على (لا) النافية مكرّرة في غرضين: تارة يقصدون به إضاعة الأمرين، وتارة يقصدون به إثبات حالة وسط بين حالين، كقوله تعالى { لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ } [النور:35]، وقوله تعالى { لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ } [المائدة:68].

ولأنّه لا تستقيم حالة بين الإيمان والكفر، تعيّن أنّ المعنى: أنّهم أضاعوا الإيمان والانتماء إلى المسلمين. وأضاعوا الكفر بمفارقة نصرة أهله، أي: كانوا بحالة اضطراب وهو معنى التذبذب. والمقصود من هذا تحقيرهم وتنفير الفريقين من صحبتهم لينبذهم الفريقان.

{ **فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً** } الخطاب لغير معيّن، والمعنى: لن تجد له سبيلا إلى الهدى بقرينة مقابلته بقوله تعالى { وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ }.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيناً } [144].

أقبل على المؤمنين بالتحذير من موالاة الكافرين بعد أن شرح دخائلهم واستصناعهم للمنافقين لقصد أذى المسلمين، فعلم السامع أنّه لولا عداوة الكافرين لهذا الدين لما كان النفاق، فهي استئناف ابتدائي، لأنّها توجيه خطاب بعد الانتهاء من الإخبار عن المنافقين بطريق الغيبة. وهذه آية جامعة للتحذير من موالاة الكافرين والمنافقين، ومن الوقوع في النفاق.

والظاهر أن المراد بالكافرين هنا مشركو مكّة وأهل الكتاب من أهل المدينة، لأنّ المنافقين كانوا في الأكثر موالين لأهل الكتاب.

{ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيناً } استئناف بياني، أي: أنّكم إن استمررتم على موالاة الكافرين جعلتم لله عليكم سلطانا مبينا، أي: حجّة واضحة على فساد إيمانكم، فهذا تعريض بالمنافقين. فالاستفهام مستعمل في معنى التحذير والإنذار، مجازا مرسلا.

السلطان: هو حجّة الرسول عليهم، كقوله { لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ } [النساء:165].

{ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرا [145] **إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً** [146] }.

عقّب التعريض بالمنافقين من قوله { لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ } كما تقدم، بالتصريح بأن المنافقين أشدّ أهل النار عذابا.

الدّرك: اسم جمع دَرَكَة، ضد الدرج اسم جمع درجة. وهي المنزلة في الهبوط. فالشيء الذي يقصد أسفله تكون منازل التدلي إليه دركات. وإنّما كان المنافقون في الدرك الأسفل، أي: في أذلّ منازل العذاب، لأنّ كفرهم أسوأ الكفر، لما حفّ به من الرذائل.

{ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرا } تأكيد للوعيد، وقطع لرجائهم، لأنّ العرب ألفوا الشفاعات والنجدات في المضائق. فلذلك كثر في القرآن تذييل الوعيد بقطع الطمع في النصير والفداء ونحوهما.

{ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ } استثنى من هذا الوعيد من آمن من المنافقين، وأصلح حاله، واعتصم بالله دون الاعتزاز بالكافرين، فأخبر أنّ من صارت حاله إلى هذا الخير فهو مع المؤمنين، وفي لفظ { **مَعَ** } إيماء إلى فضيلة من آمن من أوّل الأمر ولم يصم نفسه بالنفاق، لأنّ (مع) تدخل على المتبوع وهو الأفضل.

{ **وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً** } وقد علم النّاس ما أعد الله للمؤمنين بما تكرر في القرآن، ولكن زاده هنا تأكيدا.
{ **وَسَوْفَ** } دلّ على أنّ المراد من الأجر أجر الدنيا وهو النصر وحسن العاقبة وأجر الآخرة، إذ الكلّ مستقبل، وأن ليس المراد منه الثواب لأنّه حصل من قبل.

{ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً } [147].

تذييل لكلتا الجملتين السابقتين. والخطاب يجوز أن يراد به جميع الأمّة، ويجوز أن يوجّه إلى المنافقين على طريقة الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، ارتفاقا بهم.
{ **مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ** } استفهام أريد به الجواب بالنفي فهو إنكاري، أي: لا يفعل بعذابكم شيئا. والمعنى أنّ الوعيد الذي تُوعِّد به المنافقون إنّما هو على الكفر والنفاق، فإذا تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله غفر لهم العذاب، فلا يحسبوا أنّ الله يعذّبهم لكراهة في ذاتهم أو تشفّ منهم، فإذا أقلع المسيء عن الإساءة أبطل الله جزاءه بالسوء، إذ لا ينتفع بعذاب ولا بثواب، ولكنّها المسبّبات تجري على الأسباب.
{ **وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً** } اعتراض في آخر الكلام، وهو إعلام بأنّ الله لا يعطّل الجزاء الحسن عن الذين يؤمنون به ويشكرون نعمه الجمّة، والإيمان بالله وصفاته أوّل درجات شكر العبد ربّه.

{ لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً [148] إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً [149] }.

موقع هذه الآية عقب الآي التي قبلها، أنّ الله لمّا شوّه حال المنافقين وشهّر بفضائحهم تشهيرا طويلا، كان الكلام السابق بحيث يثير في نفوس السامعين نفورا من النفاق وأحواله، وبغضا للملموزين به، وخاصة بعد أن وصفهم باتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، وأنّهم يستهزئون بالقرآن، ونهى المسلمين عن القعود معهم، فحذّر الله المسلمين من أن يغيظهم ذلك على من يتوسّمون فيه النفاق، فيجاهروهم بقول السوء، ورخّص لمن ظلم من المسلمين أن يجهر لظالمه بالسوء، لأنّ ذلك دفاع عن نفسه.
روى البخاري: أنّ رجالا اجتمعوا في بيت عِتبان بن مالك لطعام صنعه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قائل: أين مالك بن الدّخْشُم، فقال بعضهم، ذلك منافق لا يحبّ الله ورسوله، فقال رسول الله: **" لا تقل ذلك ألا تراه قد قال: لا إله إلا الله، يريد بذلك وجه الله "**. فقال: فإنّا نرى وجهه ونصيحته إلى المنافقين. فظنّ هذا القائل بمالك أنّه منافق، لملازمته للمنافقين، فوصفه بأنّه منافق لا يحب الله ورسوله. فلعلّ هذه الآية نزلت للصدّ عن المجازفة بظن النفاق بمن ليس منافقا.

وأيضا لمّا كان من أخصّ أوصاف المنافقين إظهار خلاف ما يبطنون فقد ذكرت نجواهم وذُكر رياؤهم في هذه السورة، وذكرت أشياء كثيرة من إظهارهم خلاف ما يبطنون في سورة البقرة، كان ذلك يثير في النفوس خشية أن يكون إظهار خلاف ما في الباطن نفاقا فأراد الله تبين الفارق بين الحالين.

{ **لَا يُحِبُّ** } مفصولة لأنّها استئناف ابتدائي لهذا الغرض الذي بينّاه: الجهر بالسوء من القول.

وقد علم المسلمون أنّ المحبّة والكراهية تستحيل حقيقتهما على الله تعالى، لأنّهما انفعالان للنفس نحو استحسان الحسن، واستنكار القبيح، فالمراد لازمهما المناسب للإلهية، وهما الرضا والغضب.

وصيغة (لا يحب)، بحسب قواعد الأصول، صيغة نفي الإذن. والأصل فيه التحريم. و هنا تفيد معنى يكره، وهو يرجع إلى معنى النهي. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" إنّ الله يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا** - إلى قوله - **ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال "**. فهذه أمور ثلاثة أكثر أحوالها محرّم أو مكروه.

{ **الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ** } الجهر ما يبلغ إلى أسماع النّاس إذ ليس السرّ بالقول في نفس الناطق ممّا ينشأ عنه ضرّ. وتقييده بالقول لأنّه أضعف أنواع الأذى، فيعلم أنّ السوء من الفعل أشد تحريما.

{ **إِلَّا مَنْ ظُلِمَ** } استثناء، رخّص الله للمظلوم الجهر بالقول السيئ ليشفي غضبه، حتّى لا يثوب إلى السيف أو إلى البطش باليد، وفي هذا الإذن توسعة على من لا يمسك نفسه عند لحاق الظلم به، وهو مخصوص بما لا يتجاوز حدّ التظلّم فيما بينه وبين ظالمه، أو شكاية ظلمه: أن يقول له: ظلمتني، أو أنت ظالم، وأن يقول للنّاس: إنّه ظالم. ومن ذلك الدعاء على الظالم جهرا لأنّ الدعاء عليه إعلان بظلمه وإحالته على عدل الله تعالى، ونظير هذا المعنى كثير في القرآن. وهو أيضا مخصوص بما لا يؤدي إلى القذف، فإنّ دلائل النهي عن القذف وصيانة النفس من أن تتعرّض لحد القذف أو تعزير الغيبة، قائمة في الشريعة.

{ **وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً** } عطف على { لَا يُحِبُّ }، عليم بالمقاصد والأمور كلّها، فذكر عليما بعد سميعا لقصد التعميم في العلم، تحذيرا من أن يظنّوا أنّ الله غير عالم ببعض ما يصدر منهم.

{ **إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً** } بعد أن نهى ورخّص، ندب المرخَّص لهم إلى العفو وقول الخير، فـ { تُبْدُوا } الخير إظهاره. وعطف عليه { تُخْفُوهُ } لزيادة الترغيب أن لا يظنّوا أنّ الثواب على إبداء الخير خاصة، كقوله { إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ } [البقرة:271]

{ **فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً** } وعد بالمغفرة لهم في بعض ما يقترفونه جزاء عن فعل الخير وعن العفو عمن اقترف ذنبا، هذا ما أراه في معنى الجواب. وقال المفسّرون: جملة الجزاء تحريض على العفو ببيان أنّ فيه تخلّقا بالكمال، لأنّ صفات الله غاية الكمالات. والتقدير،{ إِنْ تُبْدُوا خَيْراً...} تكونوا متخلّقين بصفات الله، فإن الله كان عفوا قديرا.

{ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً [150] أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً [151] وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً [152] }.

{ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ** } المراد اليهود والنصارى، قاله أهل التفسير. والأظهر أنّ المراد به اليهود خاصة لأنّهم المختلطون بالمسلمين والمنافقين، وكان كثير من المنافقين يهودا، وعبّر عنهم بطريق الموصول دون الاسم لما في الصلة من الإيماء إلى وجه الخبر، ومن شناعة صنيعهم ليناسب الإخبار عنهم باسم الإشارة بعد ذلك.

{ **رُسُلِهِ** } جُمع الرسل لأنّ اليهود كفروا بعيسى ومحمد عليهما السلام، النصارى كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم، فجمع الرسل باعتبار مجموع الكفار، أو أراد بالجمع الاثنين، أو أراد بالإضافة معنى الجنس فاستوى فيه صيغة الإفراد والجمع، لأنّ المقصود ذمّ من هذه صفتهم بدون تعيين فريق، وطريقة العرب في مثل هذا أن يعبّروا بصيغ الجموع وإن كان المعرّض به واحدا.

وجيء بالمضارع هنا{ يَكْفُرُونَ } للدلالة على أنّ هذا أمر متجدّد فيهم مستمر، لأنّهم لو كفروا في الماضي ثم رجعوا لما كانوا أحرياء بالذم.

ومعنى كفرهم بالله، أنّهم لمّا آمنوا به ووصفوه بصفات غير صفاته، من التجسيم واتخاذ الصاحبة والولد والحلول ونحو ذلك، فقد آمنوا بالاسم لا بالمسمّى، وهم في الحقيقة كفروا بالمسمّى، على أنّهم لمّا كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم فقد كفروا بما جاء به من توحيد الله وتنزيهه عن مماثلة الحوادث.

{ **وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ** } أنّهم يحاولون ذلك فأطلقت الإرادة على المحاولة، وفيه إيذان بأنّه أمر صعب المنال، وأنّهم لم يبلغوا ما أرادوا من ذلك، لأنّهم لم يزالوا يحاولونه، كما دلّ عليه التعبير بالمضارع في قوله { وَيُرِيدُونَ }.

<u>ومعنى التفريق بين الله ورسله</u>: أنّهم ينكرون صدق بعض الرسل الذين أرسلهم الله، ويزعمون أنّهم يؤمنون بالله. فقد فرّقوا بين الله ورسله إذ نفوا رسالتهم فأبعدوهم منه، وهذا استعارة تمثيلية، شبّه الأمر المتخيّل في نفوسهم بما يضمره مريد التفريق بين الأولياء والأحباب، فهي تشبيه هيئة معقولة بهيئة معقولة، والغرض من التشبيه تشويه المشبّه، إذ قد علم النّاس أن التفرقة بين المتصلين ذميمة.

{ **وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ** } قول من أقوالهم الشنيعة، فاليهود يقولون: نؤمن بالله وبموسى ونكفر بعيسى ومحمد، والنصارى يقولون: نؤمن بالله وبموسى وعيسى ونكفر بمحمد، فآمنوا بالله وبعض رسله ظاهرا وفرقوا بينه وبين بعض رسله.

{ **وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً** } الإرادة إرادة حقيقية. والسبيل يحتمل أن يراد به سبيل النجاة من

المؤاخذة في الآخرة توهما أنّ تلك حيلة تحقّق لهم السلامة على تقدير سلامة المؤمنين، أو سبيل التنصّل من الكفر ببعض الرسل، أو سبيلا بين دينين، وهذان الوجهان الأخيران يناسبان انتقالهم من الكفر الظاهر إلى النفاق، فكأنّهما تهيئة للنفاق.

{ **أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً** } الإتيان بضمير الفصل (هم) تأكيد قصر صفة الكفر عليهم، وهو قصر ادعائي مجازي بتنزيل كفر غيرهم في جانب كفرهم منزلة العدم، كقوله تعالى في المنافقين { هُمُ العَدُوُّ } [المنافقون:4]. ومثل هذا القصر يدلّ على كمال الموصوف في تلك الصفة المقصورة. ووجه هذه المبالغة، أنّ كفرهم قد اشتمل على أحوال عديدة من الكفر، وعلى سفالة في الخلق، أو سفاهة في الرأي بمجموع ما حكي عنهم من تلك الصِلات، فإنّ كل خصلة منها إذا انفردت هي كفر، فكيف إذا اجتمعت.

{ **حقّا** } مصدر مؤكّد لمضمون الجملة التي قبله، ونظير هذا قولهم (جدًّا).

{ **وَأَعْتَدْنَا** } معناه هيّأنا وقدّرنا.

{ **وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ...**} لمقابلة المسيئين بالمحسنين، والنذارة بالبشارة على عادة القرآن. والمراد بالذين أمنوا المؤمنون كلّهم وخاصة من آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله ابن سلام. فهم مقصودون ابتداء لما أشعر به موقع هذه الجملة بعد ذكر ضلالهم، ولما اقتضاه تذييل الجملة بقوله تعالى { **وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً** } أي: غفورا لهم ما سلف من كفرهم، رحيما بهم.

{ **وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ** } تقدّم الكلام على مثله في قوله تعالى { لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } [البقرة:136].

{ **يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُبِيناً [153] وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُلْنَا لَهُمْ لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً [154]** }.

لمّا ذكر معاذير أهل الكتابين في إنكارهم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم أعقبها بذكر شيء من اقتراحهم مجيء المعجزات على وفق مطالبهم.

{ **يَسْأَلُكَ** } ومجيء المضارع هنا، إمّا لقصد استحضار حالتهم العجيبة في هذا السؤال حتّى كأنّ السامع يراهم، وإمّا للدلالة على تكرار السؤال وتجدّده المرّة بعد الأخرى بأن يكونوا ألحّوا في هذا السؤال لقصد الإعنات. والمقصود على كلا الاحتمالين التعجيب من هذا السؤال.

والسائلون هم اليهود، سألوا معجزة مثل معجزة موسى بأن ينزّل عليه مثل ما أنزلت الألواح فيها الكلمات العشر، ولم يريدوا جميع التوراة كما توهّمه بعض المفسّرين، فإن كتاب التوراة لم ينزل دفعة واحدة.

{ **كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ** } الكتاب هنا إمّا اسم للشيء المكتوب كما نزلت ألواح موسى، وإمّا اسم لقطعة ملتئمة من أوراق مكتوبة، فيكونون قد سألوا معجزة تغاير معجزة موسى.

{ **فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ** } أي: فلا تعجب من هذا، فإنّ ذلك شنشنة قديمة لأسلافهم مع رسولهم إذ سألوه معجزة أعظم من هذا، والاستدلال على حالتهم بحالة أسلافهم من قبيل الاستدلال بأخلاق الأمم والقبائل على أحوال العشائر منهم، وقد تقدّم بيان كثير منه في سورة البقرة.

وفي هذا الكلام تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم ودلالة على جراءتهم، وإظهار أنّ الرسل لا تجيء بإجابة مقترحات الأمم في طلب المعجزات بل تأتي المعجزات بإرادة الله تعالى عند تحدّي الأنبياء، ولو أجاب الله المقترحين إلى ما يقترحون من المعجزات لجعل رسله بمنزلة المشعوذين، إذ يتلقّون مقترحات النّاس في المحافل والمجامع العامة والخاصة، وهذا مما يحط من مقدار الرسالة.

{ **فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً** } وهم لمّا سألوا موسى أن يريهم الله جهرة ما أرادوا التيمّن بالله، ولا التنعّم بالمشاهدة، ولكنّهم أرادوا عجبا ينظرونه ، فلذلك قالوا { أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً }، ولم يقولوا: ليتنا نرى ربّنا.

{ **جهْرة** } ضد خفية، أي: علنا، صفة للرؤية المستفادة من أرنا.

{ **فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ** } استطرد هنا ما لحقهم من جرّاء سؤالهم هذه الرؤية وما ترتّب عليه، وهو ما حكاه تعالى بقوله { فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ } [البقرة:55]. وكان ذلك إرهابا لهم وزجرا، ولذلك قال { بِظُلْمِهِمْ }، والظلم هو امتناعهم من تصديق موسى إلى أن يروا الله جهرة، وليس الظلم لمجرد طلب الرؤية.

{ **ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ** } بيّن أنّهم لم يردعهم ذلك فاتخذوا العجل إلها من بعد ما جاءتهم البيّنات الدالة على وحدانية الله ونفي الشريك. ومع ذلك عفا الله عنهم وآتى موسى سلطانا مبينا، أي حجّة واضحة عليهم في تمرّدهم، فصار يزجرهم ويؤنبهم. ومن سلطانه المبين أن أحرق لهم العجل الذي اتّخذوه إلها.

ثم ذكر آيات أخرى أظهرها الله لهم وهي: رفع الطور، والأمر بقتال أهل أريحا، ودخولهم بابها سجدا. والباب يحتمل أنّه باب مدينة أريحا، ويحتمل أنه باب الممر بين الجبال ونحوها، كما سيأتي، وتحريم صيد البحر عليهم في السبت. وقد مضى الكلام عليها جميعا في سورة البقرة.

{ **وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً** } المراد به العهد، ووصفه بالغليظ، أي: القوي. والغلظ من صفات الأجسام، فاستعير لقوّة المعنى وكنّى به عن توثّق العهد، لأنّ الغلظ يستلزم القوّة، وقد ذكر أكثرها في آي سورة البقرة. والمقصود من هذا إظهار تأصّلهم في اللجاج والعناد، من عهد أنبيائهم، تسلية للنبي" صلى الله عليه وسلم على ما لقي منهم، وتمهيدا لقوله { فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ }.

{ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً } [155].

{ **فَبِمَا** } قدّم المتعلّق لإفادة الحصر: وهو أن ليس التحريم إلاّ لأجل ما صنعوه. فالمعنى، ما حرّمنا عليهم طيّبات إلّا بسبب نقضهم، وأكّد معنى الحصر والتسبب بـ (ما) الزائدة. فأفادت الجملة حصرا وتأكيدا.

وتقدم تفسير هذه الأحداث المذكورة هنا في مواضعها.

{ **بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ** } اعتراض بين المعاطيف.

الطبع: إحكام الغلق بجعل طين ونحوه. ومعنى { بِكُفْرِهِمْ } بسببه.

{ **فَلا يُؤْمِنُونَ إلا قليلا** } استثناء من عموم المفعول المطلق، أي: لا يؤمنون إلّا إيمانا قليلا، وهو من تأكيد الشيء بما يشبه ضدّه إذ الإيمان لا يقبل القلّة والكثرة، فالقليل من الإيمان عدم، فهو كفر. وتقدم في قوله { فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ } [البقرة:88]. ويجوز أن تكون قلّة الإيمان كناية عن قلّة أصحابه مثل عبد الله بن سلام.

{ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً [156] **وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً** [157] **بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً** [158] }.

{ **وَبِكُفْرِهِمْ** } عطف مرّة ثانية على قوله { فَبِمَا نَقْضِهِمْ } ولم يستغن بما سبق لأنّه في مقام التهويل لأمر الكفر، فالمتكلّم يذكره ويعيده: يتثبّت ويُري أنّه لا ريبة في إناطة الحكم به. وفي الكشّاف، لتكرّر الكفر منهم فهم كفروا بموسى ثم بعيسى ثم بمحمد صلوات الله عليهم، فعطف بعض كفرهم على بعض، أي: فالكفر الثاني اعتبر مخالفا للذي قبله.

البهتان: مصدر بَهَتَه، إذا أتاه بقول أو عمل لا يترقّبه ولا يجد له جوابا، والذي يتعمّد ذلك بَهُوت، وجمعه: بُهُت وبُهْت. وقد زيّن اليهود ما شاءوا في الإفك على مريم عليها السلام. أمّا قولهم: إنّا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم، فمحلّ المؤاخذة عليهم منه، هو أنّهم قصدوا أن يعدّوا هذا الإثم في مفاخر أسلافهم الراجعة إلى الإخلاف بالعهد المبين في سبيل نصر الدين.

المسيح: كان لقبا لعيسى عليه السلام لقبّه به اليهود تهكّما عليه، لأنّ معنى المسيح في اللغة العبرية: الملك. وهو لقب قصدوا منه التهكّم، فصار لقبا له بينهم. وقلب الله قصدهم تحقيره فجعله تعظيما له.

{ **رَسُولَ اللَّهِ** } إن كان من الحكاية، فالمقصود منه الثناء عليه، فيكون نصبُ { رَسُولَ اللَّهِ } على المدح. وإن كان من المحكي، فوصفهم إيّاه منه التهكّم، فيكون نصب {رَسُولَ اللَّهِ} على النعت للمسيح.

{ **وَمَا قَتَلُوهُ** } الظاهر أنّ الواو فيه للحال، أي: قولهم ذلك في حال أنّهم ما قتلوه. و يجوز كونه خبرا معطوفا على الجمل المخبر بها عنهم.

{ **وَمَا صَلَبُوهُ** } لأنّ الصلب قد يكون دون القتل، فقد كانوا ربّما صلبوا الجاني تعذيبا له ثمّ عفوا عنه. والمشهور في الاستعمال، أنّ الصلب هو أن يوثق المعدود للقتل على خشبة بحيث لا يستطيع التحرّك ثم يطعن بالرمح أو يرمى بسهم، وكذلك كانوا يزعمون أنّ عيسى صلب ثم طعن برمح.

{ **وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ** } استدراك، يحتمل أن يكون معناه، أنّ اليهود الذين زعموا قتلهم المسيح قد شبّه لهم مشبّه بالمسيح فقتلوه، ونجّى الله المسيح من القتل.

ويحتمل أن يكون المعنى ولكن شُبِّه لليهود الأوّلين والآخرين خبر صلب المسيح، أي: اشتبه عليهم الكذب بالصدق، فيكون من باب قول العرب: خيّل إليك، واختلط على فلان.

وفي الأخبار أنّ يهوذا الاسخريوطي أحد أصحاب المسيح، وكان قد ضل ونافق هو الذي وشى بعيسى عليه السلام وهو الذي ألقي عليه شبه عيسى، وأنّه الذي صلب، وهذا أصله في إنجيل برنابي أحد تلاميذ الحواريين. وهذا يلائم الاحتمال الأول.

ويقال: إن بيلاطس، والى فلسطين، سئل في روما عن قضيّة قتل عيسى وصلبه فأجاب بأنّه لا علم له بشيء من هذه القضية، فتأيّد بذلك اضطراب النّاس في وقوع قتله وصلبه، وأنّه لم يقع، وإنّما اختلق اليهود خبره، وهذا يلائم الاحتمال الثاني.

والذي يجب اعتقاده بنص القرآن: أنّ المسيح لم يقتل، ولا صلب، وأنّ الله رفعه إليه ونجّاه من طالبيه، وأمّا ما عدا ذلك فالأمر فيه محتمل. وقد تقدّم في قوله { إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ } [آل عمران:55].

{ **وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ** } يدلّ على وقوع خلاف في شأن قتل المسيح. والخلاف فيه موجود بين المسيحيين، فجمهورهم يقولون: قتلته اليهود، وبعضهم يقول: لم يقتله اليهود، ولكن قتلوا يهوذا الاسخريوطي الذي شبّه لهم بالمسيح، وهذا الاعتقاد مسطور في إنجيل برنابي الذي تعتبره الكنيسة اليوم كتابا محرّفا. فالمعنى أنّ معظم النصارى المختلفين في شأنه غير مؤمنين بصلبه. بل يخالج أنفسهم الشك، ويتظاهرون باليقين، وما هو باليقين، فما لهم به من علم قاطع إلّا اتباع الظن.

{ **إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ** } استثناء منقطع، والمراد بالظّنّ هنا، الشك. وقد أطلق الظّنّ على هذا في مواضع كثيرة من كلام العرب، وفي القرآن { إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ } [الحجرات:12]، وفي الحديث الصحيح: " **إيّاكم والظّنّ فإنّ الظّنّ أكذب الحديث** ".

{ **وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ** } يجوز أن يكون معطوفا على قوله { وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ}، ويجوز أن يعطف على قوله { مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ }.

اليقين: العلم الجازم الذي لا يحتمل الشك، فهو اسم مصدر، والمصدر: اليقين بالتحريك يقال: أيقن يوقن إيقانا، وهو الشائع.

{ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ } أي فلم يظفروا به.

الرفع: إبعاده عن هذا العالم إلى عالم السماوات، و(إلى) إفادة الانتهاء المجازي بمعنى التشريف، أي: رفعه الله رفع قرب وزلفى.

وقد تقدّم الكلام على معنى هذا الرفع، وعلى الاختلاف في أنّ عيسى عليه السلام بقي حيا أو أماته الله، عند قوله تعالى { إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ } [آل عمران:55].

{ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً } فهو عزيز يعزّ أولياءه، حكيم أتقن صنع هذا الرفع فجعله فتنة للكافرين، وتبصرة للمؤمنين، وعقوبة ليهوذا الخائن.

{ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً } [159].

أي: ليُؤْمننّ بعيسى. والضمير في { مَوْتِهِ } يحتمل أن يعود إلى أحد أهل الكتاب، أي: قبل أن يموت الكتابي، ويؤيّده قراءة أبي بن كعب { إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِم } . والمعنى أن اليهود مع شدّة كفرهم بعيسى لا يموت أحد منهم إلاّ وهو يؤمن بنبوّته قبل موته، أي: ينكشف له ذلك عند الاحتضار قبل انزهاق روحه، وهذه منّة من الله بها على عيسى، إذ جعل أعداءه لا يخرجون من الدنيا إلّا وقد آمنوا به جزاء له على ما لقي من تكذيبهم، لأنّه لم يتمتع بمشاهدة أمّة تتبعه.

وقيل: كذلك النصراني عند موته ينكشف له أنّ عيسى عبد الله.

وقيل: الضمير في قوله { مَوْتِهِ } عائد إلى عيسى، أي: قبل موت عيسى، ففرّع القائلون بهذا تفاريع، منها أنّ موته لا يقع إلاّ آخر الدنيا ليتم إيمان جميع أهل الكتاب به قبل وقوع الموت، لأنّ الله جعل إيمانهم مستقبلا وجعله قبل موته، فلزم أن يكون موته مستقبلا. ومنها ما ورد في الحديث: **" أنّ عيسى عليه السلام ينزل في آخر مدّة الدنيا ليؤمن به أهل الكتاب "**، ولا يخفى أنّ عموم قوله { وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ} يبطل هذا التفسير: لأنّ الذين يؤمنون به على حسب هذا التأويل هم الذين سيوجدون من أهل الكتاب لا جميعهم.

وعندي: أنّ ضمير (به) راجع إلى الرفع المأخوذ من فعل { رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ }، ويعمّ قوله {أَهْلِ الْكِتَابِ } اليهود والنصارى، حيث استووا في اعتقاد وقوع الصلب. والظاهر أنّ الله يقذف في نفوس أهل الكتابين الشك في صحة الصلب، فلا يزال الشك يخالج قلوبهم ويقوى حتّى يبلغ مبلغ العلم بعدم صحّة الصلب في آخر أعمارهم تصديقا لما جاء به النبيّ صلى الله عليه وسلم حيث كذّب أخبارهم فنفى الصلب عن عيسى عليه السلام.

الشهيد: الشاهد، يشهد بأنّه بلّغ لهم دعوة ربّهم فأعرضوا، وبأنّ النصارى بدّلوا. ومعنى الآية مفصّل في قوله تعالى { يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ } [المائدة:109]

{ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً [160] وَأَخْذِهِمُ الرِّبا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النّاس بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً [161] لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً [162] }.

اقتضت الآية أنّ تحريم ما حرّم عليهم إنّما كان عقابا لهم، وأنّ تلك المحرّمات ليس فيها من المفاسد ما يقتضي تحريم تناولها، وإلاّ لحرّمت عليهم من أوّل مجيء الشريعة.

{ **حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ** } قيل إنّ المراد بهذه الطيبات هو ما ذكر في قوله تعالى { وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا - إلى قوله - ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ } [الأنعام :146]، فهذا هو الجزاء على ظلمهم.

فالذي يظهر لي أنّ يكون سبب تحريم تلك الطيّبات، إمّا أنّ ما سرى في طباعهم بسبب بغيهم وظلمهم من القساوة صار ذلك طبعا في أمزجتهم فاقتضى أن يلطّف الله طباعهم بتحريم مأكولات من طبعها تغليظ الطباع، ولذلك لمّا جاءهم عيسى أحلّ الله لهم بعض ما حرّم عليهم من ذلك لزوال موجب التحريم.

وإمّا أن يكون تحريم ما حرّم عليهم عقابا للذين ظلموا وبغوا ثم بقي ذلك على من جاء بعدهم ليكون لهم ذكرى ويكون للأوّلين سوء ذكر.

وإمّا لأن هذا التحريم عقوبة دنيويّة راجعة إلى الحرمان من الطيّبات فلا نظر إلى ما يعرض لهذا التحريم تارة من الثواب على نيّة الامتثال للنهي، لندرة حصول هذه النية في الترك.

{ **وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً** } إن كان الذي مضارعه **يصِدُّ** (بكسر الصاد) فالمعنى بإعراضهم عن سبيل الله. وإن كان الذي قياس مضارعه **يصُدُّ** (بضم الصاد)، فلعلّهم كانوا يصدّون النّاس عن التقوى. وذلك من زمن موسى قبل أن يحرّم عليهم بعض الطيّبات. أمّا بعد موسى فقد صدّوا النّاس كثيرا، وعاندوا الأنبياء، وحاولوهم على كتم المواعظ، وكذّبوا عيسى، وعارضوا دعوة محمد صلى الله عليه وسلم وسوّلوا لكثير من الناس، جهرا أو نفاقا، البقاء على الجاهلية.

{ **وَأَخْذِهِمُ الرِّبا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ** } والربا محرّم عليهم بنصّ التوراة: " إن أقرضت فضة لشعبي الفقير الذي عندك فلا تكن له كالمرابي لا تضعوا عليه ربا " [سفر الخروج، الإصحاح:22].

ويسوّغ لهم أخذه من غير الإسرائيليين: " لا تقرض أخاك بربا ربا فضة أو ربا طعام أو ربا شيء ما ممّا يقرض بربا. للأجنبي تقرض بربا " [سفر التثنية، لإصحاح:23].

{ **وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النّاس بِالْبَاطِلِ** } هو أعمّ من الربا، فيشمل الرشوة المحرّمة عندهم، وأخذهم الفداء على الأسرى من قومهم، وغير ذلك.

{ **لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ** } استدراك ناشيء على ما يوهمه الكلام السابق من توغّلهم في الضلالة حتّى لا يرجى لأحد منهم خير وصلاح، فاستدرك بأنّ الراسخين في العلم منهم يؤمنون بالقرآن مثل عبد الله بن سلام ومخيريق.

الراسخ: حقيقته الثابت القدم في المشي، لا يتزلزل، واستعير للتمكّن من الوصف مثل العلم بحيث لا تغرّه الشبه. و تقدّم عند قوله تعالى { وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ } [آل عمران:7].

والراسخ في العلم بعيد عن التكلّف وعن التعنّت، فليس بينه وبين الحقّ حاجب، فهم يعرفون دلائل صدق الأنبياء ولا يسألونهم خوارق العادات.

وعطف { **المؤمنون** } على { **الراسخون** } ثناء عليهم بأنّهم لم يسألوا نبيّهم أن يريهم الآيات الخوارق للعادة، فلذلك قال { يؤمنون }، أي: جميعهم بما أنزل إليك، أي: القرآن، وكفاهم به آية، وما أنزل من قبلك على الرسل، ولا يعادون رسل الله تعصّبا وحميّة.

والمراد بالمؤمنين الذين هداهم الله للإيمان من أهل الكتاب، ولم يكونوا من الراسخين في العلم منهم، مثل اليهودي الذي كان يخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمن به.

{ **وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ** } النصب ثبت في المصحف الإمام، وقرأه المسلمون في الأقطار دون تنكير، فعلمنا أنّه طريقة عربية في عطف الأسماء الدالة على صفات محامد، على أمثالها، فيجوز في بعض المعطوفات النصب على التخصيص بالمدح، والرفع على الاستئناف للاهتمام.

{ **أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً** } الوعد بالأجر العظيم بالنسبة للراسخين من أهل الكتاب لأنّهم آمنوا برسولهم وبمحمد صلى الله عليه وسلم وقد ورد في الحديث الصحيح: **" أنّ لهم أجرين "**، وبالنسبة للمؤمنين من العرب لأنهم سبقوا غيرهم بالإيمان.

{ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً [163] وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً [164] رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً [165] }.

بيان أنّ إنزال القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن بدعا، فإنّه شأن الوحي للرسل، فلم يقدح في رسالتهم أنّهم لم ينزّل عليهم كتاب من السماء.

والتأكيد بـ (إنّ) للاهتمام بهذا الخبر أو لتنزيل المردود عليهم منزلة من ينكر كيفيّة الوحي للرسل غير موسى.

الوحي: إفادة المقصود بطريق غير الكلام، مثل الإشارة قال تعالى { فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً } [مريم:11].

{ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ } تشبيه بجنس الوحي وإن اختلفت أنواعه، فإنّ الوحي إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم كان بأنواع من الوحي ورد بيانها في حديث عائشة في الصحيح عن سؤال الحارث بن هشام النبيّ صلى الله عليه وسلم كيف يأتيك الوحي، بخلاف الوحي إلى غيره ممّن سمّاهم الله تعالى، على أنّ الوحي للنبيّ صلى الله عليه وسلم كان منه القرآن ولم يكن لبعض من ذكر كتاب.

وعدّ الله هنا جمعا من النبيين والمرسلين وذكر أنّه أوحى إليهم ولم يختلف العلماء في أنّ الرسل والأنبياء يوحى إليهم، وإنّما اختلفت عباراتهم في معنى الرسول والنبيّ. والقول الصحيح أنّ الرسول أخصّ، وهو من أوحى إليه مع الأمر بالتبليغ، والنبيّ لا يؤمر بالتبليغ وإن كان قد يبلّغ على وجه الأمر بالمعروف والدعاء للخير، يعني بدون إنذار وتبشير. وورد في بعض الأحاديث: **" الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا "** (124000)، وعد **الرسل** ثلاثمائة وثلاثة عشر رسولا (313).

نوح: ورد في حديث الشفاعة، في الصحيح: **" أنّ نوحا عليه السلام أوّل الرسل "**. وهو نوح بن لامك. وفي زمنه وقع الطوفان العظيم.

إبراهيم: هو الخليل، إبراهيم بن تارح والعرب تسميه آزر. ولد سنة (2893 قبل الهجرة)، في بلد أور الكلدانيين، ومات في بلاد الكنعانيين، وهي سوريا، في حبرون حيث مدفنه الآن المعروف ببلد الخليل سنة (2718 قبل الهجرة).

إسماعيل: هو ابن إبراهيم من الجارية المصرية هاجر. توفى بمكّة سنة (2686 قبل الهجرة تقريبا). وكان إسماعيل رسولا إلى قومه الذين حلّ بينهم من جرهم وغيرهم، وإلى أبنائه وأهله، قال تعالى

{ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً } [مريم:54]

إسحاق: هو ابن إبراهيم من سارة ابنة عمّه، توفي سنة (2613 قبل الهجرة)، وكان إسحاق نبيّا مؤيّدا لشرع أبيه إبراهيم ولم يجئ بشرع.

يعقوب: هو ابن إسحاق، الملقّب بإسرائيل. توفي سنة (2586 قبل الهجرة). وكان يعقوب نبيّا مؤيدا لشرع إبراهيم، قال تعالى { وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ } [البقرة:132] ولم يجئ بشرع جديد.

الأسباط: هم أسباط إسحاق أي أحفاده، وهم أبناء يعقوب اثنا عشر ابنا: (روبين – شمعون – جاد - يهوذا – يساكر – زبولون – يوسف – بنيامين – منسى – دان – أشير – ثفتالي).

فأمّا يوسف فكان رسولا لقومه بمصر. وأمّا بقية الأسباط فكان كلّ منهم قائما بدعوة شريعة إبراهيم في بنيه وقومه. والوحي إلى هؤلاء متفاوت.

عيسى: هو عيسى بن مريم، ولد من غير أب سنة (622 قبل الهجرة). ورفع إلى السماء سنة 589 . وهو رسول بشرع ناسخ لبعض أحكام التوراة. ودامت دعوته إلى الله ثلاث سنين.

أيوب: قيل: أنّه عربي الأصل من أرض عُوص، في بلاد أدوم، وهي من بلاد حوران، وقيل، هو أيوب بن ناحور أخي إبراهيم، وقيل: اسمه عوض، وقيل: هو يوباب ابن حفيد عيسو. وقيل: كان قبل إبراهيم بمائة سنة. والصحيح أنّه كان بعد إبراهيم وقبل موسى في القرن الخامس عشر قبل المسيح، أي: في <u>القرن الحادي والعشرين قبل الهجرة</u>. ويقال: إن الكتاب المنسوب إليه في كتب اليهود أصله مؤلف باللغة العربيّة وأنّ موسى عليه السلام نقله إلى العبرانية على سبيل الموعظة، فظن كثير من الباحثين في التاريخ أنّ أيوب من قبيلة عربية. وليس ذلك ببعيد. وكان أيوب رسولا نبيّا. وكان له صاحب اسمه اليفاز اليماني هو الذي شدّ أزره في الصبر، كما سنذكره في موضعه.

يونس: هو ابن متّى من سبط زبولون من بني إسرائيل، بعثه الله إلى أهل نينوى عاصمة الآشوريين، بعد خراب بيت المقدس، وذلك <u>في حدود القرن الحادي عشر قبل الهجرة</u>.

هارون: أخو موسى بن عمران توفي سنة (1972 قبل الهجرة) وهو رسول مع موسى.

سليمان: هو ابن داود. كان نبيّا حاكما بالتوراة وملكا عظيما. توفي سنة (1597 قبل الهجرة). وممّا أوحى الله به إليه ما تضمّنه كتاب الجامعة وكتاب الأمثال من الحكمة والمواعظ، وهي منسوبة إلى سليمان ولم يقل فيها إنّ الله أوحاها إليه، فعلمنا أنّها كانت موحى بمعانيها دون لفظها.

داود:أبو سليمان هو داود بن يسي، توفي سنة (1626 قبل الهجرة)، بعثه الله لنصر بني إسرائيل. وأنزل عليه كتابا فيه مواعظ وأمثال، كان بنو إسرائيل يترنمون بفصوله، وهو المسمّى **بالزَبور**: وهو مصدر على وزن فعول مثل قبول. ويقال فيه: زُبور (بضم الزاي)، ومعناه الكتابة ويجمع على الزبر، قال تعالى { بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ } [آل عمران:184]. وقد صار علما بالغلبة في لغة العرب على كتاب داود النبيّ،

وهو أحد أسفار الكتاب المقدس عند اليهود.

{ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ }

وإنّما ذكر الله تعالى هنا الأنبياء الذين اشتهروا عند بني إسرائيل لأنّ المقصود محاجّتهم. وإنّما ترك الله أن يقص على النبيّ صلى الله عليه وسلم أسماء كثير من الرسل للاكتفاء بمن قصّهم عليه، لأنّ المذكورين هم أعظم الرسل والأنبياء قصصًا ذات عبر.

{ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً } غيّر الأسلوب فعدل عن العطف إلى ذكر فعل آخر، لأنّ لهذا النوع من الوحي مزيد أهمية، وهو مع تلك المزيّة ليس إنزال كتاب من السماء، فإذا لم تكن عبرة إلاّ بإنزال كتاب من السماء حسب اقتراحهم، فقد بطل أيضا ما عدا الكلمات العشر المنزّلة في الألواح على موسى.

كلام الله تعالى: صفة مستقلّة عندنا، وهي المتعلّقة بإبلاغ مراد الله إلى الملائكة والرسل، وقد تواتر ذلك في كلام الأنبياء والرسل تواترا ثبت عند جميع الملّيّين، فكلام الله صفة له ثبتت بالشرع لا يدل عليها الدليل العقلي على التحقيق إذ لا تدل الأدلة العقلية على أنّ الله يجب له إبلاغ مراده النّاس بل يجوز أن يوجد الموجودات ثم يتركها وشأنها، فلا يتعلّق علمه بحملها على ارتكاب حسن الأفعال وتجنب قبائحها. ألا ترى أنّه خلق العجماوات فما أمرها و لا نهى، فلو ترك النّاس فوضى كالحيوان لما استحال ذلك. وأنّه إذا أراد حمل المخلوقات على شيء يريده فطرها على ذلك فانساقت إليه بجبلّاتها، كما فطر النحل على إنتاج العسل، والشجر على الإثمار. ولو شاء لحمل النّاس أيضا على جبلّة لا يعدونها، غير أنّنا إذ قد علمنا أنّه عالم، وأنّه حكيم، والعلم يقتضي انكشاف حقائق الأشياء على ما هي عليه عنده، فهو إذ يعلم حسن الأفعال وقبحها، يريد حصول المنافع وانتفاء المضار، ويرضى بالأولى، ويكره الثانية، وإذ اقتضت حكمته وإرادته أن جعل البشر قابلا للتعلّم والصلاح، وجعل عقول البشر صالحة لبلوغ غايات الخير، وغايات الشر، والتفنّن فيهما، فكان من المتوقّع طغيان الشرّ على الخير بعمل فريق الأشرار من البشر، كان من مقتضى الحكمة أن يحمل النّاس على فعل الخير الذي يرضاه، وترك الشرّ الذي يكرهه، وحملهم على هذا قد يحصل بخلق أفاضل النّاس وجبلهم على الصلاح والخير، فيكونون دعاة للبشر، لكن حكمة الله وفضله اقتضى أن يخلق الصالحين القابلين للخير، وأن يعينهم على بلوغ ما جبلوا عليه بإرشاده وهديه، فخلق النفوس القابلة للنبوّة والرسالة وأمدّها بالإرشاد الدال على مراده المعبّر عنه بالوحي، كما اقتضاه قوله تعالى { اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ } [الأنعام:124]، فأثبت رسالة وتهيئة المرسل لقبولها ومن هنا ثبتت صفة الكلام. فعلمنا، بأخبار الشريعة المتواترة، أنّ الله أراد من البشر الصلاح وأمرهم به، وأنّ أمره بذلك بلغ إلى البشر في عصور كثيرة، وذلك يدلّ على أنّ الله يرضى بعض أعمال البشر ولا يرضى بعضها، وأن ذلك يسمى كلاما نفسيّا، وهو أزلي.

ثم إنّ حقيقة صفة الكلام يحتمل أن تكون من متعلّقات صفة العلم، أو من متعلّقات صفة الإرادة، أو صفة مستقلّة متميّزة عن الصفتين الأخريين، فمنهم من يقول: عَلم حاجة النّاس إلى الإرشاد فأرشدهم، أو أراد

هدى النّاس فأرشدهم. ونحن نقول: إنّ الإلهيّة تقتضي ثبوت صفات الكمال التي منها الرضا والكراهيّة والأمر والنهي للبشر أو الملائكة، فثبتت صفة مستقلة هي صفة الكلام النفسي، وكل ذلك متقارب، وتفصيله في علم الكلام.

أمّا تكليم الله تعالى بعض عباده من الملائكة أو البشر فهو إيجاد ما يعرف منه الملك أو الرسول أنّ الله يأمر أو ينهى أو يخبر. فالتكليم تعلّق لصفة الكلام بالمخاطب على جعل الكلام صفة مستقلة، أو تعلّق العلم بإيصال المعلوم إلى المخاطب، أو تعلّق الإرادة بإبلاغ المراد إلى المخاطب.

فالأشاعرة قالوا: تكليم الله عبده هو أن يخلق للعبد إدراكا من جهة السمع يتحصّل به العلم بكلام الله دون حروف ولا أصوات. وقد ورد تمثيله بأنّ موسى سمع مثل الرعد علم منه مدلول الكلام النفسي.

وقالت المعتزلة: يخلق الله حروفا وأصواتا بلغة الرسول فيسمعها الرسول، فيعلم أنّ ذلك من عند الله، بعلم يجده في نفسه، يعلم به أنّ ذلك ورد إليه من قبل الله، إلاّ أنّه ليس بواسطة الملك، فهم يفسّرونه بمثل ما نفسّر به نحن نزول القرآن، فإسناد الكلام إلى الله مجاز في الإسناد، على قولهم، لأنّ الله منزه عن الحروف والأصوات. والكلام حقيقة حروف وأصوات.

أمّا كلام الله الوارد للرسول بواسطة الملك وهو المعبّر عنه بالقرآن وبالتوراة وبالإنجيل وبالزبور: فتلك ألفاظ وحروف وأصوات يعلّمها الله للملك بكيفيّة لا نعلمها، يعلم بها الملك أنّ الله يدل، بالألفاظ المخصوصة الملقاة للملك، على مدلولات تلك الألفاظ فيلقيها الملك على الرسول كما هي، قال تعالى { أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ} [الشورى:51]، وقال تعالى { نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ } [الشعراء:193-195]. وهذا لا يمتري في حدوثه من له نصيب من العلم في الدين. ولكن أمسك بعض أئمة الإسلام عن التصريح بحدوثه، أو بكونه مخلوقا، في مجالس المناظرة التي غشيتها العامة، دفعا للإيهام. والله حسيب الذين ألّبوا عليهم وجمعوا، وأغروا بهم.

{ **تكليما** } مصدر للتوكيد، أي: أنّ موسى سمع كلاما من عند الله، بحيث لا يحتمل أنّ الله أرسل إليه جبريل بكلام، أو أوحى إليه في نفسه. وأمّا كيفيّة صدور هذا الكلام عن جانب الله فغرض آخر هو مجال للنظر بين الفرق.

{ **لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ** } تعليل لقوله { مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ } تعليما للأمّة بحكمة من الحكم في بعثيّته الرسل.

الحجّة: ما يدلّ على صدق المدّعي وحقّيّة المعتذر، فهي تقتضي عدم المؤاخذة بالذنب أو التقصير.

فإرسال الرسل لقطع عذر البشر إذا سئلوا عن جرائم أعمالهم، واستحقّوا غضب الله وعقابه.

فعلم من هذا أن للنّاس قبل إرسال الرسل حجّة إلى الله أن يقولوا { لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } [القصص:47]

فهذه الآية ملجئة جميع الفرق إلى القول بأنّ بعثة الرسل تتوقف عليها المؤاخذة بالذنوب، وظاهرها أنّ

سائر أنواع المؤاخذة تتوقف عليها، سواء في ذلك الذنوب الراجعة إلى الاعتقاد، والراجعة إلى العمل، وفي وجوب معرفة الله. فإرسال الرسل عندنا من تمام العدل من الله لأنّه لو لم يرسلهم لكانت المؤاخذة بالعذاب مجرّد الإطلاق الذي تقتضيه الخالقيّة إذ لا يسأل عما يفعل، وكانت عدلا بالمعنى الأعمّ.
فأمّا جمهور أهل السنّة، الذين تترجم عن أقوالهم طريقة الأشعري، فعمّموا وقالوا: لا يثبت شيء من الواجبات، ولا مؤاخذة على ترك أو فعل إلاّ ببعثة الرسل، حتّى معرفة الله تعالى، واستدلّوا بهذه الآية وغيرها، مثل قوله تعالى { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتّى نَبْعَثَ رَسُولاً } [الإسراء:15]. وبالإجماع، وفي دعوى الإجماع نظر، وفي الاستدلال به على أصل من أصول الدين نظر آخر، وفي الاستدلال بالآيات، وهي ظواهر، على أصل من أصول الدين نظر ثالث، إلّا أن يقال: إنها تكاثرت كثرة أبلغتها إلى مرتبة القطع، وهذا أيضا مجال للنظر، وهم ملجَؤون إلى تأويل هذه الآية، لأنّهم قائلون بمؤاخذة أهل الفترة على إشراكهم بالله.
وأمّا المعتزلة فقد أثبتوا الحسن والقبيح الذاتيين في حالة عدم إرسال رسول، فقالوا: إنّ العقل يثبت به وجوب كثير من الأحكام، وحرمة كثير، لا سيما معرفة الله تعالى، لأنّ المعرفة دافعة للضرّ المظنون، وهو الضر الأخروي، من لحاق العذاب في الآخرة. لذلك قالوا إنّ إرسال الرسل من تمام الرحمة بالعباد ولا يقتضيها العدل.
{ **بَعْدَ الرُّسُلِ** } فلم يقل (بعدهم)، للاهتمام بهذه القضيّة واستقلالها في الدلالة على معناها، حتّى تسير مسرى الأمثال.
{ **وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً** } الحكيم، لأنّ هذه الأخبار كلّها دليل حكمته تعالى، والعزيز، فلأنّ العزيز يناسب عزّته أن يكون غالبا من كل طريق. وتأخير وصف الحكيم لأنّ إجراء عزّته على هذا التمام هو أيضا من ضروب الحكمة الباهرة.

{ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً } [166].

هذا استدراك على معنى أثاره الكلام، لأنّ ما تقدّم من قوله { يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ } [153] مسوق مساق بيان تعنّتهم ومكابرتهم عن أن يشهدوا بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم وصحة نسبة القرآن إلى الله تعالى، وأنّ ذلك يحزن الرسول صلى الله عليه وسلم، فجاء الاستدراك. والمعنى، لم يشهد أهل الكتاب لكن الله شهد وشهادة الله خير من شهادتهم.
{ **يَشْهَدُ** } حقيقة الشهادة إخبار لتصديق مخبر، وتكذيب مخبر آخر. وتقدّم أنّها تطلق على الخبر المحقّق الذي لا يتطرّقه الشكّ عند قوله تعالى { شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ } [آل عمران:18].

{ **بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ** } وقع تحويل في تركيب الجملة لقصد الإجمال الذي يعقبه التفصيل، ليكون أوقع في النفس. وأصل الكلام، يشهد بإنزال ما أنزله إليك بعلمه. فتكون جملة { أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ } مكمّلة معنى الشهادة.

{ **أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ** } أي: متلبّسا بعلمه، أي: بالغا الغاية في باب الكتب السماوية، شأن ما يكون بعلم من الله تعالى، ومعنى ذلك أنّه معجز لفظا ومعنى.

{ **وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ** } عطف على شهادة الله، لزيادة تقرير هذه الشهادة بتعدّد الشهود، ولأنّ شهادة الله مجاز في العلم وشهادة الملائكة حقيقة.

{ **وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً** } الباء زائدة للتأكيد، وأصله، كفى الله شهيدا

{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلالاً بَعِيداً } [167].

يجوز أن يكون المراد بالذين كفروا هنا اليهود. و**صدّهم عن سبيل الله**: إمّا من يصِدّ (بكسر الصاد)، أي أعرضوا عن سبيل الله، أي الإسلام. أو من يصُدّ (بضم الصاد)، أي: صدوا الناس.

ويجوز أن يكون المراد بالذين كفروا المشركين، كما هو الغالب في إطلاق هذا الوصف في القرآن، فتكون الجملة استئنافا ابتدائيا، انتقل إليه بمناسبة الخوض في مناواة أهل الكتاب للإسلام. وصدّهم عن سبيل الله، أي: صدّهم النّاس عن الدخول في الإسلام مشهور.

الضلال: الكفر لأنّه ضياع عن الإيمان، الذي هو طريق الخير والسعادة، فإطلاق الضلال على الكفر استعارة مبنيّة على استعارة الطريق المستقيم للإيمان.

{ **بَعِيداً** } استعارة لشدّة الضلال وكماله في نوعه، بحيث لا يدرك مقداره، وهو تشبيه شائع في كلامهم أن يشبّهوا بلوغ الكمال بما يدل على المسافات والنهايات كقولهم: بعيد الغور، ولا نهاية له، ولا غاية له، ورجل بعيد الهمّة، وبعيد المرمى، وبحر لا ساحل له.

{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً [168] إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً [169] }.

بيان لجملة { قَدْ ضَلُّوا ضَلالاً بَعِيداً } [167]، لأنّ السامع يترقّب معرفة جزاء هذا الضلال فبيّنته الآية.

{ **وَظَلَمُوا** } إمّا أن يراد به ظلم النفس، وظلم النبي والمسلمين، وذلك اللائق بأهل الكتاب، وإمّا أن يراد به الشرك، كما هو شائع في استعمال القرآن { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان:13]، فيكون من عطف الأخص على الأعم في الأنواع، وإمّا أن يراد به التعدي على الناس، كظلمهم النبيّ صلى الله عليه وسلم بإخراجه من أرضه، وتأليب النّاس عليه، وغير ذلك، وظلمهم المؤمنين بتعذيبهم في الله، وإخراجهم،

ومصادرة أموالهم، ومعاملتهم بالنفاق والسخرية والخداع، وإمّا أن يراد به ارتكاب المفاسد والجرائم مما استقر عند أهل العقول أنّه ظلم وعدوان.

{ **لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ** } صيغة جحود، تقتضي تحقيق النفي، وقد نفي عن الله أن يغفر لهم تحذيرا من البقاء على الكفر والظلم، لأنّ هذا الحكم نِيط بالوصف ولم ينط بأشخاص معروفين، فإنّ هم أقلعوا عن الكفر والظلم لم يكونوا من الذين كفروا وظلموا.

{ **وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً** } إن كان طريقا يومَ القيامة فهو واضح، أي: لا يهديهم طريقا يوصلهم إلى مكان إلّا طريقا يوصل إلى جهنّم. ويجوز أن يراد من الطريق الآيات في الدنيا، فنفي هديهم إليه إنذار بأنّ الكفر والظلم من شأنهما أن يخيّما على القلب بغشاوة تمنعه من وصول الهدى إليه.

وعلى أيّ الاحتمالين فتوبة الكافر الظالم بالإيمان مقبولة.

{ **إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ** } استثناء متّصل إن كان الطريق الذي نفي هديهم إليه الطريق الحقيقي، ومنقطع إن أريد بالطريق الأوّل الهدى. وفي هذا الاستثناء تأكيد الشيء بما يشبه ضدّه، و فيه رائحة إطماع وتهكّم، لأنّ الهدي هو إرشاد الضال إلى المكان المحبوب.

{ يَا أَيُّهَا النّاس قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً } [170].

بعد استفراغ الحوار مع أهل الكتاب، ثم خطاب أهل الكفر بما هو صالح لأن يكون شاملا لأهل الكتاب، وجّه الخطاب إلى النّاس جميعا، ليكون تذييلا وتأكيدا لما سبقه، إذ قد تهيّأ من القوارع السالفة ما قامت به الحجّة، واتسعت المحجّة، فكان المقام للأمر باتّباع الرسول والإيمان. وكذلك شأن الخطيب إذا تهيأت الأسماع، ولانت الطباع. ويُسمَّى هذا بالمقصد من الخطاب، وما يتقدّمه بالمقدّمة.

{ **يَا أَيُّهَا النّاس** } الخطاب يعني خصوص المشركين في الغالب، وهو المناسب لقوله { فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ }

{ **الرسول** } التعريف للعهد، وهو المعهود بين ظهرانيهم. و{ **بِالْحَقّ** } هو الشريعة والقرآن.

{ **من ربكم** } متعلّق بـ { جاءكم }، أو صفة للحقّ، وتعدية جاء إلى ضمير المخاطبين ترغيب لهم في الإيمان لأنّ الذي يجيء مهتما بناس يكون حقا عليهم أن يتّبعوه، وأيضا في طريق الإضافة من قوله {ربكم} ترغيب ثان لما تدلّ عليه من اختصاصهم بهذا الدين الذي هو آت من ربّهم.

{ **وَإِنْ تَكْفُرُوا** } أريد به أن تبقوا على كفركم.

{ **فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } هو دليل على جواب الشرط، والجواب محذوف لأنّ التقدير: إن تكفروا فإن الله غني عن إيمانكم لأنّ لله ما في السماوات وما في الأرض، وصرّح بما حذف هنا في قوله تعالى { إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ } [الزمر:7]، وفيه تعريض بالمخاطبين، أي: أنّ كفركم لا يفلتكم من عقابه، لأنّ له ما في السماوات وما في الأرض.

{ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً } [171].

استئناف ابتدائي بخطاب موجّه إلى النصارى خاصة. وخوطبوا بعنوان أهل الكتاب تعريضا بأنّهم خالفوا كتابهم.

{ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ } ابتدئت موعظتهم بالنهي عن الغلوّ لأنّ النصارى غلوا في تعظيم عيسى فادعوا له بنوّة الله، وجعلوه ثالث الآلهة.

الغلوّ: تجاوز الحدّ المألوف، مشتقّ من غَلْوَة السهم، وهي منتهى اندفاعه، واستعير للزيّادة على المطلوب من المعقول، أو المشروع في المعتقدات، والإدراكات، والأفعال. والغلو في الدين أن يظهر المتديّن ما يفوت الحدّ الذي حدّد له الدين.

{ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ } عطف خاص على عام للاهتمام بالنهي عن الافتراء الشنيع. وفعل القول إذا عدّي بحرف (على) دل على أن نسبة القائل القول نسبة كاذبة.

{ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ } جملة مبيّنة للحدّ الذي كان الغلو عنده، فإنه مجمل، ومبيّنة للمراد من قول الحقّ. ولكونها تتنزل من التي قبلها منزلة البيان فصلت عنها.

{ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ } أفادت الجملة قصر المسيح على صفات ثلاث: صفة الرسالة، وصفة كونه كلمة الله ألقيت إلى مريم، وصفة كونه روحا من عند الله. فالقصر قصر موصوف على صفة. والقصد من هذا القصر إبطال ما أحدثه غلوّهم في هذه الصفات غلوا أخرجها عن كنهها، فإنّ هذه الصفات ثابتة لعيسى، وهم مثبتون لها فلا ينكر عليهم وصف عيسى بها، لكنّهم تجاوزوا الحدّ المحدود لها فجعلوا الرسالة البنوّة، وجعلوا الكلمة اتحاد حقيقة الإلهيّة بعيسى في بطن مريم فجعلوا عيسى ابنا لله ومريم صاحبة لله سبحانه، وجعلوا معنى الروح على ما به تكونت حقيقة المسيح في بطن مريم من نفس الإلهيّة.

{ كَلِمَتُهُ } وصف المسيح بأنّه كلمة الله وصف جاء التعبير به في الأناجيل. وقد حكاه القرآن وأثبته فدلّ على أنّه من الكلمات الإنجيليّة، فمعنى ذلك أنّه أثر كلمة الله. والكلمة هي التكوين، وهو المعبّر عنه في الاصطلاح بـ **(كن)**. فإطلاق الكلمة على التكوين مجاز، وليس هو بكلمة، ولكنّه تعلّق القدرة. ووصف عيسى بذلك لأنّه لم يكن لتكوينه التأثير الظاهر المعروف في تكوين الأجنّة، فكان حدوثه بتعلّق القدرة.

{ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ } أوصلها إلى مريم، وروعي في الضمير تأنيث لفظ الكلمة، وإلّا فإن المراد منها عيسى، أو أراد كلمة أمر التكوين.

{ **وَرُوحٌ مِنْهُ** } وصف عيسى بأنّه روح الله وصف وقع في الأناجيل. وقد أقرّه الله هنا، فهو ممّا نزل حقا. ومعنى كون عيسى روحا من الله أنّ روحه من الأرواح التي هي عناصر الحياة، لكنّها نسبت إلى الله لأنّها وصلت إلى مريم بدون تكوّن في نطفة فبهذا امتاز عن بقية الأرواح.

وقيل: لأنّ عيسى لما غلبت على نفسه الملكيّة وصف بأنّه روح، كأنّ حظوظ الحيوانية مجردة عنه.

وقيل: الروح النفخة.

فإن قلتَ: ما حكمة وقوع هذين الوصفين هنا على ما فيهما من شبهة ضلت بها النصارى؟

قلتُ: الحكمة في ذلك أنّ هذين الوصفين وقعا في كلام الإنجيل، أو في كلام الحواريين وصفا لعيسى عليه السلام، وكانا مفهومين في لغة المخاطبين يومئذ، فلمّا تغيرت أساليب اللغات وساء الفهم في إدراك الحقيقة والمجاز تسرّب الضلال إلى النصارى في سوء وضعهما فأريد التنبيه على ذلك الخطأ في التأويل، أي: أن قصارى ما وقع لديكم من كلام الأناجيل هو وصف المسيح بكلمة الله وبروح الله، وليس في شيء من ذلك ما يؤدي إلى اعتقاد أنّه ابن الله وأنّه إله.

وتصدير جملة القصر بأنه { رسول الله } ينادي على وصف العبودية إذ لا يرسل الإله إلها مثله، ففيه كفاية من التنبيه على معنى الكلمة والروح.

{ **فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً** }

أي: إذا وضح كلّ ما بيّنه الله من وحدانيّته، وتنزيهه، وصدق رسله، يتفرّع أن آمركم بالإيمان بالله ورسله. وأمروا بالإيمان بالله مع كونهم مؤمنين، أي: النصارى، لأنّهم لمّا وصفوا الله بما لا يليق فقد أفسدوا الإيمان، وليكون الأمر بالإيمان بالله تمهيدا للأمر بالإيمان برسله، وهو المقصود، وهذا هو الظاهر عندي. وأريد بالرسل جميعهم، أي: لا تكفروا بواحد من رسله. وهذا بمنزلة الاحتراس عن أن يتوهّم متوهّمون أن يعرضوا عن الإيمان برسالة عيسى عليه السلام مبالغة في نفي الإلهيّة عنه.

{ **وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ** } أي: لا تنطقوا بهذه الكلمة، فالنهي هنا كناية بإرادة المعنى ولازمه.

التثليث: أصل في عقيدة النصارى كلّهم، ولكنّهم مختلفون في كيفيّته. ونشأ من اعتقاد قدماء الإلهيين من نصارى اليونان أن الله تعالى ثالوث، أي: أنّه جوهر واحد، وهذا الجوهر مجموع ثلاثة أقانيم، واحدها أُقْنوم (بضم الهمزة وسكون القاف). قال في القاموس: هو كلمة رومية تعني الأصل، وفسّره التفتزاني في كتاب المقاصد بالصفة. وعبّروا عن مجموع الأقانيم الثلاثة بعبارة (آبا ابنا روحا قدسا).

وظهر بالإسكندرية راهب اسمه **آريوس** قال بالتوحيد وأن عيسى عبد الله مخلوق، وكان في زمن قسطنطينوس سلطان الروم باني القسطنطينية. فلمّا تديّن قسطنطينوس المذكور بالنصرانية سنة 327 تبع مقالة آريوس، ثم رأى مخالفة معظم الرهبان له فأراد أن يوحّد كلمتهم، فجمع مجمعا من علماء النصارى في أواخر القرن الرابع ميلادي، وكان في هذا المجمع نحو ألفي عالم من النصارى فوجدهم مختلفين

اختلافا كثيرا ووجد أكثر طائفة منهم على قول واحد (ثلاثمائة وبضعة عشر عالما) فأخذ قولهم وجعله أصل المسيحية ونصره، وهذه الطائفة تلقب الملكانيّة نسبة للملك.

واتفق قولهم على أنّ كلمة الله اتّحدت بجسد عيسى، وتقمصت في ناسوته، أيّ إنسانيّته، ومازجته امتزاج الخمر بالماء، فصارت الكلمة ذاتا في بطن مريم، وصارت تلك الذات ابنا لله تعالى، فالإله مجموع ثلاثة أشياء:

الأول: الأب ذو الوجود، والثاني: الابن ذو الكلمة، أي العلم، والثالث: روح القدس.

ثم حدثت فيهم فرقة اليعقوبيّة وفرقة النسطورية في مجامع أخرى انعقدت بين الرهبان.

اليعقوبية: ويسمّون الآن أرثودكس، ظهروا في أواسط القرن السادس المسيحي، وهم أسبق من النسطورية، قالوا: انقلبت الإلهية لحما ودما، فصار الإله هو المسيح، فلأجل ذلك صدرت عن المسيح خوارق العادات من إحياء الموتى وإبراء الأكمة والأبرص فأشبه صنعه صنع الله تعالى ممّا يعجز عنه غير الله تعالى. وكان نصارى الحبشة يعاقبة.

النسطورية: قالت: اتحدت الكلمة بجسد المسيح بطريق الإشراق كما تشرق الشمس من كوّة من بلور، فالمسيح إنسان، وهو كلمة الله، فلذلك هو إنسان إله، أو هو له ذاتيّتان ذات إنسانية وأخرى إلهية، وقد أطلق على الرئيس الديني لهذه النحلة لقب جاثليق. وكانت النحلة النسطورية غالبة على نصارى العرب.

وكان رهبان اليعاقبة ورهبان النسطوريين يتسابقون لبث كل فريق نحلته بين قبائل العرب. وكان الأكاسرة حماة للنسطورية، وقياصرة الروم حماة لليعقوبية. وقد شاعت النصرانية بنحلتيها في بكر، وتغلب، وربيعة، ولخم، وجذام، وتنوخ، وكلب، ونجران، واليمن، والبحرين.

{ **سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ** } إظهار لغلطهم في أفهامهم، فكلمة سبحانه تفيد قوّة التنزيه لله تعالى عن أن يكون له ولد، فإنّ الإلهية تنافي اتخاذ ابن، لاستحالة الفناء، والاحتياج، والانفصال، والمماثلة للمخلوقات عن الله تعالى. والبنوّة تستلزم ثبوت هذه المستحيلات لأنّ النسل قانون كوني للموجودات لحكمة استبقاء النوع، والنّاس يتطلبونها لذلك، وللإعانة على لوازم الحياة، وفيها انفصال المولود عن أبيه، وفيها أنّ الابن مماثل لأبيه فأبوه مماثل له لا محالة.

سبحان: اسم مصدر سبّح، وليس مصدرا، وتقدم عند قوله { قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا } [البقرة :32]

{ **أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ** } متعلق بـ (سبحان) بحرف الجرّ (عن) محذوف.

{ **لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ** } تعليل، لأنّ الذي له ما في السماوات وما في الأرض قد استغنى عن الولد، فالكلّ عبيده وليس الابن بعبد.

{ **وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً** } تذييل، و**الوكيل**: الحافظ، والمراد هنا حافظ ما في السماوات والأرض، أي: الموجودات كلّها. وتقدّم الكلام على هذا التركيب عند قوله تعالى { وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً } [45].

{ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً [172] فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً [173] }.

استئناف واقع موقع تحقيق جملة { لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } [171]، أو موقع الاستدلال على ما تضمّنته جملة سبحانه {أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ } [171].

الاستنكاف: التكبّر والامتناع بأنفة، فهو أشد من الاستكبار. ونفي استنكاف المسيح، إمّا إخبار عن اعتراف عيسى بأنّه عبد الله، وإمّا احتجاج على النصارى بما يوجد في أناجيلهم. قال الله تعالى حكاية عنه { قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ } [مريم:30]. وفي نصوص الإنجيل كثير ممّا يدلّ على أنّ المسيح عبد الله وأنّ الله إلهه وربّه، كما في مجادلته مع إبليس، فقد قال له المسيح: " للربّ إلهك تسجد وإيّاه وحده تعبد ".

{ **وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ** } لقصد استقصاء كل من ادّعيت له بنوّة الله، ليشمله الخبر بنفي استنكافه عن أن يكون عبدا لله. فقد قالت العرب: إنّ الملائكة بنات الله من نساء الجنّ، ولأنّه قد تقدّم أيضا قوله تعالى {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} [171] ومِنْ أفضل ما في السماوات الملائكة، فذكروا هنا للدلالة على اعترافهم بالعبودية.

{ **الْمُقَرَّبُونَ** } يحتمل أن يكون وصفا كاشفا، وأن يكون مقيّدا، فيراد بهم الملقّبون **بالكَرُوبيين** وهم سادة الملائكة: جبريل وإسرافيل وميكائيل وعزرائيل. ووصفهم بالكَرُوبيين وصف قديم وقع في بيت نسب إلى أمية ابن أبي الصلت. وقد قالوا: إنّه وصف مشتق من **كَرُب** مرادف قرب، وزيد فيه صيغتا مبالغة، وهي زنة فعول وياء النسب. والذي أظن أنّ هذا اللفظ نقل إلى العربية من العبرانية: لوقوع هذا اللفظ في التوراة في سفر اللاويين وفي سفر الخروج، وأنّه في العبرانية بمعنى القرب، فلذلك عدل عنه القرآن وجاء بمرادفه الفصيح فقال {المقرّبون} ، وعليه فمن دونهم من الملائكة يثبت لهم عدم الاستنكاف عن العبودية لله بدلالة الأحرى.

{ **وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ** } الآية تخلّص إلى تهديد المشركين.

{ **فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً** } ضمير الجمع عائد إلى غير مذكور في الكلام، بل إلى معلوم من المقام، أي: فسيحشر النّاس إليه جميعا . ويجوز أن يعود إلى الذين استنكفوا واستكبروا ويكون جميعا، بمعنى مجموعين إلى غيرهم.

{ **فَيُوَفِّيهِمْ** } التوفية أصلها إعطاء الشيء وافيا، أي: زائدا على المقدار المطلوب، ولمّا كان تحقّق المساواة يخفى لقلة الموازين عندهم، ولاعتمادهم على الكيل، جعلوا تحقّق المساواة بمقدار فيه فضل على

المقدار المساوي، أطلقت التوفية على إعطاء المعادل، وتقابل بالخسران وبالغبن، قال تعالى حكاية عن شعيب { أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ } [الشعراء:181] ولذلك قال هنا { وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ }، وهذه التوفية والزيادة يرجعان إلى تقدير يعلمه الله تعالى.

{ **وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً** } تأييس لهم إذ قد عُرف عند العرب وغيرهم، من أمم ذلك العصر، الاعتماد عند الضيق على الأولياء والنصراء ليكفّوا عنهم المصائب بالقتال أو الفداء. ولذلك كثر في القرآن نفي الولي والنصير.

{ يَا أَيُّهَا النّاس قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً [174] فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً [175] }

فذلكة للكلام السابق بما هو جامع للأخذ بالهدى ونبذ الضلال، بما اشتمل عليه القرآن من دلائل الحقّ وكبح الباطل. فالجملة استئناف وإقبال على خطاب النّاس كلّهم بعد أن كان الخطاب موجّها إلى أهل الكتاب خاصة.

البرهان: الحجّة، وقد يخصّص بالحجّة الواضحة الفاصلة، وهو غالب ما يقصد به في القرآن، ولهذا سمَّى حكماء الإسلام أجلّ أنواع الدليل، برهانا. والمراد هنا دلائل النبوّة.

النور المبين: هو القرآن لقوله { وأنزلنا }.

{ **فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ** } يجوز أن يكون للتفصيل بين قابل للبرهان والنور، ومكابر جاحد، ويكون معادل هذا الشق محذوفا للتهويل، أي: وأمّا الذين كفروا فلا تسل عنهم.

ويجوز أن تكون (أمّا) لمجرد الشرط دون تفصيل، لا تفيد التفصيل ولا تطلب معادلا.

الاعتصام: اللوْذ، والاعتصام بالله استعارة للوذ بدينه، وتقدّم في قوله تعالى {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً} [آل عمران:103].

الإدخال في الرحمة والفضل: عبارة عن الرضى.

{ **وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً** } أي: يهديهم صراطا مستقيما ليصلوا إليه، أي: إلى الله، وذلك هو متمنّاهم، إذ قد علموا أن وعدهم عنده.

{ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [176].

لا مناسبة بين هذه الآية وبين اللاتي قبلها، فوقوعها عقبها لا يكون إلّا لأجل نزولها عقب نزول ما تقدّمها

من هذه السورة مع مناسبتها لآية الكلالة السابقة في أثناء ذكر الفرائض، لأنّ في هذه الآية بيانا لحقيقة الكلالة أشار إليه قوله تعالى { لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ }، وقد تقدّم في أوّل السورة أنّه ألحق بالكلالة المالك الذي ليس له والد، وهو قول الجمهور ومالك بن أنس.

فحكم الكلالة قد بيّن بعضه في آية أول هذه السورة، ثم إن النّاس سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صورة أخرى من صور الكلالة. وثبت في الصحيح أنّ الذي سأله هو جابر بن عبد الله قال: عادني رسول الله وأبو بكر ماشيين في بني سلمة فوجداني مغمى علي فتوضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وصبّ عليّ وضوءه فأفقت وقلت: كيف أصنع في مالي فإنما يرثني كلالة. فنزل قوله تعالى { يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ }. وقد قيل: إنّها نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم متجهّز لحجة الوداع في قضية جابر بن عبد الله.

{ **يستفتونك** } ضمير الجماعة غير مقصود به جمع، بل أريد به جنس السائلين. ويجوز أن يكون السؤال قد تكرّر وكان آخر السائلين جابر بن عبد الله فتأخّر الجواب لمن سأل قبله، وعجّل البيان له لأنّه وقت الحاجة، لأنّه كان يظن نفسه ميتا من ذلك المرض وأراد أن يوصي بماله، فيكون من تأخير البيان إلى وقت الحاجة.

وقد قال عمر بن الخطاب: ما راجعت رسول الله في شيء مراجعتي إيّاه في الكلالة، وما أغلظ لي رسول الله صلى الله عليه وسلم في شيء ما أغلظ لي فيها حتّى طعن في نحري وقال يكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء.

وقد سمّى النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآية بآية الصيف، وعرفت بذلك، كما عرفت آية الكلالة التي في أول السورة بآية الشتاء، وهذا يدلّنا على أنّ سورة النساء نزلت في مدّة متفرقة من الشتاء إلى الصيف وقد تقدّم هذا في افتتاح السورة.

ولا شكّ أن كل فريضة ليس فيها ولد ولا والد فهي كلالة بالاتفاق، فأمّا الفريضة التي ليس فيها ولد وفيها والد فالجمهور أنها ليست بكلالة. وقال بعض المتقدمين: هي كلالة.

{ **اللَّهُ يُفْتِيكُمْ** } للتنويه بشأن الفريضة، فتقديم المسند إليه للاهتمام لا للقصر، إذ قد علم المستفتون أنّ الرسول لا ينطق إلاّ عن وحي، فهم لمّا استفتوه فإنّما طلبوا حكم الله، فإسناد الإفتاء إلى الله تنويه بهذه الفريضة.

والمراد بالأخت هنا الأخت الشقيقة أو التي للأب في عدم الشقيقة بقرينة مخالفة نصيبها لنصيب الأخت للأم المقصودة في آية الكلالة الأولى. وبقرينة قوله { وَهُوَ يَرِثُهَا } لأنّ الأخ للأمّ لا يرث جميع المال إن لم يكن لأخته للأم ولد إذ ليس له إلّا السدس.

{ **وَهُوَ يَرِثُهَا** } فالتقدير: ويرث الأخت امرؤ إن هلكت أخته ولم يكن لها ولد. وعلم معنى الإخوة من قوله

{ وَلَهُ أُخْتٌ }، وهذا إيجاز بديع، ومع غاية إيجازه فهو في غاية الوضوح.

{ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا } امتنان. والمقصود التعليل بنفي الضلال لا لوقوعه، لأنّ البيان ينافي التضليل.

{ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } تذييل. وفي هذه الآية إيذان بختم الكلام وختام السورة.

وتؤذن بختام التنزيل إن صحّ أنّها آخر آية نزلت كما ذلك في بعض الروايات، وإذا صحّ ذلك فلا أرى اصطلاح علماء بلدنا على أن يختموا تقرير دروسهم بقولهم والله أعلم إلا تيمّنا بمحاكاة ختم التنزيل.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المائدة

سمّيت هذه السورة في كتب التفسير وكتب السنّة (**سورة المائدة**) لأنّ فيها قصّة المائدة التي سألها الحواريّون من عيسى عليه السلام، وقد اختصّت بذكرها. واسمها كذلك في مسند أحمد بن حنبل وغيره، وفي كلام عبد الله بن عمر وعائشة أم المؤمنين وأسماء بنت يزيد وغيرهم. فهذا أشهر أسمائها.

وتسمّى (**سورة العقود**)، وتسمّى أيضا (المنقذة).

وهي مدنية باتفاق، روي أنّها نزلت منصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية، بعد سورة الممتحنة، فيكون نزولها بعد الحديبيّة بمدّة، لأنّ سورة الممتحنة نزلت بعد رجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة من صلح الحديبية، وقد جاءته المؤمنات مهاجرات، وطلب منه المشركون إرجاعهنّ إليهم عملا بشروط الصلح، فأذن الله للمؤمنين بعدم إرجاعهنّ بعد امتحانهنّ.

وهنالك روايات كثيرة أنّها نزلت عام حجة الوداع.

ويظهر عندي أنّ هذه السورة نزل بعضها بعد بعض سورة النساء، وفي ذلك ما يدلّ على أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استقام له أمر العرب وأمر المنافقين ولم يبق في عناد الإسلام إلاّ اليهود والنصارى. أمّا اليهود فلأنّهم مختلطون بالمسلمين في المدينة وما حولها، وأمّا النصارى فلأن فتوح الإسلام قد بلغت تخوم ملكهم في حدود الشام.

وقد امتازت هذه السورة باتساع نطاق المجادلة مع النصارى، واختصار المجادلة مع اليهود، عمّا في سورة النساء، ممّا يدلّ على أنّ أمر اليهود أخذ في تراجع ووهن، وأنّ الاختلاط مع النصارى أصبح أشدّ منه من ذي قبل.

وفي سورة النساء تحريم السكر عند الصلوات خاصة، وفي سورة المائدة تحريمه بتاتا، فهذا متأخر عن بعض سورة النساء لا محالة. وليس يلزم أن لا تنزل سورة حتى ينتهي نزول أخرى بل يجوز أن تنزل سورتان في مدة واحدة.

وهي، أيضا، متأخّرة عن سورة التوبة، لأنّ التوبة تشتمل على كثير من أحوال المنافقين وسورة المائدة لا تذكر من أحوالهم إلّا مرة، وذلك يؤذن بأنّ النفاق حين نزولها قد انقطع أو خُضّدت شوكة أصحابه.

وإذ قد كانت سورة التوبة نزلت في عام حجّ أبي بكر بالناس (سنة تسع من الهجرة) فلا جرم أنّ بعض سورة المائدة نزلت في عام حجّة الوداع، وحسبك دليلا اشتمالها على آية { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ } [3] التي

اتفق أهل الأثر على أنّها نزلت يوم عرفة، عام حجّة الوداع، كما في خبر عن عمر بن الخطاب.

وفيها قوله تعالى { الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ } [3]، وفي خطبة حجّة الوداع يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : **" إنّ الشيطان قد يئس أن يعبد في بلدكم هذا ولكنّه قد رضي بما دون**

ذلك مما تحقرون من أعمالكم ".

وقد عدّت السورة الحادية والتسعين في عدد السور على ترتيب النزول. نزلت بعد سورة الأحزاب وقبل سورة الممتحنة.

وعدد آيها مائة واثنتان وعشرون في عدد الجمهور، ومائة وثلاث وعشرون في عد البصريين، ومائة وعشرون عند الكوفيين.

وجعلت هذه السورة في المصحف قبل سورة الأنعام مع أن سورة الأنعام أكثر منها عدد آيات، لعلّ ذلك لمراعاة اشتمال هذه السورة على أغراض تشبه ما اشتملت عليه سورة النساء عونا على تبيين إحداهما للأخرى في تلك الأغراض.

أغراض السورة

*/ احتوت هذه السورة على تشريعات كثيرة تنبئ بأنّها أنزلت لاستكمال شرائع الإسلام، ولذلك افتتحت بالوصاية بالوفاء بالعقود، أي: بما عاقدوا الله عليه حين دخولهم في الإسلام من التزام ما يؤمرون به.

*/ احتوت على تمييز الحلال من الحرام في المأكولات.

*/ حفظ شعائر الله في الحجّ والشهر الحرام، والنهي عن بعض المحرّمات من عوائد الجاهلية مثل الأزلام. */ فيها شرائع الوضوء، والغسل، والتيمم.

*/ الأمر بالعدل في الحكم، والأمر بالصدق في الشهادة.

*/ أحكام القصاص في الأنفس والأعضاء، وأحكام الحرابة.

*/ تسلية الرّسول صلى الله عليه وسلم عن نفاق المنافقين.

*/ تحريم الخمر والميسر.

*/ الأيمان وكفارتها.

*/ الحكم بين أهل الكتاب، وأصول المعاملة بين المسلمين، وبين أهل الكتاب، وبين المشركين والمنافقين، والخشية من ولايتهم أن تفضي إلى ارتداد المسلم عن دينه.

*/ إبطال العقائد الضالة لأهل الكتابين، وذكر مساو من أعمال اليهود.

*/ إنصاف النصارى فيما لهم من حسن الأدب وأنّهم أرجى للإسلام.

*/ ذكر قضية التيه، وأحوال المنافقين.

*/ الأمر بتخلّق المسلمين بما يناقض أخلاق الضالين في تحريم ما أحل لهم.

*/ التنويه بالكعبة وفضائلها وبركاتها على الناس، وما تخلّل ذلك أو تقدمه من العبر.

*/ التذكير للمسلمين بنعم الله تعالى، والتعريض بما وقع فيه أهل الكتاب من نبذ ما أمروا به والتهاون فيه، واستدعاؤهم للإيمان بالرّسول الموعود به.

*/ ختمت بالتذكير بيوم القيامة، وشهادة الرسل على أممهم، وشهادة عيسى على النصارى، وتمجيد الله تعالى.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ } [1].

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ } تصدير السورة بالأمر بالإيفاء بالعقود مؤذن بأن سترد بعده أحكام وعقود كانت عُقدت من الله على المؤمنين إجمالا وتفصيلا، ذكّرهم بها لأنّ عليهم الإيفاء بما عاقدوا الله عليه.

فالتعريف في العقود تعريف الجنس للاستغراق، فشمل العقود التي عاقد المسلمون عليها ربّهم وهو الامتثال لشريعته، ومثل ما كان يبايع عليه الرّسول المؤمنين أن لا يشركوا بالله شيئا ولا يسرقوا ولا يزنوا، وشمل العقود التي عاقد المسلمون عليها المشركين، ويشمل العقود التي يتعاقدها المسلمون بينهم.

الإيفاء: هو إعطاء الشيء وافيا، أي: غير منقوص. وتقدّم عند قوله تعالى { فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ } [النساء:173].

العقود: جمع عَقد، وهو الالتزام الواقع بين جانبين في فعل ما. وحقيقته ربط الحبل، استعمل مجازا في الالتزام، فغلب استعماله حتى صار حقيقة عرفيّة.

فالعهود عقود، والتحالف من العقود، والتبايع والمؤاجرة ونحوهما من العقود، وهي المراد هنا. ودخل في ذلك الأحكام التي شرعها الله لأنّها كالعقود.

وفي اصطلاح الفقهاء على: " إنشاء تسليم أو تحمّل من جانبين". والعقود كلّها تحتاج إلى إيجاب وقبول. والأمر بالإيفاء بالعقود يدلّ على وجوب ذلك، فتعيّن أنّ إيفاء العاقد بعقده حق عليه، فلذلك يقضى به عليه.

{ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ }

قال الزمخشري: الكلام تفصيل لمجمل قوله تعالى { أَوْفُوا بِالْعُقُودِ }.

والقول عندي أنّ جملة { أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ } تمهيد لما سيرد بعدها من المنهيّات، كقوله تعالى { غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ } وقوله تعالى { وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى }، التي هي من عقود شريعة الإسلام، فكان الابتداء بذكر بعض المباح امتنانا وتأنيسا للمسلمين، ليتلقوا التكاليف بنفوس مطمئنة.

<u>فالمعنى</u>: إن حرّمنا عليكم أشياء فقد أبحنا لكم أكثر منها، وإن ألزمناكم أشياء فقد جعلناكم في سعة من أشياء أوفر منها، ليعلموا أنّ الله ما يريد منهم إلاّ صلاحهم واستقامتهم.

البهيمة: الحيوان البرّي من ذوي الأربع إنسيّها ووحشيّها، عدا السباع، فتشمل بقر الوحش والظباء.

{ **بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ** } من إضافة العام للخاص، وهي بيانيّة كقولهم: مدينة بغداد. فالمراد الأنعام خاصة، لأنّها غالب طعام النّاس، وهي أيضا لدفع توهّم أن يراد من الأنعام خصوص الإبل، لغلبة إطلاق اسم الأنعام عليها، فذكرت { بَهِيمَةُ } لشمول أصناف الأنعام الأربعة: الإبل، والبقر، والغنم، والمعز.

{ **إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ** } استثناء من عموم الذوات والأحوال، وما يتلى هو ما سيفصّل.

الحَرَم: هو المكان المحدود المحيط بمكّة من جهاتها على حدود معروفة، وهو الذي لا يصاد صيده ولا يعضد شجره ولا تحلّ لقطته، وهو الذي حدّده إبراهيم عليه السلام ونصب أنصابا تعرف بها حدوده، فاحترمه العرب، وكان قُصيّ قد جدّدها. ولمّا كان عام فتح مكّة بعث النبيّ عليه الصلاة والسلام تميما بن أسد الخزاعي فجدّدها. ثمّ أحياها وأوضحها عمر بن الخطاب في خلافته سنة سبع عشرة.

فهذا الحَرَم يحرم صيده، كما يحرم الصيد على المحرم بحج أو عمرة.

{ **وَأَنْتُمْ حُرُمٌ** } يجوز أن يراد به محرمون، فيكون تحريما للصيد على المحرم، سواء كان في الحرم أم في غيره، ويكون تحريم صيد الحرم لغير المحرم ثابتا بالسنّة، ويجوز أن يكون المراد به، محرمون وحالون في الحرم، ويكون من استعمال اللفظ في معنيين يجمعهما قدر مشترك بينهما وهو الحرمة.

الصيد: بمعنى المصدر، إمساك الحيوان الذي لا يألف، باليد أو بوسيلة ممسكة، أو جارحة؛ كالشباك، والحبائل، والرماح، والسهام، والكلاب، والبُزاة، وبمعنى المفعول هو المصيد.

{ **إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ** } تعليل لقوله تعالى { أَوْفُوا بِالْعُقُودِ }، أي: لا يصرفكم عن الإيفاء بالعقود أن يكون فيما شرعه الله لكم شيء من ثقلٍ عليكم، لأنّكم عاقدتم على عدم العصيان، وعلى السمع والطاعة لله، والله يحكم ما يريد لا ما تريدون أنتم. والمعنى: أنّ الله أعلم بصالحكم منكم.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } [2].

توجيه الخطاب إلى الذين آمنوا مع أنّهم لا يظنّ بهم إحلال المحرمات، يدلّ على أنّ المقصود النّهي عن الاعتداء على الشعائر الإلهية التي يأتيها المشركون كما يأتيها المسلمون.

{ **لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ** } لا تحلّوا المحرّم منها بين النّاس، وإلاّ فمن شعائر الله ما هو حلال كالحلق، ومنها ما هو واجب. والمحرّمات معلومة.

الشعائر: جمع شعيرة، تقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ } [البقرة:158].

وقد كانت الشعائر كلّها معروفة لديهم، فلذلك عدل عن عدّها هنا.

وهي أمكنة، وأزمنة، وذوات:

فالصفا، والمروة، والمشعر الحرام، من الأمكنة. وقد مضت في سورة البقرة.

والشهر الحرام من الشعائر الزمانيّة.

والهدي والقلائد من الشعائر الذوات.

{ **الشَّهْرَ الْحَرَامَ** } أي: الأشهر الحرم الأربعة التي في قوله تعالى { مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ } [التوبة: 36]. وقال ابن عطيّة: الأظهر أنّه أريد رجب خاصّة، ليشتدّ أمر تحريمه إذ كانت العرب غير مجمعة عليه، فلذلك كان يُعرف برجب مضر، فلم تكن ربيعة ولا إياد ولا أنمار يحرّمونه. وكان يقال له: شهر بني أميّة أيضا، لأنّ قريشا حرموه قبل جميع العرب فتبعتهم مضر كلّها.

الهدي: هو ما يهدى إلى مناسك الحجّ لينحر في المنحر من منى، أو بالمروة، من الأنعام.

القلائد: جمع قلادة وهي ظفائر من صوف أو وبر، يربط فيها نعلان أو قطعة من لحاء الشجر، وتوضع في أعناق الهدايا مشبهة بقلائد النساء، والمقصود منها أن يعرف الهدي فلا يتعرّض له بغارة أو نحوها. وقد كان بعض العرب إذا تأخّر في مكّة حتّى خرجت الأشهر الحرم، وأراد أن يرجع إلى وطنه، وضع في عنقه قلادة

من لحاء شجر الحرم فلا يُتعرّض له بسوء.

ووجه عطف القلائد على الهدي، المبالغة في احترامه بحيث يحرم الاعتداء على قلادته بله ذاته.

على أن القلائد مما يُنتفع به، إذ كان أهل مكّة يتخذون من القلائد نعالا لفقرائهم، كما كانوا ينتفعون بجلال البدن، وهي شقق من ثياب توضع على كفل البدنة، فيتخذون منها قمصا لهم وأزرا، فلذلك كان النهي عن إحلالها كالنهي عن إحلال الهدي، لأنّ في ذلك تعطيل مصالح سكان الحرم الذين استجاب الله فيهم دعوة إبراهيم إذ قال { فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النّاس تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ } [إبراهيم:37].

{ **وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ** } عطف على { شَعَائِرِ اللَّهِ }، أي: ولا تحلّوا قاصدي البيت الحرام وهم الحجّاج، فالمراد قاصدوه لحجّة، ولذلك لم يقل: ولا آمين مكة. ولا شكّ أنّ المراد آمّين البيت من المشركين، لأنّ آمين البيت من المؤمنين محرم أذاهم في حالة قصد البيت وغيرها من الأحوال.

{ **يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ** } صفة لـ { آمِّينَ } من قصدهم ابتغاء فضل الله ورضوانه، إيماء إلى سبب حرمة آمّي البيت الحرام. وقد نهى الله عن التعرّض للحجيج بسوء لأنّ الحجّ ابتغاء فضل الله ورضوانه. ووجه النّهي عن التعرّض للحجيج بسوء، وإن كانوا مشركين، أنّ الحالة التي قصدوا فيها الحجّ وتلبّسوا عندها بالإحرام، حالة خير وقرب من الإيمان بالله وتذكّر نعمه.

الفضل: خير الدنيا، وهو صلاح العمل.

الرضوان: رضى الله تعالى عنهم. وهو ثواب الآخرة.

{ **وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا** } لقصد تأكيد الإباحة. فالأمر فيه للإباحة، وليس هذا من الأمر الوارد بعد النهي،

وإنّما هو نهي مؤقّت وإباحة في بقية الأوقات. فلا يجري هنا ما ذكر في أصول الفقه من الخلاف في مدلول صيغة الأمر الوارد بعد حظر؛ أهو الإباحة أو الندب أو الوجوب؟ فالصيد مباح بالإباحة الأصلية، وقد حُرّم في حالة الإحرام، فإذا انتهت تلك الحالة رجع إلى إباحته.

{ **وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا** } عطف على قوله تعالى { لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ } لزيادة تقرير مضمونه، أي: لا تحلّوا شعائر الله ولو مع عدوّكم إذا لم يبدأوكم بحرب.

{ **يَجْرِمَنَّكُمْ** } يكسبنّكم، يقال: جرَمه يجرمه، مثل ضرب. من جرم النخلة إذا جذّ عراجينها، فلمّا كان الجرم لأجلّ الكسب شاع إطلاق جرم بمعنى كسب، قالوا: جرم فلان لنفسه كذا، أي: كسب.

الشنآن: (بفتح الشين وفتح النون في الأكثر)، هو البغض، وقيل: شدّة البغض، وهو المناسب.

المسجد الحرام: اسم جعل عَلَما بالغلبة على المكان المحيط بالكعبة المحصور ذي الأبواب، وهو اسم إسلامي لم يكن يُدعى بذلك في الجاهلية، لأنّ المسجد مكان السجود ولم يكن لأهل الجاهلية سجود عند الكعبة. وقد تقدّم عند قوله تعالى { فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } [البقرة:144].

{ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** }.

تعليل للنّهي الذي في قوله تعالى { وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ }، يعني: أنّ واجبكم أن تتعاونوا بينكم على فعل البرّ والتقوى، وإذا كان هذا واجبهم فيما بينهم، فلا جرم أن يُعينوا عليها كل ساع إليها، ولو كان عدّوا، والحجّ برّ فأعينوا عليه وعلى التقوى. فلعلّ تكرّر فعله يقرّبهم من الإسلام. فالضمير والمفاعلة في قوله تعالى { تَعَاوَنُوا } للمسلمين. وهذا قبل نزول قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا } [التوبة:28]

{ **وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**} تأكيد لمضمون { وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى }.

{ **وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** } تذييل وتعريض بالتهديد.

{ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [3].

استئناف بياني لما ليس بحلال من الأنعام. ومعنى تحريم هذه المذكورات، تحريم أكلها، وأدمج فيها نوع من الحيوان ليس من أنواع الأنعام وهو الخنزير، لاستيعاب محرمات الحيوان. وهذا الاستيعاب دليل لإباحة ما سوى ذلك. إلاّ ما ورد في السنة من تحريم الحمر الأهلية، على اختلاف بين العلماء.

والظاهر أنّ تحريم الحمر الأهليّة منظور فيه إلى حالة لا إلى الصنف. وألحق مالك بها الخيل والبغال قياسا، وهو قول أبي حنيفة خلافا لصاحبيه. وقال الشافعي وأبو يوسف ومحمد: " يجوز أكل الخيل ". وثبت في الصحيح، عن أسماء بنت أبي بكر قالت: " ذبحنا فرسا على عهد رسول الله فأكلناه ". ولم يذكر أن ذلك منسوخ. وعن جابر ابن عبد الله أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم: " نهى يوم خيبر عن لحوم الحمر ورخّص في لحوم الخيل ".

فقيل: لأنّ الحمر كانت حمولتهم في تلك الغَزاة. وقيل: نهى عنها أبدا. وقال ابن عباس بإباحتها. فليس لتحريم هذه الثلاثة على الإطلاق وجه بيّن من الفقه ولا من السنّة.

الميتة: الحيوان الذي زالت منه الحياة، وعلّة تحريمها أنّ الموت ينشأ عن علل يكون معظمها مضرّا بسبب العدوى، وتمييز ما يعدي عن غيره عسير، ولأنّ الحيوان الميّت لا يدرى غالبا مقدار ما مضى عليه في حالة الموت، فربما مضت مدة تستحيل معها منافع لحمه ودمه مضار، فنيط الحكم بغالب الأحوال وأضبطها.

الدم: هنا هو الدم المُهراق،أي: المسفوح، وهو الذي يمكن سيلانه، والظاهر أنّ علّة تحريمه القذارة، لأنّه يكتسب رائحة كريهة عند لقائه الهواء، ولذلك قال كثير من الفقهاء بنجاسة عينه. أو لأنّه يحمل ما في جسد الحيوان من الأجزاء المضرّة التي لا يحاط بمعرفتها. أو لما يحدثه تعوّد شرب الدم من الضراوة التي تعود على الخُلُق الإنساني بالفساد. وقد كانت العرب تأكل الدم.

وتقدم تفصيل ذلك عند قوله تعالى { إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ } [البقرة:173].

{ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ } ولم يقل والخنزير، ولم يذكر تحريم الخنزير في جميع آيات القرآن إلاّ بإضافة لفظ لحم إلى الخنزير. وقد بيّنا ذلك في نظير هذه الجملة من [البقرة:173].

ويبدو لي أنّ إضافة لفظ لحم إلى الخنزير للإيماء إلى أنّ المحرّم أكل لحمه، لأنّ اللّحم إذا ذكر له حكم فإنّما يراد به أكله. وهذا إيماء إلى أنّ ما عدا أكل لحمه من أحوال استعمال أجزائه هو فيها كسائر الحيوان في طهارة شعره، إذا انتزع منه في حياته بالجز، وطهارة عرقه وطهارة جلده بالدبغ، إذا اعتبرنا الدبغ مطهّرا جلد الميتة، اعتبارا بأنّ الدبغ كالذكاة. وقد روي القول بطهارة جلد الخنزير بالدبغ عن داود الظاهري وأبي يوسف، أخذا بعموم قوله صلى الله عليه وسلم: **" أيّما إهاب دبغ فقد طهر"** [مسلم والترمذي عن ابن عباس].

{ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ } هو ما سمّي عليه عند الذبح اسم غير الله. وكانوا إذا ذبحوا القرابين للأصنام نادوا عليها باسم الصنم فقالوا: باسم اللات، باسم العزى.

الإهلال: الجهر بالصوت ومنه الإهلال بالحجّ، وهو التلبية الدالة على الدخول في الحجّ، ومنه استهلّ الصبي صارخا. قيل: مشتق من اسم الهلال، لأنّ العرب كانوا إذا رأوا هلال أوّل ليلة من الشهر رفعوا أصواتهم بذلك ليعلم النّاس ابتداء الشهر.

{ **الْمُنْخَنِقَةُ** } هي التي عرض لها ما يخنقها، وقد كانوا يربطون الدابة عند خشبة فربما تخبطت فانخنقت ولم يشعروا بها، ولم يكونوا يخنقونها عند إرادة قتلها. ولذلك قيل هنا: المنخنقة، ولم يقل المخنوقة. وحكمة تحريمها، أنّ الموت بانحباس النفس يفسد الدم باحتباس الحوامض الفحميّة الكائنة فيه فتصير أجزاء اللحم المشتمل على الدم مضرّة لآكله.

{ **الْمَوْقُوذَةُ** } المضروبة بحجر أو عصا ضربا تموت به دون إهراق الدم، وهو اسم مفعول من وقذ إذا ضرب ضربا مثخِنا. وحكمة تحريمها تماثل حكمة تحريم المنخنقة.

{ **الْمُتَرَدِّيَةُ** } هي التي سقطت من جبل أو سقطت في بئر ترديا تموت به، والحكمة واحدة.

{ **النَّطِيحَةُ** } والمراد التي نطحتها بهيمة أخرى فماتت.

{ **مَا أَكَلَ السَّبُعُ** } أي: بهيمة أكلها السبع، والسبع كل حيوان يفترس الحيوان كالأسد والنمر والضبع والذئب والثعلب، فحُرّم على النّاس كل ما قتله السبع.

{ **إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ** } تعيّن رجوع الاستثناء لما عدا لحم الخنزير، إذ لا معنى لتحريم لحمه إذا لم يذك وتحليله إذا ذكّي، لأنّ هذا حكم جميع الحيوان عند قصد أكله. ثم إنّ الذكاة حالة تقصد لقتل الحيوان فلا تتعلق بالحيوان الميّت، فعُلم عدم رجوع الاستثناء إلى الميتة لأنّه عبث، وكذلك إنّما تتعلّق الذكاة بما فيه حياة فلا معنى لتعلّقها بالدم، وكذا ما أهل لغير الله به، لأنّهم يهلّون به عند الذكاة، فلا معنى لتعلّق الذكاة بتحليله، فتعيّن أن المقصود بالاستثناء: المنخنقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة، وما أكل السبع، فإنّ هذه المذكورات تعلّقت بها أحوال تفضي بها إلى الهلاك، فإذا هلكت بتلك الأحوال لم يبح أكلها لأنّها حينئذ ميتة، وإذا تداركوها بالذكاة قبل الفوات أبيح أكلها. وهذا البيان ينبّه إلى وجه الحصر في قوله تعالى { قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ } [الأنعام:145] فذكر أربعة لا تعمل الذكاة فيها شيئا ولم يذكر المنخنقة والموقوذة وما عطف عليها هنا، لأنّها تحرم في حال اتصال الموت بالسبب لا مطلقا.

{ **وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ** } هو ما كانوا يذبحونه من القرابين والنُّشُرات فوق الأنصاب. والنُصُب الحجر المنصوب، وهو قد يطلق بما يرادف الصنم، والأصح أنّ النصب هو حجارة غير مقصود منها أنّها تمثال للآلهة، بل هي موضوعة لأن تذبح عليها القرابين والنسائك التي يتقرّب بها للآلهة وللجنّ، فإنّ الأصنام كانت معدودة ولها أسماء وكانت في مواضع معينة تقصد للتقرّب. وأمّا الأنصاب فلم تكن معدودة ولا كانت لها أسماء وإنّما كانوا يتّخذها كل حي يتقرّبون عندها.

فقد روى أئمة أخبار العرب: أنّ العرب كانوا يعظّمون الكعبة، وهم ولد إسماعيل، فلمّا تفرّق بعضهم وخرجوا من مكة عظم عليهم فراق الكعبة فقالوا: الكعبة حجر، فنحن ننصب في أحيائنا حجارة تكون لنا بمنزلة الكعبة، فنصبوا هذه الأنصاب، وكانوا يطلبون لذلك أحسن الحجارة.

{ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلامِ } الشأن في العطف التناسب بين المتعاطفات، فلا جرم أنّ هذا المعطوف من نوع المتعاطفات التي قبله، وهي المحرّم أكلها. فالمراد هنا النهي عن أكل اللحم الذي يستقسمون عليه بالأزلام، وهو لحم جزور الميسر لأنّه حاصل بالمقامرة.

ومن الاستقسام بالأزلام، ضرب آخر كانوا يفعلونه في الجاهلية يتطلّبون به معرفة عاقبة فعل يريدون فعله؛ هل هي النجاح والنفع أو هي خيبة وضر.

الأزلام: جمع زَلَم، ويقال له: قِدْح، وهو سهم لا حديدة فيه.

واستقسام الميسر تقدّم الكلام عليها عند قوله تعالى { يَسْأَلونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ } [البقرة:219].

وكان مقتضى الظاهر أن يقال: وما استقسمتم عليه بالأزلام، فغُيّر الأسلوب وعدل إلى { وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلامِ }، ليكون أشمل للنّهي عن طريقتي الاستقسام كلتيهما، وذلك إدماج بديع.

{ ذَلِكُمْ فِسْقٌ } راجعة إلى { أَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلامِ }، والفسق: الخروج عن الدين، وعن الخير، وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ } [البقرة:26].

وجعل الله الاستقسام فسقا لأنّ منه ما هو مقامرة، وفيه ما هو من شرائع الشرك، لتطلّب المسبّبات من غير أسبابها، إذ ليس الاستقسام سببا عاديا مضبوطا، ولا سببا شرعيا، فتمحّض لأن يكون افتراء على الله، لأنّ الله نصب لمعرفة المسببات أسبابا عقلية، هي العلوم والمعارف المنتزعة من العقل، أو من أدلته كالتجربة، وجعل أسبابا لا تعرف سببيّتها إلاّ بتوقيف منه على لسان الرسل، كجعل الزوال سببا للصلاة، وما عدا ذلك كذب وبهتان، فمن أجل ذلك كان فسقا. ولذلك قال فقهاؤنا بجرحة من ينتحل ادعاء معرفة الغيوب.

وليس من ذلك تعرّف المسببات من أسبابها كتعرّف نزول المطر من السحاب.

{ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ }.

جملة وقعت معترضة بين آية المحرمّات المتقدمة، وبين آية الرخصة الآتية، وهي قوله تعالى { فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ }، والمناسبة في هذا الاعتراض، هي أنّ الله لمّا حرم أمورا كان فعلها من جملة دين الشرك، وهي ما أهل لغير الله به، وما ذبح على النصب، وتحريم الاستقسام بالأزلام، وكان في كثير منها تضييق عليهم بمفارقة معتادهم، والتقليل من أقواتهم، أعقب هذه الشدّة بإيناسهم بتذكير أنّ هذا كلّه إكمال لدينهم، وإخراج لهم من أحوال ضلال الجاهليّة، وأنّهم كما أُيّدوا بدين عظيم سمح فيه صلاحهم، فعليهم أن يقبلوا ما فيه من الشدّة الراجعة إلى إصلاحهم، فالبعض مصلحته راجعة إلى المنافع البدنيّة، والبعض مصلحته راجعة إلى الترفّع عن حضيض الكفر، وهو ما أهل به لغير الله، وما ذبح على النصب.

وذُكِّروا بالنعمة، على عادة القرآن في تعقيب الشدة باللين.

وكان المشركون، زمانا، إذا سمعوا أحكام الإسلام رجوا أن تثقل على المسلمين فيرتدّوا عن الدين، ويرجعوا إلى الشرك، كما قال المنافقون { لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا } [المنافقون:7].

فلمّا نزلت هذه الأحكام أنزل الله هذه الآية بشارة للمؤمنين، ونكاية بالمشركين.

قيل نزلت الآية يوم عرفة في حجة الوداع مع الآية التي تأتي عقبها، وهو ما رواه الطبري عن ابن زيد وجمع، ونسبه ابن عطية إلى عمر بن الخطاب، وهو الأصح.

{ **الْيَوْمَ** } يجوز أن يراد به اليوم الحاضر، وهو يوم نزول الآية، يوم حجّة الوداع مع الآية التي بعدها، كما يؤيّده قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبته يومئذ في قول كثير من أصحاب السير: " **أيها النّاس إن الشيطان قد يئس أن يعبد في بلدكم هذا ولكنه قد رضي منكم بما دون ذلك فيما تحقّرون من أعمالكم فاحذروه على أنفسكم** ".

{ **يَئِسَ** } يتعدى بـ (من) إلى الشيء الذي كان مرجوا من قبل، أي: يئسوا من أمر دينكم، يعني: الإسلام، ومعلوم أنّ الأمر الذي كانوا يطمعون في حصوله، هو فتور انتشار الدين وارتداد متّبعيه عنه.

{ **فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ** } لأنّ يأس العدّو من نوال عدوّه يزيل بأسه، ويذهب حماسه، ويقعده عن طلبه. وفي الحديث: " **نُصرت بالرعب** ". فلمّا أخبر عن يأسهم طمَّن المسلمين من بأس عدوّهم. وهذه نظيره قوله الآتي { فَلا تَخْشَوُا النّاس وَاخْشَوْنِ } [44].

{ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً** } نزلت والتي قبلها يوم الحجّ الأكبر،عام حجة الوداع، وهو ما رواه الطبري عن ابن زيد وآخرين. وفي كلام ابن عطية أنه منسوب إلى عمر بن الخطاب، وذلك هو الراجح الذي عوّل عليه أهل العلم، وهو الأصل في موافقة التلاوة للنزول، فيكون اليوم المذكور في هذه وفي التي قبلها يوما واحدا، وكانت هذه الجملة تعدادا لمنّة أخرى، وكان فصلها عن التي قبلها جاريا على سَنن الجمل التي تساق للتعداد في منّة أو توبيخ.

الدين: ما كلّف الله به الأمّة من مجموع العقائد، والأعمال، والشرائع، والنظم. وقد تقدّم بيان ذلك عند قوله تعالى { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ } [آل عمران:19].

فإكمال الدين هو إكمال البيان المراد لله تعالى الذي اقتضت الحكمة تنجيمه، فكان بعد نزول أحكام الاعتقاد، التي لا يسع المسلمين جهلها، وبعد تفاصيل أحكام قواعد الإسلام التي آخرها الحجّ بالقول والفعل، وبعد بيان شرائع المعاملات وأصول النظام الإسلامي، كان بعد ذلك كلّه أن تمّ البيان المراد لله تعالى في قوله { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ } [النحل:89]، وقوله تعالى { لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ } [النحل:44]، بحيث صار مجموع التشريع الحاصل بالقرآن والسنة، كافيا في هدي الأمّة في عبادتها، ومعاملتها، وسياستها، في سائر عصورها، بحسب ما تدعو إليه حاجاتها.

فما نجده في هذه السورة من الآيات، بعد هذه الآية، مما فيه تشريع أنف مثل جزاء صيد المحرم، نجزم بأنها نزلت قبل هذه الآية وأنّ هذه الآية لمّا نزلت أُمر بوضعها في هذا الموضع. وعن ابن عباس: " لم ينزل على النبيّ بعد ذلك اليوم تحليل ولا تحريم ولا فرض". ولذلك لا يصحّ أن يكون المراد من الدين القرآن.

{ **وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي** } إتمام النعمة: هو خلوصها ممّا يخالطها من الحرج والتعب. وظاهره أنّ الجملة معطوفة على جملة { أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ } فيكون متعلّقا للظرف وهو اليوم، فيكون تمام النعمة حاصلا يوم نزول هذه الآية. وإتمام هذه النعمة هو زوال ما كانوا يلقونه من الخوف، فمكّنهم من الحجّ آمنين.

وقد كانوا من قبل في نعمة فأتمّها عليهم.

وظاهر العطف يقتضي أنّ تمام النعمة منّة أخرى غير إكمال الدين، وهي نعمة النصر، والأخوة، وما نالوه من المغانم، فهو عطف عام على خاص.

{ **وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً** } الرضى بالشيء الركون إليه وعدم النفرة منه، ويقابله السخط، فقد يرضى أحد شيئا لنفسه فيقول: رضيت بكذا، وقد يرضى شيئا لغيره، فهو بمعنى اختياره له، واعتقاده مناسبته له، فيعدّى باللام، للدلالة على أنّ رضاه لأجل غيره، كما تقول: اعتذرت له. وفي الحديث: " **إن الله يرضى لكم ثلاثا** ".

وقد يدلّ قوله تعالى { وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً } على أنّ هذا الدين دين أبدي، لأنّ الشيء المختار المدخّر لا يكون إلاّ أنفس ما أظهر من الأديان، والأنفس لا يبطله شيء، إذ ليس بعده غاية، فتكون الآية مشيرة إلى أنّ نسخ الأحكام قد انتهى.

{ **فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** }.

جعلها المفسّرون مرتبطة بآية تحريم الميتة وما عطف عليها من المأكولات، من غير تعرّض إلى انتظام نظم هذه الآية مع التي قبلها. وقد انفرد صاحب الكشاف ببيان ذلك فجعل ما بين ذلك اعتراضا.

والأحسن عندي أن يكون موقع { فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ } متصلا بقوله { وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً }، اتصال المعطوف بالمعطوف عليه، والفاء للتفريع، تفريع منّة جزئية على منّة كلية، فناسب أن تعطف هاته التوسعة وتُفرَّع على قوله تعالى { وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً }.

الاضطرار: الوقوع في الضرورة، وتقدّم عند قوله تعالى { ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّار } [البقرة:126].

المخمصة: المجاعة، اشتقت من الخَمَص وهو ضمور البطن، لأنّ الجوع يضمر البطون، وفي الحديث الشريف: " **تغدو خماصا وتروح بطانا** ".

التجانف: التمايل، والجنف، الميل، قال تعالى { فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً } [البقرة:182].

{ **غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ** } أي: غير باغ ولا عاد على النّاس ولا على أحكام الدين. وهذا بمنزلة قوله تعالى { فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ } [البقرة:173].

{ **فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } التقدير: فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فله تناول ذلك، إنّ الله غفور.

{ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ } [4].

{ **يَسْأَلونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ** } استئناف ابتدائي، للانتقال من بيان المحرّمات إلى بيان الحلال بالذات، وإن كان السؤال لم يقع، وإنّما قُصد به توقّع السؤال، كأنّه قيل: إن سألوك، فالإتيان بالمضارع بمعنى الاستقبال، لتوقّع أن يسأل النّاس عن ضبط الحلال، لأنّه مما تتوجّه النفوس إلى الإحاطة به، وإلى معرفة ما عسى أن يكون قد حُرّم عليهم من غير ما عُدّد لهم في الآيات السابقة.

وقد بيّنا في مواضع، منها قوله تعالى { يَسْأَلونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ } [البقرة:189]، أنّ صيغة { يَسْأَلونَكَ } في القرآن تحتمل الأمرين:

<u>فعلى الوجه الأوّل</u>: يكون الجواب قد حصل ببيان المحرّمات أوّلا ثم ببيان الحلال، أو ببيان الحلال فقط، إذا كان بيان المحرّمات سابقا على السؤال.

<u>وعلى الوجه الثاني</u>: قد قُصد الاهتمام ببيان الحلال بوجه جامع، فعنون الاهتمام به بإيراده بصيغة السؤال المناسب لتقدّم ذكره.

{ **الطَّيِّبَاتُ** } صفة لمحذوف معلوم من السياق، أي: الأطعمة الطيّبة. وأصل معنى الطيّب، الطهارة والزكاء والوقع الحسن في النفس عاجلا وآجلا، فالشيء المستلذّ إذا كان وَخِمًا لا يُسمَّى طيّبا، لأنّه يعقب ألما أو ضرّا، ولذلك كان طيّب كل شيء أن يكون من أحسن نوعه وأنفعه. وقد أطلق الطيّب على المباح شرعا، لأنّ إباحة الشرع الشيء علامة على حسنه وسلامته من المضرّة. قال تعالى { كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً } [البقرة:168].

وقد اختلفت أقوال السلف في ضبط وصف الطيّبات، فعن مالك: " الطيّبات الحلال ". ويتعيّن أن يكون مراده، أنّ الحلّ هو المؤذن بتحقّق وصف الطيب في الطعام المباح، لأنّ الوصف الطيب قد يخفى.

فيتعيّن أن يكون قوله تعالى { أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ } أريد به الامتنان والإعلام بأنّ ما أحلّه الله لهم فهو طيّب، إبطالا لما اعتقدوه في زمن الشرك، من تحريم ما لا موجب لتحريمه، وتحليل ما هو خبيث. ويدلّ لذلك تكرّر ذكر الطيّبات مع ذكر الحلال في القرآن، مثل قوله تعالى { الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ } [المائدة:5]، وقوله تعالى { وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ } [الأعراف:157].

والذي يظهر لي، أنّ الله قد ناط إباحة الأطعمة بوصف الطيّب فلا جرم أن يكون ذلك منظورا فيه إلى ذات الطعام، وهو أن يكون غير ضار ولا مستقذر ولا مناف للدين، وأمارة اجتماع هذه الأوصاف أن لا يحرّمه الدين، وأن يكون مقبولا عند جمهور المعتدلين من البشر، من كلّ ما يعدّه البشر طعاما غير مستقذر، بقطع النظر عن العوائد والمألوفات، وعن الطبائع المنحرفات. ونحن نجد أصناف البشر يتناول بعضهم بعض المأكولات من حيوان ونبات، ويترك بعضهم ذلك. فمن العرب من يأكل الضب واليربوع والقنافذ، ومنهم من لا يأكلها. ومن الأمم من يأكل الضفادع والسلاحف والزواحف ومنهم من يتقذّر ذلك. والشريعة أوسع من ذلك كلّه فلا يقضي فيها طبع فريق على فريق. والمحرّمات فيها من الطعوم ما يضر تناوله بالبدن أو العقل كالسموم والخمور والمخدرات كالأفيون والحشيشة المخدرة، وما هو نجس الذات بحكم الشرع، وما هو مستقذر كالنخامة وذرق الطيور وأرواث النعام، وما عدا ذلك لا تجد فيه ضابطا للتحريم إلاّ المحرّمات بأعيانها، وما عداها فهو في قسم الحلال لمن شاء تناوله. والقول بأن بعضها حلال دون بعض بدون نصّ ولا قياس هو من القول على الله بما لا يعلمه القائل.

وغرضنا من هذا تنوير البصائر إذا اعترى التردّد لأهل النظر في إناطة حظر أو إباحة بما لا نصّ فيه أو في مواقع المتشابهات.

{ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ }.

يجوز أن يكون عطفا على { الطَّيِّبَاتُ }، والتقدير: وصيد ما علّمتم من الجوارح، يدلّ عليه قوله تعالى { فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ }.

ويجوز أن يكون عطف جملة على جملة، وتكون (ما) شرطيّة وجواب الشرط { فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ }. وخُصّ بالبيان من بين الطيّبات لأنّ طيبه قد يخفى من جهة خفاء معنى الذكاة في جرح الصيد، لا سيما صيد الجوارح، وهو محل التنبيه هنا الخاص بصيد الجوارح. والمعنى، وما أمسك عليكم ما علّمتم، بقرينة قوله تعالى بعد { فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ } لظهور أن ليس المراد إباحة أكل الكلاب والطيور المعلَّمة.

الجوارح:، جمع الجارح، أو الجارحة، جرى على صيغة جمع فاعلة، لأنّ الدواب مراعى فيها تأنيث جمعها.

{ **مُكَلِّبِينَ** } حال من ضمير { عَلَّمْتُمْ } مبيّنة لنوع التعليم وهو تعليم المكلِّب، والمكلِّب (بكسر اللام) بصيغة اسم الفاعل مُعلِّم الكلاب، يقال: مكلِّب، ويقال: كلاّب.

فأمّا الكلاب فلا خلاف في إباحة عموم صيد المعلّمات منها، إلّا قولا شاذا يرى كراهة أكل صيّد الكلب إذا كان عام السواد (بهيما). والإمام أحمد لم يرخّص فيه، وخالفه جمهور الفقهاء.

{ **تُعَلِّمُونَـهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ** } حال ثانية، قُصد بها الامتنان والعبرة بالمواهب التي أودعها الله في الإنسان، إذ جعله معلَّما بالجبلة من يوم قال { يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ } [البقرة:33]، والمواهب التي أودعها الله في بعض الحيوان إذ جعله قابلا للتعلّم.

{ **فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ** } ومعنى الآية إباحة أكل ما صاده الجوارح، من كلاب، وفهود، وسباع طير؛ كالبزاة، والصقور، إذا كانت معلّمة وأمسكت بعد إرسال الصائد. وهذا مقدار اتفق علماء الأمّة عليه وإنّما اختلفوا في تحقّق هذه القيود.

فأمّا شرط التعليم فاتفقوا على أنّه إذا أُشْلِي، فانْشلى، فاشتد وراء الصيد، وإذا دعي فأقبل، وإذا زُجر فانزجر، وإذا جاء بالصيد إلى ربه، أن هذا معلَّم. وهذا على مراتب التعلم. ويكتفي في سباع الطير بما دون ذلك، فيكتفي فيها بأن تؤمر فتطيع. وصفات التعليم راجعة إلى عرف أهل الصيد، وأنّه صار له معرفة، وبذلك قال مالك، وأبو حنيفة، والشافعي، ولا حاجة إلى ضبط ذلك بمرتين أو ثلاث، خلافا لأحمد، وأبي يوسف.

وأمّا شرط الإمساك لأجل الصائد: فهو يعرف بإمساكها الصيد بعد إشلاء الصائد إيّاها، وهو الإرسال من يده إذا كان مشدودا، أو أمره إياها بلفظ اعتادت أن تفهم منه الأمر كقوله (هذا لك)، لأنّ الإرسال يقوم مقام نيّة الذكاة. ثم الجارح ما دام في استرساله معتبر حتّى يرجع إلى ربه بالصيد.

<u>واختلفوا في أكل الجارح من الصيد قبل الإتيان به إلى ربّه هل يبطل حكم الإمساك على ربّه:</u>

فقال جماعة من الصحابة والتابعين: " إذا أكل الجارح من الصيد لم تؤكل البقيّة، لأنّه إنّما أمسك على نفسه لا على ربه ". وفي هذا المعنى حديث عديّ بن حاتم في الصحيح: أنّه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكلب، فقال: "وإذا أكل فلا تأكل فإنما أمسك على نفسه". وبه أخذ الشافعي، وأحمد، وأبو ثور، وإسحاق.

وقال جماعة من الصحابة: إذا أكل الجارح لم يضر أكله، ويؤكل ما بقي. وهو قول مالك وأصحابه: لحديث أبي ثعلبة الخُشَني، في كتاب أبي داود: أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " وإن أكل منه ".

والكلب أو الجارح، إذا أشلاه القنّاص فانشلى، وجاء بالصيد إلى ربّه، فهو قد أمسكه عليه وإن كان قد أكل منه، فقد يأكل لفرط جوع أو نسيان.

وأحسب أن قوله تعالى { مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ } احتراز عن أن يجد أحد صيدا لم يصده هو، ولا رأى الجارح حين أمسكه، لأن ذلك قد يكون موته على غير المعتاد فلا يكون ذكاة.

{ **وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ** } أمر بذكر الله على الصيد، ومعناه أن يذكره عند الإرسال لأنّه قد يموت بجرح الجارح، وأمّا إذا أمسكه حيا فقد تعيّن ذبحه فيذكر اسم الله عليه حينئذ. ولقد أبدع إيجاز كلمة { عَلَيْهِ } ليشمل الحالتين. وحكم نسيان التسمية وتعمّد تركها معلوم من كتب الفقه والخلاف، والدين يسر.

{ **وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** } تذييل عام ختمت به آية الصيد، وهو عام المناسبة.

{ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [5].

{ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ }.

إحلال الطيّبات أمر سابق إذ لم يكن شيء منها محرّما، ولكن ذلك اليوم كان يوم الإعلام به بصفة كليّة، ومناسبة ذكر ذلك عقب قوله تعالى { الْيَوْمَ يَئِسَ } و قوله تعالى { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ } أنّ هذا أيضا منّة كبرى، لأنّ إلقاء الأحكام بصفة كليّة نعمة في التفقه في الدين.

وعطف جملة { وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ } على جملة { الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ } لأجل ما في هذه الرخصة من المنّة لكثرة مخالطة المسلمين أهل الكتاب، فلو حرّم الله عليهم طعامهم لشقّ ذلك عليهم.

الطعام: في كلام العرب ما يطعمه المرء ويأكله، وإضافته إلى أهل الكتاب للملابسة، أي: ما يعالجه أهل الكتاب بطبخ أو ذبح.

قال ابن عطية: " الطعام الذي لا محاولة فيه كالبر والفاكهة ونحوهما لا يغيره تملك أحد له، والطعام الذي تقع فيه محاولة صنعته لا تعلق للدين بها كخبز الدقيق وعصر الزيت [...] والتذكية هي المحتاجة إلى الدين والنيّة، فلمّا كان القياس أن لا تجوز ذبائحهم رخَّص الله فيها على هذه الأمّة وأخرجها عن القياس ".

قال كثير من العلماء: " أراد الله هنا بالطعام الذبائح "، مع اتفاقهم على أنّ غيرها من الطعام مباح.

ودخل في طعامهم صيدهم على الأرجح.

{ **الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ** } هم أتباع التوراة والإنجيل، سواء كانوا ممّن دعاهم موسى وعيسى عليهما السلام إلى اتباع الدين، أم كانوا ممّن اتبعوا الدينين اختيارا، فإنّ موسى وعيسى دعوا بني إسرائيل خاصة، وقد تهوّد من العرب أهل اليمن، وتنصّر من العرب تغلب، وبهراء، وكلب، ولخم، ونجران، وبعض ربيعة وغسان، فهؤلاء من أهل الكتاب عند الجمهور.

وأمّا المجوس فليسوا أهل كتاب بالإجماع، فلا تؤكل ذبائحهم، وشذّ من جعلهم أهل كتاب.

وأمّا المشركون وعبدة الأوثان فليسوا من أهل الكتاب دون خلاف.

وحكمة الرخصة في أهل الكتاب، لأنّهم على دين إلهي يُحرّم الخبائث، ويتّقي النجاسة، ولهم في شؤونهم

أحكام مضبوطة متّبعة لا يُظنّ بهم مخالفتها، وهي مستندة للوحي الإلهي، بخلاف المشركين وعبدة الأوثان. قال مالك: " ما ليس فيه ذكاة من طعام المجوس فليس بحرام "، يعني إذا كانوا يتّقون النجاسة. وفي جامع الترمذي، أنّ أبا ثعلبة الخشني سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قدور المجوس، فقال له : " **أنقوها غسلا واطبخوا فيها** ".

ومن المعلوم أن لا تعمل ذكاة أهل الكتاب ولا إباحة طعامهم فيما حرّمه الله علينا بعينه: كالخنزير والدم، ولا ما حرمه علينا بوصفه، الذي ليس بذكاة: كالميتة والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وأكيلة السبع، إذا كانوا هم يستحلون ذلك.

فأمّا ما كانت ذكاتهم فيه مخالفة لذكاتنا مخالفة تقصير لا مخالفة زيادة فذلك محل نظر كالمضروبة بمحدّد على رأسها فتموت، والمفتولة العنق فتتمزق العروق، فقال جمهور العلماء: " لا تؤكل ".

{ **وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ** } لم يعرّج المفسّرون على بيان المناسبة بذكر ذلك، والذي أراه أنّ الله تعالى نبّهنا بهذا إلى التيسير في مخالطتهم، فأباح لنا طعامهم، وأباح لنا أن نُطعمهم طعامنا، فعلم من هذين الحكمين أنّ علّة الرخصة في تناولنا طعامهم هو الحاجة إلى مخالطتهم.

{ **وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ** } عطف على { وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ } ولم يعرج المفسرون على بيان المناسبة لذكر حل المحصنات من المؤمنات في أثناء إباحة طعام أهل الكتاب، وإباحة تزوّج نسائهم. وعندي: أنّه إيماء إلى أنهنّ أولى بالمؤمنين من محصنات أهل الكتاب، والمقصود هو حكم المحصنات من الذين أوتوا الكتاب، فإنّ هذه الآية جاءت لإباحة التزوج بالكتابيات.

المحصنات: المعصومات بعصمة الأزواج، ويراد أيضا المسلمات، لأنّ الإسلام وَزَعَهنّ عن الخنا. وأطلق على الحرائر، لأنّ الحرائر يترفعنّ عن الخنا من عهد الجاهلية.

ولا يصلح من هذه المعاني هنا الأوّل، إذ لا يحلّ تزوّج ذات الزوج، ولا الثاني لقوله { مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ } الذي هو ظاهر في أنّهنّ بعض المؤمنات، فتعيّن معنى الحريّة، لذلك فسّرها مالك بالحرائر. ومن العلماء من فسّر المحصنات هنا بالعفائف، ونقل عن الشعبي وغيره، فمنعوا تزوّج غير العفيفة من النساء لرقّة دينها وسوء خلقها.

{ **وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ** } أي: الحرائر عند مالك، ولذلك منع نكاح إماء أهل الكتاب مطلقا للحرّ والعبد. والذين فسّروا المحصنات بالعفائف منعوا هنا ما منعوا هناك.

وشمل أهل الكتاب: الذمّيّين، والمعاهدين، وأهل الحرب، وهو ظاهر، إلاّ أنّ مالكا كره نكاح الحربيّات.

الأجور: المهور، وسمّيت هنا (أجورا) مجازا في معنى الأعواض عن المنافع الحاصلة من آثار عقدة النكاح، على وجه الاستعارة أو المجاز المرسل. والمهر شعار متقادم في البشر للتفرقة بين النكاح وبين المخادنة. ولو كانت المهور أجورا حقيقة لوجب تحديد مدّة الانتفاع ومقداره وذلك مما تنزّه عنه عقدة النكاح.

{ **مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ** } كالقول في نظيره { مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ } [النساء:25].

{ **وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْأِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ** } التنبيه على أنّ إباحة تزوّج نساء أهل الكتاب لا يقتضي تزكية لحالهم، ولكن ذلك تيسير على المسلمين. وقد ذُكر في سبب نزولها أنّ نساء أهل الكتاب قلن: " لولا أنّ الله رضي ديننا لم يبح لكم نكاحنا ".

{ **يَكْفُرْ** } الكفر هنا الكفر بالرسل، أي ينكر ما يقتضيه الإيمان من المعتقدات.

{ **بِالْأِيمَانِ** } المراد: الإيمان المعهود وهو إيمان المسلمين الذي بسببه لقِّبوا بالمؤمنين.

الحبْط، والحُبوط، فساد شيء كان صالحا، ومنه سُمِّي الحَبَط، مرض يصيب الإبل من جراء أكل الخضر في أوّل الربيع فتنتفخ أمعاؤها وربما ماتت. وفعل { حَبِطَ } يؤذن بأنّ الحابط كان صالحا فانقلب إلى فساد. والمراد ضياع ثواب الأعمال وما يترقّبه العامل من الجزاء عليها والفوز بها.

والآية تحذير من الارتداد عن الإيمان، وترغيب في الدخول فيه كذلك.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [6].

إذا جرينا على ما تحصحص لدينا وتمحّص، من أنّ سورة المائدة هي من آخر السور نزولا، وأنّها نزلت في عام حجّة الوداع، جزمنا بأنّ هذه الآية نزلت هنا تذكيرا بنعمة عظيمة من نعم التشريع، وهي منّة شرع التيمم عند مشقة التطهّر بالماء، فجزمنا بأنّ هذا الحكم كلّه مشروع من قبل، وإنّما ذُكر هنا في عداد النعم التي امتنّ الله بها على المسلمين، فإنّ الآثار صحت بأنّ الوضوء والغسل شرعا مع وجوب الصلاة، وبأنّ التيمّم شرع في غزوة المريسيع سنّة خمس أو ست.

فالأظهر أنّ هذه الآية أريد منها تأكيد شرع الوضوء وشرع التيمّم خلفا عن الوضوء بنصّ القرآن، لأنّ ذلك لم يسبق نزول قرآن فيه ولكنه كان مشروعا بالسنّة. ولا شك أنّ الوضوء كان مشروعا من قبل ذلك، فقد ثبت أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يصل صلاة إلّا بوضوء. قال أبو بكر ابن العربي في الأحكام: " لا خلاف بين العلماء في أنّ الآية مدنية، كما أنّه لا خلاف أنّ الوضوء كان مفعولا قبل نزولها غير متلو ولذلك قال علماؤنا: إنّ الوضوء كان بمكة سنّة، معناه كان بالسنّة، فأمّا حكمه فلم يكن قط إلّا فرضا.

فالوضوء مشروع مع الصلاة لا محالة، إذ لم يذكر العلماء إلّا شرع الصلاة ولم يذكروا شرع الوضوء

بعد ذلك، فهذه الآية قرّرت حكم الوضوء ليكون ثبوته بالقرآن. وكذلك الاغتسال فهو مشروع من قبل، كما شُرع الوضوء بل هو أسبق من الوضوء، لأنّه من بقايا الحنيفيّة التي كانت معروفة حتّى أيّام الجاهلية، وقد وضّحنا ذلك في سورة النساء. ولذلك أُجمل التعبير عنه هنا وهنالك بقوله تعالى هنا { فَاطَّهَّرُوا } ، وقوله تعالى هنالك { تَغْتَسِلُوا } [النساء:43]، فتمحَّضت الآية لشرع التيمّم عوضا عن الوضوء.

{ **إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ** } إذا عزمتم على الصلاة، لأنّ القيام يطلق في كلام العرب بمعنى الشروع في الفعل، وروى مالك في الموطأ عن زيد بن أسلم أنّه فسَّر القيام بمعنى الهبوب من النوم، وهو مروي عن السدّي. فهذه وجوه الأقوال في تفسير معنى القيام في هذه الآية، وكلّها تَؤُول إلى أنّ إيجاب الطهارة لأجل أداء الصلاة.

{ **فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ** } ما ذكره القرآن من أعضاء الوضوء هو الواجب وما زاد عليه سنّة. وحدّدت الآية الأيدي ببلوغ المرافق لأنّ اليد تطلق على ما بلغ الكوع وما إلى المرفق وما إلى الإبط. وقد اختلف الأئمة في أنّ المرافق مغسولة أو متروكة، والأظهر أنّها مغسولة لأنّ الأصل في الغاية في الحد أنّه داخل في المحدود.

{ **وَأَرْجُلَكُمْ** } قرأه نافع، وابن عامر، والكسائي، وحفص عن عاصم، وأبو جعفر، ويعقوب بالنصب، عطفا على { وَأَيْدِيكُمْ } وتكون جملة { وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ } معترضة بين المتعاطفين. وكأنّ فائدة الاعتراض الإشارة إلى ترتيب أعضاء الوضوء لأنّ الأصل في الترتيب الذكري أن يدل على الترتيب الوجودي، فالأرجل يجب أن تكون مغسولة، إذ حكمة الوضوء وهي النقاء والوضاءة والتنظّف والتأهب لمناجاة الله تعالى تقتضي أن يبالغ في غسل ما هو أشد تعرضا للوسخ، فإنّ الأرجل تلاقي غبار الطرقات وتفرز الفضلات بكثرة حركة المشي، ولذلك كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يأمر بمبالغة الغسل فيها، وقد نادى بأعلى صوته الذي لم يحسن غسل رجليه : " **ويل للأعقاب من النار** ".

وقرأه ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، وأبو بكر عن عاصم، وخلف بخفض { وَأَرْجُلِكُمْ } وللعلماء في هذه القراءة تأويلات: منهم من أخذ بظاهرها فجعل حكم الرجلين المسح دون الغسل.

وقد أجمع الفقهاء بعد عصر التابعين على وجوب غسل الرجلين ولم يشذ عن ذلك غير الإمامية من الشيعة، قالوا: ليس في الرجلين إلّا المسح، وإلّا ابن جرير الطبري رأى التخيير بين المسح والغسل.

{ **وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا** – إلى قوله - **وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ** } مضى القول في نظيره في سورة النساء بما أغنى عن إعادته هنا.

{ **مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ** } تعليل لرخصة التيمّم.

الحرج: الضيق والشدّة، والحَرَجَة، البقعة من الشجر الملتف المتضايق. والحرج المنفي هنا هو الحرج الحسّي لو كلّفوا بطهارة الماء مع المرض أو السفر، والحرج النفسي لو مُنعوا من أداء الصلاة في حال

العجز عن استعمال الماء لضرّ أو سفر أو فقد ماء، فإنّهم يرتاحون إلى الصلاة ويحبونها.

{ **وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ** } إشارة إلى أنّ من حكمة الأمر بالغسل والوضوء التطهير، وهو تطهير حسّي، وتطهير نفسي. فإنّ العبادات كلّها مشتملة على عدّة أسرار، منها ما تهتدي إليه الأفهام ونعبّر عنها بالحكمة، ومنها ما لا يعلمه إلا الله، ككون الظهر أربع ركعات، فإذا ذُكرت حكم للعبادات فليس المراد أنّ الحكم منحصرة فيما علمناه.

{ **وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ** } الإتمام إمّا بزيادة أنواع من النعم لم تكن، وإمّا بتكثير فروع النوع من النعم.

{ **لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** } أي: رجاء شكركم إيّاه. جعل الشكر علّة لإتمام النعمة لقصد الحثّ عليه وإظهاره في صورة الأمر المستقرب الحصول.

{ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } [7].

الكلام مرتبط بما افتتحت به السورة من قوله تعالى { أَوْفُوا بِالْعُقُودِ } لأنّ في التذكير بالنعمة تعريضا بالحثّ على الوفاء. والمراد من النعمة جنسها لا نعمة معيّنة، وهي ما في الإسلام من العزّ والتمكين في الأرض وذهاب أحوال الجاهليّة وصلاح أحوال الأمّة.

الميثاق: العهد، وواثق: عاهد. وأطلق فعل واثق على معنى الميثاق الذي أعطاه المسلمون، وعلى وعد الله لهم ما وعدهم على الوفاء بعهدهم. ففي صيغة { وَاثَقَكُمْ } استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه.

والمسلمون عاهدوا الله في زمن الرّسول صلى الله عليه وسلم عدة عهود:

أوّلها: عهد الإسلام كما تقدّم في صدر هذه السورة.

ومنها: عهد المسلمين عندما يلاقون الرّسول عليه الصلاة والسلام وهو البيعة أن لا يشركوا بالله شيئا ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا أولادهم ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ولا يعصونه في معروف، وهو عين العهد الذي ذكره القرآن في سورة الممتحنة عند ذكر بيعة النساء المؤمنات، كما ورد في الصحيح أنّه كان يبايع المؤمنين على مثل ذلك.

ومنها أيضا: بيعة الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم في موسم الحجّ سنة ثلاث عشرة من البعثة قبل الهجرة، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلا التقوا برسول الله بعد الموسم في العقبة ومعهم العباس بن عبد المطلب، فبايعوا على أن يمنعوا رسول الله كما يمنعون نساءهم وأبناءهم، وعلى أنّهم يأوونه إذا هاجر إليهم. وقد تقدّم هذه البيعة بيعتان إحداهما سنة إحدى عشرة من البعثة، بايعه نفر من الخزرج في موسم الحج. والثانية سنة اثنتي عشرة من البعثة، بايع اثنا عشر رجلا من الخزرج في موسم الحج بالعقبة ليبلغوا الإسلام إلى قومهم.

وكذلك: بيعة الرضوان في الحديبية تحت الشجرة سنة ست من الهجرة.

وفي كل ذلك واثقوا على السمع والطاعة في المنشط والمكره.
{ **سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا** } الاعتراف بالتبليغ، فالسمع أريد به العلم بما واثقوا عليه. ويجوز أن يكون { سَمِعْنَا } مجازا في الامتثال، { وَأَطَعْنَا } تأكيدا له، وهذا من استعمال سمع.
{ **وَاتَّقُوا اللَّهَ** } عُقِّب ذلك بالأمر بالتقوى لأنّ النعمة تستحق أن يُشكر مسديها، وشكر الله تقواه.
{ **إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** } تذييل للتحذير من إضمار المعاصي ومن توهّم أنّ الله لا يعلم إلّا ما يبدو منهم.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } [8].
لمّا ذكّرهم بالنعمة عقَّب ذلك بطلب الشكر للمنعم والطاعة له، فأقبل على خطابهم بوصف الإيمان الذي هو منبع النعم الحاصلة لهم. فالجملة استئناف نشأ عن ترقّب السامعين بعد تعداد النعم. وقد تقدّم نظيرها عند قوله تعالى { كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ } [النساء:135]، وما هنا بالعكس.
ووجه ذلك أنّ الآية التي في سورة النساء وردت عقب آيات القضاء في الحقوق المبتدأة، ثمّ تعرضت لقضية بني أبيرق في قوله { وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً } [النساء:105]، ثمّ أردفت بأحكام المعاملة بين الرجال والنساء، فكان الأهم فيها أمر العدل في الشهادة، فلذلك قُدّم فيها {كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ } فالقسط فيها هو العدل في القضاء، ولذلك عُدّي إليه بالباء، إذ قال تعالى { كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ }.
وأمّا الآية التي نحن بصدد تفسيرها فهي واردة بعد التذكير بميثاق الله، فكان المقام الأوّل للحضّ على القيام لله، أي الوفاء له بعهودهم له، ولذلك عدي قوله تعالى { قَوَّامِينَ } بـ (اللام).
{ **قَوَّامِينَ لِلَّهِ** }، أي: شهداء بالعدل شهادة لا حيف فيها، وأولى شهادة بذلك شهادتهم لله تعالى. وقد حصل من مجموع الآيتين، وجوب القيام بالعدل، والشهادة به، ووجوب القيام لله، والشهادة له.
{ **وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ** } تقدّم القول في معناها قريبا، ولكنّه هنا صرح بحرف (على).
{ **عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا** } الكلام على العدل تقدّم في قوله { وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النّاس أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ } [النساء:58].
{ **أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى** } أي: للتقوى الكاملة التي لا يشذّ معها شيء من الخير، وذلك أنّ العدل هو ملاك كبح النفس عن الشهوة وذلك ملاك التقوى.

{ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ [9] وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ [10] }.

عُقّب أمرهم بالتقوى بذكر ما وعد الله به المتقين ترغيبا في الامتثال، وعُطف عليه حال أضداد المتقين ترهيبا. فالجملة مستأنفة استئنافا بيانيا.

{ **لَهُمْ مَغْفِرَةٌ** } مبيّنة لجملة { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا } ، فاستغني بالبيان عن المفعول، فصار التقدير: وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات مغفرة وأجرا عظيما لهم. وإنّما عدل عن هذا النظم لما في إثبات المغفرة لهم بطريق الجملة الاسميّة من الدلالة على الثبات والتقرّر.

{ **أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ** } قصر ادعائي لأنّهم لمّا كانوا أحقّ النّاس بالجحيم وكانوا خالدين فيه جُعلوا كالمنفردين به. أو هو قصر حقيقي إذا كانت إضافة { أَصْحَابُ } مؤذنة بمزيد الاختصاص بالشيء، فيكون وجه هذا الاختصاص أنّهم الباقون في الجحيم أبدا.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } [11].

أعيد تذكيرهم بنعمة أخرى عظيمة على جميعهم إذ كانت فيها سلامتهم، تلك هي نعمة إلقاء الرعب في قلوب أعدائهم لأنّها نعمة يحصل بها ما يحصل من النصر دون تجشّم مشاقّ الحرب ومتالفها.

وافتتاح الاستئناف بالنداء ليحصل إقبال السامعين على سماعه.

{ **إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ** } أجمل النعمة ثم بيّنها.

وقد ذكر المفسّرون احتمالات في تعيين القوم المذكورين في هذه الآية. والذي يبدو لي أنّ المراد قوم يعرفهم المسلمون يومئذ، فيتعيّن أن تكون إشارة إلى وقعة مشهورة أو قريبة من تاريخ نزول هذه السورة. ولم أر فيما ذكروه ما تطمئن له النفس. والذي أحسب أنّها تذكير بيوم الأحزاب، لأنها تشبه قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا } [الأحزاب:109].

ويجوز أن تكون الإشارة إلى عزم أهل مكّة على الغدر بالمسلمين حين نزول المسلمين بالحديبيّة ثم عدلوا عن ذلك، وقد أشارت إليها الآية { وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ } [الفتح:24].

ويجوز أن تكون الإشارة إلى عزم أهل خيبر وأنصارهم من غطفان وبني أسد على قتال المسلمين حين حصار خيبر، ثم رجعوا عن عزمهم وألقوا بأيديهم، وهي التي أشارت إليها آية { وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النّاس عَنْكُمْ } [الفتح:20].

وعن قتادة: سبب الآية ما همّت به بنو محارب وبنو ثعلبة يوم ذات الرقاع من الحمل على المسلمين في صلاة العصر فأشعر الله رسوله بذلك، ونزلت صلاة الخوف، وكف الله أيديهم عن المؤمنين.
بسط اليد: مجاز في البطش، قال تعالى { وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ } [الممتحنة:2]. ويطلق على السلطة مجازا أيضا، وعلى الجود، كما في قوله تعالى { بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ } [المائدة:64].
وهو حقيقة في محاولة الإمساك بشيء، كما في قوله تعالى حكاية عن ابن آدم { لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ } [المائدة:28].
كفّ اليد: مجاز عن الإعراض عن السوء خاصة، كقوله تعالى { وَكَفَّ أَيْدِيَ النّاس عَنْكُمْ } [الفتح:20].
{ وَاتَّقُوا اللَّهَ } عطف الأمر بالتقوى بالواو للدلالة على أنّ التقوى مقصودة لذاتها، وأنّها شكر لله بدلالة وقوع الأمر عقب التذكير بنعمة عظمى.
{ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } أمر لهم بالاعتماد على الله دون غيره. وذلك التوكّل يعتمد امتثال الأوامر واجتناب المنهيات فناسب التقوى. وكان من مظاهره تلك النعمة التي ذُكّروا بها.

{ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرائيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ } [12].
ناسب ذكر ميثاق بني إسرائيل عقب ذكر ميثاق المسلمين، من قوله تعالى { وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ } [7]، تحذيرا من أن يكون ميثاق المسلمين كميثاقهم. ومحلّ الموعظة هو قوله تعالى { فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ }. وهكذا شأن القرآن في التفنّن ومجيء الإرشاد في قالب القصص، والتنقّل من أسلوب إلى أسلوب.
{ وَبَعَثْنَا } البعث أصله التوجيه والإرسال، ويطلق مجازا على الإقامة والإنهاض كقوله تعالى { مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا } [يس:25]، وقوله تعالى { فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ } [الروم:56]. ثم شاع هذا المجاز حتّى بُني عليه مجاز آخر بإطلاقه على الإقامة المجازية، كقوله تعالى { إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ } [آل عمران:164]،
ثمّ أطلق على إثارة الأشياء وإنشاء الخواطر في النفس.
والعدول عن طريق الغيبة من قوله تعالى { وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ} إلى طريق التكلّم في قوله تعالى { وَبَعَثْنَا } التفات.

النقيب: فعيل بمعنى فاعل، إمّا من نَقَب إذا حفر مجازا، أو من نقَّب إذا بعث { فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ } [ق:36].

فالنقيب الموكول إليه تدبير القوم، لأنّ ذلك يجعله باحثا عن أحوالهم، فيطلق على الرئيس وعلى قائد الجيش وعلى الرائد، ومنه ما في حديث بيعة العقبة: " أنّ نقباء الأنصار يومئذ كانوا اثني عشر رجلا ". والمراد بنقباء بني إسرائيل هنا يجوز أن يكونوا رؤساء جيوش، ويجوز أن يكونوا روادا وجواسيس، وكلاهما واقع في حوادث بني إسرائيل.

{ **إِنِّي مَعَكُمْ** } معيّة مجازية، تمثيل للعناية والحفظ والنصر، قال تعالى { إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ } [الأنفال:12]، والظاهر أنّ هذا القول وقع وعدا بالجزاء على الوفاء بالميثاق.

{ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ }.

استئناف محض ليس منها شيء يتعلّق ببعض ألفاظ الجملة التي قبلها.

{ **لَئِنْ أَقَمْتُمُ** } الـ (لام) موطئة للقسم، و(لام) { **لَأُكَفِّرَنَّ** } (لام) جواب القسم، ولعلّ هذا بعض ما تضمّنه الميثاق.

{ **وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ** } هنا ما كان مفروضا على بني إسرائيل من إعطائهم عشر محصولات ثمارهم وزرعهم، ممّا جاء في الفصل الثامن عشر من سفر العدد، والفصل الرابع عشر والفصل التاسع عشر من سفر التثنية. وقد مضى القول فيه عند قوله تعالى { وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ } [البقرة:43].

التعزير: النصر. يقال:عَزَرَه (مخففا)، وعزّره (مشدّدا)، وهو مبالغة في عزره عزرًا إذا نصره، وأصله المنع، لأنّ الناصر يمنع المعتدي على منصوره.

{ **وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً** } الصدقات غير الواجبة.

تكفير السيّئات: مغفرة ما فرط منهم من التعاصي للرّسول، فجعل الطاعة والتوبة مكفرتين عن المعاصي.

{ **فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ** } أي: فقد حاد عن الطريق المستقيم، وذلك لا عذر للسائر فيه حين يضلّه، لأنّ الطريق السويّ لا يحوج السائر فيه إلى الروغان في ثنيّات قد تختلط عليه وتفضي به إلى التيه في الضلال.

{ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } [13].

{ **فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ** } تقدّم بيانه في قوله تعالى { فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ } [النساء:155]، وقوله تعالى { فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ } [النساء: 160].

اللعن: الإبعاد، والمراد هنا: الإبعاد من رحمة الله تعالى ومن هديه إذ استوجبوا غضب الله لأجل نقض الميثاق.

{ **وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً** } مجاز، إذ أصلها الصلابة والشدّة، فاستعيرت لعدم تأثّر القلوب بالمواعظ والنذر. وتقدّم في قوله تعالى { ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ } [البقرة:74].

{ **يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ** } استئناف أو حال من ضمير { لَعَنَّاهُمْ }.

التحريف: الميل بالشيء إلى الحرف، وهو الجانب. أي يعدلون بالكلم النبويّة عن مواضعها، فيسيرون بها في غير مسالكها، وهو تبديل معاني كتبهم السماوية. وهذا التحريف يكون غالبا بسوء التأويل اتّباعا للهوى، ويكون بكتمان أحكام كثيرة مجاراة لأهواء العامة. قيل: ويكون بتبديل ألفاظ كتبهم. وتقدّم عند قوله تعالى

{ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ } [النساء:46]. وجيء بالمضارع للدلالة على استمرارهم.

{ **وَنَسُوا حَظّاً** } معطوفة على جملة { يُحَرِّفُونَ }. والنسيان مراد به هنا الإهمال المفضي إلى النسيان غالبا. وعُبّر عنه بالفعل الماضي لأنّ النسيان لا يتجدّد.

و**الحظّ**: النصيب، وتنكيره هنا للتعظيم أو التكثير بقرينة الذمّ. وما { **ذُكِّرُوا بِهِ** } هو التوراة.

وقد جمعت الآية من الدلائل على قلّة اكتراثهم بالدين ورقّة اتّباعهم ثلاثة أصول من ذلك:

وهي **التعمّد** إلى نقض ما عاهدوا عليه من الامتثال، و**الغرور** بسوء التأويل، و**النسيان** الناشئ عن قلة تعهّد الدين وقلة الاهتمام به.

{ **وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ** } انتقال من ذكر نقضهم لعهد الله إلى خيانتهم. فالاطلاع مجاز مشهور في العلم بالأمر، والاطلاع هنا كناية عن المطلّع عليه، أي: لا يزالون يخونون فتطّلع على خيانتهم.

الاطّلاع: افتعال من طلع. والطلوع، الصعود. وصيغة الافتعال فيه لمجرد المبالغة، أي: تكلّف الطلوع لقصد الإشراف. والمعنى، ولا تزال تكشف وتشاهد خائنة منهم.

الخائنة: الخيانة، فهو مصدر على وزن الفاعلة، كالعاقبة. ومنه { يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ } [غافر:19].

وأصل الخيانة:عدم الوفاء بالعهد، ولعلّ أصلها إظهار خلاف الباطن.

{ **إِلَّا قَلِيلاً مِنْـهُمْ** } استثنى قليلا منهم جبلوا على الوفاء.

وقد نقض يهود المدينة عهدهم مع رسول الله والمسلمين فظاهروا المشركين في وقعة الأحزاب.

{ **فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** } أمْره بالعفو عنهم والصفح حمل على مكارم الأخلاق، وذلك فيما يرجع إلى سوء معاملتهم للنبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَـهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ } [14].

ذكر بعد ميثاق اليهود ميثاق النصارى. فالتقدير، وأخذنا، من الذين قالوا: إنا نصارى، ميثاقهم.

وليس تقديم المجرور بالحرف لقصد الحصر.

{ **الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى** } عبّر عنهم بـذلك تسجيلا عليهم بأنّ اسم دينهم مشير إلى أصل من أصوله، وهو أن يكون أتباعه أنصارا لما يأمر به الله، قال تعالى { كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ } [الصف:14]، ومن جملة ذلك أن ينصروا القائم بالدين بعد عيسى من أتباعه، مثل بولس وبطرس وغيرهما من دعاة الهدى، وأعظم من ذلك كلّه أن ينصروا النبيّ المبشَّر به في التوراة والإنجيل الذي يجيء بعد عيسى قبل منتهى العالم ويخلّص النّاس من الضلال.

فهذا اللقب (النصارى) حجّة عليهم.

{ **قَالُوا** } يفيد التعريض الكنائي، أي: أنّهم زعموا ذلك بقولهم ولم يؤيّدوه بفعلهم.

وقد أخذ الله على النصارى ميثاقا على لسان المسيح عليه السلام. وبعضه مذكور في مواضع من الأناجيل.

{ **فَأَغْرَيْنَا بَيْنَـهُمُ الْعَدَاوَةَ** } حقيقة الإغراء: حثّ أحد على فعل، وتحسينه إليه حتّى لا يتوانى في تحصيله. فاستعير الإغراء لتكوين ملازمة العداوة والبغضاء في نفوسهم أي لزومهما لهم فيما بينهم.

العداوة / البغضاء: اسمان لمعنيين من جنس الكراهية الشديدة، فهما ضدّان للمحبة.

وظاهر عطف أحد الاسمين على الآخر في مواضع من القرآن، في هذه الآية وفي الآيتين بعدها في هذه السورة وفي آية سورة الممتحنة، أنّهما ليسا من الأسماء المترادفة، لأنّ التزام العطف بهذا الترتيب يبعد أن يكون لمجرد التأكيد، فليس عطف أحدهما على الآخر من قبيل عطف المرادف لمجرد التأكيد.

وقد ترك علماء اللغة بيان التفرقة بين العداوة والبغضاء، وتابعهم المفسّرون على ذلك، فلا تجد من تصدّى للفرق بينهما سوى الشيخ ابن عرفه التونسي، فقال في تفسيره: " العداوة أعم من البغضاء لأنّ العداوة سبب في البغضاء، فقد يتعادى الأخ مع أخيه ولا يتمادى على ذلك حتى تنشأ عنه المباغضة، وقد

يتمادى على ذلك". ووقع لأبي البقاء الكفوي في كتاب (الكليّات) أنّه قال: " العداوة أخص من البغضاء لأن كل عدو مبغض، وقد يبغض من ليس بعدو". وهو يخالف كلام ابن عرفة.

وعندي، أن كلا الوجهين غير ظاهر، والذي أرى أنّ بين معنيي **العداوة** والبغضاء التضاد والتباين، فالعداوة كراهيّة تصدر عن صاحبها؛ **معاملة بجفاء**، أو قطيعة، أو **إضرار**، لأنّ العداوة مشتقّة من العدو وهو التجاوز والتباعد، فإن مشتقات مادة (ع د و) كلّها تحوم حول التفرّق وعدم الوئام.

وأمّا **البغضاء** فهي شدّة البغض، وليس في مادة (ب غ ض) إلاّ معنى جنس الكراهية، فلا سبيل إلى معرفة اشتقاق لفظها من مادتها. نعم يمكن أن يرجع فيه إلى طريقة القلب، وهو من علامات الاشتقاق، فإنّ مقلوب بغض يكون غضب لا غير، فالبغضاء شدّة الكراهية غير مصحوبة بعدو، **فهي مضمرة في النفس.**

فإذا كان كذلك لم يصح اجتماع معنيي العداوة والبغضاء في موصوف واحد في وقت واحد فيتعيّن أن يكون إلقاؤهما بينهم على معنى التوزيع، أي: أغرينا العداوة بين بعض منهم والبغضاء بين بعض آخر. فوقع في هذا النظم إيجاز بديع، لأنّه يرجع إلى الاعتماد على علم المخاطبين بعدم استقامة اجتماع المعنيين في موصوف واحد.

{ **إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ** } إلقاء العداوة والبغضاء بينهم كان عقابا في الدنيا جزاء على نكثهم العهد.

وأسباب العداوة والبغضاء شدة الاختلاف، فتكون من اختلافهم في نحل الدين بين يعاقبة، وملكانية، ونسطورية، وهراتقة (بروتستانت) ، وتكون من التحاسد على السلطان ومتاع الدنيا، كما كان بين ملوك النصرانية، وبينهم وبين رؤساء ديانتهم.

{ **وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** } تهديد لأنّ المراد بالإنباء إنباء المؤاخذة بصنيعهم.

وهذا يحتمل أن يحصل في الآخرة فالإنباء على حقيقته.

ويحتمل أن يحصل في الدنيا، فالإنباء مجاز في تقدير الله لهم حوادث يعرفون بها سوء صنيعتهم.

{ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ [15] يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [16] }.

بعد أن ذكر من أحوال فريقي أهل الكتاب وأنبائهم ما لا يعرفه غير علمائهم وما لا يستطيعون إنكاره أقبل عليهم بالخطاب بالموعظة، إذ قد تهيّأ من ظهور صدق الرّسول صلى الله عليه وسلم ما يسهّل إقامة الحجّة عليهم، ولذلك ابتدئ وصف الرّسول بأنّه يبيّن لهم كثيرا ممّا كانوا يُخفون من الكتاب، ثم أعقبه بأنّه يعفو عن كثير.

{ **يعفو** } يُعرض ولا يُظهر، وهو أصل مادّة العفو. يقال:عفا الرسم بمعنى لم يظهر، وعفاه: أزال ظهوره. وعفا عن المذنب، بمعنى ستر عنه ذنبه، ويجوز أن يراد هنا معنى الصفح والمغفرة، أي: ويصفح عن ذنوب كثيرة، أي: يبيّن لكم دينكم ويعفو عن جهلكم.

{ **قد جاءكم من الله نور** } بدل من جملة { قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا } بدل اشتمال، لأنّ مجيء الرّسول اشتمل على مجيء الهدى والقرآن.

{ **يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ** } **(به)** راجع إلى الرّسول أو إلى الكتاب المبين.

سبل السلام: طرق السلامة التي لا خوف على السائر فيها. فسبيل السلام استعارة لطرق الحق.

{ **وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** } الظلمات والنور استعارة للضلال والهدى. والصراط المستقيم مستعار للإيمان.

{ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [17].

كان أعظم ضلال النصارى ادعاؤهم إلهيّة عيسى عليه السلام، فإبطال زعمهم ذلك هو أهم أحوال إخراجهم من الظلمات إلى النور وهديهم إلى الصراط المستقيم.

{ **إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ** } يفيد قولهم هذا أنّهم جعلوا حقيقة الإله الحقّ المعلوم متّحدة بحقيقة عيسى عليه السلام، بمنزلة اتّحاد الاسمين للمسمّى الواحد، ومرادهم امتزاج الحقيقة الإلهيّة في ذات عيسى.

وتقدّم تفصيل ذلك عند قوله تعالى { فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ } [النساء:171].

{ **قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً** } بيّن الله لرسوله الحجّة عليهم، فالفاء عاطفة للاستفهام الإنكاري على قولهم:

{ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ }، للدلالة على أنّ الإنكار ترتّب على هذا القول الشنيع، فهي للتعقيب الذكري.

يملك شيئا: هنا يقدر على شيء. فالمعنى، فمن يقدر على شيء من الله، أي: من فعله وتصرّفه أن يحوله عنه. ونظيره قوله تعالى { وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ } [يوسف:67].

{ **إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً** } حرف الشرط مستعمل في مجرد التعليق من غير دلالة على الاستقبال. والتقدير: من يملك أن يصدّ الله إذ أراد إهلاك المسيح وأمّه ومن في الأرض يومئذ.

{ **وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** }.

فيه تعظيم شأن الله تعالى، وردٌّ آخر عليهم بأنّ الله هو الذي خلق السماوات والأرض وملك ما فيها من

قبل أن يظهر المسيح، فالله هو الإله حقًّا، وأنه يخلق ما يشاء.

{ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ } [18].

مقال آخر مشترك بينهم وبين اليهود يدلّ على غباوتهم في الكفر إذ يقولون ما لا يليق بعظمة الله تعالى، ثمّ هو مناقض لمقالاتهم الأخرى. ففي التوراة والإنجيل التعبير بأبناء الله:

ففي التوراة قول موسى عليه السلام: " أنتم أولاد للرب أبيكم " [سفر التثنية، الإصحاح:14].

وأمّا الأناجيل فهي مملوءة بوصف الله تعالى بأبي المسيح، وبأبي المؤمنين به.

{ **وَأَحِبَّاؤُهُ** } عطف على { أَبْنَاءُ اللَّهِ }، قصدوا أنّهم أبناء محبوبون.

{ **بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ** } أي: ينالكم ما ينال سائر البشر.

{ **يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ** } كالاحتراس، لأنّه لما رتّب على نوال العذاب إيّاهم أنّهم بشر دفع توهّم النصارى أنّ البشريّة مقتضية استحقاق العذاب بوراثة تبعة خطيئة آدم.

{ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [19].

كرّر الله موعظتهم ودعوتهم بعد أن بيّن لهم فساد عقائدهم وغرور أنفسهم بيانا لا يدع للمنصف متمسّكا بتلك الضلالات، كما وعظهم ودعاهم آنفا بمثل هذا عقب بيان نقضهم المواثيق. إلاّ أنّه ذكر الرّسول صلى الله عليه وسلم هنا بوصف مجيئه على فترة من الرسل ليذكّرهم بأنّ كتبهم مصرّحة بمجيء رسول عقب رسلهم، وليريهم أنّ مجيئه لم يكن بدعا من الرسل إذ كانوا يجيئون على فتر بينهم.

{ **عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ** } حال من ضمير { يُبَيِّنُ لَكُمْ }، لأنّ البيان انقطع في مدة الفترة.

الفترة: انقطاع عمل ما. وحرف { مِنَ } للابتداء، أي: فترة من الزمن ابتداؤها مدة وجود الرسل.

المجيء: مستعار لأمر الرّسول بتبليغ الدين، فكما سُمِّي الرّسول رسولا سُمِّي تبليغه مجيئا تشبيها بمجيء المرسل من أحد إلى آخر.

الرسل: رسل أهل الكتاب المتعاقبين من عهد موسى إلى المسيح، أو أريد المسيح خاصة. والفترة بين البعثة وبين رفع المسيح، كانت نحو خمسمائة وثمانين سنة. وأمّا غير أهل الكتاب فقد جاءتهم رسل مثل خالد بن سنان وحنظلة بن صفوان.

{ **أَنْ تَقُولُوا** } تعليل لقوله { قَدْ جَاءَكُمْ } لبيان بعض الحكم من بعثة الرسول، وهي قطع معذرة أهل

الكتاب عند مؤاخذتهم في الآخرة، أو تقريعهم في الدنيا على ما غيَّروا من شرائعهم. فالمعنى: أن تقولوا: ما جاءنا رسول في الفترة بعد موسى أو بعد عيسى.

{ **فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ** } الفاء فيه للفصيحة، وقد ظهر حسن موقعها بما قرّرت به معنى التعليل.

أي: إن قلتم ذلك فقد بطل قولكم إذ قد جاءكم بشير ونذير.

{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ [20] يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ [21] قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ [22] }.

عطف القصّة على القصص والمواعظ. وتقدّم القول في نظائر { **وَإِذْ قَالَ** } في مواضع منها قوله تعالى { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ } [البقرة:30]. ومناسبة موقع هذه الآيات هنا أنّ القصّة مشتملة على تذكير بنعم الله تعالى عليهم وحثّ على الوفاء بما عاقدوا الله عليه من الطاعة تمهيدا لطلب امتثالهم.

وقدّم موسى عليه السلام أمره لبني إسرائيل بحرب الكنعانيين بتذكيرهم بنعمة الله عليهم ليهيّئ نفوسهم إلى قبول هذا الأمر العظيم عليهم وليوثقهم بالنصر إن قاتلوا أعداءهم، فذكر نعمة الله عليهم، وعدّ لهم ثلاث نعم عظيمة:

النعمة الأولى: أنّ فيهم أنبياء، ومعنى جَعْل الأنبياء فيهم، يجوز أن يكون في عمود نسبهم فيما مضى مثل يوسف والأسباط وموسى وهارون، ويجوز أن يراد جعل في المخاطبين أنبياء، فيحتمل أنّه أراد نفسه، وذلك بعد موت أخيه هارون، لأنّ هذه القصّة وقعت بعد موت هارون، أو أراد من ظهر في زمن موسى من الأنبياء. فقد كانت مريم أخت موسى نبيّة، كما هو صريح التوراة [سفر الخروج، الإصحاح: 15].

وكذلك (ألْداد وميْداد) كانا نبيين في زمن موسى، كما في التوراة [سفرالعدد، الإصحاح :11].

النعمة الثانية: أن جعلهم ملوكا، وهذا تشبيه بليغ، أي: كالملوك في تصرّفهم في أنفسهم وسلامتهم من العبوديّة التي كانت عليهم للقبط، وجعلهم سادة على الأمم التي مروا بها، من الآموربين، والعناقيين، والحشبونيين،

والرفائيين، والعمالقة، والكنعانيين.

أو استُعمل فعل { جَعَلَكُمْ } في معنى الاستقبال، فيكون الخبر بشارة لهم بما سيكون لهم.

النعمة الثالثة: أنّه آتاهم ما لم يؤت أحدا من العالمين، إذ آتاهم الشريعة الصحيحة الواسعة الهدى المعصومة، وأيّدهم بالنصر في طريقهم، وساق إليهم رزقهم المن والسلوى أربعين سنة، وتولى تربية

نفوسهم بواسطة رسله.

{ **يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ** } هو الغرض من الخطاب، ولذلك كرّر النداء بـ { يَا قَوْمِ } لزيادة استحضار أذهانهم. والأمر بالدخول أمر بالسعي في أسبابه، أي: تهيّأوا للدخول.

الأرض المقدسة: بمعنى المطهّرة المباركة، أي: التي بارك الله فيها، أو لأنّها قُدِّست بدفن إبراهيم عليه السلام في أول قرية من قراها وهي حبرون. وهي هنا أرض كنعان من بريّة (صِين) إلى مدخل (حَمَاة وإلى حبرون) . وهذه الأرض **هي أرض فلسطين**، وهي الواقعة بين البحر الأبيض المتوسط وبين نهر الأردن والبحر الميت فتنتهي إلى (حماة) شمالا وإلى (غزة وحبرون) جنوبا.

{ **الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ** } قضى وقدّر، وليس ثمة كتابة ولكنّه تعبير مجازي شائع في اللغة، لأنّ الشيء إذا أكّده الملتزم به كتبه. فأطلقت الكتابة على ما لا سبيل لإبطاله، وذلك أنّ الله وعد إبراهيم أن يورثها ذريّته، ووعد الله لا يخلف. وهو تحريض على الإقدام لدخولها.

{ **وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ** } تحذير ممّا يوجب الانهزام، لأنّ ارتداد الجيش على الأعقاب من أكبر أسباب الانخذال.

الارتداد: افتعال من الردّ، يقال: ردّه فارتدّ، والردّ: إرجاع السائر عن الإمضاء في سيره وإعادته إلى المكان الذي سار منه. والارتداد: الرجوع. و**الأدبار**: جمع دُبُر، وهو الظهر.

المعنى: الرجوع إلى الوراء، كما يقولون: نكص على عقبيه، وركبوا ظهورهم، وارتدوا على أعقابهم.

الانقلاب: الرجوع، وأصله الرجوع إلى المنزل. والمراد به هنا مطلق المصير.

{ **إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا** } ضمائر { فِيهَا / مِنْهَا } تعود إلى الأرض المقدّسة.

القوم الجبّارين: أرادوا سكّانها: الكنعانيين، والعمالقة، والحثّيين، واليبوسيين، والأموريين.

الجبّار: القويّ، مشتقّ من الجبْر، وهو الإلزام، لأنّ القويّ يجبر النّاس على ما يريد.

وكانت جواسيس موسى الإثنا عشر الذين بعثهم لارتياد الأرض، قد أخبروا القوم بجودة الأرض وبقوّة سكّانها، وهذا كناية عن مخافتهم من الأمم الذين يقطنون الأرض المقدّسة، فامتنعوا من اقتحام القرية خوفا من أهلها، وأكّدوا الامتناع من دخول أرض العدو توكيدا قويّا بمدلول (إنّ) و (لنْ)، تحقيقا لخوفهم.

{ **فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ** } تصريح لقصد تأكيد الوعد بدخولها إذا خلت من الجبّارين الذين فيها.

وقد أشارت هذه الآية إلى ما في [سفر العدد، الإصحاح: 14/13]: " أنّ الله أمر موسى أن يرسل اثني عشر رجلا جواسيس يتجسّسون أرض كنعان التي وعدها الله بني إسرائيل من كل سبط رجلا؛ فعيّن موسى اثني عشر رجلا، منهم: يوشع بن نون من سبط أفرايم، ومنهم كالب بن يفنة من سبط يهوذا، ولم يسمّوا بقيّة الجواسيس، فجاسوا خلال الأرض من برية صين إلى حماة فوجدوا الأرض ذات ثمار وأعناب ولبن وعسل ووجدوا سكّانها معتزّين، طوال القامات، ومدنهم حصينة. فلمّا سمع بنو إسرائيل

ذلك وهلوا وبكوا وتذمّروا على موسى وقالوا: لو متنا في أرض مصر كان خيرا لنا من أن تغنم نساؤنا وأطفالنا، فقال يوشع وكالب للشعب: " إن رضي الله عنّا يُدخلنا إلى هذه الأرض ولكن لا تعصوا الربّ ولا تخافوا من أهلها، فالله معنا. فأبى القوم من دخول الأرض وغضب الله عليهم. وقال لموسى: " لا يدخل أحد من سنّه عشرون سنة فصاعدا هذه الأرض إلاّ يوشع وكالبا، وكلّكم ستُدفنون في هذا القفر، ويكون أبناؤكم رعاة فيه أربعين سنة ".

{ قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [23] قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ [24] قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ [25] قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ [26] }.

{ **رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ** } الرجلان هما يوشع وكالب، يجوز أن يكون المراد بالخوف، الخوف من العدو، فيكون المراد باسم الموصول بني إسرائيل. جُعل تعريفهم بالموصوليّة للتعريض بهم بمذمّة الخوف وعدم الشجاعة. أي: ينتسبون إلى الذين يخافون. وليس المعنى أنّهم متصفون بالخوف بقرينة أنّهم حرّضوا قومهم على غزو العدو، وعليه يكون قوله تعالى { أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيهِمَا } أنّ الله أنعم عليهما بالشجاعة.

ويجوز أن يكون المراد بالخوف الخوف من الله تعالى، أي: كان قولهما لقومهما { ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ } ناشئا عن خوفهما الله تعالى، فيكون تعريضا بأنّ الذين عصوهما لا يخافون الله تعالى، ويكون قوله تعالى { أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيهِمَا } استئنافا بيانيّا لبيان منشأ خوفهما الله تعالى، أي: الخوف من الله نعمة منه عليهما. وهذا يقتضي أنّ الشجاعة في نصر الدين نعمة من الله على صاحبها.

{ **الْبَابَ** } يجوز أن يراد به مدخل الأرض المقدّسة، أي: المسالك التي يُسلك منها إلى أرض كنعان، إذ ليس في الأرض المأمورين بدخولها مدينة بل أرض لقوله تعالى { ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ }.

فأرادا: فإذا اجتزتم الثغر ووطئتم أرض الأعداء غلبتموهم في قتالهم في ديارهم.

وحمل المفسّرون الباب على المشهور المتعارف، وهو باب البلد الذي في سوره، فقالوا: أرادا باب قريتهم، لأنّ فتح مدينة الأرض يعدّ ملكا لجميع تلك الأرض. والظاهر أنّ هذه القرية هي (أريحا) أو (قادش) حاضرة العمالقة يومئذ، وهي المذكورة في سورة البقرة.

{ **وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا** } بعد أن أمرا القوم باتخاذ الأسباب والوسائل أمراهم بالتوكّل على الله والاعتماد على وعده ونصره وخبر رسوله، ولذلك ذيّلا بقولهما { **إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** }، لأنّ الشك في صدق الرّسول

مبطل للإيمان.

{ **قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا** } وإنّما خاطبوا موسى عقب موعظة الرجلين لهم رجوعا إلى إبايتهم الأولى التي شافهوا بها موسى، أو لقلّة اكتراثهم بكلام الرجلين، وأكّدوا الامتناع الثاني من الدخول بعد المحاورة أشد توكيد، بثلاث مؤكّدات: (إنّ / لنْ / أبدا).

{ **فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ** } طلبوا من موسى معجزة، كما تعوّدوا من النصر، فطلبوا أن يهلك الله الجبّارين بدعوة موسى. وقيل: أرادوا بهذا الكلام الاستخفاف بموسى، وهذا بعيد، لأنّهم ما كانوا يشكّون في رسالته، ولو أرادوا الاستخفاف لكفروا وليس في كلام موسى الواقع جوابا عن مقالتهم هذه إلا وصفهم بالفاسقين. والفسق يطلق على المعصية الكبيرة، فإنّ عصيان أمر الله في الجهاد كبيرة، ولذلك قال تعالى { فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ }.

وعن عبد الله بن مسعود قال: " أتى المقداد بن الأسود النبيّ وهو يدعو على المشركين يوم بدر فقال: " يا رسول الله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل { فاذهب أنت وربك فقاتلا إنّا هاهنا قاعدون }". فلا تَظُنّنّ من ذلك أن هذه الآية كانت مقروءة بينهم يوم بدر، لأنّ سورة المائدة من آخر ما نزل، وإنّما تكلّم المقداد بخبر كانوا يسمعونه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يحدثّهم به عن بني إسرائيل، ثم نزلت هذه الآية بذلك اللفظ.

{ **قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي** } القائل هو موسى، مناجيا ربّه أو بمسمع منهم، ليوقفهم على عدم امتثالهم أمر ربّهم. يجوز أن يكون المعنى: لا أقدر إلاّ على نفسي وأخي. والذي في كتب اليهود أنّ هارون كان قد توفى قبل هذه الحادثة، فيجوز أن يريد بأخيه يوشع بن نون لأنّه كان ملازما في شؤونه، وسمّاه الله فتاه في قوله تعالى { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ } [الكهف:60]. وعطفه هنا على نفسه لأنّه كان محرّضا للقوم على دخول القرية.

{ **فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ** } أي: لا تؤاخذنا بجرمهم، لأنّه خشي أن يصيبهم عذاب في الدنيا فيهلك الجميع فطلب النجاة. ويجوز أن يُراد بالفرق بينهم الحكم بينهم وإيقاف الضالين على غلطهم.

{ **قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً** } جواب عن قول موسى { فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ }، وهو جواب جامع لجميع ما تضمّنه كلام موسى: لأن الله أعلم موسى بالعقاب الذي يصيب به الذين عصوا أمره، فسكن هاجس خوفه أن يصيبهم عذاب يعم الجميع، وحصل العقاب لهم على العصيان انتصارا لموسى.

<u>فإنّ قلتَ</u>: هذا العقاب قد نال موسى منه ما نال قومه، فإنّه بقي معهم في التيه حتى توفي.

<u>قلتُ</u>: كان ذلك هيّنا على موسى لأنّ بقاءه معهم لإرشادهم وصلاحهم وتلك رسالته.

{ **يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ** } يضلّون، ومصدره التَّيْه والتِّيْه. وسمّيت المفازة تَيْهاء وسمّيت تيها. وقد بقي بنو إسرائيل مقيمين في جهات ضيّقة ويسيرون الهوينا على طريق غير منتظم حتى بلغوا جبل (نِيبُو) على

مقربة من نهر (الأردن) ، فهنالك توفي موسى عليه السلام وهنالك دفن. ولا يعرف موضع قبره. وما دخلوا الأرض المقدسة حتى عبروا الأردن بقيادة يوشع بن نون خليفة موسى.

{ **فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ** } تفريع على الإخبار بهذا العقاب، لأنّه علم أنّ موسى يحزنه ذلك، فنهاه عن الحزن لأنّهم لا يستأهلون الحزن لأجلهم لفسقهم.

الأسى: الحزن. يقال أسِيَ إذا حزن.

{ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ [27] لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ [28] إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ [29] فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ [30] }.

عطف نبأ على نبإ ليكون مقدّمة للتحذير من قتل النفس والحرابة والسرقة، ويُتبع بتحريم الخمر وأحكام الوصيّة وغيرها، وليحسُن التخلّص ممّا استُطرد من الأنباء والقصص التي هي مواقع عبرة، وتُنْظَم كلّها في جرائر الغرور.

والمناسبة بينها وبين القصّة التي قبلها مناسبة تماثل ومناسبة تضاد:

فأمّا التماثل فإنّ في كلتيهما عدم الرضا بما حكم الله تعالى، فإنّ بني إسرائيل عصوا أمر رسولهم إيّاهم بالدخول إلى الأرض المقدّسة، وأحد ابني آدم عصى حكم الله تعالى بعدم قبول قربانه لأنّه لم يكن من المتقين. وفي كلتيهما جرأة على الله بعد المعصية، فبنو إسرائيل قالوا {اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ}، وابن آدم قال { لَأَقْتُلَنَّكَ }.

وأمّا التضاد فإنّ في إحداهما إقداما مذموما من ابن آدم، وفي الأخرى إحجاما مذموما من بني إسرائيل، وإنّ في إحداهما اتفاق أخوين هما موسى وأخوه على امتثال أمر الله تعالى، وفي الأخرى اختلاف أخوين بالصلاح والفساد.

{ **ابْنَيْ آدَمَ** } هنا ولداه. وفي التوراة هما (قايين)، والعرب يسمّونه (**قابيل**)، وأخوه (**هابيل**) . وكان قابيل فلاحا في الأرض، وكان هابيل راعيا للغنم، فقرّب قابيل من ثمار حرثه قربانا، وقرب هابيل من أبكار غنمه قربانا. ولا ندري هل كان القربان عندهم يعطى للفقراء ونحوهم أو كان يترك للنّاس عامة. فتقبّل الله قربان هابيل ولم يتقبل قربان قابيل. والظاهر أنّ قبول قربان أحدهما دون الآخر حصل بوحي من ا لله لآدم. وإنّما لم يتقبّل الله قربان قابيل لأنّه لم يكن رجلا صالحا بل كانت له خطايا. ولم يسم الله تعالى المتقبّل منه والذي لم يتقبل منه، إذ لا جدوى لذلك في موقع العبرة.

وإنّما حمله على قتل أخيه حسده على مزيّة القبول. والحسد أوّل جريمة ظهرت في الأرض.

{ **بالحَقِّ** } الباء للملابسة متعلقا بـ { اتْلُ }. والمراد من الحق هنا الصدقّ، أي: اتل هذا النبأ متلبّسا بالحقّ، أي: بالغرض الصحيح لا لمجرد التفكّه واللهو. ويحتمل أن يكون { بالحقّ } مشيرا إلى ما حفّ بالقصّة من زيادات زادها أهل القصص من بني إسرائيل في أسباب قتل أحد الأخوين أخاه.

{ **إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً** } (إذ) ظرف زمان، أي: خبّرهما الحاصل وقت تقريبهما قربانا.

{ **قَرَّبَا** } هنا مشتق من القربان الذي صار بمنزلة الاسم الجامد، ، يُسمّى به ما يتقرّب به المرء إلى ربّه من صدقة أو نسك أو صلاة، فاشتق من القُربان قرّب، كما اشتُقّ من النُّسك نَسَك، ومن الأضحية ضحَّى، ومن العقيقة عقّ. وليس { قَرَّبَا } هنا بمعنى أدنيا إذ لا معنى لذلك هنا.

{ **إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ** } موعظة وتعريض وتنصّل مما يوجب قتله. يقول: القبول فعل الله لا فعل غيره، وهو يتقبل من المتقي لا من غيره. يعرّض به أنّه ليس بتقيّ. وآية ذلك أنّه يضمر قتل النفس.

{ **لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي** } موعظة لأخيه ليذكّره خطر هذا الجرم الذي يريد الإقدام عليه. وفيه إشعار بأنّه يستطيع دفاعه ولكنه منعه منه خوف الله تعالى، ولذلك قال { **إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ** }.

{ **إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ** } أي: أريد من إمساكي عن الدفاع.

تبوء: ترجع، وهو مجازي، أي: أريد من الإمساك عن أن أقتلك إن أقدمت على قتلي أن يقع إثمي عليك.

وفي الحديث: " **يؤتى بالظالم والمظلوم يوم القيامة فيؤخذ من حسنات الظالم فيزاد في حسنات المظلوم حتّى ينتصف فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيّئات المظلوم فتطرح عليه** ". [رواه مسلم]

{ **فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ** } تذكير لأخيه بما عسى أن يكفّه عن الاعتداء.

{ **فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ** } دلّت الفاء على التفريع والتعقيب، ودل (طوّع) على حدوث تردّد في نفس قابيل ومغالبة بين دافع الحسد ودافع الخشية. والمعنى الحاصل من هذا التمثيل أنّ نفس قابيل سوّلت له قتل أخيه بعد ممانعة.

{ **فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ** } بمعنى صار، ويكون المراد بالخسارة هنا خسارة الآخرة، أي: صار بذلك القتل

ممن خسر الآخرة. ويجوز إبقاء { فَأَصْبَحَ } على ظاهرها، أي: غدا خاسرا في الدنيا. والمراد بالخسارة ما يبدو على الجاني من الاضطراب وسوء الحالة وخيبة الرجاء.

{ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ } [31].

{ **فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً** } أي: فألهم الله غرابا ينزل بحيث يراه قابيل. وكأنّ اختيار الغراب لهذا العمل، إمّا لأنّ الدفن حيلة في الغربان من قبل، وإمّا لأنّ الله اختاره لذلك، لمناسبة ما يعتري الناظر إلى سواد لونه

من الانقباض بما للأسيف الخاسر من انقباض النفس. ولعلّ هذا هو الأصل في تشاؤم العرب بالغراب.
{ **لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ** } والضمير المستتر في { لِيُرِيَهُ } إن كان عائدا إلى اسم الجلالة فالتعليل المستفاد من اللام وإسناد الإرادة حقيقتان، وإن كان عائدا إلى الغراب فاللام مستعملة في معنى فاء التفريع، وإسناد الإرادة إلى الغراب مجاز.

السوأة: ما تسوء رؤيته، وهي هنا تغيّر رائحة القتيل وتقطّع جسمه.

{ **يَا وَيْلَتَى** } من صيغ الاستغاثة المستعملة في التعجّب، وأصله يا لويلتي.

{ **أعجزت** } الاستفهام إنكاري.

وهذا المشهد العظيم هو مشهد أوّل حضارة في البشر، وهي من قبيل طلب ستر المشاهد المكروهة. وهو أيضا مشهد أوّل علم اكتسبه البشر بالتقليد وبالتجربة، وهو أيضا مشهد أوّل مظاهر تلقي البشر معارفه من عوالم أضعف منه كما تشبّه النّاس بالحيوان في الزينة، فلبسوا الجلود الحسنة الملونة وتكلّلوا بالريش الملون وبالزهور والحجارة الكريمة، فكم في هذه الآية من عبرة للتاريخ والدين والخلق.

{ **فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ** } أدلّ على تمكّن الندامة من نفسه، من أن يقال: نادما. والقول فيه كالقول في { فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ } [30].

أي ندم على ما اقترف من قتل أخيه، وما إسراعه إلى تقليد الغراب في دفن أخيه إلا مبدأ الندامة وحب الكرامة لأخيه.

{ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النّاس جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النّاس جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ } [32].

{ **مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ** } يتعيّن أن يكون تعليلا لـ { كَتَبْنَا }، وهو مبدأ الجملة، واستُفيد التعليل من مفاد الجملة. وكان التعليل بكلمة { مِنْ أَجْلِ } أقوى منه بمجرد اللام، ولذلك اختير هنا ليدلّ على أنّ هذه الواقعة كانت هي السبب في تهويل أمر القتل وإظهار مثالبه.

{ **كَتَبْنَا** } أي: شرعنا، كقوله تعالى { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ } [البقرة:183]. أي: كتبنا عليهم شأنا مهمّا، هو مماثلة قتل نفس واحدة بغير حقّ لقتل القاتل النّاس أجمعين.

وهذا بيان أنّ قتل النّفس بغير حقّ جرم فظيع، كفظاعة قتل النّاس كلهم. والمقصود التوطئة لمشروعيّة القصاص المصرّح به في الآية الآتية { وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ } [45].

والمقصود من الإخبار بما كتب على بني إسرائيل بيان للمسلمين أنّ حكم القصاص شرع سالف ومراد الله قديم، لأنّ لمعرفة تاريخ الشرائع تبصرة للمتفقّهين وتطمينا لنفوس المخاطبين، وإزالة لما عسى أن

يعترض من الشبه في أحكام خفيت مصالحها، كمشروعية القصاص، فإنّه قد يبدو للأنظار القاصرة أنّه مداواة بمثل الداء المتداوى منه، حتى دعا ذلك الاشتباه بعض الأمم إلى إبطال حكم القصاص بعلّة أنّهم لا يعاقبون المذنب بذنب آخر، وهي غفلة دقّ مسلكها عن انحصار الارتداع عن القتل في تحقق المجازاة بالقتل، لأنّ النفوس جبلت على حب البقاء وعلى حبّ إرضاء القوّة الغضبية، فإذا علم عند الغضب أنّه إذا قتل فجزاؤه القتل ارتدع. ولذلك قال الله تعالى { وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ } [البقرة:179].

{ **فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النّاس جَمِيعاً** } حث جميع الأمّة على تعقّب قاتل النفس وأخذه أينما ثقف والامتناع من إيوائه أو الستر عليه، كل مخاطب على حسب مقدرته وبقدر بسطة يده في الأرض، من ولاّة الأمور إلى عامة النّاس.

{ **وَمَنْ أَحْيَاهَا** } من استنقذها من الموت، لظهور أنّ الإحياء بعد الموت ليس من مقدور النّاس، أي: ومن اهتم باستنقاذها والذبّ عنها فكأنّما أحيا النّاس جميعا بذلك التوجيه الذي بيّناه آنفا، أو من غلّب وازع الشرع والحكمة على داعي الغضب والشهوة فانكفّ عن القتل عند الغضب.

{ **وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ** }.

تذييل لحكم شرع القصاص على بني إسرائيل، وهو خبر مستعمل كناية عن إعراضهم عن الشريعة، وأنّهم مع ما شُدّد عليهم في شأن القتل لم يزالوا يقتلون، كما أشعر به قوله { بَعْدِ ذَلِكَ }، أي: بعد أن جاءتهم رسلنا بالبيّنات.

{ **لَمُسْرِفُونَ** } في المفاسد التي منها قتل الأنفس بقرينة قوله تعالى { فِي الْأَرْضِ }، فقد كثر في استعمال القرآن ذكر { فِي الْأَرْضِ } مع ذكر الإفساد.

{ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ [33] إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [34] }.

تخلّص إلى تشريع عقاب المحاربين، وهم ضرب من الجُناة بجناية القتل. ولا علاقة لهذه الآية ولا التي بعدها بأخبار بني إسرائيل.

نزلت هذه الآية في شأن حكم النبيّ صلى الله عليه وسلم في العُرنيّين، وبه يُشعر صنيع البخاري إذ ترجم بهذه الآية من كتاب التفسير، وأخرج عقبه حديث أنس بن مالك في العُرنيّين.

ونص الحديث من مواضع من صحيحه: " قدم على النبيّ صلى الله عليه وسلم نفر من عُكْلٍ وعُرَيْنَةٍ (هم سبعة: ثلاثة من عُكْلٍ، وأربعة من عُرَيْنَةٍ. وعُكْلٍ قبيلة من تَيْم الرّباب بن عبد مناف بن طابخة بن إلياس بن مُضر.

وعُرَينة قبيلة من قضاعة) فأسلموا ثم أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا قد استوْخَمْنَا هذه الأرض، فقال لهم:

" هذه نَعَم لنا فاخرجوا فيها فاشربوا ألبانها وأبوالها، فخرجوا فيها فشربوا من أبوالها وألبانها واستصحّوا، فمالوا على الراعي فقتلوه واطّردوا الذَوْد وارتدّوا، فبعث رسول الله في آثارهم. بعث جرير بن عبد الله في خيل فأدركوهم وقد أشرفوا على بلادهم، فما ترجّل النّهار حتّى جيء بهم، فأمر بهم، فقُطعت أيديهم وأرجلهم وسُملت أعينهم بمسامير أحميت، ثم حبسهم حتى ماتوا. وقيل: أمر بهم فألقوا في الحرة يستسقون فما يسقون حتّى ماتوا ".

قال جماعة: وكان ذلك سنة ست من الهجرة، كان هذا قبل أن تنزل آية المائدة. نقل ذلك مَوْلى ابنِ الطلاع في كتاب الأقضية المأثورة بسنده إلى ابن جبير وابن سيرين، وعلى هذا يكون نزولها نسخا للحدّ الذي أقامه النبيّ صلى الله عليه وسلم سواء كان عن وحي أم عن اجتهاد منه. وإنّما أذن الله له بذلك العقاب الشديد لأنّهم أرادوا أن يكونوا قدوة للمشركين في التحيّل بإظهار الإسلام للتوصّل إلى الكيد للمسلمين، ولأنّهم جمعوا في فعلهم جنايات كثيرة. قال أبو قِلابة: " فماذا يُستبقى من هؤلاء، قتلوا النفس وحاربوا الله ورسوله وخوّفوا رسول الله ".

{ **إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ** } حصر إضافي، وهو قصر قلب لنسخ العقاب الذي أمر به الرّسول صلى الله عليه وسلم على العُرنيّين، أي: أن لا جزاء لهم إلّا ذلك، فيكون المقصود من القصر حينئذ أن لا ينقص عن ذلك الجزاء وهو أحد الأمور الأربعة. فالآية تقتضي وجوب عقاب المحاربين بما ذكر الله فيها.

{ **يُحَارِبُونَ** } أنّهم يكونون مقاتلين بالسلاح عدوانا لقصد المغنم كشأن المحارب المبادئ، لأنّ حقيقة الحرب القتال. ومعنى محاربة الله محاربة شرعه وقصد الاعتداء على أحكامه. والمراد بمحاربة الرّسول الاعتداء على حكمه وسلطانه، فإن العُرنيّين اعتدوا على نَعَم رسول الله صلى الله عليه وسلم المتّخذة لتجهيز جيوش المسلمين، وهو قد امتنّ عليهم بالانتفاع بها، فلم يراعوا ذلك لكفرهم فما عاقب به الرّسول العُرنيّين كان عقابا على محاربة خاصة هي من صريح البغض للإسلام.

ثم إنّ الله شرع حكما للمحاربة التي تقع في زمن رسول الله وبعده، وسوّى عقوبتها، فتعيّن أن يصير تأويل

{ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ } المحاربة لجماعة المسلمين. ومن أجل ذلك اعتبره العلماء جزاء لمن يأتي هذه الجريمة من المسلمين، ولهذا لم يجعله الله جزاء للكفّار الذين حاربوا الرّسول لأجل عناد الدين.

{ **وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً** } عطف لبيان القصد من حربهم الله ورسوله، فصار الجزاء على مجموع الأمرين، فمجموع الأمرين سبب مركّب للعقوبة، وكلّ واحد من الأمرين جزء سبب لا يقتضي هذه العقوبة بخصوصها.

{ **يَسْعَوْنَ** } أي: أنّهم يكتسبون الفساد ويجتنونه ويجترحونه، لأنّ السعي قد استعمل بمعنى الاكتساب، قال تعالى { وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا } [الإسراء:19]، ويقولون: سعى فلان لأهله، أي: اكتسب لهم.

الفساد: إتلاف الأنفس والأموال، فالمحارب يقتل الرجل لأخذ ما عليه من الثياب ونحو ذلك.

وقد اختلف العلماء في حقيقة الحرابة:

فقال مالك: هي حمل السلاح على النّاس لأخذ أموالهم دون ثائرة ولا دخَل ولا عداوة، أي: بين المحارِب (بالكسر) وبين المحارَب (بالفتح)، سواء في البادية أو في المصر، وقال به الشافعي وأبو ثور.

وقيل: لا يكون المحارب في المصر محاربا، وهو قول أبي حنيفة وسفيان الثوري وإسحاق. والذي نظر إليه مالك هو عموم معنى لفظ الحرابة، والذي نظر إليه مخالفوه هو الغالب في العرف لندرة الحرابة في المصر.

{ أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ }

يقتّلوا: مبالغة في يُقتلوا، قصد من المبالغة هنا إيقاعه بدون لين ولا رفق تشديدًا عليهم، وكذلك الوجه في قوله تعالى { **يُصَلَّبُوا** }.

الصلب: وضع الجاني الذي يراد قتله مشدودا على خشبة ثم قتله عليها طعنا بالرمح في موضع القتل، وهو قول مالك. وقيل: الصلب بعد القتل، وهو مذهب أشهب والشافعي.

{ **مِنْ خِلافٍ** } قيد للقطع، أي: لا يقطع من المحارب إلاّ يد واحدة و رجل واحدة ولا يقطع يداه و رجلاه. والظاهر أن كون القطع من خلاف تيسير ورحمة، لأنّ ذلك أمكن للحركة بعد البرء، وذلك بأن يتوكأ باليد الباقية على عود بجهة الرجل المقطوعة.

قال علماؤنا: " تقطع يده لأجل أخذ المال، ورجله للإخافة، لأنّ اليدّ هي العضو الذي به الأخذ، والرجل هي العضو الذي به الإخافة، أي: المشي وراء النّاس والتعرّض لهم ".

{ **أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ** } الإبعاد، لأنّه إبعاد عن الذين حاربوهم، أي: أخرجوه من بينهم، وتسمّيه العرب الخليع. وقال أبو حنيفة وبعض العلماء: النفي هو السجن.

وقد دلت الآية على أمرين:

الأمر الأوّل: التخيير في جزاء المحاربين، لأنّ أصل { **أَوْ** } الدلالة على أحد الشيئين أو الأشياء في الوقوع، ويقتضي ذلك في باب الأمر ونحوه التخيير، نحو { فِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ } [البقرة:196].

وقد تمسّك بهذا الظاهر جماعة من العلماء منهم مالك بن أنس، وسعيد بن المسيّب، وعطاء، ومجاهد، والنخعي، وأبو حنيفة. والمروي عن مالك أنّ هذا التخيير لأجل الحرابة فإن اجترح في مدة حرابته

جريمة ثابتة توجب الأخذ بأشدّ العقوبة كالقتل قتل دون تخيير، وهو مدرك واضح. ثم ينبغي للإمام بعد ذلك أن يأخذ في العقوبة بما يقارب جرم المحارب وكثرة مقامه في فساده.

وذهب جماعة إلى أن { أَوْ } في الآية للتقسيم لا للتخيير، وأن المذكورات مراتب للعقوبات بحسب ما اجترحه المحارب: فمن قتل وأخذ المال قُتل وصُلب، ومن لم يقتل ولا أخذ مالا عُزّر، ومن أخاف الطريق نُفي، ومن أخذ المال فقط قُطع، وهو قول ابن عباس، وقتادة، والحسن، والسدي والشافعي.

الأمر الثاني: أنّ هذه العقوبات هي لأجل الحرابة وليست لأجل حقوق الأفراد من النّاس، كما دلّ على ذلك قوله بعد { إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ } وهو بيّن. ولذلك فلو أسقط المعتدَى عليهم حقوقهم لم يسقط عن المحارب عقوبة الحرابة.

{ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ }.

الخزي: الذلّ والإهانة، قال تعالى { وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ } [آل عمران:194].

وقد دلّت الآية على أنّ لهؤلاء المحاربين عقابين، عقابا في الدنيا وعقابا في الآخرة. فإن كان المقصود من المحاربين في الآية خصوص المحاربين من أهل الكفر كالعُرنيّين ، فاستحقاقهم العذابين ظاهر، وإن كان المراد به ما يشمل المحارب من أهل الإسلام كانت الآية معارضة لما ورد في الحديث الصحيح في حديث عبادة بن الصامت من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " **فمن وفّى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فهو كفارة له ومن أصاب منها شيئا فستره الله فهو إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له** ". فقوله: " **فهو كفارة له** "، دليل على أنّ الحدّ يسقط عقاب الآخرة.

فيجوز أن يكون ما في الآية تغليظا على المحاربين بأكثر من أهل بقية الذنوب.

ويجوز أن يكون تأويل ما في هذه الآية على التفصيل، أي: لهم خزي في الدنيا إن أخذوا به، ولهم في الآخرة عذاب عظيم إن لم يؤخذوا به في الدنيا.

{ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ } دلت أداة الاستثناء على سقوط العقوبة عن المحارب في هذه الحالة. أي: ما كان قبل أن يتحقّق المحارب أنّه مأخوذ، أو يضيّق عليه الحصار أو يطارد في جميع البلاد ويضيّق عليه. فإن أتى قبل ذلك كلّه طائعا نادما سقط عنه ما شرع الله له من العقوبة، لأنّه قد دلّ على انتقال حاله من فساد إلى صلاح فلم تبق حكمة في عقابه. ولمّا لم تتعرّض الآية إلى غرم ما أتلفه بحرابته علم أنّ التوبة لا تؤثّر في سقوط ما كان قد اعتلق به من حقوق النّاس من مال أو دم، لأنّ ذلك معلوم بأدلة أخرى.

{ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } تذكير بعد تمام الكلام ودفع لعجب من يتعجّب من سقوط العقاب عنهم. فالفاء فصيحة عما دلّ عليه الاستثناء من سقوط العقوبة مع عظم الجرم. والمعنى، إن عظم عندكم سقوط العقوبة عمّن تاب قبل أن يُقدر عليه فاعلموا أنّ الله غفور رحيم.

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** } [35].

اعتراض بين آيات وعيد المحاربين وأحكام جزائهم وبين ما بعده. خاطب المؤمنين بالترغيب بعد أن حذّرهم من المفاسد، على عادة القرآن في تخلّل الأغراض بالموعظة والترغيب والترهيب، وهي طريقة من الخطابة لاصطياد النفوس. فعُقّب حكم المحاربين من أهل الكفر بأمر المؤمنين بالتقوى وطلب ما يوصلهم إلى مرضاة الله. وقابل قتالا مذموما بقتال يحمد فاعله عاجلا وآجلا.

الوسيلة: كالوصيلة. وفعل وسَل قريب من فعل وصل، فالوسيلة، القُربة، وهي فعيلة بمعنى مفعولة، أي: متوسّل بها، أي: اتبعوا التقرُّب اليه بالطاعة. وقد علم المسلمون أنّ البلوغ إلى الله ليس بلوغ مسافة ولكنّه بلوغ زُلفى ورضى.

{ **إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ** }، أي: لا تتوسلوا إلاّ إليه لا إلى غيره فيكون تعريضا بالمشركين لأنّ المسلمين لا يظن بهم ما يقتضي هذا الحصر. والتعريف في { الْوَسِيلَةَ } تعريف الجنس، أي: كل ما تعلمون أنّه يقرّبكم إلى الله، أي: ينيلكم رضاه وقبول أعمالكم لديه. وفي الحديث القدسي: **" ما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ ممّا افترضته عليه "**.

{ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [36] يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ** } [37] }.

الأظهر أنّ هذه الجملة متصلّة بجملة { وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [33] اتصال البيان، فهي مبيّنة للجملة السابقة، تهويلا للعذاب الذي توعّدهم الله به، فإنّ أولئك المحاربين الذين نزلت تلك الآية في جزائهم كانوا قد كفروا بعد إسلامهم وحاربوا الله ورسوله، فلمّا ذُكر جزاؤهم عُقّب بذكر جزاء يشملهم ويشمل أمثالهم من الذين كفروا. وذلك لا يناكد كون الآية السابقة مرادا بها ما يشتمل أهل الحرابة من المسلمين.

{ **لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ** } أي: لو ثبت لهم ما في الأرض لأجل الافتداء به لا لأجل أن يكنزوه أو يهبوه. وأصل الكلام، لو أنّ لهم ما في الأرض ليفتدوا به ومثله معه. ونكتة التقديم تعجيل اليأس من الافتداء إليهم ولو بمضاعفة ما في الأرض.

{ **وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ** } أي: دائم تأكيد لقوله تعالى { **وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا** }.

{ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [38] **فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** [39] **}**.

جملة معطوفة على جملة { إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ } [33].

{ **وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ** } التقدير: ممّا يتلى عليكم حكم السارق والسارقة، فاقطعوا أيديهما.

{ **فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا** } ضمير الخطاب لولاّة الأمور بقرينة المقام.

{ **وَالسَّارِقَةُ** } لدفع توهّم أن يكون صيغة التذكير في السارق قيدا بحيث لا يجرى حدّ السرقة إلاّ على الرجال، وقد كانت العرب لا يقيمون للمرأة وزنا فلا يجرون عليها الحدود. وقد سرقت المخزوميّة في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر بقطع يدها وعظم ذلك على قريش، فقالوا: " من يشفع لها عند رسول الله إلاّ زيد بن حارثة، فلمّا شفع لها أنكر عليه وقال: " **أتشفع في حد من حدود الله** "، وخطب فقال: " **إنّما أهلك الذين من قبلكم أنّهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف قطعوه، والله لو أنّ فاطمة سرقت لقطعت يدها** ".

وفي تحقيق معنى السرقة ونصاب المقدار المسروق الموجب للحدّ وكيفيّة القطع مجال لأهل الاجتهاد من علماء السلف وأئمة المذاهب وليس من غرض المفسّر. وليس من عادة القرآن تحديد المعاني الشرعيّة وتفاصيلها ولكنّه يؤصّل تأصيلها ويحيل ما وراء ذلك إلى متعارف أهل اللسان من معرفة حقائقها وتمييزها.

السرقة: أخذ أحد شيئا لا يملكه خفية عن مالكه مخرجا إيّاه من موضع هو حرز مِثْلِه، لم يؤذن آخذه بالدخول إليه. والسرقة معروفة عند العرب مميّزة عن الغارة والغصب والاغتصاب والخلسة، والمؤاخذة بها ترجع إلى اعتبار الشيء المسروق.

المسروق: ما له منفعة لا يتسامح النّاس في إضاعته. وقد أخذ العلماء تحديده بالرجوع إلى قيمة أقل شيء حكم النبيّ صلى الله عليه وسلم بقطع يد من سرقه. وقد ثبت في الصحيح أنّه حكم بقطع يد سارق حَجَفة

(ترس من جلد) تساوي ربع دينار في قول الجمهور، وتساوي دينارا في قول أبي حنيفة، والثوري، وابن عباس، وتساوي نصف دينار في قول بعض الفقهاء.

ولم يذكر القرآن في عقوبة السارق سوى قطع اليد. وقد كان قطع يد السارق حكما من عهد الجاهلية، قضى به الوليد بن المغيرة فأقرّه الإسلام كما في الآية. ولم يرد في السنة خبر صحيح إلاّ بقطع اليد. وأوّل رجل قطعت يده في الإسلام الخيارُ بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، وأوّل امرأة قطعت يدها المخزوميّة مُرَّةُ بنت سفيان.

فاتفق الفقهاء على أنّ أوّل ما يبدأ به في عقوبة السارق أن تقطع يده. فقال الجمهور: " اليد اليمنى "،

وقال فريق: " اليد اليسرى "، فإن سرق ثانية، قال جمهور الأئمة: " تقطع رجله المخالفة ليده المقطوعة ".

وقال علي بن أبي طالب: " لا يقطع ولكن يحبس ويضرب". وقال: " إنّي لأستحيي أن أقطع يده الأخرى فبأي شيء يأكل ويستنجي أو رجله فعلى أي شيء يعتمد ". وقضى بذلك عمر بن الخطاب، وهو قول أبي حنيفة. ويجب القضاء بقول أبي حنيفة فإنّ الحدود تدرأ بالشبهات، وأيّ شبهة أعظم من اختلاف أئمة الفقه المعتبرين.

الجزاء: المكافأة على العمل بما يناسب ذلك العمل من خير أو شرّ.

النكال: العقاب الشديد الذي من شأنه أن يصدّ المعاقب عن العود إلى مثل عمله الذي عوقب عليه، وهو مشتق من النكول عن الشيء، أي: النكوص عنه والخوف منه. وتقدّم عند قوله { فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً } [البقرة:66].

فحكمة مشروعية القطع الجزاء على السرقة جزاءً يُقصد منه الردع وعدم العود، أي: جزاء ليس بانتقام ولكنه استصلاح.

{ **فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ** } أي: من تاب من السارقين من بعد السرقة تاب الله عليه، أي: قُبلت توبته. وليس في الآية ما يدلّ على إسقاط عقوبة السرقة عن السارق إن تاب قبل عقابه. ولا دليل في الآية على إبطال حكم العقوبة في بعض الأحوال كما في آية المحاربين، فلذلك قال جمهور العلماء: " توبة السارق لا تسقط القطع ولو جاء تائبا قبل القدرة عليه ". ويدلّ لصحة قولهم أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قطع يد المخزوميّة ولا شك أنّها تائبة.

{ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [40].

استئناف بياني، جواب لمن يسأل عن انقلاب حال السارق من العقاب إلى المغفرة بعد التوبة مع عظم جرمه بأنّ الله هو المتصرّف في السماوات والأرض وما فيهما، فهو العليم بمواضع العقاب ومواضع العفو.

{ يَا أَيُّهَا الرّسول لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ [41] سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ [42] }.

استئناف ابتدائي لتهوين تألّب المنافقين واليهود على الكذب والاضطراب في معاملة الرّسول صلى الله عليه وسلم وسوء طواياهم معه، بشرح صدر النبيّ صلى الله عليه وسلم ممّا عسى أن يحزنه من طيش اليهود واستخفافهم ونفاق المنافقين. وافتُتح الخطاب بأشرف الصفات، وهي صفة الرّسالة عن الله.

وسبب نزول هذه الآية وما أشارت إليه هو ما رواه أبو داود، والواحدي، والطبري في تفسيره ما محصّله : أنّ اليهود اختلفوا في حدّ الزاني (حين زنى فيهم رجل بامرأة من أهل خيبر أو أهل فدك)، بين أن يُرجم وبين أن يُجلد ويحمّم (يلطخ وجهه بالسواد تمثيلا به)، اختلافا ألجأهم إلى أن أرسلوا إلى يهود المدينة أن يحكّموا رسول الله في شأن ذلك، وقالوا: إن حكم بالتحميم قبلنا حكمه وإن حكم بالرجم فلا تقبلوه، وأنّ رسول الله قال لأحبارهم بالمدينة: **" ما تجدون في التوراة على من زنى إذا أحصن "**، قالوا:" يحمّم ويجلد ويطاف به"، وأن النبيّ صلى الله عليه وسلم كذّبهم وأعلمهم بأنّ حكم التوراة هو الرجم على من أحصن، فأنكروا، فأمر بالتوراة أن تنشر (أي تفتح طيّاتها وكانوا يلفونها على عود بشكل إصطواني) وجعل بعضهم يقرأها ويضع يده على آية الرجم (أي: يقرؤها للذين يفهمونها) فقال له رسول الله: **" ارفع يدك "** فرفع يده فإذا تحتها آية الرجم، فقال رسول الله: **" لأكوننّ أوّل من أحيَى حكم التوراة "**. فحكم بأن يُرجم الرجل والمرأة .

ولم يذكروا شيئا يدلّ على سبب الإشارة إلى ذكر المنافقين في صدر هذه الآية بقوله تعالى { مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ }، ولعلّ المراد ممّن يبطنون اليهودية وكانوا مشاركين لليهود في هذه القضيّة، أو كانوا ينتظرون أن لا يوجد في التوراة حكم رجم الزاني فيتخذوا ذلك عذرا لإظهار ما أبطنوه من الكفر بعلة تكذيب الرّسول صلى الله عليه وسلم.

وأحسب أن التجاء اليهود إلى تحكيم الرّسول صلى الله عليه وسلم في ذلك ليس لأنّهم يصدّقون برسالته ولا لأنّهم يعدّون حكمه ترجيحا في اختلافهم ولكن لأنّهم يعدّونه ولي الأمر في تلك الجهة وما يتبعها. ولهم في قواعد أعمالهم وتقادير أحبارهم أن يطيعوا ولاّة الحكم عليهم من غير أهل ملّتهم. فحكم رسول

الله حكما جمع بين إلزامهم بموجب تحكيمهم وبين إظهار خطئهم في العدول عن حكم كتابهم، ولذلك سماه الله تعالى القسط في قوله تعالى { وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ }.

ويحتمل أن يكون ناشئا عن رأي من يُثبت منهم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ويقول: إنّه رسول للأمّيين خاصة. وهؤلاء هم اليهود العيسويّة.

{ **لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ** } أي: لا تهتم بما يفعلون ممّا شأنه أن يدخل الحزن على نفسك. وهذا استعمال شائع وهو من استعمال المركّب في معناه الكنائي.

المسارعة في الكفر: إظهار آثاره عند أدنى مناسبة وفي كل فرصة، فشُبّه إظهاره المتكرّر بإسراع الماشي إلى الشيء. وعدّي بـ (في) الدالة على الظرفية، للدلالة على أنّ الإسراع مجاز بمعنى التوغّل، فيكون (في) قرينة المجاز، ونظيره قوله تعالى { يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ } [62]، وقوله تعالى { نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ } [المؤمنون:56]. فهي استعارة متكرّرة في القرآن وكلام العرب.

{ **سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ** } خبر مبتدأ محذوف، والظاهر أنّ الضمير المقدّر(هم) عائد على الفريقين: المنافقين واليهود، بقرينة الحديث عن الفريقين.

السمّاع: الكثير السمع، أي: الاستماع لما يقال له. أي: أنّهم يصغون إلى الكلام الكذب وهم يعرفونه كذبا. وفي هذا كناية عن تفشي الكذب في جماعتهم بين سامع ومختلق.

للكذب: كذب أحبارهم الزاعمين أنّ حكم الزنى في التوراة التحميم.

{ **سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ** } والمعنى أنّهم يقبلون ما يأمرهم به قوم آخرون من كتم غرضهم عن النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى إن حكم بما يهوون اتبعوه وإن حكم بما يخالف هواهم عصوه، أي: هم أتباع لقوم متستّرين هم القوم الآخرون، وهم أهل خيبر أوأهل فدك الذين بعثوا بالمسألة ولم يأت أحد منهم النبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ **يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ** } صفة ثانية { لِقَوْمٍ آخَرِينَ } أو حال. وتقدّم الكلام في تحريف الكلم عند قوله تعالى { مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ } [النساء:46]، وأن التحريف الميل إلى حرف، أي: جانب.

{ **مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ** }، وفي [النساء:46] { عَنْ مَوَاضِعِهِ }، لأنّ آية سورة النساء في وصف اليهود كلّهم وتحريفهم في التوراة. فهو تغيير كلام التوراة بكلام آخر عن جهل أو قصد أو خطأ في تأويل معاني التوراة أو في ألفاظها. وأمّا هاته الآية ففي ذكر طائفة معينة أبطلوا العمل بكلام ثابت في التوراة إذ ألغوا حكم الرجم الثابت فيها دون تعويضه بغيره من الكلام، فهذا أشد جرأة من التحريف الآخر، لأنّ لفظ { بَعْدِ } يقتضي أنّ مواضع الكلم مستقرّة وأنّه أُبطل العمل بها مع بقائها قائمة في كتاب التوراة.

{ **إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا** } الإشارة إلى الكلم المحرف. والإيتاء هنا: الإفادة.

الأخذ: القبول. أي: إن أُجبتم بمثل ما تهوون فاقبلوه وإن لم تجابوه فاحذروا قبوله.

فاحذروا: لأنّه يفتح عليهم الطعن في أحكامهم التي مضوا عليها وفي حكّامهم الحاكمين بها.

إرادة الله فتنة المفتون: قضاؤها له في الأزل، وعلامة ذلك التقدير عدم إجداء الموعظة والإرشاد فيه.

{ **فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً** }، أي: لا تبلغ إلى هديه بما أمرك الله به من الدعوة للنّاس كافة.

{ **شَيْئاً** } منصوب على المفعولية. والتنكير للتقليل والتحقير.

{ **أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ** } كالقول في قوله تعالى { وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ }.

التطهير: التهيئة لقبول الإيمان والهدى، أو أراد بالتطهير نفس قبول الإيمان.

{ **سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ** } أعاده للتأكيد وليرتّب عليه قوله تعالى { أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ }.

{ **أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ** } أخّاذون له، لأنّ الأكل استعارة لتمام الانتفاع. والسُحْت: الشيء المسحوت، أي: المستأصل يقال: سحته إذا استأصله وأتلفه. سُمّي به الحرام لأنّه لا يبارك فيه لصاحبه، فهو ممحوق، كقوله تعالى { يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا } [البقرة:276].

والسحت يشمل جميع المال الحرام؛ كالربا والرشوة وأكل مال اليتيم والمغصوب.

{ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } [42].

ظاهر الشرط يقتضي أنّ الله أعلم رسوله باختلافهم في حكم حدّ الزّنا، وبعزمهم على تحكيمه قبل أن يصل إليه المستفتون. وقد قال بذلك بعض المفسّرين فتكون هذه الآية من دلائل النبوّة. ويحتمل أنّ المراد: فإن جاؤوك مرة أخرى فاحكم بينهم أو أعرض عنهم.

وقد خيّر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم في الحكم بينهم أوالإعراض عنهم. ووجه التخيير تعارض السببين، فسبب إقامة العدل يقتضي الحكم بينهم، وسبب معاملتهم بنقيض قصدهم من الاختبار أو محاولة مصادفة الحكم لهواهم يقتضي الإعراض عنهم لئلّا يُعرَّض الحكم النبوي للاستخفاف.

وكان ابتداء التخيير في لفظ الآية بالشق المقتضي أنّه يحكم بينهم، إشارة إلى أنّ الحكم بينهم أولى، ويؤيّده قوله بعد { وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ }، أي: بالحق، وهو حكم الإسلام بالحدّ.

{ **وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً** } تطمين للنبيّ صلى الله عليه وسلم لئلّا يقول في نفسه: كيف أعرض عنهم، فيتخذوا ذلك حجّة علينا، يقولون: ركنَّا إليكم ورضينا بحكمكم فأعرضتم عنّا فلا نسمع دعوتكم من بعد. وهذا ممّا يهتم به النبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّه يؤول إلى تنفير رؤسائهم دهماءَهم من دعوة الإسلام، فطمّنه الله تعالى بأنّه إن فعل ذلك لا تنشأ عنه مضرّة. ولعلّ في هذا التطمين إشعارا بأنّهم لا طمع في إيمانهم في كل حال.

وليس المراد بالضرّ ضرّ العداوة أو الأذى، لأنّ ذلك لا يهتم به النبيّ صلى الله عليه وسلم ولا يخشاه منهم.

{ **شيئا** } التنكير للتحقير كما هو في أمثاله.

والآية تقتضي تخيير حكّام المسلمين في الحكم بين أهل الكتاب إذا حكّموهم، لأنّ إباحة ذلك التخيير لغير الرّسول من الحكام مساو إباحته للرسول. وللفقهاء تفريعات في المسألة ، فانظرها عندهم.

{ **وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ** } أي: بالعدل. والعدل: الحكم الموافق لشريعة الإسلام.

وهذا يحتمل أنّ الله نهى رسوله عن أن يحكم بينهم بما في التوراة لأنّها شريعة منسوخة بالإسلام، وهذا الذي رواه مالك. وعلى هذا فالقصّة التي حكّموا فيها رسول الله لم يحكم فيها الرّسول على الزانيين ولكنه قصر حكمه على أن بيّن لليهود حقيقة شرعهم في التوراة، فاتضح بطلان ما كانوا يحكمون به لعدم موافقته شرعهم ولا شرع الإسلام، فهو حكم على اليهود بأنّهم كتموا. ويكون ما وقع في حديث الموطأ والبخاري، أنّ الرجل والمرأة رجما، إنّما هو بحكم أحبارهم.

ويحتمل أنّ الله أمره أن يحكم بينهم بما في التوراة لأنّه يوافق حكم الإسلام، فقد حكم فيه بالرجم قبل حدوث هذه الحادثة أو بعدها.

ويحتمل أن الله رخّص له أن يحكم بينهم بشرعهم حين حكّموه.

{ **وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ**} [43].

الاستفهام للتعجيب، أي: من العجيب أنّهم يتركون كتابهم ويحكّمونك وهم غير مؤمنين بك ثم يتولّون بعد حكمك إذا لم يرضهم. فالإشارة بقوله تعالى { **مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ** } إلى الحكم المستفاد من { **يُحَكِّمُونَكَ** }.

أي: جمعوا عدم الرضى بشرعهم وبحكمك، وهذه غاية التعنّت المستوجبة للعجب في كلتا الحالتين.

ويحتمل أنّ الاستفهام إنكاري، أي: هم لا يحكّمونك حقًّا. لأنّ لديهم التوراة فيها حكم ما حكّموك فيه، وهو حكم الله، وقد نبذوها لعدم موافقتها أهواءهم، ولذلك قدّروا نبذ حكومتك إن لم توافق هواهم، فما هم بمحكّمين حقيقة.

{ **وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ** } نفي الإيمان عنهم مع حذف متعلّقه للإشارة إلى أنّهم ما آمنوا بالتوراة ولا بالإسلام فكيف يكون تحكيمهم صادقا.

{ **إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النّاس وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ** } [44].

لمّا وصف التوراة بأنّ فيها حكم الله، استأنف ثناء عليها وعلى الحاكمين بها.

{ **إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ** } وصفها بالنزول ليدلّ على أنّها وحي من الله، فاستعير النزول لبلوغ الوحي لأنّه بلوغ شيء من لدن عظيم، والعظيم يُتخيّل عاليا، كما تقدم غير مرة.

النور: استعارة للبيان والحقّ، ولذلك عطف على الهدى، فأحكامها هادية وواضحة.

ولك أن تجعل النور هنا مستعارا للإيمان والحكمة، فيكون بينه وبين الهدى عموم وخصوص.

{ **النَّبِيُّونَ** } يجوز أنّهم أنبياء بني إسرائيل؛ موسى والأنبياء الذين جاؤوا من بعده.

الذين أسلموا: الذين كان شرعهم الخاص بهم كشرع الإسلام سواء، لأنّهم كانوا مخصوصين بأحكام غير أحكام عموم أمّتهم بل هي مماثلة للإسلام، وهي الحنيفيّة الحقّ. إذ لا شك أنّ الأنبياء كانوا على أكمل حال من العبادة والمعاملة، ألا ترى أنّ الخمر ما كانت محرّمة في شريعة قبل الإسلام ومع ذلك ما شربها الأنبياء قط، بل حرّمتها التوراة على كاهن بني إسرائيل فما ظنك بالنبيّ.

وهي إشارة إلى شرف الإسلام وفضله، إذ كان دين الأنبياء.

{ **لِلَّذِينَ هَادُوا** } اسم يرادف معنى الإسرائيليين، إلاّ أنّ أصله يختص ببني يهوذا منهم، فغلب عليهم من بعد.

الربّانيّون: جمع ربّاني، وهو العالم المنسوب إلى الربّ. وقيل: الربّاني العالم المربّي.

الأحبار: جمع حَبر وهو العالم في الملّة الإسرائيلية. بفتح الحاء وكسرها، ولكن اقتصر المتأخّرون على الفتح للتفرقة بينه وبين اسم المِداد الذي يُكتب به.

الاستحفاظ، الاستئمان، واستحفاظ الكتاب أمانة فهمه حقّ الفهم بما دلت عليه آياته.

{ **بِمَا اسْتُحْفِظُوا** } الباء للملابسة، أي: حكما ملابسا للحقّ متّصلا به غير مبدّل ولا مغيّر ولا مؤوّل تأويلا لأجل الهوى. ويدخل في الاستحفاظ بالكتاب الأمر بحفظ ألفاظه من التغيير والكتمان.

ومن لطائف القاضي إسماعيل بن إسحاق بن حماد ما حكاه عياض في المدارك، عن أبي الحسن ابن المنتاب، قال: " كنت عند إسماعيل يوما فسئل: لم جاز التبديل على أهل التوراة ولم يجز على أهل القرآن، فقال: " لأنّ الله تعالى قال في أهل التوراة { بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ } فوكّل الحفظ إليهم. وقال في القرآن: { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون } [الحجر:9] فتعهد الله بحفظه فلم يجز التبديل على أهل القرآن ".

{ **وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ** } ضمير { كَانُوا } للنبيّين والربّانيين والأحبار، أي: وكان المذكورون شهداء على

كتاب الله، وحرف (على) هنا دال على معنى التمكّن وليس هو الذي يتعدى به فعل شهد، أي: وكانوا حفظة على كتاب الله وحرّاسا له من سوء الفهم وسوء التأويل ويحملون أتباعه على حقّ فهمه وحقّ العمل به.

{ **فَلا تَخْشَوُا النّاس وَاخْشَوْنِ** } يجوز أن يكون الخطاب للنبيين والربانيين والأحبار، فهي على تقدير القول، أي: قلنا لهم: فلا تخشوا النّاس. لأنّ تمام الاستحفاظ يظهر في عدم المبالاة بالنّاس رضوا أم سخطوا، وفي قصر الاعتداد على رضا الله تعالى. إذ الحفيظ على الشيء، الأمين حقّ الأمانة، لا يخشى أحدا في القيام بوجه أمانته.

{ **وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً** } تقدّم القول في معناها في [البقرة:41].

{ **وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ** } المقصود اليهود وتحذير المسلمين من مثل صنعهم.

يحتمل أن يكون المراد بها الفريق الخاص، وهم الذين أخفوا بعض أحكام التوراة المعلومة عندهم.

المعنى: أنّهم اتّصفوا بالكفر من قبل فإذا لم يحكموا بما أنزل الله فذلك من آثار كفرهم السابق.

ويحتمل أن يكون المراد بها الجنس وتكون الصلة إيماء إلى تعليل كونهم كافرين، فتقتضي أنّ كل من لا يحكم بما أنزل الله يُكفّر.

{ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } [45].

مناسبة عطف هذا الحكم على ما تقدّم أنهم غيّروا أحكام القصاص كما غيّروا أحكام حدّ الزنى، ففاضلوا بين القتلى والجرحى، كما سيأتي، فلذلك ذيّله بقوله تعالى { وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ }، كما ذيّل الآية السابقة.

{ **وَكَتَبْنَا** } مجاز في التشريع والفرض، أي: أوجبنا عليهم فيها. وهذا الحكم مسطور في التوراة أيضا.

وفي هذه إشارة إلى أنّ هذا الحكم لا يُستطاع جحده لأنّه مكتوب، والكتابة تزيد الكلام توثّقا.

أي: كتبنا عليهم مساواة القصاص.

{ **بِالنَّفْسِ** } الباء ونظائره الأربعة باء العوض، فيُقدّر: أنّ النفس المقتولة تعوّض بنفس القاتل والعين المتلفة تعوّض بعين المتلِف، أي: بإتلافها، والعين مفقوءة بالعين؛ والأنف مجدوع بالأنف؛ والأذن مصلومة بالأذن.

{ **وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ** } أي: ذات قصاص. و**القصاص**: المماثلة، أي: عقوبة الجاني بجراح أن يُجرح مثل

الجرح الذي جنى به عمدا. والمعنى إذا أمكن ذلك، أي: أمن من الزيادة على المماثلة في العقوبة، وإلّا يُنتقل إلى الديّة كلها أو بعضها.

وهذا كلّه في جنايات العمد، فأمّا الخطأ فلم تتعرّض له الآية، لأنّ المقصود أنّهم لم يقيموا حكم التوراة في الجناية.

وفائدة الإعلام بما شرع الله لبني إسرائيل في القصاص هنا زيادة تسجيل مخالفتهم لأحكام كتابهم، وذلك أنّ اليهود في المدينة كانوا قد دخلوا في حروب بُعاث بين قريظة والنضير، ثم تحاجزوا وانهزمت قريظة، فشرطت النضير على قريظة أنّ دية النضيري على الضعف من دية القرظي وعلى أن القرظي يُقتل بالنضيري ولا يُقتل النضيري بالقرظي، فأظهر الله تحريفهم لكتابهم.

ويجوز أن يُقصد من ذلك أيضا تأييد شريعة الإسلام إذ جاءت بمساواة القصاص وأبطلت التكايل في الدماء الذي كان في الجاهلية وعند اليهود.

والتكايل عندهم عبارة عن تقدير النفس بعدة أنفس. من ذلك أنّ شيوخ بني أسد قدّروا دم حُجر والد امرئ القيس بديات عشرة من سادة بني أسد فأبى امرؤ القيس قبول هذا التقدير وقال لهم: " قد علمتم أن حُجرا لم يكن ليبوء به شيء " (البواء: الكفاء).

{ **فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ** } أي: من تصدّق بالحق الذي له، أي: تنازل عن العوض.

لأنّ العفو لمّا كان عن حقّ ثابت بيد مستحق الأخذ بالقصاص جُعل إسقاطه كالعطيّة ليشير إلى فرط ثوابه. وبذلك يتبيّن أنّ معنى { كَفَّارَةٌ لَهُ } أنّه يكفّر عنه ذنوبا عظيمة، لأجل ما في هذا العفو من جلب القلوب وإزالة الإحن واستبقاء نفوس وأعضاء الأمّة.

{ **وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** } عاد فحذّر من مخالفة حكم الله ليُنبّه على أنّ الترغيب في العفو لا يقتضي الاستخفاف بالحكم وإبطال العمل به، لأنّ حكم القصاص شُرع لحكم عظيمة؛ منها الزجر، ومنها جبر خاطر المعتدَى عليه، ومنها التفادي من ترصّد المعتدَى عليهم للانتقام من المعتدين أو من أقوامهم. فإبطال الحكم بالقصاص يُعطّل هذه المصالح، وهو ظلم، لأنّه غمص لحقّ المعتدَى عليه أو وليّه. وأمّا العفو عن الجاني فيحقّق جميع المصالح ويزيد مصلحة التحابب لأنّه عن طيب نفس.

وقد تغشى غباوة حكّام بني إسرائيل على أفهامهم فيجعلوا إبطال الحكم بمنزلة العفو، فهذا وجه إعادة التحذير عقب استحباب العفو. ولم ينبّه عليه المفسرون. وبه يتعيّن رجوع هذا التحذير إلى بني إسرائيل مثل سابقه.

{ **هُمُ الظَّالِمُونَ** } المراد الكافرون، لأنّ الظلم يطلق على الكفر فيكون هذا مؤكّدا للذي في الآية السابقة. ويحتمل أنّ المراد به الجور فيكون إثبات وصف الظلم لزيادة التشنيع عليهم، لأنّهم كافرون ظالمون.

{ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ [46] وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ [47] }.

نوع آخر من أنواع إعراض اليهود عن الأحكام التي كتبها الله عليهم، فبعد أن ذكر نوعين راجعين إلى تحريفهم أحكام التوراة:

أحدهما: ما حرّفوه وتردّدوا فيه بعد أن حرّفوه فشكّوا في آخر الأمر والتجأوا إلى تحكيم الرسول.

وثانيهما: ما حرّفوه وأعرضوا عن حكمه ولم يتحرّجوا منه، وهو إبطال أحكام القصاص.

وهذا نوع ثالث: وهو إعراضهم عن حكم الله بالكليّة، وذلك بتكذيبهم لما جاء به عيسى عليه السلام.

{ **قَفَّيْنَا** } التقفية مصدر قفّاه إذا جعله يقفوه، أي: يأتي بعده. فالتقفية الإتباع.

{ **عَلَى آثَارِهِمْ** } إفادة سرعة التقفية. والضمير للنبيّين والربّانيين والأحبار. وقد أرسل عيسى على عقب زكريا كافل أمّه مريم ووالد يحيى. ويجوز أن يكون معنى { عَلَى آثَارِهِمْ } على طريقتهم وهديهم.

المصدّق: المخبر بتصديق مخبر، وأريد به هنا المؤيّد المقرّر للتوراة.

{ **لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ** } لأنّها تقدّمته، والمتقدَّم يقال له: هو بين يدي من تقدّم.

{ **فِيهِ هُدىً وَنُورٌ** } حال، وتقدّم معنى الهدى والنور.

{ **وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ** } حال أيضا من الإنجيل فلا تكرير بينها وبين قوله تعالى { بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً } لاختلاف صاحب الحال، ولاختلاف كيفيّة التصديق، فتصديق عيسى التوراة أمره بإحياء أحكامها، وهو تصديق حقيقي. وتصديق الإنجيل التوراة اشتماله على ما وافق أحكامها فهو تصديق مجازي. وهذا التصديق لا ينافي أنّه نسخ بعض أحكام التوراة كما حكى الله عنه في قوله تعالى { وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ } [آل عمران:50]، لأنّ الفعل المثبت لا عموم له.

الموعظة: الكلام الذي يلين القلب ويزجر عن فعل المنهيّات.

{ **وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ** } لا شك أنّ هذا الأمر سابق على مجيء الإسلام، فهو ممّا أمر الله به الذين أرسل إليهم عيسى من اليهود والنصارى، أي: وآتيناه الإنجيل الموصوف بتلك الصفات العظيمة،

وقلنا: ليحكم أهل الإنجيل، فيتمّ التمهيد لقوله بعده { **وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ** }، فقرائن تقدير القول متظافرة من أمور عدة.

{ **فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** } المراد بالفاسقين الكافرون، إذ الفسق يطلق على الكفر، فتكون على نحو ما في الآية الأولى. ويحتمل أنّ المراد به الخروج عن أحكام شرعهم سواء كانوا كافرين به أم كانوا معتقدين ولكنهم يخالفونه فيكون ذما للنصارى في التهاون بأحكام كتابهم أضعف من ذم اليهود.

{ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } [48].

جالت الآيات المتقدّمة جولة في ذكر إنزال التوراة والإنجيل وآبت منها إلى المقصود، وهو إنزال القرآن. فكان كرد العجز على الصدر، ليُبيّن أنّ القرآن جاء ناسخا لما قبله، وأنّ مؤاخذة اليهود على ترك العمل بالتوراة والإنجيل مؤاخذة لهم بعملهم قبل مجيء الإسلام، وليُعلمهم أنّهم لا يطمعون من محمد صلى الله عليه وسلم بأن يحكم بينهم بغير ما شرعه الله في الإسلام، فوقع قوله تعالى { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ } لترتيب نزول الكتب السماوية، وتمهيدا لقوله تعالى { فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ }، ووقع قوله تعالى { فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ } موقع التخلّص للمقصود، فجاءت الآيات كلّها منتظمة متناسقة على أبدع وجه.

{ **وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ** } القرآن، فتعريفه للعهد. و{ **مِنَ الْكِتَابِ** } يشمل الكتب المتقدمة، فتعريفه للجنس.

المصدّق: تقدّم بيانه.

المهيمن: الأظهر أن هاءه أصليّة وأنّ فعله بوزن فيعل كسيطر، وفُسّر المهيمن بالعالي والرقيب، ومن أسمائه تعالى (المهيمن).

وقد أشارت الآية إلى حالتي القرآن بالنسبة لما قبله من الكتب:

فهو مؤيّد لبعض ما في الشرائع مقرّر له من كلّ حكم كانت مصلحته كلّيّة لم تختلف مصلحته باختلاف الأمم والأزمان، وهو بهذا الوصف مصدّق، أي: محقّق ومقرّر.

وهو أيضا مبطل لبعض ما في الشرائع السالفة وناسخ لأحكام كثيرة من كلّ ما كانت مصالحه جزئية مؤقّتة، مراعى فيها أحوال أقوام خاصة.

{ **فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ** } أي: بما أنزل الله إليك في القرآن، أو بما أوحاه إليك، أو احكم بينهم بما أنزل الله في التوراة والإنجيل ما لم ينسخه الله، لأنّ شرع من قبلنا شرع لنا إذا ثبت أنّه عن الله ولم يخالف شرعنا.

{ **وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ** } النهي عن اتباع أهوائهم، مقصود منه النهي عن الحكم بغير حكم الله إذا تحاكموا إليه، إذ لا يجوز الحكم بغيره ولو كان شريعة سابقة، لأنّ نزول القرآن مهيمِنا أبطل ما خالفه، ونزوله مصدِّقا أيّد ما وافقه، وزكّى ما لم يخالفه.

والرّسول لا يجوز عليه أن يحكم بغير شرع الله، فالمقصود من هذا النهي: إمّا إعلان ذلك ليعلمه النّاس وييأس الطامعون أن يحكم لهم بما يشتهون، فخطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم، مراد به أن يتقرّر ذلك في علم النّاس، مثل قوله تعالى { لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ } [الزمر:56]. وإمّا تبيين الله لرسوله وجه

ترجيح أحد الدليلين عند تعارض الأدلة، بأن لا تكون أهواء الخصوم طرقا للترجيح، فبيّن الله له أنّ أمور الشريعة لا تهاون بها، وأنّ مصلحة احترام الشريعة بين أهلها أرجح من مصلحة دخول فريق في الإسلام، لأنّ الإسلام لا يليق به أن يكون ضعيفا لمريديه.

{ **لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً** } كالتعليل للنهي، أي: إذا كانت أهواؤهم في متابعة شريعتهم أو عوائدهم فدعهم وما اعتادوه وتمسَّكوا بشرعكم.

الشرعة والشريعة: الماء الكثير من نهر أو واد. يقال: شريعة الفرات. وسمّيت الديانة شريعة على التشبيه، لأنّ فيها شفاء النفوس وطهارتها.

المنهاج، الطريق الواسع.

{ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً** } الجعل: التقدير، وإلاّ فإنّ الله أمر النّاس أن يكونوا أمّة واحدة على دين الإسلام، ولكنه رتب نواميس وجبلّات، وسبّب اهتداء فريق وضلال فريق، وعِلْم ذلك بحسب ما خلق فيهم من الاستعداد المعبّر عنه بالتوفيق أو الخذلان، والميل أو الانصراف، والعزم أو المكابرة. ولا عذر لأحد في ذلك، لأنّ علم الله غير معروف عندنا وإنّما ينكشف لنا بما يظهر في الحادثات.

الأمّة: الجماعة العظيمة الذين دينهم ومعتقدهم واحد، هذا بحسب اصطلاح الشريعة. وأصل الأمّة في كلام العرب، القوم الكثيرون الذين يرجعون إلى نسب واحد، ويتكلّمون بلسان واحد.

أي: لو شاء لخلقكم على تقدير واحد، كما خلق أنواع الحيوان غير قابلة الزيادة ولا للتطور من أنفسها.

{ **لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ** }هو ما أشرنا إليه من خلق الاستعداد ونحوه. و**البلاء**: الخبرة.

المراد هنا: ليظهر أثر ذلك للنّاس.

ومعناه أنّ الله وكّل اختيار طرق الخير وأضدادها إلى عقول النّاس وكسبهم، حكمة منه تعالى ليتسابق النّاس إلى إعمال مواهبهم العقلية فتظهر آثار العلم ويزداد أهل العلم علما وتُقام الأدلة على الاعتقاد الصحيح. وكلّ ذلك يُظهر ما أودعه الله في جبلّة البشر من الصلاحيّة للخير والإرشاد على حسب الاستعداد، وذلك من الاختبار، ولذلك قال تعالى { لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ }.

أي: في جميع ما آتاكم من العقل والنظر فيظهر التفاضل بين أفراد نوع الإنسان حتّى يبلغ بعضها درجات عالية، ومن الشرائع التي آتاكموها فيظهر مقدار عملكم بها فيحصل الجزاء بمقدار العمل.

{ **فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ** } لأن بذلك الاستباق يكون ظهور أثر التوفيق أوضح وأجلى.

الاستباق: التسابق، وهو هنا مجاز في المنافسة، لأنّ الفاعل للخير لا يمنع غيره من أن يفعل مثل فعله أو أكثر، فشابه التسابق. ولتضمين فعل (استبقوا) بمعنى خذوا، أو ابتدروا، عُدّي الفعل إلى { الْخَيْرَاتِ } بنفسه وحقه أن يُعدّى بـ (إلى).

{ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النّاس لَفَاسِقُونَ } [49].

{ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ } يجوز أن يكون معطوفا عطف جملة على جملة، بأن يُجعل معطوفا على قوله تعالى { فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ } [48]، فيكون رجوعا إلى ذلك الأمر لتأكيده. فيكون المعنى: وأنزلنا إليك الأمر بالحكم بما أنزل الله.

{ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ } هو كقوله تعالى قبله { وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ } [44].

{ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ } المقصود منه افتضاح مكرهم وتأييسهم مما أمّلوه، لأنّ حذر النبيّ صلى الله عليه وسلم من ذلك لا يحتاج فيه إلى الأمر لعصمته من أن يُخالف حكم الله.

{ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ }، أي: فإن حكمت بينهم بما أنزل الله ولم تتبع أهواءهم وتولّوا فاعلم ...، أي: فتلك أمارة أنّ الله أراد بهم الشقاء والعذاب ببعض ذنوبهم وليس عليك في تولّيهم حرج. وأراد ببعض الذنوب بعضا غير معيّن، أي: أنّ بعض ذنوبهم كافية في إصابتهم، وأن تولّيهم عن حكمك أمارة خذلان الله إيّاهم.

{ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النّاس لَفَاسِقُونَ } ليهوّن عنده بقاؤهم على ضلالهم إذ هو شنشنة أكثر النّاس، أي: وهؤلاء منهم، فالكلام كناية عن كونهم فاسقين.

{ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ } [50].

استفهام عن مرادهم من ذلك التولّي، والاستفهام إنكاري، لأنّهم طلبوا حكم الجاهليّة. وحكم الجاهلية هو ما تقرّر بين اليهود من تكايل الدماء الذي سرى إليهم من أحكام أهل يثرب، وهم أهل جاهليّة، فإنّ بني النضير لم يرضوا بالتساوي مع قريظة كما تقدّم.

{ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ } واو الحال، وهو اعتراض، والاستفهام إنكاري في معنى النفي، أي: لا أحسن منه حكما. وهو خطاب للمسلمين، إذ لا فائدة في خطاب اليهود بهذا.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ [51] فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ [52] وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ [53] }.

تهيأت نفوس المؤمنين لقبول النهي عن موالاة أهل الكتاب بعد ما سمعوا من اضطراب اليهود في دينهم ومحاولتهم تضليل المسلمين وتقليب الأمور للرسول صلى الله عليه وسلم، فأقبل عليهم بالخطاب بقوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى}، لأنّ الولاية تنبني على الوفاق والوئام والصلة، وليس أولئك بأهل لولاية المسلمين لبعد ما بين الأخلاق الدّينيّة، ولإضمارهم الكيد للمسلمين.

وجُرّد النهي هنا عن التعليل والتوجيه، اكتفاء بما تقدّم.

{ وَالنَّصَارَى } العطف لكي لا يحسب المسلمون أنّهم مأذونون في موالاة النصارى، لأنّ السبب الداعي لعدم الموالاة واحد. ولا شكّ أنّ الآية نزلت بعد غزوة تبوك أو قربها، وقد أصبح المسلمون مجاورين تخوم بلاد

نصارى العرب.

{ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ } أي: أنّهم أجدر بولاية بعضهم بعضا، أي: بولاية كلّ فريق منهم بعض أهل فريقه، لأنّ كل فريق منهم تتقارب أفراده في الأخلاق والأعمال فيسهل الوفاق بينهم، وليس المعنى أنّ اليهود أولياء النصارى.

الولاية: هنا ولاية المودّة والنصرة ولا علاقة لها بالميراث، ولذلك لم يقل مالك بتوريث اليهودي من النصراني والعكس، أخذا بقول النبيّ صلى الله عليه وسلم **" لا يتوارث أهل ملتين "**. وقال الشافعي وأبو حنيفة بتوريث بعض أهل الملل من بعض ورأيا الكفر ملّة واحدة أخذا بظاهر هذه الآية، وهو مذهب داود.

{ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ }، (من) شرطية تقتضي أنّ كلّ من يتولّاهم يصير واحدا منهم. وهذا بظاهره يقتضي أنّ ولايتهم دخول في ملّتهم.

ولمّا كان المؤمن إذا اعتقد عقيدة الإيمان واتبع الرّسول ولم ينافق كان مسلما لا محالة كانت الآية بحاجة إلى التأويل، وقد تأوّلها المفسّرون بأحد تأويلين:

<u>إمّا بحمل</u> الولاية على الولاية الكاملة التي هي الرضى بدينهم والطعن في دين الإسلام، ولذلك قال ابن عطية: " ومن تولّاهم بمعتقده ودينه فهو منهم في الكفر والخلود في النار".

<u>وإمّا بتأويل</u> قوله تعالى { فَإِنَّهُ مِنْهُمْ } على التشبيه البليغ، أي: فهو كواحد منهم في استحقاق العذاب. قال

ابن عطيّة: " من تولاّهم بأفعاله، من العضد ونحوه دون معتقدهم ولا إخلال بالإيمان فهو منهم في المقت والمذمّة الواقعة عليهم ".

وقد اتفق علماء السنّة على أن ما دون الرضا بالكفر وممالاتهم عليه من الولاية لا يوجب الخروج من الربقة الإسلاميّة ولكنّه ضلال عظيم، وهو مراتب في القوّة بحسب قوّة الموالاة وباختلاف أحوال المسلمين.

وأدنى درجات الموالاة المخالطة والملابسة في التجارة ونحوها. ودون ذلك ما ليس بموالاة أصلا، وهو المعاملة. وقد عامل النبيّ صلى الله عليه وسلم يهود خيبر مساقاة على نخل خيبر، وقد بيّنّا شيئا من تفصيل هذا عند قوله تعالى { لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ } [آل عمران:28]. فتكون الآية مبالغة في التحذير من موالاتهم في وقت نزولها، فالله لم يرض من المسلمين يومئذ بأن يتولّوا اليهود والنصارى، لأن ذلك يلبسهم بالمنافقين، وقد كان أمر المسلمين يومئذ في حيرة إذ كان حولهم المنافقون وضعفاء المسلمين واليهود والمشركون فكان من المتعيّن لحفظ الجامعة التجرّد عن كل ما تتطرّق منه الرّيبة إليهم.

{ **إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** } تذييل للنهي، وعموم القوم الظالمين شمل اليهود والنصارى. والمراد بالظالمين الكافرون.

{ **فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ** } تفريع لحالة من موالاتهم أريد وصفها للنبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّها وقعت في حضرته.

المرض: هنا أطلق على النفاق كما في قوله تعالى { فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ } [البقرة:10].

المسارعة: تقدّم شرحها في قوله تعالى { لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ } [41]، فالمعنى: يسارعون في نصرتهم.

{ **يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ** } قول لسان لأنّ عبد الله بن أبي بن سلول قال ذلك، حسبما رُوي عن عطيّة الحوفي والزهري وعاصم بن عمر بن قتادة: أنّ الآية نزلت بعد وقعة بدر أو بعد وقعة أحد وأنّها نزلت حين عزم رسول الله على قتال بني قينقاع. وكان بنو قينقاع أحلافا لعبد الله بن أبَي بن سلول ولعبادة بن الصامت، فلمّا رأى عبادة منزع رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء فقال: " يا رسول الله إنّي أبرأ إلى الله من حلف يهود وولائهم ولا أوالي إلاّ الله ورسوله "، وكان عبد الله بن أبي حاضرا فقال: " أمّا أنا فلا أبرأ من حلفهم فإنّي لابد لي منهم، إنّي رجل أخاف الدوائر".

ويحتمل أن يكون قولا نفسيّا، أي: يقولون في أنفسهم. فالدائرة المخشيّة هي خشية انتقاض المسلمين على المنافقين، فيكون هذا القول من المرض الذي في قلوبهم. وعن السدّي: " أنّه لمّا وقع انهزام يوم أحد فزع المسلمون وقال بعضهم: نأخذ من اليهود حلفا ليعاضدونا إن ألمّت بنا قاصمة من قريش. فيكون المرض هنا ضعف الإيمان وقلّة الثقة بنصر الله.

وعلى هذا فهذه الآية تقدم نزولها قبل نزول هذه السورة، فإما أعيد نزولها، وإمّا أمر بوضعها هنا.

الدائرة: اسم فاعل من دار إذا عكس سيره، فالدائرة تغيّر الحال، وغلب إطلاقها على تغيّر الحال من خير إلى شر، ودوائر الدهر: نُوَبه ودولُه، قال تعالى { وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ } [التوبة:98]، أي: تبدلّ حالكم من نصر إلى هزيمة.

{ **فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ** } يؤيّد الرواية الأولى، ويؤيد محملنا فيها، أنّ القول قول نفسي.

{ **وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا** } قرأه الجمهور { يَقُولُ } بدون (واو) في أوّله على أنّه استئناف بياني جواب لسؤال من يسأل: ماذا يقول الذين آمنوا حينئذ. وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف { وَيَقُولُ } بالواو وبرفع

{ يقولُ } عطفا على { فَعَسَى اللَّهُ }، وقرأه أبو عمرو، ويعقوب بالواو أيضا وبنصب { يَقُولَ } عطفا على { أَنْ يَأْتِيَ }.

{ **أَهَؤُلاءِ** } إشارة إلى طائفة مقدّرة الحصول يوم حصول الفتح، وهي طائفة الذين في قلوبهم مرض. والاستفهام للتعجّب، ومحلّ العجب هو قَسَمهم أنّهم معهم، وقد دلّ هذا التعجّب على أنّ المؤمنين يظهر لهم من حال المنافقين يوم إتيان الفتح ما يفتضح به أمرهم فيعجبون من حلفهم على الإخلاص للمؤمنين.

جَهد الأيمان: (بفتح الجيم) أقواها وأغلظها، وحقيقة الجَهد التعب والمشقّة ومنتهى الطاقة. ثم أطلق على أشد الفعل ونهاية قوّته لما بين الشدّة والمشقّة من الملازمة، وشاع ذلك في كلامهم ثم استعمل في الآية في معنى أوكد الأيمان وأغلظها، أي: أقسموا أقوى قسم، وذلك بالتوكيد والتكرير ونحو ذلك مما يغلظ به اليمين عرفا.

{ **حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ** } استئناف، سواء كانت من كلام الذين آمنوا فتكون من المحكي بالقول، أم كانت من كلام الله تعالى فلا تكونه.

حبطت: معناه تلفت وفسدت، تقدّم في قوله تعالى { فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ } [البقرة:217].

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } [54].

تقضَّى تحذيرهم من أعدائهم في الدين، وتجنيبهم أسباب الضعف فيه، فأقبل على تنبيههم إلى أنّ ذلك حرص على صلاحهم في ملازمة الدين والذبّ عنه، وأنّ الله لا يناله نفع من ذلك، وأنّهم لو ارتدّ منهم

فريق أو نفر لم يضرّ الله شيئا، وسيكون لهذا الدين أتباع وأنصار وإن صدّ عنه من صدّ، وهذا كقوله تعالى { إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ } [الزمر:7].

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ** } إشارة إلى أنّ اتخاذ اليهود والنصارى أولياء ذريعة للارتداد، لأنّ استمرار فريق على موالاة اليهود والنصارى من المنافقين وضعفاء الإيمان يُخشى منه أن ينسلّ عن الإيمان فريق. وأنبأ المتردّدين ضعفاء الإيمان بأنّ الإسلام غني عنهم إن عزموا على الارتداد إلى الكفر.

وقرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر { **مَنْ يَرْتَدِدْ** } بدالين على فك الإدغام، وهو أحد وجهين في مثله، وهو لغة أهل الحجاز، وكذلك هو مرسوم في مصحف المدينة ومصحف الشام. وقرأ الباقون بدال واحدة مشدّدة بالإدغام، وهو لغة تميم. وبفتح على الدال فتحة تخلّص من التقاء الساكنين لخفة الفتح، وكذلك هو مرسوم في مصحف مكّة ومصحف الكوفة ومصحف البصرة.

الارتداد: مطاوع الردّ، والردّ هو الإرجاع إلى مكان أو حالة، قال تعالى { رُدُّوهَا عَلَيَّ } [ص:33]، وقد يطلق الردّ بمعنى التصيير، كقوله تعالى { وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ } [النحل:70].

وقد لوحظ في إطلاق اسم الارتداد على الكفر بعد الإسلام، ما كانوا عليه قبل الإسلام من الشرك وغيره، ثم غلب اسم الارتداد على الخروج من الإسلام ولو لم يسبق للمرتدّ عنه اتخاذ دين قبله.

{ **فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ** } جواب الشرط، وهو وعد بأنّ هذا الدين لا يعدم أتباعا بررة مخلصين. ومعنى هذا الوعد إظهار الاستغناء عن الذين في قلوبهم مرض وعن المنافقين وقلّة الاكتراث بهم، وتطمين الرّسول والمؤمنين الحقّ بأنّ الله يعوّضهم بالمرتدين خيرا منهم.

الإتيان: هنا الإيجاد، أي: يُوجِد أقواما لإتباع هذا الدين بقلوب تحبّه وتجلب له وللمؤمنين الخير وتذود عنهم أعداءهم، وهؤلاء القوم قد يكونون من نفس الذين ارتدّوا إذا رجعوا إلى الإسلام خالصة قلوبهم ممّا كان يخامرها من الإعراض مثل معظم قبائل العرب وسادتهم الذين رجعوا إلى الإسلام بعد الردة زمن أبي بكر.

و**محبة الله** عبده رضاه عنه وتيسير الخير له، و**محبة العبد** ربّه انفعال النفس نحو تعظيمه والأنس بذكره وامتثال أمره والدفاع عن دينه. فهي صفة تحصل للعبد من كثرة تصور عظمة الله تعالى ونعمه حتى تتمكّن من قلبه، فمنشؤها السمع والتصوّر.

{ **أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ** } وصفان متقابلان وصف بهما القوم باختلاف المتعلّق بهما.

الأذلّة: جمع الذليل وهو الموصوف بالذلّ. والذلّ (بضم الذال وبكسرها) الهوان والطاعة، فهو ضد العزّ، قال تعالى { وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ } [آل عمران:123]. ويطلق الذلّ على لين الجانب والتواضع، وهو مجاز، كقوله تعالى { وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ } [الاسراء:24] وهو المراد هنا: لين الجانب وتوطئة الكنف، وهو شدّة الرحمة والسعي للنفع، ولذلك علق به قوله تعالى { عَلَى

الْمُؤْمِنِينَ }.

الأعزة: جمع العزيز فهو المتصف بالعز وهو القوّة والاستقلال.

وإثبات الوصفين المتقابلين للقوم صناعة عربية بديعية، وهي المسمّاة الطباق.

وفيه إيماء إلى أنّ صفاتهم تسيّرها آراؤهم الحصيفة فليسوا مندفعين إلى فعل ما إلّا عن بصيرة، وليسوا ممن تنبعث أخلاقه عن سجيّة واحدة بأن يكون ليّنا في كل حال، وهذا هو معنى الخلق الأقوم، وهو الذي يكون في كل حال بما يلائم ذلك الحال.

{ **يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** } صفة ثالثة، وهي من أكبر العلامات الدالة على صدق الإيمان.

الجهاد: إظهار الجهد، أي: الطاقة في دفاع العدو، ونهاية الجهد التعرض للقتل.

{ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ } صفة رابعة، وهي عدم الخوف من الملامة في أمر الدين، كما هو السياق.

اللومة: الواحدة من اللوم. وأريد بها هنا مطلق المصدر، أي: لا يخافون جميع أنواع اللوم من جميع اللائمين. وهذا الوصف علامة على صدق إيمانهم حتّى خالط قلوبهم بحيث لا يصرفهم عنه شيء من الإغراء واللوم لأنّ الانصياع للملام آية ضعف اليقين والعزيمة.

{ **ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ** } تذييل. واسم الإشارة إشارة إلى مجموع صفات الكمال المذكورة.

{ **وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** } وصف بالسعة، أي: عدم نهاية التعلّق بصفاته ذات التعلّق، وتقدم عند قوله تعالى { قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } [آل عمران:73].

{ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ [55] وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ [56] }.

{ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ** ...} متّصلة بجملة { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ } [51]، فموقع هذه الجملة موقع التعليل للنهي، لأنّ ولايتهم لله ورسوله مقرّرة عندهم فمن كان الله ولّيه لا يكون أعداء الله أولياءه.

وتفيد هذه الجملة تأكيدا للنهي عن ولاية اليهود والنصارى. وفيه تنويه بالمؤمنين بأنّهم أولياء الله ورسوله بطريقة تأكيد النفي أو النهي بالأمر بضده.

{ **وَالَّذِينَ آمَنُوا** } المعنى: أنّ المؤمنين بعضهم أولياء بعض، كقوله تعالى { وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ } [التوبة:71].

{ **الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ** } تعداد الصفات بغاية الثناء.

{ **وَهُمْ رَاكِعُونَ** }، معطوف على الصفة، أي: الذين يديمون إقامة الصلاة. ويجوز أن تُجعل الجملة حالا. ويراد بالركوع الخشوع.

ومن المفسّرين من جعل { وَهُمْ رَاكِعُونَ } حالا من ضمير { يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ }. وليس فيه معنى أن تؤتى

الزكاة في حالة الركوع. وركَّبوا هذا المعنى على خبر تعدّدت رواياته وكلّها ضعيفة.
قال ابن كثير: " وليس يصحّ شيء منها بالكلّيّة لضعف أسانيدها وجهالة رجالها.
{ **فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ** } دليل على جواب الشرط بذكر علّة الجواب كأنّه قيل: فهم الغالبون لأنّهم حزب الله.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [57] وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ [58] }.

تأكيد لبعض مضمون الكلام الذي قبله، وهي تحذير من موالاة اليهود والمشركين الذين بالمدينة، ولا مدخل للنصارى فيها، إذ لم يكن في المدينة نصارى فيهزأوا بالدين.
فالذي يتخذ دين امرئ هزؤا فقد اتخذ ذلك المتديّن هزؤا ورمقه بعين الاحتقار، والذي يرمق بهذا الاعتبار ليس جديرا بالموالاة، والمودة تستدعي تعظيم الودود.
{ **وَالْكُفَّارَ** } المشركون، وهذا اصطلاح القرآن في إطلاق لفظ الكفّار. والمراد بهم هنا المشركون من أهل المدينة الذين أظهروا الإسلام نفاقا، مثل رفاعة بن زيد، وسويد بن الحارث، فقد كان بعض المسلمين يوادّهما اغترارا بظاهر حالهما.
عن ابن عباس، أنّ قوما من اليهود والمشركين ضحكوا من المسلمين وقت سجودهم. وقال الكلبي: كانوا إذا نادى منادي رسول الله قالوا: " صياح مثل صياح العير"، وتضاحكوا، فأنزل الله هذه الآية.
{ **وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** } أي: احذروه بامتثال ما نهاكم عنه. وذِكر هذا الشرط استنهاض للهمّة في الانتهاء، وإلهاب لنفوس المؤمنين ليُظهروا أنّهم مؤمنون، لأنّ شأن المؤمن الامتثال.
النداء إلى الصلاة: هو الأذان، وما عُبّر عنه في القرآن إلاّ بالنداء. وقد دلّت الآية على أنّ الأذان شيء معروف، فهي مؤيّدة لمشروعية الأذان وليست مشرّعة له، لأنّه شرع بالسنّة.
{ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ** } تحقير لهم إذ ليس في النداء إلى الصلاة ما يوجب الاستهزاء، فجعْله موجبا للاستهزاء سخافة لعقولهم.

{ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ** [59] **قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ** [60] }.

هذه الجمل معترضة بين ما تقدمها وبين قوله تعالى { وَإِذَا جَاءُوكُمْ } [61]، ولا يتّضح معنى الآية أتم وضوح إلاّ بعد معرفة سبب نزولها. ذكر الواحدي وابن جرير عن ابن عباس قال: " جاء نفر من اليهود فيهم أبو ياسر بن أخطب، ورافع بن أبي رافع، وعازر، وزيد، وخالد، وأزار بن أبي أزار، وأشيع، إلى النبيّ فسألوه عمن يؤمن به من الرسل، فلما ذكر عيسى بن مريم قالوا: " لا نؤمن بمن آمن بعيسى ولا نعلم دينا شرّا من دينكم وما نعلم أهل دين أقلّ حظا في الدنيا والآخرة منكم"، فأنزل الله { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ - إلى قوله - وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ }. فخصّ بهذه المجادلة أهل الكتاب لأنّ الكفار لا تنهض عليهم حجّتها.

{ **هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا** } الاستفهام إنكاري وتعجّبي. فالإنكار دلّ عليه الاستثناء، والتعجّب دل عليه أنّ مفعولات

{ تَنْقِمُونَ } كلّها محامد لا يحق نقمها، أي: لا تجدون شيئا تنقمونه غير ما ذكر.

{ **وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ** } تحيّر في تأويلها المفسّرون لاقتضاء ظاهرها فسق أكثر المخاطبين مع أنّ ذلك لا يعترف به أهله. والذي يظهر لي أن يكون القول معطوفا على { أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ } على ما هو المتبادر ويكون الكلام تهكّما، أي: تنقمون منا أننا آمنا كإيمانكم وصدقنا رسلكم وكتبكم، وذلك نقمُهُ عجيب، أي: هذا نقم حسد. فظهرت قرينة التهكّم فصار في الاستفهام إنكار فتعجّب فتهكّم، تولّد بعضها عن بعض وكلّها متولدة من استعمال الاستفهام في مجازاته أو في معان كنائية.

{ **قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ** } اطّرد في التهكّم بهم والعَجب من أَفَن رأيهم مع تذكيرهم بمساويهم.

شرّ: اسم تفضيل، أصله أشرّ، وهو للزيادة في الصفة، حذفت همزته تخفيفا لكثرة الاستعمال، وإنّما جرى هذا تهكّما باليهود لأنّهم قالوا للمسلمين: لا دين شرّ من دينكم.

المثوبة: مشتقّة من ثاب يثوب، أي: رجع، فهي بوزن مفعولة، سُمِّي بها الشيء الذي يثوب به المرء إلى منزله إذا ناله جزاء عن عمل عمله أو سعي سعاه. فجعْلها في هذه الآية تمييزا لاسم الزيادة في الشرّ تهكّم، لأنّ اللعنة والغضب والمسخ ليست مثوبات.

{ **مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ** } مبتدأ، أريد به بيان من هو شرّ مثوبة، وفيه مضاف مقدّر دل عليه السياق. وتقديره، مثوبةُ من لعنه الله. والعدول عن أن يقال: أنتم أو اليهود، إلى الإتيان بالموصول للعلم بالمعني من الصلة،

لأنّهم يعلمون أنّ أسلافا منهم وقعت عليهم اللعنة والغضب، ودلائله ثابتة في التوراة وكتب أنبيائهم.
وأمّا جعلهم قردة وخنازير فقد تقدّم القول في حقيقته في [البقرة:65].
وأمّا كونهم عبدوا الطاغوت فهو لأنّهم عبدوا العجل بعد أن كانوا أهل توحيد.
الطاغوت: الأصنام، وتقدّم عند قوله تعالى { يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ } [النساء:51].
والمقصود من ذكر ذلك هنا تعيير اليهود المجادلين للمسلمين بمساوي أسلافهم، إبكاتا لهم عن التطاول.

{ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ [61] وَتَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [62] لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ [63] }.

{ **وَإِذَا جَاءُوكُمْ** } عطف على قوله تعالى { وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً } [58]، وخُصّ بهذه الصفات المنافقون من اليهود من جملة الذين اتّخذوا الدين هزؤا ولعبا، فاستكمل بذلك التحذير ممّن هذه صفتهم المعلنين منهم والمنافقين. ولا يصحّ عطفه على { وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ } لعدم استقامة المعنى.
{ **وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ** } أي: أنّ الإيمان لم يخالط قلوبهم طرفة عين، أي: هم دخلوا كافرين وخرجوا كذلك، لشدّة قسوة قلوبهم، ففي ذلك تسجيل الكذب في قولهم: آمنّا.
والعرب تقول: خرج بغير الوجه الذي دخل به.
{ **وَتَرَى** } الرؤية بصرية، أي أنّ حالهم في ذلك بحيث لا يخفى على أحد. والخطاب لكلّ من يسمع.
{ **يُسَارِعُونَ** } تقدّم عند قوله تعالى { لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ } [41].
الإثم: المفاسد من قول وعمل، أريد به هنا الكذب، كما دل عليه قوله تعالى {عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ }.
العدوان: الظلم، والمراد به الاعتداء على المسلمين إن استطاعوه.
السُّحت: تقدّم في قوله تعالى { سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ } [42].
{ **لَوْلَا** } تحضيض أريد منه التوبيخ.
{ **الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ** } تقدّم بيان معناهما في قوله تعالى { يَحْكُمُ بِهَا النبيّونَ } [44].
واقتصر في توبيخ الربانيين على ترك نهيهم عن قول الإثم وأكل السحت، ولم يذكر العدوان، إيماء إلى أنّ العدوان يزجرهم عنه المسلمون ولا يلتجئون في زجرهم إلى غيرهم، لأنّ الاعتماد في النصرة على غير المجني عليه، ضعف.
{ **لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** } مستأنفة، ذم لصنيع الربّانيين والأحبار في سكوتهم عن تغيير المنكر.

{ **يَصْنَعُونَ** } بمعنى يعملون، وإنّما خولف هنا ما تقدّم في الآية قبلها للتفنّن، وقيل: لأنّ { يَصْنَعُونَ } أدلّ على التمكّن في العمل من (يعملون).

{ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ } [64].

{ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ }

انتقل إلى سوء معتقدهم وخبث طويّتهم ليظهر فرط التنافي بين معتقدهم ومعتقد أهل الإسلام.

{ **يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ** } الوصف بالبخل في العطاء لأنّ العرب يجعلون العطاء معبّرا عنه باليد، ويجعلون بسط اليد

استعارة للبذل والكرم، ويجعلون ضد البسط استعارة للبخل فيقولون: أمسك يده وقبض يده، وهي استعارة قويّة لأنّ مغلول اليد لا يستطيع بسطها، فلا جرم أن تكون استعارة لأشدّ البخل والشحّ.

واليهود أهل إيمان ودين فلا يجوز في دينهم وصف الله تعالى بصفات الذم، فقولهم هذا:

إمّا أن يكون جرى مجرى التهكّم بالمسلمين إلزاما لهذا القول الفاسد لهم، كما روي أنّهم قالوا ذلك لمّا كان المسلمون في أول زمن الهجرة في شدّة، وفرض الرسول عليهم الصدقات، وربما استعان باليهود في الديّات. وكما روي أنّهم قالوه لما نزل قوله تعالى { مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً } [البقرة:245]، فقالوا: " إنّ ربّ محمد فقير وبخيل". وقد حكي عنهم نظيره في قوله تعالى { لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ } [آل عمران:181].

وإمّا أن يكونوا قالوه في حالة غضب ويأس، فقد روي في سبب نزولها أنّ اليهود نزلت بهم شدّة وأصابتهم مجاعة وجهد، فقال فنحاص ابن عازورا هذه المقالة، فإمّا تلقفوها منه على عادة جهل العامة، وإمّا نسب قول حبرهم إلى جميعهم لأنّهم يقلدونه ويقتدون به.

وقد ذمّهم الله تعالى على كلا التقديرين، إذ الأوّل استخفاف بالإسلام وبدينهم أيضا، والثاني ظاهر ما فيه من العجرفة والتأفّف من تصرّف الله، فقابل الله قولهم بالدعاء عليهم. وذلك ذم على طريقة العرب.

{ **غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ** } على طريقة العرب في انتزاع الدعاء من لفظ سببه أو نحوه، كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **"عُصَيَّة عصت الله ورسوله، وأسلم سلّمها الله، وغِفَار غفر الله لها ".**

{ **وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا** } يجوز أن تكون إنشاء دعاء عليهم، ويجوز أن تكون إخبارا بأنّ الله لعنهم لأجل قولهم.

{ **بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ** } نقض لكلامهم وإثبات سعة فضله تعالى. وبسط اليدين تمثيل للعطاء، وهو يتضمّن تشبيه الإنعام بأشياء تعطى باليدين. وذكر اليد هنا بطريقة التثنية لزيادة المبالغة في الجود.

{ **يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ** } بيان لاستعارة { يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ }.

{ **وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً** } عطف على قوله تعالى { وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ }. وهذا بيان للسبب الذي بعثهم على تلك المقالة الشنيعة، أي: أعماهم الحسد فزادهم طغيانا وكفرا، وفي هذا إعداد للرّسول عليه الصلاة والسلام لأخذ الحذر منهم، وتسلية له بأنّ فرط حنقهم هو الذي أنطقهم بذلك القول الفظيع.

{ **وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ** } عطف على جملة { وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا }، وفي هذا الخبر الإيماء إلى أنّ الله عاقبهم في الدنيا على بغضهم المسلمين بأن ألقى البغضاء بينهم، فهو جزاء من جنس العمل، وهو تسلية للرّسول صلى الله عليه وسلم أن لا يهمّه أمر عداوتهم له، فإنّ البغضاء سجيّتهم حتّى بين أقوامهم وأنّ هذا الوصف دائم لهم شأن الأوصاف التي عمي أصحابها عن مداواتها بالتخلّق الحسن.

وتقدّم القول في نظيره آنفا.

{ **كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ** } تمثيل، شبّه به حال التهيؤ للحرب والاستعداد لها والحَزَامَةِ في أمرها، بحال من يوقد النّار لحاجة بها فتنطفئ، فإنّه شاعت استعارات معاني التسعير والحمي والنار ونحوها للحرب.

والمعنى أنّهم لا يلتئم لهم أمر حرب ولا يستطيعون نكاية عدوّ، ولو حاربوا أو حُوربوا انهزموا، فيكون معنى الآية على هذا كقوله تعالى { ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا } [آل عمران:112].

{ **وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً** } القول فيه كالقول في نظيره المتقدّم آنفا { إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً } [33].

{ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ } [65].

عُقِّب نهيهم وذمّهم، بدعوتهم للخير بطريقة التعريض.

{ **آمَنُوا** } المراد الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم. وفي الحديث: " **اثنان يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيّه ثم آمن بي، فله أجران، ورجل كانت له جارية فأدّبها فأحسن تأديبها وعلّمها ثم أعتقها فتزوجها فله أجران**".

{ **لَكَفَّرْنَا / وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ** } لام تأكيد يكثر وقوعها في جواب (لو) إذا كان فعلا ماضيا مثبتا لتأكيد تحقيق التلازم بين شرط (لو) وجوابها.

{ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ والإنجيل وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ } [66].

إقامة الشيء: جعله قائما، كما تقدّم في [البقرة:3]. واستعيرت الإقامة لعدم الإضاعة لأنّ الشيء المضاع يكون ملقى، ولأنّ الإنسان يكون في حال قيامه أقدر على الأشياء. فيجوز أن يكون معنى إقامة التوراة والإنجيل إقامة تشريعهما قبل الإسلام، أي: لو أطاعوا أوامر الله وعملوا بها سلموا من غضبه فلأغدق عليهم نعمه. وقد أومأت الآية إلى أنّ سبب ضيق معاش اليهود هو من غضب الله تعالى عليهم لإضاعتهم التوراة وكفرهم بالإنجيل وبالقرآن، أي: فتحتّمت عليهم النقمة بعد نزول القرآن.

{ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ } تعميم جهات الرزق، أي: لرزقوا من كل سبيل.

فأكلوا بمعنى رُزقوا. وقيل:المراد بالمأكول من فوق ثمار الشجر، ومن تحت الحبوب والمقاثي، فيكون الأكل

على حقيقته، أي: لاستمر الخصب فيهم. وفي معنى هذه الآية قوله تعالى { وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } [الأعراف:96].

{ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ } إنصاف لفريق منهم بعد أن جرت تلك المذام على أكثرهم.

المقتصد: المطيع، أي: غير مسرف بارتكاب الذنوب، واقف عند حدود كتابهم، لأنّه يقتصد في سَرَف نفسه، وقد عُلم من اصطلاح القرآن التعبير بالإسراف عن الاسترسال في الذنوب، قال تعالى { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ } [الزمر:53]، ولذلك يقابل بالاقتصاد، أي: الحذر من الذنوب. فالمراد هنا تقسيم أهل الكتاب قبل الإسلام، لأنّهم بعد الإسلام قسمان سيّء العمل، وهو من لم يسلم، وسابق في الخيرات، وهم الذين أسلموا مثل عبد الله بن سلام ومخيريق.

{ سَاءَ } فعلا بمعنى كان سيّئا، و{ مَا يَعْمَلُونَ } فاعله، كما قدّره ابن عطية. وجعله في الكشاف بمعنى بئس.

{ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } [67].

إن موضع هذه الآية في هذه السورة معضل، فإنّ سورة المائدة من آخر السور نزولا إن لم تكن آخرها نزولا، وقد بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم الشريعة وجميع ما أنزل إليه يوم نزولها، فلو أنّ هذه الآية نزلت في أوّل مدّة البعثة لقلنا هي تثبيت للرسول وتخفيف لأعباء الوحي عنه، كما أنزل قوله تعالى

{ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ } [الحجر:95/94]، فأمّا وهذه السورة من آخر السور نزولا وقد أدّى رسول الله الرسالة فليس في الحال ما يقتضي أن يؤمر بالتبليغ، فنحن إذن بين احتمالين:

أحدهما: أن تكون هذه الآية نزلت بسبب خاص اقتضى إعادة تثبيت الرسول على تبليغ شيء ممّا يثقل عليه تبليغه.

ثانيهما: أن تكون هذه الآية نزلت من قبل نزول هذه السورة، وهو الذي تواطأت عليه أخبار في سبب نزولها. وهو احتمال لا ينبغي اعتباره لاقتضائه أن تكون هذه الآية بقيت سنين غير ملحقة بسورة. ولا جائز أن تكون مقروءة بمفردها، وبذلك تندحض جميع الأخبار الواردة في أسباب النزول التي تذكر حوادث كلها حصلت في أزمان قبل زمن نزول هذه السورة. فتعيّن التعويل على الاحتمال الأول.

فيكون سبب نزولها قضية مما جرى ذكره في هذه السورة، فهي على وتيرة قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ } [41]، وقوله تعالى { وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ } [49]، فكما كانت تلك الآية في وصف حال المنافقين تليت بهذه الآية لوصف حال أهل الكتاب. والفريقان متظاهران على الرسول صلى الله عليه وسلم: فريق مجاهر، وفريق متستّر، فعاد الخطاب للرسول ثانية بتثبيت قلبه وشرح صدره بأن يدوم على تبليغ الشريعة ويجهد في ذلك ولا يكترث بالطاعنين من أهل الكتاب والكفار. فكما ثبّت جنانه بالخطاب الأول أن لا يهتمّ بمكائد أعدائه، حذر بالخطاب الثاني من ملاينتهم في إبلاغهم قوارع القرآن، أو من خشيته إعراضهم.

فالتبليغ المأمور به على هذا الوجه تبليغ ما أنزل من القرآن في تقريع أهل الكتاب.

{ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ } التبليغ جعل الشيء بالغا. والبلوغ الوصول إلى المكان المطلوب وصوله، وهو هنا مجاز في حكاية الرسالة للمرسل بها إليه من قولهم: بلغ الخبر وبلغت الحاجة. والأمر بالتبليغ مستعمل في طلب الدوام.

والذي ظهر من تتبع سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه كان يبادر بإبلاغ القرآن عند نزوله، فإذا نزل عليه ليلا أخبر به عند صلاة الصبح. وفي حديث عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" لقد أنزلت عليّ الليلة سورة، لهي أحبّ إليّ ممّا طلعت عليه الشمس "**، ثم قرأ: { إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً } [الفتح:1].

وفي حديث ابن عباس: " أنّ رسول الله نزلت عليه سورة الأنعام جملة واحدة بمكّة ودعا رسول الله الكتّاب فكتبوها من ليلتهم ".

{ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ } إيماء عظيم إلى تشريف الرسول صلى الله عليه وسلم بمرتبة الوساطة بين الله والنّاس، إذ جعل الإنزال إليه ولم يقل إليكم أو إليهم.

والإتيان بلفظ الرب هنا دون اسم الجلالة لما في التذكير بأنّه ربّه من معنى كرامته، ومن معنى أداء ما أراد إبلاغه، كما ينبغي من التعجيل والإشاعة والحث على تناوله والعمل بما فيه.

دلّت الآية على أن الرسول مأمور بتبليغ ما أنزل إليه كلّه، بحيث لا يتوهّم أحد أن رسول الله قد أبقى شيئا من الوحي لم يبلّغه. لأنه لو ترك شيئا منه لم يبلغه لكان ذلك مما أنزل إليه ولم يقع تبليغه، وإذ قد كانت هذه الآية من آخر ما نزل من القرآن علمنا أن من أهم مقاصدها أنّ الله أراد قطع تخرّص من قد يزعمون أنّ الرسول قد استبقى شيئا لم يبلّغه، أو أنّه قد خص بعض النّاس بإبلاغ شيء من الوحي لم يبلغه للنّاس عامة.

وقد يخصّ الرسول بعض الناس ببيان شيء من الأحكام ليس من القرآن المنزّل إليه لحاجة دعت إلى تخصيصه، كما كتب إلى عليّ بن أبي طالب ببيان العقل وفكاك الأسير وأن لا يقتل مسلم بكافر، لأنّه كان يومئذ قاضيا باليمن، وكما كتب إلى عمرو بن حزم كتاب نصاب الزكاة لأنّه كان بعثه لذلك، فذلك لا ينافي الأمر بالتبليغ لأن ذلك بيان لما أنزل وليس عين ما أنزل، ولأنّه لم يقصد منه تخصيصه بعلمه، بل قد يخبر به من تدعو الحاجة إلى علمه به، ولأنّه لما أمر من سمع مقالته بأن يعيها ويؤديها كما سمعها، وأمر أن يبلغ الشاهد الغائب، حصل المقصود من التبليغ، فأمّا أن يدع شيئا من الوحي خاصا بأحد وأن يكتمه المودع عنده عن الناس فمعاذ الله من ذلك.

وقد يخص أحدا بعلم ليس مما يرجع إلى أمور التشريع، من سر يلقيه إلى بعض أصحابه، كما أسرّ إلى فاطمة رضي الله عنها بأنه يموت يومئذ وبأنّها أول أهله لحاقا به. وأسرّ إلى أبي بكر رضي الله عنه بأنّ الله أذن له في الهجرة.

ومن أجل ذلك جزمنا بأن الكتاب الذي هم رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتابته للنّاس، وهو في مرض وفاته، ثم أعرض عنه، لم يكن فيما يرجع إلى التشريع لأنّه لو كان كذلك لما أعرض عنه والله يقول له { بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ }. روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنّها قالت لمسروق: " ثلاث من حدثك بهنّ فقد كذب، من حدثك أن محمدا كتم شيئا مما أنزل عليه فقد كذب، والله يقول: { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَاتِهُ } ...".

{ **وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَاتِهُ** } جاء الشرط بـ (إن) التي شأنها في كلام العرب عدم اليقين بوقوع الشرط، لأنّ عدم التبليغ غير مظنون بمحمد صلى الله عليه وسلم وإنّما فرض هذا الشرط ليبني عليه الجواب، وهو قوله تعالى { فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَاتِهُ } ليستفيق الذين يرجون أن يسكت رسول الله عن قراءة القرآن النازل بفضائحهم من اليهود والمنافقين. وليُبكت من علم الله أنّهم سيفترون، فيزعمون أنّ قرآنا كثيرا لم يبلغه رسول الله الأمّة.

<u>المعنى</u>: أنّك إن لم تبلّغ جميع ما أنزل إليك فتركت بعضه، لم تبلّغ الرسالة، لأنّ كتم البعض مثل كتمان الجميع في الاتصاف بعدم التبليغ.

{ **وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ** } افتُتح باسم الجلالة للاهتمام به لأنّ المخاطب والسامعين يترقّبون عقب الأمر بتبليغ كلّ ما أنزل إليه أن يلاقي عنتا وتكالبا عليه من أعدائه فافتُتح تطمينه بذكر اسم الله، لأنّ المعنى أنّ هذا ما عليك، فأمّا ما علينا فالله يعصمك. فموقع تقديم اسم الجلالة هنا مغن عن الإتيان بـ (أمّا).

وذكر الشيخ عبد القاهر في أبواب التقديم من (دلائل الإعجاز)، أنّ ممّا يحسن فيه تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي ويكثر: الوعد والضمان، لأنّ ذلك ينفي أن يشك من يوعَد في تمام الوعد والوفاء به فهو من أحوج الناس إلى التأكيد، ومنه قوله تعالى حكاية عن يوسف { وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ } [يوسف:72].

العصمة: هنا الحفظ والوقاية من كيد أعدائه.

{ **النَّاسِ** } هنا مراد به الكفار من اليهود والمنافقين والمشركين، لأنّ العصمة بمعنى الوقاية تؤذن بخوف عليه، وإنّما يخاف عليه أعداءه لا أحبّاءه، وليس في المؤمنين عدو لرسوله. فالمراد العصمة من اغتيال المشركين، لأنّ ذلك هو الذي كان يهمّ النبيّ صلى الله عليه وسلم، إذ لو حصل ذلك لتعطّل الهدي الذي كان يحبّه النبيّ للنّاس، إذ كان حريصا على هدايتهم، ولذلك كان رسول الله، لما عرض نفسه على القبائل في أول بعثته، يقول لهم: " أن تمنعوني حتّى أبيّن عن الله ما بعثني به، أو حتّى أبلّغ رسالات ربي" . فأمّا ما دون ذلك من أذى وإضرار فذلك ممّا نال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليكون ممن أوذي في الله، فقد رماه المشركون بالحجارة حتى أدموه وقد شجّ وجهه.

وهذه العصمة، قد تكرر وعده بها في القرآن كقوله تعالى { فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ } [البقرة:137]. وفي غير القرآن، فقد جاء في بعض الآثار أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر وهو بمكّة أنّ الله عصمه من المشركين. وجاء في الصحيح عن عائشة أنّ رسول الله كان يُحرس في المدينة، وأنّه حرسه ذات ليلة سعد بن أبي وقاص وحذيفة وأنّ رسول الله أخرج رأسه من قبّة وقال لهم: **" الحقوا بملاحقكم فإنّ الله عصمني"** .

وأنّه قال في غزوة ذات الرقاع سنة ست للأعرابي غورث بن الحارث الذي وجد رسول الله نائما في ظل شجرة ووجد سيفه معلقا فاخترطه وقال للرسول: " من يمنعك مني؟ "، فقال: " **الله** "، فسقط السيف من يد الأعرابي، وكلّ ذلك كان قبل زمن نزول هذه الآية. والذين جعلوا بعض ذلك سببا لنزول هذه الآية قد خلطوا. فهذه الآية تثبيت للوعد وإدامة له وأنّه لا يتغير مع تغيّر صنوف الأعداء.

{ **إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ** } تعقيب ليتبيّن أنّ المراد بالنّاس كفّارهم، وليومئ إلى أنّ سبب عدم هدايتهم هو كفرهم. والمراد بالهداية هنا تسديد أعمالهم وإتمام مرادهم، فهو وعد لرسوله بأنّ أعداءه لا يزالون مخذولين لا يهتدون سبيلا لكيد الرسول والمؤمنين لطفا منه تعالى، وليس المراد الهداية في الدين لأنّ السياق غير صالح له.

{ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } [68].

هذا الذي أُمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقوله لأهل الكتاب، وهو من جملة ما ثبّته الله على تبليغه، فقد كان رسول الله يحب تألّف أهل الكتاب، وربّما كان يثقل عليه أن يجابههم بمثل هذا ولكن الله يقول الحقّ. والمقصود بأهل الكتاب اليهود والنصارى جميعا، فأمّا اليهود فلأنّهم مأمورون بإقامة الأحكام التي لم تنسخ من التوراة، وبالإيمان بالإنجيل إلى زمن البعثة المحمديّة، وبإقامة أحكام القرآن المهيمن على الكتاب كله. وأمّا النصارى فلأنّهم أعرضوا عن بشارات الإنجيل بمجيء الرسول من بعد عيسى عليهما السلام.

{ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ } نفي أن يكونوا متّصفين بشيء من التديّن والتقوى، لأنّ خوض الرسول لا يكون إلاّ في أمر الدين والهدى والتقوى.

الشيء: اسم لكل موجود، فهو اسم متوغّل في التنكير صادق بالقليل والكثير، ويبيّنه السياق أو القرائن. فالمراد هنا شيء من أمور الكتاب، أي: نفي أن يكون لهم أقل حظ من الدين والتقوى ما داموا لم يبلغوا الغاية التي ذكرت، وهي أن يقيموا التوراة والإنجيل والقرآن.

كما في الحديث الصحيح أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئل عن الكهّان، فقال: **" ليسوا بشيء "**.

والمقصود من الآية إنّما هو إقامة التوراة والإنجيل عند مجيء القرآن، بالاعتراف بما في التوراة والإنجيل من التبشير بمحمد صلى الله عليه وسلم، حتّى يؤمنوا به وبما أنزل عليه. والكلام على إقامة التوراة والإنجيل مضى عند قوله آنفا { وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ } [66].

{ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً }، أي: من أهل الكتاب، وذلك إمّا بباعث الحسد على مجيء هذا الدين ونزول القرآن ناسخا لدينهم، وإمّا بما في بعض آيات القرآن من قوارعهم وتفنيد مزاعمهم. ولم يزل الكثير منهم إذا ذكروا الإسلام حتى في المباحث التاريخيّة والمدنيّة يحتدّون على مدنيّة الإسلام ويقلبون الحقائق ويتميّزون غيظا ومكابرة حتى ترى العالم المشهود له منهم يتصاغر ويتسفّل إلى دركات التّباله والتّجاهل، إلاّ قليلا ممّن اتخذ الإنصاف شعارا، وتباعد عن أن يُرمى بسوء الفهم تجنبا وحذارا.

وقد سَمَّى الله ما يعترضهم من الشجا في حلوقهم بهذا الدين { **طُغْيَاناً** }، لأنّ الطغيان هو الغلو في الظلم واقتحام المكابرة مع عدم الاكتراث بلوم اللائمين من أهل اليقين.

{ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم، لأنّ رحمة الرسول بالخلق تُحزنه ممّا بلغ منهم من زيادة الطغيان والكفر جرّاء الحسد للرّسول.

الأسى: الحزن والأسف.

{ **الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ** } يدلّ على أنّ المراد بالكافرين هم الذين صار الكفر لهم سجيّة وصفة تتقوّم بها قوميّتهم.

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ } [69].

موقع هذه الآية دقيق، ومعناها أدقّ، وإعرابها يتعقّد إشكاله بوقوع قوله { وَالصَّابِئُونَ } بحالة رفع بالواو في حين أنّه معطوف على اسم إنّ في ظاهر الكلام. فحقّ علينا أن نخصّها من البيان بما لم يسبق لنا مثله في نظيرتها.

موقع الآية:

يجوز أن تكون استئنافا بيانيّا ناشئا على تقدير سؤال يخطر في نفس السامع لقوله تعالى { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ والإنجيل }، فيسأل سائل عن حال من انقرضوا من أهل الكتاب قبل مجيء الإسلام، هل هم على شيء أو ليسوا على شيء، وهل نفعهم اتباع دينهم أيّامئذ؟

فوقع قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا } جوابا لهذا السؤال المقدّر. وأمّا التعرّض لذكر الذين آمنوا فلاهْتمامٍ بهم سنبيّنه قريبا.

ويجوز أن تكون هذه الجملة مؤكّدة لجملة { وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا } [65] ، فبعد أن أُتبعت تلك الجملة بما أتبعت به من الجمل عاد الكلام بما يفيد معنى تلك الجملة تأكيدا للوعد، ووصلا لربط الكلام، وليلحق بأهل الكتاب الصابئون، وليظهر الاهتمام بذكر حال المسلمين في جنّات النعيم.

فالتصدير بذكر الذين آمنوا في طالعة المعدودين إدماج للتنويه بالمسلمين في هذه المناسبة، أنّ المسلمين هم المثال الصالح في كمال الإيمان والتحرّز عن الغرور، وعن تسرّب مسارب الشرك إلى عقائدهم.

معنى الآية:

تحيّر الناظرون في الإخبار عن جميع المذكورين بقوله تعالى {مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ...}، إذ من جملة المذكورين المؤمنون، وهل الإيمان إلّا بالله واليوم الآخر؟. وذهب الناظرون في تأويله مذاهب:

فقيل: أريد بالذين آمنوا من آمنوا بألسنتهم دون قلوبهم، وهم المنافقون.

وقيل: أريد بمن آمن من دام على إيمانه ولم يرتدّ. وقيل:غير ذلك.

والوجه عندي: أن المراد بالذين آمنوا أصحاب الوصف المعروف بالإيمان واشتهر به المسلمون، ولا يكون إلاّ بالقلب واللسان لأنّ هذا الكلام وعد بجزاء الله تعالى، فهو راجع إلى علم الله، والله يعلم المؤمن الحقّ والمتظاهر بالإيمان نفاقا.

إعراب الآية:

فالذي أراه أن يُجعل خبر (إنّ) محذوفا. وحذف خبر (إنّ) وارد في الكلام الفصيح غير قليل، كما ذكر سيبويه في (كتابه). وقد دلّ على الخبر ما ذكر بعده من قوله { فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ }. ويكون قوله تعالى { وَالَّذِينَ هَادُوا } عطف جملة على جملة، فيُجعل { الَّذِينَ هَادُوا } مبتدأ، ولذلك حقّ رفع ما عطف عليه، وهو { وَالصَّابِئُونَ }. وهذا أولى من جعل { وَالصَّابِئُونَ } مبدأ الجملة وتقدير خبر له، أي: والصابون كذلك، كما ذهب إليه الأكثرون لأنّ ذلك يُفضي إلى اختلاف المتعاطفات في الحكم وتشتيتها مع إمكان التفصّي عن ذلك. ويكون قوله تعالى { مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ } مبتدأ ثانيا، وتكون { مَنْ } موصولة، والرابط للجملة بالتي قبلها محذوفا. أي: من آمن منهم، وجملة { فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ } خبرا عن { مَنْ } الموصولة، واقترانها بالفاء لأنّ الموصول شبيه بالشرط. وذلك كثير في الكلام، كقوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ } [البروج:10]، ووجود الفاء فيه يعيّن كونه خبرا عن { مَنْ } الموصولة وليس خبر { إنّ }.

{ **مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ** } أي: من آمن ودام على الإيمان، وهم الذين لم يغيّروا أديانهم بالإشراك وإنكار البعث، فإنّ كثيرا من اليهود خلطوا أمور الشرك بأديانهم وعبدوا الآلهة كما تقول التوراة. ومنهم من جعل عزيرا ابنا لله، وإنّ النصارى ألّهوا عيسى وعبدوه، والصابئة عبدوا الكواكب بعد أن كانوا على دين له كتاب. وقد مضى بيان دينهم في تفسير نظير هذه الآية من [البقرة:62].

ثمّ إنّ اليهود والنصارى قد أحدثوا في عقيدتهم من الغرور في نجاتهم من عذاب الآخرة بقولهم { نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ } [18]، وقولهم { لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً } [القرة:80]، وقول النصارى: " إنّ عيسى قد كفّر خطايا البشر بما تحمّله من عذاب الطعن والإهانة والصلب والقتل "، فصاروا بمنزلة من لا يؤمن باليوم الآخر، لأنّهم عطّلوا الجزاء وهو الحكمة التي قُدّر البعث لتحقيقها.

{ **وَالصَّابِئُونَ** } جمهور المفسرين جعلوه مبتدأ مقدّما وقدّروا له خبرا محذوفا لدلالة خبر(إنّ) عليه، وأنّ أصل النظم: أنّ الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى لهم أجرهم، والصابون كذلك. وبعض المفسّرين قدّروا تقادير أخرى أنهاها الألوسي إلى خمسة. والذي سلكناه أوضح وأجرى على أسلوب النظم وأليق بمعنى هذه الآية.

وبعد، فممّا يجب أن يُوقن به، أنّ هذا اللفظ كذلك نزل، وكذلك نطق به النبيّ صلى الله عليه وسلم، وكذلك تلقّاه المسلمون منه وقرؤوه، وكتب في المصاحف، وهم عرب خلص، **فكان لنا أصلا نتعرّف منه أسلوبا من أساليب استعمال العرب في العطف**، وإن كان استعمالا غير شائع لكنّه من الفصاحة والإيجاز بمكان. وكذلك لمّا كان الصابون أبعد عن الهدى من اليهود والنصارى في حال الجاهلية قبل مجيء الإسلام، لأنّهم التزموا عبادة الكواكب، وكانوا مع ذلك تحقّ لهم النجاة إن آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا صالحا، كان الإتيان بلفظهم مرفوعا تنبيها على ذلك. لكن كان الجري على الغالب يقتضي أن لا يؤتى بهذا

المعطوف مرفوعا إلّا بعد أن تستوفي (إنّ) خبرها. وإنّما كان الغالب في كلام العرب أن يؤتى بالاسم المقصود به هذا الحكم مؤخرا، فأمّا تقديمه كما في هذه الآية فقد يتراءى للناظر أنّه ينافي المقصد الذي لأجله خولف حكم إعرابه، ولكن هذا أيضا **استعمال عزيز**، وهو أن يجمع بين مقتضيي حالين، وهما الدلالة على **غرابة المخبر** عنه في هذا الحكم. والتنبيه على **تعجيل الإعلام** بهذا الخبر، فإنّ الصابئين يكادون ييأسون من هذا الحكم أو ييأس منهم من يسمع الحكم على المسلمين واليهود. فنُبّه الكلّ على أنّ عفو الله عظيم لا يضيق عن شمولهم، فهذا موجب التقديم مع الرفع.

وقد جاء ذكر الصابين في [الحجّ:17] مقدّما على النصارى ومنصوبا، فحصل هناك مقتضى حال واحدة وهو المبادرة بتعجيل الإعلام بشمول فصل القضاء بينهم وأنّهم أمام عدل الله يساوون غيرهم.

{ **وَعَمِلَ صَالِحاً** } وهو المقصود بالذات من ربط السلامة من الخوف والحزن به، فهو قيد في المذكورين كلّهم من المسلمين وغيرهم، وأوّل الأعمال الصالحة تصديق الرسول والإيمان بالقرآن، ثم يأتي امتثال الأوامر واجتناب المنهيّات.

{ **لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرائيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ** } [70].

استئناف عاد به الكلام على أحوال اليهود وجراءتهم على الله وعلى رسله. وذلك تعريض باليأس من هديهم بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وبأنّ ما قابلوا به دعوته ليس بدعا منهم بل ذلك دأبهم جيلا بعد جيل.

وقد تقدّم الكلام على **أخذ الميثاق** على اليهود غير مرّة أولاها في [البقرة:83].

{ **رُسُلاً** } الرسل الذين أرسلوا إليهم هم موسى وهارون ومن جاء بعدهما مثل يوشع بن نون وأشعيا وأرميا وحزقيال وداود وعيسى. فالمراد بالرسل هنا الأنبياء، من جاء منهم بشرع وكتاب، مثل موسى وداود وعيسى، ومن جاء معزّزا للشرع مبيّنا له، مثل يوشع وأشعيا وأرميا. وإطلاق الرسول على النبيّ الذي لم يجيء بشريعة إطلاق شائع في القرآن كما تقدّم، لأنّه لمّا ذكر أنّهم قتلوا فريقا من الرسل تعيّن تأويل الرسل بالأنبياء فإنّهم ما قتلوا إلاّ أنبياء.

{ **كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ** } وتقديم { كُلَّمَا } على العامل استعمال شائع لا يكاد يتخلّف، لأنّهم يريدون بتقديمه الاهتمام به، ليظهر أنّه هو محلّ الغرض المسوقة له جملته، فإنّ استمرار صنيعهم ذلك مع جميع الرسل في جميع الأوقات دليل على أنّ التكذيب والقتل صارا سجيّتين لهم لا تتخلّفان، إذ لم ينظروا إلى حال رسول دون آخر ولا إلى زمان دون آخر، وذلك أظهر في فظاعة حالهم، وهي المقصود هنا. والتقدير: وأرسلنا إليهم رسلا كذبوا منهم فريقا وقتلوا فريقا .

{ **بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ** } أي: بما لا تحبّه. يقال: هوي يهوى بمعنى أحبّ ومالت نفسه .

إشارة إلى زيادة تفظيع حالهم من أنّهم يكذّبون الرسل أو يقتلونهم في غير حالة يلتمسون لأنفسهم فيها عذرا من تكليف بمشقّة فادحة، أو من حدوث حادث ثائرة، أو من أجل التمسّك بدين يأبون مفارقته، كما فعل المشركون من العرب في مجيء الإسلام، بل لمجرّد مخالفة هوى أنفسهم بعد أن أخذ عليهم الميثاق فقبلوه فتتعطل بتمردهم فائدة التشريع وفائدة طاعة الأمّة لهداتها.

وهذا تعليم عظيم من القرآن بأنّ من حقّ الأمم أن تكون سائرة في طريق إرشاد علمائها وهداتها، وأنّها إذا رامت حمل علمائها وهداتها على مسايرة أهوائها، بحيث يُعصَون إذا دَعوا إلى ما يخالف هوى الأقوام فقد حق عليهم الخسران كما حقّ على بني إسرائيل، لأنّ في ذلك قلبا للحقائق ومحاولة انقلاب التابع متبوعا والقائد مقودا. وأنّ قادة الأمم وعلماءها ونصحاءها إذا سايروا الأمم على هذا الخلق كانوا غاشّين لهم، وزالت فائدة علمهم وحكمتهم واختلط المرعي بالهمل والحابل بالنابل، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" من استرعاه الله رعيّة فغشّها لم يَشُمَّ رائحة الجنة ". فالمشركون من العرب أقرب إلى المعذرة لأنّهم قابلوا الرسول من أوّل وهلة بقولهم { إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ } [الزخرف:22]، وقال قوم شعيب: { أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا } [هود:87]، بخلاف اليهود آمنوا برسلهم ابتداء ثم انتقضوا عليهم بالتكذيب والتقتيل إذا حملوهم على ما فيه خيرهم ممّا لا يهوونه.

{ **فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ** } تقديم المفعول لمجرّد الاهتمام بالتفصيل لأحوال رسل بني إسرائيل باعتبار ما لاقوه من قومهم، ولأنّ في تقديم مفعول { يَقْتُلُونَ } رعاية على فاصلة الآي. وجيء بصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية لاستحضار تلك الحالة الفظيعه إبلاغا في التعجيب من شناعة فاعليها.

{ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ } [71].

عطف على قوله تعالى { كَذَّبُوا } [70]، وقوله تعالى { يَقْتُلُونَ } [70]، لبيان فساد اعتقادهم الناشئ عنه فاسد أعمالهم، أي: فعلوا ما فعلوا من الفظائع عن تعمّد بغرور، لا عن فلتة أو ثائرة نفس حتّى ينيبوا ويتوبوا. وظنّوا أنّ فعلهم لا تلحقهم منه فتنة.

الفتنة: مرج أحوال النّاس واضطراب نظامهم من جراء أضرار ومصائب متوالية، وقد تقدّم تحقيقها عند قوله تعالى { إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ } [البقرة:102]. وهي قد تكون عقابا من الله للنّاس جزاء عن سوء فعلهم أو تمحيصا لصادق إيمانهم لتعلو بذلك، فكان معنى الابتلاء ملازما لها.

<u>المعنى</u>: وظنّوا أنّ الله لا يصيبهم بفتنة في الدنيا جزاء على ما عاملوا به أنبياءهم، فهنالك مجرور مقدّر دال عليه السياق، أي: ظنّوا أن لا تنزل بهم مصائب في الدنيا فأمنوا عقاب الله في الدنيا بعد أن استخفّوا بعذاب الآخرة، وتوهّموا أنّهم ناجون منه، لأنّهم أبناء الله وأحبّاؤه، وأنّهم لن تمسهم النّار إلّا أيّاما معدودة.

فمن بديع إيجاز القرآن أن أومأ إلى سوء اعتقادهم في جزاء الآخرة وأنّهم نبذوا الفكرة فيه ظهريّا، وأنّهم لا يراقبون الله في ارتكاب القبائح، وإلى سوء غفلتهم عن فتنة الدنيا، وأنّهم ضالون في كلا الأمرين.
وهذا شأن الأمم إذا تطرق إليها الخذلان أن يفسد اعتقادهم ويختلط إيمانهم ويصير همّهم مقصورا على تدبير عاجلتهم، فإذا ظنّوا استقامة العاجلة أغمضوا أعينهم عن الآخرة، فتطلّبوا السلامة من غير أسبابها، فأضاعوا الفوز الأبدي وتعلّقوا بالفوز العاجل فأساؤوا العمل فأصابهم العذابان العاجل بالفتنة والآجل. في الآخرة.

{ **عَمُوا وَصَمُّوا** } استعير للإعراض عن دلائل الرشاد من رسلهم وكتبهم، لأنّ العمى والصمم يوقعان في الضلال عن الطريق، ومرادا منه معناه الكنائي أيضا، وهو أنّهم أساؤوا الأعمال وأفسدوا.

{ **ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ** } أي: بعد ذلك الضلال والإعراض عن الرشد وما أعقبه من سوء العمل والفساد في الأرض.

{ **ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ** } أي: قد أصابتهم الفتنة بعد ذلك العمى والصمم، وأنّ الله لمّا تاب عليهم رفع عنهم الفتنة، ثمّ عادوا إلى ضلالهم القديم وعملهم الذميم، لأنّهم مصرّون على حسبان أن لا تكون فتنة فأصابتهم فتنة أخرى.

وقد عُلم أنّ الذين عموا وصمّوا ثانية غير الذين عموا وصمّوا أوّل مرة، ولكنّهم لمّا كانوا خلفا عن سلف، وكانوا قد أورثوا أخلاقهم أبناءهم اعتبروا كالشيء الواحد.

{ **كَثِيرٌ مِنْهُمْ** } بدل من الضمير قُصد منه تخصيص أهل الفضل والصلاح منهم في كل عصر بأنّهم برآء ممّا كان عليه دهماؤهم، صدعا بالحق وثناء على الفضل.

وقد وقف الكلام عند هذا العمى والصمم الثاني ولم يُذكر أنّ الله تاب عليهم بعده، فدلّ على أنّهم أعرضوا عن الحق إعراضا شديدا مرة ثانية فأصابتهم فتنة لم يتب الله عليهم بعدها.

ويتعيّن أنّ ذلك إشارة إلى حادثين عظيمين من حوادث عصور بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام.

والأظهر أنّهما <u>حادث الأسر البابلي</u> إذ سلط الله عليهم (بختنصر) ملك (أشور) فدخل بيت المقدس مرات سنة (606 / 598 / 588 ق م). وأتى في ثالثتها على مدينة أورشليم فأحرقها وأحرق المسجد وحمل جميع بني إسرائيل إلى بابل أسارى. وأنّ توبة الله عليهم كان مظهرها حين غلب (كورش/ قورش) ملك (فارس) على الآشوريين واستولى على بابل سنة (530 ق م) فأذن لليهود أن يرجعوا إلى بلادهم ويعمروها فرجعوا وبنوا مسجدهم.

<u>وحادث الخراب</u> الواقع في زمن (تيطس) القائد الروماني وهو ابن الامبراطور الروماني (وسبسيانوس) فإنّه حاصر (أورشليم) حتّى اضطر اليهود إلى أكل الجلود وأن يأكل بعضهم بعضا من الجوع، وقتل منهم ألف ألف رجل، وسبى 97 ألفا، على ما في ذلك من مبالغة، وذلك سنة 69 للمسيح.

ثم قفّاه الامبراطور(أدريان) الروماني (من سنة 117 إلى سنة 138م) فهدم المدينة وجعلها أرضا وخلط ترابها بالملح. فكان ذلك انقراض دولة اليهود ومدينتهم وتفرّقهم في الأرض.
وقد أشار القرآن إلى هذين الحدثين بقوله تعالى { وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ } [الإسراء:4-8].
{ **وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ** } تذييل. و**البصير**: مبالغة في المبصر، كالحكيم بمعنى المحكم، وهو هنا بمعنى العليم بكل ما يقع في أفعالهم التي من شأنها أن يبصرها النّاس، سواء ما أبصره النّاس منها أم ما لم يبصروه، والمقصود من هذا الخبر لازم معناه، وهو الإنذار والتذكير بأنّ الله لا يخفى عليه شيء، فهو وعيد لهم على ما ارتكبوه بعد أن تاب الله عليهم.

{ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرائيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ} [72].

استئناف ابتدائي لإبطال ما عليه النصارى، يناسب الانتهاء من إبطال ما عليه اليهود.
وقد مضى القول آنفا في نظير قوله تعالى { لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً } [17]، ومن نُسب إليه هذا القول من طوائف النصارى.
{ **وَقَالَ الْمَسِيحُ** } واو الحال، أي: قالوا ذلك في حال نداء المسيح لبني إسرائيل بأنّ الله ربّه وربّهم، أي: لا شبهة لهم. ولذلك عُقّب بجملة { **إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ** }. فيجوز أن تكون هذه الجملة حكاية لكلام صدر من عيسى عليه السلام، فتكون تعليلا للأمر بعبادة الله.
وفي حكايته تعريض بأن قولهم ذلك قد أوقعهم في الشرك وإن كانوا يظنّون أنّهم اجتنبوه حذرا من الوقوع فيما حذّر منه المسيح، لأنّ الذين قالوا إنّ الله هو المسيح، أرادوا الاتحاد بالله وأنّه هو هو. وهذا قول اليعاقبة كما تقدّ م آنفا وفي [النساء:171]. وذلك شرك لا محالة، بل هو أشد، لأنّهم أشركوا مع الله غيره ومزجوه به.
وإن كانت الجملة من كلام الله تعالى فهو تذييل إثبات كفرهم وزيادة تنبيه على بطلان معتقدهم وتعريض بهم بأنّهم قد أشركوا بالله من حيث أرادوا التوحيد.
{ **حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ** } منعها منه، أي: من الكون فيها.

المأوى، المكان الذي يأوي إليه الشيء، أي: يرجع إليه.

{ **وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ** } يحتمل أيضا أن تكون من كلام المسيح عليه السلام، ويحتمل أن تكون من كلام الله تعالى تذييلا لكلام المسيح. والمراد بالظالمين المشركون، قال تعالى { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان:13]، أي: ما للمشركين من أنصار ينصرونهم لينقذوهم من عذاب النار.

{ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [73] أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ [74] }.

استئناف قُصد منه الانتقال إلى إبطال مقالة أخرى من مقالات طوائف النصارى، وهي مقالة (الملكانية المُسَمَّيْن بالجاثليقيّة)، وعليها معظم طوائف النصارى في جميع الأرض. وقد تقدم بيانها عند قوله تعالى { فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ } [النساء:171].

{ **قالوا** } اعتقدوا فقالوا، لأنّ شأن القول أن يكون صادرا عن اعتقاد، وقد تقدّم بيان ذلك.

{ **إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ** } وهذه الثلاثة قد عبّروا عنها بالأقانيم؛ وهي أقنوم الوجود وهو الذات المسمّى الله وسمّوه أيضا الأب. وأقنوم العلم وسمّوه أيضا الابن، وهو الذي اتحد بعيسى وصار بذلك عيسى إلها. وأقنوم الحياة وسموه الروح القدس. وصار جمهورهم، ومنهم الرَّكوسيّة (طائفة من نصارى العرب)، يقولون: إنّه لمّا اتحد بمريم حين حملها بالكلمة تألّهت مريم أيضا، ولذلك اختلفوا هل هي أم الكلمة أم هي أم الله.

{ **ثَالِثُ ثَلاثَةٍ** } معناه واحد من تلك الثلاثة، نحو قوله تعالى { ثَانِيَ اثْنَيْنِ } [التوبة:40].

{ **وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ** } عطف على جملة { لَقَدْ كَفَرَ } لبيان الحق في الاعتقاد بعد ذكر الاعتقاد الباطل.

و يفيد حصر وصف الإلهيّة في واحد، فانتفى التثليث المحكي عنهم. وأمّا تعيين هذا الواحد من هو، فليس مقصودا تعيينه هنا لأنّ القصد إبطال عقيدة التثليث فإذا بطل التثليث، وثبتت الوحدانيّة تعيّن أنّ هذا الواحد هو الله تعالى لأنّه متّفق على إلهيّته.

{ **وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** } أي: لقد كفروا كفرا إن لم ينتهوا عنه أصابهم عذاب أليم.

{ **عَمَّا يَقُولُون** } عما يعتقدون، لأنّهم لو انتهوا عن القول باللسان وأضمروا اعتقاده لما نفعهم ذلك، فلمّا كان شأن القول لا يصدر إلّا عن اعتقاد كان صالحا لأن يكون كناية عن الاعتقاد مع معناه الصريح.

{ **لَيَمَسَّنَّ** } أُكّد الوعيد بلام القسم ردّا لاعتقادهم أنّهم لا تمسّهم النار، لأنّ صلب عيسى كان كفّارة عن خطايا بني آدم.

المسّ: مجاز في الإصابة، لأنّ حقيقة المسّ وضع اليد على الجسم، فهو دال على مطلق الإصابة من غير تقييد بشدة أو ضعف.

{ **الَّذِينَ كَفَرُوا** } عين المراد بـ { الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ } فعدل عن التعبير عنهم بضميرهم إلى الصلة المقرِّرة لمعنى كفرهم المذكور آنفا، لقصد تكرير تسجيل كفرهم وليكون اسم الموصول مومئا إلى سبب الحكم المخبر به عنهم.

{ **مِنْهُمْ** } الاحتراس عن أن يتوهّم السامع أنّ هذا وعيد لكفّار آخرين.

{ **أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ** } أُعقِب الوعيد بالترغيب في الهداية، فالتوبة هي الإقلاع عمّا هو عليه في المستقبل والرجوع إلى الاعتقاد الحقّ. والاستغفار طلب مغفرة ما سلف منهم في الماضي والندم عمّا فرط منهم من سوء الاعتقاد.

{ **وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } تذييل بثناء على الله بأنّه يغفر لمن تاب واستغفر ما سلف منه، لأنّ { غَفُورٌ رَحِيمٌ } من أمثلة المبالغة يدلاّن على شدّة الغفران وشدّة الرحمة، فهو وعد بأنّهم إن تابوا واستغفروه رفع عنهم العذاب برحمته وصفح عمّا سلف منهم بغفرانه.

{ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ } [75].

استئناف لتبيان وصف المسيح في نفس الأمر ووصف أمّه زيادة في إبطال معتقد النصارى إلهية المسيح وإلهية أمّه.

{ **مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ** } قصر موصوف على صفة، أي: المسيح مقصور على صفة الرّسالة لا يتجاوزها إلى غيرها، لردّ اعتقاد النصارى أنّه الله.

{ **قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ** } صفة لـ { رَسُولٌ } أريد بها أنّه مساو للرّسل الآخرين الذين مضوا قبله، وأنّه ليس بدعا في هذا الوصف ولا هو مختصّ فيه بخصوصيّة لم تكن لغيره في وصف الرّسالة. فلا شبهة للذين ادعوا له الإلهيّة، إذ لم يجيء بشيء زائد على ما جاءت به الرّسل، وما جرت على يديه إلاّ معجزات كما جرت على أيدي رسل قبله، وإن اختلفت صفاتها، فقد تساوت في أنّها خوارق عادات وليس بعضها بأعجب من بعض، فما كان إحياؤه الموتى بحقيق أن يوهم إلهيته. وفي هذا نداء على غباوة القوم الذين استدلّوا على إلهيته بأنّه أحيا الموتى من الحيوان فإنّ موسى أحيا العصا وهي جماد فصارت حيّة.

{ **وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ** } نفي أن يكون لها وصف أعلى من ذلك، وهو وصف الإلهيّة، لأنّ المقام لإبطال قول الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة، إذ جعلوا مريم الأقنوم الثالث.

الصدّيقة: صيغة مبالغة، فالمعنى المبالغة في وصفها بالصدق، أي: صِدْقُ وعد ربها، وهو ميثاق الإيمان وصدقُ وعد النّاس. كما وصف إسماعيل عليه السلام بذلك في قوله تعالى { وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ } [مريم:54]. وقد لقّب يوسف بالصدّيق.

وقيل: أريد هنا وصفها بالمبالغة في التصديق، لقوله تعالى { وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا } [التحريم:12]، كما لُقّب أبو بكر بالصدّيق.

{ **كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ** } استدلّ على بشريّتهما بإثبات صفة من صفات البشر، وهي أكل الطعام. وإنّما اختيرت هذه الصفة من بين صفات كثيرة لأنّها ظاهرة واضحة للنّاس.

{ **انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ** } استئناف للتعجيب من حال الذين ادعوا الإلهيّة لعيسى. والخطاب مراد به غير معيّن، وهو كل من سمع الحجج السابقة.

{ **ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ** } (ثمّ) فيه للتراخي الرتبي، والمقصود أنّ التأمّل في بيان الآيات يقتضي الانتقال من العجب من وضوح البيان إلى أعجب منه وهو انصرافهم عن الحقّ مع وضوحه.

{ **أَنَّى** } اسم استفهام. وهو هنا يجوز أن يكون بمعنى (كيف). ويجوز أن يكون بمعنى من أين.

{ **يُؤْفَكُونَ** } يُصرفون، يقال: أفَكَهُ من باب ضرب، صرفه عن الشيء.

المعنى: التعجيب من أين يتطرّق إليهم الصرف عن الاعتقاد الحقّ بعد ذلك البيان البالغ غاية الوضوح حتّى كان بمحل التعجيب من وضوحه.

{ **قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** } [76].

{ **قُلْ أَتَعْبُدُونَ** } الظاهر أنّه خطاب لجميع من يعبد شيئا من دون الله من المشركين والنصارى. والاستفهام للتوبيخ والتغليط مجازا.

{ **مِنْ دُونِ اللَّهِ** } غير الله. فـ { مِنْ } للتوكيد، و{ دُونِ } اسم للمغاير، فهو مرادف لسوى. وليس المعنى أتعبدون معبودا وتتركون عبادة الله. فالمخاطبون كلّهم كانوا يعبدون الله ويشركون معه غيره في العبادة حتّى الذين قالوا إنّ الله هو المسيح ابن مريم فهم ما عبدوا المسيح إلاّ لزعمهم أنّ الله حلّ فيه فقد عبدوا الله فيه، فشمل هذا الخطاب المشركين من العرب ونصارى العرب كلّهم.

{ **مَا لَا يَمْلِكُ** } جيء بـ (ما) لأنّ معظم ما عبد من دون الله أشياء لا تعقل.

{ **مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً** } لا يقدر عليه، وحقيقة معنى الملك التمكّن من التصرّف بدون معارض، ثم أطلق على استطاعة التصرّف في الأشياء بدون عجز.

وقُدّم الضرّ على النفع لأنّ النفوس أشدّ تطلّعا إلى دفعه من تطلّعها إلى جلب النفع، فكان أعظم ما يدفعهم إلى عبادة الأصنام أن يستدفعوا بها الأضرار بالنصر على الأعداء وبتجنّبها إلحاق الإضرار بعابديها.

{ **وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** } في موضع الحال، قصر بواسطة تعريف الجزأين وضمير الفصل، أي: ولا

يسمع كلّ دعاء ويعلم كلّ احتياج إلاّ الله تعالى، أي: لا عيسى ولا غيره ممّا عبد من دون الله.

{ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ } [77].

الخطاب لعموم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وتقدّم تفسير نظيره في [النساء:171].

الغلوّ، مصدر غلا في الأمر، إذا جاوز حدّه المعروف. فالغلوّ الزيادة في عمل على المتعارف منه بحسب العقل أو العادة أو الشرع.

{ **غَيْرَ الْحَقِّ** } أي: غلوا غير الحقّ، وغير الحقّ هو الباطل. وعدل عن أن يقال باطلا لما في وصف غير الحقّ من تشنيع الموصوف. والمراد أنّه مخالف للحقّ المعروف. فمن غلو اليهود تجاوزهم الحدّ في التمسّك بشرع التوراة بعد رسالة عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام. ومن غلو النصارى دعوى إلهيّة عيسى وتكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم.

{ **وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ** } هذا نهي لأهل الكتاب الحاضرين عن متابعة تعاليم الغلاة من أحبارهم ورهبانهم الذين أساؤوا فهم الشريعة عن هوى منهم مخالف للدليل. فلذلك سُمِّي تغاليهم أهواء.

{ **وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ** } فهذا ضلال آخر، فتعيّن أنّ سواء السبيل الذي ضلّوا عنه هو الإسلام.

السواء: المستقيم، وقد استُعير للحقّ الواضح، أي: قد ضلّوا في دينهم من قبل مجيء الإسلام وضلّوا بعد ذلك عن الإسلام.

وقيل: الخطاب للنصارى خاصة، لأنّه ورد عقب مجادلة النصارى وأنّ المراد بالغلو التثليث، وأنّ المراد بالقوم الذين ضلّوا من قبل هم اليهود. ومعنى النّهي عن متابعة أهوائهم النّهي عن الإتيان بمثل ما أتوا به بحيث إذا تأمّل المخاطبون وجدوا أنفسهم قد اتبعوهم وإن لم يكونوا قاصدين متابعتهم، فيكون الكلام تنفيرا للنصارى من سلوكهم في دينهم المماثل لسلوك اليهود، لأنّ النصارى يبغضون اليهود ويعرفون أنّهم على ضلال.

{ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ [78] كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ [79] }.

تخلّص بديع لتخصيص اليهود بالإنحاء عليهم دون النصارى. وهي خبريّة مناسبة لقوله تعالى { قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ }، تتنزّل منها منزلة الدليل، لأنّ فيها استدلالا على اليهود بما في كتبهم وبما في كتب النصارى. والمقصود إثبات أنّ الضلال مستمر فيهم، فإنّ ما بين داود وعيسى أكثر من ألف سنة.

{ **عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ** } (على) هنا للاستعلاء المجازي المستعمل في تمكّن الملابسة، أي: لعنوا بلسان داود.

{ **بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ** } أي: بعصيانهم وكونهم معتدين، فعدل عن التعبير بالمصدرين إلى التعبير بالفعلين مع (ما) المصدريّة ليفيد الفعلان معنى تجدّد العصيان واستمرار الاعتداء منهم، ولتفيد صيغة الماضي أنّ ذلك أمر قديم فيهم، وصيغة المضارع أنّه متكرّر الحدوث.

العصيان: هو مخالفة أوامر الله تعالى. و**الاعتداء**: هو إضرار الأنبياء.

وإنّما عُبّر في جانب العصيان بالماضي لأنّه تقرّر فلم يقبل الزيادة، وعُبّر في جانب الاعتداء بالمضارع لأنّه مستمر، فإنّهم اعتدوا على محمد صلى الله عليه وسلم بالتكذيب والمنافقة ومحاولة الفتك والكيد.

{ **كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ** } وذلك أنّ شأن المناكر أن يبتدئها الواحد أو النفر القليل، فإذا لم يجدوا من يغيّر عليهم تزايدوا فيها ففشت واتبع فيها الدهماء بعضهم بعضا حتى تعمّ ويُنسى كونها مناكر فلا يهتدي النّاس إلى الإقلاع عنها والتوبة منها فتصيبهم لعنة الله. وقد روى الترمذي وأبو داوود من طرق عن عبد الله بن مسعود بألفاظ متقاربة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" كان الرجل من بني إسرائيل يلقى الرجل إذا رآه على الذنب فيقول: " يا هذا اتق الله ودع ما تصنع "، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وخليطه وشريكه، فلمّا فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم،** ثم قرأ: { لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ ـ إلى قوله ـ فَاسِقُونَ } ثم قال: **" والذي نفسي بيده لتأمُرنّ بالمعروف ولَتَنْهَوُنّ عن المنكر ولَتَأْخُذُنّ على يد الظالم ولتأطِرُنَّهُ على الحق أطْرًا أو ليضربنّ الله قلوب بعضكم على بعض أو ليلعنُكم كما لَعنهم ".**

{ **لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** } أُطلق على ترك التناهي لفظ الفعل مع أنّه ترك، لأنّ السكوت على المنكر لا يخلو من إظهار الرضا به والمشاركة فيه.

{ تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ [80] وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنبيّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ [81] }.

استئناف ابتدائي ذُكر به حال طائفة من اليهود كانوا في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم وأظهروا الإسلام وهم معظم المنافقين، وقد دلّ على ذلك قوله تعالى { يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا }، لأنّه لا يُستغرب إلاّ لكونه صادرا ممّن أظهروا الإسلام فهذا انتقال لشناعة المنافقين. والخطاب للرّسول صلى الله عليه وسلم.

{ **كَثِيراً مِنْهُمْ** } كثير من يهود المدينة، بقرينة قوله تعالى { تَرَى }، وذلك أنّ كثيرا من اليهود بالمدينة تظاهروا بالإسلام ليكونوا عينا ليهود خيبر وقريظة والنضير. ومن هؤلاء اليهود كعب بن الأشرف رئيس اليهود فإنّه كان مواليا لأهل مكة وكان يغريهم بغزو المدينة.

{ **يَتَوَلَّوْنَ** } يتخذونهم أولياء.

{ **الَّذِينَ كَفَرُوا** } مشركو مكّة ومن حول المدينة من الأعراب الذين بقوا على الشرك.

{ **أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ** } التقدير: لبئس ما قدمت بهم أنفسهم، سُخط الله عليهم. وقد أفاد هذا المخصوص أنّ الله قد غضب عليهم غضبا خاصا لموالاتهم الذين كفروا. ولك أن تجعل المراد بسخط الله هو اللعنة التي في قوله تعالى { لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ } [78].

{ **وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنبيّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ** } ولو كانوا يؤمنون إيمانا صادقا ما اتخذوا المشركين أولياء. والمراد بالنبيّ محمد صلى الله عليه وسلم، وبما أنزل إليه القرآن، وذلك لأنّ النبيّ نهى المؤمنين عن موالاة المشركين، والقرآن نهى عن ذلك في غير ما آية.

{ **وَلَكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ** } هو استثناء القياس، أي: ولكن كثيرا من بني إسرائيل { فَاسِقُونَ }. فالضمير عائد إلى ما عاد إليه ضمير { تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ }.

{ **فَاسِقُونَ** } كافرون. فلا عجب في موالاتهم المشركين لاتحادهم في مناواة الإسلام.

{ **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ [82] وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ [83] وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ [84]** }.

فذلكة لما تقدّم من ذكر ما لاقى به اليهود والنصارى دعوة الإسلام من الإعراض، على تفاوت فيه بين الطائفتين، فإنّ الله شنّع من أحوال اليهود ما يُعرف منه عداوتهم للإسلام. وذكر من أحوال النصارى ما شُنّع به عقيدتهم، ولكنّه لم يحك عنهم ما فيه عداوتهم المسلمين وقد نهى المسلمين عن اتخاذ الفريقين أولياء. فجاء قوله تعالى { لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً } فذلكة لحاصل ما تكنّه ضمائر الفريقين نحو المسلمين، ولذلك فصّلت ولم تعطف.

{ **لَتَجِدَنَّ** } الوجدان هنا وجدان قلبي، وتقدّم عند قوله { وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ } [البقرة:96]. وذكر المشركين مع اليهود لمناسبة اجتماع الفريقين على عداوة المسلمين، فقد ألّف بين اليهود والمشركين بغض الإسلام، فاليهود للحسد على مجيء النبوّة من غيرهم، والمشركون للحسد على أن سبقهم المسلمون بالاهتداء إلى الدين الحقّ ونبذ الباطل.

{ **وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً** } أي: أقرب النّاس مودّة للذين آمنوا، أي: أقرب النّاس من أهل الملل المخالفة للإسلام. والمراد بالنصارى هنا، الباقون على دين النصرانيّة، فأمّا من آمن من النصارى فقد صار من المسلمين.

{ **الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى** } المقصود هنا تذكيرهم بمضمون هذا اللقب ليزدادوا من مودّة المسلمين فيتّبعوا دين الإسلام.

{ **بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً** } باء السببيّة، وهي تفيد معنى لام التعليل.

القسّيسون: جمع سلامة لقسّيس. ويقال قَسّ (بفتح القاف وتشديد السين) وهو عالم دين النصرانيّة.

الرهبان: هنا جمع راهب. والراهب من النصارى المنقطع في دير أو صومعة للعبادة.

وإنّما كان وجود القسّيسين والرهبان بينهم سببا في اقتراب مودتهم من المؤمنين لما هو معروف بين العرب من حسن أخلاق القسّيسين والرهبان وتواضعهم وتسامحهم. وكانوا منتشرين في جهات كثيرة من بلاد العرب يعمرون الأديرة والصوامع والبيع، وأكثرهم من عرب الشام الذين بلغتهم دعوة النصرانيّة على طريق الروم، فقد عرفهم العرب بالزهد ومسالمة النّاس وكثر ذلك في كلام شعرائهم.

فوجود هؤلاء فيهم وكونهم رؤساء دينهم ممّا يكون سببا في صلاح أخلاق أهل ملّتهم.

الاستكبار: السين والتاء فيه للمبالغة، ويطلق على التكبّر والتعاظم، ويطلق على المكابرة وكراهية الحقّ، وهما متلازمان. فالمراد من قوله تعالى { **لا يَسْتَكْبِرُونَ** } أنّهم متواضعون منصفون.

{ **مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ** } هو محمد صلى الله عليه وسلم كما هو غالب عليه في إطلاقه في القرآن. وما أنزل إليه هو القرآن.

{ **تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ** } وفاض الدمع إذا تجاوز ما يغرورق بالعين. وفي الحديث : **" ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه "**.

{ **مِمَّا عَرَفُوا** } (من) تعليليّة، أي: سبب فيضها ما عرفوا عند سماع القرآن من أنّه الحق الموعود به.

أي: ففاضت أعينهم من انفعال البهجة بأن حضروا مشهد تصديق عيسى فيما بشّر به، وأن حضروا الرّسول الموعود به ففازوا بالفضيلتين.

{ **مِنَ الْحَقِّ** } (من) بيانية أو تبعيضيّة، أي: ممّا عرفوه، وهو النبيّ الموعود .

{ **يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ** } حال، أي: تفيض أعينهم في حال قولهم هذا. وهذا القول يجوز أن يكون علنا، ويجوز أن يكون في خويّصتهم.

الشاهدين: الذين شهدوا بعثة الرسل وصدقوهم. وهذه فضيلة عظيمة لم تحصل إلاّ في أزمان ابتداء دعوة الرسل ولا تحصل بعد هذه المرة. وهي المبادرة بتصديق الرّسل عند بعثتهم حين يكذّبهم النّاس بادئ الأمر، كما قال ورقة: " يا ليتني أكون جذعا إذ يخرجك قومك". أي: تكذيبًا منهم.

{ **وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ** }، هو من قولهم، فيحتمل أنّهم يقولونه في أنفسهم عندما يخامرهم التردّد في أمر النزوع عن دينهم القديم إلى الدخول في الإسلام.

ويحتمل أنّهم يقولونه لمن يعارضهم من أهل ملّتهم أو من إخوانهم ويشكّكهم فيما عزموا عليه، ويحتمل أنّهم يقولونه لمن يعيّرهم من اليهود أو غيرهم بأنّهم لم يتصلّبوا في دينهم.

{ **وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ** } (الواو) للحال، أي: كيف نترك الإيمان بالحق وقد كنّا من قبل طامعين أن يجعلنا ربّنا مع القوم الصالحين مثل الحواريين، فكيف نُفلت ما عنّ لنا من وسائل الحصول على هذه المنقبة الجليلة.

{فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ } [85].

{ **فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ** } أعطاهم الثواب. وتقدّم عند قوله تعالى { لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ } [البقرة:103].

{ **بِمَا قَالُوا** } الباء للسببيّة. وما قالوه هو ما حكي بقوله تعالى { يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ }.

{ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ** } [86].

هذا تتميم واحتراس، أي: والذين كفروا من النصارى وكذّبوا بالقرآن هم بضدّ الذين أثابهم الله جنات تجري من تحتها الأنهار.

أصحاب الجحيم: ملازموه.

الجحيم: جهنّم. وأصل الجحيم النّار العظيمة تجعل في حفرة ليدوم لهيبها. يقال: نار جَحْمة، أي:شديدة اللهب.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ [87] **وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ** [88] }.

استئناف ابتدائي خطاب للمؤمنين بأحكام تشريعيّة، وتكملة على صورة التفريع جاءت لمناسبة ما تقدّم من الثناء على القسّيسين والرهبان. وإذ قد كان من سنّتهم المبالغة في الزهد وأحدثوا رهبانيّة من الانقطاع عن التزوّج وعن أكل اللحوم وكثير من الطيّبات كالتدهّن وترفيه الحالة وحسن اللباس، نبّه الله المؤمنين على أنّ الثناء على الرهبان والقسّيسين بما لهم من الفضائل لا يقتضي اطّراد الثناء على جميع أحوالهم الرهبانيّة. وصادف أن كان بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد طمحت نفوسهم إلى التقلّل من التعلّق بلذائذ العيش اقتداء بصاحبهم سيد الزاهدين صلى الله عليه وسلم. روى الطبري والواحدي أنّ نفرا تنافسوا في الزهد. فقال أحدهم: " أمّا أنا فأقوم الليل لا أنام "، وقال الآخر: " أمّا أنا فأصوم النهار"، وقال الآخر:

" أمّا أنا فلا آتي النساء ". فبلغ خبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فبعث إليهم، فقال : " **أَلَم أنبّأ أنكم قلتم كذا**. قالوا: بلى يا رسول الله، وما أردنا إلا الخير، قال: **لكنّي أقوم وأنام، وأصوم وأفطر، وآتي النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني** ".

ومعنى الحديث في صحيحي البخاري ومسلم عن أنس بن مالك وليس فيه أنّ ذلك سبب نزول هذه الآية.
والنّهي إنّما هو تحريم ذلك على النّفس، أمّا ترك تناول بعض ذلك في بعض الأوقات من غير التزام ولقصد التربية للنّفس على التصبّر على الحرمان عند عدم الوجدان، فلا بأس به بمقدار الحاجة إليه في رياضة النفس. وكذلك الإعراض عن كثير من الطيّبات للتطلّع على ما هو أعلى، من عبادة أو شغل بعمل نافع وهو أعلى الزهد، وقد كان ذلك سنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم وخاصة من أصحابه.
وليس المراد من النهي أن يلفظ بلفظ التحريم خاصة بل أن يتركه تشدّيدا على نفسه سواء لفظ بالتحريم أم لم يلفظ به. ومن أجل هذا النهي اعتُبر هذا التحريم لغوا في الإسلام فليس يلزم صاحبه في جميع الأشياء التي لم يجعل الإسلام للتحريم سبيلا إليها، إلاّ الزوجة، قيل يطالها التحريم. وتفصيل المسألة في كتب الفقه.
{ **وَلا تَعْتَدُوا** } معترضة، لمناسبة أنّ تحريم الطيّبات اعتداء على ما شرّع الله. فلمّا نهى عن تحريم الحلال أردفه بالنهي عن استحلال المحرّمات وذلك بالاعتداء على حقوق النّاس، وهو أشد الاعتداء، أو على حقوق الله تعالى في أمره ونهيه دون حقّ الناس، كتناول الخنزير أو الميتة.
الاعتداء: الظلم، وذكره في مقابلة تحريم الطيّبات يدلّ على أنّ المراد النهي عن تجاوز حدّ الإذن المشروع، كما قال تعالى { تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا } [البقرة:229].
{ **إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** } تذييل للتي قبلها للتحذير من كل اعتداء.
{ **وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً** } تأكيد للنّهي عن تحريم الطيّبات، أي: أنّ الله وسّع عليكم بالحلال فلا تعتدوه إلى الحرام فتكفروا النعمة، ولا تتركوه بالتحريم فتعرضوا عن النعمة.
{ **وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ** } جيء بالموصول للإيماء إلى علّة الأمر بالتقوى، أي: لأنّ شأن الإيمان أن يقتضي التقوى، فلما آمنتم بالله واهتديتم إلى الإيمان فكمّلوه بالتقوى.

{ لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [89].

استئناف ابتدائي نشأ بمناسبة قوله تعالى { لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ } لأنّ التحريم يقع في غالب الأحوال بأيمان معزومة، أو بأيمان تجري على اللسان لقصد تأكيد الكلام، أو تجري بسبب غضب.
روى الطبري والواحدي عن ابن عباس أنّه لما نزل قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ } [87] ونهاهم النبيّ صلى الله عليه وسلم عمّا عزموا عليه من ذلك، قالوا: " يا رسول الله،

كيف نصنع بأيماننا التي حلفناها عليها ؟ فأنزل الله تعالى { لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ }، فشرع الله الكفارة.

وتقدّم القول في نظير صدر هذه الآية في [البقرة:225]. وتقدّم الاختلاف في معنى لغو اليمين.

{ **بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ** } أي: ما قصدتم به الحلف. وقرأ الجمهور{ عَقَّدْتُمُ } بتشديد القاف، وقرأه حمزة والكسائي، وأبو بكر عن عاصم، وخلف بتخفيف القاف.

فأمّا { عَقَّدْتُمُ } بالتشديد فيفيد المبالغة في فعل عقد، وكذلك قراءة { عَاقَدْتُمُ }. وأمّا قراءة التخفيف فلأن مادة العقد كافية في إفادة التثبيت.

والمقصود أنّ المؤاخذة تكون على نيّة التوثّق باليمين .

{ **ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ** } إشارة إلى المذكور، زيادة في الإيضاح. والكفارة ما هي إلّا خروج من الإثم.

{ **إِذَا حَلَفْتُمْ** } أي: إذا حلفتم وأردتم التحلّل مما حلفتم عليه. فدلالة هذا من دلالة الاقتضاء لظهور أن ليست الكفّارة على صدور الحلف بل على عدم العمل بالحلف، لأنّ معنى الكفارة يقتضي حصول إثم، وذلك هو إثم الحنث.

وعن الشافعي أنّه استدلّ بقوله تعالى { كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ } على جواز تقديم الكفارة على وقوع الحنث، وقال مالك: بجواز التكفير قبل الحنث إذا عزم على الحنث، ولم يستدل بالآية. والتكفير بعد الحنث أولى.

{ **وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ** } ذكرنا في [البقرة:225] أنّهم جرى معتادهم بأن يقسموا إذا أرادوا تحقيق الخبر، أو إلجاء أنفسهم إلى عمل يعزمون عليه لئلاّ يندموا عن عزمهم، فكان في قوله تعالى { وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ } زجر لهم عن تلك العادة السخيفة. وهذا الأمر يستلزم الأمر بالإقلال من الحلف لئلاّ يعرّض الحالف نفسه للحنث.

{ **كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ** } تذييل. ومعنى { كَذَلِكَ }: كهذا البيان يُبيّن الله. فتلك عادة شرعه أن يكون بيّنا.

{ **لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** } تقدّم القول عند قوله تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ } [البقرة:21].

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ [90] إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ [91] }.

كما نهى عن تحريم المباح، نهى عن استحلال الحرام، وأنّ الله لمّا أحل الطيّبات حرّم الخبائث المفضية إلى مفاسد، فإنّ الخمر كان طيّبا عند الناس. والميسر كان وسيلة لإطعام اللحم من لا يقدرون عليه.

فكانت هذه الآية كالاحتراس عمّا قد يساء تأويله من قوله تعالى { لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ } [87].

وقد تقدّم في سورة البقرة أنّ المعوّل عليه من أقوال علمائنا أنّ النهي عن الخمر وقع مدرّجا ثلاث مرات: الأولى حين نزلت آية { يَسْأَلونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا } [البقرة:219]، وذلك يتضمّن نهيا غير جازم، فترك شرب الخمر ناس كانوا أشد تقوى. ثم نزلت آية { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ } [النساء:43]، فتجنّب المسلمون شربها في الأوقات التي يظنّ بقاء السكر منها إلى وقت الصلاة. ثم نزلت هذه الآية.

والمشهور أنّ الخمر حرّمت سنة ثلاث من الهجرة بعد وقعة أحد، فتكون هذه الآية نزلت أوّلا ووضعت بعد ذلك في موضعها هنا. فتحريم الخمر متقرّر قبل نزول هذه السورة، فإنّ وفد عبد القيس وفدوا قبل فتح مكّة في سنة ثمان، فكان ممّا أوصاهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا ينتبذوا في الحنْتم والنقير والمزفّت والدَبَّاء، لأنّها يسرع الاختمار إلى نبيذها.

وروي أنّ هذه الآية نزلت بسبب ملاحاة جرت بين سعد بن أبي وقاص ورجل من الأنصار. روى مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: " أتيت على نفر من الأنصار، فقالوا: " تعال نطعمك ونسقك خمرا وذلك قبل أن تحرّم الخمر فأتيتهم في حُشّ، وإذا رأس جزور مشوي وزق من خمر، فأكلت وشربت معهم، فذكرت الأنصار والمهاجرين عندهم، فقلت: " المهاجرون خير من الأنصار، فأخذ رجل من الأنصار لَحْيَ جمل فضربني به فجرح بأنفي فأتيت رسول الله فأخبرته "، فأنزل الله تعالى فيّ { إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ }.

وروى أبو داود عن ابن عباس قال: " { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى } [النساء:43]، و{ يَسْأَلونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ } [البقرة:219] نسختهما في المائدة { إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ } ".

الأنصاب: هنا عبادة الأنصاب.

الأزلام: المراد الاستقسام بها، لأنّ عطفها على الميسر يقتضي أنّها أزلام غير الميسر.

قال في الكشّاف: " ذكر الأنصاب والأزلام مع الخمر والميسر مقصود منه تأكيد التحريم للخمر والميسر".

وتقدّم الكلام على الخمر والميسر في [البقرة:219]، وتقدّم الكلام على الأنصاب والأزلام عند قوله تعالى { وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلامِ } [المائدة:3].

وأُكِّد في هذه الآية تحريم ما ذُبح على النصب وتحريم الاستقسام بالأزلام، وهو التحريم الوارد في أول السورة والمقرّر في الإسلام من أول البعثة.

الرجس: الخبث المستقذر والمكروه من الأمور الظاهرة، ويطلق على المذمّات الباطنة، كما في قوله

تعالى { وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ } [التوبة:125]، وقوله تعالى { إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ } [الأحزاب:33]. والمراد به هنا الخبيث في النفوس واعتبار الشريعة. وهو اسم جنس فالإخبار به كالإخبار بالمصدر، فأفاد المبالغة في الاتّصاف به حتّى كأنّ هذا الموصوف عين الرجس.

{ **مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ** } أي: من تسويله للنّاس تعاطيها، فكأنّه هو الذي عملها وتعاطاها. وفي ذلك تنفير لمتعاطيها بأنّه يعمل عمل الشيطان.

{ **فَاجْتَنِبُوهُ** } الفاء للتفريع وقد ظهر حسن موقع هذا التفريع بعد التقدّم بما يوجب النفرة منها. والضمير عائد إلى الرجس الجامع للأربعة.

{ **لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** } رجاء لهم أن يفلحوا عند اجتناب هذه المنهيّات إذا لم يكونوا قد استمرّوا على غيرها من المنهيات. وتقدّم القول في نظيره عند قوله تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [البقرة:21]، وقد بيّنتُ ما اخترته في محمل (لعل) وهو المطّرد في جميع مواقعها.

فأمّا اجتناب مماسة الخمر واعتبارها نجسة لمن تلطّخ بها بعض جسده أو ثوبه فهو ممّا اختلف فيه أهل العلم، فمنهم من حملوا الرجس في الآية بالنسبة للخمر على معنييه المعنوي والذاتي، فاعتبروا الخمر نجس العين يجب غسلها كما يجب غسل النجاسة، حملا للفظ الرجس على جميع ما يحتمله، وهو قول مالك.

وأقول: الذي يقتضيه النظر أنّ الخمر ليست نجس العين، وأنّ مساق الآية بعيد عن قصد نجاسة عينها، إنّما القصد أنّها رجس معنوي، ولذلك وصفه بأنّه من عمل الشيطان، وبيّنه بعد بقوله تعالى { إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ }، ولأنّ النجاسة تعتمد الخباثة والقذارة وليست الخمر كذلك، وإنّما تنزّه السلف عن مقاربتها لتقرير كراهيتها في النفوس.

{ **إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ** } بيان لكونها من عمل الشيطان.

{ **الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ** } تقدّم الكلام عنهما عند قوله تعالى { وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ } [64].

{ **فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ** } أي: في تعاطيهما، على متعارف إضافة الأحكام إلى الذوات.

أي: بما يحدث في شرب الخمر من إثارة الخصومات والإقدام على الجرائم، وما يقع في الميسر من التحاسد على القامر، والغيظ والحسرة للخاسر، وما ينشأ عن ذلك من التشاتم والسباب والضرب. على أنّ مجرّد حدوث العداوة والبغضاء بين المسلمين مفسدة عظيمة، لأنّ الله أراد أن يكون المؤمنون إخوة إذ لا يستقيم أمر أمّة بين أفرادها البغضاء. وفي الحديث:**" لا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا "**.

{ **وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ** } الصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة لما في الخمر من غيبوبة العقل، وما في الميسر من استفراغ الوقت في المعاودة لتطلّب الربح.

وهذه أربع علل كل واحدة منها تقتضي التحريم، فلا جرم أن كان اجتماعها مقتضيا تغليظ التحريم.

{ **فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ** } الفاء تفريع عن قوله تعالى { إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ }.

فإنّ ما ظهر من مفاسد الخمر والميسر كاف في انتهاء النّاس عنهما فلم يبق حاجة لإعادة نهيهم عنهما، ولكن يُستغنى عن ذلك باستفهامهم عن مبلغ أثر هذا البيان في نفوسهم ترفيعا بهم إلى مقام الفطن الخبير، ففي هذا الاستفهام من بديع لطف الخطاب ما بلغ به حدّ الإعجاز.

ولذلك روي أنّ عمر لما سمع الآية قال: " انتهينا انتهينا ".

{ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ } [92].

{ **وَأَطِيعُوا** } عطفت على جملة { فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ }، وهي كالتذييل، لأنّ طاعة الله ورسوله تعمّ ترك الخمر والميسر والأنصاب والأزلام وتعمّ غير ذلك من وجوه الامتثال والاجتناب. وكُرّر { وَأَطِيعُوا } اهتماما بالأمر بالطاعة.

{ **وَاحْذَرُوا** } عطف على { أَطِيعُوا }، أي: وكونوا على حذر. أي: الحذر من الوقوع فيما يأباه الله ورسوله، وذلك أبلغ من أن يقال واحذروهما.

{ **فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ** } التولّي هنا استعارة للعصيان، شُبّه العصيان بالإعراض والرجوع عن الموضع الذي كان به العاصي. وكذلك يطلق عليه الإدبار.

{ **فَاعْلَمُوا** } جواب الشرط، والمعنى: فإن تولّيتم عن طاعة الرسول فاعلموا أن لا يضرّ تولّيكم الرّسول لأنّ عليه البلاغ فحسب، أي: وإنّما يضرّكم أنتم.

{ **أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا** } في إضافة الرسول إلى ضمير الجلالة تعظيم لجانب هذه الرسالة.

{ **الْبَلاغُ الْمُبِينُ** } استقصاء في معذرة الرسول وفي الإعذار للمعرضين عن الامتثال بعد وضوح البلاغ وكفايته وكونه مؤيّدا بالحجّة الساطعة.

{ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } [93].

هذه الآية بيان لما عرض من إجمال في فهم الآية التي قبلها. فقد كان سبب نزول هذه الآية ما في الصحيحين وغيرهما عن أنس بن مالك، والبراء ابن عازب، وابن عبس، أنّه لمّا نزل تحريم الخمر قال ناس من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم: " كيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر؟

أو قال: وهي في بطونهم وأكلوا الميسر. فأنزل الله { لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا } ".

فأصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم كانوا شديدي الحذر ممّا يُنقص الثواب، حريصين على كمال الاستقامة فلمّا نزل في الخمر والميسر أنّهما رجس من عمل الشيطان خشوا أن يكون للشيطان حظّ في الذين شربوا الخمر وأكلوا اللحم بالميسر وتوفّوا قبل الإقلاع عن ذلك أو ماتوا والخمر في بطونهم مخالطة أجسادهم، فلم يتمالكوا أن سألوا النبيّ صلى الله عليه وسلم عن حالهم لشدّة إشفاقهم على إخوانهم.
كما سأل عبد الله بن أم مكتوم لما نزل قوله تعالى { لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ } [النساء:95]، فقال: " يا رسول الله، فكيف وأنا أعمى لا أبصر؟ "، فأنزل الله { غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ }.
وكذلك ما وقع لما غُيّرت القبلة، قال ناس: " فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يستقبلون بيت المقدس؟ "، فأنزل الله تعالى { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ } [البقرة:143]، أي: صلاتكم.
فكان القصد من السؤال التثبّت في التفقه، وأن لا يتجاوزوا التلقي من رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمور دينهم.
{ **جُنَاحٌ** } نفي الجناح نفي الإثم والعصيان، لأنّ المقصود العفو عن شيء طعموه معلوم من السؤال.
{ **طَعِمُوا** } حقيقة الطَعِمَ الأكل والشيء المأكول طعام. ومجازا بمعنى أذاق ومصدره الطُّعم (بضم الطاء) اعتبروه مشتقا من الطَّعم الذي هو حاسة الذوق ، يقال تغيّر طعم الماء، أي: أسن.
فمن فصاحة القرآن إيراد فعل { طَعِمُوا } هنا لأنّ المراد نفي التبعة عمّن شربوا الخمر وأكلوا لحم الميسر قبل نزول آية تحريمهما. واستُعمل اللفظ في معنييه، أي: في حقيقته ومجازه، أو هو من أسلوب التغليب.
التقوى: امتثال المأمورات واجتناب المنهيات، ولذلك فعطف { **وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** } على { **اتَّقَوْا** } من عطف الخاص على العام، للاهتمام به، ولأنّ اجتناب المنهيّات أسبق تبادرا إلى الأفهام في لفظ التقوى لأنّها مشتقة من التوقّي والكفّ.
{ **وَآمَنُوا** } عطفها على { **اتَّقَوْا** } اعتراض للإشارة إلى أنّ الإيمان هو أصل التقوى.
{ **إِذَا** } والمقصود من هذا الظرف، الذي هو كالشرط، مجرّد التنويه بالتقوى والإيمان والعمل الصالح، وليس المقصود أنّ نفي الجناح عنهم مقيّد بأن يتقوا ويؤمنوا ويعملوا الصالحات، للعلم بأنّ لكل عمل أثرا على فعله أو على تركه، وإذ قد كانوا مؤمنين من قبل.
{ **ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا** } تأكيد لفظي وقرن بـ (ثمّ) الدال على التراخي الرتبي ليكون إيماء إلى الازدياد في التقوى وآثار الإيمان، ولذلك لم يكرّر قوله تعالى { وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } لأنّ عمل الصالحات مشمول

بالتقوى.

{ **ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا** } الارتقاء في التقوى مع زيادة صفة الإحسان. وقد فسّر النبيّ صلى الله عليه وسلم الإحسان بقوله: " **أن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك** ". وهذا يتضمّن الإيمان لا محالة، فلذلك استغني عن إعادة { وآمنوا }. ويشمل فعل { أَحْسَنُوا } الإحسان إلى المسلمين، وهو زائد على التقوى، لأنّ منه إحسانا غير واجب، وهو ممّا يجلب مرضاة الله، ولذلك ذيله بقوله { **وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** }.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [94].

لا أحسب هذه الآية إلاّ تبيينا لقوله تعالى في صدر السورة { غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ } [1]، وتخلّصا لحكم قتل الصيد في حالة الإحرام، وتمهيدا لقوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ } [95]، جرَّت إلى هذا التخلّص مناسبة ذكر المحرّمات من الخمر والميسر وما عُطف عليهما، فخاطب الله المؤمنين بتنبيههم إلى حالة قد يسبق فيها حرصهم حذرهم، وشهوتهم تقواهم. وهي حالة ابتلاء وتمحيص، يظهر بها في الوجود اختلاف تمسّكهم بوصايا الله تعالى، وهي حالة لم تقع وقت نزول هذه الآية، لأنّ قوله تعالى { **لَيَبْلُوَنَّكُمُ** } ظاهر في الاستقبال.

والظاهر أنّ حكم إصابة الصيد في حالة الإحرام أو في أرض الحرم لم يكن مقرّرا بمثل هذا.

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ** } الخطاب للمؤمنين، قال أبو بكر بن العربي: " اختلف العلماء في المخاطب بهذه الآية على قولين: أحدهما أنّهم المحلّون، قاله مالك. الثاني أنّهم المحرمون، قاله ابن عباس وغيره ".

ومرجع هذا الاختلاف النظر في شمول الآية لحكم ما يصطاده الحلال من صيد الحرم وعدم شمولها بحيث لا يحتاج في إثبات حكمه إلى دليل آخر أو يحتاج.

{ **لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ** } هو ابتلاء تكليف ونهي، كما دلّ عليه تعلّقه بأمر ممّا يفعل، فهو ليس كالابتلاء في قوله تعالى { وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ } [البقرة:155] وإنّما أخبرهم بهذا على وجه التحذير.

ويتعيّن أن يكون هذا الخطاب وجّه إليهم في حين تردّدهم بين إمساك الصيد وأكله، وبين مراعاة حرمة الإحرام، إذ كانوا محرمين بعمرة في الحديبيّة وقد تردّدوا فيما يفعلون، أي: أنّ ما كان عليه النّاس من حرمة إصابة الصيد للمحرم معتد به في الإسلام أو غير معتد به.

الصيد: المصيد، لأنّ قوله { مِنَ الصَّيْدِ } وقع بيانا لقوله تعالى { بِشَيْءٍ }. ويُغني عن الكلام فيه ما تقدّم من الكلام على نظيره في قوله تعالى { وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ } [البقرة:155].

{ **تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ** } صفة للصيّد أو حال منه. والمقصود منها استقصاء أنواع الصيد لئلّا يُتوهّم أنّ التحذير من الصيد الذي هو بجرح أو قتل دون القبض باليد أو التقاط البيض أو نحوه.

{ **لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ** } علّة لقوله تعالى { لَيَبْلُوَنَّكُمُ }، لأنّ الابتلاء اختبار، فعلّته أن يعلم الله منه من يخافه. على معنى: ليظهر للنّاس من يخاف الله.

وفائدة ذكره أنّه ثناء على الذين يخافون الله، أثنى عليهم بصدق الإيمان وتنوّر البصيرة، فإنّهم خافوه ولم يروا عظمته وجلاله ونعيمه وثوابه ولكنّهم أيقنوا بذلك عن صدق استدلال. وقد أشار إلى هذا ما في الحديث القدسي: " **إنّهم آمنوا بي ولم يروني فكيف لو رأوني**".

{ **فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ** } تصريح بالتحذير الذي أومأ إليه بقوله تعالى { لَيَبْلُوَنَّكُمُ }، أي: بعد ما قدّمناه إليكم وأعذرنا لكم فيه.

{ **اعْتَدَى** } المراد بالاعتداء الاعتداء بالصيد، وسمّاه اعتداء لأنّه إقدام على محرّم وانتهاك لحرمة الإحرام أو الحرم.

{ **فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ** } أي: عقاب شديد في الآخرة بما اجترأ على الحرم أو على الإحرام أو كليهما، وبما خالف إنذار الله تعالى، وهذه إذا اعتدى ولم يتدارك اعتداءه بالتوبة أو الكفارة، فالتوبة معلومة من أصول الإسلام، والكفّارة هي جزاء الصيد، لأنّ الظاهر أنّ الجزاء تكفير عن هذا الاعتداء كما سيأتي.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ } [95].

استئناف لبيان آية { لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ } أو لنسخ حكمها أن كانت تضمَّنت حكما لم يبق به عمل.

{ **وَأَنْتُمْ حُرُمٌ** } تقدّم القول في معنها في طالع هذه السورة [1].

واعلم أن الله حرّم الصيد في حالين: حال كون الصائد محرما، وحال كون الصيد من صيد الحرم، ولو كان الصائد حلالا، والحكمة في ذلك أنّ الله تعالى عظّم شأن الكعبة من عهد إبراهيم عليه السلام وأمره بأن يتّخذ لها حرما كما كان الملوك يتخذون الحمى، فكانت بيت الله وحماه، وهو حرم البيت محترما

بأقصى ما يعدّ حرمة وتعظيما فلذلك شرع الله حرما للبيت واسعا وجعل الله البيت أمنا للنّاس، ووسّع ذلك الأمن حتّى شمل الحيوان العائش في حرمه بحيث لا يرى النّاس للبيت إلاّ أمنا للعائذ به وبحرمه.

فالتحريم لصيد حيوان البرّ، ولم يحرّم صيد البحر إذ ليس في شيء من مساحة الحرم بحر ولا نهر. ثم حرّم الصيد على المحرم بحجّ أو عمرة، لأنّ الصيد إثارة لبعض الموجودات الآمنة. وقد كان الإحرام يمنع المحرمين القتال، ومنعوا التقاتل في الأشهر الحرم لأنّها زمن الحجّ والعمرة فألحق مثل الحيوان في الحرمة بقتل الإنسان.

والصيد عام في كلّ ما شأنه أن يصاد ويقتل من الدواب والطير لأكله أو الانتفاع ببعضه.

ويلحق بالصيد الوحوش كلّها. قال ابن الفرس: " والوحوش تُسمّى صيدا وإن لم تُصد بعد ".

وخُصّ من عمومه ما هو مضرّ، وهي السباع المؤذية وذوات السموم والفأر وسباع الطير. ودليل التخصيص السنّة.

وقصد القتل تبع لتذكُّر الصائد أنّه في حال إحرام، وهذا مورد الآية، فلو نسي أنّه محرم فهو غير متعمّد، ولو لم يقصد قتله فأصابه فهو غير متعمّد.

{ **وَأَنْتُمْ حُرُمٌ** } حُرُم جمع حرام، بمعنى مُحْرِم، والمُحرم أصله المتلبّس بالإحرام بحجّ أو عمرة. ويطلق المحرم على الكائن في الحرم. أي: كائنا في حرم المدينة. فأمّا الإحرام بالحج والعمرة فهو معلوم، وأمّا الحصول في الحرم فهو الحلول في مكان الحرم من مكّة أو المدينة. فأمّا حرم مكة فيحرم صيده بالاتفاق. وفي صيده الجزاء. وأمّا حرم المدينة فيحرم صيده ولا جزاء فيه، ومثله الطائف عند الشافعي.

وحرم مكّة معلوم بحدود من قبل الإسلام، وهو الحرم الذي حرّمه إبراهيم عليه السلام ووضعت بحدوده علامات في زمن عمر بن الخطاب.

وأمّا حرم المدينة، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: " المدينة حرم مِن ما بين عَير أو عائر(جبل) إلى ثور ". وقيل: " إن الصواب إلى أحد كما عند أحمد والطبراني". وقيل: " ثور جبل صغير وراء جبل أحد ".

{ **وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ** } أي: من الذين آمنوا. والظاهر أنّ وجه إيراد هذا الوصف التنبيه على إبطال فعل أهل الجاهلية، فمن أصاب صيدا في الحرم منهم كانوا يضربونه ويسلبونه ثيابه.

وتعليق حكم الجزاء على وقوع القتل يدل على أنّ الجزاء لا يجب إلاّ إذا قتل الصيد، فأمّا لو جرحه أو قطع منه عضوا ولم يقتله فليس فيه جزاء. ويدلّ على أنّ الحكم سواء أكل القاتل الصيد أو لم يأكله لأنّ مناط الحكم هو القتل.

{ **متعمّدا** } قيد أخرج المخطئ. ولم تبيّن له الآية حكما لكنّها تدلّ على أنّ حكمه لا يكون أشدّ من المتعمّد فيحتمل أن يكون فيه جزاء آخر أخف ويحتمل أن يكون لا جزاء عليه وقد بيّنته السنّة.

قال الزهري: " نزل القرآن بالعمد وجرت السنة في الناسي والمخطئ أنهما يُكفِّران ". ولعله أراد بالسنّة العمل من عهد النبوّة والخلفاء وعمل الصحابة. إذ ليس في ذلك أثر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم.

وقال مالك، وأبو حنيفة، والشافعي، وجمهور فقهاء الأمصار: " إنّ العمد والخطأ في ذلك سواء". وقد غلَّب مالك فيه معنى الغرم، أي: قاسه على الغرم، والعمد والخطأ في الغرم سواء فلذلك سوّى بينهما. ومضى بذلك عمل الصحابة.

وقال أحمد بن حنبل، وابن عبد الحكم من المالكية، وداود الظاهري، وابن جبير وطاووس، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله، وعطاء، ومجاهد: " لا شيء على الناسي ". وروي مثله عن ابن عباس.

الجزاء: العوض عن عمل، فسمَّى الله ذلك جزاء، لأنّه تأديب وعقوبة إلاّ أنّه شُرع على صفة الكفّارات مثل كفّارة القتل وكفّارة الظهار. وليس القصد منه الغرم إذ ليس الصيد بمنتفع به أحد من النّاس حتى يغرم قاتله ليجبر ما أفاته عليه. وإنّما الصيد ملك الله تعالى أباحه في الحل ولم يبحه للنّاس في حال الإحرام، فمن تعدّى عليه في تلك الحالة فقد فرض الله على المتعدّي جزاء، وجعله جزاء ينتفع به ضعاف عبيده.

وقد دلّنا على أنّ مقصد التشريع في ذلك هو العقوبة قوله تعالى عقبه { لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ }.

وإنّما سُمّي جزاء ولم يسم بكفارة لأنّه روعي فيه المماثلة ، فهو مقدّر بمثل العمل فسُمِّي جزاء.

وقد أخبر أنّ الجزاء مثل ما قتل الصائد، وذلك المثل من النعم، وذلك أنّ الصيد إمّا من الدواب وإمّا من الطير، وأكثر صيد العرب من الدواب، وهي الحمر الوحشية وبقر الوحش والأروى والظباء ومن ذوات الجناح النعام والإوز، وأمّا الطير الذي يطير في الجو فنادر صيده، لأنّه لا يصاد إلّا بالمعراض، وقلّما أصابه المعراض سوى الحمام الذي بمكة وما يقرب منها، فمماثلة الدواب للأنعام هيّنة. وأما مماثلة الطير للأنعام فهي مقاربة وليست مماثلة، فالنعامة تقارب البقرة أو البدنة، والإوز يقارب السخلة، وهكذا. وما لا نظير له كالعصفور فيه القيمة. وهذا قول مالك والشافعي ومحمد بن الحسن. وقال أبو حنيفة وأبو يوسف: المثل القيمة في جميع ما يصاب من الصيد. والقيمة عند مالك طعام. وقال أبو حنيفة: دراهم.

فإذا كان المصير إلى القيمة، فالقيمة عند مالك طعام يتصدّق به، أو يصوم عن كل مدّ من الطعام يوما، ولكسر المد يوما كاملا.

وفي المسألة تفريعات محلّها كتب الفقه.

{ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ } أي: يحكم بالجزاء، أي: بتعيينه. والمقصد من ذلك أنّه لا يبلغ كل أحد معرفة صفة المماثلة بين الصيد والنعم فوكّل الله أمر ذلك إلى الحكمين. وعلى الصائد أن يبحث عمّن تحقّقت فيه صفة العدالة والمعرفة فيرفع الأمر إليهما. ويتعيّن عليهما أن يجيباه إلى ما سأل منهما وهما يعيّنان المثل ويخيّرانه بين أن يعطي المثل أو الطعام أو الصيام، ويقدران له ما هو قدر الطعام إن اختاره.

وقد حكم من الصحابة في جزاء الصيد عمر مع عبد الرحمان بن عوف، وحكم مع كعب بن مالك، وحكم سعد بن أبي وقاص مع عبد الرحمان بن عوف، وحكم عبد الله بن عمر مع ابن صفوان.

{ **هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ** } حال من { مِثْلُ مَا قَتَلَ }. والهدي ما يُذبح أو يُنحر في منحر مكة. والمنحر، منى والمروة. ولمّا سماه الله تعالى { هَدْياً } فله سائر أحكام الهدي المعروفة.

{ **بَالِغَ الْكَعْبَةِ** } أي: أنّه يذبح أو ينحر في حرم الكعبة، وليس المراد أنّه ينحر أو يذبح حول الكعبة.

{ **أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ** } عطف على { فَجَزَاءٌ }، وسُمِّي الإطعام كفّارة لأنّه ليس بجزاء، إذ الجزاء هو العوض. وقد أجمل الكفارة فلم يبيّن مقدار الطعام ولا عدد المساكين. فأمّا مقدار الطعام فهو موكول إلى الحكمين، وقد شاع عن العرب أنّ المدّ من الطعام هو طعام رجل واحد، فلذلك قدّره مالك بمدّ لكل مسكين. وهو قول الأكثر من العلماء.

{ **أَوْ** } تقتضي تخيير قاتل الصيد في أحد الثلاثة المذكورة. وكذلك كلّ أمر وقع بـ (أو) في القرآن فهو من الواجب المخيّر. والقول بالتخيير هو قول الجمهور.

{ **أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَاماً** } أجملت الآية الصيام كما أجملت الطعام، وهو موكول إلى حكم الحكمين.

قال مالك والشافعي: " يصوم عن كل مدّ من الطعام يوما ". وقال أبو حنيفة: " عن كل مدين يوما ".

واختلفوا في أقصى ما يصام، فقال مالك والجمهور: " لا ينقص عن أعداد الأمداد أياما ولو تجاوز شهرين ". وقال بعض أهل العلم: " لا يزيد على شهرين لأنّ ذلك أعلى الكفارات ". وعن ابن عباس: " يصوم ثلاثة أيام إلى عشرة ".

العَدل: (بفتح العين) ما عادل الشيء من غير جنسه. وأصل معنى العدل المساواة.

{ **لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ** } متعلّق بقوله تعالى { فَجَزَاءٌ }، واللام للتعليل، أي: جُعل ذلك جزاء عن قتله الصيد ليذوق وبال أمره.

الذوق: مستعار للإحساس بالكدر. شبّه ذلك الإحساس بذوق الطعم الكريه كأنّهم راعوا فيه سرعة اتصال ألمه بالإدراك.

الوبال: السوء وما يُكره إذا اشتدّ، والوبيل القوي في السوء { فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً } [المزمل:16].

وطعام وبيل: سيّء الهضم.

الأمر: الشأن والفعل، أي: أمر من قتل الصيد متعمّدا.

المعنى: ليجد سوء عاقبة فعله بما كُلّفه من خسارة أو من تعب.

{ **عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ** } أعقب الله التهديد بما عوّد به المسلمين من الرأفة. أي: عفا عما قتلتم من الصيد قبل هذا البيان ومن عاد إلى قتل الصيد وهو محرم فالله ينتقم منه.

والانتقام هو الذي عُبّر عنه بالوبال من قبل، وهو الخسارة أو التعب، ففُهم منه أنّه كلّما عاد وجب عليه الجزاء أو الكفارة أو الصوم، وهذا قول الجمهور.

{ **وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ** } تذييل. والعزيز الذي لا يحتاج إلى ناصر، ولذلك وُصف بأنّه ذو انتقام، أي: لأنّ من صفاته الحكمة، وهي تقتضي الانتقام من المفسد لتكون نتائج الأعمال على وفقها.

{ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } [96].

استئناف بياني نشأ عن قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ } [95]، فإنّه اقتضى تحريم قتل الصيد على المحرم وجعل جزاء فعله هدي مثل ما قتل من النعم، فكان السامع بحيث يسأل عن صيد البحر لأنّ أخذه لا يسمّى في العرف قتلا، وليس لما يصاد منه مثل من النعم، ولكنّه قد يشكّ لعل الله أراد القتل بمعنى التسبّب في الموت، وأراد بالمثل من النعم المقارب في الحجم والمقدار، فبيّن الله للنّاس حكم صيد البحر وأبقاه على الإباحة، لأنّ صيد البحر ليس من حيوان الحرم، إذ ليس في شيء من أرض الحرم بحر. وقد بيّنّا أنّ أصل الحكمة في حرمة الصيد على المحرم هي حفظ حرمة الكعبة وحرمها.

{ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ } إبقاء حلّيته لأنّه حلال من قبل الإحرام. والخطاب للذين آمنوا.

والبحر يشمل الأنهار والأودية لأنّ جميعها يسمّى بحرا في لسان العرب.

أمّا الخلاف فيما يؤكل من صيد البحر وما لا يؤكل منه، عند من يرى أنّ منه ما لا يؤكل، فليس هذا موضع ذكره، لأنّ الآية ليست بمثبتة لتحليل أكل صيد البحر، ولكنّها منبّهة على عدم تحريمه في حال الإحرام.

{ وَطَعَامُهُ } أي: وطعام البحر، وعطفه اقتضى مغايرته للصيد. والذي روي عن جلّة الصحابة رضي الله عنهم: " أنّ طعام البحر هو ما طفا عليه من ميتة إذا لم يكن سبب موته إمساك الصائد له". ويدعم قولهم ما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه قال في البحر: **" هو الطهور ماؤه الحلّ ميتته "**. وحديث جابر في الحوت المسمى العنبر، حين وجدوه ميّتا، وهم في غزوة، وأكلوا منه، وأخبروا رسول الله، وأكل منه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

{ مَتَاعًا } حال. والمتاع، ما يُتمتّع به، والتمتّع، انتفاع بما يلذ ويسر. أي: متاعا للصائدين وللسيّارة.

السيارة: الجماعة السائرة في الأرض للسفر والتجارة، مؤنث سيّار، والتأنيث باعتبار الجماعة.

قال تعالى { وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ } [يوسف:19]. والمعنى أحلّ لكم صيد البحر تتمتعون بأكله ويتمتع به المسافرون، أي: تبيعونه لمن يتّجرون ويجلبونه إلى الأمصار.

{ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً } زيادة تأكيد لتحريم الصيد، ولبيان أنّ مدة التحريم مدة كونهم حرما، أي: محرمين، أو مارين بحرم مكّة. وهذا إيماء لتقليل مدّة التحريم استئناسا للمكلّفين بتخفيف. وفي الموطأ أنّ عائشة قالت لعروة بن الزبير: " يا بن أختي إنّما هي عشر ليال (أي: مدّة الإحرام) فإن تخلَّجَ في نفسك شيء فدعه ". تعني أكل لحم الصيد.

{ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } تذكير بأنّ المرجع إلى الله، ليعدّ النّاس ما استطاعوا من الطاعات.

الحشر، جمع الناس في مكان.

والتحريم متعلّق بقتله فلا يقتضي تحريم أكل صيد البرّ على المحرم إذا اشتراه من بائع أو ناوله رجل حلال إيّاه، لأنّه قد علم أنّ التحريم متعلّق بمباشرة المحرم قتله في حال الإصابة. وقد أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحمار الذي صاده أبو قتادة، كما في حديث الموطأ عن زيد بن أسلم. وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقسمة الحمار الذي صاده زيد البهزي بين الرفاق وهم محرمون. وعلى ذلك مضى عمل الصحابة، وهو قول.

وأمّا ما صيد لأجل المحرم فقد ثبت أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ردّ على الصعب بن جَثَّامة حمارا وحشيا أهداه إليه وقال له: " **إنّا لم نرده عليك إلاّ أنّا حرم** ". وقد اختلف الفقهاء في محمل هذا الامتناع: فقيل: " يحرم أن يأكله من صيد لأجله لا غير". وهذا قول عثمان بن عفان، وجماعة من فقهاء المدينة، ورواية عن مالك، وهو الأظهر.

وقيل: " يحرم على المحرم أكل ما صيد لمحرم غيره"، وهو قول بعض أهل المدينة، وهو المشهور عن مالك. وكأن مستندهم في ذلك أنّه الاحتياط.

وقيل: لا يأكل المحرم صيدا صيد في مدة إحرامه ويأكل ما صيد قبل ذلك، ونسب إلى علي بن أبي طالب وابن عباس.

وقيل: " يجوز للمحرم أكل الصيد مطلقا، وإنما حرم الله قتل الصيد"، وهو قول أبي حنيفة.

والحاصل أنّ التنزّه عن أكل الصيد الذي صيد لأجل المحرم ثابت في السنة بحديث الصعب بن جَثَّامة، وهو محتمل كما علمت.

{ **جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** } [97].

استئناف بياني لأنّه يحصل به جواب عمّا يخطر في نفس السامع من البحث عن حكمة تحريم الصيد في الحرم وفي حال الإحرام، بأنّ ذلك من تعظيم شأن الكعبة التي حُرّمت أرض الحرم لأجل تعظيمها، وتذكير بنعمة الله على سكّانه بما جعل لهم من الأمن في علائقها وشعائرها.

{ **جَعَلَ اللَّهُ** } الجعل يطلق بمعنى الإيجاد، ويطلق بمعنى التصيير، وكلا المعنيين صالح هنا. والأظهر الأوّل فإنّ الله أوجد الكعبة، أي: أمر خليله بإيجادها لتكون قياما للنّاس.

{ **قياما** } حال مقدّرة، أي: أوجدها مقدّرا أن تكون قياما. وإذا حُمل { جَعَلَ } على معنى التصيير كان المعنى أنّها موجودة بيت عبادة فصيّرها الله قياما للنّاس لطفا بأهلها ونسلهم.

{ **الْكَعْبَةَ** } علم على البيت الذي بناه إبراهيم عليه السلام بمكّة بأمر الله تعالى ليكون آية للتوحيد. وقد تقدّم

ذلك في قوله تعالى { إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ } [آل عمران:96]. قالوا عَلَم مشتقّ من الكعب، وهو النتوء والبروز، وذلك محتمل. ويحتمل أنّهم سموا كلّ بارز كعبة، إذ كان أوّل بيت عندهم، وكانوا من قبله أهل خيام، فصار البيت مثلا يُمثَّل به كل بارز. وأمّا إطلاق الكعبة على (القليس) الذي بناه الحبشة في صنعاء، وسمّاه بعض العرب الكعبة اليمانية، فذلك على وجه المحاكاة والتشبيه.

{ **الْبَيْتَ الْحَرَامَ** } بيان للكعبة، قُصد منه التنويه والتعظيم.

الحرام: في الأصل مصدر حرُم إذا مُنع، ومصدره الحرام، فوصف شيء بحرام مبالغة في كونه ممنوعا. ومعنى وصف البيت بالحرام أنّه ممنوع من أيدي الجبابرة، فهو محترم عظيم المهابة. وذلك يستتبع تحجير وقوع المظالم والفواحش فيه.

القيام: في الأصل مصدر قام إذا استقلّ على رجليه، ويُستعار للنشاط، ويُستعار من ذلك للتدبير والإصلاح. فالقيام هنا بمعنى الصلاح والنفع.

وأمّا قراءة ابن عامر { قِيَمَا } فهو مصدر (قام) على وزن فِعَلَ (بكسر ففتح) وهو إسناد مجازي، لأنّ الكعبة لمّا جعلها الله سببا في أحكام شرعية سابقة كان بها صلاح أهل مكة وغيرهم من العرب، وقامت بها مصالحهم، جُعلت الكعبة هي القائمة لهم لأنّها سبب القيام لهم.

{ **لِلنَّاسِ** } التعريف للعهد. والمراد بهم العرب، لأنّهم الذين انتفعوا بالكعبة وشعائرها دون غيرهم من الأمم كالفرس والروم.

وإنّما كانت الكعبة قياما للنّاس لأنّ الله لمّا أمر إبراهيم بأن يُنزل في مكّة زوجه وابنه إسماعيل، وأراد أن تكون نشأة العرب المستعربة (وهم ذريّة إسماعيل) في ذلك المكان لينشأوا أمّة أصيلة الآراء عزيزة النفوس ثابتة القلوب، لأنّه قدّر أن تكون تلك الأمّة هي أوّل من يتلقّى الدين الذي أراد أن يكون أفضل الأديان وأرسخها، وأن يكون منه انبثاث الإيمان الحقّ والأخلاق الفاضلة. فأقام لهم بلدا بعيدا عن التعلّق بزخارف الحياة، فنشأوا على إباء الضيم، وتلقوا سيرة صالحة نشأوا بها على توحيد الله تعالى والدعوة إليه، وأقام

لهم فيه الكعبة مَعْلما لتوحيد الله تعالى، ووضع في نفوسهم ونفوس جيرتهم تعظيمه وحرمته. ودعا مجاوريهم إلى حجّه ما استطاعوا، وسخّر النّاس لإجابة تلك الدعوة، فصار وجود الكعبة عائدا على سكان بلدها بفوائد التأنّس بالوافدين، والانتفاع بما يجلبونه من الأرزاق، وبما يجلب التجّار في أوقات وفود الناس إليه، فأصبح ساكنوه لا يلحقهم جوع ولا عراء. وجعل في نفوس أهله القناعة فكان رزقهم كفافا. وذلك ما دعا به إبراهيم في قوله { رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ } [إبراهيم:37]. فكانت الكعبة قياما لهم يقوم به أود معاشهم. وهذا قيام خاص بأهله.

ثم انتشرت ذريّة إسماعيل ولحقت بهم قبائل كثيرة من العرب القحطانيين، وأهلت بلاد العرب. وكان

جميع أهلها يدين بدين إبراهيم، فكان من انتشارهم ما شأنه أن يحدث بين الأمّة الكثيرة من الاختلاف والتغالب والتقاتل الذي يفضي إلى التفاني، فإذا هم قد وجدوا حرمة أشهر الحج الثلاثة وحرمة شهر العمرة، وهو رجب الذي سنّته مضر (وهم معظم ذريّة إسماعيل) وتبعهم معظم العرب، وجدوا تلك الأشهر الأربعة ملجئة إيّاهم إلى المسالمة فيها فأصبح السلم سائدا بينهم مدة ثلث العام، يصلحون فيها شؤونهم، ويستبقون نفوسهم، وتسعى فيها سادتهم وكبراؤهم وذوو الرأي منهم بالصلح بينهم، فيما نجم من تِراتٍ وإحَنٍ. فهذا من قيام الكعبة لهم، لأنّ الأشهر الحرم من آثار الكعبة إذ هي زمن الحج والعمرة للكعبة.

وقد جعل إبراهيم للكعبة مكانا متسعا شاسعا يحيط بها من جوانبها أميالا كثيرة، وهو الحرم، فكان الداخل فيه آمنا، قال تعالى { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ } [العنكبوت:67]. فكان ذلك أمنا مستمرًّا لسكّان مكّة وحرمها، وأمنا يلوذ إليه من عراه خوف من غير سكّانها بالدخول إليه عائذا، فكانت الكعبة قياما لكلّ عربي إذا طرقه ضيم.

ولتحقيق أمنه أمّن الله وحوشه ودوابه تقوية لحرمته في النفوس. وكان أهل مكّة وحرمها يسيرون في بلاد العرب آمنين لا يتعرّض لهم أحد بسوء، فكانوا يتجرون ويدخلون بلاد قبائل العرب، فيأتونهم بما يحتاجونه ويأخذون منهم ما لا يحتاجونه ليبلّغوه إلى من يحتاجونه، ولأجل ذلك جعلوا رحلتي الشتاء والصيف، قال تعالى { لِإِيلافِ قُرَيْشٍ إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ } [قريش:2/1].

وبذلك كلّه بقيت أمّة العرب محفوظة الجبلّة التي أراد الله أن يكونوا مجبولين عليها، فتهيّأت بعد ذلك لتلقّي دعوة محمد صلى الله عليه وسلم وحملها إلى الأمم.

{ **الشَّهْرَ الْحَرَامَ** } عطف على { الْكَعْبَةَ } شبه عطف الخاص على العام باعتبار كون الكعبة أريد بها ما يشمل علائقها وتوابعها، فإنّ الأشهر الحرم ما اكتسبت الحرمة إلاّ من حيث هي أشهر الحجّ والعمرة للكعبة.

{ **وَالْهَدْيَ** } كون الهدي قياما للنّاس ظاهر، لأنّه ينتفع ببيعه للحاج أصحاب المواشي من العرب، وينتفع بلحومه من الحاج فقراء العرب، فهو قيام لهم.

{ **وَالْقَلائِدَ** } فإنّهم ينتفعون بها، فيتّخذون من ظفائرها مادة عظيمة للغزل والنسج، فتلك قيام لفقرائهم. ووجه تخصيصها بالذكر هنا، وإن كانت هي من أقلّ آثار الحجّ، التنبيه على أنّ جميع علائق الكعبة فيها قيام للنّاس، حتى أدنى العلائق، وهو القلائد، فكيف بما عداها من جلال البدن ونعالها وكسوة الكعبة. ولأنّ القلائد أيضا لا يخلو عنها هدي من الهدايا بخلاف الجلال والنعال.

{ **ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** } مرتبط بالكلام الذي قبله بواسطة لام التعليل. أي: أنّ من الحكمة التي جعل الله الكعبة قياما للنّاس لأجلها أن يعلموا أنّه يعلم. فجَعْل الكعبة قياما، مقصود منه صلاح النّاس بادىء ذي بدء لأنّه المجعولة عليه، ثم مقصود منه

علم النّاس بأنّه تعالى عليم. وقد تكون فيه حكم أخرى، وإنّما اقتصر على هذه العلّة دون غيرها لشدّة الاهتمام بها. فحصول هذا العلم غاية من الغايات التي جعل الله الكعبة قياما لأجلها.

{ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [88] مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ [99] }.

استئناف ابتدائي وتذييل بالتذكير بأنّ الله منهم بالمرصاد يجازي كلّ صانع بما صنع من خير أو شر.

{ **اعْلَمُوا** } للاهتمام بمضمونها كما تقدّم عند قوله تعالى { وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ } [البقرة:223].

{ **أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } أقسام معاملته تعالى، فهو شديد العقاب لمن خالف أحكامه وغفور لمن تاب وعمل صالحا.

{ **مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ** } معترضة ذُيّل بها التعريض بالوعيد والوعد. ومضمونها إعذار النّاس لأنّ الرسول قد بلّغ إليهم ما أراد الله منهم، فلا عذر لهم في التقصير، والمنّة لله ولرسوله فيما أرشدهم إليه من خير.

والقصر ليس بحقيقي، لأنّ على الرسول أمورا أخر غير البلاغ، فتعيّن أنّ معنى القصر: ما عليه إلاّ البلاغ دون إلجائكم إلى الإيمان.

{ **وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ** } هي تتميم للتعريض بالوعيد والوعد، تذكيرا بأنّه سبحانه لا يخفى عليه شيء من أعمالهم ظاهرها وباطنها. وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي هنا لإفادة تقوّي الحكم.

{ قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [100].

فالآية تؤذن بأن قد وُجدت كثرة من أشياء فاسدة خيف أن تستهوي من كانوا بقلّة من الأشياء الصالحة، فيحتمل أن تكون تلك الكثرة كثرة عدد في النّاس، إذ معلوم في متعارف العرب في الجاهلية وفي أوّل الإسلام الاعتزاز بالكثرة والإعجاب بها.

{ **لا يَسْتَوِي** } نفي المساواة، وهي المماثلة والمقاربة والمشابهة. والمقصود منه إثبات المفاضلة بينهما بطريق الكناية، والمقام هو الذي يُعيّن الفاضل من المفضول، فإنّ جعل أحدهما خبيثا والآخر طيبا يُعيّن أنّ المراد تفضيل الطيب. وتقدّم عند قوله تعالى { لَيْسُوا سَوَاءً } [آل عمران:113].

وهذا فتح لبصائر الغافلين كيلا يقعوا في مهواة الالتباس ليعلموا أنّ ثمّة خبيثا قد التف في لباس الحسن فتموّه على الناظرين، ولذلك قال تعالى:

{ **وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ** } المراد أن لا تعجبكم من الخبيث كثرته فتصرفكم عن التأمّل من خبثه وتحدوكم إلى متابعته لكثرته، أي: ولكن انظروا إلى الأشياء بصفاتها ومعانيها لا بأشكالها ومبانيها. فكان الخبيث المقصود في الآية شيئا تلبّس بالكثرة فراق في أعين الناظرين لكثرته، ففتح أعينهم للتأمّل فيه ليعلموا خبثه.

{ **فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ** } مؤذن بأنّ الله يريد منّا إعمال النظر في تمييز الخبيث من الطيّب، والبحث عن الحقائق، وعدم الاغترار بالمظاهر الخلاّبة الكاذبة، فإنّ الأمر بالتقوى يستلزم الأمر بالنظر في تمييز الأفعال حتّى يعرف ما هو تقوى دون غيره. ولذلك قال هنا { يَا أُولِي الْأَلْبَابِ } فخاطب النّاس بصفة ليومئ إلى أنّ خَلْق العقول فيهم يُمكّنهم من التمييز بين الخبيث والطيب لاتّباع الطيب ونبذ الخبيث.

{ **لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** } تقريب لحصول الفلاح بهم إذا اتقوا هذه التقوى التي منها تمييز الخبيث من الطيب وعدم الاغترار بكثرة الخبيث وقلّة الطيّب في هذا.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ [101] قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ [102] }.

استئناف ابتدائي للنّهي عن العودة إلى مسائل سألها بعض المؤمنين رسول الله صلى الله عليه وسلم ليست في شؤون الدين ولكنّها في شؤون ذاتية خاصة بهم، فنهوا أن يشغلوا الرسول بمثالها.

وقد اختلفت الروايات في بيان نوع هذه الأشياء المسؤول عنها، والصحيح من ذلك حديث موسى بن أنس بن مالك عن أبيه في الصحيحين قال: " سأل النّاس رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحْفَوْهُ بالمسألة، فصعد المنبر ذات يوم فقال: **" لا تسألونني عن شيء إلّا بيّنت لكم "**، فأنشأ رجل كان إذا لاَحَى يدعى لغير أبيه، فقال: " يا رسول الله من أبي؟ " قال: **" أبوك حذافة "**، أي: فدعاه لأبيه الذي يُعرف به، والسائل هو عبد الله بن حذافة السهمي، كما ورد في بعض روايات الحديث.

وروى مجاهد عن ابن عباس: نزلت في قوم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي. وقال مثله سعيد بن جبير والحسن.

وتأويل المعنى على هذا: أنّ الأمّة تكون في سعة إذا لم يُشرّع لها حكم، فيكون النّاس في سعة الاجتهاد عند نزول الحادثة بهم بعد الرسول صلى الله عليه وسلم، فإذا سألوا وأجيبوا من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم تعيّن عليهم العمل بما أجيبوا به. وقد تختلف الأحوال والأعصار فيكونون في حرج إن راموا تغييره.

{ **أَشْيَاءَ** } تكثير شيء، والشيء هو الموجود.

{ **إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ** } صفة { أَشْيَاءَ }، أي: إن تظهر لكم وقد أخفيت عنكم يكن في إظهارها ما يسوءكم، والمقصود من هذا استئناسهم للإعراض عن نحو هذه المسائل.

{ **وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ** } عطف على جملة { لَا تَسْأَلُوا }، جعلهم مخيّرين في السؤال عن أمثالها، وأنّ ترك السؤال هو الأولى لهم، فالانتقال إلى الإذن رخصة وتوسعة.

{ **حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ** } ظرف، يجوز تعلّقه بفعل الشرط وهو { تَسْأَلُوا }، ويجوز تعلّقه بفعل الجواب وهو قوله تعالى { تُبْدَ لَكُمْ }، وهو أظهر إذ الظاهر أنّ حين نزول القرآن لم يُجعل وقتا لإلقاء الأسئلة بل جُعل وقتا للجواب عن الأسئلة. وتقديمه على عامله للاهتمام.

المعنى: أنّهم لا ينتظرون الجواب عما يسألون عنه إلاّ بعد نزول القرآن.

{ **عَفَا اللَّهُ عَنْهَا** } يحتمل أنّه تقرير لمضمون قوله تعالى { وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ }، أي: أنّ الله نهاكم عن المسألة وعفا عنكم أن تسألوا حين ينزّل القرآن. وهذا أظهر لعود الضمير إلى أقرب مذكور باعتبار تقييده { حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ }. ويحتمل أن يكون إخبارا عن عفوه عمّا سلف من إكثار المسائل وإحفاء الرسول صلى الله عليه وسلم فيها لأنّ ذلك لا يناسب ما يناسب ما يجب من توقيره.

{ **قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ** } استئناف بياني جواب سؤال يثيره النهي عن السؤال ثم الإذن فيه في حين ينزّل القرآن: فهل الأولى ترك السؤال أو إلقاؤه؟ فأجيب بتفصيل أمرها، بأنّ أمثالها قد كانت سببا في كفر قوم قبل المسلمين.

{ **سَأَلَهَا** } الضميرعائد إلى { أَشْيَاءَ }، أي: إلى لفظه دون مدلوله. فالتقدير: قد سأل أشياء قوم من قبلكم.

{ **قَوْمٌ** } والمراد بالقوم بعض الأمم التي كانت قبل الإسلام، سألوا مثل هذه المسائل، فلمّا أعطوا ما سألوا لم يؤمنوا، مثل ثمود، سألوا صالحا آية، فلما أخرج لهم ناقة من الصخر عقروها. وكما وقع لليهود في خبر إسلام عبد الله بن سلام.

{ **ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ** } (ثمّ) للتراخي الرتبي كشأنها في عطف الجمل فإنّها لا تفيد فيه تراخي الزمان وإنّما تفيد تراخي مضمون الجملة المعطوفة في تصور المتكلّم عن تصور مضمون الجملة المعطوف عليها. { **أَصْبَحُوا** } مستعمل بمعنى صاروا، وهو في هذا الاستعمال مشعر بمصير عاجل لا تريّث فيه لأنّ الصباح أول أوقات الانتشار للأعمال.

{ **بِهَا** } أي: كانت تلك المسائل سببا في كفرهم، أي: باعتبار ما حصل من جوابها، ويحتمل أن تكون للتعدية

تتعلق بـ { كَافِرِينَ }، أي: كفروا بها، أو هو تقديم لمجرّد الاهتمام للتنبيه على التحذير منها.

والمقصود من هذا: ذم أمثال هذه المسائل بأنّها لا تخلو من أن تكون سببا في غم النفس وحشرجة الصدر وسماع ما يكره ممّن يحبّه. ولولا أنّ إيمان المؤمنين وازع لهم من الوقوع في أمثال ما وقع فيه قوم من قبلهم لكانت هذه المسائل محرّمة عليهم لأنّها تكون ذريعة للكفر.

{ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ } [103].

استئناف ابتدائي جاء فارقا بين ما أحدثه أهل الجاهلية من نقائض الحنيفيّة وبين ما نوّه الله به ممّا كانوا عليه من شعائر الحجّ، فإنّه لمّا بيّن أنّه جعل الكعبة قياما للنّاس وجعل الهدي والقلائد قياما لهم، بيّن هنا أنّ أمورا ما جعلها الله ولكن جعلها أهل الضلالة ليميز الخبيث من الطيب. فتكون الآية كالبيان لقوله تعالى { قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ }.

فإنّ البحيرة وما عُطف عليها هنا تشبه الهدي في أنّها تُحرّر منافعها وذواتها حيّة لأصنامهم كما تُهدى الهدايا للكعبة مذكاة. فكانوا في الجاهلية يزعمون أنّ الله شرع لهم ذلك ويخلطون ذلك بالهدايا.

وقد قدّمنا ما رواه مجاهد عن ابن عباس: أنّ ناسا سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البحيرة والسائبة ونحوهما فنزلت هذه الآية.

{ مَا جَعَلَ اللَّهُ } مقابلة لقوله تعالى { جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ } [97]، ولولا ما توسطّ بين الآيتين من الآي الكثيرة لكانت هذه الآية معطوفة على الأولى بحرف العطف إلاّ أنّ الفصل هنا كان أوقع ليكون به استقلال الكلام فيفيد مزيد اهتمام بما تضمّنه.

الجَعْل: هنا بمعنى الأمر والتشريع، فالمقصود هنا نفي تشريع هذه الأجناس، وهو كناية عن عدم الرضا به والغضب على من جعله.

البَحِيرة: فَعِيلة بمعنى مفعولة، أي: مبحورة، والبحر الشقّ. يقال: بَحَرَ شَقَّ. فالبحيرة هي الناقة، كانوا يشقّون أذنها بنصفين طولا علامة على تخليتها، أي: أنّها لا تركب ولا تنحر ولا تمنع عن ماء ولا عن مرعى ويكون لبنها لطواغيتهم، أي: أصنامهم، ولا يشرب لبنها إلّا ضيف، والظاهر أنّه يشربه إذا كانت ضيافة لزيارة الصنم أو إضافة سادنه، فكل حيّ من أحياء العرب تكون بحائرهم لصنمهم.

وإنّما يجعلونها بحيرة إذا نتجت عشرة أبطن على قول أكثر أهل اللغة. وقيل: إذا نتجت خمسة أبطن وكان الخامس ذكرا. وإذا ماتت حتف أنفها حلّ أكل لحمها للرجال وحرّم على النساء.

السائبة: البعير أو الناقة يُجعل نذرا عن شفاء من مرض أو قدوم من سفر، فيقول: " أجعله لله سائبة ". وحكم السائبة كالبحيرة في تحريم الانتفاع، فيكون ذلك كالعتق وكانوا يدفعونها إلى السدنة ليطعموا من ألبانها أبناء السبيل. وكانت علامتها أن تقطع قطعة من جلدة فقار الظهر، فيقال لها: صريم وجمعه صُرُم.

وإذا ولدت الناقة عشرة أبطن كلّهن إناث متتابعة سيّبوها أيضا فهي سائبة، وما تلده السائبة يكون بحيرة في قول بعضهم. والظاهر أنّه يكون مثلها سائبة.

الوصيلة: من الغنم هي الشاة تلد أنثى بعد أنثى، فتُسمّى الأم وصيلة لأنّها وصلت أنثى بأنثى، كذا فسّرها مالك في رواية ابن وهب عنه، فعلى هذه الرواية تكون الوصيلة هي المتقّرب بها، ويكون تسليط نفي الجعل عليها ظاهرا.

وقال الجمهور: " الوصيلة أن تلد الشاة خمسة أبطن أو سبعة (على اختلاف مصطلح القبائل) فالأخير إذا كان ذكرا ذبحوه لبيوت الطواغيت وإن كانت أنثى استحيوها، أي: للطواغيت.

والأظهر أنّ الوصيلة اسم للشاة التي وصلت سبعة أبطن إناثا، جمعا بين تفسير مالك وتفسير غيره، فالشاة تُسيّب للطواغيت، وما ذكروه من ذبح ولدها أو ابنتها هو من فروع استحقاق تسييبها لتكون الآية شاملة لأحوالها كلّها. وقيل غير ذلك.

الحامي: هو فحل الإبل إذا نُتجت من صلبه عشرة أبطن فيُمنع من أن يُركب أو يُحمل عليه ولا يُمنع من مرعى ولا ماء. ويقولون: إنّه حمى ظهره، أي: كان سببا في حمايته، فهو حام. قال ابن وهب عن مالك، فالظاهر أنّه يكون بمنزلة السائبة لا يؤكل حتى يموت ويُنتفع بوبره للأصنام.

{ **وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ** } الاستدراك لرفع ما يتوهّمه المشركون من اعتقاد أنّها من شرع الله لتقادم العمل بها منذ قرون. والمراد بالذين كفروا هنا جميع المشركين.

{ **الَّذِينَ كَفَرُوا** } الكفّار فريقان، خاصة وعامة:

فأمّا الخاصة فهم الذين ابتدعوا هذه الضلالات لمقاصد مختلفة ونسبوها إلى الله، وأشهر هؤلاء وأكذبهم هو عمرو بن لُحَيّ الخزاعي، ففي الصحيح قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **رأيت عمرو بن عامر بن لُحَيّ الخزاعي يجر قُصْبه** - أي أمعاءه - **في النّار** "، وكان أوّل من سيّب السوائب ".

ومنهم جُنادة بن عوف (هو جُنادة بن أمية بن عوف من بني مالك بن كنانة وهم نَسَأة الشهور. وجُنادة هذا أدركه الإسلام وهو القائم بالنسي).

وعن مالك أنّ منهم رجلا من بني مُدلج هو أوّل من بحَّر البحيرة وأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

" **رأيته مع عمرو في النّار**". رواه ابن العربي.

وأمّا العامة فهم الذين اتبعوا هؤلاء المضلّين عن غير بصيرة، وهم الذين أريدوا بقوله تعالى { وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ }.

الافتراء: الكذب، وتقدّم عند قوله تعالى { فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ } [آل عمران:94].

وفي تسمية ما فعله الكفّار من هذه الأشياء افتراء وكذبا ونفي أن يكون الله أمر به ما يدل على أن تلك الأحداث لا تمت إلى مرضاة الله تعالى بسبب من جهتين:

إحداهما: أنّها تنتسب إلى الآلهة والأصنام، وذلك إشراك وكفر عظيم.
الثانية: أنّ ما يُجعل منها لله تعالى مثل السائبة هو عمل ضرّه أكثر من نفعه، لأنّ في تسييب الحيوان إضرارا به إذ ربما لا يجد مرعى ولا مأوى، وربّما عدت عليه السباع، وفيه تعطيل منفعته حتّى يموت حتف أنفه. وما يحصل من در بعضها للضيف وابن السبيل إنّما هو منفعة ضئيلة في جانب المفاسد الحافة به.

{ **وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ** } لمّا وصف الأكثر بعدم الفهم تعيّن أنّ الأقل هم الذين دبّروا هذه الضلالات وزيّنوها للنّاس.

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ } [104].

الجملة حال من قوله تعالى { الَّذِينَ كَفَرُوا ...} [103]، أي: أنّهم ينسبون إلى الله ما لم يأمر به كذبا، وإذا دعوا إلى اتباع ما أمر الله به حقّا أو التدبّر فيه أعرضوا وتمسكّوا بما كان عليه آباؤهم. فحالهم عجيبة في أنّهم يقبلون ادّعاء آبائهم أنّ الله أمرهم بما اختلقوا لهم من الضلالات، مثل البحيرة والسائبة وما ضاهاهما، ويعرضون على دعوة الرسول الصادق بلا حجّة .

{ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا** } الأمر مستعمل في طلب الإقبال، وفي إصغاء السمع، ونظر الفكر، وحضور مجلس

الرسول صلى الله عليه وسلم وعدم الصدّ عنه، فهو مستعمل في حقيقته ومجازه.

{ **مَا أَنْزَلَ اللَّهُ** } هو القرآن، وعطف { **وَإِلَى الرَّسُولِ** } لأنّه يرشدهم إلى فهم القرآن.

{ **قَالُوا حَسْبُنَا** } أي: كافينا، أو كفانا. و تقدّم عند قوله تعالى { وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ } [آل عمران:173].

{ **مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا** } مجاز في تمكّن التلبّس.

{ **أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ** } تقدّم القول على نظيره عند قوله تعالى { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ } [البقرة:170].

وليس لهذه الآية تعلّق بمسألة الاجتهاد والتقليد كما توهّمه جمع من المفسّرين، لأنّ هذه الآية في تنازع بين أهل الافتراء على الله، فأمّا الاجتهاد والتقليد في فروع الإسلام فذلك كلّه من اتّباع ما أنزل الله.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [105].

تذييل جرى على مناسبة في الانتقال، فإنّه لمّا ذكر مكابرة المشركين وإعراضهم عن دعوة الخير عقّبه بتعليم المسلمين حدود انتهاء المناظرة والمجادلة إذا ظهرت المكابرة، وعذر المسلمين بكفاية قيامهم بما افترض الله عليهم من الدعوة إلى الخير، فأعلمهم هنا أن ليس تحصيل أثر الدعاء على الخير بمسؤولين عنه، بل على الداعي بذل جهده وما عليه إذا لم يصغ المدعو إلى الدعوة، كما قال تعالى { إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ } [القصص:56].

{ عَلَيْكُمْ } اسم فعل بمعنى الزموا، وذلك أنّ أصله أن يقال: عليك أن تفعل كذا، فتكون جملة من خبر مقدّم ومبتدأ مؤخر. ومن ذلك ما روى: " عليكم الدعاء وعلي الإجابة ".

{ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ } أي: الزموا أنفسكم، أي: احرصوا على أنفسكم. والمقام يُبيّن المحروص عليه، وهو ملازمة الاهتداء بقرينة قوله تعالى { إِذَا اهْتَدَيْتُمْ }، وهو يُشعر بالإعراض عن الغير.

{ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ } تتنزّل من التي قبلها منزلة البيان فلذلك فصلت، لأنّ أمرهم بملازمة أنفسهم مقصود منه دفع ما اعتراهم من الغم والأسف على عدم قبول الضالين للاهتداء، وخشية أن يكون ذلك لتقصير في دعوتهم، فقيل لهم:عليكم أنفسكم، أي: اشتغلوا بإكمال اهتدائكم.

{ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ } ظرف يتضمَّن معنى الشرط يتعلق بـ { يَضُرُّكُمْ }. وقد شمل الاهتداء جميع ما أمرهم به الله

تعالى. ومن جملة ذلك دعوة النّاس إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فلا يُتوهَّم من هذه الآية أنّها رخصة للمسلمين في ترك الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنّ جميع ذلك واجب بأدلّة طفحت بها الشريعة.

وقد حدث ذلك الظنّ في عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم. أخرج الترمذي عن أبي أميّة الشعباني أنّه قال: سألت عنها أبا ثعلبة الخشني، فقال لي: سألت عنها خبيرا، سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:

" بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتّى إذا رأيت شحّا مطاعا وهوى متّبعا ودنيا مُؤْثَرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع العوام ".

وأخرج أصحاب السنن أنّ أبا بكر الصدّيق بلغه أنّ بعض النّاس تأوّل الآية بسقوط وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: " أيّها الناس إنّكم تقرؤون هذه الآية { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ } وإنّكم تضعونها على غير موضعها وإنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " **إنّ النّاس إذا رأوا المنكر ولا يغيّرونه**

يوشك الله أن يعمَّهم بعقابه، وإنّ النّاس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمّهم الله بعذاب من عنده ".

وعن عبد الله بن عمر أنه قال:" إنّها ليست لي ولا لأصحابي لأن رسول الله قال: **" ألا ليبلِّغ الشاهد الغائب "** فكنا نحن الشهود وأنتم الغيَّب، ولكن هذه الآية لأقوام يجيئون من بعدنا إن قالوا لم يُقبل منهم".

فالآية تفيد الإعراض عن ذلك إذا تحقّق عدم الجدوى بعد الشروع في ذلك، ويلحق بذلك إذا ظهرت المكابرة وعدم الانتصاح كما دلّ عليه حديث أبي ثعلبة الخشني، وكذلك إذا خيف حصول الضر للداعي بدون جدوى.

{ **إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } عذر للمهتدي ونذارة للضال. وقُدّم المجرور للاهتمام بمتعلّق هذا الرجوع وإلقاء المهابة في نفوس السامعين، وأُكِّد ضمير المخاطبين بقوله تعالى { جَمِيعاً } للتنصيص على العموم وأن ليس الكلام على التغليب.

الإنباء بما كانوا يعملون: كناية عن إظهار أثر ذلك من الثواب للمهتدي الداعي إلى الخير، والعذاب للضال المعرض عن الدعوة.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذاً لَمِنَ الْآثِمِينَ [106] فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ [107] ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ [108] }.

استؤنفت هذه الآي استئنافا ابتدائيا لشرع أحكام التوثّق للوصيّة لأنّها من جملة التشريعات التي تضمّنتها هذه السورة، تحقيقا لإكمال الدين، واستقصاء لما قد يحتاج إلى علمه المسلمون.

وقد كانت الوصيّة مشروعة بقوله تعالى { كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ } [البقرة:180]. وتقدّم القول في ابتداء مشروعيّتها وفي مقدار ما نُسخ من حكم تلك الآية وما أحكم في موضعه هنالك.

وحرصَ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الوصيّة وأمر بها، فكانت معروفة متداولة منذ عهد بعيد من الإسلام. وكانت معروفة في الجاهلية كما تقدّم في سورة البقرة. فلذلك استغنى القرآن عن شرع

التوثّق لها بالإشهاد، خلافا لما تقدّم به من بيان التوثّق في التبايع بآية { وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ } [البقرة:282] والتوثّق في الدَيْن بآية { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ } [البقرة:282].

فأكملت هذه الآية بيان التوثّق للوصيّة اهتماما بها ولجدارة الوصيّة بالتوثيق لها لضعف الذياد عنها لأنّ البيوع والديون فيها جانبان عالمان بصورة ما انعقد فيها ويذبّان عن مصالحهما فيتّضح الحقّ من خلال سعيهما في إحقاق الحق فيها، بخلاف الوصيّة فإنّ فيها جانبا واحدا وهو جانب الموصى له، لانّ الموصي يكون قد مات، وجانب الموصى له ضعيف إذ لا علم له بما عقد الموصي ولا بما ترك، فكانت معرّضة للضياع كلّها أو بعضها.

وقد كان العرب في الجاهلية يستحفظون وصاياهم عند الموت إلى أحد يثقون به من أصحابهم أو كبراء قبيلتهم، أو من حضر احتضار الموصي، أو من كان أودع عنده الموصي خبر عزمه. فقد أوصى نزار بن مَعَدّ وصية موجزة وأحال أبناءه على الأفعى الجرهمي أن يبيّن لهم تفصيل مراده منها.

وقيل إنّ سبب نزول الآية واقعة (الجام)، التي كانت في سنة تسع من الهجرة، هي أنّ رجلين أحدهما تميم الداري اللخمي والآخر عُدي بن بدَّاء، كانا من نصارى العرب تاجرين، وهما من أهل (دارين) وكانا يتجران بين الشام ومكة والمدينة. فخرج معهما من المدينة (بُديل بن أبي مريم) مولى بني سهم، وكان مسلما، بتجارة إلى الشام، فمرض بُديل (قيل في الشام وقيل في الطريق برا أو بحرا) وكان معه في أمتعته جام من فضة مخوَّص بالذهب قاصدا به ملكَ الشام، فلمّا اشتد مرضه أخذ صحيفة فكتب فيها ما عنده من المتاع والمال ودسّها في مطاوي أمتعته ودفع ما معه إلى تميم وعدي وأوصاهما بأن يبلّغاه مواليه من بني سهم. وكان بديل مولى للعاصي بن وائل السهمي، فولاؤه بعد موته لابنه عمرو ابن العاصي، فلمّا رجعا باعا الجام بمكّة بألف درهم ورجعا إلى المدينة فدفعا ما لبديل إلى مواليه. فلما نشروه وجدوا الصحيفة، فقالوا لتميم وعدي: " أين الجام؟ فأنكرا أن يكون دفع إليهما جاما ". ثم وجد الجام بعد مدة يباع بمكة فقام عمرو ابن العاصي والمطّلب بن أبي وداعة على الذي عنده الجام فقال: " إنّه ابتاعه من تميم وعدي". وفي رواية أن تميما لما أسلم في سنة تسع تأثّم ممّا صنع فأخبر عمرو بن العاصي بخبر الجام ودفع له الخمسمائة الدرهم الصائرة اليه من ثمنه، وطالب عمرو عديّا ببقية الثمن فأنكر أن يكون باعه.

واتفقت الروايات على أن الفريقين تقاضوا في ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزلت هذه الآية في ذلك.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ } أي: ليشهد إذا حضر أحدكم الموت اثنان، يعني يجب عليهما أن يشهدا بذلك ويجب عليهما أن يشهدا لقوله تعالى { وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا } [البقرة:282].

حضور الموت: حضور علاماته لانّ تلك حالة يتخيّل فيها المرء أنّ الموت قد حضر عنده. وليس المراد حصول الغرغرة لأنّ ما طلب من الموصي أن يعمله يستدعي وقتا طويلا، وقد تقدّم عند قوله { كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً } [البقرة:180].

{ **حِينَ الْوَصِيَّةِ** } بدل من { إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ } بدلا مطابقا، فإنّ حين حضور الموت هو الحين الذي يوصي فيه النّاس غالبا.

{ **اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ** } أي: الشهادة على الوصيّة شهادة اثنين. وهذان الشاهدان هما وصيّان من الميت على صفة وصيّته وإبلاغها، إلاّ أن يجعل الموصي وصيّا غيرهما فيكونا شاهدين على ذلك.

{ **ذَوَا عَدْلٍ** } العدل والعدالة متّحدان، أي: صاحبا اتصاف بالعدالة.

{ **مِنْكُمْ** } من المؤمنين. وقال الزهري، والحسن، وعكرمة: من عشيرتكم وقرابتكم.

ويترتب على التفسير الأول أن يكون معنى مقابله وهو { مِنْ غَيْرِكُمْ } أنّه من غير أهل ملّتكم.

<u>فذهب فريق</u> ممن قالوا بالتفسير الأوّل إلى إعمال هذا وأجازوا شهادة غير المسلم في السفر في الوصية خاصة، وخصّوا ذلك بالذمي، وهو قول أحمد، والثوري، وسعيد بن المسيّب، ونسب إلى ابن عباس.

<u>وذهب فريق</u> إلى أنّ هذا منسوخ بقوله تعالى { وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ } [الطلاق:2]، وهو قول مالك، وأبي حنيفة، والشافعي، ونسب إلى زيد بن أسلم.

{ **أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ** } تفصيل للحالة التي تعرض في السفر. والتقدير: إن أنتم ضربتم في الأرض فشهادة آخرين من غيركم، فالمصير إلى شهادة شاهدين من غير المسلمين عند من يراه مقيّد بشرط السفر. بمعنى من غير أهل دينكم، وقيل من غير قبيلتكم.

الضرب في الأرض، السير فيها، والمراد به هنا السفر.

{ **فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ** } حلّت بكم، والفعل مستعمل في معنى المشارفة والمقاربة.

المصيبة: الحادثة التي تحلّ بالمرء من شرّ وضرّ.

{ **تَحْبِسُونَهُمَا** } الحبس، الإمساك، أي: المنع من الانصراف. فمنه ما هو بإكراه كحبس الجاني في بيت أو إثقافه في قيد. ومنه ما يكون <u>بمعنى الانتظار</u>، وهذا هو المراد في الآية، أي: تمسكونهما ولا تتركونهما يغادرانكم حتّى يتحمّلا الوصيّة. وليس المراد به السجن أو ما يقرب منه لقوله تعالى { وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ } [البقرة:282].

{ **مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ** } توقيت لإحضارهما وإمساكهما لأداء هذه الشهادة.

<u>تحتمل</u> الآية أنّ المراد بالصلاة صلاة من صلوات المسلمين، وبذلك فسّرها جماعة من أهل العلم.

<u>وتحتمل</u> من بعد صلاة دينهما، على تأويل { مِنْ غَيْرِكُمْ } بمعنى من غير أهل دينكم. ونُقل عن السدّي، وابن عباس. أي: تحضرونهما عقب أدائهما صلاتهما، لأنّ ذلك قريب من إقبالهما على خشية الله والوقوف لعبادته.

{ **فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ** } عطف على { تَحْبِسُونَهُمَا } فعُلم أنّ حبسهما بعد الصلاة لأجل أن يقسما بالله. والضمير عائد إلى قوله تعالى { آخَرَانِ }. فالحلف يحلفه شاهدا الوصية اللذان هما غير مسلمين لزيادة الثقة بشهادتهما لعدم الاعتداد بعدالة غير المسلم.

{ **إِنِ ارْتَبْتُمْ** } تظافرت أقوال المفسّرين على أنّ هذا شرط متصل بقوله تعالى { تَحْبِسُونَهُمَا } وما عطف عليه. أي: آخران من غيركم فإن ارتبتم فيهما تحبسونهما إلى آخره. فيقتضي هذا التفسير أنّه لو لم تحصل الريبة في صدقهما لما لزم إحضارهما من بعد الصلاة وقسمهما، فصار ذلك موكولا لخِيَرة الولي.

والوجه عندي أن يكون قوله تعالى { إِنِ ارْتَبْتُمْ } معناه أنّ الشاهدين يقولان: إن ارتبتم في شهادتنا فنحن نقسم بالله لا نشتري به ثمنا ولو كان ذا قربى ولا نكتم الشهادة، أي: يقولان ذلك لاطمئنان نفس الموصي، لأنّ العدالة مظنّة الصدق مع احتمال وجود ما ينافيها ممّا لا يطّلع عليه فأكّدت مظنّة الصدق بالحلف.

فيكون شرع هذا الكلام على كل شاهد ليستوي فيه جميع الأحوال بحيث لا يكون توجيه اليمين في بعض الأحوال حرجا على الشاهدين اللذين توجَّهت عليهما اليمين، من أنّ اليمين تعريض بالشكّ في صدقهما، فكان فرض اليمين من قبل الشرع دافعا للتحرّج بينهما وبين الوليّ، لأنّ في كون اليمين شرطا من عند الله معذرة في المطالبة بها. كما قال جمهور فقهائنا في يمين القضاء التي تتوجّه على من يثبت حقا على ميت أو غائب من أنّها لازمة قبل الحكم مطلقا ولو أسقطها الوارث الرشيد.

{ **لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً** } ذلك هو المقسم عليه. والمعنى لا نعتاض بالأمر الذي أقسمنا عليه ثمنا، أي: عوضا.

{ **وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى** } حال، أي: ولو كان العوض ذا قربى، أي: ذا قربى منا. وذلك أنّ أعظم ما يدفع المرء إلى الحيف في عرف القبائل هو الحميّة والنصرة للقريب، فذلك تصغر دونه الرشى ومنافع الذات.

{ **وَلا نَكْتُمُ** } عطف على { لانَشْتَرِي }، لأنّ المقصود من إحلافهما أن يؤدّيا الشهادة كما تلقّياها فلا يُغيّرا شيئا منها ولا يكتماها أصلا.

{ **شَهَادَةَ اللَّهِ** } إضافة الشهادة إلى اسم الجلالة تعظيم لخطرها عند الشاهد وغيره لأنّ الله لمّا أمر بأدائها كما هي وحضّ عليها، أضافها إلى اسمه حفظا لها من التغيير، فالتصريح باسمه تعالى تذكير للشاهد.

الشهادة: المراد هنا معناها المتعارف، وهو الإخبار عن أمر خاص يعرض في مثله الترافع.

{ **إِنَّا إِذاً لَمِنَ الْآثِمِينَ** } مستأنفة استئنافا بيانيا لأنّها جواب سؤال مقدّر. أي: إنّا نعلم تبعة عدم البرّ بما أقسمنا عليه أن نكون من الآثمين، أي: ولا نرضى بذلك.

{ **فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً فَآخَرَانِ** }، أي: إن تبيّن أنّهما كتما أو بدّلا وحنثا في يمينهما، بطلت شهادتهما.

عُثِر: اطُّلع وتبيَّن ذلك، وأصل فعل عثر أنه مصادفة رجل الماشي جسما ناتئا في الأرض لم يترقّبه ولم يحذر منه فيختل به اندفاع مشيه، فقد يسقط وقد يتزلزل. ومصدره العِثار والعُثور، ثم استعمل في الظفر بشيء لم يكن مترقّبا الظفر به على سبيل الاستعارة. وشاع ذلك حتّى صار كالحقيقة، فخصّوا في الاستعمال المعنى الحقيقي بأحد المصدرين وهو العِثار، وخصوا المعنى المجازي بالمصدر الآخر، وهو العُثور.

{ **اسْتَحَقَّا إِثْماً** } ثبت أنّهما ارتكبا ما يأثمان به، فقد حقّ عليهما الإثم، أي: وقع عليهما، فالسين والتاء للتأكيد. { **فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ** } فرع عن بطلان شهادتهما، فحذف ما يعبر عن بطلان شهادتهما إيجازا.

فالمعنى: فاثنان آخران يقومان مقامهما في إثبات الوصية. ومعنى يقومان مقامهما، أي: يعوضان تلك الشهادة. فإنّ المقام هو محل القيام، فمقام الشاهدين هو إثبات الوصية. أي: شخصان آخران يكونان من الجماعة من الذين استحق عليهم، وهو الذي انتفع بالشهادة واليمين الباطلة فنال من تركة الموصي ما لم يجعله له الموصي وغلب وارث الموصي بذلك. فالذين استحق عليهم هم أولياء الموصي الذين لهم ماله بوجه من وجوه الإرث فحُرموا بعضه.

{ **الْأَوْلَيَانِ** } تثنية أَوْلَى، وهو الأجدر والأحق، أي: الأجدران بقبول قولهما. أي: فشخصان آخران هما الأوليان بقبول قولهما دون الشاهدين المتهمين. فإن ذلك العثور على كذب الشاهدين يسقط شهادتهما ويمينهما.

{ **فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا** } أنّهما أولى بأن تُقبل شهادتهما من اللذين عُثر على أنّهما استحقا إثما. ومعنى { **أحقّ** } أنّها الحق، فصيغة التفضيل مسلوبة المفاضلة.

{ **وَمَا اعْتَدَيْنَا** } توكيد للأحقّيّة، لأنّ الأحقّيّة راجعة إلى نفعهما بإثبات ما كتمه الشاهدان الأجنبيان.

المعنى: وما اعتدينا على الشاهدين في اتهامهما بإخفاء بعض التركة.

{ **إِنَّا إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ** } أي: لو اعتدينا لكنّا ظالمين. والمقصود منه الإشعار بأنّهما متذكّران ما يترتّب على الاعتداء والظلم، وفي ذلك زيادة وازع.

وقد تضمن القسم على صدق خبرهما يمينا على إثبات حقّهما، فهي من اليمين التي يثبت بها الحق مع الشاهد العرفي، وهو شاهد التهمة التي عثر عليها في الشاهدين اللذين يبلّغان الوصية.

والمعنى أنّه إن اختلّت شهادة شاهدي الوصيّة انتقل إلى يمين الموصى له سواء كان الموصى له واحدا أم متعدّدا. وإنما جاءت الآية بصيغة الاثنين مراعاة للقضية التي نزلت فيها، وهي قضية تميم الداري وعدي بن بدّاء، فإن ورثة صاحب التركة كانا اثنين هما: عمرو بن العاصي والمطّلب بن أبي وداعة، وكلاهما من بني سهم، وهما مَوْليا بُديل بن أبي مريم السهمي صاحب الجام.

فإن كان صاحب الحق واحدا حلف وحده وإن كان أصحاب الحق جماعة حلفوا جميعا واستحقّوا. ولم يقل أحد أنّه إن كان صاحب الحقّ واحدا يحلف معه من ليس بمستحقّ، ولا إن كان صاحب الحق ثلاثة فأكثر أن يحلف اثنان منهم ويستحقّون كلهم. فالاقتصار على اثنين في أيمان الأوليين ناظر إلى قصّة سبب النزول، فتكون الآية على هذا خاصة بتلك القضية. ويجري ما يخالف تلك القضية على ما هو المعروف في الشريعة في الاستحقاق والتهم. وهذا القول يقتضي أنّ الآية نزلت قبل حكم الرسول صلى الله عليه وسلم في وصية بُديل بن أبي مريم. وذلك ظاهر بعض روايات الخبر، وفي بعض الروايات ما يقتضي أنّ الآية نزلت بعد أن حكم الرسول عليه الصلاة والسلام وحينئذ يتعيّن أن تكون تشريعا لأمثال تلك القضية ممّا يحدث في المستقبل، فيتعيّن المصير إلى الوجه الأول في اشتراط كون الأوليين اثنين إن أمكن.

وبقيت صورة لم تشملها الآية مثل أن لا يجد المحتضر إلا واحدا من المسلمين، أو واحدا من غير المسلمين، أو يجد اثنين أحدهما مسلم والآخر غير مسلم. وكلّ ذلك يجرى على أحكامه المعروفة في الأحكام كلّها من يمين من قام له شاهد أو يمين المنكر.

{ **ذَلِكَ أَدْنَى** } بمعنى أقرب، والقرب هنا مجاز في قرب العلم وهو الظنّ، أي: أقوى إلى الظنّ بالصدق.

{ **أَنْ يَأْتُوا** } عائد إلى (الشهداء)، وهم: الآخران من غيركم، والآخران اللّذان يقومان مقامهما، أي: أن يأتي كلّ واحد منهم.

<u>المعنى</u>: أنّ ما شرع الله من التوثيق والضبط، ومن ردّ الشهادة عند العثور على الريبة أرجى إلى الظنّ بحصول الصدق لكثرة ما ضُبط على كلا الفريقين ممّا ينفي الغفلة والتساهل، بله الزور والجور، مع توقّي سوء السمعة.

{ **أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ** } أن يؤدّوا الشهادة.

{ **عَلَى وَجْهِهَا** } أي: على سنّتها وما هو مُقوّم تمامها وكمالها، فاسم الوجه في مثل هذا مستعار لأحسن ما في الشيء وأكمله تشبيها بوجه الإنسان. وشاع هذا المعنى في كلامهم، قالوا: جاء بالشيء الفلاني على وجهه، أي: من كمال أحواله.

وسنّة الشهادة وكمالها هو صدقها والتثبّت فيها والتنبّه لما يُغفل عنه من مختلف الأحوال التي قد يُستخفّ بها في الحال، وتكون للغفلة عنها عواقب ذهاب الحقوق، أي: ذلك يعلّمهم وجه التثبّت في التحمّل والأداء وتوخّي الصدق، وهو يدخل في قاعدة لزوم صفة اليقظة للشاهد.

<u>وفي الآية إيماء إلى حكمة مشروعيّة الإعذار في الشهادة بالطعن أو المعارضة</u>، فإنّ في ذلك ما يحمل شهود الشهادة على التثبّت في مطابقة شهادتهم للواقع، لأنّ المعارضة والإعذار يكشفان عن الحقّ.

{ **أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ** } عطف على قوله تعالى { أَنْ يَأْتُوا }، وأفادت الجملة المعطوفة وازعا هو توقّع ظهور كذبهم.

{ **أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ** } أن ترجع أيمان إلى ورثة الموصي بعد أيمان الشهيدين. فالردّ هنا مجاز في الانتقال، مثل قولهم: قلب عليه اليمين. فيعيَّروا به بين النّاس.

{ **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا** } ذيّل هذا الحكم الجليل بموعظة جميع الأمّة. وأمر بالسمع المستعمل في الطاعة مجازا.

{ **وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** } تحريض على التقوى والطاعة لله فيما أمر ونهى، وتحذير من مخالفة ذلك. لأنّ في اتباع أمر الله هدى وفي الإعراض فسقا.

هذا تفسير الآيات توخيت فيه أوضح المعاني وأوفقها بالشريعة، وأطلت في بيان ذلك لإزالة ما غمض من المعاني تحت إيجازها البليغ. وقد نقل الطيبي عن الزجّاج أنّ هذه الآية من أشكل ما في القرآن من الإعراب. وقال الفخر: " روى الواحدي عن عمر: هذه الآية أعضل ما في هذه السورة من الأحكام ". وقال ابن عطية عن مكي بن أبي طالب: " هذه الآيات عند أهل المعاني من أشكل ما في القرآن إعرابا ومعنى وحكما ".

ولقصد استيفاء معاني الآيات متتابعة تجنّبت التعرّض لما تفيده من الأحكام واختلاف علماء الإسلام فيها في أثناء تفسيرها. وأخرت ذلك إلى هذا الموضع، حين انتهيت من تفسير معانيها.

وقد اشتملت على أصلين:

<u>الأصل الأول</u>: الأمر بالإشهاد على الوصيّة، من قوله تعالى { شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ - إلى قوله - وَلا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ }.

<u>الأصل الثاني</u>: فصل القضاء في قضية تميم الداري وعدي بن بدّاء مع أولياء بُديل بن أبي مريم، من قوله تعالى { فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً - إلى قوله - بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ }. ويحصل من ذلك معرفة وجه القضاء في أمثال تلك القضية ممّا يُتّهم فيه الشهود.

{ **شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ** ...} بيان لكيفية الشهادة، وهو يتضمّن الأمر بها، ولكن عدل عن ذكر الأمر لأنّ النّاس معتادون باستحفاظ وصاياهم عند محل ثقتهم.

وأهم الأحكام التي تؤخذ من الآية ثلاثة :

الحكم الأول: <u>استشهاد غير المسلمين في حقوق المسلمين</u>، على رأي من جعله المراد من قوله تعالى { أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ }. فقد دل عليه قوله تعالى { أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ }. وقد بيّنّا أن الأظهر أن الغيريّة غيرية في الدين. وقد اختلف في قبول شهادة غير المسلمين في القضايا الجارية بين المسلمين؛ فذهب الجمهور إلى أن حكم هذه الآية منسوخ بقوله تعالى { وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ } [الطلاق:2] وقوله تعالى { مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ } [البقرة :282] وهذا قول مالك، وأبي حنيفة، والشافعي. وذهب جماعة إلى أنّ الآية محكمة. <u>فمنهم من جعلها خاصة</u> بالشهادة على الوصيّة في السفر إذا لم يكن مع

الموصي مسلمون. وهو قول أبي موسى الأشعري، وابن عباس، وهو قول سعيد بن المسيب، وابن جبير، وشريح، وابن سيرين، ومجاهد، وقتادة، والسدي، وسفيان الثوري، وجماعة، وهم يقولون: لا منسوخ في سورة المائدة، تبعا لابن عباس. ومنهم من تأوّل قوله تعالى { مِنْ غَيْرِكُمْ } على أنّه من غير قبيلتكم، وهو قول الزهري، والحسن، وعكرمة.

وقال أحمد ابن حنبل بقياس بقية العقود المشهود فيها في السفر على شهادة الوصية، فقال بأن شهادة أهل الذمة على المسلمين في السفر ماضية، وزاد فجعلها بدون يمين.

والأظهر عندي أنّ حكم الآية غير منسوخ، وأنّ قبول شهادة غير المسلمين خاص بالوصية في السفر حيث لا يوجد مسلمون للضرورة، وأن وجه اختصاص الوصيّة بهذا الحكم أنّها تعرض في حالة لا يستعدّ لها المرء من قبل فكان معذورا في إشهاد غير المسلمين في تلك الحالة خشية الفوات، بخلاف غيرها من العقود فيمكن الاستعداد لها من قبل والتوثّق لها بغير ذلك، فكان هذا ا لحكم رخصة.

الحكم الثاني: تحليف الشاهد على أنّه صادق في شهادته. ولم يرد في المأثور إلّا في هذا الموضع. فأمّا الذين قالوا بنسخ قبول شهادة الكافر فتحليف شاهدي الوصية الكافرين منسوخ تبعا، وهو قول الجمهور. وأمّا الذين جعلوه محكما فقد اختلفوا، فمنهم من خص اليمين بشاهدي الوصية من غير المسلمين، ومنهم من اعتبر بعلّة مشروعية تحليف الشاهدين من غير المسلمين، فقاس عليه تحليف الشاهدين إذا تطرقت إليهما الريبة ولو كانا مسلمين. والمسألة مبسوطة في كتب الفقه.

الحكم الثالث: تغليظ اليمين بالزمان { مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ }. فقد أخذ من الآية أنّ اليمين تقع بعد الصلاة، فكان ذلك أصلا في تغليظ اليمين في نظر بعض أهل العلم، ويجيء في تغليظ اليمين أن يكون بالزمان والمكان واللفظ. وفي جميعها اختلاف بين العلماء. وليس في الآية ما يتمسّك به بواحد من هذه الثلاثة (الزمان / المكان / اللفظ) إلّا قوله تعالى { مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ }. وقد بيّنتُ أنّ الأظهر أنّه خاص بالوصية. وأمّا التغليظ بالمكان وباللفظ فتفصيله في كتب الخلاف.

{ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ [109] إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرائيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ [110] }.

{ **يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ** } عاد الكلام الآن إلى أحوال الذين اتبعوا عيسى عليه السلام، فبدّل كثير منهم تبديلا بلغ بهم إلى الكفر ومضاهاة المشركين، للتذكير بهول عظيم من أهوال يوم القيامة تكون فيه شهادة الرّسل على الأمم وبراءتهم ممّا أحدثه أممهم بعدهم في الدين ممّا لم يأذن به الله، والتخلّص من ذلك إلى شهادة عيسى على النصارى بأنّه لم يأمرهم بتأليهه وعبادته. فهذا عود إلى بيان تمام نهوض الحجّة على النصارى في مشهد يوم القيامة. ولقد جاء هذا مناسبا للتذكير العام بقوله تعالى { وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } [108].

ولأنّه لمّا تم الكلام على الاستشهاد على وصايا المخلوقين ناسب الانتقال إلى شهادة الرسل على وصايا الخالق تعالى، فإنّ الأديان وصايا الله إلى خلقه. قال تعالى { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى } [الشورى:13].

وقد سمّاهم الله تعالى شهداء في قوله تعالى { فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً } [النساء:41].

{ **يَوْمَ يَجْمَعُ** } ظرف، والأظهر أنّه معمول لعامل محذوف يقدّر بنحو: اذكر يوم يجمع الله الرسل. وقد حُذف هذا العامل لتذهب نفس السامع كل مذهب ممكن من التهويل. تقديره: يوم يجمع الله الرّسل يكون هول عظيم لا يبلغه طول التعبير فينبغي طيّه.

{ **فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ** } ظاهر حقيقة الإجابة أنّ المعنى: ماذا أجابكم الأقوام الذين أرسلتم إليهم، أي: بماذا تلقّوا دعواتكم.

{ **لا عِلْمَ لَنَا** } يُحمل على معنى: لا علم لنا بما يضمرون حين أجابوا فأنت أعلم به منّا. أو هو تأدّب مع الله تعالى، لأنّ ما عدا ذلك مما أجابت به الأمم يعلمه رسلهم. فلا بدّ من تأويل نفي الرسل العلم عن أنفسهم وتفويضهم إلى علم الله تعالى بهذا المعنى. أي: أنّ علمك سبحانك أعلى من كلّ علم وشهادتك أعدل من كل شهادة، فكان جواب الرّسل متضمّنا أمورا:

أحدها: الشهادة على الكافرين من أممهم بأنّ ما عاملهم الله به هو الحقّ.

الثاني: تسفيه أولئك الكافرين في إنكارهم الذي لا يجديهم.

الثالث: تذكير أممهم بما عاملوا به رسلهم لأنّ في قولهم { إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ } تعميما للتذكير بكلّ ما صدر من أممهم من تكذيب وأذى وعناد.

وعن ابن الأنباري في تأويل قول الرسل { لا عِلْمَ لَنَا }: بأنّهم نفوا أن يكونوا يعلمون ما كان من آخر الأمم بعد موت رسلهم من دوام على إقامة الشرائع أو التفريط فيها وتبديلها، ويعضد هذا التأويل ما جاء بعد هذا الكلام قول عيسى عليه السلام { وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ }، فإن المحاورة مع عيسى بعض من المحاورة مع بقية الرسل. وهو تأويل حسن.

{ **قَالُوا** } عبّر في جواب الرسل بالماضي على تحقيق أن سيقع، حتّى صار المستقبل من قوّة التحقّق بمنزلة الماضي في التحقّق.

{ **إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ** } ظرف، بدل اشتمال من { يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ }، فإنّ يوم الجمع مشتمل على زمن هذا الخطاب لعيسى. والمقصود من ذكر ما يقال لعيسى يومئذ هو تقريع اليهود والنصارى الذين ضلّوا في شأن عيسى بين طرفي إفراط بغض وإفراط حب.

{ **اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ** } إلى قوله تعالى { لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ } [115] استئناس لعيسى لئلاّ يفزعه السؤال الوارد بعده { أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ } [116]، وهذا تقريع لليهود، وما بعدها تقريع للنصارى.

{ **اذْكُرْ** } المراد استحضار الأمر في الذهن. والأمر للامتنان، إذ ليس عيسى بناس لنعم الله عليه وعلى والدته.

{ **وَعَلَى وَالِدَتِكَ** } وجه ذكر والدته هنا الزيادة من تبكيت اليهود وكمدهم لأنّهم تنقّصوها بأقذع النعوت.

{ **إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ** } الظرف متعلّق بـ { نِعْمَتِي }، أي: النعمة الحاصلة في ذلك الوقت، وهو وقت التأييد بروح القدس. وروح القدس هنا جبريل على الأظهر.

والتأييد وروح القدس تقدّما عند قوله تعالى { وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ } [البقرة:87]

{ **تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً** } ذلك أنّ الله ألقى الكلام من الملك على لسان عيسى وهو في المهد، وفي ذلك تأييد له لإثبات نزاهة تكوّنه، وفي ذلك نعمة عليه وعلى والدته إذ ثبتت براءتها ممّا اتُّهمت به.

كهلا: أريد به الدعوة إلى الدين، فهو من التأييد بروح القدس، لأنّه الذي يُلقي إلى عيسى ما يأمره الله بتبليغه.

{ **وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ** } تقدّم القول في نظيره في [آل عمران:49].

{ **وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ** - إلى قوله - **وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي** } تقدّم القول في نظيره هنالك.

إلاّ أنّه قال هنا { **فَتَنْفُخُ فِيهَا** } وقال في [آل عمران:49] { فَأَنْفُخُ فِيهِ }. فعن مكي بن أبي طالب أن الضمير في سورة آل عمران عاد إلى الطير، والضمير في هذه السورة عاد إلى الهيئة.

وقال هنا { **وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى** } ولم يقل { وَأُحْيِي الْمَوْتَى } ، كما قال في سورة آل عمران، أي: تخرجهم من قبورهم أحياء، فأطلق الإخراج وأريد به لازمه وهو الإحياء، لأنّ الميّت وضع في القبر لأجل كونه ميّتا فكان إخراجه من القبر ملزوما لانعكاس السبب الذي لأجله وضع في القبر. وقد سمّى الله الإحياء خروجا في قوله تعالى { وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ } [ق:11].

{ **وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرائيلَ عَنْكَ** } وهذا من أعظم النعم، وهي نعمة العصمة من الإهانة، فقد كفّ الله عنه بني إسرائيل سنين، وهو يدعو إلى الدين بين ظهرانيهم مع حقدهم وقلّة أنصاره، فصرفهم الله عن ضرّه حتى أدى الرسالة، ثمّ لمّا استفاقوا وأجمعوا أمرهم على قتله عصمه الله منهم فرفعه إليه ولم يظفروا به، وماتت نفوسهم بغيظها. وقد دلّ على جميع هذه المدة الظرف في قوله تعالى { **إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ** }، فإن تلك المدّة كلّها مدة ظهور معجزاته بينهم.

{ **فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ** } تخلّص من تنهية تقريع مكذّبيه إلى كرامة المصدّقين به.

لأنّ ذلك الادعاء قصدوا به التوسّل إلى قتله، لأنّ حكم الساحر في شريعة اليهود القتل، إذ السحر عندهم كفر.

{ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ } [111].

يجوز أن يكون عطفا على جملة { إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ }، فيكون من جملة ما يقوله الله لعيسى يوم يجمع الرسل. فإنّ إيمان الحواريّين نعمة على عيسى إذ لو لم يؤمنوا به لما وجد من يتبع دينه فلا يحصل له الثواب المتجدّد بتجدّد اهتداء الأجيال بدينه إلى أن جاء نسخه بالإسلام.

{ **أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ** } إلهامهم عند سماع دعوة عيسى للمبادرة بتصديقه، فليس المراد بالوحي الذي به دعاهم عيسى.

{ **قَالُوا آمَنَّا** } هو قول نفسي حصل حين ألقى الله في قلوبهم تصديق عيسى. فكأنّه خاطبهم فأجابوه.

{ **وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ** } الخطاب لله تعالى، وإنّما قالوا ذلك بكلام نفسي من لغتهم، وسمّي إيمانهم إسلاما لأنّه كان تصديقا راسخا قد ارتفعوا به عن مرتبة إيمان عامة من آمن بالمسيح غيرهم، فكانوا مماثلين لإيمان عيسى، وهو إيمان الأنبياء والصدّيقين.

{ **إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [112] قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ [113]** }.

{ **إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ** } يجوز أن تكون من تمام الكلام الذي يكلّم الله به عيسى يوم يجمع الرسل، فيكون {إذْ} ظرفا متعلّقا بفعل { قَالُوا آمَنَّا } [111]، فيكون ممّا يُذكّر الله به عيسى يوم يجمع الرسل، فحُكي على حسب حصوله في الدنيا. ويجوز أن تكون الجملة ابتدائية، فيكون الكلام تخلّصا إلى ذكر قصة المائدة .

{ **يَا عِيسَى** } ابتدأوا خطابهم عيسى بندائه باسمه للدلالة على أنّ ما سيقولونه أمر فيه اقتراح وكلفة له.

{ **هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ** } جرى على طريقة عربيّة في العرض والدعاء، على معنى تطلّب العذر له إن لم يجبك إلى مطلوبك، وأنّ السائل لا يحبّ أن يكلّف المسؤول ما يشقّ عليه. فليس قول الحواريين المحكي بهذا اللفظ في القرآن إلّا لفظا من لغتهم يدلّ على التلطّف والتأدّب في السؤال، كما هو مناسب أهل الإيمان الخالص. وليس شكّا في قدرة الله تعالى ولكنّهم سألوا آية لزيادة اطمئنان قلوبهم بالإيمان بأن ينتقلوا من الدليل العقلي إلى الدليل المحسوس.

{ **مَائِدَةً** } هو الخِوان الموضوع عليه طعام، والخوان (بكسر الخاء وضمها) تخت من خشب له قوائم مجعول ليوضع عليه الطعام للأكل. وإنّما سأل الحواريّون كون المائدة منزّلة من السماء لأنّهم رغبوا أن تكون خارقة للعادة فلا تكون ممّا صنع في العالم الأرضي فتعيّن أن تكون من عالم علوي.

{ **اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** } أمر بملازمة التقوى وعدم تزلزل الإيمان، ولذلك جاء بـ (إنّ) المفيدة للشكّ في الإيمان ليعلم الداعي إلى ذلك السؤال خشية أن يكون نشأ لهم عن شكّ في صدق رسولهم، فسألوا معجزة يعلمون بها صدقه بعد أن آمنوا به. فالمراد بالتقوى في كلام عيسى ما يشمل الإيمان وفروعه. وقيل: نهاهم عن طلب المعجزات. أي: إن كنتم مؤمنين فقد حصل إيمانكم فما الحاجة إلى المعجزة.

فأجابوه عن ذلك بأنّهم ما أرادوا ذلك لضعف في إيمانهم إنّما أرادوا التيمّن بأكل طعام نزل من عند الله إكراما لهم، ولذلك زادوا { **مِنْهَا** } إذ ليس غرضهم من الأكل دفع الجوع بل الغرض التشرّف بأكل من شيء نازل من السماء.

{ **وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا** } أي: بمشاهدة هذه المعجزة فإنّ الدليل الحسي أظهر في النفس.

{ **وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا** } أي: نعلم علم ضرورة لا علم استدلال، فيحصل لهم العلمان.

{ **وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ** } أي: من الشاهدين على رؤية هذه المعجزة فنبلّغها من لم يشهدها.

فهذه أربع فوائد لسؤال إنزال المائدة، كلها درجات من الفضل الذي يرغب فيه أمثالهم.

{ **قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ [114] قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ [115]** }.

{ **اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً** } اشتمل على نداءين، كُرِّر النداء مبالغة في الضراعة. وليس قوله { رَبَّنَا } بدلا ولا بيانا من اسم الجلالة. وجمع عيسى بين النداء باسم الذات الجامع لصفات الجلال وبين النداء بوصف الربوبيّة له وللحواريين استعطافا لله ليجيب دعاءهم.

{ **تَكُونُ لَنَا عِيداً** } بأن يجعلوا اليوم الموافق يوم نزولها من كل سنة عيدا.

{ **لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا** } أي: لأوّل أمّة النصرانية وآخرها.

والعيد اسم ليوم يعود كل سنة، ذكرى لنعمة أو حادثة وقعت فيه للشكر أو للاعتبار.

<u>وهذا العيد الذي ذكر في هذه الآية غير معروف</u> عند النصارى ولكنّهم ذكروا أنّ عيسى عليه السلام أكل مع الحواريين على مائدة ليلة عيد الفصح، وهي الليلة التي يعتقدون أنّه صلب من صباحها. فلعلّ معنى كونها عيدا أنّها صيّرت يوم الفصح عيدا في المسيحية كما كان عيدا في اليهودية، فيكون ذلك قد صار عيدا باختلاف الاعتبار وإن كان اليوم واحدا لأنّ المسيحيين وفّقوا لأعياد اليهود مناسبات أخرى لائقة بالمسيحية إعفاء على آثار اليهودية.

{ **قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا** } جواب دعاء عيسى. وأكد الخبر بـ (إنّ) تحقيقا للوعد.

{ **فَمَنْ يَكْفُرْ** } تحذير لهم من الوقوع في الكفر بعد الإيمان، إعلاما بأهميّة الإيمان عند الله تعالى، فجعل جزاء إجابته إيّاهم أن لا يعودوا إلى الكفر، فإن عادوا عُذّبوا عذابا أشد من عذاب سائر الكفّار لأنّهم تعاضد لديهم دليل العقل والحس فلم يبق لهم عذر.

{ **لا أُعَذِّبُهُ** } أي: لا أعذب أحدا من العالمين ذلك العذاب، أي: مثل ذلك العذاب.

وقد وقفت قصة سؤال المائدة عند هذا المقدار وطوي خبر ماذا حدث بعد نزولها لأنّه لا أثر له في المراد من القصة، وهو العبرة بحال إيمان الحواريّين وتعلّقهم بما يزيدهم يقينا، وبقربهم إلى ربّهم وتحصيل مرتبة الشهادة على من يأتي بعدهم، وعلى ضراعة المسيح الدالة على عبوديّته، وعلى كرامته عند ربّه إذ أجاب دعوته، وعلى سعة القدرة. وأمّا تفصيل ما حوته المائدة وما دار بينهم عند نزولها فلا عبرة فيه. وقد أكثر فيه المفسرون بأخبار واهية الأسانيد .

<u>واختلف المفسرون في أن المائدة هل نزلت من السماء أو لم تنزل</u>؟ فعن مجاهد والحسن أنّهم لمّا سمعوا قوله تعالى { فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ } خافوا فاستعفوا من طلب نزولها فلم تنزل. وقال الجمهور نزلت، وهو الظاهر لأنّ قوله تعالى { إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ } وعد لا يخلف، وليس مشروطا بشرط ولكنّه معقّب بتحذير من الكفر، وذلك حاصل أثره عند الحواريين وليسوا ممن يخشى العود إلى الكفر سواء نزلت

المائدة أم لم تنزل.

وأمّا النصارى فلا يعرفون خبر نزول المائدة من السماء، وكم من خبر أهملوه في الأناجيل.

{ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ [116] مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [117] إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [118] }.

هذا ممّا يقوله الله يوم يجمع الرسل وليس ممّا قاله في الدنيا، لأنّ عبادة عيسى حدثت بعد رفعه، ولقوله تعالى { هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ }. فقد أجمع المفسّرون على أنّ المراد به يوم القيامة.

وهذا مبدأ تقريع النصارى بعد أن فرغ من تقريع اليهود، وتقريع النصارى هو المقصود من هذه الآيات.

{ **أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ** } الاستفهام هنا كالاستفهام في قوله تعالى للرسل { مَاذَا أُجِبْتُمْ } [109]، والله يعلم أنّ عيسى لم يقل ذلك ولكن أريد إعلان كذب من كفر من النصارى.

المعنى: أنّه إن لم يكن هو قائل ذلك فلا عذر لمن قاله لأنّهم زعموا أنّهم يتّبعون أقوال عيسى وتعاليمه.

والمراد بالنّاس أهل دينه.

{ **مِنْ دُونِ اللَّهِ** } متعلّق بـ { اتَّخِذُونِي }، وحرف { مِنْ } صلة وتوكيد. بمعنى (سوى).

وذُكر هذا المتعلّق إلزاما لهم بشناعة إثبات إلهية لغير الله، لأنّ النصارى لمّا ادعوا حلول الله في ذات عيسى توزّعت الإلهية وبطلت الوحدانية.

{ **سُبْحَانَكَ** } تنزيه لله تعالى عن مضمون تلك المقالة. وكانت المبادرة بتنزيه الله تعالى أهمّ من تبرئته نفسه، على أنّها مقدّمة للتبرّي، لأنّه إذا كان ينزّه الله عن ذلك فلا جرم أنّه لا يأمر به أحدا. وتقدّم الكلام على نظيره في قوله تعالى { قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا } [البقرة:32].

{ **مَا يَكُونُ لِي** } مبالغة في التبرئة من ذلك، أي: ما يوجد حقّ أن أقول. وذلك أبلغ من: لم أقله، لأنّه نفى أن يوجد استحقاق ذلك القول.

{ **إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ** } ثمّ ارتقى في التبرُّؤ، فالجملة مستأنفة لأنّها دليل وحجّة لمضمون الجملة التي قبلها، فكانت كالبيان فلذلك فصلت. فاستدلّ على انتفاء أن يقوله بأنّ الله يعلم أنّه لم يقله. فلذلك أحال على علم الله تعالى.

{ **تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي** } بيان لجملة الشرط { إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ } فلذلك فصلت.

النفس: تطلق على العقل وعلى ما به الإنسان، وتطلق على الذات. والمعنى هنا، تعلم ما أعتقده، أي: تعلم ما أعلمه، لأنّ النفس مقر العلوم في المتعارف.

{ **وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ** } مبالغة في التنزيه وليس له أثر في التبرُّؤ والتنصّل، فلذلك تكون الواو اعتراضية.

وإضافة النّفس إلى اسم الجلالة هنا بمعنى <u>العلم الذي لم يطلع عليه غيره</u>، وهي هنا مشاكلة.

{ **مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ** } بعد أن تبرّأ من أن يكون أمر أمّته بما اختلقوه انتقل فبيّن أنّه أمرهم بعكس ذلك حسبما أمره الله تعالى. وهو ارتقاء في الجواب. <u>المعنى</u>: ما تجاوزت فيما قلت حدّ التبليغ لما أمرتني به.

{ **أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ** } تفسير لـ { أَمَرْتَنِي }.

{ **وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ** } ثم تبرّأ من تبعتهم، أي: كنت مشاهدا لهم ورقيبا يمنعهم من أن يقولوا مثل هذه المقالة الشنعاء.

{ **مَا دُمْتُ فِيهِمْ** } أي: بينهم.

{ **فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ** } أي: فلما قضيت بوفاتي. وقد تقدّم ذلك عند قوله تعالى { إِنِّي مُتَوَفِّيكَ } [آل عمران:55].

{ **وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** } تذييل، والواو اعتراضية .

{ **إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } فوّض أمرهم إلى الله فهو أعلم بما يجازيهم به، لأنّ المقام مقام إمساك عن إبداء رغبة لشدّة هول ذلك اليوم، وغاية ما عرَّض به عيسى أنّه جوَّز المغفرة لهم رحمة منه بهم.

{ **الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } ذكر العزيز كناية عن كونه يغفر عن مقدرة، وذكر الحكيم لمناسبته للتفويض، أي: المحكم للأمور العالم بما يليق بهم.

{ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [119].

جواب عن قول عيسى، فلذلك فصلت الجملة على طريقة الحوار. والإشارة إلى يوم القيامة وهو حاضر حين تجري هذه المقاولة.

{ **يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ** } مضاف إليها { يَوْمُ }، أي: هذا يوم نفع الصدق.

وعموم الصادقين يشمل الصدق الصادر في ذلك اليوم والصادر في الدنيا، فنفع كليهما يظهر يومئذ، فأمّا نفع الصادر في الدنيا فهو حصول ثوابه، وأمّا نفع الصادر في الآخرة كصدق المسيح فيما قاله فهو برضى الله عن الصادق أو تجنّب غضبه على الذي يكذّبه. فلا حيرة في معنى الآية.

{ **الصَّادِقِينَ** } الذين كان الصدق شعارهم لم يعدلوا عنه. ومن أوّل مراتب الصدق صدق الاعتقاد بأن لا يعتقدوا ما هو مخالف لما في نفس الأمر ممّا قام عليه الدليل العقلي أو الشرعي. قال الله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ } [التوبة:119].

{ **لَهُمْ جَنَّاتٌ** } مبيّنة لجملة { يَنْفَعُ } باعتبار أنّها أكمل أحوال نفع الصدق.

{ **تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ** } صفة لـ { جَنَّاتٌ }.

{ **خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ** } حال.

{ **وَرَضُوا عَنْهُ** } المسرّة الكاملة بما جازاهم به من الجنّة ورضوانه. وأصل الرضا أنه ضد الغضب، فهو المحبة وأثرها من الإكرام والإحسان. فرضى الله مستعمل في إكرامه وإحسانه مثل محبته، ورضى الخلق عن الله هو محبته وحصول ما أملوه منه بحيث لا يبقى في نفوسهم متطلّع.

{ **ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** } اسم الإشارة لتعظيم المشار إليه، وهو الجنّات والرضوان.

{ **لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } [120]

تذييل مؤذن بانتهاء الكلام، لأنّ هذه الجملة جمعت عبودية كلّ الموجودات لله تعالى، فناسبت ما تقدّم من الرد على النصارى، وتضمّنت أنّ جميعها في تصرفه تعالى. وفيها معنى التفويض لله تعالى في كلّ ما ينزل، فآذنت بانتهاء نزول القرآن على القول بأنّ سورة المائدة أخر ما نزل، وباقتراب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم لما في الآية من معنى التسليم لله وأنّه الفعّال لما يريد.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأنعام

ليس لهذه السورة إلّا هذا الاسم من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وورد عن عمر بن الخطاب، وابن عباس، وابن مسعود، وأنس ابن مالك، وجابر بن عبد الله، وأسماء بنت يزيد بن السَّكن، تسميتها في كلامهم (**سورة الأنعام**)، وكذلك في المصاحف وكتب التفسير والسنّة.

وسمّيت سورة الأنعام لما تكرّر فيها من ذكر لفظ الأنعام ست مرّات.

وهي مكيّة بالاتفاق، فعن ابن عباس: أنّها نزلت بمكّة ليلا جملة واحدة، كما رواه عنه عطاء، وعكرمة، والعوفي. واستثنى البعض آيات قالوا إنّها مدنيّة، والأظهر القول الأوّل، وهو الذي رواه أبو عبيد، والبيهقي، وابن مردويه، والطبراني، عن ابن عباس؛ وأبو الشيخ عن أبَيّ بن كعب. وعن ابن عباس أنّها نزلت بمكة جملة واحدة، ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتّاب فكتبوها من ليلتهم.

وقالوا لم تنزل من السور الطوال سورة جملة واحدة غيرها.

ولعلّ حكمة إنزالها جملة واحدة قطع تعلّل المشركين في قولهم { لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً } [الفرقان:32]، توهّما منهم أنّ تنجيم نزوله يناكد كونه كتابا، فأنزل الله سورة الأنعام. وهي في مقدار كتاب من كتبهم التي يعرفونها كالإنجيل والزبور، ليعلموا أنّ الله قادر على ذلك، إلّا أنّ حكمة تنجيم النزول أولى بالمراعاة. وأيضا ليحصل الإعجاز بمختلف أساليب الكلام من قصر وطول وتوسّط، فإنّ طول الكلام قد يقتضيه المقام.

قال فخر الدين: " قال الأصوليون: السبب في إنزالها دفعة واحدة أنّها مشتملة على دلائل التوحيد والعدل والنبوّة والمعاد وإبطال مذاهب المعطّلين والملحدين، فإنزال ما يدلّ على الأحكام قد تكون المصلحة أن ينزله الله على قدر حاجاتهم وبحسب الحوادث، وأمّا ما يدلّ على علم الأصول فقد أنزله الله جملة واحدة".

وعلى القول الأصحّ أنّها مكّيّة فقد **عُدَّت هذه السورة الخامسة والخمسين في عدّ نزول السور**. نزلت بعد سورة الحجر وقبل سورة الصافات.

وعدد آياتها مائة وسبع وستون في العدد المدني والمكّي، ومائة وخمس وستون في العدد الكوفي، ومائة وأربع وستون في الشامي والبصري.

أغراض السورة

*/ ابتدأت بإشعار النّاس بأنّ حقّ الحمد ليس إلّا لله لأنّه مبدع العوالم، فعُلم أنّه المتفرّد بالإلهية.

*/ إبطال تأثير الشركاء من الأصنام والجنّ بإثبات أنّه المتفرّد بخلق العالم وخلق الإنسان ونظام حياته وموته بحكمته تعالى وعلمه، ولا تملك آلهتهم تصرفا ولا علما. وتنزيه الله عن الولد والصاحبة.

قال أبو إسحاق الإسفرائيني: " في سورة الأنعام كل قواعد التوحيد ".

*/ موعظة المعرضين عن آيات القرآن والمكذّبين بالدين الحقّ، وتهديدهم بأن يحلّ بهم ما حل بالقرون المكذبين من قبلهم والكافرين بنعم الله تعالى، وأنّهم ما يضرون بالإنكار إلّا أنفسهم. ووعيدهم بما سيلقون عند نزع أرواحهم، ثمّ عند البعث.

*/ تسفيه المشركين فيما اقترحوه على النبيّ صلى الله عليه وسلم من طلب إظهار الخوارق تهكّما.

*/ إبطال اعتقادهم أنّ الله لقّنهم على عقيدة الإشراك قصدا منهم لإفحام الرّسول صلى الله عليه وسلم، وبيان حقيقة مشيئة الله. وإثبات صدق القرآن بأنّ أهل الكتاب يعرفون أنّه الحقّ.

*/ الإنحاء على المشركين تكذيبهم بالبعث، وتحقيق أنّه واقع، وأنّهم يشهدون بعده العذاب، وتتبرّأ منهم آلهتهم التي عبدوها، وسيندمون على ذلك، كما أنّها لا تغني عنهم شيئا في الحياة الدنيا، فإنّهم لا يدعون إلّا الله عند النوائب.

*/ تثبيت النبيّ صلى الله عليه وسلم وأنّه لا يؤاخذ بإعراض قومه، وأمره بالإعراض عنهم.

*/ بيان حكمة إرسال الله الرسل، وأنّها الإنذار والتبشير وليست وظيفة الرسل إخبار النّاس بما يتطلّبون علمه من المغيَّبات.

*/ أنّ تفاضل النّاس بالتقوى والانتساب إلى دين الله. وإبطال ما شرعه أهل الشرك من شرائع الضلال.

*/ بيان أنّ التقوى الحقّ ليست مجرّد حرمان النفس من الطيّبات بل هي حرمان النفس من الشهوات التي تحول بينها وبين الكمال والتزكية.

*/ ضرب المثل للنبيّ مع قومه بمثل إبراهيم مع أبيه وقومه، وكان الأنبياء والرسل على ذلك المثل من تقدّم منهم ومن تأخر.

*/ المنّة على الأمّة بما أنزل الله من القرآن هدى لهم كما أنزل الكتاب على موسى، وبأن جعلها الله خاتمة الأمم الصالحة.

*/ بيان فضيلة القرآن ودين الإسلام وما منح الله لأهله من مضاعفة الحسنات.

*/ تخللت ذلك قوارع للمشركين، وتنويه بالمؤمنين، وامتنان بنعم اشتملت عليها مخلوقات الله، وذكر مفاتح الغيب.

وهي أجمع سور القرآن لأحوال العرب في الجاهلية، وأشدّها مقارعة جدال لهم واحتجاج على سفاهة

أحوالهم. وفي صحيح البخاري أن ابن عباس قال: " إذا سرّك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة من سورة الأنعام ".

{ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ } [1].

{ الْحَمْدُ لِلَّهِ } تفيد استحقاق الله تعالى الحمد وحده دون غيره لأنّها تدلّ على الحصر. وقد تقدّم بيان ذلك مستوفى في أوّل سورة الفاتحة.

ثمّ إن الجملة هنا خبر لفظا ومعنى، إذ ليس هنا ما يصرف إلى قصد إنشاء الحمد بخلاف ما في سورة الفاتحة. فالمعنى هنا أنّ الحمد كلّه لا يستحقه إلّا الله، وهذا قصر إضافي للردّ على المشركين الذين حمدوا الأصنام على ما تخيّلوه من إسدائها إليهم نعما ونصرا وتفريج كربات. ويجوز أن يكون قصرا حقيقيا على معنى الكمال، وأن حمد غيره من المنعمين تسامح لأنّه في الحقيقة واسطة صورية لجريان نعمة الله على يديه.

{ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ } جمع السماوات، لأنّها عوالم كثيرة، إذ كل كوكب منها عالم مستقل عن غيره، وأفرد الأرض لأنّها عالم واحد، ولذلك لم يجئ لفظ الأرض في القرآن جمعا.

{ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ } أشار في الكشّاف أنّ (جعل) إذا تعدى إلى مفعول واحد فهو بمعنى أحدث وأنشأ فيقارب مرادفة معنى (خلق) . والفرق بينه وبين (خلق)، أنّ في الخلق ملاحظة معنى التقدير، وفي الجعل ملاحظة معنى الانتساب، فالتفرقة معدود من فصاحة الكلمات. وإنّ لكلّ كلمة مع صاحبتها مقاما، وهو ما يُسمّى في عرف الأدباء برشاقة الكلمة. ففعل (خلق) أليق بإيجاد الذوات، وفعل (جعل) أليق بإيجاد أعراض الذوات وأحوالها ونظامها.

والاقتصار في ذكر المخلوقات على هذه الأربعة تعريض بإبطال عقائد كفّار العرب فإنّهم بين مشركين وصابئة ومجوس ونصارى، وكلّهم قد أثبتوا آلهة غير الله؛ فالمشركون أثبتوا آلهة من الأرض، والصابئة أثبتوا آلهة من الكواكب السماوية، والنصارى أثبتوا إلهية عيسى أو عيسى ومريم، وهما من الموجودات الأرضية، والمجوس وهم المانوية ألّهوا النور والظلمة، فالنور إله الخير والظلمة إله الشر عندهم.

فأخبرهم الله تعالى أنّه خالق السماوات والأرض، أي: بما فيهن، وخالق الظلمات والنور.

ثمّ إنّ في إيثار الظلمات والنور بالذكر دون غيرهما من الأعراض إيماء وتعريضًا بحالي المخاطبين بالآية من كفر فريق وإيمان فريق، فالكفر يشبه الظلمة لأنّه انغماس في جهالة وحيرة، والإيمان يشبه النور لأنّه استبانة الهدى والحق.

وقُدّم ذكر الظلمات مراعاة للترتب في الوجود لأنّ الظلمة سابقة النور، فإنّ النور حصل بعد خلق الذوات المضيئة، وكانت الظلمة عامة. وإنّما جمع { الظُّلُمَاتِ } وأفرد { النُّورَ } اتباعا للاستعمال، لأنّ لفظ

(الظلمات) بالجمع أخف، ولفظ (النور) بالإفراد أخف، ولذلك لم يرد لفظ { الظُّلُمَاتِ } في القرآن إلّا جمعا ولم يرد لفظ { النُّورَ } إلّا مفردا.

{ **ثمّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ** } عدول المشركين عن عبادة الله مع علمهم بأنّه خالق الأشياء أمر غريب فيهم أعجب من علمهم بذلك. والحجّة ناهضة على الذين كفروا لأنّ جميعهم عدا المانوية يعترفون بأنّ الله هو الخالق والمدبّر للكون. والخبر مستعمل في التعجيب.

{ **الَّذِينَ كَفَرُوا** } كل من كفر بإثبات إله غير الله تعالى سواء في ذلك من جعل له شريكا مثل مشركي العرب والصابة، ومن خصّ غير الله بالإلهية كالمانوية. وهذا المراد دلّت عليه القرينة، وإن كان غالب عرف القرآن إطلاق الذين كفروا على المشركين.

{ **يَعْدِلُونَ** } يُسَوُّون. والعدل: التسوية. تقول:عدلت فلانا بفلان، إذا سوّيته به، أي: يعدلون بربّهم غيره. والمراد يعدلونه بالله في الإلهيّة، وإن كان بعضهم يعترف بأنّ الله أعظم كما كان مشركو العرب يقولون، وكما قالت الصابئة في الأرواح، والنصارى في الابن والروح القدس.

{ **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثمّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمّىً عِنْدَهُ ثمّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ** } [2].

استئناف لغرض آخر للتعجيب من حال المشركين كيف جمعوا بين الاعتراف بأنّ الله هو خالقهم الخلق الأوّل فكيف يمترون في الخلق الثاني. تفيد الجملة القصرفي ركني الإسناد وفي متعلقها، أي: هو خالقكم لا غيره، من طين لا من غيره، وهو الذي قضى أجلا وعنده أجل مسمّى، فينسحب حكم القصر على المعطوف على المقصور.

{ **خَلَقَكُمْ** } موجّه إلى الذين كفروا، ففيه التفات من الغيبة إلى الخطاب لقصد التوبيخ.

{ **مِنْ طِينٍ** } لإظهار فساد استدلالهم على إنكار الخلق الثاني، لأنّ مصيرهم إلى تراب يقرّب إعادة خلقهم، إذ صاروا إلى مادة الخلق الأوّل. وهذا القدح في استدلالهم يُسمّى في اصطلاح علم الجدلّ القول بالموجب، والمنبّه عليه من خطأ استدلالهم يُسمَّى فساد الوضع.

{ **ثمّ قَضَى أَجَلاً** } للترتيب والمهلة، فهو عطف فعل على فعل وليس عطف جملة على جملة. والمهلة هنا باعتبار التوزيع، أي: خلق كل فرد من البشر ثمّ قضى له أجله، أي: استوفاه له. فـ { قَضَى } هنا ليس بمعنى (قدّر) لأنّ تقدير الأجل مقارن للخلق أو سابق له وليس متأخرا عنه.

{ **وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ** } إعلام الخلق بأنّ الله عالم آجال النّاس ردا على قول المشركين { مَا يُهْلِكُنَا إلّا الدَّهْرُ } [الجاثية:24].

{ **مُسَمًّى** } معيّن، لأنّ أصل السمة العلامة التي يتعيّن بها المعلَّم. والتعيين هنا تعيين الحدّ والوقت. فالمراد: أجل بعث النّاس إلى الحشر، فإنّ إعادة النكرة بعد نكرة يفيد أنّ الثانية غير الأولى.

وتقدير التركيب: ثمّ قضى لكم أجلين؛ أجلا تعرفون مدّته بموت صاحبه، وأجلا معيّن المدّة في علم الله. فالمراد بالأجل الأوّل عمر كل إنسان، فإنّه يعلمه النّاس عند موت صاحبه، والمراد بالأجل الثاني ما بين موت كل أحد وبين يوم البعث الذي يُبعث فيه جميع الناس، فإنّه لا يعلمه في الدنيا أحد ولا يعلمونه يوم القيامة.

{ **ثمّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ** } المخاطب هم المشركون. وجيء بالمسند إليه ضميرا بارزا للتوبيخ.

الامتراء: الشكّ والتردّد في الأمر، وهو بوزن الافتعال، مشتق من المِرية (بكسر الميم) اسم للشكّ.

أي: تمترون في إمكان البعث وإعادة الخلق.

{ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ } [3].

عطف على قوله تعالى { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ }، أي: خلقكم ولم يهمل مراقبتكم، فهو يعلم أحوالكم كلّها.

ولمّا كان اسم الجلالة معروفا عندهم لا يلتبس بغيره صار قوله تعالى { **وَهُوَ اللَّهُ** } في معنى، الموصوف بهذه الصفات هو صاحب هذا الاسم لا غيره. إذ لا خالق غيره كما تقرّر آنفا، وإذ هو عالم السر والجهر، وغيره لا إحساس له فضلا عن العقل، فضلا عن أن يكون عالما.

{ **فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ** } من معنى الانفراد بالإلهيّة، وهذا لقصد التنصيص على أنّه لا يشاركه أحد في صفاته.

{ **يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ** } جملة مقرّرة لمعنى جملة { وَهُوَ اللَّهُ } ولذلك فصلت، لأنّها تتنزّل منها منزلة التوكيد لأنّ انفراده بالإلهية في السماوات و في الأرض ممّا يقتضي علمه بأحوال الموجودات الأرضيّة. وذكر السر لأنّ علم السر دليل عموم العلم، وذكر الجهر لاستيعاب نوعي الأقوال.

{ **وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ** } جميع الاعتقادات والأعمال من خير وشرّ، فهو تعريض بالوعد والوعيد. والخطاب لجميع السامعين، فدخل فيه الكافرون، وهم المقصود الأوّل من هذا الخطاب، لأنّه تعليم وإيقاظ بالنسبة إليهم، وتذكير بالنسبة إلى المؤمنين.

{ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ } [4].

انتقال إلى كفران المشركين في تكذيبهم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بعد أن أقيمت عليهم الحجّة ببطلان كفرهم في أمر الشرك بالله في الإلهيّة، وقد عُطف لأنّ الأمرين من أحوال كفرهم ولأنّ الذي حملهم على تكذيب الرّسول صلى الله عليه وسلم هو دعوته إيّاهم إلى التوحيد، فمن أجله نشأ النزاع بينهم وبينه فكذّبوه وسألوه الآيات على صدقه.

{ **وَمَا تَأْتِيهِمْ** } استُعمل المضارع للدلالة على التجدّد، وإن كان هذا الإتيان ماضيا، والمراد بإتيانها بلوغها إليهم وتحدّيهم بها، فشُبّه البلوغ بمجيء الجائي.

{ **مِنْ آيَةٍ** } لتأكيد النفي لقصد عموم أنواع الآيات التي أتت وتأتي.

{ **رَبِّهِمْ** } لقصد التسجيل عليهم بالعقوق لحق العبودية.

{ **إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ** } في موضع الحال. والاستثناء دلّ على أنّهم لم يكن لهم حال إلّا الإعراض.

الإعراض: صرف الوجه عن النظر في الشيء. وهو هنا مجاز في إباء المعرفة، فيشمل المعنى الحقيقي كترك الاستماع للقرآن، ويشمل المكابرة عن الاعتراف بإعجازه.

{ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } [5].

أي: إذا تقرّر هذا الإعراض ثبت أنّهم كذّبوا بالحقّ لمّا جاءهم من عند الله، فإنّ الإعراض علامة على التكذيب.

{ **فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** } تأكيدا لوعد المؤمنين بالنصر وإظهار الإسلام على الدين كلّه، وإنذار للمشركين بأنّ سيحلّ بهم ما حلّ بالأمم الذين كذبوا رسلهم ممن عرفوا مثل عاد وثمود وأصحاب الرس.

الإتيان: هنا في الإصابة والحصول على سبيل الاستعارة.

الأنباء: جمع نبإ، وهو الخبر الذي له أهمية. وأطلق النبأ هنا على تحقيق مضمون الخبر.

{ **مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** } هو القرآن، كقوله تعالى { ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً } [الجاثية:35].

{ **يَسْتَهْزِئُونَ** } تقدّم معنى الاستهزاء عند قوله تعالى { إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ } [البقرة:14].

{ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ } [6].

بيان لجملة { فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ }، بطريقة الاستفهام الإنكاري، عن عدم رؤية القرون الكثيرة الذين أهلكتهم حوادث خارقة للعادة يدلّ حالها على أنّها مسلّطة عليهم من الله عقابا لهم على التكذيب.

{ **أَلَمْ يَرَوْا** } الرؤية يجوز أن تكون قلبية، أي: ألم يعلموا كثرة القرون الذين أهلكناهم، ويجوز أن تكون بصرية بتقدير، ألم يروا آثار القرون التي أهلكناها كديار عاد وحِجر ثمود.

القرن: أصله الزمن الطويل، وكثر إطلاقه على الأمّة التي دامت طويلا. ويطلق على الجيل من الأمّة،

ومنه حديث: " **خير القرون قرني ثمّ الذين يلونهم ثمّ الذين يلونهم** ". ويطلق على مقدار من الزمن قدره مائة سنة على الأشهر، وقيل:غير ذلك.

{ **مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ** } ثبّتناهم وملّكناهم، وأصله مشتق من المكان. فمعنى مكّنه ومكّن له، وضع له مكانا.

قال تعالى { أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً } [القصص:57]. ويُكنّى بالتمكين عن الإقدار وإطلاق التصرّف.

{ **مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ** } الخطاب التفات موجّه إلى الذين كفروا لأنّهم الممكّنون في الأرض وقت نزول الآية، وليس للمسلمين يومئذ تمكين.

<u>المعنى</u>: أنّ الأمم الخالية من العرب البائدة كانوا أشدّ قوّة وأكثر جمعا من العرب المخاطبين بالقرآن وأعظم منهم آثار حضارة وسطوة.

{ **وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ** }

السماء: من أسماء المطر، كما في حديث الموطأ من قول زيد بن خالد: " صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على إثر سماء "، أي: عقب مطر. وهو المراد هنا.

المدرار: صيغة مبالغة، من درّت الناقة، ودرّ الضرع إذا سمح ضرعها باللبن، ولذلك سمّي اللبن الدرّ. ووصف المطر بالمدرار مجاز عقلي، وإنّما المدرار سحابه.

وقد تقدّم القول في معنى الأنهار تجري من تحتهم في نظيره { أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ } [البقرة:25]

{ **فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ** } عطف على { مَكَّنَّاهُمْ } وما بعده. فالتقدير: فأذنبوا فأهلكناهم بذنوبهم، أو فبطروا النعمة فأهلكناهم. ففيه إيجاز حذف.

الإهلاك: الإفناء، وهو عقاب للأمّة دال على غضب الله عليها، لأنّ فناء الأمم لا يكون إلّا بما تجرّه إلى نفسها من سوء فعلها، بخلاف فناء الأفراد فإنّه نهاية محتّمة ولو استقام المرء طول حياته.

الذنوب: هنا هي الكفر وتكذيب الرسل ونحو ذلك.

{ **وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ** } الإنشاء الإيجاد المبتكر، قال تعالى { إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً } [الواقعة:35]. أي: أنشأنا من بعد كل قرن من المهلَكين قرنا آخرين.

وهذا تعريض بالمشركين بأنّ الله مهلكهم ومنشئ من بعدهم قرن المسلمين في ديارهم.

{ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ} [7].

<u>يجوز</u> أن تكون الواو عاطفة والمعطوف عليه جملة { وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ }، لمّا ذكر الآيات في الجملة الأولى على وجه العموم ذكر هنا فرض آية تكون أوضح الآيات دلالة على صدق محمد صلى

الله عليه وسلم، وهي أن يُنزل الله عليه كتابا من السماء على صورة الكتب المتعارفة، فرأوه بأبصارهم ولمسوه بأيديهم لما آمنوا ولادّعوا أنّ ذلك الكتاب سحر.

ويجوز أن تكون الواو للحال من ضمير { كَذَّبُوا } في قوله تعالى { فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِ لَمَّا جَاءَهُمْ }، أي: أنكروا كون القرآن من عند الله، وكونه آية على صدق الرسول، وزعموا أنّه لو كان من عند الله لنزل في صورة كتاب من السماء.

والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم لا محالة لأنّ كل كلام ينزل من القرآن موجّه إليه لأنّه المبلّغ.

{ **فِي قِرْطَاسٍ** } صفة لـ { كِتَاباً }، والقِرطاس (بكسر القاف على الفصيح، ونقل ضم القاف وهو ضعيف) هو اسم للصحيفة التي يكتب فيها ويكون من رق ومن بَرْدي ومن كاغد.

{ **فَلَمَسُوهُ** } اللمس وضع اليد على الشيء لمعرفة وجوده، و{ **بِأَيْدِيهِمْ** } تأكيد لمعنى اللمس لرفع احتمال أن يكون مجازا في التأمّل، وللإفصاح عن منتهى ما اعتيد من مكابرتهم ووقاحتهم في الإنكار والتكذيب.

{ **لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا** } دون أن يقول: لقالوا، كما قال { فَلَمَسُوهُ }، إظهار في مقام الإضمار لقصد تسجيل أنّ دافعهم إلى هذا التعنّت هو الكفر، لأنّ الموصول يؤذن بالتعليل.

{ **إِنْ هَذَا إِلّا سِحْرٌ مُبِينٌ** } وهذا شأن المغلوب المحجوج أن يتعلّق بالمعاذير الكاذبة.

وتقدّم معنى السحر عند قوله تعالى { يُعَلِّمُونَ النّاس السِّحْرَ } [البقرة:102].

{ وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الأَمْرُ ثمّ لا يُنْظَرُونَ [8] وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ [9] }.

خبر عن تورّكهم وعنادهم، وما قبله بيان لعدم جدوى محاولة ما يُقلع عنادهم، فذلك فرض بإنزال كتاب عليهم من السماء فيه تصديق النبيّ صلى الله عليه وسلم، وهذا حكاية لاقتراح منهم أية يصدّقونه بها.

وفي سيرة ابن إسحاق أن هذا القول واقع، وأنّ من جملة من قال هذا زمعة بن الأسود، والنضر بن الحارث بن كلدة، وعبدة بن عبد يغوث؛ وأُبَي ابن خلف، والعاصي بن وائل، والوليد بن المغيرة، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، ومن معهم، أرسلوا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم: " سل ربك أن يبعث معك ملكا يصدّقك بما تقول ويراجعنا عنك ".

{ **وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ** } أي: لولا أنزل عليه ملك نشاهده ويخبرنا بصدقه.

والضمير عائد إلى { الَّذِينَ كَفَرُوا } وإن كان قاله بعضهم، لأنّ الجميع قائلون بقوله وموافقون عليه.

{ **لَوْلَا** } للتحضيض بمعنى (هلاّ). والتحضيض مستعمل في التعجيز على حسب اعتقادهم.

{ **عَلَيْهِ** } للنبيّ صلى الله عليه وسلم، ومعاد الضمير معلوم من المقام.

{ **وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثمّ لَا يُنْظَرُونَ** } أي: لو أنزلنا ملكا على الصفة التي اقترحوها يكلّمهم لقضي الأمر، أي: لقضي أمر عذابهم الذي يتهدّدهم به.

فمشركو مكة لمّا سألوا النبيّ أن يريهم ملكا معه ظنوا مقترحهم تعجيزا، فأنبأهم الله تعالى بأنّهم اقترحوا أمرا لو أجيبوا إليه لكان سببا في مناجزة هلاكهم الذي أمهلهم إليه رحمة منه.

ولعلّ حكمة ذلك أنّ الله فطر الملائكة على الصلابة والغضب للحقّ بدون هوادة، ولذلك حجبهم الله عن النزول إلى الأرض إلّا في أحوال خاصة، كما قال تعالى عنهم { وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلّا بِأَمْرِ رَبِّكَ }، فلو أنّ الله أرسل ملائكة في الوسط البشري لما أمهلوا أهل الضلال والفساد ولناجزوهم جزاء العذاب، إلّا ترى أنّ الملائكة الذين أرسلهم الله لقوم لوط لمّا لقوا لوطا قالوا { يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ }. ولمّا جادلهم إبراهيم في قوم لوط بعد أن بشروه واستأنس بهم قالوا { يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ }، وهو نزول الملائكة، فليس الملائكة تصرف في غير ما وجّهوا إليه.

فمعنى الآية: أنّ ما اقترحوه لو وقع لكان سيّئ المغبّة عليهم من حيث لا يشعرون.

{ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً } جواب ثان عن مقترحهم، فيه ارتقاء في الجواب، أي: ولو اكتفينا عن إرسال رسول من نوع البشر وجعلنا الرّسول إليهم ملكا لتعيّن أن نصوّر ذلك الملك بصورة رجل ليطيقوا رؤيته وخطابه، وحينئذ يلتبس عليهم أمره كما التبس عليهم أمر محمد صلى الله عليه وسلم.

{ وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ } من تمام الدليل والحجّة عليهم بعدم جدوى إرسال الملك.

اللبس: خلط يعرض في الصفات والمعاني بحيث يعسر تمييز بعضها عن بعض.

المعنى: وللبسنا على عقولهم، فشكّوا في كونه ملكا فكذّبوه، إذ كان دأب عقولهم تطلّب خوارق العادات استدلالًا بها على الصدق، وترك إعمال النظر الذي يُعرف به صدق الصادق.

{ مَا يَلْبِسُونَ } أي: مثل لبسهم السابق الذي عرض لهم في صدق محمد عليه الصلاة والسلام.

{ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } [10].

عطف على جملة { وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ } لبيان أنّهم كانوا في قولهم ذلك قاصدين التعجيز والاستهزاء معا، لأنّهم ما قالوه إلّا عن يقين منهم أنّ ذلك لا يكون، فابتدئ الرد عليهم بإبطال ظاهر كلامهم بقوله تعالى

{ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ }، ثمّ ثنّى بتهديدهم على ما أرادوه من الاستهزاء، والمقصود مع ذلك تهديدهم بأنّهم سيحيق بهم العذاب، وأنّ ذلك سنّة الله في كل أمّة استهزأت برسول له.

{ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ } حُذف فاعل الاستهزاء فبني الفعل إلى المجهول لأنّ المقصود هنا هو ترتّب أثر الاستهزاء لا تعيين المستهزئين.

الاستهزاء: تقدّم عند قوله تعالى { إِنَّمَا نَحْنُ يَسْتَهْزِئُونَ } [البقرة:14]. وهو مرادف للسخرية في كلام أئمة اللغة. فذكر { اسْتُهْزِئَ } أوّلا، لأنّه أشهر، ولمّا أعيد عُبّر بـ { سَخِرُوا } ولمّا أعيد ثالث مرة رجع إلى فعل

{ يَسْتَهْزِئُونَ } ،لأنّه أخف من (يسخرون) وهذا من بديع فصاحة القرآن المعجزة.

حاق: اختلف أئمة اللغة في معناه، فقال الزجّاج: " هو بمعنى أحاط "، وتبعه الزمخشري. وفسّره الفرّاء بمعنى عاد عليه. وقال الراغب: " أصله حقّ "، أي: بمعنى وجب، والأظهر ما قاله أبو إسحاق الزجّاج. واختير فعل الإحاطة للدلالة على تمكّن ذلك منهم وعدم إفلاته أحدا منهم.

{ **مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** } أي: ما أنذرهم الرسل به من سوء العاقبة وحلول العذاب بهم، فحصل بذلك فائدة أخرى، وهي أنّ المستهزئين كانوا يستهزئون بالرسل وخاصة بما ينذرونهم به من حلول العذاب إن استمروا على عدم التصديق بما جاؤوا به.

{ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ } [11].

هذه الجملة وِزانها وِزان البيان لمضمون الجملة التي قبلها ولذلك فصلت، فإنّ الجملة التي قبلها تخبر بأنّ الذين استهزأوا بالرسل قد حاق بهم عواقب استهزائهم، وهذه تحدوهم إلى مشاهدة ديار أولئك المستهزئين.

وافتتاحها بالأمر بالقول لأنّها واردة مورد المحاورة على قولهم { لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ } [8].

وهذه سلسلة ردود وأجوبة على مقالتهم المحكيّة آنفا لتضمّنها التصميم على الشرك وتكذيب الرسالة، فكانت منحلّة إلى شُبه كثيرة أريد ردّها وتفنيدها فكانت هاته الردود كلّها مفتتحة بكلمة { **قُلْ** } عشر مرات.

{ **ثُمَّ** } للتراخي الرتبي، فإنّ النظر في عاقبة المكذّبين هو المقصد من السير، فهو مما يُرتقى إليه بعد الأمر بالسير، وأنّ هذا النظر محتاج إلى تأمّل وترسّم فهو أهمّ من السير.

النظر: يحتمل أن يكون بصريا وأن يكون قلبيا.

العاقبة: آخر الشيء ومآله وما يعقبه من مسبّباته. ويقال:عاقبة وعُقبى، وهي اسم كالعافية والخاتمة.

{ **الْمُكَذِّبِينَ** } للدلالة على أنّ التكذيب والاستهزاء كانا خلقين من أخلاقهم، وأنّ الواحد من هذين الخلقين كاف في استحقاق تلك العاقبة.

وهذا رد جامع لدحض ضلالاتهم الجارية على سنن ضلالات نظرائهم من الأمم السالفة المكذّبين.

{ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ } [12].

{ **قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } تكرير في مقام الاستدلال، فإنّ هذا الاستدلال تضمّن استفهاما

تقريريا. والتقرير هنا مراد به لازم معناه، وهو تبكيت المشركين وإلجاؤهم إلى الإقرار بما يقتضي إلى إبطال معتقدهم الشرك، فهو مستعمل في معناه الكنائي مع معناه الصريح.

{ **قُلْ لِلَّهِ** } تبكيت لهم، لأنّ الكلام مسوق مساق إبلاغ الحجّة مقدّرة فيه محاورة وليس هو محاورة حقيقية. وهذا من أسلوب الكلام الصادر من متكلّم واحد.

وابتدئ بإبطال أعظم ضلالهم، وهو ضلال الإشراك. وأدمج معه ضلال إنكارهم البعث المبتدأ به السورة بعد أن انتقل من ذلك إلى الإنذار الناشئ عن تكذيبهم الرّسول صلى الله عليه وسلم.

واللام في قوله { **لله** } للملك، دلت على عبودية النّاس لله دون غيره، وهذا استدلال على المشركين بأنّ غير الله ليس أهلا للإلهيّة، لأنّ غير الله لا يملك ما في السماوات وما في الأرض، إذ ملك ذلك لخالقه.

{ **كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ** } معترضة، وهي من المقول الذي أمر الرّسول بأن يقوله. وفيه معان:

<u>أحدها</u>: أنّ ما بعده لمّا كان مشعرا بإنذار بوعيد قُدّم له التذكير بأنّه رحيم بعبيده عساهم يتوبون ويقلعون عن عنادهم، والشرك بالله أعظم سوء وأشدّ تلبسا بجهالة.

<u>الثاني</u>: أنّ الإخبار بأنّ لله ما في السماوات وما في الأرض يثير سؤال سائل عن عدم تعجيل أخذهم. فالكافر يقول: لو كان ما تقولون صدقا لعجّل لنا العذاب، والمؤمن يستبطئ تأخير عقابهم، فكان قوله جوابا لكلا الفريقين بأنّه تفضّل بالرحمة، فمنها رحمة كاملة، وهذه رحمته بعباده الصالحين، ومنها رحمة موقّتة وهي رحمة الإمهال والإملاء للعصاة والضالين.

<u>الثالث</u>: ذُكرت رحمة الله تعريضا ببشارة المؤمنين وبتهديد المشركين.

<u>الرابع</u>: أنّ فيه إيماء إلى أنّ الله قد نجّى أمّة الدعوة المحمديّة من عذاب الاستئصال الذي عذّب به الأمم المكذّبة رسلها من قبل، وذلك ببركة النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم إذ جعله رحمة للعالمين في سائر أحواله.

{ **كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ** } تعلّقت إرادته، بأن جعل رحمته الموصوف بها بالذات متعلّقة تعلقا عاما مطردا. فلمّا كان ذلك مطردا شُبّهت إرادته بالإلزام، فاستعير لها فعل (كتب) الذي هو حقيقة في الإيجاب، والقرينة هي مقام الإلهية، أو جعل ذلك على نفسه لأنّ أحدا لا يلزم نفسه بشيء إلّا اختيارا وإلّا فانّ غيره يلزمه. <u>والمقصود أنّ ذلك لا يتخلّف كالأمر الواجب المكتوب</u>.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **لما قضى الله تعالى الخلق كتب كتابا فوضعه عنده فوق العرش، إنّ رحمتي سبقت غضبي** ".

{ **لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ** } واقعة موقع النتيجة من الدليل والمسبَّب من السبب.

ولام القسم ونون التوكيد أفادا تحقيق الوعيد. وتقدّم القول في نظيره عند قوله تعالى { اللَّهُ لا إِلَهَ إِلّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ } [النساء:87]. والقول نذارة وتهديد.

{ **الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ** } الأظهر عندي أنّها متفرّعة على جملة { لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ } وأنّ الفاء من قوله تعالى { فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ } للتفريع والسببية. أي: أنّهم خسروا أنفسهم بسبب عدم إيمانهم.

الخسران: مستعار لإضاعة ما شأنه أن يكون سبب نفع. وذلك أنّهم لمّا أعرضوا عن التدبّر في صدق الرّسول عليه الصلاة والسلام فقد أضاعوا عن أنفسهم أنفع سبب للفوز في العاجل والآجل، فكان ذلك سبب أن لا يؤمنوا بالله والرّسول واليوم الآخر. ويتسبّب على عدم الإيمان خسران آخر، وهو خسران الفوز في الدنيا بالسلامة من العذاب، وفي الآخرة بالنجاة من النار.

{ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [13].

جملة معطوفه على { قُلْ لِلَّهِ }، أي: ما في السماوات والأرض لله، وله ما سكن.

السكون: استقرار الجسم في مكان، فهو ضد الحركة، وهو من أسباب الاختفاء، والأحسن عندي أن يكون هنا كناية عن الخفاء مع إرادة المعنى الصريح. ووجه كونه كناية، أنّ الكلام مسوق للتذكير بعلم الله تعالى وأنّه لا يخفى عليه شيء من أعمالكم ومحاسبكم عليها يوم يجمعكم إلى يوم القيامة، فهو كقوله تعالى { اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى ـ إلى قوله ـ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ } [الرعد:8-10].

فالذي سكن بالليل والنهار بعض ما في السماوات والأرض، فلمّا أعلمهم بأنّه يملك ما في السماوات والأرض عطف عليه الإعلام بأنّه يملك ما سكن من ذلك. فهذا من ذكر الخاص بعد العام لتقرير عموم الملك لله تعالى بأنّ ملكه شمل الظاهرات والخفيّات، ففي هذا استدعاء ليوجّهوا النظر العقلي في الموجودات الخفيّة، وما في إخفائها من دلالة على سعة القدرة وتصرّفات الحكمة الإلهية.

والكلام تمهيد لسعة العلم، لأنّ شأن المالك أن يعلم مملوكاته.

وتخصيص الليل بالذكر لأنّ الساكن في ذلك الوقت يزداد خفاء، فهو كقوله تعالى { وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ } [الأنعام:59]. وعطف النهار عليه لقصد زيادة الشمول.

{ **وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** } كالنتيجة للمقدمة، والسميع، العالم العظيم بالمسموعات أو بالمحسوسات. والعليم، الشديد العلم بكل معلوم.

{ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [14].

استئناف آخر ناشئ عن جملة { قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ }.

وأعيد الأمر بالقول اهتماما بهذا المقول، لأنّه غرض آخر غير الذي أُمر فيه بالقول قبله، فإنّه لمّا تقرّر

بالقول السابق عبوديّة ما في السماوات والأرض لله، وأنّ مصير كلّ ذلك إليه انتقل إلى تقرير وجوب إفراده بالعبادة، لأنّ ذلك نتيجة لازمة لكونه مالكا لجميع ما احتوته السماوات والأرض، فكان هذا التقرير جاريا على طريقة التعريض، إذ أمر الرّسول عليه الصلاة والسلام بالتبرؤ من أن يعبد غير الله.

ذكر ابن عطية عن بعض المفسرين: " أنّ هذا القول أُمر به الرّسول صلى الله عليه وسلم ليجيب المشركين الذين دعوه إلى عبادة أصنامهم ".

الولي: الناصر المدبّر، ففيه معنى العلم والقدرة. يقال: تولّى فلانا، أي: اتّخذه ناصرا. وسُمِّي الحليف وليّا لأنّ المقصود من الحلف النصرة. ولمّا كان الإله هو الذي يرجع إليه عابده سمي وليّا لذلك. ومن أسمائه تعالى الوليّ.

الفاطر: المبدع والخالق. وأصله من الفطر وهو الشقّ. وعن ابن عباس: " ما عرفت معنى الفاطر حتّى اختصم إليّ أعرابيّان في بئر، فقال أحدهما: " أنا فطرتها ".

وإجراء هذا الوصف على اسم الجلالة دون وصف آخر استدلال على عدم جدارة غيره لأن يُتخذ وليّا.

{ **وَهُوَ يُطْعِمُ** } حال، أي: يعطي النّاس ما يأكلونه ممّا أخرج لهم من الأرض. وهذا استدلال على المشركين بما هو مسلّم عندهم، لأنّهم يعترفون بأنّ الرازق هو الله وهو خالق المخلوقات، وإنّما جعلوا الآلهة الأخرى شركاء في استحقاق العبادة. وقد كثر الاحتجاج على المشركين في القرآن بمثل هذا كقوله تعالى { أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ } [الواقعة:64/63].

{ **وَلا يُطْعَمُ** } تكميل دال على الغنى المطلق كقوله تعالى { وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ } [الذاريات:57].

<u>ويجوز</u> أن يراد التعريض بهم فيما يقدّمونه إلى أصنامهم من القرابين وما يهرقون عليها من الدماء، إذ لا يخلو فعلهم من اعتقاد أنّ الأصنام تنعم بذلك.

{ **قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** } ما قبله يحوم حول الاستدلال بدلالة العقل على إبطال الشرك، وهذا استدلال بدلالة الوحي الذي فيه الأمر باتباع دين الإسلام، وما بني عليه اسم الإسلام من صرف الوجه إلى الله، فهذا إبطال لطعنهم في الدين.

{ **أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ** } أنّه أوّل من يتّصف بالإسلام الذي بعثه الله به، فهو الإسلام الخاص الذي جاء به القرآن، وهو زائد على ما آمن به الرّسل من قبل، بما فيه من وضوح البيان والسماحة، فلا ينافي أنّ بعض الرسل وصفوا بأنّهم مسلمون، كما في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم ويعقوب { يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } [البقرة:132].

<u>ويجوز</u> أن يكون المراد أوّل من أسلم ممن دعوا إلى الإسلام. <u>ويجوز</u> أن يكون الأوّل كناية عن الأقوى والأمكن في الإسلام، لأنّ الأوّل في كل عمل هو الأحرص عليه والأعلق به.

والمقصود من هذا على جميع الوجوه تأييس المشركين من عوده إلى دينهم لأنّهم ربما كانوا إذا رأوا منه رحمة بهم ولينا في القول طمعوا في رجوعه إلى دينهم وقالوا إنّه دين آبائه.

{ **وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** } أي: قل لهم ذلك لييأسوا. والكلام نهي من الله لرسوله مقصود منه تأكيد الأمر بالإسلام، لأنّ الأمر بالشيء يقتضي النهي عن ضده.

ويحتمل أن النهي عن الانتماء إلى المشركين، أي: هو أمر بالبراءة منهم.

{ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ [15] مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ [16] }.

هذا استئناف مكرّر لما قبله، وهو تدرّج في الغرض المشترك بينها من أنّ الشرك بالله متوعَّد صاحبه بالعذاب وموعود تاركه بالرحمة.

فقوله: { أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً } [14] رفض للشرك بالدليل العقلي.

وقوله: { قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ } [14] رفض للشرك امتثالا لأمر الله وجلاله.

وقوله هنا: { **قُلْ إِنِّي أَخَافُ** } تجنّب للشرك خوفا من العقاب وطمعا في الرحمة.

وقد جاءت مترتّبة على ترتيبها في نفس الأمر.

{ **إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي** } الآمر له بأن يكون أوّل من أسلم والناهي عن كونه من المشركين هو الله تعالى.

{ **رَبِّي** } إيماء إلى أنّ عصيانه أمر قبيح لأنّه ربّه فكيف يعصيه.

{ **يَوْمٍ عَظِيمٍ** } تهويل، لأنّ في معتاد العرب أن يطلق اليوم على يوم نصر فريق وانهزام فريق من المحاربين، فذكر (يوم) يثير من الخيال مخاوف مألوفة، وبهذا الاعتبار حسُن جعل إضافة العذاب إلى اليوم العظيم كناية عن عظم ذلك العذاب، لأنّ عظمة اليوم العظيم تستلزم عظم ما يقع فيه عرفا.

{ **مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ** } جملة من شرط وجزاء وقعت موقع الصفة لـ { عَذَابَ }

{ **يُصْرَفْ** } أي: يُصرف العذاب عنه، أو من يُصرف هو عن العذاب.

{ **رَحِمَهُ** } الضمير عائد إلى { رَبِّي }.

كأنه قال: " أرجو إن أطعته أن يرحمني ربي"، لأنّ من صرف عنه العذاب ثبتت له الرحمة.

{ **وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ** } الإشارة موجّهة إلى (الصرف). وإنّما كان الصرف عن العذاب فوزا لأنّه إذا صرف عن العذاب فقد دخل في النعيم. قال تعالى { فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ } [آل عمران:185].

{ **المُبِينُ** } اسم فاعل من أبان بمعنى بان.

{ **وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } [17].

الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم، وهذا مؤذن بأنّ المشركين خوَّفوا النبيّ صلى الله عليه وسلم أو عرَّضوا له بعزمهم على إصابته بشرّ وأذى فخاطبه الله بما يثبّت نفسه وما يؤيِّس أعداءه من أن يستزلّوه. ومن وراء ذلك إثبات أنّ المتصرّف المطلق في أحوال الموجودات هو الله تعالى بعد أن أثبت بالجمل السابقة

أنّه محدث الموجودات كلّها في السماء والأرض، فجعل ذلك في أسلوب تثبيت للرّسول صلى الله عليه وسلم على عدم الخشية من بأس المشركين وتهديدهم ووعيدهم، ووعده بحصول الخير له من أثر رضى ربّه وحده عنه، وتحدّى المشركين بأنّهم لا يستطيعون إضراره ولا يجلبون نفعه. ويحصل منه ردّ على المشركين الذين كانوا إذا ذُكّروا بأن الله خالق السماوات والأرض ومن فيهن أقروا بذلك، ويزعمون أنّ آلهتهم تشفع عند الله وأنّها تجلب الخير وتدفع الشرّ، فلمّا أبطلت الآيات السابقة استحقاق الأصنام الإلهيّة لأنّها لم تخلق شيئا، وأوجبت عبادة المستحق الإلهيّة بحقّ، أبطلت هذه الآية استحقاقهم العبادة لأنّهم لا يملكون للنّاس ضرّا ولا نفعا، كما قال تعالى { قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً } [المائدة:76]، وقال عن إبراهيم عليه السلام { قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ } [الشعراء:73/72]

المسّ: حقيقته وضع اليد على شيء. ويُستعمل مجازا في إيصال شيء إلى شيء فيستعار إلى معنى الإيصال فيكثر أن يذكر معه ما هو مستعار للآلة. المعنى: وإن يصبك الله بضرّ أو وإن ينلك من الله ضرّ.

الضُرّ: (بضم الضاد) هو الحال الذي يؤلم الانسان. ويقابله النفع، وهو من الخير، وهو الملائم.

المعنى: إن يقدّر الله لك الضرّ فهلاّ يستطيع أحد كشفه عنك إلّا هو إن شاء ذلك، لأنّ مقدَّراته مربوطة ومحوطة بنواميس ونظم لا تصل إلى تحويلها إلّا قدرة خالقها.

وقابل قوله تعالى { **وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ** } بقوله تعالى { **وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ** } مقابلة بالأعم، لأنّ الخير يشمل النفع وهو الملائم ويشمل السلامة من المنافر، ففي الآية احتباك. وقال ابن عطية: " ناب الضرّ في هذه الآية مناب الشر، والشر أعم وهو مقابل الخير ".

{ **فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } جُعل جوابا للشرط لأنّه علّة الجواب المحذوف والجواب المذكور قبله. إذ التقدير: وإن يمسسك بخير فلا مانع له لأنّه على كل شيء قدير في الضر والنفع.

{ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ } [18].

هذه الجملة معطوفة على جملة { وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ }، والمناسبة بينهما أنّ مضمون كلتيهما يبطل استحقاق الأصنام العبادة. الآية الأولى أبطلت ذلك بنفي أن يكون للأصنام تصرّف في أحوال المخلوقات، وهذه أبطلت أن يكون غير الله قاهرا على أحد أو خبيرا أو عالما بإعطاء كل مخلوق ما يناسبه. ولا جرم أنّ الإله تجب له القدرة والعلم، وهما جماع صفات الكمال، كما تجب له صفات الأفعال من نفع وضر وإحياء وإماتة، وهي تعلّقات للقدرة أطلق عليها اسم الصفات عند غير الأشعري نظرا للعرف، وأدخلها الأشعري في صفة القدرة لأنّها تعلّقات لها. والآية تتنزل في قالب تثبيت الرّسول صلى الله عليه وسلم كما قدّمنا.

القاهر: الغالب المُكرِه الذي لا ينفلت من قدرته من عُدّي إليه فعل القهر. أي: لا قاهر إلّا هو، لأنّ قهر الله

تعالى هو القهر الحقيقي الذي لا يجد المقهور منه ملاذا، لأنّه قهر بأسباب لا يستطيع أحد خلق ما يدافعها.

{ **فوق** } استعارة تمثيليّة لحالة القاهر بأنّه كالذي يأخذ المغلوب من أعلاه فلا يجد معالجة ولا حراكا. وهو تمثيل بديع ومنه قوله تعالى حكاية عن فرعون { وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ } [الأعراف:127].

<u>ومعنى القهر فوق العباد</u>: أنّه خالق ما لا يدخل تحت قُدرهم بحيث يُوجد ما لا يريدون وجوده كالموت، ويمنع ما يريدون تحصيله كالولد للعقيم والجهل بكثير من الأشياء، بحيث إنّ كل أحد يجد في نفسه أمورا يستطيع فعلها وأمورا لا يستطيع فعلها وأمورا يفعلها تارة ولا يستطيع فعلها تارة.

الحكيم: المحكم المتقن للمصنوعات، وتقدّم في قوله تعالى { فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [البقرة:209].

الخبير: مبالغة في اسم الفاعل من (خَبَر) المتعدّي، بمعنى (علم)، يقال: خَبَر الأمر،إذا علمه وجرّبه.

{ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ } [19].

{ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ }

انتقال من الاستدلال على إثبات ما يليق بالله من الصفات، إلى إثبات صدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم والى جعل الله حكما بينه وبين مكذِّبيه.

روى الواحدي في أسباب النزول عن الكلبي: أنّ رؤساء مكّة قالوا: " يا محمد ما نرى أحدا مصدّقك بما تقول، وقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أن ليس عندهم ذكرك ولا صفتك فأرنا من يشهد أنك

رسول الله ". فنزلت هذه الآية.

{ **قُلْ أَيُّ شَيْءٍ** } ابتدئت المحاورة بأسلوب إلقاء استفهام مستعمل في التقرير، ومثل هذا الأسلوب لإعداد السامعين لتلقي ما يرد بعد الاستفهام.

{ **أَيُّ** } اسم استفهام يُطلب به بيان أحد المشتركات.

{ **شَيْءٍ** } اسم عام من الأجناس العالية ذات العموم الكثير، قيل:هو الموجود، وقيل: هو ما يعلم ويصح وجوده. وتقدّم الكلام حولها عند قوله تعالى { وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ } [البقرة:155].

{ **أَكْبَرُ** } أقوى وأعدلّ في جنس الشهادات، وهو من إطلاق ما مدلوله عظم الذات على عظم المعنى، كقوله تعالى { وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ } [التوبة:72]. وقوّة الشهادة بقوّة اطمئنان النفس إليها وتصديق مضمونها.

{ **شَهَادَةً** } تقدّم بيانها عند قوله تعالى { شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ } [المائدة:106]. أي: أيّة شهادة هي أصدق الشهادات.

{ **قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ** } جواب للسؤال، والتقدير: قل شهادة الله أكبر شهادة، فالله شهيد بيني وبينكم. أي: أنّي أشهد الله الذي شهادته أعظم شهادة أنني أبلغتكم أنّه لا يرضى بأن تشركوا به وأنذرتكم.

<u>المعنى</u>: أنّه لمّا لم تنفعهم الآيات والنذر فيرجعوا عن التكذيب والمكابرة، لم يبق إلّا أن يكلهم إلى حساب الله تعالى. و<u>المقصود</u>: إنذارهم بعذاب الله في الدنيا والآخرة.

{ **بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ** } معنى (البين) أن الله شهيد للرّسول صلى الله عليه وسلم بالصدق لرد إنكارهم رسالته، كما هو شأن الشاهد في الخصومات.

{ **وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ** } هو الأهم فيما أقسم عليه من إثبات الرسالة. وينطوي في ذلك جميع ما أبلغهم الرّسول صلى الله عليه وسلم وما أقامه من الدلائل.

{ **لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ** } اقتصر على جعل علّة نزول القرآن للنذارة دون ذكر البشارة لأنّ المخاطبين في حال مكابرتهم، التي هي مقام الكلام، لا يناسبهم إلّا الإنذار.

{ **وَمَنْ بَلَغَ** } عطف على ضمير المخاطبين، أي: ولأنذر به من بلغه القرآن وسمعه ولو لم أشافهه بالدعوة.

{ **أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ** }.

جملة مستأنفة من جملة القول المأمور بأن يقوله لهم، فبعد أن قرّرهم أن شهادة الله أكبر شهادة وأشهد الله على نفسه فيما بلّغ، وعليهم فيما أعرضوا وكابروا، استأنف استفهاما على طريقة الإنكار استقصاء في الإعذار لهم فقال: أتشهدون أنتم على ما أصررتم عليه، أنّ مع الله آلهة أخرى كما شهدت أنا على ما دعوتكم إليه، والمقرَّر عليه هنا أمر ينكرونه بدلالة المقام.

{ **أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ** } أي: لتدَّعونا دعوى تحقّقونها تحقيقا يشبه الشهادة على أمر محقق الوقوع، فإطلاق { لَتَشْهَدُونَ } مشاكلة لقوله تعالى { قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ }.

{ **قُلْ لَا أَشْهَدُ** } جواب للاستفهام الذي في قوله تعالى { أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ }، ووقعت المبادرة بالجواب بتبرُّؤ المتكلّم من أن يشهد بذلك، كأنّه يقول: دعنا من شهادتكم وخذوا شهادتي فإنّي لا أشهد بذلك.

{ **قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ** } عطف البيان، لأن معنى لا أشهد بأنّ معه آلهة، هو معنى أنّه إله واحد، وأعيد فعل القول لتأكيد التبليغ.

{ **وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ** } أي: من إشراككم. ويجوز من أصنامكم التي تشركون بها.

{ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ} [20].

جملة مستأنفة انتقل بها أسلوب الكلام من مخاطبة الله المشركين على لسان الرّسول صلى الله عليه وسلم إلى إخبار عام كسائر أخبار القرآن.

{ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ** } بعض أهل الكتاب، وهم المنصفون منهم مثل عبدالله بن سلام ومخيريق.

والمراد هنا علماء اليهود والنصارى. فقد كان المشركون يقدّرون أهل الكتاب ويثقون بعلمهم وربّما اتّبع بعض المشركين دين أهل الكتاب وأقلعوا عن الشرك مثل ورقة بن نوفل، فلذلك كانت شهادتهم في معرفة صحّة الدين موثوقا بها عندهم إذا أدّوها ولم يكتموها. وفيه تسجيل على أهل الكتاب بوجوب أداء هذه الشهادة إلى النّاس.

{ **يَعْرِفُونَهُ** } عائد إلى القرآن. والمراد أنّهم يعرفون أنّه من عند الله ويعرفون ما تضمّنه ممّا أخبرت به كتبهم، ومن ذلك رسالة من جاء به، وهو محمد صلى الله عليه وسلم، لما في كتبهم من البشارة به.

{ **كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ** } تشبيه، فوجه الشبه هو التحقّق والجزم بأنّه هو الكتاب الموعود به.

{ **الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ** } استئناف لزيادة إيضاح تصلّب المشركين وإصرارهم، فهم المراد بالذين خسروا أنفسهم. فهذا من التكرير للتسجيل وإقامة الحجّة وقطع المعذرة، وأنّهم مصرّون على الكفر حتّى ولو شهد بصدق الرّسول أهل الكتاب.

{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ } [21].

المراد بهم المشركون مثل قوله تعالى { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ } [البقرة:114].

{ **افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً** } المراد افترائهم عقيدة الشرك في الجاهلية بما فيها من تكاذيب.

الافتراء: الكذب المتعمّد. وقوله { **كَذِبًا** } مصدر مؤكّد له، وهو أعمّ من الافتراء. والتأكيد يحصل بالأعمّ.

{ **أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ** } تكذيبهم القرآن بعد البعثة.

وقد جُعل الآتي بواحدة من هاتين الخصلتين أظلم النّاس فكيف بمن جمعوا بينهما.

{ **إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ** } تذييل، فلذلك فصلت، أي: إذا تحقّق أنّهم لا أظلم منهم فهم غير مفلحين، لأنّه لا يفلح الظالمون فكيف بمن بلغ ظلمه النهاية. وقد نفى فلاحهم فعمّ كلّ فلاح في الدنيا والآخرة، فإنّ الفلاح المعتدّ به في نظر الدين في الدنيا هو الإيمان والعمل، وهو سبب فلاح الآخرة.

{ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثمّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ [22] ثمّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إلّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ [23] انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ [24] }.

مضمون الآية جامع للتهديد على الشرك والتكذيب ولإثبات الحشر ولإبطال الشرك.

{ **وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً** } المقصود بذلك المشركون، فيؤذن بمشركين ومشرَك بهم. وللتنبيه على أنّ الضمير عائد إلى المشركين وأصنامهم جيء بقوله تعالى { جَمِيعاً } ليدلّ على قصد الشمول، فيكون نظير قوله تعالى { وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثمّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ } [يونس:28]، وقوله تعالى { وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ } [الفرقان:17].

{ **ثمّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ** } أي: ثمّ نقول للذين أشركوا من بين ذلك الجمع.

والاستفهام توبيخي عمّا كان المشركون يزعمونه من أنّها تشفع لهم عند الله، أو أنّها تنصرهم عند الحاجة، فلمّا رأوها لا غناء لها قيل لهم: أين شركاؤكم؟ أي: أين شفاعتهم وأين نصرهم؟

{ **الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ** } تكذيبا لهم، وحذف المفعول الثاني لـ { تَزْعُمُونَ } ليعمّ كلّ ما كانوا يزعمونه لهم من الإلهية والنصر والشفاعة.

الزعم: ظنّ يميل إلى الكذب أو الخطأ أو لغرابته يتّهم صاحبه، فيقال: زعم، بمعنى أنّ عهدة الخبر عليه لا على الناقل، وتقدّم عند قوله تعالى { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ } [النساء:60].

{ **ثمّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ** } أصل الفتنة الاختبار، من قولهم: فتن الذهب إذا اختبر خلوصه من الغلث. وتطلق على اضطراب الرأي من حصول خوف لا يُصبر على مثله، وقد تقدّم الكلام عليها عند قوله تعالى { إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ } [البقرة:102].

{ **إلّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ** } التقدير: لم يكن لهم قول هو فتنة لهم إلّا قولهم { وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ }. فقولهم متضمّن أنّهم مفتونون حينئذ. ويحتمل أن يراد بالفتنة جوابهم الكاذب لأنّه يفضي

إلى فتنة صاحبه، أي: تجريب حالة نفسه.

{ **وَاللَّهِ رَبِّنَا** } ذكرهم الربّ بالإضافة إلى ضميرهم مبالغة في التنصُّل من الشرك، أي: لا ربّ لنا غيره.

{ **انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ** } جُعل حالهم المتحدَّث عنه بمنزلة المشاهد، لصدوره عمّن لا خلاف في أخباره، فلذلك أمر سامعه أو أمر الرّسول صلى الله عليه وسلم بما يدلّ على النظر إليه كأنّه مشاهد حاضر. وجعل كثير من المفسرين النظر هنا نظرا قلبيا، أي: تأمّل جوابهم.

{ **كَيْفَ** } الأظهر لمجرّد الحال غير دال على الاستفهام. وقد تقدّمت له نظائر منها قوله تعالى { انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ } [النساء:50].

{ **وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ** } ضلّ هنا بمعنى غاب كقوله تعالى { ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ } [السجدة:10]. والمراد: غيبة شفاعتهم ونصرهم، لأنّ ذلك هو المأمول منهم، فلمّا لم يظهر شيء من ذلك نزل حضورهم منزلة الغيبة.

{ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } [25].

{ **وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ** } أي: ومن المشركين من يستمع إليك.

انتقل الكلام إلى أحوال خاصة عقلائهم الذين يربأون بأنفسهم عن أن يقابلوا دعوة الرّسول صلى الله عليه وسلم بمثل ما يقابله به سفهاؤهم من الإعراض التام. ولكن هؤلاء العقلاء يتظاهرون بالحلم والأناة والإنصاف ويخيّلون للدهماء أنّهم قادرون على مجادلة الرّسول عليه الصلاة والسلام وإبطال حججه ثمّ ينهون النّاس عن الإيمان.

روى الواحدي عن ابن عباس أنّه سَمَّى من هؤلاء: أبا سفيان بن حرب، وعتبة وشيبة ابني ربيعة، وأبا جهل، والوليد بن المغيرة، والنضر بن الحارث، وأمية وأبيّا ابني خلف، اجتمعوا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم يستمعون القرآن فلمّا سمعوه قالوا للنضر: " ما يقول محمد؟ " فقال: " والذي جعلها بيته (يعني الكعبة) ما أدري ما يقول إلّا أنّي أرى تحرّك شفتيه فما يقول إلّا أساطير الأوّلين مثل ما كنت أحدِّثكم عن القرون الماضية ". يعني أنّه قال ذلك مكابرة منه للحقّ وحسدا للرّسول عليه الصلاة والسلام.

وكان النضر كثير الحديث عن القرون الأولى. وكان يحدّث قريشا عن أقاصيص العجم، وكان صاحب أسفار إلى بلاد الفرس. وكان شديد البغضاء للرّسول صلى الله عليه وسلم وهو الذي أهدر الرّسول عليه الصلاة والسلام دمه فقُتل يوم فتح مكّة.

وروي أنّ أبا سفيان قال لهم: " إنّي لأراه حقا ". فقال له أبو جهل: " كلّا ". فوصف الله حالهم بهذه الآية.

وقد نفع الله أبا سفيان بن حرب بكلمته هذه، فأسلم هو دونهم ليلة فتح مكّة وثبتت له فضيلة الصحبة وصهر النبيّ صلى الله عليه وسلم ولزوجه هند بنت عتبة بن ربيعة.

{ **الأكنّة** } جمع كِنان (بكسر الكاف)، والكنان: الغطاء، لأنّه يكِنّ الشيء، أي: يستره. وهي هنا تخييل لأنّه شبَّهت قلوبهم في عدم خلوص الحقّ إليها بأشياء محجوبة عن شيء.

{ **أَنْ يَفْقَهُوهُ** } الضمير المنصوب عائد إلى القرآن، أي: أكنّة تمنع من أن يفهموا القرآن.

الوَقر: الصمم الشديد، يقال: وقرت أذنه، ومتعدّيا يقال: وَقَر الله أذنه فوقرت. وهو مستعار لعدم فهم المسموعات. جُعل عدم الفهم بمنزلة الصمم.

{ **وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا** } كلمة {كُلَّ} هنا مستعملة في الكثرة مجازا، لتعذّر الحقيقة سواء كان التعذّر عقلا كما في هذه الآية، أم كان المتعذّر عادة. إذ يتعذّر أن يرى القوم كلّ ما يصحّ أن يكون آية، فلذلك كان المراد الكثرة الكثير.

{ **حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ** } (حتّى) حرف موضوع لإفادة الغاية. وقد يعدلّ عن ذلك. ويقع بعد (حتّى) جملة فتكون ابتدائية، أي: تؤذن بابتداء كلام مضمونه غاية لكلام قبلها. ولذلك قال ابن الحاجب في الكافية:

" إنّها تفيد السببية ". فليس المعنى أنّ استماعهم يمتدّ إلى وقت مجيئهم، ولا أنّ جعل الأكنة على قلوبهم والوقر في آذانهم يمتدّ إلى وقت مجيئهم، بل المعنى أن يتسبّب على استماعهم بدون فهم. وجعل الوقر على آذانهم والأكنّة على قلوبهم أنّهم إذا جاؤوك جادلوك.

{ **جاءوك** } أي: جاؤوك مجادلين، يُظهرون لقومهم أنّهم أكفاء لهذه المجادلة.

{ **يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا** } عُدل عن الإضمار إلى الإظهار لزيادة التسجيل عليهم بالكفر، وأنّهم ما جاؤوا طالبين الحقّ كما يدّعون، ولكنّهم قد دخلوا بالكفر وخرجوا به.

{ **إِنْ هَذَا إِلّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ** } فهم قد عدلوا عن الجدلّ إلى المباهتة والمكابرة.

الأساطير: جمع أُسْطورة وهي القصّة والخبر عن الماضين. والأظهر أنّه لفظ معرّب عن الرومية: أصله إسطوريا (بكسر الهمزة) وهو القصة.

وكان العرب يطلقونه على ما يتسامر النّاس به من القصص والأخبار على اختلاف أحوالها من صدق وكذب. وقد كانوا لا يميّزون بين التواريخ والقصص والخرافات فجميع ذلك مرمي بالكذب والمبالغة.

فيحتمل أنّهم أرادوا نسبة أخبار القرآن إلى الكذب على ما تعارفوه من اعتقادهم في الأساطير.

ويشتمل أنّهم أرادوا أنّ القرآن لا يخرج عن كونه مجموع قصص وأساطير، يعنون أنّه لا يستحقّ أن يكون من عند الله، لأنّهم لقصور أفهامهم أو لتجاهلهم يعرضون عن الاعتبار المقصود من تلك القصص ويأخذونها بمنزلة الخرافات التي يتسامر النّاس بها لتقصير الوقت.

{ **وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ** } [26].

ومعنى النهي عنه النهي عن استماعه. وكذلك النأي عنه معناه النأي عن استماعه، أي: هم ينهون النّاس عن استماعه ويتباعدون عن استماعه.

{ **يَنْهَوْنَ / وَيَنْأَوْنَ** } الجناس القريب من التمام.

{ **وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ** } قصر إضافي يفيد قلب اعتقادهم لأنّهم يظنون بالنهي والنأي عن القرآن أنّهم يضرّون النبيّ صلى الله عليه وسلم لئلا يتّبعوه ولا يتّبعه النّاس، وهم إنّما يهلكون أنفسهم بدوامهم على الضلال وبتضليل الناس، فيحملون أوزارهم وأوزار النّاس.

وفي هذه الجملة تسلية للرّسول عليه الصلاة والسلام وأن ما أرادوا به نكايته إنّما يضرّون به أنفسهم.

الهلاك: الموت. ويطلق على المضرّة الشديدة لأنّ الشائع بين النّاس أنّ الموت أشدّ الضرّ.

{ **وَمَا يَشْعُرُونَ** } زيادة في تحقيق الخطأ في اعتقادهم، وإظهارا لضعف عقولهم مع أنّهم كانوا يعدّون أنفسهم قادة للناس.

{ **وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** [27] **بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ** [28] }.

الخطاب للرّسول عليه الصلاة والسلام لأنّ في الخبر الواقع بعده تسلية له عما تضمّنه قوله تعالى { وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ }، فإنّه ابتدأ فعقّبه بقوله تعالى { وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ }، ثمّ أردفه بتمثيل حالهم يوم القيامة.

{ **وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ** } أي: لو تراهم إذ يوقفون. أي: أبلغوا اليها بعد سير، فلا تدل (على) على أنّ وقوفهم على النّار كان من أعلى النّار، وأصله من قول العرب: وقفت راحلتي على زيد، أي: بلغت إليه.

{ **فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** } لأنّ ما شاهدوه من الهول قد علموا أنّه جزاء تكذيبهم.

{ **يَا لَيْتَنَا** } حرف النداء مستعمل في التحسّر، لأنّ النداء يقتضي بعد المنادى، فاستُعمل في التحسّر لأنّ المتمنّى صار بعيدا عنهم، أي: غير مفيد لهم، كقوله تعالى { أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ } [الزمر:56].

{ **نُرَدُّ** } نرجع إلى الدنيا، وعطف عليه { وَلا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } برفع الفعلين بعد (لا) النافية في قراءة الجمهور عطفا على { نُرَدُّ }، فيكون من جملة ما تمنّوه، والردّ غير مقصود لذاته

وإنّما تمنّوه لما يقع معه من الإيمان وترك التكذيب.
وقرأه حمزة والكسائي { وَلا نُكَذِّبَ ـ وَنَكُونَ } بنصب الفعلين، على أنّهما منصوبان في جواب التمنّي.
{ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ } إضراب عن قولهم { وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}.
المعنى: بل لأنّهم لم يبق لهم مطمع في الخلاص.
بدا: الشيء ظهر، وهو هنا مجاز في زوال الشكّ في الشيء.
{ مَا كَانُوا يُخْفُونَ } علمنا أنّ البداء هو ظهور أمر في أنفسهم كانوا يخفونه في الدنيا، ففي الكلام احتباك، تقديره: بل بدا لهم ما كان يبدو لهم في الدنيا فأظهروه الآن وكانوا يخفونه. وذلك أنّهم كانوا يخطر لهم الإيمان لما يرون من دلائله أو من نصر المؤمنين فيصدّهم عنه العناد والحرص على استبقاء السيادة، والأنفة من الاعتراف بفضل الرّسول وبسبق المؤمنين إلى الخيرات قبلهم، وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى { رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِين } [الحجر:2].
{ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ } ارتقاء في إبطال قولهم. أي: لو أجيبت أمنيتهم وردّوا إلى الدنيا لعادوا للأمر الذي كان النبيّ ينهاهم عنه، لأنّهم تمنّوا ما تمنوا من شدّة الهول، فتوهّموا التخلّص منه بهذا التمنّي فلو تحقّق تمنّيهم وردّوا واستراحوا من ذلك الهول لغلبت أهواؤهم رشدَهم فنسوا ما حلّ بهم ورجعوا إلى ما ألفوا من التكذيب والمكابرة.
{ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } تذييل لما قبله. جيء بالجملة الاسمية الدالة على الدوام والثبات، أي: أنّ الكذب سجيّة لهم.
فليس وصفهم بالكذب بعائد إلى التمنّي بل إلى ما تضمّنه من الوعد بالإيمان وعدم التكذيب بآيات الله.

{ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ } [29].

يجوز أن يكون عطفا على قوله تعالى { لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ }، فيكون جواب { لَوْ }، أي: لو ردّوا لكذّبوا بالقرآن أيضا، ولكذّبوا بالبعث كما كانوا مدّة الحياة الأولى.
ويجوز أن تكون الجملة عطفت على جملة { يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ }، ويكون ما بين الجملتين اعتراضا يتعلّق بالتكذيب للقرآن.
{ إِنْ هِيَ إِلّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا } أي: لا حياة لنا غيرها، فبطلت حياة بعد الموت.
{ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ } نفي للبعث، مؤكِّدة للجملة قبلها.

{ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ } [30].

لمّا ذكر إنكارهم البعث أعقبه بوصف حالهم حين يحشرون إلى الله، وهو حال البعث الذي أنكروه.

{ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ } استئناف بياني، والإشارة إلى البعث الذي عاينوه وشاهدوه. والاستفهام تقريري والمقصود: أهذا حق؟ فإنّهم كانوا يزعمونه باطلا. ولذلك أجابوا بالحرف الموضوع لإبطال ما قبله وهو (بلى)، أي: بلى هو حقّ، وأكّدوا ذلك بالقسم، أي: نقرّ ولا نشك فيه، فلذلك نقسم عليه.

{ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ } على طريقة فصل المحاورات. أي: إذ كان هذا الحقّ، فذوقوا العذاب على كفركم أو بسبب كفركم.

وذوق العذاب استعارة لإحساسه، لأنّ الذوق أقوى الحواس المباشرة للجسم، فشبه به إحساس الجلد.

{ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ } [31].

استئناف للتعجيب من حالهم حين يقعون يوم القيامة في العذاب على ما استداموه من الكفر الذي جرّأهم على استدامته اعتقادهم نفي البعث، فذاقوا العذاب لذلك. فتلك حالة يستحقّون بها أن يقال فيهم: قد خسروا وخابوا.

الخسران: تقدّم القول فيه عند قوله تعالى { الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ } [12].

والخسارة هنا حرمان خيرات الآخرة لا الدنيا.

{ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ } هم الذين حكي عنهم بقوله تعالى { وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا }.

لقاء الله: هو ظهور آثاره، رضاه وغضبه، دون تأخير ولا إمهال، ولا وقاية بأسباب عادية من نظام الحياة الدنيا. فاللقاء استعارة تمثيليّة، شُبّهت حالة الخلق عند المصير إلى تنفيذ وعد الله ووعيده بحالة العبيد عند حضور سيّدهم بعد غيبة ليجزيهم على ما فعلوه. وشاع هذا التمثيل في القرآن وكلام الرّسول صلى الله عليه وسلم، كما قال: **" من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه "**، وفي القرآن { لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ } [غافر:15].

{ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً } (حتّى) هنا ابتدائية، وهي لا تفيد الغاية وإنما تفيد السببيّة، أي: فإذا جاءتهم الساعة بغتة.

البغتة: فعلة من البغْت، وهو مصدر بَغَته الأمر إذا نزل به فجأة من غير ترقّب ولا إعلام.

{ قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا } نداء مقصود به التعجّب والتندم.

الحسرة: الندم الشديد، وهو التلهّف.

{ **فَرَّطْنَا** } أضعنا. يقال: فرّط في الأمر إذا تهاون به ولم يحفظه، أو في اكتسابه حتّى فاته وأفلت منه. أي: ما فوتناه من الأعمال النافعة لأجل نفع هذه الساعة.

{ **وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ** } في موضع الحال من ضمير { قَالُوا }، أي: قالوا ذلك في حال أنّهم يحملون أوزارهم، فهم بين تلهّف على التفريط في الأعمال الصالحة والإيمان، وبين مقاساة العذاب على الأوزار التي اقترفوها، أي: لم يكونوا محرومين من خير ذلك اليوم فحسب، بل كانوا مع ذلك متعبين مثقلين بالعذاب.

الأوزار: جمع وِزر، وهو الحمل الثقيل، وفعله وزر يزر إذا حمل. وأطلق الوزر على الذنب والجناية لثقل عاقبتها على جانيها.

وهو تمثيل لهيئة عنتهم من جرّاء ذنوبهم بحال من يحمل حملا ثقيلا.

{ **عَلَى ظُهُورِهِمْ** } هنا مبالغة في تمثيل الحالة. فإنّ الحمل على الظهر مؤذن بنهاية ثقل المحمول.

{ **أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ** } تذييل. و(ألا) حرف استفتاح يفيد التنبيه للعناية بالخبر. أي: ساء ما يمثّل به حالهم.

{ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ } [32].

لمّا جرى ذكر الساعة وما يلحق المشركين فيها من الحسرة على ما فرّطوا ناسب أن يُذكّر النّاس بأنّ الحياة الدنيا زائلة وأنّ عليهم أن يستعدّوا للحياة الآخرة.

فيحتمل أن يكون جوابا لقول المشركين { إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ }. فتكون الواو للحال، أي: تقولون إن هي إلّا حياتنا الدنيا ولو نظرتم حقّ النظر لوجدتم الحياة الدنيا لعبا ولهوا وليس فيها شيء باق، فلعلمتم أنّ وراءها حياة أخرى فيها من الخيرات ما هو أعظم ممّا في الدنيا وإنما يناله المتّقون، أي: المؤمنون. فتكون الآية إعادة لدعوتهم إلى الإيمان والتقوى، ويكون الخطاب في قوله تعالى { أَفَلا تَعْقِلُونَ } التفاتا من الحديث عنهم بالغيبة إلى خطابهم بالدعوة.

ويحتمل أنّه اعتراض بالتذييل لحكاية حالهم في الآخرة، فإنّه لمّا حكى قولهم { يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا} علم السامع أنّهم فرّطوا في الأمور النافعة لهم في الآخرة بسبب الانهماك في زخارف الدنيا، فذيّل ذلك بخطاب المؤمنين تعريفا بقيمة زخارف الدنيا وتبشيرا لهم بأنّ الآخرة هي دار الخير للمؤمنين، فتكون الواو عطفت جملة البشارة على حكاية النذارة. والمناسبة هي التضادد.

{ **وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ** } قصر الحياة على اللعب واللهو، وهو قصر موصوف على صفة. والمراد بالحياة الأعمال التي يحبّ الإنسان الحياة لأجلها.

{ **لَعِبٌ وَلَهْوٌ** } مصدران أريد بهما الوصف للمبالغة.

{ **وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ** } والفوز فيها لا يكون إلّا بعمل في الدنيا، فأنتج أنّ عملهم في الدنيا ليس اللهو واللعب، وأنّ حياة غيرهم هي المقصورة على اللهو واللعب.

الدَّارُ الْآخِرَةُ: مقر النّاس الأخير الذي لا تحوّل بعده.

{ **خَيْرٌ** } تفضيل على الدنيا باعتبار ما في الدنيا من نعيم عاجل زائل يلحق معظمه مؤاخذة وعذاب.

{ **لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ** } المؤمنون التابعون لما أمر الله به. وفيه تأييس للمشركين.

{ **أَفَلا تَعْقِلُونَ** } الاستفهام عن عدم عقلهم مستعمل في التوبيخ إن كان خطابا للمشركين، أو في التحذير إن كان خطابا للمؤمنين.

{ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ } [33].

استئناف ابتدائي قُصد به تسلية الرّسول صلى الله عليه وسلم وأمره بالصبر، ووعده بالنصر، وتأييسه من إيمان المتغالين في الكفر. وقد تهيّأ المقام لهذا الغرض بعد الفراغ من محاجّة المشركين في إبطال شركهم وإبطال إنكارهم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، والفراغ من وعيدهم وفضيحة مكابرتهم.

المعنى: علمنا بأنّ الذي يقولونه يحزنك فتصبّر.

{ **الَّذِي يَقُولُونَ** } أقوالهم الدالة على عدم تصديقهم الرّسول صلى الله عليه وسلم.

{ **فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ** } الفاء يجوز أن تكون للتعليل، أي: فلا تحزن فإنّهم لا يكذبونك. فالله قد سلّى رسوله عليه الصلاة والسلام بأن أخبره بأنّ المشركين لا يكذّبونه ولكنّهم أهل جحود ومكابرة. وكفى بذلك تسلية. وقرأ نافع، والكسائي، وأبو جعفر { لا يُكْذِبُونَكَ } (بسكون الكاف وتخفيف الذال). وقرأه الجمهور(بفتح الكاف وتشديد الذال). وقد قال بعض أئمة اللغة إن أكذب وكذّب بمعنى واحد، أي نسبه إلى الكذب.

{ **وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ** } استدراك لدفع أن يتوهم من قوله تعالى { لا يُكْذِبُونَكَ }، على قراءة نافع ومن وافقه، أنّهم صدّقوا وآمنوا، وعلى قراءة البقية { لا يُكَذِّبُونَكَ } أنّهم لم يصدر منهم أصل التكذيب مع أنّ الواقع خلاف ذلك.

{ **يَجْحَدُونَ** } الجحد والجحود، الإنكار للأمر المعروف، أي: الإنكار مع العلم بوقوع ما يُنكر، فهو نفي ما يعلم النافي ثبوته، فهو إنكار مكابرة. وعدّي { يَجْحَدُونَ } بالباء لتأكيد تعلّق الجحد بالمجحود.

ثمّ إن الجحد بآيات الله أريد به الجحد بما جاء به الرّسول صلى الله عليه وسلم من الآيات. وجحدها إنكار أنّها من آيات الله، أي: تكذيب الآتي بها في قوله: إنّها من عند الله، فآل ذلك إلى أنّهم يكذّبون الرّسول عليه الصلاة والسلام فكيف يجمع هذا مع قوله تعالى { فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ } على قراءة الجمهور؟

والذي يستخلص من سياق الآية أنّ المراد: فإنّهم لا يعتقدون أنّك كاذب، لأنّ الرّسول عليه الصلاة والسلام

معروف عندهم بالصدق وكان يلقّب بينهم بالأمين. ولأنّ الآيات التي جاء بها لا يمتري أحد في أنّها من عند الله، ولأنّ دلائل صدقه بيّنة واضحة، ولكنّهم ظالمون.

الظالم: هو الذي يجري على خلاف الحق بدون شبهة. فهم ينكرون الحقّ مع علمهم بأنّه الحقّ، وذلك هو الجحود. وقد أخبر الله عنهم بذلك وهو أعلم بسرائرهم. فيكون في الآية احتباك.

التقدير: فإنهم لا يكذّبونك ولا يكذبون الآيات ولكنّهم يجحدون بها ويجحدون بصدقك.

{ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدلّ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ } [34].

عطف على { فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ } أو على { وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ }. والكلام على كلّ تقدير تسلية وتهوين وتكريم بأنّ إساءة أهل الشرك لمحمد عليه الصلاة والسلام هي دون ما أساء الأقوام إلى الرّسل من قبله. وفي الكلام أيضا تأسٍ للرّسول عليه الصلاة والسلام بمن قبله من الرسل.

{ **كُذِّبَتْ** } قُرن بعلامة التأنيث لأنّ فاعل الفعل إذا كان جمع تكسير يرجّح اتصال الفعل بعلامة التأنيث على التأويل بالجماعة. ومن ثمّ جاء فعلا { **فَصَبَرُوا** } و { **كُذِّبُوا** } مقترنين بواو الجمع لأنّ فاعليهما ضميران مستتران فرجّح اعتبار التذكير.

{ **وَأُوذُوا** } عطف على { كُذِّبَتْ } عطف الأعم على الأخص، والأذى أعمّ من التكذيب، لأنّ الأذى هو ما يسوء ولو إساءة ما، وقيل يطلق على الشديد منه. وهو اسم اشتق منه آذى إذا جعل له أذى وألحقه به.

{ **حَتَّى** } ابتدائية أفادت غاية ما قبلها، وهو التكذيب والأذى والصبر عليهما، فإنّ النصر كان بإهلاك المكذّبين المؤذين، فكان غاية للتكذيب والأذى، وكان غاية للصبر الخاص، وهو الصبرعلى التكذيب والأذى.

{ **أَتَاهُمْ نَصْرُنَا** } مجاز في وقوع النصر بعد انتظاره، فشُبّه وقوعه بالمجيء من مكان بعيد. وتقدّم بيان هذا عند قوله تعالى { وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ } [4].

{ **وَلا مُبَدلّ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ** } عطف على { أَتَاهُمْ نَصْرُنَا }.

كلمات الله: وحيه للرّسل الدال على وعده إيّاهم بالنصر، كما دلّت عليه إضافة النصر إلى ضمير الجلالة. فالمراد كلمات من نوع خاص، فلا يرد أنّ بعض كلمات الله في التشريع قد تبدلّ بالنسخ. ويجوز أن تكون كلمات الله ما كتبه في أزله وقدّره من سننه في الأمم، أي: أنّ إهلاك المكذّبين يقع كما وقع إهلاك من قبلهم.

وهذا تطمين للنبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّ الله ينصره كما نصر من قبله من الرسل.

{ **وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ** } كلام جامع لتفاصيل ما حلّ بالمكذّبين، وكيف كان نصر الله رسله.

{ **جَاءَكَ** } القوله فيه كالقول في قوله تعالى { **أَتَاهُمْ نَصْرُنَا** }، مجاز في بلوغ ذلك وإعلام النبيّ صلى الله عليه وسلم به.

{ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ } [35].

عطف على جملة { قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ } [33]، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحزنه ما يقولونه فيه من التكذيب به وبالقرآن حزنا على جهل قومه بقدر النصيحة وإنكارهم فضيلة صاحبها، وحزنا من جرّاء الأسف عليهم من دوام ضلالهم شفقة عليهم، وقد سلّاه الله تعالى عن الحزن الأوّل بقوله

{ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ }، وسلاّه عن الثاني بقوله تعالى { وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ }.

{ **كَبُرَ** } هنا بمعنى شقّ عليك. وأصله عظم الجثّة، ثمّ استعمل مجازا في الأمور العظيمة الثقيلة لأنّ عظم الجثة يستلزم الثقل، ثمّ استُعمل مجازا في معنى (شقّ) لأنّ الثقيل يشقّ حمله.

الإعراض: مضى ذكره في قوله تعالى { وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ } [4]، وهو حالة أخرى غير حالة التكذيب، وكلتاهما من أسباب استمرار كفرهم.

الابتغاء: الطلب. تقدّم عند قوله تعالى { أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ } [آل عمران:83]، أي: أن تطلب نفقا أو سلّما لتبلغ إلى خبايا الأرض وعجائبها والى خبايا السماء. ومعنى الطلب هنا: البحث.

النفق: سرب في الأرض عميق.

السُلَّم: (بضم ففتح مع تشديد اللام) آلة للارتقاء تتخذ من حبلين غليظين متوازيين تصل بينهما أعواد أو حبال. ويُسمَّى مِرْقاة ومِدْرجة.

{ **فِي الْأَرْضِ** } صفة { نَفَقاً }، أي: متغلغلا، لإفادة المبالغة في العمق مع استحضار الحالة وتصوير الاستطاعة.

{ **فِي السَّمَاءِ** } وصف لـ { سُلَّماً } ، والمعنى: تبلغ به إلى السماء.

{ **بِآيَةٍ** } أي: بآية يسلّمون بها.

{ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى** } شرط امتناعي دلّ على أنّ الله لم يشأ ذلك. والمعنى: لهداهم أجمعين.

{ **فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ** } يجوز أن يكون من الجهل الذي هو ضدّ العلم، كما في قوله تعالى خطابا لنوح عليه السلام { إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ } [هود:46] ، وهو ما حمل عليه المفسرون هنا.

ويجوز أن يكون من الجهل ضد الحلم، أي: لا تضق صدرا بإعراضهم. وهو أنسب بقوله تعالى { وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ }. وليس فيه نهي عن شيء تلبّس به الرّسول صلى الله عليه وسلم كما توهّمه البعض.

{ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ } [36].

{ **يستجيب** } بمعنى يُجيب، فالسين والتاء زائدان للتأكيد، وحذف متعلّقه لظهوره من المقام لأنّ المقام مقام الدعوة إلى التوحيد وتصديق الرّسول.

{ **يَسْمَعُونَ** } أي: أنّهم يفقهون ما يُلقى إليهم من الإرشاد، لأنّ الضالين كمن لا يسمع. وهو سمع الاعتبار.

{ **وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ** } مقابل لـ { الَّذِينَ يَسْمَعُونَ }. فمعنى الكلام: وأمّا المعرضون عنك فهم مثل الموتى فلا يستجيبون، كقوله تعالى { إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى } [النمل:80] .فحذف من الكلام ما دلّ عليه السياق. فتضمّن الكلام تعريضا بأنّ هؤلاء كالأموات لا تُرجى منهم استجابة. وتخلّص إلى وعيدهم بأنّه يبعثهم بعد موتهم.

ويجوز أن يكون البعث استعارة أيضا للهداية بعد الضلال.

{ **ثمّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ** } زيادة في التهديد والوعيد. ويجوز، على الوجه الثاني، أن يكون تحريضا لهم على الإيمان ليلقوا جزاءه حين يرجعون إلى الله.

{ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ } [37].

عود إلى ما جاء في أوّل السورة من ذكر إعراضهم عن آيات الله بقوله تعالى { وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ } [4].

{ **لَوْلَا** } حرف تحضيض بمعنى (هلّا).

{ **آيَةٌ** } تقدّم الكلام على اشتقاقها عند قوله تعالى { وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا } [البقرة:39].

{ **قُلْ** } فصل فلم يعطف لأنه وقع موقع المحاورة.

{ **إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً** } أمر الله رسوله أن يجيبهم بما يُعلم منه أنّ الله لو شاء لأنزل آية على وفق مقترحهم تقوم عليهم بها الحجّة في تصديق الرسول، ولكنّ الله لم يرد ذلك لحكمة يعلمها.

{ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** } أي: ولكنّ أكثر المعاندين لا يعلمون أنّ ذلك لو شاء الله لفعله، ويحسبون أنّ عدم الإجابة إلى مقترحهم يدلّ على عدم صدق الرّسول عليه الصلاة والسلام، وذلك من ظلمة عقولهم.

وفيه تنبيه على أنّ فيهم من يعلم ذلك ولكنه يُكابر ويُظهر أنّه لا يتمّ عنده الاستدلال إلّا على نحو ما اقترحوه.

{ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إلّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثمّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ } [38].

معنى هذه الآية غامض بدءا، ونهايتها أشد غموضا، وموقعها في هذا السياق خفي المناسبة.

{ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إلّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ } أي: أنّ لها خصائص لكلّ جنس ونوع منها كما لأمم البشر خصائصها، أي: قد جعل الله لكلّ نوع ما به قوامه، وألهمه اتباع نظامه، وأنّ لها حياة مؤجّلة لا محالة. فمعنى { **أَمْثَالُكُمْ** }، المماثلة في الحياة الحيوانية وفي اختصاصها بنظامها.

{ ثمّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ } أنّها صائرة إلى الموت. ويعضده ما روي عن ابن عباس: " حشر البهائم موتها ". أي: فالحشر مستعمل في مجاز قريب إلى حقيقته اللغوية التي في نحو قوله تعالى { وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ } [النمل:17].

<u>فإذا وقع الالتفات إلى ما روي من الآثار المتعلّقة بالآية كان الأمر مشكلا:</u>

فقد روى مسلم عن أبي هريرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **" لتؤدّن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتّى يقاد للشاة الجلحاء** (التي لا قرن لها، وفي رواية غيره، الجمّاء) **من الشاة القرناء "**.

وروى أحمد بن حنبل وأبو داود الطيالسي في مسنديهما عن أبي ذرّ قال: " انتطحت شاتان أو عنزان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: **يا أبا ذر أتدري فيم انتطحتا؟** قلت: لا، قال: **لكنّ الله يدري وسيقضي بينهما يوم القيامة "**.

فهذا مقتضٍ إثبات حشر الدواب ليوم الحساب. وهذا ظاهر قوله { يُحْشَرُونَ } لأن غالب إطلاق الحشر في القرآن على الحشر للحساب.

<u>وقيل في بيان مناسبته</u>: إنّ المشركين ينكرون البعث ويجعلون إخبار الرّسول عليه الصلاة والسلام به من أسباب تهمته فيما جاء به، فلمّا توعّدهم الله بالآية السابقة بأنّهم إليه يرجعون زاد أن سجّل عليهم جهلهم فأخبرهم بما هو أعجب ممّا أنكروه، وهو إعلامهم بأنّ الحشر ليس يختصّ بالبشر بل يعمّ كلّ ما فيه حياة من الدواب والطير. أي: فالدواب والطير تبعث مثل البشر وتحضر أفرادها كلّها يوم الحشر، وذلك يقتضي لا محالة أن يقتص لها، فقد تكون حكمة حشرها تابعة لإلقاء الأرض ما فيها وإعادة أجزاء الحيوان.

وإذا كان المراد من هذين الحديثين ظاهرهما فإنّ هذا مظهر من مظاهر الحقّ يوم القيامة لإصلاح ما فرط في عالم الفناء من رواج الباطل وحكم القوة على العدالة، ويكون القصاص بتمكين المظلوم من

الدواب من رد فعل ظالمه كيلا يستقر الباطل. فهو من قبيل ترتّب المسبّبات على أسبابها شبيه بخطاب الوضع.

وليس في ذلك ثواب ولا عقاب لانتفاء التكليف ثمّ تصير الدواب يومئذ ترابا، كما ورد في رواية عن أبي هريرة في قوله تعالى { وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً } [النبأ:40] .

و قيل: إن هذا كلّه تمثيل للعدل. ونسبه المازري إلى بعض شيوخه قال: هو ضرب مثل، إعلاما للخلق بأن لا يبقى حقّ عند أحد ".

{ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ } الدابة مشتقّة من دبّ إذا مشى على الأرض، وهي اسم لكل ما يدبّ على الأرض. وهي صفة قُصد منها إفادة التعميم والشمول بذكر اسم المكان الذي يحوي جميع الدواب وهو الأرض.

{ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ } قصد به الشمول والإحاطة، لأنّه وصف آيل إلى معنى التوكيد. ونكتة التوكيد أنّ الخبر لغرابته عندهم وكونه مظنة إنكارهم أنّه حقيق بأن يؤكَّد.

{ أُمَمٌ } أحسب أنّ لفظ أمّة خاص بالجماعة العظيمة من البشر، فلا يقال في اللغة، أمّة الملائكة ولا أمّة السباع. وإطلاق الأمم على الدواب والطير في هذه الآية مجاز، أي: مثل الأمم، لأنّ كل نوع منها تجتمع أفراده في صفات متحدة بينها.

{ أَمْثَالُكُمْ } التشابه في النظم الفطرية التي فطر الله عليها أنواع المخلوقات. فالدواب والطير تماثل الأناسي في أنّها خلقت على طبيعة تشترك فيها أفراد أنواعها، وأنّها مخلوقة لله معطاة حياة مقدّرة مع تقدير ارازقها وولادتها وشبابها وهرمها، ولها نظم لا تستطيع تبديلها. وليست المماثلة براجعة إلى جميع الصفات فإنّها لا تماثل الإنسان في التفكير والحضارة المكتسبة من الفكر الذي اختصّ به الإنسان.

وأمّا قوله تعالى { وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ } [الإسراء:44] فذلك بلسان الحال في العجماوات، لأنّ في كلّ نوع منها خصائص لها دلالة على عظيم قدرة الله وعلمه تختلف عن بقية الأنواع من جنسه.

والمقصد من هذا صرف الأفهام إلى الاعتبار بنظام الخلق الذي أودعه الله في كل نوع.

والخطاب في قوله تعالى { أَمْثَالُكُمْ } موجه إلى المشركين.

{ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ } معترضة لبيان سعة علم الله تعالى وعظيم قدرته. فالكتاب هنا بمعنى المكتوب، وهو المكنَّى عنه بالقلم، المراد به ما سبق في علم الله وإرادته الجارية.

وقيل: المراد بالكتاب القرآن. وهذا بعيد إذ لا مناسبة بالغرض على هذا التفسير.

التفريط: الترك والإهمال. تقدّم عند قوله تعالى { قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا } [31].

{ ثمّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ } تقدّم تفسيره آنفا في أول تفسير هذه الآية.

وفي الآية تنبيه للمسلمين على الرفق بالحيوان، فإنّ الإخبار بأنّها أمم أمثالنا تنبيه على المشاركة في المخلوقيّة وصفات الحيوانيّة كلها. وقد ثبت في الحديث الصحيح أنّ الله شكر للذي سقى الكلب العطشان، وأنّ الله أدخل امرأة النّار في هرّة حبستها فماتت جوعا.

{ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } [39].

يجوز أن تكون الواو للعطف، والمعطوف عليه جملة { إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ }. والمعنى: والذين كذّبوا بآياتنا ولم يستمعوا لها، أي: لا يستجيبون، بمنزلة صم وبكم في ظلمات لا يهتدون.

ويجوز أن تكون الجملة مستأنفة والواو استئنافية، فإنّ الله لمّا ذكر من مخلوقاته وآثار قدرته ما شأنه أن يعرّف النّاس بوحدانيّته ويدلّهم على آياته وصدق رسوله، أعقبه ببيان أنّ المكذّبين في ضلال مبين عن الاهتداء لذلك، وعن التأمّل والتفكير فيه. والمراد بـ { الَّذِينَ كَذَّبُوا } المشركون.

{ صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ } تمثيل لحالهم في ضلال عقائدهم والابتعاد عن الاهتداء بحال قوم صم وبكم في ظلام. فالصمم يمنعهم من تلقي هدى من يهديهم، والبكم يمنعهم من الاسترشاد ممّن يمر بهم، والظلام يمنعهم من التبصّر في الطريق أو المنفذ المخرج لهم من مأزقهم.

{ الظُّلُمَاتِ } لم يوصفوا بأنّهم عمي كما في قوله تعالى { عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا } [الإسراء:97]، لتتطابق أجزاء التشبيه. لأنّ الكفر الذي هم فيه والذي أصارهم إلى استمرار الضلال يشبه الظلمات في الحيلولة بين الداخل فيه وبين الاهتداء إلى طريق النجاة.

والجمع جار على الفصيح من عدم استعمال الظلمة مفردا. وقيل: للإشارة إلى ظلمة الكفر، وظلمة الجهل، وظلمة العناد.

{ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ } استئناف بياني لأنّ حالهم العجيبة تثير سؤالًا وهو أن يقول قائل: ما بالهم لا يهتدون مع وضوح هذه الدلائل البيّنات؟ وهذا ممّا أشار إليه قوله تعالى { لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثمّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ } [التين:5/4].

وكلّ هذا من تصرف الله تعالى بالتكوين والخلق وهو تصرف القدر. وله اتصال بناموس التسلسل في تطور أحوال البشر في تصرّفاتهم بعقولهم وعوائدهم، وهي سلسلة بعيدة المدى اقتضتها حكمة الله تعالى في تدبير نظام هذا العالم، ولا يعلم كنهها إلّا الله تعالى.

وليس هذا الإضلال بالأمر بالضلال، فإنّ الله لا يأمر بالفحشاء ولا بتلقينه والحثّ عليه وتسهيله فإنّ ذلك من فعل الشيطان.

الصراط: هو الطريق البيّن، و**المستقيم**: أنّه لا اعوجاج فيه، لأنّ السير في الطريق المستقيم أيسر على السائر وأقرب وصولا إلى المقصود.

فالكلام تمثيل لحال الذي خلقه الله فمنَّ عليه بعقل يرعوي من غيّه ويُصغي إلى النصيحة فلا يقع في الفساد فاتّبع الدين الحق، بحال السائر في طريق واضحة لا يتحيّر ولا يخطئ القصد، ومستقيمة لا تطوّح به في طول السير.

{ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [40] بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ [41] }.

استئناف ابتدائي يتضمّن تهديدا بالوعيد، وتخلّله تعريض بالحثّ على خلع الشرك إذ ليس لشركائهم نفع بأيديهم، فذُكّروا بأحوال قد تعرض لهم يلجأون فيها إلى الله، وألقي عليهم سؤال، أيستمرون على الإشراك بالله في تلك الحالة؟ وهل يستمرون من الآن على الشرك إلى أن يأتيهم العذاب أو تأتيهم القيامة؟

{ **قُلْ** } افتتح هذا التهديد بالأمر بالقول اهتماما به. وقد تتابع الأمر بالقول في الآيات بعد هذه إلى قوله تعالى { لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ } [67] اثنتي عشرة مرة. وورد نظير ذلك في سورة يونس.

{ **أَرَأَيْتَكُمْ** } تركيب شهير الاستعمال، يفتتح بمثله الكلام الذي يُراد تحقيقه والاهتمام به. وهمزة الاستفهام فيه للاستفهام التقريري. و(رأى) فيه بمعنى الظن.

{ **إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ** } إتيان العذاب، حلوله وحصوله، فهو مجاز لأن حقيقة الإتيان المجيء. وإضافة العذاب إلى اسم الجلالة لتهويله لصدوره من أقدر القادرين. والمراد عذاب يحصل في الدنيا يضرعون إلى الله لرفعه عنهم بدليل قوله { أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ }، فإن الدعاء لا يكون بطلب رفع عذاب الآخرة. وهذ تهديد وإنذار.

{ **أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ** } ووجه إعادة الفعل مع كون حرف العطف مغنيا عن إعادة العامل لأنّه أقوى استقرارا في ذهن السامع. والاهتمام هنا دعا إليه التهويل وإدخال الروع في ضمير السامع.

{ **أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ** } أي: أتعرضون عن دعاء الله فتدعون غيره كما هو دأبكم الآن. وقد دلّ الكلام على التعجّب، أي: أتستمرون على هذه الحال. والكلام زيادة في الإنذار.

{ **إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } مستأنفة، وجوابها محذوف دلّ عليه قوله تعالى { أَرَأَيْتَكُمْ }، الذي هو بمعنى التقرير. فتقدير الجواب: إن كنتم صادقين فأنتم مقرّون بأنّكم لا تدعون غير الله.

ذكّرهم في هذه الآية، وألجأهم إلى النظر ليعلموا أنّه إذا أراد الله عذابهم لا تستطيع آلهتهم دفعه عنهم، فهم إن توخّوا الصدق في الخبر عن هذا المستقبل أعادوا التأمّل فلا يسعهم إلّا الاعتراف بأنّ الله إذا شاء شيئا لا يدفعه غيره إلّا بمشيئته.

{ **بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ** } حرف (بل) لإبطال دعوة غير الله. أي: فأنا أجيب عنكم بأنّكم لا تدعون إلّا الله. وتقديم المفعول على { تَدْعُونَ } للقصر وهو قصر إفراد للردّ على المشركين في زعمهم أنّهم يدعون الله ويدعون أصنامهم، تذكيرا لهم بحالهم في الدنيا.

{ **فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ** } هذا إطماع في رحمة الله لعلّهم يتذكّرون. وفيه دليل على أنّ الله تعالى قد يجيب دعوة الكافر في الدنيا تبعا لإجراء نعم الله على الكفّار. والخلاف في ذلك بين الأشعري والماتريدي آئل إلى الاختلاف اللفظي.

{ **وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ** } يجوز أن يكون النسيان على حقيقته، أي: يذهلون عن الأصنام لما يرون من هول العذاب وما يقع في نفوسهم من أنّه مرسل عليهم من الله فتنشغل أذهانهم بالذي أرسل العذاب وينسون الأصنام التي اعتادوا أن يستشفعوا بها.

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ [42] فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [43] فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ [44] فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [45] }.

لمّا أنذرهم بتوقّع العذاب أعقبه بالاستشهاد على وقوع العذاب بأمم من قبل، ليعلم هؤلاء أنّ تلك سنّة الله في الذين ظلموا بالشرك. وهذا الخبر مستعمل في إنذار السامعين من المشركين على طريقة التعريض.

{ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا** } افتتحت هذه الجملة بـ (لام) القسم و(قد) لتوكيد مضمون الجملة.

{ **فَأَخَذْنَاهُمْ** } أصبناهم إصابة تمكّن. وتقدّم تفسير الأخذ عند قوله تعالى { أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ } [البقرة:206]. عطف على { أَرْسَلْنَا }، دلّ العطف على محذوف تقديره: فكذّبوهم. و(الفاء) للإشارة إلى أنّ ذلك كان بمرأى رسلهم وقبل انقراضهم ليكون إشارة إلى أنّ الله أيّد رسله ونصرهم في حياتهم. وفيه تكرمة للنبيّ صلى الله عليه وسلم بإيذانه بأنّ الله ناصره على مكذّبيه.

{ **بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ** } تقدّما عند قوله تعالى { وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ } [البقرة:177].

{ **لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ** } للترجي. جعل علّة لابتداء أخذهم بالبأساء والضراء قبل الاستئصال.

يتضرّعون: يتذلّلون، لأنّ الضراعة التذلّل والتخشّع، وهو هنا كناية عن الاعتراف بالذنب والتوبة منه، وهي الإيمان بالرسل. والمراد: أنّ الله قدّم لهم عذابا هيّنا قبل العذاب الأكبر، كما قال { وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } [السجدة:21]. وهذا من فرط رحمته الممازجة لمقتضى حكمته، وفيه إنذار لقريش.

{ **فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا** } (لولا) حرف توبيخ لدخولها على جملة فعلية ماضوية واحدة. وليست هنا حرف امتناع لوجود. والتوبيخ إنّما يليق بالحاضرين دون المنقرضين لفوات المقصود.

<u>ويجوز</u> أن تُجعل (لولا) للتمنّي على طريقة المجاز المرسل. ويكون التمنّي كناية عن الإخبار بمحبة الله الأمر المتمنّى. كما في الحديث: **" الله أفرح بتوبة عبده ".**

مجيء البأس: مجيء أثره، فإنّ ما أصابهم من البأساء والضراء أثر من آثار قوّة قدرة الله تعالى وغلبه عليهم.

{ **وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } أي: ولكن اعتراهم ما في خلقتهم من المكابرة وعدم الرجوع عن الباطل، كأنّ قلوبهم لا تتأثر فشبّهت بالشيء القاسي. و**القسوة**: الصلابة. وقد وجد الشيطان من طباعهم عونا على نفث مراده فيهم فحسّن لهم تلك القساوة وأغراهم بالاستمرار على آثامهم وأعمالهم.

التزيين: جعل الشيء زينا، وتقدّم عند قوله تعالى { زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ } [آل عمران:14].

{ **فَلَمَّا نَسُوا**} النسيان هنا بمعنى الإعراض، أي: لمّا انصرفوا عن الفطنة بذلك ولم يهتدوا إلى تدارك أمرهم.

{ **مَا ذُكِّرُوا بِهِ** } أي: أنّ الله ذكّرهم عقابه العظيم بما قدّم إليهم من البأساء والضراء.

{ **فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حتّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً** } الفتح هنا استعارة لإزالة ما يؤلم ويغم. وقد جُعل الإعراض عمّا ذُكِّروا به وقتا لفتح أبواب الخير، لأنّ المعنى: أنّهم لمّا أعرضوا عن الاتعاظ بنذر العذاب رفعنا عنهم العذاب وفتحنا عليهم أبواب الخير، وهو إمهال لهم، لعلّهم يتذكّرون الله ويوحّدونه.

فَرِحُوا: ومعنى الفرح هنا هو الازدهاء والبطر بالنعمة ونسيان المنعم.

أَخَذْنَاهُمْ: أهلكناهم.

بَغْتَةً: من البغت وهو الفُجأة، أي: حصول الشيء على غير ترقّب.

{ **فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ** } (إذا) فجائية. و{ مُبْلِسُونَ } اليائسون من الخير المتحيّرون، وهو من **الإبلاس**، وهو الوجوم والسكوت عند طلب العفو يأسا من الاستجابة.

{ **فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ** } أي: فأخذناهم أخذ الاستئصال. فلم يُبق فيهم أحدا. ودابر النّاس آخرهم، وقطع الدابر كناية عن ذهاب الجميع، وهذا ممّا جرى مجرى المثل، وقد تكرّر في القرآن، كقوله تعالى { أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ } [الحجر:66].

{ **الَّذِينَ ظَلَمُوا** } المراد المشركون، فإنّ الشرك أعظم الظلم، لأنّه اعتداء على حق الله تعالى على عباده في أن يعترفوا له بالربوبية وحده.

{ **وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** } في المراد منها اعتبارات ثلاثة:

أحدها: أن تكون تلقينا للرّسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أن يحمدوا الله على نصره رسله وأولياءهم وإهلاك الظالمين.

ثانيها: أن يكون كناية، فكأنه قيل: فقُطع دابر القوم الذين ظلموا، وتلك نعمة من نعم الله تقتضي حمده.

ثالثها: أن يكون إنشاء الله تعالى ثناء على نفسه، تعريضا بالامتنان على الرّسول والمسلمين.

أخرج أحمد بن حنبل عن عقبة بن عامر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: " **إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه، ما يحب، فإنّما هو استدراج،** ثمّ تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: { فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حتّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }.

{ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثمّ هُمْ يَصْدِفُونَ } [46].

استئناف ابتدائي عاد به إلى الجدال معهم في إشراكهم بالله.

{ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ** } الرؤية قلبية متعدّية إلى مفعولين.

الأخذ: انتزاع الشيء وتناوله من مقرّه، وهو هنا مجاز في السلب والإعدام، ولك أن تجعله تمثيلا، لأنّ الله هو معطي السمع والبصر فإذا أزالها كانت تلك الإزالة كحالة أخذ ما كان أعطاه.

الختم على القلوب: تقدّم عند قوله تعالى { خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ } [البقرة:7]. والمراد بالقلوب العقول التي بها إدراك المعقولات.

{ **مِنْ إِلَهٍ** } معلّق لفعل الرؤية لأنّه استفهام، أي: أعلمتم جواب هذا الاستفهام أم أنتم في شك؟ وهو استفهام مستعمل في التقرير يُقصد منه إلجاء السامعين إلى النظر في جوابه فيوقنوا أنّه لا إله غير الله يأتيهم بذلك لأنّه الخالق للسمع والأبصار والعقول.

{ **غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ** } أي: ليس إله غير الله يأتي بذلك، فدلّ على الوحدانية. ويأتيكم به: يرجعه.

والكلام جار مجرى التهديد والتخويف، اختير فيه التهديد بانتزاع سمعهم وأبصارهم، وسلب الإدراك من قلوبهم، لأنّهم لم يشكروا نعمة هذه المواهب بل عدموا الانتفاع بها.

{ **انظر** } تنزيل للأمر المعقول منزلة المشاهد، وهو تصريف الآيات مع الإعراض عنها حتّى أنّ الناظر يستطيع أن يراها، فأمّا الأمر فهو مستعمل في التعجيب من حال إعراضهم. وهذا تذكير لهم بأنّ الله هو خالق أسماعهم وأبصارهم وألبابهم فما كان غيره جديرا بأن يعبدوه.

تصريف الآيات: اختلاف أنواعها بأن تأتي مرّة بحجج من مشاهدات في السماوات والأرض، وأخرى بحجج من دلائل في نفوس النّاس، ومرّة بحجج من أحوال الأمم الخالية التي أنشأها الله، وهي أيضا مختلفة في تركيب دلائلها من جهتي المقدّمات العقليّة وغيرها، ومن جهتي الترغيب والترهيب، ومن التنبيه والتذكير، بحيث تستوعب الإحاطة بالأفهام على اختلاف مدارك العقول.

{ **ثمّ هُمْ يَصْدِفُونَ** } استُعمل فعلا مضارعا للدلالة على تجدّد الإعراض منهم. وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي لتقوي الحكم.

يصدفون: يعرضون إعراضا شديدا. يقال: صَدَف صَدْفا وصُدوفا، إذا مال إلى جانب وأعرض عن الشيء.

{ **قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ** } [47].

استئناف للتهديد والتوعّد، وإعذار لهم بأنّ إعراضهم لا يرجع بالسوء إلّا عليهم ولا يضرّ بغيرهم.

{ **قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً** } كالقول في نظيريه المتقدمين.

البغتة: تقدّمت آنفا.

الجهرة: الجهر، ضد الخفية، وضد السرّ.

وقد أوقع الجهرة هنا في مقابلة البغتة وكان الظاهر أن تقابل البغتة بالنظرة أو أن تقابل الجهرة بالخفية، إلّا أنّ البغتة لمّا كانت وقوع الشيء من غير شعور به كان حصولها خفيا فحسن مقابلته بالجهرة، فالعذاب الذي يجيء بغتة هو الذي لا تسبقه علامة ولا إعلام به. والذي يجيء جهرة هو الذي تسبقه علامة.

وليس المراد من البغتة الحاصل ليلا ومن الجهرة الحاصل نهارا.

{ **هَلْ يُهْلَكُ** } الاستفهام مستعمل في الإنكار فلذلك جاء بعده الاستثناء.

{ **إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ** } أي: لا يهلك بذلك العذاب إلّا المشركو، لأنّهم ظالمون أنفسهم وظالمون الرّسول والمؤمنين. وهذا يتضمن وعدا من الله تعالى بأنّه منجي المؤمنين.

{ **وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ [48] وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ [49]** }.

عطف على جملة { انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثمّ هُمْ يَصْدِفُونَ } [46]. والمناسبة أنّ صدوفهم وإعراضهم كانوا يتعلّلون له بأنّهم يرومون آيات على وفق مقترحهم وأنّهم لا يقنعون بآيات الوحدانيّة، فأنبأهم الله بأنّ إرسال الرسل للتبليغ والتبشير والنذارة لا للتلهّي بهم باقتراح الآيات.

{ **نُرْسِلُ** } المضارع للدلالة على تجدّد الإرسال مقارنا لهذين الحالين، أي: ما أرسلنا وما نرسل.

{ **إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ** } أي: لم نرسل الرّسول للإعجاب بإظهار خوارق العادات. وكُنّي بالتبشير والإنذار عن التبليغ لأنّ التبليغ يستلزم الأمرين وهما الترغيب والترهيب.

{ **فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** } للتفريع، أي: فمن آمن من المرسل إليهم فلا خوف.

{ **أَصْلَحَ** } فعل الصلاح، وهو الطاعة لله فيما أمر ونهى، لأنّ الله ما أراد بشرعه إلّا إصلاح النّاس كما حكى عن شعيب { إِنْ أُرِيدُ إِلّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ } [هود:88].

{ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ }

المس: حقيقته مباشرة الجسم باليد وهو مرادف اللمس والجسّ، ويستعار لإصابة جسم جسما آخر كما هنا.

الفسق: حقيقته الخروج عن حد الخير. وشاع استعماله في القرآن في معنى الكفر وتجاوز حدود الله تعالى. وتقدّم تفصيله عند قوله تعالى { وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلّا الْفَاسِقِينَ } [البقرة:26].

{ **يَفْسُقُونَ** } جيء بخبر(كان) جملة مضارعية للإشارة إلى أنّ فسقهم كان متجدّدا متكرّرا.

{ قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ } [50].

استئناف ابتدائي انتقل به الكلام من غرض إلى غرض. والاقتصار على نفي ادعاء هذه الثلاثة المذكورة في الآية ناظر إلى ما تقدّم ذكره من الآيات التي سألوها من قوله تعالى { وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ } [8]، وقوله تعالى { وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ } [7]، وقوله تعالى { فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ } [35].

{ **لَكُمْ** } لام التبليغ، وهي مفيدة تقوية فعل القول عندما لا تكون حاجة لذكر المواجه بالقول.

الخزائن: جمع خِزانة وهي البيت أو الصندوق الذي يحتوي ما تتوق إليه النفوس وما ينفع عند الشدّة والحاجة. والمعنى: أنّي ليس لي تصرّف مع الله ولا أدّعي أني خازن معلومات الله وأرزاقه.

{ **خَزَائِنُ اللَّهِ** } مستعارة لتعلّق قدرة الله بالإنعام وإعطاء الخيرات النافعة للنّاس في الدنيا.

{ **وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ** } أي: ولا أقول أنّي أعلم الغيب، أي: علما مستمرّا ملازما لصفة الرسالة. فأمّا إخباره عن بعض المغيّبات فذلك عند إرادة الله إطلاعه عليه بوحي خاص، كما قال تعالى { عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إِلّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ } [الجن:27/26].

{ **وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ** } أي: لم أدَّع أنّي من الملائكة.

{ **إِنْ أَتَّبِعُ إِلّا مَا يُوحَى إِلَيَّ** } مستأنفة استئنافا بيانيا، أي: ليست الرسالة إلّا التبليغ عن الله تعالى بواسطة الوحي. أي: لا أتبع في التبليغ إليكم إلّا ما يوحى إليّ.

وليس في هذا الكلام ما يقتضي قصر تصرّف الرّسول عليه الصلاة والسلام على العمل بالوحي حتّى يحتجّ بها من ينفي من علمائنا جواز الاجتهاد للنبي صلى الله عليه وسلم في أمور الدين، لأنّ تلك مسألة مستقلّة لها أدلّة للجانبين، ولا مساس لها بهذا القصر. ومن توهّمه فقد أساء التأويل.

{ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ** } هذا ختام للمجادلة معهم. وشُبِّهت حالة من لا يفقه الأدلة ولا يفكّك بين المعاني المتشابهة بحالة الأعمى الذي لا يعرف أين يقصد ولا أين يضع قدمه.

{ **أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ** } استفهام إنكار. لأنّ عدم استواء الأعمى والبصير بديهي لا يسعهم إلّا الإعتراف به.

التفكّر: جولان العقل في طريق استفادة علم صحيح.

{ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [51].

الأظهر أنّه عطف على قوله تعالى { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ } [50]، لأنّ ذلك مقدّمة لذكر من مُثّلت حالهم بحال البصير وهم المؤمنون.

{ **بِهِ** } هو القرآن وما يوحى به إلى الرّسول صلى الله عليه وسلم.

{ **الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ** } هم المؤمنون الممثّلون بحال البصير. لأنّ الإنذار للذين يخافون أن يحشروا إنذار نافع. أي: يخافون الحشر إلى ربّهم فهم يُقدِّمون الأعمال الصالحة وينتهون عمّا نهاهم، خيفة أن يلقوا الله وهو غير راض عنهم.

{ **لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ** } أي: ليسوا ممّن يزعمون أنّ لهم شفعاء عند الله لا تردّ شفاعتهم، فهم بخلاف المشركين الذين زعموا أصنامهم شفعاء لهم عند الله. وفي الآية دليل على ثبوت الشفاعة بإذن الله كما قال تعالى { مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلّا بِإِذْنِهِ } [البقرة: 255]

{ **لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** } رجاء مسوق مساق التعليل للأمر بإنذار المؤمنين لأنّهم يُرجى تقواهم، بخلاف من لا يؤمنون بالبعث.

{ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ } [52].

عطف على قوله تعالى { وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ } [51]، لأنّه في معنى أنذرهم ولازمهم وإن كره ذلك متكبّرو المشركين.

روى مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: " كنّا مع النبيّ ستة نفر، فقال المشركون للنبيّ: " أطرد هؤلاء لا يجترئون علينا. قال: وكنت أنا، وابن مسعود، ورجل من هذيل، وبلال، ورجلان، لست أسمّيهما، فوقع في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يقع، فحدّث نفسه فأنزل الله تعالى { وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ } ". وسَمَّى الواحدي بقية الستة: وهم صهيب، وعمار بن ياسر، والمقداد ابن الأسود، وخباب بن الأرت.

وذكر الواحدي في أسباب النزول: " أنّ هذه الآية نزلت في حياة أبي طالب. فعن عكرمة قال: جاء عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، ومطعم بن عدي، والحارث بن نوفل، في أشراف بني عبد مناف إلى أبي طالب فقالوا: " لو أنّ ابن أخيك محمدا يطرد عنه موالينا وعبيدنا وعتقاءنا كان أعظم في صدورنا وأطمع له عندنا وأرجى لاتّباعنا إيّاه وتصديقنا له. فأتى أبو طالب إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فحدثه بالذي كلّموه، فقال عمر بن الخطاب : " لو فعلت ذلك حتّى ننظر ما الذي يريدون وإلام يصيرون من قولهم، فأنزل الله هذه الآيات". فلمّا نزلت أقبل عمر يعتذر.

المعنى: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لحرصه على إيمان عظماء قريش ليكونوا قدوة لقومهم، ولعلمه بأنّ أصحابه يحرصون حرصه ولا يوحشهم أن يقاموا من المجلس إذا حضره عظماء قريش لأنّهم آمنوا يريدون وجه الله لا للرياء والسمعة ولكن الله نهاه عن ذلك. وسمّاه طردا تأكيدا لمعنى النهى، وذلك لحكمة هي أرجح من الطمع في إيمان أولئك، لأنّ الله اطّلع على سرائرهم فعلم أنّهم لا يؤمنون، وأراد الله أن يظهر استغناء دينه ورسوله عن الاعتزاز بأولئك الطغاة القساة، وليُظهر لهم أنّ أولئك الضعفاء خير منهم، وأنّ الحرص على قربهم من الرّسول صلى الله عليه وسلم أولى من الحرص على قرب المشركين، وأنّ الدين يرغّب النّاس فيه وليس هو يرغب في النّاس كما قال تعالى { يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [الحجرات:17].

{ **يَدْعُونَ رَبَّهُمْ** } يعلنون إيمانهم به دون الأصنام إعلانا بالقول.

الغداة: أوّل النهار. و**العشيّ:** من الزوال إلى الصباح. والمعنى: أنّهم يدعون الله اليوم كلّه.

{ **يُرِيدُونَ وَجْهَهُ** } أي: يدعون مخلصين يريدون وجه الله، أي: لا يريدون حظا دنيويا.

الوجه: هنا مستعار للذات على اعتبار مضاف، أي: يريدون رضى الله، أي: لايريدون إرضاء غيره. ومنه قوله تعالى { إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً } [الانسان:9]. وهو ثناء عليهم بكمال إيمانهم، وشهادة لهم بأنّهم مجرّدون عن الغايات الدنيوية كلّها.

{ **مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ** } تعليل للنهي عن طردهم.

الحساب: هنا مصدر حاسب. والمراد به تتبّع الأعمال والأحوال والنظر فيما تقابل به من جزاء.

{ **وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ** } أي: أنّهم أهل الحق في مجلسك لأنّهم مؤمنون فلا يُطردون عنه وما عليك أن تحسب ما عدا ذلك من الأمور العارضة لهم بزعم المشركين، وأن حضور أولئك في مجلسك يصد كبراء المشركين عن الإيمان، أي: أن ذلك مدحوض تجاه حقّ المؤمنين في مجلس رسولهم وسماع هديه.

وقيل: إنّ المشركين طعنوا في إخلاص هؤلاء النفر، قالوا: يا محمد إنّ هؤلاء إنّما اجتمعوا عندك وقبلوا دينك لأنّهم يجدون مأكولا وملبوسا عندك، فقال الله تعالى: ما يلزمك إلّا اعتبار ظاهرهم وإن كان لهم باطن يخالفه فحسابهم على الله. فمعنى حسابهم على هذا الوجه تمحيص نيّاتهم وبواطنهم. والقصد من هذا تبكيت المشركين على طريقة إرخاء العنان.

{ **فَتَطْرُدَهُمْ** } إعادة فعل الطرد لإفادة تأكيد ذلك النهي.

{ **فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ** } أي: فتكون من الظالمين بطردهم.

{ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ} [53].

الواو استئنافية، الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا لأنّ السامع لمّا شعر بقصة أومأ إليها قوله تعالى { وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ...} [52] يأخذه العجب من كبرياء عظماء أهل الشرك وكيف يرضون البقاء في ضلالة تكبّرا عن غشيان مجلس فيه ضعفاء النّاس من الصالحين، فأجيب بأنّ هذا الخُلُق العجيب فتنة عظيمة في نفوس المشركين إذ جمعت كبرا وعُجبا وغرورا بما ليس فيهم، إلى احتقارٍ للأفاضل وحسدٍ لهم، وظلم لأصحاب الحق، وإذ حالت بينهم وبين الإيمان والانتفاع بالقرب من مجلس الرّسول صلى الله عليه وسلم.

{ **وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ** } المراد بالبعض المنصوب المشركون فهم المفتونون، وبالبعض المجرور بالباء المؤمنون، أي: فتنا عظماء المشركين في استمرار شركهم وشرك مقلّديهم بحال الفقراء من المؤمنين الخالصين، كما دلّ عليه قوله { لِيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا }، فإنّ ذلك لا يقوله غير المشركين.

{ **لِيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا** } لام التعليل. والتقدير: فتنّاهم ليروا لأنفسهم شفوفا واستحقاقا للتقدّم في الفضائل اغترارا بحال الترفّه فيعجبوا كيف يُدّعى أنّ الله يمنّ بالهدى والفضل على ناس يرونهم أحط منهم، وكيف يُعدّون هم دونهم عند الله، وهذا من الغرور والعُجب الكاذب. وهذا كما حكى الله عنهم { وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } [الزخرف:31]. وهذه شنشنة معروفة من المستكبرين والطغاة.

{ **أَهَؤُلاءِ** } الاستفهام مستعمل في التعجّب والإنكار. والإشارة مستعملة في التحقير أو التعجيب.

وقد حدث بالمدينة مثل هذا. روى البخاري أنّ الأقرع بن حابس جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " إنّما بايعك سرّاق الحجيج من أسلم وغفار ومُزينة وجُهينة، فقال له رسول الله: " **أرأيت إن كانت أسلم وغفار ومزينة وجهينة خيرا من بني تميم وبني عامر وأسد وغطفان أخابوا وخسروا** " (أي أخاب بنو تميم ومن عطف عليهم) فقال: نعم قال: " **فوالذي نفسي بيده إنّهم لخير منهم** ".

{ **مِنْ بَيْنِنَا** } أي: من دوننا.

{ **أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ** } تذييل للجملة كلّها، فهو من كلام الله تعالى وليس من مقول القول، ولذلك فصل. والاستفهام تقريري. وعُدِّي (أعلم) بالباء لأنّه بصيغة التفضيل صار قاصرا.

المعنى: أنّ الله أعلم بالشاكرين من عباده فلذلك منّ على الذين أشاروا إليهم بقولهم { أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ}، بمنّة الإيمان والتوفيق.

ومعنى علمه تعالى بالشاكرين أنّه أعلم بالذين جاؤوا إلى الرّسول صلى الله عليه وسلم مستجيبين لدعوته بقريحة طالبين النجاة من الكفر راغبين في حسن العاقبة.

{ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآياتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثمّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [54].

ارتقاء في إكرام الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي.

{ يُؤْمِنُونَ بِآياتِنَا } أي: أنّهم يوقنون بأنّ الله قادر على أن ينزّل آيات جمّة. فهم يؤمنون بما نزّل من الآيات وبخاصة آيات القرآن.

{ فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ } قيل: معناه حَيِّهم بتحية الإسلام، وهي كلمة { سَلامٌ عَلَيْكُمْ }، وقيل: أبلغهم السلام من الله تعالى تكرمة لهم لمضادة طلب المشركين طردهم.

وقد أكرمهم الله كرامتين:

الكرامة الأولى: أن يبدأهم النبيّ صلى الله عليه وسلم بالسلام حين دخولهم عليه وهي مزيّة لهم، لأنّ شأن السلام أن يبتدئه الداخل، ثمّ يحتمل أن هذا حكم مستمر معهم كلّما أُدخلوا عليه صلى الله عليه وسلم، ويحتمل أنّه للمرة التي يبلغهم فيها هذه البشارة، فنزل هو منزلة القادم عليهم لأنّه زفّ إليهم هذه البشرى.

الكرامة الثانية: هي بشارتهم برضى الله عنهم بأن غفر لهم ما يعملون من سوء إذا تابوا من بعده وأصلحوا.

السلام: الأمان، كلمة قالتها العرب عند لقاء المرء بغيره دلالة على أنّه مسالم لا محارب، لأنّ العرب كانت بينهم دماء وتِرات وكانوا يثأرون لأنفسهم ولو بغير المعتدي من قبيلته، فكان الرجل إذا لقي من لا يعرفه لا يأمن أن يكون بينه وبين قبيلته إحن وحفائظ، فيؤمّن أحدهما الآخر بقوله: السلام عليكم، أو سلام، أو نحو ذلك. وقد حكاها الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام ثمّ شاع هذا اللفظ فصار مستعملا في التكرمة.

{ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ } مستأنفة استئنافا ابتدائيا وهي أوّل المقصود من المقول، وأمّا السلام فمقدّمة للكلام. وجوّز بعضهم أن تكون كلاما ثانيا. وتقدّم تفسير نظيره في قوله تعالى { كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ } [12].

{ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ } قرأه نافع، وابن عامر، وعاصم، ويعقوب، **{ أَنَّهُ }** - بفتح الهمزة- على أنّه بدلّ اشتمال من { الرَّحْمَةَ }، لأنّ الرحمة العامة تشتمل على غفران ذنب من عمل ذنبا ثمّ تاب

وأصلح. وقرأه الباقون { **إنَّهُ** } ـ بكسر الهمزة ـ على أن يكون استئنافا بيانيّا لجواب سؤال متوقّع عن مبلغ الرحمة.

{ **بِجَهَالَةٍ** } الباء للملابسة، أي: ملتبّسا بجهالة. وتطلق والجهالة على انتفاء العلم بشيء ما. وتطلق على ما يقابل الحلم. والمناسب هنا هو المعنى الثاني، أي: من عمل سوءا عن حماقة من نفسه وسفاهة، لأنّ المؤمن لا يأتي السيئات إلّا عن غلبة هواه رُشدَه ونُهاه. وهذا الوجه هو المناسب لتحقيق معنى الرحمة.

{ **ثمّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ** } أي: بعد السوء. و**أصلح**: صيّر نفسه صالحة، أو أصلح عمله بعد أن أساء. وقد تقدّم عند قوله تعالى { فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ } [المائدة:39]. وعند قوله تعالى

{ إلّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا } [البقرة:160].

{ **فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } دليل جواب الشرط، أي: هو شديد المغفرة والرحمة، وهذا كناية عن المغفرة لهذا التائب المصلح.

{ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ } [55].

التفصيل: التبيين والتوضيح، مشتق من الفصل، وهو تفرّق الشيء عن الشيء. ولمّا كانت الأشياء المختلطة إذا فصلت يتبيّن بعضها من بعض أطلق التفصيل على التبيين بعلاقة اللزوم، وشاع ذلك حتّى صار حقيقة.

الآيات: آيات القرآن. والمعنى: نفصّل الآيات ونبيّنها تفصيلا مثل هذا التفصيل الذي لا فوقه تفصيل، وهو تفصيل يحصل به علم المراد منها بيّنا.

{ **وَلِتَسْتَبِينَ** } عطف على علّة مقدّرة دلّ عليها قوله تعالى { وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ } لأنّ المشار إليه التفصيل البالغ غاية البيان. فالتقدير مثلا: وكذلك التفصيل نفصّل الآيات لتعلم بتفصيلها كنهها، ولتستبين سبيل المجرمين، ففي الكلام إيجاز الحذف.

{ **سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ** } طريقهم وسيرتهم في الظلم والحسد والكبر واحتقار النّاس والتصلّب في الكفر. والمجرمون هم المشركون.

{ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ } [56].

استئناف ابتدائي عاد به الكلام إلى إبطال الشرك بالتبرُّؤ من عبادة أصنامهم فإنه بعد أن أبطل إلهيّة الأصنام بطريق الاستدلال، جاء في هذه الآية بطريقة أخرى، وهي أنّ الله نهى رسوله عليه الصلاة

والسلام عن عبادتها وعن اتباع أهواء عبدتها.

{ **نُهِيتُ** } بني على صيغة المجهول لظهور المراد، أي: نهاني الله.

{ **تَدْعُونَ** } تعبدون وتلجَؤون إليهم في المهمّات، أي: تدعونهم.

{ **مِنْ دُونِ اللَّهِ** } هو حكاية لما غلب على المشركين من الاشتغال بعبادة الأصنام ودعائهم عن عبادة الله ودعائه، حتّى كأنّهم عبدوهم دون الله.

{ **قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ** } استئناف آخر ابتدائي، وقد عدل عن العطف إلى الاستئناف ليكون غرضا مستقلا. وأعيد الأمر بالقول زيادة في الاهتمام بالاستئناف واستقلاله ليكون هذا النفي شاملا للاتباع في عبادة الأصنام وفي غيرها من ضلالتهم كطلب طرد المؤمنين عن مجلسه.

الأهواء: جمع هوى، وهو المحبّة المفرطة. للإشارة إلى أنّهم في دينهم تابعون للهوى نابذون لدليل العقل. وفي هذا تجهيل لهم في إقامة دينهم على غير أصل متين.

{ **قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً** } جواب لشرط مقدّر، أي: إن اتبعت أهواءكم إذن قد ضللت.

{ **وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ** } تأكيد مضمون جملة { قَدْ ضَلَلْتُ } لأنّه نفى عن نفسه ضدّ الضلال فتقرَّرت حقيقة الضلال على الفرض والتقدير. وتأكيد الشيء بنفي ضدّه طريقة عربية قد اهتديت إليها.

{ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ } [57].

استئناف ابتدائي انتقل به الكلام من إبطال الشرك بدليل الوحي الإلهي المؤيّد للأدلة السابقة إلى إثبات صدق الرسالة بدليل من الله مؤيّد للأدلة السابقة أيضا، لييأسوا من محاولة إرجاع الرّسول صلى الله عليه وسلم عن دعوته إلى الإسلام وتشكيكه في وحيه، بقولهم: ساحر، مجنون، شاعر، أساطير الأولين، ولييأسوا أيضا من إدخال الشكّ عليه في صدق إيمان أصحابه، وإلقاء الوحشة بينه وبينهم بما حاولوا من طرده أصحابه عن مجلسه حين حضور خصومه، فأمره الله أن يقول لهم إنّه على يقين من أمر ربّه لا يتزعزع.

البيّنة: أي: الواضحة، فهي صفة جرت على موصوف محذوف للعلم به في الكلام، أي: دلالة بيّنة أو حجّة بيّنة. ثمّ شاع إطلاق هذا الوصف فصار اسما للحجّة المثبتة للحقّ التي لا يعتريها شكّ، وللدلالة الواضحة، وللمعجزة أيضا، فهي هنا يجوز أن تكون بمعنى الدلالة البيّنة، أي: اليقين. أي: أنّي متمكّن من اليقين في أمر الوحي.

{ **مِنْ رَبِّي** } صفة لـ { بَيِّنَةٍ } يفيد تعظيمها وكمالها. ويجوز أن تكون { مِنْ } اتصالية، أي: على يقين متصل بربي فلا أتردد في ذلك فلا تطمعوا في صرفي عن توحيده. وهذا حينئذ مسوق مساق التعريض بالمشركين في أنّهم على اضطراب من أمر آلهتهم وعلى غير بصيرة.

{ **وَكَذَّبْتُمْ بِهِ** } في موضع الحال من { بَيِّنَةٍ }. وهي تفيد التعجّب منهم أن كذّبوا بما دلت عليه البيّنة. ويجوز أن تكون معطوفة على جملة { إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي }، أي: أنا على بيّنة من ربّي وأنتم كذّبتم به.

{ **مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ** } استئناف بياني لأنّ حالهم في الإصرار على التكذيب ممّا يزيدهم عنادا عند سماع تسفيه أحلامهم وتنقّص عقائدهم فكانوا يقولون: لو كان قولك حقّا فأين الوعيد الذي توعدتنا. فجعلوا تأخّره إخلافا لتوعّده، فرد عليهم بأنّ الوعيد بيد الله.

{ **يَقُصُّ الْحَقَّ** } أي: يخبر بالحقّ. أي: هو أعلم بالحكمة في التأخير أو التعجيل.

{ **وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ** } وهو خير من يفصل بين النّاس، أو يقضي بالحق. والفصل يطلق بمعنى القضاء.

{ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ } [58].

أي: لو كان في علمي حكمته وفي قدرتي فعله. كناية عن معنى لست إلها، ولكنّني عبد أتّبع ما يوحى إليَّ.

{ **لَقُضِيَ الْأَمْرُ** } تم وانتهى. وقد شاع هذل التركيب حتّى جرى مجرى المثل، فحُذف الفاعل ليصلح التمثّل به في كل مقام.

وذلك القضاء يحتمل أمورا: منها أن يأتيهم بالآية المقترحة فيؤمنوا، أو أن يغضب فيهلكهم، أو أن يصرف قلوبهم عن طلب ما لا يجيبهم إليه فيتوبوا ويرجعوا.

{ **وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ** } تذييل، أي: الله أعلم منّي ومن كلّ أحد بحكمة تأخير العذاب وبوقت نزوله، لأنّه العليم الخبير الذي عنده ما تستعجلون به.

{ **بِالظَّالِمِينَ** } إظهار في مقام ضمير الخطاب لإشعارهم بأنّهم ظالمون في شركهم إذ اعتدوا على حق الله، وظالمون في تكذيبهم إذ اعتدوا على حق الله ورسوله، وظالمون في معاملتهم الرّسول صلى الله عليه وسلم.

{ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } [59].

انتقال لبيان اختصاصه تعالى بعلم الغيب وسعة علمه، ثمّ سعة قدرته وأنّ الخلق في قبضة قدرته.

المفاتح: جمع مِفْتَح (بكسر الميم)، وهو الآلة التي يفتح بها المغلق. قيل: مفتح أفصح من مفتاح.

الغيب: ما غاب على علم النّاس بحيث لا سبيل لهم إلى علمه، وذلك يشمل الأعيان المغيَّبة كالملائكة والجن، والأعراض الخفيّة، ومواقيت الأشياء.

{ **مَفَاتِحُ الْغَيْب** } شُبِّهت الأمور المغيّبة عن النّاس بالمتاع النفيس الذي يُدّخر بالمخازن والخزائن المستوثق عليها بأقفال بحيث لا يعلم ما فيها إلّا الذي بيده مفاتحها.

ومفاتح الغيب جمع مضاف يعم كل المغيّبات، لأنّ علمها كلّها خاص به تعالى، وأمّا الأمور التي لها أمارات مثل أمارات الأنواء وعلامات الأمراض عند الطبيب فتلك ليست من الغيب بل من أمور الشهادة الغامضة.

{ **لَا يَعْلَمُهَا إلّا هُوَ** } مبيّنة لمعنى { عِنْدَهُ }، أي: لا يعلم مكانها إلّا هو. فأمّا ما أطلع عليه بعض أصفيائه، كما قال تعالى {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إلّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ } [الجن:27]، فذلك علم يحصل لمن أطلعه بإخبار منه، فكان راجعا إلى علمه هو.

{ **وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ** } لإفادة تعميم علمه تعالى بالأشياء الظاهرة المتفاوتة في الظهور بعد إفادة علمه بما لا يظهر للنّاس. وذكر البرّ والبحر لقصد الإحاطة بجميع ما حوته هذه الكرة.

{ **وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ** } لقصد زيادة التعميم في الجزئيات الدقيقة. فإحاطة العلم بالخفايا مع كونها من أضعف الجزئيات مؤذن بإحاطة العلم بما هو أعظم أولى به.

{ **وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ** }

{ **ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ** } صفة لـ { حَبَّةٍ }، أي: ولا حبّة من بذور النبت مظروفة في طبقات الأرض إلى أبعد عمق يمكن

{ **إلّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ** } تأكيد لقوله تعالى { إلّا يَعْلَمُهَا }، لأنّ المراد بالكتاب المبين علم الله تعالى سواء كان الكتاب حقيقة أم مجازا عن الضبط وعدم التبديل. وحسَّن هذا التأكيد تجديد المعنى لبعد الأول بالمعطوفات وصفاتها، وأعيد بعبارة أخرى تفننا.

{ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثمّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثمّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثمّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [60].

انتقال من بيان سعة علمه إلى بيان عظيم قدرته، لأنّ ذلك كلّه من دلائل الإلهية تعليما لأوليائه ونعيا على المشركين أعدائه. وقد جرت عادة القرآن بذكر دلائل الوحدانية في أنفس النّاس عقب ذكر دلائلها في الآفاق، فجُمع ذلك هنا على وجه بديع مؤذن بتعليم صفاته في ضمن دليل وحدانيّته. وفيه تقريب للبعث بعد الموت.

{ **وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ** } الخطاب موجّه إلى المشركين كما يقتضيه السياق السابق، ولمّا كان هذا الحال غير خاص بالمشركين عُلم منه أنّ النّاس فيه سواء.

التوفّي: حقيقته الإماتة، لأنّه حقيقة في قبض الشيء مستوفى. وإطلاقه على النوم مجاز لشبه النوم بالموت في انقطاع الإدراك والعمل. ألّا ترى قوله تعالى { اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً } [الزمر:42].

{ **يَتَوَفَّاكُمْ** } المراد هنا النوم على التشبيه بقرينة { ثمّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ}. وفائدته، أنّه تقريب لكيفية البعث يوم القيامة.

{ **جَرَحْتُمْ** } كسبتم، وأصل الجرح تمزيق جلد الحي بشيء محدّد مثل السكين والسيف والظفر والناب.

قال تعالى { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } [الجاثية:21].

{ **وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ** } معترضة لقصد الامتنان بنعمة الإمهال، أي: ولولا فضله لما بعثكم في النّهار.

وفي الإخبار بذلك تحذير من اكتساب ما لا يرضى الله باكتسابه بالنسبة للمؤمنين، وتهديد للمشركين.

{ **ثمّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ** } أي: وهو يعلم ما تكتسبون من المناهي ثمّ يردّكم ويمهلكم. وهذا الكلام أنسب بالمشركين.

{ **لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى** } لام التعليل لأنّ من الحكم والعلل التي جعل الله لها نظام اليقظة والنوم، أن يكون ذلك تجزئة لعمر الحي، فالأجل معدود بالأيام والليالي، وهي زمان النوم واليقظة.

قضاء الأجل: انتهاؤه. ومعنى كونه { **مُسَمًّى** } أنّه معيّن محدّد.

{ **ثمّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ** } يجوز أن يكون المراد بالرجوع الموت، لأنّ الأرواح تصير في قبضة الله ويبطل ما كان لها من التصرف بإرادتها. ويجوز أن يكون المراد الحشر يوم القيامة، وهذا أظهر.

{ **ثمّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } أي: يحاسبكم على أعمالكم بعد الموت، فالمهلة في { ثُمَّ } ظاهرة، لأنّ بين الحشر وبين ابتداء الحساب زمنا، كما ورد في حديث الشفاعة.

{ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ [61] ثمّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ [62] }.

{ **وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ** } عطف على { وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ }، وتقدّم تفسير نظيره آنفا. والمناسبة هنا أنّ النوم والموت خلقهما الله فغلبا شدّة الإنسان كيفما بلغت، فبيّن عقب ذكرهما أنّ الله هو القادر الغالب.

{ **وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ** }

{ **وَيُرْسِلُ** } عطف على { الْقَاهِرُ }، أي: هو الذي يرسل عليكم حفظة دون غيره. والقصر هنا حقيقي. والمقصود الإعلام بهذا الخبر الحقّ ليحذر السامعون من ارتكاب المعاصي.

{ **عَلَيْكُمْ** } الاستعلاء المجازي، أي: إرسال قهر وإلزام.

{ **حَفَظَةً** } المراد بحفظ الحفظة: الإحصاء والضبط، من قولهم: حفظت عليه فعله كذا. وهو ضد نسي. ومنه قوله تعالى { وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ } [ق:4]. وليس هو من حفظ الرعاية والتعهّد.

فالحفظة ملائكة وظيفتهم إحصاء أعمال العباد من خير وشرّ. وورد في الحديث الصحيح: " **يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار** ".

{ **حتّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ** } أي: فينتهي الإحصاء بالموت، فإذا جاء الوقت الذي ينتهي إليه أجل الحياة توفّاه الملائكة المرسلون لقبض الأرواح.

{ **تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا** } الظاهر أنّ عددا من الملائكة يتولى تَوَفِّي الواحد من النّاس. وفي الآية الأخرى { قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ } [السجدة:11] ، وسُمِّي في الآثار عزرائيل، ونقل عن ابن عباس: " أنّ لملك الموت أعوانا ". فالجمع بين الآيتين ظاهر.

{ **وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ** } حال. و**التفريط:** التقصير في العمل والإضاعة في الذوات. أي: لا يتركون أحدا قد تمّ أجله.

{ **ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ** } المراد: رجوع النّاس إلى أمر الله يوم القيامة.

المولى: هنا بمعنى السيّد، وهو اسم مشترك يطلق على السيّد وعلى العبد.

{ **الْحَقِّ** } - بالجر- صفة لـ { مَوْلاهُمُ }، أي: مالكهم الحقّ الذي لا يشوب ملكه باطل يوهنه.

{ **أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ** } تذييل، ولذلك ابتدئ بأداة الاستفتاح المؤذنة بالتنبيه إلى أهمية الخبر.

وقُدِّم المجرور في قوله تعالى { لَهُ الْحُكْمُ } للاختصاص، أي: له لا لغيره.

فإن كان المراد من الحكم جنس الحكم فقصره على الله إمّا حقيقي للمبالغة لعدم الاعتداد بحكم غيره، وإمّا إضافي للرد على المشركين، أي: ليس لأصنامكم حكم معه، وإن كان المراد من الحكم الحساب، أي: الحكم المعهود يوم القيامة، فالقصر حقيقي. وربما ترجّح هذا الاحتمال بقوله تعالى عقبه:

{ **وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ** } أي: هو أسرع من يحاسب فلا يتأخّر جزاؤه.

{ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ [63] قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ [64] }.

استئناف ابتدائي. ولمّا كان هذا الكلام تهديدا وافتُتح بالاستفهام التقريري، تعيّن أنّ المقصود بضمائر الخطاب المشركون دون المسلمين.

الظلمات: قيل على حقيقتها، فيتعيّن تقدير مضاف، أي: من إضرار ظلمات البر والبحر. وقيل: أطلقت الظلمات مجازا على المخاوف الحاصلة في البر والبحر، كما يقال: يوم مظلم إذا حصلت فيه شدائد.

التضرع: التذلّل، كما تقدّم في قوله تعالى { لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ } [42].

الخُفية: (بضم الخاء وكسرها) ضد الجهر.
{ **تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً** } إمّا عطف الحال على الحال، وإمّا أن يكون عطف المفعول المطلق على الحال على أنّه مبيّن لنوع الدعاء، أي: تدعونه في الظلمات مخفين أصواتكم خشية انتباه العدو من النّاس أو الوحوش.
{ **لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ** } في محل نصب بقول محذوف، أي: قائلين. وجيء بضمير الجمع، لأنّ المقصود حكاية اجتماعهم على الدعاء بحيث يدعو كلّ واحد عن نفسه وعن رفاقه.
{ **مِنَ الشَّاكِرِينَ** } أبلغ من أن يقال: لنكونن شاكرين. و**الشاكر**: هو الذي يراعي نعمة المنعِم فيحسن معاملته كلما وجد لذلك سبيلا. وقد كان العرب يرون الشكر حقّا عظيما ويعيّرون من يكفر النعمة.
{ **قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا** } تلقين لجواب الاستفهام أن يجيب عن المسؤولين لأنّ هذا الجواب لا يسعهم إلّا الاعتراف به.
{ **مِنْ كُلِّ كَرْبٍ** } لإفادة التعميم، وأنّ الاقتصار على ظلمات البرّ والبحر بالمعنيين، لمجرّد المثال.
{ **ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ** } (ثُمَّ) للتراخي الرتبي، وليست هنا للمهلة، لأنّ المقصود أنّ إشراكهم مع اعترافهم بأنّهم لا يلجأون إلّا إلى الله في الشدائد أمر عجيب. والمعنى: أنّ الله أنجاكم فوعدتم أن تكونوا من الشاكرين فإذا أنتم تشركون.

{ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ } [65].

استئناف ابتدائي عُقّب به ذكر النعمة التي في قوله تعالى { قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ }، بذكر القدرة على الانتقام، تخويفا للمشركين. والمقصود من الكلام ليس الإعلام بقدرة الله تعالى فإنّها معلومة، ولكن المقصود التهديد بتذكيرهم بأنّ القادر من شأنه أن يُخاف بأسه، إذ لا يقدر غيره تعالى على مثل هذا العذاب.
{ **عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ** } العذاب الذي من فوق مثل الصواعق والريح، والذي من تحت الأرجل مثل الزلازل والخسف والطوفان.
{ **أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً** } مضارع لَبَسَه ـ بالتحريك ـ أي: خلطه، أي: اضطراب شؤونهم.
الشيع: جمع شِيعة وهي الجماعة المتّحدة في غرض أو عقيدة أو هوى فهم متّفقون عليه، قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ } [الأنعام:159]. وشيعة الرجل أتباعه والمقتدون به، قال تعالى { وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ } [الصافات:83]، أي: من شيعة نوح.
{ **وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ** } لأنّ من عواقب ذلك اللبس التقاتل. فالبأس هو القتل والشر، قال تعالى

{ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ } [النحل:81] والإذاقة استعارة للألم. وهذا تهديد للمشركين.

{ **انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ** } في الأمر بالنظر تنزيل للمعقول منزلة المحسوس لقصد التعجيب منه، وتصريف الآيات تنويعها بالترغيب تارة والترهيب أخرى. فالمراد بالآيات آيات القرآن.

{ **لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ** } رجاء حصول فهمهم، لأنّهم لعنادهم كانوا في حاجة إلى إحاطة البيان بأفهامهم لعلّها تتذكّر وترعوي. وتقدّم معنى الفقه عند قوله تعالى { فَمَا لِهَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً } [النساء:78].

{ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ [66] لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ [67]}

عطف على { انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ }، أي: لعلّهم يفقهون فلم يفقهوا وكذّبوا. وضمير { **بِهِ** } عائد إلى العذاب في قوله تعالى { عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً } [65].

{ **قَوْمُكَ** } تسجيل عليهم بسوء معاملتهم لمن هو من أنفسهم.

{ **وَهُوَ الْحَقُّ** } معترضة لقصد تحقيق القدرة على أن يبعث عليهم عذابا.

ويجوز أن يكون ضمير { بِهِ } عائدا إلى القرآن. فيكون قوله تعالى { وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ } رجوعا بالكلام إلى قوله تعالى { قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ } [57]، أي: كذّبتم بالقرآن وسألتم نزول العذاب تصديقا لرسالتي وذلك ليس بيدي.

{ **قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ** } إرغام لهم لأنّهم يرونه أنّهم لمّا كذّبوه وأعرضوا عن دعوته قد أغاظوه، فأعلمهم الله أنّه لا يغيظه ذلك وأنّ عليه الدعوة، فإنّ كانوا يغيظون فلا يغيظون إلّا أنفسهم.

الوكيل: هنا بمعنى المدافع الناصر، وهو الحفيظ. وتعديته بـ (على) لتضمّنه معنى الغلبة والسلطة.

أي: لست بقيّم عليكم يمنعكم من التكذيب.

{ **لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ** } مستأنفة استئنافا بيانيّا، لأنّ قوله تعالى { وَهُوَ الْحَقُّ } يثير سؤالهم أن يقولوا: فمتى ينزل العذاب؟ فأجيبوا بقوله تعالى { لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ }.

النبأ: الخبر المهم، وتقدّم في هذه السورة [5]. فيجوز أن يكون على حقيقته، أي: لكل خبر من أخبار القرآن.

ويجوز أن يكون أطلق المصدر على اسم المفعول، أي: لكل مخبَر به، أي: ما أخبِروا به في قوله تعالى { أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ ...} [65].

المستقر: وقت الاستقرار، فهو اسم زمانه، والاستقرار بمعنى الحصول. وقد يكون المستقرّ هنا مستعملا في الانتهاء والغاية مجازا، كقوله تعالى { وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ } [يّس:38].

{ **وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ** } أي: تعلمونه عند حلوله بكم.

{ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } [68].

عطف على { وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ } [66]. والإتيان بالاسم الظاهر، وهو اسم الموصول { الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا }، يدلّ على أنّهم فريق خاص من القوم الذين كذّبوا بالقرآن أو بالعذاب. فعموم القوم أنكروا وكذّبوا دون خوض في آيات القرآن، فأولئك قسم، والذين يخوضون في الآيات قسم كان أبْذَى وأقذع، وأشدّ كفرا وأشنع، وهم المتصدّون للطعن في القرآن. وهؤلاء أُمر الرّسول صلى الله عليه وسلم بالإعراض عن مجادلتهم وترك مجالسهم حتّى يرعووا عن ذلك. ولو أُمر الرّسول عليه الصلاة والسلام بالإعراض عن جميع المكذّبين لتعطلت الدعوة والتبليغ.

{ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ } أي: إذا رأيتهم في حال خوضهم. وشأن الرّسول صلى الله عليه وسلم أن يمارس النّاس لعرض دعوة الدين، فأمر الله إيّاه بالإعراض عن فريق منهم يحتاج إلى توجيه واستئناس، وذلك بالتعليل الذي أفاده الموصول وصلته، أي: فأعرض عنهم لأنّهم يخوضون في آياتنا. أي: يتكلّمون فيها بالباطل والاستهزاء.

الخوض: حقيقته الدخول في الماء مشيا بالرجلين دون سباحة، ثمّ استعير للتصرّف الذي فيه كلفة أو عنت. واستعير الخوض أيضا للكلام الذي فيه تكلّف الكذب والباطل.

والخطاب للرّسول صلى الله عليه وسلم مباشرة، وحكم بقية المسلمين كحكمه، كما قال تعالى في ذكر المنافقين { فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حتّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ } [النساء:140].

الإعراض: تقدّم عند قوله تعالى { فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ } [النساء:63]، والإعراض عنهم هنا هو ترك الجلوس إلى مجالسهم. عن ابن جريج: " فجعل إذا استهزأوا قام فحذِروا وقالوا لا تستهزئوا فيقوم ".

وفائدة هذا الإعراض زجرهم وقطع الجدال معهم لعلّهم يرجعون عن عنادهم.

{ حَتَّى } غاية للإعراض لأنّه إعراض فيه توقيف دعوتهم زمانا، فإذا زال موجب ذلك عادت محاولة هديهم إلى أصلها. فلا يضر توقيف الدعوة زمانا.

{ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } عطف حالة النسيان زيادة في تأكيد الأمر بالإعراض. وأسند الإنساء إلى الشيطان فدلّنا على أنّ النسيان من آثار الخلقة التي جعل الله فيها حظّا لعمل الشيطان. وليس هذا من وسوسة الشيطان في أعمال الإنسان، لأنّ الرّسول صلى الله عليه وسلم معصوم من وسوسة الشيطان في ذلك، فالنسيان من الأعراض البشريّة الجائزة على الأنبياء في غير تبليغ ما أمروا بتبليغه عند جمهور علماء السنّة من الأشاعرة وغيرهم.

وقد نسي رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلّم من ركعتين في الصلاة الرباعية، ونسي آيات من بعض السور تذكّرها لمّا سمع قراءة رجل في صلاة الليل، كما في الصحيح. وفي الحديث الصحيح: " **إنّما أنا بشر أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكّروني** ".

والحاصل أنّ الرّسول صلى الله عليه وسلم معصوم من الوسوسة، وأمّا ما دونها مثل الإنساء والنزغ فلا يلزم أن يُعصم منه.

فالمعنى: إن أنساك الشيطان الإعراض عنهم فإن تذكّرت فلا تقعد معهم.

{ **الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** } هم الذين يخوضون في آيات الله، فهذا من الإظهار في مقام الإضمار لزيادة فائدة وصفهم بالظلم.

{ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } [69].

لمّا كان الإعراض عن مجالس الذين يخوضون بالطعن في الآيات قد لا يحول دون بلوغ أقوالهم في ذلك إلى أسماع المؤمنين من غير قصد، أتبع الله النهي السابق بالعفو عما تتلقّفه أسماع المؤمنين من ذلك عفوا، فتكون الآية عذرا لما يطرق أسماع المؤمنين من غير قعودهم مع الطاعنين.

{ **الَّذِينَ يَتَّقُونَ** } المؤمنون، والنبيّ صلى الله عليه وسلم هو أوّل المتقين.

روى البغوي عن ابن عباس قال: " لمّا نزلت { وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ } قال المسلمون: " كيف نقعد في المسجد الحرام ونطوف بالبيت وهم يخوضون أبدا. فأنزل الله عز وجل { وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ }. يعني: إذا قمتم عنهم فما عليكم تبعة ما يقولون في حال مجانبتكم إياهم.

{ **وَلَكِنْ ذِكْرَى** } استدراك على النفي، أي: ما عليهم شيء من حسابهم، ولكن يذكّرونهم ذكرى.

الذكرى: اسم مصدر ذكّر بالتشديد بمعنى وعظ،، أي: عليهم إن سمعوهم يستهزئون أن يعظوهم ويخوّفوهم غضب الله.

{ **لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** } أي: لعلّ الذين يخوضون في الآيات أن يتركوا الخوض. وعلى هذا فالتقوى مستعملة في معناها اللغوي دون الشرعي.

<u>ويجوز</u> أن يكون الضمير عائدا إلى { الَّذِينَ يَتَّقُونَ }، أي: ولكن عليهم الذكرى لعلّهم يتقون بتحصيل واجب النهي عن المنكر، أو لعلّهم يستمرّون على تقواهم.

{ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدلّ لا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ } [70].

هذا حكم آخر غير حكم الإعراض عن الخائضين في آيات الله ولذلك عطف عليه.

{ **ذر** } فعل أمر. قيل: لم يرد له ماض ولا مصدر ولا اسم فاعل ولا اسم مفعول. ومعناه، اترك، أي: لا

تخالط. وهو هنا مجاز في عدم الاهتمام بهم وقلّة الاكتراث باستهزائهم كقوله تعالى { ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً } [المدثر:11]، وقوله تعالى { فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ }.

{ **الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً** } يجوز أن يكون بمعنى الملّة، أي: ما يتدينون به وينتحلونه ويتقربون به إلى الله، أي: جعلوا الدين مجموع أمور هي من اللعب واللهو، كالعبث واللهو عند الأصنام في مواسمها، والمكاء والتصدية عند الكعبة، على أحد التفسيرين في قوله تعالى { وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً } [الأنفال:35].

ويجوز أن يكون المراد من الدين العادة، أي: الذين دأبهم اللعب واللهو، المعرضون عن الحق، وذلك في معاملتهم الرسول صلى الله عليه وسلم.

{ **وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا** } أي: خدعتهم الحياة الدنيا وظنّوا أنّها لا حياة بعدها وأنّ نعيمها دائم لهم بطرًا منهم. **الغرور**: تقدّم تفسيره عند قوله تعالى { لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ } [آل عمران:196].

{ **وَذَكِّرْ بِهِ** } الضمير المجرور عائد على القرآن، لأنّ التذكير هو تذكير بالله وبالبعث وبالنعيم وبالعذاب، ويدلّ عليه قوله تعالى { فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ } [قّ:45].

{ **أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ** } يجوز أن يكون مفعولا ثانيا لـ { ذَكِّرْ } وهو الأظهر. ويجوز أن يكون تعليلا للتذكير.

الإبسال: الإسلام إلى العذاب، وقيل: السجن والارتهان، وقد ورد في كلامهم بالمعنيين وهما صالحان هنا. وأصله من البَسْل وهو المنع والحرام.

{ **بِمَا كَسَبَتْ** } بما جنت. فهو كسب الشر بقرينة { تُبْسَلَ }.

{ **لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ** }

الولي: هنا الناصر. و تقدّم عند قوله تعالى { قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً }[14].

الشفيع: الطالب للعفو عن الجاني لمكانة له عند من بيده العقاب. وتقدّم عند قوله تعالى { وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ } [البقرة:48].

{ **وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْهَا** } أي: وإن تعط كل عطاء للفداء لا يُقبل عطاؤها، كما تقدّم في قوله تعالى { وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ } [البقرة:48].

{ **أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا** } أي: أولئك هم المبسلون لا غيرهم. وهو قصر مبالغة لأنّ إبسالهم هو أشدّ إبسال يقع فيه النّاس فجعل ما عداه كالمعدوم.

{ **لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ** } بيان لمعنى الإبسال أو بدلّ اشتمال من معنى الإبسال، فلذلك فصلت.

الحميم: الماء الشديد الحرارة، ومنه الحَمَّة العين الجارية بالماء الحار الذي يُستشفى به.

{ **وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ** } الباء للسببية، و(ما) مصدرية. وزيد فعل (كان) ليدلّ على تمكّن الكفر منهم واستمرارهم عليه لأنّ فعل مادة الكون تدلّ على الوجود.

{ **قُلْ أَنَدْعُواْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** } [71] .

{ **قُلْ أَنَدْعُواْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ** } استئناف ابتدائي لتأييس المشركين من ارتداد بعض المسلمين عن الدين، فقد كان المشركون يحاولون ارتداد بعض قرابتهم أو من لهم به صلة. كما ورد في خبر سعيد ابن زيد وما لقي من عمر بن الخطاب.

وقد روي أنّ عبد الرحمان بن أبي بكر الصديق دعا أباه إلى عبادة الأصنام، وأنّ الآية نزلت في ذلك. ومعنى ذلك أنّ الآية نزلت مشيرة إلى ذلك وغيره، وإلّا فإنّ سورة الأنعام نزلت جملة واحدة. وحاول المشركون صرف النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الدعوة إلى الإسلام وهم يُرضونه بما أحب كما ورد في خبر أبي طالب.

{ **قُلْ أَنَدْعُواْ** } الاستفهام إنكار وتأييس، وجيء بنون المتكلم ومعه غيره لأنّ الكلام من الرّسول صلى الله عليه وسلم عن نفسه وعن المسلمين كلّهم.

{ **مِنْ دُونِ اللَّهِ** } المراد الأصنام، فإنّها حجارة مُشاهد عدم نفعها وعجزها عن الضرّ.

{ **وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا** } عطف على { أَنَدْعُواْ } فهو داخل في حيّز الإنكار.

الردّ: الإرجاع إلى المكان الذي يؤتى منه، كقوله تعالى { رُدُّوهَا عَلَيَّ } [صّ:33].

الأعقاب: جمع عقب وهي مؤخّر القدم. وعقب كلّ شيء طرفه وآخره.

ويقال: رجع على عقبه وعلى عقبيه ونكص على عقبيه، بمعنى: رجع إلى المكان الذي جاء منه، لأنّه كان جاعلا إياه وراءه فرجع. ثمّ استُعمل تمثيلا شائعا في التلبّس بحالة ذميمة كان فارقها صاحبها ثمّ عاد إليها وتلبّس بها. وفي الحديث: " **اللّهم أمض لأصحابي هجرتهم ولا تردّهم على أعقابهم** ".

{ **بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ** } المعنى: بعد الزمن الذي هدانا الله فيه، ونظيره قوله تعالى { رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا } [آل عمران:8].

{ **كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا** } ارتقى في تمثيل حالهم بتمثيل آخر أدق.

{ **كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ** } هو تمثيل بهيئة متخيّلة مبنيّة على اعتقاد المخاطبين في أحوال الممسوسين. أي: حال كوننا مشْبهين للذي استهوته الشياطين.

الاستهواء: استفعال، أي: طلب هوى المرء ومحبّته، أي: استجلاب هوى المرء إلى شيء يحاوله المستجلِب.

والعرب يقولون: استهوته الشياطين، إذا اختطفت الجنّ عقله فسيّرته كما تريد. وذلك قريب من قولهم:

سَحَرتْه، ويقولون أيضا: استهامته الجنّ إذا طلبت هُيامه بطاعتها.

{ **فِي الْأَرْضِ** } لأنّه يتضمّن معنى ذهبت به وضلّ في الأرض. وذلك لأنّ الحالة التي تتوهَّمها العرب استهواء الجنّ يصاحبها التوحّش وذهاب المجنون على وجهه في الأرض.

{ **حَيْرَانَ** } حال من { الَّذِي اسْتَهْوَتْهُ } وهو وصف من الحيرة، وهي عدم الاهتداء إلى السبيل. يقال: حار يحار إذ تاه في الأرض فلم يعلم الطريق. وتطلق مجازا على التردّد في الأمر بحيث لا يُعلم مخرجه.

{ **لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا** } حال ثانية، أي: له رفقة معه حين أصابه استهواء الجن.

الدعاء: القول الدال على طلب عمل من المخاطب. و**الهدى**: ضد الضلال. أي: يدعونه إلى ما فيه هداه.

{ **ائْتِنَا** } بيان لـ { يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى } لأنّ الدعاء فيه معنى القول: ايتنا.

شبَّهت الآيةُ الارتداد بعد الإيمان بذهاب عقل المجنون، والكفر بالهيام في الأرض، وشبَّهت المشركين الذين دعوهم إلى الارتداد بالشياطين، ودعوة الله النّاس للإيمان ونزول الملائكة بوحيه بالأصحاب الذين يدعون إلى الهدى.

{ **قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** } مستأنفة استئناف تكرير لما أمر أن يقوله للمشركين حين يدعون المسلمين إلى الرجوع إلى ما كانوا عليه في الجاهلية. وقد روي أنّهم قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم اعبد آلهتنا زمنا ونعبد إلهك زمنا. وكانوا في خلال ذلك يزعمون أنّ دينهم هدى فلذلك خوطبوا بصيغة القصر.

{ **إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى** } جيء بتعريف الجزأين، وضمير الفصل، وحرف التوكيد، فاجتمع في الجملة أربعة مؤكّدات. أي: القرآن هو الهدى لا كُتبهم.

{ **وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ** } عطف على المقول. والـ (لام) أصلها للتعليل وتنوسي منها معنى التعليل فصارت لمجرد التأكيد. والمعنى: وأمرنا بالإسلام.

{ **لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** } متعلّقة بـ { لِنُسْلِمَ }، وفي ذكر اسم الله تعالى بوصف الربوبية لجميع الخلق دون اسمه العلم إشارة إلى تعليل الأمر وأحقيّته.

{ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ [72] وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ [73] }.

{ **وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ** } الأمر بإقامة الصلاة بعد الأمر بالتسليم. وتخصيص إقامة الصلاة بالذكر للاهتمام.

{ **وَاتَّقُوهُ** } عطف على { أَقِيمُوا }، أمر جامع لكلّ أمور الدين.

{ **وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** } إثبات للحشر على منكريه وتذكير به للمؤمنين به، تحريضا على إقامة الصلاة والتقوى. والحصر هنا حقيقي، إذ هم لم ينكروا كون الحشر إلى الله وإنّما أنكروا وقوع الحشر، فسلك في إثباته طريق الكناية بقصره على الله تعالى المستلزم وقوعه وأنّه لا يكون إلّا إلى الله، تعريضا بأنّ آلهتهم لا تغني عنهم شيئا.

{ **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِالْحَقِّ** } القصر حقيقي إذ ليس ثَمَّ ردّ اعتقاد لأنّ المشركين يعترفون بأنّ الله هو الخالق للأشياء التي في السماء والأرض كما قدّمناه في أوّل السورة. فالمقصود الاستدلال بالقصر على أنّه هو المستحقّ للعبادة، لأنّ الخلائق عبيده.

{ **بِالْحَقِّ** } الباء للملابسة. والحقّ في الأصل مصدر (حقَّ) ثمّ صار اسما للأمر الثابت الذي لا يُنكر، فيطلق إطلاقا شائعا على الفعل أو القول الذي هو عدل وإعطاء المستحق ما يستحقه، وهو حينئذ مرادف العدل ويقابله الجَور والظلم. ويطلق على الفعل أو القول السديد الصالح البالغ حد الإتقان والصواب، ويرادف الحكمة والحقيقة، ويقابله الباطل فيرادف العبث واللعب.

والحقّ في هذه الآية بالمعنى الثاني، كما في قوله تعالى { مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلّا بِالْحَقِّ } [الدخان: 39].

{ **وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ** } المراد يوم البعث. وأصل التركيب: وقوله الحق يوم يقول: كن فيكون. ونكتة الاهّتمام بتقديم الظرف الردّ على المشركين المنكرين وقوع هذا التكوين بعد العدم.

ووصف القول بأنّه الحق للردّ على المشركين أيضا.

المعنى: أنّه أنشأ خلق السماوات والأرض بالحقّ، وأنّه يعيد الخلق الذي بدأه بقولِ حقّ، فلا يخلو شيء من تكوينه الأوّل ولا من تكوينه الثاني عن الحقّ. ونظير هذا، قول النبيّ صلى الله عليه وسلم في دعائه: **" قولك الحقّ ووعدك الحقّ "**.

{ **وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ** } جملة مستقلّة وانتظامها كانتظام جملة { وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ} إلّا أنّ في تقديم المسند إليه قصر المسند إليه على المسند، أي: الملك مقصور على الكون له لا لغيره .

{ **يُنْفَخُ فِي الصُّورِ** } مَثَل ضُرب للأمر التكويني بحياة الأموات الذي يعم سائر الأموات، فيحيون به ويحضرون للحشر كما يحضر الجيش بنفخ الأبواق ودق الطبول.

الصور: البوق. وورد أنّ الملك الموكل بنفخ الصور هو إسرافيل، ولا يعلم كنه هذا النفخ إلّا الله تعالى. وعن ابن عباس: " الصور هنا جمع صورة "، أي ينفخ في صُوَر الموجودات.

{ **عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ** } لمّا انتهى المقصود من الإخبار عن شؤون من شأن الله تعالى، أتبع بصفات تشير إلى المحاسبة على كل جليل ودقيق ظاهر وباطن. أي: أنّه العالم بأحوال جميع الموجودات.

الغيب: ما هو غائب. وتقدّم بيانه عند قوله تعالى { الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ } [البقرة:3].

الشهادة: ضد الغيب، وهي الأمور التي يشاهدها النّاس ويتوصَّلون إلى عملها يقال: شهد، بمعنى حضر.
{ **الْحَكِيمُ** } صفة تجمع إتقان الصنع فتدلّ على عظم القدرة مع العلم بالمصنوعات.
{ **الْخَبِيرُ** } صفة تجمع العلم بالمعلومات ظاهرها وخفيِّها.

{ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ } [74].

شاهد من أحوال الأنبياء بذكر مجادلة أوّل رسول أعلن التوحيد وناظر في إبطال الشرك بالحجّة الدامغة والمناظرة الساطعة، ولأنّها أعدلّ حجّة في تاريخ الدين إذ كانت مجادلة رسول لأبيه ولقومه، وكانت أكبر حجة على المشركين من العرب بأنّ أباهم لم يكن مشركا ولا مُقرّا للشرك في قومه، وأعظم حجة للرّسول صلى الله عليه وسلم إذ جاءهم بالإقلاع عن الشرك.

{ **آزر** } ظاهر الآية أنّه أبو إبراهيم. ولا شك أنّه عُرف عند العرب أن أبا إبراهيم اسمه آزر فإن العرب كانوا معتنين بذكر إبراهيم عليه السلام ونسبه وأبنائه. وليس من عادة القرآن التعرّض لذكر أسماء غير الأنبياء فما ذكر اسمه في هذه الآية إلّا لقصد سنذكره. والذي في كتب الإسرائيليين أنّ اسم أبي إبراهيم (تارح).

قال الزجّاج: " لا خلاف بين النسابين في أنّ اسم أبي إبراهيم تارح ". وتبعه محمد بن الحسن الجويني الشافعي في تفسير النكت. وفي كلامهما نظر لأنّ الاختلاف المنفي إنّما هو في أنّ آزر اسم لأبي إبراهيم ولا يقتضي ذلك أنّه ليس له اسم آخر بين قومه أو غيرهم أو في لغة أخرى غير لغة قومه. ومثل ذلك كثير.

وعن الضحّاك: " أنّ اسم أبي إبراهيم بلغة الفرس آزر ".

وقال ابن إسحاق ومقاتل والكلبي والضحاك: " اسم أبي إبراهيم تارح، وآزر لقب له مثل يعقوب الملقب إسرائيل ".

وقال مجاهد: آزر اسم الصنم الذي كان يعبده أبو إبراهيم فلقّب به ".

والذي يظهر لي أنه: أن (تارح) لُقِّب في بلد الغربة بلقب (آزر) باسم البلد الذي جاء منه، ففي (معجم ياقوت) آزر(بفتح الزاي وبالراء) ناحية بين سوق الأهواز ورامهرمز.

وفي الفصل الحادي عشر من سفر التكوين من التوراة أن بلد تارح أبي إبراهيم هو" أور الكلدانيين ".

وفي معجم ياقوت: " (أور) - بضم الهمزة وسكون الواو- من أصقاع رامهرمز من خورستان". ولعلّه هو أور الكلدانيين أو جزء منه أضيف إلى سكانه. وفي سفر التكوين أنّ تارح خرج هو وابنه إبراهيم من بلده أور الكلدانيين قاصدين أرض كنعان وأنّهما مرا في طريقهما ببلد (حاران) وأقاما هناك ومات تارح في حاران. فلعلّ أهل حاران دعوه آزر لأنّه جاء من صقع آزر. وفي الفصل الثاني عشر من سفر التكوين

ما يدلّ على أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ نُبّئ في حاران في حياة أبيه.

ولم يرد في التوراة ذكر للمحاورة بين إبراهيم وأبيه ولا بينه وبين قومه.

{ **أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً** } استفهام إنكار وتوبيخ. وهو موقف غلظة، فيتعيّن أنّه كان عندما أظهر أبوه تصلّبا في الشرك، { لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ } [مريم:46]، وهو غير الموقف الذي خاطبه فيه بقوله { يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ } [مريم:42].

{ **أَتَتَّخِذُ** } مضارع اتّخذ، وهو افتعال من الأخذ، فيه دالة على التكلّف للمبالغة في تحصيل الفعل.

ومعنى تتّخذ هنا: تصطفي وتختار، فالمراد: أتعبد أصناما؟

الأصنام: جمع صنم، والصنم الصورة التي تمثّل شكل إنسان أو حيوان، وفي شفاء الغليل: " أنّ صنم معرَّب عن (شَمَن)، وهو الوثن.

وقد تضمّن ما حُكي من كلام إبراهيم لأبيه أنّه أنكر عليه شيئين: أحدهما جعله الصور آلهة مع أنّها ظاهرة الانحطاط عن صفة الإلهية، وثانيهما تعدّد الآلهة.

{ **إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ** } مبيّنة للإنكار في جملة { أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً }. وأكد الإخبار بحرف التأكيد .

{ **مُبِينٍ** } وصف للضلال، نداء على قوّة فساد عقولهم حيث لم يتفطّنوا لضلالهم مع أنّه كالمشاهد المرئي.

وليس في ذلك ما ينافي البرور به، لأنّ المجاهرة بالحقّ دون سبّ ولا اعتداء لا تنافي البرور. ولم يزل العلماء يخطِّئون أساتذتهم وأئمتهم وآباءهم في المسائل العلمية بدون تنقيص.

{ **وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ** } [75].

فالمعنى: وإذ نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض إراءة لا أوضح منها في جنسها.

والآية إشارة إلى حجّة مستنبطة من دلالة أحوال الموجودات على وجود صانعها.

الرؤية: هنا مستعملة للانكشاف والمعرفة، فالإراءة بمعنى الكشف والتعريف، فتشمل المبصرات والمعقولات المستدلّ بجميعها على الحقّ، وهي إراءة إلهام وتوفيق.

الملكوت: اتفق أئمة اللغة على أنّه مصدر كالرَّغبوت والرَّحَموت والرَّهَبوت والجبروت. وقالوا: إنّ الواو والتاء فيه للمبالغة. وظاهره أنّ معناه المِلك (بكسر الميم)، ولمّا كان فيه زيادة تفيد المبالغة كان معناه <u>الملك القوي الشديد</u>. أي: سلطانه وملكه. وهذا يقتضي أنّه مرادف للمُلك (بضم الميم). ويستخلص من هذا أنّ الملكوت يطلق مصدرا للمبالغة في الملك.

وفي الإتقان عن عكرمة وابن عباس: أنّ الملكوت كلمة نبطية.

<u>المعنى</u>: نكشف لإبراهيم دلائل مخلوقاتنا أو عظمة سلطاننا كشفا يطلعه على حقائقها ومعرفة أن لا خالق ولا متصرّف فيما كشفنا له سوانا.

{ **وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ** } أي: يكون عالماعلما لا يقبل الشك، وهو الإيقان. والمراد هنا: الإيقان في معرفة الله تعالى وصفاته.

{ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ [76] فَلَمَّا رَأى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ [77] فَلَمَّا رَأى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ [78] إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ [79] }.

هذه الرؤية الخاصّة التي اهتدى بها إلى طريق عجيب في إبكات لقومه ملجئا إيّاهم للاعتراف بفساد معتقدهم، هي فرع من تلك الإراءة التي عمّت ملكوت السماوات والأرض.

{ **فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ** } أي: أظلم عليه الليل. يقال: جَنَّه الليل، أي: أخفاه، وجَنان الليل وجنُّه: ستره الأشياء المرئية بظلامه الشديد. وهذا يقصد به المبالغة في الستر بالظلمة حتّى صارت كأنها غطاء.

{ **رَأى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي** } قال ذلك على سبيل المجادلة لقومه وإرخاء العنان لهم ليصلوا إلى تلقِّي الحجّة ولا ينفروا من أوّل وهلة، فيكون قد جمع جمعا من قومه وأراد الاستدلال عليهم.

ولا يريبك في هذا أنّ صدور ما ظاهره كفر على لسانه ـ عليه السلام ـ لأنّه لمّا رأى أنّه ذلك طريق إلى إرشاد قومه وإنقاذهم من الكفر، واجتهد فرآه أرجى للقبول عندهم ساغ له التصريح به لقصد الوصول إلى الحق وهو لا يعتقده، ولا يزيد قوله هذا قومه كفرا. وقد يكون فعل ذلك بإذن من الله تعالى بالوحي.

وعلى هذا فالآية تقتضي أنّ قومه يعبدون الكواكب وأنّهم على دين الصابئة، وقد كان ذلك الدين شائعا في بلدان الكلدان التي نشأ فيها إبراهيم عليه السلام، وأنّ الأصنام التي كانوا يعبدونها أرادوا بها أنّها صور للكواكب وتماثيل لها على حسب تخيلاتهم وأساطيرهم.

أفل: النجم أفولا، غاب، والأفول خاص بغياب النيّرات السماوية، يقال: أفل النجم وأفلت الشمس، وهو المغيب الذي يكون بغروب الكوكب وراء الأفق بسبب الدورة اليومية للكرة الأرضية، فلا يقال: أفلت الشمس أو أفل النجم إذا احتجب بسحاب.

{ **لا أُحِبُّ** } أي: لا أرضى بالآفل إلها، وإطلاق المحبّة على الإرادة شائع في الكلام.

ووجه الاستدلال بالأفول على عدم استحقاق الإلهية، أنّ الأفول مغيب وابتعاد عن النّاس، وشأن الإله أن يكون دائم المراقبة لتدبير عباده، فلمّا أفل النجم كان في حالة أفوله محجوبا عن الاطلاع على النّاس.

{ **فَلَمَّا رَأى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي** } عطف على جملة محذوفة دلّ عليها الكلام. والتقدير: فطلع القمر فلمّا رآه بازغا، فحذفت الجملة للإيجاز وهو يقتضي أنّ القمر طلع بعد أفول الكوكب، ولعلّه اختار

لمحاجة قومه الوقت الذي يغرب فيه الكوكب ويطلع القمر بقرب ذلك، وأنّه كان آخر الليل ليعقبهما طلوع الشمس.

البازغ: الشارق في ابتداء شروقه، والبزوغ ابتداء الشروق.

{ **فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ** } قصد به تنبيه قومه للنظر في معرفة الربّ الحق وأنّه واحد، وأنّ الكوكب والقمر كليهما لا يستحقان ذلك، مع أنّه عرَّض في كلامه بأنّ له ربا يهديه وهم لا ينكرون عليه ذلك لأنهم قائلون بعدة أرباب. وفي هذا تهيئة لنفوس قومه لما عزم عليه من التصريح بأن له ربًّا غير الكواكب. ثمّ عرّض بقومه أنّهم ضالون، وهيَّأهم قبل المصارحة للعلم بأنهم ضالون، لأنّ قوله

{ لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ } يدخل على نفوسهم الشكّ في معتقدهم أن يكون ضلالا، ولأجل هذا التعريض لم يقل: لأكونن ضالا، وقال { لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ } ليشير إلى أنّ في النّاس قوما ضالين، يعني قومه.

{ **فَلَمَّا رَأى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ** } الظاهر أنّ هذا الاستدلال كلّه وقع في مجلس واحد. وقوله للشمس { هَذَا رَبِّي } باسم إشارة المذكّر مع أنّ الشمس تجري مجرة المؤنث لأنّه اعتبرها ربًّا، فروعي في الإشارة معنى الخبر، فكأنه قال: هذا الجرم الذي تدعونه الشمس تبيّن أنّه هو ربّي.

{ **هَذَا أَكْبَرُ** } جارية مجرى العلّة لجملة { هَذَا رَبِّي } المقتضية نقض ربوبية الكوكب والقمر وحصرها في الشمس.

{ **فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ** } لما انتفى استحقاق الإلهيّة عن أعظم الكواكب التي عبدوها فقد انتفى عما دونها بالأحرى.

البريء: فعيل بمعنى فاعل من بَرِئَ. فمعنى قوله { بَرِيءٌ } هنا أنّه لا صلة بينه وبين ما يعبدون.

وتسميته عبادتهم الأصنام إشراكا لأنّ قومه كانوا يعترفون بالله ويشركون معه في الإلهيّة غيره كما كان إشراك العرب، وهو ظاهر آي القرآن، حيث ورد فيها الاحتجاج عليهم بخالق السماوات والأرض، وهو المناسب لضرب المثل لمشركي العرب بشأن إبراهيم وقومه.

{ **إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ** } البراءة من الإشراك تشتمل على توجيه الوجه إلى الله، وهو إفراده بالعبادة. والوجه هنا حقيقة، أي: صرفته إلى جهة. وهذا تمثيل: شُبِّهت حالة إعراضه عن الأصنام وقصده إلى إفراد الله تعالى بالعبادة، بمن استقبل بوجهه شيئا وقصده وانصرف عن غيره.

{ **لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ** } أُتي بالموصول ليومئ إلى علّة توجّهه إلى عبادته، لأنّ الكواكب من موجودات السماء، والأصنام من موجودات الأرض فهي مفطورة لله تعالى.

فطر: خلق، وأصل الفطر الشقّ.

{ **حَنِيفاً** } حال من ضمير المتكلّم في { وَجَّهْتُ }. وتقدّم بيان ذلك عند قوله تعالى { قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ

حَنِيفاً} [البقرة:135].

{ **وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** } عطف على الحال، نفى عن نفسه أن يكون متّصلا بالمشركين وفي عدادهم. وأفادت الجملة تأكيدا لجملة { إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً }.

{ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ } [80].

لمّا أعلن إبراهيم عليه السلام معتقده لقومه أخذوا في محاجّته.

المحاجّة: مفاعلة متصرّفة من الحُجّة، وهي الدليل المؤيّد للدعوى. ولا يُعرف لهذه المفاعلة فعل مجرّد بمعنى استدلّ بحجّة، وإنما المعروف فعل حجّ إذا غلب في الحجّة.

وقد ذُكرت حججهم في مواضع من القرآن منها:

{ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُون قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ـ إلى قوله ـ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ } [الأنبياء:52-56].

{ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ } [الصافات:85-98].

{ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ـ إلى قوله ـ فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ } [الشعراء:73/72].

وكلّها محاجة حقيقيّة، ويدخل في المحاجّة ما ليس بحجّة ولكنه ممّا يرونه حججا بأن خوّفوه غضب آلهتهم، كما يدلّ عليه قوله { وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ }.

{ **قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ** } جواب محاجّتهم، ولذلك فصلت، والاستفهام إنكار عليهم وتأييس من رجوعه إلى معتقدهم.

{ **وَقَدْ هَدَانِ** } حال مؤكّدة للإنكار، أي: لا جدوى لمحاجّتكم إيّاي بعد أن هداني الله إلى الحق.

وحذفت ياء المتكلّم للتخفيف وصلا ووقفا في قراءة نافع من رواية قالون، وفي الوقف فقط في قراءة بعض العشرة.

{ **وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ** } معطوف على { وَقَدْ هَدَانِ } فتكون تأكيدا للإنكار. وهو يؤذن بأنّهم حاجّوه في التوحيد وخوّفوه بطش آلهتهم ومسّهم إيّاه بسوء. ونظير ذلك ما حكاه الله عن قوم هود { إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ } [هود:54].

{ **إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً** } الأظهر استثناء منقطعا بمعنى لكن. وفي هذا الاستدارك زيادة نكاية لقومه إذ كان لا يخاف آلهتهم في حين أنّه يخشى ربّه المستحقّ للخشية.

{ **وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً** } استئناف بياني. وهذا مقام أدب مع الله تعالى.

{ **أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ** } الاستفهام إنكار لعدم تذكّرهم مع وضوح دلائل التذكّر. والمراد التذكّر في صفات آلهتهم المنافية لمقام الإلهيّة، وفي صفات الإله الحقّ التي دلّت عليها مصنوعاته.

{ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [81].

عطفت على { وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ }، ليبيّن لهم أنّ عدم خوفه من آلهتهم أقلّ عجبا من عدم خوفهم من الله تعالى، وهذا يؤذن بأنّ قومه كانوا يعرفون الله وأنّهم أشركوا معه في الإلهيّة غيره.

{ **كَيْفَ** } استفهام إنكاري، لأنّهم دعوه إلى أن يخاف بأس الآلهة فأنكر هو عليهم ذلك وقلب عليهم الحجّة. فأنكر عليهم أنّهم لم يخافوا الله حين أشركوا به.

{ **وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً** } أي: لا تخافون من إشراككم. أي: لم يأتكم خبر منه تجعلونه حجّة على صحّة عبادتكم الأصنام.

السلطان: الحجّة لأنّها تتسلّط على نفس المخاصم.

{ **فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ** } تفريع على الإنكار، والتعجيب فرّع عليهما استفهاما ملجئا إلى الاعتراف بأنّهم أولى بالخوف.

الفريق: الطائفة الكثيرة من النّاس المتميّزة عن غيرها بشيء يجمعها من نسب أو مكان أو غيرهما، مشتق من فَرَق إذا ميّز. والفِرْقة أقل من الفريق.

{ **الأمن** } ضد الخوف.

{ **إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** } مستأنفة ابتدائيّة، وجواب شرطها محذوف دلّ عليه الاستفهام، تقديره: فأجيبوني.

{ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ } [82].

قيل: من حكاية كلام إبراهيم على ما ذهب إليه جمهور المفسّرين فيكون جوابا عن قوله تعالى { فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ }. تولّى جواب استفهامه بنفسه ولم ينتظر، وهو تبكيت لهم.

وقيل: ليس ذلك من حكاية كلام إبراهيم، فقد انتهى قول إبراهيم عند قوله { إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ }، فتكون الجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا تصديقا لقول إبراهيم.

{ **يَلْبِسُوا** } يخلطوا، وهو هنا مجاز في العمل بشيئين متشابهين في وقت واحد. كما في قوله تعالى { وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ } [البقرة:42].

الظلم: الاعتداء على صاحب حقّ، والمراد به هنا إشراك غير الله مع الله في اعتقاد الإلهيّة وفي العبادة. وفي الحديث الصحيح عن عبد الله بن مسعود: " لمّا نزلت { الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ } شقّ ذلك على المسلمين وقالوا: " أيّنا لم يظلم نفسه! " فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **ليس كما تظنّون إنّما هو كما قال لقمان لابنه** { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان:13] ".

{ **أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ** } أشارت الـ (لام) إلى أنّ الأمن مختصّ بهم وثابت، وهو أبلغ من أن يقال: آمنون.

والمراد الأمن من عذاب الدنيا ومن عذاب الآخرة إذ لم يكن مطلوبا منهم حينئذ إلّا التوحيد.

{ **وَهُمْ مُهْتَدُونَ** } أي: الاهتداء مقصور على الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم دون غيرهم.

{ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ } [83].

إشارة إلى جميع ما تكلّم به إبراهيم في محاجّة قومه، وإضافة الحجّة إلى اسم الجلالة للتنويه بشأنها وصحتها.

الإيتاء: حقيقته الإعطاء، قال تعالى { وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى } [البقرة:177].

ويُستعمل مجازا شائعا في تعليم العلوم وإفادة الآداب الصالحة وتخويلها وتعيينها. يقال: آتاه الله مالا، ويقال: آتاه الخليفة إمارة. قال تعالى { آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ } [البقرة:258]، وقال تعالى { وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ } [صّ:20].

فإيتاء الحجّة إلهامه إيّاها، وإلقاء ما يُعبّر عنها في نفسه، وهو فضل من الله على إبراهيم إذ نصره على مناظريه. والمعنى: تلك حجّتنا على قومه أفحمناهم بها بواسطة إبراهيم.

{ **نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ** } رفع الدرجات تمثيل لتفضيل الشأن، شُبّهت حالة المفضَّل على غيره بحال المرتقي في سلم إذا ارتفع من درجة إلى درجة.

{ **إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ** } مستأنفة استئنافا بيانيا، فحكيم بمعنى مُحكِم، أي: متقن للخلق والتقدير.

{ **عَلِيمٌ** } إشارة إلى أنّ ذلك الإحكام جار على وفق العلم.

{ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلّاً هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ [84] وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ [85] وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلّاً فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ [86] وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [87] }.

عطف على { آتَيْنَاهَا } [83]، لأنّ مضمونها تكرمة وتفضيل. وموقع هذه الجملة وإن كانت معطوفة، هو موقع التذييل للجمل المقصود منها إبطال الشرك وإقامة الحجج على فساده وعلى أنّ الصالحين كانوا على خلافه.

الوهب والهبة: إعطاء شيء بلا عوض، وهو هنا مجاز في التفضُّل والتيسير.

ومعنى هبة يعقوب لإبراهيم أنّه ولد لابنه إسحاق في حياة إبراهيم وكبر وتزوّج في حياته فكان قرّة عين لإبراهيم.

إبراهيم عليه السلام: مضت ترجمته عند قوله تعالى { وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ } [البقرة: 124].

إسحاق و**يعقوب**: مضت ترجمتهما عند قوله تعالى { وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ } [البقرة:132].

{ **كُلّاً هَدَيْنَا** } اعتراض، أي: كل هؤلاء هديناهم، يعني: إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

{ **وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ** } أي: وهدينا نوحا من قبلهم. وهذا استطراد بذكر بعض من أنعم الله عليهم بالهدى، وإشارة إلى أنّ الهدى هو الأصل، ومن أعظم الهدى التوحيد.

{ **وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ** } حال من داود، وفائدة هذا الحال التنويه بهؤلاء المعدودين بشرف أصلهم وبأصل فضلهم، والتنويه بإبراهيم أو بنوح بفضائل ذرّيته. والضمير المضاف إليه عائد إلى نوح لا إلى إبراهيم لأنّ نوحا أقرب مذكور، ولأنّ لوطا من ذرية نوح، وليس من ذرية إبراهيم حسبما جاء في كتاب التوراة. ويجوز أن يكون لوط عومل معاملة ذرية إبراهيم لشدّة اتصاله به.

داود: تقدّم شيء من ترجمته عند قوله تعالى { وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ } [البقرة:251]. ونكملها هنا، بأنّه داود بن يِسّي من سبط يهوذا من بني إسرائيل. ولد بقرية بيت لحم سنة (1085 ق م)، وتوفي في أورشليم سنة (1015 ق م). وكان في شبابه راعيا لغنم أبيه. وله معرفة بالنغم والعزف والرمي بالمقلاع. فأوحى الله إلى (شمويل) نبيّ بني إسرائيل أن يبارك داود بن يِسّي، ويمسحه بالزيت المقدّس ليكون ملكا على بني إسرائيل. ولما حارب جند (شاول) الكنعانيين كما تقدّم في سورة البقرة، كان النصر للإسرائيليين بسبب داود إذ رمى البطل الفلسطيني (جالوت) بمقلاعه بين عينيه فصرعه وقطع رأسه، فلذلك صاهره شاول بابنته (ميكال)، ثمّ إنّ (شاول) تغيّر على داود، فخرج داود إلى بلاد الفلسطينيين وجمع جماعة تحت قيادته، ولما قتّل (شاول) سنة 1055 بايعت طائفة من الجند الإسرائيلي في فلسطين داود ملكا عليهم. وجعل مقر ملكه (حَبْرُون)، وبعد سبع سنين قُتل ملك إسرائيل الذي خلف شاول فبايعت الإسرائيليون كلّهم داود ملكا عليهم، ورجع إلى أورشليم، وآتاه الله النبوّة وأمره بكتابة الزبور المسمّى عند اليهود بالمزامير.

سليمان: تقدّمت ترجمته عند قوله تعالى { وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ } [البقرة:102].

أيوب: نبي أثبت القرآن نبوّته. وله قصة مفصّلة في الكتاب المعروف بكتاب أيوب، من جملة كتب اليهود. ويظنّ بعض المؤرخين أن أيوب من ذرّيّة (ناحور) أخي إبراهيم. وبعضهم ظن أنّه ابن حفيد عيسو بن إسحاق ابن إبراهيم. وفي كتابه أنّ أيوب كان ساكنا بأرض عوص (وهي أرض حوران بالشام، وهي منازل بني عوص بن إرم بن سام بن نوح، وهم أصول عاد) وكانت مجاورة لحدود بلاد الكلدان، وقد ورد ذكر البلدان في كتاب أيوب، وبعض المحقّقين يظنّ أنّه من صنف عربي وأنّه من عوص، كما يدلّ عليه عدم التعرّض لنسبته في كتابه، والاقتصار على أنّه كان بأرض عوص (الذين هم من العرب العاربة).

وزعموا أن كلامه المسطور في كتابه كان بلغة عربية، وأنّ موسى ـ عليه السلام ـ نقله إلى العبرانية. وبعضهم يظن أنّ الكلام المنسوب إليه كان شعرا ترجمه موسى في كتابه، وأنّه أول شعر عرف باللغة العربية الأصلية. وبعضهم يقول: هو أوّل شعر عرفه التاريخ، ذلك لأنّ كلامه وكلام أصحابه الثلاثة الذين عزّوه على مصائبه جار على طريقة شعرية لا محالة.

يوسف: هو ابن يعقوب ويأتي تفصيل ترجمته في سورة يوسف.

موسى و**هارون** و**زكريا**: تقدّمت تراجمهم في سورة البقرة.

عيسى: تقدّمت ترجمته في سورة البقرة وفي سورة آل عمران.

يحيى: تقدّمت ترجمته في آل عمران.

{ **وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ** } اعتراض بين المتعاطفات، والواو للحال، أي: وكذلك الوهب الذي وهبنا لإبراهيم والهدي الذي هدينا ذرّيته نجزي المحسنين مثله، أو وكذلك الهدي الذي هدينا ذرية نوح نجزي المحسنين مثل نوح. فعُلم أن نوحا أو إبراهيم من المحسنين بطريق الكناية.

فيكون المراد بالمحسنين أولئك المهديين من ذريّة نوح أو من ذريّة إبراهيم. فالمعنى: أنّهم أحسنوا فكان جزاء إحسانهم أن جعلناهم أنبياء.

إلياس: هو المعروف في كتب الإسرائيليين باسم إيليا، ويُسمَّى في بلاد العرب باسم إلياس أو (مار إلياس) وهو إلياس التشبي (نسبة إلى تشبي مدينة الأرض التي أُعطيت لسبط نفتالي كما في سفر العدد). وذكر المفسّرون أنّه إلياس بن فنحاص بن إلعاز، أو ابن هارون أخي موسى فيكون من سبط لاوي. كان موجودا في زمن الملك (آخاب) ملك إسرائيل في حدود سنة (918 ق م). وهو إسرائيلي من سكان (جِلْعاد) صقع جبلي في شرق الأردن ومنه بعلبك. وقد أرسله الله تعالى إلى بني إسرائيل لمّا عبدوا الاوثان في زمن الملك (آخاب) وعبدوا (بَعْل) صنم الكنعانيين. وقد وعظهم إلياس وله أخبار معهم. أمره الله أن يجعل اليسع خليفة له في النبوّة.

{ **كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ** } أي: كل هؤلاء المعدودين وهو يشمل جميع المذكورين، إسحاق ومن بعده.

إسماعيل: فقد تقدّمت ترجمته في سورة البقرة.

اليسع: اسمه بالعبرانية إليشع (بهمزة قطع مكسورة ولام بعدها تحتية ثمّ شين معجمة وعين) وتعريبه في العربية الْيسع (بهمزة وصل ولام ساكنة في أوله بعدها تحتية مفتوحة) في قراءة الجمهور. وهو ابن (شافاط) من أهل (آبل محولة). كان فلاحا فاصطفاه الله للنبوّة على يد الرّسول إلياس في مدة (آخاب) وصحب إلياس. وكانت وفاته سنة (840 ق م) ودفن بالسامرة.

يونس: (يجوز في نونه الضم والفتح والكسر) هو ابن متَّى، واسمه في العبرانية (يونان بن أمتاي)، وهو من سبط (زَبُولون). ولد في بلدة (غاث ايفر) من فلسطين، أرسله الله إلى أهل (نَيْنَوَى) من بلاد أشور. وكان أهلها يومئذ خليطا من الآشوريين واليهود الذين في أسر الآشوريين، ولمّا دعاهم إلى الإيمان فأبوا

توعّدهم بعذاب، فتأخّر العذاب فخرج مغاضبا وذهب إلى (يافا) فركب سفينة للفينيقيين لتذهب به إلى (ترشيش) مدينة غربي فلسطين إلى غربي صور وهي على البحر ولعلها من مراسي الوجه البحري من مصر أو من مراسي برقة لأنّه وصف في كتب اليهود أنّ سليمان كان يُجلب إليه الذهب والفضة والقرود والطواويس من ترشيش، فتعيَّن أن تكون لترشيش تجارة مع الحبشة أو السودان، ومنها تصدر هذه المحصولات. وقيل هي طرطوشة من مراسي الأندلس. وقيل (قرطاجنّة) مرسى إفريقية قرب تونس. وقد قيل في تواريخنا أنّ تونس كان اسمها قبل الفتح الإسلامي ترشيش. وهذا قريب لأن تجارتها مع السودان قد تكون أقرب.

فهال البحر على السفينة وثقلت وخيف غرقها، فاقترعوا فكان يونس ممّن خاب في القرعة فرمي في البحر والتقمه حوت عظيم فنادى في جوفه: { لا إِلَهَ إِلّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ } [الانبياء:87]، فاستجاب الله له، وقذفه الحوت على الشاطئ. وأرسله الله ثانيا إلى أهل نينوى وآمنوا وكانوا يزيدون على مائة ألف. وكانت مدّته في أوّل القرن الثامن قبل الميلاد. ولم نقف على ضبط وفاته. وذكر ابن العربي في الأحكام في سورة الصافات أنّ قبره بقرية جلجون بين القدس وبلد الخليل، وأنّه وقف عليه في رحلته.

لوط: هو ابن هاران بن تارح، فهو ابن أخي إبراهيم. ولد في (أور الكلدانيين). ومات أبوه قبل تارح، فاتخذ تارح لوطا في كفالته. ولما مات تارح كان لوط مع إبراهيم ساكنين في أرض حاران (حوران) بعد أن خرج تارح أبو إبراهيم من أور الكلدانيين قاصدين أرض كنعان. وهاجر إبراهيم مع لوط إلى مصر لقحط أصاب بلاد كنعان، ثمّ رجعا إلى بلاد كنعان، وافترق إبراهيم ولوط بسبب خصام وقع بين رعاتهما، فارتحل لوط إلى (سدوم)، وهي من شرق الأردن إلى أن أوحي إليه بالخروج منها حين قدر الله خسفها عقابا لأهلها فخرج إلى (صوغر) مع ابنته، ونسله هناك وهم (المؤابيّون) و(بنو عمون).

{ وَكُلّاً فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ } جملة معترضة، والمراد تفضيل كل واحد منهم على العالمين من أهل عصره عدا من كان أفضل منه أو مساويا له، فاللام في { الْعَالَمِينَ } للاستغراق العرفي، فقد كان لوط في عصر إبراهيم وإبراهيم أفضل منه.

{ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } عطف على { كُلًّا }. التقدير: وهدينا من آبائهم وذرّيّاتهم وإخوانهم.

الذرّيّات: جمع ذرّيّة، فيشمل أولاد البنين وأولاد البنات.

إن كان المراد بالهدى هدى النبوّة ، شمل الأنبياء والمرسلين. وإن كان المراد من الهدى ما هو أعمّ من النبوّة شمل الصالحين من ذرّيّاتهم .

الاجتباء: الاصطفاء والاختيار، قالوا هو مشتق من الجَبْي، وهو الجمع، ومنه جباية الخراج.وجَبْيُ الماء في الحوض الذي سميت منه الجابية، فالافتعال فيه للمبالغة، ووجه الاشتقاق أنّ الله اختارهم.

{ وَهَدَيْنَاهُمْ } عطف على { اجْتَبَيْنَاهُمْ } تأكيد لإثبات هداهم اهتماما بهذا الهدي.
الصراط المستقيم: هو التوحيد والإيمان بما يجب الإيمان به من أصول الفضائل التي اشتركت فيها الشرائع.

{ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [88].

استئناف بياني، أي: لا تعجبوا من هديهم وضلال غيرهم.
وأُخبر عن الهدى بأنّه هدى الله لتشريف أمره وبيان عصمته من الخطأ والضلال، وفيه تعريض بما عليه المشركون ممّا يزعمونه هدى ويتلقّونه عن كبرائهم، أمثال عمرو بن لحي الذي وضع لهم عبادة الأصنام،
ومثل الكهّان وأضرابهم.
{ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ } الذين اصطفاهم الله واجتباهم وهو أعلم بهم وباستعدادهم لهديه ونبذهم المكابرة وإقبالهم على طلب الخير وتطلّعهم إليه وتدرّجهم فيه إلى أن يبلغوا مرتبة إفاضة الله عليهم الوحي أو التوفيق والإلهام الصادق.
{ مَنْ يَشَاءُ } فيها من الإبهام ما يبعث النفوس على تطلّب هدى الله تعالى والتعرّض لنفحاته، وفيه تعريض بالمشركين الذين أنكروا نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم حسدا.
{ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } تفظيعا لأمر الشرك وأنّه لا يُغتفر لأحد ولو بلغ من فضائل الأعمال مبلغا عظيما.

{ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ } [89].

استئناف ابتدائي للتنويه بهم، فهي فذلكة ثانية، لأنّ الفذلكة الأولى راجعة إلى ما في الجمل السابقة من الهدى وهذه راجعة إلى ما فيها من المهديين. والمشار إليهم هم المعيّنون بأسمائهم والمذكورون إجمالا في قوله تعالى { وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ } [87].
الكتاب: أي الكتب. وإيتاء الكتاب يكون بإنزال، كما أنزل على الرسل وبعض الانبياء، وما أنزل عليهم يعتبر كتابا، لأنّ شأنه أن يكتب سواء كتب أم لم يكتب.

وقد نصّ القرآن على أنّ إبراهيم كانت له صحف بقوله تعالى { صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى } [الأعلى:19]، وكان لعيسى كلامه الذي كتب في الإنجيل. ولداود الكلام الصادر منه تبليغا عن الله تعالى، وكان نبيّا ولم يكن رسولا، ولسليمان الأمثال، والجامعة، والنشيد، المنسوب في ثلاثتها أحكام أمر الله بها.

ويقال: إنّ إدريس كتب الحكمة في صحف وهو الذي يسميه الإسرائيليون (أخنوخ) ويدعوه القبط (توت) ويدعوه الحكماء (هُرْمس).

ويكون إيتاء الكتاب بإيتاء النبيّ فهم وتبيين الكتب المنزَّلة قبله.

الحكم: هو الحكمة، أي: العلم بطرق الخير ودفع الشر. قال تعالى في شأن يحيى { وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً } [مريم:12]، ولم يكن يحيى حاكما أي: قاضيا. وقد يُفسّر الحكم بالقضاء بالحقّ. كما في قوله تعالى في شأن داود وسليمان { وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً } [الانبياء:79].

وإيتاء هذه الثلاث على التوزيع، فمنهم من أوتي جميعها وهم الرسل منهم والأنبياء الذين حكموا بين النّاس مثل داود وسليمان، ومنهم من أوتي بعضها وهم الأنبياء غير الرسل والصالحون منهم غير الأنبياء، وهذا باعتبار شمول اسم الإشارة لآبائهم وذرّيّاتهم وإخوانهم.

{ **فَإِنْ يَكْفُرْ** } تشويه أمر الشرك بالاستدلال على فساده بنبذ أهل الفضل والخير إيّاه.

{ **بِهَا** } عائد إلى المذكورات: الكتاب والحكم والنبوة.

{ **هَؤُلاءِ** } إشارة إلى المشركين من أهل مكّة . وقد تقصَّيت مواقع آي القرآن فوجدته يعبّر عن مشركي قريش كثيرا بكلمة هؤلا، كقوله { بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ } [الزخرف: 29]، ولم أر من نبّه عليه من قبل.

وكفر المشركين بنبوّة أولئك الأنبياء تابع لكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم .

{ **فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا** } أي: وفقّنا للإيمان بها ومراعاتها والقيام بحقها. فالتوكيل هنا استعارة، لأنّ حقيقة التوكيل إسناد صاحب الشيء تدبير شيئه إلى من يتولى تدبيره ويكفيه كلفة حفظه. وقد استعير في هذه الآية للتوفيق إلى الإيمان بالنبوّة والكتاب والحكم والنظر في ما تدعو إليه ورعايته.

القوم: هم المؤمنون الذين آمنوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وبمن قبله من الرسل وما جاءهم من الكتب والحكم والنبوّة.

{ **لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ** } للدلالة على أنّهم سارعوا إلى الإيمان بها بمجرّد دعوتهم إلى ذلك.

المعنى: إن يكفر المشركون بنبوّتك ونبوّة من قبلك فلا يضرّك كفرهم، لأنّا قد وفّقنا قوما مؤمنين للإيمان بك وبهم، فهذا تسلية للرّسول صلى الله عليه وسلم على إعراض بعض قومه عن دعوته.

{ **أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ** } [90].

{ **أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ** } هم المشار إليهم بقوله تعالى { أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوءَةَ } [89]، فإنّهم الذين أُمر نبيّنا صلى الله عليه وسلم بالاقتداء بهداهم.

{ **فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** } تفريع على كمال ذلك الهدى، وتخلّص إلى ذكر حظّ محمد صلى الله عليه وسلم من هدى الله بعد أن قُدّم قبله ذكر الأنبياء وهديهم، إشارة إلى علو منزلة محمد صلى الله عليه وسلم وأنّها منزلة جديرة بالتخصيص بالذكر حيث لم يذكر مع الأنبياء المتقدّمين، وأنّه جمع هدى الأوّلين، وأكملت له الفضائل، وجمع له ما تفرّق من الخصائص والمزايا العظيمة. وفي إفراده بالذكر وترك عدّه مع الأولين رمز بديع إلى فذاذته وتفرّد مقداره.

الاقتداء: افتعال من القدوة (بضم القاف وكسرها). وهو الذي يعمل غيره مثل عمله، ولا يعرف له في اللغة فعل مجرّد فلم يسمع إلّا اقتدى.

{ **فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** } تعريض للمشركين بأنّ محمدا صلى الله عليه وسلم ما جاء إلّا على سنّة الرسل كلّهم وأنّه ما كان بدعا من الرسل. ويشمل هداهم ما كان منه راجعا إلى أصول الشرائع، وما كان منه راجعا إلى زكاء النفس وحسن الخلق.

وأمّا ما كان منه تفاريع عن ذلك وأحكاما جزئية من كلّ ما أبلغه الله إيّاه بالوحي ولم يأمره باتباعه في الإسلام ولا بيّن له نسخه، فقد اختلف علماؤنا في أنّ الشرائع الإلهية السابقة هل تعتبر أحكامها من شريعة الإسلام إذا أبلغها الله إلى الرّسول صلى الله عليه وسلم ولم يجعل في شريعته ما ينسخها.

وأرى أنّ أصل الاستدلال لهذا أن الله تعالى إذا ذكر في كتابه أو أوحى إلى رسوله عليه صلى الله عليه وسلم حكاية حكم من الشرائع السابقة في مقام التنويه بذلك والامتنان ولم يقارنه ما يدلّ على أنّه شرع للتشديد على أصحابه عقوبة لهم، ولا ما يدلّ على عدم العمل به، فإن ذلك يدلّ على أنّ الله تعالى يريد من ا لمسلمين العمل بمثله إذا لم يكن من أحكام الإسلام ما يخالفه ولا من أصوله ما يأباه، مثل أصل التيسير.

ولا حجّة في الآيات التي فيها أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم باتباع من قبله مثل هذه الآية، ومثل قوله تعالى { ثمّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً } [النحل:123]، ومثل قوله تعالى { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى } [الشورى:13]، لأنّ المقصود من ذلك أصول الديانة وأسس التشريع التي لا تختلف فيها الشرائع.

والمذاهب في هذه المسألة أربعة:

المذهب الأول: مذهب مالك فيما حكاه ابن بكير وعبد الوهاب والقرافي ونسبوه إلى أكثر أصحاب مالك: أنّ شرائع من قبلنا تكون أحكاما لنا، لأنّ الله أبلغها إلينا. والحجّة على ذلك ما يثبت في الصحاح من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في قضية الرُّبيّع بنت النضر حين كسرت ثنية جارية عمدا أن تكسر

ثنيتها، فراجعته أمّها وقالت: والله لا تكسر ثنيّة الرُّبيّع، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **كتاب الله القصاص "**، وليس في كتاب الله حكم القصاص في السن إلّا ما حكاه عن شرع التوراة بقوله تعالى { وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ـ إلى قوله ـ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ } [المائدة:45].

وما في الموطأ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " من نسي الصلاة فليصلها إذا ذكرها فإن الله تعالى يقول في كتابه { أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي } [طه:14]، وإنّما قاله الله حكاية عن خطابه لموسى عليه السلام.

ونقل علماء المالكية عن أصحاب أبي حنيفة مثل هذا. ونقله القرطبي عن كثير من أصحاب الشافعي. وهو منقول في كتب الحنفية عن عامة أصحاب الشافعي.

المذهب الثاني: ذهب أكثر الشافعية والظاهرية: أنّ شرع من قبلنا ليس شرعا لنا. واحتجّوا بقوله تعالى { لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً } [المائدة:48]. ونسب القرطبي هذا القول للكثير من أصحاب مالك وأصحاب الشافعي.

المذهب الثالث : إنّما يلزم الاقتداء بشرع إبراهيم عليه السلام لقوله تعالى { ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً } [النحل: 123]. ولم أقف على تعيين من نسب إليه هذا القول.

المذهب الرابع: لا يلزم إلّا اتباع شريعة عيسى لأنّها آخر الشرائع نسخت ما قبلها. ولم أقف على تعيين صاحب هذا القول. قال ابن رشد في المقدّمات: " وهذا أضعف الأقوال ".

{ **قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ** } استئناف عُقّب به ذلك البيان العظيم الجامع لأحوال كثير من الأمم. والإيماء إلى نبوّة جمع من الأنبياء والصالحين، وبيان طريقة الجدلّ في تأييد الدين، وأنّه ما جاء إلّا كما جاءت ملل تلك الرسل، فلذلك ذيّله الله بأمر رسوله أن يُذكّر قومه بأنه يذكّرهم. كما ذكّرت الرسل أقوامهم، وأنّه ما جاء إلّا بالنصح لهم كما جاءت الرسل.

{ **لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً** } أي: لست طالب نفع لنفسي على إبلاغ القرآن، ليكون ذلك تنبيها للاستدلال على صدقه لأنّه لو كان يريد لنفسه نفعا لصانعهم ووافقهم.

{ **عَلَيْهِ** } أي: لا أسألكم على التبليغ أو الدعاء أجرا.

{ **إِنْ هُوَ إِلّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ** } الذكرى اسم مصدر الذكر (بالكسر)، وهو ضد النسيان، وتقدّم آنفا.

والمراد بها هنا ذكر التوحيد والبعث والثواب والعقاب.

وجعل الدعوة ذكرى للعالمين، لأنّ دعوته صلى الله عليه وسلم عامة لسائر الناس. وقد أشعر هذا بأنّ انتفاء سؤال الأجر عليه لسببين: أحدهما أنّه ذكرى لهم ونصح لنفعهم فليس محتاجا لجزاء منهم، ثانيهما: أنه ذكرى لغيرهم من النّاس وليس خاصا بهم.

{ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدىً للنّاس تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ** } [91].

وجود الواو العطف في صدر هذه الجملة ينادي على أنّها متناسقة مع مع الجمل التي قبلها، فهذا عطف على جملة { فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ } [89]، وليست ابتدائية في غرض آخر، ذلك أنّ المشركين لمّا استشعروا نهوض الحجّة عليهم في نزول القرآن بأنّه ليس بدعا مما نُزّل على الرّسل، ودُحض قولهم {لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً } [الفرقان:7]، توغّلوا في المكابرة والجحود فقالوا { **مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ**} وتجاهلوا ما كانوا يقولونه عن إبراهيم عليه السلام وما يعلمونه من رسالة موسى عليه السلام وكتابه.

روى الطبري عن ابن عباس ومجاهد: أنّ قائل ذلك هم المشركون من قريش. ومن أئمة التفسير من جعل هذا حكاية لقول بعض اليهود، واختلفوا في أنّه معيّن أو غير معيّن. فعن ابن عباس أيضا، وسعيد ابن جبير، والحسن، والسدي: أن قائل { مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ } بعض اليهود.

القَدْر: مقياس الشيء وضابطه، ويستعمل مجازا في علم الأمر بكنهه وفي تدبير الأمر. يقال: قَدَر القومُ أمرهم يقدُرونه، أي: ضبطوه ودبّروه. وهو هنا مجاز في العلم الصحيح. أي: ما عرفوا الله حقّ معرفته وما علموا شأنه وتصرّفاته حقّ العلم بها.

{ **إِذْ قَالُوا** } ظرف، أي: ما قدروه حين قالوا { مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ }، لأنّهم لمّا نفوا شأنا عظيما من شؤون الله، وهو شأن هديه النّاس وإبلاغهم مراده بواسطة الرّسل، قد جهلوا مقامه ورحمته بخلقه.

{ **شَيْءٍ** } شيء من الوحي.

{ **قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى** } أمر الله نبيّه بأن يُفحمهم باستفهام تقريري، فذكّرهم بأمر لا يستطيعون جحده لتواتره في بلاد العرب، وهو رسالة موسى ومجيئه بالتوراة وهي تدرس بين اليهود في البلد المجاور لمكّة، واليهود يتردّدون على مكّة في التجارة وغيرها، وأهل مكّة يتردّدون على يثرب وما حولها وفيها اليهود وأحبارهم.

النور: استعارة للوضوح والحقّ، فإنّ الحقّ يشبّه بالنور، كما يشبّه الباطل بالظلمة. ولذلك عطف عليه {**هُدًى**} ونظيره قوله تعالى { إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ } [المائدة:44].

{ **للنّاس** } اليهود، أي: ليهديهم.

{ **تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ** } إمّا أن يكون الخطاب لغير المشركين إذ الظاهر أن ليس لهم عمل في الكتاب الذي أنزل على موسى ولا باشروا إبداء بعضه وإخفاء بعضه، فتعيّن أن يكون خطابا لليهود على طريقة

الإدماج، أي: الخروج من خطاب إلى غيره تعريضا باليهود وإسماعا لهم وإن لم يكونوا حاضرين، أو هو التفات من طريق الغيبة الذي هو مقتضى المقام إلى طريق الخطاب.

وإمّا أن يكون خطابا للمشركين. ومعنى كونهم يجعلون كتاب موسى قراطيس يبدون بعضها ويخفون بعضها أنّهم سألوا اليهود عن نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم فقرأوا لهم ما في التوراة من التمسك بالسبت، أي: دين اليهود، وكتموا ذكر الرّسول صلى الله عليه وسلم الذي يأتي من بعد، فأسند الإخفاء والإبداء إلى المشركين مجازا لأنّهم كانوا مظهرا من مظاهر ذلك الإخفاء والإبداء.

وقد قدّمت ما يرجّح أنّ سورة الأنعام نزلت في آخر مدّة إقامة رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة، وذلك يوجب ظنّنا بأنّ هذه المدّة كانت مبدأ مداخلة اليهود لقريش في مقاومة الدعوة الإسلامية بمكّة حين بلغت إلى المدينة.

القراطيس: جمع قرطاس. وتقدّم عند قوله تعالى { وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ } [7]. وهو الصحيفة من أيّ شيء كانت من رق أو كاغد أو خرقة. أي: تجعلون الكتاب الذي أنزل على موسى أوراقا متفرّقة قصدا، لإظهار بعضها وإخفاء بعض آخر.

{ **تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً** } صفة لقراطيس، أي: تبدون بعضها وتخفون كثيرا منها، ففُهم أنّ المعنى تجعلونه قراطيس لغرض إبداء بعض وإخفاء بعض. وهذه الصفة في محل الذمّ فإنّ الله أنزل كتبه للهدى، والهدى بها متوقف على إظهارها وإعلانها، فمن فرّقها ليظهر بعضا ويخفي بعضا فقد خالف مراد الله منها.

{ **وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا** } هذا الخطاب أشد انطباقا على المشركين لأنّهم لم يكونوا عالمين بأخبار الأنبياء وأحوال التشريع ونظامه فلمّا جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم علم ذلك من آمن علما راسخا، وعلم ذلك من بقي على كفره بما يحصل لهم من سماع القرآن عند الدعوة ومن مخاليطهم من المسلمين، وقد وصفهم الله بمثلها في آيات أخرى، كقوله تعالى { تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا } [هود:49].

{ **قُلِ اللَّهُ** } جواب الاستفهام التقريري. وقد تولّى السائل الجواب لنفسه بنفسه، لأنّ المسؤول لا يسعه إلّا أن يجيب بذلك لأنّه لا يقدر أن يكابر. والمعنى: قل الله أنزل الكتاب على موسى.

{ **ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ** } أي: أنّهم لا تنجع فيهم الحجج والأدلة فتركهم وخوضهم بعد التبليغ هو الاولى، ولكن الاحتجاج عليهم لتبكيتهم وقطع معاذيرهم.

{ **ذَرْهُمْ** } تقدّم في قوله تعالى { وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ } [70].

الخوض: تقدّم في قوله تعالى { وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ } [68].

اللعب: تقدّم في قوله تعالى { وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً } [70].

{ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ } [92].

{ **وَهَذَا كِتَابٌ** } الإشارة إلى القرآن، لأنّ المحاولة في شأنه، من ادّعائهم نفي نزوله من عند الله، ومن تبكيتهم بإنزال التوراة. وافتتاح الكلام باسم الإشارة المفيد تمييز الكتاب أكمل تمييز، لإفادة التقوية، كأنّه قيل: وهذا أنزلناه.

{ **أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ** } يجوز أن تكون حالا من اسم الإشارة.

المبارك: اسم مفعول من باركه، وبارك عليه، وبارك فيه، وبارك له، إذا جعل له البركة.

البركة: كثرة الخير ونماؤه. قال تعالى { أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا } [النمل: 8].

والقرآن مبارك لأنّه يدلّ على الخير العظيم، فالبركة كائنة به، فكأنّ البركة جُعلت في ألفاظه، ولأنّ الله تعالى قد أودع فيه بركة لقارئه المشتغل به، بركة في الدنيا وفي الآخرة.

{ **مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ** } أي: ما تقدّمه من كتب الانبياء، وأخصّها التوراة والإنجيل والزبور، لأنّها آخر ما تداوله النّاس من الكتب المنزّلة على الانبياء. وهو كذلك مصدّق الكتب النازلة قبل هذه الثلاثة وهي صحف إبراهيم. ومعنى كون القرآن مصدّقها من وجهين:

أحدهما: أنّ في هذه الكتب الوعد بمجيء الرّسول المقفّى على نبوّة أصحاب تلك الكتب، فمجيء القرآن قد أظهر صدق ما وعدت به تلك الكتب، ودلّ على أنّها من عند الله.

ثانيهما: أنّ القرآن مصدّق أنبيائها وصدّقها وذكر نورها وهداها، وجاء بما جاءت به من أصول الدين والشريعة. ثم إن ما جاء به من الأحكام التي لم تكن ثابتة فيها لا يخالفها. وأمّا ما جاء به من الأحكام المخالفة للأحكام المذكورة فيها من فروع الشريعة، فذلك لأجل اختلاف المصالح، أو لأنّ الله أراد التيسير بهذه الأمّة.

{ **وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا** } الوجه عندي أنّه معطوف على مقدّر ينبئ عنه السياق. والتقدير: ليؤمن أهل الكتاب بتصديقه ولتنذر المشركين. ونظيره قوله تعالى { هَذَا بَلاغٌ للنّاس وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ } [إبراهيم:52].

الإنذار: الإخبار بما فيه توقّع ضرّ، وضدّه البشارة. كما في قوله تعالى { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالحقّ بَشِيراً وَنَذِيراً} [البقرة:119]. واقتُصر عليه لأنّ المقصود تخويف المشركين.

أم القرى: مكّة، وشاعت استعارة الأمّ للأصل والمرجع حتّى صارت حقيقة، ومنه سُمّي أعلى الرأس أم الرأس، والفاتحة أم القرآن. وإنّما سُمّيت مكة أم القرى لأنّها أقدم القرى وأشهرها وما تقرّت القرى في بلاد العرب إلّا بعدها، فسمّاها العرب أم القرى، وكان عرب الحجاز قبلها سكان خيام.

وإنذار أم القرى بإنذار أهلها، أي: القبائل القاطنة حول مكّة مثل خزاعة، وسعد بن بكر، وهوازن، وثقيف، وكنانة.

ووجه الاقتصار على أهل مكة ومن حولها في هذه الآية أنّهم الذين جرى الكلام والجدال معهم من قوله تعالى { وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ } [66]، إذ السورة مكّية، وليس في التعليل ما يقتضي حصر الإنذار بالقرآن فيهم حتّى نتكلّف الادعاء أنّ { مَنْ حَوْلَهَا }، مراد به جميع أهل الأرض.

{ **وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ** } احتراس من شمول الإنذار المؤمنين الذين هم يومئذ بمكّة وحولها، ولذلك عُبّر عنهم بهذا الموصول لكونه كاللقب لهم، وهو مميّزهم عن أهل الشرك الذين أنكروا الآخرة. وأخبرعنهم بأنّهم يؤمنون بالقرآن فيُعلم أنّهم أحقّاء بضدّه وهو البشارة.

{ **وَهُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ** } إيذانا بكمال إيمأنّهم وصدقه، إذ كانت الصلاة هي العمل المختصّ بالمسلمين، فإنّ الحجّ كان يفعله المسلمون والمشركون.

{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الحقّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ } [93].

{ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ** } إبطال ما اختلقه المشركون من الشرائع الضالة في أحوالهم التي شرعها لهم عمرو بن لُحي من عبادة الاصنام، وزعمهم أنّهم شفعاء لهم عند الله، وما يستتبع ذلك من البحيرة، والسائبة، وما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح، وغير ذلك. فهم ينفون الرسالة تارة في حين أنّهم يزعمون أنّ الله أمرهم بأشياء فكيف بلغهم ما أمرهم الله به في زعمهم. فلزمهم أنّهم قد كذبوا على الله فيما زعموا أنّ الله أمرهم به.

فيكون المراد: تسفيه عقائد أهل الشرك والضلالة منهم على اختلافها واضطرابها.

والاستفهام إنكاري فهو في معنى النفي، أي: لا أحد أظلم من هؤلاء أصحاب هذه الصلات.

{ **وَمَنْ أَظْلَمُ** } تقدّم عند قوله تعالى { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُه } [البقرة:114].

الافتراء: الاختلاق، وتقدّم في قوله تعالى { وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِب } [المائدة:103].

{ **أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ** } أي: كل من ادّعى النبوّة كذبا.

روي أنّ المقصود بهذا مسيلمة متنبئ أهل اليمامة، وهذا يقتضي أنّ مسيلمة ادّعى النبوّة قبل الهجرة، لأنّ السورة مكية. والصواب أن مسيلمة لم يدع النبوّة إلّا بعد أن وفد على النبيّ صلى الله عليه وسلم في قومه بني حنيفة بالمدينة سنة تسع طامعا في أن يجعل له رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمر بعده.

{ **وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ** } قال الواحدي في أسباب النزول: "عن ابن عباس وعكرمة: أنّها نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري وكان قد أسلم بمكّة، وكان يكتب الوحي للنبيّ صلى الله

عليه وسلم، ثم ارتد، وهذا أيضا لا ينثلج له الصدر لأنّ عبد الله بن أبي سرح ارتدّ بعد الهجرة ولحق بمكة، وهذه السورة مكية.

فالوجه أن المراد بالموصول العموم ليشمل كل من صدر منه هذا القول ومن يتابعهم عليه في المستقبل.

{ ولَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الحقّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ }.

وعيد بعقاب لأولئك الظالمين المفترين على الله والقائلين: { أوحِيَ إِلَيْنَا }. والمقصود من هذا الشرط تهويل هذا الحال، ولذلك حُذف جواب (لو) كما هو الشأن في مقام التهويل. ونظائره كثيرة في القرآن.

الغَمرة: (بفتح الغين) ما يغمُر، أي: يَغُمّ من الماء فلا يترك للمغمور مخلصا. وشاعت استعارتها للشدّة، حتّى صارت الغمرة حقيقة عرفيّة في الشدّة الشديدة. وجمع الغمرات لقصد المبالغة في تهويل ما يصيبهم، بأنّه أصناف من الشدائد هي لتعدّد أشكالها وأحوالها لا يعبّر عنها باسم مفرد.

{ **فِي** } للظرفية المجازيّة، للدلالة على شدّة ملابسة الغمرات لهم.

{ **وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ** } تمثيل للشدّة في انتزاع أرواحهم، ولا بسط ولا أيدي.

{ **أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ** } حكاية قول الملائكة لهم عند قبض أرواحهم. فيكون إطلاق الغمرات مجازا مفردا ويكون الموت حقيقة.

الأنفس: بمعنى الأرواح، أي: أخرجوا أرواحكم من أجسادكم، والأمر للإهانة والإرهاق، إغلاظا في قبض أرواحهم، وقد كان المشركون في شكّ من البعث، فتُوعِّدوا بما لا شك فيه، وهو حال قبض الأرواح، وذلك الوعيد يقع من نفوسهم موقعا عظيما، لأنّهم كانوا يخافون شدائد النزع، وهو كقوله تعالى { وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ } [الأنفال:50].

ويجوز أن يكون هذا وعيدًا بما يلاقيه المشركون من شدائد العذاب يوم القيامة، فغمرات الموت تمثيل لحالهم يوم الحشر في منازعة الشدائد وأهوال القيامة، فالموت تمثيل وليس بحقيقة.

{ **الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الحقّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ** } استئناف وعيد، فصّلت للاستقلال والاهتمام.

الجزاء: هو عوض العمل وما يقابل به من أجر أو عقوبة. قال تعالى { جَزَاءً وِفَاقاً } [النبأ:26].

الهُون: الهوان، وهو الذلّ.

{ **بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ** } باء العوض، ويجوز جعل الباء للسببيّة، أي: تجزون عذاب الهون بسبب قولكم.

الاستكبار: الإعراض في قلة اكتراث، أي: تستكبرون عن التدبّر في الآيات وترون أنفسكم أعظم من صاحب تلك الآيات.

{ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أنّهم فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ} [94].

{ **وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا** } ليس المراد به ظاهر الإخبار لأنّ مجيئهم معلوم لهم ولكنّه مستعمل في تخطئتهم وتوقيفهم على صدق ما كانوا ينذَرون به على لسان الرّسول فينكرونه، وهو الرجوع إلى الحياة بعد الموت للحساب بين يدي الله.

{ **فُرَادَى** } حال، أي: منعزلين عن كلّ ما كنتم تعتزّون به في الحياة الاولى من مال وولد وأنصار.

جمع فَرْدان بمعنى المنفرد. ووجه جمعه هنا أنّ كل واحد منهم جاء منفردا عن ماله وأنصاره.

{ **كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ** } تشبيه للمجيء أريد منه معنى الإحياء بعد الموت، فالكاف لتشبيه الخلق الجديد بالخلق الأول.

{ **وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ** }

التخويل: التفضّل بالعطاء. قيل: أصله إعطاء الخَوَل (بفتحتين) وهو الخدم، أي: إعطاء العبيد. ثم استُعمل مجازا في إعطاء مطلق ما ينفع. أي: تركتم ما أنعمنا به عليكم من مال وغيره.

{ **وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أنّهم فِيكُمْ شُرَكَاءُ** } تهكّم بهم لأنّهم لا شفعاء لهم، على نحو قوله تعالى { وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ } [النحل:27]. ففيه إيهام أنّ رؤيتهم محتملة الحصول، وذلك زيادة في التهكّم.

الزعم: القول الباطل سواء كان عن تعمّد الباطل كما في قوله تعالى { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أنّهم آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ } [النساء:60]، أم كان عن سوء اعتقاد كما هنا.

الشفاعة: تقدّم عند قوله تعالى { وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ } [البقر:48].

{ **لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ** } تأييس لهم بعد الإطماع التهكّمي، والضمير المضاف إليه عائد إلى المخاطبين وشفعائهم.

وقد صار هذا التركيب كالمثل بهذا الإيجاز. وقد شاع في كلام العرب ذكر التقطّع مستعارا للبعد وبطلان الاتصال تبعا لاستعارة الحبل للاتصال.

{ **وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ** } هو من تمام التهكّم والتأييس.

ضل: ضد اهتدى، أي: جهل شفعاؤكم مكانكم لمّا تقطع بينكم فلم يهتدوا إليكم ليشفعوا لكم.

وفسّر ابن عطيّة وغيره ضل بمعنى غاب وتلف وذهب، أي: ذهب زعمكم أنّها تشفع لكم. وما ذكرناه في تفسير الآية أبلغ وأوقع.

{ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ [95] **فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** [96] }.

استئناف ابتدائي انتقل به من تقرير التوحيد والبعث والرسالة وأفانين المواعظ والبراهين إلى الاستدلال والاعتبار بخلق الله تعالى وعجائب مصنوعاته المشاهدة على انفراده تعالى بالإلهية إبطالا لشرك المشركين من العرب، ولمعتقد المعطّلين من الدهريين منهم بطريق الأولى. وفيه علم ويقين للمؤمنين من المصدّقين واستزادة لمعرفتهم بربّهم وشكرهم.

وجيء بالجملة الإسمية للدلالة على ثبات هذا الوصف ودوامه لأنّه وصف ذاتي لله تعالى.

الفلق: شقّ وصدع بعض أجزاء الشيء عن بعض، والمقصود الفلق الذي تنبثق منه وشائج النبت والشجر وأصولها، فهو محلّ العبرة من علم الله تعالى وقدرته وحكمته.

الحبِّ: اسم جمع لما يثمره النبت، واحده حبّة.

النوى: اسم جمع نواة، والنواة قلب التمرة. ويطلق على ما في الثمار من القلوب التي منها ينبت شجرها.

{ **يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ** } بيان المقصود من الجملة قبلها وهو الفلق الذي يخرج منه نبتا أو شجرا ناميا ذا حياة نباتية بعد أن كانت الحبّة والنواة جسما صلبا لا حياة فيه ولا نماء. فلذلك رُجّح فصل هذه الجملة عن التي قبلها لأنّها أعمّ منها لدلالتها على إخراج الحيوان من ماء النطفة أو من البيض.

{ **وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ** } صنع آخر عجيب دال على كمال القدرة ونافٍ تصرُّف الطبيعة بالخلق، لأنّ الفعل الصادر من العالم المختار يكون على أحوال متضادة بخلاف الفعل المتولّد عن سبب طبعي.

وقد جيء في جملة { يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ } بالفعل للدلالة على أن هذا الفعل يتجدّد ويتكرّر في كلّ آن، فهو مراد معلوم وليس على سبيل المصادفة والاتفاق. وجيء في جملة { وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ } بالاسم للدلالة على الدوام والثبات، فحصل بمجموع ذلك أنّ كلا الفعلين متجدّد وثابت، أي: كثير وذاتي، وذلك لأنّ أحد الإخراجين ليس أولى بالحكم من قرينه فكان في الأسلوب شبه الاحتباك.

{ **ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ** } لزيادة التمييز وللتعريض بغباوة المخاطبين المشركين لغفلتهم عن هذه الدلالة، أي: ذلكم الفاعل الأفعال العظيمة من الفلق وإخراج الحيّ من الميّت، والميّت من الحيّ، هو الذي يعرفه الخلق باسمه العظيم على أنّه الإله الواحد.

الأَفك: (بفتح الهمزة) مصدر أَفَكَه يأفِكُه، إذا صرفه عن مكان أو عن عمل، أي: فكيف تُصرفون عن توحيده.

{ **أَنَّى** } بمعنى: من أين. وهو استفهام تعجيبي إنكاري، أي: لا يوجد موجب يصرفكم عن توحيده.

وبني فعل { تُؤْفَكُونَ } للمجهول لعدم تعيّن صارفهم عن توحيد الله، وهو مجموع أشياء: وسوسة الشيطان، وتضليل قادتهم وكبرائهم، وهوى أنفسهم.

{ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً }.

الإصباح: (بكسر الهمزة) في الأصل مصدر أصبح الأفق، إذا صار ذا صباح. وقد سُمِّي به الصباح، وهو ضياء الفجر فيقابل الليل، وهو المراد هنا.

وفلق الإصباح استعارة لظهور الضياء في ظلمة الليل، كما استعير لذلك أيضا السلخ في قوله تعالى { وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ } [يّس:37].

{ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً } قرأه الجمهور بصيغة اسم الفاعل { جَاعِلُ } وجر { اللَّيْلِ } لمناسبة الوصفين في الاسمية والإضافة. وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وخلف { وجَعَلَ } بصيغة الفعل الماضي وبنصب {اللَّيْلَ}.

وعُبّر في جانب الليل بمادة (الجعل) لأنّ الظلمة عدم فتعلّق القدرة فيها هو تعلقها بإزالة ما يمنع تلك الظلمة من الأنوار العارضة للأفق. المعنى: أنّ الله فلق الإصباح بقدرته نعمة منه على الموجودات ولم يجعل النور مستمرّا في الأفق فجعله عارضا مجزّءا أوقاتا لتعود الظلمة إلى الأفق رحمة منه بالموجودات ليسكنوا بعد النصب والعمل فيستجمّوا راحتهم.

السَكَن: (بالتحريك) هو ما يُسكن إليه، أي: تسكن إليه النفس ويطمئن إليه القلب، والسكون فيه مجاز. وتُسمّى الزوجة سكنا والبيت سكنا، قال تعالى { وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً } [النحل:80]،

{ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً }

الحُسبان: في الأصل مصدر حَسَب كالغُفران، أي: جعلها حسابا، أي: علامة حساب للنّاس يحسبون بحركاتها أوقات الليل والنهار والشهور والفصول والأعوام.

وهذه منّة على النّاس وتذكير بمظهر العلم والقدرة، ولذلك جعل للشمس حسبان كما جعل للقمر، لأنّ كثيرا من الأمم يحسبون شهورهم وأعوامهم بحساب سير الشمس بحلولها في البروج وبتمام دورتها فيها. والعرب يحسبون بسير القمر في منازله، وهو الذي جاء به الإسلام، وكان العرب في الجاهلية يجعلون الكبس لتحويل السنة إلى فصول متماثلة.

وموقع المنّة أعم من الاعتبار الشرعي في حساب الأشهر والأعوام بالقمري، وإنّما استقام ذلك للنّاس بجعل الله حركات الشمس والقمر على نظام واحد لا يختلف، وذلك من أعظم دلائل علم الله وقدرته، وهذا بحسب ما يظهر للنّاس منه، ولو اطّلعوا على أسرار ذلك النّظام البديع لكانت العبرة به أعظم.

{ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ }

التقدير: وضع الأشياء على قدر معلوم كقوله تعالى { وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً } [الفرقان:2].

العزيز: الغالب والقاهر، والله هو العزيز حقّا لأنّه لا تتعاصى عن قدرته الكائنات كلّها.

العليم: مبالغة في العلم، لأنّ وضع الأشياء على النّظام البديع لا يصدر إلّا عن عالم عظيم العلم.

{ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النّجوم لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [97].

هذا تذكير بوحدانية الله وبعظيم خلقة النّجوم وبالنّعمة الحاصلة من نظام سيرها إذ كانت هداية للنّاس في ظلمات البرّ والبحر يهتدون بها. وقد كان ضبط حركات النّجوم ومطالعها ومغاربها من أقدم العلوم البشريّة ظهر بين الكلدانيين والمصريين القدماء. وذلك النّظام هو الذي أرشد العلماء إلى تدوين علم الهيئة.

النجوم: جمع نجم، وهو الكوكب، أي: الجسم الكروي المضيء في الأفق ليلا الذي يبدو للعين صغيرا، فليس القمر بنجم.

{ **جَعَلَ لَكُمُ** } الضمير للبشر كلّهم، والـلام للعلّة.

{ **لِتَهْتَدُوا بِهَا** } علّة ثانية لـ { جَعَلَ } فاللام للعلّة أيضا. وقد دلّت الأولى على قصد الامتنان، فلذلك دخلت على ما يدلّ على الضمير الدال على الذوات، كقوله تعالى { أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ } [الشرح:1]. واللام الثانية دلّت على حكمة الجعل وسبب الامتنان وهو ذلك النفع العظيم.

الظلمات: الظلمة الشديدة، فصيغة الجمع مستعملة في القوّة.

{ **قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ** } مستأنفة للتسجيل والتبليغ وقطع معذرة من لم يؤمنوا.

تفصيل الآيات: تقدّم عند قوله تعالى { وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ } [55].

{ **لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** } تعريض بمن لم ينتفعوا من هذا التفصيل بأنّهم قوم لا يعلمون.

العلم: في كلام العرب إدراك الأشياء على ما هي عليه.

والذين يعلمون هم الذين انتفعوا بدلائل الآيات، وهم الذين آمنوا بالله وحده، كما قال تعالى { إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [الأنعام:99].

{ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ } [98].

هذا تذكير بخلق الإنسان وكيف نشأ هذا العدد العظيم من نفس واحدة كما هو معلوم لهم، فالذي أنشأ النّاس وخلقهم هو الحقيق بعبادتهم دون غيره مما أشركوا به، والنّظر في خلقة الإنسان من الاستدلال بأعظم الآيات. قال تعالى { وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ } [الذريات:21].

الإنشاء: الإحداث والإيجاد. والضمير المنصوب مراد به البشر كلّهم.

النفس الواحدة: هي آدم عليه السلام.

{ **فَمُسْتَقَرٌّ** } الفاء للتفريع عن { أَنْشَأَكُمْ }، والاستقرار هو القرار، فالسين والتاء فيه للتأكيد. يقال: استقرّ في المكان بمعنى قرّ. وتقدّم عند قوله تعالى { لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ } [67].

الاستيداع، طلب الترك، وأصله مشتقّ من الوَدْع، وهو الترك على أن يسترجع المستودَع. يقال: استودعه مالا إذا جعله عنده وديعة. فالاستيداع مؤذن بوضع مؤقّت، والاستقرار مؤذن بوضع دائم أو طويل.

وقد اختلف المفسرون في المراد بالاستقرار والاستيداع في هذه الآية مع اتفاقهم على أنّهما متقابلان:

فعن ابن مسعود: " المستقرّ الكون فوق الأرض، والمستودع الكون في القبر". وعلى هذا الوجه يكون الكلام تنبيها لهم بأنّ حياة النّاس في الدنيا يعقبها الوضع في القبور وأنّ ذلك الوضع استيداع مؤقّت إلى البعث الذي هو الحياة الأولى، ردّا على الذين أنكروا البعث.

وعن ابن عباس: " المستقرّ في الرحم، والمستودع في صلب الرجل "، ونقل هذا عن ابن مسعود أيضا، وقاله مجاهد والضحاك وعطاء وإبراهيم النخعي، وفسّر به الزجّاج. قال الفخر: " وممّا يدلّ على قوّة هذا القول، أنّ النطفة الواحدة لا تبقى في صلب الأب زمانا طويلا والجنين يبقى في رحم الأمّ زمانا طويلا ".

والأظهر أن لا يُقيّد الاستيداع بالقبور بل هو استيداع من وقت الإنشاء، لأنّ المقصود التذكير بالحياة الثانية، ولأنّ الأظهر أنّ الواو ليست للتقسيم بل الأحسن أن تكون للجمع، أي: أنشأكم فشأنكم استقرار واستيداع فأنتم في حال استقراركم في الأرض ودائع فيها ومرجعكم إلى خالقكم كما ترجع الوديعة إلى مودعها. وإيثار التعبير بهذين المصدرين ما كان إلّا لإرادة توفير هذه الجملة.

{ **قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ** } تقرير لنظيره المتقدّم، مقصود به التذكير والإعذار.

عدل عن (يَعْلَمُونَ) إلى { يَفْقَهُونَ } لأنّ دلالة إنشائهم على هذه الأطوار من الاستقرار والاستيداع وما فيهما من الحكمة دلالة دقيقة تحتاج إلى تدبّر، فإنّ المخاطبين كانوا معرضين عنها فعُبّر عن علمها بأنّه فقه، بخلاف دلالة النّجوم على حكمة الاهتداء بها فهي دلالة متكرّرة. وتعريضا بأنّ المشركين لا يعلمون ولا يفقهون، فإن العلم هو المعرفة الموافقة للحقيقة، والفقه هو إدراك الأشياء الدقيقة. فحصل تفصيل الآيات للمؤمنين وانتفى الانتفاع به للمشركين، ولذلك قال بعد هذا { إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }.

{ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [99].

{ **مِنَ السَّمَاءِ** } ابتدائية، لأنّ ماء المطر يتكوّن في طبقات الجوّ العليا الزمهريريّة عند تصاعد البخار الأرضي إليها فيصير البخار كثيفا وهو السحاب ثم يستحيل ماء. فالسماء اسم لأعلى طبقات الجوّ حيث تتكون الأمطار.

{ **فَأَخْرَجْنَا** } عُدل عن ضمير الغيبة إلى ضمير التكلّم على طريقة الالتفات.

النبات: اسم لما ينبت، وهو اسم مصدر نبت، سُمِّي به النابت على طريقة المجاز الذي صار حقيقة شائعة فصار النبات اسما مشتركا مع المصدر.

{ **كُلِّ شَيْءٍ** } أي: فأخرجنا بالماء ما ينبت من أصناف النبت. فإنّ النبت جنس له أنواع كثيرة، وهذا التعميم يشير إلى أنّها مختلفة الصفات والثمرات والطبائع والخصوصيّات والمذاق، وهي كلّها نابتة من ماء السماء، وذلك آية على عظم القدرة، قال تعالى { تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ } [الرعد:4]، وهو تنبيه للنّاس ليعتبروا بدقائق ما أودعه الله فيها من مختلف القوى التي سبّبت اختلاف أحوالها.

{ **فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً** } تفصيل، أي: فكان من النبت خضر ونخل وجنّات وشجر، وهذا تقسيم الجنس إلى أنواعه.

الخَضِر: الشيء الذي لونه أخضر، ويطلق الخضر اسما للنبت الرطب الذي ليس بشجر كالقصيل والقضب.

{ **نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً** } صفة لقوله { خَضِراً } لأنّه صار اسما.

الحَبّ: هو ثمر النبات، كالبر والشعير والزراريع كلّها.

المتراكب: الملتصق بعضه على بعض في السنبلة، مثل القمح وغيره. والتفاعل للمبالغة.

{ **وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ** } المقصود بالإخبار هنا التعجيب من خروج القنوان من الطلع وما فيه من بهجة، وبهذا يظهر وجه تغيير أسلوب هذه الجملة عن أساليب ما قبلها وما بعدها إذ لم تعطف أجزاؤها عطف المفردات، على أنّ موقع الجملة بين أخواتها يفيد ما أفادته أخواتها من العبرة والمنّة.

{ **النّخل** } التعريف هنا تعريف العهد الجنسي، فإنّ النّخل شجرهم وثمره قوتهم وحوائطه منبسط نفوسهم.

{ **قِنْوَانٌ** } جمع قِنْوٌ (بكسر القاف) على المشهور عند العرب. **والقِنْو**: عرجون التمر، كالعنقود للعنب، ويُسمَّى العِذق، ويسمَّى كذلك الكِباسة.

الطلع: وعاء عرجون التمر الذي يبدو في أوّل خروجه كشكل الاترجّة العظيمة مغلقا على العرجون، ثم ينفتح كصورة نعلين فيخرج منه العنقود مجتمعا، ويسمى حينئذ الإغريض، ثم يصير قِنْوا.

{ **دَانِيَةٌ** } قريبة التناول كقوله تعالى { قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ } [الحاقة:23].

والقنوان الدانية بعض قنوان النخل خُصّت بالذكر هنا إدماجا للمنّة في خلال التذكير بإتقان الصنعة فإنّ المنّة بالقنوان الدانية أتمّ.

{ **وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ** } جمع عنب وهو جمع عنبة، وهو في الأصل ثمر شجر الكرم.

{ **وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ** } عطف على { جَنَّاتٍ } والمراد بالزيتون والرمان شجرهما. وهما في الأصل اسمان للثمرتين ثم أطلقا على شجرتيهما كما تقدّم في الأعناب.

وهاتان الشجرتان وإن لم تكونا مثل النخل في الأهمية عند العرب إلاّ أنّهما لعزّة وجودهما في بلاد العرب ولتنافس العرب في التفكّه بثمرهما والإعجاب باقتنائهما ذكرا في مقام التذكير بعجيب صنع الله تعالى ومنّته. وكانت شجرة الزيتون موجودة بالشام وفي سينا، وشجرة الرمان موجودة بالطائف.

{ **مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ** } حال ومعطوف عليه، أي: بعضه مشتبه وبعضه غير متشابه. وهما حالان من الزيتون والرمان معا.

التشابه: التماثل في حالة مع الاختلاف في غيرها من الأحوال. أي: بعض شجره يشبه بعضا وبعضه لا يشبه بعضا، أو بعض ثمره يشبه بعضا وبعضه لا يشبه بعضا. وهذا كقوله تعالى { وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ } [الرعد:4].

{ **انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ** } بيان للجمل التي قبلها المقصود منها الوصول إلى معرفة صنع الله تعالى وقدرته.

الثَّمَر: الجَنَى الذي يُخرجه الشجر. وهو(بفتح الثاء والميم) في قراءة الأكثر، جمع ثَمَرة، وقرأه حمزة والكسائي وخلف (بضم الثاء والميم) وهو جمع تكسير.

اليَنْع: الطِّيبُ والنضج. يقال: ينَع (بفتح النون) ييِنَع (بفتح النون وكسرها)، ويقال: أَيْنَعَ يُونِع يَنْعَا.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** } علة للأمر بالنظر. والإشارة بـ { ذَلِكُمْ } إلى المذكور كلّه.

{ **لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** } تصريحا بأنّهم المقصود في الآيتين الأخريين { لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } [97] و{ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ } [98]، وإتماما للتعريض بأنّ غير العالمين وغير الفاقهين هم غير المؤمنين، يعني المشركين.

{ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ } [100].

هذا انتقال إلى ذكر شرك آخر من شرك العرب وهو جعلهم الجنّ شركاء لله في عبادتهم، كما جعلوا الأصنام شركاء له في ذلك. وقد كان دين العرب في الجاهلية خليطا من عبادة الأصنام ومن الصابئيّة،

عبادة الكواكب وعبادة الشياطين، ومجوسيّة الفرس، وأشياء من اليهوديّة والنصرانية. فإنّ العرب لجهلهم حينئذ كانوا يتلقّون من الأمم المجاورة لهم والتي يرحلون إليها عقائد شتى متقاربا بعضها ومتباعدا بعض، فيأخذونه بدون تأمّل ولا تمحيص لفقد العلم فيهم.

فالعرب كان أصل دينهم في الجاهلية عبادة الأصنام وسرت إليهم معها عقائد من اعتقاد سلطة الجن والشياطين ونحو ذلك. فكان العرب يثبتون الجنّ وينسبون إليهم تصرفات، فلأجل ذلك كانوا يتّقون الجنّ وينتسبون إليها ويتخذون لها المعاذات والرقى، ويستجلبون رضاها بالقرابين وترك تسمية الله على بعض الذبائح. وكانوا يعتقدون أنّ الكاهن تأتيه الجنّ بالخبر من السماء، وأنّ الشاعر له شيطان يوحي إليه الشعر، ثم إذا أخذوا في تعليل هذه التصرفات وجمعوا بينها وبين معتقدهم في ألوهية الله تعالى تعلّلوا لذلك بأنّ للجنّ صلة بالله تعالى فلذلك قالوا: الملائكة بنات الله من أمهات سَرَوات الجنّ، كما أشار إليه قوله تعالى { وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً } [الصافات:158]. ومن أجل ذلك جعل كثير من قبائل العرب شيئا من عبادتهم للملائكة وللجنّ. قال تعالى { وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ } [سبأ:41/40]. والذين زعموا أنّ الملائكة بنات الله هم قريش وجُهينة وبنو سلمة وخُزاعة وبنو مُليح.

{ **شُرَكَاءَ الْجِنَّ** } لا مطلق الشركاء، لأنّ جعل الشركاء لله قد تقرّر من قبل.

الجِنّ: اسم لموجودات من المجرّدات التي لا أجسام لها ذات طبع ناري، ولها آثار خاصة في بعض تصرّفات تؤثر في بعض الموجودات ما لا تؤثّره القوى العظيمة. ولا يدرى أمد وجود أفرادها ولا كيفية بقاء نوعها. وقد أثبتها القرآن على الإجمال.

وكان للعرب أحاديث في تخيّلها، فهم يتخيّلونها قادرة على التشكّل بأشكال الموجودات كلّها، ويزعمون أنّها إذا مسّت الإنسان آذته وقتلته. وأنّها تختطف بعض النّاس في الفيافي، وأنّ لها زجلا وأصواتا في الفيافي، ويزعمون أنّ الصدى هو من الجن، وأنّها قد تقول الشعر، وأنّها تظهر للكهّان والشعراء.

{ **وَخَلَقَهُمْ** } أي: وخلق المشركين، وموقع هذه الحال التعجيب من أن يجعلوا لله شركاء وهو خالقهم.

<u>ويجوز</u> أن يكون ضمير { خَلَقَهُمْ } عائدا إلى الجنّ، وموقع الحال التعجيب من ضلال المشركين أن يشركوا الله في العبادة بعض مخلوقاته.

{ **وَخَرَقُوا** } الضمير عائد على المشركين.

الخرق: أصله القطع والشق. قال الراغب: " هو القطع والشق على سبيل الفساد من غير تدبّر". ومنه قوله تعالى { أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا } [الكهف:71]. وهو ضدّ الخلق، فإنه فعل الشيء بتقدير ورفق.

{ **وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ** } المعنى: كذبوا على الله على سبيل الخرق، أي: نسبوا إليه بنين وبنات كذبا. وليس المراد هنا اليهود في قولهم { عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ } [التوبة:30]، ولا النصارى في قولهم {

الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ } [توبة:30]، كما فسّر به جميع المفسّرين، لانّ ذلك لا يناسب السياق، ويشوّش عود الضمائر ويخرم نظم الكلام.

فالمراد: أنّ بعض المشركين نسبوا لله البنين، وهم الذين تلقنوا شيئا من المجوسية. ولعلّ بعضهم كان يقول بأنّ الجنّ أبناء الله والملائكة بنات الله.

{ **بِغَيْرِ عِلْمٍ** } متعلّق بـ { خَرَقُوا }، أي: اختلقوا اختلاقا عن جهل وضلالة، لأنّه اختلاق لا يلتئم مع العقل والعلم.

{ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ** } مستأنفة تنزيها عن جميع ما حكي عنهم.

{ **سُبْحَانَهُ** } أصل الكلام أسبّح الله سبحانا. وقد تقدّم { قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا } [البقرة:32].

{ **تَعَالَى** } ارتفع، وهو تفاعل من العلو. والتفاعل فيه للمبالغة في الاتصاف. والعلو هنا مجاز، أي: كونه لا يُنقصه ما وصفوه به.

{ **عَمَّا يَصِفُونَ** } متعلّق بـ { تَعَالَى }، أي: عن الذي يصفونه.

الوصف: الخبر عن أحوال الشيء وأوصافه وما يتميّز به، فهو إخبار مُبيّن مُفصِّل للأحوال حتّى كأنّ المخبر يصف الشيء وينعته.

{ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [101].

جملة مستأنفة، وهذا شروع في الإخبار بعظيم قدرة الله تعالى، وهي تفيد مع ذلك تقوية التنزيه في قوله تعالى { سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ } [100]، فتتنزَّل منزلة التعليل لمضمون ذلك التنزيه بمضمونها أيضا.

{ **بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } تقدّم عند قوله تعالى { بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [البقرة:117/116].

{ **أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ** } بمعنى: من أين؟ وبمعنى: كيف؟ تتنزّل منزلة التعليل لمضمون التنزيه من الإبطال، وإنّما لم تعطف على التي قبلها لاختلاف طريق الإبطال لأنّ الجملة الأولى أبطلت دعواهم من جهة فساد الشبهة فكانت بمنزلة النقض في المناظرة. وهذه الجملة أبطلت الدعوى من جهة إبطال الحقيقة فكأنّها من جهة خطأ الدليل، لأنّ قولهم بأنّ الملائكة بنات الله والجنّ أبناء الله يتضمّن دليلا محذوفا على البنوّة وهو أنّهم مخلوقات شريفة، فأبطل ذلك بالاستدلال بما ينافي الدعوى، وهو انتفاء الزوجة التي هي أصل الولادة، فهذا الإبطال الثاني بمنزلة المعارضة في المناظرة.

{ **وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ** } الزوجة لأنّها تصاحب الزوج في معظم أحواله. وقد جُعل انتفاء الزوجة مسلما لأنّهم لم يدّعوه، فلزمهم انتفاء الولد لانتفاء شرط التولّد، وهذا مبني على المحاجّة العرفية بناء على ما هو المعلوم في حقيقة الولادة.

{ **وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ** } بعد أن أخبر بأنّه تعالى مبدع السماوات والأرض أخبر أنّه خالق كل شيء، أي: كلّ موجود، فيشمل ذوات السماوات والأرض، وشمل ما فيهما، والملائكة من جملة ما تحويه السماوات، والجنّ من جملة ما تحويه الأرض عندهم، فهو خالق هذين الجنسين، والخالق لا يكون أبا كما علمت. ففي هذه الجملة إبطال الولد أيضا، وهذا إبطال ثالث بطريق الكليّة بعد أنّ أبطل إبطالا جزئيا.

{ **وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** } تذييل لإتمام تعليم المخاطبين بعض صفات الكمال الثابتة لله تعالى، فهي جملة معطوفة على جملة { وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ } باعتبار ما فيها من التوصيف لا باعتبار الرد.

{ **ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ** } [102].

المشار إليه هو الموصوف بالصفات المضمّنة بالأخبار المتقدّمة، ولذلك استغني عن اتباع اسم الإشارة ببيان أو بدل. والمعنى: ذلكم المبدع للسماوات والأرض، والخالق كلّ شيء، والعليم بكل شيء، هو الله، أي: هو الذي تعلمونه.

{ **فَاعْبُدُوهُ** } جُعل الأمر بعبادته مفرَّعًا على وصفه بالربوبيّة والوحدانيّة.

ووجه أمرهم بعبادته أنّ المشركين كانوا معرضين عن عبادة الله تعالى بحيث لا يتوجَّهون بأعمال البرّ في اعتقادهم إلاّ إلى الأصنام، فهم يزورونها ويقرّبون إليها القرابين وينذرون لها النذور ويستعينون بها ويستنجدون بنصرتها، وما كانوا يذكرون الله إلّا في موسم الحجّ، على أنّهم قد خلطوه بالتقرّب إلى الأصنام إذ جعلوا فوق الكعبة (هُبَل)، وجعلوا فوق الصفا والمروة (أسافا ونائلة). وكان كثير منهم يهلّ (لمناة) في منتهى الحجّ، فكانوا معرضين عن عبادة الله تعالى، فلذلك أمروا بها صريحا، وأمروا بالاقتصار عليها بطريق الإيماء بالتفريع.

{ **وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ** } تكميل التعليل للأمر بعبادته دون غيره، بأنّه متكفّل بالأشياء كلّها من الخلق والرزق والإنعام وكلّ ما يطلب المرء حفظه له، فالوجه عبادته ولا وجه لعبادة غيره، فإنّ اسم الوكيل جامع لمعنى الحفظ والرقابة، كما تقدّم عند قوله تعالى { وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُر} [آل عمران:173].

{ **لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** } [103].

جملة ابتدائية لإفادة عظمته تعالى وسعة علمه، فلعظمته جلّ أن يحيط به شيء من أبصار المخلوقين.

الإدراك: حقيقته الوصول إلى المطلوب. ويطلق مجازا على شعور الحاسة بالمحسوس أو العقل بالمعقول، يقال: أدرك فلان ببصره وأدرك بعقله، ولا يقال: أدرك فلان بدون تقييد، واصطلح المتأخّرون من المتكلمين والحكماء على تسمية الشعور العقلي إدراكا، وجعلوا الإدراك جنسا في تعريف التصوّر والتصديق، ووصفوا صاحب الفهم المستقيم بالدرّاكة.

{ **وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ** } يجوز أن يكون إسناد الإدراك إلى اسم الله مشاكلة لما قبله. ويجوز أن يكون الإدراك فيه مستعارا للتصرّف لأنّ الإدراك معناه النوال.

الأبصار: جمع بصر، وهو اسم للقوّة التي بها النظر.

المعنى: لا تحيط به أبصار المبصرين لأنّ المدرك في الحقيقة هو المبصَر لا الجارحة، وإنّما الجارحة وسيلة للإدراك لأنّها توصل الصورة إلى الحسّ المشترك في الدماغ. والمقصود من هذا بيان مخالفة خصوصيّة الإله الحقّ عن خصوصيات آلهتهم في هذا العالم، فإنّ الله لا يُرى وأصنامهم تُرى، وتلك الخصوصية مناسبة لعظمته تعالى، فإنّ عدم إحاطة الأبصار بالشيء يكون من عظمته فلا تطيقه الأبصار.

ولا دلالة في هذه الآية على انتفاء أن يكون الله يُرى في الآخرة، كما تمسّك به نفاة الرؤية، وهم المعتزلة، لأنّ للأمور الآخرة أحوالا لا تجري على متعارفنا، وأحرى أن لا دلالة فيها على جواز رؤيته تعالى في الآخرة. ومن حاول ذلك فقد تكلّف ما لا يتم كما صنع الفخر في تفسيره .

والخلاف في رؤية الله في الآخرة شائع بين طوائف المتكلّمين؛ فأثبته جمهور أهل السنة لكثرة ظواهر الأدلة من الكتاب والسنّة مع اتفاقهم على أنّها رؤية تخالف الرؤية المتعارفة. وعن مالك ـ رحمه الله ـ : " لو لم ير المؤمنون ربهم يوم القيامة لم يُعيَّر الكفّار بالحجاب في قوله تعالى { كَلَّا أنّهم عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ } [المطففين:15] ". وعنه أيضا: " لم يُر الله في الدنيا لأنّه باق، ولا يُرى الباقي بالفاني، فإذا كان في الآخرة ورزقوا أبصارا باقية رأوا الباقي بالباقي ".

ثم اختلف أئمتنا هل حصلت رؤية الله تعالى للنبيّ صلى الله عليه وسلم فنفي ذلك جمع من الصحابة منهم عائشة وابن مسعود وأبو هريرة رضي الله عنهم وتمسّكوا بعموم هذه الآية كما ورد في حديث البخاري عن عكرمة عن عائشة. وأثبتها الجمهور، ونقل عن أبي بن كعب وابن عباس رضي الله عنهما، وعليه يكون العموم مخصوصا. وقد تعرض لها عياض في (الشفاء).

وقد سئل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجاب بجواب اختلف الرواة في لفظه، فحجب الله بذلك الاختلاف حقيقة الأمر إتماما لمراده ولطفا بعباده.

وفي قوله تعالى { لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ } مُحسِّن الطباق.

{ **وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** } صفة أخرى، أو هي تذييل للاحتراس دفعا لتوهّم أن من لا تدركه الأبصار لا يعلم أحوال من لا يدركونه.

اللطيف: وصف مشتق من اللطف أو من اللطافة. يقال: لطَف بمعنى رفق، وأكرم، واحتفى.
واللطيف صفة من صفات ذات الله تعالى، وهي صفة تنزيهه تعالى عن إحاطة العقول بماهيته أو إحاطة الحواس بذاته وصفاته، فيكون اختيارها للتعبير عن هذا الوصف في جانب الله تعالى هو منتهى الصراحة والرشاقة في الكلمة، لأنّها أقرب مادة في اللغة العربية تقرّب معنى وصفه تعالى بحسب ما وضعت له اللغة من متعارف النّاس، فيقرب أن تكون من المتشابه، وعليه فتكون أعم من مدلول جملة { لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ } فتتنزّل من الجملة التي قبلها منزلة التذييل أو منزلة الاستدلال على الجزئية بالكلية فيزيد الوصف قبله تمكُّنا.
وإن اعتُبر اللطيف اسم فاعل من لطَف (بفتح الطاء) فهو من أمثلة المبالغة يدلّ على وصفه تعالى بالرفق والإحسان إلى مخلوقاته وإتقان صنعه في ذلك وكثرة فعله ذلك، فيدلّ على صفة من صفات الأفعال.
وعلى هذا المعنى حمله سائر المفسّرين والمُبيّنين لمعنى اسمه اللطيف في عداد الأسماء الحسنى.
وهذا المعنى هو المناسب في كل موضع جاء فيه وصفه تعالى به مفردا معدّى باللام أو بالباء نحو { إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ } [يوسف:100]، وقوله تعالى { اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ } [الشورى:19].
خبير: صفة مشبّهة من خبُر في الماضي، خُبْرا (بضم الخاء وسكون الباء) بمعنى علم وعرف، فالخبير الموصوف بالعلم بالأمور التي شأنها أن يُخبر عنها علما موافقا للواقع.
ووقوع الخبير بعد اللطيف على المحمل الأوّل وقوع صفة أخرى هي أعم من مضمون { وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ }، فيكمل التذييل بذلك ويكون التذييل مشتملا على مُحسِّن النشر بعد اللف، وعلى المحمل الثاني موقعه موقع الاحتراس لمعنى اللطيف، أي: هو الرفيق المحسن الخبير بمواقع الرفق والإحسان وبمستحقيه.

{ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ } [104].
هذا انتقال من محاجّة المشركين، وإثبات الوحدانيّة لله بالربوبيّة من قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى - إلى قوله - وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ }[95-103].
استؤنف الكلام بتوجيه الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم مقول لفعل أمر بالقول حُذف على الشائع من حذفه مع وجود القرينة التي هي هنا قوله تعالى { وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ }.
ومناسبة وقوع هذا الاستئناف عقب الكلام المسوق إليهم من الله تعالى، أنّه كالتوقيف والشرح والفذلكة للكلام السابق، فيقدّر: قل يا محمد قد جاءكم بصائر.
بصائر: جمع بصيرة. والبصيرة، العقل الذي تظهر به المعاني والحقائق، كما أنّ البصر إدراك العين

الذي تتجلّى به الأجسام، وأطلقت البصائر على ما هو سبب فيها. وإسناد المجيء إلى البصائر استعارة للحصول في عقولهم، شُبّه بمجيء شيء كان غائبا، تنويها بشأن ما حصل عندهم.

والمقصود: التنويه بهذه التعاليم والذكريات التي بها البصائر، والحثّ على العمل بها، لأنّها مسداة إليهم ممّن لا يقع في هديه خلل ولا خطأ.

{ **فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ** } أي: فلا عذر لكم في الاستمرار على الضلال بعد هذه البصائر، أي: من علم الحقّ فقد علم علما ينفع نفسه.

{ **وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا** } أي: من ضلّ عن الحقّ فوزره على نفسه.

فاستعير الإبصار للعلم بالحقّ والعمل به، لأنّ المهتدي بهذا الهدي الوارد من الله بمنزلة الذي نُوِّر له الطريق بالبدر أو غيره. واستعير العمى للمكابرة والاستمرار على الضلال بعد حصول ما شأنه أن يقلعه.

استعمل (اللام) في الأوّل { فَلِنَفْسِهِ } استعارة للنفع، لدلالتها على الملك، وإنّما يملك الشيء النافع المدّخر للنوائب. واستعيرت (على) في الثاني { فَعَلَيْهَا } للضرّ والتبعة، لأنّ الشيء الضار ثقيل على صاحبه يكلّفه تعبا وهو كالحمل الموضوع على ظهره.

{ **وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ** } تكميل لما تضمّنه قوله تعالى { فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا }، أي: فلا ينالني من ذلك شيء، فلا يرجع لي نفعكم ولا يعود عليَّ ضرّكم.

الحفيظ: الحارس ومن يُجعل إليه نظر غيره وحفظه، وهو بمنزلة الوكيل، إلّا أنّ الوكيل يكون مجعولا له الحفظ من جانب الشيء المحفوظ، والحفيظ أعمّ لأنّه يكون من جانبه ومن جانب مواليه.

{ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } [105].

جملة معترضة تذييلا لما قبلها.

{ **وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ** } أي: ومثل ذلك التصريف نصرّف الآيات. وتقدّم نظيره غير مرة وأوّلها قوله تعالى { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً } [البقرة:143].

والقول في تصريف الآيات تقدّم في قوله تعالى { انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ } [65].

{ **وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ** } لا يناسب أن يكون علّة لتصريف الآيات، فتعيّن أن تكون (اللام) مستعارة لمعنى العاقبة والصيرورة ، أي: نصرّف الآيات مثل هذا التصريف الساطع فيحسبونك اقتبسته بالدراسة والتعليم. وهذا كقوله تعالى { وَلَقَدْ نَعْلَمُ أنّهم يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ } [النحل:103].

الدراسة: القراءة بتمهّل للحفظ أو للفهم، وتقدّم عند قوله تعالى { وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ } [آل عمران:79]. طعنا في أمية الرّسول عليه الصلاة والسلام لئلا يلزمهم أنّ ما جاء به من العلم وحي من الله تعالى.

{ **وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** } لام التعليل الحقيقية. والمعنى: أنّ هذا التصريف حصل منه هدى للموفّقين

ومكابرة للمخاذيل، كقوله تعالى { يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ } [البقرة:26].

{ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ [106] وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ [107] }.

استئناف في خطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم لأمره بالإعراض عن بهتان المشركين وأن لا يكترث بأقوالهم، فابتداؤه بالأمر باتباع ما أوحي إليه يتنزَّل منزلة المقدّمة للأمر بالإعراض عن المشركين، وليس هو المقصد الأصلي من الغرض المسوق له الكلام، لأنّ اتباع الرّسول صلى الله عليه وسلم ما أوحي إليه أمر واقع بجميع معانيه. والمعنى: أعرض عن المشركين اتباعا لما أنزل إليك من ربك.

{ **مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ** } المراد به القرآن.

الاتباع: في الأصل اقتفاء أثر الماشي، ثم استُعمل في العمل بمثل عمل الغير، كما في قوله تعالى { وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ } [التوبة:100]. ثمّ استُعمل في امتثال الأمر والعمل بما يأمر به المتبوع فهو الائتمار.

وإطلاق الاتباع بمعنى الائتمار شائع في القرآن، لأنّه جاء بالأمر والنهي وأمر النّاس باتباعه، واستُعمل أيضا في معنى الملازمة، على سبيل المجاز المرسل.

فيجوز أن يكون الاتباع في الآية مرادا به دوام الامتثال لما أمر به القرآن من الإعراض عن أذى المشركين وعنادهم. ويجوز أن يكون أمرا بملازمة الدعوة إلى الله والإعلان بها ودعاء المشركين إلى التوحيد والإيمان وأن لا يعتريه في ذلك لين ولا هوادة حتّى لا يكون لبذاءتهم وتكذيبهم إيّاه تأثير على نفسه يوهن دعوتهم والحرص على إيمأنهم واعتقاد أنّ محاولة إيمأنّهم لا جدو لها.

فيكون الكلام شدًّا لساعد النبيّ صلى الله عليه وسلم في مقامات دعوته إلى الله. وفي الإتيان بلفظ { **ربّك** } دون اسم الجلالة تأنيس للرسول صلى الله عليه وسلم وتلطّف معه.

{ **لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ** } معترضة، والمقصود منها إدماج التذكير بالوحدانية لزيادة تقريرها وإغاظة المشركين.

{ **وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ** } الإعراض عن مكابرتهم وأذاهم لا الإعراض عن دعوتهم، فإنّ الله لم يأمر رسوله صلى الله عليه وسلم بقطع الدعوة لأيّ صنف من النّاس. وكلّ آية فيها الأمر بالإعراض عن المشركين فإنّما هو إعراض عن أقوالهم وأذاهم، ألا ترى كلّ آية من هذه الآيات قد تلتها آيات كثيرة تدعو المشركين إلى الإسلام والإقلاع عن الشرك، كقوله تعالى { فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ } [النساء:63].

{ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا** } هذا تلطّف مع الرّسول صلى الله عليه وسلم وإزالة لما يلقاه من الكدر من استمرارهم على الشرك وقلّة إغناء آيات القرآن ونذره في قلوبهم، فذكّره الله بأنّ الله قادر على أن يحوّل قلوبهم فتقبل الإسلام بتكوين آخر، ولكنّ الله أراد أن يحصل الإيمان ممّن يؤمن بالأسباب المعتادة في

الإرشاد والاهتداء، ليميز الله الخبيث من الطيب وتظهر مراتب النفوس في ميادين التلقّي. إذ لم يجعل الله إيمان النّاس حاصلا بخوارق العادات ولا بتبديل خلق العقول. وهذا هو القانون في معنى مثل هذه الآية. وليس في مثل هذا عذر لهم ولا لأمثالهم من العصاة. وتقدّم عند قوله تعالى { وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى } [35].

{ **وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً** } تذكير وتسلية ليزيح عنه كرب إعراضهم عن الإسلام، لأنّ ما يحصل له من الكدر لإعراض قومه عن الإسلام يجعل في نفسه انكسارا كأنّه انكسار من عُهد إليه بعمل فلم يتسنّ له ما يريده من حسن القيام، فذكّره الله تعالى بأنّه قد أدى الأمانة وبلّغ الرسالة، وأنّه لم يبعثه مكرها لهم ليأتي بهم مسلمين، وإنّما بعثه مبلّغا لرسالته فمن آمن فلنفسه ومن كفر فعليها.

الحفيظ: القيّم الرقيب، أي: لم نجعلك رقيبا على تحصيل إيمانهم فلا يهمّنّك إعراضهم عنك وعدم تحصيل ما دعوتهم إليه إذ لا تبعة عليك في ذلك.

{ **وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ** } تهوين على نفس الرّسول صلى الله عليه وسلم بطريقة التذكير لينتفي عنه الغم الحاصل له من عدم إيمانهم.

{ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [108].

عطف على قوله تعالى { وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ } [106]، ويزيد معنى الإعراض المأمور به بيانا، ويحقّق ما قلناه أن ليس المقصود من الإعراض ترك الدعوة بل المقصود الإغضاء عن سبابهم وبذيء أقوالهم مع الدوام على متابعة الدعوة بالقرآن، فإنّ النّهي عن سبّ أصنامهم يؤذن بالاسترسال على دعوتهم وإبطال معتقداتهم مع تجنّب المسلمين سبّ ما يدعونهم من دون الله.

السبّ: كلام يدلّ على تحقير أحد أو نسبته إلى نقيصة أو معرّة، بالباطل أو بالحق، وهو مرادف الشتم. وليس من السبّ النسبة إلى خطإ في الرأي أو العمل، ولا النسبة إلى ضلال في الدين إنّ كان صدر من مخالف في الدين.

والمخاطب بهذا النّهي المسلمون لا الرّسول صلى الله عليه وسلم، لأنّ الرّسول لم يكن فحاشا ولا سبّابا، لأنّ خلقه العظيم حائل بينه وبين ذلك، وإنّما كان المسلمون لغيرتهم على الإسلام ربّما تجاوزوا الحدّ ففرطت منهم فرطات سبّوا فيها أصنام المشركين.

روى الطبري عن قتادة قال: " كان المسلمون يسبّون أوثان الكفار فيردّون ذلك عليهم، فنهاهم الله أن يستسبّوا لربهم ". وهذا أصح ما روي في سبب نزول هذه الآية وأوفقه بنظم الآية.

فالمراد في الآية ما يصدر من بعض المسلمين من كلمات الذمّ والتّعيير لآلهة المشركين.

ووجه النهي أنّ السبّ لا تترتب عليه مصلحة دينيّة لأنّ المقصود من الدعوة هو الاستدلال على إبطال الشرك وإظهار استحالة أن تكون الأصنام شركاء لله تعالى، فذلك هو الذي يتميّز به الحقّ عن الباطل، وينهض به المحق ولا يستطيعه المبطل.

على أنّ سبّ آلهتهم لمّا كان يُحمي غيظهم ويزيد تصلّبهم قد عاد منافيا لمراد الله من الدعوة، فقد قال لرسوله صلى الله عليه وسلم { وَجَادِلْهُمْ بِالتِي هِيَ أَحْسَنُ } [النحل:125]، وقال لموسى وهارون عليهما السلام

{ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا } [طه:44].

قال القرطبي: " قال العلماء: حكمها باق في هذه الأمّة على كل حال، فمتى كان الكافر في مَنَعة وخيف أنّه إن سبّ المسلمون أصنامه أو أمور شريعته أنّ يسبّ هو الإسلام أو النبيّ صلى الله عليه وسلم أو الله عز وجل، لم يحلّ للمسلم أن يسب صلبانهم ولا كنائسهم لأنّه بمنزلة البعث على المعصية ". أي: على زيادة الكفر.

وليس من السبّ إبطال ما يخالف الإسلام من عقائدهم في مقام المجادلة، ونظير هذا ما قاله علماؤنا فيما يصدر من أهل الذمّة من سب الله تعالى أو سب النبيّ صلى الله عليه وسلم، بأنّهم إن صدر منهم ما هو من أصول كفرهم فلا يعد سبّا وإن تجاوزوا ذلك، عُدَّ سبّا.

وقد احتجّ علماؤنا بهذه الآية على إثبات أصل من أصول الفقه عند المالكية، وهو الملقّب بمسألة **سد الذرائع**. قال ابن العربي: "منع الله في كتابه أحدا أن يفعل فعلا جائزا يؤدي إلى محظور، ولأجل هذا تعلّق علماؤنا بهذه الآية في سد الذرائع وهو كل عقد جائز في الظاهر يؤول أو يمكن أن يتوصّل به إلى محظور".

والمراد: سد ذرائع الفساد، كما أفصح عنه القرافي في (تنقيح الفصول) وفي (الفرق الثامن والخمسين) فقال: **الذريعة**: الوسيلة إلى الشيء. ومعنى سد الذرائع حسم مادة وسائل الفساد.

{ **عَدْواً** } (بفتح العين وسكون الدال وتخفيف الواو) في قراءة الجمهور، وهو مصدر بمعنى العدوان والظلم،

ووصف سبّهم بأنّه عَدْو، تعريض بأنّ سبّ المسلمين أصنام المشركين ليس من الاعتداء.

{ **بِغَيْرِعِلْمٍ** } حال، أي: عن جهالة، فهم لجهلهم بالله لا يزعهم وازع عن سبّه.

{ **كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ** } معناه كتزييننا لهؤلاء سوء عملهم زيّنّا لكلّ أمّة عملهم، فإن اجتراءهم على هذه الجرائم وعماهم عن النظر في سوء عواقبها نشأ عن تزيينها في نفوسهم وحسبانهم أنّها طرائق نفع لهم ونجاة وفوز في الدنيا بعناية أصنامهم.

التزيين: تفعيل من الزَّين، وهو الحسن، أو من الزّينة، وهي ما يتحسّن به الشيء. فالتزيين جعل الشيء ذا زينة أو إظهاره زيْنا أو نسبته إلى الزّين.

{ **ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } أي: وأعظم من ذلك أنّهم إلى الله مرجعهم فيحاسبهم. والعدول عن اسم الجلالة إلى لفظ { رَبِّهِمْ } لقصد تهويل الوعيد وتعليل استحقاقه بأنّهم يرجعون إلى مالكهم الذي خلقهم فكفروا نعمه وأشركوا به.

الإنباء: الإعلام، وهو توقيفهم على سوء أعمالهم. وقد استُعمل هنا في لازم معناه، وهو التوبيخ والعقاب، لأنّ العقاب هو العاقبة المقصودة من إعلام المجرم بجرمه. والفاء للتفريع عن المرجع مؤذنة بسرعة العقاب إثر الرجوع إليه.

{ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِم لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ } [109].

إشارة إلى شيء من تعلّلاتهم للتمادي على الكفر بعد ظهور الحجج الدامغة لهم، كانوا قد تعلّلوا به في بعض تورّكهم على الإسلام. روى الطبري وغيره عن مجاهد، ومحمد بن كعب القرظي، والكلبي، يزيد بعضهم على بعض: " أنّ قريشا سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم آية مثل آية موسى عليه السلام إذ ضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه العيون، أو مثل آية صالح، أو مثل آية عيسى عليهم السلام، وأنّهم قالوا لمّا سمعوا قوله تعالى { إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ } [الشعراء:4] أقسموا أنّهم إن جاءتهم آية كما سألوا أو كما تُوُعِّدوا ليوقِنُنَّ أجمعون، وأنّ رسول الله عليه صلى الله عليه وسلم سأل الله أن يأتيهم بآية كما سألوا، حرصا على أن يؤمنوا. فهذه الآية نازلة في ذلك المعنى لأنّ هذه السورة جمعت كثيرا من أحوالهم ومحاجاتهم.

{ **وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ** } هو نحو الكلام على قوله تعالى { أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ } [المائدة:53]. و**الأيمان**: تقدّم الكلام عليها عند قوله تعالى { لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ } [البقرة:225].

{ **لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ** } المراد بالآية ما اقترحوه على الرّسول صلى الله عليه وسلم، يعنون بها خارق عادة تدلّ على أنّ الله أجاب مقترحهم ليصدّق رسوله صلى الله عليه وسلم.

الآية: تقدّم بيان معناها واشتقاقها عند قوله تعالى { وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [البقرة:39].

{ **إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ** } أي: أنّ الآيات من آثار قدرة الله وإرادته، فأسباب إيجاد الآيات من صفاته، فهو قادر عليها، فلأجل ذلك شُبّهت بالأمور المدّخرة عنده وأنّه إذا شاء أبرزها للنّاس. فكلمة { عِنْدَ } هنا مجاز.

والحصر بـ { إِنَّمَا } رد على المشركين ظنّهم بأنّ الآيات في مقدور النبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ **وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ** } هذه الجملة عقبة حيرة للمفسّرين في الإبانة عن معناها ونظمها.

فالذي يلوح لي أنّ الجملة يجوز أن تكون الواو فيها واو العطف وأن تكون واو الحال؛

فأمّا وجه كونها واو العطف فأن تكون معطوفة على جملة { إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ } كلام مستقل، وهي كلام مستقل وجهه الله إلى المؤمنين وليست من القول المأمور به النبيّ صلى الله عليه وسلم.

وأمّا الوجه في كون الواو في قوله تعالى { وَمَا يُشْعِرُكُمْ } واو الحال فتكون (ما) نكرة موصوفة بجملة { يُشْعِرُكُمْ }، ومعناها: شيء موصوف بأنّه يشعركم أنّها إذا جاءت لا يؤمنون. وهذا الشيء هو ما سبق نزوله من القرآن، مثل قوله تعالى { إِنَّ الذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ } [يونس:97/96]، وكذلك ما جرّبوه من تلوّن المشركين في التفصّي من ترك دين آبائهم، فتكون الجملة حالا.

أي: والحال أنّ القرآن والاستقراء أشعركم بكذبهم فلا تطمعوا في إيمانهم ولو جاءتهم آية ولا في صدق أيْمانهم، قال تعالى { إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ } [التوبة:12].

{ **وَمَا يُشْعِرُكُمْ** } استفهامية مستعملة في التشكيك والإيقاظ، لئلّا يغرّهم قسم المشركين ولا تروج عليهم ترَّهاتهم.

الإشعار: الإعلام بمعلوم من شأنه أن يخفى ويدقّ. يقال: شعر فلان بكذا، أي: علمه وتفطّن له، فالفعل يقتضي متعلَّقا به بعد مفعوله ويتعيّن أن قوله تعالى { أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ } هو المتعلِّق به، فهو على تقدير باء الجر. والتقدير: بأنّها إذا جاءت لا يؤمنون.

{ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِم يَعْمَهُونَ } [110].

يجوز أن يكون عطفا على جملة { أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ } [109] فتكون بيانا لقوله تعالى { لا يُؤْمِنُونَ}، أي: بأن نعطّل أبصارهم عن تلك الآية وعقولهم عن الاهتداء بها فلا يبصرون ما تحتوى عليه الآية من الدلائل ولا تفقه قلوبهم وجه الدلالة فيتعطّل تصديقهم بها، وذلك بأن يحرمهم الله من إصلاح إدراكهم، فعبّر عن ذلك الحال المخالف للفطرة السليمة، بأنه تقليب لعقولهم وأبصارهم، ولأنّها كانت مقلوبة عن المعروف عند أهل العقول السليمة، وليس داعي الشرك فيها تقليبا عن حالة كانت صالحة لأنّها لم تكن كذلك حينا، ولكنه تقليب لأنّها جاءت على خلاف ما الشأن أن تجيء عليه.

{ **يُؤْمِنُوا بِهِ** } عائد إلى القرآن.

{ **كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ** } الكاف لتشبيه حالة انتفاء إيمانهم بعد أن تجيئهم آية ممّا اقترحوا.

المعنى: ونقلّب أفئدتهم وأبصارهم فلا يؤمنون بالآية التي تجيئهم مثلما لم يؤمنوا بالقرآن من قبل، فتقليب أفئدتهم وأبصارهم على هذا المعنى يحصل في الدنيا، وهو الخذلان.

ويجوز أن تكون جملة { وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ } مستأنفة والواو للاستئناف. والمعنى: ونحن نقلّب أفئدتهم وأبصارهم، أي: في نار جهنم، كناية عن تقليب أجسادهم كلّها. وخص من أجسادهم أفئدتهم وأبصارهم لأنّها سبب إعراضهم عن العبرة بالآيات.

{ **أَوَّلَ مَرَّةٍ** } أي: في الحياة الدنيا. أي: أن المكابرة سجيّتهم فكما لم يؤمنوا في الماضي بآية القرآن، وفيه أعظم دليل على صدق الرّسول عليه الصلاة والسلام، لا يؤمنون في المستقبل بآية أخرى إذا جاءتهم.

{ **وَنَذَرُهُمْ** } عطف على { نُقَلِّبُ }. فحُقِّق أنّ معنى { نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ } نتركها على انقلابها الذي خُلقت عليه، فكانت مملوءة طغيانا ومكابرة للحقّ، وكانت تصرف أبصارهم عن النظر والاستدلال، ولذلك أضاف الطغيان إلى ضميرهم للدلالة على تأصّله فيهم، ونشأتهم عليه، وأنّهم حُرموا لين الأفئدة الذي تنشأ عنه الخشية والذكرى.

الطغيان والعمه: تقدّما عند قوله تعالى { وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَأنّهم يَعْمَهُونَ } [البقرة:15].

{ **فِي طُغْيَانِهِمْ** } للدلالة على إحاطة الطغيان بهم، أي: بقلوبهم.

{ **يعمهون** } فيه تنبيه على أنّ العمه ناشئ عن الطغيان.

{ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ } [111].

روي عن ابن عباس: أنّ المستهزئين، الوليد بن المغيرة، والعاصي بن وائل، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب، والحارث بن حنظلة، من أهل مكّة. أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في رهط من أهل مكّة فقالوا: أرنا الملائكة يشهدون لك أو ابعث لنا بعض موتانا فنسألهم: أحقّ ما تقول.

وقيل: إنّ المشركين قالوا: لا نؤمن لك حتّى يُحشر قُصي فيخبرنا بصدقك أو ائتنا بالله والملائكة قبيلا، أي: كفيلا "، فنزل قوله تعالى { وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ } للرد عليهم.

{ **وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ** } يشير إلى مجموع ما سألوه وغيره.

الحشر: الجمع، ومنه قوله تعالى { وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ } [النمل:17]. وضُمّن معنى البعث والإرسال.

{ **وَكُلُّ شَيْءٍ** } يعمّ الموجودات كلّها. لكن المقام يخصّصه بكلّ شيء ممّا سألوه.

{ **قُبُلاً** } قرأه نافع، وابن عامر، وأبو جعفر بكسر القاف وفتح الباء، وهو بمعنى المقابلة والمواجهة.

وقرأه الباقون بضم القاف والباء وهو لغة في (قِبَل) بمعنى المواجهة والمعاينة.

{ **مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا** } هو أشدّ من (لا يُؤْمِنُونَ) تقوية لنفي إيمانهم، لأنّهم معاندون مكابرون غير طالبين

للحقّ، لأنّهم لو طلبوا الحقّ بإنصاف لكفتهم معجزة القرآن. والمقصود انتفاء إيمانهم أبدا.

{ **إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ** } استثناء من عموم الأحوال التي تضمّنها عموم نفي إيمانهم، فالتقدير: إلّا بمشيئة الله، أي: حال أن يشاء الله تغيير قلوبهم فيؤمنوا طوعا، أو أن يكرههم على الإيمان بأن يسلّط عليهم رسوله صلى الله عليه وسلم، كما أراد الله ذلك بفتح مكة وما بعده.

{ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ** } ذلك أنّهم ما سألوا الآيات إلّا لتوجيه بقائهم على دينهم، فإنّهم كانوا مصمّمين على نبذ دعوة الإيمان، وإنّما يتعلّلون بطلب الآيات استهزاء، فكان إيمانهم في نظرهم من قبيل المحال.

فالجهل على هذا المعنى: هو **ضد العلم**. وإسناد الجهل إلى أكثرهم يدلّ على أنّ منهم عقلاء يحسبون ذلك.

<u>ويجوز</u> أن يكون الاستدراك راجعا إلى ما تضمّنه الشرط وجوابه: من انتفاء إيمانهم مع إظهار الآيات لهم، أي: لا يؤمنون ويزيدهم ذلك جهلا على جهلهم، فيكون المراد بالجهل **ضد الحلم**، لأنّهم مستهزئون، وإسناد الجهل إلى أكثرهم لإخراج قليل منهم وهم أهل الرأي والحلم فأنّهم يرجى إيمانهم.

{ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ } [112].

اعتراض قُصد منه تسلية الرّسول صلى الله عليه وسلم بعد ذكر ما يحزنه من أحوال كفّار قومه، وتصلّبهم في نبذ دعوته، فأنبأه الله بأنّ هؤلاء أعداؤه، وأنّ عداوة أمثالهم لمثله سنّة من سنن الله تعالى في ابتلاء أنبيائه كلّهم، فلم تكن عداوة هؤلاء للنبيّ صلى الله عليه وسلم بدعا من شأن الرّسل.

العَدُوّ: اسم يقع على الواحد والمتعدّد، قال تعالى { هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ } [المنافقون:4]. و تقدّم عند قوله تعالى { فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ } [النساء:92].

{ **شَيَاطِينَ** } بدل من { عَدُوّاً }. أصله نوع من الموجودات المجرّدة الخفيّة، وهو نوع من جنس الجنّ، وتقدّم عند قوله تعالى { وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ } [البقرة:102]. ويطلق الشيطان على المضلّل الذي يفعل الخبائث من النّاس على وجه المجاز.

الإنس: الإنسان وهو مشتق من التأنّس والإلْف، لأن البشر يألف بالبشر ويأنس به، فسماه إنسا وإنسانا.

شياطين الإنس: استعارة للنّاس الذين يفعلون فعل الشياطين: من مكر وخديعة. والإضافة مجازية.

{ **يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً** }

الوحي: الكلام الخفيّ، كالوسوسة، وأريد به ما يشمل إلقاء الوسوسة في النفس من حديث يزوّر في صورة الكلام. و**البعض الموحي**: هو شياطين الجنّ، يلقون الخواطر المضلِّلة إلى شياطين الإنس، فيكونون زعماء لأهل الشرّ والفساد.

الزخرف: الزينة، وسُمّي الذهب زخرفا لأنّه يُتزيّن به حُليا.

وأفهم وصف القول بالزخرف أنّه محتاج إلى التحسين، وإنّما يحتاج القول إلى ذلك إذا كان غير مشتمل على ما يُكسبه القبول في حدّ ذاته، أو كان مفضيا إلى ضُرّ بيّن.

الغرور: الخداع والإطماع بالنفع لقصد الإضرار، وتقدّم عند قوله تعالى { لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ } [آل عمران:196].

{ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ** } كالقول في قوله تعالى { مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ } [الأنعام: 11]، وقوله تعالى { وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا } [الأنعام:107].

{ **فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ** } أكاذيبهم الباطلة من زعمهم إلهيّة الأصنام، وما يتبع ذلك من المعتقدات الباطلة.

{ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ } [113].

لِتَصْغَى: أي: ميل قلوبهم إلى وحيهم. ومعنى تَصْغَى تميل، يقال: صغى يصغى صغيا، وحقيقته الميل الحسّي. وفي حديث الهرة، أنّه أصغى إليها الإناء. وهو هنا مجاز في الإتباع وقبول القول.

الذين لا يؤمنون بالآخرة: هم المشركون، وخُصّ من صفات المشركين عدم إيمأنّهم بالآخرة للإيماء إلى بعض آثار وحي الشياطين لهم.

{ **وَلِيَرْضَوْهُ** } دلّ على أنّ صغي أفئدتهم إليه ما كان يكفي لعملهم به إلاّ لأنّهم رضَوه.

{ **وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ** } الاقتراف افتعال من قرف إذا كسب سيّئة. يقال: قرف واقترف وقارف. وصيغة الافتعال وصيغة المفاعلة فيه للمبالغة، وهذه المادة تؤذن بأمر ذميم. قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ } [120].

{ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ } [114].

استئناف بخطاب من الله تعالى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم بتقدير الأمر بالقول بقرينة السياق. بعد أن أخبره عن تصاريف عناد المشركين وتكذيبهم وتعنّتهم في طلب الآيات الخوارق، إذ جعلوها حكَما بينهم وبين الرّسول عليه الصلاة والسلام في صدق دعوته، وبعد أن فضحهم الله بعداوتهم لرسوله عليه الصلاة والسلام وافترائهم عليه، وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالإعراض عنهم وتركهم وما يفترون، وأعلمه بأنّه ما كلّفه أن يكون وكيلا لإيمانهم، وبأنّهم سيرجعون إلى ربّهم فينبئهم بما كانوا يعملون، بعد ذلك كلّه لقّن الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخاطبهم خطابا كالجواب عن أقوالهم وتورّكاتهم، فيفرّع

عليها أنّه لا يطلب حاكما بينه وبينهم غير الله تعالى الذي إليه مرجعهم، وأنّهم إن طمعوا في غير ذلك منه فقد طمعوا منكرا.

فكأنّ المشركين دعوا النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى التحاكم في شأن نبوّته بحكم ما اقترحوا عليه من الآيات، فأجابهم بأنّه لا يضع دين الله للتحاكم، ولذلك وقع الإنكار أن يُحكِّم غير الله تعالى، مع أنّ حكم الله ظاهر بإنزال الكتاب مفصّلا بالحقّ، وبشهادة أهل الكتاب في نفوسهم.

{ **أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي** } تقديم { أَفَغَيْرَ اللَّهِ } على { أَبْتَغِي } لأنّ المفعول هو محل الإنكار فهو الحقيق بموالاة همزة الاستفهام الإنكاري.

الحَكَم: الحاكم المتخصّص بالحكم الذي لا يُنقض حكمه، فهو أخصّ من الحاكم، ولذلك كان من أسمائه تعالى (**الحَكَم**)، ولم يكن منها الحاكم. وانتصب { حَكَماً } على الحال.

<u>المعنى</u>: لا أطلب حكما بيني وبينكم غير الله الذي حكم حكمه عليكم بأنّكم أعداء مقترفون.

الابتغاء: تقدّم عند قوله تعالى { أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ } [آل عمران:83].

{ **وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً** } من تمام القول المأمور به. والواو للحال، أي: لا أعدل عن التحاكم إليه، وقد فصّل حكمه بإنزال القرآن إليكم لتتدبّروه فتعلموا منه صدقي، وأنّ القرآن من عند الله.

ونكتة ذلك أنّ في القرآن دلالة على أنّه من عند الله بما فيه من الإعجاز، وبأميّة المنزَّل عليه.

{ **إِلَيْكُمُ** } خطاب للمشركين.

الكتاب: القرآن.

المفصّل: المبيَّن، وتقدّم عند قوله تعالى { وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ } [55].

{ **وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ** } الكلام منسوب إلى الله، عُطف على الكلام المنسوب إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم تعضيدا لما اشتمل عليه الأوّل من كون القرآن حقّا وأنّه من عند الله.

الذين آتاهم الله الكتاب: أحبار اليهود، لأنّ الكتاب هو التوراة المعروف عند عامة العرب.

ولكون المقصود بهذا الحكم أحبار اليهود خاصة قال { آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ } ولم يقل: أهل الكتاب.

ومعنى علم الذين أوتوا الكتاب بأنّ القرآن منزل من الله، أنّهم يجدونه مصدِّقا لما في كتابهم، وهم يعلمون أنّ محمدا صلى الله عليه وسلم لم يدرس كتابهم على أحد منهم، إذ لو درسه لشاع أمره بينهم ولأعلنوا ذلك بين النّاس حين ظهور دعوته، وهم أحرص على ذلك.

<u>وقيل</u>: المراد بالذين آتاهم الله الكتاب، من أسلموا من أحبار اليهود، مثل عبد الله بن سلام، ومخيريق.

{ **بِالْحَقِّ** } الباء للملابسة، أي: ملابسا للحقّ، لأنّ معانيه، وأخباره، ووعده، ووعيده، وكل ما اشتمل عليه حقّ.

{ **فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ** } <u>يحتمل</u> أن يكون خطابا للنبيّ صلى الله عليه وسلم، أي: فلا تكن من الممترين

في أنّهم يعلمون ذلك، والمقصود تأكيد الخبر. فالامتراء المنفي هو الامتراء في أنّ أهل الكتاب يعلمون ذلك.

ويجوز أن يكون خطابا لغير معيّن، ليعمّ كلّ من يحتاج إلى مثل هذا الخطاب، أي: فلا تكوننّ أيها السامع من الممترين، أي: الشاكين في كون القرآن من عند الله.

ويحتمل أن يكون المخاطب الرّسول عليه الصلاة والسلام، والمقصود من الكلام المشركون الممترون، وهذا الوجه هو أحسن الوجوه، والتفريع فيه كما في الوجه الثاني.

{ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [115].

لمّا وُصف الكتاب بأنّه منزّل من الله، ووصف بوضوح الدلالة { وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً }، ثمّ بشهادة علماء أهل الكتاب بأنّه من عند الله { وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ}، أعلم رسوله عليه الصلاة والسلام والمؤمنين بأنّ هذا الكتاب تام الدلالة، ناهض الحجّة، على كل فريق؛ من مؤمن وكافر، صادق وعده ووعيده، عادل أمره ونهيه.

{ **وَتَمَّتْ** } إمّا بمعنى بلوغ الشيء إلى أحسن ما يبلغه ممّا يراد منه. فإنّ التمام حقيقته كون الشيء وافرا أجزاءه، والنقصان كونه فاقدا بعض أجزائه، فيستعار لوفرة الصفات التي تراد من نوعه.

وإمّا بمعنى التحقّق، فقد يطلق التمام على حصول المنتظر وتحقّقه. يقال: تمّ ما اخبر به فلان، ويقال: أتم وعده أي: حقّقه، ومنه قوله تعالى { وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ } [البقرة:124]، أي: عمل بهنّ دون تقصير ولا ترخّص. وقوله تعالى {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ بِمَا صَبَرُوا } [الأعراف:137]، أي: ظهر وعده لهم. ومن هذا المعنى قوله تعالى { وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ } [الصف:8]، أي: محقّق دينه ومثبته.

{ **كَلِمَتُ رَبِّكَ** } قرأه الجمهور بصيغة الجمع وقرأه عاصم، وحمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف بالإفراد

فقيل: المراد بالكلمات أو الكلمة، **القرآن**، وهو قول جمهور المفسّرين. ومعنى تمامها أنّ كلّ غرض جاء في القرآن فقد جاء وافيا بما يتطلّبه القاصد منه.

وقال ابن عطيّة والزمخشري، وقريب منه ما أثر عن ابن عباس : أمره ونهيه، ووعده، ووعيده.

لكن السياق يشهد بأنّ تفسير الكلمات بالقرآن أظهر.

{ **صِدْقاً وَعَدْلاً** } حال وقيل تمييز.

الصدق: المطابقة للواقع في الإخبار، وتحقيق الخبر في الوعد والوعيد، والنفوذ في الأمر والنهي، فيشمل كلّ ما في كلمات الله من نوع الإخبار عن شؤون الله وشؤون الخلائق. ويطلق الصدق مجازا على كون الشيء كاملا في خصائص نوعه.

العدل: إعطاء من يستحق ما يستحق، ودفع الاعتداء والظلم على المظلوم، وتدبير أمور النّاس بما فيه صلاحهم. وتقدّم بيانه عند قوله تعالى { وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النّاس أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ } [النساء:58].

فعلى التفسير الأول لـ { كَلِمَتُ رَبّكَ }، يكون المعنى: أنّ القرآن بلغ أقصى ما تبلغه الكتب، في وضوح الدلالة، وبلاغة العبارة، وأنّه الصادق في أخباره، العادل في أحكامه، لا يُعثر في أخباره على ما يخالف الواقع، ولا في أحكامه على ما يخالف الحق، فذلك ضرب من التحدّي والاحتجاج على أحقيّة القرآن.

وعلى التفسيرين الثاني والثالث، يكون المعنى: نفذ ما قاله الله، وما وعد وأوعد، وما أمر ونهى، صادقا ذلك كلّه، أي: غير متخلف، وعادلا، أي: غير جائر. وهذا تهديد للمشركين بأن سيحقّ عليهم ما توعّدهم به.

{ **لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ** } والتبديل حقيقته جعل شيء مكان شيء آخر، فيكون في الذوات كما قال تعالى { يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ } [ابراهيم:48]، ويكون في الصفات كقوله تعالى { وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً } [النور:55]. ويُستعمل مجازا في إبطال الشيء ونقضه { يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ } [الفتح:15].

فإن كان المراد بالكلمات القرآن، كما تقدّم، فمعنى انتفاء المبدّل لكلماته، انتفاء الإتيان بما ينقضه ويبطله أو يعارضه. وبذلك يكون التبديل مستعملا في حقيقته ومجازه وكنايته.

{ **وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** } وهو المطّلع على الأقوال، العليم بما في الضمائر، وهذا تعريض بالوعيد لمن يسعى لتبديل كلماته، فالسميع العالم بأصوات المخلوقات، التي منها ما توحي به شياطين الإنس والجن، بعضهم إلى بعض، فلا يفوته منها شيء. والعالم أيضا بمن يريد أن يبدّل كلمات الله، على المعاني المتقدّمة، فلا يخفى عليه ما يخوضون فيه من تبييت الكيد والإبطال له.

فذكر هاتين الصفتين هنا وعيد لمن شملته آيات الذم السابقة، ووعد لمن أُمر بالإعراض عنهم وعن افترائهم، وبالتحاكم معهم إلى الله، والذين يعلمون أنّ الله أنزل كتابه بالحق.

{ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ } [116].

أُعقِب ذكر عناد المشركين، وعداوتهم للرّسول صلى الله عليه وسلم، وولايتهم للشياطين، ورضاهم بما توسوس لهم شياطين الجنّ والإنس، واقترافهم السيئات طاعة لأوليائهم، وما طمأن به قلب الرّسول صلى الله عليه وسلم من أنّه لقي سنة الأنبياء قبله من آثار عداوة شياطين الإنس والجنّ، بذكر ما يُهوّن على الرّسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين ما يرونه من كثرة المشركين وعزّتهم، ومن قلّة المسلمين وضعفهم، مع تحذيرهم من الثقة بقولهم، والإرشاد إلى مخالفتهم في سائر أحوالهم، وعدم الإصغاء إلى رأيهم لأنّهم يضلّون عن سبيل الله، وأمرهم بأن يلزموا ما يرشدهم الله إليه.

{ **وَإِنْ تُطِعْ** } الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم، والمقصود به المسلمون، والظاهر أنّ المشركين لمّا أيسوا من ارتداد المسلمين جعلوا يلقون على المسلمين الشبه والشكوك في أحكام دينهم.

الطاعة: اسم للطوع الذي هو مصدر طاع يطوع، بمعنى انقاد وفعل ما يؤمر به عن رضى دون ممانعة، فالطاعة ضدّ الكره. وتستعمل مجازا في قبول القول، ومنه ما جاء في الحديث: " **فإن هم طاعوا لك بذلك فأخبرهم أنّ الله قد فرض عليهم زكاة أموالهم** ". ومنه قوله تعالى { وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ } [غافر:18].

{ **أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ** } الأظهر أنّ المراد في الآية المعنى المشهور وهو جميع الكرة الأرضية كما هو غالب استعمالها في القرآن. وقيل: أريد بها مكّة لأنّها الأرض المعهودة للرسول عليه الصلاة والسلام. والآية لم تقتض أن أكثر أهل الأرض مضلُّون، لأنّ معظم أهل الأرض غير متصدّين لإضلال النّاس، بل هم في ضلالهم قانعون بأنفسهم، مقبلون على شأنهم، وإنما اقتضت أن أكثرهم، إن قبل المسلم قولهم، لم يقولوا له إلّا ما هو تضليل، لأنّهم لا يلقون عليه إلا ضلالهم.

{ **يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ** } تمثيل لحال الداعي إلى الكفر والفساد بحال من يضل مستهديه إلى الطريق، فينعت له طريقا غير الطريق الموصلة.

سبيل الله: هو أدلّة الحقّ، أو هو الحقّ نفسه.

{ **إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ** } بيّن الله سبب ضلالهم وإضلالهم: بأنّهم ما يعتقدون ويدينون إلّا عقائد ضالة، وأديانا سخيفة، ظنّوها حقا لأنّهم لم يستفرغوا مقدرة عقولهم في ترسّم أدلة الحقّ. أي: أنّهم اتبعوا الشبهة من غير تأمّل في مفاسدها. فالمراد بالظنّ، ظنّ أسلافهم، كما أشعر به ظاهر قوله تعالى { يَتَّبِعُونَ }.

الاتّباع: مجاز في قبول الفكر لما يقال وما يخطر من الآراء والأدلة، وتقلّد ذلك. فهذا أتمّ معنى الاتّباع، على أنّ الاتّباع يطلق على عمل المرء برأيه كأنّه يتبعه.

الظن: في اصطلاح القرآن، هو الاعتقاد المخطئ عن غير دليل، الذي يحسبه صاحبه حقّا وصحيحا. قال تعالى { وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنّاً إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الحقّ شَيْئاً } [يونس:36]. ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **إيّاكم والظن فإن الظنّ أكذب الحديث** ".

وليس هو الظنّ الذي اصطلح عليه فقهاؤنا في الأمور التشريعيّة، فإنّهم أرادوا به العلم الراجح في النظر، مع احتمال الخطأ احتمالا مرجوحا، لتعسّر اليقين في الأدلة التكليفيّة، لأن اليقين فيها: إن كان اليقين المراد للحكماء، فهو متوقف على الدليل المنتهي إلى الضرورة أو البرهان، وهما لا يجريان إلّا في أصول مسائل التوحيد، وإن كان بمعنى الإيقان بأن الله أمر أو نهى، فذلك نادر في معظم مسائل التشريع، عدا ما علم من الدين بالضرورة أو حصل لصاحبه بالحس، وهو خاص بما تلقّاه بعض الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مباشرة، أو حصل بالتواتر، وهو عزيز الحصول بعد عصر الصحابة والتابعين، كما عُلم من أصول الفقه.

{ **وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ** } وجود حرف العطف يمنع أن تكون هذه الجملة تأكيدا للجملة التي قبلها أو

تفسيرا لها. وقد تردّدت آراء المفسرين، فقيل: يخرصون يكذبون فيما ادعوا أن ما اتبعوه يقين، وقيل: الظنّ، ظنّهم

أنّ آباءهم على الحق.

الخرص: تقديرهم أنفسهم على الحقّ.

الخرص، الظن الناشئ عن وجدان في النفس مستند إلى تقريب، ولا يستند إلى دليل يشترك العقلاء فيه، وهو يرادف: الحزر، والتخمين، ومنه خرص النخل والكرم، أي: تقدير ما فيه من الثمرة بحسب ما يجده الناظر فيما تعوّده. وإطلاق الخرص على ظنونهم الباطلة في غاية الرشاقة لأنّها ظنون لا دليل عليها غير ما حَسُنَ لظانيها.

ومن المفسرين وأهل اللغة من فسّر الخرص بالكذب، وهو تفسير قاصر، إذ ليس السياق لوصف أكثر من في الأرض بأنّهم كاذبون، بل لوصمهم بأنّهم يأخذون الاعتقاد من الدلائل الوهميّة، فالخرص ما كان غير علم، قال تعالى { مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ } [الزخرف:20]، ولو أريد وصفهم بالكذب لكان لفظ يكذبون أصرح من لفظ { يَخْرُصُونَ }.

واعلم أن السياق اقتضى ذم الاستدلال بالخرص، لأنّه حزر وتخمين لا ينضبط، ويعارضه ما ورد عن عتاب بن أسيد قال: أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخرص العنب كما يخرص التمر. فأخذ به مالك، والشافعي، ومحمله على الرخصة، تيسيرا على أرباب النخيل والكروم لينتفعوا بأكل ثمارهم رطبة، فتؤخذ الزكاة منهم على ما يقدّره الخرص. وكذلك في قسمة الثمار بين الشركاء، وكذلك في العريَّة يشتريها المُعري ممن أعراه، وخالف أبو حنيفة في ذلك وجعل حديث عتاب منسوخا.

{ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } [117].

تعليل لقوله تعالى { وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ } [116]، لأن مضمونه التحذير من نزغاتهم وتوقّع التضليل منهم وهو يقتضي أنّ المسلمين إن كانوا يريدون الاهتداء، فليجتنبوا الضالين، وليهتدوا بالله الذي يهديهم.

{ **إِنَّ رَبَّكَ** } لتشريف المضاف إليه، وإظهار أن هدي الرّسول عليه الصلاة والسلام هو الهدى، وأنّ الذين أخبر عنهم بأنّهم مضلُّون لا حظ لهم في الهدى لأنّهم لم يتخذوا الله ربا لهم.

{ **أَعْلَمُ** } اسم تفضيل للدلالة على أنّ الله لا يعزب عن علمه أحد من الضالين، ولا أحد من المهتدين، وأنّ غير الله قد يعلم بعض المهتدين وبعض المضلين، ويفوته علم كثير من الفريقين، وتخفى عليه دخيلة بعض الفريقين.

{ **هُوَ** } ضمير الفصل لإفادة قصر المسند على المسند إليه، فالأعلميّة بالضالين والمهتدين مقصورة على الله تعالى لا يشاركه فيها غيره.

{ **فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآياتِهِ مُؤْمِنِينَ** } [118].

هذا تخلّص من محاجّة المشركين وبيان ضلالهم المذيّل بقوله تعالى { إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ }، انتقل الكلام من ذلك إلى تبيين شرائع هدى للمهتدين وإبطال شرائع شرَعَها المضلّون.

وفي الآية إبطال ما ألقاه المشركون من الشبهة على المسلمين: في تحريم الميتة، إذ قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم تزعم أنّ ما قتلت أنت وأصحابك وما قتل الكلب والصقر حلال أكله وأن ما قتل الله حرام (أي: ماتت حتف أنفها)، فلمّا نهى الله عن اتّباعهم، وسَمَّى شرائعهم خرصا، فُرِّع عليه هنا الأمر بأكل ما ذكر اسم الله عليه، أي: ما نُحر أو ذُبح وذُكر اسم الله عليه. والنهي عن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه، ومنه الميتة، فإنّ الميتة لا يُذكر اسم الله عليها.

{ **فَكُلُوا** } الأمر لبيان ما هو المباح وتمييزه عن ضدّه من الميتة وما ذبح على النصب. والخطاب للمسلمين.

{ **مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ** } دلّ على أن الموصول صادق عن الذبيحة، والمعنى: كلوا المذكَّى ولا تأكلوا الميتة. والنهي عمّا لم يذكر عليه اسم الله، أو ذكر اسم غير الله، لأنّ ترك ذكر اسم الله بينهم لا يكون إلّا لقصد تجنّب ذكره. وعُلم من ذلك أيضا النهي عن أكل الميتة ونحوها.

{ **إِنْ كُنْتُمْ بِآياتِهِ مُؤْمِنِينَ** } تحريض على التزام ذلك، وعدم التساهل فيه، حتّى جُعل من علامات كون فاعله مؤمنا، حيث كان شعار أهل الشرك ذكر اسم غير الله على معظم الذبائح.

{ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ } [119].

{ **وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ** }

لم يفصح أحد من المفسرين عن وجه عطف هذا على ما قبله، ولا عن الداعي إلى هذا الخطاب.

قال الطبري: ولا نعلم أحدا من سلف هذه الأمة كف عن أكل ما أحل الله من الذبائح.

والوجه عندي أنّ سبب نزول هذه الآية ما تقدّم آنفا من أنّ المشركين قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم وللمسلمين، لمّا حرم الله أكل الميتة: " أنأكل ما نقتل ولا نأكل ما يقتل الله" (يعنون الميتة)، فوقع في أنفس بعض المسلمين شيء، فأنزل الله { وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ }، أي: فأنبأهم الله بإبطال قياس المشركين المموّه بأنّ الميتة أولى بالأكل مما قتله الذابح بيده. فأبدى الله للنّاس الفرق بين الميتة والمُذكّى، بأنّ المذكَّى ذكر اسم الله عليه، والميتة لا يذكر اسم الله عليها، وهو فارق مؤثّر.

وأعرض عن محاجّة المشركين لأنّ الخطاب مسوق إلى المسلمين لإبطال محاجّة المشركين فآل إلى الرد على المشركين بطريق التعريض.

{ **أَلَّا تَأْكُلُوا** }، تقدّم مثل هذا التركيب عند قوله تعالى { قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } [البقرة:246].

{ **وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ** } أي: لا يصدّكم شيء من كّل ما أحلّ الله لكم، لأنّ الله قد فصّل لكم ما حرّم عليكم فلا تعدوه إلى غيره. فظاهر هذا أنّ الله قد بيّن لهم من قبلُ ما حرّمه عليهم من المأكولات، فلعلّ ذلك كان بوحي غير القرآن، ولا يصح أن يكون المراد ما في آخر هذه السورة من قوله تعالى { قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً } [145]، لأنّ هذه السورة نزلت جملة واحدة على الصحيح، فذلك يناكد أن يكون المتأخِّر في التلاوة متقدّما نزوله، ولا أن يكون المراد ما في [المائدة:3] { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ} لأنّ سورة المائدة مدنية بالاتفاق وسورة الأنعام مكية بالاتفاق.

{ **إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ** } أي: إلّا الذي اضطررتم إليه، فإنّ المحرّمات أنواع استثني منها ما يُضطر إليه من أفرادها فيصير حلالا. تقدّم بيان **الاضطرار** في [المائدة:3].

{ **وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ** } تحذير من التشبّه بالمشركين في تحريم بعض الأنعام على بعض أصناف النّاس. ويجوز أن يكون الواو للحال، فيكون الكلام تعريضا بالحذر من أن يكونوا من جملة من يضلّهم أهل الأهواء بغير علم.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، ويعقوب { لَيَضِلُّونَ } بفتح الياء على أنّهم ضالون في أنفسهم، وقرأه عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: بضم الياء على معنى أنّهم يُضلّلون الناس، والمعنى واحد، لأنّ الضال من شأنه أن يُضلّ غيره، ولأنّ المُضلّ لا يكون في الغالب إلّا ضالًّا.

{ **بِأَهْوَائِهِمْ** } الباء للسببية على القراءتين. والباء في { **بِغَيْرِ عِلْمٍ** } للملابسة، أي: يضلّون منقادين للهوى ملابسين لعدم العلم.

{ **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ** } تذييل، وفيه إعلام للرسول صلى الله عليه وسلم بتوعّد الله هؤلاء الضالين المضلّين، فالإخبار بعلم الله بهم كناية عن أخذه إيّاهم بالعقوبة وأنّه لا يفلتهم، لأن كونه عالما بهم لا يحتاج إلى الإخبار به. وهو وعيد لهم أيضا، لأنّهم يسمعون القرآن ويُقرأ عليهم حين الدعوة.

الاعتداء: الظلم، لأنّهم تقلّدوا الضلال من دون حجّة ولا نظر، فكانوا معتدين على أنفسهم، ومعتدين على كلّ من دعوه إلى موافقتهم. وقد أشار هذا إلى أنّ كلّ من تكلّم في الدين بما لا يعلمه، أو دعا النّاس إلى شيء لا يعلم أنّه حقّ أو باطل، فهو معتد ظالم لنفسه وللنّاس، وكذلك كل من أفتى وليس هو بكفء للإفتاء.

{ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ } [120].

{ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ } جملة معترضة، والمعنى: إن أردتم الزهد والتقرّب إلى الله فتقربوا إليه بترك الإثم، لا بترك المباح.

{ وَذَرُوا } تقدّم عند قوله تعالى { وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً } [70].

الإثم: تقدّم الكلام عليه عند قوله تعالى { قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ } [البقرة:219].

{ ظَاهِرَ / بَاطِنَهُ } المقصود من هذين الوصفين تعميم أفراد الإثم لانحصارها في هذين الوصفين، كما يقال: المشرق والمغرب والبر والبحر، لقصد استغراق الجهات.

وظاهر الإثم ما يراه النّاس، وباطنه ما لا يطّلع عليه النّاس ويقع في السرّ، وقد استوعب هذا الأمر ترك جميع المعاصي.

{ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ } تعليل للأمر بترك الإثم، وإنذار وإعذار للمأمورين، ولذلك أكد الخبر بـ { إِنَّ }.

{ يَقْتَرِفُونَ } إذا أطلق فالمراد به اكتساب الإثم كما تقدّم آنفا { وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ } [113].

{ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ } [121].

لمّا كانت الآية السابقة { فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ } قد أفادت إباحة أكل ما ذكر اسم الله عليه، وأفهمت النهي عمّا لم يذكر اسم الله عليه، وهو الميتة، وتمّ الحكم في شأن أكل الميتة والتفرقة بينها وبين ما ذكّي وذكر اسم الله عليه، ففي هذه الآية أفيد النهي والتحذير من أكل ما ذكر اسم غير الله عليه.

{ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ } أي: ما ترك ذكر اسم الله عليه قصدا وتجنّبا لذكره عليه، ولا يكون ذلك إلّا لقصد أن لا يكون الذبح لله، وهو يساوي كونه لغير الله، إذ لا واسطة عندهم في الذكاة بين أن يذكروا اسم الله أو يذكروا اسم غير الله.

وربما كان المشركون في تحيّلهم على المسلمين في أمر الذكاة يتعمّدون ترك التسمية، بحيث لا يسمّون الله ولا يسمون للأصنام، فيكون المقصود من الآية: تحذير المسلمين من هذا الترك المقصود به التمويه، وأن يُسمَّى على الذبائح غير أسماء آلهتهم.

{ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ } أي: وإن أكله لفسق. والتأكيد بـ (إنّ) لزيادة التقرير.

{ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ } أي: واحذروا جدل أولياء الشياطين في ذلك، والمراد بهم المشركون.

المجادلة: المنازعة بالقول للإقناع بالرأي، وتقدّم عند قوله تعالى {وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ } [النساء:107]. والمراد هنا المجادلة في إبطال أحكام الإسلام وتحبيب الكفر وشعائره.

{ **وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ** } حذف متعلّق { أَطَعْتُمُوهُمْ } لدلالة المقام عليه، أي: إن أطعتموهم فيما يجادلونكم فيه، وهو الطعن في الإسلام، والشك في صحة أحكامه.

{ **إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ** } جواب الشرط. وتأكيد الخبر بـ (إنّ) لتحقيق التحاقهم بالمشركين إذا أطاعوهم، وإن لم يدعوا لله شركاء، لأنّ تخطئة أحكام الإسلام تساوي الشرك، فلذلك احتيج إلى التأكيد. أو أراد: إنّكم لصائرون إلى الشرك، فإنّ الشياطين تستدرجكم بالمجادلة حتّى يبلغوا بكم إلى الشرك.

{ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النّاس كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [122].

لمّا حذّر الله المسلمين من دسائس أولياء الشياطين ومجادلتهم بقوله تعالى { وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ }، أعقب ذلك بتفظيع حال المشركين، ووصف حسن حالة المسلمين حين فارقوا الشرك، فجاء بتمثيلين للحالتين، ونفى مساواة إحداهما للأخرى، تنبيها على سوء أحوال أهل الشرك وحسن حال أهل الإسلام.

الحالة الأولى: حالة الذين أسلموا بعد أن كانوا مشركين، وهي المشبّهة بحال من كان ميتا مودعا في ظلمات فصار حيا في نور واضح، وسار في الطريق الموصلة للمطلوب بين النّاس.

الحالة الثانية: حالة المشرك وهي المشبّهة بحالة من هو في الظلمات ليس بخارج منها، لأنّه في ظلمات.

{ **كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ** } نفي المشابهة هنا معناه نفي المساواة، ونفي المساواة كناية عن تفضيل إحدى الحالتين على الأخرى تفضيلا لا يلتبس.

ولقد جاء التشبيه بديعا: إذ جعل حال المسلم، بعد أن صار إلى الإسلام، بحال من كان عديم الخير، عديم الإفادة كالميّت، فإنّ الشرك يحول دون التمييز بين الحقّ والباطل، ويصرف صاحبه عن السعي إلى ما فيه خيره ونجاته، وهو في ظلمة لو أفاق لم يعرف أين ينصرف، فإذا هداه الله إلى الإسلام تغيّر حاله فصار يُميّز بين الحقّ والباطل ويعلم الصالح من الفاسد، فصار كالحي وصار يسعى إلى ما فيه الصلاح ويتنكب عن سبيل الفساد، فصار في نور يمشي به في النّاس.

{ **لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا** } أي: ظلمات لا يرجى للواقع فيها تنوّر بنور ما دام في حالة الإشراك.

{ **كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } استئناف بياني، لأنّ التمثيل المذكور قبلها يثير في نفس السامع سؤالا، أن يقول: كيف رضوا لأنفسهم البقاء في هذه الضلالات، وكيف لم يشعروا بالبون بين حالهم وحال الذين أسلموا، فإذا كانوا قبل مجيء الإسلام في غفلة عن انحطاط حالهم في اعتقادهم وأعمالهم، فكيف لمّا دعاهم الإسلام إلى الحقّ ونصب لهم الأدلة والبراهين، بقوا في ضلالهم لم يقلعوا عنه، وهم

أهل عقول وفطنة؟ فكان حقيقا بأن يُبيَّن له السبب في دوامهم على الضلال، وهو أن ما عملوه كان تُزيّنه لهم الشياطين، هذا التزيين العجيب، الذي لو أراد أحد تقريبه لم يجد ضلالا مزيّنا أوضح منه وأعجب فلا يُشبَّه ضلالهم إلّا بنفسه، على حد قولهم: والسفاهة كاسمها.

وحُذف فاعل التزيين فبني الفعل للمجهول: لأن المقصود وقوع التزيين لا معرفة من أوقعه.

{ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ } [123].

سبب آخر من أسباب استمرار المشركين على ضلالهم، وذلك هو مكر أكابر قريتهم بالرّسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين وصرفهم الحيل لصدّ الدهماء عن متابعة دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

شُبِّه أكابر المجرمين من أهل مكّة بأكابر المجرمين في أهل القرى في الأمم الأخرى، أي: أنّ أمر هؤلاء ليس ببدع ولا خاص بأعداء هذا الدين، فإنّه سنّة المجرمين مع الرسل الأوّلين.

الجعل: بمعنى الخلق ووضع السنن الكونيّة، وهي سنن خلق أسباب الخير وأسباب الشر في كل مجتمع.

{ **قَرْيَةٍ** } فيه تنبيه على أن أهل البداوة أقرب إلى قبول الخير من أهل القرى، لأنّهم لبساطة طباعهم وقربها من الفطرة السليمة إذا سمعوا الخير تقبّلوه، بخلاف أهل القرى، فإنّهم لتشبّثهم بعوائدهم وما ألفوه، ينفرون من كل ما يغيّره عليهم، ولهذا قال الله تعالى { وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ } [التوبة:101] فجعل النفاق في الأعراب نفاقا مجرّدا والنفاق في أهل المدينة نفاقا ماردا.

{ **فِي كُلِّ قَرْيَةٍ** } تعريض بأهل مكّة أنّ حالهم جرى على سنن أهل القرى المرسل إليها . وهو إيذان بغلبة الفساد عليهم، وتفاقم ضرّه، وإشعار بضرورة خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم من تلك القرية، وإيذان باقتراب زوال سيادة المشركين إذ تولاها المجرمون، لأنّ بقاءهم على الشرك صيّرهم مجرمين بين من أسلم منهم.

{ **أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا** } إيجاز لأنّه أغنى عن أن يقول جعلنا مجرمين وأكابر لهم، وأنّ أولياء الشياطين أكابر مجرمي أهل مكة. ودخلت مكة في عموم { كُلِّ قَرْيَةٍ } وهي المقصود الأول، لأنها القرية الحاضرة التي مكر فيها، فالمقصود الخصوص. والمعنى: وكذلك جعلنا في مكة أكابر مجرميها ليمكروا فيها كما جعلنا في كل قرية مثلهم، وإنّما عمّم الخبر لقصد تذكير المشركين في مكّة بما حل بالقرى من قبلها، مثل قرية الحجر وسبأ والرس، كقوله تعالى { تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا } [لأعراف:101]، ولقصد تسلية الرّسول صلى الله عليه وسلم بأنّه ليس ببدع من الرسل في تكذيب قومه إيّاه ومكرهم به ووعده بالنصر.

أكابر: جمع أكبر. وأكبر اسم لعظيم القوم وسيّدهم.

{ **لِيَمْكُرُوا** } متعلّق بـ { جَعَلْنَا } أي: ليحصل المكر، وفيه على هذا الاحتمال تنبيه على أنّ مكرهم ليس بعظيم الشأن. فلله تعالى في إيجاد أمثالهم حكم جمّة، منها هذه الحكمة، فيظهر بذلك شرف الحقّ والصلاح ويسطع نوره، ويظهر اندحاض الباطل بين يديه بعد الصراع الطويل.

المكر: إيقاع الضرّ بالغير خفية وتحيّلا، وهو من الخداع ومن المذام، ولا يُغتفر إلّا في الحرب.

والمراد بالمكر هنا تحيل زعماء المشركين على النّاس في صرفهم عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وعن متابعة الإسلام، قال مجاهد: كانوا جلسوا على كل عقبة ينفرون النّاس عن اتباع النبيّ صلى الله عليه وسلم.

وقد حذف متعلّق { لِيَمْكُرُوا } لظهوره، أي: ليمكروا بالنبيّ عليه الصلاة والسلام، ظنّا منهم بأنّ صد النّاس عن متابعته يضرّه ويحزنه، وأنّه لا يعلم بذلك. ولعل هذا العمل منهم كان لمّا كثر المسلمون في آخر مدة إقامتهم بمكة قبيل الهجرة إلى المدينة.

{ **وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ** } الواو للحال، أي: هم في مكرهم ذلك إنّما يضرّون أنفسهم، فأطلق المكر على مآله وهو الضرّ، على سبيل المجاز المرسل، فإنّ غاية المكر ومآله إضرار الممكور به، فلمّا كان الإضرار حاصلا للماكرين دون الممكور به أطلق المكر على الإضرار.

وجيء بصيغة القصر لأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لا يلحقه أذى ولا ضرّ من صدّهم النّاس عن اتباعه ويلحق الضر الماكرين في الدنيا بعذاب القتل والأسر، وفي الآخرة بعذاب النار إن لم يؤمنوا. فالضرّ انحصر فيهم على طريقة القصر الإضافي، وهو قصر قلب.

{ **وَمَا يَشْعُرُونَ** } جملة حال ثانية، فهم في حالة مكرهم بالنبيّ متّصفون بأنّهم ما يمكرون إلّا بأنفسهم وبأنّهم ما يشعرون بلحاق عاقبة مكرهم بهم.

الشعور: يراد به هنا العلم.

{ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ } [124].

{ **وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حتّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ** } عطف على { جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا } لأنّ هذا حديث عن شيء من أحوال أكابر مجرمي مكّة.

<u>المعنى</u>: إذا جاءتهم آية من آيات القرآن. والمراد أنّهم غير مقتنعين بمعجزة القرآن، وأنّهم يطلبون معجزات عينيّة مثل معجزة موسى ومعجزة عيسى، لجهلهم بالحكمة الإلهية في تصريف المعجزات بما يناسب حال المرسل إليهم.

{ **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** } إمّا أن يكون ردا بأنّ الله أعلم بالمعجزات اللائقة بالقوم المرسل إليهم، فتكون { حَيْثُ } مجازا في المكان الاعتباري للمعجزة، وهم القوم الذين يُظهرها أحد منهم، جُعلوا كأنّهم مكان لظهور المعجزة.

أو يكون ردا عليهم بأنّ الرسالة لا تُعطى بسؤال سائلها، مع التعريض بأنّ أمثالهم ليسوا بأهل لها.

{ **حَيْثُ** } هنا اسم دال على المكان مستعارة للمبعوث بالرسالة، بناء على تشبيه الرسالة بالوديعة الموضوعة بمكان أمانة، على طريقة الاستعارة المكنية. وإثبات المكان تخييل، وهو استعارة أخرى مصرحة بتشبيه الرسل بمكان إقامة الرسالة.

{ **يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** } المعنى: أنّ الرسالة ليست ممّا ينال بالأماني ولا بالتشهّي، ولكنّ الله يعلم من يصلح لها ومن لا يصلح، ولو علم من يصلح لها وأراد إرساله لأرسله، فإن النفوس متفاوتة في قبول الفيض الإلهي والاستعداد له والطاقة على الاضطلاع بحمله، فلا تصلح للرسالة إلّا نفس خلقت قريبة من النفوس الملكية، بعيدة عن رذائل الحيوانية، سليمة من الأدواء القلبية.

فالآية دالة على أن الرّسول يُخلق خلقة مناسبة لمراد الله من إرساله، والله حين خلقه عالم بأنّه سيرسله، وقد يخلق الله نفوسا صالحة للرسالة، فالاستعداد مهيّئ لاصطفاء الله تعالى، وليس موجبا له، وذلك معنى قول بعض المتكلمين: إنّ الاستعداد الذاتي ليس بموجب للرسالة خلافا للفلاسفة، ولعل مراد الفلاسفة لا يبعد عن مراد المتكلمين. وقد أشار ابن سينا في الإشارات إلى شيء من هذا في النمط التاسع.

{ **سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ** } وعيد لهم على مكرهم وقولهم { لَنْ نُؤْمِنَ حتّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ }. فالمراد بالذين أجرموا أكابر المجرمين من المشركين بمكّة.

الصَّغار: الذلّ، وهو مشتق من الصِّغر، وهو القماءة ونقصان الشيء عن مقدار أمثاله.

وقد جعل الله عقابهم ذلًّا وعذابا، ليناسب كبرهم وعتوّهم وعصيانهم الله تعالى. والصَّغار والعذاب يحصلان لهم في الدنيا بالهزيمة وزوال السيادة وعذاب القتل والأسر والخوف.

{ **عِنْدَ اللَّهِ** } أنّه صَغار مقدّر عند الله، فهو صغار ثابت محقّق.

{ **بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ** } الباء سببية، أي: بسبب مكرهم.

{ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ } [125].

الهدى: إنّما يتعلّق بالأمور النافعة: لأنّ حقيقته إصابة الطريق الموصل للمكان المقصود، ومجازه رشاد العقل، فلذلك لم يحتج إلى ذكر متعلّقه هنا لظهور أنّه الهدى للإسلام.

الضلال: إنّما يكون في أحوال مضرّة لأنّ حقيقته خطأ الطريق المطلوب، فلذلك كان مشعرا بالضرّ وإن لم يذكر متعلّقه، فهو هنا الاتصاف بالكفر لأنّ فيه إضاعة خير الإسلام، فهو كالضلال عن المطلوب، وإن كان الضال غير طالب للإسلام، لكنه بحيث لو استقبل من أمره ما استدبر لطلبه.

الشرح: حقيقته شق اللحم، والشريحة القطعة من اللحم تشق حتّى ترقّق ليقع شيّها. واستعمل الشرح في كلامهم مجازا في البيان والكشف، واستعمل أيضا مجازا في انجلاء الأمر، ويقين النفس به، وسكون البال للأمر، بحيث لا يُتردّد فيه ولا يُغتمّ منه.

الصدر: مراد به الباطن، مجازا في الفهم والعقل بعلاقة الحلول.

{ **يَشْرَحْ صَدْرَهُ** } أي: يجعل لنفسه وعقله استعدادا وقبولا لتحصيل الإسلام، ويوطّنه لذلك حتّى يسكن إليه ويرضى به، وإذا حلّ نور التوفيق في القلب كان القلب كالمتّسع، لأنّ الأنوار توسع مناظر الأشياء.

الضيّق: (بتشديد الياء) بوزن فَيْعِل مبالغة في وصف الشيء بالضيق، وقد استعير الضيّق لضدّ ما استعير له الشرح فأريد به الذي لا يستعدّ لقبول الإيمان ولا تسكن نفسه إليه، بحيث يكون مضطرب البال إذا عُرض عليه الإسلام، وهذا كقوله تعالى { حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ } [النساء:90].

الحرج: صفة مشبّهة من قولهم: حَرِج الشيء حَرَجًا، من باب فرح، بمعنى ضاق ضيقا شديدا.

وإتباع الضيّق بالحرج: لتأكيد معنى الضيّق، لأنّ في الحرج من معنى شدّة الضيق ما ليس في ضيّق.

{ **كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ** } مُثِّل حال المشرك حين يُدعى إلى الإسلام أو حين يخلو بنفسه، فيتأمّل في دعوة الإسلام، بحال الصاعد، فإنّ الصاعد يضيق تنفسه في الصعود.

{ **كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ** } تذييل للتي قبلها، فلذلك فصلت.

الرجس: الخبث والفساد، ويُطلق على الخبث المعنوي والنفسي. والمراد هنا خبث النفس وهو رجس الشرك.

{ **عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ** } تفيد تمكّن الرجس من الكافرين. أي: يجعل الله الرجس متمكّنا منهم، لأنّهم يعرضون عن تلقيه بإنصاف، فيجعل الله قلوبهم متزائدة بالقساوة. والموصول يعمّ كل من يعرض عن الإيمان، فيشمل المشركين المخبر عنهم، ويشمل غيرهم من كلّ من يُدعى إلى الإسلام فيعرض عنه، مثل يهود المدينة والمنافقين وغيرهم. وبهذا العموم صارت الجملة تذييلا، وصار الإتيان بالموصول جاريا على مقتضى الظاهر، وليس هو من الإظهار في مقام الإضمار.

{ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ } [126].

تمثيل لحال هدي القرآن بالصراط المستقيم الذي لا يجهد متّبعه، فهذا ضدّ لحال التمثيل {كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ }. وتمثيل الإسلام بالصراط المستقيم يتضمّن تمثيل المسلم بالسالك صراطا مستقيما، فيفيد توضيحا لقوله تعالى { يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ }. وعطفت هذه الجملة مع أنّها بمنزلة بيان الجملة التي

قبلها لتكون بالعطف مقصودة بالإخبار، وهو اقبال على النبيّ صلى الله عليه وسلم بالخطاب.

{ **هَذَا** } إشارة إلى حاضر في الذهن وهو دين الاسلام. ويجوز أن تكون الإشارة إلى القرآن.

الصراط: حقيقته الطريق، وهو هنا مستعار للعمل الموصل إلى رضى الله تعالى. وإضافته إلى الربّ، لتعظيم شأن المضاف، فيُعلم أنه خير صراط. وإضافة الربّ إلى ضمير الرّسول تشريف للمضاف إليه، وترضية للرسول صلى الله عليه وسلم .

المستقيم: حقيقته السالم من العوج، وهو مستعار للصواب، لسلامته من الخطأ.

{ **قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ** } استئناف وفذلكة لما تقدّم. والمراد بالآيات آيات القرآن.

{ **لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ** } اللام للعلّة، أي: فصّلنا الآيات لأجلهم لأنّهم الذين ينتفعون بتفصيلها. والمراد بالقوم المسلمون، لأنّهم الذين أفادتهم الآيات وتذكروا بها.

{ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [127].

الضمير في { لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ } عائد إلى { قَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ }. والجملة إمّا مستأنفة استئنافا بيانيا، لأنّ الثناء عليهم بأنّهم فصّلت لهم الآيات ويتذكّرون بهاّ يثير سؤال من يسأل عن أثر تبيين الآيات لهم وتذكّرهم بها، فقيل: { لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ }.

وإمّا صفة { لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ }. وتقديم المجرور لإفادة الاختصاص للقوم الذين يذّكّرون لا لغيرهم.

الدار: مكان الحلول والإقامة، ترادف أو تقارب المحل من الحلول.

السلام: الأمان، والمراد به هنا الأمان الكامل الذي لا يعتري صاحبه شيء ممّا يخاف من الموجودات.

{ **دَارُ السَّلَامِ** } يجوز أن يراد بـها الجنّة، سمّيت دار السلام لأنّ السلامة الحقّ فيها. لأنّها قرار أمن من كل مكروه للنفس، فتمحضت للنعيم الملائم.

وقيل: السلام، اسم من أسماء الله تعالى، أي: دار الله تعظيما لها كما يقال للكعبة، بيت الله.

{ **عِنْدَ رَبِّهِمْ** } مستعارة للقرب الاعتباري، أريد به تشريف الرتبة. ويجوز أن تكون مستعارة للحفظ، لأنّ الشيء النفيس يجعل في مكان قريب من صاحبه ليحفظه، فيكون المعنى تحقيق ذلك لهم، وأنّه وعد كالشيء المحفوظ المدّخر. والعدول عن إضافة { عِنْدَ } لضمير المتكلم إلى إضافته للاسم الظاهر: لقصد تشريفهم بأنّ هذه عطيّة من هو مولاهم، فهي مناسبة لفضله وبرّه بهم، ورضاه عنهم.

{ **وَهُوَ وَلِيُّهُمْ** } عطفت على { لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ } تعميما لولاية الله إيّاهم في جميع شؤونهم، لأنّها من تمام المنّة. و**الوليّ**: يطلق بمعنى الناصر وبمعنى الموالي.

{ **بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } أي: ثبت لهم ذلك بما كانوا يعملون، فتكون الباء سببية، أي: بسبب أعمالهم الحاصلة بالإسلام. أو الباء للعوض: أي: لهم ذلك جزاء بأعمالهم.

{ **وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْأِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْأِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ** } [128].

لمّا ذُكر ثواب القوم الذين يتذكّرون بالآيات، وهو ثواب دار السلام، ناسب أن يُعطف عليه ذكر جزاء الذين لا يتذكّرون، وهو جزاء الآخرة أيضا. والمعنى: وللآخرين النّار مثواهم خالدين فيها. وقد صُوِّر هذا الخبر في صورة ما يقع في حسابهم يوم الحشر، ثم أُفضِي إلى غاية ذلك الحساب، وهو خلودهم في النار.

{ **يَحْشُرُهُمْ** } عائد إلى { الَّذِينَ أَجْرَمُوا }، أو إلى { الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ }. وهؤلاء هم مقابل الذين يتذّكّرون.

{ **جَمِيعاً** } عمّ كل المشركين، وسادتهم. وشياطينهم، وسائر عُلَقهم.

{ **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ** }

المعشر: الجماعة الذين أمرهم وشأنّهم واحد، بحيث تجمعهم صفة أو عمل، وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه. وهو يُجمع على معاشر أيضا وهو بمعناه، وهو مشتق من المعاشرة والمخالطة.

الجنّ: تقدّم في قوله تعالى { وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ } [100]. والمراد بالجنّ الشياطين وأعوانهم.

الإنس: تقدّم عند قوله تعالى { شَيَاطِينَ الْأِنْسِ وَالْجِنِّ } [112].

الاستكثار: شدّة الإكثار، فالسين والتاء للمبالغة، يقال: استكثر من النعم أو من المال، أي: أكثر من جمعها.

{ **اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْأِنْسِ** } على حذف مضاف، وتقديره: من إضلال الإنس، أو من إغوائهم، أي: من جعلهم أتباعا لكم، أي: تجاوزتم الحدّ في استهوائهم واستغوائهم.

والكلام توبيخ للجنّ وإنكار، أي: كان أكثر الإنس طوعا لكم. والجن يشمل الشياطين، وهم يغوون النّاس ويطوّعونهم: بالوسوسة، والتخييل، والإرهاب والمسّ، ونحو ذلك، حتّى توهّم النّاس مقدرتهم وأنّهم محتاجون إليهم، فتوسّلوا إليهم بالإرضاء وترك اسم الله على ذبائحهم وفي شؤونهم، حتّى أصبح المسافر إذا نزل واديا قال: أعوذ بسيد هذا الوادي.

وفي الكلام تعريض بتوبيخ الإنس الذين اتّبعوهم وأطاعوهم وأفرطوا في مرضاتهم، ولم يسمعوا من يدعوهم إلى نبذ متابعتهم.

{ **وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْأِنْسِ** } أي: أولياء الجنّ، أي: الموالون لهم، والمنقطعون إلى التعلّق بأحوالهم.

{ **رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ** } انتفع وحصّل شهوته وملائِمَهُ، أي: استمتع الجنّ بالإنس وانتفع الإنس بالجنّ.

واستمتاع الإنس بالجنّ هو انتفاعهم في العاجل: بتيسير شهواتهم، وفتح أبواب اللذات والأهواء لهم،

وسلامتهم من بطشتهم. واستمتاع الجنّ بالإنس: هو انتفاع الجنّ بتكثير أتباعهم من أهل الضلالة، وأعانتهم على إضلال النّاس، والوقوف في وجه دعاة الخير، وقطع سبيل الصلاح، فكلّ من الفريقين أعان الآخر على تحقيق ما في نفسه ممّا فيه ملائم طبعه وارتياحه لقضاء وطره.

{ **وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا** } استسلام لله، أي: انقضى زمن الإمهال، وبلغنا الأجل الذي أجّلت لنا، فلا نجد مفرا. وفي الكلام تحسّر وندامة.

وقد أفادت الآية: أنّ الجنّ المخاطبين قد أُفحموا، فلم يجدوا جوابا، وذلك مظهر من مظاهر عدم إغناء المتبوعين عن أتباعهم يومئذ { إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا } [البقرة:166].

{ **قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ** } ضمير الخطاب موجّه إلى الإنس، فإنّهم المقصود من الآية، ومجيء القول بصيغة الماضي: للتنبيه على تحقيق وقوعه.

المثوى: اسم مكان من ثوى بالمكان إذا أقام به إقامة سكنى أم إطالة مكث، وقد بُيّن الثواء بالخلود بقوله: { **خَالِدِينَ فِيهَا** } هو من تمام ما يقال لهم في الحشر لا محال، لأنّه منصوب على الحال من ضمير مثواكم.

{ **إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ** } ظاهر النظم أنّه من تمام ما يقال لهم. لأنّ الأصل في الاستثناء أن يكون إخراجا مما قبله من الكلام. ويجوز أن يكون من مخاطبة الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وقع اعتراضا بين ما قصّه عليه من حال المشركين وأوليائهم يوم الحشر، وبين قوله له { إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ } ويكون الوقف على قوله تعالى

{ خَالِدِينَ فِيهَا }.

والاستثناء في قوله تعالى { إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ} على التأويلين استثناء؛ إما من عموم الأزمنة التي دل عليها قوله تعالى { خَالِدِينَ فِيهَا }، أي: إلا وقت مشيئة الله إزالة خلودكم.

وإمّا من عموم الخالدين الذي في ضمير { خَالِدِينَ }، أي: إلاّ فريقا شاء الله أن لا يخلدوا في النار.

وبهذا صار معنى الآية **موضع إشكال عند جميع المفسّرين**، من حيث ما تقرّر في الكتاب والسنّة وإجماع الأمة أنّ المشركين لا يغفر لهم وأنّهم مخلّدون في النّار بدون استثناء فريق ولا زمان.

وقد أحصيت لهم عشرة تأويلات، بعضها لا يتمّ، وبعضها بعيد، ولا يستقيم منها إلا واحد، إذا جُعل الاستثناء معترضا بين حكاية ما يقال للمشركين في الحشر وبين ما خوطب به النبيّ صلى الله عليه وسلم، فيكون هذا الاعتراض خطابا للمشركين الأحياء الذين يسمعون التهديد، إعذارا لهم أن يسلموا. فتكون (ما) مصدريّة غير ظرفية، وهي حال توفيقه بعض المشركين للإسلام في حياتهم، ويكون هذا بيانا وتحقيقا للمنقول عن ابن عباس: استثنى الله قوما سبق في علمه أنّهم يسلمون.

والذي نراه، أنّ الاستثناء لا يقصد به إخراج أوقات ولا حالة، وإنما هو كناية، يقصد منه أن هذا الخلود قدّره الله تعالى، إظهارا لتمام القدرة ومحض الإرادة، كأنه يقول: لو شئت لأبطلت ذلك. ويكون هذا

الاستثناء من تأكيد الشيء بما يشبه ضده.

{ **إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ** } تذييل، والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم، لبيان أنّ ما رتّبه الله على الشرك من الخلود رتبه بحكمته وعلمه.

الحكيم: هو الذي يضع الأشياء في مناسباتها، والأسباب لمسبّباتها.

العليم: الذي يعلم ما انطوى عليه جميع خلقه من الأحوال المستحقّة للثواب والعقاب.

{ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } [129].

هو من تمام الاعتراض، أو من تمام التذييل، على ما تقدّم من الاحتمالين. والمعنى: وكما ولّينا ما بين هؤلاء المشركين وبين أوليائهم، نولّي بين الظالمين كلّهم بعضهم مع بعض.

التولية: يجيء من الولاء ومن الولاية.

{ **نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً** } نجعل بعضهم أولياء بعض. ويكون ناظرا إلى قوله تعالى { وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ } [128]. وجعل الفريقين ظالمين لأنّ الذي يتولى قوما يصير منهم.

وقالوا: يجوز أن يكون المعنى، نجعل بعضهم ولاّة على بعض، أي: نسلط بعضهم على بعض. والمعنى: أنّه جعل الجنّ وهم ظالمون مسلّطين على المشركين، والمشركون ظالمون، فكلّ يظلم بمقدار سلطانه.

{ **الظَّالِمِينَ** } والمراد بـهم في الآية المشركون، كما هو مقتضى التشبيه في قوله تعالى { وَكَذَٰلِكَ }.

وقد تشمل الآية بطريق الإشارة كل ظالم، فتدلّ على أنّ الله سلّط على الظالم من يظلمه، ومن أجل ذلك قيل: إن لم يقلع الظالم عن ظلمه سُلّط عليه ظالم آخر.

{ **بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** } الباء للسببية، أي: جزاء على استمرار شركهم.

والمقصود من الآية: الاعتبار والموعظة، والتحذير من الاغترار بولاية الظالمين، وتوخّي الأتباع صلاح المتبوعين، وبيان سنّة من سنين الله في العالمين.

{ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أنّهم كَانُوا كَافِرِينَ} [130].

هذا من جملة المقاولة التي تجري يوم الحشر، وفصّلت لأنّها في مقام تعداد جرائمهم التي استحقوا بها الخلود، إبطالا لمعذرتهم، وإعلانا بأنّهم محقوقون بما جُزوا به، فأعاد نداءهم.

{ **أَلَمْ يَأْتِكُمْ** } استفهام تقريري. وجيء في تقريرهم على بعثة الرسل بصيغة الاستفهام عن نفي مجيء الرسل إليهم حتّى إذا لم يجدوا لإنكار مجيء الرسل مساغا واعترفوا بمجيئهم كان ذلك أحرى لأخذهم

بالعقاب.

الرسل: ظاهره أنّه جمع رسول بالمعنى المشهور في اصطلاح الشرع، أي: مرسل من الله إلى العباد بما يرشدهم إلى ما يجب عليهم من اعتقاد وعمل. ويجوز أن يكون جمع رسول بالمعنى اللغوي وهو من أرسله غيره كقوله تعالى { إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ } [يس: 13] وهم رسل الحواريين بعد عيسى.

{ **مِنْكُمْ** } لزيادة إقامة الحجّة، أي: رسل تعرفونهم وتسمعونهم. وليست (من) للتبعيض، وذلك أنّ رسل الله لا يكونون إلّا من الإنس، لأنّ مقام الرسالة عن الله لا يليق أن يُجعل إلّا في أشرف الأجناس من الملائكة والبشر، وجنس الجنّ أحط من البشر لأنّهم خلقوا من نار.

فأمّا مؤاخذة الجنّ بمخالفة الرسل، فقد يخلق الله في الجنّ إلهاما بوجوب الاستماع إلى دعوة الرسل والعمل بها، كما يدل عليه قوله تعالى {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً} [الجن:1]، وقوله تعالى { قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الحقّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} [الأحقاف:31/30].

ذلك أنّ الظواهر تقتضي أنّ الجنّ لهم اتصال بهذا العالم. واطلاع على أحوال أهله، قال تعالى { إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ } [لأعراف:27].

فضعُف قول من قال بوجود رسل من الجنّ إلى جنسهم، ونُسب إلى الضحّاك، إذ لم يرد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ما يثبت به أنّ الله أرسل رسلا من الجنّ إلى جنسهم.

ويجوز أن يكون رسل الجنّ طوائف منهم يستمعون إلى الأنبياء ويفهمون ما يدعون إليه ويبلغون ذلك إلى أقوامهم، كما تقتضيه الآية في سورة الأحقاف. فمؤاخذة الجنّ على الإشراك بالله يقتضيها بلوغ توحيد الله إلى علمهم.

ومن حسن عبارات أئمتنا أنّهم يقولون: الإيمان واجب على من بلغته الدعوة، دون أن يقولوا: على من وجهت إليه الدعوة. وطرق بلوغ الدعوة عديدة. ولم يثبت في القرآن ولا في صحيح الآثار أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم، ولا غيره من الرّسل، بعث إلى الجنّ لانتفاء الحكمة من ذلك، ولعدم المناسبة بين الجنسين، وتعذر تخالطهما.

وعن الكلبي أنّ محمدا صلى الله عليه وسلم بعث إلى الإنس والجنّ، وقاله ابن حزم، واختاره أبو عمر ابن عبد البر، وحكى الاتفاق عليه، فيكون من خصائص النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم تشريفا لقدره. والخوض في هذا ينبغي للعالم أن يربأ بنفسه عنه، لأنّه خوض في أحوال عالم لا يدخل تحت مدركاتنا، فإنّ الله أنبأنا بأنّ العوالم كلها خاضعة لسلطانه. حقيق عليها طاعته، إذا كانت مدركة صالحة للتكليف. والمقصود من الآية التي نتكلم عليها إعلام المشركين بأنّهم مأمورون بالتوحيد والإسلام، وأنّ أولياءهم من شياطين الإنس والجنّ غير مُفْلَتين من المؤاخذة على نبذ الإسلام، بله أتباعهم ودهمائهم. فذكر الجنّ

مع الإنس في قوله تعالى { يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ } يوم القيامة، لتبكيت المشركين وتحسيرهم على ما فرط منهم في الدنيا من عبادة الجن أو الالتجاء إليهم.

{ **يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي** } والقصّ كالقصص: الإخبار، ومنه القصّة للخبر، والمعنى: يخبرونكم الأخبار الدالة على وحدانية الله وأمره ونهيه ووعده ووعيده، فسمَّى ذلك قصّا، لأنّ أكثره أخبار عن صفات الله تعالى وعن الرسل وأممهم وما حلّ بهم، وعن الجزاء بالنعيم أو العذاب.

{ **آيَاتِي** } المراد: آيات القرآن والأقوال التي تتلى فيفهمها الجنّ بإلهام، كما تقدّم آنفا، وفهمها الإنس.

{ **وَيُنْذِرُونَكُمْ** } الإنذارهو الإخبار بما يُخيف ويُكره، وهو ضدّ البشارة، وتقدّم عند قوله تعالى { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالحقّ بَشِيراً وَنَذِيراً } [البقرة:119] . يقال: أنذرته بكذا وأنذرته كذا. ولمّا كان اللقاء يوم الحشر يتضمّن خيرا لأهل الخير وشرّا لأهل الشرّ، وكان هؤلاء المخاطبون قد تمحّضوا للشرّ، جعل إخبار الرسل إياهم بلقاء ذلك اليوم إنذارا لأنّه الطرف الذي تحقّق فيهم من جملة إخبار الرسل إيّاهم ما في ذلك اليوم وشرّه.

{ **لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا** } لتهويل أمر ذلك بما يشاهد فيه، بحيث لا تحيط العبارة بوصفه، فيعدل عنها إلى الإشارة كقوله تعالى { هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ } [الطور:14].

{ **قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا** } الإقرار بما تضمّنه الاستفهام من إتيان الرسل إليهم، وذلك دليل على أنّ دخول حرف النفي في جملة الاستفهام ليس المقصود منه إلّا قطع المعذرة، وأنّه أمر لا يسع المسؤول نفيه.

أي: أقررنا بإتيان الرسل إلينا.

واستُعملت الشهادة في معنى الإقرار لأنّ أصل الشهادة الإخبار عن أمر تحقّقه المخبر وبيّنه، كقوله تعالى { شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ } [آل عمران:18].

{ **وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا** } معطوفة على { قَالُوا شَهِدْنَا } باعتبار كون الأولى خبرا عن تبيّن الحقيقة لهم، وعلمهم حينئذ أنّهم عصوا الرسل ومن أرسلهم، وأعرضوا عن لقاء يومهم ذلك. فعلموا وعلم السامع لخبرهم أنّهم ما وقعوا في هذه الربقة إلاّ لأنّهم غرّتهم الحياة الدنيا، ولولا ذلك الغرور لما كان عملهم ممّا يرضاه العاقل لنفسه.

{ **الْحَيَاةُ الدُّنْيَا** } المراد أحوالها الحاصلة لهم: من اللهو والتفاخر والكبر والعناد والاستخفاف بالحقائق، والاغترار بما لا ينفع في العاجل والآجل.

والمقصود من هذا الخبر عنهم كشف حالهم، وتحذير السامعين من دوام التورط في مثله، فإنّ حالهم سواء.

{ **وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنّهم كَانُوا كَافِرِينَ** } معطوفة على { وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا } وهو خبر مستعمل في التعجيب من حالهم، وتخطئة رأيهم في الدنيا، وسوء نظرهم في الآيات، وإعراضهم عن التدبّر في

العواقب.
وشهادتهم على أنفسهم بالكفر كانت بعد التمحيص والإلجاء.

{ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ } [131].

تهديد وموعظة، وعبرة بتفريط أهل الضلالة في فائدة دعوة الرّسل، وتنبيه لجدوى إرسال الرسل إلى الأمم ليعيد المشركون نظرا في أمرهم، ما داموا في هذه الدار قبل يوم الحشر، ويعلموا أنّ عاقبة الإعراض عن دعوة الرّسول صلى الله عليه وسلم خسرى، فيتداركوا أمرهم خشية الفوات. وكذلك هي إنذار باقتراب نزول العذاب بهم، وإيقاظ للمشركين بأنّ حالهم كحال المتحدَّث عنهم إذا ماتوا على شركهم.

{ **ذَلِكَ** } الإشارة إلى مذكور في الكلام السابق. والتقدير: ذلك الأمر، أو الأمر ذلك.

{ **أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ** } هو شأن عظيم من شؤون الله تعالى، وهو شأن عدله ورحمته، ورضاه لعباده الخير والصلاح، وكراهيته سوء أعمالهم، وإظهاره أثر ربوبيّته إيّاهم بهدايتهم إلى سُبل الخير، وعدم مباغتتهم بالهلاك قبل التقدّم إليهم بالإنذار والتنبيه.

وفي الكلام إيجاز إذ علم منه أنّ الله يهلك القرى المسترسل أهلها على الشرك إذا أعرضوا عن دعوة الرّسل، وأنّه لا يهلكهم إلّا بعد أن يرسل إليهم رسلا منذرين، وأنّه أراد حمل تبعة هلاكهم عليهم، حتّى لا يبقى في نفوسهم أن يقولوا: لولا رحمنا ربنا فأنبأنا وأعذر إلينا.

الإهلاك: إعدام ذات الموجود وإماتة الحي. قال تعالى { لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ} [الأنفال:42]. فإهلاك القرى إبادة أهلها وتخريبها، وإحياؤها إعادة عمرانها بالسكان والبناء.

{ **بِظُلْمٍ** } الباء للسببية، و**الظلم** هنا الشرك، أي: مهلكهم بسبب شرك يقع فيها فيهلكها ويهلك أهلها الذين أوقعوه.

{ **وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ** } حال من { الْقَرْيَةَ } وصرّح هنا بـ { أَهْلُهَا } تنبيها على أنّ هلاك القرى من جرّاء أفعال سكّانها { فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا } [النمل:52]

{ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ } [132].

احتراس للتنبيه على أنّ الصالحين من أهل القرى، الغالب على أهلها الشرك والظلم، لا يُحرمون جزاء صلاحهم. فالله قد ينجّي المؤمنين من أهل القرى قبل نزول العذاب. وتلك درجة نالوها في الدنيا، وهي درجة إظهار عناية الله بهم، وتُرفع درجتهم في الآخرة، والكافرون يحيق بهم عذاب الإهلاك ثم يصيرون إلى عذاب الآخرة. وقد تهلك القرية بمؤمنيها ثم يصيرون إلى النعيم فيظهر تفاوت درجاتهم في الآخرة.

روى البخاري ومسلم عن ابن عمر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" إذا أنزل الله بقوم عذابا أصاب العذابُ من كان فيهم ثم بُعثوا على أعمالهم ".**

ولمّا كان لفظ { **لِكُلٍّ** } مرادا به جميع أهل القرية، وأتى بلفظ { الدَّرَجَاتُ } كان إيماء إلى تغليب حال المؤمنين لتطمئن نفوس المسلمين من أهل مكّة بأنّهم لا بأس عليهم من عذاب مشركيها.

الدرجات: هي ما يُرتقى عليه من أسفل إلى أعلى، في سلم أو بناء، وإن قصد بها النزول إلى محل منخفض من جب أو نحوه فهي دركات.

{ **مِمَّا عَمِلُوا** } تعليلية، أي: بسبب تفاوت أعماله.

{ **وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ** } خطاب للرّسول صلى الله عليه وسلم.

وقرأ الجمهور { يَعْمَلُونَ } بياء الغيبة فيعود الضمير إلى أهل القرى، والمقصود مشركو مكة. فهو للتسلية والتطمين لئلا يستبطئ وعد الله بالنصر. وقرأه ابن عامر بتاء المخاطب، فالخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المسلمين، فهو وعد بالجزاء على صالح أعمالهم، ترشيحا للتعبير بالدرجات حسبما قدّمناه، ليكون سلًّا لهم من وعيد أهل القرى أصحاب الظلم، وكلتا القراءتين مراد لله تعالى فيما أحسب.

{ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ } [133].

{ **وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ** } عطف على { وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ } إخبارا عن علمه ورحمته على الخبر عن عمله، وفي كلتا الجملتين وعيد ووعد، وفي الجملة الثانية كناية عن غناه تعالى عن إيمان المشركين وموالاتهم كما في قوله تعالى { إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ } [الزمر:7]، وكناية عن رحمته إذ أمهل المشركين ولم يُعجّل لهم العذاب، كما قال تعالى { وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ } [الكهف:58].

{ **وَرَبُّكَ** } إظهار في مقام الإضمار لما في اسم الربّ من دلالة على العناية بصلاح المربوب، ولتكون الجملة مستقلّة بنفسها فتسري مسرى الأمثال والحكم، وكذلك للتنويه بشأن النبيّ صلى الله عليه وسلم.

الغنيّ: هو الذي لا يحتاج إلى غيره، والغنيّ الحقيقي هو الله تعالى لأنّه لا يحتاج إلى غيره بحال. وتقدّم الكلام على معنى الغنيّ عند قوله تعالى { إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً } [النساء:135].

{ **ذُو الرَّحْمَةِ** } خبر ثان. ومعناها صاحب، وهي تشعر بقوّة أو وفرة ما تضاف إليه، والمقصود من الوصف بذي الرحمة هنا تمهيد لمعنى الإمهال الذي في قوله تعالى { إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ }، أي: فلا يقولنّ أحد: لماذا لم يُذهب هؤلاء المكذّبين؟ أي: أنّه لرحمته أمهلهم إعذارا لهم.

{ **إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ** } استئناف لتهديد

المشركين الذين كانوا يُكذّبون الإنذار بعذاب الإهلاك. فالخطاب يجوز أن يكون للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمقصود منه التعريض بمن يغفل عن ذلك من المشركين فيكون تهديدا صريحا.

المعنى: إن يشأ الله يعجّل بإفنائكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء ممّن يؤمن به.

الإذهاب: مجاز في الإعدام كقوله تعالى { وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ } [المؤمنون:18].

الاستخلاف: جعل الخلف عن الشيء، والخلف: العوض عن شيء فائت، فالسين والتاء فيه للتأكيد. أي: ما يشاء من مؤمنين أو كافرين على ما تقتضيه حكمته، وهذا تعريض بالاستئصال لأنّ ظاهر الضمير يفيد العموم.

{ **كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ** } تشبيه في إنشاء موجودات بعد موجودات أخرى، فيكون الكلام تعريضا بإهلاك المشركين ونجاة المؤمنين من العذاب.

{ **قَوْمٍ آخَرِينَ** } للدلالة على المغايرة، أي: قوم ليسوا من قبائل العرب، وذلك تنبيه على عظيم قدرة الله تعالى أن ينشئ أقواما من أقوام يخالفونهم في اللغة والعوائد والمواطن، وهذا كناية عن تباعد العصور، وتسلسل المنشآت، لأنّ الاختلاف بين الأصول والفروع لا يحدث إلّا في أزمنة بعيدة، فشتان بين أحوال قوم نوح وبين أحوال العرب المخاطبين، وبين ذلك قرون مختلفة متباعدة.

{ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِين } [134].

بدل اشتمال من جملة { إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ } فإنّ المشيئة تشتمل على الحالين: حال ترك إهلاكهم، وحال إيقاعه، فأفادت هذه الجملة أنّ مشيئة الله تعلقت بإيقاع ما أوعدهم به من الإذهاب.

{ **إِنَّ مَا تُوعَدُونَ** } من بديع الفصاحة اختيار بنائه للمجهول، ليصلح لفظه لحال المؤمنين والمشركين، وهذا من بديع التوجيه المقصود منه أن يأخذ منه كل فريق من السامعين ما يليق بحاله، ومعلوم أن وعيد المشركين يستلزم وعدا للمؤمنين، والمقصود الأهم هو وعيد المشركين، فلذلك عُقّب الكلام بقوله تعالى { وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ } فذلك كالترشيح لأحد المحتملين من الكلام الموجّه.

{ **لَآتٍ** } الإتيان مستعار للحصول تشبيها للشيء الموعود به المنتظر وقوعه بالشخص الغائب المنتظر إتيانه.

{ **وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ** } حقيقة المعجز هو الذي يجعل طالب شيء عاجزا عن نواله، أي: غير قادرين. ويستعمل مجازا في معنى الإفلات من تناول طالبه. فالمعنى: وما أنتم بخارجين عن قدرتي.

{ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ } [135].

أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يناديهم ويهدّدهم. وأُمر أن يبتدئ خطابهم بالنداء للاهتمام بما سيقال لهم، والدال على أنّ الأمر للتهديد، وأنّ عملهم مخالف لعمله.

{ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ } للتسوية والتخلية لإظهار اليأس من امتثالهم للنصح بحيث يغيّر ناصحهم نصحهم إلى الإطلاق لهم فيما يحبون أن يفعلوا.

المكانة: المكان، جاء على التأنيث مثل المقامة للمقام. والمكانة هنا مستعارة للحالة التي تلبّس بها المرء، تشبه الحالة في إحاطتها وتلبّس صاحبها بها بالمكان الذي يحوي الشيء.

أي: اعملوا عملكم المألوف الذي هو دأبكم، وهو الإعراض والتكذيب بالحق، فلا مطمع لي في اتّباعكم.

{ إِنِّي عَامِلٌ } أي: أنّي غير تارك لما أنا عليه من الإيمان والدعاء إلى الله. وحذف متعلّق { إِنِّي عَامِلٌ } للتعميم مع الاختصار، وسيأتي تفصيله في نظيره من [الزمر:39].

{ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } فاء التفريع للدلالة على أنّ هذا الوعيد متفرّع على ذلك التهديد.

{ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ }

العاقبة: في اللغة، آخر الأمر، وأثر عمل العامل، فعاقبه كل شيء هي ما ينجلي عن الشيء ويظهر في آخره من أثر ونتيجة، وتأنيثه على تأويل الحالة فلا يقال: عاقب الأمر، ولكن عاقبة وعُقبى.

قال الراغب: العاقبة والعُقبى يختصان بالثواب نحو { وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } [الأعراف:128]، وبالإضافة قد يُستعمل في العقوبة نحو { ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى } [الروم:10].

الدار: الموضع الذي يحلّ به النّاس من أرض أو بناء.

{ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ } تذييل للوعيد يتنزّل منزلة التعليل، أي: لأنّه لا يفلح الظالمون ستكون عقبى الدار للمسلمين لا لكم لأنّكم ظالمون.

{ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ } [136].

ضمير الجماعة يعود على المشركين الذين هم غرض الكلام من أوّل السورة. وهذا ابتداء بيان تشريعاتهم الباطلة، وأوّلها ما جعلوه حقا عليهم في أموالهم للأصنام، ممّا يشبه الصدقات الواجبة، وإنّما كانوا يوجبونها على أنفسهم بالالتزام مثل النذور، أو بتعيين من الذين يشرّعون لهم كما سيأتي.

{ وَجَعَلُوا لِلَّهِ } الجعل هنا معناه الصرف والتقسيم، وحقيقة معنى الجعل هو التصيير. والمعنى: صرفوا

ووضعوا لله، أي: عيّنوا له نصيبا.

{ **ذَرَأَ** } أنشأ شيئا وكثّره. فأطلق على الإنماء لأنّ إنشاء شيء تكثير وإنماء.

{ **مِمَّا ذَرَأَ** } (مَا) موصولة، والإتيان بالموصول لأجل دلالة صلته على تسفيه آرائهم، إذ ملّكوا الله بعض ملكه، لأنّ ما ذرأه هو ملكه.

{ **مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ** } بيان (مَا) الموصولة.

الحرث: مراد به الزرع والشجر، ثم شاع ذلك الإطلاق حتّى صار الحرث حقيقة عرفيّة في الجنّات والمزارع، قال تعالى { أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ } [القلم:22].

النصيب: الحظّ والقِسم، وتقدّم في قوله تعالى { أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا } [البقرة:202].

والتقدير: جعلوا لله نصيبا ولغيره نصيبا آخر، وفُهم من السياق أنّ النصيب الآخر لآلهتهم.

الزعم: الاعتقاد الفاسد، أو القريب من الخطأ، كما تقدّم في قوله تعالى { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهم آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ } [النساء:60].

والكلام تعجيب من حكمهم بأنّ ما كان لله يصل إلى شركائهم، أي: ما اكتفوا بزعمهم الباطل حتّى نكلوا عنه وأشركوا شركاءهم فيما جعلوه لله بزعمهم.

الشركاء: هنا جمع شريك، أي: شريك الله سبحانه في الإلهية، ولمّا شاع ذلك عندهم صار كالعلم بالغلبة.

قال ابن عباس وأصحابه: كان المشركون يجعلون لله من حروثهم، يعني زرعهم وشجرهم وأنعامهم نصيبا وللأوثان نصيبا، فما كان للأصنام أنفقوه عليها، وما كان لله أطعموه الضيفان والمساكن ولا يأكلون منه البتة.

{ **فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ** }.

قال ابن عباس وقتادة: كانوا إذا جمعوا الزرع فهبّت الريح فحملت من الذي لله إلى الذي لشركائهم أقرّوه وقالوا: إن الله غني عنه، وإذا حملت من الذي لشركائهم إلى الذي لله ردّوه، وإذا هلك ما لأصنامهم بقحط أخذوا بدله ممّا لله، ولا يفعلون ذلك فيما لله، وإذا انفجر من سقي ما جعلوه لله فساح إلى ما للذي للأصنام تركوه، وإذا انفجر من سقي ما للأصنام فدخل في زرع الذي لله سدّوه. وكانوا إذا أصابتهم سنة استعانوا بما جعلوه لله فأنفقوه على أنفسهم وأقرّوا ما جعلوه لشركائهم للشركاء، وإذا هلك الذي جعلوه لله قالوا: ليس لآلهتنا بد من نفقة وأخذوا الذي جعلوه لله فأنفقوه عليها، وإذا أجدب الذي لله وكثر الذي لآلهتهم قالوا: لو شاء الله أزكى الذي له فلا يردّون على ما جعلوه لله شيئا ممّا لآلهتهم.

{ **سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** } استئناف لإنشاء ذم شرائعهم. وساء هنا بمعنى بئس. وسمّاه حكما تهكّما، لأنّهم نصّبوا أنفسهم لتعيين الحقوق، ففصلوا بحكمهم حق الله من حق الأصنام، ثم أباحوا أن تأخذ الأصنام حقّ الله ولا يأخذ الله حقّ الأصنام.

{ **وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ** } [137].

هذه حكاية نوع آخر من أنواع تشريعاتهم الباطلة وهي راجعة إلى تصرّفهم في ذرّيّاتهم بعد أن ذكر تصرّفاتهم في نتائج أموالهم. ولقد أعظم الله هذا التّزيين العجيب في الفساد الذي حسّن أقبح الأشياء وهو قتلهم أحبّ النّاس إليهم وهم أبناؤهم.

التّزيين: التحسين، وتقدّم عند قوله تعالى { كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ } [108]. ومعنى تزيين ذلك هنا، أنّهم خيّلوا لهم فوائد وقُرَبًا في هذا القتل، بأن يلقوا إليهم مضرّة الاستجداء والعار في النّساء، وأنّ النّساء لا يُرجى منهن نفع للقبيلة. وأنهن يُجَبِّنّ الآباء عند لقاء العدو، ويؤثرن أزواجهنّ على آبائهن، فيأتونهم من المعاني التي تروج عندهم، فإنّ العرب كانوا مفرطين في الغيرة، والجموح من الغلب والعار.

{ **لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** } لأنّ قتل الأولاد لم يكن يأتيه جميع القبائل، وكان في ربيعة ومضر، وهما جمهرة العرب. وليس كل الآباء من هاتين القبيلتين يفعله.

{ **شُرَكَاؤُهُمْ** } أسند التّزيين إلى الشركاء: إمّا لإرادة الشياطين، فالتزيين تزيين الشياطين بالوسوسة، فيكون الإسناد حقيقة عقلية، إمّا لإرادة كبرائهم، بشرع وضعه لهم من وضع عبادة الأصنام وفرض لها حقوقا في أموالهم، مثل عمرو بن لُحي، فيكون إسناد التزيين إلى الشركاء مجازا عقليا لأن الأصنام سبب ذلك، بواسطة أو بواسطتين.

{ **قَتْلَ أَوْلادِهِمْ** } المراد: **الوأد**، وهو دفن البنات الصغيرات أحياء فيمتن بغمّة التراب.

وذكر في (الروض الأنف) عن النقّاش في تفسيره: أنّهم كانوا يئدون من البنات من كانت زرقاء أو برشاء، أو شَيْماء، أو رَسْحاء، تشاؤما بهن.

ولا يعرف في تاريخ العرب في الجاهلية قتل أولادهم غير هذا الوأد إلّا ما ورد من نذر عبد المطلب، ولا ندري هل كان مثل ذلك يقع في الجاهلية قبل عبد المطلب أو أنّه هو الذي ابتكر ذلك ولم يُتابع عليه.

ولا شكّ أنّ الوأد طريقة سنّها أئمة الشرك لقومهم، إذ لم يكونوا يصدرون إلاّ عن رأيهم، فهي ضلالة ابتدعوها لقومهم بعلّة التخلص من معرّة الفاقة والسباء.

{ **لِيُرْدُوهُمْ** } الضمير للشركاء. والتعليل للتّزيين.

الإرداء: الإيقاع في الردى، وهو الموت، ويستعمل في الضرّ الشديد مجازا أو استعارة، وذلك المراد هنا.

{ **وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ** } لَبَس عليه أوقعه في اللَّبس، وهو الخلط والاشتباه، وتقدّم في قوله تعالى { وَلا تَلْبِسُوا الحقّ بِالْبَاطِلِ } [البقرة:42]، وفي قوله تعالى { وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ } [الأنعام:9].

أي: أنّهم يحدثون لهم دينا مختلطا من أصناف الباطل. وقيل: المراد ليُدخلوا عليهم اللبس في الدين الذي كانوا عليه وهو دين إسماعيل عليه السلام، أي: الحنيفيّة، فيجعلوا فيه أشياء من الباطل تختلط مع الحق.

{ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ** } كالقول في قوله تعالى آنفا { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ } [112].

{ **مَا يَفْتَرُونَ** } ما يفترونه على الله بنسبة أنّه أمرهم بما اقترفوه، وكان افتراؤهم اتباعا لافتراء شركائهم، فسمّاه افتراء لأنّهم تقلّدوه عن غير نظر ولا استدلال، فكأنّهم شاركوا الذين افتروه من الشياطين، أو سدنة الأصنام وقادة دين الشرك.

{ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } [138].

هذا ضرب آخر من دينهم الباطل، وهو راجع إلى تحجير التصرّف على أنفسهم في بعض أموالهم، وتعيين مصارفه، وفي هذا العطف إيماء إلى أنّ ما قالوه هو من تلقين شركائهم وسدنة أصنامهم، كما قلنا في معنى زيّن لهم شركاؤهم.

{ **هَذِهِ** } الإشارة إلى حاضر في ذهن المتكلّمين عند صدور ذلك القول: وذلك أن يقول أحدهم هذه الأصنام مصرفها كذا، وهذه مصرفها كذا. وأُجمل ذلك هنا إذ لا غرض في بيانه لأنّ الغرض التعجيب من فساد شرعهم، كما تقدّم في قوله تعالى { فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا } [الأنعام:136}.

وقد صنفوا ذلك ثلاثة أصناف:

صنف أوّل: { **لا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ** } محجّر على مالكه انتفاعه به، وإنّما ينتفع به من يعيّنه المالك.

قال في الكشّاف: يعنون خدم الأوثان والرجال دون النساء. والذي يؤخذ ممّا روي عن جابر بن زيد وغيره، أنّهم كانوا يعيّنون من أنعامهم وزرعهم وثمارهم شيئا يحجّرون على أنفسهم الانتفاع به، ويعيّنونه لمن يشاؤون من سدنة بيوت الأصنام، وخدمتها، فتُنحر أو تُذبح عندما يرى من عُيّنت له ذلك، فتكون لحاجة النّاس والوافدين على بيوت الأصنام وإضافتهم، وكذلك الزرع والثمار تُدفع إلى من عُيّنت له، يصرفها حيث يتعيّن. ومن هذا الصنف أشياء معيّنة بالاسم، لها حكم منضبط مثل:

البحيرة: فإنّها لا تُنحر ولا تُؤكل إلّا إذا ماتت حتف أنفها، فيحلّ أكلها للرجال دون النّساء، وإذا كان لها درّ لا يشربه إلّا سدنة الأصنام وضيوفهم.

السائبة: ينتفع بدرّها أبناء السبيل والسدنة، فإذا ماتت فأكْلُها كالبحيرة.

الحامي: كما تقدّم في [المائدة:103].

الحرث: أصله شق الأرض، ويطلق على المكان المحروث وعلى الأرض المزروعة والمغروسة، ومنه قوله تعالى { أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ } [القلم:22].

الحِجْر: اسم للمحجَّر الممنوع، فمنع الأنعام منع أكل لحومها، ومنع الحرث منع أكل الحبّ والتمر والثمار.

{ **بِزَعْمِهِمْ** } الباء بمعنى (عن)، أو للملابسة، أي: اعتقدوها حراما لغير من عيّنوه، حتّى أنفسهم.

<u>الصنف الثاني</u>: { **وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها** }،أي: حُرِّم ركوبها، منها **الحامي**، لا يركبه أحد، وله ضابط متّبع كما تقدّم في [المائدة:103]، ومنها أنعام يحرِّمون ظهورها، بالنذر، يقول أحدهم: إذا فعلت الناقة كذا من نسل أو مواصلة بين عدة من إناث، وإذا فعل الفحل كذا وكذا، حرّم ظهره.

<u>الصنف الثالث</u>: { **وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا** } عند نحرها أو ذبحها، يزعمون أنّ ما أهدي للجنّ أو للأصنام يذكر عليه اسم ما قُرّب له، ويزعمون أنّ الله أمر بذلك لتكون خالصة القربان لما عُيّنت له، فلأجل هذا الزعم قال تعالى:

{ **افْتِرَاءً عَلَيْهِ** } والافتراء الكذب الذي لا شبهة لقائله فيه، إذ لا يعقل أن ينسب إلى الله تحريم ذكر اسمه على ما يقرّب لغيره.

{ **سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ** } استئناف بياني، وقد أُبهم الجزاء للتهويل، لتذهب النفوس كل مذهب ممكن في أنواع الجزاء على الإثم.

{ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ } [139].

الإشارة إلى أنعام معروفة بينهم بصفاتها، كما تقدّم، أو إلى الأنعام المذكورة قبل. ولا يتعلّق غرض في هذه الآية بأكثر من إجمال الأشياء التي حرّموها، لأنّ المقصود التعجيب من فساد شرعهم كما تقدّم آنفا، وهذا خبر عن دينهم في أجنّة الأنعام التي حجروها أو حرّموا ظهورها، فكانوا يقولون في أجنّة البحيرة والسائبة، إذا خرجت أحياء يحلّ أكلها للذكور دون النّساء، وإذا خرجت ميّتة حلّ أكلها للذكور والنّساء. فالمراد بما في البطون الأجنّة لا محالة لقوله تعالى { وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً }.

وقد كانوا يقولون في ألبان البحيرة والسائبة: يشربها الرجال دون النّساء، فظنّ بعض المفسرين أنّ المراد بما في بطون الأنعام ألبانها، وروي عن ابن عباس. ولا ينبغي أن يكون هو معنى الآية ولكن محمل كلام ابن عباس أنّ ما في البطون يشمل الألبان لأنّها تابعة للأجنة وناشئة عن ولادتها.

الخالصة: السائغة، أي: المباحة، أي :لا شائبةَ حرج في أكلها، ويقابله { **وَمُحَرَّمٌ** }.

وتأنيث { خَالِصَةً } لأن المراد بـ { مَا } الموصولة { الأَجِنَّة }.

المحرّم: الممنوع، أي: ممنوع أكله.

الأزواج: جمع زوج، وهو وصف للشيء الثاني لغيره، فكل واحد من شيئين اثنين هو زوج، ولذلك سُمِّي حليل المرأة زوجا، وسمّيت المرأة حليلة الرجل زوجا، وهو وصف يلازم حالة واحدة فلا يؤنّث ولا يثنّى ولا يجمع. وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ } [البقرة:35].

<u>وظاهر الآية أنّه محرّم على النّساء المتزوّجات</u> لأنّهم سمّوهنّ أزواجا، وهو الأولى عندي، لأنّهم كانوا

يتشاءمون بأكل الزوجات لشيء ذي صفة كانوا يكرهون أن تصيب نساءهم: مثل العقم، أو سوء المعاشرة مع الأزواج، والنشوز، أو الفراق، أو غير ذلك من أوهام أهل الجاهلية وتكاذيبهم، أو لأنّه نتاج أنعام مقدّسة، فلا تحلّ للنّساء، لأنّ المرأة مرموقة عند القدماء قبل الإسلام بالنجاسة والخباثة، لأجل الحيض ونحو ذلك، فقد كان العرب لا يؤاكلون الحائض.

وقال جمهور المفسرين: أطلق الأزواج على النساء مطلقا، أي: فهو مجاز مرسل بعلاقة الإطلاق والتقييد، فيشمل المرأة الأيّم ولا يشمل البنات. وقال بعضهم: أريد به البنات، أي بمجاز الأوْل، فلعلّهم كانوا يتشاءمون بأكل البنات منه أن يصيبهنّ عسر التزوّج، أو ما يتعيّرون منه، أو نحو ذلك. وكانت الأحوال الشائعة بينهم دالة على المراد.

{ **وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ** } أي: إن يولد ما في بطون الأنعام ميّتا جاز أكله للرجال والأزواج، أو للرجال والنساء، أو للرجال والنساء والبنات، وذلك لأنّ خروجه ميّتا يبطل ما فيه من الشؤم على المرأة، أو يذهب قداسته أو نحو ذلك.

{ **سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ** } مستأنفة استئنافا بيانيا. و**الوصف**: ذكر حالات الشيء الموصوف وما يتميّز به لمن يريد تمييزه في غرض ما، وتقدّم عند قوله تعالى { سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ } [100]. وهو هنا ما وصفوا به الأجنّة من حلّ وحرمة لفريق دون فريق، فذلك وصف في بيان الحرام والحلال.

وجزاؤهم عنه هو جزاء سوء بقرينة المقام، لأنّه سمَّى مزاعمهم السابقة افتراء على الله.

{ **إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ** } تعليل لكون الجزاء موافقا لجرم وصفهم. فالحكيم يضع الأشياء مواضعها، والعليم يطّلع على أفعال المجزيين، فلا يضيع منها ما يستحقّ الجزاء.

{ **قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ** } [140].

تذييل جُعل فذلكة للكلام السابق، المشتمل على بيان ضلالهم في قتل أولادهم، وتحجير بعض الحلال على بعض من أُحلّ له.

{ **قَدْ** } للتنبيه على أنّ خسرانهم أمر ثابت، فيفيد التحقيقُ التعجيبَ منهم كيف عمُوا عمّا هم فيه من خسرانهم. عن سعيد ابن جبير قال ابن عباس: إذا سرّك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة من سورة الأنعام { قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ - إلى قوله - وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ }.

{ **خَسِرَ** } وصف فعلهم بالخسران لأنّ حقيقته نقصان مال التاجر، والتاجر قاصد الربح، فإذا خسر فقد باء بعكس ما عمل لأجله. ولذلك كثر في القرآن استعارة الخسران لعمل الذين يعملون طلبا لمرضاة الله وثوابه

فيقعون في غضبه وعقابه، لأنّهم اتعبوا أنفسهم فحصّلوا عكس ما تعبوا لأجله.

فالعرب بالوأد قد عطّلوا مصالح عظيمة محقّقة، وارتكبوا به أضرارا حاصلة، من حيث أرادوا التخلّص من أضرار طفيفة غير محقّقة الوقوع، فلا جرم أن كانوا في فعلهم كالتاجر الذي أراد الربح فباء بضياع أصل ماله، ولأجل ذلك سمَّى الله فعلهم { سَفَهاً }، لأنّ السفه هو خفّة العقل واضطرابه، وفعلهم ذلك سفه محض. وأيّ سفهٍ أعظم من إضاعة مصالح جمّة وارتكاب أضرار عظيمة وجناية شنيعة لأجل التخلّص من أضرار طفيفة قد تحصل وقد لا تحصل.

{ **سَفَهاً** } منصوب على المفعول المطلق المبيّن لنوع القتل: أنّه قتل سفه لا رأي لصاحبه، ويجوز أن ينتصب على الحال من { الَّذِينَ قَتَلُوا }، وُصفوا بالمصدر لأنّهم سفهاء بالغون أقصى السفه.

{ **بِغَيْرِ عِلْمٍ** } الباء للملابسة، وهي في موضع الحال؛ إمّا من { سَفَهاً } فتكون حالا مؤكدة، إذ السفه لا يكون إلّا بغير علم، وإمّا من فاعل { قَتَلُوا }، فأنّهم لما فعلوا القتل كانوا جاهلين بسفاهتهم وبشناعة فعلهم وبعاقبة ما قدروا حصوله لهم من الضرّ.

{ **وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ** } نعى عليهم خسرانهم في أن حرّموا على أنفسهم بعض ما رزقهم الله، فحُرِموا الانتفاع به، وحَرَموا النّاس الانتفاع به، وهذا شامل لجميع المشركين، بخلاف الذين قتلوا أولادهم.

{ **افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ** } انتصب { افْتِرَاءً } على المفعول المطلق لـ { وَحَرَّمُوا } لبيان نوع التحريم بأنّهم نسبوه لله كذبا.

{ **قَدْ ضَلُّوا** } استئناف ابتدائي لزيادة النداء على تحقّق ضلالهم.

الضلال: خطأ الطريق الموصل إلى المقصود، فهم راموا البلوغ إلى مصالح دنيوية والتقرب إلى الله وإلى شركائهم فوقعوا في المفاسد العظيمة، وأبعدهم الله بذنوبهم، فلذلك كانوا كمن رام الوصول فسلك طريقا آخر.

{ **وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ** } لقصد التأكيد لمضمون جملة { ضَلُّوا }.

{ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ } [141].

{ **وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ** } تذكير بمنّة الله تعالى على النّاس بما أنشأ لهم في الأرض ممّا ينفعهم، فبعد أن بيّن سوء تصرّف المشركين فيما مَنَّ به على النّاس كلّهم، مع تسفيه آرائهم في تحريم بعضها على أنفسهم، عطف عليه المنّة بذلك استنزالا بهم إلى إدراك الحقّ والرجوع عن الغيّ، ولذلك أعيد في هذه الآية غالب ما ذُكر في نظيرتها المتقدّمة في قوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ

نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ } [99]، لأنّ المقصود من الآية الأولى الاستدلال على أنّه الصانع، وأنّه المنفرد بالخلق، فكيف يشركون به غيره. ولذلك ذُيّلت بقوله تعالى { إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [99]، وعُطف عليها قوله تعالى { وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ } [100].

والمقصود من هذه الامتنان وإبطال ما ينافي الامتنان ولذلك ذُيّلت بقوله تعالى { كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ }. والكلام موجّه إلى المؤمنين والمشركين، لأنّه اعتبار وامتنان، وللمؤمنين الحظ العظيم من ذلك، ولذلك أعقب بالأمر بأداء حقّ الله في ذلك بقوله تعالى { وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ } إذ لا يصلح ذلك الخطاب للمشركين.

الإنشاء: الإيجاد والخلق.

الجنّات: هي المكان من الأرض النابت فيه شجر كثير بحيث يَجِنّ، أي: يستر الكائن فيه، وقد تقدّم عند قوله تعالى { كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ } [البقرة:265].

وإنشاؤها إنباتها وتيسير ذلك، بإعطائها ما يعينها على النماء، ودفع ما يفسدها أو يقطع نبتها.

المعروشات: المرفوعات. يقال: عرَش الكرمة إذا رفعها على أعمدة ليكون نماؤها في ارتفاع لا على وجه الأرض، لأنّ ذلك أجود لعنبها إذ لم يكن ملقى على وجه الأرض. ووصف الجنّات بمعروشات مجاز عقلي.

{ **مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ**} صفة لـ { جَنَّاتٍ } قصد منها تحسين الموصوف، والتذكير بنعمة الله أن ألهم الإنسان إلى جعلها على صفتين، فإن ذكر محاسن ما أنشأه الله، يزيد في المنّة.

{ **مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ** } المقصود التذكير بعجيب خلق الله، فيفيد ذكر الحال مع أحد الأنواع تذكّر مثله في النوع الآخر.

الأُكْل: بضم الهمزة وسكون الكاف لنافع وابن كثير، و بضمّهما قرأه الباقون، هو الشيء الذي يؤكل، أي: مختلفا ما يؤكل منه.

{ **وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ** } تقدّم عند قوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً } [99]. إلّا أنه قال هناك { مُشْتَبِهاً } وقال هنا { مُتَشَابِهٍ } وهما بمعنى واحد لأنّ التشابه حاصل من جانبين فليست صيغة التفاعل للمبالغة، ألا ترى أنّهما استويا في قوله { وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ } في الآيتين.

{ **كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** }

غُيّر أسلوب الحكاية عن أحوال المشركين فأقبل على خطاب المؤمنين بهذه المنّة وهذا الحكم. فهذه الجمل معترضة، وهي تعريض بتسفيه أحلام المشركين لتحريمهم على أنفسهم ما منّ الله به عليهم.

{ **كُلُوا** } الأمر للإباحة بقرينة أنّ الأكل من حقّ الإنسان الذي لا يجب عليه أن يفعله، فالقرينة ظاهرة.

والمقصود الردّ على الذين حجَّروا على أنفسهم بعض الحرث.

{ **إذَا** } مفيدة للتوقيت لأنّها ظرف، أي: حين إثماره، والمقصود من التقييد بهذا الظرف إباحة الأكل منه عند ظهوره وقبل حصاده، تمهيدا لقوله تعالى { وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ }، أي: كلوا منه قبل أداء حقّه. وهذه رخصة ومنّة، لأنّ العزيمة أن لا يأكلوا إلّا بعد إعطاء حقه كيلا يستأثروا بشيء منه على أصحاب الحقّ.

{ **وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ** } خطاب خاص بالمؤمنين كما تقدّم. وهذا الأمر ظاهر في الوجوب بقرينة تسمية المأمور به حقًّا.

وقد أُجمل الحقّ اعتمادا على ما يعرفونه، وهو: حق الفقير، والقربى، والضعفاء، والجيرة.

فقد كان العرب، إذا جَذُّوا ثمارهم، أعطوا منها من يحضر من المساكين والقرابة. فلمّا جاء الإسلام أوجب على المسلمين هذا الحقّ وسمّاه حقًّا وزكاة في آيات كثيرة، ولكنّه اجمل مقداره والأنواع التي فيها الحقّ، ووكّلهم في ذلك إلى حرصهم على الخير، وكان هذا قبل شرع نصُبُها ومقاديرها. ثم شرعت الزّكاة وبيّنت السنّة نصبها ومقاديرها.

الحصاد: (بكسر الحاء وبفتحها) قطع الثمر والحب من أصوله. يقال أيضا، الصِّرام والجِزاز والجِداد والقِطاع والحِصاد.

وقد فُرضت الزكاة في ابتداء الإسلام مع فرض الصلاة، أو بعده بقليل، لأنّ افتراضها ضروري لإقامة أود الفقراء من المسلمين، وهم كثيرون في صدر الإسلام، لأنّ الذين أسلموا قد نبذهم أهلوهم ومواليهم وجحدوا حقوقهم واستباحوا أموالهم، فكان من الضروري أن يسدّ أهل الجُدَّة والقوة من المسلمين خلَّتهم.

وقد جاء ذكر الزكاة في آيات كثيرة مما نزل بمكّة، مثل سورة المزمل وسورة البينة وهي من أوائل سور القرآن، فالزكاة قرينة الصلاة.

وقول بعض المفسّرين الزكاة فرضت بالمدينة، يُحمل على ضبط مقاديرها بآية { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا } [التوبة:103]، فلا ينافي ذلك أنّ أصل وجوبها في مكّة.

{ **وَلا تُسْرِفُوا** } عطف على { **كُلُوا** }، أي: كلوا غير مسرفين. و**الإسراف** والسرف: تجاوز الكافي من إرضاء النفس بالشيء المشتهى. وهو نهي إرشاد وإصلاح.

{ **إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** } استئناف قصد به تعميم حكم النهي عن الإسراف. وأكّد بـ (إنَّ) لزيادة تقرير الحكم، فبيّن أنّ الإسراف من الأعمال التي لا يحبّها، فهو من الأخلاق التي يلزم الانتهاء عنها. وهذا حكم مجمل وهو ظاهر في التحريم.

{ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ } [142].

أي: وأنشأ من الأنعام حمولة وفرشا، فينسحب عليه القصر الذي في المعطوف عليه. أي: هو الذي أنشأ من الأنعام حمولة وفرشا لا آلهة المشركين، فكان المشركون ظالمين في جعلهم للأصنام حقا في الأنعام.

{ **وَمِنَ الْأَنْعَامِ** } امتنان أدمج في المقصود توفيرا للأغراض، ولأنّ للامتنان بذلك أثرا واضحا في إبطال تحريم بعضها الذي هو تضييق في المنّة ونبذ للنّعمة، وليتمّ الإيجاز، إذ يغني عن أن يقول: وأنشأ لكم الأنعام وأنشأ منها حمولة وفرشا.

الأنعام: الإبل، والبقر، والشاء، والمعز، وقد تقدّم في [المائدة:1].

الحَمولة: (بفتح الحاء) ما يُحمل عليه المتاع أو النّاس، قال تعالى { إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ } [التوبة:92].

الفرش: اختلف في تفسيره في هذه الآية، فقيل: الفرش ما لا يطيق الحمل من الإبل أي فهو يركب، وهذا قول الراغب. وقيل: الفرش الصغار من الإبل أو من الأنعام كلّها، لأنّها قريبة من الأرض فهي كالفرش. وقيل: الفرش ما يُذبح لأنّه يفرش على الأرض حين الذبح أو بعده، أي فهو الضان والمعز والبقر لأنّها تذبح. وفي اللسان عن أبي إسحاق: أجمع أهل اللغة على أنّ الفرش هو صغار الإبل.

زاد في الكشاف: ما يُنسج من وبره وصوفه وشعره. لأنّهم كانوا يفترشون جلود الغنم والمعز للجلوس عليها.

ولفظ { **فَرْشاً** } صالح لهذه المعاني كلّها، ومحامله كلّها مناسبة للمقام، فينبغي أن تكون مقصودة من الآية، وكأنّ لفظ (الفرش) لا يوازنه غيره في جمع هذه المعاني، وهذا من إعجاز القرآن من جانب فصاحته.

{ **كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ** } معترضة، ومناسبة الأمر بالأكل بعد ذكر الأنعام أنّه لمّا كان قوله تعالى {فَرْشاً} شيئا ملائما للذبح، كما تقدّم، عُقّب بالإذن بأكل ما يصلح للأكل منها. أي: لا تحرّموا ما أحلّ لكم منها، اتّباعا لتغرير الشيطان بالوسوسة لزعماء المشركين.

{ **وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ** } النهي عن شؤون الشرك، فإنّ أوّل خطوات الشيطان في هذا الغرض هي تسويله لهم تحريم بعض ما رزقهم الله على أنفسهم.

خطوات الشيطان: تمثيل، وتقدّم عند قوله تعالى { يَا أَيُّهَا النّاس كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ } [البقرة :168].

{ **إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ** } تعليل للنهي، وقد تقدّم بيانه في آية البقرة.

{ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [143] وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النّاس بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ [144] }.

{ **ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ** } حال من { مِنَ الْأَنْعَامِ }. ذكر توطئة لتقسيم الأنعام إلى أربعة أصناف الذي هو توطئة للرد على المشركين لقوله تعالى { قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ - إلى قوله - أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ}، أي: أنشأ من الأنعام حمولة إلى آخره حالة كونها ثمانية أزواج.

الأزواج: جمع زوج، والزوج اسم لذات منضمّة إلى غيرها على وجه الملازمة، فالزوج ثان لواحد، وكل من ذينك الاثنين يقال له: زوج، باعتبار أنّه مضموم. ويطلق الزوج غالبا على الذكر والأنثى من بني آدم المتلازمين بعقدة نكاح، وتُوسِّع في هذا الإطلاق فأطلق بالاستعارة على الذكر والأنثى من الحيوان.

ويُطلق الزوج على الصنف من نوع كقوله تعالى { وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ } [الرعد:3]. وكلا الإطلاقين الأخيرين صالح للإرادة هنا، لأنّ الإبل والبقر والضأن والمعز أصناف للأنعام، ولأنّ كلّ ذلك منه ذكر وأنثى. المعنى: أنّ الله خلق من الأنعام ذكرها وأنثاها، فالأزواج هنا أزواج الأصناف، فثمانية أزواج هي أربعة ذكور من أربعة أصناف وأربع إناث كذلك.

{ **مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ** } بدل تفصيل، وفائدة هذا التفصيل التوصّل لذكر أقسام الذكور والإناث توطئة للاستدلال الآتي في قوله تعالى { قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ }.

ولمّا كانوا قد حرّموا في الجاهلية بعض الغنم، ومنها ما يُسمَّى بالوصيلة كما تقدّم، وبعض الإبل كالبحيرة والوصلية أيضا، ولم يحرّموا بعض المعز ولا شيئا من البقر، ناسب أن يأتي بهذا التقسيم قبل الاستدلال تمهيدا لتحكّمهم، إذ حرّموا بعض أفراد من أنواع ولم يحرّموا بعضا من أنواع أخرى، وأسباب التحريم المزعومة تتأتّى في كل نوع، فهذا إبطال إجمالي لما شرعوه وأنّه ليس من دين الله.

وهذا الاستدلال يُسمَّى في علم المناظرة والبحث بالتحكّم.

الضأن: بالهمز اسم جمع للغنم لا واحد له من لفظه، ومفرد الضأن شاة وجمعها شاء وقيل: هو جمع ضائن. والضأن نوع من الأنعام ذوات الظلف له صوف.

المعز: اسم جمع مفرده ماعز، وهو نوع من الأنعام شبيه بالضأن من ذوات الظلف له شعر مستطيل، ويقال معْز (بسكون العين) ومعَز (بفتح العين) وبالأول قرأ نافع، وعاصم، وحمزة والكسائي، وأبو جعفر، وخلف، وقرأ بالثاني الباقون.

{ **قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ** } بعد أن تمّ ذكر المنّة والتمهيد للحجّة،

غُيِّر أسلوب الكلام فابتدئ بخطاب الرّسول عليه الصلاة والسلام بأن يجادل المشركين ويظهر افتراءهم على الله فيما زعموه من تحريم ما ابتدعوا تحريمه من أنواع وأصناف الأنعام على من عيّنوه من النّاس. فهذا الكلام رد على المشركين. وفي تكرير الاستفهام مرتين تعريض بالتخطئة.

والذي يؤخذ من كلام أئمة العربية في نظم الاستدلال على المشركين أنّ الاستفهام في قوله تعالى { آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ } في الموضعين، استفهام إنكاري.

ووجه الاستدلال عندي، أنّ الله لو حرّم أكل بعض الذكور من أحد النوعين لحرّم البعض الآخر، ولو حرّم أكل بعض الإناث لحرم البعض الآخر، لأنّ شأن أحكام الله أن تكون مطّردة في الأشياء المتّحدة بالنوع والصفة، ولو حرّم بعض ما في بطون الأنعام على النّساء لحرّم ذلك على الرجال، وإذ لم يُحرِّم بعضها على بعض مع تماثل الأنواع والأحوال، أنتج أنّه لم يُحرِّم البعض المزعوم تحريمه، لأنّ أحكام الله منوطة بالحكمة، فدلّ على أنّ ما حرَّموه إنّما حرَّموه من تلقاء أنفسهم تحكُّما واعتباطا، وافتراء على الله.

أي: لو حرم الله الذكرين لسوّى في تحريمهما بين الرجال والنساء. وكذلك القول في الأنثيين.

والاستفهام في قوله تعالى { آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ } في الموضعين مستعمل في التقرير والإنكار.

{ **نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } بدل اشتمال من جملة { آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ }، لأنّ إنكار أن يكون الله حرّم شيئا من ذكور وإناث ذينك الصنفين يقتضي تكذيبهم في زعمهم أنّ الله حرم ما ذكروه، فيلزم منه طلب الدليل على دعواهم. وهذا تهكّم لأنّه لا يطلب تلقي علم منهم. وهذا التهكّم تابع لصورة الاستفهام وفُرِّع عنها.

{ **إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } أي: في قولكم: إنّ الله حرّم ما ذكرتم أنّه محرّم.

{ **أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ** }، { أَمْ } منقطعة للإضراب الانتقالي. فتؤذن باستفهام مقدر بعدها حيثما وقعت، وهو إنكاري تقريري أيضا بقرينة السياق.

الشهداء: الحاضرون، جمع شهيد وهو الحاضر، أي: شهداء حين وصاكم الله.

الإيصاء: الأمر بشيء يفعل في غيبة الآمر فيؤكّد على المأمور بفعله لأنّ شأن الغائب التأكيد. فكان أمر الله مؤكَّدا، فعُبّر عنه بالإيصاء تنبيها لهم على الاحتراز من التفويت في أوامر الله، ولذلك أطلق على أمر الله الإيصاء في مواضع كثيرة من القرآن، كقوله تعالى { يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ } [النساء:11].

{ **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً** } مترتّب على الإنكار في قوله تعالى { آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ - إلى قوله - إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا }، أي: لا أحد أظلم ممّن افترى على الله كذبا. فإذا ثبت أنّ هؤلاء المخاطبين قد افتروا على الله كذبا ثبت أنّهم من الفريق الذي هو أظلم الظالمين.

والمشركون؛ إمّا أن يكونوا ممن وضع الشرك وهم كبراء المشركين: مثل عمرو بن لُحي، واضع عبادة

الأصنام، وأوّل من جعل البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي، ومن جاء بعده من طواغيت أهل الشرك الذين سنّوا لهم جعل شيء من أموالهم لبيوت الأصنام وسدنتها، فهؤلاء مفترون.

وإمّا أن يكونوا ممّن اتبع أولئك، بعزم وتصلّب وشاركوه، فهم اتّبعوا أناسا ليسوا بأهل لأن يبلّغوا عن الله تعالى، وكان حقّهم أن يتوخّوا من يتّبعون ومن يظنّون أنه مبلغ عن الله وهم الرّسل، فمن ضلالهم أنّهم لما جاءهم الرّسول الحقّ عليه الصلاة والسلام كذّبوه، وقد صدقوا الكذبة وأيدوهم ونصروهم.

{ **بِغَيْرِ عِلْمٍ** } تقدّم القول في نظيره آنفا.

{ **إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** } يجوز أن يكون تعليلا لكونهم من أظلم النّاس، لأنّ معنى الزيادة في الظلم لا يتحقق إلّا إذا كان ظلمهم لا إقلاع عنه، لأنّ الضلال يزداد رسوخا في النفس بتكرّر أحواله ومظاهره. لأنّهم لمّا تعمّدوا الإضلال، أو اتبعوا متعمّديه عن تصلّب، فهم بمعزل عن تطلب الهدى وإعادة النظر في حال أنفسهم.

ويجوز أن تكون الجملة تهديدا ووعيدا لهم، إن لم يقلعوا عما هم فيه، بأنّ الله يحرمهم التوفيق ويذرهم في غيّهم وعمههم.

{ قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [145].

استئناف بياني نشأ عن إبطال تحريم ما حرّمه المشركون، إذ يتوجه سؤال سائل من المسلمين عن المحرّمات الثابتة، إذ أبطلت المحرَّمات الباطلة، فلذلك خوطب الرّسول صلى الله عليه وسلم ببيان المحرّمات في شريعة الإسلام بعد أن خوطب ببيان ما ليس بمحرّم ممّا حرّمه المشركون.

{ **لا أَجِدُ** } أي: لا أجده فيما أوحي إليَّ، فاستفيد بطلان تحريم ما زعموه بطريقة الإيماء، وهي طريقة استدلالية لأنّ فيها نفي الشيء بنفي ملزومه.

أَجِدُ: بمعنى: أظفر. وهو الذي مصدره الوجد والوجدان، وهو هنا مجاز في حصول الشيء وبلوغه.

{ **مَا أُوحِيَ** } ما أعلمه الله رسوله صلى الله عليه وسلم بوحي غير القرآن، لأنّ القرآن النازل قبل هذه الآية ليس فيه تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وإنّما نزل القرآن بتحريم ما ذكر في هذه الآية ثم في سورة المائدة.

الطاعم: الآكل، يقال: طعم، إذا أكل الطعام. وبذلك تكون الآية قاصرة على بيان محرّم المأكولات.

{ **يَطْعَمُهُ** } صفة { لِطَاعِمٍ } وهي صفة مؤكّدة مثل قوله تعالى { وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ } [الأنعام:38]. والحصر المستفاد من المنفي والاستثناء حقيقي، بحسب وقت نزول هذه الآية. فلم يكن يومئذ من

محرّمات الأكل غير هذه المذكورات، لأنّ الآية مكيّة، ثم نزلت المائدة بالمدينة فزيد في المحرّمات كما يأتي قريبا.

المسفوح: المصبوب السائل، وهو ما يخرج من المذبح والمَنْحَر. أو من الفصد في بعض عروق الأعضاء فيسيل. وقد كان العرب يأكلون الدم الذي يسيل من أوداج الذبيحة أو من منحر المنحورة ويجمعونه في مصير أو جلد ويجفّفونه ثم يشوونه، وربما فصدوا من قوائم الإبل مفصدا فأخذوا ما يحتاجون من الدم بدون أن يهلك البعير، وربّما خلطوا الدم بالوبر ويسمونه (العِلْهِز)، وذلك في المجاعات.

وتقييد الدم بالمسفوح للتنبيه على العفو عن الدم الذي ينز من عروق اللحم عند طبخه، فإنّه لا يمكن الاحتراز عنه.

{ **فَإِنَّهُ رِجْسٌ** } جملة معترضة بين المعطوفات، والضمير قيل: عائد إلى لحم الخنزير، والأظهر أن يعود إلى جميع ما قبله، أي: فإن المذكور رجس.

الرجس: الخبيث والقذر، وتقدّم عند قوله تعالى { كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ } [125].

فإن كان الضمير عائدا إلى لحم الخنزير خاصة، فوصفه برجس تنبيه على ذمّه، وهو ذم زائد على التحريم، فوصفه به تحذير من تناوله، وتأنيس للمسلمين بتحريمه، لأنّ معظم العرب كانوا يأكلون لحم الخنزير بخلاف الميتة والدم فما يأكلونها إلاّ في الخصاصة.

وخباثة الخنزير علمها الله تعالى الذي خلقه. وتبين أخيرا أن لحمه يشتمل على ذرات حيوانية مضرّة لآكله أثبتها علم الحيوان وعلم الطبّ. وقيل: أريد أنّه نجس لأنّه يأكل النجاسات وهذا لا يستقيم لأنّ بعض الدواب تأكل النجاسة وتسمَّى الجلّالة وليست محرَّمة الأكل في صحيح أقوال العلماء.

وإن كان الضمير عائدا إلى الثلاثة، كان تنبيها على علّة التحريم وأنّها لدفع مفسدة تحصل من أكل هذه الأشياء. وهي مفسدة بدنيّة. فأمّا الميتة فلما يتحوّل إليه جسم الحيوان بعد الموت من التعفّن، ولأنّ المرض الذي كان سبب موته قد ينتقل إلى آكله. وأمّا الدم فلأن فيه أجزاء مضرّة، ولأنّ شربه يورث ضراوة.

{ **أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ** } **الفسق**: الخروج عن شيء، وهو حقيقة شرعية في الخروج عن الإيمان، أو الطاعة الشرعية، فلذلك يوصف به الفعل الحرام باعتبار كونه سببا لفسق صاحبه عن الطاعة.

وقد سمَّى القرآن ما أُهِلَّ به لغير الله فسقا في الآية السالفة وفي هذه الآية، فصار وصفا مشهورا لما أهلّ به لغير الله، وفي هذا تنبيه على أنّ تحريم ما أُهِلَّ لغير الله به ليس لأنّ لحمه مضرّ بل لأنّ ذلك كفر بالله.

وقد دلَّت الآية على انحصار المحرّمات من الحيوان في هذه الأربعة، وذلك الانحصار بحسب ما كان محرّما يوم نزول هذه الآية، فإنّه لم يحرّم بمكّة غيرها من لحم الحيوان الذي يأكلونه، وهذه السورة مكيّة

كلّها على الصحيح، ثم حُرِّم بالمدينة أشياء أخرى، وهي: المنخنقة والموقوذة والمتردّية والنطيحة وأكيلة السبع بآية [المائدة:3]، وحُرِّم لحم الحمر الإنسيّة بأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم على اختلاف بين العلماء في أن تحريمه لذاته كالخنزير، أو لكونها يومئذ حمولة جيش خيبر. وكذلك مسألة تحريم لحم كل ذي ناب من السباع ولحم سباع الطير. وتفصيل ذلك في كتب الفقه.

{ **فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ** } تقدّم القول في نظيره في قوله تعالى { فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ } [البقرة:173].

{ **فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } وإنما جاء المسند إليه في جملة الجزاء وهو { رَبَّكَ } معرفا بالإضافة لما يؤذن به لفظ الربّ من الرأفة واللطف بالمربوب والولاية، تنبيها على أنّ الله جعل هذه الرخصة للمسلمين الذين عبدوه ولم يشركوا به، وأنّه أعرض عن المشركين الذين أشركوا معه غيره، لأنّ الإضافة تشعر بالاختصاص.

{ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ } [146].

ومناسبة هذه الآية أنّ الله لمّا أمر نبيّه صلى الله عليه وسلم أن يبيّن ما حرّم الله أكله من الحيوان أعقب ذلك بذكر ما حرّمه على بني إسرائيل تحريما خاصا لحكمه خاصة بأحوالهم، ومؤقتة إلى مجيء الشريعة الخاتمة. والمقصود من ذكر هذا الأخير: أن يظهر للمشركين أن ما حرموه ليس من تشريع الله في الحال ولا فيما مضى، فهو ضلال بحت.

الظفر، العظم الذي تحت الجلد في منتهى أصابع الإنسان والحيوان والمخالب، وهو يقابل الحافر والظلف، ويكون للإبل والسبع والكلب والهر والأرنب والوبر ونحوها، فهذه محرمة على اليهود بنص شريعة موسى عليه السلام. ففي الإصحاح الرابع عشر من سفر التثنية: " الجمل والأرنب والوبر فلا تأكلوها ".

الشحوم: جمع شحم، وهو المادة الدهنية التي تكون مع اللحم في جسد الحيوان، وقد أباح الله لليهود أكل لحوم البقر والغنم وحرم عليهم شحومها إلّا ما كان في الظهر.

{ **الْحَوَايَا** } ما حملت الحوايا، وهي جمع حَوِيّة، وهي الأكياس الشحمية التي تحوي الأمعاء. وهي معطوفة على المباح { مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا }.

{ **أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ** } هو الشحم الذي يكون ملتفا على عظم الحيوان من السمن فهو معفو عنه لعسر تجريده.

والظاهر أن هذه الشحوم كانت محرمة عليهم بشريعة موسى عليه السلام، فهي المحرمات التي أجملها

قوله تعالى { فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ } [النساء:160]، كما أشرنا إليه هنالك، لأنّ الجرائم التي عُدّت عليهم هنالك كلّها ممَّا أحدثوه بعد موسى عليه السلام.

{ **ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ** } يراد منه البغي الذي أحدثوه زمن موسى، في مدّة التيه، ممّا أخبر الله به عنهم، مثل قولهم: { لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ } [البقرة:61]، وقولهم: { فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا } [المائدة:24]، وعبادتهم العجل، وقد عُدَّ عليهم كثير من ذلك في سورة البقرة.

ومناسبة تحريم هذه المحرَّمات: أنّ بغيهم نشأ عن صلابة نفوسهم وتغلّب القوّة الحيوانية فيهم على القوّة الملكية، فلعل الله حرّم عليهم هذه الأمور تخفيفا من صلابتهم.

وفي ذلك إظهار منّته على المسلمين بإباحة جميع الحيوان لهم إلّا ما حرّمه القرآن وحرمته السنّة .

ولم يذكر الله تحريم لحم الخنزير، مع أنّه ممّا شمله نص التوراة، لأنّه إنما ذكر هنا ما خصّوا بتحريمه ممّا لم يحرّم في الإسلام، أي: ما كان تحريمه موقّتا.

{ **وَإِنَّا لَصَادِقُونَ** } تذييل للجملة التي قبلها قصدا لتحقيق أنّ الله حرم عليهم ذلك، وإبطالا لقولهم: إنّ الله لم يحرّم علينا شيئا وإنّما حرّمنا ذلك على أنفسنا اقتداء بيعقوب فيما حرَّمه على نفسه. وليس قولهم بحقّ، لأنّ يعقوب إنّما حرَّم على نفسه لحوم الإبل وألبانها، كما ذكره المفسّرون وأشار إليه قوله تعالى { كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرائيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرائيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ } [آل عمران:93]. وتحريم ذلك على نفسه لنذر أو مصلحة بدنية لا يسري إلى من عداه من ذريته، وأنّ هذه الأشياء التي ذكر الله تحريمها على بني إسرائيل مذكور تحريمها في التوراة فكيف ينكرون تحريمها.

{ فإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ } [147].

تفريع على الكلام السابق الذي أبطل تحريم ما حرَّموه. أي: فإن لم يرعَوُوا بعد هذا البيان وكذّبوك في نفي تحريم الله ما زعموا أنّه حرّمه، فذكّرهم ببأس الله لعلّهم ينتهون عمّا زعموه، وذكّرهم برحمته الواسعة لعلّهم يبادرون بطلب ما يخوّلهم رحمته من اتباع هدي الإسلام.

{ **كَذَّبُوكَ** } معاد الضمير إلى المشركين وهو المتبادر من سياق الكلام؛ سابقه ولاحقه.

{ **فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ** } على الوجه السابق <u>يجوز</u> أن يكون الكلام تنبيه لهم بأنّ تأخير العذاب عنهم هو إمهال داخل في رحمة الله رحمة مؤقتة، لعلّهم يسلمون.

<u>ويجوز</u> أن يعود الضمير إلى { الَّذِينَ هَادُوا }، تكملة للاستطراد وهو قول مجاهد والسدّي، أنّ اليهود قالوا لم يحرّم الله علينا شيئا، وإنّما حرَّمنا ما حرّم إسرائيل على نفسه.

{ **وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ** } فيه إيجاز بحذف تقديره: وذو باس ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين إذا أراده. وهذا وعيد وتوقّع وهو تذييل، لأن قوله تعالى { عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ } يعمّهم وغيرهم، وهو يتضمّن أنّهم مجرمون.

{ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ } [148].

استئناف رجع به الكلام إلى مجادلة المشركين بعد أن اعترض بينها بقوله تعالى { قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ – إلى قوله - فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [145]. فلمّا قطع الله حجّتهم في شأن تحريم ما حرّموه، وقسمة ما قسّموه، استقصى ما بقي لهم من حجّة وهي حجّة المحجوج المغلوب الذي أعيته المجادلة ولم تبق له حجّة، إذ يتشبَّث بالمعاذير الواهية لترويج ضلاله، بأن يقول: هذا أمر قُضي وقُدّر.

{ **سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا** } إظهار في مقام الإضمار لزيادة تفظيع أقوالهم، فإخبار الله عنهم بأنّهم سيقولون ذلك <u>إن كان نزول هذه الآية قبل نزول آية سورة النحل</u> { وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ } [النحل:35]، **وهو الأرجح**، فإنّ سورة النحل معدودة في النزول بعد سورة الأنعام، كان الإخبار بأنّهم سيقولونه اطلاعا على ما تُكنّه نفوسهم من تزوير هذه الحجّة، فهو معجزة من معجزات القرآن من نوع الإخبار بالغيب.

<u>وإن كان نزول هذه الآية بعد نزول آية النحل</u> فإخبار بأنّهم سيقولونه معناه أنّهم سيعيدون معذرتهم المألوفة.

وسبب هذه الضلالة العارضة لأهل الضلال من الأمم، التي تلوح في عقول بعض عوام المسلمين في معاذيرهم للمعاصي والجرائم أن يقولوا: أمر الله أو مكتوب عند الله أو نحو ذلك، هو الجهل بأنّ حكمة الله تعالى في وضع نظام هذا العالم اقتضت أن يجعل حجابا بين تصرّفه تعالى في أحوال المخلوقات، وبين تصرّفهم في أحوالهم بمقتضى إرادتهم. وذلك الحجاب، هو ناموس ارتباط المسبّبات بأسبابها، وارتباط أحوال الموجودات في هذا العالم بعضها ببعض، ومنه ما يُسمَّى بالكسب والاستطاعة عند جمهور الأشاعرة، ويُسمَّى بالقدرة عند المعتزلة وبعض الأشاعرة، وذلك هو مورد التكليف الدال على ما يرضاه الله وما لا يرضى به، وأنّ الله وضع نظام هذا العالم بحكمة، فجعل قوامه هو تدبير الأشياء أمورها من ذواتها بحسب قوى أودعها في الموجودات لتسعى لِما خُلقت لأجله، وزاد الإنسان مزيّة بأن وضع له عقلا يمكّنه من تغيير أحواله على حسب احتياجه، ووضع له في عقله وسائل الاهتداء إلى الخير والشر، كما قيّض له دعاة إلى الخير تنبّهه إليه إن عرّته غفلة، أو حجبته شهوة، فإن هو لم يَرْعَوِ عن غيّه، فقد خان بساط عقله بطيّه.

وبهذا ظهر تخليط أهل الضلالة بين مشيئة العباد ومشيئة الله، فلذلك ردّ الله عليهم هنا قولهم { لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا }، لأنّهم جعلوا ما هو مشيئة لهم مشيئة لله تعالى، ومع ذلك فهو قد أثبت مشيئته في

قوله تعالى { لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا } [107]، فهي مشيئة تكوين العقول وتكوين نظام الجماعة.
فهذه المشيئة التي اعتلّوا بها مشيئة خفيّة لا تتوصّل إلى الاطلاع على كنهها عقول البشر، فلذلك نعى الله عليهم استنادهم إليها على جهلهم بكنهها، فقال تعالى { كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } فشبّه بتكذيبهم تكذيب المكذّبين الذين من قبلهم، فَكَنَّى بذلك عن كون مقصد المشركين من هذه الحجّة تكذيب النبيّ صلى الله عليه وسلم. وقد سبق لنا بيان في هذا المعنى في هذه السورة عند قوله تعالى { لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا } [107].
وليس في هذه الآية ما ينهض حجّة لنا على المعتزلة، ولا للمعتزلة علينا، وإن حاول كلا الفريقين ذلك لأنّ الفريقين متفقان على بطلان حجّة المشركين. وفي الآية حجّة على الجبرية.
{كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } أي: كذّب الذين من قبلهم أنبياءهم كمثل ما كذّبك هؤلاء. وهذا يدلّ على أنّ الذين أشركوا قصدوا بقولهم تكذيب النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا دعاهم إلى الإقلاع عمّا يعتقدون، بحجّة أنّ الله رضيه لهم وشاءه منهم مشيئة رضى.
{ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا } غاية للتكذيب، مقصود منها دوامهم عليه إلى آخر أوقات وجودهم. فلما ذاقوا بأس الله هلكوا واضمحلُّوا.
الذوق: مجاز في الإحساس والشعور، فهو من استعمال المقيّد في المطلق، وقد تقدّم الكلام عليه عند قوله تعالى { لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ } [المائدة:95].
البأس: تقدّم الكلام عليه في سورة البقرة. وإضافته إلى ضمير الله تعالى لتعظيمه وتهويله.
{ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا } أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالجواب عن مقالهم الواقع أو المتوقع. والاستفهام مقصود منه الإفحام والتهكّم بما عُرف من تشبّثهم بمثل هذا الاستدلال. وقرينة التهكّم بادية، لأنّه لا يظنّ بالرّسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أن يطلبوا العلم من المشركين، كيف وهو يصارحهم بالتجهيل والتضليل صباح مساء.
العلم: ما قابل الجهل، و**إخراجه**: الإعلام به. شُبّهت إفادة المعلوم لمن يجهله بإخراج الشيء المخبوء.
{ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا } اللام للأجل والاختصاص، فتؤذن بحاجة مجرورها لمتعلّقها، أي: فتخرجوه لأجلنا.
وهذا الجواب يشبه المنع في اصطلاح أهل الجدل، ولمّا كان هذا الاستفهام صوريا وكان المتكلّم جازما بانتفاء ما استفهم عنه أعقبه بالجواب بقوله { إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ }.
{ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ } أي: لا علم عندكم، وقصارى ما عندكم هو الظنّ الباطل والخرص. وهذا يشبه سند المنع في عرف أهل الجدل، والمراد بالظنّ الظنّ الكاذب، وهو إطلاق له شائع كما تقدّم عند قوله تعالى { إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ } [116].

{ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ } [149].

جواب عن قولهم { لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا } تكملة للجواب السابق لأنّه زيادة في إبطال قولهم، وهو يشبه المعارضة في اصطلاح أهل الجدل. وأعيد فعل الأمر بالقول لاسترعاء الأسماع لما سيرد.

الحجّة: الأمر الذي يدلّ على صدق أحد في دعواه وعلى مصادفة المستدلّ وجه الحق، وتقدّم القول فيها عند قوله تعالى { لِئَلَّا يَكُونَ للنّاس عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ } [البقرة:150].

البالغة: هي الواصلة، أي: الواصلة إلى ما قُصدت لأجله، وهو غلب الخصم، وإبطال حجّته، فالبلوغ استعارة مشهورة لحصول المقصود من الشيء.

{ **فَلَوْ شَاءَ** } فاء التفريع على ظهور حجة الله تعالى عليهم. تفرّع على بطلان استدلالهم أنّ الله لو شاء لهداهم، أي: لو شاء هدايتهم بأكثر من إرسال الرّسول عليه الصلاة والسلام، بأن يغير عقولهم فتأتي على خلاف ما هُيّئت له لكان قد فعل ذلك بوجه عناية خاصة بهم أو خارق عادة لأجلهم، إذ لا يعجزه شيء، ولكن حكمته قضت أن لا يعدل عن سنّته في الهداية بوضع العقول وتنبيهها إلى الحقّ بإرسال الرسل ونصب الأدلة والدعاء إلى سبيله بالحكمة والموعظة.

فالمشيئة المقصودة هنا غير المشيئة المقصودة فيما حكى الله عنهم من قولهم { لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا }، فالمشيئة المقصودة في الرد عليهم هي المشيئة الخفية المحجوبة، وهي مشيئة التكوين، والمشيئة المنكرة عليهم هي ما أرادوه من الاستدلال بالواقع على الرضى والمحبّة.

{ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ } [150].

استئناف ابتدائي للانتقال من طريقة الجدل والمناظرة في إبطال زعمهم، إلى إبطاله بطريقة التبيين.

أي: أحضروا من يشهدون أنّ الله حرّم هذا، تقصيّا لإبطال قولهم من سائر جهاته. ولذلك أعيد أمر الرّسول صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ما يُظهر كذب دعواهم.

{ **هَلُمَّ** } اسم فعل أمر للحضور أو الإحضار، فهي تكون قاصرة كقوله تعالى { هَلُمَّ إِلَيْنَا } [الأحزاب:18] ومتعدية كما هنا، وهو في لغة أهل الحجاز يلزم حالة واحدة فلا تلحقه علامات مناسبة للمخاطب، فتقول: هلم يا زيد، وهلم يا هند، وهكذا، وفي لغة أهل العالية، أعني بني تميم، تلحقه علامات مناسبة، يقولون: هلمي يا هند، وهلما، وهلموا.

الشهداء: جميع شهيد بمعنى شاهد، والأمر للتعجيز إذ لا يلقون شهداء يشهدون أنّ الله حرم ما نسبوا إليه من شؤون دينهم المتقدّم ذكرها. وأضيف الشهداء إلى ضمير المخاطبين لزيادة تعجيزهم.

{ **فَإِنْ شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ** } أي: إن فُرض المستبعَد فأحضروا لك شهداء يشهدون أنّ الله حرّم هذا

الذي زعموه، فكذّبهم واعلم بأنّهم شهود زور، فقوله تعالى { فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ } كناية عن تكذيبهم، لأنّ الذي يُصدّق أحدا يوافقه في قوله، فاستعمل النهي عن موافقتهم في لازمه، وهو التكذيب.

{ **وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنَا** } عُطف على النهي عن تصديقهم النهي عن اتباع هواهم، وأظهر في مقام الإضمار قوله تعالى { الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنَا } لأن في هذه الصلة تذكيرا بأنّ المشركين يكذّبون بآيات الله، فهم ممّن يُتَجَنَّب اتّباعهم.

وقيل: أريد بالذين كذبوا اليهود، بناء على ما تقدّم من احتمال أن يكونوا المراد، وسَمَّى دينهم هوى لعدم استناده إلى مستند ولكنه إرضاء للهوى.

الهوى: غلب إطلاقه على محبة الملائم العاجل الذي عاقبته ضرر. وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ} [البقرة:145].

{ **وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ** } عطف على { الَّذِينَ كَذَّبُوا }، لأنّ أصحاب الصلتين متّحدون، وهم المشركون. فهذا كعطف الصفات، وكان مقتضى الظاهر أن لا يعاد اسم الموصول لأنّ حرف العطف مغن عنه، ولكن أجري الكلام على خلاف مقتضى الظاهر لزيادة التشهير بهم، كما هو بعض نكت الإظهار في مقام الإضمار.

<u>وقيل</u>: أريد بالذين كذّبوا بالآيات، الذين كذّبوا الرّسول صلى الله عليه وسلم والقرآن، وهم أهل الكتابين، وبالذين لا يؤمنون بالآخرة وهو بربهم يعدلون: المشركون.

{ **بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ** } تقدّم عند قوله تعالى { ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ } في أوّل السورة [1].

{ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحقّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } [151].

استئناف ابتدائي للانتقال من إبطال تحريم ما ادّعوا تحريمه من لحوم الأنعام، إلى دعوتهم لمعرفة المحرّمات، التي علمها حقّ، وهو أحقّ بأن يعلموه ممّا اختلقوا من افترائهم وموّهوا بجدلهم. والمناسبة لهذا الانتقال ظاهرة، فالمقام مقام تعليم وإرشاد، ولذلك ابتدئ بأمر الرّسول عليه الصلاة والسلام بفعل القول استرعاء للأسماع كما تقدّم آنفا.

{ **تَعَالَوْا** } عُقّب بهذا الفعل اهتماما بالغرض المنتقل إليه بأنّه أجدى عليهم من تلك السفاسف التي اهتموا بها، ليعلموا البون بين ما يدعون إليه قومهم وبين ما يدعوهم إليه الإسلام من جلائل الأعمال فيعلموا أنّهم قد أضاعوا أزمانهم وأذهانهم.

وافتتاح الكلام بطلب الحضور دليل على أنّ الخطاب للمشركين الذين كانوا في إعراض. وقد تلا عليهم أحكاما كانوا جارين على خلافها ممّا أفسد حالهم في جاهليتهم، وفي ذلك تسجيل عليهم بسوء أعمالهم ممّا يؤخذ من النهي عنها والأمر بضدّها.

وقد انقسمت الأحكام التي تضمّنتها هذه الجمل إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: أحكام بها إصلاح الحالة الاجتماعية العامة بين النّاس، وهو ما افتتح بقوله تعالى { أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً } [151].

القسم الثاني: ما به حفظ نظام تعامل النّاس بعضهم مع بعض، وهو المفتتح بقوله تعالى { وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ } [152].

القسم الثالث: أصل كلي جامع لجميع الهدى وهو اتباع طريق الإسلام والتحرّز من الخروج عنه إلى سبل الضلال، وهو المفتتح بقوله تعالى { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ } [153].

وقد ذيّل كل قسم من هذه الأقسام بالوصاية به { ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ } ثلاث مرات.

وذُكرت فيما حرم الله عليهم أشياء ليست من قبيل اللحوم، إشارة إلى أنّ الاهتمام بالمحرَّمات الفواحش أولى من العكوف على دراسة أحكام الأطعمة، تعريضا بصرف المشركين همّتهم إلى بيان الأطعمة وتضييعهم تزكية نفوسهم وكف المفاسد عن الناس.

وقد ذُكرت المحرَّمات بعضها بصيغة النهي، وبعضها بصيغة الأمر الصريح أو المؤوّل، لأنّ الأمر بالشيء يقتضي النهي عن ضده، ونكتة الاختلاف في صيغة الطلب لهاته المعدودات سنبيّنها.

تعالَ: فعل أمر، أصله يؤمر به من يراد صعوده إلى مكان مرتفع فوق مكانه، ولعلّ ذلك لأنّهم كانوا إذا نادوا إلى أمر مهم ارتقى المنادي على ربوة ليُسمع صوته، فأصله فعل أمر لا محالة من التعالي وهو تكلّف الاعتلاء ثم نقل إلى طلب الإقبال مطلقا.

{ **أَتْلُ** } التلاوة والقراءة والسرد وحكاية اللفظ، وتقدّم عند قوله تعالى { وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ } [البقرة:102].

{ **أَلَّا تُشْرِكُوا**} في موقع عطف بيان. والابتداء بالنهي عن الإشراك لأنّ إصلاح الاعتقاد هو مفتاح باب الإصلاح في العاجل والفلاح في الآجل.

{ **وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً** } هو أمر بالإحسان إليهما فيفيد النهي عن ضده، وهو الإساءة إلى الوالدين، بطريق فحوى الخطاب. وبذلك الاعتبار وقع هنا في عداد ما حرَّم الله، وإنّما عدل عن النهي عن الإساءة إلى الأمر بالإحسان اعتناء بالوالدين، لأنّ الله أراد برّهما، والبرّ إحسان.

وقد كان كثير من العرب في جاهليتهم أهل جلافة، فكان الأولاد لا يوقّرون آباءهم إذا أضعفهم الكبر. فلذلك كثرت وصاية القرآن بالإحسان بالوالدين.

{ **وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ** } أريد به النهي عن الوأد، وقد تقدّم بيانه عند قوله تعالى { وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ } [137].

الإملاق: الفقر، وكونه علّة لقتل الأولاد يقع على وجهين: أن يكون حاصلا بالفعل، وهو المراد هنا، وأن يكون متوقّع الحصول كما في آية سورة الإسراء { وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ } [31].

{ **نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ** } إبطالا لمعذرتهم، لأنّ الفقر قد جعلوه عذرا لقتل الأولاد، ومع كون الفقر لا يصلح أن يكون داعيا لقتل النفس، فقد بيّن الله أنّه لمّا خلق الأولاد فقد قدّر رزقهم، فمن الحماقة أن يظنّ الأب أنّ عجزه عن رزقهم يخوّله قتلهم، وكان الأجدر به أن يكتسب لهم.

{ **نَرْزُقُكُمْ** } عُدل عن طريق الغيبة إلى طريق التكلّم كأنّ الله أقحم كلامه بنفسه في أثناء كلام رسوله الذي أمره به، فكلم النّاس بنفسه. وذكر الله رزقهم مع رزق آبائهم، وقدم رزق الآباء للإشارة إلى أنّه كما رزق الآباء، فلم يموتوا جوعا، كذلك يرزق الأبناء.

وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي. هنا لإفادة الاختصاص: أي: نحن نرزقكم وإيّاهم لا أنتم.

{ **وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ** } هو أبلغ في التحذير من النهي عن ملابستها لأن القرب من الشيء مظنّة الوقوع فيه.

الفواحش: الآثام الكبيرة، وهي المشتملة على مفاسد، وتقدّم بيانها عند قوله تعالى { إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ } [البقرة:169].

{ **مَا ظَهَرَ مِنْهَا** } ما يظهرونه ولا يستخفون به، مثل الغضب والقذف.

{ **وَمَا بَطَنَ** } ما يستخفون به وأكثره الزنا والسرقة وكانا فاشيين في العرب.

{ **وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ** } هو من الفواحش على تفسيرها بالأعمّ، تخصيصا له بالذكر، لأنّه فساد عظيم، ولأنّه كان متفشيا بين العرب. والتعريف في النفس تعريف الجنس فيفيد الاستغراق.

{ **الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ** } تأكيدا للتحريم بأنّه تحريم قديم. فإنّ الله حرم قتل النفس من عهد آدم.

{ **إِلَّا بِالْحَقِّ** } استثناء، أي: لا تقتلوها في أية حالة أو بأي سبب تنتحلونه إلّا بسبب الحقّ. والحقّ ضد الباطل، أي: ثبت أنّه غير باطل في حكم الشريعة. وقد ضبط الإسلام حقّ قتل النفس بالقرآن والسنّة.

{ **ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ** } تقدّم معنى الوصاية عند قوله تعالى { أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا} [الأنعام:144].

{ **لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** } رجاء أن يعقلوا، لأنّ ملابسة بعض المحرمات ينبئ عن خساسة عقل، بحيث ينزل ملابسوها منزلة من لا يعقل.

{ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حتّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } [152].

{ **وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حتّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ** } عطف محرّمات ترجع إلى حفظ قواعد التعامل بين النّاس لإقامة قواعد الجامعة الإسلاميّة ومدنيّتها وتحقيق ثقة النّاس بعضهم ببعض.

{ **وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** } ابتدأها بحفظ حقّ الضعيف الذي لا يستطيع الدفع عن حقّه في ماله، وهو اليتيم.

القربان: كناية عن ملابسة مال اليتيم والتصرّف فيه. ولمّا اقتضى هذا تحريم التصرف في مال اليتيم، ولو بالخزن والحفظ، وذلك يعرّض ماله للتلف، استثنى منه قوله تعالى { **إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** }.

{ **أَحْسَنُ** } اسم تفضيل مسلوب المفاضلة، أي: الحسنة، وهي النافعة التي لا ضرّ فيها لليتيم ولا لماله.

{ **حتّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ** } الأَشُدّ: اسم يدلّ على قوّة الإنسان، وهو مشتق من الشدّ وهو التوثّق.

والمراد به في هذه الآية ونظائرها، ممّا الكلام فيه على اليتيم، بلوغه القوّة التي يخرج بها من ضعف الصبا، وتلك هي البلوغ مع صحّة العقل، لأنّ المقصود بلوغه أهليّة التصرّف في ماله.

ووجه تخصيص حق اليتيم في ماله بالحفظ، أنّ ذلك الحقّ مظنّة الاعتداء عليه من الولي، وهو مظنّة انعدام المدافع عنه، لأنّه ما من ضعيف عندهم إلّا وله من الأقارب والموالي من يدفع عنه إذا استجاره أو استنجده، فأمّا اليتيم فإنّ الاعتداء عليه إنّما يكون من أقرب النّاس إليه، وهو وليّه، لأنّه لم يكن يلي اليتيم عندهم إلّا أقرب النّاس إليه، وكان الأولياء يتوسّعون في أموال أيتامهم، ويعتدون عليها، ويضيّعون الأيتام لكيلا ينشأوا نشأة يعرفون بها حقوقهم.

{ **وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ** } الأمر بإيفاء الكيل والميزان، وذلك في التبايع، فقد كانوا يبيعون التمر والزبيب كيلا، وكانوا يتوازنون الذهب والفضة، فكانوا يطفّفون حرصا على الربح، فلذلك أمرهم بالوفاء.

وعُدل عن أن يأتي فيه بالنهي عن التطفيف كما في قول شعيب { وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ } [هود:84]، إشارة إلى أنّهم مأمورون بالحدّ الذي يتحقّق فيه العدل وافيا، وعدم النقص يساوي الوفاء، ولكن في اختيار الأمر بالإيفاء اهتماما به لتكون النفوس ملتفّة إلى جانب الوفاء لا إلى جانب التنقيص، وفيه تذكير لهم بالسخاء الذي يتمادحون به.

القسط: العدل، وتقدّم عند قوله تعالى { قَائِماً بِالْقِسْطِ } [آل عمران:18].

{ **لَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا** } تعقيب على { وَأَوْفُوا الْكَيْلَ } فتكون احتراسا، أي: لا نكلّفكم تمام القسط في الكيل والميزان بالحبّة والذرّة ولكنا نكلفكم ما تظنّون أنّه عدل ووفاء.

والمقصود من هذا الاحتراس أن لا يترك النّاس التعامل بينهم خشية الغلط أو الغفلة، فيفضي ذلك إلى تعطيل منافع جمّة. وقد عُدل في هذا الاحتراس عن طريق الغيبة فتولى الله خطاب النّاس فيه بطريق التكلّم مباشرة زيادة بالمنّة، وتصديقا للمبلّغ.

ويجوز أن تكون { لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا } تذييلا للجمل التي قبلها، تسجيلا عليهم بأنّ جميع ما دُعوا إليه هو في طاقتهم ومكنتهم. وقد تقدّم ذلك عند قوله تعالى { لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا } [البقرة:286].

{ **وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى** } هذا جامع كل المعاملات بين النّاس بواسطة الكلام وهي: الشهادة، والقضاء، والتعديل، والتجريح، والمشاورة، والصلح بين الناس، والأخبار المخبرة عن صفات الأشياء في المعاملات من صفات المبيعات والمؤاجرات والعيوب، وفي الوعود، والوصايا، والأيمان، وكذلك المدائح والشتائم كالقذف، فكل ذلك داخل فيما يصدر عن القول.

والعدل في ذلك، أن لا يكون في القول شيء من الاعتداء على الحقوق؛ بإبطالها أو إخفائها، مثل كتمان عيوب المبيع، وادعاء العيوب في الأشياء السليمة، والكذب في الأثمان. ومنه التزام الصدق في التعديل والتجريح وإبداء النصيحة في المشاورة، وقول الحقّ في الصلح. وأمّا الشهادة والقضاء فأمر العدل فيهما ظاهر.

{ **وَإِذَا قُلْتُمْ** } إشارة أنّ المرء في سعة من السكوت إن خشي قول العدل. وأمّا أن يقول الجور والظلم والباطل فليس له سبيل إلى ذلك، والكذب كلّه من القول بغير العدل، على أنّ من السكوت ما هو واجب.

القربى: القرابة، ويُعلم أنه ذو قرابة من القائل، أي: إذا قلتم قولا لأجله أو عليه فاعدلوا ولا تقولوا غير الحقّ.

وقد قال الله تعالى في العدل في الشهادة في القضاء { كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ} [النساء: 135].

{ **وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا** } ختم هذه المتلوات بالأمر بإيفاء العهد. وعهد الله المأمور بالإيفاء به هو كلّ عهد فيه معنى الانتساب إلى الله الذي اقتضته الإضافة، إذ الإضافة هنا:

يصحّ أن تكون إضافة المصدر إلى الفاعل، أي: ما عهد الله به إليكم من الشرائع.

ويصح أن تكون إضافة المصدر إلى مفعوله، أي: ما عاهدتم الله أن تفعلوه، والتزمتموه وتقلدتموه.

ويصح أن تكون الإضافة لأدنى ملابسة، أي: العهد الذي أمر الله بحفظه، وحذّر من خفره، وهو العهود التي تنعقد بين النّاس بعضهم مع بعض سواء كان بين القبائل أم كان بين الآحاد.

وإذ كان الخطاب للمشركين تعيّن أن يكون العهد شيئا قد تقرّرت معرفته بينهم، وهو العهود التي يعقدونها بالموالاة والصلح أو نحو ذلك، فهو يدعوهم إلى الوفاء بما عاقدوا عليه.

{ **ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** } جاء مع هذه الوصية { لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } لأنّ هذه المطالب الأربعة عُرف بين العرب أنّها محامد، فالأمر بها والتحريض عليها تذكير بما عرفوه في شأنها ولكنّهم تناسوه

بغلبة الهوى وغشاوة الشرك على قلوبهم.

{ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [153].

كلام جامع لاتباع ما يجيء إلى الرّسول صلى الله عليه وسلم من الوحي في القرآن. والإشارة إلى الإسلام، أي: وأنّ الإسلام صراطي، فالإشارة إلى حاضر في أذهان المخاطبين. ويجوز أن تكون الإشارة إلى جميع التشريعات والمواعظ التي تقدّمت في هذه السورة، لأنّها صارت كالشيء الحاضر المشاهد.

الصراط: الطريق الجادة الواسعة، وقد مرّ في قوله تعالى { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } [الفاتحة:6].

المستقيم: أي: لا اعوجاج فيه، لأن الطريق المستقيم أيسر سلوكا على السائر وأسرع وصولا به.

{ **صِرَاطِي** } عُدل عن طريقة الغيبة، التي جرى عليها الكلام، لغرض الإيماء إلى عصمة هذا الصراط من الزلل، لأنّ كونه صراط الله يكفي في إفادة أنّه موصل إلى النجاح، فلذلك صحّ تفريع الأمر باتباعه على مجرد كونه صراط الله.

{ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ }.

السُّبل: الطُّرق، ووقوعها هنا في مقابلة الصراط المستقيم يدل على صفة محذوفة، أي: السبل المتفرّقة غير المستقيمة.

{ **بِكُمْ** } الباء للمصاحبة، أي: تتفرّقون مع تفرّقها.

{ **سَبِيلِهِ** } الضمير المضاف إليه يعود إلى الله تعالى بقرينة المقام.

روى النسائي في سننه، وأحمد، والدارمي في مسنديهما، والحاكم في المستدرك، عن عبد الله بن مسعود، قال: " خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما خطا ثم قال: **" هذا سبيل الله "**، ثم خط خطوطا عن يمينه وعن شماله (أي: عن يمين الخط المخطوط أولا وعن شماله) ثم قال: **" هذه سُبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها "**، ثم قرأ { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ }".

{ **ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** } تذييل تكرير لمثليه السابقين، فالإشارة بـ { ذَلِكُمْ } إلى الصراط، والوصاية به معناها الوصاية بما يحتوي عليه. وجُعل الرجاء للتقوى لأنّ هذه السبيل تحتوي على ترك المحرّمات، وتزيد بما تحتوي عليه من فعل الصالحات، فإذا اتبعها السالك فقد صار من المتقين، أي: الذين اتصفوا بالتقوى بمعناها الشرعي.

{ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ } [154].

مناسبة هذا الانتقال ما ذُكر من صراط الله الذي هو الإسلام، فإنّ المشركين لمّا كذّبوا دعوة الإسلام ذكّرهم الله بأنّه آتى موسى عليه السلام الكتاب كما اشتهر بينهم، لينتقل إلى ذكر القرآن والتحريض على اتباعه، فيكون التذكير بكتاب موسى عليه السلام تمهيدا لذلك الغرض.

{ **الْكِتَابَ** } التوراة، و{ **تَمَاماً** } حال من الكتاب، والتمام الكمال، أي: كان ذلك الكتاب كمالا لما في بني إسرائيل من الصلاح الذي هو بقيّة ممّا تلقّوه عن أسلافهم، من صلاح إبراهيم، وما كان عليه إسحاق ويعقوب والأسباط عليهم السلام، فكانت التوراة مكمّلة لصلاحهم، ومزيلة لما اعتراهم من الفساد.

ووصف التوراة بالتمام، مبالغة في معنى المُتِمّ.

{ **عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ** } المراد به هنا الفريق المحسن، أي: تماما لإحسان المحسنين من بني إسرائيل.

التفصيل: التبيين، وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ } [55].

{ **كُلِّ شَيْءٍ** } مراد به أعظم الأشياء، أي: المهمّات المحتاج إلى بيان أحكامها في أحوال الدين.

{ **لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ** } رجاء أن يؤمنوا بلقاء ربّهم، والضمير عائد إلى معلوم من المقام وهم بنو إسرائيل. ومعنى ذلك: لعلّهم إن تحرّوا في أعمالهم على ما يناسب الأيمان بلقاء ربهم، فإنّ بني إسرائيل كانوا مؤمنين بلقاء الله من قبل نزول التوراة، ولكنّهم طرأ عليهم من أزمنة طويلة، من أطوار مجاورة القبط، وما لحقهم من المذلّة والتغرّب والخصاصة والاستعباد، ما رفع منهم العلم، وأذْوَى الأخلاق الفاضلة، فنسوا مراقبة الله تعالى، وأفسدوا، حتّى كان حالهم كحال من لا يؤمن بأنّه يلقى الله، فأراد الله إصلاحهم ببعثه موسى عليه السلام ليرجعوا إلى ما كان عليه سلفهم الصالح من مراقبة الله تعالى وخشية لقائه، والرغبة في أن يلقوه وهو راض عنهم.

وفيه تعريض بأهل مكّة ومن إليهم من العرب، فقد كان سلفهم على هدى وصلاح، فدخل فيهم من أضلّهم ولقّنهم الشرك وإنكار البعث، فأرسل الله إليهم محمدا صلى الله عليه وسلم ليردّهم إلى الهدى ويؤمنوا بلقاء ربهم.

{ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ [155] أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ [156] أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ [157] }.

{ **وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ** } افتتاح الجملة باسم الإشارة، وبناء الفعل عليه، وجعل الكتاب الذي حقّه أن يكون مفعول { أَنْزَلْنَاهُ } مبتدأ، كل ذلك للاهتمام بالكتاب والتنويه به، وقد تقدّم نظيره عند قوله تعالى { وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ } [92].

الاتّباع: أطلق على العمل بما فيه على سبيل المجاز. وقد مضى الكلام فيه { إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ } [50].

{ **فَاتَّبِعُوهُ** } الخطاب للمشركين، بقرينة قوله تعالى { أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا }.

{ **أَنْزَلْنَاهُ** } في محل الصفة لـ { كِتَابٌ }، و{ مُبَارَكٌ } صفة ثانية، وهما المقصد من الإخبار، لأنّ كونه كتابا لا مرية فيه، وإنّما امتروا في كونه منزلا من عند الله وفي كونه مباركا.

{ **لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** } وعد على اتباعه، وتعريض بالوعيد بعذاب الدنيا والآخرة إن لم يتّبعوه.

{ **أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ** } التقدير: لأن تقولوا، أي: لقولكم ذلك في المستقبل، فالقول باعث على إنزال الكتاب.

ويؤول المعنى، إلى أنّ إنزال الكتاب فيه حِكَم، منها حكمة قطع معذرتهم بأنّهم لم ينزل إليهم كتاب، أو كراهية أن يقولوا ذلك، أو لتجنّب أن يقولوه.

وهذا القول يجوز أن يكون قد صدر عنهم من قبل، فقد جاء في [القصص:48] { فَلَمَّا جَاءَهُمُ الحقّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى }، ويجوز أن يكون متوقعا ثم قالوه من بعد.

وقد كان اليهود والنصارى في بلاد العرب على حالة أكمل من أحوال أهل الجاهلية.

الطائفة: الجماعة من النّاس الكثيرة، وقد تقدّم عند قوله تعالى { فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ } [النساء:102].

والمراد بالطائفتين هنا اليهود والنصارى.

ومعنى إنزال الكتاب عليهم أنّهم خوطبوا بالكتب السماوية التي أنزلت على أنبيائهم، فلم يكن العرب مخاطبين بما أنزل على غيرهم، فهذا تعلل أوّل منهم.

الدراسة: القراءة بمعاودة للحفظ أو للتأمل، فليس سرد الكتاب بدراسة. وتقدّم عند قوله تعالى { وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ } [آل عمران:79].

الغفلة: السهو الحاصل من عدم التفطن، أي: لم نهتم بما احتوت عليه كتبهم فنقتدي بهديها.

أي: كنا غافلين عن اتباع رشدهم لأنّا لم نتعلّم، فالدراسة مراد بها التعليم، وهذا تعلّل ثان منهم.

{ **أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ** } تدرّج في الاعتلال جاء على ما تكنّه نفوس العرب من شفوفهم بأنفسهم على بقية الأمم، وتطلّعهم إلى معالي الأمور، وإدلالهم بفطنتهم وفصاحة ألسنتهم وحدّة أذهانهم وسرعة تلقّيهم.

وفي الإعراب عن هذا الاعتلال منهم تلقين لهم، وإيقاظ لإفهامهم أن يغتبطوا بالقرآن، ويفهموا ما يعود عليهم به من الفضل والشرف بين الأمم، كقوله تعالى { لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ } [الانبياء:10]. وقد كان الذين اتبعوا القرآن أهدى من اليهود والنصارى ببون بعيد الدرجات.

{ **فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ** } التقدير: فإذا كنتم تقولون ذلك ويهجس في نفوسكم فقد جاءكم بيان من ربكم، يعني القرآن، يدفع عنكم ما تستشعرون من الانحطاط عن أهل الكتاب.

البيّنة: ما به البيان وظهور الحق. فالقرآن بيّنة على أنّه من عند الله لإعجازه بلغاء العرب، وهو هدي بما اشتمل عليه من الإرشاد إلى طريق الخير، وهو رحمة بما جاء به من شريعة سمحة لا حرج فيها، فهي مقيمة لصلاح الأمّة مع التيسير. وهذا من أعجب التشريع، وهو أدلّ على أنّه من أمر العليم بكل شيء.

{ **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا** } تفرَّع عن هذا الإعذار لهم الإخبار عنهم بأنّهم لا أظلم منهم، لأنّهم كذّبوا واعرضوا. فالفاء للتفريع والاستفهام إنكاري، أي: لا أحد أظلم من الذين كذّبوا بآيات الله.

الظلم: هنا يشمل ظلم نفوسهم، إذ زجّوا بها إلى العذاب في الآخرة وخسران الدنيا، وظلم الرّسول صلى الله عليه وسلم إذ كذّبوه، وما هو بأهل التكذيب، وظلم الله إذ كذّبوا بآياته وأنكروا نعمته، وظلموا النّاس بصدّهم عن الإسلام بالقول والفعل.

{ **صَدَفَ** } أعرض هو، ويطلق بمعنى صرف غيره كما في القاموس. وأصله التعدية إلى مفعول بنفسه وإلى الثاني بـ (عن)، يقال: صدفت فلانا عن كذا، كما يقال: صرفته.

{ **سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ** } يناسبه معنى المتعدّي لأنّ الجزاء على إعراضهم وعلى صدّهم النّاس عن الآيات، فإنّ تكذيبهم بالآيات يتضمّن إعراضهم عنها فناسب أن يكون صَدفهم هو صرفهم الناس.

{ **سُوءَ الْعَذَابِ** } أشدّه وأقواه.

{ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ } [158].

استئناف بياني، وهو يحتمل الوعيد ويحتمل التهكّم، كما سيأتي.

فإن كان هذا وعيدا وتهديدا فهو ناشئ عن قوله تعالى { سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا }، لإثارته سؤال سائل يقول: متى يكون جزاؤهم؟

وإن كان تهكّما بهم على صدفهم عن الآيات التي جاءتهم، وتطلّعهم إلى آيات أعظم منها في اعتقادهم، فهو ناشئ عن قوله تعالى { فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا }، لأنّه يثير سؤال سائل يقول: ماذا كانوا يترقبون من الآيات فوق الآيات التي جاءتهم؟

{ **هَلْ** } للاستفهام الإنكاري.

{ **يَنْتَظِرُونَ** } مضارع نظر بمعنى انتظر، والضمير عائد للذين يصدفون عن الآيات.

ثم إن كان الانتظار واقعا منهم على أنّه انتظار آيات، كما يقترحون، فمعنى الحصر: أنّهم ما ينتظرون بعد الآيات التي جاءتهم ولم يقتنعوا بها إلّا الآيات التي اقترحوها وشرطوا أن لا يؤمنوا حتّى يُجاؤوا بها.

وإن كان الانتظار غير واقع بجد ولا بسخرية فمعناه أنّهم ما يترقّبون شيئا من الآيات يأتيهم أعظم ممّا أتاهم، فلا انتظار لهم، ولكنهم صمّموا على الكفر واستبطنوا العناد، فإن فُرض لهم انتظار فإنّما هو انتظار ما سيحلّ بهم من عذاب الآخرة أو عذاب الدنيا، فيكون الاستثناء تأكيدا للشيء بما يشبه ضدّه. والمراد: أنّهم لا ينتظرون شيئا ولكن سيجيئهم ما لا ينتظرونه، وهو إتيان الملائكة، إلى آخره، فالكلام وعيد وتهديد.

{ **أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ** } الإتيان بالنسبة إلى الملائكة حقيقة، والمراد بهم: ملائكة العذاب. وأمّا المسند إلى الرب فهو مجاز، والمراد به: إتيان عذابه العظيم، فهو لعظيم هوله جُعل إتيانه مسندا إلى الآمر به أمرا جازما ليُعرف مقدار عظمته، بحسب عظيم قدرة فاعله وآمره.

وعلى الاحتمالات كلّها يجوز أن يكون وقوع ذلك يوم القيامة، ويجوز أن يكون في الدنيا.

{ **يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا** } جملة مستأنفة استئنافا بيانيّا تذكيرا لهم بأنّ الانتظار والتريّث عن الإيمان وخيم العاقبة، لأنّه مُهدِّد بما يمنع من التدارك عند الندامة، فإمّا أن يعقبه الموت والحساب، وإمّا أن يعقبه مجيء آية من آيات الله، وحين ينزل ذلك العذاب لا تبقى فسحة لتدارك ما فات، لأنّ الله إذا أنزل عذابه على المكذّبين لم ينفع عنده توبة.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم **" لا تقوم الساعة حتّى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها النّاس آمنوا أجمعون وذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن**

آمنت من قبل "، ثم قرأ هذه الآية.

{ **لا يَنْفَعُ نَفْساً** } النفع المنفي هو النفع في الآخرة بالنجاة من العذاب، لأنّ نفع الدنيا بكشف العذاب عند مجيء الآيات لا ينفع النفوس المؤمنة ولا الكافرة.

{ **لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ** } صفة مخصِّصة لعموم { نَفْساً }، أي: النفس التي لم تكن آمنت من قبل لا ينفعها إيمانها إذا آمنت عند نزول العذاب. تحذير للمشركين من التريّث عن الإيمان خشية أن يبغتهم يوم ظهور الآيات، وهم المقصود من السياق.

{ **أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً** } عطف على { آمَنَتْ }، أي: أو لم تكن كسبت في إيمانها خيرا.

والخير هو الأعمال الصالحة والطاعات.

{ **أَوْ** } للتقسيم في صفات النفس فيستلزم تقسيم النفوس التي خصصتها الصفتان إلى قسمين:

نفوس كافرة لم تكن آمنت من قبل، فلا ينفعها إيمانها يوم يأتي بعض آيات الله.

ونفوس أمنت ولم تكسب خيرا في مدة إيمانها، فهي نفوس مؤمنة، فلا ينفعها ما تكسبه من خير يوم يأتي بعض آيات ربك.

وهذا القسم الثاني ذو مراتب متفاوتة، لأن التقصير في اكتساب الخير متفاوت، فمنه إضاعة لأعمال الخير كلّها، ومنه إضاعة لبعضها، ومنه تفريط في الإكثار منها. وظاهر الآية يقتضي أنّ المراد نفوس لم تكسب في إيمانها شيئا من الخير، أي: اقتصرت على الإيمان وفرطت في جميع أعمال الخير.

وقد عُلم من التقسيم أنّ هذه النفوس لا ينفعها اكتساب الخير من بعد مجيء الآيات، ولا ما يقوم مقام اكتساب الخير عند الله، وهو ما مَنَّ به على هذه الأمة من غفران السيّئات عند التوبة، فالعزم على الخير هو التوابة، أي: العزم على اكتساب الخير.

التقدير: لا ينفع نفسا غير مؤمنة إيمانها، أو نفسا لم تكن كسبت خيرا في إيمانها من قبل كسبها، يعني أو ما يقوم مقام كسب الخير، مثل التوبة.

وليس المراد أنه لا ينفع نفسا مؤمنة إيمانها إذا لم تكن قد كسبت خيرا بحيث يضيع الإيمان إذا لم يقع اكتساب الخير، لأنه لو أريد ذلك لما كانت فائدة للتقسيم، ولكفى أن يقال: لا ينفع نفسا إيمانها لم تكسب خيرا، لأنّ الأدلة القطعية ناهضة على أنّ الأيمان الواقع قبل مجيء الآيات لا يُدحض إذا فرَّط صاحبه في شيء من الأعمال الصالحة، ولأنّه لو كان كذلك وسلَّمناه لما اقتضى أكثر من أن الذي لم يفعل الخير عدا أنه آمن لا ينفعه إيمانه، وذلك إيجاد قسم لم يقل به أحد من علماء الإسلام.

فالكلام إدماج في أثناء المقصود (تحذير للمشركين من التريّث عن الإيمان) لتحذير المؤمنين من الإعراض عن الأعمال الصالحة.

{ **قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ** } أمر للرّسول صلى الله عليه وسلم بأن يهدّدهم ويتوعّدهم على الانتظار إن كان واقعا منهم، أو على التريث والتأخر عن الدخول في الإسلام الذي هو شبيه بالانتظار إن كان

الانتظار إدعائيا، بأن يأمرهم بالدوام على حالهم التي عبّر عنها بالانتظار أمر تهديد، ويخبرهم بأنّ المسلمين ينتظرون نصر الله ونزول العقاب بأعدائهم، أي: دوموا على انتظاركم فنحن منتظرون.

{ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَـهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْـهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُـهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ } [159].

{ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَـهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً } قال ابن عباس: هم المشركون. لأنّهم لم يتفقوا على صورة واحدة في الدين، فقد عبدت القبائل أصناما مختلفة، وكان بعض العرب يعبدون الملائكة، وبعضهم يعبد الشمس، وبعضهم يعبد القمر، وكانوا يجعلون لكل صنم عبادة تخالف عبادة غيره. ويجوز أن يراد أنّهم كانوا على الحنيفيّة، وهي دين التوحيد لجميعهم، فتفرّقوا وجعلوا آلهة عبادتها مختلفة الصور.

{ وَكَانُوا شِيَعاً } لأنّ كل قبيلة كانت تنتصر لصنمها، وتزعم أنّه ينصرهم على عُبَّاد غيره.

{ لَسْتَ مِنْـهُمْ فِي شَيْءٍ } أي: أنّك لا صلة بينك وبينهم.

{ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ } استئناف بياني، أي: إنّما أمرهم إلى الله لا إلى الرّسول صلى الله عليه وسلم ولا إلى غيره، وهذا إنذار شديد. والمراد بأمرهم:، عملهم الذي استحقوا به الجزاء والعقوبة.

{ ثُمَّ يُنَبِّئُـهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ } **{ ثُمَّ }** هنا للترتيب مع إفادة المهملة، وذلك من الإمهال والإملاء لهم، ثم يعاقبهم، فأطلق الإنباء على العقاب، لأنّه إن كان العقاب عقاب الآخرة فهو يتقدّمه الحساب، وفيه إنباء الجاني بجنايته وبأنّه مأخوذ بها، فإطلاق الإنباء عليه حقيقة مراد معها لازمه على وجه الكناية.

وإن كان العقاب عقاب الدنيا فإطلاق الإنباء عليه مجاز، لأنّهم إذا نزل بهم العذاب بعد الوعيد علموا أنّه العقاب الموعود به، فكان حصول ذلك العلم لهم عند وقوعه شبيها بحصول العلم الحاصل على الإخبار، فأطلق عليه الإنباء.

ووصف المشركين بأنّهم فرّقوا دينهم وكانوا شيعا: يؤذن بأنه وصف شنيع، إذ ما وصفهم الله به إلّا في سياق الذم، فيؤذن ذلك بأنّ الله يحذّر المسلمين من أن يكونوا في دينهم كما كان المشركون في دينهم.

وتفريق دين الإسلام هو تفريق أصوله بعد اجتماعها، كما فعل بعض العرب من منعهم الزكاة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر رضي الله عنه: لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة. وأما تفريق الآراء في التعليلات والتبيينات فلا بأس به، وهو من النظر في الدين، مثل الاختلاف في أدلة الصفات، وفي تحقيق معانيها، مع الاتفاق على إثباتها. وكذلك تفريع الفروع، كتفريق فروع الفقه بالخلاف بين الفقهاء، مع الاتفاق على صفة العمل وعلى ما به صحة الأفعال وفسادها. كالاختلاف في حقيقة الفرض والواجب.

والحاصل أن كل تفريق لا يكفّر به بعض الفرق بعضا، ولا يفضي إلى تقاتل وفتن، فهو تفريق نظر واستدلال وتطلّب للحقّ بقدر الطاقة. وكل تفريق يفضي بأصحابه إلى تكفير بعضهم بعضا، ومقاتلة بعضهم بعضا، ومقاتلة بعضهم بعضا في أمر الدين، فهو مما حذّر الله منه.

وأمّا ما كان بين المسلمين نزاعا على الملك والدنيا فليس تفريقا في الدين، ولكنه من الأحوال التي لا تسلم منها الجماعات.

{ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ} [160].

من عادة القرآن أنّه إذا أنذر أعقب الإنذار ببشارة لمن لا يحقّ عليه ذلك الإنذار، وإذا بشّر أعقب البشارة بنذارة لمن يتّصف بضد ما بشّر عليه، وقد جرى على ذلك ههنا. فإنّه لمّا أنذر المؤمنين وحذّرهم من التريّث في اكتساب الخير، قبل أن يأتي بعض آيات الله القاهرة، فحدّ لهم بذلك حدّا هو من مظهر عدله، أعقب ذلك ببشرى من مظاهر فضله وعدله. وهي الجزاء على الحسنة بعشر أمثالها والجزاء على السيئة بمثلها.

فالكلام تذييل جامع لأحوال الفريقين.

{ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ } أي: عمل الحسنة، شبَّه عمله الحسنة بحال المكتسب. فالباء للمصاحبة، والكلام تمثيل.

{ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا } ثواب أمثالها. معناه تحسب له عشر حسنات مثل التي جاء بها كما في الحديث: **" كتبها الله عنده عشر حسنات "**. وقد زاد الله في بعض الحسنات أن ضاعفها سبعمائة ضعف كما في الحديث:

" من هَمَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هَمَّ بها فعملها، كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ".

{ فَلا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا } وإنّما قال في جانب السيّئة فلا يجزى إلّا مثلها بصيغة الحصر لأجل ما في صيغته من تقديم جانب النفي، اهتماما به، لإظهار العدل الإلهي، فالحصر حقيقي، وليس في الحصر الحقيقي ردّ اعتقادٌ بل هو إخبار عمّا في نفس الأمر. وقد جاء على هذا المعنى قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" ومن هَمَّ بسيّئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة وإن هَمَّ بها فعملها كتبها الله سيّئة واحدة "**. فأكّدها بواحدة تحقيقا لعدم الزيادة في جزاء السيئة.

{ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ } الضمير يعود إلى { مَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ }، إظهارا للعدل، فلذلك سجَّل الله عليهم بأنّ هذا لا ظلم فيه لينصفوا من أنفسهم. وأمّا عدّ عود الضميرين إلى الفريقين فلا يناسبه فريق أصحاب الحسنات، لأنّه لا يحسن أن يقال للذي أُكرم وأُفيض عليه الخير إنّه غير مظلوم.

{ **قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** } [161].

استئناف ابتدائي للانتقال من مجادلة المشركين، وما تخلّلها، إلى فذلكة ما أُمر به الرّسول صلى الله عليه وسلم في هذا الشأن، غلقا لباب المجادلة مع المعرضين، وإعلانا بأنّه قد تقلّد لنفسه ما كان يجادلهم فيه ليتقلّدوه وأنّه ثابت على ما جاءهم به، وأن إعراضهم لا يزلزله عن الحق.

وفيه إيذان بانتهاء السورة لأنّ الواعظ والمناظر إذا ما أشبع الكلام في غرضه، ثم أخذ يبيّن ما رَضِيَه لنفسه وما قرّ عليه قراره، علم السامع أنّه قد أخذ يطوي سجلّ المحاجّة، ولذلك غيَّر الأسلوب.

فأمر الرّسول صلى الله عليه وسلم بأن يقول أشياء يعلن بها أصول دينه.

وتكرّر الأمر بالقول ثلاث مرات تنويها بالمقول.

{ **إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** } متصل بقوله تعالى { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ } [153]، ليبيّن أنّ هذا الدين إنّما جاء به الرّسول صلى الله عليه وسلم بهدي من الله، وأنّه جعله دينا قيّما على قواعد ملة إبراهيم عليه السلام، إلّا أنّه زائد بما تضمّنه من نعمة الله عليه إذ هداه إلى ذلك الصراط الذي هو سبيل النجاة. وافتتح الخبر بحرف التأكيد لأنّ الخطاب للمشركين المكذّبين.

{ **رَبِّي** } تعريف المسند إليه بالإضافة للاعتزاز بمربوبيّة الرّسول صلى الله عليه وسلم لله تعالى، وتعريضا بالمشركين الذين أضلّهم أربابهم، ولو وحَّدوا الربّ الحقيق بالعبادة لهداهم.

{ **صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** } المناسبة بين الهداية وبين الصراط تامة، لأنّ حقيقة الهداية التعرّف بالطريق، وحقيقة الصراط الطريق الواسعة. وقد صح أن تُستعار الهداية للإرشاد والتعليم، والصراط للدين القويم، فكان تشبيها مركّبا قابلا للتفكيك وهو أكمل أحوال التمثيليّة.

والمقصود إتمام هيئة التشبيه بأنّه دين لا يتطرق متّبعه شك في نفعه كما لا يتردّد سالك الطريق الواسعة التي لا انعطاف فيها ولا يتحير في أمره.

{ **دِيناً قِيَماً** } الدين: السيرة التي يتّبعها الناس.

القَيّم: <u>وصف مبالغة قائم</u>، بمعنى معتدل غير معوجّ، وإطلاق القيام على الاعتدال والاستقامة مجاز، لأن المرء إذا قام اعتدلت قامته، فيلزم الاعتدال القيام.

<u>والأحسن أن نجعل القيّم للمبالغة للقيام بالأمر</u> وهو يرادف القيّوم، فيستعار للكفاية بما يحتاج إليه، والوفاء بما فيه صلاح المقوّم عليه، فالإسلام قيّم بالأمّة وحاجتها، يقال: فلان قيّم على كذا، بمعنى مدبّر له ومصلح، ومنه وصف الله تعالى بالقيّوم، وهذا أحسن لأنّ فيه زيادة على مفاد مستقيم الذي أخذ جزءا من التمثيلية، فلا تكون إعادة لبعض التشبيه.

{ **ملّة إبراهيم** } والملّة: الدين. فالتعبير بها هنا للتفنّن.

<u>قال الراغب</u>: الملّة كالدين، ثم قال: والفرق بينها وبين الدين أنّ الملّة لا تضاف إلّا إلى النبيّ الذي تستند

إليه نحو ملة إبراهيم، ملة آبائي، ولا توجد مضافة إلى الله ولا إلى الأمّة، ولا تُستعمل إلّا في جملة الشريعة دون آحادها، فلا يقال: الصلاة ملة الله، أي: ويقال: الصلاة دين الله. ذلك أنّه يراعى في لفظ الملّة أنّها مملولة من الله فهي تضاف للذي أمِلَّت عليه.

ومعنى كون الإسلام ملة إبراهيم: أنه جاء بالأصول التي هي شريعة إبراهيم وهي: التوحيد، ومسايرة الفطرة، والشكر، والسماحة، وإعلان الحقّ. وقد بيّنتُ ذلك عند قوله تعالى { مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً } [آل عمران:67].

الحنيف: المجانب للباطل، فهو بمعنى المهتدي، وقد تقدّم عند قوله تعالى { قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [البقرة:135].

{ **وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** } عطف على الحال من { إِبْرَاهِيمَ } عليه السلام المضاف إليه، لأنّ المضاف هنا كالجزاء من المضاف إليه، وقد تقدّم في آية سورة البقرة.

{ **قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** [162] **لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** [163] }.

افتتحت جملة المقول بحرف التوكيد للاهتمام بالخبر ولتحقيقه، أو لأنّ المشركين كانوا يزعمون أنّ الرّسول عليه الصلاة والسلام كان يرائي بصلاته، فقد قال بعض المشركين لمّا رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي عند الكعبة: ألا تنظرون إلى هذا المرائي أيّكم يقوم إلى جَزور بني فلان فيعمد إلى فرثها وسلاها فإذا سجد وضعه بين كتفيه " . فتكون { إِنَّ } على هذا، لرد الشك.

{ **لِلَّهِ** } يجوز أن تكون للملك، ويجوز أن تكون اللام للتعليل، أي: لأجل الله. وجعل صلاته لله دون غيره تعريضا بالمشركين إذ كانوا يسجدون للأصنام، ولذلك أردف بجملة { لا شَرِيكَ لَهُ }.

النسك: حقيقته العبادة ومنه يسمّى العابد الناسك.

{ **مَحْيَايَ وَمَمَاتِي** } يُستعملان مصدرين ميميين، ويستعملان اسمي زمان، من حيي ومات، والمعنيان محتملان؛ فإذا كان المراد من المحيا والممات المعنى المصدري، كان المعنى على حذف مضاف تقديره: أعمال المحيا وأعمال الممات، أي: الأعمال التي من شأنها أن يتلبس بها المرء مع حياته، ومع وقت مماته.

وإذ كان المراد منهما المعنى الزمني كان المعنى ما يعتريه في الحياة وبعد الممات.

{ **رَبِّ الْعَالَمِينَ** } صفة تشير إلى سبب استحقاقه أن يكون عمل مخلوقاته له لا لغيره، لأن غيره ليس له عليهم نعمة الإيجاد.

{ **لَا شَرِيكَ لَهُ** } حال من اسم الجلالة مصرِّحة بما أفاد جمع التوكيد مع لام الملك من إفادة القصر.

والمقصود من الصفة والحال الردّ على المشركين بأنّهم ما أخلصوا عملهم للذي خلقهم. وبأنّهم أشركوا

معه غيره في الإلهية.

{ **وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ** } عطف على { إِنَّ صَلاتِي }، أي: أن ذلك كان لله بهدي من الله وأمر منه.

{ **وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** } خبر مستعمل في معناه الكنائي، وهو لازم معناه، يعني: قَبول الإسلام والثبات عليه والاغتباط به، لأنّ من أحب شيئا أسرع إليه فجاءه أوّل النّاس، وهذا بمنزلة فعل السبق إذ يطلق في كلامهم على التمكّن والترجّح.

وليس المراد معناه الصريح لقلّة جدوى الخبر بذلك، لأنّ كلّ داع إلى شيء فهو أوّل أصحابه لا محالة. فإن أريد بالمسلمين الذين اتبعوا حقيقة الإسلام بمعنى إسلام الوجه إلى الله تعالى لم يستقم، لأنّ إبراهيم عليه السلام كان مسلما وكان بنوه مسلمين، كما حكى الله عنهم إذ قال إبراهيم عليه السلام { فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } [البقرة:132] وكذلك أبناء يعقوب كانوا مسلمين إذ قالوا { وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } [البقرة:136].

{ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } [164].

{ **قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى** } استئناف ثالث، مفتتح بالأمر بالقول، يتنزّل منزلة النتيجة لما قبله، لأنّه لمّا علم أنّ الله هداه إلى صراط مستقيم، وأنقذه من الشرك، وأمره بأن يمحّض عبادته وطاعته لربّه تعالى، شكرا على الهداية، أتبع ذلك بأن ينكر أن يعبد غير الله تعالى، لأنّ واهب النعم هو مستحقّ الشكر والعبادة جماع مراتب الشكر، وفي هذا رجوع إلى بيان ضلالهم إذ عبدوا غيره.

والاستفهام إنكار عليهم لأنّهم يرغبون أن يعترف بربوبيّة أصنامهم. حكى ابن عطيّة عن النقّاش أنّ الكفّار قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم: " ارجع إلى ديننا واعبد آلهتنا ونحن نتكفّل لك بكل تباعة تتوقّعها في دنياك وآخرتك وأن هذه الآية نزلت في ذلك ".

{ **وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ** } حال معلّل للإنكار، أي: أنّ الله خالق كل شيء وذلك باعترافهم، لأنّهم لا يدّعون أنّ الأصنام خالقة لشيء، فلمّا كان الله خالق كل شيء وربه، فلا حق لغيره في أن يعبده الخلائق، وعبادة غيره ظلم عظيم، وكفر نعمة الربوبيّة.

{ **وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا** } من القول المأمور به، مفيد متاركة للمشركين ومقتا لهم بأنّ عنادهم لا يضرّه، فإنّ ما اقترفوه من الشرك لا يناله منه شيء، فإنّما كسب كل نفس عليها.

{ **وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى** } تكملة لمعنى { وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا } فكما أنّ ما تكسبه نفس لا يتعدى منه شيء إلى غيرها، كذلك لا تحمل نفس عن نفس شيئا، والمعنى: ولا أحمل أوزاركم.

الوزر: الحمل، وهو ما يحمله المرء على ظهره، وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ } [الأنعام:31].

وأما تسمية الإثم وزرا فلأنّه يُتخيَّل ثقيلا على نفس المؤمن.

{ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ }

يحتمل أن يكون من جملة القول المأمور به، فيكون تعقيبا للمتاركة بما فيه تهديدهم ووعيدهم، فالخطاب للمشركين وكذلك الضميران في قوله تعالى { بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ }. والمعنى: بما كنتم فيه تختلفون مع المسلمين، لأنّ الاختلاف واقع بينهم وبين المسلمين، وليس بين المشركين اختلاف، فأدمج الوعيد بالوعيد. وقد جعلوا هذه الجملة مع التي قبلها آية واحدة في المصاحف.

ويحتمل أن يكون استئناف كلام من الله تعالى خطابا للنبيّ صلى الله عليه وسلم وللمعاندين له، والكلام وعيد ووعد أيضا. ولا ينافي ذلك أن تكون مع التي قبلها آية واحدة.

التنبئة: الإخبار، والمراد بها إظهار آثار الإيمان والكفر واضحة يوم الحساب، فيعلموا أنّهم كانوا ضالين، فشُبّه ذلك العلم بأنّ الله أخبرهم بذلك يومئذ، أو المراد ينبئكم مباشرة بدون واسطة الرّسل ، كما ورد في حديث الحشر: **" فيُسمعهم الداعي ليس بينهم وبين الله حجاب "**.

{ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } [165].

الخطاب موجّه إلى المشركين الذين أُمر الرّسول عليه الصلاة والسلام بأن يقول لهم { أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبّاً} وذلك يُذكّر بأنّهم سيصيرون إلى ما صار إليه أولئك. فهو تذكير بالنعمة بعد الإنذار بسلبها، وتحريض على تدارك ما فات، وهو يفتح أعينهم للنظر في عواقب الأمم وانقراضها وبقائها.

ويجوز أن يكون الخطاب للرّسول عليه الصلاة والسلام والأمّة الإسلامية، وتكون الإضافة على معنى اللام، أي: جعلكم خلائف الأمم التي ملكت الأرض فأنتم خلائف للأرض، فتكون بشارة الأمّة بأنّها آخر الأمم ذوات الشرائع الإلهية.

وأيّا ما كان فهو تذكير بعظيم صنع الله ومنّته لاستدعاء الشكر والتحذير من الكفر.

الخلائف: جمع خليفة، والخليفة: اسم لما يُخلف به الشيء، أي: يُجعل خلفا عنه، أي: عوضه.

{ **خَلائِفَ الْأَرْضِ** } أي: خلائف فيها، أي: خلف بكم أمما مضت قبلكم، كما في قوله تعالى { وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ } [الأعراف:69]، وقوله تعالى { وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ } [لأعراف:74]، وقوله تعالى {عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ } [لأعراف: 129].

وفي هذا أيضا تذكير بنعمة تتضمّن عبرة وموعضة: وذلك أنّه لمّا جعلهم خلائف غيرهم فقد أنشأهم وأوجدهم على حين أعدم غيرهم، فهذه نعمة، لأنّه لو قدّر بقاء الأمم التي قبلهم لما وجدوا هؤلاء.

{ **وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ** } هو أيضا عبرة وعظة، لعدم الاغترار بالقوة والرفعة، ولجعل ذلك وسيلة لشكر تلك النعمة والسعي في زيادة الفضل لمن قصَّر عنها، والرفق بالضعيف وإنصاف المظلوم.

{ **لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ** } أي: ليَخْبُرَكم فيما أنعم به عليكم من درجات النعم حتّى يظهر للنّاس كيف يضع أهل النعمة أنفسهم في مواضعها اللائقة بها وهي المعبّر عنها بالدرجات.

الدرجات: مستعارة لتفاوت النعم. وهي استعارة مبنيّة على تشبيه المعقول بالمحسوس لتقريبه.

الإيتاء: مستعار لتكوين الرفعة في أربابها تشبيها للتكوين بإعطاء المعطي شيئا لغيره.

البلْو: الاختبار، وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ } [البقرة:155].

والمراد به ظهور موازين العقول في الانتفاع والنفع بمواهب الله وما يسّره لها من الملائمات والمساعدات، فالله يعلم مراتب النّاس، ولكن سمّى ذلك بلْوى، لأنّها لا تظهر للعيان إلّا بعد العمل، أي: ليعلمه الله علم الواقعات بعد أن كان يعلمه علم المقدّرات، فهذا موقع لام التعليل.

{ **إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** } تذييل للكلام وإيذان بأنّ المقصود منه العمل والامتثال فلذلك جُمع هنا بين صفة { سَرِيعُ الْعِقَابِ } وصفة { لَغَفُورٌ } ليناسب جميع ما حوته هذه السورة.

واستعيرت السرعة لعدم التردّد، ولتمام المقدرة على العقاب، لأن شأن المتردّد أو العاجز أن يتريّث وأن يخشى غائلة المعاقب، فالمراد سريع العقاب في يوم العقاب.

ومن لطائف القرآن الاقتصار في وصف { سَرِيعُ الْعِقَابِ }على مؤكد واحد، وتعزيز وصف { لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } بمؤكدات ثلاثة وهي إن، ولام الابتداء، والتوكيد اللفظي، لأن { رَحِيمٌ } يؤكد معنى { لَغَفُورٌ }، ليطمئن أهل العمل الصالح إلى مغفرة الله ورحمته، وليستدعي أهل الإعراض والصدوف، إلى الإقلاع عمّا هم فيه.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأعراف

هذا هو الاسم الذي عُرفت به هذه السورة من عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم.

أخرج النسائي، من حديث ابن أبي مُليكة، عن عروة بن زيد ابن ثابت أنّه قال لمروان بن الحكم: " ما لي أراك تقرأ في المغرب بقصار السور وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ فيها بأطول الطوليين ". قال مروان: قلت: يا أبا عبد الله ما أطول الطولَيين، قال: الأعراف ".

والمراد بالطوليين سورة الأعراف وسورة الأنعام، فإنّ سورة الأعراف أطول من سورة الأنعام، باعتبار عدد الآيات. ويُفسّر ذلك حديث عائشة رضي الله عنها: " أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ في صلاة المغرب بسورة الأعراف فرَّقها في ركعتين ".

ووجه تسميتها أنّها ذُكر فيها لفظ الأعراف بقوله تعالى { وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ } [46]. ولم يُذكر في غيرها من سور القرآن، ولأنّها ذُكر فيها شأن أهل الأعراف في الآخرة، ولم يذكر في غيرها من السور بهذا اللفظ، ولكنّه ذكر بلفظ (سور) في قوله تعالى { فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ } [الحديد:13].

وربما تُدعى بأسماء الحروف المقطّعة التي في أولها (ألف، لام، ميم، صاد). وكذلك سمّاها الشيخ ابن أبي زيد في الرسالة في باب سجود القرآن. ولم يعدّوا هذه السورة في السور ذات الأسماء المتعدّدة.

وهي مكيّة بلا خلاف. وهو ظاهر رواية مجاهد وعطاء الخراساني عن ابن عباس، وكذلك نقل عن ابن الزبير، وقيل: نزل بعضها في المدينة، قال قتادة: آية { وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ } [163] نزلت بالمدينة.

وعن جابر بن زيد أنّها نزلت بعد سورة (ص) وقبل سورة (الجن)، ولا أحسب أنّ سورة الأعراف قد نزلت في تلك المدة لأنّ السور الطوال يظهر أنّها لم تنزل في أوّل البعثة.

وهي من السبع الطوال التي جُعلت في أوّل القرآن لطولها وهي (البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، وبراءة).

وهي معدودة التاسعة والثلاثين في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد عن ابن عباس.

وعدّ آي سورة الأعراف **مائتان وست آيات** في عدّ أهل المدينة والكوفة، ومائتان وخمس في عدّ أهل الشام والبصرة، قال في الإتقان قيل مائتان وسبع.

أغراض السورة

افتتحت هذه السورة بالتنويه بالقرآن والوعد بتيسيره على النبيّ صلى الله عليه وسلم ليبلّغه، وكان افتتاحها كلاما جامعا وهو مناسب لما اشتملت عليه السورة من المقاصد، فهو افتتاح وارد على أحسن وجوه البيان وأكملها، شأن سور القرآن.

وتدور مقاصد هذه السورة على:

*/ النهي عن اتخاذ الشركاء من دون الله.

*/ إنذار المشركين عن سوء عاقبة الشرك في الدنيا والآخرة.

*/ وصف ما حلّ بالمشركين والذين كذّبوا الرسل من سوء العذاب في الدنيا، وما سيحل بهم في الآخرة.

*/ تذكير النّاس بنعمة خلق الأرض، وتمكين النوع الإنساني من خيرات الأرض، وبنعمة الله على هذا النوع بخلق أصله وتفضيله.

*/ ما نشأ من عداوة جنس الشيطان لنوع الإنسان.

*/ تحذير النّاس من التلبّس ببقايا مكر الشيطان من تسويله إيّاهم حرمان أنفسهم الطيّبات، ومن الوقوع فيما يزجّ بهم في العذاب في الآخرة.

*/ وصف أهوال يوم الجزاء للمجرمين وكراماته للمتقين.

*/ التذكير بالبعث وتقريب دليله.

*/ النهي عن الفساد في الأرض التي أصلحها الله لفائدة الإنسان.

*/ التذكير ببديع ما أوجده الله لإصلاحها وإحيائها.

*/ التذكير بما أودع الله في فطرة الإنسان من وقت تكوين أصله أن يقبلوا دعوة رسل الله إلى التقوى والإصلاح.

*/ أفاض في أحوال الرسل مع أقوامهم المشركين، وممّا لاقوه من عنادهم وأذاهم، وأنذر بعدم الاغترار بإمهال الله النّاس قبل أن ينزل بهم العذاب، وإعذارا لهم أن يقلعوا عن كفرهم وعنادهم، فإنّ العذاب يأتيهم بغتة بعد ذلك الإمهال.

*/ أطال القول في قصّة موسى عليه السلام مع فرعون، وفي تصرّفات بني إسرائيل مع موسى عليه السلام.

وتخلّل قصّته بشارة الله ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم وصفة أمّته وفضل دينه.

*/ ثمّ تخلّص إلى موعظة المشركين كيف بدّلوا الحنيفيّة وتقلّدوا الشرك، وضرب لهم مثلا بمن آتاه الله الآيات فوسوس له الشيطان فانسلخ عن الهدى.

*/ وصف حال أهل الضلالة ووصف تكذيبهم بما جاء به الرّسول، ووصف آلهتهم بما ينافي الإلهيّة وأنّ لله الصفات الحسنى صفات الكمال.

*/ ثمّ أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم والمسلمين بسعة الصدر والمداومة على الدعوة، وحذّر المسلمين من مداخل الشيطان بمراقبة الله بذكره سرا وجهرا والإقبال على عبادته.

{ **ألمص** } [1].

هذه الحروف الأربعة المقطّعة التي افتتحت بها هاته السورة، ينطق بأسمائها (ألف، لام، ميم، صاد)، لأنّ المقصود بها أسماء الحروف لا مسمّياتها وأشكالها. وتقدّم الكلام حولها في أوّل سورة البقرة.

{ **كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ** } [2].

ذكرنا في طالعة سورة البقرة أنّ الحروف المقطّعة في أوائل السور أُعقبت بذكر القرآن أو الوحي أو ما في معنى ذلك، وذلك يرجّح أنّ المقصود من هذه الحروف التهجّي، إبلاغا في التّحدّي للعرب بالعجز عن الإتيان بمثل القرآن، وتخفيفا للعبء عن النبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ **كِتَابٌ** } مبتدأ، ووقع الابتداء بالنكرة إمّا لأنّها أريد بها النوع لا الفرد، وفائدة إرادة النوع الردّ على المشركين إنكارهم أن يكون القرآن من عند الله، واستبعادهم ذلك، فذكّرهم الله بأنّه كتاب من نوع الكتب المنزّلة على الأنبياء، فيكون تنكير النوعية لدفع الاستبعاد.

وإمّا لأن التنكير أريد به التعظيم والتعجيب، أي: هو كتاب عظيم، تنويها بشأنه، فصار التنكير في معنى التوصيف.

{ **أُنْزِلَ إِلَيْكَ** } يجوز أن يكون المقصود من الإخبار تذكير المنكرين والمكابرين. فالخبر مستعمل في التعريض بتغليط المشركين والمكابرين والقاصدين إغاظة الرّسول صلى الله عليه وسلم بالإعراض.

ويجوز أن يكون المقصود من الخبر الامتنان والتذكير بالنعمة.

والمقصود: تسكين نفس النبيّ صلى الله عليه وسلم، وإغاظة الكافرين، وتأنيس المؤمنين، أي: هو كتاب أنزل لفائدة، وقد حصلت الفائدة فلا يكن في صدرك حرج إن كذّبوا.

{ **فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ** } الفاء اعتراضية إذ الجملة معترضة بين فعل { أُنْزِلَ } ومتعلّقه وهو { لِتُنْذِرَ بِهِ }، فإنّ الاعتراض يكون مقترنا بالفاء كما يكون مقترنا بالواو.

الحرج: حقيقته المكان الضيّق من الغابات الكثيرة الأشجار، بحيث يعسر السلوك فيه، ويستعار لحالة النفس عند الحزن والغضب والأسف.

{ **لِتُنْذِرَ بِهِ** } متعلق بـ { أُنْزِلَ } على معنى المفعول لأجله، لأنّه الغرض الأهمّ لإبطال ما عليه المشركون من الباطل.

{ **وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ** } يجوز أن يكون معطوفا على { لِتُنْذِرَ بِهِ }. وصرّح بمتعلّق { وَذِكْرَى } دون متعلّق { لِتُنْذِرَ } تنويها بشأن المؤمنين وتعريضا بتحقير الكافرين تجاه ذكر المؤمنين.

{ **اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ** } [3].

الخطاب موجّه للمشركين ويندرج فيه المسلمون بالأولى، فبعد أن نوّه الله بالكتاب المنزّل إلى الرّسول صلى الله عليه وسلم وبيّن أنّ حكمة إنزاله للإنذار والذكرى، أمر النّاس أن يتّبعوا ما أنزل إليهم؛ فالمشركون أنزل إليهم الزجر عن الشرك والاحتجاج على ضلالهم، والمسلمون أنزل إليهم الأمر والنهي والتكليف. فكلٌّ مأمور باتّباع ما أنزل إليه.

الاتّباع: حقيقته المشي وراء ماش، فمعناه يقتضي ذاتين: تابعا ومتبوعا، يقال: اتّبع وتبع، ويستعار للعمل بأمر الآمر نحو قوله تعالى { مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي } [طه: 92, 93]. وهو استعارة تمثيلية مبنية على تشبيه حالتين، ويستعار للاقتداء بسيرة أو قول نحو قوله تعالى { وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ } [البقرة:168].

{ **مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ** } المراد: القرآن.

{ **مِنْ رَبِّكُمْ** } وصف الربّ هنا دون اسم الجلالة للتذكير بوجوب اتباع أمره، لأنّ وصف الربوبيّة يقتضي الامتثال لأوامره، ونهاهم عن اتباع أوليائهم الذين جعلوهم آلهة دونه.

{ **وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ** } المقصود من هذا النهي تأكيد مقتضى الأمر باتّباع ما أنزل إليهم اهتماما بهذا الجانب ممّا أنزل أليهم.

الأولياء: جمع وليّ، وهو الموالي، أي: الملازم والمعاون، فيطلق على الناصر والحليف والصاحب الصادق المودّة، واستعير هنا للمعبود وللإله، لأنّ العبادة أقوى أحوال الموالاة.

<u>ويجوز</u> أن يكون مستعملا في المعنى الذي استُعمل فيه الاتّباع في قوله { اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ}، أي: لا تمتثلوا للأولياء أو أمرهم أو لدعاة الأولياء وسدنتهم.

{ **مِنْ دُونِهِ** } استعارة للترك والإعراض. فإنّ المشركين وإن كانوا قد اعترفوا لله بالإلهيّة واتبعوا أمره بزعمهم في كثير من أعمالهم، كالحجّ ومناسكه والحلف باسمه، فهم أيضا اتّبعوا الأصنام بعبادتها أو نسبة الدين إليها. فكلّ عمل تقرّبوا به إلى الأصنام، وكلّ عمل عملوه امتثالا لأمر يُنسب إلى الأصنام، فهم عند عمله يكونون متّبعين اتباعا فيه إعراض عن الله وترك للتقرّب إليه.

{ **قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ** } حال سببيّة كاشفة لصاحبها، وليست مقيّدة للنهي لظهور أنّ المتّبعين أولياء من دون الله ليسوا إلّا قليلي التذكّر.

وهذا نداء على إضاعتهم النظر والاستدلال في صفات الله وفي نقائص أوليائهم المزعومين.

{ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَائِلُونَ [4] فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلاَّ أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِين [5] }.

الخبر مستعمل في التهديد للمشركين الذين وُجّه إليهم التعريض في الآية الأولى والذين قُصدوا من العموم. وقد ثلّث هنا بتمحيض التوجيه إليهم.

وإنّما خُصّ بالذكر إهلاك القرى دون ذكر الأمم كما في قوله تعالى { فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ } [الحاقة:6/5]، لأنّ المواجَهين بالتعريض هم أهل مكّة وهي أم القرى، فناسب أن يكون تهديد أهلها بما أصاب القرى وأهلها.

وتعليق فعل { أَهْلَكْنَا } بالقرية دون أهلها لقصد الإحاطة والشمول، فهو مغن عن أدوات الشمول، ونظيرها قوله تعالى { وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا } [يوسف:82]، فكل هذا من الإيجاز البديع.

وأجري الضميران في قوله تعالى { أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا } على الإفراد والتأنيث مراعاة للفظ قرية، ليحصل التماثل بين لفظ المعاد ولفظ ضميره في كلام متّصل القرب، ثم أجريت ضمائر القرية على صيغة الجمع في قوله تعالى { أَوْ هُمْ قَائِلُونَ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ } لحصول الفصل بين الضمير ولفظ معاده بجملة فيها ضمير معاده غير لفظ القرية، وهو { بَأْسُنَا بَيَاتاً } وانتُقل منه إلى ضمير القرية باعتبار أهلها.

الإهلاك: الإفناء والاستئصال. وهنا بمعنى إرادة الإهلاك.

{ **فَجَاءَهَا بَأْسُنَا** } معطوفة على { أَهْلَكْنَاهَا }، وأصل الفاء العاطفة أن تفيد ترتيب حصول معطوفها بعد حصول المعطوف عليه، ولمّا كان مجيء البأس حاصلا مع حصول الإهلاك أو قبله، إذ هو سبب الإهلاك، عسر على جمع من المفسرين معنى موقع الفاء هنا.

قال الفرّاء: إنّ الفاء لا تفيد الترتيب مطلقا، وعنه أيضا إذا كان معنى الفعلين واحدا أو كالواحد قدّمت أيهما شئت، مثل شتمني فأساء وأساء فشتمني.

وعن بعضهم: أنّ الكلام جرى على طريقة القلب، والأصل: جاءها بأسنا فأهلكناها.

والذي فسّر به الجمهور: أنّ فعل { أَهْلَكْنَاهَا } مستعمل في معنى إرادة الفعل كقوله تعالى { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } [نحل:98]، وقوله تعالى { إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ } [المائدة:6]، أي: فإذا أردت القراءة، وإذا أردتم القيام إلى الصلاة.

والتعبير عن إرادة الفعل بذكر الصيغة التي تدلّ على وقوع الفعل يكون لإفادة عزم الفاعل على الفعل، عزما لا يتأخّر عنه العمل، والغرض من ذلك تهديد السامعين المعاندين وتحذيرهم من أن يحلّ غضب الله عليهم فيريد إهلاكهم.

البيات: مصدر بات، وهو هنا منصوب على الحال من البأس، أي: جاءهم البأس مبيّتا لهم، أي: جاءهم ليلا. ويطلق البيات على ضرب من الغارة تقع ليلا.

{ **أَوْ هُمْ قَائِلُونَ** } أي: في وقت القيلولة، وهي القائلة، وهي اسم للوقت المبتدئ من نصف النهار المنتهي بالعصر، وفعله: قال يقيل فهو قائل، والمَقيل الراحة في ذلك الوقت.

{ **أو** } لتقسيم القرى المهلَكة: إلى مهلَكة في الليل ومهلَكة في النهار، والمقصود من هذا التقسيم تهديد أهل مكّة حتّى يكونوا على وجل في كل وقت، لا يدرون متى يحلّ بهم العذاب، بحيث لا يأمنون في وقت ما. وخُصّ هذان الوقتان من بين أوقات الليل والنّهار، لأنّهما اللذان يطلب فيهما النّاس الراحة والدعة، فوقوع العذاب فيهما أشدّ على الناس، ولأنّ التذكير بالعذاب فيهما ينغّص على المكذّبين تخيّل نعيم الوقتين.

{ **فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ** } يصحّ أن تكون الفاء فيه للترتيب الذكري تبعا للفاء في قوله تعالى { فَجَاءَهَا بَأْسُنَا }، لأنّه من بقية المذكور، ويصحّ أن يكون للترتيب المعنوي لأنّ دعواهم ترتبت على مجيء البأس.

الدعوى: اسم بمعنى الدعاء كقوله تعالى { دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ } [يونس: 10] وهو كثير في القرآن. والدعاء هنا لرفع العذاب، أي: الاستغاثة عند حلول البأس وظهور أسباب العذاب، وذلك أنّ شأن النّاس إذا حلّ بهم العذاب أن يجأروا إلى الله بالاستغاثة.

{ **إِلاَّ أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِين** } معنى الحصر أنّهم لم يستغيثوا الله ولا توجّهوا إليه بالدعاء ولكنهم وضعوا الاعتراف بالظلم موضع الاستغاثة فلذلك استثناه الله من الدعوى.

واقتصارهم على ذلك القول، إمّا لأنّ ذلك القول مقدّمة التوبة لأنّ التوبة يتقدمها الاعتراف بالذنب، فهم اعترفوا على نيّة أن ينتقلوا من الاعتراف إلى طلب العفو، فعوجلوا بالعذاب، فكان اعترافهم آخر قولهم في الدنيا مقدّمة لشهادة ألسنتهم عليهم في الحشر، وإمّا لأنّ الله أجرى ذلك على ألسنتهم وصرفهم عن الدعاء ليحرمهم موجبات تخفيف العذاب.

{ **إِنَّا كُنَّا ظَالِمِين** } المراد: اعترافهم بأنّهم ظلموا أنفسهم بالعناد، وتكذيب الرسل، والإعراض عن الآيات، وصمّ الأذان عن الوعيد والوعظ، وذلك يجمعه الإشراك بالله، قال تعالى { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان:13]. وذلك موضع الاعتبار للمخاطبين بقوله تعالى { وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ } [3]، أي: أنّ الله لم يظلمهم، فيكون الكلام إقرارا محضا. فصيغة الخبر مستعملة في إنشاء الإقرار.

وهذا القول يقولونه لغير مخاطب معين، كشأن الكلام الذي يجري على اللسان عند الشدائد، مثل: الويل والثبور، فيكون الكلام مستعملا في معناه المجازي، أو يقوله بعضهم لبعض، على معنى التوبيخ والتوقيف على الخطا، وإنشاء الندامة، فيكون مستعملا في المعنى المجازي الصريح، والمعنى الكنائي.

{ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ [6] فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ [7] }.

انتقال من الخبر عن حالتهم الدنيوية إلى الخبر عن أحوالهم في الآخرة، وأُكّد الخبر بلام القسم ونون التوكيد لإزالة الشك في ذلك.

وسؤال الذين أرسل إليهم سؤال عن بلوغ الرسالة. وهو سؤال تقريع في ذلك المحشر. وسؤال المرسلين عن تبليغهم الرسالة، سؤال إرهاب لأممهم، لأنّهم إذا سمعوا شهادة رسلهم عليهم أيقنوا بأنّهم مسوقون إلى العذاب، و تقدّم ذلك في قوله تعالى { فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ } [النساء:41].

{ **فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ** } الفاء للتفريع والترتيب على قوله تعالى { فَلَنَسْأَلَنَّ }، أي: لنسألنّهم ثم نخبرهم بتفصيل ما أجمله جوابهم، أي: فلنقصنّ عليهم تفاصيل أحوالهم.

القصّ: الإخبار، يقال: قصّ عليه، بمعنى أخبره، وتقدّم في قوله تعالى { يَقُصُّ الْحَقَّ } [الأنعام:57].

{ **بِعِلْمٍ** } التنكير للتعظيم.

{ **وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ** } في موقع التذييل. والغائب ضد الحاضر، وهو هنا كناية عن الجاهل، أي: وما كنّا جاهلين بشيء من أحوالهم.

{ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [8] وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ [9] }.

عطفت على جملة { فَلَنَقُصَّنَّ }، لما تضمّنته المعطوف عليها من العلم بحسنات النّاس وسيّئاتهم، فلا جرم أشعرت بأنّ مظهر ذلك العلم وأثره هو الثواب والعقاب، وتفاوت درجات العاملين ودركاتهم تفاوتا لا يُظلم العامل فيه مثقال ذرة.

الوزن: حقيقته معادلة جسم بآخر لمعرفة ثقل أحد الجسمين أو كليهما في تعادلهما أو تفاوتهما في المقدار، والأجسام التي تُجعل لتعيين المقادير تسمى موازين، وأحدها ميزان، وتسمّى أوزانا وأحدها وزن.

ويطلق الوزن على معرفة مقدار حال في فضل ونحوه، قال تعالى { فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً } [الكهف:105]. وفي حديث أبي هريرة في الصحيحين: **" إنّه ليؤتى بالعظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة "**.

ويستعار استعارة تمثيلية للتدبير في أحوال، كقول الراعي:

وزنت أميّة أمرها فدعت له ... من لم يكن غمرا ولا مجهولا

فالوزن في هذه الآية يراد به تعيين مقادير ما تستحقّه الأعمال من الثواب والعقاب تعيينا لا إجحاف فيه.

{ **الْحَقُّ** } بمعنى العدل، أي: الجزاء عادل غير جائر، لأنّه من أنواع القضاء والحكم.

{ **فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** } تفصيل للوزن ببيان أثره على قدر الموزون. وثقل الميزان في المعنى الحقيقي رجحان الميزان بالشيء الموزون، وهو هنا مستعار لاعتبار الأعمال الصالحة غالبة ووافرة، أي: من ثقلت موزاينه الصالحات، وإنّما لم يُذكر ما ثقلت به الموازين لأنّه معلوم من اعتبار الوزن، لأنّ متعارف النّاس أنّهم يزنون الأشياء المرغوب في شرائها المتنافس في ضبط مقاديرها.

والثقل مع تلك الاستعارة هو أيضا ترشيح لاستعارة الوزن للجزاء، ثم الخفّة مستعارة لعدم الأعمال الصالحة أخذا بغاية الخفّة على وزان عكس الثقل.

الفلاح: حصول الخير وإدراك المطلوب، و تقدّم في قوله تعالى { فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [البقرة:5].

{ **هُمُ** } ضمير الفصل لقصد الانحصار، أي: هم الذين انحصر فيهم تحقّق المفلحين.

{ **الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ** } الخسران، حقيقته ضد الربح، ويستعار لفقدان نفع ما يُرجى منه النفع.

فنفوس المشركين قد سوّلت لهم أعمالا كانت سبب خفّة موازينهم.

{ **بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ** } باء السببيّة، و(ما) مصدريّة، أي: بكونهم ظلموا بآياتنا في الدنيا، فصيغة المضارع في قوله تعالى { يَظْلِمُونَ } لحكاية حالهم في تجدّد الظلم فيما مضى.

الظلم هنا ضدّ العدل، أي: يظلمون الآيات فلا ينصفونها حقّها من الصدق. وإنّما جُعل تكذيبهم ظلما لأنّه تكذيب ما قامت الأدلة على صدقه، فتكذيبهم ظلم للأدلة بدحضها وعدم إعمالها.

{ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ } [10].

هذا تذكير لهم بأنّ الله هو وليّ الخلق، لأنّه خالقهم على وجه الأرض، وخالق ما به عيشهم الذي به بقاء وجودهم إلى أجل معلوم، وتوبيخ على قلّة شكرهم، كما دلّ عليه تذييل الجملة بقوله تعالى { قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ }، فإنّ النفوس التي لا يزجرها التهديد قد تنفعها الذكريات الصالحة.

وتأكيد الخبر بلام القسم و(قد) المفيد للتحقيق، لتنزيلهم منزلة من ينكر مضمون الخبر، لأنّهم لمّا عبدوا غير الله كان حالهم كحال من ينكر أنّ الله هو الذي مكّنهم من الأرض.

التمكين: جعل الشيء في مكان، ويطلق على الإقدار على التصرّف، على سبيل الكناية، وقد تقدّم عند قوله تعالى { مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ } [الأنعام:6]. أي: جعلنا لكم قدرة، أي: أقدرناكم على أمور الأرض وخوّلناكم التصرّف في مخلوقاتها، وذلك بما أودع الله في البشر من قوّة العقل والتفكير التي أهّلته لسيادة هذا العالم.

وليس المراد من التمكين هنا القوّة والحكم، ولا معناه الحقيقي، وهو جعل المكان في الأرض.

معايش: جمع معيشة، وهي ما يعيش به الحيّ من الطعام والشراب، مشتقّة من العيش وهو الحياة، سُمّي به الشيء الذي به العيش تسمية للشيء باسم سببه على طريقة المجاز الذي غلب حتى صار مساويا للحقيقة.

{ **قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ** } الخطاب للمشركين خاصة، لأنّهم الذين قلّ شكرهم لله تعالى إذ اتخذوا معه آلهة.

ووصف قليل يستعمل في معنى المعدوم، ويجوز أن يكون هنا على حقيقته، أي: إنّ شكركم الله قليل.

لأنّهم لمّا عرفوا أنّه ربهم فقد شكروه، ولكن أكثر أحوالهم هو الإعراض عن شكره والإقبال على عبادة الأصنام وما يتبعها.

{ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ [11] قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ [12] قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِين [13]}.

تذكير بنعمة إيجاد النوع، وهي نعمة عناية، لأنّ الوجود أشرف من العدم، بقطع النظر عما قد يعرض للموجود من الأكدار والمتاعب، وبنعمة تفضيله على النوع بأن أمر الملائكة بالسجود لأصله، وأدمج في هذا الامتنان تنبيه وإيقاظ إلى عداوة الشيطان لنوع الإنسان من القدم، ليكون ذلك تمهيدا للتحذير من وسوسته وتضليله، وإغراء بالإقلاع عمّا أوقع فيه النّاس من الشرك والضلالة، وهو غرض السورة، فلذلك كان هذا بمنزلة الاستدلال وُسِّط في خلال الموعظة. والخطاب للنّاس كلّهم، والمقصود منه المشركون.

الخلق: الإيجاد وإبراز الشيء إلى الوجود، وهذا الإطلاق هو المراد منه عند إسناده إلى الله تعالى أو وصف الله به.

التّصوير: جعل الشيء صورة، والصورة الشكل الذي يُشكّل به الجسم كما يُشكّل الطين بصورة نوع من الأنواع.

{ **ثمّ** } دالة على تراخي رتبة التصوير عن رتبة الخلق، لأنّ التصوير حالة كمال في الخلق بأن كان الإنسان على الصورة الإنسانيّة المتقنة حسنا وشرفا، بما فيها من مشاعر الإدراك والتدبير، سواء كان التصوير مقارنا للخلق كما في خلق آدم، أم كان بعد الخلق بمدة، كما في تصوير الأجنّة من عظام ولحم وعصب وعروق ومشاعر.

وأمّا تعلّق فعليّ الخلق والتصوير بضمير المخاطبين فمراد منه أصل نوعهم الأوّل وهو آدم بقرينة تعقيبه بقوله تعالى { ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ }، فنزل خلق أصل نوعهم منزلة خلق أفراد النوع الذين منهم المخاطبون، لأنّ المقصود التذكير بنعمة الإيجاد ليشكروا موجدهم.

{ **ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ** } دلّ الكلام على أنّ المخلوق والمصوّر هو آدم.

المعنى: خلقنا أصلكم وصوّرناه فبرز موجودا معيّنا مسمّى بآدم، فإنّ التّسمية طريق لتعين المسمّى، ثم أظهرنا فضله وبديع صنعنا فيه فقلنا للملائكة اسجدوا له. فوقع إيجاز بديع في نسج الكلام.

{ **ثُمَّ** } للتراخي الرتبي لا للتراخي الزماني وذلك أن مضمون الجملة المعطوفة هنا أرقى رتبة من مضمون الجملة المعطوف عليها.

وتقدم تفسيره نظيره عند قوله تعالى { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ } [البقرة:34].

{ **الْمَلائِكَةِ** } التعريف للجنس فلا يلزم أن يكون الأمر عاما لجميع الملائكة، بل يجوز أن يكون المأمورون هم الملائكة الذين كانوا في المكان الذي خُلق فيه آدم، ونقل ذلك عن ابن عباس. ويحتمل الاستغراق لجميع الملائكة. وطريق أمرهم جميعا وسجودهم جميعا لآدم لا يعلمه إلّا الله.
واعلم أنّ أمر الله الملائكة بالسجود لآدم لا يقتضي أن يكون آدم قد خلق في العالم الذي فيه الملائكة بل ذلك محتمل، ويحتمل أن الله لمّا خلق آدم حشر الملائكة، وأطلعهم على هذا الخلق العجيب. فإنّ الملائكة ينتقلون من مكان إلى مكان. فالآية ليست نصّا في أنّ آدم خلق في السماوات، ولا أنّه في الجنّة التي هي دار الثواب والعقاب، وإن كان ظاهرها يقتضي ذلك، وبهذا الظاهر أخذ جمهور أهل السنّة، وتقدّم ذلك في سورة البقرة. { **إِلاَّ إِبْلِيسَ** } استثناء إبليس من الساجدين يدلّ على أنّه كان في عداد الملائكة، لأنّه كان مختلطا بهم. وقال السكّاكي في المفتاح: عدّ إبليس من الملائكة بحكم التغليب.
{ **لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ** } حال من { إِبْلِيسَ } وهي حال تأكيد، إشارة إلى أنّه انتفى عنه السجود انتفاء شديدا، لأنّ قولك: لم يكن فلان من المهتدين، يفيد من النفي أشدّ مما يفيده قولك: لم يكن مهتديا.
وفي الآية إشارة إلى أنّ الله تعالى خلق في نفس إبليس جبلّة تدفعه إلى العصيان عندما لا يوافق الأمر هواه، وجعل له هوى ورأيا، فكانت جبلّته مخالفة لجبلّة الملائكة. وإنّما استمر في عداد الملائكة لأنّه لم يحدث من الأمر ما يخالف هواه، فلمّا حدث الأمر بالسجود ظهر خلق العصيان الكامن فيه.
{ **قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ** } ابتداء المحاورة، لأنّ ترك إبليس السجود لآدم بمنزلة جواب عن قول الله { اسْجُدُوا لِآدَمَ }، وضمير { قَالَ } عائد إلى معلوم من المقام، أي: قال الله تعالى، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: قلنا، فكان العدول إلى ضمير الغائب التفاتا، نكتته تحويل مقام الكلام، إذ كان المقام مقام أمر للملائكة ومن في زمرتهم فصار مقام توبيخ لإبليس خاصة.
{ **مَا** } للاستفهام، وهو استفهام ظاهره حقيقي ومشوب بتوبيخ، والمقصود إظهار مقصد إبليس للملائكة.
{ **مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ** } أي: صدّك وكفّك عن السجود، فكان مقتضى الظاهر أن يقال: ما منعك أن تسجد لأنّه إنّما كف عن السجود لا عن نفي السجود، فقد قال تعالى في الآية الأخرى { مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ } [صّ: 75]، فلذلك كان ذكر (**لا**) هنا على خلاف مقتضى الظاهر:
<u>فقيل: هي مزيدة للتأكيد</u>، ولا تفيد نفيا، لأنّ الحرف المزيد للتأكيد لا يفيد معنى غير التأكيد. و(لا) من جملة الحروف التي يؤكّد بها الكلام، كما في قوله تعالى { لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ } [البلد:1]، وقوله { لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ } [الحديد:29]، أي: ليعلم أهل الكتاب علما محققا. وهذا تأويل الكسائي، والفراء، والزجاج، والزمخشري.
وفي توجيه معنى التأكيد إلى الفعل مع كون السجود غير واقع فلا ينبغي تأكيده خفاءٌ، لأنّ التوكيد تحقيق حصول الفعل المؤكّد، **فلا ينبغي التعويل على هذا التأويل**.
<u>وقيل: (لا) نافية</u>، ووجودها يؤذن بفعل مقدّر دلّ عليه { مَنَعَكَ } لأنّ المانع من شيء يدعو لضدّه، فكأنّه

قيل: ما منعك أن تسجد فدعاك إلى أن لا تسجد، فإمّا أن يكون { مَنَعَكَ } مستعملا في معنى دعاك، على سبيل المجاز، و(لا) هي قرينة المجاز، وهذا تأويل السكّاكي في المفتاح في فصل المجاز اللغوي، وقريب منه لعبد الجبّار فيما نقله الفخر عنه، **وهو أحسن تأويلا**. وإمّا أن يكون قد أريد الفعلان، فذكر أحدهما وحذف الآخر، وأشير إلى المحذوف بمتعلّقه الصالح له فيكون من إيجاز الحذف، وهو اختيار الطبري ومن تبعه.

وانظر ما قلته عند قوله تعالى { قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلاَّ تَتَّبِعَنِ } [طه:93/92].

{ **إِذْ أَمَرْتُكَ** } يقتضي أنّ أمر الملائكة شامل له، إمّا لأنّه صنف من الملائكة، فخلق الله إبليس أصلًا للجنّ ليجعل منه صنفا متميّزا عن بقية الملائكة بقبوله للمعصية، وهذا هو ظاهر القرآن، وإليه ذهب كثير من الفقهاء، وقد قال الله تعالى { إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ } [الكهف:50] .

وإمّا لأنّ الجنّ نوع آخر من المجرّدات، وإبليس أصل ذلك النوع، جعله الله في عداد الملائكة، فكان أمرهم شاملا له بناء على أنّ الملائكة خلقوا من النور وأنّ الجنّ خلقوا من النّار. وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " **خُلقت الملائكة من نور وخُلق الجان من مارج من نار** "، وإلى هذا ذهب المعتزلة وبعض الأشاعرة، وقد يكون المراد من النّار نورا مخلوطا بالمادة، ويكون المراد بالنّور نورا مجردا، فيكون الجنّ نوعا من جنس الملائكة أحطّ، كما كان الإنسان نوعا من جنس الحيوان أرقى.

{ **قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ** } مسوق مساق التعليل للامتناع من السجود، بأنّه رأى نفسه خيرا من آدم فلم يمتثل، وهذا معصية صريحة.

{ **خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ** } عطف البيان من المبين. وحصل لإبليس العلم بكونه مخلوقا من نار بإخبار من الملائكة الذين شهدوا خلقه، أو بإخبار من الله وهذا ثابت، قال تعالى { وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ} [الرحمن:15].

النار: أفضل من التراب لقوّة تأثيرها وتسلّطها على الأجسام التي تلاقيها، ولأنّها تضيء، ولأنّها زكيّة لا تلصق بها الأقذار، والتراب لا يشاركها في ذلك وقد اشتركا في أنّ كليهما تتكون منه الأجسام الحيّة كلّها.

وأمّا النور الذي خلق منه الملك فهو أخلص من الشعاع الذي يبين من النّار مجردا عن ما في النّار من الأخلاط الجثمانية.

الطين: التراب المختلط بالماء، والماء عنصر آخر تتوقف عليه الحياة الحيوانيّة مع النّار والتراب.

وظاهر القرآن في آيات هذه القصّة كلّها أنّ شرف النّار على التراب مقرّر، وأن إبليس أُوخذ بعصيان أمر الله عصيانا باتا، والله تعالى لمّا أمر الملائكة بالسجود لآدم قد علم استحقاق آدم ذلك بما أودع الله فيه من القوّة التي قد تبلغ به إلى مبلغ الملائكة في الزكاء والتقديس. فأمّا إبليس فغرّه زكاء عنصره، وذلك ليس كافيا في التفضيل وحده، ما لم يكن كيانه من ذلك العنصر مهيئا إيّاه لبلوغ الكمالات، لأنّ العبرة

بكيفية التركيب واعتبار خصائص المادة المركّب منها بعد التركيب، بحسب مقصد الخالق عند التركيب، ولا عبرة بحالة المادة المجرّدة. فالله تعالى ركّب إبليس من عنصر النّار على هيئة تجعله يستخدم آثار القوّة العنصريّة في الفساد والاندفاع إليه بالطبع دون نظر، بحسب خصائص المادة المركّب هو منها. وركّب آدم من عنصر التراب على هيئة تجعله يستخدم آثار القوّة العنصرية في الخير والصلاح والاندفاع إلى ازدياد الكمال بمحض الاختيار والنظر، بحسب ما تسمح به خصائص المادة المركّب هو منها، وكلّ ذلك منوط بحكمة الخالق للتركيب. وركّب الملائكة من عنصر النّور تجعلهم يستخدمون قواهم العنصرية في الخيرات المحضة، والاندفاع إلى ذلك بالطبع دون اختيار ولا نظر، بحسب خصائص عنصرهم.

ولذلك كان بلوغ الإنسان إلى الفضائل الملكية أعلى وأعجب، وكان مبلغه إلى الرذائل الشيطانية أحط وأسهل. ومن أجل ذلك خوطب بالتكليف، ولأجل هذا المعنى أمر الله الملائكة بالسجود لآدم أصل النوع البشري لأنّه سجود اعتراف لله تعالى بمظهر قدرته العظيمة، وأمر إبليس بالسجود له كذلك.

فأمّا الملائكة فامتثلوا أمر الله ولم يعلموا حكمته، وانتظروا البيان، كما حكى عنهم بقوله تعالى { قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ } [البقرة:32]، فجاءهم البيان مجملا بقوله تعالى { إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ } [البقرة:30]، ثمّ مفصلا بقصة قوله تعالى { ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ - إلى قوله - وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ } [البقرة:33].

{ **قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا** } عاقبه الله على عصيانه بإخراجه من السماء، وأحلّ الملائكة فيها. وجعلها مكانا مقدّسا فاضلا على الأرض. فإنّ ذلك كلّه بجعل آلهي بإفاضة الأنوار وملازمة الملائكة.

الهبوط: إمّا حقيقة إن كان المكان عاليا، وإمّا استعارة للبعد عن المكان المشرّف. بتشبيه البعد عنه بالنزول من مكان مرتفع. وقد تقدّم ذلك في [البقرة:38].

{ **فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا** } الفاء للسببيّة والتفريع تعليلا للأمر بالهبوط، وهو عقوبة خاصة، عقوبةَ إبعاد عن المكان المقدّس، لأنّه قد صار خلقه غير ملائم لما جعل الله ذلك المكان له.

وهذه الآية أصل في ثبوت الحقّ لأهل المحلّة أن يخرجوا من محلّتهم من يُخشى من سيرته فشو الفساد بينهم. قال مالك رحمه الله: " لا تحدثوا بدعة في بلدنا ".

{ **مَا يَكُونُ لَكَ** } صيغة نفي أشد من النفي بـ (ليس لك) كما تقدّم عند قوله تعالى { مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ } [آل عمران:79].

{ **فَاخْرُجْ** } تأكيد لجملة { فَاهْبِطْ } بمرادفها، وأعيدت الفاء مع الجملة الثانية لزيادة تأكيد تسبّب الكبر في إخراجه من الجنّة.

{ **إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ** } يجوز أن تكون مستأنفة استئنافا بيانيا، إذا كان المراد من الخبر الإخبار عن تكوين الصغَار فيه، بجعل الله تعالى إيّاه صاغرا حقيرا حيثما حلّ. ويجوز أن تكون واقعة موقع التعليل

للإخراج على طريقة استعمال (إنّ) في مثل هذا المقام استعمال (فاء) التعليل، فهذا إذا كان المراد من الخبر إظهار ما فيه من الصغار والحقارة التي غفل عنها فذهبت به الغفلة عنها إلى التكبّر.

الصاغر: المتّصف بالصغار وهو الذلّ والحقارة، وإنّما يكون له الصغار عند الله لأنّ جبلّته صارت على غير ما يرضي الله، وهو صغار الغواية.

{ **قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ** [14] **قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ** [15] }.

لما كوّن الله فيه الصغار والحقارة بعد عزّة الملكيّة وشرفها انقلبت مرامي همّته إلى التعلّق بالسفاسف، فسأل النظرة بطول الحياة إلى يوم البعث، إذ كان يعلم قبل ذلك أنّه من الحوادث الباقية لأنّه من أهل العالم الباقي، فلمّا أُهبط إلى العالم الأرضي ظنّ أنّه صائر إلى العدم، فلذلك سأل النظرة إبقاء لما كان له من قبل.

{ **إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ** } أي: أنك من المخلوقات الباقية. أي: أنّ الله خلق خلقا وقدّر بقاءهم إلى يوم البعث. فجواب الله تعالى لإبليس إخبار عن أمر تحقّق وليس إجابة لطِلْبة إبليس، لأنّه أهون على الله من أن يجيب له طلبا. أي: أعلمه أنّ ما سأله أمر حاصل.

{ **قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ** [16] **ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ** [17] }.

خلق الله في نفس إبليس مقدرة على إغواء النّاس بقوله تعالى { إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ }، وجعله باقيا متصرّفا بقواه الشرّيرة إلى يوم البعث، بجبلّة قَلَبه الله إليها قلْبا وهو من المسخ النفساني، مع علمه بأنّ ما يصدر عنه هو ضلال وفساد، فصدور ذلك منه كصدور النهش من الحية.

وهذا الكلام يدلّ على أنّ إبليس علم أنّ الله خلق البشر للصلاح والنفع، وأنّه أودع فيهم معرفة الكمال، وأعانهم على بلوغه بالإرشاد، فلذلك سمّيت أعمال الخير، في حكاية كلام إبليس { صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ }، وأضافه إلى ضمير الجلالة، لأنّ الله دعا إليه وارد من النّاس سلوكه.

وبهذا الاعتبار كان إبليس عدوّا لبني آدم لأنّه يطلب منهم ما لم يُخلقوا لأجله، وما هو مناف للفطرة التي فطر الله عليها البشر، فالعداوة متأصّلة وجبلّيّة بين طبع الشيطان وفطرة الإنسان السالمة من التغيير، وذلك ما أفصح عنه الجعل الإلهي المشار إليه بقوله تعالى { بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ } [البقرة:36]، وبه سيتّضح كيف انقلبت العداوة ولاية بين الشياطين وبين البشر الذين استحبّوا الضلال والكفر على الإيمان والصلاح.

{ **ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ** } التدرّج في الإخبار إلى خبر أهم، لأنّ الجملة الأولى أفادت الترصّد للبشر بالإغواء،

والجملة المعطوفة أفادت التهجّم عليهم بشتّى الوسائل.

وكما ضُرب المثل لهيئة الحرص على الإغواء بالقعود على الطريق، كذلك مُثّلت هيئة التوسّل إلى الإغواء بكل وسيلة بهيئة الباحث الحريص على أخذ العدو إذ يأتيه من كل جهة حتى يصادف الجهة التي يتمكّن فيها من أخذه، فالكلام تمثيل، وليس للشيطان مسلك للإنسان إلّا من نفسه وعقله بإلقاء الوسوسة في نفسه، وليست الجهات الأربع المذكورة في الآية بحقيقة، ولكنّها مجاز تمثيلي بما هو متعارف في محاولة النّاس ومخاتلتهم، ولذلك لم يذكر في الآية الإتيان من فوقهم ومن تحتهم، إذ ليس ذلك من شأن النّاس في المخاتلة والمهاجمة.

{ **وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ** } زيادة في بيان قوّة إضلاله بحيث لا يفلت من الوقوع في حبائله إلّا القليل من النّاس. وكُنِّي بنفي الشكر عن الكفر إذ لا واسطة بينهما، كما قال تعالى { وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ } [البقرة:152].

{ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ } [18].

أعاد الله أمره بالخروج من السماء تأكيدا للأمرين الأول والثاني: { اهْبِطْ مِنْهَا } وقوله { فَاخْرُجْ } [13].

مذموم: اسم مفعول من ذَأَمه (مهموزا)، إذا عابه وذمّه ذأما، وقد تُسهّل همزة ذأم فتصير ألفا فيقال ذام ولا تسهل في بقية تصاريفه.

مدحور: مفعول من دَحَرَه إذا أبعده وأقصاه، أي: أُخرُج خروجَ مذموم مطرود، فالذمّ لما اتصف به من الرذائل، والطرد لتنزيه عالم القدس عن مخالطته.

{ **أَجْمَعِينَ** } التأكيد للتنصيص على العموم لئلّا يُحمل على التغليب، وذلك أنّ الكلام جرى على أمّة بعنوان كونهم أتباعا لواحد، والعرب قد تجري العموم في مثل هذا على المجموع دون الجميع، كما يقولون: قتلت تميم فلانا، وإنّما قتله بعضهم.

{ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجنّة فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ [19] }.

هذا من عطف المتكلّم بعض كلامه على بعض إذا كان لبعض كلامه اتصال وتناسب مع بعضه الآخر ولم يكن أحد الكلامين موجّها إلى الذي وجه إليه الكلام الآخر، مع اتحاد مقام الكلام، كما يفعل المتكلم مع متعدّدين في مجلس واحد فيقبل على كل مخاطب منهم بكلام يخصّه.

إن كان آدم خُلق في الجنّة، فكان مستقرا بها من قبل فالأمر { اسْكُنْ } إنّما هو أمر تقرير، أي: أبق في الجنّة، وإن كان قد خُلق خارج الجنّة فالأمر للإذن تكريما له، وأيّا ما كان ففي هذا الأمر، بمسمع من

إبليس، مقمعة له. فقد دلّ موقع هذا الكلام في هذه السورة على معنى عظيم من قمع إبليس، زائد على ما في آية سورة البقرة، وإن كانتا متماثلتين في اللفظ، ولكن هذا المعنى البديع استُفيد من الموقع وهذا من بدائع إعجاز القرآن.

ووجه إيثار هذه الآية بهذه الخصوصية، أنّ هذا الكلام مسوق إلى المشركين الذين اتخذوا الشيطان وليّا من دون الله، فأمّا ما في سورة البقرة فإنّه لموعظة بني إسرائيل، وهم ممّن يحذر الشيطان ولا يتّبع خطواته.

{ **وَيَا آدَمُ** } النداء للإقبال والتنويه بذكره في ذلك الملأ. والإتيان بالضمير المنفصل بعد الأمر { **أَنْتَ** }، لقصد زيادة التنكيل بإبليس لأنّ ذكر ضميره في مقام العطف يذكّر غيره بأنه ليس مثله، إذ الضمير وإن كان من قبيل اللقب، وليس له مفهوم مخالفة، فإنّه قد يفيد الاحتراز عن غير صاحب الضمير بالقرينة على طريقة التعريض. وهذه نكتة فاتتني العلم بها في آية سورة البقرة فضمّها إليها أيضا.

{ **فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا** } أذن الله لآدم بأن يتمتّع بثمار الجنّة عقب أمره بالسكنى فيها. وتلك منّة عاجلة تؤذن بتمام الإكرام.

{ **وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ** } أشدّ في التحذير من أن ينهى عن الأكل منها، لأنّ النهي عن قربانها سدّ لذريعة الأكل منها وقد تقدّم نظيره في سورة البقرة.

والنهي عن قربان شجرة خاصة من شجر الجنّة يحتمل أن يكون نهي ابتلاء، جعل الله شجرة مستثناة من شجر الجنّة من الإذن بالأكل منها تهيئة للتكليف بمقاومة الشهوة لامتثال النهي، لتتكوّن مختلف القوى العقليّة في عقل النوع بتأسيسها في أصل النوع فتنتقل بعده إلى نسله. وذلك من اللطف الإلهي في تكوين النوع ومن مظاهر حقيقة الربوبيّة والمربوبيّة.

والقول أنّ ذلك لخصوصية في طبع تلك الشجرة أن تثير في النفس علم الخير والشر، كما جاء في التوراة أنّ الله نهاه عن أكل شجرة معرفة الخير والشر، فهو عندي بعيد.

والإشارة إلى شجرة مشاهدة، وقد رويت روايات ضعيفة في تعيين نوعها وذلك ممّا تقدّم في سورة البقرة.

{ **فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ** } المراد بـ { الظَّالِمِينَ } الذين يحقّ عليهم وصف الظلم، إمّا لظلمهم أنفسهم وإلقائها في العواقب السيّئة، وإمّا لاعتدائهم على حقّ غيرهم، فإنّ العصيان ظلم لحقّ الربّ الواجب طاعته.

{ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ [20] وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ [21] }.

الوسوسة: الكلام الخفي الذي لا يسمعه إلّا المداني للمتكلّم. وسمّي إلقاء الشيطان وسوسة لأنّه ألقى إليهما تسويلا خفيّا من كلام كلّمهما به أو انفعال في أنفسهما.

ثم درج اصطلاح القرآن وكلام الرّسول صلى الله عليه وسلم على تسمية إلقاء الشيطان في نفوس النّاس خواطر فاسدة وسوسة تقريبا لمعنى ذلك الإلقاء للإفهام كما في قوله تعالى { مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ } [الناس:4]، وهذا التفصيل لإلقاء الشيطان كيده انفردت به هذه الآية عن آية سورة البقرة، لأنّ هذه خطاب شامل للمشركين وهم أخلياء عن العلم بذلك فناسب تفظيع أعمال الشيطان بمسمع منهم.

{ **لِيُبْدِيَ** } لام العاقبة إذا كان الشيطان لا يعلم أنّ العصيان يفضي بهما إلى حدوث خاطر الشر في النفوس وظهور السوآت. ويجوز أن تكون لام العلّة الباعثة إذا كان الشيطان يعلم ذلك بالإلهام أو بالنظر. والحاصل أنّه أراد الإضرار لأنّه قد استقر في طبعه عداوة البشر، قال تعالى { إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً } [فاطر:6].

الإبداء: ضد الإخفاء، فالإبداء كشف الشّيء وإظهاره، ويطلق مجازا على معرفة الشّيء بعد جهله يقال: بدا لي أن أفعل كذا. وأسند إبداء السوآت إلى الشيطان لأنّه المتسبّب فيه على طريقة المجاز العقلي.

السوآت: جمع سوأة وهي اسم لما يسوء ويُتعيّر به من النقائص، ومن سبّ العرب قولهم: سوأةً لك، ومن تلهّفهم: يا سوْأتَا. ويُكنّى بالسوأة عن العورة.

والسوآت هنا يجوز أن تكون جمع السوأة للخصلة الذميمة، فتكون صيغة الجمع على حقيقتها. ويجوز أن تكون جمع السوأة، المكنّى بها عن العورة، وقد روي تفسيرها بذلك عن ابن عباس، كقوله تعالى { قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ } [الأعراف:26]، وعلى هذا فصيغة الجمع مستعملة في الاثنين للتخفيف كقوله تعالى { فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا } [التحريم: 4].

{ **وُورِيَ عَنْهُمَا** } حُجب عنهما وأخفي، مشتقا من المواراة وهي التغطية والإخفاء، وتطلق المواراة مجازا على صرف المرء عن علم شيء بالكتمان أو التلبيس.

{ **وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا** } العطف على { فَوَسْوَسَ } يدل على أنّ الشيطان وسوس لهما وسوسة غير قوله { مَا نَهَاكُمَا } ثمّ ثنّى وسوسته بأن قال ما نهاكما، ولو كانت جملة { مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا } إلى آخرها بيانا لجملة { فَوَسْوَسَ } لكانت جملة { وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا } بدون عاطف، لأنّ البيان لا يعطف على المبين. وفي هذا العطف إشعار بأنّ آدم وزوجه تردّدا في الأخذ بوسوسة الشيطان فأخذ الشيطان يراودهما.

{ **عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ** } الإشارة إلى الشجرة التي نهاه الله عنها.

{ **إلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ** } استثناء من علل. أي: ما نهاكما لعلّة وغرض إلّا لغرض أن تكونا ملكين، وكانا يشاهدان تفضيل الملائكة عند الله تعالى وزلفاهم وسعة مقدرتهم، فأطمعهما إبليس أن يصيرا من الملائكة إذا أكلا من الشجرة، وقيل: المراد التشبيه البليغ، أي: إلّا أن تكونا في القرب والزلفى كالملكين، وقد مثّل لهما بما يعرفان من كمال الملائكة.

{ **أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ** } أي: أن الآكل من هذه الشجرة يكون ملكا وخالدا، ولم يكن آدم قد علم حينئذ أنّ الخلود متعذّر، وأنّ الموت والحشر والبعث مكتوب على النّاس، فإن ذلك يُتلقى من الوحي كما في قوله تعالى لهما في الآية الأخرى { وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ } [البقرة:36].

{ **وَقَاسَمَهُمَا** } أي: حلف لهما بما يوهم صدقه، والمقاسمة مفاعلة من أقسم إذا حلف، حذفت منه الهمزة عند صوغ المفاعلة، والمفاعلة هنا للمبالغة في الفعل. وتأكيد إخباره عن نفسه بالنصح لهما بثلاث مؤكّدات دليل على مبلغ شك آدم وزوجه في نصحه لهما، وما رأى عليهما من مخائل التردّد في صدقه.

{ فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الجنّة وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ [22] قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } [23] }.

{ **فَدَلاَّهُمَا** } أقدمهما ففعلا فعلا يطمعان به في نفع فخابا فيه، وأصل دلّى، تمثيل حال من يطلب شيئا من مظنّته فلا يجده بحال من يدلي دلوه أو رجليه في البئر ليستقي من مائها فلا يجد فيها ماء فيقال دلّى فلان. يقال: دلّى كما يقال أدلى.

{ **بِغُرُورٍ** } الباء للملابسة، أي: دلّاهما ملابسا للغرور أي: لاستيلاء الغرور عليه.

الغرور: اعتقاد الشيء نافعا بحسب ظاهر حاله ولا نفع فيه عند تجربته، وعلى هذا القياس يقال: دلّاه بغرور إذا أوقعه في الطمع فيما لا نفع فيه.

{ **فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا** } ترتيب على دلّاهما بغرور، وهناك حذف والتقدير: فأكلا منها.

الذوق: إدراك طعم المأكول أو المشروب باللسان، وهو يحصل عند ابتداء الأكل أو الشرب. ودلت هذه الآية على أنّ بدو سوآتهما حصل عند أوّل إدراك طعم الشجرة، دلالة على سرعة ترتّب الأمر المحذور عند أوّل المخالفة، فزادت هذه الآية على آية البقرة. أي: أنّ الله جعل الأمرين مقترنين في الوقت، ولكن هذا التقارن هو لكون الأمرين مسبّبين عن سبب واحد، وهو خاطر السوء الذي نفثه الشيطان فيهما. وهذه أوّل وسوسة صدرت عن الشيطان وأوّل تضليل منه للإنسان.

وهذا التطوّر، الذي أشارت إليه الآية، قد جعله الله تطوّرا فطريا في ذريّة آدم، فالطفل في أوّل عمره

يكون بريئا من خواطر السوء فلا يستاء من تلقاء نفسه إلّا إذا لحق به مؤلم خارجي، ثم إذا ترعرع أخذت خواطر السوء تنتابه في باطن نفسه فيفرضها ويولّها وينفعل بها أو يفعل بما تشير به عليه.

{ **وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الجنّة** } حكاية لابتداء عمل الإنسان لستر نقائصه، وتحيّله على تجنّب ما يكرهه، وعلى تحسين حاله بحسب ما يخيّل إليه خياله، وهذا أوّل مظهر من مظاهر الحضارة أنشأه الله في عقلي أصلي البشر، فإنّهما لما شعرا بسوآتهما بكلا المعنيين، عرفا بعض جزئياتها، وهي العورة وحدث في نفوسهما الشعور بقبح بروزها، فشرعا يخفيانها عن أنظارهما استبشاعا وكراهيّة، وإذ قد شعرا بذلك بالإلهام الفطري، حيث لا ملقّن يلقنهما ذلك، ولا تعليم يعلمهما، تقرّر في نفوس النّاس أن كشف العورة قبيح في الفطرة، وأنّ سترها متعيّن، وهذا من حكم القوّة الواهمة الذي قارن البشر في نشأته، فدلّ على أنّه وهم فطري متأصّل، فلذلك جاء دين الفطرة بتقرير ستر العورة، مشايعة لما استقر في نفوس البشر، وقد جعل الله للقوّة الواهمة سلطانا على نفوس البشر في عصور طويلة، لأنّ في اتباعها عونا على تهذيب طباعه، ونزع الجلافة الحيوانية من النوع، لأنّ القوّة الواهمة لا توجد في الحيوان، ثم أخذت الشرائع، ووصايا الحكماء، وآداب المربّين، تزيل من عقول البشر متابعة الأوهام تدريجا مع الزمان، ولا يبقون منها إلّا ما لا بدّ منه لاستبقاء الفضيلة في العادة بين البشر، حتّى جاء الإسلام، وهو الشريعة الخاتمة، فكان نوط الأحكام في دين الإسلام بالأمور الوهميّة ملغى في غالب الأحكام، كما فصّلته في كتاب (مقاصد الشريعة) وكتاب (أصول نظام الاجتماع في الإسلام).

الخصف: حقيقته تقوية الطبقة من النعل بطبقة أخرى لتشتدّ، ويُستعمل مجازا مرسلا في مطلق التقوية للخرقة والثوب، ومنه ثوب خصيف و مخصوف، أي: غليظ النسج لا يشفّ عمّا تحته، فمعنى يخصفان: يضعان على عوراتهما الورق بعضه على بعض.

{ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ }.

عطف على جواب { **فَلَمَّا** }، فهو ممّا حصل عند ذوق الشجرة، وقد رتّب الإخبار عن الأمور الحاصلة عند ذوق الشجرة على حسب ترتيب حصولها في الوجود، فإنّهما بدت لهما سوآتهما فطفقا يخصفان، وأعقب ذلك نداء الله إيّاهما. وهذا أصل في ترتيب الجمل في صناعة الإنشاء، إلّا إذا اقتضى المقام العدول عن ذلك، ونظير هذا الترتيب ما في قوله تعالى { وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ } [هود:77]. وقد بيّنته في كتاب (أصول الإنشاء والخطابة) ولم أعلم أني سُبقت إلى الاهتداء إليه.

وقد تأخّر نداء الربّ إيّاهما إلى أن بدت لهما سوآتهما وتحيَّلا لستر عوراتهما، ليكون للتوبيخ وقع مكين من نفوسهما حين يقع بعد أن تظهر لهما مفاسد عصيانهما، فيعلما أنّ الخير في طاعة الله وأنّ في عصيانه ضرّا.

{ **وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا** } **النداء**: حقيقته ارتفاع الصوت وهو مشتقّ من النَدى وهو بعد الصوت. وهو مجاز مشهور في الكلام الذي يراد به طلب إقبال أحد إليك، وله حروف معروفة في العربية.

وهو هنا مستعمل في المعنى المشهور، وهو طلب الإقبال، على أنّ الإقبال مجازي لا محالة، فيكون كقوله تعالى { وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ } [الانبياء:89].

ويجوز أن يكون مستعملا في الكلام بصوت مرتفع، ورفع الصوت يكون لأغراض، ومحمله هنا على أنّه صوت غضب وتوبيخ.

وظاهر إسناد النداء إلى الله أنّ الله ناداهما بكلام بدون واسطة ملك مرسل، مثل الكلام الذي كلّم الله به موسى، وهذا واقع قبل الهبوط إلى الأرض فلا ينافي ما ورد من أنّ موسى هو أوّل نبيّ كلّمه الله تعالى بلا واسطة، ويجوز أن يكون نداء آدم بواسطة أحد الملائكة.

{ **أَلَمْ أَنْهَكُمَا** } في موضع البيان لجملة { نَادَاهُمَا }، ولهذا فصلت الجملة عن التي قبلها. والاستفهام للتقرير والتّوبيخ، ولذلك اعترفا بأنّهما ظلما أنفسهما.

{ **وَأَقُلْ لَكُمَا** } عطف على { أَنْهَكُمَا } للمبالغة في التوبيخ، لأنّ النهي كان مشفوعا بالتحذير من الشيطان الذي هو المغري لهما بالأكل من الشجرة، فهما قد أضاعا وصيّتين.

{ **إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ** } والمقصود من حكاية هذا القول هنا تذكير الأمّة بعداوة الشيطان لأصل نوع البشر، فيعلموا أنّها عداوة بين النوعين، فيحذروا من كلّ ما هو منسوب إلى الشيطان ومعدود من وسوسته، فإنّه لمّا جُبل على الخبث والخزي كان يدعو إلى ذلك بطبعه، وكذلك لا يهنأ له بال ما دام عدوّه ومحسوده في حالة حسنة.

المُبين: أصله المُظهر، أي: للعداوة بحيث لا تخفى على من يتتبّع آثار وسوسته وتغريره، وما عامل به آدم من حين خلقه إلى حين غروره به، ففي ذلك كلّه إبانة عن عداوته. ووجه تلك العداوة أنّ طبعه ينافي ما في الإنسان من الكمال الفطري المؤيّد بالتوفيق والإرشاد الإلهي، فلا يحبّ أن يكون الإنسان إلّا في حالة الضلال والفساد.

ويجوز أن يكون المُبين مستعملا مجازا في القويّ الشديد، لأنّ شأن الوصف الشديد أن يظهر للعيان.

{ **قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** } اعترافا بالعصيان، وبأنّهما علما أنّ ضرّ المعصية عاد عليهما، فكانا ظالمين، وبأنّهما جرّا على أنفسهما غضب الله تعالى، فهما في توقّع حقوق العذاب، وقد جزما بأنّهما يكونان من الخاسرين إن لم يغفر الله لهما، إمّا بطريق الإلهام أو نوع من الوحي، وإمّا بالاستدلال على العواقب بالمبادئ، فإنّهما رأيا من العصيان بوادئ الضرّ والشرّ، فعلما أنّه من غضب الله ومن مخالفة وصايته، وقد أكّدا جملة جواب الشرط بلام القسم ونون التوكيد إظهارا لتحقيق الخسران، استرحاما واستغفارا من الله تعالى.

{ **قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ** } [24].

طوى القرآن هنا ذكر التوبة على آدم لأنّ المقصود من القصّة في هذه السورة التذكير بعداوة الشيطان وتحذير النّاس من اتّباع وسوسته، وإظهار ما يعقبه اتّباعه من الخسران والفساد، ومقام هذه الموعظة يقتضي الإعراض عن ذكر التوبة للاقتصار على أسباب الخسارة، وقد ذُكرت التوبة في آية البقرة المقصود منها بيان فضل آدم وكرامته عند ربّه، ولكلّ مقام مقال.

والخطاب لآدم وزوجه وإبليس. والأمر تكويني، وبه صار آدم وزوجه وإبليس من سكّان الأرض.

{ **بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ** } في موضع الحال من ضمير { اهْبِطُوا } المرفوع بالأمر التكويني فهذه الحال أيضا تفيد معنى تكوينيّا، وإذ قد كانت هذه العداوة تكوينيّة بين أصلي الجنسين، كانت موروثة في نسليهما.

والمقصود تذكير بني آدم بعداوة الشيطان لهم ولأصلهم ليتّهموا كلّ وسوسة تأتيهم من قبله.

وإذ قد كانت نفوس الشياطين داعية إلى الشرّ بالجبلّة تعيّن أنّ عقل الإنسان منصرف بجبلّته إلى الخير، ولكنّه معرّض لوسوسة الشياطين فيقع في شذوذ عن أصل فطرته. وفي هذا ما يكون مفتاحا لمعنى كون النّاس يولدون على الفطرة، وكون الإسلام دين الفطرة، وكون الأصل في النّاس الخير.

{ **وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ** } عطفت على قوله تعالى { بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ }.

المستقرّ: مصدر ميمي، والاستقرار هو المكث، وتقدم عند قوله تعالى { لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ } [الأنعام:67].

والمراد به الوجود، أي: وجود نوع الإنسان وخصائصه، وليس المراد به الدفن كما فسّر به البعض.

المتاع و**التمتّع**: نيل الملذّات والمرغوبات غير الدائمة، وتقدم في قوله تعالى { لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ } [النساء:102].

الحين: المدّة من الزمن، طويلة أو قصيرة، وقد نُكّر هنا ولم يُحدّد لاختلاف مقداره باختلاف الأجناس والأفراد. وهذا الزمن المقارن لحالة الحياة والإدراك هو المسمّى بالأجل، فإذا انتهى الأجل وانعدمت الحياة انقطع المستقرّ والمتاع. وهذا إعلام من الله بما قدَّره للنّوعين وليس فيه امتنان ولا تنكيل بهم.

{ **قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ** } [25].

أعيد فعل القول في هذه الجملة مستأنفا غير مقترن بعاطف، مع كون القائل واحدا والغرض متّحدا، خروجا عن مقتضى الظاهر، لأنّ مقتضى الظاهر في مثله هو العطف، وقد أهمل توجيه ترك العطف جمهور الحذّاق من المفسّرين، الزمخشري وغيره، ولعلّه رأى ذلك أسلوبا من أساليب الحكاية، وأوّل من رأيته حاول توجيه ترك العطف هو الشيخ محمد بن عرفة التونسي في إملاءات التفسير المروية عنه.

والذي أراه أنّ هذا ليس أسلوبا في حكاية القول يتخيّر فيه البليغ، وإنّما استئناف ابتدائي للاهتمام بالخبر، إيذانا بتغيّر الخطاب بأن يكون بين الخطابين تخالف ما، فالمخاطب بالأوّل آدم وزوجه الشيطان،

والمخاطب بالثّاني آدم وزوجه وأبناؤهما، والقرينة على أنّ إبليس غير داخل في الخطاب في قوله تعالى { وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ } لأنّ الإخراج من الأرض يقتضي سبق الدخول في باطنها، وذلك هو الدفن بعد الموت، والشياطين لا يدفنون. وقد أمهل الله إبليس بالحياة إلى يوم البعث فهو يحشر حينئذ أو يموت ويبعث.

وقد دلّ جمع الضمير على كلام مطوي بطريقة الإيجاز: وهو أنّ آدم وزوجه استقرّا في الأرض، وظهرت لهما ذرية، وأن الله أعلمهم بطريق من طُرق الإعلام الإلهي بأنّ الأرض قرارهم، ومنها مبعثهم، يشمل هذا الحكم الموجودين منهم يوم الخطاب والذين سيوجدون من بعد.

وقد يُجعل سبب تغيير الأسلوب بأنّ القول السابق قول مخاطبة، والقول الذي بعده قول تقدير وقضاء، أي: قدّر الله تحيون فيها وتموتون فيها وتخرجون منها.

{ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ } [26].

إذا جرينا على ظاهر التفاسير كان الكلام استئنافا ابتدائيا عاد به الخطاب إلى سائر النّاس الذين خوطبوا في أوّل الدعوة، لأنّ الغرض من السورة إبطال ما كان عليه مشركو العرب، أمّة الدعوة، من الشرك وتوابعه من أحوال دينهم الجاهلي، وكان قوله تعالى { وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ } [11] استطراد بذكر منّه عليهم وهم يكفرون به، كما تقدّم عند قوله تعالى { وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ }.

فخاطبت هذه الآية جميع بني آدم بشيء من الأمور المقصودة من السورة، فهذه الآية كالمقدمة للغرض.

ويجوز أن يكون قوله تعالى { يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً } وما أشبهه ممّا افتُتح بقوله { يَا بَنِي آدَمَ } أربع مرات، ممّا خاطب الله بني آدم في ابتداء عهدهم بعمران الأرض على لسان أبيهم، أو بطريق من طرق الإعلام الإلهي، ولو بالإلهام، لما تنشأ به في نفوسهم هذه الحقائق، واستطرد بين ذلك كلّه بمواعظ تنفع الذين قُصدوا من هذا القصص، وهم المشركون المكذّبون محمدا صلى الله عليه وسلم، فهم المقصود من هذا الكلام كيفما تفنّنت أساليبه وتناسق نظمُه.

وأيّا ما كان فالمقصود الأوّل من هذه الخطابات، أو من حكاياتها، هم مشركو العرب ومكذّبو محمد صلى الله عليه وسلم، ولذلك تخلّلت هذه الخطابات مستطردات وتعريضات مناسبة لما وضعه المشركون من التكاذيب في نقض أمر الفطرة.

وهذا الخطاب يشمل المؤمنين والمشركين، ولكن الحظّ الأوفر منه للمشركين، لأنّ حظّ المؤمنين منه هو الشكر على يقينهم بأنّهم موافقون في شؤونهم لمرضاة ربّهم، وأمّا حظّ المشركين فهو الإنذار بأنّهم كافرون بنعمة ربّهم، معرّضون لسخطه وعقابه.

{ يَا بَنِي آدَمَ } ابتدئ الخطاب بالنداء ليقع إقبالهم على ما بعده بشراشر قلوبهم، وكان لاختيار

استحضارهم عند الخطاب بعنوان بني آدم مرتين وقع عجيب بعد الفراغ من ذكر قصّة خلق آدم وما لقيه من وسوسة الشيطان.

{ **قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً** } لمّا كان إلهام الله آدم أن يستر نفسه بورق الجنّة منّة عليه، وقد تقلّدها بنوه، خوطب النّاس بشمول هذه المنّة لهم بعنوان يدلّ على أنّها منّة موروثة، وهي أوقع وأدعى للشكر، ولذلك سمَّى تيسير اللباس لهم وإلهامهم إيّاه إنزالا، لقصد تشريف هذا المظهر، وهو أوّل مظاهر الحضارة، بأنّه منزّل على النّاس من عند الله.

وهذا تنبيه إلى أنّ اللّباس من أصل الفطرة الإنسانية، والفطرة أوّل أصول الإسلام، وأنّه مما كرّم الله به النوع منذ ظهوره في الأرض.

اللّباس: اسم لما يلبسه الإنسان، أي: يستر به جزءا من جسده، فالقميص لباس، والإزار لباس، والعمامة لباس، ويقال: لبِس التاج ولبس الخاتم، قال تعالى { وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا } [فاطر:12].

{ **يُوَارِي سَوْآتِكُمْ** } صفة مدح اللّباس، أي: من شأنه ذلك، وإن كان كثير من اللباس ليس لمواراة السوآت مثل العمامة. وفي الآية إشارة إلى وجوب ستر العورة المغلّظة، وهي السوأة، وأمّا ستر ما عداها من الرجل والمرأة فلا تدل الآية عليه، وقد ثبت بعضه بالسنّة، وبعضه بالقياس، والخوض في تفاصيلها وعللها من مسائل الفقه.

الرّيش: لباس الزينة الزائد على ما يستر العورة، وهو مستعار من ريش الطير لأنّه زينته، ويقال للباس الزّينة: رِياش.

<u>المعنى</u>: يسّرنا لكم لباسا يستركم ولباسا تتزيّنون به.

{ **وَلِبَاسُ التَّقْوَى** } قرأه نافع، وابن عامر، والكسائي، وأبو جعفر بالنصب { وَلِبَاسُ }، عطفا على { لِبَاساً }، والتقوى، على هذه القراءة، مصدر بمعنى الوقاية، فالمراد: لبوس الحرب، من الدروع والجواشن والمغافر. فيكون كقوله تعالى { وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ } [النحل:81].

وقرأه ابن كثير، وعاصم، وحمزة، وأبو عمرو، ويعقوب، وخلف بالرفع { لِبَاسُ التَّقْوَى }، على أنّ الجملة معطوفة على جملة { قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً }، <u>فيجوز</u> أن يكون المراد بلباس التقوى مثل ما يرد به في قراءة النصب. <u>ويجوز</u> أن يكون المراد بالتقوى تقوى الله وخشيته. وهذا المعنى الرفعُ أليق به. ويكون استطرادا للتحريض على تقوى الله، فإنّها خير للنّاس من منافع الزينة.

{ **ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ** } استئنافان يؤذنان بعظيم النعمة، الأوّل بأنّ اللّباس خير للنّاس، والثاني بأنّ اللّباس آية من آيات الله تدل على علمه ولطفه، وتدلّ على وجوده.

وضمير الغيبة في { لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ } التفات، أي: جعل الله ذلك آية لعلكم تتذكرون عظيم قدرته وانفراده

بالخلق والتقدير واللطف، وفي هذا الالتفات تعريض بمن لم يتذكّر من بني آدم فكأنه غائب عن حضرة الخطاب. على أنّ ضمائر الغيبة، في مثل هذا المقام في القرآن، كثيرا ما يقصد بها مشركو العرب.

{ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الجنّة يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ} [27].

النداء بعنوان بني آدم، للوجه الذي ذكرته في الآية قبلها، مع زيادة التنويه بمنّة اللباس.

{ **لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ** } نُهوا عن أن يفتنهم الشيطان، وفتون الشيطان حصول آثار وسوسته، أي: لا تمكّنوا الشيطان من أن يفتنكم. والمعنى النهي عن طاعته، وهذا من مبالغة النهي.

{ **كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الجنّة** } شُبّه الفتون الصادر من الشيطان للنّاس بفتنة آدم وزوجه، إذ أقدمهما على الأكل من الشجرة المنهيّ عنه، فأخرجهما من نعيم كانا فيه، تذكيرا للبشر بأعظم فتنة فتن الشيطان بها نوعهم.

الأبوان: تثنية الأب، والمراد بهما الأب والأمّ على التغليب، وهو تغليب شائع في الكلام وتقدّم عند قوله تعالى { وَلِأَبَوَيْهِ } [النساء:11]. وأطلق الأب هنا عن الجدّ لأنّه أب أعلى، كما في قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" أنا ابن عبد المطلب "**.

{ **يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا** } في موضع الحال، والمقصود من هذه الحال تفظيع هيئة الإخراج بكونها حاصلة في حال انكشاف سوآتهما، لأنّ انكشاف السوءة من أعظم الفظائع والفضائح في متعارف النّاس. والتعبير عمّا مضى بالفعل المضارع لاستحضار الصورة العجيبة من تمكّنه من أن يتركهما عريانين. واللّباس تقدم قريبا، ويجوز هنا أن يكون حقيقة، وهو لباس جلّلهما الله به في تلك الجنّة يحجب سوآتهما، والأظهر أنّ نزع اللباس تمثيل لحال التسبّب في ظهور السوءة.

{ **أَخْرَجَ / يَنْزِعُ / لِيُرِيَهُمَا** } إسناد هذه الأفعال إلى الشيطان مجاز عقلي مبني على التسامح في الإسناد بتنزيل السبب منزلة الفاعل، سواء اعتُبر النزع حقيقة أم تمثيلا، فإن أطراف الإسناد المجازي العقلي تكون حقائق، وتكون مجازات، وتكون مختلفة، كما تقرّر في علم المعاني.

{ **لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا** } لام التعليل الادعائي، تبعا للمجاز العقلي، لأنّه لما أسند الإخراج والنزع والإراءة إليه على وجه المجاز العقلي، ناسب أن يُجعل له غرض من تلك الأفعال المضرّة، وكونه قاصدا من ذلك الشناعة والفظاعة، كشأن الفاعلين أن تكون لهم علل غائيّة من أفعالهم إتماما للكيد، وإنّما الشيطان في الواقع سبب لرؤيتهما سوآتهما، فانتظم الإسناد الادعائي مع التعليل الادعائي، فكانت لام العلة تقوية للإسناد المجازي وترشيحا له، ولأجل هذه النكتة لم نجعل اللام هنا للعاقبة.

{ **إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ** } واقعة موقع التعليل للنهي عن الافتتان بفتنة الشيطان، والتحذير من كيده، فأخبر الله النّاس بأنّ الشياطين ترى البشر وأنّ البشر لا يرونها، إظهارا للتفاوت بين جانب كيدهم وجانب حذر النّاس منهم، فإنّ جانب كيدهم قوي متمكّن وجانب حذر النّاس منهم ضعيف، لأنّهم يأتون المكيد من حيث لا يدري.

قَبِيلُهُ: بمعنى القبيلة، للدلالة على أنّ له أنصارا ينصرونه على حين غفلة من النّاس.

وتأكيد الخبر بحرف التوكيد لتنزيل المخاطبين في إعراضهم عن الحذر من الشيطان وفتنته منزلة من يتردّدون في أنّ الشيطان يراهم وفي أنّهم لا يرونه.

{ **مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ** } فرؤية ذوات الشياطين منتفية لا محالة، وقد يخوّل الله رؤية الشياطين أو الجنّ متشكّلة في أشكال الجسمانيات، معجزة للأنبياء كما ورد في الصحيح: " **إنّ عفريتا من الجنّ تفلَّت عليَّ الليلة في صلاتي فهمَمْت أن أوثقه في سارية من المسجد...**"، أو كرامة للصالحين من الأمم، كما في حديث الذي جاء يسرق من زكاة الفطر عند أبي هريرة، وقول النبيّ صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة: " **ذلك شيطان** ".

ولا يكون ذلك إلّا على تشكّل الشيطان أو الجنّ في صورة غير صورته الحقيقية. وطريق العلم بذلك هو الخبر الصادق، فلولا الخبر لما عُلم ذلك.

{ **إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ** } مستأنفة استئنافا ابتدائيا قُصد منه الانتقال إلى أحوال المشركين في أئتمارهم بأمر الشيطان، تحذيرا للمؤمنين من الانتظام في سلكهم، وتنفيرا من أحوالهم، والمناسبة هي التحذير. وتأكيد الخبر بحرف التأكيد للاهتمام بالخبر بالنسبة لمن يسمعه من المؤمنين.

{ **جَعَلْنَا** } جعل التكوين، بمعنى: خلقنا الشياطين.

{ **أَوْلِيَاءَ** } حال من { الشَّيَاطِينَ } وهي حال مقدّرة أي: خلقناهم مقدّرة ولايتهم للذين لا يؤمنون.

ذلك أنّ الله جبل أنواع المخلوقات وأجناسها على طبائع لا تنتقل عنها، ولا تقدر على التصرّف بتغييرها، كالافتراس في الأسد، واللسع في العقرب، وخلق في الإنسان العقل والفكر فجعله قادرا على اكتساب ما يختار، ولمّا كان من جبلّة الشياطين حبّ ما هو فساد، وكان من قدرة الإنسان وكسبه أنّه قد يتطلّب الأمر العائد بالفساد، كان الإنسان في هذه الحالة موافقا لطبع الشياطين، ومؤتمرا بما تسوله إليه، ثم يغلب كسب الفساد والشر على الذين توغّلوا فيه وتدرَّجوا إليه، حتّى صار المالك لإراداتهم، فلا جرم نشأت بينهم وبين الشياطين ولاية ووفاق لتقارب الدواعي، فبذلك انقلبت العداوة التي في الجبلة التي أثبتها قوله تعالى { إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ } [22]، وقوله تعالى { بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ } [24]،فصارت ولاية ومحبّة عند بلوغ ابن آدم آخر دركات الفساد، وهو الشرك وما فيه، فصار هذا جعلا جديدا ناسخا للجعل الذي في قوله تعالى { بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ } كما تقدّمت الإشارة إليه هنالك.

فما في هذه الآية مقيّد للإطلاق الذي في الآية الأخرى، تنبيها على أنّ من حق المؤمن أن لا يوالي الشيطان.

{ **لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ** } المشركون، لأنّهم المضادون للمؤمنين في مكّة.

{ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } [28].

{ **وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً** } معطوف على { لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ } [27]، فهو من جملة الصلة، وفيه إدماج لكشف باطلهم في تعلّلاتهم ومعاذيرهم الفاسدة، أي: للذين لا يقبلون الإيمان ويفعلون الفواحش ويعتذرون عن فعلها بأنّهم اتّبعوا آباءهم وأنّ الله أمرهم بذلك، وهذا خاص بأحوال المشركين المكذّبين.

والمقصود تفظيع حال دينهم، بأنّه ارتكاب فواحش.

الفاحشة: في الأصل صفة لموصوف محذوف، أي: فَعْلَة فاحشةٌ، ثم نزل الوصف منزلة الاسم لكثرة دورانه، فصارت الفاحشة اسما للعمل الذميم، وهي مشتقة من **الفُحش** وهو الكثرة والقوّة في الشيء المذموم والمكروه، وغلبت الفاحشة في الأفعال الشديدة القبح، وهي التي تنفر منها الفطرة السليمة، أو ينشأ عنها ضرّ وفساد بحيث يأباها أهل العقول الراجحة، وينكرها أولو الأحلام، ويستحيي فاعلها من النّاس، ويتستّر من فعلها، مثل البغاء والزنى والوأد والسرقة، ثمّ تنهى عنها الشرائع الحقّة.

{ **قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا** } فكأنّ أئمة الشرك قد أعدّوا لأتباعهم معاذير عن تلك الأعمال، وجماعها أن ينسبوها إلى آبائهم السالفين الذين هم قدوة لخلفهم، واعتقدوا أنّ آباءهم أعلم بما في طي تلك الأعمال من مصالح، ثم عطفوا على ذلك أنّ الله أمر بذلك، يعنون أن آباءهم ما رسموها من تلقاء أنفسهم، ولكنّهم رسموها بأمر من الله تعالى، ففُهم منه أنّهم اعتذروا لأنفسهم واعتذروا لآبائهم.

{ **قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ** } رد الله ذلك عليهم، وأعرض عن رد قولهم { وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا } لأنّه إن كان يراد ردّه من جهة التكذيب، فهم غير كاذبين في قولهم، لأنّ آباءهم كانوا يأتون تلك الفواحش، وإن كان يراد ردّه من جهة عدم صلاحيته للحجّة فإنّ ذلك ظاهر.

لأنّ الله متصف بالكمال فلا يأمر بما هو نقص لم يرضه العقلاء وأنكروه، فكون الفعل فاحشة كاف في الدلالة على أنّ الله لا يأمر به لأنّ الله له الكمال الأعلى، وما كان اعتذارهم بأنّ الله أمر بذلك إلّا عن جهل، ولذلك وبّخهم الله بالاستفهام التوبيخي بقوله:

{ **أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** } أي: ما لا تعلمون أنّ الله أمر به، فحُذف المفعول لدلالة ما تقدّم عليه، لأنّهم لم يعلموا أنّ الله أمرهم بذلك، إذ لا مستند لهم فيه، وإنّما قالوه عن مجرّد التوهّم، ولأنّهم لم يعلموا أنّ الله لا يليق بجلالة وكماله أن يأمر بمثل تلك الرذائل.

{ **أَتَقُولُونَ** } ضُمِّن معنى تكذّبون أو معنى تتقوّلون، فلذلك عُدِّي بـ (على)، وكان حقّه أن يُعدَّى بـ (عن)

لو كان قولا صحيح النسبة، وإذ كان التوبيخ واردا على أن يقولوا على الله ما لا يعلمون كان القول على الله بما يتحقّق عدم وروده من الله أحرى.

واعلم أن ليس في الآية مستند لإبطال التقليد في الأمور الفرعية أو الأصول الدينيّة، لأنّ التقليد الذي نعاه الله على المشركين هو تقليدهم من ليسوا أهلا لأن يقلّدوا، لأنّهم لا يرتفعون عن رتبة مقلّديهم، إلّا بأنّهم أقدم جيلا، وأنّهم آباؤهم، فإنّ المشركين لم يعتذروا بأنّهم وجدوا عليه الصالحين وهداة الأمّة، ولا بأنّه ممّا كان عليه إبراهيم وأبناؤه. ولأنّ التقليد الذي نعاه الله عليهم تقليد أعمال بديهيّة الفساد، والتقليد في الفساد يستوي، هو وتسنينه في الذمّ، على أنّ تسنين الفساد أشدّ مذمّة من التقليد فيه كما أنبأ عنه الحديث الصحيح: **" ما من نفس تُقتل ظلما إلّا كان على ابن آدم الأوّل كفل من دمها ذلك لأنّه أوّل من سن القتل "**، وحديث: **" من سنّ سُنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة "**.

{ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ [29] فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ [30] }.

بعد أن أبطل زعمهم أنّ الله أمرهم بما يفعلونه من الفواحش إبطالا عاما بقوله تعالى { قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ }، استأنف استئنافا استطراديا بما فيه جماع مقوّمات الدين الحقّ الذي يجمعه معنى القسط، أي: العدل، تعليما لهم بنقيض جهلهم، وتنويها بجلال الله تعالى، بأن يعلموا ما شأنه أن يأمر الله به.

ولأهمية هذا الغرض، ولمضادته لمدّعاهم المنفي في جملة { قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ } فُصلت هذه الجملة عن التي قبلها، ولم يعطف القول على القول ولا المقول على المقول، لأنّ في إعادة فعل القول وفي ترك عطفه على نظيره لفتا للأذهان إليه.

القسط: العدل، وهو هنا العدل بمعناه الأعمّ، أي: الفعل الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط في الأشياء، وهو الفضيلة من كل فعل. فالله أمر بالفضائل، وبما تشهد العقول السليمة أنّه صلاح محض وأنّه حسن مستقيم، نظير قوله تعالى { وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً } [الفرقان:67].

فالتوحيد عدل بين الإشراك والتعطيل، والإحسان عدل بين الشحّ والإسراف.

فالقسط صفة للفعل في ذاته بأن يكون ملائما للصلاح عاجلا وآجلا، أي: سالما من عواقب الفساد، وهذا إبطال للفواحش التي زعموا أنّ الله أمرهم بها، لأنّ شيئا من تلك الفواحش ليس بقسط، فقوله تعالى { قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ } كلام جامع لإبطال كلّ ما يزعمون أنّ الله أمرهم به ممّا ليس من قبيل القسط.

{ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ } عطف على جملة { أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ }، أمر للنبيّ صلى الله عليه وسلم بأن يقول لأولئك المخاطبين: أقيموا وجوهكم. والقصد الأوّل منه إبطال بعض ممّا زعموا أنّ الله

أمرهم به، بطريق أمرهم بضد ما زعموه، ليحصل أمرهم بما يرضي الله بالتصريح.

إقامة الوجوه: تمثيل لكمال الإقبال على عبادة الله تعالى في مواضع عبادته، بحال المتهيّئ لمشاهدة أمر مهمّ فذلك التوجّه المحض يطلق عليه إقامة، كما يقال: قامت السوق، وقامت الصلاة، وتقدّم عند قوله { وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ } [البقرة:3].

{ **عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ** } عند كل مكان متّخذ لعبادة الله تعالى. واسم المسجد منقول في الإسلام للمكان المعيّن المتّخذ للصلاة، وتقدم عند قوله تعالى { وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ } [المائدة:2]، فالشعائر التي يوقعون فيها أعمالا من الحج كلّها مساجد، فذكر المساجد في الآية يُعيّن أنّ المراد إقامة الوجوه عند التوجه إلى الله في الحج بأن لا يشركوا مع الله في ذلك غيرَه من أصنامهم بالنيّة.

فالأمر بإقامة الوجوه عند المساجد كلّها أمر بالتزام التوحيد وكمال الحال في شعائر الحجّ كلّها.

وهذا الأمر وإن كان المقصود به المشركين لأنّهم المتّصفون بضدّه، فللمؤمنين منه حظّ الدوام عليه، كما كان للمشركين حظّ الإعراض عنه والتفريط فيه.

{ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ }

الدعاء: هنا بمعنى العبادة.

الإخلاص: تمحيص الشيء من مخالطة غيره.

الدين: بمعنى الطاعة، من قولهم دنت لفلان، أي: أطعته. ومنه سُمّي الله تعالى: **الديّان**، أي: القهّار المذلّل المطوّع لسائر الموجودات.

{ **كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ** } هذا إنذار لهم بأنّهم عائدون إليه فمجازَوْنَ عن إشراكهم في عبادته، وهو أيضا احتجاج عليهم على عدم جدوى عبادتهم غير الله، وإثبات للبعث الذي أنكروه.

{ **فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ** } أي: ترجعون إلى الله فريقين. وهذا كلّه إنذار من الوقوع في الضلال، وتحذير من اتباع الشيطان، وتحريض على توخّي الاهتداء الذي هو من الله تعالى، كما دل عليه إسناده إلى ضمير الجلالة في قوله { هَدَى } فيعلم السامعون أنّهم إذا رجعوا إليه فريقين كان الفريق المفلح هو الفريق الذين هداهم الله تعالى.

ذلك أنّ المخاطَبين كانوا مشركين كلّهم، فلمّا أُمِروا بأن يعبدوا الله مخلصين افترقوا فريقين: فريقا هداه الله إلى التوحيد، وفريقا لازم الشرك والضلالة، فلم يطرأ عليهم حال جديد. وبذلك يظهر حسن موقع لفظ { حَقَّ } هنا دون أن يقال أضلّه الله، لأنّ ضلالهم قديم مستمر اكتسبوه لأنفسهم، كما في نظيره { فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ } [النحل:36]، ثم قال { إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ } [النحل: 37]. فليس تغيير الأسلوب بين { فَرِيقاً هَدَى } وبين { وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ } تحاشيا عن إسناد الإضلال إلى الله، كما توهّمه صاحب الكشاف، لأنّه قد أسند الإضلال إلى الله في نظير هذه الآية كما علمت وفي آيات كثيرة، ولكن اختلاف الأسلوب لاختلاف الأحوال.

{ **حَقَّ** } جُرّد فعل عن علامة التأنيث لأنّ فاعله غير حقيقي التأنيث، وقد أظهرت علامة التأنيث في نظيره في قوله تعالى { وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ } [النحل:36].
{ **إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ** } استئناف مراد به التعليل لجملة { وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ } وهذا شأن (إنّ) إذا وقعت في صدر جملة عقب جملة أخرى أن تكون للربط والتعليل وتغني غَنَاء الفاء.

والمعنى أنّ هذا الفريق الذي حقّت عليهم الضلالة لمّا سمعوا الدعوة إلى التوحيد والإسلام لم يطلبوا النجاة ولم يتفكّروا في ضلال الشرك البيّن، ولكنهم استوحوا شياطينهم، وطابت نفوسهم بوسوستهم، وائتمروا بأمرهم، واتخذوهم أولياء، فلا جرم أن يدوموا على ضلالهم لأجل اتخاذهم الشياطين أولياء من دون الله.
{ **وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ** } عطف على جملة { اتَّخَذُوا } فكان ضلالهم ضلالا مركّبا، إذ هم قد ضلّوا في الائتمار بأمر أئمة الكفر وأولياء الشياطين، ولمّا سمعوا داعي الهدى لم يتفكّروا وأهملوا النظر، لأنّهم يحسبون أنّهم مهتدون، فلذلك لم تخطر ببالهم الحاجة إلى النظر في صدق الرّسول صلى الله عليه وسلم.
الحسبان: الظنّ، وهو هنا ظنّ مجرّد عن دليل، وذلك أغلب ما يراد بالظن وما يرادفه في القرآن.

{ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [31].

إعادة النداء في صدر هذه الجملة للاهتمام. وهذه الجملة تتنزل، من التي بعدها، { قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ } منزلة النتيجة من الجدل، فقُدّمت على الجدل فصارت بمنزلة دعوى وجُعل الجدل حجّة على الدعوى، وذلك طريق من طرق الإنشاء في ترتيب المعاني ونتائجها.
{ **خُذُوا زِينَتَكُمْ** } إبطال ما زعمه المشركون من لزوم التعرّي في الحجّ في أحوال خاصة، وعند مساجد معيّنة. أخرج مسلم عن عروة بن الزبير، قال: " كانت العرب تطوف بالبيت عراة إلّا الحُمْس (الحُمْس قريش وما ولدت) فكان غيرهم يطوفون عراة إلّا أن يعطيهم الحمس ثيابا، فيعطي الرجال الرجال والنساء النساء". وعنه: " أنّهم كانوا إذا وصلوا إلى منى طرحوا ثيابهم وأتوا المسجد عراة ".
وروي أنّ الحُمس كانوا يقولون: نحن أهل الحرم فلا ينبغي لأحد من العرب أن يطوف إلّا في ثيابنا ولا يأكل، إذا دخل أرضنا، إلّا من طعامنا. فمن لم يكن له من العرب صديق بمكّة يعيره ثوبا ولا يجد ما يستأجر به كان بين أحد أمرين إمّا أن يطوف بالبيت عريانا، وإمّا أن يطوف في ثيابه، فإذا فرغ من طوافه ألقى ثوبه عنه فلم يمسّه أحد، وكان ذلك الثوب يسمى: اللَّقَى (بفتح اللام).
وفي الكشاف، عن طاووس: كان أحدهم يطوف عريانا ويدع ثيابه وراء المسجد، وإن طاف وهي عليه ضُرب وانتُزعت منه، لأنّهم قالوا لا نعبد الله في ثياب أذنبنا فيها، وقد أبطله النبيّ صلى الله عليه وسلم إذ

أمر أبا بكر رضي الله عنه، عام حجّته سنة تسع، أن ينادي في الموسم: **" أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عُريان "**.

{ **خُذُوا زِينَتَكُمْ** } الأمر للوجوب، وفي قوله تعالى { **وَكُلُوا وَاشْرَبُوا** } للإباحة.

والمقصود من توجيه الأمر أو من حكايته إبطال التحريم الذي جعله أهل الجاهليّة لأنّهم نقضوا به ما تقرّر في أصل الفطرة ممّا أمر الله به بني آدم كلّهم، وامتن به عليهم، إذ خلق لهم ما في الأرض جميعا.

{ **عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ** } تعميم، أي: لا تخصّوا بعض المساجد بالتعري مثل المسجد الحرام ومسجد منى، وقد تقدم في قوله { وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ } [29].

الإسراف: تقدم عند قوله تعالى { وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً } [النساء:6]، وهو تجاوز الحدّ المتعارف في الشيء.

والنهي عن السرف نهي إرشاد لا نهي تحريم بقرينة الإباحة اللاحقة في قوله { قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ }، ولأنّ مقدار الإسراف لا ينضبط فلا يتعلّق به التكليف ولكن يوكل إلى تدبير النّاس مصالحهم.

{ **إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** } تذييل، وتقدّم القول في نظيره في [الأنعام:141].

{ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } [32].

استئناف معترض بين الخطابات المحكيّة والموجّهة، وهو موضع إبطال مزاعم أهل الجاهليّة فيما حرّموه من اللباس والطعام وهي زيادة تأكيد لإباحة التستّر في المساجد، فابتُدئ الكلام السابق بأنّ اللّباس نعمة من الله، وثُنّي بالأمر بإجاب التستّر عند كل مسجد، وثُلّث بإنكار أن يوجد تحريم اللباس.

{ **قُلْ** } دلالة على أنّه كلام مسوق للردّ والإنكار والمحاورة.

والاستفهام إنكاري قُصد به التهكّم إذ جعلهم بمنزلة أهل علم يُطلب منهم البيان والإفادة. وهذا نظير قوله تعالى { قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا } [الأنعام:148].

{ **قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** } لوضوح انتفاء تحريمها، وأنّه لا يقوله عاقل، وأنّ السؤال سؤال عالم لا سؤال طالب علم، أُمر السائل بأن يجيب بنفسه.

{ **هِيَ** } ضميرعائد إلى الزينة والطيّبات.

{ **خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ** } قرأه نافع، وحده بالرفع على أنه خبر ثان، وقرأه باقي العشرة بالنصب على الحال من المبتدأ، ومعنى القراءتين واحد: وهو أنّ الزينة والطيبات تكون خالصة للمؤمنين يوم القيامة.

{ **كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ** } تقدم نظير هذا التركيب في [الأنعام:55].

{ **الْآيَاتِ** } الدلائل الدالة على عظيم قدرة الله تعالى، وانفراده بالإلهيّة، والدالة على صدق رسوله محمد

صلى الله عليه وسلم، إذ بيّن فساد دين أهل الجاهليّة وعلّم أهل الإسلام علما كاملا لا يختلط معه الصالح والفاسد.

{ **لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** } لام العلّة، وهو متعلّق بفعل { نُفَصِّلُ }، أي: تفصيل الآيات لا يفهمه إلّا قوم يعلمون. والمراد: الثناء على المسلمين الذين فهموا الآيات وشكروا عليها، والتعريض بجهل وضلال عقول المشركين الذين استمروا على عنادهم وضلالهم رغم ما فُصّل لهم من الآيات.

{ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } [33].

{ **إِنَّمَا** } قصر إضافي مفاده أنّ الله حرم الفواحش وما ذُكر معها لا ما حرّمه المشركون من الزينة والطيبات، فأفاد إبطال اعتقادهم، ثم هو يفيد بطريق التعريض أنّ ما عدّه الله من المحرمات، الثابت تحريمها، قد تلبَّسوا بها، فحصل بصيغة القصر تحليل ما زعموه حراما وتحريم ما استباحوه من الفواحش وما معها.

الفواحش: جمع فاحشة، وقد تقدّم عند قوله تعالى { إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً } [النساء:22].

{ **مَا ظَهَرَ مِنْهَا** } هو ما يُظهره النّاس بين قرنائهم وخاصتهم مثل البغاء والمخادعة.

{ **وَمَا بَطَنَ** } ما لا يُظهره النّاس مثل الوأد والسرقة، وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ } [الأنعام:151].

الإثم: كل ذنب، فهو أعم من الفواحش، وتقدّم في قوله تعالى { قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ } [البقرة:219].

فيكون ذكر الفواحش قبله للاهتمام بالتحذير منها قبل التحذير من عموم الذنوب، فهو من ذكر الخاص قبل العام للاهتمام، كذكر الخاص بعد العام، إلّا أنّ الاهتمام الحاصل بالتخصيص مع التقديم أقوى لأنّ فيه اهتماما من جهتين.

البغي: هو الاعتداء على حقّ الغير بسلب أموالهم أو بأذاهم، والكبر على النّاس من البغي، وقد كان البغي شائعا في الجاهليّة فكان القوي يأكل الضعيف، وذو البأس يغير على أنعام النّاس ويقتل أعداءه منهم، ومن البغي أن يضربوا من يطوف بالبيت بثيابه إذا كان من غير الحُمس. وأن يلزموه بأن لا يأكل غير طعام الحمس، ولا يطوف إلّا في ثيابهم.

{ **بِغَيْرِ الْحَقِّ** } صفة كاشفة للبغي، لأنّ البغي لا يكون إلّا بغير حق.

الإشراك: معروف، وقد حرّمه الله تعالى على لسان جميع الأنبياء منذ خلق البشر.

{ **مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً** } السلطان هنا البرهان والحجة. نفي الحجّة الدالة على إثبات صفة الشركة مع الله في الإلهية. وهذه الصلة مؤذنة بتخطئة المشركين، ونفي معذرتهم في الإشراك بأنّه لا دليل يشتبه على النّاس في عدم استحقاق الأصنام العبادة.

{ **وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** } تقدم نظيره عند قوله تعالى { قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ } .[28]

وقد جمعت هذه الآية أصول أحوال أهل الجاهليّة فيما تلبّسوا به من الفواحش والآثام، وهم يزعمون أنّهم يتورّعون عن الطواف في الثياب، وعن أكل بعض الطيّبات في الحجّ.

{ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ } [34].

لما نعي الله على المشركين ضلالهم وتمرّدهم، بعد أن دعاهم إلى الإيمان، وإعراضهم عنه، بالمجادلة والتوبيخ وإظهار نقائصهم بالحجّة البيّنة، وكان حالهم حال من لا يقلع عمّا هم فيه، أعقب ذلك بإنذارهم ووعيدهم، إقامة للحجّة عليهم وأعذارا لهم قبل حلول العذاب بهم.

وهذه الجملة تحتمل معنيين:

المعنى الأوّل: أن يكون المقصود بهذا الخبر المشركين، بأن أقبل الله على خطابهم، أو أمر نبيّه بأن يخاطبهم، لأنّ هذا الخطاب خطاب وعيد وإنذار.

المعنى الثاني: أن يكون المقصود بالخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم، فيكون وعدا له بالنصر على مكذّبيه.

{ **لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ** } أي: لكلّ أمة مكذّبة إمهال، فحذف وصف الأمّة. وذكر عموم الأمم في هذا الوعيد، مع أنّ المقصود هم المشركون من العرب الذين لم يؤمنوا، إنّما هو مبالغة في الإنذار والوعيد بتقريب حصوله كما حصل لغيرهم من الأمم، على طريقة الاستشهاد بشواهد التاريخ في قياس الحاضر على الماضي، فيكون الوعيد خبرا معضودا بالدليل والحجّة.

والمراد بـ {ُمَّةٍ } هنا الجماعة التي اشتركت في عقيدة الإشراك أو في تكذيب الرّسل، كما يدلّ عليه السياق من قوله تعالى { وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ } [33]، وليس المراد بالأمّة، الجماعة التي يجمعها نسب أو لغة، إذ لا يتصوّر انقراضها عن بكرة أبيها.

{ **أَجَلٌ** } يطلق على مدة الإمهال، وجعل لذلك الزمان نهاية وهي الوقت المضروب لانقضاء الإمهال، ويطلق على الوقت المحدّد به انتهاء المدّة، وفي هذه الآية يصح للاستعمالين بأن يكون المراد بالأجل الأول المدّة، وبالثاني الوقت المحدّد لفعل ما.

ذكر الأجل هنا، دون أن يقول: لكل أمة عذاب أو استئصال، إيقاظا لعقولهم من أن يغرّهم الإمهال فيحسبوا أنّ الله غير مؤاخذهم على تكذيبهم، وطمأنة للرّسول صلى الله عليه وسلم بأنّ تأخير العذاب عنهم إنّما هو جري على عادة الله تعالى في إمهال الظالمين على حد قوله تعالى { حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا } [يوسف:110].

وليس المراد في الآية بأجل الأمة أجل أفرادها، وهو مدّة حياة كل واحد منها، لأنّه لا علاقة له بالسياق.

{ **إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ** } أُظهر لفظ (أجل) لزيادة تقرير الحكم عليه، ولتكون هذه الجملة مستقلّة بنفسها غير متوقّفة على سماع غيرها، بحيث تجري مجرى المثل. وإرسال الكلام الصالح لأن يكون مثلا طريق من طرق البلاغة.

{ **لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ** } بمعنى: لا يتأخّرون ولا يتقدّمون، فالسين والتاء فيهما للتأكيد، مثل استجاب. والمقصود أنّهم لا يؤخّرون عنه.

وكل ذلك مبني على تمثيل حالة الذي لا يستطيع التخلّص من وعيد أو نحوه، بهيئة من احتبس بمكان لا يستطيع تجاوزه إلى الأمام ولا إلى الوراء.

{ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ [35] وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النّار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [36].

هذه الآية، والتي بعدها، متصلتا المعنى بمضمون قوله تعالى في أوّل السورة { وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا } [4] اتصال التفصيل بإجماله. أكّد به تحذيرهم من كيد الشيطان وفتونه، وأراهم به مناهج الرشد التي تعين على تجنّب كيده، بدعوة الرسل إيّاهم إلى التقوى والإصلاح، كما أشار إليه بقوله تعالى { يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ } [27]، وأنبأهم بأنّ الشيطان توعّد نوع الإنسان { قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ } [16]، فلذلك حذّر الله بني آدم من كيد الشيطان، وأشعرهم بقوّته { إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ } [27]، عسى أن يتّخذوا العدّة للنّجاة من مخالب فتنته، وأردف ذلك بالتحذير من حزبه ودعاته الذين يفتنون المؤمنين، ثم عزّز ذلك بإعلامه إيّاهم أنّه أعانهم على الاحتراز من الشيطان بأن يبعث إليهم قوما من حزب الله يبلّغونهم عن الله ما فيه منجاة لهم من كيد الشياطين { يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ }، فأوصاهم بتصديقهم والامتثال لهم.

{ **إِمَّا** } مركّبة من (إن) الشرطية و(ما) الزائدة المؤكّدة لمعنى الشرطية، واصطلح أئمة رسم الخط على كتابتها في صورة كلمة واحدة، رعيا لحالة النطق بها، بإدغام النون في الميم، والأظهر أنّها تفيد مع التأكيد عموم الشرط مثل أخواتها (مهما) و (أينما).

{ **مِنْكُمْ** } أي: من بني آدم، وهذا تنبيه لبني آدم بأنّهم لا يترقّبون أن تجيئهم رسل الله من الملائكة، لأنّ المرسل يكون من جنس من أرسل إليهم، وفي هذا تعريض بالجهلة من الأمم الذين أنكروا رسالة الرسل، لأنّهم من جنسهم، مثل قوم نوح إذ قالوا { مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا } [هود:27].

{ **يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي** } يتلونها ويحكونها، ويجوز أن يكون بمعنى يُتبعون الآية بأخرى، ويجوز أن

يكون بمعنى يظهرون، وكلّها معان مجازية للقصّ.

الآية: أصلها العلامة الدالة على شيء، من قول أو فعل.

آيات الله: الدلائل التي جعلها دالة على وجوده، أو على صفاته، أو على صدق رسله، كما في قوله تعالى { وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا } [البقرة:39]. ومنها آيات القرآن التي جعلها الله دلالة على مراده للنّاس. ووجه دلالة الآيات على ذلك؛ إمّا لأنّها جاءت على نظم يعجز البشر عن تأليف مثله، وذلك من خصائص القرآن، وإمّا لأنّها تشتمل على أحكام ومعان لا قبل لغير الله ورسوله بإدراك مثلها، أو لأنّها تدعو إلى صلاح لم يعهده النّاس، فيدل ما اشتملت عليه على أنّه ممّا أراده الله للنّاس، مثل بقيّة الكتب التي جاءت بها الرسل، وإمّا لأنها قارنتها أمور خارقة للعادة تحدّى بها الرّسول المرسل بتلك الأقوال أمّته. فهذا معنى تسميتها آيات، ومعنى إضافتها إلى الله تعالى.

ويجوز أن يكون المراد بالآيات ما يشمل المعجزات غير القولية، مثل نبع الماء من بين أصابع محمد صلى الله عليه وسلم، ومثل قلب العصا حيّة لموسى عليه السلام، وإبراء الأكمة لعيسى عليه السلام.

{ **فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** } جواب الشرط وبينها وبين جملة { إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ } محذوف تقديره: فاتقى منكم فريق وكذّب فريق.

{ **فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ** } جملة شرطيّة وجوابها { فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ }، أي: فمن اتبع رسلي فاتقاني وأصلح نفسه وعمله فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. إيماء إلى حكمة إرسال الرسل، وتحريضا على اتّباعهم، بأنّ فائدته للأمم لا للرّسل، كما قال شعيب { وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ} [هود:88].

فالخوف والحزن المنفيان هما ما يوجبه العقاب، وقد ينتفي عنهم الخوف والحزن مطلقا بمقدار قوة التقوى والصلاح، وهذا من الأسرار التي بين الله وعباده الصالحين، ومثله قوله تعالى { أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ} [يونس:62-64].

{ **وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النّار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** } معطوفة على جملة { فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ }، والرابط محذوف تقديره: والذين كفروا منكم وكذّبوا.

الاستكبار: مبالغة في التكبّر، فالسين والتاء للمبالغة وللحسبان أيضا، وهو أن يعد المرء نفسه كبيرا، أي: عظيما، وكلا الأمرين يؤذن بإفراطهم في ذلك وأنّهم عدوا قدرهم.

وفيه معنى الإعراض، فعلق به ضمير الآيات، والمعنى: واستكبروا فأعرضوا عنها.

{ **أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ**} أفادت الجملة تحقيق أنّهم صائرون إلى النّار بطريق قصر ملازمة النّار عليهم، لأنّ لفظ أصحاب مؤذن بالملازمة.

{ **هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** } تأكيد للتحقيق، لأنّ الجملة الاسمية دالة على الدوام والثبات.

{ **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ [37] قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّار كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّار قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ [38] وَقَالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ** [39] }.

{ **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ [37] قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّار** }

هذه كالفذلكة لما تقدّم، لتبيّن أنّ صفات الضلال، التي أُبهم أصحابها، هي حاقّة بالمشركين المكذّبين برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، فإنّ الله ذكر أولياء الشياطين وبعض صفاتهم بقوله تعالى { إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ } [27]، وذكر أنّ الله عهد لبني آدم منذ القدم بأن يتّبعوا من يجيئهم من الرسل عن الله تعالى بآياته ليتّقوا ويصلحوا، ووعدهم على اتباع ما جاءهم الأمن من الخوف والحزن، وأوعدهم على التكذيب والاستكبار بأن يكونوا أصحاب النّار، فقد أعذر إليهم وبصّرهم بالعواقب، فتفرَّع على ذلك أنّ من كذب على الله فزعم أنّ الله أمره بالفواحش، أو كذّب بآيات الله التي جاء بها رسوله فقد ظلم نفسه ظلما عظيما، حتّى يُسأل عمّن هو أظلم منه.

{ **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى** } تقدّم الكلام على هذا تركيب عند قوله تعالى { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ } [البقرة:114]، وأنّ الاستفهام للإنكار، أي: لا أحد أظلم.

الافتراء و**الكذب**: تقدّم القول فيهما عند قوله تعالى { وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ } [المائدة:103]. ولهذه الآية اتصال بآية { وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا } [4] من حيث ما فيها من التهديد بوعيد عذاب الآخرة وتفظيع أهواله.

وإنّما كانوا أظلم النّاس ولم يكن أظلم منهم، لأنّ الظلم اعتداء على حقّ، وأعظم الحقوق هي حقوق الله تعالى.

والمراد بهذا الفريق، هم المشركون من العرب، فإنّهم كذّبوا بآيات الله التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم، وافتروا على الله الكذب فيما زعموا أنّ الله أمرهم به من الفواحش، كما تقدّم آنفا عند قوله تعالى { وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا } [28].

{ **أو** } ظاهرها التقسيم فيكون الأظلم، وهم المشركون، فريقين: فريق افتروا على الله الكذب، وهم سادة أهل الشرك وكبراؤهم، الذين شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله، ونسبوه إلى الله وهم يعلمون، مثل عمرو بن لحي، وأبي كبشة، ومن جاء بعدهما، وأكثر هذا الفريق قد انقرضوا في وقت نزول الآية.

وفريق كذّبوا بالآيات ولم يفتروا على الله، وهم عامة المشركين، من أهل مكة وما حولها.

ولك أن تجعل { أو } بمعنى الواو، فيكون الموصوف بأنّه أظلم النّاس هو من اتصف بالأمرين الكذب والتكذيب، ويكون صادقا على المشركين لأنّ جماعتهم لا تخلو عن ذلك.

{ **أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ** } جيء باسم الإشارة ليدلّ على أنّ المشار إليهم أحرياء بأن يصيبهم العذاب بناء على ما دلّ عليه التفريع بالفاء.

يجوز أن تكون الجملة مستأنفة استئنافا بيانيّا ناشئا عن الاستفهام، لأنّ التهويل المستفاد من الاستفهام يسترعي السامع أن يسأل عمّا سيلاقونه من الله الذي افتروا عليه وكذّبوا بآياته.

ويجوز أن تكون عطف بيان لجملة { أُولَئِكَ أَصْحَابُ النّار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [36]، أي: خالدون الخلود الذي هو نصيبهم من الكتاب.

{ **يَنَالُهُمْ** } مادة النيل والنوال وردت واوية العين ويائية العين مختلطتين في دواوين اللغة. تقول: نُلت (بضم النون) من نال ينول، وتقول: نِلت (بكسر النون) من نال ينيل، ويظهر أن أكثر معاني المادتين مترادفة، وأصل النيل إصابة الإنسان شيئا لنفسه بيده، ونوّله أعطاه فنال، فالأصل أن تقول نال فلان كسبا، وقد جاء هنا بعكس ذلك، لأنّ النصيب من الكتاب هو أمر معنوي، فتعيّن أن يكون هذا إمّا مجازا مرسلا في معنى مطلق الإصابة، وإمّا أن يكون استعارة مبنيّة على عكس التشبيه، بأن شبّه النصيب بشخص طالب طلبة فنالها، وإنّما يصار إلى هذا، للتنبيه على أنّ الذي ينالهم شيء يكرهونه.

النصيب: الحظ الصائر لأحد المتقاسمين من الشيء المقسوم. وقد تقدّم عند قوله تعالى { أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا } [البقرة:202].

{ **مِنَ الْكِتَابِ** } المراد بالكتاب ما تضمّنه الكتاب، فإن كان الكتاب مستعملا حقيقة فهو القرآن، ونصيبهم منه هو نصيبهم من وعيده، وإن كان الكتاب مجازا في الأمر الذي قضاه الله وقدّره، فنصيبهم منه هو ما أخبر الله بأنّه قدّره عليهم من الخلود في العذاب، وأنّه لا يغفر لهم.

المعنى: **إمّا** أنّ كل واحد من المشركين سيصيبه ما توعدهم الله به من الوعيد على قدر عتوّه في تكذيبه وإعراضه، فنصيبه هو ما يناسب حاله عند الله من مقدار عذابه، **وإمّا** أن مجموع المشركين سيصيبهم ما قُدّر لأمثالهم من الأمم المكذّبين للرسل المعرضين عن الآيات من عذاب الدنيا، فلا يغرنّهم تأخير ذلك، لأنّه مصيبهم لا محالة عند حلول أجله، فنصيبهم هو صفة عذابهم من بين صفات العذاب التي عُذّبت بها الأمم.

{ **حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا** } تفصيل لمضمون جملة { يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ }. فالوقت الذي أفاده الكلام هو مبدأ وصف نصيبهم من الكتاب حين ينقطع عنهم الإمهال الذي لقوه في الدنيا.

{ **حَتَّى** } ابتدائية لها صدر الكلام، لأنّ الواقع بعدها جملة فتفيد السببيّة، فالمعنى: فـ { إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا }. فالغاية التي تدلّ عليها هي غاية ما يخبر به المخبر، وليست غاية ما يبلغ إليه المعطوف عليه بحتّى، لأن ذلك إنّما يلتزم إذا كانت (حتّى) عاطفة.

وهي تدلّ على أنّ مضمون الكلام الذي بعدها أهم بالاعتناء للإلقاء عند المتكلم، لأنّه أجدى في الغرض المسوق له الكلام، وهذا الكلام الواقع هنا بعد (حتّى) فيه تهويل ما يصيبهم عند قبض أرواحهم، وهو أدخل في تهديدهم وترويعهم وموعظتهم، من الوعيد المتعارف، وقد هدّد القرآن المشركين بشدائد الموت عليهم في آيات كثيرة لأنّهم كانوا يرهبونه.

وقد تقدّم بعض هذا عند قوله تعالى { قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ } [الأنعام:31].

{ **رُسُلُنَا** } هم الملائكة، قال تعالى { قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ } [السجدة:11]، وقال تعالى { وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ } [الأنفال:50].

{ **يَتَوَفَّوْنَهُمْ** } في موضع الحال من { رُسُلُنَا } وهي حال معلِّلة لعاملها، كقوله تعالى { وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ } [الأعراف:62/61]، أي: رسول لأبلّغكم ولأنصح لكم.

التّوفّي: نزع الرّوح من الجسد، و تقدّم بيانه عند قوله { إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ } [آل عمران:55]، وهو المراد هنا، فيجوز أن يكون المراد منه وقت أن يتوفوهم جميعا، إن كان المراد بالنصيب من الكتاب الاستئصال، أي: حين تبعث طوائف الملائكة لإهلاك جميع أمّة الشرك. ويجوز أن يكون المراد حين يتوفّون آحادهم في أوقات متفرّقة، إن كان المراد بالنصيب من الكتاب وعيد العذاب.

وعلى الوجهين فالقول محكي على وجه الجمع، والمراد منه التوزيع، أي: قال كلّ ملك لمن وكِّل بتوفّيه. وقد حُكي كلام الرسل معهم وجوابهم إيّاهم بصيغة الماضي على طريقة المحاورة، لأنّ وجود ظرف المستقبل قرينة على المراد.

{ **أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ** } الاستفهام مستعمل في التهكّم والتأييس.

يعني: أين آلهتكم التي كنتم تزعمون أنّهم ينفعونكم عند الشدائد ويردّون عنكم العذاب، فإنّهم لم يحضروكم. وذلك حين يشهدون العذاب، عند قبض أرواحهم، فقد جاء في حديث الموطأ: " **أنّ الميّت يرى مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنّة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النّار يقال له هذا مقعدك حتّى يبعثك الله**".

{ **قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا** } أي: أتلفوا مواقعنا وأضاعونا فلم يحضروا، وهذا يقتضي أنّهم لمّا يعلموا أنّهم لا

يغنون عنهم شيئا من النفع، لأنّ ذلك إنّما يتبيّن لهم يوم الحشر، حين يرون إهانة أصنامهم وتعذيب كبرائهم، ولذلك لم ينكروا في جوابهم أنّهم كانوا يدعونهم من دون الله.

{ **وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ** } الشهادة هنا شهادة ضمنيّة، لأنّهم لمّا لم ينفوا أن يكونوا يدعون من دون الله وأجابوا بأنّهم ضلوا عنهم، قد اعترفوا بأنّهم عبدوهم.

بخلاف ما حكي عنهم في يوم الحشر من قولهم { وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ } [الأنعام:23]، ولذلك قال هناك { انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ } [الأنعام:24].

{ **قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النّار** } هذا قول آخر، ليس هو من المحاورة السابقة، لأنّه جاء بصيغة الإفراد، والأقوال قبله مسندة إلى ضمائر الجمع، فتعيّن أن ضمير { **قَالَ** } عائد إلى الله تعالى بقرينة المقام، لأنّ مثل هذا القول لا يصدر من أحد غير الله تعالى، فهو استئناف كلام نشأ بمناسبة حكاية حال المشركين حين أوّل قدومهم على الحياة الآخرة، وهي حالة وفاة الواحد منهم، فيكون خطابا صدر من الله إليهم بواسطة أحد ملائكته، أو بكلام سمعوه وعلموا أنّه من قبل الله تعالى بحيث يوقنون منه أنّهم داخلون إلى النّار، فيكون هذا من أشدّ ما يرون فيه مقعدهم من النّار عقوبة خاصة بهم.

والأمر مستعمل للوعيد فيتأخر تنجيزه إلى يوم القيامة.

<u>ويجوز</u> أن يكون المحكي به ما يصدر من الله تعالى يوم القيامة من حكم عليهم بدخول النّار مع الأمم السابقة، فذُكر عقب حكاية حال قبض أرواحهم، إكمالا لذكر حال مصيرهم، وتخلّصا إلى وصف ما ينتظرهم من العذاب، ولذكر أحوال غيرهم.

وأيّا ما كان فالإتيان بفعل { قَالَ } بصيغة الماضي، للتنبيه على تحقيق وقوعه على خلاف مقتضى الظاهر.

{ **قَدْ خَلَتْ** } قد مضت وانقرضت قبلكم، كما في قوله تعالى { تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ } [البقرة:134]. يعني: أنّ حالهم كحال الأمم المكذّبين قبلهم، وهذا تذكير لهم بما حاق بأولئك الأمم من عذاب الدنيا، وتعريض بالوعيد بأن يحلّ بهم مثل ذلك، وتصريح بأنّهم في عذاب النّار سواء.

{ **كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النّار قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ [38] وَقَالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ [39]** }.

{ **كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا** } مستأنفة استئنافا ابتدائيا لوصف أحوالهم في النّار، وتفظيعها للسامع، ليتّعظ أمثالهم ويستبشر المؤمنين بالسلامة ممّا أصابهم. <u>ويجوز</u> أن تكون جملة معترضة.

{ **أُمَّةٌ** } نكرة وقعت في حيز عموم الأزمنة.

{ **أُخْتَهَا** } المراد: المماثلة لها في الدين الذي أوجب لها الدخول في النار، كما يقال: هذه الأمّة أخت تلك الأمة إذا اشتركتا في النسب، فيقال: بكر وأختها تغلب. وقيل: المراد بأختها أسلافها الذين أضلّوها.

{ **لَعَنَتْ أُخْتَهَا** } يقع ذلك بعد أن يتبيّن لهم أنّ ما كانوا عليه من الدين هو ضلال وباطل، وبذلك تقع في نفوسهم كراهية ما كانوا عليه، لأنّ النفوس تكره الضلال والباطل بعد تبيّنه، ولأنّهم رأوا أنّ عاقبة ذلك كانت مجلبة العقاب لهم، فيزدادون بذلك كراهية لدينهم، فإذا دخلوا النّار فرأوا الأمم التي أدخلت النّار قبلهم علموا، بوجه من وجوه العلم، أنّهم أدخلوا النّار بذلك السبب فلعنوهم لكراهية دينهم ومن اتبعوه.

{ **حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا** } حتّى ابتدائية، فهي جملة مستأنفة، وقد تقدّم أنّ (حتّى) الابتدائية تفيد معنى التسبّب، أي: تسبب مضمون ما قبلها في مضمون ما بعدها.

{ **ادَّارَكُوا** } أصله تداركوا فقلبت التاء دالا ليتأتى إدغامها في الدال للتخفيف، واجتلبت همزة الوصل لأجل الابتداء بالساكن. والمعنى: تلاحقوا واجتمعوا في النّار.

{ **جَمِيعاً** } حال من ضمير { ادَّارَكُوا } لتحقيق استيعاب الاجتماع، أي: حتّى إذا اجتمعت أمم الضلال كلّها.

{ **أُخْرَاهُمْ** } الآخرة في الرتبة، وهم الأتباع والرعيّة من كلّ أمّة من تلك الأمم، لأنّ كلّ أمّة في عصر لا تخلو من قادة ورعاع.

{ **لِأُولَاهُمْ** } الأولى في المرتبة والاعتبار، وهم القادة والمتبوعون من كلّ أمّة أيضا.

وقيل: أريد بالأخرى المتأخرة في الزمان، وبالأولى أسلافهم، وهذا لا يلائم ما يأتي بعده.

واللام في { لِأُولاهُمْ } لام العلّة، وليست اللام التي يتعدّى بها فعل القول، لأنّ قول الطائفة الأخيرة موجّه إلى الله تعالى.

{ **عَذَاباً ضِعْفاً** } الضِعف (بكسر الضاد) المثل لمقدار الشيء، وهو من الألفاظ الدالة على معنى نسبي يقتضي وجود معنى آخر، كالزوج والنصف، ويختص بالمقدار والعدد، هذا قول أبي عبيدة والزجاج وأئمة اللغة، وقد يُستعمل فعله في مطلق التكثير وذلك إذا أسند إلى ما لا يدخل تحت المقدار، مثل العذاب في قوله { يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } [الفرقان:69]

{ **قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ** } حكاية لجواب الله إيّاهم عن سؤالهم مضاعفة العذاب لقادتهم، فلذلك فُصل ولم يعطف جريا على طريقة حكاية الأقوال في المحاورات. والتقدير: لكلّ أمّة، أو لكل طائفة ضعف.

فأمّا مضاعفة العذاب للقادة فلأنّهم سنّوا الضلال أو أيّدوه ونصروه وذبّوا عنه بالتمويه والمغالطات فأضلّوا.

وأما مضاعفته للأتباع فلأنّهم ضلّوا بإضلال قادتهم، ولأنّهم بطاعتهم العمياء لقادتهم، يزيدونهم طغيانا وجراءة على الإضلال ويغرونهم بالازدياد منه.

{ **وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ** } الاستدراك لرفع ما تُوهمه التسوية بين القادة والأتباع في مضاعفة العذاب.

التقدير: لا تعلمون سبب تضعيف العذاب لكلّ من الطائفتين.

{ **وَقَالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ** } عطفت على جملة { قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولاهُمْ } لأنّهم لم يدخلوا في المحاورة ابتداء فلذلك لم تفصل الجملة.

{ **فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ** } الفاء فاء فصيحة مرتبة على قول الله تعالى { لِكُلٍّ ضِعْفٌ } حيث سوّى بين الطائفتين في مضاعفة العذاب. لأنّ إخبار الله تعالى { لِكُلٍّ ضِعْفٌ } سبب للعلم بأنّ لا مزيّة لأخراهم عليهم في تعذيبهم عذابا أقل من عذابهم. فالتقدير: فإذا كان لكلّ ضعف فما كان لكم من فضل.

{ **فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ** } يجوز أن يكون من كلام أولاهم للتشفّي منهم فيما نالهم من عذاب الضعف. وصيغة الأمر مستعملة في الإهانة والتشفّي.

الذوق: استعمل مجازا مرسلا في الإحساس بحاسة اللمس، وقد تقدم نظائره غير مرّة.

{ **بِمَا** } الباء سببيّة، أي: بسبب ما كنتم تكسبون ممّا أوجب لكم مضاعفة العذاب.

{ **تَكْسِبُونَ** } عُبّر بالكسب دون الكفر لأنّه أشمل لأحوالهم، لأنّ إضلالهم لأعقابهم كان بالكفر وبحب الفخر والإغراب بما علّموهم وما سنّوا لهم، فشمل ذلك كله أنّه كسب.

<u>ويجوز</u> أن يكون قوله تعالى { فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ } من كلام الله تعالى مخاطبا به كلا الفريقين، وعلى اعتباره يكون الأمر في قوله تعالى { فَذُوقُوا } للتكوين والإهانة.

وفيما قصّ الله من محاورة قادة الأمم وأتباعهم ما فيه <u>موعظة وتحذير لقادة المسلمين</u> من الإيقاع بأتباعهم فيما يزجّ بهم في الضلالة، ويحسن لهم هواهم، <u>وموعظة لعامتهم</u> من الاسترسال في تأييد من يشايع هواهم، ولا يبلّغهم النصيحة، وفي الحديث: **" كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته "**.

{ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الجنّة حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ [40] لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ [41] }.

استئناف ابتدائي مسوق لتحقيق خلود الفريقين في النّار. وأُكّد الخبر بـ { إِنَّ } لتأييسهم من دخول الجنّة، لدفع توهّم أن يكون المراد من الخلود، المتقدّم ذكره، الكناية عن طول مدّة البقاء في النّار، فإنّه ورد في مواضع كثيرة مرادا به هذا المعنى.

السماء: أطلقت في القرآن على معان، والأكثر أن يراد بها العوالم العليا غير الأرضيّة، فالسماء مجموع العوالم العليا وهي مراتب وفيها عوالم القدس الإلهية من الملائكة والروحانيّات الصالحة النافعة، ومصدر إفاضة الخيرات الروحيّة والجثمانية على العالم الأرضي، ومصدر المقادير المقدّرة .

{ **أَبْوَابُ السَّمَاءِ** } أسبابُ أمور عظيمة، أطلق عليها اسم الأبواب لتقريب حقائقها إلى الأذهان فمنها قبول الأعمال، ومسالك وصول الأمور الخيريّة الصادرة من أهل الأرض، وطرق قبولها، وهو تمثيل لأسباب التزكية.

وأضيفت الأبواب إلى السماء ليظهر أنّ هذا تمثيل لحرمانهم من وسائل الخيرات الإلهية الروحيّة، فيشمل ذلك عدم استجابة الدعاء، وعدم قبول الأعمال والعبادات، وحرمان أرواحهم بعد الموت مشاهدة مناظر الجنّة ومقاعد المؤمنين منها. فتكون { لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ } كلمة جامعة لمعنى الحرمان من الخيرات الإلهيّة في الآخرة.

{ **وَلا يَدْخُلُونَ الجنّة حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ** } إخبار عن حالهم في الآخرة وتحقيق لخلودهم في النار. فبعد أن حُقّق ذلك بتأكيد الخبر كلّه بحرف التوكيد { **إِنَّ** }، زيد تأكيدا بطريق تأكيد الشيء بما يشبه ضدّه، المشتهر عند أهل البيان بتأكيد المدح بما يشبه الذم، فقد جعل لانتفاء دخولهم الجنّة امتدادا مستمرا، إذ جعل غايته شيئا مستحيلا، وهو أن يلج الجمل في سمّ الخياط.

الجمل: البعير المعروف للعرب، ضرب به المثل لأنّه أشهر الأجسام في الضخامة في عرف العرب.

الخياط: المِخْيط وهو آلة الخياطة المسمى بالإبرة.

السمّ: الخَرْت الذي في الإبرة يدخل فيه خيط الخائط، وهو ثقب ضيق، وهو (بفتح السين) في الآية بلغة قريش وتضمّ السين في لغة أهل العالية (هي ما بين نجد وبين حدود أرض مكّة).

والقرآن أحال على ما هو معروف عند النّاس من حقيقة الجمل وحقيقة الخياط، ليعلم أنّ دخول الجمل في خرت الإبرة محال متعذّر ما داما على حاليهما المتعارفين.

{ **وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ** } تذييل يؤذن بأنّ الإجرام هو الذي أوقعهم في ذلك الجزاء.

الإجرام: فعل الجُرم وهو الذنب، وأصل: أجرم صار ذا جرم.

{ **لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ** }

المِهَاد: بكسر الميم ما يُمْهَد، أي: يفرش.

غَوَاشٍ: جمع غاشية وهي ما يغشى الإنسان، أي: يغطّيه كاللّحاف.

شُبّه ما هو تحتهم من النّار بالمهاد، وما هو فوقهم منها بالغواشي، كناية عن انتفاء الراحة لهم في جهنّم، فإنّ المرء يحتاج إلى المهاد والغاشية عند اضطجاعه للراحة.

{ **وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ** } تذييل يدلّ على أنّ سبب ذلك الجزاء بالعقاب: هو الظلم، وهو الشرك.

{ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجنّة هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [42].

أُعقِب الإنذار والوعيد للمكذّبين بالبشارة والوعد للمؤمنين المصدّقين على عادة القرآن في تعقيب أحد الغرضين بالآخر.

والجملة معطوفة على جملة { الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا } [40]، لأنّ بين مضمون الجملتين مناسبة متوسّطة بين كمال الاتصال وكمال الانقطاع، وهو التّضاد بين وصف المسند إليهما في الجملتين، وهو التكذيب بالآيات والإيمان بها، وبين حكم المسندين وهو العذاب والنعيم، وهذا من قبيل الجامع الوهمي المذكور في أحكام الفصل والوصل من علم المعاني.

{ وَالَّذِينَ آمَنُوا } لم يُذكر متعلّق الإيمان، لأنّ الإيمان صار كاللقب للإيمان الخاص الذي جاء به دين الإسلام وهو الإيمان بالله وحده.

{ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا } معترضة بين المسند إليه والمسند على طريقة الإدماج. وفائدته الإرتفاق بالمؤمنين، لأنّه لمّا بشّرهم بالجنّة على فعل الصالحات أطْمَن قلوبهم بأن لا يُطلبوا من الأعمال الصالحة بما يخرج عن الطاقة، بل إنّما يُطلبون منها بما في وسعهم، فإنّ ذلك يرضي ربّهم.

الوسع: تقدّم في قوله تعالى { لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا } [البقرة:286].

{ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجنّة هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } دلّ على قصر ملازمة الجنّة عليهم دون غيرهم، ففيه تأييس آخر للمشركين.

{ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الجنّة أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [43].

التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي للتنبيه على تحقّق وقوعه، أي: وننزع ما في صدورهم من غلّ، وهو تعبير معروف في القرآن، كقوله تعالى { أَتَى أَمْرُ اللَّهِ } [النحل:1].

النزع: حقيقته قلع الشيء من موضعه، و تقدّم عند قوله تعالى { وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ } [آل عمران:26]. ونزع الغلّ من قلوب أهل الجنّة، هو إزالة ما كان في قلوبهم في الدنيا من الغلّ عند تلقي ما يسوء من الغير، بحيث طهّر الله نفوسهم في حياتها الثانية عن الانفعال بالخواطر المدنّسة التي منها الغلّ، وأزال طباع الغلّ التي في النفوس البشريّة بحيث لا يخطر في نفوسهم.

الغلّ: الحقد والإحْنَة والضِّغْن، التي تحصل في النفس عند إدراك ما يسوؤها من عمل غيرها. وليس الحسد من الغلّ بل هو إحساس باطني آخر.

{ **تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ** } في موضع الحال، أي: هم في أمكنة عالية تشرف على أنهار الجنّة.

{ **وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا** } هذا القول يحتمل أن يكونوا يقولونه في خاصتهم ونفوسهم، على معنى التقرّب إلى الله بحمده، ويحتمل أن يكونوا يقولونه بينهم في مجامعهم.

{ **لِهَذَا** } الإشارة إلى جميع ما هو حاضر من النعيم في وقت ذلك الحمد.

{ **هَدَانَا** } الهداية له هي الإرشاد إلى أسبابه، وجعل الهداية لنفس النعيم، لأنّ الدلالة على ما يوصل إلى الشيء إنّما هي هداية لأجل ذلك الشيء.

{ **وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ** } في موضع الحال من الضمير المنصوب، دلّ على بعد حالهم السالفة عن الاهتداء، فإنّهم كانوا منغمسين في ضلالات قديمة قد رسخت في أنفسهم، فما كان من السهل اهتداؤهم لولا أن هداهم الله ببعثة الرسل وسياستهم في دعوتهم، وأن قذف في قلوبهم قبول الدعوة.

{ **لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ** } جملة مستأنفة، استئنافا ابتدائيا، لصدروها عن ابتهاج نفوسهم واغتباطهم بما جاءتهم به الرسل. فلم يعاندوا، ولم يستكبروا، مع ما يسّر الله لهم من قبولهم الدعوة وامتثالهم الأمر، فإنّه من تمام المنّة المحمود عليها. وهذا التيسير هو الذي حُرِمه المكذّبون المستكبرون لأجل ابتدائهم بالتكذيب والاستكبار دون النظر والاعتبار.

{ **وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الجنّة أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } هذا النداء جواب لثنائهم، يدلّ على قبول ما أثنوا به، وعلى رضى الله عنهم. والنداء من قبل الله، ولذلك بني فعله إلى المجهول لظهور المقصود.

النداء: إعلان الخطاب، وهو أصل حقيقته في اللغة، ويطلق النداء غالبا على دعاء أحد ليقبل بذاته أو بفهمه لسماع كلام، ولو لم يكن برفع صوت { إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً } [مريم:3]. ولهذا المعنى حروف خاصة تدل عليه في العربية. وتقدّم عند قوله تعالى { وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا } [22].

{ **أَنْ تِلْكُمُ الجنّة** } الإشارة إلى الجنّة بـ { تِلْكُمُ }، الذي حقّه أن يُستعمل في المشار إليه البعيد، مع أنّ الجنّة حاضرة بين يديهم، لقصد رفعة شأنها وتعظيم المنّة بها.

الإرث: حقيقته مصير مال الميت إلى أقرب النّاس إليه، ويقال: أورث الميّت أقرباءه ماله، بمعنى جعلهم يرثونه عنه، لأنّه لمّا لم يصرفه عنهم بالوصية لغيره فقد تركه لهم، ويطلق مجازا على مصير شيء إلى أحد بدون عوض ولا غصب تشبيها بإرث الميّت. أي: أعطيتموها عطيّة هنيئة لا تعب فيها ولا منازعة.

{ **بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } الباء سببية، أي: بسبب أعمالكم، وهي الإيمان والعمل الصالح. وهذا الكلام ثناء عليهم بأنّ الله شكر لهم أعمالهم، فأعطاهم هذا النعيم الخالد لأجل أعمالهم.

{ وَنَادَى أَصْحَابُ الجنّة أَصْحَابَ النّار أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ [44] الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ [45] }.

{ **وَنَادَى أَصْحَابُ الجنّة** } هذا النداء خطاب من أصحاب الجنّة، عُبّر عنه بالنداء كناية عن بلوغه إلى أسماع أصحاب النّار من مسافة سحيقة البعد، ووسيلة بلوغ هذا الخطاب من الجنّة إلى أصحاب النّار وسيلة عجيبة غير متعارفة. وعلم الله وقدرته لا حدّ لمتعلقاتهما.

{ **أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً** } (أن) تفسيريّة للنداء. والخبر مستعمل في لازم معناه وهو الاغتباط بحالهم، وتنغيص أعدائهم بعلمهم برفاهيّة حالهم. وهذه الكناية جُمع فيها بين المعنى الصريح والمعاني الكنائيّة، ولكن المعاني الكنائية هي المقصودة، إذ ليس القصد أن يعلم أهل النّار بما حصل لأهل الجنّة، ولكن القصد ما يلزم عن ذلك. وأمّا المعاني الصريحة فمدلولة بالأصالة عند عدم القرينة المانعة.

{ **فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً** } الاستفهام مستعمل مجازا مرسلا بعلاقة اللزوم في توقيف المخاطبين على غلطهم، وإثارة ندامتهم وغمّهم على ما فرط منهم، والشماتة بهم في عواقب عنادهم.

الوجدان: إلفاء الشيء ولقيّه، قال تعالى { فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ } [القصص:15] وفعله يتعدى إلى مفعول واحد. ولا يدلّ على سبق بحث أو تطلّب. وقد يُستعمل الوجدان في الإدراك والظنّ مجازا.

{ **قَالُوا نَعَمْ** } جواب المقرّ المتحسّر المعترف، وقد جاء الجواب صالحا لظاهر السؤال وخفيّه، فالمقصود من الجواب بها تحقيق ما أريد بالسؤال من المعاني حقيقة أو مجازا.

{ **فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ** }.

التّأذين: رفع الصوت بالكلام رفعا يُسمِع البعيد بقدر الإمكان، وهو مشتق من الأُذن (بضم الهمزة)، جارحة السمع المعروفة، وهذا التّأذين إخبار باللعن، وهو الإبعاد عن الخير، أي: إعلام بأنّ أهل النّار مبعدون عن رحمة الله، زيادة في التأييس لهم، أو دعاء عليهم بزيادة البعد عن الرحمة، بتضعيف العذاب أو تحقيق الخلود. ووقوع هذا التأذين عقب المحاورة يُعلم منه أنّ المراد بالظالمين أصحاب النار، ومن تلك الصفات والأفعال، تفظيع حالهم، والنداء على خبث نفوسهم، وفساد معتقدهم.

{ **أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ** } يجوز أن تكون هذه اللعنة كانت الملائكة يلعنونهم بها في الدنيا، فجهروا بها في الآخرة، لأنّها صارت كالشعار للكفرة ينادون بها.

{ **الظَّالِمِينَ** } تعريف لهم بوصف جرى مجرى اللقب تعرف به جماعتهم، كما يقال: المؤمنين، لأهل الإسلام.

{ **الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً** } جيء بصيغة المضارع لقصد ما تفيده من تكرّر حصول الفعل تبعا لمعنى التجدّد. والمعنى: وصفهم بتكرّر ذلك منهم في الزمن الماضي.

وهو معنى قول علماء المعاني: (استحضار الحالة)، كقوله تعالى في الحكاية عن نوح { وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ } [هود:38].

الصدّ عن سبيل الله: إمّا تعرّض المشركين للراغبين في الإسلام بالأذى والصرف عن الدخول في الدين بوجوه مختلفة، وإمّا إعراضهم عن سماع دعوة الإسلام وسماع القرآن.

سبيل الله: ما به الوصول إلى مرضاته وهو الإسلام.

العوج: ضد الاستقامة، وهو (بفتح العين) في الأجسام و(بكسرها) في المعاني، وأصله أن يجوز فيه الفتح والكسر، ولكن الاستعمال خصّص الحقيقة بأحد الوجهين والمجاز بالوجه الآخر، وذلك من محاسن الاستعمال. أي: ويرومون إظهار هذه السبيل عوجاء. أي: يختلقون لها نقائص تنفيرا عن الإسلام.

{ **وَهُمْ بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ** } أي: كافرون بالآخرة فيما مضى من حياتهم الدنيا، فإنّهم حينئذ قد علموا الحقّ وشاهدوه كما دل عليه قولهم { نَعَمْ }.

وورد وصفهم بالكفر بطريق الجملة الإسميّة، للدلالة على ثبات الكفر فيهم وتمكّنه منهم، لأنّ الكفر من الاعتقادات العقلية التي لا يناسبها التكرّر، فلذلك خولف بينه وبين وصفهم بالصدّ عن سبيل الله وبغي إظهار العوج فيها، لأنّ ذينك من الأفعال القابلة للتكرّر، بخلاف الكفر فإنه من الانفعالات.

{ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الجنّة أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ [46] وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النّار قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [47] }.

{ **بَيْنَهُمَا** } الضمير يعود إلى لفظي الجنّة والنّار، وهما اسما مكان، فيصلح اعتبار التوسّط بينهما. وجعل الحجاب فصلا بينهما، وتثنية الضمير تُعيّن هذا المعنى، ولو أريد من الضمير فريقا أهل الجنّة وأهل النار، لقال: بينهم. كما في سورة الحديد { فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ } [13].

الحجاب: سور ضُرب فاصلا بين مكان الجنّة ومكان جهنم، وقد سمّاه القرآن سورا في قوله تعالى { فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ } [الحديد:13]. وسُمّي هنا حجابا لأنّه يقصد منه الحجب والمنع، كما سمّي سورا باعتبار الإحاطة.

الأعراف: جمع عُرْف (بضم العين وسكون الراء وقد تضمّ) وهو أعلى الشيء، ومنه سُمّي عرف الفرس: الشعر الذي في أعلى رقبته، وسُمّي عرف الديك: الريش الذي في أعلى رأسه.

{ **الأَعْرَافِ** } يجوز أن تكون (أل) للعهد، وهي الأعراف المعهودة التي تكون بارزة في أعالي السور ليرقب منها النظّارة حركات العدوّ.

أو يُجعل (أل) عوضا عن المضاف إليه، أي: وعلى أعراف السور.

وأيّا ما كان فنظم الآية يأبى أن يكون المراد من الأعراف مكانا مخصوصا يتعرّف منه أهل الجنّة وأهل النّار، إذ لا وجه حينئذ لتعريفه مع عدم سبق الحديث عنه.

والآية حديث عن رجال مجهولين يكونون على أعراف هذا الحجاب قبل أن يدخلوا الجنّة، فيشهدون هنالك أحوال أهل الجنّة وأحوال أهل النّار، ويعرفون رجالا من أهل النّار كانوا من أهل العزة والكبرياء في الدنيا، وكانوا يكذِّبون وعد الله المؤمنين بالجنّة.

وليس تخصيص الرجال بالذكر بمقتض أن ليس في أهل الأعراف نساء، ولا اختصاص هؤلاء الرجال المتحدث عنهم بذلك المكان دون سواهم من الرجال، ولكن هؤلاء رجال يقع لهم هذا الخبر، فذُكروا هنا للاعتبار على وجه المصادفة، لا لقصد تقسيم أهل الآخرة وأمكنتهم.

<u>وبعض المفسّرين حمل الرجال على المجاز</u>، بمعنى الأشخاص من الملائكة، أطلق عليهم الرجال لأنّهم ليسوا إناثا، كما أطلق على أشخاص الجنّ في قوله تعالى { وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ } [الجن:6].

<u>ونقل عن بعض السلف</u> أنّ أهل الأعراف هم قوم استوت موازين حسناتهم مع موازين سيّئاتهم، ويكون إطلاق الرجال عليهم تغليبا، لأنّه لابد أن يكون فيهم نساء، ويروى فيه أخبار مسندة إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم لم تبلغ مبلغ الصحيح ولم تنزل إلى رتبة الضعيف، روى بعضها ابن ماجة، وبعضها ابن مردويه، وبعضها الطبري، فإذا صحّت فإنّ المراد منها أنّ من كانت تلك حالتهم يكونون من جملة أهل الأعراف المخبر عنهم في القرآن بأنّهم لم يدخلوا الجنّة وهم يطمعون.

والذي ينبغي تفسير الآية به: أنّ هذه الأعراف جعلها الله مكانا يُوقف به من جعله الله من أهل الجنّة قبل دخوله إيّاها، وذلك ضرب من العقاب خفيف، فجعل الداخلين إلى الجنّة متفاوتين في السبق تفاوتا يعلم الله أسبابه ومقاديره، وقد قال تعالى { لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى } [الحديد:10]. وخصّ الله بالحديث في هذه الآيات رجالا من

أصحاب الأعراف.

السيما: بالقصر السمة، أي: العلامة، أي: بعلامة ميّز الله بها أهل الجنّة وأهل النّار، وقد تقدّم بيانها واشتقاقها عند قوله تعالى { تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ } [البقرة:273].

{ **وَنَادَوْا أَصْحَابَ الجنّة أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ** } ونداؤهم أهل الجنّة بالسلام يؤذن بأنّهم في اتصال بعيد من أهل الجنّة، فجعل الله ذلك أمارة لهم بحسن عاقبتهم ترتاح لها نفوسهم، ويعلمون أنّهم صائرون إلى الجنّة، فلذلك حكي الله حالهم هذه للنّاس إيذانا بذلك وبأنّ طمعهم في قوله تعالى { لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ } هو طمع مستند إلى علامات وقوع المطموع فيه، فهو من صنف الرجاء.

{ **أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ** } دعاء تحيّة وإكرام.

{ **لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ** } مستأنفة للبيان، والجملتان معا معترضتان بين جملة { وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ } وجملة { وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ }.

{ **وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النّار قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** }

الصرف: أمر الحال بمغادرة المكان. والصرف هنا مجاز في الالتفات أو استعارة. وإسناده إلى المجهول هنا جار على المتعارف في أمثاله من الأفعال التي لا يُتطلب لها فاعل، وقد تكون لهذا الإسناد هنا فائدة زائدة، وهي الإشارة إلى أنّهم لا ينظرون إلى أهل النّار إلّا نظرا شبيها بفعل من يحمله على الفعل حامل، وذلك أنّ النفس وإن كانت تكره المناظر السيّئة، فإنّ حبّ الاطلاع يحملها على أن توجّه النظر إليها آونة لتحصيل ما هو مجهول لديها.

التلقاء: مكان وجود الشيء، وهو منقول من المصدر الذي هو بمعنى اللقاء.

{ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَـهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ [48] أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُـهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الجنّة لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ [49] }.

النداء يؤذن ببعد المخاطب، فيظهر أنّ أهل الأعراف لمّا تطلّعوا بأبصارهم إلى النّار عرفوا رجالا، أو قبل ذلك لمّا مُرّ عليهم بأهل النّار عرفوا رجالا كانوا جبّارين في الدنيا.

السيما: يتعيّن أن يكون المراد بها هنا ذوات الأشخاص، وليست السيما التي يتميّز بها أهل النّار كلّهم كما هو في الآية السابقة.

فالمقصود بهذه الآية ذكر شيء من أمر الآخرة. فيه نذارة وموعظة لجبابرة المشركين من العرب الذين كانوا يحقّرون المستضعفين من المؤمنين، وفيهم عبيد وفقراء.

{ **قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ** } يحتمل أن يكون جمع النّاس، أي: ما أغنت عنكم كثرتكم التي تعتزون بها، ويحتمل أن يراد من الجمع المصدر بمعنى اسم المفعول، أي: ما جمعتموه من المال والثروة.

والخبر مستعمل في الشماتة والتوقيف على الخطأ.

{ **وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ** } و(ما) الثانية مصدريّة، أي: واستكباركم الذي مضى في الدنيا، ووجه صوغه بصيغة الفعل، دون المصدر، ليتوسّل بالفعل إلى كونه مضارعا فيفيد أنّ الاستكبار كان دأبهم لا يفترون عنه.

{ **أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ** } من كلام أصحاب الأعراف. والاستفهام مستعمل في التقرير.

{ **هَؤُلاءِ** } الإشارة إلى قوم من أهل الجنّة كانوا مستضعفين في الدنيا ومحقّرين عند المشركين، قال

المفسّرون، هؤلاء مثل سلمان، وبلال، وخبَّاب، وصهيب من ضعفاء المؤمنين. فإمّا أن يكونوا حينئذ قد استقرّوا في الجنّة، فجلّاهم الله لأهل الأعراف وللرجال الذين خاطبوهم، وإمّا أن يكون ذلك الحوار قد وقع قبل إدخالهم الجنّة.

{ **أَقْسَمْتُمْ** } لإظهار تصلّبهم في اعتقادهم وأنّهم لا يخامرهم شكّ في ذلك.

{ **لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ** } هو المقسم عليه، وهذا النظم الذي حكي به قسمهم يؤذن بتهكّمهم بضعفاء المؤمنين.

{ **ادْخُلُوا الْجَنَّةَ** } قيل: مقول قول محذوف اختصارا لدلالة السياق عليه، والتقدير: قال لهم الله ادخلوا الجنّة، فكذّب الله قسمكم وخيّب ظنّكم. وهذا كلّه من كلام أصحاب الأعراف، والأظهر أن يكون الأمر للدعاء، لأنّ، المشار إليهم بهؤلاء هم أناس من أهل الجنّة، لأنّ ذلك الحين قد استقر فيه أهل الجنّة في الجنّة وأهل النّار في النّار، كما تقتضيه الآيات السابقة، فلذلك يتعيّن جعل الأمر للدعاء. وإذ قد كان الدخول حاصلا فالدعاء به لإرادة الدوام.

{ **لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ** } تقدم تفسيره عند قوله تعالى { فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ } [35].

{ وَنَادَى أَصْحَابُ النّار أَصْحَابَ الجنّة أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ [50] الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ [51] }.

{ **وَنَادَى أَصْحَابُ النّار أَصْحَابَ الجنّة ...**} القول فيها كالقول في { وَنَادَى أَصْحَابُ الجنّة أَصْحَابَ النّار أَنْ قَدْ وَجَدْنَا } [44]. وأصحاب النّار مراد بهم من كان من مشركي أمّة الدعوة لأنّهم المقصود كما تقدّم.

الفيض: حقيقته سيلان الماء وانصبابه بقوّة، ويُستعمل مجازا في الكثرة. ويجيء منه مجاز في السخاء ووفرة العطاء، ومنه ما في الحديث أنّه قال لطلحة: **" أنت الفيّاض "**.

فالفيض في الآية إذا حُمل على حقيقته كان أصحاب النّار طالبين من أصحاب الجنّة أن يصبّوا عليهم ماء ليشربوا منه، وعلى هذا المعنى حمله المفسرون.

ويجوز عندي أن يُحمل الفيض على المعنى المجازي، وهو سعة العطاء والسخاء، من الماء والرزق، إذ ليس معنى الصبّ بمناسب، بل المقصود الإرسال والتفضّل، ويكون العطف عطف مفرد على مفرد، وهو أصل العطف، ويكون سؤالهم من الطعام مماثلا لسؤالهم من الماء في الكثرة.

الرزق: مراد به الطعام كما في قوله تعالى { كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ } [البقرة:25].

{ **قَالُوا** } الضمير لأصحاب الجنّة، وهو جوابهم عن سؤال أصحاب النّار، ولذلك فصل على طريقة المحاورة.

{ **إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ** } التحريم مستعمل في معناه اللغوي. والمراد بالكافرين المشركون، لأنّهم قد عُرفوا في القرآن بأنّهم اتخذوا دينهم لهو ولعبا، وعُرفوا بإنكار لقاء يوم الحشر. وقد تقدّم نظيره عند قوله تعالى { وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا } [الأنعام:70].

{ **الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا** } ظاهر النظم أنّه من حكاية كلام أهل الجنّة. وجُوّز أن يكون مبتدأ على أنّه من كلام الله تعالى.

{ **فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ** } اعتراض حكي به كلام من جانب الله تعالى، يسمعه الفريقان. وتغيير أسلوب الكلام هو القرينة على اختلاف المتكلّم، وهذا الأليق بما رجّحناه من جعل قوله تعالى { الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً } إلى آخره حكاية لكلام أصحاب الجنّة. وهذا العطف بالفاء من قبيل ما يُسمّى بـ (عطف التلقين) الممثّل له غالبا بمعطوف بالواو فهو عطف كلام متكلّم على كلام متكلّم آخر، وتقدير الكلام: قال الله: { فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ }، فحذف فعل القول. وهذا تصديق لأصحاب الجنة.

النسيان: في الموضعين مستعمل مجازا في الإهمال والترك، لأنّه من لوازم النسيان، فإنّهم لم يكونوا في الدنيا ناسين لقاء يوم القيامة. فقد كانوا يذكرونه ويتحدّثون عنه حديث من لا يصدّق بوقوعه.

{ **فَالْيَوْمَ** } تعليق الظرف بفعل { نَنْسَاهُمْ } لإظهار أنّ حرمانهم من الرحمة كان في أشد أوقات احتياجهم إليها، فكان لذكر (اليوم) أثر في إثارة تحسّرهم وندامتهم، وذلك عذاب نفسانيّ.

{ **كَمَا نَسُوا** } دلّ معنى كاف التشبيه على أنّ حرمانهم من رحمة الله كان مماثلا لإهمالهم التصديق باللقاء، وهي مماثلة جزاء العمل للعمل، وهي مماثلة اعتبارية.

{ **وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ** } تقدّم نظيره عند قوله تعالى {وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} [الأنعام:33].

{ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [52].

عطف القصّة على القصّة، والغرض على الغرض، فهو كلام أُنف انتقل به من غرض الخبر عن حال المشركين في الآخرة إلى غرض وصف أحوالهم في الدنيا، المستوجبين بها لما سيلاقونه في الآخرة، وليس هو من الكلام الذي عُقّب به كلام أصحاب الجنّة في قوله تعالى { فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا }.

{ **وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ** } التأكيد بلام القسم و(قد)، إمّا باعتبار صفة { بِكِتَابٍ }، فيكون التأكيد جاريا على مقتضى الظاهر، لأنّ المشركين ينكرون أن يكون القرآن موصوفا بتلك الأوصاف.

وإمّا تأكيد لفعل { جِئْنَاهُمْ }، وهو بلوغ الكتاب إليهم فيكون التأكيد خارجا على خلاف مقتضى الظاهر، بتنزيل المبلَّغ إليهم منزلة من ينكر بلوغ الكتاب إليهم، لأنّهم في إعراضهم عن النظر والتدبّر في شأنه بمنزلة من لم يبلغه الكتاب.

{ **بِكِتَابٍ** } المراد به القرآن. والتنكير قُصد به التعظيم، أو قصد به النوعيّة، أي: ما هو إلّا كتاب كالكتب التي أنزلت من قبل.

{ **فَصَّلْنَاهُ** } أي: بيّنّا ما فيه، والتفصيل تقدّم عند قوله تعالى { وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ} [الأنعام:55].

{ **عَلَى عِلْمٍ** } أي: حال كوننا على علم، ومعنى هذا التمكّن، أنّ علم الله تعالى ذاتيّ لا يعزب عنه شيء من المعلومات. والتّنكير للتعظيم.

{ **هُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** } إشارة إلى أنّ المؤمنين هم الذين توصّلوا للاهتداء به والرحمة، وأنّ من لم يؤمنوا قد حُرموا الاهتداء والرحمة، وهذا كقوله تعالى { هُدىً لِلْمُتَّقِينَ } [البقرة:2].

{ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } [53].

{ **هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ** } مستأنفة استئنافا بيانيّا، كالجواب عن سؤال من يسأل: فماذا يؤخّرهم عن التصديق بهذا الكتاب الموصوف بتلك الصفات؟ والاستفهام إنكاري ولذلك جاء بعده الاستثناء.

يَنْظُرُونَ: ينتظرون من النظرة بمعنى الانتظار، أي: ما ينتظرون آية أعظم إلّا تأويل الكتاب، أي: إلّا ظهور ما توعّدهم به، وإطلاق الانتظار هنا استعارة تهكّمية. وقد مضى القول في نظير هذا التركيب عند قوله تعالى { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ } [الأنعام:158].

التأويل: توضيح وتفسير ما خفي، من مقصد كلام أو فعل، وتحقيقه، وقد تقدّم اشتقاقه ومعناه في المقدّمة الأولى من مقدّمات هذا التفسير.

{ **تَأْوِيلَهُ** } وضوح معنى ما عَدُّوه محالا وكذبا، من البعث والجزاء ورسالة رسول من الله تعالى ووحدانية الإله والعقاب، فذلك تأويل ما جاء به الكتاب، أي: تحقيقه ووضوحه بالمشاهدة، وما بعد العيان بيان.

{ **يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ** } تتنزّل من التي قبلها منزلة البيان للمراد من تأويله، وهو التأويل الذي سيظهر يوم القيامة، فالمراد بـ { يَوْمَ } يوم القيامة.

{ **يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ** } هم المشركون، وهم معاد ضمير { يُنْظَرُونَ } فكان مقتضى الظاهر أن

يقال: يقولون، إلّا أنّه أظهر بالموصوليّة لقصد التسجيل عليهم بأنّهم نسوه وأعرضوا عنه وأنكروه، مرادا به التنبيه على خطئهم، والنعي عليهم بأنّهم يجرّون بإعراضهم سوء العاقبة لأنفسهم.

النسيان: مستعمل في الإعراض والصدّ، كما تقدّم في قوله تعالى { كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا } [51].

{ **مِنْ قَبْلُ** } أي: من قبل تأويله، أو من قبل ذلك اليوم، أي: في الدنيا. والقول هنا كناية عن العلم والاعتقاد، لأنّ الأصل في الأخبار مطابقتها لاعتقاد المخبر، أي: يتبيّن لهم الحق ويُصرّحون به.

{ **قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ** } خبر مستعمل في الإقرار بخطئهم في تكذيب الرسل، وإنشاء للحسرة على ذلك، وإبداء الحيرة. وهذا القول يقوله بعضهم لبعض اعترافا بخطئهم في تكذيبهم الرّسول صلى الله عليه وسلم وما أخبر به عن الرسل من قبله.

{ **رُسُلُ رَبِّنَا** } جمع الرسل هنا، مع أنّ الحديث عن المكذّبين محمدا صلى الله عليه وسلم، لأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب لهم الأمثال بالرسل السابقين، وهم لمّا كذّبوه جرّأهم تكذيبه على إنكار بعثة الرسل. أو لأنّهم مشاهدون يومئذ ما هو عقاب الأمم السابقة على تكذيب رسلهم، فيصدر عنهم ذلك القول عن تأثّر بجميع ما شاهدوه من التهديد الشامل لهم ولمن عداهم من الأمم.

{ **فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا** } يجوز أن يكون الاستفهام حقيقيّا يقوله بعضهم لبعض، لعلّ أحدهم يرشدهم إلى مخلّص لهم من تلك الورطة، وهذا القول يقولونه في ابتداء رؤية ما يهدّدهم قبل أن يوقنوا بانتفاء الشفعاء. ويجوز أن يكون الاستفهام مستعملا في التمنّي. ويجوز أن يكون مستعملا في النفي، على معنى التحسّر والتندم.

الشفعاء: جمع شفيع وهو الذي يسعى بالشفاعة، وهم يسمّون أصنامهم شفعاء، قال تعالى { وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ } [يونس:18]. وتقدّم معنى الشفاعة عند قوله تعالى { وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ } [البقرة:48].

{ **فَيَشْفَعُوا لَنَا** } انتصب على جواب الاستفهام، أو التمنّي، أو النفي.

{ **أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ** } العطف بـ (أو) يجعل الاستفهام عن أحد الأمرين، لأنّ أحدهما لا يجتمع مع الآخر، فإذا حصلت الشفاعة فلا حاجة إلى الردّ، وإذا حصل الردّ استغني عن الشفاعة.

{ **فَنَعْمَلَ** } المراد بالعمل ما يشمل الاعتقاد، وهو الأهم، مثل اعتقاد الوحدانيّة والبعث وتصديق الرّسول صلى الله عليه وسلم، لأنّ الاعتقاد عمل القلب، ولأنّه تترتب عليه آثار عمليّة، من أقوال وأفعال وامتثال.

{ **الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ** } المراد بالصّلة ما كانوا يعملونه من أمور الدين، أي: فنعمل ما يغاير ما صمّمنا عليه بعد مجيء الرّسول صلى الله عليه وسلم.

{ **قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ** } مستأنفة استئنافا ابتدائيا تذييلا وخلاصة لقصّتهم،

أي: فكان حاصل أمرهم أنّهم خسروا أنفسهم، وضلّ عنهم ما كانوا يفترون.

الخسارة: مستعارة لعدم الانتفاع بما يُرجى منه النفع، وقد تقدّم بيان ذلك عند قوله تعالى { الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ } [الأنعام:12].

الضلال: شُبّه حالهم بضلال الإبل عن أربابها تهكّما عليهم.

{ **مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ** } أي: يَكْذِبونه إذ يقولون: { هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا } [يونس:18]، وهم جماد لا حظّ لهم في شؤون العقلاء حتّى يشفعوا، فهم قد ضلّوا عنهم من الآن ولذلك عُبّر بالماضي، لأنّ الضلال المستعار للعدم متحقِّق من ماضي الأزمنة.

{ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } [54].

جاءت أغراض هذه السورة متناسبة متماسكة؛ فإنّها ابتدئت بذكر القرآن والأمر باتباعه ونبذ ما يصدّ عنه وهو اتباع الشرك، ثم التذكير بالأمم التي أعرضت عن طاعة رسل الله، ثمّ الاستدلال على وحدانيّة الله، والامتنان بخلق الأرض والتمكين منها، وبخلق أصل البشر وخلقهم، وخُلِّل ذلك بالتذكير بعداوة الشيطان للبشر، وانتقل من ذلك إلى التنديد على المشركين فيما اتبعوا فيه تسويل الشيطان، ثمّ بتذكيرهم بالعهد الذي أخذه الله على البشر في قوله تعالى { يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ } [35]، وبأنّ المشركين ظلموا بنكث العهد، وتوعّدهم وذكّرهم أحوال أهل الآخرة، وعَقِب ذلك عاد إلى ذكر القرآن.

فلا جرم قد تهيّأت الأسماع والقلوب لتلقّي الحجّة على أنّ الله إله واحد، وأنّ آلهة المشركين ضلال وباطل، ثمّ لبيان عظيم قدرته ومجده. فكان ما في صدر السورة بمنزلة المطلوب المنطقي، وكان ما بعده بمنزلة البرهان، وكان قوله تعالى { إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ } بمنزلة النتيجة للبرهان، والنتيجة مساوية للمطلوب إلّا أنّها تؤخذ أوضح وأشد تفصيلا.

{ **إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ** } الخطاب موجّه إلى المشركين ابتداء، ولذلك كان للتأكيد بحرف (إنّ) موقعه لردّ إنكار المشركين انفراد الله بالربوبيّة. وإذ كان ما اشتملت عليه هذه الآية يزيد المسلمين بصيرة بعظم مجد الله وسعة ملكه، ويزيدهم ذكرى بدلائل قدرته، كان الخطاب صالحا لتناول المسلمين، لصلاحيّة ضمير الخطاب لذلك، ولا يكون حرف { إنّ } بالنسبة إليهم سدى، لأنّه يفيد الاهتمام بالخبر.

{ **الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ** } صفة لاسم الجلالة، والصلة مؤذنة بالإيماء إلى وجه بناء الخبر المتقدّم، وهو { إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ }، لأنّ خلق السماوات والأرض يكفيهم دليلا على انفراده بالإلهيّة.

{ **فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ** } تعليم بعظيم قدرته، ويحصل منه للمشركين زيادة شعور

بضلالهم في تشريك غيره في الإلهية. ولا يدل قوله تعالى { فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ } على أنّ أهل مكّة كانوا يعلمون ذلك. وفيه تحدٍّ لأهل الكتاب.

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون خلق السماوات والأرض مدرّجا، وأن لا يكون دفعة، لأنّه جعل العوالم متولّدا بعضها من بعض، لتكون أتقن صنعا ممّا لو خُلقت دفعة، وليكون هذا الخلق مظهرا لصفتي علم الله تعالى وقدرته، فالقدرة صالحة لخلقها دفعة، لكن العلم والحكمة أقتضيا هذا التدرّج.

{ **أَيَّامٍ** } ظاهر الآيات أنّ الأيام هي المعروفة للنّاس، التي هي جمع اليوم الذي هو مدة تقدّر من مبدإ ظهور الشمس في المشرق إلى ظهورها في ذلك المكان ثانية، وعلى هذا التفسير فالتقدير: <u>في ما يماثل تلك المدّة ست مرات</u>، لأنّ حقيقة اليوم بهذا المعنى لم تتحقّق إلّا بعد تمام خلق السماء والأرض.

وقيل: إنّ الأيام هنا جمع اليوم <u>من أيام الله تعالى الذي هو مدة ألف سنة</u>، فستة أيام عبارة عن ستة آلاف من السنين نظرا لقوله تعالى { وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ } [الحج:47]، وقوله تعالى { يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ } [السجدة:5]. ونقل ذلك عن زيد بن أرقم واختاره النقّاش، وما هو ببعيد، وإن كان مخالفا لما في التوراة.

وقيل المراد: <u>في ستة أوقات</u>، فإن اليوم يطلق على الوقت كما في قوله تعالى { وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ } [لأنفال:16]، أي: حين إذ يلقاهم زحفا. ومقصود هذا القائل أنّ السماوات والأرض خلقت عالما بعد عالم ولم يشترك جميعها في أوقات تكوينها.

وأيّا ما كان فالأيام مراد بها مقادير لا الأيام التي واحدها يوم، والتعمّق في البحث في هذا خروج عن غرض القرآن.

الاستواء: حقيقته الاعتدال، والذي يؤخذ من كلام المحقّقين من علماء اللغة والمفسّرين أنّه حقيقة في الارتفاع والاعتلاء، كما في قوله تعالى في صفة جبريل { فَاسْتَوَى وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى } [النجم:6-8].

والاستواء له معان متفرّعة عن حقيقته، أشهرها القصد والاعتلاء.

وقد الْتُزم هذا اللفظ في القرآن مسندا إلى ضمير الجلالة عند الإخبار عن أحوال سماوية، كما في هذه الآية. ونظائرها سبع آيات من القرآن: (يونس / الرعد / طه / الفرقان / ألم السجدة / الحديد / فصلت).

فظهر لي أنّ لهذا الفعل خصوصيّة في كلام العرب كان بسببها أجدر بالدلالة على المعنى المراد تبليغه مجملا ممّا يليق بصفات الله ويقرّب إلى الإفهام معنى عظمته، ولذلك اختير في هذه الآيات دون غيره من الأفعال التي فسّره بها المفسّرون.

<u>فالاستواء يعبّر عن شأن عظيم من شؤون عظمة الخالق تعالى</u>، اختير التعبير به على طريق الاستعارة والتمثيل، لأنّ معناه أقرب معاني المواد العربية إلى المعنى المعبّر عنه من شؤونه تعالى، فإنّ الله لمّا أراد تعليم معان من عالم الغيب لم يكن يتأتّى ذلك في اللغة إلّا بأمثلة معلومة من عالم الشهادة، فلم يكن بد

من التعبير عن المعاني المغيّبة بعبارات تقربها ممّا يعبّر به عن عالم الشهادة، ولذلك يكثر في القرآن ذكر الاستعارات التمثيلية والتخيلية في مثل هذا.

وقد كان السلف يتلقّون أمثالها بلا بحث ولا سؤال لأنّهم علموا المقصود الإجمالي منها فاقتنعوا بالمعنى مجملا، ويسمّون أمثالها بالمتشابهات، ثم لمّا ظهر عصر ابتداء البحث كانوا إذا سئلوا عن هذه الآية يقولون: استوى الله على العرش ولا نعرف لذلك كيفا، وقد بيّنتُ أنّ مثل هذا من القسم الثاني من المتشابه عند قوله تعالى { وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ } [آل عمران:7]، فكانوا يأبون تأويلها.

وقد حكى عياض في المدارك عن سفيان بن عيينة أنّه قال: سأل رجل مالكا فقال: الرحمان على العرش استوى. كيف استوى يا أبا عبد الله؟ فسكت مالك مليا حتى علاه الرّحضَاء ثم سُرّي عنه، فقال: " الاستواء معلوم والكيف غير معقول والسؤال عن هذا بدعة والإيمان به واجب وإني لأظنك ضالا ".

قال البخاري، عن مجاهد: استوى، علا على العرش.

وعن أبي العالية: استوى إلى السماء ارتفع فسوى خلقهن.

وأحسب أنّ استعارته تختلف بقرينة الحرف الذي يعدّى به فعله:

فإن عدّي بحرف (**على**) كما في هذه الآية ونظائرها فهو مستعار من معنى الاعتلاء، مستعمل في اعتلاء مجازي يدل على معنى **التمكّن**، فيحتمل أنّه أريد منه التمثيل، وهو تمثيل شأن تصرّفه تعالى بتدبير العوالم، ولذلك نجده بهذا التركيب في الآيات السبع واقعا عقب ذكر خلق السماوات والأرض، فالمعنى حينئذ: خلقها ثم هو يدبّر أمورها تدبير الملك أمور مملكته مستويا على عرشه. وممّا يقرب هذا المعنى قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **يقبض الله الأرض ويطوي السماوات يوم القيامة ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض** ".

ولذلك أيضا عُقّب التركيب في مواقعه كلّها بما فيه معنى التصرّف كقوله تعالى هنا { يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ }.

وكمال هذا التمثيل يقتضي أن يكون كل جزء من أجزاء الهيئة الممثّلة مشبّها بجزء من أجزاء الهيئة الممثل بها، فيقتضي أن يكون ثمّة موجود من أجزاء الهيئة الممثلة مشابها لعرش الملك في العظمة، وكونه مصدر التدبير والتصوف الإلهي يفيض على العوالم قوى تدبيرها.

وقد دلّت الآثار الصحيحة من أقوال الرّسول صلى الله عليه وسلم على وجود هذا المخلوق العظيم المسمّى بالعرش كما سنبيّنه.

فأمّا إذا عدي فعل الاستواء بحرف (**اللام**) فهو مستعار من معنى القصد والتوجّه إلى معنى **تعلّق الإرادة**، كما في قوله تعالى { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ } [البقرة:29].

العرش: حقيقته الكرسي المرتفع الذي يجلس عليه الملك، قال تعالى { وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ } [النمل:23]، وقال تعالى { وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ } [يوسف:100].

وهو في هذه الآية ونظائرها مستعمل جزءا من التشبيه المركّب، ومن بداعة هذا التشبيه أن كان كل جزء من أجزاء الهيئة المشبّهة مماثلا لجزء من أجزاء الهيئة المشبه بها، وذلك أكمل التمثيل في البلاغة العربية، كما قدّمته آنفا. وإذ قد كان هذا التمثيل مقصودا لتقريب شأن من شؤون عظمة ملك الله بحال هيئة من الهيئات المتعارفة، ناسب أن يشتمل على ما هو شعار أعظم المدبرين للأمور المتعارفة أعني الملوك، وذلك شعار العرش الذي من حوله تصدر تصرفات الملك، فإنّ تدبير الله لمخلوقاته بأمر التكوين يكون صدوره بواسطة الملائكة، وقد بيّن القرآن عمل بعضهم مثل جبريل عليه السلام وملك الموت، وبيّنت السنّة بعضها: فذكرت ملك الجبال، وملك الرياح، والملك الذي يباشر تكوين الجنين، ويكتب رزقه وأجله وعاقبته.

وأشار القرآن إلى أنّ من الموجودات العلوية موجودا منوّها به سمّاه العرش ذكره القرآن في آيات كثيرة. ولمّا ذكر خلق السماوات والأرض وذكر العرش ذكره بما يشعر بأنّه موجود قبل هذا الخلق.

وبيّنت السنّة أنّ العرش أعظم من السماوات وما فيهن، من ذلك حديث عمران بن حصين أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: **" كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء ثم خلق السماوات والأرض "**، وحديث أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال في حديث طويل: **" فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنّة وفوقه عرش الرحمان ومنه تفجَّر أنهار الجنة "**.

وقد قيل: إنّ العرش هو الكرسي وهو المراد بقوله تعالى { وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ } [البقرة:255].

{ **ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ** } دلّت (ثمّ) على التراخي الرتبي، أي: وأعظم من خلق السماوات والأرض استواءه على العرش، تنبيها على أنّ خلق السماوات والأرض لم يحدث تغييرا في تصرفات الله بزيادة ولا نقصان، ولذلك ذكر الاستواء على العرش عقب ذكر خلق السماوات والأرض في آيات كثيرة، ولعلّ المقصد من ذلك إبطال ما يقوله اليهود: إن الله استراح في اليوم السابع. فهو كالمقصد من قوله تعالى { وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ } [قّ:38].

{ **يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ** } حال من اسم الجلالة، ذُكر به شيء من عموم تدبيره تعالى وتصرّفه المضمّن في الاستواء على العرش، وتنبيه على المقصود من الاستواء، وخُصّ هذا التصرّف بالذكر لما يدلّ عليه من عظيم المقدرة، وما فيه من عبرة التغيّر ودليل الحدوث، ولكونه متكرّرا حدوثه في مشاهدة النّاس كلّهم.

يُغْشِي: الإغشاء والتغشية، جعل الشيء غاشيا، حقيقته التغطية والغمّ. فمعنى { يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ } أنّ الله يجعل أحدهما غاشيا الآخر، وهو مستعار للاخفاء، لأنّ النهار يزيل أثر الليل والليل يزيل أثر النهار.

{ **يَطْلُبُهُ حَثِيثاً** } إن جُعلت استئنافا أو بدل اشتمال من جملة { يُغْشِي } فأمرها واضح، واحتمل الضمير المنصوب في { يَطْلُبُهُ } أن يعود إلى الليل وإلى النهار.

وإن جُعلت حالا تعيّن أن تُعتبر حالا من أحد المفعولين على السواء فإنّ كِلَا الليل والنهار يعتبر طالبا ومطلوبا، تبعا لاعتبار أحدهما مفعولا أولا أو ثانيا.

الحثيث: المسرع، وهو فعيل بمعنى مفعول، من حثّه إذا أعجله وكرّر إعجاله ليبادر بالعجلة.

المعنى: يطلبه سريعا مُجِدًّا في السرعة لأنّه لا يلبث أن يعفى أثره.

وتقدم الكلام على { اللَّيْلَ النَّهَارَ } عند قوله تعالى { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ } [البقرة:164].

{ **وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ** } بالنصب في قراءة الجمهور معطوفات على السماوات والأرض، أي: وخلق الشمس والقمر والنجوم، وهي من أعظم المخلوقات التي اشتملت عليها السماوات. و{ مُسَخَّرَاتٍ } حال من المذكورات.

وقرأ ابن عامر برفع { الشَّمْسُ } وما عطف عليه ورفع { مُسَخَّرَاتٌ }، فتكون الجملة حالا من ضمير اسم الجلالة كقوله تعالى { يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ}.

التسخير: حقيقته تذليل ذي عمل شاق أو شاغل بقهر وتخويف أو بتعليم وسياسة بدون عوض، فمنه تسخير العبيد والأسرى، ومنه تسخير الأفراس والرواحل. ويُستعمل مجازا في تصريف الشيء غير ذي الإرادة في عمل عجيب أو عظيم، من شانه أن يصعب استعماله فيه، بحيلة أو إلهام، تصريفا يصيّره من خصائصه وشؤونه، كتسخير الفلك للمخر في البحر بالريح أو بالجذف، وتسخير السحاب للامطار.

فقوله تعالى { وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ } أطلق التسخير فيه مجازا على جعلها خاضعة للنّظام الذي خلقها الله عليه بدون تغيير.

{ **بِأَمْرِهِ** } لفظ الأمر مستعمل مجازا في التصريف بحسب القدرة الجارية على وفق الإرادة، ومنه أمر التكوين المعبر عنه في القرآن بقوله تعالى { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } [يّس:82]. فـ (كن) تقريب لنفاذ القدرة.

{ **أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ** } مستأنفة استئناف التذييل للكلام السابق من قوله تعالى { الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ } لإفادة تعميم الخلق. فالخلق، إيجاد الموجودات، والأمر تسخيرها للعمل الذي خلقت لأجله.

{ **أَلَا** } افتتحت الجملة بحرف التنبيه لتعي نفوس السامعين هذا الكلام الجامع.

{ **تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** } تذييل معترضة بين جملة { إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ } وجملة { ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً } إذ قد تهيّأ المقام للتّذكير بفضل الله على النّاس، وبنافع تصرفاته، عقب ما أجرى من إخبار عن عظيم قدرته وسعة علمه وإتقان صنعه.

وفعل { تَبَارَكَ } في صورة اشتقاقه يؤذن بإظهار الوصف على صاحبه المتّصف به، أي: ظهرت بركته.

البركة: شدّة الخير، وتقدّم عند قوله { إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً } [آل عمران:96].

فبركة الله الموصوف بها هي مجده ونزاهته وقدسه، وذلك جامع صفات الكمال، ومن ذلك أنّ له الخلق

والأمر.

{ **رَبُّ الْعَالَمِينَ** } إتباع اسم الجلالة بالوصف في معنى البيان لاستحقاقه البركة والمجد، لأنّه مفيض خيرات الإيجاد والإمداد، ومدبّر أحوال الموجودات، بوصف كونه رب أنواع المخلوقات.

ومضى الكلام على { الْعَالَمِينَ } في سور الفاتحة.

{ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } [55].

جملة معترضة بين جملة { يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ} [54] وجملة { وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ } [57] جرى هذا الاعتراض على عادة القرآن في انتهاز فرص تهيُّؤ القلوب للذكرى. والخطاب خاص بالمسلمين لأنّه تعليم لأدب دعاء الله تعالى وعبادته، وليس المشركون بمتهيّئين لمثل هذا الخطاب، وهو تقريب للمؤمنين وإدناء لهم وتنبيه على رضى الله عنهم ومحبته، وشاهده قوله بعده { إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ } [56].

الدعاء: حقيقته النداء، ويطلق أيضا على النداء لطلب مهم، واستعمل مجازا في العبادة لاشتمالها على الدعاء والطلب بالقول أو بلسان الحال، كما في الركوع والسجود، مع مقارنتهما للأقوال، وهو إطلاق كثير في القرآن.

والمراد منه هنا: الطلب والتوجّه، لأنّ المسلمين قد عبدوا الله وأفردوه بالعبادة، وإنّما المهم إشعارهم بالقرب من رحمة ربّهم وإدناء مقامهم منها.

{ **رَبَّكُمْ** } جيء لتعريف الربّ بطريق الإضافة دون ضمير الغائب، مع وجود معاد قريب في قوله { تَبَارَكَ اللَّهُ } [54]، ودون ضمير المتكلّم، لأنّ في لفظ الربّ إشعارا بتقريب المؤمنين بصلة المربوبية، وليُتوسل بإضافة الرب إلى ضمير المخاطبين إلى تشريف المؤمنين وعناية الربّ بهم.

التضرّع: إظهار التذلّل بهيئة خاصة، ويطلق التضرّع على الجهر بالدعاء، وقد فُسّر في هذه الآية وفي قوله في [الأنعام:63] { تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً } بالجهر بالدعاء، **وهو الذي نختاره** لأنّه أنسب بمقابلته بالخفية.

ومن المفسّرين من أبقى التضرّع على حقيقته وهو التذلّل، فيكون مصدرا بمعنى الحال، أي: متذلّلين، أو مفعولا مطلقا لـ { ادْعُوا }، لأن التذلّل بعض أحوال الدعاء فكأنّه نوع منه، وجعلوا قوله { وَخُفْيَةً } مأمورا به مقصودا بذاته، أي: ادعوه مخفين دعاءكم، حتّى أوهم كلام بعضهم أنّ الإعلان بالدعاء منهي عنه أو غير مثوب عليه، وهذا خطأ، فإنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم دعا علنا غير مرّة. وعلى المنبر بمسمع من النّاس وقال: **" اللّهم حوالينا ولا علينا "**، وقال: **" اللّهم عليك بقريش "**.

فالصواب أنّ قوله تعالى { تَضَرُّعاً } إذن بالدعاء بالجهر والإخفاء، وأمّا ما ورد من النهي عن الجهر فإنّما هو عن الجهر الشديد الخارج عن حد الخشوع.

{ **إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** } واقعة موقع التعليل للأمر بالدعاء، إشارة إلى أنّه أمر تكريم للمسلمين يتضمّن رضى الله عنهم، ولكن سلك في التعليل طريق إثبات الشيء بإبطال ضده، تنبيها على قصد الأمرين وإيجازا في الكلام. ولكون الجملة واقعة موقع التعليل افتتحت بـ (إنّ) لمجرّد الاهتمام، بقرينة خلو المخاطبين عن التردّد في هذا الخبر، ومن شان (إنّ) إذا جاءت على هذا الوجه أن تفيد التعليل والربط، وتقوم مقام الفاء، كما نبّه عليه الشيخ عبد القاهر.

{ **لَا يُحِبُّ** } إطلاق المحبة وصفا لله تعالى، في هذه الآية ونحوها، إطلاق مجازي مراد بها لازم معنى المحبّة، بناء على أنّ حقيقة المحبة انفعال نفساني، وعندي فيه احتمال، فقالوا: أريد **لازم المحبّة**، أي: في المحبوب والمحب، فيلزمها اتصاف المحبوب بما يرضي المحب لتنشأ المحبة التي أصلها الاستحسان، ويلزمها **رضى المحِبّ** عن محبوبهن **وإيصال النفع له**. وهذان اللازمان متلازمان في أنفسهما، فإطلاق المحبة وصفا لله مجاز بهذا اللازم المركب.

{ **الْمُعْتَدِينَ** } المشركون، لأنّه يرادف الظالمين.

المعنى: ادعوا ربكم لأنه يحبكم ولا يحب المعتدين.

{ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ } [56].

{ **وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا** } عُطف النهي عن الفساد في الأرض على جملة { إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } عطفا على طريقة الاعتراض، فإنّ الكلام لما أنبأ عن عناية الله بالمسلمين وتقريبه إيّاهم إذ أمرهم بأن يدعوه وشرّفهم بذلك العنوان العظيم في قوله { رَبَّكُمْ } [55]، وعرّض لهم بمحبّته إيّاهم دون أعدائهم المعتدين، أعقبه بما يحول بينهم وبين الإدلال على الله بالاسترسال فيما تمليه عليهم شهواتهم من ثوران القوتين؛ الشهويّة والغضبيّة، فإنّهما تجنيان فسادا في الغالب، فذكّرهم بترك الإفساد ليكون صلاحهم منزّها عن أن يخالطه فساد، وكذلك دأب القرآن أن يعقب الترغيب بالترهيب، وبالعكس، لئلّا يقع النّاس في اليأس أو الأمن.

وفيه تعريض بانّ المعتدين، وهم المشركون المفسدون في الأرض، وإرباء للمسلمين عن مشابهتهم، أي: لا يليق بكم وأنتم المقرّبون من ربكم، المأذون لكم بدعائه، أن تكونوا مثل المبعَدين منه المبغَضين.

الإفساد في الأرض والإصلاح: تقدّم الكلام عليهما عند قوله تعالى { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ } [البقرة:11].

وقد يكون بعض الإفساد مؤدّيا إلى صلاح أعظم ممّا جرّه الإفساد من المضرّة، فيترجّح الإفساد إذا لم يمكن تحصيل صلاح ضروري إلّا به، فقد أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قطع بعض نخيل بني النضير، ونهى أبو بكر رضي الله عنه عن قطع شجر العدو، لاختلاف الأحوال.

{ **بَعْدَ إِصْلاحِهَا** } بعديّة حقيقية، لأنّ الأرض خُلقت من أوّل أمرها على نظام صالح بما تحتوي عليه، وبخاصة الإنسان الذي هو أشرف المخلوقات التي جعلها الله على الأرض، وخلق له ما في الأرض، وعزّز ذلك النظام بقوانين وضعها الله على ألسنة المرسلين والصالحين والحكماء من عباده، الذين أيدهم بالوحي والخطاب الإلهي، أو بالإلهام والتوفيق والحكمة. فالأوّل النظام الأصلي، والثاني القانون المعزّز له، وكلاهما إصلاح في الأرض، لأنّ الأول إيجاد الشيء صالحا، والثاني جعل الضار صالحا بالتهذيب أو بالإزالة.

{ **وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ** } عود إلى أمر الدعاء لأنّ ما قبله من النهي عن الإفساد أشبه الاحتراس المعترض بين أجزاء الكلام، وأعيد الأمر بالدعاء ليبنى عليه قوله تعالى { خَوْفاً وَطَمَعاً} قصدا لتعليم الباعث على الدعاء بعد أن عُلّموا كيفيّته، وهذا الباعث تنطوي تحته أغراض الدعاء وأنواعه، فلا إشكال في عطف الأمر بالدعاء على مثله لأنّهما مختلفان باختلاف متعلّقاتهما.

الخوف: تقدّم عند قوله تعالى { إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ } [البقرة:229].

الطمع: تقدّم عند قوله تعالى { أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ } [البقرة:75].

وانتصاب { خَوْفاً وَطَمَعاً } هنا على المفعول لأجله، أي: أنّ الدعاء يكون لأجل خوف منه وطمع فيه. فالخوف من غضبه وعقابه، والطمع في رضاه وثوابه، والدعاء لأجل الخوف نحو الدعاء بالمغفرة، والدعاء لأجل الطمع نحو الدعاء بالتوفيق وبالرحمة. وفي الأمر بالدعاء خوفا وطمعا دليل على أنّ من حظوظ المكلّفين في أعمالهم مراعاة جانب الخوف من عقاب الله والطمع في ثوابه، وهذا ممّا طفحت به أدلّة الكتاب والسنّة.

{ **إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ** } واقعة موقع التفريع على جملة { وَادْعُوهُ }، فلذلك قرنت بـ { إنّ } الدالة على التوكيد، وهو لمجرد الاهتمام بالخبر.

{ **رَحْمَتَ اللَّهِ** } إحسانه وإيتاؤه الخير.

{ **قَرِيبٌ** } حقيقة القرب دنو المكان وتجاوره، ويطلق على الرجاء مجازا، يقال: هذا قريب، أي: ممكن مرجو. وهو هنا بهذا المعنى.

{ **قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ** } دلّ على مقدّر في الكلام، أي: وأحسنوا لأنّهم إذا دعوا خوفا وطمعا فقد تهيّأوا لنبذ ما يوجب الخوف واكتساب ما يوجب الطمع، لئلا يكون الخوف والطمع كاذبين، لأنّ من خاف لا يُقدم على المخوف، ومن طمع لا يترك طلب المطموع، ويتحقّق ذلك بالإحسان في العمل ويلزم من الإحسان ترك السيّئات، فلا جرم تكون رحمة الله قريبا منهم، وسكت عن ضدّ المحسنين رفقا بالمؤمنين وتعريضا بأنّهم لا يُظنّ بهم أن يسيئوا فتبعد الرحمة عنهم.

وعندي أنّ أحسن وجوه تأويل عدم لحاق علامة التأنيث لوصف { قَرِيبٌ } مع أنّ موصوفه مؤنث اللفظ، قول الفرّاء وأبي عبيدة: أنّ قريبا أو بعيدا إذا أطلق على قرابة النسب أو بعد النسب فهو مع المؤنث بتاء

ولا بد، وإذا أطلق على قرب المسافة أو بعدها جاز فيه مطابقة موصوفة وجاز فيه التذكير على التأويل بالمكان، وهو الأكثر، قال الله تعالى { وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ } [هود:83]، وقال تعالى { وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً } [الأحزاب:63].

{ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } [57].

لمّا ذكر قرب رحمته من المحسنين ذكر بعضا من رحمته العامة وهو المطر. فذِكر إرسال الرياح هو المقصود الأهم، لأنّه دليل على عظم القدرة والتدبير، ولذلك كانت الآية معطوفة على قوله تعالى { يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ } [54]. وذكر بعض الأحوال المقارنة لإرسال الرياح يحصل منه إدماج الامتنان في الاستدلال، وذلك لا يقتضي أنّ الرياح لا ترسل إلّا للتبشير بالمطر، ولا أنّ المطر لا ينزل إلّا عقب إرسال الرياح، إذ ليس المقصود تعليم حوادث الجو، و ليس في الكلام ما يقتضي انحصار الملازمة.

وفيه تعريض ببشارة المؤمنين بإغداق الغيث عليهم ونذارة المشركين بالقحط والجوع.

وأطلِق الإرسال على الانتقال على وجه الاستعارة، فإرسال الرياح هبوبها من المكان الذي تهبّ فيه ووصولها، وحسَّن هذه الاستعارة أن الريح مسخّرة إلى المكان الذي يريد الله هبوبها فيه، فشُبّهت بالعاقل المرسل إلى جهة ما. ومن بدائع هذه الاستعارة أنّ الريح لا تفارق كرة الهواء كما تقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} [البقرة:164]، فتصريف الرياح من جهة إلى جهة أشبه بالإرسال منه بالإيجاد.

{ **بُشْراً** } قرأه نافع، وأبو عمرو، وابن كثير، وأبو جعفر { نُشُراً } (بضم النون والشين) على أنّه جمع نَشور (بفتح النون) كرسول ورسل، وهو فعول بمعنى فاعل، والنَشور الريح الحيّة الطيّبة لأنّها تنشر السحاب، أي: تبثّه وتكثره في، ويجوز أن يكون فعولا بمعنى مفعول، أي: منشورة، أي: مبثوثة في الجهات، متفرقة فيها، لأنّ النشر هو التفريق في جهات كثيرة، ومعنى ذلك: أن ريح المطر تكون ليّنة، تجيء مرة من الجنوب ومرة من الشمال، وتتفرّق في الجهات حتى ينشأ بها السحاب ويتعدّد سحابات مبثوثة.

وقرأه ابن عامر { نُشْراً } (بضم النون وسكون الشين) وهو تخفيف نُشُر الذي هو بضمتين كما يقال: رسل في رسل.

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف { نَشْراً } بفتح النون وسكون الشين على أنه مصدر، وانتصب إمّا على المفعولية المطلقة لأنّه مرادف لـ (أرسل) بمعناه المجازي، أي: أرسلها إرسالا أو نشرها نشرا. وإمّا على الحال من الريح، أي: ناشرة السحاب، أو من الضمير في (أرسل)، أي: أرسلها ناشرا، أي: محييا بها الأرض الميّتة.

وقرأه عاصم { **بُشْراً** } بالباء الموحدة في موضع النون مضمومة وبسكون الشين وبالتنوين، وهو تخفيف بُشُرا (بضمّهما) على أنّه جمع بشير مثل نُذُر ونذير، أي: مبشّرة للنّاس باقتراب الغيث.

فحصل من مجموع هذه القراءات أنّ الرياح تنشر السحاب، وأنّها تأتي من جهات مختلفة تتعاقب فيكون ذلك سبب امتلاء الأسحبة بالماء، وأنّها تحيي الأرض بعد موتها، وأنّها تبشّر النّاس بهبوبها.

{ **بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ** } أصل معنى قولهم: بين يدي فلان، أنّه يكون أمامه بقرب منه، ولذلك قوبل بالخلف في قوله تعالى { يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ } [البقرة:255])، فقصد قائله الكناية عن الأمام.

الرحمة: أريد بها هنا المطر، لأنّ الله يرحم به، والقرينة على المراد بقيّة الكلام. وليست الرحمة من أسماء المطر في كلام العرب فإنّ ذلك لم يثبت، وإضافة الرحمة إلى اسم الجلالة في هذه الآية تُبعد دعوى من ادعاها من أسماء المطر.

والمقصد الأوّل من قوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ } تقريع للمشركين وتفنيد إشراكهم، وتبعه تذكير المؤمنين وإثارة اعتبارهم، لأنّ المشركين يعلمون أنّ للرياح مصرِّفا وأنّ للمطر مُنْزِلا، غير أنّهم يذهلون أو يتذاهلون عن تعيين ذلك الفاعل، ولذلك يجيئون في الكلام بأفعال نزول المطر مبنية إلى المجهول غالبا، فيقولون: " مطرنا بِنَوْءِ الثّريّا "، ويقولون: "غِثْنَا مَا شِئْنَا "، مبنيا للمجهول أي: أغثنا، فأخبر الله تعالى بأنّ فاعل تلك الأفعال هو الله.

{ **حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ** } حَتَّى هنا ابتدائية وهي غاية لمضمون قوله تعالى { بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ }، الذي هو في معنى: متقدِّمة رحمتَه، أي: تتقدّمها مدّة وتنشر أسحبتها.

فإنزال الماء هو غاية تقدّم الرياح وسبقها المطر.

الثقال: البطيئة التنقل لما فيها من رطوبة الماء، وهو البخار. وهو السحاب المرجوّ منه المطر.

{ **أَقَلَّتْ** } حملت، مشتق من القلّة، لأنّ الحامل يعدّ محموله قليلا، فالهمزة فيه للجعل.

وإقلال الريح السحاب، هو أنّ الرياح تمرّ على سطح الأرض فيتجمّع بها ما على السطح من البخار، وترفعه الرياح إلى العلو في الجوّ، حتّى يبلغ نقطة باردة في أعلى الجوّ، فهنالك ينقبض البخار وتتجمّع أجزاؤه فيصير سحابات، وكلّما انضمّت سحابة إلى أخرى حصلت منهما سحابة أثقل، فيقلّ انتشارها إلى أن تصير سحابا عظيما فيثقل، فينماع، ثم ينزل مطرا.

السحاب: اسم جمع لسحابة فلذلك جاز إجراؤه على اعتبار التذكير نظرا لتجرّد لفظه عن علامة التأنيث، وجاز اعتبار التأنيث فيه نظرا لكونه في معنى الجمع ولهذه النكتة وصف السحاب في ابتداء إرساله بأنها تثير، ووصف بعد الغاية بأنها ثقال، وهذا من إعجاز القرآن العلمي، وقد ورد الاعتباران في هذه الآية فوصف السحاب بقوله { ثِقَالاً } اعتبارا بالجمع، وأعيد الضمير إليه بالإفراد في قوله { سُقْنَاهُ }.

السَّوْق: حقيقتة أنّه تسيير ما يمشي ومسَيّرُه وراءه يُزجيه ويَحثُّه، وهو هنا مستعار لتسيير السحاب

بأسبابه التي جعلها الله.

{ **لِبَلَدٍ** } لام العلة، أي: لأجل بلد ميّت، وفي هذه اللام دلالة على العناية الربّانية بذلك البلد فلذلك عدل عن تعدية سقناه بحرف (إلى).

الميّت: مجاز أطلق على الجانب الذي انعدم منه النبات، وإسناد الموت المجازي إلى البلد هو أيضا مجاز عقلي، لأنّ الميّت إنما هو نباته وثمره.

{ **فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ** } الضمير المجرور بالباء { بِهِ } يجوز أن يعود إلى البلد، فيكون الباء بمعنى (في)، ويجوز أن يعود إلى الماء فيكون الباء للآلة.

{ **كُلِّ الثَّمَرَاتِ** } استغراق حقيقي، لأنّ البلد الميّت ليس معيّنا، بل يشمل كل بلد ميّت ينزل عليه المطر، فيحصل من جميع أفراد البلد الميّت جميع الثمرات قد أخرجها الله بواسطة الماء، والبلد الواحد يخرج ثمراته المعتادة فيه.

{ **كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى** } معترضة استطرادا للموعظة، والاستدلال على تقريب البعث الذي يستبعدونه. فوجه الشبه هو إحياء بعد موت.

{ **لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** } مستأنفة، والرجاء ناشئ عن الجمل المتقدّمة من قوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ }، لأنّ المراد التذكّر الشامل الذي يزيد المؤمن عبرة وإيمانا، والذي من شأنه أن يقلع من المشرك اعتقاد الشرك، ومن مُنكِر البعث إنكاره.

{ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ } [58].

جملة معترضة بين { كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى } وبين { لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً } [59]، تتضمّن تفصيلا لمضمون جملة { فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ } [57]، إذ قد بُيّن فيها اختلاف حال البلد الذي يصيبه ماء السحاب. دعا إلى هذا التفصيل أنّه لمّا مُثّل إخراج ثمرات الأرض بإخراج الموتى منها يوم البعث تذكيرا بذلك للمؤمنين، وإبطالا لإحالة البعث عند المشركين، مُثّل هنا باختلاف حال إخراج النبات من الأرض اختلاف حال النّاس الأحياء في الانتفاع برحمة هدى الله. فموقع قوله تعالى { وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ } كموقع قوله تعالى { كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى }، ولذلك ذُيّل هذا بقوله تعالى { كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ } كما ذُيّل ما قبله بقوله تعالى { كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } [57].

المعنى: كذلك نخرج الموتى وكذلك ينتفع برحمة الهدى من خُلقت فطرته طيّبة قابلة للهدى، كالبلد الطيّب ينتفع بالمطر، ويُحرم من الانتفاع بالهدى من خُلقت فطرته خبيثة كالأرض الخبيثة لا تنتفع بالمطر فلا تنبت نباتا نافعا، فالمقصود من هذه الآية التمثيل، وليس المقصود مجرّد تفصيل أحوال الأرض بعد نزول المطر، لأنّ الغرض المسوق له الكلام يجمع أمرين؛ العبرة بصنع الله، والموعظة بما يماثل أحواله.

الطيّب: وصف على وزن فَيْعِل وهي صيغة تدلّ على قوّة الوصف في الموصوف. والطيّب المتصف بالطيّب، وقد تقدم تفسير الطّيّب عند قوله تعالى { قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ } [المائدة:4].

البلد الطّيّب: الأرض الموصوفة بالطِّيب، وطيبها زكاء تربتها وملاءمتها لإخراج النبات الصالح وللزرع والغرس وهي الأرض النّقيّة.

{ **بِإِذْنِ رَبِّهِ** } في موضع الحال من { نَبَاتُهُ }. و**الإذن**: الأمر، والمراد به أمر العناية به، كقوله تعالى { لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ } [صّ:75] ليدلّ على تشريف ذلك النبات، فهو في معنى الوصف بالزكاء.

{ **وَالَّذِي خَبُثَ** } حمله جميع المفسّرين على أنّه وصف للبلد، أي: البلد الذي خبث وهو مقابل البلد الطّيب، وفسّروه بالأرض التي لا تنبت إلّا نباتا لا ينفع، ولا يسرع إنباتها، مثل السباخ، وحملوا ضمير يخرج على أنّه عائد للنبات، وجعلوا تقدير الكلام: والذي خبث لا يخرج نباته إلّا نكدا.

والذي يظهر لي، أن يكون { الَّذِي } صادقا على نبات الأرض، والمعنى: والنبت الذي خبث لا يخرج إلّا نكدا، ويكون في الكلام احتباك إذ لم يذكر وصف الطيب بعد نبات البلد الطيب، ولم تذكر الأرض الخبيثة قبل ذكر النبات الخبيث، لدلالة كلا الضدين على الآخر. والتقدير: والبلد الطيب يخرج نباته طيبا بإذن ربه، والنبات الذي خبث يخرج نكدا من البلد الخبيث، وهذا صنع دقيق لا يهمل في الكلام البليغ.

النّكد: وصف من النكَد (بفتح الكاف) وهو مصدر نَكِدَ الشيءُ إذا كان غير صالح يجرّ على مستعمله شرًّا.

وفي تفصيل معنى الآية جاء الحديث الصحيح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّه قال: **" مثَلُ ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقيّةٌ قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادبُ أمسكت الماء فنفع بها الله النّاس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة أخرى إنّما هي قِيعَانٌ لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع لذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلت به ".**

{ **كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآياتِ** } الإشارة إلى تفنّن الاستدلال بالدلائل الدالة على عظيم القدرة المقتضية الوحدانيّة، والدالة أيضا على وقوع البعث بعد الموت، والدالة على اختلاف قابليّة النّاس للهدى والانتفاع به بالاستدلال الواضح البيّن المقرّب في جميع ذلك، فذلك تصريف، أي: تنويع وتفنين للآيات، أي: الدلائل.

{ **لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ** } المؤمنون: تنبيها على أنّهم مورد التمثيل بالبلد الطيب، وأنّ غيرهم مورد التمثيل بالبلد الخبيث.

{ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } [59].

استئناف انتقل به الغرض من إقامة الحجّة والمنّة المبتدئة بقوله تعالى { وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ } [10]، وتنبيه أهل الضلالة أنّهم غارقون في كيد الشيطان، الذي هو عدوّ نوعهم، من قوله تعالى { قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ - إلى قوله - وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ } [16-33]، ثم بالتهديد بوصف عذاب الآخرة وأحوال النّاس فيه، وما تخلّل ذلك من الأمثال والتعريض، إلى غرض الاعتبار والموعظة بما حلّ بالأمم الماضية، فهذا الاستئناف له مزيد اتصال بقوله تعالى في أوائل السورة { وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا } [4]، وقد أفيض القول فيه في معظم السورة.

وتَتْبَعُ هذا الاعتبارَ أغراضٌ أخرى؛ وهي تسلية الرّسول صلى الله عليه وسلم، وتعليم أمّته بتاريخ الأمم التي قبلها من الأمم المرسل إليهم، ليعلم المكذّبون من العرب أن لا غضاضة على محمد صلى الله عليه وسلم، ولا على رسالته من تكذيبهم، ولا يجعله ذلك دون غيره من الرّسل، بله أن يؤيّد زعمهم أنّه لو كان صادقا في رسالته لأيّده الله بعقاب مكذّبيه، لمّا قالوا على سبيل التهكّم أو الحجاج { اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [الأنفال:33]. وليعلم أهل الكتاب وغيرهم أنّ ما لقيه محمد صلى الله عليه وسلم من قومه هو شنشنة أهل الشقاوة تلقاء دعوة رسل الله.

{ **لَقَدْ** } أُكِّد هذا الخبر بلام القسم وحرف التحقيق لأنّ الغرض من هذه الأخبار تنظير أحوال الأمم المكذّبة رسلها بحال مشركي العرب في تكذيبهم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم.

{ **نُوحاً** } تقدّم التعريف بنوح عند قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً } [آل عمران:33]، وكان قوم نوح يسكنون الجزيرة والعراق حسب ظن المؤرّخين، وعبّر عنهم القرآن بطريق القوميّة المضافة إلى نوح إذ لم يكن لهم اسم خاص من أسماء الأمم يعرفون به.

{ **فَقَالَ يَا قَوْمِ** } خاطب نوح قومه كلّهم لأنّ الدعوة لا تكون إلّا عامة، وعبّر في ندائهم بوصف القوم لتذكيرهم بآصرة القرابة، ليتحقّقوا أنّه ناصح ومريد خيرهم ومشفق عليهم.

{ **اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** } إبطال للحالة التي كانوا عليها، وهي تحتمل أن تكون حالة شرك كحالة العرب، وتحتمل أن تكون حالة وثنيّة باقتصارهم على عبادة لأصنام دون الله تعالى، كحالة الصابئة وقدماء اليونان، وآيات القرآن صالحة للحالين. والمنقول في القصص، أنّ قوم نوح كانوا مشركين، وهو الذي يقتضيه ما في صحيح البخاري عن ابن عباس، أنّ آلهة قوم نوح أسماء جماعة من صالحيهم، فلمّا ماتوا قال قومهم: لو اتخذنا في مجالسهم أنصابا، فاتخذوها وسموها بأسمائهم، حتى إذا هلك أولئك وتنسّخ العلم عُبدت.

وظاهر ما في سورة نوح أنّهم كانوا لا يعبدون الله لقوله تعالى { أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ } [نوح:3].

وظاهر ما في سورة فصّلت أنّهم يعترفون بالله لقولهم { لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً } [فصلت:14].

{ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ } على الوجه الأوّل، بيان للعبادة التي أمرهم بها، أي: أفردوه بالعبادة دون غيره، إذ ليس غيره لكم بإله. وعلى الوجه الثاني، يكون استئنافا بيانيّا للأمر بالإقلاع عن عبادة غيره.

{ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } يجوز أن تكون في موقع التعليل، كما في الكشّاف، أي: لمضمون قوله تعالى { مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ }، كأنّه قيل: اتركوا عبادة غير الله خوفا من عذاب يوم عظيم، وبُني نظم الكلام على خوف المتكلّم عليهم، دلالة على إمحاضه النّصح لهم وحرصه على سلامتهم، حتّى جعل ما يضرّ بهم كأنّه يضرّ به، فهو يخافه عليهم كما يخافه على نفسه، وذلك لأنّ قوله هذا كان في مبدإ خطابهم بما أرسل به. ويحتمل أنّه قاله بعد أن ظهر منهم التكذيب، إي: إن كنتم لا تخافون عذابا فإني أخافه عليكم، وهذا من رحمة الرسل بقومهم.

ويجوز أن تكون مستأنفة ثانية بعد جملة { اعْبُدُوا اللَّهَ } لقصد الإرهاب والإنذار، ونكتة بناء نظم الكلام على خوف المتكلم عليهم هي هي.

{ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } العذاب المخوف ويومه يحتمل أنّهما في الآخرة أو في الدنيا، والأظهر الأوّل لأنّ جوابهم بأنّه في ضلال مبين يشعر بأنّهم أحالوا الوحدانية وأحالوا البعث كما يدل عليه قوله في سورة نوح

{ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً } [نوح:18/17]، فحالهم كحال مشركي العرب لأنّ عبادة الأصنام تمحّض أهلها للاقتصار على أغراض الدنيا.

{ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ } [60].

اقترن جوابهم بحرف التأكيد للدلالة على أنّهم حقّقوا وأكّدوا اعتقادهم أنّ نوحا منغمس في الضلالة.

{ الْمَلَأُ } مهموز بغير مدّ، الجماعة الذين أمرهم واحد ورأيهم واحد لأنّهم يمالئ بعضهم بعضا، أي: يعاونه ويوافقه. ويطلق الملأ على أشراف القوم وقادتهم لأنّ شأنهم أن يكون رأيهم واحدا عن تشاور، وهذا المعنى هو المناسب في هذه الآية بقرينة (من) الدالة على التبعيض، أي: أنّ قادة القوم هم الذين تصدّوا لمجادلة نوح والمناضلة عن دينهم بمسمع من القوم الذين خاطب جميعهم.

{ لَنَرَاكَ } الرؤية قلبية بمعنى العلم. أي: إنّا لنوقن أنّك في ضلال مبين، ولم يُوصف الملأ هنا بالذين كفروا أو بالذين استكبروا، كما وصف الملأ في قصّة هود بالذين كفروا، استغناء بدلالة المقام على أنّهم كذبوا وكفروا.

الضّلال: اسم مصدر ضلّ إذا أخطأ الطريق الموصل.

المبين: اسم فاعل من (أبان) المرادف (بان).

{ **ضَلالٍ مُبِينٍ** } الضّلال البالغ الغاية في البعد عن طريق الحق، وهذه شبهة منهم فإنّهم توهّموا أنّ الحق هو ما هم عليه.

{ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ [61] أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ [62] أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [63].

{ **قَالَ يَا قَوْمِ** } النداء في جوابه إيّاهم للاهتمام بالخبر، ولم يخصّ خطابه بالذين جاوبوه، بل أعاد الخطاب إلى القوم كلّهم، لأنّ جوابه، مع كونه مجادلة للملأ من قومه، هو أيضا يتضمّن دعوة عامة، استنزالا لطائر نفوسهم.

{ **ضَلالَةٌ** } مصدر مثل الضلال، فتأنيثه لفظي محض، والعرب يستشعرون التأنيث غالبا في أسماء أجناس المعاني، مثل الغواية والسفاهة، فالتاء لمجرد تأنيث اللفظ وليس في هذه التاء معنى الوحدة، لأنّ أسماء أجناس المعاني لا تراعى فيها المشخّصات، فليس الضلال بمنزلة اسم الجمع للضلالة.

والتخالف بين كلمتي { ضَلالٍ } و{ ضَلالَةٌ } اقتضاه التفنّن حيث سبق لفظ ضلال، وموجب سبقه إرادة وصفه بـ { مُبِينٍ }، فلو عبّر هنالك بلفظ ضلالة لكان وصفها بمبينة غير مألوف الاستعمال، ولمّا تقدّم لفظ

{ ضَلالٍ } استُحسن أن يعاد بلفظ يغايره في السورة دفعا لثقل الإعادة. فقوله { لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ } رد لقولهم

{ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ } بمساوية لا بأبلغ منه.

{ **وَلَكِنِّي رَسُولٌ** } الاستدراك لرفع ما توهّموه من أنّه في ضلال حيث خالف دينهم، أي: هو في حال رسالة عن الله، مع ما تقتضي الرسالة من التبليغ والنصح والإخبار بما لا يعلمونه، وذلك ما حسبوه ضلالا.

{ **مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ** } اختيار طريق الإضافة في تعريف المرسِل، لما تؤذن به من تفخيم المضاف ومن وجوب طاعته على جميع النّاس، تعريضا بقومه إذ عصوه.

{ **أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي** } صفة لرسول، أو مستأنفة، والمقصود منها إفادة التجدّد، وأنه غير تارك التبليغ من أجل تكذيبهم تأييسا لهم من متابعته إيّاهم.

التبليغ والإبلاغ: جعل الشيء بالغا، أي: واصلا إلى المكان المقصود، وهو هنا استعارة للإعلام بالأمر المقصود علمه، فكأنّه ينقله من مكان إلى مكان.

{ **وَأَنْصَحُ لَكُمْ** } النصح والنصيحة كلمة جامعة، يُعبّر بها عن حسن النيّة وإرادة الخير من قول أو عمل،

وفي الحديث: " **الدين النصيحة** ". ويكثر إطلاق النصح على القول الذي فيه تنبيه للمخاطب إلى ما ينفعه ويدفع عنه الضرّ. وضدّه الغشّ.

وفي الإتيان بالمضارع دلالة على تجديد النصح لهم، وإنّه غير تاركه من أجل كراهيتهم أو بذاءتهم.

{ **وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** } جمعا لمعان كثيرة مما تتضمّنه الرسالة، وتأييدا لثباته على دوام التبليغ والنصح لهم، والاستخفاف بكراهيتهم وأذاهم. ويتضمّن هذا الإجمال البديع تهديدا لهم بحلول عذاب بهم في العاجل والآجل، وتنبيها للتأمّل فيما أتاهم به، وفتحا لبصائرهم أن تتطلّب العلم بما لم يكونوا يعلمونه، وكل ذلك شأنه أن يبعثهم على تصديقه وقبول ما جاءهم به.

{ **أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ** } انتقل إلى كشف الخطأ في شبهتهم. مفتتحا الجملة بالاستفهام الإنكاري بعد واو العطف، وهذا مشعر بأنّهم أحالوا أن يكون رسولا، مستدلين بأنّه بشر مثلهم، كما وقعت حكايته في آية أخرى { مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ } [المؤمنون:24].

العجب: حقيقته أنّه انفعال نفساني يحصل عند إدراك شئ غير مألوف، وقد يكون العجب مشوبا بإنكار الشيء المتعجَّب منه واستبعاده وإحالته، كما في قوله تعالى { بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ } [قّ:3/2]. والذي في هذه الآية كناية عن الإنكار كما في قوله تعالى { قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ } [هود:73] أنكروا عليها أنّها عدت ولادتها وهي عجوز، محالا.

{ **عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ** } أي: من جنسهم البشري، ومع ما في الكلام من فضح شبهتهم، فيه أيضا ردّ لها بأنّهم أحقّاء بأن يكون ما جعلوه موجب استبعاد واستحالة هو موجب القبول والإيمان، إذ الشان أن ينظروا في الذكر الذي جاءهم من ربّهم وأن لا يسرعوا إلى تكذيب الجائي به، وأن يعلموا أن كون المُذكِّر رجلا منهم أقرب إلى التعقّل من كون مذكّرهم من جنس آخر من ملك أو جنّي.

{ **لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** } رُتّبت الجمل على ترتيب حصول مضمونها في الوجود، فإنّ الإنذار مقدّم لأنّه حَمْلٌ على الإقلاع عمّا هم عليه من الشرك أو الوثنية، ثم يحصل بعده العمل الصالح فتُرجى منه الرحمة.

الإنذار: تقدم عند قوله تعالى { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً } [البقرة:119].

التقوى: تقدم عند قوله تعالى { فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ } [البقرة:2].

لَعَلَّكُمْ: تقدم في قوله تعالى { لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [البقرة:21].

الرحمة: تقدّمت عند قوله تعالى { الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } [الفاتحة:3].

{ **فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ**} [64].

ضمير الجمع عائد إلى القوم، والفاء في قوله تعالى { فَأَنْجَيْنَاهُ } للتعقيب، وهو تعقيب عرفي، لأنّ التكذيب حصل بعده الوحي إلى نوح بأنّه لن يؤمن من قومه إلّا من قد آمن، ولا يُرجى زيادة مؤمن آخر، وأمره بأن يدخل الفلك ويحمل معه من آمن إلى آخر ما قصّه الله في [هود:36-49].

{ **فَأَنْجَيْنَاهُ** } قُدّم الإنجاء للاهتمام بإنجاء المؤمنين وتعجيلا لمسرّة السامعين من المؤمنين، بأنّ عادة الله إذا أهلك المشركين أن ينجّي الرّسول والمؤمنين. فالتقديم يفيد التعريض بالنذارة، وإلّا فإنّ الإغراق وقع قبل الإنجاء، إذ لا يظهر تحقّق إنجاء نوح ومن معه إلّا بعد حصول العذاب لمن لم يؤمنوا به.

{ **فِي الْفُلْكِ** } تقدّم في قوله تعالى { إن في خلق السماوات والأرض } [البقرة:164].

{ **وَالَّذِينَ مَعَهُ** } هم الذين آمنوا به، وسنذكر تعيينهم عند الكلام على قصته في سورة هود.

{ **وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنَا** } الإتيان بالموصول دون أن يقال: وأغرقنا سائرهم، أو بقيّتهم، لما تؤذن به الصلة من وجه تعليل الخبر { وَأَغْرَقْنَا }، أي: أغرقناهم لأجل تكذيبهم.

{ **إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ** } تتنزل منزلة العلّة لجملة { أَغْرَقْنَا } كما دلّ عليه حرف (إنّ) لأنّه هنا لا يقصد به رد الشكّ والتردّد، إذ لا شك فيه، وإنّما المقصود من الحرف الدلالة على الاهتمام بالخبر، ومن شأن (إنّ) إذا جاءت للاهتمام أن تقوم مقام فاء التفريع، وتفيد التعليل وربط الجملة بالتي قبلها.

{ **عَمِينَ** } جمع (عَمٍ) جمع سلامة بواو ونون، مشتقّ من العمى، وأصله فقدان البصر، ويطلق مجازا على فقدان الرأي النافع، ويقال: عمى القلب، وقد غلب في الكلام تخصيص الموصوف بالمعنى المجازي بالصفة المشبّهة لدلالتها على ثبوت الصفة، وتمكّنها بأن تكون سجيّة، ولذلك قال تعالى هنا { عَمِينَ } ولم يقل عميا كما قال في الآية الأخرى { عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً } [الاسراء:97].

{ **وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ [65] قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ [66]** }.

قُدّم المجرور على المفعول الأصلي ليتأتّى الإيجاز بالإضمار حيث أريد وصف هود بأنّه من إخوة عاد ومن صميمهم، من غير احتياج إلى إعادة لفظ عاد، ومع تجنّب عود الضمير على متأخر لفظا ورتبة.

عادٌ: أمّة عظيمة من العرب العاربة البائدة، وكانوا عشر قبائل، وقيل ثلاث عشرة قبيلة، وهم أبناء عاد بن عُوص، وعوص هو ابن إرَمَ بن سام بن نوح، كذا اصطلح المؤرّخون. وكانت منازل عاد ببلاد العرب بالشِّحْر (بكسر الشين المعجمة وسكون الحاء المهملة) من أرض اليمن وحضر موت وعمان والأحقاف، وهي الرمال التي بين حضر موت وعمان.

هود: اختُلف في نسبه، فقيل: هو من ذريّة عاد، وقيل: هو من ذريّة سام جدّ عاد، وليس من ذرية عاد.

{ **أَخَاهُمْ** } الأخ هنا مستعمل في مطلق القريب، على وجه المجاز المرسل، ومنه قولهم: يا أخا العرب.

وقد كان هود من بني عاد، ويطلق الأخ مجازا أيضا على المصاحب الملازم، كقولهم: هو أخو الحرب، ومنه قوله تعالى { إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ } [الاسراء:27]، وقوله تعالى {وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ} [لأعراف:202].

فالمراد: أنّ هودا كان من ذوي نسب قومه عاد، وإنّما وصف هود وغيره بذلك، ولم يوصف نوح بأنّه أخ لقومه، لأنّ النّاس في زمن نوح لو يكونوا قد انقسموا شعوبا وقبائل، والعرب يقولون، للواحد من القبيلة: أخو بني فلان، قصدا لعزوه ونسبته، تمييزا للنّاس إذ قد يشتركون في الأعلام.

ويؤخذ من هذه الآية ونظائرها أنّ نظام القبائل ما حدث إلّا بعد الطوفان.

{ **قَالَ يَا قَوْمِ** } فصلت ولم تعطف بالفاء كما عطف نظيرها المتقدّم في قصّة نوح، لأنّ الحال اقتضى هنا أن تكون مستأنفة استئنافا بيانيا، لأنّ قصّة هود لمّا وردت عقب قصّة نوح المذكور فيها دعوته قومه صار السامع مترقِّبا معرفة ما خاطب به هود قومه حيث بعثه الله إليهم.

{ **مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** } مستأنفة ابتدائية، وقد شابهت دعوةُ هود قومه دعوة نوح قومه في المهمّ من كلامهما، لأنّ الرّسل مرسلون من الله والحكمة من الإرسال واحدة، قال تعالى { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى } [الشورى:13].

{ **أَفَلا تَتَّقُونَ** } استفهاميّة إنكاريّة معطوفة بفاء التفريع على جملة { مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ }. والمراد بالتقوى الحذر من عقاب الله تعالى على إشراكهم غيره في العبادة واعتقاد الإلهية.

وفيه تعريض بوعيدهم إن استمروا على ذلك، ويحتمل أنّ ذلك حكاية قول من أقواله في تكرير الدعوة بعد أن دعاهم المرّة بعد المرّة ووعظهم.

{ **قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ** } وصف الملإ هنا بـ { الَّذِينَ كَفَرُوا }، دون ما في قصة نوح، وصف كاشف وليس للتقييد، تفنّنا في أساليب الحكاية، ألا ترى أنّه قد وصف ملأ قوم نوح بـ { الَّذِينَ كَفَرُوا } في [هود:7].

{ **إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ** } الرؤية هنا قلبية، أي: أنّا لنعلم أنّك في سفاهة.

السفاهة: سخافة العقل، وقد تقدّم عند قوله تعالى { قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ } [البقرة:13].

{ **لَنَظُنُّكَ** } أطلقوا الظن على اليقين، وهو استعمال كثير، كما في قوله تعالى { الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ} [البقرة:46].

وقد تشابهت أقوال قوم هود وأقوال قوم نوح في تكذيب الرّسول، لأنّ ضلالة المكذّبين متّحدة، وشبهاتهم متّحدة، كما قال تعالى { تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ } [البقرة:118].

{ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ [67] أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ [68] }.

فصلت الجملة لأنّها على طريقة المحاورة، وقد تقدّم القول فيها آنفا وفيما مضى.

وتفسير الآية تقدّم في نظيرها آنفا في قصّة نوح، إلّا أنّه قال هناك { وَأَنْصَحُ لَكُمْ } [62]، وقال في هذه { وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ }، فنوح قال ما يدلّ على أنّه غير مقلع عن النصح للوجه الذي تقدّم، وهود قال ما يدل على أن نصحه لهم وصف ثابت فيه متمكّن منه، وأنّ ما زعموه سفاهة هو نصح.

الأمين: هو الموصوف بالأمانة، والأمانة حالة في الإنسان تبعثه على حفظ ما يجب عليه من حقّ لغيره، وتمنعه من إضاعته، أو جعله لنفع نفسه، وضدّها الخيانة.

{ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [69].

{ **أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ** } هذا مماثل قول نوح لقومه، وقد تقدّم آنفا سبب المماثلة. وتقدّم تفسير نظيره. يجوز أن يكون قوله تعالى { لِيُنْذِرَكُمْ } عطفا على قوله { اعْبُدُوا } [65]، ويكون ما بينهما اعتراضا حُكي به ما جرى بينه وبين قومه من المحاورة التي قاطعوه بها عقب قوله لهم

{ اعْبُدُوا اللَّهَ } [65]، فلمّا أتمّ جوابهم عمّا قاطعوا به كلامه عاد إلى دعوته، فيكون رجوعا إلى الدعوى.

{ **وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** }

انتقل من أمرهم بالتوحيد إلى تذكيرهم بنعمة الله عليهم التي لا ينكرون أنّها من نعم الله دون غيره، لأن الخلق والأمر لله لا لغيره، تذكيرا من شأنه إيصالهم إلى إفراد الله تعالى بالعبادة. وإنّما أمرهم بالذُّكر (بضم الذال) لأنّ النفس تنسى النعم فتكفر المنعِم، فإذا تذكّرت النعمة رأت حقًّا عليها أن تشكر المنعِم، ولذلك كانت مسألة شكر المنعم من أهم مسائل التكليف.

{ **خُلَفَاءَ** } جمع خليفة وهو الذي يخلف غيره في شيء، أي: يتولّى عمل ما كان يعمله الآخر، وقد تقدّم عند قوله تعالى { إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً } [البقرة:30]. فالمراد: جعلكم خلفاء في تعمير الأرض.

{ **مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ** } المقصود أنّهم خلفاء قوم نوح، فعاد أوّل أمّة اضطلعت بالحضارة بعد الطوفان، وليس المراد أنّهم خلفوا قوم نوح في ديارهم لأنّ منازل عاد غير منازل قوم نوح عند المؤرّخين.

وهذا التذكير تصريح بالنعمة وتعريض بالنذارة والوعيد بأنّ قوم نوح إنّما استأصلهم وأبادهم عذاب من الله على شركهم، فمن اتّبعهم في صنعهم يوشك أن يحلّ به عذاب أيضا.

{ **الْخَلْقُ** } يحتمل أن يكون مصدرا خالصا، ويحتمل أن يكون بمعنى اسم المفعول، وهو يستعمل في

المعنيين.

{ **بَصْطَةً** } ثبت في المصاحف بصاد قبل الطاء وهو مرادف بسطة الذي هو بسين قبل الطاء.

البصطة: الوفرة والسعة في أمر من الأمور.

فإن كان { الْخَلْقُ } بمعنى المصدر، فالبصطة الزيادة في القوى الجبليّة، أي: زادهم قوة في عقولهم وأجسامهم فخلقهم عقلاء أصحاء، وقد اشتهر عند العرب نسبة العقول الراجحة إلى عاد، ونسبة كمال قوى الأجسام إليهم قال النابغة:

أحلام عاد واجسام مطهّرة ... من المعقة والآفات والإثِمِ

وقال وَدّاك بن ثُمَيْل المازني في الحماسة:

وأحلام عاد لا يخاف جليسهم ... ولو نطق العوّار غَرْبَ لسان

وإن كان { الخَلْقُ } بمعنى النّاس، فالمعنى: وزادكم بصطة في النّاس بأن جعلكم أفضل منهم فيما تتفاضل به الأمم من الأمور كلّها، فيشمل رجحان العقول وقوّة الأجسام وسلامتها من العاهات والآفات وقوّة البأس.

وقد نسبت الدروع وكذلك السيوف إلى عاد، فيقال لها: العاديّة. وقد قال الله تعالى حكاية عنهم { وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً } [فصلت:15]، وحكى في سورة الشعراء عن هود أنّه قال لهم { وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ، وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ، وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ، أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ، وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ } [الشعراء:129-134].

{ **فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ** } الفاء فصيحة، أي: فاذكروا نعمه الكثيرة تفصيلا، فالكلام جاء على طريقة القياس من الاستدلال بالجزئي على إثبات حكم كلّي، فإنّه ذكّرهم بنعمة واضحة وهي كونهم خلفاء، ونعم مجملة وهي زيادة بصطتهم، ثم ذكّرهم بقية النعم بلفظ العموم وهو الجمع المضاف.

الآلاء: جمع (إِلَى) والإِلَى النّعمة، وهذا مثل جمع عنب على أعناب، ونظيره جمع إِنَى (بالنون)، وهو الوقت، على آناء، قال تعالى { غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ } [الأحزاب:53]، أي: وقته، وقال تعالى { وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ } [طه:130].

{ **لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** } رُتّب على ذكر نعم الله رجاء أن يفلحوا لأنّ ذكر النعم يؤدّي إلى تكرير شكر المنعم، فيحمل المنعم عليه على مقابلة النعم بالطاعة.

{ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ [70] قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ [71] }.

جاوبوا هودا بما أنبأ عن ضياع حجّته في جنب ضلالة عقولهم ومكابرة نفوسهم، ولذلك أعادوا تكذيبه بطريق الاستفهام الإنكاري على دعوته للتوحيد، وهذا الجواب أقل جفوة وغلظة من جوابهم الأوّل، إذ قالوا { إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ } [66]، كأنّهم راموا استنزال نفس هود ومحاولة إرجاعه عمّا دعاهم إليه، فلذلك اقتصروا على الإنكار وذكّروه بانّ الأمر الذي أنكره هو دين آباء الجميع تعريضا بأنّه سفّه آباءه. وهذا المقصد هو الذي اقتضى التعبير عن دينهم بطريق الموصوليّة في قولهم { مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا } إيماء إلى وجه الإنكار عليه، وإلى أنّه حقيق بمتابعة دين آبائه، كما قال الملأ من قريش لأبي طالب حين دعاه النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يقول (لا إله إلا الله) عند احتضاره، فقالوا لأبي طالب: أترغب عن ملّة عبد المطلب.

{ **يَعْبُدُ** } التعبير بالفعل وكونه مضارعا ليدل على أنّ ذلك متكرّر من آبائهم ومتجدّد وأنّهم لا يفترون عنه.

{ **أَجِئْتَنَا** } استعير فعل المجيء هنا لمعنى الاهتمام والتحقّز والتصلّب.

{ **وَنَذَرَ** } تقدّم عند قوله تعالى { وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً } [الأنعام:70].

{ **فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا** } الفاء لتفريع طلب تحقيق ما توعّدهم به، وتحدّيا لهود، وإشعارا له بأنّهم موقنون بأن لا صدق للوعيد الذي يتوعّدهم، فلا يخشون ما وعدهم به من العذاب. فالأمر { فَأْتِنَا } للتعجيز.

الإتيان بالشيء: حقيقته أن يجيء مصاحبا إيّاه، ويستعمل مجازا في الإحضار والإثبات كما هنا.

والمعنى فعجّل لنا ما تعدنا به من العذاب، أو فحقّق لنا ما زعمت من وعيدنا.

وأسندوا الفعل إلى ضميره، تعريضا بانّ ما توعّدهم به هو شيء من مختلقاته وليس من قبل الله تعالى.

والوعد الذي أرادوه وعد بالشر، وهو الوعيد. ولم يتقدّم ما يفيد أنّه توعّدهم بسوء، فيحتمل أن يكون وعيدا ضمنيا تضمنه قوله { أَفَلا تَتَّقُونَ } [65].

{ **إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** } عقّبوا كلامهم بالشرط استقصاء لمقدرته، قصدا منهم لإظهار عجزه عن الإتيان بالعذاب فلا يسعه إلّا الاعتراف بأنّه كاذب، وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله، تقديره: أتيت به وإلّا فلست بصادق.

{ **قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ** } أجابهم بأن أخبرهم بأنّ الله قد غضب عليهم، وأنّهم وقع عليهم رجس من الله.

{ **وَقَعَ** } الأظهر أنّ معناه حقّ وثبت، من قولهم للأمر المحقّق: هذا واقع، وللأمر المكذوب: هذا غير واقع.

الرجس: هو الشيء الخبيث، أطلق هنا مجازا على خبث الباطن، أي: فساد النفس كما في قوله { فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ } [توبة:125].

المعنى: أصاب الله نفوسهم بالفساد لكفرهم، فلا يقبلون الخير ولا يصيرون إليه.

وعن ابن عباس أنّه فسَّر الرجس هنا باللعنة، والجمهور فسّروا الرجس هنا بالعذاب، فيكون فعل { وَقَعَ } من استعمال صيغة الماضي في معنى الاستقبال، إشعارا بتحقيق وقوعه.

ومنهم من فسَّر الرجس بالسخط، وفسَّر الغضب بالعذاب، على أنّه مجاز مرسل، لأنّ العذاب أثر الغضب.

غضب الله: تقديره الإبعاد والعقوبة والتحقير، وهي آثار الغضب في الحوادث، لأنّ حقيقة الغضب: انفعال تنشأ عنه كراهية المغضوب عليه وإبعاده وإضراره.

{ **عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ** } تقديم المفعول على الفاعل للاهتمام بتعجيل ذكر المغضوب والغاضب، إيقاظا لبصائرهم لعلّهم يبادرون بالتوبة، ولأنّ المجرورين متعلقان بالفعل فناسب إيلاؤهما إيّاه.

{ **أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ** } لمّا قدّم إنذارهم بغضب الله عاد إلى الاحتجاج عليهم بفساد معتقدهم، فأنكر عليهم أن يجادلوا في شأن أصنامهم.

المجادلة: المحاجّة.

{ **فِي أَسْمَاءٍ** } عبَّر عن الأصنام بأنّها أسماء، أي: هي مجرّد أسماء ليست لها الحقائق التي اعتقدوها ووضعوا لها الأسماء لأجل استحضارها. فلعلّ بعض آلهة عاد كان مجرّد اسم يذكرونه بالإلهية ولا يجعلون له تمثالا ولا نصبا، مثل ما كانت العزى عند العرب، فقد قيل: إنّهم جعلوا لها بيتا ولم يجعلوا لها نصبا، وقد قال الله تعالى في ذلك { إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ } [النجم:23].

وذكر أهل الأخبار أن عادا اتخذوا أصناما ثلاثة وهي: (**صَمود / صُداء / الهباء**).

{ **سَمَّيْتُمُوهَا** } ليس المراد من التسمية في الآية وضع الإسم للمسمّى، كما يقال: سمّيت ولدي كذا، لأنّ المخاطبين وكثيرا من آبائهم لا حظ لهم في تسمية الأصنام، وإنّما ذلك من فعل بعض الآباء وهم الذين انتحلوا الشرك واتخذوه دينا وعلّموه أبناءهم وقومهم، ولأجل هذا المعنى المقصود من التسمية لم يذكر لفعل (سمّيتم) مفعول ثان ولا متعلّق، بل اقتصر على مفعول واحد.

{ **وَآبَاؤُكُمْ** } لأنّ من آباءهم من وضع لهم تلك الأسماء، فالواضعون وضعوا وسمّوا، والمقلّدون سمّوا ولم يضعوا، واشتراك الفريقان في أنّهم يذكرون أسماء لا مسمّيات لها.

السلطان: الحجّة التي يصدّق بها المخالف، سمّيت سلطانا لأنّها تتسلّط على نفس المعارض وتقنعه.

ونفى أن تكون الحجّة منزلة من الله، لأنّ شأن الحجّة في مثل هذا أن يكون مخبرا بها من جانب الله تعالى، لأنّ أمور الغيب ممّا استأثر الله بعلمه. وأعظم المغيّبات ثبوت الإلهية لأنّه قد يقصر العقل عن إدراكها فمن شأنها أن تُتلقى من قبل الوحي الإلهي.

{ **فَانْتَظِرُوا** } الفاء لتفريع هذا الإنذار والتهديد السابق، لأنّ وقوع الغضب والرجس عليهم، ومكابرتهم واحتجاجهم ممّا لا حجّة له، ينشأ عن ذلك التهديد بانتظار العذاب. وصيغة الأمر للتهديد مثل { اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ } [فصلت:40]. و**الانتظار**: افتعال من النظر بمعنى الترقّب، كأنّ المخاطب أُمر بالترقب فارتقب. والمفعول محذوف دل عليه قوله تعالى { رِجْسٌ وَغَضَبٌ } [71]، أي: فانتظروا عقابا.

{ **إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ** } هذا مقام أدب مع الله تعالى كقوله تعالى تلقينا لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم { وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ } [الأحقاف:9].

فهود يخاف أن يشمله العذاب النازل بقومه وذلك جائز كما في الحديث أنّ أم سلمة قالت: أنهلك وفينا الصالحون قال: " **نعم إذا كثُر الخبث** ". وفي الحديث الآخر: " **ثمّ يحشرون على نيّاتهم** ".

<u>ويجوز</u> أن ينزل بهم العذاب ويراه هود ولكنّه لا يصيبه، وقد روي ذلك في قصّته.

<u>ويجوز</u> أن يبعده الله، وقد روي أيضا في قصّته بأن أمره بمبارحة ديار قومه قبل نزول العذاب.

{ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ } [72].

الفاء للتعقيب، أي: فعجّل الله استئصال عاد ونجّى هودا و المؤمنين من قومه، فالمعقَّب به هو قطع دابر عاد، و جرى النظم على خلاف مقتضى الظاهر للاهتمام بتعجيل الإخبار بنجاة هود ومن آمن معه، على نحو ما قرّرته في قصة نوح { فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا } [64].

{ **فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ** } المعيّة هي المصاحبة في الدين، وهي معية مجازيّة. <u>قيل:</u> إنّ الله تعالى أمر هودا ومن معه بالهجرة إلى مكّة قبل أن يحلّ العذاب بعاد، وإنّه توفي هنالك ودفن في الحجر، **ولا أحسب هذا ثابتا** لأنّ مكّة إنّما بناها إبراهيم، وظاهر ما في سورة هود أنّ بين عاد وإبراهيم زمنا طويلا، <u>والأظهر</u> أنّ النجاة كانت بالأمر بالهجرة إلى مكان بعيد عن العذاب، وروي عن علي أنّ قبر هود بحضر موت **وهذا أقرب**.

{ **بِرَحْمَةٍ مِنَّا** } <u>الباء فيه للسببية</u>، وتنكير { رَحْمَةٍ } للتعظيم، وكذلك وصفها بأنّها من الله للدلالة على كمالها. <u>ويجوز أن تكون للمصاحبة</u>، أي: فأنجيناه ورحمناه، فكانت الرحمة مصاحبة لهم إذ كانوا بمحل اللطف والرفق حيثما حلوا إلى انقضاء آجالهم، وموقع { مِنَّا } على هذا الوجه موقع رشيق جدا يؤذن بأن الرحمة غير منقطعة عنهم كقوله تعالى { فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا } [الطور:48].

{ **وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا** } نظير قوله تعالى { فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا } [الأنعام:45].

وقد أرسل عليهم الريح الدبور فأفناهم جميعا ولم يبق منهم أحد. والظاهر أنّ الذين أنجاهم الله منهم لم يكن لهم نسل. وأمّا الآية فلا تقتضي إلّا انقراض نسل الذين كذّبوا ونزل بهم العذاب.

{ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ } عطف على { كَذَّبُوا } فهو من الصلة، وفائدة عطفه الإشارة إلى أنّ كلتا الصلتين موجب لقطع دابرهم؛ وهما التكذيب والإشراك، تعريضا بمشركي قريش، ولموعظتهم ذكرت هذه القصص. وقد كان ما حل بعاد من الاستئصال تطهيرا أوّل لبلاد العرب من الشرك.

{ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [73].

{ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ } القول في تفسيرها مثل ما في قوله تعالى { وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً } [65].

ثمود: أمّة عظيمة من العرب البائدة، وهم أبناء ثمود بن جاثر ابن إرم بن سام بن نوح، فيلتقون مع عاد في إرم، وكانت مساكنهم بالحِجْر بين الحجاز والشام، وهو المكان المسمّى الآن مدائن صالح.

وسُمِّي في حديث غزوة تبوك: **حِجْرَ ثَمُودَ**.

صالح: هو ابن عَبيل ابن آسف بن ماشج أو شالخ بن عبيل بن جاثر (ويقال: كاثر) ابن ثمود.

وثمود هنا ممنوع من الصرف لأنّ المراد به القبيلة لا جدّها. وأسماء القبائل ممنوعة من الصرف على اعتبار التأنيث مع العلمية وهو الغالب في القرآن، وقد ورد في بعض آيات القرآن مصروفا كما في قوله تعالى { أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ } [هود:68] على اعتبار الحي.

{ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ } يدلّ على أنّ ثمود كانوا مشركين، وقد صُرّح بذلك في آيات سورة هود وغيرها. والظاهر أنّهم عبدوا الأصنام التي عبدتها عاد، لأنّ ثمود وعادا أبناء نسب واحد.

<u>قال المفسرون</u>: إنّ ثمود قامت بعد عاد فنمت وعظمت واتّسعت حضارتها، وكانوا موحّدين، ولعلّهم اتعظوا بما حلّ بعاد، ثم طالت مدّتهم ونعم عيشهم فعتوا ونسوا نعمة الله وعبدوا الأصنام، فأرسل الله إليهم صالحا رسولا يدعوهم إلى التوحيد فلم يتّبعه إلّا قليل منهم مستضعفون، وعصاه سادتهم وكبراؤهم.

وذُكر في آية سورة هود أنّ قومه لم يغلظوا له القول كما أغلظت قوم نوح وقوم هود لرسولهم، { قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ } [هود:62]. وتدلّ آيات القرآن وما فُسِّرت به من القصص على أن صالحا أجّلهم مدّة للتأمّل وجعل الناقة لهم آية، وأنّهم تَارَكوها ولم يُهيجوها زمنا طويلا.

فقد أشعرت مجادلتهم صالحا في أمر الدين على أنّ التعقّل في المجادلة أخذ يدبّ في نفوس البشر، وأنّ

علواءهم في المكابرة أخذت تقصر، وأنّ قناة بأسهم ابتدأت تلين، للفرق الواضح بين جواب قوم نوح وقوم هود، وبين جواب قوم صالح. ومن أجل ذلك أمهلهم الله لينظروا ويفكّروا فيما يدعوهم إليه نبيّهم، وليزنوا أمرهم، وجعل لهم الانكفاف عن مسّ الناقة بسوء علامة على امتداد الإمهال، لأنّ إنكفافهم ذلك علامة على أنّ نفوسهم لم تحنق على رسولهم، فرجاؤه إيمانهم مستمر، والإمهال لهم أقطع لعذرهم، وأنهض بالحجّة عليهم، فلذلك أخر الله العذاب عنهم إكراما لنبيّهم الحريص على إيمانهم بقدر الطاقة.

{ **قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ** } هي من مقول صالح في وقت غير الوقت الذي ابتدأ فيه بالدعوة، لأنّه قد طوي هنا جواب قومه وسؤالهم إيّاه آية، كما دلّت عليه آيات سورة هود وسورة الشعراء:

ففي سورة هود { قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا} [هود:62].

وفي سورة الشعراء { قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ، مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ، قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ } [الشعراء:153-155].

فالجملة تعليل لقوله { اعْبُدُوا اللَّهَ }، أي: اعبدوه وحده لأنّه جعل لكم آية على تصديقي فيما بلَّغت لكم، وعلى انفراده بالتصرّف في المخلوقات.

البيّنة: الحجّة على صدق الدّعوى، فهي ترادف الآية.

{ **هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً** } يقتضي أنّ الناقة كانت حاضرة عند قوله { قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ } لأنّها البيّنة.

وإضافة ناقة إلى اسم الله تعالى تشريف لها، لأنّ الله أمر بالإحسان إليها وعدم التعرّض لها بسوء، وعظّم حرمتها، كما يقال: الكعبة بيت الله. أو لأنّها وُجدت بكيفيّة خارقة للعادة، كما قيل: عيسى كلمة الله.

{ **لَكُمْ** } أي: هي آية مقنعة لكم، ومجعولة لأجلكم.

{ **فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ** } إضافة أَرْضِ إلى اسم الجلالة المقصود منه أنّ للناقة حقا في الأكل من نبات الأرض، لأنّ الأرض لله وتلك الناقة من مخلوقاته فلها الحقّ في الانتفاع بما يصلح لانتفاعها.

{ **وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ** } أي: بسوء يعوقها عن الرعي إمّا بموت أو بجرح.

وقد جعل الله سلامة تلك الناقة علامة على سلامتهم من عذاب الاستئصال للحكمة التي قدمتها آنفا، وأنّ ما أوصى الله به في شانها شبيه بالحرم، وشبيه بحمى الملوك، لما فيه من الدلالة على تعظيم نفوس القوم لمن تنسب إليه تلك الحرمة.

{ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ } [74].

القول فيه كالقول في قوله تعالى { وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ } [69].

{ **وَبَوَّأَكُمْ** } أي: أنزلكم، مشتق من البَوْء وهو الرجوع، لأنّ المرء يرجع إلى منزله ومسكنه، وتقدّم في قوله تعالى { تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ } [آل عمران:121]

{ **فِي الْأَرْضِ** } يجوز أن يكون التعريف للعهد، أي: في أرضكم هذه، وهي أرض الحِجر، ويجوز أن يكون للجنس، لأنّه لما بوّأهم في أرض معينة فقد بوّأهم في جانب من جوانب الأرض.

السهول: جمع سهل، وهو المستوي من الأرض، وضدّه الجبل.

القصور: جمع قصر وهو المسكن، وهذا يدل على أنّهم كانوا يشيّدون القصور، وآثارهم تنطق بذلك.

النحت: بَرْي الحجر والخشب بآلة على تقدير مخصوص.

{ **بُيُوتاً** } انتصب على الحال من الجبال، أي: صائرة بعد النحت بيوتا، كما يقال: خِطْ هذا الثوب قميصا، وابْرِ هذه القصبة قلما، لأنّ الجبل لا يكون حاله حال البيوت وقت النحت، ولكن يصير بيوتا بعد النحت.

قيل: كانوا يسكنون في الصيف القصور، وفي الشتاء البيوت المنحوتة في الجبال.

{ **فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ** } تفريع على قوله { وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ } تفريع الأعمّ على الأخصّ، لأنّه أمرهم بذكر نعمتين، ثمّ أمرهم بذكر جميع النعم التي لا يحصونها، فكان هذا بمنزلة التذييل. وتذكُّر الآلاء يبعث على الشكر والطاعة وترك الفساد، فلذلك عُطف نهيهم عن الفساد في الأرض على الأمر بذكر آلاء الله.

{ **وَلَا تَعْثَوْا** } معناه ولا تفسدوا، يقال: عَثِيَ كرَضِيَ، وهذا الأفصح، ويقال عثا يعثو عثوا. والعَثْيُ والعَثْوُ كلّه بمعنى أفسد أشدّ الإفساد.

{ **مُفْسِدِينَ** } حال مؤكدة لمعنى { تَعْثَوْا }.

{ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ [75] قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ [76] }.

عدل الملأ الذين استكبروا عن مجادلة صالح عليه السلام إلى اختبار تصلّب الذين آمنوا به في إيمانهم، ومحاولة إلقاء الشكّ في نفوسهم. ولمّا كان خطابهم للمؤمنين مقصودا به إفساد دعوة صالح عليه السلام كان خطابهم بمنزلة المحاورة مع صالح عليه السلام، فلذلك فصلت جملة حكاية قولهم على طريقة فصل جمل حكاية المحاورات، كما قدّمناه غير مرة آنفا وفيما مضى.

{ **الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ** } تقدّم تفسير الملأ قريبا. ووصفهم بالذين استكبروا هنا لتفظيع كبرهم وتعاظمهم على عامة قومهم واستذلالهم إيّاهم، وللتنبيه على أنّ الذين آمنوا بما جاءهم به صالح عليه السلام هم ضعفاء قومه.

واختيار طريق الموصوليّة في وصفهم، ووصف الآخرين بالذين استضعفوا لما تومئ إليه الصلة من وجه صدور هذا الكلام منهم، أي: أنّ استكبارهم هو صارفهم عن طاعة نبيهم، وأنّ احتقارهم المؤمنين هو الذي لم يسغ عندهم سبقهم إيّاهم إلى الخير والهدى.

{ **لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا** } هم عامة النّاس الذين أذلّهم عظماؤهم واستعبدوهم لأنّ زعامة الذين استكبروا كانت قائمة على السيادة الدنيويّة الخالية عن خلال الفضيلة؛ من العدل والرأفة وحبّ الإصلاح، فلذلك وصف الملأ بالذين استكبروا، وأطلق على العامة وصف الذين استضعفوا.

{ **لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ** } بدل من { لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا } بإعادة حرف الجر الذي جرّ بمثله المبدل منه.

{ **أَتَعْلَمُونَ** } الاستفهام للتشكيك والإنكار، أي: ما نظنّكم آمنتم بصالح عن علم بصدقه، ولكنّكم اتبعتموه عن عمى وضلال غير موقنين، وفي ذلك شَوب من الاستهزاء.

{ **قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ** } جيء في الجواب بالجملة الاسمية للدلالة على أنّ الإيمان متمكّن منهم بمزيد الثبات، فلم يتركوا للذين استكبروا مطمعا في تشكيكهم، بله صرفهم عن الإيمان برسولهم.

وأُكِّد الخبر بحرف (**إنّ**) لإزالة ما توهّموه من شك الذين استكبروا في صحة إيمانهم.

وهذا من بليغ الإيجاز المناسب لكون نسج هذه الجملة من حكاية القرآن لا من المحكي من كلامهم إذ لا يظنّ أن كلامهم بلغ من البلاغة هذا المبلغ.

{ **إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ** } تدلّ على تصلّبهم في كفرهم وثباتهم فيه، إذ صيغ كلامهم بالجملة الاسمية المؤكدة.

{ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ [77] فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ [78] }.

الفاء للتعقيب، لحكاية قول الذين استكبروا { إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ }، وذلك أنّهم حين قالوا ذلك كانوا قد صدعوا بالتكذيب، وصمّموا عليه، وعجزوا عن المحاجة والاستدلال، فعزموا على المصير إلى النكاية والإغاظة لصالح عليه السلام ومن آمن به، ورسموا لابتداء عملهم أن يعتدوا على الناقة التي جعلها صالح عليه السلام لهم، وأقامها بينه وبينهم علامة موادعة ما داموا غير معترضين لها بسوء.

{ **فَعَقَرُوا** } الضمير عائد إلى { الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا }، وقد أسند العقر إليهم وإن كان فاعله واحدا منهم لأنّه كان عن تمالُئ ورضى من جميع الكبراء، كما دلّ عليه قوله تعالى { فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ } [القمر:29].

وفي حديث البخاري أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ذكر في خطبته الذي عقر الناقة فقال:" **انبعث لها رجل عزيز عَارِمٍ** (أي: جبّار) **منيع في رهطه مثل أبي زمعة** (هو الأسود بن المطلب القرشي مات كافرا) ".

العقر: حقيقته الجرح البليغ. ويطلق العقر على قطع عضو الحيوان، ومنه قولهم، عَقَرَ حمارَ وحش، أي: ضربه بالرمح فقطع منه عضوا، وكانوا يعقرون البعير المراد نحره بقطع عضو منه حتى لا يستطيع الهروب عند النحر، فلذلك أطلق العقر على النحر على وجه الكناية.

العُتوّ: تجاوز الحد في الكبر، وتعديته بـ (عن) لتضمينه معنى الإعراض.

{ **أَمْرِ رَبِّهِمْ** } ما أمرهم به على لسان صالح عليه السلام { وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ }، فعُبّر عن النهي بالأمر لأنّ النهي عن الشّيء مقصود منه الأمر بفعل ضدّه، ولذلك يقول علماء الأصول: إنّ النهي عن الشّيء يستلزم الأمر بضدّه الذي يحصل به تحقّق الكفّ عن المنهي عنه.

{ **بِمَا تَعِدُنَا** } العذاب الذي توعّدهم به مجملا.

{ **فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ** } معترضة بين جملة { فَعَقَرُوا النَّاقَةَ } وبين جملة { فَتَوَلَّى عَنْهُمْ } [79] أريد باعتراضها التعجّل بالخبر عن نفاذ الوعيد فيهم. أي: لم يكن بين العقر وبين الرجفة زمن طويل، كان بينهما ثلاثة أيام، كما ورد في سورة هود { فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ } [65].

الأخذ: أصله تناول شيء باليد، ويُستعمل مجازا في ملك الشيء، بعلاقة اللزوم، ويُستعمل أيضا في القهر كقوله تعالى { فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ } [الأنفال:52].

ولا شك أن الله نجّى صالحا عليه السلام والذين آمنوا معه، كما في آية سورة هود. وقد روي أنّه خرج في مائة وعشرة من المؤمنين، فقيل: نزلوا رملة فلسطين، وقيل: تباعدوا عن ديار قومهم بحيث يرونها، فلمّا أخذتهم الرجفة وهلكوا عاد صالح عليه السلام ومن آمن معه فسكنوا ديارهم.

ومن أهل الأنساب من يقول: إنّ ثقيفا من بقايا ثمود، أي: من ذريّة من نجا منهم من العذاب.

ولم يذكر القرآن أنّ ثمودا انقطع دابرهم، فيجوز أن تكون منهم بقية.

الرجفة: اضطراب الأرض وارتجاجها، فتكون من حوادث سماوية كالرياح العاصفة والصواعق، وتكون من أسباب أرضية كالزلزال، فالرجفة اسم للحالة الحاصلة، وقد سمّاها في سورة هود بالصيحة فعلمنا أنّ الذي أصاب ثمود هو صاعقة أو صواعق متوالية رجفت أرضهم وأهلكتهم، ويحتمل أن تقارنها زلازل أرضيّة.

الجاثم: المكبّ على صدره في الأرض مع قبض ساقيه كما يجثوا الأرنب، ولمّا كان ذلك أشدّ سكونا وانقطاعا عن اضطراب الأعضاء استعمل في الآية كناية عن همود الجثّة بالموت، ويجوز أن يكون المراد تشبيه حالة وقوعهم على وجوههم حين صعقوا بحالة الجاثم تفظيعا لهيئة ميتتهم، والمعنى أنّهم أصبحوا جثثا هامدة ميّتة على أبشع منظر لميت.

{ **فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ**} [79].

التولّي: الانصراف عن فراق وغضب، ويطلق مجازا على عدم الاكتراث بالشيء، وهو هنا يحتمل أن يكون حقيقة، فيكون المراد به أنّه فارق ديار قومه حين علم أنّ العذاب نازل بهم.

ويحتمل أن يكون مجازا بقرينة الخطاب أيضا، أي: فأعرض عن النظر إلى القرية بعد أصابتها بالصاعقة، أو فأعرض عن الحزن عليهم.

{ **لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ** } تفسيره مثل تفسير قوله في قصّة نوح عليه السلام { أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ } [62].

{ **وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ** } الاستدراك مستعمل في التبرؤ من التقصير في معالجة كفرهم، سواء كان بحيث هم يسمعونه أم كان قاله في نفسه.

{ **وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ** [80] **إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ** [81] }.

تغيير الأسلوب في ابتداء قصّة لوط وقومه، إذ ابتدئت بذكر لوط كما ابتدئت قصة نوح بذكر نوح، لأنّه لم يكن لقوم لوط اسم يعرفون به، كما لم يكن لقوم نوح اسم يعرفون به.

وقوم لوط كانوا خليطا من الكنعانيين وممّن نزل حولهم. ولذلك لم يوصف بأنّه أخوهم إذ لم يكن من قبائلهم، وإنّما نزل فيهم واستوطن ديارهم.

لوط عليه السلام: هو ابن أخي إبراهيم عليه السلام كما تقدّم في سورة الأنعام.

والقوم الذين أرسل إليهم لوط عليه السلام: هم أهل قرية سدوم و عمورة من أرض كنعان، وربما أطلق اسم سدوم وعمورة على سكّانها. وهم أسلاف الفينيقيين وكانتا على شاطئ السديم، وهو بحر الملح، كما جاء في التوراة [سفر التكوين، الاصحاح:14] وهو البحر الميّت، المدعو بحيرة لوط بقرب أرشليم.

وكانوا قد أحدثوا فاحشة استمتاع الرجال بالرجال، فأمر الله لوطا عليه السلام لمّا نزل بقريتهم سدوم في رحلته مع عمّه إبراهيم عليه السلام أن ينهاهم ويغلظ عليهم.

{ **أَتَأْتُونَ** } استفهام إنكاري توبيخي، والإتيان المستفهم عنه مجاز في التلبّس والعمل، أي: أتعملون الفاحشة، وهي كناية مشهورة.

الفاحشة: الفعل الدنيء الذميم، وقد تقدّم عند تفسير قوله تعالى { وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً } [28]. والمراد هنا فاحشة معروفة، فالتعريف للعهد.

{ **مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ** } السبق حقيقته وصول الماشي إلى مكان مطلوب له ولغيره قبل

وصول غيره، ويُستعمل مجازا في التقدّم في الزمان، أي: الأوّليّة والابتداء، وهو المراد هنا، والمقصود أنّهم سبقوا النّاس بهذه الفاحشة.

{ **إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ** } مبيّنة لجملة { أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ }، والتأكيد بـ (إنّ واللام) كناية عن التوبيخ.

الشهوة: الرغبة في تحصيل شيء مرغوب، وهي مصدر شَهِيَ كرَضِيَ.

{ **مِنْ دُونِ النِّسَاءِ** } زيادة في التفظيع وقطع للعذر في فعل هذه الفاحشة، وليس قيدا للإنكار، فليس إتيان الرجال مع إتيان النساء بأقلّ من الآخر فظاعة، ولكن المراد أنّ إتيان الرجال كله واقع في حالة من حقها إتيان النساء، كما قال في الآية الأخرى { وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ } [الشعراء:166].

{ **بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ** } للانتقال من غرض الإنكار إلى غرض الذم والتحقير، والتنبيه إلى حقيقة حالهم.

الإسراف: مجاوزة العمل مقدار أمثاله في نوعه، أي: المسرفون في الباطل والجرم، وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً } [النساء:6]، وعند قوله تعالى { وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ } [الأنعام:141].

ووصفهم بالإسراف بطريق الجملة الاسمية الدالة على الثبات، أي: أنتم قوم تمكّن منهم الإسراف في الشهوات فلذلك اشتهوا شهوة غريبة لمّا سئموا الشهوات المعتادة. وهذه شنشنة الاسترسال في الشهوات حتّى يصبح المرء لا يشفي شهوته شيء، ونحوه قوله عنهم في آية أخرى { بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ } [الشعراء:166].

ووجه تسمية هذا الفعل الشنيع فاحشة وإسرافا أنّه يشتمل على مفاسد كثيرة:

منها استعمال الشهوة الحيوانية المغروزة في غير ما غُرزت عليه، لأنّ الله خلق في الإنسان الشهوة الحيوانية لإرادة بقاء النوع بقانون التناسل، حتّى يكون الداعي إليه قهري ينساق إليه الإنسان بطبعه، فقضاء تلك الشهوة في غير الغرض الذي وضعها الله لأجله اعتداء على الفطرة وعلى النوع.

ولأنه يغيّر خصوصية الرُجلة بالنسبة إلى المفعول به، إذ يُجعل آلة لقضاء شهوة غيره على خلاف ما وضع الله في نظام الذكورة والأنوثة من قضاء الشهوتين معا.

ولأنّه مفضٍ إلى قطع النسل أو تقليله.

وحدثت هذه الفاحشة بين المسلمين في خلافة أبي بكر من رجل يُسمَّى (الفجَاءة)، كتب فيه خالد بن الوليد إلى أبي بكر الصديق أنّه عمل عمل قوم لوط، وإذ لم يُحفظ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فيها حدّ معروف جمع أبو بكر أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم واستشارهم فيه، فقال علي: أرى أن يُحرق بالنار، فاجتمع رأي الصحابة على ذلك فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد أن يحرقه فأحرقه.

وروى أبو داود والترمذي، عن عكرمة عن ابن عباس، والترمذي عن أبي هريرة، وقال: في إسناده مقال، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّه قال: " من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل

والمفعول به " وهو **حديث غريب** لم يرو عن غير عكرمة عن ابن عباس وقد علمت استشارة أبي بكر في هذه الجريمة، ولو كان فيها سند صحيح لظهر يومئذ.

{ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ } [82].

المعنى: أنّهم أُفحموا عن ترويج شنعتهم والمجادلة في شأنها، وابتدروا بالتآمر على إخراج لوط عليه السلام وأهله من القرية، لأنّ لوطا عليه السلام كان غريبا بينهم وقد أرادوا الاستراحة من إنكاره عليهم.

الجواب: الكلام الذي يقابل به كلام آخر، تقريرًا أو ردًّا أو جزاءً.

{ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ } علّة للأمر بالإخراج، وذلك شأن (إنّ) إذا جاءت في مقام لا شكّ فيه ولا إنكار، بل كانت لمجرد الاهتمام، فإنّها تفيد مفاد فاء التفريع وتدلّ على الربط والتعليل.

التطهّر: تكلّف الطّهارة. وحقيقتها النظافة، وتطلق الطهارة مجازا على تزكية النفس والحذر من الرذائل وهي المراد هنا، وتلك صفة كمال، لكن القوم لما تمرّدوا على الفسوق كانوا يعُدّون الكمال منافرا لطباعهم، فلا يطيقون معاشرة أهل الكمال، ويذمّون ما لهم من الكمالات فيسمونها ثقلا، ولذا وصفوا تنزه لوط عليه السلام وآله تطهّرا، بصيغة التكلّف والتصنع.

ويجوز أن يكون حكاية لما في كلامهم من التهكّم بلوط عليه السلام وآله، وهذا من قلب الحقائق لأجل مشايعة العوائد الذميمة، وأهل المجون والانخلاع يسمّون المتعفّف عن سيرتهم بالتائب أو نحو ذلك، فقولهم { إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ } قصدوا به ذمّهم.

{ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ [83] وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ [84] }.

{ فَأَنْجَيْنَاهُ } قُدّم الخبر بإنجاء لوط عليه السلام على الخبر بإمطارهم مطر العذاب، لقصد إظهار الاهتمام بأمر إنجاء لوط عليه السلام، ولتعجيل المسرّة للسامعين من المؤمنين، فتطمئن قلوبهم لحسن عواقب أسلافهم من مؤمني الأمم الماضية، فيعلموا أنّ تلك سنة الله في عباده، وقد تقدّم بيان ذلك عند قوله تعالى { فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ } [64].

أهل لوط عليه السلام، هم زوجه وابنتان له بكران، وكان له ابنتان متزوجتان كما ورد في التوراة امتنع زوجاهما من الخروج مع لوط عليه السلام فهلكتا مع أهل القرية.

وأمّا امرأة لوط عليه السلام فقد أخبر الله عنها هنا أنّ الله لم ينجها، فهلكت مع قوم لوط.

وذُكر في [هود:81] ما ظاهره أنّها لم تمتثل ما أمر الله لوطا عليه السلام أن لا يلتفت هو ولا أحد من أهله الخارجين معه إلى المدن حين يصيبها العذاب فالتفتت امرأته فأصابها العذاب.

وذُكر في [التحريم:10] أنّ امرأة لوط عليه السلام كانت كافرة. وقال المفسرون: كانت تسرّ الكفر وتظهر الإيمان، ولعلّ ذلك سبب التفاتها لأنّها كانت غير موقنة بنزول العذاب على قوم لوط، ويحتمل أنّها لم تخرج مع لوط عليه السلام وأنّ قوله تعالى { إِلاَّ امْرَأَتَكَ } [هود:81]، استثناء من { أَهْلِكَ } لا من { أَحَدٌ }.

ولعلّ امرأة لوط عليه السلام كانت من أهل سدوم تزوّجها لوط عليه السلام هنالك بعد هجرته، فإنّه أقام في سدوم سنين طويلة بعد أن هلكت أم بناته وقبل أن يرسل، وليست هي أم بنتيه فإن التوراة لم تذكر امرأة لوط عليه السلام إلّا في آخر القصة.

{ **مِنَ الْغَابِرِينَ** } من الهالكين، والغابر يطلق على المنقضي، ويطلق على الآتي، فهو من أسماء الأضداد، وأشهر إطلاقيه هو المنقضي، ولذلك يقال: غبر بمعنى هلك، وهو المراد هنا، أي: هلكت مع من هلك.

الإمطار: مشتق من المطر، والمطر اسم للماء النازل من السحاب، يقال: مطرتهم السماء بدون همزة بمعنى نزل عليهم المطر، كما يقال: غاثتهم ووبلتهم، ويقال: مكان ممطور، أي: أصابه المطر، ولا يقال: ممطر. ويقال: أُمطروا بالهمزة بمعنى نزل عليهم من الجو ما يشبه المطر، وليس هو بمطر.

قال الزمخشري: قد كثر الإمطار في معنى العذاب.

وكان الذي أصاب قوم لوط حجرا وكبريتا من أعلى القرى كما في التوراة وكان الدخان يظهر من الأرض مثل دخان الأتون. وقد ذُكر في [هود:81] أنّ الله جعل عالي تلك القرى سافلا، وذلك هو الخسف وهو من آثار الزلازل.

{ **مَطَراً** } التنكيرللتعظيم والتعجيب، أي: مطرا عجيبا من شأنه أن يُهلك القرى.

{ **فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ** } الأمر للإرشاد والاعتبار. يجوز أن يكون الخطاب لغير معيّن بل لكل من يتأتّى منه الاعتبار، كما هو شان إيراد التذييل بالاعتبار عقب الموعظة، لأنّ المقصود بالخطاب كلّ من قُصد بالموعظة. ويجوز أن يكون الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم تسلية له على ما يلاقيه من قومه، بأن لا ييأس من نصر الله، وأنّ شأن الرسل انتظار العواقب.

المجرمون: فاعلوا الجريمة، وهي المعصية والسيّئة، وهذا ظاهر في أنّ الله عاقبهم بذلك العقاب على هذه الفاحشة، وأنّ لوطا عليه السلام أرسل لهم لنهيهم عنها، لا لأنّهم مشركون بالله، إذ لم يتعرّض له في القرآن بخلاف ما قُصّ عن الأمم الأخرى، لكن تمالئهم على فعل الفاحشة واستحلالهم إيّاها يدلّ على أنّهم لم يكونوا مؤمنين بالله. فيكون إرسال لوط عليه السلام بإنكار تلك الفاحشة ابتداء بتطهير نفوسهم، ثم يصف لهم الإيمان، إذ لا شك أنّ لوطا عليه السلام بلّغهم الرسالة عن الله تعالى، وذلك يتضمّن أنّه دعاهم إلى الإيمان، إلّا أنّ اهتمامه الأوّل كان بإبطال هذه الفاحشة، ولذلك وقع الاقتصار في إنكاره عليهم ومجادلتهم إيّاه على ما يخصّ تلك الفاحشة، وقد عُلم أنّ الله أصابهم بالعذاب، عقوبة على تلك الفاحشة،

كما في قوله تعالى { إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ } [العنكبوت34]، وأنّهم لو أقلعوا عنها لترك عذابهم على الكفر إلى يوم آخر أو إلى اليوم الآخر.

{ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النّاس أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [85] وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ [86] وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ [87] }.

تفسير صدر هذه الآية هو كتفسير نظيرها في قصّة ثمود، سوى أن تجريد فعل { **قَالَ يَا قَوْمِ** } من الفاء هنا يترجّح أنّه للدلالة على أنّ كلامه هذا ليس هو الذي فاتحهم به في ابتداء رسالته بل هو ممّا خاطبهم به بعد أن دعاهم مرارا، وبعد أن آمن به من آمن منهم كما يأتي.

مدين: أمّة سمّيت باسم جدّها مَدْيَنَ بن إبراهيم الخليل عليه السلام، من زوجه الثالثة التي تزوّجها في آخر عمره وهي سريّة اسمها قَطُورَا. وتزوّج مدين ابنة لوط عليه السلام وولد له أبناء هم: (عيفة / عفر / حنوك ابيداع / ألْدَعة)، وقد أسكنهم إبراهيم عليه السلام في ديارهم، وسطا بين مسكن ابنه إسماعيل عليه السلام ومسكن ابنه إسحاق عليه السلام، ومن ذريّتهم تفرعت بطون مدين، ومواطنهم بين الحجاز وخليج العقبة بقرب ساحل البحر الأحمر، وقاعدة بلادهم (وَجّ)على البحر الأحمر وتنتهي أرضهم من الشمال إلى حدود (مَعان) من بلاد الشام، وإلى نحو تبوك من الحجاز، وتسمى بلادهم (**الأيكة**).

ويقال أنّ الأيكة هي تبوك، فعلى هذا هي من بلاد مدين، وكانت بلادهم قرى وبوادي، وكان شعيب عليه السلام من القرية، وهي الأيكة، وقد تعرّبوا بمجاورة الأمم العربيّة وكانوا في مدة شعيب عليه السلام تحت ملوك مصر، وقد اكتسبوا، بمجاورة قبائل العرب ومخالطتهم، لكونهم في طريق مصر، عربيّة، فأصبحوا في عداد العرب المستعربة، مثل بني إسماعيل عليه السلام.

شعيب عليه السلام: هو رسول لأهل مدين، وهو من أنفسهم، اسمه في العربية شُعيب عليه السلام واسمه في التوراة، يثرون ويُسمَّى أيضا رَعْوَئيل وهو ابن نُويلى (أو نويب) بن رعويل بن عيفا بن مدين. وكان موسى عليه السلام لمّا خرج من مصر نزل بلاد مدين وزوّجه شعيب ابنته المسماة (**صَفورَه**) وأقام موسى عليه السلام عنده عشر سنين أجيرا.

وقد خبط في نسب مدين ونسب شعيب عليه السلام جمع عظيم من المفسّرين والمؤرخين، فما وجدت مما يخالف هذه افانبذه. وعدّ الصفدي شعيبا في العميان، ولم أقف على ذلك في الكتب المعتمدة.

{ **قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** } ابتدأ الدعوة بالإيمان، لأنّ به صلاح الاعتقاد والقلب، وإزالة الزيف من العقل.

{ **قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ** } يجوز أن تكون البيّنة معجزة أظهرها شعيب لقومه عرفوها ولم يذكرها القرآن.

والأظهر عندي أن يكون المراد بالبيّنة حجّة أقامها على بطلان ما هم عليه من الشرك وسوء الفعل، وعجزوا عن مجادلته فيها، فقامت عليهم الحجّة، مثل المجادلة التي حُكيت في [هود:84-93]، فتكون البيّنة أطلقت على ما يُبيّن صدق الدعوى، لا على خصوص خارق العادة.

أو أن يكون أراد بالبيّنة ما أشار إليه بقوله { فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا }، أي: يكون أنذرهم بعذاب يحلّ بهم إن لم يؤمنوا، كما في [الشعراء:187] { فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ }، فيكون التعبير بالماضي { قَدْ جَاءَتْكُمْ } مرادا به المستقبل القريب، تنبيها على تحقيق وقوعه.

{ **فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ** } الفاء للتفريع على مضمون معنى { بَيِّنَةٍ } لأنّ البيّنة تدل على صدقه، فلمّا قام الدليل على صدقه وكان قد أمرهم بالتوحيد بادئ بدء، لما فيه من صلاح القلب، شرع يأمرهم بالشرائع من الأعمال بعد الإيمان، كما دلّ عليه قوله { إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ }، فتلك دعوة لمن آمن من قومه بأن يكملوا إيمانهم بالتزام الشرائع الفرعيّة، وإبلاغ لمن لم يؤمن بما يلزمهم بعد الإيمان بالله وحده.

وفي دعوة شعيب عليه السلام قومه إلى الأعمال الفرعيّة، بعد أن استقرّت الدعوة إلى التوحيد، ما يؤذن بأنّ البشر في ذلك العصر قد تطورت نفوسهم تطوّرا هيّأهم لقبول الشرائع الفرعيّة، فإنّ دعوة شعيب عليه السلام كانت أوسع من دعوة الرسل من قبله هود وصالح عليهم السلام، وقد كان عصر شعيب عليه السلام قد أظل عصر موسى عليه السلام الذي جاء بشريعة عظيمة ماسّةٍ نواحيَ الحياة كلَّها.

البخس: فسّروه بالنقص، وزاد الراغب في المفردات قيدا، فقال: نقص الشيء على سبيل الظلم، وأحسن ما رأيت في تفسيره قول أبي بكر بن العربي في أحكام القرآن: البخس في لسان العرب هو النقص بالتعييب والتزهيد أو المخادعة عن القيمة، أو الاحتيال في التزيّد في الكيل والنقصان منه. لذلك نقول: البخس هو إنقاص شيء من صفة أو مقدار هو حقيق بكمال في نوعه. ففيه معنى الظلم والتحيّل.

فالبخس حدث يتّصف به فاعل وليس صفة للشيء المبخوس في ذاته، إلّا بمعنى الوصف بالمصدر، كما قال تعالى { وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ } [يوسف:20]، أي: دون قيمة أمثاله، أي تساهل بائعوه في ثمنه لأنّهم حصّلوه بغير عوض ولا كلفة.

وحاصل ما أمر به شعيب عليه السلام قومه، بعد الأمر بالتوحيد، ينحصر في ثلاثة أصول:

*/ حفظ حقوق المعاملة المالية، { فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ }.

*/ حفظ نظام الأمة ومصالحها، { وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا }.

*/ حفظ حقوق حرية الاستهداء، { وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ }.

الأصل الأول: في قوله تعالى { **فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ** }، فإيفاء الكيل والميزان يرجع إلى حفظ حقوق المشترين، لأن الكائل أو الوازن هو البائع، وهو الذي يحمله حبّ الاستفضال على تطفيف الكيل أو الوزن، ليكون باع الشيء الناقص بثمن الشيء الوافي.

وأمّا النهي عن بخس النّاس أشياءهم فيرجع إلى حفظ حقوق البائع، لأنّ المشتري هو الذي يبخس شيء البائع ليهيئه لقبول الغبن في ثمن شيئه. وكلا هذين الأمرين حيلة وخداع لتحصيل ربح من المال.

الكيل: مصدر، ويطلق على ما يُكال به، وهو المكيال كقوله تعالى { وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ } [يوسف:65]، وهو المراد هنا: لمقابلته بالميزان، ولقوله في الآية الأخرى { وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ } [هود:84].

وإنّما خُصّ هذين التحيُّلين بالأمر والنهي المذكورين، لأنّهما كانا شائعين عند مدين، ولأنّ التحيّلات في المعاملة المالية تنحصر فيهما، إذ كان التعامل بين أهل البوادي منحصرا في المبادلات بأعيان الأشياء، عرضا وطلبا.

الأصل الثاني: في قوله تعالى { **وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا** }، للنهي عن كل ما يفضي إلى إفساد ما هو على حالة الصلاح في الأرض، وقد تقدّم القول في نظير هذا التركيب عند قوله تعالى { وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً } [56].

{ **ذَلِكُمْ** } الإشارة إلى مجموع ما تضمّنه كلامه، أي: ذلك المذكور. والمذكور هو عبادة الله وحده، وإيفاء الكيل والميزان، وتجنّب بخس أشياء النّاس، وتجنّب الفساد في الأرض، وقد أخبر عنه بأنّه خير لهم، أي: نفع وصلاح تنتظم به أمورهم. وإنّما كان ما ذكر خيرا لأنّه يوجب هناء العيش واستقرار الأمن وصفاء الودّ بين الأمّة وزوال الإحن المفضية إلى الخصومات والمقاتلات، فإذا تمّ ذلك كثُرت الأمّة وعزّت وهابها أعداؤها وحسُنت أحدوثتها وكثر مالها بسبب رغبة النّاس في التجارة والزراعة لأمن صاحب المال من ابتزاز ماله، وفيه خير الآخرة لأن ذلك إن فعلوه امتثالا لأمر الله تعالى بواسطة رسوله أكسبهم رضى الله، فنجوا من العذاب، وسكنوا دار الثواب.

{ **خَيْرٌ** } التنكير للتعظيم والكمال، لأنّه جامع خيري الدنيا والآخرة.

{ **إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** } شرط مقيّد لقوله { ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ }. وهو رجوع إلى الدعوة للتوحيد، بمنزلة رد العجز على الصدر في كلامه، ومعناه أنّ حصول الخير من الأشياء المشار إليها لا يكون إلّا مع الإيمان. لأنّهم إذا فعلوها وهم مشركون لم يحصل منها الخير لأنّ مفاسد الشرك تفسد ما في الأفعال من الخير، أمّا في الآخرة فظاهر، وأمّا في الدنيا فإنّ الشرك يدعو إلى أضداد تلك الفضائل.

الأصل الثالث: في قوله تعالى { **وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ** }، هو النهي عن التعرّض للناس دون الإيمان، أي: أصلحوا أنفسكم ولا تمنعوا من يرغب في إصلاح نفسه. ذلك أنّهم كانوا يصدّون وفود النّاس عن الدخول إلى المدينة التي كان بها شعيب عليه السلام لئلا يؤمنوا به. فالمراد بالصراط: الطريق الموصلة إلى لقاء شعيب عليه السلام.

القعود: مستعمل كناية عن لازمه وهو الملازمة والاستقرار، وتقدّم عند قوله تعالى { لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ } [16].

{ **تُوعِدُونَ** } حال من ضمير { وَلا تَقْعُدُوا }. و**الإيعاد**: الوعد بالشر. والمقصود من الإيعاد الصدّ.

{ **مَنْ آمَنَ** } قاصد الإيمان، فالتعبير عنه بالماضي لتحقيق عزم القاصد على الإيمان، فهو لولا أنّهم يصدّونه لكان قد آمن.

{ **سَبِيلِ اللَّهِ** } الدين، لأنّه مثل الطريق الموصول إلى الله، أي: إلى القرب من مرضاته.

{ **تَبْغُونَهَا عِوَجاً** } تبغون لسبيل الله عوجا، إذ كانوا يزعمون أنّ ما يدعوا إليه شعيب باطل.

العِوج: (بكسر العين) عدم الاستقامة في المعاني، وعَوج (بفتح العين)، عدم استقامة الذات.

والمعنى، تحاولون ان تصفوا دعوة شعيب المستقيمة بأنّها باطل وضلال، كمن يحاول اعوجاج عود مستقيم.

وإنّما أخّر النهي عن الصدّ عن سبيل الله، بعد جملة { ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } ولم يجعله في نسق الأوامر والنواهي الماضية ثم يعقبه بقوله { ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ } لأنّه رتّب الكلام على الابتداء بالدعوة إلى التوحيد، ثم إلى الأعمال الصالحة لمناسبة أنّ الجميع فيه صلاح المخاطبين، فأعقبها ببيان أنّها خير لهم إن كانوا مؤمنين، فأعاد تنبيههم إلى الإيمان وإلى أنّه شرط في صلاح الأعمال.

وبمناسبة ذكر الإيمان عاد إلى النهي عن صد الراغبين فيه.

{ **وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ** } ذكّرهم شعيب عليه السلام عقب ذلك بتكثير الله إيّاهم بعد أن كانوا قليلا، وهي نعمة عليهم، إذ صاروا أمّة بعد أن كانوا معشرا. ومعنى تكثير الله إياهم تيسيره أسباب الكثرة لهم بأن قوّى فيهم قوة التناسل، وحفظهم من أسباب الموتان، فصاروا عددا كثيرا في زمن لا يعهد في مثله مصير أمّة إلى عددهم، فيعدّ منعهم النّاس من الدخول في دين الله سعيا في تقليل حزب الله، وذلك كفران لنعمة الله.

{ **وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ** } في هذا الكلام جمع بين طريقي الترغيب والترهيب.

{ **الْمُفْسِدِينَ** } الذين أفسدوا أنفسهم بعقيدة الشرك وبأعمال الضلال، وأفسدوا المجتمع بمخالفة الشرائع، وأفسدوا النّاس بإمدادهم بالضلال وصدّهم عن الهدى. وهذا الخطاب مقصود منه الكافرون من قومه ابتداء، وفيه تذكير للمؤمنين منهم بنعمة الله. وفيه تعريض بالوعد للمسلمين وبالتسلية لهم على ما يلاقونه من مفسدي أهل الشرك، لانطباق حال الفريقين على حال الفريقين من قوم شعيب عليه السلام.

{ **وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا** }

الطَائِفَةٌ: الجماعة ذات العدد الكثير وتقدّمت عند قوله تعالى { فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ } [النساء:102].

{ **وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ** } أفاد الشرط تعليق حصول مضمون الجزاء في المستقبل. فالمعنى: إن تبيّن أنّ طائفة آمنوا وطائفة كفروا، فاصبروا حتّى يحكم الله بيننا.

الصبر: حبس النفس في حال الترقّب، سواء كان ترقّب محبوب أم ترقب مكروه، وأشهر استعماله أن يطلق على حبس النفس في حال فقدان الأمر المحبوب، وقد جاء في هذه الآية مستعملا في القدر المشترك لأنّه خوطب به الفريقان: المؤمنون والكافرون، وصبر كلّ بما يناسبه. ولعلّه رجح فيه حال المؤمنين، ففيه إيذان بأن الحكم المترقّب هو في منفعة المؤمنين، وقد قال بعض المفسّرين: إنّه خطاب للمؤمنين خاصة.

{ **حَتَّى** } تفيد غاية للصّبر، وهي مؤذنة بأن التقدير: وإن كان طائفة منكم آمنوا وطائفة لم يؤمنوا فسيحكم الله بيننا، فاصبروا حتّى يحكم.

وحكم الله أريد به حكم في الدنيا بإظهار أثر غضبه على أحد الفريقين ورضاه على الذين خالفوهم، فيظهر المحقّ من المبطل، وهذا صدر عن ثقة شعيب عليه السلام بأنّ الله سيحكم بينه وبين قومه، استنادا لوعد الله إيّاه بالنصر على قومه، أو لعلمه بسنة الله في رسله ومن كذّبهم، بإخبار الله تعالى إيّاه بذلك.

{ **وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ** } تذييل بالثناء على الله بأنّ حكمه عدل محض، لا يحتمل الظلم عمدا ولا خطأ، وغيره من الحاكمين يقع منه أحد الأمرين أو كلاهما.

{ **قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ** } [88].

كان جوابهم عن حجة شعيب جواب مُفحَم عن الحجّة الصائر إلى الشدّة، المزدهي بالقوة المتوقّع أن يكثر معاندوه، فلذلك عدلوا إلى إقصاء شعيب وأتباعه عن بلادهم خشية ظهور دعوتهم بين قومهم، وبث أتباعه دعوته بين النّاس فلذلك قالوا { لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا }

وتفسير صدر الآية هو كتفسير نظيره من قصة ثمود.

{ **قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ** } إيثار وصفهم بالاستكبار هنا دون الكفر، مع أنّه لم يحك عنهم هنا خطاب المستضعفين، حتّى يكون ذكر الاستكبار إشارة إلى أنّهم استضعفوا المؤمنين كما اقتضته قصّة ثمود، فاختير وصف الاستكبار هنا لمناسبة مخاطبتهم شعيبا بالإخراج أو الإكراه على اتّباع دينهم، وذلك من فعل الجبّارين أصحاب القوّة.

{ **لَنُخْرِجَنَّكَ** } كان إخراج المغضوب عليه من ديار قبيلته عقوبة متّبعة في العرب إذا أجمعت القبيلة على ذلك ويُسمَّى هذا الإخراج عند العرب بالخَلع. وأكّدوا التوعّد بلام القسم ونون التوكيد، ليوقن شعيب بأنّهم منجزو ذلك الوعيد.

{ **يَا شُعَيْبُ** } خطابهم إيّاه بالنداء جار على طريقة خطاب الغضب، كما حكى الله قول آزر خطابا لإبراهيم عليه السلام { أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ } [مريم:46].

القرية: المدينة لأنّها يجتمع بها السكان. والتقرّي: الاجتماع. وقد تقدّم عند قوله تعالى { أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ } [البقرة:259]، والمراد بقريتهم هنا هي **الأيكة**، وهي تبوك.

{ **أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا** } ردّدوا أمر شعيب ومن معه بين أن يُخرجوا من القرية وبين العود إلى ملة الكفر. والتوكيد مؤذن بأنّهم إن أبوا الخروج من القرية فإنّهم يُكرهون على العود إلى ملّة القوم، كما دلّ عليه قول شعيب في جوابهم { أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ }. ولمّا كان المقام للتوعّد والتهديد كان ذكر الإخراج من أرضهم أهم، فلذلك قدّموا القسم عليه ثم أعقبوه بالمعطوف بحرف (أو).

العَوْد: الرجوع إلى ما كان فيه المرء من مكان أو عمل، وجعلوا موافقة شعيب إيّاهم على الكفر عودا لأنّهم يحسبون شعيبا كان على دينهم. وشأن الذين أرادهم الله للنبوّة أن يكونوا غير مشاركين لأهل الضلال من قومهم ولكنّهم يكونون قبل أن يوحى إليهم في حالة خلو عن الإيمان حتّى يهديهم الله إليه تدريجا، وقومهم لا يعلمون باطنهم فلا حيرة في تسمية قومه موافقته إياهم عودا.

وهذا بناء على أنّ الأنبياء معصومون من الشرك قبل النبوّة، وذلك قول جميع المتكلمين من المسلمين، وقد نبّه على ذلك عياض في الشفاء في القسم الثالث وأورد قول شعيب { إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ } [89]، وتأوّل العود بأنّه المصير، وذلك تأويل كثير من المفسرين لهذه الآية. ودليل العصمة من هذا هو كمالهم، والدليل مبني على أن خلاف الكمال قبل الوحي يعد نقصا، وليس في الشريعة دليل قاطع على ذلك.

وقد تولى شعيب الجواب عمّن معه من المؤمنين ليقينه بصدق إيمانهم.

الملة: الدين، وقد تقدّم في قوله تعالى { وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ } [البقرة:130].

{ **قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ** } الاستفهام مستعمل في التعجيب تعجبا من قولهم { أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا } المؤذن ما فيه من المؤكّدات بأنّهم يُكرهونهم على المصير إلى ملّة الكفر، وذلك التعجّب تمهيد لبيان تصميمه ومن معه على الإيمان، ليعلم قومه أنّه أحاط خبرا بما أرادوا من تخييره والمؤمنين معه بين الأمرين: الإخراج أو الرجوع إلى ملّة الكفر.

الكاره: مشتقّ من كَرِهَ الذي مصدره الكَرْه (بفتح الكاف وسكون الراء) وهو ضدّ المحبّة، فكاره الشيء لا يدانيه إلّا مغصوبا، ويقال للغصب إكراه، وتقدّم في قوله { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ } [البقرة:216].

{ **قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ** } [89].

{ **قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ** } استأنف شعيب مرتقيا في الجواب، فبيّن استحالة عودهم

إلى ملّة الكفر، بأنّ العود إليها يستلزم كذبه فيما بلّغه عن الله تعالى من إرساله إليهم بالتوحيد، ويستلزم كذب الذين آمنوا به على الله، حيث أيقنوا بأنّ شعيبا مبعوث من الله بما دلّهم على ذلك من الدلائل، ولذلك جاء بضمير المتكلّم المشارك في كل من قوله { افْتَرَيْنَا / عُدْنَا / نَجَّانَا / نَعُودَ / رَبُّنَا / تَوَكَّلْنَا }.

والربط بين الشرط وجوابه ربط التبيين والانكشاف، أي: إن يقع عودنا في ملّتكم فقد تبيّن أنّنا افترينا على الله كذبا، فالماضي في قوله { افْتَرَيْنَا } ماض حقيقي كما يقتضيه دخول { قَدِ } عليه.

{ **بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا** } أي: بعد إذ هدانا الله للدين الحقّ الذي اتّبعناه بالوحي فنجّانا من الكفر. فذكر هذا الإنجاء لدلالته على الاهتداء والإعلان بأنّ مفارقة الكفر نجاة، فيكون في الكلام إيجاز حذف أو كناية.

{ **بَعْدَ** } هذه البعديّة يُقصد منها تفظيع هذا العود وتأييس الكافرين من عود شعيب وأتباعه إلى ملّة الكفر.

{ **وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا** } أي: لأنّ ذلك لا يقصده العاقل فيلقى نفسه في الظلال والتعرّض للعذاب.

{ **إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا** } تأدّب مع الله وتفويض أمر المؤمنين إليه. وهو يستلزم تقييد الدوام على الإيمان بمشيئة الله، لأنّ عدم العود إلى الكفر مساو للثبات على الإيمان. وفي الكلام الكناية عن سؤال الدوام على الإيمان من الله تعالى كقوله تعالى { رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا } [آل عمران:8].

{ **وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً** } تفويض لعلم الله، أي: إلّا أن يشاء ذلك، فهو أعلم بمراده منّا.

السعة: مستعملة مجازا في الإحاطة بكل شيء، لأنّ الشيء الواسع يكون أكثر إحاطة.

وفي هذه المجادلة إدماج تعليم صفات الله لأتباعه وغيرهم على عادة الخطباء في انتهاز الفرصة.

{ **عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ** } ثم أخبر بأنّه ومن تبعه قد توكّلوا على الله.

التوكّل: تفويض مباشرة صلاح المرء إلى غيره، وتقدّم المعنى عند قوله تعالى { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ} [آل عمران:159]. وهذا تفويض يقتضي طلب الخير، أي: رجونا أن لا يسلبنا الإيمان الحقّ، ورجونا أن يكفينا شرّ من يُضمر لنا شرا، وهو الفتنة بالإخراج، وفي الدين بالإكراه على اتباع الكفر.

{ **رَبَّنَا افْتَحْ** } فسَّروا الفتح هنا بالقضاء والحكم وقالوا: هو لغة أزد عمان من اليمن، أي: احكم بيننا وبينهم، وهي مأخوذة من الفتح بمعنى النصر، لأنّ العرب كانوا لا يتحاكمون لغير السيف، ويحسبون أنّ النصر حكم الله للغالب على المغلوب.

{ **وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ** } أي: وأنت خير الناصرين، وخير الحاكمين هو أفضل أهل هذا الوصف، وهو الذي يتحقّق فيه كمال هذا الوصف فيما يقصد منه، وفي فائدته بحيث لا يشتبه عليه الحق بالباطل ولا تروج عليه الترّهات.

{ وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ [90] فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ [91] الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ [92] }.

قول أُنُف وجَّه فيه الملأ خطابهم إلى عامة قومهم الباقين على الكفر تحذيرا لهم من اتباع شعيب خشية عليهم من أن تحيك في نفوسهم دعوة شعيب وصدق مجادلته. إذ لمّا رأوا حجّته ساطعة ولم يستطيعوا الفلج عليه في المجادلة، وصمّموا على كفرهم، أقبلوا على خطاب الحاضرين من قومهم ليحذّروهم من متابعة شعيب ويهدِّدوهم بالخسارة.

{ **الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا** } ووصفهم بالكفر لمناسبة الكلام المحكي عنهم، الدال على تصلّبهم في كفرهم، كما وصفوا في الآية السابقة بالاستكبار لمناسبة حال مجادلتهم شعيبا، فحصل من الآيتين أنّهم مستكبرون كافرون.

{ **لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً** } المخاطب هم عامة قوم شعيب الباقين على الكفر. و(اللام) موطِّئة للقسم.

{ **إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ** } جواب القسم. والخسران تقدّم عند قوله تعالى { قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ } [الأنعام:40]. وهو مستعار لحصول الضرّ، والمراد به هنا التحذير من أضرار تحصل لهم في الدنيا من جراء غضب آلهتهم عليهم.

{ **فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ** } تقدّم تفسيرها في نظيرها من قصة ثمود [78]. والرجفة التي أصابت أهل مدين هي صواعق خرجت من ظلّة، وهي السحابة، قال تعالى { فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ } [الشعراء:189]. وقد عُبّر عن الرجفة بالصيحة في [هود:94]. والأظهر أن يكون أصابهم زلزال وصواعق، فتكون الرجفة الزلزال والصيحة الصاعقة كما يدل عليه قوله تعالى { كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا }.

{ **الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً** } مستأنفة ابتدائية، والتعريف بالموصولية للإيماء إلى وجه بناء الخبر، وهو أنّ اضمحلالهم وانقطاع دابرهم كان جزاء لهم على تكذيبهم شعيبا.

{ **كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا** } تشبيه حالة استئصالهم وعفاء آثارهم بحال من لم تسبق لهم حياة.

يقال: **غَنِيَ** بالمكان، أي: أقام، ولذلك سمّي مكان القوم مَغنى.

{ **الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ** } التكرير للتعديد، وإيقاظ السامعين، وهم مشركو العرب، ليتّقوا عاقبة أمثالهم في الشرك والتكذيب على طريقة التعريض.

{ **كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ** } ضمير الفصل يفيد القصر وهو قصر إضافي، أي: دون الذين اتبعوا شعيبا، وذلك لإظهار سفه قول الملأ للعامة { لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ } توقيفا للمعتبرين بهم على تهافت أقوالهم وسفاهة رأيهم، وتحذيرا لأمثالهم من الوقوع في ذلك الضلال.

{ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ} [93].

تقدّم تفسير نظير هذه الآية إلى قوله تعالى { وَنَصَحْتُ لَكُمْ } من قصة ثمود.

وتقدّم وجه التعبير بـ { رِسَالاتِ } بصيغة الجمع في نظيرها من قصة قوم نوح.

{ **وَقَالَ يَا قَوْمِ** } نداؤه قومه نداء تحسُّر وتبرؤ من عملهم، وهو مثل قول النبيّ صلى الله عليه وسلم بعد وقعة بدر. حين وقف على القليب الذي ألقي فيه قتلى المشركين فناداهم بأسماء صناديدهم ثم قال: **" لقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا ".**

{ **فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ** } جاء بالاستفهام الإنكاري مخاطبا نفسه على طريقة التجريد، إذ خطر له خاطر الحزن عليهم فدفعه عن نفسه بأنّهم لا يستحقّون أن يؤسف عليهم لأنّهم اختاروا ذلك لأنفسهم.

الأسى: شدّة الحزن، وفعله كرضي. و{ **آسَى** } مضارع مفتتح بهمزة التكلّم، فاجتمع همزتان.

وقد نجّى الله شعيبا ممّا حل بقومه بأن فارق ديار العذاب.

قيل: إنّه خرج مع من آمن به إلى مكّة واستقروا بها إلى أن توفّوا.

والأظهر أنّهم سكنوا محلّة خاصة بهم في بلدهم رفع الله عنها العذاب، فانّ بقية مدين لم يزالوا بأرضهم، وقد ذكرت التوراة أنّ شعيبا كان بأرض قومه حينما مرت بنو إسرائيل على ديارهم في خروجهم من مصر.

{ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ [94] ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ } [95].

عطف الأعمّ على الأخصّ، لأنّ ما ذُكر من القصص من قوله تعالى { لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ } [59] كلّه القصد منه العبرة بالأمم الخالية، موعظة لكفّار العرب، فلمّا تلا عليهم قصص خمس أمم جاء الآن بحكم كلّي يعمّ سائر الأمم المكذّبة على طريقة قياس التمثيل، أو قياس الاستقراء الناقص، وهو أشهر قياس يُسلك في المقامات الخطابية. وهذه الجمل إلى قوله تعالى { ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى } [103] كالمعترضة بين القصص، للتنبيه على موقع الموعظة، وذلك هو المقصود من تلك القصص، فهو اعتراض ببيان المقصود من الكلام وهذا كثير الوقوع في اعتراض الكلام.

{ **وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ** } عدّي الفعل { أَرْسَلْنَا } بـ (في) دون (إلى) لأنّ المراد بالقرية حقيقتها، وهي لا يرسل إليها وإنما يرسل فيها إلى أهلها، فالتقدير: وما أرسلنا في قرية من نبيّ إلى أهلها إلّا أخذنا أهلها.

{ **مِنْ نَبِيٍّ** } للتنصيص على العموم المستفاد من وقوع النكرة في سياق النفي.

وتخصيص القرى بإرسال الرّسل فيها دون البوادي كما أشارت إليه هذه الآية وغيرها من آي القرآن، وشهد به تاريخ الأديان، ينبئ أنّ مراد الله تعالى من إرسال الرّسل هو بثّ الصلاح لأصحاب الحضارة التي يتطرّق إليها الخلل بسبب اجتماع الأصناف المختلفة، وأنّ أهل البوادي لا يخلون عن الانحياز إلى القرى، والإيواء في حاجاتهم المدنيّة إلى القرى القريبة.

فأمّا مجيء نبي غير رسول لأهل البوادي فقد جاء خالد بن سنان نبيّا في بني عبس، وأمّا حنظلة بن صفوان نبي أهل الرسّ فالأظهر أنّه رسول لأنّ الله ذكر أهل الرس في عداد الأمم المكذّبة. وقد قيل: إنه ظهر بقرية الرسّ التي تسمّى أيضا (فتح / فتَخ / فَيْج / فلْج) من اليمامة.

{ **إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا** } الاستثناء مفرغ من أحوال، أي: ما أرسلنا نبيّا في قرية في حال من الأحوال إلّا في حال أننا أخذنا أهلها بالبأساء، وقد وقع في الكلام إيجاز حذف دلّ عليه قوله تعالى { لَعَلَّهُمْ يَضَرَّعُونَ }، فإنّه يدل على أنّهم لم يضرّعوا قبل الأخذ بالبأساء والضراء. فالتقدير: وما أرسلنا في قرية من نبي إلّا كذّبه أهل القرية فخوَّفناهم لعلهم يذلّون لله ويتركون العناد.

الأخذ: هنا مجاز في التناول والإصابة بالمكروه الذي لا يُستطاع دفعه، وهو معنى الغلبة.

{ **بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ** } تقدم ما يفسرها في قوله تعالى { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ } [الأنعام:42]. أي: ابتدأناهم بالتخويف والمصائب لتَفُلّ من حدّتهم وتصرف تأمّلهم إلى تطلّب أسباب المصائب فيعلموا أنّها من غضب الله عليهم فيتوبوا.

{ **ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ** } التبديل: التعويض. أي: بدّلناهم حسنة في مكان السيّئة.

المعنى: أنّا نأخذهم بما يغيّر حالهم التي كانوا فيها من رخاء وصحّة عسى أن يعلموا أنّ سلب النعمة عنهم أمارة على غضب الله عليهم من جرّاء تكذيبهم رسولهم، ثم نردّهم إلى حالتهم الأولى إمهالا لهم واستدراجا.

وهذه عادة الله في تنبيه عباده فإنّه يحبّ منهم التوسّم في الأشياء والاستدلال بالعقل والنظر بالمسبّبات على الأسباب، كما قال تعالى { أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ } [التوبة:126]، لأنّ الله لمّا وهب الانسان العقل فقد أحبّ منه أن يستعمله فيما يبلغ به الكمال ويقيه الضلال.

{ **حَتَّى عَفَوْا** } كثروا. يقال: عفا النبات، اذا كثر ونما.

{ **وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ** } **السّرّاء**: النعمة ورخاء العيش، وهي ضدّ الضّرّاء.

تعلّلوا لما أصابهم من البؤس والضرّ بأنّ ذلك التغيير إنّما هو عارض من عوارض الزمان وأنّه قد أصاب أسلافهم من قبلهم ولم يجئهم رُسُل.

وظاهر الآية أنّ هذا القول صادر بألسنتهم وهو يكون دائرا فيما بينهم في مجادلتهم لرسلهم حينما يعظونهم بما حلّ بهم ويدعوهم إلى التوبة والإيمان ليُكشف عنهم الضر.

ويجوز أن يكون هذا القول أيضا: ممّا يجيش في نفوسهم ليدفعوا بذلك ما يخطر ببالهم من توقّع أن يكون ذلك الضر عقابا من الله تعالى.

{ **فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** } الفاء للتعقيب عن قوله تعالى { عَفَوْا وَقَالُوا ...} باعتبار كونهما غاية لإبدال الحسنة مكان السيئة، ولا إشعار فيه بأنّ قولهم ذلك هو سبب أخذهم بغتة، ولكنّه دلّ على إصرارهم، أي: فحصل أخذنا إيّاهم عقب تحسّن حالهم وبطرهم النعمة.

الأخذ: هنا بمعنى الإهلاك كما في قوله تعالى { أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ } [الأنعام [44].

البغتة: الفجْأة، وتقدّمت عند قوله تعالى { حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً } [الأنعام:31].

{ **وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ** } حال مؤكّدة لمعنى { بَغْتَةً }.

{ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [96] أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ [97] أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحىً وَهُمْ يَلْعَبُونَ [98] أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ [99] }.

أي: لو أنّ أهل تلك القرى المهلَكة آمنوا بما جاءهم به رسولهم واتقوا ربّهم لما أصبناهم بالبأساء ولأحييناهم حياة البركة. وشرط (لو) الامتناعية يحصل في الزمن الماضي. والمعنى: لو حصل إيمانهم فيما مضى لفتحنا عليهم بركات.

التقوى: هي تقوى الله بالوقوف عند حدوده وذلك بعد الإيمان.

وفي الآية تعريض بإنذار الذين كذّبوا محمدا صلى الله عليه وسلم من أهل مكّة، وتعريض ببشارة أهل القرى الذين يؤمنون كأهل المدينة، وقد مضى في صدر تفسير هذه السورة ما يُقرّب أنّها من آخر ما نزل بمكّة، وقيل، إنّ آيات منها نزلت بالمدينة كما تقدّم، وبذلك يظهر موقع التعريض بالنذارة والبشارة للفريقين من أهل القرى.

الفتح: هنا استعارة للتمكين، كما تقدّم في قوله تعالى { فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ } [الأنعام:44]. وتعدية فعل الفتح إلى البركات هنا استعارة مكنية بتشبيه البركات بالبيوت في الانتفاع بما تحتويه. فهنا استعارتان مكنية وتبعية.

البركات: جمع بركة، والمقصود من الجمع تعدّدها، باعتبار تعدد أصناف الأشياء المباركة. وتقدّم تفسيرها عند قوله تعالى { وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ } [الأنعام:92]. وجماع معناها هو الخير الصالح الذي لا تبعة عليه في الآخرة. فهو أحسن أحوال النعمة.

ولذلك عُبّر في جانب المغضوب عليهم المستدرَجين بلفظ { الْحَسَنَةَ } بصيغة الإفراد في قوله تعالى

{ مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ } [95]، وفي جانب المؤمنين بالبركات مجموعة.

{ **مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ** } مراد بهما الحقيقة. لأنّ ما يناله النّاس من الخيرات الدنيوية لا يعدو أن يكون ناشئا من الأرض، وذلك معظم المنافع. أو من السماء، مثل ماء المطر وشعاع الشمس وضوء القمر والنجوم والهواء والرياح الصالحة.

{ **وَلَكِنْ كَذَّبُوا** } استثناء لنقيض شرط (لو)، فإنّ التكذيب هو عدم الإيمان، فهو قياس استثنائي.

{ **فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** } متسبّبة على جملة { وَلَكِنْ كَذَّبُوا } وهو مثل نتيجة القياس. لأنّه مساوي نقيض التالي، لأنّ أخذهم بما كسبوا فيه عدم فتح البركات عليهم. والمراد بالأخذ هنا: الاستئصال. والباء للسببيّة، أي: بسبب ما كسبوه من الكفر والعصيان.

{ **أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى** } الفاء عاطفة، أفادت الترتّب الذكري. فانّه لمّا ذكر من أحوال جميعهم ما هو مثار التعجيب من حالهم أعقبه بما يدلّ عليه معطوفا بفاء الترتّب. ومحلّ التعجيب هو تواطؤهم على هذا الغرور. أي: يترتّب على حكاية تكذيبهم وأخذهم استفهام التعجيب من غرورهم وأمنهم غضب القادر العليم.

وقد تقدّم الكلام على مثل هذا التركيب عند قوله تعالى { أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ } [البقرة:87].

{ **يَأْتِيَهُمُ** } جيء بصيغة المضارع لأنّ المراد حكاية أمنهم الذي مضى من إتيان بأس الله في مستقبل ذلك الوقت.

{ **أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحىً وَهُمْ يَلْعَبُونَ** } قرأه نافع، وابن كثير، وابن عامر، وأبو جعفر بسكون الواو على أنّه عطف بحرف (أَوْ) الذي هو لأحد الشيئين، عطفا على التعجيب، أي: هو تعجيب من أحد الحالين. وقرأه الباقون بفتح الواو على أنه عطف بالواو مقدّمة عليه همزة الاستفهام، فهو عطف استفهام ثان بالواو المفيدة للجمع، فيكون كلا الاستفهامين مدخولا لفاء التعقيب، على قول جمهور النحاة. وأمّا على رأي الزمخشري فيتعيّن أن تكون الواو للتقسيم، أي: تقسيم الاستفهام إلى استفهامين.

{ **بَيَاتاً** } تقدّم معناه ووجه نصبه عند قوله تعالى { وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً } [4].

الضُحى: (بالضم مع القصر) هو في الأصل اسم لضوء الشمس إذا أشرق وارتفع، وفسّره الفقهاء بأن ترتفع الشمس قِيد رمح، ويرادفه الضحوة والضَّحْوُ. والضحى يذكّر ويؤنّث، وشاع التوقيت به عند العرب ومن قبلهم، قال تعالى حكاية عن موسى { قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النّاس ضُحىً } [طه:59].

وتقييد التعجيب من أمنهم مجيء البأس، بوقتي البيات والضحى، لأنّهما وقتان للدعة، فالبيات للنوم بعد الفراغ من الشغل. والضحى للعب قبل استقبال الشغل، فكان شأن أولي النهى المعرضين عن دعوة رسل الله أن لا يأمنوا عذابه، بخاصة في هذين الوقتين والحالين.

{ **أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ** } تكرير لقوله تعالى { أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى } قُصد منه تقرير التعجيب من غفلتهم،

وتقرير معنى التعريض بالسامعين من المشركين. مع زيادة التذكير بأنّ ما حلّ بأولئك من عذاب الله يماثل هيئة مكر الماكر بالممكور فلا يحسبوا الإمهال إعراضا عنهم، وليحذروا أن يكون ذلك كفعل الماكر بعدوّه.

المكر: حقيقته فعل يُقصد به ضرّ أحد في هيئة تخفى أو هيئة يحسبها منفعة. وهو هنا استعارة للإمهال والإنعام في حال الإمهال، فهي تمثيليّة، شُبّه حال الإنعام مع الإمهال وتعقيبه بالانتقام بحال المكر، وتقدّم عند قوله تعالى { وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ } [آل عمران:54].

{ **فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ** } مترتّب ومتفرّع عن التعجيب في قوله { أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ }، لأنّ المقصود منه تفريع أنّ أهل القرى المذكورين خاسرون لثبوت أنّهم أمنوا مكر الله.

وإنّما صيغ هذا التفريع بصيغة تعمّ المخبر عنهم وغيرهم، ليجري مجرى المثل ويصير تذييلا للكلام، ويدخل

فيه المعرَّض بهم في هذه الموعظة وهم المشركون الحاضرون.

الخسران: هنا هو إضاعة ما فيه نفعهم بسوء اعتقادهم، شُبّه ذلك بالخسران، وهو إضاعة التاجر رأس ماله بسوء تصرّفه، لأنّهم باطمئنانهم إلى السلامة الحاضرة، وإعراضهم عن التفكّر فيما يعقبها من الأخذ الشبيه بفعل الماكر، قد خسروا الانتفاع بعقولهم وخسروا أنفسهم.

واعلم أن المراد بأمن مكر الله في هذه الآية هو الأمن الذي من نوع أمن أهل القرى المكذّبين، وهو الأمن الناشئ عن تكذيب خبر الرّسول، وعن الغرور بأنّ دين الشرك هو الحقّ، فهو أمن ناشئ عن كفر.

والمأمون منه هو وعيد الرسل إيّاهم وما أطلق عليه أنّه مكر الله.

{ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ } [100].

عطفت على جملة { أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى } [97] لاشتراك مضمون الجملتين في الاستفهام التعجيبي، فانتقل عن التعجيب من حال الذين مضوا إلى التعجيب من حال الأمّة الحاضرة، وهي الأمّة العربية الذين ورثوا ديار الأمم الماضية فسكنوها، مثل (أهل نجران، وأهل اليمن)، ومن سكنوا ديار ثمود مثل (بليّ، وكعب، والضجاغم، وبهراء)، ومن سكنوا ديار مدين مثل (جُهيْنة، وجَرْم)، وكذلك من صاروا قبائل عظيمة فنالوا السيادة على القبائل مثل (قريش، وطَي، وتميم، وهُذَيْل).

وقد يقصد بالذين يرثون الأرض كل أمّة خلفت أمّة قبلها.

{ **أَوَلَمْ يَهْدِ** } الاستفهام مستعمل في التعجيب، مثل الذي في قوله { أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى } [97]، تعجيبا من شدّة ضلالتهم، إذ عدموا الاهتداء والاتعاظ بحال من قبلهم من الأمم، ونسوا أنّ الله قادر على استئصالهم إذا شاء.

الإرث: مصير مال الميّت إلى من هو أولى به، ويطلق مجازا على مماثلة الحيّ ميّتا في صفات كانت له، من عزّة وسيادة، كما فُسّر به قوله تعالى حكاية عن زكرياء { فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً يَرِثُنِي }
[مريم:6/5]،
أي: يخلفني في النبوّة، وقد يُطلق على القدر المشترك بين المعنيين، وهو مطلق خلافة المنقرض، وهو هنا محتمل للإطلاقين، لأنّه إن أريد بالكلام أهل مكّة فالإرث بمعناه المجازي، وإن أريد أهل مكّة والقبائل التي سكنت بلاد الأمم الماضية فهو مستعمل في القدر المشترك.
والمراد تذكير السامعين بما كان فيه أهل الأرض الموروثة من بحبوحة العيش، ثم ما صاروا إليه من الهلاك الشامل العاجل، تصويرا للموعظة بأعظم صورة، فهو كقوله تعالى { وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ } [الأعراف:129].

الهداية: أصلها تبيين الطريق للسائر، واشتهر استعمالهم في مطلق الإرشاد مجازا أو استعارة، كقوله تعالى
{ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } [الفاتحة:6]. وتقدّم أنّ فعلها يتعدّى إلى مفعولين، وأنّه يتعدى إلى الأوّل منهما بنفسه وإلى الثاني تارة بنفسه وأخرى بالحرفين (اللام) أو(إلى)، فلذلك كانت تعديته إلى المفعول الأوّل باللام في هذه الآية إمّا لتضمينه معنى يبيّن، وإما لتقوية تعلق معنى الفعل بالمفعول.
{ **أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ** } هؤلاء هم الذين أشركوا بالله وكذّبوا محمدا صلى الله عليه وسلم.
الإصابة: نوال الشيء المطلوب بتمكّن فيه، فالمعنى: أن نأخذهم أخذا لا يفلتون منه.
والباء في { بِذُنُوبِهِمْ } للسببية، وليست لتعدية فعل { أَصَبْنَاهُمْ }.
انتفى أخذنا إيّاهم في الماضي بذنوب تكذيبهم لأجل انتفاء مشيئتنا ذلك لحكمة إمهالهم لا لكونهم أعزّ من الأمم البائدة أو أفضل حالا منهم. وفي هذا تهديد بأنّ الله قد يصيبهم بذنوبهم في المستقبل، إذ لا يصدّه عن ذلك غالب. والمعنى: أغرّهم تأخّر العذاب مع تكذيبهم فحسبوا أنفسهم في منعة منه، ولم يهتدوا إلى أنّ انتفاء نزوله بهم معلّق على انتفاء مشيئتنا وقوعه لحكمة.
{ **وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ** } ليست معطوفة على جملة { أَصَبْنَاهُمْ } حتّى تكون في حكم جواب (لو) لأنّ هذا يفسد المعنى، فإنّ هؤلاء الذين ورثوا الأرض من بعد أهلها فقد طُبع على قلوبهم فلذلك لم تجد فيهم دعوة محمد صلى الله عليه وسلم منذ بُعث إلى زمن نزول هذه السورة، فلو كان جوابا لـ (لو) لصار الطبع على قلوبهم ممتنعا وهذا فاسد، فتعيّن:
إمّا أن تكون جملة { وَنَطْبَعُ } معطوفة على جملة الاستفهام برمّتها فلها حكمها من العطف على أخبار الأمم الماضية والحاضرة. والتقدير: وطبعنا على قلوبهم، ولكنّه صيغ بصيغة المضارع للدلالة على استمرار هذا الطبع وازدياده آنا فآنا.

وإمّا أن تُجعل (الواو) للاستئناف والجملة مستأنفة، أي: ونحن نطبع على قلوبهم في المستقبل كما طبعنا عليها في الماضي. ويعرف الطبع عليها في الماضي بأخبار أخرى، فتكون الجملة تذييلا لتنهية القصّة.

ولكن موقع (الواو) في أوّل الجملة يرجّح الوجه الأوّل.

وتقدّم معنى الطبع عند قوله تعالى { بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ } [النساء:155].

{ **فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ** } معطوفة بالفاء على { وَنَطْبَعُ } متفرّعا عليه، والمراد بالسماع، فهم مغزى المسموعات لا استكاك الآذان، بقرينة قوله تعالى { وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ }.

{ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ [101] وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ [102] }.

{ **تِلْكَ الْقُرَى** } لمّا تكرّر ذكر القرى التي كذّب أهلها رسل الله بالتعيين وبالتعميم، صارت للسامعين كالحاضرة المشاهدة الصالحة لأن يشار إليها، فجاء اسم الإشارة لزيادة إحضارها في أذهان السامعين من قوم محمد صلى الله عليه وسلم، ليعتبروا حالهم بحال أهل القرى، فيروا أنّهم سواء فيفيئوا إلى الحقّ.

{ **نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا** } الامتنان بذكر قصصها، والاستدلال على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم، إذ علّمه الله من علم الأوّلين ما لم يسبق له علمه، والوعد بالزيادة من ذلك، لما دل عليه قوله { نَقُصُّ } من التجدّد والاستمرار، والتعريض بالمعرضين عن الاتعاظ بأخبارها.

الأنباء: الأخبار، وقد تقدّم في قوله تعالى { وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ } [الأنعام:34].

والمراد بالقرى وضمير أنبائها، أهلها، كما دلّ عليه الضمير في قوله تعالى { رُسُلُهُمْ }.

{ **وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ** }

البيّنات: الدلائل الدالة على الصدق وقد تقدّمت في قصة ثمود، عند قوله { قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ }.

والجمع يشير إلى تكرّر البيّنات مع كل رسول.

{ **فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا** } الفاء لترتيب الإخبار بانتفاء إيمانهم عن الإخبار بمجيء الرسل إليهم بما من شأنه أن يحملهم على الإيمان. والصيغة تفيد مبالغة النفي بلام الجحود الدالة على أنّ حصول الإيمان كان منافيا لحالهم من التصلّب في الكفر. والمعنى: فاستمر عدم إيمانهم وتمكّن منهم الكفر في حين كان الشأن أن يقلعوا عنه.

{ **بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ** } أي: فما كانوا ليؤمنوا بشيء كذّبوا به من قبل، ممّا دُعوا إلى الإيمان به من التوحيد والبعث.

{ **بِمَا** } وشأن (ما) أن يراد بها غير العاقل، فلا يكون ما صدق (ما) هنا الرّسل، بل ما جاءت به الرّسل.
والمعنى: ما أفادتهم البيّنات أن يؤمنوا بشيء كان بدر منهم التكذيب به في ابتداء الدعوة.
وأسند نفي الإيمان إلى ضمير جميع أهل القرى باعتبار الغالب، وهو استعمال كثير.
{ **كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ** } تقدم معنى الطبع عند قوله تعالى { بل طبع الله عليها بكفرهم } [النساء:155]. وإظهار المسند إليه في جملة { يَطْبَعُ اللَّهُ } دون الإضمار، لما في إسناد الطبع إلى الاسم العلم من صراحة التنبيه على أنّه طبع رهيب لا يغادر للهدى منفذا إلى قلوبهم، ولهذا اختير له الفعل المضارع الدال على استمرار الختم وتجدّده.
القلوب: العقول. والقلب في لسان العرب من أسماء العقل.
{ **وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ** } تنبيها على رسوخ الكفر من نفوسهم بحيث لم يقلعه منهم لا ما شاهدوه من البيّنات، ولا ما وضعه الله في فطرة الإنسان من اعتقاد وجود إله واحد وتصديق الرّسل الداعين إليه، ولا الوفاء بما عاهدوا عليه الرسل عند الدعوة أنّهم إن أتوهم بالبيّنات يؤمنون بها.
الوجدان: في الموضعين مجاز في العلم، فصار من أفعال القلوب، ونفيه في الأول كناية عن انتفاء العهد بالمعنى المقصود، أي: وفائه، لأنّه لو كان موجودا لعلمه من شأنه أن يعلمه ويبحث عنه عند طلب الوفاء به، لا سيما والمتكلم هو الذي لا تخفى عليه خافية.
العهد: الالتزام والوعد المؤكّد وقوعه، والموثّق بما يمنع من إخلافه، من يمين، أو ضمان، أو خشية مسبّة. وهو مشتق من عَهِد الشيء، بمعنى عرفه. ويُسمى إيقاع ما التزمه الملتزم من عهده الوفاء بالعهد.
فالعهد هنا يجوز أن يراد به الوعد الذي حقّقه الأمم لرسلهم مثل قولهم: فأتنا بآية إن كنت من الصادقين، فإنّ معنى ذلك: إن أتيتنا بآية صدقناك.
ويجوز أن يراد به وعد وثّقه أسلاف الأمم من عهد آدم أن لا يعبدوا إلّا الله وهو المذكور في قوله تعالى { أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ } [يّس:60]، فكان لازما لأعقابهم.
ويجوز أن يراد به ما وعدت به أرواح البشر خالقها في الأزل المحكي في قوله تعالى { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا } [الأعراف:172]. وهو عبارة عن خلق الله فطرة البشريّة معتقدة وجود خالقها ووحدانيّته، ثم حرّفتها النزعات الوثنية والضلالات الشيطانية.

ومعنى انتفاء وجدانه هو انتفاء الوفاء به، لأنّ أصل الوعد ثابت موجود، ولكنّه لمّا كان تحقّقه لا يظهر إلا في المستقبل، وهو الوفاء، جعل انتفاء الوفاء بمنزلة انتفاء الوقوع، والمعنى على تقدير مضاف، أي: ما وجدنا لأكثرهم من وفاء عهد.
{ **وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ** } إخبار بأنّ عدم الوفاء بالعهد من أكثرهم، كان منهم عن عمد ونكث،

ولكون ذلك معنى زائدا على ما في الجملة التي قبلها عطفت ولم تجعل تأكيدا للتي قبلها أو بيانا، لأنّ الفسق هو عصيان الأمر، وذلك أنّهم كذبوا فيما وعدوا عن قصد للكفر.

{ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ } [103].

انتقال من أخبار الرسالات السابقة إلى أخبار رسالة عظيمة لأمّة باقية إلى وقت نزول القرآن فضّلها الله بفضله فلم توف حقّ الشكر وتلقّت رسولها بين طاعة وإباء وانقياد ونفار. فلم يعاملها الله بالاستئصال ولكنّه أراها جزاء مختلف أعمالها، جزاء وفاقا، إن خيرا فخير، وإن شرّا فشر.

وخُصّت بالتفضيل قصّة إرسال موسى لما تحتوي عليه من الحوادث العظيمة والأنباء القيّمة. ولأنّ رسالته جاءت بأعظم شريعة بين يدي شريعة الإسلام، وأرسل رسولها هاديا وشارعا تمهيدا لشريعة تأتي لأمّة أعظم منها تكون بعدها.

{ **ثُمَّ** } دلّت على المهلة، والمهلة باعتبار مجموع الأمم المحكي عنها قبل، فإنّ منها ما بينه وبين موسى قرون، مثل قوم نوح، ومثل عاد وثمود، وقوم لوط، فهي متفاوتة المقدار.

{ **مِنْ بَعْدِهِمْ** } الضمير يعود إلى القرى، باعتبار أهلها.

{ **بِآيَاتِنَا** } للملابسة، وهي في موضع الحال من موسى، أي: مصحوبا بآيات منّا.

الآيات: الدلائل على صدق الرسول، وهي المعجزات.

{ **إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ** }

فِرْعَوْنَ: علم جنس لملك مصر في القديم، أي: قبل أن يملكها اليونان، وهو اسم من لغة القبط. قيل: أصله في القبطية (**فاراه**) ولعلّ الهاء فيه مبدلة عن العين فإنّ (رع) اسم الشمس، فمعنى (فاراه) نور الشمس، لأنّهم كانوا يعبدون الشمس، فجعلوا ملك مصر بمنزلة نور الشمس، لأنّه يصلح النّاس.

نقل هذا الاسم عنهم في كتب اليهود وانتقل عنهم إلى العربية، ولعلّه مما أدخله الإسلام. وهذا الاسم نظير **كسرى** لملك ملوك الفرس القدماء، و**قيصر** لملك الروم، و**نمروذ** لملك كنعان، و**النجاشي** لملك الحبشة، و**تُبّع** لملك ملوك اليمن، و**خان** لملك الترك.

واسم فرعون الذي أرسل موسى إليه (**منفتاح الثاني**)، أحد ملوك العائلة التاسعة عشرة من العائلات التي ملكت مصر، على ترتيب المؤرّخين من الإفرنج وذلك في سنة (1491 ق م).

الملأ: الجماعة من علْية القوم، وتقدّم قريبا. وهم وزراء فرعون وسادة أهل مصر من الكهنة وقوّاد الجند. وإنّما خُصّ فرعون وملأه لأنّهم أهل الحلّ والعقد الذين يأذنون في سراح بني إسرائيل، فإنّ موسى بعثه الله إلى بني إسرائيل ليحرّرهم من الرق الذي كانوا فيه بمصر، ولمّا كان خروجهم من مصر متوقّفا على أمر فرعون وملئه، بعثه الله إليهم ليعلموا انّ الله أرسل موسى بذلك، وفي ضمن ذلك تحصل دعوة

فرعون للهدى، لأنّ كل نبيّ يعلن التوحيد ويأمر بالهدى، وإن كان المأمور من غير المبعوث إليهم حرصا على الهدى إلّا أنّه لا يقيم فيهم ولا يكرّر ذلك.

{ **فَظَلَمُوا** } الفاء للتعقيب، أي: فبادروا بالتكذيب.

الظلم: الاعتداء على حقّ الغير. والمعنى، فظلموا كلّ من له حقّ في الانتفاع بالآيات. أي: منعوا النّاس من التصديق بها، وآذوا الذين آمنوا بموسى لمّا رأوا آياته.

وظلموا أنفسهم إذ كابروا ولم يؤمنوا، فكان الظلم بسبب الآيات، أي: بسبب الاعتراف بها.

ويجوز أن يكون ضمن { ظَلَمُوا } معنى كفروا فعدي إلى الآيات بالباء، والتقدير: فظلموا إذ كفروا بها، لأنّ الكفر بالآيات ظلم حقيقة، إذ الظلم الاعتداء على الحق، فمن كفر بالدلائل الواضحة المسمّاة آيات فقد اعتدى على حق التأمّل والنظر.

{ **فَانْظُرْ** } الفاء لتفريع الأمر على هذا الإخبار، أي: لا تتريّث عند سماع خبر كفرهم عن أن تبادر بالتدبّر فيما سنقص عليك من عاقبتهم.

والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم، والمراد هو ومن يبلغه، أو المخاطب لغير معيّن وهو كلّ من يتأتّى منه النظر والاعتبار عند سماع هذه الآيات. فالتقدير: فانظر أيها الناظر، وهذا استعمال شائع في كل كلام موجه لغير معيّن.

العاقبة: آخر الأمر ونهايته، وقد تقدّم عند قوله تعالى { قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ } [الأنعام:11].

المفسدين: فرعون وملأه، فهو من الإظهار في مقام الإضمار تنبيها على أنّهم أصيبوا بسوء العاقبة لكفرهم وفسادهم، والكفر أعظم الفساد لأنّه فساد القلب ينشأ عنه فساد الأعمال. وفي الحديث: **" ألا وإنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب "**.

{ وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ [104] حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرائيلَ [105] قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ [106] فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ [107] وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ [108] }.

{ **يَا فِرْعَوْنُ** } خطاب إكرام لأنّه ناداه بالاسم الدال على الملك والسلطان بحسب متعارف أمّته، فليس هو بمترفّع عليه، لأنّ الله تعالى قال له ولهارون { فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً } [طه:44]. والظاهر أيضا أنّ قول موسى هذا هو أول ما خاطب به فرعون.

{ **إِنِّي** } صوغ حكاية كلام موسى بصيغة التأكيد بحرف (إنّ) لأنّ المخاطب مظنّة الإنكار أو التردّد

القوي في صحة الخبر.

{ **رَبِّ الْعَالَمِينَ** } اختيار هذه الصفة في الإعلام بالمرسل إبطال لاعتقاد فرعون أنّه ربّ مصر وأهلها فإنّه قال لهم { أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى } [النازعات:24].

{ **حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ** }

حقيق: فعيل بمعنى فاعل، وهو مشتق من (حَقّ) وجب وثبت، أي: متعيّن وواجب عليّ قول الحق على الله، و(على) الأولى للاستعلاء المجازي و(على) الثانية بمعنى (عن).

قرأه نافع بالياء في آخر { عَلَيَّ } فهي ياء المتكلّم دخل عليها حرف (على) وتعدية حقيق بحرف (على) معروفة. و{ حَقِيقٌ } خبر ثان عن { إِنِّي } ، فليس في ضمير المتكلم من قوله { عَلَيَّ } على قراءة نافع التفات. بخلاف ما لو جُعل قوله { حَقِيقٌ } صفة لـ { رَسُولٌ } فحينئذ يكون مقتضى الظاهر الإتيان بضمير الغائب، فيقول: حقيق عليه، فيكون العدول إلى التكلم التفاتا. وفاعل { حَقِيقٌ } هو المصدر المأخوذ من قوله تعالى { أَنْ لَا أَقُولَ }، أي: حقيق عليّ عدم قولي على الله غير الحق.

وقرأ الجمهور { عَلَى } بألف بعد اللام، وهي (على) الجارة. ففي تعلّق (على) ومجرورها الظاهر بـ {حَقِيقٌ} تأويل بوجوه، أحسنها قول الفراء، وأبي علي الفارسي: أنّ (على) هنا بمعنى (الباء) وأنّ {حَقِيقٌ} فعيل بمعنى مفعول، أي: محقوق بأنّ لا أقول على الله إلّا الحق.

{ **قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ** } مستأنفة استئنافا بيانيّا، لأنّ مقام الإنكار ممّا يثير سؤال سائل أن يقول: هذه دعوى غريبة تحتاج إلى بيّنة.

البينة: الحجّة. وقد تقدّم الكلام عليها عند قوله تعالى { قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي } [الأنعام:57]. والحجّة هنا يجوز أن يكون المراد بها البراهين العقليّة على صدق ما جاء به موسى من التوحيد والهدى، ويجوز أن تكون المعجزة الدالة على صدق الرّسول، ويحتمل المعنى الأعمّ الشامل للنوعين على ما يحتمله كلام موسى المترجم عنه هنا.

{ **فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرائيلَ** } الفاء لتفريع طلب تسريح بني إسرائيل على تحقّق الرسالة عن رب العالمين، والاستعداد لإظهار البيّنة على ذلك، لأنّ شأن الرّسل أن لا يبتدئوا بإظهار المعجزات صونا لمقام الرسالة. **الإرسال**: الإطلاق والتخلية، وهو هنا مجاز لغوي في الإذن لبني إسرائيل بالخروج.

{ **مَعِيَ** } لأنّ المقصود من إخراجهم من مصر أن يكونوا مع الرسول ليرشدهم ويدبّر شؤونهم.

{ **قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** } متعيّن لأن يكون معناه، إن كنت جئت بمعجزة فأظهرها. فإنّ أكثر موارد الآية في القرآن مراد فيه المعجزة، وأكثر موارد البيّنة مراد فيه الحجّة.

{ **فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ** }

الإلقاء: الرمي على الأرض أو في الماء أو نحو ذلك، أي: فرمى عصاه من يده.

{ **فإذا** } للمفاجأة وهي حدوث الحادث عن غير ترقب.

{ **ثُعْبَانٌ مُبِينٌ** } الحيّة العظيمة، و**مبين**: الظاهر الذي لا شك فيه ولا تخيّل.

{ **وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ** } المعنى هنا أنّه أخرج يده من جيب قميصه بعد أن أدخلها فيه، كما في [النمل:12] و[القصص:32]، فلمّا أخرجها صارت بيضاء، أي: بياضا من النور.

{ **لِلنَّاظِرِينَ** } أي: بياضا يراه الناظرون رؤية تعجّب من بياضها.

{ **قَالَ الْمَلَأُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ** [109] **يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ** [110] **قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ** [111] **يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ** [112] }.

{ **قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ** } تقدّم الكلام على الملإ آنفا في القصص الماضية. فملأ قوم فرعون هم سادتهم، وهم أهل مجلس فرعون ومشورته. وقد كانت دعوة موسى أوّل الأمر قاصرة على فرعون في مجلسه، فلم يكن بمرأى ومسمع من العامة، لأنّ الله تعالى قال في آية أخرى {اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى} [طه:43]، وقال في هذه الآية { إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ } [103]، وإنّما أشهرت دعوته بعد اجتماع السحرة.

{ **يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ** } يعنون أنّه ما أظهر إخراج بني إسرائيل إلّا ذريعة لإخراج كلّ من يؤمن به ليتّخذهم تبعا ويقيم بهم ملكا خارج مصر، فزعموا أنّ تلك مكيدة من موسى لثلم ملك فرعون.

وإمّا أنّهم علموا أنّه إذا شاع في الأمّة ظهور حجّة موسى وعجز فرعون وملئه أدخل ذلك فتنة في عامة الأمّة، فآمنوا بموسى وأصبح هو الملك على مصر فأخرج فرعون وملأه منها.

{ **فَمَاذَا تَأْمُرُونَ** } المقصود من (الأمر) الطلب على وجه الإفتاء والاشتوار، لأنّ أمرهم لا يتعيّن العمل به. فإذا كان المخاطب فرعون على ما تقدّم، كان مرادا من الأمر الطلب الذي يجب امتثاله كما قال ملأ بلقيس

{ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ } [النمل:33].

الساحر: فاعل السحر. وتقدّم الكلام على السحر عند قوله تعالى { يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ } [البقرة:102].

{ **قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ** } جواب القوم المستشارين، فتجريدها من حرف العطف لجريانها في طريق المحاورة.

الإرجاء: هو التأخير. والمعنى: أخّر المجادلة مع موسى إلى إحضار السحرة الذين يدافعون سحره. وحكى القرآن ذكر الأخ هنا للإشارة إلى أنّه طوي ذكره في أوّل القصة، وقد ذُكر في غير هذه القصة ابتداء.

{ **وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ** } عُدّي فعل الإرسال بـ (في) دون (إلى) لأنّ الفعل هنا غير مقصود تعديته إلى المرسل إليهم بل المقصود منه المرسلون خاصة، وهو المفعول الأول، إذ المعنى: وأرسل حاشرين في المدائن يأتوك بالسحرة، فعلم أنّهم مرسلون للبحث والجلب، لا للإبلاغ.

المدائن: جمع مدينة، وهي بوزن فعيلة، مشتقّة من مَدَن بالمكان إذا أقام. قيل أرادوا مدائن الصعيد، وكانت مقرّ العلماء بالسحر. ومدائن مصر في ذلك الزمن كثيرة وسنذكر بعضها عند قوله { فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ } [الشعراء:53].

الحاشرون: الذين يحشرون النّاس ويجمعونهم.

{ **يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ** } جزم { يَأْتُوكَ } على جواب الأمر، للدلالة على شدّة اتصال السببيّة بين الإرسال والإتيان، فالتقدير: إن ترسل يأتوك.

{ **بِكُلِّ** } مستعمل في معنى الكثرة، أي: بجمع عظيم من السحرة.

{ **عَلِيمٍ** } من أمثلة المبالغة للدلالة على قوة المعرفة بالسحر، وحذف متعلّقه لأنّه صار بمنزلة أفعال السجايا.

{ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ [113] قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ [114] قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ [115] قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ [116] }.

{ **السَّحَرَةُ** } التعريف للعهد، أي: السّحرة المذكورون، وكان حضور السّحرة عند فرعون في اليوم الذي عيّنه موسى للقاء السحرة، وهو المذكور في [طه:60].

{ **قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْراً** } قرأ نافع وابن كثير وحفص وأبو جعفر { إِنَّ لَنَا لَأَجْراً } ابتداء بحرف (إنّ) دون همزة استفهام، وقرأه الباقون بهمزة استفهام قبل (إنّ)، وعلى القرائتين فالمعنى على الاستفهام، فهمزة الاستفهام محذوفة تخفيفا على القراءة الأولى.

{ **أَجْراً** } تنكير تعظيم بقرينة مقام الملك وعظم العمل.

{ **إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ** } ضمير { نَحْنُ } تأكيد لضمير { كُنَّا } إشعارا بجدارتهم بالغلب، وثقتهم بأنّهم أعلم النّاس بالسحر، فأكدوا ضميرهم لزيادة تقرير مدلوله.

{ **قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ** } إجابة عما استفهموا، أو تقريرا لما توسّموا، على الاحتمالين المذكورين.

{ **قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ** } فُصلت لوقوعها في طريقة المحاورة بينهم وبين فرعون وموسى، لأنّ هؤلاء هم أهل الكلام في ذلك المجمع.

{ **إِمَّا** } حرف يدل على الترديد بين أحد شيئين أو أشياء، ولا عمل له ولا هو معمول، وما بعده يكون معمولا للعامل الذي في الكلام. ويكون { إِمَّا } بمنزلة جزء كلمة مثل (أل) المعرفة.

وذلك هو التخيير، أي: إمّا أن تبتدئ بإلقاء آلات سحرك وإمّا أن نبتدئ، فاختر أنت أحد أمرين.

ووجه دلالة التخيير على أنّ التقدّم في التخييلات والشعوذة أنجح للبادئ لأنّ بديهتها تمضي في النفوس وتستقرّ فيها، فتكون النفوس أشدّ تأثرا بها من تأثرها بما يأتي بعدها، ولعلّهم مع ذلك أرادوا أن يسبروا مقدار ثقة موسى بمعرفته ممّا يبدو منه من استواء الأمرين عنده أو من الحرص على أن يكون هو المقدّم.

ولذلك كان في جواب موسى إيّاهم بقوله { أَلْقُوا } استخفاف بأمرهم إذ مكّنهم من مباداة إظهار تخييلاتهم وسحرهم، لأنّ الله قوّى نفس موسى بذلك الجواب لتكون غلبته عليهم، بعد أن كانوا هم المبتدئين، أوقع حجّة وأقطع معذرة.

وفي هذا دليل على جواز الابتداء بتقرير الشبهة للذي يثق بأنّه سيدفعها.

{ **فَلَمَّا أَلْقَوْا** } عطف على محذوف للإيجاز، أي: ألقوا آلات سحرهم.

{ **سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ** } جعلوها متأثّرة بالسحر بما ألقوا من التخييلات والشعوذة.

وفي الكلام مجازعقلي، لأنّ الأعين آلة إيصال التخييلات إلى الإدراك، وهم إنّما سحروا العقول، ولذلك لو قيل: سحروا النّاس لأفاد ذلك، ولكن تفوت نكتة التنبيه على أنّ السحر إنّما هو تخيلات مرئيّة.

الاسترهاب: طلب الرهب، أي: الخوف، وذلك أنّهم عزّزوا تخيلات السحر بأمور أخرى تثير خوف الناظرين، لتزداد تمكّن التخيلات من قلوبهم، وتلك الأمور، أقوال وأفعال توهم أن سيقع شيء مخيف كأن يقولوا للنّاس: خذوا حذركم، وحاذروا، ولا تقتربوا، وسيقع شيء عظيم، وسيحضر كبير السحرة، ونحو ذلك.

ولك أن تجعل (السين والتاء) في { وَاسْتَرْهَبُوهُمْ } للتأكيد، أي: أرهبوهم رهبا شديدا، كما يقال استكبر.

{ **وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ** } ووصف السحر بالعظيم لأنّه من أعظم ما يفعله السحرة، إذ كان مجموعا ممّا تفرّق بين سحرة المملكة.

{ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ [117] فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [118] فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ [119] }.

{ **وَأَوْحَيْنَا** } جملة في حيّز جواب لمّا، أي: لمّا ألقوا سحروا، وأوحينا إلى موسى أن الق لهم عصاك.

{ **فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ** } الفاء للتعقيب الدال على سرعة مفاجأة شروعها في التلقّف بمجرد إلقائها، وقد دل السياق على جملتين محذوفتين، إذ التقدير: فألقاها فدبت فيها الحياة وانقلبت ثعبانا، فإذا هي تلقّف.

التلقّف: قرأ الجمهور { تلقّف} (بقاف مشددة) وأصله تتلقف مبالغة في اللقف وهو الابتلاع والازدراد.

وقرأ حفص عن عاصم بسكون اللام و تخفيف القاف على صيغة المجرّد.

الإفك: الصرف عن الشيء، ويُسمّى الزور إفكا، والكذب المصنوع إفكا، لأنّ فيه صرفا عن الحق وإخفاء للواقع، فلا يُسمَّى إفكا إلّا الكذب المصطنع المموّه، وإنّما جُعل السحر إفكا لأنّ ما يظهر منه مخالف

للواقع فشُبّه بالخبر الكاذب. وتسمية سحرهم إفكا دليل على أنّ السحر لا معمول له وأنّه مجرد تخييلات وتمويهات.

{ **فَوَقَعَ الْحَقُّ** } تفريع على { تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ }. والوقوع حقيقته سقوط الشيء من أعلى إلى الأرض، واستعير الوقوع لظهور أمر رفيع القدر، لأنّ ظهوره كان بتأييد إلهي، فشُبِّه بشيء نزل من علو، وقد يطلق

الوقوع على الحصول، لأنّ الشيء الحاصل يشبه النازل على الأرض، وهي استعارة شائعة، قال تعالى { وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ } [الذريات:6]، أي: حاصل وكائن، والمعنى: فظهر الحق وحصل.

ولعل في اختيار لفظ (وقع)، هنا دون (نزل) مراعاة لفعل الإلقاء، لأنّ الشيء الملقى يقع على الأرض فكان وقوع العصا على الارض وظهور الحق مقترنين.

الْحَقُّ: هو الأمر الثابت الموافق للبرهان، وضدّه الباطل. أريد به هنا صدق موسى وصحة معجزته وكون ما فعلته العصا هو من صنع الله تعالى، وأثر قدرته.

{ **وَبَطَلَ** } حقيقته اضمحلّ. والمراد: اضمحلال المقصود منه وانتفاء أثر مزعوم لشيء. يقال: بطل سعيه، أي: لم يأت بفائدة، ويقال: بطل عمله، أي: ذهب ضياعا وخسر بلا أجر، ومنه سُمّي ضد الحق باطلا، لأنّه شيء لا يحصل منه الأثر المرجو، وهو القبول لدى العقول المستقيمة.

{ **مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } هو السحر، أي: بطلت تخيّلات النّاس أنّ عِصِيّ السحرة وحبالهم تسعى كالحيّات.

{ **فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ** } انقلب من الأفعال التي تجيء بمعنى (صار) وهو المراد هنا، أي: صاروا صاغرين، واختيار لفظ { وَانْقَلَبُوا } دون (رجعوا) أو (صاروا) لمناسبته للفظ غلبوا في الصيغة، ولما يُشعر به أصل اشتقاقه من الرجوع إلى حال أدون، فكان لفظ انقلبوا أدخل في الفصاحة.

الصغار: المذلّة، وهي مذلة ظهور عجزهم، ومذلّة خيبة رجائهم ما أملوه من الأجر والقرب عند فرعون.

{ **وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ [120] قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ [121] رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ [122] قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ [123] لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ [124] قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ [125] وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ [126]** }.

عطف على { فَغُلِبُوا } و{ وَانْقَلَبُوا }، فهو في حيّز فاء التعقيب، أي: حصل ذلك كلّه عقب تلقّف العصا ما يأفكون بدون مهلة، وتعقيب كل شيء بحسبه، فسجود السحرة متأخر عن مصيرهم صاغرين، ولكنه متأخر بزمن قليل وهو زمن انقداح الدليل على صدق موسى في نفوسهم، فإنّهم كانوا أعلم النّاس بالسحر

فلا يخفى عليهم ما هو خارج عن الأعمال السحريّة، ولذلك لمّا رأوا تلقّف عصا موسى لحبالهم وعصيّهم جزموا بأنّ ذلك خارج عن طوق الساحر، فعلموا أنّه تأييد من الله لموسى وأيقنوا أنّ ما دعاهم إليه موسى حقّ، فلذلك سجدوا، وكان هذا خاصا بهم دون بقيّة الحاضرين، فلذلك جيء بالاسم الظاهر دون الضمير لئلا يلتبس بالضمير الذي قبله الذي هو شامل للسحرة وغيرهم.

الإلقاء: مستعمل في سرعة الهُوِيّ إلى الأرض، أي: لم يتمالكوا أن سجدوا بدون تريّث ولا تردّد.

{ **سَاجِدِينَ** } حال، والسجود هيئة خاصة لإلقاء المرء نفسه على الأرض يقصد منها الإفراط في التعظيم، وسجودهم كان لله الذي عرفوه حينئذ بظهور معجزة موسى عليه السلام.

{ **قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ، رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ** } قصدوا من قولهم ذلك، الإعلان بإيمانهم بالله لئلّا يظنّ النّاس أنّهم سجدوا لفرعون، إذ كانت عادة القبط السجود لفرعون، ولذلك وصفوا الله بأنّه رب العالمين بالعنوان الذي دعا به موسى عليه السلام، وزادوا هذا القصد بيانا بالإبدال { رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ }.

{ **قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ** } فصلت الجملة لوقوعها في طريق المحاورة.

{ **آمَنْتُمْ** } قرأه الجمهور بصيغة الاستفهام بهمزتين فمنهم من حقّقها، وهم: حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم، وروح عن يعقوب، وخلف، ومنهم من سهّل الثانية مَدَّة، فصار بعد الهمزة الأولى مدتان، وهؤلاء هم: نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وقرأه حفص عن عاصم بهمزة واحدة فيجوز أن يكون إخبارا، ويجوز أن تكون همزة الاستفهام محذوفة وما ذلك ببدع. والاستفهام للإنكار والتهديد مجازا مرسلا مركّبا.

{ **قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ** } ترقّ في موجب التوبيخ، أي: لم يكفكم أنّكم آمنتم بغيري حتّى فعلتم ذلك عن غير استئذان. وفصلها عمّا قبلها لأنّها تعداد للتوبيخ.

{ **إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا** } خبر مراد به لازم الفائدة، أي: ولقد علمتُ مرادكم.

المكر: تقدّم عند قوله تعالى { وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ } [آل عمران:54].

{ **فِي الْمَدِينَةِ** } ظرفية مجازية، أي: أردتم إضرار أهلها.

وقول فرعون هذا يحتمل أنّه قاله موافقا لظنّه على سبيل التهمة لهم، لأنّه لم يكن له علم بدقائق علم السحر حتّى يفرّق بينه وبين المعجزة الخارقة للعادة، فظن أنّها مكيدة دبّرها موسى مع السحرة، كما في قوله تعالى { إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ } [طه:71].

ويحتمل أنّه قاله تمويها وبهتانا ليصرف النّاس عن اتباع السحرة، وعن التأثّر بغلبة موسى إيّاهم، فيدخل عليهم شكا في دلالة الغلبة واعتراف السحرة بها.

{ **فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ** } فرَّع على الإنكار والتوبيخ الوعيدَ، وحُذف مفعول { تَعْلَمُونَ } لقصد الإجمال في الوعيد لإدخال الرعب.

{ **لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ** } بيان الوعيد. ووقوع الجمع معرّفا بالإضافة يكسبه العموم، فيعمّ كل يد وكل رجل من أيدي وأرجل السحرة. وقد تقدّم بيان نظيرها عند قوله تعالى { أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ } [المائدة:33]. فالمعنى، أنّه يقطع من كل ساحر يدا ورجلا متخالفتي الجهة غير متقابلتيها.

{ **ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ** } المعروف أنّ الصلب أن يقتل المرء مشدودا على خشبة، كما تقدّم في قوله تعالى

{ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ } [النساء:157]، وعلى هذا يكون توعّدهم بنوعين من العذاب، والوعيد موجّه إلى جماعتهم فعُلم أنّه جعلهم فريقين: فريق يعذّب بالقطع من خلاف، وفريق يعذّب بالصلب والقتل، فعلى هذا ليس المعنى على أنّه يصلبهم بعد أن يقطعهم.

ويحتمل أن يراد بالصلب، الصلب دون قتل، فيكون أراد صلبهم بعد القطع ليجعلهم نكالا ينذعر بهم النّاس، كيلا يقدم أحد على عصيان أمره من بعد، فتكون { ثُمَّ } دالة على الترتيب والمهلة، وهذا هو المناسب لظاهر قوله { **أَجْمَعِينَ** } المفيد أنّ الصلب ينالهم كلّهم.

{ **قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ** } فصلت لوقوعها في سياق المحاورة. و**الانقلاب**: الرجوع، وقد تقدّم قريبا. وهذا جواب عن وعيد فرعون بأنّه وعيد لا يضيرهم، لأنّهم يعلمون أنّهم صائرون إلى الله ربّ الجميع، وقد جاء هذا الجواب موجزا إيجازا بديعا، لأنّه يتضمّن أنّهم يرجون ثواب الله على ما ينالهم من عذاب فرعون، ويرجون منه مغفرة ذنوبهم، ويرجون العقاب لفرعون على ذلك.

{ **وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا** } ثمّ بيّنوا أنّ عقاب فرعون لا غضاضة عليهم منه، لأنّه لم يكن عن جناية بل كان على الإيمان بآيات الله لمّا ظهرت لهم.

النقْم: (بسكون القاف وبفتحها) الإنكار على الفعل، وكراهة صدوره وحقد على فاعله، ويكون باللسان وبالعمل.

{ **رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ** } من تمام كلامهم، وهي انتقال من خطابهم فرعون إلى التوجّه إلى دعاء الله تعالى، ولذلك فصلت عن الجملة التي قبلها. والمعنى: اجعل لنا طاقة لتحمّل ما توعّدنا به فرعون.

الإفراغ: صب جميع ما في الإناء، تشبيه المعقول بالمحسوس، على طريقة الاستعارة المكنيّة. والمقصود من ذلك، الكناية عن قوّة الصبر، لأنّ إفراغ الإناء يستلزم أنّه لم يبق فيه شيء ممّا حواه، فاشتملت هذه الجملة على مكنية وتخييلية وكناية. وتقدم نظيره في قوله تعالى { قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً } [البقرة:250].

ولعلّه لم يحقّق ما توعّدهم به، فالقرآن لم يتعرّض هنا، ولا في سورة الشعراء، ولا في سورة طه،

للإخبار عن وقوع ما توعّدهم به فرعون، لأنّ غرض القصص القرآنية هو الاعتبار بمحل العبرة وهو تأييد الله موسى وهداية السحرة وتصلّبهم في إيمانهم بعد تعرّضهم للوعيد بنفوس مطمئنة.
والظاهر أنّ فرعون أُفحم لمّا رأى قلة مبالاتهم بوعيده فلم يُرد جوابا.
وذكرهم الإسلام في دعائهم يدلّ على أنّ الله ألهمهم حقيقته التي كان عليها النبيّون والصديقون من عهد إبراهيم عليه السلام.

{ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ [127] قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ [128] }.

محاورة بين ملإ فرعون وبينه في وقت غير وقت المحاورة التي جرت بين فرعون والسحرة، فإنّهم لمّا رأوا قلّة اكتراث المؤمنين بوعيد فرعون، ورأوا نهوض حجّتهم على فرعون وإفحامه، وأنّه لم يَحرْ جوابا، راموا إيقاظ ذهنه، وإسعار حميّته، فجاؤوا بهذا الكلام المثير لغضب فرعون، ولعلّهم رأوا منه تأثّرا بمعجزة موسى وموعظة الذين آمنوا من قومه وتوقعوا عدوله عن تحقيق وعيده.
{ **أَتَذَرُ مُوسَى** } الاستفهام مستعمل في الإغراء بإهلاك موسى وقومه، والإنكار على الإبطاء بإتلافهم.
والكلام على فعل { تَذَرُ } تقدّم في قوله تعالى { وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً } [الأنعام:70].
قوم موسى: هم من آمن به. وأولئك هم بنوا إسرائيل كلّهم ومن آمن من القبط.
{ **لِيُفْسِدُوا** } لام التعليل وهو مبالغة في الإنكار، إذ جعلوا ترك موسى وقومه معللا بالفساد، وهذه اللام تسمى لام العاقبة. وليست العاقبة معنى من معاني اللام حقيقة ولكنّها مجاز.
والإفساد عندهم هو إبطال أصول ديانتهم وما ينشأ عن ذلك من تفريق الجماعة وحثّ بني إسرائيل على الحرية. ومغادرة أرض الاستعباد.
{ **فِي الْأَرْضِ** } مملكة فرعون وهي قطر مصر.
{ **وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ** } داخل في التعليل المجازي، لأنّ هذا حاصل في بقائهم دون شك، ومعنى تركهم فرعون، تركهم تأليهه وتعظيمه، ومعنى ترك آلهته نبذهم عبادتها ونهيهم النّاس عن عبادتها.
الآلهة: جمع إله. وكان القبط مشركين يعبدون آلهة متنوعة من الكواكب والعناصر وصوّروا لها صورا عديدة مختلفة باختلاف العصور والأقطار، أشهرها (**فتاح**) وهو أعظمها عندهم وكان يّعبد بمدينة (**مَنْفيس**)، ومنها (**رع**) وهو الشمس، وتتفرّع عنه آلهة باعتبار أوقات شعاع الشمس، ومنها (**ازبريس** و**إزيس** و**هوروس**) وهذا عندهم ثالوث مجموع من أب وأم وابن. ومنها (**توت**) وهو القمر وكان عندهم ربّ الحكمة. ومنها (**أمون رع**). فهذه الأصنام المشهورة عندهم وهي أصل إضلال عقولهم. وكانت لهم

أصنام فرعيّة صغرى عديدة مثل العجل (**إيبيس**) ومثل الجعران وهو الجُعل.

وكان أعظم هذه الأصنام هو الذي ينتسب فرعون إلى بُنوّته وخدمته، وكان فرعون معدودا ابن الآلهة وقد حلّت فيه الإلهيّة على نحو عقيدة الحلول، ففرعون هو المنفّذ للدين، وكان يعدّ إله مصر.

{ **قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ** } توعّد فرعون موسى وقومه بالاستئصال بقتل الأبناء، والمراد الرجال بقرينة مقابلته بالنساء.

الاستحياء: مبالغة في الإحياء، فالسين والتاء فيه للمبالغة، والغرض من استبقاء النساء أن يتّخذوهن سراري وخدما.

{ **وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ** } اعتذار من فرعون للملإ من قومه عن إبطائه باستئصال موسى وقومه، أي: هم لا يقدرون أن يفسدوا في البلاد ولا أن يخرجوا عن طاعتي.

القاهر: الغالب بإذلال.

{ **فَوْقَهُمْ** } مستعمل مجازا في التمكّن من الشيء، لأن الاعتلاء على الشيء أقوى أحوال التمكّن من قهره.

{ **قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا** } خاطب موسى قومه بذلك تطمينا لقلوبهم، وتعليما لهم بنصر الله إيّاهم، لأنّه علم ذلك بوحي الله إليه.

{ **إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ** } تذييل وتعليل للأمر بالاستعانة بالله والصبر، كناية عن ترقّب زوال استعباد فرعون إيّاهم، قُصد منها صرف اليأس عن أنفسهم الناشئ عن مشاهدة قوّة فرعون وسلطانه، بأنّ الله الذي خوّله ذلك السلطان قادر على نزعه منه.

فالمراد من الأرض هنا الدنيا لأنّه أليق بالتذييل وأقوى في التعليل، فهذا إيماء إلى أنّهم خارجون من مصر وسيملكون أرضا أخرى.

{ **وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** } تذييل، فيجوز أن تكون الواو اعتراضية.

العاقبة: حقيقتها نهاية أمر من الأمور وآخره، وتقدّم ذكرها عند قوله تعالى { قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ } [الأنعام:11].

فإذا عُرّفت العاقبة باللام كان المراد منها انتهاء أمر الشيء بأحسن من أولّه، كما في قوله تعالى { وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى } [طه:132]. وفي حديث أبى سفيان قول هرقل " وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة ".

فلا تطلق المعرّفة على عاقبة السوء.

المتقون: المؤمنون العاملون.

{ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ } [129].

حكاية جواب قوم موسى إيّاه، فلذلك فصلت جملة القول على طريقة المحاورة، وهذا الخبر مستعمل في الشكاية واستثارتهم موسى ليدعو ربّه أن يفرّج كربهم.

الإيذاء: الإصابة بالأذى، والأذى ما يؤلم ويحزن من قول أو فعل. و تقدّم عند قوله تعالى { لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذىً } [آل عمران:111]. وهو يكون ضعيفا وقويّا، ومرادهم هنا القويّ منه، وهو ما لحقهم من الاستعباد وتكليفهم الأعمال الشاقة عليهم في خدمة فرعون، وما توعّدهم به فرعون بعد بعثة موسى من القطع والصلب وقتل الأبناء. وكأنّهم أرادوا التعريض بنفاد صبرهم، وأنّ الأذى الذي مسّهم بعد بعثة موسى لم يكن بداية الأذى.

{ **قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ** } أجابهم موسى بتقريب أن يكونوا هم الذين يرثون ملك الأرض والذين تكون لهم العاقبة.

{ **عَسَى** } جاء بفعل الرجاء دون الجزم تأدّبا مع الله تعالى، وإقصاء للاتكال على أعمالهم ليزدادوا من التقوى والتعرّض إلى رضى الله تعالى ونصره.

عَدُوَّكُمْ: فرعون وحزبه.

الاستخلاف: إقامة الخليفة، فالسين والتاء لتأكيد الفعل، أي: جعلهم أحرارا غالبين ومؤسّسين ملكا في الأرض المقدّسة.

{ **فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ** } التحذير من أن يعملوا ما لا يرضي الله تعالى، والتحريض على الاستكثار من الطاعة ليستحقّوا وصف المتقين، تذكيرا لهم بأنّه عليم بما يعملونه.

{ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ [130] فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ [131] }.

هذا انتقال إلى ذكر المصائب التي أصاب الله بها فرعون وقومه، وجعلها آيات لموسى، ليلجئ فرعون إلى الإذن لبني إسرائيل بالخروج، وقد وقعت تلك الآيات بعد المعجزة الكبرى التي أظهرها الله لموسى في مجمع السحرة، ويظهر أن فرعون أغضى عن تحقيق وعيده، إبقاء على بني إسرائيل، لأنّهم كانوا يقومون بالأشغال العظيمة لفرعون.

ويؤخذ من التوراة أنّ موسى بقي في قومه مدّة يعيد محاولة فرعون أن يطلق بني إسرائيل، وفرعون يعد ويخلف، ولم تضبط التوراة مدة مقام موسى كذلك، وظاهرها أنّ المدة لم تطل، وليس قوله { بِالسِّنِينَ }

دليل على أنّها طالت أعواما، لأنّ السنين هنا جمع سنة بمعنى الجدب لا بمعنى الزمن المقدّر من الدهر، فالسنة في كلام العرب إذا عُرّفت باللام يراد بها سنة الجدب والقحط. فالمعنى: ولقد أخذناهم بالقحوط العامة في كلّ أرض.

الأخذ: هنا مجاز في القهر والغلبة. ويصحّ أن يكون هنا مجازا في الإصابة بالشدائد، وتعدّدت إطلاقاته، فأطلق كناية عن الملك، وأطلق استعارة للقهر والغلبة وللإهلاك.

نقص الثمرات: قلّة إنتاجها قلة غير معتادة لهم. فالسنون تنتاب المزارع والحقول، ونقص الثمرات ينتاب الجنّات.

{ **لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ** } للرجاء، أي: مرجوّا تذكّرهم، لأنّ المصائب والأضرار المقارنة لتذكير موسى إيّاهم بربّهم، وتسريح عبيده، من شأنها أن يكون أصحابها مرجوّا منهم أن يتذكّروا بأنّ ذلك عقاب على إعراضهم وعلى عدم تذكّرهم.

وفي هذه الآية تنبيه للأمّة للنظر فيما يحيط بها من دلائل غضب الله، فإنّ سلب النعمة للمنعم عليهم تنبيه لهم على استحقاقهم إعراض الله تعالى عنهم.

{ **فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ** }.

المجيء: الحصول والإصابة. وإنّما عُبّر في جانب الحسنة بالمجيء لأنّ حصولها مرغوب، فهي بحيث تُترقّب كما يُترقّب الجائي، وعُبّر في جانب السيّئة بالإصابة لأنّها تحصل فجأة عن غير رغبة ولا ترقّب. وجيء في جانب الحسنة بإذا الشرطية لأنّ الغالب في (إذا) الدلالة على اليقين بوقوع الشرط أو ما يقرب من اليقين. وجيء في جانب السيّئة بحرف (إن) لأنّ الغالب أن تدلّ على التردّد في وقوع الشرط، أو على الشكّ، ولكون الشيء النادر الحصول غير مجزوم بوقوعه ومشكوكا فيه.

وفي ذلك تعريض بأنّ نعم الله كانت متكاثرة لديهم وأنّهم كانوا معرضين عن الشكر، وتعريض بأنّ إصابتهم بالسيّئات نادرة، وهم يعدّون السيئات من جراء موسى ومن آمن معه، فهم في كلتا الحالتين بين كافرين بالنعمة وظالمين لموسى ومن معه.

و**الحسنة** و**السيئة**: هنا مراد بهما الحالة الحسنة والحالة السيئة.

{ **لَنَا** } لام الاستحقاق، أي: هذه الحسنة حقّ لنا، لأنّهم بغرورهم يحسبون أنّهم أحرياء بالنعم، فلا يرون تلك الحسنة فضلا من الله ونعمة.

{ **يَطَّيَّرُوا** } أصله يتطيّروا، وهو تفعّل مشتق من اسم الطير، كأنّهم صاغوه على وزن التفعّل لما فيه من تكلّف معرفة حظ المرء بدلالة حركات الطير. وكان العرب إذا خرجوا في سفر لحاجة نظروا إلى ما يلاقيهم أوّل سيرهم من طائر، فكانوا يزعمون أن في مروره علامات يمن وعلامات شؤم، فالذي في طيرانه علامة يمن في اصطلاحهم يسمونه (**السانح**)، وهو الذي ينهض فيطير من جهة اليمين للسائر، والذي علامته الشؤم هو (**البارح**) وهو الذي يمر على اليسار، وإذا وجد طيرا جاثما أثاره لينظر أيّ جهة

يطير، وتُسمى تلك الإثارة (**زجرا**)، فمن الطير ميمون ومنه مشؤوم. والعرب يدعون للمسافر بقولهم على الطائر الميمون، ثم غلب استعمال لفظ التطير في معنى التشاؤم خاصة.

وفي الحديث: **" لا طيرة وإنّما الطيرة على من تطيّر"**، أي: الشؤم يقع على من يتشاءم، جعل الله ذلك عقوبة

له في الدنيا لسوء ظنه بالله. وتأويل حديث **" الطيرة شرك "**(رواه أصحاب السنن)، أنّها من بقايا دين الشرك.

{ **وَمَنْ مَعَهُ** } من آمنوا به، لأنّ قوم فرعون يعدّون موجب شؤم موسى هو ما جاء به من الدين.

{ **أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** }

{ **أَلَا** } حرف استفتاح يفيد الاهتمام بالخبر الوارد بعده. تعليما للأمّة، وتعريضا بمشركي العرب.

الطائر: اسم للطير الذي يثار ليتيّمن به أو يتشاءم.

{ **عِنْدَ اللَّهِ** } أي: سوء حالهم عقاب من الله، لا من عند موسى ومن معه.

{ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ [132] فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ [133] }.

فهم قابلوا المصائب التي أصابهم الله بها، ليذكّروا، بازدياد الغرور، وعاندوا موسى حين تحداهم بها فقالوا: مهما تأتنا به من أعمال سحرك العجيبة فما نحن لك بمؤمنين.

{ **مَهْمَا** } اسم مضمّن معنى الشرط، أي: أيّما شيء تأتينا به فما نحن لك بمؤمنين.

الآية: العلامة الدالة، وتقدّم الكلام عليها عند قوله تعالى { وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ } [البقرة:39]، وفي قوله تعالى { وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ } [الأنعام:37].

وهم لا يعدّونها آية ولكنهم جاروا موسى في التسمية بقرينة قولهم { لِتَسْحَرَنَا بِهَا }، وفي ذلك استهزاء.

{ **فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ** } مفيدة المبالغة في القطع بانتفاء إيمانهم بموسى، لأنّهم جاؤوا في كلامهم بما حوته الجملة الاسمية، التي حكته، من الدلالة على ثبوت هذا الانتفاء ودوامه، وبما تفيده الباء من توكيد النفي، وما يفيده تقديم متعلّق (مؤمنين) من اهتمامهم بموسى في تعليق الإيمان به المنفي باسمه.

{ **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ** } الفاء لتفريع إصابتهم بهذه المصائب على عتوّهم وعنادهم.

الإرسال: حقيقته توجيه رسول أو رسالة فيُعدّى إلى المفعول الثاني بـ (إلى)، ويُضمّن معنى الإرسال من فوق فيُعدّى إلى المفعول الثاني بـ (على)، قال تعالى { وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ } [الفيل:3].

فحرف (على) دل على أنّ { **فَأَرْسَلْنَا** } مفرّعة تفريع العقاب لا تفريع زيادة الآيات.

الطوفان: السَّيْح الغالب من الماء الذي يغمر جهات كثيرة ويطغى على المنازل والمزارع.

الجراد: الحشرة الطائرة من فصيلة الصرصر والخنافس له أجنحة ستة ذات ألوان صفر وحمر تنتشر عند طيرانه، يكون جنودا كثيرة يُسمَّى الجند منها رِجْلا. وهو مهلك للزرع والشجر، يأكل الورق والسنبل وورق الشجر وقشره، فهو من أسباب القحط. أصاب أرض قوم فرعون ولم يصب أرض بني إسرائيل.

القُمّل: (بضم القاف وتشديد الميم المفتوحة) اسم نوع من القُراد عظيم يُسمّى (الحُمّنان بضم الحاء المهملة وميم ساكنة ونونين) واحدته حُمنانة وهو يمتص دم الإنسان، وهو غير **القَمْل** (بفتح القاف وسكون الميم) الذي هو من الحشرات الدقيقة التي تكون في شعر الرأس وفي جلد الجسد يتكون من تعفّن الجلد لوسخه ودسومته، ومن تعفّن جلد الرأس كثيرا، أصاب القبط عسر الاحتراز عنه، ولعلّه أصاب مواشيهم.

الضفادع: جمع ضفدع، وهو الحيوان المعروف. كان يقع في طعامهم يرتمي إلى القدور، ويقع في في العيون والأسقية وفي البيوت فيفسد ما يقع فيه وتطؤه أرجل النّاس فتتقذّر به البيوت، وقد سلمت منه بلاد جاسان منزل بني إسرائيل.

الدم: قيل: أصابهم رعاف متفشّ فيهم، وقيل: صارت مياه القبط كالدم في اللون، كما في التوراة، ولعلّ ذلك من حدوث دود أحمر في الماء فشُبّه الماء بالدم، وسلمت مياه جاسان قرية بني إسرائيل.

وسَمَّى الله هاته { **آيَاتٍ** } لأنّها دلائل على صدق موسى لاقترانها بالتحدي، ولأنّها دلائل على غضب الله عليهم لتظافرها عليهم حين صمّموا الكفر والعناد.

{ **مُفَصَّلاتٍ** } اسم مفعول من فصّل المضاعف الدال على قوّة الفصل. والفصل حقيقته التفرقة بين شيئين بحيث لا يختلط أحدهما بالآخر، ويستعار الفصل لإزالة اللبس والاختلاط، أي: هي آيات لا شبهة في كونها كذلك لمن نظر نظر اعتبار.

وقيل: المراد أنّها مفصول بعضها عن بعض في الزمان، أي: لم تحدث كلّها في وقت واحد، وعلى هذا فصيغة التفعيل للدلالة على تراخي المدة بين الواحدة والأخرى. ويجيء على هذا أنّ العذاب كان أشدّ وأطول زمنا كما دل عليه قوله تعالى { وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا } [الزخرف:48]، قيل: كان بين الآية منها والأخرى مدة شهر أو مدة ثمانية أيام، وكانت تدوم الواحدة منها مدة ثمانية أيام وأكثر، وعلى هذا الوجه فالأنسب أن يجعل { مُفَصَّلاتٍ } حالا ثانية من الطوفان والجراد، وأن لا يُجعل صفة { آيَاتٍ }.

{ **فَاسْتَكْبَرُوا** } الفاء للتفريع والترتّب، أي: فتفرّع على إرسال الطوفان وما بعده استكبارهم، كما تفرّع على أخذهم بالسنين غرورهم بأنّ ذلك من شؤم موسى ومن معه، وذلك دليل على انغماسهم في الضلالة والخذلان.

الاستكبار: شدّة التكبّر كما دلت عليه السين والتاء، أي: تعاظمهم عن التصديق بموسى وإبطال دينهم إذ

أعرضوا عن التصديق بتلك الآيات المفصّلات.

{ وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ } معطوفة على جملة { فَاسْتَكْبَرُوا }، فالمعنى: فاستكبروا عن الاعتراف بدلالة تلك الآيات وأجرموا.

وإنّما صيغ الخبر عن إجرامهم بصيغة الجملة الاسمية للدلالة على ثبات وصف الإجرام فيهم، وتمكّنه منهم.

الإجرام: فعل الجرم، وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ } [40].

{ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائيلَ [134] فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ [135] }.

الرجز: العذاب، فالتعريف باللام هنا للعهد، أي: العذاب المذكور، وهو ما في قوله تعالى { فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ }، والرجز من أسماء الطاعون، وقد تقدّم عند قوله تعالى { فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ } [البقرة:59]. أي: أصابهم طاعون ألجأهم إلى التضرّع بموسى عليه السلام، فطوي ذكره للإيجاز. وإنّما لم يذكر الرجز في عداد الآيات تخصيصا له بالذكر، لأنّ له نبأ عجيبا، فإنّه كان ملجئهم إلى الاعتراف بآيات موسى ووجود ربه تعالى.

وهذا الطاعون هو الموتان الذي حُكي في [سفر الخروج، الإصحاح:11] : " هكذا يقول الربّ إنّي أخرج نحو نصف الليل في وسط مصر فيموت كل بكر في أرض مصر من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الجارية التي خلف الرحى وكلّ بكر بهيمة ". قيل مات سبعون ألف رجل في ذلك اليوم من القبط خاصة، ولم يصب بني إسرائيل منه شيء.

{ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ } وليس قولهم هذا عن إيمان بالله ورسالة موسى، ولكنّهم كانوا مشركين وكانوا يجوّزون تعدّد الآلهة واختصاص بعض الأمم وبعض الأقطار بآلهة لهم، فهم قد خامرهم من كثرة ما رأوا من آيات موسى أن يكون لموسى ربّ له تصرف وقدرة، وأنّه أصابهم بالمصائب لأنّهم أضرّوا عبيده، فسألوا موسى أن يكفّ عنهم ربّه ويكون جزاؤه الإذن لبني إسرائيل بالخروج من مصر ليعبدوا ربّهم، كما حكت التوراة في الإصحاح الثاني عشر عن فرعون.

فقد التبس حال موسى على فرعون فلم يدر أهو رسول من إله غير آلهة القبط، فلذلك قال له بما عهد عندك، أي: بما عرّفك وأودع عندك من الأسرار، وهذه عبارة متحيّر في الأمر ملتبسة عليه الأدلة.

{ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ } مستأنفة استئنافا بيانيّا، لأنّ طلبهم من موسى الدعاء بكشف الرجز عنهم مع سابقية كفرهم به يثير سؤال موسى أن يقول: فما الجزاء على ذلك. واللام موطّئة للقسم، و{ لَنُؤْمِنَنَّ }

جواب القسم.
{ **لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائيلَ** } ووعدهم بالإيمان لموسى، وعد بالإيمان بأنّه صادق في أنّه مرسل من ربّ بني إسرائيل ليخرجهم من أرض مصر، وليس وعدا باتباع الدين الذي جاء به موسى عليه السلام، وقد جاء هذا الوعد على حسب ظنّهم أنّ الربّ الذي يدعو إليه موسى هو ربّ خاص به وبقومه، كما دلّ عليه قولهم { ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ } وقد وضّحوا مرادهم بقولهم { وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائيلَ }.
{ **فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ** } دالة على أنّ موسى دعا الله برفع الطاعون فارتفع، وقد جاء ذلك صريحا في التوراة وحُذف هنا للإيجاز.
{ **إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ** } وهو الأجل الذي قدّره الله لهلاكهم، فالغاية منظور فيها إلى فعل الكشف لا إلى مفعوله، وهو الرجز.
{ **إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ** } جواب (لمّا). وهذا وصف لهم بإضمار الكفر بموسى وإضمار النكث باليمين.
النكث: حقيقته نقض المفتول من حبل أو غزل، قال تعالى { وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً } [النحل:92]، واستعير النكث لعدم الوفاء بالعهد، كما استعير الحبل للعهد في قوله تعالى { إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ } [آل عمران:112]، ففي قوله تعالى { يَنْكُثُونَ } استعارة تبعيّة.
وهذا النكث هو أن فرعون بعد أن أذن لبني إسرائيل بالخروج، وخرجوا من أرض جاسان ليلا قال لفرعون بعض خاصته: ماذا فعلنا حتى أطلقنا بني إسرائيل من خدمتنا فندم فرعون وجهّز جيشا للالتحاق بهم ليردّوهم إلى منازلهم، كما هو في الإصحاح الرابع عشر من سفر الخروج.

{ **فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ** } [136].
هذا محلّ العبرة من القصّة، فهو مفرّع عليها تفريع النتيجة على المقدّمات والفذلكة على القصّة، فإنّه بعد أن وصف عناد فرعون وملئه وتكذيبهم رسالة موسى واقتراحهم على موسى أن يجيء بآية ومشاهدتهم آية انقلاب العصا ثعبانا، وتغيير لون يده، ورميهم موسى بالسحر، وسوء المقصد، ومعارضة السحرة معجزة موسى وتغلّب موسى عليهم، وكيف أخذ الله آل فرعون بمصائب جعلها آيات على صدق موسى، وكيف كابروا وعاندوا، حتى أُلجئوا إلى أن وعدوا موسى بالإيمان وتسريح بني إسرائيل معه وعاهدوه على ذلك، فلمّا كُشف عنهم الرجز نكثوا، فأخبر الله بأن ذلك ترتّب عليه استئصال المستكبرين المعاندين، وتحرير المؤمنين الذين كانوا مستضعفين.
الانتقام: افتعال، وهو العقوبة الشديدة الشبيهة بالنَقْم. وتقدّم الكلام على المجرّد من هذا الفعل عند قوله تعالى { وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآياتِ رَبِّنَا } [126].
وكان إغراقهم انتقاما من الله لذاته لأنّهم جحدوا انفراد الله بالإلهيّة، أو جحدوا إلهيّته أصلا، وانتقاما أيضا

لبني إسرائيل لأنّ فرعون وقومه ظلموا بني إسرائيل وأذلّوهم واستعبدوهم باطلا.

الإغراق: الإلقاء في الماء المستبحر الذي يغمر الملقى فلا يترك له تنفّسا، وهو بيان للانتقام وتفصيل لمجمله.

اليم: البحر والنهر العظيم، قيل هو كلمة عربية، وقال بعض اللغويين: هو معرّب عن السريانية وأصله فيها وقبل: هو من القبطية، وقال ابن الجوزي: هو من العبرية، ولعله موجود في هذه اللغات. والمراد به هنا بحر القلزم، المُسمّى في التوراة بحر سُوف، وهو البحر الأحمر.

وقد أطلق اليمّ على نهر النيل في قوله تعالى { أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ } [طه:39] وقوله تعالى { فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ } [القصص:7].

وقد أُغرق فرعون وجنده في البحر الأحمر حين لحق بني إسرائيل يريد صدّهم عن الخروج من أرض مصر وتقدّمت الإشارة إلى ذلك في سورة البقرة وسيأتي تفصيله عند قوله { حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ } [يونس:90].

{ **بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ** } الباء للسببية، أي: أغرقناهم جزاء على تكذيبهم بالآيات.

الغفلة: ذهول الذهن عن تذكّر شيء، وتقدّمت في قوله { وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ } [الأنعام:156]. وأريد بها التغافل عن عمد، وهو الإعراض عن التفكّر في الآيات، وإباية النظر في دلالتها على صدق موسى. فإطلاق الغفلة على هذا مجاز.

وهذا تعريض بمشركي العرب في إعراضهم عن التفكّر في صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، ودلالة معجزة القرآن.

وقد صيغ الإخبار عن إعراضهم بصيغة الجملة الاسمية للدلالة على أنّ هذا الاعراض ثابت لهم، وراسخ فيهم، وأنّه هو علة التكذيب، المصوغ خبره بصيغة الجملة الفعلية لإفادة تجدّده عند تجدد الآيات.

{ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ } [137].

{ **وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا** } عطف على قوله تعالى { فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ }، والمعنى: فأخذناهم بالعقاب الذي استحقّوه، وجازينا بني إسرائيل بنعمة عظيمة.

{ **أَوْرَثْنَا** } تقدّم عند قوله تعالى { أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا } [الأعراف:100]، والمراد هنا تمليك بني إسرائيل جميع الأرض المقدّسة بعد أهلها من الأمم التي كانت تملكها من الكنعانيين وغيرهم.

الذين كانوا يستضعفون: هم بنو إسرائيل كما وقع في قوله { كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرائيلَ } [الشعراء:59]. وعدل عن تعريفهم بطريق الإضافة إلى تعريفهم بطريق الموصولية لنكتتين:

الأولى: الإيماء إلى علّة الخبر، أي: أنّ الله ملّكهم الأرض وجعلهم أمّة حاكمة جزاء لهم على ما صبروا على الاستعباد، غيرة من الله على عبيده.

الثانية: التعريض ببشارة المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم بأنّهم ستكون لهم عاقبة السلطان كما كانت لبني إسرائيل، جزاء على صبرهم على الأذى في الله، ونذارة المشركين بزوال سلطان دينهم.

يستضعفون: يستعبدون ويهانون.

المشارق والمغارب: المراد بهما إحاطة الأمكنة.

{ **الْأَرْضَ** } أرض الشام، وهي الأرض المقدّسة وهي تبتديء من السواحل الشرقية الشمالية للبحر الأحمر وتنتهي إلى سواحل بحر الروم (البحر المتوسط) وإلى حدود العراق وحدود بلاد العرب وحدود بلاد الترك.

{ **الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا** } صفة للأرض أو لمشارقها ومغاربها، لأنّ ما صدقيهما متحدان، أي: قدّرنا لها البركة. وقد مضى الكلام على البركة عند قوله تعالى { لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ } [96].

{ **وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ** } التنويه بفضيلة الصبر وحسن عاقبته.

{ **وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى** } هي القول، وهو هنا يحتمل أن يكون المراد به اللفظ الذي وعد الله بني إسرائيل على لسان موسى { عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ } [129]، أو على لسان إبراهيم، وهي وعد تمليكهم الأرض المقدسة. وتمام الكلمة تحقّق وعدها، شُبّه تحققها بالشيء إذا استوفى أجزاءه.

ويحتمل أنّها كلمة الله في علمه وقدره، وهي إرادة الله إطلاقهم من استعباد القبط وإرادته تمليكهم الأرض المقدسة، كقوله تعالى { وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ } [النساء:171]، وتمام الكلمة بهذا المعنى ظهور تعلقها التنجيزي في الخارج على نحو قول موسى { يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ } [المائدة:21]، وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً } [الأنعام:115].

{ **الْحُسْنَى** } صفة تشريف، كما يقال: الأسماء الحسنى، أي: كلمة ربك المنزّهة عن الخلف. ويحتمل أن يكون المراد حسنها لبني إسرائيل، وإن كانت سيّئة على فرعون وقومه.

{ **رَبِّكَ** } الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم، أدمج في ذكر القصة إشارة إلى أنّ الذي حقّق نصر موسى وأمّته على عدوّهم هو ربك، فسينصرك وأمّتك على عدوّكم لأنّه ذلك الرب الذي نصر المؤمنين السابقين، وتلك سنته وصنعه، وليس في الخطاب التفات من الغيبة إلى الخطاب لاختلاف المراد من الضمائر.

{ **عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ بِمَا صَبَرُوا** } الإشارة إلى تضمين { تَمَّتْ } معنى الإنعام، أو معنى حقّت.

{ **بِمَا صَبَرُوا** } الباء للسببية، أي: بصبرهم على الأذى في ذات الإله.

{ **وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ** }

التدمير: التخريب الشديد وهو مصدر دمّر الشيء إذا جعله دامرا.

{ **مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ** } ما شاده من المصانع. وإسناد الصنع إليه مجاز عقلي لأنّه الآمر بالصنع، وأمّا إسناده إلى قوم فرعون فهو على الحقيقة العقلية بالنسبة إلى القوم لا بالنسبة إلى كل فرد على وجه التغليب.

{ **وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ** } ينشئون من الجنات ذات العرايش.

العريش: ما يرفع من دوالي الكروم، ويطلق أيضا على النخلات العديدة تربى في أصل واحد، ولعلّ جنّات القبط كانت كذلك، كما تشهد به بعض الصور المرسومة على هياكلهم نقشا ودهنا، وتقدّم في قوله تعالى

{ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ } [الأنعام:141].

وذلك أنّ الله خرّب ديار فرعون وقومه المذكورين، ودمّر جناتهم بما ظلموا بالاهمال، أو بالزلزال، أو على أيدي جيوش أعدائهم الذين ملكوا مصر بعدهم.

ويجوز أن يكون { يَعْرِشُونَ } بمعنى يرفعون، أي: يشيّدون من البناء مثل مباني الاهرام والهياكل وهو المناسب لفعل { وَدَمَّرْنَا }.

{ **وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرائيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ [138] إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [139] قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ [140]** }.

لمّا تمّت العبرة بقصة بعث موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه، وكيف نصره الله على عدوّه، ونصر قومه وأهلك عدوّهم، كشأن سنّة الله في نصر الحقّ على الباطل، استرسل الكلام إلى وصف تكوين أمّة بني إسرائيل وما يحقّ أن يُعتبر به من الأحوال العارضة لهم في خلال ذلك ممّا فيه طمأنينة نفوس المؤمنين الصالحين في صالح أعمالهم، وتحذيرهم ممّا يرمي بهم إلى غضب الله فيما يحقّرون من المخالفات، لما في ذلك كله من التشابه في تدبير الله تعالى أمور عبيده، وسنّته في تأييد رسله وأتباعهم، وإيقاظ نفوس الأمّة إلى مراقبة خواطرهم ومحاسبة نفوسهم في شكر النعمة ودحض الكفران.

المجاوزة: البعد عن المكان عقب المرور فيه، يقال: جاوز بمعنى جاز.

البحر: هو بحر القلزم المعروف اليوم بالبحر الأحمر، وهو المراد باليمّ في الآية السابقة، واختلاف اللفظ

تفنّن تجنبا للإعادة. والمعنى: أنّهم قطعوا البحر وخرجوا على شاطئه الشرقي.

{ **أَتَوْا عَلَى قَوْمٍ** } معناه أتوا قوما، ولمّا ضُمّن معنى مروا عُدّي بـ (على)، لأنّهم لم يقصدوا الإقامة في القوم، ولكنّهم ألفوهم في طريقهم.

القوم: هم الكنعانيّون ويقال لهم عند العرب العمالقة، ويعرفون عند متأخري المؤرخين بالفنيقيين.

الأصنام: كانت صور البقر، وقد كان البقر يعبد عند الكنعانيين (الفنيقيين) باسم (**بعل**). وتقدّم بيان ذلك عند قوله تعالى { ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ } [البقرة:51].

العكوف: الملازمة بنيّة العبادة. و تقدّم عند قوله تعالى { وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ } [البقرة:187].

واختير طريق التنكير في { أَصْنَامٍ } ووصفها بأنّها لهم للتحقير، لأنّ التنكير يستلزم خفاء المعرفة.

وقال ابن عرفة التونسي بأنّه زيادة تشنيع بهم وتنبيه على جهلهم وغوايتهم في أنّهم يعبدون ما هو ملك لهم فيجعلون مملوكهم إلاههم.

{ **قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ** } نداؤهم موسى وهو معهم مستعمل في طلب الإصغاء لما يقولونه، إظهارا لرغبتهم فيما سيطلبون، وسمّوا الصنم إلها لجهلهم، فهم يحسبون أنّ اتخاذ الصنم يجدي صاحبه، كما لو كان آلهه معه، وهذا يدل على أنّ بني إسرائيل قد انخلعوا في مدة إقامتهم بمصر عن عقيدة التوحيد وحنيفيّة إبراهيم ويعقوب، لأنّهم لمّا كانوا في حال ذلّ واستعباد ذهب علمهم وتاريخ مجدهم واندمجوا في ديانة الغالبين لهم فلم تبق لهم ميزة تميّزهم إلّا أنهم خدمة وعبيد.

{ **كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ** } التشبيه أرادوا به حضّ موسى على إجابة سؤالهم، وابتهاجا بما رأوا من حال القوم الذين حلوا بين ظهرانيهم. وكفى بالأمّة خسّة عقول أن تعد القبيح حسنا، وأن تتخذ المظاهر المزيّنة قدوة لها، وأن تنخلع عن كمالها في اتباع نقائص غيرها.

{ **قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ** } كان جواب موسى عليه السلام بعنف وغلظة لأنّ ذلك هو المناسب لحالهم.

الجهل: انتفاء العلم، أو تصوّر الشيء على خلاف حقيقته. قال تعالى { لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ } [النساء:17]. والمراد جهلهم بمفاسد عبادة الأصنام.

{ **إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ** }

المتبّر: المدمّر، والتَّبار (بفتح التاء) الهلاك، قال تعالى { وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً } [نوح:28]. يقال: **تَبَرَ** الشيء كضرب وقتل، و**تبّره** تضعيف للتعدية، أي: أهلكه. والتتبير مستعار هنا لفساد الحال.

<u>ويجوز</u> أن يكون التتبير مستعار لسوء العاقبة.

{ **مَا هُمْ فِيهِ** } عبادة الأصنام وما تقتضيه من الضلالات والسيئات، ولذلك اختير في تعريفها طريق الموصولية، لأنّ الصلة تحيط بأحوالهم التي لا يحيط بها المتكلّم ولا المخاطبون.

{ **قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهاً** } يعاد لفظ { قَالَ } في حكاية الأقوال إذا طال المقول، أو لأنّه انتقال من

غرض التوبيخ على سؤالهم إلى غرض التذكير بنعمة الله عليهم، وأنّ شكر النعمة يقتضي زجرهم عن محاولة عبادة غير المنعم.
والاستفهام للإنكار والتعجّب من طلبهم أن يجعل لهم إلها غير الله.
{ **أَبْغِيكُمْ** } همزة المتكلّم للفعل المضارع، وهو مضارع بغَى بمعنى طلب، ومصدره البُغاء (بضم الباء). وفعله يتعدّى إلى مفعول واحد، ومفعوله هو { أَغَيْرَ اللَّهِ } لأنّه هو الذي ينكر موسى أن يكون يبغيه لقومه.
{ **وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ** } في موضع الحال. وظاهر صوغ الكلام على هذا الاسلوب أنّ تفضيلهم على العالمين كان معلوما عندهم لأنّ ذلك هو المناسب للانكار، ويحتمل أنّه أراد إعلامهم بذلك وأنّه أمر محقّق.
على العالمين: أمم عصرهم. وتفضيلهم عليهم بأنّهم ذريّة رسول وأنبياء، وبأنّ منهم رسلا وأنبياء، وبأنّ الله هداهم إلى التوحيد والخلاص من دين فرعون بعد أن تخبّطوا فيه، وبأنّه جعلهم أحرارا بعد أن كانوا عبيدا، وساقهم إلى امتلاك أرض مباركة وأيّدهم بنصره وآياته، وبعث فيهم رسولا ليقيم لهم الشريعة.
وهذه الفضائل لم تجتمع لأمة غيرهم يومئذ.

{ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ } [141].
من تتمّة كلام موسى عليه السلام كما يقتضيه السياق، ويعضده قراءة ابن عامر { وَإِذْ أَنْجَاكُمْ }.
ويجوز أن يكون هذا امتنانا من الله، انتقالا من الخبر والعبرة إلى النعمة والمنّة.
واختار الطبري وجماعة أن يكون قوله { وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ } خطابا لليهود الموجودين في زمن محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا لا يستقيم لأنّ سورة الأعراف مكيّة ولم يكن في المكّي من القرآن ما هو مجادلة مع اليهود.
{ **يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ** } إلى آخر الآية تقدّم تفسير مشابهتها في [البقرة:49].

{ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ } [142].
عود إلى بقية حوادث بني إسرائيل بعد مجاوزتهم البحر.
المواعدة: تقدّم الكلام على معناها في نظير هذه الآية في سورة البقرة، وقرأ أبو عمرو { وَوَعَدْنَا }.

والموعود به هو الحضور لتلقي الشريعة.

وقد جعل الله مدّة المناجاة ثلاثين ليلة تيسيرا عليه، فلما قضاها وزادت نفسه الزكية تعلقا ورغبة في مناجاة الله وعبادته، زاده الله من هذا الفضل عشر ليال، فصارت مدّة المناجاة أربعين ليلة، وقد ذكر بعض المفسرين قصة في سبب زيادة عشر ليال، لم تصح.

ولم يزده على أربعين ليلة، إمّا لأنّه قد بلغ أقصى ما تحتمله قوته البشريّة، فباعده الله من أن تعرض له السآمة في عبادة ربه، وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" عليكم من الأعمال بما تطيقون فإنّ الله لا يملّ حتّى تملّوا "** .

وإمّا لأنّ زيادة مغيبه عن قومه تفضي إلى إضرار، فقد قيل إنّهم عبدوا العجل في العشر الليالي الأخيرة من الأربعين ليلة.

{ **وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ** } سُمّيت زيادة الليالي العشر إتماما إشارة إلى أنّ الله تعالى أراد أن تكون مناجاة موسى أربعين ليلة، ولكنّه لمّا أمره بها أمره بها مفرّقة، إمّا لحكمة الاستيناس، وإمّا لتكون تلك العشر عبادة أخرى فيتكرّر الثواب.

والمراد الليالي بأيامها فاقتصر على الليالي لأنّ المواعدة كانت لأجل الانقطاع للعبادة وتلقي المناجاة. على أنّ الغالب في الكلام العربي التوقيت بالليالي ويريدون أنّها بأيّامها، لأنّ الأشهر العربية تبتدأ بالليالي إذ هي منوطة بظهور الأهلّة.

{ **فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً** } فذلكة الحساب كما في قوله تعالى { فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ } [البقرة:196]، فالفاء للتفريع.

التمام: مستعمل في معنى النماء والتفوّق، فكان ميقاتا أكمل وأفضل، إشارة إلى أنّ زيادة العشر كانت لحكمة عظيمة تكون مدة الثلاثين بدونها غير بالغة أقصى الكمال، وأنّ الله قدّر المناجاة أربعين ليلة، ولكنّه أبرز الأمر لموسى مفرّقا تيسيرا عليه، وليكون إقباله على إتمام الأربعين باشتياق وقوة.

الميقات: قيل: مرادف للوقت، وقيل: هو وقت قدّر فيه عمل ما، وتقدّم في قوله تعالى { قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ } [البقرة:189]

{ **رَبِّهِ** } للتشريف، وللتعريض بتحميق بعض قومه حين تأخّر مغيب موسى عنهم في المناجاة بعد الثلاثين، فزعموا أنّ موسى هلك في الجبل كما رواه ابن جريج، ويشهد لبعضه كلام التوراة [سفر الخروج، الإصحاح:32].

{ **وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ** } قال له ذلك عند العزم على الصعود إلى الجبل للمناجاة فإنّه صعد وحده ومعه غلامه يوشع بن نون.

{ **اخْلُفْنِي** } كن خلفا عني وخليفة، وهو الذي يتولّى عمل غيره عند فقده فتنتهي تلك الخلافة عند حضور المستخلف، فالخلافة وكالة.

{ **وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ** } جمع له في وصيّته ملاك السياسة، فانّ سياسة الأمّة تدور حول محور الإصلاح. وهذا أمر لهارون جامع لما يتعيّن عليه عمله من أعماله في سياسة الأمة، وفيه تحذير من الفساد بأبلغ صيغة. وقد أجرى الله على لسان رسوله موسى، أو أعلمه، ما يقتضي أنّ في رعيّة هارون مفسدين، وأنّه يوشك إن سلكوا سبيل الفساد أن يسايرهم عليه، لما يعلم في نفس هارون من اللين في سياسته.

الإتباع: هنا مستعار للمشاركة في عمل المفسد. ففي هذا النهي سد ذريعة الفساد.

وسد ذرائع الفساد من أصول الاسلام، وقد عني بها مالك بن أنس وكرّرها في كتابه واشتهرت هذه القاعدة في أصول مذهبه.

{ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ [143] قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ [144] }.

جُعل مجيء موسى للميقات وتكليم الله إيّاه شرطا لحرف { **لَمَّا** } لأنّه كالمعلوم، وجُعل الإخبار متعلقا بما بعد ذلك، وهو اعتبار بعظمة الله وجلاله.

المجيء: انتقاله من بين قومه إلى جبل سينا المعيّن فيه مكان المناجاة.

{ **كَلَّمَهُ رَبُّهُ** } التكليم حقيقته النطق بالألفاظ المفيدة معاني بحسب وضع مصطلح عليه، وهذه الحقيقة مستحيلة على الله تعالى لانّها من أعراض الحوادث، فتعيّن أن يكون إسناد التكليم إلى الله مجازا مستعملا في الدلالة على مراد الله تعالى بألفاظ من لغة المخاطب به، بكيفية يوقن المخاطب به أنّ ذلك الكلام من أثر قدرة الله على وفق الإرادة ووفق العلم. وهو تعلّق تنجيزي بطريق غير معتاد.

<u>فيجوز</u> أن يخلق الله الكلام في شيء حادث سمعه موسى، كما روي أنّ الله خلق الكلام في الشجرة التي كان موسى حذوها، وذلك أوّل كلام كلّمه الله موسى في أرض مدين في جبل حوريب.

<u>ويجوز</u> أن يخلق الله الكلام من خلال السحاب، وذلك الكلام الواقع في طور سينا وهو المراد هنا، وهو المذكور في [سفر الخروج، الإصحاح 19].

والكلام بهذه الكيفية كان يسمعه موسى حين يكون بعيدا عن النّاس في المناجاة أو نحوها، وهو أحد الأحوال الثلاثة التي يكلم الله بها أنبياءه كما في قوله تعالى { وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً } [الشورى:51]. وهو حادث لا محالة ونسبته إلى الله أنّه صادر بكيفيّة غير معتادة لا تكون إلّا بإرادة الله أن يخالف به المعتاد تشريفا له، وهو المعبّر عنه بقوله تعالى { أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ } [الشورى:51].

وقد كلّم الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء، وأحسب الأحاديث القدسيّة كلّها أو معظمها ممّا كلّم الله به محمدا صلى الله عليه وسلم. وأمّا إرسال الله جبريل بكلام إلى أحد أنبيائه فهي كيفيّة أخرى، وذلك بإلقاء الكلام في نفس الملك الذي يبلّغه إلى النبيّ، والقرآن كلّه من هذا النوع، وقد كان الوحي إلى موسى بواسطة الملك في أحوال كثيرة وهو الذي يعبّر عنه في التوراة بقولها: قال الله لموسى.

{ **قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ** } سؤال موسى رؤية الله تعالى تطلّع إلى زيادة المعرفة بالجلال الإلهي، لأنّه لمّا كانت المواعدة تتضمّن الملاقاة، وكانت الملاقاة تعتمد رؤية الذات وسماع الحديث، وحصل لموسى أحد ركني الملاقاة وهو التكليم، أطمعه ذلك في الركن الثاني وهو المشاهدة، وممّا يؤذن بأنّ التكليم هو الذي أطمع موسى في حصول الرؤية جعل جملة { وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ } شرطا لحرف (لمّا)، لأنّها تدلّ على شدة الارتباط بين شرطها وجوابها.

{ **قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي** }

{ **لَنْ** } نفت رؤية موسى ربّه نفيا لا طمع بعده للسائل في الإلحاح والمراجعة، بحيث يعلم أنّ طلبته متعذّرة الحصول، وإنّما يتعلّق ذلك كلّه بهذه الحياة المعبّر عنها بالأبد، فلا دلالة في هذا النفي على استمراره في الدار الآخرة.

{ **لَكِنِ** } الاستدراك لرفع توهّم المخاطب الاقتصار على نفي الرؤية بدون تعليل ولا إقناع، أو أن يتوهّم أنّ هذا المنع لغضب على السائل ومنقصة فيه. وذلك أنّه أمره بالنظر إلى الجبل الذي هو فيه، هل يثبت في مكانه، وهذا يُعلم منه أنّ الجبل سيتوجّه إليه شيء من شأن الجلال الإلهي، وأنّ قوة الجبل لا تستقر عند ذلك التوجّه العظيم، فيعلم موسى أنّه أحرى بتضاؤل قواه الفانية لو تجلّى له شيء من سبحات الله تعالى.

{ **فَسَوْفَ تَرَانِي** } ليس بوعد بالرؤية، ولكنّه إيذان بأنّ المقصود من نظره إلى الجبل أن يرى رأي اليقين عجز القوّة البشريّة عن رؤية الله تعالى.

{ **فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً** }

التجلّي: حقيقة الظهور وإزالة الحجاب، وهو هنا مجازا، ولعلّه أريد به إزالة الحوائل المعتادة التي جعلها الله حجابا بين الموجودات الأرضية وبين قوى الجبروت التي استأثر الله تعالى بتصريفها على مقادير مضبوطة ومتدرّجة في عوالم مترتّبة ترتيبا يعلمه الله.

الدكّ: مصدر وهو والدقّ مترادفان وهو الهدّ، وتفرّق الأجزاء كقوله تعالى { وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً } [مريم:90]، وقد أخبر عن الجبل بأنّه جُعل دكا للمبالغة، والمراد أنه مدكوك أي: مدقوق مهدوم.

وقرأ الكسائي، وحمزة، وخلف { **دكّاء** } (بمد بعد الكاف وتشديد الكاف) والدكّاء الناقة التي لا سنام لها، فهو تشبيه بليغ، أي: كالدكاء أي: ذهبت قمَّته.

{ **وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ** }

الخرور: السقوط على الأرض.

الصعق: وصف بمعنى المصعوق، ومعناه المغشي عليه من صيحة ونحوها، مشتق من اسم الصاعقة وهي القطعة النارية التي تبلغ إلى الأرض من كهرباء البرق، فإذا أصابت جسما أحرقته، وإذا أصابت الحيوان من قريب أماتته، أو من بعيد غُشي عليه من رائحتها.

الإفاقة: رجوع الإدراك بعد زواله بغشي، أو نوم، أو سكر، أو تخبّط جنون.

{ **قَالَ سُبْحَانَكَ** } مصدر جاء عوضا عن فعله، أي: اسبّحك، وهو هنا إنشاء ثناء على الله وتنزيه عمّا لا يليق به، لمناسبة سؤاله منه ما تبيّن له أنّه لا يليق به .

{ **تُبْتُ إِلَيْكَ** } إنشاء لتوبة من العود إلى مثل ذلك دون إذن من الله، وهذا كقول نوح عليه السلام { رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ } [هود:47] .

{ **وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ** } إطلاق الأوّل على المبادر مجاز شائع مساو للحقيقة، والمراد به هنا وفي نظائره الكناية عن قوّة إيمانه، فهو للمبالغة وتقدّم نظيره في قوله تعالى { وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ } [البقرة:41].

{ **قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ** } فصلت لوقوع القول في طريق المحاورة والمجاوبة، والنداء للتأنيس وإزالة الروع.

{ **إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ** } تأكيد الخبر للاهتمام به إذ ليس محلا للإنكار.

الاصطفاء: افتعال مبالغة في الاصفاء وهو مشتق من الصّفْو، وهو الخلوص ممّا يكدّر، وتقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً } [آل عمران:33]. وضُمّن اصطفيتك معنى الإيثار والتفضيل فعدّي بـ (على).

{ **عَلَى النَّاسِ** } جميع النّاس، أي: الموجودين في زمنه، فالاستغراق عرفي، أي: هو مفضّل على النّاس يومئذ لأنه رسول، ولتفضيله بمزيّة الكلام.

{ **فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ** }

الإيتاء: مجاز أطلق على التعليم والإرشاد، و**الأخذ** مجاز في التلقّي والحفظ، والأظهر أن يكون { **مَا آتَيْتُكَ** } إعطاء الألواح بقرينة قوله تعالى { وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ } [الأعراف: 145] وقد فُسّر بذلك. فالإيتاء حقيقة، والأخذ كذلك، وهذا أليق بنظم الكلام.

{ **وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ** } أبلغ من أن يقال: كن شاكرا.

{ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ } [145].

الألواح: جمع لَوح وهو قطعة مربعة من الخشب، وكانوا يكتبون على الألواح، أو لأنّها ألواح معهودة للمسلمين الذين سيقت إليهم تفاصيل القصّة.

وتسمية الألواح التي أعطاها الله موسى ألواحا مجاز بالصورة، لأنّ الألواح التي أعطيها موسى كانت من حجارة، كما في التوراة [سفر الخروج، الإصحاح:24]. فتسميتها الألواح لأنّها على صورة الألواح.

وأسندت الكتابة إلى الله تعالى لأنّها كانت مكتوبة نقشا في الحجر من غير فعل إنسان بل بمحض قدرة الله تعالى، كما يُفهم من [سفر الخروج، الإصحاح:32].

{ **مِنْ كُلِّ شَيْءٍ** } (من) تبعيضيّة متعلّقة بـ { كَتَبْنَا }، ومفعول { كَتَبْنَا } محذوف دلّ عليه فعل كتبنا، أي: مكتوبا. ويجوز جعل (من) اسما بمعنى بعض، فيكون منصوبا على المفعول به بكتبنا، أي: كتبنا له بعضا من كلّ شيء، وهذا كقوله تعالى { وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ } [النمل:16].

وكلّ شيء عام عموما عرفيّا، أي: كلّ شيء تحتاج إليه الأمّة في دينها على طريقة قوله تعالى { مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ } [الأنعام:38].

والذي كتب الله لموسى في الألواح هو أصول كليّات هامة للشريعة التي أوحى الله بها إلى موسى عليه السلام وهي ما في [سفر الخروج، الإصحاح:20] ونصّها:

" أنا الربّ إلهك الذي أخرجك من ارض مصر من بيت العبودية، لا يكن لك آلهة أخرى أمامي. لا تصنع تمثالا منحوتا، ولا صورة ما ممّا في السماء من فوق، وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض، لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأنّي أنا الربّ إلهك غيور افتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضي واضع إحسانا إلى ألوف من محبي وحافظي وصاياي. لا تنطق باسم الربّ إلهك باطلا لانّ الربّ لا يبرئ من نطق باسمه باطلا. اذكر يوم السبت لتقدّسه، ستّة أيام تعمل وتصنع جميع عملك وأمّا اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك لا تصنع عملا ما أنت وابنك وابنتك وعبدك وأختك وبهيمتك ونزيلك الذي داخل أبوابك، لأنّ في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها واستراح في اليوم السابع لذلك بارك الربّ يوم السبت وقدّسه. أكرم أباك وأمّك لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلهك. لا تقتل. لا تزن. لا تسرق. لا تشهد على قريبك شهادة زور. لا تشته بيت قريبك. لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته، ولا ثوره ولا حماره ولا شيئا ممّا لقريبك ".

واشتهرت عند بني إسرائيل بالوصايا العشر، وبالكلمات العشر، أي: الجمل العشر.

الموعظة: اسم مصدر الوعظ، وهو نصح بإرشاد مشوب بتحذير من لحاق ضر في العاقبة أو بتحريض

على جلب نفع مغفول عنه، وتقدّم عند قوله تعالى { فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ} [البقرة:275]

التفصيل: التبيين للمجملات، ولعلّ الموعظة هي الكلمات العشر والتفصيل ما ذكر بعدها من الأحكام في الإصحاحات التي ذكرناها.

{ **فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ** } بدل من قوله { فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ }، بدل اشتمال، لأنّ الأخذ بقوّة يشتمل عليه الأخذ المطلق، وقد اقتضاه العود إلى ما خاطب الله به موسى اثر صعقته إتماما لذلك الخطاب، فأعيد مضمون ما سبق ليتصل ببقيته، فيكون بمنزله أن يقول: فخذ ما آتيتك بقوة وكن من الشاكرين، ويكون ما بينهما بمنزلة اعتراض.

القوّة: هنا تمثيل لحالة العزم على العمل بما في الالواح، بمنتهى الجدّ والحرص دون تأخير ولا تساهل ولا انقطاع عند المشقة ولا ملل، بحالة القوي الذي لا يستعصي عليه عمل يريده. ومنه قوله تعالى { يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ } [مريم:12].

{ **وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا** } تعريج على ما هو حظّ عموم الأمّة من الشريعة، وهو التمسّك بها. فهذا الأخذ مجاز في التمسّك والعمل، ولذلك عُدّي بالباء الدالة على اللصوق، يقال: أخذ بكذا إذا تمسّك به.

{ **بِأَحْسَنِهَا** } وصف مسلوب المفاضلة مقصود به المبالغة في الحسن، فإضافتها إلى ضمير الألواح على معنى اللام، أي: بالأحسن الذي هو لها وهو جميع ما فيها، لظهور أنّ ما فيها من الشرائع ليس بينه تفاضل بين أحسن ودون الأحسن، بل كلّه مرتبة واحدة فيما عُيّن له، ولظهور أنّهم لا يؤمنون بالأخذ ببعض الشريعة وترك بعضها، فقرائن سلب صيغة التفضيل عن المفاضلة قائمة واضحة، فلا وجه للتردد في تفسير الأحسن في هذه الآية. وهذه نظير قوله تعالى { وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ } [الزمر:55].

<u>المعنى</u>: وأمر قومك يأخذوا بما فيها لحسنها.

{ **سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ** } كلام موجّه إلى موسى عليه السلام، <u>فيجوز</u> أن يكون منفصلا عن الكلام الذي قبله فيكون استئنافا ابتدائيا. وهو وعد له بدخولهم الأرض الموعودة.

<u>ويجوز</u> أن تكون الجملة متصلة بما قبلها فتكون من تمام جملة { وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا } على أنّها تحذير من التفريط في شيء مما كتب له في الألواح. <u>والمعنى</u>: سأبين لكم عقاب الذين لا يأخذون بها.

الدار: المكان الذي تسكنه العائلة، والمكان الذي يحلّه الجماعة من حي أو قبيلة، كما تقدّم في قوله تعالى { فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ } [91]. <u>وتطلق الدار</u> على ما يكون عليه النّاس أو المرء من حالة مستمرة، ومنه قول تعالى { فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ } [الرعد:24]. <u>وقد يراد</u> بها مآل المرء ومصيره، لأنّه بمنزلة الدار يأوي إليه في شأنه، وقد تقدّم عند قوله تعالى { فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ }

[الأنعام:135].

الإراءة: من رأى البصريّة لأنّها عُدّيت إلى مفعولين.

وأوثر فعل { أُرِيكُمْ } دون (سأدخلكم)، لأنّ الله منع معظم القوم الذين كانوا مع موسى من دخول الأرض المقدّسة لمّا امتنعوا من قتال الكنعانيين كما تقدّم في قوله تعالى { قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ } [المائدة:26].

وفي [سفر الخروج،الإصحاح:34]: " وصعد موسى إلى الجبل (نبو) فأراه الله جميع الأرض وقال له هذه الأرض التي أقسمت لإبراهيم قائلا لنسلك أعطيها قد أريتك إيّاها بعينيك ولكنك لا تعبُر".

ويجوز أن يكون فعل أريكم كناية عن الحلول في دار الفاسقين، والحلول في ديار قوم لا يكون إلّا بالفتح والغلبة، فالإراءة رمز إلى الوعد بفتح بلاد الفاسقين، والمراد بالفاسقين المشركون.

{ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ } [146].

يجوز أن تكون هذه الآية تكملة لما خاطب الله به موسى وقومه، فتكون استئنافا بيانيّا، لأنّ بني إسرائيل كانوا يهابون أولئك الأقوام، وقد حُكي ذلك في [سفر العدد، الإصحاح:14] فأجيبوا بأنّ الله سيصرف أولئك عن آياته.

الصرف: الدفع، أي: سأصدّ عن آياتي، أي: عن تعطيلها وإبطالها. **والآيات**: هنا الشريعة.

فالصرف، على هذا الوجه، عناية من الله بموسى وقومه بما يهيّئ لهم من أسباب النصر على أولئك الأقوام الأقوياء، كإلقاء الرعب في قلوبهم، وتشتيت كلمتهم، وإيجاد الحوادث التي تفتّ في ساعد عدّتهم.

التكبّر: الاتصاف بالكبر. وقد صيغ له الصيغة الدالة على التكلّف، وقد بيّنّا ذلك عند قوله تعالى { أَبَى وَاسْتَكْبَرَ } [البقرة:34].

{ فِي الْأَرْضِ } لتفضيح تكبّرهم، والتشهير بهم، أي: ليس هو خفيّا مقتصرا على انفسهم، بل هو مبثوث في الأرض، أي: مبثوث اثره. فهو تكبّر شائع في بقاع الأرض، كقوله تعالى { يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ } [يونس:23].

{ بِغَيْرِ الْحَقّ } زيادة لتشنيع التكبّر بذكر ما هو صفة لازمة له، وهو مغايرة الحقّ، أي: باطل، وهي حال لازمة للتكبّر، كاشفة لوصفه، إذ التكبّر لا يكون بحقّ في جانب الخلق، وإنّما هو وصف لله بحق لأنّه العظيم على كل موجود. وليس تكبر الله بمقصود أن يُحترز عنه هنا حتّى يُجعل القيد { بِغَيْرِ الْحَقّ } للاحتراز عنه، كما في الكشّاف.

{ **وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا** } عطف على قوله تعالى { يَتَكَبَّرُونَ }، فهو في حكم الصلة، والقول فيه كالقول في قوله تعالى { لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ } [يونس:97/96].

{ **كُلَّ** } مستعملة في معنى الكثرة، كما في قوله تعالى { وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ} [البقرة:145]

{ **وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً** }.

السبيل: مستعار لوسيلة الشيء، بقرينة إضافته إلى الرشد وإلى الغيّ. و**الرؤية**، مستعارة للإدراك.

الاتخاذ: حقيقته مطاوع أخّذه (بالتشديد)، إذا جعله آخذا، ثم أطلق على أخذ الشيء ولو لم يعطه إيّاه غيره، وهو هنا مستعار للملازمة، أي: لا يلازمون طريق الرشد، ويلازمون طريق الغيّ.

الرُّشد: الصلاح وفعل النافع، و تقّدم في قوله تعالى { فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً } [النساء:6] والمراد به هنا الشيء الصالح كلّه؛ من الإيمان والأعمال الصالحة.

الغيّ: الفساد والضلال، وهو ضدّ الرشد بهذا المعنى، كما أنّ السّفه ضدّ الرشد بمعنى حسن النظر في المال. فالمعنى: إن يدركوا الشيء الصالح لم يعملوا به لغلبة الهوى على قلوبهم. وإنّ يدركوا الفساد عملوا به.

وقرأ الجمهور الرشد (بضم فسكون)، وقرأه حمزة والكسائي وخلف بفتحتين، وهما لغتان فيه.

{ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا** } مستأنفة استئنافا بيانيا، أي: كِبرهم وعدم إيمانهم وأتّباعهم سبيل الغيّ وإعراضهم عن سبيل الرشد سببه تكذيبهم بالآيات. والمعنى: أنّهم ابتدأوا بالتكذيب ولم ينظروا ولم يهتمّوا بالتأمّل في الآيات فداموا على الكبر وما معه، فصرف الله قلوبهم عن الانتفاع بالآيات.

{ **وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ** }

الغفلة: انصراف العقل والذهن عن تذكّر شيء بقصد أو بغير قصد، وأكثر استعماله في القرآن فيما كان عن قصد بإعراض وتشاغل. والمذموم منها ما كان عن قصد وهو مناط التكليف والمؤاخذة، فأمّا الغفلة عن غير قصد فلا مؤاخذة عليها. وهي المقصود من قول علماء أصول الفقه: يمتنع تكليف الغافل.

وصيغة الكلام دالة على استمرار غفلتهم، وكونها دأبا لهم، وإنّما تكون كذلك إذا كانوا قد التزموها.

{ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [147].

أزيل التوهّم بأنّ الأعمال الصالحة لا تنفع مع التكذيب بآيات الله ولقاء الآخرة. وأشير إلى أنّ التكذيب هو سبب حبط الأعمال بتعريفهم بطريق الموصولية.

الحبط: فساد الشيء الذي كان صالحا، وتقدّم عند قوله تعالى { وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ} [المائدة:5]

{ **هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } مستأنفة استئنافا بيانيا، جوابا عن سؤال ينشأ عن قوله تعالى { حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ }، إذ قد يقول سائل: كيف تحبط أعمالهم الصالحة؟ فأجيب بأنّهم جوزوا كما كانوا يعملون، لأنّ الجزاء إنّما يظهر في الآخرة، وهم قد كذّبوا بلقاء الآخرة، فقد قطعوا الصلة بينهم وبين الجزاء، فكان حبط أعمالهم الصالحة وفاقا لاعتقادهم.

{ **مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } ما كانوا يعتقدون، فأطلق على التكذيب بالآيات وبلقاء الآخرة فعل { يَعْمَلُونَ } لأنّ آثار الاعتقاد تظهر في الأقوال والافعاله.

{ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ } [148].

عطف قصّة على قصّة، فذُكر فيما تقدّم قصّة المناجاة وما حصل فيها من الآيات والعبر، وذُكر في هذه الآية ما كان من قوم موسى، في مدّة مغيبه من الإشراك.

{ **مِنْ بَعْدِهِ** } أي: من بعد مغيبه، كما هو معلوم من قوله تعالى { وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا } [143].

{ **مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ** } (من) للتبعيض. و**الحُلِيّ** (بضم الحاء وكسر اللام وتشديد المثناة التحتية)، جمع **حَلْي** (بفتح الحاء وسكون اللام وتخفيف التحتية)، أي: اتخذوا من مصوغهم. وفي التوراة أنّهم اتخذوه من ذهب، نزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائهم وبناتهم وبنيهم.

وذُكر في [طه:88/87] أنّ صانع العجل رجل يقال له السامري، وفي التوراة أنّ صانعه هو هارون، وهذا من تحريف الكلم عن مواضعه الواقع في التوراة بعد موسى، ولم يكن هارون صائغا.

ونُسب الاتخاذ إلى قوم موسى كلهم على طريقة المجاز العقلي لأنّهم الآمرون باتخاذه، والحريصون عليه، وهذا مجاز شائع في كلام العرب.

{ **عِجْلاً جَسَداً** } المراد أنّه كجسم العجل في الصورة والمقدار، إلّا أنّه ليس بحيّ، وما وقع في القصص، أنّه كان لحما ودما يأكل ويشرب، فهو من وضع القصّاصين.

الخوار: صوت البقر، وقد جعل صانع العجل في باطنه تجويفا على تقدير من الضيق مخصوص واتخذ له آلة نافخة خفية فإذا حركت آلة النفخ انضغط الهواء في باطنه، وخرج من المضيق، فكان له صوت كالخوار، وهذه صنعة كصنعة الصفارة والمزمار، وكان الكنعانيون يجعلون مثل ذلك لصنمهم المُسمّى بعلا.

{ **أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً** } مستأنفة استئنافا ابتدائيا لبيان فساد نظرهم في اعتقادهم. والاستفهام للتقرير وللتعجيب من حالهم، ولذلك جُعل الاستفهام عن نفي الرؤية. والرؤية بصرية لأنّ عدم تكليم العجل إيّاهم مشاهد لهم. وقد سُفّه رأي الذين اتخذوا العجل إلها بأنّهم يشاهدون أنّه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا. وليس المقصود من هذا الاستدلال على الإلوهية بالتكليم والهداية، وإلّا للزم إثبات الإلهية

للحكماء.

{ **اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ** } مؤكدة لجملة { وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى } فلذلك فصلت، والتكرير لأجل التعجيب.

{ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } [149].

كان مقتضى الظاهر في ترتيب حكاية الحوادث أن يتأخّر قوله تعالى { وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ } عن قوله تعالى { وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً } [150]، لأنّهم ما سقط في أيديهم إلّا بعد أن رجع موسى ورأوا فرط غضبه وسمعوا توبيخه أخاه وإيّاهم، وإنّما خولف مقتضى الترتيب تعجيلا بذكر ما كان لاتخاذهم العجل من عاقبة الندامة وتبيّن الضلالة، موعظة للسامعين لكيلا يعجلوا في التحوّل عن سنتهم حتّى يتبيّنوا عواقب ما هم متحوّلون إليه.

{ **سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ** } مبني للمجهول، كلمة أجراها القرآن مجرى المثل إذ أُنظمت على إيجاز بديع وكناية واستعارة، فإنّ اليد تستعار للقوة والنصرة، إذ بها يُضرب بالسيف والرمح، ولذلك حين يدعون على أنفسهم بالسوء يقولون شَلَّت من يديَّ الأنامل، وهي آلة القدرة، قال تعالى { ذَا الْأَيْدِ } [صّ:17]، ويقال: ما لي بذلك يد، أو ما لي بذلك يدان، أي: لا أستطيعه. والمرء إذا حصل له شلل في عضد، ولم يستطع تحريكه يحسن أن يقال سقط في يده ساقط، أي: نزل به نازل.

وقد استُعمل في الآية في معنى الندم وتبيّن الخطإ لهم، فهو تمثيل لحالهم بحال من سقط في يده حين العمل. فالمعنى: أنّهم تبيّن لهم خطأهم وسوء معاملتهم ربهم ونبيّهم. فالندامة هي معنى التركيب كلّه.

وقال الزجّاج: هو نظم لم يُسمع قبل القرآن ولم تعرفه العرب. **قلتُ**: وهو القول الفصل فإنّي لم أره في شيء من كلامهم قبل القرآن .

{ **لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** } توبة وإنابة، وقد علموا أنّهم أخطأوا خطيئة عظيمة ولذلك أكّدوا التعليق الشرطي بالقسم الذي وطأته اللام. وقدّموا الرحمة على المغفرة لأنّها سببها.

{ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [150] قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ [151] }.

فرجوع موسى معلوم من تحقّق انقضاء المدّة الموعود بها، وكونه رجع في حالة غضب مشعر بأنّ الله

أعلمه بما صنع قومه في مغيبه، وقد صُرّح بذلك في قوله تعالى { قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ } [طه:85].

الغضب: تقدّم في قوله تعالى { قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ } [71].

{ **أَسِفاً** } (بدون مد) صيغة مبالغة للآسف بالمد، الذي هو اسم فاعل للذي حل به الأسف، وهو الحزن الشديد، أي: رجع غضبان من عصيان قومه حزينا على فساد أحوالهم.

{ **قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي** }

بئسما: ضد نعمّا، وقد مضى القول عليه في قوله تعالى { قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ } [البقرة:93].

المعنى: بئست خلافة خلفتونيها خلافتكم. وتقدّم الكلام على فعل خلف في قوله { اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي }.

وهذا خطاب لهارون ووجوه القوم لأنّهم خلفاء موسى في قومهم، فيكون خلفتموني مستعملا في حقيقته، ويجوز أن يكون الخطاب لجميع القوم؛ فأمّا هارون فلأنّه لم يحسن الخلافة بسياسة الأمّة كما كان يسوسها موسى، وأمّا القوم فلأنّهم عبدوا العجل بعد غيبة موسى.

{ **أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ** } **عَجِلَ**: بمعنى فعل العجلة، أي: السرعة، وقد يتعدّى إلى المعمول بـ (عن) فيقال: عجل عن كذا، بمعنى لم يتمّه بعد أن شرع فيه، وضدّه (تمّ على الأمر) إذا شرع فيه فأتمّه.

ومعنى عجل هنا: يجوز أن يكون بمعنى لم يُتم.

الأمر: يكون بمعنى التكليف، وهو ما أمرهم الله به من المحافظة على الشريعة، وانتظار رجوعه، فلم يتمّوا ذلك واستعجلوا فبدّلوا وغيّروا.

ويجوز أن يكون بمعنى سبق، أي: بادرتم فيكون الأمر بمعنى الشأن، أي: الغضب والسخط، كقوله تعالى { أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ } [النحل:1]. فالأمر هو الوعيد، فإنّ الله حذّرهم من عبادة الأصنام، وتوعّدهم، فكان الظنّ بهم إن وقع منهم ذلك أن يقع بعد طول المدّة، فلمّا فعلوا ما نهوا عنه بحدثان عهد النهي، جُعلوا سابقين له على طريقة الاستعارة، وهذا هو المعنى الأوضح، ويوضّحه قوله تعالى في نظير هذه القصة في سورة طه، حكاية عن موسى { قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي } [طه:86].

{ **وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ** } تقدّم بيان الإلقاء آنفا، وذلك يؤذن بأنّه لمّا نزل من المناجاة كانت الألواح في يده، كما صرّح به في التوراة. ثم إنّ إلقاءه إيّاها إنّما كان إظهارا للغضب، أو أثرا من آثار فوران الغضب لمّا شاهدهم على تلك الحالة، وما ذُكر القرآن ذلك الإلقاء إلّا للدلالة على هذا المعنى، إذ ليس فيه من فوائد العبرة في القصة إلّا ذلك.

وروي أنّ موسى عليه السلام كان في خلقه ضيق، وكان شديدا عند الغضب، ولذلك وكز القبطي فقضى عليه، ولذلك أخذ برأس أخيه يجرّه إليه، فهو دليل على فظاعة الفعل الذي شاهده من قومه، وذلك علامة

على الفظاعة، وتشنيع عليهم، وليس تأديبا لهم، لأنّه لا يكون تأديبهم بإلقاء ألواح كتب فيها ما يصلحهم، لأنّ ذلك لا يناسب تصرف النبوّة.

ووقع في التوراة أنّ الألواح تكسرت حين ألقاها، وليس في القرآن ما يدل على ذلك سوى أنّ التعبير بالإلقاء الذي هو الرمي، وما روى من أن الألواح كانت من حجر، يقتضي أنّها اعتراها انكسار، ولكن ذلك الانكسار لا يذهب ما احتوت عليه من الكتابة. وأمّا ما روي أنّها لما تكسّرت ذهب ستة اسباعها، أو ذهب تفصيلها وبقيت موعظتها، فهو من وضع القصاصين، والله تعالى يقول { وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدىً وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ } [الأعراف:154].

{ **وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ** } أي: إمساكه بشعر رأسه، وذلك يؤلمه. فذلك تأنيب لهارون على عدم أخذه بالشدّة على عبدة العجل واقتصاره على تغيير ذلك عليهم بالقول. وكان موسى هو الرسول لبني إسرائيل، وما هارون إلّا من جملة قومه بهذا الاعتبار، وإنّما كان هارون رسولا مع موسى لفرعون خاصة، ولذلك لم يسع هارون إلّا الاعتذار والاستصفاح منه.

وفي هذا دليل على أنّ الخطأ في الاجتهاد مع وضوح الأدلة غير معذور فيه صاحبه في إجراء الأحكام عليه، وهو ما يسميه الفقهاء بالتأويل البعيد.

{ **قَالَ ابْنَ أُمَّ** } فصلت لوقوعها جوابا لحوار مقدّر دل عليه قوله تعالى { وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ }، لأنّ الشأن أنّ ذلك لا يقع إلّا مع كلام توبيخ، وهو ما حكي في قوله تعالى { قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي } [طه:93/92]، على عادة القرآن في توزيع القصّة، واقتصارا على موقع العبرة ليخالف أسلوب قصصه أساليب القصّاصين الذين يقصدون الخبر بكل ما حدث.

والنداء بهذا الوصف للترقيق والاستشفاع، وحذف حرف النداء لإظهار ما صاحب هارون من الرعب والاضطراب، أو لأنّ كلامه هذا وقع بعد كلام سبقه فيه حرف النداء وهو المحكي في [طه:94] { قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي } ثم قال، بعد ذلك { ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي } فهما كلامان متعاقبان.

ويظهر أن المحكي هنا هو القول الثاني وأنّ ما في سورة طه هو الذي ابتدأ به هارون، لأنّه كان جوابا عن قول موسى { مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ } [طه:93/92].

{ **إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي** } تأكيد الخبر بـ { إِنَّ } لتحقيقه لدى موسى. والسين والتاء في { اسْتَضْعَفُونِي } للحسبان، أي: حسبوني ضعيفا لا ناصر لي. لأنّهم تمالؤوا على عبادة العجل ولم يخالفهم إلّا هارون في شرذمة قليلة.

{ **وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي** } يدلّ على أنّه عارضهم معارضة شديدة ثم سلّم خشية القتل.

{ **فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ** } تفريع على تبيّن عذره في إقرارهم على ذلك، فطلب من أخيه الكفّ عن عقابه الذي يشمت به الأعداء لأجله، ويجعله مع عداد الظالمين.

الشماتة: سرور النفس بما يصيب غيرها من الأضرار، وإنّما تحصل من العداوة والحسد.

الأعداء: الذين دعوا إلى عبادة العجل، لأنّ هارون أنكره عليهم فكرهوه لذلك.

{ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } لا تحسبني واحدا منهم. والقوم الظالمون هم الذين أشركوا بالله عبادة العجل، ويجوز أن يكون المعنى: ولا تجعلني في العقوبة معهم، لأنّ موسى قد أمر بقتل الذين عبدوا العجل.

{ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ } جواب عن كلام هارون، فلذلك فصلت، وابتدأ موسى دعاءه فطلب المغفرة لنفسه تأدّبا مع الله فيما ظهر عليه من الغضب، ثم طلب المغفرة لأخيه فيما عسى أن يكون قد ظهر منه من تفريط أو تساهل في ردع عبدة العجل.

والإدخال في الرحمة استعارة لشمول الرحمة لهما في سائر أحوالهما.

{ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } تذييل، والواو للحال أو اعتراضية، و{ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} الأشدّ رحمة من كل راحم.

{ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ [152] وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ [153] }.

يجوز أن قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ - إلى قوله – الدُّنْيَا } من تمام كلام موسى، فبعد أن دعا لأخيه بالمغفرة أخبر أنّ الله غضب على الذين عبدوا العجل، وأنّه سيظهر إثر غضبه عليهم، وستنالهم ذلّة في الدنيا وذلك بوحي تلقاه، وأنّ جملة { وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ } خطاب من جانب الله في القرآن، فهو اعتراض، ذيّل الله به حكاية كلام موسى، فأخبر بأنّه يجازي كل مفتر بمثل ما أخبر به موسى عن مفتري قومه. وأنّ جملة { وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ } إلى آخر الآية تكملة للفائدة ببيان حالة أضداد المتحدَّث عنهم وعن أمثالهم. ويجوز أن تكون الجملة إلى آخرها خطابا من الله لموسى، جوابا عن دعائه لأخيه بالمغفرة.

النَّوْل و**النَّيْل**: الأخذ، وهو هنا استعارة للإصابة والتلّبس كما في قوله تعالى { أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ } [37].

والمراد بالغضب ظهور أثره من الخذلان ومنع العناية، وأمّا نفس الغضب فهو حاصل في الحال.

الذلّة: خضوع في النفس واستكانة من جرّاء العجز عن الدفع، فمعنى نيل الذلة إيّاهم أنّهم يصيرون مغلوبين لمن يغلبهم، فقد يكون ذلك بتسليط العدو عليهم، أو بسلب الشجاعة من نفوسهم، بحيث يكونون خائفين العدو ولو لم يسلّط عليهم، أو ذلّة الاغتراب إذ حرمهم الله ملك الأرض المقدّسة فكانوا بلا وطن طول حياتهم حتى انقرض ذلك الجيل كلّه.

وهذه الذلّة عقوبة دنيوية قد لا تمحوها التوبة، فإن التوبة إنّما تقتضي العفو عن عقاب التكليف، ولا تقتضي ترك المؤاخذة بمصائب الدنيا، لأنّ العقوبات الدنيويّة مسبّبات تنشأ عن أسبابها، فلا يلزم أن ترفعها التوبة إلّا بعناية إلهية خاصة، هذا وقد يمحو الله العقوبة الدنيوية إذا رضي عن الجاني، والله ذو فضل عظيم.

الافتراء: الكذب الذي لا شبهة لكاذبه في اختلاقه. والمراد بالافتراء هنا، الاختلاق في أصول الدين (عبادة العجل)، فإنّ موسى عليه السلام كان حذّرهم من عبادة الأصنام كما حكاه الله فيما مضى.

ويؤخذ من هذه الآية أنّ الكذّاب يُرمى بالمذّلة.

{ **وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا** } اعتراض بأنّهم إن تابوا وآمنوا يغفر الله لهم على عادة القرآن من تعقيب التهديد بالترغيب، والمغفرة ترجع إلى عدم مؤاخذتهم بذنوبهم في عقاب الآخرة، وإلى ارتفاع غضب الله عنهم في المستقبل، والمراد **بالسيّئات**: ما يشمل الكفر وهو أعظم السيئات.

التوبة: هنا هي الإيمان.

{ **مِنْ بَعْدِهَا** } تأكيد لمفاد المهلة التي أفادها حرف (ثمّ) وهذا تعريض للمشركين بأنّهم إن آمنوا يغفر لهم ولو طال أمد الشرك عليهم، ولئلّا يُظن أنّ الإشراك لخطورته لا تنجي منه التوبة.

{ **إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** } الخطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم على الوجه الأظهر، أو لموسى عليه السلام.

وفي تعريف المسند إليه بالإضافة توسّل إلى تشريف المضاف إليه بأنّه مربوب لله تعالى، وفي ذكر وصف الربوبية هنا تمهيد لوصف الرحمة.

وتأكيد الخبر بـ (**إنّ** و**لام** التوكيد) وصيغتي المبالغة في { غَفُورٌ رَحِيمٌ } لمزيد الاهتمام به، ترغيبا للعصاة في التوبة، وطردا للقنوط من نفوسهم، وإن عظمت ذنوبهم، فلا يحسبوا تحديد التوبة بحد إذا تجاوزتْه الذنوب بالكثرة أو العظم لم تقبل منه توبة.

{ **مِنْ بَعْدِهَا** } الثاني مبالغة في الامتنان بقبول توبتهم بعد التملّي من السيئات.

{ **غَفُورٌ رَحِيمٌ** } حذف المتعلّق لظهوره من السياق، والتقدير: لغفور رحيم لهم، أو لكل من عمل سيّئة وتاب.

{ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدىً وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ } [154].

السكوت: مستعار لذهاب الغضب عنه، وهذا يستلزم تشبيه الغضب بالناطق المغري.

{ **وَفِي نُسْخَتِهَا** } النسخة بمعنى المنسوخ كالخطبة والقبضة، والنسخ هو نقل مثل المكتوب في لوح أو صحيفة أخرى، وهذا يقتضي أنّ هذه الألواح أخذت منها نسخة، لأنّ النسخة أضيفت إلى ضمير الألواح،

وهذا يشير إلى ما في التوراة: " ثم قال الربّ لموسى انحت لك لوحين من حجر مثل الأولين فأكتب أنا على اللوحين الكلمات التي كانت على اللوحين الأوّلين اللذين كسرتهما " [سفر الخروج، الإصحاح:34].
وقد قيل أن رضاض الألواح الأصلية وضع في تابوت العهد الذي أشار إليه قوله تعالى { أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى } [البقرة:248].
{ **لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ** } يتنازع تعلقه كل من { هُدىً } و{ رَحْمَةً }.

{ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ [155] وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِنَا يُؤْمِنُونَ [156] الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النبيّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْأِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [157] }.

{ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ [155] وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ}
عُطفت { وَاخْتَارَ مُوسَى } على { وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى } [148]، عطف القصّة على القصّة، لأنّ هذه القصّة أيضا من مواقع الموعظة والعبرة بين العبر المأخوذ من قصّة موسى مع بني إسرائيل، فإنّ في هذه عبرة بعظمة الله تعالى ورحمته، ودعاء موسى بما فيه جُماع الخيرات والبشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم وملاك شريعته.
الاختيار: تمييز المرغوب من بين ما هو مخلوط من مرغوب وضدّه.
{ **سَبْعِينَ رَجُلاً** } بدل من { قَوْمَهُ } بدل بعض من كل. والتقدير: اختار من قومه.
وهذا الاختيار وقع عندما أمره الله بالمجيء للمناجاة التي تقدم ذكرها في قوله تعالى { وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً } [142]، فقد جاء في التوراة من [سفر الخروج، الإصحاح:24] أنّ الله أمر موسى أن يصعد

طور سينا هو وهارون و (ناداب) و (أبيهو) و (يشوع) وسبعون من شيوخ بني إسرائيل، ويكون شيوخ بني إسرائيل في مكان معين من الجبل ويتقدّم موسى حتّى يدخل في السحاب ليسمع كلام الله، وأنّ الله لما تجلّى للجبل ارتجف الجبل ومكث موسى أربعين يوما.

والحاصل أن موضع العبرة في هذه القصّة هو التوقّي من غضب الله، وخوف بطشه، ومقام الرسل من الخشية، ودعاء موسى.

{ **فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ** } **الأخذ**، مجاز في الإصابة الشديدة المتمكّنة تمكّن الآخذ من المأخوذ.

{ **قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا** } يجوز أن يكون حرف { لَوْ } مستعملا في معناه الأصلي، من امتناع جوابه لامتناع شرطه، فيتجه أن يتساءل عن موجب حذف اللام من جواب (لو) ولم يقل: (لأهلكتهم) مع أنّ الغالب في جوابها الماضي المثبت أن يقترن بـ (اللام).

فحُذف اللام هنا لنكتة أنّ التلازم بين شرط (لو) وجوابها هنا قوي، لظهور أنّ الإهلاك من فعل الله وحده، فهو كقوله تعالى { لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً } [الواقعة:70]. ويكون المعنى اعترافا بمنّة العفو عنهم فيما سبق، وتمهيدا للتعريض بطلب العفو عنهم الآن، وهو المقصود من قوله تعالى { أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ }، أي: إنّك لم تشأ إهلاكهم حين تلبّسوا بعبادة العجل فلا تهلكهم الآن.

{ **أَتُهْلِكُنَا** } الاستفهام مستعمل في التفجع، أي: أخشى ذلك، لأنّ القوم استحقّوا العذاب ويخشى أن يشمل عذاب الله من كان مع القوم المستحقين وإنّ لم يشاركهم في سبب العذاب.

{ **إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ** } ضميرراجع إلى ما فعل السفهاء، لأنّ ما صدق ما فعل السفهاء هو الفتنة. والخبر مستعمل في إنشاء التمجيد بسعة العلم والقدرة، والتعريض بطلب استبقائهم وهدايتهم، وليس مستعملا في الاعتذار لقومه. ثم عرّض بطلب الهداية لهم بقوله تعالى { وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ }.

الفتنة: ما يقع به اضطراب الاحوال ومرجها وتشتّت البال، وقد مضى تفسيرها عند قوله تعالى { وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ } [البقرة:102].

{ **أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ** } الاعتراف بالانقطاع لعبادة الله تعالى، تمهيدا لمطلب المغفرة والرحمة، لأنّ شأن الوليّ أن يرحم مولاه وينصره.

الوليّ: الذي له ولاية على أحد، والولاية حلف أو عتق يقتضي النصرة والإعانة، فإن كان من جانبين متكافئين فكلا المتعاقدين يقال له مولى، وإن كان أحد الجانبين أقوى قيل للقوي وليّ وللضعيف مولى.

والمعنى: عدم الانتصار بغير الله، وفي صريحه صيغة قصر.

{ **فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا** } تفريع كلام على كلام، وليس المراد أنّ الوليّ يتعيّن عليه الغفران.

وقُدّم المغفرة على الرحمة لأنّ المغفرة سبب لرحمات كثيرة، فإنّ المغفرة تنهية لغضب الله المترتّب على الذنب، فإذا انتهى الغضب تسنّى أن يخلفه الرضا، والرضا يقتضي الإحسان.

{ **وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ** } الذي يغفر كثيرا.

{ **وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ** } مستعار لمعنى العطاء المحقّق حصوله، المجدّد مرة بعد مرة، لأنّ الذي يريد تحقيق عقد أو عطاء، وتعلّقه بالتجدد في المستقبل يكتب به في صحيفة، فلا يقبل النكران ولا النقصان ولا الرجوع، وتسمّى تلك الكتابة عهدا.

فالمعنى: آتنا الحسنة تلو الحسنة في أزمان حياتنا وفي يوم القيامة.

الحسنة: الحالة الحسنة، وتقدّمت في قوله تعالى { وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً } [البقرة:201].

{ **إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ** } مسوقة مساق التعليل للطلب والاستجابة، ولذلك فصلت، ولأنّ موقع حرف التأكيد في أوّلها موقع الاهتمام، فيفيد التعليل والربط، ويغني غناء فاء السببيّة كما تقدّم غير مرة.

{ **هُدْنَا** } معناه تبنا، يقال: هاد يهود، إذا رجع وتاب.

{ **قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ** [156] **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النبيّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** [157] }.

جواب لكلام موسى عليه السلام، فلذلك فصلت لوقوعها على طريقة المحاورة، وكلام موسى، وإن كان طلبا، وهو لا يستدعي جوابا، فإنّ جواب الطالب عناية به وفضل.

{ **عَذَابِي** } المراد بالعذاب هنا عذاب الدنيا، لأنّ الكلام جواب لقول موسى { أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا}. والإهلاك عذاب، فبيّن الله له أنّ عذاب الدنيا يصيب الله به من يشاء من عباده، وقد أجمل الله سبب المشيئة وهو أعلم به، وموسى يعلمه إجمالا، فالكلام يتضمّن طمأنة موسى من أن يناله العذاب هو والبرآء من قومه.

{ **وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ** } وعد تعريض بحصول الرحمة المسؤولة له ولمن معه من المختارين، لأنّها لمّا وسعت كلّ شيء فهم أرجى النّاس بها، وأنّ العاصين هم أيضا مغمورون بالرحمة، فمنها رحمة الإمهال والرزق، ولكن رحمة الله عباده ذات مراتب متفاوتة.

{ **وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ** } تقدّم في قوله تعالى { وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً } [89].

{ **فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ** } تفريع على سعة الرحمة، لأنّها لمّا وسعت كلّ شيء كان منها ما يكتب، أي: يعطى في المستقبل للذين أجريت عليهم الصفات، ويتضمّن ذلك وعدا لموسى ولصلحاء قومه لتحقّق تلك الصلات فيهم.

المعنى: أنّ الرحمة التي سألها موسى له ولقومه، وعد الله بإعطائها لمن كان منهم متصفا بأنّه من المتقين والمؤتين الزكاة، ولمن كان من المؤمنين بآيات الله.

فتشمل هذه الرحمة من اتقى وآمن وآتى الزكاة من بني إسرائيل قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم.

وتشمل الرحمة أيضا الذين يؤمنون بآيات الله، والمعني بها الآيات التي ستجيء في المستقبل، لأنّ آيات موسى قد استقرّ الإيمان بها يومئذ، وهذا موجب إعادة اسم الموصول في ذكر أصحاب هذه الصلة، للإشارة إلى أنّهم طائفة أخرى، وهم من يكون عند بعثة محمد عليه الصلاة والسلام.

{ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النبيّ الأُمِّيَّ** } هو إشارة إلى اليهود والنصارى الكائنين في زمن البعثة وبعدها. وفي هذه الآية بشارة ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم.

فهذه الرحمة العظيمة تختصّ بالذين آمنوا بالنبيّ محمد صلى الله عليه وسلم من اليهود والنصارى، وتشمل الرسل والأنبياء الذين اخذ الله عليهم العهد بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم فكانوا عالمين ببعثته يقينا، فهم آمنوا به، وتنزّلوا منزلة من اتبع ما جاء به، لأنّهم استعدّوا لذلك، وتشمل المسلمين من العرب وغيرهم.

{ **النبيّ الْأُمِّيَّ** } تقديم وصف الرسول لأنّه الوصف الأخصّ الأهم، ولأنّ في تقديمه زيادة تسجيل لتحريف أهل الكتاب، حيث حذفوا هذا الوصف ليصير كلام التوراة صادقا بمن أتى بعد موسى من أنبياء بني إسرائيل. ولأنّ محمدا صلى الله عليه وسلم اشتهر بوصف النبيّ الأمّيّ، فصار هذا المركب كاللقب له، وكذلك هو حيثما ورد ذكره في القرآن.

الأمّيّ: الذي لا يعرف الكتابة والقراءة، قيل: هو منسوب إلى الأمّ، أي: هو أشبه بأمّه منه بأبيه، لأنّ النساء في العرب ما كنّ يعرفن القراءة والكتابة، وما تعلمنها إلّا في الإسلام. أمّا الرجال ففيهم من يقرأ ويكتب.

وقيل منسوب إلى الأمّة، أي: الذي حاله حال معظم الأمّة، وكانوا في الجاهلية لا يعرف منهم القراءة والكتابة إلّا النادر منهم، ولذلك يصفهم أهل الكتاب بالأميين، لما حكى الله تعالى عنهم في قوله تعالى { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ } [آل عمران:75].

والأمّيّة وصف خصّ الله به من رسله محمدا صلى الله عليه وسلم، إتماما للإعجاز العلمي العقلي الذي أيّده الله به، فجعل الأمّيّة وصفا ذاتيا له ليتمّ بها وصفه الذاتي وهو الرسالة، ليظهر أنّ كماله النفساني كمال لدنيّ إلهيّ، لا واسطة فيه للأسباب المتعارفة للكمالات، وبذلك كانت الأمّيّة وصف كمال فيه، مع أنّها في غيره وصف نقصان، لأنّه لمّا حصل له من المعرفة وسداد العقل ما لا يحتمل الخطأ، وكان على يقين من علمه، وبيّنة من أمره، ما هو أعظم ممّا حصل للمتعلمين، صارت أمّيّته آية على كون ما حصل له إنّما هو من فيوضات إلهيّة.

{ **يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ** } وجدان صفاته ونعوته، التي لا يشبهه فيها غيره، وهو كونه

أمّيّا، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويحلّ الطيّبات، ويحرّم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم، وشدّة شريعتهم.

وذكر الإنجيل هنا لأنّه منزّل لبني إسرائيل، وقد آمن به جمع منهم ومن جاء بعدهم من خلفهم، وقد أعلم الله موسى بهذا.

والمكتوب في الإنجيل بشارات جمّة بمحمد صلى الله عليه وسلم، وفي بعضها التصريح بأنّه يُبعث بعثة عامة، ففي [إنجيل متي، الإصحاح:24]: " ويقوم أنبياء كذبة كثيرون ويضلّون كثيرون ولكن الذي يصبر إلى المنتهى (أي: يدوم شرعه إلى نهاية العالم) فهذا يخلص ويكرّز [**يتنبّأ**، ولا أعرف لها أصلا في العربية] ببشارة الملكوت هذه في كل المسكونة شهادة لجميع الأمم ثم يأتي المنتهى " (منتهى الدنيا).

وفي [إنجيل يوحنا، الإصحاح:14]: " وأمّا المُعزّي الروح القدس الذي سيرسله الأب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكلّ ما قلته لكم".

{ **يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ** } ولا شك أنّ المقصود من هذه الصفات تعريفهم بها لتدلّهم على تعيين الرسول الأمّيّ عند مجيئه بشريعة هذه صفاتها.

وقد جعل الله المعروف والمنكر، والطيبات، والخبائث، والإصر والأغلال متعلّقات لتشريع النبيّ الأمّيّ وعلامات، فوجب أن يكون المراد منها ما يتبادر من معاني ألفاظها للأفهام المستقيمة.

المعروف: شامل لكلّ ما تقبله العقول والفطر السليمة، و**المنكر** ضدّه، وتقدم بيانهما عند قوله { وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } [آل عمران:104].

ويجمعها معنى **الفطرة**: التي هي قوام الشريعة المحمديّة، كما قال تعالى { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا } [الروم:30]، وهذه أوضح علامة لتعرف أحكام الشريعة المحمديّة.

الطيّبات: جمع طيّبة، وقد روعي في التأنيث معنى الأكيلة، أو معنى الطعمة، تنبيها على أنّ المراد الطيبات من المأكولات، كما دل عليه قوله تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً } [البقرة:168].

وليس المراد الأفعال الحسنة لأنّ الأفعال عُرّفت بوصف المعروف والمنكر، والمأكولات لا تدخل في المعروف والمنكر، إذ ليس للعقل حظّ في التمييز بين مقبولها ومرفوضها، بما تمتلك النّاسَ فيها عوائدُهم، ولما كان الإسلام دين الفطرة ولا اعتداد بالعوائد فيه، ناط حال المأكولات بالطيب وحرمتها بالخبث.

فالطيب: ما لا ضر فيه ولا وخامة ولا قذارة، **والخبيث**: ما أضرّ، أو كان وخيم العاقبة، أو كان مستقذرا لا يقبله العقلاء، كالنجاسة. وهذا ملاك المباح والمحرّم من المآكل، فلا تدخل العادات إلّا في اختيار أهلها ما شاؤوا من المباح، فقد كانت قريش لا تأكل الضبّ، وقد وضع على مائدة رسول الله صلى الله عليه وسلم فكره أن يأكل منه، وقال: " **ما هو بحرام ولكنّه لم يكن من طعام قومي فأجدني أعافه** ".

ولهذا فالوجه أنّ كلّ ما لا ضرّ فيه ولا فساد ولا قذارة فهو مباح، وقد يكون مكروها اعتبارا بمضرة خفيفة، فلذلك ورد النهي عن أكل كل ذي ناب من السباع، ومحمله عند مالك في اشهر الروايات عنه، على الكراهة، وهو الذي لا ينبغي التردّد فيه، وأي: ضرّ في أكل لحم الأسد، وكذلك إباحة أكل الخشاش والحشرات والزواحف البرية والبحرية لاختلاف عوائد الناس في أكلها وعدمه، فقد كانت (جَرْم) لا يأكلون الدجاج، و(فَقعس) يأكلون الكلب. وقد تقدّم شيء من هذا في آية سورة المائدة.

{ **وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ** } وضع الإصر إبطال تشريعه، أي: بنسخ ما كان فيه شدّة من الشرائع الإلهية السابقة، وحقيقة **الوضع**: الحطّ من علو إلى سفل، وهو هنا مجاز في إبطال التكليف بالأعمال الشاقة.

الإصر: ظاهر كلام الزمخشري في (الكشاف) و(الأساس) أنّه حقيقة في الثِّقل الحسي، بحيث يصعب معه التحرّك، والمراد به هنا التكاليف الشّاقة والحرج في الدين.

وقد كانت شريعة التوراة مشتملة على أحكام كثيرة شاقة مثل العقوبة بالقتل على معاص كثيرة، ومثلُ تحريم مأكولات كثيرة طيّبة، وتغليظ التحريم في أمور هيّنة، كالعمل يوم السبت، وأشد ما في شريعة التوراة من الإصر أنّها لم تشرّع فيها التوبة من الذنوب، ولا استتابة المجرم.

والإصر تقدّم في قوله تعالى { رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا } [البقرة:286].

{ **الأَغْلالَ** } جمع غُل (بضم الغين) وهو إطار من حديد يجعل في رقبة الأسير والجاني ويمسك بسير من جلد أو سلسلة من حديد بيد الموكل بحراسته. قال تعالى { إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ } [غافر:71].

ويُستعار الغُلّ للتكليف والعمل الذي يؤلم ولا يطاق، فتعيّن أن وضع الأغلال استعارة لما يعانيه اليهود من المذلّة بين الأمم الذين نزلوا في ديارهم بعد تخريب بيت المقدس، وزوال ملك يهوذا، فإنّ الإسلام جاء بتسوية اتباعه في حقوقهم في الجامعة الإسلامية، فلا يبقى فيه مَيز بين أصيل ودخيل، وصميم ولصيق، كما كان الأمر في الجاهلية.

وهذان الوصفان لهما مزيد اختصاص باليهود المتحدَّث عنهم في خطاب الله تعالى لموسى، ولا يتحققان في غيرهم ممّن آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم، لأنّ اليهود قد كان لهم شرع، وكان فيه تكاليف شاقة، بخلاف غير اليهود من العرب والفرس وغيرهم، ولذلك أضاف الله الإصر إلى ضميرهم، ووصف الأغلال بما فيه ضميرهم.

على أنّك إذا تأمّلت في حال الأمم كلّهم قبل الإسلام لا تجد شرائعهم وقوانينهم وأحوالهم خالية من إصر عليهم مثل تحريم بعض الطيبات في الجاهلية، ومثل تكاليف شاقة عند النصارى والمجوس لا تتلاقى مع

السماحة الفطرية، وكذلك لا تجدها خالية من رَهق الجبابرة، وإذلال الرؤساء، وشدّة الأقوياء على الضعفاء، وما كان يحدث بينهم من التقاتل والغارات، والتكايل في الدماء، وأكلهم أموالهم بالباطل، فأرسل الله محمدا صلى الله عليه وسلم بدين من شأنه أن يخلّص البشر من تلك الشدائد، كما قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ } [الانبياء:107]. ولذلك فسّرنا الوضع بما يعم النسخ وغيره، وفسّرنا الأغلال بما يخالف المراد من الإصر، ولا يناكد هذا ما في أديان الجاهلية والمجوسية وغيرها من التحلل في أحكام كثيرة، فإنّه فساد عظيم لا يُخفّف وطأة ما فيها من الإصر.

{ **فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** } الفاء فاء الفصيحة، والمعنى، إذا كان هذا النبيّ كما علمتم من شهادة التوراة والإنجيل بنبوّته، ومن اتصاف شرعه بالصفة التي سمعتم، علمتم أنّ الذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا هديه، هم المفلحون.

والقصر المستفاد من تعريف المسند ومن ضمير الفصل قصر إضافي، أي: هم الذين أفلحوا دون من كفر به.

{ **عَزَّرُوهُ** } أيّدوه وقوّوه، وذلك بإظهار ما تضمّنته كتبهم من البشارة بصفاته، وصفات شريعته، وإعلان ذلك بين النّاس، وذلك شيء زائد على الإيمان به، كما فعل عبد الله بن سلام، وكقول ورقة بن نوفل: " هذا الناموس الذي أنزل على موسى". وهو أيضا مغاير للنصر، لأنّ **النصر**: هو الإعانة في الحرب بالسلاح، ومن أجل ذلك عُطف عليه { وَنَصَرُوهُ }

اتباع النور: تمثيل للاقتداء بما جاء به القرآن: شُبّه حال المقتدي بهدي القرآن بحال الساري في الليل إذا رأى نورا يلوح له اتّبعه لعلمه بأنّه يجد عنده منجاة من المخاوف وأضرار السير.

{ **أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** } للتنويه بشأنهم، وللدلالة على أنّ المشار إليهم بتلك الأوصاف صاروا أحرياء بما يخبر به عنهم بعد اسم الإشارة.

وفي هذه الآية تنويه بعظيم فضل أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم رضي الله عنهم، ويلحق بهم من نصر دينه بعدهم.

{ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النبيّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**} [158].

هذه الجملة معترضة بين قصص بني إسرائيل، جاءت مستطردة لمناسبة ذكر الرّسول الأمّيّ، تذكيرا لبني إسرائيل بما وعد الله به موسى عليه السلام، وإيقاظا لإفهامهم بأنّ محمدا صلى الله عليه وسلم هو مصداق الصفات التي علّمها الله موسى. والخطاب بـ { **يَا أَيُّهَا النَّاسُ** } لجميع البشر، وضمير التكلّم

ضمير الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

وتأكيد الخبر بـ (إنّ) باعتبار أنّ في جملة المخاطبين منكرين ومتردّدين، استقصاء في إبلاغ الدعوة إليهم.

{ **جَمِيعاً** } لرفع احتمال تخصيص رسالته بغير بني إسرائيل، فإنّ من اليهود فريقا كانوا يزعمون أنّ محمدا صلى الله عليه وسلم نبيّ، ويزعمون أنّه نبيّ العرب خاصة، ولذلك لمّا قال رسول الله لابن صيّاد، وهو

يهودي: " **أتشهد أنّي رسول الله** "، قال ابن صيّاد: اشهد أنّك رسول الأمّيين.

وقد ثبت من مذاهب اليهود مذهب فريق من يهود أصفهان يدعون بالعيسوية وهم اتباع أبي عيسى الأصفهاني اليهودي القائل بأنّ محمدا رسول الله إلى العرب خاصة لا إلى بني إسرائيل. لأنّ اليهود فريقان: فريق يزعمون أنّ شريعة موسى لا تُنسخ بغيرها. وفريق يزعمون أنّها لا تنسخ عن بني إسرائيل، ويجوز أن يبعث رسول لغير بني إسرائيل.

{ **الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ** } نعت لاسم الجلالة، دال على الثناء. وتقديم المجرور للقصر، أي: لا لغيره ممّا يعبده المشركون، فهو قصر إضافي للردّ على المشركين.

{ **لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ** } قصر حقيقي لتحقيق صفة الوحدانيّة، لا لقصد الردّ على المشركين.

{ **يُحْيِي وَيُمِيتُ** } حال.

والمقصود من ذكر هذه الأوصاف الثلاثة، تذكير اليهود ووعظهم، حيث جحدوا نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم، وزعموا أنّه لا رسول بعد موسى، واستعظموا دعوة محمد، فكانوا يعتقدون أنّ موسى لا يشبهه رسول. فذُكّروا بأنّ الله مالك السماوات والأرض، وهو واهب الفضائل، فلا يستعظم أن يُرسل رسولا ثم يرسل رسولا آخر، لأنّ الملك بيده، وبأنّ الله هو الذي لا يشابهه أحد في الوهيّته، وأمّا مرتبة الرسالة فهي قابلة للتعدّد.

{ **فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النبيّ الأُمِّيِّ** } انتظم أن يُفرَّع على تلك الصفات الثلاث الطلب الجازم بالإيمان بهذا الرّسول، والمقصود طلب الإيمان بالنبيّ الأمّيّ لأنّه الذي سيق الكلام لأجله.

ولكن لمّا صدر الأمر بخطاب جميع البشر وكان فيهم من لا يؤمن بالله، وفيهم من يؤمن بالله ولا يؤمن بالنبيّ الأمّيّ، جمع بين الإيمان بالله والإيمان بالنبيّ الأمّيّ في طلب واحد، ليكون هذا الطلب متوجّها للفرق كلّهم، مع قضاء حقّ التأدّب مع الله بجعل الإيمان به مقدّما على طلب الإيمان بالرّسول صلى الله عليه وسلم.

{ **وَرَسُولِهِ النبيّ الأُمِّيِّ** } التفات من التكلّم إلى الغيبة، لقصد إعلان تحقّق الصفة الموعود بها في التوراة في شخص محمد صلى الله عليه وسلم.

{ **الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ** } وصف النبيّ الأمّيّ بالذي يؤمن بالله وكلماته، بطريق الموصولية للإيماء

إلى وجه الأمر بالإيمان بالرسول، وأنّه لا معذرة لمن لا يؤمن به من أهل الكتاب، لأنّ هذا الرسول يؤمن بالله وبكلمات الله، فقد اندرج في الإيمان به الإيمان بسائر الأديان الإلهية الحق. وهذا نظير قوله تعالى، في تفضيل المسلمين { وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ } [آل عمران:119].

كلمات: جمع كلمة بمعنى الكلام مثل قوله تعالى { كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا } [المؤمنون:100]. فكلمات الله تشمل كتبه ووحيه للرّسل. وأوثر هنا التعبير بكلماته، دون كتبه، لأنّ المقصود الإيماء إلى إيمان الرّسول عليه الصلاة والسلام بأنّ عيسى كلمة الله، أي: أثر كلمته، وهي أمر التكوين.

{ **وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** } القول في معنى الاتباع تقدّم، وكذلك القول في نحو { لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ }.

{ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ } [159].

هذا تخصيص لظاهر العموم الذي في قوله تعالى { وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى } قُصد به الاحتراس لئلا يُتوهّم أنّ ذلك قد عمله قوم موسى كلّهم. وللتنبيه على دفع هذا التوهم قدّم { وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى } على متعلّقه.

قوم موسى: هم أتباع دينه من قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، فمن بقي متمسّكا بدين موسى، بعد بلوغ دعوة الإسلام إليه، فليس من قوم موسى، ولكن يقال هو من بني إسرائيل أو من اليهود، لأنّ الإضافة تؤذن بأنّهم متبعو دينه، الذي من جملة أصوله ترقّب مجيء الرسول الأمّيّ صلى الله عليه وسلم.

{ **أُمَّةً** } جماعة كثيرة متفقة في عمل يجمعها، وتقدّم ذلك عند قوله تعالى { أُمَّةً وَاحِدَةً } [البقرة:213]، والمراد: أنّ منهم في كل زمان قبل الإسلام.

{ **يَهْدُونَ بِالْحَقِّ** } أي: يهدون النّاس من بني إسرائيل أو من غيرهم ببث فضائل الدين الإلهي، وهو الذي سمّاه الله بالحقّ.

{ **وَبِهِ يَعْدِلُونَ** } وتقديم المجرور للاهتمام به ولرعاية الفاصلة، إذ لا مقتضي لإرادة القصر، والمعنى، أنّهم يحكمون بالعدل على بصيرة وعلم، أي: يحكمون حكما لا جور فيه.

{ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [160].

{ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً }.

التقطيع: شدّة في القطع وهو التفريق، والمراد به التقسيم، وليس المراد بهذا الخبر الذمّ، ولا بالتقطيع العقاب، لأنّ ذلك التقطيع منّة من الله، وهو من محاسن سياسة الشريعة الموسويّة، ومن مقدّمات نظام

الجماعة كما فصّله السفر الرابع، وهو سفر عدد بني إسرائيل وتقسيمهم، وهو نظير ما فعل عمر بن الخطاب من تدوين الديوان.

وهم كانوا منتسبين إلى أسباط اسحاق، ولكنّهم لم يكونوا مقسّمين عشائر لمّا كانوا في مصر، فكان التقسيم بعد اجتيازهم البحر الأحمر، وقبل انفجار العيون. وهو ظاهر القرآن في سورة البقرة وفي هذه السورة لقوله فيهما { قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ }.

وظاهر التوراة أنّهم لمّا مرّوا بحوريب، وجاء شعيب للقاء موسى، أنّ شعيبا أشار على موسى أن يقيم لهم رؤساء ألوف، ورؤساء مئات، ورؤساء خماسين، ورؤساء عشرات، حسب [سفرالخروج، الإصحاح: 18]. وذلك يقتضي أنّ الأمّة كانت منتسبة قبائل من قبل، ليسهل وضع الرؤساء على الأعداد، ووقع في السّنة الثانية من خروجهم أنّ الله أمر موسى أن يحصي جميع بني إسرائيل، وأنّ موسى وهارون جمعا جميع بني إسرائيل فانتسبوا إلى عشائرهم وبيوت آبائهم، كما في [سفر العدد، الإصحاح:1].

الأسباط: تقدّم ذكرهم عند قوله تعالى { قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا } [البقرة:136].

{ **أَسْبَاطاً** } حال من الضمير المنصوب في { وَقَطَّعْنَاهُمُ } ولا يجوز كونه تمييزا لأنّ تمييز اثنتي عشرة ونحوه لا يكون إلّا مفردا.

{ **أُمَماً** } بدل من { أَسْبَاطاً } أو من { اثْنَتَيْ عَشْرَةَ }.

وفي اللفظة تذكير ومنّة؛ التذكير بأنّهم أسباط إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، والمنّة التكثير، لأنّ كل سبط من أولئك قد صار أمّة، قال تعالى { وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ } [الأعراف:86].

{ **وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ** } لم يعطف هذا الخبر بالفاء لإفادة أنّه منّة مستقلة. وتفسير هذه الآية مضى عند قوله تعالى {وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ } [البقرة:60].

{ **فَانْبَجَسَتْ** } مطاوع بجس إذا شقّ.

{ **وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** } هذه الآية نظير ما في سورة البقرة سوى اختلاف بضميري الغيبة هنا وضميري الخطاب هناك لأنّ ما هنالك قُصد به التوبيخ.

{ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ [161] فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ [162] }.

هذه الآية أيضا نظير ما في سورة البقرة إلّا أنّه عُبّر في هذه الآية بقوله {اسْكُنُوا} وفي سورة البقرة بقوله تعالى { ادْخُلُوا } [58]، لأنّ القولين قيلا لهم، أي: قيل لهم: ادخلوا واسكنوها، ففرّق ذلك على القصتين على عادة القرآن في تغيير أسلوب القصص استجدادا لنشاط السامع.

وكذلك اختلاف التعبير في قوله هنا { وَكُلُوا } وقوله في سورة البقرة { فَكُلُوا }، فإنّه قد قيل لهم بما يرادف فاء التعقيب، كما جاء في سورة البقرة، لأنّ التعقيب معنى زائد على مطلق الجمع الذي تفيده واو العطف، واقتصر هنا على حكاية أنّه قيل لهم. وكانت آية البقرة أولى بحكاية ما دلت عليه فاء التعقيب، لأنّ آية البقرة سيقت مساق التوبيخ فناسبها ما هو أدلّ على المنّة، وهو تعجيل الانتفاع بخيرات القرية. وآيات الأعراف سيقت لمجرّد العبرة بقصة بني إسرائيل.

ولأجل هذا الاختلاف ميزت آية البقرة بإعادة الموصول وصلته في قوله تعالى { فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً } وعُوّض عنه هنا بضمير الذين ظلموا لأنّ القصد في آية البقرة بيان سبب إنزال العذاب عليهم مرتين، أشير إلى أولاهما بما يومئ إليه الموصول من علة الحكم، والى الثانية بحرف السببيّة، واقتصر هنا على الثاني.

وقد وقع في سورة البقرة لفظ { فَأَنْزَلْنَا } ووقع هنا لفظ { فَأَرْسَلْنَا } ولمّا قُيّد كلاهما بقوله { مِنَ السَّمَاءِ } كان مفادهما واحدا، فالاختلاف لمجرّد التفنّن بين القصتين.

وعُبّر هنا { بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ } وفي البقرة { بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ } لأنّه لمّا اقتضى الحال في القصتين تأكيد وصفهم بالظلم وأُدّي ذلك في البقرة بقوله { فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا }، استُثقلت إعادة لفظ الظلم هنالك ثالثة، فعُدل عنه إلى ما يفيد مفاده، وهو الفسق، وهو أيضا أعمّ، فهو انسب بتذييل التوبيخ، وجيء هنا بلفظ

{ يَظْلِمُونَ } لئلا يفوت تسجيل الظلم عليهم مرة ثالثة، فكان تذييل آية البقرة أنسب بالتغليط في ذمّهم لأنّ مقام التوبيخ يقتضيه.

ووقع في هذه الآية { فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ } ولم يقع لفظ { مِنْهُمْ } في سورة البقرة، ووجه زيادتها هنا التصريح بأنّ تبديل القول لم يصدر من جميعهم، وأجمل ذلك في سورة البقرة لأنّ آية البقرة لمّا سيقت مساق التوبيخ ناسب إرهابهم بما يوهم أنّ الذين فعلوا ذلك هم جميع القوم لأنّ تبعات بعض القبيلة تُحمل على جماعتها.

وقُدّم في سورة البقرة قوله تعالى { وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً } على قوله { وَقُولُوا حِطَّةٌ } وعكس هنا وهو اختلاف في الإخبار لمجرد التفنّن، فانّ كلا القولين واقع قُدّم أو أخر.

وذُكر في البقرة { فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً } ولم يُذكر وصف رغدا هنا وإنّما حكي في سورة البقرة لأنّ زيادة المنّة ادخل في تقوية التوبيخ.

{ **سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ** } مستأنفة استئنافا بيانيّا لأنّ قوله تعالى { نَغْفِرْ لَكُمْ } في مقام الامتنان بإعطاء نعم كثيرة.

وفي نظير هذه الآية من سورة البقرة ذكرت جملة { وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ } معطوفة بالواو على تقدير: قلنا لهم ذلك وقلنا لهم سنزيد المحسنين، فالواو هنالك لحكاية الاقوال، فهي من الحكاية.

وقرأ نافع، وأبو جعفر، ويعقوب { تُغْفَرْ } بمثناة فوقية مبنيا للمجهول، و{ خَطِيئَاتِكُمْ } بصيغة جمع السلامة للمؤنث. وقرأه ابن كثير، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف { نَغْفِرْ } بالنون مبنيا للفاعل و{ خَطِيئَاتِكُمْ } بصيغة جمع المؤنث السالم أيضا. وقرأه أبو عمرو { نَغْفِرْ } بالنون و{ خَطَايَاكُمْ } بصيغة جمع التكسير، مثل آية البقرة. وقرأ ابن عامر { تُغْفَرْ } بالفوقية وخطيئتكم بالإفراد.

{ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ } [163].

غُيّر أسلوب الخبر عن بني إسرائيل هنا، فنعلم من ذلك أنّ لهذه القصص الآتية شأنا غير شأن القصص الماضية، ولا أحسب ذلك إلّا من أجل أنّ هذه القصّة ليست ممّا كتب في توراة اليهود ولا في كتب أنبيائهم، ولكنّها ممّا كان مرويا عن أحبارهم، ولذلك افتُتحت بالأمر بسؤالهم عنها، لإشعار يهود العصر النبوي بأنّ الله أطلع نبيّه عليه الصلاة والسلام، عليها، وهم كانوا يكتمونها.

وذلك أنّ الحوادث التي تكون مواعظ للأمّة فيما اجترحته من المخالفات والمعاصي تُبقي لها عقب الموعظة أثرا قد تعيّر الأمّة به. وكذلك كان شأن اليهود، لمّا أضاعوا ملكهم ووطنهم وجاوروا أمما أخرى فأصبحوا يكتمون عن أولئك الجيرة مساوي تاريخهم، حتّى أرسل الله محمدا صلى الله عليه وسلم فعلّمه من أحوالهم ما فيه معجزة لأسلافهم، وما بقي معرّة لأخلافهم، وذلك تحدّ لهم، ووخز على سوء تلقّيهم الدعوة المحمديّة بالمكر والحسد.

والسؤال في كلام العرب على نوعين اشهرهما أن يسأل السائل عمّا لا يعلمه ليعلمه، والآخر أن يسأل على وجه التقرير حين يكون السائل يعلم حصول المسؤول عنه، ويعلم المسؤول أنّ السائل عالم وأنّه إنّما سأله ليقرّره.

القرية: تقدّم ذكرها عند قوله تعالى { وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ } [البقرة:65].

وهذه القرية قيل: (**أَيْلَة**) وهي المسمّاة اليوم (العقبة) وهي مدينة على ساحل البحر الأحمر قرب شبه

جزيرة طورسينا، وهي مبدأ أرض الشام من جهة مصر، وكانت من مملكة إسرائيل في زمان داود عليه السلام. **حاضرة البحر**: بمعنى الاتصال بالبحر والقرب منه، لأنّ الحضور يستلزم القرب، وكانت (أيْلة) متصلة بخليج من البحر الأحمر وهو القلزم. وقيل: هي (**طبريّة**)، وكانت طبرية تدعى بحيرة طبرية، وقد قال المفسرون: إنّ هذه القصّة التي أشير إليها في هذه الآية كانت في مدة داود.

وأطلقت القرية على أهلها بقرينة قوله تعالى { **إِذْ يَعْدُونَ** }

العدوان: الظلم ومخالفة الحقّ، وهو مشتقّ من العَدْو وهو التجاوز. واختيار صيغة المضارع للدلالة على تكرّر ذلك منهم.

{ **فِي السَّبْتِ** } مؤذن بأنّ العدوان لأجل يوم السبت، نظرا إلى ما دلّت عليه صيغة المضارع من التكرير المقتضي أنّ عدوانهم يتكرّر في كلّ سبت، فيُعلم أنّ الاعتداء كان منوطا بحق خاص بيوم السبت، وذلك هو حقّ عدم العمل فيه، إذ ليس ليوم السبت حقّ في شريعة موسى سوى أنّه يحرم العمل فيه.

{ **إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ** } أي: يعدون حين تأتيهم حيتانهم.

الحيتان: جمع حوت، وهو السمكة، ويطلق الحوت على الجمع فهو مما استوى فيه المفرد والجمع مثل فلك، وأكثر ما يطلق الحوت على الواحد، والجمع حيتان.

{ **شُرَّعاً** } جمع شارع، صفة للحوت الذي هو المفرد، قال ابن عباس: " ظاهرة على الماء "، يعني أنّها قريبة من سطح البحر آمنة من أن تصاد، أي: أنّ الله ألهمها ذلك لتكون آية لبني إسرائيل على أنّ احترام السبت من العمل فيه هو من أمر الله.

وقال الضحّاك: " متتابعة مصطفّة "، أي: فهو كناية عن الكثرة.

وأحسب أن ذلك وصف من شرعت الإبل نحو الماء أي: دخلت لتشرب، وهي إذا شرعها الرعاة تسابقت إلى الماء فاكتظت وتراكمت وربما دخلت فيه، فمثلت هيئة الحيتان، في كثرتها في الماء، بالنعم الشارعة إلى الماء وحسَّن ذلك وجود الماء في الحالتين، وهذا أحسن تفسيرا.

{ **يَوْمَ سَبْتِهِمْ** } يجوز أن يكون لفظ سبت مصدر سبت إذا قطع العمل بقرينة ظاهر قوله { وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ } فإنّه مضارع سبت، فيتطابق المثبت والمنفي، فيكون المعنى: أنّهم إذا حفظوا حرمة السبت، فأمسكوا عن الصيد، جاءت الحيتان يومئذ شرّعا آمنة، وإذا بعثهم الطمع في وفرة الصيد فأعدّوا له آلاته وعزموا على الصيد لم تأتهم.

ويجوز أن يكون لفظ { سَبْتِهِمْ } بمعنى الاسم العلم لليوم المعروف بهذا الاسم من أيام الأسبوع، وأضافته إلى ضميرهم اختصاصه بهم بما أنّهم يهود، تعريضا بهم لاستحلالهم حرمة السبت.

{ **وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ** } وعلى الوجهين يجوز أن يكون المعنى: والأيام التي لا يحرم العمل فيها، أي: أيام الأسبوع، لا تأتي فيها الحيتان.

فالمقصود من الآية الموعظة والعبرة وليست منّة عليهم، وقرينته قوله تعالى:

{ **كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** } أي: نمتحن طاعتهم بتعريضهم لداعي العصيان، وهو وجود المشتهى الممنوع.

البلوى: الاختبار، والبلوى إذا أسندت إلى الله تعالى كانت مجازا عقليا، أي: ليبلو الناس تمسكهم بدينهم.

{ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ [164] فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ [165] فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ [166] }.

عطف على قوله تعالى { إِذْ يَعْدُونَ }، والتقدير: واسأل بني إسرائيل إذ قالت أمّة منهم. والمقصود توبيخ بني إسرائيل كلّهم، لأنّ القصّة مظهر آخر من مظاهر عصيانهم وعتوّهم وقلة جدوى الموعظة فيهم، وأنّ ذلك شأن معلوم منهم عند علمائهم وصلحائهم، ولذلك لمّا عُطفت هذه القصة أعيد معها لفظ اسم الزمان فقيل:

{ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ } ولم يقل: وقالت أمّة.

{ **وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ** }

الأمّة: الجماعة من النّاس المشتركة في هذا القول. قال المفسّرون: إنّ أمّة من بني إسرائيل كانت دائبة على القيام بالموعظة والنهي عن المنكر. وقد أجملت الآية ممّا كان من الأمّة القائلة إيجازا في الكلام.

{ **لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً** } للتعليل، والاستفهام إنكاري في معنى النفي، فيدلّ على انتفاء جميع العلل التي من شأنها أن يوعظ لتحصيلها. وذلك يفضي إلى اليأس من حصول اتعاظهم، والمخاطب أمّة أخرى.

الوعظ: تقدّم ذكره عند قوله آنفا { مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ } [145]، وعند قوله تعالى { فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ } [النساء:63].

{ **اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً** } ووصف القوم بأنّ الله مهلكهم مبني على أنّهم تحققت فيهم الحال التي اخبر الله بأنّه يهلك أو يعذّب من تحققت فيه، وقد أيقن القائلون بأنّها قد تحققت فيهم، وأيقن المقول لهم بذلك.

واسما الفاعل مستعملان في معنى الاستقبال بقرينة المقام، وبقرينة التردّد بين الإهلاك والعذاب.

{ **قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ** } فصلت لوقوعها في سياق المحاورة.

المَعْذِرة: مصدر ميمي لفعل اعتذر على غير قياس. ومعنى اعتذر اظهر العُذْر، والعذر السبب الذي تبطل به المؤاخذة بذنب أو تقصير، فهو بمنزلة الحجّة التي يبديها المؤاخذ بذنب ليظهر أنّه بريء مما نسب إليه، أو متأوّل فيه، ويقال: عَذَره، إذا قبل عذره.

{ **وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** } علّة ثانية للاستمرار على الموعظة، أي: رجاء لتأثير الموعظة فيهم بتكرارها.

فالمعنى: أن صلحاء القوم كانوا فريقين، فريق منهم أيس من نجاح الموعظة وتحقّق حلول الوعيد بالقوم، لتوغّلهم في المعاصي، وفريق لم ينقطع رجاؤهم من حصول أثر الموعظة بزيادة التكرار، فأنكر الفريق الأول على الفريق الثاني استمرارهم على كلفة الموعظة، واعتذر الفريق الثاني بقولهم { مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ }.

{ **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ** } الضمير عائد إلى { قَوْماً } والنسيان مستعمل في الإعراض المفضي إلى النسيان كما تقدّم عند قوله تعالى { فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ } [الأنعام:44].

{ **أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ** } هم الفريقان المذكوران في قوله آنفا { وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً - إلى قوله - وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ }.

{ **وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ** } هم القوم المذكورون في قوله تعالى { قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ }.

الظلم: هنا بمعنى العصيان، وهو ظلم النفس وظلم حقّ الله تعالى في عدم الامتثال لأمره.

{ **بَئِيسٍ** } المعنى: على جميع القراءات: أنّه عذاب شديد الضرّ.

{ **بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** } تقدّم القول في نظيره قريبا.

وقد أجمل هذا العذاب هنا، فقيل: هو عذاب غير المسخ المذكور بعده، أي: أنّ الله اعذر إليهم فابتدأهم بعذاب الشدّة فلمّا لم ينتهوا وعتوا سلط عليهم عذاب المسخ.

وقيل: العذاب البئس هو المسخ، فيكون قوله تعالى { فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ } بيانا لإجمال العذاب البئس، ويكون قوله تعالى { فَلَمَّا عَتَوْا } بمنزلة التأكيد لقوله تعالى { فَلَمَّا نَسُوا } صيغ بهذا الأسلوب لتهويل النسيان والعتو.

العتوّ: تقدّم عند قوله تعالى { فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ } [77].

{ **قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ** } تقدّم القول في نظيره عند قوله تعالى { وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ } [البقرة:65]. ولأجل التشابه بين الآيتين، وذكر العدو في السبت فيهما، وذكره هنا في الإخبار عن القرية، جزم المفسرون بأنّ الذين نسوا ما ذكروا به وعتوا عما نهوا عنه هم أهل هذه القرية، وبأنّ الأمّة القائلة { لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً } هي أمّة من هذه القرية، فجزموا بأن القصة واحدة.

{ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } [167].

عطف على { وَاسْأَلْهُمْ } [163] بتقدير اذكر، وضمير { عَلَيْهِمْ } عائد إلى اليهود، فالمتحدّث عنهم بهذه الآية لا علاقة لهم بأهل القرية الذين عدوا في السبت.

{ **تَأَذَّنَ رَبُّكَ** } مشتق من الإذن وهو العلم، يقال أذِنَ أي عَلِم. هنا بمعنى: أعْلم وأخْبر ليبعثن. وقال في الكشّاف معناه: عزم ربّك. وعن ابن عباس: أعلن ذلك على لسان رسله.

وحاصل المعنى: أنّ الله أعلمهم بذلك وتوعّدهم به، وهذا كقوله تعالى { وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ } [إبراهيم:7].

البعث: الإرسال، وهو هنا مجاز في التقييض والإلهام، وهو يؤذن بأنّ ذلك في أوقات مختلفة وليس ذلك مستمرا يوما فيوما، وضُمّن معنى التسليط فعدّي بـ (على) كقوله تعالى { بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا} [الاسراء:5].

{ **إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ** } غاية لما في القسم من معنى الاستقبال، وهي غاية مقصود منها جعل أزمنة المستقبل كلّه ظرفا للبعث، أي: أنّ الله يسلط عليهم ذلك في خلال المستقبل كلّه.

{ **يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ** } يفرض عليهم، وحقيقة السوم أنّه تقدير العوض الذي يُستبدل به الشيء، واستُعمل مجازا في المعاملة اللازمة بتشبيهها بالسوم المقدر للشيء، وتقدّم في هذه السورة نظيره، وفي قوله تعالى

{ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ } [البقرة:49]. ف

المعنى: يجعل سوء العذاب كالقيمة لهم، فهو حظّهم.

سوء العذاب: أشدّه، لأنّ العذاب كلّه سوء فسوءه الأشدّ فيه.

والآية تشير إلى وعيد الله إيّاهم بأن يسلّط عليهم عدوّهم كلّما نقضوا ميثاق الله تعالى، وقد تكرر هذا الوعيد من عهد موسى عليه السلام. وأوّل من سُلّط عليهم بختنصر ملك بابل، ثم توالت عليهم المصائب فكان أعظمها خراب أرشليم في زمن ادريانوس امبراطور روما، ولم تزل المصائب تنتابهم، ويُنفّس عليهم في فترات معروفة في التاريخ.

{ **إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ** } أي: لهم، والسرعة تقتضي التحقّق، أي: أنّ عقابه واقع وغير متأخّر، لأنّ التأخّر تقليل في التحقق.

{ **وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** } وعد بالإنجاء من ذلك إذا تأبوا واتبعوا الإسلام، أي: لغفور لمن تاب ورجع إلى الحقّ. وفيه إيماء إلى أنّ الله قد يُنفّس عليهم في فترات من الزمن، لأنّ رحمة الله سبقت غضبه.

{ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } [168].

عطف قصة على قصة وهو عود إلى قصص الإخبار عن أحوالهم، فيجوز أن يكون الكلام إشارة إلى تفرّقهم بعد الاجتماع، والتقطيع التفريق، فيكون محمودا مثل { وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً } [160]، ويكون مذموما، فالتعويل على القرينة لا على لفظ التقطيع.

{ **أُمَماً** } جمع أمّة بمعنى الجماعة، فيجوز أن يكون المراد هنا تقطيعا مذموما، أي: تفريقا بعد اجتماع أمتهم فيكون إشارة إلى أسر بني إسرائيل عندما غزا مملكة إسرائيل (شلمناصر) ملك بابل، ونقلهم إلى جبال أنشور وارض بابل سنة (721 ق م).ثم أسر بختنصر مملكة يهوذا وملكها سنة (578 ق م)، ونقل اليهود من أرشليم ولم يبق إلّا الفقراء والعجز. ثم عادوا إلى ارشليم سنة (530 ق م) وبنوا البيت المقدّس إلى أن أجلاهم طيطوس الروماني وخرّب بيت المقدس في أوائل القرن الثاني بعد الميلاد، فلم تجتمع أمتهم بعد ذلك.

{ **مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ** } إيذان بأنّ التفريق شمل المذنبين وغيرهم، وأنّ الله جعل للصالحين منزلة إكرام عند الأمم التي حلوا بينها كما دل عليه قوله تعالى { وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئاتِ }. و{ الصَّالِحُونَ } هم المتمسّكون بشريعة موسى والمصدّقون للأنبياء المبعوثين من بعده، والمؤمنون بعيسى بعد بعثته. وأن بني إسرائيل كانوا بعد بعثة عيسى غير صالحين إلّا قليلا منهم، الذين آمنوا به. وزادوا بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم وعدم إيمانهم به بعدا عن الصلاح إلّا نفرا قليلا منهم، مثل عبد الله بن سلام، ومخيريق.

{ **وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ** } شمل كل من لم يكن صالحا على اختلاف مراتب فقدان الصلاح منهم.

{ **وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئاتِ** } أي: أظهرنا مختلف حال بني إسرائيل في الصبر والشكر، أو في الجزع والكفر، بسبب الحسنات والسيئات، فهي جمع حسنة وسيئة بمعنى التي تحسن والتي تسوء، كما تقدّم في قوله تعالى { فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ } [131].

{ **لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** } استئناف بياني، أي: رجاء أن يتوبوا حين يرون حسن حال الصالحين وسوء حال من هم دون ذلك.

الرجوع: هنا الرجوع عن نقض العهد وعن العصيان، وهو معنى التوبة.

<u>ويجوز عندي</u> أن يكون قوله تعالى { وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَماً }، عودا إلى أخبار المنن عليهم، فيكون كالبناء على قوله تعالى { وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً } [160]، فيكون تقطيعا محمودا. والمراد بالأرض، أرض القدس الموعودة لهم، أي: لكثّرناهم فعمروها جميعها، فيكون ذكر الأرض هنا للدلالة على أنّهم عمروها كلّها، ويكون قوله تعالى { مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ } إنصافا لهم بعد ذكر أحوال عدوان جماعاتهم وصمّ آذانهم عن الموعظة، وقوله تعالى { وَبَلَوْنَاهُمْ } إشارة إلى أنّ الله عاملهم مرة بالرحمة ومرة بالجزاء على أعمال دهمائهم.

{ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ [169] وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ [170] }.

جملة { فَخَلَفَ } تفريع على قوله تعالى { وَقَطَّعْنَاهُمُ } إن كان المراد تقطيعهم في بلاد أعدائهم وإخراجهم من مملكتهم، فتكون الآية مشيرة إلى عودة بني إسرائيل إلى بلادهم في عهد الملك كورش ملك الفرس في حدود سنة (530 ق م). فإنّه لمّا فتح بلاد آشور أذن لليهود الذين أسرهم بختنصر أن يرجعوا إلى بلادهم فرجعوا وبنوا بيت المقدس بعد خرابه، كما تضمّنه سفر (نحميا) وسفر (عزرا)، وكان من جملة ما احيوه أنّهم أتوا بسفر شريعة موسى الذي كتبه (عزرا) وقرأوه على الشعب في أورشليم. فيكون المراد بالخلف الذين رجعوا من اسر الآشوريين. والمراد بـ { **وَرِثُوا الْكِتَابَ** } إعادة مزاولتهم التوراة التي أخرجها إليهم (عزرا) المعروف عند أهل الإسلام باسم (**عُزَيْر**)، ويكون { **يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى** } اخذ بعض الخلف لا جميعه، لأنّ صدر ذلك الخلف كانوا تائبين وفيهم أنبياء وصالحون.

وإن كان المراد من تقطيعهم في الأرض أمما تكثيرهم والامتنان عليهم، كان قوله تعالى { فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ } تفريعا على جميع القصص المتقدّمة التي هي قصص أسلافهم، فيكون المراد بالخلف من نشأ من ذريّة أولئك اليهود بعد زوال الأمّة وتفرّقها. منهم الذين كانوا عند ظهور الإسلام وهم اليهود الذين كانوا بالمدينة وإلى هذا المعنى في (الخلْف) نحا المفسرون.

الخلْف: (بسكون اللام) من يأتي بعد غيره في مكان أو عمل أو نسل. وهو مصدر أريد به اسم الفاعل، ولا حد لآخر الخلف، بل يكون تحديده بالقرائن، فلا ينحصر في جيل ولا في قرن، بل قد يكون الخلف ممتدا. قال تعالى بعد ذكر الأنبياء { فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ } [مريم:59].

{ **وَرِثُوا** } مجاز في القيام مقام الغير، كما تقدّم في قوله تعالى { وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا } [43]. فهو بمعنى الخليفة. والمعنى: فخلف من بعدهم خلف في إرث الكتاب.

{ **يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى** } حال، والمقصود هو ذمّ الخلْف بأنّهم يأخذون عرض الأدنى ويقولون سيغفر لنا، ومهّد لذلك بأنّهم ورثوا الكتاب ليدلّ على أنّهم يفعلون ذلك عن علم لا عن جهل، وذلك أشدّ مذمّة.

الأخذ: هنا الملابسة والاستعمال فهو مجاز، أي: يلابسونه، ويجوز كونه حقيقة كما سيأتي.

العَرَض: الأمر الذي يزول ولا يدوم، ويراد به المال، ويراد به أيضا ما يعرض للمرء من الشهوات والمنافع.

الأدنى: الأقرب من المكان، والمراد به هنا الدنيا. وفيه إيماء إلى تحقير هذا العرض الذي رغبوا فيه.

و قيل: أريد به ملابسة الذنوب، وبذلك فسّر سعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، والطبري، فيشمل كل ذنب. ويكون الأخذ مستعملا في المجاز وهو الملابسة.

وقيل: هو الرشا، وبه فسّر السدي، ومعظم المفسرين، فيكون الأخذ مستعملا في حقيقته وهو التناول، وقد يترجّح هذا التفسير بقوله تعالى { وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ } كما سيأتي.

{ **وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا** } هو الكلام اللساني، يقولون لمن ينكر عليهم ملابسة الذنوب وتناول الشهوات، ويجوز أن يكون الكلام النفساني، لأنّه فرع عنه، أي: قولهم في أنفسهم يعلّلونها به حين يجيش فيها وازع النهي، وذلك من غرورهم في الدين.

{ **وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ** } معطوفة على التي قبلها، واستعير إتيان العرض لبذله لهم إن كان المراد بالعرض المال، وقد يراد به خطور شهوته في نفوسهم إن كان المراد بالعرض جميع الشهوات والملاذ المحرّمة. والمعنى: أنّهم يعصون، ويزعمون أنّ سيّئاتهم مغفورة، ولا يقلعون عن المعاصي.

{ **أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ** } جواب عن قولهم { سَيُغْفَرُ لَنَا } إبطالا لمضمونه. والمقصود من هذه الجملة إعلام النبيّ صلى الله عليه وسلم ليحجّهم بها، فهم المقصود بالكلام، كما تشهد به قراءة { أَفَلا تَعْقِلُونَ} بتاء الخطاب.

والاستفهام للتقرير المقصود منه التوبيخ، وهذا التقرير لا يسعهم إلّا الاعتراف به لأنّه صريح كتابهم. ففي [السفر الخامس، الإصحاح:4]: " لا تزيدوا على الكلام الذي أوصيكم به ولا تنقصوا منه لكي تحفظوا وصايا الرب ".

الميثاق: العهد، وهو وصيّة موسى التي بلّغها إليهم عن الله تعالى في مواضع كثيرة،.

الكتاب: توراة موسى.

{ **أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ** } هو مضمون ميثاق الكتاب. والتقدير، ميثاق الكتاب عدم قولهم على الله إلاّ الحقّ.

{ **وَدَرَسُوا مَا فِيهِ** } عطف على { يُؤْخَذْ }، لأنّ (يؤخذ) في معنى المضي، لأجل دخول (لم) عليه. التقدير: ألم يؤخذ ويدرسوا، لأنّ المقصود تقريرهم بأنّهم درسوا الكتاب لا الإخبار عنهم بذلك.

المعنى: أنّهم قد أُخذ عليهم الميثاق بأن لا يقولوا على الله إلّا الحقّ، وهم عالمون بذلك الميثاق، لأنّهم درسوا ما في الكتاب، فبمجموع الأمرين قامت عليهم الحجّة.

{ **وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ** } حالية من ضمير { يَأْخُذُونَ }، وفي جعل الجملة في موضع الحال تعريض بأنّهم يعلمون ذلك أيضا، فهم قد خيّروا عليه عرض الدنيا قصدا، وليس ذلك عن غفلة صادفتهم فحرمتهم من خير الآخرة، بل هم قد حرموا أنفسهم، وقرينة ذلك قوله { أَفَلا تَعْقِلُون } بتاء الخطاب، على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، ليكون أوقع في توجيه التوبيخ إليهم مواجهة.

وفي جعل الآخرة خير للمتقين كناية عن كون الذين أخذوا عرض الدنيا بتلك الكيفية لم يكونوا من المتّقين.

{ **وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ** } مضمونها مقابل حكم التي قبلها، إذ حصل من التي قبلها أنّ هؤلاء الخلف الذين أخذوا عرض الأدنى قد فرّطوا في ميثاق الكتاب، ولم يكونوا من المتّقين، فعُقّب ذلك ببشارة من كانوا ضدّ أعمالهم، وهم الآخذون بميثاق الكتاب والعاملون ببشارته بالرّسل، وآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، فأولئك يستكملون أجرهم لأنّهم مصلحون.

ويحتمل أن المراد بالذين يمسّكون بالكتاب، المسلمون، ثناء عليهم بأنّهم الفائزون في الآخرة وتبشيرا لهم بأنّهم لا يسلكون بكتابهم مسلك اليهود بكتابهم.

{ **إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ** } التقدير: إنّا لا نضيع أجرهم لأنّهم مصلحون، ثناء عليهم على طريقة الإيجاز البديع.

{ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [171].

عاد الكلام إلى العبرة بقصص بني إسرائيل مع موسى عليه السلام، لأنّ قصّة رفع الطور عليهم من أمّهات قصصهم، وليست مثل قصّة القرية الذين اعتدوا في السبت، ولا مثل خبر إيذانهم بمن يسومهم سوء العذاب. فضمائر الجمع كلها هنا مراد بها بنو إسرائيل الذين كانوا مع موسى، بقرينة المقام.

{ **إِذْ** } متعلّقة بمحذوف تقديره: واذكر إذ نتقنا الجبل فوقهم.

النتق: الفصل والقلع.

وهذه آية أظهرها الله لهم تخويفا لهم، لتكون مذكّرة لهم. فكان رفع الطور معجزة لموسى عليه السلام تصديقا له فيما سيبلّغهم عن الله من أخذ أحكام التوراة بعزيمة ومداومة. والقصّة تقدّمت عند قوله تعالى { وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ } [البقرة:63].

الظلة: السحابة.

{ **وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ** } عُدّي بالباء للدلالة على أنّهم كانوا مستقرّين في الجبل، فهو إذا ارتفع وقع ملابسا لهم ففتتهم، فهم يرون أعلاه فوقهم وهم في سفحه.

{ **خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ** } مقول قول محذوف، وتقدّم تفسير نظيرها في سورة البقرة.

{ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ [172] أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ [173] وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [174] }.

انتقال بالكلام إلى محاجّة المشركين من العرب، وهو المقصود من السورة ابتداء ونهاية، فكان هذا الانتقال بمنزلة ردّ العجز على الصدر. جاء هذا الانتقال بمناسبة ذكر العهد الذي أخذ الله على بني إسرائيل في وصيّة موسى، وهو ميثاق الكتاب، وفي يوم رفع الطور.

وهو عهد حصل بالخطاب التكويني، أي: بجعل معناه في جبلّة كلّ نسمة وفطرتها، فالجملة معطوفة على الجمل السابقة عطف القصّة على القصّة. فهذا ابتداء لتقريع المشركين على الإشراك، وما ذكر بعده إلى آخر السورة مناسب لأحوال المشركين.

{ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ }

{ إِذْ } اسم للزمن الماضي، وهو هنا مجرّد عن الظرفية، فهو مفعول به لفعل (اذكر) محذوف.

الذرّيّات: جمع ذرّيّة، والذرّيّة اسم جمع لما يتولّد من الإنسان، وجمعه هنا للتنصيص على العموم.

وأخذ العهد على الذرّيّة المخرجين من ظهور بني آدم يقتضي أخذ العهد على الذرّيّة الذين في ظهر آدم بدلالة الفحوى، وإلّا لكان أبناء آدم الأدنون ليسوا مأخوذا عليهم العهد مع أنّهم أولى بأخذ العهد عليهم في ظهر آدم.

ومما يثبت هذه الدلالة أخبار كثيرة رويت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وعن جمع من أصحابه، متفاوتة في القوة غير خال واحد منها عن متكلّم، غير أنّ كثرتها يؤيد بعضها بعضا، وأوضحها ما روى مالك في الموطأ في ترجمة النهي عن القول بالقدر بسنده إلى عمر بن الخطاب قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يُسأل عن هذه الآية { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتَهُمْ } فقال: **" إنّ الله تعالى خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه حتى استخرج منه ذرّيّة، فقال خلقت هؤلاء للجنّة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرّيّة، فقال خلقت هؤلاء للنّار وبعمل أهل النّار يعملون ".** وساق الحديث بما لا حاجة إليه في غرضنا ومحمل هذا الحديث على أنّه تصريح بمدلول الفحوى المذكور، وليس تفسيرا لمنطوق الآية.

وجاء في الآية أنّ الله أخذ على الذرّيّات العهد بالإقرار بربوبيّة الله، ولم يتعرّض لذلك في الحديث. وذكر فيه أنّه ميّز بين أهل الجنّة وأهل النار منهم. ولعلّ الحديث اقتصار على بيان ما سأل عنه السائل فيكون تفسيرا للآية تفسير تكميل لما لم يذكر فيها، أو كان في الحديث اقتصار من أحد روّاته على بعض ما سمعه.

الأخذ: مجاز في الإخراج والانتزاع، قال تعالى { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ } [الأنعام:46].

{ **مِنْ ظُهُورِهِمْ** } بدل { مِنْ بَنِي آدَمَ } بدل بعض من كل.

الإشهادعلى الأنفس: يطلق على ما يساوي الإقرار أو الحمل عليه، وهو هنا الحمل على الإقرار، واستعير لحالة مغيّبة تتضمّن هذا الإقرار يعلمها الله، لاستقرار معنى هذا الاعتراف في فطرتهم.

{ **أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ** } مقول لقول محذوف هو بيان لجملة { أَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ }، أي: قرّرهم بهذا القول وهو من أمر التكوين. والمعنى واحد، لأن الذرّيّة لمّا أضيف إلى ضمير بني آدم كان على معنى التوزيع. والاستفهام تقريري، ومثله يقال في تقرير من يُظنّ به الإنكار أو ينزل منزلة ذلك، فلذلك يقرّر على النفي استدراجا له. وقد تقدّم عند قوله تعالى { يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ } [الأنعام:130].

والكلام تمثيل حال من أحوال الغيب، من تسلّط أمر التكوين الإلهي على ذوات الكائنات وأعراضها عند إرادة تكوينها، لا تبلغ النفوس إلى تصوّرها بالكنه، لأنّها وراء المعتاد المألوف، فيراد تقريبها بهذا التمثيل. وحاصل المعنى: أنّ الله خلق في الإنسان من وقت تكوينه إدراك أدلّة الوحدانيّة، وجعل في فطرة حركة تفكير الإنسان التطلّع إلى إدراك ذلك وتحصيل إدراكه إذا جرّد نفسه من العوارض التي تدخل على فطرته فتفسدها.

{ **قَالُوا بَلَى** } جواب عن الاستفهام التقريري، وفصّلت لأنّها جاءت على طريقة المحاورة.

وأطلق القول إمّا حقيقة، فذلك قول خارق للعادة، وإمّا مجازا على دلالة حالهم على أنّهم مربوبون لله تعالى، كما أطلق القول على مثله في قوله تعالى { فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ } [فصلت:11]، أي: ظهرت فيهما آثار أمر التكوين. فهو من المجاز الذي كثر في كلام العرب.

{ **بَلَى** } حرف جواب لكلام فيه معنى النفي، فيقتضي إبطال النفي وتقرير المنفي، ولذلك كان الجواب بها بعد النفي أصرح من الجواب بحرف (نعم)، لأنّ نعم تحتمل تقرير النفي وتقرير المنفي.

{ **شَهِدْنَا** } تأكيد لمضمون { بَلَى }، والشهادة هنا أيضا بمعنى الإقرار.

{ **أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ** } في موقع التعليل لفعل الأخذ والإشهاد. والمقصود التعليل بنفي أن يقولوا { إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ } لا بإيقاع القول، فحُذف حرف النفي جريا على شيوع حذفه مع القول. أو هو تعليل بأنّهم يقولون ذلك إن لم يقع إشهادهم على أنفسهم.

وقرأ الجمهور { **أن تَقُولُوا** } بتاء الخطاب، وقد حُوّل الأسلوب من الغيبة إلى الخطاب، ثم من خطاب الرسول إلى خطاب قومه، تصريحا بأنّ المقصود من قصّة أخذ العهد تذكير المشركين بما أودع الله في الفطرة من التوحيد. وهذا الأسلوب هو من تحويل الخطاب عن مخاطب إلى غيره، وليس من الالتفاف لاختلاف المخاطبين. وقرأه أبو عمرو، وحده بياء الغيبة، والضمير عائد إلى ذريات بني آدم.

المعنى: أنّ ذلك لمّا جُعل في الفطرة، عند التكوين، كانت عقول البشر منساقة إليه، فلا يغفل عنه أحد منهم فيعتذر يوم القيامة، إذا سئل عن الإشراك، بعذر الغفلة، فهذا إبطال للاعتذار بالغفلة، ولذلك وقع تقدير حرف نفي، أي: أن لا تقولوا.

{ **أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ** } عطف عليه الاعتذار بالجهل دون الغفلة بأن يقولوا: إننا اتبعنا آباءنا وما ظننا الإشراك إلّا حقا، فلما كان في أصل الفطرة العلم بوحدانية الله بطل الاعتذار بالجهل به، وكان الإشراك إمّا عن عمد وإمّا عن تقصير، وكلاهما لا ينهض عذرا، وكلّ هذا إنما يصلح لخطاب المشركين دون بني إسرائيل.

{ **وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ** } كنّا على دينهم تبعا لهم لأنّنا ذرّيّة لهم، وشأن الذرّيّة الاقتداء بالآباء وإقامة عوائدهم فوقع إيجاز في الكلام وأقيم التعليل مقام المعلّل.

{ **أَفَتُهْلِكُنَا** }الاستفهام إنكاري، والإهلاك هنا مستعار للعذاب.

المبطلون: الآخذون بالباطل، وهو في هذا المقام الإشراك.

وفي هذه الآية دليل على أنّ الإيمان بالإله الواحد مستقر في فطرة العقل، لو خلي ونفسه، وتجرّد من الشبهات الناشئة فيه من التقصير في النظر، أو الملقاة إليه من أهل الضلالة المستقرّة فيهم الضلالة، بقصد أو بغير قصد.

ولذلك قال الماتريدي والمعتزلة: إنّ الإيمان بالإله الواحد واجب بالعقل، ونُسب إلى أبي حنيفة والى الماوردي وبعض الشافعية من أهل العراق، وعليه انبتَّت مؤاخذة أهل الفترة على الإشراك.

وقال الأشعري: " معرفة الله واجبة بالشرع لا بالعقل"، تمسّكا بقوله تعالى { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً } [الاسراء:15]، ولعلّه أرجع مؤاخذة أهل الفترة على الشرك إلى التواتر بمجيء الرسل بالتوحيد.

{ **وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ** } معترضة بين القصّتين، وتُسمّى (واو) الاستئناف، أي: مثل هذا التفصيل نفصل الآيات، أي: آيات القرآن، وتقدّم نظير هذا عند قوله تعالى { وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ } [الأنعام:55]. وتفصيلها بيانها وتجريدها من الالتباس.

{ **وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** } هذا إنشاء ترجّي رجوع المشركين إلى التوحيد، وقد تقدّم القول في تأويل معنى الرجاء بالنسبة إلى صدوره من جانب الله تعالى عند قوله تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [البقرة:21].

الرجوع: مستعار للإقلاع عن الشرك، شبّه الإقلاع عن الحالة التي هم متلبسون بها بترك من حل في غير مقرّه ليرجع إلى مقرّه. وهذا التشبيه يقتضي تشبيه حال الإشراك بموضع الغربة، لأنّ الشرك ليس من مقتضى الفطرة، فالتلبّس به خروج عن أصل الخلقة كخروج المسافر عن موطنه.

ويقتضي أيضا تشبيه حال التوحيد بمحل المرء وحيّه الذي يأوي إليه، وقد تكرر في القرآن. وهو تعريض بالعرب لأنّهم المشركون من عقب إبراهيم.

{ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ [175] وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ [176] }.

أُعقب ما يفيد أنّ التوحيد جُعل في الفطرة بذكر حالة اهتداء بعض النّاس إلى نبذ الشرك في مبدأ أمره ثم تعرض وساوس الشيطان له بتحسين الشرك. ومناسبتها للتي قبلها، إشارة العبرة من حال أحد الذين أخذ الله عليهم العهد بالتوحيد والامتثال لأمر الله، وأمدّه الله بعلم يعينه على الوفاء بما عاهد الله عليه في الفطرة، ثم لم ينفعه ذلك كلّه حين لم يقدّر الله له الهدى المستمر.

{ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ } شأن القصص المفتتحة بهذا القول أن يُقصد منها وعظ المشركين بصاحب القصّة. ومناسبة فعل التلاوة لهم أنّهم كانوا قوما تغلب عليهم الأمّية فأراد الله أن يبلّغ إليهم من التعليم ما يساوون به حال أهل الكتاب في التلاوة.

النبأ: الخبر المروي.

{ الَّذِي } ظاهر اسم الموصول المفرد أنّ صاحب الصلة واحد معيّن، وأنّ مضمون الصلة حال من أحواله التي عُرف بها، والأقرب أن يكون صاحب هذا النبإ مّمن للعرب إلمام بمجمل خبره.

فقيل: المعني به (**أمية بن أبي الصلت الثقفي**)، وروي هذا عن عبد الله بن عمرو بن العاص، بأسانيد كثيرة عند الطبري، وعن زيد بن أسلم، وقال القرطبي في التفسير: "هو الأشهروهو قول الأكثر". ذلك أنّ أمية بن أبي الصلت الثقفي كان ممّن أراد اتباع دين غير الشرك طالبا دين الحقّ، ونظر في التوراة والإنجيل فلم ير النجاة في اليهودية ولا النصرانية، وتزهّد وتوخّى الحنيفيّة دين إبراهيم، وأُخبر أنّ الله يبعث نبيّا في العرب، فطمع أن يكونه، ورفض عبادة الأصنام وحرّم الخمر وذكر في شعره أخبارا من قصص التوراة، ويروى أنّه كانت له إلهامات ومكاشفات وكان يقول:

كُل ديـن يـوم الـقـيـامـة عـنـد ... الله إلّا ديـن الـحـنـيـفـيّة زور

وله شعر كثير في أمور الإلهية، فلمّا بُعث محمد صلى الله عليه وسلم أسف أن لم يكن هو الرسول المبعوث في العرب، وقد اتفق أن خرج إلى البحرين قبل البعثة وأقام هنالك ثمان سنين ثم رجع إلى مكّة فوجد البعثة وتردّد في الإسلام، ثم خرج إلى الشام ورجع بعد وقعة بدر فلم يؤمن بالنبيّ صلى الله عليه وسلم حسدا، ورثى من قتل من ا لمشركين يوم بدر. وخرج إلى الطائف بلاد قومه فمات كافرا. وكان

يذكر في شعره الثواب والعقاب واسم الله وأسماء الأنبياء، وقد قال فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **كاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم** ". وروي عن أمّية أنّه قال لما مرض مرض موته: " أنا أعلم أنّ الحنيفيّة حق ولكن الشك يداخلني في محمد ".

{ **آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا** } أنّ الله ألهم أميّة كراهية الشرك، وألقى في نفسه طلب الحقّ، ويسّر له قراءة كتب الانبياء، وحبّب إليه الحنيفيّة، فلمّا انفتح له باب الهدى وأشرق نور الدعوة المحمديّة كابر وحسد وأعرض عن الإسلام، فلا جرم أن كانت حاله أنّه انسلخ عن جميع ما يُسّر له، ولم ينتفع به عند إبّان الانتفاع، فكان الشيطان هو الذي صرفه عن الهدى فكان من الغاوين، إذ مات على الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم.

الإيتاء: هنا مستعار للإطلاع وتيسير العلم مثل قوله تعالى { وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ } [البقر251].

الآيات: دلائل الوحدانيّة التي كرّهت إليه الشرك وبعثته على تطلّب الحنيفيّة بالنسبة لأمية بن أبي الصلت.

الانسلاخ: حقيقته خروج جسد الحيوان من جلده حينما يسلخ، والسَّلْخُ فعل ذلك. واستعير في الآية للانفصال المعنوي، وهو ترك التلبّس بالشيء أو عدم العمل به. ومعنى الانسلاخ عن الآيات الإقلاع عن العمل بما تقتضيه، وذلك أنّ الآيات أعلمته بفساد دين الجاهلية.

{ **فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ** } بمعنى لحقة غير مفلت، كقوله { فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ } [الصافات:10]، وقوله تعالى { فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ } [طه:78]. وهذا أخصّ من (اتّبعه) بتشديد المثناة ووصل الهمزة.

الغاوين: المتّصفين بالغيّ، وهو الضلال. والتركيب أشد مبالغة في الاتصاف بالغواية من أن يقال: وغوى أو كان غاويا، كما تقدّم عند قوله تعالى { قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ } [الأنعام [56].

{ **وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا** } أفاد أنّ تلك الآيات شأنها أن تكون سببا للهداية والتزكية، لو شاء الله له التوفيق وعصمه من كيد الشيطان وفتنته فلم ينسلخ عنها، وهذه عبرة للموفّقين ليعلموا فضل الله عليهم في توفيقهم.

الرفعة: مستعارة لكمال النفس وزكائها، لأنّ الصفات الحميدة تخيّل صاحبها مرتفعا على من دونه، أي: ولو شئنا لاكتسب بعمله بالآيات فضلا وزكاء وتميّزا.

{ **وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ** } وقع الاستدراك على مضمون قوله تعالى { وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا} بذكر ما يناقض تلك المشيئة الممتنعة، أي: ركن ومال إلى الأرض. والكلام تمثيل لحال المتلبّس بالنقائص والكفر بعد الإيمان والتقوى بحال من كان مرتفعا عن الأرض فنزل من اعتلاء إلى أسفل. فبذكر الأرض عُلم أنّ الإخلاد هنا ركون إلى السفل، أي: تلبّس بالنقائص والمفاسد.

اتباع الهوى: ترجيح ما يحسن لدى النفس من النقائص المحبوبة على ما يدعو إليه الحقّ والرشد، فالاتباع مستعار للاختيار والميل، والهوى شاع في المحبّة المذمومة الخاسرة عاقبتها.

{ **فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ** } استعمال القرآن لفظ المثل بعد كاف التشبيه

مألوف بأنّه يراد به تشبيه الحالة بالحالة، وتقدّم قوله تعالى { مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً } [البقرة:17]، فلذلك تعيّن أنّ التشبيه هنا لا يخرج عن المتعارف في التشبيه المركّب.

فهذا الضال تحمّل كلفة اتباع الدين الصالح وصار يطلبه في حين كان غير مكلّف بذلك في زمن الفترة فلقي من ذلك نصبا وعناء، فلما حان حين اتباع الحق ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم تحمّل مشقة العناد والإعراض عنه في وقت كان جديرا فيه بان يستريح من عنائه لحصول طلبته فكانت حالته شبيهة بحالة الكلب الموصوف باللهث، فهو يلهث في حالة وجود أسباب اللهث من الطرد والإرهاب والمشقة وهي حالة الحمل عليه، وفي حالة الخلو عن ذلك السبب وهي حالة تركه في دعة ومسالمة.

{ **إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ** } أن تطارده وتهاجمه، مشتق من الحمل الذي هو الهجوم على أحد لقتاله، يقال حمل فلان على القوم حملة شعواء أو حملة منكرة، وقد أغفل المفسرون توضيحه وأغفل الراغب في مفردات القرآن هذا المعنى لهذا الفعل.

اللهث: سرعة التنفّس مع امتداد اللسان لضيق النفس، وفعله بفتح الهاء وبكسرها.

{ **ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** } أي: ذلك التمثيل مثل للمشركين المكذّبين بالقرآن، تشبيه بليغ. لأنّهم شابهوه في أنّهم أوتوا القرآن فكذّبوا به، فكانت حالهم كحال ذلك المكذِّب.

والأظهر أن تكون الإشارة إلى { كَمَثَلِ الْكَلْبِ }، أي: حال الكلب المذكورة كحال المشركين المكذِّبين في أنّهم كانوا يودّون معرفة دين إبراهيم، ويتمنّون مساواة أهل الكتاب في العلم والفضل، فكانوا بذلك في عناء وحيرة في الجاهلية فلمّا جاءهم رسول منهم بكتاب مبين انتقلوا إلى عناء معاندته. وهذا تأويل ما روي عن عبادة ابن الصامت أن آية { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا } إلى آخرها نزلت في قريش.

{ **فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** } فإنّ في القصص تفكّرا وموعظة فيرجى منه تفكّرهم وموعظتهم. لأنّ للأمثال واستحضار النظائر شأنا عظيما في اهتداء النفوس بها وتقريب الأحوال الخفيّة إلى النفوس الذاهلة أو المتغافلة، لما في التنظير بالقصّة المخصوصة من تذكّر مشاهدة الحالة بالحواس، بخلاف التذكير المجرّد عن التنظير بالشيء المحسوس.

{ سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ } [177].

جملة مستأنفة لأنّها جُعلت إنشاء ذمّ لهم بأن كانوا في حالة شنيعة وظلموا أنفسهم.

الظلم: هنا على حقيقته فإنّهم ظلموا أنفسهم بما أحلّوه بها من الكفر الذي جعلهم مذمومين في الدنيا ومعذّبين في الآخرة.

وتقديم المفعول للاختصاص، أي: ما ظلموا إلّا أنفسهم، وفيه إزالة تبجّحهم بأنّهم لم يتّبعوا محمدا صلى الله عليه وسلم ظنّا منهم أنّ ذلك يغيظه ويغيظ المسلمين.

{ **وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ** } تذييل للجملة التي قبلها إخبارا عنهم بأنّهم في تكذيبهم وانتفاء تفكّرهم من القصص ما ظلموا إلّا أنفسهم.
{ **كَانُوا يَظْلِمُونَ** } أقوى في إفادة وصفهم بالظلم.

{ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } [178].

هذه الجملة تذييل للقصّة والمثل وما أُعقبا به من وصف حال المشركين، فإنّ هذه الجملة تُحصّل ذلك كلّه وتجري مجرى المثل، وذلك أعلى أنواع التذييل، وفيها تنويه بشأن المهتدين، وتلقين للمسلمين للتوجّه إلى الله تعالى بطلب الهداية منه والعصمة من مزالق الضلال، أي: فالذين لم يهتدوا إلى الحقّ بعد أن جاءهم دلّت حالهم على أنّ الله غضب عليهم فحرمهم التوفيق.
الهداية: حقيقتها إبانة الطريق، وتطلق على مطلق الإرشاد لما فيه النفع سواء اهتدى المهدي إلى ما هدي إليه أم لم يهتد، قال تعالى { إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً } [الانسان:3].
ثم قد عُلم أنّ الفعل الذي يسند إلى الله تعالى إنّما يراد به أتقن أنواع تلك الماهية وأدومها، ما لم تقم القرينة على خلاف ذلك، فقوله { مَنْ يَهْدِ اللَّهُ } يعنى به من يقدّر الله اهتداءه. وليس المعنى من يرشده الله بالأدلة أو بواسطة الرسل، وقد استفيد ذلك من قصة { الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا } فإنّ الله أرشده ولم يقدّر له الاهتداء، فالحالة التي كان عليها قبل أن يخلد إلى الأرض ليست حالة هدى ولكنها حالة تردّد وتجربة.
فتعيّن أن يكون المعنى هنا: من يقدّر الله له أن يكون مهتديا فهو المهتدي.
{ **فَهُوَ الْمُهْتَدِي** } قصر حقيقي ادعائي باعتبار الكمال واستمرار الاهتداء إلى وفاة صاحبه، وهي مسألة الموافاة عند الأشاعرة.
{ **وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** } زيد في جانب الخاسرين الفصل باسم الإشارة لزيادة الاهتمام بتمييزهم بعنوان الخسران، تحذيرا منه. فالقصر فيه مؤكَّد.
الخسران: استعير لتحصيل ضدّ المقصود من العمل، كما يستعار الربح لحصول الخير من العمل، كما تقدّم عند قوله تعالى { وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ } [9].

{ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } [179].

تأكيد الخبر بـ (لام القسم) وبـ (قد) لقصد تحقيقه، لأنّ غرابته تنزل سامعه منزلة المتردّد في تأويله.
والمعني بهم المشركون، وهم ينكرون أنّهم في ضلال ويحسبون أنّهم يحسنون صنعا، وكانوا يحسبون

أنّهم أصحاب أحلام وأفهام، ولذلك قالوا للرّسول صلى الله عليه وسلم في معرض التهكّم { وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ } [فصلت:5].

الذرء: الخلق، وتقدّم في قوله تعالى { وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً } [الأنعام:136].

{ **لِجَهَنَّمَ** } اللام للتعليل. فدلائل الحقّ قائمة في نفوسهم ولكنّهم ينصرفون عنها لغلبة الهوى عليهم.

فبحسب خلقة نفوسهم غير ذات عزيمة على مقاومة الشهوات جُعلوا كأنّهم خلقوا لجهنم، وكأنّهم لم تخلق فيهم دواعي الحقّ في الفطرة.

الجنّ: خلق غير مرئي لنا، وظاهر القرآن أنّهم عقلاء وأنّهم مطبوعون على ما خلقوا لأجله من نفع أو ضرّ، وخير أو شرّ، ومنهم الشياطين، وهذا الخلق لا قبل لنا بتفصيل نظامه، ولا كيفيّات تلقيه لمراد الله تعالى منه.

{ **لَهُمْ قُلُوبٌ** } حال أو صفة لخصوص الإنس، لأنّهم الذين لهم قلوب وعقول وعيون وآذان، ولم يعرف للجنّ مثل ذلك. وقُدّم الجنّ على الإنس في الذكر ليتعيّن كون الصفات الواردة من بعد صفات للإنس، وبقرينة قوله تعالى { أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ }.

{ **الْقُلُوبُ** } اسم لموقع العقول في اللغة العربية، وتقدّم عند قوله تعالى { خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ } [البقرة:7].

الفقه: تقدّم عند قوله تعالى { لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ } [الأنعام:65].

ومعنى نفي الفقه والإبصار والسمع عن آلاتها الكائنة فيهم: أنّهم عطّلوا أعمالها بترك استعمالها في أهم ما تصلح له، وهو معرفة ما يحصل به الخير الأبدي، ويدفع به الضرّ الأبدي، لأنّ آلات الإدراك والعلم خلقها الله لتحصيل المنافع ودفع المضار، فلمّا لم يستعملوها في جلب أفضل المنافع ودفع أكبر المضار، نفي عنهم عملها على وجه العموم للمبالغة. فالنفي استعارة بتشبيه بعض الموجود بالمعدوم كله.

{ **أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ** } مستأنفة لابتداء كلام بتفظيع حالهم، فجعل ابتداء كلام ليكون أدعى للسامعين. وعُرّفوا بالإشارة لزيادة تمييزهم بتلك الصفات، وللتنبيه على أنّهم بسببها أحرياء بما سيذكر من تسويتهم بالأنعام أو جعلهم أضل منها.

{ **بَلْ هُمْ أَضَلُّ** } للانتقال والترقّي في التشبيه في الضلال وعدم الانتفاع بما يمكن الانتفاع به، ولمّا كان وجه الشبه المستفاد من قوله تعالى { كَالأَنْعَامِ } يؤول إلى معنى الضلال، كان الارتقاء في التشبيه بطريقة اسم التفضيل في الضلال.

ووجه كونهم أضلّ من الأنعام، أنّ الأنعام لا يبلغ بها ضلالها إلى إيقاعها في مهاوي الشقاء الأبدي لأنّ لها إلهاما تتفصّى به عن المهالك، كالتردي من الجبال والسقوط في الهوات، هذا إذا حُمل التفضيل في الضلال على التفضيل في جنسه وهو الأظهر. وإن حُمل على التفضيل في كيفيّة الضلال ومقارناته كان وجهه أنّ الأنعام قد خُلق إدراكها محدودا لا يتجاوز ما خلقت لأجله، فنقصان انتفاعها بمشاعرها ليس

عن تقصير منها، فلا تكون بمحلّ الملامة، وأمّا أهل الضلالة فإنّهم حجزوا أنفسهم عن مدركاتهم، بتقصير منهم وإعراض عن النظر والاستدلال، فهم أضلّ سبيلا من الأنعام.

{ **أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** } تعليل لكونهم أضلّ من الأنعام، وهو بلوغهم حدّ النهاية في الغفلة، وبلوغهم هذا الحدّ أفيد بصيغة القصر الادعائي.

الغفلة: عدم الشعور بما يحقّ الشعور به، وأطلق على ضلالهم لفظ الغفلة بناء على تشبيه الإيمان بأنّه أمر بيّن واضح يعدّ عدم الشعور به غفلة.

وقد وقع التدرّج في وصفهم بهذه الأوصاف من نفي انتفاعهم بمداركهم، ثمّ تشبيههم بالانعام، ثم الترقّي إلى أنّهم أضل من الأنعام، ثمّ قصر الغفلة عليهم.

{ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [180].

هذا خطاب للمسلمين، عُقّبت الآيات التي وصفت ضلال المشركين بتنبيه المسلمين للإقبال على دعاء الله بأسمائه الدالة على عظيم صفات الإلهيّة، والدوام على ذلك وأن يعرضوا عن شغب المشركين وجدالهم في أسماء الله تعالى.

وقد كان من جملة ما يتورّك به المشركون على النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين أن أنكروا اسمه تعالى الرحمان، وهو إنكار لم يُقدمهم عليه جهلهم بأنّ الله موصوف بما يدلّ عليه وصف (رحمان) من شدّة الرحمة، وإنّما أقدمهم عليه ما يقدّم كل معاند من تطلّب التغليظ والتخطئة للمخالف ولو فيما يعرف أنّه حقّ.

وذكر ابن عطية، وغيره، أنّ أبا جهل سمع بعض أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم يقرأ فيذكر الله في قراءته ومرة يقرأ فيذكر الرحمان فقال أبو جهل: " محمد يزعم أنّ الإله واحد وهو إنّما يعبد آلهة كثيرة "، فنزلت هذه الآية.

وتقديم المجرور المسند على المسند إليه لمجرد الاهتمام المفيد تأكيد استحقاقه إيّاها، المستفاد من اللام، والمعنى أن اتّسامه بها أمر ثابت، وقد التزم مثل هذا التقديم في جميع الآي التي في هذا الغرض مثل قوله تعالى { فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } [الإسراء:110]، وقوله تعالى { لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } [طه:8]، وقوله تعالى

{ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } [الحشر:24] ، وكل ذلك تأكيد للردّ على المشركين بتخييلهم أنّ تعدّد الاسم تعدّد للمسمّى، تمويها على الدهماء.

الأسماء: هي الألفاظ المجعولة أعلاما على الذات بالتخصيص أو بالغلبة، فاسم الجلالة وهو(**الله**) علم على ذات الإله الحقّ بالتخصيص، شأن الأعلام. و(الرحمان) و(الرحيم) اسمان لله بالغلبة، وكذلك كل

لفظ مفرد دلّ على صفة من صفات الله، وأطلق إطلاق الأعلام نحو الربّ، والخالق، والعزيز، والحكيم، والغفور، ولا يدخل في هذا ما كان مركبا إضافيا نحو ذو الجلال، ورب العرش، فإنّ ذلك بالأوصاف أشبه، وإن كان دالًّا على معنى لا يليق إلّا بالله نحو { مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ }.

الحسنى: مؤنّث الأحسن، وهو المتّصف بالحسن الكامل في ذاته، المقبول لدى العقول السليمة المجرّدة عن الهوى. وليس المراد بالحسن الملائمة لجميع النّاس لأنّ الملائمة وصف إضافي نسبي، فقد يلائم زيدا ما لا يلائم عمرا، فلذلك فالحسن صفة ذاتية للشيء الحسن.

{ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } لأنّها دالة على ثبوت صفات كمال حقيقي، أمّا بعضها فلأنّ معانيها الكاملة لم تثبت إلّا لله نحو الحي، والعزيز، والحكيم، والغنيّ. وأمّا البعض الآخر فلأنّ معانيها مطلقا لا يحسن الاتصاف بها إلّا في جانب الله نحو المتكبّر والجبّار، لأنّ معاني هذه الصفات وأشباهها كانت نقصا في المخلوق من حيث أنّ المتسم بها لم يكن مستحقا لها لعجزه أو لحاجته، بخلاف الإله لأنّه الغني المطلق، فكان اتّصاف المخلوق بها منشأ فساد في الأرض وكان اتصاف الخالق بها منشأ صلاح، لأنّها مصدر العدالة والجزاء القسط.

{ فَادْعُوهُ بِهَا } تفريع عن كونها أسماء له، وعن كونها حسنى، أي: فلا حرج في دعائه بها لأنّها أسماء متعدّدة لمسمّى واحد، لا كما يزعم المشركون، ولأنّها حسنى فلا ضير في دعاء الله تعالى بها. وذلك يشير إلى أنّ الله يُدعى بكل ما دل على صفاته وعلى أفعاله.

وقد دلت الآية على أنّ كلّ ما دلّ على صفة لله تعالى وشأن من شؤونه على وجه التقريب للأفهام بحسب المعتاد يسوغ أن يطلق منه اسم لله تعالى ما لم يكن مجيئه على وجه المجاز نحو قوله تعالى { اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ } [البقرة: 15] أو يوهم معنى نقص في متعارف النّاس نحو الماكر من قوله تعالى { وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [آل عمران: 54].

وليست أسماء الله الحسنى منحصرة في التسعة والتسعين الواردة في الحديث الصحيح عن الأعرج، وعن أبي رافع، وعن همام بن منبه، عن أبي هريرة، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **" إنّ لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة "**. لأنّ الحديث الصحيح ليس فيه ما يقتضي حصر الأسماء في ذلك العدد، ولكن تلك الأسماء ذات العدد لها تلك المزية، وقد ثبت أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم دعا فقال: **" يا حنّان، يا منّان "**، ولم يقع هذان الاسمان فيما روي من التسعة والتسعين، وليس في الحديث المروي بأسانيد صحيحة مشهورة تعيين الأسماء التسعة والتسعين. ووقع في جامع الترمذي من رواية شعيب بن أبي حمزة، عن الأعرج، عن أبي هريرة بعد قوله: **" دخل الجنة، هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمان الرحيم"**، إلى آخرها فعيّن صفات لله تعالى تسعا وتسعين وهي المشهورة بين الذين تصدوا لبيانها.

وقد عدّ ابن بَرَّجان الأشبيلي في كتابه في أسماء الله الحسنى (مائة واثنين وثلاثين) اسما مستخرجة من

القرآن والأحاديث المقبولة. وذكر القرطبي أنّ له كتابا سمّاه (الأسنى في شرح الأسماء الحسنى) ذكر فيه من الأسماء ما ينيف على مائتي اسم.

والصواب أن لا يسمّى الله تعالى إلّا باسم قد أطلقته الشريعة، وأن يكون مدحا خالصا لا شبهة فيه.

{ **وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ** } الإمساك عن الاسترسال في محاجّتهم لظهور أنّهم غير قاصدين معرفة الحقّ. أو ترك الإصغاء لكلامهم لئلا يفتنوا عامة المؤمنين بشبهاتهم، أي: اتركوهم ولا تُلغبوا أنفسكم في مجادلتهم فإنّي سأجزيهم.

ذرْ: تقدّم عند قوله تعالى { وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً } [الأنعام:70].

الإلحاد: الميل عن وسط الشيء إلى جانبه، وإلى هذا المعنى ترجع مشتقّاته كلّها، ولمّا كان وسط الشيء يشبّه به الحقّ والصواب، استتبع ذلك تشبيه العدول عن الحق إلى الباطل بالإلحاد، فأطلق الإلحاد على الكفر والإفساد، ويعدّى حينئذ بـ (في) لتنزيل المجرور بها منزلة المكان للالحاد، والاكثر أن يكون ذلك عن تعمّد للإفساد، ويقال لحد وألْحد والأشهر ألحد.

{ **يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ** } جعلها مظهرا من مظاهر الكفر، وذلك بإنكار تسميته تعالى بالأسماء الدالة على صفات ثابتة له، وهو الأحق بكمال مدلولها. فإنّهم أنكروا الرحمان، كما تقدّم، وجعلوا تسميته به في القرآن وسيلة للتشنيع ولمز النبيّ عليه الصلاة والسلام بأنّه عدد الآلهة. ولا أعظم من هذا البهتان والجور في الجدال فحقّ بان يسمّى إلحادا، لأنّه عدول عن الحقّ بقصد المكابرة والحسد.

وهذا يناسب أن يكون حرف (في) من قوله تعالى { فِي أَسْمَائِهِ } مستعملا في معنى التعليل، كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم " **دخلت امرأة النار في هرّة** ".

{ **سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } تتنزل منزلة التعليل للأمر بترك الملحدين، أي: لا تهتموا بإلحادهم ولا تحزنوا له، لأنّ الله سيجزيهم بسوء صنيعهم، وسُمّي إلحادهم عملا لأنّه من أعمال قلوبهم وألسنتهم.

{ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ [181] وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ [182] وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ [183] }.

عطف على { وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ } [179]، والمقصود، التنويه بالمسلمين في هديهم واهتدائهم، وذلك مقابلة لحال المشركين في ضلالهم. أي: أعرض عن المشركين فإنّ الله أغناك عنهم بالمسلمين.

روى الطبري عن قتادة قال بلغنا أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا قرأ الآية " **هذه لكم وقد أعطي القوم بين أيديكم مثلها** "، ريد قوله تعالى { وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ }.

وبقية ألفاظ الآية تقدّم تفسيرها في هذه السورة.

{ **وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا** } هم المشركون الذين كذّبوا بالقرآن. ووجه تعدية فعل التكذيب بـ (الباء) ليدلّ على

معنى الإنكار.

الاستدراج: مشتق من الدَّرَجة (بفتحتين) وهي طبقة من البناء مرتفعة من الأرض بقدر ما ترتفع الرجل للارتقاء منها إلى ما فوقها تيسيرا للصعود في مثل العلو أو الصومعة أو البرج، وهي أيضا واحدة الأعواد المصفوفة في السلم يرتقى منها إلى التي فوقها، وتُسمّى هذه الدرجة مرقاة.

والسين والتاء في فعل الاستدراج للطلب، أي: طلب منه أن يتدرّج، أي: صاعدا أو نازلا. والكلام تمثيل لحال القاصد إبدال حال أحد إلى غيرها بدون إشعاره، بحال من يطلب من غيره أن ينزل من درجة إلى أخرى.

{ **مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ** } لتضمّن الاستدراج معنى الإيصال إلى مكان لا يعلمون ما يفضي إليه.

الإملاء: إفعال وهو الإمهال، يقال أملاه وملّاه إذا أمهله وأخّره.

{ **إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ** } في موضع العلة للجملتين قبلها، فإنّ الاستدراج والإملاء ضرب من الكيد، وكيد الله متين أي: قوي لا انفلات منه للمكيد.

الكيد: لم يضبط تحديد معناه في كتب اللغة، وظاهرها أنّه يرادف المكر والحيلة، وقال الراغب: ضرب من الاحتيال، وقد يكون مذموما وممدوحا. وهو أخصّ من الحيلة ومن الاستدراج. وإطلاقه هنا جاء على طريقة التمثيلية.

المتين: القوي، وحقيقته القوي المتّن، أي: الظهر، لأنّ قوة متنه تمكنه من الأعمال الشديدة، ومتن كل شيء عموده وما يتماسك به.

{ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ } [184].

لمّا كان تكذيبهم بالآيات منبعثا عن تكذيبهم من جاء بها، وناشئا عن ظنّ أنّ آيات الله لا يجيء بها البشر وأنّ من يدّعي أنّه مرسل من الله مجنون، عُقّب الإخبار عن المكذبين ووعيدهم بدعوتهم للنظر في حال الرّسول، وأنّه ليس بمجنون كما يزعمون.

والجملة مستأنفة، وهي ابتداء كلام في محاجّتهم وتنبيههم، بعد الإخبار عنهم، بأنّهم مستدرجون وممل لهم.

{ **أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا** } أي: ألم يكونوا من المفكّرين أهل النظر.

الصاحب: حقيقته الذي يلازم غيره في حالة من سفر أو نحوه، وسُمِّيت الزوجة صاحبة، ويطلق مجازا على الذي له مع غيره حادث عظيم وخبر، تنزيلا لملازمة الذكر منزلة ملازمة الذات.

فوصف الرسول صلى الله عليه وسلم بأنّه صاحب الذين كذبوا بالآيات: هو بمعنى الذي اشتغلوا بشأنه ولزموا الخوض في أمره، وقد تكرّر ذلك في القرآن كقوله تعالى { وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ } [التكوير:22].

الجِنّة: (بكسر الجيم) اسم للجنون وهو الخبال الذي يعتري الإنسان من اثر مس الجنّ إيّاه في عرف النّاس.

{ **إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ** } استئناف بياني لجواب سائل منهم يقول: فماذا شأنه؟

النذير: المحذِّر من شيء يضرّ، وأصله الذي يُخبر القوم بقدوم عدوّهم.

المبين: اسم فاعل من أبان إذا أوضح، ووقوع هذا الوصف عقب الإخبار بنذير يقتضي أنّه وصف للخبر. فالغرض من اتباع { نَذِيرٌ } بوصف { مُبِينٌ } التعريض بالذين لم ينصاعوا لنذارته، ولم يأخذوا حذرهم من شرّ ما حذّرهم منه، وذلك يقطع عذرهم.

ويجوز جعل { مُبِينٌ } خبرا ثانيا عن ضمير صاحبهم، والمعنى أنّه نذير وأنّه مبين فيما يبلّغه.

وفي هذا استغباء أو تسفيه لهم بأنّ حاله لا يلتبس بحال المجنون للبون الواضح بين حال النذارة البيّنة وحال هذيان المجنون. فدعواهم جنونه، إمّا غباوة منهم بحيث التبست عليهم الحقائق المتمايزة، وإمّا مكابرة وعناد وافتراء على الرسول.

{ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ } [185].

ترق في الإنكار والتعجيب من حالهم في إعراضهم عن النظر في حال رسولهم، إلى الإنكار والتعجيب من إعراضهم عن النظر فيما هو أوضح من ذلك وأعمّ، وهو ملكوت السماوات والأرض، وما خلق الله من شيء ممّا هو آيات من آيات وحدانية الله تعالى التي دعاهم الرّسول صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان بها. والمناسبة بين الكلامين، أنّ دعوة الرّسول إلى التوحيد وإبطال الشرك هو من أكبر بواعثهم على تكذيبه { أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ } [صّ:5].

{ **أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ** } المراد التأمّل بتدبّر، وهو التفكّر كقوله تعالى { وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ } [الذريات:21]. تقول: نظرت في شأني. فدلّ بحرف الظرفية (في) على أنّ هذا التفكّر عميق متغلغل في أصناف الموجودات، وهي ظرفية مجازية.

الملكوت: الملك العظيم، وقد مضى عند قوله تعالى { وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } [الأنعام:75]. وأضافته إلى السماء والأرض بيانيّة، أي: الملك الذي هو السماوات والأرض، أي: ملك الله لهما. فالمراد السماء بمجموعها والأرض بمجموعها الدالين على عظم ملك الله تعالى.

{ **وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ** } عطف على { مَلَكُوتِ } فقُسّم النظر إلى نظر في عظيم ملك الله تعالى، وإلى نظر في مخلوقاته ودقائق أحوالها الدالة على عظيم قدرة الله تعالى. فالنظر إلى عظمة السماوات والأرض دليل على عظم ملك الله تعالى فهو الحقيق بالإلهيّة دون غيره، والنظر إلى المخلوقات دليل على عظم قدرته تعالى، وأنّه المنفرد بالصنع فهو الحقيق بالإلهيّة.

{ **وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ** } صيغ الكلام على هذا النظم لإفادة تهويل الأمر عليهم وتخويفهم، بجعل متعلّق النظر من معنى الإخبار، للدلالة على أنّه أمر من شأنه أن يخطر في النفوس وأن يتحدّث به النّاس، وأنّه قد صار حديثا وخبرا فكأنّه أمر مسلّم مقرّر.

ومعنى النظر في توقّع اقتراب الأجل، التخوّف من ذلك.

الأجل: المضاف إلى ضمير المكذّبين هو أجل الأمّة لا أجل الأفراد، لأنّ الكلام تهديد بأجل غير متعارف، نبّههم إلى التفكّر في توقّع حلول الاستئصال بهم وإهلاكهم كما هلك المكذّبون من قبلهم.

ويجوز أن يكون المراد بالأجل مجيء الساعة، وانقراض هذا العالم، فهو أجلهم وأجل غيرهم من النّاس فيكون تخويفا من يوم الجزاء.

{ **فَبِأَيِّ** } اسم أشرب معنى الاستفهام، فقوله تعالى { **فَبِأَيِّ حَدِيثٍ** } سؤال عن الحديث المجهول المماثل للحديث المعروف بين السائل والمسؤول. وسيأتي الكلام على (أي) عند قوله تعالى { فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ } [القلم:6/5]. والاستفهام هنا مستعمل في الإنكار، أي: لا يؤمنون بشيء من الحديث بعد هذا الحديث.

الحديث: الخبر والقصة الحادثة، كما في قوله تعالى { هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ } [الذريات: 24]، ويطلق مجازا على الأمر الذي من شأنه أن يصير حديثا، وهو أعمّ من المعنى الحقيقي.

<u>جاز هنا</u> أن يراد به القرآن كما في قوله تعالى { فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ } [الطور:34] فيكون الضمير في قوله تعالى { بَعْدَهُ } أي: بعد نزوله. <u>وجاز</u> أن يراد به دعوى محمد صلى الله عليه وسلم الرسالة من عند الله.

وكلا الاحتمالين يناسب قوله تعالى { أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ } [184].

{ **بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ** } مستعارة لمعنى (غير) لأنّ الظروف الدالة على المباعدة والمفارقة تستعمل استعمال المغاير، قال تعالى { فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ } [الجاثية:23]، وحمل (بعد)على حقيقتها هنا يحوج إلى تأويل، ويخرج الكلام عن سواء السبيل.

{ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } [186].

لإفادة أنّ ضلالهم أمر قدّر الله دوامه فلا طمع لأحد في هديهم.

وعطف جملة { وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } على جملة { مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ } للإشارة إلى استمرار ضلالهم وانتفاء هديهم في المستقبل كما وقع في الماضي.

{ **وَيَذَرُهُمْ** } تقدّم عند قوله تعالى { وَذَرِ الذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا } [الأنعام:70].

{ **فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ**} تقدّم عند نظيره في [البقرة:15].

{ يَسْأَلونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } [187].

استئناف ابتدائي يُذكر به شيء من ضلالهم ومحاولة تعجيزهم النبيّ صلى الله عليه وسلم بتعيين وقت الساعة.

ومناسبة هذا الاستئناف هي التعرّض لتوقّع اقتراب أجلهم في قوله تعالى { وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ } [185]، سواء أفسِّر الأجل بأجل إذهاب أهل الشرك من العرب في الدنيا، وهو الاستئصال، أم فُسّر بأجلهم وأجل بقية النّاس وهو قيام الساعة، فإنّ للكلام على الساعة مناسبة لكلا الأجلين.

فالسائلون هم المشركون، وروي ذلك عن قتادة. والضمير يعود إلى الذين كذّبوا بآياتنا، وقد حُكي عنهم مثل هذا السؤال في مواضع من القرآن، كقوله تعالى { يَسْأَلونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا } [النازعات:42]، وقوله تعالى { عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ } [النبأ:1-3]، يعنى البعث والساعة.

الساعة: معرّفة باللام عَلَم بالغلبة في اصطلاح القرآن على وقت فناء هذا العالم الدنيوي والدخول في العالم الأخروي، وتُسمَّى، يوم البعث، ويوم القيامة.

{ أَيَّانَ } اسم يدلّ على السؤال عن الزمان، وهو جامد غير متصرّف مركّب من (أي) الاستفهامية و(آن) وهو الوقت، ثم خفّفت (أي) وقلبت همزة (آن) ياء ليتأتى الإدغام فصارت أيّان بمعنى: **أيّ زمان**.

المُرسى: مصدر ميمي من الإرساء وهو الإقرار، يقال: رسا الجبل ثبت، وأرساه أثبته وأقرّه، والإرساء الاستقرار بعد السير. ومرسى السفينة استقرارها، قال تعالى { بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا } [هود:41].

{ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ } أمر الله رسوله بجوابهم جواب جدّ وإغضاء عن سوء قصدهم بالسؤال، إظهارا لنفي الوصمة عن وصف النبوّة من جرّاء عدم العلم بوقت الساعة، وتعليما للذين يترقّبون أن يحصل من جواب الرسول عن سؤال المشركين علم للجميع بتعيين وقت الساعة فإذا أمر الساعة ممّا تتوجه النفوس إلى تطلّبه، فقد ورد في الصحيح أنّ رجلا من المسلمين سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله متى الساعة فقال رسول الله: **" ماذا أعددت لها ؟"**، فقال: " ما أعددت لها كبير عمل، إلّا أنّي أحبّ الله ورسوله" فقال صلى الله عليه وسلم: **" أنت مع من أحببت "**.

علم الساعة: أي: علم وقتها.

{ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي } الحصر حقيقي، لأنّه الاصل، لأنّ علم الساعة بالتحديد مقصور على الله تعالى.

التجلية: الكشف، والمراد بها ما يشمل الكشف بالإخبار والتعيين، والكشف بالإيقاع، وكلاهما منفي

الإسناد عن غير الله تعالى، فهو الذي يعلم وقتها، وهو الذي يُظهرها إذا أراد، فإذا أظهرها فقد أجلاها.

{ **لِوَقْتِهَا** } اللام للتوقيت كالتي في قوله تعالى { أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ } [الاسراء:78] ومعنى التوقيت، قريب من معنى (عند).

{ **ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } معترضة لقصد الإفادة بهولها، والإيماء إلى حكمة إخفائها.

{ **ثَقُلَتْ** } يجوز أن يكون لمجرد الإخبار بشدّة أمرها كقوله تعالى { وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً }. ويجوز أن يكون تعجيبا بصيغة فعُل، فتقدّر الضمة ضمة تحويل الفعل للتعجيب.

الثقل: مستعار للمشقّة كما يستعار العظم والكبر، لأنّ شدة وقع الشيء في النفوس ومشقته عليها تُخيِّل لمن حلَّت به أنّه حامل شيئا ثقيلا. ومنه قوله تعالى { إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً } [المزمل:5] أي: شديدا تلقّيه، وهو القرآن.

ووصف الساعة بالثقل باعتبار ما هو مظروف في وقتها من الحوادث، فوصفها بذلك مجاز عقلي، والقرينة واضحة، وهي كون الثقل بمعنى الشدّة لا يكون وصفا للزمان ولكنه وصف للأحداث، فإذا أسند إلى الزمان فإسناده إليه إنّما هو باعتباره ظرفا للأحداث، كقوله تعالى { وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ } [هود:77].

وثقل الساعة هو عظم ما يحدث فيها من الحوادث المهولة في السماوات والأرض، من تصادم الكواكب، وانخرام سيرها، ومن زلازل الأرض وفيضان البراكين والبحار وجفاف المياه، ونحو ذلك ممّا ينشأ عن اختلال النظام الذي كان عليه سير العالم، وذلك كله يُحدث شدّة عظيمة على كل ذي إدراك من الموجودات.

{ **لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً** } مستأنفة جاءت تكملة للإخبار عن وقت حلول الساعة، لأنّ الإتيان بغتة يحقّق مضمون الإخبار عن وقتها بأنّه غير معلوم إلّا لله، وبأنّ الله غير مظهره لأحد. وأمّا ما ذُكر لها من أمارات في حديث سؤال جبريل عن أماراتها فلا ينافي إتيانها بغتة، لأنّ تلك الأمارات ممتدة الأزمان بحيث لا يحصل معها تهيؤ للعلم بحلولها.

البغْتة: مصدر من البغْت وهو المفاجأة، أي: الحصول بدون تهيّؤ له، وقد مضى القول فيها عند قوله تعالى
{ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً } [الأنعام:31].

{ **يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا** } مؤكّدة لجملة { يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ } ومبيّنة لكيفية سؤالهم فلذينك فصلت.

{ **حَفِيٌّ** } فعيل فيجوز أن يكون بمعنى فاعل مشتقا من (حَفِيَ به) إذا أكثر السؤال عن حاله تلطفا.

ويكون المعنى: كأنّك اكثرت السؤال عن وقتها حتّى علمته. فيكون وصف { حَفِيٌّ } كناية عن العالم بالشيء لأنّ كثرة السؤال تقتضي حصول العلم بالمسؤول عنه، وبهذا المعنى فسّر في الكشاف.

ويجوز أن يكون { حَفِيٌّ } مشتقا من حفي به كرضي بمعنى بالغ في الإكرام فيكون مستعملا في صريح

معناه، والتقدير: كأنك حفي بهم، أي: مكرم لهم وملاطف، فيكون تهكما بالمشركين، أي: يظهرون لك أنّك كذلك ليستنزلوك للخوض معهم في تعيين وقت الساعة. روي عن ابن عباس: " كأنّك صديق لهم ". وقال قتادة: قالت قريش لمحمد: إنّ بيننا قرابة فأسرّ إلينا متى الساعة، فقال الله تعالى { يَسْأَلونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا }.

{ **قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ** } أكَّدت جملة الجواب الأولى تأكيدا لمعناها ليعلم أنّ ذلك الجواب لا يُرجى غيره وأنّ الحصر المشتمل عليه قوله تعالى { إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي } حصر حقيقي. وإبطالا لظن الذين يحسبون أن شأن الرسل أن يكونوا عالمين بكل مجهول.

{ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [188].

الجملة مستأنفة ابتدائية قُصد من استئنافها الاهتمام بمضمونها كي تتوجه الأسماع إليها، ولذلك أعيد الأمر بالقول مع تقدّمه مرتين. وخُصّ هذا المقول بالإخبار عن حال الرّسول عليه الصلاة والسلام نحو معرفة الغيب ليقلع من عقول المشركين توهّم ملازمة معرفة الغيب لصفة النبوّة، وأنّ ذلك ليس بطاعن في نبوّته حتّى يستيئسوا من تحدّيه بذلك. وإعلاما للمسلمين بالتمييز بين ما تقتضيه النبوّة وما لا تقتضيه.

في تفسير البغوي، عن ابن عباس، أنّ أهل مكّة قالوا: " يا محمد ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل أن يغلو فتشتري فتربح عند الغلاء، وبالأرض التي تريد أن تجدب فترتحل منها إلى التي قد أخصبت" ، فأنزل الله تعالى { قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ }.

{ **قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً** } معنى الملك هنا الاستطاعة والتمكّن، وتقدّم عند قوله تعالى { قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً } [المائدة:76]، والمقصود منه هنا: ما يشمل العلم بالنفع والضر، لأنّ المقام لنفي معرفة الغيب، ولأنّ العلم بالشيء هو موجب توجّه النفس إلى عمله.

وقُدّم النفع في الذكر لأنّ النفع أحبّ إلى الإنسان، وعُكس في آية المائدة لأنّ المقصود تهوين أمر معبوداتهم، وأنّها لا يُخشى غضبها. وإنّما عطف { وَلا ضَرّاً } مع أنّ المرء لا يتطلب إضرار نفسه، لأنّ المقصود تعميم الأحوال، وجُعل نفي أن يملك لنفسه نفعا أو ضرّا مقدّمة لنفي العلم بالغيب.

{ **إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ** } الاستثناء من مجموع النفع والضرّ، أي: إلّا ما شاء الله أن يُعْلمنيه ويقدّرني عليه. وهذا يناسب ثبوت قدرة للعبد بجعل الله تعالى، وهي المسمّاة بالكسب. فإذا أراد الله أن يوجّه نفس الرسول عليه الصلاة والسلام إلى معرفة شيء مغيّب اطلعه عليه لمصلحة الأمة أو لإكرام الأمّة له، كقوله تعالى { إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ - إلى قوله - لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً } [لأنفال:44].

{ **وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ** } تكملة للتبرّؤ من معرفة الغيب. فحصل من مجموع الجملتين أنّه لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، في عالم الشهادة وفي عالم الغيب.

{ **إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ** } من تمام القول المأمور به، وهي مستأنفة استئنافا بيانيا ناشئا عن التبرّؤ من أن يملك لنفسه نفعا أو ضرا، فبيّن لهم أنّ الرسالة منحصرة في النذارة على المفاسد وعواقبها والبشارة بعواقب الانتهاء عنها واكتساب الخيرات. وتقدّم الكلام على النذير البشير عند قوله تعالى { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً } [البقرة:119].

{ **لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** } يتنازع تعلقه كل من نذير وبشير، لأنّ الانتفاع بالأمرين يختصّ بالذين تهيّؤوا إلى الإيمان بأن يتأمّلوا في الآيات وينهوا من أنفسهم ويقولوا الحق على آبائهم، دون الذين جعلوا ديدنهم التكذيب والإعراض والمكابرة. فالمضارع مراد به الحال والاستقبال كما هو شأنه، ليشمل من تهيّأ للإيمان حالا ومالا، وأمّا شموله لمن آمنوا فيما مضى فهو بدلالة فحوى الخطاب إذ هم أولى، وهذا على حد قوله تعالى

{ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا } [النازعات:45].

{ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ [189] فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ [190] }.

جملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا، عاد بها الكلام إلى تقرير دليل التوحيد وإبطال الشرك من الذي سلف ذكره في قوله تعالى { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ } [172]. فالمناسب أن يكون الغرض الآخر كلاما موجّها من الله تعالى إلى المشركين لإقامة الحجّة عليهم بفساد عقولهم في إشراكهم وإشراك آبائهم.

وقد صدر ذلك بالتذكير بنعمة خلق النوع المبتدأ بخلق أصله وهو آدم وزوجه حواء تمهيدا للمقصود.

{ **مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ** } جعل كثير من المفسرين النفس الواحدة آدم، وبعض المحقّقين منهم جعلوا الأب لكلّ أحد، وهو المأثور عن الحسن، وقتادة، ومشى عليه الفخر، والبيضاوي وابن كثير.

ووصفت النفس بواحدة على أسلوب الإدماج بين العبرة والموعظة، لأنّ كونها واحدة أدعى للاعتبار، إذ ينسل من الواحدة أبناء كثيرون حتّى ربما صارت النفس الواحدة قبيلة أو أمّة ففي هذا الوصف تذكير بهذه الحالة العجيبة الدالة على عظم القدرة وسعة العلم، حيث بثّ من نفس واحدة رجالا كثيرا ونساء.

{ **وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا** } عُبّر في جانب الأنثى بفعل (جعل) لأنّ المقصود جعل الأنثى زوجا للذكر، لا الإخبار عن كون الله خلقها، لأنّ ذلك قد علم من قوله { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ }.

السكون: مجاز في الاطمئنان والتأنّس، أي: جعل من نوع الرجل زوجة ليألفها ولا يجفو قربها، ففي ذلك منّة الإيناس بها، وكثرة ممارستها لينساق إلى غشيانها.

{ **فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ** } فإنّ الحمل في مبدئه لا تجد منه الحامل ألما، وليس المراد هنا حملا خاصا، ولكنّه الخبر عن كل حمل في أوّله، لأنّ المراد بالزوجين جنسهما، فهذه حكاية حالة تحصل منها عبرة أخرى، وهي عبرة تطوّر الحمل كيف يبتدئ خفيفا كالعدم، ثم يتزايد رويدا رويدا حتّى يثقل.

{ **فَمَرَّتْ بِهِ** } حقيقة المرور، الاجتياز، ويُستعار للتغافل وعدم الاكتراث للشيء، كقوله تعالى { فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ } [يونس:12] أي: نسي دعاءنا، وأعرض عن شكرنا لأنّ المار بالشيء لا يقف عنده ولا يسائله. فالمعنى: لم تتفطن له، ولم تفكّر في شأنه، وكل هذا حكاية للواقع، وهو إدماج.

الإثقال: ثِقْل الحمل وكلفته، يقال: أثقلت الحامل فهي مثقل، وأثقل المريض فهو مثقل، والهمزة للصيرورة مثل أورق الشجر، فهو كما يقال أقربت الحامل فهي مقرب إذا قرب وضعها.

{ **دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا** } إن حُمل على ظاهره، قلنا لا يخلو أبوان مشركان من أن يتمنّيا أن يكون لهما من الحمل مولود صالح، سواء نطقا بذلك أم أضمراه في نفوسهما، فإنّ مدّة الحمل طويلة، لا تخلو أن يحدث هذا التمنّي في خلالها، وإنّما يكون التمنّي منهم على الله، فإن المشركين يعترفون لله بالربوبيّة، وبأنّه هو خالق المخلوقات ومكوّنها، ولا حظ للآلهة إلّا في التصرّفات في أحوال المخلوقات، كما دلّت عليه محاجّات القرآن لهم نحو قوله تعالى { قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ } [يونس:34].

وإن حُمل { دَعَوَا } على غير ظاهره، فتأويله أنّه مخصوص ببعض الأزواج الذين يخطر ببالهم الدعاء.

{ **رَبَّهُمَا** } المؤذنة بالرفق والإيجاد، للإشارة إلى استحضار الأبوين هذا الوصف عند دعائهما الله، أي: يذكرانه باللفظ أو ما يفيد مفاده، ولعلّ العرب كانوا إذا دعوا بصلاح الحمل قالوا: ربنا آتانا صالحا.

{ **لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ** } مبيّنة لجملة { دَعَوَا اللَّهَ }.

{ **صَالِحاً** } وصف جرى على موصوف محذوف، وظاهر التذكير أنّ المحذوف تقديره (ذكرا) وكان العرب يرغبون في ولادة الذكور. فالدعاء بأن يؤتيا ذكرا، وأن يكون صالحا، أي: نافعا.

{ **فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا** }

الشِّرك: مصدر شَرَكه في كذا، أي: جعلا لله شركة، أي: جعلا لله شريكا فيما آتاهما. والخبر مراد منه مع الإخبار التعجيب من سفه آرائهم.

وهذا الشرك لا يخلو عنه أحد من الكفّار في العرب، وبخاصة أهل مكّة، فإنّ بعض المشركين يجعل ابنه سادنا لبيوت الأصنام، وبعضهم يحجر ابنه إلى صنم ليحفظه ويرعاه، وخاصة في وقت الصبا، وكل قبيلة تنتسب إلى صنمها الذي تعبده، وبعضهم يُسمّي ابنه: عبد كذا، مضافا إلى اسم صنم كما سموا عبد العزى، وعبد شمس، وعبد مناة، وعبد ياليل، وعبد ضخم، وكذلك امرؤ القيس، وزيد مناءة، لأنّ الإضافة على معنى التمليك والتعبيد.

{ **فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** } أي: تنزّه الله عن إشراكهم كلّه، ما ذكر منه آنفا من إشراك الوالدين مع الله فيما آتاهما، وما لم يذكر من أصناف إشراكهم. فهو متعال عن إشراكهم لا يليق به ذلك، وليس له شريك بحقّ. وهو إنشاء تنزيه غير مقصود به مخاطب.

وقد روى الترمذي وأحمد حديثا عن سمرة بن جندب، في تسويل الشيطان لحواء أن تسمّي ولدها عبد الحارث، والحارث اسم إبليس، قال الترمذي حديث حسن غريب، ووسمه ابن العربي في أحكام القرآن بالضعف.

قال بعض المفسّرين: الخطاب في { خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ } لقريش خاصة، والنفس الواحدة هو قصي بن كلاب تزوّج امرأة من خزاعة فلمّا آتاهما الله أولادا أربعة ذكورا سمّى ثلاثة منهم عبد مناف، وعبد العزى، وعبد الدار، وسمى الرابع (عبدا) بدون إضافة وهو الذي يدعى بعبد قصي.

{ **أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ** [191] **وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ** [192] }.

هذه الآيات الثلاث كلام معترض بين الكلامين المسوقين لتوبيخ المشركين وإقامة الحجّة عليهم، مخاطب بها النبيّ عليه الصلاة والسلام والمسلمون، للتعجيب من عقول المشركين، وفيه تعريض بالرد عليهم لأنّه يبلغ مسامعهم. والاستفهام مستعمل في التعجيب والإنكار. وصيغة المضارع في { يُشْرِكُونَ } دالة على تجدّد هذا الإشراك منهم.

{ **وَهُمْ يُخْلَقُونَ** } ضمير الغيبة <u>يجوز عندي</u> أن يكون عائدا إلى ما عاد إليه ضمير { يُشْرِكُونَ }، أي: والمشركون يُخلقون. ومعنى الحال زيادة تفظيع التعجيب من حالهم لإشراكهم بالله أصنافا لا تخلق شيئا في حال أنّ المشركين يتجدّد خلقهم، وهم يشاهدون الأصنام جاثمة لا تصنع شيئا.

<u>والمفسّرون</u> أعادوا ضمير { وَهُمْ يُخْلَقُونَ } على { مَا لا يَخْلُقُ }، أي: الأصنام، ولم يبيّنوا معنى كون الأصنام مخلوقة وهي صور نحتها النّاس، فيتعيّن أنّ المراد أنّ مادتها مخلوقة وهي الحجارة.

{ **وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً** } الضمير المجرور باللام عائد إلى المشركين.

{ **وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ** } تقديم المفعول للاهتمام بنفي هذا النصر عنهم، لأنّه أدلّ على عجز تلك الآلهة. والظاهر أنّ تخصيص النصر من بين الأعمال التي يتخيّلون أن تقوم بها الأصنام مقصود منه تنبيه المشركين على انتفاء مقدرة الأصنام على نفعهم، إذ كان النصر أشدّ مرغوب لهم، فقد كانوا أهل غارات وقتال، فالانتصار من أهم الأمور لديهم.

{ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ } [193].

يجوز أن يكون عطفا على جملة { أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئاً } [191]، زيادة في التعجيب من حال المشركين بذكر تصميمهم على الشرك على ما فيه من سخافة العقول ووهن الدليل، بعد ذكر ما هو كاف لتزييفه.

فضمير الخطاب المرفوع في { وَإِنْ تَدْعُوهُمْ } موجّه إلى المسلمين مع الرسول صلى الله عليه وسلم، وضمير جمع الغائب المنصوب عائد إلى المشركين كما عاد ضمير { أَيُشْرِكُونَ }، فبعد أن عجّب الله المسلمين من حال أهل الشرك أنبأهم بأنّهم لا يقبلون الدعوة إلى الهدى، وذلك بالنظر إلى الغالب منهم، وإلّا فقد آمن بعضهم بعد حين وتلاحقوا بالإيمان.

{ **سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ** } مؤكِّدة لجملة { وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لا يَتَّبِعُوكُمْ } فلذلك فصلت.

{ **سَوَاءٌ** } اسم للشيء المساوي غيره، أي: سواء دعوتكم إيّاهم وصمتكم عن الدعوة.

{ **عَلَيْكُمْ** } للاستعلاء المجازي وهي بمعنى العندية، أي: سواء عندهم.

{ **أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ** } معادل { أَدَعَوْتُمُوهُمْ } مع اختلاف الأسلوب بين الجملتين بالفعلية والاسمية، فلم يقل أم صمتم، ففي تفسير القرطبي، عن ثعلب: أنّ ذلك لأنّه رأس آية، أي: لمجرد الرعاية على الفاصلة. وصامتون وصمتم عند سيبويه واحد، أي: الفعل والوصف المشتق منه سواء، يريد لا تفاوت بينهما في أصل المعنى لأنّ ما بعد همزة التسوية لما كان في قوّة المصدر لم يكن فيه اثر للفرق بين الفعل والاسم. فيكون العدول إلى الجملة الاسمية ليس له مقتض من البلاغة بل هما عند البليغ سيّان، ولكنّه من مقتضى الفصاحة، لأنّ الفواصل والأسجاع من أفانين الفصاحة، وفيهما تظهر براعة الكلام إذ يكون فيه إيفاء بحقّ الفاصلة مع السلامة من التكلّف، كما تظهر براعة الشاعر في توفيته بحق القافية إذا سلم مع ذلك من التكلّف.

{ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [194].

انتقال إلى مخاطبة المشركين، ولذلك صدر بحرف التوكيد، لأنّ المشركين ينكرون مساواة الأصنام إيّاهم في العبوديّة، وفيه الالتفات من الغيبة إلى الخطاب.

{ **إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ** } الأصنام، فتعريفها بالموصول لتنبيه المخاطبين على خطإ رأيهم في دعائهم إيّاها من دون الله.

العبد: اصله المملوك، ضد الحرّ، وقد أطلق في اللسان على المخلوق كما في قوله تعالى { إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً } [مريم:93]، ولذلك يطلق العبيد على النّاس.

والمشهور أنّه لا يطلق إلّا على المخلوقات من الآدميين، فيكون إطلاق العباد على الأصنام كإطلاق ضمير جمع العقلاء عليها بناء على الشائع في استعمال العرب يومئذ من الإطلاق. وجعله صاحب الكشاف إطلاق تهكّم واستهزاء بالمشركين. والأحسن عندي أن يكون إطلاق العباد عليهم مجازا بعلاقة الإطلاق عن التقييد روعي في حسنه المشاكلة التقديريّة، لأنّه لمّا ماثلهم بالمخاطبين في المخلوقيّة، وكان المخاطبون عباد الله، أطلق العباد على مماثليهم مشاكلة.

{ **فَادْعُوهُمْ** } الأظهر أنّ المراد بالدعوة المأمور بها الدعوة للنصر والنجدة. وبهذا يظهر أنّ أمر التعجيز كناية عن ثبوت عجز الأصنام عن إجابتهم، وعجز المشركين عن إظهار دعاء للأصنام تعقبه الاستجابة.

{ **فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ** } أمر تعجيز للأصنام، وهذا أيضا كناية عن عجز الأصنام عن الاستجابة لعجزها عن تلقي التبليغ من عبدتها.

{ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ } [195].

تأكيد لما تضمّنته الجملة قبلها من أمر التعجيز وثبوت العجز، لأنّه إذا انتفت عن الأصنام أسباب الاستجابة تحقق عجزها عن الإجابة وتأكّد معنى أمر التعجيز المُكنَّى به عن عجز الأصنام وعجز عبدتها، والاستفهام إنكاري وتقديم المسند على المسند إليه للاهتمام بانتفاء الملك الذي دلّت عليه اللام.

ووصف الأرجل بـ { **يَمْشُونَ** } والأيدي بـ { **يَبْطِشُونَ** } والأعين بـ { **يُبْصِرُونَ** } والآذان بـ { **يَسْمَعُونَ**}، إمّا لزيادة تسجيل العجز عليهم فيما يحتاج إليه الناصر، وإمّا لأنّ بعض تلك الأصنام كانت مجعولة على صور الآدميين مثل هبل، وذي الكفين، وكعيب في صور الرجال، ومثل سواع كان على صورة امرأة. فإذا كان لأمثال أولئك صور أرجل وأيد وأعين وآذان فإنّها عديمة العمل الذي تختص به الجوارح، فلا يطمع طامع في نصرها. وخُصّ الأرجل والأيدي والأعين والآذان لأنّها آلات العلم والسعي والدفع للنصر، ولهذا لم يذكر الألسن لما علمت من أنّ الاستجابة مراد بها النجدة والنصرة.

{ **قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ** } إذن من الله لرسوله بأن يتحدّاهم بأنّهم إن استطاعوا استصرخوا أصنامهم لتتألّب على الكيد للرسول عليه السلام.

الكيد: الإضرار الواقع في صورة عدم الإضرار، كما تقدم عند قوله تعالى آنفا { وأملي لهم أن كيدي متين }.

{ **فَلا تُنْظِرُونِ** } تفريع على الأمر بالكيد، أي: فإذا تمكنتم من إضراري فأعجلوا ولا تؤجلوني.

وفي هذا التحدي تعريض بأنّه سينتصر عليهم ويستأصل آلهتهم. وقد تحدّاهم بأتم أحوال النصر وهي الاستنصار بأقدر الموجودات في اعتقادهم.

{ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ [196] وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ [197] }.

هذا من المأمور بقوله، وفُصلت عن { ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ } لوقوعها موقع العلّة لمضمون التحدّي { ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ } الذي هو تحقّق عجزهم عن كيده. فهذا تعليل لعدم الاكتراث بتألّبهم عليه واستنصارهم بشركائهم، ولثقته بأنّه منتصر عليهم.

الوليّ: الناصر والكافي، وتقدّم عند قوله تعالى { قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً } [الأنعام:14].

{ **الْكِتَابَ** } التعريف للعهد، أي: الكتاب الذي عهدتموه وسمعتموه وعجزتم عن معارضته وهو القرآن، أي: المقدار الذي نزل منه إلى حد نزول هذه الآية.

{ **وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ** } معترضة، ومجيء المسند فعلا مضارعا لقصد الدلالة على استمرار هذا التولّي وتجدّده وأنّه سنّة إلهيّة، فكما تولّى النبيّ يتولى المؤمنين أيضا، وهذه بشارة للمسلمين المستقيمين على صراط نبيّهم صلى الله عليه وسلم بأنّ ينصرهم الله كما نصر نبيّه وأولياءه.

الصالحون: هم الذين صلحت أنفسهم بالإيمان والعمل الصالح.

{ **وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ** } سلوك طريق الموصوليّة في التعبير عن الأصنام للتنبيه على خطإ المخاطبين في دعائهم إيّاها من دون الله مع ظهور عدم استحقاقها للعبادة، بعجزها عن نصر اتباعها وعن نصر أنفسها.

{ **لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ** } أعيد لأنّه هنا خطاب للمشركين، وهنالك حكاية عنهم للنبيّ والمسلمين، و إبانة المضادة بين شأن ولي المؤمنين وحال أولياء المشركين.

{ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ } [198].

عطف على { وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ }، أي: قل للمشركين: وإن تدعوا الذين تدعون من دون الله إلى الهدى لا يسمعوا. فالضمير المرفوع للمشركين، والضمير المنصوب عائد إلى الأصنام.

{ **إِلَى الْهُدَى** } لتحقيق عدم سماع الأصنام، وعدم إدراكها، لأنّ عدم سماع دعوة ما ينفع لا يكون إلّا لعدم الإدراك. و الهدى على هذا الوجه ما فيه رشد ونفع للمدعو.

{ **لَا يَسْمَعُوا** } خولف هناعن قوله في الآية السابقة { لا يَتَّبِعُوكُمْ }، لأنّ الأصنام لا يتأتّى منها الاتّباع، إذ لا يتأتّى منها المشي الحقيقي ولا المجازي، أي: الامتثال.

{ **وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ** } الخطاب لمن يصلح أن يخاطب فهو من خطاب غير المعيّن. ومعنى ينظرون إليك على التشبيه البليغ، أي: تراهم كأنّهم ينظرون إليك. لأنّ صور كثير من الأصنام كان على صور الأناسيّ وقد نحتوا لها أمثال الحدق الناظرة إلى الواقف أمامها.

{ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** } [199].

أشبعت هذه السورة من أفانين قوارع المشركين وعظتهم وإقامة الحجّة عليهم، وبعثتهم على التأمّل والنظر في دلائل وحدانية الله وصدق رسوله صلى الله عليه وسلم وهدى دينه وكتابه، وفضح ضلال المشركين وفساد معتقدهم والتشويه بشركائهم. وقد تخلّل ذلك كلّه التسجيل بمكابرتهم، والتعجيب منهم كيف يركبون رؤوسهم، وكيف ينأون بجانبهم، وكيف يصمّون أسماعهم، ويغمضون أبصارهم عمّا دُعوا إلى سماعه وإلى النظر فيه. ونُظّرت أحوالهم بأحوال الأمم الذين كذّبوا من قبلهم وكفروا نعمة الله فحلّ بهم ما حلّ من أصناف العذاب. وأنذر هؤلاء بأن يحلّ بهم ما حل بأولئك، ثم أعلن باليأس من ارعوائهم، وبانتظار ما سيحلّ بهم من العذاب بأيدي المؤمنين. وبتثبيت الرسول والمؤمنين وتبشيرهم والثناء على ما هم عليه من الهدى، فكان من ذلك كله عبرة للمتبصّرين، ومسلاة للنبيّ وللمسلمين، وتنويه بفضلهم.

وإذ قد كان من شأن ذلك أن يثير في أنفس المسلمين كراهية أهل الشرك وتحفّزهم للانتقام منهم ومجافاتهم والإعراض عن دعائهم إلى الخير، لا جرم شرع في استئناف غرض جديد، يكون ختاما لهذا الخوض البديع، وهو غرض أمر الرسول والمؤمنين بقلّة المبالاة بجفاء المشركين وصلابتهم، وبأن يسعوهم من عفوهم والدأب على محاولة هديهم والتبليغ إليهم بقوله تعالى {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ}.

الأخذ: حقيقته تناول شيء للانتفاع به أو لاضراره، كما يقال: أخذت العدو من تلابيبه، ولذلك يقال في الأسير أخيذ. واستعُمل هنا مجازا للتلبّس بالوصف.

خذ العفو: عامل به واجعله وصفا ولا تتلبّس بضدّه. وأحسب استعارة الأخذ للعفو من مبتكرات القرآن.

العفو: الصفح عن ذنب المذنب وعدم مؤاخذته بذنبه، وتقدّم عند قوله { وَيَسْأَلونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ } [البقرة:219]. والمراد به هنا ما يعمّ العفو عن المشركين وعدم مؤاخذتهم بجفائهم ومساءتهم الرّسول والمؤمنين. وقد عمّت الآية صور العفو كلّها، لأنّ التعريف في العفو تعريف الجنس فهو مفيد للاستغراق.

فأُمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يعفو ويصفح وذلك بعدم المؤاخذة بجفائهم وسوء خلقهم، فلا يعاقبهم ولا يقابلهم بمثل صنيعهم كما قال تعالى { فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ } [آل عمران:159]. ولا يخرج عن هذا العموم من أنواع العفو أزمانه وأحواله إلّا ما أخرجته الأدلة الشرعية مثل العفو عن القاتل غيلة، ومثل العفو عن انتهاك حرمات الله، والرّسول أعلم بمقدار ما يخصّ من هذا العموم وقد يبيّنه الكتاب والسنّة، وألحق به ما يقاس

على ذلك المبيّن. وفي قوله تعالى { وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ } ضابط عظيم لمقدار تخصيص الأمر بالعفو.
عن عبد الله بن الزبير قال: " ما أنزل الله ذلك إلّا في أخلاق النّاس، ومن قال إنّ هذه الآية نسختها آيات القتال فقد وهم، لأنّ العفو باب آخر، وأمّا القتال فله أسبابه ".
{ **الْعُرْفِ** } اسم مرادف للمعروف من الأعمال وهو الفعل الذي تعرفه النفوس، أي: لا تنكره إذا خليت وشأنها بدون غرض لها في ضدّه. وتقدم بيانه عند قوله تعالى { تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } [آل عمران:110].
{ **وَأْمُرْ** } الأمر يشمل النهي عن الضدّ، فإنّ النهي عن المنكر أمر بالمعروف، والأمر بالمعروف نهي عن المنكر، لأنّ الأمر بالشيء نهي عن ضده، فالاجتزاء بالأمر بالعرف عن النهي عن المنكر من الإيجاز، وإنّما اقتصر على الأمر بالعرف هنا: لأنّه الأهم في دعوة المشركين لأنّه يدعوهم إلى أصول المعروف واحدا بعد واحد، كما ورد في حديث معاذ بن جبل حين أرسله إلى أهل اليمن فإنّه أمره أن يدعوهم إلى شهادة أن لا اله إلا الله ثم قال: **" فإّن هم طاعوا لك بذلك فأخبرهم أنّ الله فرض عليهم خمس صلوات "**. ولو كانت دعوة المشركين مبتدأة بالنهي عن المنكر لنفروا ولملّ الداعي، لأنّ المناكير غالبة عليهم ومحدّقة بهم.
الإعراض: إدارة الوجه عن النظر للشيء، مشتق من العارض وهو الخد، فإنّ الذي يلتفت لا ينظر إلى الشيء. وقد فُسّر ذلك في قوله تعالى { أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ } [الاسراء:83]، وهو هنا مستعار لعدم المؤاخذة بما يسوء من أحد.
الجهل: هنا ضدّ الحلم والرشد، وهو أشهر إطلاق الجهل في كلام العرب قبل الإسلام، فالمراد بالجاهلين السفهاء كلّهم، لأنّ التعريف فيه للاستغراق، وأعظم الجهل هو الإشراك، إذ اتخاذ الحجر إلها سفاهة لا تعدلها سفاهة. ثم يشمل كل سفيه رأي.
وقد جمعت هذه الآية مكارم الأخلاق لأن فضائل الأخلاق لا تعدو أن تكون عفوا عن اعتداء فتدخل في { خُذِ الْعَفْوَ }، أو إغضاء عمّا لا يلائم فتدخل في { وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ }، أو فعل خير واتساما بفضيلة فتدخل في { وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ }. وهي صالحة لأن يبيّن بعضها بعضا فإنّ الأمر بأخذ العفو يتقيّد بوجوب الأمر بالعرف، وذلك في كل ما لا يقبل العفو والمسامحة من الحقوق، وكذلك الأمر بالعرف يتقيّد بأخذ العفو وذلك بأن يدعو النّاس إلى الخير بلين ورفق.

{ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [200].

هذا الأمر مراد به رسول الله صلى الله عليه وسلم ابتداء وهو شامل لأمّته.
{ **إمّا** } هذه (إن) الشرطية اتصلت بها (ما) الزائدة التي تزاد على بعض الأسماء غير أدوات الشروط فتصيّرها أدواتها، نحو (مهما) فإنّ أصلها ما، ونحو (إذ ما) و (أينما) و (أيانما) و (حيثما) و (كيفما).

النزغ: النخس والغرز، كذا فسّره في الكشاف وهو التحقيق. وقال ابن عطية: " وقلما يُستعمل في غير فعل الشيطان "، قال تعالى { مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي } [يوسف:100].

وإطلاق النزغ هنا على وسوسة الشيطان استعارة، شُبّه حدوث الوسوسة الشيطانية في النفس بنزغ الإبرة ونحوها في الجسم بجامع التأثير الخفي، وشاعت هذه الاستعارة بعد نزول القرءان حتّى صارت كالحقيقة.

المعنى: إن ألقى إليك الشيطان ما يخالف هذا الأمر، بأن سوّل لك الأخذ بالمعاقبة أو سوّل لك ترك أمرهم بالمعروف غضبا عليهم أو يأسا من هداهم، فاستعذ بالله منه ليدفع عنك حرجه ويشرح صدرك لمحبة العمل بما أمرت به.

الاستعاذة: مصدر طلب العوذ فالسين والتاء فيها للطلب، والعوذ الالتجاء إلى شيء يدفع مكروها عن الملتجئ، يقال: عاذ بفلان، وعاذ بالحرم، وأعاذه إذا منعه من الضرّ الذي عاذ من أجله.

والعوذ بالله هو الالتجاء إليه بالدعاء بالعصمة، أو استحضار ما حدّده الله من حدود الشريعة. وهذا أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم على الالتجاء إلى الله فيما عسر عليه، فإنّ ذلك شكر على نعمة الرسالة والعصمة، فإنّ العصمة من الذنوب حاصلة له، ولكنّه يشكر الله بإظهار الحاجة إليه لإدامتها عليه. وهذا مثل استغفار الرسول عليه الصلاة والسلام في قوله في حديث صحيح مسلم: " **إنّه ليُغان على قلبي فاستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة** ". فالشيطان لا ييأس من إلقاء الوسوسة للأنبياء لأنّها تنبعث عنه بطبعه، وإنّما يترصّد لهم مواقع خفاء مقصده طمعا في زلّة تصدر عن أحدهم، وإن كان قد علم أنّه لا يستطيع إغواءهم، ولكنّه لا يفارق رجاء حملهم على التقصير في مراتبهم، ولذلك علّم الله رسوله عليه الصلاة والسلام الاستعانة على دفعها بالله تعالى.

روى الدارقطني أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: " **ما منكم من أحد إلّا وقد وُكِّل به قرينه من الجنّ وقرينه من الملائكة**، قالوا: وأنت يا رسول الله، قال: **وأنا ولكن الله أعانني عليه فأسلم** ". روي قوله فأسلم بفتح الميم بصيغة الماضي والهمزة أصلية، أي: صار الشيطان المقارن له مسلما، وهي خصوصية للنبيّ صلى الله عليه وسلم، وروي بضم الميم بصيغة المضارع، والهمزة للمتكلم، أي: فأنا أسلمُ من وسوسته.

وهذا الأمر شامل للمؤمنين وحظ المؤمنين منه أقوى لأن نزغ الشيطان إيّاهم أكثر.

{ **إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** } في موقع العلّة للأمر بالاستعاذة من الشيطان بالله، على ما هو شأن حرف (إنّ) إذا جاء في غير مقام دفع الشك أو الإنكار. أي: أمرناك بذلك لأنّه يعصمك من وسوسته لأنّ الله سميع عليم.

السميع: العالم بالمسموعات، وهو مراد منه معناه الكنائي، أي: عليم بدعائك مستجيب قابل للدعوة.

{ **عَلِيمٌ** } زيادة في الإخبار بعموم علمه تعالى بالأحوال كلّها.

{ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ } [201].

هذا تأكيد وتقرير للأمر بالاستعاذة من الشيطان، فتتنزّل الآية منزلة التعليل للأمر بالاستعاذة من الشيطان إذا أحسّ بنزغه. ولذلك افتُتحت بـ (إنّ) التي هي لمجرد الاهتمام لا لرد تردّد أو إنكار.

فيكون الأمر بالاستعاذة حينئذ قد علّل بعلّتين:

أولاهما: أنّ الاستعاذة بالله منجاة للرسول عليه الصلاة والسلام من نزغ الشيطان.

الثانية: أنّ في الاستعاذة بالله من الشيطان تذكّرا لواجب مجاهدة الشيطان والتيقّظ لكيده، وأنّ ذلك التيقّظ سنّة المتّقين. وقد جاءت العلّة هنا أعم من المعلّل، لأنّ التذكّر أعمّ من الاستعاذة.

ولعل الله ادّخر خصوصية الاستعاذة لهذه الأمّة، فكثر في القرآن الأمر بالاستعاذة من الشيطان وكثر ذلك في أقوال النبيّ صلى الله عليه وسلم، كما ادّخر لنا يوم الجمعة.

التَّقْوَى: تقدّم بيانها عند قوله تعالى { هُدىً لِلْمُتَّقِينَ } [البقرة:2]، والمراد بهم: الرسل وصالحو أممهم، لأنّه أريد جعلهم قدوة وأسوة حسنة.

المسّ: حقيقته وضع اليد على الجسم، واستعير للإصابة أو لأدنى الإصابة.

الطائف: هو الذي يمشي حول المكان ينتظر الإذن له، أطلق هنا على الخاطر الذي يخطر في النفس يبعث على فعل شيء نهى الله عن فعله، شُبّه ذلك الخاطر في مبدإ جولاته في النفس بحلول الطائف قبل أن يستقر.

وكانت عادة العرب أنّ القادم إلى أهل البيت، العائذ برب البيت، المستأنس للقرى يستأنس، فيطوف بالبيت، ويستأذن.

{ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا } (إذا) مع التعبير بفعل { مَسَّهُمْ } الدال على إصابة غير مكينة، إشارة إلى الفزع إلى الله من الشيطان عند ابتداء إلمام الخواطر الشيطانية بالنّفس، لأنّ تلك الخواطر إذا أُمهلت لم تلبث أن تصير عزما ثم عملا.

التذكّر: استحضار المعلوم السابق. والمراد: تذكّروا أوامر الله ووصاياه، كقوله تعالى { ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ } [آل عمران:135] ويشمل التذكّر، تذكّر الاستعاذة.

{ فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ } الفاء لتفريع الإبصار على التذكّر. وأكِّد معنى فاء التعقيب بـ (إذا) الفجائيّة الدالة على حصول مضمون جملتها دفعة بدون تريّث. أي: تذكّروا تذكّر ذوي عزم، فلم تتريّث نفوسهم أن تبيّن لها الحقّ الوازع عن العمل بالخواطر الشيطانية، فابتعدت عنها، وتمسكت بالحق، وعملت بما تذكّرت، فإذا هم ثابتون على هداهم وتقواهم.

وقد استُعير الإبصار للاهتداء كما يستعار العمى للضلال، أي: فإذا هم مهتدون ناجون من تضليل الشيطان، لأنّ الشيطان أراد إضلالهم فسلموا من ذلك. ووصفهم باسم الفاعل دون الفعل للدلالة على أنّ

الإبصار ثابت لهم من قبل، وليس شيئا متجدّدا، ولذلك أُخبر عنهم بالجملة الاسمية الدالة على الدوام والثبات.

{ وَإِخْوَانُـهُمْ يَمُدُّونَـهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ } [202].

عطف الضدّ على ضدّه، فلمّا ذكر شأن المتّقين في دفعهم طائف الشياطين، ذكر شأن أضدادهم من أهل الشرك والضلال.

الإخوان: جمع أخ على وزن فعلان. وحقيقة الأخ المشارك في بنوة الأم والأب أو في بنوة أحدهما، ويطلق الأخ مجازا على الصديق الودود، ومنه ما آخى النبيّ صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار.

وقول أبي بكر للنبيّ صلى الله عليه وسلم لمّا خطب منه عائشة: إنّما أنا أخوك فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" أنت أخي وهي حلال لي"**. ويطلق الأخ على القرين كقولهم أخو الحرب، وعلى التابع الملازم.

{ وَإِخْوَانِهِمْ } الضمير عائد إلى غير مذكور في الكلام، إذ لا يصح أن يعود إلى المذكور قبله قريبا، لأنّ الذي ذكر قبله { الَّذِينَ اتَّقَوْا } فلا يصح أن يكون الخبر، فيحتمل أن يكون الضمير عائدا على معلوم من السياق وهم الجماعة المتحدَّث عنهم في هذه الآيات أعني: المشركين، ولهذا قال الزجّاج: " هذه الآية متصلة في المعنى بقوله تعالى { وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ } [192] "، أي: وإخوان المشركين، أي: أقاربهم ومن هو من قبيلتهم وجماعة دينهم، أي: يمدّ المشركون بعضهم بعضا في الغي ويتعاونون عليه فلا مخلص لهم من الغي.

ويجوز أن يعود الضميران إلى الشيطان المذكور آنفا باعتبار إرادة الجنس أو الأتباع.

{ يَمُدُّونَـهُمْ فِي الْغَيِّ } فالمعنى: وإخوانهم يمدون لهم في الغي، من مدّ للبعير في الطول. أي: يطيلون لهم الحبل في الغيّ، تشبيها لحال أهل الغواية وازديادهم فيها بحال النعم المطال لها الطول في المرعى.

الغي: الضلال وقد تقدّم آنفا.

ويجوز أن يكون المراد من الإخوان الأولياء، ويكون الضميران للمشركين أيضا، أي: وإخوان المشركين وأوليائهم، فيكون (الإخوان) صادقا بالشياطين كما فسر قتادة، لأنّه إذا كان المشركون إخوان الشياطين، كما هو معلوم، كان الشياطين إخوانا للمشركين، لأن نسبة الإخوة تقتضي جانبين، وصادقا بعظماء المشركين، فالخبر جار على من هو له، وقد كانت هذه المعاني مجتمعة في هذه الآيات بسبب هذا النظم البديع.

{ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ } للتراخي الرتبي، أي: وأعظم من الإمداد لهم في الغي أنّهم لا يألونهم جهدا في الازدياد من الإغواء، فلذلك تجد إخوانهم أكبر الغاوين.

{ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [203].

معطوفة على جملة { وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ } [199]، والمناسبة أنّ مقالتهم هذه من جهالتهم.

الآية: يجوز أن يراد بها خارق العادة، أي: هم لا يقنعون بمعجزة القرآن فيسألون آيات كما يشاؤون، مثل قولهم: فجّر لنا من الأرض ينبوعا. وهذا المعنى هو الذي شرحناه عند قوله تعالى { وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا } [الأنعام:109]. وروي هذا المعنى عن مجاهد، والسدّي، والكلبي.

ويجوز أن يراد آية من القرآن يقترحون فيها مدحا لهم ولأصنامهم. روي عن جابر بن زيد وقتادة: " كان المشركون إذا تأخّر الوحي يقولون للنبيّ هلا أتيت بقرآن من عندك يريدون التهكّم ".

{ لَوْلَا } حرف تحضيض مثل (هلّا).

الاجتباء: الاختيار، والمعنى: هلا اخترت آية وسألت ربك أن يعطيكها.

{ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي } الجواب الذي أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يجيب به صالح للمعنيين.

الاتباع: مستعمل في معنى الاقتصار والوقوف عند الحدّ، أي: لا اطلب آية غير ما أوحى الله إليّ، ويعضد هذا ما في الحديث الصحيح أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **" ما من الأنبياء إلّا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنّما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إليَّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة"**.

{ هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } مستأنفة لابتداء كلام في التنويه بشأن القرآن. منقطعة عن المقول، للانتقال من غرض إلى غرض، بمنزلة التذييل لمجموع أغراض السورة، والخطاب للمسلمين.

ويجوز أن تكون من تمام القول المأمور بأن يجيبهم به، فيكون الخطاب للمشركين ثمّ وقع التخلّص لذكر المؤمنين بقوله تعالى { وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }.

{ هَذَا بَصَائِرُ } الإشارة إلى القرآن، ويجوز أن تكون الإشارة إلى ما تقدّم من السورة أو من المحاجّة الأخيرة منها.

البصائر: جمع بصيرة وهي ما به اتّضاح الحقّ، وقد تقدّم عند قوله تعالى { قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ } [الأنعام:104]. وهذا تنويه بشأن القرآن وأنّه خير من الآيات التي يسألونها، لأنّه يجمع بين الدلالة على صدق الرسول، بواسطة دلالة الإعجاز وصدوره عن الأمّيّ، وبين الهداية والتعليم والإرشاد، والبقاء على العصور.

وإنّما جمع { بَصَائِرُ } لأنّ في القرآن أنواعا من الهدى على حسب النواحي التي يهدي إليها؛ من تنوير

العقل في إصلاح الاعتقاد، وتسديد الفهم في الدين، ووضع القوانين للمعاملات والمعاشرة بين النّاس، والدلالة على طرق النجاح والنجاة في الدنيا، والتحذير من مهاوي الخسران.

{ **مِنْ رَبِّكُمْ** } ترغيب للمؤمنين وتخويف للكافرين.

{ **وَهُدىً وَرَحْمَةٌ** } أفردا لأنّهما جنسان عامان يشملان أنواع البصائر، فالهدى يقارن البصائر والرحمة غاية.

الرحمة: ما يشمل رحمة الدنيا وهي استقامة أحوال الجماعة وانتظام المدنية، ورحمة الآخرة وهي الفوز بالنعيم الدائم كقوله تعالى { مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [النحل:97].

{ **لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** } يتنازعه { بَصَائِرُ } و{ هُدىً } و{ رَحْمَةٌ }، لأنّه إنّما ينتفع به المؤمنون،وهو تعريض بأنّ غير المؤمنين ليسوا أهلا للانتفاع به وأنّهم لهوا عن هديه بطلب خوارق العادات.

{ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [204].

يؤذن العطف بأنّ الخطاب بالأمر في قوله تعالى { فَاسْتَمِعُوا / وَأَنْصِتُوا } وفي قوله تعالى { لَعَلَّكُمْ } تابع للخطاب في قوله تعالى { هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ }. فقوله تعالى { وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ } من جملة ما أُمر الرسول عليه الصلاة والسلام بأن يقوله لهم، وذلك إعادة تذكير للمشركين تصريحا أو تعريضا بأن لا يعرضوا عن استماع القرآن، وبأن يتأمّلوه ليعلموا أنّه آية عظيمة، وأنّه بصائر وهدى ورحمة، لمن يؤمن به ولا يعاند. وقد عُلم من أحوال المشركين أنّهم كانوا يتناهون عن الإنصات إلى القرآن { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ } [فصلت:26].

{ **الْقُرْآنُ** } ذكر اسم القرآن إظهار في مقام الإضمار، لأنّ القرآن تقدّم ذكره بواسطة اسم الإشارة فنكتة هذا الإظهار التنويه بهذا الأمر، وجعل جملته مستقلّة بالدلالة غير متوقفة على غيرها، وهذا من وجوه الاهتمام بالكلام.

الاستماع: الإصغاء، وصيغة الافتعال دالة على المبالغة في الفعل.

الإنصات: الاستماع مع ترك الكلام، فهذا مؤكد لا تسمعوا. مع زيادة معنى.

<u>ويجوز</u> أن يكون الاستماع مستعملا في معناه المجازي، وهو الامتثال للعمل بما فيه، كما تقدّم آنفا في قوله تعالى { وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لا يَسْمَعُوا } [198]، ويكون الإنصات جامعا لمعنى الإصغاء وترك اللغو.

وهذا الخطاب شامل للكفّار على وجه التبليغ، وللمسلمين على وجه الإرشاد، لأنّهم أرجى للانتفاع بهديه. فالاستماع والإنصات المأمور بهما، هما المؤدّيان بالسامع إلى النظر والاستدلال، والاهتداء بما يحتوي عليه القرآن من الدلالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم المفضي إلى الإيمان به، ولما جاء به من

إصلاح النفوس، فالأمر بالاستماع مقصود به التبليغ واستدعاء النظر والعمل بما فيه. فالاستماع والإنصات مراتب بحسب مراتب المستمعين.

وقد اتفق علماء الأمّة على أن ظاهر الآية بمجرّده في صور كثيرة مؤوّل. فلا يقول أحد منهم بأنّه يجب على كلّ مسلم إذا سمع أحدا يقرأ القرآن أن يشتغل بالاستماع وينصت، إذ قد يكون القارئ يقرأ بمحضر صانع في صنعته فلو وجب عليه الاستماع لأمر بترك عمله، ولكنّهم اختلفوا في محمل تأويلها؛

فمنهم من خصّها بسبب رأوا أنّه سبب نزولها، فرووا عن أبي هريرة أنّها نزلت في قراءة الإمام في الجهر. وما قالوه في ذلك إنّما هو تفسير وتأويل وليس فيه شيء مأثور عن النبيّ صلى الله عليه وسلم.

ومنهم من أبقى أمر الاستماع على إطلاقه القريب من العموم، ولكنّهم تأولوه على أمر الندب، وهذا الذي يؤخذ من كلام فقهاء المالكية.

{ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ } [205].

إقبال بالخطاب على النبيّ صلى الله عليه وسلم فيما يختصّ به، بعد أن أُمر بما أُمر بتبليغه من الآيات المتقدّمة، والمناسبة في هذا الانتقال أنّ أمر النّاس باستماع القرآن يستلزم أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بقراءة القرآن عليهم قراءة جهريّة يسمعونها. فلما فرغ الكلام من حظّ النّاس نحو قراءة الرسول عليه الصلاة والسلام، أقبل على الكلام في حظّ الرسول صلى الله عليه وسلم من القرآن وغيره، وهو التذكّر الخاص به. فأُمر بأن يذكر الله ما استطاع وكيفما تسنّى له وفي أوقات النهار المختلفة.

النفس: اسم للقوّة التي بها الحياة، فهي مرادفة الروح، وتطلق على الذات المركّبة من الجسد والروح. ولكون مقر النفس في باطن الإنسان أطلقت على أمور باطن الإنسان من الإدراك والعقل كما في قوله تعالى حكاية عن عيسى { تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي } [المائدة:116]. ومن ذلك يتطرّق إلى إطلاقها على خويصة المرء، ومنه قوله في الحديث القدسي في صحيح البخاري: **" وإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منهم "**، فقابل قوله: **" في نفسه "** بقوله: **" في ملإ "**.

المعنى: اذكر ربك وأنت في خلوتك كما تذكره في مجامع النّاس.

الذكر: حقيقة في ذكر اللسان، وهو المراد هنا، ويعضده قوله تعالى { وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ }، وذلك يشمل قراءة القرآن وغير القرآن من الكلام الذي فيه تمجيد الله وشكره ونحو ذلك، مثل كلمة التوحيد والحوقلة والتسبيح والتكبير والدعاء.

التضرّع: التذلّل، ولمّا كان التذلّل يستلزم الخطاب بالصوت المرتفع في عادة العرب، كني بالتضرع عن رفع الصوت مرادا به معناه الأصلي والكنائي، ولذلك قوبل بالخفية في قوله { ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً} [55]. وقوبل التضرع هنا بـ { **خِيفَةً** } وهي اسم مصدر الخوف، فهو من المصادر التي جاءت

على صيغة الهيئة وليس المراد بها الهيئة، مثل الشدّة. لأنّه لمّا كانت الخيفة انفعالا نفسيا يجده الإنسان في خاصة نفسه كانت مستلزمة للتخافت بالكلام خشية أن يشعر بالمرء من يخافه، فلذلك كُنِّي بها هنا عن الإسرار بالقول مع الخوف من الله، فمقابلتها بالتضرّع طباق في معنيي اللفظين الصريحين ومعنييهما الكناءين، فكأنّه قيل: تضرعا وإعلانا وخيفة وإسرارا.

{ **وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ** } هو مقابل لكلّ من التضرّع والخيفة، وهو الذكر المتوسّط بين الجهر والإسرار. والمقصود من ذلك استيعاب أحوال الذكر باللسان، لأنّ بعضها قد تكون النفس أنشط إليه منها إلى البعض الآخر.

الغدو: اسم لزمن الصباح وهو النصف الأوّل من النّهار.

الآصال: جمع أصيل وهو العشي وهو النصف الثاني من النّهار إلى الغروب.

والمقصود استيعاب أجزاء النهار بحسب المتعارف.

{ **وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ** } التحذير من الغفلة عن ذكر الله، ولا حدّ للغفلة، فإنّها تحدّد بحال الرسول، صلى الله عليه وسلم وهو أعلم بنفسه، فإنّ له أوقاتا يتلقى فيها الوحي وأوقات شؤون جبليّة كالطعام. وهذا الأمر خاص بالرسول عليه الصلاة والسلام، وكل ما خص به الرسول عليه الصلاة والسلام من الوجوب يُستحسن للأمّة اقتداؤهم به فيه إلّا ما نهوا عنه مثل الوصال في الصوم.

وقد تقدّم أن هذا التركيب أشد في الانتفاء وفي النهي من نحو، (ولا تغفل)، لأنّه يفرض جماعة يحقّ عليهم وصف الغافلين، فيحذر من أن يكون في زمرتهم، وذلك أبين للحالة المنهي عنها.

{ **إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ** } [206].

تتنزل منزلة العلّة للأمر بالذكر، ولذلك صُدِّرت بـ { إِنَّ } التي هي لمجرد الاهتمام بالخبر، لا لرد تردد أو إنكار، لأنّ المخاطب منزّه عن أن يتردّد في خبر الله تعالى، فحرف التوكيد في مثل هذا المقام يغني غناء فاء التفريع، ويفيد التعليل كما تقدّم غير مرة.

المعنى: الحثّ على تكرّر ذكر الله في مختلف الأحوال، لأنّ المسلمين مأمورون بالاقتداء بأهل الكمال من الملإ الأعلى، وفيها تعريض بالمشركين المستكبرين عن عبادة الله بأنّهم منحطّون عن تلك الدرجات.

{ **الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ** } الملائكة، ووجه جعل حال الملائكة علة لأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بالذكر، أنّ مرتبة الرسالة تلحق صاحبها من البشر برتبة الملائكة.

فليس في هذا التعليل ما يقتضي أن يكون الملائكة افضل من الرسل، كما يتوهمه المعتزلة لأنّ التشبّه بالملائكة من حيث كان الملائكة أسبق في هذا المعنى لكونه حاصلا منهم بالجبلة فهم مثل فيه، ولا شبهة في أنّ الفريق الذين لم يكونوا مجبولين على ما جبلت عليه الملائكة، إذا تخلقوا بمثل خلق الملائكة، كان سموّهم إلى تلك المرتبة أعجب، واستحقاقهم الشكر والفضل له أجدر.

{ **عِنْدَ** } مستعمل مجازا في رفعة المقدار والحظوة الإلهية.

{ **لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ** } ليس المقصود به التنويه بشأن الملائكة لأن التنويه بهم يكون بأفضل من ذلك، وإنّما أريد به التعريض بالمشركين وأنّهم على النقيض من أحوال الملائكة المقرّبين، فخليق بهم أن يكونوا بعداء عن منازل الرفعة.

{ **وَيُسَبِّحُونَهُ** } أي: ينزّهونه بالقول والاعتقاد عن صفات النقص، وهذه الصلة هي المقصودة من التعليل للأمر بالذكر.

{ **وَلَهُ يَسْجُدُونَ** } للدلالة على الاختصاص، أي: ولا يسجدون لغيره، وهذا أيضا تعريض بالمشركين الذين يسجدون لغيره، والمضارع يفيد الاستمرار أيضا.

وهنا موضع سجود من سجود القرآن، وهو أوّلها في ترتيب الصحف، وهو من المتفق على السجود فيه بين علماء الأمّة، ومقتضى السجدة هنا أنّ الآية جاءت للحضّ على التخلّق بأخلاق الملائكة في الذكر، فلمّا أخبرت عن حالة من أحوالهم في تعظيم الله وهو السجود لله، أراد الرسول عليه الصلاة والسلام أن يبادر بالتشبه بهم تحقيقا للمقصد الذي سبق هذا الخبر لأجله.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأنفال

روى الواحدي في (أسباب النزول) عن سعد بن أبي وقاص قال: " لمّا كان يوم بدر، قُتل أخي عمير وقتلتُ سعيد بن العاصي فأخذت سيفه فأتيت به النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: **" اذهب القَبَض "** (الموضع الذي تجمع فيه الغنائم)، فرجعت في ما لا يعلمه إلّا الله، قُتل أخي وأُخذ سلبي فما جاوزت قريبا حتّى نزلت سورة الأنفال ".

وأخرج البخاري عن سعيد بن جبير قال: " قلت لابن عباس: سورة الأنفال، قال : نزلت في بدر".

فباسم الأنفال عُرفت بين المسلمين وبه كتبت تسميتها في المصحف. ولم يثبت في تسميتها حديث.

وتسميتها (**سورة الأنفال**) من أنّها افتتحت بآية فيها اسم الأنفال، ومن أجل أنّها ذُكر فيها حكم الأنفال كما سيأتي. وتُسمّى أيضا (**سورة بدر**) لحديث سعيد بن جبير السابق.

<u>وقد اتفق رجال الأثر كلّهم على أنّها نزلت في غزوة بدر</u>. وكانت غزوة بدر في رمضان من العام الثاني للهجرة بعد عام ونصف من يوم الهجرة، وذلك بعد تحويل القبلة بشهرين، وكان ابتداء نزولها قبل الانصراف من بدر، فإنّ الآية الأولى منها نزلت والمسلمون في بدر قبل قسمة مغانمها.

وفي كلام أهل أسباب النزول ما يقتضي أنّ آية { الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً – إلى قوله - مَعَ الصَّابِرِينَ } [66]، نزلت بعد نزول السورة بمدة طويلة، كما روي عن ابن عباس، وسيأتي تحقيقه هنالك.

وقال جماعة من المفسرين إنّ آيات { يَا أَيُّهَا النبيّ حَسْبُكَ اللَّهُ – إلى قوله - لا يَفْقَهُونَ } [64/65] نزلت بالبيداء في غزوة بدر قبل ابتداء القتال، فتكون تلك الآية نزلت قبل نزول أوّل السورة.

نزلت هذه السورة بعد سورة البقرة، أي: هي الثانية نزولا بالمدينة، وقيل: نزلت البقرة ثم آل عمران ثم الأنفال، و**الأصحّ أنّها ثانية السور بالمدينة نزولا، بعد سورة البقرة.**

وقد بيّنت في المقدّمات أنّ نزول سورة بعد أخرى لا يُفهم منه أنّ التالية تنزل بعد انقضاء نزول التي قبلها، بل قد يبتدأ نزول سورة قبل انتهاء السورة التي ابتدئ نزولها قبل. ولعلّ سورة الأنفال قد انتهت قبل انتهاء نزول سورة البقرة، لأنّ الأحكام التي تضمنتها سورة الأنفال من جنس واحد وهي أحكام المغانم والقتال، وتفننت أحكام سورة البقرة أفانين كثيرة.

وقد **عدّت السورة التاسعة والثمانين** في عداد نزول سور القرآن.

وعدد آيها، في عدّ أهل المدينة وأهل مكة وأهل البصرة، **ست وسبعون،** وفي عدّ أهل الشام سبع وسبعون، وفي عد أهل الكوفة خمس وسبعون.

أغراض السورة

*/ ابتدأت ببيان أحكام الأنفال وهي الغنائم وقسمتها ومصارفها.

*/ الأمر بتقوى الله في ذلك وغيره.

*/ الأمر بطاعة الله ورسوله، في أمر الغنائم وغيرها.

*/ أمر المسلمين بإصلاح ذات بينهم، وأنّ ذلك من مقوّمات معنى الإيمان الكامل.

*/ ذكر الخروج إلى غزوة بدر، وخوفهم من قوّة عدد الأعداء وما لقوا فيها من نصر. وتأييد الله لهم ولطفه بهم، وامتنان الله عليهم بأن جعلهم أقوياء، ووعدهم بالنصر إن اتقوا بالثبات للعدو، والصبر.

*/ الأمر بالاستعداد لحرب الأعداء.

*/ الأمر باجتماع الكلمة والنهي عن التنازع.

*/ الأمر بأن يكون قصد النصرة للدين نصب أعينهم.

*/ وصف السبب الذي أخرج المسلمين إلى بدر.

*/ ذكر مواقع الجيشين، وصفات ما جرى من القتال.

*/ تذكير النبيّ صلى الله عليه وسلم بنعمة الله عليه إذ أنجاه من مكر المشركين به بمكّة وخلّصه من عنادهم، وأنّ مقامه بمكة كان أمانا لأهلها فلمّا فارقهم فقد حقّ عليهم عذاب الدنيا بما اقترفوا من الصدّ عن المسجد الحرام.

*/ دعوة المشركين للانتهاء عن مناوأة الإسلام، وإيذانهم بالقتال.

*/ التحذير من المنافقين.

*/ ضرب المثل بالأمم الماضية التي عاندت رسل الله ولم يشكروا نعمة الله.

*/ أحكام العهد بين المسلمين والكفار وما يترتّب على نقضهم العهد، ومتى يحسُن السلم.

*/ أحكام الأسرى.

*/ أحكام المسلمين الذين تخلّفوا في مكّة بعد الهجرة. وولايتهم وما يترتب على تلك الولاية.

{ يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأَنْفَالِ قُلْ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ } [1].

{ يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأَنْفَالِ } مؤذن بأنّ المسلمين لم يعلموا ماذا يكون في شأن المسمّى عندهم { الأَنْفَالِ } وكان ذلك يوم بدر، وأنّهم حاوروا رسول الله عليه الصلاة والسلام في ذلك، فمنهم من يتكلّم بصريح السؤال، ومنهم من يخاصم أو يجادل غيره بما يؤذن حاله بأنّه يتطلّب فهما في هذا الشأن، وقد تكرّرت الحوادث يومئذ. ففي صحيح مسلم، وجامع الترمذي عن سعد بن أبي وقاص قال: " لما كان يوم بدر أصبت سيفا لسعيد بن العاصي فأتيت به النبيّ فقلت نفّلْنيه فقال: **" ضعه في القَبَض "** ، ثم قلت نفلنيه فقال: **" ضعه حيث أخذته "**، ثم قلت: نفلنيه، فقال: **" ضعه من حيث أخذته "**، فنزلت { يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأَنْفَالِ } ".

وفي (أسباب النزول) للواحدي، و(سيرة ابن إسحاق) عن عبادة بن الصامت، أنّه سئل عن الأنفال فقال: فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل يوم بدر فانتزعه الله من أيدينا حين ساءت فيه أخلاقنا فردّه على رسوله فقسّمه بيننا على بواء (أي: على السواء).

وروى أبو داود، عن ابن عباس، قال: " لمّا كان يوم بدر ذهب الشبان للقتال وجلس الشيوخ تحت الرايات فلمّا كانت الغنيمة جاء الشبّان يطلبون نفلهم فقال الشيوخ لا تستأثرون علينا فإنّا كنا تحت الرايات، ولو انهزمتم لكنّا ردءا لكم، واختصموا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى { يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأَنْفَالِ } ".

السؤال: حقيقته الطلب، فإذا عدّي بـ (عن) فهو طلب معرفة المجرور بـ (عن)، وإذا عدي بنفسه فهو طلب إعطاء الشيء. فالمعنى هنا: يسألونك معرفة الأنفال، أي: معرفة حقّها.

{ يَسْأَلُونَكَ } مجيء الفعل بصيغة المضارع دال على تكرّر السؤال، إمّا بإعادته المرة بعد الأخرى من سائلين متعدّدين، وإمّا بكثرة السائلين عن ذلك حين المحاورة في موقف واحد.

واللفظة مؤذنة بتنازع بين الصحابة في استحقاق الأنفال، فقد كانت لهم عوائد متبعة في الجاهلية في الغنائم والأنفال أرادوا العمل بها وتخالفوا في شأنها فسألوا.

الأنفال: جمع نَفَل، والنفل مشتق من النافلة وهي الزيادة في العطاء. وقد أطلق العرب في القديم الأنفال على الغنائم في الحرب كأنّهم اعتبروها زيادة على المقصود من الحرب لأنّ المقصود الأهم من الحرب هو إبادة الأعداء، ولذلك ربما كان صناديدهم يأبون أخذ الغنائم كما قال عنترة

يخبرك من شهد الوقيعة أنني ... أغشى الوغى وأعِفُّ عند المغنم

ويقولون: نفلني كذا، يريدون أغنمني، حتّى صار النفل يطلق على ما يعطاه المقاتل من المغنم زيادة على قسطه من المغنم لمزيّة له في البلاء والغناء، أو على ما يعثر عليه من غير قتيله وهذا صنف من المغانم.

فاحتملت الأنفال في هذه الآية أن تكون بمعنى المغانم مطلقا، وأن تكون بمعنى ما يزاد للمقاتل على حقّه من المغنم.

فحديث سعد بن أبي وقاص كان سؤالا عن تنفيل بمعنى زيادة. وحديث ابن عباس حكى وقوع اختلاف في قسمة المغنم بين من قاتل ومن لم يقاتل، على أنّ طلب من لم يقاتلوا المشاركة في المغنم يرجع إلى طلب تنفيل، فيبقى النفل في معنى الزيادة.

وقد أطلقوا النفل أيضا على ما صار في أيدي المسلمين من أموال المشركين بدون انتزاع ولا افتكاك.

فيدخل بهذا الإطلاق تحت جنس الفيء كما سمّاه الله تعالى في قوله تعالى { وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ - إلى قوله - بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ } [الحشر:7/6]، وذلك مثل أموال بني النضير التي سلّموها قبل القتال وفرّوا.

وبهذا تتحصّل في أسماء الأموال المأخوذة من العدو في القتال ثلاثة أسماء: المغنم، والفيء وهما نوعان والنفل وهو صورة من صور القسمة وكانت متداخلة.

والذي استقر عليه مذهب مالك أنّ النفل ما يعطيه الإمام من الخمس لمن يرى إعطاءه إيّاه، ممن لم يغنم ذلك بقتال.

قال الجمهور: المراد بها ما كان زائدا على المغنم، فيكون النظر فيه لأمير الجيش يصرفه لمصلحة المسلمين، أو يعطيه لبعض أهل الجيش لإظهار مزيّة البطل، أو لخصلة عظيمة يأتي بها، أو للتحريض على النكاية في العدو.

وقال مالك والجمهور:لا نفل إلّا من الخمس على الاجتهاد من الإمام.

وقال مالك: " إعطاء السلب من التنفيل".

وقال مجاهد: " الأنفال هي خمس المغانم وهو المجعول لله والرسول ولذي القربى ".

{ لِلَّهِ } على القول الأوّل في معنى الأنفال، لام الملك، لأنّ النفل لا يحسب من الغنائم، وليس هو من حق الغزاة فهو بمنزلة مال لا يعرف مستحقّه، فيقال هو ملك لله ولرسوله، فيعطيه الرسول لمن شاء بأمر الله أو باجتهاده، وهذا ظاهر حديث سعد بن أبي وقاص في الترمذي، إذ قال له رسول الله عليه الصلاة والسلام: **سألتني هذا السيف** (السيف الذي تقدم ذكره في حديث مسلم) **ولم يكن لي وقد صار لي فهو لك** ".

وأمّا على القول الثاني، الجامع لجميع المغانم، فاللام للاختصاص، أي: الأنفال تختص بالله والرسول، أي: حكمها وصرفها، فهي بمنزلة (إلى). تقول هذا لك، أي: إلى حكمك مردود. وأصحاب هذا القول رأوا أنّ المغانم لم تكن في أوّل الأمر مخمّسة بل كانت تقسم باجتهاد النبيّ صلى الله عليه وسلم ثم خُمّست بآية

{ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ } [41].

{ **وَالرَّسُولِ** } عطف على اسم الله، لأنّ المقصود، الأنفال للرّسول صلى الله عليه وسلم يقسمها بإذن الله توقيفا أو تفويضا. وتشمل الآية تصرّف أمراء الجيوش في غيبة الرسول أو بعد وفاته صلى الله عليه وسلم، لأنّ ما كان حقّا لله كان التصرّف فيه لخلفائه.

واختلف الفقهاء في حكم الأنفال اختلافا ناشئا عن اختلاف اجتهادهم في المراد من الآية، وهو اختلاف يعذرون عليه لسعة الإطلاق في أسماء الأموال الحاصلة للغزاة :

فقال مالك والشافعي وأبو حنيفة وسعيد بن المسيب: النفل إعطاء بعض الجيش أو جميعه زيادة على قسمة أخماسهم الأربعة من المغنم، فإنّما يكون ذلك من خمس المغنم المجعول للرسول صلى الله عليه وسلم ولخلفائه وأمرائه جمعا بين هذه الآية وبين قوله { وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ } [الأنفال:41]. فلا نفل إلّا من الخمس المجعول لاجتهاد أمير الجيش. وعلّة ذلك تجنّب إعطاء حقّ أحد لغيره ولأنّه يفضي إلى إيقاد الإحن في نفوس الجيش، وقد يبعث الجيش على عصيان الأمير، ولكن إذا رأى الإمام مصلحة في تنفيل بعض الجيش ساغ له ذلك من الخمس الذي هو موكول إليه كما سيأتي في آية المغانم.

لذلك قال مالك: لا يكون التنفيل قبل قسمة المغنم، وجعل ما صدر من النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم حنين من قوله: " **من قتل قتيلا فله سلبه** "، خصوصيه للنبيّ صلى الله عليه وسلم، وهو ظاهر، لأنّ طاعة الناس للرّسول أشد من طاعتهم لمن سواه، لأنّهم يؤمنون بأنّه معصوم عن الجور وبأنّه لا يتصرف إلّا بإذن الله. قال مالك في الموطأ: " ولم يبلغنا أنّ رسول الله فعل ذلك غير يوم حنين ولا أنّ أبا بكر وعمر فعلاه في فتوحهما ".

وقال جماعة: يجوز التنفيل من جميع المغنم وهؤلاء يخصّصون عموم آية { وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ } [41] بآية { قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ }، أي: فالمغانم المخمّسة ما كان دون النفل.

والقول الأوّل أسد وأجرى على الأصول وأوفق بالسنة، والمسألة تبسط في الفقه وليس من غرض المفسر إلا الإلمام بمعاقدها من الآية.

{ **فَاتَّقُوا اللَّهَ** } فلمّا حكم بأنّها ملك لله ورسوله، أو بأنّ أمر قسمتها موكول لله، فقد وقع ذلك على كراهية كثير منهم ممّن كانوا يحسبون أنّهم أحقّ بتلك الأنفال ممّن أعطيها، تبعا لعوائدهم السالفة في الجاهلية فذكّرهم الله بأن قد وجب الرضى بما يقسّمه الرسول منها. وقُدّم الأمر بالتقوى لأنّها جامع الطاعات.

{ **وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ** } عطف الأمر بإصلاح ذات البين لأنّهم اختصموا واشتجروا في شأنها كما قال عبادة بن الصامت: " اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا "، فأمرهم الله بالتصافح.

الإصلاح: جعل الشيء صالحا، وهو مؤذن بأنّه كان غير صالح، فالأمر بالإصلاح دل على فساد ذات بينهم، وهو فساد التنازع والتظالم.

{ **ذَاتَ** } يجوز أن تكون مؤنث (ذو) الذي هو بمعني صاحب فتكون ألفها مبدلة من الواو. ووقع في

كلامهم مضافا إلى الجهات وإلى الأزمان وإلى غيرهما، يجرونه مجرى الصفة لموصوف يدل عليه السياق كقوله تعالى { وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ } [الكهف:18]، على تأويل جهة. وتقول: لقيته ذات ليلة، ولقيته ذات صباح، على تأويل المقدّر: ساعة أو وقت. وجرت مجرى المثل في ملازمتها هذا الاستعمال.

ويجوز أن تكون أصلية الألف، كما يقال: أنا أعرف ذات فلان، فالمعنى حقيقة الشيء وماهيته. وكذا فسّرها الزجاج والزمخشري. فتكون كلمة مقحمة لتحقيق الحقيقة، جُعلت مقدَّمة، وحقّها التأخير لأنّها للتأكيد مثل المعنى في قولهم: جاءني بذاته. فالمعنى: أصلحوا بينكم.

{ **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ** } ختم بالأمر بالطاعة، والمراد بها هنا الرضى بما قسّم الله ورسوله، أي: الطاعة التامة كما قال تعالى { ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ } [النساء:65].

{ **إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** } اجتلاب { **إِنْ** } في هذا الشرط للتحريض على إظهار الخصال التي يتطلبها الإيمان، وهي التقوى الجامعة لخصال الدين، وإصلاح ذات بينهم، والرضى بما فعله الرّسول. فالمقصود التحريض على أن يكون إيمانهم في أحسن صوره ومظاهره.

{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } [2].

موقع هذه الجملة وما عُطف عليها موقع التعليل لوجوب تقوى الله وإصلاح ذات بينهم وطاعتهم الله ورسوله. لأنّ ما تضمّنته هذه الجمل التي بعد { **إِنَّمَا** } من شأنه أن يحمل المتّصفين به على الامتثال لما تضمّنته جمل الأمر الثلاث السابقة، وقد اقتضى ظاهر القصر المستفاد من { إِنَّمَا } أنّ من لم يَجِلْ قلبه إذا ذكر الله، ولم تزده تلاوة آيات الله إيمانا مع إيمانه، ولم يتوكل على الله، ولم يقم الصلاة، ولم ينفق، لم يكن موصوفا بصفة الإيمان. فهذا ظاهر مؤوّل بما دلّت عليه أدلة كثيرة من الكتاب والسنّة، من أنّ الإيمان لا ينقضه الإخلال ببعض الواجبات كما سيأتي عند قوله تعالى { أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً } [4].

فيكون التأويل: إنّما المؤمنون الكاملون الإيمان، وحرف (أل) فيه هو ما يُسمَّى بالدالة على معنى الكمال.

الذكر: حقيقته التلفّظ باللسان، وإذا علق بما يدلّ على ذات فالمقصود من الذات أسماؤها، فالمراد من قوله تعالى { إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ } إذا نطق ناطق باسم من أسماء الله أو بشأن من شؤونه، مثل أمره ونهيه.

الوجل: خوف مع فزع، فيكون لاستعظام الموجول منه. وقد جاء فعل وَجِلَ في الفصيح بكسر العين في الماضي على طريقة الأفعال الدالة على الانفعال الباطني مثل فرح، وصدي، وهوي، وروي.

وأسند الوجل إلى القلوب لأنّ القلب يكثر إطلاقه في كلام العرب على إحساس الإنسان وقرارة إدراكه.

وقد أجملت الآية ذكر الله إجمالا بديعا ليناسب معنى الوجل، فذكر الله يكون بذكر اسمه، وبذكر عقابه، وعظمته، وبذكر ثوابه ورحمته، وكلّ ذلك يحصل معه الوجل في قلوب كمل المؤمنين، لأنّه يحصل معه

استحضار جلال الله وشدّة بأسه وسعة ثوابه، فينبعث عن ذلك الاستحضار توقّع حلول بأسه، وتوقّع انقطاع بعض ثوابه أو رحمته، وهو وجل يبعث المؤمن إلى الاستكثار من الخير وتوقّي ما لا يرضي الله تعالى، وملاحظة الوقوف عند حدود الله في أمره ونهيه، ولذلك روي عن عمر بن الخطاب أنّه قال: " أفضل من ذكر الله باللسان ذكر الله عند أمره ونهيه ".

{ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا }

التلاوة: القراءة واستظهار ما يحفظه التالي من كلام له أو لغيره يحكيه لسامعه، وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ } [البقرة:102].

آيات الله: القرآن، سُمّيت آيات لأنّ وحيها إلى النبيّ الأمّيّ صلى الله عليه وسلم وعجز قومه، خاصتهم وعامتهم، عن الإتيان بمثلها فيه دلالة على صدق من جاء بها فلذلك سمّيت آيات. ويُسمّى القرآن كلّه آية أيضا باعتبار دلالة جملته على صدق محمد صلى الله عليه وسلم، وقد تقدّم ذلك في المقدّمة الثامنة من مقدّمات هذا التفسير.

وإسناد فعل زيادة الإيمان إلى آيات الله لأنّها سبب تلك الزيادة. وهذا الإسناد من المجاز العقلي إذ جُعلت الآيات بمنزلة فاعل الزيادة في الإيمان.

الإيمان: تصديق النفس بثبوت نسبة شيء لشيء، أو بانتفاء نسبة شيء عن شيء، تصديقا جازما لا يحتمل نقيض تلك النسبة، وقد اشتهر اسم الإيمان شرعا في اليقين بالنسبة المقتضية وجود الله ووجود صفاته التي دلّت عليها الأدلة العقلية أو الشرعيّة، والمقتضية مجيء رسول الله مخبرا عن الله الذي أرسله وثبوت صفات الرسول عليه الصلاة والسلام التي لا يتمّ معنى رسالته عن الله بدونها: مثل الصدق فيما يبلّغ عن الله، والعصمة عن اقتراف معصية الله تعالى.

زيادة الإيمان: قوّة اليقين في نفس الموقن على حسب شدّة الاستغناء عن استحضار الأدلة في نفسه، وعن إعادة النظر فيها، ودفع الشك العارض للنفس، فإنّه كلّما كانت الأدلة أكثر وأقوى وأجلى مقدّمات، كان اليقين أقوى، فتلك القوّة هي المُعبّر عنها بالزيادة، وتفاوتها تدرج في الزيادة. <u>ويجوز</u> أن تُسمّى قلة التدرج في الأدلة نقصا لكنه نقص عن الزيادة، وذلك مع مراعاة وجود أصل حقيقة الإيمان، لأنّها لو نقصت عن اليقين لبطلت ماهية الإيمان، وقد أشار البخاري إلى هذا بقوله: " باب زيادة الإيمان ونقصانه فإذا ترك شيئا من الكمال فهو ناقص" فلو أن نقص الأدلة بلغ بصاحبه إلى انخرام اليقين لم يكن العلم الحاصل له إيمانا، حتّى يوصف بالنقص، فهذا هو المراد من وصف الإيمان بالزيادة، في القرآن وكلام الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو بيّن.

ولم يرد عن الشريعة ذكر نقص الإيمان، وذلك هو الذي يريده جمهور علماء الأمّة إذا قالوا الإيمان يزيد، كما قال مالك بن أنس: " الإيمان يزيد ولا ينقص "، وهي عبارة كاملة.

وقد يطلق الإيمان على الأعمال التي تجب على المؤمن وهو إطلاق باعتبار كون تلك الأعمال من شرائع الإيمان، كما أطلق على الصلاة اسم الإيمان في قوله تعالى { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ } [البقرة:143]. ولكن الاسم المضبوط لهذا المعنى هو اسم (الإسلام) كما يفصح عنه حديث سؤال جبريل عن الإيمان والإسلام والإحسان، فالإيمان قد يطلق على الإسلام وهو بهذا الاعتبار يوصف بالنقص والزيادة باعتبار الإكثار من الأعمال والإقلال، ولكنه ليس المراد في هذه الآية ولا في نظائرها من آيات الكتاب وأقوال النبيّ صلى الله عليه وسلم.

وقد يريده بعض علماء الأمة فيقول: الإيمان يزيد وينقص، ولعلّ الذي ألجأهم إلى وصفه بالنقص هو ما اقتضاه الوصف بالزيادة. وهذا مذهب أشار إليه البخاري في قوله: " باب من قال إن الإيمان هو العمل". وقال الشيخ ابن أبي زيد: " وأنّ الإيمان قول باللسان وإخلاص بالقلب وعمل بالجوارح يزيد بزيادة الأعمال وينقص بنقص الأعمال فيكون فيها النقص وبها الزيادة". وهو جار على طريقة السلف من إقرار ظواهر ألفاظ القرآن والسنة، في الأمور الاعتقادية ولكن وصف الإيمان بالنقص لا داعي إليه لعدم وجود مقتضيه لعدم وصفه بالنقص في القرآن والسنة ولهذا قال مالك: الإيمان يزيد ولا ينقص.

وحظ المقام المتعلّق بأحكام الأنفال من هذه الزيادة، هو أنّ سماع آيات حكم الأنفال يزيد إيمان المؤمنين قوّة، بنبذ الشقاق والتشاجر الطارئ بينهم في أنفس الأموال عندهم، وهو المال المكتسب من سيوفهم، فإنّه أحبّ أموالهم إليهم. وبذلك تتضح المناسبة بين ذكر حكم الأنفال، وتعقيبه بالأمر بالتقوى وإصلاح ذات البين والطاعة، ثم تعليل ذلك بأنّ شأن المؤمنين ازدياد إيمانهم عند تلاوة آيات الله.

{ **وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** } صلة ثالثة لـ { الْمُؤْمِنُونَ } أو حال منه، وجُعلت فعلا مضارعا للدلالة على تكرّر ذلك منهم، ووصفهم بالتوكّل على الله، وهو الاعتماد على الله في الأحوال والمساعي.

التوكّل: تقدم تفسيره عند قوله تعالى { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } [آل عمران:159].

ومناسبة هذا الوصف للغرض أنّهم أُمروا بالتخلّي عن الأنفال، والرضى بقسمة الرسول صلى الله عليه وسلم فيها، فمن كان قد حُرم من نفل قتيله يتوكّل على الله في تعويضه بأحسن منه.

وتقديم المجرور إمّا للرعاية على الفاصلة، فهو من مقتضيات الفصاحة مع ما فيه من الاهتمام باسم الله، وإمّا للتعريض بالمشركين، لأنّهم يتوكلون على إعانة الأصنام. فيكون الكلام مدحا للمؤمنين، وتعريضا بذم المشركين. ثم فيه تحذير من أن تبقى في نفوس المؤمنين آثار من التعلّق بما نهوا عن التعلّق به، لتوهّمهم أنّهم إذا فوتوه فقد أضاعوا خيرا من الدنيا.

{ **الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ** } [3].

لا علاقة للصلة المذكورة هنا بأحكام الأنفال والرضى بقسمها ولكنّه مجرّد المدح، وعُبّر في جانب الصلاة بالإقامة للدلالة على المحافظة عليها، وقد تقدّم ذلك عند قوله { وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ } [البقرة:3] .

{ **أُوْلَئِكَ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** } [4].

مؤكِّدة لمضمون { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ } [2] إلى آخرها ولذلك فصلت.

وعُرّف المسند إليه بالإشارة لوقوعه عقب صفات لتدلّ الإشارة على أنّهم أحرياء بالحكم المسند إلى اسم الإشارة من أجل تلك الصفات، فكأنّ المخبَر عنهم قد تميّزوا للسامع بتلك الصفات فصاروا بحيث يشار إليهم.

وفي هذه الجملة قصر آخر يشبه القصر الذي في قوله تعالى { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ } [2]، حيث قصر الإيمان مرة أخرى على أصحاب تلك الصفات، ولكنه قرن هنا بما فيه بيان المقصور، وهو أنّهم المؤمنون الأحقاء بوصف الإيمان.

الحقّ: أصله مصدر حَقَّ بمعنى ثبت، واستعمل استعمال الأسماء للشيء الثابت الذي لا شكّ فيه، قال تعالى

{ وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً } [النساء:122].

ويطلق كثيرا على الكامل في نوعه، كما يقول أحد لابنه البار به: أنت ابني حقّا، وليس يريد أنّ غيره من أبنائه ليسوا برَشَدة ولكنّه يريد، أنت بنوّتك واضحة آثارها.

ويطلق الحقّ على الصواب والحكمة. فاسم الحقّ يجمع معنى كمال النوع.

ولكلّ صيغة قصر منطوق ومفهوم؛ فمنطوقها هنا أنّ الذين جمعوا ما دلت عليه تلك الصلات هم مؤمنون حقا، ومفهومها أنّ من انتفى عنه أحد مدلولات تلك الصلات لم يكن مؤمنا حقّا، أي: لم يكن مؤمنا كاملا.

ومن هذا المعنى ما ذكره القرطبي وغيره أنّ رجلا سأل الحسن البصري فقال له: يا أبا سعيد أمؤمن أنت؟ فقال: الإيمان إيمانان فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنّة والنار والبعث والحساب، فأنا به مؤمن، وإن كنت تسألني عن قول الله تبارك وتعالى { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ- إلى قوله - أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً } [2-4] فوالله ما أدري أنا منهم أم لا.

{ **حَقّاً** } الأحسن أن يكون منصوبا على الحال من ضمير { هُمُ } فيكون المصدر مؤوّلا باسم الفاعل كما هو الشأن في وقوع المصدر حالا مثل { أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً }، أي: محققين إيمانهم بجلائل أعمالهم، وقد تقدّم مثل هذا المصدر في قوله تعالى { خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً } [النساء:122].

{ **لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** } خبر ثان عن اسم الإشارة.

واللام للاستحقاق، أي: درجات مستحقّة لهم، وذلك استعارة للشرف والكرامة عند الله، لأنّ الدرجات حقيقتها ما يُتخذ من بناء أو أعواد لإمكان تخطي الصاعد إلى مكان مرتفع منقطع عن الأرض. وتستعار الدرجة لعناية العظيم ببعض من يصطفيهم، فتُشبّه العناية بالدرجة، تشبيه معقول بمحسوس، لأنّ الدنو من العلو عرفا يكون بالصعود إليه في الدرجات، فشُبّه ذلك الدنو بدرجات.

{ **عِنْدَ رَبِّهِمْ** } قرينة المجاز. دلّ على الكرامة والشرف عند الله تعالى في الدنيا بتوجيه عنايته، وفي الآخرة بالنعيم العظيم.

الرزق: اسم لما يُرزق، أي: يُعطى للانتفاع به، ووصفه بـ { **كَرِيمٌ** } بمعنى النفيس فهو وصف حقيقي للرزق، وفعله كرُم (بضم العين)، والكرم في كلّ شيء الصفات المحمودة في صنفه أو نوعه، كما في قوله تعالى

{ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ } [النمل:29].

ومنه إطلاق الكرم على السخاء والجود، والوصف منه كريم، وتصح إرادته هنا على أنّ وصف الرزق به مجاز عقلي، أي: كريم رازقه، فإنّ الكريم يرزق بوفرة وبغير حساب.

{ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ [5] يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ [6] }.

الانتقال إلى تذكيرهم بالخروج إلى بدر وما ظهر فيه من دلائل عناية الله تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم وبالمؤمنين.

الإخراج: إمّا مراد به الأمر بالخروج للغزو، وإمّا تقدير الخروج لهم وتيسيره. والخروج مفارقة المنزل والبلد. و**الإخراج من البيت**: هو الإخراج المعيّن الذي خرج به النبيّ صلى الله عليه وسلم غازيا إلى بدر.

{ **بِالْحَقِّ** } الباء للمصاحبة، أي: إخراجا مصاحبا للحقّ، والحقّ هنا الصواب، لما تقدّم آنفا من أنّ اسم الحقّ جامع لمعنى كمال كلّ شيء في محامد نوعه.

<u>المعنى</u>: أنّ الله أمره بالخروج إلى المشركين ببدر أمرا موافقا للمصلحة.

وقد أشار هذا الكلام إلى السبب الذي خرج به المسلمون إلى بدر، وذلك أنّه كان في أوائل رمضان في السنة الثانية للهجرة أن قفلت عيرٌ لقريش، فيها أموال وتجارة لهم من بلاد الشام، راجعة إلى مكّة، وفيها أبو سفيان بن حرب في زهاء ثلاثين رجلا من قريش، فلمّا بلغ خبر هذه العير رسول الله صلى الله عليه وسلم ندب المسلمين إليها فانتدب بعضهم وتثاقل بعض، وهم الذين كرهوا الخروج، ولم ينتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم من تثاقلوا ومن لم يحضر ظهره، أي: راحلته، فسار وقد اجتمع من المسلمين ثلاثمائة وبضعة عشر خرجوا يوم ثمانية من رمضان، وكانوا يحسبون أنّهم يغيرون على العير ثم يرجعون، وبلغ أبا سفيان خبر خروج المسلمين فأرسل صارخا يستصرخ قريشا لحماية العير، فتجهّز منهم جيش، ولمّا بلغ المسلمون (**وادي ذفران**) بلغهم خروج قريش لتلقّي العير، وكانت العير يومئذ فاتتهم، واطمأن أبو سفيان لذلك فأرسل إلى أهل مكة يقول إن الله نجّى عيركم فارجعوا، فقال أبو جهل لا نرجع حتّى نرد بدرا (وكان بدر موضع ماء فيه سوق للعرب في كل عام) فنقيم ثلاثا، فننحر الجزر

ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان، وتتسامع العرب بنا وبمسيرنا فلا يزالوا يهابوننا ويعلموا أنّ محمدا لم يصب العير، وأنّا قد أعضضناه.

وأعلم الله النبيّ صلى الله عليه وسلم بذلك فأعلم المسلمين، فاستشارهم وقال: **" العير أحب إليكم أم النفير"**، فقال أكثرهم العير أحبّ إلينا من لقاء العدو، فتغيّر وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أعاد استشارتهم فأشار أكثرهم قائلين: " عليك بالعير فإنّا خرجنا للعير"، فظهر الغضب على وجهه، فتكلّم أبو بكر، وعمر، والمقداد بن الأسود، وسعد ابن عبادة، وأكثر الأنصار، ففوّضوا الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمرهم حينئذ أن يسيروا إلى القوم ببدر فساروا، وكان النصر العظيم الذي هزّ به الإسلام رأسه.

{ **وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ** } ذلك أنّهم خرجوا على نيّة التعرّض للعير. فلمّا أخبرهم الرسول صلى الله عليه وسلم عن تجمّع قريش لقتالهم تكلّم أبو بكر فأحسن، وتكلّم عمر فأحسن، ثم قام المقداد بن الأسود فقال " يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون ولكن أذهب أنت وربك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون، نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك، فوالذي بعثك بالحقّ لو سرت بنا إلى **(بَرْك الغِماد)** (موضع باليمن بعيدا جدا عن مكة) لجادلنا معك من دونه حتى تبلغه ". ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **" أشيروا علي أيّها الناس "**، وإنّما يريد الأنصار، وذلك أنّهم حين بايعوه بالعقبة قالوا يومئذ: " إنّا براء من ذمامك حتّى تصل إلى ديارنا فإذا وصلت إلينا فإنّك في ذمّتنا نمنعك ممّا نمنع منه أبناءنا ونساءنا "، فكان رسول الله يتخوّف أن يكون الأنصار لا يرون نصره إلّا ممّن دهمه بالمدينة، وأن ليس عليهم أن يسير بهم من بلادهم، فلمّا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" أشيروا عليَّ "**، قال له سعد بن معاذ : والله لكأنّك تريدنا يا رسول الله قال: **أجل،** قال: قد آمنّا بك وصدقناك وشهدنا أنّ ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك وما تخلّف منّا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غدا إنّا لصُبُرٌ في الحرب صدقٌ في اللقاء، لعلّ الله يريك بنا ما تقرّبه عينك فسر بنا على بركة الله ". فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: **" سيروا وابشروا فإنّ الله قد وعدني إحدى الطائفتين ".**

فما كان بعد ذلك إلّا أن زال من نفوس المؤمنين الكارهين للقتال ما كان في قلوبهم من الكراهية.

وتأكيد خبر كراهية فريق من المؤمنين بـ (**إنّ** و**لام** الابتداء) مستعمل في التعجيب من شأنهم، إذ كان الشأن اتباع ما يحبّه الرسول صلى الله عليه وسلم أو التفويض إليه، وما كان ينبغي لهم أن يكرهوا لقاء العدو.

{ **يُجَادِلُونَكَ** } حال من { فَرِيقاً }. وصيغة المضارع لحكاية حال المجادلة زيادة في التعجيب منها.

{ **بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ** } أي: ظهر أنّ الله قدّر لهم النصر، فإنّهم كانوا عربا أذكياء، وكانوا مؤمنين أصفياء، وقد أخبرهم النبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّ الله ناصرهم على إحدى الطائفتين، طائفة العير أو طائفة النفير، فنصرهم إذن مضمون ثم أخبرهم بأنّ العير قد أخطاتهم، وقد بقي النفير، فكان بيّنا أنّهم إذا لقوا النفير ينصرهم الله عليه، ثم رأوا كراهية النبيّ صلى الله عليه وسلم لمّا اختاروا العير، فكان ذلك كافيا في اليقين بأنّهم إذا لقوا المشركين ينتصرون عليهم لا محالة، ولكنّهم فضلوا غنيمة العير على خضد شوكة أعدائهم.

ومن هذه الآية يؤخذ حكم مؤاخذة المجتهد إذا قصّر في فهم ما هو مدلول لأهل النظر. وقد سأل أحدهم النبيّ صلى الله عليه وسلم عن ضالة الغنم فأجابه: **" هي لك أو لأخيك أو للذئب"** ، فلمّا سأله بعد ذلك عن ضالة الإبل تمعّر وجهه وقال:**" مالك ولها معها حذاؤها وسقاؤها تشرب الماء وترعى الشجر حتّى يلقاها ربّها ".**

{ **كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ** } في موضع الحال من { يُجَادِلُونَكَ }، أي: حالتهم في وقت مجادلتهم إيّاك تشبه حالتهم لو ساقهم سائق إلى الموت.

{ **وَهُمْ يَنْظُرُونَ** } حال من ضمير { يُسَاقُونَ }، أي: وهم ينظرون الموت، لأنّ حالة الخوف من الشيء المخوف إذا كان منظورا إليه تكون أشدّ منها لو كان يعلم أنّه يساق إليه ولا يراه.

{ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ [7] لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ } [8].

جعل صاحب الكشاف { **إِذْ** } مفعولا لفعل (اذكر) محذوف شان (إذْ) الواقعة في مفتتح القصص، فيكون عطف جملة الأمر المقدّر على جملة { قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ } [1]، والمناسبة هي أنّ كلا القولين فيه توقيفهم على خطإ رأيهم وأنّ ما كرهوه هو الخير لهم.

والأحسن أن تكون { **وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ** } معطوفا على { كَمَا أَخْرَجَكَ } [5] عطف المفرد على المفرد، فيكون المعطوف مُشبَّهًا به التشبيه المفاد بالكاف. والمعنى، يعدكم الله إحدى الطائفتين كما أخرجك من بيتك.

الطائفة: الجماعة من النّاس، وتقدّم عند قوله تعالى { فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ } [النساء:102].

{ **أَنَّهَا لَكُمْ** } في تأويل مصدر، هو بدل اشتمال من إحدى الطائفتين، أي: كونها معطاة لكم، وهو إعطاء النصر. و(اللام) للملك، وهو هنا ملك عرفي، كما يقولون: كان يوم كذا لبني فلان على بني فلان، فيعرف أنّه كان لهم غلبة حرب.

{ **وَتَوَدُّونَ** } إمّا عطف على { يَعِدُكُمُ }، أي: إذ يقع الوعد من الله والودّ منكم، وإمّا في موضع الحال، أي: يعدكم الله إحدى الطائفتين في حال ودّكم لقاء الطائفة غير ذات الشوكة. و**الوُدّ**: المحبة.

{ **ذَاتِ الشَّوْكَةِ** } صاحبة الشوكة، والشَّوْكَةِ أصلها الواحدة من الشوك وهو ما يخرج في بعض النبات من أعواد دقيقة تكون محددة الأطراف كالإبر. وشاع استعارة الشوكة للبأس، يقال: فلان ذو شوكة، أي: ذو بأس يُتّقى. كما يستعار القرن للبأس في قولهم: أبدى قرنه، والناب أيضا في قولهم: كشّر عن نابه، وذلك من تشبيه المعقول بالمحسوس. أي: تودّون الطائفة التي لا يُخشى بأسها تكون لكم، أي: تودّون غنيمة بدون حرب.

وقد أشارت الآية إلى ما في قصة بدر التي أوردناها سابقا.

{ **وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ** } عطف على جملة { وَتَوَدُّونَ }، والمقصود من الإخبار بهذه الجمل الثلاث إظهار أنّ ما يودّونه ليس فيه كمال مصلحتهم، وأنّ الله اختار لهم الأصلح، وإن كان يشق عليهم ويرهبهم. فهذا تلطّف من الله بهم.

{ **يُحِقَّ الْحَقَّ** } يثبته، والمراد بالحقّ هنا: الإسلام. وقد أطلق عليه اسم الحقّ في مواضع كثيرة من القرآن كقوله تعالى { حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ } [الزخرف:29]. وإحقاقه باستئصال معانديه.

المعنى: أنتم تريدون نفعا قليلا عاجلا، وأراد الله نفعا عظيما في العاجل والآجل، والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

{ **بِكَلِمَاتِهِ** } كلمات الله ما يدلّ على مراده وعلى كلامه النفسي، حقيقة من أقوال لفظيّة يخلقها خلقا غير متعارف ليفهمها أحد البشر ويبلّغها عن الله، مثل القرآن. أو مجازا من أدلة غير لفظية، مثل ما يخاطب به الملائكة.

والجمع المعرّف بالإضافة يفيد العموم، فقوله تعالى { بِكَلِمَاتِهِ } يعمّ أنواع الكلام الذي يوحي به الله الدال على إرادته تثبيت الحقّ، مثل آيات القرآن في قتال الكفار، وما أمر به الملائكة من نصرتهم المسلمين يوم بدر.

والباء للسببيّة، وذكر هذا القيد للتنويه بإحقاق هذا الحق وبيان أنّه ممّا أراد الله ويسّره وبيّنه للنّاس من الأمر، وللتنبيه على أنّ ذلك واقع لا محالة، ولمدح هذا الإحقاق بأنّه حصل بسبب كلمات الله.

{ **وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ** } قطع دابر الشيء إزالة الشيء كلّه. وتقدّم في قوله تعالى { فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا } [الأنعام:45].

{ **لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ** } لام التعليل، أي: إنّما أراد ذلك وكوّن أسبابه بكلماته لأجل تحقيقه الحقّ وإبطاله الباطل.

وتعليل الفعل بنفس ذلك الفعل كناية عن كونه ما فعل ذلك الفعل إلا لذات الفعل، لا لغرض آخر زائد عليه. والحصر هنا من مستتبعات التركيب، وليس من دلالة اللفظ.

ويجوز أن يكون الاختلاف بين المعلّل والعلة بالعموم والخصوص، أي: يريد الله أن يحق الحق في هذه الحادثة لأنّه يريد إحقاق الحق عموما.

{ **وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ** } ضد قوله تعالى { لِيُحِقَّ الْحَقَّ } وهو من لوازم معنى ليحقّ الحقّ، لأنّه إذا حصل الحقّ ذهب الباطل كما قال تعالى { بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ } [الأنبياء:18].

وهو بمنزلة التوكيد لقوله تعالى { لِيُحِقَّ الْحَقَّ }، لأن ثبوت الشيء قد يؤكَّد بنفي ضده.

{ **وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ** } شرط اتصالي. و{ لَوْ } اتصاليّة تدل على المبالغة في الأحوال، وهو عطف على { يُرِيدُ اللَّهُ } أو على { لِيُحِقَّ الْحَقَّ }، أي: يريد ذلك لذلك لا لغيره، ولا يصدّ مراده ما للمعاندين من قوّة.

الكراهية: هنا كناية عن لوازمها، وهي الاستعداد لمقاومة المراد من تلك الإرادة، فان المشركين، بكثرة عددهم، يريدون إحقاق الباطل، وإرادة الله تنفذ بالرغم على كراهية المجرمين. وأمّا مجرّد الكراهة فليس صالحا أن يكون غاية للمبالغة في أحوال نفوذ مراد الله تعالى إحقاق الحقّ، لأنّه إحساس قاصر على صاحبه، ولكنّه إذا بعثه على مدافعة الأمر المكروه كانت أسباب المدافعة هي الغاية لنفوذ الأمر المكروه على الكاره.

{ **إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ** } [9].

أشارت الآية إلى دعاء النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم بدر. أخرج الترمذي عن عمر بن الخطاب قال: " نظر نبيّ الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين، وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا، فاستقبل نبيّ الله صلى الله عليه وسلم القبلة ثم مد يديه وجعل يهتف بربه: " **اللّهم أنجز لي ما وعدتني، اللّهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض** "، فما زال يهتف بربه مادا يديه مستقبل القبلة حتّى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم ألتزمه من ورائه فقال: " يا نبيّ الله كفاك مناشدة ربك فإنّه سينجز لك ما وعدك ". فأنزل الله { إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ } [سنن الترمذي 5/ 269]. وعلى هذه الرواية يكون ضمير { تَسْتَغِيثُونَ } مرادا به النبيّ صلى الله عليه وسلم وعُبّر عنه بضمير الجماعة لأنّه كان يدعو لأجلهم، ولأنّه كان معلنا بدعائه وهو يسمعونه، فهم بحال من يدعون.

وجاء في السيرة أنّ المسلمين لمّا نزلوا ببدر ورأوا كثرة المشركين استغاثوا الله تعالى فتكون الاستغاثة في جميع الجيش والضمير شاملا لهم.

الاستغاثة: طلب الغوث، وهو الإعانة على رفع الشدّة والمشقّة، ولمّا كانوا يومئذ في شدّة ودعوا بطلب النصر على العدو القويّ كان دعاؤهم استغاثة.

{ **فَاسْتَجَابَ لَكُمْ** } أي: وعدكم بالإغاثة. وفعل استجاب يدل على قبول الطلب، والسين والتاء فيه للمبالغة، أي: تحقيق المطلوب.

{ **أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ** } هو الكلام المستجاب به.

(**أنّ**) - المفتوحة الهمزة المشدّدة النون- إذا وقعت بعد ما فيه معنى القول دون حروفه، أن تكون مفيدة للتفسير مع التأكيد، كما كانت تفيد معنى المصدرية مع التأكيد.

الإمداد: إعطاء المدد، وهو الزيادة من الشيء النافع. وقرأ نافع، وأبو جعفر، ويعقوب: بفتح الدال من { مُرْدَفِينَ } أي: يردفهم غيرهم من الملائكة. وقرأ البقية: بكسر الدال، أي: تكون الألف رادفا لغيرهم قبلهم.

الإرداف: الاتباع والإلحاق، فيكون الوعد بألف وبغيرها على ما هو متعارف عندهم من إعداد نجدة للجيش عند الحاجة تكون لهم مددا، وذلك أنّ الله أمدهم بآلاف من الملائكة بلغوا خمسة آلاف كما تقدم في سورة آل عمران. ويجوز أن يكون المراد بألف هنا مطلق الكثرة فيفسره قوله { بِثَلاثَةِ آلافٍ } [آل عمران :124]، وهم مردفون بألفين، فتلك خمسة آلاف. وكانت عادتهم في الحرب إذا كان الجيش عظيما أن يبعثوا طائفة منه ثم يعقبوها بأخرى لأنّ ذلك أرهب للعدو. وحلول الملائكة في المسلمين كان بكيفية يعلمها الله تعالى.

{ **وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**} [10].

عطف على { أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ }، أي: ما جعل جوابكم بهذا الكلام إلّا ليبشّركم، وإلّا فقد كان يكفيكم أن يضمن لكم النصر دون أن يبيّن أنّه بإمداد من الملائكة.

وفائدة التبشير بإمداد الملائكة أنّ يوم بدر كان في أوّل يوم لقي فيه المسلمون عدوا قويّا وجيشا عديدا، فبشّرهم الله بكيفية النصر، بأنّه بجيش من الملائكة، لأنّ النفوس أميل إلى المحسوسات.

وتقدّم القول في نظير هذه الآية في سورة آل عمران، والاختلاف في ترتيب النظم في ثلاثة أمور:

أحدها: أنّه قال في [آل عمران:126] { إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ } وحُذف { لَكُمْ } هنا دفعا لتكرير لفظه، لسبق كلمة

{ لَكُمْ } قريبا في قوله تعالى { فَاسْتَجَابَ لَكُمْ } [9] فعلم السامع أن البشرى لهم، فأغنت { لَكُمْ } الأولى، بلفظهاومعناها، عن ذكرها مرّة ثانية. ولأنّ آية آل عمران سيقت مساق الامتنان والتذكير بنعمة النصر في حين القلّة والضعف، فكان تقييد { بُشْرَى } بأنّها لأجلهم زيادة في المنّة، أي: جعل الله ذلك بشرى لأجلكم، كقوله تعالى { أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ } [الشرح:1]. وأمّا آية الأنفال فهي مسوقة مساق العتاب على كراهيّة الخروج إلى بدر في أوّل الأمر، فجُرّد { بُشْرَى } عن أن يعلق به { لَكُمْ } إذ كانت البشرى للنبيّ صلى الله عليه وسلم ولمن لم يتردّدوا من المسلمين، وقد تقدم ذلك في آل عمران.

ثانيها: تقديم المجرور هنا في قوله تعالى { بِهِ قُلُوبُكُمْ } وهو يفيد الاختصاص، فيكون المعنى: ولتطمئن

به قلوبكم لا بغيره، وفي هذا الاختصاص تعريض بما اعتراهم من الوجل من الطائفة ذات الشوكة وقناعتهم بغنم العروض التي كانت مع العير، فعرّض لهم، بأنّهم لم يتفهّموا مراد الرسول صلى الله عليه وسلم، حين استشارهم، وكان الشأن أن يظنّوا بوعد الله أكمل الأحوال، فلمّا أراد الله تسكين روعهم، وعدهم بنصرة الملائكة علما بأنّه لا يطمئن قلوبهم إلا ذلك.

ثالثها: أنّه قال في [آل عمران:126] { الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } فصاغ الصفتين العَلِيَّتَيْنِ في صيغة النعت، وجعلهما في هذه الآية في صيغة الخبر المؤكد، إذ قال { إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } فنزل المخاطبين منزلة من يتردّد في أنّه تعالى موصوف بهاتين الصفتين وهما:

العّزة: المقتضية أنّه إذا وعد بالنصر لم يعجزه شيء.

الحكمة: لأنّ ما يصدر من جانبه يجب غوص الأفهام في تبيّن مقتضاءه.

فكيف لا يهتدون إلى أنّ الله لما وعدهم الظفر بإحدى الطائفتين، وقد فاتتهم العير، أنّ ذلك آيل إلى الوعد بالظفر بالنفير.

{ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ } [11].

لقد أبدع نظم الآيات في التنقّل من قصّة إلى أخرى، من دلائل عناية الله تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم وبالمؤمنين، فقرنها، في قرن زمانها، وجعل ينتقل من إحداها إلى الأخرى بواسطة (**إذ**) الزمانية، وهذا من أبدع التخلّص، وهو من مبتكرات القرآن فيما أحسب.

ولذلك فالوجه أن يكون هذا الظرف مفعولا فيه لقوله تعالى { وَمَا النَّصْرُ } [10]، فإنّ إغشاءهم النعاس كان من أسباب النصر، فلا جرم أن يكون وقت حصوله ظرفا للنصر.

الغَشْيُ: الغشيان كون الشيء غاشيا، أي: غامًّا ومغطِّيا، فالنوم يغطِّي العقل.

النعاس: النوم غير الثقيل، وهو مثل السِنَةُ.

فإسناد الإغشاء أو التغشية إلى الله لأنّه الذي قدّر أن يناموا في وقت لا ينام في مثله الخائف، ولا يكون عاما سائر الجيش، فهو نوم منحهم الله إيّاه لفائدتهم. وصيغة المضارع لاستحضار الحالة.

الأمنة: الأمن، وتقدّم في [آل عمران:154]. وإنّما كان النعاس أمنا لهم لأنّهم لمّا ناموا زال أثر الخوف من نفوسهم في مدّة النوم فتلك نعمة، ولمّا استيقظوا وجدوا نشاطا، ونشاط الأعصاب يكسب صاحبه شجاعة ويزيل شعور الخوف الذي هو فتور الأعصاب.

{ **أَمَنَةً مِنْهُ** } كان كرامة لهم، وقد حصل ذلك للمسلمين يوم بدر كما هو صريح هذه الآية وحصل النعاس يوم أحد لطائفة من الجيش، قال تعالى { ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ } [آل عمران:154]. وفي صحيح البخاري عن أبي طلحة قال: " كنت فيمن تغشّاه النعاس يوم أحد حتى

سقط سيفي من يدي مرارا ".

{ **وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ** } منّة أخرى جاءت في وقت الحاجة، وهي أنّه أنزل عليهم المطر يوم بدر. فإسناد هذا الإنزال إلى الله تعالى للتنبيه على أنّه أكرمهم به. ولعلّه كان في غير الوقت المعتاد فيه نزول الأمطار في أفقهم، قال أهل السير: كان المسلمون حين اقتربوا من بدر راموا أن يسبقوا جيش المشركين إلى ماء بدر، وكان طريقهم دهساء، أي: رملا ليّنا، تسوخ فيه الأرجل فشق عليهم إسراع السير إلى الماء، وكانت أرض طريق المشركين ملبّدة، فلما أنزل الله المطر تلبدت الأرض فصار السير أمكن لهم، واستوحلت الأرض للمشركين فصار السير فيها متعبا، فأمكن للمسلمين السبق إلى الماء من بدر ونزلوا عليه وادّخروا ماء كثيرا من ماء المطر، وتطهّروا وشربوا، فذلك قوله تعالى { لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ }.

الرجز: هنا القذر، والمراد الوسخ الحسي وهو النجس، والمعنوي المُعبّر عنه في كتب الفقه بالحدث، والمراد الجنابة، لأنّ غالب الجيش لمّا ناموا احتلموا فأصبحوا على جنابة.

{ **وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ** } أي: يؤمّنكم بكونكم واثقين بوجود الماء، لا تخافون عطشا.

الربط: حقيقته شدّ الوثاق على الشيء، وهو مجاز في التّثبيت وإزالة الاضطراب، ومنه قولهم فلان رابط الجأش وله رباطة جأش. و{ **عَلَى** } مستعارة لتمكّن الربط، فهي ترشيح للمجاز.

تثبيت الأقدام: هو التمكّن من السير في الرمل، بأن لا تسوخ في ذلك الدهس الأرجل، لأنّ هذا المعنى هو المناسب حصوله بالمطر.

{ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ [12] ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ [13] }.

جُعل الخطاب هنا للنبيّ صلى الله عليه وسلم تلطفا به، إذ كانت هذه الآية في تفصيل عمل الملائكة يوم بدر وما خاطبهم الله به، فكان توجيه الخطاب بذلك إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم أولى، لأنّه أحقّ من يعلم مثل هذا العلم، ولأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان أوّل من استغاث الله. ولذلك عُرّف الله هنا باسم الربّ وإضافته إلى ضمير النبيّ صلى الله عليه وسلم ليوافق أسلوب { إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ } [9]، وفيه التنويه بقدر نبيّه صلى الله عليه وسلم.

الوحي إلى الملائكة المرسلين: إمّا بطريق إلقاء هذا الأمر في نفوسهم بتكوين خاص، وإمّا بإبلاغهم ذلك بواسطة.

{ **أَنِّي مَعَكُمْ** } قيل: هو في تأويل مصدر وذلك المصدر مفعول يوحي، أي: يوحي إليهم ثبوت معيّته لهم.

وقيل: على تقدير باء الجر.

{ **مَعَكُمْ** } المعيّة حقيقتها هنا مستحيلة فتُحمل على اللائقة بالله تعالى، أعني المعية المجازية، فقد يكون معناها توجيه عنايته إليهم وتيسير العمل لهم، وقد تكرّر إطلاق (مع) بمثل هذا في القرآن كقوله تعالى { وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ } [الحديد:4].

وإيحاء الله إلى الملائكة بهذا مقصود منه تشريفهم وتشريف العمل الذي سيكلّفون به، لأنّ المعيّة تؤذن إجمالا بوجود شيء يستدعي المصاحبة، أي: أنّي معكم في عملكم الذي أكلّفكم به.

{ **فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا** } التثبيت هنا مجاز في إزالة الاضطراب النفساني ممّا ينشأ عن الخوف ومن عدم استقرار الرأي واطمئنانه. وعُرّف المثبَّتون بالموصول { الَّذِينَ آمَنُوا } لما تومئ إليه صلة { آمَنُوا } من كون إيمانهم هو الباعث على هذه العناية، فتكون الملائكة بعناية المؤمنين لأجل وصف الإيمان.

{ **سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ** } مستأنفة استئنافا ابتدائيا إخبارا لهم بما يقتضي التخفيف عليهم في العمل الذي كلّفهم الله به، بأنّ الله كفاهم تخذيل الكافرين، فليست جملة { سَأُلْقِي } مفسّرة لمعنى { أَنِّي مَعَكُمْ }. لأنّ أولئك الملائكة المخاطبين كانوا ملائكة نصر.

وأسند إلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا إلى الله على طريقة الإجمال دون بيان لكيفية إلقائه، وكلّ ما يقع في العالم هو من تقدير الله على حسب إرادته.

{ **فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ** } أعناق المشركين وهو بيّن من السياق.

البنان: اسم جمع بَنَانَة وهي الإصبع وقيل طرف الإصبع، وإضافة { **كلّ** } لاستغراق أصحابها.

وإنّما خُصّت الأعناق والبنان لأنّ ضرب الأعناق إتلاف لأجساد المشركين، وضرب البنان يبطل صلاحية المضروب للقتال، لأنّ تناول السلاح إنّما يكون بالأصابع.

ضرب الملائكة: يجوز أن يكون مباشرة بقطع الأعناق والأصابع بواسطة فعل الملائكة على كيفية خارقة للعادة، وقد ورد في بعض الآثار عن بعض الصحابة ما يشهد لهذا المعنى، فإسناد الضرب حقيقة.

ويجوز أن يكون بتسديد ضربات المسلمين وتوجيه المشركين إلى جهاتها، فإسناد الضرب إلى الملائكة مجاز عقلي لأنّهم سببه.

{ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ** } تعليل، والمخاطب بهذه الجملة؛ إمّا الملائكة، فتكون من جملة الموحى به إليهم إطلاعا لهم على حكمة فعل الله تعالى لزيادة تقريبهم. وإمّا من تبلغهم الآية من المشركين الأحياء بعد يوم بدر، ولذا فالجملة معترضة للتحذير من الاستمرار على مشاقة الله ورسوله.

ويجوز أن يكون المخاطب به النبيّ صلى الله عليه وسلم.

المشاقة: العداوة بعصيان وعناد، مشتقّة من الشِّقّ (بكسر الشين) وهو الجانب، هو اسم بمعنى المشقوق، أي: المفرَّق. ولمّا كان المخالف والمعادي يكون متباعدا عن عدوه فقد جُعل كأنّه في شق آخر، أي: ناحية أخرى. والتصريح بسبب الانتقام تعريض للمؤمنين ليستزيدوا من طاعة الله ورسوله.

{ **وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** } تذييل يعمّ كل من يشاقق الله، ويعم أصناف العقائد.

{ **ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ** } [14].

الخطاب للمشركين الذين قتلوا، أي: يقال لهم هذا الكلام حين تُضرب أعناقهم وبنانهم بأن يلقى في نفوسهم حينما يصابون أنّ أصابتهم كانت لمشاقتهم الله ورسوله. ولعلّهم كانوا يرون إصابات تصيبهم من غير مرئي.

واسم الإشارة راجع إلى الضرب المأخوذ من قوله تعالى { فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ } [12]، وهو مبتدأ وخبره محذوف، فإما أن يقدّر: ذلك هو العقاب الموعود، وإمّا أن يكون ممّا دلّ عليه قوله تعالى { بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ }، فالتقدير: ذلك بأنّكم شاققتم الله ورسوله.

وصيغة الأمر مستعملة في الشماتة والإهانة.

{ **وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ** } عطف على الخبر المحذوف، أي: ذلكم العذاب وأنّ عذاب النار لجميع الكافرين.

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ** [15] **وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** } [16].

لما ذكّر الله المسلمين بما أيّدهم يوم بدر بالملائكة والنصر من عنده، وأكرمهم بأن نصرهم على المشركين الذين كانوا أشدّ منهم وأكثر عَددا وعُددا، وأعقبه بأن أعلمهم أنّ ذلك شأنه مع الكافرين به، اعترض في خلال ذلك بتحذيرهم من الوهن والفرار. وفي هذا تدريب للمسلمين على الشجاعة والإقدام والثبات عند اللقاء.

اللقاء: غلب استعماله في كلامهم على مناجزة العدو في الحرب. وأصل اللقاء أنّه الحضور لدى الغير.

الزحف: أصله مصدر زَحَفَ، إذا انبعث من مكانه متنقلا على مقعدته يجرّ رجليه كما يزحف الصبي. ثم أطلق على مشي المقاتل إلى عدّوه في ساحة القتال، لأنّه يدنو إلى العدو باحتراس وترصّد فرصة، فكأنّه يزحف إليه. ويطلق الزحف على الجيش الدَهْم، أي: كثير العدد.

وقد اختلفت طرق المفسرين في تفسير المراد من لفظ { زَحْفاً } في هذه الآية:

فمنهم من فسّره بالمعنى المصدري، أي: المشي في الحرب، وجعله وصفا لتلاحم الجيشين عند القتال، لأنّ المقاتلين يدبّون إلى أقرانهم دبيبا.

ومنهم من فسّره بمعنى الجيش الدهم، الكثير العدد، وجعله وصفا لذات الجيش.
فعلى التفسير الأوّل هو نهي عن الانصراف من القتال فرارا إذا التحم الجيشان.
وعلى التفسير الثاني كان نهيا عن الفرار إذا كان المسلمون جيشا كثيرا، ومفهومه أنّهم إذا كانوا قلّة فلا نهي.
وهذه الآية عند جمهور أهل العلم نزلت بعد انقضاء وقعة بدر، وهو القول الذي لا ينبغي التردّد في صحّته. فإن هذه السورة نزلت بسبب الاختلاف في أنفال الجيش من أهل بدر عند قسمة مغانم بدر، وما هذه الآية إلّا جزء من هذه السورة فحكم هذه الآية شرع شرعه الله على المسلمين بسبب تلك الغزوة لتوقّع حدوث غزوات يكون جيش المسلمين فيها قليلا، كما كان يوم بدر، فنهاهم الله عن التقهقر إذا لاقوا العدو.
وحكم هذه الآية باق غير منسوخ عند جمهور أهل العلم، وروي هذا عن ابن عباس، وبه قال ملك والشافعي وجمهور أهل العلم.
وروي عن أبي سعيد الخدري، وعطاء، والحسن، ونافع، وقتادة، والضحاك: أن هذه الآية نزلت قبل وقعة بدر. والصحيح هو الأوّل كما يقتضيه سياق انتظام آي السورة ولو صح قول أصحاب الرأي الثاني للزم أن تكون هذه الآية قد نزلت قبل الشروع في القتال يوم بدر ثم نزلت سورة الأنفال فألحقت الآية بها، وهذا ما لم يقله أحد من أصحاب الأثر.
ولم يستقر من عمل جيوش المسلمين، في غزواتهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومع الأمراء الصالحين في زمن الخلفاء الراشدين، ما ينضبط به مدى الإذن أو المنع من الفرار. وقد انكشف المسلمون يوم أحد فعنّفهم الله تعالى بقوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ } [آل عمران:155]، وما عفا عنهم إلّا بعد أن استحقّوا الاثم.
ولمّا انكشفوا عند لقاء هوازن يوم حنين عنّفهم الله بقوله تعالى { ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ - إلى قوله - ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [التوبة:25-27]، وذكر التوبة يقتضي سبق الإثم.
{ **فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ** } لا توجّهوا إليهم أدباركم.
الأدبار: جمع دُبُر وهو ضد قُبل الشيء، أي: وجهه. ومنه يقال استقبل واستدبر وأقبل وأدبر. وهو كناية عن الفرار من العدو بقرينة ذكره في سياق لقاء العدو.
{ **وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ** } أي: يولّهم دبره حين الزحف.
{ **إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ** } استثني منه حالة التحرّف لأجل الحيلة الحربيّة أوالانحياز إلى فئة من الجيش، للاستنجاد بها أو لإنجادها.
التحرّف: الانصراف إلى الحَرْف، وهو المكان البعيد عن وسطه، فالتحرّف مزايلة المكان المستقر فيه

والعدول إلى أحد جوانبه، وهو يستدعي تولية الظهر لذلك المكان بمعنى الفرار منه.

واللام للتعليل، أي: مجانبة لأجل القتال. فالمراد بهذا التحرّف ما يعبّر عنه بالفرّ لأجلّ الكرّ.

الفئة: الجماعة من النّاس، وقد تقدّم في قوله تعالى { كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ } [البقرة:249].

وتطلق على مؤخّرة الجيش، لأنّها يفيء إليها من يحتاج إلى إصلاح أمره أو من عرض له ما يمنعه من القتال من مرض أو جراحة، أو يستنجد بهم، فهو تولّ لمقصد القتال. وليس المراد أن ينحاز إلى جماعة مستريحين لأنّ ذلك من الفرار.

ويدخل في معنى التحيّز إلى الفئة الرجوع إلى مقر أمير الجيش للاستنجاد بفئة أخرى، وكذلك القفول إلى مقر أمير المصر الذي وجّه الجيش للاستمداد بجيش آخر إذا رأى أمير الجيش ذلك من المصلحة كما فعل المسلمون في فتح إفريقية وغيره في زمن الخلفاء. ولمّا انهزم أبو عبيد بن مسعود الثقفي يوم الجسر بالقادسية، وقتل هو ومن معه من المسلمين، قال عمر بن الخطاب: " هلا تحيز إليَّ فأنا فئته ".

{ **فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** } باء رجع. والمعنى: أن الله غضب عليه في رجوعه ذلك، فهو قد رجع ملابسا لغضب الله تعالى عليه. ومناسبة { بَاءَ } هنا أنّه يشير إلى أنّ سبب الغضب عليه هو ذلك البوء الذي باءه. وهذا غضب الله عليه في الدنيا. ثمّ يترتّب عليه المصير إلى عذاب جهنّم.

فالآية دالة على تحريم التولّي عن مقابلة العدو حين الزحف.

والذي أرى في فقه هذه الآية أن ظاهرها تحريم التولّي على آحادهم وجماعتهم إذا التقوا مع أعدائهم في ملاحم القتال والمجالدة. وعلى هذا، فللمسلمين النظر قبل اللقاء هل هم بحيث يستطيعون الثبات وجهه أو لا، فان وقت المجالدة يضيق عن التدبير. فقد ثبت في الصحيح أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب قام في النّاس فقال: " **يا أيها النّاس لا تتمنوا لقاء العدو فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أنّ الجنّة تحت ظلال السيوف** ".

ولعلّ حكمة ذلك أن يمضي المسلمون في نصر الدين. وعلى هذا الوجه يكون لأمير الجيش، إذا رأى المصلحة في الانجلاء عن دار العدو وترك قتالهم، أن يغادر دار الحرب ويرجع إلى مقرّه، إذا أمن أن يلحق به العدو، وكان له من القوّة ما يستطيع به دفاعهم إذا لحقوا به، فذلك لا يُسمّى تولية أدبار، بل هو رأي ومصلحة، وهذا عندي هو محمل ما روى أبو داود والترمذي، عن عبد الله بن عمر: أنّه كان في سريّة بعثها النبيّ صلى الله عليه وسلم، قال: " فحاص النّاس حَيْصة فكنت فيمن حاص، فلما برزنا قلنا كيف نصنع إذا دخلنا المدينة وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب، ثم قلنا لو عرضنا أنفسنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن كان لنا توبة أقمنا وإن كان غير ذلك ذهبنا قال " فجلسنا لرسول الله قبل صلاة الفجر فلمّا خرج قمنا إليه فقلنا نحن الفرّارون، فاقبل إلينا فقال: **لا بل انتم العكّارون وأنا فئة المسلمين** ". [العكّارون: الذين يكرّون، يقال للرجل إذا ولّى عن الحرب ثم كرّ راجعا إليها عكّر أو اعتكر].

يتأوّل لهم أنّ فرارهم من قبيل قوله تعالى { أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ } قال ابن عمر: " فدنونا فقبّلنا يده". فيُفهم منه أن فرار ابن عمر وأصحابه لم يكن في وقت مجالدتهم المشركين، ولكنه كان انسلالا لينحازوا إلى المدينة، فتلك فئتهم.

وإنما حرم الله الفرار في وقت مناجزة المشركين ومجالدتهم، وهو وقت اللقاء، لأنّ الفرار حينئذ يوقع في الهزيمة الشنيعة والتقتيل، وذلك أنّ الله أوجب على المسلمين قتال المشركين فإذا أقدم المسلمون على القتال لم يكن نصرهم إلّا بصبرهم وتأييد الله إياهم، فلو انكشفوا بالفرار لأعمل المشركون الرماح في ظهورهم فاستأصلوهم، فلذلك أمرهم الله ورسوله بالصبر والثبات، فيكون ما في هذه الآية هو حكم الصبر عند اللقاء.

{ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [17].

{ **فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ** } الأظهر أنّ الفاء فصيحة ناشئة عن جملة { إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ } [12]، تفصح عن مقدّر قبلها شرط أو غيره، والأكثر أن يكون شرطا فتكون رابطة لجوابه. التقدير: هنا، إذا علمتم أنّ الله أوحى إلى الملائكة بضرب أعناق المشركين وقطع أيديهم، فلم تقتلوهم انتم ولكن الله قتلهم، أي: فقد تبيّن أنّكم لم تقتلوهم أنتم.

ويجوز أن تكون الفاء عاطفة على { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ } [15] أي: يتفرّع على النهي عن أن تولّوا المشركين الأدبار تنبيهكم إلى أنّ الله هو الذي دفع المشركين عنكم وأنتم أقل منهم عددا وعدّة. وهو تعريض بضمان تأييد الله إيّاهم. فإنّهم إذا امتثلوا ما أمرهم الله كان الله ناصرهم، وذلك يؤكد الوعيد على تولية الأدبار لأنّه يقطع عذر المتولّين والفارين.

{ **وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى** } استطراد بذكر تأييد إلاهي آخر لم يذكر في الكلام السابق، وهو إشارة إلى ما ذكره المفسرون وابن إسحاق: " أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن حرّض المؤمنين على القتال يوم بدر أتاه جبريل فقال : خذ قبضة من تراب فارمهم بها. فاخذ حفنة من الحصباء فاستقبل بها المشركين ثم قال: " **شاهت الوجوه** " ثم نفحهم بها، ثم أمر أصحابه فقال: شدّوا فكانت الهزيمة على المشركين". فلكون الرمي قصة مشهورة بينهم حُذف مفعول الرمي في المواضع الثلاثة، وهذا أصح الروايات. وفيه روايات أخرى لا تناسب مهيع السورة.

فالخطاب في قوله تعالى { رَمَيْتَ } للنبيّ صلى الله عليه وسلم.

الرمي: حقيقته إلقاء شيء أمسكته اليد، ويطلق الرمي على الإصابة بسوء من فعل أو قول.

وليس المراد نفي وقوع الرمي لأنّ الرمي واقع من يد النبيّ صلى الله عليه وسلم، ولكنّ المراد نفي تأثيره، فإنّ المقصود من ذلك الرمي إصابة عيون أهل جيش المشركين، وما كان ذلك بالذي يحصل

برمي اليد، لأنّ اثر رمي البشر لا يبلغ أثره مبلغ تلك الرمية، فلمّا ظهر من أثرها ما عمّ الجيش كلّهم، عُلم انتفاء أن تكون تلك الرمية مدفوعة بيد مخلوق ولكنّها مدفوعة بقدرة الخالق الخارجة عن الحدّ المتعارف، وأنّ المراد بإثبات الرمي في قوله تعالى { وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى } كالقول في { وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ }.

{ **وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** } فإنّ قتلهم المشركين وإصابة أعينهم كانا الغرض هزم المشركين فهو العلة الأصلية، وله علّة أخرى وهي أن يبلي الله المؤمنين بلاء حسنا، أي: يعطيهم عطاء حسنا يشكرونه عليه، فيظهر ما يدلّ عن قيامهم بشكره ممّا تُختبر به طوّيتهم لمن لا يعرفها، وهذا العطاء هو النصر والغنيمة في الدنيا والجنّة في الآخرة.

{ **وَلِيُبْلِيَ** } أصل مادة هذا الفعل هي البلاء وجاء منه الإبلاء بالهمز، وتصريف هذا الفعل أغفله الراغب في (المفردات) ومن رأيت من المفسرين، وهو مضارع أبْلاه إذا أحسن إليه، مشتقّ من البلاء والبلوى الذي أصله الاختبار، ثم أطلق على إصابة أحد أحدا بشيء يظهر به مقدار تأثّره. والغالب أنّ الإصابة بشرّ، ثم تُوسّع فيه فأطلق على ما يشمل الإصابة بخير قال تعالى { وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً } [الأنبياء:35] وهو إطلاق كنائي. وشاع ذلك الإطلاق الكنائي حتّى صار بمنزلة المعنى الصريح.

{ **إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** } تذييل للكلام، و(إنّ) مقيّدة للتعليل والربط، أي: فعل ذلك لأنّه سميع عليم، فقد سمع دعاء المؤمنين واستغاثتهم.

{ **ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ** } [18].

{ **ذَلِكُمْ** } الإشارة إلى البلاء الحسن وهذه الإشارة لمجرّد تأكيد المقصود من البلاء الحسن، وأنّ ذلك البلاء علّة للتوهين.

{ **وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ** } بفتح همزة (أنّ)، فما بعدها في تأويل مصدر، مجرور بلام التعليل محذوفة. والتقدير: ولتوهين كيد الكافرين.

{ **كَيْدِ الْكَافِرِينَ** } هو قصدهم الإضرار بالمسلمين في صورة ليست ظاهرها بمضرّة، وذلك أنّ جيش المشركين الذين جاؤوا لإنقاذ العير لمّا علموا بنجاة غيرهم، وظنّوا خيبة المسلمين الذين خرجوا في طلبها، أبوا أن يرجعوا إلى مكّة، وأقاموا على بدر لينحروا ويشربوا الخمر ويضربوا الدفوف فرحا وافتخارا بنجاة عيرهم، وليس ذلك لمجرّد اللهو، ولكن ليتسامع العرب فيتساءلوا عن سبب ذلك فيخبَروا بأنّهم غلبوا المسلمين، فيصرفهم ذلك عن اتباع الإسلام، فأراد الله توهينهم بهزمهم تلك الهزيمة الشنعاء، فهو موهن كيدهم في الحال. وتقدّم تفسير الكيد عند قوله تعالى { وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ } [الأعراف:183].

{ **إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ** } [19].

جمهور المفسّرين جعلوا الخطاب موجّها إلى المشركين، فيكون الكلام اعتراضا خُوطب به المشركون في خلال خطبات المسلمين بمناسبة قوله تعالى { ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ } [18]. والخطاب التفات من طريق الغيبة. وذكر المفسّرون في سبب نزولها: أنّ أبا جهل وأصحابه لمّا أزمعوا الخروج إلى بدر استنصروا الله تجاه الكعبة، وأنّهم قبل أن يشرعوا في القتال يوم بدر استنصروا الله أيضا وقالوا : ربّنا افتح بيننا وبين محمد وأصحابه. فخوطبوا بأن قد جاءهم الفتح، على سبيل التهكّم، أي: الفتح الذي هو نصر المسلمين عليهم.

وحمل ابن عطية فعل { جَاءَكُمُ } على معنى: فقد تبيّن لكم النصر ورأيتموه أنّه عليكم لا لكم، وعلى هذا يكون المجيء بمعنى الظهور، ولا يكون في الكلام تهكّم.

{ **وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ** } أي: تنتهوا عن كفركم بعد ظهور الحقّ في جانب المسلمين.

{ **وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ** } أي: إن تعودوا إلى العناد والقتال نعد، أي: نعد إلى هزمكم كما فعلنا بكم يوم بدر.

{ **وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ** } أيْأسهم من الانتصار في المستقبل كلّه، أي: لا تنفعكم جماعتكم على كثرتها كما لم تغن عنكم يوم بدر. فإنّ المشركين كانوا يومئذ واثقين بالنصر على المسلمين لكثرة عَددهم وعُددهم.

{ **وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ** } زيادة في تأييس المشركين من النصر، وتنويه بفضل المؤمنين بأنّ النصر الذي انتصروه هو من الله لا بأسبابهم.

ومن المفسرين من جعل الخطاب بهذه الآية للمسلمين، ونُسب إلى أبي بن كعب وعطاء، لكون خطاب المشركين بعد الهجرة قد صار نادرا لأنّهم أصبحوا بعداء عن سماع القرآن.

الفتح: حقيقته إزالة شيء مجعول حاجزا دون شيء آخر، حفظا له من الضياع أو الافتكاك والسرقة. ويستعار لإعطاء الشيء العزيز النوال استعارة مفردة أو تمثيلية. وقد تقدّم عند قوله تعالى { فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ } [الأنعام:44].

فالاستفتاح هنا طلب الفتح، أي: النصر. وكثر إطلاق الفتح على حلول قوم بأرض أو بلد غيرهم في حرب أو غارة، وعلى النصر، وعلى الحكم، وعلى معان أخر، على وجه المجاز أو الكناية.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ [20] وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ [21] إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ [22] وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ [23] }.

لمّا أراهم آيات لطفه وعنايته بهم، ورأوا فوائد امتثال أمر الرّسول صلى الله عليه وسلم بالخروج إلى بدر، أعقب ذلك بأن أمرهم بطاعة الله ورسوله شكرا على نعمة النصر، واعتبارا بأنّ ما يأمرهم به خير عواقبه، وحذّرهم من مخالفة أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** } افتتاح الخطاب بالنداء للاهتمام بما سيلقى إلى المخاطبين قصدا لإحضار الذهن لوعي ما سيقال لهم. فنزل الحاضر منزلة البعيد، فطُلب حضوره بحرف النداء الموضوع لطلب الإقبال.

والتعريف بالموصوليّة للتنبيه على أنّ الموصوفين بهذه الصلة من شأنهم أن يتقبّلوا ما سيؤمرون به، وأنّه كما كان الشرك مسببا لمشاقة لله ورسوله، فخليق بالإيمان أن يكون باعثا على طاعة الله روسوله.

الطاعة: امتثال الأمر والنهي.

التولّي: الانصراف، وهو مستعار هنا للمخالفة والعصيان.

{ **وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ** } في موضع الحال، والمقصود من هذه الحال تشويه التولّي المنهي عنه. فالمراد بالسمع هنا حقيقته، وذلك لأنّ فائدة السمع العمل بالمسموع، فمن سمع الحقّ ولم يعمل به فهو والذي لا يسمع سواء في عدم الانتفاع بذلك المسموع.

{ **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ** } عن ابن عباس أنّ المراد بهم نفر من قريش، وهم بنو عبد الدار بن قُصي، كانوا يقولون: نحن صمّ بكم عمّا جاء به محمد، فلم يسلم منهم إلّا رجلان؛ مصعب بن عمير وسويبط بن حرملة، وبقيّتهم قتلوا جميعا في أحد، وكانوا أصحاب اللواء في الجاهلية.

ولكن هؤلاء لم يقولوا سمعنا بل قالوا نحن صمّ بكم، فلا يصح أن يكونوا هم المراد بهذه الآية.

<u>وقيل</u>: المراد بهم اليهود، وقد عُرفوا بهذه المقالة، واجهوا بها النبيّ صلى الله عليه وسلم كما نقله القرآن الكريم { وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا } [النساء:46]. <u>وقيل</u>: أريد المنافقون.

{ **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ** } معترضة، وسوقها في هذا الموضع تعريض بالذين

{ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ }، شُبّهوا بدواب صماء بكماء.

{ **شَرّ** } اسم تفضيل، وأصله (أشرّ) فحذفت همزته تخفيفا.

الدواب: هنا معناه الحقيقي. فالإنسان الذي لم ينتفع بمواهبه السامية يصير أحط من العجماوات.

شُبّهوا بالصم في عدم الانتفاع بما سمعوا، وشُبّهوا بالبكم في انقطاع الحجّة والعجز عن رد ما جاءهم به القرآن، فهم ما قبلوه ولا اظهروا عذرا عن عدم قبوله.

ولمّا وصفهم بانتفاء قبول المعقولات والعجز عن النطق بالحجّة اتبعه بانتفاء العقل عنهم، أي: عقل النظر والتأمّل بله عقل التقبّل. وقد وُصف بهذه الأوصاف في القرآن كلّ من المشركين والمنافقين في مواضع كثيرة.

{ **وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأسْمَعَهُمْ** } أي: لو كان في نفوسهم خير. والمعنى: أنّ جبلّتهم لا تقبل دعوة الخير والهداية والكمال، فلذلك انتفى عنهم الانتفاع بما يسمعون من الحكمة والموعظة والإرشاد، فكانوا كالصمّ، وانتفى عنهم أن تصدر منهم الدعوة إلى الخير والكلام بما يفيد كمالا نفسانيا فكانوا كالبكم.

وهي كناية عن عدم استعداد مداركهم للخير، بعلم الله عدم الخير فيهم، ووقع تشبيه عدم انتفاعهم بفهم آيات القرآن بعدم إسماع الله إيّاهم، لأنّ الآيات كلام الله فإذا لم يقبلوها فكأن الله لم يسمعهم كلامه، فالمراد انتفاء الخير الجبلّي عنهم، وهو القابلية للخير. ومعلوم أن انتفاء علم الله بشيء يساوي علمه بعدمه.

{ **وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ** } أي: أنّهم لو قبلوا فهم الموعظة والحكمة فيما يسمعونه من القرآن وكلام النبوّة لغلب ما في نفوسهم من التخلّق بالباطل على ما خالطها من إدراك الخير، فحال ذلك التخلّق بينهم وبين العمل بما علموا، فتولّوا وأعرضوا.

واعلم أن ليس عطف جملة { وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا } على جملة { وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ } بمقصود منه تفرّع الثانية على الأولى تفرّع القضايا بعضها على بعض في تركيب القياس، لأنّ ذلك لا يجيء في القياس الاستثنائي، ولا أنّه من تفريع النتيجة على المقدّمات، لأنّ تفريع الاقيسة بتلك الطريقة، التي تشبه التفريع بالفاء، ليس أسلوبا عربيا.

فالجملتان في هذه الآية كل واحدة منهما مستقلة عن الأخرى، ولا تجمع بينهما إلّا مناسبة المعنى والغرض.

وذلك أنّ (لو) الواقعة في هذه الجملة الثانية من قبيل (لو) المشتهرة بين النحاة بـ (لو الصهيبيّة) بسبب وقوع التمثيل بها بينهم بقول عمر بن الخطاب: " نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه " وذلك أن تستعمل

(لو) لقصد الدلالة على أن مضمون الجزاء مستمر الوجود في جميع الأزمنة والأحوال عند المتكلم.

{ **وَهُمْ مُعْرِضُونَ** } حال من ضمير { لَتَوَلَّوْا }، وهي مبيّنة للمراد من التولّي، وهو معناه المجازي، وصوغ هذه الجملة بصيغة الجملة الاسمية للدلالة على تمكّن إعراضهم.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } [24].

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ** }

افتتاح السورة كان بالأمر بالطاعة والتقوى، ثم بيان أنّ حق المؤمنين الكُمّل أن يخافوا الله ويطيعوه

ويمتثلوا أمره وإن كانوا كارهين، وضرب لهم مثلا بكراهتهم الخروج إلى بدر، ثم بكراهتهم لقاء النفير، وأوقفهم على ما اجتنوه من بركات الامتثال، وكيف أيّدهم الله بنصره ونصب لهم عليه أمارة الوعد بإمداد الملائكة لتطمئن قلوبهم بالنصر وما لطف بهم من الأحوال، وجعل ذلك كلّه إقناعا لهم بوجوب الثبات في وجه المشركين عند الزحف، ثم عادا إلى الأمر بالطاعة وحذّرهم من أحوال الذين يقولون سمعنا وهم لا يسمعون، وأعقب ذلك بالأمر بالاستجابة للرّسول إذا دعاهم إلى شيء، فإنّ في دعوته إيّاهم إحياء لنفوسهم، وأعلمهم أنّ الله يُكسب قلوبهم بتلك الاستجابة قوى قدسيّة.

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** } اختير في تعريفهم، عند النداء، وصف الإيمان ليوميء إلى التعليل، كما تقدّم في الآيات من قبل، أي: أنّ الإيمان هو الذي يقتضي أن يثقوا بعناية الله بهم فيمتثلوا أمره إذا دعاهم.

الاستجابة: الإجابة، والسين والتاء فيها للتأكيد، وقد غلب استعمال الاستجابة في إجابة طلب معين أو في الأعم. وتقدّم ذلك عند قوله تعالى { فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ } [آل عمران:195].

{ **وَلِلرَّسُولِ** } إعادة حرف (اللام) بعد واو العطف للإشارة إلى استقلال المجرور بالتعلّق بفعل الاستجابة، تنبيها على أنّ استجابة الرّسول صلى الله عليه وسلم أعمّ من استجابة الله، لأنّ الاستجابة لله لا تكون إلّا بمعنى المجاز، وهو الطاعة، بخلاف الاستجابة للرسول عليه الصلاة والسلام فإنّها بالمعنى الأعم الشامل للحقيقة وهو استجابة ندائه، وللمجاز وهو الطاعة. فأريد أمرهم بالاستجابة للرّسول بالمعنيين.

{ **إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ** } ليس قيدا للأمر بالاستجابة ولكنّه تنبيه على أنّ دعاءه إيّاهم لا يكون إلّا إلى ما فيه خير لهم وإحياء لأنفسهم، أي: لأجل ما هو سبب حياتكم الروحيّة.

الإحياء: تكوين الحياة في الجسد، والحياة قوّة بها يكون الإدراك والتحرك بالاختيار، ويستعار الإحياء تبعا للصفة أو القوّة التي بها كمال موصوفها، مثل حياة الأرض بالإنبات وحياة العقل بالعلم وسداد الرأي. وضدّها الموت في المعاني الحقيقية والمجازية.

والإحياء هنا مستعار لإعطاء الإنسان ما به كماله، فيعمّ كلّ ما به ذلك الكمال من إنارة العقول بالاعتقاد الصحيح والخلق الكريم، والدلالة على الأعمال الصالحة، وما يتقوّم به ذلك من الخلال الشريفة العظيمة، فالشجاعة حياة للنفس، والاستقلال حياة، والحرّيّة حياة، واستقامة أحوال العيش حياة.

{ **وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** } مقتضى ارتباط نظم الكلام يوجب أن يكون مضمون هذه الجملة مرتبطا بمضمون الجملة التي قبلها فيكون عطفها عليها عطف التكملة، والجملتان مجعولتان آية واحدة في المصحف.

{ **وَاعْلَمُوا** } للاهتمام بما تتضمّنه، وحثّ المخاطبين على التأمّل فيما بعده، وذلك من أساليب الكلام البليغ أنّ يُفتتح بعض الجمل المشتملة على خبر أو طلب مهم بـ (اعلم - تعلم) لفتا لذهن المخاطب.

وفيه تعريض غالبا بغفلة المخاطب عن أمر مهم. من ذلك قوله تعالى { اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [المائدة:196]. وفي الحديث أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لأبي مسعود الأنصاري وقد رآه يضرب عبدا له: **" اعلم أبا مسعود أنّ الله أقدر عليك منك على هذا الغلام "**.

و{ أَنَّ } بعد هذا الفعل مفتوحة الهمزة حيثما وقعت.

الحول: ويقال الحُؤُل، منع شيئين أو أشياء من الاتصال. قال تعالى { وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ } [هود:43]. وإسناد الحول إلى الله مجاز عقلي لأنّ الله منزّه عن المكان. والمعنى: واعلموا أنّ علم الله يخلص بين المرء وعقله خلوص الحائل بين شيئين، فإنّه يكون شديد الاتصال بكليهما .

{ **الْمَرْءِ** } المراد هنا عمله وتصرفاته الجسمانية. وجيء بصيغة المضارع للدلالة على أنّ ذلك يتجدّد ويستمر، وهذا في معنى قوله تعالى { وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ } [ق:16]، قاله قتادة.

والمقصود تحذير المؤمنين من التراخي في الاستجابة إلى دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم، والتنصّل منها، أو التستّر في مخالفته، وهو معنى قوله تعالى { وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ } [البقرة:235].

{ **وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** } كان ما قبله تحذيرا وكان هو تهديدا. وتقديم متعلق { تُحْشَرُونَ } عليه لإفادة الاختصاص، أي: إليه لا إلى غيره تحشرون، وهذا الاختصاص للكناية عن انعدام ملجإ أو مخبإ تلتجئون إليه من الحشر إلى الله، فكُنّي عن انتفاء المكان بانتفاء محشور إليه غير الله بأبدع أسلوب. وليس الاختصاص لرد اعتقاد، لأنّ المخاطبين بذلك هم المؤمنون، فلا مقتضى لقصر الحشر على الكون إلى الله بالنسبة إليهم.

{ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } [25].

تحذير المستجيبين من إعراض المعرضين، ليعلموا أنّهم قد يلحقهم أذى من جرّاء فعل غيرهم إذا هم لم يقوّموا عوج قومهم، كيلا يحسبوا أنّ امتثالهم كاف إذا عصى دهماؤهم، فحذّرهم فتنة تلحقهم فتعم الظالم وغيره.

فإنّ المسلمين إن لم يكونوا كلمة واحدة في الاستجابة لله وللرسول عليه الصلاة والسلام، دبّ بينهم الاختلاف واضطربت أحوالهم واختل نظام جماعتهم باختلاف الآراء، وذلك الحال هو المُعبّر عنه بالفتنة.

الفتنة: اضطراب الآراء، واختلال السير، وحلول الخوف والحذر في نفوس النّاس. وقد تقدّم ذكر الفتنة في قوله تعالى { وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ } [البقرة:91].

فعلى عقلاء الأقوام وأصحاب الأحلام منهم إذا رأوا دبيب الفساد في عامتهم أن يبادروا للسعي إلى بيان ما حلّ بالنّاس من الضلال في نفوسهم، وأن يكشفوا لهم ماهيته وشبهته وعواقبه، وأن يمنعوهم منه بما

أوتوه من الموعظة والسلطان، ويزجروا المفسدين عن ذلك الفساد حتّى يرتدعوا، فإن هم تركوا ذلك، وتوانوا فيه لم يلبث الفساد أن يسري في النفوس وينتقل بالعدوى من واحد إلى غيره، حتّى يعمّ أو يكاد، فيعسر اقتلاعه من النفوس، وذلك الاختلال يفسد على الصالحين صلاحهم وينكّد عيشهم على الرغم من صلاحهم واستقامتهم. فظهر أنّ الفتنة إذا حلّت بقوم لا تصيب الظالم خاصة بل تعمّه والصالح، فمن أجل ذلك وجب اتقاؤها على الكلّ لأنّ أضرار حلولها تصيب جميعهم.

جاء في الصحيح أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: **" مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم فقالوا لو أنّا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وأن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا "**. وفي صحيح مسلم عن زينب بنت جحش أنّها قالت: " يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون قال" **نعم إذا كثر الخبث ثم يحشرون على نيّاتهم"**.

{ **لا تُصِيبَنَّ** } نهيا مستأنفا تأكيدا للأمر باتقائها مع زيادة التحذير بشمولها من لم يكن من الظالمين.

{ **خَاصَّةً** } اسم فاعل مؤنث لجريانه على { فِتْنَةً } فهو منتصب على الحال من ضمير { تُصِيبَنَّ } وهي حال مفيدة لأنها المقصود من التحذير.

{ **وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** } فعل الأمر بالعلم للاهتمام لقصد شدّة التحذير، كما تقدّم آنفا، والمعنى أنّه شديد العقاب لمن يخالف أمره.

{ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [26].

تذكيرهم بنعمة الله عليهم بالعزّة والنصر، بعد الضعف والقلّة والخوف، ليذكروا كيف يسّر الله لهم أسباب النصر من غير مظانها، حتّى أوصلهم إلى مكافحة عدوّهم وأن يتقي أعداؤهم بأسهم، فكيف لا يستجيبون لله فيما بعد ذلك وهم قد كثروا وعزّوا وانتصروا. فالخطاب للمؤمنين يومئذ، ومجيء هذه الخطابات بعد وصفهم بالذين آمنوا إيماء إلى أنّ الإيمان هو الذي ساق لهم هذه الخيرات كلّها.

{ **وَاذْكُرُوا** } مشتق من الذُكر (بضم الذال) وهو التذكّر لا ذكر اللسان، أي: تذكّروا.

{ **إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ** } جيء بالجملة الاسمية للدلالة على ثبات وصف القلّة والاستضعاف فيهم.

{ **قَلِيلٌ** } مفرد عن ضمير الجماعة، لأنّ (قليلا وكثيرا) قد يجيئان غير مطابقين لما جريا عليه، كما تقدّم عند قوله تعالى { مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ } [آل عمران:146].

{ **فِي الْأَرْضِ** } يراد بها الدنيا كما تقدّم عند قوله تعالى { وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ } [الأعراف:56]، أو أريد بها ارض مكّة، فالتعريف للعهد، والمعنى تذكير المؤمنين بأيام إقامتهم بمكة مستضعفين بين

المشركين، فإنّهم كانوا حينئذ طائفة قليلة العدد.

التخطّف: شدّة الخطف، والخطف الأخذ بسرعة، وتقدّم عند قوله تعالى { يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ } [البقرة:20]. وهو هنا مستعار للغلبة السريعة، لأنّ الغلبة شبه الأخذ، فإذا كانت سريعة أشبهت الخطف. قال تعالى { وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ } [العنكبوت:27].

أي: يأخذكم أعداؤكم بدون كبرى مشقه ولا طول محاربة، وكانوا أشدّ منكم قوّة، لولا أنّ الله صرفهم عنكم، وقد كان المؤمنون خائفين في مكّة، وكانوا خائفين في طرق هجرتيهم، وكانوا خائفين يوم بدر، حتّى أذاقهم الله نعمة الأمن من بعد يوم بدر.

{ **النَّاسُ** } المشركون من أهل مكّة وغيرهم.

الإيواء: جعل الغير آويا، أي: راجعا إلى الذي يحفظه، فيؤول معناه إلى الحفظ والرعاية.

التأييد: التقوية، أي: جعل الشيء ذا أيد، لأنّ اليد يكنّى بها عن القدرة. قال تعالى {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ} [ص:17].

{ **وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ** } إدماج بذكر نعمة توفير الرزق في خلال المنّة بنعمة النصر وتوفير العدد بعد الضعف والقلة فإنّ الأمن ووفرة العدد يجلبان سعة الرزق.

{ **لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** } تنبيه من الله تعالى، فلما أعطوا حق الشكر دام أمرهم في تصاعد، وحين نسوه اخذ أمرهم في تراجع، ولله عاقبة الأمور.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ [27] وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ [28] }.

استئناف خطاب للمؤمنين يحذّرهم من العصيان الخفيّ، بعد أن أمرهم بالطاعة والاستجابة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم، حذّرهم من أن يظهروا الطاعة والاستجابة ويبطنوا المعصية والخلاف. ومناسبته لما قبله ظاهرة وإنّ لم تسبق من المسلمين خيانة وإنّما هو تحذير.

وذكر الواحدي في (أسباب النزول)، وروى جمهور المفسّرين وأهل السير، عن الزهري والكلبي، وعبد الله بن أبي قتادة، أنّها نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر الأنصاري، لمّا حاصر المسلمون بني قريظة، فسألت بنو قريظة الصلح فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **تنزلون على حكم سعد بن معاذ** " فأبوا وقالوا: " أرسل إلينا أبا لبابة فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم أبا لبابة، وكان ولده وعياله وماله عندهم، فلما جاءهم قالوا له ما ترى أننزل على حكم سعد، فأشار أبو لبابة بيده على حلقه، أنّه الذبح، ثم فطن أنّه قد خان الله ورسوله فنزلت فيه هذه الآية .

وهذا الخبر لم يثبت في الصحيح ولكنّه اشتهر بين أهل السير والمفسّرين، فإذا صحّ، وهو الأقرب، كانت الآية مما نزل بعد زمن طويل من وقت نزول الآيات التي قبلها، المتعلقة باختلاف المسلمين في أمر

الأنفال فإنّ بين الحادثتين نحوا من ثلاث سنين، ويقرب هذا ما أشرنا إليه آنفا من انتفاء وقوع خيانة لله ورسوله بين المسلمين.

الخون والخيانة: إبطال ونقض ما وقع عليه التعاقد من دون إعلان بذلك النقض، قال تعالى { وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ } [الأنفال: 58] وهي ضد الوفاء. قال الزمخشرى: " وأصل معنى الخون النقص، كما أنّ أصل الوفاء التمام".

فالإيمان والطاعة لله ورسوله عهد بين المؤمن وبين الله ورسوله، فكما حُذّروا من المعصية العلنية حُذّروا من المعصية الخفية. وتشمل الخيانة كل معصية خفيّة، فهي داخلة في { لا تَخُونُوا }، لأنّ الفعل في سياق النهي يعم، فكل معصية خفيّة فهي مراد من هذا النهي، فتشمل الغلول الذي حاموا حوله في قضية الأنفال، لأنّهم لما سأل بعضهم النفل، وكانوا قد خرجوا يتتبعون آثار القتلى لينتفلوا منهم، تعيّن تحذيرهم من الغلول، فذلك مناسبة وقع هذه الآية من هذه الآيات سواء صح ما حكي في سبب النزول أم كانت متصلة النزول بقريناتها.

الأمانة: اسم لما يحفظه المرء عند غيره، مشتقّة من الأمن لأنّه يأمنه من أن يضيّعها، والأمين الذي يحفظ حقوق من يواليه، وإنّما أضيفت الأمانات إلى المخاطبين مبالغة في تفظيع الخيانة.

وللأمانة شأن عظيم في استقامة أحوال المسلمين، ما ثبتوا عليها وتخلّقوا بها، وهي دليل نزاهة النفس واعتدال أعمالها، وقد حذّر النبيّ صلى الله عليه وسلم من أضاعتها والتهاون بها، وأشار إلى أنّ في إضاعتها انحلال أمر المسلمين. ففي صحيح البخاري عن حذيفة بن اليمان قال: " حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين: رأيت أحدهما وأنا انتظر الآخر، حدثنا: **أنّ الأمانة نزلت على جَذْر قلوب الرجال ثم عَلِموا من القرآن ثم عَلِموا من السنة**، وحدثنا عن رفعها فقال: **ينام الرجل النومة فتقبض من قلبه فيظل أثرها مثل الوكْت، ثم ينام النومة فتُقبض فيبقى أثرها مثل أثر المَجْل كجَمْر دَحْرَجْتَهُ على رجلك فَنَفِطَ فتراه مُنْتَبِرًا وليس فيه شيء، ويصبح الناس يتبايعون ولا يكاد أحد يؤدي الأمانة فيقال إنّ في بني فلان رجلا أمينا ويقال للرجل ما أعقله وما أظرفه وما أجلده، وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان."**

(**الوكت:** سواد يكون في البسر إذا قارب أن يصير رطبا. و**المجل**: غلظ الجلد من أثر العمل والخدمة. و**نفط** : تقرّح. و**منتبرا**: منتفخا).

وقد جعلها النبيّ صلى الله عليه وسلم من الإيمان إذ قال في آخر الأخبار عنها: **وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان**.

وحسبك من رفع شأن الأمانة أن كان صاحبها حقيقا بولاية أمر المسلمين لأنّ ولاية أمر المسلمين أمانة لهم ونصح، ولذلك قال عمر بن الخطاب حين أوصى بأن يكون الأمر شورى بين ستة: " ولو كان أبو عبيدة ابن الجراح حيا لعهدت إليه لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم له " **إنّه أمين هذه الأمة** ".

{ **وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ** } في موضع الحال من ضمير { تَخُونُوا } الأوّل والثاني، وهي حال كاشفة والمقصود منها تشديد النهي، أو تشنيع المنهي عنه، لأنّ النهي عن القبيح في حال معرفة المنهي أنّه قبيح يكون أشدّ. وليس المراد تقييد النهي عن الخيانة بحالة العلم بها، لأنّ ذلك قليل الجدوى، فإنّ كلّ تكليف مشروط بالعلم وكون الخيانة قبيحة أمر معلوم.

{ **وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ** } هذا تنبيه على الحذر من الخيانة التي يحمل عليها المرء حبّ المال وهي خيانة الغلول وغيرها، فتقديم الأموال لأنّها مظنّة الحمل على الخيانة في هذا المقام، وعطف الأولاد على الأموال لاستيفاء أقوى دواعي الخيانة، فإنّ غرض جمهور النّاس في جمع الأموال أن يتركوها لأبنائهم من بعدهم، وقد كثرفي القرآن قرن الأموال والأولاد في التحذير.

{ **وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ** } للإشارة إلى أنّ ما عند الله من الأجر على كفّ النفس عن المنهيات هو خير من المنافع الحاصلة عن اقتحام المناهي لأجل الأموال والأولاد.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ } [29].

خوطب المؤمنون بوصف الإيمان تذكيرا لهم بعهد الإيمان وما يقتضيه، كما تقدم آنفا في نظائره، وعُقّب التحذير من العصيان والتنبيه على سوء عواقبه بالترغيب في التقوى وبيان حسن عاقبتها، وبالوعد بدوام النصر واستقامة الأحوال إن هم داموا على التقوى.

الفرقان: أصله مصدر كالشكران والغفران، وهو ما يفرّق، أي: يميّز بين شيئين متشابهين. وقد أطلق بالخصوص على أنواع من التفرقة فأطلق على النصر، لأنّه يفرق بين حالين كانا محتملين. ولُقّب القرآن بالفرقان لأنّه فرّق بين الحق والباطل، قال تعالى { تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ } [الفرقان:1].

عن ابن وهب وابن القاسم وأشهب أنّهم سألوا مالكا عن قوله تعالى { يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً } قال: **مخرجا**، ثم قرأ { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ } [الطلاق:3]. وفُسّر **بالتمييز** بينهم وبين الكفار في الأحوال التي يستحب فيها التمايز في أحوال الدنيا، فيشمل ذلك أحوال النفس، من الهداية والمعرفة والرضى وانشراح القلب وإزالة الحقد والغل والحسد بينهم والمكر والخداع.

{ **لَكُمْ** } أشعر أنّ الفرقان شيء نافع لهم، فالظاهر أنّ المراد منه كلّ ما فيه مخرج لهم ونجاة من التباس الأحوال وارتباك الأمور وانبهام المقاصد، فيؤول إلى استقامة أحوال الحياة، حتّى يكونوا مطمئني البال منشرحي الخاطر، وذلك يستدعي أن يكونوا منصورين، كَمَلَةُ الأخلاق، سائرين في طريق الحق والرشد. وذلك هو ملاك استقامة الأمم. فاختيار الفرقان هنا من تمام الفصاحة.

{ **وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ** } تكفير السيئات يصحّ أن يكون المراد به تكفير السيئات الفارطة التي

تعقبها التقوى. ومفعول { يَغْفِرْ لَكُمْ } محذوف وهو ما يستحق الغفران وذلك هو الذنب. ويتعيّن أن يحمل على نوع من الذنوب، وهو الصغائر التي عبّر عنها باللمم.

ويجوز العكس بأن يراد بالسيّئات الصغائر وبالمغفرة مغفرة الكبائر بالتوبة المعقبة لها.

وقيل: التكفير الستر في الدنيا، والغفران عدم المؤاخذة بها في الآخرة.

والحاصل أنّ الإجمال مقصود للحثّ على التقوى وتحقّق فائدتها والتعريض بالتحذير من التفريط فيها.

{ **وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** } تذييل وتكميل وهو كناية عن حصول منافع أخرى لهم من جراء التقوى.

{ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ } [30].

يجوز أن يكون عطف قصة على قصة من قصص تأييد الله رسوله عليه الصلاة والسلام والمؤمنين فيكون

{ إِذْ } متعلقا بفعل محذوف تقديره واذكر إذ يمكر بك الذين كفروا، على طريقة نظائره الكثيرة في القرآن.

ويجوز أن يكون عطفا على قوله تعالى { إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ } [26]، فهو متعلّق بفعل { اذْكُرُوا } من قوله تعالى { وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ } [26]، فإنّ المكر بالرسول عليه الصلاة والسلام مكر بالمسلمين، ويكون ما بينهما اعتراضا. فهذا تعداد لنعم النصر التي أنعم الله بها على رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين في أحوال ما كان يظنّ الناس أن سيجدوا منها مخلصا.

وهذه نعمة خاصة بالنبيّ صلى الله عليه وسلم. والإنعام بحياته وسلامته نعمة تشمل المسلمين كلهم، والقصّة تذكير بأيّام مقامهم بمكة، وما لاقاه النبيّ صلى الله عليه وسلم، وما لاقاه المسلمون عموما.

المكر: إيقاع الضرّ خفية، وتقدّم عند قوله تعالى { وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ } [آل عمران:45].

{ **لِيُثْبِتُوكَ** } ليحبسوك، يقال: أثبته إذا حبسه ومنعه من الحركة وأوثقه.

وأشارت الآية إلى تردّد قريش في أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم حين اجتمعوا للتشاور في ذلك بدار الندوة في الأيام الأخيرة قبيل هجرته، فقال أبو البختري: إذا أصبح فأثبتوه بالوثائق وسدّوا عليه باب بيت غير كوة تلقون إليه منها الطعام. وقال أبو جهل: أرى أن نأخذ من كل بطن في قريش فتى جَلْدا فيجتمعون ثم يأخذ كل واحد منهم سيفا ويأتون محمدا في بيته فيضربونه ضربة رجل واحد فلا تقدر بنو هاشم على قتال قريش بأسرها فيأخذون العقل ونستريح منه، وقال هشام بن عمرو: الرأي أن تحملوه على جمل وتخرجوه من بين أظهركم فلا يضرّكم ما صنع.

{ **وَيَمْكُرُونَ** } لم أر أحدا من المفسّرين عرّج على بيان موقع الواو، وهي تحتمل وجهين:

أحدهما، أن تكون واو الحال، والجملة حال من { الَّذِينَ كَفَرُوا } وهي حال مؤسِّسة غير مؤكِّدة، والمضارع في { وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ } لاستحضار حالة المكر.

ثانيهما، أن تكون واو الاعتراض، أي: العطف الصوري، ويكون المراد بالفعل المعطوف الدوام، أي: هم مكروا بك ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك وهم لا يزالون يمكرون.

{ **وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** } بيان معنى إسناد المكر إلى الله تقدّم في [آل عمران:54] و[الأعراف:99].

والذين تولّوا المكر هم سادة المشركين وكبراؤهم وأعوان أولئك الذين كان دأبهم الطعن في نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم وفي نزول القرآن عليه، وإنّما أسند إلى جميع الكافرين لأنّ البقية كانوا أتباعا للزعماء يأتمرون بأمرهم.

{ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } [31].

انتقال إلى ذكر بهتان آخر من حجج هؤلاء المشركين، عطف على قوله تعالى { وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ } [23]. وهذا القول مقالة المتصدّين للطعن على الرسول صلى الله عليه وسلم، ومحاجّته، والتشغيب عليه، منهم النضر بن الحارث، وطُعيمة بن عدي، وعقبة بن أبي مُعَيط.

{ **قَدْ سَمِعْنَا** } قد فهمنا ما تحتوي عليه، لو نشاء لقلنا مثلها، وإنّما اهتموا بالقصص ولم يتبيّنوا مغزاها ولا ما في القرآن من الآداب والحقائق.

ومن عجيب بهتانهم أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم تحدّاهم بمعارضة سورة من القرآن، فعجزوا عن ذلك وأفحموا، ثم اعتذروا بأنّ ما في القرآن أساطير الأوّلين وأنّهم قادرون على الإتيان بمثل ذلك.

قيل: قائل ذلك هو النضر بن الحارث من بني عبد الدار، كان رجلا من مردة قريش ومن المستهزئين، وكان كثير الأسفار إلى الحيرة والى أطراف بلاد العجم في تجارته، فكان يلقى بالحيرة ناسا من العِبَاد [بتخفيف الباء اسم طائفة من النصارى] فيحدّثونه من أخبار الإنجيل.

{ **لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا** } إيهام بأنّهم ترفّعوا عن معارضته، وأنّهم لو شاؤوا لنقلوا من أساطير الأولين إلى العربية ما يوازي قصص القرآن، وهذه وقاحة، وإلّا فما منعهم أن يشاؤوا معارضة من تحدّاهم وقرعهم بالعجز بقوله تعالى { فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا } [البقرة:24].

الأساطير: جمع أسطورة (بضم الهمزة) وهي القصّة، وتقدّم عند قوله تعالى { حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } [الأنعام:25].

{ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ [32] وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ [33]

قائل هذه المقالة هو النضر بن الحارث صاحب المقالة السابقة، وقالها أيضا أبو جهل. وكلامهم هذا جار مجرى القَسَم، وذلك أنّهم يقسمون بطريقة الدعاء على أنفسهم. وهم يحسبون أنّ دعوة المرء على نفسه مستجابة. وهذه طريقة شهيرة في كلامهم.

وقد كانوا لجهلهم وضلالهم يحسبون أنّ الله يتصدّى لمخاطرتهم، فإذا سألوه أن يمطر عليهم حجارة إن كان القرآن حقا منه أمطر عليهم الحجارة. وأرادوا أن يظهروا لقومهم صحة جزمهم بعدم حقّية القرآن فأعلنوا الدعاء على أنفسهم بأن يصيبهم عذاب عاجل إن كان القرآن حقّا من الله ليستدلوا بعدم نزول العذاب على أنّ القرآن ليس من عند الله، وذلك في معنى القسم كما علمت.

{ **مِنْ عِنْدِكَ** } حال من الحقّ، أي: منزلا من عندك فهم يطعنون في كونه حقا وفي كونه منزلا من عند الله.

{ **مِنَ السَّمَاءِ** } وصف لحجارة، أي: حجارة مخلوقة لعذاب من تصيبه، لأنّ الشأن أن مطر السماء لا يكون بحجارة.

{ **أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** } ذكروا عذابا خاصا وهو مطر الحجارة ثم عمّموا، يريدون بذلك كلّه عذاب الدنيا، لأنّهم لا يؤمنون بالآخرة. وكانت الآية نزلت بعد أن حقّ العذاب على قائلي هذا القول وهو عذاب القتل المهين بأيدي المسلمين يوم بدر، وكان العذاب قد تأخّر عنهم زمنا اقتضته حكمة الله.

{ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ** } كناية عن استحقاقهم العذاب، وإعلام بكرامة رسوله صلى الله عليه وسلم عنده، لأنّه جعل وجوده بين ظهراني المشركين مع استحقاقهم العقاب سببا في تأخير العذاب عنهم. وهذه مكرمة أكرم الله بها نبيّه محمدا صلى الله عليه وسلم فجعل وجوده في مكان مانعا من نزول العذاب على أهله.

قال ابن عطية: قالت فرقه نزلت هذه الآية كلّها بمكة.

{ **وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** } أشكل على المفسّرين نظمها، وحمل ذلك بعضهم على تفكيك الضمائر، فجعل ضمائر الغيبة من { يُعَذِّبَهُمُ / فِيهِمْ / مُعَذِّبَهُمْ } للمشركين، وجعل ضمير{ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } للمسلمين.

<u>والذي يظهر</u> أنّها جملة معترضة انتُهزت بها فرصة التهديد بتعقيبه بترغيب على عادة القرآن في تعقيب الوعيد بالوعد، فبعد أن هدّد المشركين بالعذاب ذكّرهم بالتوبة من الشرك بطلب المغفرة من ربّهم بأن يؤمنوا بأنّه واحد، ويصدّقوا رسوله. فهو وعد بأنّ التوبة من الشرك تدفع عنهم العذاب وتكون لهم أمنا وذلك هو المراد بالاستغفار.

وقد دلت الآية على فضيلة الاستغفار وبركته بإثبات بأنّ المسلمين آمنوا من العذاب الذي عذب الله به

الأمم لأنّهم استغفروا من الشرك باتباعهم الإسلام. روى الترمذي عن أبي موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **أنزل الله عليّ أمانين لأمتي** { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } **فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة** ".

{ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } [34].

ارتقاء في بيان أنّهم أحقّاء بتعذيب الله إيّاهم، بيانا بالصراحة.

{ **وَمَا لَهُمْ** } (مَا) استفهامية، والاستفهام إنكاري، وهي في محل المبتدإ و{ لَهُمْ } خبره، واللام للاستحقاق، والتقدير: ما الذي ثبت لهم لأن ينتفي عنهم عذاب الله.

{ **أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ** } التقدير: أنّهم لا شيء يمنعهم من العذاب. فاللفظ نفي لمانع الفعل. والمقصود أن الفعل توفرت أسبابه ثم انتفت موانعه.

{ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ }.

الصدّ: الصرف، والمفعول محذوف دلّ عليه السياق، أي: يصدّون المؤمنين عن المسجد الحرام.

فكان الصدّ عن المسجد الحرام جريمة عظيمة يستحقّ فاعلوه عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة، لأنّه يؤول إلى الصدّ عن التوحيد.

وهذا الصدّ الذي ذكرته الآية هو عزمهم على صدّ المسلمين المهاجرين عن أن يحجّوا ويعتمروا.

في الكشّاف: " كانوا يقولون نحن وُلَاة البيت والحرم فنصدّ من نشاء وندخل من نشاء". وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود، أنّه حدّث عن سعد بن معاذ: " أنّه كان صديقا لأميّة بن خلف، وكان أميّة إذا مرّ بالمدينة نزل على سعد، وكان سعد إذا مرّ بمكّة نزل على أميّة، فلمّا هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة انطلق سعد معتمرا فنزل على أميّة بمكة فقال لأمّيّة انظر لي ساعة خلوة لعلي أطوف بالبيت فخرج قريبا من نصف النهار، فلقيهما أبو جهل، فقال: يا أبا صفوان (كنية أمية بن خلف) من هذا معك ؟ فقال: هذا سعد، فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بالبيت آمنا وقد آويتم الصباة، أمّا والله لولا أنّك مع أبي صفوان ما رجعت إلى اهلك سالما ".

{ **وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ** } إظهار اعتدائهم في صدّهم عن المسجد الحرام.

{ **إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ** } تعيين لأوليائه الحقّ، فهي بمنزلة الدليل على نفي ولاية المشركين.

{ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** } نُفي العلم عن أكثرهم دون أن يقال: ولكنهم لا يعلمون، فاقتضى أنّ منهم من يعلم أنّهم ليسوا أولياء المسجد الحرام، وهم من أيقنوا بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم واستفاقوا من غفلتهم القديمة، ولكن حملهم على المشايعة للصّادين عن المسجد الحرام العناد وطلب الرئاسة، وموافقة الدهماء على ضلالهم، وهؤلاء هم عقلاء أهل مكّة ومن تهيّأ للإيمان منهم مثل: العبّاس، وعقيل بن أبي

طالب، وأبي سفيان بن حرب، وحكيم بن حزام، وخالد بن الوليد ومن استبقاهم الله للإسلام فكانوا من نُصرائه من بعد نزول هذه الآية.

{ وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ } [35].

معطوفة على { وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ }، فمضمونها سبب ثان لاستحقاقهم العذاب، وموقعها، عقب جملة { وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ } يجعلها كالدليل المقرّر لانتفاء ولايتهم للمسجد الحرام، لأنّ من كان يفعل مثل هذا عند مسجد الله لم يكن من المتقين، فكان حقيقا بسلب ولاية المسجد عنه.

المُكَاء: على صيغة مصادر الأصوات كالرغاء والثغاء والبكاء والنواح. يقال مَكَا يمْكُو إذا صفّر بفيه ومنه سُمِّي نوع من الطير المَكّاء (بفتح الميم وتشديد الكاف) وجمعه مكاكيء (بهمزة في آخره بعد الياء) وهو طائر أبيض يكون بالحجاز.

التصدية: التصفيق مشتقا من الصدى وهو الصوت الذي يردّه الهواء محاكيا لصوت صائح في البراح من جهة مقابلة.

ولا تعرف للمشركين صلاة، فتسمية مكائهم وتصديتهم صلاة مشاكلة تقديريّة، لأنّهم لمّا صدّوا المسلمين عن الصلاة وقراءة القرآن في المسجد الحرام عند البيت، كان من جملة طرائق صدّهم إيّاهم تشغيبهم عليهم وسخريتهم بهم بالمكاء والتصدية. قال مجاهد فعل ذلك نفر من بني عبد الدار يخلطون على محمد صلاته، وبنو عبد الدار هم سدنة الكعبة وأهل عمارة المسجد الحرام، فلمّا فعلوا ذلك للاستسخار من الصلاة سُمّي فعلهم ذلك صلاة على طريقة المشاكلة التقديرية. والمشاكلة ترجع إلى استعارة علاقتها المشاكلة اللفظية أو التقديرية، <u>فلم تكن للمشركين صلاة بالمكاء والتصدية. وهذا الذي نحاه حذّاق المفسرين</u>: مجاهد، وابن جبير، وقتادة.

<u>ومن المفسرين</u> من ذكر أنّ المشركين كانوا يطوفون بالبيت عراة ويمكون ويصفّقون. روي عن ابن عباس كانت قريش يطوفون بالبيت عراة يصفّقون ويصفّرون.

{ فَذُوقُوا الْعَذَابَ } الأمر هنا للتوبيخ والتغليظ، وذلك هو العذاب الذي حلّ بهم يوم بدر.

{ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ } أي: بكفركم. وعُبّر هنا بـ { تَكْفُرُونَ } وفي [الأعراف:39] بـ { تَكْسِبُونَ } لأنّ العذاب المتحدّث عنه هنا لأجل الكفر، والمتحدّث عنه في الأعراف لأجلّ الكفر والإضلال وما يجرّه الإضلال من الكبرياء الرئاسة.

{ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ [36] لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ [37]** }.

لما ذُكر صدّهم المسلمين عن المسجد الحرام الموجب لتعذيبهم، عُقّب بذكر محاولتهم استئصال المسلمين وصدّهم عن الإسلام، وهو المعني بـ { **سَبِيلِ اللَّهِ** }، وجُعلت الجملة مستأنفة غير معطوفة اهتماما بها.

أي: أنّهم ينفقون أموالهم للصدّ عن الإسلام.

الانفاق: كانوا يطعمون جيشهم يوم بدر اللحم كلّ يوم، وكان المطعمون اثني عشر رجلا وهم: (أبو جهل، وأمية بن خلف، والعباس بن عبد المطلب، وعتبة بن ربيعة، والحارث بن عامر بن نوفل، وطُعيمة بن عدي بن نوفل، وأبو البَختري، والعاصي بن هشام، وحكيم بن حزام، والنضر بن الحارث، ونُبيه بن حجاج السهمي، وأخوه مُنبه، وسهيل بن عمرو العامري). كانوا يطعمون في كل يوم عشر جزائر.

وهذا الإنفاق وقع يوم بدر، وقد مضى، فالتعبير عنه بصيغة المضارع لاستحضار حالة الإنفاق وأنّها حالة عجيبة في وفرة النفقات.

{ **فَسَيُنْفِقُونَهَا** } أي: ستكون لهم شدائد من بأس المسلمين تضطرّهم إلى تكرير الإنفاق على الجيوش لدفاع قوة المسلمين.

{ **ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ** } (ثُمَّ) للتراخي الحقيقي والرتبي، أي: وبعد ذلك تكون تلك الأموال التي ينفقونها حسرة عليهم.

الحسرة: شدّة الندامة والتلهّف على ما فات. وأسندت الحسرة إلى الأموال لأنّها سبب الحسرة بإنفاقها.

وهذا إنذار بأنّهم لا يحصلون من إنفاقهم على طائل فيما أنفقوا لأجله، لأنّ المنفق إنّما يتحسّر ويندم إذا لم يحصل له المقصود من إنفاقه.

فقد أنفقوا بعد ذلك على الجيش يوم أحد: استأجر أبو سفيان ألفين من الأحابيش لقتال المسلمين يوم أُحُد، والأحابيش فِرَق من كناية تجمعت من أفذاذ شتّى وحالفوا قريشا وسكنوا حول مكة سمّوا أحابيش جمع أحبوش وهو الجماعة.

ثم أنفقوا على الأحزاب حين هاجموا المدينة ثم انصرفوا بلا طائل، فكان إنفاقهم حسرة عليهم.

{ **ثُمَّ يُغْلَبُونَ** } ارتقاء في الإنذار بخيبتهم وخذلانهم، فإنّهم بعد أن لم يُحصّلوا من إنفاقهم على طائل تُوعّدوا بأنّهم سيغلبهم المسلمون بعد أن غلبوهم يوم بدر، وهو إنذار لهم بغلب فتح مكّة وانقطاع دابر أمرهم. وهذا كالإنذار في قوله تعالى { قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ } [آل عمران:12].

{ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ [36] لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ [37] }.

كان مقتضى الظاهر أن يقال: وإلى جهنم يحشرون، كما قال في الآية الأخرى { قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ } [آل عمران:12] فعدل عن الإضمار هنا إلى الإظهار تخريجا على خلاف مقتضى الظاهر، للإفصاح عن التشنيع بهم في هذا الإنذار حتّى يعاد استحضار وصفهم بالكفر بأصرح عبارة.

{ **لِيَمِيزَ** } لبيان أنّ من حكمة حشرهم إلى جهنّم أن يتميّز الفريق الخبيث من الفريق الطيّب في يوم الحشر.

الخبيث: الشيء الموصوف بالخبث والخباثة، وحقيقة ذلك أنّه حالة حسيّة لشيء تجعله مكروها مثل القذر، والوسخ، ويطلق الخبث مجازا على الحالة المعنويّة من نحو ما ذكرنا، تشبيها للمعقول بالمحسوس، وهو مجاز مشهور، والمراد به هنا: خسّة النفوس الصادرة عنها مفاسد الأعمال.

الطيّب: الموصوف بالطيب ضد الخبث بإطلاقيه، فالكفر خبث لأنّ أساسه الاعتقاد الفاسد، فنفس صاحبه تتصور الأشياء على خلاف حقائقها، فلا جرم أن تأتي صاحبها بالأفعال على خلاف وجهها.

{ **وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ** } علّة أخرى لحشر الكافرين إلى جهنّم. فالمقصود جمع الخبيث وإن اختلفت أصنافه في مجمع واحد، لزيادة تمييزه عن الطيب، ولتشهير من كانوا يسرّون الكفر ويظهرون الإيمان. وفي جمعه بهذه الكيفية تذليل لهم وإيلام، اذ يُجعل بعضهم على بعض حتى يصيروا ركاما.

الرَّكْم: ضمُّ شيءٍ أعلى إلى أسفل منه، وقد وُصف السحاب بقوله تعالى { ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً } [النور:43].

{ **أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** } فإنّ من كانت تلك حاله كان حقيقا بأنّه قد خسر اعظم الخسران، لأنّه خسر منافع الدنيا ومنافع الآخرة. وصيغة القصر للمبالغة في اتصافهم بالخسران، وكأنّهم انفردوا بالخسران من بين الناس.

{ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ } [38].

جرى هذا الكلام على عادة القرآن في تعقيب الترهيب بالترغيب، والوعيد بالوعد، والعكس، فأنذرهم بما أنذر، وتوعّدهم بما توعّد، ثم ذكّرهم بأنّهم متمكّنون من التدارك وإصلاح ما أفسدوا، فأمر الله نبيّه صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ما يفتح لهم باب الإنابة.

الانتهاء: الانتهاء عن الأفعال والصفات التي أوجبت لهم صفة الكفر من مثل الإنفاق للصدّ عن سبيل الله. أي: أن ينتهوا عن ذلك، وإنّما يكون الانتهاء عن ذلك كلّه بالإيمان.

{ **مَا قَدْ سَلَفَ** } هو ما أسلفوه من الكفر وآثاره.
{ **يُغْفَرْ لَهُمْ** } لفظ الغفران حقيقة شرعيّة في العفو عن جزاء الذنوب في الآخرة، وذلك مهيع الآية فهو معلوم منها بالقصد الأوّل لا محالة، ويلحق به هنا عذاب الله في الدنيا.
واستنبط أئمتنا من هذه الآية أحكاما للأفعال والتبعات التي قد تصدر من الكافر في حال كفره فإذا هو أسلم قبل أن يؤاخذ بها هل يُسقط عنه إسلامُه التبعات بها؟
روى ابن العربي في (الأحكام) عن مالك: إنّما يعني عز وجل ما قد مضى قبل الإسلام من مال أو دم أو شيء. قال ابن العربي: وهو الصواب لعموم قوله تعالى { إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ }.
وفي (المدوّنة) تسقط عنه الحدود كلّها.
وذكر القرطبي عن ابن المنذر: أنّه حكى مثل ذلك عن الشافعي، وأنّه احتج بهذه الآية.
وعن أبي حنيفة يسقط عنه كل حق هو لله ولا يسقط عنه حقّ النّاس وحجّة الجميع هذه الآية تعميما وتخصيصا بمخصّصات أخرى.
{ **وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ** } المراد بالعود الرجوع إلى ما هم فيه من مناوأة الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين، والتجهّز لحربهم. مثل صنعهم يوم بدر. وليس المراد عودهم إلى الكفر بعد الانتهاء، لأنّ الذين كفروا لمّا يفارقوا الكفر بعد فلا يكون المراد بالعود عودهم إلى الكفر بعد أن يسلموا.
السنّة: العادة المألوفة والسيرة، وقد تقدّم في قوله تعالى { قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ } [آل عمران:137].
مَضَتْ: تقدمت وعرفها الناس.
وهذا الخبر تعريض بالوعيد بأنّهم سيلقون ما لقيه الأوّلون.
الأوّلون: السابقون المتقدّمون في حالة، والمراد هنا الأمم التي سبقت وعرفوا أخبارهم أنّهم كذّبوا رسل الله فلقوا عذاب الاستئصال مثل عاد وثمود.
<u>ويجوز</u> أن المراد بالأوّلين أيضا السابقون للمخاطبين، من قومهم من أهل مكّة، الذين استأصلهم السيف يوم بدر. وفي كل أولئك عبرة للحاضرين الباقين، وتهديد بأن يصيروا مصيرهم.

{ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ [39] وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ [40] }.
التقدير: فإن يعودوا فقاتلوهم، والضمير عائد إلى مشركي مكّة.
الفتنة: اضطراب أمر النّاس ومرجهم، وقد تقدّم بيانها غير مرّة، منها عند قوله تعالى { إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ } [البقرة:102]، وقوله تعالى { وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ } [المائدة:71].
والمراد هنا أن لا تكون فتنة من المشركين، لأنّه لما جُعل انتفاء الفتنة غاية لقتالهم، نتج من ذلك أنّ الفتنة المراد نفيها كانت حاصلة منهم.

وهي دالة على ما رآه المحقّقون من مؤرّخينا من أنّ قتال المسلمين المشركين إنّما كان أوّله دفعا لأذى المشركين، فتلك الفتنة التي أشار إليها القرآن.

{ **وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ** } التعريف في { الدِّينُ } للجنس، وتقدّم الكلام على نظيرها في [البقرة:193]. إلّا أنّ هذه الآية زيد فيها اسم التأكيد وهو { كُلُّهُ } وذلك لأنّ هذه الآية أسبق نزولا من آية البقرة فاحتيج فيها إلى تأكيد مفاد صيغة اختصاص جنس الدين بأنّه لله تعالى، لئلا يتوهّم الاقتناع بإسلام غالب المشركين. فلمّا تقرّر معنى العموم وصار نصّا من هذه الآية عُدل عن إعادته في آية البقرة تطلبا للإيجاز.

{ **فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** } كناية عن حسن مجازاته إيّاهم لأنّ القادر على نفع أوليائه ومطيعيه لا يحول بينه وبين إيصال النفع إليهم خفاء حال من يخلص إليه.

{ **وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ** }.

التولّي: الإعراض، وتقدّم عند قوله تعالى { فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ} [المائدة:92].

المولى: الذي يتولّى أمر غيره ويدفع عنه، وفيه معنى النصر.

المعنى: وإن تولّوا عن هاته الدعوة فالله مغن لكم عن ولائهم، أي: لا يضرّكم توليهم، فقوله تعالى { أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ } يؤذن بجواب محذوف تقديره: فلا تخافوا تولّيهم فإنّ الله مولاكم وهو يُقدّر لكم ما فيه نفعكم.

{ **نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ** } مستأنفة لأنّها إنشاء ثناء على الله فكانت بمنزلة التذييل.

{ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [41].

انتقال لبيان ما أجمل من حكم الأنفال، الذي افتتحته السورة، ناسب الانتقال إليه ما جرى من الأمر بقتال المشركين إن عادوا إلى قتال المسلمين.

والخطاب لجميع المسلمين، وبالخصوص جيش بدر، وليس هذا نسخا لحكم الأنفال المذكور أوّل السورة، بل هو بيان لإجمال قوله تعالى { لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ }. وقال أبو عبيد: إنها ناسخة. وذكروا: أنّ رسول الله لم يخمّس مغانم بدر ثم خمّس مغانم أخرى بعد بدر، أي: بعد نزول آية سورة الأنفال. وفي حديث علي: " أنّ رسول الله أعطاه شارفا من الخمس يوم بدر"، فاقتضت هذه الرواية أنّ مغانم بدر خمّست.

وقد اضطربت أقوال المفسرين قديما في المراد من المغنم في هذه الآية.

والوجه عندي في تفسير هذه الآية، واتصالها بقوله { يَسْأَلونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ } [1]: أنّ المراد بقوله { مَا غَنِمْتُمْ } في هذه الآية: ما حصّلتم من الغنائم من متاع الجيش، وذلك ما سُمّي بالأنفال، في أول السورة،

فالنفل والغنيمة مترادفان، وذلك مقتضى استعمال اللغة. فعن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وعكرمة، وعطاء: الأنفال الغنائم. وعليه فوجه المخالفة بين اللفظين، إذ قال تعالى هنا { غَنِمْتُمْ } وقال في أول السورة { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ } لاقتضاء الحال التعبير هنا بفعل، وليس في العربية فعل من مادة (النفل) يفيد إسناد معناه إلى من حصل له.

ولذلك فآية { وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ } سيقت هنا بيانا لآية { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ }، فإنّهما وردتا في انتظام متصل من الكلام.

الغنيمة: ويقال: لها المغنم، ما يأخذه الغزاة من أمتعة المقاتلين غصبا، بقتل أو بأسر، أو يقتحمون ديارهم غازين، أو يتركه الأعداء في ديارهم، إذا فروا عند هجوم الجيش عليهم بعد ابتداء القتال.

الفيء: ما يظفر به الجيش في غير حالة الغزو من مال العدو، وما يتركه العدو من المتاع إذا أخلوا بلادهم قبل هجوم جيش المسلمين.

قال مالك: ليس في أموال العدو المقاتل حقّ لجيش المسلمين إلّا الغنيمة والفيء. وأمّا النفل فليس حقا مستقلّا بالحكم، ولكنّه ما يعطيه الإمام من الخمس لبعض المقاتلين زائدا على سهمه من الغنيمة، على ما يرى من الاجتهاد، ولا تعيين لمقدار النفل في الخمس ولا حدّ له، ولا يكون فيما زاد على الخمس.

هذا قول مالك ورواية عن الشافعي. وهو الجاري على ما عمل به الخلفاء الثلاثة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال أبو حنيفة، والشافعي، في أشهر الروايتين عنه، وسعيد بن المسيب: النفل من الخمس وهو خمس الخمس.

{ **فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ** } أي: فحق لله خمسه. واللام للملك أو الاستحقاق، وقد عُلم أن أربعة الأخماس للغزاة الصادق عليهم ضمير { غَنِمْتُمْ } فثبت به أنّ الغنيمة لهم عدا خمسها.

وقد جعل الله خمس الغنيمة حقّا لله وللرسول ومن عطف عليهما، وكان أمر العرب في الجاهلية أنّ ربع الغنيمة يكون لقائد الجيش، ويُسمّى ذلك (المِرباع).

وفي عرف الإسلام إذا جُعل شيء حقّا لله، من غير ما فيه عبادة له، أن ذلك يكون للذين يأمر الله بتسديد حاجتهم منه. فلكلّ نوع من الأموال مستحقّون عيّنهم الشرع.

فالابتداء باسم الله تعالى للإشارة إلى أنّ ذلك الخمس حقّ الله يصرفه حيث يشاء، وقد شاء فوكّل صرفه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم ولمن يخلف رسوله من أئمة المسلمين. وبهذا التأويل يكون الخمس مقسوما على خمسة أسهم. وهذا قول عامة علماء الإسلام. (سهم للنبيّ صلى الله عليه وسلم، وسهم لذوي القربى، وسهم اليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل).

وقد جعل الله الخمس لخمسة مصارف ولم يُعيّن مقدار ما لكل مصرف منه، ولا شك أنّ الله أراد ذلك ليكون صرفه لمصارفه هذه موكولا إلى اجتهاد رسوله صلى الله عليه وسلم وخلفائه من بعده، فيُقسَم بحسب الحاجات والمصالح، فيأخذ كل مصرف منه ما يفي بحاجته على وجه لا ضر معه على أهل

المصرف الآخر، وهذا قول مالك في قسمة الخمس، وهو أصح الأقوال، إذ ليس في الآية تعرّض لمقدار القسمة، ولم يرد في السنة ما يصح التمسّك به لذلك، فوجب أن يناط بالحاجة، وبتقديم الأحوج والأهم عند التضايق، والأمر فيه موكول إلى اجتهاد الإمام. وقد قال عمر: " فكان رسول الله ينفق على أهله نفقة سنتهم من هذا المال ثم يأخذ ما بقي فيجعله مجعل مال الله ".

وقال الشافعي: يُقسم لكل مصرف الخمس من الخمس، لأنها خمسة مصارف، فجعلها متساوية لأن التساوي هو الأصل في الشركة المجملة.

{ وَلِلرَّسُولِ } لحقّه حالتان: حالة تصرّفه في مال الله بما ائتمنه الله على سائر مصالح الأمة، وحالة انتفاعه بما يحب انتفاعه به من ذلك. فلذلك ثبت في الصحيح أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يأخذ من الخمس نفقته ونفقة عياله، ويجعل الباقي مجعل مال الله. وفي الصحيح أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال في الفيء: **" مالي مما أفاء الله عليكم إلا الخُمس والخُمس مردود عليكم"**. فيقاس عليه خمس الغنيمة وكذلك كان شأن رسول الله في انتفاعه بما جعله الله له من الحق في مال الله.

{ وَلِذِي الْقُرْبَى } أي: ذوي قرابة المؤتي المال، أي: قرابته صلى الله عليه وسلم، وذلك إكرام من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم إذ جعل لأهل قرابته حقا في مال الله. لأنّ الله حرّم عليهم أخذ الصدقات والزكاة، فلا جرم أنّه أغناهم من مال الله. ولذلك كان حقّهم في الخمس ثابتا بوصف القرابة.

وقال أبو حنيفة: ارتفع سهم رسول الله وسهم قرابته بوفاته، وبقي الخمس لليتامى والمساكين وابن السبيل، لأنّ رسول الله إنّما أخذ سهما في المغنم لأنّه رسول الله لا لأنّه إمام، فلذلك لا يخلفه فيه غيره.

وعند الجمهور أنّ سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يخلفه فيه الإمام يبدأ بنفقته ونفقة عياله بلا تقدير، ويصرف الباقي في مصالح المسلمين.

{ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ } تقدّم تفسير معانيها عند قوله تعالى { وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ } [البقرة:177]، وعند قوله تعالى { وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً - إلى قوله - وَابْنَ السَّبِيلِ } [النساء:36].

واليتامى وابن السبيل لا يعطون إلّا إذا كانوا فقراء ففائدة تعيين خمس الخمس لكل صنف من هؤلاء أن لا يحاصهم فيه غيرهم من الفقراء. والشأن في اليتامى في الغالب أن لا تكون لهم سعة في المكاسب فهم مظنّة الحاجة، ولكنها دون الفقر فجُعل لهم حقّ في المغنم، توفيرا عليهم في إقامة شؤونهم، فهم من الحاجة المالية أحسن حالا من المساكين، وهم من حالة المقدرة أضعف حالا منهم، فلو كانوا أغنياء بأموال تركها لهم آباؤهم فلا يعطون من الخمس شيئا.

المساكين: الفقراء الشديدو الفقر، جعل الله لهم خمس الخمس كما جعل لهم حقا في الزكاة، ولم يجعل للفقراء حقا في الخمس كما لم يجعل لليتامى حقا في الزكاة.

ابن السبيل: أيضا في حاجة إلى الإعانة على البلاغ وتسديد شؤونه، فهو مظنّة الحاجة، فلو كان ابن

السبيل ذا وفر وغنى لم يعط من الخمس، ولذلك لم يشترط مالك وبعض الفقهاء في اليتامى وأبناء السبيل الفقر، بل مطلق الحاجة. واشترط أبو حنيفة الفقر في ذوي القربى واليتامى وأبناء السبيل وجعل ذكرهم دون الاكتفاء بالمساكين لتقرير استحقاقهم.

{ **إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ** } جيء في الشرط بحرف (إنْ) التي شأن شرطها أن يكون مشكوكا في وقوعه زيادة في حثّهم على الطاعة حيث يُفرض حالهم في صورة المشكوك في حصول شرطه إلهابا لهم ليبعثهم على إظهار تحقّق الشرط فيهم.

المعنى: أنّكم آمنتم بالله، والإيمان يرشد إلى اليقين بتمام العلم والقدرة له، وآمنتم بما أنزل الله على عبده يوم بدر حين فرّق الله بين الحق والباطل فرأيتم ذلك رأي العين وارتقى إيمانكم من مرتبة حق اليقين إلى مرتبة عين اليقين، فعلمتم أنّ الله أعلم بنفعكم من أنفسكم إذ يعدكم إحدى الطائفتين أنّها لكم، فكان ما دفعكم الله إليه أحفظ لمصلحتكم واشدّ تثبيتا لقوّة دينكم. فمن رأوا ذلك وتحقّقوه فهم أحرياء بأن يعلموا أنّ ما شرع الله لهم من قسمة الغنائم هو المصلحة، ولم يعبأوا بما يدخل عليهم من نقص في حظوظهم العاجلة، علما بأنّ وراء ذلك مصالح جمّة آجلة في الدنيا والآخرة.

{ **وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ** } أي:آمنتم بما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان، وهذا تخلّص للتذكير بما حصل لهم من النصر يوم بدر. وتخصيصه بالذكر من بين جملة المعلومات الراجعة للاعتقاد لأنّ لذلك المُنزَل مزيد تعلّق بما أمروا به من العمل.

الإنزال: هو إيصال شيء من علو إلى سفل، وأطلق هنا على إبلاغ أمر من الله ومن النعم الإلهية إلى الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين.

<u>فيجوز</u> أن يكون هذا المنزل من قبيل الوحي، أي: الوحي الذي أنزلناه على عبدنا يوم بدر.

<u>ويجوز</u> أن يكون من قبيل خوارق العادات، والألطاف العجيبة، مثل إنزال الملائكة للنصر، وإنزال المطر عند حاجة المسلمين إليه، لتعبيد الطريق، وتثبيت الأقدام، والاستقاء.

{ **يَوْمَ الْفُرْقَانِ** } هو يوم بدر، وهو اليوم السابع عشر من رمضان سنة اثنتين، سُمّي يوم الفرقان لأنه كان يوما فارقا بين الحق والباطل، ولأنّه أوّل يوم ظهر فيه نصر المسلمين الضعفاء على المشركين الأقوياء، وهو نصر المحقّين الأذلة على الأعزة المبطلين، وكفى بذلك فرقانا وتمييزا بين من هم على الحقّ ومن هم على الباطل.

{ **يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ** } للتذكير بذلك الالتقاء العجيب الذي كان فيه نصرهم على عدوهم. والتعريف في الجمعان للعهد، وهما جمع المسلمين وجمع المشركين.

{ **وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } اعتراض بتذييل الآيات السابقة، وهو متعلّق ببعض جملة الشرط في قوله تعالى { وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ } فإنّ ذلك دليل على أنّه لا يتعاصى على قدرته شيء، فإنّ ما أسداه إليكم يوم بدر لم يكن جاريا على متعارف الأسباب المعتادة، فقدرة الله قلبت

الأحوال وأنشأت الأشياء من غير مجاريها ولا يبعد أن يكون من سبب تسمية ذلك اليوم { يَوْمَ الْفُرْقَانِ } أنّه أضيف إلى الفرقان الذي هو لقب القرآن فإنّ المشهور أنّ ابتداء نزول القرآن كان يوم سبعة عشر من رمضان فيكون من استعمال المشترك في معنييه.

{ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ } [42].

تذكيرهم بحالة حرجة كان المسلمون فيها، وتنبيههم للطف عظيم حفّهم من الله تعالى، وهي حالة موقع جيش المسلمين من جيش المشركين، وكيف التقى الجيشان في مكان واحد عن غير ميعاد، ووجد المسلمون أنفسهم أمام عدوّ قويّ العِدّة والعُدّة والمكانة من حسن الموقع. ولولا هذا المقصد من وصف هذه الهيئة لما كان من داع لهذا الإطناب إذ ليس من أغراض القرآن وصف المنازل إذا لم تكن فيه عبرة.

العدوة: (بتثليث العين) ضفّة الوادي وشاطئه، والضم والكسر في العين أفصح وعليهما القراءات المشهورة. والمراد بها شاطئ وادي بدر. وبدر اسم ماء.

{ الدُّنْيَا } هي القريبة، أي: العدوة التي من جهة المدينة فهي أقرب لجيش المسلمين من التي من جهة مكّة.

{ الْقُصْوَى} هي التي ممّا يلي مكّة، وهي كثيب وهي قصوى بالنسبة لموقع بلد المسلمين.

والوصف بـ { الدُّنْيَا } و{ الْقُصْوَى } يَشعُر المخاطبون بفائدته وهي أنّ المسلمين كانوا حريصين أن يسبقوا المشركين إلى العدوة القصوى لأنّها اصلب أرضا، فلمّا سبق جيش المشركين إليها اغتم المسلمون. فلما نزل المسلمون بالعدوة الدنيا أرسل الله المطر وكان الوادي دهسا فلبّد المطر الأرض ولم يعقهم عن المسير وأصاب الأرض التي بها قريش فعطّلهم عن الرحيل فلم يبلغوا بدرا إلّا بعد أن وصل المسلمون وتخيّروا أحسن موقع وسبقوا إلى الماء فاتخذوا حوضا يكفيهم وغوّروا الماء، فلمّا وصل المشركون إلى الماء وجدوه قد احتازه المسلمون.

{ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ } هو ركب قريش الراجعون من الشام، وهو العير.

{ أَسْفَلَ } من الفريقين، أي: أخفض من منازلهما، لأنّ العير كانوا سائرين في طريق الساحل وقد تركوا ماء بدر عن يسارهم. ذلك أن أبا سفيان لمّا بلغه أنّ المسلمين خرجوا لتلقّي عيره رجع بالعير عن الطريق التي تمر ببدر، وسلك طريق الساحل لينجو بالعير، فكان مسيره في السهول المنخفضة.

<u>المعنى</u>: أن جيش المسلمين كان بين جماعتين للمشركين وهما الجيش بالعدوة القصوى وعير القوم أسفل من العدوة الدنيا، فلو علم العدو بهذا الوضع لطبق جماعتيه على جيش المسلمين ولكن الله صرفهم عن

التفطن لذلك وصرف المسلمين عن ذلك، وقد كانوا يطمعون أن يصادفوا العير فينتهبوها كما قال { وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ } [7]، ولو حاولوا ذلك لوقعوا بين جماعتين من العدو.
والغرض من التقييد بهذا الوقت، وبتلك الحالة، احضارها في ذكرهم، لأجل ما يلزم ذلك من شكر نعمة الله، ومن حسن الظن بوعده والاعتماد عليه في أمورهم، فإنّهم كانوا حينئذ في أشد ما يكون فيه جيش تجاه عدوّه. لأنّهم يعلمون أنّ تلك الحالة كان ظاهرها ملائما للعدو، إذ كان العدو في شوكة واكتمال عدّة، وقد تمهّدت له أسباب الغلبة بحسن موقع جيشه، إذ كان بالعدوة التي فيها الماء لسقياهم والتي أرضها متوسطة الصلابة.
فأمّا جيش المسلمين فقد وجدوا أنفسهم أمام العدو في عدوة تسوخ في أرضها الأرجل من لين رملها، مع قلّة مائها، وكانت العير قد فاتت المسلمين وحلّت وراء ظهور جيش المشركين، فكانت في مأمن من أن ينالها المسلمون. وكان المشركون واثقين بمكنة الذبّ عن عيرهم.
فكانت ظاهرة هذه الحالة ظاهرة خيبة وخوف للمسلمين، وظاهرة فوز وقوة للمشركين، فكان من عجيب عناية الله بالمسلمين أن قلب تلك الحالة رأسا على عقب، فأنزل من السماء مطرا تعبدت به الأرض لجيش المسلمين فساروا فيها غير مشفوق عليهم، وتطهّروا وسقوا، وصارت به الأرض لجيش المشركين وحلا يثقل فيها السير وفاضت المياه عليهم، وألقى الله في قلوبهم تهوين أمر المسلمين، فلم يأخذوا حذرهم ولا أعدّوا للحرب عدّتها، وجعلوا مقامهم هنالك مقام لهو وطرب. فجعل الله ذلك سببا لنصر المسلمين عليهم، ورأوا كيف أنجز الله لهم ما وعدهم من النصر الذي لم يكونوا يتوقعونه.
فالذين خوطبوا بهذه الآية هم أعلم السامعين بفائدة التوقيت الذي في قوله تعالى { إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا }. ولذلك تعيّن على المفسّر وصف الحالة التي تضمنتها الآية، ولولا ذلك لكان هذا التقييد بالوقت قليل الجدوى.
{ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ } في موضع الحال من { الْجَمْعَانِ }، أي: في حال لقاء على غير ميعاد.
فالوجه في تفسير هذه الآية أن { **لَوْ** } هذه من قبيل (لو) الصهيبيّة فإنّ لها استعمالات، ملاكها أن لا يقصد من (لو) ربط انتفاء مضمون جوابها بانتفاء مضمون شرطها، أي: ربط حصول نقيض مضمون الجواب بحصول نقيض مضمون الشرط، بل يقصد أنّ مضمون الجواب حاصل لا محالة، سواء فرض حصول مضمون شرطها أو فرض انتفاؤه. ومحصل هذا أن مضمون الجزاء مستمر الحصول في جميع الأحوال في فرض المتكلم. فيأتي بجملة الشرط متضمّنة الحالة التي هي عند السامع مظنة أن يحصل فيها نقيض مضمون الجواب. وقد تقدمت الإشارة إلى هذا عند قوله تعالى { وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ } [23].
<u>المعنى</u>: فبالأحرى وأنتم لم تتواعدوا وقد أتيتم سواء في اتحاد وقت حلولكم في العدوتين، فاعلموا أنّ ذلك

تيسير بقدر الله لأنّه قدّر ذلك لتعلموا أنّ نصركم من عنده، على نحو قوله تعالى { وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى } [17].

{ **وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً** } أي: ولكن لم تتواعدوا وجئتم على غير ميعاد ليحقّق الله وينجز ما أراده من نصركم على المشركين.

{ **كَانَ مَفْعُولاً** } مفعول من فعل، للدلالة على أنّه حين قدّرت مفعوليته فقد صار كأنّه فعل.

{ **لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ** } بدل الاشتمال من { لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً } لأنّ الأمر هو نصر المسلمين وقهر المشركين وذلك قد اشتمل على إهلاك المهزومين وإحياء المنصورين وحقّه من الأحوال الدالة على عناية الله بالمسلمين وإهانته المشركين ما فيه بيّنة للفريقين تقطع عذر الهالكين، وتقتضي شكر الأحياء.

الهلاك: الموت والاضمحلال، ولذلك قوبل بالحياة. والهلاك والحياة مستعاران لمعنى ذهاب الشوكة. فإنّ الكفّار كانوا في عزة ومنعة، وكان المسلمون في قلّة، فلما قضى الله بالنصر للمسلمين يوم بدر أخفق أمر المشركين ووهنوا، وصار أمر المسلمين إلى جدّة ونهوض، وكان كل ذلك عن بينة، أي: عن حجّة ظاهرة تدلّ على تأييد الله قوما وخذله آخرين بدون ريب.

{ **وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ** } تذييل يشير إلى أن الله سميع دعاء المسلمين طلب النصر، وسميع ما جرى بينهم من الحوار في شأن الخروج إلى بدر، ومن مودّتهم أن تكون غير ذات الشوكة هي إحدى الطائفتين التي يلاقونها، وغير ذلك، وعليم بما يجول في خواطرهم من غير الأمور المسموعة وبما يصلح بهم.

{ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } [43].

{ **إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً** }. **المنام**: مصدر ميمي بمعنى النوم ويطلق على زمن النوم وعلى مكانه.

وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم قد رأى، رؤيا منام، جيش المشركين قليلا، أي: قليل العدد وأخبر برؤياه المسلمين فتشجّعوا للقاء المشركين، وحملوها على ظاهرها، وزال عنهم ما كان يخامرهم من تهيّب جيش المشركين. فكانت تلك الرؤيا من أسباب النصر، وكانت تلك الرؤيا منّة من الله على رسوله والمؤمنين، وكانت قلّة العدد في الرؤيا رمزا وكناية عن وهن أمر المشركين لا عن قلّة عددهم. ولذلك جعلها الله في رؤيا النوم دون الوحي، لأنّ صور المرائي المنامية تكون رموزا لمعان فلا تعد صورتها الظاهرية خلفا، بخلاف الوحي بالكلام.

ورؤيا النبيّ لا تخطيء ولكنّها قد تكون جارية على الصورة الحاصلة في الخارج كما ورد في حديث عائشة في بدء الوحي: " أنّه كان لا يرى رؤيا إلّا جاءت مثل فلق الصبح"، وهذا هو الغالب وخاصة قبل

ابتداء نزول الملك بالوحي، وقد تكون رؤيا النبيّ صلى الله عليه وسلم رمزية وكناية كما في حديث رؤياه بقرا تذبح ويقال له: الله خير. فلم يعلم المراد حتّى تبيّن له أنّهم المؤمنون الذين قتلوا يوم أحد.

وقد يمسك النبيّ عليه الصلاة والسلام عن بيان التعبير الصحيح لحكمة كما في حديث تعبير أبي بكر رؤيا الرجل الذي قص رؤياه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقول النبيّ له:" **أصبت بعضا وأخطأت بعضا** " وأبى أن يبيّن له ما أصاب منها وما أخطأ.

{ **وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ** } أي: أنّه لو أراكهم رؤيا مماثلة للحالة التي تبصرها الأعين لدخل قلوب المسلمين الفشل. فأراد الله إكرام المسلمين بأن لا يدخل نفوسهم هلع.

الفشل: الجبن والوهن.

التنازع: الاختلاف.

الأمر: الخطة التي يجب اتباعها في قتال العدو من ثبات أو انجلاء.

{ **وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ** } سلّمكم من الفشل والتنازع بأن سلّمكم من سببهما وهو إراءتكم واقع عدد المشركين، لأنّ الاطلاع على كثرة العدو يلقي في النفوس تهيّبا له وتخوّفا منه، وذلك ينقص شجاعة المسلمين الذين أراد الله أن يوفّر لهم منتهى الشجاعة.

{ **إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** } تذييل للمنّة، أي: أوحى إلى رسوله بتلك الرؤيا الرمزيّة لعلمه بما في الصدور البشريّة من تأثّر النفوس بالمشاهدات والمحسوسات أكثر مما تتأثر بالاعتقادات، فعلم أنّه لو أخبركم بأنّ المشركين ينهزمون، واعتقدتم ذلك لصدق ايمانكم، لم يكن ذلك الاعتقاد مثيرا في نفوسكم من الشجاعة والإقدام ما يثيره اعتقاد أنّ عددهم قليل.

{ **ذَاتِ الصُّدُورِ** } النوايا والخواطر وما يهمّ به المرء وما يدبّره ويكيده.

{ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ } [44].

هذه رؤية بصر أراها الله الفريقين على خلاف ما في نفس الأمر، فكانت خطأ من الفريقين، ولم يرها النبيّ صلى الله عليه وسلم. أرى الله المسلمين أنّ المشركين قليلون، وأرى المشركين أنّ المسلمين قليلون. خيل الله لكلا الفريقين قلة الفريق الآخر، بإلقاء ذلك التخيّل في نفوسهم، وجعل الغاية من تينك الرؤيتين نصر المسلمين، وهذا من بديع صنع الله تعالى إذ جعل للشيء الواحد أثرين مختلفين، وجعل للأثرين المختلفين أثرا متحدا، فكان تخيل المسلمين قلة المشركين مقوّيا لقلوبهم، وزائدا لشجاعتهم، ومزيلا للرعب عنهم، فعظم بذلك بأسهم عند اللقاء، لأنّهم ما كان ليفل من بأسهم إلّا شعورهم بأنّهم أضعف من أعدائهم عَددا وعُددا، فلمّا أزيل ذلك عنهم، بتخييلهم قلة عدوهم، خلصت أسباب شدّتهم مما يوهنها.

وكان تخيّل المشركين قلة المسلمين، أي: كونهم أقل مما هم عليه في نفس الأمر، بردا على غليان قلوبهم من الغيظ، وغارًّا إيّاهم بأنّهم سينالون التغلّب عليهم بأدنى قتال، فكان صارفا إيّاهم عن التأهّب لقتال المسلمين، حتّى فاجأهم جيش المسلمين، فكانت الدائرة على المشركين، فنتج عن تخيّل القلّتين انتصار المسلمين.

قال أهل السير: كان المسلمون يحسبون عدد المشركين يتراوح بين السبعين والمائة وكانوا في نفس الأمر زهاء ألف، وكان المشركون يحسبون المسلمين قليلا، فقد قال أبو جهل لقومه، وقد حزر المسلمين: إنّما هم أكلة جزور، أي: قرابة المائة وكانوا في نفس الأمر ثلاثمائة وبضعة عشر.

وهذا التخيل قد يحصل من انعكاس الأشعة واختلاف الظلال، باعتبار مواقع الرائين من ارتفاع المواقع وانخفاضها، وإلقاء الله الخيال في نفوس الفريقين أعظم من تلك الأسباب.

الالتقاء: افتعال من اللقاء، وصيغة الافتعال فيه دالة على المبالغة. واللقاء والالتقاء في الأصل الحضور لدى الغير، من صديق أو عدو، وفي خير أو شر، وقد كثر إطلاقه على الحضور مع الأعداء في الحرب، وقد تقدّم عند قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً } [15].

{ **لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً** } هو نظير قوله تعالى { وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً } [42] المتقدّم أعيد هنا لأنّه علة إراءة كلا الفريقين الفريق الآخر قليلا، وأمّا السابق فهو علة لتلاقي الفريقين في مكان واحد في وقت واحد. ثم إنّ المشركين لمّا برزوا لقتال المسلمين ظهر لهم كثرة المسلمين فبهتوا، فكان ملقيا الرعب في قلوبهم، وذلك ما حكاه في قوله تعالى { يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ } [آل عمران:13].

وخولف الأسلوب في حكاية إراءة المشركين، وحكاية إراءة المسلمين، لأنّ المشركين كانوا عددا كثيرا فناسب أن يحكى تقليلهم بإراءتهم قليلا، المؤذنة بأنهم ليسوا بالقليل. وأمّا المسلمون فكانوا عددا قليلا بالنسبة لعدوّهم، فكان المناسب لتقليلهم أن يعبّر عنه بأنّه (تقليل) المؤذن بأنّه زيادة في قلّتهم.

{ **وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ** } تذييل معطوف على ما قبله عطفا اعتراضيا، لأنّه عطف صوري ليست فيه مشاركة في الحكم.

الرجوع: المراد رجوع أسبابها، أي: إيجادها، فإنّ الأسباب قد تلوح جارية بتصرّف العباد وتأثير الحوادث، ولكن الأسباب العالية، وهي الأسباب التي تتصاعد إليها الأسباب المعتادة، لا يتصرّف فيها إلّا الله وهو مؤثّرها وموجدها. على أنّ جميع الأسباب، عاليها وقريبها، متأثّر بما أودع الله فيها من القوى والنواميس والطبائع، فرجوع الجميع إليه، ولكنّه رجوع متفاوت على حسب جريه على النظام المعتاد وعدم جريه. فإيجاد الأشياء قد يلوح حصوله بفعل بعض الحوادث والعباد، وهو عند التأمّل الحق راجع إلى إيجاد الله تعالى خالق كل صانع.

والذوات وأحوالها كلها من الأمور، ومآلها كلّه رجوع، فهذا ليس رجوع ذوات ولكنه رجوع تصرّف، كالذي في قوله تعالى { إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ } [البقرة:156].

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ [45] وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ [46] }.

لما عرّفهم الله بنعمه ودلائل عنايته، وكشف لهم عن سر من أسرار نصره إيّاهم، وكيف خذل أعداءهم، وصرفهم عن أذاهم، فاستتب لهم النصر مع قلّتهم وكثرة أعدائهم، أقبل في هذه الآية على أن يأمرهم بما يهيّئ لهم النصر في المواقع كلّها، ويستدعي عناية الله بهم وتأييده إيّاهم، فجمع لهم في هذه الآية ما به قوام النصر في الحروب.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } افتُتحت هذه الوصايا بالنداء اهتماما بها، وجُعل طريق تعريف المنادي طريق الموصولية لما تؤذن به الصلة من الاستعداد لامتثال ما يأمرهم به الله تعالى، لأنّ ذلك أخصّ صفاتهم تلقاء أوامر الله تعالى.

اللقاء: أصله مصادفة الشخص ومواجهته، باجتماع في مكان واحد. وقد غلب إطلاقه على لقاء خاص وهو لقاء القتال، فيرادف القتال والنزال. وتقدّم في قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا } [15]. وبهذا المعنى تعيّن أن المراد بـ { فِئَةً } فئة خاصة وهي فئة العدو، يعني المشركين.

الفئة: الجماعة من الناس، وتقدّم اشتقاقها عند قوله { كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً } [البقرة:249].

{ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً } هو ذكره باللسان، لأنّه يتضمّن ذكر القلب وزيادة، فإنّه إذا ذكر بلسانه فقد ذكر بقلبه وبلسانه، وسمع الذكر بسمعه، وذكّر من يليه بذلك الذكر. ففيه فوائد زائدة على ذكر القلب المجرّد، وقرينة إرادة ذكر اللسان ظاهر وصفه بـ { كثيرا }، لأنّ الذكر بالقلب يوصف بالقوّة.

وهذان أمران، { فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ }، أمروا بهما وهما يخصّان المجاهد في نفسه، فهما لإصلاح الأفراد. ولذلك قال تعالى { **لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** }.

{ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ } ثمّ أمرهم بأعمال راجعة إلى انتظام جيشهم وجماعتهم، وهي علائق بعضهم مع بعض، وهي الطاعة وترك التنازع.

فأمّا طاعة الله ورسوله: فتشمل اتباع سائر أحكام القتال المشروعة بالتعيين، مثل الغنائم. وكذلك ما يأمرهم به الرسول صلى الله عليه وسلم من آراء الحرب، كقوله للرماة يوم أحد: **" لا تبرحوا من مكانكم ولو تخطّفنا الطير"**. وتشمل طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام طاعة أمرائه في حياته، لقوله: **" ومن أطاع أميري فقد أطاعني"**، وتشمل طاعة أمراء الجيوش بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم لمساواتهم لأمرائه الغائبين عنه في الغزوات والسرايا في حكم الغيبة عن شخصه.

{ وَلَا تَنَازَعُوا } يقتضي الأمر بتحصيل أسباب ذلك؛ بالتفاهم، والتشاور، ومراجعة بعضهم بعضا، حتّى يصدروا عن رأي واحد، فإن تنازعوا في شيء رجعوا إلى أمرائهم لقوله تعالى { وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ } [النساء: 83]، وقوله تعالى { فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ } [النساء: 59]. والنهي عن التنازع أعمّ من الأمر بالطاعة لولاة الأمور، لأنّهم إذا نهوا عن التنازع بينهم

فالتنازع مع ولي الأمر أولى بالنهي.

{ **فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ** } لما كان التنازع من شأنه أن ينشأ عن اختلاف الآراء، وهو أمر مرتكز في الفطرة، بسط القرآن القول فيه ببيان سيّئ آثاره، فجاء بالتفريع بالفاء، فحذّرهم أمرين معلوما سوء مغبّتهما وهما؛ الفشل وذهاب الريح.

الفشل: انحطاط القوّة، وتقدّم عند قوله تعالى { وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ } [43]. وهو هنا مراد به حقيقة الفشل في خصوص القتال ومدافعة العدو، ويصحّ أن يكون تمثيلا لحال المتقاعس عن القتال بحال من خارت قوّته وفشلت أعضاؤه في انعدام إقدامه على العمل. وإنّما كان التنازع مفضيا إلى الفشل لأنّه يثير التغاضب ويزيل التعاون بين القوم، ويحدث فيهم أن يتربّص بعضهم ببعض الدوائر، فيحدث في نفوسهم الاشتغال باتقاء بعضهم بعضا، فيصرف الأمة عن التوجّه إلى شغل واحد فيما فيه نفع جميعهم، ويصرف الجيش عن الإقدام على أعدائهم.

الريح: حقيقتها تحرّك الهواء وتموّجه، واستعيرت هنا للغلبة.

{ **وَاصْبِرُوا** } ثم أمرهم الله بشيء يعمّ نفعه المرء في نفسه وفي علاقته مع أصحابه، ويسهّل عليهم الأمور الأربعة، التي أمروا بها آنفا في قوله تعالى { فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً }، وفي قوله تعالى { وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا }، ألا وهو **الصبر**، لأنّ الصبر هو تحمّل المكروه وكلّ شديد على النفس، وتلك المأمورات كلها تحتاج إلى تحمّل المكاره.

{ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** } إيماء إلى منفعة للصبر إلهيّة، وهي إعانة الله لمن صبر امتثالا لأمره، وهذا مشاهد في تصرفات الحياة كلّها.

{ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ } [47].

عطف نهي على أمر، إكمالا لأسباب النجاح والفوز عند اللقاء، بأن يتلبّسوا بما يدنيهم من النصر، وأن يتجنّبوا ما يفسد إخلاصهم في الجهاد.

وجيء في نهيهم عن البطر والرئاء بطريقة النهي عن التشبّه بالمشركين، إدماجا للتشنيع بالمشركين وأحوالهم، وتكريها للمسلمين تلك الأحوال، لأنّ الأحوال الذميمة تتضح مذمتها، وتنكشف مزيد الانكشاف إذا كانت من أحوال قوم مذمومين عند أخرين، وذلك أبلغ في النهي، وأكشف لقبح المنهي عنه، ونظيره قوله تعالى { وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ } [21].

فنهوا عن أن يشبهوا حال المشركين في خروجهم لبدر، إذ خرجوا بطرا ورئاء النّاس، لأنّ حق كل مسلم أن يريد بكل قول وعمل وجه الله، والجهاد من أعظم الأعمال الدينية.

{ **كَالَّذِينَ خَرَجُوا** } الموصول مراد به جماعة خاصة، وهم أبو جهل وأصحابه، وقد مضى خبر خروجهم

إلى بدر، فإنّهم خرجوا من مكّة بقصد حماية عيرهم فلمّا بلغوا الجحفة جاءهم رسول أبي سفيان يخبرهم أنّ العير قد سلمت، فقال أبو جهل: " لا نرجع حتّى نقدم بدرا نشرب بها وتعزف علينا القيان ونطعم من حضرنا من العرب حتّى يتسامع العرب بأننا غلبنا محمدا وأصحابه ".

{ **بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ** } انتصبا على الحاليّة، أي: بطرين مرائين، ووصفهم بالمصدر للمبالغة في تمكّن الصفتين منهم لأنّ البطر والرياء خُلُقان من خُلقهم.

البطر: إعجاب المرء بما هو فيه من نعمة، والاستكبار والفخر بها، فالمشركون لمّا خرجوا من الجحفة، خرجوا عجبا بما هم فيه من القوة.

الرئاء: (بهمزتين) من الرؤية، وصيغة المفاعلة فيه مبالغة، أي: بالغ في إراءة النّاس عمله محبّة أن يروه ليفخر عليهم.

{ **وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ** }

سبيل الله: الطريق الموصلة إليه، وهو الإسلام، شُبّه الدين، في إبلاغه إلى رضي الله تعالى، بالسبيل الموصل إلى المقصود.

{ **يَصُدُّونَ** } صيغة المضارع للدلالة على حدوث وتجدّد صدّهم النّاس عن سبيل الله.

{ **وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ** } تذكير للمسلمين بصريحه، ووعيد للمشركين بالمعنى الكنائي، لأنّ إحاطة العلم بما يعملون مجاز في عدم خفاء شيء من عملهم عن علم الله تعالى، ويلزمه أنّه مجازيهم عن عملهم بما يجازي به العليم القدير من اعتدى على حرمه. وإسناد الإحاطة إلى اسم الله تعالى مجاز عقلي، لأنّ المحيط هو علم الله تعالى فإسناد الإحاطة إلى صاحب العلم مجاز.

{ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ } [48].

وذلك أنّ قريشا لما أجمعوا أمرهم على السير إلى إنقاذ العير ذكروا ما كان بينهم وبين كنانة من الحرب فكاد أن يثبّطهم عن الخروج، فلقيهم في مسيرهم سراقة بن مالك بن جعشم الكناني في جند معه راية وقال لهم: لا غالب لكم اليوم، وإني مجيركم من كنانة. فقوي عزم قريش على المسير، فلمّا أمعنوا السير وتقارب المشركون من منازل جيش المسلمين، ورأى سراقة الجيشين، نكص سراقة بمن معه وانطلقوا، فقال له الحارث بن هشام، أخو أبي جهل: " إلى أين اتخذلنا في هذه الحال؟ فقال سراقة: إنّي أرى ما لا ترون ". فكان ذلك من أسباب عزم قريش على الخروج والمسير، حتّى لقوا هزيمتهم التي كتب الله لهم في بدر وكان خروج سراقة ومن معه بوسوسة من الشيطان، لئلا ينثني قريش عن الخروج، وكان

انخذال سراقة بتقدير من الله ليتم نصر المسلمين، وكان خاطر رجوع سراقة خاطرا ملكيا ساقه الله إليه لأنّ سراقة لم يزل يتردّد في أن يسلم منذ يوم لقائه رسول الله صلى الله عليه وسلم في طريق الهجرة، حين شاهد معجزة سوخ قوائم فرسه في الأرض، وأخذه الأمان من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

تزيين الشيطان للمشركين أعمالهم: يجوز أن يكون إسنادا مجازيا، وإنّما المزين لهم سراقة بإغراء الشيطان، بما سوّل إلى سراقة بن مالك من تثبيته المشركين على المضي في طريقهم لإنقاذ عيرهم، وأن لا يخشوا غدر كنانة بهم.

وقيل: تمثّل الشيطان للمشركين في صورة سراقة وليس ذلك بمروي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، وإنّما روي ذلك عن قول ابن عباس. وتأويل ذلك: أن ما صدر من سراقة كان بوسوسة من الشيطان.

ويجوز أن يكون اسم الشيطان أطلق على سراقة لأنّه فعل فعل الشيطان كما يقولون: فلان من شياطين العرب.

{ **إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ** } إن كان من الشيطان فهو قول في نفسه، وضمير الخطاب التفات استحضرهم كأنّهم يسمعونه، فقال قوله هذا، وتكون الرؤية بصرية يعني رأى نزول الملائكة وخاف.

وإن كان ذلك كله من قول سراقة فهو إعلان لهم برد جواره إيّاهم لئلا يكون خائنا لهم، لأنّ العرب كانوا إذا أرادوا نقض جوار أعلنوا ذلك لمن أجاروه، كما فعل ابن الدغنة حين أجار أبا بكر من أذى قريش ثم ردّ جواره من أبي بكر، ومنه قوله تعالى { وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ } [58]. فالمعنى: إني بريء من جواركم، ولذلك قال له الحارث بن هشام: " إلى اين أتخذلنا ". فيكون قد اقتصر على تأمينهم من غدر قومه بني كنانة.

{ **إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ** } فعلى احتمال أن يكون الإسناد إلى الشيطان حقيقة فالمراد من خوف الله توقّع أن يصيبه الله بضر، من نحو الرجم بالشهب.

وإن كان مجازا عقليا وأن حقيقته قول سراقة فلعلّ سراقة قال قولا في نفسه، لأنّه كان عاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا يدلّ عليه المشركين، فلعله تذكر ذلك ورأى أنّ فيما وعد المشركين من الإعانة ضربا من خيانة العهد فخاف سوء عاقبة الخيانة.

التزيين: إظهار الشيء زيْنا، أي: حسنا، وتقدّم عند قوله تعالى { كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ } [الأنعام:108]. المعنى: أنّه أراهم حسنا ما يعملونه من الخروج إلى إنقاذ العير، ثم من إزماع السير إلى بدر.

{ **تَرَاءَتِ** } مفاعلة من الرؤية، أي: رأت كلتا الفئتين الأخرى.

{ **نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ** } رجع من حيث جاء. ومصدره النكوص، وهو من باب رجع.

{ **عَلَى عَقِبَيْهِ** } مؤكِّد لمعنى نكص، إذ النكوص لا يكون إلا على العقبين، لأنّه الرجوع إلى الوراء

كقولهم: رجع القهقرى، ونظيره قوله تعالى { فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ } [المؤمنين:66].

{ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [49].

كان المنافقون يقبّحون أعمال المسلمين ويصفونهم بالغرور وقلّة التدبير من اعتقادهم في دينهم الذي أوقعهم في هذا الغرور، ويجول في نفوس الذين في قلوبهم مرض مثل هذا.

{ **إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ** } القول هنا مستعمل في حقيقته ومجازه الشامل لحديث النفس، لأنّ المنافقين يقولون ذلك بألسنتهم، وأمّا الذين في قلوبهم مرض وهم طائفة غير المنافقين، بل هم من لم يتمكّن الإيمان من قلوبهم. فيقولونه في أنفسهم لما لهم من الشك في صدق وعد النبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّهم غير موالين للمنافقين، ويجوز أن يتحدّثوا به بين جماعتهم.

المرض: هنا مجاز في اختلال الاعتقاد، شُبّه بالمرض بوجه سوء عاقبته عليهم.

{ **هَؤُلاءِ** } أشاروا إلى المسلمين الذين خرجوا إلى بدر.

الغرور: الإيقاع في المضرّة بإيهام المنفعة، وقد تقدّم عند قوله تعالى { لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ} [عمران:196] وقوله تعالى { زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً } [الأنعام:112].

{ **دِينُهُمْ** } هو الإسلام. وإسنادهم الغرور إلى الدين باعتبار ما فيه من الوعد بالنصر، أي: غرّهم ذلك فخرجوا وهم عدد قليل للقاء جيش كثير.

{ **وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** } من جملة الأخبار المسوقة لبيان عناية الله تعالى بالمسلمين، وللامتنان عليهم، فالمناسبة بينها وبين الجملة التي قبلها أنّها كالعلّة لخيبة ظنون المشركين ونُصرائهم.

أي: أنّ الله خيّب ظنونهم لأنّ المسلمين توكّلوا عليه وهو عزيز لا يُغلب.

التوكّل: الاستسلام والتفويض، وقد تقدّم عند قوله تعالى { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } [آل عمران:159].

{ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ [50] **ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ** [51] }.

انتقل إلى وصف ما لقيه من العذاب من قُتل منهم يوم بدر، ممّا هو مغيّب عن النّاس، ليعلم المؤمنون ويرتدع الكافرون. والمراد بالذين كفروا هنا الذين قتلوا يوم بدر، وتكون هذه الآية من تمام الخبر عن قوم بدر.

ويجوز أن يكون المراد بالذين كفروا جميع الكافرين، حملا للموصول على معنى العموم، فتكون الآية

اعتراضا مستطردا في خلال القصّة بمناسبة وصف ما لقيه المشركون في ذلك اليوم الذي عُجّل لهم فيه عذاب الموت.

{ **وَلَوْ تَرَى** } مخاطب غير معيّن، ليعم كل مخاطب، أي: لو ترى أيّها السامع. إذ ليس المقصود بهذا الخبر خصوص النبيّ صلى الله عليه وسلم حتّى يُحمل الخطاب على ظاهره، بل غير النبيّ أولى به منه.

إن كان المراد بالذين كفروا مشركي يوم بدر، فالإتيان بالمضارع في الموضعين مكان الماضي لقصد استحضار تلك الحالة العجيبة، وهي حالة ضرب الوجوه والأدبار، ليخيّل للسامع أنّه يشاهد تلك الحالة.

وإن كان المراد المشركين حيثما كانوا كان التعبير بالمضارع على مقتضى الظاهر.

التوفّي: الإماتة، سمّيت توفّيا لأنّها تنهي حياة المرء أو تستوفيها، قال تعالى { قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ } [السجدة:11].

{ **يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ** } في موضع الحال إن كان المراد من التوفّي قبض أرواح المشركين يوم بدر حين يقتلهم المسلمون، أي: يزيدهم الملائكة تعذيبا عند نزع أرواحهم، وهي بدل اشتمال من جملة {يَتَوَفَّى} إن كان المراد بالتوفّي توفيا يتوفاه الملائكة الكافرين.

{ **وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ** } معطوفة على { يَضْرِبُونَ } بتقدير القول، لأنّ هذه الجملة لا موقع لها مع التي قبلها، إلّا أن تكون من قول الملائكة، أي: ويقولون: ذوقوا عذاب الحريق.

وذكر الوجوه والأدبار للتعميم، أي: يضربون جميع أجسادهم. فالأدبار، جمع دبر وهو ما دبر من الإنسان. وكذلك الوجوه كناية عما أقبل من الإنسان. وهذا كقول العرب: ضربته الظهر والبطن، كناية عما أقبل وما أدبر، أي: ضربته في جميع جسده.

{ **وَذُوقُوا** } مستعمل في مطلق الإحساس، بعلاقة الإطلاق.

{ **عَذَابَ الْحَرِيقِ** } من إضافة الجنس إلى نوعه، أي: عذابا هو الحريق، فهي إضافة بيانية.

المراد بقول الملائكة { وَذُوقُوا } إنذارهم بأنّهم سيذوقونه، وإنّما يقع الذوق يوم القيامة، فيكون الأمر مستعملا في الإنذار.

{ **ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ** } الإشارة إلى ما يشاهدونه من العذاب. وجيء بإشارة البعيد لتعظيم ما يشاهدونه من الأهوال.

{ **قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ** } أي: ما أسلفته من الأعمال فيما مضى، أي: من الشرك وفروعه من الفواحش.

{ **وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ** } نفي الظلم عن الله تعالى كناية عن عدله، وأن الجزاء الأليم كان كِفاءً للعمل المجازي عنه دون إفراط.

{ **كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ** } [52].

{ **كَدَأْبِ** } خبر مبتدأ محذوف، فالتقدير هنا: دأبهم كدأب آل فرعون والذين من قبلهم، أي: من الأمم المكذّبين برسل ربهم، مثل عاد وثمود.

الدأب: العادة والسيرة المألوفة، وقد تقدّم مثله في [آل عمران:11]. وتقدّم وجه تخصيص آل فرعون بالذكر. ولا فرق بين الآيتين إلّا اختلاف العبارة، ففي آية آل عمران { كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا } وهنا { كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ }، وهنالك { وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ } وهنا { إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ }.

فأمّا المخالفة بين { كَذَّبُوا } و { كَفَرُوا }، فلأن قوم فرعون والذين من قبلهم شاركوا المشركين في الكفر بالله وتكذيب رسله، وفي جحد دلالة الآيات على الوحدانية وعلى صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، فذكروا هنا ابتداء بالأفظع من الأمرين فعبّر بالكفر بالآيات الدالة على وحدانية الله تعالى، لأنّ الكفر أصرح في إنكار صفات الله تعالى. فأمّا في آية آل عمران، فقد ذُكر تكذيبهم بالآيات، أي: الدالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، لأنّ التكذيب متبادر في معنى تكذيب المخبر، لوقوع ذلك عقب ذكر تنزيل القرآن وتصديق من صدّق به، وإلحاد من قصد الفتنة بمتشابهه، فعُبّر عن الذين شابهوهم في تكذيب رسولهم بوصف التكذيب.

فأمّا الإظهار هنا في مقام الإضمار فاقتضاه أنّ الكفر كفر بما يرجع إلى صفات الله فأضيفت الآيات إلى اسم الجلالة ليدلّ على الذات بعنوان الإله الحق وهو الوحدانية، وأمّا الإضمار في آل عمران فلكون التكذيب تكذيبا لآيات دالة على ثبوت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، فأضيفت الآيات إلى الضمير على الأصل في التكلّم.

وأمّا الاختلاف بذكر حرف التأكيد هنا { إِنَّ }، دونه في آية آل عمران، فلأنه قصد هنا التعريض بالمشركين، وكانوا ينكرون قوة الله عليهم، بمعنى لازمها، وهو إنزال الضرّ بهم، وينكرون أنّه شديد العقاب لهم، فأكِّد الخبر باعتبار لازمه التعريضي الذي هو إبلاغ هذا الإنذار إلى من بقي من المشركين، وفي سورة آل عمران لم يقصد إلّا الإخبار عن كون الله شديد العقاب إذا عاقب، فهو تذكير للمسلمين وهم المقصود بالإخبار.

وزيد وصف { قوي } هنا مبالغة في تهديد المشركين المقصودين بالإنذار والتهديد.

القويّ: الموصوف بالقوّة، وحقيقتها كمال صلابة الأعضاء لأداء الأعمال التي تراد منها، وقد تقدّم عند قوله تعالى { فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ } [الأعراف:145]. وهي إذا وصف الله بها مستعملة في معناها اللزومي وهم منتهى القدرة على فعل ما تتعلق به إراداته تعالى من الممكنات.

{ **إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ** } المقصود من ذكر هذين الوصفين الإيماء إلى أنّ أخذهم كان قويّا شديدا، لأنّه عقابُ قوي شديد العقاب، كقوله تعالى { فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ } [القمر:42].

{ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [53].

الإشارة إلى قوله تعالى { فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ } [52]. أي: ذلك الأخذ بسبب أعمالهم التي تسببوا بها في زوال نعمتهم. والتسبيب يقتضي أنّ آل فرعون والذين من قبلهم كانوا في نعمة فغيّرها الله عليهم بالنقمة، وأنّ ذلك جرى على سنة الله أنّه لا يسلب نعمة أنعمها على قوم حتّى يغيروا ذلك بأنفسهم، كما قال تعالى { وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا } [القصص:58]

وهذا إنذار لقريش أن يحلّ بهم مثل ما حلّ بغيرهم من الأمم الذين بطروا النعمة.

التغيير: تبديل شيء بما يضاده، فتغيير النعمة إبدالها بضدّها وهو النقمة وسوء الحال.

{ **أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ** } للتذكير بأنّ أصل النعمة من الله.

{ **مَا بِأَنْفُسِهِمْ** } الباء للملابسة، أي: ما أستقرّ وعلق بهم.

ذلك أنّ الأمم تكون صالحة ثم تتغير أحوالها ببطر النعمة فيعظم فسادها، فذلك تغيير ما كانوا عليه. فإذا أراد الله إصلاحهم أرسل إليهم هداة لهم فإذا أصلحوا استمرت عليهم النعم مثل قوم يونس وهم أهل (نينوى)، وإذا كذّبوا وبطروا النعمة غيّر الله ما بهم من النعمة إلى عذاب ونقمة.

{ **حَتَّى** } تغيير نعمة الله على الأقوام هي غاية متّسعة، لأنّ الأقوام إذا غيّروا ما بأنفسهم من هدى أمهلهم الله زمنا ثم أرسل إليهم الرسل فإذا أرسل إليهم الرسل فقد نبهّهم إلى اقتراب المؤاخذة ثم أمهلهم مدة لتبليغ الدعوة والنظر فإذا أصرّوا على الكفر غير نعمته عليهم بإبدالها بالعذاب أو الذلّ أو الأسر، كما فعل ببني إسرائيل حين أفسدوا في الأرض فسلط عليهم الأشوريين.

{ **وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** } أي: ذلك بأنّ الله يعلم ما يضمره النّاس وما يعملونه، ويعلم ما ينطقون به، فهو يعاملهم بما يعلم منهم. وذكر صفة { سَمِيعٌ } قبل صفة { عَلِيمٌ } يومئ إلى أنّ التغيير الذي أحدثه المعرَّض بهم متعلّق بأقوالهم وهو دعوتهم آلهة غير الله تعالى.

{ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ } [54].

{ **كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ** } تكرير لقصد التأكيد والتسميع، تقرير للإنذار والتهديد، وخولف بين الجملتين تفنّنا في الأسلوب، وزيادة للفائدة، بذكر التكذيب هنا بعد ذكر الكفر هناك، وهما سببان للأخذ والإهلاك كما قدّمناه.

وذكر وصف الربوبية هنا دون الاسم العلم لزيادة تفظيع تكذيبهم لأنّ الاجتراء على الله مع ملاحظة كونه ربا للمجترىء، يزيد جراءته قبحا، لإشعاره بأنّها جراءة في موضع الشكر، لأنّ الرب يستحق الشكر.

وعُبّر بالإهلاك عوض الأخذ المتقدّم ذكره ليفسَّر الأخذ بأنّه آل إلى الإهلاك، وزيد الإهلاك بيانا بالنسبة إلى آل فرعون بأنّه إهلاك الغرق.

{ **كُلٌّ** } تنوين للتعويض عن المضاف إليه، أي: وكل المذكورين، أي: آل فرعون والذين من قبلهم.

{ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ [55] الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ [56] فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ [57] }.

عن ابن عباس وقتادة، أنّ المراد بهم قريظة فإنّهم عاهدوا النبيّ صلى الله عليه وسلم أن لا يحاربوه ولا يعينوا عليه عدوّه، ثمّ نقضوا عهدهم فأمدّوا المشركين بالسلاح والعدّة يوم بدر، واعتذروا فقالوا: نسينا وأخطأنا، ثم عاهدوه أن لا يعودوا لمثل ذلك فنكثوا عهدهم يوم الخندق، ومالوا مع الأحزاب، وأمدوهم بالسلاح والأدراع.

والأظهر عندي أن يكون المراد بهم قريظة وغيرهم من بعض قبائل المشركين، وأخصّها المنافقون فقد كانوا يعاهدون النبيّ صلى الله عليه وسلم ثم ينقضون عهدهم. وقد نقض عبد الله بن أبي ومن معه عهد النصرة في أحد، فانخذل بمن معه وكانوا ثلث الجيش. وقد ذُكر في أول سورة التوبة عهد فرق من المشركين. وهذا هو الأنسب بإجراء صلة الذين كفروا عليهم لأنّ الكفر غلب في اصطلاح القرآن إطلاقه على المشركين.

{ **شَرَّ الدَّوَابِّ** } لأنّ دعوة الإسلام أظهر من دعوة الأديان السابقة، ومعجزة الرسول صلى الله عليه وسلم أسطع، ولأنّ الدلالة على أحقيّة الإسلام دلالة عقلية بيّنة، فمن يجحده فهو أشبه بما لا عقل له. وتقدّم آنفا الكلام على نظيره { إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ } [22].

{ **فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ** } الذين كفروا من قبل الإسلام فاستمر كفرهم فهم لا يؤمنون بعد سماع دعوة الإسلام. ولمّا كان هذا الوصف هو الذي جعلهم شرّ الدواب عند الله عُطف هنا بالفاء للإشارة إلى أنّ سبب إجراء ذلك الحكم عليهم هو مجموع الوصفين، وأتي بصلة { فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ } جملة اسمية لإفادة ثبوت عدم إيمانهم وأنّهم غير مرجو منهم الإيمان.

{ **الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ** } بدل من { الَّذِينَ كَفَرُوا } بدلا مطابقا، فالذين عاهدهم هم الذين كفروا.

{ **مِنْهُمْ** } وتعدية {عَاهَدْتَ} بـ (مِنْ) للدلالة على أنّ العهد كان يتضمّن التزاما من جانبهم، لأنّه يقال أخذت منه عهدا، أي: التزاما. نبّه على أنّ المقصود من المعاهدة التزامهم بأن لا يعينوا عليه عدوا. وليست (مِنْ) تبعيضية لعدم متانة المعنى إذ يصير الذمّ متوجها إلى بعض الذين كفروا.

{ **ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ** } المضارع للدلالة على أنّ ذلك يتجدّد منهم ويتكرّر، بعد نزول هذه

الآية، وأنّهم لا ينتهون عنه، فهو تعريض بالتأييس من وفائهم بعهدهم.

{ كُلِّ مَرَّةٍ } كلّ مرة من المرات التي يحقّ فيها الوفاء بما عاهدوه عليه، سواء تكرّر العهد أم لم يتكرر، لأنّ العهد الأوّل يقتضي الوفاء كلّما دعا داع إليه.

والأظهر أنّ هذه الآية نزلت عقب وقعة بدر، وقبل وقعة الخندق، فالنقض الحاصل منهم حصل مرة واحدة، وأخبر عنه بأنّه يتكرر مرّات، وإن كانت نزلت بعد الخندق، بأنّ امتد زمان نزول هذه السورة، فالنقض منهم قد حصل مرتين، والإخبار عنه بأنّه يتكرر مرات هو هو، فلا جدوى في ادعاء أنّ الآية نزلت بعد وقعة الخندق.

{ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ } دالة على أن انتفاء التقوى عنهم صفة متمكنّة منهم، وملكة فيهم.

ووقوع فعل { يَتَّقُونَ } في حيز النفي يعمّ سائر جنس الأتقاء وهو الجنس المتعارف منه، الذي يتهمّم به أهل المروءات والمتديّنون، فيعمّ اتقاء الله وخشية عقابه في الدنيا والآخرة، ويعمّ اتقاء العار، واتقاء المسبة واتقاء سوء السمعة.

{ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ } وإذ قد تحقق منهم نقض العهد فيما مضى، وهو متوقع منهم فيما يأتي، لا جرم تفرّع عليه أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجعلهم نكالا لغيرهم متى ظفر بهم في حرب يشهرونها عليه أو يعينون عليه عدوّه.

الثقف: الظفر بالمطلوب، أي: فإن وجدتهم وظفرت بهم في حرب، أي: انتصرت عليهم.

التشريد: التطريد والتفريق. أي: فبعِّد من خلفهم، وقد يُجعل التشريد كناية عن التخويف والتنفير.

الخَلْف: مستعار للاقتداء بجامع الاتّباع. ونظيره (الوراء) في قول ضمام ابن ثعلبة : وأنا رسول من ورائي. وقال وفد الأشعريين للنبيّ صلى الله عليه وسلم: " فمرنا بأمر نأخذ به ونخبر به من وراءنا ".

المعنى: فاجعلهم مثلا وعبرة لغيرهم من الكفّار الذين يترقّبون ماذا يجتني هؤلاء من نقض عهدهم فيفعلون مثل فعلهم. ولأجل هذا الأمر نكّل النبيّ صلى الله عليه وسلم بقريظة حين حاصرهم ونزلوا على حكم سعد بن معاذ، فحكم بأن تقتل المقاتلة وتسبى الذرّيّة.

وقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر بالإغلاظ على العدو لما في ذلك من مصلحة إرهاب أعدائه، فإنّهم كانوا يستضعفون المسلمين، فكان في هذا الإغلاظ على الناكثين تحريض على عقوبتهم، لأنّهم استحقّوها. وفي ذلك رحمة لغيرهم لأنّه يصدّ أمثالهم عن النكث، ويكفي المؤمنين شرّ الناكثين الخائنين.

{ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ } تذكّر حالة المثقّفين في الحرب التي انجرّت لهم من نقض العهد، أي: لعلّ من خلفهم يتذكّرون ما حل بناقضي العهد من النكال، فلا يقدموا على نقض العهد، فآل معنى التذكّر إلى لازمه وهو الاتعاظ والاعتبار، وقد شاع إطلاق التذكّر وإرادة معناه الكنائي وغلب فيه.

{ **وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ** } [58].

عطف حكم عام لمعاملة جميع الأقوام الذين تلوح منهم بوارق الغدر والخيانة، بحيث يبدو من أعمالهم ما فيه مخيلة بعدم وفائهم، فأمره الله أن يردّ إليهم عهدهم إذ لا فائدة فيه، إذ هم ينتفعون من مسالمة المؤمنين لهم، ولا ينتفع المؤمنون من مسالمتهم عند الحاجة.

الخوف: توقع ضرّ من شيء، وهو الخوف الحقّ المحمود. وأمّا تخيل الضرّ بدون أمارة فليس من الخوف وإنّما هو الهوس والتوهّم. وخوف الخيانة ظهور بوارقها. وبلوغ إضمارهم إيّاها بما يتّصل بالمسلمين من أخبار أولئك وما يأتي به تجسس أحوالهم.

{ **مِنْ قَوْمٍ** } نكرة في سياق الشرط فتفيد العموم، أي: كلّ قوم تخاف منهم خيانة.

الخيانة: ضد الأمانة، وهي هنا نقض العهد، لأنّ الوفاء من الأمانة. وتقدّم معنى الخيانة عند قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ } [27].

النبذ: الطرح وإلقاء الشيء. وتقدّم عند قوله تعالى { أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ } [البقرة:100].

وإنّما رُتّب نبذ العهد على خوف الخيانة، دون وقوعها لأنّ شؤون المعاملات السياسية والحربية تجري على حسب الظنون ومخائل الأحوال ولا يُنتظر تحقّق وقوع الأمر المظنون لأنّه إذا تريّث ولّاة الأمور في ذلك يكونون قد عرّضوا الأمّة للخطر، أو للتورّط في غفلة وضياع مصلحة. ولا تدار سياسة الأمّة بما يدار به القضاء في الحقوق، لأنّ الحقوق إذا فاتت كانت بليّتها على واحد، وأمكن تدارك فائتها. ومصالح الأمّة إذا فاتت تمكّن منها عدوها.

{ **عَلَى سَوَاءٍ** } صفة لمصدر محذوف، أي: نبذا على سواء. ووصف النبذ أو النابذ بأنّه على سواء، تمثيل بحال الماشي على طريق جادة لا التواء فيها، فلا مخاتلة لصاحبها، كقوله تعالى { فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ } [الأنبياء:109] . <u>المعنى</u>: فانبذ إليهم نبذا واضحا علنا مكشوفا.

{ **إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ** } تذييل لما اقتضته جملة { وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً } تصريحا واستلزاما.

<u>المعنى</u>: لأنّ الله لا يحبّهم لأنّهم متصفون بالخيانة فلا تستمر على عهدهم فتكون معاهدا لمن لا يحبهم الله.

{ **وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ** } [59].

تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم على ما بدأه به أعداؤه من الخيانة مثل ما فعلت قريظة، وما فعل عبد الله بن أبي سلول وغيرهم من فلول المشركين الذين نجوا يوم بدر. وطمأنة له وللمسلمين بأنّهم سيُدالون منهم، ويأتون على بقيّتهم. وتهديد للعدو بأنّ الله سيمكّن منهم المسلمين.

السبق: مستعار للنجاة ممّن يطلب، والتفلّت من سلطته. شُبّه المتخلّص من طالبه بالسابق.

كقوله تعالى { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا } [العنكبوت:4].

{ **إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ** } أي: هم وإن ظهرت نجاتهم الآن، فما هي إلّا نجاة في وقت قليل، فهم لا يعجزون الله، أو لا يعجزون المسلمين.

{ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ} [60].

عطفت على { وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا } [59]، فتفيد مفاد الاحتراس عن مفادها، لأنّ قوله تعالى { وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا } يفيد توهينا لشأن المشركين، فتعقيبه بالأمر بالاستعداد لهم لئلّا يحسب المسلمون أنّ المشركين قد صاروا في مكنتهم. ويلزم من ذلك الاحتراس أنّ الاستعداد لهم هو سبب جعل الله إيّاهم لا يعجزون الله ورسوله، لأنّ الله هيّأ أسباب استئصالهم ظاهرها وباطنها.

الإعداد، التهيئة والإحضار.

{ **مَا اسْتَطَعْتُمْ** } كلّ ما يدخل تحت قدرة النّاس اتخاذه من العدّة.

والخطاب لجماعة المسلمين وولّاة الأمر منهم، لأنّ ما يراد من الجماعة إنّما يقوم بتنفيذه ولّاة الأمور الذين هم وكلاء الأمّة على مصالحها.

القوّة: كمال صلاحية الأعضاء لعملها، وقد تقدّمت عند قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ } [52]. وتطلق القوّة مجازا على شدّة تأثير شيء ذي أثر، وتطلق أيضا على سبب شدّة التأثير، فقوّة الجيش شدّة وقعه على العدو، وقوّته أيضا سلاحه وعتاده، وهو المراد هنا، فهو مجاز مرسل بواسطتين، فاتخاذ السيوف والرماح والأقواس والنبال من القوّة في جيوش العصور الماضية، واتخاذ الدبابات والمدافع والطيارات والصواريخ من القوّة في جيوش عصرنا. وبهذا الاعتبار يُفسّر ما روى مسلم والترمذي عن عقبة بن عامر أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية على المنبر ثم قال:" **ألّا إنّ القوّة الرمي**" قالها ثلاثا. أي: أكملُ أفراد القوّة آلة الرمي، أي: في ذلك العصر وليس المراد حصر القوّة في آلة الرمي.

{ **وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ** } من عطف الخاص على العام، للاهتمام بذلك الخاص.

الرباط: صيغة مفاعلة أتي بها هنا للمبالغة لتدلّ على قصد الكثرة من ربط الخيل للغزو، أي: احتباسها وربطها انتظارا للغزو عليها. كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **من ارتبط فرسا في سبيل الله كان روثها وبولها حسنات له** ".

يقال: ربط الفرس إذا شدّه في مكان حفظه، وقد سمّوا المكان الذي ترتبط فيه الخيل رباطا، لأنّهم كانوا يحرسون الثغور المخوفة راكبين على أفراسهم. ثم أطلق الرباط على محرس الثغر البحري، وبه سمّوا رباط (دمياط) بمصر، ورباط (المنستير) بتونس، ورباط (سلا) بالمغرب الأقصى. وقد تقدّم شيء من

هذا عند قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا } [آل عمران:200].

{ **تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** } إمّا مستأنفة استئنافا بيانيا، وإمّا في موضع الحال من ضمير في قوله تعالى { وَأَعِدُّوا }.

عدوّ الله وعدوّهم: هم المشركون، فكان تعريفهم بالإضافة لأنّها أخصر طريق لتعريفهم، ولِما تتضمّنه من وجه قتالهم وإرهابهم، ومن ذمّهم، أن كانوا أعداء ربهم، ومن تحريض المسلمين على قتالهم إذ عُدُّوا أعداءً لهم.

الإرهاب: جعل الغير راهبا، أي: خائفا، فإنّ العدو إذا علم استعداد عدوّه لقتاله خافه، ولم يجرأ عليه، فكان ذلك هناء للمسلمين وأمنا من أن يغزوهم أعداؤهم.

{ **وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ** } أعداء لا يعرفهم المسلمون بالتعيين ولا بالإجمال، وهم من كان يضمر للمسلمين عداوة وكيدا، ويتربّص بهم الدوائر، مثل بعض القبائل. أي: لم تكونوا تعلمونهم قبل هذا الإعلام، وقد علمتموهم الآن إجمالا. أو أريد، لا تعلمونهم بالتفصيل ولكنّكم تعلمون وجودهم إجمالا مثل المنافقين. فالعلم بمعنى المعرفة ولهذا نصب مفعولا واحدا.

{ **مِنْ دُونِهِمْ** } مؤذن بأنّهم قبائل من العرب كانوا ينتظرون ما تنكشف عنه عاقبة المشركين من أهل مكّة من حربهم مع المسلمين، فقد كان ذلك دأب كثير من القبائل كما ورد في السيرة. بمعنى: من جهات أخرى، لأنّ أصل (دُون) أنّها للمكان المخالف، وهذا أولى من حمله على مطلق المغايرة التي هي من إطلاقات كلمة (دون)، لأنّ ذلك المعنى قد أغنى عنه وصفهم بـ { آخَرِينَ }

{ **اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ** } تعريض بالتهديد لهؤلاء الآخرين، فالخبر مستعمل في معناه الكنائي، وهو تعقّبهم والإغراء بهم، وتعريض بالامتنان على المسلمين بأنّهم بمحل عناية الله، فهو يحصي أعداءهم وينبّههم إليهم.

{ **وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ** } وإذ قد كان إعداد القوة يستدعي إنفاقا، وكانت النفوس شحيحة بالمال، تكفّل الله للمنفقين في سبيله بإخلاف ما أنفقوه والإثابة عليه.

سبيل الله: هو الجهاد لإعلاء كلمته.

التوفية: أداء الحقّ كاملا. جعل الله ذلك الإنفاق كالقرض لله، وجعل على الإنفاق جزاء، فسمّى جزاءه توفية على طريقة الاستعارة المكنية. وتدل التوفية على أنّه يشمل الأجر في الدنيا مع أجر الآخرة.

الظلم: هنا مستعمل في النقص من الحقّ، لأنّ نقص الحقّ ظلم، وتسمية النقص من الحق ظلما حقيقة.

{ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [61].

انتقال من بيان أحوال معاملة العدو في الحرب؛ من وفائهم بالعهد، وخيانتهم، وكيف يحلّ المسلمون العهد معهم إن خافوا خيانتهم، ومعاملتهم إذا ظفروا بالخائنين. والأمر بالاستعداد لهم، إلى بيان أحكام السلم إن

طلبوا السلم والمهادنة، وكفّوا عن حالة الحرب. فأمر الله المسلمين بأن لا يأنفوا من السلم وأن يوافقوا من سأله منهم.

الجنوح: الميل، وهو مشتق من جناح الطائر، لأنّ الطائر إذا أراد النزول مال بأحد جناحيه، وهو جناح جانبه الذي ينزل منه.

{ **وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ** } أي: إن مالوا إلى السلم ميل القاصد إليه. وإنّما لم يقل: وإن طلبوا السلم فأجبهم إليها، للتنبيه على أنّه لا يسعفهم إلى السلم حتّى يعلم أن حالهم حال الراغب، لأنّهم قد يظهرون الميل إلى السلم كيدا.

{ **لِلسَّلْمِ** } اللام واقعة موقع (إلى) لتقوية التنبيه على أنّ ميلهم إلى السلم ميل حقّ، أي: وإن مالوا لأجل السلم ورغبة فيه لا لغرض آخر غيره.

السّلم: (بفتح السين وكسرها) ضد الحرب.

{ **وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** } الأمر بالتوكل على الله، بعد الأمر بالجنوح إلى السلم، ليكون النبيّ صلى الله عليه وسلم معتمدا في جميع شأنه على الله تعالى، ومفوّضا إليه تسيير أموره، لتكون مدّة السلم مدة تقوّ واستعداد، وليكفيه الله شرّ عدوّه إذا نقضوا العهد. ولذلك عُقّب الأمر بالتوكّل بتذكيره بأنّ الله السميع العليم.

{ **إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** } أفاد قصر معنى الكمال في السمع والعلم، أي: فهو سميع منهم ما لا تسمع ويعلم ما لا تعلم. وقصر هذين الوصفين بهذا المعنى على الله تعالى عقب الأمر بالتوكل عليه يفضي إلى الأمر بقصر التوكّل عليه لا على غيره. وفي الجمع بين الأمر بقصر التوكل عليه وبين الأمر بإعداد ما استطاع من القوة للعدو، دليل بيّن على أنّ التوكل أمر غير تعاطي أسباب الأشياء، فتعاطي الأسباب فيما هو من مقدور الناس، والتوكّل فيما يخرج عن ذلك.

واعلم أن ضمير جمع الغائبين في قوله تعالى { وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ } وقع في هذه الآية عقب ذكر طوائف في الآيات قبلها. فقيل: عاد ضمير الغيبة إلى المشركين، قاله قتادة، وعكرمة، والحسن، وجابر بن زيد، ورواه عطاء عن ابن عباس، وقيل: عاد إلى أهل الكتاب، قاله مجاهد، قيل: هم قريظة والنضير وبنو قينقاع.

{ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ [62] وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [63] }.

لما كان طلب السلم والهدنة من العدو قد يكون خديعة حربيّة، ليغروا المسلمين بالمصالحة ثم يأخذوهم

على غرّة، أيقظ الله رسوله لهذا الاحتمال فأمره بأن يأخذ الأعداء على ظاهر حالهم، ويحملهم على الصدق، لأنّه الخلق الإسلامي، وشأن أهل المروءة، ولا تكون الخديعة بمثل نكث العهد. فإذا ساقهم كفرُهم على ارتكاب مثل هذا التسفّل، فإنّ الله تكفّل، للوفي بعهده، أن يقيه شر خيانة الخائنين.

وهذا الأصل، وهو أخذ النّاس بظواهرهم، شعبة من شعب دين الإسلام، قال تعالى { فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ } [التوبة: 4] وفي الحديث: **" آية المنافق ثلاث: ... وإذا وعد أخلف ".** ومن أحكام الجهاد أن لا يخفر للعدو بعهد.

المعنى: إن كانوا يريدون من إظهار ميلهم إلى المسالمة خديعة فإنّ الله كافيك شرّهم. وليس هذا هو مقام نبذ العهد الذي في قوله تعالى { وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ } [58]، فإن ذلك مقام ظهور أمارات الخيانة من العدو، وهذا مقام إضمارهم الغدر دون أمارة على ما إضمروه.

{ **فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ** } دلّت على تكفّل كفايته، وقد أريد منه أيضا الكناية عن عدم معاملتهم بهذا الاحتمال، وأن لا يتوجّس منه خيفة، وأنّ ذلك لا يضرّه.

الخديعة: تقدّمت في قوله تعالى { يُخَادِعُونَ اللَّهَ } [البقرة:9].

حسْب: معناه كاف وهو صفة مشبّهة بمعنى اسم الفاعل، أي: كافيك، وتقدّم عند قوله تعالى { وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ } [آل عمران:173].

{ **هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ** } مستأنفة مسوقة مساق الاستدلال على أنّه حسبه، وعلى المعنى التعريضي وهو عدم التحرّج من احتمال قصدهم الخيانة والتوجّس من ذلك الاحتمال خيفة.

والمعنى: فإنّ الله قد نصرك من قبل وقد كنت يومئذ أضعف منك اليوم، فنصره إيّاك عليهم مع مخاتلتهم، ومع كونك في قوة من المؤمنين الذين معك، أولى وأقرب. لأنّ النصر يقوّي العزيمة، ويثبّت رأي المنصور، وضدّه يشوّش العقل، ويوهن العزم.

وإضافة النصر إلى الله تنبيه على أنّه نصر خارق للعادة، وهو النصر بالملائكة والخوارق.

{ **وَبِالْمُؤْمِنِينَ** } عطف على { بِنَصْرِهِ } وأعيد حرف الجر بعد واو العطف لدفع توهّم أن يكون معطوفا على اسم الجلالة، فيوهم أنّ المعنى: ونصر المؤمنين، مع أنّ المقصود أن وجود المؤمنين تأييد من الله لرسوله إذ وفّقهم لاتّباعه، فشرح صدره بمشاهدة نجاح دعوته وتزايد أمّته ولكون المؤمنين جيشا ثابتي الجنان.

{ **وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ** } التأليف بين قلوب المؤمنين منّة أخرى على الرّسول، إذ جعل أتباعه متحابين وذلك أعون له على سياستهم، وأرجى لاجتناء النفع بهم، إذ يكونون على قلب رجل واحد، وقد كان العرب يفضّلون الجيش المؤلف من قبيلة واحدة، لأنّ ذلك أبعد عن حصول التنازع بينهم.

وهو أيضا منّة على المؤمنين إذ نزع من قلوبهم الأحقاد والإحن، التي كانت دأب النّاس في الجاهلية، فكانت سبب التقاتل بين القبائل، بعضها مع بعض، وبين بطون القبيلة الواحدة.

{ **لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ** } استئناف ناشئ عن مساق الامتنان بهذا الائتلاف، فهو بياني، أي: لو حاولت تأليفهم ببذل المال العظيم ما حصل التآلف بينهم.

ومن أعظم مشاهد ذلك ما حدث بين الأوس والخزرج من الإحن قبل الإسلام ممّا نشأت عنه (حرب بُعاث) بينهم، ثم أصبحوا بعد حين إخوانا أنصارا لله تعالى، وأزال الله من قلوبهم البغضاء بينهم.

{ **وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ** } الاستدراك لأجل ما يُتوهّم من تعذر التأليف بينهم.

والخطاب في { أَنْفَقْتَ / أَلَّفْتَ } للرسول صلى الله عليه وسلم باعتبار أنّه أول من دعا إلى الله.

{ **إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** } وإذ كان هذا التكوين صنعا عجيبا ذيّل الله الخبر بهذا القول. فهو قوي القدرة فلا يعجزه شيء، محكم التكوين فهو يكوّن المتعذّر، ويجعله كالأمر المسنون المألوف.

{ يَا أَيُّهَا النبيّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } [64].

استئناف ابتدائي بالإقبال على خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم بأوامر وتعاليم عظيمة، مُهّد لقبولها وتسهيلها بما مضى من التذكير بعجيب صنع الله والامتنان بعنايته برسوله والمؤمنين، وإظهار أنّ النجاح والخير في طاعته وطاعة الله، من أول السورة إلى هنا، فموقع هذه الآية بعد التي قبلها كامل الاتساق والانتظام. فإنّه لمّا أخبره بأنّه حسبه وكافيه، وبيّن ذلك بأنّه أيّده بنصره فيما مضى وبالمؤمنين، فقد صار للمؤمنين حظّ في كفاية الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم فلا جرم أنتج ذلك أن حسبه الله والمؤمنون، فكانت الآية كالفذلكة للجملة التي قبلها.

{ **وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** } وفي عطف { الْمُؤْمِنِينَ } على اسم الجلالة هنا تنويه بشأن كفاية الله النبيّ صلى الله عليه وسلم بهم.

وقيل: يُجعل { وَمَنِ اتَّبَعَكَ } مفعولا معه لقوله تعالى {حَسْبُكَ }. وعلى هذا التقدير يكون التنويه بالمؤمنين في جعلهم مع النبيّ صلى الله عليه وسلم في هذا التشريف، والتفسير الأول أولى وأرشق.

{ يَا أَيُّهَا النبيّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ } [65].

أعيد نداء النبيّ صلى الله عليه وسلم للتنويه بشأن الكلام الوارد بعد النداء، وهذا الكلام في معنى المقصد بالنسبة للجملة التي قبله، لأنّه لمّا تكفّل الله له الكفاية وعطف المؤمنين في إسناد الكفاية إليهم، احتيج إلى بيان كيفية كفايتهم. وتلك هي الكفاية: بالذب عن الحوزة وقتال أعداء الله.

التحريض: المبالغة في المطلب.

{ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا }.

ضمير { مِنْكُمْ } خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين.

{ صَابِرُونَ } ثابتون في القتال، لأنّ الثبات على الآلام صبر، لأنّ أصل الصبر تحمّل المشاق، والثبات منه، وفي الحديث: **" لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإذا لاقيتم فاصبروا ".**

أي: حرّض المؤمنين الصابرين الذين لا يتزلزلون. فالمقصود أن لا يكون فيهم من هو ضعيف النفس فيفشل الجيش.

وذُكر في جانب جيش المسلمين في المرتين عدد العشرين وعدد المائة، وفي جانب جيش المشركين عدد المائتين وعدد الألف، إيماء إلى قلة جيش المسلمين في ذاته، مع الإيماء إلى أنّ ثباتهم لا يختلف باختلاف حالة عددهم في أنفسهم، فإنّ العادة أنّ زيادة عدد الجيش تقوّي نفوس أهله، ولو مع كون نسبة عددهم من عدد عدوهم غير مختلفة، فجعل الله الإيمان قوة لنفوس المسلمين تدفع عنهم وهم استشعار قلّة عدد جيشهم في ذاته.

أما اختيار لفظ العشرين للتعبير عن مرتبة العشرات دون لفظ العشرة، فلعلّ وجهه أنّ لفظ العشرين أسعد بتقابل السكنات في أواخر الكلم، لأنّ للفظة مائتين من المناسبة بسكنات كلمات الفواصل من السورة، ولذلك كثر المائة مع الألف لأن بعدها ذكر مميز العدد بألفاظ تناسب سكنات الفاصلة، وهو قوله تعالى { لا يَفْقَهُونَ} فتعيّن هذا اللفظ قضاء لحق الفصاحة.

فهذا الخبر كفالة للمسلمين بنصر العدد منهم على عشرة أمثاله، وهو يستلزم وجوب ثبات العدد منهم لعشرة أمثاله، وبذلك يفيد إطلاق الأمر بالثبات الواقع في قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا } [45]، وإطلاق النهي عن الفرار الواقع في قوله تعالى { فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ } [15] كما تقدّم. وهو من هذه الناحية التشريعية حكم شديد شاق اقتضته قلّة عدد المسلمين يومئذ وكثرة عدد المشركين، ولم يصل إلينا أنّ المسلمين احتاجوا إلى العمل به في بعض غزواتهم، وقصارى ما علمنا أنّهم ثبتوا لثلاثة أمثالهم في وقعة بدر، فقد كان المسلمون زهاء ثلاثمائة وكان المشركون زهاء الألف، ثم نزل التخفيف من بعد ذلك بالآية التالية.

{ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ } الباء للسببية، أي: بعدم فقههم.

الفقه: فهم الأمور الخفيّة، والمراد: نفي الفقه عنهم من جانب معرفة الله تعالى بقرينة تعليق الحكم بهم بعد إجراء صلة الكفر عليهم.

وإنّما جعل الله الكفر سببا في انتفاء الفقاهة عنهم لأن الكفر من شأنه إنكار ما ليس بمحسوس فصاحبه ينشأ على إهمال النظر، وعلى تعطيل حركات فكره، فهم لا يؤمنون إلّا بالأسباب الظاهرية، فيحسبون أنّ كثرتهم توجب لهم النصر على الأقلين، فقد شاع قولهم: " إنّما العزّة للكاثر ". ولأنّهم لا يؤمنون بما بعد الموت من نعيم وعذاب، فهم يخشون الموت فإذا قاتلوا ما يقاتلون إلّا في الحالة التي يكون نصرهم فيها

أرجح. والمؤمنون يعوّلون على نصر الله ويثبتون للعدو رجاء إعلاء كلمة الله، ولا يهابون الموت في سبيل الله، لأنّهم موقنون بالحياة الأبدية بعد الموت.

{ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ } [66].

هذه الآية نزلت بعد نزول الآية التي قبلها بمدّة. ولعلّه بعد نزول جميع سورة الأنفال، ولعلّها وضعت في هذا الموضع لأنّها نزلت مفردة غير متّصلة بآيات سورة أخرى، فجعل لها هذا الموضع لأنّه أنسب بها لتكون متصلة بالآية التي نسخت هي حكمها، ولم أر من عين زمن نزولها. ولا شك أنّه كان قبل فتح مكة فهي مستأنفة استئنافا ابتدائيا محضا لأنّها آية مستقلة.

{ **الْآنَ** } اسم ظرف للزمان الحاضر. قيل: أصله أوان، بمعنى زمان. ولمّا أريد تعيينه للزمان الحاضر لازمته لام التعريف بمعنى العهد الحضوري، فصار مع اللام كلمة واحدة ولزمه النصب على الظرفيّة.

وهو الوقت الذي علم الله عنده انتهاء الحاجة إلى ثبات الواحد من المسلمين للعشرة من المشركين، بحيث صارت المصلحة في ثبات الواحد لاثنين، لا أكثر، رفقا بالمسلمين واستبقاء لعددهم.

روى الطبري عن ابن عباس: " كان لكلّ رجل من المسلمين عشرة لا ينبغي أن يفرّ منهم، وكانوا كذلك حتى أنزل الله { الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً }، فعبَّأ لكلّ رجل من المسلمين رجلين من المشركين.

{ **الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً** } دلالة على أنّ ثبات الواحد من المسلمين للعشرة من المشركين كان وجوبا وعزيمة وليس ندبا، لأنّ المندوب لا يثقل على المكلفين، ولأنّ إبطال مشروعية المندوب لا يسمى تخفيفا، ثم إذا أبطل الندب لزم أن يصير ثبات الواحد للعشرة مباحا مع أنّه تعريض الأنفس للتهلكة.

{ **وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً** } في موضع الحال، أي: خفّف الله عنكم وقد علم من قبل أنّ فيكم ضعفا، فالكلام كالاعتذار على ما في الحكم السابق من المشقّة بأنّها مشقّة اقتضاها استصلاح حالهم.

الضعف: (بالضم والفتح) عدم القدرة على الأعمال الشديدة والشّاقة، ويكون في عموم الجسد وفي بعضه، وهو هنا ضعف الرهبة من لقاء العدد الكثير في قلة.

{ **فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ** } الفاء لتفريع التشريع على التخفيف. وعُبّر عن وجوب ثبات العدد من المسلمين لمثليه من المشركين بلفظي عددين معينين ومثليهما: ليجيء الناسخ على وفق المنسوخ، فقوبل ثبات العشرين للمائتين بنسخه إلى ثبات مائة واحدة للمائتين فأبقي مقدار عدد المشركين كما كان عليه في الآية المنسوخة، إيماء إلى أنّ موجب التخفيف كثرة المسلمين، لا قلة المشركين. وقوبل ثبات عدد مائة من المسلمين لألف من المشركين بثبات ألف من

المسلمين لألفين من المشركين، إيماء إلى أنّ المسلمين الذين كان جيشهم لا يتجاوز مرتبة المئات صار جيشهم يعد بالآلاف.

{ **صَابِرَةٌ** } أعيد الوصف لأنّ المقام يقتضي التنويه بالاتصاف بالثبات.

{ **بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** } **إِذْنُ الله:** أمْرُه، فيجوز أن يكون المراد أمره التكليفي، باعتبار ما تضمّنه الخبر من الأمر، كما تقدم، ويجوز أن يراد أمره التكويني باعتبار صورة الخبر والوعد. وإذْن الله حاصل في كلتا الحالتين المنسوخة والناسخة. وإنما صُرّح به هنا، دون ما سبق، لأنّ غَلَب الواحد للعشرة أظهر في الخرق للعادة، فيُعلم بدءا أنّه بإذن الله، وأمّا غَلَب الواحد الاثنين فقد يُحسب ناشئا عن قوّة أجساد المسلمين، فنُبّه على أنّه بإذن الله، ليُعلم أنّه مطّرد في سائر الأحوال، ولذلك ذُيّل بقوله تعالى { وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ }.

{ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [68] لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ [68] }.

استئناف ابتدائي مناسب لما قبله سواء نزل بعقبه أم تأخّر نزوله عنه، فكان موقعه هنا بسبب موالاة نزوله لنزول ما قبله أوكان وضع الآية هنا بتوقيف خاص. والمناسبة ذكر بعض أحكام الجهاد وكان أعظم جهاد مضى هو جهاد يوم بدر. لا جرم نزلت هذه الآية بعد قضية فداء أسرى بدر مشيرة إليها.

وعندي أنّ هذا تشريع مستقبل أخّره الله تعالى رفقا بالمسلمين الذين انتصروا ببدر وإكراما لهم على ذلك النصر المبين وسدا لخلّتهم التي كانوا فيها، فنزلت لبيان الأمر الأجدر فيما جرى في شأن الأسرى في وقعة بدر. وذلك ما رواه مسلم عن ابن عباس، والترمذي عن ابن مسعود، ما مختصره، " أنّ المسلمين لما أسروا الأسارى يوم بدر وفيهم صناديد المشركين سأل المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفاديهم بالمال وعاهدوا على أن لا يعودوا إلى حربه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسلمين: **ما ترون في هؤلاء الأسارى** "، قال أبو بكر: " يا نبيّ الله هم بنو العمّ والعشيرة أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوّة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام ، وقال عمر: أرى أن تمكّننا فنضرب أعناقهم فإنّ هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها، فَهَوِيَ رسولُ الله ما قال أبو بكر فأخذ منهم الفداء". فأنزل الله {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى}.

وهذه القضية إحدى قضايا جاء فيها القرآن مؤيدا لرأي عمر بن الخطاب. فقد روى مسلم عن عمر قال: " وافقت ربي في ثلاث: في مقام إبراهيم، وفي الحجاب، وفي أسارى بدر".

ومعنى قوله: هَوِيَ رسول الله ما قال أبو بكر: أنّ رسول الله أحب واختار ذلك لأنّه من اليسر والرحمة بالمسلمين إذ كانوا في حاجة إلى المال، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ما خُيّر بين أمرين إلّا

اختار أيسرهما ما لم يكن إثما. وروي أنّ ذلك كان رغبة أكثرهم وفيه نفع للمسلمين، وهم في حاجة إلى المال.

ولمّا استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه أهل مشورته تعيّن أنّه لم يوح الله إليه بشيء في ذلك، وأنّ الله أوكل ذلك إلى اجتهاد رسوله صلى الله عليه وسلم، فرأى أن يستشير النّاس ثم رجّح أحد الرأيين باجتهاد. وقد خفي على النبيّ صلى الله عليه وسلم شيء لم يعلمه إلّا الله وهو إضمار بعضهم بعد الرجوع إلى قومهم أن يتأهّبوا لقتال المسلمين من بعد.

{ **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى** } الكلام موجّه للمسلمين الذين أشاروا بالفداء، ويدلّ لذلك قوله { تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا } فإنّ الذين أرادوا عرض الدنيا هم الذين أشاروا بالفداء، وليس لرسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك حظ.

وجيء بـ { **لِنَبِيٍّ** } نكرة إشارة إلى أنّ هذا حكم سابق في حروب الأنبياء في بني إسرائيل، وهو في [سفر التثنية، الإصحاح:20].

{ **مَا كَانَ** } مثل هذا النفي في القرآن قد يجيء بمعنى النهي نحو { وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ } [الأحزاب:53]. وقد يجيء بمعنى أنّه لا يصلح، كما هنا، لأنّ هذا الكلام جاء تمهيدا للعتاب، فتعيّن أن يكون مرادا منه ما لا يصلح من حيث الرأي والسياسة. وليس المراد أنّه لا يصلح أن تقع في يد النبيّ أسرى، لأن أخذ الأسرى من شؤون الحرب، وهو من شؤون الغلب، إذا استسلم المقاتلون. فتعيّن أنّ المراد نفي أثره، وإذا نفي أثر الأسر صدق بأحد أمرين: وهما المنّ عليهم بإطلاقهم، أو قتلهم، ولا يصلح المن هنا لأنّه ينافي الغاية وهي حتّى يثخن في الأرض، فتعيّن أن المقصود قتل الأسرى الحاصلين في يده، أي: أنّ ذلك الأجدر به حين ضعف المؤمنين، خضْدا لشوكة أهل العناد. وقد صار حكم هذه الآية تشريعا للنبيّ صلى الله عليه وسلم فيمن يأسرهم في غزواته.

الإثخان: الشدّة والغلظة في الأذى. يقال أثخنته الجراحة وأثخنه المرض إذا ثقل عليه، وقد شاع إطلاقه على شدة الجراحة على الجريح. وقد حمله بعض المفسّرين في هذه الآية على معنى الشدّة والقوّة.

المعنى: حتى يتمكّن في الأرض، أي: يتمكّن سلطانه وأمره.

{ **تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ** } الكلام عتاب للذين أشاروا باختيار الفداء والميل إليه وغض النظر عن الأخذ بالحزم في قطع دابر صناديد المشركين، فإنّ في هلاكهم خضدا لشوكة قومهم فهذا ترجيح للمقتضى السياسي العرضي على المقتضى الذي بني عليه الإسلام وهو التيسير والرفق في شؤون المسلمين بعضهم مع بعض كما قال تعالى { أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ } [الفتح: 29]. وقد كان هذا المسلك السياسي خفيّا حتّى كأنّه ممّا استأثر الله به.

الإرادة: هنا بمعنى المحبة، أي: تحبّون منافع الدنيا والله يحب ثواب الآخرة. ومعنى محبة الله إيّاها: محبته ذلك للنّاس، أي: يحب لكم ثواب الآخرة، فعُلّق فعل الإرادة بذات الآخرة.

{**عَرَضَ الدُّنْيَا** } هو المال، وإنّما سُمّي عرضا لأنّ الانتفاع به قليل اللبث، فأشبه الشيء العارض، إذ العروض مرور الشيء وعدم مكثه لأنّه يعرض للماشين بدون تهيّؤ.

ويجوز عندي أن يكون قوله تعالى { **تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا** } مستعملا في معنى الاستفهام الإنكاري. والمعنى: لعلّكم تحبّون عرض الدنيا، فإنّ الله يحبّ لكم الثواب وقوة الدين، تحذيرا لهم من التوغّل في إيثار الحظوظ العاجلة.

{ **وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** } عطف على جملة { وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ } عطفا يؤذن بأنّ لهذين الوصفين أثرا في أنّه يريد الآخرة، فيكون كالتعليل، وهو يفيد أنّ حظ الآخرة هو الحظّ الحقّ، ولذلك يريده العزيز الحكيم. فوصف { عَزِيزٌ } يدلّ على الاستغناء عن الاحتياج، وعلى الرفعة والمقدرة، ووصف { حَكِيمٌ } يقتضي أنّه العالم بالمنافع الحقّ على ما هي عليه، لأنّ الحكمة هي العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه.

{ **لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** } مستأنفة استئنافا بيانيّا، لأنّ الكلام السابق يؤذن بأنّ مفاداة الأسرى أمر مرهوب تُخشى عواقبه.

{ **لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ** } المراد بـ { كِتَابٌ } المكتوب، وهو من الكتابة التي هي التعيين والتقدير، وقد نُكّر الكتاب تنكير نوعية وإبهام، أي: لولا وجود سنّة تشريع سَبَقَ عن الله. وذلك الكتاب هو عذر المستشار وعذر المجتهد في اجتهاده إذا أخطأ، فقد استشارهم النبيّ صلى الله عليه وسلم فأشاروا بما فيه مصلحة رأوها وأخذ بما أشاروا به، ولولا ذلك لكانت مخالفتهم لما يحبه الله اجتراء على الله يوجب أن يمسّهم عذاب عظيم.

وهذه الآية تدلّ على أن لله حكما في كل حادثة، وأنّه نصب على حكمه أمارة هي دليل المجتهد وأنّ مخطئه من المجتهدين لا يأثم بل يؤجر.

ويجوز أن يكون العذاب المنفي عذابا في الدنيا، أي: لولا قدر من الله سبق من لطفه بكم فصرف بلطفه وعنايته عن المؤمنين عذابا كان من شأن أخذهم الفداء أن يسبّبه لهم ويوقعهم فيه. وهذا العذاب عذاب دنيوي لأن عذاب الآخرة لا يترتب إلّا على مخالفة شرع سابق، ولم يسبق من الشرع ما يُحرّم عليهم أخذ الفداء. وهو أيضا عذاب من شأنه أن يجرّه عملهم جرّ الأسباب لمسبباتها.

فالمراد بالعذاب أنّ أولئك الأسرى، الذين فادوهم كانوا صناديد المشركين وقد تخلّصوا من القتل والأسر، يحملون في صدورهم حنقا فكان من معتاد أمثالهم في مثل ذلك أن يسعوا في قومهم إلى أخذ ثأر قتلاهم واسترداد أموالهم فلو فعلوا لكانت دائرة عظيمة على المسلمين، ولكنّ الله سلّم المسلمين من ذلك فصرف المشركين عن محبة أخذ الثأر، وألهاهم بما شغلهم عن معاودة قتال المسلمين. فذلك الصرف هو من الكتاب الذي سبق عند الله تعالى.

{ **فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } [69].

الفاء تؤذن بتفريع هذا الكلام على ما قبله. وفي هذا التفريع وجهان.

الوجه الأول: الذي جرى عليه كلام المفسّرين، أنّه تفريع على قوله تعالى { لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ } [68]، أي: لولا ما سبق من حلّ الغنائم لكم لمسكم عذاب عظيم، وإذ قد سبق الحلّ فلا تبعة عليكم في الانتفاع بمال الفداء. وقد روي أنّه لما نزل قوله تعالى { مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى } [67]. أمسكوا عن الانتفاع بمال الفداء، فنزل قوله تعالى { فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً }. وعلى هذا الوجه قد سُمّي مال الفداء غنيمة تسمية بالاسم اللغوي دون الاسم الشرعي، لأنّ الغنيمة في اصطلاح الشرع هي ما افتكه المسلمون من مال العدو بالإيجاف عليهم.

الوجه الثاني: **يظهر لي** أن التفريع ناشئ على التحذير من العود إلى مثل ذلك في المستقبل، وأنّ المعنى فاكتفوا بما تغنمونه ولا تفادوا الأسرى إلى أن تثخنوا في الأرض. وهذا هو المناسب لإطلاق اسم الغنيمة هنا إذ لا ينبغي صرفه عن معناه الشرعي. ولمّا تضمّن قوله تعالى { لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ } [68] امتنانا عليهم بأنّه صرف عنهم بأس العدو فُرّع على الامتنان الإذنَ لهم بأن ينتفعوا بمال الفداء في مصالحهم، ويتوسّعوا به في نفقاتهم، دون نكد ولا غصّة، فإنّهم استغنوا به مع الأمن من ضرّ العدو بفضل الله.

{ **فَكُلُوا** } عبر عن الانتفاع الهنيء بالأكل. لأنّ الأكل أقوى كيفيات الانتفاع بالشيء. والأمر مستعمل في المنّة ولا يحمل على الإباحة هنا، لأنّ إباحة المغانم مقرّرة من قبل يوم بدر.

{ **حَلالاً** } حالا موسّسة لا مؤكّدة لمعنى الإباحة.

الطيب: النفيس في نوعه، أي حلالا من خير الحلال.

{ **وَاتَّقُوا اللَّهَ** } وذيّل ذلك بالأمر بالتقوى، لأنّ التقوى شكر الله على ما أنعم من دفع العذاب عنهم.

{ **إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } تعليل للأمر بالتقوى، وتنبيه على أنّ التقوى شكر على النعمة، فحرف التأكيد للاهتمام، وهو مغن غناء فاء التفريع.

{ **يَا أَيُّهَا النبيّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } [70].

استئناف ابتدائي، وهو إقبال على خطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم بشيء يتعلّق بحال سرائر بعض الأسرى، بعد أن كان الخطاب متعلّقا بالتحريض على القتال وما يتبعه، وقد كان العباس في جملة الأسرى وكان ظهر منه ميل إلى الإسلام. قبل خروجه إلى بدر، وكذلك كان عقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب، ونوفل بن الحارث ابن عبد المطلب، وقد فدى العباس نفسه وفدى ابني أخويه: عقيلا ونوفلا.

وقال للنبيّ صلى الله عليه وسلم: " تركتني أتكفّف قريشا ". فنزلت هذه الآية في ذلك، وهي ترغيب لهم في الإسلام في المستقبل، ولذلك قيل لهم هذا القول قبل أن يفارقوهم.

{ **مَنْ فِي أَيْدِيكُمْ** } من في ملكتكم ووثاقكم، فالأيدي مستعارة للملك. وجمعها باعتبار عدد المالكين. وكان الأسرى مشركين، فإنّهم ما فادوا أنفسهم إلا لقصد الرجوع إلى أهل الشرك.

{ **فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً** } والمراد بالخير محبة الإيمان والعزم عليه، أي: فإذا آمنتم بعد هذا الفداء يؤتكم الله خيرا ممّا أخذ منكم. وليس إيتاء الخير على مجرد محبة الإيمان والميل إليه، كما أخبر العباس عن نفسه، بل المراد به ما يترتّب على تلك المحبة من الإسلام بقرينة قوله تعالى { وَيَغْفِرْ لَكُمْ }، وكذلك ليس الخير الذي في قلوبهم هو الجزم بالإيمان، لأن ذلك لم يدّعوه ولا عرفوا به، قال ابن وهب عن مالك: " كان أسرى بدر مشركين ففادوا ورجعوا ولو كانوا مسلمين لأقاموا ".

{ **يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ** } ما أخذ منهم هو مال الفداء، والخير منه هو الأوفر من المال بأن يُيسِّر لهم أسباب الثروة بالعطاء من أموال الغنائم وغيرها. فقد أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس بعد إسلامه من فيء البحرين. وإنّما حملنا الخير على الأفضل من المال لأنّ ذلك هو الأصل في التفضيل بين شيئين أن يكون تفضيلا في خصائص النوع، ولأنّه عطف عليه قوله تعالى { وَيَغْفِرْ لَكُمْ } وذلك هو خير الآخرة المترتّب على الإيمان، لأنّ المغفرة لا تحصل إلا للمؤمن.

{ **وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } التذييل للإيماء إلى عظم مغفرته التي يغفر لهم.

{ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [71].

{ **يُرِيدُوا** } الضمير عائد إلى { لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى }. وهذا كلام خاطب به الله رسوله صلى الله عليه وسلم اطمئنانا لنفسه، وليبلّغ مضمونه إلى الأسرى، ليعلموا أنّهم لا يغلبون الله ورسوله. وفيه تقرير للمنّة على المسلمين التي أفادها قوله تعالى { فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً } [69]، فكمّل ذلك الإذن والتطييب بالتهنئة والطمأنة بأن ضمن لهم إن خانهم الأسرى بعد رجوعهم إلى قومهم ونكثوا عهدهم وعادوا إلى القتال، بأنّ الله يمكّن المسلمين منهم مرة أخرى.

الخيانة: نقض العهد وما في معنى العهد كالأمانة. فالعهد، الذي أعطوه، هو العهد بأن لا يعودوا إلى قتال المسلمين، وهذه عادة معروفة في أسرى الحرب إذا أطلقوهم. فمن الأسرى من يخون العهد ويرجع إلى قتال من أطلقوه.

ويجوز أن يراد بالعهد ما نكثوا من التزامهم للنبيّ صلى الله عليه وسلم حين دعاهم إلى الإسلام من تصديقه إذا جاءهم ببيّنة، فلما تحداهم بالقرآن كفروا به وكابروا.

{ **فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ** } سكت معظم التفاسير وكتب اللغة عن تبيين حقيقة هذا التركيب وبيان اشتقاقه وألم به بعضهم إلماما خفيفا بأن فسروا (أمكن) بأقدر، فهل هو مشتق من المكان أو من الإمكان بمعنى

الاستطاعة أو من المكانة بمعنى الظفر؟

والذي أفهمه من تصاريف كلامهم أنّ هذا الفعل مشتق من المكان وأنّ الهمزة فيه للجعل وأن معني أمكنه من كذا، جعل له منه مكانا، أي: مقرًّا، وأنّ المكان مجاز أو كناية عن كونه في تصرّفه كما يكون المكان مجالا للكائن فيه. أي: أمكنك منهم يوم بدر، أي: لم ينفلتوا منك. والمعنى: أنه أتاكم بهم إلى بدر على غير ترقب منكم فسلطكم عليهم.

{ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** } تذييل، أي: عليم بما في قلوبهم حكيم في معاملتهم على حسب ما يعلم منهم.

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } [72].

هذه الآيات استئناف ابتدائي للإعلام بأحكام موالاة المسلمين للمسلمين الذين هاجروا والذين لم يهاجروا وعدم موالاتهم للذين كفروا، نشأ عن قول العباس بن عبد المطلب حين أسر ببدر أنّه مسلم وأنّ المشركين أكرهوه على الخروج إلى بدر. ولعلّ بعض الأسرى غيره قد قال ذلك وكانوا صادقين، فلعلّ بعض المسلمين عطفوا عليهم وظنّوهم أولياء لهم، فأخبر الله المسلمين وغيرهم بحكم من آمن واستمر على البقاء بدار الشرك.

تعرضت الآية إلى مراتب الذين أسلموا فابتدأت ببيان فريقين اتّحدت أحكامهم في الولاية والمؤاساة حتى صاروا بمنزلة فريق واحد، وهؤلاء هم فريقا المهاجرين والأنصار الذين امتازوا بتأييد الدين؛

فالمهاجرون امتازوا بالسبق إلى الإسلام وتكبّدوا مفارقة الوطن، والأنصار امتازوا بإيوائهم، وبمجموع العملين حصل إظهار البراءة من الشرك وأهله، وقد اشترك الفريقان في أنّهم آمنوا وأنّهم جاهدوا، واختص المهاجرون بأنهم هاجروا واختص الأنصار بأنهم آووا ونصروا، وكان فضل المهاجرين أقوى لأنّهم فضّلوا الإسلام على وطنهم وأهليهم، وبادر إليه أكثرهم، فكانوا قدوة ومثالا صالحا للنّاس.

المهاجرة: هجر البلاد، أي: الخروج منها وتركها. وأصل الهجرة الترك واشتق منه صيغة المفاعلة لخصوص ترك الدار والقوم، لأنّ الغالب عندهم كان أنّهم لا يتركون قومهم ويتركهم قومهم، إذ لا يفارق أحد قومه إلّا لسوء معاشرة تنشأ بينه وبينهم.

وقد كانت الهجرة من أشهر أحوال المخالفين لقومهم في الدين فقد هاجر إبراهيم عليه السلام، { وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ } [الصافات:99]. وهاجر لوط عليه السلام، { وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [العنكبوت:26]، وهاجر موسى عليه السلام بقومه، وهاجر محمد صلى الله عليه وسلم

وهاجر المسلمون بإذنه إلى الحبشة، ثم إلى المدينة (يثرب)، ولمّا استقر المسلمون من أهل مكّة بالمدينة غلب عليهم وصف المهاجرين وأصبحت الهجرة صفة مدح في الدين، ولذلك قال النبيّ صلى الله عليه وسلم في مقام التفضيل: **" لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار"**، وقال للأعرابي: **" ويحك إن شأنها شديد"**،

وقال صلى الله عليه وسلم: **" لا هجرة بعد الفتح "**.

الإيواء: تقدّم عند قوله تعالى { فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ } [26].

النصر: تقدّم عند قوله تعالى { وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً - إلى قوله - وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ } [البقرة:123]. والمراد بالنصر هنا: النصر الحاصل قبل الجهاد، وهو نصر النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين بأنّهم يحمونهم بما يحمون به أهلهم، ولذلك غلب على الأوس والخزرج وصف الأنصار.

{ **أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** } اسم الإشارة لإفادة الاهتمام بتمييزهم للأخبار عنهم، وللتعريض بالتعظيم لشأنهم، ولذلك لم يؤت بمثله في الأخبار عن أحوال الفرق الأخرى.

ولمّا أطلق الله الولاية بينهم احتمل حملها على أقصى معانيها، وإن كان موردها في خصوص ولاية النصر، فإنّ ذلك كورود العام على سبب خاص،

قال ابن عباس: { أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ }، يعني في الميراث، جُعل بين المهاجرين والأنصار دون ذوي الأرحام، حتّى أنزل الله قوله تعالى { وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ } [75]. وهذا قول مجاهد وعكرمة وقتادة والحسن. وروي عن عمر بن الخطاب وابن مسعود وهو قول أبي حنيفة وأحمد.

وقال كثير من المفسّرين هذه الولاية هي في الموالاة والمؤازرة والمعاونة دون الميراث اعتدادا بأنّها خاصة بهذا الغرض وهو قول مالك بن أنس والشافعي. وروي عن أبي بكر الصديق وزيد بن ثابت وابن عمر وأهل المدينة.

{ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ** } جاء على أسلوب تقسيم الفرق فعطف كما عطفت الجمل بعده، ومع ذلك قد جُعل تكملة لحكم الفرقة المذكورة قبله. فإنّ وصف الإيمان يقابله وصف الشرك، و وصف الهجرة يقابله وصف المكث بدار الشرك، فلمّا بيّن أوّل الآية ما لأصحاب الوصفين (الإيمان والهجرة) من الفضل وما بينهم من الولاية انتقلت إلى بيان حال الفريق الذي يقابل أصحاب الوصفين وهو فريق ثالث، فبيّنت حكم المؤمنين الذين لم يهاجروا، فأثبتت لهم وصف الإيمان وأمرت المهاجرين والأنصار بالتبرئي من ولايتهم حتّى يهاجروا، فلا يثبت بينهم وبين أولئك حكم التوراث ولا النصر إلّا إذا طلبوا النصر على قوم فتنوهم في دينهم.

وفي نفي ولاية المهاجرين والأنصار لهم، مع السكوت عن كونهم أولياء للذين كفروا، دليل على أنّهم معتبرون مسلمين ولكنّ الله أمر بمقاطعتهم حتّى يهاجروا ليكون ذلك باعثا لهم على الهجرة.

الوَلاية: (بفتح الواو)، وهي اسم لمصدر تولّاه، وقرأها حمزة وحده (بكسر الواو). والفتح والكسر وجهان متساويان مثل الدلالة بفتح الدال وكسرها.

{ **وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ** } ظرفية مجازية، تؤول إلى معنى التعليل، أي: طلبوا ان تنصروهم لأجل الدين، أي: لردّ الفتنة عنهم في دينهم إذ حاول المشركون إرجاعهم إلى دين الشرك وجب نصرهم، لأنّ نصرهم للدين ليس من الولاية لهم بل هو من الولاية للدين ونصره، وذلك واجب عليهم سواء استنصرهم النّاس أم لم يستنصروهم إذا توفر داعي القتال، فجعل الله استنصار المسلمين الذين لم يهاجروا من جملة دواعي الجهاد.

{ **عَلَيْكُمُ النَّصْرُ** } من صيغ الوجوب، أي: فواجب عليكم نصرهم.

{ **إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ** } استثناء من متعلّق النصر وهو المنصور عليهم، ووجه ذلك أنّ الميثاق يقتضي عدم قتالهم إلّا إذا نكثوا عهدهم مع المسلمين، وعهدهم مع المسلمين لا يتعلّق إلّا بالمسلمين المتميّزين بجماعة ووطن واحد، وهم يومئذ المهاجرون والأنصار، فأمّا المسلمون الذين أسلموا ولم يهاجروا من دار الشرك فلا يتحمّل المسلمون تبعاتهم، فما ينشأ بين الكفار المعاهدين للمسلمين وبين المسلمين الباقين في دار الكفر لا يعدّ نكثا من الكفّار لعهد المسلمين.

{ **وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** } تحذير للمسلمين لئلّا يحملهم العطف على المسلمين على أن يقاتلوا قوما بينهم وبينهم ميثاق. وفي هذا التحذير تنويه بشأن الوفاء بالعهد وأنّه لا ينقضه إلّا أمر صريح في مخالفته.

{ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ } [73].

هذا بيان لحكم القسم المقابل لقوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا } [72] وما عطف عليه. والواو للتقسيم والإخبار عنهم بأنّ بعضهم أولياء بعض، خبر مستعمل في مدلوله الكنائي، وهو أنّهم ليسوا بأولياء للمسلمين، لأنّ الإخبار عن ولاية بعضهم بعضا ليس صريحة ممّا يهم المسلمين لولا أنّ القصد النهي عن موالاة المسلمين إيّاهم، بقرينة قوله تعالى { إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ }، أي: إن لا تفعلوا قطع الولاية معهم، فضمير { تَفْعَلُوهُ } عائد إلى ما في قوله تعالى { بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ }.

الفتنة: اختلال أحوال النّاس، وقد مضى القول فيها عند قوله تعالى { حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ } [البقرة:102]، وقوله تعالى { وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ } [البقرة:191]، وتقدّم القول فيها آنفا في هذه السورة.

والفتنة تحصل من مخالطة المسلمين مع المشركين، لأنّ النّاس كانوا قريبي عهد بالإسلام، وكانت لهم مع المشركين أواصر قرابة وولاء ومودّة ومصاهرة ومخالطة، وقد كان إسلام من أسلم مثيرا لحنق المشركين عليه، فإذا لم ينقطع المسلمون عن موالاة المشركين يُخشى على ضعفاء النفوس من المسلمين أن تجذبهم تلك الأواصر وتفتنهم قوة المشركين وعزّتهم، ويقذف بها الشيطان في نفوسهم فيحنّوا إلى

المشركين ويعودوا إلى الكفر. فكان إيجاب مقاطعتهم لقصد قطع نفوسهم عن تذكّر تلك الصلات، وإنسائهم تلك الأحوال، بحيث لا يشاهدون إلّا حال جماعة المسلمين، ولا يشتغلوا إلّا بما يقوّيها، وليكونوا في مزاولتهم أمور الإسلام عن تفرّغ بال من تحسّر أو تعطّف على المشركين، فلذا كان هذا حسما لوسائل الفتنة.

الفساد: ضدّ الصلاح، وقد مضى عند قوله تعالى { قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا } [البقرة:30].

الكبير: حقيقته العظيم الجسم. وهو هنا مستعار للشديد القوّي من نوعه.

والمراد بالفساد هنا: ضد صلاح اجتماع الكلمة، فإنّ المسلمين إذا لم يظهروا يدا واحدة على أهل الكفر لم تظهر شوكتهم، ولأنّه قد يحدث بينهم الاختلاف من جراء اختلافهم في مقدار مواصلتهم للمشركين، ويرمي بعضهم بعضا بالكفر أو النفاق، وذلك يفضي إلى تفرّق جماعتهم، وهذا فساد كبير.

{ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } [74].

الأظهر أنّ الآية اعتراضية للتنويه بالمهاجرين والأنصار، وبيان جزائهم وثوابهم، بعد بيان أحكام ولاية بعضهم لبعض فليست هذه تكرير للأولى، وإن تشابهت ألفاظها، فالأولى لبيان ولاية بعضهم لبعض، وهذه واردة للثناء عليهم والشهادة لهم بصدق الإيمان مع وعدهم بالجزاء.

{ **أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً** } صيغة قصر، أي: قصر الإيمان عليهم دون غيرهم ممّن لم يهاجروا.

المعنى: أنّهم محقّقون لإيمانهم بأن عضدوه بالهجرة من دار الكفر.

وليس الحقّ هنا بمعنى المقابل للباطل، حتّى يكون إيمان غيرهم ممّن لم يهاجروا باطلا، لأنّ قرينة قوله تعالى { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا } [72] مانعة من ذلك، إذ قد أُثبت لهم الإيمان ونُفي عنهم فقط استحقاق ولاية المؤمنين.

{ **لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** } الرزق الكريم: نفع محض لا كدر فيه.

{ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [75].

{ **وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ** } بعد أن منع الله ولاية المسلمين للذين آمنوا ولم يهاجروا بالصراحة، فتح باب التدارك بهذه الآية، فكانت بيانا، وكان مقتضى الظاهر أن تكون مفصولة غير معطوفة، ولكن عدل عن الفصل إلى العطف تغليبا لمقام التقسيم الذي استوعبته هذه الآيات.

أي: إذا حصل منهم ما لم يكن حاصلا في وقت نزول الآيات السابقة، ليكون أصحاب هذه الصلة قسما مغايرا للأقسام السابقة. فليس المعنى أنهم آمنوا من بعد نزول هذه الآية، لأن الذين لم يكونوا مؤمنين ثم آمنوا من بعد لا حاجة إلى بيان حكم الاعتداد بإيمانهم، فإنّ من المعلوم أنّ الإسلام يجب ما قبله.

{ **مَعَكُمْ** } إيذان بأنّهم دون المخاطبين الذين لم يستقروا بدار الكفر بعد أنّ هاجر منها المؤمنون وأنّهم فرطوا في الجهاد مدة.

{ **فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ** } تبعيضية، أي: فقد صاروا منكم، أي: من جماعتكم وبذلك يُعلم أن ولايتهم للمسلمين.

{ **وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** } يظهر أن التقاسيم السابقة لمّا أثبتت ولاية بين المؤمنين، ونفت ولاية بينهم وبين الكافرين، وبينهم وبين الذين آمنوا ولم يهاجروا حتّى يهاجروا، ثم عادت على الذين يهاجرون من المؤمنين بعد تقاعسهم عن الهجرة، فبيّنت أنّهم إن تداركوا أمرهم وهاجروا يدخلون بذلك في ولاية المسلمين.

ولمّا كان ما سبق قد يشغل السامعين عن ذوي الأرحام من المسلمين جاءت هذه الآية تذكّر بأن ولاية الأرحام قائمة وأنّها مرجّحة لغيرها من الولاية فموقعها كموقع الشروط.

وشأن الصفات والغايات بعد الجمل المتعاطفة أنّها تعود إلى جميع تلك الجمل، وعلى هذا الوجه <u>لا تكون هذه الآية ناسخة لما اقتضته الآيات قبلها من الولاية بين المهاجرين والأنصار بل مقيّدة الإطلاق الذي فيها.</u>

{ **الْأَرْحَامِ** } جمع رحم وهو مقر الولد في بطن أمّه. <u>فمن العلماء</u> من أبقاه على ظاهره في اللغة فجعل المراد من أولي الأرحام ذوي القرابة الناشئة عن الأمومة، وهو ما درج عليه جمهور المفسرين، <u>ومنهم</u> من جعل المراد من الأرحام العصابات دون المولودين بالرحم. قاله القرطبي، واستدل له بأنّ لفظ الرحم يراد به العصابة، كقول العرب في الدعاء: " وَصِلَتْك رحم ".

{ **فِي كِتَابِ اللَّهِ** } قضاؤه وشرعه. وجعل تلك الأولوية كائنة في كتاب الله كناية عن عدم تغييرها لأنّهم كانوا إذا أرادوا توكيد عهد كتبوه. فتقييد أولوية أولي الأرحام بأنّها في كتاب الله للدلالة على أنّ ذلك حكم فطري قدّره الله وأثبته بما وضع في النّاس من الميل إلى قراباتهم. فلمّا كانت ولاية الأرحام أمرا مقرّرا في الفطرة، ولم تكن ولاية الدين معروفة في الجاهلية، بيّن الله أنّ ولاية الدين لا تبطل ولاية الرحم إلّا إذا تعارضتا، لأنّ أواصر العقيدة والرأي أقوى من أواصر الجسد، فلا يغيّره ما ورد هنا من أحكام ولاية النّاس بعضهم بعضا، وبذلك الاعتبار الأصلي لولاية ذوي الأرحام، كانوا مقدَّمين على أهل الولاية، حيث تكون الولاية، وينتفي التفضيل بانتفاء أصلها، فلا ولاية لأولي الأرحام إذا كانوا غير مسلمين.

واختلف العلماء في أن ولاية الأرحام هنا هل تشمل ولاية الميراث:

<u>فقال مالك ابن أنس: هذه الآية ليست في المواريث</u>، أي: فهي ولاية النصر وحسن الصحبة، أي: فتقصر على موردها ولم يرها مساوية للعام الوارد على سبب خاص، إذ ليست صيغتها صيغة عموم لأنّ مناط

الحكم قوله تعالى { أَوْلَى بِبَعْضٍ }.

وقال جماعة: تشمل ولاية الميراث، ثم اختلفوا فمنهم من قال: نسخت هذه الولاية بآية المواريث فبطل توريث ذوي الأرحام بقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر"**، فيكون تخصيصا للعموم عندهم. وقال جماعة يرث ذوو الأرحام وهم مقدمون على أبناء الأعمام وهذا قول أبي حنيفة وفقهاء الكوفة. وقد علمت ممّا تقدّم كله أنّ في هذه الآيات غموضا جعلها مرامي لمختلف الأفهام والأقوال. وأيّا ما كانت فقد جاء بعدها من القرآن والسنّة ما أغنى عن زيادة البسط.

{ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } تذييل هو مؤذن بالتعليل لتقرير أولوية ذوي الأرحام بعضهم ببعض فيما فيه اعتداد بالولاية، أي: إنّما اعتبرت تلك الأولويّة في الولاية لأنّ الله قد علم أنّ لآصرة الرحم حقا في الولاية هو ثابت ما لم يمانعه مانع معتبر في الشرع، لأنّ الله بكل شيء عليم، وهذا الحكم ممّا عُلم أنّ إثباته رفق ورأفة بالأمة.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة التوبة

سُمّيت هذه السورة في أكثر المصاحف وفي كلام السلف (**سورة براءة**). ففي الصحيح عن أبي هريرة، في قصّة حجّ أبي بكر بالنّاس، قال أبو هريرة: " فأذّن معنا علي بن أبي طالب في أهل منى ببراءة ".

وفي صحيح البخاري عن زيد بن ثابت قال: " آخر سورة نزلت سورة براءة ".

وبذلك ترجمها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه. وهي تسمية لها بأوّل كلمة منها.

وتسمّى (**سورة التوبة**) في كلام بعض السلف في مصاحف كثيرة، فعن ابن عباس: " سورة التوبة هي الفاضحة ". وترجم لها الترمذي في (جامعه) باسم التوبة.

ووجه التسمية، أنّها وردت فيها توبة الله تعالى عن الثلاثة الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك وهو حدث عظيم.

ووقع هذان الاسمان معا في حديث زيد بن ثابت، في صحيح البخاري، في باب جمع القرآن، قال زيد بن ثابت: " فتتبعت القرآن حتّى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري { لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ }، حتّى خاتمة سورة البراءة ". وهذان الاسمان هما الموجودان في المصاحف التي رأيناها.

ولهذه السورة أسماء أخر، وقعت في كلام السلف من الصحابة والتابعين:

*/ فروي عن ابن عمر، عن ابن عباس: " كنّا ندعوها (**المقشقِشة**) ". [بصيغة اسم الفاعل وتاء التأنيث من قشقشهُ إذا أبراه من المرض]. كان هذا لقبا لها ولسورة الكافرون، لأنّهما تخلّصان من آمن بما فيهما من النفاق والشرك، لما فيهما من الدعاء إلى الإخلاص، ومن وصف أحوال المنافقين.

*/ وكان ابن عباس يدعوها (**الفاضحة**)، قال : " ما زال ينزل فيها (ومنهم ، ومنهم) حتّى ظننا أنّه لا يبقى أحد إلّا ذُكر فيها ".

وعن حذيفة، أنّه سماها (**سورة العذاب**) لأنّها نزلت بعذاب الكفار، أي: عذاب القتل والأخذ حين يُثقفون.

*/ وعن عبيد بن عمير أنّه سماها (**المُنَقِّرة**) (بكسر القاف مشدّدة) لأنّها نقَّرت عمّا في قلوب المشركين [لعله يعني من نوايا الغدر بالمسلمين والتمالي على نقض العهد، وهو من نقر الطائر إذا أنقى بمنقاره موضعا من الحصى ونحوه ليبيض فيه].

*/ وعن الحسن البصري أنّه دعاها (**الحافرة**)، كأنّها حفرت عما في قلوب المنافقين من النفاق، فأظهرته للمسلمين.

*/ وعن قتادة أنها تُسمّى (**المثيرة**) لأنّها أثارت عورات المنافقين وأظهرتها.

*/ وعن ابن عباس أنّه سماها (**المبعثِرة**) لأنّها بعثرت عن أسرار المنافقين، أي: أخرجتها من مكانها.

*/ وفي الإتقان، أنّها تُسمّى (**المخزية**)، و(**المنكّلة**)، و(**المشدّدة**).

*/ وعن سفيان أنّها تسمى (**المدمدمة**) بصيغة اسم الفاعل من دمدم إذا أهلك لأنّها كانت سبب هلاك المشركين.

وهي مدنية بالاتفاق، قال في الإتقان: " واستثنى بعضهم قوله تعالى { مَا كَانَ للنبيّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى} [113]. ففي صحيح البخاري:" أنّ أبا طالب لمّا حضرته الوفاة دخل عليه النبيّ صلى الله عليه وسلم **فقال: " يا عمّ قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله "،** فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أميّة: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ". فكان آخر قول أبي طالب، أنّه على ملة عبد المطلب، فقال النبيّ: **" لأستغفرن لك ما لم أُنْه عنك ".** وتوفي أبو طالب فنزلت { مَا كَانَ للنبيّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ } [113].

وهذه السورة آخر السور نزولا عند الجميع، نزلت بعد سورة الفتح، في قول جابر بن زيد، فهي السورة **الرابعة عشر بعد المائة في عداد نزول سور القرآن.** وروي أنّها نزلت في أوّل شوال سنة تسع، وقيل: آخر ذي القعدة سنة تسع، بعد خروج أبي بكر الصديق من المدينة للحجّة التي أمّره عليها النبيّ صلى الله عليه وسلم وقيل: قبيل خروجه.

والجمهور على أنّها نزلت دفعة واحدة، فتكون مثل سورة الأنعام بين السور الطوال.

وفسّر كثير من المفسرين بعض آيات هذه السورة بما يقتضي أنها نزلت أوزاعا في أوقات متباعدة، كما سيأتي، ولعلّ مراد من قال إنّها نزلت غير متفرقة، أنّه يعني أنّها لم يتخلّلها ابتداء نزول سورة أخرى.

والذي يغلب على الظنّ أنّ ثلاث عشرة آية من أوّلها إلى قوله تعالى { فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } [13] نزلت متتابعة، كما سيأتي في خبر بعث علي بن أبي طالب ليؤذّن بها في الموسم. وهذا ما اتفقت عليه الروايات.

وعدد آيها، في عد أهل المدينة ومكّة والشام والبصرة: **مائة وثلاثون آية،** وفي عدّ أهل الكوفة مائة وتسع وعشرون آية.

سبب نزولها

اتفقت الروايات على أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لمّا قفل من غزوة تبوك، في رمضان سنة تسع، عقد العزم على أن يحجّ من عامه ولكنّه كره، عن اجتهاد أو بوحي من الله، مخالطة المشركين في الحجّ معه، وسماع تلبيتهم التي تتضمن الإشراك، أي: قولهم في التلبية (لبيك لا شريك لك إلّا شريكا هو لك تملكه وما ملك). وطوافهم عراة، وكان بينه وبين المشركين عهد لم يزل عاملا لم ينقض. فأمسك عن الحجّ تلك السنّة، وأمر أبا بكر الصديق على أن يحجّ بالمسلمين، وأمره أن يخبر المشركين بأن لا يحجّ بعد عامه ذلك مشرك ولا يطوف بالبيت عريان. وأكثر الأقوال على أن براءة نزلت قبل خروج أبي بكر من المدينة، فكان ما صدر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم صادرا عن وحي، لقوله تعالى في هذه السورة { مَا

كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ - إلى قوله - أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ } [18/17]، وقوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا } [28].

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم صالح قريشا عام الحديبية على أن يضعوا الحرب عشر سنين يأمن فيها النّاس ويكفّ بعضهم عن بعض، فدخلت خزاعة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل بنو بكر في عهد قريش ثم عدت بنو بكر على خزاعة بسبب دم كان لبني بكر عند خزاعة قبل البعثة بمدّة. واقتتلوا فكان ذلك نقضا للصلح. واستصرخت خزاعة النبيّ صلى الله عليه وسلم فوعدهم بالنصر وتجهّز رسول الله صلى الله عليه وسلم لفتح مكة ثم حنين ثم الطائف، وحجّ بالمسلمين تلك السنة، سنة ثمان، عتَّاب بن أسِيد، ثم كانت غزوة تبوك في رجب سنة تسع، فلمّا انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك أمر أبا بكر الصديق على الحجّ وبعث معه بأربعين آية من صدر سورة براءة ليقرأها على النّاس، ثم أردفه بعلي بن أبي طالب ليقرأ على النّاس ذلك.

وقد يقع خلط في الأخبار بين قضية بعث أبي بكر الصديق ليحج بالمسلمين عوضا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وبين قضية بعث علي بن أبي طالب ليؤذن في الناس بسورة براءة في تلك الحجة اشتبه به الغرضان على من أراد أن يتلبّس وعلى من لُبس عليه الأمر فأردنا إيقاظ البصائر لذلك.

أغراض السورة

*/ افتتحت السورة بتحديد مدة العهود التي بين النبيّ صلى الله عليه وسلم وبين المشركين وما يتبع ذلك من حالة حرب وأمن، وفي خلال مدّة الحرب مدّة تمكينهم من تلقي دعوة الدين وسماع القرآن.

*/ أتبع بأحكام الوفاء والنكث وموالاتهم.

*/ منع المشركين من دخول المسجد الحرام وحضور مناسك الحج.

*/ إبطال مناصب الجاهلية التي كانوا يعتزّون بأنّهم أهلها، وإعلان حالة الحرب بين المسلمين وبينهم.

*/ إعلان الحرب على أهل الكتاب من العرب حتّى يعطوا الجزية، وأنّهم ليسوا بعيدا من أهل الشرك وأنّ الجميع لا تنفعهم قوتهم ولا أموالهم.

*/ حرمة الأشهر الحرام، وضبط السنة الشرعية وإبطال النسيء الذي كان عند الجاهلية.

*/ تحريض المسلمين على المبادرة بالإجابة إلى النفير للقتال في سبيل الله ونصر النبيّ صلى الله عليه وسلم، وأنّ الله ناصر نبيّه وناصر الذين ينصرونه. وتذكيرهم بنصر الله رسوله يوم حنين، وبنصره إذ أنجاه من كيد المشركين بما هيّأ له من الهجرة إلى المدينة.

*/ الإشارة إلى التجهيز بغزوة تبوك، وذم المنافقين المتثاقلين والمعتذرين والمستأذنين في التخلّف بلا عذر. */ صفات أهل النفاق من جبن وبخل وحرص على أخذ الصدقات مع أنّهم ليسوا بمستحقيها.

*/ ذكر أذاهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالقول، وأيمانهم الكاذبة، وأمرهم بالمنكر ونهيهم عن

المعروف، وكذبهم في عهودهم، وسخريتهم بضعفاء المؤمنين.

*/ الأمر بضرب الجزية على أهل الكتاب.

*/ مذمّة ما أدخله الأحبار والرهبان في دينهم من العقائد الباطلة، ومن التكالب على الأموال.

*/ أمر الله بجهاد الكفار والمنافقين، ونهي المؤمنين عن الاستعانة بهم في جهادهم والاستغفار لهم.

*/ نهي نبيّه صلى الله عليه وسلم عن الصلاة على موتاهم.

*/ ضرب المثل بالأمم الماضية.

*/ ذكر الذين اتخذوا مسجد الضرار عن سوء نيّة، وفضل مسجد قباء ومسجد الرسول بالمدينة.

*/ انتقل إلى وصف حالة الأعراب من محسنهم ومسيئهم ومهاجرهم ومتخلّفهم. وقوبلت صفات أهل الكفر والنفاق بأضدادها صفات المسلمين، وذكر ما أعدّ لهم من الخير.

*/ ذكر في خلال ذلك فضل أبي بكر. وفضل المهاجرين والأنصار.

*/ التحريض على الصدقة والتوبة والعمل الصالح.

*/ الجهاد وأنّه فرض على الكفاية. والتذكير بنصر الله المؤمنين يوم حنين بعد يأسهم.

*/ التنويه بغزوة تبوك وجيشها. وذكر الذين تاب الله عليهم من المتخلفين عنها.

*/ الامتنان على المسلمين بأن أرسل فيهم رسولا منهم جَبَلَه على صفات فيها كل خير لهم.

*/ شرع الزكاة ومصارفها، والأمر بالفقه في الدين ونشر دعوة الدين.

ترك البسملة قبل سورة التوبة

ترك الصحابة، الذين كتبوا المصحف، كتابة البسملة قبل سورة براءة، كما نبّهتُ عليه عند الكلام على سورة الفاتحة. فجعلوا سورة براءة عقب سورة الأنفال بدون بسملة بينهما، وتردّد العلماء في توجيه ذلك.

وأوضح الأقوال ما رواه الترمذي والنسائي، عن ابن عباس، قال: قلت لعثمان: " ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا سطر بسم الله الرحمان الرحيم. فقال عثمان: إنّ رسول الله كان إذا نزل عليه الشيء يدعو بعض من يكتب عنده فيقول ضعوا هذه في السورة التي فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة وبراءة من آخر القرآن وكانت قصتها شبيها بقصتها وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبيّن لنا أنّها منها فظننت أنّها منها، فمن ثم قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمان الرحيم ".

ونشأ من هذا قول آخر، وهو أن كتبة المصاحف في زمن عثمان اختلفوا في (الأنفال) و(براءة)، هل هما سورة واحدة أو هما سورتان، فتركوا فرجة فصلا بينهما مراعاة لقول من عدّهما سورتين، ولم يكتبوا البسملة بينهما مراعاة لقول من جعلهما سورة واحدة.

وروى أبو الشيخ، عن ابن عباس، عن علي بن أبي طالب: أنّهم إنما تركوا البسملة في أوّلها، لأنّ البسملة أمان وبشارة، وسورة براءة نزلت بنبذ العهود والسيف، فلذلك لم تبدأ بشعار الأمان، وهذا إنما يجري على قول من يجعلون البسملة آية من أول كل سورة عدا سورة براءة، ففي هذا رعي لبلاغة مقام الخطاب كما أن الخاطب المغضب يبدأ خطبته بـ (أما بعد) دون استفتاح.

وشأن العرب إذا كان بينهم عهد فأرادوا نقضه، كتبوا إلى القوم الذين ينبذون إليهم بالعهد كتابا ولم يفتتحوه بكلمة (باسمك اللهم)، فلما نزلت براءة بنقض العهد الذي كان بين النبيّ صلى الله عليه وسلم وبين المشركين بعث عليّا إلى الموسم فقرأ صدر براءة ولم يبسمل جريا على عادتهم في رسائل نقض العهود.

{ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [1].

افتُتحت السورة كما تُفتتح العهود وصكوك العقود بأدلّ كلمة على الغرض الذي يُراد منها كما في قولهم: هذا ما عهد به فلان، وهذا ما اصطلح عليه فلان وفلان، وقول الموثّقين: باع أو وكلّ أو تزوّج، وذلك هو مقتضى الحال في إنشاء الرسائل والمواثيق ونحوها.

{ **بَرَاءَةٌ** } تنكير التنويع، مبتدأ، وسوّغ الابتداء به ما في التنكير من معنى التنويع للإشارة إلى أنّ هذا النوع كاف في فهم المقصود.

{ **مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** } في موضع الخبر، لأنّه المقصود من الفائدة.

المعنى: أنّ هذه براءة أصدرها الله بواسطة رسوله إبلاغا إلى الذين عاهدتم من المشركين.

البراءة: الخروج والتفصّي ممّا يُتعب، ورفع التبِعة. ولمّا كان العهد يوجب على المتعاهدين العمل بما تعاهدوا عليه ويُعدّ الإخلاف بشيء منه غدرا على المخلف، كان الإعلان بفسخ العهد براءة من التبعات التي تنشأ عن إخلاف العهد. فلذلك كان لفظ { **بَرَاءَةٌ** } هنا مفيدا معنى فسخ العهد ونبذه ليأخذ المعاهدون حذرهم. وقد كان العرب ينبذون العهد ويردّون الجوار إذا شاؤوا تنهية الالتزام بهما، كما فعل ابن الدُّغُنَّه في ردّ جوار أبي بكر عن قريش، وما فعل عثمان بن مظعون في ردّ جوار الوليد بن المغيرة إيّاه قائلا: " رضيت بجوار ربي ولا أريد أن أستجير غيره ". وقال تعالى { وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ } [لأنفال:58]، أي: ولا تخنهم لظنك أنّهم يخونونك فإذا ظننته فافسخ عهدك معهم.

ولمّا كان الجانب الذي ابتدأ بإبطال العهد وتنهيته هو جانب النبيّ صلى الله عليه وسلم بإذن من الله، جُعلت هذه البراءة صادرة من الله لأنّه الآذن بها، ومن رسوله لأنه المباشر لها، لأنّ المقصود إبلاغ ذلك الفسخ إليهم وإيصاله ليكونوا على بصيرة فلا يكون ذلك الفسخ غدرا.

{ **عَاهَدْتُمْ** } الخطاب للمؤمنين. فهذه البراءة مأمورون بإنفاذها.

واعلم أنّ العهد بين النبيّ صلى الله عليه وسلم وبين المشركين كان قد انعقد على صور مختلفة؛

فكان بينه وبين أهل مكّة ومن ظاهرهم عهد الحديبية، أن لا يُصدّ أحد عن البيت إذا جاء، وأن لا يُخاف أحد في الشهر الحرام، وقد كان معظم قبائل العرب داخلا في عقد قريش الواقع في الحديبية، لأنّ قريشا كانوا يومئذ زعماء جميع العرب، ولذلك كان من شروط الصلح يومئذ، أنّ من أحبّ أن يدخل في عهد محمد دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عهد قريش دخل فيه، وكان من شروط الصلح وضع الحرب عن النّاس سنين، يأمن فيها النّاس ويكفّ بعضهم عن بعض، فالذين عاهدوا المسلمين من المشركين معروفون عند النّاس يوم نزول الآية.

وكان بين المسلمين وبعض قبائل المشركين عهود، كما في قوله تعالى { إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ } [النساء:90]. وكما أشارت إليها هذه السورة في قوله تعالى { إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ

الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً } [4].
وبعض هذه العهود كان لغير أجل معيّن، وبعضها كان لأجل قد انقضى، وبعضها لم ينقض اجله.
فقد كان صلح الحديبية مؤجّلا إلى عشر سنين في بعض الأقوال، وقيل: إلى أربع سنين، وقيل: إلى سنتين. وقد كان عهد الحديبية في ذي القعدة سنة ست، فيكون قد انقضت مدته على بعض الأقوال، ولم ينقض على بعضها، حين نزول هذه الآية. وكان بعض تلك العهود مؤجّلا إلى أجل لم يتم، ولكن المشركين خفروا بالعهد في ممالاة بعض المشركين غير العاهدين، وفي إلحاق الأذى بالمسلمين.
فقد ذُكر أنّه لمّا وقعت غزوة تبوك أرجف المنافقون أنّ المسلمين غُلبوا فنقض كثير من المشركين العهد، وممّن نقض العهد بعض خزاعة، وبنو مُدلِج، وبنو خزيمة أو جَذِيمة، كما دلّ عليه قوله تعالى { ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً } [4]، فأعلن الله لهؤلاء هذه البراءة ليأخذوا حذرهم، وفي ذلك تضييق عليهم إن داموا على الشرك، لأنّ الأرض صارت لأهل الإسلام كما دلّ عليه قوله تعالى بعد { فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّه } [3].
وإنّما جُعلت البراءة شأنا من شؤون الله ورسوله، وأسند العهد إلى ضمير المسلمين، للإشارة إلى أنّ العهود التي عقدها النبيّ صلى الله عليه وسلم لازمة للمسلمين وهي بمنزلة ما عقدوه بأنفسهم، لأنّ عهود النبيّ عليه الصلاة والسلام إنّما كانت لمصلحة المسلمين، في وقت عدم استجماع قوتهم، وأزمان كانت بقيّة قوة للمشركين، وإلّا فإنّ أهل الشرك ما كانوا يستحقون من الله ورسوله توسعة ولا عهدا، لأنّ مصلحة الدين تكون أقوم إذا شدّد المسلمون على أعدائه. فالآن لمّا كانت مصلحة الدين مُتَمَحِّضة في نبذ العهد الذي عاهده المسلمون المشركين أذن اللهُ ورسوله صلى الله عليه وسلم بالبراءة من ذلك العهد، فلا تبعة على المسلمين في نبذه.

{ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ} [2].
{ **فَسِيحُوا** } الفاء للتفريع على معنى البراءة، لأنّها لمّا أمر الله بالأذان بها كانت إعلاما للمشركين الذين هم المقصود من نقض العهد الذي كان بينهم وبين المسلمين، فضمير الخطاب في فعل الأمر معلوم منه أنّهم الموجّه إليهم الكلام وذلك التفات.
السياحة: حقيقتها السير في الأرض، ولمّا كان الأمر بهذا السير مفرّعا على البراءة من العهد، ومقرّرا لحرمة الأشهر الحرام، عُلم أنّ المراد: السير بأمن دون خوف في أيّ مكان من الأرض، فكان المعنى: فسيحوا آمنين حيثما شئتم من الأرض.
{ **أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ** } هذا تأجيل خاص بعد البراءة، كان ابتداؤه من شوال وقت نزول براءة، ونهايته نهاية محرم في آخر الأشهر الحرم المتوالية، وهي: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم. وهذا قول الجمهور.

قال ابن إسحاق: " وأُجِّل النّاس أربعة اشهر من يوم أذِّن فيهم ليرجع كل قوم إلى مأمنهم.
وقال بعضهم: هي أربعة أشهر تبتدئ من عاشر ذي الحجة وتنتهي في عاشر ربيع الآخر، فيكون قوله تعالى { فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ } [5] (أي من ذلك العام) تنهية لذلك الأجل روعي فيها المدة الكافية لرجوع النّاس إلى بلادهم، وذلك نهاية المحرم.
وقيل: الأشهر الأربعة هي المعروفة عندهم في جميع قبائل العرب وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، أي: فلم يبق للمشركين أمن إلّا في الأشهر الحرم، وعلى هذا فليس في الآية تأجيل خاص لتأمينهم ولكنه التأمين المقرّر للأشهر الحرم، فيكون المعنى: البراءة من العهد الذي بينهم فيما زاد على الأمن المقرر للأشهر الحرم.
وفي هذا الأمر إيذان بفرض القتال في غير الأشهر الحرم، وبأن ما دون تلك الأشهر حرب بين المسلمين والمشركين، وسيقع التصريح بذلك.
{ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ } لمّا أنبأهم بالأمان في أربعة الأشهر عقّبه بالتخويف من بأس الله احتراسا من تطرّق الغرور، وتهديدا بأن لا يطمئنّوا من أن يسلّط الله المسلمين عليهم في غير الأشهر الحرم، وإن قبعوا في ديارهم.
{ وَاعْلَمُوا } للتنبيه على أنّه ممّا يحقّ وعيه والتدبر فيه، وقد تقدّم التنبيه عليه في قوله تعالى { وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ } [الأنفال:24].
المعجز: اسم فاعل من أعجز فلانا إذا جعله عاجزا عن عمل ما، فلذلك كان بمعنى الغالب والفائت، الخارج عن قدرة أحد. فالمعنى: أنّكم غير خارجين عن قدرة الله.
{ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ } ذكر { الْكَافِرِينَ } إخراجا على خلاف مقتضى الظاهر، لأنّ مقتضى الظاهر أن يقول: وإن الله مخزيكم، ووجه ذلك الدلالة على سببيّة الكفر في الخزي.
الإخزاء: الإذلال. والخِزي (بكسر الخاء) الذل والهوان، أي: مقدر للكافرين الإذلال بالقتل والأسر وعذاب الآخرة ما داموا متلبّسين بوصف الكفر.

{ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [3].

{ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ } عطف على قوله تعالى { بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ } [1]، وموقع لفظ { وَأَذَانٌ } كموقع لفظ { بَرَاءَةٌ } في التقدير. وهذا إعلام للمشركين الذين لهم عهد بأنّ عهدهم انتقض.

الأذان: اسم مصدر آذنه، إذا أعلمه بإعلان، فهو بمعنى الإيذان.
وإضافة الأذان إلى الله ورسوله دون المسلمين، لأنّه تشريع وحكم في مصالح الأمّة، فلا يكون إلّا من الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم. وهذا أمر للمسلمين بأن يأذنوا المشركين بهذه البراءة، لئلّا يكونوا غادرين. والمراد بالنّاس جميع الناس من مؤمنين ومشركين، لأنّ العلم بهذا النداء يهمّ النّاس كلّهم.
يوم الحجّ الأكبر: قيل: هو **يوم عرفة**، لأنّه يوم مجتمع النّاس في صعيد واحد وهذا يروى عن عمر، وعثمان، وابن عباس، وطاووس، ومجاهد، وابن سيرين. وهو قول أبي حنيفة، والشافعي.
وقيل: هو **يوم النحر**، لأنّ النّاس كانوا في يوم موقف عرفة مفترقين إذ كانت الحُمْس يقفون بالمزدلفة، ويقف بقيّة النّاس بعرفة، وكانوا جميعا يحضرون منى يوم النحر، فكان ذلك الاجتماع الأكبر، ونسب ابن عطية هذا التعليل إلى منذر بن سعيد. وهذا قول علي، وابن عمر، وابن مسعود، والمغيرة ابن شعبة، وابن عباس أيضا، وابن أبي أوفى، والزهري، ورواه ابن وهب عن مالك.
قال مالك: " لا نشك أنّ يوم الحجّ الأكبر يوم النحر، لأنّه اليوم الذي تُرمى فيه الجمرة، وينحر فيه الهدي، وينقضي فيه الحجّ، من أدرك ليلة النحر فوقف بعرفة قبل الفجر أدرك الحجّ ".
وأقول: إن يوم عرفة يوم شغل بعبادة من وقوف بالموقف ومن سماع الخطبة. فأمّا يوم منى فيوم عيدهم.
{ **الأَكْبَرِ** } بالجرّ نعت للحجّ، باعتبار تجزئته إلى أعمال، فوُصف الأعظم من تلك الأعمال بالأكبر.
ويظهر من اختلافهم في المراد من الحجّ الأكبر أنّ هذا اللفظ لم يكن معروفا قبل نزول هذه الآية فمن ثمّ اختلف السلف في المراد منه.
{ **أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ** } جاء التصريح بفعل البراءة مرة ثانية دون إضمار ولا اختصار لأنّ المقام مقام بيان وإطناب لأجل اختلاف أفهام السامعين فيما يسمعونه، ففيهم الذكيّ وغيره، ففي الإطناب والإيضاح قطع لمعاذيرهم واستقصاء في الإبلاغ لهم.
{ **وَرَسُولُهُ** } بالرفع، عند القرّاء كلهم، لأنّه من عطف الجملة، لأن السامع يعلم من الرفع أن تقديره: ورسوله بريء من المشركين، ففي هذا الرفع معنى بليغ من الإيضاح للمعنى مع الإيجاز في اللفظ.
وفي بعض كتب النحو أن هذه الآية، كانت السبب في وضع علم النحو، فقد روي: أنّ أعرابيا سمع رجلا قرأ { أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ } - بجر ورسولِهِ - فقال الأعرابي: إن كان الله بريئا من رسوله فأنا منه بريء، وإنّما أراد التورّك على القارئ، فلبّبه الرجل إلى عمر فحكى الأعرابي قراءته فعندها أمر عمر بتعلّم العربية . وروي أيضا، أنّ أبا الأسود الدؤلي سمع ذلك فرفع الأمر إلى علي بن أبي طالب فكان ذلك سبب وضع النحو.
وهذا الأذان قد وقع في الحجّة التي حجّها أبو بكر بالنّاس، إذ ألحق رسول الله عليه الصلاة والسلام علي بن أبي طالب بأبي بكر موافيا الموسم ليؤذِّن ببراءة. فأذّن بها عليّ يوم النحر بمنى، من أوّلها إلى ثلاثين أو أربعين آية منها. كذا ثبت في الصحيح والسنن بطرق مختلفة يزيد بعضها على بعض.

وإنّما ألحق النبيّ عليه الصلاة والسلام علي بن أبي طالب بأبي بكر الصديق لأنّه قيل لرسول الله إنّ العرب لا يرون أن ينقض أحد عهده مع من عاهده إلّا بنفسه أو برسول من ذي قرابة نسبه، فأراد النبيّ عليه الصلاة والسلام أن لا يترك للمشركين عذرا في علمهم بنبذ العهد الذي بينه وبينهم.

وروي: أن عليًّا بعث أبا هريرة يطوف في منازل قبائل العرب من منى، يصيح بآيات براءة حتّى صحل صوته.

{ **فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** }.

الخطاب للمشركين الذين أوذنوا بالبراءة. والمعنى: فإن آمنتم فالإيمان خير لكم من العهد الذي كنتم عليه، لأنّ الإيمان فيه النجاة في الدنيا والآخرة، والعهد فيه نجاة الدنيا لا غير.

{ **وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ** } المراد بالتولّي: الإعراض عن الإيمان. وأريد به معنى الاستمرار، أي: إن دمتم على الشرك فاعلموا أنّكم غير مفلَتين من قدرة الله، أي: اعلموا أنّكم قد وقعتم في مكنة الله، وأوشكتم على العذاب.

{ **وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** } البشارة أصلها الإخبار بما فيه مسرّة، وقد استعيرت هنا للإنذار، وهو الإخبار بما يسوء، على طريقة التهكّم، كما تقدّم في قوله تعالى { فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [آل عمران:21].

العذاب الأليم: هو عذاب القتل، والأسر، والسبي، وفيء الأموال. أي: أنذر المشركين بأنّك مقاتلهم وغالبهم بعد انقضاء الأشهر الحرم.

{ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ مِنْ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ } [4].

استثناء من المشركين في قوله تعالى { أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ } [3]، ومن { الَّذِينَ كَفَرُوا } في قوله تعالى { وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [3]، لأنّ شأن الاستثناء إذا ورد عقب جمل أن يرجع إلى ما تحتويه جميعها ممّا يصلح لذلك الاستثناء، فهو استثناء لهؤلاء من حكم نقض العهد، ومن حكم الإنذار بالقتال، المترتّب على النقض. فهذا الفريق من المشركين باقون على حرمة عهدهم وعلى السلم معهم.

{ **ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا** } لأنّ عدم الإخلال بأقل شيء نادر الحصول.

النقص: إزالة البعض. والمراد: أنّهم لم يفرّطوا في شيء ممّا عاهدوا عليه.

وهؤلاء هم الذين احتفظوا بعهدهم مع المسلمين، ووفّوا به على أتمّ وجه، فلم يكيدوا المسلمين بكيد، ولا ظاهروا عليهم عدوًّا سرًّا، فهؤلاء أُمر المسلمون أن لا ينقضوا عهدهم إلى المدّة التي عوهدوا عليها.

ومن هؤلاء: بنو ضَمرة، وحيَّان من بني كنانة؛ هم بنو جذيمة، وبنو الدِّيل. ولا شك أنّهم ممن دخلوا في عهد الحديبية.

وقد عُلم من هذا، أنّ الذين أمر الله بالبراءة من عهدهم هم ضد أولئك، وهم قوم نقصوا ممّا عاهدوا عليه،

أي: كادوا، وغدروا سرا، أو ظاهروا العدو بالمدد والجوسسة. ومن هؤلاء: قريظة أمدوا المشركين غير مرّة، وبنو بَكر، عَدَوْا على خزاعة أحلاف المسلمين كما تقدّم. فعُبّر عن فعلهم ذلك بالنقص لأنّهم لم ينقضوا العهد علنا، ولا أبطلوه، ولكنّهم أخلوا به.

{ **شَيْئًا** } للمبالغة في نفي الانتقاص، لأنّ كلمة (شيء) نكرة عامة، فإذا وقعت في سياق النفي أفادت انتفاء كلّ ما يصدق عليه أنّه موجود، كما تقدّم في قوله { وَقَالَتْ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ} [البقرة:113].

المظاهرة: المعاونة، الأرجح أن يكون فعلها مشتقّا من الاسم الجامد وهو الظهر، أي: صلب الإنسان أو البعير، لأنّ الظهر به قوّة الإنسان في المشي والتغلّب، يقال: بعير ظهير، أي: قوي على الرحلة. فمن ثمّ جاءت صيغة المفاعلة، ومثله المعاضدة مشتقة من العضد، والمساعدة من الساعد، والتأييد من اليد، والمكاتفة مشتقة من الكتف، وكلّها أعضاء العمل.

المدّة: الأجل، مشتقّة من المدّ، لأنّ الأجل مدّ في زمن العمل، أي: تطويل، وإضافة المدّة إلى ضمير المعاهدين لأنّها منعقدة معهم، فإضافتها إليهم كإضافتها إلى المسلمين ولكن رجح هنا جانبهم لأنّ انتفاعهم بالأجل أصبح أكثر من انتفاع المسلمين به، إذ صار المسلمون أقوى منهم، وأقدر على حربهم.

{ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ** } تذييل في معنى التعليل للأمر بإتمام العهد إلى الأجل بأنّ ذلك من التقوى.

ثم إنّ قبائل العرب كلّها رغبت في الإسلام فأسلموا في تلك المدة فانتهت حرمة الأشهر الحرم في الإسلام.

{ فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [5].

تفريع على قوله تعالى { فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ } [2]، فإن كان المراد في الآية المعطوف عليها بالأربعة الأشهر أربعة تبتدئ من وقت نزول براءة كان قوله تعالى { فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ }، تفريعا مرادا منه زيادة قيد على قيد الظرف من قوله تعالى { أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ } [2]، أي: فإذا انتهى أجل الأربعة الأشهر وانسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين، لانتهاء الإذن.

وإن كانت الأربعة الأشهر مرادا بها الأشهر الحرم، كان قوله تعالى { فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ } تصريحا بمفهوم الإذن بالأمن أربعة أشهر. فيكون تأجيلا لهم إلى انقضاء شهر المحرم من سنة عشر، ثم تحذيرا من خرق حرمة شهر رجب، وكذلك يستمر الحال في كل عام إلى نسخ تأمين الأشهر الحرم كما سيأتي عند قوله تعالى { مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ } [36].

انسلاخ الأشهر: انقضاؤها وتمامها وهو مطاوع سلخ. وهو في الأصل استعارة من سلخ جلد الحيوان، أي: أزالته. ثم شاع هذا الإطلاق حتّى صار حقيقة.

الحُرُم: جمع حرام وهو سماعي. وتقدّم عند قوله تعالى { الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ } [البقرة:198].

وهي: (**ذو القعدة** و**ذو الحجة** و**محرم** و**رجب**).

وانسلاخها انقضاء المدّة المتتابعة منها، وقد بقيت حرمتها ما بقي من المشركين قبيلة، لمصلحة الفريقين، فلمّا آمن جميع العرب بطل حكم حرمة الأشهر الحرم، لأنّ حرمة المحارم الإسلامية أغنت عنها.

{ **فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ** } للإذن والإباحة باعتبار كل واحد من المأمورات على حدة، أي: فقد أُذن لكم في قتلهم، وفي أخذهم، وفي حصارهم، وفي منعهم من المرور بالأرض التي تحت حكم الإسلام، وقد يعرض الوجوب إذا ظهرت مصلحة عظيمة.

المقصود هنا: أنّ حرمة العهد قد زالت.

وفي هذه الآية إشارة إلى أنّهم لا يُقبل منهم غير الإسلام، وهي ناسخة لآيات الموادعة والمعاهدة.

وقد عمّت الآية جميع المشركين وعمّت البقاع إلّا ما خصّصته الأدلة من الكتاب والسنة.

الأخذ: الأسر.

الحصر: المنع من دخول أرض الإسلام إلّا بإذن من المسلمين.

القعود: مجاز في الثبات في المكان، والملازمة له، لأنّ القعود ثبوت شديد وطويل.

معنى القعود في الآية: المرابطة في مظان تطرّق العدو إلى بلاد الإسلام.

المرصد: مكان الرصد، والرصد، المراقبة وتتبّع النظر.

{ **كُلَّ** } مستعملة في تعميم المراصد المظنون مرورهم بها، تحذيرا للمسلمين من إضاعتهم الحراسة في المراصد فيأتيهم العدو منها، أو من التفريط في بعض ممار العدو فينطلق الأعداء آمنين فيستخفّوا بالمسلمين ويتسامع جماعات المشركين أنّ المسلمين ليسوا بذوي بأس ولا يقظة.

{ **فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } تفريع على الأفعال المتقدّمة.

التوبة: هنا عن الشرك، وهي الإيمان، أي: فإن آمنوا إيمانا صادقا، بأن أقاموا الصلاة الدالة إقامتها على أنّ صاحبها لم يكن كاذبا في إيمانه، وبأن آتوا الزكاة الدال إيتاؤها على أنّهم مؤمنون حقا.

{ **خَلُّوا سَبِيلَهُمْ** } اتركوا طريقهم، إذ لا بأس عليكم منهم، فإنّهم صاروا إخوانكم.

{ **إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } تذييل أريد به حثّ المسلمين على عدم التعرّض بالسوء للذين يسلمون من المشركين، وعدم مؤاخذتهم لمّا فرط منهم، فالمعنى: اغفروا لهم، لأنّ الله غفر لهم وهو غفور رحيم.

{ **وَإِنْ أَحَدٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْلَمُونَ** } [6].

عطف على { فَإِنْ تَابُوا } [5] لتفصيل مفهوم الشرط، أو عطف على { فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ } [5] لتخصيص عمومه، أي: إلّا مشركا استجارك لمصلحة للسِّفارة عن قومه أو لمعرفة شرائع الإسلام. وصيغ الكلام بطريقة الشرط لتأكيد حكم الجواب، وللإشارة إلى أنّ الشأن أن تقع الرغبة في الجوار من جانب المشركين.

{ **إنْ** } شأنها أن يكون شرطها نادر الوقوع، جيء بها للتنبيه على أنّ هذا شرط فرضي لكيلا يزعم المشركون أنّهم لم يتمكّنوا من لقاء النبيّ صلى الله عليه وسلم فيتخذوه عذراً للاستمرار على الشرك إذا غزاهم المسلمون.

{ **أَحَدٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ** } جيء بهذا التركيب دون لفظ مشرك للتنصيص على عموم الجنس.

ولعل المقصود من التنصيص على إفادة العموم، ومن تقديم { أَحَدٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ } على الفعل، تأكيد بذل الأمان لمن يسأله من المشركين إذا كان للقائه النبيّ صلى الله عليه وسلم ودخوله بلاد الإسلام مصلحة، ولو كان أحد من القبائل التي خانت العهد، لئلّا تحمل خيانتهم المسلمين على أن يخونوهم أو يغدروا بهم، فذلك كقوله تعالى { وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا } [المائدة:2]، وقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" ولا تخن من خانك "**.

الاستجارة: طلب الجوار، وهو الكون بالقرب، وقد استُعمل مجازا شائعا في الأمن، لأنّ المرء لا يستقر بمكان إلّا إذا كان آمنا، فمن ثم سَمُّوا المؤمن جارا، والحليف جارا، وصار فعل أجار بمعنى أمن، ولا يطلق بمعنى جعل شخصا جارا له. والمعنى: إن أحد من المشركين استأمنك فأمّنه.

ولم يبين سبب الاستجارة، لأنّ ذلك مختلف الغرض وهو موكول إلى مقاصد العقلاء، فإنّه لا يستجير أحد إلّا لغرض صحيح.

ولما كانت إقامة المشرك المستجير عند النبيّ عليه الصلاة والسلام لا تخلو من عرض الإسلام عليه وإسماعه القرآن، سواء كانت استجارته لذلك أم لغرض آخر، لما هو معروف من شأن النبيّ صلى الله عليه وسلم من الحرص على هدي الناس، جُعل سماع هذا المستجير القرآن غاية لإقامته الوقتيّة عند الرسول صلى الله عليه وسلم.

كلام الله: القرآن، أضيف إلى اسم الجلالة لأنّه كلام أوجده الله ليدلّ على مراده من النّاس وأبلغه إلى الرسول عليه الصلاة والسلام بواسطة الملك، فلم يكن من تأليف مخلوق ولكن الله أوجده بقدرته بدون صنع أحد، بخلاف الحديث القدسي.

{ **ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ** } للدلالة على وجوب استمرار إجازته في أرض الإسلام إلى أن يبلغ المكان الذي يأمن فيه، ولو بلغه بعد مدّة طويلة، فحرف (ثمّ) هنا للتراخي الرتبي، اهتماما بإبلاغه مأمنه.

وهذا يتضمّن أمر المسلمين بأن لا يتعرّضوا له بسوء حتّى يبلغ بلاده التي يأمن فيها. وليس المراد أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم يتكلّف ترحيله ويبعث من يبلّغه. فالمعنى: اتركه يبلغ مأمنه.
المأمن: مكان الأمن، وهو المكان الذي يجد فيه المستجير أمنه السابق، وذلك هو دار قومه حيث لا يستطيع أحد أن يناله بسوء. وقد أضيف المأمن إلى ضمير المشرك للإشارة إلى أنّه مكان الأمن الخاص به، فيُعلم أنّه مقرّه الأصلي، بخلاف دار الجوار فإنها مأمن عارض لا يضاف إلى المُجار.
{ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْلَمُونَ** } في موضع التعليل لتأكيد الأمر بالوفاء لهم بالإجارة إلى أن يصلوا ديارهم، فلذلك فصلت عن الجملة التي قبلها. أي: أمرنا بذلك بسبب أنّهم قوم لا يعلمون. أي: لا تؤاخذهم في مدّة استجارتهم بما سبق من أذاهم، لأنّهم قوم لا يعلمون. والعلم، في كلام العرب، بمعنى العقل وأصالة الرأي.

{ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ } [7].

استئناف بياني، لأنّ المقام مقام بيان سبب هذه البراءة، وأنّه أمران: بُعد ما بين العقائد، وسبق الغدر.
{ **كَيْفَ** } الاستفهام إنكاري، إنكارا لحالة دوام العهد في المستقبل مع الذين عاهدوهم يوم الحديبية وما بعده. وليس ذلك إنكارا على وقوع العهد، فإنّ العهد قد انعقد بإذن من الله، وسمّاه الله فتحا في قوله تعالى { إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا } [الفتح:1] وسُمّي رضى المؤمنين به يومئذ سكينة في قوله تعالى { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ } [الفتح:4]. وهذا يؤيد ما فسرنا به وجه إضافة البراءة إلى الله ورسوله، وإسناد العهد إلى ضمير المسلمين في قوله تعالى { بَرَاءةٌ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ } [1].
وقد كانت قريش نكثوا عهدهم الذي عاهدوه يوم الحديبية، إذ أعانوا بني بكر بالسلاح والرجال على خزاعة، وكانت خزاعة داخلة في عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم، وكان ذلك سبب التجهيز لغزوة فتح مكّة.
{ **إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ** } استثناء، أي: لا يكون عهد للمشركين إلّا المشركين الذين عاهدتم عند المسجد الحرام. والذين عاهدوهم عند المسجد الحرام هم: (**بنو ضمرة، وبنو جذيمة بن الدِّيل** و**بنو بكر** من كنانة). والمقصود من تخصيصهم بالذكر، التنويه بخصلة وفائهم بما عاهدوا عليه. ويتعيّن أن يكون هؤلاء عاهدوا النبيّ صلى الله عليه وسلم في عمرة القضاء عند المسجد الحرام، ودخلوا في الصلح الذي عقده مع قريش بخصوصهم، زيادة على دخولهم في الصلح الأعمّ، ولم ينقضوا عهدهم، ولا ظاهروا عدوا على المسلمين، إلى وقت نزول براءة. على أن معاهدتهم عند المسجد الحرام أبعد عن مظنّة النكث، لأنّ المعاهدة عنده أوقع في نفوس المشركين من الحلف المجرد.

{ **فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ** } تفريع على الاستثناء. فالتقدير: إلّا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فاستقيموا لهم ما استقاموا لكم، أي: ما داموا مستقيمين لكم.

الاستقامة: حقيقتها عدم الاعوجاج، والسين والتاء للمبالغة، وهي هنا مستعارة لحسن المعاملة وترك القتال، لأنّ سوء المعاملة يطلق عليه الالتواء والاعوجاج، فكذلك يطلق على ضدّه الاستقامة.

{ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ** } تعليل للأمر بالاستقامة. أنّ الاستقامة لهم من التقوى، وإلّا لم تكن مناسبة للإخبار بأنّ الله يحب المتقين. وهذا من الإيجاز. ولأنّ في الاستقامة لهم حفظا للعهد الذي هو من قبيل اليمين.

{ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ } [8].

إخبارا عن دخائلهم.

{ **كَيْفَ** } في إعادة الاستفهام إشعار بأن جملة الحال لها مزيد تعلّق بتوجّه الإنكار على دوام العهد للمشركين، حتى كأنها مستقلة بالإنكار، لا مجرّد قيد للأمر الذي توجه إليه الإنكار ابتداء، { كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ } [7]. فيؤول المعنى الحاصل من هذا النظم إلى إنكار دوام العهد مع المشركين في ذاته ابتداء، لأنهم ليسوا أهلا لذلك، وإلى إنكار دوامه بالخصوص في هذه الحالة، وهي حالة ما يبطنونه من نيّة الغدر إن ظهروا على المسلمين، ممّا قامت عليه القرائن والأمارات، كما فعلت هوازن عقب فتح مكّة.

{ **وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ** } إن ينتصروا. وتقدّم بيان هذا الفعل عند قوله تعالى { وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا } [4]. والمعنى: لو انتصر المشركون، بعد ضعفهم، وبعد أن جرّبوا من العهد أنّه كان سببا في قوّتكم، لنقضوا العهد. وضمير { عَلَيْكُمْ } خطاب للمؤمنين.

{ **لاَ يَرْقُبُوا** } لا يوفوا ولا يراعوا، يقال: رَقَب الشيء، إذا نظر إليه نظر تعهّد ومراعاة، ومنه سُمّي الرقيب، وسُمّي المرْقب مكان الحراسة، وقد أطلق هنا على المراعاة والوفاء بالعهد، لأنّ من أبطل العمل بشيء فكأنّه لم يره وصرف نظره عنه.

الإلّ: الحلف والعهد، ويطلق الإلّ على النسب والقرابة. وقد كانت بين المشركين وبين المسلمين أنساب وقرابات، فيصح أن يُراد هنا كلا معنييه.

الذِمّة: ما يمتّ به من الأواصر من صحبة وخلّة وجوار ممّا يجب في المروءة أن يحفظ ويحمى.

يقال: في ذمّتي كذا، أي: ألتزم به وأحفظه.

{ **يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ** } استئناف ابتدائي، أي: هم يقولون لكم ما يرضيكم، كيدا، ولو تمكّنوا منكم لم يرقبوا فيكم إلّا ولا ذمّة.

الإباية: الامتناع من شيء مطلوب، وإسناد الإباية إلى القلوب استعارة، فقلوبهم لمّا نوت الغدر شُبّهت بمن يُطلب منه شيء فيأبى.

{ **وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ** } في موضع الحال، مقصود منها الذم بأنّ أكثرهم موصوف بالخروج عن مهيع المروءة والرُّجلة، إذ نجد أكثرهم خالعين زمام الحياء، فجمعوا المذمّة الدينية والمذمة العرفية. فالفسق هنا الخروج عن الكمال العرفي بين النّاس، وليس المراد الخروج عن مهيع الدين، لأنّ ذلك وصف لجميعهم لا لأكثرهم، ولأنّه قد عرف من وصفهم بالكفر.

{ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [9].

هذه الآية وصف القرآن فيها المشركين بمثل ما وصف به أهل الكتاب في سورة البقرة من الاشتراء بآيات الله ثمنا قليلا، ثم لم يوصفوا بمثل هذا في آية أخرى نزلت بعدها، لأنّ نزولها كان في آخر عهد المشركين بالشرك إذ لم تطل مدّة حتّى دخلوا في دين الله أفواجا، سنة الوفود وما بعدها.

وفيها دلالة على هؤلاء الذين بقوا على الشرك من العرب، بعد فتح مكة وظهور الإسلام على معظم بلاد العرب، ليس لهم افتراء في صحة الإسلام ونهوض حجّته، ولكنهم بقوا على الشرك لمنافع يجتنونها من عوائد قومهم؛ من غارات يشنّها بعضهم على بعض، ومحبة الأحوال الجاهلية من خمر وميسروزنى.

فلكون آيات صدق القرآن أصبحت ثابتة عندهم جُعلت مثل مال بأيديهم، وفرّطوا فيه لأجل اقتناء منافع قليلة، فلذلك مُثّل حالهم بحال من اشترى شيئا بشيء. وقد مضى الكلام على مثل هذه الآية في [البقرة:16].

{ **بِآيَاتِ اللَّهِ** } الدلائل، وهي دلائل الدعوة إلى الإسلام، وأعظمها القرآن لما اشتمل عليه من البراهين والحجاج والإعجاز. والباء، باء التعويض، وشأنها أن تدخل على ما هو عوض يبذله مالكه لأخذ معوّض يملكه غيره.

{ **فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ** } مفرّعة على { اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ } لأنّ إيثارهم البقاء على كفرهم يتسبّب عليه أن يصدّوا النّاس عن اتباع الإسلام، فمثّل حالهم بحال من يصدّ النّاس عن السير في طريق تبلّغ إلى المقصود. ومفعول { صَدُّوا } محذوف لقصد العموم، أي: صدّوا كل قاصد.

{ **إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } ابتدائية، فصلت عن التي قبلها ليظهر استقلالها بالإخبار، وأنّها لا ينبغي أن تعطف في الكلام، إذ العطف يجعل الجملة المعطوفة بمنزلة التكملة للمعطوفة عليها. وافتتحت بحرف التأكيد للاهتمام بهذا الذم لهم.

{ **سَاءَ** } من أفعال الذم، من باب بئس.

{ **لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُعْتَدُونَ** } [10].

يجوز أن تكون هذه الجملة بدل اشتمال من جملة { إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [9].

ويجوز أن تكون استئنافا ابتدئ به للاهتمام بمضمون الجملة. وقد أفادت معنى أعم وأوسع مما أفاده قوله تعالى { وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً } [8]، لأنّ إطلاق الحكم عن التقييد بشرط { إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ } يفيد أنّ عدم مراعاتهم حقّ الحلف والعهد خلق متأصّل فيهم، سواء كانوا أقوياء أم مستضعفين. والإلّ والذمّة تقدما قريبا.

{ **وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُعْتَدُونَ** } القصر إمّا أن يكون للمبالغة في اعتدائهم، لأنّه اعتداء عظيم باطني على قوم حالفوهم وعاهدوهم، ولم يلحقوا بهم ضرّ مع تمكّنهم منه، وإمّا أن يكون قصر قلب، أي: هم المعتدون لا أنتم، لأنّهم بدأوكم بنقض العهد في قضية خزاعة وبني الدِّيل من بكر بن وائل ممّا كان سببا في غزوة الفتح.

{ **فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** } [11].

تفريع حكم على حكم لتعقيب الشدّة باللين، تنبيها لهم على أنّ تداركهم أمرهم هيّن عليهم. ولمّا كان المقام هنا لذكر عداوتهم مع المؤمنين جُعلت توبتهم سببا للأخوة مع المؤمنين، بخلاف مقام قوله قبله { فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ } [5]، حيث إن المعقَّب بالتوبة هنالك هو الأمر بقتالهم والترصد لهم، فناسب أن يفرّع على توبتهم عدم التعرض لهم بسوء. وقد حصل من المجموع أنّ توبتهم توجب أمنهم وأخوّتهم.

الإخوان: جمع أخ في الحقيقة والمجاز، وأطلقت الأخوّة هنا على المودّة والصداقة.

{ **فِي الدِّينِ** } مجازيّة، زيادة في الدلالة على التمكّن من الإسلام وأنّه يجبّ ما قبله.

{ **وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** } اعتراض وتذييل، دلّ على أنّ الآيات المذكورة آنفا في قوله تعالى { اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً } [9] آيات واضحة مفصّلة، وأنّ عدم اهتداء هؤلاء بها ليس لنقص فيها وإنّما يهتدي بها قوم يعلمون. وحذف مفعول { يَعْلَمُونَ } لتنزيل الفعل منزلة اللازم، إذا أريد به: لقوم ذوي علم وعقل.

ومعنى التفصيل تقدّم في قوله تعالى { وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ } [الأنعام:55].

{ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ } [12].

لمّا استوفى البيان لأصناف المشركين؛ الذين أمر الله بالبراءة من عهدهم لإبطانهم الغدر، والذين أمر بإتمام عهدهم إلى مدتهم ما استقاموا على العهد، والذين يستجيبون، عُطف على أولئك بيان الذين يعلنون بنكث العهد، ويعلنون بما يسخطُ المسلمين من قولهم.

النكث: تقدّم عند قوله تعالى { فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ } [الأعراف:135].

وعُبّر عن نقض العهد بنكث الإيمان تشنيعا للنكث، لأنّ العهد كان يقارنه اليمين على الوفاء ولذلك سُمّي العهد حلفا.

{ **مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ** } زيادة في تسجيل شناعة نكثهم، بتذكير أنّه غدْر لعهد، وحنث باليمين.

الطعن: حقيقته خرق الجسم بشيء محدّد كالرمح، ويستعمل مجازا بمعنى الثلب والنسبة إلى النقص، بتشبيه عرض المرء، الذي كان ملتئما غير منقوص، بالجسد السليم، فإذا أظهرت نقائصه بالثلب والشتم شبه بالجلد الذي أفسد التحامه.

{ **فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ** } الأمر هنا للوجوب، وهي حالة من أحوال الإذن المتقدّم في قوله تعالى { فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ } [5]، ففي هذه الحالة يجب قتالهم ذبا عن حرمة الدين.

{ **أَئِمَّةَ** } جمع إمام وهو ما يُجعل قدوة في عمل يُعمل على مثاله، قال تعالى { وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً } [القصص:5] أي: مقتدى بهم. فأئمة الكفر هنا: الذين بلغوا الغاية فيه، بحيث صاروا قدوة لأهل الكفر.

{ **إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ** } تعليل لقتالهم بأنّهم استحقوه لأجل استخفافهم بالأيمان التي حلفوها على السلم، فغدروا.

ولم أقف على أنّه كان مشروطا على المشركين في عقود المصالحة والمعاهدة مع المسلمين أن لا يطعنوا في الإسلام في غير هذه الآية، فكان هذا شرطا عليهم من بعد، لأنّ المسلمين أصبحوا في قوة.

{ **لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ** } ولم يُذكر متعلّق فعل { يَنتَهُونَ } ولا يحتمل أن يكون الانتهاء عن نكث العهد، لأنّ عهدهم لا يُقبل بعد أن نكثوا لقول الله تعالى { إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ }، ولا أن يكون الانتهاء عن الطعن في الدين، لأنّه إن كان طعنهم في الدين حاصلا في مدة قتالهم فلا جدوى لرجاء انتهائهم عنه، وإن كان بعد أن تضع الحرب

أوزارها فإنّه لا يستقيم إذ لا غاية لتنهية القتل بين المسلمين وبينهم، فتعيّن أنّ المراد لعلهم ينتهون عن الكفر.

{ أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ } [13].

تحذير من التواني في قتالهم.

{ أَلاَ } يحتمل أن يكون مجموع حرفين؛ هما همزة الاستفهام و(لا) النافية، ويحتمل أن يكون حرفاً واحداً للتحضيض، مثل قوله تعالى { أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌرَحِيمٌ } [النور:22].

فعلى الاحتمال الأوّل: يجوز أن يكون الاستفهام إنكارياً، على انتفاء مقاتلة المشركين، وهو ما ذهب إليه البيضاوي، فيكون دفعا لأن يتوهّم المسلمون حرمة لتلك العهود. ويجوز أن يكون الاستفهام تقريريا، ومعناه الحض على القتال على سبيل المبالغة.

وعلى الاحتمال الثاني: أن يكون { أَلاَ } حرفا واحدا للتحضيض فهو تحضيض على القتال.

ولعل موجب هذا التفنن في التحذير من التهاون بقتالهم مع بيان استحقاقهم إيّاه، أن كثيرا من المسلمين كانوا قد فرحوا بالنصر يوم فتح مكّة ومالوا إلى اجتناء ثمرة السلم، فلذلك لمّا أمروا بقتال هؤلاء المشركين كانوا مظنّة التثاقل عنه خشية الهزيمة، بعد أن فازوا بسمعة النصر. وفي قوله عقبه { أَتَخْشَوْنَهُمْ } ما يزيد هذا وضوحا.

{ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ }

{ الهَمّ } هو العزم على فعل شيء سواء فعله أم انصرف عنه. ومؤاخذتهم في هذه الآية على مجرد الهمّ بإخراج الرسول تدلّ على أنّهم لم يخرجوه وإلّا لكان الأجدر أن ينعى عليهم الإخراج لا الهمّ به، كما في قوله تعالى { إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا } [40]، وتدلّ على أنّهم لم يرجعوا عمّا همّوا به إلّا لما حيل بينهم وبين تنفيذه.

والوجه عندي أنّ المعنيَّ بالأمر قبائل كانوا معاهدين للمسلمين فنكثوا العهد سنة ثمان للهجرة، يوم فتح مكّة، وهمّوا بنصرة المشركين، ولكن الله صرفهم وفضحهم وأمر بقتالهم. ولا ندري أقاتلهم النبيّ صلى الله عليه وسلّم. فلمّا لم تنشب الحرب بين المسلمين و المشركين أيسوا من نصرة أهل مكّة وأغضى عنهم النبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ } بدأوكم أوّل بدء بالنكث. والمقصود من هذا الكلام تهديدهم على النكث الذي أضمروه، وألاّ تسامح فيه.

{ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ } الاستفهام إنكاري أو تقريري عن سبب التردّد في قتالهم. أي: فالله الذي أمركم بقتالهم أحقّ أن تخشوه إذا خطر في نفوسكم خاطرا عدم الامتثال لأمره، إن كنتم مؤمنين، لأن الإيمان يقتضي الخشية من الله وعدم التردّد في نجاح الامتثال له.

{ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ [14] وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ [15] }.

استئناف ابتدائي للعود من غرض التحذير إلى صريح الأمر بقتالهم.

وجزم { يُعَذِّبْهُمُ } وما عُطف عليه في جواب الأمر، وفي جعله جوابا وجزاء، أنّ الله ضمن للمسلمين من تلك المقاتلة **خمس فوائد** تنحلّ إلى اثنتي عشرة، إذ تشتمل كل فائدة منها على كرامة للمؤمنين وإهانة لهؤلاء المشركين وروعي في كل فائدة منها الغرض الأهم فصُرّح به وجُعل ما عداه حاصلا بطريق الكناية.

الفائدة الأولى: تعذيب المشركين بأيدي المسلمين وهذه إهانة للمشركين وكرامة للمسلمين.

الثانية: خزي المشركين وهو يستلزم عزّة المسلمين.

الثالثة: نصر المسلمين، وهذه كرامة صريحة لهم وتستلزم هزيمة المشركين وهي إهانة لهم.

الرابعة: شفاء صدور فريق من المؤمنين، وهذه صريحة في شفاء صدور طائفة من المؤمنين وهم خزاعة، وتستلزم شفاء صدور المؤمنين كلّهم، وبالضد حرج صدور أعدائهم.

الخامسة: إذهاب غيظ قلوب فريق من المؤمنين أو المؤمنين كلّهم، وهذه تستلزم ذهاب غيظ بقية المؤمنين الذي تحمّلوه من إغاظة أحلامهم، وتستلزم غيظ قلوب أعدائهم.

التعذيب: تعذيب القتل والجراحة. وأسند التعذيب إلى الله وجُعلت أيدي المسلمين آلة له تشريفا للمسلمين.

الإخزاء: الإذلال، وتقدّم في البقرة. وهو هنا الإذلال بالأسر.

النصر: حصول عاقبة القتال المرجوّة. وتقدّم في أول البقرة.

الشفاء: زوال المرض ومعالجة زواله. أطلق هنا استعارة لإزالة ما في النفوس من تعب الغيظ والحقد، كما استعير ضدّه وهو المرض لما في النفوس من الخواطر الفاسدة في قوله { فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ } [البقرة:10].

{ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ } يدلّ على أنّ الذين يشفي الله صدورهم بنصر المؤمنين طائفة من المؤمنين المخاطبين بالقتال، وهم أقوام كانت في قلوبهم إحن على بعض المشركين الذين آذوهم وأعانوا عليهم، ولكنّهم كانوا محافظين على عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم، فلا يستطيعون مجازاتهم على سوء صنيعهم، وكانوا يودّون أن يؤذن لهم بقتالهم، فلمّا أمر الله بنقض عهود المشركين سرّوا بذلك وفرحوا. فهؤلاء فريق تغاير حالته حالة الفريق المخاطبين بالتحريض على القتال والتحذير من التهاون فيه. فعن مجاهد، والسدي أنّ القوم المؤمنين، هم خزاعة حلفاء النبيّ صلى الله عليه وسلم، وكانت نفوس خزاعة إحن على بني بكر بن كنانة، الذين اعتدوا عليهم بالقتال، وفي ذكر هذا الفريق زيادة تحريض على القتال.

{ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ }عطف على { وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ }، يؤذن باختلاف المعطوف

والمعطوف عليه، فيكون المراد بشفاء الصدور ما يحصل من المسرّة والانشراح بالنصر، والمراد بذهاب الغيظ استراحتهم من تعب الغيظ، وتحرّق الحقد. وضمير قلوبهم عائد إلى قوم مؤمنين فهم موعودون بالأمرين.

الغيظ: الغضب المشوب بإرادة الانتقام، وتقدّم في قوله { عَضُّوا عَلَيْكُمْ الأَنَامِلَ مِنْ الغَيْظِ} [آل عمران:119].

{ **وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** } جملة ابتدائية مستأنفة، لأنّه ابتداء كلام ليس مما يترتّب على الأمر بالقتال، بل لذكر من لم يُقتلوا، ولذلك جاء الفعل فيها مرفوعا، فدل هذا النظم على أنّها راجعة إلى قوم آخرين، وهم المشركون الذين خانوا وغدروا، ولم يُقتلوا، بل أسلموا من قبل هذا الأمر أو بعده. وتوبة الله عليهم، هي قبول إسلامهم أو دخولهم فيه، وفي هذا إعذار وإمهال لمن تأخّر. فقد تاب الله على أبي سفيان، وعكرمة بن أبي جهل.

{ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** } لإفادة أنّ الله يعامل النّاس بما يعلم من نياتهم، وأنّه حكيم لا يأمر إلّا بما فيه تحقيق الحكمة، فوجب على النّاس امتثال أوامره.، وأنّه يقبل توبة من تاب إليه تكثيرا للصلاح.

{ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } [16].

{ **أَمْ** } منقطعة لإفادة الإضراب عن غرض من الكلام للانتقال إلى غرض آخر. والكلام بعدها له حكم الاستفهام دائما. فقوله تعالى { حَسِبْتُمْ } في قوّة (أحسبتم) والاستفهام المقدّر إنكاري.

والخطاب للمسلمين، على تفاوت مراتبهم في مدة إسلامهم، فشمل المنافقين لأنّهم أظهروا الإسلام.

حسبتم: ظننتم. ومصدر حسِب، بمعنى ظن، الحِسبان (بكسر الحاء). فأمّا مصدر حسُب (بضم الحاء) بمعنى أحصى العدد فهو الحُسبان.

الترك: افتقاد الشيء وتعهّده، أي: أن يترككم الله، فحُذف فاعل الترك لظهوره. وحذف متعلّق { تُتْرَكُوا } في الآية لدلالة السياق عليه، أي: أن تتركوا دون جهاد، أي: أن تتركوا في دعة بعد فتح مكّة.

{ **وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً** } في موضع الحال من ضمير { تُتْرَكُوا }، أي: لا تظنّوا أن تتركوا.

{ **وَلَمَّا** } حرف للنفي، وهي أخت (لم).

{ **يَعْلَمِ اللَّهُ** } علمه بوقوع ذلك منهم وحصول امتثالهم، وهو من تعلّق العلم الإلهي بالأمور الواقعة، وهو أخصّ من علمه تعالى الأزلي بأنّ الشيء يقع أو لا يقع، ويجدر أن يوصف بـ (**التعلّق التنجيزي**)، وقد تقدّم شيء من ذلك عند قوله تعالى { وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ } [آل عمران:142].

الوليجة: فعيلة بمعنى مفعولة، أي: الدخيلة، وهي الفعلة التي يخفيها فاعلها، فكأنّه يولجها، أي: يدخلها في مكمن بحيث لا تظهر، والمراد بها هنا: ما يشمل الخديعة وإغراء العدو بالمسلمين، وما يشمل اتخاذ أولياء من أعداء الإسلام يخلص إليهم ويفضي إليهم بسر المسلمين. لأن تنكير { وَلِيجَةً } في سياق النفي يعم سائر أفرادها.

{ **وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** } تذييل لإنكار ذلك الحِسبان. أي: لا تحسبوا ذلك مع علمكم بأنّ الله خبير بكل ما تعملونه.

{ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ } [17].

هذا ابتداء غرض من أغراض معاملة المشركين، وهو منع المشركين من دخول المسجد الحرام في العام القابل، وهو مرتبط بما تضمّنته البراءة في قوله تعالى { بَرَاءةٌ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ مِنْ الْمُشْرِكِينَ }. ولِما اتصل بتلك الآية من بيان النبيّ صلى الله عليه وسلم الذي أرسل به مع أبي بكر الصديق، أن لا يحجّ بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان. وهو توطئة لقوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا } [28].

{ **مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا** } أي: ليسوا بأهل لأن يعمروا مساجد الله. تركيب يدلّ على البعد و عدم الاستحقاق، كما تقدّم عند قوله تعالى { مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ } [آل عمران:79].

{ **مَسَاجِدَ اللَّهِ** } مواضع عبادته بالسجود والركوع، المراد المسجد الحرام وما يتبعه من المسعى، وعرفة، والمشعر الحرام، والجمرات، والمنحر من منى.

عَمْر المساجد: العبادة فيها، لأنّها إنّما وضعت لذلك، فعمرها بمن يحلّ فيها من المتعبّدين، ومن ذلك اشتقت العمرة، والمعنى: ما يحقّ للمشركين أن يعبدوا الله في مساجد الله. وإناطة هذا النفي بهم بوصف كونهم مشركين، إيماء إلى أنّ الشرك موجب لحرمانهم من عمارة مساجد الله.

{ **شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ** } جاء الحال مبيّنا لسبب براءتهم من أن يعمروا مساجد الله. أي: انتفى تأهّلهم لأن يعمروا مساجد الله بحال شهادتهم على أنفسهم بالكفر. وشهادتهم على أنفسهم بالكفر حاصلة في كثير من أقوالهم وأعمالهم، بحيث لا يستطيعون إنكار ذلك، مثل قولهم في التلبية (لبيك لا شريك لك إلّا شريكا هو لك تملكه وما ملك)، ومثل سجودهم للأصنام، وطوافهم بها، ووضعهم إيّاها في جوف الكعبة وحولها وعلى سطحها.

{ **بِالْكُفْرِ** } الكفر بالله، أي: بوحدانيته، فالكفر مرادف للشرك، فالكفر في حد ذاته موجب للحرمان من عمارة أصحابه مساجد الله، لأنّها مساجد الله فلا حق لغير الله فيها.

{ **أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ** } ابتداء ذم لهم، وجيء باسم الإشارة لأنّهم قد تميّزوا بوصف الشهادة على أنفسهم بالكفر.

{ **حَبِطَتْ** } بطلت، وقد تقدّم في قوله تعالى { وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ } [البقرة:217].

وتقديم { **فِي النَّارِ** } على { **خَالِدُونَ** } للرعاية على الفاصلة ويحصل منه تعجيل المساءة للكفار إذا سمعوه.

{ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنْ الْمُهْتَدِينَ } [18].

استئناف بياني. لمّا اقتضت الآية السابقة إقصاء المشركين عن العبادة في المساجد كانت بحيث تثير سؤالا في نفوس السامعين أن يتطلّبوا من هم الأحقاء بأن يعمروا المساجد، فكانت هذه الآية مفيدة جواب هذا السائل

ومجيء صيغة القصر فيها مؤذن بأنّ المقصود إقصاء فرق أخرى عن أن يعمروا مساجد الله، غير المشركين الذين كان إقصاؤهم بالصريح، فتعيّن أن يكون المراد من الموصول وصلته خصوص المسلمين، لأنّ مجموع الصفات المذكورة في الصلة لا يثبت لغيرهم، فاليهود والنصارى آمنوا بالله واليوم الآخر لكنّهم لم يقيموا الصلاة ولم يؤتوا الزكاة، لأنّ المقصود بالصلاة والزكاة العبادتان المعهودتان بهذين الاسمين والمفروضتان في الإسلام، ألا ترى إلى قوله تعالى { قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ } [المدثر:44/43] كناية عن أن لم يكونوا مسلمين.

واستُغني عن ذكر الإيمان برسوله محمد صلى الله عليه وسلم بما يدلّ عليه من آثار شريعته، وهو الإيمان باليوم الآخر، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة.

{ **فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنْ الْمُهْتَدِينَ** } وجه هذا الرجاء أنّهم لما أتوا بما هو اهتداء لا محالة قوي الأمل في أن يستقرّوا على ذلك ويصير خُلُقا لهم فيكونوا من أهله، ولذلك قال تعالى { أَنْ يَكُونُوا مِنْ الْمُهْتَدِينَ }، ولم يقل أن يكونوا مهتدين. وفي هذا حث على الاستزادة من هذا الاهتداء وتحذير من الغرور والاعتماد على بعض العمل الصالح باعتقاد أنّ بعض الأعمال يغني عن بقيتها.

{ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [19].

الاستفهام للإنكار. وظاهر هذه الآية يقتضي أنّها خطاب لقوم سوّوا بين سقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام، وبين الجهاد والهجرة، في أنّ كل ذلك من عمل البرّ، فتؤذن بأنّها خطاب لقوم مؤمنين قعدوا عن الهجرة والجهاد بعلّة اجتزائهم بالسقاية والعمارة.

ومناسبتها للآيات التي قبلها: أنّه لما وقع الكلام على أنّ المؤمنين هم الأحقّاء بعمارة المسجد الحرام من المشركين، دلّ ذلك الكلام على أنّ المسجد الحرام لا يحقّ لغير المسلم أن يباشر فيه عملا من الأعمال الخاصة به، فكان ذلك مثار ظن بأنّ القيام بشعائر المسجد الحرام مساو للقيام بأفضل أعمال الإسلام.

وأحسن ما روي في سبب نزول هذه الآية ما رواه الطبري، والواحدي، عن النعمان بن بشير، قال: كنت عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من أصحابه فقال رجل منهم: "ما بالي أن لا أعمل عملا بعد الإسلام إلّا أن أسقي الحاج "، وقال آخر: " بل عمارة المسجد الحرام "، وقال آخر: " بل الجهاد في سبيل الله خير ممّا قلتم "، فزجرهم عمر بن الخطاب وقال: " لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك يوم الجمعة، ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستفيته فيما اختلفتم فيه "، قال: فأنزل الله { أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }.

السقاية: صيغة للصناعة، أي: صناعة السقي، وهي السقي من ماء زمزم، ولذلك أضيفت السقاية إلى الحاج.

العمارة: صناعة التعمير، أي: القيام على تعمير شيء، بالإصلاح والحراسة ونحو ذلك، وهي هنا غير ما في قوله تعالى { مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ } [17].

وقد كانت سقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام من أعظم مناصب قريش في الجاهلية، والمناصب عشرة، وتسمّى المآثر، فكانت السقاية لبني هاشم بن عبد مناف ابن قصي وجاء الإسلام وهي للعباس بن عبد المطلب، وكانت عمارة المسجد، وهي السدانة، وتسمّى الحجابة، لبني عبد الدار بن قصي وجاء الإسلام وهي لعثمان بن طلحة. وكانت لهم مناصب أخرى ثمانية أبطلها الإسلام رأيتها بخط جدي العلامة الوزير وهي: (الديّات والحَملات، السِّفارة، الراية، الرِّفادة، المشورة، الأعنّة والقبة، الحُكومة وأموال الآلهة، الأيْسار).

الديّات والحَملات: ، فجمع ديّة وهي عوض دم القتيل خطأ أو عمدا إذا صولح عليه. و**الحملات**، جمع حَمالة وهي الغرامة التي يحملها قوم عن قوم، وكانت لبني تيم بن مُرَّة بن كعب ومُرَّة جد قُصي، وجاء الإسلام وهي بيد أبي بكر الصديق.

السّفارة: (بكسر السين وفتحها) فهي السعي بالصلح بين القبائل، والقائم بها يسمّى سفيرا. وكانت لبني

عدي بن كعب بن أبناء عمّ لقصي وجاء الإسلام وهي بيد عمر بن الخطاب.
الراية: وتُسمّى العُقاب، لأنّها تخفق فوق الجيش كالعُقاب، فهي راية جيش قريش، وكانت لبني أميّة، وجاء الإسلام وهي بيد أبي سفيان بن حرب.
الرِّفادة: فهي أموال تخرجها قريش إكراماً للحجيج فيطعمونهم جميع أيّام الموسم يشترون الجزر والطعام وكانت لبني نوفل بن عبد مناف، وجاء الإسلام وهي بيد الحارث بن عامر بن نوفل.
المشورة: فهي ولاية دار الندوة وكانت لبني أسد بن عبد العزّى بن قصّي. وجاء الإسلام وهي بيد زيد بن زَمعة.
الأعنّة والقُبة: فقبّة يضربونها يجتمعون إليها عند تجهيز الجيش وسُمّيت الأعنّة وكانت لبني مخزوم. وهم أبناء عم قصي، وجاء الإسلام وهي بيد خالد بن الوليد.
الحكومة وأموال الآلهة: (ولم أقف على حقيقتها) فأحسب أنّ تسميتها الحكومة لأنّ المال المتجمّع بها هو ما يحصل من جزاء الصيد في الحرم أو في الإحرام. وأماّ تسميتها أموال الآلهة لأنّها أموال تحصل من نحو السائبة والبحيرة وما يوهب للآلهة من سلاح ومتاع. فكانت لبني سهم وهم أبناء عم لقصي. وجاء الإسلام وهي بيد الحارث بن قيس بن سهم.
الأيْسار: وهي الأزلام التي يستقسمون بها فكانت لبني جُمح وهم أبناء عمّ لقصي، وجاء الإسلام وهي بيد صفوان بن أمية بن خلف.
وقد أبطل الإسلام جميع هذه المناصب، عدا السدانة والسقاية، لقول النبيّ صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع: **" ألا إنّ كل مأثرة من مآثر الجاهلية تحت قدمي هاتين إلّا سقاية الحاج وسدانة البيت "**.
وذكر الإيمان بالله واليوم الآخر ليس لأنّه محلّ التسوية المردودة عليهم لأنّهم لم يدّعوا التسوية بين السقاية أو العمارة بدون الإيمان. بل ذِكر الإيمان إدماج، للإيماء إلى أنّ الجهاد أثر الإيمان، وهو ملازم للإيمان، فلا يجوز للمؤمن التنصّل منه بعلّة اشتغاله بسقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام.
{ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } تذييل لجملة { أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ ...}، وموقعه هنا خفي إن كانت السورة قد نزلت بعد غزوة تبوك، وكانت هذه الآية ممّا نزل مع السورة ولم تنزل قبلها، على ما رجحناه من رواية النعمان بن بشير في سبب نزولها، فإنّه لم يبق يومئذ من يجعل سقاية الحاجّ وعمارة البيت تساويان الإيمان والجهاد، حتى يرد عليه بما يدل على عدم اهتدائه. وقد تقدّم ما روي عن عمر بن الخطاب في سبب نزولها وهو يزيد موقعها خفاء.
فالوجه عندي في موقع جملة { وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } أن موقعها الاعتراض بين جملة { أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ } وجملة { الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا } [20]. والمقصود منها زيادة التنويه بشأن الإيمان، إعلاما بأنّه دليل إلى الخيرات وقائد إليها.

فالذين آمنوا قد هداهم إيمانهم إلى فضيلة الجهاد، والذين كفروا لم ينفعهم ما كانوا فيه من عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج، فلم يهدهم الله إلى الخير، وذلك برهان على أنّ الإيمان هو الاصل، وأنّ شعبه المتولّدة منه أفضل الأعمال، وأنّ ما عداها من المكارم والخيرات في الدرجة الثانية في الفضل، لأنّها ليست من شعب الإيمان، وإن كان كلا الصفتين لا ينفع إلّا إذا كان مع الإيمان، وخاصة الجهاد. وفيه إيماء إلى أنّه لولا الجهاد لما كان أهل للسقاية وعمارة المسجد الحرام مؤمنين، فإنّ إيمانهم كان من آثار غزوة فتح مكة وجيش الفتح، إذ آمن العباس ابن عبد المطلب وهو صاحب السقاية، وآمن عثمان بن طلحة وهو صاحب عمارة المسجد الحرام.

فإذا اعتمدنا قول ابن عباس: من أنّ نزول هذه الآية كان يوم بدر، بسبب المماراة التي وقعت بين علي بن أبي طالب والعباس، فموقع التذييل بقوله تعالى { وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } واضح، أي: لا يهدي المشركين الذين يسقون الحاجّ ويعمرون المسجد الحرام، إذ لا يجدي ذلك مع الإشراك. فتبيّن أنّ ما توهّموه من المساواة بين تلك الأعمال وبين الجهاد، وتنازعهم في ذلك، خطأ من النظر.

{ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَائِزُونَ } [20].

هذه الجملة مبيّنة لنفي الاستواء الذي في الآية السابقة، ومفصّلة للجهاد الذي في قوله تعالى { كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } [19]، بأنّه الجهاد بالأموال والأنفس، وإدماج لبيان مزيّة المهاجرين من المجاهدين.

{ **وَهَاجَرُوا** } هم المؤمنون من أهل مكة وما حولها، الذين هاجروا منها إلى المدينة لمّا أذِنهم النبيّ صلى الله عليه وسلم بالهجرة إليها بعد أن أسلموا، وذلك قبل فتح مكة.

المهاجرة: ترك الموطن والحلول ببلد آخر، وهي مشتقة من الهجر وهو الترك، واشتقت لها صيغة المفاعلة لاختصاصها بالهجر القويّ وهو هجر الوطن. والمراد بها في عرف الشرع هجرة خاصة، وهي الهجرة من مكّة إلى المدينة، فلا تشتمل هجرة من هاجر من المسلمين إلى بلاد الحبشة لأنّها لم تكن على نيّة الاستيطان بل كانت هجرة مؤقته، وتقدّم ذكر الهجرة في [الأنفال:72].

{ **أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ** } المفضّل عليه محذوف لظهوره، أي: أعظم درجة عند الله من أصحاب السقاية والعمارة الذين آمنوا ولم يهاجروا ولم يجاهدوا الجهاد الكثير الذي جاهده المسلمون أيام بقاء أولئك في الكفر.

الدرجة: تقدّمت عند قوله تعالى { وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ } [البقرة:228]. مستعارة لرفع المقدار.

{ **عِنْدَ اللَّهِ** } إشارة إلى أنّ رفعة مقدارهم رفعة رضى من الله وتفضيل بالتشريف.

{ **وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ** } معطوفة على { أَعْظَمُ دَرَجَةً }، أي: أعظم وهم أصحاب الفوز. وتعريف المسند باللام مفيد للقصر، وهو قصر ادعائي للمبالغة في عظم فوزهم، حتّى إنّ فوز غيرهم بالنسبة إلى فوزهم يعد كالمعدوم. والإتيان باسم الإشارة للتنبيه على أنّهم استحقّوا الفوز لأجل تلك الأوصاف التي ميّزتهم، وهي الإيمان والهجرة والجهاد بالأموال والأنفس.

{ **يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ** [21] **خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ** } [22].

بيان للدرجة العظيمة. فتلك الدرجة هي عناية الله تعالى بهم بإدخال المسرّة عليهم، وتحقيق فوزهم، وتعريفهم برضوانه عليهم، ورحمته بهم، وبما أعدّ لهم من النعيم الدائم. ومجموع هذه الأمور لم يُمنحه غيرهم من أهل السقاية والعمارة، الذين وإن صلحوا لأنّ ينالوا بعض هذه المزايا فهم لم ينالوا جميعها.

التبشير: الإخبار بخير يحصل للمخبَر لم يكن عالما به.

فإسناد التبشير إلى اسم الجلالة بصيغة المضارع، المفيد للتجدّد، مؤذن بتعاقب الخيرات عليهم، وتجدّد إدخال السرور بذلك لهم.

وكون المسند إليه لفظ الربّ، دون غيره ممّا يدلّ على الخالق سبحانه، إيماء إلى الرحمة بهم والعناية، لأنّ معنى الربوبية يرجع إلى تدبير المربوب والرفق به واللطف به، ولتحصل به الإضافة إلى ضميرهم إضافة تشريف.

الرحمة: تقدّمت في قوله تعالى { الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ } [الفاتحة:1].

الرِضوان: (بكسرالراء وبضمّها)، الرضا الكامل الشديد، لأنّ هذه الصيغة تشعر بالمبالغة مثل الغفران.

الجنّات: تقدّم الكلام عليها في ذكر الجنّة في سورة البقرة، وجمعها باعتبار مراتبها وأنواعها.

النعيم: ما به التذاذ النفس باللذّات المحسوسة، وهو أخصّ من النعمة. قال تعالى { إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ } [الإنفطار:13]، وقال تعالى { ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ } [التكاثر:8].

المقيم: المستمّر، استعيرت الإقامة للدوام والاستمرار.

{ **بِرَحْمَةٍ / رِضْوَانٍ / جَنَّاتٍ / وَنَعِيمٌ** } التنكير للتعظيم، بقرينة المقام، وقرينة قوله تعالى { مِنْهُ }، وقرينة كون تلك مبشرًّا بها.

{ **إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ** } تذييل وتنويه بشأن المؤمنين المهاجرين المجاهدين، لأنّ مضمون هذه الجملة يعمّ مضمون ما قبلها وغيره، وفي هذا التذييل إفادة أنّ ما ذُكر من عظيم درجات المؤمنين المهاجرين المجاهدين هو بعض ما عند الله من الخيرات، فيحصل من ذلك الترغيب في الازدياد من الأعمال الصالحة ليزدادوا رفعة عند ربهم.

الأجر: العوض المعطى على عمل، وتقدم في قوله تعالى { إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ } [المائدة:5].

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ } [23].

استئناف ابتدائي لافتتاح غرض آخر وهو تقريع المنافقين ومن يواليهم، فإنّه لماّ كان أوّل السورة في تخطيط طريقة معاملة المظهرين للكفر، لا جرم تهيّأ المقام لمثل ذلك بالنسبة إلى من أبطنوا الكفر وأظهروا الإيمان، وهم المنافقون من أهل المدينة ومن بقايا قبائل العرب، ممّن عُرفوا بذلك أو لم يُعرفوا، وأطلع الله عليهم نبيّه صلى الله عليه وسلم، وحذّر المؤمنين المطّلعين عليهم من بطانتهم وذوي قرابتهم ومخالطتهم.

وأكثر ما كان ذلك في أهل المدينة لأنّهم الذين كان معظمهم مؤمنين خُلّصًا وكانت من بينهم بقية من المنافقين وهم من ذوي قرابتهم.

وقد أسفرت غزوة تبوك التي نزلت عقبها هذه السورة عن بقاء بقية من النفاق في أهل المدينة والأعراب المجاورين لها، كما في قوله تعالى { وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنْ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ } [90]، وقوله تعالى { وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنْ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ } [101]، ونظائرهما من الآيات.

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** } إشعار بأنّ ما سيلقى إليهم من الوصايا هو من مقتضيات الإيمان وشعاره.

{ **اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ** } أحبّوه حبّاً متمكّنًا. فالسين والتاء للتأكيد، مثل ما في استقام واستبشر.

حذر الله المؤمنين من موالاة من استحبّوا الكفر على الإيمان، في ظاهر أمرهم أو باطنه، إذا اطّلعوا عليهم وبدت عليهم أمارات ذلك بما ذكر من صفاتهم في هذه السورة، وجُعل التحذير من أولئك بخصوص كونهم آباء وإخوانًا تنبيهًا على أقصى الجدارة بالولاية ليُعلم بفحوى الخطاب أنّ من دونهم أولى بحكم النهي. ولم يُذكر الأبناء والأزواج هنا لأنّهم تابعون فلا يقعدون بعد متبوعيهم.

{ **فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ** } أريد به الظالمون انفسهم لأنهم وقعوا فيما نهاهم الله، فاستحقّوا العقاب. فالظلم هنا بمعناه اللغوي وليس مرادا به الشرك. وصيغة الحصر للمبالغة.

<u>ويجوز</u> أن يكون هم { الظَّالِمُونَ } عائداً إلى ما عاد إليه ضمير النصب في قوله تعالى { وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ }، أي: إلى الآباء والإخوان الذين استحبّوا الكفر على الإيمان. والمعنى: ومن يتولّهم فقد تولّى الظالمين، فيكون

الظلم على هذا مرادا به الشرك، كما هو الكثير في إطلاقه في القرآن.

{ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } [24].

ارتقاء في التحذير من العلائق التي قد تفضي إلى التقصير في القيام بواجبات الإسلام، فلذلك جاءت زيادة تفصيل الأصناف من ذوي القرابة، وأسباب المخالطة التي تكون بين المؤمنين وبين الكافرين، ومن الأسباب التي تتعلّق بها نفوس النّاس فيحول تعلّقهم بها بينهم وبين الوفاء ببعض حقوق الإسلام، فلذلك ذُكر الأبناء هنا لأنّ التّعلّق بهم أقوى من التعلّق بالإخوان، وذُكر غيرهم من قريب القرابة أيضا.

{ قُلْ } يشير إلى غِلَظة الخطاب والتوبيخ به.

والمخاطب بضمائر جماعة المخاطبين، المؤمنون الذين قصّروا في بعض الواجب أو المتوقّع منهم ذلك، كما يُشعر به اقتران الشرط بحرف الشك { **إِنْ** }، ويُفهم منه أنّ المسترسلين في ذلك الملابسين له هم أهل النفاق، فهم المعرّض لهم بالتهديد في قوله تعالى { فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ }.

وقد جمعت هذه الآية أصنافا من العلاقات وذويها، من شأنها أن تألفها النفوس وترغب في القرب منها وعدم مفارقتها، فإذا كان الثبات على الإيمان يجرّ إلى هجران بعضها كالآباء والإخوان الكافرين الذين يهجر بعضهم بعضا إذا اختلفوا في الدين، وكالأبناء والأزواج والعشيرة الذين يألف المرء البقاء بينهم، فلعلّ ذلك يُقعده عن الغزو، وكالأموال والتجارة التي تصدّ عن الغزو وعن الإنفاق في سبيل الله. وكذلك المساكن التي يألف المرء الإقامة فيها فيصدّه إلفها عن الغزو. فإذا حصل التعارض والتدافع بين ما أراده الله من المؤمنين وبين ما تجرّ إليه تلك العلائق وجب على المؤمن دحضها وإرضاء ربّه.

{ أَحَبَّ } في هذا التعبير تحذير من التهاون بواجبات الدين مع الكناية عن جعل ذلك التهاون مسبّبا على تقديم محبة تلك العلائق على محبة الله.

{ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ } خُصّ الجهاد بالذكر من عموم ما يحبّه الله منهم تنويها بشأنه، ولأنّ ما فيه من الخطر على النفوس ومن إنفاق الأموال ومفارقة الإلف، جعله أقوى مظنّة للتقاعس عنه، لا سيما والسورة نزلت عقب غزوة تبوك التي تخلّف عنها كثير من المنافقين وبعض المسلمين.

العشيرة: الأقارب الأدنون، وكأنّه مشتق من العِشرة وهي الخلطة والصحبة.

الاقتراف: الاكتساب، وهو مشتقّ من قارف إذا قارب الشيء.

الكساد: قلّة التبايع وهو ضد الرّواج والنّفَاق، وذلك بمقاطعة طوائف من المشركين الذين كانوا يتبايعون معهم، وبالانقطاع عن الاتّجار أيام الجهاد.

التربّص: الانتظار، وهذا أمر تهديد لأنّ المراد انتظار الشرّ. وهو المراد بقوله تعالى { حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ

بِأَمْرِهِ } أي: الأمر الذي يظهر به سوء عاقبة إيثاركم محبّة الأقارب والأموال والمساكن على محبة الله ورسوله والجهاد.

الأمر: اسم مبهم بمعنى الشيء والشأن، والمقصود من هذا الإبهام التهويل لتذهب نفوس المهدَّدين كلّ مذهب.

فأمر الله: يحتمل أن يكون العذاب أو القتل أو نحوهما، ومن فسّر أمر الله بفتح مكّة فقد ذهل لأنّ هذه السورة نزلت بعد الفتح.

{ **وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** } تذييل، والواو اعتراضية، وهذا تهديد بأنّهم فضّلوا قرابتهم وأموالهم على محبّة الله ورسوله وعلى الجهاد فقد تحقّق أنّهم فاسقون والله لا يهدي القوم الفاسقين، فحصل بموقع التذييل تعريض بهم بأنّهم من الفاسقين.

{ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ } [25].

لمّا تضمّنت الآيات السابقة الحثّ على قتال المشركين، وكان التمهيد للإقدام على ذلك مدرّجا بإبطال حرمة عهدهم لشركهم، وبإظهار أنّهم مضمرون العزم على الابتداء بنقض العهود التي بينهم وبين المسلمين لو قُدّر لهم النصر على المسلمين، وآية ذلك اعتداؤهم على خزاعة أحلاف المسلمين، وهمّهم بإخراج الرسول صلى الله عليه وسلم من مكّة بعد الفتح، حتّى إذا انتهى ذلك التمهيد المدرّج إلى الحثّ على قتالهم وضمان نصر الله المسلمين عليهم، وما اتصل بذلك ممّا يثير حماسة المسلمين، جاء في هذه الآية بشواهد ما سبق من نصر الله المسلمين في مواطن كثيرة، وتذكير بمقارنة التأييد الإلهي لحالة الامتثال لأوامره، وأنّ في غزوة حنين شواهد تشهد للحالين. فالكلام استئناف ابتدائي لمناسبة الغرض السابق.

{ **لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ** } أسند النصر إلى الله بالصراحة لإظهار أنّ إيثار محبّة الله وإن كان يُفيت بعض حظوظ الدنيا، ففيه حظ الآخرة وفيه حظوظ أخرى من الدنيا وهي حظوظ النصر، بما فيه من تأييد الجامعة، ومن المغانم، وحماية الأمّة من اعتداء أعدائها، وذلك من فضل الله إذ آثروا محبته على محبّة علائقهم الدنيوية.

وأكِّد الكلام بـ { **قَدْ** } لتحقيق هذا النصر، لأنّ القوم كأنّهم نسوه أو شكّوا فيه، فنزلوا منزلة من يحتاج إلى تأكيد الخبر.

{ **فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ** } جمع موطن، والموطن أصله مكان التوطّن، أي: الإقامة. ويطلق على مقام الحرب وموقفها، أي: نصركم في مواقع حروب كثيرة.

{ **وَيَوْمَ حُنَيْنٍ** } معطوف على { فِي مَوَاطِنَ }، والتقدير: ونصركم يوم حنين وهو من جملة المواطن.

وتخصيص يوم حنين بالذكر من بين أيام الحروب لأنّ المسلمين انهزموا في أثناء النصر ثم عاد إليهم النصر، فتخصيصه بالذكر لما فيه من العبرة بحصول النصر عند امتثال أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وحصول الهزيمة عند إيثار الحظوظ العاجلة على الامتثال.

{ **حُنَيْنٍ** } اسم واد بين مكة والطائف قرب ذي المجاز، كانت فيه وقعة عظيمة عقب فتح مكة بين المسلمين مع النبيّ صلى الله عليه وسلم، وكانوا اثني عشر ألفا، وبين هوازن وثقيف وألفافهما، إذ نهضوا لقتال النبيّ صلى الله عليه وسلم حميّة وغضبا لهزيمة قريش ولفتح مكّة، وكان على هوازن مالك بن عوف، أخو بني نصر، وعلى ثقيف عبد ياليل بن عمرو الثقفي، وكانوا في عدد كثير وساروا إلى مكّة فخرج إليهم النبيّ صلى الله عليه وسلم حتّى اجتمعوا بحنين فقال المسلمون: " لن نغلب اليوم من قلّة "، ووثقوا بالنصر لقوّتهم، فحصلت لهم هزيمة عند أوّل اللقاء كانت عتاباً إلهيا على نسيانهم التوكّل على الله في النصر، واعتمادهم على كثرتهم. ولذلك روي أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا سمع قول بعض المسلمين " لن نغلب من قلّة " ساءه ذلك. فإنّهم لمّا هبطوا وادي حنين كان الأعداء قد كمنوا لهم في شعابه وأحنائه، فما راع المسلمين وهم منحدرون في الوادي إلّا كتائب العدو وقد شدّت عليهم.

<u>وقيل</u>: إنّ المسلمين حملوا على العدوّ فانهزم العدو فلحقوهم يغنمون منهم، وكانت هوازن قوما رماة فاكثبوا المسلمين بالسهام فأدبر المسلمون راجعين لا يلوي أحد على أحد، وتفرّقوا في الوادي، وتطاول عليهم المشركون ورسول الله صلى الله عليه وسلم ثابت في الجهة اليمنى من الوادي ومعه عشرة من المهاجرين والأنصار فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس عمّه أن يصرخ في النّاس: يا أصحاب الشجرة أو السمُرة (يعني أهل بيعة الرضوان) يا معشر المهاجرين، يا أصحاب سورة البقرة (يعني الأنصار)، هلمّوا إليّ، فاجتمع إليه مائة وقاتلوا هوازن مع من بقي مع النبيّ صلى الله عليه وسلم واجتلد النّاس وتراجع بقيّة المنهزمين واشتد القتال وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:**" الآن حمي الوطيس "**، فكانت الدائرة على المشركين وهُزموا شر هزيمة وغُنمت أموالهم وسُبيت نساؤهم.

{ **إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا** } موقع بديع، لأنّه تنبيه على خطئهم في الأدب مع الله المناسب لمقامهم، أي: ما كان ينبغي لكم أن تعتمدوا على كثرتكم.

{ **وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ** } هذا التركيب تمثيل لحال المسلمين لمّا اشتد عليهم البأس واضطربوا ولم يهتدوا لدفع العدو عنهم، بحال من يرى الأرض الواسعة ضيّقة.

الضيق: غير حقيقي، استعارة تمثيلية تمثيلا لحال من لا يستطيع الخلاص من شدّة بسبب اختلال قوة تفكيره بحال من هو في مكان ضيق من الأرض يريد أن يخرج منه فلا يستطيع تجاوزه ولا الانتقال منه. وهذا أحسن من قول المفسرين: أنّ المعنى: لم تهتدوا إلى موضع من الأرض تفرّون إليه فكأنّ الأرض ضاقت عليكم، ومنهم من أجمل فقال: أي: لشدة الحال وصعوبتها.

{ **ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ** } موقع التراخي الرتبي، أي: وأعظم مما نالكم من الشر أن وليتم مدبرين.
التولّي: الرجوع.
{ **مُدْبِرِينَ** } حال، إمّا مؤكدة لمعنى { وَلَّيْتُمْ }، أو أريد بها إدبار أخص من التولّي لأنّ التولي مطلق يكون للهروب، ويكون للفر في حيل الحروب، والإدبار شائع في الفرار الذي لم يقصد به حيلة فيكون الفرق بينه وبين التولي اصطلاحا حربيا.

{ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ } [26].

{ **ثُمَّ** } دالّة على التراخي الرتبي، فإنّ نزول السكينة ونزول الملائكة أعظم من النصر الأوّل يوم حنين. على أنّ التراخي الزمني مراد تنزيلا لعظم الشدّة وهول المصيبة منزلة طول مدتها، فإنّ أزمان الشدة تخيل طويلة وإن قصرت.
السكينة: الثبات واطمئنان النفس، و تقدّم بيانها عند قوله تعالى { أَنْ يَأْتِيَكُمْ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ } [البقرة:248]، وتعليقها بإنزال الله وإضافتها إلى ضميره: تنويه بشأنها وبركتها، وإشارة إلى أنّها سكينة خارقة للعادة، وإنما حصلت بمحض تقدير الله، كرامة لنبيّه صلى الله عليه وسلم وإجابة لندائه النّاس، ولذلك قدّم ذكر الرسول قبل ذكر المؤمنين.
الجنود: جمع جند. والجند اسم جمع لا واحد له من لفظه، وهو الجماعة المهيّئة للحرب، وواحده بياء النسب: جندي. وقد تقدّم عند قوله تعالى { فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ } [البقرة:249]. وقد يطلق الجند على الأمّة العظيمة ذات القوة، كما في قوله تعالى { هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ } [البروج:18/17].
والمراد بالجنود هنا جماعات من الملائكة موكلون بهزيمة المشركين كما دلّ عليه فعل أنزل، أي: أرسلها الله لنصرة المؤمنين وإلقاء الرعب في قلوب المشركين، ولذلك قال تعالى { لَمْ تَرَوْهَا } ولكون الملائكة ملائكة النصر أطلق عليها اسم الجنود.
{ **وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا** } هو تعذيب القتل والأسر والسبي.
{ **وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ** } الإشارة إلى العذاب المأخوذ من { عَذَّبَ }.

{ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [27].

إشارة إلى إسلام هوازن بعد تلك الهزيمة، فإنّهم جاؤوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلمين تائبين وسألوه أن يردّ إليهم سبيهم وغنائمهم، فذلك أكبر منّة في نصر المسلمين، إذ أصبح العدو لهم مسلمين.

{ **يَتُوبُ اللَّهُ** } أُتي بالمضارع لأنّ المقصود ما يشمل توبة هوازن وتوبة غيرهم، للإشارة إلى إفادة تجدّد التوبة على كل من تاب إلى الله، لا يختصّ بها هوازن، فتوبته على هوازن قد عرفها المسلمون.

أُعْلِموا بأنّ الله يُعامل بمثل ذلك كل من ندم وتاب.

{ **وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } تذييل للكلام لإفادة أنّ المغفرة من شأنه تعالى، وأنّه رحيم بعباده إن أنابوا إليه وتركوا الإشراك به.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [28].

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا** } استئناف ابتدائي للرجوع إلى غرض إقصاء المشركين عن المسجد الحرام المفاد بقوله تعالى { مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ } [17]، جيء به لتأكيد الأمر بإبعادهم عن المسجد الحرام مع تعليله بعلّة أخرى تقتضي إبعادهم عنه، وهي أنّهم نجس، فقد عُلّل فيما مضى بأنّهم شاهدون على أنفسهم بالكفر، فليسوا أهلا لتعمير المسجد المبني للتوحيد، وعُلّل هنا بأنّهم نجس فلا يعمروا المسجد لطهارته.

{ **نَجَسٌ** } صفة مشبّهة، اسم للشيء الذي النجاسة صفة ملازمة له، وقد أنيط وصف النجاسة بهم بصفة الإشراك، فعلمنا أنّها نجاسة معنوية نفسانية وليست نجاسة ذاتية.

النجاسة المعنوية: هي اعتبار صاحب وصف من الأوصاف محقَّرا متجنَّبا من النّاس فلا يكون أهلا لفضل ما دام متلبِّسا بالصفة التي جعلته كذلك. فالمشرك نجس لأجل عقيدة إشراكه، وقد يكون جسده نظيفا مطيَّبا لا يُستقذر. ولا شك أن خباثة الاعتقاد أدنى بصاحبها إلى التحقير من قذارة الذات، ولذلك أوجب الغسل على المشرك إذا أسلم انخلاعا عن تلك القذارة المعنوية بالطهارة الحسية لإزالة خباثة نفسه.

{ **إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ** } صيغة الحصر لإفادة نفي التردّد في اعتبارهم نجسا، فهو للمبالغة في اتصافهم بالنجاسة حتّى كأنّهم لا وصف لهم إلّا النجسية.

{ **فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ** } المقصود من النهي عن اقترابهم من المسجد الحرام النهي عن حضورهم الحجّ ، لأنّ مناسك الحجّ كلّها تتقدّمها زيارة المسجد الحرام وتعقبها كذلك، ولذلك لما نزلت (التوبة) أرسل النبيّ صلى الله عليه وسلم بأن ينادَى في الموسم أن لا يحجّ بعد العام مشرك.

{ **بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا** } الإشارة إلى العام الذي نزلت فيه الآية، وهو عام تسعة من الهجرة، فقد حضر المشركون موسم الحج فيه وأُعلن لهم فيه أنّهم لا يعودون إلى الحج بعد ذلك العام.

{ **وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** }

العيلة: الاحتياج والفقر، أي: إن خطر في نفوسكم خوف الفقر من انقطاع الإمداد عنكم بمنع قبائل كثيرة

من الحجّ فإنّ الله سيغنيكم عن ذلك. وقد أغناهم الله بأن هدى للإسلام أهل تَبَالَة وجُرَش من بلاد اليمن، فأسلموا عقب ذلك، وكانت بلادهم بلاد خصب وزرع فحملوا إلى مكة الطعام والميرة، وأسلم أيضا أهل جدّة وبلدهم مرفأ ترد إليه الأقوات من مصر وغيرها، فحملوا الطعام إلى مكّة، وأسلم أهل صنعاء من اليمن، وبلدهم تأتيه السفن من أقاليم كثيرة من الهند وغيرها.

{ **إِنْ شَاءَ** } يفتح لهم باب الرجاء مع التضرّع إلى الله في تحقيق وعده لأنّه يفعل ما يشاء.

{ **إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** } تعليل، أي: أنّ الله يغنيكم لأنّه يعلم ما لكم من المنافع من وفادة القبائل، فلمّا منعكم من تمكينهم من الحج لم يكن تاركا منفعتكم فقدّر غناكم عنهم بوسائل أخرى علمها وأحكم تدبيرها.

{ قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ } [29].

الكلام انتقال من غرض نبذ العهد مع المشركين وأحوال المعاملة بينهم وبين المسلمين إلى غرض المعاملة بين المسلمين وأهل الكتاب من اليهود والنصارى، إذ كان الفريقان مسالمين المسلمين في أول بدء الإسلام، وكانوا يحسبون أن في مدافعة المشركين للمسلمين ما يكفيهم أمر التصدّي للطعن في الإسلام وتلاشي أمره، فلمّا أخذ الإسلام ينتشر في بلاد العرب يوما فيوما، واستقلّ أمره بالمدينة، ابتدأ بعض اليهود يظهر إحنه نحو المسلمين، فنشأ النفاق بالمدينة وظاهرت قريظة والنضير أهل الأحزاب لمّا غزوا المدينة فأذهبهم الله عنها.

ثمّ لمّا اكتمل نصر الإسلام بفتح مكة والطائف وعمومه بلاد العرب بمجيء وفودهم مسلمين، وامتد إلى تخوم البلاد الشامية، أوجست نصارى العرب خيفة من تطرقه إليهم، ولم تغمض عين دولة الروم حامية نصارى العرب عن تداني بلاد الإسلام من بلادهم، فأخذوا يستعدّون لحرب المسلمين بواسطة ملوك غسان سادة بلاد الشام في ملك الروم.

فلا جرم لمّا أمن المسلمون بأس المشركين وأصبحوا في مأمن منهم، أن يأخذوا الأهبة ليأمنوا بأس أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فابتدأ ذلك بغزو خيبر وقريظة والنضير وقد هزموا وكفى الله المسلمين بأسهم وأورثهم أرضهم فلم يقع قتال معهم بعد. ثم ثنّى بغزوة تبوك التي هي من مشارف الشام.

وظاهر الآية أنّ القوم المأمور بقتالهم ثبتت لهم معاني الأفعال الثلاثة المتعاطفة في صلة الموصول؛ انتفاء الإيمان بالله واليوم الآخر، وتحريم ما حرم الله، والتدين بدين الحق.

ولم يُعرف أهل الكتاب بأنّهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر. فاليهود والنصارى مثبتون لوجود الله تعالى ومؤمنون بيوم الجزاء.

وبهذا الاعتبار تحيّر المفسرون في تفسير هذه الآية فلذلك تأوّلوها بأنّ اليهود والنصارى، وإن أثبتوا وجود الله واليوم الآخر، فقد وصفوا الله بصفات تنافي الإلهية فكأنّهم ما أمنوا به، إذ أثبت اليهود الجسمية

لله تعالى وقالوا { يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ } وقال كثير منهم { عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ } [التوبة:30].

وأثبت النصارى تعدّد الإله بالتثليث فقاربوا قول المشركين فهم أبعد من اليهود عن الإيمان الحق.

وأنّ قول الفريقين بإثبات اليوم الآخر قد ألصقوا به تخيّلات وأكذوبات تنافي حقيقة الجزاء، كقولهم { لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَةً } [البقرة:80]، فكأنّهم لم يؤمنوا باليوم الآخر.

والذي أراه في تفسير هذه الآية أنّ المقصود الأهم منها قتال أهل الكتاب من النصارى كما علمت، ولكنّها أدمجت معهم المشركين لئلّا يتوهّم أحد أنّ الأمر بقتال أهل الكتاب يقتضي التفرغ لقتالهم ومتاركة قتال المشركين.

{ **مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ** } بيان لأقرب صلة منه وهي صلة { **وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ** }، وفائدة ذكره التنديد عليهم بأنّهم أوتوا الكتاب ولم يدينوا دين الحق الذي جاء به كتابهم، وإنّما دانوا بما حرّفوا منه، وما أنكروا منه، وما ألصقوا به، ولو دانوا دين الحق لاتبعوا الإسلام.

{ **وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ** } بمعنى لا يجعلون حراما ما حرّمه الله، والمقصود من هذا تشنيع حالهم وإثارة كراهيتهم لهم بأنّهم يستبيحون ما حرمه الله على عباده.

{ **وَرَسُولُهُ** } محمد صلى الله عليه وسلم كما هو متعارف القرآن ولو أريد غيره من الرسل لقال ورسله لأنّ الله ما حرم على لسان رسوله إلّا ما هو حقيق بالتحريم.

وعلى هذا التفسير تكون هذه الآية تهيئة للمسلمين لأن يغزوا الروم والفرس وما بقي من قبائل العرب، الذين يستظلّون بنصر إحدى هاتين الأمتين، الذين تأخّر إسلامهم مثل قضاعة وتغلب بتخوم الشام، حتّى يؤمنوا أو يعطوا الجزية.

{ **حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ** } غاية للقتال، وضمير { يُعْطُوا } عائد إلى قوله تعالى { أُوتُوا الْكِتَابَ }.

الجزية: اسم لمال يعطيه رجال قوم جزاء على الإبقاء بالحياة أو على الإقرار بالأرض. والظاهر أنّه اسم معرّب عن كلمة (**كِزِيَتْ**) بالفارسية بمعنى الخراج، نقله المفسّرون عن الخوارزمي، ولم أقف على هذه الكلمة في كلام العرب في الجاهلية ولم يعرّج عليها الراغب في (مفردات القرآن)، ولم يذكروها في معرّب القرآن، لوقوع التردّد في ذلك لأنّهم وجدوا مادة الاشتقاق العربي صالحة فيها. ولا شك أنّها كانت معروفة المعنى للذين نزل القرآن بينهم، ولذلك عرّفت في هذه الآية.

{ **عَنْ يَدٍ** } تأكيد لمعنى { يُعْطُوا } للتنصيص على الإعطاء. أي: يعطوها غير ممتنعين ولا منازعين في إعطائها.

الصاغر: اسم فاعل من صغِر (بكسر الغين) صَغَرا بالتحريك وصَغَارا: إذا ذلّ، وتقدّم ذكر الصغار في قوله تعالى { سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ } [الأنعام:124]. أي: وهم أذلّاء. والمقصود منه

تعظيم أمر الإسلام وتحقير أهل الكفر ليكون ذلك ترغيبا لهم في الانخلاع عن دينهم الباطل واتباعهم دين الإسلام.

وقد دلّت هذه الآية على أخذ الجزية من المجوس لأنّهم أهل كتاب. نقل عن ابن المنذر: " لا أعلم خلافا في أن الجزية تؤخذ منهم ". وخالف ابن وهب من أصحاب مالك في أخذ الجزية من مجوس العرب. وقال لا تقبل منهم جزية ولابد من القتل أو الإسلام. كما دلّت الآية على أخذ الجزية من نصارى العرب، دون مشركيهم.

{ وَقَالَتْ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ } [30].

تشنيع على قائليهما من أهل الكتاب بأنّهم بلغوا في الكفر غايته حتى ساووا المشركين.

عُزير: اسم حبر كبير من أحبار اليهود الذين كانوا في الأسر البابلي، واسمه في العبرانية **عِزْرا** بن سرايا من سبط اللاويين، كان حافظا للتوراة. وقد تفضّل عليه (كورش) ملك فارس فأطلقه من الأسر، وأطلق معه بني إسرائيل من الأسر الذي كان عليهم في بابل، وأذنهم بالرجوع إلى أورشليم وبناء هيكلهم فيه، وذلك في سنة (451 ق م)، فكان عزرا زعيم أحبار اليهود الذين رجعوا بقومهم إلى أورشليم وجدّدوا الهيكل وأعاد شريعة التوراة من حفظه. فكان اليهود يعظمون عزرا إلى حد أن أدعى عامتهم أنّ عزرا ابن الله، غلوًّا منهم في تقديسه، والذين وصفوه بذلك جماعة من أحبار اليهود في المدينة، وتبعهم كثير من عامتهم.

قال بهذا القول فرقة من اليهود فألصق القول بهم جميعا لأنّ سكوت الباقين عليه وعدم تغييره يلزمهم الموافقة عليه والرضا به، وقد ذُكر اسم عزرا في الآية بصيغة التصغير، فيحتمل أنّه لمّا عُرّب عرّب بصيغة تشبه صيغة التصغير، فيكون كذلك اسمه عند يهود المدينة. ويحتمل أنّ تصغيره جرى على لسان يهود المدينة تحبيبا فيه.

{ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ } قول النصارى ببنوّة المسيح معلوم مشهور. وقد مضى الكلام على المسيح عند قوله تعالى { وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ } [البقرة:87]. وعند قوله تعالى { اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ } [آل عمران:45].

{ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ } حال من القول، والمراد أنّه قول لا يعدو الوجود في اللسان وليس له ما يحقّقه في الواقع، وهذا كناية عن كونه كاذبا كقوله تعالى { كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا } [الكهف:5]. وفي هذا أيضا إلزام لهم بهذا القول.

المضاهاة: المشابهة، وإسنادها إلى القائلين: على تقدير مضاف ظاهر من كلام، أي: يضاهي قولهم.

{ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ } هم المشركون من العرب، ومن اليونان، وغيرهم، وكونهم من قبل

النصارى ظاهر، وأمّا كونهم من قبل اليهود فلأن اعتقاد بنوّة عزير طارئ في اليهود وليس من عقيدة قدمائهم.

{ **قَاتَلَهُمُ اللَّهُ** } دعاء مستعمل في التعجيب، وهو مركّب يستعمل في التعجّب من عمل شنيع، والمفاعلة فيه للمبالغة في الدعاء: أي: قتلهم الله قتلا شديدا.

{ **أَنَّى يُؤْفَكُونَ** } مستأنفة. والاستفهام فيها مستعمل في التعجيب من حالهم في اتباع الباطل، حتّى شُبّه المكان الذي يصرفون إليه باعتقادهم بمكان مجهول من شأنه أن يُسأل عنه باسم الاستفهام عن المكان.

{ **يُؤْفَكُونَ** } يُصرفون. يقال: أَفَكَه يأفِكه إذا صرفه، قال تعالى { يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ } [الذاريات:9]، والإفك بمعنى الكذب قد جاء من هذه المادة، لأنّ الكاذب يصرف السامع عن الصدق، وقد تقدّم ذلك غير مرة.

{ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } [31].

جملة تقريريّة لزيادة التشنيع. والضمير لليهود والنصارى.

الأحبار: جمع حَبر (بفتح الحاء) وهو العالم من علماء اليهود.

الرهبان: اسم جمع لراهب وهو التقي المنقطع لعبادة الله من أهل دين النصرانية.

وإنّما خُص الحَبر، بعالم اليهود لأن عظماء دين اليهودية يشتغلون بتحرير علوم شريعة التوراة فهم علماء في الدين، وخُصّ الراهب بعظيم دين النصرانية، لأنّ دين النصارى قائم على أصل الزهد في الدنيا والانقطاع للعبادة.

{ **أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ** } ومعنى اتخاذهم هؤلاء أربابا: أنّ اليهود ادعوا لبعضهم بنوّة الله تعالى وذلك تأليه، وأنّ النصارى أشدّ منهم في ذلك إذ كانوا يسجدون لصور عظماء ملّتهم، مثل صورة مريم، وصور الحواريين، وصورة يحيى بن زكرياء، والسجود من شعار الربوبية، وكانوا يستنصرون بهم في حروبهم. وهذا حال كثير من طوائفهم وفرقهم. ولأنّهم كانوا يأخذون بأقوال أحبارهم ورهبانهم المخالفة لما هو معلوم بالضرورة أنّه من الدين، فكانوا يعتقدون أنّ أحبارهم ورهبانهم يحلّلون ما حرم الله، ويحرّمون ما أحل الله، وهذا مطّرد في جميع أهل الدينين، ولذلك أفحم به النبيّ صلى الله عليه وسلم عُديّا بن حاتم لمّا وفد عليه قبيل إسلامه، لمّا سمع قوله تعالى { اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ } قال عديّ: لسنا نعبدهم فقال صلى الله عليه وسلم: **" أليس يحرّمون ما أحلّ الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتستحلونه،** فقال: بلى ، قال: **فتلك عبادتهم ".**

وتخصيص المسيح بالذكر لأنّ تأليه النصارى إيّاه أشنع وأشهر.

{ **وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا** } في موضع الحال، زيادة التشنيع عليهم وإنكار صنيعهم بأنّهم لا

عذر لهم فيما زعموا، لأنّ وصايا كتب الملّتين طافحة بالتحذير من عبادة المخلوقات ومن إشراكها في خصائص الإلهية.

{ **لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** } مستأنفة لقصد التنزيه والتبرّؤ ممّا افتروا على الله تعالى، ولذلك سُمّي ذلك إشراكا.

{ **يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** } [32].

استئناف ابتدائي لزيادة إثارة غيظ المسلمين على أهل الكتاب، بكشف ما يضمرونه للإسلام من الممالاة، والتألّب على مناواة الدين، حين تحقّقوا أنّه في انتشار وظهور فثار حسدهم وخشوا ظهور فضله على دينهم. والضمير في { يُرِيدُونَ } عائد إلى { الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ } [29].

الإطفاء: إبطال الإسراج وإزالة النور بنفخ عليه، أو هبوب رياح، أو إراقة مياه على الشيء المستنير من سراج أو جمر. و**النور**: الضوء، وقد تقدّم عند قوله تعالى { نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ } [الأنعام:91].

والكلام تمثيل لحالهم في محاولة تكذيب النبيّ صلى الله عليه وسلم، وصدّ النّاس عن اتباع الإسلام، وإعانة المناوئين للإسلام بالقول والإرجاف، والتحريض على المقاومة. والانضمام إلى صفوف الأعداء في الحروب، ومحاولة نصارى الشام الهجوم على المدينة، بحال من يحاول إطفاء نور بنفخ فمه عليه.

{ **نُورَ اللَّهِ** } إضافة النور إلى اسم الجلالة إشارة إلى أنّ محاولة إطفائه عبث، وأنّ أصحاب تلك المحاولة لا يبلغون مرادهم.

{ **وَيَأْبَى اللَّهُ** } الإباء والإباية، الامتناع من الفعل، وهو هنا تمثيل لإرادة الله تعالى إتمام ظهور الإسلام بحال من يحاوله محاوِل على فعلٍ وهو يمتنع منه.

{ **إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** } الإتمام مؤذن بالزيادة والانتشار ولذلك لم يقل: ويأبى الله إلّا أن يبقي نوره.

{ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** } [33].

بيان لجملة { وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ } [32]. وفي هذا البيان تنويه بشأن الرسول بعد التنويه بشأن الدين.

{ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ** } صيغة قصر، أي: هو لا غيره أرسل رسوله بهذا النور، فكيف يترك معانديه يطفئونه.

{ **بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ** } التنويه بفضل الإسلام ، والتعريض بأنّ ما هم عليه ليس بهدى ولا حق.

{ **لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ** } فعل الإظهار إذا عدي بـ (على) كان مضمّنا معنى النصر أو التفضيل،

أي: لينصره على الأديان كلّها، أي: ليكون أشرف الأديان وأغلبها. ومنه المظاهرة أي: المناصرة، وقد تقدم ذكرها آنفا عند قوله تعالى { وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا } [4].

{ **وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** } ذُكر المشركون هنا لأنّ ظهور دين الإسلام أشدّ حسرة عليهم من كل أمّة، لأنّهم الذين ابتدأوا بمعارضته وعداوته ودعوا الأمم للتألّب عليه واستنصروا بهم فلم يغنوا عنهم شيئا، ولأنّ أتم مظاهر انتصار الإسلام كان في جزيرة العرب وهي ديار المشركين، وزالت منها جميع الأديان الأخرى.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنْ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [34].

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنْ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ** } استئناف ابتدائي لتنبيه المسلمين على نقائص أهل الكتاب. فبعد أن ذكر تأليه عامتهم لأفاضل من أحبارهم ورهبانهم المتقدّمين، مثل عزير، بيّن للمسلمين أنّ كثيرا من الأحبار والرهبان المتأخّرين ليسوا على حال كمال، ولا يستحقّون المقام الديني الذي ينتحلونه. والمقصود من هذا التنبيه أن يعلم المسلمون تمالئ الخاصة والعامة من أهل الكتاب على الضلال وعلى مناواة الإسلام، وأنّ غرضهم من ذلك حبّ الخاصة الاستيثار بالسيادة، وحبّ العامة الاستيثار بالمزيّة بين العرب.

وافتتاح الجملة بالنداء واقترانها بحرفي التأكيد، للاهتمام بمضمونها ورفع احتمال المبالغة فيه لغرابته.

وتقدّم ذكر الأحبار والرهبان آنفا.

{ **إِنَّ كَثِيرًا** } دون جميعهم لأنّهم لم يخلوا من وجود الصالحين فيهم مثل عبد الله بن سلام ومخيريق.

الباطل: ضدّ الحقّ، أي: أكلا لا مبرّر له، وإطلاق الأكل على أخذ مال الغير إطلاق شائع، قال تعالى { وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ } [البقرة:188].

والباطل يشمل وجوها كثيرة؛ منها تغيير الأحكام الدينية لموافقة أهواء النّاس، ومنها القضاء بين النّاس بغير إعطاء صاحب الحقّ حقّه المعيّن له في الشريعة، ومنها جحد الأمانات عن أربابها أو عن ورثتهم، ومنها أكل أموال اليتامى وأموال الأوقاف والصدقات.

{ **وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ** } سبيل الله طريقه، استعير لدينه الموصل إليه، أي: إلى رضاه. والصدّ عنه الإعراض عن متابعة الدين الحقّ في خاصة النفس، وإغراء النّاس بالإعراض عن ذلك. فيكون هذا بالنسبة لأحكام دينهم إذ يغيّرون العمل بها، ويضلّلون العامة في حقيقتها حتّى يعملوا بخلافها، وهم يحسبون أنّهم متّبعون لدينهم، ويكون ذلك أيضا بالنسبة إلى دين الإسلام إذ ينكرون نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ويعلّمون أتباع ملّتهم أنّ الإسلام ليس بدين الحق.

{ **وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** } معطوفة على { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا } والمناسبة بين الجملتين، أنّ كلتيهما تنبيه على مساوي أقوام يضعهم النّاس في مقامات الرفعة والسؤدد وليسوا أهلا لذلك. فمضمون الجملة الأولى بيان مساوي أقوام رفع الناس أقدارهم لعلمهم ودينهم، وكانوا منطوين على خبائث خفيّة، ومضمون الجملة الثانية بيان مساوي أقوام رفعهم الناس لأجل أموالهم، فبيّن الله أنّ تلك الأموال إذا لم تنفق في سبيل الله لا تغني عنهم شيئا من العذاب.

وأمّا وجه مناسبة نزول هذه الآية في هذه السورة، فذلك أنّ هذه السورة نزلت إثر غزوة تبوك، وكانت غزوة تبوك في وقت عسرة، وكانت الحاجة إلى العدّة والظهر كثيرة، كما أشارت إليه آية { وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنْ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ } [92]. وقد ورد في (السيرة) أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حضّ أهل الغنى على النفقة والحملان في سبيل الله، وقد أنفق عثمان بن عفان ألف دينار ذهبا على جيش غزوة تبوك وحمل كثير من أهل الغنى، فالذين انكمشوا عن النفقة هم الذين عنتهم الآية بـ { وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ }، ولا شك أنّهم من المنافقين.

الكَنز: (بفتح الكاف) مصدر كنز إذا ادّخر مالا، ويطلق على المال من الذهب والفضة الذي يخزن.

{ **وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ** }، سبيل اللَّهِ هنا هو الجهاد. ولا ينفقونها، انتفاء الإنفاق الواجب، وهو الصدقات الواجبة والنفقات الواجبة، إمّا وجوبا مستمرّا كالزكاة، وإمّا وجوبا عارضا كالنفقة في الحجّ الواجب، والنفقة في نوائب المسلمين ممّا يدعو النّاس إليه ولاّة العدل.

والوعيد منوط بالكنز وعدم الإنفاق، فليس الكنز وحده بمتوعَّد عليه، وليست الآية في معرض أحكام ادخار المال، وفي معرض إيجاب الإنفاق، ولا هي في تعيين سبل البرّ والمعروف التي يجب الإخراج لأجلها من المال، ولا داعي إلى تأويل الكنز بالمال الذي لم تؤد زكاته حين وجوبها، ولا إلى تأويل الإنفاق بأداء الزكاة الواجبة، ولا إلى تأويل { سَبِيلِ اللَّهِ } بالصدقات الواجبة، لأنّه ليس المراد باسم الموصول العموم، بل أريد به العهد، فلا حاجة إلى إدعاء أنّها نسختها آية وجوب الزكاة، فإنّ وجوب الزكاة سابق على وقت نزول هذه الآية.

ووقع في الموطأ أنّ عبد الله بن عمر سئل عن الكنز في آية { وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ } ما هو؟ فقال: هو المال الذي لا تؤدى منه الزكاة. وفي الحديث الصحيح عن أبي هريرة أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: **" من كان عنده مال لم يؤد زكاته مُثّل له يوم القيامة شُجاعا أقرع له زبيبتان يُطَوَّقه ثم يأخذ بلَهْزَمَتَيْه** (يعني شدقيه) **ثم يقول: أنا مالُك أنا كنزُك "**. أي: فهو بعض الكنز المذموم في الكتاب والسنّة وليس كل كنز مذموما.

وشذّ أبو ذر فحمل الآية على عموم الكانزين في جميع أحوال الكنز، وعلى عموم الإنفاق، وحمل سبيل الله على وجوه البرّ، فقال بتحريم كنز المال، وكأنه تأوّل { وَلاَ يُنفِقُونَهَا } على معنى ما يُسمّى عطف

التفسير، أي: على معنى العطف لمجرد القرن بين اللفظين، فكان أبو ذر بالشام ينهى النّاس على الكنز ويقول: بشّر الكانزين بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، فقال له معاوية: وهو أمير الشام، في خلافة عثمان: إنّما نزلت الآية في أهل الكتاب، فقال أبو ذر: نزلت فيهم وفينا، واشتد قول أبي ذر على النّاس ورأوه قولا لم يقله أحد في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه فشكاه معاوية إلى عثمان، فاستجلبه من الشام وخشى أبو ذر الفتنة في المدينة فاعتزلها وسكن الربذة وثبت على رأيه.

{ **فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** } يجوز كون الضمير عائدا إلى الأحبار والرهبان والذين يكنزون. أمر رسوله بأن ينذر جميعهم بالعذاب. والتبشير مستعار للوعيد على طريقة التهكّم.

{ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ } [35].

الحَمْيُ: شدّة الحرارة. يقال: حمِيَ الشيء إذا أشتدّ حرّه.

الكَيُّ: أن يوضع على الجلد جمر أو شيء مشتعل.

الجباه: جمع جبهة وهي أعلى الوجه ممّا يلي الرأس.

الجُنوب: جمع جنب وهو جانب الجسد من اليمين واليسار.

الظهور: جمع ظهر وهو ما بين العنفقة إلى منتهى فقار العظم.

المعنى: تعميم جهات الأجساد بالكيّ، فإنّ تلك الجهات متفاوتة ومختلفة في الإحساس بألم الكيّ، فيحصل مع التعميم إذاقة لأصناف من الآلام. وسُلك في التعبير عن التعميم مسلك الإطناب بالتعداد لاستحضار حالة ذلك العقاب الأليم تهويلا لشأنه.

{ **هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ** } مقول قول محذوف، وحذف القول في مثله كثير في القرآن، والإشارة إلى المحمي وزيادة قوله تعالى { لأَنفُسِكُمْ } للتنديم والتغليظ.

{ **فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ** } توبيخ وتنديم. والفاء في { فَذُوقُوا } لتفريع مضمون جملة التوبيخ على جملة التنديم الأولى.

الذوق: مجاز في الحسّ بعلاقة الإطلاق، وتقدّم عند قوله تعالى { لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ } [المائدة:95].

{ **مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ** } مفعول لفعل الذوق على تقدير مضاف يعلم من المقام: أي: ذوقوا عذاب ما كنتم تكنزون.

{ **إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** } [36].

{ **إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ** }

استئناف ابتدائي لإقامة نظام التوقيت للأمّة على الوجه الحقّ الصالح لجميع البشر، والمناسب لما وضع الله عليه نظام العالم الأرضي، وما يتصل به من نظام العوالم السماويّة بوجه محكم لا مدخل لتحكّمات الناس فيه، وليوضّح تعيين الأشهر الحرم من قوله تعالى { فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ } [5]، بعدما عقّب ذلك من التفاصيل في أحكام الأمن والحرب مع فرق الكفّار من المشركين وغيرهم.

المقصود: ضبط الأشهر الحرم وإبطال ما أدخله المشركون فيها من النسيء الذي أفسد أوقاتها، وأفضى إلى اختلاطها، وأزال حرمة ما له حرمة منها، وأكسب حرمة لما لا حرمة له منها.

وضبط التوقيت من أصول إقامة نظام الأمّة ودفع الفوضى عن أحوالها.

الشهور: الشهور القمرية بقرينة المقام، لأنّها المعروفة عند العرب وعند أغلب الأمم، وهي أقدم أشهر التوقيت في البشر وأضبطها، لأنّ اختلاف أحوال القمر مساعد على اتخاذ تلك الأحوال مواقيت للمواعيد والآجال، وتاريخ الحوادث الماضية، بمجرّد المشاهدة، فإنّ القمر كرة تابعة لنظام الأرض.

قال تعالى { لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ } [يونس:5]، ولأنّ الاستناد إلى الأحوال السماوية أضبط وأبعد عن الخطأ، لأنّها لا تتناولها أيدي الناس بالتغيير والتبديل.

وما حدثت الأشهر الشمسيّة وسنتها إلّا بعد ظهور علم الفلك والميقات، فانتفع النّاس بنظام سير الشمس في ضبط الفصول الأربعة، وجعلوها حسابا لتوقيت الأعمال التي لا يصلح لها إلّا بعض الفصول، مثل الحرث والحصاد وأحوال الماشية، وقد كان الحساب الشمسي معروفا عند القبط والكلدانيين، وجاءت التوراة بتعيين الأوقات القمرية للأشهر، وتعيين الشمسيّة للأعياد، ومعلوم أنّ الأعياد في الدرجة الثانية من أحوال البشر لأنّها راجعة إلى التحسين، فأمّا ضبط الأشهر فيرجع إلى الحاجي.

فألهم الله البشر، فيما ألهمهم من تأسيس أصول حضارتهم، أن اتخذوا نظاما لتوقيت أعمالهم المحتاجة للتوقيت، وأن جعلوه مستندا إلى مشاهدات بيّنة واضحة لسائر النّاس، لا تنحجب عنهم إلّا قليلا في قليل، ثم لا تلبث أن تلوح لهم واضحة باهرة، وألهمهم أن اهتدوا إلى ظواهر ممّا خلق الله له نظاما مطردا، وذلك كواكب السماء ومنازلها، كما قال في بيان حكمة ذلك { هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ } [يونس:5]، وأن جعلوا توقيتهم اليومي مستندا إلى ظهور نور الشمس ومغيبه عنهم، لأنّهم وجدوه على نظام لا يتغير، ولاشتراك الناس في مشاهدة ذلك، وبذلك تنظّم اليوم والليلة، وجعلوا توقيتهم الشهري بابتداء ظهور أول أجزاء القمر وهو

المسمّى هلالا إلى انتهاء محاقه فإذا عاد إلى مثل الظهور الأوّل فذلك ابتداء شهر آخر، وجعلوا مراتب أعداد أجزاء المدة المسماة بالشهر مرتبة بتزايد ضوء النصف المضيء من القمر كل ليلة، وبإعانة منازل ظهور القمر كل ليلة حذو شكل من النجوم سمّوه بالمنازل. وقد وجدوا ذلك على نظام مطّرد، ثم ألهمهم فرقبوا المدة التي عاد فيها الثمر أو الكلأ الذي ابتدأوا في مثله العد وهي أوقات الفصول الأربعة، فوجدوها قد احتوت على اثني عشر شهرا فسمّوا تلك المدة عاما، فكانت الأشهر لذلك اثني عشر شهرا، لأن ما زاد على ذلك يعود إلى مثل الوقت الذي ابتدأوا فيه الحساب أول مرة، ودعوها بأسماء لتمييز بعضها عن بعض دفعا للغلط، وجعلوا لابتداء السنين بالحوادث على حسب اشتهارها عندهم، إن أرادوا ذلك وذلك واسع عليهم، فلما أراد الله أن يجعل للناس عبادات ومواسم وأعيادا دورية تكون مرة في كل سنة، أمرهم أن يجعلوا العبادة في الوقت المماثل لوقت أختها ففرض على إبراهيم وبنيه حجّ البيت كل سنة في الشهر الثاني عشر، وجعل لهم زمنا محترما بينهم يأمنون فيه على نفوسهم وأموالهم ويستطيعون فيه السفر البعيد وهي الأشهر الحرم، فلما حصل ذلك كله بمجموع تكوين الله تعالى للكواكب، وإيداعه الإلهام بالتفطن لحكمتها، والتمكّن من ضبط مطرد أحوالها، وتعيينه ما عُيّن من العبادات والأعمال بمواقيتها، كان ذلك كله مرادا عنده فلذلك قال { إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ }.

{ **فِي كِتَابِ اللَّهِ** } أي: في تقديره، وهو التقدير الذي به وجدت المقدورات، أعني تعلّق القدرة بها تعلقا تنجيزيًّا كقوله تعالى { كِتَابًا مُؤَجَّلاً } [آل عمران:145]، أي: قدرا محدّدا.

وهذه الأشهر معلومة بأسمائها عند العرب، وقد اصطلحوا على أن جعلوا ابتداء حسابها بعد موسم الحج، فمبدأ السنة عندهم هو ظهور الهلال الذي بعد انتهاء الحج وذلك هلال المحرّم، فلذلك كان أوّل السنة العربية شهر المحرم بلا شك.

والأربعة الحرم هي المعروفة عندهم: ثلاثة منها متوالية لا اختلاف فيها بين العرب وهي (ذو القعدة وذو الحجة والمحرم)، والرابع فرد وهو (رجب) عند جمهور العرب، إلّا ربيعة فهم يجعلون الرابع رمضان ويسمّونه رجبا، وأحسب أنّهم يصفونه بالثاني مثل ربيع وجمادى، ولا اعتداد بهؤلاء لأنّهم شذّوا كما لم يُعتد بالقبيلة التي كانت تحل أشهر السنة كلها وهي قضاعة.

وقد بيّن إجمال هذه الآية النبيّ صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع بقوله: { مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ } " **ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان** ".

وتحريم هذه الأشهر الأربعة ممّا شرعه الله لإبراهيم عليه السلام لمصلحة الناس، وإقامة الحجّ، كما قال تعالى { جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ } [المائدة:97].

واعلم أن تفضيل الأوقات والبقاع يشبه تفضيل الناس، فتفضيل الناس بما يصدر عنهم من الأعمال الصالحة، والأخلاق الكريمة، وتفضيل غيرهم، ممّا لا إرادة له، بما يقارنه من الفضائل، الواقعة فيه، أو

المقارنة له. فتفضيل الأوقات والبقاع إنّما يكون بجعل الله تعالى بخبر منه، أو بإطلاع على مراده، لأنّ الله إذا فضّلها جعلها مظان لتطلّب رضاه، مثل كونها مظان إجابة الدعوات، أو مضاعفة الحسنات، كما قال تعالى { لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ } [القدر:3] أي: من عبادة ألف شهر لمن قبلنا من الأمم، وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلّا المسجد الحرام "**.

والله العليم بالحكمة التي لأجلها فضّل زمن على زمن، وفضل مكان على مكان والأمور المجعولة من الله تعالى هي شؤون وأحوال أرادها الله، فقدّرها، فأشبهت الأمور الكونية، فلا يبطلها إلا إبطال من الله تعالى، كما أبطل تقديس السبت بالجمعة، وليس للنّاس أن يجعلوا تفضيلا في أوقات دينية.

{ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ } الإشارة إلى المذكور من عدة الشهور الاثني عشر، وعدة الأشهر الحُرم. أي: ذلك التقسيم هو الدين الكامل، وما عداه لا يخلو من أن اعتراه التبديل أو التحكّم فيه لاختصاص بعض الناس بمعرفته على تفاوتهم في صحة المعرفة.

الدين: النظام المنسوب إلى الخالق الذي يدان النّاس به، أي: يعاملون بقوانينه. وتقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ } [آل عمران:19]، كما وصف بذلك في قوله تعالى { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ } [الروم:30].

{ فَلاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ } تفريع على { مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ } فإنّها، لما كانت حرمتها ممّا شرعه الله أوجب الله على النّاس تعظيم حرمتها بأن يتجنّبوا الأعمال السيئة فيها.

وعن ابن عباس أنّه فسر ضمير { فِيهِنَّ } بالأشهر الاثني عشر، فالمعنى عنده: فلا تظلموا أنفسكم بالمعاصي في جميع السنة، أي: أن حرمة الدين أعظم من حرمة الأشهر الأربعة في الجاهلية، وهذا يقتضي عدم

التفرقة في ضمائر التأنيث بين { فِيْهَا } و { فِيهِنَّ } وأنّ الاختلاف بينهما في الآية تفنّن.

ظلم النفس: هو فعل ما نهى الله عنه وتوعّد عليه، فإنّ فعله إلقاء بالنفس إلى العذاب، فكان ظلما للنفس، قال تعالى { وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ } [النساء:64].

والأنفس <u>تحتمل</u> أنّها أنفس الظالمين، أي: لا يظلم كل واحد نفسه. <u>ويجوز</u> أن يكون الظلم بمعنى الاعتداء، ويكون المراد بالأنفس أنفس غير الظالمين، وإضافتها إلى ضمير المخاطبين للتنبيه على أنّ الأمّة كالنفس من الجسد على حد قوله تعالى { فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ } [النور:61]. والمراد على هذا تأكيد حكم الأمن في هذه الأشهر.

و لا يشكل الأمر بمقاتلة الرسول عليه الصلاة والسلام هوازن أياما من ذي القعدة، لأنّهم ابتدأوا بالقتال قبل دخول الأشهر الحرم، فاستمرت الحرب إلى أن دخلوا في شهر ذي القعدة، وما كان ليكف القتال عند مشارفة هزيمة المشركين وهم بدأوهم أوّل مرة. وعلى هذا المحمل يكون حكم هذه الآية قد انتهى بانقراض المشركين من بلاد العرب بعد سنة الوفود.

والمحمل الأول للآية أخذ به الجمهور، وأخذ بالمحمل الثاني جماعة: فقال ابن المسيب، وابن شهاب، وقتادة، وعطاء الخراساني، حرَّمت الآية القتال في الأشهر الحرم ثم نسخت بإباحة الجهاد في جميع الأوقات، فتكون هذه الآية مكمّلة لما بقي من مدة حرمة الأشهر الحرم، حتّى يعم جميع بلاد العرب حكم الإسلام، بإسلام جمهور القبائل وضرب الجزية على بعض قبائل العرب وهم النصارى واليهود.

وقال عطاء ابن أبي رباح: يحرم الغزو في الأشهر الحرم إلّا أن يبدأ العدو فيها بالقتال ولا نسخ في الآية.

{ **وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** } أحسب أن موقع هذه الآية موقع الاحتراس من ظنّ أنّ النهي عن انتهاك الأشهر الحرم يقتضي النهي عن قتال المشركين فيها إذا بدأوا بقتال المسلمين. فيكون المعنى فلا تنتهكوا حرمة الأشهر الحرم بالمعاصي، أو باعتدائكم على أعدائكم، فإن هم بادأوكم بالقتال فقاتلوهم.

{ **كَافَّةً** } كلمة تدل على العموم والشمول بمنزلة (كلّ) لا يختلف لفظها باختلاف المؤكَّد من إفراد وتثنية وجمع، ولا من تذكير وتأنيث. والمقصود من تعميم الذوات تعميم الأحوال لأنّه تبع لعموم الذوات، أي: كلّ فرق المشركين، فكلّ فريق وجد في حالة ما، وكان قد بادأ المسلمين بالقتال، فالمسلمون مأمورون بقتاله.

{ **كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً** } أصلها (كاف) التشبيه استعيرت للتعليل بتشبيه الشيء المعلول بعلته، لأنه يقع على مثالها ومنه قوله تعالى { وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ } [البقرة:197].

{ **وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** } تأييد وضمان بالنصر عند قتالهم المشركين، لأنّ المعيّة هنا معية تأييد على العمل وليست معية علم، إذ لا تختص معية العلم بالمتقين.

{ **وَاعْلَمُوا** } ابتُدئت الجملة بهذا الأمر للاهتمام بمضمونها كما تقدّم في قوله تعالى { وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ } [الأنفال:41].

{ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}
[37]

استئناف بياني ناشئ عن قوله تعالى { إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ } [36]، لأنّ ذلك كالمقدّمة إلى المقصود وهو إبطال النسيء وتشنيعه.

النسيء: يطلق على الشهر الحرام الذي أرجئت حرمته وجعلت لشهر آخر. فالنسيء فعيل بمعنى مفعول، وفعله نَسأَ المهموز، أي: أخّر.

وأحسن ما روي في صفة ذلك قول أبي وائل، أنّ العرب كانوا أصحاب حروب وغارات فكان يشق عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر متوالية لا يغيرون فيها، فقالوا لئن توالت علينا ثلاثة أشهر لا نصيب فيها شيئا لنهلكن.

والذي يجب اعتماده أنّ أول من نسأ النسيء هو حذيفة ابن عبد فُقيم وهو الملقب بـ **(القَلَمَّس)**.

قال ابن عطية: كان بنو فُقيم أهل دين في العرب وتمسك بشرع إبراهيم فانتدب منهم القَلَمَّس وهو حذيفة بن عبد فقيم فنسأ الشهور للعرب، ثم خلفه ابنه عباد. ثم ابنه قلع، ثم ابنه أمية، ثم ابنه عوف، ثم ابنه أبو ثمامة جنادة وعليه قام الإسلام ". وتقريب زمن ابتداء العمل بالنسيء في أواخر القرن الثالث قبل الهجرة، أي: في حدود سنة (220 ق هـ).

{ **إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ** } صيغة القصر تقتضي أنّه لا يعدو كونه من أثر الكفر لمحبة الاعتداء والغارات، فهو قصر حقيقي. ووجه كونه كفرا أنّهم يعلمون أنّ الله شرع لهم الحجّ ووقّته بشهر من الشهور القمرية المعدودة المسماة بأسماء تميزها عن الاختلاط، فلما وضعوا النسيء قد علموا أنّهم يجعلون بعض الشهور في غير موقعه، ويسمونه بغير اسمه، ويصادفون إيقاع الحجّ في غير الشهر المعيّن له، أعني شهر ذي الحجة، فهم قد اعترفوا بأنّه تأخير شيء عن وقته، وهم في ذلك مستخفّون بشرع الله تعالى، ومخالفون لما وُقّت لهم عن تعمّد، مثبتين الحل لشهر حرام والحرمة لشهر غير حرام، وذلك جرأة على دين الله واستخفاف به، فلذلك يشبه جعلهم لله شركاء، فكما جعلوا لله شركاء في الإلهية جعلوا من أنفسهم شركاء لله في التشريع، يخالفونه فيما شرعه، فهو بهذا الاعتبار كالكفر.

{ **يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا** } خبر ثان عن النسيء أي: هو ضلال مستمر لما اقتضاه الفعل المضارع من التجدّد.

{ **يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا** } بيان لسبب كونه ضلالا. وقد اختير المضارع لهذه الأفعال لدلالته على التجدّد والاستمرار، أي: هم في ضلال متجدّد مستمر بتجدد سببه، وهو تحليله تارة وتحريمه أخرى، ومواطأة عدّة ما حرم الله. وإسناد الضلال إلى الذين كفروا يقتضي أنّ النسيء كان عمله مطّردا بين جميع المشركين من العرب.

{ **لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ** } أي: يفعلون ذلك ليوافقوا عدد الأشهر الحرم فتبقى أربعة. فقد احتفظوا بالعدد وأفسدوا المعدود.

المواطأة: الموافقة، وهي مفاعلة عن الوطئ،

شُبّه التماثل في المقدار وفي الفعل بالتوافق في وطء الأرجل، ومن هذا قولهم (وقوع الحافر على الحافر)

{ **فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ** } دون أن يقال: فيحلّوه، لزيادة التصريح بتسجيل شناعة عملهم، وهو مخالفتهم أمر الله تعالى وإبطالهم حرمة بعض الأشهر الحرم، تلك الحرمة التي لأجلها زعموا أنّهم يحرّمون بعض

الأشهر الحلال حفاظا على عدة الأشهر التي حرّمها الله تعالى.

{ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ } مستأنفة استئنافا بيانيا، أي: لأن الشيطان زيّن لهم سوء أعمالهم فحسّن لهم القبيح.

التزيين: التحسين، أي: جعل شيء زيْنا، وهو إذ يُسند إلى ما لا تتغير حقيقته، فلا يصير حسنا، يؤذن بأنّ التحسين تلبيس. وتقدّم التزيين في قوله تعالى { زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا } [البقرة:212]، وقوله تعالى { كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ } [الأنعام:108].

{ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } عطف على { زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ } فهي مشمولة لمعنى الاستئناف البياني المراد منه التعليل لتلك الحالة الغريبة. فبعد أن أفيد السائل بأن سبب ذلك الاضطراب هو تزيين الشيطان لهم سوء أعمالهم، أفيد بأن دوامهم عليه لأن الله أمسك عنهم اللطف والتوفيق، الذين بهما يتفطن الضال لضلاله فيقلع عنه، جزاءا لهم على ما أسلفوه من الكفر، فلم يزالوا في دركات الضلال إلى أقصى غاية.

واعلم أنّ حرمة الأزمان والبقاع إنما تُتلقّى عن الوحي الإلهي، لأنّ الله الذي خلق هذا العالم هو الذي يسُنّ له نظامَه فبذلك تستقرّ حرمة كل ذي حرمة في نفوس جميع الناس، إذ ليس في ذلك عمل لبعضهم دون بعض، فإذا أدخل على ما جعله الله من ذلك تغيير تقشّعت الحرمة من النفوس فلا يرضى فريق بما وضعه غيره من الفرق، فلذلك كان النسيء زيادة في الكفر لأنّه من الأوضاع التي اصطلح عليها النّاس، كما اصطلحوا على عبادة الأصنام بتلقين عمرو بن لحيّ.

وقد أوحى الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أن العام الذي يحج فيه يصادف يوم الحج منه يوم تسعة من ذي الحجة، على الحساب الذي يتسلسل من يوم خلق الله السماوات والأرض، وأنّ فيه يندحض أثر النسيء، ولذلك قال النبيّ صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع: **" إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض "**.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ } [38].

هذا ابتداء خطاب للمؤمنين للتحريض على الجهاد في سبيل الله، بطريقة العتاب على التباطؤ بإجابة دعوة النفير إلى الجهاد، والمقصود بذلك غزوة تبوك.

قال ابن عطية: " لا اختلاف بين العلماء في أنّ هذه الآية نزلت عتابا على تخلّف من تخلّف عن غزوة تبوك، إذ تخلّف عنها قبائل ورجال من المؤمنين والمنافقون ".

وهو خطاب للذين حصل منهم التثاقل، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم استنفر المسلمين إلى تلك الغزوة، وكان ذلك في وقت حرّ شديد، واستقبل سفرا بعيدا ومفازا، حين نضجت الثمار، وطابت الظلال،

وكان المسلمون يومئذ في شدّة حاجة إلى الظهر والعدّة، فلذلك سُمّيت (غزوة العسرة)، كما سيأتي في هذه السورة، فجلّى رسول الله للمسلمين أمرهم ليتأهّبوا أهبة عدوهم، وأخبرهم بوجهه الذي يريد، وكان قبل ذلك لا يريد غزوة إلّا وَرَّى بما يوهم مكانا غير المكان المقصود، فحصل لبعض المسلمين تثاقل، ومن بعضهم تخلّف، فوجه الله إليهم هذا الملام المعقّب بالوعيد.

فإنّ نحن جرينا على أنّ نزول السورة كان دفعة واحدة، وأنّه بعد غزوة تبوك، كما هو الأرجح، وهو قول جمهور المفسرين، كان محمل هذه الآية أنّها عتاب على ما مضى، وكانت { إِذَا } مستعملة ظرفا للماضي، على خلاف غالب استعمالها.

{ **مَا لَكُمْ** } الـ (مَا) اسم استفهام إنكاري، و(لَكُمْ) خبر عن الاستفهام، أي: أيّ شيء ثبت لكم.

النّفر: الخروج السريع من موضع إلى غيره لأمر يحدث، وأكثر ما يطلق على الخروج إلى الحرب، ومصدره حينئذ النفير.

سبيل الله: الجهاد، سمّي بذلك لأنّه كالطريق الموصل إلى الله، أي: إلى رضاه

{ **اثَّاقَلْتُمْ** } أصله تثاقلتم قلبت التاء المثناة ثاء مثلثة لتقارب مخرجيهما طلبا للإدغام. في موضع الحال من ضمير الجماعة، وتلك الحالة هي محل الإنكار، أي: ما لكم متثاقلين. وفيه تعريض بأنّ بطأهم ليس عن عجز، ولكنّه عن تعلق بالإقامة في بلادهم وأموالهم.

{ **اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ** } تمثيل لحال الكارهين للغزو المتطلّبين للعذر عن الجهاد كسلا وجبنا بحال من يُطلب منه النهوض والخروج فيقابل ذلك الطلب بالالتصاق بالأرض.

{ **أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا** }الاستفهام إنكاري توبيخي، إذ لا يليق ذلك بالمؤمنين.

{ **مِنْ الآخِرَةِ** } أي: كيف ترضون بالحياة الدنيا بدلا عن الآخرة. ومثّل ذلك لا يُرضى به. والمراد بالحياة الدنيا، وبالآخرة: منافعهما، فإنّهم لمّا حاولوا التخلّف عن الجهاد قد آثروا الراحة في الدنيا على الثواب الحاصل للمجاهدين في الآخرة.

واختير فعل { أَرَضِيتُمْ } دون غيره نحو آثرتم أو فضلتم، مبالغة في الإنكار لأنّ فعل رَضِي بكذا يدلّ على انشراح النفس.

المتاع: اسم مصدر تمتّع، فهو الالتذاذ والتنعّم، كقوله تعالى { مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ } [عبس:32].

{ **قَلِيلٌ** } بمعنى ضعيف ودنيء. استعير القليل للتافه.

{ **فِي الآخِرَةِ** } المقايسة. كقوله تعالى { وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ } [الرعد:26]، وقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي يرويه مسلم: **" ما الدنيا في الآخرة إلّا كمثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بم يرجع "**. أي: متاع الحياة الدنيا إذا أقحم في خيرات الآخرة كان قليلا بالنسبة إلى خيرات الآخرة.

{ إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [39].

هذا وعيد وتهديد عُقّب به الملام السابق، لأنّ اللوم وقع على تثاقل حصل. ولمّا كان التثاقل مفضيا إلى التخلّف عن القتال صُرح بالوعيد والتهديد إن يعودوا لمثل ذلك التثاقل، فهو متعلّق بالمستقبل كما هو مقتضى أداة الشرط. فالجملة مستأنفة لغرض الإنكار بعد اللوم.

فإن كان هذا وعيدا فقد اقتضى أن خروج المخاطبين إلى الجهاد الذي استنفرهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم قد وجب على أعيانهم كلهم بحيث لا يُغني بعضهم عن بعض.

وعن ابن عباس أنّ هذا الحكم منسوخٌ نسخه قوله تعالى { وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ } [122]، فيكون الجهاد قد سبق له حكم فرض العين ثم نقل إلى فرض الكفاية، وهذا بناء على أنّ المراد بالعذاب الأليم في قوله تعالى { يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا } هو عذاب الآخرة كما هو المعتاد في إطلاق العذاب ووصفه بالأليم.

وقيل: المراد بالعذاب الأليم عذاب الدنيا كقوله تعالى { بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا } [52]، فلا يكون في الآية حجّة على كون ذلك الجهاد واجبا على الأعيان، ولكنّ الله توعّدهم إن لم يمتثلوا أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بأن يصيبهم بعذاب في الدنيا، فيكون الكلام تهديدا لا وعيدا. وقد يرجح هذا الوجه بأنّه قُرن بعواقب دنيوية في قوله تعالى { وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ }.

والعقوبات الدنيوية مصائب تترتب على إهمال أسباب النجاح وبخاصة ترك الانتصاح بنصائح الرسول عليه الصلاة والسلام، كما أصابهم يوم أحد. فالمقصود تهديدهم بأنّهم إن تقاعدوا عن النفير هاجمهم العدو في ديارهم فاستأصلوهم وأتي الله بقوم غيرهم.

{ **وَيَسْتَبْدِلْ** } يُبدّل، فالسين والتاء للتأكيد، والبدل هو المأخوذ عوضا، كقوله { وَمَنْ يَتَبَدَّلْ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ } [البقرة:108]. أي: ويستبدل بكم غيركم.

{ **وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا** } الكلام في قوّة الحصر، كأنّه قيل: إلّا تنفروا لا تضرّوا إلّا أنفسكم.

{ **وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } تذييل للكلام لأنّه يحقّق مضمون لحاق الضرّ بهم، لأنّه قدير عليهم.

{ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [40].

{ **إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** } استئناف بياني لقوله تعالى { وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [39].

فالذي نصره حين كان ثاني اثنين قدير على نصره وهو في جيش عظيم، فتبيّن أن تقدير قعودهم عن النفير لا يضرّ الله شيئا.
{ **إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ** } الضمير المنصوب عائد إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم وإن لم يتقدّم له ذكر، لأنّه واضح من المقام.
{ **إِذْ أَخْرَجَهُ** } المراد خروجه مهاجرا. وأسند الإخراج إلى الذين كفروا لأنّهم تسبّبوا فيه بأن دبّروا لخروجه غير مرة كما قال تعالى { وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ } [الأنفال:30]، وبأن آذوه وضايقوه في الدعوة إلى الدين، وضايقوا المسلمين بالأذى والمقاطعة، فتوفّرت أسباب خروجه، ولكنّهم كانوا مع ذلك يتردّدون في تمكينه من الخروج خشية أن يظهر أمر الإسلام بين ظهراني قوم آخرين، فلذلك كانوا في آخر الأمر مصمّمين على منعه من الخروج، وأقاموا عليه من يرقبه، وحاولوا الإرسال وراءه ليردّوه إليهم، وجعلوا لمن يظفر به جزاء جزلا، كما جاء في حديث سراقة بن جُعشُم.
{ **ثَانِيَ اثْنَيْنِ** } حال من ضمير النصب في { أَخْرَجَهُ }، والاثنان هما النبيّ صلى الله عليه وسلم وأبو بكر، بتواتر الخبر وإجماع المسلمين كلّهم. ولكون الثاني معلوما للسامعين كلّهم لم يحتج إلى ذكره، وأيضا لأن المقصود تعظيم هذا النصر مع قلّة العدد.
{ **إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ** } التعريف في الغار للعهد، لغار يعلمه المخاطبون، وهو الذي اختفى فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم وأبو بكر حين خروجهما مهاجرين إلى المدينة، وهو غار في جبل ثور خارج مكّة إلى جنوبها، بينه وبين مكّة نحو خمسة أميال، في طريق جبليّ.
الغار: الثقب في التراب أو الصخر.

{ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا }
الصاحب: هو { ثَانِيَ اثْنَيْنِ } وهو أبو بكر الصديق. ومعنى الصاحب، المتّصف بالصحبة، وهي المعيّة في غالب الأحوال، ومنه سُمّيت الزوجة صاحبة.
وهذا القول صدر من النبيّ صلى الله عليه وسلم لأبي بكر حين كانا مختفيين في غار ثور، فكان أبو بكر حزينا إشفاقا على النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يشعر به المشركون، فيصيبوه بمضرّة، أو يرجعوه إلى مكّة.
{ **إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** } المعيّة هنا معيّة الإعانة والعناية، كما حكى الله تعالى عن موسى وهارون { قَالَ لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا } [طه:46]، وقوله تعالى { إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلاَئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ } [الأنفال:12].

{ **فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** } التفريع مؤذن بأنّ السكينة أنزلت عقب الحلول في الغار، وأنّها من النصر، إذ هي نصر نفسانيّ، وإنّما كان التأييد بجنود لم يروها نصرا جثمانيا. وجاء نظم الكلام على هذا السبك البديع للمبادأة بالدلالة على أنّ النصر حصل في أزمان وأحوال ما كان النصر ليحصل في أمثالها لغيره لولا عناية الله به، وأنّ نصره كان معجزة خارقا للعادة.

وبهذا البيان تندفع الحيرة التي حصلت للمفسرين في معنى الآية، حتّى أغرب كثير منهم فأرجع الضمير المجرور من قوله تعالى { فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ } إلى أبي بكر، مع أنّ المقام لذكر ثبات النبيّ صلى الله عليه وسلم وتأييد الله إيّاه، وما جاء ذكر أبي بكر إلّا تبعا لذكر ثبات النبيّ صلى الله عليه وسلم.

السكينة: اطمئنان النفس عند الأحوال المخوفة، مشتقّة من السكون، وقد تقدّم ذكرها عند قوله تعالى { فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ } [البقرة:248].

التأييد: التقوية والنصر، مشتقّ من اسم اليد، وتقدّم عند قوله تعالى { وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ } [البقرة:87].

الجنود: جمع جند بمعنى الجيش، وتقدّم آنفا [26].

الكلمة: أصلها اللفظة من الكلام، ثم أطلقت على الأمر والشأن ونحو ذلك من كلّ ما يتحدّث به النّاس ويخبر المرء به عن نفسه من شأنه، قال تعالى { وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ } [الزخرف:28]. ومنه قولهم: لا تفرّق بين كلمة المسلمين، أي: بين أمرهم واتفاقهم، وقولهم: جمع الله كلمة المسلمين.

{ **كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا** } شأنهم وكيدهم وما دبّروه من أنواع المكر.

السفلى: الحقيرة، لأنّ السفل يُكنّى به عن الحقارة.

{ **وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا** } مستأنفة بمنزلة التذييل للكلام لأنّه لمّا أخبر عن كلمة الذين كفروا بأنّها صارت سفلى أفاد أنّ العلاء انحصر في دين الله وشأنه. فضمير الفصل مفيد للقصر، ولذلك لم تعطف كلمة الله على كلمة الذين كفرو، إذ ليس المقصود إفادة جعل كلمة الله عليا، لما يشعر به الجعل من إحداث الحالة، بل إفادة أنّ العلاء ثابت لها ومقصور عليها، فكانت الجملة كالتذييل لجعل كلمة الذين كفروا سفلى.

{ **وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** } تذييل لمضمون الجملتين: لأنّ العزيز لا يغلبه شيء، والحكيم لا يفوته مقصد، فلا جرم تكون كلمته العليا وكلمة ضده السفلى.

{ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ } [41].

الخطاب للمؤمنين الذين سبق لومهم بقوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ } [38]، فالنفير المأمور به ما يُستقبل من الجهاد. وقد قدّمنا أن الاستنفار إلى غزوة تبوك كان عاما لكل قادر على الغزو لأنّها كانت في زمن مشقّة، وكان المغزو عدوا عظيما، فلا

يقتضي هذا الأمر توجه وجوب النفير على كلّ مسلم في كل غزوة، ولا على المسلم العاجز لعمى أو زمانة أو مرض، وإنّما يجري العمل في كل غزوة على حسب ما يقتضيه حالها وما يصدر إليهم من نفير. وفي الحديث: **" وإذا استُنفرتم فانفروا "**.

{ خِفَافًا وَثِقَالاً } خفافا: جمع خفيف وهو صفة مشبّهة من الخفّة، وهي حالة للجسم تقتضي أن يكون سهل التنقل سهل الحمل. و**الثقال**: ضد ذلك، وتقدم الثقل آنفا عند قوله تعالى { اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ } [38].

والخفاف والثقال هنا مستعاران لما يشابههما من أحوال الجيش وعلائقهم؛

*/ تستعار الخفّة للإسراع إلى الحرب، والثقل الذي يناسب هذا هو الثبات في القتال.

*/ وتستعار الخفّة لقلّة العدد، والثقل لكثرة عدد الجيش.

*/ وتستعار الخفّة لتكرير الهجوم على الأعداء، والثقل للتثبّت في الهجوم.

*/ وتستعار الخفّة لقلّة الأزواد أو قلّة السلاح، والثقل لضد ذلك.

*/ وتستعار الخفّة لقلّة العيال، والثقل لضد ذلك.

*/ وتستعار الخفّة للركوب، لأنّ الراكب أخفّ سيرا، والثقل للمشي على الأرجل وذلك في وقت القتال.

وكلّ هذه المعاني صالحة للإرادة من الآية.

{ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ } المجاهدة المغالبة للعدوّ، وهي مشتقّة من الجُهد، أي: بذل الاستطاعة في المغالبة، وهو حقيقة في المدافعة بالسلاح، فإطلاقه على بذل المال في الغزو، من إنفاق على الجيش واشتراء الكراع والسلاح، مجاز بعلاقة السببية.

أمر الله بكلا الأمرين فمن استطاعهما معا وجبا عليه، ومن لم يستطع إلّا واحدا وجب عليه الذي استطاعه.

وتقديم الأموال على الأنفس هنا لأنّ الجهاد بالأموال أقل حضورا بالذهن عند سماع الأمر بالجهاد، فكان ذكره أهمّ بعد ذكر الجهاد مجملا.

{ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ } أي: إن كنتم تعلمون ذلك الخير وشعبه. وإبهام { خَيْرٌ } لقصد توقّع خير الدنيا والآخرة من شعب كثيرة أهمها الاطمئنان من أن يغزوهم الروم.

وفي اختيار فعل (العلم) دون الإيمان مثلا للإشارة إلى أنّ من هذا الخير ما يخفى فيحتاج متطلّب تعيين شعبه إلى أعمال النظر والعلم.

{ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } [42].

استئناف لابتداء الكلام على حال المنافقين عند غزوة تبوك حين تخلّفوا واستأذن كثير منهم في التخلّف واعتلّوا بعلل كاذبة. وانتُقل من الخطاب إلى الغيبة لأنّ المتحدّث عنهم هنا بعض المتثاقلين لا محالة.

ومن هذه الآيات ابتدأ إشعار المنافقين بأنّ الله أطلع رسوله صلى الله عليه وسلم على دخائلهم.

العرض: ما يعرض للنّاس من متاع الدنيا. وتقدّم في قوله تعالى { يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى } [الأعراف:169]، وقوله تعالى { تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا } [الأنفال:67]. والمراد به هنا الغنيمة.

القريب: الكائن على مسافة قصيرة، وهو هنا مجاز في السهل حصوله.

{ **سَفَرًا قَاصِدًا** } أي: وسطا في المسافة غير بعيد.

الشُقّة: (بضم الشين) المسافة الطويلة.

{ **وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ** } ولكن بعد منهم المكان لأنّه شقّة، فثقل عليهم السفر. جاء الكلام موجزا.

{ **وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ** } يؤذن بأنّ الآية نزلت قبل الرجوع من غزوة تبوك، فإنّ حلفهم إنّما كان بعد الرجوع وذلك حين استشعروا أن الرسول عليه الصلاة والسلام ظانٌّ كذبهم في أعذارهم.

الاستطاعة: القدرة، أي: لسنا مستطيعين الخروج، وهذا اعتذار منهم وتأكيد لاعتذارهم.

{ **لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ** } شاع إطلاق الخروج على السفر للغزو. وتقييده بالمعيّة إشعار بأنّ أمر الغزو لا يهمّهم ابتداء، وأنّهم إنّما يخرجون لو خرجوا خروج الناصر لغيره. تقول العرب: خرج بنو فلان وخرج معهم بنو فلان، إذا كانوا قاصدين نصرهم.

{ **يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ** } حال، أي: يحلفون مهلكين أنفسهم، أي: موقعينها في الهلك. و**الهلك**: الفناء والموت، ويطلق على الأضرار الجسيمة، وهو المناسب هنا، أي: يتسبّبون في ضرّ أنفسهم بالأيمان الكاذبة، وهو ضر الدنيا وعذاب الآخرة. وفي هذه الآية دلالة على أنّ تعمّد اليمين الفاجرة يفضي إلى الهلاك.

{ **وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ** } حال، أي: هم يفعلون ذلك في حال عدم جدواه عليهم، لأنّ الله يعلم كذبهم ويطلع رسوله على كذبهم، فما جنوا من الحلف إلّا هلاك أنفسهم.

{ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ } [43].

استأذن فريق من المنافقين النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يتخلّفوا عن الغزوة، منهم عبد الله بن أُبَيْ ابن سلول، والجِدّ بن قيس، ورفاعة بن التابوت، وكانوا تسعة وثلاثين واعتذروا بأعذار كاذبة، وأذن النبيّ صلى الله عليه وسلم لمن استأذنه حملا للنّاس على الصدق، إذ كان ظاهر حالهم الإيمان، وعلما بأنّ المعتذرين إذا ألجئوا إلى الخروج لا يغنون شيئا، كما قال تعالى { لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً } [47]، فعاتب الله نبيّه صلى الله عليه وسلم في أن أذن لهم، لأنّه لو لم يأذن لهم لقعدوا، فيكون ذلك دليلا للنبيّ صلى الله عليه وسلم على نفاقهم وكذبهم في دعوى الإيمان.

{ **عَفَا اللَّهُ عَنْكَ** } افتتاح العتاب بالإعلام بالعفو إكرام عظيم، ولطافة شريفة، فأخبره بالعفو قبل أن يباشره بالعتاب. وفي هذا الافتتاح كناية عن خفّة موجب العتاب لأنّه بمنزلة أن يقال: ما كان ينبغي، وتسمية

الصفح عن ذلك عفوا ناظر إلى مغزى قول أهل الحقيقة: حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين.

{ **لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ** } ألقي إليه العتاب بصيغة الاستفهام عن العلة، إيماء إلى أنّه ما أذن لهم إلّا لسبب تأوّله ورجا منه الصلاح. وهذا من صيغ التلطّف في الإنكار أو اللوم، بأن يُظهر المنكر نفسه كالسائل عن العلة التي خفيت عليه.

{ **حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ** } ترك الإذن كان أجدر بتبيين حالهم، وهو غرض آخر لم يتعلق به قصد النبيّ صلى الله عليه وسلم. وحُذف متعلّق { أَذِنتَ } لظهوره من السياق، أي: لم أذنت لهم في القعود والتخلّف.

والمراد بالذين صدقوا: الصادقون في إيمانهم، و بالكاذبين فيما أظهروه من الإيمان، وهم المنافقون. فالمراد بالذين صدقوا المؤمنون.

{ لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ } [44].

المعنى: أن شأن المؤمنين الذين استُنفروا أن لا يستأذنوا النبيّ صلى الله عليه وسلم في التخلّف عن الجهاد. فأمّا أهل الأعذار، كالعُمي، فهم لا يستنفرهم النبيّ صلى الله عليه وسلم، وأمّا الذين تخلّفوا من المؤمنين فقد تخلّفوا ولم يستأذنوا في التخلّف لأنّهم كانوا على نيّة اللحاق بالجيش بعد خروجه.

الاستئذان: طلب الأذن، أي: في إباحة عمل وترك ضدّه، لأنّ شأن الإباحة أن تقتضي التخيير بين أحد أمرين متضادين.

ولمّا كان الاستئذان يستلزم شيئين متضادين، كما قلنا، جاز أن يقال: استأذنت في كذا واستأذنت في ترك كذا. وإنّما يذكر غالبا مع فعل الاستئذان الأمر الذي يرغب المستأذن الإذن فيه دون ضدّه وإن كان ذكر كليهما صحيحًا.

ولمّا كان شأن المؤمنين الرغبة في الجهاد كان المذكور مع استئذان المؤمنين أن يجاهدوا دون أن لا يجاهدوا، إذ لا يليق بالمؤمنين الاستئذان في ترك الجهاد، فإذا انتفى أن يستأذنوا في أن يجاهدوا ثبت أنّهم يجاهدون دون استئذان، وهذا من لطائف بلاغة هذه الآية التي لم يعرّج عليها المفسرون وتكلّفوا في إقامة نظمها.

{ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ** } معترضة لفائدة التنبيه على أنّ الله مطّلع على أسرار المؤمنين، إذ هم المراد بالمتقين.

{ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ} [45].

الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا نشأ عن تبرئة المؤمنين من أن يستأذنوا في الجهاد، ببيان الذين شأنهم الاستئذان في هذا الشأن، وأنّهم الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر في باطن أمرهم، لأنّ انتفاء إيمانهم ينفي رجاءهم في ثواب الجهاد، فلذلك لا يعرضون أنفسهم له.

{ **إِنَّمَا** } أفادت القصر للتنويه بفضيلة المؤمنين. فالكلام إطناب لقصد التنويه.

{ **يَسْتَأْذِنُكَ** } حُذف المتعلّق هنا لظهوره ممّا قبله. والتقدير: إنّما يستأذنك الذين لا يؤمنون في أن لا يجاهدوا.

{ **وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ** } معطوف على { لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ } يدلّ على أنّ المراد بالارتياب الارتياب في ظهور أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم، فلأجل ذلك الارتياب كانوا ذوي وجهين معه فأظهروا الإسلام لئلّا يفوتهم ما يحصل للمسلمين من العزّ والنفع، على تقدير ظهور أمر الإسلام، وأبطنوا الكفر حفاظا على دينهم الفاسد وعلى صلتهم بأهل ملّتهم، كما قال الله تعالى فيهم { الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنْ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ } [النساء:141].

ولعلّ أعظم ارتيابهم كان في عاقبة غزوة تبوك لأنّهم لكفرهم ما كانوا يقدّرون أنّ المسلمين يغلبون الروم.

{ **لاَ يُؤْمِنُونَ** } صيغة المضارع للدلالة على تجدّد نفي إيمانهم، وفي { وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ } بصيغة الماضي للدلالة على قدم ذلك الارتياب ورسوخه، فلذلك كان أثره استمرار انتفاء إيمانهم.

{ **فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ** } تفريع المسبّب على السبب، لأنّ الارتياب هو الشكّ في الأمر بسبب التردّد في تحصيله، فلتردّدهم لم يصارحوا النبيّ صلى الله عليه وسلم بالعصيان لاستنفاره، ولم يمتثلوا له فسلكوا مسلكا يصلح للأمرين، وهو مسلك الاستئذان في القعود، فالاستئذان مسبّب على التردّد، والتردد مسبّب على الارتياب.

التردّد: حقيقته ذهاب ورجوع متكرّر إلى محل واحد، وهو هنا تمثيل لحال المتحيّر بين الفعل وعدمه بحال الماشي والراجع.

{ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ} [46].

هذا تكذيب لزعمهم أنّهم تهيّأوا للغزو ثم عرضت لهم الأعذار فاستأذنوا في القعود، لأنّ عدم إعدادهم

العدّة للجهاد دلّ على انتفاء إرادتهم الخروج إلى الغزو.

العُدّة: ما يُحتاج إليه من الأشياء، كالسلاح للمحارب، والزاد للمسافر، مشتقة من الإعداد وهو التهيئة.

{ **وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ** } استدراك على ما دلّ عليه شرط { وَلَوْ } من فرض إرادتهم الخروج تأكيدا لانتفاء وقوعه بإثبات ضدّه، وعُبّر عن ضدّ الخروج بتثبيط الله إيّاهم، لأنّه في السبب الإلهي ضد الخروج، فعبّر به عن مسبّبه. وهي أن الله كره انبعاثهم، فصيغ الاستدراك بذكر علّته اهتماما بها، وتنبيها على أنّ عدم إرادتهم الخروج كان حرمانا من الله إيّاهم، وعناية بالمسلمين، فجاء الكلام بنسج بديع وحصل التأكيد مع فوائد زائدة.

وكراهة الله انبعاثهم مفسَّرة في الآية بعدها { لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً } [47].

الانبعاث: مطاوع بعثه إذا أرسله.

التثبيط: إزالة العزم. وتثبيط الله إيّاهم: أن خلق فيهم الكسل وضعف العزيمة على الغزو.

القعود: مستعمل في ترك الغزو تشبيها للترك بالجلوس.

{ **وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ** } مذمّة لهم، لأنّ القاعدين هم الذين شأنهم القعود عن الغزو، وهم الضعفاء من صبيان ونساء كالعُمي والزَّمنى.

{ **لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ** } [47].

استئناف لبيان الحكمة من كراهية الله انبعاثهم، وهي إرادة الله سلامة المسلمين من إضرار وجود هؤلاء بينهم، لأنّهم كانوا يضمرون المكر بالمسلمين.

{ **زَادُوكُمْ** } حُذف المفعول لدلالة الخروج عليه، أي: ما زادوكم قوّة أو شيئا مما تفيد زيادته في الغزو.

{ **إِلاَّ خَبَالاً** } الخبال: الفساد، وتفكّك الشيء الملتحم الملتئم، أطلق هنا على اضطراب الجيش واختلال نظامه. استثني من المفعول المحذوف **الخبال** على طريقة التهكّم بتأكيد الشيء بما يشبه ضدّه، فإنّ الخبال في الحرب بعض من عدم الزيادة في قوة الجيش، بل هو أشدّ عدما للزيادة.

{ **وَلَأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ** } حقيقة { أَوْضَعُوا } أسرعوا سير الرّكاب. يقال: وضع البعير وضعا، إذا أسرع، ويقال: أوضعت بعيري، أي: سيّرته سيرا سريعا. وهو هنا تمثيل لحالة المنافقين حين يبذلون جهدهم لإيقاع التخاذل والخوف بين رجال الجيش، وإلقاء الأخبار الكاذبة عن قوّة العدو، بحال من يجهد بعيره بالسير. وقريب من هذا التمثيل قوله تعالى { فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ } [الإسراء:62]، وقوله تعالى { وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ } [المائدة:62].

وأصله قولهم: يسعى لكذا، إلّا أنّه لما شاع إطلاق السعي في الحرص على الشيء خفيت ملاحظة تمثيل الحالة عند إطلاقه لكثرة الاستعمال، فلذلك اختير هنا ذكر (**الإيضاع**) لعزّة هذا المعنى، ولما فيه من

الصلاحيّة لتفكيك الهيئة، بأن يشبه الفاتنون بالركب، ووسائل الفتنة بالرواحل.
الخلال: جمع خَلَل بالتحريك. وهو الفرجة بين شيئين واستعير هنا لمعنى بينكم تشبيها لجماعات الجيش بالأجزاء المتفرّقة.
{ **يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ** } في موضع الحال، وأصله يبغون لكم الفتنة. وهو استعمال شائع في فعل بغى بمعنى طلب.
الفتنة: اختلال الأمور وفساد الرأي، وتقدّمت في قوله تعالى { وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ } [المائدة:71].
{ **وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ** } أي: من بين المسلمين. فيجوز أن يكون هؤلاء السماعون مسلمين يصدّقون ما يسمعونه من المنافقين. ويجوز ان يكون السمّاعون منافقين مبثوثين بين المسلمين.
وهذه الجملة اعتراض للتنبيه على أنّ بغيهم الفتنة أشد خطرا على المسلمين لأنّ في المسلمين فريقا تنطلي عليهم حيلهم، وهؤلاء هم سذج المسلمين الذين يعجبون من أخبارهم ويتأثرون ولا يبلغون إلى تمييز التمويهات والمكائد عن الصدق والحقّ.
{ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ** } تذييل قُصد منه إعلام المسلمين بأنّ الله يعلم أحوال المنافقين الظالمين ليكونوا منهم على حذر، وليتوسّموا فيهم ما وسمهم القرآن به، وليعلموا أنّ الاستماع لهم هو ضرب من الظلم. والظلم هنا الكفر والشرك، قال تعالى { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان:13].

{ لَقَدْ ابْتَغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ } [48].

الجملة تعليل لقوله تعالى { يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ } [47]، لأنّها دليل بأنّ ذلك ديدن لهم من قبل. وذلك يوم أحد إذ انخذل عبد الله بن أبي ابن سلول ومن معه من المنافقين بعد أن وصلوا إلى أُحُد، وكانوا ثلث الجيش، قصدوا إلقاء الخوف في نفوس المسلمين حين يرون انخذال بعض جيشهم.
{ **وَقَلَّبُوا** } بتشديد اللام مضاعف قَلَب المخفّف، والمضاعفة للدلالة على قوة الفعل.
فيجوز أن يكون من قلب الشيء إذا **تأمّل باطنه وظاهره ليطّلع** على دقائق صفاته فتكون المبالغة راجعة إلى الكم، أي: كثرة التقليب، أي: ردّدوا آراءهم وأعملوا المكائد والحيل للإضرار بالنبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين.
ويجوز أن يكون { وَقَلَّبُوا } من قلب بمعنى **فتّش وبحث**، استعير التقليب للبحث والتفتيش لمشابهة التفتيش للتقليب في الإحاطة بحال الشيء كقوله تعالى { فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ } [الكهف:42]، فيكون المعنى: أنّهم بحثوا وتجسّسوا للاطلاع على شأن المسلمين وإخبار العدوّ به.
{ **لَكَ** } على هذين الوجهين لام العلّة، أي: لأجلك، وهو مجمل. فالمعنى: اتبعوا فتنة تظهر منك، أي: في أحوالك وفي أحوال المسلمين.

{ **الأُمُورَ** } جمع أمر، وهو اسم مبهم مثل شيء.
{ **حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ** } مجيء الحق حصوله واستقراره، والمراد بذلك زوال ضعف المسلمين وانكشاف أمر المنافقين.

والمراد بظهور أمر الله نصر المسلمبن بفتح مكّة ودخول النّاس في الدين أفواجا. وذلك يكرهه المنافقون.

الظهور: الغلبة والنصر.

{ **أَمْرُ اللَّهِ** } دينه، أي: فلما جاء الحق وظهر أمر الله علموا أنّ فتنتهم لا تضرّ المسلمين.

{ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ } [49].

نزلت في بعض المنافقين استأذنوا النبيّ صلى الله عليه وسلم في التخلّف عن تبوك ولم يبدوا عذرا يمنعهم من الغزو، ولكنّهم صرّحوا بأنّ الخروج إلى الغزو يفتنهم لمحبة أموالهم وأهليهم، ففضح الله أمرهم بأنّهم منافقون.

وقيل: قال جماعة منهم: ائذن لنا لأنّا قاعدون، أذنت لنا أم لم تأذن فأْذَن لنا لئلّا نقع في المعصية.

وقيل: إن الجِدّ بن قيس قال: يا رسول الله لقد علم النّاس أنّي مُسْتَهْتَر بالنساء فإنّي إذا رأيت نساء بني الأصفر افتتنت بهنّ فأذن لي في التخلّف ولا تفتني وأنا أعينك بمالي، فأذن له.

ولعل كلّ ذلك كان.

{ **أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا** } أداة الاستفتاح (ألا) للتنبيه على ما بعدها من عجيب حالهم إذ عاملهم الله بنقيض مقصودهم فهم احترزوا عن فتنة فوقعوا في الفتنة. فالتعريف في الفتنة ليس تعريف العهد إذ لا معهود هنا، ولكنّه تعريف الجنس المؤذن بكمال المعرَّف في جنسه، أي: في الفتنة العظيمة سقطوا.

السقوط: مستعمل مجازا في الفجأة على وجه الاستعارة. شُبّه عدم التهيّؤ والمفاجأة بالسقوط باعتبار أنّهم حصلوا في الفتنة في حال أمنهم من الوقوع فيها، فهم كالساقط في هوّة على حين ظَنّ أنّه ماش في طريق سهل.

{ **وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ** } معترضة، أي: وقعوا في الفتنة المفضية إلى الكفر. والكفر يستحقّ جهنم.

وإحاطة جهنم مراد منها عدم إفلاتهم منها، فالإحاطة كناية عن عدم الإفلات. والمراد بالكافرين: جميع الكافرين فيشمل المتحدَّث عنهم لثبوت كفرهم.

{ إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَهُمْ فَرِحُونَ } [50].

بيّن هنا أنّ تردّدهم هو أنّهم يخشون ظهور أمر المسلمين، فلذلك لا يصارحونهم بالإعراض ويودّون خيبة المؤمنين، فلذلك لا يحبون الخروج معهم.

الحسنة: الحادثة التي تحسن لمن حلّت به واعترته. والمراد بها هنا النصر والغنيمة.

المصيبة: مشتقّة من أصاب بمعنى حلّ ونال وصادف، وخُصّت المصيبة في اللغة بالحادثة التي تعتري الإنسان فتسوءه وتحزنه. ولذلك عُبّر عنها بالسيئة في قوله تعالى { إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا } [آل عمران:120]. والمراد بها الهزيمة في الموضعين.

{ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ } ابتهاج منهم بمصادفة أعمالهم ما فيه سلامتهم فيزعمون أنّ يقظتهم وحزمهم قد صادفا المِحزَّ، إذ احتاطوا له قبل الوقوع في الضرّ.

الأخذ: حقيقته التناول، وهو هنا مستعار للاستعداد والتلافي.

الأمر: الحال المهمّ صاحبه. أي: قد استعددنا لما يهمّنا فلم نقع في المصيبة.

{ وَيَتَوَلَّوا وَهُمْ فَرِحُونَ } التولّي حقيقته الرجوع، وتقدّم في قوله تعالى { وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ } [البقرة:205]. وهو هنا تمثيل لحالهم في تخلّصهم من المصيبة، التي قد كانت تحلّ بهم لو خرجوا مع المسلمين، بحال من أشرفوا على خطر ثم سلموا منه ورجعوا فارحين مسرورين بسلامتهم وبإصابة أعدائهم.

{ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } [51].

تلقين جواب لقولهم { قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ } [50] المُنبئ عن فرحهم بما ينال المسلمين من مصيبة بإثبات عدم اكتراث المسلمين بالمصيبة وانتفاء حزنهم عليها لأنّهم يعلمون أنّ ما أصابهم ما كان إلّا بتقدير الله لمصلحة المسلمين في ذلك. وموقع هذا الجواب هو أنّ العدو يفرح بمصاب عدوّه لأنة ينكّد عدوه ويحزنه، فإذا علموا أنّ النبيّ لا يحزن لما أصابه زال فرحهم.

وفيه تعليم للمسلمين التخلّق بهذا الخلق، وهو أن لا يحزنوا لما يصيبهم لئلّا يهنو وتذهب قوّتهم، كما في قوله تعالى { وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ } [آل عمران:139-140]، وأن يرضوا بما قدّر الله لهم، ويرجوا رضى ربّهم لأنّهم واثقون بأنّ الله يريد نصر دينه.

{ هُوَ مَوْلاَنَا } في موضع الحال من اسم الجلالة، أو معترضة، أي: لا يصيبنا إلّا ما قدّره الله لنا، ولنا الرجاء بأنّه لا يكتب لنا إلّا ما فيه خيرنا العاجل أو الآجل، لأنّ المولى لا يرضى لمولاه الخزي.

{ **وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** } يجوز أن تكون معطوفة على جملة { قُلْ } فهي من كلام الله تعالى خبرا في معنى الأمر، أي: قل ذلك ولا تتوكّلوا إلّا على الله دون نصرة هؤلاء، أي: اعتمدوا على فضله عليكم. ويجوز أن تكون معطوفة على جملة { لَنْ يُصِيبَنَا }، أي: قل ذلك لهم، وقل لهم: إن المؤمنين لا يتوكّلون إلّا على الله، أي: يؤمنون بأنّه مؤيدهم.

{ قُلْ هَلْ تَتَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ } [52].

تتنزل هذه الجملة منزلة البيان لما تضمّنته جملة { قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا } [51]. والمعنى: لا تنتظرون من حالنا إلّا حسنة عاجلة أو حسنة آجلة، فأمّا نحن فننتظر من حالكم أن يعذّبكم الله في الآخرة بعذاب النّار، أو في الدنيا بعذاب على غير أيدينا من عذاب الله في الدنيا، كالجوع والخوف، أو بعذاب بأيدينا، وهو عذاب القتل، إذا أذن الله بحربكم، كما في قوله تعالى { لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ } [الأحزاب:60].

والاستفهام مستعمل في النفي بقرينة الاستثناء. ومعنى الكلام توبيخ لهم وتخطئة لتربّصهم، لأنّهم يتربّصون بالمسلمين أن يقتلوا، ويغفلون عن احتمال أن يُنصروا.

التربّص: انتظار حصول شيء مرغوب حصوله. وأكثر استعماله أن يكون انتظار حصول شيء لغير المنتظِر ولذلك كثرت تعدية فعل التربص بـ (الباء) لأنّ المتربّص ينتظر شيئا مصاحبا لآخر هو الذي لأجله الانتظار.

{ **وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ** } معطوفة على جملة الاستفهام. والمعنى: وجود البون بين الفريقين في عاقبة الحرب في حالَي الغلبة والهزيمة.

وجُعلت الجملة اسمية فلم يقل (ونتربّص بكم) بخلاف الجملة المعطوف عليها، لإفادة تقوية التربّص، وكناية عن تقويّة حصول المتربّص، لأنّ تقوية التربص تفيد قوة الرجاء في حصول المتربص فتفيد قوة حصوله وهو المُكنَّى عنه.

{ **فَتَرَبَّصُوا** } الأمر للتحضيض المجازي المفيد قلّة الاكتراث بتربّصهم.

{ **إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ** } تهديد للمخاطبين، والمعية هنا معية في التربّص، أو في زمانه، وفصلت هذه الجملة عن التي قبلها لأنّها كالعلة للحضّ.

{ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ } [53].

ابتداء كلام هو جواب عن قول بعض المستأذنين منهم في التخلف: " وأنا أعينك بمالي ". روي أنّ قائل

ذلك هو الجِدّ بن قيس، أحد بني سلمة، الذي نزل فيه قوله تعالى { وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلاَ تَفْتِنِّي } [49]، كما تقدّم، وكان منافقا. وكأنّهم قالوا ذلك، مع شدّة شحّهم، لأنّهم ظنّوا أنّ ذلك يرضي النبيّ صلى الله عليه وسلم عن قعودهم عن الجهاد.

{ **طَوْعًا أَوْ كَرْهًا** } أي: بمال تبذلونه عوضا عن الغزو، أو بمال تنفقونه طوعا مع خروجكم إلى الغزو. إدماج لتعميم أحوال الإنفاق في عدم القبول، فإنّهم لا ينفقون إلّا كرها لقوله تعالى بعد هذا { وَلاَ يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ } [54].

{ **أَنفِقُوا** }الأمر للتسوية، أي: أنفقوا أو لا تنفقوا، كما دلت عليه { أَوْ }، وهو في معنى الخبر الشرطي، لأنّه في قوّة أن يقال: لن يُتقبل منكم إن أنفقتم طوعا أو أنفقتم كرها.

الكَره: أشد الإلزام، وبينه وبين الطوع مراتب تعلم إرادتها بالأولى.

{ **إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ** } في موضع العلّة لنفي التقبّل، ولذلك وقعت فيها (إن) المفيدة لمعنى فاء التعليل، لأنّ الكافر لا يُتقبل منه عمل البرّ. والمراد بالفاسقين: الكافرون، ولذلك أعقِب بقوله تعالى { وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ } [54]. وإنّما اختير وصف الفاسقين دون الكافرين لأنّهم يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، فكانوا كالمائلين عن الإسلام إلى الكفر. والمقصود من هذا تأييسهم من الانتفاع بما بذلوه من أموالهم، فلعلّهم كانوا يحسبون أنّ الإنفاق في الغزو ينفعهم.

{ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ } [54].

بيان للتعليل لعدم قبول نفقاتهم بزيادة ذكر سببين آخرين مانعين من قبول أعمالهم، هما من آثار الكفر والفسوق، وهما: أنّهم لا يأتون الصلاة إلّا وهم كسالى، وأنّهم لا ينفقون إلّا وهم كارهون.

والكفر وإن كان وحده كافيا في عدم القبول، إلّا أنّ ذكر هذين السببين إشارة إلى تمكّن الكفر من قلوبهم، وإلى مذمّتهم بالنفاق الدال على الجبن والتردّد. فذكر الكفر بيان لذكر الفسوق، وذكر التكاسل عن الصلاة لإظهار أنّهم متهاونون بأعظم عبادة فكيف يكون إنفاقهم عن إخلاص ورغبة. وذكر الكراهية في الإنفاق لإظهار عدم الإخلاص في هذه الخصلة المتحدَّث عنها.

{ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ } [55].

تفريع على مذمّة حالهم في أموالهم، وأنّ وفرة أموالهم لا توجب لهم طمأنينة بال، بإعلام المسلمين أنّ ما يرونه من متاع الحياة الدنيا لبعض هؤلاء المنافقين لا ينبغي أن يكون محلّ إعجابهم، وأن يحسبوا

المنافقين قد نالوا شيئا من الحظ العاجل ببيان أنّ ذلك سبب في عذابهم في الدنيا.

فالخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم، والمراد تعليم الأمّة.

ولكون ذكر الأولاد كالتكملة هنا لزيادة بيان عدم انتفاعهم بكل ما هو مظنّة أن ينتفع به الناس، عطف الأولاد بإعادة حرف النفي بعد العاطف، إيماء إلى أنّ ذكرهم كالتكملة والاستطراد.

الإعجاب: استحسان مشوب باستغراب وسرور من المرئي، قال تعالى { وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ } [المائدة:100]. أي: استحسنت مرأى وفرة عدده.

{ **لِيُعَذِّبَهُمْ** } اللام للتعليل، تعلقت بفعل الإرادة للدلالة على أنّ المراد حكمة وعلة فتغني عن مفعول الإرادة.

وهذه اللام كثير وقوعها بعد مادة الإرادة ومادة الأمر. وبعض القراء سماها (لام أنْ) - بفتح الهمزة - وتقدّم عند قوله تعالى { يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ } [النساء:26].

{ **فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** } متعلّق بـ { لِيُعَذِّبَهُمْ }.

الزهوق: الخروج بشدّة وضيق، وقد شاع ذكره في خروج الروح من الجسد، وسيأتي مثل هذه الآية في هذه السورة.

{ **وَهُمْ كَافِرُونَ** } في موضع الحال من الضمير المضاف إليه لأنّه إذا زهقت النفس في حال الكفر فقد مات كافراً.

{ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ } [56].

هذه الجملة معطوفة على ما قبلها من أخبار أهل النفاق. وضمائر الجمع عائدة إليهم، قصد منها إبطال ما يموّهون به على المسلمين من تأكيد كونهم مؤمنين بالقَسَم.

{ **يَحْلِفُونَ / يَفْرَقُونَ** } اختيار صيغة المضارع للدلالة على التجدّد وأنّ ذلك دأبهم. وحُذف متعلّق { يَفْرَقُونَ } لظهوره، أي: يخافون من عداوة المسلمين لهم وقتالهم إيّاهم أو إخراجهم.

الفَرَق: الخوف الشديد.

{ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ } [57].

بيان لجملة { وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ }.

الملجأ: مكان اللجإ، وهو الإيواء والاعتصام.

المغارات: جمع مغارة، وهي الغار المتسع الذي يستطيع الإنسان الولوج فيه، ولذلك اشتق لها (المفعل) الدال على مكان الفعل، من غار الشيء إذا دخل في الأرض.

المُدّخل: مفتعل اسم مكان للإدخال الذي هو افتعال من الدخول.

{ **لَوَلَّوْا إِلَيْهِ** } لانصرفوا إلى أحد المذكورات وأصل ولّى أعرض، ولمّا كان الإعراض يقتضي جهتين: جهة ينصرف عنها، وجهة ينصرف إليها، كانت تعديته بأحد الحرفين تُعيّن المراد.

الجموح: حقيقته النفور، واستعمل هنا تمثيلا للسرعة مع الخوف.

<u>المعنى</u>: أنّهم لخوفهم من الخروج إلى الغزو لو وجدوا مكانا مما يختفي فيه المختفي فلا يشعر به النّاس لقصدوه مسرعين خشية أن يُعزم عليهم الخروج إلى الغزو.

{ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ} [58].

روي أنّ أبا الجَوَّاظ، من المنافقين، طعن في أن أعطى النبيّ صلى الله عليه وسلم من أموال الصدقات بعض ضعفاء الأعراب رعاء الغنم، إعانة لهم وتأليفا لقلوبهم، فقال: ما هذا بالعدل أن يضع صدقاتكم في رعاء الغنم، وقد أمر أن يقسمها في الفقراء والمساكين، وقد روي أنّه شافه بذلك النبيّ صلى الله عليه وسلم. وعن أبي سعيد الخدري أنّها نزلت في ذي الخويصرة التميمي الذي قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم: اعدل، وكان ذلك في قسمة ذهب جاء من اليمن سنة تسع.

فلعل السبب تكرّر، وقد كان ذو الخويصرة من المنافقين من الأعراب.

اللمزّ: القدح والتعييب.

{ **فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا** } أي: أنّ الطاعنين يطمعون أن يأخذوا من أموال الصدقات بوجه هدية وإعانة، فيكون ذلك من بلوغهم الغاية في الحرص والطمع. <u>ويحتمل</u> أنّهم يرومون أن لا تقسم الصدقات إلّا على فقرائهم، ولذلك كره أبو الجَوَّاظ أن يعطى الأعراب من الصدقات.

{ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ } [59].

ذكر الحالة المحمودة، بعد ذكر الحالة المذمومة.

رضي: إذا تعدى إلى المفعول دلّ على اختيار المرضي، وإذا عدي بالباء دلّ على أنّه صار راضيا بسبب ما دخلت عليه الباء، كقوله تعالى { أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا } [38]. وإذا عدّي بـ (عن) فمعناه أنّه تجاوز عن تقصيره أو عن ذنبه { فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَرْضَى عَنْ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ } [96].

الإيتاء: الإعطاء، وحقيقته إعطاء الذوات، ويطلق مجازا على تعيين المواهب كما في قوله تعالى { وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ } [البقرة:251]، وفي قوله تعالى { ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ } [المائدة:54].

{ **مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ** } أي: ما أوحى الله به إلى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يعطيهم.
حسب: اسم بمعنى الكافي، والكفاية تُستعمل بمعنى الاجتزاء. وتستعمل بمعنى وَلِيَ مهمّ المَكفي، كما في قوله تعالى { وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ }. وهي هنا من المعنى الأوّل.
{ **سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ** } بيان لجملة {حَسْبُنَا اللَّهُ} لأنّ كفاية المهمّ تقتضي تعهّد المُكفي بالعوائد ودفع الحاجة. والإيتاء فيه بمعنى إعطاء الذوات.
الفضل: زيادة الخير والمنافع، قال تعالى { إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ } [غافر:61].
{ **إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ** } تعليل، أي: لأننا راغبون فضله. وتقديم المجرور لإفادة القصر، أي: إلى الله راغبون لا إلى غيره. و**الرغبة**: الطلب بتأدّب.

{ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [60].

استطراد نشأ عن ذكر اللمز في الصدقات أدمج فيه تبيين مصارف الصدقات.
وانحصارها في الأصناف الثمانية دون صنف آخر يُستفاد من الاقتصار عليها في مقام البيان، إذ لا تكون صيغة القصر مستعملة للحقيقي والإضافي معا إلّا على طريقة استعمال المشترك في معنييه.
الفقير: صفة مشبّهة، أي: المتصف بالفقر وهو عدم امتلاك ما به كفاية لوازم الإنسان في عيشه، وضدّه الغنيّ. وقد تقدّم عند قوله تعالى { إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا } [النساء:135].
المسكين: ذو المسكنة، وهي المذلّة التي تحصل بسبب الفقر، ولا شك أن ذكر أحدهما يغني عن ذكر الآخر، وإنّما النظر فيما إذا جُمع ذكرهما في كلام واحد.
فقيل: هو من قبيل التأكيد، ونسب إلى أبي يوسف ومحمد بن الحسن وأبي علي الجبائي.
وقيل: يراد بكل من الكلمتين معنى غير المراد من الأخرى، واختلف في تفسير ذلك على أقوال كثيرة، الأوضح منها أن يكون المراد بالفقير المحتاج احتياجا لا يبلغ بصاحبه إلى الضراعة والمذلة، والمسكين المحتاج احتياجا يلجئه إلى الضراعة والمذلّة، ونسب هذا إلى مالك، وأبي حنيفة، وابن عباس، والزهري، وابن السكيت، ويونس بن حبيب. فالمسكين أشدّ حاجة .
وقد تقدّم الكلام عليهما عند قوله تعالى { وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ } [النساء:36]
{ **وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا** } معناه: العاملون لأجلها، وهؤلاء هم الساعون على الأحياء لجمع الزكاة الماشية.
واختيار حرف (على) في هذا المقام لِما يُشعر به أصل معناه من التمكّن، أي: العاملين لأجلها عملًا قويا، لأنّ السعاة يتجشمون مشقة وعملا عظيما.
وممن كان على الصدقة في زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم حَمَل بن مالك بن النابغة الهذلي كان على صدقات هُذيل.

{ وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ } هم الذين تُؤنَّس نفوسهم للإسلام من الذين دخلوا في الإسلام بحدثان عهد، أو من الذين يرغبون في الدخول في الإسلام. و**التأليف**: إيجاد الألفة وهي التأنّس.

وللمؤلفة قلوبهم أحوال: فمنهم من كان حديث عهد بالإسلام، وعُرف حينها ضعف في إسلامه، مثل: أبي سفيان بن حرب، والحارث بن هشام، من مسلمة الفتح، ومنهم من هم كفّار أشداء، مثل: عامر بن الطفيل، ومنهم من هم كفّار، وظهر منهم ميل إلى الإسلام، مثل: صفوان بن أمية. فمثل هؤلاء أعطاهم النبيّ صلى الله عليه وسلم من أموال الصدقات وغيرها يتألّفهم على الإسلام، وقد بلغ عدد من عدّهم ابن العربي في (الأحكام) من المؤلفة قلوبهم: تسعة وثلاثين رجلا.

{ وَفِي الرِّقَابِ } التقدير: فك الرقاب، بشراء أو إعانة على نجوم كتابة، أو فداء أسرى مسلمين، لأنّ الأسرى عبيد لمن أسروهم، وقد مضى في قوله تعالى { وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ } [البقرة:177].

{ وَالْغَارِمِينَ } المدينون الذين ضاقت أموالهم عن أداء ما عليهم من الديون، بحيث يُرزأ دائنوهم شيئا من أموالهم، أو يُرزأ المدينون ما بقي لهم من مال لإقامة أود الحياة، فيكون من صرف أموال من الصدقات في ذلك رحمة للدائن والمدين.

{ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ } الجهاد، أي: يصرف من أموال الصدقات ما تقام به وسائل الجهاد من آلات وحراسة في الثغور.

{ وَابْنَ السَّبِيلِ } الغريب بغير قومه.

ولفقهاء الأمّة في الأحكام المستمّدة من هذه الآية طرائق جمّة، وأفهام مهمّة، ينبغي أن نلمّ بالمشهور منها بما لا يفضي بنا إلى الإطالة، وإنّ معانيها لأوفر ممّا تفي به المقالة.

*/ **فأمّا ما يتعلق بجعل الصدقات لهؤلاء الأصناف**: فقد اختلف العلماء في استحقاق المستحقّين:

هل يجب إعطاء كل صنف مقدارا من الصدقات؟

وهل تجب التسوية بين الأصناف فيما يُعطى كل صنف من مقدارها؟

<u>الذي عليه جمهور العلماء</u> أنّه لا يجب الإعطاء لجميع الأصناف، بل التوزيع موكول لاجتهاد ولّاة الأمور يضعونها على حسب حاجة الأصناف وسعة الأموال، وهذا قول عمر بن الخطاب، وعلي، وحذيفة، وابن عباس، وسعيد بن جبير، وأبي العالية، والنخعي، والحسن، ومالك، وأبي حنيفة. وعن مالك أنّ ذلك مما أجمع عليه الصحابة، قال ابن عبد البر: ولا نعلم مخالفا في ذلك من الصحابة، وعن حذيفة. إنّما ذكر الله هذه الأصناف لتُعرف، وأيّ صنف أعطيت منها أجزأك. قال الطبري: الصدقة لسدّ خلة المسلمين أو لسد خلة الإسلام، وذلك مفهوم من مآخذ القرآن في بيان الأصناف وتعدادهم.

قلتُ: وهذا الذي اختاره حذّاق النظار من العلماء، مثل ابن العربي، وفخر الدين الرازي.

<u>وذهب عكرمة، والزهري، وعمر بن عبد العزيز، والشافعي</u>، إلى وجوب صرف الصدقات لجميع

الأصناف الثمانية لكل صنف ثمن الصدقات فإن انعدم أحد الأصناف قسمت الصدقات إلى كسور بعدد ما بقي من الأصناف. واتفقوا على أنّه لا يجب توزيع ما يعطى إلى أحد الأصناف على جميع أفراد ذلك الصنف.

***/ وأمّا ما يرجع إلى تحقيق معاني الأصناف، وتحديد صفاتها:**

فالأظهر في تحقيق وصف الفقير والمسكين أنّه موكول إلى العرف، وأنّ الخصاصة متفاوتة وقد تقدمّ آنفا. واختلف العلماء في ضبط المكاسب التي لا يكون صاحبها فقيرا، واتفقوا على أن دار السكنى والخادم لا يعدان مالا يَرفَع عن صاحبه وصف الفقر.

وأمّا القدرة على التكسّب، فقيل: لا يعد القادر عليه فقيرا ولا يستحق الصدقة بالفقر وبه قال الشافعي، وأبو ثور، وابن خويز منداد، ويحيى بن عمر من المالكية.

وأمّا العاملون عليها فهم يتعينون بتعيين الأمير، وعن ابن عمر يعطون على قدر عملهم من الأجرة. وهو قول مالك وأبي حنيفة.

وأما المؤلّفة قلوبهم فقد أعطاهم النبيّ صلى الله عليه وسلم عطايا متفاوتة من الصدقات وغيرها.

فأمّا الصدقات فلهم حقّ فيها بنص القرآن، وأمّا غير الصدقات فبفعل النبيّ صلى الله عليه وسلم، واستمر عطاؤهم في خلافة أبي بكر، وزمن من خلافة عمر، وكانوا يعطون بالاجتهاد، ولم يكونوا يعينون لهم ثمن الصدقات ثم اختلف العلماء في استمرار هذا المصرف.

عن عمر بن الخطاب أنه انقطع سهمهم بعزة الإسلام، وبه قال الحسن، والشعبي، ومالك بن أنس وأبو حنيفة، وقد قيل: إنّ الصحابة أجمعوا على سقوط سهم المؤلفة قلوبهم من عهد خلافة أبي بكر، حكاه القرطبي، ولا شك أن عمر قطع إعطاء المولفة قلوبهم مع أن صنفهم لا يزال موجودا، رأى أن الله أغنى دين الإسلام بكثرة أتباعه فلا مصلحة للإسلام في دفع أموال المسلمين لتأليف قلوب من لم يتمكّن الإسلام من قلوبهم، ومن العلماء من جعل فعل عمر وسكوت الصحابة عليه إجماعا سكوتيا. وقال كثير من العلماء: هم باقون إذا وُجدوا فإنّ الإمام ربما احتاج إلى أن يستألف على الإسلام، وبه قال الزهري، وعمر بن عبد العزيز، والشافعي، وأحمد بن حنبل، واختاره عبد الوهاب.

و قال ابن العربي: " الصحيح عندي أنّه إن قوي الإسلام زالوا وإن احتيج إليهم أعطوا ".

{ وَفِي الرِّقَابِ } في شراء الرقيق للعتق، ودفع ما على المكاتب من مال تحصل به حريته، وهو رواية المدنيين عن مالك، وقيل: لا يعان بها المكاتب. وفداء الأسرى من فك الرقاب على الأصح من المذهب، وهو لابن عبد الحكم، وابن حبيب، خلافا لأصبغ من المالكية.

وأمّا الغارمون فشرطهم أن لا يكون دينهم في معصية إلّا أن يتوبوا. والميّت المدين الذي لا وفاء لدينه في تركته يُعدّ من الغارمين عند ابن حبيب، خلافا لابن الموّاز.

وسبيل الله لم يُختلف أن الغزو هو المقصود. والحقّ أن سبيل الله يشمل شراء العدة للجهاد من سلاح،

وخيل، ومراكب بحرية، ونوتيه، ومجانيق، وللحملان، ولبناء الحصون، وحفر الخنادق، وللجواسيس الذين يأتون بأخبار العدو، قاله محمد ابن عبد الحكم من المالكية ولم يذكر أن له مخالفا.

وذهب بعض السلف أنّ الحج من سبيل الله يدخل في مصارف الصدقات، وروي عن ابن عمر، وأحمد، وإسحاق. وهذا اجتهاد وتأويل. قال ابن العربي: " وما جاء أثر قط بإعطاء الزكاة في الحج ".

وأمّا ابن السبيل فلم يُختلف في الغريب المحتاج في بلد غربته أنّه مراد ولو وجد من يسلفه، إذ ليس يلزمه أنّ يدخل نفسه تحت منّة. واختُلف في الغني: فالجمهور قالوا: لا يعطى، وهو قول مالك، وقال الشافعي وأصبغ: يُعطى ولو كان غنيا في بلد غربته.

{ **فَرِيضَةً مِنْ اللَّهِ** } منصوب على أنّه مصدر مؤكِّد لمصدر محذوف يدلّ عليه قوله تعالى { إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ }

لأنّه يفيد معنى فَرَضَ الله أو أوجَبَ، فأكِّد بـ { فَرِيضَةً } من لفظ المقدّر ومعناه، والمقصود من هذا تعظيم شأن هذا الحكم والأمر بالوقوف عنده.

{ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** } أي: والله عليم حكيم في قصر الصدقات على هؤلاء.

الحكيم: الذي أحكم الأشياء التي خلقها أو شرعها.

{ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [61].

عطفٌ ذُكر فيه خُلُق آخر من أخلاق المنافقين، وهو تعلّلهم على ما يعاملهم به النبيّ والمسلمون من الحذر، وما يطّلعون عليه من فلتات نفاقهم، يزعمون أنّ ذلك إرجاف من المرجفين بهم إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم وأنّه يصدّق القالة فيهم، ويتّهمهم بما يبلغه عنهم ممّا هم منه برآء. وفيه زيادة في الأذى للرسول صلى الله عليه وسلم وإلقاء الشك في نفوس المسلمين في كمالات نبيّهم عليه الصلاة والسلام.

{ **يُؤْذُونَ النَّبِيَّ** } التعبير بـ { النَّبِيَّ } إظهار في مقام الأضمار لأنّ قبله { وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ} [58]، عُدل عن الإضمار إلى إظهار وصف النبيّ للإيذان بشناعة قولهم ولزيادة تنزيه النبيّ بالثناء عليه بوصف النبوّة، بحيث لا تُحكى مقالتهم فيه إلّا بعد تقديم ما يشير إلى تنزيهه والتعريض بجرمهم فيما قالوه. وقد عُدّ من هؤلاء المنافقين، القائلين ذلك: الجُلَاسُ بن سُويد، قبل توبته، ونَبْتَل بن الحارث، وعتاب بن قشير، ووديعة بن ثابت.

الأذى: الإضرار الخفيف، وأكثر ما يطلق على الضرّ بالقول والدسائس، ومنه قوله تعالى { لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى } [آل عمران:111]، وقوله تعالى { وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا } [الأنعام:34].

الأذن: الجارحة التي بها حاسة السمع.

{ **هُوَ أُذُنٌ** } كناية عن تصديقه بكل ما يسمع من دون تمييز بين المقبول والمردود. روي أنّ قائل هذا هو نَبْتَل بن الحارث أحد المنافقين.

{ **قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ** } جملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا لإبطال قولهم بقلب مقصدهم إغاظة لهم، وكمدا لمقاصدهم، وهو من الأسلوب الحكيم الذي يحمل فيه المخاطب كلام المتكلم على غير ما يريده. وهذا من غيرة الله على رسوله عليه الصلاة والسلام، وهذا من لطائف القرآن.

{ **أُذُنُ خَيْرٍ** } أي: أنّه يسمع ما يبلغه عنكم ولا يؤاخذكم، ويسمع معاذيركم ويقبلها منكم، فقبوله ما يسمعه ينفعكم ولا يضرّكم فهذا أذن في الخير.

{ **يُؤْمِنُ بِاللَّهِ** } فهو يعامل الناس بما أمر الله به من المعاملة بالعفو، والصفح، والأمر بالمعروف، والإعراض

عن الجاهلين، وبأن لا يؤاخذ أحد إلّا ببيّنة، فالنّاس في أمن من جانبه فيما يبلغ إليه، لأنّه لا يعامل إلا بالوجه المعروف فكونه يؤمن بالله وازع له عن المؤاخذة بالظنّة والتهمة.

{ **وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ** } تصديقهم في ما يخبرونه، يقال: آمن لفلان بمعنى صدّقه، ولذلك عدّي بـ (اللام) دون (الباء) كما في قوله تعالى { وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ } [يوسف:17]. فتصديقه إيّاهم لأنّهم صادقون لا يكذبون، لأنّ الإيمان وازع لهم عن أن يخبروه الكذب. فكما أن الرّسول لا يؤاخذ أحدا بخبر الكاذب فهو يعامل الناس بشهادة المؤمنين. فهذا ثناء عليه.

{ **وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ** } كونه رحمة للذين يؤمنون بعد علمه بنفاقهم أثر لإغضائه عن إجرامهم ولإمهالهم حتّى يتوبوا ويؤمنوا الإيمان الصادق.

{ **وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** } أُعقب الترغيب بالترهيب من عواقب إيذاء الرسول، وهو إنذار بعذاب الآخرة وعذاب الدنيا. وفي ذكر النبيّ بوصف { رَسُولَ اللَّهِ } إيماء إلى استحقاق مؤذيه العذاب الأليم.

{ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ } [62].

الجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا لإعلام الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بأنّ المنافقين يحلفون الأيمان الكاذبة، فلا تغرّهم أيمانهم، فضمير يحلفون عائد إلى الذين يؤذون النبيّ.

{ **لَكُمْ** } كاف الخطاب للمسلمين، وذلك يدل على أنّ المنافقين يحلفون على التبرّؤ ممّا يبلغ المسلمين من أقوالهم المؤذية للرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك يغيظ المسلمين وينكرهم عليهم، والنبيّ صلى الله عليه وسلم يغضي عن ذلك.

{ **وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ** } أي: أحقّ منكم بأن يرضوهما، وسيأتي تعليل أحقيّة الله ورسوله بأن يرضوهما في الآية التي بعدها، فإرضاء الله بالإيمان به وبرسوله وتعظيم رسوله، وإرضاء الرسول

بتصديقه ومحبّته وإكرامه.

{ **أَنْ يُرْضُوهُ** } أفرد الضمير مع أنّ المعاد اثنان، لأنّه أريد عود الضمير إلى أوّل الاسمين، واعتبار العطف من عطف الجمل، بتقدير: والله أحقّ أن يرضوه ورسوله كذلك، فيكون الكلام جملتين ثانيتهما كالاحتراس وحذف الخبر إيجاز. ومن نكتة ذلك الإشارة إلى التفرقة بين الإرضاءين.

{ **إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ** } شرط مستعمل للحثّ والتوقّع لإيمانهم، لأنّ ما حُكي عنهم من الأحوال لا يبقى معه احتمال في إيمانهم، فاستُعمل الشرط للتوقّع وللحثّ على الإيمان. وفيه أيضا تسجيل عليهم، إن أعادوا مثل صنيعهم، بأنّهم كافرون بالله ورسوله، وفيه تعليم للمؤمنين وتحذير من غضب الله ورسوله.

{ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ } [63].

الاستفهام مستعمل في الإنكار والتشنيع، لأنّ عدم علمهم بذلك محقّق بضرورة أنّهم كافرون بالرّسول، وبأنّ رضى الله عند رضاه، ولكن لمّا كان عدم علمهم بذلك غريبا لوجود الدلائل المقتضية أنّه ممّا يحق أن يعلموه، كان حال عدم العلم به حالا منكرا. وقد كثر استعمال هذا ونحوه في الإعلام بأمر مهم، كقوله تعالى في هذه السورة { أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ} [78]، وكذلك قوله تعالى فيها { أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ } [104].

المحادّة: المعاداة والمخالفة. وفكّ الدالان لأنّه وقع مجزوما فجاز فيه الفك والإدغام، والفكّ أشهر وأكثر في القرآن، وهو لغة أهل الحجاز.

{ **جَهَنَّمَ** } تقدّم ذكرها عند قوله تعالى { فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ } [البقرة:206].

{ **الْخِزْيُ** } الذلّ والهوان، وتقدّم عند قوله تعالى { فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [البقرة:85].

{ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ } [64].

ظاهر الكلام أنّ الحذر صادر منهم، وهذا الظاهر ينافي كونهم لا يصدّقون بأنّ نزول القرآن من الله وأنّ خبره صدق فلذلك تردّد المفسّرون في تأويل هذه الآية.

وأحسن ما قيل في ذلك قول أبي مسلم الأصفهاني : " هو حذر يظهره المنافقون على وجه الاستهزاء. فأخبر الله رسوله بذلك وأمره أنّ يعلمهم بأنّه يُظهر سرّهم الذي حذروا ظهوره ".

و{ قُلْ اسْتَهْزِئُوا } دلالة على ما ذكرناه، أي: هم يظهرون ذلك يريدون به إيهام المسلمين بصدق إيمانهم

وما هم إلّا مستهزئون بالمسلمين فيما بينهم.

{ **يَحْذَرُ** } أطلق على التظاهر بالحذر، فإنّ المنافقين لمّا كانوا مبطنين الكفر لم يكن من شأنهم الحذر من نزول القرآن بكشف ما في ضمائرهم، لأنّهم لا يصدّقون بذلك فتعيّن صرف فعل { يَحْذَرُ } إلى معنى يتظاهرون بالحذر، وعلى هذا القول يكون إطلاق الفعل على التظاهر بمدلوله من غرائب المجاز.

وتأوّل الزجّاج الآية بأنّ { يَحْذَرُ } خبر مستعمل في الأمر، أي: ليحذر. وعلى تأويله تكون جملة { قُلْ اسْتَهْزِئُوا } استئنافا ابتدائيا لا علاقة لها بجملة { يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ }.

{ **عَلَيْهِمْ** } بمعنى لام التعليل، أي: تنزّل لأجل أحوالهم كقوله { وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ } [البقرة:185].

{ **تُنَبِّئُهُمْ** } أي: تنبئ عنهم، أي: تنبئ الرّسول بما في قلوبهم.

ويجوز أن يكون تاء { تُنَبِّئُهُمْ } تاء الخطاب، والخطاب للرّسول صلى الله عليه وسلم، أي: تنبئهم أنت بما في قلوبهم.

السورة: طائفة معيّنة من آيات القرآن، ذات مبدأ ونهاية وقد تقدّم بيانها عند تفسير طالعة سورة الفاتحة.

التنبئة: الإخبار والإعلام مصدر نبّأ الخبرَ، وتقدّم في قوله { وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ } [الأنعام:34].

الاستهزاء: تقدّم في قوله تعالى { إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ } [البقرة:14].

{ **إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ** } الإخراج مستعمل في الإظهار مجازا. والمعنى: أنّ الله مظهر ما في قلوبكم بإنزال السور، مثل سورة المنافقين، وهذه سورة، التي من أسمائها الفاضحة.

المعنى: إظهار سرائرهم، وكونه في سورة تنزّل، وهو أنكى لهم، ففيه إيجاز بديع كقوله تعالى { وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ } [مريم:80] بعد قوله تعالى { وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا } [مريم:77]. أي: نرثه ماله وولده.

{ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ } [65].

روي أنّ المقصود من هذه الآية أنّ ركبا من المنافقين الذين خرجوا في غزوة تبوك نفاقا، منهم: وديعة بن ثابت العَوْفي، ومخشي بن حُمَيِّر الأشجعي، حليف بني سلمة، وقفوا على عقبة في الطريق ينظرون جيش المسلمين فقالوا: انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتتح حصون الشام، هيهات هيهات. فسألهم النبيّ صلى الله عليه وسلم عن مناجاتهم فأجابوا: " إنّما كنّا نخوض ونلعب ".

وعندي أنّ هذا لا يتجه، لأنّ صيغة الشرط مستقبلة، فالآية نزلت فيما هو أعمّ، ممّا يسألون عنه في المستقبل، إخبارا بما سيجيبون، فهم يسألون عمّا يتحدّثون في مجالسهم ونواديهم، التي ذكرها الله تعالى

في قوله تعالى { وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ } [البقرة:14]، لأنّهم كانوا كثيري الانفراد عن مجالس المسلمين. والتقدير: ولئن سألتهم عن حديثهم في خلواتهم.

الخوض: تقدّم في قوله تعالى { وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا } [الأنعام:58].

اللعب: تقدّم في قوله تعالى { وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ } [الأنعام:32].

{ **قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ** } لمّا كان اعتذارهم مبهما ردّ عليهم ذلك، إذ أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيبهم جواب الموقن بحالهم بعد أن أعلمه بما سيعتذرون به.

والاستفهام إنكاري توبيخي. وتقديم المعمول وهو { أَبِاللَّهِ } على فعله العامل فيه لقصد قصر التعيين لأنّهم لمّا أتوا في اعتذارهم بصيغة قصر تعيين جيء في الرد عليهم بصيغة قصر تعيين لإبطال مغالطتهم في الجواب، فأعلمهم بأنّ لعبهم الذي اعترفوا به ما كان إلّا استهزاء بالله وآياته ورسوله لا يغير أولئك.

{ لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ } [66].

{ **لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ** } لمّا كشف الله أمر استهزائهم أردفه بإظهار قلّة جدوى اعتذارهم، إذ قد تلبّسوا بما هو أشنع وأكبر ممّا اعتذروا عنه، وهو التباسهم بالكفر بعد إظهار الإيمان. فإنّ الله لما أظهر نفاقهم كان ما يصدر عنهم من الاستهزاء أهون.

{ **لاَ تَعْتَذِرُوا** } من جملة القول الذي أمر الرّسول أن يقوله، فهي متضمّنة توكيدا لمضمون جملة { أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ } [65]، مع زيادة ارتقاء في التوبيخ وارتقاء في مثالبهم بأنّهم تلبّسوا بما هو أشدّ وهو الكفر، فلذلك قُطعت الجملة عن التي قبلها. والنهي مستعمل في التسوية وعدم الجدوى.

فالمعنى: لا حاجة بكم للاعتذار عن التناجي فإنّكم قد عُرفتم بما هو أعظم وأشنع.

{ **قَدْ كَفَرْتُمْ** } يدل على وقوع الكفر في الماضي، أي: قبل الاستهزاء.

{ **بَعْدَ إِيمَانِكُمْ** } المراد إظهار الإيمان لا وقوع حقيقته. وقد أنبأ عن ذلك إضافة الإيمان إلى ضميرهم دون تعريف الإيمان باللام المفيدة للحقيقة، وهذا تعريض بأنّه الإيمان الصوري غير الحقّ، ونظيره قوله تعالى

{ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ } [74]. وهذا من لطائف القرآن.

{ **إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ** } جاءت هذه الجملة على عادة القرآن في تعقيب النذارة بالتبشير للراغب في التوبة تذكيرا له بإمكان تدارك حاله.

ولمّا كان حال المنافقين عجيبا كانت البشارة لهم مخلوطة ببقيّة النذارة، فأنبأهم أنّ طائفة منهم قد يُعفى عنها إذا طلبت سبب العفو، وهو إخلاص الإيمان، وأنّ طائفة تبقى في حالة العذاب. والآيات الواردة بعد هذه تزيد ما دلّ عليه المقام وضوحا من قوله { نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ - إلى قوله - عَذَابٌ مُقِيمٌ } [68/67].

وقوله تعالى بعد ذلك { فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُنْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ } [74].

وقد آمن بعض المنافقين بعد نزول هذه الآية، وذكر المفسّرون من هذه الطائفة (مَخْشِيًّا بن حُمَيِّر الأشجعي)، لمّا سمع هذه الآية تاب من النفاق، وحسن إسلامه فعُدّ من الصحابة وقد جاهد يوم اليمامة واستشهد فيه. وقد قيل: إنّه المقصود (بالطائفة) دون غيره، فيكون من باب إطلاق لفظ الجماعة على الواحد في مقام الإخفاء والتعمية.

{ **بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ** } الباء للسببية، والمجرم هنا يراد به الكافر.

{ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } [67].

يظهر أنّ تكون هذه الآية احتراسا عن أن يظنّ المنافقون أنّ العفو المفروض لطائفة منهم هو عفو ينال فريقا منهم باقين على نفاقهم، فعُقّب ذلك ببيان أنّ النفاق حالة واحدة وأنّ أصحابه سواء، ليُعلم بذلك أن افتراق أحوالهم بين عفو وعذاب لا يكون إلّا إذا اختلفت أحوالهم بالإيمان والبقاء على النفاق.

{ **وَالْمُنَافِقَاتُ** } تنصيص على تسوية الأحكام لجميع المتصفين بالنفاق، ذكورهم وإناثهم، كيلا يخطر بالبال أنّ العفو يصادف نساءهم والمؤاخذة خاصة بذكرانهم، ليعلم النّاس أن لنساء المنافقين حظا من مشاركة رجالهنّ في النفاق فيحذروهنّ.

{ **بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ** } شمل جميع المنافقين والمنافقات، لأنّ كل فرد هو بعض من الجميع، فإذا كان كل بعض متصلا ببعض آخر عُلم أنهم سواء في الأحوال.

{ **يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ** } مبيّنة لمعنى الاتصال والاستواء في الأحوال.

المنكر: المعاصي لأنّها ينكرها الإسلام. و**المعروف**: ضدّها، لأنّ الدين يرضاه، وقد تقدّما في قوله تعالى { وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ } [آل عمران:104].

قبض الأيدي: كناية عن الشحّ، وهو وصف ذمّ لدلالته على القسوة، لأنّ المراد الشحّ على الفقراء.

{ **نَسُوا اللَّهَ** } النسيان مستعار للإشراك بالله، أو للإعراض عن ابتغاء مرضاته وامتثال ما أمر به، لأنّ الإهمال والإعراض يشبه نسيان المعرَض عنه.

{ **فَنَسِيَهُمْ** } نسيان الله إيّاهم مشاكلة، أي: حرمانه إيّاهم ممّا أعد للمؤمنين، لأنّ ذلك يشبه النسيان عند قسمة الحظوظ.

{ **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** } فذلكة للتي قبلها فلذلك فُصلت لأنّها كالبيان الجامع. وصيغة القصر، قصر ادعائي للمبالغة، لأنّهم لمّا بلغوا النهاية في الفسوق جُعل غيرهم كمن ليس بفاسق.

{ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ } [68].

هذه الجملة إمّا استئناف بياني ناشئ عن قوله تعالى { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } [67]، وإمّا مبيّنة لجملة { فَنَسِيَهُمْ } [67]، لأنّ الخلود في جهنّم واللعن بيان للمراد من نسيان الله إيّاهم.

الوعد: أعم من الوعيد، فهو يطلق على الإخبار بالتزام المخبِر للمخبَر بشيء في المستقبل نافع أو ضار أو لا نفع فيه ولا ضر. قال تعالى { هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَانُ } [يس:52]. والوعيد خاص بالضّار.

والماضي هنا، إشعار بأنّه وعيد لا يتخلّف مثل العقد والالتزام.

{ **الْكُفَّارَ** } للدلالة على أنّ المنافقين ليسوا بأهون حالا من المشركين إذ قد جمع الكفر الفريقين.

{ **هِيَ حَسْبُهُمْ** } أنّها ملازمة لهم. وأصل حسب أنّه بمعنى الكافي، ولمّا كان الكافي يلازمه المكفي كُنّي به هنا عن الملازمة، ويجوز أن يكون { حَسِبَ } على أصله ويكون ذكره في هذا المقام تهكّما بهم، كأنّهم طلبوا النعيم، فقيل: حسبهم نار جهنم.

اللعن: الإبعاد عن الرحمة والتحقير والغضب.

العذاب المقيم: إن كان المراد به عذاب جهنم فهو تأكيد لقوله تعالى { خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ } لدفع احتمال إطلاق الخلود على طول المدة، وتأكيد للكناية في قوله تعالى { هِيَ حَسْبُهُمْ }، وإن كان المراد به عذابا آخر تعيّن أنّه عذاب في الدنيا وهو عذاب الخزي والمذلة بين الناس.

{ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاَقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } [69].

قيل: هذا الخطاب التفات عن ضمائر الغيبة الراجعة إلى المنافقين إلى خطابهم لقصد التفريع والتهديد بالموعظة، والتذكير عن الغرور بما هم فيه من نعمة الإمهال، بأنّ آخر ذلك حبط الأعمال في الدنيا والآخرة، وأن يحقّ عليهم الخسران.

وقيل: هذا من بقية المقول المأمور بأن يبلّغه النبيّ صلى الله عليه وسلم إيّاهم من قوله تعالى { قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ } [65]. فضمير الخطاب لهم جار على مقتضى الظاهر بدون التفات، والكلام مسوق لتشبيه حالهم في مصيرهم إلى النّار.

{ **كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاَقِهِمْ** } معناه أقوى، والقوة هنا القدرة على الأعمال الصعبة. أو يراد بها العزّة وعُدّة الغلب باستكمال العَدد والعُدد.

كثرة الأموال: لها أسباب كثيرة؛ منها طيب الأرض للزرع والغرس، ومنها وفرة التجارة بحسن موقع

الموطن، ومنها اشتمال الأرض على الخيرات.

كثرة الأولاد: تأتي من الأمن بسبب بقاء الأنفس، ومن الخصب المؤثّر قوة الأبدان والسلامة من المجاعات المعقبة للموتان، ومن حسن المناخ بالسلامة من الأوبئة المهلكة، ومن الثروة بكثرة الأزواج.

الاستمتاع: التمتّع، والسين والتاء فيه للمبالغة في قوة التمتع، وهو نوال أحد المتاع الذي به التذاذ الإنسان. وتقدّم عند قوله تعالى { وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ } [الأعراف:24].

الخلاق: الحظّ من الخير، و تقدّم عند قوله تعالى { فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ } [البقرة:200].

{ **فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاَقِكُمْ** } هذه الجملة هي المقصد من التشبيه وما تفرّع عليه، وقد كان ذكر هذه الجملة يغني عن ذكر جملة { فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاَقِهِمْ } لولا قصد الموعظة بالفريقين، المشبَّه بهم والمشبهين، في إعراض كليهما عن أخذ العدّة للحياة الدائمة وفي انصبابهما على التمتّع العاجل فلم يكتف في الكلام بالاقتصار على حال أحد الفريقين قصدا، للاعتناء بكليهما، فذلك الذي اقتضى هذا الإطناب.

{ **كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ** } تأكيد للتشبيه، وللتنبيه على أنّ ذلك الجزء بخصوصه، من بين الحالة المشبّهة والحالة المشبّه بها، هو محلّ الموعظة والتذكير، فلا يغرّهم ما هم فيه من نعمة الإمهال والاستدراج.

{ **وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا** } تشبيه لخوض المنافقين بخوض أولئك، وهو الخوض الذي حُكي عنهم في قوله تعالى { لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ } [65]. أي: وخضتم في الكفر والاستهزاء بآيات الله ورسوله كالخوض الذي خاضوه في ذلك، فأنتم وهم سواء، فيوشك أن يحيق بكم ما حاق بهم.

وكلامنا في هذين التشبيهين أدقّ ما كتب فيهما.

{ **أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ** }

الحبط: الزوال والبطلان. تقدّم في قوله تعالى { فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ } [البقرة:217].

أعمالهم: ما كانوا يعملونه ويكدحون فيه، من معالجة الأموال والعيال والانكباب عليهما.

وفي هذا كلّه تذكرة للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بأن لا يظنّوا أنّ الله لمّا أمهل المنافقين قد عفا عنهم.

{ **وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ** } قصر مقصود به المبالغة. وإعادة اسم الإشارة للاهتمام بتمييز المتحدَّث عنهم لزيادة تقرير أحوالهم في ذهن السامع.

{ **أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** } [70].

عاد الكلام على المنافقين، والاستفهام موجّه للمخاطب تقريرا عنهم، بحيث يكون كالاستشهاد عليهم بأنّهم أتاهم نبأ الذين من قبلهم.

الإتيان: مستعمل في بلوغ الخبر كقوله تعالى { يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ } [المائدة:41]، شُبّه حصول الخبر عند المخبر بإتيان الشخص.

النبأ: الخبر، وتقدّم في قوله تعالى { وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ } [الأنعام:34].

قوم نوح: تقدّم الكلام عليهم عند قوله تعالى { لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ } [الأعراف:59].

نوح: تقدّم ذكره عند قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا } [آل عمران:33].

عاد و**ثمود:** تقدّم الكلام عليهما عند قوله تعالى { وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا } [الأعراف:65].

قوم إبراهيم: هم الكلدانيون، وتقدّم الكلام على إبراهيم وعليهم عند قوله تعالى { وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ } [البقرة:124].

{ **أَصْحَابِ مَدْيَنَ** } الإضافة باعتبار إطلاق اسم مدين على الأرض التي كان يقطنها بنو مدين، فكما أنّ مدين اسم للقبيلة، كما في قوله تعالى { وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا } [الأعرف:85]. كذلك هو اسم لموطن تلك القبيلة. وقد تقدّم ذكر مدين عند قوله تعالى { وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا } [الأعراف:85].

{ **الْمُؤْتَفِكَاتِ** } جمع مؤتفكة، اسم فاعل من الائتفاك وهو الانقلاب. أي: القرى التي انقلبت، والمراد بها قرى صغيرة كانت مساكن قوم لوط وهي (**سدوم / عمورة / أدَمة / صِبْويم**)، وكانت قرى متجاورة فخُسف بها وصار عاليها سافلها. وكانت في جهات الأردن حول البحر الميت، ونبأ هؤلاء مشهور معلوم، وهو خبر هلاكهم واستئصالهم بحوادث مهولة.

{ **أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ** } أي: أتتهم رسلهم بدلائل الصدق والحق.

{ **فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** } تفريع على جملة { أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ }، لأنّ الذي تفرَّع على إتيان الرسل أنّهم ظلموا أنفسهم بالعناد، والمكابرة، والتكذيب للرسل، وصمّ الآذان عن الحقّ، فأخذهم الله بذلك، ولكن نُظم الكلام على هذا الأسلوب البديع إذ ابتدئ فيه بنفي أن يكون الله ظلمهم اهتماما بذلك لفرط التسجيل عليهم بسوء صنعهم حتّى جُعل ذلك كأنّه هو المفرَّع وجُعل المفرَّع بحسب المعنى في صورة الاستدراك.

ونُفِي الظلم عن الله تعالى بأبلغ وجه، وهو النفي المقترن بلام الجحود، بعد فعل الكون المنفي، وقد تقدّم الكلام عليه عند قوله تعالى { مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ } [المائدة:6].

وأُثبِت ظلمُهم أنفسهم لهم بأبلغ وجه إذ أسند إليهم بصيغة الكون الماضي الدال على تمكّن الظلم منهم منذ زمان مضى، وصيغ الظلم الكائن في ذلك الزمان بصيغة المضارع للدلالة على التجدّد والتكرّر، أي: على تكرير ظلمهم أنفسهم في الأزمنة الماضية.

{ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [71].

هذه الآية تقابل قوله تعالى { الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ } [67] لبيان أنّ الطائفة التي ينالها العفو هي الملتحقة بالمؤمنين.

{ **بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** } مقابل قوله تعالى في المنافقين { بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ }، وعُبّر في جانب المؤمنين والمؤمنات بأنّهم { أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ } للإشارة إلى أنّ اللُّحمة الجامعة بينهم هي ولاية الإسلام، فهم فيها على السواء، ليس واحد منهم مقلدا للآخر ولا تابعا له على غير بصيرة، لمّا في معنى الولاية من الإشعار بالإخلاص والتناصر بخلاف المنافقين، فكأنّ بعضهم ناشئ من بعض في مذامّهم.

{ **وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ** } زيد في وصف المؤمنين تنويها بأنّ الصلاة هي أعظم المعروف.

{ **وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ** } مقابل قوله تعالى في المنافقين { وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ }.

{ **وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** } مقابل قوله تعالى في المنافقين { نَسُوا اللَّهَ }، لأنّ الطاعة تقتضي مراقبة المطاع فهي ضدّ النسيان.

{ **أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ** } مقابل قوله تعالى في المنافقين { فَنَسِيَهُمْ }. والسين لتأكيد حصول الرحمة في المستقبل. فحرف الاستقبال يفيد مع المضارع ما تفيد (قد) مع الماضي.

{ **إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** } تعليل لجملة { سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ }، أي: أنّه تعالى لعزّته ينفع أولياءه، وأنّه لحكمته يضع الجزاء لمستحقّه.

{ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [72].

هذه كموقع جملة { وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ } [68]. وهي أيضا كالاستئناف البياني الناشئ عن قوله تعالى { أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ } [71].

{ **وَعَدَ اللَّهُ** } فعل الماضي إمّا لأنّه إخبار عن وعد تقدّم في آي القرآن، قُصد من الإخبار به التذكير به لتحقيقه، وإمّا أن يكون قد صيغ هذا الوعد بلفظ الماضي على طريقة صيغ العقود مثل بعت وتصدّقت،

لكون تلك الصيغة معهودة في الالتزام الذي لا يتخلّف.
والإظهار في مقام الإضمار، دون أن يقال: (وعدهم الله)، لتقريرهم في ذهن السامع ليتمكّن تعلّق الفعل بهم أفضل تمكّن في ذهن السامع.
{ **جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا** } تقدّم الكلام حولها عند قوله تعالى { وَبَشِّرْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ } [البقرة:25].
{ **وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ** } للدلالة على أنّ لهم في الجنّات قصورا.
طيّبة: أي: ليس فيها شيء من خبث مساكن الدنيا.
العدن: الخلد والاستقرار المستمرّ، فجنّات عدن هي الجنات المذكورة قبل، فذكرها بهذا اللفظ من الإظهار في مقام الإضمار مع التفنّن في التعبير والتنويه بالجنّات.
{ **وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ** } **الرضوان** (بكسر الراء ويجوز ضمها. وكسر الراء لغة أهل الحجاز، وضمها لغة تميم): مصدر كالرضى، وزيادة الألف والنون فيه تدل على قوته، كالغفران والشكران.
والتنكير للتنويع، يدل على جنس الرضوان، وإنّما لم يقرن بلام تعريف الجنس ليُتوسّل بالتنكير إلى الإشعار بالتعظيم، فإنّ رضوان الله تعالى عظيم.
{ **أَكْبَرُ** } تفضيل لم يذكر معه المفضّل عليه لظهوره من المقام، أي: أكبر من الجنّات، لأنّ رضوان الله أصل لجميع الخيرات. وفيه دليل على أنّ السعادات الروحانية أعلى وأشرف من الجثمانية.
{ **ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** } قصر حقيقي باعتبار وصف الفوز بعظيم.

{ يَا أَيُّهَا النبيّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } [73].

بعد أن أنذرهم الله بذلك فلم يرتدعوا ومضى عليهم من المدّة ما كُشفت فيه دخيلتهم بما تكرّر منهم من بوادر الكفر والكيد للمسلمين، أنجز الله ما أنذرهم به بأن أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بجهادهم.
الجهاد: القتال لنصر الدين، وتقدّم في قوله { يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ } [المائدة:54].
{ **الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ** } قُرن المنافقون هنا بالكفار تنبيها على أنّ سبب الأمر بجهاد الكفار قد تحقّق في المنافقين، فجهادهم كجهاد الكفار، ولأنّ الله قرنهم في الوعيد بعذاب الآخرة { وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ } [68].
والجهاد المأمور للفريقين مختلف، واللفظ مستعمل في حقيقته ومجازه. وفائدة القرن بين الكفار والمنافقين في الجهاد إلقاء الرعب في قلوبهم لأنّ جهادهم بالفعل متعذّر، لأنّهم غير مظهرين الكفر.
تأوّل أكثر المفسرين الجهاد بالنسبة إلى المنافقين بالمقاومة بالحجّة وإقامة الحدود عند ظهور ما يقتضيها، وكان غالب من أقيم عليه الحدّ في عهد النبوّة من المنافقين.

وقال بعض السلف: جهادهم ينتهي إلى الكشر في وجوههم.
وهذه الآية إيذان للمنافقين بأنّ النفاق يوجب جهادهم، قطعا لشأفتهم من بين المسلمين.
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمهم ويعرّفهم لحذيفة بن اليمان، وكان المسلمون يعرفون منهم من تكررت بوادر أحواله، وفلتات مقاله. وإنما كان النبيّ ممسكا عن قتلهم سدا لذريعة دخول الشك في الأمان على الداخلين في الإسلام، كما قال لعمر: **" لا يتحدّث النّاس أنّ محمدا يقتل أصحابه "**. لأنّ العامة والغائبين عن المدينة لا يبلغون بعلمهم إلى معرفة حقائق الأمور الجارية بالمدينة، فيستطيع دعاة الفتنة أن يشوّهوا الأعمال النافعة بما فيها من صورة بشيعة عند من لا يعلم الحقيقة.
{ **وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ** } أمر بأن يكون غليظا معهم. وإنّما وُجّه هذا الأمر إلى الرّسول صلى الله عليه وسلم لأنّه جبل على الرحمة فأُمر بأن يتخلّى عن جبلّته في حق الكفار والمنافقين، وأن لا يغضي عنهم كما كان شأنه من قبل.
وهذه الآية تقتضي نسخ إعطاء الكفار المؤلفة قلوبهم على الإسلام وإنّما يبقى ذلك للداخلين في الإسلام حديثا.
{ **وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** } تذييل. وتقدم نظيره مرّات.
المأوى: ما يأوي إليه المرء من المكان، أي: يرجع إليه.
المصير: المكان الذي يصير إليه المرء، أي: يرجع، فالاختلاف بينه وبين المأوى بالاعتبار، والجمع بينهما هنا تفنّن.

{ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُنْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ } [74].
لمّا كان معظم ما أُخذ على المنافقين هو كلمات دالة على الطعن في الرسول صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك من دلائل الكفر، وكانوا إذا نُقل ذلك عنهم تنصّلوا منه بالأيمان الكاذبة، عُقّبت آية الأمر بجهادهم بالتنبيه على أنّ ما يتنصّلون به تنصّل كاذب وأن لا ثقة بحلفهم، وعلى إثبات أنّهم قالوا ما هو صريح في كفرهم.
{ **يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا** } مستأنفة استئنافا بيانيا يثيره الأمر بجهادهم، وقد تكون الجملة في محل التعليل للأمر بالجهاد إن اعتُبر المقصود منها قوله تعالى { وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ ...}.
{ **وَلَقَدْ قَالُوا** } أكّد صدور كلمة الكفر منهم في مقابلة تأكيدهم نفي صدورها بصيغة القسم، ليكون تكذيب قولهم مساويا لقولهم في التأكيد.

{ **كَلِمَةَ الْكُفْرِ** } الكلام الدال عليه، فكلمة الكفر جنس لكلّ كلام فيه تكذيب النبيّ صلى الله عليه وسلم. كما أطلقت كلمة الإسلام على شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمدا رسول الله.

وقيل: المراد كلمة صدرت من بعض المنافقين تدل على تكذيب النبيّ صلى الله عليه وسلم، فعن عروة بن الزبير، ومجاهد، وابن إسحاق أن الجُلَاس بن سويد بن الصامت قال: " لئن كان ما يقول محمد حقًّا لنحن أشر من حميرنا هذه التي نحن عليها "، فأخبر عنه ربيبه النبيّ فدعاه النبيّ وسأله عن مقالته، فحلف بالله ما قال ذلك.

وقيل: بل نزلت في عبد الله بن أُبي بن سلول لقوله الذي حكاه الله عنه بقوله تعالى { يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ } [المنافقون:8]، فسعى به رجل من المسلمين، فأرسل إليه رسول الله فسأله فجعل يحلف بالله ما قال ذلك.

فعلى هذه الروايات يكون إسناد القول إلى ضمير جمع كناية عن إخفاء اسم القائل، أو باعتبار قول واحد وسماع البقية فجُعلوا مشاركين في التبعة.

{ **بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ** } بعد أن أظهروا الإسلام في الصورة، ولذلك أضيف الإسلام إليهم، كما تقدّم في قوله تعالى { لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ } [66].

الهمّ: نيّة الفعل سواء فعل أم لم يفعل.

نوال الشيء حصوله، أي: همّوا بشيء لم يحصّلوه. والذي همّوا به هو الفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم عند مرجعه من تبوك، حيث تواثق خمسة عشر منهم على أن يترصّدوا له في عقبة بالطريق تحتها واد، فإذا اعتلاها ليلا يدفعونه عن راحلته إلى الوادي. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سائرا وقد أخذ عمار بن ياسر بخطام راحلته يقودها، وكان حذيفة بن اليمان يسوقها، فأحس حذيفة بتدبيرهم فصاح بهم فهربوا.

{ **وَمَا نَقَمُوا** } عطف على { وَلَقَدْ قَالُوا } أي: والحال أنّهم ما ينقمون على النبيّ صلى الله عليه وسلم ولا على دخول الإسلام المدينة شيئا يدعوهم إلى ما يصنعونه من آثار الكراهية والعداوة.

النقم: الامتعاض من الشيء واستنكاره، وتقدّم في قوله تعالى { وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا } [الأعراف:126].

{ **إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ** } استثناء تهكّمي، وهو من تأكيد الشيء بما يشبه ضده.

وإنّما أغناهم الله ورسوله بما جلبه حلول النبيّ صلى الله عليه وسلم بينهم من أسباب الرزق بكثرة عمل المهاجرين، وبوفرة الغنائم في الغزوات، وبالأمن الذي أدخله الإسلام فيهم، إذ جعل المؤمنين إخوة فانتفت الضغائن بينهم والثارات، وقد كان الأوس والخزرج قبل الإسلام أعداء وكانت بينهم حروب تفانوا فيها قبيل الهجرة، وهي حروب بُعاث.

الفضل: الزيادة في البذل والسخاء. وفي جعل الإغناء من الفضل كناية عن وفرة الشيء المُغْنَى به لأنّ ذا

الفضل يعطي الجزل. وعطف الرسول على اسم الجلالة في فعل الإغناء لأنّه السبب الظاهر المباشر.

{ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُنْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ } التفريع على قوله تعالى { جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ } [73]، على عادة القرآن في تعقيب الوعيد بالوعد والعكس، فلمّا أمر بجهادهم والغلظة عليهم وتوعّدهم بالمصير إلى النّار، فُرّع على ذلك الإخبار بأنّ التوبة مفتوحة لهم وأنّ تدارك أمرهم في مكنتهم، لأنّ المقصود من الأمر بجهادهم قطع شافة مضرّتهم أو أن يصلح حالهم.

التوبة: هي إخلاصهم الإيمان.

التولّي: الإعراض، والمراد به الإعراض عن التوبة.

العذاب في الدنيا: عذاب الجهاد والأسر، و**في الآخرة**: عذاب النّار.

{ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ } عطف على { يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ }، فتكون جوابا ثانيا للشرط.

<u>المعنى</u>: أنّهم إن تولّوا لم يجدوا من ينصرهم من القبائل، إذ لم يبق من العرب من لم يدخل في الإسلام إلّا من لا يُعبأ بهم عَددا وعُددا. والمراد نفي الوليّ النافع كما هو مفهوم الولي.

{ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنْ الصَّالِحِينَ [75] فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ [76] فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ [77] }.

<u>قيل</u>: نزلت في ثعلبة بن حاطب من المنافقين سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو له بسعة الرزق فدعا له فأثرى إثراء كثيرا فلمّا جاءه المصدّقون ليعطي زكاة أنعامه امتنع من ذلك ثم ندم فجاء بصدقته فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقبلها منه. وذكروا من قصّته أنّه تاب ولكن لم تُقبل صدقته في زمن النبيّ ولا في زمن الخلفاء الثلاثة بعده عقوبة له وإظهارًا للاستغناء عنه حتّى مات في خلافة عثمان.

و<u>قيل</u>: إنّ قائل ذلك هو معتّب بن قشير.

{ لَنَصَّدَّقَنَّ } بيان لجملة { عَاهَدَ اللَّهَ } والفعل أصله لنتصدّقنّ فأدغم للتخفيف.

الإعراض: إعراضهم عن عهدهم وعن شكر نعمة ربهم.

{ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا } الضمير المستتر في (أعقبهم) للمذكور من أحوالهم، أو للبخل المأخوذ من { بَخِلُوا }، فإسناد الإعقاب مجاز عقلي. أو يعود إلى اسم الله تعالى في قوله تعالى { مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ }، أي: جعل فعلهم ذلك سببا في بقاء النفاق في قلوبهم إلى موتهم، وذلك جزاء تمرّدهم على النفاق.

{ **إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ** } إلى يوم الحشر، لأنّه يوم لقاء الله للحساب، أو إلى يوم الموت لأنّ الموت لقاء الله كما في الحديث: **" من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه "**.

{ **كَانُوا يَكْذِبُونَ** } عُبّر عن كذبهم بهذه الصيغة للدلالة على أنّ الكذب كائن فيهم ومتمكّن منهم، والمضارع على تكرّره وتجدّده.

وفي هذا دلالة على وجوب الحذر من إحداث الأفعال الذميمة، فإنها تفسد الأخلاق الصالحة ويزداد الفساد تمكّنا من النفس بطبيعة التولّد الذي هو ناموس الوجود.

{ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ } [78].

استئناف لأجل التقرير، لأنّ كونهم عالمين بذلك معروف لدى كل سامع.

السرّ: ما يخفيه المرء من كلام، وما يضمر في نفسه فلا يطلع عليه النّاس، وتقدّم في قوله تعالى { سِرًّا وَعَلاَنِيَةً } [البقرة:274]

النجوى: المحادثة بخفاء. أي: يعلم ما يضمرونه في أنفسهم وما يتحادثون به حديث سرّ.

وإنّما عُطفت النجوى على السرّ مع أنّه أعم منها لينبئهم باطّلاعه على ما يتناجون به من الكيد والطعن.

{ **وَأَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ** } تعميم، أي: قويٌّ علمه بجميع الغيوب.

الغيوب: جمع غيب وهو ما خفي وغاب عن العيان. وتقدّم في قوله تعالى { الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ} [البقرة:3]

{ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [79].

استئناف ابتدائي، نزلت بسبب حادث حدث في مدّة نزول السورة. ذلك أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم حثّ النّاس على الصدقة فجاء عبد الرحمان بن عوف بأربعة آلاف درهم، وجاء عاصم بن عدي بأوسق كثيرة من تمر، وجاء أبو عَقيل بصاع من تمر، فقال المنافقون: ما أعطى عبد الرحمان وعاصم إلّا رياء، وأحبّ أبو عقيل أن يُذكّر بنفسه ليُعطى من الصدقات، فأنزل الله فيهم هذه الآية.

اللمز: الطعن. وتقدّم في هذه السورة في قوله تعالى { وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ } [58].

{ **الْمُطَّوِّعِينَ** } أصله المتطوّعين، أدغمت التاء في الطاء لقرب مخرجيهما.

{ **وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ** } عُطف على { الْمُطَّوِّعِينَ } وهم منهم، اهتماما بشأنهم.

الجُهد: (بضم الجيم) الطاقة. وأطلقت الطاقة على مسبّبها الناشئ عنها.

المراد: لا يجدون سبيلا إلى إيجاد ما يتصدّقون به إلّا طاقتهم، أي: جهد أبدانهم. وفيه ثناء على قوة البدن

والعمل وأنّها تقوم مقام المال. وهذا أصل عظيم في اعتبار أصول الثروة العامة والتنويه بشأن العامل.

السخرية: الاستهزاء. يقال: سخر منه، أي: حصلت السخرية له من كذا.

{ **يَلْمِزُونَ / فَيَسْخَرُونَ** } اختير المضارع للدلالة على التكرّر.

{ **سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ** } على سبيل المجاز الذي حسّنته المشاكلة لفعلهم.

المعنى: أن: الله عاملهم معاملة تشبه سخرية الساخر، على طريقة التمثيل، وذلك في أن أمر نبيّه بإجراء أحكام المسلمين على ظاهرهم زمنا ثم أمره بفضحهم.

ويجوز أن يكون إطلاق { سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ } على طريقة المجاز المرسل، أي: احتقرهم ولعنهم.

{ **وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** } عطف على الخبر، أي: سخر منهم وقضى عليهم بالعذاب في الآخرة.

{ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } [80].

روى المفسّرون عن ابن عباس أنّه لمّا نزلت بعض الآيات السابقة في أحوالهم إلى قوله تعالى { سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [79]، قال فريق منهم: استغفر لنا يا رسول الله، فوعدهم النبيّ صلى الله عليه وسلم بأن يستغفر للذين سألوه. وقال الحسن: كانوا يأتون رسول الله فيعتذرون إليه، ويقولون: إن أردنا إلّا الحسنى.

وعن الشعبي، وعروة، ومجاهد، وابن جبير، وقتادة أنّ عبد الله ابن أبي ابن سلول مرض فسأل ابنه عبد الله بن عبد الله النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يستغفر له ففعل، فنزلت.

والذي يظهر لي أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا أوحي إليه بآية سورة المنافقين، وفيه أن استغفاره وعدمه سواء في حقّهم. تأوّل ذلك على الاستغفار غير المؤكّد، وبعثته رحمته بالنّاس وحرصه على هداهم وتكدّره من اعتراضهم عن الإيمان أن يستغفر للمنافقين استغفارا مكرّرا مؤكّدا عسى أن يغفر الله لهم ويزول عنهم غضبه تعالى فيهديهم إلى الإيمان الحق. بما أن مخالطتهم لأحوال الإيمان ولو في ظاهر الحال قد يجر إلى تعلّق هديه بقلوبهم بأقل سبب، فيكون نزول هذه الآية تأييسا من رضى الله عنهم، أي: عن البقية الباقية منهم تأييسا لهم ولمن كان على شاكلتهم ممّن أطّلع على دخائلهم.

{ **اسْتَغْفِرْ لَهُمْ** } صيغة الأمر مستعملة في معنى التسوية المراد منها لازمها وهو عدم الحذر من الأمر المباح، وعد علماء أصول الفقه في معاني صيغة الأمر معنى التسوية ومثّلوه بقوله تعالى { اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لاَ تَصْبِرُوا } [الطور:16].

{ **أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ** } يجوز أن تكون صيغة النهي استُعملت لمعنى التسوية لأنّها قارنت الأمر الدال على إرادة التسوية، ويكون المعنى: أمرك بالاستغفار لهم ونهيك عنه سواء، وذلك كناية عن كون الآمر والناهي ليس بمغيّر مراده فيهم سواء فُعل المأمور أو فُعل المنهي.

{ **سَبْعِينَ مَرَّةً** } غير مراد به المقدار من العدد، بل هذا الاسم من أسماء العدد التي تستعمل في معنى الكثرة.

وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يصلّي صلاة الجنازة على من مات من المنافقين لأنّ صلاة الجنازة من الاستغفار. ولمّا مات عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين بعد نزول هذه الآية وسأل ابنه عبد الله بن عبد الله النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يصلّي عليه، فصلى عليه كرامة لابنه، وقال عمر للنبيّ صلى الله عليه وسلم قد نهاك ربّك أن تصلي عليه، قال له على سبيل الرد " **إنّما خيّرني الله** "، أي: ليس في هذه الآية نهي عن الاستغفار، فكان لصلاته عليهم واستغفاره لهم حكمة غير حصول المغفرة بل لمصالح أخرى، ولعلّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أخذ بأضعف الاحتمالين في صيغة { اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ } وكذلك في لفظ عدد { سَبْعِينَ مَرَّةً } استقصاء لمظنّة الرحمة على نحو ما أصّلناه في المقدمة التاسعة من مقدمات هذا التفسير.

{ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا** } كفرهم بالله هو الشرك. وكفرهم برسوله جحدهم رسالته صلى الله عليه وسلم.

وفي هذه الآية دليل على أنّ جاحد نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم يطلق عليه كافر.

{ **وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** } بسبب بعدهم عن التأمّل في أدلّة النبوّة، وعن الإنصاف في الاعتراف بالحق. فمن كان ذلك ديدنه طُبع على قلبه فلا يقبل الهدى.

{ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لاَ تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ } [81].

هذه الآية تشير إلى ما حصل للمنافقين عند الاستنفار لغزوة تبوك فيكون المراد بالمخلّفين خصوص من تخلّف عن غزوة تبوك من المنافقين. ومناسبة وقوعها في هذا الموضع أن فرحهم بتخلّفهم قد قوي لمّا استغفر لهم النبيّ صلى الله عليه وسلم وظنّوا أنّهم استغفلوه فقضوا مآربهم ثمّ حصّلوا الاستغفار، ظنّا منهم بأنّ معاملة الله إيّاهم تجري على ظواهر الأمور.

فالمخلّفون هم الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك استأذنوا النبيّ صلى الله عليه وسلم فأذن لهم وكانوا من المنافقين فلذلك أطلق عليهم في الآية وصف المخلّفين بصيغة اسم المفعول لأنّ النبيّ خلّفهم، وفيه إيماء إلى أنّه ما أذن لهم في التخلّف إلّا لعلمه بفساد قلوبهم وأنّهم لا يُغنون عن المسلمين شيئا كما قال تعالى { لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً } [47]. وذِكر فرحهم دلالة على نفاقهم لأنّهم لو كانوا مؤمنين لكان التخلّف نكدا عليهم ونغصا كما وقع للثلاثة الذين خلّفوا فتاب الله عليهم.

{ **بِمَقْعَدِهِمْ** } مصدر ميمي، أي: بقعودهم.

{ **خِلاَفَ** } لغة في خلف. يقال: أقام خلاف الحي بمعنى بعدهم. ومن نكتة اختيار لفظ خلاف دون خلف أنّه يشير إلى أنّ قعودهم كان مخالفة لإرادة رسول الله حين استنفر النّاس كلّهم للغزو، ولذلك جعله بعض

المفسّرين منصوبا على المفعول له، أي: بمقعدهم لمخالفة أمر الرسول.

{ **وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** } خصلة أخرى من خصال النفاق، لأنّ الله أمر بذلك في الآية المتقدّمة { وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } [41].

{ **وَقَالُوا لاَ تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ** } خطاب بعضهم بعضا، وكانت غزوة تبوك في وقت الحر حين طابت الظلال.

{ **قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا** } مستأنفة ابتدائية خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمقصود قرع أسماعهم بهذا الكلام، والتذكير بما هو معلوم، تعريضا بتجهيلهم لأنّهم حذروا من حرّ قليل وأقحموا أنفسهم فيما يصير بهم إلى حرّ أشدّ.

{ **لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ** } تتميم للتجهيل والتذكير، أي: يقال لهم ذلك لو كانوا يفقهون الذكرى، ولكنهم لا يفقهون، فلا تجدي فيهم الذكرى والموعظة.

{ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } [82].

تفريع كلام على الكلام السابق من ذكر فرحهم، ومن إفادة قوله تعالى { قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا } [81] من التعريض بأنّهم أهلها وصائرون إليها.

الضحك: هنا كناية عن الفرح، أو أريد ضحكهم فرحا لاعتقادهم ترويج حيلتهم على النبيّ صلى الله عليه وسلم إذ أذن لهم بالتخلف. و**البكاء**: كناية عن حزنهم في الآخرة.

فالأمر بالضحك وبالبكاء مستعمل في الإخبار بحصولهما قطعا إذ جُعلا من أمر الله. والمعنى أنّ فرحهم زائل وأنّ بكاءهم دائم.

{ **جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** } حال من ضميرهم، أي: جزاء لهم عن أعمال نفاقهم، واختير الموصول في التعبير عنه لأنه أشمل مع الإيجاز.

{ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ } [83].

فُرّع على الغضب عليهم وتهديدهم عقاب آخر لهم، بإبعادهم عن مشاركة المسلمين في غزواتهم.

{ **فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ** } فعل (رجع) يكون قاصرا ومتعدّيا مرادفا لأرجع. وهو هنا متعدّ، أي: أرجعك الله.

وليس المراد الإرجاع الحقيقي كما جرت عليه عبارات أكثر المفسّرين وجعلوه الإرجاع من سفر تبوك، مع أنّ السورة كلّها نزلت بعد غزوة تبوك، بل المراد المجازي، أي: تكرر الخوض معهم مرة أخرى.

الطائفة: الجماعة، وتقدّمت في قوله تعالى { يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ } [آل عمران:154].

والمراد بالطائفة هنا جماعة من المخلّفين، أي: إلى طائفة منهم يبتغون الخروج للغزو.

فيجوز أن تكون هذه الطائفة من المنافقين أرادوا الخروج للغزو طمعا في الغنيمة أو نحو ذلك.

ويجوز أن يكون طائفة من المخلّفين تابوا وأسلموا فاستأذنوا للخروج للغزو.

وعلى الوجهين يحتمل أنّ منعهم من الخروج للخوف من غدرهم إن كانوا منافقين أو لمجرّد التأديب لهم إن كانوا قد تابوا و آمنوا.

والجمع بين النفي بـ { لَنْ } وبين كلمة { أَبَدًا } تأكيد لمعنى انتفاء خروجهم في المستقبل إلى الغزو مع المسلمين.

{ **إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ** } مستأنفة للتعداد عليهم والتوبيخ، أي: أنّكم تحبّون القعود وترضون به.

{ **أَوَّلَ مَرَّةٍ** } هي غزوة تبوك التي تخلّفوا عنها.

{ **فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ** } أي: لمّا اخترتم القعود لأنفسكم فاقعدوا الآن لأنّكم تحبون التخلّف.

{ **الْخَالِفِينَ** } جمع خالف وهو الذي يخلف الغازي في أهله وكانوا يتركون لذلك من لا غناء له في الحرب. فكونهم مع الخالفين تعيير لهم.

{ وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ } [84].

سبب نزول هذه الآية ما رواه البخاري والترمذي من حديث عبد الله بن عباس عن عمر بن الخطاب قال: " لمّا مات عبد الله بن أبي بن سلول دُعي له رسول الله ليصلّي عليه، فلمّا قام رسول الله وثبتُ إليه، فقلت: يا رسول الله أتصلي على ابن أبيّ وقد قال يوم كذا وكذا: كذا وكذا، أعدّد عليه قوله، فتبسّم رسول الله وقال:

" **أخّر عني يا عمر** "، فلمّا أكثرت عليه قال: " **إني خُيّرت فاخترت، لو أعلم أنّي لو زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها** ". قال: فصلى عليه رسول الله ثم انصرف فلم يمكث إلّا يسيرا حتّى نزلت الآيتان من براءة { وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا - إلى قوله - وَهُمْ فَاسِقُونَ }، قال: فعجبت بعد من جرأتي على رسول الله، والله ورسوله أعلم ".

وفي رواية أخرى فلم يصل رسول الله على أحد منهم بعد هذه الآية حتّى قُبض صلى الله عليه وسلم، وإنّما صلّى عليه وأعطاه قميصه ليكفّن فيه إكراما لابنه عبد الله وتأليفا للخزرج.

{ **وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ** } لا تقف عليه عند دفنه لأنّ المشاركة في دفن المسلم حقّ على المسلم على الكفاية كالصلاة عليه، فترك النبيّ صلى الله عليه وسلم الصلاة عليهم وحضور دفنهم إعلان بكفر من ترك ذلك له.

{ **إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ** } تعليلية ولذلك لم تُعطف، وقد أغنى وجود (إنّ) في أوّلها عن فاء التفريع كما هو الاستعمال.

{ **وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ** } الفسق مراد به الكفر فالتعبير بـ { فَاسِقُونَ } عوض (كَافِرُونَ) مجرّد تفنّن. والأحسن أن يُفسّر الفسق هنا بالخروج عن الإيمان بعد التلبّس به، أي: بصورة الإيمان، فيكون المراد من الفسق معنى أشنع من الكفر.

{ وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ } [85].

الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمقصود به المسلمون. والجملة معطوفة على جملة النهي عن الصلاة عليهم.

أعلم الله المسلمين أنّ تلك الأموال والأولاد وإن كانت في صورة النعمة فهي لهم نقمة وعذاب، وأنّ الله عذّبهم بها في الدنيا بأن سلبهم طمأنينة البال عليها لأنّهم لمّا اكتسبوا عداوة الرسول والمسلمين كانوا يحذرون أن يغري الله رسوله بهم فيستأصلهم.

وقد تقدّم نظير هذه الآية في هذه السورة [55]،عند ذكر شحّهم بالنفقة في قوله تعالى { قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا } [53] الآيتين، فأفيد هنالك عدم انتفاعهم بأموالهم وأنّها عذاب عليهم في الدنيا، ثم أعيدت الآية بغالب ألفاظها هنا تأكيدا للمعنى الذي اشتملت عليه إبلاغا في نفي الفتنة والحيرة عن الناس.

ولكن هذه الآية خالفت السابقة بأمور:

أحدها: أنّ هذه جاء العطف في أوّلها بالواو والأخرى عطفت بالفاء. ومناسبة التفريع هنالك تقدّ+م بيانها، ومناسبة عدم التفريع هنا أنّ معنى هذه الآية ليس مفرّعا على معنى الجملة المعطوف عليها ولكن بينهما مناسبة فقط.

ثانيهما: أن هذه الآية عطف فيها الأولاد على الأموال بدون إعادة حرف النفي، وفي الآية السالفة أعيدت (لا) النافية، ووجه ذلك أن ذكر الأولاد في الآية السالفة لمجرد التكملة والاستطراد إذ المقام مقام ذم أموالهم إذ لم ينتفعوا بها فلمّا كان ذكر الأولاد تكملة كان شبيها بالأمر المستقل فأعيد حرف النفي في عطفه، بخلاف مقام هذه الآية فإنّ أموالهم وأولادهم معا مقصود تحقيرهما في نظر المسلمين.

ثالثهما: أنّه جاء هنا قوله تعالى { إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ } بإظهار (أَنْ) دون لام، وفي الآية السالفة { إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ }، بذكر لام التعليل وحذف (أَنْ) بعدها.

رابعها: أنّه جاء في هذه الآية { أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا } وجاء في الآية السالفة { فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا }، ونكتة ذلك أنّ الآية السالفة ذكرت حالة أموالهم في حياتهم فكانت الحاجة إلى ذكر الحياة. وهنا ذكرت حالة أموالهم بعد مماتهم لقوله تعالى { وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا } [84] فقد صاروا إلى حياة

أخرى وانقطعت حياتهم.

وبقية تفسير هذه الآية كتفسير سالفتها.

{ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ } [86].

هذا عطف غرض على غرض قُصد به الانتقال إلى تقسيم فرق المتخلّفين عن الجهاد من المنافقين وغيرهم وأنواع معاذيرهم ومراتبها في القبول. دعا إليه الإغلاظ في تقريع المتخلّفين عن الجهاد نفاقا وتخذيلا للمسلمين، ابتداء من قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ } [38]، ثم قوله تعالى { لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا } [42]، وكل ذلك مقصود به المنافقون.

{ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ } لأجل كون هذه الآية غرضا جديدا ابتدئت بذكر نزول سورة داعية إلى الإيمان والجهاد. والمراد بها سورة براءة، وإطلاق اسم السورة عليها في أثنائها قبل إكمالها مجاز متسع فيه، كإطلاق الكتاب على القرآن في أثناء نزوله في نحو قوله تعالى { ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ } [البقرة:2]، فهذا الوصف وصف مقدّر شبيه بالحال المقدّرة.

{ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ } ولمّا كانت السورة ألفاظا وأقوالا صحَّ بيانها ببعض ما حوته وهو الأمر بالإيمان والجهاد، فقوله تعالى { أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ } تفسير للسورة. وليس المراد لفظ { آمِنُوا } وما عطف عليه بل ما يراد فهما مثل قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ } [38]، وقوله تعالى { لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ } [44].

{ اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ } ابتدئي بذكر المتخلّفين من المنافقين.

الطول: السعة في المال، كما في قوله تعالى { وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ } [النساء:25]. والاقتصار على الطول يدلّ على أنّ المراد بهم هنا من له قدرة على الجهاد بصحة البدن. فبوجود الطول انتفى عذرهم، إذ من لم يكن قادرا ببدنه لا ينظر إلى كونه ذا طول، كما يدل عليه قوله تعالى { وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ } [91].

{ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ } بيان ما استأذنوا فيه وهو القعود. وفي نظمه إيذان بتلفيق معذرتهم وأنّ الحقيقة هي رغبتهم في القعود.

{ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ } [87].

استئناف قُصد منه التعجيب من دناءة نفوسهم وقلّة رُجْلَتهم بأنّهم رضوا لأنفسهم بأن يكونوا تبعا للنساء.

وفي اختيار فعل { رَضُوا } إشعار بأنّ ما تلبّسوا به من الحال من شأنه أن يتردّد العاقل في قبوله.
الخوالف: جمع خالفة وهي المرأة التي تتخلّف في البيت بعد سفر زوجها فإن سافرت معه فهي الظعينة.
الطبع: تمثيل لحال قلوبهم في عدم قبول الهدى بالإناء أو الكتاب المختوم. والطبع مرادف الختم.
{ **فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ** } انعدام علمهم بالأمور التي يختصّ بعلمها أهل الأفهام، وهو العلم المعبّر عنه بالفقه، أي: إدراك الأشياء الخفيّة. وجيء في إسناد نفي الفقاهة عنهم بالمسند الفعلي للدلالة على تقوّي الخبر وتحقيق نسبته إلى المخبَر عنهم وتمكّنه منهم.

{ لَكِنْ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ } [88].

حرف الاستدراك يؤذن بأنّ مضمون هذا الكلام نقيض مضمون الكلام الذي قبله أصلا وتفريعا.
فلمّا كان قعود المنافقين عن الجهاد مسبّبا على كفرهم بالرسول صلى الله عليه وسلم، كان المؤمنون على الضدّ من ذلك. وابتدئ وصف أحوالهم بوصف حال الرّسول لأنّ تعلّقهم به واتّباعهم إيّاه هو أصل كمالهم وخيرهم.
{ **بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ** } مقابل قوله تعالى { اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ } [86].
{ **وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ** } مقابل قوله تعالى { وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ } [87].
وقد مضى الكلام على الجهاد بالأموال عند قوله { انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ } [41].
{ **وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ** } تعريض بأنّ الذين لم يجاهدوا دون عذر ليسوا بمؤمنين.
{ **وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ الْخَيْرَاتُ** } خبر عن الذين آمنوا، أي: على أنّها من أوصافهم وأحوالهم. والإتيان باسم الإشارة لإفادة أنّ استحقاقهم الخيرات والفلاح كان لأجل جهادهم.

{ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [89].

استئناف بياني لما في قوله تعالى { وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ الْخَيْرَاتُ } [88].
الإعداد: التهيئة. وفيه إشعار بالعناية والتهمّم بشأنهم. وتقدّم القول في نظير هذه الآية في قوله تعالى { وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً } [72].

{ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنْ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [90].

المراد بالمعذّرين فريق من المؤمنين الصادقين من الأعراب، كما تدلّ عليه المقابلة بقوله تعالى { وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ }. وعلى هذا المعنى فسّر ابن عباس، ومجاهد، وكثير. وجعلوا من هؤلاء غِفَارا. وخالفهم قتادة فجعلهم المعتذرين كذبا وهم بنو عامر رهط عامر بن الطُّفيل، قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم إن خرجنا معك أغارت أعراب طيء على بيوتنا. ومن المعذّرين الكاذبين أسد، وغطفان.

{ **الْمَعَذِّرُونَ** } وعلى الوجهين في التفسير يختلف التقدير، فإن كانوا المحقّين في العذر فالتقدير أنّ أصله **المعتذرون**، وإن كانوا الكاذبين في عذرهم فالتقدير، أنه اسم فاعل من عذر بمعنى: **تكلّف العذر**.

ويجوز أن يكون اختيار صيغة المعذّرين من لطائف القرآن لتشمل الذين صدقوا في العذر والذين كذبوا فيه.

الأعراب: اسم جمع يقال في الواحد أعرابي (بياء النسب)، وهم سكّان البادية.

{ **وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ** } هذا فريق آخر من الأعراب.

{ **كَذَبُوا** } بالتخفيف، أي: كانوا كاذبين. والمراد أنهم كذبوا في الإيمان الذي أظهروه من قبل، ويحتمل أنّهم كذبوا في وعدهم النصر ثم قعدوا دون اعتذار بحيث لم يكن تخلفهم مترقّبا، لأنّ الذين اعتذروا قد علم النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّهم غير خارجين معه بخلاف الآخرين فكانوا محسوبين في جملة الجيش. وتخلّفهم أشد إضرارا لأنّه قد يفلّ من حدّة كثير من الغزاة.

{ **سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** } مستأنفة لابتداء وعيد. وضمير { مِنْهُمْ } يعود إلى المذكورين فهو شامل للذين كذبوا الله ورسوله ولمن كان عذره ناشئا عن نفاق وكذب.

{ **عَذَابٌ** } التنكير للتهويل، والمراد به عذاب جهنم.

{ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [91].

استيفاء لأقسام المخلّفين، من ملوم ومعذور من الأعراب أو من غيرهم.

وإعادة حرف النفي في عطف الضعفاء والمرضى لتوكيد نفي المؤاخذة عن كل فريق بخصوصه.

الضعفاء: جمع ضعيف، وهو وهن القوّة البدنية من غير مرض.

المرضى: جمع مريض. والمرض تغيّر النظام المعتاد بالبدن بسبب اختلال يطرأ في بعض أجزاء المزاج.

الحرج: الضيق ويراد به ضيق التكليف، أي: النهي.

النصح: العمل النافع للمنصوح، وتقدّم عند قوله { لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ } [الأعراف:79]. وأطلق هنا على الإيمان والسعي في مرضاة الله ورسوله، والامتثال والسعي لما ينفع المسلمين، فإنّ ذلك يشبه فعل الموالي الناصح لمنصوحه.

{ **مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ** } واقعة موقع التعليل لنفي الحرج عنهم وهذه الجملة نظمت نظم الأمثال.

المعنى: ليس على الضعفاء ولا على من عطف عليهم حرج إذا نصحوا لله ورسوله، لأنّهم محسنون غير مسيئين. وما على المحسنين من سبيل، أي: مؤاخذة أو معاقبة.

المحسنون: الذين فعلوا الإحسان وهو ما فيه النفع التام.

السبيل: أصله الطريق، ويطلق على وسائل وأسباب المؤاخذة باللوم والعقاب، ونظيره قوله تعالى { فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً } [النساء:34]، وقوله تعالى { فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً } [النساء:90].

{ **وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } تذييل، والواو اعتراضية، أي: شديد المغفرة، ومن مغفرته أن لم يؤاخذ أهل الأعذار بالقعود عن الجهاد. شديد الرحمة بالنّاس، ومن رحمته أن لم يكلّف أهل الإعذار ما يشقّ عليهم.

{ وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ } [92].

عطف على { الضُّعَفَاءِ } و{ الْمَرْضَى }. وإعادة حرف النفي بعد العاطف للنكتة المتقدّمة هنالك.

الحمل: يطلق على إعطاء ما يُحمل عليه، أي: ما يركبونه ويحملون عليه سلاحهم ومؤنهم من الإبل.

{ **لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ** } إمّا حال من ضمير المخاطب في { أَتَوْكَ }، وإمّا بدل اشتمال من فعل {أَتَوْكَ} لأنّ إتيانهم لأجل الحمل يشتمل على إجابة وعلى منع.

{ **تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ** } جواب { إِذَا } والمجموع صلة { الَّذِينَ }.

التولّي: الرجوع. وتقدّم عند قوله تعالى { مَا وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمْ } [البقرة:142].

الفيض والفيضان: خروج الماء ونحوه من قراره ووعائه، ويُسند إلى المائع حقيقة. يقال: فاض الوادي، وفاض الإناء. ومنه فاضت العين دمعا وهو أبلغ من فاض دمعهما، لأنّ العين جعلت كأنّها كلّها دمع فائض. وقد تقدّم في قوله تعالى { تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنْ الدَّمْعِ } [المائدة:83].

{ **حَزَنًا** } نصب على المفعول لأجله.

{ **أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ** } مجرور بلام جرّ محذوف، أي: حزنوا لأنّهم لا يجدون ما ينفقون.

والآية نزلت في نفر من الأنصار سبعة، وقيل: فيهم من غير الأنصار، واختُلف أيضا في أسمائهم بما لا حاجة إلى ذكره، ولُقّبوا بالبكّائين لأنّهم بكوا لمّا لم يجدوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم الحُملان.

وقيل: نزلت في أبي موسى الأشعري ورهط من الأشعريين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في

غزوة تبوك يستحملونه فلم يجد لهم حمولة وصادفوا ساعة غضب من النبيّ صلى الله عليه وسلم فحلف أن لا يحملهم، ثم جاءه نهب إبل فدعاهم وحملهم وقالوا: استغفلنا رسولَ الله يمينَه لا نفلح أبدا، فرجعوا وأخبروه فقال: **" ما أنا حملتكم ولكنّ الله حملكم، وإنّي والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلّا كفّرت عن يميني وفعلت الذي هو خير".**

والظاهر أنّ هؤلاء غير المعنيين في هذه الآية لأنّ الأشعريين قد حملهم النبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ } [93].

لمّا نفت الآيتان أن يكون سبيل على المؤمنين الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما ينفقون والذين لم يجدوا حمولة، حصرت هذه الآية السبيل في كونه على الذين يستأذنون في التخلّف وهم أغنياء، وهو انتقال بالتخلّص إلى العودة إلى أحوال المنافقين.

وفي هذا الحصر تأكيد للنفي السابق، أي: لا سبيل عقاب إلّا على الذين يستأذنونك وهم أغنياء. والمراد بهم المنافقون بالمدينة الذين يكرهون الجهاد، إذ لا يؤمنون بما وعد الله عليه من الخيرات، وهم أولو الطول.

{ **إِنَّمَا السَّبِيلُ** } السبيل حقيقته الطريق. ومرّ في قوله تعالى { مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ } [91]. مستعار لمعنى السلطان والمؤاخذة بالتبعة، شُبّه السلطان والمؤاخذة بالطريق لأنّ السلطة يتوصّل بها من هي له إلى تنفيذ المؤاخذة في الغير. ولذلك عُدّي بحرف { عَلَى } المفيد لمعنى الاستعلاء، وهو هنا استعلاء مجازي بمعنى التمكّن. والمعنى: ليست التبعة والمؤاخذة إلّا على الذين يستأذنوك وهم أغنياء، الذين أرادوا أن يتخلّفوا عن غزوة تبوك ولا عذر لهم.

{ **رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ** } أي: بعثهم على ذلك رضاهم بأن يكونوا مع الخوالف من النساء. وقد تقدّم القول في نظيره آنفا [87].

{ **وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ** } أسند الطبع على قلوبهم إلى الله في هذه الآية بخلاف ما في الآية السابقة { وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ } [87]، لعلّه للإشارة إلى أنهّ طبع أنشأه الله في قلوبهم لغضبه عليهم فحرمهم النجاة من الطبع الأصلي وزادهم عماية.

{ **فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ** } لنفي أصل العلم عنهم، أي: يكادون أن يساووا العجماوات.

{ **يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لاَ تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** } [94].

استئناف ابتدائي، وضمير { يَعْتَذِرُونَ } عائد إلى أقرب معاد وهو قوله { وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ } [90]، فإنّهم فريق من المنافقين، فهم الذين اعتذروا بعد رجوع النّاس من غزوة تبوك، وجُعل المسند فعلا مضارعا لإفادة التجدّد والتكرير.

والخطاب للمسلمين لأنّ المنافقين يقصدون بأعذارهم إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ويعيدونها مع جماعات المسلمين.

{ **لاَ تَعْتَذِرُوا** } النهي مستعمل في التأييس.

{ **لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ** } في موضع التعليل للنهي عن الاعتذار لعدم جدوى الاعتذار. يقال: آمن له إذا صدّقه. وقد تقدّم في قوله تعالى { وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ } [61].

{ **قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ** } تعليل لنفي تصديقهم، أي: قد نبّأنا الله من أخباركم بما يقتضي تكذيبكم.

{ **مِنْ** } اسم بمعنى بعض، أو هي صفة لمحذوف، تقديره: قد نبأنا الله اليقين من أخباركم.

{ **وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ** } أي: لا فائدة في اعتذاركم فإن خشيتم المؤاخذة فاعملوا الخير للمستقبل فسيرى الله عملكم ورسوله إن أحسنتم. فالمقصود فتح باب التوبة لهم، والتنبيه إلى المكنة من استدراك أمرهم. وفي ذلك تهديد بالوعيد إن لم يتوبوا.

{ **ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ** } أي: تصيرون بعد الموت إلى الله.

الردّ: بمعنى الإرجاع، كما في قوله تعالى { ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاَهُمْ الْحَقِّ } [الأنعام:62]. والمراد به هنا مصير النفوس إلى عالم الخلد الذي لا تصرّف فيه لغير الله. تشبيها بردّ شيء إلى مقرّه أو إرجاعه إلى مالكه.

الغيب: ما غاب عن علم النّاس. و**الشهادة**: المشاهدة.

والعدول عن أن يقال: ثمّ تردون إليه، لما في الإظهار من التنبيه على أنّه لا يعزب عنه شيء من أعمالهم، زيادة في الترغيب والترهيب، ليعلموا أنّه لا يخفى على الله شيء.

{ **فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** } الإنباء: الإخبار. وما كنتم تعملون: علم كل عمل عملوه. واستعمل في لازم معناه، وهو المجازاة على كل ما عملوه، أي: فتجدونه عالما بكل ما عملتموه. وهو كناية، لأنّ ذكر المجازاة في مقام الإجرام والجناية لازم لعموم علم ملك يوم الدين بكل ما عملوه.

{ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } [95].

الجملة مستأنفة ابتدائية تعداد لأحوالهم. ومعناها ناشئ عن مضمون جملة { لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ } [94] تنبيها على أنّهم لا يرعوون عن الكذب ومخادعة المسلمين، فإذا قيل لهم { لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ } [94] حلفوا على أنّهم صادقون ترويجا لخداعهم. وهذا إخبار بما سيلاقي به المنافقون المسلمين قبل وقوعه وبعد رجوع المسلمين من الغزو.

الانقلاب: الرجوع، وتقدّم في قوله تعالى { انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ } [آل عمران:144].

{ **لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ** } صُرّح بعلّة الحلف هنا أنّه لقصد إعراض المسلمين عنهم، أي: عن عتابهم وتقريعهم، للإشارة إلى أنّهم لا يقصدون تطييب خواطر المسلمين ولكن أرادوا التملّص من مسبّة العتاب ولذعه.

ولذلك قال في الآيتين الأخريين { يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ } [62]، و{ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ } [96]، لأنّ ذلك كان قبل الخروج إلى الغزو فلمّا فات الأمر وعلموا أنّ حلفهم لم يصدّقه المسلمون صاروا يحلفون لقصد أن يعرض المسلمون عنهم.

{ **فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ** }، أي: فإذا كانوا يرومون الإعراض عنهم فأعرضوا عنهم تماماً.

وهذا ضرب من التقريع فيه إطماع للمغضوب عليه الطالب بأنّه أجيبت طلبته، حتّى إذا تأمّل وجد ما طمع فيه قد انقلب عكس المطلوب فصار يأسا، لأنّهم أرادوا الإعراض عن المعاتبة بالإمساك عنها واستدامة معاملتهم معاملة المسلمين، فإذا بهم يواجهون بالإعراض عن مكالمتهم ومخالطتهم.

{ **إِنَّهُمْ رِجْسٌ** } تعليل للأمر بالإعراض.

الرجس: الخبث. والمراد تشبيههم بالرجس في الدناءة ودنس النفوس. فهو رجس معنوي.

{ **وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** }

المأوى: المصير والمرجع. و{ جَزَاءً } حال من { جَهَنَّمُ }، أي: مجازاة لهم على ما كانوا يعملون.

{ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَرْضَى عَنْ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ } [96].

بدل اشتمال من جملة { سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ } [95]، لأنّهم إذا حلفوا لأجل أن يعرض عنهم المسلمون فلا يلومونهم، فإنّ ذلك يتضمّن طلبهم رضى المسلمين.

وقد فرّع الله على ذلك أنّه إن رضي المسلمون عنهم وأعرضوا عن لومهم فإنّ الله لا يرضى عن المنافقين. وهذا تحذير للمسلمين من الرضى عن المنافقين بطريق الكناية إذ قد علم المسلمون أنّ ما لا يرضي الله لا يكون للمسلمين أن يرضوا به.

{ **الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ** } هم هؤلاء المنافقون. والعدول عن الإتيان بضمير (هم) إلى التعبير بصفتهم للدلالة على ذمّهم وتعليل عدم الرضى عنهم.

{ **الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** } [97].

استئناف ابتدائي رجع به الكلام إلى أحوال المعذّرين من الأعراب والذين كذبوا الله ورسوله منهم، وما بين ذلك استطراد دعا إليه قرن الذين كذبوا الله ورسوله في الذكر مع الأعراب. فلمّا تقضّى الكلام على أولئك تخلّص إلى بقية أحوال الأعراب. ومن وراء ذلك تنبيه المسلمين لأحوال الأعراب لأنّهم لبعدهم عن الاحتكاك بهم والمخالطة معهم قد تخفى عليهم أحوالهم ويظنّون بجميعهم خيرا.

{ **أَشَدُّ / أَجْدَرُ** } اسما تفضيل ولم يذكر معهما ما يدل على مفضّل عليه.

<u>فيجوز أن يكونا على ظاهرهما</u> فيكون المفضّل عليه أهل الحضر، أي: كفّار ومنافقي المدينة. وهذا هو الذي تواطأ عليه جميع المفسرين.

وازديادهم في الكفر والنفاق هو بالنسبة لكفّار ومنافقي المدينة. ومنافقوهم أشدّ نفاقا من منافقي المدينة. وذلك أن غلظ القلوب وجلافة الطبع تزيد النفوس السيئة وحشة ونفورا. فإنّ الأعراب لنشأتهم في البادية كانوا بعداء عن مخالطة أهل العقول المستقيمة وكانت أذهانهم أبعد عن معرفة الحقائق وأملأ بالأوهام، وهم لبعدهم عن مشاهدة أنوار النبيّ صلى الله عليه وسلم وأخلاقه وآدابه وعن تلقي الهدى صباح مساء، أجهل بأمور الديانة وما به تهذيب النفوس. ولذلك قال عثمان لأبي ذر لمّا عزم على سكنى الربذة: " تعهّد المدينة كيلا ترتد أعرابيا ".

فأمّا في الأخلاق التي تحمد فيها الخشونة والغلظة والاستخفاف بالعظائم، مثل الشجاعة والصراحة وإباء الضيم والكرم فإنّها تكون أقوى في الأعراب بالجبلّة، ولذلك يكونون أقرب إلى الخير إذا اعتقدوه وآمنوا به.

<u>ويجوز أن يكون { **أَشَدُّ** } و{ **أَجْدَرُ** } مسلوبي المفاضلة</u> مستعملين لقوة الوصفين في الموصوفين بهما. فالمعنى أنّ كفرهم شديد التمكّن من نفوسهم ونفاقهم كذلك، من غير إرادة أنّهم أشد كفرا ونفاقا من كفّار أهل المدينة ومنافقيها.

الأجدر: الأحق. والجدارة: الأولوية. وإنّما كانوا أجدر بعدم العلم بالشريعة لأنّهم يبعدون عن مجالس التذكير ومنازل الوحي، ولقلة مخالطتهم أهل العلم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الحدود: المقادير والفواصل بين الأشياء. <u>والمعنى</u>: أنّهم لا يعلمون فواصل الأحكام وضوابط تمييز متشابهها.

وفي هذا الوصف يظهر تفاوت أهل العلم والمعرفة. وهو المعبّر عنه في اصطلاح العلماء بالتحقيق أو

بالحكمة، المفسّرة بمعرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه، فزيادة قيد (على ما هي عليه) للدلالة على التمييز بين المختلطات والمتشابهات والخفيّات.

{ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** } تذييل لهذا الإفصاح عن دخيلة الأعراب وخلقهم، أي: عليم بهم وبغيرهم، وحكيم في تمييز مراتبهم.

{ وَمِنْ الأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [98].

هذا فريق من الأعراب يُظهر الإيمان ويُنفق في سبيل الله، وإنّما يفعلون ذلك تقيّة وخوفا من الغزو، أو حبّا للمَحْمدة وسلوكا في مسلك الجماعة، وهم يبطنون الكفر وينتظرون الفرصة التي تمكّنهم من الانقلاب على أعقابهم. وهؤلاء وإن كانوا من جملة منافقي الأعراب فتخصيصهم بالتقسيم هنا منظور فيه إلى ما اختصّوا به من أحوال النفاق.

{ **يَتَّخِذُ** } يُعدّ ويجعل.

المغرم: ما يدفع من المال قهرا وظلما، فهؤلاء يؤتون الزكاة وينفقون في سبيل الله ويعدّون ذلك كالاتاوات المالية والرزايا يدفعونها تقيّة. ومن هؤلاء من امتنعوا من إعطاء الزكاة بعد وفاة الرّسول صلى الله عليه وسلم.

التربص: الانتظار. و**الدوائر**: جمع دائرة وهي تغيّر الحالة من استقامة إلى اختلال. وتقدّم الكلام عليها عند قوله تعالى { يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ } [المائدة:52].

<u>المعنى</u>: أنّهم ينتظرون ضعفكم وهزيمتكم، أو ينتظرون وفاة نبيّكم فيظهرون ما هو كامن فيهم من الكفر. وقد أنبأ الله بحالهم التي ظهرت عقب وفاة النبيّ صلى الله عليه وسلم، وهم أهل الردّة من العرب.

{ **عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ** } دعاء عليهم وتحقير، ولذلك فصلت. والدعاء من الله على خلقه تكوين وتقدير مشوب بإهانة، لأنّه لا يعجزه شيء فلا يحتاج إلى تمنّي ما يريده.

وقد كانت على الأعراب دائرة السوء إذ قاتلهم المسلمون في خلافة أبي بكر عام الردّة وهزموهم فرجعوا خائبين.

وإضافة { دَائِرَةُ } إلى { السَّوْءِ } من الإضافة إلى الوصف اللازم، إذ الدائرة لا تكون إلّا في السوء.

{ **وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** } تذييل، أي: سميع ما يتناجون به وما يدبّرونه من الترصّد، عليم بما يبطنونه ويقصدون إخفاءه.

{ وَمِنْ الأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلاَ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمْ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [99].

هؤلاء هم المؤمنون من الأعراب وفّاهم الله حقّهم من الثناء عليهم، وهم أضداد الفريقين الآخرين المذكورين في قوله تعالى { الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا } [97]، وقوله { وَمِنْ الأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا } [98].

قيل: هم (بنو مُقَرّن من مُزينة) الذين نزل فيهم قوله تعالى { وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ } [92]. ومن هؤلاء عبد الله ذو البجادين المُزَني (ابن مغفل).

{ **قُرُبَاتٍ** } (بضم القاف وضم الراء) جمع قرْبة (بسكون الراء). وهي تطلق بمعنى المصدر، أي: القرب وهو المراد هنا، أي: يتخذون ما ينفقون تقرّبا عند الله. وجمع قربات باعتبار تعدد الإنفاق. قال تعالى { يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ } [الإسراء:57]. فـ { قُرُبَاتٍ } هنا مجاز مستعمل في رضى الله ورفع الدرجات في الجنة، فلذلك وصفت بـ { عِنْدَ } الدالة على مكان الدنو.

{ **عِنْدَ اللَّهِ** } مجاز في التشريف والعناية، فإنّ الجنة تشبه بدار الكرامة عند الله.

{ **وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ** } دعواته. وأصل الصلاة الدعاء. وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يصلّي على كل من يأتيه بصدقته وإنفاقه امتثالا لما أمره الله به { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ } [103]. وجاء في حديث ابن أبي أوفى أنّه لما جاء بصدقته قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" اللّهم صل على آل أبي أوفى ".**

{ **أَلاَ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ** } مستأنفة، مسوقة مساق البشارة لهم بقبول ما رجوه.

{ **سَيُدْخِلُهُمْ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ** } واقعة موقع البيان لجملة { إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ }، لأنّ القربة عند الله هي الدرجات العلى ورضوانه، وذلك من الرحمة. والقربة عند صلوات الرسول صلى الله عليه وسلم إجابة صلاته. والصلاة التي يدعو لهم طلب الرحمة، فمآل الأمرين هو إدخال الله إيّاهم في رحمته. وأوثر فعل (الإدخال) هنا لأنّه المناسب للكون في الجنّة.

{ **إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } تذييل مناسب لما رجوه وما استجيب لهم. أي: غفور لما مضى من كفرهم، رحيم بهم يفيض النعم عليهم.

{ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [100].

عُقّب ذكر الفرق المتلبّسة بالنقائص على تفاوت بينها في ذلك، بذكر القدوة الصالحة والمثل الكامل في

الإيمان والفضائل والنصرة في سبيل الله، ليحتذي متطلّب الصلاح حذوهم، ولئلّا يخلو تقسيم القبائل الساكنة بالمدينة وحواليها وبواديها عن ذكر أفضل الأقسام تنويها به. وبهذا تم استقراء الفرق وأحوالها.

{ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ } المقصود بالسبق السبق في الإيمان، لأنّ سياق الآيات قبلها في تمييز أحوال المؤمنين الخالصين، والكفّار الصرحاء، والكفار المنافقين، فتعيّن أن يراد الذين سبقوا غيرهم من صنفهم؛

فالسابقون من المهاجرين هم الذين سبقوا بالإيمان قبل أن يهاجر النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى المدينة.

والسابقون من الأنصار هم الذين سبقوا قومهم بالإيمان، وهم أهل العقبتين الأولى والثانية.

وقد اختلف المفسرون في تحديد المدّة التي عندها ينتهي وصف السابقين من المهاجرين والأنصار معا: فقال أبو موسى وابن المسيّب وابن سيرين وقتادة: من صلى القبلتين.

وقال عطاء: من شهد بدرا.

وقال الشعبي: من أدركوا بيعة الرضوان.

وهذه الأقوال الثلاثة تعتبر الواو في قوله تعالى { وَالأَنصَارِ } للجمع في وصف السبق لأنّه متّحد بالنسبة إلى الفريقين.

وفي (أحكام ابن العربي) ما يشبه أن رأيه أنّ السابقين أصحاب العقبتين، وذلك يخصّ الأنصار.

وعن الجبّائي: أنّ السابقين من أسلموا قبل هجرة النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى المدينة.

الأنصار: جمع نصير، وهو الناصر. والأنصار بهذا الجمع اسم غلب على الأوس والخزرج الذين آمنوا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم في حياته أو بعد وفاته وعلى أبنائهم إلى آخر الزمان. دعاهم النبيّ صلى الله عليه وسلم بهذا الوصف، فيطلق على أولاد المنافقين منهم الذين نشأوا في الإسلام كولد ابن صيّاد.

وقرأ يعقوب { وَالأَنصَارُ } بالرفع، فيكون عطفا على وصف { وَالسَّابِقُونَ } ويكون المقسَّم إلى سابقين وغيرهم خصوص المهاجرين.

{ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ } بقيّة المهاجرين وبقيّة الأنصار، اتّبعوهم إلى الايمان. ممّن آمنوا بعد فتح مكّة ومن آمنوا من المنافقين بعد مدّة.

الإحسان: هو العمل الصالح. والباء للملابسة. وإنّما قُيّد هذا الفريق خاصة لأنّ السابقين الأوّلين ما بعثهم على الإيمان إلّا الإخلاص، فهم محسنون، وأمّا الذين اتبعوهم فمن بينهم من آمن اعتزازا بالمسلمين حين صاروا أكثر أهل المدينة. ومنهم من آمن وفي إيمانه ضعف وتردّد، مثل المؤلفة قلوبهم، فربّما نزل بهم إلى النفاق وربما ارتقى بهم إلى الإيمان الكامل، وهم المذكورون مع المنافقين في قوله تعالى { لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ } [الأحزاب:60]، فإذا بلغوا رتبة الإحسان دخلوا في وعد الرضى من الله وإعداد الجنات.

{ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ } عنايته بهم وإكرامه إيّاهم ودفاعه أعداءهم.

{ **وَرَضُوا عَنْهُ** } كناية عن كثرة إحسانه إليهم حتّى رضيت نفوسهم لما أعطاهم ربّهم.
{ **وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** }.
الإعداد: التهيئة. وفيه إشعار بالعناية والكرامة. وتقدّم القول في معنى جري الأنهار.
وقد خالفت هذه الآية عند معظم القراء أخواتها فلم تذكر فيها (من) مع { تَحْتَهَا } في غالب المصاحف وفي رواية جمهور القراء، فتكون خالية من التأكيد إذ ليس لحرف (من) معنى مع أسماء الظروف إلّا التأكيد. ويكون خلو الجملة من التأكيد لحصول ما يغني عنه من إفادة التقوّي بتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي، ومن فعل { أَعَدَّ } المؤذن بكمال العناية فلا يكون المُعدّ إلّا أكمل نوعه.
وثبتت (من) في مصحف مكّة، وهي قراءة ابن كثير المكي، فتكون مشتملة على زيادة مؤكدين.

{ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنْ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ } [101].

كانت الأعراب الذين حول المدينة قد خلصوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم وأطاعوه وهم: (جهينة، وأسلم، وأشجع، وغفار، ولحيان، وعصية)، فأعلم الله نبيّه صلى الله عليه وسلم أنّ في هؤلاء منافقين لئلّا يغتر بكلّ من يُظهر له المودّة.
وكانت المدينة قد خلُص أهلها للنبيّ صلى الله عليه وسلم وأطاعوه فأعلمه الله أنّ فيهم بقيّة مردوا على النفاق لأنّه تأصّل فيهم من وقت دخول الإسلام بينهم.
{ **وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ** } تقديره: ومن أهل المدينة جماعة مردوا.
مرد: على الأمر مَرِن عليه ودَرِب به، ومنه الشيطان المارد، أي: في الشيطنة.
{ **لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ** } أشيرإلى أنّ هذا الفُلَّ الباقي من المنافقين قد أراد الله الاستيثار بعلمه ولم يطلع عليهم رسوله صلى الله عليه وسلم كما أطلعه على كثير من المنافقين من قبل. وإنّما أعلمه بوجودهم على الإجمال لئلّا يغترّ بهم المسلمون. والخبر مستعمل في الوعيد، كقوله { وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ } [94].
{ **سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ** } العذاب الموصوف بمرّتين عذاب في الدنيا لقوله تعالى بعده { ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ }.
تحيّر المفسّرون في تعيين المراد من المرّتين. وحملوه كلهم على حقيقة العدد. وذكروا وجوها لا ينشرح لها الصدر. **والظاهر عندي** أنّ العدد مستعمل لمجرد قصد التكرير المفيد للتأكيد، كقوله تعالى { ثُمَّ ارْجِعْ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ } [الملك:4]، أي: تأمّل تأملا متكرّرا. ومنه قول العرب: لبيك وسعديك، فأسم التثنية نائب مناب إعادة اللفظ. والمعنى: سنعذبهم عذابا شديدا متكرّرا مضاعفا، كقوله تعالى { يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ } [الأحزاب:30].

{ **ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ** } هو عذاب جهنم في الآخرة.

{ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [102].

الأظهر أنّ { وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا } عطف على { وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ } [101]، أي: وممّن حولكم من الأعراب منافقون، ومن أهل المدينة آخرون أذنبوا بالتخلّف فاعترفوا بذنوبهم بالتقصير.

{ **اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ** } إيجاز لأنّه يدلّ على أنّهم أذنبوا واعترفوا بذنوبهم ولم يكونوا منافقين، لأنّ التعبير بالذنوب بصيغة الجمع يقتضي أنّها أعمال سيئة في حالة الإيمان، وكذلك التعبير عن ارتكاب الذنوب بخلط العمل الصالح بالسيّئ.

وكان من هؤلاء جماعة منهم (الجِد بن قيس، وكردم، وأرس بن ثعلبة، ووديعة ابن حزام، ومرداس، وأبو قيس، وأبو لُبابة) في عشرة نفر اعترفوا بذنبهم في التخلّف عن غزوة تبوك وتابوا إلى الله وربطوا أنفسهم في سواري المسجد النبوي أيامًا حتّى نزلت هذه الآية في توبة الله عليهم.

الاعتراف: افتعال من عرف. وهو للمبالغة في المعرفة، ولذلك صار بمعنى الإقرار بالشيء وترك إنكاره، فالاعتراف بالذنب كناية عن التوبة منه، لأنّ الإقرار بالذنب الفائت إنّما يكون عند الندم والعزم على عدم العود إليه.

{ **خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا** } يقال: خلط كذا بكذا على اعتبار أحد الشيئين المختلطين متلابسين بالخلط.

هو خلطهم حسنات أعمالهم بسيّئات التخلّف عن الغزو وعدم الإنفاق على الجيش.

عسى: فعل رجاء. وهي من كلام الله تعالى المخاطب به النبيّ صلى الله عليه وسلم، فهي كناية عن وقوع المرجو، وأنّ الله قد تاب عليهم. وذِكر فعل الرجاء يستتبع معنى اختيار المتكلم في وقوع الشيء وعدم وقوعه.

{ **أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ** } أي: يقبل توبتهم، وتقدّم عند قوله تعالى { فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ } [البقرة:37].

{ **إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } تذييل مناسب للمقام.

{ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [103].

لمّا كان من شرط التوبة تدارك ما يمكن تداركه ممّا فات، وكان التخلّف عن الغزو مشتملا على أمرين

هما عدم المشاركة في الجهاد، وعدم إنفاق المال في الجهاد، جاء في هذه الآية إرشاد لطريق تداركهم ما يمكن تداركه ممّا فات وهو نفع المسلمين بالمال، فالأنفاق العظيم على غزوة تبوك استنفد المال المعدّ لنوائب المسلمين، فإذا أخذ من المخلفين شيء من المال انجبر به بعض الثلم الذي حلّ بمال المسلمين.

وقد روي أنّ الذين اعترفوا بذنوبهم قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم: هذه أموالنا التي بسببها تخلّفنا عنك، خذها فتصدّق بها وطهّرنا واستغفر لنا، فقال لهم: **" لم أؤمر بأن آخذ من أموالكم "**. حتّى نزلت هذه الآية فأخذ منهم النبيّ صلى الله عليه وسلم صدقاتهم.

التزكية: جعل الشيء زكيا، أي: كثير الخيرات. فقوله تعالى { تُطَهِّرُهُمْ } إشارة إلى مقام التخلية عن السيئات، وقوله تعالى { تُزَكِّيهِمْ } إشارة إلى مقام التحلية بالفضائل والحسنات. ولا جرم أنّ التخلية مقدّمة على التحلية. فالمعنى: أنّ هذه الصدقة كفارة لذنوبهم ومجلبة للثواب العظيم.

{ **وَصَلِّ عَلَيْهِمْ** } الدعاء لهم. وقد كان النبيّ صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية إذا جاءه أحد بصدقته يقول: اللهم صل على آل فلان. والصلاة من الله الرحمة، ومن النبيّ الدعاء.

{ **إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ** } تعليل للأمر بالصلاة عليهم، أي: أنّ دعاءه خير لهم. فإطلاق السكن على هذا الدعاء مجاز مرسل.

السَكَن، (بفتحتين) ما يُسكَن إليه، أي: يُطمأن إليه ويُرتاح به. وهو مشتقّ من السكون بالمعنى المجازي، وهو سكون النفس، أي: سلامتها من الخوف ونحوه، لأنّ الخوف يوجب كثرة الحذر واضطراب الرأي فتكون النفس كأنّها غير مستقرّة، ولذلك سمّي ذلك قلقا لأنّ القلق كثرة التحرك.

{ **وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** } تذييل مناسب للأمر بالدعاء لهم. والمراد بالسميع هنا، المجيب للدعاء. ففيه إيماء إلى التنويه بدعائه صلى الله عليه وسلم. وذكر العليم إيماء إلى أنّه ما أمره بالدعاء لهم إلّا لأنّ في دعائه لهم خيرا عظيما.

{ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } [104].

إن كان الذين اعترفوا بذنوبهم وعرضوا أموالهم للصدقة قد بقي في نفوسهم اضطراب من خوف أن لا تكون توبتهم مقبولة وأن لا يكون الرّسول صلى الله عليه وسلم قد رضي عنهم، كان الاستفهام تقريرا مشوبا بتعجيب من تردّدهم في قبول توبتهم.

وإن كان الذين اعترفوا بذنوبهم لم يخطر ببالهم شك في قبول توبتهم، فهو استطراد لترغيب أمثال أولئك في التوبة ممّن تأخّروا عنها.

{ **وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** } تنبيه على أنّه كما يجب العلم بأن الله يفعل ذلك يجب العلم بأن من صفاته العُلى أنّه التّواب الرحيم.

{ وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } [105].

أمروا بالعمل عقب الإعلام بقبول توبتهم، لإنّ التوبة إنّما ترفع المؤاخذة بما مضى فوجب على المؤمن الراغب في الكمال بعد توبته أن يزيد من الأعمال الصالحة ليجبر ما فاته من الأوقات التي كانت حقيقة بأن يعمرها بالحسنات.

{ **فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ** } زيادة في التحضيض، وتذكير لهم باطلاع الله تعالى بعلمه على جميع الكائنات. وهذا كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم في بيان الإحسان:" **هو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك** ". { **وَرَسُولُهُ** } عُطف على اسم الجلالة لأنّه صلى الله عليه وسلم المبلّغ عن الله وهو الذي يتولّى معاملتهم على حسب أعمالهم.

{ **وَالْمُؤْمِنُونَ** } لأنّهم شهداء الله في أرضه، ولأنّ هؤلاء لمّا تابوا قد رجعوا إلى حضيرة جماعة الصحابة فإن عملوا مثلهم كانوا بمحلّ الكرامة منهم، وإلّا كانوا ملحوظين منهم بعين الغضب والإنكار.

{ **وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ** } وعد ووعيد معا على حسب الأعمال.

{ **فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** } تقدّم القول في نظيره آنفا.

{ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [106].

هذا فريق آخر عطف خبره على خبر الفِرق الآخرين. والمراد بهؤلاء من بقي من المخلّفين لم يتب الله عليه، وكان أمرهم موقوفا إلى أن يقضي الله بما يشاء. وهؤلاء نفر ثلاثة هم: (**كعب بن مالك**، و**هلال بن أمية**، و**مُرارة بن الربيع**)، وثلاثتهم قد تخلّفوا عن غزوة تبوك، ولم يكن تخلّفهم نفاقا ولا كراهية للجهاد ولكنّهم شغلوا عند خروج الجيش وهم يحسبون أنّهم يلحقونه وانقضت الأيام وأيسوا من اللحاق. وسأل عنهم النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو في تبوك. فلمّا رجع النبيّ صلى الله عليه وسلم أتوه وصدقوه، فلم يكلّمهم، ونهى المسلمين عن كلامهم ومخالطتهم، وأمرهم باعتزال نسائهم، فامتثلوا وبقوا كذلك خمسين ليلة، فهم في تلك المدّة مرجون لأمر الله. وأنزل فيهم قوله تعالى { لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النبيّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ - إلى قوله - وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ } [117-119].

وعن كعب ابن مالك في قصّته هذه حديث طويل أغر في صحيح البخاري على التوبة والتنبيه إلى فتح بابها.

{ **مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ** } أي: مؤخَّرون لأجل أمر الله في شأنهم. وفيه حذف مضاف تقديره: لأجل انتظار أمر الله في شأنهم، لأنّ التأخير مشعر بانتظار شيء.

{ **إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ** } بيان لجملة { وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ } باعتبار متعلّق خبرها وهو قوله تعالى

{ لأَمْرِ اللَّهِ }، أي: أمر الله الذي هو إمّا تعذيبهم، وإمّا توبته عليهم. ويُفهم من قوله تعالى { يَتُوبُ عَلَيْهِمْ } أنّهم تابوا.

{ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** } تذييل مناسب لإبهام أمرهم على النّاس، أي: والله عليم بما يليق بهم من الأمرين، محكم تقديره حين تتعلق به إرادته.

{ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ [107] لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ [108] }.

أشارت الآية إلى قصّة اتخاذ المنافقين مسجدا قرب مسجد قباء لقصد الضرار، وهم طائفة من (بني غُنْم بن عَوف وبني سالم بن عوف من أهل العوالي). كانوا اثني عشر رجلا سمّاهم ابن عطيّة. وكان سبب بنائهم إيّاه أنّ أبا عامر واسمه عبد عمرو، ويلقّب بالراهب من بني غُنْم بن عَوف، كان قد تنصّر في الجاهلية فلمّا جاء الإسلام كان من المنافقين. ثم جاهر بالعداوة وخرج في جماعة من المنافقين فحزّب الأحزاب التي حاصرت المدينة في وقعة الخندق فلمّا هزمهم الله أقام أبو عامر بمكّة. ولمّا فتحت مكّة هرب إلى الطائف، فلمّا فتحت الطائف وأسلمت ثقيف خرج أبو عامر إلى الشام يستنصر بقيصر، وكتب إلى المنافقين من قومه يأمرهم بأن يبنوا مسجدا ليخلصوا فيه بأنفسهم، ويعدهم أنّه سيأتي في جيش من الروم ويخرج المسلمين من المدينة. فانتدب لذلك اثنا عشر رجلا من المنافقين بعضهم من بني عمرو بن عوف وبعضهم من أحلافهم من بني ضبيعة بن زيد وغيرهم، فبنوه بجانب مسجد قباء، وذلك قبيل مخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك. وأتوا النبيّ صلى الله عليه وسلم وقالوا: بنينا مسجدا لذي العلّة والحاجة والليلة المطيرة، ونحن نحب أن تصلّي لنا فيه، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **إنّي على جناح سفر وحال شغل وإذا قدمنا إن شاء الله صلّينا فيه** ". فلمّا قفل من غزوة تبوك سألوه أن يأتي مسجدهم فأنزل الله هذه الآية، وحلفوا أنّهم ما أرادوا به إلّا خيرا.

الضرار: مصدر ضار مبالغة في ضرّ، أي: ضرارا لأهل الإسلام.

التفريق بين المؤمنين: هو ما قصدوه من صرف بني غُنم وبني سالم عن قباء.

الإرصاد: التهيئة.

{ **لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ** } المراد به (أبو عامر الراهب)، لأنّه حارب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الأحزاب وحاربه مع ثقيف وهوازن.

الحسنى: الخير.

{ **لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا** } المراد بالقيام الصلاة، لأنّ أوّلها قيام.
ووجه النهي عن الصلاة فيه أن صلاة النبيّ صلى الله عليه وسلم فيه تكسبه يمنا وبركة، وبذلك يحصل غرض المنافقين من وضعه للتفريق بين جماعة المسلمين. وهذا النهي يعم جميع المسلمين، ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم (عمار بن ياسر، ووحشيا مولى المطعم بن عدي، ومالك بن الدخشم، ومعن بن عدي) فقال: **" انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وحرّقوه "**، ففعلوا. وتحريقه تحريق الأعواد التي يُتّخذ منها السقف، والجذوع التي تُجعل له أعمدة.
{ **لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ** } أمره الله بأن يصلي في ذلك الوقت الذي دعوه فيه للصلاة في مسجد الضرار أن يصلّي في مسجده أو في مسجد قباء، لئلّا يكون لامتناعه من الصلاة من حظوظ الشيطان، أن يكون صرفه عن صلاة في وقت دعي للصلاة فيه، وهذا أدب نفساني عظيم. وفيه أيضا دفع مكيدة المنافقين أن يطعنوا في الرسول صلى الله عليه وسلم بأنّه دعي إلى الصلاة في مسجدهم فامتنع.
وثبت في صحيح مسلم وغيره عن أبي سعيد الخدري أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم سئل عن المراد من المسجد الذي أسّس على التقوى في هذه الآية فقال: **" هو مسجدكم هذا "**. يعني المسجد النبوي بالمدينة.
وثبت في الصحيح أيضا أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم بيّن الرجال الذين يُحِبُّون أَنْ يتطهَّروا بأنّهم بنو عمرو بن عوف أصحاب مسجد قباء. وذلك يقتضي أنّ المسجد الذي أسّس على التقوى من أوّل يوم هو مسجدهم، لقوله تعالى { فِيهِ رِجَالٌ }.
ووجه الجمع بين هذين عندي أن يكون المراد بقوله تعالى { لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ } المسجد الذي هذه صفته، لا مسجدا واحدا معينا، فيكون هذا الوصف كلّيّا انحصر في فردين، المسجد النبوي ومسجد قباء، فأيّهما صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الوقت الذي دعوه فيه للصلاة في مسجد الضرار كان ذلك أحقّ وأجدر، فيحصل النجاء من حظ الشيطان في الامتناع من الصلاة في مسجدهم، ومن مطاعنهم أيضا. ويحصل الجمع بين الحديثين الصحيحين. وقد كان قيام الرسول في المسجد النبوي هو دأبه.
{ **فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا** } ثناء على مؤمني الأنصار الذين يصلّون بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبمسجد قباء. وقد كان المؤمنون من الأنصار يجمعون بين الاستجمار بالأحجار والغسل بالماء كما دلّ عليه حديث رواه الدارقطني عن أبي أيوب وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الآية { فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا } فقال: **" يا معشر الأنصار إنّ الله قد أثنى عليكم خيرا في الطهور فما طهوركم؟** قالوا: إن أحدنا إذا خرج من الغائط أحب أن يستنجي بالماء. قال: **هو ذلك فعليكموه "**، فهذا يعم الأنصار كلّهم. ولا يعارضه حديث أبي داود أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل أهل قباء عن طهارتهم لأنّ أهل قباء هم أيضا من الأنصار، فسؤاله إيّاهم

لتحقّق اطراد هذا التطهر في قبائل الأنصار.

{ **يُحِبُّونَ** } قصد التنويه بهم بأنّهم يتطهرون تقربا إلى الله بالطهارة وإرضاء لمحبة نفوسهم إيّاها، بحيث صارت الطهارة خلقا لهم فلو لم تجب عليهم لفعلوها من تلقاء أنفسهم.

{ **وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ** } تذييل. وفيه إشارة إلى أنّ نفوسهم وافقت خلقا يحبّه الله تعالى. وكفى بذلك تنويها بزكاء أنفسهم.

{ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [109].

زيادة بيان أحقيّة المسجد المؤسّس على التقوى بالصلاة فيه.

{ **أَفَمَنْ أَسَّسَ** } الفاء مؤخرة عن همزة الاستفهام لأحقيّة حرف الاستفهام بالتصدير. والاستفهام تقريري.

التأسيس: بناء الأساس، وهو قاعدة الجدار المبني من حجر وطين أو جص.

البنيان: اسم لإقامة البيت ووضعه سواء كان البيت من أثواب أم من أدم أم كان من حجر وطين، فكل ذلك بناء. ويطلق البنيان على المبني من الحجر والطين خاصة.

{ **عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ** } لمّا كان من شأن الأساس أن تطلب له صلابة الأرض لدوامه جُعلت التقوى في القصد الذي بني له أحد المسجدين، فشُبّهت التقوى بما يرتكز عليه الأساس على طريقة المكنية.

{ **أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ** } تشبيه الضدّ بما أسّس على شفا جرف هار، وذلك بأنّ شُبّه المقصد الفاسد بالبناء بجرف منهار في عدم ثبات ما يقام عليه من الأساس بله البناء، على طريقة الاستعارة التصريحيّة.

والمقصود أنّ البنيان الأوّل حصل منه غرض بانيه، لأنّ غرض الباني دوام ما بناه. فهم لمّا بنوه لقصد التقوى ورضى الله تعالى، ولم يذكر ما يقتضي خيبتهم فيه كما ذكر في مقابله، عُلم أنّهم قد اتقوا الله بذلك وأرضوه ففازوا بالجنّة، كما دلت عليه المقابلة. وأنّ البنيان الثاني لم يحصل غرض بانيه، وهو الضرار والتفريق، فخابوا فيما قصدوه فلم يثبت المقصد، وكان عدم ثباته مفضيا بهم إلى النّار كما يفضي البناء المنهار بساكنه إلى الهلاك.

الشَّفا: (بفتح الشين وبالقصر) حرف البئر وحرف الحفرة.

الجُرُف: (بضمتين) جانب الوادي وجانب الهوّة.

هار: اسم مشتق من هار البناء إذا تصدّع.

{ **وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** } تذييل، وهو عام يشمل هؤلاء الظالمين الذين بنوا مسجد الضرار وغيرهم.

{ لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [110].

يجوز أن تكون مستأنفة لتعداد مساوي مسجد الضرار بذكر سوء عواقبه بعد أن ذكر سوء الباعث عليه، وبعد أن ذكر سوء وقعه في الإسلام بأن نهى الله رسوله عن الصلاة فيه وأمره بهدمه، لأنّه لمّا نهاه عن الصلاة فيه فقد صار المسلمون كلهم منهيين عن الصلاة فيه، فسلب عنه حكم المساجد، ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بهدمه. ويُرجّح هذا الوجه أنه لم يؤت بضمير المسجد أو البنيان بل جيء باسمه الظاهر. المعنى: أنّ ذلك المسجد لمّا بنوه لغرض فاسد فقد جعله الله سببا لبقاء النفاق في قلوبهم ما دامت قلوبهم في أجسادهم.

{ **رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ** } مبالغة، كالوصف بالمصدر. والمعنى: أنّه سبب للريبة في قلوبهم.

الريبة: الشكّ، فإنّ النفاق شك في الدين، لأنّ أصحابه يتردّدون بين موالاة المسلمين والإخلاص للكافرين.

{ **إِلاَّ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ** } استثناء تهكّمي. وهو من قبيل تأكيد الشيء بما يشبه ضدّه كقوله تعالى { وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ } [الأعراف:40]، أي: يبقى ريبة أبدا إلّا أن تقطع قلوبهم منهم.

{ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** } تذييل مناسب لهذا الجعل العجيب والإحكام الرشيق. وهو أن يكون ذلك البناء سبب حسرة عليهم في الدنيا والآخرة.

{ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [111].

استئناف ابتدائي للتنويه بأهل غزوة تبوك وهم جيش العسرة، ليكون توطئة وتمهيدا لذكر التوبة على الذين تخلّفوا عن الغزوة وكانوا صادقين في أيمانهم، وإنباء الذين أضمروا الكفر نفاقا بأنّهم لا يتوب الله عليهم ولا يستغفر لهم رسوله صلى الله عليه وسلم. والمناسبة ما تقدّم من ذكر أحوال المنافقين.

{ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ** } افتتحت الجملة بحرف التوكيد للاهتمام بالخبر.

الاشتراء: مستعار للوعد بالجزاء عن الجهاد. والمراد بالمؤمنين في الأظهر أن يكون مؤمني هذه الأمة.

{ **بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ** } لمّا كان شأن الباء أن تدخل على الثمن في صيغ الاشتراء أدخلت هنا لمشابهة هذا الوعد الثمن. وليس في هذا التركيب تمثيل إذ ليس ثمة هيئة مشبهة وأخرى مشبه بها.

{ **لَهُمْ الْجَنَّةَ** } اللام للملك والاستحقاق. والمجرور مصدر، والتقدير: بتحقيق تملّكهم الجنّة.

{ **يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** } مستأنفة استئنافا بيانيّا، لأنّ اشتراء الأنفس والأموال لغرابته في الظاهر يثير سؤال من يقول: كيف يبذلون أنفسهم وأموالهم؟ فكان جوابه { يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ }.

{ **فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ** } تفريع، لأنّ حال المقاتل لا تخلو من أحد هذين الأمرين.

{ **وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا** } قال الطيبي: " أتي بالأمر في صورة الخبر ثم ألزم الله البيع من جانبه وضمن إيصال الثمن إليهم، أي: لا إقالة ولا استقالة من حضرة العزّة. ثم ما اكتفى بذلك بل عين الصكوك المثبت فيها هذه المبايعة وهي التوراة والإنجيل والقرآن".

{ **فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ** } حال من { وَعْدًا }. والظرفية ظرفية الكتاب للمكتوب، أي: مكتوبا في التوراة والإنجيل والقرآن.

{ **وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ** } في موضع الحال، أي: وعدا حقّا عليه، ولا أحد أوفى بعهده منه سبحانه.

{ **أَوْفَى** } اسم تفضيل من وفّى بالعهد إذا فعل ما عاهد على فعله.

العهد: الوعد بحلف والوعد الموكّد، والبيعة عهد، والوصية عهد.

{ **فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ** } تفرَّع على كون الوعد حقّا على الله، وعلى أنّ الله أوفى بعهده من كل واحد، أن يستبشر المؤمنون ببيعهم هذا، فالخطاب للمؤمنين من هذه الأمة. وأضيف البيع إلى ضميرهم إظهارا لاغتباطهم به.

{ **وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** } تذييل جامع، فإنّ اسم الإشارة الواقع في أوّله جامع لصفات ذلك البيع بعوضيه. وأكّد بضمير الفصل وبالجملة الاسمية وبالوصف بـ { الْعَظِيمُ } المفيد للأهمية.

{ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنْ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ } [112].

أسماء الفاعلين هنا أوصاف للمؤمنين من قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ } [111]، فكان أصلها الجرّ، ولكنّها قُطعت عن الوصفية وجُعلت أخبارا لمبتدأ محذوف هو ضمير الجمع، اهتماما بهذه النعوت اهتماما أخرجها عن الوصفية إلى الخبريّة، ويُسمّى هذا الاستعمال نعتا مقطوعا، وما هو بنعت اصطلاحي ولكنه نعت في المعنى.

{ **التَّائِبُونَ** } مراد منه أنّهم مفارقون للذنوب سواء كان ذلك من غير اقتراف ذنب يقتضي التوبة، أم كان بعد اقترافه. وأوّل التوبة الإيمان لأنّه إقلاع عن الشرك، ثم يدخل منهم من كان له ذنب مع الإيمان وتاب منه.

{ **الْعَابِدُونَ** } المؤدّون لما أوجب الله عليهم.

{ **الْحَامِدُونَ** } المعترفون لله تعالى بنعمه عليهم الشاكرون له.

{ **السَّائِحُونَ** } مشتق من السياحة. وهي السير في الأرض. والمراد به سير خاص محمود شرعا. وهو

السفر الذي فيه قربة لله وامتثال لأمره، مثل سفر الهجرة من دار الكفر أو السفر للحجّ أو السفر للجهاد. وحمله هنا على السفر للجهاد أنسب بالمقام.

{ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ } أي: المصلّون، إذ الصلاة المفروضة لا تخلو من الركوع والسجود.

{ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنْ الْمُنكَرِ } الذين يدعون النّاس إلى الهدى والرشاد وينهونهم عما ينكره الشرع ويأباه. وإنّما ذكر الناهون عن المنكر بحرف العطف دون بقية الصفات، وإن كان العطف وتركه في الأخبار ونحوها جائزين، إلّا أنّ المناسبة أنّ الصفات المذكورة قبل قوله تعالى { الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ } ظاهرة في استقلال بعضها عن بعض. ثم لمّا ذكر { الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ } علم أن المراد الجامعون بينهما، أي: المصلون بالنسبة إلى المسلمين. ولما جاء بعده { الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنْ الْمُنكَرِ } وكانا صفتين مستقلتين عطفتا بالواو لئلا يتوهم اعتبار الجمع بينهما كالوصفين اللذين قبلهما.

وقال جمع من العلماء: إنّ الواو في قوله تعالى { وَالنَّاهُونَ عَنْ الْمُنكَرِ } واو يكثر وقوعها في كلام العرب عند ذكر معدود ثامن، وسموها واو الثمانية.

{ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ } صفة جامعة للعمل بالتكاليف الشرعية عند توجّهها. وحقيقة الحفظ توخّي بقاء الشيء في المكان الذي يراد كونه فيه. ويطلق مجازا شائعا على ملازمة العمل بما يؤمر به. أي: غير المضيّعين لشيء من حدود الله.

الحدود: مجاز على الوصايا والأوامر. فالحدود تشمل العبادات والمعاملات. ولذلك ختمت بها هذه الأوصاف. وعطفت بالواو لئلا يوهم ترك العطف أنّها مع التي قبلها صفتان متلازمتان معدودتان بعد صفة الأمر بالمعروف.

{ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ } عطف على جملة { إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ } [111]، عطف إنشاء على خبر. والبشارة تقدمت مرارا.

{ مَا كَانَ لِلنبيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ } [113].

استئناف نُسخ به التخيير الواقع في قوله تعالى { اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ } [80].

ولعلّ الغرض الذي لأجله أبقي التخيير في الاستغفار لهم قد ضعف ما فيه من المصلحة ورجح ما فيه من المفسدة بانقراض من هم أهل لحسن القول وغلبة الدهماء من المنافقين الذين يحسبون أنّ استغفار النبيّ صلى الله عليه وسلم لهم يغفر لهم ذنوبهم فيصبحوا فرحين بأنّهم ربحوا الصفقتين وأرضوا الفريقين.

ولعلّ المسلمين لمّا سمعوا تخيير النبيّ في الاستغفار للمشركين ذهبوا يستغفرون لأهليهم وأصحابهم من المشركين، فأصبح ذلك ذريعة إلى اعتقاد مساواة المشركين للمؤمنين في المغفرة فينتفي التفاضل الباعث

على الرغبة في الإيمان، فنهى الله النبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معا عن الاستغفار للمشركين.
وأمّا ما روي في أسباب النزول أنّ هذه الآية نزلت في استغفار النبيّ صلى الله عليه وسلم لأبي طالب، أو أنّها نزلت في سؤاله ربّه أن يستغفر لأمّه آمنة حين زار قبرها بالأبواء، فهما خبران واهيان، لأنّ هذه السورة نزلت بعد ذلك بزمن طويل.

{ **مَا كَانَ** } جاءت صيغة النهي بطريق نفي الكون مع لام الجحود مبالغة في التنزّه عن هذا الاستغفار، كما تقدّم عند قوله تعالى { قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ } [المائدة:116].

{ **لِلْمُشْرِكِينَ** } يدخل في المشركين المنافقون الذين علم النبيّ صلى الله عليه وسلم نفاقهم والذين علم المسلمون نفاقهم بتحقّق الصفات التي أعلنت عليهم في هذه السورة وغيرها.

{ **وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَى** } زيادة للمبالغة في استقصاء أقرب الأحوال إلى المعذرة. وهذه المبالغة لقطع المعذرة عن المخالف.

{ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ } [114].

معطوفة على جملة { مَا كَانَ للنبيّ } [113]. وهي من تمام الآية باعتبار ما فيها من قوله تعالى { وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَى }، إذ كان شأن ما لا ينبغي لنبيّنا محمد عليه الصلاة والسلام أن لا ينبغي لغيره من الرسل عليهم الصلاة والسلام لأنّ معظم أحكامهم متّحدة إلّا ما خصّ به نبيّنا من زيادة الفضل.

الموعدة: اسم للوعد. والوعد صدر من أبي إبراهيم لا محالة. فالتفسير الصحيح أنّ أبا إبراهيم وعد إبراهيم بالإيمان، فكان بمنزلة المؤلفة قلوبهم بالاستغفار له لأنّه ظنّه متردّدا في عبادة الأصنام. فسأل الله له المغفرة.

{ **فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ** } إمّا بالوحي بأن نهاه الله عن الاستغفار له، وإمّا بعد أن مات على الشرك.

التبرّؤ: تفعُّل من برئ من كذا إذا تنزّه عنه، فالتبرّؤ مبالغة في البراءة.

{ **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ** } استئناف ثناء على إبراهيم.

{ **أَوَّاهٌ** } فُسّر بمعان ترجع إلى الشفقة، إمّا على النفس فتفيد الضراعة إلى الله والاستغفار، وإمّا على النّاس فتفيد الرحمة بهم والدعاء لهم.

الحليم: صاحب الحلم. والحِلم (بكسر الحاء) صفة في النفس وهي رجاحة العقل وثباتة ورصانة وتباعد عن العدوان. أي: عدم القسوة.

{ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [115].

عطف على الآية السابقة، لاعتذار عن النبيّ وإبراهيم - عليهما الصلاة والسلام - في استغفارهما لمن استغفرا لهما من أولي القربى كأبي طالب وآزر، ومن الأمّة كعبد الله بن أبي بن سلول، بأنّ فعلهما ذلك ما كان إلّا رجاء منهما هدى من استغفرا له، وإعانة له إن كان الله يريده، فلمّا تبيّن لهما الثابتُ على كفره إمّا بموته عليه أو باليأس من إيمانه، تركا الاستغفار له، وذلك كلّه بعد أن أبلغا الرسالة ونصحا لمن استغفرا له.

{ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا } لفظ الآية صالح لإفادة معنى أنّ الله لا يؤاخذ النبيّ صلى الله عليه وسلم ولا إبراهيم عليه السلام ولا المسلمين باستغفارهم لمن استغفروا له من قبل ورود النهي وظهور دليل اليأس من المغفرة، لأنّ الله لا يؤاخذ قوما هداهم إلى الحق فيكتبهم ضُلالا بالمعاصي حتّى يبيّن لهم أنّ ما عملوه معصية، فموقع هذه الآية بعد جميع الكلام المتقدّم صيّرها كلاما جامعا تذييلا.

{ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } تذييل مناسب للجملة السابقة، ووقوع { إِنَّ } في أوّلها يفيد معنى التفريع.

{ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ } [116].

تذييل ثان في قوة التأكيد لقوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [115]، ولذلك فصل بدون عطف لأنّ ثبوت ملك السماوات والأرض لله تعالى يقتضي أن يكون عليما بكل شيء، لأنّ تخلّف العلم عن التعلّق ببعض المتملكات يفضي إلى إضاعة شؤونها.

الملك: التصرف والتدبير. وقد تقدّم عند قوله تعالى { مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ } [الفاتحة:4].

{ يُحْيِ وَيُمِيتُ } زيادة لتصوير معنى الملك في أتمّ مظاهره المحسوسة.

{ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ } لتأييد المسلمين بأنّهم منصورون في سائر الأحوال، لأنّ الله وليّهم فهو نصير لهم، ولإعلامهم بأنّهم لا يخشون الكفار لأنّ الكافرين لا مولى لهم لأنّ الله غاضب عليهم. وذلك مناسب لغرض الكلام المتعلّق باستغفارهم للمشركين بأنّه لا يفيدهم.

الولي: تقدّم معناه عند قوله تعالى { قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا } [الأنعام:14].

النصير، الناصر.

{ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النبيّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ } [117].

انتقال من التحريض على الجهاد والتحذير من التقاعس والتوبيخ على التخلّف، وما طرأ على ذلك التحريض من بيان أحوال النّاس تجاه ذلك التحريض، وما عقبه من أعمال المنافقين والضعفاء والجبناء، إلى بيان فضيلة الذين انتدبوا للغزو واقتحموا شدائده، فالجملة استئناف ابتدائي.

ومن المحسّنات افتتاح هذا الكلام بما يؤذن بالبشارة لرضى الله على المؤمنين الذين غزوا تبوك.

وتقديم النبيّ صلى الله عليه وسلم في تعلّق فعل التوبة بالغزاة للتنويه بشأن هذه التوبة وإتيانها على جميع الذنوب، إذ قد علم المسلمون كلّهم أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قد غفر الله ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر.

فمعنى التوبة على النبيّ والمهاجرين والأنصار، أنّ الله لا يؤاخذهم بما قد يحسبون أنّه يسبّب مؤاخذة، كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" لعلّ الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ".**

المهاجرون والأنصار: هم مجموع أهل المدينة، وكان جيش العسرة منهم ومن غيرهم من القبائل التي حول المدينة ومكّة، ولكنّهم خُصّوا بالثناء لأنّهم لم يتردّدوا ولم يتثاقلوا ولا شحّوا بأموالهم، فكانوا إسوة لمن اتّسى بهم من غيرهم من القبائل.

{ **الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ** } وصف المهاجرون والأنصار، للإيماء إلى أنّ لصلة الموصول تسبُّبا في هذه المغفرة.

{ **اتَّبَعُوهُ** } أطاعوه ولم يخالفوا عليه، فالاتباع مجازي.

الساعة: الحصة من الزمن.

العسرة: اسم العسر، زيدت فيه التاء للمبالغة، وهي الشدّة.

وساعة العسرة هي زمن استنفار النبيّ صلى الله عليه وسلم النّاس إلى غزوة تبوك. فالذين انتدبوا وتأهّبوا وخرجوا هم الذين اتّبعوه، فأمّا ما بعد الخروج إلى الغزو فذلك ليس هو الاتباع ولكنّه الجهاد.

{ **مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ** } اي: من المهاجرين والأنصار، فإنّه متعلق بـ { اتَّبَعُوهُ }، أي: اتّبعوا أمره بعد أن خامر فريقا منهم خاطر التثاقل والقعود والمعصية بحيث يشبهون المنافقين، فانّ ذلك

لا يتصور وقوعه بعد الخروج، وهذا الزيغ لم يقع ولكنه قارب الوقوع.

{ **ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ** } عطف على { لَقَدْ تَابَ اللَّهُ }، أي: تاب على غير هذا الفريق مطلقا، وتاب على هذا الفريق بعد ما كادت قلوبهم تزيغ، فتكون { ثُمَّ } على أصلها من المهلة.

{ **إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ** } تعليل لما قبلها.

{ وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لاَ مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } [118].

{ **الثَّلاَثَةِ** } تعريف العهد فإنّهم كانوا معروفين بين النّاس، وهم (**كعب ابن مالك** من بني سلمة، و**مُرارة بن الربيع العمري** من بني عمرو بن عوف، و**هلال بن أمية الواقفي** من بني واقف)، كلّهم من الأنصار تخلّفوا عن غزوة تبوك بدون عذر. ولما رجع النبيّ صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك سألهم عن تخلّفهم فلم يكذبوه بالعذر ولكنّهم اعتذروا بذنبهم وحزنوا. ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم النّاس عن كلامهم، وأمرهم بأن يعتزلوا نساءهم. ثم عفا الله عنهم بعد خمسين ليلة. وحديث كعب بن مالك في قصته هذه مع الآخرين في صحيح البخاري وصحيح مسلم طويل أغر.

{ **خُلِّفُوا** } بتشديد اللام مضاعف خَلَفَ المخفف الذي هو فعل قاصر، معناه أنّه وراء غيره.

تخليف مجازي استعير لتأخير البت في شأنهم، أي: الذين خلّفوا عن القضاء في شأنهم فلم يعذرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أيسهم من التوبة كما أيس المنافقين. فالتخليف هنا بمعنى: **الإرجاء**. وبهذا التفسير فسّره كعب بن مالك في حديثه المروي في (الصحيح) فقال: " وليس الذي ذكر الله مما خلّفنا عن الغزو وإنّما تخليفه إيّانا وإرجاؤه أمرنا عمّن حلف له واعتذر إليه فقبل منه ".

{ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ }

ضيق الأرض: استعارة، أي: حتّى كانت الأرض كالضيقة عليهم، أي عندهم. وذلك التشبيه كناية عن غمّهم وتنكّر المسلمين لهم.

{ **بِمَا رَحُبَتْ** } حال من { الأَرْضُ }. والباء للملابسة، أي: تخيلوا الأرض ضيّقة.

ضيق أنفسهم: استعارة للغمّ والحزن، لأنّ الغمّ يكون في النفس بمنزلة الضيق. ولذلك يقال للمحزون: ضاق صدره، وللمسرور: شُرح صدره.

{ وَظَنُّوا أَنْ لاَ مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ }

الظن: مستعمل هنا في اليقين والجزم، وهو من معانيه الحقيقية. و تقدّم عند قوله تعالى { الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُو رَبِّهِمْ } [البقرة:46]، أي: وأيقنوا أنّ أمر التوبة عليهم موكول إلى الله دون غيره بما يوحي به إلى رسوله، أي: التجأوا إلى الله دون غيره. وهذا كناية عن أنّهم تابوا إلى الله وانتظروا عفوه.

{ **ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ** } عطف على ضاقت عليهم الأرض وما بعده، أي: حتّى وقع ذلك كلّه ثم تاب عليهم بعده.

{ **ثُمَّ** } هنا للمهلة والتراخي الزمني وليست للتراخي الرتبي.

{ **لِيَتُوبُوا** } للتعليل، أي: تاب عليهم لأجل أن يكفّوا عن المخالفة ويتنزهوا عن الذنب، أي: ليدوموا على

التوبة. فالفعل مستعمل في معنى الدوام على التلبّس بالمصدر لا على إحداث المصدر.
{ **إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** } تذييل مفيد للامتنان.

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** } [119].

الظاهر أنّ هذه الآية خاتمة للآي السابقة وليست فاتحة غرض جديد. ففي صحيح البخاري من حديث كعب بن مالك حين تخلّف عن غزوة تبوك أنّه قال: " فوالله ما أعلم أحدا.. أبلاه الله في صدق الحديث أحسن مما أبلاني ما تعمّدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومي هذا كذبا وانزل الله على رسوله { لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النبيّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ- إلى قوله - وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ } [117-119].

فهذه الآية بمنزلة التذييل للقصّة، فإن القصة مشتملة على ذكر قوم اتقوا الله فصدقوا في إيمانهم وجهادهم فرضي الله عنهم، وذكر قوم كذبوا في ذلك واختلقوا المعاذير وحلفوا كذبا فغضب الله عليهم، وقوم تخلّفوا عن الجهاد وصدقوا في الاعتراف بعدم العذر فتاب الله عليهم، فلمّا كان سبب فوز الفائزين في هذه الأحوال كلّها هو الصدق لا جرم أمر الله المؤمنين بتقواه وبأن يكونوا في زمرة الصادقين مثل أولئك الصادقين الذين تضمنتهم القصة.

{ **كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** } الأمر بهذه الصيغة أبلغ في التخلّق بالصدق من نحو: اصدقوا.

{ **مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَأُونَ مَوْطِئاً يُغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** } [120].

استئناف ابتدائي لإيجاب الغزو على أهل المدينة ومن حولهم من أهل باديتها الحافين بالمدينة إذا خرج النبيّ صلى الله عليه وسلم للغزو. فهذا وجوب عيني على هؤلاء شرّفهم الله بأن جعلهم جند النبيّ صلى الله عليه وسلم وحرس ذاته.

{ **مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ** } خبر مستعمل في إنشاء الأمر على طريق المبالغة، إذ جعل التخلّف ليس ممّا ثبت لهم، فهم براء منه، فيثبت لهم ضدّه وهو الخروج مع النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا غزا.

{ **وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ** } هم: مُزينة، وأشجع، وغِفار، وجُهينة، وأسلم.

وفي الكلام ثناء على أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب لما قاموا به من غزو تبوك، فهو يقتضي تحريضهم على ذلك. وفيه تعريض بالذين تخلّفوا من أهل المدينة ومن الأعراب.

قال قتادة وجماعة: هذا الحكم خاص بخروج النبيّ صلى الله عليه وسلم دون غيره من الخلفاء والأمراء فهو محكم غير منسوخ. وبذلك جزم ابن بطال من المالكية.

وقال زيد بن أسلم وجابر ابن زيد: كان هذا حكما عاما في قلة الإسلام واحتياجه إلى كثرة الغزاة ثم نسخ لما قوي الإسلام بقوله تعالى { وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً } [122] فصار وجوب الجهاد على الكفاية.

وقال ابن عطية: هذا حكم من استنفرهم الإمام بالتعيين، لأنّه لو جاز لهؤلاء التخلّف لتعطّل الخروج.

التخلّف: البقاء في المكان بعد الغير ممن كان معه فيه، وقد تقدم عند قوله تعالى { فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ } [81].

الرغبة: تُعدّى بحرف (في) فتفيد معنى مودّة تحصيل الشيء والحرص فيه، وتعدى بحرف (عن) فتفيد معنى المجافاة للشيء. وهي هنا معداة بـ (عن). أريد برغبتهم عن نفسه: محبتهم أنفسهم وحرصهم على سلامتها دون الحرص على سلامة نفس الرّسول. وهذا نهي بليغ وتوبيخ لهم، وتهييج لمتابعته بأنفة وحميّة.

الظمأ: العطش. و**النصب**: التعب. و**المخصمة**: الجوع.

{ **وَلَا يَطَأُونَ مَوْطِئاً يُغِيظُ الْكُفَّارَ** } مصدر ميمي للوطء، الدوس بالأرجل. والوطء في سبيل الله هو الدوس بحوافر الخيل وأخفاف الإبل وأرجل الغزاة في أرض العدو، فإنّه الذي يغيظ العدو ويغضبه، لأنّه يأنف من وطء أرضه بالجيش. ويجوز أن يكون الوطء هنا مستعارا لإذلال العدو وغلبته وإبادته.

النيل: مصدر ينالون. يقال: نال منه إذا أصابه برزء.

{ **إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ** } الاستثناء مفرَّغ من عموم الأحوال. والمعنى، أن يكتب لهم بكل شيء من أنواع تلك الأعمال عمل صالح، أي: جعل الله كل عمل من تلك الأعمال عملا صالحا وإن لم يقصد به عاملوه تقربا إلى الله، فإنّ تلك الأعمال تصدر عن أصحابها وهم ذاهلون في غالب الأزمان أو جميعها عن الغاية منها فليست لهم نيّات بالتقرّب بها إلى الله ولكن الله تعالى بفضله جعلها لهم قربات باعتبار شرف الغاية منها. وذلك بأن جعل لهم عليها ثوابا كما جعل للأعمال المقصود بها القربة، كما ورد أن نوم الصائم عبادة.

{ **إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** } دلّ هذا التذييل على أنّهم كانوا بتلك الأعمال محسنين.

{ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [121].

انتقال من عداد الكُلف التي تصدر عنهم بلا قصد في سبيل الله إلى بعض الكُلف التي لا تخلو عن استشعار من تحلّ بهم بأنّهم لقوها في سبيل الله. فالنفقة في سبيل الله لا تكون إلّا عن قصد، والنفقة الكبيرة

أدخل في القصد. وكان هذا الإطناب في عدّ مناقبهم في الغزو لتصوير ما بذلوه في سبيل الله.
قطع الوادي: هو اجتيازه على وجه الاستعارة.
{ **إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ** } أي: كتب الله لهم صالحا ليجزيهم عن أحسن أعمالهم.
{ **لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } لمّا كان هذا جزاء عن عملهم المذكور عُلم أنّ عملهم هذا من أحسن أعمالهم. أي: عن أحسن ما كانوا يعملون أو بأحسن ما كانوا يعملون.
{ **كَانُوا** } الإتيان بخبرها مضارعا { **يَعْمَلُونَ** } إفادة أنّ مثل هذا العمل كان ديدنهم.

{ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ } [122].

كان غالب ما تقدّم من هذه السورة تحريضا على الجهاد وتنديدا على المقصّرين في شأنه، وانتهى الكلام قبل هذا بتبرئة أهل المدينة والذين حولهم من التخلّف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا جرم كانت قوّة الكلام مؤذنة بوجوب تمحّض المسلمين للغزو.
وإذ قد كان من مقاصد الإسلام بثّ علومه وآدابه بين الأمّة وتكوين جماعات قائمة بعلم الدين وتثقيف أذهان المسلمين كي تصلح سياسة الأمة على ما قصده الدين منها، من أجل ذلك عُقّب التحريض على الجهاد بما يُبيّن أن ليس من المصلحة تمحّض المسلمين كلّهم لأن يكونوا غزاة أو جندا، وأن ليس حظ القائم بواجب التعليم دون حظ الغازي في سبيل الله من حيث أنّ كليهما يقوم بعمل لتأييد الدين، فهذا يؤيّده بتوسّع سلطانه وتكثير أتباعه، والآخر يؤيده بتثبيت ذلك السلطان وإعداده لأن يصدر عنه ما يضمن انتظام أمره وطول دوامه. فإن اتساع الفتوح وبسالة الأمّة لا يكفيان لاستبقاء سلطانها إذا هي خلت من جماعة صالحة من العلماء والساسة وأولي الرأي المهتمين بتدبير ذلك السلطان.
{ **وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً** } من محاسن هذا البيان أن قابل صيغة التحريض على الغزو بمثلها في التحريض على العلم، إذ افتُتحت صيغة تحريض الغزو بلام الجحود { مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ } [120]، وافتتحت صيغة التحريض على العلم والتفقه بمثل ذلك.
{ **لِيَنْفِرُوا كَافَّةً** } الخروج إلى الغزو المأخوذ من قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ } [38]، أي: وما كان المؤمنون لينفروا ذلك النفر كلّهم.
{ **لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ** } المراد ليتفقه منهم طائفة وهي الطائفة التي لم تنفر.
والإتيان بصيغة لام الجحود تأكيد للنفي، وهو خبر مستعمل في النهي فتأكيده يفيد تأكيد النهي، أي: كونه نهيا جازما يقتضي التحريم. وذلك أنّه كما كان النفر للغزو واجبا، لأن في تركه إضاعة مصلحة الأمة، كذلك كان تركه متعيّنا على طائفة كافية منهم لتحصيل المقصد الشرعي ممّا أمروا بالاشتغال به من العلم.

الفرقة: الجماعة من النّاس الذين تفرّقوا عن غيرهم في المواطن. فالقبيلة فرقة، وأهل البلاد الواحدة فرقة.

الطائفة: الجماعة، ولا تتقيّد بعدد. وتقدّم عند قوله تعالى { فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ } [النساء:102].

التفقّه: تكلّف الفقاهة، وهي مشتقة من فقِه (بكسر القاف) إذا فهم ما يدق فهمه فهو فاقه. فالفقه أخص من العلم، ولذلك نجد في القرآن استعمال الفقه فيما يخفى علمه كقوله تعالى { لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ } [الإسراء:44]. ويجيء منه فقُه (بضم القاف) إذا صار الفقه سجيته، فقاهة فهو فقيه.

ولمّا كان مصير الفقه سجيّة لا يحصل إلا بمزاولة ما يبلّغ إلى ذلك كانت صيغة التفعّل المؤذنة بالتكلّف. وفي هذا إيماء إلى أنّ فهم الدين أمر دقيق المسلك لا يحصل بسهولة. ولذلك جاء في الحديث الصحيح: " **من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين**". ولذلك جزم العلماء بأنّ الفقه أفضل العلوم.

وقد ضبط العلماء حقيقة الفقه بأنّه: العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية بالاجتهاد.

الإنذار: الإخبار بما يُتوقع منه شر. والمراد هنا الإنذار من المهلكات في الآخرة. ومنه النذير. فالإنذار هو الموعظة، وإنّما اقتصر عليه لأنّه أهم. ويدخل في معنى الإنذار تعليم الناس ما يميّزون به بين الحق والباطل وبين الصواب والخطأ.

{ **لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** } حذف المفعول للتعميم، أي: يحذرون ما يُحذر، وهو فعل المحرّمات وترك الواجبات.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ } [123].

كان جميع بلاد العرب خلَص للإسلام قبل حجّة الوداع، فكانت تخوم بلاد الإسلام مجاورة لبلاد الشام مقر نصارى العرب، وكانوا تحت حكم الروم، فكانت غزوة تبوك أوّل غزوة للإسلام تجاوزت بلاد العرب إلى مشارف الشام ولم يكن فيها قتال ولكن وضعت الجزية على (**أَيْلَةَ** و **بُصرى**)، وكانت تلك الغزوة إرهابا للنصارى، ونزلت سورة براءة عقبها فكانت هذه الآية كالوصيّة بالاستمرار على غزو بلاد الكفر المجاورة لبلاد الإسلام.

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** } في توجيه الخطاب للذين آمنوا دون النبيّ إيماء إلى أنّ النبيّ عليه الصلاة والسلام لا يغزو بعد ذلك وأنّ أجله الشريف قد اقترب. ولعلّ في قوله تعالى { وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ } إيماء إلى التسلية على فقد نبيهم عليه الصلاة والسلام.

الغِلظة: (بكسر الغين) الشدّة الحسية والخشونة، وهي مستعارة هنا للمعاملة الضارة. والمقصد من ذلك إلقاء الرعب في قلوب الأعداء حتّى يخشوا عاقبة التصدي لقتال المسلمين.

وإنّما وقعت هذه المبالغة لما عليه العدو من القوّة، فإنّ المقصود من الكفّار هنا هم نصارى العرب

وأنصارهم الروم، وهم أصحاب عَدد وعُدد، فلا يجدون الشدّة من المؤمنين إلّا إذا كانت شدّة عظيمة.
ومن وراء صريح هذا الكلام تعريض بالتهديد للمنافقين، إذ قد ظهر على كفرهم وهم أشدّ قربا من المؤمنين في المدينة.
{ **وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** } تأييد وتشجيع ووعد بالنصر إن اتقوا بامتثال الأمر بالجهاد. وافتُتحت الجملة بـ { اعْلَمُوا } للاهتمام بما يراد العلم به.

{ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ [124] وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ [125] }.

عطف على قوله تعالى { وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ} [86]، وهذا عود إلى بيان أحوال المنافقين وما بينهما اعتراضات.
وهذه الآية زيدت فيها (ما) عقب (إذا) وزيادتها للتأكيد، أي: لتأكيد معنى (إذا) وهو الشرط، لأنّ هذا الخبر لغرابته كان خليقا بالتأكيد، ولأنّ المنافقين ينكرون صدوره منهم بخلاف الآية السابقة لأنّ مضمونها حكاية استيذانهم وهم لا ينكرونه.
{ **فَمِنْهُمْ** } عائد إلى المنافقين للعلم بالمعاد من المقام، فالمنافقون خاطرون بذهن السامع فيكون الإتيان بضمير يعود عليهم تقوية لذلك التعريض.
{ **أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً** } خطاب بعضهم لبعض على سبيل التهكّم بالمؤمنين وبالقرآن، لأنّ بعض آيات القرآن مصرّحة بأنّ القرآن يزيد المؤمنين إيمانا، قال تعالى { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً } [الأنفال:2].
{ **فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ** } للتفريع على حكاية استفهامهم بحمله على ظاهر حاله وصرفه عن مقصدهم منه. وتلك طريقة الأسلوب الحكيم، وهو تلقي المخاطب بغير ما يترقّب، بحمل كلامه على خلاف مراده لنكتة، وهي هنا إبطال ما قصدوه من نفي أن تكون السورة تزيد أحدا إيمانا قياسا على أحوال قلوبهم، فأجيب استفهامهم بهذا التفصيل المتفرّع عليه، فأثبت أن للسورة زيادة في إيمان بعض النّاس وأكثر من الزيادة، وهو حصول البشر لهم.
{ **وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ** } ارتُقي في الجواب عن مقصدهم من الإنكار بأنّ السورة ليست منفيا عنها زيادة في إيمان بعض النّاس فقط بل الأمر أشد إذ هي زائدة في كفرهم؛ فالقِسْم الأول المؤمنون زادتهم إيمانا وأكتسبتهم بشرى فحصل من السورة لهم نفعان عظيمان، والقسم الثاني الذين في قلوبهم مرض زادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون.

فالوجه أن تكون { وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } معطوفة على جملة { فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً } وأن تكون جماة { وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ } معطوفة على جملة { فَزَادَتْهُمْ رِجْساً }، لأنّ مضمون كلتا الجملتين ممّا أثرته السورة، أمّا جملة { وَهُمْ كَافِرُونَ } فهي حال من ضمير { مَاتُوا }.

وقوبل قوله تعالى { وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } في جانب المؤمنين بقوله تعالى { وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ } في جانب المنافقين تحسينا بالازدواج، بحيث كانت للسورة فائدتان للمؤمنين ومصيبتان على المنافقين، فجُعل موتهم على الكفر المتسبّب على زيادة السورة في كفرهم بمنزلة مصيبة أخرى غير الأولى وإن كانت في الحقيقة زيادة في المصيبة الأولى.

ونظم الآية على هذا النسج من البلاغة والبديع، وقد أغفِل فيما رأيت من التفاسير، فمنها ما سكت عن بيانه، ومنها ما نُشرت فيه معاني المفردات وتُرك جانب نظم الكلام.

الاستبشار: أثر البشرى في النفس، فالسين والتاء للتأكيد، وقد تقدّم في قوله تعالى { يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ } [آل عمران:171].

الرجس: هنا الكفر. وأصله الشيء الخبيث.

والمراد بزيادة الإيمان وبزيادة الرجس الرسوخ والتمكّن من النفس.

المرض في القلوب: تقدّم في قوله تعالى { فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ } [البقرة:10].

{ أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ } [126].

عطف على { فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ } [125]، فهي من تمام التفصيل. وقُدّمت همزة الاستفهام على حرف العطف على طريقة تصدير أدوات الاستفهام. والتصدير للتنبيه على أنّ الجملة في غرض الاستفهام. والاستفهام هنا إنكار وتعجيب لعدم رؤيتهم فتنتهم فلا تعقبها توبتهم ولا تذكّرهم أمر ربّهم.

والغرض من هذا الإنكار هو الاستدلال على ما تقدّم من ازدياد كفر المنافقين وتمكّنه كلّما نزلت سورة من القرآن بإيراد دليل واضح ينزل منزلة المحسوس المرئي حتّى يتوجّه الإنكار على من لا يراه.

الفتنة: اختلال نظام الحالة المعتادة للنّاس واضطراب أمرهم، مثل التقاتل، واستمرار الخوف والأمراض. وقد تقدّم ذكرها عند قوله تعالى { وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ } [البقرة:191].

{ **أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ** } أنّ الله يسلّط عليهم المصائب والمضار تنال جماعتهم ممّا لا يُعتاد تكرّر أمثاله في حياة الأمم بحيث يدل تكرّر ذلك على أنّه مراد منه إيقاظ الله النّاس إلى سوء سيرتهم في جانب الله تعالى، بعدم اهتدائهم إلى الإقلاع عمّا هم فيه من العناد للنبيّ صلى الله عليه وسلم، فإنّهم لو رزقوا التوفيق لأفاقوا من غفلتهم، فعلموا أنّ ما يحلّ بهم كلّ عام ما طرأ عليهم إلّا من وقت تلبسهم بالنفاق.

ولا شك أن الفتنة التي أشارت إليها الآية كانت خاصة بأهل النفاق من أمراض تحلّ بهم، أو متالف تصيب أموالهم، أو جوائح تصيب ثمارهم، أو نقص من أنفسهم ومواليدهم، فإذا حصل شيئان من ذلك في

السنة كانت الفتنة مرتين.

{ **ثُمَّ** } للتراخي الرتبي لأنّ المعطوف بها هو زائد في رتبة التعجيب من شأنه على المعطوف عليه، فإنّ حصول الفتنة في ذاته عجيب، وعدم اهتدائهم للتدارك بالتوبة والتذكر أعجب.

{ **وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ** } ولم يقل: ولا يذكّرون، قصدا لإفادة التقوّي، أي: انتفاء تذكرهم محقّق.

{ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ } [127].

عطف على { وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً } [124].

ونظر بعضهم إلى بعض عند نزول السورة يدلّ على أنّهم كانوا حينئذ في مجلس النبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّ نظر بعضهم إلى بعض تعلّقت به أداة الظرفية، وهي (إذا). ويدلّ لذلك أيضا قوله تعالى { ثُمَّ انْصَرَفُوا }، أي: عن ذلك المجلس. ويدلّ أيضا على أنّ السورة مشتملة على كشف أسرارهم وفضح مكرهم لأنّ نظر بعضهم إلى بعض هو نظر تعجّب واستفهام. ويدلّ أيضا على أنّهم كاتمون تعجّبهم من ظهور أحوالهم خشية الاعتراف بما نُسب إليهم ولذلك اجتزوا بالتناظر دون الكلام. فالنظر هنا نظر دال على ما في ضمير الناظر من التعجب والاستفهام.

{ **هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ** } بيان لجملة { نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ }. والتقدير: وإذا ما أنزلت سورة فيها فضيحة أمرهم نظر بعضهم إلى بعض بخائنة الأعين مستفهمين متعجبين من اطلاع النبيّ صلى الله عليه وسلم على أسرارهم، أي: هل يراكم من أحد إذا خلوتم ودبّرتم أموركم، لأنّهم بكفرهم لا يعتقدون أنّ الله أطلع نبيه صلى الله عليه وسلم على دخيلتهم.

{ **ثُمَّ انْصَرَفُوا** } لإفادة أنّهم لم يكتسبوا من نزول السورة التي أطلعت المؤمنين على أسرارهم عبرة ولا قربا من الإيمان، بل كان قصارى أمرهم التعجّب والشك في أن يكون قد اطّلع عليهم من يبوح بأسرارهم ثمّ انصرفوا كأن لم تكن عبرة. وهذا من جملة الفتن التي تحلّ بهم ثم لا يتوبون ولا هم يذّكرون.

{ **صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ** } مستأنفة استئنافيا بيانيا. وكان ذلك عقابا لهم بسبب أنّهم { قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ }، أي: لا يفهمون الدلائل، بمعنى لا يتطلّبون الهدى بالتدبّر فيفهموا.

وجعل جماعة من المفسرين قوله تعالى { صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ } دعاء عليهم، ولا داعي إليه، لأنّ دعاء الله على مخلوقاته تكوين كما تقدّم، ولأنّه يأباه تسبيبه بقوله تعالى { **بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ** }

{ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ** [128] **فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ** [129]}

كانت هذه السورة سورة شدّة وغلظة على المشركين وأهل الكتاب والمنافقين من أهل المدينة ومن الأعراب، وأمرا للمؤمنين بالجهاد، وإنحاء على المقصّرين في شأنه. وتخلّل ذلك تنويه بالمتّصفين بضدّ ذلك من المؤمنين الذين هاجروا والذين نصروا واتبعوا الرسول في ساعة العسرة.

فجاءت خاتمة هذه السورة آيتين بتذكيرهم بالمنّة ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم والتنويه بصفاته الجامعة للكمال. ومن أخصّها حرصه على هداهم، ورغبته في إيمانهم ودخولهم في جامعة الإسلام ليكون رؤوفا رحيما بهم ليعلموا أنّ ما لقيه المعرضون عن الإسلام من الإغلاظ عليهم بالقول والفعل ما هو إلّا استصلاح لحالهم. وهذا من مظاهر الرحمة التي جعلها الله تعالى مقارنة لبعثة رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ } [الأنبياء: 107]، بحيث جاء في هاتين الآيتين بما شأنه أن يزيل الحرج من قلوب الفرق التي نزلت فيهم آيات الشدّة وعوملوا بالغلظة، تعقيبا للشدّة بالرفق وللغلظة بالرحمة، وكذلك عادة القرآن. فقد انفتح بهاتين الآيتين باب حظيرة الإيمان والتوبة ليدخلها من وفّقه الله إليها.

فالجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا. وفي وقوعها آخر السورة ما يكسبها معنى التذييل والخلاصة.

{ **جَاءَكُمْ** } وما تبعه من الخطاب موجه إلى جميع الأمة المدعوة للإسلام.

وافتتاحها بحرفي التأكيد وهما (لام - قد) مع كون مضمونها ممّا لا يتطرّق إليه الإنكار، لقصد الاهتمام بهذه الجملة لأهمية الغرض الذي سيقت لأجله وهو الذي سنذكره.

المجيء: مستعمل مجازا في الخطاب بالدعوة إلى الدين. وهو استعمال شائع في القرآن.

الأنفس: جمع نفس، وهي الذات. أي: هو معدود من ذوي نسبهم وليس عداده فيهم بحلف أو ولاء أو إلصاق. يقال: هو قريشي من أنفسهم، فمعنى { مِنْ أَنْفُسِكُمْ } من صميم نسبكم. وفيه امتنان على العرب وتنبيه على فضيلتهم، وفيه أيضا تعريض بتحريضهم على اتّباعه وترك مناواته، وأنّ الأجدر بهم الافتخار به والالتفاف حوله كما قال تعالى في ذكر القرآن { وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ } [الزخرف:44]، أي: يبقى منه لكم ذكر حسن.

العزيز: الغالب. والعزّة: الغلبة. يقال عزّه إذا غلبه. ومنه { وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ } [ص:23]، فإذا عدّي بـ (على) دلّ على معنى الثقل والشدّة على النفس.

{ **عَنِتُّمْ** } تعبتم. والعنت: التعب، أي: شاق عليه حزنكم وشقاؤكم. وهذا كقوله تعالى { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ } [الشعراء:3] وذكر هذا في صفة الرسول عليه السلام يفيد أن هذا خلق له، فيكون أثر ظهوره الرفق بالأمّة والحذر مما يلقي بهم إلى العذاب في الدنيا والآخرة. ومن آثار ذلك شفاعته للنّاس كلهم في الموقف لتعجيل الحساب. ثم إنّ ذلك يومئ إلى أنّ شرعه جاء مناسبا لخلقه فانتفى عنه

الحرج والعسر، قال تعالى { يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ } [البقرة:185].
الرؤوف: الشديد الرأفة. و**الرحيم**: الشديد الرحمة، لأنّهما صيغتا مبالغة، وهما يتنازعان المجرور المتعلّق بهما وهو { بالْمُؤْمِنِينَ }. وبينهما عموم وخصوص مطلق، ولذلك جمع بينهما هنا ولوازمهما مختلفة.
الرأفة: رقة تنشأ عند حدوث ضرّ بالمرؤوف به.
الرحمة: رقّة تقتضي الإحسان للمرحوم.
{ **بالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ** } تقديم المتعلّق على عامليه المتنازعَيْنه، للاهتمام بالمؤمنين في توجّه صفتي رأفته ورحمته بهم. وأمّا رحمته العامة الثابتة بقوله { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ } [الأنبيياء:107]، فهي رحمة مشوبة بشدّة على غير المؤمنين فهو بالنسبة لغير المؤمنين رائف وراحم، ولا يقال: بهم رؤوف رحيم.
{ **فَإِنْ تَوَلَّوْا** } **التولّي**: الإعراض والإدبار. وهو مستعار هنا للمكابرة والعناد. والفاء للتفريع على إرسال النبيّ صلى الله عليه وسلم صاحب هذه الصفات إليهم، فإنّ صفاته المذكورة تقتضي من كل ذي عقل سليم من العرب الإيمان به واتّباعه لأنّه من أنفسهم، ومحبّ لخيرهم رؤوف رحيم بمن يتّبعه منهم، فتفرّع عليه أنّهم محقوقون بالإيمان به، فإن آمنوا فذاك وإن لم يؤمنوا فإنّ الله حسيبه وكافيه.
وبعد التفريع التفت الكلام من خطاب العرب إلى خطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم بما كان مقتضى الظاهر أن يخاطبوا هم به اعتمادا على قرينة حرف التفريع فقيل له.
{ **فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ** }. والتقدير: فإن توليتم عنه فحسبه الله. فجيء بهذا النظم البديع الإيجاز مع ما فيه من براعة الإيماء إلى عدم تأهلهم لخطاب الله على تقدير حالة توليهم.
الحسب: الكافي، أي: كافيك شرّ إعراضهم، لأنّهم إن أعرضوا بعد هذا فقد أعرضوا عن حسد وحنق. وتلك حالة مظنّة السعي في الكيد والأذى.
{ **فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ** } أن يقول ذلك قولا ناشئا عن عقد القلب عليه، أي: فاعلم أنّ حسبك الله، وقل حسبي الله، لأنّ القول يؤكد المعلوم ويرسّخه في نفس العالم به، ولأنّ في هذا القول إبلاغا للمعرضين عنه بأنّ الله كافيه إيّاهم.
التوكّل: التفويض. وهو مبالغة في وَكَل.
وهذه الآية تفيد التنويه بهذه الكلمة المباركة لأنّه أمر بأن يقول هذه الكلمة بعينها ولم يؤمر بمجرد التوكّل كما أمر في قوله تعالى { فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ } [النمل:79]. ولا أُخبر بأنّ الله حسبه مجرّد إخبار كما في قوله تعالى { فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ } [الأنفال:62].
{ **لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ** } مستأنفة للثناء، أو في موضع الحال وهي ثناء بالوحدانيّة.
{ **وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ** } للثناء بعظيم القدرة لأنّ من كان ربا للعرش العظيم ثبت أنّه قدير، لأنّه قد

اشتهر أنّ العرش أعظم المخلوقات، ولذلك وصف بالعظيم.

وفي هاتين الآيتين إشعار بالإيداع والإعذار للنّاس، وتنبيه إلى المبادرة باغتنام وجود الرسول صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم ليتشرّفوا بالإيمان به وهم يشاهدونه ويقتبسون من أنوار هديه، لأنّ الاهتداء بمشاهدته والتلقّي منه أرجى لحصول كمال الإيمان والانتفاع بقليل من الزمان لتحصيل وافر الخير الذي لا يحصل مثله في أضعاف ذلك الزمان.

وفيهما أيضا إيماء إلى اقتراب أجل النبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّ التذكير بقوله { لَقَدْ جَاءَكُمْ } يؤذن بأنّ هذا المجيء الذي مضى عليه زمن طويل يوشك أن ينقضي، لأنّ لكل وارد قفولا، ولكل طالع أفولا.

وقد روي عن أبي بن كعب وقتادة أنّ هاتين الآيتين هما أحدث القرآن عهدا بالله عز وجل، أي: آخر ما نزل من القرآن.

<u>وقيل</u>: إن آخر القرآن نزولا آية الكلالة خاتمة سورة النساء.

<u>وقيل</u>: آخره نزولا قوله تعالى { وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ} [البقرة:281].

وفي صحيح البخاري من طريق شعيب عن الزهري عن ابن السباق عن زيد بن ثابت في حديث جمع القرآن في زمن أبي بكر رضي الله عنه قال زيد: " حتّى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصاري أو أبي خزيمة، لم أجدهما مع أحد غيره { لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ } إلى آخرهما ".

ومعنى ذلك أنّه بحث عن هاتين الآيتين في ما هو مكتوب من القرآن فلم يجدهما وهو يعلم أنّ في آخر سورة التوبة آيتين خاتمتين أو هو يحفظهما (فإن زيدا اعتنى في جمع القرآن بحفظه وبتتبع ما هو مكتوب بإملاء النبيّ صلى الله عليه وسلم وبقراءة حفاظ القرآن غيره) فوجد خزيمة أو أبا خزيمة يحفظهما. فلمّا أملاهما عليه تذكر زيد لفظهما وتذكرهما من سمعهما من الصحابة حين قرأوهما. كيف وقد قال أبي بن كعب: إنّهما آخر ما أنزل، فلفظهما ثابت بالإجماع، وتواترهما حاصل إذ لم يشك فيهما أحد وليس إثباتهما قاصرا على إخبار خزيمة أو أبي خزيمة.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة يونس

سُمّيت في المصاحف وفي كتب التفسير والسنّة **(سورة يونس)** لأنّها انفردت بذكر خصوصيّة لقوم يونس، أنّهم آمنوا بعد أن توعّدهم رسولهم بنزول العذاب فعفا الله عنهم لمّا آمنوا. وذلك في قوله تعالى { فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ} [98]. وتلك الخصوصيّة كرامة ليونس - عليه السلام - وليس فيها ذكر ليونس غير ذلك. وقد ذُكر يونس في سورة الصافات بأوسع ممّا في هذه السورة ولكن وجه التسمية لا يوجبها.

والأظهر عندي أنّها أضيفت إلى يونس تمييزا لها عن أخواتها الأربع المفتتحة ب { **ألر** }. ولذلك أضيفت كلّ واحدة منها إلى نبيّ أو قوم نبيّ عوضا عن أن يقال: آلر الأولى وألر الثانية. وهكذا فإن اشتهار السور بأسمائها أول ما يشيع بين المسلمين بأولى الكلمات التي تقع فيها وخاصة إذا كانت فواتحها حروفا مقطّعة.

وهي **مكيّة في قول الجمهور**. وهو المروي عن ابن عباس في الأصح عنه. وفي (الإتقان) عن عطاء عنه أنّها مدنيّة. وفي (القرطبي) عن ابن عباس أنّ ثلاث آيات منها مدنية وهي قوله تعالى { فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ - إلى قوله - حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ } [96/95]. وفي تفسير ابن عطيّة عن مقاتل: إلّا آيتين مدنيتين. وفيه عن الكلبي أنّ آية واحدة نزلت بالمدينة.

وأحسب أنّ هذه الأقوال ناشئة عن ظنّ أنّ ما في القرآن من مجادلة مع أهل الكتاب لم ينزل إلّا بالمدينة، فإنّ كان كذلك فظنّ هؤلاء مخطئ. وسيأتي التنبيه عليه.

عدد آيها مائة وتسع آيات في عدّ أكثر الأمصار، ومائة وعشر في عدّ أهل الشام.

وهي السورة الحادية والخمسون في ترتيب نزول السور. نزلت بعد سورة الإسراء وقبل سورة هود. وأحسب أنّها نزلت سنة إحدى عشرة بعد البعثة لما سيأتي عند قوله تعالى { وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا } [21].

أغراض السورة

*/ ابتدئت بمقصد إثبات رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بدلالة عجز المشركين عن معارضة القرآن، دلالة نبّه عليها بأسلوب تعريضي دقيق بني على الكناية بتهجية الحروف المقطّعة في أوّل السورة كما تقدّم في مفتتح سورة البقرة. ولذلك أتبعت تلك الحروف بقوله تعالى { تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ } [1] إشارة إلى أنّ إعجازه لهم هو الدليل على أنّه من عند الله. وقد جاء التصريح بما كنّي عنه هنا في قوله تعالى { قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ } [38].

*/ أتبع بإثبات رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وإبطال إحالة المشركين أن يرسل الله رسولا بشرا.

*/ انتقل من ذلك إلى إثبات انفراد الله تعالى بالإلهية بدلالة أنّه خالق العالم ومدبّره، فأفضى ذلك إلى إبطال أن يكون لله شركاء في إلهيّته، وإلى إبطال معاذير المشركين بأنّ أصنامهم شفعاء عند الله.

*/ أتبع ذلك بإثبات الحشر والجزاء. فذلك إبطال أصول الشرك.

*/ تخلّل ذلك بذكر دلائل من المخلوقات، وبيان حكمة الجزاء، وصفة الجزاء، وما في دلائل المخلوقات من حكم ومنافع للنّاس.

*/ وعيد منكري البعث المعرضين عن آيات الله، وبضدّ أولئك وعد الذين آمنوا.

فكان معظم هذه السورة يدور حول محور تقرير هذه الأصول:

*/ فمن ذلك التنبيه على أنّ إمهال الله تعالى الكافرين دون تعجيل العذاب هو حكمة منه.

*/ ومن ذلك التذكير بما حلّ بأهل القرون الماضية لمّا أشركوا وكذّبوا الرسل.

*/ الاعتبار بما خلق الله للنّاس من مواهب القدرة على السير في البر والبحر، وما في أحوال السير في البحر من الألطاف.

*/ ضرب المثل للدنيا وبهجتها وزوالها، وأنّ الآخرة هي دار السلام.

*/ اختلاف أحوال المؤمنين والكافرين في الآخرة، وتبرّؤ الآلهة الباطلة من عَبدتها.

*/ إبطال إلهيّة غير الله تعالى، بدليل أنّها لا تغني عن النّاس شيئا في الدنيا ولا في الآخرة.

*/ إثبات أنّ القرآن منزّل من الله، وأنّ الدلائل على بطلان أن يكون مفترى واضحة.

*/ تحدّي المشركين بأن يأتوا بسورة مثله، ولكن الضلالة أعمت أبصار المعاندين.

*/ إنذار المشركين بعواقب ما حلّ بالأمم التي كذّبت بالرسل، وأنّهم إن حلّ بهم العذاب لا ينفعهم إيمانهم، وأنّ ذلك لم يلحق قوم يونس لمصادفة مبادرتهم بالإيمان قبل حلول العذاب.

*/ توبيخ المشركين على ما حرّموه ممّا أحل الله من الرزق.

*/ إثبات عموم العلم لله تعالى.

*/ تبشير أولياء الله في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

*/ تسلية الرسول عما يقوله الكافرون، وأنّه لو شاء لآمن من في الأرض كلّهم.

*/ ثمّ تخلّص إلى الاعتبار بالرّسل السابقين نوح ورسل من بعده ثم موسى وهارون.

*/ ثم استشهد على صدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بشهادة أهل الكتاب.

*/ ختمت السورة بتلقين الرسول عليه الصلاة والسلام ممّا يُعذر به لأهل الشك في دين الإسلام، وأنّ اهتداء من اهتدى لنفسه وضلال من ضل عليها، وأنّ الله سيحكم بينه وبين معانديه.

{ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ } [1].

{ الر } تقدّم القول في الحروف الواقعة في فواتح بعض السور في أوّل سورة البقرة.

وهي بمنزلة الأعداد المسرودة، لا محل لها من الإعراب، ولا ينطق بها إلّا على حال السكت.

{ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ } اسم الإشارة يجوز أن يكون مرادا به جميع آي القرآن التي نزلت قبل هذه السورة باعتبار حضور تلك الآيات في أذهان النّاس من المؤمنين وغيرهم.

فالمقصود من الإشارة إمّا الحثّ على النظر في آيات القرآن، ليتبيّن لهم أنّه من عند الله ويعلموا صدق من جاءهم به. وإمّا إقناعهم من الآيات الدالة على صدق النبيّ صلى الله عليه وسلم بآيات الكتاب الحكيم، أي: ما هو آية واحدة بل آيات كثيرة، فإنّ الإعجاز حاصل بكل سورة منه. ولأنّه اشتمل على الحقائق السامية والهدى إلى الحقّ والحكمة. فرجل أمّيّ ينشأ في أمّة جاهلة يجيء بمثل هذا الهدى والحكمة لا يكون إلّا موحى إليه بوحي إلهي. كما دلّ عليه قوله تعالى { وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ } [العنكبوت:48].

ويجوز أن تُجعل الإشارة بـ { تِلْكَ } إلى حروف { ألر } لأنّ المختار في الحروف المقطّعة في فواتح السور أنّ المقصود من تعدادها التحدّي بالاعجاز، فهي بمنزلة التهجّي للمتعلّم. وهذا لتسجيل عجزهم عن معارضته، بأنّ آيات الكتاب الحكيم كلّها من جنس حروف كلامهم، فما لكم لا تستطيعون معارضتها بمثلها إنّ كنتم تكذّبون بأنّ الكتاب منزل من عند الله.

الكتاب: القرآن. التعريف للعهد، ويجوز جعله دالا على معنى الكمال في الجنس، كما تقول: أنتَ الرجل.

الحكيم: وصف إمّا بمعنى فاعل، أي: الحاكم على الكتب بتمييز صحيحها من محرفها، مثل قوله تعالى { وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ } [البقرة:213].

وإمّا بمعنى مُفعَل (بفتح العين)، أي: مُحْكَم، مثل عَتِيد، بمعنى مُعَد.

وإمّا بمعنى ذي الحكمة، لاشتماله على الحكمة والحق والحقائق العالية.

{ **الْحَكِيمِ** } اختيار هذا الوصف من بين أوصاف الكمال الثابتة للقرآن، لأنّ لهذا الوصف مزيد اختصاص بمقام إظهار الإعجاز من جهة المعنى بعد إظهار الإعجاز من جهة اللفظ، ولِما اشتملت عليه السورة من براهين التوحيد وإبطال الشرك.

{ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ } [2].

الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا، وجاءت على هذا النظم الجامع بين بيان الداعي وبين إنكار السبب الذي دعا إليه وتجهيل المتسبّبين فيه. ولك أن تجعله استئنافا ابتدائيا لأنّه مبدأ الغرض الذي جاءت له السورة،

وهوالاستدلال على صدق الرّسول وإثبات البعث.

فالهمزة للاستفهام المستعمل في الإنكار، أي: كيف يتعجّبون من ذلك تعجّب إحالة.

{ **أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً** } فائدة إدخال الاستفهام الإنكاري على { كَانَ } لزيادة الدلالة على استقرار هذا التعجّب فيهم، لأنّ أصل اللام أن تفيد الملك، ويستعار ذلك للتمكّن، أي: لتمكّن العجب من نفوسهم.

{ **أَنْ أَوْحَيْنَا** } اسم كان، وجيء فيه بـ (أَنْ) والفعل بصيغة الماضي كي يفيد الاستقرار، تحقيقا لوقوع الوحي المتعجّب منه وتجدّده، وذلك ما يزيدهم كمدا.

العجب: مصدر عجِب، إذا عدّ الشيء خارجا عن المألوف، نادر الحصول. ولمّا كان التعجّب مبدأ للتكذيب وهم قد كذّبوا بالوحي إليه، ولم يقتصروا على كونه عجيبا، جاء الإنكار عليهم بإنكار تعجّبهم من الإيحاء إلى رجل من البشر.

<u>ويجوز</u> أن يكون العجب كناية عن إحالة الوقوع، كما في قوله تعالى { قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ } [هود:73/72].

{ **النَّاسَ** } أطلق هنا على طائفة من البشر، والمراد المشركون من أهل مكّة. عن ابن عبّاس: " أنكرت طائفة من العرب رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فقالوا: الله أعظم من أن يكون له رسول بشرا، فأنزل الله تعالى { أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ } ".

{ **أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ** } تفسيريّة لفعل { أَوْحَيْنَا }، و{ النَّاسَ } الثاني يعمّ جميع البشر الذين يمكن إنذارهم، فهو عموم عرفي. وحذف المنذَر به للتهويل، ولأنّه يُعلم حاصله من مقابله { وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا }.

{ **وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ** }

القدم: اسم لما تقدّم وسَلَف، فيكون في الخير والفضل وفي ضدّه. و{ **قَدَمَ صِدْقٍ** } أي: قدم خير.

الصدق: موافقة الشيء لاعتقاد المعتقد، واشتهر في مطابقة الخبر. ويضاف شيء إلى { صِدْقٍ } فيفيد مصادفته للمأمول منه المرضي، وأنّه لا يخيب ظنّ آمل كقوله تعالى { وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرائيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ } [90].

{ **قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ** } قرأه الجمهور { لسِحْر } على أنّ المراد به الحاصل بالمصدر. أي: أنّ هذا الكلام كلام السحر، كلام يُسحر به. وقرأه ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي { لَسَاحِرٌ }، فالإشارة إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم، وإنّ وصفهم إياه بالسحر ينبئ بأنّهم كذّبوا بكونه من عند الله ولم يستطيعوا أن يدّعوه هذيانا وباطلا فهرعوا إلى ادّعائه سحرا. وهذا من عجزهم عن الطعن في القرآن بمطاعن في لفظه ومعانيه.

السحر: تخييل ما ليس بكائن كائنا. وتقدّم عند قوله تعالى { يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ } [البقرة:102].

المبين: اسم فاعل من أبان الذي هو بمعنى بان، أي: ظهر. أي: سحر واضح ظاهر.

{ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ } [3].

استئناف ابتدائي للاستدلال على تفرد الله تعالى بالإلهيّة. ذلك أنّ أقوى شيء بعث المشركين على ادعاء أنّ ما جاء به النبيّ سحر هو أنّه أبطل الشركاء لله في الإلهيّة ونفاها عن إلهتهم التي أشركوا بها فقالوا { أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ } [ص:5]، فلا جرم أن أعقب إنكار إحالتهم ذلك بإقامة الدليل على ثبوته.

والخطاب للمشركين، ولذلك أكّد الخبر بحرف التوكيد. وقد مضى القول في نظير صدر هذه الآية في قوله تعالى { إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } [الأعراف:54].

{ **يُدَبِّرُ الْأَمْرَ** } في موضع الحال من اسم الجلالة، أو خبر ثان عن { رَبَّكُمُ }.

التدبير: النظر في عواقب المقدّرات وعوائقها لقصد إيقاعها تامة فيما تُقصد له، محمودة العاقبة. وتدبير الله الأمور عبارة عن تمام العلم بما يخلقها عليه، لأنّ لفظ (التدبير) هو أوفى الألفاظ اللغوية بتقريب إتقان الخلق.

الأمر: جنس يعمّ جميع الشؤون والأحوال في العالم.

وفي إجراء هذه الصفات على الله تعالى تعريض بالردّ على المشركين. فبعد أن وصف الإله الحقّ بما هو منتف عن إلهتهم، نُفي عنها وصف الشفاعة عند الله وحماية المغضوب عليهم منه.

{ **إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ** } احتراس لإثبات شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم بإذن الله، قال تعالى { وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى }.

الشفاعة: تقدّمت عند قوله تعالى { وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ } [البقرة:48]، وكذلك **الشفيع** تقدّم عند قوله تعالى { فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ } [الأعراف:53].

{ **ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ** } ابتدائية، فذلكة للجمل التي قبلها ونتيجة لها. والإتيان في صدرها باسم الإشارة لتمييزه أكمل تمييز، لأنّهم امتروا في صفة الإلهية وضلوا فيها ضلالا مبينا، فكانوا أحرياء بالإيقاظ بطريق اسم الإشارة، وللتنبيه على أنّ المشار إليه حقيق بما سيذكر بعد اسم الإشارة من حيث إنّه اتصف بتلك الأوصاف التي أشير إليه من أجلها، فإنّ خالق العوالم بغاية الإتقان والمقدرة ومالك أمرها ومدبّر شؤونها والمتصرّف المطلق مستحق للعبادة.

والمقصود من العبادة العبادة الحقّ التي لا يشرَك معه فيها غيره، بقرينة تفريع الأمر بها على الصفات المنفرد بها الله دون معبوداتهم.

{ **أَفَلا تَذَكَّرُونَ** } التفات من الغيبة، وهي ابتدائية للتقريع. فالاستفهام إنكار لانتفاء تذكّرهم إذ أشركوا معه غيره ولم يتذكّروا في أنّه المنفرد بخلق العوالم وبملكها وبتدبير أحوالها.

التذكّر: التأمّل. فهو قريب من التفكّر، إلّا أنّ التذكّر لمّا كان مشتقا من مادة الذكر التي هي في الأصل جريان اللفظ على اللسان، والتي يعبّر بها أيضا عن خطور المعلوم في الذهن بعد سهوه وغيبته عنه، كان مشعرا بأنّه حركة الذهن في معلومات متقرّرة فيه من قبل. وللإشارة إلى أنّ الاستدلال على وحدانية الله تعالى قد تقرّر في النفوس بالفطرة.

{ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ } [4].

وقع أمرهم بعبادته عقب ذكر الجزاء، إنذارا وتبشيرا، فالجملة كالدليل على وجوب عبادته، وهي بمنزلة النتيجة الناشئة عن إثبات خلقه السماوات والأرض، لأنّ الذي خلق مثل تلك العوالم من غير سابق وجود لا يعجزه أن يعيد بعض الموجودات الكائنة في تلك العوالم خلقا ثانيا. وقد تضمّنت هذه الآية إثبات الحشر الذي أنكروه وكذّبوا النبيّ صلى الله عليه وسلم لأجله.

{ **إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ** } في تقديم المجرور إفادة القصر، أي: لا إلى غيره، قطع لمطامع بعضهم القائلين في آلهتهم { هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ } [18]، يريدون أنّهم شفعاء على تسليم وقوع البعث للجزاء.

المرجع: مصدر ميمي بمعنى الرجوع. وقد تقدّم في قوله تعالى { إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً } [المائدة:105].

{ **وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً** } مفعول مطلق توكيد لمضمون الجملة المساوية له { إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ }.

التقدير: وعدكم الله وعدا حقا.

{ **إِنَّهُ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ** } واقعة موقع الدليل على وقوع البعث وإمكانه، بأنّه قد ابتدأ خلق النّاس، وابتداء خلقهم يدلّ على إمكان إعادة خلقهم بعد العدم.

{ **لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ** } إبداء لحكمة البعث وهي الجزاء على الأعمال المقترفة في الحياة الدنيا. إذ لو أرسل النّاس على أعمالهم بغير جزاء على الحسن والقبيح لاستوى المحسن والمسيء، وربما كان بعض المسيئين في هذه الدنيا أحسن فيها حالا من المحسنين. فكان من الحكمة أن يلقى كل عامل جزاء عمله. ولم يكن هذا العالم صالحا لإظهار ذلك، لأنّه وضع نظامه على قاعدة الكون والفساد، قابلا لوقوع ما يخالف الحقّ، ولصرف الخيرات عن الصالحين وانهيالها على المفسدين والعكس، لأسباب وآثار هي أوفق بالحياة المقرّرة في هذا العالم، فكانت الحكمة قاضية بوجود عالم آخر متمحّض للكون والبقاء وموضوعا فيه كل صنف فيما يليق به لا يعدوه إلى غيره، إذ لا قبل فيه لتصرّفات وتسبّبات تخالف الحقّ والاستحقاق.

وقُدّم جزاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات لشرفه ولياقته بذلك العالم.

القسط: العدل. وهو التسوية بين شيئين في صفة، والجزاء بما يساوي المجزى عليه. فتفيد (الباء) أنّهم يُجزون بما يعادل أعمالهم الصالحة، فيكون جزاؤهم صلاحا هنالك وهو غاية النعيم، وأنّ ذلك الجزاء مكافأة على قسطهم في أعمالهم.

وإنّما خصّ بذلك جزاء المؤمنين مع أنّ الجزاء كله عدل، بل ربّما كانت الزيادة في ثواب المؤمنين فضلا زائدا على العدل، لأمرين:

أحدهما: تأنيس المؤمنين وإكرامهم بأنّ جزاءهم قد استحقّوه بما عملوا، كقوله تعالى { ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [النحل: 32]. ومن أعظم الكرم أن يوهم الكريم أنّ ما تفضل به على المُكرَم هو حقّه وأن لا فضل له فيه.

الثاني: الإشارة إلى أن جزاء الكافرين دون ما يقتضيه العدل، ففيه تفضّل بضرب من التخفيف لأنّهم لو جوزوا على قدر جرمهم لكان عذابهم أشد، ولأجل هذا خولف الأسلوب في ذكر جزاء الذين كفروا فجاء صريحا بما يعم أحوال العذاب.

{ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ } استئناف بياني، لأنّه لمّا ورد ذكر جزاء المؤمنين على أنّه العلّة لرجوع الجميع إليه ولم يذكر في العلة ما هو جزاء الجميع، لا جرم يتشوّف السامع إلى معرفة جزاء الكافرين، فجاء الاستئناف للإعلام بذلك.

ونكتة تغيير الأسلوب، حيث لم يعطف جزاء الكافرين على جزاء المؤمنين فيقال: ويجزى الذين كفروا بعذاب، هو للإشارة إلى الاهتمام بجزاء المؤمنين الصالحين وأنّه الذي يبادر بالإعلام به وأنّ جزاء الكافرين جدير بالإعراض عن ذكره لولا سؤال السامعين.

شراب الحميم: تقدّم في قوله تعالى { لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ } [الأنعام:70]. وخصّ الشراب من الحميم بالذكر من بين أنواع العذاب الأليم لأنّه أكره أنواع العذاب في مألوف النفوس.

{ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ } الباء للعوض.

{ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } [5].

هذا استدلال آخر على انفراده تعالى بالتصرّف في المخلوقات، وهذا لون آخر من الاستدلال على الإلهيّة ممزوج بالامتنان على المحجوجين به، لأنّ الدليل السابق كان متضمّنا لعظيم أمر الخلق وسعة العلم والقدرة بذكر أشياء ليس للمخاطبين حظ في التمتّع بها. وهذا الدليل قد تضمّن أشياء يأخذ المخاطبون بحظ عظيم من التمتّع بها وهو خلق الشمس والقمر على صورتهما وتقدير تنقلاتهما تقديرا مضبوطا ألهم الله البشر للانتفاع به في شؤون حياتهم.

فجعلُ الشمس ضياء لانتفاع الناس بضيائها في مشاهدة ما به قوام أعمال حياتهم في أوقات أشغالهم.
وجعلُ القمر نورا للانتفاع بنوره انتفاعا مناسبا للحاجة التي قد تعرض إلى طلب رؤية الأشياء في وقت الظلمة.

الضياء: النور الساطع القوي، لأنّه يضيء للرائي. وهو اسم مشتق من الضوء، وهو النور الذي يوضح الأشياء، فالضياء أقوى من الضوء.

النور: الشعاع، وهو مشتق من اسم النّار، وهو أعمّ من الضياء، يصدق على الشعاع الضعيف والشعاع القوي، فضياء الشمس نور ونور القمر ليس بضياء. هذا هو الأصل في إطلاق هذه الأسماء، ولكن يكثر في كلام العرب إطلاق بعض هذه الكلمات في موضع بعض آخر بحيث يعسر انضباطه.

ولمّا جعل النور في مقابلة الضياء تعيّن أنّ المراد به نور ما.

{ **وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ** } هي مراتب نور القمر في القوّة والضعف. فالنور في كل منزلة له قدر غير قدره الذي في منزلة أخرى.

المنازل: جمع منزل، وهو مكان النزول. والمراد بها هنا المواقع التي يظهر القمر في جهتها كل ليلة من الشهر. وهي ثمان وعشرون منزلة على عدد ليالي الشهر القمري. وإطلاق اسم المنازل عليها مجاز بالمشابهة، وإنّما هي سموت يلوح للنّاس القمر كلّ ليلة في سمت منها، كأنّه ينزل بها. وقد رصدها البشر فوجدوها لا تختلف. وعلم المهتدون منهم أنّها ما وجدت على ذلك النظام إلّا بصنع الخالق الحكيم.

وهذه المنازل أمارتها أنجم مجتمعة على شكل لا يختلف، فوضع العلماء السابقون لها أسماء وهي: (العَوَّاء، السِمَاك الاعْزل، الغَفْر، الزُّبَاني، الإكليل، القَلْب، الشَّوْلَة، النَعَائم، البَلْدَة، سَعْد الذَّابِح، سَعْد بَلَع، سَعْد السُّعود، سَعْد الأخْبِيَة، الفَرْغ الأعلى، الفَرْغ الأسفل، الحُوت، الشَّرَطَانِ، البُطَيْن، الثُّرَيَا، الدَّبَران، الهَقْعَة، الهَنْعَة، ذِرَاع الأسَد، النَّشْرَة، الطَّرْف، الجَبْهَة، الزُّبْرَة، الصَّرْفَة).

{ **لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ** } أنبأنا الله بعلة تقديره القمر منازل، بأنّها معرفة النّاس عدد السنين والحساب.

الحساب: مصدر حسب بمعنى عدّ. وهو معطوف على { عَدَدَ }، أي: ولتعلموا الحساب. والمراد به حساب الأيام والأشهر، لأنّ حساب السنين قد ذكر بخصوصه.

{ **مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ** } مستأنفة كالنتيجة للجملة السابقة كلّها، لأنّه لمّا أخبر بأنّه الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وذكر حكمة بعض ذلك، أفضى إلى الغرض من ذكره وهو التنبيه إلى ما فيها من الحكمة ليستدل بذلك على أنّ خالقهما فاعل مختار حكيم ليستفيق المشركون من غفلتهم عن تلك الحكم، كما قال تعالى في هذه السورة { وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ }

{ **يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** } هذه الجملة مستأنفة ابتدائية مسوقة للامتنان بالنعمة، ولتسجيل المؤاخذة على الذين لم يهتدوا بهذه الدلائل إلى ما تحتوي عليه من البيان. فعلى قراءة { نُفَصِّلُ } بالنون، وهي

لنافع والجمهور ورواية عن ابن كثير، ففي ضمير صاحب الحال التفات، وعلى قراءة { يُفَصِّلُ } بالتحتية، وهي لابن كثير في المشهور عنه وأبي عمرو وابن عامر ويعقوب، أمرها ظاهر.

التفصيل: التبيين، لأنّ التبيين يأتي على فصول الشيء كلّها. والإتيان بالفعل المضارع لإفادة التكرار.

{ **لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** } أي: الذين من شأنهم العلم، لما يؤذن به المضارع من تجدّد العلم، وإنّما يتجدّد لمن هو ديدنه ودأبه، فإن العلماء أهل العقول الراجحة هم أهل الانتفاع بالأدلة والبراهين.

{ إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ } [6].

استدلال آخر على انفراد الله تعالى بالخلق والتقدير. وهو استدلال بأحوال الضوء والظلمة وتعاقب الليل والنّهار وفي ذلك عبرة عظيمة. وهو أعمّ من الدليل الأوّل لشموله ما هو أكثر من خلق الشمس والقمر ومن خلق الليل والنهار، ومن كلّ ما في الأرض والسماء ممّا تبلغ إليه معرفة النّاس في مختلف العصور وعلى تفاوت مقادير الاستدلال من عقولهم.

{ **إِنَّ** } التأكيد لأجل تنزيل المخاطبين به، الذين لم يهتدوا بتلك الدلائل إلى التوحيد، منزلة من ينكر أنّ في ذلك آيات على الوحدانيّة، بعدم جريهم على موجب العلم.

وتقدّم القول في شبيهة هذه الآية وهو قوله تعالى { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ } [البقرة:164]، وفي خواتم سورة آل عمران [190].

{ **لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ** } وفي آية البقرة { لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } وفي آية آل عمران { لِأُولِي الْأَلْبَابِ }، لأنّ السياق هنا تعريض بالمشركين الذين لم يهتدوا بالآيات، ليعلموا أنّ بعدهم عن التقوى هو سبب حرمانهم من الانتفاع بالآيات، وأنّ نفعها حاصل للذين يتّقون، أي: يحذرون الضلال. فالمتّقون هم المتصفون باتّقاء ما يوقع في الخسران، فيبعثهم على تطلّب أسباب النجاح فيتوجّه الفكر إلى النظر والاستدلال بالدلائل.

{ إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ [7] أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [8] }.

هذا استئناف وعيد للذين لم يؤمنوا بالبعث ولا فكّروا في الحياة الآخرة، ولم ينظروا في الآيات. إشارة إلى أنّ هؤلاء لا تنفعهم الأدلة وإنّما ينتفع بها الذين يعلمون ويتّقون، وأمّا هؤلاء فهم سادرون في غلوائهم حتى يلاقوا العذاب.

الرجاء: ظنّ وقوع الشيء من غير تقييد كون المظنون محبوبا، وإن كان ذلك كثيرا في كلامهم لكنّه ليس بمتعيّن. فمعنى { **لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا** } لا يظنّونه ولا يتوقّعونه.

{ **وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا** } أنّهم لم يُعملوا النظر في حياة أخرى أرقى وأبقى، لأنّ الرضا بالحياة الدنيا والاقتناع بأنّها كافية يصرف النظر عن أدلة الحياة الآخرة، وأهل الهدى يرون الحياة الدنيا حياة ناقصة فيشعرون بتطلّب حياة تكون أصفى من أكدارها، فلا يلبثون أن تطلع لهم أدلّة وجودها. وناهيك بإخبار الصادق بها ونصب الأدلة على تعين حصولها، فلهذا جُعل الرضى بالحياة الدنيا مذمّة وملقيا في مهواة الخسران.

وليس ذلك بمقتض الإعراض عن الحياة الدنيا، فإنّ الله أنعم على عباده بنعم كثيرة فيها وجب الاعتراف بفضله بها وشكره عليها والتعرّف بها إلى مراتب أعلى، هي مراتب حياة أخرى، والتزوّد لها.

الاطمئنان: السكون يكون في الجسد وفي النفس وهو الأكثر، قال تعالى { يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ } .

{ **اطْمَأَنُّوا بِهَا** } سكنت أنفسهم وصرفوا هممهم في تحصيل منافعها ولم يسعوا لتحصيل ما ينفع في الحياة الآخرة. لأنّ السكون عند الشيء يقتضي عدم التحرّك لغيره.

{ **وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ** } هم عين الذين لا يرجون اللقاء، ولكن أعيد الموصول للاهتمام بالصلة والإيماء إلى أنّها وحدها كافية في استحقاق ما سيذكر بعدها من الخبر. وإنّما لم يعد الموصول في قوله تعالى { وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا } لأنّ الرضى بالحياة الدنيا من تكملة معنى { إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا }.

الغفلة: إهمال النظر في الآيات أصلا، بقرينة المقام الدال على الدوام، وبتقديم المجرور. ممّا يدل مجموعه على أنّ غفلتهم عن آيات الله دأب لهم وسجيّة، وأنّهم يتعمّدونها، فتؤول إلى معنى الإعراض عن آيات الله وإباء النظر فيها عنادا ومكابرة. وليس المراد من تعرض له الغفلة عن بعض الآيات في بعض الأوقات.

{ **أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** }

المأوى: اسم مكان الإيواء، أي: الرجوع إلى مصيرهم ومرجعهم.

{ **بِمَا كَسَبُوا** } للإيماء إلى علّة الحكم، أي: أن مكسوبهم سبّب في مصيرهم إلى النّار.

{ **كَانُوا** } للدلالة على أنّ هذا المكسوب ديدنهم. والإتيان بالمضارع { **يَكْسِبُونَ** } لتأكيد التكرير.

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ [9] دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [10] }.

جاءت هذه الجملة مستأنفة استئنافا بيانيّا لتكون أحوال المؤمنين مستقلّة بالذكر غير تابعة في اللفظ لأحوال الكافرين، وهذا من طرق الاهتمام بالخبر. ومناسبة ذكرها مقابلة أحوال الذين يكذّبون بلقاء الله بأضدادها تنويها بأهلها وإغاضة للكافرين.

الهداية: الإرشاد على المقصد النافع والدلالة عليه. فمعنى { **يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ** } يرشدهم إلى ما فيه خيرهم. والمقصود: الإرشاد التكويني، أي: يخلق في نفوسهم المعرفة بالأعمال النافعة وتسهيل الإكثار منها. وأمّا الإرشاد الذي هو الدلالة بالقول والتعليم فالله يخاطب به المؤمنين والكافرين.

{ **بِإِيمَانِهِمْ** } الباء للسببيّة، بحيث إنّ الإيمان يكون سببا في الهداية. وفي الحديث الذي رواه الترمذي: " **اتقوا فراسة المؤمن فإنّه ينظر بنور الله** ".

{ **تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ** } خبر ثان لذكر ما يحصل لهم من النعيم في الآخرة بسبب هدايتهم الحاصلة لهم في الدنيا. وتقدّم القول في نظيره في [البقرة:25].

{ **مِنْ تَحْتِهِمُ** } من تحت منازلهم.

النعيم: تقدّم في قوله تعالى { لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ } [التوبة:21].

{ **دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ** }

الدعوى: هنا الدعاء. يقال: دعوة، ودعوى.

سبحان: مصدر بمعنى التسبيح، أي: التنزيه. وتقدّم عند قوله تعالى { قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا } [البقرة:32].

{ **اللَّهُمَّ** } نداء لله تعالى. ويجوز أن تكون تسمية هذا التسبيح دعاء من حيث إنّه ثناء مسوق للتعرّض إلى إفاضة الرحمات والنعيم.

ووجه ذكر هذا في عدد أحوالهم أنّها تدلّ على أنّ ما هم فيه من النعيم هو غايات الراغبين بحيث إن أرادوا أن ينعموا بمقام دعاء ربّهم الذي هو مقام القرب لم يجدوا أنفسهم مشتاقين لشيء يسألونه فاعتاضوا عن السؤال بالثناء على ربّهم، فألهموا إلى التزام التسبيح لأنّه أدلّ لفظ على التمجيد والتنزيه.

{ **وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ** }

التحية: اسم جنس لما يفاتح به عند اللقاء من كلمات التكرمة. وأصلها مشتقة من مصدر حيّاه إذا قال له عند اللقاء: أحياك الله. ثم غلبت في كل لفظ يقال عند اللقاء، كما غلب لفظ السلام. فيشمل: نحو حيّاك الله، وعم صباحا، وعم مساء، وصبّحك الله بخير، وبتّ بخير. أي: جعل الله لهم لفظ السلام تحية لهم.

<u>والظاهر</u> أنّ التحيّة بينهم هي كلمة { سَلَامٌ }، وأنّها محكية هنا بلفظها دون لفظ السلام عليكم أو سلام عليكم. وأمّا قوله تعالى { وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ } [الرعد:24/23]، فهو تلطّف معهم بتحيتهم التي جاءهم بها الإسلام.

ونكتة حذف كلمة (عليكم) في سلام أهل الجنّة بعضهم على بعض أنّ التحيّة بينهم مجرّد إيناس وتكرمة فكانت أشبه بالخير والشكر منها بالدعاء والتأمين. بخلاف تحيّة أهل الدنيا فإنّها تقع كثيرا بين المتلاقين الذين لا يعرف بعضهم بعضا فكانت فيها بقيّة من المعنى الذي أحدث البشر لأجله السلام، وهو معنى تأمين

الملاقي من الشر المتوقّع.

ووجه ذكر تحيتهم في هذه الآية الإشارة إلى أنّهم في أنس وحبور، وذلك من أعظم لذات النفس. وفيه تنويه بشأن هذا اللفظ الذي هو شعار المسلمين عند ملاقاتهم لما فيه من المعاني الجامعة للإكرام، إذ هو دعاء بالسلامة من كلّ ما يكدّر، فهو أبلغ من أحياك الله.

{ **وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** } بقيّة الجمل الحالية. والمعنى: أنّهم يختمون به دعاءهم، فهم يكرّرون { سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ } فإذا أرادوا الانتقال إلى حالة أخرى من أحوال النعيم نَهوا دعاءهم بذلك.

وقد دلّ على فضل هاتين الكلمتين قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" كلمتان حبيبتان إلى الرحمان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم ".**

{ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } [11].

هذه الجملة معطوفة على جملة { إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا } [7]، فحيث ذُكر عذابهم الذي هم أيلون إليه ناسب أن يبيّن لهم سبب تأخير العذاب عنهم في الدنيا لتُكشف شبهة غرورهم، وليعلم الذين آمنوا حكمة من حكم تصرف الله في هذا الكون. والقرينة على هذا الاتصال في آخر الآية. فقد بيّنت هذه الآية أنّ الرفق جعله الله مستمرًّا على عباده غير منقطع عنهم لأنّه أقام عليه نظام العالم إذ أراد ثبات بنائه، وأنّه لم يقدّر توازي الشرّ في هذا العالم بالخير، لطفا منه ورفقا، فالله لطيف بعباده، وفي ذلك منّة عظيمة عليهم، وأنّ الذين يستحقّون الشرّ لو عُجّل لهم ما استحقّوه لبطل النظام الذي وضع عليه العالم.

{ **لِلنَّاسِ** } اسم عام لجميع النّاس، ولكن لمّا كان الكلام على إبطال شبهة المشركين وكانوا المستحقّين للشرّ كانوا أوّل من يتبادر من عموم النّاس، كما زاده تصريحا قوله تعالى { فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ }.

{ **وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ** } جاء نظم الآية على إيجاز محكم بديع، فذكر في جانب الشرّ { يُعَجِّلُ } الدال على أصل جنس التعجيل ولو بأقل ما يتحقّق فيه معناه، وعبّر عن تعجيل الله الخير لهم بلفظ { اسْتِعْجَالَهُمْ } الدال على المبالغة في التعجيل بما تفيده زيادة السين والتاء.

فليس الاستعجال هنا بمعنى طلب التعجيل لأنّ المشركين لم يسألوا تعجيل الخير ولا سألوه فحصل، بل هو بمعنى التعجّل الكثير. والمعنى: ولو يُعجّل الله للنّاس الشرّ كما يُعجِّل لهم الخير كثيرا.

{ **بِالْخَيْرِ** } الباء لتأكيد اللصوق، وتأكيد اللصوق على الامتنان بأنّ الخير لهم كثير ومكين. وقد كثر اقتران مفعول فعل الاستعجال بهذه الباء ولم ينبّهوا عليه في مواقعه المتعددة. وسيجيء في النحل.

{ **لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ** } جواب (لو)، وشأن جواب (لو) أن يكون في حيز الامتناع، أي: وذلك ممتنع لأنّ الله قدّر لآجال انقراضهم ميقاتا معينا، قال تعالى { مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ } [الحجر:5].

القضاء: التقدير. و**الأجل**: المدّة المعيّنة لبقاء قوم.

{ **فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ** } مفرّعة على جملة (لو) وجوابها المفيدة انتفاء أن يُعجّل الله للنّاس الشرّ بانتفاء لازمه وهو بلوغ أجلهم إليهم. أي: فإذا انتفى التعجيل فنحن نذر الذين لا يرجون لقاءنا يعمهون، أي: نتركهم في مدة تأخير العذاب عنهم متلبّسين بطغيانهم، أي: فرط تكبّرهم وتعاظمهم.

العمه: عدم البصر. و**الطغيان**: الكفر. أي فنترك المنكرين للبعث في ضلالهم استدراجا لهم.

وتقدّم نظيره في قوله تعالى { وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } [البقرة:15].

{ وَإِذَا مَسَّ الْأِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [12].

لمّا بيّن في الآية السابقة وجه تأخير عذاب الاستئصال عنهم وإرجاء جزائهم إلى الآخرة، بيّن في هذه حالهم عندما يمسّهم شيء من الضرّ وعندما يكشف الضرّ عنهم. والغرض الأهم من كلتيهما هو الاعتبار بذميم أحوال المشركين تفظيعا لحالهم وتحذيرا من الوقوع في أمثالها.

{ **الْأِنْسَانَ** } مراد به الجنس، والتعريف يفيد الاستغراق العرفي، أي: الإنّسان الكافر، لأنّ جمهور النّاس حينئذ كافرون، إذ كان المسلمون قبل الهجرة لا يعدون بضعة وسبعين رجلا مع نسائهم وأبنائهم الذين هم تبع لهم. وبهذا الاعتبار يكون المنظور إليهم في هذا الحكم هم الكافرون. ويأخذ المسلمون من هذا الحكم ما يناسب مقدار ما في آحادهم من بقايا هذه الحال الجاهليّة فيفيق كلّ من غفلته.

ومن المفسّرين من جعل اللام في الإنسان للعهد، وجعل المراد به أبا حذيفة بن المغيرة المخزومي، واسمه مُهَشِّم، وكان مشركا، وكان أصابه مرض.

الضرّ: تقدّم في قوله تعالى { وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ } [الأنعام:17].

الدعاء: هنا الطلب والسؤال بتضرّع.

{ **لِجَنْبِهِ** } اللام بمعنى (على) كقوله تعالى { يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ } [الإسراء:109]. وإنّما سلك هنا حرف الاختصاص للإشارة إلى أنّ الجنب مختصّ بالدعاء عند الضرّ ومتّصل به، فبالأولى غيره.

{ **أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً** } ذكر الأفعال الدالة على أصل المعنى، للدلالة على أنّه يدعو الله في أندر الأحوال ملابسة للدعاء، وهي حالة تطلب الراحة وملازمة السكون. ولذلك ابتدئ بذكر الجنب، وزيادة { أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً } لقصد تعميم الأحوال وتكميلها، لأنّ المقام مقام الإطناب لزيادة تمثيل الأحوال، أي: دعانا في سائر الأحوال لا يلهيه عن دعائنا شيء.

{ **فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ** } هذا التفريع هو المقصود من الكلام إذ الحالة الأولى، وهي المفرَّع عليها، حالة محمودة لولا ما يعقبها.

الكشف: حقيقته إظهار شيء عليه ساتر أو غطاء. وشاع إطلاقه على مطلق الإزالة. إمّا على طريقة المجاز المرسل بعلاقة الإطلاق، وإمّا على طريقة الاستعارة بتشبيه المزال بشيء ساتر لشيء.

المرور: هنا مجازي بمعنى استبدال حالة بغيرها. شُبّه الاستبدال بالانتقال من مكان إلى آخر، أي: نسي حالة اضطراره واحتياجه إلينا فصار كأنّه لم يقع في ذلك الاحتياج.

{ **كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } تذييل يعمّ ما تقدّم وغيره، أي: هكذا التزيين الشيطاني زيّن لهم ماكانوا يعملون من أعمالهم في ماضي أزمانهم في الدعاء وغيره من ضلالاته.

وهو تزيين إعراضهم عن دعاء الله في حالة الرخاء.

{ **زُيِّنَ** } أسند فعل التزيين إلى المجهول لأنّ المسلمين يعلمون أنّ المزيّن للمسرفين خواطرهم الشيطانية، فقد أسند فعل التزيين إلى الشيطان غير مرّة. أو لأنّ معرفة المزيّن لهم غير مهمّة هاهنا وإنّما المهمّ الاعتبار والاتعاظ باستحسانهم أعمالهم الذميمة.

الإسراف: الإفراط والإكثار في شيء غير محمود. فالمراد بالمسرفين هنا الكافرون. واختير لفظ {الْمُسْرِفِينَ} لدلالته على مبالغتهم في كفرهم، فالتعريف في المسرفين للاستغراق ليشمل المتحدّث عنهم وغيرهم.

<u>المعنى</u>: أن شأن الأعمال الذميمة القبيحة إذا تكرّرت من أصحابها أن تصير لهم دربة، تحسن عندهم قبائحها فلا يكادون يشعرون بقبحها فكيف يقلعون عنها.

{ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ } [13].

عاد الخطاب إلى المشركين عودا على بدئه بمناسبة التماثل بينهم وبين الأمم قبلهم في الغرور بتأخير العذاب عنهم حتّى حلّ بهم الهلاك فجأة. وهذه الآية تهديد وموعظة بما حلّ بأمثالهم.

ولتوكيد التهديد والوعيد أكّدت الجملة بلام القسم و(قد) التي للتحقيق.

الإهلاك: الاستئصال والإفناء.

القرون: جمع قرن وأصله مدة طويلة من الزمان، والمراد به هنا أهل القرون.

<u>المعنى</u>: أهلكناهم حينما ظلموا، أي: أشركوا وجاءتهم رسلهم بالبيّنات، مثل هود وصالح، ولم يؤمنوا.

البيّنات: جمع بيّنة، وهي الحجّة على الصدق.

{ **وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا** } معطوفة عليها. ومجموع الجمل الثلاث هو ما وقّت به الإهلاك. قال تعالى { وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً }.

{ **كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ** } تذييل. والتعريف في { الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ } للاستغراق، فلذلك عمّ القرون الماضية والمخاطبين، وبذلك كان إنذارا لقريش بأن ينالهم ما نال أولئك.

والمراد بالإجرام أقصاه، وهو الشرك.

{ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ } [14].

{ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ } عطف على { أَهْلَكْنَا } وحرف (ثمّ) مؤذن ببعد ما بين الزمنين، أي: ثم جعلناكم تخلفونهم في الأرض. و تقتضي أيضا التراخي الرتبي، لأنّ جعلهم خلائف أهمّ من إهلاك القرون قبلهم، لما فيه من المنّة عليهم، ولأنّه عوّضهم بهم.

الخلائف: جمع خليفة. وتقدّم في قوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ } [الأنعام:165].

{ الْأَرْضِ } بلاد العرب، فالتعريف فيه للعهد، لأنّ المخاطبين خلفوا (عادا وثمودا وطسما وجديسا وجُرْهُما) في منازلهم على الجملة.

{ لِنَنْظُرَ } مستعمل في العلم المحقّق، لأنّ النظر أقوى طرق المعرفة، أي: لنعلم علما متعلّقا بأعمالكم. وإنّما جعل استخلافهم في الأرض علّة لعلم الله بأعمالهم كناية عن ظهور أعمالهم في الواقع إن كانت ممّا يرضي الله أو ممّا لا يرضيه. فإذا ظهرت أعمالهم علمها الله علم الأشياء النافعة وإن كان يعلم أن ذلك سيقع علما أزليا. وتقدّم نظير هذا في قوله تعالى { وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ } [آل عمران:140].

{ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } [15].

أسلوب آخر من أساليب تكذيبهم النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يكون القرآن موحى إليه من الله تعالى. فهم يتوهّمون أنّ القرآن وضعه النبيّ صلى الله عليه وسلم من تلقاء نفسه، ولذلك جعلوا من تكذيبهم أن يقولوا له { ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ } إطماعا له بأن يؤمنوا به.

{ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ } لزيادة التعجيب من طلبهم تبديلها إذ لا طمع في خير منه.

{ ائْتِ بِقُرْآنٍ } سَمُّوا ما طلبوا الإتيان به قرآنا لأنّه عوض عن المسمَّى بالقرآن، فإنّ القرآن عَلَم على الكتاب الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، أي: ائت بغير هذا مما تسميه قرآنا.

{ غَيْرِ هَذَا } مخالِفه. والمراد المخالفة للقرآن كلّه بالإعراض عنه وابتداء كتاب آخر بأساليب أخرى، كمثل كتب قصص الفرس وملاحمهم، إذ لا يحتمل كلامهم غير ذلك. إذ ليس مرادهم أن يأتي بسور أخرى غير التي نزلت من قبل لأنّ ذلك حاصل.

التبديل: التغيير. والمراد بالتبديل أن يعمد إلى القرآن الموجود فيغيّر الآيات المشتملة على عبارات ذمّ الشرك بمدحه، وعبارات ذمّ أصنامهم بالثناء عليها، وعبارات البعث والنشر بضدّها.

ثم إنّ قولهم يحتمل أن يكون جدّا ويحتمل أن يريدوا به الاستهزاء، وعلى الاحتمالين فقد أمر الله نبيّه صلى الله عليه وسلم بأن يجيبهم بما يقلع شبهتهم من نفوسهم إن كانوا جادين، أو من نفوس من يسمعونهم من دهمائهم فيحسبوا كلامهم جدّا فيترقّبوا تبديل القرآن.

ولمّا كان لاقتراحهم **معنى صريح**، وهو الإتيان بقرآن آخر أو تبديل آيات القرآن الموجود، **ومعنى التزامي كنائي**، وهو أنّه غير منزل من عند الله وأنّ الذي جاء به غير مرسل من الله، كان الجواب عن قولهم جوابين:

أحدهما: ما لقّنه الله بقوله تعالى { قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي }، وهو جواب عن صريح اقتراحهم.

ثانيهما: ما لقّنه بقوله تعالى { قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ } [16] وهو جواب عن لازم كلامهم.

وعن مجاهد تسمية أناس ممن قال هذه المقالة وهم خمسة: (عبد الله بن أمية، والوليد بن المغيرة، ومكرز بن حفص، وعمرو بن عبد الله بن أبي قيس، والعاص ابن عامر)، قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم: ائت بقرآن ليس فيه ترك عبادة الأصنام واللات والعزى ومناة وهبل، وليس فيه عيبها.

{ **قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي** } جاء الجواب بأبلغ صيغ النفي وهو قوله { مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ }، أي: ما يكون التبديل ملكا بيدي.

{ **تِلْقَاءِ** } صيغة مصدر على وزن التفعال. وقياس وزن التفعال الشائع هو فتح التاء وقد شذ عن ذلك (تلقاء، وتبيان، وتمثال، بمعنى اللقاء والبيان والمثول) فجاءت بكسر التاء لا رابع لها، ثم أطلق التلقاء على جهة التلاقي ثم أطلق على الجهة والمكان مطلقا كقوله { وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ } [القصص:22].

المعنى: من جهة نفسي.

{ **إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ** } تعليل، أي: ما أتبع إلّا الوحي وليس لي تصرّف بتغيير.

ومن رام أن يحتجّ بهذا القصر على عدم جواز الاجتهاد للنبيّ صلى الله عليه وسلم فقد خرج بالكلام عن مهيعه.

{ **إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** } في موضع التعليل لجملة { إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ } ولذلك فُصلت عنها واقترنت بحرف (إن) للاهتمام، وهي تؤذن بالتعليل.

{ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ } [16].

هذا جواب عن لازم اقتراحهم وكنايته عن رميهم الرّسول صلى الله عليه وسلم بالكذب عن الله فيما ادّعى

من إرساله وإنزال القرآن عليه كما تقدّم في الجواب قبله. ولكونه جوابا مستقلا عن معنى قصدوه من كلامهم جاء الأمر به مفصولا عن الأول غير معطوف عليه تنبيها على استقلاله وأنّه ليس بتكملة للجواب الأول.

وفي هذا الجواب استدلال على أنّه مرسل من الله تعالى، وأنّه لم يختلق القرآن من عنده. أي: لو شاء الله أن لا آتيكم بهذا القرآن لما أرسلني به ولبقيت على الحالة التي كنت عليها من أول عمري.

التلاوة: قراءة المكتوب أو استعراض المحفوظ، فهي مشعرة بإبلاغ كلام من غير المبلّغ. وقد تقدّمت عند قوله تعالى { وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ } [البقرة:102].

{ **أَدْرَاكُمْ** } عرّفكم. وفعل الدراية إذا تعلّق بذات يتعدّى إليها بنفسه تارة وبالباء أيضا، يقال: دريته ودريت به. وقد جاء في هذه الآية على الاستعمال الثاني وهو الأكثر في حكاية سيبويه.

{ **وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ** } أي: لو شاء الله ما أمرني بتلاوة القرآن عليكم ولا أعلمكم به.

{ **فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ** } تذكير لهم بقديم حاله المعروفة بينهم وهي حال الأمّيّة. أي: قد كنت بين ظهرانيكم مدة طويلة، وهي أربعون سنة، تشاهدون أطوار نشأتي.

اللبث: الإقامة في المكان مدّة. وتقدّم في قوله تعالى { قَالَ كَمْ لَبِثْتَ } [البقرة:259].

{ **فِيكُمْ** }، أي: بينكم.

العمر: الحياة. اشتُق من العمران، لأنّ مدة الحياة يعمر بها الحي العالم الدنيوي. ويطلق العمر على المدّة الطويلة التي لو عاش المرء مقدارها لكان قد أخذ حظّه من البقاء. وهذا هو المراد هنا بدليل تنكير { عُمُراً } <u>المعنى</u>: لبثت فيكم أربعين سنة قبل نزول القرآن.

{ **أَفَلا تَعْقِلُونَ** } إذ قد ظهر من حالهم ما يجعلهم كمن لا يعقل. والتقدير: أفلا تعقلون أنّ مثل هذا الحال، من الجمع بين الأمّيّة والإتيان بهذا الكتاب البديع في بلاغته ومعانيه، لا يكون إلّا حال من أفاض الله عليه رسالته

{ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ } [17].

لمّا قامت الحجّة عليهم بما لا قبل لهم بالتنصّل منه أُعقبت بالتفريع على افترائهم الكذب وذلك ممّا عُرف من أحوالهم من اتخاذهم الشركاء له، وتكذيبهم بآيات الله.

{ **أَوْ** } للتقسيم، وهو إمّا تقسُّم أحوال، وإمّا تقسُّم أنواع. والاستفهام إنكاري.

الظلم: هنا بمعنى الاعتداء. وإنّما كان أحد الأمرين أشدّ الظلم لأنّه اعتداء على الخالق بالكذب عليه وبتكذيب آياته.

{ **إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ** } تذييل، وموقعه يقتضي شمول عمومه للمذكورين في الكلام.

الفلاح: تقدّم في قوله تعالى { وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [البقرة:5].

وافتتاح الجملة بضمير الشأن لقصد الاهتمام بمضمونها.

{ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } [18].

عطف على { وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ } [15]، عطف القصّة على القصّة. والمناسبة بين القصّتين أنّ في كلتيهما كفرا أظهروه في صورة السخرية والاستهزاء. كانوا إذا أنذرهم النبيّ صلى الله عليه وسلم بعذاب الله قالوا: تشفع لنا إلهتنا عند الله. وقد روي أنّه قاله النضر بن الحارث: " إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى".

ويجوز أن تكون { وَيَعْبُدُونَ } عطفا على { فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً } [17] فإن عبادتهم ما لا يضرّهم ولا ينفعهم من الافتراء.

{ **يَعْبُدُونَ / يَقُولُونَ** } اختيار صيغة المضارع لاستحضار الحالة العجيبة من استمرارهم على عبادتها.

{ **مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ** } قدّم ذكر نفي الضرّ على نفي النفع لأنّ المطلوب من المشركين الإقلاع عن عبادة الأصنام وقد كان سدنتها يخوّفون عَبدتها بأنّها تلحق بهم وبصبيانهم الضرّ، كما قالت امرأة طفيل بن عمرو الدوسي حين أخبرها أنّه أسلم ودعاها إلى أن تسلم فقالت: " أما تخشى على الصبية من ذي الشَرَى ". [الشرى (بفتح الشين المعجمة وألف في آخره) شجر الحنظل. وذو الشرى: صنم كان يعبده بنو دوس. كان بين مكة والطائف. ويُسمَّى أيضاً ذا الكفّين]. فأريد الابتداء بنفي الضرّ لإزالة أوهام المشركين في ذلك الصادَّة لكثير منهم عن نبذ عبادة الأصنام.

{ **وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ** } لتحقير رأيهم من رجاء الشفاعة من تلك الأصنام، فإنّها لا تقدر على ضرّ ولا نفع في الدنيا فهي أضعف مقدرة في الآخرة. وفي قولهم اعتراف بأنّ المتصرّف هو الله.

{ **قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ** } أمر الله نبيّه عليه الصلاة والسلام أن يردّ عليهم بتهكّم بهم. معنى ذلك: أنّ هذا لمّا كان شيئا اخترعوه وهو غير واقع جعل اختراعه بمنزلة أنّهم أعلموا الله به وكان لا يعلمه، فصار ذلك كناية عن بطلانه، لأنّ ما لم يعلم الله وقوعه فهو منتف.

{ **أَتُنَبِّئُونَ** } الاستفهام للإنكار والتوبيخ.

الإنباء: الإعلام.

{ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ** } إنشاء تنزيه، فهي منقطعة عن التي قبلها فلذلك فصلت. وتقدّم الكلام على نظيره عند قوله تعالى { وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ } [الأنعام:100].

{ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } [19].

جملة معترضة بين جملة { وَيَعْبُدُونَ } [18] وجملة { وَيَقُولُونَ لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ } [20]. لأنّ عبادة الأصنام واختراع صفة الشفاعة لها هو من الاختلاق الذي أحدثه ضُلّال البشر في العقيدة السليمة التي فطر الله النّاس عليها في أوّل النشأة، فهي ممّا يشمله التوبيخ الذي في قوله تعالى { أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ } [18].

{ وَمَا كَانَ النَّاسُ } صيغة القصر للمبالغة في تأكيد الخبر لأنّه خبر مهم عجيب، هو من الحِكم العِمرانية والحقائق التاريخية بالمكان الأسمى.

وحسَّن القصرَ هنا وقوعه عقب الجدال مع الذين غيّروا الدين الحقّ وروّجوا نحلتهم بالمعاذير الباطلة كقولهم { هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ } [18]، وقولهم { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى } [الزمر:3]، بخلاف آية سورة البقرة { كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً } [213]، فإنّها وقعت في سياق المجادلة مع أهل الكتاب، وأهل الكتاب لا ينكرون أنّ النّاس كانوا أمّة واحدة.

فآية هذه السورة تشير إلى الوحدة الاعتقادية ولذلك عُبّر عن التفرّق الطارئ عليها باعتبار الاختلاف المشعر بالمذمّة والمعقب بالتخويف في قوله تعالى { وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ } إلى آخره. وآية سورة البقرة تشير إلى الوحدة الشرعية التي تجمعها الحنيفية الفطرية، ولذلك عُبّر عن التفرّق الذي طرأ عليها بأنّ الله بعث النبيئين مبشّرين ومنذرين، ثم جاء ذكر الاختلاف عرضا عقب ذلك بقوله تعالى { وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ }، وأريد به الاختلاف بين أتباع الشرائع لقوله تعالى { وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ} [البقرة: 213].

{ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً } تقدّم القول في نظيره في [البقرة:213].

النّاس: اسم جمع للبشر وتعريفه للاستغراق.

الأمة: الجماعة العظيمة التي لها حال واحد في شيء ما. والمراد هنا أمّة واحدة في الدين. فتعيّن أنّ المراد في هذه الآية بكون النّاس أمّة واحدة: الوحدة في الحقّ، لأنّ المقصود من هذه الآية بيان فساد الشرك وإثبات خطأ منتحليه بأنّ سلفهم الأوّل لم يكن مثلهم في فساد العقول، وقد كان للمخاطبين تعظيم لما كان عليه أسلافهم.

ويجوز أن يراد بالنّاس العرب خاصة بقرينة الخطاب، ويكون المراد تذكيرهم بعهد أبيهم إبراهيم عليه السلام إذ كان هو وأبناؤه وذريّتهم على الحنيفيّة والتوحيد كما قال تعالى { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } [الزخرف:26-28]، أي: في عقبه من العرب، فيكون التعريف للعهد.

{ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } إخبار بأنّ الحقّ واحد، وأنّ ذلك

الاختلاف مذموم، وأنّه لولا أنّ الله أراد إمهال البشر إلى يوم الجزاء لأراهم وجه الفصل في اختلافهم باستئصال المبطل وإبقاء المحقّ.

{ **كَلِمَةٌ** } أجملت هنا وأشير إليها في الشورى بقوله تعالى { وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ } [الشورى:14]. وأصرح من ذلك في بيان معناها قوله تعالى { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } [هود:118] وسيأتي بيانها.

الأجل: هو أجل بقاء الأمم، وذلك عند انقراض العالم، فالقضاء بينهم إذن مؤخّر إلى يوم الحساب.

{ **فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** } تقديم المجرور للرعاية على الفاصلة.

{ وَيَقُولُونَ لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ } [20].

عطف على { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ } [18]، فبعد أن ذكر افتراءهم في جانب الإلهيّة نفى بهتانهم في جانب النبوّة.

{ **لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ** } (لولا) حرف تحضيض، وشأن التحضيض أن يواجَه به المحضَّض لأنّ التحضيض من الطلب، وشأن الطلب أن يواجَه به المطلوب، ولذلك كان تعلّق فعل الإنزال بضمير الغائب في هذه الآية مؤوّلا بأحد وجهين:

<u>إمّا أن يكون التفاتا</u>، وأصل الكلام: لولا أنزل عليك، وهو من حكاية القول بالمعنى، ونكتة الالتفات لتجديد نشاط السامع.

<u>وإمّا أن يكون هذا القول صدر منهم</u> فيما بينهم ليبيّن بعضُهم لبعض شبهة على انتفاء رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، أو صدر منهم للمسلمين طمعا في أن يردّوهم إلى الكفر.

الآية: علامة الصدق. أرادوا خارقا للعادة على حسب اقتراحهم. وهذا من جهلهم بحقائق الأشياء وتحكيمهم الخيال والوهم في حقائق الأشياء، فهم يفرضون أنّ الله حريص على إظهار صدق رسوله صلى الله عليه وسلم، وأنّه يستفزّه تكذيبهم إيّاه فيغضب ويسرع في مجاراة عنادهم ليكفّوا عنه، فإن لم يفعل فقد أفحموه وأعجزوه وهو القادر. فتوهَّموا أنّ مدَّعي الرسالة عنه غير صادق في دعواه وما دروا أنّ الله قدّر نظام الأمور تقديرا، ووضع الحقائق وأسبابها، وأجرى الحوادث على النظام الذي قدّره، وجعل الأمور بالغة مواقيتها التي حدّد لها، ولا يضرّه أن يُكذّب المكذّبون أو يعاند الجاهلون، وقد وضع لهم ما يليق بهم من الزواجر في الآخرة لا محالة، وفي الدنيا تارات، كل ذلك يجري على نظم اقتضتها الحكمة لا يحمله على تبديلها سؤال سائل ولا تسفيه سفيه. وهو الحكيم العليم.

فهم جعلوا استمرار الرّسول صلى الله عليه وسلم على دعوتهم بالأدلة التي أمره الله أن يدعوهم بها وعدم

تبديله ذلك بآيات أخرى على حسب رغبتهم جعلوا كل ذلك دليلا على أنّه غير مؤيّد من الله فاستدلوا بذلك على انتفاء أن يكون الله أرسله، لأنّه لو أرسله لأيّده بما يوجب له القبول عند المرسل إليهم.

{ **مِنْ رَبِّهِ** } العدول عن اسم الجلالة إلى لفظ الربّ المضاف إلى ضمير الرسول صلى الله عليه وسلم إيماء إلى الربوبيّة الخاصة بالتعلّق بالرسول صلى الله عليه وسلم وهي ربوبية المصطفِي للمصطفَى من بين بقية الخلق المقتضية الغضب لغضبه لتوهّمهم أنّ غضب الله مثل غضب الخلائق يستدعي الإسراع إلى الانتقام وما علموا أسرار الحكمة الإلهية والحكم الإلهي والعلم الأعلى.

{ **فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ** } أمر الله رسوله بأن يجيب عن اقتراحهم بما هو الحقيقة المرشدة وإن كانت أعلى من مداركهم، جوابا فيه تعريض بالتهديد لهم، فجاء بفاء التفريع هنا دون بعض نظائره للإشارة إلى تعقيب كلامهم بالجواب شأن المتمكّن من حاله المتثبّت في أمره.

الغيب: ما غاب عن حواس النّاس من الأشياء، والمراد به هنا ما يتكوّن من مخلوقات غير معتادة في العالم الدنيوي من المعجزات.

{ **لِلَّهِ** } اللام للملك، أي: الأمور المغيّبة لا يقدر عليها إلّا الله. وجاء الكلام بصيغة القصر للردّ عليهم في اعتقادهم أنّ في مكنة الرّسول الحق أن يأتي بما يسأله قومه من الخوارق، فجعلوا عدم وقوع مقترحهم علامة على أنّه ليس برسول من الله، فلذلك رد عليهم بصيغة القصر الدالة على أنّ الرّسول ليس له تصرّف في إيقاع ما سألوه ليعلموا أنّهم يرمون بسؤالهم إلى الجراءة على الله تعالى بالإفحام.

{ **فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ** } أي: ليس دأبي ودأبكم إلّا انتظار ما يأتي به الله إن شاء، كقول نوح لقومه { إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ } [هود: 33].

{ **مَعَكُمْ** } معية مجازية مستعملة في الاشتراك في مطلق الانتظار.

{ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ } [21].

لمّا حكى تمرّد المشركين بيّن هنا أنّهم في ذلك لاهون ببطرهم وازدهائهم بالنعمة والدعة فأنساهم ذلك أن يتوقّعوا حدوث ضدّه فتفنّنوا في التكذيب والاستهزاء، كما قال تعالى { وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً } [المزمل:11].

والملقى إليه الكلام هو النبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنون. وفيه تعريض بتذكير الكفّار بحال حلول المصائب بهم لعلّهم يتذكّرون، فيعدّوا عدّة الخوف من حلول النقمة التي أنذرهم بها في قوله تعالى في الآية السابقة { فَانْتَظِرُوا } [20].

{ **النَّاسَ** } المعهودون المتحدّث عنهم بقرينة السياق في قوله { وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ } [12].

الإذاقة: مستعملة في مطلق الإدراك، استعارة أو مجازا، كما تقدّم في قوله تعالى { لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ } [المائدة:95].

الرحمة: هنا مطلقة على أثر الرحمة، وهو النعمة والنفع، كقوله تعالى { وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ } [الشورى:28].

الضرّاء: الضرّ. و**المسّ**: مستعمل في الإصابة.

المعنى: إذا نالت النّاس نعمة بعد الضرّ، كالمطر بعد القحط، والأمن بعد الخوف، والصحة بعد المرض.

{ **إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا** } (إذا) للمفاجأة، يدل على البدار والإسراع بمضمون الجملة، فيفيد مفاد فاء التعقيب التي يؤتى بها لربط جواب الشرط بشرطه، فإذا جاء حرف المفاجأة أغنى عنها.

المكر: حقيقته إخفاء الإضرار وإبرازه في صورة المسالمة.

المعنى: أنّهم يوهمون أنّ آيات القرآن غير دالة على صدق الرسول، ويزعمون أنّه لو أنزلت عليه آية أخرى لآمنوا بها وهم كاذبون في ذلك، وإنّما هم يكذّبونه عنادا ومكابرة وحفاظا على دينهم في الشرك.

{ **قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً** } لمّا كان الكلام متضمّنا التعريض بإنذارهم، أمر الرسول أن يعظهم بأنّ الله أسرع مكرا. وأطلق على تأجيل الله عذابهم اسم المكر على وجه الاستعارة التمثيلية، وحسَّنته المشاكلة.

{ **إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ** } استئناف خطاب للمشركين مباشرة تهديدا من الله، فلذلك فصلت على التي قبلها لاختلاف المخاطب. أعلمهم الله بأنّ الملائكة الموكّلين بإحصاء الأعمال يكتبون ذلك.

والمقصود أنّ مكرهم مُحصى معدود عليهم لا يُهمل، وهو إنذار بالعذاب عليه.

{ **يَكْتُبُونَ / يَمْكُرُونَ** } المضارع للدلالة على التكرّر.

{ **مَا تَمْكُرُونَ** } التفات من الغيبة إلى الخطاب لاختلاف معادي الضميرين.

{ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ [22] فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [23] }.

هذه الجملة بدل اشتمال من الجملة السابقة، لأنّ البغي في الأرض اشتمل عليه المكر في آيات الله.

والمقصود من هذه الجملة هو قوله تعالى { فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ } وما سواه تمهيد وإدماج للامتنان.

أعقِب التهديد على كفران النعمة بذكر بعض نعم الله عليهم، ثمّ ضرّاء تعقب النعمة للابتلاء والتذكير بخالقهم. لكيلا يغترّوا بالإمهال فيحسبوه رضى بكفرهم أو عجزا عن أخذهم، وهذا موقع رشيق جدّ

الرشاقة لهذه الآية القرآنية.

{ **هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ** } قصر ادعائي، وإسناد التسيير إلى الله تعالى باعتبار أنّه سببه، لأنّه خالق إلهام التفكير وقوى الحركة العقلية والجسديّة، فالإسناد مجاز عقلي. والكلام مستعمل في الامتنان والتعريض بإخلالهم بواجب الشكر.

{ **حَتَّى** } ابتدائية، وهي غاية للتسيير في البحار خاصة، والمغيَّا هو ما في قوله تعالى { يُسَيِّرُكُمْ } من المنّة المؤذنة بأنّه تسيير رفق ملائم للنّاس، فكان ما بعد (حتّى) ومعطوفاتها نهاية ذلك الرفق، حيث ينتهي السير المنعَّم به ويدخلون في حالة البأساء والضراء، وهذا النظم نسج بديع في أفانين الكلام.

ومن بديع الأسلوب في الآية أنّها لمّا كانت بصدد ذكر النعمة جاءت بضمائر الخطاب الصالحة لجميع السامعين، فلمّا تهيأت للانتقال إلى ذكر الضرّاء وقع الانتقال من ضمائر الخطاب إلى ضمير الغيبة لتلوين الأسلوب بما يُخلّصه إلى الإفضاء إلى ما يخصّ المشركين فقال { **وَجَرَيْنَ بِهِمْ** } على طريقة الالتفات، أي: وجرين بكم. وهذا ضرب من الالتفات لم ينبّه عليه أهل المعاني وهو كالتخصيص بطريق الرمز.

{ **يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ** } السير في البر معروف للعرب، وكذلك السير في البحر. كانوا يركبون البحر إلى اليمن وإلى بلاد الحبشة. وكانت لقريش رحلة الشتاء إلى اليمن وقد يركبون البحر لذلك. وقد وصف طرفة بن العبد السفن وسيرها، وذكرها عمرو بن كلثوم في معلقته، والنابغة في داليّته.

الفلك: اسم لمركب البحر، وهو هنا مراد به الجمع.

الجري: السير السريع في الأرض أو في البحر، قال تعالى { باسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا } والظاهر أنّه حقيقة فيهما.

الريح: مؤنثة في كلام العرب.

الطَّيّب: الموصوف بالطيب الشديد. وأصل معنى الطيّب الملاءمة فيما يراد من الشيء، كقوله تعالى { فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً } [النحل:97]، ويقال: طاب له المقام في مكان كذا. وهنا الملائمة الرفيقة بالراكبين.

{ **جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ** } جواب { إِذَا }. وفي ذكر جَريها بريح طيبة وفرحهم بها إيماء إلى أنّ مجيء العاصفة حدث فجأة دون توقّع.

العاصف: وصف خاص بالريح، أي: شديدة السرعة. وإنّما لم تلحقه علامة التأنيث لأنّه مختصّ بوصف الريح فاستغنى عن التأنيث، مثل: نافس وحائض ومرضع، فشاع استعماله كذلك.

{ **مِنْ كُلِّ مَكَانٍ** } من كل جهة من جهات الفلك.

{ **وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ** } ظنّوا الهلاك. فالعرب يقولون: أحاط العدو بالقبيلة إذا تمكّن منها وغلبها، لأنّ الإحاطة بها تدلّ على الإحداق بها وتطويقها. استعارة تمثيلية للهلاك كما تقدم في قوله تعالى { وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ } [البقرة:19]، وقوله تعالى { وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ } [الكهف:42]، أي: هلكت.

{ **دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** } جواب { إِذَا }. ومعنى مخلصين له الدين: ممحّضين له العبادة في دعائهم. أي: دعوه ولم يدعوا معه أصنامهم. وليس المراد أنّهم أقلعوا عن الإشراك في جميع أحوالهم بل تلك حالتهم في الدعاء عند الشدائد.

{ **لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ** } بيان لجملة { دَعَوُا } لأنّ مضمونها هو الدعاء. والإشارة بـ { هَذِهِ } إلى حالة حاضرة لهم، وهي حالة إشرافهم على الغرق. وقد أُكِّد وعدهم بالشكر بثلاث مؤكِّدات: لام توطئة القسم، ونون التوكيد، والتعبير بصيغة { **مِنَ الشَّاكِرِينَ** } دون لنكوننّ شاكرين، لِما يفيده من كونهم من هذه الزمرة التي ديدنها الشكر، كما تقدّم بيان خصوصية مثل هذا التركيب.

{ **فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ** } جيء بحرف (إذا) الفجائية للدلالة على تعجيلهم بالبغي في الأرض عقب النجاة.

البغي: الاعتداء. والمراد به هنا الإشراك كما صرّح به في نظيرها في قوله تعالى { فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ } [العنكبوت:65]. وسُمّي الشرك بغيا لأنّه اعتداء على حقّ الخالق وهو أعظم اعتداء، كما يُسمّى ظلما في آيات كثيرة منها قوله تعالى { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان:13].

ولا يحسُن تفسير البغي هنا بالظلم والفساد في الأرض إذ ليس ذلك شأن جميعهم فإنّ منهم حلماء قومهم، ولأنّه لا يناسب قوله تعالى بعد { إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ }.

{ **فِي الْأَرْضِ** } لمجرّد تأكيد تمكّنهم من النجاة. وهو كقوله تعالى { فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ } [لقمان:32]. أي: جعلوا مكان أثر النعمة بالنجاة مكانا للبغي.

{ **بِغَيْرِ الْحَقِّ** } قيد كاشف لمعنى البغي، إذ البغي لا يكون بحق.

{ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** }

{ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ** } لاستصغاء أسماعهم. والمقصود من هذا تحذير المشركين ثم تهديدهم.

{ **إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ** } صيغة قصر البغي تنبيه على حقيقة واقعيّة وموعظة لهم، ليعلموا أنّ التحذير من الشرك والتهديد عليه لرعي صلاحهم لا لأنّهم يضرّونه. فالمعنى: إنّما بغي كل أحد على نفسه، لأنّ الشرك لا يضرّ إلّا بنفس المشرك باختلال تفكيره وعمله ثم بوقوعه في العذاب.

{ **مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** } مرفوع في قراءة الجمهور على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو متاع الحياة الدنيا. وقرأه حفص عن عاصم بالنصب على الحال من { بَغْيُكُمْ }.

وتوقيت البغي بهذه المدة باعتبار أنّه ذُكر في معرض الغضب عليهم، فالمعنى: أنّه أمهلكم إمهالا طويلا فهلا تتذكرون؟ فلا تحسبون الإمهال رضى بفعلكم ولا عجزا، وسيؤاخذكم به في الآخرة.

المتاع: ما يُنتفع به انتفاعا غير دائم. والمعنى على كلتا القراءتين واحد، أي: أمهلناكم على إشراككم مدّة الحياة لا غير ثم نؤاخذكم على بغيكم عند مرجعكم إلينا.

{ **ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ** } عطفت بـ { ثُمَّ } لإفادة التراخي الرتبي لأنّ مضمون هذه الجملة أصرح تهديدا من مضمون جملة { إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ }. وتقديم المجرور لإفادة الاختصاص، أي: ترجعون إلينا لا إلى غيرنا.

{ **فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } تفريع وعيد على تهديد. واستُعمل الإنباء كناية عن الجزاء، لأنّ الإنباء يستلزم العلم بأعمالهم السيّئة، والقادر إذا علم بسوء صنيع عبده لا يمنعه من عقابه مانع.

{ **إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** } [24].

تتنزّل هذه الآية منزلة البيان لجملة { مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } [23] المؤذنة بأنّ تمتّعهم بالدنيا ما هو إلّا لمدة قصيرة، فبيّنت هذه الآية أن التمتّع صائر إلى زوال، وأطنبت فشبّهت هيئة التمتّع بالدنيا لأصحابها بهيئة الزرع في نضارته ثم في مصيره إلى الحصد.

{ **إِنَّمَا مَثَلُ** } المثَل: الحال الماثلة على هيئة خاصة، كان التشبيه هنا تشبيه حالة مركّبة بحالة مركّبة. عُبّر عن ذلك بلفظ المثل الذي شاع في التشبيه المركّب كما تقدّم في أوّل سورة البقرة.

وصيغة القصر لتأكيد المقصود من التشبيه، وهو سرعة الانقضاء. ولتنزيل السامعين منزلة من يحسب دوام بهجة الحياة الدنيا. وهو قصر قلب، بني على تنزيل المخاطبين منزلة من يعتقد عكس تلك الحالة.

ومن بديع هذا التشبيه تضمّنه لتشبيهات مفرّقة من أطوار الحالين المتشابهين.

{ **كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ** } شُبّه به ابتداء أطوار الحياة من وقت الصبا، إذ ليس ثمّة سوى الأمل في نعيم العيش ونضارته، فذلك الأمل يشبه حال نزول المطر من السماء في كونه ما يؤمَّل منه من زخرف الأرض ونضارتها.

{ **فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ** } شُبّه به طور ابتداء نضارة العيش وإقبال زهرة الحياة، فذلك يشبه خروج الزرع بعيد المطر فيما يشاهد من بوارق المأمول، ولذلك عُطف بفاء التعقيب للإيذان بسرعة ظهور النبات عقب المطر، فيؤذن بسرعة نماء الحياة في أوّل أطوارها.

{ **مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ** } وصف لنبات الأرض الذي منه أصناف يأكلها النّاس من الخضروات والبقول، وأصناف تأكلها الأنعام من العشب والكلأ، وذلك يُشبّه به ما ينعَم به النّاس في الحياة من اللذّات وما ينعَم به الحيوان، فإنّ له حظّا في نعيم الحياة بمقدار نطاق حياته.

ولمّا كان ذلك قد تضمّن المأكول والأكل صحّ أن تشبّه به رغبات النّاس في تناول لذائذ الحياة على حسب

اختلاف مراتب الهمم، وذلك يتضمّن تشبيه معالي الأمور من نعم الدنيا التي تسمو إليها الهمم العوالي بالنبات الذي يقتاته النّاس، وتشبيه سفاسف الأمور بالنبات الذي يأكله الأنعام.

{ **حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ** } مثله في قوله تعالى { حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ } [22]، وهو غاية شُبّه بها بلوغ الانتفاع بخيرات الدنيا إلى أقصاه، وانهماك النّاس في تناولها ونسيانهم المصير إلى الفناء.

وإطلاق أخذ الأرض زخرفها على حصول الزينة فيها استعارة مكنية. شبّهت الأرض بالمرأة حين تريد التزين فتحضر فاخر ثيابها من حليّ وألوان.

الزخرف: اسم الذهب. وأطلق على ما يُتزيّن به ممّا فيه ذهب وتلوين من الثياب والحلي.

{ **ازَّيَّنَتْ** } أصله تزيّنت فقلبت التاء زايا لتدغم في الزاي فسكنت وأدغمت واجتلبت همزة الوصل لأجل النطق بالساكن.

{ **وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا** } أنّهم مستمرّون على الانتفاع بها محصّلون لثمراتها، فأطلق على التمكّن من الانتفاع ودوامه لفظ (القدرة) على وجه الاستعارة.

{ **أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ** }

أمر الله: تقديره وتكوينه. و**إتيانه**: إصابة تلك الأرض بالجوائح المعجّلة لها باليبس والفناء.

{ **لَيْلاً أَوْ نَهَاراً** } ترديد في الوقت لإثارة التوقّع من إمكان زوال نضارة الحياة في جميع الأزمنة، لأنّ الشيء الموقّت بمعيّن من التوقيت يكون النّاس في أمن من حلوله في غير ذلك الوقت.

الحصيد: المحصود، وهو الزرع المقطوع من منابته. والإخبار عن الأرض بحصيد على طريقة المجاز العقلي، وإنّما المحصود نباتها.

{ **لَمْ تَغْنَ** } لم تَعْمُر، أي: لم تعمر بالزرع. يقال: غَنِيَ المكان إذا عَمَر. ومنه المغنَى للمكان المأهول. وضد أغنى أقفر المكان.

{ **بِالْأَمْسِ** } الباء للظرفية. والأمس، اليوم الذي قبل يومك. والمراد في الآية مطلق الزمن الذي مضى، لأنّ أمس يُستعمل بمعنى ما مضى من الزمان، كما يُستعمل الغد في معنى المستقبل واليوم في معنى الحال.

{ **كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** } تذييل جامع، أي: نبيّن الدلالات كلّها الدالة على عموم العلم والقدرة وإتقان الصنع. فهذه آية من الآيات المبيّنة وهي واحدة من عموم الآيات. وتقدّم نظيره في قوله تعالى { وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ } [الأنعام:55].

التفكّر: التأمّل والنظر، وهو تفعّل مشتق من الفكر، وقد مرّ عند قوله تعالى { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ } [الأنعام:50]. وفيه تعريض بأنّ الذين لم ينتفعوا بالآيات ليسوا من أهل التفكّر ولا كان تفصيل الآيات لأجلهم.

{ **وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** } [25].

{ **وَاللَّهُ يَدْعُو** } حذف المفعول لقصد التعميم، أي: يدعو كلّ أحد.

الدعوة: هي الطلب والتحريض. وهي هنا أوامر التكليف ونواهيه.

دار السلام: الجنّة، وتقدّم وجه تسميتها بذلك في قوله تعالى { لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ } [الأنعام:127].

{ **وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ** } الهداية: الدلالة على المقصود النافع، والمراد بها هنا خلق الاهتداء إلى المقصود. فهي هداية بالمعنى الأصلي، أي: خلق حصوله بأمر التكوين. وهذا التكوين يقع إمّا في كل جزئيّة من جزئيّات الاهتداء، على طريقة الأشاعرة، وإمّا بخلق الاستعداد له بحيث يقدر على الاهتداء عند حصول الأدلة، على طريقة المعتزلة. وهما متقاربان في الحال، وشؤون الغيب خفيّة. وتقدّم شيء من ذلك عند قوله تعالى { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } [الفاتحة:6].

الصراط المستقيم: الطريق الموصل.

{ **لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** } [26].

{ **لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى** } هم الذين هداهم الله إلى صراط مستقيم، والصراط المستقيم هو العمل الحسن، والحسنى هي دار السلام.

الحسنى: في الأصل صفة أنثى الأحسن، ثم عوملت معاملة الجنس فأدخلت عليها لام تعريف الجنس فبعدت عن الوصفية ولم تتبع موصوفها. وتعريفها يفيد الاستغراق.

<u>المعنى</u>: للذين أحسنوا الجنّة، لأنّها أحسن مثوبة يصير إليها الذين أحسنوا، وبذلك صيّرها القرآن علما بالغلبة على الجنّة ونعيمها.

{ **وَزِيَادَةٌ** } زيادة لهم ليست داخلة في نوع الحسنى. فتعيّن أنّها أمر يرجع إلى رفعة الأقدار.

<u>قيل</u>: هي رضى الله تعالى، كما في قوله تعالى { وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ } [التوبة:72].

<u>وقيل</u>: هي رؤيتهم الله تعالى. وقد ورد ذلك عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلم وجامع الترمذي، عن صهيب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى { لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ } قال: " **إذا دخل أهل الجنّة الجنّة نادى مناد: إنّ لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه، قالوا: ألم تبيّض وجوهنا وتنجنا من النّار وتدخلنا الجنّة، قال: فيُكشف الحجاب، قال: فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحبّ إليهم من النظر إليه** ". وهو أصرح ما ورد في تفسيرها.

الرهق: الغشيان.

القتر: لونٌ هو غُبْرة إلى السواد. ويقال له قترة. والذي تخلّص لي من كلام الأئمة والاستعمال أنّ القترة لون يغشى جلدة الوجه من شدّة البؤس والشقاء والخوف.

الذلّة: الهوان. والمراد أثر الذلّة الذي يبدو على وجه الذليل. والكلام مستعمل في صريحه وكنايته، أي: لا تتشوّه وجوههم بالقتر وأثر الذلة ولا يحصل لهم ما يؤثر القتر وهيئة الذلّة.

وليس معنى نفي القتر والذلّة عنهم في جملة أوصافهم مديحا لهم لأنّ ذلك لا يخطر بالبال وقوعا بعد أن أثبت لهم الحسنى وزيادة، بل المعنى التعريض بالذين لم يهدهم الله إلى صراط مستقيم، وهم الذين كسبوا السيّئات تعجيلا للمساءة إليهم بطريق التعريض قبل التصريح الذي سيأتي.

{ **أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** } نتيجة للمقدّمة، فبينها وبين التي قبلها كمال الاتصال ولذلك فصلت عنها ولم تعطف.

{ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [27].

{ **كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ** } للإشارة إلى أنّ إساءتهم من فعلهم وسعيهم فما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون.

{ **جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا** } التنكير للعموم، أي: جزاء كلّ سيّئة بمثلها، وهو وإن كان في سياق الإثبات فالعموم مستفاد من المقام وهو مقام عموم المبتدأ.

{ **وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ** } اقتصر على الذلّة لهم دون زيادة (ويرهقهم قتر) لأنّه سيجيء ما هو أشدّ منه.

{ **مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ** } تهديد وتأييس.

العاصم: المانع والحافظ. ومعنى { **مِنَ اللَّهِ** }: من انتقامه وجزائه.

{ **كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً** } بيان لجملة { تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ } بيان تمثيل.

{ **أُغْشِيَتْ** } معدّى غَشِيَ، إذا أحاط وغطّا. وتقدّم في قوله تعالى { يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ } [الأعراف:54].

{ **قِطَعاً** } (بفتح الطاء) في قراءة الجمهور، جمع قطعة، وهي الجزء من الشيء، سُمّي قطعة لأنّه يُقتطع من كلٍّ غالبًا. وقرأه ابن كثير والكسائي ويعقوب { قِطْعا } (بسكون الطاء). وهو اسم للجزء من زمن الليل المظلم. قال تعالى { فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ } [هود:81].

{ **مُظْلِماً** } حال من الليل. ووصف الليل وهو زمن الظلمة بكونه مظلما لإفادة تمكّن الوصف منه.

{ **أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** } هي كجملة { أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [26].

{ **وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ** [28] **فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ** [29] }.

لمّا ذُكر في الجملتين السابقتين ما يختصّ به كلّ فريق من الفريقين من الجزاء وسماته، جاءت هذه الجملة بإجمال حالة جامعة للفريقين ثم بتفصيل حالة يمتاز بها المشركون ليحصل بذلك ذكر فظيع من أحوال الذين بلغوا الغاية في كسب السيّئات، وهي سيّئة الإشراك الذي هو أكبر الكبائر.

{ **وَيَوْمَ** } زيد في صدر الجملة لأنّ ذلك اليوم لمّا كان هو زمن الحشر وأعمال عظيمة أريد التذكير به تهويلا وموعظة.

{ **نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً** } الضمير للذين تقدّم الكلام عليهم، وهم الذين أحسنوا والذين كسبوا السيّئات. وذلك أنّ الحشر يعمّ النّاس كلّهم. ومن نكت ذكر حشر الجميع هنا التنبيه على أنّ فظيع حال المشركين وافتضاحهم يكون بمرأى ومسمع من المؤمنين، فتكون السلامة من تلك الحالة زيادة في النعمة على المسلمين وتقوية في النكاية للمشركين.

الحشر: الجمع من أمكنة إلى مكان واحد. وتقدّم في قوله تعالى { وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ } [الأنعام:111].

{ **ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ** }

{ **مَكَانَكُمْ** } منصوب على المفعولية بفعل محذوف تقديره: الزموا مكانكم، واستعماله هذا شائع في كلام العرب في الأمر بالملازمة، مع التزام حذف العامل فيه حتّى صار بمنزلة أسماء الأفعال الموضوعة للأمر، نحو: صه. وأمرهم بملازمة المكان تثقيف وحبس. وإذ قد جُمع فيه المخاطبون وشركاؤهم عُلم أنّ ذلك الحبس لأجل جريمة مشتركة بين الفريقين، وهي كون أحد الفريقين عابدا والآخر معبودا.

{ **وَشُرَكَاؤُكُمْ** } الأصنام. وصفوا بالشركاء لاعتقاد المخاطبين ذلك. فإضافة شركاء إلى ضمير المخاطبين تهكّم.

{ **فَزَيَّلْنَا** } زيّل، مضاعف زال المتعدّي. يقال: زاله عن موضعه يَزيله، بمعنى: أزاله، فجعلوه يائي العين للتفرقة بينه وبين زال القاصر الذي هو واوي العين. فزيّل فعل للمبالغة في الزيل مثل فرّق مبالغة في فرق.

<u>المعنى</u>: وقع بينهم تفريق قوي بحيث انقطعت جميع الوِصَل التي كانت بينهم.

والتزييل هنا مجازي فيشمل اختلاف القول.

{ **وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ** } يقول الشركاء هذا الكلام بخلق نطقٍ فيها خارق للعادة يفهمه النّاس لإشعار أولئك العابدين بأن أصنامهم تبرّأوا منهم، وذلك مما يزيدهم ندامة.

وكلام الأصنام يفيد نفي أن يكونوا عبدوهم بل عبدوا غيرهم. وفي استقامة ذلك إشكال لأنّ الواقع أنّهم عبدوهم وعبدوا غيرهم، فكيف ينفي كلامهم عبادتهم إيّاهم ؟

وقد تأوّل المفسرون هذا بوجوه لا ينثلج لها الصدر. **والذي ظهر لي** أن يكون آخر كلام الأصنام مبيّنا لما أجمله أوّله، بأنّهم نفوا أن يكونوا عبدوهم عبادة كاملة وهي العبادة التي يقصد منها العابد امتثال أمر المعبود وإرضاءه، فتقتضي أن يكون المعبود عالما وآمرا بتلك العبادة. ولمّا كانت الأصنام غير عالمين ولا آمرين استقام نفيهم أن يكون عَبدتهم قد عبدوهم تلك العبادة وإنّما عبدوا غيرهم ممّن أمروهم بالعبادة، وهم الشياطين ولذلك قالوا { إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ }، كما تفسّره الآية الأخرى وهي قوله تعالى { أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ } [سبأ:41/40].

{ **فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ** } مؤكّدة بالقسم ليُثبتوا البراءة ممّا ألصق بهم. وجواب القسم { إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ }. وعُطفت جملة القسم بالفاء للدلالة على أنّ القسم متفرّع على الكلام المتقدّم، لأنّ إخبارهم بنفي أن يكونوا يعبدونهم خبر غريب مخالف لما هو مشاهد فناسب أن يفرَّع عليه ما يحقّقه ويبيّنه مع تأكيد ذلك بالقسم. والإتيان بفاء التفريع عند تعقيب الكلام بجملة قسميّة من فصيح الاستعمال، كقوله تعالى { فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [الحجر:90-93]. ومن خصائصه أنّه إذا عطف بفاء التفريع كان مؤكِّدا لما قبله بطريق تفريع القسم عليه ومؤكِّدا لما بعده بطريق جواب القسم به. وهذه الآية لم تفسر حق تفسيرها.

الشهيد: الشاهد، وهو المؤيّد والمصدّق لدعوى مدَّع.

كفى: بمعنى أجزأ وأغنى عن غيره. وتقدّم في قوله تعالى { وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيّاً } [النساء:45].

{ **إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ** } جواب للقسم. وتقديم { عَنْ عِبَادَتِكُمْ } على عامله للاهتمام وللرعاية على الفاصلة.

{ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [30].

تذييل وفذلكة للجمل السابقة. وهو اعتراض بين الجمل المتعاطفة.

{ **هُنَالِكَ** } الإشارة إلى المكان الذي أنبأ عنه قوله تعالى { نَحْشُرُهُمْ } [28]، أي: في ذلك المكان الذي نحشرهم فيه. وقُدّم للاهتمام به، لأنّ الغرض الأهم من الكلام عِظم ما يقع فيه.

{ **تَبْلُو** } تُختبر، وهو هنا كناية عن التحقّق وعلم اليقين.

{ **أَسْلَفَتْ** } قدّمت، أي: عملا أسلفته.

المعنى: أنّها تختبر حالته وثمرته فتعرف ما هو حسن ونافع وما هو قبيح وضار، إذ قد وضح لهم ما يفضي إلى النعيم بصاحبه، وضدّه.

{ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ } يجوز ان تكون معطوفة على جملة { هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ } فتكون من تمام التذييل. ويجوز أن تكون معطوفة على قوله تعالى { وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً } [28] أي: ونردّهم إلينا، ويكون ضمير { رُدُّوا } عائدا إلى الذين أشركوا خاصة. والمعنى: تحقّق عندهم الحشر الذي كانوا ينكرونه.

الردّ: الإرجاع. والإرجاع إلى الله، الإرجاع إلى تصرّفه بالجزاء على ما يرضيه وما لا يرضيه. وقد كانوا من قبل حين كانوا في الحياة الدنيا ممهَلين غير مجازين.

المولى: السيّد، لأنّ بينه وبين عبده ولاء عهد الملك. ويطلق على متولّي أمور غيره وموفّر شؤونه.

الحقّ: الموافق للواقع والصدق، أي: ردّوا إلى الإله الحقّ دون الباطل. أي: دون الأولياء الذين زعموهم باطلا.

{ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } هذه الجملة مختصه بالمشركين كما هو واضح.

الضلال: هنا الضياع.

{ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } ما كانوا يكذبون من نسبتهم الإلهيّة إلى الأصنام.

{ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ } [31].

انتقال من غرض إلى غرض في أفانين إبطال الشرك وإثبات توحّد الله تعالى بالإلهيّة. وهذه الجملة تتنزّل منزلة الاستدلال لقوله تعالى { مَوْلاهُمُ الْحَقِّ } [30]، لأنّها برهان على أنّه المستحق للولاية.

فاحتجّ على ذلك بمواهب الرزق الذي به قوام الحياة، وبموهبة الحواس، وبنظام التناسل والتوالد الذي به بقاء الأنواع، وبتدبير نظام العالم وتقدير المقدّرات، فهذه كلها مواهب من الله. وهم كانوا يعلمون أنّ جميع ما ذكر لا يفعله إلّا الله، إذ لم يكونوا ينسبون إلى أصنامهم هذه الأمور، فلا جرم أن كان المختصّ بها هو مستحق الولاية والإلهيّة.

والاستفهام تقريري. وجاء الاستدلال بطريقة الاستفهام والجواب لأنّ ذلك في صورة الحوار، فيكون الدليل الحاصل به أوقع في نفوس السامعين، ولذلك كان من طرق التعليم ممّا يراد رسوخه من القواعد العلميّة أنّ يؤتى به في صورة السؤال والجواب.

{ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ } تذكير بأحوال الرزق ليكون أقوى حضورا في الذهن، فالرزق من السماء المطر، والرزق من الأرض النبات.

{ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ } (أم) للإضراب الانتقالي من استفهام إلى آخر. أي: يملك التصرّف فيهما،

وهو ملك إيجاد تينك الحاستين، وذلك استدلال وتذكير بأنفع صنع وأدقّه.

{ **السَّمْعَ** } أُفرد لأنّه مصدر فهو دال على الجنس الموجود في جميع حواس النّاس. وأمّا { **الْأَبْصَارَ** } فجيء به جمعا لأنّه اسم، فهو ليس نصّا في إفادة العموم لاحتمال توهّم بصر مخصوص، فكان الجمع أدلّ على قصد العموم وأنفى لاحتمال العهد ونحوه، بخلاف قوله تعالى { إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً } [الإسراء:36]، لأنّ المراد الواحد لكلّ مخاطب بقوله تعالى { وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ } [الإسراء: 36]. وقد تقدّم عند قوله تعالى { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ } [الأنعام:46].

{ **وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ** } هو تولّد أطفال الحيوان من النطف ومن البيض. فالنطفة أو البيضة تكون لا حياة فيها ثم تتطوّر إلى الشكل القابل للحياة ثم تكون فيها الحياة.

وإخراج الميّت من الحي: إخراج النطفة والبيض من الحيوان.

وتقدّم الكلام على نظيره في قوله { وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ } [آل عمران:27]. غير أنّ ما هنا ليس فيه رمز إلى شيء.

{ **وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ** } تقدّم القول في نظيره في أوائل هذه السورة [3]. وهو هنا تعميم بعد تخصيص.

{ **فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ** } فاء السببية التي من شأنها أن تقترن بجواب الشرط إذا كان غير صالح لمباشرة أداة الشرط، وذلك أنّه قُصد تسبّب قولهم { اللَّهُ } على السؤال المأمور به النبيّ عليه الصلاة والسلام.

{ **فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ** } الفاء في { فَقُلْ } فاء الفصيحة، أي: إن قالوا ذلك فقل أفلا تتقون.

والفاء في { أَفَلا تَتَّقُونَ } فاء التفريع، أي: يتفرّع على اعترافكم بأنّه الفاعل الواحد إنكار عدم التقوى عليكم.

{ **تَتَّقُونَ** } المفعول محذوف، تقديره تتقونه، أي: بتنزيهه عن الشريك.

{ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ } [32].

{ **فَذَلِكُمُ** } الفاء للتفريع على الإنكار الذي في قوله تعالى { أَفَلا تَتَّقُونَ } [31]، فالفرع من جملة المقول. واسم الإشارة عائد إلى اسم الجلالة للتنبيه على أنّ المشار إليه جدير بالحكم الذي سيذكر بعد اسم الإشارة من أجل الأوصاف المتقدّمة على اسم الإشارة وهي كونه؛ الرازق، الواهب الادراك، الخالق، المدبّر.

{ **اللَّهُ** } اسم الجلالة بيان لاسم الإشارة لزيادة الإيضاح تعريضا بقوة خطئهم وضلالهم في الإلهية.

{ **رَبُّكُمُ الْحَقُّ** } تقدّم الوصف بالحقّ آنفا في الآية مثل هذه.

{ **فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ** } الفاء هنا تفريع للاستفهام الإنكاري على الاستنتاج الواقع بعد الدليل، فهو تفريع على تفريع، وتقريع بعد تقريع.

{ **بَعْدَ** } هنا مستعملة في معنى (غير) باعتبار أنّ المغاير يحصل إثر مغايره وعند انتفائه.

المعنى: لا يكون إثر انتفاء الحقّ إلّا الضلال إذ لا واسطة بينهما. فلمّا كان الله هو الربّ الحقّ تعيّن أنّ غيره ممّا نسبت إليه الإلهيّة باطل. وعُبّر عن الباطل بالضلال لأنّ الضلال أشنع أنواع الباطل.

{ **فَأَنَّى تُصْرَفُونَ** } الفاء للتفريع أيضا، أي: لتفريع التصريح بالتوبيخ على الإنكار والإبطال.

{ **أَنَّى** } استفهام عن المكان، أي: إلى أيّ مكان تصرفكم عقولكم؟ وهو مكان اعتباري، أي: أنكم في ضلال وعماية كمن ضلّ عن الطريق.

{ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } [33].

تذييل للتعجيب من استمرارهم على الكفر بعد ما ظهر لهم من الحجج والآيات، وتأييس من إيمانهم بإفادة أنّ انتفاء الإيمان عنهم بتقدير من الله تعالى عليهم، فقد ظهر وقوع ما قدّره من كلمته في الازل. والكاف الداخلة قبل اسم الإشارة كاف التشبيه. والمشبّه به هو المشار إليه، وهو حالهم وضلالهم.

وقرأ نافع، وابن عامر { كَلِمَاتُ رَبِّكَ } بالجمع. وقرأها الباقون بالإفراد، والمعنى واحد لأنّ الكلمة تطلق على مجموع الكلام كقوله تعالى { كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا } [المؤمنون:100]، ولأنّ الجمع يكون باعتبار تعدد الكلمات أو باعتبار تكرّر الكلمة الواحدة بالنسبة لأنّاس كثيرين.

{ **عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا** }

الفسق: الخروج من المسلك الذي شأن الشيء سلوكه، والمراد به فسق عن تلقي دعوة الرسل وإعمال النظر، وتقدّم في قوله تعالى { وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ } [البقرة:26]

ثم يجوز أن يكون المرد بالذين فسقوا كلّ من استمر على فسقه فلا يؤمن، فتكون الجملة تذييلا لما فيها من العموم الشامل لهؤلاء المتحدّث عنهم.

ويجوز أن يكون المراد بالذين فسقوا المتحدَّث عنهم خاصة فيكون من الإظهار في مقام الإضمار لإفادة أنّهم مع صفاتهم السابقة قد اتصفوا بالفسق، ولإفادة كون فسقهم علّة في أن حقّت عليهم كلمة الله.

{ **أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ** } بدل من { كَلِمَتُ رَبِّكَ }.

{ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ } [24].

هذا مقام تقرير وتعديد الاستدلال، وهو من دواعي التكرير، وهو احتجاج عليهم بأنّ حال إلهتهم على الضدّ من صفات الله تعالى، فبعد أن أقام عليهم الدليل على انفراد الله تعالى بالرزق وخلق الحواس وخلق الأجناس وتدبير جميع الأمور، وأنّه المستحق للإلهيّة بسبب ذلك الانفراد، بيّن هنا أنّ إلهتهم مسلوبة من صفات الكمال وأنّ الله متّصف بها. وإنّما لم يُعطف لأنّه غرض آخر مستقل، وموقع التكرير يزيده استقلالا.

{ **قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ** } الاستفهام إنكار وتقرير بإنكار ذلك، إذ ليس المتكلّم بطالب للجواب، ولا يسعهم إلّا الاعتراف بذلك، فهو في معنى نفي أن يكون من إلهتهم من يبدأ الخلق ثم يعيده.

{ **قُلِ اللَّهُ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ** } أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بأن يرتقي معهم في الاستدلال، فصار مجموع الجملتين قصرا لصفة بدء الخلق وإعادته على الله تعالى قصر إفراد، أي: دون شركائكم، أي: فالأصنام لا تستحق الإلهية والله منفرد بها.

{ **ثُمَّ يُعِيدُهُ ... ثُمَّ يُعِيدُهُ** } ذِكر إعادة الخلق في الموضعين، مع أنّهم لا يعترفون بها، ضرب من الإدماج في الحجاج وهو فن بديع.

{ **فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ** } كقوله تعالى { فَأَنَّى تُصْرَفُونَ } [32].

أَفَكَهُ: قلبه. والمعنى: فإلى أيّ مكان تقلبون. والقلب مجازي وهو إفساد الرأي.

{ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ } [35].

هذا تكرير آخر وهو استدلال بنقصان إلهتهم عن الإرشاد إلى الكمال النفساني بنشر الحقّ، وبأنّ الله تعالى هو الهادي إلى الكمال والحقّ، ومجموع الجملتين مفيد قصر صفة الهداية إلى الحقّ على الله تعالى دون إلهتهم قصر إفراد، كما تقدّم في نظيره آنفا. ومعلوم أنّ منّة الهداية إلى الحقّ أعظم المنن لأنّ بها صلاح المجتمع وسلامة أفراده من اعتداء قويّهم على ضعيفهم، ولولا الهداية لكانت نعمة الإيجاد مختلّة أو مضمحلّة.

{ **يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ** } إلى الدين، وهو الأعمال الصالحة، وأصوله وهي الاعتقاد الصحيح.

وقد أُتبِع الاستدلال على كمال الخالق ببدء الخلق وإعادته بالاستدلال على كماله بالهداية كما في قول إبراهيم عليه السلام { الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ } [الشعراء:78]، وقول موسى عليه السلام { رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} [طه:50]، وقوله تعالى { سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى } [الأعلى:1-3]. وذلك أنّ الإنسان الذي هو أكمل ما على الأرض مركّب من جسد وروح، فالاستدلال على وجود الخالق وكماله بإيجاد الأجساد وما فيها هو الخلق، والاستدلال عليه بنظام أحوال الأرواح وصلاحها هو الهداية.

{ **أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ ...**} تفريع استفهام تقريري على ما أفادته الجملتان السابقتان من قصر الهداية إلى الحق على الله تعالى دون إلهتهم. وهذا ممّا لا ينبغي أن يختلف فيه أهل العقول بأنّ الذي يهدي إلى الحقّ يوصل إلى الكمال الروحاني وهو الكمال الباقي إلى الأبد وهو الكون المصون عن الفساد، فإنّ خلق الأجساد مقصود لأجل الأرواح، والأرواح مراد منها الاهتداء، فالمقصود الأعلى هو الهداية. وإذ قد كانت العقول عرضة للاضطراب والخطأ احتاجت النفوس إلى هدي يُتلقّى من الجانب

المعصوم عن الخطأ وهو جانب الله تعالى، فلذلك كان الذي يهدي إلى الحقّ أحقّ أن يُتَّبع، لأنّه مصلح النفوس ومصلح نظام العالم البشري، فاتّباعه واجب عقلا.

{ **مَّنْ لا يَهِدِّي** } أي: الذي لا يهتدي فضلا عن أن يهدي غيره، أي: لا يقبل الهداية فكيف يهدي غيره، فلا يحقّ له أن يُتَّبع. والمراد بها الأصنام، فإنّها لا تهتدي إلى شيء، كما قال إبراهيم { يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً } [مريم:42].

{ **إِلَّا أَنْ يُهْدَى** } الاستثناء تهكّم من تأكيد الشيء بما يشبه ضدّه. وأريد بالهدي النقل من موضع إلى موضع، أي: لا تهتدي إلى مكان إلّا إذا نقلها النّاس ووضعوها في المكان الذي يريدونه لها. فشُبّه المنقول بالسائر على طريقة المكنية، ورمز إلى ذلك بما هو من لوازم السير وهو الهداية.

{ **فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ** } تفريع استفهام تعجيبي على اتّباعهم من لا يهتدي بحال. واتّباعهم هو عبادتهم.

{ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنّاً إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ }[36]

بعد أن أمر الله رسوله بأن يحجّهم فيما جعلوهم آلهة، وهي لا تَصرّف ولا تدبير ولا هداية لها، أعقب ذلك بأنّ عبادتهم إيّاها اتّباع لظنّ باطل، أي: لوهم ليس فيه شبهة حقّ.

{ **أَكْثَرُهُمْ** } الضمير عائد إلى أصحاب ضمير { شُرَكَائِكُمْ } [35]، وضمير { مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ } [35].

وإنّما عمّهم في ضمائر { شُرَكَائِكُمْ / مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ }، وخصّ بالحكم في اتّباعهم الظنّ أكثرهم، لأنّهم ليسوا سواء في الاعتقاد الباعث لهم على عبادة الأصنام، إيماء إلى أنّ من بينهم عقلاء قليلين ارتقت مدارك أفهامهم فوق أن يعتقدوا أنّ للأصنام تصرّفا، ولكنّهم أظهروا عبادتها تبعا للهوى وحفظا للسيادة بين قومهم. وبالتأمّل يظهر أنّ هؤلاء هم خاصة القوم وأهل الأحلام منهم، لأنّ المقام مقام تخطئة ذلك الظنّ. ففيه إيقاظ لجمهورهم، وفيه زيادة موعظة لخاصّتهم ليقلعوا عن الاستمرار في عبادة ما لا تطمئن إليه قلوبهم.

الظن: يطلق على مراتب الإدراك، فيطلق على الاعتقاد الجازم الذي لا يشوبه شك، كما في قوله تعالى { وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} [البقرة:46/45]، ويطلق على الاعتقاد المشوب بشك. ويظهر أنّه حقيقة في هذا الثاني وأنّه مجاز في الأوّل، لكنّه في الأوّل شائع فصار كالمشترك. وقد تقدّم في سورة البقرة عند الكلام على الآية المذكورة. ومنه قوله تعالى { قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ } [الأعراف:66].

وقد أطلق مجازا على الاعتقاد المخطئ كما في قوله تعالى { إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ } [الحجرات:12]، وقول النبيّ عليه الصلاة والسلام: " **إيّاكم والظنّ فإنّ الظنّ أكذب الحديث** ".

وقد يطلق على الظنّ الحصيبي وهو العلم المستند إلى دليل راجح مع احتمال الخطأ احتمالا ضعيفا. وهذا

الظن هو مناط التكليف بفروع الشريعة، وهذا المعنى هو المصطلح عليه عند علماء أصول الدين وأصول الفقه. كقوله تعالى { ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً } [النور: 12].

فوجه الجمع بين هذه المتعارضات إعمال كلّ في مورده اللائق به بحسب مقامات الكلام وسياقه، فمحمل قوله هنا { **إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً** }، أنّ العلم المشوب بشكّ لا يُغني شيئا في إثبات الحقّ المطلوب، وذلك ما يطلب فيه الجزم واليقين من العلوم الحاصلة بالدليل العقلي، لأنّ الجزم فيها ممكن لمن أعمل رأيه إعمالا صائبا، إذ الأدلة العقلية يحصل منها اليقين، فأمّا ما طريق تحصيله الأدلّة الظاهرة التي لا يتأتى اليقين بها في جميع الأحوال فذلك يُكتفى فيه بالظنّ الراجح بعد إعمال النظر وهو ما يسمى بالاجتهاد.

{ **ظَنّاً** } التنكير للتحقير، أي: ظنّا واهيا. ودلّت صيغة القصر على أنّهم ليسوا في عقائدهم المنافية للتوحيد على شيء من الحقّ ردًّا على اعتقادهم أنّهم على الحقّ.

{ **مِنَ** } للبدليّة، أي: عوضا عن الحقّ.

الحقّ: هو الثابت في نفس الأمر. والمراد به هنا معرفة الله وصفاته مما دلّ عليها الدليل العقلي مثل وجوده وحياته، وما دل عليها فعل الله مثل العلم والقدرة والإرادة.

{ **شَيْئاً** } مفعول مطلق مؤكد لعامله، أي: لا يغني شيئا من الإغناء.

{ **إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ** } استئناف للتهديد بالوعيد.

{ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [37].

لمّا كان الغرض الأوّل في هذه السورة إبطال تعجّب المشركين من الإيحاء بالقرآن إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم وتبيين عدم اهتدائهم إلى آياته البيّنات الدالة على أنّه من عند الله، وكيف لم ينظروا في أحوال الرّسول الدالة على أنّ ما جاء به وحي من الله، وكيف سألوه مع ذلك أن يأتي بقرآن غيره أو يبدّل آياته بما يوافق أهواءهم. وتخلّل ذلك كلّه وصف افترائهم الكذب في دعوى الشركاء لله، وإقامة الأدلة على انفراد الله بالإلهية وعلى إثبات البعث، وإنذارهم بما نال الأمم من قبلهم، وتذكيرهم بنعم الله عليهم وإمهالهم، وبيان خطئهم في اعتقاد الشرك اعتقادا مبنيّا على سوء النظر والقياس الفاسد، لا جرم عاد الكلام إلى قولهم في القرآن بإبطال رأيهم الذي هو من الظنّ الباطل أيضا، بقياسهم أحوال النبوّة والوحي بمقياس عاداتهم، كما قاسوا حقيقة الإلهية بمثل ذلك، فقارعتهم هذه الآية بذكر صفات القرآن في ذاته الدالة على أنّه حقّ من الله وتحدّتهم بالإعجاز عن الإتيان بمثله.

{ **وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ** } هذا الكلام مسوق للتحدّي بإعجاز القرآن، وهي مفيدة

المبالغة في نفي أن يكون مفترى من غير الله. أي: لو تأمّل المتأمل الفطن تأمّلا صادقا في سور القرآن لعلم أنّه من عند الله وأنّه لا يجوز أن يكون من وضع البشر.

{ **أَنْ يُفْتَرَى** } بمنزلة أن يقال: ما كان ليفترى، بلام الجحود، وإنّما عدل عن الإتيان بلام الجحود لأنّ الغالب أنّ لام الجحود تقع في نفي كون عن فاعل لا عن مفعول بما تدل عليه اللام من معنى الملك.

{ **مِنْ دُونِ اللَّهِ** } (من) للابتداء المجازي، أي: أن يفتريه على الله مفتر.

الافتراء: الكذب، وتقدّم في قوله تعالى { وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ } [المائدة:103].

{ **وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ** } لمّا نفى عن القرآن الافتراء أخبر عنه بأنّه تصديق وتفصيل، فجرت أخباره كلّها بالمصدر، تنويها ببلوغه الغاية في هذه المعاني حتى اتّحد بأجناسها.

{ **تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ** } كونه مصدّقا للكتب السالفة، أي: مبيّنا للصادق منها ومميّزا له عمّا زيد فيها وأسيء من تأويلها، كما قال تعالى { مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ } [المائدة:48].

وأيضا هو مصدَّق (بفتح الدال) بشهادة الكتب السالفة فيما أخذت من العهد على أصحابها أن يؤمنوا بالرّسول الذي يجيء مصدّقا وخاتما. فالوصف بالمصدر صالح للأمرين، لأنّ المصدر يقتضي فاعلا ومفعولا.

التفصيل: التبيين بأنواعه.

{ **الْكِتَابِ** } الظاهر أنّ التعريف تعريف الجنس فيستغرق الكتب كلّها. ومعنى كون القرآن تفصيلا لها أنّه مبيّن لما جاء مجملا في الكتب السالفة، وناسخ لما لا مصلحة للنّاس في دوام حكمه، ودافع للمتشابهات التي ضلّ بها أهل الكتاب. فكلّ ذلك داخل في معنى التفصيل، وهو معنى قوله تعالى { وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ } [المائدة:48].

{ **لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ** } مستأنفة، ردّت مزاعم الذين زعموا أنّه مفترى باقتلاع دعوى افترائه، وأنّها ممّا لا يروج على أهل الفطن والعقول العادلة، فالريب المنفي عنه هو أن يكون من أحواله في ذاته ومقارناته ما يثير الريب، ولذلك كان ريب المرتابين فيه ريبا مزعوما مدّعى، وهم لو راجعوا أنفسهم لوجدوها غير مرتابة. وقد تقدّم القول في نظير هذا في [البقرة:2].

{ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [38].

{ **أَمْ** } للإضراب الانتقالي من النفي إلى الاستفهام الإنكاري التعجيبي، وهو ارتقاء بإبطال دعواهم أن يكون القرآن مفترى من دون الله.

{ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ** } من بديع الأسلوب وبليغ الكلام أن قدّم وصف القرآن بما يقتضي بُعده عن الافتراء، وبما فيه من أجلّ صفات الكتب، وبتشريف نسبته إلى الله تعالى ثم أعقب ذلك بالاستفهام عن دعوى

المشركين افتراءه، ليتلقى السامع هذه الدعوى بمزيد الاشمئزاز والتعجّب من حماقة أصحابها، فلذلك جُعلت دعواهم افتراءه في حيّز الاستفهام الإنكاري التعجيبي.

{ **فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ** } أمر الله نبيّه أن يجيبهم عن دعوى الافتراء بتعجيزهم، وأن يقطع الاستدلال عليهم. فأمرهم بأن يأتوا بسورة مثله. والأمر أمر تعجيز، وقد وقع التحدّي بإتيانهم بسورة تماثل سور القرآن، أي: تشابهه في البلاغة وحسن النظم. وقد تقدّم تقرير هذه المماثلة عند تفسير قوله تعالى { وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ } [البقرة:23].

{ **وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } هو كقوله تعالى { وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [البقرة:23].

{ **مَنِ اسْتَطَعْتُمْ** } حُذف المفعول لظهوره من فعل { ادْعُوا }، أي: من استطعتم دعوته لنصرتكم وإعانتكم على تأليف سورة مثل سور القرآن.

{ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ } [39].

{ **بَلْ** } إضراب انتقالي لبيان كنه تكذيبهم، وأنّ حالهم في المبادرة بالتكذيب قبل التأمّل أعجب من أصل التكذيب، إذ أنّهم بادروا إلى تكذيبه دون نظر في أدلّة صحّته التي أشار إليها قوله تعالى { وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ } [37].

التكذيب: النسبة إلى الكذب، أو الوصف بالكذب سواء كان عن اعتقاد أم لم يكنه.

{ **بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ** } اختيار التعبير عن القرآن بطريق الموصولية لما تؤذن به صلة الموصول من عجيب تلك الحالة المنافية لتسليط التكذيب، فهم قد كذّبوا قبل ان يختبروا، وهذا من شأن الحماقة والجهالة.

الإحاطة: يُكنَّى بها عن التمكّن من الشيء بحيث لا يفوت منه. ومنه قوله تعالى { وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً } [طه: 110]، وقوله تعالى { وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ } [الجن: 28]، أي: علمُه.

{ **بِعِلْمِهِ** } الباء للتعدية. وشأنها مع فعل الإحاطة أن تدخل على المحاط به وهو المعلوم، وهو هنا القرآن، وعدل عن ذلك للمبالغة إذ جعل العلم معلوما. أي: وكان الحقّ أن يحيطوا بعلمه، لأن توفّر أدلة صدقه يحتاج إلى زيادة تأمّل وتدقيق. وفي هذا مبالغة في فرط احتياجه إلى صدق التأمّل، ومبالغة في تجهيل الذين بادروا إلى التكذيب من دون تأمّل.

{ **وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ** } معطوفة على الصلة، أي: كذّبوا بما لما يأتهم تأويله. وهذا ارتقاء في وصفهم بقلّة الأناة والتثبّت، أي: لو انتظروا حتى يأتيهم تأويل القرآن، أي: ما يحتاج منه إلى التأويل، بل هم صمّموا على التكذيب قبل ظهور التأويل.

التأويل: مشتقّ من آل إذا رجع إلى الشيء. وهو يطلق على تفسير اللفظ الذي خفي معناه تفسيرا يظهر المعنى، فيؤول واضحا بعد أن كان خفيّا، وهو بهذا الإطلاق قريب من معنى التفسير.

وقد مرّ في [آل عمران:7]، وفي المقدمة الأولى من هذا التفسير.

والتأويل الذي في هذه الآية يحتمل المعنيين، ولعل كليهما مراد، أي:

لمّا يأتهم تأويل ما يدّعون أنّهم لم يفهموه من معاني القرآن لعدم اعتيادهم بمعرفة أمثالها، مثل حكمة التشريع، ووقوع البعث، وتفضيل ضعفاء المؤمنين على صناديد الكافرين، وتنزيل القرآن منجما، ونحو ذلك. فهم كانوا يعتبرون الأمور بما ألفوه في المحسوسات، وكانوا يقيسون الغائب على الشاهد، فكذّبوا بذلك وأمثاله قبل أن يأتيهم تأويله. ولو آمنوا ولازموا النبيّ صلى الله عليه وسلم لعلموها واحدة بعد واحدة.

وأيضا لمّا يأتهم تأويل ما حسبوا عدم التعجيل به دليلا على الكذب كما قالوا { وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [الأنفال:32]، ظنّا أنّهم إن استغضبوا الله عجّل لهم بالعذاب، فظنّوا تأخّر حصول ذلك دليلا على أنّ القرآن ليس حقّا من عنده.

وكذلك كانوا يسألون آيات من الخوارق، كقولهم { لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً } [الإسراء:90]. ولو أسلموا ولازموا النبيّ صلى الله عليه وسلم لعلموا أنّ الله لا يعبأ باقتراح الضُلّال.

وعلى الوجهين فحرف { لَمَّا } موضوع لنفي الفعل في الماضي والدلالة على استمرار النفي إلى وقت التكلّم، وذلك يقتضي أنّ المنفي بها متوقع الوقوع، أي: سيجيء بيان ما أجمل من المعاني فيما بعد، فهي هنا وعيد.

{ **كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** } استئناف، والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم أو لمن يتأتّى منه السماع.

والإشارة بـ { كَذَلِكَ } إلى تكذيبهم المذكور، أي: كان تكذيب الذين من قبلهم كتكذيبهم.

والمراد بالذين من قبلهم: الأمم المكذّبون رسلهم كما دلّ عليه المشبّه به.

ومما يُقصد من هذا التشبيه أمور:

أحدها: أنّ هذه عادة المعاندين الكافرين ليعلم المشركون أنّهم مماثلون للأمم التي كذّبت الرسل فيعتبروا بذلك.

الثاني: التعريض بالنذارة لهم بحلول العذاب بهم كما حل بأولئك الأمم التي عرف السامعون مصيرها وشاهدوا ديارها.

الثالث: تسلية النبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّه ما لقي من قومه إلّا مثل ما لقي الرسل السابقون من أقوامهم.

{ **فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ** } خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم. والأمر بالنظر في عاقبة الظالمين مقصود منه قياس أمثالهم في التكذيب عليهم.

{ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ } [40].

عطف على { بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ } [39]، لأنّ الإخبار عن تكذيبهم بأنّه دون الإحاطة بعلم ما كذّبوا به يقتضي أنّ تكذيبهم به ليس عن بصيرة وتأمّل. وما كان بهاته المثابة كان حال المكذّبين فيه متفاوتا حتّى يبلغ إلى أن يكون تكذيبا مع اعتقاد صدقه باطنا. ولذلك جاء موقع هذه الآية عقب الأخرى موقع التخصيص للعام في الظاهر، أو البيان للمجمل من عدم الإحاطة بعلمه.

فكان حالهم في الإيمان بالقرآن كحالهم في اتباع الأصنام إذ قال فيهم { وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنّاً } [36]، فأشعر لفظ { أَكْثَرُهُمْ } بأنّ منهم من يعلم بطلان عبادة الأصنام ولكنّهم يتبعونها مشايعة لقومهم ومكابرة للحقّ. وكذلك حالهم في التكذيب بنسبة القرآن إلى الله، فمنهم من يؤمن به ويكتم إيمانه مكابرة وعداء، ومنهم من لا يؤمنون به ويكذّبون عن تقليد لكبرائهم. والفريقان مشتركان في التكذيب في الظاهر كما أنبأت عنه (من) التبعيضية.

{ **مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ** } أي: يصدّق بحقّيته في نفسه ولكنّه يظهر تكذيبه، جمعا بين إسناد الإيمان إليهم وبين جعلهم بعضا من الذين يقولون { افْتَرَاهُ }.

واختيار المضارع في الموضعين للدلالة على الاستمرار والاصرار.

{ **وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ** } تعريض بالوعيد والإنذار، وبأنّهم من المفسدين.

<u>المعنى</u>: وربّك أعلم بهم لأنّه أعلم بالمفسدين الذين هم من زمرتهم.

{ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ} [41].

لمّا كان العلم بتكذيبهم حاصلا ممّا تقدّم من الآيات تعيّن أنّ التكذيب المفروض هنا بواسطة أداة الشرط هو التكذيب في المستقبل، أي: الاستمرار على التكذيب. وذلك أنّ كل ما تبيّن به صدق القرآن هو مثبت لصدق الرّسول صلى الله عليه وسلم الذي أتى به. أي: إن أصرّوا على التكذيب بعد ما قارعتهم به من الحجّة فاعلم أنّهم لا تنجع فيهم الحجج، وأعلن لهم بالبراءة منهم كما تبرّؤوا منك.

{ **فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ** } المتاركة. وهو مما أجري مجرى المثل، ولذلك بني على الاختصار ووفرة المعنى، فأفيد فيه معنى الحصر بتقديم المعمول، وبالتعبير بالإضافة بـ { عَمَلِي } و { عَمَلُكُمْ }.

البريء، الخليّ عن التلبّس بشيء وعن مخالطته. وهو فعيل من برّأ المضاعف على غير قياس. وفعل بَرَّأَ مشتق من برِيء (بكسر الراء) من كذا، إذا خلت عنه تبعته والمؤاخذة به.

{ **أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ** } بيان لجملة { لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ } ولذلك فصلت. وهذا التركيب لا يراد به صريحه وإنّما يراد به الكناية عن المباعدة. وقد جاء هذا المُكنَّى به مصرّحا به في قوله تعالى { فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ } [الشعراء:216].

وإنّما عدل عن الإتيان بـ (العمل) مصدرا كما أتي به في قوله تعالى { لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ } إلى الإتيان به فعلا صلة لـ { مَا } الموصولة للدلالة على البراءة من كل عمل يحدث في الحال والاستقبال، وأمّا العمل الماضي فلكونه قد انقضى لا يتعلق الغرض بذكر البراءة منه. ولو عُبّر بالعمل لربما تُوهِّم أنّ المراد عمل خاص لأنّ المصدر المضاف لا يعم. ولتجنب إعادة اللفظ بعينه في الكلام الواحد، لأنّ جملة البيان من تمام المبين، ولما في { تَعْمَلُونَ } من المد الذي يراعي الفاصلة. وهذا من دقائق فصاحة القرآن الخارجة عن الفصاحة المتعارفة بين الفصحاء.

{ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ [42] وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ [43] }.

لمّا سبق تقسيم المشركين بالنسبة إلى اعتقادهم في الأصنام إلى من يتّبع الظنّ ومن يوقن بها، وتقسيمهم بالنسبة لتصديق القرآن إلى قسمين؛ من يؤمن بصدقه باطنا ومن لا يؤمن بصدقه، كمُل في هذه الآية تقسيمهم بالنسبة للتلقّي من النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى قسمين؛ قسم يحضرون مجلسه ويستمعون إلى كلامه، وقسم لا يحضرون مجلسه وإنّما يتوسّمونه وينظرون سمته. وفي كلا الحالين مسلك عظيم إلى الهدى لو كانوا مهتدين، فإنّ سماع كلام النبيّ وإرشاده ينير عقول القابلين للهداية، فلا جرم أن كان استمرار المشركين على كفرهم مع سماعهم كلام النبيّ أو رؤية هديه مؤذنا ببلوغهم الغاية في الضلالة، ميؤوسا من نفوذ الحق إليهم، وليس ذلك لقصور كلامه عن قوّة الإبلاغ إلى الاهتداء.

كما أنّ التوسّم في سمته الشريف ودلائل نبوّته الواضحة في جميع أحواله، كاف في إقبال النفس عليه بشراشرها، فما عُدم انتفاع الكفّار، الذين يعاينون ذاته الشريفة، إلّا لشدّة بغضهم إيّاه وحسدهم.

وجيء بالفعل المضارع دون اسم الفاعل للدلالة على تكرّر الاستماع والنظر.

{ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ } تفريع لبيان سبب عدم انتفاعهم بسماع كلام النبيّ صلى الله عليه وسلم، وتسلية له وتعليم للمسلمين، فقُرّبت إليهم هذه الحالة الغريبة، بأنّ أولئك المستمعين بمنزلة صمّ لا يعقلون.

وبُني على ذلك استفهامٌ عن التمكّن من إسماع هؤلاء الصمّ وهدي هؤلاء العمي. وهذان الاستفهامان مستعملان في التعجيب من حالهم إذ يستمعون إلى دعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم ولا يعقلونها، وإذ ينظرون أعماله وسيرته ولا يهتدون بها. فليس في هذين الاستفهامين معنى الإنكار على محاولة النبيّ صلى الله عليه وسلم إبلاغهم وهديهم، لأنّ المقام ينبو عن ذلك.

{ وَلَوْ كَانُوا } (لو) وصلية دالة على المبالغة في الأحوال، وهي التي يكون الذي بعدها أقصى ما يعلق به الغرض. ولذلك يقدّرون لتفسير معناها جملة قبل جملة (لو) مضمونها ضد الجملة التي دخلت عليها (لو)، فيقال هنا: أفأنت تسمع الصم لو كانوا يعقلون بل ولو كانوا لا يعقلون.

ولما كان الغرض هنا التعجيب من حالهم إذ لم يصلوا إلى الهدى كان عدم فهمهم وعدم تبصّرهم كناية عن كونهم لا يعقلون وكونهم لا بصائر لهم.

{ **لَا يَعْقِلُونَ** } ليس لهم إدراك العقول، أي: ولو انضم إلى صممهم عدم عقولهم، فإنّ الأصم العاقل ربما تفرّس في مخاطبه واستدلّ بملامحه.

{ **لَا يُبْصِرُونَ** } لا بصيرة لهم يتبصّرون بها. وفي (الكشّاف) أنّه يقال: أبصر إذ استعمل بصيرته، وهي التفكير والاعتبار بحقائق الأشياء. وكلام (الأساس) يحوم حوله. وأيًّا ما كان، فالمراد معنى التأمّل.

وقد عُلم أنّ هذه الحالة التي اتّصفوا بها هي حالة جعلها الله عقابا لهم في تمّردهم في كفرهم، وتصلّبهم في شركهم، وإعراضهم عن دعوة رسوله، ولذلك جعلهم صمّا وعميا.

فبهذا النظم البديع المشتمل على الاستعارة في أوّله وعلى الكناية في آخره وعلى التعجيب وتقويته في وسطه حصل تحقيق أنّهم لا ينتفعون بأسماعهم ولا بأبصارهم وأنّهم لا يعقلون ولا يتبصّرون في الحقائق.

{ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [44].

تذييل، وشمل عموم النّاس المشركين الذين يستمعون ولا يهتدون وينظرون ولا يعتبرون. والمقصود من هذا التذييل التعريض بالوعيد بأن سينالهم ما نال جميع الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب رسل الله.

وعموم { النَّاسَ } الأول على بابه، وعموم { النَّاسَ } الثاني مراد به خصوص النّاس الذين ظلموا أنفسهم بقرينة الخبر.

{ **وَلَكِنَّ** } أشعر هذا الاستدراك بكلام مطوي بعد نفي الظلم عن الله، وهو أنّ الله لا يظلم النّاس بعقابه من لم يستوجب العقاب، ولكن النّاس يظلمون فيستحقّون العقاب. فصار المعنى: أنّ الله لا يظلم الناس بالعقاب ولكنهم يظلمون أنفسهم بالاعتداء على ما أراد منهم فيعاقبهم عدلا، لأنّهم ظلموا فاستوجبوا العقاب.

{ **أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** } تقديم المفعول على عامله لإفادة تغليطهم بأنّهم ما جنوا بكفرهم إلّا على أنفسهم.

{ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ } [45].

عطف على { وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً } [28]، عطف القصّة على القصّة. فإنّه لمّا جاء فيما مضى ذكر يوم الحشر، إذ هو حين افتضاح ضلال المشركين ببراءة شركائهم منهم، أتبع ذلك بالتقريع على عبادتهم الأصنام مع وضوح براهين الوحدانيّة لله تعالى. وإذ كان القرآن قد أبلغهم ما كان يعصمهم من ذلك الموقف الذليل لو اهتدوا به، أتبع ذلك بالتنويه بالقرآن وإثبات أنّه خارج عن طوق البشر، وتسفيه الذين

كذّبوه وتفنّنوا في الإعراض عنه، واستوفي الغرض حقّه، عاد الكلام إلى ذكر يوم الحشر مرة أخرى، إذ هو حين خيبة أولئك الذين كذّبوا بالبعث وهم الذين أشركوا، وظهر افتضاح شركهم في يوم الحشر فكان مثل رد العجز على الصدر.

{ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ }

{ كَأَنْ } مخفّفة (كأنَّ)، وإذا خُفّفت يكون اسمها محذوفا غالبا، والتقدير هنا: كأنّهم لم يلبثوا إلّا ساعة من النهار. وقد دل على الاسم المحذوف ما تقدّم من ضمائرهم.

{ سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ } وصف غير مراد منه التقييد، إذ لا فرق في الزمن القليل بين كونه من النّهار أو من الليل، وإنّما هذا وصف خرج مخرج الغالب، لأنّ النّهار هو الزمن الذي تستحضره الأذهان في المتعارف.

كما في الحديث: **" وإنّما أحلَّت لي ساعة من نهار "**. والمقصود ساعة من الزمان وهي الساعة التي يقع فيها قتال أهل مكة، من غير التفات إلى تقييد بكونه في النهار، وإن كان صادف أنّه في النهار.

الساعة: المقدار من الزمان، والأكثر أن تطلق على الزمن القصير إلّا بقرينة تصرفها عن ذلك.

والمقصود من التشبيه التعريض بإبطال دعوى المشركين إحالتهم البعث بشبهة أنّ طول اللبث وتغيّر الأجساد ينافي إحياءها، { يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً } [النازعات:11/10].

{ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ } حال من الضمير المنصوب في { نَحْشُرُهُمْ }.

التعارف: تفاعل من عرف، أي: يعرف كل واحد منهم يومئذ من كان يعرفه في الدنيا ويعرفه الآخر كذلك.

والمقصود من ذكر هذه الحال كالمقصود من ذكر حالة { كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ } لتصوير أنّهم حشروا على الحالة التي كانوا عليها في الدنيا في أجسامهم وإدراكهم. زيادة في بيان إبطال إحالتهم البعث بشبهة أنّه ينافي تمزّق الأجسام في القبور وانطفاء العقول بالموت.

{ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ } عُدل عن الأظمار إلى الموصولية للإيماء إلى أنّ سبب خسرانهم هو تكذيبهم بلقاء الله، وذلك التكذيب من آثار الشرك. فظهر خسرانهم يومئذ بأنّهم نفوا البعث فلم يستعدّوا ليومه بقبول ما دعاهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم.

{ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ } [46].

كان ذكر تكذيبهم منذرا بترقّب عذاب يحل بهم في الدنيا كما حلّ بالقرون الذين من قبلهم، وكان معلوما من خلق النبيّ صلى الله عليه وسلم رأفته بالنّاس ورغبته أن يتمّ هذا الدين وأن يهتدي جميع المدعوين إليه، فربما كان النبيّ يحذر أن ينزل بهم عذاب الاستئصال فيفوت اهتداؤهم، وكان قوله تعالى { وَلَوْ

يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [11] تصريحا بإمكان استبقائهم وإيماء إلى إمهالهم، فجاء هذا الكلام بيانا لذلك وإنذارا بأنّهم إن أمهِلوا فأبقي عليهم في الدنيا فإنّهم غير مفلتين من المصير إلى عقاب الآخرة حين يرجعون إلى تصرّف الله دون حائل.

{ **بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ** } هو عذاب الدنيا، فإنّهم أوعِدوا بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

المعنى: إن وقع عذاب الدنيا بهم فرأيته أنت أو لم يقع فتوفّاك الله، فمصيرهم إلينا على كل حال.

وإنما كُنِّي عن التعجيل بأن يريه اللهُ الرسولَ للإيماء إلى أنّ حالة تعجيل العذاب لا يريد الله منها إلّا الانتصاف لرسوله بأن يريه عذاب معانديه، ولذلك بني على ضدّ ذلك ضد التعجيل، فكنّي بتوفّيه عن عدم تعجيل العذاب بل عن تأخيره، إذ كانت حكمة التعجيل هي الانتصاف للرّسول صلى الله عليه وسلم.

{ **فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ** } اسمية تفيد الدوام والثبات، أي: ذلك أمر في تصرّفنا دوما.

{ **ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ** } خبر مستعمل في معناه الكنائي، إذ هو كناية عن الوعيد بالجزاء على جميع ما فعلوه في الدنيا بحيث لا يغادر شيئا.

الشهيد، الشاهد، وحقيقته المُخبر عن أمر فيه تصديق للمخبر، واستعمل هنا في العالم علم تحقيق.

{ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ } [47].

عطف على { وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ } [46]، وهي بمنزلة السبب لمضمون الجملة التي قبلها. فقد بيّنت أنّ مجيء الرّسول للأمّة هو منتهى الإمهال، وأنّ الأمّة إن كذّبت رسولها استحقّت العقاب على ذلك. فهذا إعلام بأنّ تكذيبهم الرّسول هو الذي يجرّ عليهم الوعيد بالعقاب.

{ **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ** } ليست هي المقصود من الإخبار بل هي تمهيد للتفريع { فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ }. فلذلك لا يؤخذ من الجملة الأولى تعيّن أن يُرسل رسول لكلّ أمّة لأنّ تعيين الأمّة بالزمن أو بالنسب أو بالموطن لا ينضبط. وقد تخلو قبيلة أو شعب أو عصر أو بلاد عن مجيء رسول فيها ولو كان خلوّها زمنا طويلا. وقد قال الله تعالى { لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ } [القصص:46].

المعنى: ولكلّ أمّة من الأمم ذوات الشرائع رسول معروف جاءها مثل عاد وثمود ومدين واليهود والكلدان.

{ **فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ** } الفاء للتفريع و(إذا) للظرفيّة، مجرّدة عن الاستقبال.

المعنى: أنّ في زمن مجيء الرسول يكون القضاء بينهم بالقسط.

{ **بَيْنَهُمْ** } تدل على توسّط في شيئين أو أشياء، فتعيّن أنّ الضمير الذي أضيفت إليه هنا عائد إلى مجموع الأمّة ورسولها، أي: قضي بين الأمّة ورسولها بالعدل، أي: بحسب عملهم مع رسولهم.

المعنى: أنّ الله يمهل الأمّة على ما هي فيه من الضلال فإذا أرسل إليها رسولا فإرساله أمارة على أنّ الله

تعالى أراد إقلاعهم عن الضلال فانتهى أمد الإمهال بإبلاغ الرسول إليهم مراد الله منهم فإن أطاعوه رضي الله عنهم وربحوا، وإن عصوه وشاقوه قضى الله بين الجميع.
{ **قُضِيَ بَيْنَهُمْ** } أشعر بحدوث مشاقة بين الكافرين وبين المؤمنين وفيهم الرّسول.
وهذا تحذير من مشاقة النبيّ صلى الله عليه وسلم وإنذار لأهل مكّة بما نالهم. وقد كان من بركة النبيّ صلى الله عليه وسلم ورغبته أن أبقى الله على العرب فلم يستأصلهم، ولكنّه أراهم بطشته وأهلك قادتهم يوم بدر، ثمّ ساقهم بالتدريج إلى حظيرة الإسلام حتّى عمّهم وأصبحوا دعاته للأمم وحملة شريعته للعالم.
{ **وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ** } حال مؤكّدة لعاملها الذي هو { قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ } للإشعار بأنّ الذنب الذي قُضي عليهم بسببه ذنب عظيم.

{ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [48] قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلَا نَفْعاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ [49] }.

لمّا بيّنت الآية السالفة أنّ تعجيل الوعيد في الدنيا لهم وتأخيره سواء عند الله تعالى، إذ الوعيد الأتمّ هو وعيد الآخرة، أتبعت بهذه الآية حكاية لتهكّمهم على تأخير الوعيد.
{ **وَيَقُولُونَ** } صيغة المضارع لقصد استحضار الحالة للدلالة على تكرّر صدوره منهم.
{ **الْوَعْدُ** } أي: الموعود به، أي: متى ظهوره؟ والوعد المذكور هنا ما هُدّدوا به من عذاب الدنيا.
{ **إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } الإشارة إلى أنّهم مكذّبون بحصوله بطريق الإيماء، أي: إن كنتم صادقين في أنّه واقع فعيّنوا لنا وقته، وهم يريدون أننا لا نصدّقك حتّى نرى ما تتوعّدنا به.
والسؤال مستعمل في الاستبطاء، وهو كناية عن عدم اكتراثهم به وأنّهم لا يأبهون به.
وخطابهم للنبيّ وللمسلمين، جمعوهم في الخطاب لأنّ النبيّ أخبر به والمسلمين آمنوا به، فخاطبوهم بذلك جميعا لتكذيب النبيّ، وإدخال الشك في نفوس المؤمنين به. وإنّما خُصّ الرسول عليه الصلاة والسلام بالأمر بجوابهم لأنّه الذي أخبرهم بالوعيد وأمّا المؤمنون فتابعون له في ذلك.
{ **قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلا نَفْعاً** } أي: لا أستطيع، كما تقدّم في قوله تعالى { قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً }]المائدة:76[. وقُدّم الضرّ على النفع لأنّه أنسب بالغرض لأنّهم أظهروا استبطاء ما فيه مضرّتهم وهو الوعيد، ولأنّ استطاعة الضرّ أهون من استطاعة النفع فيكون ذكر النفع بعده ارتقاء.
{ **إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ** } استثناء منقطع بمعنى لكن، أي: لكن نفعي وضري هو ما يشاءه الله لي.
فكان معنى الجواب: أنّ الوعد من الله لا مني وأنا لا أقدر على إنزاله بكم لأنّ له أجلا عند الله.
{ **لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ** } تتضمّن أنّ سبب عدم المقدرة على ذلك هو أنّ الله قدّر آجال أحوال الأمم. ومن ذلك أجّل حلول العقاب بهم بحكمة اقتضت تلك الآجال، فلا يحلّ العقاب بهم إلّا عند مجيء الأجل، فلا يقدر

أحد على تغيير ما حدّده الله.

{ **إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ** } صفة، أي: أجل محدود لا يقبل التغيّر. وقد تقدّم الكلام على نظيرها في [الأعراف:34].

{ **إِذَا** } في هذه الآية مشربة معنى الشرط، فلذلك اقترنت جملة عاملها بالفاء الرابطة للجواب.

{ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ [50] أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ [51]** }.

هذا جواب ثان عن قولهم { مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [4] باعتبار ما يتضمّنه قولهم بأنّهم يؤمنون إذا حقّ الوعد الذي توعّدهم به. وهذا الجواب إبداء لخلل كلامهم واضطراب استهزائهم.

{ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً** } تفنّن في تخييل التهويل لهذا العذاب الموعود، تخييلا يناسب تحقّق وقوعه. فإنّ هاذين الوقتين لا يخلو حلول الحوادث عن أحدهما.

البيات: اسم مصدر التبييت ليلا. وذلك مباغتة.

{ **مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ** } استفهام مستعمل في الإنكار عليهم، وفي التعجيب من تعجّلهم العذاب بنيّة أنّهم يؤمنون به عند نزوله. أي: لا شيء من العذاب بصالح لاستعجالهم إيّاه، لأنّ كلّ شيء منه مهلك حائل بينهم وبين التمكّن من الإيمان وقت حلوله.

{ **أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ** } حرف المهلة (ثمّ) للدلالة على التراخي الرتبي كما هو شأنها في عطفها الجمل. لأنّ إيمانهم بالعذاب الذي كانوا ينكرون وقوعه حين وقوعه بهم أغرب وأهمّ من استعجالهم به. والاستفهام مستعمل في الإنكار، بمعنى التغليط وإفساد رأيهم، فإنّهم وعدوا بالإيمان عند نزول العذاب استهزاء منهم، فوقع الجواب بمجاراة ظاهر حالهم وبيان أخطائهم، أي: أتؤمنون بالوعد عند وقوعه.

{ **آلْآنَ** } استفهام إنكاري عن حصول إيمانهم عند حلول ما توعّدهم، فعُبّر عن وقت وقوعه باسم الزمان الحاضر.

{ **وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ** } ترشيح، وإمّا تقدير قول في الكلام، أي: يقال لهم إذا آمنوا بعد نزول العذاب: آلآن آمنتم، كما ذهب إليه أكثر المفسرين. فذلك تقدير معنى لا تقدير نظم وإعراب، لأنّ نظم هذا الكلام أدق من ذلك.

{ **بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ** } أي: تكذّبون، عُبّر عن التكذيب بالاستعجال حكاية لحاصل قولهم { مَتَى هَذَا الْوَعْدُ } [48] الذي هو في صورة الاستعجال. وتقديم المجرور للاهتمام بالوعد الذي كذّبوا به، وللرعاية على الفاصلة.

{ **ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ** } [52].

{ **ثُمَّ** } للتراخي الرتبي، فهذا عذاب أعظم من العذاب الذي في قوله تعالى { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً } فإنّ ذلك عذاب الدنيا وأمّا عذاب الخلد فهو عذاب الآخرة، وهذا أعظم.

{ **ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا** } صيغة الماضي مستعملة في معنى المستقبل تنبيها على تحقيق وقوعه.

{ **لِلَّذِينَ ظَلَمُوا** } هم القائلون { مَتَى هَذَا الْوَعْدُ } [48]. ومعنى ظلموا: أشركوا.

الذوق: مستعمل في الإحساس، وهو مجاز مشهور بعلاقة الإطلاق.

{ **هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ** } الاستفهام إنكاري بمعنى النفي. والجملة استئناف بياني، لأنّ جملة { ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ } تثير سؤالا في نفوسهم عن مقدار ذلك العذاب فيكون الجواب على أنّه على قدر فظاعة ما كسبوه من الأعمال، مع إفادة تعليل تسليط العذاب عليهم.

{ **وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ** } [53].

هذا حكاية فنّ من أفانين تكذيبهم، فمرّة يتظاهرون باستبطاء الوعد استخفافا به، ومرّة يقبلون على الرسول في صورة المستفهم الطالب فيسألونه: أهذا العذاب الخالد؟ أي: عذاب الآخرة حقّ؟

الحقّ: الثابت الواقع، فهو بمعنى حاقّ، أي: أنّ وقوعه ثابت.

{ **أَحَقٌّ هُوَ** } استفهاميّة معلّقة فعل { يَسْتَنْبِئُونَكَ } عن العمل في المفعول الثاني.

{ **قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ** } أجيبوا على طريقة الأسلوب الحكيم بحمل كلامهم على خلاف مرادهم تنبيها على أنّ الأولى بهم سؤال الاسترشاد، تغليطا لهم واغتناما لفرصة الإرشاد بناء على ظاهر حال سؤالهم، ولذلك أكّد الجواب بالتوكيد اللفظي إذ جمع بين حرف { إِي } وهو حرف جواب يحقّق به المسؤول عنه، وبين الجملة الدالة على ما دل عليه حرف الجواب، وبالقسم، وإنّ، ولام الابتداء، وكلّها مؤكّدات.

{ **إِي** } (بكسر الهمزة) حرف جواب لتحقيق ما تضمّنه سؤال سائل، فهو مرادف نعم ، ولكن من خصائص هذا الحرف أنّه لا يقع إلّا وبعده القسم.

{ **وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ** } معطوفة على جملة جواب القسم فمضمونها من المقسم عليه. أي: هو واقع وأنتم مصابون به غير مفلتين منه.

المعجزون: الغالبون. أي: وما أنتم بغالبين الذي طلبكم، أي: بمفلتين. وقد تقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ } [الأنعام:134].

{ **وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ** } [54].

{ **وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ** } الأظهر أنّ هذه الجملة من بقيّة القول، فهي عطف

على جملة { إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ } [53] إعلاما لهم بهول ذلك العذاب عساهم أن يحذروه، ولذلك حُذف المتعلّق الثاني لفعل { افْتَدَتْ } لأنّه يقتضي مفديا به ومفديا منه، أي: لافتدت به من العذاب.

المعنى: أنّ هذا العذاب لا تتحمّله أية نفس على تفاوت الأنفس في احتمال الآلام.

{ **ظَلَمَتْ** } أشركت، وهو ظلم النفس، قال تعالى { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } بلقمان:13].

{ **مَا فِي الْأَرْضِ** } يعمّ كل شيء في ظاهر الأرض وباطنها، لأنّ الظرفيّة ظرفية جمع واحتواء.

افتدى: مرادف فدى، وفيه زيادة تاء الافتعال لتدل على زيادة المعنى، أي: لتكلّفت فداءها به.

{ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ }.

جملة مستأنفة معطوفة عطف كلام على كلام. وضمير { أَسَرُّوا } عائد إلى { كُلِّ نَفْسٍ } باعتبار المعنى مع تغليب المذكّر على المؤنث.

{ **وَأَسَرُّوا** } عُبّر عن الإسرار المستقبل بلفظ الماضي تنبيها على تحقيق وقوعه حتّى كأنّه قد مضى.

المعنى: وسيسرّون الندامة قطعا.

الندامة: الندم. وهو أسف يحصل في النفس على تفويت شيء ممكن عمله في الماضي. والندم من هواجس النفس، فهو أمر غير ظاهر ولكنه كثير، أي: يصدر عن صاحبه قول أو فعل يدل عليه، فإذا تجلّد صاحب الندم فلم يظهر قولا ولا فعلا فقد أسرّ الندامة، أي: قصرها على سرّه فلم يظهرها، وإنما يكون ذلك من شدّة الهول. فإنّما أسروا الندامة لأنّهم دهشوا لرؤية ما لم يكونوا يحتسبون، فلم يطيقوا صراخا ولا عويلا.

{ **قُضِيَ بَيْنَهُمْ** } قضي فيهم، أي قضي على كل واحد منهم بما يستحقّه بالعدل، فالقضاء بالعدل وقع فيهم. وليس المعنى أنه قضي بين كل واحد وآخر لأن القضاء هنا ليس قضاء نزاع ولكنه قضاء زجر وتأنيب، إذ ليس الكلام هنا إلا على المشركين وهم صنف واحد. وصيغة الماضي لتحقيق الوقوع.

{ **وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ** } جملة حالية.

{ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ [55] هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [56] }.

تذييل تنهية الكلام المتعلّق بصدق الرّسول والقرآن وما جاء به من الوعيد وترقّب يوم البعث ويوم نزول العذاب بالمشركين. وقد اشتمل هذا التذييل على مجمل تفصيل ذلك الغرض، وعلى تعليله بأنّ من هذه شؤونه لا يعجز عن تحقيق ما أخبر بوقوعه، فكان افتتاحه بأنّ الله هو المتوحّد بملك ما في السماوات والأرض فهو يتصرّف في النّاس وأحوالهم في الدنيا والآخرة تصرفا لا يشاركه فيه غيره، فتصرّفه في أمور السماء شامل للمغيّبات كلّها، منها إظهار الجزاء بدار الثواب ودار العذاب، وتصرّفه في أمور

الأرض شامل لتصرّفه في النّاس. ثمّ أعقب بتحقيق وعده، وأعقب بتجهيل منكريه، وأعقب بالتصريح بالمهم من ذلك وهو الإحياء والإماتة والبعث.

{ **أَلَا إِنَّ ... أَلَا إِنَّ** } افتتح هذا التذييل بحرف التنبيه، وأعيد فيه حرف التنبيه للاستيعاء لسماعه، وللتنبيه على أنّه كلام جامع هو حوصلة الغرض الذي سمعوا تفصيله آنفا. وأكِّد بحرف التوكيد بعد حرف التنبيه في الموضعين للاهتمام به، ولرد إنكار منكري بعضه والذين هم بمنزلة المنكرين بعضه الآخر.

{ **لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } اللام في { اللَّهِ } للملك، و{ مَا } اسم موصول مفيد لعموم كل ما ثبتت له صلة الموصول من الموجودات الظاهرة والخفيّة.

وعد الله: هو وعده بعذاب المشركين، وهو وعيد. ويجوز أن يكون وعده مرادا به البعث، قال تعالى { كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}، فسمّى إعادة الخلق وعدا.

{ **وَعْدَ اللَّهِ** } أظهر اسم الجلالة في الجملة الثانية دون الإتيان بضميره لتكون الجملة مستقلّة فتجري مجرى المثل والكلام الجامع.

{ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** } استدراك، لأنّ الجملتين اللتين قبله أريد بهما الردّ على معتقدي خلافهما فصارتا في قوّة نفي الشك عن مضمونهما، فكأنّه قيل: ولكن أكثرهم لا يعلمون فلذلك يشكّون.

وتقييد نفي العلم بالأكثر إشارة إلى أنّ منهم من يعلم ذلك ولكنّه يجحده مكابرة، كما قال في الآية السابقة { وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ }، فضمير { أَكْثَرَهُمْ } للمتحدّث عنهم فيما تقدّم.

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ} [57].

<u>خطاب جميع النّاس</u> بالتعريف بشأن القرآن وهديه، بعد أن كان الكلام في جدال المشركين والاحتجاج عليهم بإعجاز القرآن على أنّه من عند الله، وأنّ الآتي به صادق فيما جاء به من تهديدهم وتخويفهم من عاقبة تكذيب الأمم رسلها، وما ذُيّل به ذلك من الوعيد وتحقيق ما توعّدوا به. وعلى هذا الوجه فليس في الخطاب بـ { يَا أَيُّهَا النَّاسُ } التفات من الغيبة إلى الخطاب.

<u>المعنى</u>: أنّ القرآن موعظة لجميع النّاس وإنّما انتفع بموعظته المؤمنون فاهتدوا وكان لهم رحمة.

<u>ويجوز أن يكون خطابا للمشركين</u> بناء على الأكثر في خطاب القرآن بـ { يَا أَيُّهَا النَّاسُ }، فيكون ذكر الثناء على القرآن بأنّه هدى ورحمة للمؤمنين، إدماجا وتسجيلا على المشركين بأنّهم حرموا أنفسهم الانتفاع بموعظة القرآن وشفائه لما في الصدور، وانتفع المؤمنون بذلك.

{ **قَدْ** } للتأكيد، لأنّ في المخاطبين كثيرا ممن ينكر هذه الأوصاف للقرآن.

المجيء: مستعمل مجازا في الإعلام بالشيء، كما استعمل للبلوغ أيضا، إلّا أنّ البلوغ أشهر في هذا

وأكثر، يقال: بلغني خبر كذا، ويقال أيضا: جاءني خبر كذا أو أتاني خبر كذا. وإطلاق المجيء عليه في هذه الآية أعزّ.

والمراد بما جاءهم وبلغهم هو ما أنزل من القرآن وقرئ عليهم، وقد عبّر عنه بأربع صفات هي أصول كماله وخصائصه وهي: (موعظة / شفاء لما في الصدور / هدى / رحمة للمؤمنين).

الموعظة: الوعظ كلام فيه نصح وتحذير مما يضرّ. وقد مضى الكلام عليها عند قوله تعالى { فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ } [النساء:63]، وعند قوله تعالى { مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ } [الأعراف:145].

{ **مِنْ رَبِّكُمْ** } للتنبيه على أنّها بالغة غاية كمال أمثالها.

الشفاء: تقدّم عند قوله تعالى { وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ } [براءة:14]. وحقيقته: زوال المرض والألم، ومجازه: زوال النقائص والضلالات وما فيه حرج على النفس، وهذا هو المراد هنا.

الهدى: تقدّم في قوله تعالى { هُدىً لِلْمُتَّقِينَ } [البقرة:2]، وأصله: الدالة على الطريق الموصل إلى المقصود. ومجازه: بيان وسائل الحصول على المنافع الحقّة.

الرحمة: تقدّمت في تفسير البسملة.

وقد أومأ وصف القرآن بالشفاء إلى تمثيل حال النفوس بالنسبة إلى القرآن وإلى ما جاء به، بحال المعتلّ السقيم الذي تغير نظام مزاجه عن حالة الاستقامة فأصبح مضطرب الأحوال خائر القوى فهو يترقّب الطبيب الذي يدبّر له بالشفاء.

وقد كان هذا التمثيل لكماله قابلا لتفريق تشبيه أجزاء الهيئة المشبّهة بأجزاء الهيئة المشبّه بها:

*/ فزواجر القرآن ومواعظه تُشبّه بنصح الطبيب على وجه المكنية.

*/ وإبطاله العقائد الضالة يُشبّه بنعت الدواء للشفاء من المضار على وجه التصريحية.

*/ وتعاليمه الدينية وآدابه تُشبّه بقواعد حفظ الصحة على وجه المكنية، وعُبّر عنها بالهدى.

*/ ورحمته للعالمين تُشبّه بالعيش في سلامة على وجه المكنية.

فالأوصاف الثلاثة الأول ثابتة للقرآن في ذاته سواء في ذلك من قبلها وعمل بها، ومن أعرض عنها ونبذها، إلّا أن وصفه بكونه هدى لمّا كان وصفا بالمصدر المقتضي للمبالغة كان الأنسب أن يراد به حصول الهدى به بالفعل فيكون في قران الوصف الرابع (الرحمة).

والوصف الرابع، وهو الرحمة، خاص بمن عمل بمقتضى الأوصاف الثلاثة الأول فانتفع بها فكان القرآن رحمة له في الدنيا والآخرة. وهو ينظر إلى قوله تعالى { وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً } [الإسراء:82].

{ **لِلْمُؤْمِنِينَ** } قيد متعلّق بـ { رَحْمَةٌ } بلا شبهة، وقد خصّه به جمهور المفسرين. ومن المحقّقين من جعله قيدا لـ { هُدىً وَرَحْمَةً } ناظرا إلى قوله تعالى { هُدىً لِلْمُتَّقِينَ } [البقرة:2]، فإنّه لم يجعله هدى لغير المتقين وهم المؤمنون.

والوجه أنّ كونه موعظة وصف ذاتي له، لأنّ الموعظة هي الكلام المحذّر من الضرّ ولهذا عقّبت بقوله تعالى { مِنْ رَبِّكُمْ } فكانت عامة لمن خوطب بـ { يَا أَيُّهَا النَّاسُ }. وأمّا كونه شفاء فهو في ذاته صالح للشفاء، ولكن الشفاء بالدواء لا يحصل إلّا لمن استعمله. وأمّا كونه (هدى ورحمة) فإنّ تمام وصف القرآن بهما يكون بالنسبة لمن حصلت له حقيقتهما وأمّا لمن لم تحصل له آثارهما فوصف القرآن بهما بمعنى صلاحيته لذلك، وهو الوصف بالقوة في اصطلاح أهل المنطق.

فالأظهر أنّ قيد { لِلْمُؤْمِنِينَ } راجع إلى { هُدىً وَرَحْمَةً } معا على قاعدة القيّد الوارد بعد مفردات، وأمّا رجوعه إلى { شِفَاءٌ } فمحتمل، لأنّ وصف { شِفَاءٌ } قد عُقّب بقيد { لِمَا فِي الصُّدُورِ } فانقطع عن الوصفين اللذين بعده، ولأن تعريف { الصُّدُورِ } باللام يقتضي العموم.

{ **قَدْ جَاءَتْكُمْ** } متعلّق بالنّاس باعتبار كونهم المقصود بإنزال القرآن في الجملة. ثم وقع التفصيل بالنسبة لما اختلفت فيه أحوال تلقّيهم وانتفاعهم، فعمّم في مجيء البرهان وإنزال النور جميع النّاس، وخصّص في الرحمة والفضل والهداية المؤمنين، وهذا منتهى البلاغة وصحة التقسيم.

{ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ } [58].

يتفرّع على كون القرآن هدى ورحمة للمؤمنين تنبيههم إلى أنّ ذلك فضل من الله عليهم ورحمة بهم يحقّ لهم أن يفرحوا بهما، وأن يقدّروا قدر نعمتهما، وأن يعلموا أنّها نعمة تفوق نعمة المال التي حُرم منها أكثر المؤمنين ومُنحها أكثر المشركين، فكانت الجملة حقيقة بأن تُفتتح بفاء التفريع.

{ **قُلْ** } جيء بالأمر بالقول معترضا بين الجملة المفرَّعة والجملة المفرَّع عليها تنويها بالجملة المفرّعة، بحيث يؤمر الرسول أمرا خاصا بأن يقولها وإن كان جميع ما ينزل عليه من القرآن مأمورا بأن يقوله.

وتقدير نظم الكلام: قل لهم فليفرحوا بفضل الله وبرحمته.

{ **بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ** } مجرور متعلّق بفعل {**فَلْيَفْرَحُوا**} قدّم على متعلقه للاهتمام به للمسلمين ولإفادة القصر، أي بفضل الله وبرحمته دون مما سواه.

{ **فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا** } { فَبِذَلِكَ } رابطة للجواب، والفاء في قوله تعالى { فَلْيَفْرَحُوا } مؤكّدة للربط.

ولم يختلف المفسّرون في أنّ القرآن مراد من فضل الله ورحمته.

وقد روي حديث عن أنس بن مالك عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّه قال: " **فضل الله القرآن ورحمته أن جعلكم من أهله** ". وهو الذي يقتضيه اللفظ، فإنّ الفضل هو هداية الله التي في القرآن، والرحمة هي التوفيق إلى اتباع الشريعة التي هي الرحمة في الدنيا والآخرة.

{ **هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ** } مبيّنة للمقصود من القصر المستفاد من تقديم المجرورين. أي: ذلك خير مما يجمعون.

{ **مَا يَجْمَعُونَ** } مراد به الأموال والمكاسب، لأنّ فعل الجمع غلب في جمع المال. قال تعالى { الذِي جَمَعَ

مَالًا وَعَدَّدَهُ } [الهمزة:2]. ومن المعتاد أنّ جامع المال يفرح بجمعه. وعلى هذا الوجه يظهر معنى القصر أتمّ الظهور، وهو أيضا المناسب لحالة المسلمين وحالة المشركين يومئذ، فإنّ المسلمين كانوا في ضعف لأنّ أكثرهم من ضعاف القوم أو لأنّ أقاربهم من المشركين تسلطوا على أموالهم ومنعوهم حقوقهم إلجاء لهم إلى العود إلى الكفر.

وقد أجملت الآية وجه تفضيل هذا الفضل والرحمة على ما يجمعونه لقصد إعمال النظر في وجوه تفضيله، فإنّها كثيرة، منها واضح وخفي. وينبئ بوجه تفضيله في الجملة إضافته الفضل والرحمة إلى الله، وإسناد فعل { يَجْمَعُونَ } إلى ضمير { النَّاسُ } [57]. وهذا الفضل أخروي ودنيوي؛ أمّا الأخروي فظاهر، وأمّا الدنيوي فلأن كمال النفس وصحّة الاعتقاد وتطلع النفس إلى الكمالات وإقبالها على الأعمال الصالحة تكسب الراحة في الدنيا وعيشة هنيئة.

{ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلَالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ } [59].

استئناف أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بأن يقوله للمشركين. وافتتاحه بـ { قُلْ } لقصد توجيه الأسماع إليه. ومناسبته أنّ الكلام المتقدّم حكى تكذيبهم بالقرآن وادعاءهم أنّه مفترى وأنّه ليس بحق. فلمّا استوفى ذلك بأوضح حجة، لاجرم دالت النوبة إلى إظهار خطل عقولهم واختلال تكذيبهم، فإنّهم قد وضعوا دينا فجعلوا بعض أرزاقهم حلالً لهم وبعضها حرامًا عليهم.

والاستدلال عليهم بشيء من تشريعهم في خصوص أرزاقهم متعلّق بآخر الكلام الذي قبله ليظهر ما فيه من حسن التخلّص إليه، وذلك أنّ أخر الكلام المتقدّم جملة { هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ } [58]، أي: من أموالهم. وتلك الأموال هي التي رزقهم الله إيّاها فجعلوا منها حلالا ومنها حراما وكفروا نعمة الله إذ حرّموا على أنفسهم من طيبات ما أعطاهم ربهم، وحسبهم بذلك شناعة بهم ملصقة، وأبوابا من الخير في وجوههم مغلقة.

{ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ } الرزق: ما يُنتفع به. وتقدّم في قوله تعالى { وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } [البقرة:3].

وعُبّر عن إعطاء الرزق بالإنزال لأنّ معظم أموالهم كانت الثمار والأعناب والحبوب، وكلّها من آثار المطر الذي هو نازل من السحاب بتكوين الله، فأسند إنزاله إلى الله بهذا الاعتبار، ومعظم أموالهم الأنعام، وحياتها من العشب والكلأ وهي من أثر المطر، قال تعالى { وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ } [الذاريات:22].

{ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلالاً } هو ما حكى الله بعضه عنهم في قوله تعالى { وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها } [الأنعام:138]، وقوله تعالى { وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ

هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا } [الأنعام:139].

ومحلّ الإنكار ابتداء هو جعلهم بعض ما رزقهم الله حراما عليهم.

{ **وحَلالاً** } عطف على { حَرَاماً } للإنكار بالتبع.

{ **قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ** } الاستفهام تقريري باعتبار إلزامهم بأحد الأمرين: إمّا أن يكون الله أذن لهم، أو أن يكونوا مفترين على الله.

{ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ } [60].

عطف على { قُلْ أَرَأَيْتُمْ } [59]، فهو كلام غير داخل في القول المأمور به ولكنّه ابتداء خطاب لجميع النّاس. والاستفهام مستعمل في التعجيب من حالهم، والمقصود به التعريض بالمشركين ليستفيقوا من غفلتهم ويحاسبوا أنفسهم.

{ **الَّذِينَ يَفْتَرُونَ** } عدل عن مقتضى الظاهر إلى الإتيان بالموصول بالصلة المختصّة بهم للتنبيه على أنّ الترديد بين أن يكون الله أذن لهم فيما حرّموه وبين أن يكونوا مفترين عليه قد انحصر في القسم الثاني، وهو كونهم مفترين، إذ لا مساغ لهم في ادعاء أنّه أذن لهم. فإذا تعيّن أنّهم مفترون فقد صار الافتراء حالهم المختص بهم.

{ **يَوْمَ الْقِيَامَةِ** } منصوب على الظرفية وعامله الظنّ. أي: ما هو ظنّهم في ذلك اليوم؟ أي: إذا رأوا الغضب عليهم يومئذ ماذا يكون ظنهم أنّهم لاقون؟ وهذا تهويل.

{ **إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ**} تذييل، وفيه قطع لعذر المشركين، وتسجيل عليهم بالتمرّد بأنّ الله تفضل عليهم بالرزق والموعظة والإرشاد فقابلوا ذلك بالكفر دون الشكر وجعلوا رزقهم أنّهم يُكذّبون، في حين قابله المؤمنون بالفرح والشكر فانتفعوا به في الدنيا والآخرة.

{ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } [61].

وعد بالثواب للرّسول على ما هو قائم به من تبليغ أمر الله وتدبير شؤون المسلمين وتأييد دين الإسلام، وبالثواب للمسلمين على اتّباعهم الرّسول فيما دعاهم إليه. وجاء هذا الوعد بطريقة التعريض بحصول رضى الله تعالى في قوله { إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً }. ويتضمّن ذلك تنويها بالنبيّ صلى الله عليه وسلم في جليل أعماله وتسلية على ما يلاقيه من المشركين من تكذيب وأذى، لأنّ اطلاع الله على ذلك وعلمه بأنّه

في مرضاته كاف في التسلية، ولذلك توجّه الخطاب ابتداء إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ثم توجّه إليه وإلى من معه من المسلمين.

الشأن: العمل المهم والحال المهم.

{ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ } ابتدئ الكلام بشؤون النبيّ صلى الله عليه وسلم التي منها ما هو من خواصّه كقيام الليل، وثُنِّي بما هو من شؤونه بالنسبة إلى النّاس وهو تلاوة القرآن على النّاس، وثُلِّث بما هو من شؤون الأمّة في قوله تعالى { وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ }، فإنّه وإن كان الخطاب فيه شاملا للنبيّ صلى الله عليه وسلم إلّا أنّ تقديم ذكر { شَأْنٍ } في أوّل الآية يُخصّص عموم الخطاب في قوله تعالى { تَعْمَلُونَ } فلا يبقى مرادا منه إلّا ما يعمله بقية المسلمين.

{ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً } أي: إلّا علمنا بذلك. فجملة { كُنَّا عَلَيْكُمْ } في موضع الحال.

الشهود: جمع شاهد. وأخبر بصيغة الجمع عن الواحد، وهو الله تعالى، تبعا لضمير الجمع المستعمل للتعظيم. والشاهد: الحاضر، وأطلق على العالم بطريقة المجاز المرسل، ولذلك عدّي بحرف (على).

الإفاضة في العمل: الاندفاع فيه، أي: الشروع في العمل بقوّة واهتمام، وهذه المادة مؤذنة بأنّ المراد أعمالهم في مرضاة الله ومصابرتهم على أذى المشركين.

{ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ } هي بمنزلة التذييل لما فيها من زيادة التعميم في تعلّق علم الله تعالى بجميع الموجودات بعد الكلام على تعلّقه بعمل النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين.

العزوب: البعد، وهو مجاز هنا للخفاء وفوات العلم، لأنّ الخفاء لازم للشيء البعيد.

المثقال: اسم آلة لما يعرف به مقدار ثقل الشيء فهو على وزن مِفعال من ثقل.

الذرّة: النملة الصغيرة، ويطلق على الهباءة التي ترى في ضوء الشمس كغبار دقيق جدا، والظاهر أنّ المراد في الآية الأوّل. وذُكرت الذرّة مبالغة في الصغر والدقة للكناية بذلك عن إحاطة العلم بكل شيء، فإنّ ما هو أعظم من الذرّة يكون أولى بالحكم.

{ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ } المقصود تعميم الجهات والأبعاد بأخصر عبارة. وتقديم الأرض هنا لأنّ ما فيها أعلق بالغرض الذي فيه الكلام وهو أعمال النّاس، فإنّهم من أهل الأرض، بخلاف قوله تعالى { عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ } [سبأ:3]، فإنّه لمّا كان المقام لذكر علم الغيب، والغيب ما غاب عن النّاس ومعظمه في السماء، لاءَم ذلك أن قُدّمت السماء على الأرض.

{ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ } تصريح بما كنّي عنه بمثقال ذرّة من جميع الأجرام.

{ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } أي: إلّا معلوما مكتوبا، ويعلم السامع أنّ المكتوب في كتاب مبين لا يمكن أن يعزب، فيكون انتفاء عزوبه حاصلا بطريق برهاني.

الكتاب: علم الله، استعير له الكتاب لأنّه ثابت لا يخالف الحق بزيادة ولا نقصان.

مبين: اسم فاعل من أبان بمعنى بان، أي: واضح بيّن لا احتمال فيه.

{ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ [62] الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ [63] لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [64] }.

استئناف للتصريح بوعد المؤمنين، وبتسلية النبيّ صلى الله عليه وسلم على ما يلاقيه من الكفّار من أذى وتهديد، إذ أعلن الله للنبيّ والمؤمنين بالأمن من مخافة أعدائهم، ومن الحزن من جرّاء ذلك، ولمّح لهم بعاقبة النصر، ووعدهم البشرى في الآخرة وعدا لا يقبل التغيير ولا التخلّف تطمينا لنفوسهم.

{ **أَلا إِنَّ** } افتتاح الكلام بأداة التنبيه إيماء إلى أهميّة شأنه. وأكّدت الجملة بـ { إِنَّ } بعد أداة التنبيه.

{ **أَوْلِيَاءَ اللَّهِ** } يؤذن بأنّ المخاطبين قد حُقّ لهم أنّهم من أولياء الله، مع إفادة حكم عام شملهم ويشمل من يأتي على طريقتهم.

{ **لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** } **الخوف**: توقّع حصول المكروه للمتوقِّع، فيتعدّى بنفسه إلى الشيء المتوقَّع حصوله، فيقال: خاف الشيء. وإذا كان توقّع حصول المكروه لغير المتوقِّع يقال للمتوقَّع: خاف عليه، كقوله تعالى { إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } [الشعراء:135].

أي: هم بمأمن من أن يصيبهم مكروه يُخاف من إصابة مثله، فحالهم حال من لا ينبغي أن يخاف، ولذلك لا يخاف عليهم أولياؤهم لأنّهم يأمنون عليهم من عاقبة ما يتوجّسون منه خيفة.

فالكلام يفيد أنّ الله ضمن لأوليائه أن لا يحصل لهم ما يخافونه وأن لا يحل بهم ما يحزنهم. ولمّا كان ما يخاف منه من شأنه أن يحزن من يصيبه كان نفي الحزن عنهم مؤكِّدا لمعنى نفي خوف خائف عليهم.

<u>وجمهور المفسّرين</u> حملوا الخوف والحزن المنفيين على ما يحصل لأهل الشقاوة في الآخرة بناء على أنّ الخوف والحزن يحصلان في الدنيا.

الولي: الموالي، أي: المحالف والناصر. وكلّها ترجع إلى معنى الوَلْي (بسكون اللام) وهو القرب. وتقدّم في قوله تعالى { قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً } [الأنعام:14]. وهو قرب من الجانبين، ولذلك فسّروه هنا بأنّه الذي يتولّى الله بالطاعة ويتولّاه الله بالكرامة.

{ **الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ** } بُيّن أولياء الله في هذه الآية بأنّهم الذين آمنوا واتقوا، اعتناء بهم.

ودل قوله تعالى { وَكَانُوا يَتَّقُونَ } على أنّ التقوى ملازمة لهم، أخذا من صيغة { كَانُوا }، وأنّها متجدّدة منهم أخذا من صيغة المضارع { يَتَّقُونَ }.

وقد كنتُ أقول في المذاكرات منذ سنين خلت في أيام الطلب أنّ هذه الآية هي أقوى ما يُعتمد عليه في تفسير حقيقة الولي شرعا، وأنّ على حقيقتها يُحمل معنى قوله تعالى في الحديث القدسي الذي رواه الترمذي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: **" قال الله تعالى من عادى لي وليا فقد آذنته بحرب "**.

{ **لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ** } إشارة إلى تولّي الله إيّاهم بالكرامة. وتعريف { الْبُشْرَى } تعريف الجنس فهو صادق ببشارات كثيرة. والمعنى: أنّهم يُبشَّرون بخيرات قبل حصولها؛

في الدنيا بما يتكرّر من البشارات الواردة في كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم.

وفي الآخرة بما يتلقّونه من الملائكة وما يسمعونه من أمر الله بهم إلى النعيم المقيم.

روى الترمذي عن أبي الدرداء أنّه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى { لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ } فقال: **" ما سألني عنها أحد غيرك منذ أنزلت، فهي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له "**. ومحمل هذا الخبر أنّ الرؤيا الصالحة من جملة البشرى في الحياة الدنيا.

{ **لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ** } تذكير لهم بأنّ ما وعدهم الله به من البشائر مثل النصر وحسن العاقبة أمر ثابت لا يتخلّف لأنّه من كلمات الله.

التبديل: التغيير والإبطال، لأنّ إبطال الشيء يستلزم إيجاد نقيضه.

{ **كَلِمَاتِ اللَّهِ** } الأقوال التي أوحى بها إلى الرّسول في الوعد المشار إليه.

{ **ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** } مؤكِّدة لجملة { لَهُمُ الْبُشْرَى } ومقرّرة لمضمونها فلذلك فصلت.

والإشارة بـ { ذلك } إلى المذكور من مضمون الجمل الثلاث المتقدّمة، واختيار اسم الإشارة لأنّه أجمع لما ذكر، وفيه كمال تمييز له لزيادة تقرير معناه.

{ **هُوَ** } ذكر ضمير الفصل بعد اسم الإشارة لزيادة التأكيد ولإفادة القصر، أي: هو الفوز العظيم لا غيره مما يتقلّب فيه المشركون في الحياة الدنيا من رزق ومنعة وقوّة، لأنّ ذلك لا يعدّ فوزا إذا عاقبته المذلّة والإهانة في الدنيا وبعده العذاب الخالد في الآخرة، كما أشار إليه قوله تعالى { لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ } [آل عمران:197/196].

{ وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [65].

معطوفة على قوله تعالى { أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ } [62]، عطف الجزئي على الكلّي، لأنّ الحزن المذكور هنا نوع من أنواع الحزن المذكور سابقا، ولأنّ الرّسول صلى الله عليه وسلم من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وعُدل عن العطف بفاء التفريع إلى العطف بالواو ليعطي مضمون الجملة المعطوفة استقلالا بالقصد إليه، فيكون ابتداء كلام مع عدم فوات معنى التفريع لظهوره من السياق.

والحزن المنهي عن تطرّقه: هو الحزن الناشئ عن أذى المشركين محمدا صلى الله عليه وسلم بأقوالهم البذيئة وتهديداتهم. ووجه الاقتصار على دحضه أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يكن يلقى من المشركين محزنا إلّا أذى القول البذئي.

{ **لا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ** } خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم. وظاهر صيغته أنّه نهي عن أن يُحزن النبيّ

صلى الله عليه وسلم كلام المشركين، مع أنّ شأن النهي أن يتوجّه الخطاب به إلى من فعل الفعل المنهي عنه، ولكن المقصود من مثل هذا التركيب نهي النبيّ عليه الصلاة والسلام عن أن يتأثّر بما شأنه أن يُحزن النّاس من أقوالهم.

{ **إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً** } تعليل لدفع الحزن عنه، بأنّ عزّتهم كالعدم لأنّها محدودة وزائلة والعزّة الحق لله. والجملة في محل استئناف بياني. وكل جملة كان مضمونها علّة للتي قبلها تكون أيضا استئنافا بيانيا، فالاستئناف البياني أعمّ من التعليل. وافتتحت بحرف التأكيد للاهتمام بها، ولأنّه يفيد مفاد لام التعليل وفاء التفريع في مثل هذا المقام الذي لا يُقصد فيه دفع إنكار من المخاطب.

{ **الْعِزَّةَ** } تعريف الجنس المفيد للاستغراق بقرينة السياق.

{ **لِلَّهِ** } اللام للملك. وقد أفاد جعل جنس العزّة ملكا لله أنّ جميع أنواعها ثابت لله، فيفيد أنّ له أقوى أنواعها وأقصاها. وبذلك يفيد أنّ غير الله لا يملك منها إلّا أنواعا قليلة.

{ **جَمِيعاً** } حال موكّدة مضمون الجملة قبلها المفيدَ لاختصاصه تعالى بجميع جنس العزّة لدفع احتمال إرادة المبالغة في ملك ذلك الجنس.

{ **هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** } تفيد تعليلا آخر أو تكملة للتعليل الأوّل، لأنّه إذا تذكّر المخاطب أن صاحب العزّة يعلم أقوالهم وأحوالهم زاد ذلك قوّة في دفع الحزن من أقوالهم عن نفسه لأنّ الذي نهاه عن الحزن من أقوالهم وتطاولهم أشدّ منهم قوّة ومحيط علمه بما يقولونه وبأحوالهم.

{ **السَّمِيعُ** } العالم بأقوالهم التي من شأنها أن تُسمع، و{ **الْعَلِيمُ** } ما هو أعمّ من أحوالهم التي ليست بمسموعات فلا يطلق على العلم بها اسم { السَّمِيعُ }.

{ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ } [66].

المقصود بتوجيه هذا الكلام هم المشركون لتأييسهم من كل احتمال لانتصارهم على النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين. فالجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا ومناسبة وقوعها عقب جملة { وَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ } أنّ أقوالهم دُحضت بمضمون هذه الجملة. وأمّا وقوعها عقب جملة { إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً } [65] فلأنّها حجّة على أنّ العزّة لله، لأنّ الذي له من في السماوات ومن في الأرض تكون له العزّة الحقّ.

{ **أَلا إِنَّ لِلَّهِ** } افتتاح الجملة بحرف التنبيه مقصود منه إظهار أهميّة العلم بمضمونها وتحقيقه ولذلك عُقّب بحرف التأكيد، وزيد ذلك تأكيدا بتقديم الخبر في قوله تعالى { لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ } وباجتلاب لام الملك.

{ **مَنْ** } الموصولة شأنها أن تطلق على العقلاء وجيء بها هنا مع أنّ المقصد الأول إثبات أنّ آلهتهم لله تعالى، وهي جمادات غير عاقلة، تغليبا، فإنّ من العرب من عبد الملائكة، ومنهم من عبدوا المسيح، وهم

نصارى العرب.

وذكر السماوات والأرض لاستيعاب أمكنة الموجودات فكأنّه قيل: ألا إنّ لله جميع الموجودات.

{ **وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ** } هي كالنتيجة للجملة الأولى، إذ المعنى أنّ جميع الموجودات ملك لله، واتّباع المشركين أصنامهم اتباع خاطئ باطل.

{ **إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ** } توكيد لفظي لجملة { يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ } وأعيد مضمونها قضاء لحقّ الفصاحة، حيث حصل من البُعد بين المستثنى والمستثنى منه بسبب الصلة الطويلة ما يُشبه التعقيد اللفظي وذلك لا يليق بأفصح كلام، مع إفادة تلك الإعادة مفاد التأكيد، لأنّ المقام يقتضي الإمعان في إثبات الغرض.

الظنّ: هنا العلم المخطئ. وقد بيّنت الجملة التي بعدها أنّ ظنّهم لا دليل عليه بقوله { وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ }.

الخرص: القول بالحزر والتخمين. وتقدّم نظير هذه الآية في قوله تعالى { وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ } [الأنعام:116].

{ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ } [67].

معترضة بين قوله تعالى { إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ } [66] وقوله تعالى { قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً } [68]، جاءت مجيء الاستدلال على فساد ظنّهم وخرصهم بشواهد خلق الليل والنّهار المشاهد في كل يوم من العمر مرّتين، وهم في غفلة عن دلالته.

{ **النَّهَارَ مُبْصِراً** } مجاز عقلي للمبالغة في حصول الإبصار فيه حتّى جُعل النّهار هو المبصِر، والمراد مبصِرًا فيه النّاس.

<u>ومن لطائف المناسبة أنّ النور الذي هو كيفية زمن النهار شيء وجودي فكان زمانه حقيقيا بأن يوصف بأوصاف العقلاء</u>، بخلاف الليل فإنّ ظلمته عدميّة فاقتصر في العبرة به على ذكر الفائدة الحاصلة فيه وهي أن يسكنوا فيه.

فالمقصود: الاستدلال على انفراده تعالى بخصائص الإلهيّة التي منها الخلق والتقدير، وأنّ آلهتهم انتفت عنها خصائص الإلهيّة، وقد حصل مع الاستدلال امتنان على النّاس بجعل الليل والنّهار على هذا النظام. وهذا الامتنان مستفاد من قوله تعالى { جَعَلَ لَكُمُ } ومن تعليل خلق الليل بعلّة سكون النّاس فيه، وخلق النّهار بعلّة إبصار النّاس، وكلّ النّاس يعلمون ما في سكون الليل من نعمة وما في إبصارهم بالنهار من نعمة كذلك.

وفي إدماج الاستدلال بالامتنان تعريض بأنّ الذين جعلوا لله شركاء جمعوا وصمتين هما: وصمة مخالفة

الحقّ، ووصمة كفران النعمة.

{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ } مستأنفة.

الآيات: الدلائل الدالة على وحدانيّة الله تعالى بالإلهيّة، فإنّ النظام الذي نشأ عنه الليل والنهار مشتمل على دقائق كثيرة من العلم والحكمة والقدرة وإتقان الصنع.

فمن تلك الآيات: خلق الشمس وخلق الأرض، وخلق النور في الشمس وخلق الظلمة في الأرض، ووصول شعاع الشمس إلى الأرض، ودوران الأرض كلّ يوم بحيث يكون نصف كرتها مواجها للشعاع ونصفها الآخر محجوبا عن الشعاع. وخلق الإنسان وجعل نظام مزاجه العصبي متأثّرا بالشعاع نشاطا، وبالظلمة فتورا، وخلق حاسة البصر، وجعلها مقترنة بتأثر الضوء، وجعل نظام العمل مرتبطا بحاسة البصر، وخلق نظام المزاج الإنساني مشتملا على قوى قابلة للقوّة والضعف، ثم مدفوعا إلى استعمال قواه بقصد وبغير قصد بسبب نشاطه العصبي، ثم فاقدا بالعمل نصيبا من قواه محتاجا إلى الاعتياض بقوى تخلفها بالسكون والفتور الذي يلجئه إلى تطلّب الراحة.

وأيّة آيات أعظم من هذه، وأيّة منّة على الإنسان أعظم من إيداع الله فيه دواعي تسوقه إلى صلاحه وصلاح نوعه بداع من نفسه.

{ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ } إشارة إلى أنّ تلك الآيات والدلائل تنهض دلالتها للعقول بالتأمّل فيها، وأنّ توجّه التفكير إلى دلائلها غير محتاج إلّا إلى التنبيه عليها ولفته إليها. فلمّا كان سماع تذكير الله بها هو الأصل الأصيل في استخراج دلالتها أو تفريع مدلولاتها على تفاوت الأذهان في الفطنة وترتيب الأدلة جعل آيات دلالتها حاصلة للذين يسمعون.

ويجوز أن يكون المراد يسمعون تفاصيل تلك الدلائل في تضاعيف سور القرآن.

وعلى كلا الاحتمالين فالوصف بالسمع تعريض بأنّ الذين لم يهتدوا بها ولا تفطنوا لدلالتها بمنزلة الصمّ، كقوله تعالى { أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ } [الزخرف:40].

{ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ } [68].

بيان لجملة { أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ...} [66]، وفي هذا البيان إدماج بحكاية فن من فنون كفرهم مغاير لادّعاء شركاء لله، لأنّ هذا كفر خفي من دينهم، ولأنّ الاستدلال على إبطاله مغاير للاستدلال على إبطال الشركاء.

{ قَالُوا } عائد إلى { الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ } [66]، أي: قال المشركون. وليس المراد من الضمير غيرهم من النصارى لأنّ السورة مكيّة والقرآن المكّي لم يتصدّ لإبطال زيغ عقائد أهل الكتاب. ذلك أنّ كثيرا من المشركين كانوا يزعمون أنّ لله بنات هم الملائكة، وهم بناته من سَروات نساء الجنّ،

ولذلك عبدت فرق من العرب الجنّ. قال تعالى { وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ } [سبأ:41].

الاتّخاذ: جعل شيء لفائدة الجاعل، وهو مشتق من الأخذ، لأنّ المتّخِذ يأخذ الشيء الذي يصطفيه. وتقدّم في قوله تعالى { أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً } [الأنعام:74]. فالاتخاذ يصدق على أخذ شيء موجود للاستئثار به، ويصدق على تكوين شيء للانتفاع به. وهو هنا صالح للمعنيين لأنّ منهم من يعتقد تولّد الولد عن الله تعالى، ومنهم من يعتقد أنّ الله تبنّى بعض مخلوقاته.

الولد: اسم مصوغ على وزن فعل. وهو مأخوذ من الولادة. وأطلق على الواحد والجمع كما يوصف بالمصدر. يقال: هؤلاء ولد فلان. وفي الحديث: " **أنا سيد ولد آدم** ". والمراد هنا الجمع لأنّهم قالوا الملائكة بنات الله استولدها من سروات الجن قال تعالى { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ } [النحل:57].

{ **سُبْحَانَهُ** } إنشاء تنزيه للردّ عليهم. وهو اسم مصدر لـ (سبّح) إذا نزّه، نائب عن الفعل، أي: نسبّحه. أي: تنزيها لله عن هذا، لأنّ ما قالوه يستلزم تنقيص الله تعالى.

{ **هُوَ الْغَنِيُّ** } أي: هو الغني عن اتخاذ الولد، لأنّ الإلهيّة تقتضي الغنى المطلق عن كلّ احتياج.

الغنيّ: الموصوف بالغنى، فعيل للمبالغة في فعل (غَنِيَ) عن كذا إذا كان غير محتاج، وغنى الله هو الغنى المطلق.

{ **لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ** } مقرّرة لوصف الغنى بأنّ ما في السماوات وما في الأرض ملكه، فهو يسخّر كل موجود لما خلقه لأجله، فلا يحتاج إلى إعانة ولد.

{ **إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا** } جواب ثان لقولهم { اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً }، فبعد أن أستدلّ على إبطال قولهم، سجّل عليهم أنّهم لا حجّة لهم في قولهم ذلك.

السلطان: البرهان والحجّة، لأنّه يُكسب المستدلّ به سلطة على مخالفه ومجادله.

{ **أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** } جواب ثالث ناشئ عن الجوابين لأنّهم لمّا أُبطل قولُهم بالحجّة، ونُفي أن تكون لهم على قولهم حجّة كانوا أحرياء بالتوبيخ والتشنيع بأنّهم يجترئون على جناب الله فيصفون الله بما لا يعلمون، أي: بما لا يوقنون به، ولكونها جوابا فصلت. فالاستفهام مستعمل في التوبيخ لأنّ المذكور بعده شيء ذميم، واجتراء عظيم وجهل كبير مركّب.

{ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ [69] مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ [70] }.

{ **قُلْ** } أمر للنبيّ صلى الله عليه وسلم لتنبيه السامعين بأنّه أمر مهم ووعيد لكلّ من يفتري على الله ما لم يقله.

الفلاح: حصول ما قصده العامل من عمله بدون انتقاض ولا عاقبة سوء. وتقدّم في [البقرة:5].

فنفي الفلاح هنا نفي لحصول مقصودهم من الكذب وتكذيب محمد صلى الله عليه وسلم.

{ **مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا** } استئناف بياني، أي أمرهم متاع لا يعبأ به.

المتاع: المنفعة القليلة في الدنيا، إذ يقيمون بكذبهم سيادتهم وعزّتهم بين قومهم ثم يزول ذلك. ومادة (متاع) مؤذنة بأنّه غير دائم كما تقدّم في قوله تعالى { وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ } [الأعراف:24].

وتنكيره مؤذن بتقليله، وتقييده بأنّه في الدنيا مؤكّد للزوال وللتقليل.

{ **ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ** } حرف المهلة (ثمّ) للتراخي الرتبي لأنّ مضمونه هو مَحَقَّةُ أنّهم لا يفلحون.

المرجع: مصدر ميمي بمعنى الرجوع. ومعنى الرجوع إلى الله: الرجوع إلى وقت نفاذ حكمه المباشر فيهم. ويجوز أن يكون المرجع كناية عن الموت.

{ **ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ** } بيان لجملة { ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ }.

إذاقة العذاب: إيصاله إلى الإحساس، أطلق عليه الإذاقة لتشبيهه بإحساس الذوق في التمكّن من أقوى أعضاء الجسم.

والجمل الأربع هي من المقول المأمور به النبيّ صلى الله عليه وسلم تبليغا عن الله تعالى.

{ **بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ** } الباء للتعليل. والتركيب يؤذن بتكرّر ذلك منهم وتجدّده بأنواع الكفر.

{ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ** } [71].

انتقال من مقارعة المشركين بالحجج الساطعة على بطلان دينهم، وبالدلائل الواضحة على تفنيد أكاذيبهم وتكذيبهم، وما تخلّل ذلك من الموعظة والوعيد بالعذاب العاجل والآجل والإرهاب، إلى التعريض لهم بذكر ما حلّ بالأمم المماثلة أحوالها لأحوالهم، استقصاء لطرائق الحِجاج على أصحاب اللجاج، فإنّ نوحا عليه السلام مع قومه مثلٌ لحال محمد صلى الله عليه وسلم مع المشركين من قومه في ابتداء الأمر وتطوّره. ففي ذِكر عاقبة قوم نوح عليه السلام تعريض للمشركين بأنّ عاقبتهم كعاقبة أولئك، أو أنّهم إنّما يمتّعون قليلا ثم يؤخذون أخذة رابية. كما مُتّع قوم نوح زمنا طويلا ثم لم يفلتوا من العذاب في الدنيا. وفيه أيضا تأنيس للرّسول صلى الله عليه وسلم وللمسلمين بأنّهم إسوة بالأنبياء والصالحين من أقوامهم.

وكذلك الشأن في قصة موسى عليه السلام عقبها.

{ **إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ** } إيماء إلى أنّ محاورته قومه وإصرارهم على الإعراض هو محلّ العبرة، لأنّه وجه الشبه بين المشركين وبين قوم نوح عليه السلام في صمّ آذانهم عن دعوة رسولهم.

التلاوة: القراءة. وتقدّمت في [الأنفال:2].

النبأ: الخبر. وتقدّم في قوله تعالى { وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ } [الأنعام:34].

نوح عليه السلام: تقدّم التعريف به في [آل عمران:33].

{ **لِقَوْمِهِ** } تعريف قوم نوح بطريق الإضافة إلى ضمير نوح، إذ ليس ثمّة طريق لتعريفهم غير ذلك إذ لم يكن لتلك الأمّة اسم تعرف به.

{ **يَا قَوْمِ** } إيذان بأهمية ما سيلقيه إليهم، لأنّ النداء طلب الإقبال. ولمّا كان هنا ليس لطلب إقبال قومه إليه لأنّه ما ابتدأ خطابهم إلّا في مجمعهم تعيّن أنّ النداء مستعمل مجازا في طلب الإقبال المجازي، وهو توجيه أذهانهم إلى فهم ما سيقوله. واختيار التعبير عنهم بوصف كونهم قومه تحبيب لهم في نفسه ليأخذوا قوله مأخذ قول الناصح المتطلّب الخير لهم، لأنّ المرء لا يريد لقومه إلّا خيرا.

حُذفت ياء المتكلّم من المنادى المضاف إليها على الاستعمال المشهور في نداء المضاف إلى ياء المتكلم.

{ **إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ** } شقّ عليكم وأحرجكم.

الكبر: وفرة حجم الجسم بالنسبة لأمثاله من أجسام نوعه، ويستعار لكون وصفٍ من أوصاف الذوات أو المعاني أقوى فيه منه في أمثاله من نوعه، فقد يكون مدحا كقوله تعالى { وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} [البقرة:45]، ويكون ذمّا كقوله تعالى { كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ } [الكهف:5]. ويستعار للمشقّة والحرج كقوله تعالى { كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ } [الشورى: 13] وقوله تعالى { وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ } [الأنعام: 35]، وكذلك هنا.

المقام: مصدر ميمي مرادف للقيام. وقد استعمل هنا في معنى شأن المرء وحاله كما في قوله تعالى { وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ } [الرحمان:46]. وهو استعمال من قبيل الكناية، لأنّ مكان المرء ومقامه من لوازم ذاته وفيهما مظاهر أحواله.

{ **بِآيَاتِ اللَّهِ** } الباء لتأكيد تعديّة المصدر إلى مفعوله الثاني. وآيات الله: دلائل فضله عليهم، ودلائل وحدانيته، لأنّهم لمّا أشركوا بالله فقد نسوا تلك الدلائل، فكان يذكّرهم بها، وذلك يُبرمهم ويحرجهم.

{ **فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ** } أي: لا على غيره.

التوكّل: التعويل على من يدبّره أمره. وقد مرّ عند قوله تعالى { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } [آل عمران:159].

{ **فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ** } الفاء للتفريع على جملة { عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ } فللجملة المفرّعة حكم جواب الشرط لأنّها مفرّعة على جملة الجواب.

إجماع الأمر: العزم على الفعل بعد التردّد بين فعله وفعل ضدّه. وهو مأخوذ من الجمع الذي هو ضدّ التفريق، لأنّ المتردّد في ماذا يعمله تكون عنده أشياء متفرّقة فهو يتدبّر ويتأمل، فإذا استقر رأيه على شيء منها فقد جمع ما كان متفرّقا. ويقولون: جاؤوا وأمرهم جميع، أي: متفق عليه.

الأمر: شأنهم من قصد دفعه وأذاه وتردّدهم في وجوه ذلك ووسائله.

{ **وَشُرَكَاءَكُمْ** } منصوب في قراءة الجمهور على أنّه مفعول معه، أي: أجمعوا أمركم ومعكم شركاؤكم الذين تستنصرون بهم. وزاد ذكر شركائهم للدلالة على أنّه لا يخشاها لأنّها في اعتقادهم أشد بطشا من القوم، وذلك تهكّم بهم، كما في قوله تعالى { قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ } [الأعراف:195].

{ **ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً** } حرف المهلة { ثُمَّ } دال على التراخي في الرتبة لما تتضمّنه الجملة الثانية من الترقّي في قلّة مبالاته بما يهيّئونه له من الضرّ، أي: اجتهدوا في أن لا يكون ذلك.

الغُمّة: اسم مصدر للغَمّ. وهو الستر. والمراد بها في مثل هذا التركيب الستر المجازي، وهو انبهام الحال، وعدم تبيّن السداد فيه، ولعل هذا التركيب جرى مجرى المثل.

{ **ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ** } (ثمّ) للتراخي في الرتبة، فإن رتبة إنفاذ الرأي بما يزمعون عليه من أذاه أقوى من تدبير ذلك.

{ **اقْضُوا** } أمر من القضاء، فيجوز أن يكون من القضاء بمعنى الإتمام والفصل، أي: انفذوا ما ترونه من الإضرار بي. ويجوز أن يكون من القضاء بمعنى الحكم، وهو قريب من الوجه الأول، أي: أنفذوا حكمكم.

وعدّي بـ (إلى) دون (على) لأنّه ضُمّن معنى الإبلاغ والإيصال تنصيصا على معنى التنفيذ بالفعل، لأنّ القضاء يكون بالقول فيعقبه التنفيذ أو الإرجاء أو العفو، ويكون بالفعل، فهو قضاء بتنفيذ، ويُسمّى عند الفقهاء بالقضاء الفعلي.

{ **وَلا تُنْظِرُونِ** } تأكيد لمدلول التضمين المشار إليه بحرف (إلى).

الإنظار: التأخير، وحذفت ياء المتكلّم من { تُنْظِرُونِ } للتخفيف، وهو حذف كثير في فصيح الكلام، وبقاء نون الوقاية مشعر بها.

{ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ } [72].

الفاء لتفريغ الكلام على الكلام فجملة الشرط وجوابه مفرعتان على الجملتين السابقتين، ولمّا كان تولّيهم عن دعوته قد وقع واستمر تعيّن أن جعل التولي في جملة الشرط مراد به ما كان حصل ليرتّب عليه جواب الشرط الذي هو شيء قد وقع أيضا. والمعنى: فإن تولّيتم فقد علمتم أنّي ما سألتكم أجرا فتتهموني برغبة في نفع ينجرّ لي من دعوتكم حتّى تعرضوا عنها شحّا بأموالكم أو اتهاما بتكذيبي، وهذا إلزام لهم بأن تولّيهم لم يكن فيه احتمال تهمتهم إيّاه بتطلّب نفع لنفسه. وبذلك برّأ نفسه من أن يكون سببا لتولّيهم.

{ **إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ** } تعميم لنفي تطلّبه أجرا على دعوتهم سواء منهم أم من غيرهم، فالقصر حقيقي وبه يحصل تأكيد جملة { فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ } مع زيادة التعميم.

وطريق جزمه بأنّ الله يؤجره على ذلك هو وعد الله إيّاه به بما أوحى إليه.

الأجر: العوض الذي يُعطى لأجل عمل يعمله آخذ العوض.

{ **وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** } معطوفة على جملة الجواب، أي: أمرني الله أن أتّبع الدين الحقّ ولو كنت وحدي. وهذا تأييس لهم بأنّ إجماعهم على التولّي عنه لا يفلّ حدّه ولا يصدّه عن مخالفة دينهم الضلال.

وبني الفعل للمجهول للعلم به، إذ من المعلوم من سياق الكلام أن الذي أمره هو الله تعالى. وقوله { **مِنَ الْمُسْلِمِينَ** } أي: من الفئة التي يصدق عليها هذا الوصف، أي: توحيد الله دون عبادة شريك.

وقد سُمّي التوحيد ودين الحقّ الخالص إسلاما في مختلف العصور، وسمَّى الله به سنن الرسل فحكاه عن نوح عليه السلام هنا.

وعن إبراهيم { إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ } [البقرة:131].

وعن إسماعيل { رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ } [البقرة:128].

وعن يعقوب وبنيه { وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } [البقرة:133].

وعن يوسف { تَوَفَّنِي مُسْلِماً } [يوسف:101].

وعن موسى { وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ } [يونس:8].

وعن سليمان { أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ } [البقرة:31].

وعن عيسى والحواريين { قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ } [المائدة:111].

وقد تقدّم بيان ذلك مفصّلا عند قوله تعالى { رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ } [البقرة:128].

{ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ } [73].

{ **فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ** } الفاء التي في جملة { فَنَجَّيْنَاهُ } للترتيب والتعقيب، لأنّ تكذيب قومه قد استمر إلى وقت إغراقهم وإنجاء نوح عليه السلام ومن اتّبعه. وهذا نظم بديع وإيجاز معجز، إذ رجع الكلام إلى التصريح بتكذيب قومه الذي لم يذكر قبل بل أشير له ضمنا بقوله { إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي } [71]، فكان كرد العجز على الصدر، ثم أشير إلى استمراره في الأزمنة كلّها حتّى انتهى بإغراقهم، فكان تفنّنا بديعا في النظم مع إيجاز بهيج.

وتقدّم ذكر إنجائه قبل ذكر الإغراق الذي وقع الإنجاء منه للإشارة إلى أنّ إنجاءه أهم عند الله تعالى من إغراق مكذّبيه، ولتعجيل المسرّة للمسلمين السامعين لهذه القصّة.

الفلك: السفينة. وتقدّم عند قوله تعالى { وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ } [البقرة:164].
الخلائف: جمع خليفة وهو اسم للذي يخلف غيره. وتقدّم عند قوله تعالى { إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً } [البقرة:30]. وصيغة الجمع هنا باعتبار الذين معه في الفلك.
{ **فَانْظُرْ** } هنا نظر عين، نزل خبرهم لوضوحه واليقين به منزلة المشاهد. يجوز أن يكون الخطاب لكلّ من يسمع، فلا يراد به معيّن. ويجوز أن يكون خطابا لمحمد صلى الله عليه وسلم، تعظيما لشأنه، بأنّ الذين كذّبوه يوشك أن يصيبهم من العذاب نحو مما أصاب قوم نوح عليه السلام، وفي ذلك تسلية له وإظهار لعناية الله به.

{ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ } [74].

{ **ثُمَّ** } للتراخي الرتبي، لأنّ بعثة رسل كثيرين إلى أمم تلقّوهم بمثل ما تلقّى به نوحًا قومُه أعجب من شأن قوم نوح، حيث تمالأت تلك الأمم على طريقة واحدة من الكفر.
{ **رُسُلاً** } أبهم الرسل في هذه الآية ووقع في آيات أخرى التصريح بأنهم: هود وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب. وقد يكون هنالك رسل آخرون كما قال تعالى { وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ } [النساء:164]. ويتعيّن أن يكون المقصود هنا من كانوا قبل موسى لقوله تعالى { ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى } [75]. وفي الآية إشارة إلى أنّ نوحا أوّل الرسل.
{ **فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ** } الفاء للتعقيب، أي: أظهروا لهم المعجزات بإثر إرسالهم. والباء للملابسة، أي: جاؤوا قومهم مبلّغين الرسالة ملابسين البيّنات.
البيّنات: هي الحجج الواضحة الدالة على الصدق.
{ **فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا** } الفاء للتفريع، أي: فترتّب على ذلك أنّهم لم يؤمنوا. وصيغ النفي بصيغة لام الجحود مبالغة في انتفاء الإيمان عنهم بأقصى أحوال الانتفاء. ودلّت أيضا على أنّ الرّسل حاولوا إيمانهم محاولة متكرّرة.
{ **بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ** } دلّ أن هنالك تكذيبا بادروا به لرسلهم، فلمّا كذّبوهم جاؤوهم بالبيّنات على صدقهم فاستمروا على التكذيب. وهذا من إيجاز الحذف لجمل كثيرة. وهذا يقتضي تكرّر الدعوة وتكرّر البيّنات، وإلّا لما كان لقوله تعالى { فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ } وقع، لأنّ التكذيب الذي حصل أوّل مرّة إذا لم يطرأ عليه ما من شأنه أن يقلعه كان تكذيبا واحدا منسيا. وهذا من بلاغة معاني القرآن.
{ **كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ** } الطبع مؤذن بأنّ قلوبهم قد ورد عليها ما حال دون تأثير البيّنات في

قلوبهم. وقد جُعل الطبع الذي وقع على قلوب هؤلاء مثلا لكيفيّات الطبع على قلوب المعتدين، أي: مثل هذا الطبع العجيب نطبع على قلوب المعتدين، فتأمّلوه واعتبروا به.

الطبع: الختم. وهو استعارة لعدم دخول الإيمان قلوبهم. وتقدّم في قوله { خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ } [البقرة:7].

الاعتداء: افتعال من عَدَا عليه، إذا ظلمه، فالمعتدين مرادف الظالمين، والمراد به المشركونّ لأنّ الشرك اعتداء، فإنّهم كذّبوا الرسل فاعتدوا على الصادقين بلمزهم بالكذب.

وقد جاء في نظير هذه الآية قوله تعالى { كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ } [الأعراف:101]، فهذا التخالف للتفنّن في حكاية هذه العبرة في الموضعين.

{ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأِهِ بِآياتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ } [75].

{ **ثُمَّ** } للتراخي الرتبي لأنّ بعثة موسى وهارون عليهما السلام كانت أعظم من بعثة من سبقهما من الرسل. وخُصّت بعثة موسى وهارون بالذكر لأنّها كانت انقلابا عظيما وتطوّرا جديدا في تاريخ الشرائع وفي نظام الحضارة العقلية والتشريعية، فإنّ الرسل الذين كانوا قبل موسى إنّما بُعثوا في أمم مستقلّة، وكانت أديانهم مقتصرة على الدعوة إلى إصلاح العقيدة، وتهذيب النفوس، وإبطال ما عظم من مفاسد في المعاملات، ولم تكن شرائع شاملة لجميع ما يُحتاج إليه من نُظم الأمّة وتقرير حاضرها ومستقبلها.

وأمّا بعثة موسى فقد أتت بتكوين أمّة، وتحريرها من استعباد أمّة أخرى إيّاها، وتكوين وطن مستقل لها، وتأسيس قواعد استقلالها، ووضع نظام سياسة الأمّة، وإعطاء كتاب يشتمل على قوانين حياتها الاجتماعية من كثير نواحيها. فبعثة موسى كانت أوّل مظهر عام من مظاهر الشرائع لم يسبق له نظير في تاريخ الشرائع ولا في تاريخ نظام الأمم، وهو مع تفوّقه على جميع ما تقدّمه من الشرائع قد امتاز بكونه تلقينا من الله المطّلع على حقائق الأمور، المريد إقرار الصالح وإزالة الفاسد.

{ **مُوسَى وَهَارُونَ** } جعل موسى وهارون مبعوثين كليهما من حيث إنّ الله استجاب طلب موسى أن يجعل معه أخاه هارون مؤيّدا ومعربا عن مقاصد موسى، فكان بذلك مأمورا من الله بالمشاركة في أعمال الرسالة، وقد بيّنته سورة القصص [33-35]، فالمبعوث أصالة هو موسى وأمّا هارون فبُعث معينا له وناصرا.

فرعون: ملك مصر، وهو منفتاح الثاني أحد فراعنة العائلة التاسعة عشرة من الأسر التي ملكت بلاد القبط، وقد مضى الكلام عليه عند قوله { ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأِهِ } [الأعراف:103].

{ **وَمَلَإِهِ** } خاصة النّاس وسادتهم، وذلك أن موسى بُعث الى بني إسرائيل وبُعث إلى فرعون وأهل دولته ليطلقوا بني إسرائيل.

{ **اسْتَكْبَرُوا** } السين والتاء للمبالغة في التكبّر، والمراد أنّهم تكبّروا عن تلقي الدعوة من موسى، لأنّهم احتقروه وأحالوا أن يكون رسولا من الله وهو من قوم مستعبدين استعبدهم فرعون وقومه، وهذا وجه اختيار التعبير عن إعراضهم عن دعوته بالاستكبار.

{ **وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ** } حال، والتركيب يفيد أنّ الإجرام كان دأبهم وخُلُقهم، فكان استكبارهم على موسى من جملة إجرامهم.

الإجرام: فعل الجرم، وهو الجناية والذنب العظيم. وتقدّم عند قوله تعالى { وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ } [الأعراف:40].

وقد كان الفراعنة طغاة جبابرة فكانوا يعتبرون أنفسهم آلهة للقبط وكانوا قد وضعوا شرائع لا تخلو عن جور، وكانوا يستعبدون الغرباء، وقد استعبدوا بني إسرائيل وأذلّوهم قرونا، فإذا سألوا حقّهم استأصلوهم ومثّلوا بهم وقتلوهم، كما حكى الله عنهم في قوله تعالى { إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ } [القصص:4]. وكان القبط يعتقدون أوهاما ضالة وخرافات، فلذلك قال الله تعالى { وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ }، أي: فلا يستغرب استكبارهم عن الحق والرشاد.

{ **فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ** [76] **قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ** [77] }.

أي: لمّا رأوا المعجزات التي هي حقّ ثابت وليست بتخيّلات وتمويهات، وعلموا أنّ موسى صادق فيما ادّعاه تدرّجوا من مجرّد الإباء المنبعث عن الاستكبار إلى البهتان المنبعث عن الشعور بالمغلوبيّة.

الحقّ: يطلق اسما على ما قابل الباطل وهو العدل الصالح، ويطلق وصفا على الثابت الذي لا ريبة فيه، كما يقال: أنت الصديق الحقّ. ويلازم الإفراد لأنّه مصدر وصف به. والذي أثبت له المجيء هنا هو الآيات التي أظهرها موسى إعجازا لهم لقوله قبله { ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا } [103]، فكان جعل الحقّ جائيا بتلك الآيات صالحا لمعنيي الحقّ، لأنّ تلك الآيات لمّا كانت ثابتة لا ريبة فيها كانت في ذاتها حقّا، فمجيئها حصولها، وظهورها المقصود منه إثبات صدق موسى في رسالته فكان الحق جائيا معها، فمجيئه ثبوته كقوله تعالى { وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ } [الإسراء:81].

وبهذا يظهر أن لكلمة { **الْحَقُّ** } ولكلمة { **مِنْ عِنْدِنَا** } هنا، من الوقع في الدلالة على تمام المعنى المراد ما ليس لغيرهما في الإيجاز، وهذا من حدّ الإعجاز.

وبهذا تبيّن أنّ الآية دالة على أنّ آيات الصدق ظهرت وأنّ المحجوجين أيقنوا بصدق موسى وأنّه جاء

بالحقّ. واعتذارهم عن ظهور الآيات بأنّها سحر هو اعتذار المغلوب العديم الحجّة الذي قهرته الحجّة وبهره سلطان الحقّ، فلم يبق له منتشب من المعارضة المقبولة فهو يهرع إلى انتحال معارضات بمعاذير لا تدخل تحت التمحيص ولا تثبت في محك النقد.

{ **إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ** } الإشارة إلى ما هو مشاهد بينهم حين إظهار المعجزة مثل انقلاب العصا حية، وخروج اليد بيضاء. أي: أنّ هذا العمل الذي تشاهدونه سحر مبين.

{ **قَالَ مُوسَى** } مجاوبة منه عن كلامهم ففصلت على الطريقة التي استخرجناها في حكاية الأقوال. وتولى موسى وحده دون هارون مجادلتهم لأنّه المباشر للدعوة أصالة، ولأنّ المعجزات ظهرت على يديه.

{ **أَتَقُولُونَ** } استفهام إنكاري. واللام في { **لِلْحَقِّ** } لام التعليل. وبعضهم يسميها لام البيان. وبعضهم يسميها لام المجاوزة بمعنى (عن).

{ **أَسِحْرٌ هَذَا** } مستأنفة للتوبيخ والإنكار، أنكر موسى عليهم وصفهم الآيات الحقّ بأنّها سحر. والإشارة تفيد التعريض بجهلهم وفساد قولهم. ولذلك كان مفعول { أَتَقُولُونَ } محذوفا لدلالة الكلام عليه، فالتقدير: أتقولون هذا القول للحقّ لمّا جاءكم.

{ **وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ** } معطوفة على { أَسِحْرٌ هَذَا }. لمّا نفى موسى عن آيات الله أن تكون سحرا ارتقى فأبان لهم فساد السحر وسوء عاقبة معالجيه تحقيرا لهم، لأنّهم كانوا ينوّهون بشأن السحر.

{ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ } [78].

{ **أَجِئْتَنَا** } الاستفهام إنكاري، بنوا إنكارهم على تخطئة موسى فيما جاء به، وعلى سوء ظنّهم به وبهارون في الغاية التي يتطلبانها { وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ }.

{ **تَلْفِتَنَا** } مضارع لَفَتَ، متعدّيا إذا صرف وجهه عن النظر إلى شيء مقابل لوجهه. والفعل القاصر منه ليس إلّا للمطاوعة يقال: التفت. وهو هنا مستعمل مجازا في التحويل عن العمل أو الاعتقاد إلى غيره، فأصله استعارة تمثيليّة ثمّ غلبت حتّى صارت مساوية الحقيقة.

{ **عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا** } جمعت الصلة (ما) كلّ الأحوال التي كان آباؤهم متلبسين بها.

{ **وَجَدْنَا** } الإشارة إلى أنّهم نشأوا عليها وعقلوها، وذلك مما يكسبهم تعلّقا بها، وأنّها كانت أحوال آبائهم وذلك مما يزيدهم تعلّقا بها تبعا لمحبة آبائهم، لأنّ محبّة الشيء تقتضي محبّة أحواله وملابساته.

وقد جاءهم موسى لقصد لفتهم عمّا وجدوا عليه آباءهم فكان ذلك محلّ الإنكار، لأنّ تغيير ذلك يحسبونه إفسادا. قال تعالى { قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ } [الأعراف:127].

{ **وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ** } أرادوا أنّهم تفطّنوا لغرض موسى وهارون في مجيئها إليهم بما جاؤوا به، وهو الاستحواذ على سيادة مصر بالحيلة. و**الكبرياء**: العظمة وإظهار التفوّق على النّاس.
الأرض: هي المعهودة بينهم، وهي أرض مصر، كقوله { يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ } [الأعراف:110].
{ **لَكُمَا** } أتوا في خطاب موسى بضمير المثنّى المخاطب لأنّ هارون كان حاضرا فالتفتوا عن خطاب الواحد إلى خطاب الاثنين. وإنّما شرّكوا هارون في هذا الظنّ من حيث إنّه جاء مع موسى ولم يباشر الدعوة فظنوا أنه جاء معه لينال من سيادة أخيه حظا لنفسه.
{ **وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ** } عطف على جملة { أَجِئْتَنَا }، وهي في قوّة النتيجة لتلك الجملة بما معها من العلّة، أي: لما تبيّن مقصدكما فما نحن لكما بمؤمنين. وتقديم { لَكُمَا } على متعلّقه لأنّ المخاطبين هما الأهم من جملة النفي، لأنّ انتفاء إيمانهم في زعمهم كان لأجل موسى وهارون إذ توهموهما متطلّبي نفع لأنفسهما.
{ **وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ** } جملة اسمية لإفادة الثبات والدوام، وأنّ انتفاء إيمانهم بهما متقرّر متمكّن لا طماعيّة لأحد في ضدّه.

{ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ [79] فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ [80] فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ [81] وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ [82] }.
{ **وَقَالَ فِرْعَوْنُ** } عطف على { قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ } [76]، فهذه الجملة في حكم جواب ثان لحرف (لمّا) <u>حكي أوّلا</u> ما تلقى به فرعون وملؤه دعوة موسى ومعجزته من منع أن يكون ما جاء به تأييدا من عند الله. <u>ثم حكي ثانيا</u> ما تلقى به فرعون خاصة تلك الدعوة من محاولة تأييد قوله { إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ } ليثبت أنّه قادر بما أوتي من سلطان على الإتيان بمثلها.
{ **ائْتُونِي** } المخاطب هم ملأ فرعون وخاصته الذين بيدهم تنفيذ أمره.
{ **بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ** } أمر بإحضار جميع السحرة المتمكّنين في علم السحر لأنّهم أبصر بدقائقه، وأقدر على إظهار ما يفوق خوارق موسى في زعمه. والعموم عموم عرفي، أي: بكل ساحر تعلمونه وتظفرون به. أو أريد { بِكُلِّ } معنى الكثرة.
{ **فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ** } عطف بفاء التعقيب للدلالة على الفور في إحضارهم، وهو تعقيب بحسب المتعارف في الإسراع بمثل الشيء المأمور به، والمعطوف في المعنى محذوف لأنّ الذي يعقب قوله { ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ } هو إتيانهم بهم، ولكن ذلك لقلة جدواه في الغرض الذي سيقت القصّة لأجله حُذف

استغناء عنه بما يقتضيه ويدلّ عليه دلالة عقلية ولفظية من قوله تعالى { جَاءَ السَّحَرَةُ } على طريقة الإيجاز. والتقدير: فأتوه بهم فلما جاؤوا قال لهم موسى.

{ **قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ** } وإنّما أمرهم موسى بأن يبتدئوا بإلقاء سحرهم إظهارا لقوّة حجّته، لأنّ شأن المبتدئ بالعمل المتباري فيه أن يكون أمكن في ذلك العمل من مباريه، ولا سيما الأعمال التي قوامها التمويه والترهيب، والتي يتطلّب المستنصر فيها السبق إلى تأثر الحاضرين وإعجابهم.وقد ذكر القرآن في آيات أخرى أنّ السحرة خيروا موسى بين أن يبتدئ هو بإظهار معجزته وبين أن يبتدئوا، وأن موسى اختار أن يكونوا المبتدئين.

الإلقاء: رمي شيء في اليد إلى الأرض. وإطلاق الإلقاء على عمل السحر لأنّ أكثر تصاريف السحرة في أعمالهم السحرية يكون برمي أشياء إلى الأرض. وقد ورد في آيات كثيرة أنّهم ألقوا حبالهم وعصيّهم، وأنّها يخيّل من سحرهم أنها تسعى، وكان منتهى أعمال الساحر أن يخيّل الجماد حيّا.

{ **مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ** } قصد به التعميم البدلي، أي: شيء تلقونه، وهذا زيادة في إظهار عدم الاكتراث بمبلغ سحرهم، وتهيئة للملأ الحاضرين أن يعلموا أنّ الله مبطل سحرهم على يد رسوله.

وقد طوي ذكر صورة سحرهم في هذه الآية، لأنّ الغرض من العبرة في هذه الآية وصف إصرار فرعون وملئه على الإعراض عن الدعوة، وما لقيه المستضعفون الذين آمنوا بموسى عليه السلام من اعتلاء فرعون عليهم، وكيف نصر الله رسوله والمستضعفين معه، وكيف كانت لهم العاقبة الحسنى ولمن كفروا عاقبة السوء، ليكونوا مثلا للمكذّبين بمحمد صلى الله عليه وسلم. ولذلك لم يعرّج بالذكر إلّا على مقالة موسى عليه السلام حين رأى سحرهم، الدالة على يقينه بربه ووعده، وبأنّ العاقبة للحقّ.

{ **فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ** } أي: ما أظهرتموه لنا، فالمجيء قد استعمل مجازا في الإظهار.

{ **إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ** } خبر (ما) الموصولة على قراءة الجمهور، وتأكيد الخبر بـ { إنّ } زيادة في إلقاء الروع في نفوسهم. و**إبطاله**: إظهار أنّه تخييل ليس بحقيقة، أي: أن الله سيبطل تأثيره على النّاس بفضح سرّه.

{ **إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ** } معترضة، وهي تعليل لمضمون جملة { إن الله سيبطله }.

{ **الْمُفْسِدِينَ** } التعريف بلام الجنس من التعميم في جنس الإصلاح المنفي وجنس المفسدين، ليعلم أنّ سحرهم هو من قبيل عمل المفسدين. والمراد بإصلاح عمل المفسدين الذي نفاه أنّه لا يؤيّده.

{ **وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ** } معطوفة على { إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ }، أي: سيبطله ويحق الحق، أي: يثبت المعجزة.

الإحقاق: التثبيت. ومنه سُمّي الحقّ حقّا لأنّه الثابت.

الكلمات: مستعارة لتعلّق قدرته تعالى بالإيجاد وهو التعلّق المُعبّر عنه بالتكوين الجاري على وفق إرادته

وعلى وفق علمه. وهي استعارة رشيقة، لأنّ ذلك التعلّق يشبه الكلام في أنّه ينشأ عنه إدراك معنى ويدل على إرادة المتكلّم وعلى علمه.

{ **وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ** } في موضع الحال، و(لو) وصلية. لأن تلك الكراهية من شأنها أن تبعثهم على معارضة الحقّ الذي يسوءهم ومحاولة دحضه، فأعلمهم أن الله خاذلهم.

{ **الْمُجْرِمُونَ** } فرعون وملأه، عدل عن ضمير الخطاب إلى الاسم الظاهر لما فيه من وصفهم بالإجرام تعريضا بهم. وإنّما لم يخاطبهم بصفة الإجرام عدولا عن مواجهتهم بالذم، وقوفا عند أمر الله تعالى، إذ قال له { فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً } [طه:44]، فأتى بالقضية في صورة قضية كليّة وهو يريد أنّهم من جزئيّاتها بدون تصريح بذلك. وموسى كان محاولا فرعون وملأه أن يؤمنوا، فكان في مقام الترغيب باللين.

{ **فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَأِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ** } [83].

تفريع على ما تقدّم من المحاورة، أي: فتفرّع على ذلك أنّ فرعون وملأه لم يؤمنوا بموسى، لأنّ حصر المؤمنين في ذرّيّة من قوم موسى يفيد أنّ غيرهم لم يؤمنوا وهو المقصود، فكانت صيغة القصر في هذا المقام إيجازا.

وقد طوي ما حدث بين المحاورة وبين تصميمهم على الإعراض، وهو إلقاء موسى عصاه والتقامها ما ألقوه من سحرهم، لعدم تعلّق الغرض ببيان ذلك إذ المقصود الإفضاء إلى أنّهم صمّموا على الإعراض لأنّ ذلك محلّ تمثيل أعمالهم بحال مشركي أهل مكّة.

{ **آمَنَ** } أصله (أَأْمن) بهمزتين، إحداهما أصلية في الكلمة لأنّ الكلمة مشتقة من الأمانة، والثانية همزة مزيدة للتعدية، أي: جعله ذا أمانة، أي: غير كاذب، فصار فعل { آمَنَ } بمعنى صدّق، وحقّه أن يُعدّى إلى المفعول بنفسه ولكن عُدّي باللام للتفرقة بين (آمن) بمعنى صدّق من الأمانة، وبين (آمن) بمعنى جعله في أمن، أيّ لا خوف عليه منه.

{ **لِمُوسَى** } هذه اللام سمّاها ابن مالك لام التبيين وتبعه ابن هشام، وهي تدخل على المفعول لتقوية معنى المفعولية. وقد يعدّى بالباء لتضمنه معنى صدّق كما في قوله تعالى { قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرائيلَ } [يونس:90].

الذرّيّة: الأبناء، وتقدّم في قوله تعالى { ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ } [آل عمران:34].

{ **عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَأِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ** } و(على) بمعنى (مع)، أي: آمنوا مع خوفهم. وهذا ثناء عليهم بأنّهم آمنوا ولم يصدّهم عن الإيمان خوفهم من فرعون.

<u>والمعنى</u>: أنّهم آمنوا عند ظهور معجزته، أي: أعلنوا الإيمان به في ذلك الموطن لأنّ الإيمان لا يعرف إلّا بإظهاره ولا فائدة منه إلّا ذلك الإظهار. أي: من الحاضرين في ذلك المشهد من بني إسرائيل. وهذا لا

يقتضي أنّ بقية قومه كفروا به، إذ يحتمل أن يكونوا آمنوا به بعد ذلك لمّا بلغتهم دعوته، لأنّه يكون قد ابتدأ بدعوة فرعون مبادرة لامتثال الأمر من الله بقوله تعالى { اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى } [طه: 43]، فيكون المأمور به ابتداء هو دعوة فرعون وتخليص بني إسرائيل من الأسر.

{ **وَمَلَإِهِمْ** } تقدّم آنفا في هذه القصة، وأضيف الملأ إلى ضمير الجمع وهو عائد إلى الذرّيّة، أي: على خوف من فرعون وعلى خوف من قومهم، وهم بقية القوم الذين لم يحضروا ذلك المشهد خشية أن يغضبوا عليهم ويؤذوهم لإيمانهم بموسى لما يتوقّعون من مؤاخذة فرعون بذلك جميع قبيلتهم على عادة الجبابرة في أخذ القبيلة بفعلة من بعض رجالها.

الفَتْنُ: إدخال الروع والاضطراب على العقل بسبب تسليط ما لا تستطيع النفس تحمّله، وتقدّم في قوله تعالى { وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ } [البقرة:191].

{ **وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ** } في موضع الحال فهي عطف على قوله تعالى { عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ }، وهي تفيد معنى التعليل لخوفهم من فرعون، فبعد أن أثنى عليهم بأنّهم آمنوا في حال شدّة الخوف زاد فبيّن أنّهم أحقاء بالخوف، وفي هذا زيادة ثناء على قوّة إيمانهم. وتأكيد الخبر بـ (إنّ) للاهتمام بتحقيق بطش فرعون.

العلوّ: مستعار للغلبة والاستبداد.

الإسراف: تجاوز حدّ الاعتدال المعروف في فعل، فهو تجاوز مذموم، وأشهر موارده في الإنفاق، ولم يُذكر متعلق الإفراط فتعيّن أن يكون إسرافا فيما عرف به ملوك زمانهم من الصفات المكروهة عند النّاس الملازمة للملوك في العادة.

{ **مِنَ الْمُسْرِفِينَ** } أبلغ في وصفه بالإسراف من أن يقال: وإنّه لمسرف.

{ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ [84] فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [85] وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ [86] }.

هذا خطاب موسى لجميع قومه، وهم بنو إسرائيل الذين بمصر، وهو يدلّ على أنّه خاطبهم بذلك بعد أن دعاهم وآمنوا به كما يؤذن به قوله { إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ }. والمعنى: إن كنتم آمنتم بالله حقّا كما أظهرته أقوالكم فعليه اعتمدوا في نصركم ودفع الضرّ عنكم، ولا تعتمدوا في ذلك على أنفسكم بمصانعة فرعون، ولا على فرعون بإظهار الولاء له.

أراد إثارة صدق إيمانهم وإلهاب قلوبهم بجعل إيمانهم معلّقا بالشرط محتمل الوقوع، حيث تخوّفوا من فرعون أن يفتنهم فأرادوا أن يكتموا إيمانهم تقيّة من فرعون وملئهم، وإنّما جُعل عدم اكتراثهم ببطش فرعون علامة على إيمانهم لأنّ الدعوة في أوّل أمرها لا تتقوّم إلّا بإظهار متّبعيها جماعتَهم، فلا تُغتفر فيها التقيّة حينئذ. وبذلك عمل المسلمون الأوّلون مثل بلال، وعمّار، وأبي بكر، فأعلنوا الإيمان وتحمّلوا

الأذى، وإنّما سوّغت التقيّة للآحاد من المؤمنين بعد أن تقوم جامعة الإيمان، فذلك محل قوله تعالى { مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ } [النحل:106].

التوكّل: تقدّم آنفا في قصة نوح.

{ **إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ** } شرط ثان مؤكد لشرط { إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ }، فحصل من مجموع الجملتين أن حصول هذا التوكّل متوقف على حصول إيمانهم وإسلامهم، لمزيد الاعتناء بالتوكّل وأنّه ملازم للإيمان والإسلام، ومبيّن أيضا للشرط الأول، أي: إن كان إيمانكم إيمان مسلّم لله، أي: مخلص له غير شائب إيّاه بتردّد في قدرة الله ولا في أنّ وعده حقّ.

الإيمان: تصديق الرسول فيما جاء به وهو عمل قلبي، ولا يعتبر شرعا إلّا مع الإسلام.

الإسلام: النطق بما يدلّ على الإيمان ولا يعتبر شرعا إلّا مع الإيمان.

فالإيمان انفعال قلبي نفساني، والإسلام عمل جسماني، وهما متلازمان في الاعتداد بهما في اتباع الدين إذ لا يعلم حصول تصديق القلب إلّا بالقول والطاعة، وإذ لا يكون القول حقًّا إلّا إذا وافق ما في النفس، قال تعالى { قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ } [الحجرلت:14]. وقد ورد ذلك صريحا في حديث سؤال جبريل في الصحيحين.

{ **فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** } كان صادق إيمانهم مع نور الأمر النبوي الذي واجههم به نبيّهم مسرعا بهم إلى التجرّد عن التخوّف والمصانعة، وإلى عقد العزم على التوكل على الله، فلذلك بادروا بجوابه بكلمة { عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا } مشتملة على خصوصية القصر المقتضي تجرّدهم عن التوكّل على غير الله تعالى.

{ **فَقَالُوا** } أشير إلى مبادرتهم بأن عطفت جملة قولهم ذلك على مقالة موسى بفاء التعقيب خلافا للأسلوب الغالب في حكاية جمل الأقوال الجارية في المحاورات أن تكون غير معطوفة، فخولف مقتضى الظاهر لهذه النكتة.

ثم ذيّلوا كلمتهم بالتوجه إلى الله بسؤالهم من أن يقيهم ضرّ فرعون. وسمَّوا ذلك فتنة لأنّها تزيد الناس توغلا في الكفر، والكفر فتنة. فمعنى سؤالهم أن لا يجعلهم الله فتنة: هو أن لا يجعلهم سبب فتنة.

{ **لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** } لأنّ الشرك ظلم، ولأنّه يشعر بأنّهم تلبسوا بأنواع الظلم؛ ظلم أنفسهم، وظلم الخلائق.

{ **وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ** } ثم سألوا ما فيه صلاحهم فطلبوا النجاة من القوم الكافرين، أي: من بطشهم وإضرارهم.

{ **وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ** } [87].

وقع الوحي بهذا الأمر إلى موسى وهارون عليهما السلام لأنّه من الأعمال الراجعة إلى تدبير أمر الأمّة، فيمكن الاشتراك فيها بين الرّسول ومؤازره.

التبوّؤ: اتخاذ مكان يسكنه، وهو تفعّل من البوء، أي: الرجوع، كأنّ صاحب المسكن يكلّف نفسه الرجوع إلى محل سكنه ولو كان تباعد عنه في شؤون اكتسابه. أي: اجعلا قومكما متبوّئين بيوتا. وأسند هنا إلى ضمير موسى وهارون - عليهما السلام - على طريقة المجاز العقلي، إذ كانا سبب تبوّؤ قومهما للبيوت. ومعنى تبوؤ البيوت لقومهما أن يأمرا قومهما باتخاذ البيوت على الوصف الذي يأمرانهم به. وإذ قد كان لبني إسرائيل ديار في مصر من قبل، إذ لا يكونون قاطنين مصر بدون مساكن، وقد كانوا ساكنين أرض (جاسان) قرب مدينة (منفيس) قاعدة المملكة يومئذ في جنوب البلاد المصرية، كما بيّناه في سورة البقرة، لا جرم أن تكون البيوت المأمور بتبوئها غير البيوت التي كانوا ساكنيها.

واضطرب المفسّرون في المراد من هذه البيوت وذكروا روايات غير ملائمة لحالة القوم يومئذ. فقيل: أريد بالبيوت بيوت العبادة أي مساجد يصلّون فيها. وقيل: البيوت بيوت السكنى وأمسكوا عن المقصود من هذه البيوت.

<u>فالذي يظهر لي</u> أنّ هذه البيوت خيام أو أخصاص أمرهم الله باتخاذها تهيئة للارتحال وهي غير ديارهم التي كانوا يسكنونها في (جاسان) قرب مدينة فرعون. وقد جاء في التوراة ما يشهد بهذا التأويل في الفصل الرابع من سفر الخروج، أنّ الله أمر موسى أن يخرج ببني إسرائيل إلى البادية ليعملوا عيد الفصح ثلاثة أيام وأنّ ذلك أوّل ما سأله موسى من فرعون، وأنّ فرعون منعهم من ذلك، وأنّ موسى كرّر طلب ذلك من فرعون كلّ ذلك يمنعه، كما في الفصل السابع والفصل الثامن من سفر الخروج، وقد صار لهم ذلك عيدا بعد خروجهم.

{ **وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً** } أي: هذه الخيام أو الأخصاص التي تتخذونها تجعلونها مفتوحة إلى القبلة. قاله ابن عطيّة عن ابن عباس.

القبلة: اسم في العربية لجهة الكعبة. وتلك الجهة هي ما بين المشرق والمغرب لأنّ قبلة بلاد مصر كقبلة المدينة ما بين المشرق والمغرب وهي الجنوب، فيجوز أن يكون التعبير عن تلك الجهة بالقبلة في الآية حكاية لتعبير موسى عنها بما يدل على معنى التوجّه إلى الجهة التي يصلّون إليها، وهي قبلة إبراهيم، فيكون أمر بني إسرائيل يومئذ جاريا على الملّة الحنيفيّة قبل أن ينسخ بالاستقبال إلى صخرة القدس. ويجوز أن يكون موسى قد عبّر بما يفيد معنى الجنوب فحكيت عبارته في القرآن باللفظ المرادف له الشائع في التعبير عن الجنوب عند العرب وهو كلمة قبلة.

والحكمة في جعل البيوت إلى القبلة أنّ الشمس تدخلها من أبوابها في غالب أوقات النهار في جميع

الفصول وفي ذلك منافع كثيرة.

والذين فسّروا البيوت بأنها بيوت السكنى فسروا قبلة إمّا بمعنى متقابلة، وإمّا بمعنى اجعلوا بيوتكم محلّ صلاتكم، وكلا التفسيرين بعيد عن الاستعمال.

وأمّا الذين تأوّلوا البيوت بالمساجد فقد فسروا القبلة بأنها قبلة الصلاة، أي: جهة الكعبة.

وعن ابن عباس: كانت الكعبة قبلة موسى. وعن الحسن: كانت الكعبة قبلة كل الأنبياء. وهذا التفسير يلائم تركيب { اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً } لأنّ التركيب اقتضى أنّ المجعول قبلة هو البيوت أنفسها لا أن تجعل الصلاة فيها إلى جهة القبلة.

فإذا افتقدنا التأويلات كلّها لا نجدها إلّا مفكّكة متعسفة خلا التفسير الذي عوّلنا عليه، وقد اختلفوا فيه فهدانا الله إليه.

{ **وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ** } أمرهم بإقامة الصلاة، أي: التي فرضها الله عليهم على لسان موسى، والتي كانوا يصلّونها من قبل مجيء موسى اتباعا لإبراهيم عليه السلام وأبنائه. والظاهر أن الداعي إلى أمرهم بإقامة الصلاة أن اتخاذ البيوت كان في حالة رحيل فكانت حالتهم مظنّة الشغل عن إقامة الصلوات فلذلك أمروا بالمحافظة على إقامة الصلاة في مدّة رحلتهم.

{ **وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ** } مشعرة بترقّب أخطار وتخوف، فإنّهم قالوا { رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً } فأمر موسى أنّ يبشّرهم بحسن العاقبة، وأنّهم منصورون على عدوهم وناجون منه. والمؤمنون هم قوم موسى.

{ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ } [88].

عطف بقية ما جرى في القصّة ممّا فيه عبرة وموعظة. وهذا مقدّمة لخبر خروج موسى ومن معه من أرض مصر. فهذه المقدّمة لتعريف كرامة موسى عليه السلام على ربّه بأن استجاب له دعاءه، وأنفذ برسالته مراده تعالى من إنقاذ بني إسرائيل من الاستعباد.

ومهّد موسى لدعائه تمهيدا يدلّ على أنّ ما سأله من الله لزجر فرعون وملئه إنّما هو لمصلحة الدين لا للانتقام منه لقومه ولنفسه، فسأل الله سلب النعمة عن فرعون وملئه وحلول العذاب بهم لخضد شوكتهم وتذليل تجبّرهم ليرجعوا عن ضلالهم ويسهل قبولهم الإيمان.

ولمّا كانت النعمة مغرية بالطغيان لأهل الجهالة والخباثة جعل موسى إمداد فرعون بالنّعمة مغريا لفرعون بالاسترسال على الإعراض عن الدين فكان دعاء موسى عليهم استصلاحا لهم وتطلّبا لإيمانهم بوسائل التشديد عليهم، ولكن الله علم من قلوبهم ما لم يعلمه موسى وقضى عليهم بالاستئصال.

{ **رَبَّنَا** } افتتح الدعاء بالنداء لمناسبته لمقام الدعاء. ونادى الله بوصف الربوبيّة تذلّلا لإظهار العبوديّة.

{ **إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً** } توطئة للدعاء عليهم، والخبر مستعمل في التمهيد لطلب سلب النعمة عنهم.

{ **لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ** } تردّد المفسّرون في محل اللام، والذي سلكه أهل التدقيق منهم أنّ اللام **لام العاقبة**. ونقل ذلك عن نحاة البصرة، الخليل وسيبويه، والأخفش، وأصحابهما، على نحو اللام في قوله تعالى { فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً } [القصص:8].

فالمعنى: إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فضلّوا بذلك وأضلّوا.

وللمفسّرين وجوه خمسة أخرى:

أحدها: أن يكون للتعليل، وأن المعنى: إنك فعلت ذلك استدراجا لهم، ونسب إلى الفراء، وفسّر به الطبري.

الثاني: أنّ الكلام على حذف حرف، والتقدير: لئلا يضلوا عن سبيلك أي: فضلوا. حكاه الفخر.

الثالث: أن اللام لام الدعاء. روي هذا عن الحسن. واقتصر عليه في الكشاف. وقاله ابن الأنباري. وهو أبعد الوجوه وأثقلها.

الرابع: أن يكون على حذف همزة الاستفهام. والتقدير: ليضلوا عن سبيلك آتيناهم زينة وأموالا تقريرا للشنعة عليهم، قاله ابن عطية. ويكون الاستفهام مستعملا في التعجب، قاله الفخر.

الخامس: تأويل معنى الضلال بأنّه الهلاك، قاله الفخر.

وهي وجوه ضعيفة متفاوتة الضعف فلا نطيل بتقريرها.

الزينة: ما يتزيّن به النّاس، وما يحسن في أنظارهم من طرائف الدنيا، كالحليّ والجواهر والمباني الضخمة. قال تعالى { زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ } [آل عمران:14].

الأموال: ما به قوام المعاش، فالزينة تلهيهم عن اتباع المواعظ، وتعظّم شأنهم في أنظار قومهم، والأموال يسخّرون بها الرعيّة لطاعتهم. وقد كان للفراعنة من سعة الرزق ورفاهية العيش ما سار ذكره في الآفاق.

{ **رَبَّنَا ... رَبَّنَا** } أعيد النداء بين الجملة المعلِّلة والجملة المعلَّلة لتأكيد التذلّل والتعرّض للإجابة ولإظهار التبرّؤ من قصد الاعتراض.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو جعفر، ويعقوب { لِيَضِلُّوا } بفتح الياء. وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي بضم الياء على معنى سعيهم في تضليل الناس. والمعنى الحاصل من القراءتين متّحد لأنّهم إذا ضلّوا في أنفسهم وهم قادة قومهم كان ضلالهم تضليلا لغيرهم، وكذلك إذا أضلّوا النّاس فإنّهم ما أضلّوهم إلّا وهم ضالون مثلهم. وقد علمت آنفا أنّ الزينة سبب ضلالهم والأموال سبب إضلال النّاس.

{ **رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ** } هي المقصود من هذا الكلام، والنداء يقوم مقام وصل

الجملة بما قبلها بمنزلة حرف العطف. وأعيد النداء ثالث مرة لزيادة تأكيد التوجه والتضرّع.

الطمس: المحو والإزالة. وفعله يتعدّى بنفسه كما في قوله تعالى { مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً } [النساء:47]. ويُعدّى بحرف (على) كما هنا وفي قوله تعالى { وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ } [يس:66]. ولعل تعديته بـ (على) لإرادة تمكّن الفعل من المفعول، أو لتضمين الطمس معنى الاعتلاء، فطمس الأموال إتلافها وإهلاكها.

{ **وَاشْدُدْ** } أحسب أنّه مشتقّ من الشدّ، وهو العسر. ومنه الشدّة للمصيبة والتحرّج، ولو أريد غير ذلك لقيل: واطبع، أو واختم، أو نحوهما. والمعنى: أدخل الشدّة في قلوبهم.

القلوب: النفوس والعقول.

المعنى: أنّه يدعو عليهم بالأنكاد والأحزان التي تجعل قلوبهم في ضيق وحرج، أي: اجعلهم في عناء وبلبلة بال ما داموا في الكفر. وهذا حرص منه على وسائل هدايتهم رجاء أنّهم إذا زالت عنهم النعم وضاقت صدورهم بكروب الحياة تفكّروا في سبب ذلك فعجّلوا بالتوبة إلى الله، كما هو معتاد النفوس الغافلة، قال تعالى { وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ } [الزمر:8].

{ **فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ** } فاء السببيّة في جواب الدعاء، أي: افعل بهم ذلك ليؤمنوا. والفعل منصوب بـ (أن) مضمرة إضمارا واجبا بعد فاء السببية.

وإنّما عدل عن إيقاع جواب الدعاء بصيغة إثبات الإيمان، إلى إيراده بصيغة نفي مغيّا بغاية هي رؤية العذاب سلوكا لأسلوب بديع في نظم الكلام، لأنّه أراد أن يجمع بين ترتيب الجواب على الدعاء وبين ما استبان له من طبع نفوسهم بطبع أنّهم لا تنفع فيهم الحجج، وأنّ قساوة قلوبهم وشراسة نفوسهم لا تذلّلها إلّا الآلام الجسديّة والنفسانية، وكل ذلك علاج بما هو مظنّة إيصالهم من طرق الضغط والشدّة، حيث لم تجد فيهم وسائل الحجّة. وهذا إيجاز بديع إذ جمع في هذا التركيب جواب الدعاء وبيان علة الدعاء عليهم بذلك.

وأصل الكلام: فيؤمنوا، فإنّهم لا يؤمنون إلّا إذا رأوا العذاب الأليم.

الرؤية: مستعملة في الإحساس على وجه المجاز المرسل، أو مستعملة كناية عن حلول العذاب بهم، لأنّ المشاهدة ملازمة لحلول الشيء المشاهد.

العذاب الأليم: عذاب الفقر والجوع وعذاب النكد في النفس.

{ **قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** } [89].

جواب من الله لكلام موسى جرى على طريقة حكاية المحاورات أن لا تُعطف جملها كما تقدّم غير مرة.

{ **قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا** } أضيفت الدعوة إلى ضمير التثنية المخاطب به موسى وهارون، وإن كانت الدعوة إنّما حكيت عن موسى عليه السلام وحده، لأنّ موسى عليه السلام دعا لما كان هارون مواطئا له وقائلا

بمثله لأن دعوتهما واحدة. وقيل: كان موسى عليه السلام يدعو وهارون عليه السلام يؤمّن.
ومعنى إجابة الدعوة إعطاء ما سأله موسى ربّه أن يسلب عن فرعون وملئه النعم، ويوالي عليهم المصائب حتّى يسأموا مقاومة دعوة موسى وتنحط غلواؤهم، قال تعالى { وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ } [الأعراف:130]، وقال تعالى { فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ } [الأعراف:133].
{ **فَاسْتَقِيمَا** } فُرّع على إجابة دعوتهما أمرهما بالاستقامة، فعُلم أنّ الاستقامة شكر على الكرامة، فإنّ إجابة الله دعوة عبده إحسان للعبد وإكرام، وتلك نعمة عظيمة تستحق الشكر عليها، وأعظم الشكر طاعة المنعِم. وإذ قد كان موسى وهارون مستقيمين، وناهيك باستقامة النبوّة، كان أمرهما بالاستقامة مستعملا في الأمر بالدوام عليها. ومن الاستقامة أن يستمرّا على الدعوة إلى الدين ولا يضجرا. فكان أمرهما بالاستقامة جامعا لجميع خصال الخير والصلاح.
الاستقامة: حقيقتها الاعتدال، وهي ضدّ الاعوجاج، وهي مستعملة كثيرا في معنى ملازمة الحقّ والرشد، لأنّه شاع تشبيه الضلال والفساد بالاعوجاج والالتواء. وقيل للحقّ: طريق مستقيم. وفي حديث أبي عمرة الثقفي قال: قلت: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك. قال: **" قل: آمنت بالله ثم استقم ".**
{ **وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** } أُعقب حثّهما على الاستقامة بالنهي عن اتباع طريق الذين لا يعلمون، وإن كان ذلك مشمولا بالاستقامة، تنبيها على توخّي السلامة من العدول عن طريق الحقّ اهتماما بالتحذير من الفساد.
السبيل: الطريق، وهو هنا مستعمل للسيرة والعمل الغالب.
{ **وَلا تَتَّبِعَانِّ** } قرأه الجمهور بتشديد النون مكسورة. وهما نونان: إحداهما نون المثنّى والأخرى نون التوكيد. وقرأ ابن ذكوان عن ابن عامر { وَلا تَتَّبِعَانِ } بنون خفيفة مكسورة. وهي نون رفع المثنّى لا نون التوكيد، فتعيّن أن تكون (لا) على هاته القراءة نافية غير ناهية، والجملة في موضع الحال والواو واو الحال، لأنّ جملة الحال المضارعة المفتتحة بحرف نفي يجوز اقترانها بالواو وعدمه.

{ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرائيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرائيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ } [90].
معطوفة على جملة { وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً } عطف الغرض على التمهيد، أي: أمرناهما باتخاذ تلك البيوت تهيئة للسفر ومجاوزة البحر.
{ **وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرائيلَ الْبَحْرَ** } أي: قطعنا بهم البحر، وتقدّم نظيره في [الأعراف:138]. ومجاوزتهم البحر تقتضي خوضهم فيه، وذلك أنّ الله جعل لهم طرائق في البحر يمرّون منها.

{ **فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً** } بمعنى لحقهم. يقال: تبعه فأتبعه إذا سار خلفه فأدركه. ومنه قوله تعالى { فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ } [الصافات:10].

البغي: الظلم، مصدر بغى. وتقدّم عند قوله تعالى { وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ } [الأعراف:33].

العَدْوَ: مصدر عدا. وهو تجاوز الحدّ في الظلم، وهو مسوق لتأكيد البغي.

المعنى: أنّ فرعون دخل البحر يتقصّى آثارهم فسار في تلك الطرائق يريد الإحاطة بهم ومنعهم من السفر، وإنّما كان اتّباعه إيّاهم ظلما وعدوانا، إذ ليس له فيه شائبة حقّ، لأنّ بني إسرائيل أرادوا مفارقة بلاد فرعون وليست مفارقة أحد بلده محظورة إن لم يكن لأحد عليه حق في البقاء، فإنّ لذي الوطن حقا في الإقامة في وطنه فإذا رام مغادرة وطنه فقد تخلّى عن حقّ له، وللإنسان أن يتخلى عن حقّه، فلذلك كان الخلع في الجاهلية عقابا، وكان النفي والتغريب في الإسلام عقوبة لا تقع إلّا بموجب شرعي، وكان الإمساك بالمكان عقابا، ومنه السجن، فليس الخروج من الوطن طوعا بعدوان. فلمّا رام فرعون منع بني إسرائيل من الخروج وشدّ للحاق بهم لردهم كرها كان في ذلك ظالما معتديا، لأنّه يبتغي بذلك إكراههم على البقاء، ولأنّ غرضه من ذلك تسخيرهم.

{ **حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرائيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ** }

{ **حَتَّى** } ابتدائية لوقوع { **إِذَا** } الفجائية بعدها. والتقدير: حتّى أدركه الغرق فإذا أدركه الغرق قال: آمنت.

الإدراك: اللحاق وانتهاء السير. وهو يؤذن بأنّ الغرق دنا منه تدريجيّا بهول البحر ومصارعته الموج، وهو يأمل النجاة منه، وأنّه لم يظهر الإيمان حتى أيس من النجاة وأيقن بالموت، وذلك لتصلّبه في الكفر. وقد بني نظم الكلام على جملة { إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ }، وجعل ما معها كالوسيلة إليها، فجعلت { حَتَّى } لبيان غاية الإتباع وجعلت الغاية أن قال { آمَنْتُ } لأنّ إتباعه بني إسرائيل كان مندفعا إليه بدافع حنقه عليهم لأجل الدين الذي جاء به رسولهم ليخرجهم من أرضه، فكانت غايته إيمانه بحقّهم، ولذلك قال { الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرائيلَ } ليفيد مع اعترافه بالله تصويبه لبني إسرائيل فيما هدوا إليه، فجعل الصلة طريقا لمعرفته بالله، ولعدم علمه بالصفات المختصة بالله إلّا ما تضمّنته الصلة إذ لم يتبصّر في دعوة موسى تمام التبصر، ولذلك احتاج أن يزيد { وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ } لأنّه كان يسمع من موسى دعوته لأنّ يكون مسلما فنطق بما كان يسمعه وجعل نفسه من زمرة الذين يحق عليهم ذلك الوصف، ولذلك لم يقل: أسلمت، بل قال: أنا من المسلمين.

وسيأتي قريبا في تفسير الآية التي بعد هذه تحقيق صفة غرق فرعون، وما كان في بقاء بدنه بعد غرقه.

{ **آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ [91] فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ [92]** }.

مقول لقول حذف لدلالة المقام عليه، تقديره: قال الله. وهو جواب لقوله { آمَنْتُ } لأنّه قصد بقوله ذلك

طلب الإنجاء من الغرق اعترافا لله بالربوبية، فكأنّه وجّه إليه كلاما.

{ **الْآنَ** } الاستفهام إنكاري. ظرف لفعل محذوف دلّ عليه قوله { آمَنْتُ }، تقديره: الآن تؤمن.

والإنكار مؤذن بأنّ الوقت الذي عُلّق به الإنكار ليس وقتا ينفع فيه الإيمان، لأن الاستفهام الإنكاري في قوة النفي، فيكون المعنى: لا إيمان الآن.

وإنّما لم ينفعه إيمانه لأنّه جاء به في وقت حصول الموت. وهو وقت لا يُقبل فيه إيمان الكافر ولا توبة العاصي، كما تقدّم عند قوله تعالى { وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ } [النساء:18].

{ **كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ** } الصيغة أبلغ في الوصف بالإفساد من: وكنت مفسدا، كما تقدّم آنفا.

{ **فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ** } الفاء فاء الفصيحة، تُفصح عن شرط مقدّر في الكلام يدل عليه السياق.

<u>المعنى</u>: فإن رمت بإيمانك بعد فوات وقته أن أنجيك من الغرق فاليوم ننجيك ببدنك. والكلام جار مجرى التهكّم، فإطلاق الإنجاء على إخراجه من البحر استعارة تهكّميّة. وليس مسوغها التهكّم المحض كما هو الغالب في نوعها، بل فيها علاقة المشابهة، لأنّ إخراجه إلى البرّ كاملا يشبه الإنجاء، ولكنّه ضد الإنجاء، فكان بالمشابهة استعارة، وبالضديّة تهكّما.

{ **بِبَدَنِكَ** } الأظهر أنّ الباء مزيدة للتأكيد، أي: تأكيد آية إنجاء الجسد، فيكون (بدنك) في معنى البدل المطابق من الكاف في { نُنَجِّيكَ }.

البدن: الجسم بدون روح وهذا احتراس من أن يُظنّ المراد الإنجاء من الغرق. لأنّه لو لم يكن المقصود الاقتصار على تلك الحالة لما كان داع للبليغ أن يزيد ذلك القيد، فإن كل زيادة في الكلام البليغ يقصد منها معنى زائد، وإلّا لكانت حشوا في الكلام والكلام البليغ موزون، ولغة العرب مبنية على أساس الإيجاز.

{ **لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً** } أي: من وراءك، في معنى المتأخّر والباقي، أي: من ليسوا معك. أي: لتكون ذاته آية على أنّ الله أعظم وأقهر من فرعون وآلهته. لأنّهم كانوا يزعمون أنّ الفرعون لا يُغلب، وأنّه حين يموت إنّما يُنقل إلى دار الخلود. ولذلك كانوا يموّهون على النّاس فيبنون له البيوت في الأهرام ويودعون بها لباسه وطعامه ورياشه وأنفس الأشياء عنده، فموته بالغرق وهو يتبع أعداءه ميتة لا تؤوّل بشيء من ذلك.

ولم يعدم فرعون فائدة من إيمانه، فإنّ الله بحكمته قدّر له الخروج من غمرات الماء، فلم يبق في الماء أكلة للحيتان ولكن لفظته الأمواج، وتلك حالة أقل خزيا من حالات سائر جيشه.

{ **فَالْيَوْمَ** } أي: الآن، لأنّ اسم اليوم أطلق على جزء من زمن الحال مجازا بعلاقة الكلية والجزئية.

{ **وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ** } تذييل لموعظة المشركين، والواو اعتراضية، أو واو الحال. والمراد، دفع توهّم النقص عن آيات الله عندما يُحرم كثير من النّاس الاهتداء بها، فهي في ذاتها دلائل هدى سواء انتفع بها بعض النّاس أم لم ينتفعوا، فالتقصير منهم.

واعلم أن هذه الآية أصرح آية في القرآن دلالة على أنّ فرعون الذي أرسل إليه موسى والذي أتبع بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر قد أصابه الغرق. وقد أشارت إليه آية سورة الأعراف وآية سورة البقرة. وفرعون هذا هو منفطاح الثاني، ويقال له (مَيْرِنْبَتَا)، بباء فارسية أو (منفتاح)، أو (منيفتا) وهو ابن رعمسيس الثاني المعروف عند اليونان باسم (**سَيْزُوستريس**)، من ملوك العائلة التاسعة عشرة من الأسر الفرعونية، وكانوا في حدود سنة (1491 ق م).

ومؤرخو القبط لم يتعرّضوا لصفة موته، وما ذلك إلّا لأن الكهنة أجمعوا على إخفائها كيلا يتطرّق الشك إلى الأمّة فيما يمجّد به الكهنة كل فرعون من صفات بنوّة الآلهة. وخلفته في ملك مصر ابنته المسمّاة (طوسير) لأنه تركها وابنا صغيرا.

وقد جاء ذكر غرق فرعون في التوراة في الإصحاح الرابع عشر من سفر الخروج بعبارات مختلفة الصراحة والإغلاق.

ومن دقائق القرآن قوله تعالى { فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً } وهي عبارة لم يأتِ مثلها فيما كتب من أخبار فرعون، وإنّها لمن الإعجاز العلمي في القرآن إذ كانت الآية منطبقة على الواقع التاريخي.

{ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرائيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } [93].

لمّا ضرب الله مثل السوء أتبعه بمثل الصلاح بحال الذين صدّقوا الرسول واتّبعوه، وكيف كانت عاقبتهم الحسنى، ليظهر الفرق بين مصيري فريقين جاءهم رسول فآمن به فريق وكفر به آخر، ليكون ذلك ترغيبا للمشركين في الإيمان، وبشارة للمؤمنين من أهل مكّة.

فالمراد ببني إسرائيل القوم المتحدّث عنهم، وترتيب الإخبار يقتضي أنّ الله بوّأهم مبوّأ صدق عقب مجاوزتهم البحر وغرق فرعون وجنوده، فإنّهم دخلوا بعد ذلك صحراء التيه وأمنوا على أنفسهم وأقبلوا على تزكية نفوسهم وإصلاح شؤونهم، ورزقوا المنّ والسلوى، وأعطوا النصر على الأمم التي تعرّضت لهم، تحاول منعهم من امتلاك الأرض الطيّبة. فما زالوا يتدرّجون في مدارج الخير والإنعام، فذلك مبوّأ الصدق. فما اختلف أولئك ولا من خلفهم من أبنائهم وأخلافهم.

التبوّؤ: تقدم آنفا، والمبوّأ: مكان البوء، أي: الرجوع، والمراد المسكن كما تقدّم،

الصدق: هنا بمعنى الخالص في نوعه. وتقدّم عند قوله تعالى { أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ } [2].

{ **مُبَوَّأَ صِدْقٍ** } المراد: ما فتح الله عليهم من بلاد فلسطين وما فيها من خصب وثراء، قال تعالى { وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا } [الأعراف:137].

{ **فَمَا اخْتَلَفُوا** } تفريع على { بَوَّأْنَا }، تفريع ثناء عليهم بأنّهم شكروا تلك النعمة ولم يكفروها كما كفرها

المشركون الذين بوّأهم الله حرما آمنا تجبى إليه ثمرات كلّ شيء، فجعلوا لله شركاء، ثم كفروا بالرّسول المرسل إليهم. فوقع في الكلام إيجاز حذف. وتقدير معناه: فشكروا النعمة واتّبعوا وصايا الأنبياء وما خالفوا ذلك إلّا من بعد ما جاءهم العلم.

الاختلاف: افتعال أريد به شدّة التخالف، وهي مشتقة من الاسم الجامد وهو (الخلف) لمعنى الوراء، فتعيّن أن زيادة التاء للمبالغة مثل (اكتسب) مبالغة في (كسب). فيُحمل على خلاف شديد، وهو مضادة ما جاء به الدين وما دعا إليه الرّسول صلى الله عليه وسلم. وهو المناسب للسياق فإنّ الكلام ثناء مردف بغاية تؤذن أن ما بعد الغاية نهاية للثناء وإثبات للوم، فالذين لم يختلفوا هم الذين بوّأهم الله مبوّأ صدق. إلى أن جاء الذين اختلفوا على الأنبياء، وهؤلاء ما صدق ضمير الرفع في قوله تعالى { جَاءَهُمُ الْعِلْمُ }.

{ **حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ** } يجوز أن يكون ما جاءهم به الأنبياء من شرع الله فلم يعملوا بما جاؤوهم به، وأعظم ذلك تكذيبهم بمحمد صلى الله عليه وسلم . ويجوز أن يكون العلم هو القرآن. فعن ابن عباس: هم اليهود الذين كانوا في زمن النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم كانوا قبل مبعثه مقرّين بنبيٍّ يأتي، فلمّا جاءهم العلم، وهو القرآن، اختلفوا في تصديق محمد صلى الله عليه وسلم. قال ابن عباس: هم قريظة والنضير وبنو قينقاع.

وعلى هذا الوجه يكون معنى الآية كمعنى قوله تعالى { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ } [آل عمران:19]، وقوله تعالى { وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ } [البينة:4]، فإن البيّنة هي محمد صلى الله عليه وسلم، لأن قبل هذا قوله تعالى { لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً} [2/1].

وهذا المحمل هو المناسب لحرف (حتّى). وتعقيب { فَمَا اخْتَلَفُوا } بالغاية يؤذن بأنّ ما بعد الغاية منتهى حالة الشكر، أي: فبقوا في ذلك المبوّأ، وفي تلك النعمة، حتّى اختلفوا فسُلبت نعمتهم، فإنّ الله سلبهم أوطانهم.

{ **إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** } تذييل وتوعّد، والمقصود منه: أنّ أولئك قوم مضوا بما عملوا وأنّ أمرهم إلى ربهم، كقوله تعالى { تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ } [البقرة: 134]، وفيه إيماء إلى أنّ على الحاضرين اليوم أن يفكّروا في وسائل الخلاص من الضلال والوقوع في المؤاخذة يوم القيامة.

{ **فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ** [94] **وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ** } [95].

تفريع على سياق القصص التي جعلها الله مثلا لأهل مكّة وعظة بما حلّ بأمثالهم. انتقل بهذا التفريع من أسلوب إلى أسلوب، كلاهما تعريض بالمكذّبين، فالأسلوب السابق تعريض بالتحذير من أن يحلّ بهم ما حلّ بالأمم المماثلة لهم، وهذا الأسلوب الموالي تعريض لهم بشهادة أهل الكتاب على تلك الحوادث، وما في الكتب السابقة من الأنباء برسالة محمد صلى الله عليه وسلم.

{ **مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ** } هو المنزّل الذي تفرع عليه هذا الكلام وهو ما أنزل في هذه السورة من القصص.

ثمّ إنّ الآية تحتمل معنيين لا يستقيم ما سواهما:

أوّلهما: أن تبقى الظرفية التي دلّت عليها (في) على حقيقتها، ويكون الشكّ قد أطلق وأريد به أصحابه، أي: فإن كنت في قوم أهل شكّ ممّا أنزلنا إليك، أي: يشكّون في وقوع هذه القصص، كما يقال: دخل في الفتنة، أي: في أهلها. ويكون معنى { فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ } فاسأل أهل الكتاب سؤال تقرير وإشهاد عن صفة تلك الأخبار يخبروا بمثل ما أخبرتهم به، فيزول الشك من نفوس أهل الشكّ، إذ لا يحتمل تواطؤك مع أهل الكتاب على صفة واحدة لتلك الأخبار.

فالمقصود من الآية إقامة الحجة على المشركين بشهادة أهل الكتاب من اليهود والنصارى قطعا لمعذرتهم.

ثانيهما: أن تكون (في) للظرفيّة المجازية كالتي في قوله تعالى { فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ } [هود:109]، ويكون سوق هذه المحاورة إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم على طريقة التعريض لقصد أن يسمع ذلك المشركون فيكون استقرار حاصل المحاورة في نفوسهم أمكن ممّا لو ألقي إليهم مواجهة.

وهذه طريقة في الإلقاء التعريضي يسلكها الحكماء وأصحاب الأخلاق متى كان توجيه الكلام إلى الذي يقصد به مظنّة نفور كما في قوله تعالى { لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } [الزمر:65]، أو كان في ذلك الإلقاء رفق بالذي يُقصد سوق الكلام إليه، كما في قصّة الخصم من اللذين اختصما إلى داود المذكورة في سورة (ص).

وكلا الاحتمالين يلاقي قوله تعالى { فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ } فإنّه يقتضي أنّ المسؤول عنه ممّا لا يكتمه أهل الكتاب، وأنّهم يشهدون به، وإنّما يستقيم ذلك في القصص الموافقة لما في كتبهم، فإنّهم لا يتحرّجون من إعلانها والشهادة بها.

{ **فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ** } جواب للشرط باعتبار ما تفيده مادة السؤال من كونهم يجيبون بما يزيل الشك، فبذلك يلتئم التلازم بين الشرط والجواب.

{ **لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ** } مستأنفة استئنافا بيانيّا لجواب سؤال ناشئ عن الشرط وجوابه، كأن السامع يقول: فإذا سألتهم ماذا يكون؟ فقيل: لقد جاءك الحق من ربك.

{ **لَقَدْ** } لمّا كان المقصود من ذلك علم السامعين بطريق التعريض لا علم الرسول صلى الله عليه وسلم، لأنّه ليس بمحلّ الحاجة لإعلامه بأنّه على الحق، قرنت الجملة بحرفي التأكيد (لام القسم - قد) لدفع إنكار المعرّض بهم.

{ **فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ** } تعريض أيضا بالمشركين.

الامتراء: الشكّ فيما لا شبهة للشك فيه. فهو أخصّ من الشك.

{ **وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ** } أصرح في التعريض بهم.

{ **فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ** } هذا يقتضي أنهم خاسرون. ونظيره { لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } [الزمر:65].

<u>وحاصل المعنى</u>: فإن كنتم شاكين في صدق ما أنزلنا على محمد ممّا أصاب المكذّبين قبلكم فاسألوا أهل الكتاب يخبروكم بأنّ ذلك صدق. لقد جاءكم الحقّ من رب محمد صلى الله عليه وسلم فلا تكونوا شاكين ولا تكذّبوا بآيات الله فتكونوا خاسرين.

{ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ [96] وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ [97] }.

لمّا سبق التعريض بالمشركين الشّاكين في صدقه صلى الله عليه وسلم والاستشهاد عليهم في صدقه بشهادة أهل الكتاب أعقِب ذلك بأنّهم من زمرة الفرق الذين حقّت عليهم كلمة الله أن لا يؤمنوا، فهم لا تجدي فيهم الحجّة لأنّهم أهل مكابرة وليسوا طالبين للحقّ، فالذين لم يؤمنوا بما يجيء من الآيات هم ممّن علم الله أنّهم لا يؤمنون. وهذا مسوق مساق التأييس من إيمانهم.

حقّت، ثبتت. و**عَلَيْهِمْ**: للاستعلاء المجازي، وهو تمكّن الفعل الذي تعلّقت به.

{ **كَلِمَتُ رَبِّكَ** } أمر التكوين، على مراعاة الجنس، أي: يحق على كلّ أمّة كلمة. وجمعت الكلمات (في قراءة نافع) بالنظر إلى أنّ متعلّقها ناس كثيرون، فكل واحد منهم تحقّ عليه كلمة.

<u>ويحتمل</u> أن تُجعل الجملة في موضع التعليل للقصص السابقة، فتكون بمنزلة التذييل، والموصول للعموم الجامع جميع الأمم التي هي بمثابة الأمم المتحدَّث عنهم، وتكون { **إنّ** } لمجرّد الاهتمام بالخبر، فتفيد التعليل والربط، وتغني عن فاء التفريع، كما تقدّم غير مرّة، ويكون في الآية تعريض آخر بالمشركين.

{ **وَلَوْ** } وصلية للمبالغة، أي: لا يؤمنون ولو جاءتهم كلّ آية، فكيف إذا لم تجئهم إلّا بعض الآيات.

{ **كُلُّ آيَةٍ** } مستعملة في معنى الكثرة، وهو استعمال كثير في القرآن. كما في قوله تعالى { وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا } [البقرة:27]. أي: ولو جاءتهم آيات كثيرة.

رؤية العذاب: كناية عن حلوله بهم.

<u>المعنى</u>: أنّهم لا يؤمنون إلّا حين لا ينفعهم الإيمان، لأنّ نزول العذاب هو ابتداء مجازاتهم على كفرهم. ومن بركة هذا الدين أن الذين كفروا به قد هداهم الله قبل أن يُنزل بهم عذابا.

{ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ } [98].

الفاء لتفريع التغليط على امتناع أهل القرى من الإيمان بالرسل قبل أن ينزل بهم العذاب على الإخبار بأنّ الذين حقّت عليهم كلمة الله أن لا يؤمنوا لا يؤمنون حتّى يروا العذاب. والغرض من ذكر أهل القرى التعريض بالمقصود، وهم أهل مكّة، فإنّهم أهل قرية. فكان ذلك كالتخلّص بالتعريض إلى المخصوصين به، وللإفضاء به إلى ذكر قوم يونس فإنّهم أهل قرية.

{ **فَلَوْلا** } الفاء للتفريع و(لولا) حرف يرد لمعان منها التوبيخ، وهو هنا مستعمل في لازم التوبيخ كناية عن التغليط، لأنّ أهل القرى قد انقضوا، وذلك أنّ أصل معنى (لولا) التحضيض، وهو طلب الفعل بحثّ، فإذا دخلت على فعل قد فات وقوعه كانت مستعملة في التغليط والتنديم والتوبيخ على تفويته، ويكون ما بعدها في هذا الاستعمال فعل ماضي مثل قوله تعالى { وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا } [النور:16]. والمقصود: التعريض بأنّ مشركي أهل مكّة يوشك أن يكونوا على سنن أهل القرى. وذلك تعريض بتحريض أهل مكّة على الإيمان قبل نزول العذاب.

{ **قَوْمَ يُونُسَ** } هم أهل قرية **نَيْنَوَى** [هي إحدى مدن بلاد أشور من العراق كائنة على الضفة اليسرى من الدجلة بناها الملك أشور سنة (2229 ق م) وكانت مصطافا لملوك أشور من عهد شلمناصر الأوّل]، وهم خليط من الآشوريين واليهود الذين كانوا في أسر ملوك بابل بعد بختنصر. وكانت بعثة يونس إليهم في أول القرن الثامن قبل المسيح. وقد تقدّم ذكر يونس وترجمته في سورة الأنعام.

ولمّا كذّبه أهل نينوى توعّدهم بخسف مدينتهم بعد أربعين يوما، وخرج من المدينة غاضبا عليهم، فلمّا خرج خافوا نزول العذاب بهم فتابوا وآمنوا بالله فقبل الله إيمانهم ولم يعذّبهم. والمذكور أنّهم رأوا غيما أسود بعد مضي خمسة وثلاثين يوما من حين توعّدهم يونس عليه السلام بحلول العذاب فعلموا أنّه مقدّمة العذاب فآمنوا وخضعوا لله تعالى فأمسك عنهم العذاب.

والمستخلص من الروايات الواردة في قوم يونس أنّهم بادروا إلى الإيمان بعد أن فارقهم يونس، توقّعا لنزول العذاب، وقبل أن ينزل بهم العذاب، وذلك دليل على أنّ معاملة الله إيّاهم ليست مخالفة لما عامل به غيرهم من أهل القرى، وأن ليست لقوم يونس خصوصيّة، وبذلك لا يكون استثنائهم استثناءا منقطعا.

وسيجيء ذكر ما حل بيونس عليه السلام في خروجه ذلك من ابتلاع الحوت إيّاه في سورة الأنبياء.

{ **لَمَّا آمَنُوا** } مستأنفة لتفصيل مجمل معنى الاستثناء. وفي الآية إيماء إلى أنّ أهل مكّة يعاملهم الله معاملة قوم يونس إذ آمنوا عند رؤية العذاب. وذلك حالهم عندما تسامعوا بقدوم جيش غزوة الفتح الذي لا قبل لهم به عَدّة وعُدّة، فيكاد يحل بهم عذاب استئصال لولا أنّهم عجّلوا بالإيمان يوم الفتح. فقال لهم النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" أنتم الطلقاء "**.

الكشف: إزالة ما هو ساتر لشيء، وهو هنا مجاز في الرفع. عُبّر عن الرفع وإبطال العذاب قبل وقوعه بالكشف تنزيلا لمقاربة الوقوع منزلة الوقوع.

الخزي: الإهانة والذلّ. وإضافة العذاب إلى الخزي <u>يجوز</u> كونها بيانيّة لأنّ العذاب كلّه خزي، <u>ويجوز</u> أن تكون الإضافة حقيقيّة للتخصيص، ويكون المراد من الخزي الحالة المتصوّرة من حلوله. وهي شناعة الحالة لمن يشاهدهم مثل الخسف والحرق والغرق، وأشنع الخزي ما كان بأيدي أناس مثلهم، وهو عذاب السيف الذي حل بصناديد قريش يوم بدر، والذي كاد أن يحل بجميع قريش يوم فتح مكّة فنجّاهم الله منه كما نجّى قوم يونس.

{ **فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** } صفة لـ { عَذَابَ الْخِزْيِ } للإشارة إلى أنّ العذاب الذي يحلّ بالأمم الكافرة هو عقاب في الدنيا وبعده عقاب في الآخرة، وأنّ الأمم التي لم تُعذّب في الدنيا قد ادُّخِر لها عذاب الآخرة.

التمتيع: الإمهال.

{ **إِلَى حِينٍ** } إبهام، لأنّه مختلف باختلاف آجال آحادهم. والمراد به التمتيع بالحياة لا بكشف العذاب، لأنّهم بعد موتهم ناجون من العذاب إذ كانوا قد آمنوا وأخلصوا.

<u>ولعل الحكمة في نجاة قوم يونس تتمثل في أمرين</u>:

أحدهما: أنّ الله علم أنّ تكذيبهم يونس عليه السلام في ابتداء دعوته لم يكن ناشئا عن تصميم على الكفر واستخفاف بعظمة الله، ولكنه كان شكًّا في صدق يونس عليه السلام. ولعلّ ذلك أنّهم كانوا على بقيّة من شريعة موسى عليه السلام، وإنّما حرّفوا وحادوا عن طريق الإيمان ممّا يعلمه الله، فإنّ في نينوى كثيرا من أسرى بني إسرائيل الذين كانوا في أسر الآشوريين كما علمت آنفا، فلما أوعدهم يونس عليه السلام بالعذاب بعد أربعين يوما ورأوا أماراته بعد خمسة وثلاثين يوما اهتدوا وآمنوا إيمانا خالصا.

ثانيهما: أنّ يونس عليه السلام لمّا صدرت منه فلتة المغاضبة كان قد خلط في دعوته شيئا من حظّ النفس، وإن كان لفائدة الدين، فقدّر الله إيمان قومه ليرشده إلى أنّ كمال الإيمان في الصبر والتسليم لله، وهذا عتاب وتأديب بينه وبين ربّه، ولذلك حذر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الأمّة من توهّم أنّ ما جرى ليونس عليه السلام من المغاضبة والمعاقبة ينقص من قدره فقال صلى الله عليه وسلم: **" لا ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متّى "**، يعني: في صحة الرسالة لا في التفاضل فيها.

{ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** } [99].

تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم على ما لقيه من قومه. وهذا تذييل لما تقدّم من مشابهة حال قريش مع النبيّ صلى الله عليه وسلم بحال قوم نوح وقوم موسى وقوم يونس. وهذه الجملة كالمقدّمة الكلّية للجملة التي بعدها { أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ } المفرّعة على الجملة الأولى، وهي المقصود من التسلية.

النّاس: العرب، أو أهل مكّة منهم، وذلك إيماء إلى أنّهم المقصود من سوق القصص الماضية كما بيّنّاه.

{ **كُلُّهُمْ** } التأكيد للتنصيص على العموم المستفاد من { **مَنْ** } الموصولة فإنّها للعموم.

{ **جَمِيعاً** } لزيادة رفع احتمال العموم العرفي دون الحقيقي.

<u>المعنى</u>: لو شاء الله لجعل مدارك النّاس متساوية منساقة إلى الخير، فكانوا سواء في قبول الهدى والنظر الصحيح.

{ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ** } (لو) تقتضي انتفاء جوابها لانتفاء شرطها. فالمعنى: لكنّه لم يشأ ذلك، فاقتضت حكمته أن خلق عقول الناس متأثّرة ومنفعلة بمؤثرات التفاوت في إدراك الحقائق فلم يتواطؤا على الإيمان.

{ **أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** } مفرَّعة على التي قبلها، لأنّه لمّا تقرّر أنّ الله لم تتعلّق مشيئته باتفاق النّاس على الإيمان بالله تفرّع على ذلك إنكار ما هو كالمحاولة لتحصيل إيمانهم جميعا.

والاستفهام إنكاري، فنزل النبيّ صلى الله عليه وسلم لحرصه على إيمان أهل مكّة وحثيث سعيه لذلك بكل وسيلة صالحة منزلة من يحاول إكراههم على الإيمان حتّى ترتّب على ذلك التنزيل إنكاره عليه.

وهذا تعريض بالثناء على النبيّ ومعذرة له على عدم استجابتهم إيّاه، ومن بلغ المجهود حقّ له العذر.

وليس تقديم المسند إليه هنا مفيدا للتخصيص، أي القصر، لأنّ المقام غير صالح لاعتبار القصر، إذ مجرد تنزيل النبيّ صلى الله عليه وسلم منزلة من يستطيع إكراه النّاس على الإيمان كاف في الإشارة إلى تشبيه حرصه على إيمانهم بحرص من يستطيع إكراههم عليه.

{ **وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ** } [100].

عطف على { أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ } لتقرير مضمونها، لأنّ مضمونها إنكار أن يقدر النبيّ صلى الله عليه وسلم على إلجاء النّاس إلى الإيمان، لأنّ الله هو الذي يقدر على ذلك.

<u>ويجوز</u> أن تكون الواو للحال من ضمير المخاطب، أي: كيف يمكنك أن تكره النّاس على الإيمان والحال أنّه لا تستطيع نفس أن تؤمن إلّا بإذن الله لها بالإيمان.

الإذن: هنا إذن تكوين وتقدير. فهو خلق النفس مستعدّة لقبول الحقّ مميّزة بين الحق والباطل، والصلاح والفساد، متوصّلة بالنظر الصحيح إلى معرفة ما ينبغي أن يُتّبع وما لا ينبغي، متمكّنة بصحّة الإرادة من زجر داعية الهوى والأعراض العاجلة، ومن اتّباع داعية الحقّ والعاقبة الدائمة، حتّى إذا وُجّه إليها

الإرشاد حصل فيها الهدى. ويومئ إلى هذا المعنى من الإذن قوله تعالى { وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ } فقابل هذه الحالة بحالة الذين لا يعقلون، فعلم أنّ حالة الإيمان حالة من يعقلون.

الرجس: حقيقته الخبث والفساد. وأطلق هنا على الكفر، لأنّه خبث نفساني، والقرينة مقابلته بالإيمان.

{ **عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ** } نفي العقل المستقيم، أي: الذين لا تهتدي عقولهم إلى إدراك الحقّ ولا يستعملون عقولهم بالنظر في الأدلة.

{ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ } [101].

أي: فادعهم إلى النظر في دلائل الوحدانيّة والإرشاد إلى تحصيل أسباب الإيمان ودفع غشاوات الكفر، وذلك بالإرشاد إلى النظر والاستدلال بما هو حول الإنسان من أحوال الموجودات وتصاريفها الدالة على الوحدانية مثل أجرام الكواكب وتقادير مسيرها، وأحوال النور والظلمة والرياح والسحاب والمطر...

{ **قُلِ** } للاهتمام بمضمونها. وقد عُمّم ما في السماوات والأرض لتتوجّه كلّ نفس إلى ما هو أقرب إليها وأيسر استدلالا عليه لديها.

النظر: مستعمل هنا فيما يصلح للنظر القلبي والنظر البصري، وجيء بعده بالاستفهام المعلّق لكلا الفعلين بحيث أصبح حمل النظر على كليهما على حد السواء فصار صالحا للمعنيين الحقيقي والمجازي، وذلك من مقاصد القرآن.

{ **وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ** } معترضة، فيجوز أن تكون متمّمة لمقول القول ممّا أُمر النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يقوله لهم، ويجوز أن تكون استئناف كلام من الله تعالى.

المعنى: أبلغهم ما أمرت بتبليغه إليهم وليست تغني الآيات عن قوم لا يؤمنون. وذلك أنّ القرآن جاء للنّاس بالاستدلال وبالتخويف ثم سجّل على هذا الفريق بأنّه لا تنجع فيه الآيات والأدلة ولا النذر والمخوّفات.

{ **قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ** } يفيد أنّ انتفاء الإيمان عنهم وصف عُرفوا به وأنّه مستقرّ من نفوسهم، لأنّ اجتلاب لفظ

{ قَوْمٍ } هنا مع صحّة حلول غيره محله يشير إلى أنّ الوصف المذكور بعده من مقوّمات قوميتهم لأنّه صار من خصائصهم، بخلاف ما لو قيل: عمّن لا يؤمنون.

{ فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ [102] **ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ** [103] }.

الاستفهام مجاز تهكّمي إنكاري، نزلوا منزلة من ينتظرون شيئا يأتيهم ليؤمنوا، وليس ثمّة شيء يصلح

لأن ينتظروه إلّا أن ينتظروا حلول مثل أيام الذين خلوا من قبلهم التي هلكوا فيها. وضُمّن الاستفهام معنى النفي بقرينة الاستثناء المفرَّع. والتقدير: فهل ينتظرون شيئا؟ ما ينتظرون إلّا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم.

{ **أَيَّامِ** } أطلقت على ما يقع فيها من الأحداث العظيمة. كإطلاق (أيام العرب) على الوقائع الواقعة فيها.

{ **قُلْ فَانْتَظِرُوا** } مفرّعة على { فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ } وفُصل بينهما بـ { قُلْ } لزيادة الاهتمام، ولينتقل الكلام من مخاطبة الله رسولَه صلى الله عليه وسلم إلى مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم قومَه، وبذلك يصير التفريع بين كلامين مختلفي القائل. على أنّ الاختلاف بين كلام الله وكلام الرسول صلى الله عليه وسلم، في مقام الوحي والتبليغ، اختلاف ضعيف، لأنّهما آئلان إلى كلام واحد. وهذا موقع غريب لفاء التفريع.

والكلام يتضمّن وعد الله نبيّه بأنّه يرى ما ينتظرهم من العذاب، فهو وعيد، وهو يتضمّن النصر عليهم. وسيصرّح بذلك في قوله تعالى { ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا }.

{ **إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ** } استئناف بياني مستعمل كناية عن ترقّبه النصر، إذ لا يُظنّ به أنّه ينتظر سوءا فتعيّن أنّه ينتظر من ذلك ضدّ ما يحصل لهم، فالمعيّة في أصل الانتظار لا في الحاصل بالانتظار.

{ **ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا** } لمّا كانوا مهدّدين بعذاب يحلّ بموضع فيه الرّسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون عجّل الله البشارة للرّسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بأنّه ينجّيهم من ذلك العذاب بقدرته كما أنجى الرسل من قبله.

{ **كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ**} تذييل. و{ حَقّاً عَلَيْنَا } جملة معترضة لأنّ المصدر بدلٌ من الفعل، أي: حقّ ذلك علينا حقا. وجعله الله حقّا عليه تحقيقا للتفضّل به والكرامة حتّى صار كالحقّ عليه.

وقرأ الجمهور { نُنَجِّ المؤمنين } بفتح النون الثانية وتشديد الجيم على وزان { نُنَجِّي رُسُلَنَا }، وقرأ الكسائي، وحفص عن عاصم { نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ } بسكون النون الثانية وتخفيف الجيم من الإنجاء، فالمخالفة بينه وبين نظيره الذي قبله تفنّن، والمعنى واحد.

{ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } [104].

هذه الجملة متّصلة المعنى بجملة { قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [101]، إذ المقصود من النظر المأمور به هنالك النظر للاستدلال على إثبات الوحدانيّة. فلمّا أمرهم بالنظر المؤدي إلى إثبات انفراده تعالى بالإلهية أعقبه بأن يخبرهم بأنّهم إن استمروا على الشكّ فيما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فإنّ الرسول صلى الله عليه وسلم ثابت على ما جاء به، وأنّ دلائل صحّة دينه بيّنة للناظرين.

{ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ** } المشركون من أهل مكّة، أو جميع أمّة الدعوة الذين لمّا يستجيبوا للدعوة.

{ **فِي شَكٍّ** } للظرفيّة المجازية المستعملة في التمكّن تشبيها لتمكّن الصفة بتمكّن الظرف من المظروف من جهة الإحاطة.

{ **مِنْ دِينِي** } للابتداء المجازي، أي: إن كنتم شاكين شكا سببه ديني، أي: يتعلّق بحقّيّته، لأنّ الشك يُحمل في كل مقام على ما يناسبه. والشك في الدين هو الشك في كونه حقّا، وكونه من عند الله.

{ **فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ** } واقعة موقع جواب الشرط ودالة عليه في المعنى.

فتقدير الجواب: فأنا على يقين من فساد دينكم، فلا أتّبعه، فلا أعبد الذين تعبدونهم ولكن أعبد الله.

{ **الَّذِينَ تَعْبُدُونَ** } الأصنام. وعوملت معاملة العقلاء فأطلق عليها اسم الموصول الذي لجماعة العقلاء مجاراة لما يعتقدونه فيها من العقل والتدبير. ونظير هذا في القرآن كثير.

{ **الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ** } اختيار صلة التوفّي هنا في نعت اسم الجلالة لما فيها من الدلالة على كمال التصرّف في المخلوق، فإنّ المشركين لم يبلغ بهم الإشراك إلى ادّعاء أنّ الأصنام تحيي وتميت، واختيار ذلك من بين الصفات الخاصة بالله تعالى تعريض بتذكيرهم بأنّهم معرَّضون للموت فيقصِّرون من طغيانهم.

{ **وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** } أريد بالمؤمنين الذين آمنوا بالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم وبالقرآن والبعث، فإذا أطلق لفظ المؤمنين انصرف إلى القوم الذين اتّصفوا بالإسلام، ولذلك لا يقدّر للمؤمنين متعلّق. وفي جعل النبيّ صلى الله عليه وسلم من جملة المؤمنين تشريف لهذا الجمع وتنويه به.

{ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [105].

{ **وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً** } موقع هذه الجملة معضل لأنّ الواو عاطفة لا محالة، ووقعت بعدها (أن) المصدرية، ووقوع فعل الطلب بعدها غير مألوف، لأنّ حق صلة (أن) أن تكون جملة خبرية.

قال في الكشّاف: قد سوَّغ سيبويه أن توصل (أن) بالأمر والنهي، وأن تكون بمنزلة (أي).

فالمعنى: وأمرت بإقامة وجهي للدين حنيفا. ويكون العطف عطف مفرد على مفرد.

وقيل: الواو عطفت فعلا مقدَّرا يدلّ عليه فعل (أمرت). والتقدير: وأوحي إليَّ، وتكون (أن) مفسّرة للفعل المقدّر، لأنّه فيه معنى القول دون حروفه.

وعندي: أنّ أسلوب نظم الآية على هذا الوجه لم يقع إلّا لمقتضى بلاغي، فلا بد من أن يكون لصيغة { أَقِمْ وَجْهَكَ } خصوصيّة في هذا المقام، فلنعرض عما وقع في (الكشاف) وعن جعل الآية مثالا لما سوّغه سيبويه ولنجعل الواو متوسّعا في استعمالها بأن استُعملت نائبة مناب الفعل الذي عطفت عليه، أي فعل (أمرْت) دون قصد تشريكها لمعطوفها مع المعطوف عليه بل استعملت لمجرد تكريره. والتقدير: أمرت أن أقم وجهك. وهذا من عطف الجمل لا من عطف المفردات، وقد سبق مثل هذا عند قوله تعالى { وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ } [المائدة:49]، وهو هنا أوعب.

الإقامة: جعل الشيء قائما. وهي هنا مستعارة لإفراد الوجه بالتوجّه إلى شيء معين لا يترك وجهه ينثني إلى شيء آخر.

{ **لِلدِّينِ** } اللام للعلّة، أي: لأجل الدين، فيصير المعنى: محّض وجهك للدين، لا تجعل لغير الدين شريكا في توجّهك. وهذه التمثيليّة كناية عن توجيه نفسه بأسرها لأجل ما أمره الله به من التبليغ وإرشاد الأمّة وإصلاحها. وقريب منه قوله تعالى { أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ } [آل عمران:20].

{ **حَنِيفاً** } حال من { لِلدِّينِ } وهو دين التوحيد، لأنّه حنف، أي: مال عن الآلهة وتمحّض لله. وقد تقدّم عند قوله تعالى { قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا } [البقرة:135].

{ **وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** } نهي مؤكّد لمعنى الأمر الذي قبله تصريحا بمعنى { حَنِيفاً }. وتأكيد الفعل المنهي عنه بنون التوكيد للمبالغة في النهي عنه اعتناء بالتبرّؤ من الشرك.

{ **مِنَ الْمُشْرِكِينَ** } أبلغ في الاتصاف من نحو: لا تكن مشركا، لما فيه من التبرّؤ من الطائفة ذات نحلة الإشراك.

{ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ } [106].

عطف على { وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }. ولم يؤكّد الفعل بنون التوكيد لئلّا يمنع وجودها من حذف حرف العلة لأنّ حذفه تخفيف وفصاحة، ولأنّ النهي لمّا اقترن بما يومئ إلى التعليل كان فيه غنية عن تأكيده لأنّ الموصول في قوله تعالى { مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ } يومئ إلى وجه النهي عن الدعاء، إذ دعاء أمثالها لا يقصده العاقل.

{ **مِنْ دُونِ اللَّهِ** } اعتراض بين فعل { تَدْعُ } ومفعوله، وهو إدماج للحثّ على دعائه الله.

{ **فَإِنْ فَعَلْتَ** } تفريع على النهيين للإشارة إلى أنّه لا معذرة لمن يأتي ما نُهي عنه بعد أن أُكِّد نهيه وبُيّنت علّته، فمن فعله فقد ظلم نفسه واعتدى على حقّ ربّه.

{ **مِنَ الظَّالِمِينَ** } تأكيد مثل ما تقدّم في قوله تعالى { مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [105].

والمقصود من هذا الفرض تنبيه النّاس على فظاعة عظم هذا الفعل حتّى لو فعله أشرف المخلوقين لكان من الظالمين.

{ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } [107].

عطف على { وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ } لقصد التعريض بإبطال عقيدة المشركين أنّ الأصنام شفعاء عند الله، فلمّا أبطلت الآية السابقة أن تكون الأصنام نافعة أو ضارة، عُقّبت بهذه الجملة

للإعلام بأنّ إرادة الله النفع أو الضرّ لأحد لا يستطيع غيره أن يصرفه عنها أو يتعرَّض فيها إلّا من جعل الله له ذلك بدعاء أو شفاعة.

وتوجيه الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّه أولى النّاس بالخير ونفي الضرّ، فيُعلم أنّ غيره أولى بهذا الحكم وهذا المقصود.

المس: حقيقته وضع اليد على جسم، وقد يطلق على الإصابة مجازا مرسلا. وقد تقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ } [الأعراف:201].

{ **وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ** } أي: تقديرُه والقصدُ إليه. ولمّا كان الذي لا يعجزه شيء ولا يتردّد علمه فإذا أراد شيئا فعله، فإطلاق الإرادة هنا كناية عن الإصابة كما يدلّ عليه قوله تعالى بعده { يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ }.

وقد عُبّر بالمسّ في موضع الإرادة في نظيرها { وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [الأنعام:17]. ولكن عُبّر هنا بالإرادة مبالغة في سلب المقدرة عمن يريد معارضة مراده تعالى كائنا من كان بحيث لا يستطيع التعرّض لله في خيره ولو كان بمجرد إرادته قبل حصول فعله، فإنّ التعرّض حينئذ أهون، لأنّ الدفع أسهل من الرفع، وأمّا آية سورة الأنعام فسياقها في بيان قدرة الله تعالى لا في تنزيهه عن المعارض والمعاند.

{ **لِفَضْلِهِ** } هو الخير، ولذلك فإيقاعه موقع الضمير للدلالة على أنّ الخير الواصل إلى النّاس فضل من الله لا استحقاق لهم به، لأنّهم عبيد إليه يصيبهم بما يشاء.

{ **يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ** } واقعة موقع البيان لما قبلها والحوصلة له فلذلك فصلت عنها.

{ **بِهِ** } الضمير المجرور بالباء إمّا عائد إلى الخير، فيكون امتنانا وحثّا على التعرض لمرضاة الله، أو يعود إلى ما تقدّم من الضرّ. والضمير باعتبار أنّه مذكور فيكون تخويفا وتبشيرا وتحذيرا وترغيبا.

{ **مَنْ يَشَاءُ** } أجملت المشيئة هنا ولم تُبيَّن أسبابها ليسلك لها النّاس كلّ مسلك يأملون منه تحصيلها في العطاء وكلّ مسلك يتّقون يوقعهم فيها في الحرمان.

الإصابة: اتصال شيء بآخر وروده عليه، وهي في معنى المسّ المتقدّم، فقوله تعالى { يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ } هو في معنى قوله تعالى { وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [الأنعام:17].

{ **وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** } تذييل، يشير إلى أنّ إعطاء الخير فضل من الله ورحمة وتجاوز منه تعالى عن سيّئات عباده الصالحين، وتقصيرهم وغفلاتهم، فلو شاء لما تجاوز لهم عن شيء من ذلك فتورّطوا كلّهم.

{ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ } [108].

استئناف ابتدائي هو كتذييل لما مضى في السورة كلّها وحوصلة لما جرى من الاستدلال والمجادلة

والتخويف والترغيب، ولذلك جاء ما في هذه الجملة كلاما جامعا وموادعة قاطعة.

{ **قُلْ** } للتنبيه على أنّه تبليغ عن الله تعالى فهو جدير بالتلقّي.

{ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ** } افتتاح المقول بالنداء لاستيعاء سماعهم لأهمية ما سيقال لهم، والخطاب لجميع النّاس من مؤمن وكافر، والمقصود منه ابتداءً المشركون، ولذلك أطيل الكلام في شأنهم. وقد ذُكر معهم من اهتدى تشريفا لهم.

{ **قَدْ** } أكّد الخبر تسجيلا عليهم بأنّ ما فيه الحقّ قد أُبلغ إليهم، وتحقيقا لكونه حقّا.

الحقّ: هو الدين الذي جاء به القرآن.

{ **مِنْ رَبِّكُمْ** } للتنويه بأنّه حقّ مبيّن لا يخلطه باطل ولا ريب، فهو معصوم من ذلك.

{ **فَمَنِ اهْتَدَى** } تفريع على { قَدْ جَاءَكُمُ } للإشارة إلى أنّ مجيء الحقّ الواضح يترتّب عليه أن إتّباعه غنم لمتّبعه وليس مزيّة له على الله، ليُتوصّل من ذلك إلى أنّ المُعرض عنه قد ظلم نفسه، ورُتّب عليها تبعة الإعراض.

{ **لِنَفْسِهِ** } اللام دالة على أنّ الاهتداء نعمة وغنى وأنّ الإعراض ضرّ على صاحبه.

{ **فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ / فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا** } الإتيان بطريقتي الحصر للردّ على المشركين إذ كانوا يتمطّون في الاقتراح فيقولون { لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً } [الإسراء:90] ونحو ذلك ممّا يفيد أنّهم يمنّون عليه لو أسلموا، وكان بعضهم يُظهر أنّه يغيظ النبيّ صلى الله عليه وسلم بالبقاء على الكفر، فكان القصر مفيدا أنّ اهتداءه مقصور لفائدة نفسه. وأنّ ضلاله مقصور لمضرّتها.

{ **وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ** } داخلة في حيّز التفريع، وإتمامٌ للمفرَّع، لأنّه إذا كان اهتداء المهتدي لنفسه وضلال الضال على نفسه تحقّق أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم غير مأمور من الله بأكثر من التبليغ وأنّه لا نفع لنفسه في اهتدائهم ولا يضرّه ضلالهم، فلا يحسبوا حرصه لنفع نفسه أو دفع ضرّ عنها حتى يتمطّوا ويشترطوا، وأنّه ناصح لهم ومبلّغ ما في اتّباعه خيرهم والإعراض عنه ضرّهم.

والإتيان بالجملة الاسمية المنفية للدلالة على دوام انتفاء ذلك الحكم وثباته في سائر الأحوال.

{ **عَلَيْكُمْ** } بمعنى على اهتدائكم.

الوكيل: الموكول إليه تحصيل الأمر.

{ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ } [109].

عطف على { قُلْ }، أي: بلّغ النّاس ذلك القول { وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ }، أي: اتّبع في نفسك وأصحابك ما يوحى إليك.

{ **اصْبِرْ** } أي: على معاندة الذين لم يؤمنوا، بقرينة الغاية بقوله تعالى { حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ }، فإنّها غاية لهذا الصبر الخاص لا لمطلق الصبر.

ولما كان الحكم يقتضي فريقين حُذف متعلّقه تعويلا على قرينة السياق، أي: حتّى يحكم الله بينك وبينهم.
{ **وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ** } ثناء وتذييل لما فيه من العموم، أي: وهو خير الحاكمين بين كل خصمين في هذه القضية وفي غيرها، فالتعريف في { الْحَاكِمِينَ } للاستغراق بقرينة التذييل.
{ **خَيْرُ** } تفضيل، أصله (أخير) فحذفت الهمزة لكثرة الاستعمال. والأخيريّة من الحاكمين أخيرية وفاء الإنصاف في إعطاء الحقوق. وهي هنا كناية عن معاقبة الظالم، لأنّ الأمر بالصبر مشعر بأنّ المأمور به معتدى عليه، ففي الإخبار بأنّ الله خير الحاكمين إيماء بأنّ الله ناصر رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على الذين كذبوا وعاندوا. وهذا كلام جامع فيه براعة المقطع.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة هود

سُمّيت في جميع المصاحف وكتب التفسير والسنّة (**سورة هود**)، ولا يُعرف لها اسم غير ذلك، وكذلك وردت هذه التسمية عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في حديث ابن عباس أنّ أبا بكر قال: " يا رسول الله قد شبتَ، قال: **شيّبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت** ". رواه الترمذي بسند حسن في كتاب التفسير من سورة الواقعة. وروي من طرق أخرى بألفاظ متقاربة يزيد بعضها على بعض.

وسُمّيت باسم هود لتكرّر اسمه فيها خمس مرات، ولأنّ ما حكي عنه فيها أطول ممّا حكي عنه في غيرها، ولأنّ عادا وصفوا فيها بأنّهم قوم هود في قوله تعالى { أَلا بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ } [60].

وهي مكيّة كلّها عند الجمهور. وروي ذلك عن ابن عباس وابن الزبير، وقتادة، إلّا آية واحدة وهي { وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ- إلى قوله – لِلذَّاكِرِينَ } [114].

قال ابن عطية: هي مكّية إلا ثلاث آيات نزلت بالمدينة، وهي قوله تعالى { فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ} [12]، وقوله تعالى { أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ - إلى قوله - أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ }، قيل: نزلت في عبد الله بن سلام، وقوله تعالى { وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ } [114]، قيل: نزلت في قصة أبي اليُسْر كما سيأتي.

والأصحّ أنّها كلّها مكّيّة وأنّ ما روي من أسباب النزول في بعض آيها توهّم، لاشتباه الاستدلال بها في قصة بأنّها نزلت حينئذ كما يأتي، على أنّ الآية الأولى من هذه الثلاث واضح أنّها مكّية.

وقد **عُدّت الثانية والخمسين** في ترتيب نزول السور. نزلت بعد سورة يونس وقبل سورة يوسف.

وقال ابن عباس وجمهور المفسّرين عند تفسير قوله تعالى { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [13]: كان التحدّي أوّل الأمر بأن يأتوا بعشر سور مثل القرآن. وهو ما وقع في سورة هود، ثم نُسخ بأن يأتوا بسورة واحدة كما وقع في سورة البقرة وسورة يونس. فتخطى أصحاب هذا القول إلى أن قالوا: إنّ سورة هود نزلت قبل سورة يونس، وهذا الذي يُعتمد عليه.

وقد **عدّت آياتها مائة وإحدى وعشرين** في العدد المدني الأخير. وكانت آياتها معدودة في المدني الأوّل مائة واثنتين وعشرين، وهي كذلك في عدد أهل الشام وفي عدد أهل البصرة وأهل الكوفة مائة وثلاث وعشرون.

أغراض السورة

*/ ابتدأت بالإيماء إلى التحدّي لمعارضة القرآن بما تومئ إليه الحروف المقطّعة في أوّل السورة.

*/ التنويه بالقرآن والنهي عن عبادة غير الله تعالى.

*/ أنّ الرسول عليه الصلاة والسلام نذير للمشركين بعذاب يوم عظيم وبشير للمؤمنين.

*/ إثبات الحشر. والإعلام بأنّ الله مطلع على خفايا النّاس. وأنّ الله مدبّر أمور كلّ حي على الأرض. وخلق العوالم بعد أن لم تكن. وأن مرجع النّاس إليه، وأنّه ما خلقهم إلّا للجزاء.

*/ تثبيت النبيّ صلى الله عليه وسلم وتسليته عمّا يقوله المشركون وما يقترحونه من آيات على وفق هواهم.

وأنّ حسبهم آية القرآن الذي تحدّاهم بمعارضته فعجزوا فتبيّن خذلانهم فهم أحقّاء بالخسارة في الآخرة.

*/ ضرب مثل لفريقي المؤمنين والمشركين. وذكر نظرائهم من الأمم البائدة من قوم نوح وتفصيل ما حلّ بهم وعاد وثمود، وإبراهيم، وقوم لوط، ومدين، ورسالة موسى، تعريضا بما في جميع ذلك من العبر وما ينبغي منه الحذر، فإنّ أولئك لم تنفعهم آلهتهم التي يدعونها. وأن في تلك الأنباء عظة للمتّبعين بسيرهم.

*/ أنّ ملاك ضلال الضالين عدم خوفهم عذاب الله في الآخرة فلا شك في أن مشركي العرب صائرون إلى ما صار إليه أولئك.

*/ انفردت هذه السورة بتفصيل حادث الطوفان وغيضه.

*/ تسلية النبيّ صلى الله عليه وسلم باختلاف قوم موسى في الكتاب الذي أوتيه، فما على الرّسول وأتباعه إلّا أن يستقيموا فيما أمرهم الله وأن لا يركنوا إلى المشركين، وأنّ عليهم بالصلاة والصبر والمضي في الدعوة إلى الصلاح فإنّه لا هلاك مع الصلاح.

*/ وقد تخلّل ذلك عظات وعبر والأمر بإقامة الصلاة.

{ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ } [1].

{ الر } تقدّم القول على الحروف المقطّعة الواقعة في أوائل السور في أوّل سورة البقرة وغيرها.

{ كِتَابٌ } مبتدأ، سوَّغ الابتداء ما فيه من التنكير للنوعيّة، و{ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ } خبر و{ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ} صفة للكتاب. وتنكيره مماثل لما في قوله تعالى { كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ } [الأعراف:2].

<u>المعنى</u>: أنّ القرآن كتاب من عند الله فلماذا يعجب المشركون من ذلك ويُكذّبون به.

الإحكام: إتقان الصنع، مشتقّ من الحِكْمة. وهي إتقان الأشياء بحيث تكون سالمة من الأخلال التي تعرض لنوعها، أي: جُعلت آياته كاملة في نوع الكلام. وتقدّم عند قوله { مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ } [آل عمران:7].

آيات القرآن: الجمل المستقلّة بمعانيها المختتمة بفواصل. وقد تقدّم وجه تسمية جمل القرآن بالآيات عند قوله تعالى { وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا } [البقرة:39]، وفي المقدّمة الثامنة من مقدّمات هذا التفسير.

التفصيل: التوضيح والبيان. وهو مشتقّ من الفصل بمعنى التفريق بين الشيء وغيره بما يميّزه، فصار كناية مشهورة عن البيان لما فيه من فصل المعاني. وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ } [الأنعام:55]. ونظيره **الفرق**، كُنِّي به عن البيان فسُمّي القرآن فرقانا. وعن النصر فسُمّي يوم بدر يوم الفرقان، ومنه في ذكر ليلة القدر { فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ } [الدخان: 4].

{ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ } أي: من عند الموصوف بإبداع الصنع لحكمته، وإيضاح التبيين لقوّة علمه.

الخبير: العالم بخفايا الأشياء، وكلّما كثرت الأشياء كانت الإحاطة بها أعزّ.

فالحكيم مقابل لـ { أُحْكِمَتْ }، والخبير مقابل لـ { فُصِّلَتْ }. وهما وإن كانا متعلّق العلم ومتعلّق القدرة، إذ القدرة لا تجري إلّا على وفق العلم، إلّا أنّه روعي في المقابلة الفعل الذي هو أثر إحدى الصفتين أشد تبادرا فيه للنّاس من الآخر وهذا من بليغ المزاوجة.

{ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ } [2].

هذه الجملة تفسيريّة لما أحكم من الآيات، لأنّ النهي عن عبادة غير الله وإيجاب عبادة الله هو أصل الدين، وإليه مرجع جميع الصفات التي ثبتت لله تعالى بالدليل، وهو الذي يتفرّع عنه جميع التفاصيل، ولذلك تكرّر الأمر بالتوحيد والاستدلال عليه في القرآن.

{ أَلَّا تَعْبُدُوا } الخطاب وضمائر الخطاب التي بعده موجّهة إلى الذين لم يؤمنوا، وهم كلّ من يسمع هذا الكلام المأمور بإبلاغه إليهم.

{ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ } معترضة بين { أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ } [1] و{ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ } [3]، وهو اعتراض للتحذير من مخالفة النهي والتحريض على امتثاله.

{ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ } هو جامع عمل الرّسول صلى الله عليه وسلم في رسالته، فهو بشير لمن آمن وأطاع، ونذير لمن أعرض وعصى، وذلك أيضا جامع للأصول المتعلّقة بالرّسالة وأحوال الرّسل وما أخبروا به

من الغيب فاندرج في ذلك العقائد السمعية، وهذا عين الإحكام.

{ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ } [3].

عطف على { أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ } [2]، وهو تفسير ثان يرجع إلى ما في الجملة الأولى من لفظ التفصيل، فهذا ابتداء التفصيل لأنّه بيان وإرشاد لوسائل نبذ عبادة ما عدا الله تعالى، ودلائل على ذلك وأمثال ونذر.

الاستغفار: طلب المغفرة، أي: طلب عدم المؤاخذة بذنب مضى، وذلك الندم.

التوبة: الإقلاع عن الذنب، والعزم على أن لا يعود إليه.

{ **ثُمَّ** } للتراخي الرتبي، لأنّ الاعتراف بفساد ما هم فيه من عبادة الأصنام أهمّ من طلب المغفرة، فإنّ تصحيح العزم على عدم العودة إليها هو مُسمّى التوبة، وهذا ترغيب في نبذ عبادة الأصنام وبيان لما في ذلك من الفوائد في الدنيا والآخرة.

المتاع: اسم مصدر التمتيع لما يُتمتّع به، أي: ينتفع. ويطلق على منافع الدنيا. و تقدّم عند قوله تعالى { وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ } [الأعراف:24]. والمراد بالمتاع هنا: الإبقاء، أي: الحياة، والمعنى أنّه لا يستأصلهم. ووصفه بـ { **حَسَناً** } لإفادة أنّها حياة طيبة.

{ **إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً** } متعلق بـ { يُمَتِّعْكُمْ } وهو غاية للتمتيع، وذلك موعظة وتنبيه على أنّ هذا المتاع له نهاية. والمقصود بالأجل: أجل كلّ واحد وهو نهاية حياته.

{ **وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ** } عطف على { يُمَتِّعْكُمْ } .

الإيتاء: الإعطاء، وذلك يدلّ على أنّه من المتاع الحسن، فيُعلم أنّه إعطاء نعيم الآخرة.

الفضل: إعطاء الخير. سُمّي فضلا لأنّ الغالب أنّ فاعل الخير يفعله بما هو فاضل عن حاجته، ثم تنوسي ذلك فصار الفضل بمعنى إعطاء الخير.

<u>الفضل الأول</u>: العمل الصالح، بقرينة مقابلته بفضل الله الغنيّ عن النّاس.

<u>الفضل الثاني</u>: المضاف إلى ضمير الجلالة هو ثواب الآخرة، بقرينة مقابلته بالمتاع في الدنيا.

والمعنى: ويؤت الله فضله كل ذي فضل في عمله. وضبط ذلك لا يعلمه إلّا الله، وهو سر بين العبد وربه.

{ **وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ** } من تمام ما جاء تفسيرا لـ { أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ }، وهو مما أوحي به إلى الرّسول صلى الله عليه وسلم أن يبلّغه إلى النّاس.

تولّوا: أصله تتولّوا، حذفت إحدى التائين تخفيفا.

{ **إِنْ** } أداة التأكيد هذه مع مجيء المسند إليه فيها اسما مخبرا عنه بالجملة الفعلية لقصد شدّة تأكيد توقع العذاب.

{ **يَوْمٍ** } التنكير للتهويل، لتذهب نفوسهم للاحتمال الممكن أن يكون يوما في الدنيا أو في الآخرة، لأنّهم

كانوا ينكرون الحشر، فتخويفهم بعذاب الدنيا أوقع في نفوسهم.

{ **كَبِيرٍ** } وصف { يَوْمٍ } لزيادة تهويله، والمراد بالكبر الكبر المعنوي، وهو شدّة ما يقع فيه، أعني العذاب، فوصف اليوم بالكبر مجاز عقلي.

{ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [4].

جملة في موضع التعليل للخوف عليهم، فلذلك فصلت.

<u>المعنى</u>: أنّكم صائرون إلى الله، أي: إلى قدرته غير منفلتين منه فهو مجازيكم على تولّيكم عن أمره.

المرجع: مصدر ميمي بمعنى الرجوع. وهو مستعمل كناية عن لازمه العرفي وهو عدم الانفلات وإن طال الزمن، وذلك شامل للرجوع بعد الموت. ولكنّه هنا أنسب بالمصير الدنيوي لأنّه المسلّم عندهم لقوله تعالى

{ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }، لأنّ القدرة يوم القيامة غير محتاجة للتنصيص لو آمنوا بالمصير الأخروي.

وتقديم المجرور على عامله للاهتمام والتقوّي، وليس المراد منه الحصر.

{ **وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } أي: فما ظنّكم برجوعكم إلى القادر على كلّ شيء وقد عصيتم أمره.

{ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } [5].

حُوّل أسلوب الكلام عن مخاطبة النبيّ صلى الله عليه وسلم، بما أمر بتبليغه، إلى إعلامه بحال من أحوال الذين أمر بالتبليغ إليهم في جهلهم بإحاطة علم الله تعالى بكلّ حال. فقُدّم لذلك إبطال وهم من أوهام أهل الشرك أنّهم في مَكْنة من إخفاء بعض أحوالهم عن الله تعالى.

{ **أَلَا** } حرف تنبيه للاهتمام بمضمونه لغرابة أمرهم المحكي، وللعناية بتعليم إحاطة علم الله تعالى.

وضمائر الجماعة الغائبين عائدة إلى المشركين الذين أُمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بالإبلاغ إليهم في قوله تعالى { أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ } [2] وليس بالتفات. وضمائر الغيبة للمفرد عائدة إلى اسم الجلالة في قوله تعالى { إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ } [4].

الثني: الطيّ، وأصل اشتقاقه من اسم الاثنين. يقال: ثَنَاه (بالتخفيف)، إذا جعله ثانيا، يقال: هذا واحد فاثْنِه، أي: كن ثانيا له، فالذي يطوي الشيء يجعل أحد طاقيه ثانيا للذي قبله.

ثني الصدور: إمالتها وحنيها تشبيها بالطيّ. ومعنى ذلك **الطأطأة**.

وهذا الكلام <u>يحتمل</u> الإجراء على حقيقة ألفاظه من ثني صدور والطأطأة.

ويحتمل أن يكون تمثيلا لهيئة نفسية بهيئة حسيّة. وقد روي أنّ الآية أشارت إلى ما يفعله المشركون أنّ أحدهم يدخل بيته ويرخي الستر عليه ويستغشي ثوبه ويحني ظهره ويقول: هل يعلم الله ما في قلبي؟ وذلك من جهلهم بعظمة الله.

وعلى الاحتمال الثاني فهو تمثيل لحالة إضمارهم العداوة للنبيّ صلى الله عليه وسلم في نفوسهم وتمويه ذلك عليه وعلى المؤمنين به بحال من يثني صدره ليخفيه ومن يستغشي ثوبه على ما يريد أن يستره به. وفي (أسباب النزول) للواحدي أنّها نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة وكان رجلا حلو المنطق، وكان يظهر المودة للنبيّ صلى الله عليه وسلم وهو منطو على عداوته، أي: عداوة الدين، فضرب الله ثني الصدور مثلا لإضماره بغض النبيّ صلى الله عليه وسلم. فهو تمثيل وليس بحقيقة.

الاستخفاء: الاختفاء، فالسين والتاء فيه للتأكيد، مثل استجاب واستأخر.

{ **أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ** } يجوز أن تكون إتماما لجملة { أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ } فيكون حرف { أَلَا } الثاني تأكيدا لنظيره لزيادة تحقيق الخبر، وتكون الحالة الموصوفة حالة واحدة مركّبة من ثني الصدور واستغشاء الثياب.

الاستغشاء: التغشّي بما يُغْشِي، أي: يستر، فالسين والتاء فيه للتأكيد، مثل قوله { وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ } [نوح:7]. { **وَمَا يُعْلِنُونَ** } لدفّع توهّم علمه بالخفيّات دون الظاهر.

{ **إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** } نتيجة وتعليل للجملة قبله، أي: يعلم سرّهم وجهرهم، لأنّه شديد العلم بالخفيّ في النفوس وهو يعلم الجهر بالأولى.

ذات الصدور: الأشياء المستقرّة في النفوس التي لا تعدوها، فأضيفت إليها. لأنّ العرب يعبّرون عن الحواس الباطنيّة بالصدر.

{ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } [6].

عطف على { يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ } [5]. والتقدير: وما من دابة إلّا يعلم مستقرّها ومستودعها، وإنّما نُظم الكلام على هذا الأسلوب تفنّنا لإفادة التنصيص على العموم بالنفي المؤكّد ب { مِنْ }، ولإدماج تعميم رزق الله كلّ دابة في الأرض في أثناء إفادة عموم علمه بأحوال كلّ دابة، فلأجل ذلك أخِّر الفعل المعطوف لأنّ في التذكير بأنّ الله رازق الدواب التي لا حيلة لها في الاكتساب استدلالا على أنّه عليم بأحوالها.

الدابة: اسم لما يدبّ، أي: يمشي على الأرض غير الإنسان.

{ **فِي الْأَرْضِ** } تأكيد لمعنى { دَابَّةٍ } في التنصيص على أنّ العموم مستعمل في حقيقته.

{ **عَلَى اللهِ رِزْقُهَا** } لإفادة القصر، أي: على الله لا على غيره، ولإفادة معنى أنّ الله تكفّل برزقها ولم

يهمله، لأنّ (على) تدلّ على اللزوم والمحقوقيّة، ومعلوم أنّ الله لا يُلزمه أحد شيئا، فما أفاد معنى اللزوم، فإنما هو التزامه بنفسه بمقتضى صفاته المقتضية ذلك له كما أشار إليه قوله تعالى { وَعْداً عَلَيْنَا } [الأنبياء:104]، وقوله تعالى { حَقّاً عَلَيْنَا } [يونس:103].

وحصر الرزق على الله مجاز عقلي في العرف باعتبار أنّ الله مسبّب ذلك الرزق ومقدّره.

{ **وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا** } أي: والله يعلم مستقرّ كلّ دابة ومستودعها. فليس حكم هذه الجملة بداخل في حيّز الحصر.

المستقر: محلّ استقرارها.

المستودع: محل الإيداع، والإيداع: الوضع والدَّخْر. والمراد به مستودعها في الرحم قبل بروزها إلى الأرض كقوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ } [الأنعام:98].

{ **كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ** } أي: كلّ رزقها ومستقرها ومستودعها في كتاب مبين، أي: كتابة. وهو مستعمل في تقدير العلم وتحقيقه بحيث لا يقبل زيادة ولا نقصانا ولا تخلُّفا. كما أنّ الكتابة يُقصد منها أن لا يُزاد في الأمر ولا يُنقص ولا يُبطل.

المبين: اسم فاعل أبان بمعنى أظهر، وهو تخييل لاستعارة الكتاب للتقدير.

{ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ } [7]

{ **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** } عطف على { وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا } [6]. والمناسبة أنّ خلق السماوات والأرض من أكبر مظاهر علم الله وإتقان الصنع. فالمقصود من هذا الخبر لازمه وهو الاعتبار بسعة علمه وقدرته.

{ **وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ** } المعنى: أنّ العرش كان مخلوقا قبل السماوات وكان محيطا بالماء أو حاويا للماء. وحَمْل العرش على أنّه ذاتٌ مخلوقةٌ فوق السماوات هو ظاهر الآية. وذلك يقتضي أنّ العرش مخلوق قبل ذلك وأنّ الماء مخلوق قبل السماوات والأرض. وتفصيل ذلك وكيفيّته وكيفيّة الاستعلاء ممّا لا قبل للأفهام به إذ التعبير عنه تقريب.

ويجوز أن يكون المراد من العرش ملك الله وحُكمه تمثيلا بعرش السلطان، أي: كان مُلك الله قبل خلق السماوات والأرض مُلكا على الماء.

{ **لِيَبْلُوَكُمْ** } متعلق بـ { خَلَقَ } واللام للتعليل.

البلو: الابتلاء، أي: اختبار شيء لتحصيل علم بأحواله، وهو مستعمل كناية عن ظهور آثار خلقه تعالى للمخلوقات، لأنّ حقيقة البلو مستحيلة على الله لأنّه العليم بكّل شيء فلا يحتاج إلى اختباره.
وجعل البلو علّة لخلق السماوات والأرض لكونه من حكمة خلق الأرض، باعتبار كون الأرض من مجموع هذا الخلق، ثم إنّ خلق الأرض يستتبع خلق ما جُعلت الأرض عامرة به، واختلاف أعمال المخاطبين من جملة الأحوال التي اقتضاها الخلق، فكانت من حكمة خلق السماوات والأرض، وكان التعليل هنا بمراتب كثيرة، وعلّة العلة علّة.
وفي الآية إشارة إلى أنّ من حكمة خلق الأرض صدور الأعمال الفاضلة من شرف المخلوقات فيها. ثم إنّ ذلك يقتضي الجزاء على الأعمال إكمالا لمقتضى الحكمة ولذلك أعقِبت بقوله { وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ }.
{ وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ }
وجه جعلها جملة شرطية إفادة تجدّد التكذيب عند كل إخبار بالبعث. وتأكيد الجملة باللام الموطّئة للقسم وما يتبعه من نون التوكيد لتنزيل السامع منزلة المتردّد في صدور هذا القول منهم لغرابة صدوره من العاقل، فيكون التأكيد القويّ والتنزيل مستعملا في لازم معناه وهو التعجيب من حال الذين كفروا أن يحيلوا إعادة الخلق وقد شاهدوا آثار بدء الخلق وهو أعظم وأبدع.
ومعنى الإخبار عن القول بأنّه سحر: أنّهم يزعمون أنّه كلام من قبيل الأقوال التي يقولها السحرة لخصائص تؤثّر في النفوس. ووجه جعلهم هذا القول سحرا أنّ في معتقداتهم وخرافاتهم أنّ من وسائل السحر الأقوال المستحيلة والتكاذيب البهتانيّة.
<u>المعنى</u>: أنّهم يُكذّبون بالبعث كلّما أخبِروا به لا يتردّدون في عدم إمكان حصوله بله إيمانهم به.
{ إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ } أي: بيّن واضح أنّه سحر أو أنّه ساحر.

{ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } [8].

مناسبة الكلام لما قبله أنّ في كليهما وصف فن من أفانين عناد المشركين وتهكّمهم بالدعوة الإسلاميّة، فإذا خبَّرهم الرّسول صلى الله عليه وسلم بالبعث وأنّ شركهم سبب لتعذيبهم جعلوا كلامه سحرا، وإذا أنذرهم بعقوبة العذاب على الإشراك استعجلوه، فإذا تأخّر عنهم إلى أجل اقتضته الحكمة الربّانيّة استفهموا عن سبب حبسه عنهم استفهام تهكّم ظنّا أنّ تأخّره عجز.
الأمة: حقيقتها الجماعة الكثيرة من النّاس الذين أمرهم واحد، وتطلق على المدّة كأنّهم راعوا أنّها الأمد الذي يظهر فيه جيل فأطلقت على مطلق المدة، أي: بعد مدّة.

{ **مَعْدُودَةٍ** } معناه مقدّرة، أي: مؤجّلة. وفيه إيماء إلى أنّها ليست مديدة لأنّه شاع في كلام العرب إطلاق العدّ والحساب ونحوهما على التقليل، لأنّ الشيء القليل يمكن ضبطه بالعدد، ولذلك يقولون في عكسه: بغير حساب، مثل ما في قوله تعالى { وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [البقرة:212].

الحبس: إلزام الشيء مكانا لا يتجاوزه. ولذلك يستعمل في معنى المنع كما هنا، أي: ما يمنع أن يصل إلينا ويحلّ بنا، وهم يريدون التهكّم.

{ **أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** } هذه الجملة واقعة موقع الجواب عن كلامهم إذ يقولون ما يحبس عنّا العذاب، فلذلك فصلت كما تفصل المحاورة.

وهذا تهديد وتخويف بأنّه لا يُصرف عنهم ولكنّه مؤخَّر.

{ **أَلَا** } افتتح الكلام بحرف التنبيه للاهتمام بالخبر لتحقيقه وإدخال الروع في ضمائرهم.

الصرف: الدفع والإقصاء.

الحوق: الإحاطة. والمعنى: أنّه حالٌ بهم حلولا لا مخلص منه بحال. وصيغة الماضي مستعملة في معنى التحقّق، وهذا عذاب القتل يوم بدر.

{ **مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** } هو العذاب، فإنّ ذكر العذاب كان سببا لاستهزائهم حين توعّدهم به النبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْأِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ } [9].

لمّا ذُكر أنّ ما هم فيه متاع إلى أجل معلوم عند الله، وأنّهم بطروا نعمة التمتيع فسخروا بتأخير العذاب، بيّنت هذه الآية أنّ أهل الضلالة راسخون في ذلك، فشأنهم أنّهم إن حلّت بهم الضرّاء بعد النعمة ملكهم اليأس من الخير ونسوا النعمة فجحدوها وكفروا مُنعمها، فإنّ تأخير العذاب رحمة وإتيانه نزع لتلك الرحمة. والجملة في قوّة التذييل.

{ **الْأِنْسَانَ** } تعريف الجنس مراد به الاستغراق، وبذلك اكتسبت الجملة قوة التذييل. فمعيار العموم الاستثناء في قوله تعالى { إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } [11] كما يأتي، فيكون الاستغراق عرفيّا جاريا على اصطلاح القرآن من إطلاق لفظ الإنسان أو النّاس، ولأن وصفي { يَؤُوسٌ كَفُورٌ } يناسبان المشركين فيتخصّص العام بهم.

الإذاقة: مستعملة في إيصال الإدراك على وجه المجاز، واختيرت مادة الإذاقة لما تشعر به من إدراك أمر محبوب، لأنّ المرء لا يذوق إلّا ما يشتهيه.

الرحمة: أريد بها رحمة الدنيا. وأطلقت على أثرها وهو النعمة كالصحة والأمن والعافية، والمراد النعمة السابقة قبل نزول الضرّ.

النزع: حقيقته خلع الثوب عن الجسد. واستُعمل هنا في سلب النعمة على طريقة الاستعارة، ولذلك عدّي

بحرف (من) دون (عن)، لأنّ المعنى على السلب والافتكاك.

{ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ } جواب القسم، وجُرّدت من الافتتاح باللام استغناء عنها بحرف التوكيد وبلام الابتداء في خبر (إنّ).

اليؤوس والكفور: مثالا مبالغة في الآيس وكافر النعمة، أي: جاحدها. والمراد بالكفور منكر نعمة الله لأنّه تصدر منه أقوال وخواطر من السخط على ما انتابه كأنّه لم يُنعم عليه قطّ.

{ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ } [10].

تتميم للتي قبلها لأنّها حكت حالة ضدّ الحالة في التي قبلها، وهي جملة قسم وشرط وجواب قسم.

النَعماء: (بفتح النون وبالمد) النعمة، واختير هذا اللفظ هنا وإن كان لفظ النعمة أشهر لمحسّن رعي النظير في زنة اللفظين: النعماء والضراء. والمراد هنا: النعمة الحاصلة بعد الضرّاء.

المسّ: مستعمل في مطلق الإصابة على وجه المجاز. واختيار فعل المس بالنسبة إلى إدراك الضرّاء إيماء إلى أنّ إصابة الضرّاء أخفّ من إصابة النعماء، وأنّ لطف الله شامل لعباده في كل حال.

وأكّدت الجملة باللام الموطّئة للقسم وبنون التوكيد في جملة جواب القسم لمثل الغرض الذي بيّنّاه في الجملة السابقة.

{ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي } للإشارة إلى اعتقاد كلّ واحد أنّه حقيق بأن تذهب عنه السيّئات غرورا منه بنفسه.

{ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ } استئناف ابتدائي للتعجيب من حاله، أي: لشديد الفرح شديد الفخر.

شدة الفرح: تجاوزه الحدّ وهو البطر والأشَر.

الفخر: تباهي المرء على غيره بما له من الأشياء المحبوبة للنّاس.

{ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ } [11].

احتراس باستثناء من { الْإِنْسَانَ } [9]. والمراد بالذين صبروا المؤمنون بالله، لأنّ الصبر من مقارنات الإيمان، فإنّ الإيمان يروّض صاحبه على مفارقة الهوى ونبذ معتاد الضلالة. قال تعالى { إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ } [العصر:3].

ومن معاني الصبر انتظار الفرج ولذلك أوثر هنا وصف { صَبَرُوا } دون { آمَنُوا } لأن المراد مقابلة حالهم بحال الكفار في قوله تعالى { إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ } [9]. ودلّ الاستثناء على أنّهم متّصفون بضدّ صفات المستثنى منهم. وقد نُسجت الآية على هذا المنوال من الإجمال لتذهب نفوس السامعين من المؤمنين في طرق الحذر من صفتي اليأس وكفران النعمة، ومن صفتي الفرح والفخر كلّ مذهب ممكن.

{ **أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ** } مستأنفة ابتدائية. والإتيان باسم الإشارة تنبيه على أنّهم استحقّوا ما يذكر بعد اسم الإشارة لأجل ما ذكر قبله من الأوصاف.

{ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ } [12].

تفريع على { وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ - إلى قوله - يَسْتَهْزِئُونَ } [8/7] من ذكر تكذيبهم وعنادهم. إشارة إلى أنّ مضمون الكلام المفرَّع عليه سبب لتوجيه هذا التوقّع لأنّ من شأن المفرّع عليه اليأس من ارعوائهم لتكرر التكذيب والاستهزاء يأسا قد يبعث على ترك دعائهم، فذلك كلّه أفيد بفاء التفريع.

{ **فَلَعَلَّكَ** } للتوقّع، مستعمل في تحذير مَنْ شأنه التبليغ. ويجوز أن يُقدّر استفهام حُذفت أداته. والتقدير: ألعلك تارك. نظير قوله تعالى { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ } [الشعراء:3]. والاستفهام كناية عن بلوغ الحالة حدّا يوجب توقّع الأمر المستفهم عنه.

وهذا أسلوب يقصد به التحريك من همّة المخاطَب وإلهاب همّته لدفع الفتور عنه، فليس في هذا تجويز ترك النبيّ صلى الله عليه وسلم تبليغ بعض ما يوحى إليه.

{ **تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ** } هو ما فيه دعوتهم إلى الإيمان وإنذارهم بالعذاب وإعلامهم بالبعث كما يدلّ عليه قوله تعالى في آية أخرى { وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا } [الأعراف:23]. والمعنى: تحذيره من التأثّر بعنادهم وتكذيبهم واستهزائهم، ويستتبع ذلك تأييس المشركين من تركه ذكر البعث والإنذار بالعذاب. فالخطاب مستعمل في حقيقته ومراد منه مع ذلك علم السامعين بمضمونه.

{ **وَضَائِقٌ** } اسم فاعل من ضاق. وإنّما عُدل عن (ضيّق) لمراعاة النظير { تَارِكٌ } لأنّ ذلك أحسن فصاحة. ولأنّ { ضَائِقٌ } لا دلالة فيه على تمكّن وصف الضيق من صدره بخلاف ضيّق، إذ هو صفة مشبّهة وهي دالة على تمكّن الوصف من الموصوف، وإيماء إلى أنّ أقصى ما يُتوهّم توقعه في جانبه صلى الله عليه وسلم هو ضيق قليل يعرض له. والضيق مستعمل مجازا في الغمّ والأسف، كما استُعمل ضدّه وهو الانشراح في الفرح والمسرّة.

{ **بِهِ صَدْرُكَ** } الباء للسببية، والضمير المجرور بالباء عائد على ما بعده وهو { أَنْ يَقُولُوا }. فيكون تحذيرا من أن يضيق صدره لاقتراحهم الآيات بأن يقولوا { لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ }، ويحصل مع ذلك التحذير من أن يضيق صدره من قولهم { إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ } [7]، ومن قولهم: ما يحبس العذاب عنا.

ومعظم المفسّرين جعلوا ضمير { بِهِ } عائدا إلى { بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ }، على أنّ ما يوحى إليه سبب لضيق صدره، أي: لا يضيق له صدرك. وليس المعنى عليه بالمتين.

{ لَوْلا } للتحضيض.

الكنز: المال المكنوز، أي: المخبوء.

إنزاله: إتيانه من مكان عال، أي: من السماء.

وهذا القول صدر من المشركين قبل نزول هذه الآية فلذلك فالفعل المضارع مراد به تجدّد هذا القول وتكرّره منهم بقرينة العلم بأنّه صدر منهم في الماضي، وبقرينة التحذير من أن يكون ذلك سببا في ضيق صدره لأنّ التحذير إنّما يتعلق بالمستقبل.

{ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ } أي: أن يجيء ملك من الملائكة شاهدا برسالته، وهذا من جهلهم بحقائق الأمور وتوهّمهم أنّ الله يعبأ بإعراضهم ويتنازل لإجابة مقترح عنادهم، ومن قصورهم عن فهم المعجزات الإلهية ومدى التأييد الرباني.

{ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ } في موقع العلّة للتحذير من تركه بعض ما يوحى إليه وضيق صدره من مقالتهم.

<u>فكأنّه قيل</u>: لا تترك إبلاغهم بعض ما يوحى إليك ولا يضق صدرك من مقالهم لأنّك نذير لا وكيل على تحصيل إيمانهم، حتّى يترتّب على يأسك من إيمانهم ترك دعوتهم.

{ إِنَّمَا } قصر إضافي، أي: أنت نذير لا موكل بإيقاع الإيمان في قلوبهم إذ ليس ذلك إليك بل هو الله.

وفيه تعريض بالمشركين برد اعتقادهم أنّ الرّسول يأتي بما يُسأل عنه من الخوارق فإذا لم يأتهم به جعلوا ذلك سندا لتكذيبهم إيّاه ردّا حاصلا من مستتبعات الخطاب، كما تقدّم عند قوله تعالى { فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ }، إذ كثر في القرآن ذكر نحو هذه الجملة في مقام الرد على المشركين والكافرين الذين سألوا الإتيان بمعجزات على وفق هواهم.

{ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ } أي: أنّ الله وكيل على قلوب المكذّبين وهم المقصود، وإنّما جاء الكلام بصيغة العموم ليكون تذييلا وإتيانا للغرض بما هو كالدليل، ولينتقل من ذلك العموم إلى تسلية النبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّ الله مطّلع على مكر أولئك، وأنّه وكيل على جزائهم وأنّ الله عالم ببذل النبيّ جهده في التبليغ.

{ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [13].

{ أَمْ } هذه منقطعة بمعنى (بل) التي للإضراب للانتقال من غرض إلى آخر، إلّا أنّ (أم) مختصة بالاستفهام فتقدّر بعدها همزة الاستفهام. والاستفهام هنا إنكاري للتقريع بالحجّة.

<u>والتقدير</u>: بل أيقولون افتراه. والمناسبة ظاهرة، لأن الكلام في إبطال مزاعمهم، فإنهم قالوا: هذا كلام مفترى.

{ افْتَرَاهُ } الضمير المستتر عائد إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم. وضمير الغائب البارز المنصوب عائد

إلى القرآن المفهوم من قوله تعالى { بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ } [12].

الافتراء: الكذب الذي لا شبهة لصاحبه، فهو الكذب عن عمد.

{ **قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ** } جواب لكلامهم فلذلك فصلت على ما هو مستعمل في المحاورة سواء كانت حكاية المحاورة بصيغة حكاية القول أو كانت أمرا بالقول.

الإتيان بالشيء: جلبه، سواء كان بالاسترفاد من الغير أم بالاختراع من الجالب، وهذا توسعة عليهم في التحدّي.

{ **بِعَشْرِ سُوَرٍ** } تحدّاهم هنا بأن يأتوا بعشر سور خلاف ما تحدّاهم في غير هذا المكان بأن يأتوا بسورة مثله، كما في سورة البقرة وسورة يونس. فقال ابن عباس وجمهور المفسّرين: كان التحدّي أوّل الأمر بأن يأتوا بعشر سور مثل القرآن. وهو ما وقع في سورة هود، ثم نُسخ بأن يأتوا بسورة واحدة كما وقع في سورة البقرة وسورة يونس. فتخطى أصحاب هذا القول إلى أن قالوا: إنّ سورة هود نزلت قبل سورة يونس، وهذا الذي يُعتمد عليه.

{ **مُفْتَرَيَاتٍ** } مفتريات المعاني كما تزعمون على القرآن، أي: بمثل قصص أهل الجاهلية وتكاذيبهم. وهذا من إرخاء العنان والتسليم الجدلي.

{ **وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ** }

الدعاء: النداء لعمل. وهو مستعمل في الطلب مجازا ولو بدون نداء. وحذف المتعلق لدلالة المقام. أي: وادعوا لذلك.

{ **مِنْ دُونِ اللَّهِ** } وصف لـ { مَنِ اسْتَطَعْتُمْ }، ونكتة ذكر هذا الوصف التذكير بأنّهم أنكروا أن يكون من عند الله.

{ **إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } في قولكم { افْتَرَاهُ }، وجواب الشرط هو قوله تعالى { فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ }. ووجه الملازمة بين الشرط وجزائه أنّه إذا كان الافتراء يأتي بهذا القرآن فما لكم لا تفترون أنتم مثله فتنهض حجتكم.

{ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } [14].

تفريع على { وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ } [13]، أي: فإن لم يستجب لكم من تدعونهم فأنتم أعجز منهم.

الاستجابة: الإجابة، والسين والتاء للتأكيد. وهي مستعملة في المعاونة والمظاهرة على الأمر المستعان فيه، وهي مجاز مرسل لأنّ المعاونة تنشأ عن النداء إلى الإعانة غالبا، فإذا انتدب المستعان به إلى الإعانة أجاب النداء بحضوره فسميت استجابة.

العلم: الاعتقاد اليقين، أي فأيقِنوا أنّ القرآن ما أنزل إلّا بعلم الله. أي: لأثر العلم. وقد أفادت (إنّما) الحصر.

{ **وَأَنْ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ** } عطف على { مَا أُنْزِلَ } لأنّهم إذا عجزوا فقد ظهر أنّ من استنصروهم لا يستطيعون نصرهم.

{ **فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ** } الفاء للتفريع على { فَاعْلَمُوا }. والاستفهام مستعمل في الحثّ على الفعل وعدم تأخيره والمعنى: فهل تسلمون بعد تحقّقكم أنّ هذا القرآن من عند الله.

وجيء بالجملة الاسمية الدالة على دوام الفعل وثباته.

{ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ [15] أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [16]}.

تحذير من أن يغترّوا بالمتاع العاجل، وإعلام بأنّ وراء ذلك العذاب الدائم، وأنّهم على الباطل. فالمقصود من هذا الكلام هو الجملة الثانية { أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ...}، وما قبل ذلك تمهيد وتنبيه على بوارق الغرور ومزالق الذهول.

ولمّا كان ذلك هو حالهم كان في هذا الاعتراض زيادة بيان لأسباب مكابرتهم وبعدهم عن الإيمان، وفيه تنبيه المسلمين بأن لا يغترّوا بظاهر حسن حال الكافرين في الدنيا، وأن لا يحسبوا أيضا أنّ الكفر يوجب تعجيل العذاب، فأوقِظوا من هذا التوهّم، كما قال تعالى { لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ } [آل عمران:197/196].

{ **مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا** } فعل الشرط في المقام الخطابي يفيد اقتصار الفاعل على ذلك الفعل. فالمعنى: من كان لا يطلب إلّا منافع الحياة وزينتها. وهذا لا يصدر إلّا عن الكافرين، لأنّ المؤمن لا يخلو من إرادة خير الآخرة وما آمن إلّا لذلك.

{ **نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا** }

التوفية: إعطاء الشيء وافيا، أي: كاملا غير منقوص، أي: نجعل أعمالهم في الدنيا وافية. فالمراد أنّهم لا يُنقَصون من لذاتهم التي هيّأوها لأنفسهم على اختلاف طبقاتهم في التمتّع بالدنيا، بخلاف المؤمنين فإنّهم تتهيّأ لهم أسباب التمتّع بالدنيا على اختلاف درجاتهم في ذلك التهيّؤ فيتركون كثيرا من ذلك لمراعاتهم مرضاة الله تعالى وحذرهم من تبعات ذلك في الآخرة على اختلاف مراتبهم في هذه المراعاة.

فكأنّه قيل: نتركهم وشأنهم.

{ **وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ** } أي: في الدنيا لا يجازون على كفرهم بجزاء سلب بعض النعم عنهم بل يتركون وشأنهم استدراجا لهم وإمهالا. فهذا كالتكملة.

البخس: هو الحطّ من الشيء والنقص منه على ما ينبغي أن يكون عليه ظلما.
وفي هذه الآية دليل لما رآه الأشعري أنّ الكفر لا يمنع من نعمة الله.
{ **فِيهَا** } يجوز أن يعود إلى { الْحَيَاةَ } وأن يعود إلى { أَعْمَالَهُمْ }.
{ **أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ** } مستأنفة، وفي اسم الإشارة تنبيه على أنّ المشار إليه استحقّ ما يُذكر بعد اختياره من الحكم من أجل الصفات التي ذكرت قبل اسم الإشارة.
{ **إِلَّا النَّارُ** } استثناء مفرَّغ من { لَيْسَ لَهُمْ }، أي: ليس لهم شيء مما يعطاه النّاس في الآخرة إلّا النار.
{ **وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } الكلام تنبيه على أنّ حظّهم من النعمة هو ما يحصل لهم في الدنيا، وأنّ رحمة الله بهم لا تعدو ذلك. وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لعمر لمّا ذكر له فارس والروم وما هم فيه من المتعة: **" أولئك عُجّلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا "**.
الحبط: البطلان، أي: الانعدام.
{ **مَا صَنَعُوا** } ما عملوا، من الإحسان في الدنيا كإطعام العُفاة ونحوه من مواساة بعضهم بعضا، ولذلك عُبّر هنا بـ { صَنَعُوا } لأنّ الإحسان يُسمّى صنيعة.
{ **فِيهَا** } يجوز أن يعود إلى { الدُّنْيَا }. ويجوز أن يعود إلى { الْآخِرَةِ }، أي: انعدم أثره.
الباطل: الشيء الذي يذهب ضياعا وخسرانا.

{ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ } [17].

أغلقت معاني هذه الآية لكثرة الاحتمالات التي تعتورها من جهة معاد الضمائر واسم الإشارة، ومن جهة إجمال المراد من الموصول، وموقع الاستفهام، وموقع فاء التفريع.
<u>والذي تخلّص لي من ذلك، وممّا فتح الله به ممّا هو أوضح وجها وأقرب بالمعنى المقصود شِبْهًا:</u>
{ **أَفَمَنْ** } الفاء للتفريع على { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ - إلى قوله - فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } [14/13] وأنّ ما بينهما اعتراض لتقرير توغّلهم في المكابرة وابتعادهم عن الإيمان، وهذا التفريع تفريع الضدّ على ضدّه في إثبات ضدّ حكمه له. أي: إن كان حال أولئك المكذّبين كما وُصف فثمّ قوم هم بعكس حالهم قد نفعتهم البيّنات والشواهد، فهم يؤمنون بالقرآن وهم المسلمون. أي: كما أسلم من كانوا على بيّنة من ربهم منكم ومن أهل الكتاب.
والهمزة للاستفهام التقريري، أي: إن كفر به هؤلاء أفيؤمن به من كان على بيّنة من ربّه.
{ **مَنْ كَانَ** } لا يراد بها شخص معين. فكلمة { **مَنْ** } هنا تكون كالمعرّف بلام العهد الذهني صادقة على

من تحققت له الصلة، أعني: أنّه على بيّنة من ربّه. وبدون ذلك لا تستقيم الإشارة. وإفراد الضمائر مراعاة للفظ (من) الموصولة وذلك أحد استعماليها. والجمع في قوله تعالى { أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ } مراعاة لمعنى (من) الموصولة وذلك استعمال آخر. والتقدير: أفمن كانوا على بيّنة من ربّهم أولئك يؤمنون به.

{ **عَلَى بَيِّنَةٍ** } يجوز أن يكونوا النصارى فقط، فإنّهم كانوا منتشرين في العرب ويعرف أهل مكّة كثيرا منهم، وهم الذين عرفوا أحقيّة الإسلام مثل ورقة بن نوفل ودحية الكلبي. ويجوز أن يراد النصارى واليهود مثل عبد الله ابن سلام ممّن آمن بعد الهجرة فدلّوا على تمكّنهم من معرفة البيّنة لصحة أفهامهم ولوضوح دلالة البيّنة، فأصحابها مؤمنون بها.

{ **مِنْ رَبِّهِ** } أنّها من وحي الله ووصايته التي أشار إليها قوله تعالى { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النبيّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ } [آل عمران:81]، وقوله تعالى { الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النبيّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْأِنْجِيلِ } [الأعراف:157].

{ **وَيَتْلُوهُ** } مضارع التَّلو، وهو الاتّباع، وليس من التلاوة، أي: يتبعه. والاتّباع مستعار للتأييد والاقتداء. فإنّ الشاهد بالحقّ يحضر وراء المشهود له.

{ **شَاهِدٌ مِنْهُ** } شاهد من ربّه، أي: شاهد من الله، وهو القرآن لأنّه لإعجازه المعاندين عن الإتيان بعشر سور مثله كان حجّة على أنّه آت من جانب الله.

{ **وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى** } ذكر كتاب موسى وأنّه من قبله يشير إلى أنّ البيّنة المذكورة هنا من الإنجيل، ويقوّي أنّ المراد بـ { مَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ } النصارى.

وإذا كان المراد بـ { مَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ } النصارى خاصة كان لذكر { كِتَابُ مُوسَى } إيماء إلى أنّ كتاب موسى عليه السلام شاهد على صدق محمد صلى الله عليه وسلم. ولم يذكر أهل ذلك الكتاب، وهم اليهود، لأنّهم لم يكونوا على بيّنة من ربّهم كاملة من جهة عدم تصديقهم بعيسى عليه السلام.

{ **إِمَاماً وَرَحْمَةً** } حالان ثناء على التوراة بما فيها من تفصيل الشريعة، فهو إمام يُهتدى به ورحمة للنّاس يعملون بأحكامها فيرحمهم الله في الدنيا بإقامة العدل وفي الآخرة بجزاء الاستقامة، إذ الإمام ما يؤتمّ به ويعمل على مثاله.

{ **أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ** } أي: أولئك الذين كانوا على بيّنة من ربّهم يؤمنون بالقرآن وليسوا مثلكم يا معشر المشركين، وذلك في معنى قوله { فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ } [الأنعام:89].

{ **بِهِ** } عائد إلى القرآن المعلوم من المقام، أو من تقدّم ضميره في قوله تعالى { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ } [13]. والباء للتعدية لا للسببيّة، أي: يؤمنون بما وُصف به القرآن من أنّه من عند الله.

وحاصل معنى الآية وارتباطها بما قبلها { فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } [14]: أنّ الذين يؤمنون به هم الذين كانوا على بيّنة من ربّهم مؤيَّدة بشاهد من ربّهم ومَعْضُودة بكتاب موسى عليه السلام من قبل بيّنتهم.

{ **وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ** } عطف على { أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ } لأنّه لمّا حرّض أهل مكّة على الإسلام بقوله تعالى { فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } [14]، وأراهم القدوة بقوله تعالى { أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ }، عاد فحذّر من الكفر بالقرآن والإعراض عمّا تبيّن لهم من بيّنة ربّهم وشواهد رسله، بأنّ النار موعدهم.

الأحزاب: هم الذين يجمعهم أمر، فالمشركون حزب، واليهود حزب، والنصارى حزب.

قال تعالى { كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ } [ص:13/12].

الموعد: ظرف للوعد من مكان أو زمان. وأطلق هنا على المصير الصائر إليه، لأنّ شأن المكان المعيّن لعمل أن يُعيّن به بوعد سابق.

{ **فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ** } تفريع على قوله تعالى { وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ }، والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والنهي مستعمل كناية تعريضيّة بالكافرين بالقرآن.

المِرية: الشك. وهي مرادفة الامتراء المتقدّم في [الأنعام:2]. وفيه تعريض بأنّ ما فيه المشركون من اليقين بكذب القرآن أشد ذمّا وشناعة.

{ **إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ** } مستأنفة تأكيد لما دلّت عليه جملة { فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ } من أنّه لوضوح حقّيته لا ينبغي أن يُمترى في صدقه

{ **الْحَقُّ** } التعريف لإفادة قصر جنس الحقّ على القرآن. وهو قصر مبالغة، لكمال جنس الحقّ فيه حتّى كأنّه لا يوجد حقّ غيره. مثل قولك: حاتم الجواد.

{ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ** } الاستدراك ناشئ على حكم الحصر، فإنّ الحصر يقتضي أن يؤمن به كل من بلغه ولكنّ أكثر الناس لا يؤمنون.

الإيمان: هو التصديق بما جاء به الرّسول صلى الله عليه وسلم من الدين. وحذف متعلّق { يُؤْمِنُونَ } لأنّ المراد انتفاء حقيقة الإيمان عنهم في كل ما طُلب الإيمان به من الحق.

{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ [18] الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ [19] }.

لمّا انقضى الكلام من إبطال زعمهم أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم افترى القرآن ونسبه إلى الله.

وتعجيزهم عن برهان لما زعموه، كرّ عليهم أن قد وضح أنّهم المفترون على الله عدّة أكاذيب، منها نفيهم أن يكون القرآن منزّلا من عنده.

{ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى** } عُطفت على { وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ } [17] لبيان استحقاقهم النّار على كفرهم بالقرآن، وزعمهم أنّ الرّسول صلى الله عليه وسلم افتراه، فكانوا بالغين غاية الظلم. والسؤال إنكاري يؤول إلى معنى النفي، أي: لا أحد أظلم منهم. وقد تقدّم نظيره { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ } [البقرة:114]، وقوله تعالى { فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ } [الأعراف:37].

وافتراؤهم على الله هو ما وضعوه من دين الشرك، كقولهم: إنّ الأصنام شفعاؤهم عند الله، وقولهم في كثير من أمور دينهم: { وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا } [الأعراف:28].

{ **أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ** } استئناف. وتصديرها باسم الإشارة للتنبيه على أنّهم أحرياء بما سيرد بعد اسم الإشارة من الخبر بسبب ما قبله من الوصف، وهذا أشد الظلم. ولما يؤذن به اسم الإشارة من معنى تعليل ما قبله فيما بعده، أي: أنّ عرضهم على ربّهم عرض زجر وانتقام. <u>والمعنى</u>: أولئك يعرضون على الله للعقاب.

{ **وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ** } أي: ويعلن الأشهاد بأنّهم كذبوا على ربهم فضحا لهم.

الأشهاد: جمع شاهد بمعنى حاضر، أو جمع شهيد بمعنى المخبر بما عليهم من الحقّ. وهم من **الملائكة**.

{ **هَؤُلاءِ** } استحضارهم بطريق اسم الإشارة لتمييزهم للنّاس كلّهم، حتّى يشتهر ما سيخبَر به عن حالهم، والمقصود من ذلك شهرتهم بالسوء وافتضاحهم.

{ **أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ** } المقصود من إعلان هذه الصفة التشهير والخزي لا إثبات كذبهم لأنّ إثبات ذلك حاصل في صحف أعمالهم، ولذلك لم يُسند العرض إلى أعمالهم وأسند إلى ذواتهم، { أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ }. والجملة من بقية قول الأشهاد. وافتتاحها بحرف التنبيه يناسب مقام التشهير.

وممّا يؤيّد أنّه من قول الأشهاد وقوع نظيره مصرّحا فيه بذلك { فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ } [الأعراف:44].

{ **الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ** } تقدم نظيره في [الأعراف:45].

{ **يَبْغُونَهَا** } ضمير المؤنث عائد إلى سبيل الله، لأنّ (سبيل) يجوز اعتباره مؤنثا.

<u>المعنى</u>: أنّهم يبغون أن تصير سبيل الله عوجاء.

وهنا انتهى كلام الأشهاد لأن نظيره الذي في [الأعراف:44] في قوله تعالى { فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ } انتهى بما يماثل آخر هذه الآية.

واختصت هذه الآية على نظيرها في الأعراف بزيادة {هُمْ } في قوله تعالى { هُمْ كَافِرُونَ } وهو توكيد

يفيد تقوّي الحكم، لأنّ المقام هنا مقام تسجيل إنكارهم البعث وتقريره، إشعارا بما يترقّبهم من العقاب المناسب فحكي به من كلام الأشهاد ما يناسب هذا، وما في سورة الأعراف حكاية لما قيل في شأن قوم أدخلوا النار وظهر عقابهم فلا غرض لحكاية ما فيه تأكيد من كلام الأشهاد، وكلا المقالتين واقع. وإنّما يحكي البليغ فيما يحكيه ما له مناسبة لمقام الحكاية.

{ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ } [20].

{ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ } استئناف بياني ناشئ عن الاقتصار في تهديدهم على وصف بعض عقابهم في الآخرة فإن ذلك يثير في نفس السامع أن يسأل: هل هم سالمون من عذاب الدنيا؟ فأجيب بأنّهم لم يكونوا معجزين في الدنيا.

وإعادة الإشارة إليهم بقوله تعالى { **أُولَئِكَ** } بعد أن أشير إليهم بقوله تعالى { أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِم } لتقرير فائدة اسم الإشارة السابق.

المُعْجِزُ: هنا الذي أفلت ممّن يروم إضراره. وتقدّم بيانه عند قوله تعالى { إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ } [الأنعام:134].

الأرض: الدنيا، وفائدة ذكره أنّهم لا ملجأ لهم من الله لو أراد الانتقام منهم فلا يجدون موضعا من الأرض يستعصمون به. فهذا نفي للملاجئ والمعاقل التي يستعصم فيها الهارب.

وعندي أن مقارنة { فِي الْأَرْضِ } بـ { مُعْجِزِينَ } جرى مجرى المثل في القرآن.

{ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ } <u>يجوز</u> أن يكون المراد بالأولياء الأنصار، أي: ما لهم ناصر ينصرهم من دون الله. فجمع لهم نفي سببي النجاة من عذاب القادر؛ وهما المكان الذي لا يصل إليه القادر، أو معارضة قادر آخر يمنعه من تسليط عقابه.

<u>ويجوز</u> أن يراد بالأولياء الأصنام التي تولَّوها، أي: أخلصوا لها المحبة والعبادة.

{ مِنْ دُونِ اللَّهِ } على الوجه الثاني بمعنى من غير الله.

{ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ } خبر عن اسم الإشارة. <u>ويجوز</u> أن تكون جملة { لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ} خبرا أولا وجملة { يُضَاعَفُ } خبرا ثانيا. <u>ويجوز</u> أن تكون جملة { لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ } حالا وجملة { يُضَاعَفُ } خبرا أول.

العذاب المضاعف: هو عذاب الآخرة بقرينة قوله تعالى { لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ } المشعر بتأخير العذاب عنهم في الدنيا لا عن عجز.

{ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ } يجوز أن يكون هذا خبرا عن اسم الإشارة أو حالا منه.

{ **مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ** } مستعارة لكراهيتهم سماع القرآن وأقوال النبيّ صلى الله عليه وسلم. وعُبّر هنا بالاستطاعة لأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يدعوهم إلى استماع القرآن فيعرضون لأنهم يكرهون أن يسمعوه. لأنهم لو سمعوا ووعوا لاهتدوا. لأنّ الكلام المسموع مشتمل على تركيب الأدلة ونتائجها فسماعه كاف فيحصول الاهتداء.

{ **وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ** } هو النظر في المصنوعات الدالة على الوحدانيّة، أي: ما كانوا يوجّهون أنظارهم إلى المصنوعات توجيه تأمّل واعتبار بل ينظرون إليها نظر الغافل عمّا فيها من الدقائق، ولذلك لم يقل هنا: وما كانوا يستطيعون أن يبصروا، لأنّهم كانوا يبصرونها ولكن مجرد الإبصار غير كاف في حصول الاستدلال.

{ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ [21] لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ [22] }.

استئناف، واسم الإشارة هنا تأكيد ثان لاسم الإشارة في قوله تعالى { أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ } [18].

{ **الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ** } الموصول مراد به الجنس المعروف بهذه الصلة، أي: إن بلغكم أنّ قوما خسروا أنفسهم فهم المفترون على الله كذبا، وخسارة أنفسهم عدم الانتفاع بها في الاهتداء، فلمّا ضلوا فقد خسروها. وتقدّم الكلام على نظيره عند قوله تعالى { الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ } [الأنعام:12].

الضلال: خطأ الطريق المقصود.

{ **مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ** } ما كانوا يزعمونه من أنّ الأصنام تشفع لهم وتدفع عنهم الضرّ عند الشدائد.

قال تعالى { فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَاناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [الأحقاف:28].

{ **لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ** } مستأنفة فذلكة ونتيجة للجمل المتقدمة، لأنّ ما جُمع لهم من الزجّ للعقوبة ومن افتضاح أمرهم ومن إعراضهم عن استماع النُذر وعن النظر في دلائل الوحدانية يوجب اليقين بأنّهم الأخسرون في الآخرة.

{ **لا جَرَمَ** } كلمة جزم ويقين جرت مجرى المثل، أي: لا محالة أو لا بد. ثم يجيء بعدها (أنّ) واسمها وخبرها. والتقدير: لا جرم من أنّ الأمر كذا.

وعُبّر عمّا لحقهم من الضرّ بالخسارة استعارة، لأنّه ضرّ أصابهم من حيث كانوا يرجون المنفعة.

{ **هُمُ الْأَخْسَرُونَ** } أي: شديدي الخسارة، لأنّهم قد اجتمع لهم من أسباب الشقاء والعذاب ما افترق بين الأمم الضالة. ولأنّهم شقوا من حيث كانوا يحسبونه سعادة، قال تعالى { قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً } [الكهف:104/103]، فكانوا أخسرين لأنّهم اجتمعت لهم خسارة الدنيا والآخرة.

{ **هُمُ الْأَخْسَرُونَ** } ضمير الفصل يفيد القصر، وهو قصر ادعائي، لأنّهم بلغوا الحد الأقصى في الخسارة، فكأنهم انفردوا بالأخسريّة.

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [23].

لمّا ذُكر أحوال البالغين أقصى غايات الخسارة ذُكر مقابلهم الذين بلغوا أعلى درجات السعادة.

فالجملة مستأنفة استئنافا بيانيّا لأنّ النفوس تشرئب عند سماع حكم الشيء إلى معرفة حكم ضدّه.

الإخبات: الخضوع والتواضع، أي: أطاعوا ربّهم أحسن طاعة.

{ **أُولَئِكَ** } موقعه هنا مثل موقعه في الآية قبلها.

{ **هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** } في موقع البيان لجملة { أَصْحَابُ الْجَنَّةِ } لأنّ الخلود في المكان هو أحقّ الأحوال بإطلاق وصف الصاحب على الحال بذلك المكان إذ الأمكنة لا تقصد إلّا لأجل الحلول فيها، فتكون الجملة مستأنفة لبيان ما قبلها، فمنزلتها منزلة عطف البيان. وقد تقدّم نظيرها في قوله تعالى { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [البقرة:82].

{ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ } [24].

بعد أن تبيّن الاختلاف بين حال المشركين المفترين على الله كذبا وبين حال الذين آمنوا وعملوا الصالحات في منازل الآخرة أعقب ببيان التنظير بين حالي الفريقين المشركين والمؤمنين بطريقة تمثيل ما تستحقّه من ذمّ ومدح. فالجملة فذلكة للكلام وتحصيل له وللتحذير من مواقعة سببه.

المَثَل: (بالتحريك) الحالة والصفة، أي: حالة الفريقين المشركين والمؤمنين تشبه حال الأعمى الأصم من جهة وحال البصير السميع من الجهة الأخرى. فالكلام تشبيه وليس استعارة لوجود كاف التشبيه وهو أيضا تشبيه مفرد لا مركب.

والفريقان هما المعهودان في الذكر في هذا الكلام، وهما فريق المشركين وفريق المؤمنين.

الفريق: الجماعة التي تفارِق، أي: يخالف حالها حال جماعة أخرى في عمل أو نحلة. وتقدّم عند قوله تعالى { فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [الأنعام:81].

شُبّه حال فريق الكفّار في عدم الانتفاع بالنظر في دلائل وحدانيّة الله الواضحة من مخلوقاته بحال الأعمى، وشُبّهوا في عدم الانتفاع بأدلة القرآن بحال من هو أصم. وشُبّه حال فريق المؤمنين في ضدّ ذلك بحال من كان سليم البصر سليم السمع فهو في هدى ويقين من مدركاته.

{ **هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً** } واقعة موقع البيان للغرض من التشبيه وهو نفي استواء حالهما، ونفي الاستواء

كناية عن التفضيل، والمفضّل منهما معلوم من المقام، أي: معلوم تفضيل الفريق الممثَّل بالسميع والبصير على الفريق الممثَّل بالأعمى والأصم.

{ **أَفَلا تَذَكَّرُونَ** } الاستفهام إنكاري. والمقصود تنبيه المشركين لما هم فيه من الضلالة لعلّهم يتداركون أمرهم.

{ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ [25] أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ [26]** }.

انتقال من إنذار المشركين ووصف أحوالهم وما ناسب ذلك إلى موعظتهم بما أصاب المكذّبين قبلهم من المصائب، وفي ذلك تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم بما لاقاه الرسل عليهم السلام قبله من أقوامهم.

فالعطف من عطف القصّة على القصّة وهي التي تُسمَّى الواو الابتدائية.

{ **لَقَدْ** } أكِّدت الجملة بلام القسم و (قد) لأنّ المخاطبين لمّا غفلوا عن الحذر ممّا حلّ بقوم نوح نزلوا منزلة المنكر لوقوع رسالته.

وتقدم الكلام على نوح عليه السلام وقومه عند قوله تعالى { لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ } [الأعراف:59].

وعند قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً } [آل عمران:33].

{ **أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ** } مفسِّرة لجملة { أَرْسَلْنَا }، لأنّ الإرسال فيه معنى القول دون حروفه.

ويجوز كونها تفسيرا لـ { نَذِيرٌ } لما في { نَذِيرٌ } من معنى القول.

{ **إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ** } تعليل لـ { نَذِيرٌ }، لأنّ شأن النذارة أن تثقل على النفوس فكانت جديرة بالتعليل لدفع حرج ما يلاقونه.

{ **أَخَافُ عَلَيْكُمْ** } ونحوها مثل: أخشى عليك، تُستعمل للتوقّع في الأمر المظنون أو المقطوع به باعتبار إمكان الانفلات من المقطوع به. فيتعدّى الفعل بنفسه إلى الخوف منه، ويتعدّى إلى المخوف عليه بحرف (على) كما في الآية.

{ **عَذَابَ** } نكرة في المعنى، لأنّه أضيف إلى نكرة فكان محتملا لعذاب الدنيا وعذاب الآخرة؛

فأمّا عذاب الدنيا فليس مقطوعا بنزوله بهم ولكنه مظنون من نوح عليه السلام بناء على ما علمه من عناية الله بإيمان قومه وما أوحي إليه من الحرص في التبليغ، فعلم أن شأن ذلك أن لا يترك من عصوه دون عقوبة. ولذلك قال في كلامه الآتي { إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ } [33].

وكان العذاب شاملا لعذاب الآخرة أيضا إن بقوا على الكفر، وهو مقطوع به لأنّ الله يقرن الوعيد بالدعوة، فلذلك قال نوح عليه السلام في كلامه الآتي { وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ } [33]. وقد تبادر إلى أذهان قومه عذاب الدنيا لأنّهم لا يؤمنون بالبعث، فلذلك قالوا في كلامهم الآتي { فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } [32]. ولعل في كلام نوح عليه السلام ما يفيد أنّه توعّدهم بعذاب في الدنيا وهو الطوفان.

{ **يَوْمٍ أَلِيمٍ** } مجاز عقلي، وهو أبلغ من أن يوصف العذاب بالأليم، لأن شدة العذاب لما بلغت الغاية جعل زمانه أليما، أي: مؤلما.

{ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ } [27].

العطف بالفاء للإشارة إلى أنّهم بادروه بالتكذيب والمجادلة الباطلة لمّا قال لهم { إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ } [25]. **الملأ**: سادة القوم. وتقدّم عند قوله تعالى { قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ } [الأعراف:60].

لمّا دعاهم نوح عليه السلام دعوة علموا منها أنّه يقودهم إلى طاعته ففكّروا وقدّروا فرأوا الأسباب المألوفة بينهم للسؤدد مفقودة من نوح عليه السلام ومن الذين اتّبعوه فجزموا بأنّه غير حقيق بالسيادة عليهم فجزموا بتكذيبه فيما ادّعاه من الرسالة بسيادة للأمّة وقيادة لها.

البشر: الإنسان ذكرا أو أنثى، واحدا كان أو جمعا. قال الراغب: "عُبّر عن الإنسان بالبشر اعتبارا بظهور بشرته وهي جلده بخلاف الحيوانات التي عليها الصوف والشعر والوبر". والبشر مرادف الإنسان فيطلق كما يطلق الإنسان على الواحد والأكثر والمؤنث والمذكر، وقد يثنّى، قال تعالى { أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا } [المؤمنون:47].

{ **وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا** } تعريض بأنّهم لا يتّبعونه لأنّهم يترفّعون عن مخالطة أمثالهم وأنّه لو أبعدهم عنه لاتّبعوه، ولذلك ورد بعده { وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا } [29] .

الأراذل: جمع أرذل المجعول اسما غير صفة كذلك على القياس، أو جمع رذيل على خلاف القياس. والرذيل المحتقر. أرادوا أنّهم من لفيف القوم غير سادة ولا أثرياء. وكان أتباع نوح عليه السلام من ضعفاء القوم.

{ **بَادِيَ** } قرأه الجمهور بياء تحتية في آخره على أنّه مشتق من بدا المقصور إذا **ظهر**. المعنى: فيما يبدو لهم من الرأي دون بحث عن خفاياه ودقائقه.

وقرأه أبو عمرو وحده بهمزة في آخره على أنه مشتق من **البداء**، وهو أوّل الشيء.

ويكون المعنى: فيما يقع أوّل الرأي، أي: دون إعادة النظر لمعرفة الحق من التمويه.

ومآل المعنيين واحد.

الرأي: نظر العقل، مشتقّ من فعل رأى، كما استُعمل رأى بمعنى ظنّ وعلم.

يعنون أنّ هؤلاء قد غرّتهم دعوتك فتسرّعوا إلى متابعتك ولو أعادوا النظر والتأمّل لعلموا أنّك لا تستحق أن تُتّبع.

{ **وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ** } لمّا وصفوا كل فريق من التابع والمتبوع بما ينفي سيادة المتبوع وتزكية

التابع جمعوا الوصف الشامل لهما. وهو المقصود من الوصفين المفرّقين. فنفوا أن يكون لنوح عليه السلام وأتباعه فضل على الذين لم يؤمنوا به حتّى يكون نوح عليه السلام سيّدا لهم ويكون أتباعه مفضّلين بسيادة متبوعهم.

الفضل: الزيادة في الشرف والكمال، والمراد هنا آثاره وعلاماته لأنّها التي ترى، فجعلوا عدم ظهور فضل لهم عليهم دليلا على انتفاء فضلهم.

{ **بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ** } زعموا نوحا عليه السلام كاذبا في دعوى الرسالة وأتباعه كاذبين في دعوى حصول اليقين بصدق نوح عليه السلام، بل ذلك منهم اعتقاد باطل، وهذا الظنّ الذي زعموه مستند إلى الدليل المحسوس في اعتقادهم. واستُعمل الظنّ هنا في العلم كقوله تعالى { الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ} [البقرة:46]، وهو إطلاق شائع في الكلام.

{ **قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ** } [28].

فصلت عن التي قبلها على طريقة حكاية الأقوال في المحاورات.

{ **يَا قَوْمِ** } افتتاح مراجعته بالنداء لطلب إقبال أذهانهم لوعي كلامه، واختيار استحضارهم بعنوان قومه لاستنزال طائر نفورهم تذكيرا لهم بأنّه منهم فلا يريد لهم إلّا خيرا.

{ **أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي** } استفهام عن الرؤية بمعنى الاعتقاد. وهو استفهام تقريري معناه إن كنت ذا برهان واضح، ومتّصفا برحمة الله بالرسالة بالهدى فلم تظهر لكم الحجّة ولا دلائل الهدى فهل ألزمكم أنا وأتباعي بها، أي: بالإذعان إليها والتصديق بها إن أنّتم تكرهون قبولها. وهذا تعريض بأنّهم لو تأمّلوا تأمّلا بريئا من الكراهية والعداوة لعلموا صدق دعوته.

البيّنة: الحجّة الواضحة، وتطلق على المعجزة، فيجوز أن تكون معجزته الطوفان، ويجوز أن تكون له معجزات أخرى لم تذكر، فإنّ بعثة الرسل عليهم السلام لا تخلو من معجزات.

{ **رَبِّي** } اختيار وصف الربّ دون اسم الجلالة للدلالة على أنّ إعطاءه البيّنة والرحمة فضل من الله أراد به إظهار رفقه وعنايته به.

{ **وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ** } نعمة النبوّة والتفضيل عليهم الذي أنكروه، مع ما صحبها من البيّنة لأنّها من تمامها، فعطف { رَحْمَةً } على { بَيِّنَةٍ } يقتضي المغايرة بينهما، وهي مغايرة بالعموم والخصوص، لأنّ الرحمة أعمّ من البيّنة، إذ البيّنة على صدقه من جملة الرحمة به.

{ **فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ** } فخفيت، وهو استعارة. ومن بديع هذه الاستعارة هنا أنّ فيها طباقا لمقابلة قولهم في مجادلتهم { مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً - وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ - وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ } [27]. فقابل نوح عليه السلام كلامهم مقابلة بالمعنى واللفظ إذ جعل عدم رؤيتهم من قبيل العمى.

{ **فَعُمِّيَتْ** } عطفت بفاء التعقيب إيماء إلى عدم الفترة بين إيتائه البيّنة والرحمة وبين خفائها عليهم. وهو تعريض لهم بأنّهم بادروا بالإنكار قبل التأمّل.

{ **أَنُلْزِمُكُمُوهَا** } الاستفهام إنكاري، أي: لا نكرهكم على قبولها، فعُلّق الإلزام بضمير البيّنة أو الرحمة. والمراد تعليقه بقبولها بدلالة القرينة.

وجيء بضمير المتكلّم المشارك هنا للإشارة إلى أتباعه، فأراد أن لا يهمل ذكر أتباعه وأنّهم أنصار له لو شاء أن يهيب بهم. والقصد من ذلك التنويه بشأنهم في مقابلة تحقير الآخرين إيّاهم..

{ **وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ** } **الكاره**: المبغض لشيء. وعدّي باللام إلى مفعوله لزيادة تقوية تعلّق الكراهية بالرحمة أو البيّنة، أي: وأنتم مبغضون قبولها لأجل إعراضكم عن التدبّر فيها.

وتقديم المجرور على { كَارِهُونَ } لرعاية الفاصلة مع الاهتمام بشأنها.

والمقصود من كلامه بعثهم على إعادة التأمّل في الآيات، وتخفيض نفوسهم، واستنزالهم إلى الإنصاف. وليس المقصود معذرتهم بما صنعوا ولا العدول عن تكرير دعوتهم.

{ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ } [29].

{ **وَيَا قَوْمِ** } إعادة الخطاب بهذا المداء تأكيد لما في الخطاب به أول مرة من المعاني التي ذكرناها، وأمّا عطف النداء بالواو مع أنّ المخاطب به واحد وشأن عطف النداء أن يكون عند اختلاف المنادى، فأمّا إذا اتّحد المنادى فالشأن عدم العطف.

يجوز أن يكون تنبيها على اتصال النداءات بعضها ببعض، وأنّ أحدها لا يغني عن الآخر.

ويجوز أن يكون ذلك تفنّنا عربيا في الكلام عند تكرّر النداء استحسانا للمخالفة بين التأكيد والمؤكِّد.

ويسجئ نظير هذا قريبا في قصة هود وقصة شعيب عليهما السلام.

{ **لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً** } انتقل إلى تقريبهم من النظر في نزاهة ما جاءهم به وأنّه لا يريد نفعا دنيويّا.

{ **إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ** } احتراس، والمخالفة بين العبارتين { مَالاً } و { أَجْرِيَ } تفيد أنّه لا يسأل من الله مالا ولكنّه يسأل ثوابا.

الأجر: العوض على عمل. ويُسمّى ثواب الله أجرا لأنّه جزاء على العمل الصالح.

{ **وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا** } عطف على { لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً } لأنّ مضمونها كالنتيجة لمضمون المعطوف عليها، لأنّ نفي طمعه في المخاطبين يقتضي أنّه لا يؤذي أتباعه لأجل إرضاء هؤلاء. ولذلك عبَّر عن أتباعه بطريق الموصوليّة { الَّذِينَ آمَنُوا } لما يؤذن به الموصول من تغليط قومه في تعريضهم له بأن يطردهم، بما أنّهم لا يجالسون أمثالهم، إيذانا بأنّ إيمانهم يوجب تفضيلهم على غيرهم الذين لم يؤمنوا به والرغبة فيهم فكيف يطردهم.

الطرد: الأمر بالبعد عن مكان الحضور تحقيرا أو زجرا. وتقدّم عند قوله تعالى { وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ } [الأنعام:52].

{ **إِنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ** } في موضع التعليل لنفي أن يطردهم بأنّهم صائرون إلى الله في الآخرة فمحاسِب من يطردهم، هذا إذا كانت الملاقاة على الحقيقة. أو أراد أنّهم يدعون ربهم في صلاتهم فينتصر الله لهم، إذا كانت الملاقاة مجازية، أو أنّهم ملاقو ربّهم حين يحضرون مجلس دعوتي لأنّي أدعو إلى الله لا إلى شيء يخصّني فهم عند ملاقاتي كمن يلاقون ربّهم لأنّهم يتلقّون ما أوحى الله إليَّ.

وهذا كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم في قصة النفر الثلاثة الذين حضروا مجلس النبيّ صلى الله عليه وسلم فجلس أحدهم، واستحيا أحدهم، وأعرض الثالث: **" أمّا الأوّل فآوى إلى الله فآواه الله، وأمّا الثاني فاستحيا فاستحيا الله منه، وأمّا الثالث فأعرض فأعرض الله عنه ".**

{ **وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ** } موقع الاستدراك هو أنّ مضمون الجملة ضدّ مضمون التي قبلها، أي: لا ريب في ذلك ولكنّكم تجهلون فتحسبونهم لا حضرة لهم وأن لا تبعة في طردهم.

وحُذف مفعول { تَجْهَلُونَ } للعلم به، أي: تجهلون ذلك.

{ **قَوْماً** } زيادة تدل على أنّ جهلهم صفة لازمة لهم، كأنّها من مقوّمات قوميّتهم.

{ وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ } [30].

{ **وَيَا قَوْمِ** } مثل إعادته في الآية قبلها.

{ **مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ** } الاستفهام إنكاري. و**النصر**: إعانة المقاوم لضدّ أو عدو. أي: ينجيني من عقابه، لأنّ الله لا يحبّ إهانة أوليائه.

{ **أَفَلا تَذَكَّرُونَ** } تفريع، أنكر على قومه إهمالهم التذكّر، أي: التأمّل في الدلائل ومدلولاتها، والأسباب ومسبّباتها. وأصل { تَذَكَّرُونَ } تتذكّرون فأبدلت التاء ذالا وأدغمت في الذال.

التذكّر: تقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا } [الأعراف:201].

{ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ } [31].

هذا تفصيل لما ردّ به مقالة قومه إجمالا، فهم استدلوا على نفي نبوّته بأنّهم لم يروا له فضلا عليهم، فجاء هو في جوابهم بالقول إنّه لم يدّع فضلا غير الوحي إليه، ولذلك نفى أن يكون قد ادّعى غير ذلك.

واقتصر على بعض ما يتوهّمونه من لوازم النبوّة وهو أن يكون أغنى منهم، أو أن يعلم الأمور الغائبة.

{ **وَلَا أَقُولُ لَكُمْ** } بمعنى الدعوى، وإنّما نفى ذلك بصيغة المضارع للدلالة على أنّه منتف عنه ذلك في

الحال، فأمّا انتفاؤه في الماضي فمعلوم لديهم حيث لم يقله، أي: لا تظنّوا أنّي مضمر ادعاء ذلك وإن لم أقله.

الخزائن: جمع خِزانة وهي بيت أو مشكاة كبيرة يجعل لها باب، وذلك لخزن المال أو الطعام، أي: حفظه من الضياع. وذكر الخزائن هنا استعارة مكنية، شُبّهت النعم والأشياء النافعة بالأموال النفيسة التي تُدّخر في الخزائن، ورمز إلى ذلك بذكر ما هو من روادف المشبّه به وهو الخزائن.

{ **وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ** } نفي لشبهة قولهم { مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا } ولذلك أعاد معه فعل القول لأنّه إبطال دعوى أخرى ألصقوها به.

{ **وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً** } أراد إبطال قولهم { وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا } [27]، أبطله بطريقة التغليط، بأنّ ضعفهم ليس بحائل بينهم وبين الخير من الله إذ لا ارتباط بين الضعف في الأمور الدنيوية، من فَقرٍ وقِلَّةٍ، وبين الحرمان من نوال الكمالات النفسانية والدينية.

وأعاد معه فعل القول لأنّه أراد من القول معنى غير المراد منه فيما قيل، فالقول هنا كناية عن الاعتقاد، لأنّ المرء إنّما يقول ما يعتقد، وهي تعريضيّة بالمخاطبين لأنّهم يضمرون ذلك ويقدّرونه.

الازدراء: من الزري وهو الاحتقار وإلصاق العيب، فأصله: ازتراء، قُلبت تاء الافتعال دالا بعد الزاي كما قلبت في الازدياد.

{ **أَعْيُنُكُمْ** } إسناد الازدراء إلى الأعين، وإنّما هو من أفعال النفس، مجاز عقلي، لأنّ الأعين سبب الازدراء غالبا، لأنّ الازدراء ينشأ عن مشاهدة الصفات الحقيرة عند الناظر. نظيره قوله تعالى { سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ} [الأعراف: 116]، وإنّما سحروا عقولهم ولكن الأعين ترى حركات السحرة فتؤثّر رؤيتها على عقول المبصرين.

{ **لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً** } جيء في النفي بحرف { لَنْ } الدالة على تأكيد نفي الفعل في المستقبل تعريضا بقومه لأنّهم جعلوا ضعف أتباع نوح عليه السلام وفقرهم دليلا على انتفاء الخير عنهم فاقتضى دوام ذلك ما داموا ضعفاء فقراء.

{ **اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ** } تعليل لنفي أن يقول { لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً }. ولذلك فُصلت الجملة ولم تعطف. أي: أنّ أمرهم موكول إلى ربّهم الذي علم ما أودعه في نفوسهم من الخير والذي وفّقهم إلى الإيمان، أي: فهو يعاملهم بما يعلم منهم.

{ **أَعْلَمُ** } اسم تفضيل مسلوب المفاضلة مقصود منه شدّة العلم.

{ **إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ** } تعليل ثان لنفي أن يقول { لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً }. و { إِذاً } حرف جواب وجزاء مجازاة للقول، أي: لو قلت ذلك لكنت من الظالمين، وذلك أنّه يظلمهم بالقضاء عليهم بما لا يعلم من حقيقتهم، ويظلم نفسه باقتحام القول بما لا يصدق.

{ **مِنَ الظَّالِمِينَ** } أبلغ في إثبات الظلم من: إنّي ظالم.

{ **قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** [32] **قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ** [33] }.

فصلت هذه الجملة فصلا على طريقة حكاية الأقوال في المحاورات كما تقدّم.

المجادلة: المخاصمة بالقول وإيراد الحجّة عليه، فتكون في الخير كقوله تعالى { يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ } [74]، وتكون في الشرّ كقوله تعالى { وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ } [البقرة:197].

وهذا قول وقع عقب مجادلته المحكيّة في الآية قبل هذه، فتعيّن أنّ تلك المجادلة كانت آخر مجادلة جادلها قومه، وأنّ ضجرهم وسآمتهم من تكرار مجادلته حصل ساعتئذ فقالوا قولهم هذا. فكانت كلّها مجادلات مضت. وكانت المجادلة الأخيرة هي التي استفزّت امتعاضهم من قوارع جدله حتّى سئموا من تزييف معارضتهم وآرائهم، شأن المبطل إذا دمغته الحجّة، ولذلك أرادوا طي بساط الجدال، وأرادوا إفحامه بأن طلبوا تعجيل ما توعّدهم من عذاب ينزل بهم كقوله آنفا { إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ } [26].

{ **فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا** } خبر مستعمل في التذمّر والتضجير والتأييس من الاقتناع.

{ **فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** }

الإتيان بالشيء: إحضاره. أرادوا به تعجيله وعدم إنظاره.

{ **إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ** } قصر قلب بناء على ظاهر طلبهم، حملا لكلامهم على ظاهره على طريقة مجاراة الخصم في المناظرة.

{ **إِنْ شَاءَ** } احتراس راجع إلى حمل العذاب على عذاب الدنيا. ولعلّ نوحا عليه السلام لم يكن له وحي من الله بأنّ يحل بهم عذاب الدنيا فلذلك فوّضه إلى المشيئة.

{ **وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ** } يريد أنّ العذاب واقع لا محالة.

{ **وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** } [34].

عطف على وعظهم بحلول العذاب وتوقّعه بيان حال مجادلته إيّاهم التي امتعضوا منها بأنّها مجادلة لنفعهم وصلاحهم، وفي ذلك تعريض بتحميقهم وتسفيه آرائهم حيث كرهوا ما هو نفع لهم.

النصح: قول أو عمل يريد صاحبه صلاح المعمول لأجله. وأكثر ما يُطلق على الأقوال النافعة المنقذة من الأضرار. ويكون بالعمل كقوله تعالى { إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ } [التوبة:91]. وفي الحديث: " **الدين النصيحة لله ولرسوله** " أي: الإخلاص في العمل لهما، لأنّ الله لا يُنبّأ بشيء لا يعلمه. وقد تقدّم في قوله تعالى { وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ } [الأعراف [79]. فالمراد بالنصح هنا هو ما سماه قومه بالجدال، أي: هو أولى بأن يُسمّى نصحا، لأنّ الجدال يكون للخير والشرّ كما تقدّم.

{ **إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ** } التعليق بالشرط مؤذن بعزمه على تجديد النصح في المستقبل لأنّ واجبه هو البلاغ وإن كرهوا ذلك.

{ **إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ** } جملة الشرط هي المقصود من الكلام فجوابها في معنى قوله تعالى { لَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي }، ولكن نظم الكلام بُني على الإخبار بعدم نفع النصح اهتماما بذلك فجُعل معطوفا على ما قبله وأتي بالشرط قيدا له. أشار إلى ما هم فيه من كراهية دعوته سببه خذلان الله إيّاهم ولولاه لنفعهم نصحه، ولكن نوحا عليه السلام لا يعلم مراد الله من إغوائهم ولا مدى استمرار غوايتهم فلذلك كان عليه أن ينصح لهم إلى نهاية الأمر.

الإغواء: جعل الشخص ذا غواية، وهي الضلال عن الحقّ والرشد.

{ **هُوَ رَبُّكُمْ** } ابتدائية لتعليمهم أنّ الله ربّهم إن كانوا لا يؤمنون بوجود الله، أو لتذكيرهم بذلك إن كانوا يؤمنون بوجوده ويشركون معه ودّا، وسواعا، ويغوث، ويعوق، ونسرا.

{ **وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** } التقديم للاهتمام ولرعاية الفاصلة وليس للقصر.

{ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ } [35].

جملة معترضة بين جملة أجزاء القصّة وليست من القصّة، ومن جعلها منها فقد أبعد، وهي تأكيد لنظيرها السابق في أول السورة. ومناسبة هذا الاعتراض أنّ تفاصيل القصّة التي لا يعلمها المخاطبون تفاصيل عجيبة تدعو المنكرين إلى أن يتذكّروا إنكارهم ويعيدوا ذكره.

وكون ذلك مطابقا لما حصل في زمن نوح عليه السلام وشاهدة به كتب بني إسرائيل يدل على صدق النبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّ علمه بذلك مع أمّيّته وبعد قومه عن أهل الكتاب آية على أنّه وحي من الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

{ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ** } ضمير النصب عائد إلى القرآن المفهوم من السياق. و{ **أَمْ** } للإضراب الانتقالي من غرض لغرض. وهو يؤذن باستفهام إنكاري. وموقع الإنكار بديع لتضمّنه الحجّة عليهم.

{ **قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي** } مفصولة عن التي قبلها لوقوعها في سياق المحاورة كما تقدّم غير مرة. وأُمر النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يعرض عن مجادلتهم بالدليل لأنّهم ليسوا بأهل لذلك إذ قد أقيمت عليهم الحجّة غير مرة فلم تغن فيهم شيئا فلذلك أجيبوا بأنّه لو فرض ذلك لكانت تبعة افترائه على نفسه لا ينالهم منها شيء. وهذا جار على طريقة الاستدراج لهم والكلام المنصف.

الإجرام: اكتساب الجرم وهو الذنب، فهو يقتضي المؤاخذة لا محالة.

{ **وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ** } تذييل للكلام وتأييده بمقابله، أي: فإجرامي عليّ لا عليكم كما أن إجرامكم لا تنالني منه تبعة. ولا حاجة إلى تقدير المضاف في قوله تعالى { مِمَّا تُجْرِمُونَ } أي: تبعته، وإنّما هو تقدير معنى لا تقدير إعراب، والشيء يؤكّد بضدّه كقوله تعالى { لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا

أَعْبُدُ } [الكافرون:3/2].

وفي هذه الجملة توجيه بديع وهو إفادة تبرئة نفسه من أن يفتري القرآن فإنّ افتراء القرآن دعوى باطلة ادّعوها عليه فهي إجرام منهم عليه، فيكون المعنى: وأنا بريء من قولكم الذي تجرمونه علي باطلا.

{ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ } [36].

عطف على { قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا } [32]، أي: بعد ذلك أوحي إلي نوح عليه السلام هذا القول.

{ **لَنْ** } تفيد تأبيد النفي في المستقبل، وذلك شديد عليه لذلك عُقّب بتسليته.

{ **مَنْ قَدْ آمَنَ** } تأكيد الفعل بـ { قَدْ } للتنصيص على أنّ المراد مَنْ حصل منهم الإيمان يقينا دون الذين تردّدوا.

{ **فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** } الفاء لتفريع التسلية على الخبر المحزن.

الابتئاس: افتعال من البؤس وهو الهم والحزن، أي: لا تحزن. ومعنى الافتعال هنا: التأثّر بالبؤس الذي أحدثه الخبر المذكور.

{ **بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** } هو إصرارهم على الكفر واعتراضهم عن النظر في الدعوة إلى وقت أن أوحي إليه هذا.

{ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ } [37].

لمّا كان نهيه عن الابتئاس بفعلهم مع شدّة جرمهم مؤذنا بأنّ الله ينتصر له أعقبه بالأمر بصنع الفلك لتهيئة نجاته ونجاة من قد أمن به من العذاب الذي قدّره الله لقومه.

{ **وَاصْنَعِ الْفُلْكَ** } داخلة في الموحى به، فتدلّ على أنّ الله أوحى إليه كيفيّة صنع الفلك، كما دل عليه قوله تعالى { وَوَحْيِنَا }. ولذلك فنوح عليه السلام أوّل من صنع الفلك ولم يكن ذلك معروفا للبشر، وكان ذلك منذ قرون لا يحصيها إلّا الله تعالى، ولا يُعتدّ بما يوجد في الإسرائيليات من إحصاء قرونها.

الفلك: اسم يستوي فيه المفرد والجمع. وتقدّم عند قوله تعالى { وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ } [البقرة:164].

{ **بِأَعْيُنِنَا** } الباء للملابسة، وهي في موضع الحال من ضمير { **اصْنَعِ** }. والأعين استعارة للمراقبة والملاحظة. وصيغة الجمع بمعنى المثنّى. والمراد: الكناية بالمعنى المجازي عن لازمه وهو الحفظ من الخلل والخطأ في الصنع.

{ **وَحْيِنَا** } الوحي الذي به وصف كيفيّة صنع الفلك، كما دلّ عليه عطفه على المجرور بباء الملابسة المتعلقة بالأمر بالصنع.

{ **وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا** } دلّ النهي على أنّ كفار قومه سينزل بهم عقاب عظيم، لأنّ المراد بالمخاطبة المنهي عنها المخاطبة التي ترفع عقابهم فتكون لنفعهم كالشفاعة وطلب تخفيف العقاب لا مطلق المخاطبة. ولعلّ هذا توطئة لنهيه عن مخاطبته في شأن ابنه الكافر قبل أن يخطر ببال نوح عليه السلام سؤال نجاته حتّى يكون الرد عليه حين السؤال ألطف.

{ **إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ** } إخبار بما سيقع وبيان لسبب الأمر بصنع الفلك.

{ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ [38] **فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ** [39] }.

عُبّر عن صنعه بصيغة المضارع لاستحضار الحالة لتخييل السامع أنّ نوحا عليه السلام بصدد العمل.

{ **وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ** } في موضع الحال من ضمير { يَصْنَعُ }.

{ **قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا** } حكاية لما يجيب به سخريتهم، أجريت على طريقة فعل القول إذا وقع في سياق المحاورة، لأنّ جملة { سَخِرُوا } تتضمّن أقوالا تُنبني عن سخريّتهم أو تُبين عن كلام في نفوسهم.

السخرية: الاستهزاء. وهو تعجّب باحتقار واستحماق. وفعلها يتعدّى بـ (من).

وتقدّم عند قوله تعالى { فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ } [الأنعام:10].

وسخريتهم منه حمل فعله على العبث بناء على اعتقادهم أنّ ما يصنعه لا يأتي بتصديق مدّعاه.

{ **فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ** } وفي إسناد (العلم) إلى ضمير المخاطبين إيماء إلى أنّ المخاطبين هم الأحق بعلم ذلك. وهذا يفيد أدبا شريفا بأنّ الواثق بأنّه على الحقّ لا يزعزع ثقته مقابلة السفهاء أعماله النافعة بالسخرية.

الخزي: الإهانة، وقد تقدّم عند قوله تعالى { رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ } [آل عمران:192].

حلول العذاب: حصوله، شُبّه الحصول بحلول القادم إلى المكان، وهو إطلاق شائع حتّى ساوى الحقيقة.

العذاب المقيم: عذاب الآخرة، أي: من يأتيه عذاب الخزي في الحياة الدنيا، والعذاب الخالد في الآخرة.

{ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ } [40].

{ **حَتَّى** } ابتدائية غاية لـ { يَصْنَعُ الْفُلْكَ }، أي: يصنعه إلى زمن مجيء أمرنا.

{ **أَمْرُنَا** } يحتمل أمر التكوين بالطوفان، ويحتمل الشأن وهو حادث الغرق، وإضافته إلى اسم الجلالة لتهويله بأنّه فوق ما يعرفون. و**مجيء الأمر**: حصوله.

{ **وَفَارَ التَّنُّورُ** } **الفوران**: غليان القدر، ويُطلق على نبع الماء بشدة، تشبيها بفوران ماء في القدر إذا غلي، وحملوه على ما جاء في آيات أخرى من قصة نوح عليه السلام مثل قوله تعالى { وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً } [القمر:12]. ولذلك لم يتّضح لهم إسناده إلى التنور، فإنّ { التَّنُّورُ } هو الموقد الذي ينضج فيه الخبز.

فمن المفسّرين من أبقى التنّور على حقيقته، فجعل الفوران خروج الماء من أحد التنانير وأنّه علامة جعلها الله لنوح عليه السلام إذ فار الماء من تنوره علم أنّ ذلك مبدأ الطوفان فركب الفلك وأركب من معه.

ومنهم من حمل التنّور على المجاز المفرد ففسّره بسطح الأرض. أي: فار الماء من جميع الأرض حتى صار بسطح الأرض كفوهة التنور.

ومنهم من حمل { فَارَ } و{ التَّنُّورُ } على الحقيقة، وأخرج الكلام مخرج التمثيل لاشتداد الحال، كما يقال: حمي الوطيس. وقع حكاية ذلك في تفسير ابن عطيّة في هذه الآية وفي الكشّاف في تفسير سورة المؤمنون.

والذي يظهر لي أن قوله تعالى { وَفَارَ التَّنُّورُ } مَثَلٌ لبلوغ الشيء إلى أقصى ما يتحمّل مثله.

كما يقال: بلغ السيل الزُبى، وامتلأ الصاع، وفاضت الكأس وتفاقم.

الزوج: شيء يكون ثانيا لآخر في حالة. وأصله اسم لما ينضمّ إلى فرد فيصير زوجا له، وكلّ منهما زوج للآخر. والمراد بـ { زَوْجَيْنِ } هنا الذكر والأنثى من النوع. و{ اثْنَيْنِ } أي: لا تزد على اثنين.

{ **وَأَهْلَكَ** } أهل الرجل قرابته وأهل بيته وهو اسم جمع لا واحد له. وزوجه أوّل من يبادر من اللفظ، ويطلق لفظ الأهل على امرأة الرجل، قال تعالى { فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ } [القصص:29].

{ **إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ** } أي: من مضى قول الله عليه، أي: وعيده. يعني إلّا من كان من أهلك كافرا. وما صدق هذا إحدى امرأتيه المذكورة في سورة التحريم وابنه منها المذكور في آخر هذه القصة.

وكان لنوح عليه السلام امرأتان.

{ **مَنْ آمَنَ** } كل المؤمنين.

{ **وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ** } اعتراض لتكميل الفائدة من القصّة في قلة الصالحين. قيل: كان جميع المؤمنين به من أهله وغيرهم نيفا وسبعين بين رجال ونساء، فكان معظم حمولة السفينة من الحيوان.

{ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } [41].

{ **وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا** } عدّي الفعل بـ (في) جريا على الفصيح، لأنّ إطلاق الركوب عليه مجاز، وإنّما هو جلوس واستقرار، فلا يقال: ركب السفينة. فأرادوا التفرقة بين الركوب الحقيقي والركوب المشابه له.

{ **بِسْمِ اللَّهِ** } الباء للملابسة، أي: قائلين: باسم الله.

{ **مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا** } بضم الميمين فيهما في قراءة الجمهور، وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وخلف { مَجْرَاهَا } فقط بفتح الميم. وهما مصدرا أجرى السفينة إذا جعلها جارية، أي: سيّرها بسرعة. **أرساها**: إذا جعلها راسية، أي: واقفة على الشاطئ. يقال: رسا إذا ثبت في المكان.

ويجوز أن يكون { مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا } في محل نصب بالنيابة عن ظرف الزمان، أي: وقت إجرائها ووقت إرسائها.

{ **إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** } تعليل للأمر بالركوب، ففي التعليل بالمغفرة والرحمة رمز إلى أنّ الله وعده بنجاتهم، وذلك من غفرانه ورحمته. وأكّد بـ { إِنَّ } ولام الابتداء تحقيقا لأتباعه بأن الله منجيهم.

{ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ [42] قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ [43] }.

{ **وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ** } جملة معترضة دعا إلى اعتراضها هنا ذكر { مَجْرَاهَا } إتماما للفائدة وصفًا لعظم اليوم وعجيب صنع الله تعالى في تيسير نجاتهم. وصيغة المضارع لاستحضار الحالة.

الموج: ما يرتفع من الماء على سطحه عند اضطرابه، وتشبيهه بالجبال في ضخامته. وذلك إمّا لكثرة الرياح التي تعلو الماء وإما لدفع دفقات الماء الواردة من السيول والتقاء الأودية الماءَ السابقَ لها، فإن حادث الطوفان ما كان إلّا عن مثل زلازل تفجرت بها مياه الأرض وأمطار جمّة تلتقي سيولها مع مياه العيون فتختلط وتجتمع وتصب في الماء الذي كان قبلها حتى عمّ الماء جميع الأرض التي أراد الله إغراق أهلها.

{ **وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ** } عطفت على { وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا } لأنّ نداءه ابنه كان قبل جريان السفينة في موج كالجبال، إذ يتعذّر إيقافها بعد جريها، لأنّ الراكبين كلّهم كانوا مستقرين في جوف السفينة.

{ **ابْنَهُ** } هو ابن رابع من زوج ثانية لنوح كان اسمها (وَاعلة) غرقت، وأنّها المذكورة في [التحريم:10]. قيل: كان اسم ابنه (ياما) وقيل اسمه (كنعان) وهو غير كنعان بن حام جدّ الكنعانيين. وقد أهملت التوراة الموجودة الآن ذكر هذا الابن وقضية غرقه، وهل كان ذا زوجة أو كان عزبا.

{ **وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ** } حال من { ابْنَهُ } .

المعزل: مكان العزلة، أي: الانفراد، أي: في معزل عن المؤمنين؛ إمّا لأنّه كان لم يؤمن بنوح عليه السلام فلم يصدّق بوقوع الطوفان، وإمّا لأنّه ارتدّ فأنكر وقوع الطوفان فكفر بذلك لتكذيبه الرسول.

{ **يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا** } بيان لجملة { نَادَى }، وهي إرشاد له ورفق به. و{ **بُنَيَّ** } تصغير (ابن) مضافا إلى ياء المتكلّم. وتصغيره هنا تصغير شفقة بحيث يُجعل كالصغير في كونه محل الرحمة والشفقة.

{ **وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ** } فهي معطوفة لإعلامه بأنّ إعراضه عن الركوب يجعله في صف الكفّار، إذ لا يكون إعراضه عن الركوب إلّا أثرا لتكذيبه بوقوع الطوفان.

{ **قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ** } هذا القول كان قبل أن يبلغ الماء أعالي الجبال.

{ **آوي** } أنزل، ومصدره: الأُوِيّ (بضم الهمزة وكسر الواو وتشديد الياء).

{ **يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ** } أي: جبل عال.

{ **لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ** } وهو الطوفان.

{ **إِلَّا مَنْ رَحِمَ** } أي: من قدّر الله له النجاة من الغرق برحمته.

{ **وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ** } حيلولة الموج بينهما في آخر المحاورة يشير إلى سرعة فيضان الماء.

{ **فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ** } أفاد أنّه غرق وغرق معه من توعّدهم بالغرق، فهو إيجاز بديع.

{ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } [44].

{ **وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي** } القول هنا أمر التكوين. وخطاب الأرض والسماء بطريقة النداء وبالأمر استعارة لتعلّق أمر التكوين بكيفيّات أفعال في ذاتيهما وانفعالهما بذلك، كما يُخاطَب العاقل بعمل يعمله فيقبله امتثالا وخشية. فالاستعارة هنا في حرف النداء وهي تبعية.

البلع: حقيقته اجتياز الطعام والشراب إلى الحلق. وهو هنا استعارة لإدخال الشيء في باطن شيء بسرعة، ومعنى بلع الأرض ماءها: دخوله في باطنها بسرعة كسرعة ازدراد البالع، بحيث لم يكن جفاف الأرض بحرارة شمس أو رياح بل كان بعمل أرضي عاجل، وقد يكون ذلك بإحداث الله زلازل وخسفا انشقت به طبقة الأرض في مواضع كثيرة حتى غارت المياه التي كانت على سطح الأرض.

إقلاع السماء: مستعار لكف نزول المطر منها لأنّه إذا كف نزول المطر لم يخلف الماء الذي غار في الأرض، ولذلك قُدّم الأمر بالبلع لأنّه السبب الأعظم لغيض الماء.

{ **يَا أَرْضُ / يَا سَمَاءُ** } في القران محسّن الطباق.

{ **ابْلَعِي / أَقْلِعِي** } في مقابلة محسّن الجناس.

{ **وَغِيضَ الْمَاءُ** } مغن عن التعرّض إلى كون السماء أقلعت والأرض بلعت، وبُني الفعل للنائب لمثل ما بُني فعل { وَقِيلَ } باعتبار سبب الغيض، أو لأنّه لا فاعل له حقيقة لأنّ حصوله مسبّب عن سبب.

الغيض: نضوبه في الأرض. والمراد: الماء الذي نشأ بالطوفان زائدا على بحار الأرض وأوديتها.

{ **وَقُضِيَ الْأَمْرُ** } إتمامه. وبناء الفعل للنائب للعلم بأنّ فاعله ليس غير الله تعالى.

الاستواء: الاستقرار.

الجودي: اسم جبل بين العراق وأرمينا، يقال له اليوم أراراط .

{ **وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** }

{ **بُعْداً** } مصدر (بَعُدَ) على مثال كرُم وفرح، منصوب على المفعولية المطلقة. وهو نائب عن الفعل كما هو الاستعمال في مقام الدعاء ونحوه، كالمدح والذم مثل: تبا له، وسحقا، وسقيا، ورعيا، وشكرا. وهو كناية عن التحقير بلازم كراهية الشيء.

القوم الظالمون: هم الذين كفروا فغرقوا. والقائل قد يكون من قول الله، ويجوز أن يقوله المؤمنون.

{ **وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ [45] قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ [46] قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ [47]** }.

<u>يجوز</u> أن يكون دعاء نوح عليه السلام هذا وقع قبل غرق النّاس، أي: نادى ربّه أن ينجّي ابنه من الغرق.

<u>ويجوز</u> أن يكون بعد غرق من غرقوا، أي: نادى ربه أن يغفر لابنه وأن لا يعامله معاملة الكافرين.

{ **وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ** } النداء هنا نداء دعاء فكأنّه قيل: ودعا نوح ربّه، لأنّ الدعاء يصدر بالنداء غالبا، والتعبير عن الجلالة بوصف الرب مضافا إلى نوح عليه السلام تشريف لنوح وإيماء إلى رأفة الله به وأن نهيه الوارد بعده نهي عتاب.

{ **فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي** } بيان للنداء، ومقتضى الظاهر أن لا تعطف بفاء التفريع. وهو خبر مستعمل في الاعتذار والتمهيد لأنّه يريد أن يسأل سؤالا لا يدري قبوله ولكنّه اقتحمه لأنّ المسؤول له من أهله فله عذر الشفقة عليه. وتأكيد الخبر بـ { إِنَّ } للاهتمام به.

{ **وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ** } خبر مستعمل في لازم الفائدة. وهو أنّه يعلم أنّ وعد الله حق. والمراد بالوعد ما في قوله تعالى { إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ } [المؤمنون:27]، إذ أفاد ذلك أنّ بعض أهله قد سبق من الله تقدير بأنّه لا يركب السفينة.

<u>فالمعنى</u>: أنّ نوحا عليه السلام لا يجهل أنّ ابنه كافر، ولذلك فسؤال المغفرة له عن علم بأنّه كافر، ولكنّه يطمع لعل الله أن يعفو عنه لأجل قرابته به، فسؤاله له المغفرة بمنزلة الشفاعة له عند الله تعالى، وذلك أخذ بأقصى دواعي الشفقة والرحمة بابنه.

{ **وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ** } أشدّهم حكما. يفيد: أنّه لا راد لما حكم به وقضاه، وأنّه لا دالة عليه لأحد من خلقه، ولكنّه مقام تضرّع وسؤال ما ليس بمحال. فكان حال نوح عليه السلام كحال النبيّ صلى الله عليه وسلم حين قال لأبي طالب: " **لأستغفرن لك ما لم أنه عنك** "، قبل أن ينزل قوله تعالى { مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ

وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ } [التوبة:113].

{ **إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ** } نفي أن يكون من أهل دينه واعتقاده، فليس ذلك إبطالا لقول نوح عليه السلام { إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي } ولكنه إعلام بأنّ قرابة الدين بالنسبة لأهل الإيمان هي القرابة.

{ **إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ** } تعليل لمضمون جملة { إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ } فـ (إنّ) فيه لمجرّد الاهتمام.

{ **عَمَلٌ** } في قراءة الجمهور (بفتح الميم وتنوين اللام) مصدر أخبر به للمبالغة وبرفع { **غَيْرُ** } على أنّه صفة (عمل). وقرأه الكسائي، ويعقوب { عَمِلَ } (بكسر الميم) بصيغة الماضي وبنصب { غَيْرَ } على المفعولية لفعل (عمل). ومعنى العمل غير الصالح: **الكفر**، وأطلق على الكفر عمل لأنّه عمل القلب، ولأنّه يظهر أثره في عمل صاحبه كامتناع ابن نوح من الركوب الدّال على تكذيبه بوعيد الطوفان.

{ **فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ** } نهي عتاب، لأنّه لما قيل له { إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ } بسبب تعليله بأنّه عمل غير صالح، سقط ما مهَّد به إجابة سؤاله، فكان حقيقا بأن لا يسأله وأن يتدبّر ما أراد أن يسأله من الله.

{ **إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ** } موعظة على ترك التثبّت قبل الإقدام.

{ **قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ** } أجاب نوح عليه السلام كلام ربّه بما يدل على التنصّل مما سأل، فاستعاذ أن يسأل ما ليس له به علم.

{ **وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ** } طلب المغفرة ابتداء لأنّ التخلية مقدّمة على التحلية، ثمّ أعقبها بطلب الرحمة لأنّه إذا كان بمحل الرضى من الله كان أهلا للرحمة.

{ **قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ** } [48].

فصلت الجملة ولم تعطف لوقوعها في سياق المحاورة بين نوح عليه السلام وربّه، فإنّ نوحا عليه السلام لمّا أجاب بقوله { رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ...} [47] خاطبه ربه إتماما للمحاورة بما يُسكِّن جأشه.

{ **يَا نُوحُ** } النداء للتنويه به بين الملأ.

الهبوط: النزول. وتقدّم في قوله تعالى { اهْبِطُوا مِصْراً } [البقرة:61]. والمراد: النزول من السفينة لأنّها كانت أعلى من الأرض.

{ **اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ** } الباء للمصاحبة، أي: اهبط مصحوبا بسلام منّا. ومصاحبة السلام الذي هو التحية مصاحبة مجازية. وخطابه بالسلام حينئذ إيماء إلى أنّه كان في ضيافة الله تعالى، لأنّه كان كافلا له النجاة. وأصل السلام السلامة، فاستُعمل عند اللقاء إيذانا بتأمين المرء ملاقيه وأنّه لا يضمر له سوءا، ثم شاع فصار قولا عند اللقاء للإكرام، ولذلك نهى النبيّ صلى الله عليه وسلم الذين قالوا: السلام على الله.

{ **مِنَّا** } تأكيد لتوجيه السلام إليه لأنّ (من) ابتدائية، كقوله تعالى { سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ } [يس:58]. وذلك كثير في كلامهم. وهذا التأكيد يراد به زيادة الصلة والإكرام.

البركات: الخيرات النامية، واحدتها بركة، وهي من كلمات التحيّة مستعملة في الدعاء.

وصدور هذا الدعاء من لدنه سبحانه قائم مقام إجابة الدعاء فهو إفاضة بركات على نوح عليه السلام ومن معه، فحصل بذلك تكريمهم وتأمينهم والإنعام عليهم.

{ **عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ** }

الأمم: جمع أمّة. وهي الجماعة الكثيرة من النّاس التي يجمعها نسب إلى جدّ واحد. يقال: أمّة العرب، أو لغة مثل أمّة الترك، أو موطن مثل أمة أمريكا، أو دين مثل الأمّة الإسلامية.

وليس الذين ركبوا في السفينة أمما لقلة عددهم لقوله تعالى { وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ } [40].

{ **مِمَّنْ مَعَكَ** } صادقة على الذين ركبوا مع نوح عليه السلام في السفينة. ومنهم ابناؤه الثلاثة.

فالكلام بشارة لنوح عليه السلام ومن معه بأنّ الله يجعل منهم أمما كثيرة يكونون محل كرامته وبركاته.

وفيه إيذان بأن يجعل منهم أمما بخلاف ذلك، ولذلك عُطف على هذه الجملة قوله تعالى:

{ **وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ** } استئناف بياني لأنّها تبيين لما أفاده التنكير في قوله تعالى { وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ } من الاحتراز عن أمم آخرين. والمقصود: تحذير قوم نوح من اتباع سبيل الذين أغرقوا. والمقصود من حكاية ذلك في القرآن التعريض بالمشركين من العرب فإنّهم من ذرّيّة نوح ولم يتّبعوا سبيل جدّهم، فأُشْعِروا بأنّهم من الأمم التي أنبأ الله نوحا بأنّه سيمتّعهم ثم يمسّهم عذاب أليم.

{ **يَمَسُّهُمْ** } إطلاق المسّ على الإصابة القوية تقدّم عند قوله تعالى { وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ } [الأنعام:17]. و{ يَمَسُّهُمْ مِنَّا } لمقابلة قوله تعالى في ضدّه { بِسَلامٍ مِنَّا } ليعلموا أنّ ما يصيب الأمّة من الأحوال الزائدة على المعتاد في الخير والشرّ هو إعلام من الله بالرضى أو الغضب، لئلا يحسبوا ذلك من سنة ترتّب المسبّبات العادية على أسبابها، إذ من حقّ النّاس أن يتبصّروا في الحوادث ويتوسّموا في جريان أحوالهم على مراد الله تعالى منهم، ويعلموا أنّ الله يخاطبهم بدلالة الكائنات عند انقطاع خطابه إيّاهم على ألسنة الرسل، فإنّ الرّسل يبيّنون لهم طرق الدلالة ويكلون إليهم النظر في وضع المدلولات عند دلالاتها.

{ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ } [49].

استئناف أريد منه الامتنان على النبيّ صلى الله عليه وسلم والموعظة والتسلية؛ فالامتنان من قوله تعالى { مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا }، والموعظة من قوله تعالى { فَاصْبِرْ ...}، والتسلية من قوله تعالى { إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ }.

{ **تِلْكَ** } إشارة إلى ما تقدّم من قصّة نوح عليه السلام.

أنباء الغيب: الأخبار المغيّبة عن النّاس أو عن فريق منهم. فهذه الأنباء مغيّبة بالنسبة إلى العرب كلّهم لعدم علمهم بأكثر من مجملاتها.

{ **مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا** }، فإنّهم لم ينكروا ذلك ولم يدّعوا علمه. على أنّ فيها ما هو غيب بالنسبة إلى جميع الأمم مثل قصة ابن نوح الرابع وعصيانه أباه وإصابته بالغرق، ومثل كلام الرب مع نوح عليه السلام عند هبوطه من السفينة، ومثل سخرية قومه به وهو يصنع الفلك، وما دار بين نوح عليه السلام وقومه من المحاورة، فإنّ ذلك كلّه ممّا لم يذكر في كتب أهل الكتاب.

{ **مِنْ قَبْلِ هَذَا** } الإشارة إمّا إلى القرآن، وإمّا إلى الوقت باعتبار ما في هذه القصة من الزيادة على ما ذكر في أمثالها ممّا تقدّم نزوله عليها.

{ **فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ** } وجه تفريع أمر الرسول بالصبر على هذه القصّة أنّ فيها قياس حاله مع قومه على حال نوح عليه السلام مع قومه، فكما صبر نوح عليه السلام فكانت العاقبة له، كذلك تكون العاقبة لك على قومك. أي: اصبر لأنّ داعي الصبر قائم وهو أنّ العاقبة الحسنة تكون للمتقين.

العاقبة: الحالة التي تعقب حالة أخرى. وقد شاعت عند الإطلاق في حالة الخير.

{ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ [52] يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ [51] وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ [52] }.

وُصف هود بأنّه أخو عاد لأنّه كان من نسبهم. وتقدّم ذكر عاد وهود في [الأعراف:65-72].

{ **قَالَ يَا قَوْمِ** } افتتاح دعوته بنداء قومه لاسترعاء أسماعهم إشارة إلى أهمية ما سيلقى إليهم.

{ **مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** } حال من ضمير { اعْبُدُوا } أو من اسم الجلالة. والحال لاستقصاد إبطال شركهم بأنّهم أشركوا غيره في عبادته في حال أنّهم لا إله لهم غيره، أو في حال أنّه لا إله لهم غيره. وذلك تشنيع للشرك.

{ **إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ** } توبيخ وإنكار. أي: ما أنتم إلّا كاذبون في ادعاء إلهيّة غير الله تعالى.

{ **يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً** } النداء في أثناء الكلام تكرير للأهمية، يقصد به تهويل الأمر واسترعاء السمع اهتماما بما يستسمعونه. وإن كانت مقولة في وقت آخر، فكونها ابتداء كلام ظاهر.

{ **لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً** } تقدّم في قصة نوح عليه السلام، أي: لا أسألكم أجرا على ما قلته لكم.

{ **الَّذِي فَطَرَنِي** } التعبير بالموصول دون الاسم العلم لزيادة تحقيق أنّه لا يسألهم على الإرشاد أجرا، بأنّه

يعلم أن الذي خلقه يسوق إليه رزقه.

{ **أَفَلا تَعْقِلُونَ** } فاء التفريع عاطفة استفهاما إنكاريا عن عدم تعقّلهم، أي: تأمّلهم في دلالة حاله على صدقه فيما يبلّغ، ونصحه لهم فيما يأمرهم. والعقل: هنا يراد به العلم.

{ **وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ** }

الاستغفار: طلب المغفرة للذنب، وهو هنا مُكنًّى به عن ترك عقيدة الشرك.

التوبة: الإقلاع عن الذنب في المستقبل والندم على ما سلف منه. وفي ماهية التوبة العزم على عدم العود إلى الذنب، فيؤول إلى الأمر بالدوام على التوحيد ونفي الإشراك.

{ **يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً** }

الإرسال: بعث من مكان بعيد، فأطلق الإرسال على نزول المطر لأنّه حاصل بتقدير الله فشُبّه بإرسال شيء من مكان المرسل إلى المبعوث إليه.

السماء: من أسماء المطر تسمية للشيء باسم مصدره. وفي الحديث " خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أثر سماء".

{ **مِدْرَاراً** } حال من السماء صيغة مبالغة من الدرور وهو الصبّ، أي: غزيرا.

جُعل جزاءهم على الاستغفار والتوبة إمدادهم بالمطر لأنّ ذلك من أعظم النعم عليهم في الدنيا إذ كانت عاد أهل زرع وكروم فكانوا بحاجة إلى الماء، وكانوا يجعلون السداد لخزن الماء.

والأظهر أن الله أمسك عنهم المطر سنين فتناقص نسلهم ورزقهم جزاء على الشرك بعد أن أرسل إليهم هودا عليه السلام، فيكون الكلام وعدا وتنبيها على غضب الله عليهم، وقد كانت ديارهم من حضرموت إلى الأحقاف مدنًا وحللا وقبابًا.

{ **وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ** } كانوا أيضا معجبين بقوة أمّتهم وقالوا {مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً} [فصلت: 15] فلذلك جعل الله لهم جزاء على ترك الشرك زيادة قوّتهم بكثرة العدد وصحة الأجسام وسعة الأرزاق.

{ **وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ** } تحذير من الرجوع إلى الشرك.

التولّي: الانصراف، وهو هنا مجاز عن الإعراض.

{ **قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ** [53]
إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا
تُشْرِكُونَ [54] **مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ** [55] **إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي**
وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [56] }.

{ **قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ** } محاورة منهم لهود عليه السلام بجواب عن دعوته، ولذلك جُرّدت الجملة عن العاطف. وافتتاح كلامهم بالنداء يشير إلى الاهتمام بما سيقولونه، وأنّه جدير بأن يتنبّه له لأنّهم نزّلوه منزلة البعيد لغفلته فنادوه، فهو مستعمل في معناه الكنائي أيضا. وقد يكون مرادا منه مع ذلك توبيخه ولومه فيكون كناية ثانية، أو استعمال النداء في حقيقته ومجازه.

{ **مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ** } بهتان لأنّه أتاهم بمعجزات لقوله تعالى { وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ } [59]، وإن كان القرآن لم يذكر آية معينة لهود عليه السلام. ولعلّ آيته أنّه وعدهم عند بعثته بوفرة الأرزاق والأولاد واطراد الخصب وفرة مطردة لا تنالهم في خلالها نكبة ولا مصيبة بحيث كانت خارقة لعادة النعمة في الأمم.

وفي الحديث الصحيح أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **" ما من الأنبياء نبي إلّا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر "**. أو أرادوا أن البيّنات التي جاءهم بها هود عليه السلام لم تكن طبقا لمقترحاتهم.

{ **إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ** } استئناف بياني، أي: نقول إنّك ممسوس من بعض آلهتنا.

الاعتراء: النزول والإصابة. والباء للملابسة، أي: أصابك بسوء. يعنون أنّ آلهتهم أصابته بمس.

{ **قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ** }

لما جاؤوا في كلامهم برفض ما دعاهم إليه وبجحد آياته وبتصميمهم على ملازمة عبادة أصنامهم وبالتنويه بتصرّف آلهتهم أجابهم هود عليه السلام بأنّه يُشهد الله عليهم أنّه أبلغهم وأنّهم كابروا وجحدوا آياته.

ثم حمّلهم شهادة له بأنّه بريء من شركائهم، مبادرة بإنكار المنكر.

{ **مِمَّا تُشْرِكُونَ** } الأصنام.

{ **فَكِيدُونِي جَمِيعاً** } أمر قومه بأن يكيدوه، وجعل الخطاب لقومه لئلا يكون خطابه لما لا يعقل ولا يسمع، وأدخل في ضمير الكائدين أصنامهم مجاراة لاعتقادهم واستقصاء لتعجيزهم، أي: أنتم وأصنامكم.

{ **ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ** } للتراخي الرتبي. تحدّاهم بأن يكيدوه ثم ارتقى في رتبة التعجيز والاحتقار فنهاهم عن

التأخير بكيدهم إيّاه، وذلك نهاية الاستخفاف بأصنامهم وبهم وكناية عن كونهم لا يصلون إلى ذلك.

{ **إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ** } تعليل لمضمون { فَكِيدُونِي }، وهو التعجيز والاحتقار.

يعني: أنّه واثق بعجزهم عن كيده لأنّه متوكل على الله.

{ **مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا** } في محل صفة لاسم الجلالة، أو حال منه، والغرض منها مثل الغرض من صفة الربوبية.

الأخذ: الإمساك. و**الناصية**: ما انسدل على الجبهة من شعر الرأس. والأخذ بالناصية هنا تمثيل للتمكّن، تشبيها بهيئة إمساك الإنسان من ناصيته حيث يكون رأسه بيد آخذه فلا يستطيع انفلاتا.

{ **إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** } تعليل لجملة { إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ }، أي: توكلت عليه لأنه أهل لتوكلي عليه لأنّه متّصف بإجراء أفعاله على طريق العدل والتأييد لرسله.

الصراط المستقيم: مستعار للفعل الجاري على مقتضى العدل والحكمة لأنّ العدل يُشبَّه بالاستقامة والسواء.

{ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ } [57].

تفريع على جملة { إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ } [54]. وما بينهما اعتراض أوجبه قصد المبادرة بإبطال باطلهم، لأنّ مضمون هذه الجملة تفصيل لمضمون جملة { إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ } بناء على أنّ هذا من كلام هود عليه السلام.

{ **تَوَلَّوْا** } أصلها (تتولّوا) فحذفت إحدى التاءين اختصارا، فهو مضارع، وهو خطاب هود عليه السلام لقومه، وهو ظاهر إجراء الضمائر على وتيرة واحدة.

التولّي: الإعراض. وتقدّم في قوله تعالى { وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً } [النساء:80].

{ **فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ** } جواب شرط التولّي، مع أنّ الإبلاغ سابق على التولّي المجعول شرطا، لأنّ المقصود بهذا الجواب هو لازم ذلك الإبلاغ، وهو انتفاء تبعة تولّيهم عنه وبراءته من جرمهم لأنّه أدى ما وجب عليه من الإبلاغ. كناية عن الإنذار بتبعة التولّي عليهم ونزول العقاب بهم.

{ **وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ** } أي: يزيلكم ويخلفكم بقوم آخرين لا يتولّون عن رسولهم، وهذا كقوله تعالى { وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ } [محمد:38].

{ **يَسْتَخْلِفُ** } بالارتفاع في قراءة الكافة لأنّه معطوف على الجواب مجاز فيه الرفع والجزم. وإنّما كان الرفع هنا أرجح لإعطاء الفعل حكم الكلام المستأنف ليكون مقصودا بذاته لا تبعا للجواب، فبذلك يكون مقصودا به إخبارهم لإنذارهم بالاستئصال.

{ **وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً** } كذلك بالارتفاع للمقصد ذاته. والمراد: لا تضرّون الله بتولّيكم شيئا.

{ **شَيْئاً** } مصدر مؤكِّد لفعل { تَضُرُّونَهُ } المنفي. وتنكيره للتقليل، كما هو شأن تنكير لفظ الشيء غالبا. والمقصود من التأكيد التنصيص على العموم بنفي الضرّ لأنّه نكرة في حيّز النفي، أي: فالله يُلحق بكم الاستئصال، وهو أعظم الضرّ، ولا تضرّونه أقلّ ضرّ.

{ **إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ** } تعليل .فموقع { إِنَّ } فيها موقع فاء التفريع.

الحفيظ: أصله مبالغة الحافظ، وهو هنا كناية عن القدرة والقهر.

{ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ } [58].

{ **وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا** } استعمال الماضي بمعنى اقتراب المجيء، لأنّ الإنجاء كان قبل حلول العذاب.

{ **أَمْرُنَا** } أطلق على أثر الأمر، وهو ما أمر الله به أمر تكوين، وهو العذاب، أي: الريح العظيم.

{ **نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ** } وكيفيّة إنجاء هود عليه السلام ومن معه تقدّم في [الأعراف:72].

{ **بِرَحْمَةٍ مِنَّا** } الباء للسببية، فكانت رحمة الله بهم سببا في نجاتهم.

{ **وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ** } أي: نجّيناهم من عذاب الدنيا برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ في الآخرة. واستُعمل الماضي في { وَنَجَّيْنَاهُمْ } في معنى المستقبل لتحقّق الوعد بوقوعه.

الغليظ: حقيقته الخشن ضدّ الرقيق، وهو مستعار للشديد.

{ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ [59] وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ } [60].

{ **وَتِلْكَ** } الإشارة إلى حاضر في الذهن بسبب ما أجري عليه من الحديث حتّى صار كأنّه حاضر في الحس والمشاهدة. وهو أيضا للتنبيه على أنّهم جديرون بما يأتي بعد اسم الإشارة من الخبر لأجل تلك الأوصاف المتقدّمة. وتأنيث اسم الإشارة بتأويل الأمّة. و{ **عَادٌ** } بيان من اسم الإشارة.

{ **جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ** } خبر عن اسم الإشارة. وهو وما بعده تمهيد لزيادة تسجيل التمهيد بالأجرام السابقة، وهو الذي اقتضاه اسم الإشارة كما تقدّم، لأنّ جميع ذلك من أسباب جمع العذابين لهم.

الجحد: الإنكار الشديد، مثل إنكار الواقعات والمشاهدات. وهذا يدلّ على أنّ هودا أتاهم بآيات فأنكروا دلالتها.

{ **وَعَصَوْا رُسُلَهُ** } وإنّما عصوا رسولا واحدا، وهو هود عليه السلام، لأنّ المراد ذكر إجرامهم، فناسب أن يناط الجرم بعصيان جنس الرّسل، لأنّ تكذيبهم هودا لم يكن خاصا بشخصه لأنّهم قالوا له { وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ }، فكل رسول جاء بأمر ترك عبادة الأصنام فهم مكذّبون به. ومثله قوله تعالى {

كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ } [الشعراء:123].

{ **وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ** } طاعة ما يأمرهم به، فالاتّباع تمثيل للعمل بما يُملى على المتبِع.

الجبّار: المتكبّر. و**العنيد**: مبالغة في المعاندة. فدلّ اتّباعهم أمر الجبابرة المعاندين على أنّهم أطاعوا دعاة الكفر والضلال والظلم.

{ **كُلِّ** } من صيغ العموم، فإن أريد كل جبار عنيد من قومهم فالعموم حقيقي، وإن أريد جنس الجبابرة فمستعملة في الكثرة. منه قوله تعالى { يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ } [الحج:27].

{ **وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ** } مستعار لإصابتها إيّاهم إصابة عاجلة دون تأخير كما يتبع الماشي بمن يلحقه. ومما يزيد هذه الاستعارة حسنا ما فيها من المشاكلة ومن مماثلة العقاب للجرم، لأنّهم اتّبعوا الملعونين فأتبعوا باللعنة.

{ **أُتْبِعُوا** } بني للمجهول إذ لا غرض في بيان الفاعل، ليدل على أنّ إتباعها لهم كان بأمر فاعل للإشعار بأنّها تبعتهم عقابا من الله لا مجرد مصادفة.

اللعنة: الطرد بإهانة وتحقير.

{ **أَلا إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ** } مستأنفة ابتدائية افتُتحت بحرف التنبيه لتهويل الخبر ومؤكَّدة بحرف { إِنَّ } لإفادة التعليل تعريضا بالمشركين ليعتبروا بما أصاب عادا.

{ **أَلَا بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ** } ابتدائية لإنشاء ذم لهم. وفائدة ذكر { قَوْمِ هُودٍ } الإيماء إلى أنّ له أثرا في الذمّ بإعراضهم عن طاعة رسولهم، فيكون تعريضا بالمشركين من العرب.

{ **بُعْداً** } تقدم الكلام حولها في قصة نوح عليه السلام عند قوله تعالى { وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } [44].

{ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ } [61].

ذكر ثمود وصالح عليه السلام تقدّم في [الأعراف:72-79].

{ **ثَمُودَ** } اسم جدّ سُمّيت به القبيلة، فلذلك منع من الصرف بتأويل القبيلة.

{ **هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ** } في موضع التعليل للأمر بعبادة الله ونفي إلهيّة غيره، وكأنّهم كانوا مثل مشركي قريش لا يدعون لأصنامهم خلقا ولا رزقا، فلذلك كانت الحجّة عليهم ناهضة واضحة.

الإنشاء: الإيجاد والإحداث، وتقدّم في قوله تعالى { وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ } [الأنعام:6].

والإنشاء من الأرض: خلق آدم، وإنّما ذُكر تعلّق خلقهم بالأرض لأنّهم كانوا أهل غرس وزرع.

كما في قوله تعالى { أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ } [الشعراء:146-148]، ولأنّهم كانوا ينحتون من جبال الأرض بيوتا ويبنون في الأرض قصورا، كما في قوله { وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ

الْجِبَالَ بُيُوتاً } [الأعراف:74]. فكانت لهم منافع من الأرض تناسب نعمة إنشائهم من الأرض. ولذلك عُطف عليه { **وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** }.

الاستعمار: الإعمار، أي: جعلكم عامرينها، فالسين والتاء للمبالغة. ومعنى الإعمار: أنهم جعلوا الأرض عامرة بالبناء والغرس والزرع.

{ **فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ** } فرّع على التذكير بهذه النعم أمرهم باستغفاره والتوبة إليه، أي: طلب مغفرة إجرامهم، والإقلاع عمّا لا يرضاه من الشرك والفساد. ومن تفنّن الأسلوب أن جُعلت هذه النعم علّة لأمرهم بعبادة الله وحده بطريق جملة التعليل، وجُعلت علّة أيضا للأمر بالاستغفار والتوبة بطريق التفريع.

{ **إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ** } استئناف بياني كأنّهم استعظموا أن يكون جرمهم ممّا يقبل الاستغفار عنه، فأجيبوا بأنّ الله قريب مجيب، وبذلك ظهر أنّ الجملة ليست بتعليل.

القرب: هنا مستعار للرأفة والإكرام، لأنّ البعد يستعار للجفاء والإعراض.

المجيب: هنا مجيب الدعاء، وهو الاستغفار. وإجابة الدعاء: إعطاء السائل مسؤوله.

{ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ } [62].

هذا جوابهم عن دعوته البليغة الوجيزة الملأى إرشادا وهديا. وهو جواب مُلئ بالضلال والمكابرة وضعف الحجّة.

{ **يَا صَالِحُ** } افتتاح الكلام بالنداء لقصد التوبيخ أو الملام والتنبيه، كما تقدّم في قوله تعالى { قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ } [53]. وقرينة التوبيخ هنا أظهر، وهي قولهم { قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا } فإنّه تعريض بخيبة رجائهم فيه فهو تعنيف.

{ **قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا** }

الرجاء: ترقّب الخير، أي: مرجوا للخير. و{ قَدْ } لتأكيد الخبر. أي: والآن وقع اليأس من خيرك. وهذا يُفهم منه أنّهم يعدّون ما دعاهم إليه شرّا، وإنما خاطبوه بمثل هذا لأنّه بُعث فيهم وهو شاب وكان مرجوا لخصال السيادة وحماية العشيرة ونصرة آلهتهم. كذا قال البغوي في تفسير سورة الأعراف.

{ **أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا** } الاستفهام للإنكار والتوبيخ. وعبّروا عن أصنامهم بالموصول لما في الصلة من الدلالة على استحقاق تلك الأصنام أن يعبدوها في زعمهم اقتداء بآبائهم لأنّهم أسوة لهم، وذلك مما يزيد الإنكار اتجاها في اعتقادهم.

{ **وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ** } بعد أن ذكروا يأسهم من صلاح حاله ذكروا أنّهم يشكّون في صدق أنّه مرسل إليهم، وزادوا ذلك تأكيدا بحرف التأكيد.

ومن محاسن النكت هنا إثبات نون (إن) مع نون ضمير الجمع { إِنَّنَا }، لأن ذلك زيادة إظهار لحرف التوكيد، والإظهار ضرب من التحقيق بخلاف ما في [إبراهيم :9] من قول الأمّم لرسلهم { وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا } لأنّ الحكاية فيها عن أمم مختلفة في درجات التكذيب.

المريب: اسم فاعل من أراب إذا أوقع في الريب. يقال: رابه وأرابه بمعنى واحد. ووصف الشك بذلك تأكيد.

{ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ } [63].

جواب عن كلامهم فلذلك لم تعطف، وهو الشأن في حكاية المحاورات كما تقدّم. وابتداء الجواب بالنداء لقصد التنبيه إلى ما سيقوله اهتماما بشأنه. وخاطبهم بوصف القوميّة له للغرض الذي تقدّم في قصة نوح.

{ **أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً** } تقدّم الكلام على نظيرها في قصة نوح [28].

{ **فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ** } كذلك تقدّم الكلام على نظيرها في قصة نوح { مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ } [30].

{ **فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ** } تفريع على الاستفهام الإنكاري، أي: إذ كان ذلك فما دعاؤكم إيّاي إلّا سعي في خسراني. أي: فما يحدث لي إن اتبعتكم وعصيت الله إلّا الخسران.

التخسير: مصدر خسر، إذا جعله خاسرا.

{ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ [64] فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ [65] }.

{ **يَا قَوْمِ** } إعادة لمثل الغرض المتقدّم في قصة نوح { وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ } [30].

{ **هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ** } الإشارة إلى الناقة حين شاهدوا انفلاق الصخرة عنها. وإضافة الناقة إلى اسم الجلالة لأنّها خُلقت بقدرة الله الخارقة للعادة.

{ **لَكُمْ آيَةً** } حالان من ناقة، وتقدّم نظير هذه الحال في [الأعراف:73].

{ **وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ** } أوصاهم بتجنب الاعتداء عليها لتوقّعه أنّهم يتصدّون لها من تصلبهم في عنادهم.

{ **فَعَقَرُوهَا** } تقدّم عقرها وتفصيل ذلك في [الأعراف:77].

التمتّع: الانتفاع بالمتاع. وتقدّم عند قوله تعالى { وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ } [الأعراف:24].

الدار: البلد، وتقدّم في قوله تعالى { فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ } [الأعراف:78]، وذلك التأجيل استقصاء لهم في الدعوة إلى الحقّ.

المكذوب: الذي يخبر به الكاذب. يقال: كذب الخبر، إذا اختلقه.

{ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ [67] وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ [67] كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْداً لِثَمُودَ [68] }.

تقدّم الكلام على نظائر بعض هذه الآية في قصة هود في [الأعراف:72].

{ **وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ** }، أي: نجّينا صالحا عليه السلام ومن معه من عذاب الاستئصال ومن الخزي المكيّف به العذاب، فإنّ العذاب يكون على كيفيّات بعضها أخزى من بعض. فالمقصود من العطف عطف منّة على منّة لا عطف إنجاء على إنجاء، ولذلك عُطف المتعلّق ولم يُعطف الفعل.

{ **يَوْمِئِذٍ** } تنوين عوض عن المضاف إليه. والتقدير: يوم إذ جاء أمرنا.

الخزي: الذلّ، وهو ذلّ العذاب.

{ **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ** } معترضة. وقد أكِّد الخبر بثلاث مؤكدات للاهتمام به.

{ **وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ** } عُبّر عن ثمود بالذين ظلموا للإيماء بالموصول إلى علّة ترتّب الحكم، أي: لظلمهم، وهو ظلم الشرك. وفيه تعريض بمشركي أهل مكّة بالتحذير من أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك لأنّهم ظالمون أيضا.

الصيحة: الصاعقة أصابتهم.

{ **كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا** } كأن لم يقيموا.

{ **بُعْداً** } تقدم الكلام حولها في قصة نوح { وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } [44].

{ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ [69] فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ [70] وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ [71] قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ [72] قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ [73] }.

الغرض من هذه القصّة هو الموعظة بمصير قوم لوط إذ عصوا رسول ربّهم فحلّ بهم العذاب ولم تغن عنهم مجادلة إبراهيم، وقُدّمت قصّة إبراهيم لذلك، وللتنويه بمقامه عند ربّه على وجه الإدماج.

الرّسل: الملائكة. قال تعالى { جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً } [فاطر:1].

البشرى: اسم. للتبشير والبشارة. وتقدّم عند قوله تعالى { وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } [البقرة:25].

وهذه البشرى هي التي في قوله تعالى { فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ } لأنّ بشارة زوجه بابن بشارة له أيضا.

{ **قَالُوا سَلاماً** } بيان لـ { الْبُشْرَى }، لأنّ قولهم ذلك مبدأ البشرى وإن ما اعترض بينها حكاية أحوال.

{ **قَالَ سَلامٌ** } رفع المصدر أبلغ من نصبه، فهو أدلّ على الدوام والثبات. ولذلك خالف بينهما للدلالة على أنّ إبراهيم عليه السلام ردّ السلام بعبارة أحسن من عبارة الرّسل زيادة في الإكرام.

{ **فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ** } الفاء للدلالة على التعقيب، إسراعا في إكرام الضيف وتعجيل القِرى.

اللبث: في المكان يقتضي الانتقال عنه، أي: فما أبطأ مجيئه، أي: عجّل.

الحنيذ: المشوي، وهو المحنوذ. والشيّ أسرع من الطبخ، فهو أعون على تعجيل إحضار الطعام للضيف.

{ **فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً** }

{ **لا تَصِلُ إِلَيْهِ** } أشد في عدم الأخذ. ونكر الشيءَ إذا أنكره، أي: كرهه.

وإنّما نكرهم لأنّه حسب أنّ إمساكهم عن الأكل لأجل التبرّؤ من طعامه، وإنّما يكون ذلك في عادة النّاس في ذلك الزمان إذا كان النازل بالبيت يضمر شرا لمضيفه، لأن أكل طعام القِرى كالعهد على السلامة من الأذى، لأنّ الجزاء على الإحسان بالإحسان مركوز في الفطرة، فإذا الكفّ أحد عن تناول الإحسان فذلك لأنّه لا يريد المسالمة ولا يرضى أن يكون كفورا للإحسان. ولذلك عُقّب بـ { وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً } (مصدره الإيجاس)، أي: أحسّ في نفسه خيفة منهم وأضمر ذلك. وذلك أنّه خشي أن يكونوا مضمرين شرّا له، وكانوا ثلاثة.

{ **قَالُوا لا تَخَفْ** } مفصولة عمّا قبلها، لأنّها أشبهت الجواب، لأنّه لمّا أوجس منهم خيفة ظهر أثرها على ملامحه، فكان ظهور أثرها بمنزلة قوله إنّي خفت منكم. أو هو جواب كلام مقدّر دلّ عليه قوله تعالى { فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً }، أي: وقال لهم: إنّي خفت منكم، كما حكي في قوله تعالى { قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ } [الحجر:52].

{ **إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ** } مكاشفة منهم إيّاه بأنّهم ملائكة. والجملة استئناف مبيّنة لسبب مجيئهم. والحكمة من ذلك كرامة إبراهيم عليه السلام وصدورهم عن علم منه.

{ **أُرْسِلْنَا** } حُذف متعلقها، أي: بأي شيء، إيجازا لظهوره من هذه القصة وغيرها.

{ **قَوْمِ لُوطٍ** } عُبّر عنهم بطريق الإضافة إذ لم يكن لأولئك الأقوام اسم يجمعهم ولا يرجعون إلى نسب بل كانوا خليطا من فصائل عُرفوا بأسماء قراهم، وأشهرها سدوم كما تقدّم في [الأعراف:80].

{ **وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ** } ضحكت امرأة إبراهيم عليه السلام من تبشير الملائكة زوجها بغلام، وكان ضحكها ضحك تعجّب واستبعاد. وقد وقع في التوراة: " وقالوا له: أين سارة امرأتك؟ فقال: ها هي في

الخيمة. فقالوا: يكون لسارة امرأتك ابن، وكانت سارة سامعة في باب الخيمة فضحكت سارة في باطنها قائلة: أفبالحقيقة ألد وأنا قد شخت؟ " [سفر التكوين، الإصحاح:18].

فلما اقتضى ترتيب المحاورة تقديم جملة { قَالُوا لَا تَخَفْ } حكيت قصة البشرى وما تبعها من المحاورة بطريقة الحال، لأنّ الحال تصلح للقبليّة وللمقارنة وللبعديّة، وهي الحال المقدّرة، لأنّ البشرى قد حصلت قبل أن يخبروه بأنّهم أرسلوا إلى قوم لوط كما في قوله تعالى { فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ } [الذاريات:28] .

{ **فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ** } لأنّها ما ضحكت إلّا بعد أن بشّرها الملائكة بابن، فلمّا تعجّبت من ذلك بشّروها بابن الابن زيادة في البشرى. والتعجيب بأن يولد لها ابن ويعيش وتعيش هي حتّى يولد لابنها ابن. وذلك أدخل في العجب.

{ **قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ** }

صرّحت بتعجّبها الذي كتمته بالضحك.

الويلة: الحادثة الفظيعة والفضيحة. ولعلّها المرّة من الويل. وتُستعمل في مقام التعجّب، يقال: يا ويلتي. واتفق القراء على قراءة { يَا وَيْلَتَى } (بفتحة مشبعة في آخره بألف). والألف التي في آخرها يجوز كونها عوضا عن ياء المتكلّم في النداء.

البعل: الزوج. وسيأتي بيانه عند تفسير قوله تعالى { وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ } [النور:31].

{ **إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ** } جملة مؤكّدة لصيغة التعجّب فلذلك فصلت عن التي قبلها لكمال الاتصال.

{ **أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ** } جواب الملائكة إيّاها إنكار لتعجّبها لأنّه تعجّب مراد منه الاستبعاد.

{ **أَمْرِ اللَّهِ** } هو أمر التكوين، أي: أتعجبين من قدرة الله على خرق العادات.

{ **رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ** } تعليل لإنكار تعجّبها، لأنّ الإنكار في قوّة النفي. فصار المعنى: لا عجب من أمر الله، لأنّ إعطاءك الولد رحمة من الله وبركة فلا عجب في تعلّق قدرة الله بها، وأنتم أهلٌ لتلك الرحمة والبركة فلا عجب في وقوعها عندكم.

{ **الْبَيْتِ** } تعريف حضور، أي: بيت إبراهيم عليه السلام.

{ **إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ** } تعليل لتوجّه رحمته وبركاته إليهم بأنّ الله يحمد من يطيعه، وبأنّه مجيد، أي: عظيم الشأن لا حد لنعمه فلا يعظم عليه أن يعطيها ولدا. وفي اختيار وصف الحميد من بين الأسماء الحسنى كناية عن رضى الله تعالى على إبراهيم عليه السلام وأهله.

{ **فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ** [74] **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ** [75] **يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ** [76] }.

الروع: مرادف الخيفة.

المجادلة: المحاورة. وقد تقدّمت في قوله تعالى { وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ } [النساء:107].

والمجادلة هنا: دعاء ومناجاة سأل بها إبراهيم عليه السلام ربّه العفو عن قوم لوط خشية إهلاك المؤمنين منهم. وقد تكون المجادلة مع الملائكة، وعُدّيت إلى ضمير الجلالة لأنّ المقصود من جدال الملائكة التعرّض إلى أمر الله بصرف العذاب عن قوم لوط.

{ **في قَوْمِ لُوطٍ** } على تقدير مضاف، أي: في عقاب قوم لوط. وهذا من تعليق الحكم باسم الذات، كقوله تعالى { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ } [المائدة: 3]، أي: أكلها.

{ **لَحَلِيمٌ** } الموصوف بالحلم وهو صفة تقتضي الصفح واحتمال الأذى.

{ **أَوَّاهٌ** } أصله الذي يكثر التأوّه، وهو قول: أوّه. وأوّه: اسم فعل نائب مناب: أتوجّع، وهو هنا كناية عن شدّة اهتمامه بهموم النّاس.

{ **مُنِيبٌ** } من أناب إذا رجع، وهو مشتق من النوب وهو النزول. وحقيقة الإنابة: الرجوع إلى الشيء بعد مفارقته وتركه. والمراد هنا: التوبة من التقصير، أي: محاسب نفسه على ما يُحذر منه.

{ **يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا** } مقول محذوف دلّ عليه المقام وهو من بديع الإيجاز، وهو وحي من الله إلى إبراهيم عليه السلام، أو جواب الملائكة إبراهيم عليه السلام.

{ **أَمْرُ رَبِّكَ** } قضاؤه، أي: أمر تكوينه.

{ **وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ** } [77].

وقد جاؤوا لوطا كما جاؤوا إبراهيم عليهما السلام في صورة البشر، فظنّهم ناسا وخشي أن يعتدي عليهم قومه بعادتهم الشنيعة فلذلك سيء بهم.

{ **ضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً** } ضاق ذرعه بسببهم، أي: بسبب مجيئهم.

الذرع: مدّ الذراع فإذا أسند إلى الآدمي فهو تقدير المسافة. استعارة تمثيليّة لحال من لم يجد حيلة في أمر يريد عمله بحال الذي لم يستطع مدّ ذراعه كما يشاء.

{ **هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ** } قاله في نفسه كما يناجي المرء نفسه إذا اشتد عليه أمر.

العصيب: الشديد فيما لا يُرضي. يقال: يوم عصيب إذا حدث فيه أمر عظيم من أحوال النّاس أو أحوال الجوّ كشدّة البرد وشدة الحرّ.

ومن بديع ترتيب هذه الجمل أنّها جاءت على ترتيب حصولها في الوجود، فإنّ أوّل ما يسبق إلى نفس الكاره للأمر أن يُساء به ويتطلّب المخلص منه، فإذا علم أنّه لا مخلص منه ضاق به ذرعا، ثم يصدر تعبيرا عن المعاني وترتيبا عنه كلاما يريح به نفسه.

{ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ } [78].

أي: جاءه بعض قومه. وهذا من إسناد الفعل إلى القبيلة إذا فعله بعضهم.

{ **يُهْرَعُونَ** } (بضم الياء وفتح الراء على صيغة المبني للمفعول) فسَّروه بالمشي الشبيه بمشي المدفوع، وهو بين الخبب والجمز، فهو لا يكون إلّا مبنيا للمفعول لأنّ أصله مشي الأسير الذي يُسرع به، إلّا أنّ ذلك تنوسي وبقي **أهرع** بمعنى: سار سيرا كسير المدفوع. وفسّره في (الصحاح) و(القاموس) بأنّه الارتعاد من غضب أو خوف. وعلى الوجهين فجملة { يُهْرَعُونَ } حال.

{ **وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ** } طوى القرآن ذكر الغرض الذي جاؤوا لأجله، واكتفى بالإشارة إليه.

{ **قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ** } افتتاح الكلام بالنداء وبأنّهم قومه ترقيق لنفوسهم عليه، لأنه يعلم تصلبهم في عادتهم.

{ **هَؤُلاءِ** } الإشارة مستعملة في العرض، والتقدير: فخذوهنّ.

{ **هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ** } تعليل للعرض. والمعنى أنّهنّ حلال لكم يَحُلْنَ بينكم وبين الفاحشة.

أراد نساء من قومه. وهذا معنى ما فسَّر به مجاهد، وابن جبير، وقتادة. وهذا أحسن المحامل.

<u>وقيل</u>: أراد بنات صلبه، وهو رواية عن قتادة. يجوز أن يكون تصرّفا بوصف النبوّة بالوحي للمصلحة.

{ **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي** } أمرهم بتقوى الله ، أي: خشيته والحذر من سوء المنقلب.

الخزي: الإهانة والمذلّة. وتقدم آنفا. أراد مذلّته، أي: لا تجعلوني مخزيّا عند ضيفي إذ يلحقهم أذى في ضيافتي، لأنّ الضيافة جوار عند رب المنزل فإذا لحقت الضيف إهانة كانت عارا على رب المنزل.

الضيف: الضائف، أي: النازل في منزل أحد نزولا غير دائم لأجل مرور في سفر أو إجابة دعوة.

وقد ظنّ لوط عليه السلام الملائكة رجالا مارين ببيته عنده للاستراحة والطعام والمبيت.

{ **أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ** } إنكار وتوبيخ لأنّ إهانة الضيف مسبة لا يفعلها إلّا أهل السفاهة. وهذا إغراء لهم على التعقّل ليظهر فيهم من يتفطّن إلى فساد ما هم فيه فينهاهم.

{ **قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ** [79] **قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ** [80] }.

أي: نحن نعلم أنّك قد علمت ما لنا رغبة في بناتك وإنّك تعلم مرادنا.

الحقّ: ما يحقّ، أي: يجب لأحد أو عليه، فالظاهر أنّه أُطلق هنا كناية عن عدم التعلّق بالشيء وعن التجافي عنه. وهو إطلاق لم أر مثله، وقد تحيّر المفسرون في تقريره. والمعنى: ما لنا في بناتك رغبة.

{ **لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً** } جواب يائس من ارعوائهم.

{ **لَوْ** } مستعملة في التمنّي، وهذا أقصى ما أمكنه في تغيير هذا المنكر.

{ **بِكُمْ** } الباء للاستعلاء، أي: عليكم. يقال: ما لي به قوة وما لي به طاقة. ومنه قوله تعالى { قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ } [البقرة:249].

المعنى: ليت لي قوة أدفعكم بها، يريد بذلك قوة أنصار، لأنّه كان غريبا بينهم.

{ **أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ** } أو أعتصم بما فيه منعة، أي: بمكان أو ذي سلطان يمنعني منكم.

الركن: الشقّ من الجبل المتصل بالأرض.

{ **قالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ** } [81].

هذا كلام الملائكة للوط عليه السلام كاشفوه بأنّهم ملائكة مرسلون من الله تعالى. وهذا الكلام الذي كلّموا به لوطا عليه السلام وحي أوحاه الله إلى لوط عليه السلام بواسطة الملائكة.

ابتدأ الملائكة خطابهم لوطا عليه السلام بالتعريف بأنفسهم لتعجيل الطمأنينة إلى نفسه، ثمّ ألحقوا هذا التعريف بالبشارة بقولهم { لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ }. وجيء بحرف تأكيد النفي للدلالة على أنّهم خاطبوه بما يزيل الشك من نفسه.

وقد صرف الله الكفار عن لوط عليه السلام فرجعوا من حيث أتوا. ووقع في التوراة أنّ الله أعمى أبصارهم حتّى قالوا: إنّ ضيف لوط سحرة فانصرفوا. وذلك ظاهر قوله تعالى { وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ } [القمر:37].

{ **فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ** } أمر بالسُرى (بضم السين والقصر)، وهو اسم مصدر للسير في الليل إلى الصباح. وفعله: سرى يقال بدون همزة في أوله ويقال: أسرى بالهمزة.

وقد جمعوه في الأمر مع أهله لأنّه إذا سرى بهم فقد سرى بنفسه.

القِطع: الجزء من الليل.

{ **وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ** } معترضة بين المستثنى والمستثنى منه. والالتفات المنهي عنه هو الالتفات إلى

المكان المأمور بمغادرته كما دلّت عليه القرينة.

{ **إِلَّا امْرَأَتَكَ** } استثناء من { أَهْلِكَ }، والمعنى: لا تسر بها، أريد أن لا يعلمها بخروجه لأنّها كانت مخلصة لقومها فتخبرهم عن زوجها.

وقرأه ابن كثير، وأبو عمرو برفع { امْرَأَتُكَ }، على أنّه استثناء من {أَحَدٌ} الواقع في سياق النهي.

والمعنى: انّه نهاهم عن الالتفات فامتثلوا ولم تمتثل امرأته للنهي فالتفتت.

{ **إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ** } استعمال فعل الماضي في معنى الحال، ومقتضى الظاهر أن يقال: ما يصيبهم، فاستعمال فعل الماضي لتقريب زمن الماضي من الحال. أو في معنى الاستقبال تنبيها على تحقّق وقوعه.

{ **إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ** } مستأنفة ابتدائية قطعت عن التي قبلها اهتماما وتهويلا.

الموعد: وقت الوعد. والوعد أعم من الوعيد. والمراد بالموعد هنا موعد العذاب الذي علمه لوط عليه السلام إمّا بوحي سابق، وإمّا بقرينة الحال، وإمّا بإخبار من الملائكة في ذلك المقام طوته الآية هنا إيجازا.

{ **أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ** } استئناف بياني صدر من الملائكة. والاستفهام تقريري، ولذلك يقع في مثله التقرير على النفي، إرخاء للعنان مع المخاطَب المقرَّر ليعرف خطأه. وإنّما قالوا ذلك في أوّل الليل.

{ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ [82] مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ [83] }.

{ **فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا** } تقدّم الكلام على نظيره [66].

المعنى: أنّ القرية انقلبت عليهم انقلاب خسف حتّى صار عالي البيوت سافلا. أي: وسافلها عاليا، وذلك من انقلاب الأرض بهم. وإنّما اقتصر على ذكر جعل العالي سافلا لأنّه أدخل في الإهانة.

السجّيل: فُسّر بواد نار في جهنّم يقال: سجّيل باللام، وسجّين بالنون. وهو تشبيه بليغ.

وقد جاء في التوراة: أنّ الله أرسل عليهم كبريتا ونارا من السماء. ولعلّ الخسف فجّر من الأرض براكين قذفت عليهم حجارة معادن محرقة كالكبريت، أو لعلّ بركانا كان قريبا من مدنهم انفجر باضطرابات أرضية ثم زال من ذلك المكان بحوادث تعاقبت في القرون، أو طمى عليه البحر وبقي أثر البحر عليها حتى الآن، وهو المسمى بُحيرة لوط أو البحر الميت.

المنضود: الموضوع بعضه على بعض. والمعنى هنا: أنّها متتابعة متتالية في النزول ليس بينها فترة. والمراد وصف الحجارة بذلك إلّا أنّ الحجارة لمّا جُعلت من سجّيل أجري الوصف على سجّيل وهو يفضي إلى وصف الحجارة لأنّها منه.

المسوّمة: التي لها سيما، وهي العلامة. والعلامات توضع لأغراض، منها عدم الاشتباه، ومنها سهولة الإحضار، وهو هنا مُكنًّى به عن المعدّة المهيّئة.

{ **عِنْدَ رَبِّكَ** } تسويمها عند الله هو تقديره إيّاها لهم.

{ **وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ** } المعنى وما تلك القرية ببعيد عن المشركين، أي: العرب، فمن شاء فليذهب إليها فينظر مصيرها، فالمراد البعد المكاني. ويصلح لأنّ يعود إلى الحجارة، أي: وما تلك الحجارة ببعيد، أي: أنّ الله قادر على أن يرمي المشركين بمثلها.

{ **بَعِيدٍ** } جُرّد عن تاء التأنيث مع كونه خبرا عن الحجارة أو القرية، ومع كون { بَعِيدٍ } هنا بمعنى فاعل لا بمعنى مفعول، فالشأن أن يطابق موصوفه في تأنيثه، ولكن العرب قد يجرون فعيلا الذي بمعنى فاعل مجرى الذي بمعنى مفعول إذا جرى على مؤنث غير حقيقي التأنيث زيادة في التخفيف.

{ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ [84] وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ [85] بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ [86] }.

{ **وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً** - إلى قوله - **مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** } نظير قوله { وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً } [61]. أمرهم بثلاثة أمور:

أحدها: إصلاح الاعتقاد، وهو من إصلاح العقول والفكر.

الثاني: وهو شيء من صلاح العمل خُصّ بالنهي، لأنّ إقدامهم عليه كان فاشيا فيهم حتّى نسوا ما فيه من قبح وفساد، وهذا هو الكف عن نقص المكيال والميزان.

الثالث: صلاح الأعمال والتصرّفات في العالم بأنّ لا يفسدوا في الأرض.

فابتدأ بالأمر بالتوحيد لأنّه أصل الصلاح ثم أعقبه بالنهي عن مظلمة كانت متفشية فيهم وهي خيانة المكيال والميزان. وقد تقدّم ذلك في [الأعراف:85]. وهي مفسدة عظيمة لأنّها تجمع خصلتي السرقة والغدر، لأنّ المكتال مسترسل مستسلم. ونهاهم عن الإفساد في الأرض وعن نقص المكيال والميزان فعزّزه بالأمر بضدّه وهو إيفاؤهما.

{ **إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ** } تعليل للنهي عن نقص المكيال والميزان. أي: أنّكم بخير. في معنى الشهادة عليهم بنعمة الله عليهم فحقّ عليهم شكرها.

الخير: حسن الحالة. ويطلق على المال كقوله تعالى { إِنْ تَرَكَ خَيْراً } [البقرة:180].

والأولى حمله عليه هنا ليكون أدخل في تعليل النهي، أي: أنّكم في غنى عن هذا التطفيف بما أوتيتم من

النعمة والثروة. وهذا التعليل يقتضي قبح ما يرتكبونه من التطفيف. وهذا حثّ على وسيلة بقاء النعمة.
{ **وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ** } ثمّ ارتقى في تعليل النهي بأنّه يخاف عليهم عذابا يحلّ بهم؛ إمّا يوم القيامة وإمّا في الدنيا، ولصلوحيته للأمرين أجمله. وهذا تحذير من عواقب كفران النعمة وعصيان واهبها.
{ **وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ** } إعادة النداء لزيادة الاهتمام بالجملة والتنبيه لمضمونها، وهو الأمر بإيفاء المكيال والميزان. وهذا الأمر تأكيد للنهي عن نقصهما. والشيء يؤكَّد بنفي ضدّه.
{ **بِالْقِسْطِ** } الباء للملابسة. أي: العدل، تعليلا للأمر به، لأنّ العدل معروف حسن، وتنبيها على أنّ ضدّه ظلم وجور وهو قبيح منكر. والقسط تقدم في قوله تعالى { قَائِماً بِالْقِسْطِ } [آل عمران:18].
{ **وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ** }
البخس: النقص. وتقدّم في قصّته في [الأعراف:85] مفسّرا. وذكر ذلك بعد النهي عن نقص المكيال والميزان تذييل بالتعميم بعد تخصيص، لأنّ التطفيف من بخس النّاس في أشيائهم.
وتعدية { تَبْخَسُوا } إلى مفعولين باعتباره ضدّ أعطى فهو من باب كسا.
العَثْيُ (بالياء) من باب سعى ورمى، وبالواو كدعا، هو: **الفساد**. ولذلك فقوله { مُفْسِدِينَ } حال مؤكّدة لعاملها مثل التوكيد اللفظي، مبالغة في النهي عن الفساد.
{ **فِي الْأَرْضِ** } المقصود منه تعميم أماكن الفساد.
وسلك في نهيهم عن الفساد مسلك التدرّج فابتدأه بنهيهم عن نوع من الفساد فاش فيهم وهو التطفيف، ثمّ ارتقى فنهاهم عن جنس ذلك النوع وهو أكل أموال النّاس، ثمّ ارتقى فنهاهم عن الجنس الأعلى للفساد الشامل لجميع أنواع المفاسد وهو الإفساد في الأرض كلّه. وهذا من أساليب الحكمة في تهيئة النفوس بقبول الإرشاد والكمال.
{ **بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ** } وإذ قد كانت غاية المفسد من الإفساد اجتلاب ما فيه نفع عاجل له من نوال ما يحبّه أعقب شعيب موعظته بما أدَّخره الله من الثواب على امتثال أمره، وهو النفع الباقي هو خير لهم مما يقترفونه من المتاع العاجل.
{ **بَقِيَّت** } كلمة جامعة لمعان في كلام العرب، منها: الدوام، ومؤذنة بضدّه وهو الزوال، فأفادت أن ما يقترفونه متاع زائل، وما يدعوهم إليه حظ باق غير زائل، وبقاؤه دنيوي وأخروي؛
فأمّا كونه دنيويا فلأن الكسب الحلال ناشئ عن استحقاق شرعي فطري، فهو حاصل من تراض بين الأمّة فلا يحنق المأخوذ منه على آخذه فيعاديه ويتربّص به الدوائر، فبتجنّب ذلك تبقى الأمّة في أمن من توثّب بعضها على بعض. ومن أجل ذلك قرن الأموال بالدماء في خطبة حجّة الوداع إذ قال النبيّ صل الله عليه وسلم: " **إنّ دماءكم وأموالكم عليكم حرام** ". فكما أنّ إهراق الدماء بدون حقّ يفضي إلى التقاتل والتفاني بين الأمّة فكذلك انتزاع الأموال بدون وجهها يفضي إلى التواثب والتثاور فتكون معرّضة

للابتزاز والزوال. وأيضا لأن نوالها بدون رضى الله عن وسائل أخذها كفران لله يعرّض إلى تسليط عقابه بسلبها من أصحابها. قال ابن عطاء الله: " من لم يشكر النعم فقد تعرّض لزوالها ومن شكرها فقد قيّدها بعقالها ".

وأمّا كونه أخرويّا فلأنّ نهي الله عنها مقارنٌ للوعد بالجزاء على تركها، وذلك الجزاء من النعيم الخالد كما في قوله تعالى { وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَرَدّاً } [مريم:76].

على أن اللفظ يتحمّل معنى آخر من الفضل في كلام العرب، وهو معنى الخير والبركة، لأنّه لا يبقى إلّا ما يحتفظ به أصحابه وهو النفائس، ولذلك أطلقت (البقيّة) على الشيء النفيس المبارك كما في قوله تعالى { فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ } [البقرة:248]، وقوله تعالى { فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ} [هود:116].

وفي كلمة (البقية) معنى آخر: وهو الإبقاء عليهم، والعرب يقولون عند طلب الكفّ عن القتال: ابقوا علينا. فيكون المعنى على هذا الوجه: إبقاء الله عليكم ونجاتكم من عذاب الاستئصال خيرلكم من هذه الأعراض العاجلة السيّئة العاقبة، فيكون تعريضا بوعيد الاستئصال.

وكل هذه المعاني صالحة هنا. ولعلّ كلام شعيب عليه السلام قد اشتمل على جميعها فحكاه القرآن بهذه الكلمة الجامعة.

{ **بَقِيَّتُ اللَّهِ** } إضافة إلى اسم الجلالة على المعاني كلّها، جمعا وتفريقا، إضافة تشريف وتيمّن.

{ **إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** } إن كنتم مصدّقين بما أرسلت به إليكم، لأنّهم لا يتركون مفاسدهم ويرتكبون ما أمروا به إلّا إذا صدّقوا بأن ذلك من عند الله، فهنالك تكون بقية الله خيرا لهم، فموقع الشرط هو كون البقية خيرا لهم، أي: لا تكون البقية خيرا إلّا للمؤمنين.

{ **وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ** } أي: افعلوا ذلك باختياركم لأنّه لصلاحكم ولست مكرهكم على فعله.

الحفيظ: المجبر، كقوله تعالى { فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ } [الشورى:48]، وتقدّم عند قوله تعالى { وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً } [الأنعام:107].

والمقصود من ذلك استنزال طائرهم لئلّا يشمئزّوا من الأمر. وهذا استقصاء في الترغيب وحسن الجدال.

{ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ } [87].

كانت الصلاة من عماد الأديان كلّها. وكان المكذّبون الملحدون قد تمالؤوا في كلّ أمّة على إنكارها والاستهزاء بفاعلها { أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ } [الذاريات:53]. فلمّا كانت الصلاة أخصّ أعماله المخالفة لمعتادهم جعلوها المشيرة عليه بما بلّغه إليهم من أمور مخالفة لمعتادهم.

{ **أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا** } معنى تركها ترك عبادتها.

{ **أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ** } أي: أن نترك فعل ما نشاء في أموالنا فنكون طوع أمرك نفعل ما تأمرنا بفعله ونترك ما تأمرنا بتركه. و{ **أَو** } هنا للتقسيم، لأنّ منهم من لا يتّجر.

{ **إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ** } استئناف تهكّم آخر. وقد جاءت الجملة مؤكَّدة بحرف (إنّ) ولام القسم وبصيغة القصر والضمير المنفصل، فاشتملت على أربعة مؤكّدات.

الحليم: ذو الحلم، أي: العقل، والرشيد: الحَسَن التدبير في المال.

{ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } [88].

تقدّم نظير الآية في قصّة نوح وقصة صالح عليهما السلام.

والمراد بالرزق الحسن هنا: مثل المراد من الرحمة في كلام نوح وكلام صالح عليهما السلام وهو نعمة النبوّة، وإنّما عبَّر شعيّب عليه السلام عن النبوّة بالرزق على وجه التشبيه مشاكلة لقولهم { أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ } [87]، لأنّ الأموال أرزاق. وجواب الشرط محذوف يدلّ عليه سياق الكلام، أو يدلّ عليه { إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي } . والتقدير: ماذا يسعكم في تكذيبي، أو ماذا ينجيكم من عاقبة تكذيبي. وهو تحذير لهم على فرض احتمال أن يكون صادقا. أي: فالحزم أن تأخذوا بهذا الاحتمال، أو فالحزم أن تنظروا في كنه ما نهيتكم عنه لتعلموا أنّه لصلاحكم.

{ **وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ** } عند جميع المفسّرين من التّابعين فمن بعدهم: أي: لم أكن لأنهاكم عن شيء وأنا أفعله. والمقصود: بيان أنّه مأمور بذلك أمرا يعمّ الأمّة وإيّاه وذلك شأن الشرائع، كما قال علماؤنا: إنّ خطاب الأمّة يشمل الرسول عليه الصلاة والسلام ما لم يدل دليل على تخصيصه بخلاف ذلك.

<u>والذي يظهر لي</u> في معنى الآية أنّ المراد من المخالفة المعاكسة والمنازعة، إمّا لأنّه عرف من ملامح تكذيبهم أنّهم توهّموه ساعيا إلى التملّك عليهم والتجبّر، وإمّا لأنّه أراد أن يقلع من نفوسهم خواطر الشرّ قبل أن تهجس فيها. وهذا المحمل في الآية يسمح به استعمال التركيب ومقاصد الرسل، وهو أشمل للمعاني من تفسير المتقدّمين، فلا ينبغي قصر تفسير الآية على ما قالوه لأنه لا يقابل قول قومه { أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ } [87]، فإنّهم ظنوا به أنّه ما قصد إلّا مخالفتهم وتخطئتهم ونفوا أن يكون له قصد صالح فيما دعاهم إليه، فكان مقتضى إبطال ظنّتهم أن ينفي أن يريد مجرد مخالفتهم، بدليل قوله عقبه { إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ }.

المعنى: أنّه ما يريد مجرّد المخالفة كشأن المنتقدين المتقعّرين، ولكن يخالفهم لمقصد سام وهو إرادة إصلاحهم.

{ **إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ** } بيان لجملة {مَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ} لأن انتفاء إرادة المخالفة إلى ما نهاهم عنه مجمل فيما يريد إثباته من أضداد المنفي، فبيّنه بأنّ الضدّ المراد إثباته هو الإصلاح في جميع أوقات استطاعته، فالقصر قصر قلب.

{ **وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ** } لمّا بيّن لهم حقيقة عمله وكان في بيانه ما يجرّ الثناء على نفسه أعقبه بإرجاع الفضل في ذلك إلى الله، فسمّى إرادته الإصلاح توفيقا، وجعله من الله، أي: بإرادته وهديه.

التوفيق: جعل الشيء وفقا لآخر، أي: طبقا له، ولذلك عرّفوه بأنّه خَلْق القدرة والداعية إلى الطاعة.

{ **عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** }

التوكّل: مضى عند قوله تعالى { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } [آل عمران:159].

الإنابة: تقدّمت آنفا في قوله تعالى { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ } [75].

{ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ [89] وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ [90] }.

تقدّم الكلام على النكتة في إعادة النداء في الكلام الواحد لمخاطب متّحد قريبا.

{ **لَا يَجْرِمَنَّكُمْ** } أي: لا يُكسبنّكم. وتقدّم الكلام حولها عند قوله تعالى { وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ } [المائدة:2].

الشقاق: مصدر شاقّه إذا عاداه. وتقدّم عند قوله تعالى { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ } [الأنفال:13].

المعنى: لا تجرّ إليكم عداوتكم إيّاي إصابتكم بمثل ما أصاب قوم نوح إلى آخره. والمقصود نهيهم عن أن يجعلوا الشقاق سببا للإعراض عن النظر في دعوته، فيوقعوا أنفسهم في أن يصيبهم عذاب مثل ما أصاب الأمم قبلهم.

{ **وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ** } المراد بالبعد بعد الزمن والمكان والنسب، فزمن لوط عليه السلام غير بعيد في زمن شعيب عليه السلام، والديار قريبة من ديارهم، إذ منازل مَدْين عند عقبة أيلة مجاورة مَعان مما يلي الحجاز، وديار قوم لوط بناحية الأردن إلى البحر الميت، وكان مدين بن إبراهيم عليهما السلام وهو جد القبيلة المسمّاة باسمه، متزوجا بابنة لوط.

{ **وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ** } عطف على جملة { لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي }.

{ **إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ** } تعليل للأمر باستغفاره والتوبة إليه، وهو تعليل لما يقتضيه الأمر من رجاء العفو عنهم إذا استغفروا وتابوا.

{ **رَبَّكُمْ - رَبِّي** } تفنّن في إضافة الرب إلى ضمير نفسه مرة وإلى ضمير قومه أخرى لتذكيرهم بأنّه ربّهم

كيلا يستمروا على الإعراض، وللتشرّف بانتسابه إلى مخلوقيته.

الودود: مثال مبالغة من الودّ وهو المحبة. تقدّم عند قوله تعالى { وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا } [النساء:89]. والمعنى: أنّ الله شديد المحبة لمن يتقرّب إليه بالتوبة.

{ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ } [91].

الفقه: الفهم. وتقدّم عند قوله تعالى { فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً } [النساء:78].

ومرادهم من هذا: يحتمل أن يكون قصد المباهتة كما حكى الله عن المشركين { وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ } [فصلت:5]، وقوله تعالى عن اليهود { وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ } [البقرة:88].

ويجوز أن يكون المراد: **ما نتعقّله**، لأنّه عندهم كالمحال لمخالفته ما يألفون، كما حكى الله عن غيرهم بقوله تعالى { أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ } [ص:5]. وليس المراد عدم فهم كلامه لأنّ شعيبا عليه السلام كان مقوالا فصيحا، ووصفه النبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّه خطيب الأنبياء.

{ **وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً** } أي: غير ذي قوة ولا منعة. فالمراد الضعف عن المدافعة إذا راموا أذاه. ومن فساد التفاسير تفسير الضعيف بفاقد البصر وأنّه لغة حميرية فركّبوا منه أنّ شعيبا عليه السلام كان أعمى. ولم يُعرف من الأثر ولا من كتب الأولين ما فيه أنّ شعيبا عليه السلام كان أعمى.

{ **وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ** } هو المقصود ممّا مُهّد إليه من المقدّمات، أي: لا يصدّنا عن رجمك شيء إلّا مكان رهطك فينا، لأنّك أوجبت رجمك بطعنك في ديننا.

الرهط: إذا أضيف إلى رجل أريد به القرابة الأدنون لأنّهم لا يكونون كثيرا، فأطلقوا عليهم لفظ الرهط الذي أصله الطائفة القليلة من الثلاثة إلى العشرة، ولم يقولوا قومك، لأنّ قومه قد نبذوه. وكان رهط شعيب عليه السلام من خاصة قومه فلذلك وقّروهم بكف الأذى عن قريبهم لأنّهم يكرهون ما يؤذيه لقرابته.

الرجم: القتل بالحجارة رميا، وهو قتلة حقارة وخزي. وفيه دلالة على أنّ حكم من يخلع دينه الرجم في عوائدهم.

{ **وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ** } مؤكّدة لمضمون { وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ } لأنّه إذا انتفى كونه قويّا في نفوسهم تعيّن أنّ كفّهم عن رجمه مع استحقاقه إيّاه في اعتقادهم ما كان إلّا لأجل إكرامهم رهطه لا للخوف منهم.

العزّة: القوّة والشدّة والغلبة. والعزيز: وصف منه، وتعديته بحرف (على) لما فيه من معنى الشدّة والوقع على النفس كقوله تعالى { عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ } [التوبة:128].

وقصدهم من هذا الكلام تحذيره من الاستمرار على مخالفة رهطه بأنّهم يوشك أن يخلعوه ويبيحوا لهم رجمه.

{ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيّاً إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ } [92].

لمّا أرادوا بالكلام الذي وجّهوه إليه تحذيره من الاستمرار على مخالفة دينهم أجابهم بما يفيد أنّه لم يكن قط معوّلا على عزّة رهطه ولكنّه متوكّل على الله الذي هو أعزّ من كل عزيز.

وإعادة النداء للتنبيه لكلامه وأنّه متبصّر فيه. والاستفهام إنكاري، أي: الله أعزّ من رهطي، وهو كناية عن اعتزازه بالله لا برهطه فلا يريبه عدم عزّة رهطه عليهم، وهذا تهديد لهم بأنّ الله ناصره.

{ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيّاً } في موضع الحال من اسم الجلالة، أي: الله أعز.

الاتخاذ: الجعل، وتقدّم في قوله تعالى { أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً } [الأنعام:74].

الظِّهريّ (بكسر الظاء): نسبة إلى الظهر على غير قياس، والتغييرات في الكلم لأجل النسبة كثيرة.

والمراد بالظهري الكناية عن النسيان، أو الاستعارة لأنّ الشيء الموضوع بالوراء يُنسى لقلّة مشاهدته، فهو يشبه الشيء المجعول خلف الظهر في ذلك. فوقَع { ظِهْرِيًّا } حالا مؤكِّدة للظرف إغراقا في معنى النسيان، لأنّهم اشتغلوا بالأصنام عن معرفة الله أو عن ملاحظة صفاته.

{ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ } استئناف، أو تعليل لمفهوم جملة { أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ } الذي هو توكّله عليه واستنصاره به.

المحيط: الموصوف بأنّه فاعل الإحاطة. وأصل الإحاطة: حصار شيء شيئا من جميع جهاته مثل إحاطة الظرف بالمظروف والسوار بالمعصم. ويطلق مجازا في قولهم: أحاط علمه بكذا، وأحاط بكل شيء علما، بمعنى: علم كل ما يتضمّن أن يُعلم في ذلك. أي: شمول علمه.

وهذا تعريض بالتهديد، وأن الله يوشك أنّ يعاقبهم على ما علمه من أعمالهم.

{ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ } [93].

{ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ } تقدم تفسير نظيرها في [الأنعام :136]. والأمر للتهديد. والمعنى: اعملوا ما تحبّون أن تعملوه بي.

{ سَوْفَ تَعْلَمُونَ } مستأنفة استئنافا بيانيّا، لمزيد التهديد. ولكونه كذلك كان مساويا للتفريع بالفاء الواقع في آية الأنعام في المآل، ولكنه أبلغ في الدلالة. ففي خطاب شعيب عليه السلام قومه من الشدّة ما ليس في الخطاب المأمور به النبيّ صلى الله عليه وسلم في سورة الأنعام.

{ عَذَابٌ يُخْزِيهِ } العذاب خزي لأنّه إهانة.

الارتقاب: الترقّب، وهو افتعال من رقبه إذا انتظره.

الرقيب: هنا، فعيل بمعنى فاعل، أي: أنّي معكم راقب، أي: كلّ يرتقب ما يجازيه الله به.

{ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ [94] كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ [95] }.

عُطف { لَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا } هنا وفي قوله تعالى في قصّة عاد { وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً } [59] بالواو فيهما وعطف نظيراهما في قصّة ثمود { فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً } [66] وفي قصّة قوم لوط { فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا } [82] بالفاء لأنّ قصتي ثمود وقوم لوط كان فيهما تعيين أجل العذاب الذي توعّد به النبيّان قومهما. ففي قصّة ثمود { فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ } [65]، وفي قصّة قوم لوط { إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ } [81]. فكان المقام مقتضيا ترقّب السامع لما حلّ بهم. وليس في قصّة عاد وقصّة مدين تعيين لموعد العذاب ولكن الوعيد فيهما مجمل.

{ **جاء أمرنا** - إلى قوله - **أَلَا بُعْداً لِمَدْيَنَ** } تقدّم القول فيها في قصّة ثمود.

{ **بُعْداً** } تقدّم في قصّة نوح في قوله تعالى { وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } [44].

{ **كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ** } تشبيه البعد الذي هو انقراض مدين بانقراض ثمود. ووجه الشبه التماثل في سبب عقابهم بالاستئصال، وهو عذاب الصيحة.

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ [97] إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ [69] }.

عُقّبت قصّة مدين بذكر بعثة موسى عليه السلام لقرب ما بين زمنيهما، ولشدّة الصلة بين النبيّين فإنّ موسى بُعث في حياة شعيب عليهما السلام وقد تزوّج ابنة شعيب.

{ **بِآيَاتِنَا** } الباء للمصاحبة فإنّ ظهور الآيات كان مصاحبا لزمن الإرسال.

السلطان: البرهان المبين، أي: المُظهِر صدق الجائي به، وهو الحجّة العقلية أو التأييد الإلهي.

{ **فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ** } تقدّم ذكرهما في [الأعراف:103].

{ **إِلَى فِرْعَوْنَ ... أَمْرَ فِرْعَوْنَ ... أَمْرُ فِرْعَوْنَ** } إظهار اسم فرعون في المرة الثانية دون الضمير والمرة الثالثة للتشهير، والإعلان بذمّه وهو انتفاء الرشد عن أمره.

الرشيد: فعيل من رشد من باب نصر وفرح، إذا اتصف بإصابة الصواب. يقال: أرشدك الله. والمقصود أن أمر فرعون سَفَهٌ إذ لا واسطة بين الرشد والسفه.

{ **يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ** [98] **وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ** [99] }.

{ **يَقْدُمُ قَوْمَهُ** } يجوز أن تكون في موضع الحال من { فِرْعَوْنَ }، ويجوز أن تكون استئنافا بيانيّا.

الإيراد: جعل الشيء واردا، أي: قاصدا الماء، والذي يوردهم هو الفارط، ويقال له: الفَرَط.

الوِرد (كسر الواو): الماء المورود، وهو فعل بمعنى مفعول، مثل ذبح. استعارة الإيراد إلى التقدّم بالنّاس إلى العذاب، وهي تهكّميّة، لأنّ الإيراد يكون لأجل الانتفاع بالسقي، وأمّا التقدّم بقومه إلى النّار فهو ضدّ ذلك.

{ **فَأَوْرَدَهُمُ** } بصيغة الماضي للتنبيه على تحقيق وقوع ذلك الإيراد، وإلّا فقرينة قوله { يَوْمَ الْقِيَامَةِ } تدل على أنّه لم يقع في الماضي.

{ **وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ** } في موضع الحال والضمير المخصوص بالمدح المحذوف هو الرابط وهو تجريد للاستعارة، كقوله تعالى { بِئْسَ الشَّرَابُ } [الكهف:29]، لأنّ الورد المشبّه به لا يكون مذموما.

الإتباع: الإلحاق.

اللعنة: هي لعنة العذاب في الدنيا وفي الآخرة.

{ **يَوْمَ الْقِيَامَةِ** } متعلّق بـ { وَأُتْبِعُوا }، فعلم أنهم أتبعوا لعنة يوم القيامة، لأن اللعنة الأولى قُيّدت بـ { فِي هَذِهِ }.

{ **بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ** } مستأنفة لإنشاء ذمّ اللعنة. والمخصوص بالذمّ محذوف دلّ عليه ذكر اللعنة، أي: بئس الرفد هي.

الرِّفد (بكسر الراء): اسم على وزن فِعل بمعنى مفعول مثل ذبح. أي: ما يُرفد به، أي يُعطى. يقال: رفده إذا أعطاه ما يعينه به من مال ونحوه. وفي حذف المخصوص بالمدح إيجاز ليكون الذم متوجّها لإحدى اللعنتين لا على التعيين لأنّ كلتيهما بئيس. وإطلاق الرفد على اللعنة استعارة تهكّميّة.

المرفود: حقيقته المعطى شيئا. ووصف الرفد بالمرفود لأنّ كلتا اللعنتين معضودة بالأخرى، فشُبّهت كل واحدة بمن أعطي عطاء فهي مرفودة. وإنما أجري المرفود على التذكير باعتبار أنّه أطلق عليه رفد.

{ **ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ** [100] **وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ** [101] }.

استئناف للتنويه بشأن الأنباء التي مرّ ذكرها.

الأنباء: جمع نبأ، وهو الخبر، وتقدّم في قوله تعالى { وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ } [الأنعام:34].

{ **نَقُصُّهُ عَلَيْكَ** } حال من اسم الإشارة. وعُبّر بالمضارع، مع أنّ القصص مضى، لاستحضار حالة هذا القصص البليغ.

{ **مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ** } معترضة حال من { الْقُرَى }. **القائم**: الزرع المستقلّ على سُوقه. و**الحصيد**: الزرع المحصود. فعيل بمعنى مفعول.

والمعنى: منها زرع قائم وزرع حصيد، وهذا تشبيه بليغ للباقي من القرى والعافي.

المراد بالقائم: ما كان من القرى التي قصّها الله في القرآن؛ قرى قائما بعضها كآثار بلد فرعون كالأهرام، ومثل آثار نينوى بلد قوم يونس. وأنطاكية قرية المرسلين الثلاثة، وصنعاء بلد قوم تبّع. وقرى بائدة مثل ديار عاد، وقرى قوم لوط، وقرية مدين.

وليس المراد القرى المذكورة في هذه السورة خاصة. والمقصود من هذه الجملة الاعتبار.

{ **وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ** } ضمير الغيبة عائد إلى { الْقُرَى } باعتبار أهلها لأنّهم المقصود. وإنّما لم يظلمهم الله تعالى لأنّ ما أصابهم به من العذاب جزاء عن سوء أعمالهم فكانوا هم الظالمين أنفسهم إذ جرّوا لأنفسهم العذاب.

{ **فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ** } فُرّع على ظلمهم أنفسهم انتفاء إغناء آلهتهم عنهم شيئا، فهم لمّا عبدوها كانوا يعبدونها للخلاص من طوارق الحدثان ولتكون لهم شفعاء عند الله وكانوا في أمن من أن ينالهم بأس في الدنيا اعتمادا على دفع أصنامهم عنهم فلمّا جاء أمرهم بضدّ ذلك كان ذلك الضدّ مضادا لتأميلهم وتقديرهم.

والغرض من هذا التفريع التعريض بتحذير المشركين من العرب من الاعتماد على نفع الأصنام.

{ **وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ** } أي: زادتهم أسباب الخسران.

التتبيب: مصدر تبّبه إذا أوقعه في التباب: **الخسارة**. وظاهر هذا أنّ أصنامهم زادتهم تتبيبا لمّا جاءهم العذاب.

{ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ } [102].

الإشارة إلى المذكور من استئصال تلك القرى. والتقدير: وكذلك الأخذ الذي أخذنا به تلك القرى. والتشبيه في الكيفية والعاقبة. والمقصود من هذا التذييل تعريض بتهديد مشركي العرب من أهل مكّة وغيرها.

الظلم: الشرك.

{ **إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ** } في موضع البيان. وفيه إشارة إلى وجه الشبه.

{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ [103] وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ [104] }.

بيان للتعريض وتصريح بعد تلويح. والمعنى: وكذلك أَخْذ ربك فاحذروه واحذروا ما هو أشدّ منه وهو عذاب الآخرة. والإشارة إلى الأخذ المتقدّم. وفي هذا تخلّص إلى موعظة المسلمين والتعريض بمدحهم بأنّ مثلهم من ينتفع بالآيات ويعتبر بالعبر.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً** } جُعل عذاب الدنيا آية دالة على عذاب الآخرة لأنّ القرى الظالمة توعّدها الله بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فلمّا عاينوا عذاب الدنيا كان تحقّقه أمارة على تحقّق عذاب الآخر.

{ **ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ** } معترضة للتنويه بشأن هذا اليوم. واللام في { مَجْمُوعٌ لَهُ } لام العلّة، أي: مجموع النّاس لأجله. ومجيء الخبر جملة اسمية في الإخبار عن اليوم يدلّ على معنى الثبات، أي: ثابت جمع الله النّاس لأجل ذلك اليوم.

{ **وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ** } لزيادة التهويل لليوم بأنّه يُشهد. وطوي ذكر الفاعل إذ المراد يشهده الشاهدون. والإخبار عنه بهذا يؤذن بأنّهم يشهدونه شهودا خاصا، وهو شهود الشيء المهول.

ويجوز أن يكون { مَشْهُودٌ } بمعنى المحقَّق، أي: مشهود بوقوعه، كما يقال: حقّ مشهود، أي: عليه شهود لا يُستطاع إنكاره، واضح للعيان.

{ **وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ** } معترضة بين قوله تعالى { ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ } وبين قوله تعالى { يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ} [105]. والمقصود الردّ على المنكرين للبعث، فبيّن الله لهم أنّ تأخيره إلى أجل حدّده الله له من يوم خلق العالم كما حدّد آجال الأحياء.

الأجل: أصله المدّة المنظر إليها في أمر، ويطلق أيضا على نهاية تلك المدّة، وهو المراد هنا بقرينة اللام، كما أريد في قوله تعالى { فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ } [الأعراف:34].

المعدود: أصله المحسوب، وأطلق هنا كناية عن المعيّن المضبوط، بحيث لا يتأخّر ولا يتقدّم لأنّ المعدود يلزمه التعيّن. أو هو كناية عن القرب.

{ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ [105] فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ [106] خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ [107] وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ [108] }.

تفصيل لمدلول { ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ }، وبُيّنت عظمة ذلك اليوم في الشرّ والخير تبعا لذلك التفصيل. فالمقصد الأوّل من هذه الجملة هو قوله تعالى { فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ } وما بعده، وأمّا ما قبله

فتمهيد له أفصح عن عظمة ذلك اليوم. وقد جاء نظم الكلام على تقديم وتأخير اقتضاه وضع الاستطراد بتعظيم هول اليوم في موضع الكلام المتّصل لأنّه أسعد بتناسب أغراض الكلام، والظروف صالحة لاتصال الكلام كصلاحية الحروف العاطفة وأدوات الشرط.

{ **يَوْمَ يَأْتِ** } مستعمل في معنى (حين) أو (ساعة)، وهو استعمال شائع في الكلام العربي في لفظ (يوم) و(ليلة) توسّعا بإطلاقهما على جزء من زمانهما.

ومعناه حين يأتي. وضمير { يَأْتِ } عائد إلى { يَوْمٌ مَشْهُودٌ } [103] وهو يوم القيامة. والمراد بإتيانه وقوعه وحلوله كقوله تعالى { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ } [الزخرف:66].

{ **لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ** } مستأنفة ابتدائية. والتقدير: لا تكلّم نفس حين يحلّ اليوم المشهود.

{ **إِلَّا بِإِذْنِهِ** } الضميرعائد إلى الله تعالى المفهوم من المقام ومن ضمير { نُؤَخِّرُهُ } [104]. والمعنى: أنّه لا يتكلّم أحد إلّا بإذن من الله. والمقصود من هذا إبطال اعتقاد أهل الجاهلية أنّ الأصنام لها حقّ الشفاعة.

{ **نَفْسٌ** } يعمّ جميع النفوس لوقوعه في سياق النفي، فشمل النفوس البرّة والفاجرة، وشمل كلام الشافع وكلام المجادل عن نفسه.

الشقيّ: فعيل صفة مشبّهة من شَقِيَ، إذا تلبّس بالشقاء والشقاوة، أي: سوء الحالة وشرّها.

السعيد: ضدّ الشقي، وهو المتلبّس بالسعادة التي هي الأحوال الحسنة الخيّرة.

المعنى: فمنهم يومئذ من هو في عذاب وشدّة ومنهم من هو في نعمة ورخاء.

{ **فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا** } تفصيل ما أُجمل.

الزفير: إخراج الأنفاس بدفع وشدّة بسبب ضغط التنفس.

الشهيق: عكسه وهو اجتلاب الهواء إلى الصدر بشدة لقوة الاحتياج إلى التنفس.

{ **مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ** } التأبيد لأنّه جرى مجرى المثل، وإلّا فإنّ السماوات والأرض المعروفة تضمحلُّ يومئذ، قال تعالى { يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ } [إبراهيم:48]. أو يراد سماوات الآخرة وأرضها.

{ **إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ** } استثناء من الأزمان التي عمّها الظرف، أي: إلّا الأزمان التي شاء الله فيها عدم خلودهم، ويستتبع ذلك استثناء بعض الخالدين تبعا للأزمان. وقد تكرّر هذا الاستثناء في الآية مرتين.

فأمّا الاستثناء الأول، فالمقصود أنّ أهل النّار مراتب في طول المدة؛ فمنهم من يعذب ثم يعفى عنه، مثل أهل المعاصي من الموحّدين، كما في الصحيح من حديث أنس: " يدخل ناس جهنّم حتّى إذا صاروا كالحُمَمَة أُخرجوا وأدخلوا الجنة، فيقال: هؤلاء الجهنّميّون ". ومنهم الخالدون وهم المشركون والكفار.

{ **إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ** } استئناف بياني ناشئ عن الاستثناء. وهذا مظهر من مظاهر التفويض إلى الله.

وأمّا الاستثناء الثاني الواقع في جنب { **وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا** } فيحتمل معنيين:

*/ يحتمل أن يراد: إلّا ما شاء ربك في أول أزمنة القيامة، وهي المدّة التي يدخل فيها عصاة المؤمنين غير التائبين في العذاب إلى أن يعفو الله عنهم بفضله بدون شفاعة أو بشفاعة.

*/ ويحتمل أن يقصد منه التحذير من توهّم استحقاق أحد ذلك النعيم حقّا على الله، بل هو مظهر من مظاهر الفضل والرحمة.

وقد دلّت الوعود الإلهيّة على أنّ الله لا يشاء إخراج أهل الجنّة منها. وأيّا ما كان فهم إذا أُدخلوا الجنّة كانوا خالدين فيها فلا ينقطع عنهم نعيمها. وهو معنى قوله تعالى {عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ }.

المجذوذ: المقطوع.

{ **سُعِدُوا** } بمعنى أسعدوا. وقيل: سَعِد متعدٍّ في لغة هذيل وتميم، يقولون: سَعِدَه الله بمعنى أسعده. وخرج أيضا على أنّ أصله أُسعدوا. ومنه قولهم: رجل مسعود.

{ **فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ** } [109].

تفريع على القصص الماضية فإنّها تُكسب سامعها يقينا بباطل ما عليه عبدة الأصنام وبخيبة ما أمّلوه فيها من الشفاعة في الدنيا، وإنّ سابق شقائهم في الدنيا بعذاب الاستئصال يؤذن بسوء حالهم في الآخرة، ففُرّع على ذلك نهي السامع أن يشكّ في سوء الشرك وفساده.

{ **فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ** } الخطاب يُقصد به أيّ سامع سواء كان ممّن يُظنّ به أن يشكّ في ذلك أم لا.

<u>ويجوز</u> أن يكون الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم، ويكون مقصودا به مجرّد تحقيق الخبر، فإنّه جرى مجرى المثل في ذلك في كلام العرب مثل كلمة: لا شك، ولا محالة، ولا أعرفنّك، ونحوها.

<u>ويجوز</u> أن يكون تثبيتا للنبيّ صلى الله عليه وسلم على ما يلقاه من قومه من التصلّب في الشرك، أي: لا تكن شاكا في أنّك لقيت من قومك من التكذيب مثل ما لقيته الرسل من أممهم فإنّ هؤلاء ما يعبدون إلّا كما يعبد آباؤهم من قبل متوارثين تلك العبادة عن أسلافهم من الأمم البائدة.

المِرية (بكسر الميم): الشكّ. وأصل المراء: المجادلة والمدافعة مستعار من مَرَيْتُ الشاة إذا استخرجت لبنها. ومنه قولهم: لا يُجارى ولا يُمارى. وفي القرآن { أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى } [النجم:12]. وتقدّم **الامتراء** عند قوله تعالى { ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ } [الأنعام:2].

{ **مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ** } الإشارة إلى مشركي قريش. وقد تتبعت اصطلاح القرآن فوجدته عناهم باسم الإشارة هذا في نحو أحد عشر موضعا وهو ممّا أُلهمت إليه ونبّهت عليه عند قوله تعالى { وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً } [النساء:41].

{ **مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ** } مستأنفة تعليلا لانتفاء الشك في عاقبة أمرهم في الدنيا.

ووجه كونه علّة أنّه لمّا كان دينهم عين دين من كان قبلهم من آبائهم، وقد بلغكم ما فعل الله بهم عقابا على

دينهم، فأنتم توقنون بأنّ جزاءهم سيكون مماثلا لجزاء أسلافهم، لأنّ حكمة الله تقتضي المساواة في الجزاء على الأعمال المتماثلة.

الآباء: أطلق على الأسلاف، وهم عاد وثمود. وذلك أنّ العرب العدنانيين كانت أمّهم جرهميّة، وهي امرأة إسماعيل، وجرهم من إخوة ثمود، وثمود إخوة لعاد، ولأنّ قريشا كانت أمّهم خزاعية وهي زوج قصي. وعبادة الأصنام في العرب أتاهم بها عمرو بن لُحيى، وهو جدّ خزاعة.

وعُبّر عن عبادة الآباء بالمضارع للدلالة على استمرارهم على تلك العبادة، أي: إلّا كما اعتاد آباؤهم.

{ **وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ** } المعنى: وإنّا لموفوهم نصيبهم من العذاب كما وفّينا أسلافهم.

التوفية: إكمال الشيء غير منقوص.

النصيب: أصله الحظّ. وقد استُعمل { لَمُوَفُّوهُمْ } و { نَصِيبَهُمْ } هنا استعمالا تهكّميا كأنّ لهم عطاء يسألونه فوُفّوه، فوقع قوله تعالى { غَيْرَ مَنْقُوصٍ } حالا مؤكدة لتحقيق التوفية زيادة في التهكّم.

والمراد نصيبهم من عذاب الآخرة، فإنّ الله لم يستأصلهم كما استأصل الأمم السابقة ببركة النبيّ صلى الله عليه وسلم إذ قال: **" لعل الله أن يُخرج من أصلابهم من يعبده "**.

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ } [110].

{ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ** } اعتراض لتثبيت النبيّ صلى الله عليه وسلم وتسليته بأنّ أهل الكتاب، وهم أحسن حالا من أهل الشرك، قد أوتوا الكتاب فاختلفوا فيه، وهم أهل ملّة واحدة فلا تأس من اختلاف قومك عليك.

{ **فَاخْتُلِفَ فِيهِ** } أي: في التوراة. وبني الفعل للمجهول إذ الغرض لم يكن متعلّقا ببيان المختلفين ولا بذمّهم، بل كان للتحذير من الوقوع في مثله. ومعنى الاختلاف فيه اختلاف أهل التوراة في تقرير بعضها وإبطال بعض، وفي إظهار بعضها وإخفاء بعض مثل حكم الرجم، وفي تأويل البعض على هواهم، وفي إلحاق أشياء بالكتاب على أنّها منه. فهذا من شأنه أن يقع من بعضهم لا من جميعهم فيقتضي الاختلاف بينهم بين مثبت وناف. وهذا الاختلاف بأنواعه وأحواله يرجع إلى الاختلاف في شيء من الكتاب.

فجُمعت هذه المعاني جمعا بديعا في تعدية الاختلاف بحرف (في) الدالة على الظرفية المجازية وهي كالملابسة، أي: فاختُلف اختلافا يلابسه، أي: يلابس الكتاب.

{ **وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ** } أي: ولولا ما سبق من حكمة الله أن يؤخّر عنهم العذاب لقُضي بينهم، أي: لقضى الله بينهم، فأهلك المشركين والمخالفين ونصر المؤمنين.

أي: فعليكم بالحذر من الاختلاف في كتابكم فإنّكم إن اختلفتم بقيتم في شك ولحقكم جزاء أعمالكم.

{ **كَلِمَةٌ** } هي إرادة الله الأزليّة وسنّته في خلقه. وهي أنّه وكّل النّاس إلى إرشاد الرّسل للدعوة إلى الله،

وإلى النظر في الآيات، ثمّ إلى بذل الاجتهاد التام في إصابة الحقّ، والسعي إلى الاتفاق ونبذ الخلاف بصرف الأفهام السديدة إلى المعاني، وبالمراجعة فيما بينهم، والتبصّر في الحق، والإنصاف في الجدل والاستدلال، وأن يجعلوا الحق غايتهم والاجتهاد دأبهم.

{ **سَبَقَتْ** } وصْف { كَلِمَةٌ } بالسبق لأنّها أزليّة، باعتبار تعلّق العلم بوقوعها، وبأنّها ترجع إلى سنة كلّيّة تقرّرت من قبل.

{ **لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ** } قضاء استئصال المُبْطل واستبقاء المُحقّ، كما قضى الله بين الرّسل والمكذّبين، ولكن إرادة الله اقتضت خلاف ذلك بالنسبة إلى فهم الأمّة كتابها.

{ **وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ** } أي: أنّ المشركين لفي شك من توفية نصيبيهم لأنّهم لا يؤمنون بالبعث.

ويجوز أن تكون عطفا على جملة { فَاخْتُلِفَ فِيهِ }، أي: فاختلف فيه أهل الكتاب، أي: اختلف أهل الكتاب في كتابهم وإنّهم لفي شك.

{ **مِنْهُ** } يجوز أن يعود الضمير إلى التوراة. ويجوز أن يكون الضمير عائدا إلى القرآن.

المريب: المُوقِع في الشكّ.

{ وَإِنَّ كُلاًّ لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } [111].

تذييل للأخبار السابقة، والواو اعتراضية. أي: كلّ المذكورين آنفا من أهل القرى، ومن المشركين المعرّض بهم، ومن المختلفين في الكتاب من أتباع موسى عليه السلام.

{ **كُلاًّ** } الكثرة هنا كناية عن عدم إفلات فريق من المختلفين في الكتاب من إلحاق الجزاء عن عمله به.

المعنى: وإن جميعهم للاقون جزاء أعمالهم لا يُفلت منهم أحد، وإنّ توفية الله إيّاهم أعمالهم حقّقه الله ولم يسامح فيه. فهذا التخريج هو أولى الوجوه التي خرجت عليها هذه القراءة وهو مروي عن الفرّاء وتبعه المهدوي ونصر الشيرازي النحوي، ومشى عليه البيضاوي.

وتوفية أعمالهم بمعنى: توفية جزاء الأعمال، أي: إعطاء الجزاء وافيا من الخير على عمل الخير ومن السوء على عمل السوء.

{ **إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** } استئناف وتعليل للتوفية لأنّ إحاطة العلم بأعمالهم مع إرادة جزائهم توجب أن يكون الجزاء مطابقا للعمل تمام المطابقة، وذلك محقّق التوفية.

{ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } [112].

{ **فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ** } ترتّب عن التسلية التي تضمّنها قوله تعالى { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ } [110]، وعن التثبيت المفاد بقوله تعالى { فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ } [109] الحضّ على الدوام على التمسّك بالإسلام على وجه قويم، وعُبّر عن ذلك بالاستقامة لإفادة الدوام

على العمل بتعاليم الإسلام، دواما جِماعهُ الاستقامة عليه والحذر من تغييره.

ولمّا كان الاختلاف في كتاب موسى عليه السلام إنما جاء من أهل الكتاب عُطف على أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بالاستقامة على كتابه أمر المؤمنين بتلك الاستقامة أيضا، لأنّ الاعوجاج من دواعي الاختلاف في الكتاب بنهوض فرق من الأمّة إلى تبديله لمجاراة أهوائهم، ولأنّ مخالفة الأمّة عمدا أحكام كتابها إن هو إلّا ضرب من ضروب الاختلاف فيه، لأنّه اختلافها على أحكامه. وفي الحديث: " **فإنّما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم** "، فلا جرم أن كانت الاستقامة حائلا دون ذلك، إذ الاستقامة هي العمل بكمال الشريعة بحيث لا ينحرف عنها قيد شبر. ومتعلّقها العمل بالشريعة بعد الإيمان لأنّ الإيمان أصل فلا تتعلق به الاستقامة. وقد أشار إلى صحّة هذا المعنى قول النبيّ صلى الله عليه وسلم لأبي عمرة الثقفي لمّا قال له: " يا رسول الله قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك. قال: **قل آمنت بالله ثم استقم** ". فجعل الاستقامة شيئا بعد الإيمان.

ووُجِّه الأمر إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم تنويها ليُبنى عليه قوله تعالى { كَمَا أُمِرْتَ } فيشير إلى أنّه المتلقّي للأوامر الشرعية ابتداء. وهذا تنويه له بمقام رسالته، ثم أُعلم بخطاب أمته بذلك بقوله { وَمَنْ تَابَ مَعَكَ }، وهم المؤمنون، لأن الإيمان توبة من الشرك.

قال ابن عباس: " ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم آية هي أشد ولا أشق من هذه الآية عليه. ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له: لقد أسرع إليك الشيب: " **شيبتي هود وأخواتها** ".

وسُئل عمّا في هود فقال: قوله { فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ }.

{ **وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** } الخطاب موجّه إلى المؤمنين.

الطغيان: أصله التعاظم والجراءة وقلّة الاكتراث، وتقدّم في قوله تعالى { وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } [البقرة:15]. والمراد هنا الجراءة على مخالفة ما أُمروا به. فنهى الله المسلمين عن مخالفة أحكام كتابه. وقد شمل الطغيان أصول المفاسد، فكانت الآية جامعة لإقامة المصالح ودرء المفاسد، فكان النهي عنه جامعا لأحوال مصادر الفساد من نفس المفسِد وبقي ما يُخشى عليه من عدوى فساد خليطه فهو المنهى عنه بقوله تعالى بعد هذا { وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ } [113].

وعن الحسن البصري: جعل الله الدين بين لاءين { وَلا تَطْغَوْا } { وَلا تَرْكَنُوا }.

{ **إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** } استئناف لتحذير من أخفى الطغيان بأنّ الله مطّلع على كل عمل يعمله المسلمون، ولذلك اختير وصف { بَصِيرٌ } من بين بقية الأسماء الحسنى لدلالة مادته على العلم البيّن ودلالة صيغته على قوته.

{ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ} [113].

الركون: الميل والموافقة. ولعلّه مشتق من الرُكْن (بضم فسكون) وهو الجنب، لأنّ المائل يدني جنبه إلى الشيء الممال إليه. وهو هنا مستعار للموافق، فبعد أن نهاهم عن الطغيان نهاهم عن التقارب من المشركين لئلا يُضلّوهم ويُزلّوهم عن الإسلام.

{ **الَّذِينَ ظَلَمُوا** } هم المشركون. وهذه الآية أصل في سد ذرائع الفساد المحقّقة أو المظنونة.

المسّ: مستعمل في الإصابة. والمراد: نار العذاب في جهنّم.

{ **وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ** } حال، أي: لا تجدون من يسعى لما ينفعكم.

{ **ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ** } للتراخي الرتبي، أي: ولا تجدون من ينصركم، أي: من يخفّف عنكم مسّ عذاب النّار أو يخرجكم منها.

{ **وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ** } [114].

انتُقل من خطاب المؤمنين إلى خطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم، وهذا الخطاب يتناول جميع الأمّة بقرينة أنّ المأمور به من الواجبات على جميع المسلمين، لا سيما وقد ذُكر معه ما يناسب الأوقات المعيّنة للصلوات الخمس، وذلك ما اقتضاه حديث أبي اليسر الآتي.

طرف الشيء: منتهاه من أوله أو من آخره، فالتثنية صريحة في أن المراد أوّل النهار وآخره.

{ **النَّهَارِ** } ما بين الفجر إلى غروب الشمس، سُمّي نهارا لأنّ الضياء ينهر فيه، أي: يبرز كما يبرز النهر.

والأمر بالإقامة يؤذن بأنّه عمل واجب لأنّ **الإقامة**: إيقاع العمل على ما يستحقّه، فتقتضي أنّ المراد بالصلاة هنا الصلاة المفروضة، فالطرفان ظرفان لإقامة الصلاة المفروضة، فعلم أنّ المأمور إيقاع صلاة في أوّل النّهار وهي الصبح وصلاة في آخره وهي العصر، وقيل: المغرب.

{ **زُلَفاً** } جمع زُلْفة مثل غرفة وغرف، وهي الساعة القريبة من أختها، فعلم أنّ المأمور إيقاع الصلاة في زلف من الليل، ولمّا لم تعيّن الصلوات المأمور بإقامتها في هذه المدة من الزمان كان ذلك مجملا فبيّنته السنّة والعمل المتواتر بخمس صلوات هي الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء، وكان ذلك بيانا لآيات كثيرة في القرآن كانت مجملة في تعيين أوقات الصلوات مثل قوله تعالى { أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً } [الإسراء:78].

والمقصود أن تكون الصلاة أوّل أعمال المسلم إذا أصبح وهي صلاة الصبح وآخر أعماله إذا أمسى وهي

صلاة العشاء لتكون السيّئات الحاصلة فيما بين ذلك ممحوّة بالحسنات الحافة بها. وهذا مشير إلى حكمة كراهة الحديث بعد صلاة العشاء.

وقد ثبت وجوبهما بأدلة أخر وليس في هذه الآية ما يقتضي حصر الوجوب في المذكور فيها.

{ **إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ** } مسوقة مساق التعليل للأمر بإقامة الصلوات.

وتأكيد الجملة بحرف { **إِنَّ** } للاهتمام وتحقيق الخبر.

إذهاب السيئات: يشمل إذهاب وقوعها بأن يصير انسياق النفس إلى ترك السيّئات سهلا وهيّنا. ويشمل أيضا محو إثمها إذا وقعت، ويكون هذا من خصائص الحسنات كلّها فضلا من الله على عباده الصالحين.

{ **السَّيِّئَاتِ** } محمل السيئات هنا على السيّئات الصغائر التي هي من اللمم حملا لمطلق هذه الآية على مقيّد آية { الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ } [النجم:32]، وقوله تعالى { إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ } [النساء:31]، فيحصل من مجموع الآيات أنّ اجتناب الفواحش جعله الله سببا لغفران الصغائر أو أنّ الإتيان بالحسنات يذهب أثر السيّئات الصغائر، وقد تقدّم ذلك عند قوله تعالى { إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ } [النساء:31].

روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: " أنّ رجلا أصاب من امرأة قبلة حرام فأتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك فأنزلت عليه { وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ } . فقال الرجل: ألي هذه؟ قال: **لمن عمل بها من أمّتي** ".

والظاهر أنّ المروي في هذه الآية هو الذي حمل ابن عباس وقتادة على القول بأنّ هذه الآية مدنية دون بقية هذه السورة لأنّه وقع عند البخاري والترمذي قوله: " فأنزلت عليه " فإن كان كذلك كما ذكره الراوي فهذه الآية ألحقت بهذه السورة في هذا المكان لمناسبة وقوع قوله تعالى { فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ } [112] قبلها، وقوله تعالى { وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } [115] بعدها.

وأما الذين رجّحوا أن السورة كلّها مكّية فقالوا: إن الآية نزلت في الأمر بإقامة الصلوات وإن النبيّ صلى الله عليه وسلم أخبر بها الذي سأله عن القبلة الحرام وقد جاء تائبا. ويؤيد ذلك ما في رواية الترمذي عن علقمة والأسود عن ابن مسعود قوله: فتلا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم { وَأَقِمِ الصَّلاةَ }، ولم يقولا: فأنزل عليه.

{ **ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ** } أي: تذكرة للذي شأنه أن يذّكر ولم يكن شأنه الإعراض عن طلب الرشد والخير.

{ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } [115].

سيقت مساق التثبيت من جرّاء تأخير عقاب الذين كذبوا. ومناسبة وقوع الأمر بالصبر عقب الأمر بالاستقامة والنهي عن الركون إلى الذين ظلموا، أنّ المأمورات لا تخلو عن مشقّة عظيمة ومخالفة لهوى كثير من النفوس، فناسب أن يكون الأمر بالصبر بعد ذلك ليكون الصبر على الجميع كلّ بما يناسبه.

وتوجيه الخطاب إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم تنويه به، والمقصود هو وأمته.
وسُمّي الثواب أجرا لوقوعه جزاء على الأعمال وموعودا به فأشبه الأجر.

{ فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ } [116].

هذا قوي الاتصال بقوله تعالى { وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ } [102]، فيجوز أن يكون تفريعا عليه ويكون ما بينهما اعتراضا دعا إليه الانتقال الاستطرادي في معان متماسكة. والمعنى: فهلّا كان في تلك الأمم أصحاب بقيّة من خير فنهوا قومهم عن الفساد لما حلّ بهم ما حلّ. وذلك إرشاد إلى وجوب النهي عن المنكر.

ويجوز أن يكون تفريعا على قوله تعالى { فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ } [112] والآية تفريع على الأمر بالاستقامة والنهي عن الطغيان وعن الركون إلى الذين ظلموا، إذ المعنى: ولا تكونوا كالأمم من قبلكم إذ عدموا من ينهاهم عن الفساد في الأرض وينهاهم عن تكذيب الرّسل فأسرفوا في غلوائهم حتّى حلّ عليهم غضب الله إلّا قليلا منهم، فإن تركتم ما أُمرتم به كان حالكم كحالهم. ولأجل هذا المعنى أُتي بفاء التفريع.
أي: فاحذروا أن تكونوا كما كانوا فيصيبكم ما أصابهم، وكونوا مستقيمين ولا تطغوا ولا تركنوا إلى الظالمين وأقيموا الصلاة.

غُيّر نظم الكلام إلى هذا الأسلوب الذي في الآية لتفنّن فوائده ودقائقه واستقلال أغراضه مع كونها آيلة إلى غرض يعمّمها. وهذا من أبدع أساليب الإعجاز الذي هو كرد العجز على الصدر من غير تكلف ولا ظهور قصد.

ويقرب من هذا المعنى قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم ".**

لَوْلا: حرف تحضيض بمعنى (هلّا). وتحضيض الفائت لا يُقصد منه إلّا تحذير غيره من أن يقع فيما وقعوا فيه والعبرة بما أصابهم.

القرون: الأمم. وتقدّم في [الأنعام:6].

البقية: الفضل والخير. وأطلق على الفضل البقيّة كناية غلبت فسارت مسرى الأمثال، لأنّ شأن الشيء النفيس أنّ صاحبه لا يفرّط فيه. و**بقيّة النّاس**: سادتهم وأهل الفضل منهم.

المعنى هنا: أولو فضل ودين وعلم بالشريعة. فليس المراد الرّسل ولكن أريد أتباع الرّسل وحملة الشرائع ينهون قومهم عن الفساد في الأرض.

الفساد: المعاصي واختلال الأحوال.

وفي هذا تنويه بأصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم فإنّهم أولو بقيّة من قريش يدعونهم إلى الإيمان حتّى آمن كلّهم، وأولو بقية بين غيرهم من الأمم الذين اختلطوا بهم يدعونهم إلى الإيمان والاستقامة بعد الدخول فيه ويعلّمونهم الدين، كما قال تعالى فيهم { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [آل عمران:110].

{ **إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ** } استثناء منقطع من { أُولُو بَقِيَّةٍ }، وهو في معنى الاستدراك لأنّ معنى التحضيض متوجِّه إلى القرون الذين لم يكن فيهم أولو بقية فهم الذين يُنعى عليهم فقدان ذلك الصنف منهم. وهؤلاء القرون ليس منهم من يُستثنى إذ كلّهم غير ناجين من عواقب الفساد، ولكن لمّا كان معنى التحضيض قد يوهم أن جميع القرون التي كانت قبل المسلمين قد عدموا أولي بقيّة مع أنّ بعض القرون فيهم أولو بقيّة كان الموقع للاستدراك لرفع هذا الإيهام، فصار المستثنى غير داخل في المذكور من قبل، فلذلك كان منقطعا، وعلامة انقطاعه انتصابه لأنّ نصب المستثنى بعد النفي إذا كان المستثنى منه غير منصوب أمارة على اعتبار الانقطاع إذ هو الأفصح. وهل يجيء أفصح كلام إلّا على أفصح إعراب، ولو كان معتبرا اتصاله لجاء مرفوعا على البدلية من المذكور قبله.

(من) بيان للقليل، لأنّ الذين أنجاهم الله من القرون هم القليل الذين ينهون عن الفساد، وهم أتباع الرسل. وفي البيان إشارة إلى أنّ نهيهم عن الفساد هو سبب إنجاء تلك القرون لأنّ النهي سبب السبب، إذ النهي يُسبّب الإقلاع عن المعاصي الذي هو سبب النجاة.

{ **وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ** } تصريح بمفهوم الاستثناء وتبيين لإجماله. والمعنى: وأكثرهم لم ينهوا عن الفساد ولم ينتهوا هم ولا قومهم واتّبعوا ما أترفوا فيه، تفصيلا لمفهوم الاستثناء.

واتباع ما أترفوا فيه: هو الانقطاع له والإقبال عليه إقبال المتّبع على متبوعه.

أترفوا: أُعطوا الترف، وهو السعة والنعيم الذي سهّله الله لهم فالله هو الذي أترفهم فلم يشكروه.

وفي الآية عبرة وموعظة للعصاة من المسلمين لأنّهم لا يخلون من ظلم أنفسهم.

{ **وَكَانُوا مُجْرِمِينَ** } أي: في اتباع الترف فلم يكونوا شاكرين. وفي الكلام إيجاز حذف آخر. والتقدير: فحقّ عليهم هلاك المجرمين.

{ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ } [117].

عطف على { وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ } [116]، لِما يؤذن به مضمون الجملة المعطوف عليها من تعرّض المجرمين لحلول العقاب بهم بناء على وصفهم بالظلم والإجرام، فعُقّب ذلك بأنّ نزول العذاب ممّن نزل به منهم لم يكن ظلما من الله تعالى ولكنّهم جرّوا لأنفسهم الهلاك بما أفسدوا في الأرض، والله لا يحب الفساد.

{ **الْقُرَى** } أهلها، على طريقة المجاز المرسل كقوله تعالى { وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ } [يوسف:82].
{ **وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ** } حال من { الْقُرَى }، فالله تعالى لا يهلك قوما ظالما لهم ولكن يهلك قوما ظالمين.

{ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ [118] إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ [119] }.

لمّا كان النعي على الأمم الذين لم يقع فيهم من ينهون عن الفساد فاتّبعوا الإجرام، وكان الإخبار عن إهلاكهم بأنّه ليس ظلما من الله وأنّهم لو كانوا مصلحين لما أُهلكوا، لمّا كان ذلك كلّه قد يثير توهّم أنّ تعاصي الأمم عمّا أراد الله منهم خروج عن قبضة القدرة الإلهية أُعقِب ذلك بما يرفع هذا التوهّم بأنّ الله قادر أن يجعلهم أمّة واحدة متّفقة على الحقّ مستمرّة عليه كما أمرهم أن يكونوا، ولكن الحكمة التي أقيم عليها نظام هذا العالم اقتضت أن يكون نظام عقول البشر قابلا للتطوّح بهم في مسلك الضلالة أو في مسلك الهدى على مبلغ استقامة التفكير والنظر، والسلامة من حُجُب الضلالة، وأنّ الله تعالى لمّا خلق العقول صالحة لذلك جعل منها قبول الحقّ بحسب الفطرة التي هي سلامة العقول من عوارض الجهالة والضلال وهي الفطرة الكاملة المشار إليها بقوله تعالى { كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً }، وتقدّم الكلام عليها في سورة البقرة [213]. لذا لم يدَّخرهم إرشادا أو نصحا بواسطة الرسل ودعاة الخير وملقّنيه من أتباع الرسل، وهم أولو البقية الذين ينهون عن الفساد في الأرض، فمن النّاس مهتد وكثير منهم فاسقون. ولو شاء لخلق العقول البشرية على إلهام متّحد لا تعدوه، كما خلق إدراك الحيوانات العجم على نظام لا تتخطّاه من أوّل النشأة إلى انقضاء العالم.

فلا شك أنّ حكمة الله اقتضت هذا النظام في العقل الإنساني لأنّ ذلك أوفى بإقامة مراد الله تعالى من مساعي البشر في هذه الحياة الدنيا الزائلة المخلوطة، لينتقلوا منها إلى عالم الحياة الأبديّة الخالصة إن خيرا فخير وإن شرّا فشر.

الأمّة: الطائفة من النّاس الذين اتّحدوا في أمر من عظائم أمور الحياة كالموطن واللغة والنسب والدين. فتفسَّر الأمّة في كل مقام بما تدلّ عليه إضافتها إلى شيء من أسباب تكوينها، كما يقال: الأمّة الإسلامية.

{ **وَاحِدَةً** } أي: أن يكون البشر كلّهم متّفقين على اتّباع دين الحقّ كما يدل عليه السياق.

فآل المعنى إلى: لو شاء ربك لجعل النّاس أهل ملّة واحدة فكانوا أمّة واحدة من حيث الدين الخالص.

{ **وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ** } عُقّب العموم باستثناء من ثبتوا على الدين الحقّ ولم يخالفوه، أي: فعصمهم من الاختلاف.

وفُهم من هذا أن الاختلاف المذموم المحذّر منه هو الاختلاف في أصول الدين الذي يترتّب عليه اعتبار المخالف خارجا عن الدين وإن كان يزعم أنه من متَّبعيه، فإذا طرأ هذا الاختلاف وجب على الأمة قصمه وبذل الوسع في إزالته من بينهم بكل وسيلة من وسائل الحق والعدل بالإرشاد والمجادلة الحسنة

والمناظرة، فإن لم ينجع ذلك فبالقتال. وهذه الآية تحذير شديد من ذلك الاختلاف.

{ **وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ** } تأكيد لمضمون { وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ }. واللام للتعليل لأنّه لمّا خلقهم على جبلّة قاضية باختلاف الآراء والنزعات وكان مريدا لمقتضى تلك الجبلّة وعالما به كما بيّنّاه آنفا، كان الاختلاف علّة غائية لخلقهم، والعلة الغائية لا يلزمها القصر عليها بل يكفي أنّها غاية الفعل، وقد تكون معها غايات كثيرة أخرى فلا ينافي ما هنا قوله تعالى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } [الذاريات:56]، لأنّ القصر هنالك إضافي، أي: إلّا بحالة أن يعبدوني لا يشركوا، والقصر الإضافي لا ينافي وجود أحوال أخرى غير ما قُصد الرد عليه بالقصر، كما هو بيّن لمن مارس أساليب البلاغة العربية.

{ **وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ** } تمام كلمة الرب مجاز في الصدق والتحقّق، كما تقدّم عند قوله تعالى { وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً } [الأنعام:115]، فالمختلفون هم نصيب جهنّم.

كلمة الله: تقديره وإرادته. أطلق عليها { كَلِمَةُ } مجازا لأنّها سبب في صدور كلمة (كن) وهي أمر التكوين. ويجوز أن تكون الكلمة كلاما خاطب به الملائكة قبل خلق النّاس.

{ **لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ** } تفسير للكلمة.

{ **مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ** } تبعيض، أي: لأملأن جهنم من الفريقين. و{ أَجْمَعِينَ } تأكيد لشمول تثنية كلا النوعين لا لشمول جميع الأفراد لمنافاته لمعنى التبعيض الذي أفادته { مِنَ }.

{ وَكُلّاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ } [120].

هذا تذييل وحوصلة لما تقدّم من أنباء القرى وأنباء الرسل. وهذا تهيئة لاختتام السورة وفذلكة لما سيق فيها من القصص والمواعظ.

القصص: يأتي بيانه عند قوله تعالى { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ } [يوسف:3].

التثبيت: حقيقته التسكين في المكان بحيث ينتفي الاضطراب والتزلزل. مستعار للتقرير.

الفؤاد: أطلق على الإدراك كما هو الشائع في كلام العرب.

وتثبيت فؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم زيادة يقينه ومعلوماته بما وعده الله لأنّ كلّ ما يعاد ذكره من قصص الأنبياء وأحوال أممهم معهم يزيده تذكّرا وعلما بأنّ حاله جار على سنن الأنبياء، وتجدّد تسلية على ما يلقاه من قومه من التكذيب وذلك يزيده صبرا، والصبر تثبيت الفؤاد.

وأنّ تماثل أحوال الأمم تلقاء دعوة أنبيائها مع اختلاف العصور يزيده علما بأنّ مراتب العقول البشرية متفاوتة، وأن قبول الهدي هو منتهى ارتقاء العقل، فيعلم أنّ الاختلاف شنشنة قديمة في البشر، وأنّ المصارعة بين الحق والباطل شأن قديم، وهي من النواميس التي جُبل عليها النظام البشري، فلا يُحزنه

مخالفة قومه عليه، ويزيده علما بسموّ أتباعه الذين قبلوا هداه، واعتصموا من دينه بعراه.

{ **فِي هَذِهِ** } الإشارة إلى السورة، وروي عن ابن عباس، فيقتضي أنّ هذه السورة كانت أوفى بأنباء الرسل من السور النازلة قبلها وبهذا يجري على قول من يقول: إنها نزلت قبل سورة يونس.

والأظهر أن تكون الإشارة إلى الآيات التي قبلها وهي { فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ- إلى قوله - مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } [116-119]. فتكون هذه الآيات الثلاث أوّل ما نزل في شأن النهي عن المنكر. على أن قوله تعالى { وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ } ليس صريحا في أنّه لم يجيء مثله قبل هذه الآيات، فتأمّل.

الموعظة: اسم مصدر الوعظ، وهو التذكير بما يصد المرء عن عمل مضرّ.

الذكرى: مجرّد التذكير بما ينفع. فهذه موعظة للمسلمين ليحذروا ذلك، وتذكيرا بأحوال الأمم ليقيسوا عليها ويتبصّروا في أحوالها. وتنكير { مَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى } للتعظيم.

{ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ [121] وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ [122] }.

أمر بأن يخاطب الذين لا يؤمنون بما فيها خطاب الآيس من انتفاعهم بالذكرى الذي لا يعبأ بإعراضهم ولا يصدّه عن دعوته إلى الحقّ تألّبهم على باطلهم ومقاومتهم الحقّ. وهذا القول مأمور أن يقوله على لسانه ولسان المؤمنين.

{ **اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ** } هو نظير ما حكي عن شعيب عليه السلام في هذه السورة آنفا.

{ **إِنَّا عَامِلُونَ / إِنَّا مُنْتَظِرُونَ** } الضمائر للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين الذين معه.

وفي أمر الله رسولَه بأن يقول ذلك على لسان المؤمنين شهادة من الله بصدق إيمانهم. وفيه التفويض إلى رأس الأمّة بأن يقطع أمرا عن أمّته ثقة بأنّهم لا يردّون فعله.

{ **وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ** } تهديد ووعيد.

{ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } [123].

كلام جامع وهو للسورة مؤذن بختامها، فهو من براعة المقطع. والواو عاطفة كلاما على كلام، أو واو الاعتراض في آخر الكلام ومثله كثير.

{ **لِلَّهِ** } اللام للملك وهو ملك إحاطة العلم، أي: لله ما غاب عن علم الناس في السماوات والأرض.

وهذا كلام يجمع بشارة المؤمنين بما وُعدوا من النعيم المغيَّب عنهم، ونذارة المشركين بما تُوعّدوا به من العذاب.

وتقديم المجرورين لإفادة الاختصاص، أي: الله لا غيره يملك غيب السماوات والأرض، لأنّ ذلك ممّا لا يشاركه فيه أحد. وإلى الله لا إلى غيره يرجع الأمر كلّه، وهو تعريض بفساد آراء الذين عبدوا غيره، لأنّ من لم يكن كذلك لا يستحق أن يُعبد، ومن كان كذلك كان حقيقا بأن يُفرد بالعبادة.

{ **وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ** } أي: أنّ أمر التدبير والنصر والخذلان وغير ذلك يرجع إلى الله، أي: إلى علمه وقدرته.

{ **فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ** } لأن الله هو الحقيق بأن يُعبد وأن يُتوكّل عليه في كل مهم. وهو تعريض بالتخطئة للذين عبدوا غيره وتوكّلوا على شفاعة الآلهة ونفعها. ويتضمّن أمر النبيّ عليه الصلاة والسلام بالدوام على العبادة والتوكّل.

{ **وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** } فذلكة جامعة، فهو تذييل لما تقدّم. فإنّ عدم غفلته عن أيّ عمل أنّه يعطي كلّ عامل جزاء عمله. ولذلك عُلّق وصف الغافل بالعمل ولم يعلّق بالذوات نحو: بغافل عنكم، إيماء إلى أن على العمل جزاء.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة يوسف

الاسم الوحيد لهذه السورة اسم (**سورة يوسف**)، فقد ذكر ابن حجر في كتاب (الإصابة) في ترجمة رافع بن مالك الزرقي عن ابن إسحاق أنّ أبا رافع بن مالك أوّل من قدم المدينة بسورة يوسف، يعني بعد أن بايع النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم العقبة.

ووجه تسميتها ظاهر لأنّها قصّت قصّة يوسف عليه السلام كلّها، ولم تُذكر قصته في غيرها. ولم يذكر اسمه في غيرها إلّا في [الأنعام:84] و[غافر:34].

وهي مكّيّة على القول الذي لا ينبغي الالتفات إلى غيره. نزلت بعد سورة هود، وقبل سورة الحجر.

وهي السورة **الثالثة والخمسون** في ترتيب نزول السور على قول الجمهور.

ولم تذكر قصة نبي في القرآن بمثل ما ذكرت قصة يوسف عليه السلام في هذه السورة من الإطناب.

وعدد آيها **مائة وإحدى عشرة آية** باتفاق أصحاب العدد في الأمصار.

سبب نزولها

روى الواحدي والطبري، يزيد أحدهما على الآخر، عن سعد بن أبي وقاص أنّه قال: أنزل القرآن فتلاه رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه زمانا، فقالوا (أي: المسلمون بمكة) : يا رسول الله لو قصصت علينا، فأنزل الله { الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } [2/1].

أغراض السورة

*/ بيان قصة يوسف عليه السلام مع إخوته، وما لقيه في حياته، وما في ذلك من العبر من نواح مختلفة.

*/ فيها إثبات أنّ بعض المرائي قد يكون إنباء بأمر مغيب، وذلك من أصول النبوءات.

*/ أنّ تعبير الرؤيا علم يهبه الله لمن يشاء من صالحي عباده.

*/ تحاسد القرابة بينهم.

*/ لطف الله بمن يصطفيه من عباده.

*/ العبرة بحسن العواقب، والوفاء، والأمانة، والصدق، والتوبة.

*/ سكنى إسرائيل وبنيه بأرض مصر.

*/ تسلية النبيّ صلى الله عليه وسلم بما لقيه يعقوب ويوسف عليهما السلام من آلهم من الأذى. وقد لقي النبيّ صلى الله عليه وسلم من آله أشدّ ما لقيه من كفّار قومه، مثل عمّه أبي لهب، والنضر بن الحارث، وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وإن كان هذا قد أسلم بعد وحسن إسلامه. فإنّ وقع أذى الأقارب في النفوس أشدّ من وقع أذى البعداء، كما قال طرفة:

وظلم ذوي القربى أشدّ مضاضة ... على المرء من وقع الحسام المهند

*/ العبرة بصبر الأنبياء مثل يعقوب ويوسف عليهم السلام على البلوى. وكيف تكون لهم العاقبة.

*/ فيها من عبر تاريخ الأمم والحضارة القديمة وقوانينها ونظام حكوماتها وعقوباتها وتجارتها.

وإنّ في هذه السورة **أسلوبا خاصا** من أساليب إعجاز القرآن وهو الإعجاز في أسلوب القصص الذي كان خاصة أهل مكّة يعجبون مما يتلقّونه منه من بين أقاصيص العجم والروم، فقد كان النضر بن الحارث وغيره يفتنون قريشا بأنّ ما يقوله القرآن في شأن الأمم هو أساطير الأوّلين اكتتبها محمد صلى الله عليه وسلم.

وكان النضر يتردّد على الحيرة فتعلم أحاديث (رستم) و(اسفنديار) من أبطال فارس، فكان يحدّث قريشا بذلك ويقول لهم: أنا والله أحسن حديثا من محمد فهلّم أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدّثهم بأخبار الفرس، فكان ما في بعضها من التطويل على عادة أهل الأخبار من الفرس يموّه به عليهم بأنّه أشبع للسامع، فجاءت هذه السورة على أسلوب استيعاب القصّة تحدّيا لهم بالمعارضة.

على أنّها مع ذلك قد طوت كثيرا من القصة من كل ما ليس له كبير أثر في العبرة.

{ **ألر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ** } [1].

{ **ألر** } تقدّم الكلام على الحروف المقطّعة في أوّل سورة البقرة.

{ **تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ** } الكلام عليها مضى في سورة يونس.

{ **الْمُبِينِ** } ووصف في طالعة سورة يونس بـ { الْحَكِيمِ } لأنّ ذكر وصف إبانته هنا أنسب، إذ كانت القصّة التي تضمنتها هذه السورة مفصّلة ومبيّنة لأهمّ ما جرى في مدة يوسف عليه السلام بمصر.

فقصّة يوسف عليه السلام لم تكن معروفة للعرب قبل نزول القرآن إجمالا ولا تفصيلا، بخلاف قصص الأنبياء: هود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب عليهم السلام أجمعين إذ كانت معروفة لديهم إجمالا، فلذلك كان القرآن مبيّنا إيّاها ومفصِّلا.

ونزولها قبل اختلاط النبيّ صلى الله عليه وسلم باليهود في المدينة معجزة عظيمة من إعلام الله تعالى إيّاه بعلوم الأوّلين، وبذلك ساوى الصحابة علماء بني إسرائيل في علم تاريخ الأديان والأنبياء وذلك من أهم ما يعلمه المشرِّعون.

المبين: اسم فاعل من أبان المتعدّي. والمراد: الإبانة التامة باللفظ والمعنى.

{ **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** } [2].

استئناف يفيد تعليل الإبانة من جهتي لفظه ومعناه، فإنّ كونه قرآنا يدل على إبانة المعاني، لأنّه ما جُعل مقروءا إلّا لما في تراكيبه من المعاني المفيدة للقارئ.

وكونه عربيا يفيد إبانة ألفاظه المعاني المقصودة للذين خوطبوا به ابتداء، وهم العرب، إذ لم يكونوا يتبيّنون شيئا من الأمم التي حولهم لأنّ كتبهم كانت باللغات غير العربية.

والتأكيد بـ (إن) متوجه إلى خبرها وهو فعل { أَنْزَلْنَاهُ } ردا على الذين أنكروا أن يكون منزّلا من عند الله.

{ **قُرْآناً** } حال، أي: كتابا يُقرأ، أي: منظّما على أسلوب معدّ لأن يقرأ لا كأسلوب الرسائل والخطب أو الأشعار، بل هو أسلوب كتاب نافع نفعا مستمرّا يقرأه النّاس.

{ **عَرَبِيّاً** } صفة، فهو كتاب بالعربية ليس كالكتب السالفة فإنّه لم يسبقه كتاب بلغة العرب.

{ **لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** } تعليل، أي: رجاء حصول العلم لكم من لفظه ومعناه، لأنّكم عرب فنزوله بلغتكم مشتملا على ما فيه نفعكم، وعُبّر عن العلم بالعقل للإشارة إلى أنّ دلالة القرآن على هذا العلم قد بلغت في الوضوح حد أن ينزل من لم يحصل له العلم منها منزلة من لا عقل له، وأنّهم ما داموا معرضين عنه فهم في عداد غير العقلاء.

{ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ} [3].

بدل اشتمال، لأنّ أحسن القصص ممّا يشتمل عليه إنزال القرآن. وكون القصص من عند الله يتنزّل منزلة الاشتمال من جملة تأكيد إنزاله من عند الله.

{ **بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ** } يتضمّن رابطا بين جملة البدل والجملة المبدل منها. وتقديم الضمير على الخبر الفعلي يفيد الاختصاص، أي: نحن نقصّ لا غيرنا، ردّا على من يطعن من المشركين في القرآن.

{ **نَقُصُّ** } نخبر الأخبار السالفة. وهو منقول من قصّ الأثر إذا تتبّع مواقع الأقدام ليتعرّف منتهى سير صاحبها. ومصدره القصّ بالإدغام، والقصص بالفك. قال تعالى { فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً } [الكهف:64]. وذلك أنّ حكاية أخبار الماضين تُشبه اتّباع خطاهم، ألا ترى أنّهم سمّوا الأعمال سيرة وهي في الأصل هيئة السير، وقالوا: سار فلان سيرة فلان، أي: فعل مثل فعله، وقد فرّقوا بين هذا الإطلاق المجازي وبين قصّ الأثر فخصّوا المجازي بالمصدر المفكك وغلّبوا المصدر المدغم على المعنى الحقيقي.

{ **أَحْسَنَ الْقَصَصِ** } جُعل هذا القصص أحسن القصص لأنّه وارد من العليم الحكيم، فهو يوحي ما يعلم أنّه أحسن نفعا للسامعين في أبدع الألفاظ والتراكيب، فيحصل منه غذاء العقل والروح، وابتهاج النفس والذوق ممّا لا تأتي بمثله عقول البشر.

{ **وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ** } في موضع الحال من كاف الخطاب. والضمير في { قَبْلِهِ } عائد إلى القرآن. والمراد: من قبل نزوله بقرينة السياق.

الغفلة: انتفاء العلم لعدم توجّه الذهن إلى المعلوم. والمعنى المقصود من الغفلة ظاهر. ونكتة جعله من الغافلين دون أن يوصف وحده بالغفلة للإشارة إلى تفضيله بالقرآن على كلّ من لم ينتفع بالقرآن فدخل في هذا الفضل أصحابه والمسلمون على تفاوت مراتبهم في العلم.

والمقصود التعريض بالمشركين المعرضين عن هدى القرآن. عن أبي موسى الأشعري قال: قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" مَثَلُ ما بَعَثَنِي اللَّهُ به مِنَ الهُدَى والعِلْمِ، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أصابَ أرْضًا، فَكانَ مِنْها نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ الماءَ، فأنْبَتَتِ الكَلَأَ والعُشْبَ الكَثِيرَ، وكانَتْ مِنْها أجادِبُ، أمْسَكَتِ الماءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بها النَّاسَ، فَشَرِبُوا وسَقَوْا وزَرَعُوا، وأَصابَتْ مِنْها طائِفَةً أُخْرَى، إنَّما هي قِيعانٌ لا تُمْسِكُ ماءً ولا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذلكَ مَثَلُ مَن فَقُهَ في دِينِ اللَّهِ، ونَفَعَهُ ما بَعَثَنِي اللَّهُ به فَعَلِمَ وعَلَّمَ، ومَثَلُ مَن لَمْ يَرْفَعْ بذلكَ رَأْسًا، ولَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الذي أُرْسِلْتُ بِهِ "** [متفق عليه]

{ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ } [4].

يوسف: اسم عبراني تقدّم ذكره عند قوله تعالى { وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ } [الأنعام:83]. وهو يوسف بن يعقوب بن إسحاق من زوجه (راحيل). وهو أحد الأسباط الذين تقدّم ذكرهم في سورة البقرة. وكان يوسف أحب أبناء يعقوب عليهما السلام إليه، وكان ذلك سبب غيرة إخوته منه فكادوا له مكيدة، فسألوا أباهم أن يتركه يخرج معهم. فأخرجوه معهم بعلّة اللعب والتفسّح، وألقوه في جبّ، وأخبروا أباهم أنّهم فقدوه، وأنّهم وجدوا قميصه ملوثا بالدم، وأروه قميصه بعد أن لطّخوه بدم، والتقطه من البئر **سيّارة من العرب الإسماعيليين** كانوا سائرين في طريقهم إلى مصر، وباعوه كرقيق في سوق عاصمة مصر السفلى التي كانت يومئذ في حكم أمّة من الكنعانيين يعرفون بالعمالقة أو (الهكصوص). وذلك في زمن الملك (**أبو فيس**) أو (ابيبي). ويقرب أن يكون ذلك في حدود سنة تسع وعشرين وسبعمائة وألف قبل المسيح عليه السلام (1729 ق م). فاشتراه (**فوطيفار**) رئيس شرطة فرعون الملقب في القرآن **بالعزيز**، أي: رئيس المدينة. وحدثت مكيدة له من زوج سيّده ألقي بسببها في السجن. وبسبب رؤيا رآها الملك وعبّرها يوسف عليه السلام وهو في السجن، قرّبه الملك إليه زلفى، وأولاه على جميع أرض مصر، وهو لقب العزيز وسماه (**صفنات فعنيج**)، وزوّجه (**أسنات**) بنت أحد الكهنة وعمره يومئذ ثلاثون سنة. وفي مدّة حكمه جلب أباه وأقاربه من البرّيّة إلى أرض مصر، فذلك سبب استيطان بني إسرائيل أرض مصر. وتوفي بمصر في حدود سنة خمس وثلاثين وستمائة وألف قبل ميلاد عيسى عليه السلام (1635 ق م). وحنّط على الطريقة المصرية. ووضع في تابوت، وأوصى قبل موته بأنّهم إذا خرجوا من مصر يرفعون جسده معهم. ولمّا خرج بنو إسرائيل من مصر رفعوا تابوت يوسف عليه السلام معهم ونقلوه معهم في رحلتهم إلى أن دفنوه في (شكيم) في مدة يوشع بن نون.

{ **يَا أَبَتِ** } تاء خاصة بكلمة الأب وكلمة الأم في النداء خاصة على نية الإضافة إلى المتكلم، فمفادها: يا أبي، ولا يكاد العرب يقولون: يا أبي. والنداء في الآية مع كون المنادى حاضرا كناية عن الاهتمام أو استعارة له.

الكوكب: النجم، تقدّم عند قوله تعالى { فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً } [الأنعام:76].

{ **رَأَيْتُهُمْ** } مؤكِّدة لجملة { رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً } ، جيء بها على الاستعمال في حكاية المرائي الحلميّة أن يعاد فعل الرؤية تأكيدا لفظيا أو استئنافا بيانيا، كأنّ سامع الرؤيا يستزيد الرائي اخبارا عما رأى.

وفي البخاري عن أبي موسى الاشعري أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: " **رَأَيْتُ في المَنامِ أنّي أُهاجِرُ مِن مَكَّةَ إلى أرْضٍ بها نَخْلٌ، فَذَهَبَ وهَلِي إلى أنَّها اليَمامَةُ أوْ هَجَرُ، فإذا هي المَدِينَةُ يَثْرِبُ، ورَأَيْتُ في رُؤْيايَ هذِه أنِّي هَزَزْتُ سَيْفًا، فانْقَطَعَ صَدْرُهُ فإذا هو ما أُصِيبَ مِنَ المُؤْمِنِينَ يَومَ أُحُدٍ، ثُمَّ هَزَزْتُهُ بأُخْرَى فَعادَ أحْسَنَ ما كانَ فإذا هو ما جاءَ اللَّهُ به مِنَ الفَتْحِ، واجْتِماعِ المُؤْمِنِينَ ورَأَيْتُ فيها بَقَرًا تذبح، واللَّهُ**

خَيْرٌ فإذا هُمُ المُؤْمِنُونَ يَومَ أُحُدٍ، وإذا الخَيْرُ ما جاءَ اللَّهُ به مِنَ الخَيْرِ وثَوابِ الصِّدْقِ، الذي آتانا اللَّهُ بَعْدَ يَومِ بَدْرٍ ".

{ **رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ** } استُعمل ضمير جمع المذكر للكواكب والشمس والقمر لأنّ كون ذلك للعقلاء غالب لا مطّرد، كما قال تعالى في الأصنام { وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ } [الأعراف:198] وقال تعالى { يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا } [النمل:18]. وتقديم المجرور على عامله للاهتمام.

وابتداء قصة يوسف عليه السلام بذكر رؤياه إشارة إلى أنّ الله هيأ نفسه للنبوّة فابتدأه بالرؤيا الصادقة كما جاء في حديث عائشة: " أَوَّلُ ما بُدِئَ به رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ في النَّوْمِ، فَكانَ لا يَرَى رُؤْيَا إلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ..." [البخاري].

فذكر هذه الرؤيا في صدر القصة كالمقدّمة والتمهيد للقصة المقصودة. وجعل الله تلك الرؤيا تنبيها ليوسف عليه السلام بعلو شأنه ليتذكّرها كلّما حلّت به ضائقة فتطمئن بها نفسه أن عاقبته طيبة.

وكانوا يعدّون الرؤيا من طرق الإنباء بالغيب، إذا سلمت من الاختلاط وكان مزاج الرائي غير منحرف ولا مضطرب، وكان الرائي قد اعتاد وقوع تأويل رؤياه، وهو شيء ورثوه من صفاء نفوس أسلافهم إبراهيم وإسحاق عليهما السلام، فقد كانوا آل بيت نبوّة وصفاء سريرة.

في البخاري عن أبي هريرة: " **لَمْ يَبْقَ مِنَ النُّبُوَّةِ إلَّا المُبَشِّراتُ**. قالوا: وما المُبَشِّراتُ؟ قالَ: **الرُّؤْيا الصَّالِحَةُ** ".

والاعتداد بالرؤيا من قديم أمور النبوّة. وقد جاء في التوراة أنّ الله خاطب إبراهيم عليه السلام في رؤيا رآها وبشّره بأنّه يهبه نسلا كثيرا، ويعطيه الأرض التي هو سائر فيها [سفر التكوين، الإصحاح:15].

أمّا العرب فإنّهم وإن لم يرد في كلامهم شيء يفيد اعتدادهم بالأحلام ولكن ذكر ابن إسحاق رؤيا عبد المطلب وهو قائم في الحجر أنّه أتاه آت فأمره بحفر بئر زمزم فوصف له مكانها، وكانت جرهم ردموها عند خروجهم من مكة.

وذكر ابن إسحاق رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب أن: " راكبا أقبل على بعير فوقف بالأبطح ثم صرخ: يا آل غدر اخرجوا إلى مصارعكم في ثلاث "، فكانت وقعة بدر عقبها بثلاث ليال.

والرؤيا الصادقة حالة يكرم الله بها بعض أصفيائه الذين زكت نفوسهم فتتصل نفوسهم بتعلّقات من علم الله وتعلّقات من إرادته وقدرته وأمره التكويني، فتنكشف بها الأشياء المغيّبة بالزمان قبل وقوعها، أو المغيبة بالمكان قبل اطلاع النّاس عليها اطلاعا عاديا. ولذلك قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة** ". [متفق عليه]

مراتب الرؤيا:

<u>منها</u>: أن تُرى صور أفعال تتحقّق أمثالها في الوجود، مثل رؤيا النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّه يهاجر من

مكة إلى أرض ذات نخل، وظنّه أنّ تلك الأرض اليمامة فظهر أنّها المدينة، ولا شكّ أنّه لما رأى المدينة وجدها مطابقة للصورة التي رآها. ومثل رؤياه امرأة في سَرَقَة من حرير فقيل له: اكتشفها فهي زوجك فكشف فإذا هي عائشة، فعلم أن سيتزوجها. وهذا النوع نادر وحالة الكشف فيه قويّة.

ومنها: أن ترى صور تكون رموزا للحقائق التي ستحصل أو التي حصلت في الواقع، وتلك من قبيل مكاشفة النفس للمعاني والمواهي وتشكيل المخيلة تلك الحقائق في أشكال محسوسة هي من مظاهر تلك المعاني، وهو ضرب من ضروب التشبيه والتمثيل الذي تخترعه ألباب الخطباء والشعراء، إلّا أنّ هذا تخترعه الألباب في حالة هدو الدماغ من الشواغل الشاغلة، فيكون أتقن وأصدق. وهذا أكثر أنواع المرائي. ومنه رؤيا النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّه يشرب من قدح لبن رأى الريّ في أظفاره ثم أعطى فضله عمربن الخطاب رضي الله عنه. وتعبيره ذلك بأنّه العلم.

وكذلك رؤيا امرأة سوداء ناشرة شعرها خارجة من المدينة إلى الجُحفة، فعبّرها بالحمّى تنتقل من المدينة إلى الجُحفة.

ورئي عبد الله بن سلام أنّه في روضة، وأنّ فيها عمودا، وأنّ فيه عروة، وأنّه أخذ بتلك العروة فارتقى إلى أعلى العمود، فعبره النبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّه لا يزال آخذا بالإيمان الذي هو العروة الوثقى، وأنّ الروضة هي الجنّة، فقد تطابق التمثيل النومي مع التمثيل المتعارف في قوله تعالى { فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى } [البقرة:256]، وفي قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة "**.

{ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ} [5].

النداء مع حضور المخاطب مستعمل في طلب إحضار الذهن اهتماما بالغرض المخاطب فيه.

{ **بُنَيَّ** } تصغير ابن مع إضافته إلى ياء المتكلّم. وهذا التصغير كناية عن تحبيب وشفقة. نزل الكبير منزلة الصغير لأنّ شأن الصغير أن يُحبّ ويُشفق عليه. وفي ذلك كناية عن إمحاض النصح له.

القصّ: حكاية الرؤيا. يقال: قصّ الرؤيا إذا حكاها وأخبر بها. وهو من القصص كما علمت آنفا.

الرؤيا (بألف التأنيث): رؤية الصور في النوم، فرّقوا بينها وبين رؤية اليقظة باختلاف علامتي التأنيث.

وقد علم يعقوب عليه السلام أنّ إخوة يوسف عليه السلام العشرة كانوا يغارون منه لفرط فضله عليهم خُلقا وخَلقا، وعلم أنّهم يعبرون الرؤيا إجمالا وتفصيلا، وعلم أنّ تلك الرؤيا تؤذن برفعة ينالها يوسف عليه السلام على إخوته الذين هم أحد عشر، فخشي إن قصّها عليهم أن تشتدّ بهم الغيرة إلى حدّ الحسد.

{ **كَيْداً** } إخفاء عمل يضرّ المكيد. وتقدّم عند قوله تعالى { وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ } [الأعراف:183]. والتنوين للتعظيم والتهويل، زيادة في تحذيره من قصّ الرؤيا عليهم.

وقصد يعقوب عليه السلام من ذلك نجاة ابنه من أضرار تلحقه، وليس قصده إبطال ما دلّت عليه الرؤيا فإنّه يقع بعد أضرار ومشاق.

وقول يعقوب عليه السلام هذا لابنه تحذير له مع ثقته بأنّ التحذير لا يثير في نفسه كراهة لإخوته لأنّه وثق منه بكمال العقل، وصفاء السريرة، ومكارم الخلق. ومن كان حاله هكذا كان سمحا، عاذرا، معرضا عن الزلّات، عالما بأثر الصبر في رفعة الشأن.

{ **إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ** } تعليل للنهي عن قصّ الرؤيا على إخوته ليعلم أنّه ما حذَّره إلّا من نزغ الشيطان في نفوس إخوته. وعداوة الشيطان لجنس الإنسان تحمله على أن يدفعهم إلى الإضرار ببعضهم.

وظاهر الآية أنّ يوسف عليه السلام لم يقص رؤياه على إخوته وهو المناسب لكماله الذي يبعثه على طاعة أمر أبيه. ووقع في الإسرائيليات أنّه قصّها عليهم فحسدوه.

{ **وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** } [6].

عطف هذا الكلام على تحذيره من قصّ الرؤيا على إخوته إعلاما له بعلوّ قدره ومستقبل كماله، كي يزيد تملّيا من سموّ الأخلاق فيتسع صدره لاحتمال أذى إخوته، وصفحا عن غيرتهم منه وحسدهم إيّاه، ليتمحضّ تحذيره للصلاح، وتنتفي عنه مفسدة إثارة البغضاء ونحوها، حكمة نبويّة عظيمة وطبّا روحانيّا ناجعا.

{ **كَذَٰلِكَ** } الإشارة إلى ما دلّت عليه الرؤيا من العناية الربّانيّة به، أي: ومثل ذلك الاجتباء يجتبيك ربّك في المستقبل.

الاجتباء: الاختيار والاصطفاء. وتقدّم في قوله تعالى { وَاجْتَبَيْنَاهُمْ } [الأنعام:87]. أي: اختياره من بين إخوته، أو من بين كثير من خلقه. وقد علم يعقوب عليه السلام ذلك بتعبير الرؤيا ودلالتها على رفعة شأنه في المستقبل، فتلك إذا ضُمّت إلى ما هو عليه من الفضائل آلت إلى اجتباء الله إيّاه، وذلك يؤذن بنبوّته. وإنّما علم يعقوب عليه السلام أنّ رفعة يوسف عليه السلام في مستقبله رفعة إلهية لأنّه علم أنّ نعم الله تعالى متناسبة، فلمّا كان ما ابتدأه من النعم اجتباء وكمالا نفسيّا تعيّن أن يكون ما يلحق بها من نوعها. فلذلك علم يعقوب عليه السلام أن الله سيعلّم يوسف عليه السلام من تأويل الأحاديث.

التأويل: إرجاع الشيء إلى حقيقته ودليله. وتقدّم قوله تعالى { وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ } [آل عمران:7].

{ **الْأَحَادِيثِ** } يصحّ أن يكون جمع حديث بمعنى الشيء الحادث، فتأويل الأحاديث: إرجاع الحوادث إلى عللها وأسبابها بإدراك حقائقها على التمام، وهو المعني: بالحكمة.

ويصحّ أن يكون الأحاديث جمع حديث بمعنى الخبر المتحدَّث به، فالتأويل: تعبير الرؤيا. سُمّيت أحاديث لأنّ المَرائي يتحدّث بها الراؤون، وعلى هذا المعنى حملها بعض المفسرين.

ولعلّ كلا المعنيين مراد بناء على صحّة استعمال المشترك في معنييه وهو الأصح. أو يكون اختيار هذا اللفظ إيجازا معجزا، إذ يكون قد حُكي به كلام طويل صدر من يعقوب عليه السلام بلغته يُعبّر عن تأويل الأشياء بجميع تلك المعاني.

{ **وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ** } إتمام النعمة عليه هو إعطاؤه أفضل النعم وهي نعمة النبوّة، أو هو ضميمة الملك إلى النبوّة والرّسالة، فيكون المراد إتمام نعمة الاجتباء الأخروي بنعمة المجد الدنيوي.

{ **وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ** } علم يعقوب عليه السلام ذلك من دلالة الرؤيا على سجود الكواكب والنيّرين له.

فالمراد من آل يعقوب خاصتهم وهم أبناؤه وزوجه (وهي خالة يوسف عليه السلام) .

وإن كان المراد بإتمام النعمة ليوسف عليه السلام إعطاء الملك فإتمامها على آل يعقوب هو أن زادهم على ما أعطاهم من الفضل نعمة قرابة الملك، فيصحّ حينئذ أن يكون المراد من آله جميع قرابته.

{ **كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ** } تذكير له بنعم سابقة، وليس ممّا دلت عليه الرؤيا. ثم إن كان المراد من إتمام النعمة النبوّة فالتشبيه تام، وإن كان المراد من إتمام النعمة الملك فالتشبيه في إتمام النعمة على الإطلاق.

وجعل إبراهيم وإسحاق عليهما السلام أبوين له لأنّ لهما ولادة عليه، فهما أبواه الأعليان بقرينة المقام، كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **أنا ابن عبد المطلب** ".

{ **إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** } تذييل بتمجيد هذه النعم، وأنّها كائنة على وفق علمه وحكمته، فعلمه هو علمه بالنفوس الصالحة لهذه الفضائل لأنّه خلقها لقبول ذلك فعلمه بها سابق، وحكمته وضع النعم في مواضعها المناسبة.

{ **إِنَّ** } للاهتمام لا للتأكيد إذ لا يشك يوسف عليه السلام في علم الله وحكمته. والاهتمام ذريعة إلى إفادة التعليل. والتفريع في ذلك تعريض بالثناء على يوسف عليه السلام وتأهله لمثل تلك الفضائل.

{ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ } [7].

جملة ابتدائية، وهي مبدأ القصص المقصود، إذ كان ما قبله كالمقدّمة له المنبئة بنباهة شأن صاحب القصّة. أي: لقد كان شأن يوسف عليه السلام وإخوته مقارنا لدلائل عظيمة من العبر والمواعظ.

الآيات: الدلائل على ما تتطلب معرفته من الأمور الخفيّة. والآيات حقيقة في آيات الطريق، وهي علامات يجعلونها في المفاوز تكون بادية لا تغمرها الرمال لتكون مرشدة للسائرين، ثم أطلقت على حجج الصدق وأدلّة المعلومات الدقيقة. وجمع الآيات هنا مراعى فيه تعدّدها وتعدّد أنواعها، ففي قصّة يوسف عليه السلام دلائل على ما للصبر وحسن الطويّة من عواقب الخير والنصر، أو على ما للحسد

والإضرار بالنّاس من الخيبة والانحدار والهبوط.
وفيها من الدلائل على صدق النبيّ صلى الله عليه وسلم وأنّ القرآن وحي من الله، إذ جاء في هذه السورة ما لا يعلمه إلّا أحبار أهل الكتاب دون قراءة ولا كتاب وذلك من المعجزات.
وفي بلاغة نظمها وفصاحتها من الإعجاز ما هو دليل على أنّ هذا الكلام من صنع الله ألقاه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم معجزة له على قومه أهل الفصاحة والبلاغة.
السائلون: من يُتوقّع منه السؤال عن المواعظ والحكم كقوله { فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ } [فصلت:10]. ومثل هذا يُستعمل في كلام العرب للتشويق، والحثّ على تطلّب الخبر والقصّة.
وقيل: المراد بهم اليهود إذ سأل فريق منهم النبيّ صلى الله عليه وسلم عن ذلك. وهذا لا يستقيم لأنّ السورة مكّيّة ولم يكن لليهود مخالطة للمسلمين بمكة.

{ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ } [8].
عبرة من عبر الأخلاق التي تنشأ من حسد الإخوة والأقرباء، وعبرة من المجازفة في تغليطهم أباهم، واستخفافهم برأيه غرورا منهم، وغفلة عن مراتب موجبات ميل الأب إلى بعض أبنائه. وتلك الآيات قائمة في الحكاية عن ذلك الزمن. وهذا القول المحكي عنهم قول تآمر وتحاور.
{ **لَيُوسُفُ** } افتتاح المقول بلام الابتداء المفيدة للتوكيد لقصد تحقيق الخبر. والمراد توكيد لازم الخبر، إذ لم يكن فيهم من يشك في أنّ يوسف عليه السلام وأخاه أحبّ إلى أبيهم من بقيّتهم ولكنّهم لم يكونوا سواء في الحسد لهما والغيرة من تفضيل أبيهم إيّاهما على بقيّتهم، فأراد بعضهم إقناع بعض بذلك ليتمالؤوا على الكيد ليوسف عليه السلام وأخيه. فقائل الكلام بعض إخوته.
{ **وَأَخُوهُ** } أريد به (بنيامين) وإنّما خصّوه بالإخوة لأنّه كان شقيقه، أمهما (راحيل بنت لابان)، وكان بقية إخوته إخوة للأب، أم بعضهم (ليئة بنت لابان)، وأم بعضهم (بلهة) جارية (ليئة) وهبتها لزوجها.
{ **أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا** } يجوز أن تكون دعوى باطلة أثار اعتقادها في نفوسهم شدّة الغيرة من أفضليّة يوسف عليه السلام وأخيه عليهم في الكمالات وربما سمعوا ثناء أبيهم على يوسف عليه السلام وأخيه في أعمال تصدر منهما أو شاهدوه يأخذ بإشارتهما أو رأوا منه شفقة عليهما لصغرهما ووفاة أمّهما فتوهّموا من ذلك أنّه أشدّ حبّا إيّاهما منهم توهّما باطلا.
ويجوز أن تكون دعواهم مطابقة للواقع وتكون زيادة محبته إيّاهما أمرا لا يملك صرفه عن نفسه لأنّه وجدان ولكنّه لم يكن يؤثرهما عليهم في المعاملات والأمور الظاهريّة ويكون أبناؤه قد علموا فرط محبّة أبيهم إيّاهما من التوسّم والقرائن لا من تفضيلهما في المعاملة. فلا يكون يعقوب عليه السلام مؤاخذا بشيء يفضي إلى التباغض بين الإخوة.
{ **وَنَحْنُ عُصْبَةٌ** } في موضع الحال من { أَحَبُّ }، أي: ونحن أكثر عددا. والمقصود من الحال التعجّب

من تفضيلهما في الحبّ في حال أنّ رجاء انتفاعه من إخوتهما أشدّ من رجائه منهما، بناء على ما هو الشائع عند عامة أهل البدو من الاعتزاز بالكثرة.

ويجوز أن تكون عطفا على جملة { لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا }، والمقصود لازم الخبر وهو تجرئة بعضهم بعضا عن إتيان العمل الذي سيغريهم به في قولهم { اقْتُلُوا يُوسُفَ } [9]، أي: أنّا لا يعجزنا الكيد ليوسف عليه السلام وأخيه فإنّا عصبة.

العصبة: اسم جمع لا واحد له من لفظه، مثل أسماء الجماعات، ويقال: العصابة. قال جمهور اللغويين: تطلق العصبة على الجماعة من عشرة إلى أربعين. وعن ابن عباس أنّها من ثلاثة إلى عشرة، وذهب إليه بعض أهل اللغة. وكان أبناء يعقوب عليه السلام اثنى عشر، وهم الأسباط. وقد تقدم الكلام عليهم عند قوله تعالى { أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ ...} [البقرة:140].

{ **إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ** } تعليل للتعجّب أو للإغراء وتفريع عليه.

{ **الضلال** } إخطاء مسلك الصواب. وإنّما أرادوا أخطأ التدبير للعيش لا الخطأ في الدين والاعتقاد. والتخطئة في أحوال الدنيا لا تنافي الاعتراف للمخطئ بالنبوّة.

{ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ } [9].

جملة مستأنفة استئنافا بيانيّا لأنّ الكلام المتقدّم يثير سؤالا في نفوس السامعين عن غرض القائلين مما قالوه فهذا المقصود للقائلين. وإنّما جعلوا له الكلام السابق كالمقدّمة لتتأثر نفوس السامعين فإذا ألقي إليها المطلوب كانت سريعة الامتثال إليه. أرادوا ارتكاب شيء يفرّق بين يوسف وأبيه عليهما السلام.

وهذه آية من عبر الأخلاق السيّئة وهي التخلّص من مزاحمة الفاضل بفضله لمن هو دونه فيه أو مساويه بإعدام صاحب الفضل وهي أكبر جريمة لاشتمالها على الحسد والإضرار بالغير، وانتهاك ما أمر الله بحفظه، وهم قد كانوا أهل دين ومن بيت نبوّة، وقد أصلح الله حالهم من بعد وأثنى عليهم وسمّاهم الأسباط.

{ **يَخْلُ** } في جواب الأمر، أي: إن فعلتم ذلك يخل لكم وجه أبيكم. و**الخلو**: حقيقته الفراغ.

{ **وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ** } أي: من بعد يوسف عليه السلام.

وإنما لم يدبّروا شيئا في إعدام أخي يوسف عليه السلام شفقة عليه لصغره.

وهذا الأمر صدر من قائله وسامعيه منهم قبل اتّصافهم بالنبوّة أو بالولاية لأنّ فيه ارتكاب كبيرة القتل أو التعذيب والاعتداء، وكبيرة العقوق.

{ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ } [10].

هذا القائل أحد الإخوة ولذلك وصف بأنّه منهم. والعدول عن اسمه العلم إلى التنكير والوصفيّة لعدم الجدوى في معرفة شخصه وإنّما المهم أنّه من جماعتهم، وتجنّبا لما في اسمه العلم من الثقل اللفظي الذي لا داعي إلى ارتكابه. والذي في سفر التكوين من التوراة أنّه (راوبين) صدّهم عن قتله وأن (يهوذا) دلّ عليه السيارة كما في [الإصحاح:37]. وعادة القرآن أنّ لا يذكر إلّا اسم المقصود من القصّة دون أسماء الذين شملتهم، مثل قوله تعالى { وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ } [غافر:28].

الإلقاء: الرمي.

الغيابات: جمع غيابة، وهي ما غاب عن البصر. فيقال: غيابة الجب وغيابة القبر، والمراد قعر الجبّ.

الجبّ: البئر التي تحفر ولا تطوى.

فلعلهم كانوا قد عهدوا جبابا كائنة على أبعاد متناسبة في طرق أسفارهم يأوون إلى قربها في مراحلهم لسقي رواحلهم وشربهم، وقد توخوا أن تكون طرائقهم عليها، وأحسب أنّها كانت ينصبّ إليها ماء السيول، وأنّها لم تكن بعيدة القعر حيث علموا أنّ إلقاءه في الجبّ لا يهشم عظامه ولا ماء فيه فيغرقه.

{ **يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ** } إظهار أنّ ما أشار به القائل من إلقاء يوسف عليه السلام في غيابة جب هو أمثل مما أشار به الآخرون من قتله أو تركه بفيفاء مهلكة لأنّه يحصل به إبعاد يوسف عليه السلام عن أبيه إبعادا لا يرجى بعده تلاقيهما، دون إلحاق ضرّ الإعدام بيوسف عليه السلام، فإن التقاط السيارة إيّاه أبقى له وأدخل في الغرض من المقصود لهم وهو إبعاده، لأنّه إذا التقطه السيارة أخذوه عندهم أو باعوه.

الالتقاط: تناول شيء من الأرض أو الطريق، واستعير لأخذ شيء مضاع.

السيّارة: الجماعة الموصوفة بحالة السير وكثرته، فتأنيثه لتأويله بالجماعة التي تسير مثل الفلّاحة والبحّارة. والتعريف فيه تعريف العهد الذهني لأنّهم علموا أنّ الطريق لا تخلو من قوافل بين الشام ومصر للتجارة.

{ **إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ** } أي: إن كنتم فاعلين إبعاده عن أبيه فألقوه في غيابات الجب ولا تقتلوه.

فكان هذا القائل أمثل الإخوة رأيا وأقربهم إلى التقوى، وقد علموا أنّ السيارة يقصدون إلى جميع الجباب للاستقاء، لأنّها كانت محتفرة على مسافات مراحل السفر.

{ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ [11] أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ [12] }.

استئناف بياني لأنّ سوق القصة يستدعي تساؤل السامع عمّا جرى بعد إشارة أخيهم عليهم، وهل رجعوا

عمّا بيتوا وصمّموا على ما أشار به أخوهم؟

{ **مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ** } لعلّ يعقوب عليه السلام كان لا يأذن ليوسف عليه السلام بالخروج مع إخوته للرعي أو للسبق خوفا عليه من أن يصيبه سوء من كيدهم أو من غيرهم، ولم يكن يصرّح لهم بأنّه لا يأمنهم عليه ولكن حاله في منعه من الخروج كحال من لا يأمنهم عليه فنزّلوه منزلة من لا يأمنهم، وأتوا بالاستفهام المستعمل في الإنكار على نفي الائتمان.

وفي التوراة أنّ يعقوب عليه السلام أرسله إلى إخوته وكانوا قد خرجوا يرعون، وإذا لم يكن تحريفا فلعلّ يعقوب عليه السلام بعد أن امتنع من خروج يوسف عليه السلام معهم سمح له بذلك، أو بعد أن سمع لومهم عليه سمح له بذلك.

{ **وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ** } جملة معترضة بين { مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا } و{ أَرْسِلْهُ }. والمعنى هنا: أنّهم يعملون ما فيه نفع ليوسف عليه السلام. و**النصح**: عمل أو قول فيه نفع للمنصوح.

{ **يَرْتَعْ** } في قراءة (كسر العين) مضارع ارتعى وهو افتعال من الرعي للمبالغة فيه. وفي قراءة (سكون العين) مضارع رتع إذا أقام في خصب وسعة من الطعام. فهو حقيقة في أكل المواشي والبهائم واستعير في كلامهم للأكل الكثير لأنّ النّاس إذا خرجوا إلى الرياض والأرياف للعب والسبق تقوى شهوة الأكل فيهم فيأكلون أكلا ذريعا فلذلك شُبّه أكلهم بأكل الأنعام. وإنّما ذكروا ذلك لأنّه يسر أباهم أن يكونوا فرحين.

اللعب: فعل أو كلام يقصد منه الاستجمام ودفع السآمة. وهو مباح في الشرائع كلّها إذا لم يصر دأبا.

{ **وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** } التأكيد فيهما للتحقيق تنزيلا لأبيهم منزلة الشاك في أنّهم يحفظونه وينصحونه، كما نزّلوه منزلة من لا يأمنهم عليه من حيث إنّه كان لا يأذن له بالخروج معهم للرعي ونحوه.

وتقديم { **لَهُ** } يجوز أن يكون لأجل الرعاية للفاصلة والاهتمام بشأن يوسف عليه السلام في ظاهر الأمر، ويجوز أن يكون للقصر الادعائي، جعلوا أنفسهم لفرط عنايتهم به بمنزلة من لا يحفظ غيره ولا ينصح غيره.

{ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ [13] قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونَ [14] }.

{ **قَالَ** } فصل الجملة جار على طريقة المحاورة.

أظهر لهم سبب امتناعه من خروج يوسف عليه السلام معهم إلى الريف بأنّه يحزنه لبعده عنه أيّاما، وبأنّه يخشى عليه الذئاب، إذ كان يوسف عليه السلام حينئذ غلاما، وكان قد ربّي في دعة فلم يكن مرنا بمقاومة الوحوش.

{ **لَيَحْزُنُنِي** } تأكيد الجملة بحرف التأكيد لقطع إلحاحهم بتحقيق أنّ حزنه لفراقه ثابت، تنزيلا لهم منزلة

من ينكر ذلك، إذ رأى إلحاحهم. ويسري التأكيد إلى جملة { وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ } .
{ **لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونَ** } أبوا إلّا المراجعة، أرادوا تأكيد الجواب باللام.
والمراد الكناية عن عدم تفريطهم فيه وعن حفظهم إيّاه، لأنّ المرء لا يرضى أن يوصف بالخسران.
الخسران: انتفاء النفع المرجو من الرجال، استعاروا له انتفاء نفع التاجر من تجره، وهو خيبة مذمومة، أي: إنّا إذن لمسلوبون من صفات الفتوّة؛ من قوة ومقدرة ويقظة. فكونهم عصبة يحول دون تواطيهم على ما يوجب الخسران لجميعهم.

{ **فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ** } [15].

{ **فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ** } تفريع حكاية الذهاب به والعزم على إلقائه في الجبّ على حكاية المحاورة بين يعقوب عليه السلام وبنيه في محاولة الخروج بيوسف عليه السلام إلى البادية يؤذن بجمل محذوفة فيها ذكر أنّهم ألحّوا على يعقوب عليه السلام حتّى أقنعوه فأذن ليوسف عليه السلام بالخروج معهم، وهو إيجاز.
<u>المعنى</u>: فلمّا أجابهم يعقوب عليه السلام إلى ما طلبوا ذهبوا به وبلغوا المكان الذي فيه الجبّ.
{ **لمّا** } جوابها محذوف، والتقدير: جعلوه في الجب. ومثله كثير في القرآن. وهو من الإيجاز الخاص بالقرآن فهو تقليل في اللفظ لظهور المعنى.
{ **وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ** } الضمير عائد إلى يوسف عليه السلام في قول أكثر المفسرين مقتصرين عليه.
وذكر ابن عطية أنّه قيل: الضمير عائد إلى يعقوب عليه السلام.
{ **لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا** } بيان، وأكّدت باللام ونون التوكيد لتحقيق مضمونها سواء كان منها الإخبار عن المستقبل أو الأمر في الحال. فعلى الأوّل فهذا الوحي <u>يحتمل</u> أن يكون إلهاما ألقاه الله في نفس يوسف عليه السلام حين كيدهم له، <u>ويحتمل</u> أنّه وحي بواسطة الملك فيكون إرهاصا ليوسف عليه السلام قبل النبوّة رحمة من الله ليزيل عنه كربه، فأعلمه بما يدلّ على أن الله سيخلّصه من هذه المصيبة وتكون له العاقبة على الذين كادوا له، وإيذان بأنّه سيؤانسه في وحشة الجبّ بالوحي والبشارة، وبأنّه سينبي في المستقبل إخوته بما فعلوه معه كما تؤذن به نون التوكيد إذا اقترنت بالجملة الخبرية، وذلك يستلزم نجاته وتمكّنه من إخوته.
{ **بِأَمْرِهِمْ** } بفعلهم العظيم في الإساءة.
{ **وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ** } في موضع الحال، أي: لتخبرنّهم بما فعلوا بك وهم لا يشعرون أنّك أخوهم، وذلك إخبار بما وقع بعد سنين مما حُكي بقوله تعالى { قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ } [89].
واتفق واصفو الجبّ على أنه بين (بانياس) و(طبرية). وأنّه على اثني عشر ميلا من طبرية مما يلي دمشق، وأنّه قرب قرية يقال لها (سنجل أو سنجيل). وجب يوسف معروف بين طبرية وصفد، بنيت

عليه قبة في زمن الدولة الأيوبية بحسب التوسّم وهي قائمة إلى الآن.

{ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ [16] قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ [17] وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ [18] }.

العشاء: وقت غيبوبة الشفق الباقي من بقايا شعاع الشمس بعد غروبها.

البكاء: خروج الدموع من العينين عند الحزن والأسف والقهر. وقد أطلق هنا على البكاء المصطنع وهو التباكي. وإنّما اصطنعوا البكاء تمويها على أبيهم لئلّا يظنّ بهم أنّهم اغتالوا يوسف عليه السلام.

الاستباق: افتعال من السبق وهو هنا بمعنى التسابق. والمراد: الاستباق بالجري على الأرجل، وذلك من مرح الشباب ولعبهم.

المتاع: ما يُنتفع به. وتقدّم في قوله تعالى { لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ } [النساء:102]. والمراد به هنا ثقلهم من الثياب والآنية والزاد.

{ **فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ** } المراد بالذئب جمع من الذئاب، بحيث لم يترك الذئاب منه، ولذلك لم يقولوا فدفنّاه.

{ **وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا** } خبر مستعمل في لازم الفائدة. تعريض بأنّهم صادقون فيما ادّعوه لأنّهم يعلمون أباهم لا يصدّقهم فيه، فلم يكونوا طامعين بتصديقه إيّاهم.

{ **وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ** } في موضع الحال. { لَوْ } اتصالية، وهي تفيد أنّ مضمون ما بعدها هو أبعد الأحوال عن تحقّق مضمون ما قبلها في ذلك الحال. أي: نحن نعلم انتفاء إيمانك لنا في الحالين فلا نطمع أن نموّه عليك.

{ **وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ** } في موضع الحال. ووصف الدم بالكذب وصف بالمصدر، والمصدر هنا بمعنى المفعول كالخلق بمعنى المخلوق، أي: مكذوب كونه دم يوسف عليه السلام. ولا شك في أنّهم لم يتركوا كيفيّة من كيفيات تمويه الدم وحالة القميص بحال قميص من يأكله الذئب من آثار تخريق وتمزيق ممّا لا تخلو عنه حالة افتراس الذئب، وأنّهم أفطن من أن يفوتهم ذلك.

{ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ }

حرف الإضراب إبطال لدعواهم أنّ الذئب أكله فقد صرّح لهم بكذبهم.

التسويل: التسهيل وتزيين النفس ما تحرص على حصوله.

{ **أَمْراً** } الإبهام يحتمل عدة أشياء مما يمكن أن يؤذوا به يوسف عليه السلام؛ من قتل، أو بيع، أو تغريب، لأنّه لم يعلم تعيين ما فعلوه.

{ **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ** } اصبر صبرا جميلا. عدل به عن النصب إلى الرفع للدلالة على الثبات والدوام، كما تقدّم

عند قوله تعالى { قَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ } [هود:69].

{ **جَمِيلٌ** } يحتمل أن يكون وصفا كاشفا إذ الصبر كلّه حسن دون الجزع.

{ **وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ** } عطف على جملة { فَصَبْرٌ جَمِيلٌ } فتكون محتملة للمعنيين المذكورين من إنشاء الاستعانة أو الإخبار بحصول استعانته بالله على تحمّل الصبر على ذلك، أو أراد الاستعانة بالله ليوسف عليه السلام على الخلاص ممّا أحاط به.

{ **مَا تَصِفُونَ** } التعبير في غاية البلاغة لأنه كان واثقا بأنّهم كاذبون في الصفة وواثقا بأنّهم ألحقوا بيوسف عليه السلام ضرّا فلمّا لم يتعيّن عنده المصاب أجمل التعبير عنه إجمالا.

وإنما فوّض يعقوب عليه السلام الأمر إلى الله ولم يسع للكشف عن مصير يوسف عليه السلام لأنّه علم تعذّر ذلك عليه لكبر سنّه، ولأنّه لا عضد له يستعين به على أبنائه أولئك.

{ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ } [19].

عطف قصّة على قصّة. وهذا رجوع إلى ما جرى في شأن يوسف عليه السلام. والمعنى: وجاءت الجبّ.

الوارد: الذي يرد الماء ليستقي للقوم.

الإدلاء: إرسال الدلو في البئر لنزع الماء.

الدلو: ظرف كبير من جلد مخيط له خرطوم في أسفله يكون مطويّا على ظاهر الظرف بسبب شده بحبل مقارن للحبل المعلقة فيه الدلو. والدلو مؤنثة.

{ **قَالَ يَا بُشْرَى** } مستأنفة استئنافا بيانيا. و**البشرى**: تقدّمت في قوله تعالى { لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ } [يونس:64]. ونداء البشرى مجاز. والمعنى: أنّه فرح وابتهج بالعثور على غلام.

{ **هَذَا غُلامٌ** } اسم الإشارة عائد إلى ذات يوسف عليه السلام خاطب الوارد بقية السيارة. والمعنى: وجدت في البئر غلاما، فهو لقطة، فيكون عبدا لمن التقطه، وذلك سبب ابتهاجه.

الغلام: من سنه بين العشر والعشرين. وكان سنّ يوسف عليه السلام يومئذ سبع عشرة سنة.

وكان هؤلاء السيارة من الإسماعيليين كما في التوراة، أي: أبناء إسماعيل ابن إبراهيم. وقيل: كانوا من أهل مدين وكان مجيئهم الجبّ للاستقاء منها، ولم يشعر بهم إخوة يوسف إذ كانوا قد ابتعدوا عن الجبّ.

{ **أَسَرُّوهُ** } الضمير للسيّارة لا محالة، أي أخفوا يوسف عليه السلام، أي: خبر التقاطه خشية أن يكون من ولدان بعض الأحياء القريبة من الماء قد تردى في الجبّ، فإذا علم أهله بخبره طلبوه وانتزعوه منهم لأنّهم توسّموا منه مخائل أبناء البيوت.

البضاعة: عروض التجارة ومتاعها، أي: عزموا على بيعه.

{ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ** } معترضة، أي: والله عليم بما يعملون من استرقاق من ليس لهم حقّ في

استرقاقه.

وفي عثور السيارة على الجبّ الذي فيه يوسف عليه السلام آية من لطف الله به.

{ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ } [20].

{ شَرَوْهُ } باعوه. يقال: شرى كما يقال: باع، ويقال: اشترى كما يقال: ابتاع. ومثلهما رهن وارتهن، وكرى واكترى. والأصل في ذلك وأمثاله أنّ الفعل للحدث والافتعال لمطاوعة الحدث.

البخس: أصله مصدر بخسه إذا نقصه عن قيمة شيئه. وهو هنا بمعنى المبخوس. وتقدّم فعل البخس عند قوله تعالى { وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً } [البقرة:282].

{ دَرَاهِمَ } بدل من { ثَمَنٍ } وهي جمع درهم، وهو المسكوك. وهو معرَّب عن الفارسية كما في (صحاح الجوهري) . وقد أغفله الذين جمعوا ما هو معرب في القرآن كالسيوطي في (الإتقان).

{ مَعْدُودَةٍ } كناية عن كونها قليلة لأنّ الشيء القليل يسهل عدّه، فإذا كثر صار تقديره بالوزن أو الكيل.

وضمائر الجمع كلّها للسيّارة على أصحّ التفاسير.

الزهادة: قلّة الرغبة في حصول الشيء الذي من شأنه أن يرغب فيه، أو قلّة الرغبة في عوضه كما هنا، أي: كان السيّارة غير راغبين في إغلاء ثمن يوسف عليه السلام. ولعلّ سبب ذلك قلّة معرفتهم بالأسعار.

{ مِنَ الزَّاهِدِينَ } أشدّ مبالغة ممّا لو أخبر بكانوا فيه زاهدين، لأنّ جعلهم من فريق زاهدين ينبي بأنّهم جروا في زهدهم في أمثاله على سنن أمثالهم البسطاء الذين لا يقدرون قدر نفائس الأمور.

{ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } [21].

{ الَّذِي اشْتَرَاهُ } مراد منه الذي دفع الثمن فملكه وإن كان لم يتولَّ الاشتراء بنفسه، فإن فعل الاشتراء لا يدلّ إلّا على دفع العوض، ولذلك يكتب الموثّقون في مثل هذا أنّ شراءه لفلان.

والذي اشترى يوسف عليه السلام رجل اسمه (**فوطيفار**) رئيس شرطة ملك مصر، وهو والي مدينة مصر، ولقب في هذه السورة بالعزيز.

{ مِنْ مِصْرَ } المراد: (**منفيس**) ويقال (منف) وهي قاعدة مصر السفلى التي يحكمها قبائل من الكنعانيين عُرفوا عند القبط باسم (**الهيكسوس**) أي: الرعاة. وكانت مصر العليا المعروفة اليوم بالصعيد تحت حكم فراعنة القبط. وكانت مدينتها **ثيبة** أو **طيبة**، وهي اليوم خراب وموضعها يُسمّى الأُقصر، جمع قصر، لأنّ بها أطلال القصور القديمة، أي: الهياكل. وكانت حكومة مصر العليا أيامئذ مستضعفة لغلبة

الكنعانيين على معظم القطر.

{ **لِامْرَأَتِهِ** } معناه زوجه، تُسمّى في كتب العرب **(زَلِيخَا)** -بفتح الزاي وكسر اللام وقصر آخره- وسماها اليهود (راعيل). فيكون اشتراه ليهبه لها لتتخذه ولدا. وهذا يقتضي أنّهما لم يكن لهما ولد.

المثوى: حقيقته المحلّ الذي يثوي المرء إليه، أي: يرجع إليه. وتقدّم عند قوله تعالى { قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ } [الأنعام:128]. وهو هنا كناية عن حال الإقامة عندهما، لأنّ المرء يثوي إلى منزل إقامته. فالمعنى: اجعلي إقامته عندك كريمة. أراد أن يجعل الإحسان إليه سببا في اجتلاب محبّته إيّاهما ونصحه لهما فينفعهما، أو يتخذانه ولدا فيبرّ بهما وذلك أشد تقريبا. ولعلّه كان آيسا من ولادة زوجه. وإنّما قال ذلك لحسن تفرّسه في ملامح يوسف عليه السلام المؤذنة بالكمال.

{ **وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ** } تنويه بأنّ ذلك التمكين بلغ غاية ما يُطلب من نوعه، والتمكين في الأرض هنا مراد به ابتداؤه وتقدير أوّل أجزائه، فيوسف عليه السلام بحلوله محلّ العناية من عزيز مصر قد خُطَّ له مستقبل تمكينه من الأرض.

{ **وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ** } لأنّ الله لمّا قدّر في سابق علمه أن يجعل يوسف عليه السلام عالما بتأويل الرؤيا وأن يجعله نبيّا أنجاه من الهلاك ومكّن له في الأرض تهيئة لأسباب مراد الله.

وتقدّم معنى تأويل الأحاديث عند ذكر قول أبيه له { وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ } [6]، أي: تعبير الرؤيا.

{ **وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ** } معترضة في آخر الكلام. والمعنى: والله متمّم ما قدّره، ولذلك عقّبه بالاستدراك بقوله تعالى { **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** } استدراكا على ما يقتضيه هذا الحكم من كونه حقيقة ثابتة شأنها أن لا تُجهل لأنّ عليها شواهد من أحوال الحدثان، ولكن أكثر النّاس لا يعلمون ذلك مع ظهوره.

{ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ } [22].

هذا إخبار عن اصطفاء يوسف عليه السلام للنبوّة. ذُكر هنا في ذِكر مبدإ حلوله بمصر لمناسبة ذكر منّة الله عليه بتمكينه في الأرض وتعليمه تأويل الأحاديث.

الأشُد: القوّة. وفُسّر ببلوغه ما بين خمس وثلاثين سنة إلى أربعين.

{ **حُكْماً** } الحُكم والحِكمة مترادفان، وهو: علم حقائق الأشياء والعمل بالصالح واجتناب ضدّه. وأريد به هنا النبوّة كما في قوله تعالى في ذكر داود وسليمان عليهما السلام { وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً } [الأنبياء:79].

{ **وَعِلْماً** } علم زائد على النبوّة .والتنكير للنوعية أو للتعظيم. والمراد: علم تعبير الرؤيا، كما سيأتي في قوله تعالى عنه { ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي } [37].

{ **وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ** } إيماء إلى أنّ إحسانه هو سبب جزائه بتلك النعمة.

{ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ [23] وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ [24] وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [25] قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ [26] وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ [27] فَلَمَّا رَأى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ [28] يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ } [29] }.

عطف قصّة على قصّة فلا يلزم أن تكون هذه القصة حاصلة في الوجود بعد التي قبلها. وقد كان هذا الحادث قبل إيتائه النبوّة لأنّ إيتاء النبوّة غلب أن يكون في سن الأربعين. والأظهر أنّه أوتي النبوّة والرسالة بعد دخول أهله إلى مصر وبعد وفاة أبيه.

والآيات لتقرير ثبات يوسف عليه السلام على العفاف والوفاء وكرم الخلق.

المراودة: مشتقّة من راد يرود، إذا جاء وذهب. شُبّه حال المحاول أحدا على فعل شيء مكرّرا ذلك بحال من يذهب ويجيء في المعاودة إلى الشيء المذهوب عنه، فأطلق راود بمعنى: **حاول**.

وصيغة المفاعلة مستعملة في التكرير. وقيل: المفاعلة تقديرية، بأن اعتُبر العمل من جانب والممانعة من الجانب الآخر من العمل بمنزلة مقابلة العمل بمثله.

{ **عَنْ نَفْسِهِ** } للمجاوزة، أي: بأن يجعل نفسه لها. والظاهر أنّ هذا التركيب من مبتكرات القرآن، فالنفس هنا كناية عن غرض المواقعة، قاله ابن عطية، أي: فالنفس أريد بها عفافه وتمكينها منه لما تريد.

ووقع في قول أبي هريرة أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم يراود عمّه أبا طالب على الإسلام.

وفي حديث الإسراء " فقال له موسى: قد راودت بني إسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه ".

{ **الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا** } لقصد ما تؤذن به الصلّة من تقرير عصمة يوسف عليه السلام، لأنّ كونه في بيتها من شأنه أن يطوّعه لمرادها.

غلّق الأبواب: التضعيف لإفادة شدّة الفعل وقوّته، أي: أغلقت إغلاقا محكما.

{ **هَيْتَ** } اسم فعل أمر بمعنى **بادر**. قيل: أصلها من اللغة الحورانية، وهي نبطية. وقيل: من اللغة العبرانية. ويظهر أنّها طلبت منه أمرا كان غير بدع في قصورهم بأن تستمع المرأة بعبدها كما يستمتع الرجل بأمته، ولذلك لم تتقدم إليه من قبل بترغيب بل ابتدأته بالتمكين من نفسها.

{ **مَعَاذَ اللَّهِ** } مصدر أضيف إلى اسم الجلالة إضافة المصدر إلى معموله. وأصله: أعوذ عوذا بالله،

أي: أعتصم به ممّا تحاولين. وسيأتي بيانه عند قوله تعالى { قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ }.
{ **إِنَّهُ رَبِّي** } يجوز أن يعود الضمير إلى اسم الجلالة، ويكون { رَبِّي } بمعنى خالقي.
ويجوز أن يعود إلى معلوم من المقام وهو زوجها الذي لا يرضى بأن يمسّها غيره، فهو معلوم بدلالة العر ف، ويكون { رَبِّي } بمعنى سيدي ومالكي.
وهذا من الكلام الموجّه توجيها بليغا حُكي به كلام يوسف عليه السلام، إمّا لأن يوسف عليه السلام أتى بمثل هذا التركيب في لغة القبط، وإمّا لأنه أتى بتركيبين عذرين لامتناعه فحكاهما القرآن بطريقة الإيجاز والتوجيه. وأيّاما كان فالكلام تعليل لامتناعه وتعريض بها في خيانة عهدها.
وفي هذا الكلام عبرة عظيمة من العفاف والتقوى وعصمة الأنبياء قبل النبوّة من الكبائر.
{ **أَحْسَنَ مَثْوَايَ** } تأكد وتعليل، أي: جعل آخرتي حسنى، إذ أنقذني من الهلاك، أو أكرم كفالتي.
{ **إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ** } تعليل ثان للامتناع. أشار إلى أنّ إجابتها لما راودته ظلم، لأنّ فيها ظلم كليهما نفسه بارتكاب معصية ممّا اتفقت الأديان على أنّها كبيرة، وظلم سيّده الذي آمنه على بيته وآمنها على نفسها إذ اتّخذها زوجا وأحصنها.
{ **وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ** } مستأنفة استئنافا ابتدائيّا. والمقصود: أنّها كانت جادة فيما راودته لا مختبرة. والمقصود من ذكر همّها به التمهيد إلى ذكر انتفاء همّه بها لبيان الفرق بين حاليهما في الدين فإنّه معصوم.
الهمّ: العزم على الفعل. وأكّد همّها بـ { قَدْ } ولام القسم ليفيد أنّها عزمت عزما محقَّقا.
{ **وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ** } لمّا أُردِفت جملة { وهَمَّ بِهَا } بجملة شرط { لَوْلاَ } المتمحّض لكونه من أحوال يوسف عليه السلام وحده لا من أحوال امرأة العزيز تعيّن أنّه لا علاقة بين الجملتين، فتعيّن أنّ الثانية مستقلّة لاختصاص شرطها بحال المسند إليه فيها. فالتقدير: ولولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها، فقُدّم الجواب على شرطه للاهتمام به. فيحسُن الوقف على قوله تعالى { وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ } ليظهر معنى الابتداء بجملة { وهمّ بها } واضحا. وبذلك يظهر أنّ يوسف عليه السلام لم يخالطه همّ بامرأة العزيز لأنّ الله عصمه من الهمّ بالمعصية بما أراه من البرهان.
وقال جماعة: همَّ يوسف بأن يجيبها لِما دعته إليه ثمّ ارعوى وانكفّ على ذلك لمّا رأى برهان ربّه. قاله ابن عبّاس، وقتادة، وابن أبي مليكة، وثعلب. وبيان هذا أنّه انصرف عمّا همّ به بحفظ الله أو بعصمته، والهمُّ بالسيّئة مع الكفّ عن إيقاعها ليس بكبيرة فلا ينافي عصمة الأنبياء من الكبائر قبل النبوّة على قول من رأى عصمتهم منها قبل النبوّة، وهو قول الجمهور، وفيه خلاف، ولذلك جوّز ابن عباس ذلك على يوسف.
الرؤية: هنا علميّة لأنّ البرهان من المعاني التي لا تُرى بالبصر.
البرهان: الحجّة. وهذا البرهان من جملته صرفه عن الهمّ بها، ولولا ذلك لكان حال البشريّة لا يسلم من الهمّ بمطاوعتها في تلك الحالة لتوفُّر دواعي الهمّ؛ من حسنها، ورغبتها فيه، واغتباط أمثاله بطاعتها،

والقرب منها. ودواعي الشباب المسوّلة لذلك، فكان برهان الله هو الحائل بينه وبين الهمّ بها دون شيء آخر.

واختلف المفسرون في ما هو هذا البرهان: فمنهم من يشير إلى أنّه حجّة نظرية قبّحت له هذا الفعل، وقيل: هو وحي إلهي، وقيل: حفظ إلهي، وقيل: مشاهدات تمثّلت له.

{ **كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ** } الإشارة إلى شيء مفهوم ممّا قبله يتضمّنه قوله تعالى { رَأى بُرْهَانَ رَبِّهِ }، أي: أريناه ذلك الرأي لنصرف عنه السوء.

الصرف: نقل الشيء من مكان إلى مكان، وهو هنا مجاز عن الحفظ من حلول الشيء بالمحلّ الذي من شأنه أن يحلّ فيه. عُبّر به عن **العصمة** من شيء يوشك أن يلابس شيئا. والتعبير عن العصمة بالصرف يشير إلى أنّ أسباب حصول السوء والفحشاء موجودة ولكنّ الله صرفهما عنه.

السوء: القبيح، وهو خيانة من ائتمنه. و**الفحشاء**: المعصية، وهي الزنى.

ومعنى صرفهما عنه صرف ملابسته إيّاهما.

{ **إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** } تعليل لحكمة صرفه عن السوء والفحشاء الصرف الخارق للعادة.

الاستباق: افتعال من السبق. وهو هنا إشارة إلى تكلّفهما السبق، أي: أنّ كلّ واحد منهما يحاول أن يكون هو السابق إلى الباب. وانتصب { البَابَ } على نزع الخافض، أو على تضمين { اسْتَبَقَا } معنى ابتدرا. وذلك أن يوسف عليه السلام فرّ من مراودتها إلى الباب يريد فتحه والخروج وهي تريد أن تسبقه إلى الباب لتمنعه من فتحه.

{ **وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ** } في موضع الحال. و{ قَدَّتْ } أي: قطعت.

{ **وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ** } وصادف أن ألفيا سيّدها، أي: زوجها، وهو العزيز، عند الباب.

وإطلاق السيد على الزوج قيل: إنّ القرآن حكى به عادة القبط حينئذ، كانوا يدعون الزوج سيّدا. والظاهر أنّه لم يكن ذلك مستعملا في عادة العرب، فالتعبير به هنا من دقائق التاريخ مثل قوله تعالى { مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ } [76]. ولعلّ الزواج في مصر في ذلك العهد كان بطريق الملك غالبا.

الإلفاء: وجدان شيء من غير سعي لوجدانه، فالأكثر أن يكون مفاجئا، أو حاصلا عن جهل، كقوله تعالى { قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا } [البقرة:170].

{ **قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** } مستأنفة بيانيا. وابتدرته بالكلام إمعانا في البهتان بحيث لم تتلعثم، وأفرغت الكلام في قالب كلّي ليأخذ صيغة القانون، وليكون قاعدة لا يعرف المقصود منها فلا يسع المخاطب إلّا الإقرار لها. ولعلّها كانت تخشى أن تكون محبّة العزيز ليوسف عليه السلام مانعة له من عقابه. وكانت تريد بذلك أن لا يشعر زوجها بأنّها تهوى يوسف عليه السلام.

{ **أَنْ يُسْجَنَ** } كان الحبس عقابا قديما في ذلك العصر واستمر إلى زمن موسى عليه السلام، فقد قال فرعون لموسى عليه السلام { لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ } [الشعراء:29].

{ **عَذَابٌ أَلِيمٌ** } العذاب أنواع، وهو عقاب أقدم في اصطلاح البشر. ومنه الضرب والإيلام بالنار وبقطع الأعضاء. وسيأتي ذكر السجن في هذه السورة مرارا.

ومخالفة التعبير بين { أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ } دون أن يقول: إلّا السجن أو عذاب، لأنّ لفظ السجن يطلق على البيت الذي يوضع فيه المسجون، فقوله تعالى على لسانها { أَنْ يُسْجَنَ } أوضح في تسلّط معنى الفعل عليه.

{ **قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي** } من قول يوسف عليه السلام وفصلت لأنّها جاءت على طريقة المحاورة مع كلامها. وتقديم المبتدأ على خبره الذي هو فعل يفيد القصر، وهو قصر قلب للردّ عليها.

{ **وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ [26] وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ** }

كان مع العزيز رجل من أهل امرأته، وهو الذي شهد وكان فطنا عارفا بوجوه الدلالة. وسُمّي قوله شهادة لأنّه يؤول إلى إظهار الحقّ في إثبات اعتداء يوسف عليه السلام على سيّدته أو دحضه. وهذا من القضاء بالقرينة البيّنة. ولا شكّ أنّ الاستدلال بكيفيّة تمزيق القميص نشأ عن ذكر امرأة العزيز وقوع تمزيق القميص تحاول أن تجعله حجّة على أنّها أمسكته لتعاقبه، ولولا ذلك ما خطر ببال الشاهد أنّ تمزيقا وقع وإلّا فمن أين علم الشاهد تمزيق القميص. والظاهر أنّ الشاهد كان يظنّ صدقها فأراد أن يقيم دليلا على صدقها فوقع عكس ذلك كرامة ليوسف عليه السلام.

وزيادة { وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ } بعد { فَصَدَقَتْ }، وزيادة { وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ } بعد { فَكَذَبَتْ } تأكيد لزيادة تقرير الحق كما هو شأن الأحكام.

{ **فَلَمَّا رَأى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ** }

الذي رأى قميصه قدّ من دبر وقال: { إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ }، هو العزيز لا محالة. وقد استبان لديه براءة يوسف عليه السلام من الاعتداء على المرأة فاكتفى بلوم زوجه بأنّ ادعاءها عليه من كيد النساء.

الكيد: فعل شيء في صورة غير المقصودة للتوصّل إلى مقصود.

{ **يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ** } ثمّ أمر يوسف عليه السلام بالإعراض عمّا رمته به، أي: عدم مؤاخذتها بذلك، وبالكف عن إعادة الخوض فيه. وأمر زوجه بالاستغفار من ذنبها، أي: في اتهامها يوسف عليه السلام بالجرأة والاعتداء عليها.

قال المفسرون: وكان العزيز قليل الغيرة. وقيل: كان حليما عاقلا. ولعلّه كان مولعا بها، أو كانت شبهة المِلك تُخفّف مؤاخذة المرأة بمراودة مملوكها. وهو الذي يؤذن به حال مراودتها يوسف عليه السلام حين

بادرته بقولها { هِيتَ لَكَ } كما تقدّم آنفا.

الخاطئ: فاعل الخطيئة، وهي الجريمة. وجعلها من زمرة الذين خَطِئوا تخفيفا في مؤاخذتها. وصيغة جمع المذكر تغليب.

وهذا الأسلوب من الخطاب يُسمّى بالإقبال، وقد يُسمّى بالالتفات بالمعنى اللغوي عند الالتفات البلاغي، وهو عزيز في الكلام البليغ. قال المرزوقي في (شرح الحماسة): والعرب تجمع في الخطاب والإخبار بين عدة، ثم تُقبل أو تلتفت من بينهم إلى واحد لكونه أكبرهم أو أحسنهم سماعا وأخصُّهم بالحال.

{ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ } [30].

{ **وَقَالَ نِسْوَةٌ** } الفعل المسند إلى ألفاظ الجموع غير الجمع المذكر السالم يجوز تجريده من التاء باعتبار الجمع، ويجوز قرنه بالتاء باعتبار الجماعة مثل ما في قوله تعالى { وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ } [19].

النسوة: اسم جمع امرأة لا مفرد له، وهو اسم جمع قلّة مثله نساء.

{ **فِي الْمَدِينَةِ** } صفة لنسوة. والمقصود من ذكر هذه الصفة أنّهنّ كنّ متفرّقات في ديار من المدينة. وهذه المدينة هي قاعدة مصر السفلى وهي مدينة (**منفيس**) حيث كان قصر العزيز. وقيل: إنّ امرأة العزيز باحت بالسر لبعض خلائلها فأفشينه، كأنّها أرادت التشاور معهن أو أرادت الارتياح بالحديث إليهنّ.

{ **تُرَاوِدُ** } صيغة المضارع مع كون المراودة مضت لقصد استحضار الحالة العجيبة وذلك للإنكار عليها في أنفسهنّ ولومها على صنيعها.

الفتى: الذي في سن الشباب، ويُكنَّى به عن المملوك وعن الخادم كما يُكنّى بالغلام والجارية وهو المراد هنا. { **فَتَاهَا** } لأنّه غلام زوجها فهو غلام لها بالتبع ما دامت زوجة لمالكه.

{ **قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً** } في موضع التعليل. و **شغف**: فعل مشتقّ من اسم جامد، وهو الشِّغاف وهو غلاف القلب. وأصله شغفها حبّه، أي: أصاب حبّه شغافها، أي: اخترق الشغاف فبلغ القلب، كناية عن التمكّن.

{ **إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ** } استئناف ابتدائي لإظهار اللوم والإنكار عليها. والتأكيد بـ (إن) واللام لتحقيق اعتقادهن ذلك.

الضلال: مخالفة طريق الصواب، أي: هي مفتونة العقل بحبّ هذا الفتى، وليس المراد الضلال الديني.

{ **فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ** [31] **قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ** [32] }.

{ **سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ** } حقُّ (سمع) أن يُعدَّى إلى المسموع بنفسه، فتعديته بالباء هنا؛ إمّا لأنّه ضُمِّن معنى أُخبِرت، وإمّا أن تكون الباء مزيدة للتوكيد مثل قوله تعالى { وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ } [المائدة:6].

قيل: أطلق على كلامهنّ اسم المكر لأنّهنّ أردن بذلك أن يبلغ قولهنّ إليها فيغريها بعرضها يوسف عليه السلام عليهن فيرين جماله، لأنّهنّ أحببن أن يرينه. وقيل: لأنّهنّ قلنه خفية فأشبه المكر.

ويجوز أن يكون أطلق على قولهنّ اسم المكر لأنّهنّ قلنه في صورة الإنكار وهنّ يُضمرن حسدها على اقتناء مثله، إذ يجوز أن يكون الشغف بالعبد في عادتهم غير منكر.

{ **وَأَعْتَدَتْ** } أصله أعددت، أبدلت الدال الأولى تاء، كما في قوله تعالى { وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً } [النساء:37].

المتكأ: محل الاتكاء. والاتكاء: جلسة قريبة من الاضطجاع على الجنب مع انتصاب قليل في النصف الأعلى. وإنّما يكون الاتكاء إذا أريد إطالة المكث والاستراحة، أي: أحضرت لهنّ نمارق يتكئن عليها لتناول طعام. وكان أهل الترف يأكلون متكئين كما كانت عادة للرومان.

قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **أمّا أنا فلا آكل متكئا** ".

{ **آتَتْ** } أمرت خدمها بالإيتاء.

السكين: آلة قطع اللحم وغيره. وأعطت كل واحدة سكينا لقشر الثمار.

{ **وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ** } يقتضي أنّه كان في بيت آخر. وعُدّي فعل الخروج بحرف (على) لأنّه ضُمّن معنى (أُدخل) لأنّ المقصود دخوله عليهنّ لا مجرد خروجه من البيت الذي هو فيه.

{ **أَكْبَرْنَهُ** } أعظمنه، أي: أعظمن جماله وشمائله. وأطلق الكبر على عظيم الصفات تشبيها لوفرة الصفات بعظم الذات.

{ **وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ** } من الذهول، أي: أجرين السكاكين على أيديهن يحسبن أنّهنّ يقطعن الفواكه. وأريد بالقطع الجرح، أطلق عليه القطع مجازا للمبالغة في شدّته حتّى كأنّه قطع قطعة من لحم اليد.

{ **حَاشَ لِلَّهِ** } تركيب عربي جرى مجرى المثل يراد منه إبطال شيء عن شيء وبراءته منه. وأصل (حاشا) فعل يدل على المباعدة عن شيء. وقد يوصَل به اسم الجلالة فيصير كاليمين على النفي.

يقال: حاشا الله، أي: أحاشيه عن أن يكذب، كما يقال: لا أقسم.

حُكي بهذا التركيب كلام قالته النسوة يدلّ على هذا المعنى في لغة القبط حكاية بالمعنى.

{ **مَا هَذَا بَشَراً** } مبالغة في فَوْته محاسن البشر، فمعناه التفضيل في محاسن البشر.

{ **إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ** } ثم شبّهنه بواحد من الملائكة بطريقة حصره في جنس الملائكة تشبيها بليغا مؤكّدا. وكان القبط يعتقدون وجود موجودات علوية هي من جنس الأرواح العلوية، ويعبّرون عنها بالآلهة أو قضاة يوم الجزاء، ويجعلون لها صورا، ولعلّهم كانوا يتوخّون أن تكون ذواتا حسنة. ومنها ما هي مدافعة عن الميت يوم الجزاء. فأطلق في الآية اسم الملك على ما كانت حقيقته مماثلة لحقيقة مُسمّى الملك في اللغة العربية تقريبا لأفهام السامعين.

{ **قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ** } فاء الفصيحة، أي: إن كان هذا كما زعمتنّ ملكا فهو الذي بلغكنّ خبره فلمتنني فيه. وهنالك مضاف محذوف، والتقدير: في شأنه أو في محبّته.

والإشارة ليوسف عليه السلام، إذ كنّ لم يرينه قبل. والتعبير عنه بالموصولية لعدم علم النسوة بشيء عنه غير تلك الصلة، وقد باحت لهنّ بأنّها راودته لأنّها رأت منهنّ الافتتان به فعلمت أنّهنّ قد عذرنها.

والظاهر أنّهنّ كنّ خلائل لها فلم تكتم عنهنّ أمرها.

استعصم: مبالغة في عصم نفسه، فالسين والتاء للمبالغة. فالمعنى: أنّه امتنع امتناع معصوم، أي: جاعلا المراودة خطيئة عصم نفسه منها.

{ **وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلِيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ** } قالت ذلك بمسمع منه إرهابا له. وأكدت حصول سجنه بنوني التوكيد. أي: أنّها لا تزال مصمّمة على مراودته.

الصاغر: الذليل. وتركيب { مِنَ الصَّاغِرِينَ } أقوى في معنى الوصف بالصغار.

{ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ [33] فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [34] }.

استئناف بياني، لأنّ ما حكي قبله مقام شدّة من شأنه أن يسأل سامعه عن حال تلقي يوسف عليه السلام فيه لكلام امرأة العزيز. وهذا الكلام مناجاة لربّه الذي هو شاهدهم، فالظاهر أنّه قال هذا القول في نفسه. ويحتمل أنّه جهر به في ملئهنّ تأييسا لهنّ من أن يفعل ما تأمره به. فلمّا علم أنّه لا محيص من أحد الأمرين صار السجن محبوبا إليه باعتبار أنّه يخلّصه من الوقوع في الحرام.

فالإخبار بأنّ السجن أحبّ إليه من الاستمتاع بالمرأة مستعمل في إنشاء الرضى بالسجن في مرضاة الله تعالى والتباعد عن محارمه.

{ **يَدْعُونَنِي** } أسند الفعل إلى ضمير جمع النساء مع أنّ التي دعته امرأة واحدة، إمّا لأنّ تلك الدعوة من رغبات صنف النساء فيكون على وزان جمع الضمير في { كَيْدَهُنَّ }، وإمّا لأنّ النسوة اللاتي جمعتهنّ امرأة العزيز لمّا سمعن كلامها تمالأن على لوم يوسف عليه السلام وتحريضه على إجابة الداعية

وتحذيره من وعيدها بالسجن.

{ **وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ** } التجاء إلى الله وملازمة للأدب نحو ربّه بالتبرّؤ من الحول والقوّة والخشية من تقلّب القلب ومن الفتنة بالميل إلى اللذّة الحرام. فالخبر مستعمل في الدعاء، ولذلك فُرّع عنه جملة { فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ }.

{ **أَصْبُ** } أمِلْ. والصبو: الميل إلى المحبوب.

الجاهلون: سفهاء الأحلام، فالجهل هنا مقابل الحلم.

{ **فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ** } العطف بفاء التعقيب إشارة إلى أنّ الله عجّل إجابة دعائه.

استجاب: مبالغة في أجاب، كما تقدّم في قوله تعالى { فَاسْتَعْصَمَ } [32].

وصرف كيدهنّ عنه صرف أثره، وذلك بأن ثبّته على العصمة فلم ينخدع لكيدها ولا لكيد خلائلها.

{ **إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** } في موضع العلّة، أي: أجاب دعاءه بدون مهلة لأنّه سريع الإجابة وعليم بالضمائر الخالصة. فالسمع مستعمل في إجابة المطلوب، يقال: سمع الله لمن حمده. وتأكيده بضمير الفصل لتحقيق ذلك المعنى.

{ **ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ** } [35].

وإنّما بدا لهم أن يسجنوا يوسف عليه السلام حين شاعت القالة عن امرأة العزيز في شأنه فكان ذلك عقب انصراف النسوة، لأنّها خشيت إن هنّ انصرفن أن تشيع القالة في شأنها وشأن براءة يوسف عليه السلام فرامت أن تغطّي ذلك بسجنه حتّى يظهر في صورة المجرمين بإرادته السوء بامرأة العزيز، وهي ترمي بذلك إلى تطويعه لها. ولعلّها أرادت أن توهم النّاس بأنّ مراودته إيّاها وقعت يوم ذلك المجمع، وأن توهم أنّهنّ شواهد.

{ **لَهُمْ** } الضمير لجماعة العزيز من مشير وآمر.

الآيات: دلائل صدق يوسف عليه السلام وكذب امرأة العزيز.

{ **لَيَسْجُنُنَّهُ** } جواب قسم محذوف، وهي متعلّقة فعل { بَدَا }. والتقدير: بدا لهم ما يدل عليه هذا القسم، أي: بدا لهم تأكيد أن يسجنوه.

الحين: زمن غير محدود، فإن كان { حَتَّى حِينٍ } من كلامهم كان المعنى: أنّهم أمروا بسجنه سجنا غير مؤجّل المدّة. وإن كان من الحكاية كان القرآن قد أبهم المدّة، إذ لا يتعلّق فيها الغرض من القصّة.

{ **وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ** } [36].

هذان الفتيان هما ساقي الملك وخبّازه غضب عليهما الملك فأمر بسجنهما. قيل: اتهما بتسميم الملك في الشراب والطعام.

{ **إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ** } توسَّما من يوسف عليه السلام كمال العقل والفهم فظنّا أنّه يحسن تعبير الرؤيا ولم يكونا علما منه ذلك من قبل. أي: المحسنين التعبير، أو المحسنين الفهم. وكان تعبير الرؤيا من فنون علمائهم فلذلك أيّد الله به يوسف عليه السلام بينهم.

الإحسان: الإتقان، يقال: هو لا يحسن القراءة، أي: لا يتقنها. ومن عادة المساجين حكاية المرائي التي يرونها، لفقدانهم الأخبار التي هي وسائل المحادثة والمحاورة، ولأنّهم يتفاءلون بما عسى أن يبشّرهم بالخلاص.

العصر: الضغط باليد أو بحجر أو نحوه على شيء فيه رطوبة لإخراج ما فيه من المائع.

الخبز: دقيق البرّ أو الشعير أو نحوهما يعجن بالماء ويوضع قرب النّار حتى ينضج، ويُسمّى رغيفا أيضا.

{ **قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ** [37] **وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ** } [38].

{ **قَالَ لا يَأْتِيكُمَا** } جواب عن كلامهما ففُصلت على أسلوب حكاية جمل التحاور.

أراد بهذا الجواب أن يفترض إقبالهما عليه وملازمة الحديث معه إذ هما يترقّبان تعبيره الرؤيا فيدمج في ذلك دعوتهما إلى الإيمان الصحيح مع الوعد بأنّه يعبّر لهما رؤياهما غير بعيد، وجعل لذلك وقتا معلوما لهم، وهو وقت إحضار طعام المساجين.

الرزق: حقيقته ما به النفع، ويطلق على الطعام كقوله تعالى { وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً } [آل عمران:37]، وقوله تعالى {أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ } [الأعراف:50]، وقوله تعالى { وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً } [مريم:62].

ويطلق على الإنفاق المتعارف كقوله { وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ } [النساء: 5]. ومن هنا يطلق على العطاء، يقال: رزق الجند كذا كلّ يوم.

{ **بِتَأْوِيلِهِ** } ضمير عائد إلى المرئي أو المنام. ولا ينبغي أن يعود إلى { **طَعَامٌ** } إذ لا يحسن إطلاق

التأويل عن الأنباء بأسماء أصناف الطعام، خلافا لما سلكه جمهور المفسّرين.

{ **إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ** } أي: لا يأتي الطعام المعتاد إلّا في حال أنّي قد نبأتكما بتأويل رؤياكما.

{ **ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي** } استئناف بياني، لأنّ وعده بتأويل الرؤيا في وقت قريب يثير عجب السائلين عن قوّة علمه وعن الطريقة التي حصل بها هذا العلم، فيجيب بأنّ ذلك ممّا علّمه الله تخلّصا إلى دعوتهما للإيمان بإله واحد. وكان القبط مشركين يدينون بتعدد الآلهة.

والقول إيذان بأنّه علّمه علوما أخرى، وهي علوم الشريعة والحكمة والاقتصاد والأمانة كما قال { اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ } [55].

{ **إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** } مزيد بيان، أخبر بأنّ سبب عناية الله به أنّه انفرد في ذلك المكان بتوحيد الله وترك ملّه أهل المدينة، فأراد الله اختياره لهديهم، ويجوز كون الجملة تعليلا.

الترك: عدم الأخذ للشيء مع إمكانه. أشار به إلى أنّه لم يتّبع ملّة القبط مع حلوله بينهم.

الملة: الدين، تقدّم في قوله تعالى { دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً } [الأنعام:161].

وأراد بالقوم الذين لا يؤمنون بالله، ما يشمل الكنعانيين الذين نشأ فيهم والقبط الذين شبّ بينهم. أو أراد الكنعانيين خاصة، وهم الذين نشأ فيهم تعريضا بالقبط الذين ماثلوهم في الإشراك. وأراد بهذا أن لا يواجههم بالتشنيع استنزالا لطائر نفورهم من موعظته.

{ **هُمْ كَافِرُونَ** } زيادة ضمير الفصل أراد به تخصيص قوم منهم بذلك وهم الكنعانيون، لأنّهم كانوا ينكرون البعث مثل كفّار العرب. وأراد بذلك إخراج القبط لأنّ القبط وإن كانوا مشركين فقد كانوا يثبتون بعث الأرواح والجزاء.

{ **وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ** } ذكر آباءه تعليما بفضلهم، وإظهارا لسابقية الصلاح فيه. ولذلك قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لمّا سئل عن أكرم الناس: " **يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم نبيّ ابن نبيّ ابن نبيّ ابن نبيّ** ". وهذه السلسلة في النبوّة لم تجتمع لأحد غير يوسف عليه السلام.

{ **مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ** } صار التوحيد كالسجيّة لهم عُرف بها أسلافهم بين الأمم، وعرَّفهم بها لنفسه في هذه الفرصة. ولا يخفى ما تقتضيه صيغة الجحود من مبالغة انتفاء الوصف على الموصوف، كما تقدّم في قوله تعالى { مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ } [آل عمران:79].

{ **ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا** } زيادة في البيان لقصد الترغيب في اتّباع دين التوحيد بأنّه فضل.

{ **وَعَلَى النَّاسِ** } أي: الذين يتّبعونهم، وهو المقصود من الترغيب بالجملة.

{ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ** } الاستدراك للتصريح بأنّ حال المخاطبين في إشراكهم حال من يكفر نعمة الله، لأنّ إرسال الهداة نعمة ينبغي أن ينظر النّاس فيها فيعلموا أنّ ما يدعونهم إليه خير وإنقاذ لهم

من الانحطاط في الدنيا والعذاب في الآخرة، ولأنّ الإعراض عن النظر في أدلة صدق الرسل كفر بنعمة العقل والنظر.

{ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ [39] مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ [40] }.

أراد بالكلام الذي كلّمهما به تقريرهما بإبطال دينهما، فالاستفهام تقريري. وقد رتَّب لهما الاستدلال بوجه خطابي قريب من أفهام العامة، إذ فرض لهما إلها واحدا متفرّدا بالإلهيّة، كما هو حال ملّته التي أخبرهم بها، وفرض لهما آلهة متفرّقين كل إله منهم إنّما يتصرّف في أشياء معينة من أنواع الموجودات تحت سلطانه لا يعدوها إلى ما هو من نطاق سلطان غيره منهم، وذلك حال ملّة القبط، ليصل بذلك إلى إقناعهما بأنّ حال المنفرد بالإلهية أعظم وأغنى، فيرجعان عن اعتقاد تعدّد الآلهة، ليستنزل بذلك طائر نظرهما واستدلالهما حتّى ينجلي لهما فساد اعتقاد تعدّد الآلهة، كما يومئ إليه وصف التفرّق بالنسبة للتعدّد، ووصف القهّار بالنسبة للوحدانيّة.

وكانت ديانة القبط في سائر العصور التي حفظها التاريخ وشهدت بها الآثار ديانة شرك، أي: تعدّد الآلهة. وبالرغم على ما يحاوله بعض المؤرخين المصريين والإفرنج من إثبات اعتراف القبط بإله واحد وتأويلهم لهم تعدد الآلهة بأنها رموز للعناصر فإنّهم لم يستطيعوا أن يثبتوا إلّا أنّ هذا الإله هو معطي التصرف للآلهة الأخرى. وذلك هو شأن سائر أديان الشرك، فإنّ الشرك ينشأ عن مثل ذلك الخيال فيُصبح تعدّد آلهة. والأمم الجاهلة تتخيّل هذه الاعتقادات من تخيّلات نظام ملوكها وسلاطينها وهو النظام الإقطاعي القديم.

نعم إنّ القبط بنوا تعدد الآلهة على تعدد القوى والعناصر وبعض الكواكب ذات القوى. ومثلهم الإغريق فهم في ذلك أحسن حالا من مشركي العرب الذين ألّهوا الحجارة، وقصارى ما قسّموه في عبادتها أن جعلوا بعضها آلهة لبعض القبائل. وأحسن حالا من الصابئة الكلدان والآشوريين الذين جعلوا الآلهة رموزا للنجوم والكواكب.

وكانت آلهة القبط نحوا من ثلاثين ربا أكبرها عندهم (**آمون رع**) ومن أعظم آلهتهم ثلاثة أخر وهي: [**أوزوريس - أزيس - هوروس**]. فلله بلاغة القرآن إذ عبّر عن تعددها بالتفرّق { أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ } [39].

{ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ } انتقل إلى إبطال وجود تلك الآلهة على الحقيقة. فهي أسماء لا مسمّيات لها.

{ **أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ** } المقصود من ذلك الرد على آبائهم، سدّا لمنافذ الاحتجاج لأحقيّتها بأنّ تلك الآلهة معبودات آبائهم، وإدماجا لتلقين المعذرة لهما ليسهل لهما الإقلاع عن عبادة آلهة متعدّدة.

{ **إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ** } إبطال لجميع التصرّفات المزعومة لآلهتهم بأنّها لا حكم لها.

{ **أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ** } انتقال من أدلة إثبات انفراد الله تعالى بالإلهية إلى التعليم بامتثال أمره ونهيه، لأنّ ذلك نتيجة لإثبات الإلهية والوحدانية له. فهي بيان من حيث ما فيها من معنى الحكم.

{ **ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** } خلاصة لما تقدّم من الاستدلال، أي: ذلك الدين لا غيره مما أنتم عليه وغيركم.

{ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ } [41].

افتتح خطابهما بالنداء اهتماما بما يلقيه إليهما من التعبير.

<u>إذا كان الكلام المحكي عن يوسف عليه السلام في الآية صدر منه</u> على نحو النظم الذي نُظم به في الآية، **وهو الظاهر**، كان جمع التأويل في عبارة واحدة مجملة، لأنّ في تأويل إحدى الرؤيين ما يسوء صاحبها، قصدا لتلقيه ما يسوء بعد تأمّل قليل كيلا يفجأه من أوّل الكلام، فإنّه بعد التأمّل يعلم أنّ الذي يسقي ربه خمرا هو رائي عصر الخمر، وأنّ الذي تأكل الطير من رأسه هو رائي أكل الطير من خبز على رأسه.

<u>وإذا كان نظم الآية على غير ما صدر من يوسف عليه السلام</u> كان في الآية إيجاز لحكاية كلام يوسف.

{ **قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ** } تحقيق لما دلّت عليه الرؤيا، وأنّ تعبيرها هو ما أخبرهما به فإنّهما يستفتيان في دلالة الرؤيا على ما سيكون في شأن سجنهما، لأنّ ذلك أكبر همّهما.

الاستفتاء: مصدر استفتى إذا طلب الإفتاء. وهو: الإخبار بإزالة مشكل، أو إرشاد إلى إزالة حيرة. وفعله أفتى ملازم للهمز ولم يُسمع له فعل مجرّد، فدل ذلك على أنّ همزه في الأصل مجتلب لمعنى.

قالوا: أصل اشتقاق أفتى من الفتى وهو الشاب، فكأن الذي يفتيه يقوّي نهجه ببيانه فيصير بقوة بيانه فتيا، أي: قويا. واسم الخبر الصادر من المفتي: فتوى (بفتح الفاء وبضمّها مع الواو مقصورا، وبضم الفاء مع الياء مقصورا).

{ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ } [42].

الذي ظن نجاته هو الساقي. والظنّ هنا مستعمل في القريب من القطع لأنّه لا يشك في صحّة تعبيره الرؤيا.

{ **اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ** } أراد بذكره ذكر قضيّته ومظلمته، أي: اذكرني لسيدك، ملك مصر.

{ **فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ** } أي: أنسى الشيطان الذي نجا أن يذكره لربّه. ويحتمل أن يعود الضميران إلى يوسف عليه السلام أنساه الشيطان ذكر الله، فالذكر الثاني غير الذكر الأول.

ولعلّ كلا الاحتمالين مراد، وهو من بديع الإيجاز. وذلك أنّ نسيان يوسف عليه السلام أن يسأل الله إلهام الملك تذكّر شأنه كان من إلقاء الشيطان في أمنيّته، وكان ذلك سببا إلهيا في نسيان الساقي تذكير الملك، وكان ذلك عتابا إلهيا ليوسف عليه السلام على اشتغاله بعون العباد دون استعانة ربّه على خلاصه.

البضع: من الثلاث إلى التسع.

{ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيا تَعْبُرُونَ [43] قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلامِ بِعَالِمِينَ [44] وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ [45] }.

هذا عطف جزء من قصّة على جزء منها تكملة لوصف خلاص يوسف عليه السلام من السجن.

{ **الْمَلِكُ** } التعريف للعهد، أي: ملك مصر. وسمّاه القرآن هنا ملكا ولم يسمّه فرعون لأنّ هذا الملك لم يكن من الفراعنة، ملوك مصر القبط، وإنّما كان ملكا لمصر أيّام حكمها الهكسوس، وهم العمالقة، وهم من الكنعانيين، أو من العرب، ويُعبّر عنهم مؤرخو الإغريق بملوك الرعاة، أي البدو. وقد ملكوا بمصر(من 1900 إلى 1525 ق م). وكان عصرهم فيما بين مدة العائلة الثالثة عشرة والعائلة الثامنة عشرة من ملوك القبط، إذ كانت عائلات ملوك القبط قد بقي لها حكم في مصر العليا في مدينة طيبة كما تقدّم عند قوله تعالى

{ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ } [21]. وكان ملكهم في تلك المدّة ضعيفا لأنّ السيادة كانت لملوك مصر السفلى. ويقدّر المؤرخون أنّ ملك مصر السفلى في زمن يوسف عليه السلام كان في مدة العائلة السابعة عشرة. فالتعبير عنه بالملك في القرآن دون التعبير بفرعون مع أنّه عُبّر عن ملك مصر في زمن موسى عليه السلام بلقب فرعون هو من دقائق إعجاز القرآن العلمي.

وقدعبّر في التوراة عن ملك مصر في زمن يوسف عليه السلام فرعون وما هو بفرعون، لأنّ أمّته ما كانت تتكلم بالقبطية وإنّما كانت لغتهم كنعانية قريبة من الآرامية والعربية، فيكون زمن يوسف عليه السلام في آخر أزمان حكم ملوك الرعاة، على اختلاف شديد في ذلك.

{ **سِمَانٍ** } جمع سمينة وسمين، مثل كِرام.

{ **عِجَافٌ** } جمع عجفاء. والقياس في جمع عجفاء عُجُف لكنّه صيغ هنا بوزن فِعال لأجل المزاوجة

لمقارنه وهو { سِمَانٍ }. و**العجفاء**: ذات العَجَف (بفتحتين): الهُزال الشديد.

{ **سَبْعَ سُنْبُلاتٍ** } السنبلة تقدّمت في قوله تعالى { كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ } [البقرة:261].

الملأ: أعيان النّاس. تقدّم عند قوله تعالى { قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ } [الأعراف:60].

الإفتاء: الإخبار بالفتوى. وتقدّمت آنفا عند قوله تعالى { قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ } [41].

وكان تعبير الرؤيا مما يشتغلون به. وكان الكهنة منهم يعدّونه من علومهم، ولهم قواعد في حل رموز ما يراه النائم. وقد وُجدت في آثار القبط أوراق من البردي فيها ضوابط وقواعد لتعبير الرؤى، فإن استفتاء صاحبي السجن يوسف عليه السلام في رؤييهما ينبئ بأنّ ذلك شائع فيهم، وسؤال الملك أهل ملئه تعبير رؤياه ينبئ عن احتواء ذلك الملأ على من يُظنّ بهم علم تعبير الرؤيا، ولا يخلو ملأ الملك من حضور كهّان من شأنهم تعبير الرؤيا. وفي التوراة: " فأرسل ودعا جميع سحرة مصر وجميع حكمائها وقص عليهم حلمه فلم يكن من يعبره له " [سفر التكوين، الإصحاح:41].

الأضغاث: جمع ضِغث (بكسر الضاد المعجمة) وهو: ما جمع في حزمة واحدة من أخلاط النبات وأعواد الشجر. و**الأحلام**: جمع حُلُم (بضمتين) وهو ما يراه النائم في نومه.

والتقدير: هذه الرؤيا أضغاث أحلام. شُبّهت تلك الرؤيا بالأضغاث في اختلاطها وعدم تناسقها لذلك لا تفهم.

{ **وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ** } فلما ظهر عَوْصُ تعبير هذا الحلم تذكّر ساقي الملك ما جرى له مع يوسف عليه السلام فقال: { أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ }.

{ **وَادَّكَرَ**} بالدال المهملة أصله (**اذتكر**)، وهو افتعال من الذكر، قلبت تاء الافتعال دالا لثقلها ولتقارب مخرجيهما ثم قلبت الذال ليتأتى إدغامها في الدال لأن الدال أخف من الذال. وهذا أفصح الإبدال في ادّكر.

{ **بَعْدَ أُمَّةٍ** } بعد زمن مضى على نسيانه وصاية يوسف عليه السلام. و**الأمة**: أطلقت هنا على المدّة الطويلة، وأصل إطلاق الأمّة على المدّة الطويلة هو أنّها زمن ينقرض في مثله جيل، والجيل يُسمّى أمّة، كما في قوله تعالى { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ } [آل عمران:110] على قول من حمله على الصحابة.

وإطلاقه في هذه الآية مبالغة في زمن نسيان الساقي. وفي التوراة كانت مدة نسيانه سنتين.

{ **أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ** } ابتداء كلامه بضميره وجعله مسندا إليه وخبره فِعْلي لقصد استجلاب تعجّب الملك من أن يكون الساقي ينبئ بتأويل رؤيا عَوِصَت على علماء بلاط الملك.

{ **أُنَبِّئُكُمْ – فَأَرْسِلُونِ** } ضمائر الجمع مخاطب بها الملك على وجه التعظيم.

ولم يسم لهم المرسَل إليه لأنّه أراد أن يفاجئهم بخبر يوسف عليه السلام بعد حصول تعبيره ليكون أوقع، إذ ليس مثله مظنّة أن يكون بين المساجين.

{ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ } [46].

حُذف من الكلام ذكر إرساله ومشيه ووصوله، إذ لا غرض فيه من القصّة. وهذا من بديع الإيجاز.

{ **الصِّدِّيقُ** } أصله صفة مبالغة مشتقّة من الصدق، كما تقدم عند قوله تعالى { وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ } [المائدة:75]. وغلب استعمال وصف الصّدّيق استعمال اللقب الجامع لمعاني الكمال واستقامة السلوك في طاعة الله تعالى، لأنّ تلك المعاني لا تجتمع إلّا لمن قوي صدقه في الوفاء بعهد الدين.

وهذا ما يشهد به استعمال القرآن في آيات كثيرة مثل قوله تعالى { فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النبيئينَ وَالصِّدِّيقِينَ } [النساء:69].

وكان لقبا لأبي بكر، لقّبه به النبيّ صلى الله عليه وسلم، ومن أجل ذلك أجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنهم علي بن أبي طالب كرم الله وجهه على أنّ أبا بكر رضي الله عنه أفضل الأمّة بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم. وقد جمع الله هذا الوصف مع صفة النبوّة في قوله تعالى { وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً } [مريم:56].

فهذا الذي استفتى يوسف عليه السلام في رؤيا الملك وصف في كلامه يوسف عليه السلام بمعنى يدل عليه وصف الصّدّيق في اللسان العربي، وإنّما وصفه به عن خبرة وتجربة اكتسبها من مخالطته في السجن.

وإعادة العبارات المحكية عن الملك بعينها إشارة إلى أنّه بلّغ السؤال كما تلقّاه، وذلك تمام أمانة الناقل.

{ **النَّاسِ** } هنا هم الملك وأهل مجلسه، لأنّ تأويل تلك الرؤيا يهمّهم جميعا ليعلم الملك تأويل رؤياه ويعلم أهل مجلسه أنّ ما عجزوا عن تأويله قد علمه من هو أعلم منهم. وهذا وجه قوله { **لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ** }.

{ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ [47] ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ [48] ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ [49] }.

عبَّر الرؤيا بجميع ما دلّت عليه، فالبقرات لسنين الزراعة، لأنّ البقرة تُتَّخذ للإثمار. والسمن رمز للخصب. والعجف رمز للقحط. والسنبلات رمز للأقوات، فالسنبلات الخضر رمز لطعام يُنتفع به، وكونها سبعا رمز للانتفاع به في السبع السنين، فكل سنبلة رمز لطعام سنة. والسنبلات اليابسات رمز لما يُدّخر، وكونها سبعا رمز لادخارها في سبع سنين، لأن البقرات العجاف أكلت البقرات السمان، وتأويل ذلك: أنّ سني الجدب أتت على ما أثمرته سِنو الخصب.

كانت رؤيا الملك لطفا من الله بالأمّة التي آوت يوسف عليه السلام، ووحيا أوحاه الله إلى يوسف عليه السلام بواسطة رؤيا الملك، كما أوحى إلى سليمان عليه السلام بواسطة الطير. ولعلّ الملك قد استعدّ للصلاح والإيمان.

{ **تَزْرَعُونَ** } خبر عمّا يكون من عملهم، وذلك أنّ الزرع عادتهم، فذكره إيّاه تمهيد للكلام الآتي.

الدأب: العادة والاستمرار عليها. وتقدّم في قوله تعالى { كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ } [آل عمران:11].

الشداد: وصف لسني الجدب، لأنّ الجدب حاصل فيها، فوصفها بالشدّة على طريقة المجاز العقلي.

الإحصان: الإحراز والادّخار، أي: الوضع في الحصن وهو المطمور.

<u>والمعنى</u>: أنّ تلك السنين المجدبة يفنى فيها ما ادّخر لها إلّا قليلا منه. وهذا تحريض على استكثار الادّخار.

{ **ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ** } بشارة وإدّخار لمسرّة الأمل بعد الكلام المؤيّس، وهو من لازم انتهاء مدّة الشدّة، ومن سنن الله تعالى في حصول اليسر بعد العسر.

{ **يُغَاثُ** } معناه يعطون الغيث، وهو المطر. و**العصر**: عصر الأعناب خمورا.

{ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ } [50].

أبى يوسف عليه السلام الخروج من السجن قبل أن تثبت براءته ممّا رُمي به في بيت العزيز، فإنّ تبرئة العرض من التهم الباطلة مقصد شرعي، وليكون حضوره لدى الملك مرموقا بعين لا تنظر إليه بشائبة.

{ **فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ** } جعل طريق تقرير براءته مفتتحة بالسؤال عن الخبر لإعادة ذكره من أوّله. وهذه حكمة عظيمة تحقّ بأن يؤتسى بها. وهي تطلّب المسجون باطلا أن يبقى في السجن حتّى تتبين براءته من السبب الذي سجن لأجله، وهي راجعة إلى التحلّي بالصبر حتّى يظهر النصر.

وجعل السؤال عن النسوة اللاتي قطعن أيديهن دون امرأة العزيز تسهيلا للكشف عن أمرها، لأنّ ذكرها مع مكانة زوجها من الملك ربّما يصرف الملك عن الكشف، رعيا للعزيز، ولأنّ النسوة كن شواهد على إقرار امرأة العزيز بأنّها راودت يوسف عليه السلام عن نفسه. فلا جرم كان طلب الكشف عن أولئك النسوة منتهى الحكمة في البحث وغاية الإيجاز في الخطاب.

{ **إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ** } من كلام يوسف عليه السلام. وهي تذييل وتعريض بأنّ الكشف المطلوب سينجلي عن براءته وظهور كيد الكائدات له ثقة بالله ربه أنّه ناصره.

وإضافة كيد إلى ضمير النسوة مع أنّه واقع من بعضهن، وهي امرأة العزيز، للإبهام المُعين على التبيان.

{ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ } [51].

وقوع هذا بعد جملة { ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ } إلى آخرها مؤذن بكلام محذوف، تقديره: فرجع فأخبر الملك فأحضر الملك النسوة اللائي كانت جمعتهن امرأة العزيز فقال لهن {مَا خَطْبُكُنَّ} إلى آخره.

الخطب: الشأن المهم من حالة أو حادثة. قيل: سُمّي خطبا لأنّه يقتضي أن يخاطب المرء صاحبه بالتساؤل عنه. وقيل: هو مأخوذ من الخطبة. أي يخطب فيه. وإنّما تكون الخطبة في أمر عظيم.

{ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ } أسندت المراودة إلى ضمير النسوة لوقوعها من بعضهنّ غير معين، أو لأنّ القالة التي شاعت في المدينة كانت مخلوطة ظنّا أنّ المراودة وقعت في مجلس المتكأ.

{ قُلْنَ } مفصولة لأجل كونها حكاية جواب عن كلام الملك. أي: قالت النسوة عدا امرأة العزيز.

{ حَاشَ لِلَّهِ } مبالغة في النفي والتنزيه. والمقصود: التبرّؤ ممّا نسب إليهنّ من المراودة.

{ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ } مبيّنة لإجمال النفي الذي في { حَاشَ لِلَّهِ }. وهي جامعة لنفي مراودتهنّ إيّاه ومراودته إيّاهنّ لأنّ الحالتين من أحوال السوء.

{ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ } هذا يدلّ على كلام محذوف وهو أنّ امرأة العزيز كانت من جملة النسوة اللائي أحضرهن الملك. شملها كلام الملك، فإنّ المراودة إنّما وقعت من امرأة العزيز دون النسوة اللاتي أعدّت لهن متكئا، ففي الكلام إيجاز حذف.

{ حَصْحَصَ الحَقُّ } ثبت واستقر. وهو براءة يوسف عليه السلام مما رمته به امرأة العزيز. وإنّما ثبت حينئذ لأنّه كان محل قيل وقال وشك، فزال ذلك باعترافها بما وقع. والتعبير بالماضي مع أنّه لم يثبت إلّا من إقرارها الذي لم يسبق، لأنّه قريب الوقوع فهو لتقريب زمن الحال من الماضي.

{ أَنَا رَاوَدْتُهُ } تقديم المسند إليه على المسند الفعلي للقصر، إبطال أن يكون النسوة راودنه. فهذا إقرار منها على نفسها، وشهادة لغيرها بالبراءة.

{ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ } [52].

ظاهر نظم الكلام أنّ الجملة من قول امرأة العزيز، وعلى ذلك حمله الأقلّ من المفسرين، وعزاه ابن عطيّة إلى فرقة من أهل التأويل، ونُسب إلى الجُبَّائي، واختاره الماوردي، وهو في موقع العلّة لما تضمّنته جملة

{ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ } وما عطف عليها من إقرار ببراءة يوسف عليه السلام بما كانت رمته به.

الخيانة: هي تهمته بمحاولة السوء معها كذبا، لأنّ الكذب ضدّ أمانة القول بالحقّ.

{ بِالْغَيْبِ } تمدّحت بعدم الخيانة على أبلغ وجه إذ نفت الخيانة في المغيب وهو حائل بينه وبين دفاعه عن

نفسه، وحالة المغيب أمكن لمزيد الخيانة، لأنّ الحاضر قد يتفطن لقصد الخائن فيدفع خيانته بالحجّة.
{ **وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ** } عطف على { لِيَعْلَمَ } وهو علة ثانية لإصداعها بالحقّ، أي: ولأنّ الله لا يهدي كيد الخائنين.

{ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ } [53].

ظاهر ترتيب الكلام أنّ هذا من كلام امرأة العزيز، مضت في بقية إقرارها. أي: ما أبرئ نفسي من محاولة هذا الإثم لأنّ النفس أمّارة بالسوء وقد أمرتني بالسوء ولكنّه لم يقع.
{ **إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ** } تعليل. أي: لا أدّعي براءة نفسي من ارتكاب الذنب، لأنّ النفوس كثيرة الأمر بالسوء.
{ **إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي** } استثناء من عموم الأزمان، أي: أزمان وقوع السوء، إلّا وقت رحمة الله عبده، أي: رحمته بأن يُقيّض له ما يصرفه عن فعل السوء، أو يُقيِّض حائلا بينه وبين فعل السوء.
{ **إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ** } تذييل يراد به الثناء على الله بأنّه شديد المغفرة لمن أذنب، وشديد الرحمة لعبده إذا أراد صرفه عن الذنب.
وهذا يقتضي أنّ قومها يؤمنون بالله ويحرّمون الحرام، وذلك لا ينافي أنّهم كانوا مشركين فإنّ المشركين من العرب كانوا يؤمنون بالله أيضا، وكانوا يعرفون البرّ والذنب.
وقيل: هذا الكلام كلام يوسف عليه السلام، وبذلك فسّرها مجاهد وقتادة وأبو صالح وابن جريج والحسن والضحاك والسدي وابن جبير، واقتصر عليه الطبري. لأنّ معنى هذه الجملة أليق بأن يكون من كلام يوسف عليه السلام لأنّ من شأنه أن يصدر عن قلب مليء بالمعرفة.

{ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ [54] قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ } [55].

{ **أَسْتَخْلِصْهُ** } السين والتاء للمبالغة. والمعنى أجعله خالصا لنفسي، وهذا كناية عن شدّة اتصاله به والعمل معه. وقد دلّ الملكَ على استحقاق يوسف عليه السلام تقريبه منه ما ظهر من حكمته وعلمه، وصبره على تحمّل المشاق، وحسن خلقه. ونزاهته، فكل ذلك أوجب اصطفاءه.
{ **فَلَمَّا كَلَّمَهُ** } فالمكلِّم هو يوسف عليه السلام كلّم الملك كلاما أعجب الملك بما فيه من حكمة وأدب.
{ **قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ** } جواب (لمّا). والقائل هو الملك لا محالة.
المكين: صفة مشبّهة من مكُن (بضم الكاف) إذا صار ذا مكانة، وهي المرتبة العظيمة، وهي مشتقة من المكان.

الأمين: فعيل بمعنى مفعول، أي: مأمون على شيء. أي: موثوق به في حفظه.
وهذا التنويه بشأنه والثناء عليه تعريض بأنّه يريد الاستعانة به في أمور مملكته وبأن يقترح عليه ما يرجوا من خير فلذلك أجابه بقوله:
{ **قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ** } حكاية جوابه كلام الملك، ولذلك فُصلت على طريقة المحاورات. أي: اجعلني متصرّفا في خزائن الأرض.
{ **خَزَائِنِ** } جمع خِزانة، أي: البيت الذي يُختزن فيه الحبوب والأموال.
{ **الْأَرْضِ** } تعريف العهد، أي: أرض مصر.
لم يسأل مالا لنفسه ولا عرضا من متاع الدنيا، ولكن سأل أن يولّيه خزائن المملكة ليحفظ الأموال ويعدل في توزيعها ويرفق بالأمّة.
{ **إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ** } تعليل، فإنّه علم أنّه اتصف بصفتين يعسر حصول إحداهما في النّاس بله كلتيهما، وهما: الحفظ لما يليه، والعلم بتدبير ما يتولّاه، ليعلم الملك أنّ مكانته لديه وائتمانه إيّاه قد صادفا محلّهما وأهلهما، وأنّه حقيق بهما لأنّه متّصف بما يفي بواجبهما، وذلك صفة الحفظ المحقِّق للائتمان، وصفة العلم المحقِّق للمكانة. وفي هذا تعريف بفضله ليهتدي النّاس إلى اتّباعه. وهذا من قبيل الحسبة.

وهذه الآية أصل لوجوب عرض المرء نفسه لولاية عمل من أمور الأمّة إذا علم أنّه لا يصلح له غيره لأنّ ذلك من النصح للأمّة، وخاصة إذا لم يكن ممّن يُتّهم على إيثار منفعة نفسه على مصلحة الأمّة.
وقد علم يوسف عليه السلام أنه أفضل النّاس هنالك، لأنّه كان المؤمن الوحيد في ذلك القطر، فهو لإيمانه بالله يبثّ أصول الفضائل التي تقتضيها شريعة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام.
وهذا لا يعارض ما جاء في (صحيح مسلم) عن عبد الرحمان بن سمرة قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" يا عبد الرحمان لا تسأل الإمارة فإنّك إن أُعطيتها عن مسألة وُكِلْتَ إليها، وإن أُعطيتها عن غير مسألة أُعنت عليها ".** لأنّ عبد الرحمان بن سمرة لم يكن منفردا بالفضل من بين أمثاله ولا راجحا على جميعهم.
ومن هذه الآية أخذ فقهاء المذهب جواز طلب القضاء لمن يعلم أنّه أهل وأنّه إن لم يُوَلَّ ضاعت الحقوق.
قال المازري: " يجب على من هو أهل الاجتهاد والعدالة السعي في طلب القضاء إن علم أنّه إن لم يله ضاعت الحقوق أو وَلِيَه من لا يحلّ أن يُولَّى.
وقال عياض في كتاب الإمارة من (شرح صحيح مسلم)، ما ظاهره الاتفاق على جواز الطلب في هذه الحالة، وظاهر كلام ابن رشد في (المقدّمات) حرمة الطلب مطلقا. قال ابن مرزوق: وإنما رأيت مثل ما نقل المازري أو قريبا منه للغزالي في (الوجيز).

{ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ [56] وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } [57].

{ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ } تقدم تفسيرها آنفا.

التبوّؤ: اتخاذ مكان للبَوء، أي: الرجوع، فمعنى التبوّؤ النزول والإقامة. وتقدّم في قوله تعالى { أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً } [يونس:87].

{ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ } كناية عن تصرّفه في جميع مملكة مصر فهو عند حلوله بمكان من المملكة لو شاء أن يحلّ بغيره لفعل. يجوز أن تكون حالا من يوسف، ويجوز أن تكون بيانا لـ { مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ }.

وقرأ الجمهور {حَيْثُ يَشَاءُ} - بياء الغيبة - وقرأ ابن كثير { حَيْثُ نَشَاءُ } - بنون العظمة – أي: حيث يشاء الله، أي: حيث نأمره أو نلهمه. والمعنى متّحد لأنّه لا يشاء إلّا ما شاءه الله.

{ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ } إلى آخرها تذييل لمناسبة عمومه لخصوص ما أصاب يوسف عليه السلام من الرحمة في أحواله في الدنيا وما كان له من مواقف الإحسان التي كان ما أُعطيه من النعم وشرف المنزلة جزاء لها في الدنيا، لأنّ الله لا يضيع أجر المحسنين. ولأجره في الآخرة خير من ذلك له ولكل من آمن واتقى.

والتعبير في جانب الإيمان بصيغة الماضي وفي جانب التقوى بصيغة المضارع، لأن الإيمان عقد القلب الجازم فهو حاصل دفعة واحدة، وأمّا التقوى فهي متجدّدة بتجدّد أسباب الأمر والنهي واختلاف الأعمال والأزمان.

{ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ [58] وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ [59] فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ [60] }.

طوى القرآن أخَرة أمر امرأة العزيز وحلول سني الخصب والادخار ثم اعتراء سني القحط لقلّة جدوى ذلك كلّه في الغرض الذي نزلت السورة لأجله، وهو إظهار ما يلقاه الأنبياء من ذويهم وكيف تكون لهم عاقبة النصر والحسنى، ولأنّه معلوم حصوله، ولذلك انتقلت القصّة إلى ما فيها من مصير إخوة يوسف عليه السلام في حاجة إلى نعمته، ومن جمع الله بينه وبين أخيه الذي يحبّه، ثم بينه وبين أبويه، ثم مظاهر عفوه عن إخوته وصلته رحمه، لأنّ لذلك كلّه أثرا في معرفة فضائله.

وكان مجيء إخوة يوسف عليه السلام إلى مصر للميرة عند حلول القحط بأرض مصر وما جاورها من بلاد فلسطين، منازل آل يوسف عليه السلام، وكان مجيئهم في السنة الثالثة من سني القحط. وإنّما جاء

إخوته عدا بنيامين، وإنّما رحلوا للميرة كلّهم لعل ذلك لأنّ التزويد من الطعام كان بتقدير يُراعى فيه عدد الممتارين، وأيضا ليكونوا جماعة لا يطمع فيهم قطّاع الطريق، وكان الذين جاؤوا عشرة.

ودخولهم عليه يدلّ على أنّه كان يراقب أمر بيع الطعام بحضوره ويأذن به في مجلسه خشية إضاعة الأقوات لأنّ بها حياة الأمّة.

وعرف يوسف - عليه السلام - إخوته بعد مضي سنين على فراقهم لقوة فراسته.

{ **وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ** } وقع الإخبار عنهم بالجملة الاسميّة للدلالة على أنّ عدم معرفتهم به أمر ثابت متمكّن منهم، وكان الإخبار عن معرفته إيّاهم بالجملة الفعلية المفيدة للتجدّد للدلالة على أنّ معرفته إيّاهم حصلت بحدثان رؤيته إيّاهم دون توسّم وتأمل. وتقديم المجرور بلام التقوية للرعاية على الفاصلة، وللاهتمام بتعلّق نكرتهم إيّاه، للتنبيه على أنّ ذلك من صنع الله تعالى، وإلّا فإن شمائل يوسف عليه السلام ليست مما شأنه أن يجهل وينسى.

الجهاز: (بفتح الجيم وكسرها) ما يحتاج إليه المسافر. والتجهيز: إعطاء الجهاز.

{ **ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ** } يقتضي وقوع حديث منهم عن أنّ لهم أخا من أبيهم لم يحضر معهم، وإلّا لكان إنباء يوسف عليه السلام لهم بهذا يشعرهم أنّه يكلمهم عارف بهم وهو لا يريد أن يكشف ذلك لهم.

{ **أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ** } ترغّب لهم في العودة إليه، وقد علم أنّهم مضطرّون إلى العودة إليه لعدم كفاية الميرة التي امتاروها لعائلة ذات عدد من النّاس مثلهم.

{ **خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ** } دلّ على أنّه كان ينزل الممتارين في ضيافته. وهذه الجملة كناية عن الوعد بأن يوفي لهم الكيل ويكرم ضيافتهم إن أتوا بأخيهم.

{ **فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي** } أي: لا يكال لكم، كناية عن منعهم من ابتياع الطعام.

{ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ } [61].

وعد بأن يبذلوا قصارى جهدهم في الإتيان بأخيهم وإشعار بصعوبة ذلك. فمعنى {**سَنُرَاوِدُ**} سنحاول أن لا يشحّ به، وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ } [24].

{ **وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ** } عطف على الوعد بتحقيق الموعود به، فهو فعل ما أمرهم به، وأكّدوا ذلك بالجملة الاسمية وحرف التأكيد

{ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } [62].

قرأ الجمهور { **لِفِتْيَتِهِ** } بوزن فِعلة جمع تكسير فتى مثل أخ وإخوة. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن

عاصم، وخلف { **لِفِتْيَانِهِ** } بوزن إخوان. والأوّل صيغة قلة والثاني صيغة كثرة. وعدد الفتيان لا يختلف.

الفتى: من كان في مبدإ الشباب، ومؤنثه فتاة، ويُطلق على الخادم تلطّفا، لأنّهم كانوا يستخفّون بالشباب في الخدمة، وكانوا أكثر ما يستخدمون العبيد.

البضاعة: المال أو المتاع المعدّ للتجارة. والمراد بها هنا الدراهم التي ابتاعوا بها الطعام كما في التوراة.

{ **لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا** } رجاء أن يعرفوا أنّها عين بضاعتهم إمّا بكونها مسكوك سكة بلادهم وإمّا بمعرفة الصرر التي كانت مصرورة فيها كما في التوراة، أي: يعرفون أنّها وضعت هنالك قصدا عطيّة من عزيز مصر.

الرحال: جمع رحل، وهو ما يوضع على البعير من متاع الراكب، ولذا سُمّي البعير راحلة.

الانقلاب: الرجوع.

{ **لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** } لأنّه لمّا أمرهم بالرجوع استشعر بنفاذ رأيه أنّهم قد يكونون غير واجدين بضاعة ليبتاعوا بها الميرة، لأنّه رأى مخايل الضيق عليهم.

{ **فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** [63] **قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** [64] }.

{ **مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ** } حيل بيننا وبين الكيل في المستقبل، لأنّ رجوعهم بالطعام المُعبّر عنه بالجهاز قرينة أنّ المنع من الكيل يقع في المستقبل.

الكيل: مصدر صالح لمعنى الفاعلية والمفعولية، وهو هنا بمعنى الإسناد إلى الفاعل، أي: لن نكيل، فالممنوع هو ابتداء الكيل منهم. فتعيّن أنّهم حكوا القصّة لأبيهم مفصّلة واختصرها القرآن لظهور المراد.

{ **وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** } أكّدوا حفظه بالجملة الاسمية الدالة على الثبات وبحرف التوكيد.

{ **قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** } الاستفهام إنكاري فيه معنى النفي، فهو يستفهم عن وجه التأكيد في قولهم { وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ }. والمقصود من الجملة على احتمالها هو التفريع الذي في قوله { فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً }، أي: خير حفظا منكم، فإنّ حفِظه الله سلِم وإن لم يحفظه لم يسلم كما لم يسلم أخوه من قبل حين أمِنتكم عليه.

وهم قد اقتنعوا بجوابه وعلموا منه أنّه مرسِلٌ معهم أخاهم، ولذلك لم يراجعوه في شأنه.

قرأه حمزة والكسائي، وحفص { **حَافِظاً** } على أنّه حال من اسم الجلالة وهي حال لازمة. وقرأه الجمهور { **حِفْظًا** } مصدر منصوب على التمييز.

{ **وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ** } [65].

{ **مَتَاعَهُمْ** } أصل المتاع ما يُتمتّع به من العروض والثياب. وتقدّم عند قوله تعالى { لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ } [النساء:102].

{ **مَا نَبْغِي** } يجوز أن يكون للاستفهام الإنكاري بتنزيل المخاطب منزلة من يتطلّب منهم تحصيل بغية فينكرون أن تكون لهم بغية أخرى، أي: ماذا نطلب بعد هذا. ويجوز كون { مَا } نافية، والمعنى واحد لأنّ الاستفهام الإنكاري في معنى النفي.

{ **هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا** } مبيّنة لجملة { مَا نَبْغِي } على الاحتمالين. وإنّما علموا أنها رُدّت إليهم بقرينة وضعها في العدل بعد وضع الطعام وهم قد كانوا دفعوها إلى الكيّالين، أو بقرينة ما شاهدوا في يوسف عليه السلام من العطف عليهم، والوعد بالخير إن هم أتوا بأخيهم.

{ **وَنَمِيرُ أَهْلَنَا** } أي: نأتيهم بالميرة. و**المِيرة**: الطعام المجلوب.

{ **وَنَحْفَظُ أَخَانَا** } ذكروا ذلك تطمينا لخاطر أبيهم.

{ **وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ** } زيادة في إظهار حرصهم على سلامة أخيهم لأنّ في سلامته فائدة لهم بازدياد كيل بعير. لأن يوسف عليه السلام لا يعطي الممتار أكثر من حمل بعير من الطعام، فإذا كان أخوهم معهم أعطاه حمل بعير في عداد الإخوة. وبه تظهر المناسبة بين هذه الجملة والتي قبلها. وهذه الجمل مرتّبة ترتيبا بديعا لأنّ بعضها متولّد عن بعض.

{ **ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ** } الإشارة إلى الطعام الذي في متاعهم. وإطلاق الكيل عليه من إطلاق المصدر على المفعول بقرينة الإشارة.

{ **قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ** } [66].

{ **تُؤْتُونِ مَوْثِقاً** } اشتهر الإيتاء والإعطاء وما يراد بهما في إنشاء الحلف ليطمئن بصدق الحالف غيره وهو المحلوف له. وفي حديث الحشر: " **فيعطي الله من عهود ومواثيق أن لا يسأله غيره** ".

كما أطلق فعل الأخذ على تلقّي المحلوف له، قال تعالى { وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً } [النساء:21].

ولعلّ سبب إطلاق فعل الإعطاء أنّ الحالف كان في العصور القديمة يعطي المحلوف له شيئا تذكرة لليمين مثل سوطه أو خاتمه، أو أنّهم كانوا يضعون عند صاحب الحقّ ضمانا يكون رهينة عنده. وقد اشتهر ضدّ ذلك في إبطال التوثيق يقال: ردّ عليه حلفه.

المَوثق: أصله مصدر ميمي للتوثيق، أطلق هنا على المفعول وهو ما به التوثيق، يعني: **اليمين**.

ومعنى ذلك: أن يجعلوا الله شاهدا عليهم فيما وعدوا به. وذلك أن يقولوا: لك ميثاق الله أو عهد الله أو نحو ذلك، وبهذا يضاف الميثاق والعهد إلى اسم الجلالة كأنّ الحالف استودع الله ما به التوثّق للمحلوف له.

{ **لَتَأْتُنَّنِي بِهِ** } جواب لقسم محذوف دلّ عليه { مَوْثِقاً }. وهو حكاية لقول يقوله أبناؤه المطلوب منهم إيقاعه.

{ **إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ** } استثناء من عموم أحوال، و**الإحاطة**: الأخذ بأسر أو هلاك ممّا هو خارج عن قدرتهم، وأصله إحاطة الجيش في الحرب، فاستُعمل مجازا في الحالة التي لا يُستطاع التغلب عليها.

{ **وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ** } تذكير لهم بأنّ الله رقيب على ما وقع بينهم. وهذا توكيد للحلف.

الوكيل: فعيل بمعنى مفعول، أي: موكول إليه.

{ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ } [67].

{ **وَقَالَ** } إعادة الفعل للإشارة إلى اختلاف زمن القولين، لأنّه اطمأن لرعايتهم ابنه وظهرت له المصلحة في سفرهم للإمتار.

{ **يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ** } صادر في وقت إزماعهم الرحيل.

الأبواب: أبواب المدينة. وكانت مدينة منفيس من أعظم مدن العالم فهي ذات أبواب. وإنّما نهاهم أن يدخلوها من باب واحد خشية أن يسترعي عددهم أبصار أهل المدينة وحرّاسها، وأزياؤهم أزياء الغرباء عن أهل المدينة، أن يوجسوا منهم خيفة من تجسّس أو سرقة، فربما سجنوهم أو رصدوا الأعين إليهم.

المتفرّقة: أراد بها المتعدّدة لأنّه جعلها في مقابلة الواحد. ووجه العدول عن المتعددة إلى المتفرقة الإيماء إلى علّة الأمر وهي إخفاء كونهم جماعة واحدة.

{ **وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ** } معترضة في آخر الكلام، أي: وما أغني عنكم بوصيّتي هذه شيئا. أراد بهذا تعليمهم الاعتماد على توفيق الله ولطفه مع الأخذ بالأسباب المعتادة الظاهرة تأدّبا مع واضع الأسباب ومقدّر الألطاف في رعاية الحالين، لأنّا لا نستطيع أن نطّلع على مراد الله في الأعمال فعلينا أن نتعرّفها بعلاماتها ولا يكون ذلك إلّا بالسعي لها.

الإغناء: هنا مشتق من الغَناء (بفتح الغين وبالمد) وهو الإجزاء والاضطلاع وكفاية المهم. وأصله مرادف الغِنى (بكسر الغين و القصر) وهما معا ضد الفقر. وشاع هذا الاستعمال المجازي حتّى غلب على هذا الفعل، فلذلك كثر في الكلام تخصيص الغَناء بالفتح والمد بهذا المعنى، وتخصيص الغِنَى بالكسر والقصر في معنى ضد الفقر ونحوه. وهي تفرقة حسنة من دقائق استعمالهم في تصاريف المترادفات.

{ **مِنْ شَيْءٍ** } نائب مناب شيئا، وزيدت (من) لتوكيد عموم شيء في سياق النفي.

{ **إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ** } في موضع التعليل لمضمون { وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ }.

الحُكم: هنا التصرّف والتقدير، ومعنى الحصر أنّه لا يتم إلّا ما أراده الله. وليس للعبد أن ينازع مراد الله في نفس الأمر ولكن واجبه أن يتطلّب الأمور من أسبابها لأنّ الله أمر بذلك.

{ **عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ** } في موضع البيان لجملة { وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ } ليُبيّن لهم أنّ وصيّته بأخذ الأسباب مع التنبيه على الاعتماد على الله هو معنى التوكّل الذي يضلّ في فهمه كثير من النّاس اقتصارا وإنكارا.

{ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } [68].

جملة معترضة أغنت عن جمل كثيرة، وهي أنّهم ارتحلوا ودخلوا من حيث أمرهم أبوهم، ولمّا دخلوا من حيث أمرهم سلموا ممّا كان يخافه عليهم. وما كان دخولهم من حيث أمرهم يغني عنهم من الله من شيء لو قدّر الله أن يحاط بهم، فالكلام إيجاز.

{ **قَضَاهَا** } أنفذها. يقال: قضى حاجة لنفسه، إذا أنفذ ما أضمره في نفسه، أي: نصيحة لأبنائه أداها لهم ولم يدّخرها عنهم ليطمئن قلبه بأنّه لم يترك شيئا يظنّه نافعا لهم إلّا أبلغه إليهم.

الحاجة: الأمر المرغوب فيه. سُمّي حاجة لأنّه محتاج إليه، فهي من التسمية باسم المصدر. والحاجة التي في نفس يعقوب عليه السلام هي حرصه على تنبيههم للأخطار التي تعرض لأمثالهم في مثل هذه الرحلة إذا دخلوا من باب واحد. وتعليمهم الأخذ بالأسباب مع التوكّل على الله.

{ **وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ** } معترضة، وهو ثناء على يعقوب عليه السلام بالعلم والتدبير، وأنّ ما أسداه من النصح لهم هو من العلم الذي آتاه الله، وهو من علم النبوّة.

{ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** } استدراك. والمعنى: أنّ الله أمر يعقوب عليه السلام بأخذ أسباب الاحتياط والنصيحة مع علمه بأنّ ذلك لا يغني عنهم من الله من شيء قدّره لهم، فإنّ مراد الله تعالى خفيّ عن النّاس، وقد أمر بسلوك الأسباب المعتادة. وعَلِم يعقوب عليه السلام ذلك ولكن أكثر الناس لا يعلمون تطلب الأمرين فيهملون أحدهما. فمنهم من يُهمل معرفة أنّ الأسباب الظاهرية لا تدفع أمرا قدّره الله، وعَلِم أنّه واقع، ومنهم من يهمل الأسباب وهو لا يعلم أن الله أراد في بعض الأحوال عدم تأثيرها.

ويفسر هذا المعنى قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لمّا أمر المسلمين بالقفول عن (عَمواس) لمّا بلغه ظهور الطاعون بها وقال له أبو عبيدة: أفرارا من قدر الله؟ فقال عمر رضي الله عنه: " لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، ألسنا نفر من قدر الله إلى قدر الله...".

{ **وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } [69].

الإيواء: الإرجاع. وتقدّم في قوله { أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ } [يونس:8]. وأطلق الإيواء هنا مجازا على الإدناء و**التقريب**، كأنّه إرجاع إلى مأوى، وإنّما أدناه ليتمكّن من الإسرار إليه بقوله { إِنِّي أَنَا أَخُوكَ }.

{ **قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ** } كلّمه بكلمة مختصرة بليغة إذ أفاده أنّه هو أخوه الذي ظنّه أكله الذئب.

{ **فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } و**الابتئاس**: مطاوعة الإبئاس، أي: جعل أحد بائسا، أي: صاحب بؤس.

البؤس: الخزن والكدر. والنهي عن الابتئاس مقتض الكفّ عنه، أي: أزل عنك الحزن.

{ **كَانُوا يَعْمَلُونَ** } راجعان إلى إخوتهما بقرينة المقام، وأراد بذلك ما كان يجده أخوه (بنيامين) من الحزن لهلاك أخيه الشقيق وفظاظة اخوته وغيرتهم منه.

{ **فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ** [70] **قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ** [71] **قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ** [72] **قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ** [73] **قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ** [74] **قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ** [75] }.

{ **جَعَلَ السِّقَايَةَ** } إسناد جعل السقاية إلى ضمير يوسف مجاز عقلي، وإنّما هو آمر بالجعل والذين جعلوا السقاية هم العبيد الموكّلون بالكيل.

السقاية: إناء كبير يسقى به الماء والخمر.

الصواع: لغة في الصاع، وهو وعاء للكيل يقدر بوزن رطل وربع أو وثلث. فتسمية هذا الإناء سقاية وتسميته صواعا جارية على ذلك. وفي التوراة سُمّي طاسا، ووصف بأنّه من فضة.

وإضافة الصواع إلى الملك لتشريفه، وتهويل سرقته.

التأذين: النداء المكرّر. وتقدّم عند قوله تعالى { فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ } [الأعراف:44].

العير: اسم للحمولة من إبل وحمير وما عليها من أحمال وما معها من ركّابها، فهو اسم لمجموع هذه الثلاثة. { **إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ** } أسندت السرقة إلى جميعهم جريا على المعتاد من مؤاخذة الجماعة بجرم الواحد منهم.

{ **وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ** } حال من ضمير { قَالُوا }. ومرجع ضمير { أَقْبَلُوا } عائد إلى فتيان يوسف عليه السلام أي: وقد أقبل عليهم فتيان يوسف عليه السلام

{ **وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ** } جعلوا جعلا لمن يأتي بالصواع.

{ **وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ** } قاله واحد من المقبلين، وهو كبيرهم. و**الزعيم**: الكفيل.
وهذه الآية قد جعلها الفقهاء أصلا لمشروعية الجعل والكفالة. وفيه نظر، لأنّ يوسف عليه السلام لم يكن يومئذ ذا شرع حتّى يُستأنس للأخذ بـ (أنّ شرع من قبلنا شرع لنا) إذا حكاه كلام الله أو رسوله. ولو قدّر أنّ يوسف عليه السلام كان يومئذ نبيّا فلا يثبت أنّه رسول بشرع، إذ لم يثبت أنّه بعث إلى قوم فرعون، ولم يكن ليوسف عليه السلام أتباع في مصر قبل ورود أبيه واخوته وأهلهم. فهذا مأخذ ضعيف.
{ **قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ** } (التاء) حرف قسم على المختار. أكّدوا براءتهم بالقسم لأنّهم كانوا وفدوا على مصر مرّة سابقة.
{ **مَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ** } تحكيم، لأنّهم لا يسعهم إلّا أن يعيّنوا جزاء يؤخذون به. أي: ما جزاء سارقه إن تبيّن كذبكم بوجود الصواع في رحالكم.
{ **جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ** } { جَزَاؤُهُ } الأول مبتدأ، و{ مَنْ } يجوز أن تكون شرطيّة وهي مبتدأ ثان وأنّ جملة { وُجِدَ فِي رَحْلِهِ } جملة الشرط، وجملة { فَهُوَ جَزَاؤُهُ } جواب الشرط، و(الفاء) رابطة للجواب، والجملة المركبة من الشرط وجوابه خبر عن المبتدإ الأول.
ويجوز أن تكون { مَنْ } موصولة مبتدأ ثانيا، وجملة { وُجِدَ فِي رَحْلِهِ } صلة الموصول. والمعنى: أن من وجد في رحله الصواع هو جزاء السرقة. وهذا معلوم من السياق، لأنّ السرقة لا تبلغ عقوبتها حدّ القتل. ويظهر أنّ ذلك كان حكما مشهورا بين الأمم أن يُسترقَّ السارق. وهو قريب من استرقاق المغلوب في القتال.
{ **كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ** } بقيّة كلام إخوة يوسف عليه السلام، أي: كذلك حكم قومنا في جزاء السارق.

{ **فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ** } [76].

أوعية: جمع وعاء، وهو الظرف، مشتق من الوعي وهو الحفظ. والابتداء بأوعية غير أخيه لإبعاد أن يكون الذي يوجد في وعائه هو المقصود من أوّل الأمر.
{ **كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ** }
الكيد: فعل يُتوصّل بظاهره إلى مقصد خفي. وهنا هو إلهام يوسف عليه السلام لهذه الحيلة المحكمة في وضع الصواع وتفتيشه، وإلهام إخوته إلى ذلك الحكم المُصْمَت. وأسند الكيد إلى الله لأنّه ملهمه فهو مسببه. وجعل الكيد لأجل يوسف عليه السلام لأنّه لفائدته.
{ **مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ** } بيان للكيد باعتبار جميع ما فيه من وضع السقاية ومن حكم إخوته على أنفسهم بما يلائم مرغوب يوسف عليه السلام من إبقاء أخيه عنده، ولولا ذلك لما

كانت شريعة القبط تخوّله ذلك، فقد قيل: إن شرعهم في جزاء السارق أن يؤخذ منه الشيء ويضرب ويُغرّم ضعفي المسروق أو ضعفي قيمته. ومثله ما كان في شرع الرومان من استرقاق المدين، فتعيّن أن المراد بالدين الشريعة لا مطلق السلطان.

{ **نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ** } تذييل لقصّة أخذ يوسف عليه السلام أخاه لأنّ فيها رفع درجة يوسف عليه السلام في الحال بالتدبير الحكيم من وقت مناجاته أخاه إلى وقت استخراج السقاية من رحله.

ورفع درجة أخيه في الحال بإلحاقه ليوسف عليه السلام في العيش الرفيه والكمال بتلقي الحكمة من فيه.

ورفع درجات إخوته وأبيه في الاستقبال بسبب رفع درجة يوسف عليه السلام وحنوّه عليهم.

فالدرجات مستعارة لقوة الشرف من استعارة المحسوس للمعقول.

{ **وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ** } تذييل ثان، وفيها شاهد لتفاوت النّاس في العلم المؤذن بأن علم الذي خلق لهم العلم لا ينحصر مداه، وأنّه فوق كل نهاية من علم النّاس. والفوقية مجاز في شرف الحال، لأنّ الشرف يُشبّه بالارتفاع.

{ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ } [77].

لمّا بُهتوا بوجود الصُّواع في رحل أخيهم اعتراهم ما يعتري المبهوت فاعتذروا عن دعواهم تنزّههم عن السرقة { وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ } [73]. عذرا بانّ أخاهم قد تسرّبت إليه خصلة السرقة من غير جانب أبيهم فزعموا أنّ أخاه الذي أُشيع فقده كان سرق من قبل. وقد علم فتيان يوسف عليه السلام أنّ المتّهم أخ من أم أخرى. فهذا اعتذار بتعريض بجانب أم إخوتهم وهي زوجة أبيهم وهي (**راحيل ابنة لابان**) خال يعقوب عليه السلام. وكان ليعقوب عليه السلام أربع زوجات:

1/ **راحيل**: وهذه أمّ (يوسف عليه السلام / بنيامين).

و2/ **ليئة**: بنت لابان أخت راحيل وهي أمّ (روبين / شمعون / لاوي / يهوذا / بساكر / زبولون).

3/ **بلهة**: جارية راحيل وهي أمّ (دانا / نفتالي).

4/ **زُلفة**: جارية راحيل أيضا وهي أمّ (جاد / أشير).

{ **قَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ** } بهتانا ونفيا للمعرّة عن أنفسهم. وليس ليوسف عليه السلام سرقة من قبل. ولم يكن إخوة يوسف عليه السلام يومئذ أنبياء. وكان هذا الكلام بمسمع من يوسف عليه السلام.

{ **فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا** } يجوز أن يعود الضمير البارز إلى جملة { قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ }، ويكون المعنى: أنّه تحمّلها ولم يُظهر غضبا منها، وأعرض عن زجرهم وعقابهم مع أنّها طعن فيه وكذب. وإلى هذا التفسير ينحو أبو علي الفارسي وأبو حيان. ويكون { قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً } كلاما مستأنفا حكاية لما أجابهم به يوسف عليه السلام صراحة على طريقة حكاية المحاورة.

ويجوز أن يكون ضمير الغيبة في { فَأَسَرَّهَا } عائد إلى ما بعده { قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً }. وبهذا فسر الزجّاج والزمخشري، أي: قال في نفسه، وهو يشبه ضمير الشأن والقصة. والإسرار، على هذا الوجه، مستعمل في حقيقته، وهو إخفاء الكلام عن أن يسمعه سامع.

{ **وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ** } قيل: هي توكيد لجملة { فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ }. وشأن التوكيد أن لا يعطف. ووجه عطفها ما فيها من المغايرة للتي قبلها بزيادة قيد { لَهُمْ } المشعر بأنّه أبدى لأخيه أنّهم كاذبون. ويجوز أن يكون المراد لم يبد لهم غضبا ولا عقابا مبالغة في كظم غيظه، فيكون في الكلام تقدير مضاف مناسب، أي: لم يبد أثرها.

{ **شَرٌّ** } اسم تفضيل، وأصله أشرّ.

{ **مَكَاناً** } تمييز لنسبة الأشرّ. وأطلق المكان على الحالة على وجه الاستعارة، والحالة هي السرقة، وإطلاق المكان والمكانة على الحالة شائع. وهو تشبيه الاتصاف بوصف ما بالحلول في مكان.

{ **وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ** } هو كلام جامع، أي: الله أعلم بصدقكم فيما وصفتم أو بكذبكم.

{ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ [78] قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذاً لَظَالِمُونَ [79] }.

{ **يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ** } نادوا بوصف العزيز إمّا لأنّ كل رئيس ولاية مهمّة يُدعى بما يرادف العزيز فيكون يوسف عليه السلام عزيزا، كما أن رئيس الشرطة يدعى العزيز كما في قوله تعالى { امْرَأَتُ الْعَزِيزِ } [30]. وإمّا لأنّ يوسف ضُمت إليه ولاية العزيز الذي اشتراه فجمع التصرفات، وراجعوه في أخذ أخيهم.

{ **إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً** } وصفوا أباهم بثلاث صفات تقتضي الترقيق عليه، وهي: حنان الأبوّة، وصفة الشيخوخة، واستحقاقه جبر خاطره لأنّه كبير قومه، أو لأنّه انتهى في الكبر إلى أقصاه، فالأوصاف مسوقة للحثّ على سراح الابن.

{ **فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ** } المكان: أصله محل الكون، أي: ما يستقر فيه الجسم، وهو هنا مجاز في العوض، لأنّ العوض يضعه آخذه في مكان الشيء المعوّض عنه كما في الحديث: **" هذه مكان حجّتك "**.

{ **إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ** } تعليل لإجابة المطلوب لا للطلب. والتقدير: فلا ترد سؤالنا لأنّا نراك من المحسنين، فمثلك لا يصدر منه ما يسوء أبا شيخا كبيرا.

{ **مَعَاذَ اللَّهِ** } مصدر ميمي اسم للعوذ، وهو اللجأ إلى مكان للتحصّن. وانتصب هذا المصدر على المفعولية المطلقة نائبا عن فعله المحذوف. والتقدير: أعوذ بالله معاذا، فلما حُذف الفعل جعل الاسم المجرور بباء التعدية متصلا بالمصدر بطريق الإضافة فقيل: معاذ الله، كما قالوا: سبحان الله، عوضا عن أسبح الله.

{ **أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ** } المستعاذ منه. أي: نلجأ إلى الله أن يعصمنا من أخذ من لا حقّ لنا في أخذه، أي: أن يعصمنا من الظلم، لأنّ أخذ من وُجد المتاع عنده صار حقّا عليه بحكمه على نفسه. وأمّا أخذ غيره فلا يسوغ.

{ **فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيّاً قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ [80] ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ [81] وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ [82]** }.

{ **اسْتَيْأَسُوا** } بمعنى يئسوا فالسين والتاء للتأكيد. واليأس منه: اليأس من إطلاقه أخاهم.

{ **خَلَصُوا نَجِيّاً** } اعتزلوا وانفردوا. واصله من الخلوص وهو الصفاء من الأخلاط. ومنه قول عبد الرحمان بن عوف لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما في آخر حجّة حجّها حيث عزم عمر رضي الله عنه على أن يخطب في الناس فيحذّرهم من قوم يريدون المزاحمة في الخلافة بغير حق: " يا أمير المؤمنين إنّ الموسم يجمع رعاع النّاس فأمهل حتّى تقدم المدينة فتخلص بأهل الفقه...".

النجي: اسم من المناجاة، وانتصابه على الحال. والتناجي: **المحادثة سرا**، أي: متناجين.

{ **قَالَ كَبِيرُهُمْ** } بدل اشتمال من جملة { خَلَصُوا نَجِيّاً }، لأنّ المناجاة تشتمل على أقوال كثيرة منها قول كبيرهم هذا، وكبيرهم هو أكبرهم سنّا وهو (**روبين**) بكر يعقوب عليه السلام.

{ **أَلَمْ تَعْلَمُوا** } الاستفهام تقريري مستعمل في التذكير بعدم اطمئنان أبيهم بحفظهم لابنه.

{ **وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ** } جملة معترضة، أي: تفريطكم في يوسف عليه السلام كان من قبل الموثق، أي: فهو غير مصدّقكم فيما تخبرون به من اخذ بنيامين في سرقة الصواع.

{ **فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي** } كعلامة عند يعقوب عليه السلام يعرف بها صدقهم في سبب تخلّف بنيامين، إذ لا يرضى لنفسه أن يبقى غريبا لولا خوفه من أبيه، ولا يرضى بقية أشقائه أن يكيدوا له كما يكيدون لغير الشقيق.

{ **أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي** } اللام للأجل، أي: يحكم الله بما فيه نفعي. والمراد بالحكمهنا: التقدير.

{ **وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ** } تذييل. أي: الذي حكمه لا جور فيه، أو الذي حكمه لا يستطيع أحد نقضه، وفيه معنى الثناء، للتعريض بالسؤال: أن يقدّر الله له ما فيه رأفة في رد غربته.

وعدم التعرّض لقول صدَر من (بنيامين) يدافع به عن نفسه يدلّ على أنّه لازم السكوت لأنّه كان مطّلعا على مراد يوسف عليه السلام من استبقائه عنده.

{ ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا...} ثم لقّنهم ما يقولون لأبيهم.

{ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ } احتراس من تحقّق كونه سرق، وهو إمّا لقصد التلطّف مع أبيهم في نسبة ابنه إلى السرقة، وإمّا لأنّهم علموا من أمانة أخيهم ما خالجهم به الشكّ في وقوع السرقة منه.

{ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا } مجاز عن سؤال أهلها. والمراد بها مدينة مصر. والمدينة والقرية مترادفتان. وقد خُصّت المدينة في العرف بالقرية الكبيرة.

{ وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا } المراد رفاقهم في عيرهم القادمين إلى مصر من أرض كنعان.

{ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ } [83].

جُعلت الجملة في صورة الجواب عن الكلام الذي لقّنه أخوهم على طريقة الإيجاز. والتقدير: فرجعوا إلى أبيهم فقالوا ذلك الكلام الذي لقّنه إيّاهم (روبين) فقال أبوهم: { بَلْ سَوَّلَتْ ... }.

و تهمته أبناءه بأن يكونوا تمالؤوا على أخيهم بنيامين هو ظن مستند إلى القياس على ما سبق من أمرهم في قضية يوسف عليه السلام.

{ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً } هذا كشف منه إذ لم ييأس من حياة يوسف عليه السلام.

{ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ } تعليل لرجائه من الله بأنّ الله عليم فلا تخفى عليه مواقعهم المتفرّقة. حكيم فهو قادر على إيجاد أسباب جمعهم بعد التفرّق.

{ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ [84] قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ [85] قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ [86] يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ [87] }.

انتقال إلى حكاية حال يعقوب عليه السلام في انفراده عن أبنائه ومناجاته نفسه، فالتولّي حاصل عقب المحاورة.

{ تَوَلَّى } انصرف، وهو انصراف غضب. ولمّا كان التولّي يقتضي الاختلاء بنفسه ذُكر من أحواله تجدّد أسفه على يوسف عليه السلام.

{ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ } **الأسف**: أشد الحزن، أَسِف كحزن. ونداء الأسف مجاز. نزل الأسف منزلة من يعقل فيقول له: احضر فهذا أوان حضورك. والألف عوض عن ياء المتكلّم فإنّها في النداء تبدّل ألفا.

وإنّما ذكر القرآن تحسّره على يوسف عليه السلام ولم يذكر تحسّره على ابنيه الآخرين لأنّ ذلك التحسّر

هو الذي يتعلّق بهذه القصّة، فلا يقتضي ذكره أنّ يعقوب عليه السلام لم يتحسّر قطّ إلّا على يوسف.
{ **وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ** } قيل ابيضاض العينين: ضعف البصر. وظاهره أنه تبدل لون سوادهما من الهزال. وعندي أن ابيضاض العينين كناية عن عدم الإبصار، وأنّ الحزن هو السبب لعدم الإبصار كما هو الظاهر.
الكظيم: مبالغة للكاظم. والكظم: الإمساك النفساني، أي: كاظم للحزن لا يُظهره بين النّاس، ويبكي في خلوته.
{ **قَالُوا تَاللَّهِ** } محاورة بنيه إيّاه عندما سمعوا قوله { يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ }. والتاء حرف قسم، وهي عوض عن واو القسم. وجواب القسم هو { **تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ** }. المقصود من هذا اليمين الإشفاق عليه بأنّه صائر إلى الهلاك بسبب عدم تناسيه مصيبة يوسف عليه السلام.
{ **تَفْتَأُ** } تفتر. يقال: فَتِئَ: إذا فتر عن الشيء. والمعنى: لا تفتر تذكر يوسف.
{ **حَرَضاً** } مصدر، وهو شدّة المرض المفضي إلى الهلاك. وفي جعلهم الغاية الحرض أو الهلاك تعريض بأنّه يذكر أمرا لا طمع في تداركه.
{ **قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** } أجابهم بأنّ ذكره يوسف عليه السلام موجّه إلى الله دعاء بان يردّه عليه، لأنّه كان يعلم أن يوسف لم يهلك ولكنّه بأرض غربة مجهولة، وعلم ذلك بوحي أو بفراسة صادقة.
البثّ: الهمّ الشديد، وهو التفكير في الشيء المسيء. و**الحزن**: الأسف على فائت.
فبين الهمّ والحزن العموم والخصوص الوجهي، وقد اجتمعا ليعقوب عليه السلام، لأنّه كان مهتمّا بالتفكير في مصير يوسف عليه السلام وما يعترضه من الكرب في غربته وكان آسفا على فراقه.
{ **وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** } لينبّههم إلى قصور عقولهم عن إدراك المقاصد العالية ليعلموا أنّهم دون مرتبة أن يعلّموه أو يلوموه. وفي هذا تعريض بردّ تعريضهم بأنّه يطمع في المحال.
{ **يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ** } مستأنفة استئنافا بيانيا، صرّح لهم بشيء ممّا يعلمه وكاشفهم بما يحقّق كذبهم. حين أذنه الله بذلك عند تقدير انتهاء البلوى.
التحسّس: شدّة التطلّب والتعرّف، وهو أعم من التجسّس (بالجيم) فهو التطلب مع اختفاء وتستر.
{ **وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ** } الرَوْح (بفتح الراء): النفَس (بفتح الفاء) استعير لكشف الكرب، لأنّ الكرب والهمّ يطلق عليهما الغمّ وضيق النفس وضيق الصدر، بكذلك يطلق التنفّس والتروّح على ضدّ ذلك، ومنه استعارة قولهم: تنفّس الصبح إذا زالت ظلمة الليل.
{ **إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** } تعليل للنهي عن اليأس. والمعنى: لا تيأسوا من الظفر بيوسف عليه السلام فإنّ الله إذا شاء تفريج كربة هيّأ لها أسبابها، ومن كان يؤمن بأن الله واسع القدرة لا يُحيل مثل ذلك، فحقّه أن يأخذ في سببه ويعتمد على الله في تيسيره، وأمّا القوم الكافرون بالله فهم

يقتصرون على الأمور الغالبة في العادة وينكرون غيرها.

{ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ } [88].

الفاء عاطفة على كلام مقدّر دل عليه المقام، أي: فارتحلوا إلى مصر بقصد استطلاق بنيامين من عزيز مصر ثم بالتعرّض إلى التحسّس من يوسف عليه السلام فوصلوا مصر، فدخلوا على يوسف.

وقد تقدّم آنفا وجه دعائهم يوسف عليه السلام بوصف العزيز [78].

{ **مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ** } أرادوا بمس الضرّ إصابته. وتقدّم عند قوله { وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ } [الأنعام:17].

{ **وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ** } البضاعة القليلة التي لا يُرغب فيها، فكأن صاحبها يزجيها، أي: يدفعها بكلفة ليقبلها المدفوعة إليه. والمراد بها: مال قليل للامتيار.

{ **وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا** } طلبوا التصدّق منه تعريضا بإطلاق أخيهم لأنّ ذلك فضل منه إذ صار مملوكا له كما تقدّم.

{ **إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ** } تعليل لاستدعائهم التصدّق عليهم.

{ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ [89] قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ [90] قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ [91] قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ [92] اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ } [93].

{ **قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ** } الاستفهام مستعمل في التوبيخ، فهو توبيخ على ما يعلمونه محقّقا من أفعالهم مع يوسف عليه السلام وأخيه؛ وهي بالنسبة ليوسف عليه السلام واضحة، وأمّا بالنسبة إلى بنيامين فهي ما كانوا يعاملونه به من الإهانة التي تنافيها الأخوّة، ولذلك جعل ذلك الزمن زمن جهالتهم بقوله { **إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ** }.

وإنّما كاشفهم بحاله الآن لأنّ الاطلاع على حاله يقتضي استجلاب أبيه وأهله إلى السكنى بأرض ولايته، وذلك كان متوقّفا على أشياء لعلّها لم تتهيّأ إلّا حينئذ، فقد صار يوسف عليه السلام جدّ مكين.

ولا تعرف أسماء ملوك مصر في هذا الزمن الذي كان فيه يوسف عليه السلام لأنّ المملكة أيامئذ كانت منقسمة إلى مملكتين: إحداهما ملوكها من القبط وهم الملوك، والمملكة الثانية ملوكها من الهكسوس،

ويقال لهم العمالقة أو الرعاة وهم عرب. ودام هذا الانقسام (511 سنة) من سنة 2214 ق م إلى سنة 1703ق م.

{ **أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ** } يدلّ على أنّهم استشعروا من كلامه ثمّ من ملامحه ثمّ من تفهُّم قول أبيهم.

{ **وَهَذَا أَخِي** } خبر مستعمل في التعجيب من جمع الله بينهما بعد طول الفرقة.

{ **إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** } تعليل لجملة { مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا }. فيوسف عليه السلام اتقى الله وصبر، وبينيامين صبر ولم يعص الله فكان تقيّا. أراد يوسف عليه السلام تعليمهم وسائل التعرّض إلى نعم الله تعالى، وحثّهم على التقوى والتخلّق بالصبر، تعريضا بأنّهم لم يتقوا الله فيه وفي أخيه ولم يصبروا على إيثار أبيهم إيّاهما عليهم. وهذا من أفانين الخطابة أن يغتنم الواعظ الفرصة لإلقاء الموعظة، وهي فرصة تأثر السامع وانفعاله وظهور شواهد صدق الواعظ في موعظته.

{ **الْمُحْسِنِينَ** } وضع للظاهر موضع المضمر إذ مقتضى الظاهر أن يقال: فإنّ الله لا يضيع أجرهم. فعدل عنه إلى المحسنين للدلالة على أنّ ذلك من الإحسان، وللتعميم في الحكم ليكون كالتذييل، ويدخل في عمومه هو وأخوه. ثم إنّ هذا في مقام التحدّث بالنعمة وإظهار الموعظة، وهو سائغ للأنبياء، لأنّه من التبليغ كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" إنّي لأتقاكم لله وأعلمكم به "**.

{ **قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا** } **الإيثار**: التفضيل بالعطاء. وصيغة اليمين مستعملة في لازم الفائدة، وهي علمهم ويقينهم بأنّ ما ناله هو تفضيل من الله، وأنّهم عرفوا مرتبته.

{ **وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ** } اعترفوا بذنبهم. و**الخاطئ**: فاعل الخطيئة، أي: الجريمة. أي: نفعت فيهم الموعظة.

{ **قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ** } أعلمهم بأنّ الذنب قد غُفر فرفَع عنهم الذم.

التثريب: التوبيخ والتقريع. والظاهر أن منتهى الجملة هو قوله تعالى { عَلَيْكُمُ }.

{ **الْيَوْمَ** } من تمام الجملة ولكنّه متعلّق بفعل { يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ }، أعلمهم بأنّ الله يغفر لهم في تلك الساعة.

{ **اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا** } الأظهر أنّه جعل إرسال قميصه علامة على صدق إخوته فيما يبلّغونه إلى أبيهم من أمر يوسف عليه السلام بجلبه، فإن قمصان الملوك والكبراء تنسج إليهم خصيصا ولا توجد أمثالها عند النّاس، وكان الملوك يخلعونها على خاصّتهم، فجعل يوسف عليه السلام إرسال قميصه علامة صدقهم.

{ **فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً** } إلقاء القميص على وجه أبيه لقصد المفاجأة بالبشرى. وأمّا كونه يصير بصيرا فحصل ليوسف عليه السلام بالوحي فبشرّهم به من ذلك الحين.

{ **وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ** } لقصد صلة أرحام عشيرته. قال المفسّرون: وكانت عشيرة يعقوب عليه السلام ستا وسبعين نفسا بين رجال ونساء.

{ **وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ** [94] **قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ** [95] **فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** [96] **قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ** [97] **قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** [98] }.

وجدان يعقوب ريح يوسف عليه السلام إلهام خارق للعادة جعله الله بشارة له. وهو داخل في قوله تعالى { وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً } [الشورى:51].

الريح: الرائحة، وهي ما يعبق من طيب تدركه حاسة الشمّ.

{ **لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ** } جواب { لَوْلا } محذوف دل عليه التأكيد، أي: لولا أن تفندوني لتحققتم ذلك.

التفنيد: النسبة للفَنَد (بفتحتين)، وهو اختلال العقل من الخوف. وحُذفت ياء المتكلم تخفيفا بعد نون الوقاية وبقيت الكسرة.

{ **تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ** } قاله الحاضرون من أهله ولم يسبق ذكرهم، وليسوا أبناءه لأنّهم كانوا سائرين في طريقهم إليه.

الضلال: البعد عن الطريق الموصلة. أرادوا طمعه في لقاء يوسف عليه السلام، ووصفوا ذلك بالقديم لطول مدّته، وكانت مدّة غيبة يوسف عن أبيه عليهما السلام اثنين وعشرين سنة. وكان خطابهم إيّاه بهذا مشتملا على شيء من الخشونة، إذ لم يكن أدب عشيرته منافيا لذلك في عرفهم.

{ **فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ** } فائدة التأكيد في هذه الآية تحقيق هذه الكرامة الحاصلة ليعقوب عليه السلام لأنّها خارق عادة، ولذلك لم يؤت بـ { أَنْ } في نظائر هذه الآية ممّا لم يكن فيه داع للتأكيد.

البشير: فعيل بمعنى مُفعل، أي: المبشّر. وهذا البشير هو يهوذا بن يعقوب عليه السلام تقدّم بين يديّ العير ليكون أوّل من يخبر أباه بخبر يوسف عليه السلام.

وارتدّ: رجع، وهو افتعال مطاوع ردّه، أي: ردّ الله إليه قوّة بصره، كرامة له وليوسف عليهما السلام وخارقة للعادة.

{ **قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** }

جواب للبشارة لأنّها تضمنت القول. ولذلك جاء فعل { قَالَ } مفصولا غير معطوف لأنّه على طريقة المحاورات، وكان بقية أبنائه قد دخلوا فبيّن لهم مجمل كلامه.

{ **اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا** } توبة واعتراف بالذنب، فسألوا أباهم أن يطلب لهم المغفرة من الله.

{ **سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي** } وعدهم بالاستغفار في المستقبل للدلالة على أنّه يلازم الاستغفار لهم في أزمنة المستقبل. ويعلم منه أنّه استغفر لهم في الحال بدلالة الفحوى، ولكنّه أراد أن ينبّههم إلى عظم الذنب

وعظمة الله تعالى وأنّه سيكرّر الاستغفار لهم.

{ **إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** } في موضع التعليل، وأكّد بضمير الفصل لتقوية الخبر.

{ **فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ [99] وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ [100]** }.

طوى ذكر سفرهم من بلادهم إلى دخولهم على يوسف عليه السلام إذ ليس فيه من العبر شيء.

وأبواه أحدهما يعقوب عليه السلام وأما الآخر فالصحيح أن أم يوسف عليه السلام (راحيل) توفيت قبل ذلك حين ولدت بنيامين، ولذلك قال جمهور المفسّرين: أطلق الأبوان على الأب وزوج الأب وهي (ليئة) خالة يوسف عليه السلام وهي التي تولّت تربيته، على طريقة التغليب والتنزيل.

{ **ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ** } جملة دعائية، فالأمر للدعاء كالذي في قوله تعالى { ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ } [الأعراف:49].

الأمن: حالة اطمئنان النفس وراحة البال وانتفاء الخوف من كل ما يُخاف منه، وهو يجمع جميع الأحوال الصالحة للإنسان من الصحة والرزق ونحو ذلك، ولذلك قالوا في دعوة إبراهيم عليه السلام { رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً } إنّه جمع في هذه الجملة جميع ما يُطلب لخير البلد.

{ **إِنْ شَاءَ اللَّهُ** } تأدّب مع الله كالاحتراس في الدعاء الوارد بصيغة الأمر وهو لمجرد التيمّن، فوقوعه في الوعد والعزم والدعاء بمنزلة وقوع التسمية في أوّل الكلام، وليس هو من الاستثناء الوارد النهي عنه في الحديث: أن لا يقول اغفر لي إن شئت.

{ **وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً** } الذين خرّوا سجّدا هم أبواه وإخوته.

العرش: سرير للقعود فيكون مرتفعا على سوق، وفيه سعة تمكّن الجالس من الاتكاء.

السجود: وضع الجبهة على الأرض تعظيما للذات او لصورتها أو لذكرها.

الخرور: الهُويّ والسقوط من علو إلى الأرض.

وكان السجود تحية الملوك وأضرابهم، ولم يكن يومئذ ممنوعا في الشرائع وإنّما منعه الإسلام لغير الله تحقيقا لمعنى مساواة النّاس في العبودية والمخلوقية. ولذلك فلا يعد قبوله السجود من أبيه عقوقا لأنّه لا غضاضة عليهما منه إذ هو عادتهم.

{ **قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً** } أي: ولم يجعلها باطلا من أضعاث الأحلام .

{ **أَحْسَنَ بِي** } أحسن إليّ. يقال: أحسن به وأحسن إليه.

{ **وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ** } المجيء نعمة، فأسنده إلى الله تعالى وهو مجيئهم بقصد الاستيطان حيث هو.

البدو: ضد الحضر، سُمّي بدوا لأنّ سكّانه بادون، أي: ظاهرون لكل وارد، إذ لا تحجبهم جدران ولا تغلق عليهم أبواب.

{ **مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي** } أشار إلى مصائبه السابقة من الإبقاء في الجبّ، ومشاهدة مكر إخوته به. وقد ألمّ به إجمالا اقتصارا على شكر النعمة وإعراضا عن التذكير بتلك الحوادث المكدّرة للصلة بينه وبين إخوته، فمر بها مر الكرام وباعدها عنهم بقدر الإمكان إذ ناطها بنزغ الشيطان.

النزغ: مجاز في إدخال الفساد في النفس. شُبّه بنزغ الراكب الدابة وهو نخسها.

وتقدّم عند قوله تعالى { وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ } [الأعراف:200].

{ **إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ** } مستأنفة استئنافا ابتدائيا لقصد الاهتمام بها وتعليم مضمونها.

اللطف: تدبير الملائم. وهو يتعدّى باللام على تقدير لطيف لأجل ما يشاء اللطف به، ويتعدى بالباء { اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ } [الشورى:19]. وتقدّم تحقيق معنى اللطف عند قوله { وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ } [الأنعام:103].

{ **إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** } مستأنفة أيضا أو تعليل، وحرف التوكيد للاهتمام. وتوسيط ضمير الفصل للتقوية.

{ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ } [101].

أعقب ذكر نعمة الله عليه بتوجّهه إلى مناجاة ربّه بالاعتراف بأعظم نعم الدنيا والنعمة العظمى في الآخرة، فذكر ثلاث نعم: اثنتان دنيويتان وهما: نعمة الولاية على الأرض ونعمة العلم، والثالثة أخروية وهي نعمة الدين الحق المعبّر عنه بالإسلام.

{ **آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ** } جعل الذي أوتيه بعضا من الملك ومن التأويل لأنّ ما أوتيه بعض من جنس الملك وبعض من التأويل، إشعارا بأنّ ذلك في جانب ملك الله وفي جانب علمه شيء قليل.

{ **فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } نداء محذوف حرف ندائه. و**الفاطر**: الخالق. وتقدّم عند قوله تعالى { قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [الأنعام:14].

{ **أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ** } من قبيل الخبر في إنشاء الدعاء. فالمعنى: كن وليي في الدنيا والآخرة.

الوليّ: الناصر.

{ **تَوَفَّنِي مُسْلِماً** } طلب توفّيه على الدين الحق يقتضي أنّه متصف بالدين الحقّ المعبّر عنه بالإسلام من الآن، فهو يسأل الدوام عليه إلى الوفاة.

المسلم: الذي اتصف بالإسلام، وهو الدين الكامل، وهو ما تعبد الله به الأنبياء والرسل عليهم السلام.
وقد تقدّم عند قوله تعالى { فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } [آل عمران:102].
الإلحاق: حقيقته جعل الشيء لاحقا، أي: مدركا من سبقه في السير. وأطلق هنا مجازا على المزيد في عِداد قوم.
الصالحون: المتّصفون بالصلاح، وهو التزام الطاعة. وأراد بهم الأنبياء. فإن كان يوسف عليه السلام يومئذ نبيا فدعاؤه لطلب الدوام على ذلك، وإن كان نُبِّئَ فيما بعد فهو دعاء بحصوله، وقد صار نبيّا بعد ورسولا.

{ **ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ** } [102].

تذييل للقصّة عند انتهائها. والإشارة إلى ما ذكر من الحوادث، أي: ذلك المذكور.
الغيب: ما غاب عن علم الناس، وأصله مصدر غاب فسُمّي به الشيء الذي لا يشاهد.
والضمائر عائدة إلى كل من صدر منه ذلك في هذه القصة من الرجال والنساء على طريقة التغليب، يشمل إخوة يوسف عليه السلام، والسيارة، وامرأة العزيز، ونسوتها.
{ **أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ** } تفسيره مثل قوله تعالى { وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ } [15].
وهذه الجملة استخلاص لمواضع العبرة من القصّة. وفيها منّة على النبيّ صلى الله عليه وسلم، وتعريض للمشركين بتنبيههم لإعجاز القرآن من الجانب العلمي، فإنّ صدور ذلك من النبيّ صلى الله عليه وسلم الأمّيّ آية كبرى على أنّه وحي من الله تعالى.
{ **وَهُمْ يَمْكُرُونَ** } حال من ضمير { أَجْمَعُوا }، وأُتي بصيغة المضارع لاستحضار الحالة العجيبة.

{ **وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ** [103] **وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ** [104] }.

انتقال من سوق هذه القصّة إلى العبرة بتصميم المشركين على التكذيب بعد هذه الدلائل البيّنة، فالواو للعطف على { ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ } [102] باعتبار إفادتها أنّ هذا القرآن وحي من الله وأنّه حقيق بأن يكون داعيا سامعيه إلى الإيمان بالنبيّ صلى الله عليه وسلم. ولمّا كان ذلك من شأنه أن يكون مُطمعا في إيمانهم عُقّب بإعلام النبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّ أكثرهم لا يؤمنون.
{ **النَّاسِ** } يجوز حمله على جميع جنس النّاس، ويجوز أن يراد به ناس معيّنون وهم القوم الذين دعاهم النبيّ صلى الله عليه وسلم بمكة وما حولها، فيكون عموما عرفيا.
{ **وَلَوْ حَرَصْتَ** } في موضع الحال معترضة بين اسم { مَا } وخبرها.

الحرص: شّدة الطلب لتحصيل شيء ومعاودته. وتقدّم في قوله تعالى { حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ } [براءة:128].

{ **وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ** } معطوفة على جملة { وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ }، أي: لا يسوءك عدم إيمانهم فلست تبتغي أن يكون إيمانهم جزاء على التبليغ بل إيمانهم لفائدتهم، كقوله تعالى { قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ } [الحجرات:17].

وضمير الجمع عائد إلى النّاس، أي: الذين أرسل إليهم النبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ **إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ** } بمنزلة التعليل، والقصر إضافي، أي: ما هو إلّا ذكر للعالمين.

{ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ [105] وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ [106] }.

أي: ليس إعراضهم عن آية حصول العلم للأمّيّ بما في الكتب السالفة فحسب بل هم معرضون عن آيات كثيرة في السماوات والأرض.

{ **كَأَيِّنْ** } اسم يدل على كثرة العدد المبهم يُبيّنه تمييز مجرور بـ { مِنْ }. وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ } [آل عمران:146].

الآية: العلامة. والمراد هنا الدّالة على وحدانية الله تعالى بقرينة ذكر الإشراك بعدها.

{ **يَمُرُّونَ عَلَيْهَا** } يرونها، والمرور مجاز مُكنًّى به عن التحقق والمشاهدة إذ لا يصحّ حمل المرور على المعنى الحقيقي بالنسبة لآيات السماوات، فالمرور هنا كالذي في قوله تعالى { وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً } [الفرقان:72].

{ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ** } في موضع الحال من ضمير { يَمُرُّونَ }، أي: وما يؤمن أكثر النّاس إلّا وهم مشركون. والمراد أهل الشرك من العرب. وهذا إبطال لما يزعمونه من الاعتراف بأنّ الله خالقهم، وبأنّ إيمانهم بالله كالعدم لأنّهم لا يؤمنون بوجود الله إلّا في تشريكهم معه غيره في الإلهية. والمقصود من هذا تشنيع حالهم.

{ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } [107].

تفظيع حالهم وجرأتهم على خالقهم والاستمرار على ذلك دون إقلاع. فكأنّهم في إعراضهم عن توقّع حصول غضب الله بهم آمنون أن تأتيهم غاشية من عذابه في الدنيا أو تأتيهم الساعة بغتة فتحول بينهم وبين التوبة ويصيرون إلى العذاب الخالد. والاستفهام مستعمل في التوبيخ.

{ **غَاشِيَةٌ** } الغشي والغشيان: الإحاطة من كل جانب، قال تعالى { وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ } [لقمان:32].

الغاشية: الحادثة التي تحيط بالنّاس. والعرب يؤنّثون هذه الحوادث مثل الطامة والصاخة والداهية والمصيبة والكارثة والحادثة والواقعة والحاقة.
البغتة: الفجأة. وتقدّمت عند قوله تعالى { حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً } [الأنعام:31].

{ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [108].

استئناف ابتدائي للانتقال من الاعتبار بدلالة نزول هذه القصّة للنبيّ صلى الله عليه وسلم الأمّيّ على صدق نبوّته وصدقه فيما جاء به من التوحيد إلى الاعتبار بجميع ما جاء به من هذه الشريعة عن الله تعالى، وهو المُعبّر عنه بالسبيل على وجه الاستعارة . وهي استعارة متكرّرة في القرآن وفي كلام العرب.
السبيل: يؤنّث كما في هذه الآية، ويذكّر أيضا كما في قوله تعالى { وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً } [الأعراف:146]. والإشارة إلى الشريعة بتنزيل المعقول منزلة المحسوس لبلوغه من الوضوح للعقول حدّا لا يخفى فيه إلّا عمن لا يُعدّ مدركا.
{ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ }
البصيرة: الحجّة الواضحة، والمعنى: أدعو إلى الله ببصيرة متمكّنا منها. ووصف الحجّة ببصيرة مجاز عقلي. والبصير: صاحب الحجّة لأنّه بها صار بصيرا بالحقيقة. ومثله وصف الآية بمبصرة في قوله تعالى { فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً } [سورة النمل:13]. وبعكسه يوصف الخفاء بالعمى كقوله تعالى { وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ } [هود:28].
وفي الآية دلالة على أنّ أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين الذين آمنوا به مأمورون بأن يدعوا إلى الإيمان بما يستطيعون. وقد قاموا بذلك بوسائل بثّ القرآن وأركان الإسلام والجهاد في سبيل الله. وقد كانت الدعوة إلى الإسلام في صدر زمان البعثة واجبا على الأعيان لقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" بلغوا عني ولو آية "**، أي: بقدر الاستطاعة. ثم لمّا ظهر الإسلام وبلغت دعوته الأسماع صارت الدعوة إليه واجبا على الكفاية كما دل عليه قوله تعالى { وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ } [آل عمران:104].
سبحان الله: مصدر التسبيح جاء بدلا عن الفعل للمبالغة. والتقدير: وأسبح الله سبحانا، أي: أدعو الناس إلى توحيده وطاعته وأنزّهه عن النقائص التي يشرك بها المشركون من ادعاء الشركاء، والولد، والصاحبة.
{ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } بمنزلة التذييل لما قبلها لأنّها تعم ما تضمنته.

{ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ** [109] **حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ** [110] }.

هاتان الآيتان متصل معناهما بما تضمّنه قوله تعالى { ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ - إلى قوله - قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي } [102-108]، فإنّ تلك الآي تضمّنت الحجّة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاءهم به، وتضمّنت أنّ الذين أشركوا غير مصدّقينه عنادا وإعراضا عن آيات الصدق. فالمعنى: أنّ إرسال الرسل عليهم السلام سنّة إلهية قديمة فلماذا يجعل المشركون نبوءتك أمرا مستحيلا فلا يصدّقون بها مع ما قارنها من آيات الصدق.

{ **إِلَّا رِجَالاً** } أي: إنسان أو شخص. فليس المراد الاحتراز عن المرأة. واختير هنا دون غيره لمطابقته الواقع فإن الله لم يرسل رسلا من النساء لحكمة قبول قيادتهم في نفوس الأقوام إذ المرأة مستضعفة عند الرجال دون العكس.

فالقصر إضافي، أي: لم يكن الرسل عليهم السلام قبلك ملائكة أو ملوكا من ملوك المدن الكبيرة فلا دلالة في الآية على نفي إرسال رسول من أهل البادية مثل خالد بن سنان العبسي، ويعقوب عليه السلام حين كان ساكنا في البدو كما تقدّم.

{ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** } الاستفهام إنكاري، فإنّ مجموع المتحدّث عنهم ساروا في الأرض فرأوا عاقبة المكذّبين مثل عاد وثمود. وهذا التفريع اعتراض بالوعيد والتهديد.

{ **وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ** } خبر، وهو اعتراض بالتبشير وحسن العاقبة للرّسل عليهم السلام ومن آمن بهم وهم الذين اتقوا، وهو تعريض بسلامة عاقبة المتّقين في الدنيا، وتعريض أيضا بأنّ دار الآخرة أشد أيضا على الذين من قبلهم من العاقبة التي كانت في الدنيا، فحصل إيجاز بحذف جملتين.

{ **حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا** } ابتدائية، حجّة على المكذّبين، فتقدير المعنى: وما أرسلنا من قبلك إلّا رجالا يوحى إليهم فكذّبوا المرسل إليهم واستمروا على التكذيب حتى إذا استيئس الرسل.

{ **اسْتَيْأَسَ** } مبالغة في يئس، كما تقدّم آنفا في قوله تعالى { وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ } [87].

{ **جَاءَهُمْ نَصْرُنَا** } جواب { إِذَا } لأنّ هذا الترتيب في المعنى هو المقصود من جلب { إِذَا } في مثل هذا التركيب.

{ **فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ** } تفريع على { جَاءَهُمْ نَصْرُنَا } لأنّ نصر الرّسل

عليهم السلام هو تأييدهم بعقاب الذين كذّبوهم بنزول العذاب وهو البأس، فينجي الله الذين آمنوا ولا يرد البأس عن القوم المجرمين.

البأس: هو عذاب المجرمين الذي هو نصر الرسل عليهم السلام.

القوم المجرمون: الذين كذبوا الرسل.

{ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [111].

هذا من ردّ العجز على الصدر فهي مرتبطة بجملة { ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ } [102] وهي تتنزّل منها منزلة البيان لما تضمّنه معنى الإشارة في قوله تعالى { ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ } من التعجيب، وما تضمّنه معنى { وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ } من الاستدلال على أنّه وحي من الله مع دلالة الأمّيّة.

أولو الألباب: أصحاب العقول.

العبرة: اسم مصدر للاعتبار، وهو التوصّل بمعرفة المشاهد المعلوم إلى معرفة الغائب. وتطلق العبرة على ما يحصل به الاعتبار.

{ **مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى** } إلى آخرها تعليل لجملة { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ }، أي: لأنّ ذلك القصص خبر صدق مطابق للواقع وما هو بقصة مخترعة. ووجه التعليل أنّ الاعتبار بالقصّة لا يحصل إلّا إذا كانت خبرا عن أمر وقع.

وهذه الآية ناظرة إلى قوله تعالى في أوّل السورة { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ } [3] فكما سمّاه الله أحسن القصص في أوّل السورة نفى عنه الافتراء في هذه الآية تعريضا بالنضر ابن الحارث وأضرابه.

الافتراء: تقدّم في قوله تعالى { وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ } [المائدة:103].

{ **الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ** } الكتب الإلهية السابقة.

التفصيل: التبيين.

{ **كُلِّ شَيْءٍ** } الأشياء الكثيرة ممّا يرجع إلى الاعتبار بالقصص. وإطلاق الكلّ على الكثرة مضى عند قوله تعالى { وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا } [الأنعام:25].

{ **وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** } العبر الباعثة على الإيمان والتقوى بمشاهدة ما جاء من الأدلة في أثناء القصص على أنّ المتصرّف هو الله تعالى، وعلى أنّ التقوى هي أساس الخير في الدنيا والآخرة، وكذلك الرحمة فإنّ في قصص أهل الفضل دلالة على رحمة الله لهم وعنايته بهم، وذلك رحمة للمؤمنين لأنّهم باعتبارهم بها يأتون ويذرون، فتصلح أحوالهم ويكونون في اطمئنان بال، وذلك رحمة من الله بهم في حياتهم وسبب لرحمته إيّاهم في الآخرة كما قال تعالى { مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [النحل:97].

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الرّعْد

هكذا سُمّيت من عهد السلف. وذلك يدلّ على أنّها مسمّاة بذلك من عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم إذ لم يختلفوا في اسمها.

وإنّما سُمّيت بإضافتها إلى الرعد لورود ذكر الرعّد فيها بقوله تعالى { وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ } [13]. فسمّيت بذلك لأنّ الرعد لم يذكر في سورة مثل هذه السورة، فإنّ هذه السورة مكيّة كلّها أو معظمها، وإنّما ذكر الرعد في سورة البقرة وهي نزلت بالمدينة.

وإذا كانت آيات {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً - إلى قوله - وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ } [12] مما نزل بالمدينة، كما سيأتي، تعيّن أنّ ذلك نزل قبل نزول سورة البقرة.

وهذه السورة مكّية في قول مجاهد وروايته عن ابن عباس ورواية علي بن أبي طلحة وسعيد بن جبير عنه وهو قول قتادة. وعن أبي بشر قال: سألت سعيد ابن جبير عن قوله تعالى { وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ } [43] أهو عبد الله بن سلام؟ فقال: كيف وهذه سورة مكّية.

وعن ابن جريج وقتادة في رواية عنه وعن ابن عباس أيضا: أنّها مدنية، وهو عن عكرمة والحسن البصري، وعن عطاء عن ابن عباس.

وجمع السيوطي وغيره بين الروايات بأنّها مكّية إلّا آيات منها نزلت بالمدينة يعني قوله تعالى { هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً - إلى قوله - شَدِيدُ الْمِحَالِ } وقوله تعالى { قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ } [43].

قال ابن عطيّة: والظاهر أن المدني فيها كثير، وكل ما نزل في شأن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة فهو مدني.

وأقول أشْبَه آياتها بأن يكون مدنيّا قوله تعالى { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا } [41]، كما ستعلمه، وقوله تعالى { كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ - إلى - وَإِلَيْهِ مَتَابِ } [30]، فقد قال مقاتل وابن جريج: نزلت في صلح الحديبية كما سيأتي عند تفسيرها.

ومعانيها جارية على أسلوب معاني القرآن المكّي من الاستدلال على الوحدانية وتفريع المشركين وتهديدهم. والأسباب التي أثارت القول بأنّها مدنية أخبار واهية، وسنذكرها في مواضعها من هذا التفسير.

ولا مانع من أن تكون مكّية ومنها آيات نزلت بالمدينة وألحقت بها، فإنّ ذلك في بعض سور القرآن.

فالذين قالوا: هي مكّية لم يذكروا موقعها من ترتيب المكّيّات سوى أنّهم ذكروها بعد سورة يوسف وذكروا بعدها سورة إبراهيم. والذين جعلوها مدنية عدوها في النزول بعد سورة محمد وقبل سورة

الرحمان وعدّوها سابعة وتسعين في عداد النزول. وإذ قد كانت سورة القتال نزلت عام الحديبية أو عام الفتح تكون سورة الرعد بعدها.

وعدّت آياتها ثلاثا وأربعين من الكوفيين وأربعا وأربعين في عدد المدنيين وخمسا وأربعين عند الشام.

أغراض السورة

*/ أقيمت هذه السورة على أساس إثبات صدق الرّسول صلى الله عليه وسلم فيما أوحي إليه من إفراد الله بالإلهيّة والبعث وإبطال أقوال المكذّبين، فلذلك تكرّرت حكاية أقوالهم خمس مرّات موزّعة على السورة بدءا ونهاية.

*/ ومُهّد لذلك بالتنويه بالقرآن وأنّه منزّل من الله، والاستدلال على تفرّده تعالى بالإلهية بدلائل خلق العالمين */ ونظامهما الدال على انفراده بتمام العلم والقدرة وإدماج الامتنان لما في ذلك من النعم على النّاس.

*/ ثم انتُقل إلى أقوال أهل الشرك ومزاعمهم في إنكار البعث. وتهديدهم أن يحلّ بهم ما حلّ بأمثالهم.

*/ التذكير بنعم الله على الناس.

*/ إثبات أنّ الله هو المستحق للعبادة دون آلهتهم.

*/ أنّ الله العالم بالخفايا وأنّ الأصنام لا تعلم شيئا ولا تُنعم بنعمة.

*/ التهديد بالحوادث الجوّيّة أن يكون منها عذاب للمكذّبين كما حلّ بالأمم قبلهم.

*/ التخويف من يوم الجزاء.

*/ التذكير بأنّ الدنيا ليست دار قرار.

*/ بيان مكابرة المشركين في اقتراحهم مجيء الآيات على نحو مقترحاتهم.

*/ مقابلة ذلك بيقين المؤمنين. وما أعدّ الله لهم من الخير.

*/ أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم ما لقي من قومه إلّا كما لقي الرّسل عليهم السلام من قبله.

*/ الثناء على فريق من أهل الكتب يؤمنون بأن القرآن منزل من عند الله.

*/ الإشارة إلى حقيقة القدر ومظاهر المحو والإثبات.

*/ ما تخلّل ذلك من المواعظ والعبر والأمثال.

{ **ألمر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ** } [1].

تقدّم الكلام على نظائر { **ألمر** } ممّا وقع في أوائل بعض السور من الحروف المقطّعة.

{ **تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ** } تقدّم نظيره من طالعة سورة يونس. والمشار إليه هو ما سبق نزوله من القرآن قبل هذه الآية أخبر عنها بأنّها آيات، أي: دلائل إعجاز، ولذلك أشير إليه باسم إشارة المؤنث مراعاة لتأنيث الخبر.

{ **وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ** } يجوز أن يكون عطفا على { تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ } للتعريف بأنّها آيات منزّلة من عند الله. وأخبر عن الذي أُنزِل بأنه الحق بصيغة القصر، أي: هو الحق لا غيره من الكتب. فالمقصود الرد على المشركين الذين زعموه كأساطير الأولين.

{ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ** } الاستدراك راجع إلى ما أفاده القصر من إبطال مساواة غيره له في الحقيّة إبطالا يقتضي ارتفاع النزاع في أحقيّته، أي: ولكن أكثر الناس لا يؤمنون بما دلت الأدلة على الإيمان به، فمن أجل هذا الخلق الذميم فيهم يستمر النزاع منهم في كونه حقا.

وابتداء السورة بهذا تنويه بما في القرآن تهيئة السامع للتأمل مما سيرد عليه من الكلام.

{ **اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمّىً يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ** } [2].

{ **اللَّهُ** } الافتتاح باسم الجلالة دون الضمير الذي يعود إلى { رَبِّكَ } [1]، ليكون الخبر المقصود جاريا على معيّن لا يحتمل غيره، إبلاغا في قطع شائبة الإشراك.

{ **الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا** } خبر، وجُعل اسم موصول لكون الصلة معلومة الدلالة على أنّ من تثبت له هو المتوحّد بالربوبيّة، ولأنّه مسلّم له ذلك.

السماوات: تقدّمت مرارا، وهي الكواكب السيارة وطبقات الجو التي تسبح فيها.

رفعها: خلقها مرتفعة، فليس المراد أنّه رفعها بعد أن كانت منخفضة.

العمد: جمع عماد: ما تقام عليه القبة والبيت.

{ **تَرَوْنَهَا** } في موضع الحال من { السَّمَاوَاتِ }، أي: لا شبهة في كونها بغير عمد.

{ **ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ** } تقدّم القول في نظيرها في [الأعراف:54] وفي [يونس:3].

{ **وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمّىً** } تقدّم الكلام حول معناها في قوله تعالى { وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ} [الأعراف:54].

الجري: السير السريع. وسير الشمس والقمر والنجوم في مسافات شاسعة، فهو أسرع التنقّلات في بابها وذلك سيرها في مداراتها.

الأجل: هو المدّة التي قدّرها الله لدوام سيرها، وهي مدة بقاء النظام الشمسي الذي إذا اختل انتثرت العوالم وقامت القيامة.

المسمّى: أصله المعروف باسمه، وهو هنا كناية عن المعيّن المحدّد.

{ **يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ** } في موضع الحال من اسم الجلالة.

{ **يُدَبِّرُ** } تقدّم عند قوله تعالى { وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ } [يونس:3].

تفصيل الآيات: تقدّم عند قوله تعالى { أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ } [هود:1].

ووجه الجمع بينهما هنا؛ أنّ تدبير الأمر يشمل تقدير الخلق الأوّل والثاني، فهو إشارة إلى التصرّف بالتكوين للعقول والعوالم، وتفصيل الآيات مشير إلى التصرّف بإقامة الأدلة والبراهين، وشأن مجموع الأمرين أن يفيد اهتداء النّاس إلى اليقين بأنّ بعد هذه الحياة حياة أخرى، لأنّ النظر بالعقل في المصنوعات وتدبيرها يهدي إلى ذلك، وتفصيل الآيات والأدلة ينبّه العقول ويعينها على ذلك الاهتداء ويقرّبه.

وصيغ { يُدَبِّرُ / يُفَصِّلُ } بالمضارع عكس قوله تعالى { اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ } لأنّ التدبير والتفصيل متجدّد متكرّر بتجدّد تعلّق القدرة بالمقدورات. وأمّا رفع السماوات وتسخير الشمس والقمر فقد تمّ واستقر.

{ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [3].

عطف على { اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ }، فبين الجملتين شبه التّضاد؛ اشتملت الأولى على ذكر العوالم العلوية وأحوالها، واشتملت الثانية على ذكر العوالم السفليّة. والمعنى: أنّه خالق جميع العوالم وأعراضها.

المدّ: البسط والسعة، ومنه: ظل مديد. ومنه مدّ البحر وجزره. والمعنى: خلق الأرض ممدودة متّسعة للسير والزرع، لأنّه لو خلقها أسنمة من حجر أو جبالا شاهقة متلاصقة لما تيسّر للأحياء التي عليها الانتفاع بها والسير من مكان إلى آخر في طلب الرزق وغيره.

وليس المراد أنّها كانت غير ممدودة فمدّها. فهذه خلقة دالة على القدرة وعلى اللطف بعباده، فهي آية ومنّة.

الرواسي: جمع رَاسٍ. وهو الثابت المستقرّ، أي: جبالا رواسي. وقد حُذف موصوفه لظهوره فهو كقوله تعالى { وَلَهُ الْجَوَارِ}، أي: السفن الجارية. والاستدلال بخلق الجبال على عظيم القدرة لما في خلقها من العظمة المشاهدة بخلاف المعادن والتراب فهي خفيّة.

الأنهار: جمع نهر، وهو الوادي العظيم. وتقدّم في قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ } [البقرة:249].

{ **وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ** } عطف على { أَنْهَاراً }، و{ مِنْ } هذه تُحمل على التبعيض لأنّ حقائق الأجناس لا تنحصر، والموجود منها ما هو إلّا بعض جزئيّات الماهية، لأنّ منها جزئيّات انقضت ومنها جزئيّات

ستوجد. والمراد أشجارها، وإنّما ذكرت { الثَّمَرَاتِ } لأنّها في موقع منّة مع العبرة.
فينبغي الوقف على { وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ }، وبذلك انتهى تعداد المخلوقات المتصلة بالأرض. وهذا أحسن تفسيرا.

وقيل: إنّ قوله تعالى { وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ } ابتداء كلام يتعلّق بـ { جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ }، وبهذا فسّر أكثر المفسّرين. ويُبعده أنّه لا نكتة في تقديم الجار والمجرور على عامله على ذلك التقدير. لأنّ جميع المذكور محل اهتمام فلا خصوصية للثمرات هنا، ولأنّ الثمرات لا يتحقّق فيها وجود أزواج ولا كون الزوجين اثنين. وأيضا فيه فوات المنّة بخلق الحيوان وتناسله مع أنّ منه معظم نفعهم ومعاشهم. وممَا يُقرّب ذلك قوله تعالى في نحو هذا المعنى { أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً } [النبأ:6-8]. والمعروف أنّ الزوجين هما الذكر والأنثى، قال تعالى { فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى} [القيامة:39].

{ **جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ** } الظاهر أنّها جملة مستأنفة للاهتمام بهذا الجنس من المخلوقات وهو جنس الحيوان المخلوق صنفين ذكرا وأنثى أحدهما زوج مع الآخر، وشاع إطلاق الزوج على الذكر والأنثى من الحيوان. والتنكير للتنويع، أي: جعل زوجين من كل نوع.

{ **يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** } حال من ضمير { جَعَلَ }. وجيء فيه بالمضارع لما يدلّ عليه من التجدّد، لأنّ جعل الأشياء المتقدّم ذكرها جعل ثابت مستمر، وأمّا إغشاء الليل والنّهار فهو أمر متجدّد كل يوم وليلة. وهذا استدلال بأعراض أحوال الأرض. وذكره مع آيات العالم السفلي في غاية الدقّة العلمية، لأنّ الليل والنهار من أعراض الكرة الأرضيّة بحسب اتجاهها إلى الشمس وليسا من أحوال السماوات، إذ الشمس والكواكب لا يتغيّر حالها بضياء وظلمة.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** } الإشارة إلى ما تقدّم. وجعل الأشياء المذكورات ظروفا لـ { آياتٍ } لأنّ كل واحدة من الأمور المذكورة تتضمّن آيات عظيمة يجلوها النظر الصحيح والتفكير المجرّد عن الأوهام. ولذلك أجرى صفة التفكير على لفظ قوم إشارة إلى أنّ التفكير المتكرّر المتجدّد هو صفة راسخة فيهم بحيث جُعلت من مقوّماتهم، أي: من جبلّتهم.

التفكير: تقدم عند قوله تعالى { أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ } [الأنعام:50].

{ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [4].

لله بلاغة القرآن في تغيير الأسلوب عند الانتقال إلى ذكر النعم الدالة على قدرة الله تعالى فيما ألهم النّاس من العمل في الأرض بفلحها وزرعها وغرسها والقيام عليها، فجاء ذلك معطوفا على الأشياء التي أُسند

جَعْلها إلى الله تعالى، ولكنّه لم يُسنَد إلى الله حتّى بلغ إلى قوله تعالى { وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ }، لأنّ ذلك بأسرار أودعها الله تعالى فيها هي موجب تفاضلها. وأمثال هذه العبر ولفت النظر ممّا انفرد به القرآن من بين سائر الكتب.

{ **الْأَرْضِ** } أعيد الاسم الظاهر دون ضميرها الذي هو المقتضى ليستقلّ الكلام ويتجدّد الأسلوب.

القطع: جمع قِطعة (بكسر القاف)، وهي الجزء من الشيء تشبيها لها بما يُقتطع. وليس وصف القطع متجاورات مقصودا بالذات في هذا المقام إذ ليس هو محل العبرة بالآيات، بل المقصود وصف محذوف دلّ عليه السياق تقديره: مختلفات الألوان والمنابت. وإنّما وُصفت متجاورات لأنّ اختلاف الألوان والمنابت مع التجاور أشدّ دلالة على القدرة العظيمة.

{ **وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ** } تقدّما في قوله تعالى { وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ } [الأنعام:141] .

وقرأ الجمهور { وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ } بالجر عطفا على { أَعْنَابٍ } ، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحفص، ويعقوب بالرفع عطفا على { جَنَّاتٍ }. والمعنى واحد لأنّ الزرع الذي في الجنات مساو للذي في غيرها فاكتفى به قضاء لحق الإيجاز. وكذلك على قراءة الرفع هو يغني عن ذكر الزرع الذي في الجنّات، والنخل لا يكون إلّا في جنّات.

صنوان: جمع صِنو (بكسر الصاد) في الأفصح فيهما وهي لغة الحجاز، وبضمّها فيها أيضا وهي لغة تميم وقيس. والصنو: **النخلة المجتمعة مع نخلة أخرى نابتتين في أصل واحد** أو نخلات. وهذه الزنة نادرة في صيغ أو الجموع في العربية لم يحفظ منها إلّا خمسة جموع: [صنو - صنوان / قنو - قنوان / زيد - زيدان / شقذ (بذال معجمة اسم الحرباء) - شقذان / وحش (معنى بستان) - حشان].

السقي: إعطاء المشروب. والمراد بالماء هنا ماء المطر وماء الأنهار وهو واحد بالنسبة للمسقي ببعضه.

التفضيل: مِنَّةٌ بالأفضل، وعبرة به وبضدّه، وكناية عن الاختلاف.

الأُكْل: (بضم الهمزة وسكون الكاف) هو المأكول. ويجوز في اللغة ضمّ الكاف.

والمعنى: أنّ اختلاف طعومه وتفاضلها مع كون الأصل واحد والغذاء بالماء واحد ما هو إلّا لقوى خفيّة أودعها الله فيها فجاءت آثارها مختلفة.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** } تذييل. والإشارة إلى جميع المذكور، وقد جُعل جميع المذكور بمنزلة الظرف للآيات. وجُعلت دلالته على انفراده تعالى بالإلهية دلالات كثيرة إذ في كل شيء منها آية تدلّ على ذلك. ووصفت الآيات بأنّها من اختصاص الذين يعقلون تعريضا بأنّ من لم تقنعهم تلك الآيات منزّلون منزلة من لا يعقل. وزيد في الدلالة على أنّ العقل سجيّة للذين انتفعوا بتلك الآيات بإجراء وصف العقل على كلمة قوم إيماء إلى أنّ العقل من مقومات قوميّتهم كما بيناه في الآية قبلها.

{ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [5].

لمّا قُضي حقّ الاستدلال على الوحدانيّة نُقل الكلام إلى الردّ على منكري البعث وهو غرض مستقلّ مقصود من هذه السورة بمناسبة التدليل على عظيم القدرة، فصيغ بصيغة التعجيب من إنكار منكري البعث، لأنّ الأدلة السالفة لم تبق عذرا لهم في ذلك، فصار في إنكارهم محلّ عجب المتعجّب.

فيجوز أن يكون الخطاب موجّها إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم، وهو المناسب بما وقع بعده من قوله تعالى { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ } [6] وما بعده من الخطاب الذي لا يصلح لغيره صلى الله عليه وسلم. ويجوز أن يكون الخطاب هنا لغير معيّن.

{ أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً } استفهام إنكاري، لأنّهم موقنون بأنّهم لا يكونون في خلق جديد بعد أن يكونوا ترابا.

والقول المحكي عنهم هو في معنى الاستفهام عن مجموع أمرين وهما كونهم: ترابا، وتجديد خلقهم ثانية.

والمقصود من ذلك العجب والإستحالة.

{ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ } الإشارة للتنبيه على أنّهم أحرياء بما سيرد بعد اسم الإشارة من الخبر لأجل ما سبق من قولهم { أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ } بعد أن رأوا دلائل الخلق الأوّل، فحقّ عليهم بقولهم ذلك حكمان: أحدهما أنّهم كفروا بربهم لأنّ قولهم ذلك لا يقوله إلّا كافر بالله، وثانيهما استحقاقهم العذاب.

{ وَأُولَئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ } مفتتحة باسم الإشارة لمثل الغرض الذي افتُتحت به الجملة قبلها، فإنّ مضمون الجملتين اللتين قبلها يحقّق أنّهم أحرياء بوضع الأغلال في أعناقهم، وذلك جزاء الإهانة.

الأغلال: جمع غُلّ (بضم الغين)، وهو القيد الذي يوضع في العنق، وهو أشد التقييد. قال تعالى { إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ } [غافر:71].

والجملة وعيد بسوقهم إلى الحساب سوق المذلّة والقهر، وكانوا يضعون الأغلال للأسرى المثقلين.

{ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } مزيد بيان وتخويف، وإعادة اسم الإشارة ثلاثا للتهويل.

{ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ } [6].

عطف على { وَإِنْ تَعْجَبْ }، لأنّ كلتا الجملتين حكاية لغريب أحوالهم في المكابرة والعناد والاستخفاف بالوعيد. فابتدأ بذكر تكذيبهم بوعيد الآخرة لإنكارهم البعث، ثمّ عطف عليه تكذيبهم بوعيد الدنيا لتكذيبهم الرّسول صلى الله عليه وسلم، والاستخفاف بوعيد نزول العذاب وعدّهم إيّاه مستحيلا، في حال أنّهم شاهدوا آثار العذاب النازل بالأمم قبلهم، وما ذلك إلّا لذهولهم عن قدرة الله تعالى التي سيق الكلام للاستدلال عليها والتفريع عنها.

السيّئة: الحالة السيّئة. وهي هنا المصيبة التي تسوء من تحلّ به. و**الحسنة** ضدّها.
فسؤالهم سؤال تعجيز وتهكّم.

{ **وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ** } في موضع الحال. وهو محل زيادة التعجيب لأنّ ذلك قد يُعذرون فيه لو كانوا لم يروا آثار الأمم المعذّبة مثل عاد وثمود.

المَثُلات: جمع **مَثُلة** (بفتح الميم وضم الثاء)، و**مُثْلة** (بضم الميم وسكون الثاء)، وهي العقوبة الشديدة التي تكون مثالا تمثّل به العقوبات.

{ **وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ** } هذا كشف لغرورهم بتأخير العذاب عنهم لأنّهم لمّا استهزأوا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم وتعرّضوا لسؤال حلول العذاب بهم ورأوا أنّه لم يُعجّل لهم حلوله اعترتهم ضراوة بالتكذيب وحسبوا تأخير العذاب عجزا من المتوعِّد وكذّبوا النبيّ صلى الله عليه وسلم، وهم يجهلون أنّ الله حليم يمهل عباده لعلهم يرجعون. فالمغفرة هنا مستعملة في المغفرة المؤقّتة، وهي التجاوز عن ضراوة تكذيبهم وتأخير العذاب إلى أجل، كما قال تعالى { وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } [النحل:34]. وسياق الآية على أنّ المراد بالمغفرة هنا التجاوز عن المشركين في الدنيا بتأخير العقاب لهم إلى أجل أراده الله أو إلى يوم الحساب.

{ **عَلَى ظُلْمِهِمْ** } محمل الظلم على ما هو المشهور في اصطلاح القرآن من إطلاقه على **الشرك**. ويجوز أن يُحمل الظلم على ارتكاب الذنوب بقرينة السياق.

{ **وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ** } احتراس لئلّا يحسبوا أنّ المغفرة المذكورة مغفرة دائمة تعريضا بأنّ العقاب حال بهم من بعد.

{ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ } [7].

هذه حالة من أعجوباتهم وهي عدم اعتدادهم بالآيات التي تأيَّد بها محمد صلى الله عليه وسلم وأعظمها آيات القرآن، فلا يزالون يسألون آية. ومرادهم بالآية في هذا خارقُ عادة على حساب ما يقترحون، فهي مخالفة لما تقدّم في قوله تعالى { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ } لأنّ تلك في تعجيل ما توعّدهم به، وما هنا في مجيء آية تؤيّده، كقولهم { لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ } [الأنعام:8].

الذين كفروا: هم عين أصحاب ضمير { يَسْتَعْجِلُونَكَ } وإنّما عُدل عن ضميرهم إلى اسم الموصول لزيادة تسجيل الكفر عليهم، ولما يومئ إليه الموصول من تعليل صدور قولهم ذلك. وصيغة المضارع تدلّ على تجدّد ذلك وتكرّره.

{ **لَوْلَا** } حرف تحْضيض. يموّهون بالتحْضيض أنّهم حريصون وراغبون في نزول آية غير القرآن ليؤمنوا، وهم كاذبون في ذلك إذ لو أوتوا آية كما يقترحون لكفروا بها، كما قال تعالى { وَمَا مَنَعَنَا أَنْ

نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ } [الإسراء:59].

{ **إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ** } ردّ الله اقتراحهم من أصله فقصر النبيّ صلى الله عليه وسلم على صفة الإنذار، وهو قصر إضافي، أي: أنت منذر لا موجد خوارق عادة. وبهذا يظهر وجه قصره على الإنذار دون البشارة لأنّه قصر إضافي بالنسبة لأحواله نحو المشركين.

{ **وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ** } تذييل بالأعمّ. أي: إنّما أنت منذر لهؤلاء لهدايتهم. ولكلّ قوم هاد أرسله الله ينذرهم لعلّهم يهتدون. فما كنت بدعا من الرّسل وما كان للرّسل من قبلك آيات على مقترح أقوامهم بل كانت آياتهم بحسب ما أراد الله أن يظهره على أيديهم. على أنّ معجزات الرّسل تأتي على حسب ما يلائم حال المرسَل إليهم.

ولمّا كان الذين ظهرت بينهم دعوة محمد صلى الله عليه وسلم عربا أهل فصاحة وبلاغة جعل الله معجزته العظمى القرآن بلسان عربي مبين. وإلى هذا المعنى يشير قول النبيّ صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: " ما من الأنبياء نبيّ إلّا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنّما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إليّ فارجوا أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة ".

وبهذا العموم الحاصل بالتذييل والشامل للرّسول صلى الله عليه وسلم صار المعنى: إنّما أنت منذر لقومك هاد إيّاهم إلى الحق. فإنّ الإنذار والهدي متلازمان فما من إنذار إلّا وهو هداية وما من هداية إلّا وفيها إنذار، والهداية أعمّ من الإنذار. ففي هذا احتباك بديع.

{ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ [8] عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ [9] }.

استئناف ابتدائي. فلمّا قامت البراهين العديدة بالآيات السابقة على وحدانيّة الله تعالى بالخلق والتدبير، وعلى عظيم قدرته التي أودع بها في المخلوقات دقائق الخلقة، انتقل الكلام إلى إثبات العلم له تعالى علما عاما بدقائق الأشياء وعظائمها، ولذلك جاء افتتاحه على الأسلوب الذي افتتح به الغرض السابق بأن ابتدئ باسم الجلالة كما ابتدئ به هنالك في قوله تعالى { اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا } [2]. وجُعلت هذه الجملة في هذا الموقع لأنّ لها مناسبة بقولهم { لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ }، فإنّ ما ذُكر فيها من علم الله وعظيم صنعه صالح لأن يكون دليلا على أنّه لا يعجزه الإتيان بما اقترحوا من ألايات، ولكن بعثة الرّسول ليس المقصد منها المنازعات بل هي دعوة للنظر في الأدلة.

وإذ قد كان خلق الله العوالم وغيرها معلوما لدى المشركين ولكن الإقبال على عبادة الأصنام يذهلهم عن تذكّره كانوا غير محتاجين لأكثر من التذكير بذلك وبالتنبيه إلى ما قد يخفى من دقائق التكوين، كقوله تعالى آنفا { بِغَيْرِ عَمَدٍ } [2]، وقوله تعالى { وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ } [4].

{ **اللَّهُ يَعْلَمُ** } صيغ الإخبار عن الخلق في آية { اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ } [2] بطريقة الموصول للعلم بثبوت مضمون الصلة للمخبر عنه. وجيء في تلك الصلة بالفعل الماضي فقال { رَفَعَ السَّمَاوَاتِ }، فأمّا هنا فصيغ الخبر بصيغة المضارع المفيد للتجدّد والتكرير لإفادة أنّ ذلك العلم متكرّر متجدّد التعلّق بمقتضى أحوال المعلومات المتنوّعة والمتكاثرة على نحو ما قُرّر في قوله تعالى { يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ } [2].

{ **مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ** } ذُكر من معلومات الله ما لا نزاع في أنّه لا يعلمه أحد من الخلق يومئذ، فما تحمل كل أنثى هي أجنة الإنسان والحيوان. ولذلك جيء بفعل الحمل دون الحبل لاختصاص الحبل بحمل المرأة.

{ **مَا** } موصولة، وعمومها يقتضي علم الله بحال الحمل الموجود من ذكورة وأنوثة، وتمام ونقص، وحسن وقبح، وطول وقصر، ولون.

تغيض: تنقص. الظاهر أنّه كناية عن العلوق لأنّ غيض الرحم انحباس دم الحيض عنها، و**ازديادها**: فيضان الحيض منها. ويجوز أن يكون الغيض مستعارا لعدم التعدّد والازدياد للتعدّد، أي: ما يكون في الأرحام من جنين واحد أو عدّة أجنّة وذلك في الإنسان والحيوان.

{ **وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ** }

المقدار: مصدر ميمي بقرينة الباء، أي: بتقدير، ومعناه: التحديد والضبط. والمعنى: أنّه يعلم كلّ شيء علما مفصّلا لا شيوع فيه ولا إبهام. وفي هذا ردّ على الفلاسفة غير المسلمين القائلين أن واجب الوجود يعلم الكلّيّات ولا يعلم الجزئيّات، فرارا من تعلّق العلم بالحوادث. وقد أبطل مذهبهم علماء الكلام بما ليس فوقه مرام. وهذه قضية كلّية أثبتت عموم علمه تعالى بعد أن وقع إثبات العموم بطريقة التمثيل بعلمه بالجزئيات الخفية في قوله تعالى { اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى }.

{ **عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ** } تذييل وفذلكة لتعميم العلم بالخفيّات والظواهر وهما قسما الموجودات.

{ **الْغَيْبِ** } تقدّم في [البقرة:4]. و{ **الشَّهَادَةِ** } هنا مصدر بمعنى المفعول، أي: الأشياء المشهودة، وهي الظاهرة المحسوسة. فالمقصود من { الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ } تعميم الموجودات.

الكبير: مجاز في العظمة، إذ قد شاع استعمال أسماء الكثرة وألفاظ الكبر في العظمة تشبيها للمعقول بالمحسوس وشاع ذلك حتّى صار كالحقيقة.

المتعالي: المترفّع. وصيغت الصفة بصيغة التفاعل للدلالة على أنّ العلو صفة ذاتيّة له لا من غيره، أي: الرفيع رفعة واجبة له عقلا. والمراد بالرفعة هنا المجاز عن العزّة التّامة بحيث لا يستطيع موجود أن يغلبه أو يكرهه، أو المنزه عن النقائص كقوله عزّ وجلّ { تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } [النحل:3].

{ **الْمُتَعَالِ** } حذف الياء لمراعاة الفواصل الساكنة.

{ **سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ** } [10].

استئناف بياني لأنّ مضمونها بمنزلة النتيجة لعموم علم الله تعالى بالخفيّات والظواهر. وعُدل عن الغيبة المتّبعة في الضمائر فيما تقدّم إلى الخطاب هنا لأنّه تعليم يصلح للمؤمنين والكافرين.

وفي الآية تعريض بالتهديد للمشركين المتآمرين على النبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ **سَوَاءٌ** } اسم بمعنى مستو. وإنّما يقع معناه بين شيئين فصاعدا. واستُعمل سواء في الكلام ملازما حالة واحدة فيقال: هما سواء وهم سواء، قال تعالى { فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ }.

الاستخفاء: هنا الخفاء. فالسين والتاء للمبالغة في الفعل.

السارب: اسم فاعل من سرب إذا **ذهب في السَرْب** (بفتح السين وسكون الراء) وهو الطريق. وهذا من الأفعال المشتقّة من الأسماء الجامدة.

وذكر الاستخفاء مع الليل لكونه أشدّ خفاء. وذكر السروب مع النهار لكونه أشد ظهورا. والمعنى: أنّ هذين الصنفين سواء لدى علم الله تعالى.

{ **لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ** } [11].

{ **لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ** } متّصلة بقوله {مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ }، أي: لكل من أسرّ القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار معقّبات يحفظونه من غوائل تلك الأوقات.

{ **مُعَقِّبَاتٌ** } جمع معقّبة (بفتح العين وتشديد القاف مكسورة) اسم فاعل عقَّبه إذا تبعه. وصيغة التفعيل فيه للمبالغة في العقب. يقال: عقبه إذا اتبعه واشتقاقه من العَقِب (بفتح فكسر) وهو اسم لمؤخّر الرجل فهو فعل مشتق من الاسم الجامد لأنّ الذي يتبع غيره كأنّه يطأ على عقبه، والمراد: **ملائكة معقّبات**. والواحد معقّب، وإنّما جمع مؤنث بتأويل الجماعات.

الحفظ: المراقبة، ومنه سُمّي الرقيب حفيظا، والمعنى: يراقبون كلّ أحد في أحواله من إسرار وإعلان، وسكون وحركة، قال تعالى { وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ } [الانفطار:10].

{ **مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ** } مستعمل في معنى الإحاطة من الجهات كلّها.

{ **مِنْ أَمْرِ اللَّهِ** } صفة { مُعَقِّبَاتٌ }، أي: جماعات من جند الله وأمره.

{ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ** } جملة معترضة بين الجمل المتقدّمة المسوقة للاستدلال على عظيم قدرة الله تعالى وعلمه بمصنوعاته وبين التذكير بقوّة قدرته وبين جملة { هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً}، والمقصود

تحذيرهم من الإصرار على الشرك بتحذيرهم من حلول العقاب في الدنيا في مقابلة استعجالهم بالسيئة قبل الحسنة، ذلك أنّهم كانوا في نعمة من العيش فبطروا النعمة وقابلوا دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم بالهزء وعاملوا المؤمنين بالتحقير، فذكّرهم الله بنعمته عليهم ونبّههم إلى أنّ زوالها لا يكون إلّا بسبب أعمالهم السيئة.

التغيير: التبديل بالمُغاير، فلا جرم أنّه تهديد لأولي النعمة من المشركين بأنّهم قد تعرّضوا لتغييرها.

{ **وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ** } تصريح بمفهوم الغاية المستفاد من { حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ } تأكيدا للتحذير، لأنّ المقام، لكونه مقام خوف ووجل، يقتضي التصريح دون التعريض ولا ما يقرب منه، أي: إذا أراد الله أن يغيّر ما بقوم حين يغيّرون ما بأنفسهم لا يرد إرادته شيء. وذلك تحذير من الغرور.

{ **وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ** } زيادة في التحذير من الغرور لئلّا يحسبوا أنّ أصنامهم شفعاؤهم عند الله.

الوالي: الذي يلي أمر أحد، أي: يشتغل بأمره اشتغال تدبير ونفع، مشتق من ولي إذا قرب.

{ **هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ** [12] **وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ** [13] }.

استئناف ابتدائي على أسلوب تعداد الحجج الواحدة تلوى الأخرى، فلأجل أسلوب التعداد، إذ كان كالتكرير، لم يُعطف. وقد أعرب هذا عن مظهر من مظاهر قدرة الله وعجيب صنعه. وفيه من المناسبة للإنذار أنّه مثال لتصرّف الله بالإنعام والانتقام في تصرّف واحد مع تذكيرهم بالنعمة التي هم فيها. وكل ذلك مناسب لمقاصد الآيات الماضية، فكانت هذه الجملة جديرة بالاستقلال وأن يُجاء بها مستأنفة لتكون مستقلة في عداد الجمل المستقلّة الواردة في غرض السورة.

وجاء هنا بطريق الخطاب على أسلوب قوله تعالى { سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ }، لأنّ الخوف والطمع يصدران من المؤمنين ويُهدَّد بهما الكفرة.

وافتُتحت الجملة بضمير الجلالة دون اسم الجلالة المفتتح به في الجمل السابقة، فجاءت على أسلوب مختلف. وأحسب أنّ ذلك مراعاة لكون هاته الجملة مفرَّعة عن أغراض الجمل السابقة، فإنّ جمل فواتح الأغراض افتُتحت بالاسم العلم كقوله تعالى {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ } [2]، وقوله تعالى { اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى } [8]، وقوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ } [11]، وجمل التفاريع افتتحت بالضمائر كقوله تعالى { يُدَبِّرُ الأَمْرَ } وقوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ } [3].

{ **خَوْفاً وَطَمَعاً** } مصدران بمعنى التخويف والإطماع، فهما في محل المفعول لأجله لظهور المراد.

وجعل البرق آية نذارة وبشارة معا لأنّهم كانوا يَسِمون البرق فيتوسّمون الغيث وكانوا يخشون صواعقه.

إنشاء السحاب: تكوينه من عدم بإثارة الأبخرة التي تتجمّع سحابا.

السحاب: اسم جمع لسحابة. و**الثقال**: جمع ثقيلة. والسحاب يكون ثقيلا بمقدار ما فيه من البخار. وعلامة ثقله قربه من الأرض وبطء تنقّله بالرياح. والخفيف منه يُسمّى جهاما.

{ **وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ** } مجاز عقلي. ولك أن تجعله استعارة مكنية بأن شُبّه الرعد بآدمي يُسبّح الله تعالى.

ولمّا كان الرعد صوتا عظيما جُعل ذكره عبرة للسامعين لدلالة الرعد، بلوازم عقلية، على أنّ الله منزّه عمّا يقوله المشركون من ادعاء الشركاء، وكان شأن تلك الدلالة أن تبعث الناظر فيها على تنزيه الله عن الشريك.

{ **بِحَمْدِهِ** } الباء للملابسة، أي ينزّه الله تنزيها ملابسا لحمده من حيث إنّه دال على اقتراب نزول الغيث وهو نعمة تستوجب الحمد. فالقول في ملابسة الرعد للحمد مساو للقول في إسناد التسبيح إلى الرعد. فالملابسة مجازية عقلية أو استعارة مكنية.

{ **وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ** } عطف على الرعد، أي: وتسبّح الملائكة من خيفته، أي: من خوف التقصير في تنزيهه. وهذا اعتراض بين تعداد المواعظ لمناسبة التعريض بالمشركين، أي: أنّ التنزيه الذي دلّت عليه آيات الجو يقوم به الملائكة، فالله غني عن تنزيهكم إيّاه، كقوله تعالى { إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ } [الزمر:7].

{ **وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ** } اقتصر في العبرة بالصواعق على الإنذار بها لأنّها لا نعمة فيها لأنّ النعمة حاصلة بالسحاب وأمّا الرعد فآلة من آلات التخويف والإنذار، كما في قوله تعالى { أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ } [البقرة:19]. وكان العرب يخافون الصواعق. ولقّبوا خويلد بن نفيل الصَّعِق لأنّه أصابته صاعقة أحرقته. ومن هذا القبيل قول النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله يخوّف الله بهما عباده، أي: بكسوفهما، فاقتصر في آيتهما على الإنذار إذ لا يترقّب الناس من كسوفهما نفعا.

{ **وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ** } في موضع الحال لأنّه من متمّمات التعجّب، فضمائر الغيبة كلّها عائدة إلى الكفار الذين تقدّم ذكرهم في صدر السورة، وقد أعيد الأسلوب هنا إلى ضمائر الغيبة لانقضاء الكلام على ما يصلح لموعظة المؤمنين والكافرين فتمحّض تخويف الكافرين.

المجادلة: المخاصمة والمراجعة بالقول. وتقدّم في قوله تعالى { وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ } [النساء:107]. وقد فُهم أن مفعول { يُجَادِلُونَ } هو النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمون. فالتقدير: يجادلونك أو يجادلونكم.

{ **فِي اللَّهِ** } تعليق اسم الجلالة المجرور بفعل { يُجَادِلُونَ } يتعيّن أن يكون على تقدير مضاف تدلّ عليه القرينة، أي: في توحيد الله أو في قدرته على البعث.

المِحال: (بكسر الميم) يحتمل هنا معنيين، لأنّه إن كانت الميم فيه أصليّة فهو فِعال بمعنى الكيد وفعله مَحَل، ومنه قولهم تمحّل إذا تحيّل. أي: جُعل جدالهم في الله جدال كيد، لأنّهم يُبرزونه في صورة الاستفهام في نحو قولهم { مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ } فقوبل بـ { شَدِيدُ الْمِحَالِ } على طريقة المشاكلة، أي: وهو شديد المِحال لا يغلبونه، ونظيره { وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ } [آل عمران:54].

وقال نفطويه: هو من ماحل عن أمره، أي: جادل. والمعنى: وهو شديد المجادلة، أي: **قويّ الحجّة**.

وإن كانت الميم زائدة فهو مِفْعل من الحَوْل بمعنى: القوّة، وعلى هذا فإبدال الواو ألفا على غير قياس لأنّه لا موجب للقلب لأنّ ما قبل الواو ساكن سكونا حيا، فلعلهم قلبوها ألفا للتفرقة بينه وبين مِحول بمعنى صبي ذي حول، أي: سنة.

{ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ } [14].

استئناف ابتدائي بمنزلة النتيجة ونهوض المدلَّل عليه بالآيات السالفة التي هي براهين الانفراد بالخلق الأوّل، ثم الخلق الثاني، وبالقدرة التّامة التي لا تدانيها قدرة قدير، وبالعلم العام، فلا جرم أن يكون صاحب تلك الصفات هو المعبود بالحق وأن عبادة غيره ضلال.

الدعوة: طلب الإقبال، وكثُر إطلاقها على طلب الإقبال للنجدة أو للبذل، وذلك متعيّن فيها إذا أطلقت في جانب الله لاستحالة الإقبال الحقيقي، فالمراد: طلب الإغاثة أو النعمة.

{ دَعْوَةُ الْحَقِّ } إمّا من إضافة الموصوف إلى الصفة إن كان الحقّ بمعنى مصادفة الواقع، أي: الدعوة التي تصادف الواقع، أي: استحقاقه إياها، وإمّا من إضافة الشيء إلى منشئه، أي: الدعوة الصادرة عن حقّ وهو ضد الباطل، فإن دعاء الله يصدر عن اعتقاد الوحدانية وهو الحقّ، وعبادة الأصنام تصدر عن اعتقاد الشرك وهو الباطل. والمقصود: بيان عدم استحقاق الأصنام أن يدعوها الداعون.

واسم الموصول صادق على الأصنام. وضمير { يَدْعُونَ } للمشركين.

الاستجابة: إجابة نداء المنادي ودعوة الداعي، فالسين والتاء لقوّة الفعل.

{ بِشَيْءٍ } لمّا أريد هنا نفي إجداء دعائهم الأصنام جُعل نفي الإجابة متعدّيا بالباء إلى انتفاء أقل ما يُجيب به المسؤول وهو الواعد بالعطاء أو الاعتذار عنه، فهم عاجزون عن ذلك وأعجز عمّا فوقه. والتنكير للتحقير.

{ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ } الاستثناء من عموم أحوال الداعين والمستجيبين والدعوة والاستجابة، لأنّه تشبيه هيئة، فهو يسري إلى جميع أجزائها، فلك أن تقدّر الكلام: إلّا كداع باسط أو إلّا كحال باسط. والمعنى: لا يستجيبون لهم في حال من أحوال الدعاء. وهذا الاستثناء من تأكيد الشيء بما يشبه ضده فيؤول إلى نفي الاستجابة في سائر الأحوال بطريق التمليح والكناية.

{ **كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ** } من يغترف ماء بكفين مبسوطتين غير مقبوضتين إذ الماء لا يستقر فيهما. وهذا كما يقال: هو كالقابض على الماء، في تمثيل إضاعة المطلوب.

والكلام تمثيليّة، شُبّه حال المشركين في دعائهم الأصنام وجلب نفعهم وعدم استجابة الأصنام لهم بشيء بحال الظمآن يبسط كفيه يبتغي أن يرتفع الماء في كفيه المبسوطتين إلى فمه ليرويه وما هو ببالغ إلى فمه بذلك الطلب فيذهب سعيه وتعبه باطلا.

{ **وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ** } عطف على جملة { وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ } لاستيعاب حال المدعو وحال الداعي. فبيّنت الجملة السابقة حال عجز المدعوّ عن الإجابة وأعقبت بالتمثيل المشتمل على كناية وتمليح. واشتمل ذلك أيضا بالكناية على خيبة الداعي. وبيّنت هذه الجملة الثانية حال خيبة الداعي بالتصريح عقب تبيينه بالكناية. فباختلاف الغرض والأسلوب حَسُن العطف، وبالمآل حصل توكيد الجملة الأولى وتقريرها، وكانت الثانية كالفذلكة لتفصيل الجملة الأولى.

الضلال: التلف والضياع. و{ **فِي** } للظرفية المجازية للدلالة على التمكّن في الوصف، أي: إلّا ضائع ضياعا شديدا.

{ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ } [15].

عُدل عن ضمير الجلالة إلى اسمه تعالى العلم تبعا للأسلوب السابق في افتتاح الأغراض الأصليّة.

{ **مَنْ** } تفيد عموم عرفي يراد به الكثرة الكاثرة.

{ **طَوْعاً وَكَرْهاً** } المقصود تقسيم أحوال الساجدين. <u>والمراد بالطوع</u>: الانسياق من النفس تقرّبا وزلفى لمحض التعظيم ومحبة الله. <u>والمراد بالكره</u>: الاضطرار عند الشدّة والحاجة كما في قوله تعالى { ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ } [النحل:53]. وليس المراد من الكره الضغط والإلجاء كما فسّر به بعضهم فهو بعيد عن الغرض كما سيأتي.

الظلال: جمع ظلّ، وهو صورة الجسم المنعكس إليه نور. والضمير راجع إلى { مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} مخصوص بالصالح له من الأجسام الكثيفة ذات الظل تخصيصا بالعقل والعادة. أي: يسجد من في السماوات والأرض وتسجد ظِلالهم.

الغدوّ: الزمان الذي يغدو فيه النّاس، أي: يخرجون إلى حوائجهم. إمّا مصدرا على تقدير مضاف، أي: وقت الغدو، وإمّا جمع غدوة، فقد حكي جمعها على غدوّ، وتقدّم في [الأعراف:205].

الآصال: جمع أصيل، وهو وقت الشمس في آخر المساء.

والمقصود من ذكرهما استيعاب أجزاء أزمنة الظل.

<u>ومعنى سجود الظلال</u>: أنّ الله خلقها من أعراض الأجسام الأرضية، فهي مرتبطة بنظام انعكاس أشعة الشمس عليها وانتهاء الأشعة إلى صلابة وجه الأرض حتّى تكون الظلال واقعة على الأرض وقوع

الساجد. والغرض من هذا الاستدلال الرمزي التنبيه لدقائق الصنع الإلهي كيف جاء على نظام مطّرد دال بعضه على بعض، كما قيل:

وفــي كـل شــيء لــه آيــة تــدلّ ... عــلــى أنّــه الــواحــد

وهذه الآية موضع سجود، وهي السجدة الثانية في ترتيب المصحف باتفاق الفقهاء. ومن حكمة السجود عند قراءتها أن يضع المسلم نفسه في عداد ما يسجد لله طوعا. وهذا اعتراف فعلي بالعبودية لله تعالى.

{ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ }

[16].

{ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً}

لمّا نهضت الأدلة الصريحة بمظاهر الموجودات المتنوّعة على انفراده بالإلهيّة من قوله تعالى { الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها } [2]، وقوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ } [3]، وقوله تعالى { اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى } [8]، وقوله تعالى { هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ } [12]، وبما فيها من دلالة رمزيّة دقيقة من قوله تعالى { لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ } [14]، وقوله تعالى { وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ } [15] إلى آخرها، لا جرم تهيّأ المقام لتقرير المشركين تقريرا لا يجدون معه عن الإقرار مندوحة، ثم لتقريعهم على الإشراك تقريعا لا يسعهم إلّا تجرّع مرارته، لذلك استؤنف الكلام وافتُتح بالأمر بالقول تنويها بوضوح الحجّة.

ولكون الاستفهام غير حقيقي جاء جوابه من قبل المستفهِم. وهذا كثير في القرآن وهو من بديع أساليبه. فالاستفهام تقرير وتوبيخ وتسفيه لرأيهم بناء على الإقرار المسلّم. وفيه استدلال آخر على عدم أهليّة أصنامهم للإلهية، فإنّ اتّخاذهم أولياء من دونه معلوم لا يحتاج إلى الاستفهام عنه.

{ **لَا يَمْلِكُونَ** } صفة لـ { أَوْلِيَاءَ }. والمقصود منها تنبيه السامعين للنظر في تلك الصفة فإنّهم إن تدبّروا علموها وعلموا أنّ من كانت تلك صفته فليس بأهل لأن يعبد. ومعنى الملك هنا: القدرة كما في قوله تعالى { قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً} [المائدة: 76]. وفي الحديث: **" أوَ أمْلِك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة "**.

{ **نَفْعاً وَلَا ضَرّاً** } عطف الضرّ على النفع استقصاء في عجزهم.

{ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ** } إعادة الأمر بالقول للاهتمام الخاص بهذا الكلام، لأنّ ما قبله إبطال لاستحقاق آلهتهم العبادة، وهذا إظهار لمزيّة المؤمنين بالله على أهل

الشرك، ذلك أنّ قوله تعالى { قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ } تضمّن أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم دعا إلى إفراد الله بالربوبيّة وأنّ المخاطبين أثبتوا الربوبيّة للأصنام فكان حالهم وحاله كحال الأعمى والبصير، وحال الظلمات والنور.

ونفي التسوية بين الحالين يتضمّن تشبيها بالحالين وهذا من صيغ التشبيه البليغ. و{ أَمْ } للإضراب الانتقالي في التشبيه، فهي لتشبيه آخر بمنزلة (أو).

{ **الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ** } جمع الظلمات وإفراد النور تقدّم عند قوله تعالى { وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ } [الأنعام:1].

واختير التشبيه في المتقابلات العمى والبصر، والظلمة والنور، لتمام المناسبة لأنّ حال المشركين أصحاب العمى كحال الظلمة في انعدام إدراك المبصرات، وحال المؤمنين كحال البصر في العلم وكحال النور في الإفاضة والإرشاد.

{ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ }.

{ **أَمْ** } للإضراب الانتقالي في الاستفهام، فالكلام بعدها استفهام حُذفت أداته لدلالة (أم) عليها. والتقدير: أم أجعلوا لله شركاء. والتُفت عن الخطاب إلى الغيبة إعراضا عنهم لِما مضى من ذكر ضلالهم.

والاستفهام مستعمل في التهكّم والتغليط. فالمعنى: لو جعلوا لله شركاء يخلقون كما يخلق الله لكانت لهم شبهة في الاغترار واتّخاذهم آلهة، أي: فلا عذر لهم في عبادتهم.

{ **كَخَلْقِهِ** } في معنى المفعول المطلق، أي: خلقوا خلقا مثل ما خلق الله. والخلق في الموضعين مصدر.

{ **فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ** } التقدير: فتشابه خلقهم عليهم. والوصفان هما مصبّ التهكّم والتغليط.

{ **قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ** } فذلكة لما تقدّم ونتيجة له، فإنّه لمّا جاء الاستفهام التوبيخي في { قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ } وفي { أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ } كان بحيث ينتج أنّ أولئك الذين اتخذوهم شركاء والذين تبيّن قصورهم عن أن يملكوا لأنفسهم نفعا أوضرّا، وأنّهم لا يخلقون كخلق الله، إن هم إلّا مخلوقات لله تعالى، وأنّ الله خالق كل شيء، وأنّ الله هو المتوحّد بالخلق، القهّار لكلّ شيء دونه.

القهر: الغلبة. وتقدّم عند قوله تعالى { وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ } [الأنعام:18].

{ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ } [17].

استئناف ابتدائي أفاد تسجيل حرمان المشركين من الانتفاع بدلائل الاهتداء. وجيء في هذا التسجيل بطريقة ضرب المثل بحالي فريقين في تلقّي شيء واحد انتفع فريق بما فيه من منافع وتعلّق فريق بما فيه

من مضار. وجيء في ذلك التمثيل بحالة فيها دلالة على بديع تصرف الله تعالى ليحصل التخلّص من ذكر دلائل القدرة إلى ذكر عبر الموعظة.

شُبّه إنزال القرآن الذي به الهدى من السماء بإنزال الماء الذي به النفع والحياة. وشُبّه ورود القرآن على أسماع النّاس بالسيل يمرّ على مختلف الجهات فهو يمرّ على التلال والجبال فلا يستقرّ فيها ولكنه يمضي إلى الأودية والوهاد فيأخذ منه كلّ بقدر سعته. وتلك السيول في حال نزولها تحمل في أعاليها زبدا، وهو رغوة الماء التي تربو وتطفو على سطح الماء، فيذهب الزبد غير منتفع به ويبقى الماء الخالص الصافي ينتفع به النّاس للشراب والسقي.

ثم شُبّهت هيئة نزول الآيات وما تحتوي عليه من إيقاظ النظر فيها فينتفع به من دخل الإيمان قلوبهم على مقادير قوّة إيمانهم وعملهم، ويمرّ على قلوب قوم لا يشعرون به، وهم المنكرون المعرضون، ويخالط قلوب قوم فيتأمّلونه فيأخذون منه ما يثير لهم شبهات وإلحادا، كقوله تعالى { فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ} [آل عمران:7]. شُبّه ذلك كلّه بهيئة نزول الماء فانحدارِه على الجبال والتلال وسيلانه في الأودية على اختلاف مقاديرها، ثم ما يدفع من نفسه زبدا لا يُنتفع به، ثم لم يلبث الزبد أن ذهب وفني والماء بقي في الأرض للنفع.

وعلى نحو هذا التمثيل وتفسيره جاء ما يبيّنه من التمثيل الذي في قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقيّة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها النّاس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنّما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلِم وعلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلت به ".**

الأودية: جمع الوادي، وهو الحفير المتّسع الممتد من الأرض الذي يجري فيه السيل.

القَدَر (بفتحتين): التقدير، فقوله تعالى { بِقَدَرِهَا } في موضع الحال من { أَوْدِيَةٌ }، وذكره لأنّه من مواضع العبرة، وهو أن كانت أخاديد الأودية على قدر ما تحتمله من السيول بحيث لا تفيض عليها، وهو غالب أحوال الأودية. وهذا الحال مقصود في التمثيل لأنّه حال انصراف الماء لنفع لا ضرّ معه، لأنّ من السيول جواحف تجرف الزرع والبيوت والأنعام.

وأيضا هو دال على تفاوت الأودية في مقادير المياه. ولذلك حظّ من التشبيه، وهو اختلاف النّاس في قابلية الانتفاع بما نزل من عند الله كاختلاف الأودية في قبول الماء على حسب ما يسيل إليها من مصاب السيول.

{ **وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ** } معترضة بين جملة { فَاحْتَمَلَ } وجملة {فَأَمَّا الزَّبَدُ}. وهذا تمثيل آخر ورد استطرادا عقب ذكر نظيره يفيد تقريب التمثيل لقوم لم يشاهدوا سيول الأودية من سكان القرى مثل أهل مكّة وهم المقصود، فقد كان لهم في مكة صوّاغون، فقرّب إليهم تمثيل

عدم انتفاعهم بما انتفع به غيرهم بمثل ما يُصهر من الذهب والفضة في البواتق فإنه يقذف زبدا ينتفي عنه، وهو الخبث وهو غير صالح لشيء في حين صلاح معدنه، لاتّخاذه حلية أو متعاعا. وفي الحديث: " **كما ينفي الكير خبث الحديد** ". فالكلام من قبيل تعدّد التشبيه القريب.

وعُدل عن تسمية الذهب والفضّة إلى الموصوليّة بقوله تعالى { وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ } لأنّها أخصر وأجمع. ولأنّ في العدول عن ذكر اسم الذهب والفضّة إعراضا يؤذن بقلّة الاكتراث بهما، ترفّعا عن ولع النّاس بهما فإنّ اسميهما قد اقترنا بالتعظيم في عرف النّاس.

الحلية: ما يُتحلّى به، أي: يُتزيّن، وهو المصوغ.

المتاع: ما يُتمتّع به ويُنتفع، وذلك المسكوك الذي يتعامل به النّاس من الذهب والفضة.

{ **كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ** } معترضة. هي فذلكة التمثيل ببيان الغرض منه، أي: مثل هذه الحالة يكون ضرب مثل للحقّ والباطل.

{ **يَضْرِبُ** } يُبيّن ويُمثّل. وقد تقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً } [البقرة:26].

وحُذف المضاف لدلالة فعل { يَضْرِبُ } عليه. والتقدير: يضرب الله مثل الحقّ والباطل.

وقد عُلم أنّ الزبد مثل للباطل وأنّ الماء مثل للحقّ، فارتُقي عند ذلك إلى ما في المثلين من صفتي البقاء والزوال ليُتوصّل بذلك إلى البشارة والنذارة لأهل الحقّ وأهل الباطل بأنّ الفريق الأول هو الباقي الدائم، وأنّ الفريق الثاني زائل بائد، وهذا كقوله تعالى { وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عَابِدِينَ } [الأنبياء:106/105]، فصار التشبيه تعريضا وكناية عن البشارة والنذارة.

{ **فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ** } معطوفة على قوله تعالى { فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً } مفرَّعة على التمثيل.

{ **فَأَمَّا** } تصدّرت للتوكيد وصرف ذهن السامع إلى الكلام لما فيه من خفي البشارة والنذارة، ولأنّه تمام التمثيل. والتقدير: فذهب الزبد جفاء ومكث ما ينفع النّاس في الأرض.

الجُفاء: الطريح المَرْمي. وهذا وعيد للمشركين بأنّهم سيبيدون بالقتل ويبقى المؤمنون.

{ **مَا يَنْفَعُ النَّاسَ** } عُبّر به عن الماء للإيماء إلى وجه بناء الخبر وهو البقاء في الأرض، تعريضا للمشركين بأن يعرضوا أحوالهم على مضمون هذه الصلة ليعلموا أنّهم ليسوا ممن ينفع النّاس، وهذه الصلة موازنة للوصف في قوله تعالى { أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ } [الأنبياء:105].

{ **كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ** } مستأنفة تذييليّة لما في لفظ { الْأَمْثَالَ } من العموم. فهو أعمّ من جملة { كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ } لدلالتها على صنف من المثل دون جميع أصنافه، فلمّا أعقب بمثل آخر وهو { فأما الزبد فيذهب جفاء } جيء بالتنبيه إلى الفائدة العامة من ضرب الأمثال.

والإشارة للتنويه بذلك المثل وتنبيه إلى حكمته وحكمة التمثيل، وما فيه من المواعظ والعبر، وما جمعه

من التمثيل والكناية التعريضية، وإلى بلاغة القرآن وإعجازه، وذلك تبهيجٌ للمؤمنين وتحدٍ للمشركين، وليُعلم أنّ جملة {فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً} ليست لمجرّد تشخيص دقائق القدرة الإلهيّة والصنع البديع بل ولضرب المثل.

{ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ } [18].

زيادة تنبيه للتمثيل وللغرض منه مع ما في ذلك من جزاء الفريقين، لأنّ المؤمنين استجابوا لله بما عقلوا الأمثال فجوزوا بالحسنى، وأمّا المشركون فاعرضوا ولم يعقلوا الأمثال، فكان جزاؤهم عذابا عظيما، وهو سوء الحساب الذي عاقبته المصير إلى جهنم.

{ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ } استجابوا لدعوته بما تضمّنه المثل السابق وغيره.

{ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا / وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ } في العدول إلى الموصولين وصلتيهما إيماء إلى أنّ الصلتين سببان لما حصل للفريقين. وتقديم المسند في قوله تعالى { لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى } لأنّه الأهم، لأنّ الغرض التنويه بشأن الذين استجابوا، مع جعل الحسنى في مرتبة المسند إليه، وفي ذلك تنويه بها أيضا. وأمّا الخبر عن وعيد الذين لم يستجيبوا فقد أجري على أصل نظم الكلام في التقديم والتأخير لقلة الاكتراث بهم.

{ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ } أُتي باسم الإشارة للتنبيه على أنّهم أحرياء بما بعد اسم الإشارة من الخبر بسبب ما قبل اسم الإشارة من الصلة.

{ سُوءُ الْحِسَابِ } ما يحفّ بالحساب من إغلاظ وإهانة للمحاسَب، وأمّا أصل الحساب فهو حسن لأنّه عدل.

{ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ } [19].

تفريع على { لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى } [13]. فالكلام لنفي استواء المؤمن والكافر في صورة الاستفهام تنبيها على غفلة الضالين عن عدم الاستواء، كقوله تعالى { أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لا يَسْتَوُونَ } [السجدة:18].

{ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى } استُعير لمن لا يعلم أنّ القرآن حقّ اسم الأعمى لأنّه انتفى علمه بشيء ظاهر بيّن، فأشبه الأعمى. فالكاف للتشابه مستعمل في التماثل. ولهذه الجملة في المعنى اتصال بقوله تعالى { وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ } [1].

{ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ } تعليل للإنكار الذي هو بمعنى الانتفاء بأنّ سبب عدم علمهم بالحقّ أنّهم ليسوا أهلا للتذكّر، لأنّ التذكّر من شعار أولي الألباب، أي: العقول. فهو تعريض بالمشركين بأنّهم لا عقول لهم

إذ انتفت عنهم فائدة عقولهم.

{ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ [20] وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ [21] وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ [22] }.

{ **الَّذِينَ يُوفُونَ** } يجوز أن يكون ابتداء كلام فهو استئناف ابتدائي جاء لمناسبة ما أفادت الجملة التي قبلها من إنكار الاستواء بين فريقين، ولذلك ذُكر في هذه الجمل حال فريقين في المحامد والمساوي ليظهر أنّ نفي التسوية بينهما في الجملة السابقة المراد به تفضيل أحد الفريقين على الآخر هو نفي مؤيَّد بالحجّة، وبذلك يصير موقع هذه الجملة مفيدا تعليلا لنفي التسوية والتفضيل.

{ **أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ** } اسم الإشارة للتنبيه على أنّ المشار إليهم جديرون بما بعد اسم الإشارة من أجل الأوصاف التي قبله.

وقد ظهر بهذه الجملة كلّها وبموقعها تفضيل الذين يعلمون أنّ ما أنزل حقّ، بما لهم من صفات الكمال الموجبة للفضل في الدنيا وحسن المصير في الآخرة، وبما لأضدادهم من ضد ذلك في قوله تعالى { وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ - إلى قوله - وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} [25].

الوفاء بالعهد: أنّ يحقّق المرء ما عاهد على أن يعمله. ومعنى **العهد**: الوعد الموثق بإظهار العزم على تحقيقه من يمين أو تأكيد.

{ **الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ** } المراد به الإيمان الذي أخذه الله على الخلق المشار إليه بقوله تعالى { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى } [الأعراف:172]، وأيضا بقوله تعالى { أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنِ اعْبُدُونِي } [يس:60-61]، وذلك عهد الله لهم بأن يعبدوه ولا يعبدوا غيره، لأنّه بذلك العهد قد أودع في فطرة العقول السليمة دلائل الوحدانيّة لمن تأمّل وأسلم للدليل، ولكن المشركين أعرضوا وكابروا ذلك العهد القائم في الفطرة، فلا جرم أن كان الإشراك إبطالا للعهد ونقضا له، ولذلك عُطفت { وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ } على قوله تعالى { يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ }.

{ **الْمِيثَاقَ** } تعريف الجنس فيستغرق جميع المواثيق وبذلك يكون أعمّ من عهد الله فيشمل المواثيق الحاصلة بين النّاس من عهود وأيمان. وباعتبار هذا العموم حصلت مغايرة ما بينه وبين عهد الله. وتلك هي مسوّغة العطف.

والميثاق والعهد مترادفان. والإيفاء ونفي النقض متحدا المعنى. وابتدئ من الصفات بهذه الخصلة لأنّها

تنبئ عن الإيمان والإيمان أصل الخيرات وطريقها. وهذه الصلات صفات لأولي الألباب فعطفها من باب عطف الصفات للموصوف الأحد، وليس من عطف الأصناف.

{ **وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ** } ما يصدق على الفريق الذين يوفون بعهد الله. ومناسبة عطفه أنّ وصل ما أمر الله به أن يوصل أثر من آثار الوفاء بعهد الله وهو عهد الطاعة.

الوصل: ضمّ شيء لشيء، وضدّه القطع. ويطلق مجازا على القرب وضدّه الهجر. واشتهر مجازا أيضا في الإحسان والإكرام ومنه قولهم: صلة الرحم، أي: الإحسان لأجل الرحم.

{ **مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ** } عام في جميع الأواصر والعلائق التي أمر الله بالمودة والإحسان لأصحابها، فمنها آصرة الإيمان، ومنها آصرة القرابة وهي صلة الرحم. وقد اتفق المفسّرون على أنها مراد الله هنا، وقد تقدّم مثله عند قوله تعالى { وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ} [البقرة:27/26].

وإنما أُطنِب في التعبير عنها بطريقة اسم الموصول { مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ } لما في الصلة من التعريض بأنّ واصلها آت بما يرضي الله، لينتقل من ذلك إلى التعريض بالمشركين الذين قطعوا أواصر القرابة بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين، وأساؤوا إليهم في كلّ حال وكتبوا صحيفة القطعية مع بني هاشم.

وفيها الثناء على المؤمنين بأنّهم يصلون الأرحام ولم يقطعوا أرحام قومهم المشركين إلّا عندما حاربوهم.

الخشية: خوف بتعظيم المَخوف منه. وتطلق أيضا على مطلق الخوف.

الخوف: ظنّ وقوع المضرّة من شيء. وتقدّم في قوله تعالى { إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ } [البقرة:229].

{ **سُوءَ الْحِسَابِ** } ما يحفّ به ممّا يسوء المحاسَب، وقد تقدّم آنفا.

{ **الَّذِينَ يُوفُونَ / وَالَّذِينَ يَصِلُونَ** } جاءت الصلات وما عطف عليهما بصيغة المضارع في تلك الأفعال الخمسة لإفادة التجدّد كناية عن الاستمرار.

{ **وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً** } جاءت الصلة وما عطف عليها بصيغة الماضي لإفادة تحقّق هذه الأفعال الثلاثة لهم وتمكّنها من أنفسهم، تنويها بها لأنّها أصول لفضائل الأعمال.

فأمّا **الصبر** فلأنّه ملاك استقامة الأعمال ومصدرها فإذا تخلّق به المؤمن صدرت عنه الحسنات والفضائل بسهولة، ولذلك قال تعالى { إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ } [العصر:3/2].

وأمّا **الصلاة** فلأنّها عماد الدين وفيها ما في الصبر من الخاصيّة، لقوله تعالى { وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ } [البقرة:45].

وأمّا **الإنفاق** فأصله الزكاة، وهي مقارنة للصلاة كلمّا ذُكرت، ولها الحظ الأوفى من اعتناء الدين بها. ومنها النفقات والعطايا كلها، وهي أهم الأعمال، لأنّ بذل المال يشقّ على النفوس، فكان له من الأهمية ما جعله ثانيا للصلاة.

{ **ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ** } مفعول لأجله لـ { صَبَرُوا }. و**الابتغاء**: الطلب. ومعنى ابتغاء وجه الله: ابتغاء رضاه كأنّه فعل فعلا يطلب به إقباله عند لقائه. وتقدّم في قوله { وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ } [البقرة:272].

والمعنى: أنّهم صبروا لأجل أنّ الصبر مأمور به من الله لا لغرض آخر كالرياء.

السر والعلانيّة: تقدّم ذكرهما في قوله { الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلانِيَةً } [البقرة:274].

{ **وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ** } أعيد أسلوب التعبير بالمضارع في المعطوف على الصلة لاقتضاء المقام إفادة التجدّد، إيماء إلى أنّ تجدّد هذا الدرء ممّا يُحرص عليه لأنّ النّاس عرضة للسيّئات على تفاوت، فوصف لهم دواء ذلك بأن يدفعوا السيئات بالحسنات.

الدرء: الدفع والطرد. وهو هنا مستعار لإزالة أثر الشيء فيكون بعد حصول المدفوع وقبل حصوله بأن يعدّ ما يمنع حصوله. فيصدق ذلك بأن يتبع السيّئة إذا صدرت منه بفعل الحسنات فإنّ ذلك كطرد السيّئة. وخاصة فيما بينه وبين ربّه. قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" يا معاذ اتق الله حيث كنت وأتبع السيّئة الحسنة تمحها "**.

ويصدق بأن لا يقابل من فعل معه سيئة بمثلها بل يقابل ذلك بالإحسان، قال تعالى { ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } [فصلت:34] وذلك بأن يصل من قطعه ويعطي من حرمه ويعفو عمن ظلمه. وذلك فيما بين الأفراد.

وكذلك يصدق بين الجماعات إذا لم يفض إلى استمرار الضرّ. قال تعالى { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ } [الأنفال: 3].

ويصدق بالعدول عن فعل السيّئة بعد العزم فإنّ ذلك العدول حسنة درأت السيئة المعزوم عليها. قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : **" من همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له حسنة "**.

فقد جمع { يَدْرَأُونَ } جميع هذه المعاني، ولهذا لم يُعقّب بما يقتضي أنّ المراد معاملة المسيء بالإحسان كما أُتبع في قوله تعالى { وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } [فصلت:34]. وكما في قوله تعالى { ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ } [المؤمنون:96].

{ **أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ**} خبر عن { الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ }. ودلّ اسم الإشارة على أنّ المشار إليهم جديرون بالحكم الوارد بعد اسم الإشارة لأجل ما وصف به المشار إليهم من الأوصاف.

العُقبى: العاقبة. وهي الشيء الذي يعقب، أي: يقع عقب شيء آخر. وقد اشتهر استعمالها في آخرة الخير،

قال تعالى { وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } [القصص:83]. وأمّا قوله تعالى { وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ } [35] فهو مشاكلة كما سيأتي في آخر السورة. وانظر ما ذكرته في تفسير قوله تعالى { وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ } [القصص:37] فقد زدته بيانا.

{ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ [23] سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ [24] }.

{ **جَنَّاتِ عَدْنٍ** } بدل من {عُقْبَى الدَّارِ }. و**العدن**: الاستقرار. وتقدّم في قوله تعالى { وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ } [التوبة:72].

{ **يَدْخُلُونَهَا** } لاستحضار الحالة البهيجة. والجملة حال من { جَنَّاتِ } أو من ضمير { لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ }.

{ **وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ** } واو المعيّة، وذلك زيادة الإكرام بأن جعل أصولهم وفروعهم وأزواجهم المتأهّلين لدخول الجنّة لصلاحهم في الدرجة التي هم فيها، فمن كانت مرتبته دون مراتبهم لحق بهم، ومن كانت مرتبته فوق مراتبهم لحقوا هم به، فلهم الفضل في الحالين. وهذا كعكسه في قوله تعالى { احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ } [الصافات:22]، لأنّ مشاهدة عذاب الأقارب عذاب مضاعف. وفي هذه الآية بشرى لمن كان له سلف صالح أو خلف صالح أو زوج صالح ممّن تحقّقت فيهم هذه الصلات أنّه إذا صار إلى الجنّة لحق بصالح أصوله أو فروعه أو زوجه. وما ذكر الله هذا إلّا لهذه البشرى، كما في قوله تعالى { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ } [الطور:21].

والآباء يشمل الأمّهات على طريقة التغليب كما قالوا: الأبوين.

{ **وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ** } عطف على { يَدْخُلُونَهَا } فهي في موقع الحال. وهذا من كرامتهم والتنويه بهم، فإنّ تردّد رسل الله عليهم مظهر من مظاهر إكرامه. و{ **مِنْ كُلِّ بَابٍ** } كناية عن كثرة غشيان الملائكة إيّاهم.

{ **سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ** } مقول قول محذوف لأنّ هذا لا يكون إلّا كلاما من الداخلين. والتقدير: نالكم هذا التكريم بالسلام بسبب صبركم. ويجوز أن يكون متعلّقا بمحذوف مستفاد من المقام، أي: هذا النعيم المشاهد بما صبرتم. والمراد: الصبر على مشاق التكاليف وعلى ما جاهدوا بأموالهم وأنفسهم.

{ **فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ** } تفريع ثناء على حسن عاقبتهم، والمخصوص بالمدح محذوف لدلالة مقام الخطاب عليه. والتقدير: فنعم عقبى الدار دار عقباكم. وتقدّم معنى { عُقْبَى الدَّارِ } آنفا.

{ **وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ** } [25].

هذا شرح حال أضداد الذين يوفون بعهد الله، وهو ينظر إلى شرح مجمل قوله تعالى { كَمَنْ هُوَ أَعْمَى } [19].

نقض العهد: إبطاله وعدم الوفاء به.

{ **مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ** } زيادة في تشنيع النقض، أي: من بعد توثيق العهد وتأكيده. وتقدّم نظير هذه الآية عند قوله تعالى { وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ } [البقرة:27/26].

{ **أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ** } خبرعن { الَّذِينَ يَنْقُضُونَ }، وهي مقابل جملة { أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ }. والبعد عن الرحمة والخزي وإضافة سوء الدار كإضافة عقبى الدار.

السوء: هنا ضد العقبى كما تقدّم.

{ **اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ** } [26].

هذه الجملة مستأنفة استئنافا بيانيّا جوابا عمّا يهجس في نفوس السامعين من المؤمنين والكافرين من سماع قوله تعالى { أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ } المفيد أنّهم مغضوب عليهم، فأمّا المؤمنون فيقولون: كيف بسط الله الرزق لهم في الدنيا فازدادوا به طغيانا وكفرا، وأمّا الكافرون فيسخرون من الوعيد مزدهين بما لهم من نعمة. فأجيب الفريقان بأنّ الله يشاء بسط الرزق لبعض عباده ونقصه لبعض آخر لحكمة متّصلة بأسباب العيش في الدنيا.

{ **اللَّهُ يَبْسُطُ** } أفاد تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي تقوية للحكم وتأكيدا، لأنّ المقصود أن يعلمه النّاس ولفت العقول إليه على رأي السكّاكي في أمثاله. وليس المقام مقام إفادة الحصر كما درج عليه (الكشّاف).

البسط: مستعار للكثرة وللدوام.

القدر: كناية عن القلّة.

ولمّا كان المقصود الأوّل من هذا الكلام تعليم المسلمين كان الكلام موجّها إليهم.

{ **وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا** } جيء في جانب الكافرين بضمير الغيبة إشارة إلى أنّهم أقل من أن يفهموا هذه الدقائق لعنْجهيّة نفوسهم، فهم فرحوا بما لهم في الحياة الدنيا وغفلوا عن الآخرة، فالفرح المذكور فرح بطر وطغيان كما في قوله تعالى { ذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ } [القصص:76].

{ **وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ** } المراد بالحياة الدنيا وبالآخرة هنا نعيمهما بقرينة السياق، فالكلام من إضافة الحكم إلى الذات والمراد أحوالها. أي: إذا نسبت أحوال الحياة الدنيا بأحوال الآخرة ظهر أنّ أحوال الدنيا متاع قليل.

المتاع: ما يُتمتع به وينقضي. وتنكيره للتقليل كقوله تعالى { لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ} [آل عمران:197/196].

{ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ } [27].

هذه الجملة تكرير لنظيرتها السابقة { وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ } [7]. فأعيدت تلك الجملة إعادة الخطيب كلمة من خطبته ليأتي بما بقي عليه في ذلك الغرض بعد أن يفصل بما اقتضى المقام الفصل به ثم يتفرّغ إلى ما تركه من قبل. فإنّه بعد أن بيّنت الآيات السابقة أنّ الله قادر على أن يعجّل لهم العذاب ولكن حكمته اقتضت عدم التنازل ليتحدّى عبيده، فتبيّن ذلك كلّه كمال التبيين. وكلّ ذلك لاحق بقوله تعالى { وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ } [5]، وعود إلى المهمّ من غرض التنويه بآية القرآن ودلالته على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، ولهذا أطيل الكلام على هدي القرآن عقب هذه الجملة.

{ **إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ** } موقع الخبر المستعمل في تعجيب الرسول صلى الله عليه وسلم من شدّة ضلالهم. وتحت هذا التعجيب معان أخرى:

أحدها: أنّ آيات صدق النبيّ صلى الله عليه وسلم واضحة لولا أنّ عقولهم لم تدركها لفساد إدراكهم.

الثاني: أنّ الآيات الواضحة الحسيّة قد جاءت لأمم أخرى فرأوها ولم يؤمنوا. كما قال تعالى { وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا } [الإسراء:59].

الثالث: أنّ لعدم إيمانهم أسبابا خفيّة يعلمها الله قد أُبهمت بالتعليق على المشيئة في قوله تعالى { يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ }، منها ما يومئ إليه قوله تعالى في مقابله { وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ }. وذلك أنّهم تكبّروا وأعرضوا حين سمعوا الدعوة إلى التوحيد فلم يتأمّلوا، وقد ألقيت إليهم الأدلة القاطعة فأعرضوا عنها ولو أنابوا وأذعنوا لهداهم الله ولكنّهم نفروا.

الإنابة: حقيقتها الرجوع. وأطلقت هنا على الاعتراف بالحقّ عند ظهور دلائله، لأنّ النفس تنفر من الحقّ ابتداء ثم ترجع إليه، فالإنابة هنا ضد النفور.

{ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ [28] الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ [29] }.

استئناف اعتراضي مناسبته المضادة لحال الذين أضلّهم الله، والبيان لحال الذين هداهم، مع التنبيه على أنّ مثال الذين ضلّوا هو عدم اطمئنان قلوبهم لذكر الله، وهو القرآن، لأنّ قولهم { لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ } يتضمّن أنّهم لم يعدّوا القرآن آية من الله. ثم التصريح بجنس عاقبة هؤلاء، والتعريض بضدّ ذلك لأولئك.

الاطمئنان: السكون، واستعير هنا لليقين وعدم الشك، لأنّ الشك يُستعار له الاضطراب.

ذكر الله: يجوز أن يراد به خشية الله ومراقبته بالوقوف عند أمره ونهيه.

ويجوز أن يراد به القرآن، قال تعالى { وإنّه لذكر لك ولقومك } [الزخرف:44]، وهو المناسب هنا، لقولهم { لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ } لأنّهم لم يكتفوا بالقرآن آية على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم. وعلى هذا المعنى جاء قوله تعالى { فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ } [الزمر:22]. والذكر من أسماء القرآن.

ويجوز أن يراد ذكر الله باللسان فإنّ إجراءه على اللسان ينبّه القلوب إلى مراقبته. وهذا وصف لحسن حال المؤمنين ومقايسته بسوء حالة الكافرين الذين غمر الشك قلوبهم.

{ **تَطْمَئِنُّ** } اختير المضارع في مرّتين لدلالته على تجدّد الاطمئنان واستمراره وأنّه لا يتخلّله شكّ ولا تردّد.

{ **أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ** } افتُتحت بحرف التنبيه اهتماما بمضمونها. وهي بمنزلة التذييل لما في تعريف { الْقُلُوبُ } من التعميم. وفيه إثارة الباقين على الكفر على أن يتّسموا بسمة المؤمنين من التدبّر في القرآن لتطمئن قلوبهم.

طوبى: مصدر من طاب طيبا إذا حسن. وهي بوزن البشرى والزلفى، قلبت ياؤها واوا لمناسبة الضمّة، أي: لهم الخير الكامل لأنّهم اطمأنت قلوبهم بالذكر. فهم في طيب حال؛ في الدنيا بالاطمئنان، وفي الآخرة بالنعيم الدائم، وهو حسن المئاب، وهو مرجعهم في آخر أمرهم.

{ **وَحُسْنُ مَآبٍ** } إطلاق المآب عليه باعتبار أنّه آخر أمرهم وقرارهم، كما أنّ قرار المرء بيته يرجع إليه بعد الانتشار منه. على أنّه يناسب ما تقرّر أنّ الأرواح من أمر الله، أي من عالم الملكوت وهو عالم الخلد فمصيرها إلى الخلد رجوع إلى عالمها الأوّل. وهذا مقابل قوله تعالى في المشركين { وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ }.

{ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ } [30].

هذا جواب عن قولهم { لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ } لأنّ الجواب السابق بقوله تعالى { قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ } جواب بالإعراض عن جهالتهم والتعجّب من ضلالهم وما هنا هو الجواب الراد لقولهم.

{ **كَذَلِكَ** } افتتاح الآية باسم الإشارة تأكيد للمشار إليه وهو التعجّب من ضلالتهم إذ عموا عن صفة الرّسالة.

والمشار إليه: الإرسال المأخوذ من فعل { **أَرْسَلْنَاكَ** }، أي: مثل الإرسال البيّن أرسلناك، فالمشبّه به عين المشبّه.

{ **فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ** } إرسال الرسل من قبله إلى أمم يقتضي مرسلين، أي: ما كانت رسالتك إلّا مثل رسالة الرّسل من قبلك، كقوله تعالى { قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ } [الأحقاف:9]، لإبطال توهّم المشركين أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لمّا لم يأتهم بما سألوه فهو غير مرسل من الله.

{ **فِي أُمَّةٍ** } هي أمة الدعوة { فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ }.

{ **قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ** } يتضمّن التعريض بالوعيد بمثل مصير الأمم الخالية التي كذّبت رسلها. وتقدّم عند قوله تعالى { قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ } [آل عمران:137].

{ **لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ** } تضمن لام التعليل أنّ الإرسال لأجل الإرشاد والهداية بما أمر الله، لا لأجل الانتصاب لخوارق العادات.

التلاوة: القراءة. فالمقصود لتقرأ عليهم القرآن.

وفيه إيماء إلى أنّ القرآن هو معجزته لأنّه ذُكر في مقابلة إرسال الرّسل الأّولين، ومقابلة قوله تعالى { وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ } [7]. وقد جاء ذلك صريحا في قوله تعالى { أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ } [العنكبوت:51]. وقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" ما من الأنبياء نبيّ إلّا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنّما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إليّ ".**

{ **وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ** } أي: أرسلناك بأوضح الهداية وهم مستمرون على الكفر، فالضمير عائد إلى المشركين المفهومين من المقام لا إلى { أُمَّةٍ } لأنّ الأمّة منها مؤمنون.

{ **يَكْفُرُونَ** } التعبير بالمضارع للدلالة على تجدّد ذلك واستمراره، ومعنى كفرهم بالله: إشراكهم معه غيره في الإلهية، فقد أبطلوا حقيقة الإلهية فكفروا به.

{ **الرَّحْمَنِ** } اختيار هذا الاسم من بين أسمائه تعالى لأنّ كفرهم بهذا الاسم أشد، لأنّهم أنكروا أن يكون الله رحمان، قال تعالى { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ } [الفرقان:60]، ولأن لهذه الصفة مزيد اختصاص بتكذيبهم الرسول عليه الصلاة والسلام وتأييده بالقرآن لأنّ القرآن هدى ورحمة للنّاس.

وقد أرادوا تعويضه بالخوارق التي لا تُكسب هديا بذاتها ولكنها دالة على صدق من جاء بها. فأشارت الآية إلى كفرين من كفرهم جحد الوحدانية، وجحد اسم الرحمان.

{ **قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ** } لُقِّن النبيّ صلى الله عليه وسلم بإبطال كفرهم المحكي إبطالا جامعا بأن يقول { هُوَ رَبِّي }، فضمير {هُوَ} عائد إلى { الرَّحْمَان } باعتبار المسمّى بهذا الاسم، أي: المسمّى هو ربي وأنّ الرحمن اسمه.

{ **لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ** } إبطال لإشراكهم معه في الإلهية غيره. وهذا ممّا أمر الله نبيّه أن يقوله، فهو احتراس لردّ قولهم: إنّ محمدا صلى الله عليه وسلم يدعوا إلى رب واحد وهو يقول: إنّ ربّه الله وإنّ ربّه الرحمان، فكان قوله دالًّا على أنّ المدعو بالرحمان هو المدعو بالله.

{ **عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ** } هي نتيجة لكونه ربّا واحدا. ولكونها كالنتيجة فُصلت عن التي قبلها لما بينهما من الاتصال. وتقديم المجرورين { عَلَيْهِ / إِلَيْهِ } لإفادة اختصاص التوكل والمتاب عليه، لأنّه لمّا توحّد بالربوبيّة كان التوكّل عليه، ولمّا اتصف بالرحمانية كان المتاب إليه، لأنّ رحمانيّته مظنّة لقبوله توبة عبده.

المتاب: مصدر ميمي على وزن مفعل، أي: **التوبة،** يفيد المبالغة لأنّ الأصل في المصادر الميمية أنّها أسماء زمان جعلت كناية عن المصدر، ثم شاع استعمالها حتّى صارت كالصريح.

وأصلها (متابي) بإضافة إلى ياء المتكلم فحذفت الياء تخفيفا وأبقيت الكسرة دليلا على المحذوف.

{ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ }

[31].

أي: لو أنّ كتابا من الكتب السالفة اشتمل على أكثر من الهداية فكانت مصادر لإيجاد العجائب لكان هذا القرآن كذلك، ولكنه ليس كذلك، إذ ليس ذلك من سنن الكتب الإلهيّة.

{ **سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى** } وجه تخصيص هذه الأشياء الثلاثة من بين الخوارق المفروضة ما رواه الواحدي والطبري عن ابن عباس: أنّ كفّار قريش؛ أبا جهل وابن أبي أمية جلسوا خلف الكعبة ثم أرسلوا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالوا: لو وسّعت لنا جبال مكّة فسيّرتها حتّى تتسع أرضنا فنحترثها فإنّها ضيّقة، أو قرّب إلينا الشام فإنّا نتجر إليها، أو أخرج قُصَيًّا نكلّمه.

فكان في ذكر هذه الأشياء إشارة إلى تهكّمهم.

{ **قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ** } قطّعت مسافات الأسفار كقوله تعالى { لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ } [الأنعام:94].

{ **بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً** } عطف على { وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً } بحرف الإضراب. أي: ليس ذلك من شأن الكتب بل لله أمر كل محدَث فهو الذي أنزل الكتاب وهو الذي يخلق العجائب إن شاء.

{ **الْأَمْرُ** } التصرّف التكويني.

{ **أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً** } استفهام إنكاري لانتفاء يأس الذين آمنوا، أي: فهم حقيقون بزوال يأسهم، وأن يعلموا أن لو يشاء الله لهدى النّاس جميعا.

{ **يَيْأَسِ** } بمعنى يوقن ويعلم، ولا يستعمل هذا الفعل إلا مع (أَن) المصدريّة، وأصله مشتقّ من اليأس الذي هو تيقّن عدم حصول المطلوب بعد البحث، فاستعمل في مطلق اليقين على طريقة المجاز المرسل، وشاع ذلك حتى صار حقيقة. وقد قيل: إن استعمال يئس بمعنى علم لغة هوازن أو لغة بني وَهْبيل.

ويجوز أن يكون متعلّق { يَيْأَسِ } محذوفا دل عليه المقام. تقديره: من إيمان هؤلاء، ويكون { أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ } مجرورا بلام تعليل محذوفة. والتقدير: لأنه لو يشاء الله لهدى الناس، فيكون تعليلا لإنكار عدم يأسهم.

{ **وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ** }.

تهديد بالوعيد على تعنّتهم وإصرارهم على عدم الاعتراف بمعجزة القرآن، وتهكّمهم باستعجال العذاب الذي توعّدوا به، فهدّدوا بما سيحلّ بهم من الخوف بحلول الكتائب والسرايا بهم، تنال الذين حلّت فيهم وتُخيف من حولهم حتّى يأتي وعد الله بيوم بدر أو فتح مكّة.

{ **لَا يَزَالُ** } في أصلها تدلّ على الإخبار باستمرار شيء واقع، فإذا كانت هذه الآية مكّية تعيّن أن تكون نزلت عند وقوع بعض الحوادث المؤلمة بقريش من جوع أو مرض. فتكون هذه الآية تنبيها لهم بأنّ ذلك عقاب من الله تعالى ووعيد بأنّ ذلك دائم فيهم حتّى يأتي وعد الله. ولعلّها نزلت في مدة إصابتهم بالسنين السبع المشار إليها بقوله { وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ } [البقرة:155].

ومن جعلوا هذه السورة مدنية فتأويل الآية عندهم أنّ القارعة السريّة من سرايا المسلمين التي تخرج لتهديد قريش ومن حولهم. وهو لا ملجئ إليه.

القارعة: في الأصل وصف من القرع. وهو ضرب جسم بجسم آخر. يقال: قرع الباب إذا ضربه بيده بحلقة. ولما كان القرع يحدث صوتا مباغتا يكون مزعجا لأجل تلك البغتة صار القرع مجازا للمباغتة والمفاجأة، ومثله الطرق، وصاغوا من هذا الوصف صيغة تأنيث، وهو ما يؤوّل بالحادثة أو النازلة، كما قالوا: داهية وكارثة. أي: نازلة موصوفة بالإزعاج. ومنه تسمية ساعة البعث بالقارعة.

والمراد هنا: **الحادثة المفجعة** بقرينة إسناد الإصابة إليها. وهي مثل الغارة والكارثة تحلّ فيهم فتصيبهم

عذابا، أو تقع بالقرب منهم فيصيبهم الخوف من تجاوزها إليهم.

{ **بِمَا صَنَعُوا** } بسبب فعلهم وهو كفرهم وسوء معاملتهم نبيئّهم، وأُتي بالموصول لأنّه أشمل لأعمالهم.

{ **أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ** } ضمير { تَحُلُّ } عائد إلى { قَارِعَةٌ } فيكون ترديدا لحالهم بين إصابة القوارع إيّاهم وبين حلول القوارع قريبا من أرضهم فهم في رعب منها وفزع.

تحُل: (بضم الحاء) مضارع حل اللازم.

{ **حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ** } من إطلاق المصدر على المفعول، أي: موعود الله، وهو ما توعّدهم به من العذاب، فأشارت الآية إلى استئصالهم، لأنّها ذكرت الغلب ودخول جهنّم، فكان المعنى أنّه غلب القتل بسيوف المسلمين، وهو البطشة الكبرى. ومن ذلك يوم بدر ويوم حنين ويوم الفتح.

{ **إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ** } تذييل، إيذانا بأنّ إتيان الوعد المُغيّا به محقّق، وأنّ الغاية به غاية بأمر قريب الوقوع. والتأكيد مراعاة لإنكار المشركين.

{ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ } [32].

لأن تلك المثل الثلاثة التي فرضت أريد بها أمور سألها المشركون النبيّ صلى الله عليه وسلم استهزاء وتعجيزا.

وقد استهزأ قوم نوح به عليه السلام: { وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ] [هود:38].

واستهزأت عاد بهود عليه السلام: { فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } [الشعراء:187]. واستهزأت ثمود بصالح عليه السلام: { قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ }[الأعراف:66].

واستهزأوا بشعيب عليه السلام: { قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ } [هود:87].

واستهزأ فرعون بموسى عليه السلام: { أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ } [الزخرف:43].

الاستهزاء: مبالغة في الهزء مثل الاستسْخار في السخرية.

الإملاء: الإمهال والترك مدّة. ومنه قوله تعالى { وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً }.

{ **فكيف كان عقاب** } الاستفهام للتعجيب. وأصله (عقابي) مثل ما تقدّم آنفا في قوله { وَإِلَيْهِ مَتَابِ }. والكلام تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، ووعيد للمشركين.

{ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ } [33].

تفريع على جملة { قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلَّا } [30] المجاب به حكاية كفرهم المضمّن في جملة { وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ } [30]، فالتفريع في المعنى على مجموع الأمرين: كفرهم، وإيمان النبيّ صلى الله عليه وسلم بالله.

ويجوز أن تكون تفريعا على جملة { وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ } [31]، فيكون ترقيّا في إنكار سؤالهم إتيان معجزة غير القرآن، واعتُرض اثر ذلك برد سؤالهم أن تُسيَّر الجبال أو تُقطّع الأرض أو تكلم الموتى، وتذكيرهم بما حلّ بالمكذّبين من قبلهم مع إدماج تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام [32/31]، ثمّ فُرّع على ذلك الاستفهام الإنكاري. والتقدير: أمّن هو قائم على كل نفس ومن جعلوهم به شركاء سواء في استحقاق العبادة. أي: إن تعجب من إنكارهم آيات القرآن فإنّ أعجب منه جعلهم القائم على كلّ نفس مماثلا لمن جعلوه لله شركاء.

{ **أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ** } العدول عن اسم الجلالة إلى الموصول لأنّ في الصلة دليلا على انتفاء المساواة، وتخطئة لأهل الشرك في تشريك آلهتهم لله تعالى في الإلهيّة، ونداء على غباوتهم إذ هم معترفون بأنّ الله هو الخالق.

القائم على الشيء: الرقيب، فيشمل الحفظ والإبقاء والإمداد، ولتضمّنه معنى الرقيب عدّي بحرف {عَلَى}. وأصله من القيام وهو **الملازمة** كقوله تعالى { إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً } [آل عمران:75].

ويجيء من معنى القائم أنّه العليم بحال كل شيء، لأنّ تمام القيّوميّة يتوقّف على إحاطة العلم.

فالمعنى: متولّيها ومدبّرها في جميع شؤونها في الخلق والأجل والرزق، والعالم بأحوالها وأعمالها.

والمشركون لا ينازعون في انفراد الله بهذا القيام ولكنّهم لا يراعون ذلك في عبادتهم غيره، فمن أجل ذلك لزمتهم الحجّة.

{ **بِمَا كَسَبَتْ** } الباء للملابسة. وهي في موقع الحال. أي: قياما ملابسا لما عملته كلّ نفس؛

من عمل خير يقتضي القيام عليها باللطف والرضى فتظهر آثار ذلك في الدنيا والآخرة لقوله تعالى { مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [النحل: 97].

أو من عمل شرّ يقتضي قيامه على النفس بالغضب والبلايا.

ففي هذه الصلة بعمومها **تبشير وتهديد** لمن تأمّل من الفريقين. فهذا تعريض بالأمرين أفادته صلة الموصول.

{ **وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ** } في موضع الحال، وإظهار اسم الجلالة للتعبير عن المُسمّى باسمه العلم الذي هو الأصل إذ كان قد وقع الإيفاء بحقّ العدول عنه إلى الموصول في الجملة السابقة فتهيّأ المقام للاسم العلم، وليكون تصريحا بأنّه المراد من الموصول السابق زيادة في التصريح بالحجّة.

{ **قُلْ سَمُّوهُمْ** } أعيد الأمر بالقول لاسترعاء الأفهام لوعي ما سيذكر. وقد تضمّنت ردا عليهم.

المعنى: إن هي إلّا أسماء سميتموها، وهذا كقوله تعالى { مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ } [يوسف:40]، وقوله { إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا } [النجم:23].

{ **أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ** } دلّت { أَمْ } على أنّ ما بعدها في معنى الاستفهام، وهو إنكاري توبيخي، أي: ما كان لكم أن تفتروا على الله فتضعوا له شركاء لم ينبئكم بوجودهم، لأنّ ما لا يعلمه الله لا وجود له. وفي [يونس:18] { قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ } زيادة في التعميم.

{ **أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ** } إعادة الباء للتأكيد بعد (أم) العاطفة. وليس (**الظاهر**) هنا من الظهور بمعنى الوضوح بل هو مشتق من الظهور بمعنى: الزوال، كناية عن البطلان، أي: بمجرد قول لا ثبات له وليس بحقّ.

{ **بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ** } إضراب عن الاحتجاج عليهم بإبطال إلهية أصنامهم إلى كشف السبب، وهو أن أئمة المشركين زيّنوا للذين كفروا مكرهم بهم إذ وضعوا لهم عبادتها.

المكر: إخفاء وسائل الضرّ، وتقدّم عند قوله تعالى { وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا } [الأنفال:30].

والمراد هنا: أنّ أئمة الكفر مثل عمرو بن لُحَي وضعوا للعرب عبادة الأصنام وحسّنوها إليهم مظهرين لهم أنّها حقّ ونفع وما أرادوا بذلك إلّا أن يكونوا قادة لهم ليسودوهم.

وقد تضمّن هذا الاحتجاج أساليب وخصوصيّات:

أحدها: توبيخهم على قياسهم أصنامهم على الله في إثبات الإلهيّة لها قياسا فاسدا لانتفاء الجهة الجامعة، فكيف يُسوّى من هو قائم على كلّ نفس بمن ليسوا في شيء من ذلك.

ثانيها: تبهيلهم في جعلهم أسماء لا مسمَّياتٍ لها آلهةً.

ثالثها: إبطال كون أصنامهم آلهة، بأنّ الله لا يعلمها آلهة، وهو كناية عن انتفاء إلهيتها.

رابعها: أنّ ادعاءهم آلهة مجرد كلام لا انطباق له مع الواقع، وهو قوله تعالى { أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ }.

خامسها: أنّ ذلك تمويه باطل روّجه فيهم دعاة الكفر، وهو معنى تسميته مكرا.

سادسها: أنّهم يصدّون النّاس عن سبيل الهدى.

{ **وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ** } عطف على { زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ }. قرأه الجمهور(بفتح الصاد) فهو باعتبار كون مضمون كلتا الجملتين من أحوال المشركين: فالأولى باعتبار كونهم مفعولين، والثانية باعتبار كونهم فاعلين للصدّ بعد أن انفعلوا بالكفر. وقرأه عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف { وَصُدُّوا }

(بضم الصاد) فهو كجملة { زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا } في كون مضمون كلتيهما جعل الذين كفروا مفعولا للتزيين والصدّ.

{ **وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ** } تذييل لما فيه من العموم.

{ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ } [34].

استئناف بياني، لأنّ التهديد السابق { فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ } يومئ إلى وعيد يسأل عنه السامع. وفيه تكملة للوعيد المتقدّم في قوله تعالى { وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ }، مع زيادة الوعيد في الدار الآخرة.

{ **عَذَابٌ** } التنكير للتعظيم، وهو عذاب القتل والخزي والأسر.

{ **مِنْ وَاقٍ** } {مِنَ} هنا لتأكيد النفي، للتنصيص على العموم.

الواقي: الحائل دون الضرّ، أي: من عذابه بقرينة ما ذُكر قبله.

{ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ } [35].

استئناف ابتدائي يرتبط بقوله تعالى { الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ }. ذكر هنا بمناسبة ذكر ضده في قوله تعالى { وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ } [34].

المثَل: هنا الصفة العجيبة، قيل: هو حقيقة من معاني المثل، كقوله تعالى { وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى } [النحل:60]. وقيل: هو مستعار من المثل الذي هو الشبيه في حالة عجيبة أطلق على الحالة العجيبة غير الشبيهة لأنّها جديرة بالتشبيه بها.

{ **تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ** } خبر عن { مَثَلُ } باعتبار أنّها من أحوال المضاف إليه.

{ **أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا** } خبر ثان، والأُكل (بالضم): المأكول، وتقدّم.

دوام الظل: كناية عن التفاف الأشجار بحيث لا فراغ بينها تنفذ منه الشمس، قال تعالى { وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً } [النبأ:16].

{ **تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا** } مستأنفة. والإشارة إلى الجنّة بصفاتها بحيث صارت كالمشاهدة. هي الجنّة التي وعد المتقون. وقد عُلم أنّ الذين اتقوا هم المؤمنون الصالحون كما تقدّم. وأوّل مراتب التقوى الإيمان.

{ **وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ** } مستأنفة للمناسبة بالمضادة. وهي كالبيان لجملة { وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ }.

{ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ } [36].

الواو للاستئناف. وهذا استئناف ابتدائي انتُقل به إلى فضل لبعض أهل الكتاب في حسن تلقّيهم للقرآن، بعد الفراغ من ذكر أحوال المشركين.

والمناسبة هي أنّ الذين أرسل إليهم بالقرآن انقسموا في التصديق بالقرآن فرقا: ففريق آمنوا بالله وهم المؤمنون، وفريق كفروا به وهم مصداق قوله تعالى { وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ } [30]. كما تقدم أنه عائد إلى المشركين المفهومين من المقام، كما هو مصطلح القرآن.

وأهل الكتاب فريق آخر، وهو منقسم أيضا في تلقي القرآن فرقتين:

فريق صدّقوا بالقرآن وفرحوا به. وكلّهم من النصارى مثل ورقة بن نوفل وكذلك غيره ممّن بلغهم القرآن أيّام مقام النبيّ صلى الله عليه وسلم بمكّة قبل أن تبلغهم دعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم، فإنّ اليهود كانوا قد سُرّوا بنزول القرآن مصدّقا للتوراة، وكانوا يحسبون دعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم مقصورة على العرب. **وفريق آخر** لم يثبت لهم الفرح بالقرآن وهم معظم اليهود والنصارى البعداء عن مكّة.

وما كفر الفريقان به إلّا حين علموا أنّ دعوة الإسلام عامة.

وبهذا التفسير تظهر بلاغة التعبير عنهم بـ { **يَفْرَحُونَ** } دون يؤمنون. وإنّما سلكنا هذا الوجه بناء على أنّ هذه السورة مكّية كان نزولها قبل أن يسلم عبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وبعض نصارى نجران وبعض نصارى اليمن. فإن كانت السورة مدنيّة أو كان هذا من المدني فلا إشكال.

{ **وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ** } الذين أوتوه إيتاء كاملا، وهو المجرّد عن العصبيّة لما كانوا عليه، وعن الحسد، فهو كقوله تعالى { الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ } [البقرة:121].

{ **وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ** } الأظهر أنّ المراد بالأحزاب أحزاب الذين أوتوا الكتاب، كما جاء في قوله تعالى { فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ } [مريم:37]، أي: ومن أحزابهم من ينكر بعض القرآن. فاللام عوض عن المضاف إليه. ولعلّ هؤلاء هم خبثاؤهم ودهاتهم الذين توسّموا أنّ القرآن يبطل شرائعهم فأنكروا بعضه.

وفي التعبير عنهم بالأحزاب إيماء إلى أنّ هؤلاء هم المتحزّبون المتصلّبون لقومهم ولما كانوا عليه.

{ **قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ** } أُمر النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يعلن للفريقين بأنّه ما أُمر إلّا بتوحيد الله كما في قوله تعالى { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ} [آل عمران:64]. وهذه الآية من مجاراة الخصم واستنزال طائر نفسه كيلا ينفر من النظر.

ولمّا كان المأمور به مجموع شيئين: عبادة الله، وعدم الإشراك به في ذلك آل المعنى: أنّي ما أمرت إلّا بتوحيد الله.

ومن بلاغة الجدل القرآني أنّه لم يأت بذلك من أوّل الكلام بل أتى به متدرّجا فيه فقال { أن أعبد الله } لأنّه لا ينازع في ذلك أحد من أهل الكتاب ولا المشركين، ثم جاء بعده { وَلا أُشْرِكَ بِهِ } لإبطال إشراك المشركين، وللتعريض بإبطال إلهية عيسى عليه السلام لأنّ ادعاء بنوّته من الله تعالى يؤول إلى الإشراك.

{ **إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ** } بيان لجملة { إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ }، أي: أن أعبده وأن أدعو النّاس إلى ذلك. وتقديم المجرور في الموضعين للاختصاص، أي: إليه لا إلى غيره أدعو، أي: بهذا القرآن، وإليه لا إلى غيره مئابي، فإن المشركين يرجعون في مهمّهم إلى الأصنام يستنصرونها ويستغيثونها. وليس في قوله هذا ما ينكره أهل الكتاب إذ هو ممّا كانوا فيه سواء مع الإسلام.

{ **وَإِلَيْهِ مَآبِ** } يعم الرجوع في الآخرة وهو البعث. وهذا من وجوه الوفاق في أصل الدين بين الإسلام واليهوديّة والنصرانيّة.

وحذف ياء المتكلم من (مئابي) كحذفها في قوله تعالى { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ } [30].

{ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ } [37].

لمّا ذُكر حال تلقّي أهل الكتابين للقرآن عند نزوله عُرج على حال العرب في ذلك بطريقة التعريض بسوء تلقّي مشركيه له مع أنّهم أولى الناس بحسن تلقّيه، إذ نزل بلسانهم مشتملا على ما فيه صلاحهم وتنوير عقولهم. وقد جُعل أهم هذا الغرض التنويه بعلو شأن القرآن لفظا ومعنى.

{ **حُكْماً عَرَبِيّاً** } حالان من ضمير { أَنْزَلْنَاهُ }. و**الحكم**: هنا بمعنى الحكمة، كما في قوله تعالى { وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً } [مريم:12]. وجعل نفس الحكم حالا منه مبالغة. والمراد: أنه ذو حكمة. والحكمة تقدّمت.

{**عَرَبِيّاً** } حال ثانية وليس صفة لـ { حُكْماً }. والمقصود أنّه بلغة العرب التي هي أفصح اللغات وأجملها وأسهلها، وفي ذلك إعجازه. فحصل لهذا الكتاب كمالان: كمال من جهة معانيه ومقاصده وهو كونه حكما، وكمال من جهة ألفاظه وهو المُكنّى عنه بكونه عربيا، وذلك ما لم يبلغ إليه كتاب قبله لأنّ الحكمة أشرف المعقولات فيناسب شرفها أن يكون إبلاغها بأشرف لغة وأصلحها للتعبير عن الحكمة، { وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ } [الشعراء:192-195].

ثم في كونه عربيا امتنان على العرب المخاطبين به ابتداء بأنّه بلغتهم وبأنّ في ذلك حسن سمعتهم، كما قال تعالى { لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ } [الأنبياء:10]. قال مالك: فيه بقاء ذكركم.

{ **وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ** } معترضة، واللام موطّئة للقسم وضمير الجمع في قوله تعالى { أَهْوَاءَهُمْ } عائد إلى معلوم من السياق وهم المشركون.

اتباع أهوائهم: تحذير من أن يسأل الله إجابتهم لما طلبوه كما قال لنوح عليه السلام { فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ } [هود:46].

{ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ } ما بلغك وعلمته، الراجح أن يراد بالموصول القرآن تنويها به، أي: لئن شايعتهم فسألتنا آية غير القرآن بعد أن نزل عليك القرآن، أو بعد أن أعلمناك أنّا غير متنازلين لإجابة مقترحاتهم.

الولي: النصير. و**الواقي**: المدافع.

والمقصود من هذا تحذير المسلمين من أن يركنوا إلى تمويهات المشركين، والتحذير من الرجوع إلى دينهم، وتأييس المشركين من الطمع في مجيء آية توافق مقترحاتهم.

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ [38] يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ [39] }.

هذا عود إلى الردّ على المشركين في إنكارهم آية القرآن وتصميمهم على المطالبة بآية من مقترحاتهم تماثل ما يؤثر من آيات موسى وآيات عيسى عليهما السلام ببيان أنّ الرّسول لا يأتي بآيات إلّا بإذن الله، وأنّ ذلك لا يكون على مقترحات الأقوام.

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً } أدمج في هذا الردّ إزالة شبهة قد تعرض أو قد عرضت لبعض المشركين فيطعنون أو طعنوا في نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم بأنّه يتزوّج النساء وأنّ شأن النبيّ أن لا يهتم بالنّساء. وليس يلزم أن يكون هذا نازلا على سبب. وقد تزوّج رسول الله صلى الله عليه وسلم خديجة ثم سودة رضي الله عنهما في مكّة فاحتمل أنّ المشركين قالوا قالة إنكار تعلقا بأوهن أسباب الطعن في النبوّة. وهذه شبهة تعرض للسذّج أو لأصحاب التمويه، وقد يموّه بها المبشّرون من النصارى على ضعفاء الإيمان فيفضلون عيسى عليه السلام على محمد صلى الله عليه وسلم بأنّ عيسى لم يتزوّج النساء. وقد كان لأكثر الرسل أزواج ولأكثرهم ذرية مثل نوح وإبراهيم ولوط وموسى وداود وسليمان عليهم السلام.

الأزواج: جمع زوج، وهو من مقابلة الجمع بالجمع، فقد يكون لبعض الرسل زوجة واحدة مثل: نوح ولوط - عليهما السلام، وقد يكون للبعض عدة زوجات مثل: إبراهيم وموسى وداود وسليمان عليهم السلام. وتقدّم الكلام على الزوج عند قوله تعالى { وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ } [البقرة:35].

الذرّيّة: النسل. وتقدّم عند قوله تعالى { قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي } [البقرة:124].

{ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ } هي المقصود. وتركيب { مَا كَانَ } يدلّ على المبالغة في النفي. والمعنى: أنّ شأنك شأن من سبق من الرسل لا يأتون من الآيات إلّا بما آتاهم الله.

إذن الله: هو إذن التكوين للآيات وإعلام الرسول بأن ستكون آية، فاستعير الإتيان للإظهار، واستعير

الإذن للخلق والتكوين.

{ **لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ** } تذييل لأنّه أفاد عموم الآجال فشمل أجل الإتيان بآية من قوله تعالى { وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله }. فإنّ لذلك آجالا أرادها الله واقتضتها حكمته وهو أعلم بخلقه وشؤونهم، ولكنّ الجهلة يقيسون تصرفات الله بمثل ما تجري به تصرّفات الخلائق.

الأجل: الوقت الموقّت به عمل معزوم أو موعود.

الكتاب: المكتوب، وهو كناية عن التحديد والضبط، لأنّ شأن الأشياء التي يراد تحقّقها أن تكتب لئلّا يخالَف عليها. وفي هذا الردّ تعريض بالوعيد.

والمعنى: لكلّ واقع أجل يقع عنده، أي: تعيين لا يتقدّمه ولا يتأخّر عنه.

{ **يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ** } مستأنفة استئنافا بيانيّا لأنّ جملة { لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ } تقتضي أنّ الوعيد كائن وليس تأخيره مزيلا له. ولما كان في ذلك تأييس للنّاس عُقّب بالإعلام بأنّ التوبة مقبولة، وبإحلال الرجاء محلّ اليأس، فجاءت الجملة احتراسا.

المحو: حقيقته إزالة شيء، وكثر في إزالة الخط أو الصورة، ومرجع ذلك إلى عدم المشاهدة، قال تعالى { فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً } [الإسراء:12]. ويطلق مجازا على تغيير الأحوال وتبديل المعاني كالأخبار والتكاليف والوعد والوعيد فإنّ لها نسبا ومفاهيم إذا صادفت ما في الواقع كانت مطابقتها إثباتا لها وإذا لم تطابقه كان عدم مطابقتها محوا لأنّه إزالة لمدلولاتها.

التثبيت: حقيقته جعل الشيء ثابتا قارا في مكان، قال تعالى { إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا } [الأنفال:45].

ويُطلق مجازا على أضداد معاني المحو المذكورة.

فيندرج في ما تحتمله الآية عدة معان: منها أنّه يعدم ما يشاء من الموجودات ويبقي ما يشاء منها، ويعفو عمّا يشاء من الوعيد ويقرّر، وينسخ ما يشاء من التكاليف ويبقي ما يشاء. وكلّ ذلك مظاهر لتصرّف حكمته وعلمه وقدرته. وإذ قد كانت تعلّقات القدرة الإلهية جارية على وفق علم الله تعالى كان ما في علمه لا يتغيّر فإنّه إذا أوجد شيئا كان عالما أنّه سيوجده، وإذا أزال شيئا كان عالما أنّه سيزيله وعالما بوقت ذلك.

{ **مَا يَشَاءُ** } أُبهم الممحو والمثبت لتتوجّه الأفهام إلى تعرّف ذلك والتدبّر فيه، لأنّ تحت هذا الموصول صورا لا تحصى، وأسبابُ المشيئة لا تحصى.

ومن مشيئة الله تعالى محوَ الوعيد أن يُلهم المذنبين التوبة والإقلاع ويخلق في قلوبهم داعية الامتثال. ومن مشيئة التثبيت أن يصرف قلوب قوم عن النظر في تدارك أمورهم، وكذلك القول في العكس من تثبيت الخير ومحوه. وكذلك الشأن في ظهور آثار رضي الله أو غضبه على العبد، فبينما ترى أحدا مغضوبا

عليه مضروبا عليه المذلّة لانغماسه في المعاصي إذا بك تراه قد أقلع وتاب فأعزّه الله ونصره.
ومن آثار ذلك أيضا تقليب القلوب بأن يجعل الله البغضاء محبّة، كما قالت هند بنت عتبة للنبيّ صلى الله عليه وسلم بعد أن أسلمت: " ما كان أهل خباء أحبّ إلي أن يذلّوا من أهل خبائك واليوم أصبحت وما أهل خباء أحبّ إلي أن يعزّوا من أهل خبائك ".

{ **وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ** } يجوز أن يكون مرادا به الكتاب الذي كُتبت به الآجال وهو قوله { لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ }. وأنّ المحو في غير الآجال. ويجوز أن يكون أم الكتاب مرادا به علم الله تعالى. أي: يمحو ويثبت وهو عالم بأن الشيء سيمحى أو يثبت.

وفي تفسير القرطبي عن ابن عمر قال سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول: " يمحو الله ما يشاء ويثبت إلّا السعادة والشقاوة والموت ". وروي مثله عن مجاهد. وعن عمر وابن مسعود ما يقتضي أن السعادة والشقاوة يقبلان المحو والإثبات.

والذي يلوح في معنى الآية أنّ ما في أم الكتاب لا يقبل محوا، فهو ثابت وهو قسيم لما يشاء الله محوه. ويجوز أن يكون ما في أم الكتاب هو عين ما يشاء الله محوه أو إثباته سواء كان تعينا بالأشخاص أو بالذوات أو بالأنواع وسواء كانت الأنواع من الذوات أو من الأفعال، وأنّ جملة { وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ } أفادت أن ذلك لا يطلع عليه أحد.

{ **أمّ** } مستعملة مجازا فيما يشبه الأمّ في كونها أصلا لما تضاف إليه، فالأمّ هنا مراد به ما هو أصل للمحو والإثبات. فأم الكتاب هو علم الله تعالى بما سيريد محوه وما سيريد إثباته كما تقدّم.

{ وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ } [40].

عطف على { يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ } [39] باعتبار ما تفيده من إبهام مراد الله في آجال الوعيد ومواقيت إنزال الآيات، فبيّنت هذه الجملة أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ليس مأمورا بالاشتغال بذلك ولا بترقّبه وإنّما هو مبلّغ عن الله لعباده والله يعلم ما يحاسب به عباده سواء شهد النبيّ صلى الله عليه وسلم ذلك أم لم يشهده.

{ **أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ** } جُعل التوفّي كناية عن عدم رؤية حلول الوعيد بقرينة مقابلته بقوله تعالى { نُرِيَنَّكَ }. والمعنى: ما عليك إلّا البلاغ سواء رأيت عذابهم أو لم تره.

{ **بَعْضَ** } إيماء إلى أنّه يرى البعض. وفي هذا إنذار لهم بأنّ الوعيد نازل بهم ولو تأخر، وأنّ هذا الدين يستمر بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنّه إذا كان الوعيد الذي أمر بإبلاغه واقعا ولو بعد وفاته فبالأولى أن يكون شرعه. وقد أرى الله نبيّه بعض ما توعّد به المشركين من الهلاك بالسيف يوم بدر ويوم الفتح ويوم حنين وغيرها من أيام الإسلام في حياة النبيّ صلى الله عليه وسلم ولم يُرِهِ بعضه مثل عذاب أهل الردّة، فإنّ معظمهم كان من المكذبين المبطنين الكفر مثل: مسيلمة الكذّاب.

{ **فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ** } { إِنَّمَا } للحصر، والمحصور فيه هو البلاغ لأنّه المتأخّر في الذكر من الجملة المدخولة لحرف الحصر، والتقدير: عليك البلاغ لا غيره من إنزال الآيات أو من تعجيل العذاب، ولهذا قدّم الخبر على المبتدأ لتعيين المحصور فيه.

{ **عَلَيْكَ الْبَلاغُ** } (على) مستعملة حقيقة في الإيجاب والإلزام.

{ **وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ** } أي: محاسبتهم على التكذيب. و(على) هنا مجاز في الوجوب لله بالتزامه به.

{ **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** } [41].

عطف على { وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ }،عُقّبت بهذه الجملة لإنذار المكذّبين بأنّ ملامح نصر النبيّ صلى الله عليه وسلم قد لاحت وتباشير ظفره قد طلعت ليتدبّروا في أمرهم، وللاحتراس من أن يتوهّموا أنّ العقاب بطيء وغير واقع بهم. وهي أيضا بشارة للنبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّ الله مظهر نصره في حياته وقد جاءت أشراطه، فهي أيضا احتراس من أن ييأس النبيّ صلى الله عليه وسلم من رؤية نصره، مع علمه بأنّ الله متمّ نوره بهذا الدين.

والاستفهام إنكاري، والضمير عائد إلى المكذّبين العائد إليهم ضمير { نَعِدُهُمْ }.

{ **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا** } الكلام تهديد لهم بإيقاظهم إلى ما دبّ إليهم من أشباح الاضمحلال بإنقاص الأرض، أي: سكانها.

الرؤية: يجوز أن تكون بصرية. والمراد: رؤية آثار ذلك النقص، ويجوز أن تكون علميّة، أي: ألم يعلموا ما حلّ بأراضي الأمم السابقة من نقص.

{ **الْأَرْضَ** } تعريف الجنس، أي: نأتي أية أرض من أراضي الأمم. وأطلقت الأرض هنا على أهلها مجازا، كما في قوله تعالى { وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ } [يوسف:82]، بقرينة تعلّق فعل النقص بها، لأنّ النقص لا يكون في ذات الأرض ولا يُرى نقص فيها ولكنه يقع فيمن عليها.

وذهب كثير من المفسرين إلى أنّ المراد بـ { الْأَرْضَ } أرض الكافرين من قريش فيكون التعريف للعهد، وتكون الرؤية بصرية، ويكون ذلك إيقاظا لهم. وبنوا على ذلك أنّ هذه الآية نزلت بالمدينة وهو الذي حمل فريقا على القول بأنّ سورة الرعد مدنية، فإذا اعتبرت مدنية صحّ أن تفسّر الأطراف بطرفين وهما مكّة والمدينة فإنهما طرفا العرب، فمكّة طرفها من جهة اليمن، والمدينة طرف البلاد من جهة الشام، ولم يزل عدد الكفار في البلدين في انتقاص بإسلام كفارها إلى أن تمحضت المدينة ثم تمحضت مكّة له بعد يوم الفتح.

وأيًّا ما كان تفسير الآية وسبب نزولها ومكانه فهي للإنذار بأنّهم صائرون إلى زوال وأنّهم مغلوبون.

{ **وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ** } عطف على { أَوَلَمْ يَرَوْا } مؤكّدة للمقصود منها، وهو الاستدلال على أنّ تأخير الوعيد لا يدل على بطلانه، لأنّ المعنى: أنّ ما حكم الله به من العقاب لا يبطله أحد، وأنّه واقع ولو تأخر.

وإظهار اسم الجلالة بعد الإضمار لتربية المهابة، وللتذكير بما يحتوي عليه الاسم العظيم من معنى الإلهية والوحدانية المقتضية عدم المنازع، وأيضا لتكون الجملة مستقلة بنفسها لأنّها بمنزلة الحكمة والمثل.

{ **لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ** } في موضع الحال، وهي مصب الكلام إذ ليس الغرض الإعلام بأنّ الله يحكم إذ لا يكاد يخفى، وإنّما الغرض التنبيه إلى أنّه لا مُعقّب لحكمه. وأفاد نفي جنس المعقّب انتفاء كل ما من شأنه أن يكون معقّبا؛ من شريك أو شفيع أو داع أو راغب أو مستعصم أو مفتد.

المُعقّب: الذي يعقب عملا فيبطله، مشتق من العَقِب، وهو استعارة غلبت حتى صارت حقيقة. وتقدّم عند قوله تعالى { لَهُ مُعَقِّبَاتٌ } [11].

{ **وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** } يجوز أن تكون عطفا على { وَاللَّهُ يَحْكُمُ } فتكون دليلا رابعا على أنّ وعده واقع وأنّ تأخّره وإن طال فما هو إلّا سريعٌ باعتبار تحقق وقوعه.

ويجوز أن يكون عطفا على جملة الحال، والمعنى: بحكم تام وسريعا حسابه.

ومآل التقديرين واحد.

الحساب: كناية عن الجزاء، و**السرعة**: العجلة، وهي في كل شيء بحسبه.

{ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ } [42].

لمّا كان قوله تعالى { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا } [41] تهديدا وإنذارا. شُبّه عملهم بالمكر وشُبّه بعمل المكذّبين السابقين. وفي هذا التشبيه رمز إلى أنّ عاقبتهم كعاقبة الأمم التي عرفوها.

{ **فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً** } تفريع، والمعنى: مَكَر هؤلاء ومَكَر الذين من قبلهم وحلّ العذاب بالذين من قبلهم فمكر الله بهم وهو يمكر بهؤلاء مكرا عظيما كما مكر بمن قبلهم.

وتقديم المجرور للاختصاص، أي: له لا لغيره، لأنّ مكره لا يدفعه دافع. وأكِّد مدلول الاختصاص بقوله تعالى { جَمِيعاً } وهو حال من المكر.

{ **يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ** } بمنزلة العلّة لجملة { فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً }، لأنّه لمّا كان يعلم ما تكسب كل نفس من ظاهر الكسب وباطنه كان مكره أشدّ.

{ **وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ** } أي: سيعلم أنّ عقبى الدار للمؤمنين لا للكافرين، فالكلام تعريض بالوعيد. و{ عُقْبَى الدَّارِ } تقدّم آنفا.

{ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ } [43].

عطف على ما تضمنته جملة { وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } [42] من التعريض بأنّ قولهم { لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ } [27] ضرب من المكر بإظهارهم أنّهم يتطلّبون الآيات الدالة على صدق الرّسول صلى الله عليه وسلم. وقد حُكي قولهم بصيغة المضارع للدلالة على تكرّر ذلك منهم ولاستحضار حالهم العجيبة من الاستمرار على التكذيب بعد أن رأوا دلائل الصدق.

{ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ } لمّا كانت مقالتهم المحكيّة هنا صريحة لا مواربة فيها أُمر الرسول صلى الله عليه وسلم بجواب لا جدال فيه وهو تحكيم الله بينه وبينهم.

وقد أُمر الرّسول صلى الله عليه وسلم بأن يجيبهم جواب الواثق بصدقه المستشهد على ذلك بشهادة الصدق، من إشهاد الله تعالى وإشهاد العالمين بالكتب والشرائع. ولمّا كانت الشهادة للرسول صلى الله عليه وسلم بالصدق شهادة على الذين كفروا بأنّهم كاذبون جعلت الشهادة بينه وبينهم.

وإشهاد الله في معنى الحلف على الصدق كقول هود عليه السلام { إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ } [هود:54].

{ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ } الموصول يجوز أن يراد به جنس من يتّصف بالصلة. والمعنى: وكلّ من عندهم علم الكتاب. وتعريف { الْكِتَابِ } تعريف للعهد، وهو التوراة. أي: وشهادة علماء الكتاب. وذلك أنّ اليهود كانوا قبل هجرة النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى المدينة يستظهرون على المشركين بمجيء النبيّ المصدّق للتوراة.

ووجه شهادة علماء الكتاب برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وجدانهم البشارة بنبيّ خاتم للرسل، ووجدانهم ما جاء في القرآن موافقا لسنن الشرائع الإلهية ومفسّرا للرموز الواردة في التوراة والإنجيل في صفة النبيّ صلى الله عليه وسلم المصدّق الموعود به. ولهذا المعنى كان التعبير في هذه الآية بـ { مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ } دون أهل الكتاب، لأنّ تطبيق ذلك لا يدركه إلّا علماؤهم. قال تعالى { أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرائيلَ } [الشعراء:97].

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة إبراهيم

أضيفت هذه السورة إلى اسم إبراهيم عليه السلام فكان ذلك اسما لها لا يُعرف لها غيره. ولم أقف على إطلاق هذا الاسم عليها في كلام النبيّ صلى الله عليه وسلم ولا في كلام أصحابه في خبر مقبول.

ووجه تسميتها بهذا وإن كان ذكر إبراهيم عليه السلام جرى في كثير من السور أنّها من السور ذوات **{ألر}**. وقد مُيّز بعضها عن بعض بالإضافة إلى أسماء الأنبياء عليهم السلام التي جاءت قصصهم فيها، أو إلى مكان بعثة بعضهم وهي (سورة الحجر)، ولذلك لم تضف سورة الرعد إلى مثل ذلك لأنّها متميّزة بفاتحتها بزيادة حرف ميم على ألف ولام وراء.

وهي مكّية كلّها عند الجمهور. وعن قتادة إلّا آيتي { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً - إلى قوله - وَبِئْسَ الْقَرَارُ } [28]، وقيل: إلى قوله تعالى { فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ } [30]. نزل ذلك في المشركين في قضيّة بدر، وليس ذلك إلّا توهّما كما ستعرفه.

نزلت هذه السور بعد سورة الشورى وقبل سورة الأنبياء.

وقد **عدّت السبعين** في ترتيب السور في النزول.

وعدّت آياتها أربعا وخمسين عند المدنين وخمسين عند أهل الشام، وإحدى وخمسين عند أهل البصرة. واثنتين وخمسين عند أهل الكوفة.

أغراض السورة

*/ ابتدأت بالتنبيه إلى إعجاز القرآن، وبالتنويه بشأنه، وأنّه أنزل لإخراج النّاس من الضلالة.

*/ الامتنان بأن جعله بلسان العرب. وتمجيد الله تعالى الذي أنزله. ووعيد الذين كفروا به وبمن أنزل عليه.

*/ إيقاظ المعاندين بأنّ محمدا صلى الله عليه وسلم ما كان بدعا من الرسل. وأنّ كونه بشرا أمر غير مناف لرسالته من عند الله كغيره من الرسل.

*/ ضرب له مثلا برسالة موسى عليه السلام إلى فرعون لإصلاح حال بني إسرائيل.

*/ تذكيره قومه بنعم الله ووجوب شكرها.

*/ موعظته إياهم بما حل بقوم نوح وعاد ومن بعدهم وما لاقته رسلهم من التّكذيب، وكيف كانت عاقبة المكذبين.

*/ إقامة الحجّة على تفرد الله تعالى بالإلهيّة بدلائل مصنوعاته.

*/ ذكر البعث.

*/ تحذير الكفار من تغرير قادتهم وكبرائهم بهم وكيف يتبرأون منهم يوم الحشر ووصف حالهم وحال المؤمنين يومئذ.

*/ فضل كلمة الإسلام وخبث كلمة الكفر.

*/ التعجيب من حال قوم كفروا نعمة الله وأوقعوا من تبعهم في دار البوار بالإشراك، والإيماء إلى مقابلته بحال المؤمنين.

*/عدّ بعض نعمه على الناس تفصيلا ثم جمعها إجمالا.

*/ ذُكّر الفريقان بحال إبراهيم عليه السلام ليعلما من هو سالك سبيل إبراهيم عليه السلام ومن هو ناكب عنه من ساكني البلد الحرام.

*/ تحذيرهم من كفران النعمة.

*/ إنذارهم أن يحل بهم ما حلّ بالذين ظلموا من قبل.

*/ تثبيت النبيّ صلى الله عليه وسلم بوعد النصر.

*/ تخلل كل ذلك أمثال.

{ **الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** } [1].

{ **ألر** } تقدّم الكلام على الحروف المقطعة في فاتحة سورة البقرة وعلى نظير هذه الحروف في سورة يونس.

{ **كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ** } الكلام على هذا التركيب كالكلام على قوله تعالى { ألمص كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ } [الأعراف:2/1]، فللعلم بمُنزله حُذف الفاعل في آية الأعراف، وهو مقتضى الظاهر والإيجاز، ولكنّه ذُكر هنا لأنّ المقام مقام الامتنان على النّاس المستفاد من التعليل بقوله تعالى { لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ }، ومن ذكر صفة الربوبيّة بقوله تعالى { بِإِذْنِ رَبِّهِمْ }، بخلاف آية الأعراف فإنّها في مقام الطمأنة والتصبير للنبيّ صلى الله عليه وسلم المنْزَل إليه الكتاب، فكان التعرّض لذكر المنْزَل إليه والاقتصار عليه أهم في ذلك المقام مع ما فيه من قضاء حقّ الإيجاز. أمّا التعرّض للمنْزَل إليه هنا فللتنويه بشأنه، وليُجعل له حظّ في هذه المنّة وهو حظّ الوساطة، كما دلّ عليه قوله تعالى { لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ }، ولما فيه من غم المعاندين والمبغضين للنبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ **لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** }.

إسناد الإخراج إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّه مبلّغ هذا الكتاب المشتمل على تبيين طرق الهداية إلى الإيمان وإظهار فساد الشرك والكفر، وهو مع التبليغ يُبيّن للنّاس ويقرّب إليهم معاني الكتاب بتفسيره وتبيينه، ثم بما يبنيه عليه من المواعظ والنُذر والبشارة.

الإخراج: مستعار للنقل من حال إلى حال. شُبّه الانتقال بالخروج فشُبّه النقل بالإخراج. وتعليل الإنزال بالإخراج من الظلمات دلّ على أنّ الهداية هي مراد الله تعالى من النّاس، وأنّه لم يتركهم في ضلالهم.

{ **الظُّلُمَاتِ / النُّورَ** } استعارة للكفر والإيمان، لأنّ الكفر يجعل صاحبه في حيرة فهو كالظلمة في ذلك، والإيمان يرشد إلى الحقّ فهو كالنور في إيضاح السبيل.

وجمع { الظُّلُمَاتِ } وإفراد { النُّورَ } تقدّم في [الأنعام:1].

الإذن: الأمر بفعل يتوقّف على رضى الآمر به. و{ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ } أمر الله، ولمّا كان الإرسال لمصلحتهم أضيف الإذن إلى وصف الربّ المضاف إلى ضمير النّاس، أي: بإذن الذي يدبّر مصالحهم.

{ **إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** } بدل من { النُّورَ }، ومناسبة الصراط، المستعار للدين الحقّ، لاستعارة الإخراج والظلمات والنور، ولما يتضمّنه من التمثيل.

واختيار { الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ } من بين الصفات العُلى لمزيد مناسبتها للمقام.

العزيز: الذي لا يُغلب. وإنزال الكتاب برهان على أحقيّة ما أراده الله من النّاس فهو به غالب للمخالفين، مقيم الحجّة عليهم.

الحميد: بمعنى المحمود، لأنّ في إنزال هذا الكتاب نعمة عظيمة ترشد إلى حمده عليه.

وبذلك استوعب الوصفان الإشارة إلى الفريقين؛ من كلّ منساق إلى الاهتداء من أوّل وهلة، ومن مجادل صائر إلى الاهتداء بعد قيام الحجّة ونفاذ الحيلة.

{ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ [2] الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ [3] }.

{ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } قرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر برفع اسم الجلالة على أنّه خبر عن مبتدإ محذوف. وقرأه الباقون إلّا رويسا عن يعقوب بالجرّ على البدلية من { الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ }، وهي طريقة عربية. ومآل القراءتين واحد وكلتا الطريقتين تفيد أنّ المستقل إليه أجدر بالذكر عقب ما تقدمه، فإنّ اسم الجلالة أعظم من بقية الصفات لأنّه علم الذات الذي لا يشاركه موجود في إطلاقه ولا في معناه الأصلي المنقول منه إلى العلميّة، إلّا أنّ الرفع أقوى وأفخم.

{ الَّذِي } إجراء الوصف بالموصول على اسم الجلالة لزيادة التفخيم لا للتعريف. لأنّ ملك سائر الموجودات صفة عظيمة، والله معروف بها عند المخاطبين. وفيه تعريض بأنّ صراط غير الله من طرق آلهتهم ليس بواصل إلى المقصود لنقصان ذويه. وفي ذكر هذه الصلة إدماج تعريض بالمشركين الذين عبدوا ما ليس له السماوات والأرض.

{ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ }.

لمّا أفاد قوله السابق تعريضا بالمشركين الذين اتّبعوا صراط غير الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض عُطف الكلام إلى تهديدهم وإنذارهم.

{ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ } إنشاء دعاء عليهم في مقام الغضب والذمّ، مثل قولهم: ويحك، فعطفه من عطف الإنشاء على الخبر.

{ وَيْلٌ } مصدر لا يُعرف له فعل. ومعناه الهلاك وما يقرب منه من سوء الحالة، ولأنّه لا يعرف له فعل كان اسم مصدر وعومل معاملة المصادر، ينصب على المفعوليّة المطلقة ويرفع لإفادة الثبات. يقال: ويل لك وويلك، بالإضافة. ويقال: يا ويلك، بالنداء. وقد يُذكر بعد هذا التركيب سببه فيؤتى به مجرورا بحرف (من) الابتدائية كما في قوله هنا { مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ }.

الكافرون: هم المعهودون، وهم الذين لم يخرجوا من الظلمات إلى النور، ولا اتّبعوا صراط العزيز الحميد، ولا انتفعوا بالكتاب الذي أنزل لإخراجهم من الظلمات إلى النور.

{ يَسْتَحِبُّونَ } بمعنى يحبّون، فالسين والتاء للتأكيد مثل استقدم واستأخر. وضُمّن معنى يؤثرون فعدّي إلى

مفعول آخر بواسطة حرف { عَلَى }، أي: يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة.

{ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً } تقدّم نظيره في قوله تعالى { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ } [آل عمران:99].

الصدّ عن سبيل الله: أي: صدّ المقبلين على الإسلام من الدخول فيه. شُبّه ذلك بمن يمنع المار من سلوك الطريق. وجُعل الطريق طريق الله لأنّه موصل إلى مرضاته فكأنّه موصل إليه. أو يصدّون أنفسهم عن سبيل الله لأنّهم عطّلوا مواهبهم ومداركهم من تدبّر آيات القرآن، فكأنّهم صدّوها عن السير في سبيل الله.

{ أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ } الإشارة للتنبيه على أنّهم أحرياء بما وُصفوا به من الضلال بسبب صدّهم عن سبيل الحقّ وابتغائهم سبيل الباطل. ودلّ حرف الظرفيّة (في) على أنّ الضلال محيط بهم.

{ بَعِيدٍ } يجوز أن يكون على وجه المجاز العقلي، وإنّما البعيد هم الضالون، أي: ضلالا بعدوا به عن الحقّ، فأسند البعد إلى سببه. ويجوز أن يراد وصفه بالبعد على تشبيهه بالطريق الشاسعة التي يتعذّر رجوع سالكها، أي: ضلال قويّ يعسر إقلاع صاحبه عنه.

{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [4].

إذا كانت صيغة القصر مستعملة في ظاهرها ومسلّطة على متعلّقي الفعل المقصور كان قصرا إضافيّا لقلب اعتقاد المخاطبين. كانوا لتعنّتهم يقولون: هلّا نزل القرآن بلغة العجم، وهو مروي في تفسير الطبري هنالك عن سعيد بن جبير أنّ العرب قالوا ذلك.

وقد كان المتنصّرون من العرب والمتهوّدون منهم مثل عرب اليمن تترجم لهم بعض التوراة والإنجيل بالعربية كما ورد في حديث ورقة بن نوفل في كتاب بدء الوحي من صحيح البخاري، فاستقرّ في نفوس المشركين من جملة مطاعنهم أنّ القرآن لو كان من عند الله لكان باللغة التي جاءت بها الكتب السالفة. فصارت عربيّته عندهم من وجوه الطعن في أنّه منزل من الله. فالقصر هنا لردّ كلامهم، أي: ما أرسلنا من رسول بلسان إلّا لسان قومه المرسل إليهم، لا بلسان قوم آخرين.

فموقع هذه الآية عقب آية { كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ } بيّن المناسبة.

اللسان: اللغة وما به التخاطب. أطلق عليها اللسان من إطلاق اسم المحلّ على الحال به، مثل: سال الوادي.

القوم: الأمّة والجماعة، فقوم كلّ أحد رهطه الذين جماعتهم واحدة ويتكلمون بلغة واحدة، وقوم كل رسول أمّته المبعوث إليهم، إذ كان الرسل يبعثون إلى أقوامهم، وقوم محمد صلى الله عليه وسلم هم العرب، وأمّا أمّته فهم الأقوام المبعوث إليهم وهم النّاس كافة.

وإنّما كان المخاطب أوّلا هم العرب الذين هو بين ظهرانيهم ونزل الكتاب بلغتهم لتعذّر نزوله بلغات

الأمم كلها، فاختار الله أن يكون رسوله صلى الله عليه وسلم من أمّة هي أفصح الأمم لسانا، وأسرعهم أفهاما، وألمعهم ذكاء، وأحسنهم استعدادا لقبول الهدى والإرشاد، ولم يؤمن برسول من الرّسل في حياته عدد من النّاس مثل الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم في حياته، فقد عمّ الإسلام بلاد العرب، وقد حجّ مع النبيّ صلى الله عليه وسلم في حجّة الوداع نحو خمسين ألفا أو أكثر. وقيل: مائة ألف وهم الرجال المستطيعون.

{ **لِيُبَيِّنَ لَهُمْ** } تعليل وفيه إيماء إلى هذا المعنى، لأنّه لمّا كان المقصود من التشريع البيان كانت أقرب اللغات إلى التبيين من بين لغات الأمم المرسل إليهم، هي اللغة التي هي أجدر بأن يأتي الكتاب بها. ولكن لمّا كان المقصود من سياقها الردّ على طعنهم في القرآن بأنّه نزل بلغة لم ينزل بها كتاب قبله اقتصر في ردّ خطئهم على أنّه إنّما كان كذلك ليُبيّن لهم لأنّ ذلك هو الذي يهمّهم.

{ **فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ** } تفريع على مجموع جملة { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ }، ولذلك جاء فعل (يُضِلُّ) مرفوعا غير منصوب إذ ليس عطفا على فعل { لِيُبَيِّنَ } لأنّ الإضلال لا يكون معلولا للتبيين ولكنّه مفرَّع على الإرسال المعلّل بالتبيين. والمعنى: أنّ الإرسال بلسان قومه لحكمة التبيين. وقد يحصل أثر التبيين بمعونة الاهتداء وقد لا يحصل أثره بسبب ضلال المبيَّن لهم.

{ **وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } تذييل، لأنّ **العزيز** قويٌّ لا ينفلت شيء من قدرته ولا يخرج عمّا خُلق له، و**الحكيم** يضع الأشياء مواضعها، فموضع الإرسال والتبيين يأتي على أكمل وجه من الإرشاد.

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ } [5].

لمّا كانت الآيات السابقة مسوقة للردّ على من أنكروا أنّ القرآن منزل من الله أُعقب الرد بالتمثيل بالنظر، وهو إرسال موسى عليه السلام إلى قومه بمثل ما أرسل به محمد صلى الله عليه وسلم، وبمثل الغاية التي أرسل لها.

{ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى** } تأكيد الإخبار عن إرسال موسى عليه السلام بلام القسم وحرف التحقيق لتنزيل المنكرين رسالة محمد صلى الله عليه وسلم منزلة من ينكر رسالة موسى عليه السلام .

{ **بِآيَاتِنَا** } الباء للمصاحبة، أي: إرسالا مصاحبا للآيات الدالة على صدقه في رسالته، كما أرسل محمد صلى الله عليه وسلم مصاحبا لآية القرآن الدال على أنّه من عند الله.

{ **الظُّلُمَاتِ** } مستعار للشرك والمعاصي، و{ **النُّورِ** } مستعار للإيمان الحقّ والتقوى، وذلك أنّ بني إسرائيل لمّا طال عليهم الأمد في مصر بعد وفاة يوسف عليه السلام سرى إليهم الشرك واتّبعوا دين القبط، فكانت رسالة موسى عليه السلام لإصلاح اعتقادهم مع دعوة فرعون وقومه للإيمان بالله الواحد، وكانت آيلة إلى إخراج بني إسرائيل من الشرك والفساد وإدخالهم في حظيرة الإيمان والصلاح.

التذكير: إزالة نسيان شيء. ويستعمل في تعليم مجهول كان شأنه أن يُعلم. ولمّا ضُمّن التذكير معنى الإنذار والوعظ عدّي بالباء، أي: ذكّرهم تذكير عظة بأيّام الله.

{ **أَيَّامِ اللَّهِ** } أيام ظهور بطشه وغلبه من عصوا أمره، وتأييده المؤمنين على عدوّهم، فإنّ ذلك كلّه مظهر من مظاهر عزّة الله تعالى. وشاع إطلاق اسم اليوم مضافا إلى اسم شخص أو قبيلة، على يوم انتصر فيه مسمّى المضاف إليه على عدوّه، يقال: أيّام تميم، أي أيّام انتصارهم.

فالمراد هنا الأيام التي أنجى الله فيها بني إسرائيل من أعدائهم ونصرهم وسخّر لهم أسباب الفوز والنصر وأغدق عليهم النعم في زمن موسى عليه السلام، فإنّ ذلك كلّه ممّا أمر موسى عليه السلام بأن يذكرهمُوه.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ** } اسم الإشارة عائد إلى ما ذكر من الإخراج والتذكير، فالإخراج من الظلمات بعد توغّلهم فيها وانقضاء الأزمنة الطويلة عليها آية من آيات قدرة الله تعالى. والتذكير بأيام الله يشتمل على آيات قدرة الله وعزّته وتأييد من أطاعه. وكل ذلك آيات كائنة في الإخراج والتذكير على اختلاف أحواله.

ولكون الآيات مختلفة، بعضها آيات موعظة وزجر وبعضها آيات منّة وترغيب، جُعلت متعلّقة بـ { **كُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ** } إذ الصبر مناسب للزجر، والإنعام يبعث النفس على الشكر.

{ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ } [6].

هذا ممّا قاله موسى لقومه بعد أن أنجاهم الله من استعباد القبط وإهانتهم، وهو من التذكير بأيّام الله الذي أمر الله موسى عليه السلام أن يذكّره قومه.

وتقدّم تفسير نظيرها في قوله تعالى { وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ } [البقرة:49] وكذا في [الأعراف:141].

وإنّما حكاه القرآن في كل موضع بطريقة تفنّنا في إعادة القصّة بحصول اختلاف في صورة النظم مع الحفاظ على المعنى المحكي، وهو ذكر سوء العذاب مجملا، وذكر أفظع أنواعه مبيّنا.

{ **وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ** } عُطفت في الآيات الثلاث لأنّ مضمونها باستقلاله لا يصلح لبيان سوء العذاب، لأنّ استحياء النّساء في ذاته نعمة ولكنّه يصير من العذاب عند اقترانه بتذبيح الأبناء، إذ يعلم أنّ مقصودهم من استحياء النّساء استرقاقهنّ وإهانتهنّ، فصار الاستحياء بذلك القصد تهيئة لتعذيبهنّ. فسمّي جميع ذلك بلاء.

البلاء: أصله الاختبار. والبلاء هنا المصيبة بالشرّ، سُمّي باسم الاختبار لأنّه اختبار لمقدار الصبر. وقد شاع إطلاق هذا بصيغة اسم المصدر بحيث يكاد لا يطلق إلّا على المكروه.

{ **بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ** } جُعل هذا الضرّ الذي لحقهم واردا من جانب الله لأنّ عدم إلطافه ببني إسرائيل يجعله كالوارد من الله، وهو جزاء على نبذ بني إسرائيل دينهم الحقّ الذي أوصى به إبراهيم بنيه ويعقوب عليهم السلام، واتّباعهم دين القبط وعبادة آلهتهم.

واختيار وصف الربّ هنا للإيماء إلى أنّه أراد به صلاحهم وتنبيههم لاجتناب عبادة الأوثان وتحريف الدين.

وهذه الآية تضمنت ما في سفر الخروج: [الإصحاح:21 / الفقرة:17] و[الإصحاح: 13 / الفقرة:3]، وما في سفر اللاويين: [الإصحاح:26 / الفقرة:13].

{ **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ** } [7].

من كلام موسى عليه السلام، والتقدير: واذكروا نعمة الله عليكم إذ تأذّن ربكم لئن شكرتم. لأنّ الجزاء عن شكر النعمة بالزيادة منها نعمة وفضل من الله، لأنّ شكر المنعِم واجب فلا يستحق جزاء لولا سعة فضل الله.

{ **تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ** } تكلّم كلاما علنا، أي: كلّم موسى عليه السلام بما تضمّنه هذا الذي في الآية بمسمع من جماعة بني إسرائيل. ولعل هذا الكلام هو الذي في سفر الخروج [الإصحاح:91 / الفقرات:9 -20، والإصحاح:20 / الفقرات:1-18-22، والإصحاح:23 / الفقرات:20-30].

التأذّن: مبالغة في الأذان يقال: أذّن وتأذّن، كما يقال: توعّد وأوعد، وتفضّل وأفضل.

{ **لَئِنْ شَكَرْتُمْ** } موطئة للقسم والقسم مستعمل في التأكيد. والشكر مؤذن بالنعمة. فالمراد: شكر نعمة الإنجاء من آل فرعون وغيرها.

{ **وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ** } جاءت به المقابلة. والكفر مراد به كفر النعمة وهو مقابلة المنعم بالعصيان. وأعظم الكفر جحد الخالق أو عبادة غيره معه وهو الإشراك، كما أنّ الشكر مقابلة النعمة بإظهار العبودية والطاعة.

{ **وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ** } [8].

أعيد فعل القول في عطف بعض كلام موسى عليه السلام على بعض لئلا يُتوهّم أنّ هذا مما تأذن به الربّ، وإنّما هو تنبيه على كلام الله. وفي إعادة فعل القول اهتمام بهذه الجملة وتنويه بها حتّى تبرز مستقلة، وحتّى يُصغي إليها السامعون للقرآن.

ووجه الاهتمام بها أنّ أكثر الكفار يحسبون أنّهم يحسنون إلى الله بإيمانهم، وأنّ أنبياءهم حين يلحّون عليهم بالإيمان إنّما يبتغون بذلك تعزيز جانبهم والحرص على مصلحتهم. فلمّا وعدهم على الشكر بالزيادة وأوعدهم على الكفر بالعقوبة خُشي أن يحسبوا ذلك لانتقام المثيب بما أثاب عليه، ولتضرّره ممّا

عاقب عليه، فنبَّههم إلى هذا الخاطر الشيطاني حتّى لا يسري إلى نفوسهم فيُكسبهم إدلالا بالإيمان والشكر والإقلاع عن الكفر.

{ **وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً** } للتنصيص على العموم.

الغني: الذي لا حاجة له في شيء، فدخل في عموم غناه أنّه غنيّ عن الذين يكفرون به.

الحميد: المحمود. والمعنى: أنّه محمود من غيركم مستغن عن حمدكم.

{ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ } [9].

استئناف ابتدائي رجع به الخطاب إلى المشركين من العرب على طريقة الالتفات في قوله تعالى { أَلَمْ يَأْتِكُمْ } لأنّ الموجّه إليه الخطاب هنا هم الكافرون المعنيّون بقوله { وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ } [2]، وهم معظم المعني من النّاس في قوله تعالى { لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ } [1]، فإنّهم بعد أن أجمل لهم الكلام في قوله تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ } [4]، ثم فُصّل بأن ضُرب المثل للإرسال بإرسال موسى عليه السلام، وقُضي حقّ ذلك عقّبه بكلام جامع لأحوال الأمم ورسلهم، فكان بمنزلة الحوصلة والتذييل، مع تمثيل حالهم بحال الأمم السالفة وتشابه عقليّاتهم في حججهم الباطلة، وردّ الرسل عليهم ما ردّ به القرآن على المشركين في مواضع، ثم خُتم بالوعيد.

والاستفهام إنكاري لأنّهم قد بلغتهم أخبارهم؛ فأمّا قوم نوح فقد تواتر خبرهم بين الأمم بسبب خبر الطوفان، وأمّا عاد وثمود فهم من العرب ومساكنهم في بلادهم وهم يمرون عليها ويخبر بعضهم بعضا بها، قال تعالى { وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ } [الصافات:137].

{ **وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ** } يشمل أهل مدين وأصحاب الرسّ وقوم تُبّع وغيرهم من أمم انقرضوا وذهبت أخبارهم فلا يعلمهم إلّا الله. وهذا كقوله تعالى { وَعَاداً وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً } [الفرقان:38].

{ **لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ** } معترضة، وهو كناية عن الكثرة التي يستلزمها انتفاء علم النّاس بهم.

{ **جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ** } جاء كل أمّة رسولها.

{ **فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ** } الضمائرعائد جميعها إلى قوم نوح والمعطوفات عليه.

وهذا التركيب لا أعهد سبق مثله في كلام العرب فلعلّه من مبتكرات القرآن.

والمعنى يحتمل عدّة وجوه أنهاها (الكشاف) إلى سبعة، وأولاها بالاستخلاص أن يكون المعنى: أنّهم وضعوا أيديهم على أفواههم إخفاء لشدّة الضحك من كلام الرسل، وذلك تمثيل لحالة الاستهزاء.

الردّ: مستعمل في معنى تكرير جعل الأيدي في الأفواه. أي: وضعوا أيديهم على الأفواه ثم أزالوها ثم أعادوا وضعها فتلك الإعادة ردّ. وحرف { **فِي** } للظرفية المجازية المراد بها التمكين، فهي بمعنى (عَلَى).

{ **وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ** } أكّدوا كفرهم بما جاءت به الرسل بما دلت عليه (إن) والفعل الماضي، وسمّوا ما كفروا به مرسلا به تهكّما بالرسل.

{ **وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ** } فمرادهم: أنّهم وإن كانوا كاذبين في دعوى الرسالة فقد يكون في بعض ما يدعون إليه ما هو صدق وحقّ، فإنّ الكاذب قد يقول حقّا. وجعلوا الشك قويا فلذلك عُبّر عنه بأنّهم مظروفون فيه، أي: هو محيط بهم ومتمكّن كمال التمكّن.

{ **مُرِيبٍ** } الموقِع في الريب، وهو مرادف الشكّ، فوصف الشك بالمريب من تأكيد ماهيته، كقولهم: ليل ألْيَل.

{ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ } [10]

{**قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } استفهام إنكاري. ومورد الإنكار هو وقوع الشك في وجود الله، فقُدّم متعلّق الشكّ للاهتمام به، ولو قال: أشك في الله، لم يكن له هذا الوقع. وعلّق اسم الجلالة بالشك، والاسم العلم يدلّ على الذات. والمراد: إنكار وقوع الشكّ في أهمّ الصفات الإلهيّة وهي صفة التفرّد بالإلهيّة، أي: صفة الوحدانية.

وأُتبع اسم الجلالة بالوصف الدال على وجوده وهو وجود السماوات والأرض الدال على أنّ لهما خالقا حكيما لاستحالة صدور تلك المخلوقات العجيبة المنظّمة عن غير فاعل مختار.

{ **يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً** } حال من اسم الجلالة، أي: يدعوكم أن تنبذوا الكفر ليغفر لكم ما أسلفتم من الشرك ويدفع عنكم عذاب الاستئصال فيؤخّركم في الحياة إلى أجل معتاد.

الدعاء: حقيقته النداء. فأطلق على الأمر والإرشاد مجازا لأنّ الآمر ينادي المأمور.

ويُعدّى فعل الدعاء إلى الشيء المدعو إليه بحرف الانتهاء غالبا وهو (إلى)، وقد يُعدّى بلام التعليل داخلة على ما جُعل سببا للدعوة، فإنّ العلّة تدل على المعلول، كقوله تعالى { وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ } [نوح:7]، أي: دعوتهم إلى إلى الإيمان لتغفر لهم، وهو في هذه الآية كذلك، أي: يدعوكم إلى التوحيد ليغفر لكم.

{ **قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ** }.

أرادوا إفحام الرسل بقطع المجادلة النظريّة، فنفوا اختصاص الرسل بشيء زائد في صورتهم البشريّة يُعلم به أنّ الله اصطفاهم دون غيرهم، فلذلك طالبوا رسلهم أن يأتوا بحجّة محسوسة تثبت أنّ الله اختارهم للرسالة.

وعبّروا عن دينهم بالموصوليّة لما تؤذن به الصلة من التنويه بدينهم بأنّه متقلَّد آبائهم الذين يحسبونهم معصومين من اتباع الباطل، وللأمم تقديس لأسلافها.

{ **فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ** } لأنّ مجرد كونهم بشرا لا يقتضي مطالبتهم بالإتيان بسلطان مبين وإنّما اقتضاه أنّهم جاؤوهم بإبطال دين قومهم، وهو مضمون ما أرسلوا به.

السلطان: الحجّة. وتقدّم في قوله تعالى { أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ } [الأعراف:71].

المبين: الواضح الذي لا احتمال فيه لغير ما دلّ عليه.

{ **قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ [11] وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ [12]** }.

{ **إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ** } تقرير للدليل ولكنّه تمهيد لبيان غلط المستدلّ في الاستنتاج من دليله. ومحل البيان هو الاستدراك { **وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ** }. والمعنى: أنّ المماثلة في البشريّة لا تقتضي المماثلة في الزائد عليها، فالبشر كلّهم عباد الله والله يمنّ على من يشاء من عباده بنعم لم يعطها غيرهم. فالاستدراك رفع لما توهّموه من كون المماثلة في البشريّة تقتضي الاستواء في كل خصلة.

{ **وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ** } ثم عطفوا على ذلك تبيين أنّ ما سأله القوم من الإتيان بسلطان مبين ليس ذلك إليهم ولكنّه بمشيئة الله وليس الله بمكرَه على إجابة من يتحدّاه.

{ **وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** } أمر لمن آمن من قومهم بالتوكّل على الله، وقصدوا به أنفسهم قصدا أوّليّا لأنّهم أوّل المؤمنين. وتقديم المجرور مؤذن بالحصر وأنّهم لا يرجون نصرا من غير الله تعالى لضعفهم وقلة ناصرهم. وفيه إيماء إلى أنّهم واثقون بنصر الله.

التوكّل: الاعتماد وتفويض التدبير إلى الغير ثقة بأنّه أعلم بما يصلح، فالتوكّل على الله تحقّق أنّه أعلم بما ينفع أولياءه من خير الدنيا والآخرة. وتقدّم الكلام عنه عند قوله { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } [آل عمران:59].

والجملة استدلال على صدق رأيهم في تفويض أمرهم إلى الله، لأنّهم رأوا بوارق عنايته بهم إذ هداهم إلى

طرائق النجاة والخير.

{ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا }.

جاؤوا بإنكار نفي التوكّل على الله. وزادوا قومهم تأييسا من التأثّر بالأذى فأقسموا على أنّ صبرهم على أذى قومهم سيستمر، فصيغة الاستقبال المستفادة من المضارع المؤكَّد بنون التوكيد في { **لَنَصْبِرَنَّ** } دلّت على أذى مستقبل. ودلت صيغة الماضي المنتزع منها المصدر في قوله تعالى { **مَا آذَيْتُمُونَا** } على أذى مضى، فحصل من ذلك معنى نصبر على أذى متوقّع كما صبرنا على أذى مضى، وهذا إيجاز بديع.

{ **وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ** } يحتمل أن تكون من بقية كلام الرسل فتكون تذييلا وتأكيد لجملة السابقة، ويحتمل أن تكون من كلام الله تعالى، فهي تذييل للقصّة وتنويه بشأن المتوكّلين على الله.

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ [13] وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ [14] }.

{ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا** } تغيير أسلوب الحكاية بطريق الإظهار دون الإضمار يؤذن بأنّ المراد هنا غير الكافرين الذين تقدّمت الحكاية عنهم، فإنّ الحكاية عنهم كانت بطريق الإضمار.

فالظاهر عندي أنّ المراد هنا كفار قريش على طريقة التوجيه. وأنّ المراد بـ { **رُسُلِهِمْ** } الرّسول محمد صلى الله عليه وسلم، أجريت على وصفه صيغة الجمع.

وإطلاق صيغة الجمع على الواحد مجاز؛ **إمّا استعارة** إن كان فيه مراعاة تشبيه الواحد بالجمع تعظيما له كما في قوله تعالى { قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ } [المؤمنون:99]. **وإمّا مجاز مرسل** إذا روعي فيه قصد التعمية، فعلاقته الإطلاق والتقييد. والعدول عن الحقيقة إليه لقصد التعمية.

ويؤيّده قوله تعالى بعد ذلك { وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ } فإنّه لا يُعرف أنّ رسولا من رسل الأمم السالفة دخل أرض مكذّبيه بعد هلاكهم وامتلكها إلّا النبيّ محمدا صلى الله عليه وسلم، قال في حجة الوداع: **" منزلنا إن شاء الله غدا بالخَيْف خَيْف بني كنانة حيثُ تقاسموا على الكفر".**

وعلى تقدير أن يكون المراد بـ { الَّذِينَ كَفَرُوا } في هذه الآية نفس المراد من الأقوام السالفين فالإظهار في مقام الإضمار لزيادة تسجيل اتّصافهم بالكفر حتّى صار الخصلة التي يعرفون بها. وعلى هذا التقدير يكون المراد من الرسل ظاهر الجمع، فيكون هذا التوعّد شنشنة الأمم ويكون الإيماء إليهم به سنّة الله مع رسله.

العود: الرجوع إلى شيء بعد مفارقته. ولم يكن أحد من الرسل متّبعا ملّة الكفر بل كانوا منعزلين عن المشركين دون تغيير عليهم. فكان المشركون يحسبونهم موافقين لهم.

الملّة: الدين. وقد تقدّم عند قوله تعالى { دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً } [الأنعام :161].

{ **فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ** } تفريع على ما يقتضيه قول الذين كفروا من العزم على إخراج الرسل من الأرض، أي: أوحى الله إلى الرّسل ما يثبّت به قلوبهم، وهو الوعد بإهلاك الظالمين.

{ **وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ** } أي: التمكين منها وتخويلها إيّاهم، كقوله { وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ } [الأحزاب:27]. والخطاب للرّسل والذين آمنوا بهم، فلا يقتضي أن يسكن الرّسول بأرض عدوّه بل يكفي أن يكون له السلطان عليها وأن يسكنها المؤمنون، كما مكّن الله لرسوله مكّة وأرض الحجاز وأسكنها الذين آمنوا بعد فتحها.

{ **ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ** } إشارة إلى المذكور من الإهلاك والإسكان المأخوذين من { لَنُهْلِكَنَّ / وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ }. واللام للملك، أي: ذلك عطاء وتمليك لمن خاف مقامي.

{ **خَافَ مَقَامِي** } خافني، فلفظ (مقام) مقحم للمبالغة في تعلّق الفعل بمفعوله، كقوله تعالى { وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ } [الرحمن:64]. وخوف الله: هو خوف غضبه، لأنّ غضب الله أمر مكروه لدى عبيده.

{ **وَخَافَ وَعِيدِ** } عطف على { خَافَ مَقَامِي } مع إعادة فعل { خَافَ } لأنّ هذه الصلة وإن كان صريحها ثناء على المخاطبين فالمراد منها التعريض بالكافرين بأنّهم لا يخافون وعيد الله، ولولا ذلك لكانت جملة { خَافَ مَقَامِي } تغني عن هذه الجملة، فإنّ المشركين لم يعبأوا بوعيد الله وحسبوه عبثا. ولذلك لم يُجمع بينهما في [البينة:8] { ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ } لأنّه في سياق ذكر نعيم المؤمنين خاصة.

وهذه الآية في ذكر إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين أرضهم فكان المقام للفريقين، فجُمع في جزاء المؤمنين بإدماج التعريض بوعيد الكافرين، وفي الجمع بينهما دلالة على أنّ من حقّ المؤمن أن يخاف غضب ربّه وأن يخاف وعيده، وأولئك هم المتّقون الصالحون.

{ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ [15] مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ [16] يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ [17] }.

<u>يجوز</u> أن تكون معطوفة على قوله تعالى { فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ } وضمير { وَاسْتَفْتَحُوا } عائد إلى الرسل، أي: فوعدهم الله النصر وخاب الذين كفروا، أي: لم يتحقّق توعّدهم الرسل بقولهم { لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا }.

<u>ويجوز</u> أن تكون { وَاسْتَفْتَحُوا } عطفا على { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ } ويكون ضمير { اسْتَفْتَحُوا } عائدا على الذين { كَفَرُوا }، أي: وطلبوا النصر على رسلهم فخابوا في ذلك.

الاستفتاح: طلب الفتح وهو النصر، قال تعالى { إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ } [الأنفال:19].

الجبّار: المتعاظم الشديد التكبّر. و**العنيد**: المعاند للحق. وتقدّما في قوله تعالى { وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ } [هود:59]. والمراد بهم المشركون المتعاظمون، فوصف { جَبَّارٍ } خلق نفساني، ووصف {عَنِيدٍ}

من أثر وصف { جَبَّارٍ } لأنّ العنيد المكابر معارض للحجّة.

{ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ } أي: خاب الجبّار العنيد في الدنيا وليس ذلك حظّه من العقاب بل وراءه عقاب الآخرة.

الوراء: مستعمل في معنى ما ينتظره ويحلّ به من بعد، فاستعير لذلك بجامع الغفلة عن الحصول، كالشيء الذي يكون من وراء المرء لا يشعر به لأنّه لا يراه. والمعنى: أنّ جهنّم تنتظره فهو صائر إليها بعد موته.

الصديد: المُهلة. أي: مثل الماء يسيل من الدمل ونحوه، والمعنى: ويسقى صديدا عوض الماء.

التجرّع: تكلّف الجَرْع، والجرع: بلع الماء.

{ وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ } السوغ: انحدار الشراب سلسا في الحلق، يقال: شراب سائغ. والمعنى: لا يقارب أن يسيغه فضلا عن أن يسيغه بالفعل.

{ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ } أي: حلول آلمه وسكراته بقرينة قوله تعالى { وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ }، أي: ولا يموت فيستريح.

{ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ } مثل الكلام في قوله تعالى { مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ }، أي: ينتظره عذاب آخر.

الغليظ: حقيقته الخشن، وهو مستعمل هنا في القوّة والشدّة، أي: عذاب ليس بأخفّ مما هو فيه. وتقدّم عند قوله تعالى { وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ } [هود:58].

{ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ } [18].

تمثيل لحال ما عمله المشركون من الخيرات حيث لم ينتفعوا بها يوم القيامة. وقد أثار هذا التمثيل ما دلّ عليه الكلام السابق من شدّة عذابهم، فيخطر ببالهم أو ببال من يسمع من المسلمين أن يسأل نفسه أنّ لهم أعمالا من الصلة والمعروف: من إطعام الفقراء، ومن عتق رقاب، وقِرى ضيوف، وحمالة ديات، وفداء أسارى، واعتمار، ورفادة الحجيج... فهل يجدون ثواب ذلك؟

المثل: الحالة العجيبة، أي: حال الذين كفروا العجيبة أنّ أعمالهم كرماد.

شُبّهت أعمالهم برماد مكدّس فإذا اشتدت الرياح بالرماد انتثر وتفرّق تفرّقا لا يرجى معه اجتماعه. ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من اضمحلال شيء كثير بعد تجمّعه، والهيئة المشبّهة معقولة.

ووصف اليوم بالعاصف مجاز عقلي، أي: عاصف ريحه، كما يقال: يوم ماطر، أي: سحابه.

الرماد: ما يبقى من احتراق الحطب والفحم.

العاصف: تقدّم في قوله تعالى { جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ } [يونس:22].

ومن لطائف هذا التمثيل أن اختير له التشبيه بهيئة الرماد المجتمع، لأنّ الرماد أثر لأفضل أعمال الذين

كفروا وأشيعها بينهم وهو قِرى الضيف، حتّى صارت كثرة الرماد كناية في لسانهم عن الكرم.
قرأ نافع وأبو جعفر{ الرِّيَاحُ } وقراه البقية { الرِّيحُ } بالإفراد، وهما سواء لأن التعريف تعريف الجنس.
{ **لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ** } بيان لجملة التشبيه، أي: ذهبت أعمالهم سدى فلا ينتفعون بشيء منها.
{ **ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ** } تذييل جامع لخلاصة حالهم، وهي أنّها ضلال بعيد. والمراد بالبعيد البالغ نهاية ما تنتهي إليه ماهيته، وقد تقدّم في قوله تعالى { وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً } [النساء:116].

{ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ** [19] **وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ** [20] }.

استئناف بياني في موقع التعليل لجملة الاستئناف، قُدّم عليها كما تُجعل النتيجة مقدمة في الخطابة والجدال على دليلها. وقد بيّنّاه في كتاب (أصول الخطابة). ومناسبة موقع هذا الاستئناف ما سبقه من تفرّق الرماد في يوم عاصف.
{ **أَلَمْ تَرَ** } الخطاب لكلّ من يصلح للخطاب، وكلّ من يُظنّ به التساؤل عن إمكان إهلاك المشركين.
الرؤية: مستعملة في العلم الناشئ عن النظر والتأمّل، لأنّ السماوات والأرض مشاهدة لكل ناظر، وأمّا كونها مخلوقة لله فمحتاج إلى أقل تأمّل لسهولة الانتقال من المشاهدة إلى العلم. فلمّا كان أصل ذلك رؤية المخلوقات المذكورة عُلّق الاستدلال على الرؤية. كقوله تعالى { قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [يونس:101].
الحقّ: هنا الحكمة، أي: ضدّ العبث، بدليل مقابلته به في قوله تعالى { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ } [الدخان:39/38].
{ **يُذْهِبْكُمْ** } الخطاب لجماعة من جملتهم المخاطب بـ { أَلَمْ تَرَ }. والمقصود: التعريض بالمشركين خاصة، تأكيدا لوعيدهم الذي اقتضاه قوله تعالى { لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ }.
{ **وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ** } إيماء إلى أنّه يُذهب الجبابرة المعاندين ويأتي في مكانهم في سيادة الأرض بالمؤمنين.
{ **وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ** } عطف للتأكيد، وإنّما سُلك بهذا التأكيد مسلك العطف لما فيه من المغايرة للمؤكّد في الجملة بأنّه يفيد أنّه سهل عليه هيّن، كقوله { وَهُوَ الَّذِي يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [الروم:27].
العزيز: الممتنع بقوّته وقدرته.

{ **وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ** } [21].

عطف على { إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ } [20] باعتبار جواب الشرط وهو الإذهاب، و في الكلام محذوف، إذ التقدير: فأذهبهم وبرزوا لله جميعا، أي: يوم القيامة. وعدل عن المضارع إلى الماضي للتنبيه على تحقيق وقوعه حتّى كأنّه قد وقع.

البروز: الخروج من مكان. والمعنى هنا: حُشروا من القبور.

{ **جَمِيعاً** } تأكيد ليشمل جميعهم من سادة ولفيفٍ.

وقد جيء في هذه الآية والتي بعدها بوصف حال الفرق يوم القيامة، ومجادلة أهل الضلالة مع قادتهم، ومجادلة الجميع للشيطان، وكون المؤمنين في شغل عن ذلك بنُزل الكرامة، والغرض من ذلك تنبيه النّاس إلى تدارك شأنهم.

الضعفاء: عوام النّاس والأتباع.

الذين استكبروا: السادة، لأنّهم يتكبّرون على العموم. والسين والتاء للمبالغة في الكبر.

التبَع: اسم جمع التابع مثل الخدم.

{ **فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا** } الاستفهام مستعمل في التورّك والتوبيخ والتنكيت، لأنّهم آيسون منهم لما رأوا آثار الغضب الإلهي عليهم وعلى سادتهم. ، فعلموا أنّهم قد غرّوهم في الدنيا. أي: فأظهِروا مكانتكم عند الله التي كنتم تدعونها وتغروننا بها في الدنيا.

{ **مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ** } (من) الأولى بدلية، أي: غناء بدلا عن عذاب الله. والمعنى: هل تغنون عنا شيئا.

{ **قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ** } جواب المستكبرين اعتذار عن تغريرهم بأنّهم ما قصدوا به توريط أتباعهم كيف وقد ورّطوا أنفسهم أيضا. أي: لو كنا نافعين لنفعنا أنفسنا.

{ **سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا** } من كلام الذين استكبروا. وهي مستأنفة تبيين عن سؤال من الضعفاء. فضمير المتكلّم المشارك شامل للمتكلمين والمجابين، جمعوا أنفسهم إتماما للاعتذار عن توريطهم.

الجزع: حزن مشوب باضطراب. و**الصبر** تقدّم.

{ **مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ** } واقعة موقع التعليل لمعنى الاستواء، أي: حيث لا محيص ولا نجاة.

المحيص: مصدر ميمي كالمغيب والمشيب وهو **النجاة**. ويقال: حاص عنه، أي: نجا منه.

<u>ويجوز</u> أن يكون اسم مكان من حاص أيضا، أي: ما لنا **ملجأ** ومكان ننجو فيه.

{ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [22].

أفضت مجادلة الضعفاء وسادتهم في تغريرهم بالضلالة إلى نطق مصدر الضلالة وهو الشيطان. على أنّ قوله { فَلا تَلُومُونِي } يظهر منه أنّه توجه إليه ملام صريح، ويحتمل أنّه توقعه فدفعه قبل وقوعه وأنّه يتوجّه إليه بطريقة التعريض. والمقصود من وصف هذا الموقف إثارة بغض الشيطان في نفوس أهل الكفر ليأخذوا حذرهم بدفاع وسواسه لأنّ هذا الخطاب الذي يخاطبهم به الشيطان مليء بإضماره الشرّ لهم فيما وعدهم في الدنيا، ممّا شأنه أن يستفزّ غضبهم من كيده لهم وسخريّته بهم، فيورثهم ذلك كراهية له وسوء ظنّهم بما يتوقّعون إتيانه إليهم من قبله. وذلك أصل عظيم في الموعظة والتربية.

{ **قُضِيَ الْأَمْرُ** } المعنى: تُمّم الشأن، أي: إذن الله وحكمه. ومعنى إتمامه: ظهوره، وهو أمره تعالى بتمييز أهل الضلالة وأهل الهداية، قال تعالى { وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ } [يس:59]، وذلك بتوجيه كل فريق إلى مقرّه الذي استحقّه بعمله، فيتصدّى الشيطان للتخفيف عن الملام عن نفسه بتشريك الذين أضلّهم معه في تبعة ضلالهم، وقد أنطقه الله بذلك لإعلان الحقّ، وشهادة عليهم بأنّ لهم كسبا في اختيار الانصياع إلى دعوة الضلال دون دعوة الحقّ.

فهذا شبيه شهدة ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون وقولهم لهم { أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ } إظهارا للحقيقة وتسجيلا على أهل الضلالة وقمعا لسفسطتهم. وأخبر الله بها الناس استقصاء في الإبلاغ ليحيط النّاس علما بكل ما سيحل بهم. وإيقاظا لهم ليتأمّلوا الحقائق الخفيّة فتصبح بيّنة واضحة.

{ **إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ** } إضافة { وَعْدَ } إلى { الْحَقِّ } من إضافة الموصوف إلى الصفة مبالغة في الاتصاف، أي: الوعد الحق الذي لا نقض له.

الحق: هنا بمعنى الصدق والوفاء بالموعود به. وضدّه: الإخلاف، ولذلك قال { وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ }، أي: كذبت موعدي. وشمل وعد الحقّ جميع ما وعدهم الله بالقرآن على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم. وشمل الخلف جميع ما كان يعدهم الشيطان على لسان أوليائه، وما يعدهم إلّا غرورا.

{ **وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي** }.

السلطان: اسم مصدر تسلّط عليه، أي: غلبه وقهره، أي: لم أكن مجبرا لكم على اتّباعي فيما أمرتكم. والاستثناء منقطع لأنّ ما بعد حرف الاستثناء ليس من جنس ما قبله. فالمعنى: لكني دعوتكم فاستجبتم لي.

{ **فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ** } المقصود: لوموا أنفسكم إذ قبلتم إشارتي ودعوتي.

{ **مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ** }، بيان لجملة النهي عن لومه، لأنّ لومه فيه تعريض بأنّهم

يتطلّبون منه حيلة لنجاتهم، فنفى ذلك عن نفسه بعد أن نهاهم عن أن يلوموه.

الإصراخ: الإغاثة، اشتق من الصراخ، لأنّ المستغيث يصرخ بأعلى صوته، فقيل: أصرخه، إذا أجاب صراخه، كما قالوا: أعتبه، إذا قبل استعتابه.

{ **إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ** } استئناف آخر من تبعات عبادتهم إيّاه قُصد منه دفع زيادة العذاب عنه بإظهار الخضوع لله تعالى.

{ **كَفَرْتُ** } أراد شدّة التبرّي من إشراكهم إيّاه في العبادة. فإن أراد من ماضي فعل { كَفَرْتُ } ماضي الأزمنة كلّها، أي: كنت غير راض بإشراككم إيّاي، فهو كذب منه أظهر به التذلّل، وإن كان مراده من الماضي إنشاء عدم الرضى بإشراكهم إيّاه فهو ندامة بمنزلة التوبة حيث لا يُقبل متاب.

والإشراك الذي كفر به، إشراكهم إيّاه في العبادة، بأن عبدوه مع الله، لأنّ من المشركين من يعبدون الشياطين والجنّ، فهؤلاء يعبدون جنس الشيطان مباشرة، ومنهم من يعبدون الأصنام فهم يعبدون الشياطين بواسطة عبادة آلهته.

{ **إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** } من الكلام المحكي عن الشيطان. وهي في موقع التعليل لما تقدّم.

{ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ } [23].

انتقال لوصف حال المؤمنين يومئذ بمناسبة ذكر حال المشركين، لأنّ حال المؤمنين يومئذ من جملة الأحوال المقصودة بالوصف إظهارا لتفاوت الأحوال، فلم يدخل المؤمنون يومئذ في المنازعة والمجادلة تنزيها لهم عن الخوض في تلك الغمرة، مع التنبيه على أنّهم حينئذ في سلامة ودعه.

ويجوز جعل الواو للحال، أي: برزوا وقال الضعفاء وقال الكبراء وقال الشيطان، وقد أدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنّات، فيكون إشارة إلى أنّهم فازوا بنزل الكرامة من أوّل وهلة.

{ **بِإِذْنِ رَبِّهِمْ** } إشارة إلى العناية والاهتمام، فهو إذن أخصّ من أمر القضاء العام.

{ **تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ** } تقدّم نظيره في [يونس:10].

{ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ [24] تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ [25] وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ [26] }.

استئناف ابتدائي اقتضته مناسبة ما حُكي عن أحوال أهل الضلالة وأحوال أهل الهداية. فضرب الله مثلا لكلمة الإيمان وكلمة الشرك.

{ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً** } إيقاظ ليترقّب ما يرد بعد هذا الكلام، وذلك مثل قولهم: ألم تعلم. ولم يكن هذا المثل مما سبق ضربه قبل نزول الآية، فالكلام تشويق إلى علم هذا المثل.

{ **أَلَمْ** } الاستفهام نزّل المخاطب منزلة من لم يعلم فأنكر عليه عدم العلم، أو هو مستعمل في التعجّب من عدم العلم بذلك مع أنّه ممّا تتوفّر الدواعي على علمه. أو هو للتقرير. ومثله في التقرير كثير، وهو كناية في التحريض على العلم بذلك. والخطاب لكل من يصلح للخطاب.

{ **ضَرَبَ اللَّهُ** } إسناده إلى اسم الجلالة لأنّ الله أوحى به إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.

{ **مَثَلاً** } تقدّم في قوله تعالى { مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً } [البقرة:17].

{ **كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ** ... }

الكلمة الطيبة : قيل هي كلمة الإسلام، وهي: شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمدا رسول الله.

الكلمة الخبيثة: كلمة الشرك.

الطيبة: النافعة. استعير الطيّب للنفع لحُسن وقعه في النفوس كوقع الروائح الذكيّة.

الفرع: ما امتد من الشيء وعلا، مشتقّ من الافتراع وهو الاعتلاء. وفرع الشجرة: غصنها.

السماء: مستعمل في الارتفاع، وذلك مما يزيد الشجرة بهجة وحسن منظر.

الأُكل: (بضم الهمزة) المأكول. وتقدّم عند قوله تعالى { وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ } [الرعد:4].

فالمشبّه هو الهيئة الحاصلة من البهجة في الحسّ والفرح في النفس وازدياد أصول النفع باكتساب المنافع المتتالية بهيئة رسوخ الأصل، وجمال المنظر، ونماء أغصان الأشجار، ووفرة الثمار، ومتعة أكلها. وكل جزء من أجزاء إحدى الهيئتين يقابله الجزء الآخر من الهيئة الأخرى، وذلك أكمل أحوال التمثيل أن يكون قابلا لجمع التشبيه وتفريعه.

{ **وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ** ... }

كذلك القول في تمثيل حال الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة على الضدّ بجميع الصفات الماضية من اضطراب الاعتقاد، وضيق الصدر، وكدر التفكير، والضرّ المتعاقب. وقد اختُصر فيها التمثيل اختصارا اكتفاء بالمضاد، فانتفت عنها سائر المنافع للكلمة الطيّبة.

وفي جامع الترمذي عن إنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " { مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا } قال: هي النخلة . { وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ} قال: هي الحنظل ".

{ **اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ** } لأنّ النّاس لا يتركونها تلتف على الأشجار فتقتلها.

الاجتثاث: قطع الشيء كلّه، مشتق من الجُثّة وهي الذات.

{ **مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ** } تأكيد لمعنى الاجتثاث لأنّ الاجتثاث من انعدام القرار.

والأظهر أنّ المراد بالكلمة الطيبة القرآن وإرشاده، وبالكلمة الخبيثة تعاليم أهل الشرك وعقائدهم.

{ **كَلِمَةٍ** } في الموضعين مطلقة على القول والكلام، كما دل عليه قوله { يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ }. والمقصود مع التمثيل إظهار المقابلة بين الحالين بتمثيل كل حالة على حدة بخلاف ما يأتي عند قوله تعالى {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً } [النحل:75]، فانظر بيانه هنالك.

{ **وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** } معترضة بين الجملتين المتعاطفتين.

{ **لَعَلَّهُمْ** } رجاء تذكّرهم، أي: تهيئة التذكّر لهم، وقد مضت نظائرها.

{ **يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ** } [27].

جملة مستأنفة استئنافا بيانيّا ناشئا عما أثاره تمثيل الكلمة الطيبة بالشجرة الثابتة.

{ **بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ** } الكلام الصادق الذي لا شك فيه. والمراد به أقوال القرآن لأنّها صادقة المعاني واضحة الدليل. والباء في { بِالْقَوْلِ } للسببية.

{ **فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ** } معنى تثبيت الذين آمنوا بها: أنّ الله يسَّر لهم فهم الأقوال الإلهيّة على وجهها وإدراك دلائلها حتّى اطمأنت إليها قلوبهم ولم يخامرهم فيها شك فأصبحوا ثابتين في إيمانهم غير متردّدين. وذلك في الحياة الدنيا ظاهر، وأمّا في الآخرة فبإلفائهم الأحوال على نحو ما علموه في الدنيا، فلم تعترهم ندامة ولا لهف. ويكون ذلك بمظاهر كثيرة يظهر فيها ثباتهم بالحقّ قولا وانسياقا، وتظهر فيها فتنة غير المؤمنين في الأحوال كلها.

ومن مظاهر هذا التثبيت فيهما ما ورد من وصف فتنة سؤال القبر. روى البخاري والترمذي عن البراء بن عازب أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **" المسلم إذا سئل في القبر يشهد أنّ لا إله إلا الله وأنّ محمدا رسول الله، فذلك قوله تعالى** { يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ } **"**

.

{ **وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ** } أي: المشركين، أي: يجعلهم في حيرة وعماية في الدنيا وفي الآخرة.

الضلال: اضطراب وارتباك. فهو الأثر المناسب لسببه، أعني الكلمة التي اجتثت من فوق الأرض كما دلّت عليه المقابلة.

{ **وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ** } كالتذييل لما قبلها. وتحت إبهام { مَا يَشَاءُ } وعمومه مطاو كثيرة؛ من ارتباط ذلك بمراتب النفوس، وصفاء النيات في تطلب الإرشاد. وفي كل تلك الأحوال مراتب ودرجات لا تبلغ عقول البشر تفصيلها.

وإظهار اسم الجلالة لقصد أن تكون كلّ جملة مستقلة بدلالتها حتّى تسير مسير المثل.

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ [28] جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ [29] }.

ابتُدئ بذكر أحوال المشركين لأنّها أعجب والعبرة بها أولى، والحذر مقدّم على التحلي بضدها، ثم أُعقِب بذكر أحوال المؤمنين بقوله تعالى { قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا } [31].

والاستفهام مستعمل في التشويق إلى رؤية ذلك.

الرؤية: هنا بصريّة متعلّقها مما يُرى، ولأنّ تعديّة فعلها بـ { إِلَى } يُرجّح ذلك، كما في قوله تعالى { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ } [البقرة:258]. وقد نزل المخاطب منزلة من لم ير.

والخطاب لمن يصحّ منه النظر إلى حال هؤلاء الذين بدّلوا نعمة الله مع وضوح حالهم.

الكفر: كفران النعمة، وهو ضدّ الشكر، والإشراك بالله من كفران نعمته.

{ **بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً** } محسِّن الاحتباك. وتقدير الكلام: بدلوا نعمة الله وشكرها كفرا بها. واستعير التبديل لوضع الشيء في الموضع الذي يستحقّه شيء آخر، لأنّه يشبه تبديل الذات بالذات.

والذين بدّلوا هذا التبديل هم الذين تلقّوا الكلمة الخبيثة من الشيطان، أي: كلمة الشرك، وهم الذين استكبروا من مشركي أهل مكّة فكابروا دعوة الإسلام وكذّبوا النبيّ صلى الله عليه وسلم، وشرّدوا من استطاعوا، وتسبّبوا في إحلال قومهم دار البوار، فإسناد فعل { أَحَلُّوا } إليهم على طريقة المجاز العقلي.

ونعمة الله التي بدّلوها هي نعمة أن بوّأهم حرمه، وأمّنهم في سفرهم وإقامتهم، وجعل أفئدة النّاس تهوي إليهم، وسلّمهم مما أصاب غيرهم من الحروب والغارات والعدوان، فكفروا بمن وهبهم هذه النعم وعبدوا الحجارة. ثم أنعم الله عليهم بأن بعث فيهم أفضل أنبيائه صلى الله عليه وسلم وهداهم إلى الحقّ، وهيأ لهم أسباب السيادة والنجاة في الدنيا والآخرة، فبدّلوا شكر ذلك بالكفر به.

قومهم: هم الذين اتبعوهم في ملازمة الكفر حتّى ماتوا كفّارا، فهم أحقّ بأن يضافوا إليهم.

البوار: الهلاك والخسران. و**داره**: محلّه الذي وقع فيه.

الإحلال بها: الإنزال فيها. والمراد بالإحلال التسبّب فيه، أي: كانوا سببا لحلول قومهم بدار البوار. وهي جهنّم في الآخرة. وبه فسّر علي وابن عباس وكثير من العلماء، ويجوز أن تكون أرض بدر، وهو رواية عن علي وعن ابن عباس. واستعمال صيغة الماضي في { أَحَلُّوا } لقصد التحقيق.

{ **وَبِئْسَ الْقَرَارُ** } عطف على جملة { يَصْلَوْنَهَا }، أو حال من { جَهَنَّمَ }. والتقدير: وبئس القرار هي.

{ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ } [30].

الضمير راجع إلى { الَّذِينَ بَدَّلُوا } وهم أئمة الشرك.

{ **وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً** } الجعل يصدق على من اخترع ذلك، كما فعل عمرو بن لُحَي وهو من خزاعة.

ويصدق على من أقرّ به ونشره واحتجّ له، مثل وضع أهل مكّة الأصنام في الكعبة.

الأنداد: جمع نِدّ، وهو المماثل في مجد ورفعة، وتقدّم عند قوله تعالى { فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً } [البقرة:22].

سبيل الله: كل عمل يجري على ما يرضي الله. شُبّه العمل بالطريق الموصلة، وقد تقدّم غير مرة.

{ **قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ** } مستأنفة استئنافا بيانيا لأنّ المخاطب بـ { أَلَمْ تَرَ } إذا علم هذه الأحوال يتساءل عن الجزاء المناسب لجرمهم وكيف تركهم الله يرفلون في النعيم، فأجيب بأنّهم يصيرون إلى النّار، أي: يموتون فيصيرون إلى العذاب. وهذا كقوله تعالى { لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ } [آل عمران:197/196].

{ **قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلالٌ** } [31].

استئناف نشأ عن ذكر حال الفريق الذي حقّت عليه الكلمة الخبيثة بذكر حال مقابله، وهو الفريق الذي حقّت عليه الكلمة الطيّبة. فلما ابتدئ بالفريق الأوّل لقصد الموعظة والتخلّي ثُنِّي بالفريق الثاني على طريقة الاعتراض بين أغراض الكلام كما سيأتي في الآية عقبها. ونظيره قوله تعالى { وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً - إلى أن قال - وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } [الإسراء:50-52].

ولمّا كانوا متحلّين بالكمال صيغ الحديث عنهم بعنوان الوصف بالإيمان، وبصيغة الأمر بما هم فيه من صلاة وإنفاق لقصد الدوام على ذلك، فحصلت بذلك مناسبة وقع هذه الآية بعد التي قبلها لمناسبة تضاد الحالين.

ولمّا كان المؤمنون يقيمون الصلاة من قبل وينفقون من قبل تعيَّن أنّ المراد الاستزادة من ذلك، ولذلك اختير المضارع مع تقدير لام الأمر دون صيغة فعل الأمر لأنّ المضارع دال على التجدّد، فهو مع لام الأمر يلاقي حال المتلبّس بالفعل الذي يؤمر به، بخلاف صيغة (افعل) فإنّ أصلها طلب إيجاد الفعل المأمور به من لم يكن ملتبسا به. فأصل { يُقِيمُوا الصَّلاةَ } ليقيموا، فحُذفت لام الأمر تخفيفا.

{ **مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ** } للتذكير بالنعمة تحريضا على الإنفاق ليكون شكرا للنعمة.

{ **سِرّاً وَعَلانِيَةً** } حالان من ضمير { يُنْفِقُوا }. وهما مصدران. وتقدّم عند قوله تعالى { سِرّاً وَعَلانِيَةً } [البقرة:274]. والمقصود: تعميم الأحوال في طلب الإنفاق، فربّما توخّى المرء أحد الحالين فأفضى إلى ترك الإنفاق في الحال الآخر فتعطل نفع كثير وثواب جزيل، فبيَّن الله للنّاس أنّ الإنفاق برّ لا يكدّره ما يحفّ به من الأحوال، " **وإنّما الأعمال بالنيّات** ". وقد تقدّم شيء من هذا عند قوله تعالى { الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ } [التوبة:79].

وقيل: المقصود من السرّ الإنفاق المتطوّع به، ومن العلانية الإنفاق الواجب. وتقديم السرّ على العلانيّة تنبيه على أنّه أولى الحالين لبعده عن خواطر الرياء، ولأنّ فيه استبقاء لبعض حياء المتصدّق عليه.

{ **مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ** } أي: ليفعلوا ذينك الأمرين قبل حلول اليوم الذي تتعذّر فيه المعاوضات والإنفاق. وهذا كناية عن عظيم منافع إقامة الصلاة والإنفاق قبل يوم الجزاء عنهما حين يتمنّون أن يكونوا ازدادوا من ذينك لما يسرّهم من ثوابهما فلا يجدون سبيلا للاستزادة منهما، إذ لا بيع يومئذ فيشتري الثواب ولا خلال من شأنها الإرفاد والإسعاف بالثواب.

فالمراد بالبيع المعاوضة، وبالخلال الكناية عن التبرّع. ونظيره قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ } [البقرة:254].

وبهذا تبيّن أن المراد من الخلال هنا آثارها، بقرينة المقام، وليس المراد نفي الخلّة، أي: الصحبة والمودّة لأنّ المودّة ثابتة بين المتقين، قال تعالى { الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ } [الزخرف:67].

{ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ [32] وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ [33] وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الْأِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ [34]** }.

استئناف واقع موقع الاستدلال على ما تضمّنته جملة { وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً }. وقد فُصل بينه وبين المستدلّ عليه بجملة { قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ }. وأُدمج في الاستدلال تعداد لنعم تستحق الشكر عليها ليظهر حال الذين كفروها، وبالضدّ حال الذين شكروا عليها، وليزداد الشاكرون شكرا.

فالمقصود الأول هو الاستدلال على أهل الجاهلية، كما يدل عليه تعقيبه بقوله تعالى { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ } [35]. فجيء في هذه الآية بنعم عامة مشهودة محسوسة لا يُستطاع إنكارها، إلّا أنّها للتذكير بأنّ المنعم بها وموجدها هو الله تعالى.

{ **اللَّهُ الَّذِي** } افتُتح الكلام باسم الموجد لأنّ تعينه هو الغرض الأهم. وأُخبر عنه بالموصول لأنّ الصلة معلومة الانتساب إليه والثبوت له، إذ لا ينازع المشركون في أنّ الله هو صاحب الخلق ولا يدّعون أنّ الأصنام تخلق شيئا، كما قال تعالى { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ } [لقمان:25]، فخلق السماوات والأرض دليل على إلهية خالقها وتمهيد للنعم المودعة فيها؛ كإنزال الماء من السماء إلى الأرض، وإخراج الثمرات من الأرض، والبحار والأنهار من الأرض. والشمس والقمر من السماء،

والليل والنهار من السماء ومن الأرض، وقد مضى بيان هذه النعم في آيات مضت.

الرزق: القوت.

التسخير: حقيقته التذليل والتطويع، وهو مجاز في جعل الشيء قابلا لتصرّف غيره فيه، وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ } [الأعراف:54].

تسخير الفلك: تسخير ذاتها بإلهام البشر لصنعها وشكلها بكيفية تجري في البحر بدون مانع.

{ **بِأَمْرِهِ** } متعلّق بـ { تَجْرِيَ }، والأمر هنا الإذن، أي: تيسير جريها في البحر وذلك بكفّ العواصف عنها وبإعانتها بالريح الرخاء، وهذا كقوله تعالى { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ } [الحج: 65]. وقد بيّنته آية { وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ } [سورة الشورى:32-33].

تسخير الأنهار: خلقها على كيفيّة تقتضي انتقال الماء من مكان إلى مكان وقراره في بعض المنخفضات فيستقي منه من تمرّ عليه وينزل على ضفافه حيث تستقرّ مياهه. وخلق بعضها مستمرّة القرار كالدجلة والفرات والنيل للشرب ولسير السفن فيها.

تسخير الشمس والقمر: خلقهما بأحوال ناسبت انتفاع البشر بضيائهما، وضبط أوقاتهم بسيرهما.

{ **دَائِبَيْنِ** } دائبين على حالات لا تختلف إذ لو اختلفت لم يستطع البشر ضبطها فوقعوا في حيرة وشك.

الفلك: جمع لفظه كلفظ مفرده. وتقدّم عند قوله { وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ} [البقرة:164].

{ **وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ** } أعطاكم بعضا من جميع مرغوباتكم الخارجة عن اكتسابكم بحيث شأنكم فيها أن تسألوا الله إيّاها، وذلك مثل توالد الأنعام، وإخراج الثمار والحبّ، ودفع العوادي عن جميع ذلك: كدفع الأمراض عن الأنعام، ودفع الجوائح عن الثمار والحبّ. فالجملة تعميم بعد خصوص، فهي بمنزلة التذييل لما قبلها لحكم يعلمها الله ولا يعلمونها { وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ } [الشورى:27]، فالإنعام والامتنان يكون بمقدار البذل لا بمقدار الحرمان.

{ **وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا** } تأكيد للتذييل وزيادة في التعميم، تنبيها على أنّ ما آتاهم الله كثير منه معلوم وكثير منه لا يحيطون بعلمه أو لا يتذكّرونه عند إرادة تعداد النعم. وذلك مثل النعم المعتاد بها التي ينسى النّاس أنّها من النعم، كنعمة النفس، ونعمة الحواس، ونعمة هضم الطعام والشراب، ونعمة الدورة الدموية، ونعمة الصحة.

الإحصاء: ضبط العدد، وهو مشتق من الحَصَا اسما للعدد، وهو منقول من الحصى، وهو صغار الحجارة لأنّهم كانوا يعدّون الأعداد الكثيرة بالحصى تجنبا للغلط.

{ **إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ** } تأكيد لمعنى الاستفهام الإنكاري المستعمل في تحقيق تبديل النعمة كفرا، فلذلك فصلت عنها.

{ **الْإِنْسَانَ** } هنا هو صنف من الناس، وهو المشرك، مثل الذي في قوله تعالى { وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً } [الشورى:66]، وهو استعمال كثير في القرآن.

{ **ظَلُومٌ كَفَّارٌ** } صيغتا المبالغة اقتضاهما كثرة النعم المفاد من قوله تعالى { وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا } إذ بمقدار كثرة النعم يكثر كفر الكافرين بها، إذ أعرضوا عن عبادة المنعم وعبدوا ما لا يغني عنهم شيئا.

{ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ [35] رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [36] }.

عطف على { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً } [28]، فإنّهم كما بدّلوا نعمة الله كفرا أهملوا الشكر على ما بوّأهم الله من النعم بإجابة دعوة أبيهم إبراهيم عليه السلام وبدّلوا اقتداءهم بسلفهم الصالح اقتداء بأسلافهم من أهل الضلالة، وبدّلوا دعاء سلفهم الصالح لهم بالإنعام عليهم كفرا بمُفيض تلك النّعم.

ويجوز أن تكون معطوفة على { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ } بأن انتقل من ذكر النعم العامة للنّاس التي يدخل تحت منّتها أهل مكّة بحكم العموم إلى ذكر النعم التي خصّ الله بها أهل مكّة. وغُيّر الأسلوب في الامتنان بها إلى أسلوب الحكاية عن إبراهيم لإدماج التنويه بإبراهيم عليه السلام والتعريض بذرّيّته من المشركين.

{ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ** } (إذ) اسم زمان ماضٍ منصوب على المفعولية لفعل محذوف شائع الحذف في أمثاله، تقديره: واذكر إذ قال إبراهيم، زيادة في التعجيب من شأن المشركين.

{ **رَبِّ** } منادى محذوف منه حرف النداء. وأصله (ربي)، حُذفت ياء المتكلّم تخفيفا، وهو كثير الاستعمال.

البلد: المكان المعيّن من الأرض، ويطلق على القرية. والتعريف تعريف العهد لأنّه معهود بالحضور. وحكاية دعائه بدون بيان البلد إبهام يرد بعده البيان بقوله تعالى {عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ } [37]. وقد مضى في [البقرة:126] تفسير نظيره. والتعريف هنا للعهد، والتنكير في آية البقرة تنكير النوعيّة، فهنا دعا للبلد بأن يكون آمنا، وفي آية سورة البقرة دعا لمشار إليه أن يجعله الله من نوع البلاد الآمنة، فمآل المفادين متّحد.

{ **وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ** } يقال: جنبه الشيء، إذا جعله جانبا عنه، أي: باعده عنه، وهي لغة أهل نجد. وأهل الحجاز يقولون: جنّبه بالتضعيف أو أجنبه بالهمز. وجاء القرآن هنا بلغة أهل نجد لأنّها أخف.

{ **وَبَنِيَّ** } أبناء صلبه، وهم يومئذ إسماعيل وإسحاق، فهو من استعمال الجمع في التثنية، أو أراد جميع نسله تعميما في الخير فاستجيب له في البعض.

الأصنام: جمع صنم، وهو صورة أو حجارة أو بناء يتّخذ معبودا ويدعى إلها. وأراد إبراهيم عليه السلام مثل ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، أصنام قوم نوح، ومثل الأصنام التي عبدها قوم إبراهيم.

{ **رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ** } إعادة النداء لإنشاء التحسّر على ذلك. والكلام تعليل للدعوة بإجنابه عبادتها، بأنّها ضلال راج بين كثير من النّاس، فحُقّ للمؤمن الضنين بإيمانه أن يخشى أن تجترفه فتنتها. وافتتاح الجملة بحرف التوكيد لما يفيده حرف (إنّ) في هذا المقام من معنى التعليل.

وذلك أنّ إبراهيم عليه السلام خرج من بلده (**أور**) بلد الكلدانيين إنكارا على عبدة الأصنام، فقال { إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ } [الصافات:99]، وقال لقومه { وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ } [مريم:48]. فلمّا مرّ بمصر وجدهم يعبدون الأصنام ثم دخل فلسطين فوجدهم عبدة أصنام، ثم جاء عَرَبَةَ تهامة فأسكن بها زوجه فوجدها خالية ووجد حولها (**جُرهم**) قوما على الفطرة والسذاجة فأسكن بها هاجر وابنه إسماعيل عليه السلام ثم أقام هنالك معلم التوحيد، وهو بيت الله الكعبة بناه هو وابنه إسماعيل، وأراد أن يكون مأوى التوحيد، وأقام ابنه هنالك ليكون داعية للتوحيد. فلا جرم سأل أن يكون ذلك بلدا آمنا حتّى يسلم ساكنوه وحتّى يأوي إليهم من إذا آوى إليهم لقّنوه أصول التوحيد.

{ **فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي** } أي: فمن تبعني من النّاس فتجنّب عبادة الأصنام فهو منّي. فدخل في ذلك أبوه وقومه، ويدخل فيه ذرّيّته لأنّ الشرط يصلح للماضي والمستقبل.

{ **وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } تأدّب في مقام الدعاء، ونفع للعصاة من الناس بقدر ما يستطيعه.

<u>المعنى</u>: ومن عصاني أفوّض أمره إلى رحمتك وغفرانك. وليس المقصود الدعاء بالمغفرة لمن عصى. وهذا من غلبة الحلم على إبراهيم عليه السلام وخشية من استئصال عصاة ذريته. ولذلك متّعهم الله قليلا في الحياة الدنيا، كما في قوله تعالى { قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } [البقرة:126]، وقوله تعالى { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ} [الزخرف:27].

وسوق هذه الدعوة هنا للتعريض بالمشركين من العرب بأنّهم لم يبرّوا بأبيهم إبراهيم عليه السلام.

{ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ } [37].

جملة مستأنفة لابتداء دعاء آخر. وافتتحت بالنداء لزيادة التضرّع. وفي كون النداء تأكيدا لنداء سابق ضرب من الربط بين الجمل المفتتحة بالنداء ربط المثل بمثله.

{ **رَبَّنَا** } أضيف الربّ هنا إلى ضمير الجمع خلافا لسابقيه لأنّ الدعاء الذي افتُتح به فيه حظ للداعي ولأبنائه. ولعلّ إسماعيل عليه السلام حاضر معه حين الدعاء كما تدلّ له الآية الأخرى { وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا - إلى قوله - وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ } [البقرة:128/127].

{ **مِنْ ذُرِّيَّتِي** } يعني إسماعيل عليه السلام وهو بعض ذرّيّته، فكان هذا الدعاء صدر من إبراهيم عليه السلام بعد زمان من بناء الكعبة وتقرّي مكّة.

الواد: الأرض بين الجبال، وهو وادي مكّة.

{ **غَيْرِ ذِي زَرْعٍ** } صفة، أي: بواد لا يصلح للنبت لأنّه حجارة، فإنّ كلمة (ذو) تدلّ على صاحب ما أضيفت إليه وتمكّنه منه، فإذا قيل: ذو مال، فالمال ثابت له، وإذا أريد ضد ذلك قيل: غير ذي مال، كقوله تعالى

{ قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ } [الزمر: 28]، أي: لا يعتريه شيء من العوج.

{ **عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ** } صفة ثانية لواد أو حال. و**المحرّم**: المُمَنّع من تناول الأيدي إيّاه بما يفسده أو يضرّ أهله بما جعل الله له في نفوس الأمم من التوقير والتعظيم.

{ **رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ** } أي: أن لا يشغلهم عن إقامة الصلاة في ذلك البيت شاغل فيكون البيت معمورا أبدا.

{ **فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ** } الدعاء لهم بأن يجعل الله أفئدة من الناس تهوي إليهم، لأنّ همّة الصالحين في إقامة الدين.

الأفئدة: جمع فؤاد، وهو القلب. والمراد هنا النفس والعقل. والمعنى: فاجعل أناسا يقصدونهم برغبة وشوق.

تهوي: مضارع هوَى (بفتح الواو): سقط. وأطلق هنا على الإسراع في المشي استعارة، ولذلك عدّي باللام.

وهو كناية عن المحبّة والشوق إلى زيارتهم.

والمقصود من هذا الدعاء تأنيس مكانهم بتردّد الزائرين وقضاء حوائجهم منهم.

ومحبّة النّاس إيّاهم يحصل معها محبّة البلد وتكرير زيارته، وذلك سبب لاستئناسهم به ورغبتهم في إقامة شعائره، فيؤول إلى الدعوة إلى الدين.

{ **لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ** } رجاء شكرهم داخل في الدعاء لأنّه جُعل تكملة له تعرّضا للإجابة وزيادة في الدعاء لهم بأن يكونوا من الشاكرين.

{ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ} [38].

جاء بهذا التوجّه إلى الله جامعا لما في ضميره، وفذلكة للجمل الماضية لما اشتملت عليه من ذِكر ضلال كثير من النّاس، وذِكر من اتبع دعوته ومن عصاه، وذَكر أنّه أراد من إسكان أبنائه بمكّة رجاء أن يكونوا حرّاس بيت الله، وأن يقيموا الصلاة، وأن يشكروا النعم المسؤولة لهم. وفيه تعليم لأهله وأتباعه بعموم علم الله تعالى حتّى يراقبوه في جميع الأحوال ويخلصوا النيّة إليه.

{ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ } تذييل للجملة السابقة، أي: تعلم أحوالنا وتعلم كلّ شيء. ولكونها تذييلا أُظهر فيها اسم الجلالة ليكون التذييل مستقلا بنفسه بمنزلة المثل والكلام الجامع.

{ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ } [39].

لمّا دعا الله لأهمّ ما يهمّه وهو إقامة التوحيد، وكان يرجو إجابة دعوته وأنّ ذلك ليس بعجب في أمر الله، خطر بباله نعمة الله عليه بما كان يسأله وهو أن وهب له ولدين في إبّان الكبر وحين اليأس من الولادة، فناجى الله فحمده على ذلك وأثنى عليه بأنه سميع الدعاء، أي: مجيب، أي: متصف بالإجابة وصفا ذاتيا، تمهيدا لإجابة دعوته هذه كما أجاب دعوته سلفا. فهذا مناسبة موقع هذه الجملة بعد ما قبلها.

{ عَلَى الْكِبَرِ } للاستعلاء المجازي بمعنى (مع)، أي: مع الكبر الذي لا تحصل معه الولادة. وكان عمر إبراهيم حين ولد له إسماعيل عليهما السلام ستا وثمانين سنة (86). وعمره حين ولد له إسحاق عليهما السلام مائة سنة (100). وكان لا يولد له من قبل.

{ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ } تعليل، أي: وهب ذلك لأنّه سميع الدعاء. والسميع مستعمل في إجابة المطلوب كناية، وصيغ بمثال المبالغة أو الصفة المشبّهة ليدلّ على كثرة ذلك وأنّ ذلك شأنه، فيفيد أنّه وصف ذاتيّ لله تعالى.

{ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ [40] رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ [41] }.

جملة مستأنفة من تمام دعائه. و**الإقامة**: الإدامة، وتقدّم في صدر سورة البقرة.

{ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي } { مِنْ } ابتدائية وليست للتبعيض، لأنّ إبراهيم عليه السلام لا يسأل الله إلّا أكمل ما يحبّه لنفسه ولذرّيّته.

{ **وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ** } دعاؤه بتقبّل دعائه ضراعة بعد ضراعة. وحذفت ياء المتكلّم في قراءة الجمهور تخفيفا كما تقدّم في قوله تعالى { وَإِلَيْهِ مَتَابِ } [الرعد:30].

{ **رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ** } ثم دعا بالمغفرة لنفسه وللمؤمنين ولوالديه ما تقدّم منه ومن المؤمنين قبل نبوّته، وما استمر عليه أبوه بعد دعوته من الشرك، أمّا أمّه فلعلّها توفيت قبل نبوّته. وهذا الدعاء لأبويه قبل أن يتبيّن له أنّ أباه عدو لله كما في آية سورة التوبة.

{ **يَقُومُ الْحِسَابُ** } يثبت. استعير القيام للثبوت تبعا لتشبيه الحساب بإنسان قائم، لأنّ حالة القيام أقوى أحوال الإنسان إذ هو انتصاب للعمل. ومنه قولهم: قامت الحرب على ساق، إذ قويت واشتدت. وقولهم: ترجّلت الشمس، إذا قوي ضوءها، وتقدّم عند قوله تعالى { وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ } [البقرة:4].

{ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ [42] مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ [43] }.

عطف على الجمل السابقة وله اتصال بجملة { قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ } [30] الذي هو وعيد للمشركين وإنذار لهم بأنّ لا يغترّوا بسلامتهم وأمنهم تنبيها لهم على أنّ ذلك متاع قليل زائل، فأكّد ذلك الوعيد بهذه الآية، مع إدماج تسلية الرّسول صلى الله عليه وسلم على ما يتطاولون به من النعمة والدعة. وباعتبار ما في هذا القول من زيادة معنى التسلية وما انضم إليه من وصف فظاعة حال المشركين يوم الحشر حَسُن اقتران هذه الجملة بالعاطف ولم تفصل.

{ **وَلَا تَحْسَبَنَّ** } ظاهرها نهي عن حسبان ذلك. وهذا النهي كناية عن إثبات وتحقيق ضد المنهي عنه، أي: تحقّق أنّ الله ليس بغافل، وهو كناية ثانية عن لازم عدم الغفلة وهو المؤاخذة، فهو كناية بمرتبتين. وعلى هذا الاستعمال جاءت الآية سواء جعلنا الخطاب لكلّ من يصحّ أن يُخاطب فيدخل فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم، أم جعلناه للنبيّ ابتداء وتدخل فيه أمّته.

ونفي الغفلة عن الله ليس جاريا على صريح معناه لأنّ ذلك لا يظنّه مؤمن بل هو كناية عن النهي عن استعجال العذاب للظالمين. ومنه جاء معنى التسلية للرسول صلى الله عليه وسلم.

الغفلة: الذهول، وتقدّم في قوله تعالى { وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ } [الأنعام:156].

{ **الظَّالِمُونَ** } المراد بالظلم هنا الشرك، لأنّه ظلم للنفس بإيقاعها في سبب العذاب المؤلم. وظلم لله بالاعتداء على ما يجب له من الاعتراف بالوحدانيّة. ويشمل ذلك ما كان من الظلم دون الشرك مثل ظلم النّاس بالاعتداء عليهم أو حرمانهم حقوقهم. ولذلك قال سفيان بن عيينة: هي تسلية للمظلوم وتهديد للظالم.

{ **تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ** } ارتفاعه كنظر المبهوت الخائف. أي: تشخص فيه أبصار النّاس من هول ما يرون. ومن جملة ذلك مشاهدة هول أحوال الظالمين.

الإهطاع: إسراع المشي مع مد العنق كالمتختّل، وهي هيئة الخائف.

إقناع الرأس: طأطأته من الذلّ، وهو مشتق من قنع إذا تذلّل.

{ **لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ** } في موضع الحال أيضا. و**الطَّرْفُ**: تحرك جفن العين. والمعنى: لا يرجع إليهم، أي: لا يعود إلى معتاده، أي: لا يستطيعون تحويله. فهو كناية عن هول ما شاهدوه.

{ **وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء** } تشبيه بليغ، إذ هي كالهواء في الخلو من الإدراك لشدّة الهول. والهواء في كلام العرب: الخلاء. وليس هو المعنى المصطلح عليه في علم الطب وعلم الهيئة.

{ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ [44] وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ [45] }.

{ **وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ** }

عطف على جملة { وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ } [42]، أي: تَسلَّ عنهم ولا تملل من دعوتهم وأنذرهم.

الناس: يعمّ جميع البشر. والمقصود: الكافرون بقرينة قوله { يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا }. ولك أن تجعل النّاس ناسا معهودين وهم المشركون.

{ **يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ** } منصوب على أنّه مفعول ثان لـ { أَنْذِرِ }، وفعل الإنذار يتعدّى إلى مفعول ثان على التوسّع لتضمينه معنى التحذير. وإتيان العذاب مستعمل في معنى وقوعه مجازا مرسلا.

العذاب: عذاب الآخرة، أو عذاب الدنيا الذي هُدّد به المشركون.

{ **رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ** } طلب تأخير العذاب، إن كان مرادا به عذاب الآخرة فالتأخير بمعنى تأخير الحساب، أي: يقول الذين ظلموا: أرجعنا إلى الدنيا لنجيب دعوتك. وهذا كما في قوله تعالى { رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ } [المؤمنون:100/99]، فالتأخير مستعمل في الإعادة إلى الحياة الدنيا مجازا مرسلا بعلاقة الأول.

وإن حُمل على عذاب الدنيا فالمعنى: أنّ المشركين يقولون ذلك حين يرون ابتداء العذاب فيهم. فالتأخير على هذا حقيقة. والرسل على هذا المحمل مستعمل في الواحد مجازا، والمراد به محمد صلى الله عليه وسلم.

القريب: القليل الزمن. شُبّه الزمان بالمسافة، أي: أخّرنا مقدار ما نجيب به دعوتك.

{ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ }.

افتتحت جملة الجواب بواو العطف تنبيها على معطوف عليه مقدّر هو رفض ما سألوه، حُذف إيجازا لأنّ شأن مستحقّ التوبيخ أن لا يعطى سؤله. فالتقدير: كلا، ألم تكونوا أقسمتم...

الزوال: الانتقال من المكان. وأريد به هنا الزوال من القبور إلى الحساب.

{ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ } بيان لجملة { أَقْسَمْتُمْ }. وهذا القسم قد يكون صادرا من جميع الظالمين حين كانوا في الدنيا لأنّهم كانوا يتلقّون تعاليم واحدة في الشرك يتلقّاها الخلف عن سلفهم. ويجوز أن يكون ذلك صادرا من معظم هذه الأمم أو بعضها ولكن بقيّتهم مضمرون لمعنى هذا القسم.

{ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ } يعم جميع أمم الشرك عدا الأمة الأولى منهم.

والمراد بالسكنى: الحلول، ولذلك عُدّي بحرف الظرفية خلافا لأصل فعله المتعدي بنفسه. وكان العرب يمرّون على ديار ثمود في رحلتهم إلى الشام ويحطون الرحال هنالك، ويمرّون على ديار عاد في رحلتهم إلى اليمن.

{ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ } حاصل من مشاهدة آثار العذاب من خسف وفناء استئصال.

{ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ } بأقوال المواعظ على ألسنة الرسل عليهم السلام، ووصف الأحوال الخفيّة.

وقد جمع لهم في إقامة الحجّة بين دلائل الآثار والمشاهدة، ودلائل الموعظة.

{ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ } [46].

يجوز أن يكون عطف خبر على خبر، ويجوز أن يكون حالا من { النَّاسَ }، أي: أنذرهم في حال وقوع مكرهم.

المكر: تبييت فعل السوء بالغير وإضماره. وتقدّم في قوله تعالى { وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ } [آل عمران:54].

{ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ } العنديّة إمّا عنديّة علم، أي: وفي علم الله مكرهم، فهو تعريض بالوعيد والتهديد بالمؤاخذة بسوء فعلهم، وإمّا عنديّة تكوين، وتقديره في إرادة الله، فيكون وعيدا بالجزاء على مكرهم.

{ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ } قرأ الجمهور { لِتَزُولَ } بكسر اللام وبنصب الفعل المضارع بعدها فتكون (إن) نافية ولام { لِتَزُولَ } لام الجحود، أي: وما كان مكرهم زائلة منه الجبال، وهو استخفاف بهم، أي: وما هو بالذي تزول منه الجبال. وفي هذا تعريض بأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين الذين يريد المشركون المكر بهم لا يزعزعهم مكرهم لأنّهم كالجبال الرواسي.

وقرأ الكسائي وحده (بفتح اللام الأولى) من { لَتَزُولُ } ورفع اللام الثانية على أن تكون {إنْ} مخففة من (إنّ) المؤكّدة وقد أكمل إعمالها، واللام فارقة بينها وبين النافية، فيكون الكلام إثباتا لزوال الجبال من مكرهم،

أي: هو مكر عظيم لَتزول منه الجبال لو كان لها أن تزول. وهذا من المبالغة في حصول أمر شنيع أو شديد في نوعه على نحو قوله تعالى { تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً } [مريم:90].

{ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ } [47].

تفريع على { وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ } [42]. وهذا محلّ التسلية. والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم.

وأضيف { مُخْلِفَ } إلى مفعوله الثاني وهو { وَعْدِهِ } وإن كان المفعول الأوّل { رُسُلَهُ } هو الأصل في التقديم والإضافة إليه، لأنّ الاهتمام بنفي إخلاف الوعد أشدّ، فلذلك قدم.

{ **رُسُلَهُ** } جمع مراد به النبيّ صلى الله عليه وسلم لا محالة، فهو جمع مستعمل في الواحد مجازا. وهذا تثبيت للنبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّ الله منجز له ما وعده من نصره على الكافرين به.

فأمّا وعده للرسل السابقين فذلك أمر قد تحقّق فلا يناسب أن يكون المراد.

{ **إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ** } تعليل للنهي عن حسبانه مخلف وعده.

العزّة: القدرة. والمعنى: أن موجب إخلاف الوعد منتف عن الله تعالى لأنّ إخلاف الوعد يكون إمّا عن عجز وإمّا عن عدم اعتياد الموعود به، فالعزّة تنفي الأوّل وكونه صاحب انتقام ينفي الثاني.

وهذه الجملة تذييل أيضا وبها تمّ الكلام.

{ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ [48] وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ [49] سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ [50] لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ [51] }.

استئناف لزيادة الإنذار بيوم الحساب، لأنّ في هذا تبيين بعض ما في ذلك اليوم من الأهوال.

التبديل: التغيير في شيء إمّا بتغيير صفاته، كقوله تعالى { فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ } [الفرقان:70]، وقولك: بدّلت الحلقة خاتما، وإمّا بتغيير ذاته وإزالتها بذات أخرى، كقوله تعالى { بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا } [النساء: 56]، وقوله تعالى { وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ } [سبأ:16].

تبديل الأرض والسماوات يوم القيامة: إمّا بتغيير الأوصاف التي كانت لها وإبطال النظم المعروفة فيها في الحياة الدنيا، وإمّا بإزالتها ووجدان أرض وسماوات أخرى في العالم الأخروي. وحاصل المعنى: استبدال العالم المعهود بعالم جديد.

{ **وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ** } مثل ما ذُكر في قوله تعالى { وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً }.

وضمير { بَرَزُوا } عائد إلى معلوم من السياق، أي: وبرز النّاس أو برز المشركون.

{ **الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ** } للرد على المشركين الذين أثبتوا له شركاء وزعموا أنّهم يدافعون عن أتباعهم.

التقرين: وضع اثنين في قرن، أي: حبل.

الأصفاد: جمع صِفاد بوزن كتاب، وهو القيد والغلّ.

السرابيل: جمع سربال وهو القميص.

القطران: دهن من تركيب كيمياوي قديم عند البشر يصنعونه من إغلاء شجر الأرز وشجر السرو وشجر الأُبْهُل (بضم الهمزة والهاء وبينهما موحدة ساكنة) وهو شجر من فصيلة العرعر، ومن شجر العرعر، بأن تقطّع الأخشاب وتجعل في قبة مبنية على بلاط سويّ وفي القبّة قناة إلى خارج، وتوقد النار حول تلك الأخشاب فتصعد الأبخرة منها ويسري ماء البخار في القناة فتصب في إناء آخر موضوع تحت القناة فيتجمع منه ماء أسود يعلوه زبد خاثر أسود، فالماء يعرف بالسائل والزبد يعرف بالبرقي. ويتخذ للتداوي من الجرب للإبل ولغير ذلك مما هو موصوف في كتب الطب.

وجعلت سرابيلهم من قطران لأنّه شديد الحرارة فيؤلم الجلد الواقع هو عليه، فهو لباسهم قبل دخول النار ابتداء بالعذاب حتى يقعوا في النار.

{ **إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** } مستأنفة، إمّا لتحقيق أنّ ذلك واقع كقوله تعالى { إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ } [الذاريات:6/5]، وإمّا استئناف ابتدائي، وأخّرت إلى آخر الكلام لتقديم قوله تعالى { يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْض }.

{ هَذَا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ } [52].

الإشارة إلى الكلام السابق في السورة كلّها من أين ابتدأته أصبت مراد الإشارة، والأحسن أن يكون للسورة كلّها.

البلاغ: اسم مصدر التبليغ، أي: هذا المقدار من القرآن في هذه السورة تبليغ للنّاس كلّهم.

واللام في { لِلنَّاسِ } هي المعروفة بلام التبليغ، وهي التي تدخل على اسم من يسمع قولا أو ما في معناه.

{ **وَلِيُنْذَرُوا** } عطف على كلام مقدّر يدل عليه لفظ { بَلاغٌ }. والتقدير: هذا بلاغ للنّاس ليستيقظوا من غفلتهم ولينذروا به. وقد تقدّم قريب من نظم هذه الآية في قوله تعالى { وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا } [الأنعام:92].

<u>المعنى</u>: وليعلموا ممّا ذكر فيه من الأدلّة ما الله إلّا إله واحد. وهذا قصر موصوف على صفة وهو إضافي، أي: أنّه تعالى لا يتجاوز تلك الصفة إلى صفة التعدد بالكثرة أو التثليث، كقوله تعالى { إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ } [النساء:171].

التذكّر: النظر في أدلة صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ووجوب اتّباعه، ولذلك خُصّ بذوي الألباب

تنزيلا لغيرهم منزلة من لا عقول لهم، قال تعالى { إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً } [الفرقان:44].

وقد رُتّبت صفات الآيات المشار إليها باسم الإشارة على ترتيب عقلي بحسب حصول بعضها عقب بعض؛ فابتدئ بالصفة العامة وهي حصول التبليغ، ثمّ ما يعقب حصول التبليغ من الإنذار، ثمّ ما ينشأ عنه من العلم بالوحدانيّة، لما في خلال هذه السورة من الدلائل، ثمّ بالتذكير في ما جاء به ذلك البلاغ وهو تفاصيل العلم والعمل. وهذه المراتب هي جامع حكمة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم موزّعة على من بُلّغ إليهم. ويختص المسلمون بمضمون قوله { وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ }.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحِجْر

سُمّيت هذه السورة سورة الحِجْر، ولا يُعرف لها اسم غيره. ووجه التسمية أنّ اسم الحِجر لم يذكر في غيرها. والحِجر اسم البلاد المعروفة به وهو حِجر ثمود. وثمود هم أصحاب الحِجر، وسيأتي الكلام عليهم عند قوله تعالى { وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ }.

وهي مكّيّة كلّها وحكي الاتفاق عليه.

استثناء قوله تعالى { كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ } بناء على تفسيرهم {الْمُقْتَسِمِينَ} بأهل الكتاب وهو صحيح، وتفسير { جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ } أنّهم قالوا: ما وافق منه كتابنا فهو صدق وما خالف كتابنا فهو كذب. ولم يقل ذلك إلّا يهود المدينة، وهذا لا نصحّحه كما نبيّنه عند الكلام على تلك الآية.

ولو سُلِّم هذا التفسير من جهتيه فقد يكون لأنّ اليهود سمعوا القرآن قبل هجرة النبيّ صلى الله عليه وسلم بقليل فقالوا ذلك حينئذ، على أنّه قد روي أنّ قريشا لمّا أهمّهم أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم استشاروا في أمره يهود المدينة.

وعلى تصحيح أنّها مكّيّة فقد **عدّت الرابعة والخمسين** في عدد نزول السور، نزلت بعد سورة يوسف وقبل سورة الأنعام.

ومن العجيب اختلافهم في وقت نزول هذه السورة وهي مشتملة على آية { فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ } وقد نزلت عند خروج النبيّ صلى الله عليه وسلم من دار الأرقم في آخر السنة الرابعة من بعثته.

وعدد آيها تسع وتسعون باتفاق العادين.

أغراض السورة

*/ افتتحت بالحروف المقطّعة التي فيها تعريض بالتحدي بأعجاز القرآن.

*/ التنويه بفضل القرآن وهديه.

*/ إنذار المشركين بندم يندمونه على عدم إسلامهم.

*/ توبيخهم بأنّهم شغلهم عن الهدى انغماسهم في شهواتهم.

*/ إنذارهم بالهلاك عند حلول إبّان الوعيد الذي عيّنه الله في علمه.

*/ تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم على عدم إيمان من لم يؤمنوا، وما يقولونه في شأنه وما يتورّكون بطلبه منه، وأنّ تلك عادة المكذّبين مع رسلهم.

*/ أنّهم لا تجدي فيهم الآيات والنذر لو أسعفوا بمجيء آيات حسب اقتراحهم به، وأنّ الله حافظ كتابه من كيدهم.

*/ إقامة الحجّة عليهم بعظيم صنع الله وما فيه من نعم عليهم.

*/ ذكر البعث ودلائل إمكانه.

*/ انتُقل إلى خلق نوع الإنسان وما شرّف الله به هذا النوع.

*/ قصة كفر الشيطان.

*/ ذكر قصّة إبراهيم ولوط عليهما السلام وأصحاب الأيكة وأصحاب الحِجر.

*/ ختمت بتثبيت الرّسول صلى الله عليه وسلم وانتظار ساعة النصر، وأن يصفح عن الذين يؤذونه، ويكل أمرهم إلى الله، ويشتغل بالمؤمنين، وأنّ الله كافيه أعداءه.

*/ مع ما تخلّل ذلك من الاعتراض والإدماج من ذكر خلق الجنّ، واستراقهم السمع، ووصف أحوال المتّقين، والترغيب في المغفرة، والترهيب من العذاب.

{ **الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ** } [1].

{ **آلر** } تقدّم الكلام على نظير فاتحة هذه السورة في أوّل سورة يونس. وتقدّم في أوّل سورة البقرة ما في مثل هذه الفواتح من إعلان التحدّي بإعجاز القرآن.

{ **تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ** } الإشارة إلى ما هو معروف قبل هذه السورة من مقدار ما نزل من القرآن. وهذه الإشارة لتنزيل آيات القرآن منزلة الحاضر المشاهد.

{ **الْكِتَابِ** } عَلَم بالغلبة على القرآن الذي أنْزل على محمد صلى الله عليه وسلم للهدى والإرشاد إلى الشريعة. وسُمّي كتابا لأنّهم مأمورون بكتابة ما ينزل منه لحفظه ومراجعته. والتعريف للدلالة على معنى كمال الجنس، فاقتضى أنّ تلك الآيات هي آيات كتاب بالغ منتهى كمال جنسه، أي: من كتب الشرائع.

ووقعت هذه الآية في مفتتح تهديد المكذّبين بالقرآن لقصد الإعذار إليهم باستدعائهم للنظر في دلائل صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وحقّيّة دينه.

{ **وَقُرْآنٍ** } عطف على { الْكِتَابِ } لأنّ اسم القرآن جُعل عَلَما على ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم للإعجاز والتشريع، فهو الاسم العلم لكتاب الإسلام مثل اسم التوراة والإنجيل والزبور.

فاسم القرآن أرسخ في التعريف به من الكتاب لأنّ العلم الأصلي أدخل في تعريف المُسمّى من العلم بالغلبة، فسواء نُكّر لفظ القرآن أو عُرّف باللام فهو عَلَم على كتاب الإسلام.

وابتُدئ بالمعرَّف باللام لما في التعريف من إيذان بالشهرة والوضوح وما فيه من الدلالة على معنى الكمال، ولأنّ المعرَّف هو أصل الإخبار والأوصاف، ثمّ جيء بالمنكر لأنّه أريد وصفه بالمبين، والمنكر أنسب بإجراء الأوصاف عليه، ولأنّ التنكير يدلّ على التفخيم والتعظيم، فوُزّعت الدلالتان على نكتة التعريف ونكتة التنكير.

فأمّا تقديم الكتاب على القرآن في الذكر فلأن سياق الكلام توبيخ الكافرين وتهديدهم بأنّهم سيجيء وقت يتمنّون فيه أن لو كانوا مؤمنين. فلمّا كان الكلام موجّها إلى المنكرين ناسب أن يستحضر المنزّل على محمد صلى الله عليه وسلم بعنوانه الأعم وهو كونه كتابا، لأنّهم حين جادلوا ما جادلوا إلّا في كتاب فقالوا { لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ } [الأنعام:157].

المبين: اسم الفاعل من أبان القاصر الذي هو بمعنى بان **مبالغة في ظهوره**، أي: ظهور إعجازه الذي تحقَّقه المعاندون وغيرهم. وإنّما لم نجعل المبين بمعنى أبان المتعدّي لأنّ كونه بيّنا في نفسه أشدّ في توبيخ منكريه من وصفه بأنّه مظهر لما اشتمل عليه. وسيجيء قريب من هذه الآية في أوّل سورة النمل.

{ **رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ** } [2].

استئناف ابتدائي وهو مفتتح الغرض وما قبله كالتنبيه والإنذار.

{ **رُبَمَا** } مركبة من (رُبَّ)، وهو حرف يدلّ على تنكير مدخوله ويجرّ ويختص بالأسماء. وهو بتخفيف

الباء وتشديدها في جميع الأحوال. وفيها عدّة لغات. واقترنت بها (ما) التي تكفّ عمل (رب) غالبا. وبذلك يصح دخولها على الأفعال. فإذا دخلت على الفعل فالغالب أن يراد بها التقليل. والتقليل هنا مستعمل في التهكّم والتخويف. والأكثر أن يكون فعلا ماضيا، وقد يكون مضارعا للدلالة على الاستقبال كما هنا.

والكلام خبر مستعمل في التهديد والتهويل في عدم اتباعهم دين الإسلام.

المعنى: قد يودّ الذين كفروا لو كانوا أسلموا.

{ **لَوْ** } مستعملة في التمنّي لأنّ أصلها الشرطية، إذ هي حرف امتناع لامتناع، فهي مناسبة لمعنى التمنّي الذي هو طلب الأمر الممتنع الحصول. والتزم حذف جوابها اكتفاء بدلالة المقام عليه ثم شاع حذف القول.

{ **كَانُوا** } الإتيان بفعل الكون الماضي للدلالة على أنّهم يودّون الإسلام بعد مضي وقت التمكّن من إيقاعه، وذلك عندما يُقتلون بأيدي المسلمين، وعند حضور يوم الجزاء. وقد ودّ المشركون ذلك غير مرة في الحياة الدنيا حين شاهدوا نصر المسلمين. قال تعالى { وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ } [الأنعام:27].

{ **ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** } [3].

اقتضت (رُبّ) أنّ استمرارهم على غلوائهم هو أكثر حالهم، وهو الإعراض عمّا يدعوهم إليه الإسلام من الكمال النفسي، فبإعراضهم عنه رضوا لأنفسهم بحياة الأنعام، فخوطب الرّسول صلى الله عليه وسلم بما يُعرّض لهم بذلك من أنّ حياتهم حياة أكل وشرب. قال تعالى { وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ } [محمد:12].

{ **ذَرْهُمْ** } أمر لم يُسمع له ماض في كلامهم. وهو **بمعنى الترك**. وتقدم في قوله تعالى { وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً } [الأنعام:70].

والأمر بتركهم مستعمل في لازمه وهو قلّة جدوى الحرص على إصلاحهم. وليس مستعملا في الإذن بمتاركتهم لأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم مأمور بالدوام على دعائهم، ودليله قوله تعالى { وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً - إلى قوله - وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ } [الأنعام:70] ، فما أمره بتركهم إلّا وقد أعقبه بأمره بالتذكير بالقرآن، فعُلم أنّ الترك مستعمل في عدم الرجاء في صلاحهم.

وقد حُذف متعلّق الترك لأنّ الفعل نزل منزلة ما لا يحتاج إلى متعلّق، إذ المعني به ترك الاشتغال بهم والبعد عنهم، فلذلك عُدّي فعل الترك إلى ذواتهم ليدل على اليأس منهم.

{ **يَأْكُلُوا** } مجزوم بلام الأمر محذوفة. وهو أمر للتوبيخ والتوعّد والإنذار بقرينة قوله { فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}.

التمتّع: الانتفاع بالمتاع. وقد تقدّم غير مرة، منها قوله تعالى { وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ } [الأعراف:24].

{ **وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ** } إنساؤه إيّاهم ما حقّهم أن يتذكّروه، بأن يصرفهم تطلّب ما لا ينالون عن التفكير في البعث والحياة الآخرة.

{ **الْأَمَلُ** } مصدر. وهو ظنّ حصول أمر مرغوب مع استبعاد حصوله. فهو واسطة بين الرجاء والطمع.

{ **فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** } تفرَّع على التعريض التصريح بالوعيد، وهو ممّا يُستعمل في الوعيد كثيرا حتّى صار كالحقيقة. وفيه إشارة إلى أنّ لإمهالهم أجلا معلوما كقوله تعالى { وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ } [الفرقان:42].

{ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ [4] مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ [5] }.

اعتراض تذييلي لأنّ في هذه الجملة حُكمًا يشملهم وهو حكم إمهال الأمم التي حقّ عليها الهلاك، أي: ما أهلكنا أمّة إلّا وقد متعناها زمنا وكان لهلاكها أجل ووقت محدود، فهي ممتّعة قبل حلوله، وهي مأخوذة عند إبّانه. وهذا تعريض لتهديد ووعيد مؤيَّد بتنظيرهم بالمكذّبين السالفين.

وإنّما ذُكر حال القرى التي أهلكت من قبل لتذكير هؤلاء بسنّة الله في إمهال الظالمين لئلّا يغرّهم ما هم فيه من التمتّع، فيحسبوا أنّهم أفلتوا من الوعيد.

وهذا التهديد لا يقتضي أنّ المشركين قدّر الله أجلا لهلاكهم، فإنّ الله لم يستأصلهم ولكن هدى كثيرا منهم إلى الإسلام بالسيف وأهلك سادتهم يوم بدر.

القرية: تطلق على المدينة. وتقدّمت عند قوله تعالى { أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ } [البقرة:259].

الكتاب: القدر المحدود عند الله. شُبّه بالكتاب في أنّه لا يقبل الزيادة والنقص.

{ **وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ** } في موضع الحال، وصاحب الحال { قَرْيَةٍ }.

{ **مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا** } لبيان فائدة التحديد في { وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ } أنّه عدم المجاوزة بدءا ونهاية.

تسبق أجلها: تفوته، أي: تُعدم قبل حلوله، شُبّه ذلك بالسبق.

{ **وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ** } يتأخّرون. فالسين والتاء للتأكيد. حُذف المتعلّق للعلم به، أي: وما يستأخرون عنه. وأُنّث مفردا ضمير الأمّة { أَجَلَهَا } مرة مراعاة للفظ، وجُمع مذكرا { يَسْتَأْخِرُونَ } مراعاة للمعنى.

{ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ [6] لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ [7] }.

عطف على { ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا } [3]، والمناسبة أنّ المعطوف عليها تضمّنت انهماكهم في الملذّات والآمال، وهذه تضمّنت توغّلهم في الكفر وتكذيبهم الرسالة المحمدية. والمعنى: ذرهم يكذّبون ويقولون

شتى القول من التكذيب والاستهزاء.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ } النداء للتشهير بالوصف المنادى به، واختيار الموصولية لما في الصلة من المعنى الذي جعلوه سبب التهكّم. وقرينة التهكّم قولهم { إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ }.

{ الذِّكْرُ } مصدر ذكر، إذا تلفّظ. ومصدر ذكر إذا خطر بباله شيء. فالذكر الكلام الموحى به ليُتلى ويُكرّر، فهو للتلاوة، لأنّه يُذكر ويعاد، إمّا لأنّ فيه التذكير بالله واليوم الآخر، وإمّا بمعنى أنّ به ذكرهم في الآخرين. والمراد به هنا القرآن، فتسمية القرآن ذكرا تسمية جامعة عجيبة لم يكن للعرب علم بها من قبل أن ترد في القرآن. وكذلك تسميته قرآنا لأنّه قُصد من إنزاله أن يقرأ، فصار الذكر والقرآن صنفين من أصناف الكلام الذي يلقى للنّاس لقصد وعيه وتلاوته، كما كان من أنواع الكلام الشعر والخطبة والقصة والأسطورة. ويدلّك لهذا قوله { وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ } [يس:69]، فنفى أن يكون الكتاب المنزّل على محمد صلى الله عليه وسلم شعرا، ووصفه بأنّه ذكر وقرآن.

{ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ } وإنّما وصفوه بالجنون لتوهّمهم أنّ ادعاء نزول الوحي عليه لا يصدر من عاقل، لأنّ ذلك عندهم مخالف للواقع توهّما منهم بأنّ ما لا تقبله عقولهم التي عليها غشاوة ليس من شأنه أن يقبله العقلاء فالداعي به غير عاقل.

المجنون: الذي جنّ، أي: أصابه فساد في العقل من أثر مس الجن إيّاه في اعتقادهم، فالمجنون اسم مفعول مشتقّ من الفعل المبني للمجهول وهو من الأفعال التي لم ترد إلّا مسندة للمجهول.

{ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ } استدلال على ما اقتضته الجملة قبلها باعتبار أنّ المقصود منها تكذيب الرّسول صلى الله عليه وسلم.

{ لَوْ مَا } حرف تخصيص بمنزلة (لولا) التحضيضية. ويلزم دخولها الجملة الفعلية.

الإتيان بالملائكة: حضورهم عندهم ليخبروهم بصدقه في الرسالة. وهذا كما حكى الله في الآية الأخرى بقوله تعالى { أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً } [الاسراء:92].

{ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } أي: من النّاس الذين صفتهم الصدق.

{ مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ } [8].

مستأنفة ابتدائيّة جوابا لكلامهم وشبهاتهم ومقترحاتهم. أريد منه إزالة جهالتهم إذ سألوا نزول الملائكة علامة على التصديق، لأنّهم وإن طلبوا ذلك بقصد التهكّم فهم مع ذلك معتقدون أنّ نزول الملائكة هو آية صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، فكان جوابهم مشوبا بطرف من الأسلوب الحكيم، وهو صرفهم إلى تعليمهم المَيْزَ بين آيات الرّسل وبين آيات العذاب، فأراد الله أن لا يدّخرهم هديا، وإلّا فهم أحرياء بأن لا يجابوا.

النزول: التدلّي من علو إلى سفل. والمراد به هنا انتقال الملائكة من العالم العلوي إلى العالم الأرضي نزولا مخصوصا. وهو نزولهم لتنفيذ أمر الله بعذاب يرسله على الكافرين. كما أنزلوا إلى مدائن لوط عليه السلام وليس مثل نزول جبريل عليه السلام أو غيره من الملائكة إلى الرسل عليهم السلام بالشرائع أو بالوحي.

{ **بِالْحَقِّ** } المراد هنا الشيء الحاقّ، أي: المقضي، مثل إطلاق القضاء بمعنى المقضي. وهو هنا صفة لمحذوف يعلم من المقام، أي: العذاب الحاقّ. قال تعالى { وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ } [الحج:18]، وقرينته قوله تعالى { **وَمَا كَانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ** }، أي: لا تنزل الملائكة للنّاس، غير الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، إلّا مصاحبين للعذاب الحاقّ، كما تنزّلت الملائكة على قوم لوط وهو عذاب الاستئصال.

<u>المعنى</u>: ولو تنزلت الملائكة لعُجّل للمُنزل عليهم ولما أمهلوا. ويفهم من هذا أنّ الله منظرهم، لأنّه لم يرد استئصالهم، لأنه أراد أن يكون نشر الدين بواسطتهم فأمهلهم حتّى اهتدوا ولكنه أهلك كبراءهم ومدبّريهم. ونظير هذا قوله تعالى { وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ } [الأنعام:8].

الإنظار: التأخير والتأجيل.

{ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [9].

استئناف ابتدائي لإبطال جزء من كلامهم المستهزئين به { وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ } [6]. وكان هذا الجواب من نوع القول بالموجب بتقرير إنزال الذكر على الرسول صلى الله عليه وسلم مجاراة لظاهر كلامهم. والمقصود الردّ عليهم في استهزائهم، فأكِّد الخبر بـ { إِنَّا } وضمير الفصل { نَحْنُ } مع موافقته لما في الواقع، ثم زاد ذلك ارتقاء ونكاية لهم بأنّ منزّل الذكر هو حافظه من كيد الأعداء.

وشمل حفظه؛ الحفظ من التلاشي، والحفظ من الزيادة والنقصان فيه، بأن يسّر تواتره وأسباب ذلك، وسلّمه من التبديل والتغيير حتّى حفظته الأمّة عن ظهور قلوبها من حياة النبيّ صلى الله عليه وسلم، فاستقر بين الأمّة بمسمع من النبيّ صلى الله عليه وسلم وصار حفّاظه بالغين عدد التواتر في كل مصر.

وقد حكى عياض في (المدارك): " أنّ القاضي إسماعيل بن إسحاق بن حماد المالكي البصري سئل عن السر في تطرق التغيير للكتب السالفة وسلامة القرآن من طرق التغيير له. فأجاب بأنّ الله أوكل للأحبار حفظ كتبهم فقال تعالى { بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ } [المائدة:44]، وتولى حفظ القرآن بذاته تعالى فقال { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون } ".

وفي هذا مع التنويه بشأن القرآن إغاضة للمشركين بأنّ أمر هذا الدين سيتمّ وينتشر القرآن ويبقى على مرّ الأزمان. وهذا من التحدي ليكون هذا الكلام كالدليل على أنّ القرآن منزّل من عند الله آية على صدق الرّسول صلى الله عليه وسلم لأنّه لو كان من قول البشر أو لم يكن آية لتطرقت إليه الزيادة والنقصان

ولاشتمل على الاختلاف، قال تعالى { أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً } [النساء:82].

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ [10] وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ [11] }.

هذه إبطال لاستهزائهم على طريقة التمثيل بنظرائهم من الأمم السالفة. وفي هذا التنظير تحقيق لكفرهم لأنّ كفر أولئك السالفين مُقرَّر عند الأمم ومتحدَّث به بينهم. وفيه أيضا تعريض بوعيد أمثالهم وإدماج بالكناية عن تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم.

{ **وَلَقَدْ** } التأكيد بلام القسم و(قد) لتحقيق سبق الإرسال من الله، مثل الإرسال الذي جحدوه واستعجبوه، كقوله تعالى { أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ } [يونس:2].

الشيع: جمع شيعة وهي الفرقة التي أمرها واحد، وتقدّم عند قوله تعالى { أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً } [الأنعام:65]. أي: القرون الأولى، فإنّ من الأمم من أُرسل إليهم ومن الأمم من لم يُرسل إليهم.

{ **كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** } دلّت { **كَانُوا** } على أنّه سجيّة لهم، ودلّ المضارع على تكرّره منهم، وأنّه سنّتهم. وتقديم المجرور يفيد القصر للمبالغة، لأنّهم لمّا كانوا يكثرون الاستهزاء برسولهم وصار ذلك سجية لهم نزلوا منزلة من ليس له عمل إلّا الاستهزاء بالرسول.

{ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ [12] لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ [13] }.

الجملة مستأنفة استئنافا بيانيّا ناشئا عن جملة { وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [9]، إذ قد يخطر بالبال أنّ حفظ الذكر يقتضي أن لا يكفر به من كفر. فأجيب بأنّ ذلك عقاب من الله لهم لإجرامهم وتلقّيهم الحقّ بالسخرية وعدم التدبّر، ولأجل هذا اختير لهم وصف المجرمين دون الكافرين لأنّ وصف الكفر صار لهم كاللقب لا يُشعر بمعنى التعليل.

{ **نَسْلُكُهُ** } التعبير بصيغة المضارع للدلالة على أنّ المقصود إسلاك في زمن الحال، أي: زمن نزول القرآن، ليعلم أنّ المقصود بيان تلقّي المشركين للقرآن، فلا يُتوهّم أنّ المراد بالمجرمين شيع الأولين، مع ما يفيده المضارع من الدلالة على التجديد المناسب لقوله تعالى { وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ }، أي: تجدّد لهؤلاء إبلاغ القرآن على سنّة إبلاغ الرسالات من قبلهم.

وفيه تعريض بأنّ ذلك أعذار لهم ليحلّ بهم العذاب كما حلّ بمن قبلهم.

السلك: الإدخال.

المجرمون: هم كفّار قريش. فإنّهم يسمعونه ويفهمونه إذ هو من كلامهم ويدركون خصائصه، ولكنّه لا يستقر في عقولهم استقرار تصديق به بل هم مكذبون به. وبهذا السلوك تقوم الحجّة عليهم بتبليغ القرآن

إليهم ويعاد إسماعهم إيّاه المرّة بعد المرّة.

{ **لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ** } بيان للسّلك المشبّه به أو حال من المجرمين، أي: تعيه عقولهم ولا يؤمنون به. وهذا عام مراد به من ماتوا على الكفر منهم.

{ **وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ** } معترضة بين { لا يُؤْمِنُونَ بِهِ } وجملة { وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ } [14].

والكلام تعريض بالتهديد بأن يحلّ بهم ما حلّ بالأمم الماضية معاملة للنظير بنظيره، لأنّ كون سنة الأولين مضت أمر معلوم غير مفيد ذكره، فكان الخبر مستعملا في لازمه بقرينة تعذّر الحمل على أصل الخبرية.

السنّة: العادة المألوفة. وتقدّم في قوله تعالى { قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ } [آل عمران:137].

{ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ [14] **لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ** } [15] }.

عطف على { لا يُؤْمِنُونَ بِهِ } [13]، وهو كلام جامع لإبطال جميع معاذيرهم بأنّهم لا يطلبون الدلالة على صدقه، لأنّ دلائل الصدق بيّنة، ولكنّهم ينتحلون المعاذير المختلفة.

أي: أنّهم لو اتصلوا بعالم القدس والنفوس الملكيّة ورأوا ذلك رأي العين لاعتذروا بأنّها تخيّلات وأنّهم سُحروا. ونظيره قوله تعالى { وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ } [الأنعام:7].

{ **فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ** } و(ظلّ) تدل على الكون في النهار، أي: وكان ذلك في وضح النّهار.

العروج: الصعود. ويجوز في مضارعه ضم الراء وبه القراءة وكسرها، أي: فكانوا يصعدون في ذلك الباب نهارا.

{ **لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا** }، { سُكِّرَتْ } (بضم السين وتشديد الكاف) في قراءة الجمهور، وبتخفيف الكاف في قراءة ابن كثير. وهو مبني للمجهول على القراءتين، أي: **سُدّت**. يقال: سكّر الباب بالتشديد وسكره بالتخفيف إذا سدّه. والمعنى: لجحدوا أن يكونوا رأوا شيئا.

{ **بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ** }، أي: ما رأيناه هو تخيّلات المسحور، أي: فعادوا إلى إلقاء تبعة ذلك على الرّسول صلى الله عليه وسلم بأنّه سحرهم حين سأل لهم الله أن يفتح بابا من السماء ففتحه لهم.

وتقدم الكلام على السحر وأحواله عند قوله تعالى { يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ } [البقرة:102].

{ **وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ [16] وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ [17] إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ [18]** }.

لمّا جرى الكلام السابق في شأن تكذيب المشركين برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وما تورّكوا به في ذلك، انبرى القرآن يبيّن لهم دلائل تفرّد الله تعالى بالإلهية، فذكر الدلائل الواضحة من خلق السماوات والأرض، ثم أعقبها بدلائل إمكان البعث من خلق الحياة والموت وانقراض أمم وخلفها بأخرى في قوله تعالى { وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ } [23]. وصادف ذلك مناسبة ذكر فتح أبواب السماء في تصوير غلوائهم بعنادهم، فكان الانتقال إليه تخلّصا بديعا. وفيه ضرب من الاستدلال على مكابرتهم فإنّهم لو أرادوا الحقّ لكان لهم في دلالة ما هو منهم غنية عن تطلب خوارق العادات.

{ **وَلَقَدْ** } افتُتح الكلام بلام القسم وحرف التحقيق تنزيلا للمخاطبين الذاهلين عن الاستدلال بذلك منزلة المتردّد فأكِّد لهم الكلام بمؤكِّدين. ومرجع التأكيد إلى تحقيق الاستدلال وإلى الإلجاء إلى الإقرار بذلك.

البروج: جمع بُرج (بضم الباء)، وحقيقته البناء الكبير المتّخذ للسكنى أو للتحصّن. وهو يرادف القصر، قال تعالى { وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ } [النساء:78].

وأطلق البرج على بقعة معيّنة من سمت طائفة من النجوم غير السيّارة وتسمّى (النجوم الثوابت) متجمّع بعضها بقرب بعض على أبعاد بينها لا تتغيّر فيما يشاهد من الجو، فتلك الطائفة تكون بشكل واحد يشابه نقطا لو خططت بينها خطوط لخرج منها شبه صورة حيوان أو آلة سمّوا باسمها تلك النجوم المشابهة لهيئتها وهي واقعة في خط سير الشمس. وقد سمّاها الأقدمون من علماء التوقيت بما يرادف معنى الدار أو المكان. وسمّاها العرب بروجا ودارات على سبيل الاستعارة المجعولة سببا لوضع الاسم، تخيّلوا أنّها منازل للشمس لأنّهم وقّتوا بجهتها سمت موقع الشمس من قبّة الجو نهارا فيما يخيّل للناظر أنّ الشمس تسير في شبه قوس الدائرة. وجعلوها اثني عشر مكانا بعدد شهور السنة الشمسية وما هي في الحقيقة إلّا سموت لجهات تقابل كل جهة منها الأرض من جهة وراء الشمس مدة معيّنة. ثم إذا انتقل موقع الأرض من مدارها كل شهر من السنة تتغيّر الجهة المقابلة لها. فبما كان لها من النظام تسنّى أن تُجعل علامات لمواقيت حلول الفصول الأربعة وحلول الأشهر الاثني عشر، فهم ضبطوا لتلك العلامات حدودا وهميّة عيّنوا مكانها في الليل من جهة موقع الشمس في النّهار وأعادوا رصدها يوما فيوما. وكلما مضت مدّة شهر من السنة ضبطوا للشهر الذي يليه علامات في الجهة المقابلة لموقع الشمس في تلك المدّة. وهكذا، حتّى رأوا بعد اثني عشر شهرا أنّهم قد رجعوا إلى مقابلة الجهة التي ابتدأوا منها فجعلوا ذلك حولا كاملا.

وتلك المسافة التي تخال الشمس قد اجتازتها في مدة السنة سموها دائرة البروج أو منطقة البروج.

وللتمييز بين تلك الطوائف من النجوم جعلوا لها أسماء الأشياء التي شبهوها بها وأضافوا البرج إليها.

وهي على هذا الترتيب ابتداء من برج مدخل فصل الربيع: الحمل، الثور، الجوزاء، السرطان، الأسد، السنبلة، الميزان، العقرب، القوس، الجدي، الدلو، الحوت.

وأوّل من رسم هذه الرسوم الكلدانيون، ثم انتقل علمهم إلى بقية الأمم، ومنهم العرب فعرفوها وضبطوها وسمّوها بلغتهم.

ولذلك أقام القرآن الاستدلال بالبروج على عظيم قدرته وانفراده بالخلق لأنّهم قد عرفوا دقائقها ونظامها الذي تهيّأت به لأن تكون وسيلة ضبط المواقيت بحيث لا تخلف ملاحظة راصدها. وما خلقها الله بتلك الحالة إلّا ليجعلها صالحة لضبط المواقيت كما قال تعالى { لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ } [يونس:5].

ثم ارتقى في الاستدلال بكون هذه البروج العظيمة الصنع قد جُعلت بأشكال تقع موقع الحسن في الأنظار فكانت زينة للناظرين يتمتعون بمشاهدتها في الليل فكانت الفوائد منها عديدة.

{ **وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ** } إدماج للتعليم في أثناء الاستدلال. وفيه التنويه بعصمة الوحي من أن يتطرّقه الزيادة والنقص، بأنّ العوالم التي يصدر منها الوحي وينتقل فيها محفوظة من العناصر الخبيثة. فهو يرتبط بقوله تعالى { وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [9].

وكانوا يقولون: محمد كاهن؛ ولذلك قال الوليد بن المغيرة لمّا حاورهم فيما أعدّوا من الاعتذار لوفود العرب في موسم الحجّ إذا سألوهم عن هذا الرجل الذي ادّعى النبوّة، وقد عرضوا عليه أن يقولوا: هو كاهن، فكان من كلام الوليد أن قال: "... ولا والله ما هو بكاهن لقد رأينا الكهّان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه ". وكان الكهّان يزعمون أنّ لهم شياطين تأتيهم بخبر السماء، وهم كاذبون ويتفاوتون في الكذب.

والمراد بالحفظ من الشياطين الحفظ من استقرارها وتمكّنها من السماوات.

الشيطان: تقدّم في سورة البقرة.

الرجيم: المُحقَّر، لأنّ العرب كانوا إذا احتقروا أحدا حصبوه بالحصباء. كقوله تعالى { قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ } [34]، أي: ذميم محقّر. و**الرُجام** (بضم الراء) الحجارة. قيل، هي أصل الاشتقاق. ويحتمل العكس. وقد كان العرب يرجمون قبر أبي رِغال الثقفي الذي كان دليل جيش الحبشة إلى مكة. قال جرير:

إذا مات الفرزدق فارجموه ... كما ترجمون قبر أبي رِغال

والرجم عادة قديمة حكاها القرآن عن قوم نوح { قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ } [الشعراء:116]. وعن أبي إبراهيم { لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ } [مريم:46]. وقال قوم شعيب { وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ } [هود:91].

{ **إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ** } الاستماع بخفية من المتحدّث، كأنّ المستمع يسرق من المتكلّم كلامه الذي يخفيه عنه.

{ **فَأَتْبَعَهُ** } أي: تبعه. والهمزة زائدة. وتقدّم عند قوله { فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ } [الأعراف:175].

المبين: الظاهر البيّن.

وفيه تعليم لهم بأنّ الشهب التي يشاهدونها متساقطة في السماء هي رجوم للشياطين المسترقة طردا لها عن استراق السمع كاملا، فقد عرفوا ذلك من عهد الجاهلية ولم يعرفوا سببه.

والمقصود من منع الشياطين من ذلك منعهم الاطلاع على ما أراد الله عدم اطّلاعهم عليه من أمر التكوين ونحوه، ممّا لو ألقته الشياطين في علم أوليائهم لكان ذلك فسادا في الأرض. وربّما استدرج الله الشياطين وأولياءهم فلم يمنع الشياطين من استراق شيء قليل يلقونه إلى الكهّان، فلمّا أراد الله عصمة الوحي منعهم من ذلك بتاتا فجعل للشهب قوّة خرق التموّجات التي تتلقّى منها الشياطين المسترقون السمع وتمزيق تلك التدرّجات الموصوفة في الحديث الصحيح.

ثم إنّ ظاهر الآية لا يقتضي أكثر من تحكّك مُسترق السمع على السماوات لتحصيل انكشافات جُبِل المسترقُ على الحرص على تحصيلها. وفي آية الشعراء ما يقتضي أنّ هذا المسترق يلقي ما تلقّاه من الانكشافات إلى غيره لقوله تعالى { يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ } [الشعراء:223].

ومقتضى تكوين الشهب للرجم أنّ هذا الاستراق قد مُنع عن الشياطين.

وفي سورة الجن دلالة على أنّه منع بعد البعثة ونزول القرآن إحكاما لحفظ الوحي من أن يلتبس على النّاس بالكهانة، فيكون ما اقتضاه حديث عائشة وأبي هريرة - رضي الله عنهما - من استراق الجنّ السمع وصفًا للكهانة السابقة. ويكون قوله صلى الله عليه وسلم: **" ليسوا بشيء "** وصفا لآخر أمرهم.

وقد ثبت بالكتاب والسنة وجود مخلوقات تسمّى بالجنّ وبالشياطين من قوله تعالى { وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ } [صّ:37]. والأكثر أن يُخصّ باسم الجنّ نوع لا يخالط خواطر البشر، ويُخصّ باسم الشياطين نوع دأبه الوسوسة في عقول البشر بإلقاء الخواطر الفاسدة.

وظواهر الأخبار الصحيحة من الكتاب والسنّة تدلّ على أنّ هذه المخلوقات أصناف، وأنّها سابحة في الأجواء وفي طبقات مما وراء الهواء وتتصل بالأرض، وأنّ منها أصنافا لها اتصال بالنفوس البشرية دون الأجسام وهو الوسواس ولا يخلو منه البشر.

وبعض ظواهر الأخبار من السنّة تقتضي أنّ صنفا له اتصال بنفوس ذات استعداد خاص لاستفادة معرفة الواقعات قبل وقوعها أو الواقعات التي يبعد في مجاري العادات بلوغ وقوعها، فتسبق بعض النفوس بمعرفتها قبل بلوغها المعتاد. وهذه النفوس هي نفوس الكهّان وأهل الشعوذة، وهذا الصنف من المخلوقات من الجنّ أو الشياطين هو المسمّى بـ **(مُسترق السمع)** وهو المستثنى بقوله تعالى { إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ }. فهذا الصنف إذا اتصل بتلك النفوس المستعدّة للاختلاط به حجز بعض قواها العقلية عن بعض فأكسب البعض المحجوز عنه ازدياد تأثير في وظائفه بما يرتدّ عليه من جراء تفرّغ القوة الذهنية من الاشتغال بمزاحمه إلى التوجّه إليه وحده، فتكُسبه قدرة على تجاوز الحدّ المعتاد لأمثاله، فيخترق الحدود المتعارفة لأمثاله اختراقا ما، فربما خلصت إليه تموّجات هي أوساط بين تموّجات كرة الهواء و تموجات الطبقات العليا المجاورة لها، مما وراء الكرة الهوائيّة.

ولنفرض أنّ هذه الطبقة هي المسمّاة بالسماء الدنيا وأنّ هذه التموجات هي تموجات الأثير فإنها تحفظ الأصوات مثلا. ثم هذه التموّجات التي تخلص إلى عقول أهل هذه النفوس المستعدّة لها تخلص إليها مقطّعة مجملة فيستعين أصحاب تلك النفوس على تأليفها وتأويلها بما في طباعهم من ذكاء، ويخبرون بحاصل ما استخلصوه من بين ما تلقّفوه وما ألفوه وما أوّلوه. وهم في مصادفة بعض الصدق متفاوتون على مقدار تفاوتهم في حدّة الذكاء وصفاء الفهم والمقارنة بين الأشياء، وعلى مقدار دربتهم ورسوخهم في معالجة مهنتهم وتقادم عهدهم فيها. فهؤلاء هم الكهّان. وكانوا كثيرين بين قبائل العرب. وتختلف سمعتهم بين أقوامهم بمقدار مصادفتهم لما في عقول أقوامهم. ولا شكّ أنّ لسذاجة عقول القوم أثرا ما، وكان أقوامهم يعدّون المعمّرين منهم أقرب إلى الإصابة فيما ينبئون به، وهم بفرط فطنتهم واستغفالهم البله من مريديهم لا يُصدرون إلّا كلاما مجملا موجّها قابلا للتأويل بعدة احتمالات، بحيث لا يؤخذون بالتكذيب الصريح، فيكلون تأويل كلماتهم إلى ما يحدث للنّاس في مثل الأغراض الصادرة فيها تلك الكلمات، وكلامهم خلو من الإرشاد والحقائق الصالحة.

وهم بحيلتهم واطّلاعهم على ميادين النفوس ومؤثراتها التزموا أن يصوغوا كلامهم الذي يخبرون به في صيغة خاصة ملتزَما فيها فقرات قصيرة مختتمة بأسجاع، لأنّ النّاس يحسبون مزاوجة الفقرة لأختها دليلا على مصادفتها الحقّ والواقع، وأنّها أمارة صدق. وكانوا في الغالب يلوذون بالعزلة، ويكثرون النظر في النجوم ليلا لتتفرّغ أذهانهم. فهذا حال الكهّان وهو قائم على أساس الدجل والحيلة والشعوذة مع الاستعانة باستعداد خاص في النفس وقوة تخترق الحواجز المألوفة.

وهذا يفسّره ما في كتاب الأدب من صحيح البخاري عن عائشة: أنّ ناسا سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكهّان فقال: **" ليسوا بشيء** ، فقيل: يا رسول الله فإنّهم يحدّثون أحيانا بالشيء يكون حقًّا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" تلك الكلمة من الحقّ يخطفها الجنّيّ فيقرّها في أذن وليّه قَرّ الدجاجة** (قرّت الدجاجة تقرّ قرّا: أخف صوتها) **فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة ".**

وما في تفسير سورة الحجر من صحيح البخاري من حديث سفيان عن أبي هريرة قال نبيّ الله صلى الله عليه وسلم: **" إذا قضى الله الأمر في السماء وضربت الملائكة بأجنحتها خُضعانا ... }.**

وهذه الظواهر كلّها لا تقتضي إلّا إدراك المسموعات من كلام الملائكة. وعبر عنه بالسمع لأنه يؤول إلى الخبر، فالذي يحصل لمسترق السمع شعور ما تتوجه الملائكة لتسخيره، والذي يحصل للكاهن كذلك. والمآل أن الكاهن يخبر به فيؤول إلى مسموع.

{ **وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ** [19] **وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ** [20] }.

انتقال من الاستدلال بالآيات السماويّة إلى الاستدلال بالآيات الأرضيّة لمناسبة المضادة.

{ **مَدَدْنَاهَا / رَوَاسِيَ** } تقدّم معنى اللفظتين في [الرعد:3]

الموزون: مستعار للمقدّر المضبوط.

{ **معايش** } جمع معيشة. وبعد الألف ياء تحتيّة لا همزة كما تقدّم في صدر سورة الأعراف. أي: جعلنا لكم أيّها المخاطبين في الأرض معايش.

{ **وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ** } وجعلنا في الأرض معايش لمن لستم له برازقين، أي: لمن لستم له بمطعمين. وهي الموجودات التي تقتات من نبات الأرض ولا يعقلها النّاس.

{ **وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ** } [21].

هذا اعتراض ناشئ عن قوله تعالى { وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ } [19]، وهو تذييل.

{ **مِنْ شَيْءٍ** } ما هو نافع للنّاس بقرينة قوله { وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ }. وفي الكلام حذف الصفة.

{ **خَزَائِنُهُ** } شُبّهت هيئة إيجاد الأشياء النافعة بهيئة إخراج المخزونات من الخزائن على طريقة التمثيليّة المَكنية. وتقدّم عند قوله تعالى { قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ } [الأنعام:50].

{ **وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ** } أطلق الإنزالَ على تمكين النّاس من الأمور التي خلقها الله لنفعهم، إطلاقا مجازيا، باعتبار أنّ تصاريف الأمور كائن في العوالم العلويّة، وهذا كقوله تعالى { وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ } [الزمر:6].

{ **بِقَدَرٍ** } (بفتح الدال): التقدير. وتقدّم عند قوله تعالى { فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا } [الرعد:17].

{ **مَعْلُومٍ** } أنّه معلوم تقديره عند الله تعالى.

{ **وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ** } [22].

انتقال من الاستدلال بظواهر السماء وظواهر الأرض إلى الاستدلال بظواهر كرة الهواء الواقعة بين السماء والأرض، وذلك للاستدلال بفعل الرياح والمنّة بما فيها من الفوائد.

الإرسال: مجاز في نقل الشيء من مكان إلى مكان. وهذا يدلّ على أنّ الرياح مستمرّة الهبوب في الكرة الهوائية. وهي تظهر في مكان آتية إليه من مكان آخر وهكذا...

{ **لَوَاقِحَ** } حال من { الرِّيَاحَ }. صالح لأن يكون جمع لاقح وهي الناقة الحبلى. واستُعمل هنا استعارة

للريح المشتملة على الرطوبة التي تكون سببا في نزول المطر، كما استُعمل العقيم ضد اللاقح في قوله تعالى

{ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ } [الذاريات:41].

وصالح لأنّ يكون جمع ملقّح وهو الذي يجعل غيره لاقحا. أي: أنّ الرياح تلقّح الشجر ذي الثمرة بأن تنقل إلى نَوْره غبرة دقيقة من نور الشجر الذكر فتصلح ثمرته أو تثبت، وبدون ذلك لا تثبت أو لا تصلح. وهذا هو **الإبّار**. وبعضه لا يحصل إلّا بتعليق الطلع الذكر على الشجرة المثمرة. وبعضه يكتفي منه بغرس شجرة ذكر في خلال شجر الثمر.

ومن بلاغه الآية إيراد هذا الوصف لإفادة كلا العملين اللذين تعملهما الرياح وقد فُسِّرت الآية بهما.

واقتصر جمهور المفسّرين على أنها لواقح السحاب بالمطر.

{ **أَسْقَيْنَاكُمُوهُ** } بمعنى جعلناه سقيا، فالهمزة فيه للجعل. وكثر إطلاق أسقى بمعنى سقى.

{ **وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ** } أي: وما أنتم له بمحافظين ومنشئين عندما تريدون.

{ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ } [23].

لمّا جرى ذكر إنزال المطر وكان مما يسبق إلى الأذهان عند ذكر المطر إحياء الأرض به ناسب أن يُذكر بعده جنس الإحياء كلّه لما فيه من غرض الاستدلال على الغافلين عن الوحدانيّة، ولأنّ فيه دليلا على إمكان البعث. والمقصود ذكر الإحياء ولذلك قُدّم، وذكر الإماتة للتكميل.

{ **نُحْيِي** } المراد تكوين الموجودات التي فيها الحياة، وإحياؤها أيضا بعد فناء الأجسام. وقد أدمج في الاستدلال على تفرّد الله تعالى بالتصرّف إثبات البعث ودفع استبعاد وقوعه واستحالته. ولمّا كان المشركون منكرين نوعا من الإحياء كان توكيد الخبر مستعملا في معنييه الحقيقي والتنزيلي.

{ **وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ** } معنى الإرث هنا البقاء بعد الموجودات، تشبيها بالإرث، وهو أخذ ما يتركه الميّت من أرض وغيرها.

{ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ [24] وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ [25] }.

لمّا ذُكر الإحياء والإماتة وكان الإحياء (بكسر الهمزة) يُذكّر بالأحياء (بفتحها)، وكانت الإماتة تذكّر بالأموات الماضين تُخلّص من الاستدلال بالإحياء والإماتة على عظم القدرة إلى الاستدلال بلازم ذلك على عظم علم الله، وهو علمه بالأمم البائدة وعلم الأمم الحاضرة.

{ **الْمُسْتَقْدِمِينَ** } الذين تقدّموا الأحياء إلى الموت أو إلى الآخرة، فالتقدّم فيه بمعنى الماضي.

{ **الْمُسْتَأْخِرِينَ** } الذين تأخّروا وهم بعد انقراض غيرهم إلى أجل يأتي.
والسين والتاء في الوصفين للتأكيد مثل استجاب، ولكن قولهم استقدم بمعنى تقدّم على خلاف القياس لأنّ فعله رباعي. وقد تقدّم عند قوله تعالى { لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ } [الأعراف:34].
{ **وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ** } نتيجة هذه الأدلة من قوله تعالى { وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ } [23] فإنّ الذي يحيي الحياة الأولى قادر على الحياة الثانية بالأولى، والذي قدّر الموت ما قدّره عبثا. قال تعالى { الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ } [الملك:2].
وقد أُكّدت الجملة بحرف التوكيد وبضمير الفصل لردّ إنكارهم الشديد للحشر. وقد أسند الحشر إلى الله بعنوان كونه ربّ محمد صلى الله عليه وسلم، تنويها بشأن النبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّهم كذّبوه في الخبر عن البعث.
{ **إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ** } للإشارة إلى حكمة الإحياء والإماتة، تعليلا لجملة { وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ } لأنّ شأن (**إِنَّ**) إذا جاءت في غير معنى الرد على المنكِر أن تفيد معنى التعليل والربط بما قبلها.
الحكيم: الموصوف بالحكمة. وتقدّم عند قوله تعالى { يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ } [البقرة:269].
العليم: الموصوف بالعلم العام، أي: المحيط، وتقدّم عند قوله { وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا } [آل عمران:140].

{ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ [26] وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ [27]** }.
تكملة لإقامة الدليل على انفراده تعالى بخلق أجناس العوالم وما فيها. ومنه يُتخلّص إلى التذكير بعداوة الشيطان للبشر ليأخذوا حذرهم منه ويحاسبوا أنفسهم على ما يخامرها من وسواسه بما يرديهم. جاء بمناسبة ذكر الإحياء والإماتة فإنّ أهم الإحياء هو إيجاد النوع الإنساني. ففي هذا الخبر استدلال على عظيم القدرة والحكمة وعلى إمكان البعث، وموعظة وذكرى. والمراد بالإنسان آدم عليه السلام .
الصلصال: الطين الذي يُترك حتّى ييبس فإذا يبس فهو صلصال وهو شبه الفخّار، إلّا أنّ الفخّار هو ما يبس بالطبخ بالنّار. قال تعالى { خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ } [الرحمن:14].
الحمأ: الطين إذا اسودّ وكُرهت رائحته. وهو صفة لـ { صَلْصَالٍ }.
المسنون: صفة ثانية، الذي طالت مدّة مكثه، وهو اسم مفعول من فعل سنّهُ إذا تركه مدة طويلة تشبه السنة. وأحسب أن فعل (سنّ) بمعنى ترك شيئا مدة طويلة. وقد تقدّم عند قوله تعالى { لَمْ يَتَسَنَّهْ } [البقرة:259].
والمقصود من ذكر هذه الأشياء التنبيه على عجيب صنع الله تعالى إذ أخرج من هذه الحالة المهينة نوعا هو سيد أنواع عالم المادة ذات الحياة. وفيه إشارة إلى أنّ ماهية الحياة تتقوّم من الترابية والرطوبة

والتعفّن، وهو يعطي حرارة ضعيفة. ولذلك تنشأ في الأجرام المتعفّنة حيوانات مثل الدود، ولذلك أيضا تنشأ في الأمزجة المتعفّنة الحمّى. وفيه إشارة إلى الأطوار التي مرت على مادة خلق الإنسان.

{ **وَلَقَدْ** } توكيد الجملة بلام القسم وبحرف (قد) لزيادة التحقّق، تنبيها على أهميّة هذا الخلق وأنّه بهذه الصفة.

{ **وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ** } إدماج وتمهيد إلى بيان نشأة العداوة بين آدم وجند إبليس.

{ **مِنْ قَبْلُ** } تعليم أنّ خلق الجانّ أسبق لأنّه مخلوق من عنصر الحرارة والحرارة أسبق من الرطوبة.

{ **السَّمُومِ** } (بفتح السين): الريح الحارة. فالجنّ مخلوق من الناريّة والهوائيّة ليحصل الاعتدال في الحرارة فيقبل الحياة الخاصة اللائقة بخلقة الجنّ، فكما كوّنَ الله الحمأةَ الصلصالَ المسنونَ لخلق الإنسان، كوّنَ ريحا حارة وجعل منها الجنّ. فهو مكوّن من حرارة زائدة على مقدار حرارة الإنسان ومن تهوية قوية. والحكمة كلّها في إتقان المزج والتركيب.

{ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ [28] فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ [29] فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ [30] إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ [31] قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ [32] قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ [33] قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ [34] وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ [35] }.

عطف قصّة على قصّة. وقد تقدّم الكلام في نظائره في [البقرة:30] وفي [الأعراف:12].

البشر: مرادف الإنسان، أي: أنّي خالق إنسانا. وقد فهم الملائكة الحقيقة بما ألقى الله فيهم من العلم، أو أنّ الله وصف لهم حقيقة الإنسان بالمعنى الذي عُبّر عنه في القرآن.

وإنّما ذُكر للملائكة المادة التي منها خلق البشر ليعلموا أنّ شرف الموجودات بمزاياها لا بمادة تركيبها.

التسوية: تعديل ذات الشيء. وقد أطلقت هنا على اعتدال العناصر فيه واكتمالها بحيث صارت قابلة لنفخ الروح.

النفخ: حقيقته إخراج الهواء مضغوطا بين الشفتين مضمومتين كالصفير، واستعير هنا لوضع قوّة لطيفة السريان قويّة التأثير دفعة واحدة. وليس ثمة نفخ ولا منفوخ.

وإسناد النفخ وإضافة الروح إلى ضمير اسم الجلالة تنويه بهذا المخلوق. وفيه إيماء إلى أنّ حقائق العناصر عند الله تعالى لا تتفاضل إلّا بتفاضل آثارها وأعمالها. وأنّ كراهة الذات أو الرائحة إنّما هو تابع لما يلائم الإدراك الحسّي أو ينافره تبعا لطباع الأمزجة أو لإلف العادة، ولا يؤبه في علم الله تعالى. وهذا هو ضابط وصف القذارة والنزاهة عند البشر. ألا ترى أنّ المنيّ يُستقذر في الحس البشري على أنّ منه

تكوين نوعه، ومنه تخلّقت أفاضل البشر. وكذلك المسك طيب في الحس البشري لملاءمة رائحته للشم وما هو إلّا غدة من خارجات بعض أنواع الغزال.

وهذا تأصيل لكون عالم الحقائق غير خاضع لعالم الأوهام. وفي الحديث: " **لَخُلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك** ". وفيه: " **لا يُكْلَم أحد في سبيل الله، والله أعلم بمن يُكْلَم في سبيله، إلّا جاء يوم القيامة ودمه يَشْخُب، اللونُ لونُ الدم والريحُ ريحُ المسك** ".

{ **فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** } هو الوقوع لقصد التعظيم. كقوله تعالى { وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً } [يوسف:100]. وهذا تمثيل لتعظيم يناسب أحوال الملائكة وأشكالهم، تقديرا لبديع الصنع والصلاحية لمختلف الأحوال الدال على تمام علم الله وعظيم قدرته.

وأمر الملائكة بالسجود لا ينافي تحريم بالسجود في الإسلام لغير الله من وجوه:

أحدهما: أنّ ذلك المنع لسد ذريعة الإشراك والملائكة معصومون من تطرق ذلك إليهم.

ثانيها: أنّ شريعة الإسلام امتازت بنهاية مبالغ الحقّ والصلاح، فجاءت بما لم تجئ به الشرائع السالفة، لأنّ الله أراد بلوغ أتباعها أوجّ الكمال في المدارك ولم يكن السجود من قبل محظورا فقد سجد يعقوب وأبناؤه ليوسف عليهم السلام وكانوا أهل إيمان.

ثالثها: أنّ هذا إخبار عن أحوال العالم العلوي، ولا تقاس أحكامه على تكاليف عالم الدنيا.

{ **فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ** } عنوان على طاعة الملائكة. و{ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ } تأكيد على تأكيد.

{ **إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ** } تقدّم القول على نظيره في [البقرة:34] و[الأعراف:11].

وقوله هنا { أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ } بيان لقوله في سورة البقرة { وَاسْتَكْبَرَ }، لأنّه أبى أن يسجد وأن يساوي الملائكة في الرضى بالسجود. فدلّ هذا على أنّه عصى وأنّه ترفّع عن متابعة غيره.

{ **مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ** } استفهام توبيخ.

{ **لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ** } جحود. وتقدّم أنه أشدّ في النفي من (لا أسجد) عند تفسير قوله تعالى { مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ } [المائدة:116].

{ **لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ** } تأييد لإبايته من السجود بأنّ المخلوق من ذلك الطين حقير ذميم لا يستأهل السجود. وهذا ضلال نشأ عن تحكيم الأوهام بإعطاء الشيء حكم ما منه التكوين للشيء الكائن.

{ **قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا** } عُطفت جملة أمره بالخروج بالفاء لأنّ ذلك الأمر تفرّع على جوابه المُنبئ عن كفره وعدم تأهّله للبقاء في السماوات.

{ **مِنْهَا** } الضميرعائد إلى السماوات وإن لم تذكر لدلالة ذكر الملائكة عليها. وقيل: عائد إلى الجنة. وقد اختلف علماؤنا في أنّها موجودة.

{ **فَإِنَّكَ رَجِيمٌ** } الفاء دالة على سبب إخراجه من السماوات. و (إن) مؤذنة بالتعليل. وذلك إيماء إلى سبب

إخراجه من عوالم القدس.

الرجيم: المطرود. وهو كناية عن الحقارة. وتقدّم في قوله تعالى { وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ } [17].

{ **اللَّعْنَةَ** }: السب بالطرد.

{ **إِلَى يَوْمِ الدِّينِ** } هو يوم الجزاء، غاية للعن استعمالا في معنى الدوام، كأنّه قيل أبدا. وليس ذلك بمقتضي أنّ اللعنة تنتهي يوم القيامة ويخلفها ضدّها، ولكن المراد أنّ اللعنة عليه في الدنيا إلى أن يلاقي جزاء عمله فذلك يومئذ أشد من اللعنة.

{ **قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ** [36] **قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ** [37] **إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ** [38] }.

سؤاله النظرة بعد إعلامه بأنّه معلون إلى يوم الدين فاض به خبث جبلّته البالغ نهاية الخباثة التي لا يشفيها إلّا دوام الإفساد في هذا العالم، فكانت هذه الرغبة مُجلبة لدوام شقوته. وخاطب الله بصفة الربوبية تخضعا وحثا على الإجابة.

{ **فَأَنْظِرْنِي** } فاء التفريع. فُرّع السؤال عن الإخراج، ووُسّط النداء بين ذلك.

وذُكرت هذه الحالة من أوصاف نفسيّته بعثا لكراهيّته في نفوس البشر الذين يرون أنّ حقّ النفس الأبيّة أن تأنف من الحياة الذميمة المحقّرة، وذلك شأن العرب، فإذا علموا هذا الحرص من حال إبليس أبغضوه واحتقروه فلم يرضوا بكل عمل يُنسب إليه.

الإنظار: الإمهال والتأخير. وتقدّم في قوله تعالى { فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ } [البقرة:280]. والمراد تأخير إماتته.

{ **يَوْمِ يُبْعَثُونَ** } عُبّر به عن يوم الدين تمهيدا لما عقد عليه العزم من إغواء البشر، فأراد الإنظار إلى آخر مدة وجود نوع الإنسان في الدنيا. وضمير { يُبْعَثُونَ } للبشر المعلومين من تركيب خلق آدم عليه السلام، وأنّه يكون له نسل ولا سيما حيث خلقت زوجه حينئذ، فإنّ ذلك يقتضي أن يكون منهما نسل.

{ **يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ** } تفنّنا وتفاديا من إعادة اللفظ قضاء لحق حسن النظم، ولما فيه من التعليم بأنّ الله يعلم ذلك الأجل، فالمراد: المعلوم لدينا. وفيه تعريض بأنّ من لم يؤمنوا بذلك اليوم من الناس لا يُعبأ بهم.

وهذا الإنظار رمز إلهي على أنّ ناموس الشرّ لا ينقضي من عالم الحياة الدنيا وأنّ نظامها قائم على التصارع بين الخير والشر والأخيار والأشرار، قال تعالى { بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ } [الانبياء:18].

{ **قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** } [39].

{ **بِمَا أَغْوَيْتَنِي** } الباء للسببية، و(ما) موصولة، إشارة إلى غواية يعلمها الله وهي التي جبله عليها، فلذلك اختير لحكايتها طريقة الموصوليّة.

{ **لَأُزَيِّنَنَّ** } لام قسم محذوف مراد بها التأكيد، وهو القسم المصرّح به في قوله تعالى { قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } [صّ:82].

التزيين: التحسين، أي: جعل الشيء زيْنا، أي: حسنا. وحُذف المفعول لظهوره من المقام، أي: لأزيننّ لهم الشرّ والسيّئات فيرونها حسنة، وأزيّن لهم الإقبال على الملاذ التي تشغلهم عن الواجبات.

الإغواء: جعلهم غاوين. والغَواية (بفتح الغين): الضلال. والمعنى: ولأضلّنّهم.

{ **فِي الْأَرْضِ** } لأنّها أوّل ما يخطر بباله عند خطور الغواية لاقتران الغواية بالنزول إلى الأرض الذي دلّ عليه قوله تعالى { فَاخْرُجْ مِنْهَا } [34]، أي: اخرج من الجنّة إلى الأرض كما جاء في قوله تعالى { وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ } [البقرة:36].

{ **لَهُمْ / لَأُغْوِيَنَّهُمْ / مِنْهُمُ** } الضمائر لبني آدم، لأنّه قد علم علما ألقي في وجدانه بأنّ آدم عليه السلام ستكون له ذرّيّة.

{ **إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** } (بفتح اللام) عند نافع وحمزة وعاصم والكسائي على معنى الذين أخلصتهم وطهّرتهم. وقرئ (بكسر اللام) لابن كثير وابن عامر وأبي عمرو، أي: الذين أخلصوا لك في العمل.

{ **قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ [41] إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ [42] وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ [43] لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ [44]** } .

{ **قَالَ هَذَا** } الإشارة إلى غير مشاهد تنزيلا له منزلة المشاهد، وتنزيلا للمسموع منزلة المرئي. وهو مع ذلك غير مذكور لقصد التشويق إلى سماعه عند ذكره. فاسم الإشارة هنا بمنزلة ضمير الشأن، كما يكتب في العهود والعقود: هذا ما قاضى عليه فلان فلانا أنّه كيت و كيت.

ويجوز أن تكون الإشارة إلى الاستثناء الذي سبق في حكاية كلام إبليس من قوله { إِلَّا عِبَادَكَ } [40]، لتضمّنه أنّه لا يستطيع غواية العباد الذين أخلصهم الله للخير، فتكون جملة {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ} مستأنفة أفادت نفي سلطانه.

الصراط: مستعار للعمل الذي يقصد منه عامله فائدة. شُبّه بالطريق الموصل إلى المكان المطلوب.

{ **مُسْتَقِيمٌ** } نعت لـ { صِرَاطٌ }، أي: لا اعوجاج فيه. واستعيرت الاستقامة لملازمة الحالة الكاملة.
{ **عَلَيَّ** } مستعملة في الوجوب المجازي، وهو الفعل الدائم الذي لا يتخلّف كقوله تعالى { إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى} [الليل:12]، أي: أنّا التزمنا الهدى لا نحيد عنه لأنّه مقتضى الحكمة وعظمة الإلهية.
وهذه الجملة ممّا يرسل من الأمثال القرآنيّة. والمعنى أنّ الله وضع سنّة في نفوس البشر أنّ الشيطان لا يتسلّط إلّا على من كان غاويا، أي: مائلا للغواية مكتسبا لها دون من كبح نفسه عن الشر. فإنّ العاقل إذا تعلّق به وسواس الشيطان علم ما فيه من إضلال وعلم أنّ الهدى في خلافه فإذا توفّق وحمل نفسه على اختيار الهدى وصرف إليه عزمه قوي على الشيطان فلم يكن له عليه سلطان، وإذا مال إلى الضلال واستحسنه واختار إرضاء شهوته صار متهيّئا إلى الغواية فأغواه الشيطان فغوى.
{ **مَنِ اتَّبَعَكَ** } الاتباع مجاز بمعنى الطاعة واستحسان الرأي كقوله تعالى { اتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ } [آل عمران:31].
{ **الْغَاوِينَ** } من باب إطلاق اسم الفاعل على الحصول في المستقبل بالقرينة، لأنّه لو كان غاويا بالفعل لم يكن لسلطان الشيطان عليه فائدة. وقد دلّ على هذا المعنى تعلّق نفي السلطان بجميع العباد، ثم استثناء من كان غاويا. فلمّا كان سلطان الشيطان لا يتسلّط إلّا على من كان غاويا علمنا أنّ ثمّة وصفا بالغواية هو مهيّئُ تسلّط سلطان الشيطان على موصوفه. وذلك هو الموصوف بالغواية بالقوة لا بالفعل، أي: بالاستعداد للغواية لا بوقوعها.
{ **وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ** } الضميرعائد إلى { مَنِ اتَّبَعَكَ }، والموعد مكان الوعد. وأطلق هنا على المصير إلى الله، استعير الموعد لمكان اللقاء تشبيها له بالمكان المعيّن بين النّاس. وفي ذلك تمليح بهم لأنّهم ينكرون البعث والجزاء.
{ **لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ** } الظاهر أنّ السبعة مستعملة في الكثرة، أو أريد بالأبواب الكناية عن طبقات جهنّم لأنّ الأبواب تقتضي منازل فهي مراتب مناسبة لمراتب الإجرام بأن تكون أصول الجرائم سبعة تتفرع عنها جميع المعاصي الكبائر. وعسى أن نتمكّن من تشجيرها في وقت آخر. وقد يكون من جملة طبقاتها طبقة النفاق قال تعالى { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ } [النساء:145].
{ **لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ** } تقسيمها بالتعيين يعلمه الله تعالى. أي: لكلّ باب فريق يدخل منه، أو لكلّ طبقة من النّار قسم من أهل النّار مقسوم على طبقات أقسام النّار.
واعلم أنّ هذه الأقوال التي صدرت من الشيطان لدى الحضرة القدسية هي انكشاف لجبلّة التطور الذي تكيّفت به نفس إبليس من حين أبى من السجود. وأمّا الأقوال الإلهية التي أجيبت بها أقوال الشيطان فمظهر للأوامر التكوينيّة التي قدّرها الله تعالى. وليست تلك الأقوال كلّها بمناظرة بين الله وأحد مخلوقاته، ولا بغلبة من الشيطان لخالقه، فإنّ ضعفه تجاه عزّة خالقه لا يبلغ به إلى ذلك.

{ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ [45] ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ [46] وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ [47] لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ [48] }.

استئناف ابتدائي، انتقال من وعيد المجرمين إلى بشارة المتّقين على عادة القرآن في التفنّن.

المتّقون: الموصوفون بالتقوى. وتقدّمت عند صدر سورة البقرة.

الجنّات: جمع جنّة. تقدّمت عند قوله تعالى { أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ } [البقرة:25].

العيون: جمع عين اسم لثقب أرضي يخرج منه الماء. فقد يكون انفجارها بدون عمل الإنسان. وأسبابه كثيرة تقدمت عند قوله تعالى { وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ } [البقرة:74]. وقد يكون بفعل فاعل وهو التفجير.

{ **ادْخُلُوهَا** } معمولة لقول. والتقدير: يقال لهم ادخلوها. والقائل هو الملائكة عند إدخال المتّقين الجنّة.

السلام: التحيّة. وتقدّم في قوله تعالى { وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ } [الأنعام:54].

{ **آمِنِينَ** } الأمن النجاة من الخوف.

{ **وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ** } عطف على الخبر.

الغلّ (بكسر الغين): البغض. وتقدّم في قوله تعالى { وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ} [الأعراف:43]، أي: ما كان بين بعضهم من غلّ في الدنيا.

{ **إِخْوَاناً** } حال، وهو على معنى التشبيه، أي: كالإخوان، أي: كحال الإخوان في الدنيا. وأوّل من يدخل في هذا العموم أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم فيما شجر بينهم من الحوادث الدافع إليها اختلاف الاجتهاد في إقامة مصالح المسلمين، والشدّة في إقامة الحقّ على حسب اجتهادهم.

كما روي عن علي كرم الله وجهه أنّه قال: إنّي لأرجو من أن أكون أنا و طلحة ممن قال الله تعالى فيهم { وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً }. فقال جاهل من شيعة علي اسمه الحارث بن الأعور الهمذاني: كلّا، الله أعدل من أن يجمعك وطلحة في مكان واحد. فقال عليّ: " فلمن هذه الآية لا أمّ لك، بفيك التراب ".

{ **عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ** }.

السرر: جمع سرير. وهو محمل كالكرسي متسع يمكن الاضطجاع عليه والاتكاء. وهو مجلس أصحاب الدعة والرفاهية لتمكّن الجالس عليه من التقلّب كيف شاء حتى إذا ملّ جلسة انقلب لغيرها.

التقابل: كون الواحد قبالة غيره، وهو أدخل في التأنّس بالرؤية والمحادثة.

{ **لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ** }. **المسّ**: كناية عن الإصابة. و**النصب**: التعب الناشئ عن استعمال الجهد.

{ **نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ [49] وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ [50]** }.

هذا تصدير لذكر القصص التي أريد من التذكير بها الموعظة بما حلّ بأهلها، وهي قصّة قوم لوط وقصّة أصحاب الأيكة وقصّة ثمود. وابتدئ ذلك بقصّة إبراهيم عليه السلام لما فيها من كرامة الله له تعريضا بالمشركين إذ لم يقتفوا آثاره في التوحيد. فالجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا.

{ **نَبِّئْ عِبَادِي** } ابتداء الكلام بفعل الإنباء لتشويق السامعين إلى ما بعده كقوله تعالى {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ} [البروج:17] ونحوه. والمقصود هو قوله تعالى الآتي { وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ } [51]، وإنّما قُدّم الأمر بإعلام النّاس بمغفرة الله وعذابه ابتداء بالموعظة الأصليّة قبل الموعظة بجزئيّات حوادث الانتقام من المعاندين وإنجاء من بينهم المؤمنين لأنّ ذلك دائر بين أثر الغفران وبين أثر العذاب.

وقدّمت المغفرة على العذاب لسبق رحمته غضبه.

{ **وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ [51] إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاماً قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ [52] قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ [53] قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ [54] قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ [55] قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ [56]** }.

مناسبة القصة أنّها من مظاهر رحمته تعالى وعذابه.

{ **ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ** } الملائكة الذين تشكّلوا بشكل أناس غرباء مارين ببيته. وتقدّمت القصة في [هود:69-73].

{ **قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ** } جاءت مفصولة بدون عطف لأنّها جواب عن جملة { فَقَالُوا سَلاماً }. وقد طوي ذكر ردّه السلام عليهم إيجازا لظهوره. صرّح به في [الذريات:25] { قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ }، أي: قال إنّا منكم وجلون بعد أن ردّ السلام. وفي سورة هود أنّه أوجس منهم خيفة حين رآهم لم يمدّوا أيديهم للأكل.

{ **إِنَّا** } من كلام إبراهيم عليه السلام فهو يعني به نفسه وأهله، لأنّ الضيف طرقوا بيتهم في غير وقت طروق الضيف فظنّهم يريدون به شرا، فلمّا سلّموا عليه فاتحهم بطلب الأمن { إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ }، أي: أخفتمونا.

الوجِل (بكسر الجيم): الخائف. والوجَل (بفتح الجيم) الخوف. ووقع في [هود:70] { نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً }.

{ **إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ** } استئناف كلام آخر بعد أن قدّم إليهم القِرى وحضرت امرأته فبشّروه بحضرتها كما فُصّل في سورة هود.

{ **بِغُلامٍ عَلِيمٍ** } إسحاق عليه السلام، أي: عليم بالشريعة، أي: بأن يكون نبيّا.
وقد حُكي هنا قولهم لإبراهيم عليه السلام ، وحكي في سورة هود قولهم لامرأته، لأنّ البشارة كانت لهما معا، فقد تكون حاصلة في وقت واحد فهي بشارتان باعتبار المبشَّر، وقد تكون حصلت في وقتين متقاربين بشّروه بانفراد ثم جاءت امرأته فبشّروها.
{ **قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي** } للتعجّب.
{ **عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ** } بمعنى (مع)، الدالة على شدّة اقتران البشارة بمس الكبر إيّاه.
المسّ: الإصابة. والمعنى: تعجّب من بشارته بولد مع أنّ الكبر مسّه.
{ **فَبِمَ تُبَشِّرُونَ** } استفهام تعجّب. نُزّل الأمر العجيب المعلوم منزلة الأمر غير المعلوم لأنّه يكاد يكون غير معلوم. وقد علم إبراهيم عليه السلام من البشارة أنّهم ملائكة صادقون فتعيّن أنّ الاستفهام للتعجّب.
{ **قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ** } جواب الملائكة إيّاه بأنّهم بشّروه بالخبر الحقّ، فكلامهم ردّ لكلامه وليس جواب على استفهامه، لأنّه استفهام غير حقيقي.
{ **فلا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ** } نهوه عن استبعاد ذلك بأنّه استبعاد رحمة القدير، بعد أن علم أنّ المبشِّرين بها مرسلون إليه من الله، فاستبعاد ذلك يفضي إلى القنوط من رحمة الله. ولمّا كان إبراهيم عليه السلام منزّها من القنوط من رحمة الله جاؤوا في موعظته بطريقة الأدب المناسب فنهوه عن أن يكون من زمرة القانطين، تحذيرا له مماّ يُدخله في تلك الزمرة، ولم يفرضوا أن يكون هو قانطا، لرفعة مقام نبوّته عن ذلك.
وهذا النهي كقوله الله تعالى لنوح عليه السلام { إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ } [هود:46].
{ **قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ** } استفهام إنكار في معنى النفي، يعني: أنه لم يقنط ولكنّه امتلكه المعتاد فتعجّب فصار ذلك كالذهول عن المعلوم، فلمّا نبّهه الملائكة أدنى تنبيه تذكّر.
القنوط: اليأس. وقرأ الجمهور {وَمَنْ يَقْنَطُ} (بفتح النون)، وقرأه أبو عمرو والكسائي ويعقوب وخلف (بكسر النون) وهما لغتان في فعل قنط.

{ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ [57] قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ [58] إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ [59] إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ [60] }.

هذا الحوار بين إبراهيم والملائكة عليهم السلام يجمع بين بيان فضل إبراهيم عليه السلام وبين موعظة قريش بما حلّ ببعض الأمم المكذّبين.
انتقل إبراهيم عليه السلام إلى سؤالهم عن سبب نزولهم إلى الأرض، لأنّه يعلم أنّ الملائكة لا ينزلون إلّا لأمر عظيم كما قال تعالى { مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ } [الحجر:8].

{ **خَطْبُكُمْ** } الخطب تقدّم في قوله تعالى { قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ } [يوسف:51].

{ **إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ** } إيجاز حذف وتقدير الكلام: إنّا أرسلنا إلى لوط لأجل قوم مجرمين، أي: لعذابهم. و**القوم المجرمون**: هم قوم سدوم وقراها. وتقدّم ذكرهم في [هود:74].

{ **إِلَّا آلَ لُوطٍ** } الاستثناء منقطع لأنّهم غير مجرمين.

{ **إِلَّا امْرَأَتَهُ** } استثناء متّصل لأنّها من آل لوط.

{ **إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ** } استئناف بياني لبيان الإجمال الذي في استثناء آل لوط، لدفع احتمال أنّهم لم يرسلوا إليهم ولا أمروا بإنجائهم.

{ **قَدَّرْنَا** } إسناد التقدير إلى ضمير الملائكة لأنّهم مزمعون على سببه. وهو ما وكّلوا به من تحذير لوط عليه السلام وآله من الالتفات إلى العذاب، وتركهم تحذير امرأته حتّى التفتت فحلّ بها ما حل بقوم لوط.

{ **إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ** } أي: ذهابها وهلاكها. وتقدّم ذكر الغابرين في [الأعراف:83].

{ **فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ [61] قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ [62] قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ [63] وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ [64] فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ [65]** }.

تفريع على حكاية قصّتهم مع إبراهيم وقد طُوي ما هو معلوم من خروج الملائكة من عند إبراهيم.

وعُبّر بآل لوط عليه السلام لأنّهم نزلوا في منزله بين أهله.

{ **إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ** } وجدهم في شكل غير معروف في القبائل التي كانت تمرّ بهم، أي: لا تُعرف قبيلتكم. وتقدّم قوله تعالى { نَكِرَهُمْ } [هود:70].

{ **قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ** } أجابوه بما يزيل خوفه وريبته. وفيه إيماء إلى التعذيب، أي: بالأمر الذي كان قومك يشكّون في حلوله بهم.

{ **وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ** } الخبر الحقّ، ولذلك ذُيّل بجملة { وَإِنَّا لَصَادِقُونَ }.

{ **جِئْنَاكَ / أَتَيْنَاكَ** } التعبير في أحد الفعلين بمادة المجيء وفي الفعل الآخر بمادة الإتيان لمجرد التفنّن لدفع تكرار الفعل الواحد، وللتأكيد اللفظي بالمرادف. كقوله تعالى { وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً } [الفرقان:33]. وعليه تكون الباء في قوله تعالى { بِمَا كَانُوا } وقوله تعالى { بِالْحَقِّ } للملابسة.

ويحتمل أن تكون لذكر الفعل الثاني وهو { وَأَتَيْنَاكَ } خصوصية لا تفي بها واو العطف، وهي مراعاة اختلاف المجرورين بالباء في مناسبة كلّ منها للفعل الذي تعلّق هو به. فلمّا كان المتعلق بفعل { **جِئْنَاكَ** } أمرا حسّيا وهو العذاب الذي كانوا فيه يمترون، وكان ما يصح أن يسند إليه المجيء بمعنى كالحقيقي،

إذ هو مجيء مجازي مشهور مسو للحقيقي، أوثر فعل { جِئْنَاكَ } ليسند إلى ضمير المخاطبين ويعلق به { بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ }. وأمّا متعلّق فعل { أَتَيْنَاكَ } وهو { بِالْحَقِّ } فهو أمر معنوي لا يقع منه الإتيان. فإنّ هذا الإتيان مسند إلى الملائكة بمعناه الحقيقي، وكانوا في إتيانهم ملابسين للحقّ، أي: الصدق، وليس الصدق مسندا إليه الإتيان. فالباء في قوله تعالى { بِالْحَقِّ } للملابسة لا للتعدية.

{ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ }

القِطْع (بكسر القاف وسكون الطاء): الجزء الأخير من الليل.

وأمروه أن يجعل أهله قدّامه ويكون من خلفهم، فهو يتبع أدبارهم، أي: ظهورهم، ليكون كالحائل بينهم وبين العذاب الذي يحلّ بقومه بعقب خروجه. فبكونه وراء أهله يخافون الالتفات لأنّه يراقبهم. وقد مضى تفصيل ذلك في سورة هود، وأنّ امرأته التفتت فأصابها العذاب.

ولم يبيّنوا له المكان الذي يقصده إلّا وقت الخروج، وهو مدينة عموريّة، كما تقدّم في سورة هود.

{ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ } [66].

{ **قَضَيْنَا** } قدّرنا، وضُمّن معنى أوحينا فعدّي بـ (إلى). أي: أوحينا إليه بما قضينا.

{ **ذَلِكَ الْأَمْرَ** } إبهام للتهويل. والإشارة للتعظيم، أي: الأمر العظيم.

{ **أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ** } جملة مفسّرة لـ { ذَلِكَ الْأَمْرَ } وهي المناسبة للفعل المضمّن وهو (أوحينا).

الدابر: الآخر، أي: آخر شخص. وهو كناية عن استئصالهم كلّهم، كما تقدّم عند قوله تعالى { فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا} [الأنعام:45].

{ **مُصْبِحِينَ** } أي: في أوّل وقته، وهو حال من اسم الإشارة. ومبدأ الصباح وقت شروق الشمس، ولذلك قال بعده { فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ } [73].

{ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ [67] قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيفِي فَلا تَفْضَحُونِ [68] وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ } [69]

الجزء الأهمّ من القصّة. ومجيء أهل المدينة إليه ومحاورته معهم كان قبل أن يعلم أنّهم ملائكة ولو علم ذلك لما أشفق ممّا عزم عليه أهل المدينة، كما جاء في قوله تعالى { قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ } [هود:81]. والواو لا تفيد ترتيب معطوفها. والمدينة هي سدوم.

{ **يَسْتَبْشِرُونَ** } يفرحون، وهو مطاوع بشّره فاستبشر، قال تعالى { فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ } [التوبة:111]. وصيغ بصيغة المضارع لإفادة التجدّد مبالغة في الفرح. وذلك أنّهم علموا أنّ رجالا غرباء حلوا ببيت لوط عليه السلام ففرحوا بذلك ليغتصبوهم كعادتهم السيّئة. وقد تقدّمت القصّة في سورة هود.

{ **فَلا تَفْضَحُونِ** } الفضح والفضيحة: شهرة حال شنيعة. وكانوا يتعيّرون بإهانة الضيف ويعدّ ذلك مذلّة لمضيّفه.

{ **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ** } ذكّرهم بالوازع الديني وإن كانوا كفارا، استقصاء للدعوة التي جاء بها، وبالوازع العرفي.

الخزي: الذلّ والإهانة. وتقدّم في قوله تعالى { إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } [البقرة:85].

{ **قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ [70] قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ [71] لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ [72] فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ [73] فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ [74] إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ [75] وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ [76] إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ [77]** }.

{ **قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ** } عطف على كلام لوط عليه السلام جار على طريقة العطف على كلام الغير. والاستفهام إنكاري، والمعطوف هو الإنكار.

{ **الْعَالَمِينَ** } النّاس. أي: ألم ننهك عن حماية النّاس أو عن إجارتهم، وقد كانوا يقطعون السبيل.

{ **قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي** } عرض عليهم بناته ظنّا أنّ ذلك يردعهم ويطفئ شبقهم. وقد تقدّم في سورة هود معنى عرضه بناته، وأنّه يجوز أن يراد به بنات صلبه وكن اثنتين أو ثلاثا، ويجوز أن يراد به بنات القوم كلّهم تنزيلا لهم منزلة بناته، لأنّ النبيّ كأبّ لأمّته.

{ **لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ** } معترضة بين أجزاء القصّة للعبرة في عدم جدوى الموعظة فيمن يكون في سكرة هواه. والمخاطب بها محمد صلى الله عليه وسلم من قبل الله تعالى. وقيل هو من كلام الملائكة بتقدير قول.

{ **لَعَمْرُكَ** } صيغة قسم. واللام لام القسم. و**العَمْر** (بفتح العين وسكون الميم) أصله لغة في العُمر (بضم العين) فخُصّ المفتوح بصيغة القسم لخفّته بالفتح، لأنّ القسم كثير الدوران في الكلام. فهو قسم بحياة المخاطب به. وقد يستعملونه بغير اللام فحينئذ يقرنونه باسم الجلالة وينصبونهما، كقول عمر بن أبي ربيعة: عمرك الله كيف يلتقيان.

السكرة: ذهاب العقل. مشتقة من السَكر (بفتح السين) وهو السدّ والغلق. وأطلقت هنا على الضلال تشبيها لغلبة دواعي الهوى على دواعي الرشاد بذهاب العقل وغشيته.

{ **يَعْمَهُونَ** } يتحيّرون ولا يهتدون. وقد تقدّم عند قوله { وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } [البقرة:15].

{ **فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ** } و{ **الصَّيْحَةُ** } صعقة في الهواء، وهي صواعق وزلازل وفيها حجارة من سجيل. وقد مضى بيانها في هود.

{ **مُشْرِقِينَ** } انتصب على الحال من ضمير الغيبة. وهو اسم فاعل من أشرقوا إذا دخلوا في وقت الشروق.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ** } تذييل.

{ **فِي ذَلِكَ** } الإشارة إلى جميع ما تضمّنته القصة من الآيات؛ آية نزول الملائكة في بيت إبراهيم عليه السلام كرامة له، وبشارته بغلام عليم، وإعلام الله إيّاه بما سيحلّ بقوم لوط، ونصر الله لوطا بالملائكة، وإنجاء لوط عليه السلام وآله، وإهلاك قومه وامرأته لمناصرتها إيّاهم.

الآيات: الأدلة، أي: دلائل على حقائق من الهداية وضدّها. وتقدّم الكلام حولهاعند قوله تعالى { وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا } [البقرة:39].

{ **لِلْمُتَوَسِّمِينَ** } أصحاب التوسّم وهو التأمّل في السمة، والمراد للمتأمّلين في الأسباب وعواقبها، وأولئك هم المؤمنون. وهو تعريض بالذين لم تردعهم العبر بأنّهم دون مرتبة النظر، تعريضا بالمشركين الذين لم يتّعظوا بأن يحلّ بهم ما حلّ بالأمم من قبلهم التي عرفوا أخبارها ورأوا آثارها.

{ **وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ** } أي: المدينة المذكورة آنفا هي بطريق باق يشاهد كثير منكم آثارها في بلاد فلسطين في طريق تجارتكم إلى الشام وما حولها، وهذا كقوله تعالى { وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ } [الصافات:138/137].

المقيم: أصله الشخص المستقرّ في مكانه غير مرتحل. وهو هنا مستعار لآثار المدينة الباقية في المكان بتشبيهه بالشخص المقيم.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ** } تذييل للتنبيه على أنّ المتوسّمين هم المؤمنون.

وجُعل ذلك (آية) بالإفراد تفنّنا لأنّ (آية) اسم جنس يصدق بالمتعدّد، على أنّ مجموع ما حصل لهم آية على المقصود من القصة وهو عاقبة المكذبين. وفي مطاوي تلك الآيات آيات.

{ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ [78] فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ [79] }.

عطف قصّة على قصّة لما في كلتيهما من الموعظة. وذكر هاتين القصتين المعطوفتين تكميل وإدماج إذ لا علاقة بينهما وبين ما قبلهما من قصة إبراهيم والملائكة. وخُصّ بالذكر أصحاب الأيكة وأصحاب الحجر لأنّهم مثل قوم لوط في موعظة المشركين من الملائكة، لأنّ أهل مكّة يشاهدون ديار هذه الأمم الثلاث.

{ **الْأَيْكَةِ** } الغيضة من الأشجار الملتف بعضها ببعض. واسم الجمع (أيك)، وأطلقت هنا مرادا بها الجنس إذ قد كانت منازلهم في غيضة من الأشجار كثيرة الورق. وقد تخفّف الأيكة فيقال: ليكة.

{ **أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ** } هم قوم شعيب عليه السلام وهم مدين. وقيل أصحاب الأيكة فريق من قوم شعيب غير أهل مدين. فأهل مدين سكان الحاضرة وأصحاب الأيكة هم باديتهم وكان شعيب رسولا إليهم جميعا. قال

تعالى { كَذَّبَ أَصْحَابُ لْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ } [الشعراء:177/176]. وسيأتي الكلام على ذلك مستوفى في سورة الشعراء.

{ لَظَالِمِينَ } لمشركين.

الانتقام: العقوبة لأجل ذنب، مشتقّة من النقم، وهو الإنكار على الفعل. يقال: نقم عليه ، ونقم منه أيضا. وتقدّم في قوله تعالى { وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا } [الأعراف:126]. أجمل الانتقام في هذه الآية وبين في أخرى، مثل آية هود.

{ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ } الذي يظهر لي أنّ ضمير التثنية عائد على أصحاب الأيكة باعتبار أنهم قبيلتان، وهما مدين وسكان الغيضة الأصليون الذين نزل مدين بجوارهم، فإنّ إبراهيم عليه السلام أسكن ابنه مدين في شرق بلاد الخليل، ولا يكون إلّا في أرض مأهولة. وهذا عندي هو مقتضى ذكر قوم شعيب عليه السلام باسم مدين مرات وباسم أصحاب الأيكة مرات. وسيأتي لذلك زيادة إيضاح في سورة الشعراء.

ويجوز أن يكون ضمير التثنية لقرية قوم لوط وأيكة قوم شعيب عليهما السلام .

الإمام: الطريق الواضح لأنّه يأتمّ به السائر، أي: يعرف أنّه يوصل.

مُبِينٍ: البيّن. أي: أنّ كلتا القريتين بطريق القوافل بأهل مكّة. وتقدم آنفا قوله تعالى { وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ }، فإدخال مدينة لوط عليه السلام في الضمير هنا تأكيد للأوّل.

{ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ [80] وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ [81] وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ [82] فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ [83] فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } [84] }.

جُمعت قصص هؤلاء الأمم الثلاث: قوم لوط، وأصحاب الأيكة، وأصحاب الحجر في نسق، لتماثل حال العذاب الذي سُلّط عليها وهو عذاب الصيحة والرجفة والصاعقة.

أصحاب الحجر: هم ثمود كانوا ينزلون الحِجْر (بكسر الحاء وسكون الجيم). و**الحجر**: المكان المحجور، أي: الممنوع من الناس، أو اشتق من الحجارة لأنّهم كانوا ينحتون بيوتهم في صخر الجبل نحتا محكما. والحجر هو المعروف بـ **(وادي القرى)** وهو بين المدينة والشام، وهو المعروف اليوم باسم **مدائن صالح** على الطريق من خيبر إلى تبوك. وأمّا حَجر(بفتح الحاء) اليمامة مدينة بني حنيفة، وهي في بلاد نجد وتُسمّى العَروض وهي اليوم من بلاد البحرين.

وقد توهّم بعض المستشرقين من الإفرنج أنّ البيوت المنحوتة في ذلك الجبل كانت قبورا، وتعلّقوا بحجج وهمية. وممّا يفنّد أقوالهم خلو تلك الكهوف عن أجساد آدمية. وإذا كانت تلك قبورا فأين كانت منازل

الأحياء؟ والظاهر أنّ ثمود لما أخذتهم الصيحة كانوا منتشرين في خارج البيوت لقوله تعالى { فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ }. وقد وُجدت في مداخل تلك البيوت نقر صغيرة تدلّ على أنّها مجعولة لوصد أبواب المداخل في الليل.

{ **الْمُرْسَلِينَ** } التعريف للجنس، فيصدق بالواحد، إذ المراد أنّهم كذّبوا صالحا عليه السلام، فهو كقوله تعالى { كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ } [الشعراء:105]. وكذلك جمع الآيات في قوله تعالى { آيَاتِنَا } مراد به الجنس، وهي آية الناقة، أو أريد أنّها آية تشتمل على آيات في كيفية خروجها من صخرة، وحياتها، ورعيها، وشربها. وقد روي أنّها خرج معها فصيلها، فهما آيتان.

{ **وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً** } النحت: بري الحجر أو العود من وسطه أو من جوانبه.

<u>المعنى</u>: أنّهم يتّخذون بيوتا في صخر الجبال.

{ **آمِنِينَ** } حال وهي حال مقدّرة، أي: مقدّرين أن يكونوا آمنين عقب نحتها وسكناها.

{ **فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ** } الفاء للتعقيب والسببية. أي: داخلين في وقت الصباح.

{ **فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** } أي: يصنعون، أي: البيوت التي عنوا بتحصينها وتحسينها كما دلّ عليه فعل { كَانُوا }. وصيغة المضارع في { يَكْسِبُونَ } لدلالتها على التكرّر والتجدّد المُكنّى به عن إتقان الصنعة. ليدلّ على أنّ الذي لم يغن عنهم شيءٌ متخذ للإغناء ومن شأنه ذلك.

{ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ [85] إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ [86] }.

{ **وَمَا خَلَقْنَا** } موقع الواو في صدر هذه الجملة بديع. <u>فهذه الجملة صالحة</u> لأن تكون تذييلا لقصص الأمم المعذّبة ببيان أنّ ما أصابهم قد استحقّوه فهو من عدل الله بالجزاء على الأعمال بما يناسبها.

<u>والجملة أيضا صالحة</u> لأنّ تكون تصديرا للجملة التي بعدها { وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ }. والمراد: ساعة جزاء المكذّبين بمحمد صلى الله عليه وسلم، أي: ساعة البعث. فعلى الأوّل تكون الواو اعتراضية أو حالية، وعلى الثاني عاطفة جملة على جملة وخبرا على خبر. وإنّما أكسبها هذا الموقع البديع نظم الجمل المعجز والتنقّل من غرض إلى غرض بما بينها من المناسبة.

{ **السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا** } أصناف المخلوقات من حيوان وجماد، فشمل الأمم التي على الأرض وما حلّ بها، وشمل الملائكة الموكّلين بإنزال العذاب، وشمل الحوادث الكونيّة التي حلّت بالأمم من الزلازل والصواعق و الكسف.

{ **إِلَّا بِالْحَقِّ** } الباء للملابسة متعلّقة بـ { خَلَقْنَا }، أي: خلقا ملابسا للحقّ، بحيث يكون الحقّ باديا في جميع أحوال المخلوقات. والملابسة هنا عرفيه، فقد يتأخّر ظهور الحقّ عن خلق بعض الأحوال والحوادث تأخرا متفاوتا. فالملابسة بين الخلق والحقّ تختلف باختلاف الأحوال من ظهور الحقّ وخفائه، على أنّه لا

يلبث أن يظهر في عاقبة الأمور.

والحقّ هنا هو إجراء أحوال المخلوقات على نظام ملائم للحكمة والمناسبة في الخير والشرّ، والكمال والنقص، والسموّ والخفض، في كل نوع بما يليق بماهيته وحقيقته وما يصلحه، وما يصلح هو له، بحسب ما يقتضيه النظام العام لا بحسب الأميال والشهوات، فإذا لاح ذلك الحقّ الموصوف مقارنا وجوده لوجود محقوقه فالأمر واضح، وإذا لاح تخلّف شيء عن مناسبة فبالتأمّل والبحث يتّضح أن وراء ذلك مناسبة قضت بتعطيل المقارنة المحقوقة، ثم لا يتبدّل الحقّ آخر الأمر.

وهذا التأويل يُظهره موقع الآية عقب ذكر عقاب الأمم التي طغت وظلمت، فإنّ ذلك جزاء مناسب تمرّدها وفسادها، وأنّها وإن أُمهلت حينا برحمة من الله لحكمة استبقاء عمران جزء من العالم زمانا فهي لم تُفلت من العذاب المستحقّ لها. وكذلك القول في جزاء الآخرة.

{ **وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ** } نتيجة الاستدلال، فمن عرف أنّ جميع المخلوقات خلقت خلقا ملابسا للحقّ وأيقن به علم أنّ الحقّ لا يتخلّف عن مستحقّه ولو غاب وتأخّر، وإن كان نظام حوادث الدنيا قد يُعطّل ظهور الحقّ في نصابه وتخلفه عن أربابه، فعُلم أنّ وراء هذا النظام نظاما مُدّخرا يتّصل فيه الحقّ بكل مستحقّ إن خيرا وإن شرّا، فلا يحسبنّ من فات من الذين ظلموا قبل حلول العذاب بهم مفلتا من الجزاء، فإنّ الله قد أعدّ عالما آخر يعطي فيه الأمور مستحقيها.

والمقصود من هذا تسلية النبيّ صلى الله عليه وسلم على ما لقيه من أذى المشركين وتكذيبهم واستمرارهم على ذلك إلى أمد معلوم. وفي إمهال الله تعالى المشركين ثمّ في إنجائهم من عذاب الاستئصال حكمة تحقّق بها مراد الله من بقاء هذا الدين وانتشاره في العالم، بتبليغ العرب إيّاه وحمله إلى الأمم.

{ **السَّاعَةَ** } ساعة البعث وذلك الذي افتُتحت به السورة. وذلك انتقال من تهديدهم ووعيدهم بعذاب الدنيا إلى تهديدهم بعذاب الآخرة.

{ **فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ** } أمر نبيّه صلى الله عليه وسلم بالإعراض عن أذاهم وسوء تلقّيهم للدعوة.

{ **الصَّفْحَ** } العفو. وقد تقدّم في قوله تعالى { فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ } [المائدة:13]. وهو مستعمل هنا في لازمه وهو عدم الحزن والغضب من صنيع أعداء الدين وحُذف متعلّق الصفح لظهوره، أي: عمّن كذّبك وآذاك.

{ **الْجَمِيلَ** } الحسن. والمراد الصفح الكامل.

ثم إنّ في هذه الآية ضربا من ردّ العجز على الصدر، إذ قد وقع الاستدلال على المكذّبين بالبعث بخلق السماوات والأرض عند قوله تعالى { وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً } [14-16]. وانتُقل بعد ذلك إلى التذكير بخلق آدم عليه السلام وما فيه من العبر. ثمّ إلى سوق قصص الأمم التي عقبت عصور الخلقة

الأولى، فآن الأوان للعود إلى حيث افترق طريق النظم حيث ذكر خلق السماوات ودلالته على البعث بقوله تعالى تعالى { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ }.

{ **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ** } في موقع التعليل للأمر بالصفح عنهم، أي: لأنّ في الصفح عنهم مصلحة لك ولهم يعلمها ربّك؛ فمصلحة النبيّ صلى الله عليه وسلم في الصفح هي كمال أخلاقه، ومصلحتهم في الصفح رجاء إيمانهم.

{ **الْعَلِيمُ** } بما يأتيه كلّ منكم، وهذا كقوله تعالى { فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ } [فاطر:8].

وفي الآية إيماء إلى بشارة النبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّ الله يخلق من أولئك من يكونون أولياء للنبيّ صلى الله عليه وسلم، وهم الذين آمنوا بعد نزول هذه الآية والذين ولدوا، كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" لعلّ الله أن يُخرج من أصلابهم من يعبده "**.

وتلك هي نكتة ذكر وصف { الْخَالِقُ } دون غيره من الأسماء الحسنى.

قال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وكان في أيام الجاهلية من المؤذين للنبيّ صلى الله عليه وسلم:

دعاني داع غيرُ نفسي وردّني ... إلى الله من أطردتُه كل مُطْرَدِ

يعني بالداعي النبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ } [87].

اعتراض بين { فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ } وجملة { لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ } [88]. أتبع التسلية والوعد بالمنّة ليُذكّر نبيه صلى الله عليه وسلم بالنعمة العظيمة، فيطمئن بأنّه كما أحسن إليه بالنعم الحاصلة فهو منجزه الوعود الصادقة. وفي هذا الامتنان تعريض بالرد على المكذّبين.

إيتاء القرآن: أي: إعطاؤه، وهو تنزيله عليه والوحي به إليه. وأوثر فعل { **آتَيْنَاكَ** } دون (أوحينا) أو (أنزلنا) لأنّ الإعطاء أظهر في الإكرام والمنّة.

{ **سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي** } جعل { الْقُرْآنَ } معطوفا يشعر بأنّ السبع المثاني من القرآن. وذلك ما درج عليه جمهور المفسّرين ودل عليه الحديث الآتي. وقد وُصف القرآن بالمثاني في قوله تعالى { اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ } [الزمر:23]، فيتعيّن أنّ المراد آيات أو سور من القرآن، وأنّ { **مِنَ** } تبعيضيّة. وذلك أيضا شأن (مِنَ) إذا وقعت بعد اسم عدد. وأنّ المراد أجزاء من القرآن، آيات أو سور لها مزيّة اقتضت تخصيصها بالذكر من بين سائر القرآن، ولكون المثاني غير السبع مغايرة بالكلية والجزئية تصحيحا للعطف.

{ **الْمَثَانِي** } يجوز أن يكون جمع مُثنّى (بضم الميم وتشديد النون) اسم مفعول مشتقا من ثنّى إذا كرّر تكريرة. وقيل: جمع مَثْناة (بفتح الميم وسكون الثاء المثلثة وبهاء تأنيث في آخره). فهو مشتق من اسم

الاثنين.

<u>والأصح</u> أنّ السبع المثاني **هي سورة فاتحة الكتاب** لأنّها يُثنّى بها، أي: تعاد في كل ركعة من الصلاة، فاشتقاقها من اسم الاثنين المراد به مطلق التكرير.

ثم إن كان المراد بالسبع سبع آيات فالمؤتى هو سورة الفاتحة لأنّها سبع آيات وهذا الذي ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث أبي سعيد بن المعلى وأبي بن كعب وأبي هريرة في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" أنّ أمّ القرآن هي السبع المثاني"** فهو الأولى بالاعتماد عليه. وقد تقدّم ذلك في ذكر أسماء الفاتحة.

{ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ } عطف على السبع، من عطف الكلّ على الجزء لقصد التّعميم، ليُعلم أنّ إيتاء القرآن كلّه نعمة عظيمة. وأجري وصف **{ الْعَظِيمَ }** على القرآن تنويها به.

<u>وإن كان المراد بالسبع سورا</u> كما هو مروي من قول ابن عباس وكثير من الصحابة والسلف، واختلفوا في تعيينها بما لا ينثلج له الصدر، فيكون إبهامها مقصودا لصرف النّاس للعناية بجميع ما نزل من سور القرآن كما أبهمت ليلة القدر.

{ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ [88] وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ [89] }.

استئناف بياني لما يثيره المقصود من قوله { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ } [85]، ومن تساؤل يجيش في النفس عن الإملاء للمكذّبين في النعمة والترف مع ما رمقوا به من الغضب والوعيد، فكانت جملة { لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ } بيانا لما يختلج في نفس السامع من ذلك، ولكونها بهذه المثابة فُصلت عن التي قبلها فصل البيان عن المبين.

المَدّ: أصله الزيادة. وأطلق على بسط الجسم وتطويله. يقال: مدّ يده إلى كذا، ومدّ رجله في الأرض. ثم استعير للزيادة من شيء. ومنه مدد الجيش، ومدّ البحر، والمدّ في العمر. وتلك إطلاقات شائعة صارت حقيقة. واستعير المدّ هنا إلى التحديق بالنظر والطموح به تشبيها له بمدّ اليد للمتناول، لأنّ المنهي عنه نظر الإعجاب مما هم فيه من حسن الحال في رفاهية عيشهم مع كفرهم، أي: فإنّ ما أوتيته أعظم من ذلك.

الأزواج: هنا يحتمل أن يكون على معناه المشهور، أي: الكفّار ونسائهم. ووجه تخصيصهم بالذكر أنّ حالتهم أتم أحوال التمتع لاستكمالها جميع اللذات والأنّس.

{ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ } شامل لكل حال من أحوالهم من شأنها أن تحزن الرسول صلى الله عليه وسلم وتؤسفه. فمن ذلك كفرهم كما قال تعالى { فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً } [الكهف:6]. ففي هذا النهي كناية عن قلّة الاكتراث بهم، وعن توعّدهم بأن سيحلّ بهم ما يثير الحزن لهم،

وكناية عن رحمة الرّسول صلى الله عليه وسلم بالناس.

{ **وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ** } لمّا كان هذا النهي يتضمّن شدّة قلب وغلظة اعترضه بالأمر بالرفق للمؤمنين. وهو اعتراض مراد منه الاحتراس. وهذا كقوله تعالى { أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ } [الفتح:29].

وخفض الجناح تمثيل للرفق والتواضع بحال الطائر إذا أراد أن ينحط للوقوع خفض جناحه يريد الدنو، أو الذي يتهيّأ لحضن فراخه. وفي ضمن هذه التمثيليّة استعارة مكنية، والجناح تخييل.

وقد بسطناه في قوله تعالى { وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ } [الاسراء:24].

وقد شاعت هذه التمثيليّة حتّى صارت كالمثل في التواضع واللين في المعاملة. وضدّ ذلك رفع الجناح تمثيل للجفاء والشدّة.

وفي الآية تمهيد لما يجيء بعدها من قوله تعالى { فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ } [94].

{ **وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ** } عطف على { وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ }. فالمقول لهم هذا القول هم المتحدَّث عنهم بالضمائر السابقة في قوله تعالى { مِنْهُمْ / عَلَيْهِمْ }، فالتقدير: وقل لهم، لأنّ هذا القول مراد منه المتاركة، أي: ما عليَّ إلّا إنذاركم، والقرينة هي ذكر النذارة دون البشارة لأنّ النذارة تناسب المكذّبين، إذ النذارة هي الإعلام بحدث فيه ضرّ.

النذير: فعيل بمعنى مُفعِل مثل الحكيم بمعنى المحكِم.

{ **المُبِينُ** } الموضِّح المصرِّح.

والقصر المستفاد من ضمير الفصل ومن تعريف الجزأين قصر قلب، أي: كما تحسبون أنّكم تغيظونني بعدم إيمانكم فإنّي نذير مبين غير متقايض معكم لتحصيل إيمانكم.

{ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ [90] الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ [91] }.

تخلّص من تسلية النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى وعيد المشركين الطاعنين في القرآن بأنّهم سيحاسبون على مطاعنهم.

{ **الْمُقْتَسِمِينَ** } افتعال من قسّم إذا جعل شيئا أقساما. وصيغة الافتعال هنا تقتضي تكلّف الفعل. ومعنى التقسيم والتجزئة هنا تفرقة الصفات والأحوال لا تجزئه الذات.

والمقتسمون <u>يجوز</u> أن يراد بهم جمع من المشركين، من قريش وهم ستة عشر رجلا، سنذكر أسماءهم، فيكون المراد بالقرآن مُسمّى هذا الاسم العَلَم، وهو كتاب الإسلام، وهو الراجح، ويؤيّده أنّ السورة مكّيّة.

<u>ويجوز</u> أن يراد بهم طوائف أهل الكتاب قسّموا كتابهم أقساما، منها ما أظهروه ومنها ما انسوه، فيكون القرآن مصدرا أطلق بمعناه اللغوي، أي: المقروء من كتبهم. أو قسّموا كتاب الإسلام، منه ما صدّقوا به وهو مما وافق دينهم، ومنه ما كذّبوا به وهو ما خالف ما هم عليه.

{ **الْقُرْآنَ** } هنا يجوز أن يكون المراد به الاسم المجعول عَلَما لكتاب الإسلام. ويجوز أن يكون المراد به الكتاب المقروء فيصدق بالتوراة والإنجيل.

{ **عِضِينَ** } جمع عضة، والعضة: الجزء والقطعة من الشيء.

روي عن قتادة أنّ المقتسمين نفر من مشركي قريش جمعهم الوليد بن المغيرة لمّا جاء وقت الحجّ فقال: إنّ وفود العرب ستقدم عليكم وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأيا واحدا، فانتدب لذلك ستة عشر رجلا فتقاسموا مداخل مكّة وطرقها لينفّروا النّاس عن الإسلام، فبعضهم يقول: لا تغتروا بهذا القرآن فهو سحر، وبعضهم يقول: هو شعر، وبعضهم يقول: كلام مجنون، وبعضهم يقول: قول كاهن، وبعضهم يقول: هو أساطير الأولين اكتتبها، فقد قسموا القرآن أنواعا باعتبار اختلاف أوصافه.

وهؤلاء النفر هم: [حنظلة بن أبي سفيان - عتبة بن ربيعة - أخوه شيبة - الوليد بن المغيرة - أبو جهل بن هشام - أخوه العاص - أبو قيس بن الوليد - قيس بن الفاكه - زهير بن أمية - هلال بن عبد الأسود - السائب بن صيفي - النضر بن الحارث - أبو البختري بن هشام - زمعة ابن الحجاج - أمية بن خلف - أوس بن المغيرة].

{ **فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ** [92] **عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** [93] }.

الفاء للتفريع، وهذا تفريع على ما سبق من قوله تعالى { وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ } [85]، والواو للقسَم، فالمفرَّع هو القسم وجوابه. والمقصود بالقسم تأكيد الخبر. وليس الرّسول صلى الله عليه وسلم ممّن يشك في صدق هذا الوعيد، ولكن التأكيد متسلّط على ما في الخبر من تهديد { لَنَسْأَلَنَّهُمْ }.

{ **فَوَرَبِّكَ** } وصف الربّ مضافا إلى ضمير النبيّ صلى الله عليه وسلم إيماء إلى أنّ في السؤال المقسم عليه حظًّا من التنويه به، وهو سؤال الله المكذِّبين عن تكذيبهم إيّاه، سؤال ربٍّ يغضب لرسوله صلى الله عليه وسلم. والسؤال مستعمل في لازم معناه، وهو وعيد للمسؤول، كقوله تعالى { ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ } [التكاثر:8].

{ **فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ** [94] **إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ** [95] **الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** [96] }.

تفريع على { وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي } [87] بصريحه وكنايته عن التسلية على ما يلاقيه من تكذيب قومه. نزلت هذه الآية في السنة الرابعة أو الخامسة من البعثة ورسول الله صلى الله عليه وسلم مختفٍ في دار الأرقم بن أبي الأرقم. روي عن عبد الله بن مسعود قال: ما زال النبيّ صلى الله عليه وسلم مستخفيا حتّى نزلت { فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ } فخرج هو وأصحابه. يعني أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا نزلت

سورة المدّثّر كان يدعو النّاس خفية وكان من أسلم من النّاس إذا أراد الصلاة يذهب إلى بعض الشعاب يستخفي بصلاته من المشركين، فلحقهم المشركون يستهزئون بهم ويعيبون صلاتهم، فحدث تضارب بينهم وبين سعد ابن أبي وقاص أدمى فيه سعد رجلا من المشركين. فبعد تلك الوقعة دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه دار الأرقم عند الصفا فكانوا يقيمون الصلاة بها، واستمروا كذلك ثلاث سنين أو تزيد، فنزل قوله تعالى { فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ }. وبنزولها ترك الرسول صلى الله عليه وسلم الاختفاء بدار الأرقم وأعلن بالدعوة للإسلام جهرا.

الصدع: الجهر والإعلان. وأصله الانشقاق. ومنه انصداع الإناء، أي: انشقاقه. فاستُعمل الصدع في لازم الانشقاق وهو ظهور الأمر المحجوب وراء الشيء المنصدع.

{ **بِمَا تُؤْمَرُ** } الدعوة إلى الإسلام. وقُصد شمول الأمر، أي: كلّ ما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بتبليغه، وهو إيجاز بديع.

{ **وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ** } الإعراض عن بعض أحوالهم لا عن ذواتهم. عن استهزائهم، وعن تصدّيهم إلى أذى المسلمين. وليس المراد الإعراض عن دعوتهم لأنّ قوله تعالى { فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ } مانع من ذلك.

{ **إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ** } تعليل للأمر بالإعلان بما أمر به، فإنّ اختفاء النبيّ صلى الله عليه وسلم بدار الأرقم كان بأمر من الله تعالى لحكمة علمها الله، أهمّها تعدّد الداخلين في الإسلام في تلك المدّة بحيث يغتاظ المشركون من وفرة الداخلين في الدين مع أنّ دعوته مخفية، ثم إنّ الله أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بإعلان دعوته لحكمة أعلى، تهيّأ اعتبارها في علمه تعالى.

{ **الْمُسْتَهْزِئِينَ** } التعبير عنهم بهذا الوصف إيماء إلى أنّه كفاه استهزاءهم وهو أقل أنواع الأذى، فكفايته ما هو أشد من الاستهزاء من الأذى مفهوم بطريق الأحرى. والتعريف للجنس فيفيد العموم، أي: كفيناك كلّ مستهزئ. وفي التعبير عنهم بهذا الوصف إيماء إلى أنّ قصارى ما يؤذونه به الاستهزاء، كقوله تعالى { لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً } [آل عمران:111]، فقد صرفهم الله عن أن يؤذوا النبيّ صلى الله عليه وسلم بغير الاستهزاء. وذلك لطف من الله برسوله صلى الله عليه وسلم.

{ **كَفَيْنَاكَ** } الكافي هو متولّي عمل عن غيره لأنّه أقدر عليه، أو لأنّه يبتغي راحة المَكْفِي. يقال: كفيت مُهمّك، فيتعدّى الفعل إلى مفعولين ثانيهما هو المهمّ المكفي منه. فالأصل أن يكون مصدرا فإذا كان اسم ذات فالمراد أحواله التي يدل عليها المقام، فإذا قلت: كفيتك عدوك، فالمراد: كفيتك بأسه، وإذا قلت: كفيتك غريمك، فالمراد: كفيتك مطالبته. فلما قال هنا: { كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ } فُهم أنّ المراد كفيناك الانتقام منهم وإراحتك من استهزائهم. وكانوا يستهزئون بصنوف من الاستهزاء، ومن استهزائهم استهزاؤهم بأسماء سور القرآن مثل سورة العنكبوت وسورة البقرة، كما في (الإتقان) في ذكر أسماء السور.

وعُدّ من كبراء المستهزئين خمسة هم: [الوليد بن المغيرة - الأسود بن عبد يغوث - الأسود بن المطلب – العاصي بن وائل - الحارث بن عيطلة (يقال ابن عيطل وهو اسم أمّه دعي لها واسم أبيه قيس. وفي الكشاف و القرطبي أنّه ابن الطُلاطِلة ومثله في القاموس)] ، هلكوا بمكّة متتابعين، وكان هلاكهم العجيب المحكي في كتب السيرة صارفا أتباعهم عن الاستهزاء لانفراط عقدهم.

وقد يكون من أسباب كفايتهم زيادة الداخلين في الإسلام بحيث صار بأس المسلمين مخشيّا، وقد أسلم حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه فاعتز به المسلمون، ولم يبق من أذى المشركين إيّاهم إلّا الاستهزاء، ثم أسلم عمر ابن الخطاب رضي الله عنه فخشيه سفهاء المشركين، وكان إسلامه في حدود سنة خمس من البعثة.

{ **الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ** } للتشويه بحالهم، ولتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم بأنّهم ما اقتصروا على الافتراء عليه فقد افتروا على الله. وصيغة المضارع { يَجْعَلُونَ } للإشارة إلى أنّهم مستمرّون على ذلك مجدّدون له.

{ **فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** } فُرّع على الأمرين الوعيد، وحُذف مفعول { يَعْلَمُونَ } لدلالة المقام عليه، أي: فسوف يعلمون جزاء بهتانهم.

{ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ [97] فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ [98] وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ [99] }.

لمّا كان الوعيد مؤذنا بإمهالهم قليلا، كما دلّ عليه حرف التنفيس في قوله تعالى { فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } [96]، طمأن الله نبيّه صلى الله عليه وسلم بأنّه مطّلع على تحرّجه من أذاهم وبهتانهم؛ من أقوال الشرك وأقوال الاستهزاء، فأمره بالثبات والتفويض إلى ربّه، لأنّ الحكمة في إمهالهم، ولذلك افتُتحت الجملة بلام القسم وحرف التحقيق.

وليس المخاطَب ممن يداخله الشك في خبر الله تعالى ولكن التحقيق كناية عن الاهتمام بالمخبَر، وأنّه بمحلّ العناية من الله. فالجملة معطوفة على { إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئينَ } [95] أو حال.

{ **أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ** } مجاز عن كدر النفس. وقد تقدّم في قوله تعالى { وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ } [هود:12].

{ **فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ** } أمره بتسبيح الله تعالى وتنزيهه عما يقولونه من نسبة الشريك، أي: عليك بتنزيه ربّك فلا يضرّك شركهم. على أنّ التسبيح قد يُستعمل في معناه الكنائي مع معناه الأصلي فيفيد الإنكار على المشركين فيما يقولون، أي: فاقتصر في دفعهم على إنكار كلامهم. وهذا مثل قوله تعالى { قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً } [الاسراء:93]. وتسبيح الله تنزيهه بقول: سبحان الله.

{ **وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ** } أبلغ في الاتصاف بالسجود من (ساجدا)، كما تقدّم في قوله تعالى { وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ } [براءة:119]، ونظائرها.

الساجدون: هم المصلّون. فالمعنى: ودم على الصلاة أنت ومن معك.

وليس هذا موضع سجدة من سجود التلاوة عند أحد من فقهاء المسلمين.

{ **الْيَقِينُ** } المقطوع به، الذي لا شك فيه وهو النصر الذي وعده الله به.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النحل

سمّيت هذه السورة عند السلف (**سورة النحل**)، وهو اسمها المشهور في المصاحف وكتب التفسير وكتب السنّة. ووجه تسميّتها بذلك أنّ لفظ النحل لم يذكر في سورة أخرى. وعن قتادة أنّها تُسمّى (**سورة النِعَم**). قال ابن عطيّة: لما عَدَّد الله فيها من النعم على عباده.

وهي مكّيّة في قول الجمهور، وهو عن أبن عباس وابن الزبير. وقيل: إلّا ثلاث آيات نزلت بالمدينة منصرف النبيّ صلى الله عليه وسلم من غزوة أحد، وهي قوله تعالى {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ} [126] إلى آخر السورة. قيل نزلت في نسخ عزم النبيّ صلى الله عليه وسلم على أن يمثّل بسبعين من المشركين أن أظفره الله بهم مكافأة على تمثيلهم بحمزة.

وعن قتادة وجابر بن زيد أنّ أوّلها مكّيّ إلى قوله تعالى { وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا } [41] فهو مدني إلى آخر السورة.

وسيأتي في تفسير قوله تعالى { أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ } [79] ما يرجّح أنّ بعض السورة مكّيّ وبعضها مدنيّ، وبعضها نزل بعد الهجرة إلى الحبشة كما يدل عليه قوله تعالى { ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا} [110]، وبعضها متأخر النزول عن سورة الأنعام لقوله في هذه { وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ } [118]، يعني بما قصّ من قبل قوله تعالى { وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ } [الأنعام:146].

وهذه السورة نزلت بعد سورة الأنبياء وقبل سورة الم السجدة. **وقد عُدَّت الثانية والسبعين** في ترتيب نزول السور.

وآيها مائة وثمان وعشرون بلا خلاف.

أغراض السورة

*/ معظم ما اشتملت عليه السورة إكثارُ متنوّع الأدلّة على تفرد الله تعالى بالإلهيّة، والأدلة على فساد دين الشرك وإظهار شناعته.

*/ أدلة إثبات رسالة محمد صلى الله عليه وسلم. وإنزال القرآن عليه صلى الله عليه وسلم.

*/ أنّ شريعة الإسلام قائمة على أصول ملة إبراهيم عليه السلام.

*/ إثبات البعث والجزاء، فابتُدئت بالإنذار بأنّه قد اقترب حلول ما أنذر به المشركون من عذاب الله الذي يستهزئون به، وتلا ذلك قرع المشركين وزجرهم على تصلّبهم في شركهم وتكذيبهم.

*/ انتُقل إلى الاستدلال على إبطال عقيدة الشرك، فابتدئ بالتذكير بخلق السماوات والأرض، وما في السماء من شمس وقمر ونجوم، وما في الأرض من ناس وحيوان ونبات وبحار وجبال، وأعراض الليل والنهار.

وما في أطوار الإنسان وأحواله من العبر.

*/ خُصّت النحل وثمراتها بالذكر لوفرة منافعها والاعتبار بإلهامها إلى تدبير بيوتها وإفراز شهدها.

*/ التنويه بالقرآن وتنزيهه عن اقتراب الشيطان، وإبطال افترائهم على القرآن.

*/ الاستدلال على إمكان البعث وأنّه تكوين كتكوين الموجودات.

*/ التحذير ممّا حلّ بالأمم التي أشركت بالله وكذّبت رسله عليهم السلام، عذاب الدنيا وما ينتظرهم من عذاب الآخرة. وقابل ذلك بضدّه من نعيم المتّقين المصدّقين والصابرين على أذى المشركين والذين هاجروا في الله وظلموا.

*/ التحذير من الارتداد عن الإسلام، والترخيص لمن أكره على الكفر في التقية من المكرهين.

*/ الأمر بأصول من الشريعة، من تأصيل العدل، والإحسان، والمواساة، والوفاء بالعهد، وإبطال الفحشاء والمنكر والبغي، ونقض العهود، وما على ذلك من جزاء بالخير في الدنيا والآخرة.

*/ أدمج في ذلك ما فيها من العبر والدلائل، والامتنان على النّاس بما في ذلك من المنافع، والمحاسن، وحسن المناظر، ومعرفة الأوقات، وعلامات السير في البر والبحر، ومن ضرب الأمثال ومقابلة الأعمال بأضدادها.

*/ التحذير من الوقوع في حبائل الشيطان.

*/ الإنذار بعواقب كفران النعمة.

*/ ثمّ عَرَّض لهم بالدعوة إلى التوبة، وملاك طرائق دعوة الإسلام قوله تعالى { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } [125].

*/ تثبيت الرسول - عليه الصلاة والسلام - ووعده بتأييد الله إيّاه.

{ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } [1].

{ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ } لمّا كان معظم أغراض هذه السورة زجر المشركين عن الإشراك وتوابعه وإنذارهم بسوء عاقبة ذلك، وكان قد تكرّر وعيدهم من قبل، في آيات كثيرة، بيوم يكون الفارق بين الحقّ والباطل، فتزول فيه شوكتهم وتذهب شدّتهم. وكانوا قد استبطأوا ذلك اليوم حتّى اطمأنّوا أنّه غير واقع فصاروا يهزأون بالنبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين فيستعجلون حلول ذلك اليوم، صُدِّرت السورة بالوعيد المصوغ في صورة الخبر بأن قد حلّ ذلك المتوعَّد به. فجيء بالماضي المراد به المستقبل المحقَّق الوقوع بقرينة تفريع { فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ }، لأنّ النهي عن استعجال حلول ذلك اليوم يقتضي أنّه لمّا يحلّ بعد.

الأمر: مصدر بمعنى المفعول، كالوعد بمعنى الموعود، أي: ما أمر الله به. أي: تقديره وإرادة حصوله في الأجل المُسمّى الذي تقتضيه الحكمة.

{ أَمْرُ اللَّهِ } إبهام يفيد تهويله وعظمته لإضافته لمن لا يعظم عليه شيء. وقد عُبّر عنه تارات بـ (وعد الله) ومرّات بـ (أجل الله) ونحو ذلك.

والخطاب للمشركين ابتداء لأنّ استعجال العذاب من خصالهم، قال تعالى { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ } [الحج:47]. <u>ويجوز</u> أن يكون شاملا للمؤمنين، لأنّ عذاب الله وإن كان الكافرون يستعجلون به تهكّما لظنّهم أنه غير آت، فإنّ المؤمنين يضمرون في نفوسهم استبطاءه ويحبّون تعجيله للكافرين.

الاستعجال: طلب تعجيل حصول شيء، فمفعوله هو الذي يقع التعجيل به. ويتعدّى الفعل إلى أكثر من واحد بالباء فقالوا: استعجل بكذا. وقد مضى في قوله تعالى { مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ } [الأنعام:57]. فالضمير في قوله تعالى { تَسْتَعْجِلُوهُ } إمّا عائد إلى الله تعالى، أي: فلا تستعجلوا الله بأمره.

<u>وقيل</u>: الضمير عائد إلى { أَمْرُ اللَّهِ }، وعليه تكون تعدية فعل الاستعجال إليه على نزع الخافض.

والمراد من النهي هنا دقيق لم يذكروه في موارد صيغ النهي. ويجدر أن يكون **للتسوية**، كما ترد صيغة الأمر للتسوية، أي: لا جدوى في استعجاله لأنّه لا يُعجّل قبل وقته المؤجّل له.

{ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } مستأنفة استئنافا ابتدائيا لأنّها المقصود من الوعيد، إذ الوعيد والزجر إنّما كانا لأجل إبطال الإشراك. فكانت جملة { أَتَى أَمْرُ اللَّهِ } كالمقدّمة وهذه الجملة كالمقصد.

{ عَمَّا يُشْرِكُونَ } الـ (ما) مصدريّة، أي: عن إشراكهم غيره معه.

{ يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ } [2].

كان استعجالهم بالعذاب استهزاءً بالرسول صلى الله عليه وسلم وتكذيبه، وكان ناشئا عن عقيدة الإشراك

التي من أصولها استحالة إرسال الرسل من البشر.

وأُتبع تحقيق مجيء العذاب بتنزيه الله عن الشريك، فقُفّي ذلك بتبرئة الرّسول صلى الله عليه وسلم من الكذب فيما يُبلّغه عن ربّه، ووُصف لهم الإرسال وصفا موجزا. وهذا اعتراض في أثناء الاستدلال على التوحيد.

{ **الْمَلائِكَةَ** } المراد الواحد منهم، وهو جبرائيل عليه السلام .

الروح: الوحي. أطلق عليه اسم الروح على وجه الاستعارة لأنّ الوحي به هدى للعقول، فشُبّه الوحي بالروح كما يُشبّه العلم الحقّ بالحياة، وكما يُشبّه الجهل بالموت، قال تعالى { أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ} [الأنعام:122].

ووجه تشبيه الوحي بالروح أنّ الوحي إذا وعته العقول حلّت بها الحياة المعنويّة وهو العلم، كما أنّ الروح إذا حلّ في الجسم حلّت به الحياة الحسّيّة، قال تعالى { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا } [الشورى:52].

{ **مِنْ أَمْرِهِ** } هي شؤونه سبحانه، ومقدّراته التي استأثر بها. وذلك وجه إضافته إلى الله، كما هنا وكما في قوله تعالى { يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ } [الرعد:11]، وقوله تعالى { قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي } [الاسراء:85].

{ **عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ** } ردّ على فنونٍ من تكذيبهم. فقد قالوا { لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } [الزخرف:31] وقالوا { فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ } [الزخرف:53] أي: كان ملكا، وقالوا { مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ } [الفرقان:7].

{ **أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا** } لمّا كان هذا الخبر مسوقا للذين اتّخذوا مع الله آلهة أخرى وكان ذلك ضلالا يستحقّون عليه العقاب جُعل إخبارهم بضد اعتقادهم إنذارا.

{ **فَاتَّقُونِ** } أمر بالتقوى الشاملة لجميع الشريعة.

وقد أحاطت جملة { أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ } بالشريعة كلّها، لأنّ جملة { أَنَ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا } تنبيه على ما يرجع من الشريعة إلى إصلاح الاعتقاد وهو الأمر بكمال القوة العقلية.

وجملة { فَاتَّقُونِ } تنبيه على الاجتناب والامتثال اللذين هما منتهى كمال القوة العملية.

{ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالحقّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } [3].

استئناف بياني ناشئ عن قوله تعالى { سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } [1] لأنّهم إذا سمعوا ذلك ترقّبوا دليل تنزيه الله عن أن يكون له شركاء. فابتدئ بالدلالة على اختصاصه بالخلق والتقدير، وذلك دليل على أنّ ما يُخلق لا يوصف بالإلهية، كما أنبأ عنه التفريع عقب هذه الأدلة بقوله تعالى { أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ } [17].

والاستدلال بخلق السماوات والأرض أكبر من سائر الأدلة وأجمع لأنّها محوية لهما، ولأنّهما من أعظم الموجودات. فلذلك ابتدئ بهما. ولكن ما فيه من إجمال المَحويّات اقتضى أن يُعقّب بالاستدلال بأصناف الخلق والمخلوقات فثُنّي بخلق الإنسان.

الحق: هنا ضد العبث، فهو هنا بمعنى الحكمة والجدّ. إلّا ترى إلى قوله تعالى { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إلّا بِالْحَقِّ } [الدخان:39/38]. وقوله تعالى { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً} [ص:27]. والحقّ والصدق يطلقان وصفين لكمال الشيء في نوعه.

{ **تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ** } تحقيق لنتيجة الدليل، لأنّ إشراكهم هو الذي حداهم إلى إنكار نبوّة من جاء ينهاهم عن الشرك فلا جرم كان الاعتناء بإثبات الوحدانية وإبطال الشرك مقدَّما على إثبات صدق الرسول عليه الصلاة والسلام المُبدأ به في أول السورة { يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ } [2].

{ **خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ** } [4].

استئناف بياني أيضا. وهو استدلال آخر على انفراده تعالى بالإلهية ووحدانيّته فيها. وذلك أنّه بعد أن استُدل عليهم بخلق العوالم العليا والسفلى، وهي مشاهدة لديهم، انتُقل إلى الاستدلال عليهم بخلق أنفسهم المعلوم لهم. وأيضا لمّا استُدل على وحدانيّته بخلق أعظم الأشياء المعلومة لهم استُدل عليهم أيضا بخلق أعجب الأشياء للمتأمّل، وهو الإنسان في طرفي أطواره؛ من كونه نطفة مهينة إلى كونه عاقلا فصيحا مبينا.

{ **الْإِنْسَانَ** } التعريف للعهد الذهني، وهو تعريف الجنس، أي: خلق الجنس المعلوم الذي تدعونه بالإنسان.

وقد ذُكر للاعتبار بخلق الإنسان ثلاثة اعتبارات: **جنسه** المعلوم بماهيته وخواصه، و**مبدأ** خلقه وهو النطفة التي هي أمهن شيء نشأ منها أشرف نوع، و**منتهى** ما شرّفه به وهو العقل.

الخصيم: من صيغ المبالغة، أي: كثير الخصام.

{ **مُبِينٌ** } خبر ثان، أي: فإذا هو متكلّمٌ مُفْصِحٌ عما في ضميره ومراده بالحقّ أو بالباطل.

والمراد: الخصام في إثبات الشركاء، وإبطال الوحدانية، وتكذيب من يدعون إلى التوحيد، كما دلّ عليه قوله تعالى { أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ } [يس:78/77].

(**إذا**) الإتيان بحرف المفاجأة استعارة تبعيّة. استعير الحرف الدال على معنى المفاجأة لمعنى ترتّب الشيء على غير ما يُظنّ أن يترتّب عليه. ولا مفاجأة بالحقيقة هنا، لأنّ الله لم يفجأه ذلك ولا فَجَأ أحدا، ولكن المعنى أنّه بحيث لو تدبّر الناظر في خلق الإنسان لترقّب منه الاعتراف بوحدانيّة خالقه وبقدرته على إعادة خلقه، فإذا سمع منه الإشراك والمجادلة في إبطال الوحدانية وفي إنكار البعث كان كمن فجأه

ذلك. ولمّا كان حرف المفاجأة يدلّ على حصول الفَجْأة للمتكلّم به تعيَّن أن تكون المفاجأة استعارة تبعيّة. فإقحام حرف المفاجأة جعل الكلام مُفْهِما أمرين هما: التعجيب من تطور الإنسان من أمهن حالة إلى أبدع حالة، وهي حالة الخصومة والإبانة الناشئتين عن التفكير والتعقل، والدلالة على كفرانه النعمة وصرفه ما أُنعم به عليه في عصيان المنعِم عليه. فالجملة في حد ذاتها تنويه، وبضميمة حرف المفاجأة أدمجت مع التنويه التعجيب. ولو قيل: فهو خصيم أو فكان خصيما لم يحصل هذا المعنى البليغ.

{ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ [5] وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ [6] وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إلّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ } [7].

{ وَالْأَنْعَامَ } يجوز أن يكون عطفا على { الإِنْسَان } [4]، أي: خلق الإنسان من نطفة والأنعام أيضا مخلوقة من نطفة. فيحصل اعتبار بهذا التكوين العجيب لشبهه بتكوين الإنسان، وفيه امتنان.

ويجوز أن يكون عطف الجملة على الجملة، فيكون نصب { الْأَنْعَامَ } بفعل مضمر يفسّره المذكور بعده على طريقة الاستغلال. فيكون الكلام مفيدا للتأكيد لقصد تقوية الحكم اهتماما بما في الأنعام من الفوائد، فيكون امتنانا على المخاطبين، وتعريضا بهم، فإنّهم كفروا نعمة الله بخلقها فجعلوا من نتاجها لشركائهم وجعلوا لله نصيبا. وأيّ كفران أعظم من أن يتقرّب بالمخلوقات إلى غير من خلقها.

وليس في الكلام حصر على كلا التقديرين.

والمقصود من الاستدلال هو قوله تعالى { وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا } وما بعده إدماج للامتنان.

{ الْأَنْعَامَ } الإبل، والبقر، والغنم، والمعز. وتقدّم في [الأنعام:136]. وأشهر الأنعام عند العرب الإبل، ولذلك يغلب أن يطلق لفظ الأنعام عندهم على الإبل.

والخطاب صالح لشمول المشركين، وهم المقصود ابتداء من الاستدلال، وأن يشمل جميع النّاس ولا سيما فيما تضمّنه الكلام من الامتنان.

الدفء (بكسر الدال) اسم لما يتدفأ به. وهو الثياب المنسوجة من أوبار الأنعام وأصوافها وأشعارها، وتتخذ منها الخيام والملابس. فلمّا كانت تلك مادة النسج جُعل المنسوج كأنّه مظروف في الأنعام.

{ وَمَنَافِعُ } عطف على { دِفْءٌ } من عطف العام على الخاص، لأنّ أمر الدفء قلما تستحضره الخواطر.

{ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ } وهذا امتنان بنعمة تسخيرها للأكل منها والتغذّي. وتقديم المجرور للاهتمام، لأنّهم شديدو الرغبة في أكل اللحوم، وللرعاية على الفاصلة. والإتيان بالمضارع لأنّ ذلك من الأعمال المتكرّرة.

الإراحة: فعل الرواح، وهو الرجوع إلى المعاطن، يقال: أراح نعمه إذا أعادها بعد السروح.

السروح: الإسامة، أي: الغدو بها إلى المراعي. يقال: سرَحها (بتخفيف الراء) سَرَحا وسُرَوحا، وسرّحها (بتشديد الراء) تسريحا.

وتقديم الإراحة على التسريح لأنّ الجَمال عند الإراحة أقوى وأبهج، لأنّها تُقبل حينئذ ملأى البطون حافلة الضروع مرحة بمسرّة الشبع ومحبة الرجوع إلى منازلها من معاطن ومرابض.

واستعمال المضارع لأنّ ذلك من الأحوال المتكرّرة. وفي تكرّرها تكرّر النعمة بمناظرها.

{ **وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ** } الضمير عائد إلى بعض الأنعام بالقرينة. والمضارع لنفس الغاية.

الأثقال: جمع ثَقَل (بفتحتين) وهو ما يثقل على النّاس حمله بأنفسهم.

{ **إِلَى بَلَدٍ** } الذي يرتحلون إليه كالشام واليمن بالنسبة إلى أهل الحجاز، ومنهم أهل مكّة في رحلة الصيف والشتاء، والرحلة إلى الحجّ.

{ **لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ** } صفة لـ { بَلَدٍ }، وهي مفيدة معنى البعد، لأنّ بلوغ المسافر إلى بلد بمشقّة هو من شان البلد البعيد، أي: لا تبلغونه بدون الأنعام الحاملة أثقالكم.

الشِقّ (بكسر الشين) في قراءة الجمهور: المشقّة: التعب الشديد. والباء للملابسة.

{ **إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ** } تعليل لجملة { وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا }، أي: خلقها لهذه المنافع لأنّه رؤوف رحيم بكم.

{ **وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ** } [8].

{ **وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً** }. معطوف على { وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا } [5]، فالتقدير: وخلق الخيل.

والقول في مناط الاستدلال وما بعده من الامتنان والعبرة في كلٍّ كالقول فيما تقدّم من قوله تعالى { وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ }.

{ **لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً** } أي: خلقها الله لتكون مراكب للبشر، ولولا ذلك لم تكن في وجودها فائدة لعمران العالم.

{ **وَزِينَةً** } بالنصب عطفا على شبه الجملة { لِتَرْكَبُوهَا }، فجُنِّب قرنه بلام التعليل من أجل توفر شرط انتصابه على المفعولية لأجله، لأنّ فاعله وفاعل عامله واحد (خَلَقَ) في قوله تعالى { وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا }. وهذا النصب أوضح دليل على أنّ المفعول لأجله منصوب على تقدير لام التعليل.

وقد اقتصر على منّة الركوب على الخيل والبغال والحمير والزينة، ولم يذكر الحمل عليها كما قال في شأن الأنعام، لأنّهم لم تكن من عادتهم الحمل على الخيل والبغال والحمير، فإنّ الخيل كانت تركب للغزو وللصيد، والبغال تركب للمشي والغزو، والحمير تركب للتنقل في القرى وشبهها.

وفي حديث البخاري عن ابن عباس في حجّة الوداع أنّه قال:" جئت على حمار أتان ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بالنّاس".

فلا يتعلّق الامتنان بنعمة غير مستعملة عند المنعم عليهم، وإن كان الشيء المنعم به قد تكون له منافع لا يقصدها المخاطبون، مثل الحرث بالإبل والخيل والبغال والحمير، وهو مما يفعله المسلمون ولا يعرف منكر عليهم. أو منافع لم يتفطّن لها المخاطبون مثل ما ظهر من منافع الأدوية في الحيوان، ممّا لم يكن معروفا للنّاس من قبل، فيدخل كل ذلك في عموم قوله تعالى { هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً} [البقرة:29].

<u>وبهذا يُعلم أن لا دليل في هذه الآية على تحريم أكل لحوم الخيل والبغال والحمير</u> لأنّ أكلها نادر الخطور بالبال لقلته، وكيف وقد أكل المسلمون لحوم الحمر في غزوة خيبر بدون أن يستأذنوا النبيّ صلى الله عليه وسلم وكانوا في حالة اضطرار، وآية سورة النحل يومئذ مقروءة منذ سنين كثيرة فلم ينكر عليهم أحد ولا أنكره النبيّ صلى الله عليه وسلم.

كما جاء في الصحيح: أنّه أتي فقيل له: أُكلت الحُمر، فسكت، ثم أتي فقيل: أُكلت الحمر فسكت. ثم أتي فقيل: أُفنيت الحمر فنادى منادي النبيّ صلى الله عليه وسلم: أنّ الله ورسوله ينهانكم عن أكل لحوم الحمر. فأهرقت القدور.

<u>فأمّا الخيل والبغال ففي جواز أكلها خلاف قوي بين أهل العلم، وجمهورهم أباحوا أكلها</u>. وهو قول الشافعي وأحمد وأبي يوسف ومحمد ابن الحسن والظاهري. وروي عن ابن مسعود وأسماء بنت أبي بكر وعطاء والزهري والنخعي وابن جبير. وقال مالك وأبو حنيفة: يحرم أكل لحوم الخيل. وروي عن ابن عباس، واحتج بقوله تعالى { لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً }، ولو كانت مباحة الأكل لامتنّ بأكلها كما امتن في الأنعام بقوله { وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ } [5]. وهو دليل لا ينهض بمفرده. فيُجاب عنه بما قرّرنا من جريان الكلام على مراعاة عادة المخاطبين به. وقد ثبتت أحاديث كثيرة أنّ المسلمين أكلوا لحوم الخيل في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلمه. ولكنّه كان نادرا في عادتهم.

وعن مالك رضي الله عنه رواية بكراهة لحوم الخيل واختار ذلك القرطبي.

وأما الحمير فقد ثبت أكل المسلمين لحومها يوم خيبر. ثم نهوا عن ذلك كما في الحديث المتقدّم. واختُلف في محمل ذلك، فحمله الجمهور على التحريم لذات الحمير. وحمله بعضهم على تأويل أنّها كانت حمولتهم يومئذ فلو استرسلوا على أكلها لانقطعوا بذلك المكان فآبوا رجالا ولم يستطيعوا حمل أمتعتهم. وهذا رأي فريق من السلف. وأخذ فريق من السلف بظاهر النهي فقالوا بتحريم أكل لحوم الحمر الإنسية لأنّها مورد النهي وأبقوا الوحشية على الإباحة الأصلية. وهو قول جمهور الأئمة، مالك وأبي حنيفة والشافعي، وغيرهم.

وفي هذا إثبات حكم تعبّدي في التفرقة وهو ممّا لا ينبغي المصير إليه في الاجتهاد إلّا بنص لا يقبل

التأويل كما بيّنّاه في كتاب (مقاصد الشريعة الإسلامية). على أنّه لا يُعرف في الشريعة أن يُحرَّم صنف إنسي لنوع من الحيوان دون وحشيّه.

وأما البغال فالجمهور على تحريمها. فأمّا من قال بحرمة أكل الخيل فلأن البغال صنف مركّب من نوعين محرّمين، فتعيّن أن يكون أكله حراما. ومن قال بإباحة أكل الخيل فلتغليب تحريم أحد النوعين المركّب منهما وهو الحمير على تحليل النوع الآخر وهو الخيل. وعن عطاء أنّه رآها حلالا.

الخيل: اسم جمع لا واحد له من لفظه على الأصحّ. وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ } [آل عمران:14].

{ **الْبِغَالَ** } جمع بغل، وهو اسم للذكر والأنثى من نوع أمّه من الخيل وأبوه من الحمير. وهو من الأنواع النادرة والمتولّدة من نوعين. وعكسه البرذَوْن. ومن خصائص البغال عقم أنثاها بحيث لا تلد.

{ **الْحَمِيرَ** } جمع تكسير حمار وقد يُجمع على أحمرة وعلى حمر. وهو غالب للذكر من النوع، وأمّا الأنثى فأتان. وقد روعي في الجمع التغليب.

{ **وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** } اعتراض في آخر الكلام أو في وسطه على ما سيأتي.

{ **وَيَخْلُقُ** } مضارع مراد به زمن الحال لا الاستقبال، فكما خلق لهم الأنعام والكراع خلق لهم ويخلق لهم خلائق أخرى لا يعلمونها الآن، فيدخل في ذلك ما هو غير معهود أو غير معلوم للمخاطبين وهو معلوم عند أمم أخرى كالفيل عند الحبشة والهنود، وما هو غير معلوم لأحد ثم يعلمه النّاس من بعد، مثل دواب الجهات القطبية كالفقمة والدب الأبيض. ودواب القارة الأمريكية التي كانت مجهولة للناس في وقت نزول القرآن، فيكون المضارع مستعملا في الحال للتجديد، أي: هو خالق ويخلق.

وقيل: يدخل فيه ما يخلقه الله من المخلوقات في الجنّة، غير أنّ ذلك خاص بالمؤمنين، فالظاهر أنّه غير مقصود من سياق الامتنان العام للناس، المتوسلّ به إلى إقامة الحجّة على كافري النعمة.

فالذي يظهر لي أنّ هذه الآية من معجزات القرآن الغيبية العلمية، وأنّها إيماء إلى أنّ الله سيلهم البشر اختراع مراكب هي أجدى عليهم من الخيل والبغال والحمير. وإلهام الله النّاس لاختراعها هو ملحق بخلق الله، فالله هو الذي ألهم المخترعين من البشر بما فطرهم عليه من الذكاء والعلم وبما تدرّجوا في سلم الحضارة واقتباس بعضهم من بعض إلى اختراعها، فهي بذلك مخلوقة لله تعالى لأنّ الكلّ من نعمته.

{ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ } [9].

جملة معترضة. اقتضت اعتراضها مناسبة الامتنان بنعمة تيسير الأسفار بالرواحل والخيل والبغال والحمير. فلمّا ذُكرت نعمة تيسير السبيل الموصلة إلى المقاصد الجثمانية ارتُقي إلى التذكير بسبيل الوصول إلى المقاصد الروحانيّة، وهو سبيل الهدى، فكان تعهّد الله بهذا السبيل نعمة أعظم من تيسير المسالك الجثمانية لأنّ سبيل الهدى تحصل به السعادة الأبدية. وهذا السبيل هي موهبة العقل الإنساني

الفارق بين الحقّ والباطل، وإرسال الرسل لدعوة النّاس إلى الحقّ، وتذكيرهم بما يغفلون عنه، وإرشادهم إلى ما لا تصل إليه عقولهم أو تصل إليه بمشقّة على خطر من التورّط في بُنيّات الطريق.

السبيل: مجاز لما يأتيه النّاس من الأعمال من حيث هي موصلة إلى دار الثواب أو دار العقاب، كما في قوله تعالى { قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي } [يوسف:108]. لأنّه لمّا شُرحت دلائل التوحيد ناسب التنبيه على أنّ ذلك طريق للهدى، وأنّ من بين الطرق التي يسلكها النّاس طريق ضلال وجور.

{ **وَعَلَى اللَّهِ** } حرف (على) مستعار كثيرا في القرآن وكلام العرب لمعنى التعهّد بتبيين سبيل الهدى، كقوله تعالى { إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى } [الليل:12].

القصد: استقامة الطريق. وقع هنا وصفا للسبيل، من قبيل الوصف بالمصدر، لأنّه يقال: طريق قاصد، أي: مستقيم، وذلك أقوى في الوصف بالاستقامة، كشأن الوصف بالمصادر.

{ **جَائِرٌ** } وصف لـ { السَّبِيلِ } باعتبار استعماله مذكّرا. و**الجائر**: هو الحائد عن الاستقامة. وكُنّي به عن طريق غير موصل إلى المقصود، أي: إلى الخير، وهو المفضي إلى ضرّ، فهو جائر بسالكه. ووصفه بالجائر على طريقة المجاز العقلي. ولم يضف السبيل الجائر إلى الله لأنّ سبيل الضلال اخترعها أهل الضلالة اختراعا لا يشهد له العقل الذي فطر الله النّاس عليه، وقد نهى الله النّاس عن سلوكها.

{ **وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ** } تذييل.

{ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ } [10].

استئناف لذكر دليل آخر من مظاهر بديع خلق الله تعالى أدمج فيه امتنان بما يأتي به ذلك الماء العجيب من المنافع للناس؛ من نعمة الشراب ونعمة الطعام للحيوان، الذي به قوام حياة النّاس، وللنّاس أنفسهم.

{ **هُوَ الَّذِي** } صيغة تعريف المسند إليه والمسند أفادت الحصر، أي: هو لا غيره. وهذا قصر على خلاف مقتضى الظاهر، لأنّ المخاطبين لا ينكرون ذلك ولا يدّعون له شريكا في ذلك، ولكنهم لمّا عبدوا أصناما لم تُنعم عليهم بذلك كان حالهم كحال من يدَّعي أنّ الأصنام أنعمت عليهم بهذه النعم، فنزلوا منزلة من يدَّعي الشركة لله في الخلق، فكان القصر قصر إفراد تخريجا للكلام على خلاف مقتضى الظاهر.

{ **أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** } تقدّم عند قوله تعالى { وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ } [البقرة:22]. وذُكر في الماء منّتين: الشراب منه، والإنبات للشجر والزرع.

الشراب: اسم للمشروب، وهو المائع الذي تشتقّه الشفتان وتُبلّغه إلى الحلق فيُبلعُ دون مضغ.

{ **وَمِنْهُ شَجَرٌ** } حرف (من) هنا للابتداء، أو للسببيّة، فلا يحسن عطف { شَجَرٌ } على { شَرَابٌ }.

الشجر: يطلق على النبات ذي الساق الصلبة، ويطلق على مطلق العشب والكلأ تغليبا. وروعي هذا التغليب هنا لأنّه غالب مرعى أنعام أهل الحجاز لقلّة الكلأ في أرضهم، فهم يرعون الشعاري والغابات.

{ **فِيهِ تُسِيمُونَ** } ومن الدقائق البلاغية الإتيان بحرف (في) الظرفية هنا، فالإسامة فيه تكون بالأكل منه

والأكل مما تحته من العشب.

الإسامة: إطلاق الإبل للسوم وهو **الرعي**. يقال: سامت الماشية فهي سائمة.

{ **يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** } [11].

لم يعطف هذا على جملة { لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ } [10] لأنّه ليس ممّا يحصل بنزول الماء وحده بل لا بد معه زرع وغرس. وهذا الإنبات من دلائل عظيم القدرة الربّانيّة، فالغرض منه الاستدلال ممزوجا بالتذكير بالنعمة، كما دلّ عليه قوله { لَكُمْ } على وزان ما تقدّم في قوله تعالى { وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ } [5]. وأُسند الإنبات إلى الله لأنّه الملهم لأسبابه والخالق لأصوله تنبيها للنّاس على دفع غرورهم بقدرة أنفسهم، ولذلك قال تعالى { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } لكثرة ما تحت ذلك من الدقائق.

{ **الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ** } تقدّم غير مرة في سورة الأنعام.

{ **وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ** } أي: وينبت لكم به من الثمرات ممّا لم يُذكر هنا. والتعريف تعريف الجنس.

والمراد: أجناس ثمرات الأرض التي ينبتها الماء، ولكلّ قوم من النّاس ثمرات أرضهم وجوّهم.

{ **مِنْ** } تبعيضية قُصد منها تنويع الامتنان على كلّ قوم بما نالهم من نعم الثمرات. وإنّما لم تدخل على الزرع وما عطف عليه لأنّها من الثمرات التي تنبت في كل مكان.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** } تذييل. والتفكّر تقدّم عند قوله تعالى { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ } [الأنعام:50].

{ **لَآيَةً** } الدلالة على أنّه تعالى المبدع الحكيم. ونيطت دلالة هذه بوصف التفكير لأنّها دلالة خفيّة لحصولها بالتدريج. وهو تعريض بالمشركين الذين لم يهتدوا بما في ذلك من دلالة على تفرد الله بالإلهية بأنّهم قوم لا يتفكّرون.

{ **وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** } [12].

آيات أخرى على دقيق صنع الله تعالى وعلمه ممزوجة بامتنان. وتقدّم ما يفسّر هذه الآية في صدر سورة يونس. وتسخير هذه الأشياء تقدّم عند قوله تعالى { وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِلَّا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ } [الأعراف:54]، وفي أوائل سورة الرعد وفي سورة إبراهيم.

{ **لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** } نيطت الدلالات بوصف العقل لأنّ أصل العقل كاف في الاستدلال بها على الوحدانيّة والقدرة، إذ هي دلائل بيّنة واضحة حاصلة بالمشاهدة كل يوم وليلة. والجملة تذييل.

وقرأ الجمهور جميع هذه الأسماء منصوبة على المفعولية لفعل { **سَخَّرَ**}. وقرأ ابن عامر { وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ } بالرفع على الابتداء ورفع { مُسَخَّرَاتٌ } على أنّه خبر عنها. فنكتة اختلاف الإعراب الإشارة إلى الفرق بين التسخيرين. وقرأ حفص برفع { وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ}. ونكتة اختلاف الأسلوب الفرق بين التسخيرين من حيث إنّ الأول واضح والآخر خفي لقلّة من يرقب حركات النجوم.

{ **بِأَمْرِهِ** } أمر التكوين للنظام الشمسي المعروف.

{ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ } [13].

الذرء: الخلق بالتناسل والتولّد بالحمل والتفريخ، فليس الإنبات ذرءا، وهو شامل للأنعام والكراع، وقد مضت المنّة به، ولغيرها مثل كلاب الصيد والحراسة، وجوارح الصيد، والطيور، والوحوش المأكولة، ومن الشجر والنبات.

{ **مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ** } زيادة للتعجيب ولا دخل له في الامتنان، فهو كقوله تعالى { يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ } [الرعد:4]، وقوله تعالى { وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌوَمِنَ النّاس وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ } [فاطر:27]. وبذلك صار هذا آية مستقلّة فلذلك ذيّله بجملة { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ }، ولكون محل الاستدلال هو اختلاف الألوان مع اتحاد أصل الذرء.

الألوان: جمع لون. وقد تقدّم عند قوله تعالى { قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا } [البقرة:69].

{ **لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ** } نيط الاستدلال باختلاف الألوان بوصف التذكّر لأنّه استدلال يحصل بمجرد تذكر الألوان المختلفة إذ هي مشهورة. وإقحام لفظ (قوم)، وكون الجملة تذييلا تقدّم آنفا.

{ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [14].

القول في هذا الاستدلال وإدماج الامتنان فيه كالقول فيما سبق.

وتقدّم الكلام على تسخير الفلك في البحر وتسخير الأنهار في [إبراهيم:32].

ومن تسخير البحر خلقه على هيئة يمكن معها السبح والسير بالفلك، وتمكين السابحين والماخرين من صيد الحيتان المخلوقة فيه. وزيد في الامتنان أنّ لحم صيده طري.

الطريّ: ضد اليابس. والمصدر: الطراوة. وفعله: طَرُوَ، بوزن خَشُنَ.

الحِلْية: ما يتحلّى به النّاس، أي: يتزيّنون. وتقدّم في قوله تعالى { ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ } [الرعد:17]. وذلك اللؤلؤ والمرجان، فاللؤلؤ يوجد في بعض البحار مثل الخليج الفارسي، والمرجان يوجد في جميع البحار ويكثر

ويقلّ. وسيأتي الكلام على اللؤلؤ في سورة الحجّ، وفي سورة الرحمان، ويأتي معه الكلام على المرجان.

الاستخراج: كثرة الإخراج، فالسين والتاء للتأكيد.

اللبس: جعل الثوب والعمامة والمصوغ على الجسد. يقال: لبس الخاتم، ولبس القميص. وتقدّم عند قوله تعالى { قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً } [الأعراف:26]. وإسناد لباس الحلية إلى ضمير جمع الذكور تغليب، وإلّا فإنّ غالب الحلية يلبسها النساء، عدا الخواتيم وحلية السيوف.

{ **وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ** } معترضة بين الجمل المتعاطفة مع إمكان العطف لقصد مخالفة الأسلوب للتعجيب من تسخير السير في البحر باستحضار الحالة العجيبة بواسطة فعل الرؤية. وهو يُستعمل في التعجيب كثيرا بصيغ متعدّدة نحو (ولو ترى، وأرأيت، وماذا ترى). واجتلاب فعل الرؤية يفيد الحثّ على معرفة ذلك.

{ **وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِه** } عطف على { وَتَسْتَخْرِجُوا } ليكون من جملة النعم التي نشأت عن حكمة تسخير البحر. وأعيد حرف التعليل لأجل البعد بسبب الجملة المعترضة.

الابتغاء من فضل الله: التجارة كما في قوله { لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ } [البقرة:198].

{ **وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** } عطف على بقية العلل، لأنّه من الحكم التي سخر الله بها البحر للنّاس، حملا لهم على الاعتراف لله بالعبودية ونبذهم إشراك غيره فيها. وهو تعريض بالذين أشركوا.

{ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ [15] وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ [16] }.

انتقال إلى الاستدلال والامتنان بما على سطح الأرض من المخلوقات العظيمة التي في وجودها لطف بالإنسان.

{ **وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ** } لمّا كانت هذه المخلوقات مجعولة كالتكملة للأرض وموضوعة على ظاهر سطحها عُبّر عن خلقها ووضعها بالإلقاء الذي هو رمي شيء على الأرض. ولعلّ خلقها كان متأخّرا عن خلق الأرض، إذ لعلّ الجبال انبثقت باضطرابات أرضية كالزلزال العظيم ثم حدثت الأنهار بتهاطل الأمطار. وأمّا السبل والعلامات فتأخّر وجودها ظاهر، فصار خلق هذه الأربعة شبيها بإلقاء شيء في شيء بعد تمامه. وإطلاقه على وضع السبل والعلامات تغليب.

{ **رَوَاسِيَ** } جمع راسٍ. وهو وصف من الرسْو (بفتح الراء وسكون السين). وهو الثبات والتمكّن في المكان، قال تعالى { وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ } [سبأ:13].

{ **أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ** } تعليل لإلقاء الرواسي في الأرض. و**الميد**: الاضطراب. والضمير عائد إلى { الْأَرْضِ } بقرينة قرنه بقوله تعالى { بِكُمْ }. ولمّا كان المقام مقام امتنان علم أنّ المعلّل به هو انتفاء الميد لا وقوعه.

فالكلام جار على حذف تقتضيه القرينة، ومثله كثير في القرآن وكلام العرب. والاضطراب يُعطّل مصالح النّاس ويلحق بهم آلاما.
{ **وَأَنْهَاراً** } نعمة الأنهار عظيمة، فإنّ منها شرابهم وسقي حرثهم، وفيها تجري سفنهم لأسفارهم.
{ **وَسُبُلاً** } جمع سبيل. وهو الطريق الذي يُسافر فيه برا.
{ **لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** } معترضة، أي: رجاء اهتدائكم. وهو كلام موجّه. لأنّ في تلك الأشياء دلالة على الخالق المتوحّد بالخلق.
{ **وَعَلامَاتٍ** } الأمارات التي ألهم الله النّاس أن يضعوها أو يتعارفوها، لتكون دلالة على المسافات والمسالك المأمونة في البرّ والبحر فتتبعها السابلة.
{ **وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ** } هذه منّة بالاهتداء في الليل، لأنّ السبيل والعلامات إنّما تهدي في النهار، وقد يضطر السالك إلى السير ليلا. فمواقع النجوم علامات لاهتداء النّاس السائرين ليلا. وأخصّ من يهتدي بها البحّارة، لأنّهم لا يستطيعون الإرساء في كلّ ليلة فهم مضطرّون إلى السير ليلا. وهي هداية عظيمة، ولذلك قُدّم المتعلّق { وَبِالنَّجْمِ } تقديما يفيد الاهتمام، وكذلك بالمسند الفعلي { هُمْ يَهْتَدُونَ }.
وعُدل عن الخطاب إلى الغيبة التفاتا يومئ إلى فريق خاص وهم السيّارة والملّاحون فإنّ هدايتهم بهذه النجوم لا غير.
{ **وَبِالنَّجْمِ** } تعريف الجنس. والمقصود منه النجوم التي تعارفها النّاس للاهتداء بها مثل القطب. وتقدّم في قوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا } [الأنعام:97].

{ **أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ [17] وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ [18]** }.
بعد أن أقيمت الدلائل على انفراد الله بالخلق، وثبتت المنّة وحقّ الشكر، فُرّع على ذلك هاتان الجملتان لتكونا كالنتيجتين للأدلة السابقة، إنكارا على المشركين. فالاستفهام عن المساواة إنكاري، أي: لا يستوي من يخلق بمن لا يخلق. فالكاف للماثلة، وهي مورد الإنكار حيث جعلوا الأصنام آلهة شريكة لله تعالى. ومن مضمون الصلتين يُعرف أيّ الموصولين أولى بالإلهية.
{ **كَمَنْ لَا يَخْلُقُ** } حين كان المراد الأصنام كان إطلاق (من) الغالبة في العاقل مشاكلة.
{ **أَفَلا تَذَكَّرُونَ** } الاستفهام مستعمل في الإنكار على انتفاء التذكّر، وذلك يختلف باختلاف المخاطبين. فهو إنكار على إعراض المشركين عن التذكّر في ذلك.
{ **وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا** } عطف على { أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ }، وهي كالتكملة لها، لأنّها نتيجة لما تضمّنته تلك الأدلة من الامتنان كما تقدّم. وهي بمنزلة التذييل للامتنان، لأنّ فيها عموما يشمل النعم المذكورة وغيرها.

وهذا كلام جامع للتنبيه على وفرة نعم الله تعالى على النّاس بحيث لا يستطيع عدّها العادون. وفي هذا إيماء إلى الاستكثار من الشكر على مجمل النعم، وتعريض بفظاعة كفر من كفروا بهذا المنعم، وتغليظ التهديد لهم. وتقدّم نظيرها في [إبراهيم:34].

{ **إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** } استئناف عُقّب به تغليظ الكفر والتهديد عليه، تنبيها على تمكّنهم من تدارك أمرهم بأن يقلعوا عن الشرك، ويتأهّبوا للشكر بما يطيقون، على عادة القرآن من تعقيب الزواجر بالرغائب كيلا يقنط المسرفون.

وقد خولف بين ختام هذه الآية وختام آية سورة إبراهيم، إذ وقع هنالك { وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ } [ابراهيم:34]، لأنّ تلك جاءت في سياق وعيد وتهديد عقب قوله تعالى { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً } [ابراهيم:28] فكان المناسب لها تسجيل ظلمهم وكفرهم بنعمة الله. وأمّا هذه الآية فقد جاءت خطابا للفريقين كما كانت النعم المعدودة عليهم منتفعا بها كلاهما.

ثم كان من اللطائف أن قوبل الوصفان اللذان في آية سورة إبراهيم { لَظَلُومٌ كَفَّارٌ } بوصفين هنا { لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } إشارة إلى أنّ تلك النعم كانت سببا لظلم الإنسان وكفره وهي سبب لغفران الله ورحمته. والأمر في ذلك منوط الإنسان.

{ **وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ** } [19].

عطف على { أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ }. فبعد أن أُثبِت أنّ الله منفرد بصفة الخلق دون غيره بالأدلة العديدة ثم باستنتاج ذلك بقوله { أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ }، انتُقل هنا إلى إثبات أنّه منفرد بعموم العلم.

ولم يُقدّم لهذا الخبر استدلال ولا عُقّب بالدليل لأنّه ممّا دلّت عليه أدلة الانفراد بالخلق، لأنّ خالق أجزاء الإنسان الظاهرة والباطنة يجب له أن يكون عالما بدقائق حركات تلك الأجزاء وهي بين ظاهر وخفي.

والمخاطَب هنا هم المخاطبون بقوله تعالى { أَفَلا تَذَكَّرُونَ } [17]، وفيه تعريض بالتهديد والوعيد بأنّ الله محاسبهم على كفرهم.

وفيه إعلام بأنّ أصنامهم بخلاف ذلك كما دلّ عليه تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي فإنّه يفيد القصر لرد دعوى الشركة.

{ **وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ** [20] **أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ** [21] }.

الخطاب هنا متمحّض للمشركين وهم بعض المخاطبين في الضمائر السابقة. والمقصود من هذه الجملة التصريح بما استُفيد ضمنا ممّا قبلها، وهو نفي الخالقيّة ونفي العلم عن الأصنام.

{ **لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً** } الخبر الأول استُفيد من جملة { أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ } [17]. وعُطف عليه قوله تعالى { **وَهُمْ يُخْلَقُونَ** } ارتقاء في الاستدلال على انتفاء إلهيتها.

{ **أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ** } الخبر الثاني استُفيد من جملة { وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ } [19] بطريقة نفي الشيء بنفي ملزومه. وهي طريقة الكناية التي هي كذكر الشيء بدليله. فنفي الحياة عن الأصنام {غَيْرُ أَحْيَاءٍ} يستلزم نفي العلم عنها، لأنّ الحياة شرط في قبول العلم، ومن كان هكذا فهو غير إله.

{ **يُخْلَقُونَ** } أسند إلى النائب لظهور الفاعل من المقام، أي: وهم مخلوقون لله تعالى، فإنّهم من الحجارة التي هي من خلق الله. كما قال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام { وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ } [الصافات:96].

{ **غَيْرُ أَحْيَاءٍ** } تأكيد لمضمون جملة { أَمْوَاتٌ }، بأنّه ليس فيها شائبة حياة لأنّها حجارة .

{ **وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ** } إدماج لإثبات البعث عقب الكلام على إثبات الوحدانية لله تعالى، لأنّ هذين هما أصل إبطال عقيدة المشركين، وتمهيد لوجه التلازم بين إنكار البعث وبين إنكار التوحيد في قوله تعالى { فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ } [22].

وفيه تهديد بأنّ البعث الذي أنكروه واقع وأنّهم لا يدرون متى يبغتهم، كما قال تعالى { لا تَأْتِيكُمْ إِلّا بَغْتَةً } [الأعراف:187].

البعث: حقيقته الإرسال من مكان إلى آخر. ويطلق على إثارة الجاثم. ومنه قولهم: بعثت البعير، إذا أثرته من مبركه. وقد غلب البعث في اصطلاح القرآن على إحضار النّاس إلى الحساب بعد الموت. فمن كان منهم ميّتا فبعثه من جدثه، ومن كان منهم حيا فصادفته ساعة انتهاء الدنيا فمات ساعتئذ فبعثه هو إحياؤه عقب الموت.

{ **أَيَّانَ** } اسم استفهام عن الزمان. مركبة من (أي) و (آن) بمعنى: أي زمن، وهي معلّقة لفعل {يَشْعُرُونَ} عن العمل بالاستفهام، والمعنى: وما يشعرون بزمن بعثهم. وتقدّم في قوله تعالى { يَسْأَلونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا } [الأعراف:187].

{ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ [22] لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ [23] }.

استئناف نتيجة لحاصل المحاجة الماضية، أي: قد ثبت بما تقدّم إبطال إلهيّة غير الله، فثبت أنّ لكم إلها واحدا لا شريك له، ولكون ما مضى كافيا في إبطال إنكارهم الوحدانيّة عُرّيت الجملة عن المؤكِّد تنزيلا لحال المشركين، بعدما سمعوا من الأدلة، منزلة من لا يُظنّ به أنّه يتردّد في ذلك، بخلاف قوله تعالى { إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ } [الصافات:4]، لأنّ ذلك ابتداء كلام لم يتقدّمه دليل، كما أنّ قوله { وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ } [البقرة:163] خطاب لأهل الكتاب.

{ **فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ** } هو تفريع الأخبار عن الأخبار، أي: يتفرَّع على هذه القضية القاطعة بما تقدّم من الدلائل أنّ قلوبكم منكرة وأنّكم مستكبرون، وأنّ ذلك ناشئ عن عدم إيمانكم بالآخرة.

والتعبير عن المشركين بالموصول وصلته لأنّهم قد عُرفوا بمضمون الصلة واشتهروا بها اشتهار لمز وتنقيص عند المؤمنين، كقوله تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا} [الفرقان:21]، وللإيماء إلى أنّ لهذه الصلة ارتباطا باستمرارهم على العناد. لأنّ انتفاء إيمانهم بالبعث والحساب قد جرّأهم على نبذ دعوة الإسلام ظِهريّا فلم يتوقّعوا مؤاخذة على نبذها.

{ **قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ** } جاحدة بما هو واقع. استُعمل الإنكار في جحد الأمر الواقع لأنّه ضدّ الإقرار. فحُذف متعلّق { مُنْكِرَةٌ } لدلالة المقام عليه، أي: منكرة للوحدانيّة. وعُبّر بالجملة الاسمية للدلالة على أنّ الإنكار ثابت لهم دائم. وذلك يفيد أنّ الإنكار صار لهم سجيّة.

{ **وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ** } بنيت على الاسمية، كذلك، للدلالة على تمكّن الاستكبار منهم. وقد خولف ذلك في قوله {لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً } [الفرقان:21] لأنّ تلك الآية لم تتقدّمها دلائل على الوحدانية، مثل الدلائل المذكور في هذه الآية.

{ **لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ** } معترضة بين الجملتين المتعاطفتين.

الجَرَم (بالتحريك): أصلهُ البُدُّ. وكثر في الاستعمال حتّى صار بمعنى **حَقًّا**. وتقدّم عند قوله تعالى { لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ } [هود:22].

{ **أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ** } في موضع جر بحرف جر محذوف متعلّق بـ { جَرَمَ }. والتقدير: لا جرم في أنّ الله يعلم أو لا جرم من أنّه يعلم، أي: لا بدّ أنّه يعلم. والجملة كناية عن الوعيد بالمؤاخذة بما يُخفون وما يُظهرون من الإنكار والاستكبار.

{ **إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ** } واقعة موقع التعليل والتذييل، لأنّ الذي لا يحبّ فعلا وهو قادر يجازي فاعله بالسوء. والتعريف للاستغراق، لأنّ شأن التذييل العموم. ويشمل هؤلاء المتحدَّث عنهم فيكون إثبات العقاب لهم كإثبات الشيء بدليله.

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ [24] لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ [25] }.

عطف على { قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ } [22] لأنّ مضمون هذه من أحوالهم المتقدّم بعضها، فإنّه ذكر استكبارهم وإنكارهم الوحدانيّة، وأتبع بمعاذيرهم الباطلة لإنكار نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم، وبصدّهم النّاس عن اتباع الإسلام. والتقدير: قلوبهم منكرة ومستكبرة فلا يعترفون بالنبوّة ولا يخلّون بينك وبين من يتطلّب الهدى.

{ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ** } ذكْر فعل القول يقتضي صدوره عن قائل يسألهم عن أمر حدث بينهم، وليس على سبيل الفرض، وأنّهم يجيبون بما ذُكر مكرا بالدين وتظاهرا بمظهر الناصحين للمسترشدين. وقد ذكر المفسّرون أنّ قريشا لمّا أهمّهم أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم ورأوا تأثير القرآن في نفوس النّاس، وأخذ أتباع الإسلام يكثرون، وصار الواردون إلى مكّة في موسم الحجّ وغيره يسألون النّاس عن هذا القرآن وماذا يدعو إليه، دبّر لهم الوليد بن المغيرة معاذير واختلاقا يختلقونه ليقنعوا السائلين به، فندب منهم ستة عشر رجلا بعثهم أيام الموسم يقعدون في عقبات مكّة وطرقها التي يرد منها النّاس، يقولون لمن سألهم لا تغترّوا بهذا الذي يدّعي أنّه نبيّ فإنّه مجنون أو ساحر أو شاعر أو كاهن، وأنّ الكلام الذي يقوله أساطير من أساطير الأولين اكتتبها. وقد تقدّم ذلك في [الحِجر:90]. وكان النضر بن الحارث يقول: " أنا أقرأ عليكم ما هو أجمل من حديث محمد أحاديث رستم وإسفنديار". وتقدّم ذكره عند قوله تعالى { وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ } [الأنعام:93].

ومساءلة العرب عن بعث النبيّ صلى الله عليه وسلم كثيرة واقعة. وأصرحها ما رواه البخاري عن أبي ذرّ أنّه قال: " كنت رجلا من غفار فبلغنا أنّ رجلا قد خرج بمكّة يزعم أنّه نبيّ، فقلت لأخي أُنيس: انطلق إلى هذا الرجل كلّمه وائتني بخبره، فانطلق فلقيه ثم رجع، فقلت: ما عندك؟ فقال: والله لقد رأيت رجلا يأمر بالخير وينهى عن الشرّ. فقلت: لم تشفني من الخبر، فأخذت جرابا وعصا ثم أقبلت إلى مكّة فجعلت لا أعرفه وأكره أن أسأل عنه، وأشرب من ماء زمزم وأكون في المسجد..." إلى آخر الحديث.

{ **مَاذَا** } كلمة مركّبة من (ما) الاستفهامية واسم الإشارة. والتقدير: هذا الذي أنزل ربكم ما هو؟ وتقدّم عند قوله تعالى { يَسْأَلونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ } [البقرة:215].

{ **أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ** } خبر مبتدأ محذوف دلّ عليه ما في السؤال. والتقدير: هو أساطير الأوّلين.

الأساطير: قال المبرّد: جمع أُسطورة (بضم الهمزة) كأرجوحة. وهي مؤنثة باعتبار أنها قصة مكتوبة. وهذا الذي ذكره المبرّد أولى لأنّها أساطير في الأكثر يعني بها القصص لا كلّ كتاب مسطور. وقد تقدّم عند قوله تعالى { يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } [الأنعام:25].

{ **لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ** } غاية وليست بعلّة لأنّهم لمّا قالوا { أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } لم يريدوا أن يكون قولهم سببا لأنّ يحملوا أوزار الذين يضلّونهم، فاللام مستعملة مجازا في العاقبة مثل { فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً } [القصص:8].

الأوزار: جمع وِزْر وهو الثقل. واستعمل في الجرم والذنب، لأنّه يثقل فاعله عن الخلاص من الألم والعناء، فأصل ذلك استعارة بتشبيه الجرم والذنب بالوزر. وشاعت هذه الاستعارة. كما يُعبّر عن الذنوب بالأثقال قال تعالى { وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ } [العنكبوت:13].

{ **كَامِلَةً** } تحقيقا لوفائها وشدّة ثقلها، ليسري ذلك إلى شدة ارتباكهم في تبعاتها، إذ هو المقصود من إضافة الحمل إلى الأوزار.

{ **وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ** } { **مِنْ** } للسببية، والتقدير: ويحملوا أوزارا ناشئة عن أوزار الذين يضلّونهم، أي: ناشئة لهم عن تسبّبهم في ضلال المضلَّلين (بفتح اللام). وفي الحديث الصحيح: **" ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا ".**

{ **بِغَيْرِ عِلْمٍ** } في موضع الحال، أي: يضلّون ناسا غير عالمين، يحسبون إضلالهم نصحا. والمقصود من هذا الحال تفظيع التضليل لا تقييده.

{ **أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ** } تذييل. افتح بحرف التنبيه اهتماما بما تضمّنه للتحذير من الوقوع فيه أو للإقلاع عنه.

{ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ } [26].

لمّا ذُكر عاقبة إضلالهم وصدّهم السائلين عن القرآن والإسلام في الآخرة، أُتبع بالتهديد بأن يقع لهم ما وقع فيه أمثالهم في الدنيا من الخزي والعذاب، مع التأييس من أن يبلغوا بصنعهم ذلك مبلغ مرادهم، وأنّهم خائبون في صنعهم كما خاب من قبلهم الذين مكروا برسلهم.

{ **قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** } لمّا كان جوابهم السائلين عن القرآن بقولهم هو { أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } [24]، مظهرينه بمظهر النصيحة والإرشاد وهم يريدون الاستبقاء على كفرهم، سُمّي ذلك مكرا بالمؤمنين، إذ المكر إلحاق الضرّ بالغير في صورة تمويهه بالنصح والنفع، فنُظّر فعلهم بمكر من قبلهم، أي: من الأمم السابقة الذين مكروا بغيرهم مثل قوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم فرعون، قال تعالى { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إلّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ } [الأنعام:123]. وقال تعالى في قوم صالح { وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ} [النمل:50].

{ **فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ** } تمثيل لحالات استئصال الأمم.

البنيان: مصدر بمعنى المفعول. أي: المبني، وهو هنا مستعار للقوّة والمنعة.

{ **مِنَ الْقَوَاعِدِ** } متعلّق بـ { أَتَى } وهو بمعنى الاستئصال، فهو في معنى هدمه.

{ **الْقَوَاعِدِ** } الأسس والأساطين التي تُجعل عمدا للبناء يقام عليها السقف. وهو تخييل أو ترشيح.

{ **فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ** } و**الخرور**: السقوط والهُويّ، ففعل خرّ مستعار لزوال ما به المنعة.

{ **السَّقْفُ** } حقيقته غطاء الفراغ الذي بين جدران البيت، ويكون من حجر ومن أعواد، وهو هنا مستعار لما استعير له البناء. و{ **من فَوْقِهِمْ** } تأكيد للجملة.

ومن مجموع هذه الاستعارات تتركّب الاستعارة التمثيليّة. وهي تشبيه هيئة القوم الذين مكروا في المنعة فأخذهم الله بسرعة وأزال تلك العزّة، بهيئة قوم أقاموا بنيانا عظيما ذا دعائم وآووا إليه فاستأصله الله من قواعده فخر سقف البناء دفعة على أصحابه فهلكوا جميعا. فهذا من إبداع التمثيليّة، لأنّها تنحلّ إلى عدّة

استعارات.

{ **وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ** } عطف على { فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ }. والمعنى: أنّ العذاب المذكور حلّ بهم بغتة وهم لا يشعرون، فإنّ الأخذ فجأة أشدّ نكاية لما يصحبه من الرعب الشديد، بخلاف الشيء الوارد تدريجا فإنّ النفس تتلقاه بصبر.

{ **ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ** } [27].

{ **ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ** } عطف على { لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ } [25]، لأنّ ذلك وعيد لهم وهذا تكملة له.

الخزي: الإهانة. وتقدّم عند قوله تعالى { فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ } [البقرة:85].

وتقديم الظرف للاهتمام بيوم القيامة لأنّه يوم الأحوال الأبدية فما فيه من العذاب مهول للسامعين.

{ **أَيْنَ** } الاستفهام عن المكان مستعمل في التهكّم.

{ **شُرَكَائِيَ** } إضافة الشركاء إلى ضمير الجلالة زيادة في التوبيخ، لأنّ مظهر عظمة الله تعالى يومئذ للعيان ينافي أن يكون له شريك.

{ **الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ** } الموصول للتنبيه على ضلالهم وخطئهم في ادعاء المشاركة.

المشاقّة: المشادة في الخصومة. كأنّها خصومة لا سبيل معها إلى الوفاق، إذ قد صار كل خصم في شقّ غير شقّ الآخر.

وقرأ نافع { تُشَاقُّونِ } بكسر النون على حذف ياء المتكلّم، أي: تعاندونني، وذلك بإنكارهم ما أمرهم الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم. وقرأ البقية { تُشَاقُّونَ } بفتح النون وحذف المفعول للعلم، أي: تعاندون من يدعوكم إلى التوحيد.

{ **فِيهِمْ** } للظرفية المجازية مع حذف المضاف، إذ المشاقة لا تكون في الذوات بل في المعاني. والتقدير: في إلهيّتهم أو في شأنهم.

{ **قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ** }.

جيء بالجملة غير معطوفة لأنّها واقعة موقع الجواب لقوله تعالى { أَيْنَ شُرَكَائِيَ }، للتنبيه على أنّ الذين أوتوا العلم ابتدروا الجواب لمّا وجم المشركون فلم يحيروا جوابا، فأجاب الذين أوتوا العلم جوابا جامعا لنفي أن يكون الشركاء المزعومون مغنين عن الذين أشركوا شيئا، وأنّ الخزي والسوء أحاطا بالكافرين.

والتعبير بالماضي لتحقيق وقوع القول.

{ **الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ** } هم الذين آتاهم الله علم الحقائق من الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام والمؤمنون،

كقوله تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ} [الروم:56].
وتأكيد الجملة بحرف التوكيد وبصيغة القصر والإتيان بحرف الاستعلاء الدال على تمكّن الخزي والسوء منهم، يفيد معنى التعجّب من هول ما أعدّ لهم.

{ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [28] فادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ [29] }.

فالوجه أنّ { الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ } بدل من { الَّذِينَ } في قوله تعالى { فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ } [22]، أو صفة لهم، كما يومئ إليه وصفهم في آخر الآية بالمتكبّرين في قوله تعالى {فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ}.

ويجوز أن يكون { الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ } خبرا لمبتدأ محذوف. والتقدير: هم الذين تتوفاهم الملائكة.
وحذف المسند إليه جار على الاستعمال في أمثاله من كل مسند إليه جرى فيما سلف من الكلام. أخبر عنه وحدث عن شأنه، وهو ما يعرف عند السكاكي بالحذف المتبع فيه الاستعمال.

والمقصود من هذه الصلة وصف حالة الذين يموتون على الشرك، فبعد أن ذُكر حال حلول العذاب بمن حلّ بهم الاستئصال وما يحل بهم يوم القيامة، ذُكرت حالة وفاتهم التي هي بين حالي الدنيا والآخرة، وهي حال تُعرض لجميعهم سواء منهم من أدركه الاستئصال ومن هلك قبل ذلك.

وأطبق من تصدَّى لربطه بما قبله من المفسرين، على جعل { الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ } بدلا من { الْكَافِرِينَ } في قوله تعالى { إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ } [27] أو صفة له.

ظلم النفس: الشرك.

الإلقاء: مستعار إلى الإظهار المقترن بمذلّة. شُبّه بإلقاء السلاح على الأرض، ذلك أنهم تركوا استكبارهم وإنكارهم وأسرعوا إلى الاعتراف والخضوع لمّا ذاقوا عذاب انتزاع أرواحهم.

السلَم (بفتح السين وفتح اللام) الاستسلام. وتقدّم الإلقاء والسلم عند قوله { وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ } النساء:90]. وتقدّم الإلقاء الحقيقي عند قوله تعالى { وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ } [15].

{ **مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ** } مقول قول محذوف دلّ عليه { أَلْقَوُا السَّلَمَ }، لأنّ إلقاء السلم أوّل مظاهره القول الدال على الخضوع. يقولون ذلك للملائكة الذين ينتزعون أرواحهم ليكفّوا عنهم تعذيب الانتزاع، وهم من اضطراب عقولهم يحسبون الملائكة إنما يجرّبونهم بالعذاب ليطّلعوا على دخيلة أمرهم، فيحسبون أنهم إن كذبوهم راج كذبهم على الملائكة فكفوا عنهم العذاب، لذلك جحدوا أن يكونوا يعملون سوءا من قبل.

{ **بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } جواب الملائكة، ولذلك افتُتحت بالحرف الذي يُبطل به النفي (بَلَى).
وقد جعلوا علم الله بما كانوا يعملون كناية عن تكذيبهم في قولهم { مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ }، وكناية على أنّهم ما عاملوهم بالعذاب إلّا بأمر من الله تعالى العالم بهم.

وأسندوا العلم إلى الله دون أن يقولوا: إنا نعلم ما كنتم تعملون، أدبا مع الله وإشعارا بأنهم ما علموا ذلك إلّا بتعليم من الله تعالى.

{ **فادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا** } تفريع هذا القول على إبطال نفيهم عمل السوء ظاهر، لأنّ إثبات كونهم كانوا يعملون السوء يقتضي استحقاقهم العذاب، وذلك عندما كُشف لهم عن مقرّهم الأخير.

ونظيره قوله تعالى { وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ } [الأنفال:50].

{ **فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ** } تذييل. يحتمل أن يكون حكاية كلام الملائكة، والأظهر أنّه من كلام الله، ووصفهم بالمتكبّرين يُرجّح ذلك.

المثوى: المرجع. من ثوى إذا رجع، أو المقام من ثوى إذا أقام. وتقدّم في قوله تعالى {قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ} [الأنعام:128]. ولم يُعبَّر عن جهنم بالدار كما عُبِّر عن الجنة فيما يأتي بقوله تعالى { وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ } [30]، تحقيرا لهم وأنّهم ليسوا في جهنّم بمنزلة أهل الدار بل هم متراصون في النار وهم في مثوى.

{ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْراً لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ [30] جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ [31] }.

{ **وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْراً** } لمّا افتُتحت صفة سيّئات الكافرين وعواقبها بأنّهم إذا قيل لهم { مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ } [24] قالوا { أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [24]، جاءت هنا مقابلة حالهم بحال حسنات المؤمنين وحسن عواقبها، فافتُتح ذلك بمقابل ما افتُتحت به قصّة الكافرين، فجاء النظير بين القصتين في أبدع نظم. ولم تقترن هذه الجملة بأداة الشرط كما قُرنت مقابلتها بها { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ }، لأنّ قولهم { أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } لمّا كان كذبا اختلقوه قُرن بأداة الشرط المقتضية تكرّر ذلك للدلالة على إصرارهم على الكفر، بخلاف ما هنا، فإنّ الصدق مظنّة استمرار قائله عليه فليس بحاجة إلى التنبيه على تكرّره منه.

الذين اتقوا: هم المؤمنون، لأنّ الإيمان تقوى الله وخشية غضبه. والمراد بهم المؤمنون المعهودون في مكّة.

المعنى: أنّ المؤمنين سئلوا عن القرآن، ومن جاء به، فأرشدوا السائلين ولم يتردّدوا في الكشف عن حقيقة القرآن بأوجز بيان وأجمعه، وهو كلمة { **خَيْراً** }، فإنّ لفظها شامل لكلّ خير في الدنيا وكلّ خير في الآخرة، ونصبها دال على أنّهم جعلوها معمولة لـ { أَنْزَلَ } الواقع في سؤال السائلين، فدلّ النصب على أنّهم مصدّقون بأنّ القرآن منزّل من عند الله، وهذا وجه المخالفة بين الرفع في جواب المشركين حين قيل

لهم { مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } [24] بالرفع وبين النصب في كلام المؤمنين.
وقد تقدّم ذلك آنفا عند قوله تعالى { قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ }.

{ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ }

مستأنفة ابتدائيّة، وهي كلام من الله تعالى، وليست من حكاية قول الذين اتقوا.

الذين أحسنوا: هم المتّقون، فهو من الإظهار في مقام الإضمار، أي: جزاءهم حسنة لأنّهم أحسنوا.

{ **هَذِهِ الدُّنْيَا** } يجوز أن يتعلّق بفعل { أَحْسَنُوا }. ويجوز أن يكون ظرفا مستقرا حالا من { حَسَنَة }.

والتوسّط بين { لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا } وبين { حَسَنَةٌ } نظم ممّا اختصّ به القرآن في مواقع الكلم لإكثار المعاني التي يسمح بها النظم، وهذا من طرق إعجاز القرآن.

{ **وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ** } أي: أنّها خير لهم من الدنيا، فكما كان للذين كفروا عذاب الدنيا وعذاب جهنّم كان للذين اتقوا خير الدنيا وخير الآخرة. فهذا مقابل قوله تعالى في حقّ المشركين { ليحملوا أوزارهم كاملة } [25]، وقوله تعالى { وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ } [26].

وحسنة الدنيا هي الحياة الطيّبة وما فتح الله لهم من زهرة الدنيا مع نعمة الإيمان. وخير الآخرة هو النعيم الدائم، قال تعالى { مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [97].

{ **وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا** } مقابل قوله تعالى في ضدّهم { فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ } [29]. وقد تقدّم آنفا وجه تسمية جهنم مثوى والجنّة دارا.

{ **وَلَنِعْمَ** } فعل مدح غير متصرّف، ومرفوعه فاعل دال على جنس الممدوح، ويذكر بعده مرفوع آخر يُسمّى المخصوص بالمدح. والمعنى: ولنعم دار المتّقين دار الآخرة.

{ **جَنَّاتُ عَدْنٍ** } ارتفع على أنّه خبر لمبتدإ محذوف. والتقدير: هي جنّات عدن، أي: دار المتقين جنّات عدن.

{ **لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ** } مضمونها مُكمِّل لما في جملة { يَدْخُلُونَهَا } من استحضار الحالة البديعة.

{ **كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ** } مستأنفة، والإتيان باسم الإشارة لتمييز الجزاء والتنويه به. وجعل الجزاء لتمييزه وكماله بحيث يشبّه به جزاء المتقين. والتقدير: يجزي الله المتقين جزاء كذلك الجزاء الذي علمتموه. وهو تذييل، لأنّ التعريف في { الْمُتَّقِينَ } للعموم.

{ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [32].

مقابل قوله تعالى في أضدادهم { الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ }، فما قيل في مقابله يقال فيه.

الطيّب: بزنة فَيْعَل، مثل قيّم وميّت، وهو مبالغة في الاتّصاف بالطيب وهو حسن الرائحة. ويطلق على

محاسن الأخلاق وكمال النفس على وجه المجاز المشهور، فتوصف به المحسوسات كقوله تعالى { حَلَالًا طَيِّباً } [البقرة:168]، والمعاني والنفسيّات كقوله تعالى { سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ } [الزمر:73]. وقولهم: طبت نفسا. ومنه قوله تعالى { وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ } [الأعراف:58]. وفي الحديث: " **إنّ الله طيّب لا يقبل إلّا طيّبا** ". أي: مالا حلالا.

{ **طَيِّبِينَ** } هنا يجمع كل هذه المعاني، أي: تتوفاهم الملائكة منزّهين من الشرك مطمئني النفوس. وهذا مقابل قوله تعالى في أضدادهم { ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ } [28].

{ **يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ** } حال من { الْمَلائِكَةُ }، أي: يتوفّونهم مسلّمين عليهم، وهو سلام تأنيس وإكرام.

{ **ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } هو مقابل قولهم لأضدادهم { فادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ } [29].

{ هَلْ يَنْظُرُونَ إلّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ [33] فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ [34] }.

استئناف بياني ناشئ عن جملة { قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } [26] لأنّها تثير سؤال من يسأل عن إبّان حلول العذاب على هؤلاء كما حلّ بالذين من قبلهم، فقيل: ما ينظرون إلّا أحد أمرين؛ هما مجيء الملائكة لقبض أرواحهم، فيحقّ عليهم الوعيد المتقدّم، أو أن يأتي أمر الله. والمراد به الاستئصال المعرّض بالتهديد في قوله تعالى { فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ } [26]. والاستفهام إنكاري في معنى النفي، ولذلك جاء بعد الاستثناء.

{ **يَنْظُرُونَ** } هنا بمعنى الانتظار وهو النظرة.

والكلام موجّه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم تذكيرا بتحقيق الوعيد وعدم استبطائه، وتعريضا بالمشركين بالتحذير من اغترارهم بتأخّر الوعيد وحثّا لهم على المبادرة بالإيمان.

وإسناد الانتظار المذكور إليهم على خلاف مقتضى الظاهر بتنزيلهم منزلة من ينتظر أحد الأمرين، لأنّ حالهم من الإعراض عن الوعيد وعدم التفكّر في دلائل صدق الرسول صلى الله عليه وسلم مع ظهور تلك الدلائل وإفادتها التحقّق، كحال من أيقن حلول أحد الأمرين به فهو يترقّب أحدهما، كما تقول لمن لا يأخذ حذره من العدو: ما تترقب أن تقع أسيرا.

ومنه قوله تعالى { فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إلّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ } [يونس:102].

{ **كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** } تنظير بأحوال الأمم الماضية تحقيقا للغرضين. والإشارة إلى الانتظار المأخوذ من { يَنْظُرُونَ } المراد منه الإعراض والإبطاء، أي: كإبطاء الذين من قبلهم، أن يأخذهم العذاب بغتة كما أخذ الذين من قبلهم، وهذا تحذير.

وقد رفع الله عذاب الاستئصال عن أمّة محمد صلى الله عليه وسلم ببركته ولإرادته انتشار دينه.

{ **وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** } معترضة بين جملة { فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } وجملة {فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا }. ووجه هذا الاعتراض أنّ التعرّض إلى ما فعله الذين من قبلهم يشير إلى ما كان من عاقبتهم وهو استئصالهم، فعُقّب بقوله تعالى { وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ }، أي: فيما أصابهم.

{ **فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** } لمّا كان هذا الاعتراض مشتملا على أنّهم ظلموا أنفسهم صار تفريع { فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا } عليه أو على ما قبله. وهو أسلوب من نظم الكلام عزيز. وتقدير أصله: كذلك فعل الذين من قبلهم وظلموا أنفسهم فأصابهم سيئات ما عملوا وما ظلمهم الله. ففي تغيير الأسلوب المتعارف تشويق إلى الخبر وتهويلٌ له بأنّه ظلم أنفسهم، وأنّ الله لم يظلمهم، فيترقّب السامع خبرا مفظعا وهو { فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا }.

{ **فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ** } إمّا بتقدير مضاف، أي: أصابهم جزاؤها، أو جُعلت أعمالهم السيّئة كأنّها هي التي أصابتهم لأنّها سبب ما أصابهم، فهو مجاز عقلي.

{ **حاق** }: أحاط. والحَيْق: الإحاطة. ثم خُصّ استعمال الحيقَ بإحاطة الشرّ. وقد تقدّم الكلام على ذلك عند قوله تعالى { فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } [الأنعام:10].

{ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ } [35].

عطف قصّة على قصّة لحكاية حال من أحوال شبهاتهم ومكابرتهم وباب من أبواب تكذيبهم.

وذلك أنّهم كانوا يحاولون إفحام الرسول صلى الله عليه وسلم فقالوا له: لو شاء الله أن لا نعبد أصناما لما أقدرنا على عبادتها، ولو شاء أن لا نُحرّم ما حرّمنا من نحو البحيرة والسائبة لما أقرّنا على تحريم ذلك.

وهذا ردَّه الله عليهم بتنظير أعمالهم بأعمال الأمم الذين أهلكهم الله، فلو كان الله يرضى بما عملوه لما عاقبهم بالاستئصال، فكانت عاقبتهم نزول العذاب بقوله تعالى { كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ }، ثم بقطع المحاجّة بقوله تعالى { فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ }، أي: وليس من شأن الرّسل عليهم السلام المناظرة مع الأمّة.

ونظيره قوله تعالى { سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حتّى ذَاقُوا بَأْسَنَا } [الأنعام:148]، فسمَّى قولهم هذا تكذيبا كتكذيب الذين من قبلهم، لأنّ المقصود منه التكذيب وتعضيد تكذيبهم بحجّة أساؤوا الفهم فيها، فهم يحسبون أنّ الله يتولّى تحريك النّاس لأعمالهم كما يُحرّك صاحب خيال الظل ومُحرّك اللعب أشباحه وتماثيله، وذلك جهل منهم بالفرق بين تكوين المخلوقات وبين ما يكسبونه بأنفسهم، وتخليط بين الرضى والإرادة.

{ **كَذَلِكَ** } الإشارة إلى الإشراك وتحريم أشياء من تلقاء أنفسهم، أي: كفعل هؤلاء فعل الذين من قبلهم،

وهم المذكورون فيما تقدّم بقوله تعالى { قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } [26]. والمقصود: أنهم فعلوا كفعلهم فكانت عاقبتهم ما علمتم، فلو كان فعلهم مرضيا لله لما أهلكهم، فهلّا استدلوا بهلاكهم على أنّ الله غير راض بفعلهم، فإنّ دلالة الانتقام أظهر من دلالة الإملاء، لأنّ دلالة الانتقام وجودية ودلالة الإمهال عدميّة.

{ **فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ** } قطع المحاجّة معهم وإعلامهم أنّ الرّسل عليهم السلام ما عليهم إلّا البلاغ، ومنهم محمد صلى الله عليه وسلم، فاحذروا أن تكون عاقبتكم عاقبة أقوام الرسل السالفين.

{ **الْبَلاغُ** } اسم مصدر الإبلاغ. و**المبين**: الموضِّح الصريح.

{ **هل** } الاستفهام إنكاري بمعنى النفي، ولذلك جاء الاستثناء عقبه.

والقصر المستفاد من النفي والاستثناء، قصر إضافي لقلب اعتقاد المشركين من معاملتهم الرسول صلى الله عليه وسلم، أنّ للرّسول غرضا شخصيا فيما يدعو إليه.

وأُثبِت الحكم لعموم الرسل عليهم السلام لتكون الجملة تذييلا للمحاجّة فتفيد ما هو أعمّ من المردود.

والكلام موجّه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم تعليما وتسلية. ويتضمّن تعريضا بإبلاغ المشركين.

{ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ } [36].

عطف على { كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } [35]. وهو تكملة لإبطال شبهة المشركين إبطالا بطريقة التفصيل بعد الإجمال لزيادة تقرير الحجّة، فقوله تعالى { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً } بيان لمضمون جملة { فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ }، وجملة { فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ } إلى آخرها بيان لمضمون جملة { كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ }.

والمعني: أن الله بيّن للأمم على ألسنة الرّسل عليهم السلام أنّه يأمرهم بعبادته واجتناب عبادة الأصنام، فمن كلّ أمّة أقوام هداهم الله فصدّقوا وآمنوا، ومنهم أقوام تمكّنت منهم الضلالة فهلكوا. ومن سار في الأرض رأى دلائل استئصالهم.

{ **الطَّاغُوتَ** } جنس ما يعبد من دون الله من الأصنام. جمعه: الطواغيت. وتقدّم عند قوله تعالى { يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ } [النساء:51].

{ **فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ** } أسندت هداية بعضهم إلى الله مع أنّه أمر جميعهم بالهدى تنبيها للمشركين على إزالة شبهتهم في قولهم { لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ } بأن الله بيّن لهم الهدى فاهتداء المهتدين بسبب بيانه، فهو الهادي لهم.

{ **وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ** } إشارة إلى أنّ الله لمّا نهاهم عن الضلالة فقد كان تصميمهم عليها إبقاء لضلالتهم السابقة فحقّت عليهم الضلالة ، أي: ثبتت ولم ترتفع.

وفي ذلك إيماء إلى أنّ بقاء الضلالة من كسب أنفسهم، ولكن ورد في آيات أخرى أنّ الله يضلّ الضّالين، كما في قوله تعالى { وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً } [الأنعام:125]، وقوله عقب هذا { فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ} [37] على قراءة الجمهور، ليحصل من مجموع ذلك علم بأنّ الله كوّن أسبابا عديدة بعضها جاء من توالد العقول والأمزجة واقتباس بعضها من بعض، وبعضها تابع للدعوات الضالة بحيث تهيّأت من اجتماع أمور شتى، لا يحصيها إلّا الله، أسباب تامة تحول بين الضال وبين الهدى. فلا جرم كانت تلك الأسباب هي سبب حقّ الضلالة عليهم، فباعتبار الأسباب المباشرة كان ضلالهم من لدن خالق تلك الأسباب وخالق نواميسها في متقادم العصور، فافهم.

{ **فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** } فُرّع على الكلام السابق الأمر بالسير في الأرض لينظروا آثار الأمم فيروا منها آثار استئصال مخالف لأحوال الفناء المعتاد، ولذلك كان الاستدلال بها متوقفا على السير في الأرض.

{ إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ } [37].

استئناف بياني، لأنّ تقسيم كل أمّة ضالة إلى مهتد منها وباق على الضلال يثير سؤالا في نفس النبيّ صلى الله عليه وسلم عن حال هذه الأمّة: أهو جار على حال الأمم التي قبلها، أو أنّ الله يهديهم جميعا؟ وذلك من حرصه على خيرهم ورأفته بهم، فاعلمه الله أنّه مع حرصه على هداهم فإنّه سيبقى منهم فريق على ضلالة.

وفي الآية لطيفتان:

الأولى: التعريض بالثناء على النبيّ صلى الله عليه وسلم في حرصه على خيرهم مع ما لقيه منهم من الأذى الذي شأنه أن يثير الحنق في نفس من يلحقه الأذى، ولكن نفس محمد صلى الله عليه وسلم مطهّرة من كل نقص.

الثانية: الإيماء إلى أنّ غالب أمّة الدعوة المحمدية سيكونوا مهتدين وأنّ الضُلّال منهم فئة قليلة، وهم الذين لم يقدّر الله هديهم في سابق علمه بما نشأ عن خلقه وقدرته من الأسباب التي هيّأت لهم البقاء في الضلال.

{ **إِنْ تَحْرِصْ** } **الحرص**: فرط الإرادة الملحّة في تحصيل المراد بالسعي في أسبابه.

والشرط هنا ليس لتعليق حصول مضمون الجواب على حصول مضمون الشرط، لأنّ مضمون الشرط معلوم الحصول، لأنّ علاماته ظاهرة بحيث يعلمه النّاس، وإنّما هو لتعليق العلم بمضمون الجواب على دوام حصول مضمون الشرط. فالمعنى: إن كنت حريصا على هداهم حرصا مستمرّا فاعلم أنّ من أضلّه

الله لا تستطيع هديه ولا تجد لهديه وسيلة ولا يهديه أحد. فالمضارع مستعمل في معنى التجدّد لا غير.

{ **فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ** } جُعل المسند إليه في جملة الإخبار عن استمرار ضلالهم اسم الجلالة للتهويل المشوّق إلى استطلاع الخبر. والخبر هو أنّ هُداهم لا يحصل إلّا إذا أراده الله، ولا يستطيع أحد تحصيله، لا أنت ولا غيرك، فمن قدّر الله دوام ضلاله فلا هادي له.

{ **وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ** } ما لهم ناصر ينجيهم من العذاب، أي: كما أنّهم ما لهم منقذ من الضلال الواقعين فيه ما لهم ناصر يدفع عنهم عواقب الضلال.

{ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لَا يَعْلَمُونَ } [39].

انتقال لحكاية مقالة أخرى من شنيع مقالاتهم في كفرهم، واستدلال من أدلّة تكذيبهم الرّسول صلى الله عليه وسلم فيما يخبر به إظهارا لدعوته في مظهر المحال، وذلك إنكارهم الحياة الثانية والبعث بعد الموت. وذلك لم يتقدّم له ذكر في هذه السورة سوى الاستطراد بقوله تعالى { فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ } [22].

{ **وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ** } القسم على نفي البعث، أرادوا به الدلالة على يقينهم بانتفائه.

{ **جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ** } تقدّم عند قوله تعالى { أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ } [المائدة:53].

{ **لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ** } ما أقسموا عليه. و**البعث** تقدّم آنفا في قوله { وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ } [21].

{ **بَلَى** } حرف لإبطال النفي في الخبر والاستفهام، أي: بل يبعثهم الله.

{ **وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لَا يَعْلَمُونَ** } انتصب { وَعْداً } على المفعول المطلق مؤكِّدا لما دلّ عليه حرف الإبطال من حصول البعث بعد الموت. ويُسمّى هذا النوع من المفعول المطلق مؤكِّدا لنفسه، أي: مؤكِّدا لمعنى فعل هو عين معنى المفعول المطلق.

{ **عَلَيْهِ** } صفة لـ { وَعْداً }، أي: وعدا كالواجب عليه، في أنّه لا يقبل الخُلف. ففي الكلام استعارة مكنيّة. شُبّه الوعد الذي وعده الله، بمحض إرادته واختياره، بالحقّ الواجب عليه، ورمز إليه بحرف الاستعلاء.

{ **حَقّاً** } صفة ثانية لـ { وَعْداً }. بمعنى الصدق الذي لا يتخلّف.

وقد تقدّم نظيره في قوله تعالى { وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ } [التوبة:111].

{ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لَا يَعْلَمُونَ** } المشركون، وهم يومئذ أكثر النّاس. ومعنى { لَا يَعْلَمُونَ } أنّهم لا يعلمون كيفية ذلك، فيقيمون من الاستبعاد دليل استحالة.

{ **لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ** } [39].

{ **لِيُبَيِّنَ** } تعليل لقوله تعالى { وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً } لقصد بيان حكمة جعله وعدا لازما لا يتخلّف، والله تعالى حكيم لا تجري أفعاله على خلاف الحكمة التّامة، أي: جعل البعث ليبيّن للنّاس الشيء الذي يختلفون فيه من الحقّ والباطل، فيظهر حقّ المحقّ ويظهر باطل المبطل.

{ **الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ** } شمل كل معاني المحاسبة على الحقوق، لأنّ تمييز الحقوق من المظالم كلّه محل اختلاف النّاس وتنازعهم.

{ **وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ** } عُطف على الحكمة العامة، { لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ }، حكمة فرعيّة خاصة بالمردود عليهم هنا، وهي حصول العلم للذين كفروا بأنّهم كانوا كاذبين فيما اخترعوه من الشرك وتحريم الأشياء، وإنكار البعث. وفي حصول علمهم بذلك يوم البعث مثار للندامة والتحسّر على ما فرط منهم من إنكاره. وقد تقدّم بيان حكمة الجزاء في يوم البعث في أوّل سورة يونس.

{ **كَانُوا كَاذِبِينَ** } أقوى في الوصف بالكذب من (كذبوا أو كاذبون)، لما تدل عليه (كان) من الوجود زيادة على ما يقتضيه اسم الفاعل من الاتصاف، ففيه شتم صريح وتعريض بالعقاب.

{ **إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** } [40].

متّصلة بجملة { وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لَا يَعْلَمُونَ } [38] لبيان أنّ جهلهم بمدى قدرة الله تعالى هو الذي جرّأهم على إنكار البعث واستحالته عندهم، فهي بيان للجملة التي قبلها ولذلك فصلت.

<u>والمعنى</u>: أنّه لا يتوقّف تكوين شيء إذا أراده الله إلّا على أن تتعلّق قدرته بتكوينه. وليس إحياء الأموات إلّا من جملة الأشياء، وما البعث إلّا تكوين، فلا يخرج عن قدرته.

{ **إِنَّمَا** } أفادت قصرا هو قصر وقوع التكوين على صدور الأمر به، وهو قصر قلب لإبطال اعتقاد المشركين تعذّر إحياء الموتى ظنّا منهم أنّه لا يحصل إلّا إذا سلمت الأجساد من الفساد كما تقدّم آنفا.

{ **قَوْلُنَا لِشَيْءٍ** } تكويننا شيئا، أي: تعلّق القدرة بخلق شيء.

{ **إِذَا أَرَدْنَاهُ** } إذا تعلقت به الإرادة الإلهية تعلقا تنجيزيا.

الشيء: أطلق هنا على المعدوم باعتبار إرادة وجوده، فهو من إطلاق اسم ما يؤول إليه، أو المراد بالشيء مطلق الحقيقة المعلومة وإن كانت معدومة، وإطلاق الشيء على المعدوم مستعمل.

{ **كُنْ** } توجّه القدرة إلى إيجاد المقدور. عُبّر عن ذلك التوجّه بالقول { قَوْلُنَا } كما عُبّر عنه بالأمر في قوله تعالى { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } [يس:82]. وشُبّه الشيء الممكن حصوله بشخص مأمور، وشُبّه انفعال الممكن لأمر التكوين بامتثال المأمور لأمر الآمر. وكل ذلك تقريب للنّاس بما يعقلون، وليس هو خطابا للمعدوم ولا أنّ للمعدوم سمعا يعقل به الكلام فيمتثل للآمر.

{ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ [41] الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ [42] }.

لمّا ثبتت حكمة البعث بأنّها تبيين الذي اختلف فيه النّاس من هدى وضلالة، ومن ذلك أن يتبيّن أنّ الذين كفروا كانوا كاذبين وأنّ الذين آمنوا كانوا صادقين، بدلالة المضادة، وأنّهم مثابون ومكرّمون. فلما عُلم ذلك من السياق وقع التصريح به في هذه الآية. وأُدمج مع ذلك وعدهم بحسن العاقبة في الدنيا، مقابلة وعيد الكافرين بسوء العاقبة فيها، الواقع بالتعريض في قوله تعالى { فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ } [36].

المهاجرة: متاركة الديار لغرض ما.

{ **فِي اللَّهِ** } مستعملة في التعليل، أي: لأجل الله. والكلام على تقدير مضاف: هاجروا لأجل مرضاة الله.

{ **مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا** } إسناد الفعل إلى المجهول لظهور الفاعل من السياق وهو المشركون. والظلم يشمل أصناف الاعتداء من الأذى والتعذيب.

التبوئة: الإسكان. وأطلقت هنا على الجزاء بالحسنى على المهاجَرة بطريق المضادة، لأنّ المهاجرة خروج من الديار فيضادها الإسكان.

{ **لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً** } أي: لنجازينَّهم جزاء حسنا. أي: تبوئة حسنة.

وهذا الجزاء يجبر كلّ ما اشتملت عليه المهاجَرة من الأضرار التي لقيها المهاجرون من مفارقة ديارهم وأموالهم، وما لاقوه من الأذى الذي ألجأهم إلى المهاجرة من تعذيب واستهزاء ومذلّة وفتنة، فالحسنة تشتمل على تعويضهم ديارا خيرا من ديارهم، ووطنا خيرا من وطنهم، وهو المدينة، وأموالا خيرا من أموالهم، وهي ما نلوه من المغانم ومن الخراج. روي أنّ عمر رضي الله عنه كان إذا أعطى رجلا من المهاجرين عطاء قال له: " هذا ما وعدك ربك في الدنيا، وما ذخر لك في الآخرة أكبر". قال تعالى { وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً } [النور:55].

وسبب النزول الذين هاجروا إلى أرض الحبشة من المسلمين لا محالة، أو الذين هاجروا إلى المدينة، الهجرة الأولى قبل هجرة النبيّ صلى الله عليه وسلم وبقية أصحابه رضي الله عنهم، مثل مصعب بن عمير وأصحابه، إن كانت هذه الآية نازلة بعد الهجرة الأولى إلى المدينة. وكلا الاحتمالين لا ينافي كون السورة مكّيّة. ولا يقتضي تخصيص أولئك بهذا الوعد.

{ **وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ** } ثمّ أُعقِب بالوعد العظيم المقصود. ومعنى { أَكْبَرُ } أنّه أهم وأنفع. والإضافة على معنى (في)، أي: الأمر الذي في الآخرة.

{ **لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** } معترضة، وهي استئناف بياني ناشئ عن جملة الوعد كلّها، لأنّ ذلك الوعد العظيم بخير الدنيا والآخرة يثير في نفوس السامعين أن يسألوا كيف لم يقتد بهم من بقوا على الكفر، فتقع جملة { لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } بيانا لما استُبْهِم على السائل. والتقدير: لو كانوا يعلمون ذلك لاقتدوا بهم ولكنّهم لا

يعلمون. فضمير { يَعْلَمُونَ } عائد إلى { الذين كفروا } [39].

ويجوز أن يكون المعنى: لو كان المهاجرون يعلمون ما أُعِدّ لهم، عِلم مشاهدة، لما حزنوا على مفارقة ديارهم ولكانت هجرتهم عن شوق إلى ما يلاقونه بعد هجرتهم، لأنّ تأثير العلم الحسّيّ على المزاج الإنسانيّ أقوى من العلم العقليّ. فليس المراد لو كانوا يعتقدون ويؤمنون، لأنّ ذلك حاصل لا يناسب موقع { لَوْ } الامتناعية.

فضمير { يَعْلَمُونَ } عائد إلى { الَّذِينَ هَاجَرُوا }. وفي هذا الوجه تتناسق الضمائر.

الصبر: تحمّل المشاق. وتقدّم عند قوله تعالى { وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ } [لبقرة:45].

التوكّل: الاعتماد. وتقدّم عند قوله تعالى { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } [آل عمران:159].

والتعبير في جانب الصبر بالماضي وفي جانب التوكّل بالمضارع إيماء إلى أنّ صبرهم قد آذن بالانقضاء لانقضاء أسبابه، وأنّ الله قد جعل لهم فرجا بالهجرة الواقعة والهجرة المترقّبة. فهذا بشارة لهم.

وأنّ التوكّل ديدنهم لأنّهم يستقبلون أعمالا جليلة تتمّ لهم بالتوكّل على الله في أمورهم، فهم يكرّرونه. وفي هذا بشارة بضمان النجاح.

وفي معنى هذه الآية قوله تعالى { لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [الزم:10].

{ **وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** } تقديم المجرور للقصر، أي: لا يتوكّلون إلّا على ربهم دون غيره.

{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ [43] بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ [44] }.

{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ * بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ }.

كانت الآيات السابقة جارية على حكاية تكذيب المشركين نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم وإنكارهم أنّه مرسل من عند الله وأنّ القرآن وحي الله إليه، وردّ مزاعمهم الباطلة بالأدلة القارعة لهم متخلِّلًا بما ادمج في أثنائه من معان أخرى تتعلّق بذلك، فعاد هنا إلى إبطال شبهتهم في إنكار نبوّته صلى الله عليه وسلم من أنّه بشر لا يليق بأن يكون سفيرا بين الله والنّاس، إبطالا بقياس التمثيل بالرسل الأسبقين الذين لا تنكر قريش رسالتهم مثل نوح وإبراهيم عليهما السلام.

وقد غُيّر أسلوب نظم الكلام هنا بتوجيه الخطاب إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم بعد أن كان جاريا على أسلوب الغيبة، تأنيسا للنبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّ فيما مضى من الكلام آنفا حكاية تكذيبهم إيّاه تصريحا وتعريضا، فأقبل الله على الرّسول صلى الله عليه وسلم بالخطاب لما في هذا الكلام من تنويه بمنزلته بأنّه في منزلة الرسل الأوّلين عليهم الصلاة والسلام.

ثمّ أشهد على المشركين بشواهد الأمم الماضية وأقبل عليهم بالخطاب توبيخا لهم لأنّ التوبيخ يناسبه الخطاب لكونه أوقع في نفس الموبَّخ، فاحتجّ عليهم بقوله تعالى { فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ }. فهذا احتجاج بأهل الأديان السابقين.

{ **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ** } معترضة بين جملة { وَمَا أَرْسَلْنَا } وبين قوله تعالى { بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ }.

والجملة المعترضة تقترن بالفاء إذا كان معنى الجملة مفرَّعا على ما قبله.

{ **الذِّكْر** } كتاب الشريعة. وتقدّم عند قوله تعالى { وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ } [الحجر:6].

{ **إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** } إيماء إلى أنّهم يعلمون ذلك ولكنّهم قصدوا المكابرة والتمويه لتضليل الدهماء، فلذلك جيء في الشرط بحرف (إن) التي ترد في الشرط المظنون عدم وجوده.

{ **بِالْبَيِّنَاتِ** } متعلّق بمستقر صفة أو حالا من { رِجَالًا } وفي تعلّقه وجوه أخر ذكرها في الكشّاف، والباء للمصاحبة، أي: مصحوبين بالبيّنات والزبر، فالبيّنات دلائل الصدق، من معجزات أو أدلّة عقلية. وقد اجتمع ذلك في القرآن وافترق بين الرّسل الأوّلين كما تفرّق منه كثير لرسولنا صلى الله عليه وسلم.

{ **الزُّبُرِ** } جمع زبور وهو مشتق من الزَّبْر، أي: الكتابة، ففعول بمعنى مفعول. أي: الكتب التي كتب فيها ما أوحي إلى الرّسل مثل صحف إبراهيم والتوراة، وما كتبه الحواريّون من الوحي إلى عيسى عليه السلام وإن لم يكتبه عيسى.

{ **بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ** } عطف تقسيم بقصد التوزيع، أي: بعضهم مصحوب بالبيّنات وبعضهم بالأمرين لأنّه قد تجئ رسل بدون كتب، مثل حنظلة بن صفوان رسول أهل الرسّ، وخالد ابن سنان رسول عبس. ولم يذكر الله لنوح عليه السلام كتابا.

وقد تُجعل الزّبر خاصة بالكتب الوجيزة التي ليست فيها شريعة واسعة، مثل صحف إبراهيم وزبور داود عليهما السلام، والإنجيل كما فسّروها به في [فاطر:25].

{ **وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** }.

لمّا اتّضحت الحجّة بشواهد التاريخ الذي لا يُنكر ذكرت النتيجة المقصودة، وهو أنّ ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم إنّما هو ذكر وليس أساطير الأولين.

الذكر: الكلام الذي شأنه أن يذكر، أي: يتلى ويكرّر. وهنا ما أنزل ليقرأه النّاس ويتلوه تكرارا، ليتذكروا ما اشتمل عليه. وتقديم المتعلّق المجرور على المفعول للاهتمام بضمير المخاطب . وتقدّم عند قوله تعالى { وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ } [الحجر:6]. أي: ما كنت بدعا من الرّسل فقد أوحينا إليك الذكر.

وفي الاقتصار على إنزال الذكر عقب قوله تعالى { بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ } إيماء إلى أنّ الكتاب المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم هو بيّنة وزبور معا، أي: هو معجزة وكتاب شرع. وذلك من مزايا القرآن التي لم يشاركه فيها كتاب آخر، ولا معجزة أخرى. قال تعالى { وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ

إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [العنكبوت:51/50].

وفي الحديث: أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: **" ما من الأنبياء نبيّ إلّا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنّما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة ".**

{ **لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ** } التبيين: إيضاح المعنى. والتعريف في النّاس للعموم.

{ **مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ** } الإظهار يقتضي أنّ ما صدق الموصول غير الذكر المتقدّم، إذ لو كان إيّاه لكان مقتضى الظاهر أن يقال لتبيّنه للنّاس. ولذا فالأحسن أن يكون المراد بـ { مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ } الشرائع التي أرسل الله بها محمدا صلى الله عليه وسلم فجُعل القرآن جامعا لها ومبيّنا لها ببليغ نظمه ووفرة معانيه، فيكون في معنى قوله تعالى { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ } [89].

وليس في هذه الآية دليل لمسائل تخصيص القرآن بالسنّة، وبيان مجمل القرآن بالسنّة، وترجيح دليل السنّة المتواترة على دليل الكتاب عند التعارض المفروضات في أصول الفقه، إذ كلّ من الكتاب والسنة هو تبيين النبيّ صلى الله عليه وسلم إذ هو واسطته.

{ **لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** } حكمة أخرى من حكم إنزال القرآن، وهي تهيئة تفكّر النّاس فيه وتأمّلهم فيما يقرّبهم إلى رضى الله تعالى.

{ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ } [45].

بعد أن ذُكرت مساويهم ومكائدهم، وبعد تهديدهم بعذاب يوم البعث تصريحا، وبعذاب الدنيا تعريضا، فُرّع على ذلك تهديدهم الصريح بعذاب الدنيا بطريق استفهام التعجيب من استرسالهم في المعاندة غير مقدّرين أن يقع ما يهدّدهم به الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، فلا يقلعون عن تدبير المكر بالنبيّ صلى الله عليه وسلم، فكانت حالهم في استرسالهم كحال من هم آمنون بأس الله، فالاستفهام مستعمل في التعجيب المشوب بالتوبيخ.

{ **الَّذِينَ مَكَرُوا** } هم المشركون. و**المكر** تقدّم في قوله تعالى { قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } [26].

{ **السَّيِّئَاتِ** } صفة لمصدر { مَكَرُوا } محذوفا يقدّر مناسبا لتانيث صفته. فالتقدير: مكروا المكرات السّيّئات. كما وصف المكر بالسيّء في قوله تعالى { وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلّا بِأَهْلِهِ } [فاطر:43].

الخسف: زلزال شديد تنشقّ به الأرض فتحدث بانشقاقها هوّة عظيمة تسقط فيها الديار والنّاس، ثم تنغلق الأرض على ما دخل فيها. وقد أصاب ذلك أهل بابل، ومكانهم يُسمّى خسف بابل. وأصاب قوم لوط إذ جعل الله عاليها سافلها. وبلادهم مخسوفة اليوم في بحيرة لوط من فلسطين.

{ **الْعَذَابُ** } يعمّ كلّ ما فيه تأليم يستمر زمنا، فلذلك عُطف على الخسف. وإتيان العذاب إليهم: إصابته إيّاهم.

{ **مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ** } من مكان لا يترقّبون أن يأتيهم منه ضرّ. وهو كناية عن عذاب لا يطيقون دفعه بحسب اللزوم العرفي، و إلّا فقد جاء العذاب عادا من مكان يشعرون به، قال تعالى { فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا } [الأحقاف:24]. وحلّ بقوم نوح عذاب الطوفان وهم ينظرون، وكذلك عذاب الغرق لفرعون وقومه.

{ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ [46] أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ [47] }.

{ **أَوْ يَأْخُذَهُمْ** } الأخذ مستعار للإهلاك، قال تعالى { فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً } [الحاقة:10].

التقلّب: السعي في شؤون الحياة من متاجرة ومعاملة وسفر ومحادثة ومزاحمة. وأصله: الحركة إقبالا وإدبارا، والمعنى: أن يهلكهم الله وهم شاعرون بمجيء العذاب. وهذا قسيم قوله تعالى { أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ } [45]. وفي معناه قوله تعالى { أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحىً وَهُمْ يَلْعَبُونَ } [الأعراف:98].

{ **فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ** } اعتراض، إذ لا يعجزه اجتماعهم وتعاونهم.

{ **أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ** } التخوّف في اللغة يأتي مصدر تخوّف القاصر بمعنى خاف ومصدر تخوّف المتعدي بمعنى تنقّص، وهذا الثاني لغة هذيل، وهي من اللغات الفصيحة التي جاء بها القرآن.

فللآية معنيان: إمّا أن يكون المعنى يأخذهم وهم في حالة توقّع نزول العذاب بأن يريهم مقدّماته مثل الرعد قبل الصواعق، وإمّا أن يكون المعنى يأخذهم وهم في حالة تنقّص، بأن يكثر فيهم الموتان والفقر والقحط.

روى الزمخشري وابن عطية يزيد أحدهما على الآخر: أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه خفي عليه معنى التخوّف في هذه الآية وأراد أن يكتب إلى الأمصار، وأنّه سأل النّاس وهو على المنبر: ما تقولون فيها؟ فقام شيخ من هذيل فقال: هذه لغتنا. التخوّف: التنقّص، قال: فهل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ قال: نعم قال شاعرنا (أبو كبير) :

تخوَّف الرحل منها تامِكا قِرَدَا ... كما تخوَّف عودَ النبعة السَّفَنُ

[وهذا البيت في وصف راحلة أثّر الرحل في سنامها فتنقص من وبره. و**التامِك**: بكسر الميم السنام المشرق. و**القرِد** بكسر الراء المتبلد الوبر، و**النبعة** قصبة شجر النبع تتخذ منه القسي. و**السفن** بالتحريك البرد].

فقال عمر رضي الله عنه: " أيها النّاس عليكم بديوانكم لا يضل، قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم".

{ **فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ** } تفريع على الجمل الماضية تفريع العلّة على المعلَّل. وحرف (إنّ) هنا مفيد للتعليل ومغن عن (فاء) التفريع كما بيّنه عبد القاهر، فهي مؤكِّدة لما أفادته الفاء.

{ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ} [48].

بعد أن نهضت براهين انفراده تعالى بالخلق بما ذكر من تعداد مخلوقاته العظيمة جاء الانتقال إلى دلالة من حال الأجسام التي على الأرض، وهو ما خلق الله عليه النظام الأرضي، خلقا ينطق لسان حاله بالعبودية لله تعالى، وذلك في أشدّ الأعراض ملازمة للذوات، ومطابقة لأشكالها وهو الظل. وقد مضى تفصيل هذا الاستدلال عند قوله تعالى { وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ } [الرعد:15].

والاستفهام إنكاري، أي: قد رأوا، والرؤية بصرية.

{ **مِنْ شَيْءٍ** } بيان للإبهام الذي في (ما) الموصولة، وإنّما كان بيانا باعتبار ما جرى عليه من الوصف بجملة { يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ }.

التفيّؤ: تفعّل من فاء الظل فيئا، أي: عاد بعد أن أزاله ضوء الشمس. لعلّ أصله من فاء إذا رجع.

{ **ظِلالُهُ** } تقدّم ذكر الظلال عند قوله تعالى { وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ } [الرعد:15].

{ **عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ** } أي: عن جهات اليمين وجهات الشمائل. وليس المراد خصوص اليمين والشمال بل كذلك الأمام والخلف، فاختصر الكلام. وإفراد اليمين وجمع { وَالشَّمَائِلِ } تفنّن.

{ **سُجَّداً** } حال من ضمير { ظِلالُهُ } العائد إلى {مِنْ شَيْءٍ} فهو قيد للتفيّؤ، أي: أنّ ذلك التفيؤ يقارنه السجود.

{ **وَهُمْ دَاخِرُونَ** } في موضع الحال من الضمير في { ظِلالُهُ } لأنّه في معنى الجمع لرجوعه إِلَى { مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ }. وجُمع بصيغة الجمع الخاصة بالعقلاء تغليبا لأنّ في جملة الخلائق العقلاء وهم الجنس الأهم.

الداخر: الخاضع الذليل، أي: داخرون لعظمة الله تعالى.

{ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ [49] يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ [50] }.

لمّا ذُكر في الآية السابقة السجود القسري ذُكر بعده هنا سجود آخر بعضه اختيار وفي بعضه شبه اختيار.

{ **وَلِلَّهِ يَسْجُدُ** } تقديم المجرور على فعله مؤذن بالحصر، أي: يسجد لله لا لغيره ما في السماوات وما في الأرض، وهو تعريض بالمشركين إذ يسجدون للأصنام.

{ **مَا** } دون (من) تغليبا لكثرة غير العقلاء.

{ **مَا فِي السَّمَاوَاتِ** } يشمل مخلوقات غير الملائكة، مثل الأرواح، أو يراد بالسماوات الأجواء فيراد بما فيها الطيور والفراش.

وفي ذكر أشرف المخلوقات وأقلّها، تعريض بذمّ من نزل من البشر عن مرتبة الدواب في كفران الخالق، وبمدح من شابه من البشر حال الملائكة.

{ **وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ** } الدابة ما يدب على الأرض غير الإنسان. ومعنى سجود الدواب لله أنّ الله جعل في تفكيرها الإلهامي التذاذها بوجودها وبما هي فيه من المرح والأكل والشرب، وتطلّب الدفع عن نفسها من المتغلّب ومن العوارض بالمدافعة أو بالتوقّي، ونحو ذلك من الملائمات. فحالها بذلك كحال شاكر تتيسّر تلك الملائمات له، وإنّما تيسيرها لها ممن فطرها. وقد تصحب أحوال تنعّمها حركات تشبه إيماء الشاكر المقارب للسجود، ولعل من حركاتها ما لا يشعر به النّاس لخفائه وجهلهم بأوقاته، وإطلاق السجود على هذا مجاز. وفي جعل الدواب والملائكة معمولين لـ { يَسْجُدُ } استعمال للفظ في حقيقته ومجازه.

{ **وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ** } وصف للملائكة، وهو تعريض ببعد المشركين عن أوجّ تلك المرتبة الملكية.

{ **يَخَافُونَ رَبَّهُمْ** } بيان لجملة { وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ }.

{ **مِنْ فَوْقِهِمْ** } فوقيّة تصرّف وملك وشرف كقوله تعالى { وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ } [الأنعام:18].

{ **وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** } أي: يطيعون ولا تصدر منهم مخالفة.

وهنا موضع سجود للقارئ بالاتفاق. وحكمته هنا إظهار المؤمن أنّه من الفريق الممدوح، بأنّه مشابه للملائكة في السجود لله تعالى.

{ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ } [51].

لمّا أُشبع القول في إبطال تعدّد الآلهة الشائع في جميع قبائل العرب، وأُتبع بإبطال الاختلاق على الرّسول صلى الله عليه وسلم والقرآن، نُقل الكلام إلى إبطال نوع آخر من الشرك متّبع عند قبائل من العرب وهو

الإشراك بإلهيّة أصلين للخير والشرّ، تقلّدته قبائل العرب المجاورة بلاد فارس والساري فيهم سلطان كسرى وعوائدهم، مثل بني بكر بن وائل وبني تميم، فقد دان منهم كثير بالمجوسيّة، أي: المزدكية والمانوية في زمن كسرى أبرويش وفي زمن كسرى أنوشروان، والمجوسية تثبت عقيدةً بإلهين: إله للخير وهو النور، وإله للشر وهو الظلمة، فإله الخير لا يصدر منه إلّا الخير والأنعام، وإله الشرّ لا يصدر عنه إلّا الشرّ والآلام، وسموا إله الخير (**يَزْدان**)، وسموا إله الشر (**أَهْرُمُنْ**). وزعموا أنّ يزدان كان منفردا بالإلهية وكان لا يخلق إلّا الخير فلم يكن في العالم إلّا الخير، فخطر في نفسه مرة خاطر شر فتولّد عنه إله آخر شريك له هو إله الشرّ، وقد حكى هذا المعري في لزومياته بقوله:

فكر يَزْدانُ على غِرّة ... فصيغ من تفكيره أهْرُمُنْ

ولم يكونوا يجعلون لهذين الأصلين صورا مجسّمة، فلذلك لم يكن دينهم من عداد عبادة الطاغوت لاختصاص اسم الطاغوت بالصور والأجسام المعبودة. وهذا الدين من هذه الجهة يشبه الأديان التي لا تعبد صورا محسوسة. وسيأتي الكلام على المجوسيّة عند تفسير قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا }[الحج:170].

{ **وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ** } عطف قصة على قصة. والمعنى: أنّه دعا النّاس ونصب الأدلّة على بطلأنّ اعتقاده. وهذا كقوله تعالى { يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ } [الفتح:15].

{ **إِلَهَيْنِ** } صيغة التثنية أكّدت بلفظ { اثْنَيْنِ } للدلالة على أنّ الاثنينيّة مقصودة بالنهي إبطالا لشرك مخصوص من إشراك المشركين، وهو قول المجوس بإلهين. وإذ نهوا عن اتخاذ إلهين فقد دلّ بدلالة الاقتضاء على إبطال اتخاذ آلهة كثيرة.

{ **إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ** } بيانا لجملة { لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ }، فالجملة مقولة لفعل { وَقَالَ اللَّهُ } لأنّ عطف البيان تابع للمبيّن، فلذلك فصلت، وبذلك أفيد بالمنطوق ما أفيد قبل بدلالة الاقتضاء.

والضمير{ **هُوَ** } عائد إلى اسم الجلالة في قوله تعالى { وَقَالَ اللَّهُ } ، أي: قال الله: إنّما الله إله واحد. والقصر قصر موصوف على صفة، أي: الله مختص بصفة توحّد الإلهيّة، وهو قصر قلب لإبطال دعوى تثنية الإله.

{ **فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ** } الراجح أن يكون تفريعا على جملة { لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ } فيكون قوله تعالى { فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ } من مقول القول. ووقع في ضمير { فَإِيَّايَ } التفات من الغيبة إلى التكلّم لمناسبة انتقال الكلام من تقرير دليل وحدانية الله على وجه كلي إلى تعيين هذا الواحد أنّه الله منزّل القرآن، تحقيقا لتقرير العقيدة الأصليّة. وفي هذا الالتفات اهتمام بالرهبة لما في الالتفات من هزّ فهم المخاطبين. وتقدّم تركيب نظيره بدون التفات في [البقرة:40].

{ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ } [52].

تقديم المجرور يفيد الحصر، فدخل جميع ما في السماء والأرض في مفاد (لام) الملك، فأفاد أن ليس لغيره شيء من المخلوقات خيرها وشرّها. فانتفى أن يكون معه إله آخر، لأنّه لو كان معه إله آخر لكان له بعض المخلوقات إذ لا يعقل إله بدون مخلوقات.

{ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً } فالدين يحتمل أن يكون المراد به الطاعة. من قولهم: دانت القبيلة للملك.

أي: أطاعته، فهو من متمّمات جملة { وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }، لأنّه لم:ا قصر الموجودات على الكون في ملكه كان حقيقا بقصر الطاعة عليه، ولذلك قُدّم المجرور في هذه الجملة على فعله كما وقع في التي قبلها.

ويجوز أن يكون { الدِّينُ } بمعنى الديانة، فيكون تذييلا لجملة { وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ }، لأنّ إبطال دين الشرك يناسبه أن لا يدين النّاس إلّا بما يشرعه الله لهم، أي: هو الذي يُشرّع لكم الدين لا غيره من أئمة الضلال مثل عمرو بن لُحيي، وزرادشت، ومزدك، وماني، قال تعالى { أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ } [الشورى:21].

ويجوز أن يكون الدين بمعنى الجزاء كما في قوله تعالى { مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ } [الفاتحة:4]، فيكون إدماجا لإثبات البعث الذي ينكره أولئك أيضا. والمعنى: له ما في السماوات والأرض وإليه يرجع من في السماوات والأرض لا يرجعون إلى غيره ولا ينفعهم يومئذ أحد.

الواصب: الثابت الدائم، وهو صالح للاحتمالات الثلاثة، ويزيد أنّه تأكيد لردّ إنكارهم البعث.

{ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ } توبيخ على تقواهم غيره، وذلك أنّهم كانوا يتّقون إله الشرّ ويتقرّبون إليه ليأمنوا شرّه.

{ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ [53] ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ [54] }.

لمّا أبطل في الآية السابقة وجود إلهين اثنين، أحدهما فعله الخير والآخر فعله الشرّ، أعقبه هنا بأنّ الخير والضرّ من تصرفات الله تعالى، وهو يعطي النعمة وهو كاشف الضرّ.

وهو انتقال من الاستدلال بمصنوعات الله الكائنة في ذات الإنسان وفيما يحيط به من الموجودات إلى الاستدلال بما ساق الله من النعم، فمن النّاس معرضون عن التدبّر فيها وعن شكرها وهم الكافرون، فكان في الأدلة الماضية القصد إلى الاستدلال ابتداء متبوعا بالامتنان. وتغيّر الأسلوب هنا فصار المقصود الأوّل هو الامتنان بالنعم مدمجا فيه الاعتبار بالخلق.

فالخطاب موجّه إلى الأمّة كلّها، ولذلك جاء عقبه قوله تعالى { إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ }، وابتدئ بالنعم على وجه العموم إجمالًا ثم ذُكرت مهمّات منها.

{ **وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ** } لمّا كان { مِنْ نِعْمَةٍ } مفيدا للعموم كان الإخبار عنه بأنّه من عند الله مغنيا عن الإتيان بصيغة قصر. و(من) الثانية ابتدائية، أي: واصلة إليكم من الله.

{ **ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ** } للتراخي الرتبي كما هو شان (ثمّ) الغالب في عطفها الجمل، لأنّ اللجأ إلى الله عند حصول الضرّ أعجب إخبارا من الإخبار بأنّ النعم كلّها من الله.

مسّ الضرّ: حلوله. استعير المسّ للحصول الخفيف، للإشارة إلى ضيق صبر الإنسان بحيث إنّه يجأر إلى الله بحصول أدنى شيء من الضرّ له. وتقدّم استعمال **المسّ** في الإصابة الخفيفة في قوله تعالى { وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلّا هُوَ } [الأنعام:17].

{ **تجأرون** } تصرخون بالتضرع. والمصدر: الجُؤار، بصيغة أسماء الأصوات.

والمقصود: تقرير أنّ الله تعالى هو مدبّر أسباب ما بهم من خير وشرّ، وأنّه لا إله يخلق إلّا هو، وإنّهم لا يلتجئون إلّا إليه إذا أصابهم ضرّ.

{ **ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ** } نعمة أخرى، وهي كشف الضرّ عن النّاس.

{ **ثُمَّ** } للتراخي الرتبي، لأنّ مضمون الجملة المعطوفة أبعد في النظر من مضمون المعطوف عليها، فإنّ الإعراض عن المنعم بكشف الضرّ، وإشراك غيره به في العبادة أعجب حالا وأبعد حصولا من اللجأ إليه عند الشدّة.

والمقصود تسجيل كفران المشركين، وإظهار رأفة الله بالخلق بكشف الضرّ عنهم عند التجائهم إليه مع علمه بأنّ من أولئك من يشرك به ويستمر على شركه بعد كشف الضرّ عنه.

{ **إِذَا** } الأولى مضمّنة معنى الشرط، وهي ظرف.

{ **إِذَا** } الثانية فجائية، للدلالة على إسراع هذا الفريق بالرجوع إلى الشرك.

{ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } [55].

{ **لِيَكْفُرُوا** } سمَّى كثير من النحاة هذه اللام لام العاقبة، ومثالها عندهم قوله تعالى { فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً } [القصص:8]. وهي متعلّقة بفعل { يُشْرِكُونَ } [54] الذي هو من جواب قوله تعالى { إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ } [54]. والكفر هنا كفر النعمة، ولذلك علق به قوله تعالى { بِمَا آتَيْنَاهُمْ }، أي: من النعم.

وكفر النعمة ليس هو الباعث على الإشراك فإنّ إشراكهم سابق على ذلك وقد استصحبوه عقب كشف الضرّ عنهم، ولكن شُبّهت مقارنة عودهم إلى الشرك، بعد كشف الضر عنهم، بمقارنة العلّة الباعثة على

عملٍ لذلك العمل. ووجه الشبه مبادرتهم لكفر النعمة دون تريّث. فاستعير لهذه المقارنة لام التعليل، وهي استعارة تبعية تمليحيّة تهكّميّة ومثلها كثير الوقوع في القرآن

الإيتاء: الإعطاء. وهو مستعار للإنعام بالحالة النافعة، لأنّ شأن الإعطاء أن يكون تمكينا بالمحبوب.

{ **بما آتيناهم** } عُبّر بالموصول لما تؤذن به الصلة من كونه نعمة، تفظيعا لكفرانهم بها، لأنّ كفران النعمة قبيح عند جميع العقلاء.

{ **فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ** } فرّع على الكلام السابق مخاطبتهم بأمرهم بالتمتع، أمر إمهال وقلّة اكتراث بهم، وهو في معنى التخلية.

التمتّع: الانتفاع بالمتاع. والمتاع الشيء الذي ينتفع به انتفاعا محبوبا ويسرّ به. ويقال: تمتّع بكذا واستمتع. قيل: الخطاب للفريق الذين يشركون بربهم على طريقة الالتفات. والأظهر أنّه مقول لقول محذوف لأنّه جاء مفرَّعا على كلام خوطب به النّاس كلهم، فيكون المفرَّع من تمام ما تفرّع عليه. وذلك ينافي الالتفات الذي يقتضي أن يكون مرجع الضمير إلى مرجع ما قبله. والمعنى: فنقول تمتّعوا بالنعم التي أنتم فيها إلى أمد.

{ **فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ** } تهديد بأنّهم سيعلمون عاقبة كفران النعمة بعد زوال التمتّع. وحذف المفعول لظهوره من قوله تعالى { لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ }، أي: تعلمون جزاء كفركم.

{ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ } [56].

عطف حالة من أحوال كفرهم لها مساس بما أنعم الله عليهم من النعمة، فهي معطوفة على جملة { وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ } [53]. وما حُكي هنا هو تفاريع دينهم الناشئة عن إشراكهم والتي هي من تفاريع كفران نعمة ربّهم، إذ جعلوا في أموالهم حقّا للأصنام التي لم ترزقهم شيئا. وقد مرّ ذلك عند قوله تعالى { وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا } [الأنعام:136]. إلّا أنّه اقتصر هنا على ذكر ما جعلوه لشركائهم دون ما جعلوه لله لأنّ المقام هنا لتفصيل كفرانهم النعمة، بخلاف ما في سورة الأنعام فهو مقام تعداد أحوال جاهليتهم وإن كان كلّ ذلك منكرا عليهم، إلّا أن بعض الكفر أشدّ من بعض.

الجعل: التصيير والوضع. تقول: جعلت لك في مالي كذا. وجيء هنا بصيغة المضارع للدلالة على تجدّد ذلك منهم واستمراره، بخلاف قوله تعالى { وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ } [38] بأنّه حكاية قضيّة مضت من عنادهم وجدالهم في أمر البعث.

{ **لِمَا لَا يَعْلَمُونَ** } الأصنام، وإنّما عُبّر عنها بهذه الصلة زيادة في تفظيع سخافة آرائهم، إذ يفرضون في أموالهم عطاء يعطونه لأشياء لا يعلمون حقائقها بله مبلغ ما ينالهم منها، قال تعالى { إِنْ هِيَ إِلّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ } [النجم:23].

{ **نَصِيباً مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ** } لتشنيع ظلمهم، إذ تركوا المُنعِم فلم يتقرّبوا إليه بما يرضيه في أموالهم ممّا أمرهم بالإنفاق فيه، كإعطاء المحتاج، وأنفقوا ذلك في التقرّب إلى أشياء موهومة لم ترزقهم شيئا.

{ **تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ** } وجّه الخطاب إليهم على طريقة الالتفات لقصد التهديد. ولا مانع من الالتفات هنا لعدم وجود فاء التفريع. وتصدير جملة التهديد والوعيد بالقسم لتحقيقه، إذ السؤال الموعود به يكون يوم البعث وهم ينكرونه فناسب أن يؤكَّد. والقسم بالتاء يختصّ بما يكون المقسم عليه أمرا عجيبا ومستغربا، كما تقدّم في قوله تعالى { قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ } [يوسف:73].

والسؤال كناية عمّا يترتب عليه من العقاب، لأنّ عقاب العادل يكون في العرف عقب سؤال المجرم عمّا اقترفه إذ لعل له ما يدفع به نفسه، فأجرى الله أمر الحساب يوم البعث على ذلك السَنن الشريف.

{ **عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ** } كناية عن استحقاقهم العقاب، لأنّ الكذب على الله جريمة.

والإتيان بفعل الكون وبالمضارع للدلالة على أنّ الافتراء كان من شأنهم، وكان متجدّدا ومستمرا منهم.

{ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ } [57].

هذا استدلال بنعمة الله عليهم بالبنين والبنات، وهي نعمة النسل. وأدمج في هذا الاستدلال وهذا الامتنان ذكر ضرب شنيع من ضروب كفرهم، وهو زعمهم أنّ الملائكة بنات الله من سَرَوات الجنّ، كما دلّ عليه قوله تعالى { وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً } [الصافات:158]. وهو اعتقاد قبائل كنانة وخزاعة.

الجعل: هنا النسبة بالقول.

{ **سُبْحَانَهُ** } مصدر نائب عن الفعل، وهو في محل جملة معترضة وقعت جوابا عن مقالتهم السيّئة التي تضمّنها قوله تعالى { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ } إذ الجعل فيه جعل القول، فقوله { سُبْحَانَهُ } مثل قولهم: حاشَ لله ومعاذ الله، أي: تنزيها له عن أن يكون له ذلك.

وإنّما قُدّم { سُبْحَانَهُ } ليكون نصًّا في أنّ التنزيه عن هذا الجعل لذاته وهو نسبة البنوّة لله، لا على جعلهم البنات دون الذكور.

{ **وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ** } جملة في موضع الحال. زيادة في التفظيع. وتقديم الخبر في الجملة للاهتمام بهم في ذلك على طريقة التهكّم. وما صدق { مَا يَشْتَهُونَ } الأبناء الذكور بقرينة مقابلته بالبنات.

{ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ [58] يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ [59] }.

الراجح أن تكون الجملة معترضة والواو اعتراضية اقتضى الإطالة بها أنّها من تفاريع شركهم.

{ **بُشِّرَ** } التعبير عن الإعلام بازدياد الأنثى بهذا الفعل في موضعين لأنّه كذلك في نفس الأمر، إذ ازدياد

المولود نعمة على الوالد لِما يترقّبه من التأنّس به والانتفاع بخدمته وإعانته عند الاحتياج إليه، ولِما فيه من تكثير نسل القبيلة الموجب عزّتها، وآصرة الصهر. ثم إنّ هذا مع كونه بشارة في نفس الأمر فالتعبير به يفيد تعريضا بالتهكّم بهم، إذ يعدّون البشارة مصيبة وذلك من تحريفهم الحقائق.

والتعريض من أقسام الكناية والكناية تجامع الحقيقة.

{ **ظَلَّ** } من أفعال الكون أخوات كان التي تدلّ على اتصاف فاعلها بحالة لازمة، فلذلك تقتضي فاعلا مرفوعا يدعى اسما وحالا لازما له منصوب يدعى خبرا لأنّه شبيه بخبر المبتدإ.

وسمّاها النحاة لذلك نواسخ لأنّها تعمل فيها، لولاها لكان مبتدأ وخبرا فلمّا تغيّر معها حكم الخبر سميت ناسخة لرفعه. كما سُمّيت (إنّ) وأخواتها و (ظنّ) وأخواتها كذلك. وهو اصطلاح تقريبي وليس برشيق.

ويستعمل { ظَلّ } بمعنى صار. وهو المراد هنا.

{ **وَجْهُهُ مُسْوَدّاً** } مستعمل في لون وجه الكئيب إذ ترهقه غبرة، فشُبّهت بالسواد مبالغة.

الكظيم: الغضبان المملوء حنقا. وتقدّم في قوله تعالى { فَهُوَ كَظِيمٌ } [يوسف:84]، أي: أصبح حنقا على امرأته. وهذا من جاهليتهم الجهلاء وظلمهم.

التواري: الاختفاء، مشتق من الوراء وهو جهة الخلف. أي: يتخفّى حياء من الناس.

{ **مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ** } أي: يتوارى من أجل تلك البشارة. و{ مِنْ } للابتداء المجازي المفيد معنى التعليل، لأنّه يقال: فعلت كذا من أجل كذا، قال تعالى { وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ } [الأنعام:151].

{ **أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ** } بدل اشتمال من { يَتَوَارَى}، أي: يتردد بين هذين الأمرين.

الهون: الذلّ. وتقدّم عند قوله تعالى { الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ } [الأنعام:93].

الدسّ: إخفاء الشيء بين أجزاء شيء آخر كالدفن. والمراد: الدفن في الأرض وهو الوأد. وكانوا يئدون بناتهم، بعضهم يئد بحدثان الولادة، وبعضهم يئد إذا يفعت الأنثى ومشت وتكلّمت، أي: حين تظهر للنّاس لا يمكن إخفاؤها. وذلك من أفظع أعمال الجاهلية، وكانوا متمالئين عليه ويحسبونه حقّا للأب فلا ينكرها الجماعة على الفاعل.

{ **أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** }. سمّاه الله حكما وأعلن ذمّه بحرف { أَلَا } لأنّه جور عظيم قد تمالأوا عليه. فأسند إلى ضمير الجماعة مع أنّ الكلام كان جاريا على فعل واحد غير معيّن، قضاء لحق هذه النكتة.

{ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [60].

جملة معترضة مرتبطة بجملة { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ } [57]، فهي بمنزلة جملة { سُبْحَانَهُ }، غير أنّ { سُبْحَانَهُ } جواب بتنزيه الله عمّا نسبوه إليه، وهذه جواب بتحقيرهم على ما يعاملون به البنات، مع نسبتهم إلى الله هذا الصنف المحقّر عندهم.

{ **لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ** } شتم لهم.

المثل: الحال العجيبة في الحسن والقبح، وإضافة إلى السوء للبيان.

السَوء: (بفتح السين) مصدر ساءه، إذا عمل معه ما يكره. والسُوء (بضم السين) الاسم، تقدّم في قوله تعالى { يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ } [البقرة:49].

{ **وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى** } عُطفت على { لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ } لأنّ بها تكملة إفساد قولهم وذمّ رأيهم، إذ نسبوا إلى الله الولد وهو من لوازم الاحتياج والعجز. ولمّا نسبوا إليه ذلك خصّوه بأخس الصنفين عندهم، كما قال تعالى { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ } [62].

المثل: تقدّم تفصيل معانيه عند قوله تعالى { مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً } [البقرة:17].

{ **الْأَعْلَى** } تفضيل، وحذف المفضّل عليه لقصد العموم، أي: أعلى من كل مثل في العلو بقرينة المقام.

{ **الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } تقدّم عند قوله تعالى { فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [البقرة:209].

{ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ } [61].

هذا اعتراض في أثناء التوبيخ على كفرهم الذي من شرائعه وأد البنات. فلمّا وصف جعلهم لله البنات اللاتي يأنفون منها لأنفسهم، ووصف ذلك بأنّه حكم سوء، ووصف حالهم بأنّها مثل سوء، وعرَّفهم بأخصّ عقائدهم أنّهم لا يؤمنون بالآخرة، أتبع ذلك بالوعيد على أقوالهم وأفعالهم.

{ **لَوْ** } حرف امتناع لامتناع، أي: حرف شرط يدل على امتناع وقوع جوابه لأجل امتناع وقوع شرطه. فالمعنى: لو كان الله مؤاخذا الخلق على شركهم لأفناهم من الأرض وأفنى الدواب معهم. ولكنّه لم يفعل.

المؤاخذة: الأخذ المقصود منه الجزاء، فهو أخذ شديد، ولذلك صيغت له صيغة المفاعلة الدالة على الكثرة، فدلّ على أنّ المؤاخذة المنتفية بـ { لو } هي الأخذ العاجل المناسب للمجازاة، لأنّ شأن الجزاء في العرف أن لا يتأخّر عن وقت حصول الذنب. ولهذا جاء الاستدراك بقوله تعالى { وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ }. فموقع الاستدراك هنا أنّه تعقيب لقوله تعالى { مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ }.

الظلم: الاعتداء على الحقّ. وأعظمه الاعتداء على حقّ الخالق على مخلوقاته، وهو حق إفراده بالعبادة، ولذلك كان الظلم في القرآن إذا لم يعد إلى مفعول نحو { ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ } [آل عمران:117] مرادا منه أعظم الظلم، **وهو الشرك** حتّى صار ذلك حقيقة عرفيّة في مصطلح القرآن، وهو المراد هنا من هذا الإنذار. وأمّا الظلم الذي هو دون الإشراك بالله فغير مراد هنا، لأنّه مراتب متفاوتة فلا يقتضي عقاب الاستئصال.

{ **النّاس** } تعريف الجنس ليشمل جميع النّاس. لأنّ ذلك أنسب بمقام الزجر.

{ **عَلَيْهَا** } الضمير صادق على الأرض وإن لم يجر لها ذكر في الكلام فإنّ المقام دال عليها. وذلك استعمال معروف في كلامهم كقوله تعالى { حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ } [ص:32] يعني الشمس، ويقولون:

أصبحت باردة، يريدون الغداة، ويقول أهل المدينة: ما بين لابتيها أحد يفعل كذا، يريدون لابتي المدينة.

الدابة: خُصّ في الاستعمال بالإطلاق على ما عدا الإنسان ممّا يمشي على الأرض. وفي هذه الآية إشارة إلى أنّ الدواب التي على الأرض مخلوقة لأجل انتفاع الإنسان، فلذلك لم يكن استعمال الإنسان إيّاها فيما تصلح له ظلما لها، ولا قتلها لأكلها ظلما لها.

{ **وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً** } دلّ أن تأخيرهم متفاوت الآجال، ففي مدد تلك الآجال تبقى أقوام كثيرة تعمر بهم الأرض، فذلك سبب بقاء أمم كثيرة من المشركين ومن حولهم.

الأجل: المدّة المعيّنة لفعل ما. و**المُسمّى**: المعيّن والمميّز، وتسمية الآجال تحديدها. وتقدّم نظير هذه عند قوله تعالى { وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ } [الأعراف:34].

{ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ } [62].

{ **وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ** } إشارة إلى قوله تعالى { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ } [57] التي فيها إيماء إلى كراهتهم البنات كما تقدّم. وخُصت هذه بذكر الكراهية تصريحا.

وقد يكون الموصول للعموم فيشير إلى أنّهم جعلوا لله أشياء يكرهونها لأنفسهم مثل الشريك في التصرّف، وأشياء لا يرضونها لآلهتهم ونسبوها لله كما أشار إليه قوله تعالى { فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ } [الأنعام:136]. فتكون هذه القصة أعمّ من قصة قوله تعالى { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ }، ويكون تخصيصها بالذكر من جهتين: جهة اختلاف الاعتبار، وجهة زيادة أنواع هذا الجعل.

{ **وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ** } عطف قصة على قصة أخرى من أحوال كفرهم.

{ **تَصِفُ** } تذكر بشرح وبيان وتفصيل. وحقيقة الوصف: ذكر الصفات والحُلَى. ثم أطلق على القول المبيّن المفصّل. وقد تقدّم في قوله تعالى { سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ } [الأنعام:100].

والمراد من هذا الكذب كل ما يقولونه من أقوال خاصتهم ودهمائهم باعتقاد أو تهكّم.

{ **أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى** } بدل من { الْكَذِبَ }، أي: الحالة الحسنى.

{ **لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ**} جواب عن قولهم المحكي. ومعنى لا جرم لا شكّ، أي: حقّا. وتقدّم في [هود:22].

{ **وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ** } (بفتح الراء مخفّفة) على زنة اسم المفعول، أي: مجعولون فَرَطا (بفتحتين) وهو المقدّم إلى الماء ليسقي. وقراه نافع { مُفْرِطُونَ }(بكسر الراء المخفّفة) اسم فاعل من أفرط، إذا بلغ غاية شيء ما، أي: مفرِطون في الأخذ من عذاب النار. وقراه أبو جعفر (بكسر الراء المشدّدة) من فرّط المضاعف.

والمراد: أنّهم سابقون إلى النّار معجّلون إليها، لأنّهم أشد أهل النّار استحقاقا لها، وعلى هذا الوجه يكون إطلاق الإفراط على هذا المعنى استعارة تهكّمية. وفيه مع ذكر النار في مقابلتها مُحسِّن الطباق. على أنّ قراءة نافع تحتمل التفسير بهذا أيضا لجواز أن يقال: أفرط إلى الماء إذا تقدّم له.

{ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [63].

استئناف ابتدائي داخل في الكلام الاعتراضي قُصد منه تنظير حال المشركين المتحدَّث عنهم وكفرهم في سوء أعمالهم وأحكامهم بحال الأمم الضالة من قبلهم الذين استهواهم الشيطان من الأمم البائدة مثل عاد وثمود، والحاضرة كاليهود والنصارى.

{ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ } وجّه الخطاب إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم لقصد إبلاغه إلى أسماع النّاس، فإنّ القرآن منزّل لهدي الناس، فتأكيد الخبر بالقسم منظور فيه إلى المقصودين بالخبر لا إلى الموجّه إليه الخبر، لأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لا يشك في ذلك. وأمّا الإرسال إلى أمم من قبلهم فلا يشك فيه المشركون.

{ تَاللَّهِ } شأن التاء المثناة أن تقع في قسم على مستغرب، ومصب القسم هنا هو المفرد بقوله تعالى { فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ } لأنّ تأثير تزيين الشيطان لهم أعمالهم بعدما جاءهم من إرشاد رسلهم أمر عجيب.

{ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ } التقدير: أرسلنا فزين لهم الشيطان أعمالهم. وتزيين الشيطان أعمالهم كناية عن المعاصي. والمقصود: أنّ المشركين سلكوا مسلك من قبلهم من الأمم التي زيّن لهم الشيطان أعمالهم.

{ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } يجوز أن تكون مفرّعة على جملة القسم بتمامها، على أن يكون التفريع هو المقصود من جملة الاستئناف للتنظير، فيكون ضمير { وَلِيُّهُمُ } عائدا إلى المنظّرين بقرينة السياق.

ولا مانع من اختلاف معادي ضميرين متقاربين مع القرينة.

<u>المعنى</u>: فالشيطان ولي المشركين اليوم، أي: متولّي أمرهم كما كان وليّ الأمم من قبلهم إذ زيّن لهم أعمالهم.

{ **وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** } [64].

عطف على جملة القسم. والمناسبة أنّ القرآن أنزل لإتمام الهداية وكشف الشبهات التي عرضت للأمم الماضية والحاضرة فتركت أمثالها في العرب وغيرهم. فلمّا ذُكرت ضلالاتهم وشبهاتهم عُقّب ذلك ببيان الحكمة في إرسال محمد صلى الله عليه وسلم وإنزال القرآن إليه، فالقرآن جاء مُبيِّنا للمشركين ضلالهم بيانا لا يترك للباطل مسلكا إلى النفوس، ومُفْصِحا عن الهدى إفصاحا لا يترك للحيرة مجالا في العقول، ورحمة للمؤمنين بما جازاهم عن إيمانهم من خير الدنيا والآخرة.

{ **إِلَّا لِتُبَيِّنَ** } صيغة القصر لقصد الإحاطة بالأهمّ من غاية القرآن وفائدته التي أنزل لأجلها. فهو قصر ادعائي ليرغب السامعون في تلقيه وتدبّره من مؤمن وكافر كلّ بما يليق بحاله حتّى يستووا في الاهتداء. ثم إن القصر يُعرِّض بتفنيد أقوال من حسبوا، من المشركين، أنّ القرآن أنزل لذكر القصص لتعليل الأنفس في الأسمار ونحوها حتّى قال مضلّهم: أنا آتيكم بأحسن مما جاء به محمد، آتيكم بقصة (رستم واسفنديار). فالقرآن أهم مقاصده هذه الفوائد الجامعة لأصول الخير، وهي كشف الجهالات والهدى إلى المعارف الحقّ وحصول أثر ذينك الأمرين؛ وهو الرحمة الناشئة عن مجانبة الضلال وإتباع الهدى.

{ **الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ** } عُبّر عن الضلال بطريقة الموصولية للإيماء إلى أنّ سبب الضلال هو اختلافهم على أنبيائهم. فالعرب اختلفت ضلالتهم في عبادة الأصنام، عبدت كل قبيلة منهم صنما، وعبد بعضهم الشمس والكواكب، واتّخذت كل قبيلة لنفسها أعمالا يزعمونها دينا صحيحا. واختلفوا مع المسلمين في جميع ذلك الدين.

{ **لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** } للإيماء إلى أنّهم الذين كان الإيمان كالسجية لهم والعادة الراسخة التي تتقوم بها قوّميّتهم. وهاته الآية بمنزلة التذييل للعبر والحجج الناشئة عن وصف أحوال المخلوقات، ونِعم الخالق على النّاس.

{ **وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ** } [65].

عاد الكلام إلى دلائل الانفراد بالخلق مع ما أدمج فيه من التذكير بالنعم. فهذه منّة من المنن وعبرة من العبر وحجّة من الحجج المتفرّعة عن التذكير بنعم الله والاعتبار بعجيب صنعه.

{ **وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** } كان ذكر إنزال الماء في الآية السابقة { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ } [10] مسوقا مساق الاستدلال، وهو هنا مسوق مساق الامتنان بنعمة إحياء الأرض بعد موتها. وبناء الجملة على المسند الفعلي لإفادة التخصيص، أي: الله لا غيره أنزل من السماء ماء. وإظهار اسم الجلالة دون الإضمار، الذي هو مقتضى الظاهر، لقصد التنويه بالخبر إذ افتُتح بهذا

الاسم، ولأنّ دلالة الاسم العلم أوضح وأصرح. فهو مقتضى مقام تحقيق الانفراد بالخلق والإنعام دون غيره من شركائهم، لأنّ المشركين يُقرّون بأنّ الله هو فاعل هذه الأشياء.

{ **فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا** } إخراج ما فيه الحياة، وهو الكلأ والشجر. وموتها ضد ذلك، فتعدية فعل (أحيا) إلى الأرض تعدية مجازية. وقد تقدّم عند قوله تعالى { فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا } [البقرة:164].

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ** } مستأنفة. والتأكيد بـ { إِنَّ } ولام الابتداء لأنّ من لم يهتد بذلك إلى الوحدانيّة ينكرون صلاحية ذلك للاستدلال. والإتيان باسم الإشارة دون الضمير ليكون محلّ الآية جميع المذكورات؛ من إنزال المطر وإحياء الأرض به.

السمع: مستعمل هنا في لازم معناه على سبيل الكناية، وهو سماع التدبّر والإنصاف لما تدبّروا به. وهو تعريض بالمشركين الذين لم يفهموا دلالة ذلك على الوحدانيّة.

{ **وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ** } [66].

هذه حجّة أخرى ومنّة من المنن الناشئة عن منافع خلق الأنعام، أدمج فيها العبرة بما في دلالتها على بديع صنع الله. ومناسبة ذكر هذه النعمة هنا أنّ بألبان الأنعام حياة الإنسان كما تحيا الأرض بماء السماء، وأنّ لآثار ماء السماء أثرا في تكوين ألبان الحيوان بالمرعى.

{ **وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً** } معطوفة على جملة { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ } [65]، وضمير الخطاب التفات من الغيبة. وتوكيدها بـ { إنّ } ولام الابتداء كتأكيد الجملة قبلها.

{ **الْأَنْعَامِ** } اسم جمع لكلّ جماعة من أحد أصناف الإبل والبقر والضأن والمعز.

العبرة: ما يُتّعظ به ويُعتبر. وقد تقدّم في [يوسف:111].

{ **نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ** } واقعة موقع البيان لجملة { وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً }.

البطون: جمع بطن، وهو اسم للجوف الحاوية للجهاز الهضمي كلّه من معدة وكبد وأمعاء.

{ **مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً** } { مِنْ } هنا زائدة لتوكيد التوسط.

الفرث: الفضلات التي تركها الهضم المعدي فتنحدر إلى الأمعاء فتصير فرثا.

الدم: إفراز تفرزه الكبد من الغذاء المنحدر إليها ويصعد إلى القلب فتدفعه حركة القلب الميكانيكية إلى الشرايين والعروق ويبقى يدور كذلك بواسطة القلب.

ووجه العبرة في ذلك أنّ ما تحتويه بطون الأنعام من العلف والمرعى ينقلب بالهضم في المعدة، ثم الكبد، ثم غدد الضرع، مائعا يسقى وهو مفرز من بين إفراز فرث ودم.

<u>المعنى</u>: أنّه إفراز ليس هو بدم لأنّه ألين من الدم، ولأنّه غير باق في عروق الضرع كبقاء الدم في

العروق، فهو شبيه بالفضلات في لزوم إفرازه، وليس هو بالفضلة لأنّه إفراز طاهر نافع مغذ، وليس قذرا ضارا غير صالح للتغذية كالبول والثفل. وموقع { مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ } موقع الصفة لـ { لَبَنًا } قُدّمت عليه للاهتمام بها لأنها موضع العبرة، فكان لها مزيد اهتمام، وقد صارت بالتقديم حالا.

{ **خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ** } خلوصه نزاهته مما اشتمل عليه البول والثفل، وسوغه للشاربين سلامته مما يشتمل عليه الدم من المضار لمن شربه، فلذلك لا يسيغه الشارب ويتجهّمه.

وهذا الوصف العجيب من معجزات القرآن العلمية، إذ هو وصف لم يكن لأحد من العرب يومئذ أن يعرف دقائق تكوينه.

الخالص: المجرّد ممّا يكدّر صفاءه، فهو الصافي. و**السائغ**: السهل المرور في الحلق.

وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر عن عاصم ويعقوب { نَسْقِيكُمْ } (بفتح النون) مضارع سقى. وقراه ابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم وحمزة والكسائي وخلف { نُسْقِيكُمْ } (بضم النون) على أنّه مضارع أسقى، وهما لغتان، وقرأه أبو جعفر بمثناة فوقية مفتوحة عوضا عن النون على أنّ الضمير للأنعام.

{ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [67].

{ **مِنْ** } وجودها في صدر الكلام يدلّ على تقدير فعل يدل عليه الفعل الذي في الجملة التي قبلها {نُسْقِيكُمْ} [66]. فالتقدير: ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب. وليس متعلّقا بـ { تَتَّخِذُونَ }، لأنّه يُبعد المعنى عن الامتنان بلطف الله تعالى إذ جعل نفسه الساقي للنّاس. وهذا عطف منّة على منّة، لأنّ مفاد فعل {نُسْقِيكُمْ} مفاد الامتنان لأنّ السقي مزيّة.

السَكَر (بفتحتين): الشراب المسكر. وهذا امتنان بما فيه لذّتهم المرغوبة لديهم والمتفشّية فيهم، وذلك قبل تحريم الخمر لأنّ هذه الآية مكية وتحريم الخمر نزل بالمدينة فالامتنان حينئذ بمباح.

الرزق: الطعام، ووصف بـ { **حَسَنًا** } لما فيه من المنافع، وذلك التمر والعنب.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** } الإشارة إلى جميع ما ذُكر من نعمة سقي الألبان وسقي السكر وطعم الثمر. واختير وصف العقل هنا لأنّ دلالة تكوين ألبان الأنعام على حكمة الله تعالى يحتاج إلى تدبّر فيما وصفته الآية هنا، وليس هو ببديهي كدلالة المطر كما تقدم.

{ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ [68] ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ [69] }.

عطف عبرة على عبرة ومنّة على منّة. وغُيّر أسلوب الاعتبار لما في هذه العبرة من تنبيه على عظيم حكمة الله تعالى، إذ أودع في خلقة الحشرة الضعيفة هذه الصنعة العظيمة وجعل فيها هذه المنفعة، كما أودع في الأنعام ألبانها وأودع في ثمرات النخيل والأعناب شرابا، وكان ما في بطون النحل وسطا بين ما في بطون الأنعام وما في قلب الثمار، فإنّ النحل يمتصّ ما في الثمرات والأنوار من المواد السكريّة ثم يخرجه عسلا كما يخرج اللبن من خلاصة المرعى.

{ **وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ** } افتُتحت الجملة بالفعل دون أن تُفتتح باسم الجلالة مثل جملة { والله أنزل } [65]، لما في { أَوْحَى } من الإيماء إلى إلهام تلك الحشرة الضعيفة تدبيرا عجيبا وعملا متقنا وهندسة في الجبلّة.

فكان ذلك الإلهام في ذاته دليلا على عظيم حكمة الله تعالى، فضلا على ما بعده من دلالة على قدرته.

الوحي: الكلام الخفي والإشارة الدالة على معنى كلامي. ومنه سُمّي ما يلقيه الملك إلى الرّسول وحيا لأنّه خفي عن أسماع الناس.

وأطلق الوحي هنا على التكوين الخفيّ الذي أودعه الله في طبيعة النحل، بحيث تنساق إلى عمل منظّم مرتّب بعضه على بعض لا يختلف فيه آحادها، تشبيها بعمل المتعلّم أو المؤتمِر بإرشاد الآمر، فإطلاق الوحي استعارة تمثيليّة.

{ **النَّحْلِ** } اسم جنس جمعي، واحده نحلة، وهو ذباب له جرم بقدر ضعفي جرم الذباب المتعارف، وأربعة أجنحة، ولون بطنه أسمر إلى الحمرة. وهو ثلاثة أصناف ذكر وأنثى وخنثى، فالذكور هي التي تحرس بيوتها ولذلك تكون محوّمة بالطيران والدوي أمام البيت وهي تلقح الإناث لقاحا به تلد الإناث إناثا.

والإناث هي المسماة اليعاسيب، وهي أضخم جرما من الذكور. ولا تكون التي تلد في البيوت إلّا أنثى واحدة، وهي قد تلد بدون لقاح ذكر، ولكنّها في هذه الحالة لا تلد إلّا ذكورا فليس في أفراخها فائدة لإنتاج الوالدات.

وأمّا الخنثى فهي التي تفرز العسل، وهي العواسل، وهي أصغر جرما من الذكور وهي معظم سكان بيت النحل.

{ **أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ** } أوّل مراتب الصنع الدقيق الذي أودعه الله في طبائع النحل، فإنّها تبني بيوتا بنظام دقيق، ثم تقسّم أجزاءها أقساما متساوية بأشكال مسدّسة الأضلاع بحيث لا يتخلل بينها فراغ تنساب منه الحشرات، لأنّ خصائص الأشكال المسدسة إذا ضمّ بعضها إلى

بعض أن تتصل فتصير كقطعة واحدة، ثم تغشي على سطوح المسدّسات بمادة الشمع، وهو مادة دهنيّة متميّعة أقرب إلى الجمود، تتكوّن في كيس دقيق جدّا تحت بطن النحلة العاملة فترفعه النحلة بأرجلها إلى فمها وتمضغه وتضع بعضه لصق بعض لبناء المسدّس المسمّى بالشهد لتمنع تسرب العسل منها.

ولما كانت بيوت النحل معروفة للمخاطبين اكتُفي في الاعتبار بها بالتنبيه عليها والتذكير بها.

وأشير إلى أنّها تُتخذ في أحسن البقاع من الجبال أو الشجر أو العرش دون بيوت الحشرات الأخرى.

وذلك لشرفها بما تحتويه من المنافع، وبما تشتمل عليه من دقائق الصنعة.

{ **مِنَ الْجِبَالِ** } وما عطف عليها بمعنى (في)، لأنّ النحل تبني لنفسها بيوتا ولا تجعل بيوتها جحور الجبال ولا أغصان الشجر. وليست { مِنَ } هنا مثل (مِن) التي في قوله تعالى { وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً} [81].

{ **يَعْرِشُونَ** } أي: ما يجعلونه عروشا، جمع عريش، وهو مجلس مرتفع على الأرض في الحائط أو الحقل يُتخذ من أعواد ويسقّف أعلاه بورق ونحوه ليكون له ظل فيجلس فيه صاحبه مشرفا على ما حوله.

يقال: عرش، إذا بنى ورفع، ومنه سُمّي السرير الذي يرتفع عن الأرض ليجلس عليه العظماء عرشا.

وتقدّم عند قوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ } [الأنعام:141]، وقوله تعالى { وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ } [الأعراف:137]. وقرأ جمهور القراء بكسر راء { يعرِشون }. وقرأه ابن عامر بضمها.

{ **ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ** } (ثمّ) للتراخي الرتبي، لأنّ إلهام النحل للأكل من الثمرات يترتّب عليه تكوّن العسل في بطونها، وذلك أعلى رتبة من أتخاذها البيوت لاختصاصها بالعسل دون غيرها من الحشرات التي تبني البيوت، ولأنّه أعظم فائدة للإنسان، ولأنّ منه قوّتها الذي به بقاؤها. وسُمّي امتصاصها أكلا لأنّها تقتاته فليس هو بشرب.

{ **الثَّمَرَاتِ** } جمع ثمرة. وأصل الثمرة ما تخرجه الشجرة من غلة. مثل التمر والعنب، والنحل يمتص من الأزهار قبل أن تصير ثمرات، فأطلق في الآية على الأزهار على سبيل المجاز المرسل بعلاقة الأَوْلِ.

{ **فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً** } عُطفت بفاء التفريع للإشارة إلى أنّ الله أودع في طبع النحل عند الرعي التنقل من زهرة إلى زهرة ومن روضة إلى روضة، وإذا لم تجد زهرة أبعدت الانتجاع ثم إذا شبعت قصدت المبادرة بالطيران لترجع إلى بيوتها فتقذف من بطونها العسل الذي يفضل عن قوتها، فذلك السلوك مفرَّع على طبيعة أكلها.

والعسل حين القذف به في خلايا الشهد يكون مائعا رقيقا، ثم يأخذ في جفاف ما فيه من رطوبة مياه الأزهار بسبب حرارة الشمع المركّب منه الشهد وحرارة بيت النحل حتّى يصير خاثرا، ويكون أبيض في الربيع وأسمر في الصيف.

السلوك: المرور وسط الشيء من طريق ونحوه. وتقدّم عند قوله تعالى { كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ } [الحجر:12]. ويستعمل في الأكثر متعدّيا كما في آية الحِجر بمعنى أسلكه، وقاصرا بمعنى

مرّ كما هنا، لأنّ السبل لا تصلح لأنّ تكون مفعول (سلك) المتعدي، فانتصاب { سُبُلَ } هنا على نزع الخافض توسّعا.

{ **سُبُلَ رَبِّكِ** } إضافة السبل إلى { رَبِّكِ } للإشارة إلى أنّ النّحل مسخّرة لسلوك تلك السبل.

{ **ذُلُلاً** } جمع ذلول، أي: مذلّلة مسخّرة. وتقدّم عند قوله تعالى { ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ } [البقرة:71].

{ **يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ** } مستأنفة استئنافا بيانيّا، لأنّ ما تقدّم من الخبر عن إلهام النحل تلك الأعمال يثير في نفس السامع أن يسأل عن الغاية من هذا التكوين العجيب، فيكون مضمون الجملة بيانا لما سأل عنه. وهو أيضا موضع المنّة كما كان تمام العبرة.

وجيء بالفعل المضارع للدلالة على تجدّد الخروج وتكرّره.

{ **شَرَابٌ** } عُبّر عن العسل باسم الشراب دون العسل لما يومئ إليه اسم الجنس من معنى الانتفاع به، وهو محلّ المنّة، وليُرتّب عليه جملة { فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ }. وسُمّي شرابا لأنه مائع يشرب شربا ولا يمضغ.

{ **مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ** } لأنّ له مدخلا في العبرة، كقوله تعالى { تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ } [الرعد:4]، فذلك من الآيات على عظيم القدرة ودقيق الحكمة. وفي العسل منافع كثيرة مبيَّنة في علم الطب.

{ **فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ** } جعل الشفاء مظروفا في العسل على وجه الظرفية المجازية. وإيماء إلى أنّه لا يقتضي أن يطّرد الشفاء به في كل حالة من أحوال الأمزجة، أو قد تعرض للأمزجة عوارض تصير غير ملائم لها شرب العسل، كما في حديث : **" صدق الله وكذب بطن أخيك "**.

وتنكير { شِفَاءٌ } في سياق الإثبات لا يقتضي العموم، فلا يقتضي أنّه شفاء من كل داء.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** } مثل الجملتين المماثلتين لها. وهو تكرير لتعداد الاستدلال، واختير وصف التفكّر هنا لأنّ الاعتبار بتفصيل ما أجملته الآية في نظام النحل محتاج إلى إعمال فكر دقيق، ونظر عميق.

{ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ } [70].

انتقال من الاستدلال بدقائق صنع الله على وحدانيّته إلى الاستدلال بتصرّفه في الخلق، التصرّف الغالب لهم الذي لا يستطيعون دفعه، على انفراده بربوبيتهم وعلى عظيم قدرته. كما دلّ عليه تذييلها بجملة { إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ }. فهو خلقهم بدون اختيار منهم ثم يتوفّاهم كرها عليهم أو يردّهم إلى حالة يكرهونها فلا يستطيعون ردا لذلك ولا خلاصا منه، وبذلك يتحقّق معنى العبوديّة بأوضح مظهر.

{ **وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ** } ابتدئت الجملة باسم الجلالة للغرض الذي شرحناه سابقا عند قوله تعالى { وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ

السَّمَاءِ مَاءً } [65]. وأمّا إعادة اسم الجلالة هنا دون الإضمار فلأن مقام الاستدلال يقتضي تكرير اسم المستدَل (بفتح الدال) على إثبات صفاته تصريحا واضحا.

وجيء بالمسند فعليا لإفادة تخصيص المسند إليه بالمسند الفعلي في الإثبات. وقد تقدّم نظيره في قوله تعالى { وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً }. فهذه عبرة وهي أيضا منّة، لأنّ الخلق، وهو الإيجاد، نعمة لشرف الوجود والإنسانيّة، وفي التوفّي أيضا نعم على المتوفى لأنّ به تندفع آلم الهرم.

الأرذل: تفضيل في الرذالة، وهي الرداءة في صفات الاستياء.

{ **الْعُمُرِ** } مدة البقاء في الحياة، لأنّه مشتقّ من العَمْر، وهو شغل المكان، قال تعالى { وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا } [الروم:9]، فإضافة { أَرْذَلِ } إلى { الْعُمُرِ } هي من إضافة الصفة إلى الموصوف على طريقة المجاز العقلي، لأنّ الموصوف بالأرذل حقيقة هو حال الإنسان في عمره لا نفس العمر. والهرم لا ينضبط حصوله بعدد من السنين، لأنّه يختلف باختلاف الأبدان والبلدان والصحّة والاعتلال على تفاوت الأمزجة المعتدلة، وهذه الرذالة رذالة في الصحّة لا تعلق لها بحالة النفس، فهي مما يعرض للمسلم والكافر فتُسمّى أرذل العمر فيهما، وقد استعاذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن يردّ إلى أرذل العمر.

{ **لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً** } لام التعليل الداخلة على (كي) المصدرية مستعملة في معنى الصيرورة والعاقبة تشبيها للصيرورة بالعلّة، استعارة تشير إلى أنّه لا غاية للمرء في ذلك التعمير، تعريضا بالنّاس إذ يرغبون في طول الحياة، وتنبيها على وجوب الإقصار من تلك الرغبة.

واستعارة حرف العلّة إلى معنى العاقبة مستعملة في الكلام البليغ في مقام التوبيخ أو التخطئة أو نحو ذلك. وتقدّم القول في ذلك عند قوله تعالى { إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ } [55].

<u>والمعنى</u>: لكيلا يعلم شيئا بعد أن كان له علم، أي: ليزول منه قبول العلم.

{ **إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ** } تذييل تنبيها على أنّ المقصود من الجملة الدلالة على عظم قدرة الله وعظم علمه. وقُدّم وصف العليم لأنّ القدرة تتعلّق على وفق العلم، وبمقدار سعة العلم يكون عظم القدرة.

{ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ } [71].

هذا من الاستدلال على أنّ التصرّف القاهر لله تعالى. وذلك أنّه أعقب الاستدلال بالإحياء والإماتة وما بينهما من هرم بالاستدلال بالرزق. ولمّا كان الرزق حاصلا لكل موجود بني الاستدلال على التفاوت فيه. ووجه الاستدلال به على التصرّف القاهر أنّ الرزق حاصل لجميع الخلق وأنّ تفاضل النّاس فيه غير جار على رغباتهم ولا على استحقاقهم، فقد تجد أكيس النّاس وأجودهم عقلا وفهما مُقتَّرا عليه في الرزق، وبضدّه ترى أجهل النّاس وأقلّهم تدبيرا موسَّعا عليه في الرزق، وكلا الرجلين قد حصل به ما حصل

قهرا عليه. وذلك لأنّ الأسباب كثيرة متوالدة ومتسلسلة ومتوغّلة في الخفاء حتّى يُظنّ أنّ أسباب الأمرين مفقودة وما هي بمفقودة ولكنها غير مُحاط بها. ولذلك أسند التفضيل في الرزق إلى الله تعالى لأنّ أسبابه خارجة عن إحاطة عقول البشر، والحكيم لا يستفزّه ذلك. وتفيد وراء الاستدلال معنى الامتنان لاقتضائها حصول الرزق للجميع.

{ **وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ** } مقدّمة للدليل ومنّة من الممن، لأنّ التفضيل في الرزق يقتضي الإنعام بأصل الرزق. وليست الجملة مناط الاستدلال وإنّما الاستدلال في التمثيل من قوله تعالى { فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ }. والقول في جعل المسند إليه اسم الجلالة وبناء المسند الفعلي عليه كالقول في قوله تعالى { وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ }.

<u>المعنى</u>: الله لا غيره رزقكم جميعا وفضل بعضكم على بعض في الرزق ولا يسعكم إلّا الإقرار بذلك له.

{ **فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ** } إدماج جاء على وجه التمثيل لتبيان ضلال أهل الشرك حين سوّوا بعض المخلوقات بالخالق فأشركوها في الإلهيّة فسادا في تفكيرهم.

مثّل بطلان عقيدة الإشراك بالله بعضَ مخلوقاته بحالة أهل النعمة المرزوقين لأنّهم لا يرضون أن يشركوا عبيدهم معهم في فضل رزقهم فكيف يسوّون بالله عبيده في صفته العظمى وهي الإلهية.

والغرض من التمثيل تشنيع مقالتهم واستحالة صدقها بحسب العرف، وقرينة التمثيل والمقصد منه دلالة المقام.

الرّاد: المُعطي. كما في قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" والخُمُس مردود عليكم "**.

أي: فما هم بمعطين رزقهم لعبيدهم إعطاء مشاطرة بحيث يسوّونهم بهم.

{ **مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ** } إسناد الملك إلى اليمين مجاز عقلي، لأنّ اليمين سبب وهمي للملك، لأنّ سبب الملك إمّا أسر وهو أثر للقتال بالسيف الذي تمسكه اليد اليمنى، وإمّا شراء ودفع الثمن يكون باليد اليمنى عرفا، فهي سبب وهمي ناشئ عن العادة.

{ **فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ** } تفريع على جملة { فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ }، أي لا يشاطرون عبيدهم رزقهم فيستووا فيه.

{ **أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ** } <u>صالحة لأنّ تكون مفرَّعة على جملة { وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ }</u> باعتبار ما تضمّنته من الامتنان، أي: تفضل الله عليكم جميعا بالرزق أفبنعمة الله تجحدون، استفهاما مستعملا في التوبيخ بحيث أشركوا مع الذي أنعم عليهم آلهة لا حظّ لها في الإنعام عليهم. وذلك جحود النعمة كقوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ } [العنكبوت:17].

وعلى هذا الوجه يكون في { يَجْحَدُونَ } على قراءة الجمهور بالتحتية التفات من الخطاب إلى الغيبة. ونكتته أنّهم لمّا كان المقصود من الاستدلال المشركين فكانوا موضع التوبيخ، ناسب أن يُعرض عن

خطابهم وينالهم المقصود من التوبيخ بالتعريض.

وقرأ أبو بكر عن عاصم ورويس عن يعقوب { تَجْحَدُونَ } بالمثناة الفوقية على مقتضى الظاهر ويكون الاستفهام مستعملا في التحذير.

وتصلح الجملة أن تكون مفرّعة على جملة { فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ }، فيكون التوبيخ متوجّها إلى فريق من المشركين وهم الذين فُضِّلوا بالرزق وهم أولو السعة منهم وسادتهم وقد كانوا أشدّ كفرا بالدين وتألّبا على للمسلمين، أي: أيجحد الذين فضلوا بنعمة الله إذ أفاض عليهم النعمة فيكونوا أشد إشراكا به. وهذا كقوله تعالى { وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً } [المزمل:11].

وعلى هذا الوجه يكون قوله تعالى { يَجْحَدُونَ } في قراءة الجمهور بالتحتية جاريا على مقتضى الظاهر.

وفي قراءة أبي بكر عن عاصم بالمثناة الفوقية التفاتا من الغيبة إلى خطابهم إقبالا عليهم بالخطاب لإدخال الروع في نفوسهم.

وقد عُدي فعل { يَجْحَدُونَ } بالباء لتضمّنه معنى يكفرون.

وتقديم { بِنِعْمَةِ } على متعلّقه وهو { يَجْحَدُونَ } للرعاية على الفاصلة.

{ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ } [72].

استدلال ببديع الصنع في خلق النسل إذ جعله مقارنا للتّأنّس بين الزوجين. وجعل النسل معروفا متّصلا بأصوله بما ألهم الإنسان من داعية حفظ النسب، فهي من الآيات على انفراده تعالى بالوحدانيّة، كما قال تعالى { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [الروم:21]. فجعلها آية تنطوي على آيات، ويتضمّن ذلك الصنع نعما كثيرة.

{ **وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ** } القول فيها كالقول في نظيرتيها المتقدّمتين.

{ **مِنْ أَنْفُسِكُمْ** } من نوعكم، كقوله تعالى { فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ } [النور:61]. والخطاب بضمير الجماعة المخاطبين موجّه إلى النّاس كلّهم، وغُلّب ضمير التذكير.

الأزواج: جمع زوج، وهو الشيء الذي يصير مع شيء آخر أثنين، فلذا وُصِفَ بزوجٍ المرادف لثانٍ. وقد مضى الكلام عليه في قوله تعالى { اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ } [البقرة:35]. والوصف بالزوج يؤذن بملازمته لآخر، فلذا سُمّي بالزوج قرين المرأة وقرينة الرجل.

{ **وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً** } جعْل البنين للإنسان نعمة، وجعل كونهم من زوجة نعمة أخرى، لأنّ بها تحقّق كونهم أبناءه، ووجود المشارك له في القيام بتدبير أمرهم في حالة ضعفهم.

الحفدة: جمع حافد، مثل كَمَلة جمع كامل. والحافد أصله المسرع في الخدمة. وأطلق على ابن الابن لأنّه يكثر أن يخدم جدّه لضعف الجدّ بسبب الكبر، فأنعم الله على الإنسان بحفظ سلسلة نسبه بسبب ضبط

الحلقة الأولى منها، وهي كون أبنائه من زوجه ثم كون أبناء أبنائه من أزواجهم، فانضبطت سلسلة الأنساب بهذا النظام المحكم البديع. وغير الإنسان من الحيوان لا يشعر بحفدته أصلا ولا يشعر بالبنوّة إلّا أنثى الحيوان مدّة قليلة قريبة من الإرضاع. والحفدة للإنسان زيادة في المسرة، قال تعالى { فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ } [هود:71].

{ **وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ** } معطوفة على جملة { جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً } وما بعدها، لمناسبة ما في الجمل المعطوف عليها من تضمّن المنّة بنعمة أفراد العائلة، فإنّ مكمّلاتها سعة الرزق، قال تعالى { زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ } [آل عمران:15].

ثم الرزق يجوز أن يكون مرادا منه المال كما في قوله تعالى في قصة قارون { وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ } [القصص:82]. وهذا هو الظاهر وهو الموافق لما في الآية المذكورة آنفا.

{ **الطَّيِّبَاتِ** } صفة لموصوف محذوف دلّ عليه فعل رزقكم، أي: الأرزاق الطيّبات.

الطيّب: فَيْعِل صفة مبالغة في الوصف بالطِّيب. والطيب: أصله النزاهة وحسن الرائحة، ثم استعمل في الملائم الخالص من النكد، قال تعالى { فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً } [النحل:97]. واستُعمل في الصالح من نوعه كقوله تعالى { وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ } [الأعراف:58].

فالطيبات هنا الأرزاق الواسعة المحبوبة ، أو المطعومات والمشروبات اللذيذة الصالحة. وقد تقدّم ذكر الطيبات عند قوله تعالى { الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ } [المائدة:5]، وذُكر الطيّب في قوله تعالى { كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالًا طَيِّباً } [البقرة:168].

{ **أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ** } استفهام توبيخ على إيمانهم بالباطل البيّن.

الباطل: ضدّ الحقّ لأنّ ما لا يحقّ لا يعبد بحقّ. وتقديم المجرور على متعلّقه للاهتمام بالتعريف بباطلهم. والالتفات عن الخطاب السابق إلى الغيبيّة في قوله تعالى { أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ } يجري الكلام فيه على نحو ما تقدّم في قوله تعالى { أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ } [71].

{ **وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ** } مقصد التوبيخ جليّ، وتقديم المجرور للاهتمام، وضميرالفصل لتأكيد الحكم بكفرانهم النعمة، لأنّ كفران النعمة أخفى من الإيمان بالباطل، لأنّ الكفران يتعلّق بحالات القلب، فاجتمع في الجملة تأكيدان: التأكيد الذي أفاده التقديم، والتأكيد الذي أفاده ضمير الفصل.

{ **يُؤْمِنُونَ - يَكْفُرُونَ** } الإتيان بالمضارع للدلالة على التجدّد والتكرير. وفي الجمع مُحسِّن بديع الطباق.

{ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئاً وَلَا يَسْتَطِيعُونَ } [73].

مزيد من التوبيخ، فإنّ الجملتين المعطوف عليها أفادتها توبيخا على إيمانهم بالآلهة الباطل وكفرانهم بنعمة المعبود الحقّ. وهذه الجملة المعطوفة أفادت التوبيخ على شكر ما لا يستحق الشكر، فإنّ العبادة شكر، فهم عبدوا ما لا يستحق العبادة ولا بيده نعمة. فمفاد هذه الجملة مؤكِّد لمفاد ما قبلها مع اختلاف الاعتبار بموجب التوبيخ في كلتيهما.

{ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً } عدم القدرة على إعطائه. والملك يطلق على القدرة، كما في قوله تعالى { قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ } [المائدة:17].

الرزق: هنا مصدر منصوب على المفعولية، أي: لا يملك أن يرزق.

{ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ السماوات } { مِنَ } ابتدائية، أي: رزقا موصوفا بوروده من السماوات والأرض.

{ شَيْئاً } مبالغة في المنفي، أي: ولا يملكون جزاء قليلا من الرزق. فهو في معنى المفعول به، كأنّه قيل: لا يملك لهم شيئا من الرزق.

{ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ } عطف على { يَمْلِكُ }، فهو من جملة صلة { مَا }. فضمير الجمع عائد إلى { مَا } الموصولة باعتبار دلالتها جماعة الأصنام المعبودة لهم. وأجريت عليها صيغة جمع العقلاء مجاراة لاعتقادهم أنّها تعقل وتشفع وتستجب.

وحُذف المفعول لقصد التعميم، أي: لا يستطيعون شيئا لأنّ تلك الأصنام حجارة لا تقدر على شيء.

الاستطاعة: القدرة.

{ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُون } [74].

تفريع على جميع ما سبق من الآيات والعبر والمنن، إذ قد استقام من جميعها انفراد الله تعالى بالإلهيّة، ونفي الشريك فيما خلق وأنعم، وبالأولى نفي أن يكون له ولد وأن يُشبّه بالحوادث، فلا جرم استتب للمقام أن يُفرّع على ذلك زجر المشركين عن تمثيلهم غير الله بالله في شيء من ذلك، وأن يُمثّلوه بالموجودات.

{ الْأَمْثَالَ } هنا جمع مَثَل (بفتحتين) بمعنى المماثل، كقولهم: شَبَه بمعنى مشابه.

ضرب الأمثال: شاع استعماله في تشبيه حالة بحالة وهيئة بهيئة، وهو هنا استعمال آخر.

{ فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ } ووجه كون الإشراك ضرب مثل لله أنّهم أثبتوا للأصنام صفات الإلهية وشبهوها بالخالق. وقد كانوا يقولون عن الأصنام هؤلاء شفعاؤنا عند الله، والملائكة هنّ بنات الله من سَرَوات الجنّ، فذلك ضرب مثل وتشبيه لله بالحوادث في التأثّر بشفاعة الأكْفاء والأعيان والاحتياج للبنين.

{ **إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ** } تعليل للنهي عن تشبيه الله تعالى بالحوادث، وتنبيه على أنّ جهلهم هو الذي أوقعهم في تلك السخافات من العقائد، وأنّ الله إذ نهاهم وزجرهم عن أن يشبِّهوه بما شبَّهوه إنّما نهاهم لعلمه ببطلان اعتقادهم.

{ **وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُون** } استدعاء لإعمال النظر الصحيح ليصلوا إلى العلم البريء من الأوهام.

{ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } [75].

أُعقِب زجرهم عن أن يشبّهوا الله بخلقه أو أن يشبّهوا الخلق بربّهم بتمثيل حالهم في ذلك بحال من مثّل عبدا بسيّده في الإنفاق. فشُبّه حال أصنامهم في العجز عن رزقهم بحال مملوك لا يقدر على التصرّف في نفسه ولا يملك مالا، وشُبّه شأن الله تعالى في رزقه إيّاهم بحال الغنيّ المالك أمر نفسه بما شاء من إنفاق وغيره. والمقصود نفي المماثلة بين الحالتين، فكيف يزعمون مماثلة أصنامهم لله تعالى في الإلهية، ولذلك أعقب بجملة { هَلْ يَسْتَوُونَ }.

العبد: الإنسان الذي يملكه إنسان آخر بالأسر أو بالشراء أو بالإرث.

{ **مَمْلُوكا** } وصف للعبد، تأكيدا للمعنى المقصود وإشعارا لما في لفظ عبد من معنى المملوكيّة المقتضية أنّه لا يتصرّف في عمله تصرف الحريّة.

{ **لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ** } صفة، أي: عاجزا عن كلّ ما يقدر عليه النّاس. فهذا مثل لأصنامهم، كما قال تعالى

{ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ } [النحل:20/21]، وقوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً } [العنكبوت:17].

{ **وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً** } { مِنْ } موصولة ما صدْقها **حُرٌّ**، بقرينة أنّه وقع في مقابلة عبد مملوك، وأنّه وصف بالرزق الحسن، فهو ينفق منه سرّا وجهرا، أي: كيف شاء. وهذا من تصرّفات الأحرار. لأنّ العبيد لا يملكون رزقا في عرف العرب.

الرزق: هنا اسم للشيء المرزوق به.

الحسن: الذي لا يشوبه قبح في نوعه، مثل قلّة وجدان وقت الحاجة.

{ **فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ** } مفرّعة على التي قبلها دون أن تُجعل صفة للرزق، للدلالة على أنّ مضمون كلتا الجملتين مقصود لذاته كمال في موصوفه، فكونه صاحب رزق حُسْن كمال، وكونه يتصرّف في رزقه بالإعطاء كمال آخر، وكلاهما بضد نقائص المملوك الذي لا يقدر على شيء.

وجعْل المسند فعلا للدلالة على التقوّي، أي: ينفق إنفاقا ثابتا. وجعْل الفعل مضارعا للدلالة على التجدّد والتكرّر، أي: ينفق ويزيد.

{ **سِرّاً وَجَهْراً** } حالان من ضمير { يُنْفِقُ }، وهما مصدران مؤوّلان بالصفة، أي: مسرّا وجاهرا بإنفاقه. والمقصود من ذكرهما تعميم الإنفاق كناية عن استقلال التصرّف. وهذا مَثَل لغنى الله تعالى وجوده.

{ **هَلْ يَسْتَوُونَ** } بيان لجملة { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً } فبيّن غرض التشبيه بأنّ المثل مراد منه عدم تساوي. والاستفهام مستعمل في الإنكار. وجاءت صيغة الجمع لمراعاة أصحاب الهيئة المشبَّهة، لأنّها أصنام كثيرة كل واحد منها مشبّه بعبد مملوك لا يقدر على شيء، فصيغة الجمع هنا تجريد للتمثيليّة، أي: هل يستوي أولئك مع الإله الحقّ القادر المتصرّف. وإنّما أجري ضمير جمعهم على صيغة جمع العالم تغليبا لجانب أحد التمثيلين وهو جانب الإله القادر.

{ **الْحَمْدُ لِلَّهِ** } معترضة بين الاستفهام المفيد للنفي وبين الإضراب بـ { بَلْ } الانتقالية. والمقصود من هذه الجملة أنّه تبيَّن من المثل اختصاص الله بالإنعام، فوجب أن يُختصّ بالشكر.

ولمّا كان الحمد مظهرا من مظاهر الشكر في مظهر النطق جُعل كناية عن الشكر هنا، إذ كان الكلام على إخلال المشركين بواجب الشكر إذ أثنوا على الأصنام وتركوا الثناء على الله، جيء بهذه الجملة البليغة الدلالة المفيدة انحصار الحمد في ملك الله تعالى، وهو إمّا حصر ادعائي لأنّ الحمد إنّما يكون على نعمة، وغير الله إذا أنعم فإنّما إنعامه مظهر لنعمة الله تعالى التي جرت على يديه، كما تقدّم في صدر سورة الفاتحة، وإمّا قصر إضافي قصرَ إفراد، للردّ على المشركين إذ قسّموا حمدهم بين الله وبين آلهتهم.

{ **بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ** } إضراب للانتقال من الاستدلال عليهم إلى تجهيلهم في عقيدتهم.

وأسند نفي العلم إلى أكثرهم لأنّ منهم من يعلم الحقّ ويكابر استبقاء للسيادة واستجلابا لطاعة دهمائهم، فهذا ذم لأكثرهم بالصراحة، وهو ذم لأقلّهم بوصمة المكابرة والعناد بطريق التعريض. وهذا نظير قوله تعالى { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ } [الزمر:29].

{ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } [76].

هذا تمثيل ثان للحالتين بحالتين باختلاف وجه الشبه. الأولى، حال الأبكم، وهو العجز عن الإدراك، وعن العمل، وتعذّر الفائدة منه في سائر أحواله. والثانية، حال الرجل كامل العقل والنطق في إدراكه الخيرَ وهديه إليه.

وهذا التمثيل ضربه الله مثلا لكماله وإرشاده النّاس إلى الحق، ومثلا للأصنام الجامدة التي لا تنفع ولا تضرّ. وقد قُرن في التمثيل هنا حال الرجلين ابتداء، ثم فُصل في آخر الكلام مع ذكر عدم التسوية بينهما بأسلوب من نظم الكلام بديع الإيجاز، إذ حُذف من صدر التمثيل ذكر الرجل الثاني للاقتصار على ذكره في استنتاج عدم التسوية، تفنّنا في المخالفة بين أسلوب هذا التمثيل وأسلوب سابقه الذي في قوله تعالى

{ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً } [75]. ومثل هذا التفنّن من مقاصد البلغاء كراهية للتكرير، لأنّ تكرير الأسلوب بمنزلة تكرير الألفاظ.

الأبكم: الموصوف بالبَكَم (بفتح الباء والكاف) وهو الخرس في أصل الخلقة من وقت الولادة بحيث لا يَفهَم ولا يُفهِم. وزيد في وصفه أنّه زمِنٌ لا يقدر على شيء. وتقدّم عند قوله تعالى { صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ } [البقرة:18].

الكَلّ: (بفتح الكاف) العالة على النّاس. وفي الحديث: " **من تركَ كلًّا فعلينا** "، أي: من ترك عيالا فنحن نكلفهم. وأصل الكلّ: الثِّقَل. ونشأت عنه معان مجازيّة اشتهرت فساوت الحقيقة.

المولى: الذي يلي أمر غيره. والمعنى: هو عالة على كافله لا يُدبّر أمر نفسه.

{ **أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ** } زاد فوصفه بقلّة الجدوى، أي: لا يهتدي إلى ما وُجّه إليه.

{ **يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ** } دلّت الصلة على أنّه حكيم عالم بالحقائق ناصح للنّاس يأمرهم بالعدل، لأنّه لا يأمر بذلك إلّا وقد علمه وتبصّر فيه. و**العدل**: الحقّ والصواب الموافق للواقع.

الصراط المستقيم: المحجّة التي لا التواء فيها. وأطلق هنا على العمل الصالح، لأنّ العمل يشبه بالسيرة والسلوك فإذا كان صالحا كان كالسلوك في طريق موصِلة للمقصود واضحة.

فالأول مثل الأصنام الجامدة التي لا تفقه وهي محتاجة إلى من يحرسها وينفض عنها الغبار والوسخ، والثاني مثل لكماله تعالى في ذاته وإفاضته الخير على عباده.

{ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [77].

كان ممّا حُكي من مقالات كفرهم أنّهم أقسموا بالله لا يبعث الله من يموت، لأنّهم توهّموا أنّ إفناء هذا العالم العظيم وإحياء العظام وهي رميم أمر مستحيل، وأبطل الله ذلك على الفور بأنّ الله قادر على كل ما يريده.

ثم انتقل الكلام عقب ذلك إلى بسط الدلائل على الوحدانيّة والقدرة، وتسلسل البيان وتفنّنت الأغراض بالمناسبات، فكان من ذلك تهديدهم بأنّ الله لو يؤاخذ النّاس بظلمهم ما ترك على الأرض من دابة، ولكنّه يمهلهم ويؤخّرهم إلى أجل عيّنه في علمه لحكمته، وحذّرهم من مفاجأته، فثنّى عِنان الكلام إلى الاعتراض بالتذكير بأنّ الله لا يخرج من قدرته أعظم فعل ممّا غاب عن إدراكهم، وأنّ أمر الساعة التي أنكروا إمكانها وغرّهم تأخير حلولها هي ممّا لا يخرج عن تصرّف الله ومشيئته متى شاءه. فذلك قوله تعالى { وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }. بحيث لم يغادر شيئا مما حُكي عنهم من كفرهم وجدالهم إلّا وقد بيّنه لهم استقصاء للأعذار لهم. ومن مقتضيات تأخير هذا أنّه يشتمل بصريحه على تعليم، وبإيمائه إلى تهديد وتحذير.

{ **وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } اللام لام الملك. وتقديم المجرور أفاد الحصر، أي: له لا لغيره. ولام الملك أفادت الحصر، فيكون التقديم مفيدا تأكيد الحصر أو هو للاهتمام.

الغيب: مصدر بمعنى اسم الفاعل، أي: الأشياء الغائبة. وتقدّم في قوله { الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ } [البقرة:3]. وهو الغائب عن أعين النّاس من الأشياء الخفيّة والعوالم التي لا تصل إلى مشاهدتها حواس المخلوقات الأرضيّة. والإخبار بأنّها ملك لله يقتضي بطريق الكناية أيضا أنّه عالم بها.

{ **أَمْرُ السَّاعَةِ** } أي: شأنها العظيم. فالأمر: الشأن المهمّ، كما في قوله تعالى { أَتَى أَمْرُ اللَّهِ } [1].

السَّاعَةِ: عَلَم بالغلبة على وقت فناء العالم، وهي من جملة غيب الأرض.

لمح البصر: اللمح هو النظر. ووجه الشبه هو كونه مقدورا بدون كلفة، لأنّ لمح البصر هو أمكن وأسرع حركات الجوارح فهو أيسر وأسرع من نقل الأرجل في المشي ومن الإشارة باليد.

ويجوز أن يكون وجه الشبه السرعة، أي: سرعة الحصول عند إرادة الله، أي: يحصل فجأة بدون أمارات كقوله تعالى { لا تَأْتِيكُمْ إِلّا بَغْتَةً } [ألأعراف:187].

والمقصود: إنذارهم وتحذيرهم من أن تبغتهم الساعة ليقلعوا عمّا هم فيه من وقت الإنذار.

{ **أَوْ هُوَ أَقْرَبُ** }، {أَوْ} للإضراب الانتقالي، إضرابا عن التشبيه الأوّل، بأنّ المشبّه أقوى في وجه الشبه من المشبّه به. وهو كناية عن كونه في المقدورية بمنزلة الشيء القريب التناول كقوله تعالى { وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ } [قّ:16].

{ **إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } تذييل صالح لكلا التفسيرين؛ القدرة والسرعة.

{ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [78].

عود إلى إكثار الدلائل على انفراد الله بالتصرّف، وإلى تعداد النعم على البشر عطفا على جملة { وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً} [72] بعدما فصل بين تعداد النعم بما اقتضاه الحال من التذكير والإنذار.

وقد اعتبر في هذه النّعم ما فيها من لطف الله تعالى بالنّاس ليكون من ذلك التخلّص إلى الدعوة إلى الإسلام وبيان أصول دعوته في قوله تعالى { كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ } [81] إلى آخره.

والمعنى: أنّه كما أخرجكم من عدم وجعل فيكم الإدراك وما يتوقّف عليه الإدراك من الحياة فكذلك ينشئكم يوم البعث بعد العدم.

وإذ كان هذا الصنع دليلا على إمكان البعث فهو أيضا باعث على شكر الله بتوحيده ونبذ الإشراك، فإنّ الإنعام يبعث العاقل على الشكر.

{ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ** } افتتاح الكلام باسم الجلالة وجعل الخبر عنه فعلا تقدّم بيانه عند قوله تعالى { وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً } [65].

الإخراج: الإبراز من مكان إلى آخر.

الأمّهات: جمع أمّ. وقد تقدّم عند قوله تعالى { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ } [النساء:23].

{ **لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً** } حال من الضمير في { أَخْرَجَكُمْ }. وذلك أنّ الطفل حين يولد لم يكن له علم بشيء ثم تأخذ حواسه تنقل الأشياء تدريجا، فجعل الله في الطفل آلات الإدراك وأصول التفكّر.

{ **وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ** } أي: أوجد فيكم إدراك السمع والبصر والعقل، أي: كوَّنها في النّاس حتّى بلغت مبلغ كمالها الذي ينتهي بها إلى علم أشياء كثيرة.

{ **السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ** } أُفرِد { السَّمْعَ } لأنّه مصدر فهو دال على الجنس الموجود في جميع حواس النّاس. وأمّا { الْأَبْصَارَ } فجي به جمعا لأنّه اسم، فهو ليس نصّا في إفادة العموم لاحتمال توهّم بصر مخصوص، فكان الجمع أدلّ على قصد العموم وأنفى لاحتمال العهد ونحوه، بخلاف قوله تعالى { إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً } [الإسراء: 36]، لأنّ المراد الواحد لكلّ مخاطب بقوله تعالى { وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ } [الإسراء:36].

{ **الْأَفْئِدَةَ** } جمع الفؤاد، وأصله القلب. ويطلق كثيرا على العقل وهو المراد هنا. فالسمع والبصر أعظم آلات الإدراك إذ بهما إدراك أهم الجزئيّات، وهما أقوى الوسائل لإدراك العلوم الضروريّة.

واقتُصر عليهما من بين الحواس لأنهما أهم، ولأنّ بهما إدراك دلائل الاعتقاد الحق. ثم ذُكر بعدهما الأفئدة، أي: العقل مقرّ الإدراك كلّه، فهو الذي تنقل إليه الحواس مدركاتها، وهي العلم بالتصوّرات المفردة. وللعقل إدراك آخر وهو إدراك اقتران أحد المعلومين بالآخر وهو التصديقات المنقسمة إلى:

البديهيّات: ككون نفي الشيء وإثباته من سائر الوجوه لا يجتمعان، وككون الكلّ أعظم من الجزء.

النظريات: وتسمّى الكسبيّات، وهي العلم بانتساب أحد المعلومين إلى الآخر بعد حركة العقل في الجمع بينهما أو التفريق. فالعلوم الكسبية لا يمكن اكتسابها إلّا بواسطة العلوم البديهيّة. وحصول هذه العلوم البديهية إنّما يحصل عند حدوث تصوّر موضوعاتها وتصور محمولاتها. وحدوث هذه التصورات إنّما هو بسبب إعانة الحواس على جزئيّاتها، فكانت الحواس الخمس هي السبب الأصلي لحدوث هذه العلوم، وكان السمع والبصر أوّل الحواس تحصيلا للتصورات وأهمّها.

{ **لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** } لأنّ هذه العلوم نعمة من الله تعالى ولطف، أي: هي سبب لرجاء شكرهم واهبها سبحانه.

{ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إلّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [79].

موقع هذه الجملة موقع التعليل والتدليل على عظيم قدرة الله وبديع صنعه وعلى لطفه بالمخلوقات، فإنّه لمّا ذكر موهبة العقل والحواس التي بها تحصيل المنافع ودفع الأضرار نبّه النّاس إلى لطف يشاهدونه

أجلّى مشاهدة لأضعف الحيوان، بأنّ تسخير الجوّ للطير وخلقها صالحة لأنّ ترفرف فيه بدون تعليم هو لطف بها اقتضاه ضعف بنيتها.

فلأجل هذا الموقع لم تُعطف الجملة على التي قبلها لأنّها ليس في مضمونها نعمة على البشر، ولكنّها آية على قدرة الله تعالى وعلمه، بخلاف نظيرتها { أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ } [الملك:19] فإنّها عُطفت على آيات دالة على قدرة الله [5 / 6 / 16]. ولذلك المعنى عقّبت هذه وحدها بجملة { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }.

{ **أَلَمْ يَرَوْا** } الاستفهام إنكاري. معناه: إنكار انتفاء رؤيتهم الطير مسخرات في الجو بتنزيل رؤيتهم إيّاها منزلة عدم الرؤية لانعدام فائدة الرؤية من إدراك ما يدلّ عليه المرئي من انفراد الله تعالى بالإلهية.

الرؤية: بصرية. وفعلها يتعدّى بنفسه، فتعديته بحرف (إلى) لتضمين الفعل معنى (ينظروا).

التسخير: التذليل للعمل. وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ } [الأعراف:54].

الجَوّ: الفضاء الذي بين الأرض والسماء. وإضافته إلى السماء لأنّه يبدو متّصلا بالقبة الزرقاء.

الإمساك: الشدّ عن التفلّت. وتقدّم في قوله تعالى { فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ } [البقرة:229].

وإمساك الله إيّاها خلقه الأجنحة لها والأذناب، وجعله الأجنحة والأذناب قابلة للبسط، وخلق عظامها أخف من عظام الدواب بحيث إذا بسطت أجنحتها وأذنابها ونهضت بأعصابها خفت خفة شديدة فسبحت في الهواء فلا يصلح ثقلها لأنّ يخرق ما تحتها من الهواء إلّا إذا قبضت من أجنحتها وأذنابها وقوست أعصاب أصلابها عند إرادتها النزول إلى الأرض أو الانخفاض في الهواء. فهي تحوم في الهواء كيف شاءت ثم تقع متى شاءت أو عييت. فلولا أنّ الله خلقها على تلك الحالة لما استمسكت، فسُمّي ذلك إمساكا على وجه الاستعارة.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** } مستأنفة استئنافا بيانيا، والتأكيد بـ { إِنَّ } مناسب لاستفهام الإنكار على الذين لم يروا تلك الآيات، فأكَّدت الجملة الدالة على انتفاع المؤمنين بتلك الدلالة، لأنّ الكلام موجّه للذين لم يهتدوا بتلك الدلالة، فهم بمنزلة من ينكر أنّ في ذلك دلالة للمؤمنين، لأنّ المشركين ينظرون بمرآة أنفسهم.

وبين الإنكار عليهم عدم رؤيتهم تسخير الطير وبين إثبات رؤية المؤمنين مُحسِّن الطباق.

وبين نفي عدم رؤية المشركين وتأكيد إثبات رؤية المؤمنين لذلك مُحسِّن الطباق أيضا.

وبين ضمير { يَرَوْا } وقوله تعالى { لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } التضاد أيضا.

فحصل الطباق ثلاث مرات. وهذا أبلغ طباق جاء محويا للبيان.

{ **لَآيَاتٍ** } جمع الآيات لأنّ في الطير دلائل مختلفة؛ من خلقة الهواء، وخلقة أجساد الطير مناسبة للطيران في الهواء، وخلق الإلهام للطير بان يسبح في الجو، وبأن لا يسقط إلى الأرض إلّا بإرادته.

وخُصّت الآيات بالمؤمنين لأنّهم بخلُق الإيمان قد ألفوا إعمال تفكيرهم في الاستدلال على حقائق الأشياء، بخلاف أهل الكفر فإن خلُق الكفر مطبوع على النفرة من الاقتداء بالناصحين وعلى مكابرة الحق.

{ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ } [80].

هذا من تعداد النعم التي ألهم الله إليها الإنسان، وهي نعمة الفكر بصنع المنازل الواقية والمرفّهة وما يشبهها من الثياب والأثاث عطفا على جملة { وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً } [78]. وكلّها من الألطاف التي أعدّ الله لها عقل الإنسان وهيّأ له وسائلها.

وذلك أصل حفظ النوع من غوائل حوادث الجوّ من شدة برد أو حرّ ومن غوائل السباع والهوام. وهي أيضا أصل الحضارة والتمدّن، لأنّ البلدان ومنازل القبائل تتقوّم من اجتماع البيوت.

{ **وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ** } القول في نظمها كالقول في التي قبلها.

{ **بُيُوتِكُمْ** } يجوز فيه ضم الباء وكسرها، وهو جمع بيت. وضم الباء هو القياس لأنّه على وزن فعول. وأمّا لغة الكسر فلمناسبة وقوع الياء التحتية بعدها، لأنّ الانتقال من حركة الضم إلى النطق بالياء ثقيل. وبالكسر قرأ الجمهور. وقرأها بالضم أبو عمرو وورش عن نافع و حفص عن عاصم.

وقد تقدّم ذكر البيت عند قوله تعالى { وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً } [البقرة:125].

{ **جَعَلَ** } هنا بمعنى أوجد، فتتعدّى إلى مفعول واحد.

{ **مِنْ بُيُوتِكُمْ** } بيان للسكن، فتكون { مِنْ } بيانيّة.

السكن: اسم بمعنى المسكون. والسُّكنى: مصدر سكن فلان البيت. إذا جعله مقرًّا له، وهو مشتق من السكون، أي: القرار. وأصل التركيب: والله جعل لكم بيوتكم سكنا.

{ **وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتاً** } وخُصّ بالذكر القباب والخيام لأنّ القباب من أدم والخيام من منسوج الأوبار والأصواف والأشعار، وهي ناشئة من الجلد، لأنّ الجلد هو الإهاب بما عليه، فإذا دبغ وأزيل منه الشعر فهو الأديم. وهذا امتنان خاص بالبيوت القابلة للانتقال والارتحال.

{ **تَسْتَخِفُّونَهَا** } السين والتاء للوجدان، أي: تجدونها خفيفة، أي: خفيفة المحمل حين ترحلون، إذ يسهل نقضها من مواضعها وطيّها وحملها على الرواحل، وحين تنيخون إناخة الإقامة في الموضع المنتقل إليه فيسهل ضربها وتوثيقها في الأرض.

الظعن: (بفتح الظاء والعين وتسكن العين). وقد قرأه بالأول نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب، وبالثاني الباقون، وهو السفر. وأطلق **اليوم:** هنا على الحين والزمن، أي: **وقت سفركم**.

الأثاث: (بفتح الهمزة) اسم جمع للأشياء التي تفرش في البيوت من وسائد وبسط وزرابي، وكلّها تنسج أو تحشى بالأصواف والأشعار والأوبار.

المتاع: أعم من الأثاث، فيشمل الأعدال و الخطم و الرحائل و اللبود والعقل. فالمتاع: ما يُتمتّع به ويُنتفع، وهو مشتق من المتع، وهو الذهاب بالشيء. والمقصود: الوعظ بأنّها أو أنّهم صائرون إلى زوال.

{ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ } [81].

هذا امتنان بنعمة الإلهام إلى التوقّي من أضرار الحرّ والقُرّ في حالة الانتقال، أُعقبت به المنّة بذلك في حال الإقامة والسكنى، وبنعمة خلق الأشياء التي يكون بها ذلك التوقّي باستعمال الموجود وصنع ما يحتاج إليه الإنسان من اللباس، إذ خلق الله الظلال صالحة للتوقّي من حر الشمس، وخلق الكهوف في الجبال ليمكن اللَجأ إليها، وخلق مواد اللباس مع الإلهام إلى صناعة نسجها، وخلق الحديد لاتخاذ الدروع للقتال.

الظلال: تقدّم الكلام عليه عند قوله تعالى { يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ } [48].

الأكنان: جمع كِنّ - بكسر الكاف - وهو فعل بمعنى مفعول، أي: مكنون فيه، وهي الغيران والكهوف. كانوا يأوون إلى الكهوف في شدّة حرّ الهجير أو عند اشتداد المطر، كما ورد في حديث الثلاثة الذين سألوا الله بأفضل أعمالهم في صحيح البخاري.

السرابيل: جمع سربال، وهو القميص يقي الجسد حرّ الشمس، كما يقيه البرد. وخُصّ الحرّ هنا لأنّه أكثر أحوال بلاد المخاطبين في وقت نزولها.

{ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ } هي دروع الحديد. ولها من أسماء القميص الدرع، والسربال، والبدن.

البأس: الشدّة في الحرب. وإضافتة إلى الضمير على معنى التوزيع، أي: تقي بعضكم بأس بعض، كما فُسّر به قوله تعالى { وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ } [الأنعام:65]، وقال تعالى { وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ } [الحديد:25]، وهو بأس السيوف، وقوله { وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ } [الانبياء:80].

{ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ } تذييل لما ذُكر من النعم، والمشار إليه هو ما في النعم المذكورة من الإتمام.

{ لَعَلَّكُمْ } للرجاء، استعملت في معنى الرغبة، أي: رغبة في أن تسلموا، أي: تتبعوا دين الإسلام. وتقدّم تأويل معنى الرجاء في كلام الله تعالى من سورة البقرة.

{ **فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ** } [82].

تفريع على جملة { لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ } وقع اعتراضا بين { كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ } [81] وجملة { وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً } [84]. وقد حُوّل الخطاب عنهم إلى خطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم، وهو نوع من الالتفات من أسلوب إلى أسلوب، والتفات عمن كان الكلام موجها إليه بتوجيه الكلام إلى شخص آخر. والمقصود: تسلية النبيّ صلى الله عليه وسلم على عدم استجابتهم.

التولّي: الإعراض. وفعل { تَوَلَّوْا } هنا بصيغة الماضي، أي: فإن أعرضوا عن الدعوة فلا تقصير منك ولا غضاضة عليك فإنك قد بلّغت البلاغ المبين للمحجّة.

{ **فَإِنَّمَا عَلَيْكَ** } القصر إضافي، أي: ما عليك إلّا البلاغ لا تقليب قلوبهم إلى الإسلام، كقوله تعالى { فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ } [الرعد:40].

ونظير هذه قوله تعالى { وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ } [المائدة:92].

{ **يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ** } [83].

استئناف بياني لأنّ تولّيهم عن الإسلام مع وفرة أسباب اتّباعه يثير سؤالا في نفس السامع: كيف خفيت عليهم دلائل الإسلام؟ فيجاب بأنّهم عرفوا نعمة الله ولكنّهم أعرضوا عنها إنكارا ومكابرة.

<u>ويجوز</u> أن تجعل الجملة حالا من ضمير { تَوَلَّوْا }. <u>ويجوز</u> أن تكون بدل اشتمال لجملة { تَوَلَّوْا }.

وهذه الوجوه كلها تقتضي عدم عطفها على ما قبلها. والمعنى: هم يعلمون نعمة الله المعدودة عليهم، فإنّهم منتفعون بها، ومع تحقّقهم أنّها نعمة من الله ينكرونها، أي: ينكرون شكرها.

{ **ثُمَّ** } للتراخي الرتبي، ولما كانت كذلك زال عنها معنى المهلة الزمانية الموضوعة له، فبقي لها معنى التشريك، وصارت المهلة مهلة رتبية لأنّ إنكار نعمة الله أمر غريب.

وإنكار النعمة يستوي فيه جميع المشركين أيمّتهم ودهماؤهم، ففريق من المشركين وهم أيمّة الكفر شأنهم التعقّل والتأمّل فإنّهم عرفوا النعمة بإقرارهم بالمنعِم وبما سمعوا من دلائل القرآن حتّى تردّدوا وشكّوا في دين الشرك ثم ركبوا رؤوسهم وصمّموا على الشرك. ولهذا عُبّر عن ذلك بالإنكار المقابل للإقرار.

{ **وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ** } الظاهر أنّ الذين وُصفوا بأنّهم الكافرون هم غالب المشركين لا جميعهم، فيحمل المراد بالغالب على دهماء المشركين، فإنّ معظمهم بسطاء العقول بعداء عن النظر فهم لا يشعرون بنعمة الله، فإن نعمة الله تقتضي إفراده بالعبادة، فكان إشراكهم راسخا، بخلاف عقلائهم وأهل النظر فإنّ لهم تردّدا في نفوسهم ولكن يحملهم على الكفر حبّ السيادة في قومهم. وهم الذين قال الله تعالى فيهم { فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ } [الأنعام:33].

{ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ } [84].

الواو عاطفة جملة { يَوْمَ نَبْعَثُ } على جملة { فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ } [82] بتقدير: واذكر يوم نبعث من كل أمّة شهيدا. فالتذكير بذلك اليوم من البلاغ المبين. والمعنى: فإن تولّوا فإنما عليك البلاغ المبين، وسنجازي يوم نبعث من كل أمة شهيدا عليها. ذلك أنّ وصف شهيد يقتضي أنّه شاهد على المؤمنين به وعلى الكافرين، أي: شهيد لأنّه بلّغهم رسالة الله.

الشهيد: الشاهد. وقد تقدّم نظيره عند قوله تعالى { فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ } [النساء:41].

البعث: إحضاره في الموقف. وبعث شهيد من كل أمّة يفيد أنّ محمدا صلى الله عليه وسلم شهيد على هؤلاء الكافرين كما سيجيء عقبه. وبذلك انتظم أمر العطف والتخلّص إلى وصف يوم الحساب وإلى التنويه بشأنه.

{ ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ }، { ثُمَّ } للتراخي الرتبي، لأنّ إلجامهم عن الكلام مع تعذّر الاستعتاب أشدّ هولا من الإتيان بالشهيد عليهم. وليست للتراخي في الزمن، لأنّ عدم الإذن لهم مقارن لبعث الشهيد عليهم. والمعنى: لا يؤذن لهم بالمجادلة عن أنفسهم.

<u>ويجوز</u> أن يكون نفي الإذن كناية عن الطرد كما كان الإذن كناية عن الإكرام، كما في حديث جرير بن عبد الله: " ما استأذنت رسول الله منذ أسلمت إلّا أذن لي " .

الاستعتاب: أصله طلب العُتبى، والعتبى: الرضى بعد الغضب. يقال: استعتب فلان فلانا فأعتبه، إذا أرضاه، قال تعالى { وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ } [فصلت:24].

وعطف { وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ } على { لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا }، وإن كان أخصّ منه، هو عطف خاص على عام، للدلالة على أنّهم مأيوس من الرضى عنهم عند سائر أهل الموقف بحيث يعلمون أن لا طائل في استعتابهم، فلذلك لا يشير أحد عليهم بأن يستعتبوا.

فإن جعلتَ { لا يُؤْذَنُ } كناية عن الطرد فالمعنى: أنّهم يطردون ولا يجدون من يشير عليهم بأن يستعتبوا.

{ وَإِذَا رَأى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ } [85].

عطف على { ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا } [84].

{ وَإِذَا رَأى } شرطية ظرفية. وجملة { فَلا يُخَفَّفُ } جواب { إِذَا } وقرن بالفاء لتأكيد معنى الشرطية والجوابية لدفع احتمال الاستئناف.

{ الَّذِينَ ظَلَمُوا } هم الذين كفروا، فالتعبير به من الإظهار في مقام الإضمار لقصد إجراء الصفات المتلبسين بها عليهم. والمعنى: فلا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون، ثم يساقون إلى العذاب فإذا رأوه لا يُخفف عنهم، أي: يسألون تخفيفه أو تأخير الإقحام فيه فلا يُستجاب لهم شيء من ذلك.

{ الْعَذَابَ } أطلق العذاب على آلاته ومكانه.

{ **وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ** } جاء المسند إليه مخبَرا عنه بالجملة الفعلية لأنّ الإخبار بها عن الاسم يفيد تقوّي الحكم، أي: أنّ عدم تخفيف العذاب عنهم محقّق الوقوع لا طماعية في إخلافه، فحصل تأكيد هذه الجملة كما حصل تأكيد الجملة التي قبلها بالفاء.

{ وَإِذَا رَأى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ [86] وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ [87] }.

{ **الَّذِينَ أَشْرَكُوا** } هم الذين ظلموا، الذين يرون العذاب، وهم الذين كفروا، الذين لا يؤذن لهم. وإجراء هذه الصلات الثلاث عليهم لزيادة التسجيل عليهم بأنواع إجرامهم الراجعة إلى تكذيب ما دعاهم الله إليه، وهو نكتة الإظهار في مقام الإضمار هنا.

فالإشراك المقصود هنا هو إشراكهم الأصنام في صفة الإلهيّة مع الله تعالى، فيتعيّن أن يكون المراد بالشركاء الأصنام. والمعنى: أنهم يرون الأصنام حين تقذف معهم في النار، { وَقُودُهَا النّاس وَالْحِجَارَةُ } [البقرة:24].

{ **رَبَّنَا هَؤُلاءِ شُرَكَاؤُنَا** } إمّا من قبيل الاعتراف عن غير إرادة، فضحا لهم، كقوله تعالى { يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ } [النور:24]، وإمّا من قبيل التنصّل وإلقاء التبعة على المعبودات، كأنّهم يقولون: هؤلاء أغرونا بعبادتهم، من قبيل قوله تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا } [البقرة:167].

{ **فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ** } الفاء للتعقيب للدلالة على المبادرة بتكذيب ما تضمّنه مقالهم، أنطق الله تلك الأصنام فكذَّبت ما تضمّنه مقالهم من كون الأصنام شركاء لله، أو من كون عبادتهم بإغراء منها تفضيحا لهم وحسرة عليهم.

ولمّا كان نطق الأصنام غير جار على المتعارف عُبّر عنه بالإلقاء المؤذن بكون القول أجراه الله على أفواه الأصنام من دون أن يكونوا ناطقين. وهو مجاز عقلي لأنّها مظهره. وأجرى عليهم ضمير جمع العقلاء في فعل (ألقوا) مشاكلة لاسم الإشارة واسم الموصول للعقلاء.

{ **إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ** } بدل من { الْقَوْلَ }. ووصفهم بالكذب متعلّق بما تضمّنه كلامهم أنّ أولئك آلهة يدعون من دون الله على نحو ما وقع في الحديث: **" فيقال للنصارى:ما كنتم تعبدون، فيقولون: كنا نعبد المسيح ابن الله، فيقال لهم: كذبتم ما اتخذ الله من ولد ".**

{ **وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ** } أعيد فعل { أَلْقَوْا } لاختلاف فاعل الإلقاء، لأنّ هذا عائد إلى { الَّذِينَ أَشْرَكُوا }.

السلَم (بفتح اللام): الاستسلام، أي: الطاعة وترك العناد.
{ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } أي: غاب عنهم وزايلهم ما كانوا يفترونه في الدنيا من الاختلاقات للأصنام من أنّها تسمع لهم ونحو ذلك.

{ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ } [88].

لمّا ذكر العذاب الذين هم لاقوه على كفرهم استأنف هنا بذكر زيادة العذاب لهم على الزيادة في كفرهم، بأنّهم يصدّون النّاس عن اتباع الإسلام، وهو المراد بالصدّ عن سبيل الله، أي: السبيل الموصلة إلى الله. وفيه تنبيه المسلمين إلى كيدهم وإفسادهم، والتعريض بالتحذير من الوقوع في شراكهم.
زيادة العذاب: مضاعفته.
{ فَوْقَ الْعَذَابِ } تعريف الجنس المعهود حيث تقدّم ذكره في قوله { وَإِذَا رَأى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ } [85]، لأنّ عذاب كفرهم لمّا كان معلوما بكثرة الحديث عنه صار كالمعهود، وأمّا عذاب صدّهم النّاس فلا يخطر بالبال فكان مجهولا فناسبه التنكير.
{ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ } الباء للسببيّة. والمراد: إفسادهم الراغبين في الإسلام بتسويل البقاء على الكفر، كما فعلوا مع الأعشى حين جاء مكّة راغبا في الإسلام مادحا الرسول صلى الله عليه وسلم بقصيدة:

هل اغتمضَت عيناك ليلة أرمدا

وقصّته في كتب السيرة والأدب. وكما فعلوا مع عامر بن الطفيل الدوسي فإنّه قدم مكّة فمشى إليه رجال من قريش فقالوا: يا طفيل إنّك قدمت بلادنا وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا وقد فرّق جماعتنا وشتّت أمرنا وإنّما قوله كالسحر، وإنّا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا فلا تكلمنّه ولا تسمعنّ منه. وقد ذُكر في قصة إسلام أبي ذر كيف تعرّضوا له بالأذى في المسجد الحرام حين علموا إسلامه.

{ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } [89].

{ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاءِ }.
تكرير لجملة { وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا } [84]، ولمّا كان تكريرا أعيد نظير الجملة على صورة الجملة المؤكّدة مقترنة بالواو، ولأنّ في هذه الجملة زيادة وصف { مِنْ أَنْفُسِهِمْ } فحصلت مغايرة مع الجملة السابقة والمغايرة مقتضية للعطف أيضا.
ومن دواعي تكرير مضمون الجملة السابقة أنّه لبعد ما بين الجملتين بما اعترض بينهما من قوله تعالى { ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا - إلى قوله - بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ } [84/88].

وقد حصل من هذه الإعادة تأكيد التهديد والتسجيل.

{ **نَبْعَثُ فِي** } عُدّي الفعل هنا بحرف (فِي)، وعُدّي نظيره في الجملة السابقة بحرف (من) ليحصل التفنّن بين المكرّرين تجديدا لنشاط السامعين.

{ **مِنْ أَنْفُسِهِمْ** } زيد في هذه الجملة أنّ الشهيد يكون من أنفسهم للتذكير بأنّ شهادة الرّسل على الأمم شهادة لا مطعن لهم فيها، لأنّها شهادة شهود من قومهم.

ولم تخل أيضا، بعد التّعريض بالتحذير من صدّ الكافرين عن سبيل الله، من حسن موقع تذكير المسلمين بنعمة الله عليهم إذ بعث فيهم شهيدا يشهد لهم بما ينفعهم وبما يضرّ أعداءهم.

ولمّا كان بعث الشهداء للأمم الماضية مرادا به بعثهم يوم القيامة عُبّر عنه بالمضارع.

{ **وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاءِ** } الراجح أن تكون معطوفة على جملة { وَيَوْمَ نَبْعَثُ } كلّها.

فالمعني: وجئنا بك، لمّا أرسلناك إلى أمتك، شهيدا عليهم، أي: مقدَّرا أن تكون شهيدا عليهم يوم القيامة، لأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لمّا كان حيا في آن نزول هذه الآية كان شهيدا في الحال والاستقبال، فاختير لفظ الماضي في { جِئْنَا } للإشارة إلى أنّه مجيء حصل من يوم بعثته.

ويُعلم من ذلك أنّه يحصل يوم القيامة بطريق المساواة لبقية إخوانه الشهداء على الأمم، والمقصود من ذلك كلّه تهديد قومه وتحذيرهم. وهذا الوجه شديد المناسبة بأن يعطف عليه قوله { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ } [89]. وعلى هذا يكون الكلام تمّ عند قوله تعالى { مِنْ أَنْفُسِهِمْ }، فيحسن الوقف عليه لذلك.

ولم يوصف الرسول صلى الله عليه وسلم بأنّه من أنفسهم لأنّه مبعوث إلى جميع الأمم وشهيد عليهم جميعا، وأمّا وصفه بذلك في قوله تعالى { لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ } [التوبة:128] فذلك وصف كاشف اقتضاه مقام التذكير للمخاطبين من المنافقين الذين ضمّوا الكفر بالله كفران نعمة بعث رسول إليهم من قومهم.

{ **عَلَى هَؤُلاءِ** } ليس فيه ما يقتضي تخصيص شهادته بكونها شهادة على المتحدّث عنهم من أهل الشرك، ولكن اقتصر عليهم لأنّ الكلام جار في تهديدهم وتحذيرهم.

{ **هَؤُلاءِ** } إشارة إلى حاضر في الذهن وهم المشركون الذين أكثر الحديث عليهم. وقد تتبّعتُ مواقع أمثال اسم الإشارة هذا في القرآن فرأيته يُعنى به المشركون من أهل مكّة. وتقدّم بيانه عند قوله تعالى { وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً } [النساء:41]، وقوله تعالى { فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ } [الأنعام:89].

{ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ** }

عطف على { وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً }، أي: أرسلناك شهيدا على المشركين وأنزلنا عليك القرآن لينتفع به المسلمون، فرسول الله صلى الله عليه وسلم شهيد على المكذّبين ومرشد للمؤمنين.

وهذا تخلّص للشروع في تعداد النعم على المؤمنين؛ من نعم الإرشاد ونعم الجزاء على الامتثال، وبيان بركات هذا الكتاب المنزّل لهم. وتعريف الكتاب للعهد، وهو القرآن.

{ **تِبْيَاناً** } مفعول لأجله. والتبيان مصدر دال على المبالغة في المصدريّة، ثم أريد به اسم الفاعل فحصلت مبالغتان، وهو بكسر التاء، ولا يوجد مصدر بوزن تِفعال بكسر التاء إلّا تبيان بمعنى البيان كما هنا، وتِلقاء بمعنى اللقاء لا بمعنى المكان، وما سوى ذلك من المصادر الواردة على هذا الزنة بفتح التاء.

{ **لِكُلِّ شَيْءٍ** } يفيد العموم، إلّا أنّه عموم عرفي في دائرة ما لمثله تجيء الأديان والشرائع؛ من إصلاح النفوس، وإكمال الأخلاق، وتقويم المجتمع المدنيّ، وتبيّن الحقوق، وما تتوقّف عليه الدعوة من الاستدلال على الوحدانيّة، وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم، وما يأتي من خلال ذلك من الحقائق العلميّة والدقائق الكونيّة، ووصف أحوال الأمم، وأسباب فلاحها وخسارها، والموعظة بآثارها بشواهد التاريخ، وما يتخلّل ذلك من قوانينهم وحضاراتهم وصنائعهم.

وفي خلال ذلك كلّه أسرار ونكت من أصول العلوم والمعارف صالحة لأنّ تكون بيانا لكلّ شيء على وجه العموم الحقيقي، إن سُلك في بيانها طريق التفصيل واستُنير فيها بما شرح الرّسول صلى الله عليه وسلم وما قفّاه به أصحابه وعلماء أمّته، ثم ما يعود إلى الترغيب والترهيب من وصف ما أُعِدّ للطائعين وما أُعدّ للمعرضين، ووصف عالم الغيب والحياة الآخرة. ففي كل ذلك بيان لكلّ شيء، يقصد بيانه للتبصّر في هذا الغرض الجليل، فيؤول ذلك العموم العرفي بصريحه إلى عموم حقيقي بضمنه ولوازمه. وهذا من أبدع الإعجاز.

{ **وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ** } خُصّ بالذكر الهدى والرحمة والبُشرى لأهميتها، فالهدى ما يرجع من التبيان إلى تقويم العقائد والأفهام والإنقاذ من الضلال. والرحمة ما يرجع منه إلى سعادة الحياتين الدنيا والأخرى، والبُشرى ما فيه من الوعد بالحسنيين الدنيويّة والأخرويّة.

وكل ذلك للمسلمين دون غيرهم، لأنّ غيرهم لمّا أعرضوا عنه حرموا أنفسهم الانتفاع بخواصه كلّها.

{ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } [90].

لمّا جاء أنّ هذا القرآن تبيان لكلّ شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين حسُن التخلّص إلى تبيان أصول الهدى في التشريع للدين الإسلامي العائدة إلى الأمر والنهي، إذ الشريعة كلّها أمر ونهي والتقوى منحصرة في الامتثال والاجتناب. فهذه الآية استئناف لبيان كون الكتاب تبيانا لكلّ شيء، فهي جامعة أصول التشريع.

{ **إِنَّ اللَّهَ** } حرف التوكيد للاهتمام بشأن ما حوته الآية. وتصديرها باسم الجلالة للتشريف.

{ **يَأْمُرُ / وَيَنْهَى** } دون أن يقال: اعدلوا واجتنبوا الفحشاء، للتشويق. ونظيره ما في الحديث: **" إنّ الله يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا ".**

العدل: إعطاء الحقّ إلى صاحبه. وهو الأصل الجامع للحقوق الراجعة إلى الضروري والحاجي من الحقوق الذاتيّة وحقوق المعاملات، إذ المسلم مأمور؛

بالعدل في ذاته، قال تعالى { وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ } [البقرة:195]،

ومأمور بالعدل في المعاملة، وهي معاملة مع خالقه بالاعتراف له بصفاته وبأداء حقوقه، ومعاملة مع المخلوقات من أصول المعاشرة العائليّة والمخالطة الاجتماعية وذلك في الأقوال والأفعال، قال تعالى { وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى } [الأنعام:152]، وقال تعالى { وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النّاس أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ } [النساء:58].

ومن هذا تفرّعت شعب نظام المعاملات الاجتماعية من آداب، وحقوق وأقضية، وشهادات، ومعاملة مع الأمم، قال تعالى { وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى إِلّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى } [المائدة:8].

ومرجع تفاصيل العدل إلى أدلة الشريعة. فالعدل هنا كلمة مجملة جامعة، فهي بإجمالها مناسبة إلى أحوال المسلمين حين كانوا بمكّة، فيصار فيها إلى ما هو مقرّر بين النّاس في أصول الشرائع وإلى ما رسمته الشريعة من البيان في مواضع الخفاء، فحقوق المسلمين بعضهم على بعض من الأخوّة والتناصح قد أصبحت من العدل بوضع الشريعة الإسلامية.

الإحسان: هو معاملة بالحُسنى ممّن لا يلزمه إلى من هو أهلها. والحسَن: ما كان محبوبا عند المعامَل به ولم يكن لازما لفاعله، وأعلاه ما كان في جانب الله تعالى مما فسّره النبيّ صلى الله عليه وسلم بقوله " **الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك** ".

ودون ذلك التقرّب إلى الله بالنوافل.

ثمّ الإحسان في المعاملة فيما زاد على العدل الواجب، وهو يدخل في جميع الأقوال والأفعال ومع سائر الأصناف، إلّا ما حُرم الإحسانَ بحكم الشّرع.

ومن أدنى مراتب الإحسان ما في الموطأ " **أنّ امرأة بغيّا رأت كلبا يلهث من العطش يأكل الثرى فنزعت خفّها وأَدْلَتْه في بئر ونزعت فسقته فغفر الله لها** ".

وفي الحديث الشريف: " **إنّ الله كتب الإحسان على كلّ شيء فإذا قلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة** ".

ومن الإحسان أن يجازي المحسَنُ إليه المحسِن على إحسانه إذ ليس الجزاء بواجب.

فإلى حقيقة الإحسان ترجع أصول وفروع آداب المعاشرة كلّها في العائلة والصحبة.

والعفو عن الحقوق الواجبة من الإحسان، لقوله تعالى { وَالْعَافِينَ عَنِ النّاس وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } [آل عمران:134].

{ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى } نوع مهمّ من جنس أنواع العدل والإحسان يكثر أن يغفل النّاس عنه ويتهاونوا بحقّه أو بفضله. فقد تقرّر في نفوس النّاس الاعتناء باجتلاب الأبعد واتّقاء شرّه، كما تقرّر في نفوسهم

الغفلة عن القريب والاطمئنان من جانبه وتعوّد التساهل في حقوقه. ولأجل ذلك كثر أن يأخذوا أموال الأيتام من مواليهم. ولأجل ذلك صرفوا معظم إحسانهم إلى الأبعدين لاجتلاب المحْمدة وحسن الذكر بين النّاس. ولم يزل هذا الخُلق متفشيا في النّاس حتّى في الإسلام إلى الأنّ. لذلك تعدّدت الآيات المذكِّرة والمحذِّرة من مثل قوله تعالى { وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ } [النساء:2]، وقوله تعالى { وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ} [الاسراء:26]، وقوله تعالى { وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ } [النساء:127].

وقد كانوا في الجاهلية يقصدون بوصايا أموالهم أصحابهم من وجوه القوم، ولذلك قال تعالى { كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ } [البقرة:180].

وهذا راجع إلى تقويم نظام العائلة والقبيلة تهيئةً لنفوس النّاس إلى أحكام المواريث التي شُرعت فيما بعد.

ذو القربى: هو صاحب القرابة، أي: من المؤتي. وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى } [الأنعام:152].

الإيتاء: الإعطاء. والمراد: إعطاء المال، قال تعالى { وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ } [البقرة:177].

{ وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ } هي أصول المفاسد.

الفحشاء: اسم جامع لكلّ عمل أو قول تستفظعه النفوس لفساده من الآثام التي تفسد نفس المرء؛ من اعتقاد باطل أو عمل مفسد للخلق، والتي تضرّ بأفراد النّاس؛ من قتل أو سرقة أو قذف أو غصب مال، أو تضرّ بحال المجتمع وتدخل عليه الاضطراب؛ من حرابة أو زنى أو تقامر أو شرب خمر. فدخل في الفحشاء كلّ ما يوجب اختلال المناسب الضروري، وقد سماها الله الفواحش. وتقدم ذكر الفحشاء عند قوله تعالى { إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ } [البقرة:169]، وقوله { قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ } [الأعراف:33] وهي مكية.

المنكر: هو ما تستنكره النفوس المعتدلة وتكرهه الشريعة من فعل أو قول، قال تعالى { وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً } [المجادلة:2]، وقال تعالى { وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ } [العنكبوت:29].

والاستنكار مراتب، منها مرتبة الحرام، ومنها مرتبة المكروه فإنّه منهي عنه. وشمل المنكر كل ما يفضي إلى الإخلال بالمناسب الحاجي، وكذلك ما يُعطّل المناسب التحسيني بدون ما يفضي منه إلى ضرّ.

الْبَغْيِ: نوع من الفحشاء والمنكر خصّه الله بالذكر اهتماما بالنهي عنه وسدا لذريعة وقوعه، لأنّ النفوس تنساق إليه بدافع الغضب، وتغفل عمّا يشمله من النهي من عموم الفحشاء بسب فشوّه بين النّاس. وذلك أنّ العرب كانوا أهل بأس وشجاعة وإباء، فكانوا يكثر فيهم البغي على الغير إذا لقي المعجَب بنفسه من أحد شيئا يكرهه أو معاملة يعدّها هضيمة وتقصيرا في تعظيمه. وبذلك كان يختلط على مريد البغي حسن الذبّ عمّا يسمّيه الشرف وقبح مجاوزة حدّ الجزاء.

فالبغي هو الاعتداء في المعاملة؛ **إمّا** بدون مقابلة ذنب، كالغارة التي كانت وسيلة كسب في الجاهلية، **وإمّا** بمجاوزة الحدّ في مقابلة الذنب، كالإفراط في المؤاخذة، ولذا قال تعالى { فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا

عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ } [البقرة:194] وقال تعالى { ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ } [الحج:60]. وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَالْأِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ } [الأعراف:33].

فهذه الآية جمعت أصول الشريعة في الأمر بثلاثة والنهي عن ثلاثة، بل في الأمر بشيئين وتكملة، والنهي عن شيئين وتكملة.

وفي فضل هذه الآية رويت أحاديث وأقوال شهيرة منها ما رواه أحمد بن حنبل: أنّ هذه كانت السبب في تمكّن الإيمان من عثمان ابن مظعون، فإنّها لما نزلت كان عثمان بن مظعون بجانب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان حديث الإسلام، وكان إسلامه حياء من النبيّ صلى الله عليه وسلم وقراها النبيّ عليه. قال عثمان: فذلك حين استقر الإيمان في قلبي.

وعن عثمان بن أبي العاص: كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا إذ شخص بصره، فقال: " أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع ". وهذا يقتضي أنّ هذه الآية لم تنزل متّصلة بالآيات التي قبلها فكان وضعها في هذا الموضع صالحا لأنّ يكون بيانا لآية { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ } [89]، ولأنّ تكون مقدّمة لما بعدها { وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ } [91].

وعن ابن مسعود: أنّ هذه الآية أجمع آية في القرآن.

وعن قتادة: ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلّا أمر الله به في هذه الآية، وليس من خلق كانوا يتعايرونه بينهم إلّا نهى الله عنه وقدح فيه، وإنّما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامّها.

وروى ابن ماجه عن عليّ قال: أمر الله نبيّه أن يعرض نفسه على قبائل العرب، فخرج، فوقف على مجلس قوم من شيبان بن ثعلبة في الموسم. فدعاهم إلى الإسلام وأن ينصروه، فقال مفروق بن عمرو منهم: إلام تدعونا أخا قريش، فتلا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْأِحْسَانِ }. فقال: " دعوتَ والله إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ولقد أفك قوم كذّبوك وظاهروا عليك ".

وقد روي أنّ الفقرات الشهيرة التي شهد بها الوليد بن المغيرة للقرآن من قوله: " إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق، وما هو بكلام بشر"، قالها عند سماع هذه الآية.

وقد اهتدى الخليفة عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى ما جمعته هذه الآية من معاني الخير فلما استخلف سنة (99هـ) كتب يأمر الخطباء بتلاوة هذه الآية في الخطبة يوم الجمعة وتجعل تلاوتها عوضا عما كانوا يأتونه في خطبة الجمعة من كلمات سبّ علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

{ **يَعِظُكُمْ** } في موضع الحال من اسم الجلالة. و**الوعظ**: كلام يقصد منه إبعاد المخاطَب به عن الفساد وتحريضه على الصلاح. وتقدّم عند قوله تعالى { فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ } [النساء:63].

والخطاب للمسلمين لأنّ الموعظة من شأن من هو محتاج للكمال النفساني، ولذلك قارنها بالرجاء بـ { لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ }.

التذكّر: مراجعة المنسي المغفول عنه، أي: رجاء أن تتذكّروا، أي: تتذكروا بهذه الموعظة ما اشتملت عليه فإنّها جامعة باقية في نفوسكم.

{ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ } [91].

لمّا أمر الله المؤمنين بملاك المصالح ونهاهم عن ملاك المفاسد بما أومأ إليه قوله تعالى { يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } [90]، فكان ذلك مناسبة حسنة لهذا الانتقال الذي هو من أغراض تفنّن القرآن، وأوضح لهم أنّهم قد صاروا إلى كمال وخير بذلك الكتاب المبيّن لكلّ شيء. ولا جرم ذكّرهم هنا الوفاء بالعهد الذي عاهدوا الله عليه عندما أسلموا. وهو ما بايعوا عليه النبيّ صلى الله عليه وسلم مما فيه: أن لا يعصوه في معروف. وقد كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يأخذ البيعة على كل من أسلم من وقت ابتداء الإسلام في مكّة. وتكرّرت البيعة قبيل الهجرة وبعدها على أمور أخرى، مثل النصرة التي بايع عليها الأنصار ليلة العقبة، ومثل بيعة الحديبية.

{ **وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ** } الخطاب للمسلمين في الحفاظ على عهدهم بحفظ الشريعة. وإضافة العهد إلى الله لأنّهم عاهدوا النبيّ صلى الله عليه وسلم على الإسلام الذي دعاهم الله إليه، فهم قد عاهدوا الله كما قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ } [الفتح:10]، وقال تعالى { مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ } [الأحزاب:23]. والمقصود: تحذير الذين كانوا حديثي عهد بالإسلام من أن ينقضوا عهد الله.

{ **إِذَا عَاهَدْتُمْ** } لمجرد الظرفيّة، لأنّ المخاطبين قد عاهدوا الله على الإيمان والطاعة، فالإتيان باسم الزمان لتأكيد الوفاء. فالمعنى: أنّ من عاهد وجب عليه الوفاء بالعهد. والقرينة قوله تعالى { وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ }.

العهد: الحلف. وتقدّم في قوله تعالى { الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه } [البقرة:27]. وكذلك النقض تقدّم في تلك الآية.

نقض الأيمان: إبطال ما كانت لأجله. فالنقض إبطال المحلوف عليه لا إبطال القسم، فجعْل إبطال المحلوف عليه نقضا لليمين تهويلا وتغليظا للنقض، لأنّه نقض لحرمة اليمين.

{ **بَعْدَ تَوْكِيدِهَا** } زيادة في التحذير وليس قيدا، إذ المقصود أيمان معلومة وهي أيمان العهد والبيعة، وليست فيها بعديّة. و{ بَعْدَ } هنا بمعنى (مع)، إذ البعديّة والمعيّة أثرهما واحد هنا.

التوكيد: التوثيق. وليس هو توكيد اللفظ كما توهّمه بعضهم فهو ضدّ النقض. والمعنى: بعد ما فيها من

التوكيد، وبيّنه قوله تعالى { وَقَد جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً }. والمعنى: ولا تنقضوا الأيمان بعد حلفها.

{ **وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً** } في موقع الحال من ضمير { لَا تَنْقُضُوا }، أي: لا تنقضوا الأيمان في حال جعلكم الله كفيلا على أنفسكم إذا أقسمتم باسمه، فإنّ مدلول القَسَم أنّه إشهاد الله بصدق ما يقوله المقسِم، فيأتي باسم الله كالإتيان بذات الشاهد. ولذلك سُمّي الحلف شهادة في مواضع كثيرة، كقوله تعالى { فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ } [النور:6].

الكفيل: الشاهد والضامن والرقيب على الشيء المراعى لتحقيق الغرض منه.

والمعنى: أنّ القسم باسم الله إشهاد لله وكفالة به.

وقد كانوا عند العهد يحلفون ويُشهدون الكفلاء بالتنفيذ، قال الحارث بن حلزة:

واذكروا حلف ذي المجاز وما قُـ *** ـدِّم فيه العهود والكفلاء

{ **عَلَيْكُمْ** } متعلق بـ { جَعَلْتُمُ } لا بـ { كَفِيلاً }، أي: أقمتموه على أنفسكم مقام الكفيل.

{ **إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ** } معترضة. وهي خبر مراد منه التحذير من التساهل في التمسّك بالإيمان والإسلام بتذكيرهم أنّ الله يطّلع على ما يفعلونه، فالتوكيد بـ { إِنَّ } للاهتمام بالخبر.

وكذلك التأكيد ببناء الجملة بالمسند الفعلي. واختير الفعل المضارع في { يَعْلَمُ / تَفْعَلُونَ } لدلالته على التجدّد، أي: كلما فعلوا فعلا فالله يعلمه.

ولم يذكر المفسّرون سببا لنزول هذه الآية، وليست بحاجة إلى سبب. وذكروا في الآية الآتية وهي قوله تعالى { مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ } [106] أنّ آية { وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إذا عاهدتم } إلى آخرها نزلت في الذين رجعوا إلى الكفر بعد الإيمان لمّا فتنهم المشركون كما سيأتي، فجعلوا بين الآيتين اتصالا.

{ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } [92].

تشنيع لحال الذين ينقضون العهد. وعطف على { وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا }. واعتمد العطف على المغايرة في المعنى بين الجملتين لما في هذه الثانية من التمثيل، وإن كانت من جهة الموقع كالتوكيد لجملة { وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ }.

{ **كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا** } نُهوا عن أن يكونوا مَضرب مثل معروف في العرب بالاستهزاء، وهو المرأة التي تنقض غزلها بعد شدّ فتله. فالتي نقضت غزلها امرأة اسمها (**ريطة بنت سعد التميميّة**) من بني تميم من قريش. وعُبّر عنها بطريق الموصوليّة لاشتهارها بمضمون الصلة، ولأنّ القرآن لم يُذكر فيه بالاسم العلم إلّا من اشتهر بأمر عظيم مثل جالوت وقارون.

وقد ذُكر من قصّتها أنّها كانت امرأة خرقاء مختلّة العقل، ولها جَوارٍ، فكانت تغزل هي وجواريها من

الغداة إلى الظهر، ثم تنقض ما غزلته، وهكذا تفعل كل يوم، فكان حالها إفساد ما كان نافعا محكَما من عملها وإرجاعه إلى عدم الصلاح، فنُهوا عن أن يكون حالهم كحالها في نقضهم عهد الله، وهو عهد الإيمان، بالرجوع إلى الكفر وأعمال الجاهلية. ووجه الشبه الرجوع إلى فساد بعد التلبّس بصلاح.

الغزل: هنا مصدر بمعنى المفعول، أي: المغزول، لأنّه الذي يقبل النقض. والغزل: فتل نتف من الصوف أو الشعر لتُجعل خيوطا محكمة اتصال الأجزاء بواسطة إدارة آلة الغزل بحيث تلتف النتف المفتولة باليد فتصير خيطا غليظا طويلا بقدر الحاجة ليكون سَدًى أو لُحْمَةً للنسج.

القوّة: إحكام الغزل، أي: نقضته مع كونه محكم الفتل لا موجب لنقضه.

الأنكاث (بفتح الهمزة): جمع نِكْث (بكسر النون وسكون الكاف) أي: منكوث، أي: منقوض، ونظيره نِقض وأنقاض. والمراد بصيغة الجمع أن ما كان غزلا واحدا جعلته خيوطا عديدة. وذلك بأنّ صيّرته إلى الحالة التي كان عليها قبل الغزل وهي كونه خيوطا ذات عدد.

{ **تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ** } حال من ضمير { وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ }.

الدَّخَل: الفساد، أي: تجعلون أيمانكم التي حلفتموها فاسدة. ومن كلام العرب: ترى الفتيان كالنخْل وما يدريك ما الدَّخْل، أي: ما يدريك ما فيهم من فساد. والمعنى: <u>تجعلون</u> أيمانكم الحقيقة بأن تكون معظَّمة وصالحة فتجعلونها فاسدة كاذبة، فيكون وصف الأيمان بالدَّخَل حقيقة عقلية.

<u>أو تجعلونها</u> سبب فساد بينكم إذ تجعلونها وسيلة للغدر والمكر فيكون وصف الأيمان بالدَّخَل مجازا عقليا. ووجه الفساد أنّها تقتضي اطمئنان المتحالفين فإذا نقضها أحد الجانبين فقد تسبّب في الخصام والحقد.

وهذا تحذير لهم وتخويف من سوء عاقبة نقض اليمين، وليس بمقتضٍ أنّ نقضًا حدث فيهم.

{ **أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ** } معمول للام جر محذوفة كما هو غالب حالها مع (أنْ). والمعنى التعليل. أي: تنقضون الأيمان بسبب أن تكون أمّة أربى من أمة، أي: أقوى وأكثر.

الأمّة: الطائفة والقبيلة. والمقصود طائفة المشركين وأحلافهم.

{ **أَرْبَى** } أزيد، وهو اسم تفضيل من الرُبُوِّ بوزن العلو، أي: الزيادة، <u>يحتمل الحقيقة</u>، أعني: كثرة العدد. <u>ويحتمل المجاز</u>، أعني: رفاهية الحال وحسن العيش. وكلمة { أَرْبَى } تعطي هذه المعاني كلّها فلا تعدلها كلمة أخرى تصلح لجميع هذه المعاني، فوقعها هنا من مقتضى الإعجاز.

والمعنى: لا يبعثكم على نقض الأيمان كون أمّة أحسن من أمة.

ومعلوم أنّ الأمّة التي هي أحسن هي المنقوض لأجلها وأنّ الأمّة المفضولة هي المُنْفَصَل عنها.

أي: لا يحملكم على نقض الحلف أن يكون المشركون أكثر عددا وأموالا من المسلمين فيبعثكم ذلك على الانفصال عن جماعة المسلمين وعلى الرجوع إلى الكفّار.

{ **إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ** } مستأنفة استئنافا بيانيّا للتعليل بما يقتضي الحكمة. وهو أنّ ذلك يبتلي الله به صدق الإيمان كقوله تعالى { وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ } [الأنعام:165].

والقصر قصر موصوف على صفة. والتقدير: ما ذلك الرُبُوِّ إلّا بلوى لكم.

البَلْو: الاختبار. ومعنى إسناده إلى الله الكناية عن إظهار حال المسلمين. وله نظائر في القرآن.

{ **بِهِ** } الضمير هنا يعود إلى المصدر المنسبك من قوله تعالى { أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ }.

{ **وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** } ثمّ عُطف عليه تأكيدُ أنّه سيبين لهم يوم القيامة ما يختلفون فيه من الأحوال، فتظهر الحقائق كما هي غير مغشّاة بزخارف الشهوات ولا بمكاره مخالفة الطباع، لأنّ الآخرة دار الحقائق لا لبس فيها، فيومئذ تعلمون أنّ الإسلام هو الخير المحض وأنّ الكفر شرّ محض.

وأكّد هذا الوعد بمؤكِّدين، القَسَم الذي دلّت عليه اللام ونون التوكيد. ثم في ترتّب آثاره، إذ يكون النعيم إثر الإيمان ويكون العذاب إثر الشرك، وكل ذلك بيان لما كانوا مختلفين فيه في الدنيا.

{ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } [93].

لمَّا أحال البيان إلى يوم القيامة زادهم إعلاما بحكمة هذا التأخير، فأعلمهم أنّه قادر على أن يبيّن لهم الحقّ من هذه الدار فيجعلهم أمّة واحدة، ولكنّه أضلّ من شاء، أي: خلق فيه داعية الضلال، وهدى من شاء، أي: خلق فيه داعية الهدى. وأحال الأمر هنا على المشيئة إجمالا لتعذّر نشر مطاوي الحكمة من ذلك. ومرجعها إلى مشيئة الله تعالى أن يخلق النّاس على هذا الاختلاف الناشئ عن اختلاف أحوال التفكير ومراتب المدارك والعقول، وذلك يتولّد من تطوّرات عظيمة تعرض للإنسان في تناسله وحضارته وغير ذلك مما أجمله قوله تعالى { لَقَدْ خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إلّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ } [التين:4-6].

وهذه المشيئة لا يطّلع على كنهها إلّا الله تعالى وتظهر آثارها في فرقة المهتدين وفرقة الضالين.

{ **وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } لمّا كان قوله تعالى { وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ } قد يغترّ به قصار الأنظار فيحسبون أنّ الضالين والمهتدين سواء عند الله وأنّ الضالين معذورون في ضلالهم إذ كان من أثر مشيئة الله فعُقّب ذلك بقوله تعالى { **وَلَتُسْأَلُنَّ** } مؤكَّدا بتأكيدين كما تقدّم نظيره آنفا. أي: عمّا تعملون من عمل.

السؤال: كناية عن المحاسبة، لأنّه سؤال حكيم تترتب عليه الإنارة وليس سؤال استطلاع.

{ **وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** } [94].

لمّا حذّرهم من النقض الذي يؤول إلى اتخاذ أيمانهم دخَلا فيهم، وأشار بالإجمال إلى ما في ذلك من الفساد فيهم، أعاد الكرّة إلى بيان عاقبة ذلك الصنيع، إعادة تفيد التصريح بالنهي عن ذلك، وتأكيد التحذير، وتفصيل الفساد في الدنيا، وسوء العاقبة في الآخرة.

{ **وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلا بَيْنَكُمْ** } تصريح بالنهي، وتأكيد لقوله قبله { تَتَّخِذُون أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ } [92].

{ **فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ** } تفريع تفصيل لما أجمل في معنى الدَّخَل.

وبهذا التصدير وهذا التفريع فارقت هذه نظيرتها السابقة بالتفصيل والزيادة، فحق أن تعطف عليها لهذه المغايرة، وإن كان شان الجملة المؤكِّدة أن لا تعطف.

الزلل: تزلّق الرِّجل وتنقُّلها من موضعها دون إرادة صاحبها فيسقط على الأرض.

وتقدّم عند قوله تعالى { فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا } [البقرة:36].

وزلل القدم تمثيل لاختلال الحال والتعرّض للضرّ لأنّه يترتّب عليه السقوط أو الكسر.

ثبوت القدم: تمكّن الرِّجل من الأرض، وهو تمثيل لاستقامة الحال ودوام السير.

ولمّا كان المقصود تمثيل ما يجرّه نقض الأيمان من الدخل شُبّهت حالهم بحال الماشي في طريق فزلّت به قدمه بعد أن كانت ثابتة فصُرع.

{ **بَعْدَ ثُبُوتِهَا** } زيادة، لأنّ الزلل لا يتصوّر إلّا بعد الثبوت، وذلك لتصوير اختلاف الحالين، وأنّه انحطاط من حال سعادة إلى حال شقاء، ومن حال سلامة إلى حال محنة.

الثبوت: مصدر ثبت كالثبات، وهو الرسوخ وعدم التنقّل، وخصّ المتأخّرون من الكتّاب الثبوت الذي بالواو بالمعنى المجازي وهو التحقّق، مثل ثبوت عدالة الشاهد لدى القاضي، وخصّوا الثبات الذي بالألف بالمعني الحقيقي، وهي تفرقة حسنة.

الذوق: مستعار للإحساس القويّ كقوله تعالى { لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ } [المائدة:95].

السوء: ما يؤلم. والمراد: ذوق السوء في الدنيا من معاملتهم معاملة الناكثين عن الدين أو الخائنين عهودهم.

{ **بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ** } أي: بكونكم معرضين عن سبيل الله. وتقدّم آنفا. ذلك أنّ الآيات جاءت في الحفاظ على العهد الذي يعاهدون الله عليه، أي: على التمسك بالإسلام.

سبيل الله: هو دين الإسلام.

{ **وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** } هو عذاب الآخرة على الرجوع إلى الكفر أو على معصية غدر العهد.

وقد عصم الله المسلمين من الارتداد مدة مقام النبيّ صلى الله عليه وسلم، وما ارتدّ أحد إلّا بعد الهجرة حين ظهر النفاق، فكانت فلتة عبد الله بن سعد بن أبي سرح واحدة في المهاجرين، وقد تاب وقبِل توبته النبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [95].

هذا نهي عن نقض عهد الإسلام لأجل ما فاتهم بدخولهم في الإسلام من منافع عند المشركين. وبهذا الاعتبار عُطفت على { وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا } [91] وعلى { وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلا بَيْنَكُمْ } [94]، لأنّ كلّ جملة منها تلتفت إلى غرض خاص ممّا قد يبعث على النقض.

الثمن: العوض الذي يأخذه المعاوض. وتقدّم الكلام على نظير هذا عند قوله تعالى { وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ } [البقرة:41]. وذكرنا هناك أنّ { **قَلِيلاً** } صفة كاشفة وليست مقيّدة، أيّ أنّ كل عوض يؤخذ عن نقض عهد الله هو عوض قليل ولو كان أعظم المكتسبات.

{ **إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ** } تعليل للنهي باعتبار وصف عوض الاشتراء المنهي عنه بالقلّة، فإنّ ما عند الله هو خير من كل ثمن وإن عظم قدره.

ما عند الله: هو ما ادّخره للمسلمين من خير في الدنيا وفي الآخرة، كما سننبّه عليه عند قوله تعالى { مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ } [97]، فخير الدنيا الموعود به أفضل مما يبذله لهم المشركون، وخير الآخرة أعظم من الكلّ، فالعنديّة هنا بمعنى الادّخار لهم، كما تقول: لك عندي كذا، وليست عنديّة ملك الله تعالى كما في قوله تعالى { وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ } [الأنعام:59].

{ **وإنّما** } هذه مركّبة من (إن) و(ما) الموصولة فحقّها أن تكتب (ما) مفصولة عن (إن) لأنّها ليست (ما) الكافة، ولكنها كتبت في المصحف موصولة اعتبارا لحالة النطق ولم يكن وصل أمثالها مطّردا في جميع المواضع من المصحف.

{ **إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** } إن كنتم تعلمون حقيقة عواقب الأشياء ولا يغرّكم العاجل. وفيه حث على التأمّل والعلم.

{ **مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ** } تذييل وتعليل لمضمون جملة { إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ } بأنّ ما عند الله لهم خير متجدّد لا نفاد له، وأنّ ما يعطيهم المشركون محدود نافذ لأنّ خزائن النّاس صائرة إلى النفاد بالإعطاء وخزائن الله باقية.

النفاد: الانقراض. و**البقاء**: عدم الفناء.

وهذا الكلام جرى مجرى التذييل لما قبله، وأرسل إرسال المثل فيُحمل على العموم، ولذلك كان الضمير في قوله تعالى { عِنْدَكُمْ } عائدا إلى جميع النّاس بقرينة التذييل والمثل، وبقرينة المقابلة بما عند لله.

{ **وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } لمّا كان في نهيهم عن أخذ ما يعدهم به المشركون حَمْلٌ لهم على حرمان أنفسهم من ذلك النفع العاجل وُعِدوا الجزاء على صبرهم.

قرأه الجمهور { وَلَيَجْزِيَنَّ } بياء الغيبة. والضمير عائد إلى اسم الجلالة من قوله تعالى { بِعَهْدِ اللَّهِ }، فهو الناهي والواعد فلا جرم كان هو المجازي على امتثال أمره ونهيه. وقرأه ابن كثير وعاصم وابن ذكوان عن ابن عامر في إحدى روايتين عنه وأبو جعفر بنون العظمة فهو التفات.

{ **بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } الباء للسببية. و**أحسن**: صيغة تفضيل مستعملة للمبالغة في الحسن. كما في قوله تعالى { قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ } [يوسف:33]. أي: بسبب عملهم البلغ في الحسن أعلى المراتب، وهو الدوام على الإسلام مع تجرّع ألم الفتنة من المشركين. وقد أكّد الوعد بلام القسم ونون التوكيد { وَلَنَجْزِيَنَّ }.

{ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [97].

لمّا كان الوعد المتقدّم { وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [96] خاصا بأولئك الذين نُهوا عن أن يشتروا بعهد الله ثمنا قليلا عُقّب بتعميمه لكلّ من ساواهم في الثّبات على الإسلام والعمل الصالح مع التبيين للأجر، فكانت هذه الجملة بمنزلة التذييل للتي قبلها، والبيان لما تضمّنته من مجمل الأجر. وكلا الاعتبارين يوجب فصلها عمّا قبلها.

{ **مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى** } تبيين للعموم الذي دلت عليه { من } الموصولة. وفي هذا البيان دلالة على أنّ أحكام الإسلام يستوي فيها الذكور والنساء عدا ما خصّصه الدين بأحد الصنفين.

{ **فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً** } أكّد هذا الوعد كما أكّد المبيَّن به. أي: لنجعلنّ له حياة طيّبة. وابتدئ الوعد بإسناد الإحياء إلى ضمير الجلالة تشريفا له، كأنّه قيل: فله حياة طيّبة منا. أي: طيّب ما يحصل فيها، فهذا الوصف مجاز عقلي.

ويفسِّر هذا المعنى ما ورد في الصحيح عن خبّاب بن الأرت قال: " هاجرنا مع رسول الله نبتغي بذلك وجه الله فوجب أجرنا على الله، فمنّا من مضى لم يأكل من أجره شيئا كان منهم مُصعَب بنُ عمير قتل يوم أُحد فلم يترك إلّا نَمِرة كنّا إذا غطينا بها رأسه خرجت رجلاه وإذا غُطي بها رجلاه خرج رأسه، ومنّا من أينعت له ثمرته فهو يَهْدُبُهَا ".

الطيّب: ما يطيب ويحسن. وضدّه الخبيث والسيّء. وهذا وعد بخيرات الدنيا. وأعظمها الرضى بما قسم لهم، وحسن أملهم بالعاقبة والصحّة والعافية وعزة الإسلام في نفوسهم. وهذا مقام دقيق تتفاوت فيه الأحوال على تفاوت سرائر النفوس، ويعطي الله فيه عباده المؤمنين على مراتب هممهم وآمالهم. ومن راقب نفسه رأى شواهد هذا.

{ **وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } عُقّب الوعد السابق بوعد جزاء الآخرة، فاختص هذا بأجر الآخرة بالقرينة بخلاف نظيره المتقدّم آنفا فإنّه عام في الجزاءين.

{ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ [98] إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ [99] إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ [100] }.

{ **فَإِذَا** } موقع فاء التفريع هنا خفي ودقيق، ولذلك تصدّى بعض حذّاق المفسرين إلى البحث عنه.

<u>فقال الزمخشري</u>: " لمّا ذكر العمل الصالح ووعد عليه وصل به قوله تعالى { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ } إيذانا بأنّ الاستعاذة من جملة الأعمال التي يُجْزل عليها الثواب ". وهو إبداء مناسبة ضعيفة لا تقتضي تمكن ارتباط أجزاء النظم.

<u>وقال فخر الدين</u>: " لمّا قال: { وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } أرشد إلى العمل الذي تخلُص به الأعمال من الوسواس ". <u>وهو أمكن من كلام الكشّاف</u>، ولكن فيه وهن أنّه لا وجه لتخصيص الاستعاذة بإرادة قراءة القرآن.

<u>وقال شرف الدين الطيبي</u>: " قوله تعالى { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ } متصل بالفاء بما سبق من قوله تعالى { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } [89]. وذلك لأنّه تعالى لمّا منّ على النبيّ صلى الله عليه وسلم بإنزال كتاب جامع لصفات الكمال وأنّه تبيان لكل شئ، ونبَّه على أنّه تبيان لكل شيء بالكلمة الجامعة وهي قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ } [90]، وعطف عليه { وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ } [91]، وأكَّده ذلك التأكّيد، قال بعد ذلك { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ }، أي: إذا شرعت في قراءة هذا الكتاب الشريف الجامع الذي نُبِّهْتَ على بعض ما اشتمل عليه، ونازعك فيه الشيطان بهمزه ونفثه فاستعذ بالله منه، والمقصود إرشاد الأمة ".

<u>وهذا أحسن الوجوه</u> **وقد انقدح في فكري** قبل مطالعة كلامه ثم وجدته في كلامه فحمدت الله وترحمته عليه. والمقصود بالتفريع الشروع في التنويه بالقرآن. وإظهار اسم { الْقُرْآنَ } دون أن يُضْمَر لأجل بعد المعاد.

{ **قَرَأْتَ** } الأظهر أنّه مستعمل في إرادة الفعل، مثل قوله تعالى { إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ } [المائدة:6].

{ **قَرَأْتَ الْقُرْآنَ** } عبارة مشتملة على النطق بألفاظه والتفهّم لمعانيه، وكلاهما معرّض لوسوسة الشيطان، وسوسة تتعلق بألفاظه مثل الإنساء، ووسوسة تتعلق بمعانيه مثل أن يخطئ فهما، وهذا المعنى يلائم محمل الأمر بالاستعاذة عند الشروع في القراءة.

{ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ } السين للطلب، والباء لتعدية فعل الاستعاذة يقال: عاذ بحصن، وعاذ بالحرم. أي: فاطلب العوذ بالله من الشيطان.

العوذ: اللجأ إلى ما يعصم ويقي من أمرٍ مُضِرّ.

ومعنى طلب العوذ بالله: محاولة العوذ به. ولا يُتصوّر ذلك في جانب الله إلّا بالدعاء أن يعيذه.

فقد ورد في عمل النبيّ صلى الله عليه وسلم بهذا الأمر أنّه كان يقول: **" أعوذ بالله من الشيطان الرجيم "** يحاكي لفظ هذه الآية.

قال ابن عطيّة: لم يصح عن النبيّ زيادة على هذا اللفظ. وما يروى من الزيادات لم يصح منه شيء.

وجاء حديث الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: " كان رسول الله إذا قام من الليل يقول أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ... ". فتلك استعاذة تعوُّذ وليست الاستعاذة لأجل قراءة القرآن.

الشيطان: تقدّم عند قوله تعالى { إِلَى شَيَاطِينِهِمْ } [البقرة:14].

الرجيم: تقدّم عند قوله تعالى { وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ } [الحجر:17].

والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد عمومه لأمّته بقرينة الآية اللاحقة.

وإنّما شرعت الاستعاذة عند ابتداء القراءة إيذانا بنفاسة القرآن ونزاهته، إذ هو نازل من العالم القدسيّ الملَكي، فجُعل افتتاح قراءته بالتجرّد عن النقائص النفسانية التي هي من عمل الشيطان، ولا استطاعة للعبد أن يدفع تلك النقائص عن نفسه إلّا بأن يسأل الله أن يبعد الشيطان عنه، لأنّ جانب الله قدسي لا تسلك الشياطين إلى من يأوي إليه، فأرشد الله رسوله إلى سؤال ذلك وضمِن له أن يعيذه منه، وأن يعيذ أمّته عوذا مناسبا، كما شُرعت التسمية في الأمور ذوات البال وكما شُرعت الطهارة للصلاة.

وإنّما لم تشرع لذلك كلمة (باسم الله) لأنّ المقام مقام تخلّ عن النقائص لا مقام استجلاب التيمّن والبركة، ولأنّ القرآن نفسه يمن وبركة وكمال تام.

حكم الاستعاذة

ومحمل الأمر في هذه الآية عند الجمهور على الندب لانتفاء أمارات الإيجاب فإنّه لم يثبت أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم بيّنه. فمن العلماء من ندبه مطلقا في الصلاة وغيرها عند كل قراءة. وجعل بعضهم جميع قراءة الصلاة قراءة واحدة تكفي استعاذة واحدة في أوّلها، وهو قول جمهور هؤلاء. ومنهم من جعل قراءة كل ركعة قراءة مستقلة.

ومن العلماء من جعله مندوبا للقراءة في غير الصلاة، وهو قول مالك، وكرهها في قراءة صلاة الفريضة وأباحها بلا ندب في قراءة صلاة النافلة. ولعلّه رأى أنّ في الصلاة كفاية في الحفظ من الشيطان.

<u>وقيل</u>: الأمر للوجوب، فقيل في قراءة الصلاة خاصة ونسب إلى عطاء. وقد أطلق القرآن على قرآن الصلاة في قوله تعالى { إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً } [الإسراء:78].

وقال: الثوري بالوجوب في قراءة الصلاة وغيرها.

وقال قوم: الوجوب خاص بالنبيّ صلى الله عليه وسلم والندب لبقية أمته.

ومدارك هذه الأقوال ترجع إلى تأويل الفعل { قَرَأْتَ }، وتأويل الأمر { فَاسْتَعِذْ }، وتأويل القرآن مع ما حفّ بذلك من السنّة فعلا وتركا.

وعلى الأقوال كلّها فالاستعاذة مشروعة للشروع في القراءة أو لإرادته وليست مشروعة عند كلّ تلفّظ بألفاظ القرآن، كالنطق بآية أو آيات من القرآن في التعليم أو الموعظة، خلافا لما يفعله بعض المتحذّقين إذا ساق آية من القرآن في غير مقام القراءة أنّ يقو: كقوله تعالى بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ويسوق آية.

{ **إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا** } الآية تعليل للأمر بالاستعاذة وبيان لصفة الاستعاذة.

السلطان: مصدر بوزن الغفران، وهو التسلّط والتصرّف المكين.

فأمّا كونها تعليلا فلزيادة الحثّ على الامتثال للأمر بأنّ الاستعاذة تمنع تسلّط الشيطان على المستعيذ، لأنّ الله منعه من التسلّط على الذين آمنوا المتوكّلين، والاستعاذة منه شعبة من شعب التوكّل على الله، لأنّ اللجأ إليه توكّل عليه. وليست الاستعاذة مجرّد قول بدون استحضار نيّة العوذ بالله.

{ **وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** } صفة ثانية للموصول. وقُدّم المجرور على الفعل للقصر، أي: لا يتوكلون إلّا على ربّهم. وجُعل فعلها مضارعا لإفادة تجدّد التوكّل واستمراره. والعطف دون إعادة اسم الموصول للإشارة إلى أنّ الوصفين كصلة واحدة لموصول واحد، لأنّ المقصود اجتماع الصلتين. فنفي سلطان الشيطان مشروط بالأمرين: الإيمان والتوكّل. ومن هذا تفسير لقوله تعالى { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ } [الحجر:42].

{ **إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ** } مستأنفة استئنافا بيانيّا لأنّ مضمون الجملة قبلها يثير سؤال سائل يقول: فسلطانه على من؟

والقصر المستفاد من { إِنَّمَا } قصر إضافي بقرينة المقابلة، أي: بدون الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون.

{ **يتولّونه** } يتخذونه وليّا لهم، وهم الملازمون للملل المؤسَّسة على ما يخالف الهدي الإلهي عن رغبة فيها. ولا شك أنّ الذين يتولونه فريق غير المشركين لأنّ العطف يقتضي بظاهره المغايرة، وهم أصناف كثيرة من أهل الكتاب.

وعُبّر بالمضارع للدلالة على تجدّد التولّي، أي: الذين يجدّدون تولّيه، للتنبيه على أنّهم كلّما تولّوه بالميل إلى طاعته تمكّن منهم سلطانه، وأنّه إذا انقطع التولّي بالإقلاع أو التوبة انسلخ سلطانه عليهم.

{ **وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ** } الباء للسببية، والضمير المجرور عائد إلى الشيطان، أي: صاروا مشركين بسببه. وليست هي كالباء في قوله تعالى { وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً } [الأعراف:33].

وجُعلت الصلة جملة اسمية لدلالتها على الدوام والثبات، لأنّ الإشراك صفة مستمرّة لأنّ قرارها القلب،

بخلاف المعاصي لأنّ مظاهرها الجوارح. للإشارة إلى أنّ سلطان الشيطان على المشركين أشد وأدوم، لأنّ سببه ثابت ودائم.

{ **بِهِ مُشْرِكُونَ** } تقديم المجرور لإفادة الحصر، أي: ما أشركوا إلّا بسببه، ردا عليهم إذ يقولون { لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا } [الأنعام: 148]، وقولهم { لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ } [35].

{ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ } [101].

استمر الكلام على شأن القرآن وتنزيهه عمّا يوسوسه الشيطان في الصدّ عن متابعته.

ولمّا كان من أكبر الأغراض في هذه السورة بيان أنّ القرآن منزّل من عند الله وبيان فضله وهديه فابتدئ فيها بآية { يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ } [2]، ثمّ قُفّيت بما اختلقه المشركون من الطعن فيه، بعد تنقّلات جاء فيها { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } [24]، وأتبع ذلك بتنقّلات بديعة فأعيد الكلام على القرآن وفضائله من قوله تعالى { وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ} [64]، ثم قوله تعالى { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ } [89]. وجاء في عقب ذلك بشاهد يجمع ما جاء به القرآن، وذلك قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ } [90]، فلمّا استقر ما يقتضي تقرّر فضل القرآن في النفوس نبّه على نفاسته ويمنه بقوله تعالى { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } [98].

لا جرم تهيّأ المقام لإبطال اختلاق آخر من اختلاقهم على القرآن اختلاقا مموَّها بالشبهات، كاختلاقهم السابق الذي أشير إليه بقوله تعالى { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } [24].

ذلك الاختلاق هو تعمّدهم التمويه فيما يأتي من آيات القرآن مخالفا لآيات أخرى لاختلاف المقتضى والمقام، والمغايرة باللين والشدّة، أو بالتعميم والتخصيص، ونحو ذلك مما يتبع اختلافه اختلاف المقامات واختلاف الأغراض واختلاف الأحوال التي يتعلّق بها، فيتّخذون من ظاهر ذلك، دون وضعه مواضعه وحمله محامله، مغامز يتشدّقون بها في نواديهم، يجعلون ذلك اضطرابا من القول، ويزعمونه شاهدا على أنّ قائله ينقل عن غيره. وبعض ذلك ناشئ عن قصور مداركهم عن إدراك مرامي القرآن وسموّ معانيه، وبعضه ناشئ عن تعمّد للتجاهل تعلقا بظواهر الكلام يلبّسون بذلك على ضعفاء الإدراك من أتباعهم.

وعن ابن عباس أنه قال: " كان إذا نزلت آية فيها شدّة ثم نزلت آية ألين منها يقول كفّار قريش: والله ما محمد إلّا يسخر بأصحابه، اليوم يأمر بأمر وغدا ينهى عنه، وأنّه لا يقول هذه الأشياء إلّا من عند نفسه ". وهذه الكلمة أحسن ما قاله المفسّرون في حاصل معنى هذه الآية.

{ **وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ** } المراد من التبديل مطلق التغاير بين الأغراض والمقامات، أو التغاير في المعاني واختلافها باختلاف المقاصد والمقامات مع وضوح الجمع بين محاملها.

الآية: الكلام التام من القرآن، وليس المراد المعجزة، بقرينة قوله تعالى { وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ }.
ويشمل التبديل نسخ الأحكام مثل نسخ قوله تعالى { وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا } [الاسراء:110] بقوله تعالى { فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ } [الحجر:94]. وهذا قليل في القرآن الذي يُقرأ على المشركين لأنّ نسخ الأحكام إنّما كثر بعد الهجرة حين تكونت الجامعة الإسلامية. وأمّا نسخ التلاوة فلم يرد من الآثار ما يقتضي وقوعه في مكّة فمن فسّر به الآية كما نُقل عن مجاهد فهو مشكل.
ويشمل التبديل أيضا التعارض بالعموم والخصوص ونحو ذلك من التعارض الذي يحمل بعضه على بعض، فيفسّر بعضه ويؤوّل بعضه بعضا، كقوله تعالى { وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ} [الشورى:5] مع قوله تعالى { الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا } [غافر:7]، فيأخذون بعموم { وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ } فيجعلونه مكذّبا لخصوص { وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا} فيزعمونه إعراضا عن أحد الأمرين إلى الأخير منهما.
وكذلك قوله تعالى { وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً } [المزمل:10] يأخذون من ظاهره أنّه أمر بمتاركتهم فإذا جاءت آيات بعد ذلك لدعوتهم وتهديدهم زعموا أنّه انتقض كلامه وبدا له ما لم يكن يبدو له من قبل.
وكذلك قوله تعالى { وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } [الاسراء:15] مع قوله تعالى { لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ } [النحل: 25].
ومن هذا ما يبدو من تخالف بادئ الأمر كقوله بعد ذكر خلق الأرض { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ } [فصلت:11] مع قوله تعالى { وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا } [النازعات:30]، فيحسبونه تناقضا لغفلتهم عن محمل { بعد ذلك}، من جعل (بعد) بمعنى (مع) وهو استعمال كثير.
فالتبديل في الآية هو التعويض ببدل، أي: عوض، والتعويض لا يقتضي إبطال المعوَّض (بفتح الواو) بل يقتضي أن يُجعل شئ عوضا عن شئ. وقد تقدّم شيء من هذا المعنى عند قوله تعالى { ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ } [يونس:15].
{ **مكان آية** } منصوب على الظرفيّة المكانية. بأن تأتي آية في الدعوة والخطاب في مكان آية أخرى أتت في مثل تلك الدعوة، فالمكان هنا مكان مجازي وهو حالة الكلام والخطاب، كما يُسمّى ذلك مقاما، فيقال: هذا مقام الغضب، فلا تأت فيه بالمزح. وليس المراد مكانها من ألواح المصحف ولا بإبدالها محوها منه.
{ **وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ** } معترضة بين شرط { إِذَا } وجوابها. والمقصود منها تعليم المسلمين، لا الردّ على المشركين، لأنّهم لو علموا أنّ الله هو المنزل للقرآن لارتفع البهتان. والمعنى: أنّه أعلم بما ينزّل من آية بدل آية، فهو أعلم بمكان الأولى ومكان الثانية ومحمل كلتيهما، وكل عنده بمقدار وعلى اعتبار.
{ **قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ** } حكاية طعنهم في النبيّ صلى الله عليه وسلم بصيغة القصر، وهو قصر إضافي،

أي: لست بمرسل من الله. وهذا من مجازفتهم وسرعتهم في الحكم الجائر فلم يقتصروا على أنّ تبديله افتراء، بل جعلوا الرّسول مقصورا على كونه مفتريا، لإفادة أنّ القرآن الوارد مقصور على كونه افتراء.

الافتراء: أصله الاختراع، وغلب على اختراع الخبر، أي: اختلاقه، فساوى الكذب في المعنى، ولذلك قد يطلق وحده كما هنا وقد يطلق مقترفا بالكذب كقوله الآتي { إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ } [105]، وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ } [المائدة:103].

{ **بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ** } (بل) للإضراب الإبطالي على كلامهم، وهو من طريقة النقض الإجمالي في علم المناظرة. وضمير { أَكْثَرُهُمْ } للذين قالوا إنّما أنت مفتر، أي: ليس كما قالوا، ولكن أكثر القائلين ذلك لا يعلمون، أي: لايفهمون وضع الكلام مواضعه وحمله محامله.

وفُهم من الحكم على أكثرهم بعدم العلم أنّ قليلا منهم يعلمون أنّ ذلك ليس افتراء، ولكنّهم يقولون ذلك تلبيسا وبهتانا. <u>ويجوز</u> حمل لفظ (أكثر) على إرادة جميعهم كما تقدّم في هذه السورة.

{ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالحقّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } [102].

بعد أن أبطل الله دعواهم عليه أنّه مُفْتَرٍ بطريقة النقض، أمر رسوله أن يبيّن لهم ماهية القرآن. وهذه نكتة الالتفات في قوله تعالى { مِنْ رَبِّكَ } الجاري على خلاف مقتضى ظاهر حكاية المقول المأمور بأنّ يقوله، لأنّ مقتضى الظاهر أن يقول: من ربي، فوقع الالتفات إلى الخطاب تأنيسا للنبيّ صلى الله عليه وسلم بزيادة توغّل الكلام معه في طريقة الخطاب. واختير اسم الربّ لما فيه من معنى العناية والتدبير.

{ **رُوحُ الْقُدُسِ** } جبريل. وتقدّم عند قوله تعالى { وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ } [البقرة:87].

الروح: هنا الملك، قال تعالى { فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا } [مريم:17]، أي: ملكا من ملائكتنا.

{ **الْقُدُسِ** } الطهر. وهو هنا مراد به معنياه الحقيقي والمجازي الذي هو الفضل وجلالة القدر.

وإضافة الروح إلى القدس من إضافة الموصوف إلى الصفة، كقولهم: حاتم الجود. فالمعنى: الملك المقدّس.

{ **بِالْحَقِّ** } الباء للملابسة، أي: ملابسا للحقّ، لا شائبة للباطل فيه.

{ **نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ** } فيه إبطال لقولهم { إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ }، وفي قوله تعالى { بِالْحَقِّ } إيقاظ للنّاس بأن ينظروا في حكمة اختلاف أغراضه وأنّها حقّ.

{ **لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ** } علّة من علل إنزال القرآن على الوصف المذكور، أي: تبديل آية مكان آية، بأنّ في ذلك تثبيتا للذين آمنوا، إذ يفهمون محمل كلّ آية ويهتدون بذلك وتكون آيات البشرى بشارة لهم وآيات الإنذار محمولة على أهل الكفر. وفيه بيان لرسوخ إيمان المؤمنين وسداد آرائهم في فهم الكلام السامي، وأنّه تثبيت لقلوبهم بصحّة اليقين وهدى وبشرى لهم.

{ **لِلْمُسْلِمِينَ** } كان مقتضى الظاهر أن يقال: وهدى وبشرى لهم، فعُدل إلى الإظهار لزيادة مدحهم بوصف آخر شريف.

{ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّـهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ } [103].

عطف على { وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ } [101]. وهذا إبطال لتلبيس آخر مما يُلبّسون به على عامتهم، وذلك أن يقولوا: إنّ محمدا يتلقّى القرآن من رجل من أهل مكة. قيل: قائل ذلك الوليد بن المغيرة وغيره. أي: لا يلقّنه ملك بل يعلّمه إنسان، وقد عيّنوه بما دلّ عليه قوله تعالى { لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ }. فقد كان في مكّة غلام رومي كان مولى لعامر بن الحضرمي اسمه (جبر) كان يصنع السيوف بمكّة ويقرأ من الإنجيل ما يقرأ أمثاله من عامة النصارى من دعوات الصلوت، فاتخذ زعماء المشركين من ذلك تمويها على العامة، فإنّ معظم أهل مكّة كانوا أمّيين، فكانوا يحسبون من يتلو كلمات يحفظها ولو محرّفة، أو يكتب حروفا يتعلّمها يحسبونه على علم، وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم لما جانبه قومه وقاطعوه يجلس إلى هذا الغلام، وكان هذا الغلام قد أظهر الإسلام فقالت قريش: هذا يعلِّم محمدا ما يقوله. وقيل: غلام رومي اسمه (بلعام) كان عبدا بمكّة لرجل من قريش، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقف عليه يدعوه إلى الإسلام، فقالوا: إنّ محمدا يتعلّم منه، وكان هذا العبد يقول: إنّما يقف عليَّ يعلّمني الإسلام.

{ **لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ** } كشف القرآن هذا اللبس هنا بأوضح كشف إذ قال قولا فصلا دون طول جدال، أي: كيف يعلّمه وهو أعجمي لا يكاد يبين وهذا القرآن فصيح عربي معجز. والجملة جواب عن كلامهم، فهي مستأنفة استئنافا بيانيّا.

أَلْحَد: مثل لَحَد، أي: مال عن القويم. فهو مما جاء من الأفعال مهموز بمعنى المجرّد، كقولهم: أبان بمعنى بان. فمعنى { يُلْحِدُونَ }: يميلون عن الحقّ، لأنّ ذلك اختلاق معاذير.

اللسان: الكلام. سمّي الكلام باسم آلته.

الأعجمي: المنسوب إلى الأعجم، وهو الذي لا يبين عن مراده من كل ناطق لا يفهمون ما يريده. ولذلك سَمّوا الدواب العجماوات.

المبين: اسم فاعل من أبان، إذا صار ذا إبانة، أي: زائد في الإبانة بمعنى الفصاحة والبلاغة، فحصل تمام التضاد بينه وبين { لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ }.

{ **إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** } [104].

جملة معترضة. وورود هذه الآية عقب ذكر اختلاق المتقعّرين على القرآن المرجفين بالقالة فيه بين الدهماء يومئ إلى أنّ المراد بالذين لا يؤمنون هم أولئك المردود عليهم آنفا. وهم فريق معلوم بشدّة العداوة للنبيّ صلى الله عليه وسلم وبالتصلّب في التصدّي لصرف النّاس عنه، بحيث بلغوا من الكفر غايةً ما وراءها غايةٌ، فحقّت عليهم كلمة الله أنّهم لا يؤمنون، فهؤلاء فريق غير معيّن يومئذ ولكنّهم مشار إليهم على وجه الإجمال وتكشف عن تعيينهم عواقب أحوالهم.

{ **لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ** } فقد كان من الكافرين بالنبيّ صلى الله عليه وسلم أبو جهل وأبو سفيان. وكان أبو سفيان أطول مدّة في الكفر من أبي جهل، ولكن أبا جهل كان يخلط كفره بأذى النبيّ صلى الله عليه وسلم والحنق عليه. وكان أبو سفيان مقتصرا على الانتصار لدينه ولقومه ودفع المسلمين عن أن يغلبوهم، فحرم الله أبا جهل الهداية فأهلكه كافرا، وهدى أبا سفيان فأصبح من خيرة المؤمنين.

وكان الوليد بن المغيرة وعمر بن الخطاب كافرين وكان كلاهما يدفع النّاس من اتباع الإسلام ولكن الوليد كان يختلق المعاذير والمطاعن في القرآن وذلك من الكيد، وعمر كان يصرف النّاس بالغلظة علنا دون اختلاق فحرم الله الوليد بن المغيرة الاهتداء، وهدى عمر إلى الإسلام فأصبح الإسلام به عزيز الجانب.

ويشير إلى هذا المعنى الذي ذكرناه قوله تعالى { إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ} [الزمر:3]، فوصف من لا يهديه الله بوصفين الكذب وشدة الكفر.

فتبيّن أن معنى قوله تعالى { الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ } من كان الإيمان منافيا لجبلّة طبعه لا لأميال هواه. وهذا يعلم الله أنّه لا يؤمن وأنه ليس معرَّضا للإيمان فلذلك لا يهديه الله، أي: لا يكوّن الهداية في قلبه.

وهذا الأسلوب عكس أسلوب قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ} [يونس:96]، وكلّ يرمي إلى معنى عظيم.

فموقع هذه الجملة من التي قبلها موقع التعليل لجميع أقوالهم المحكيّة والتذييل لخلاصة أحوالهم، ولذلك فصلت بدون عطف.

{ **وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** } للدلالة على حرمانهم من الخير وإلقائهم في الشرّ، لأنّهم إذا حُرموا الهداية فقد وقعوا في الضلالة، وماذا بعد الحقّ إلّا الضلال، وهذا كقوله تعالى { كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ } [الحج:4]. ويشمل العذاب عذاب الدنيا، وهو عذاب القتل مثل ما أصاب أبا جهل يوم بدر.

{ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ } [105].

هذا رد لقولهم { إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ } [101] بقلب ما زعموه عليهم، كما كان قوله تعالى { لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ } [103] جوابا عن قولهم { إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ }. فبعد أن نُزّه القرآن عن أن يكون مفترى والمُنزل عليه عن أن يكون مفتريا ثُنِّي العنان لبيان من هو المفتري. وهذا من طريقة القلب في الحال.

{ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ } ولأنهم أتوا في قولهم { إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ } بصيغة قصر هي أبلغ مما قالوه، قصر للمخاطَب على صفة الافتراء الدائمة، إذ الجملة الاسمية تقتضي الثبات والدوام، رد عليهم بصيغة تقصرهم على الافتراء المتكرّر المتجدّد، إذ المضارع يدلّ على التجدّد.

{ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ } عُبّر عن المقصور عليهم باسم الموصول دون أن يذكر ضميرهم فيقال: إنّما يفتري الكذب أنتم، ليفيد اشتهارهم بمضمون الصلة، ولأنّ للصلة أثرا في افترائهم، لما تفيده الموصوليّة من الإيماء إلى وجه بناء الخبر. واختير في الصلة صيغة { لا يُؤْمِنُونَ } دون: لم يؤمنوا. لتكون على وزان ما عُرفوا به سابقا في قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ }، ولِما في المضارع من الدلالة على أنّهم مستمرّون على انتفاء الإيمان، لا يثبت لهم ضدّ ذلك.

{ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُون } افتُتحت باسم الإشارة، بعد إجراء وصف انتفاء الإيمان بآيات الله عنهم، لينبّه على أن المشار إليهم جديرون بما يرد من الخبر بعد اسم الإشارة، وهو قصرهم على الكذب، لأنّ من لا يؤمن بآيات الله يتّخذ الكذب ديدنا له متجدّدا.

وجُعل المسند في هذه الجملة معرّفا باللام ليفيد أن جنس الكاذبين اتّحد بهم وصار منحصرا فيهم، أي: الذين تعرف أنهم طائفة الكاذبين. وهذا يؤول إلى معنى قصر جنس المسند على المسند إليه.

{ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [106].

لمّا سبق التحذير من نقض عهد الله الذي عاهدوه، وأن لا يغرّهم ما لأمّة المشركين من السعة والرُّبُو، والتحذير من زلل القدم بعد ثبوتها، وبُشّروا بالوعد بحياة طيبة، وجزاء أعمالهم الصالحة من الإشارة إلى التمسك بالقرآن والاهتداء به، وأن لا تغرّهم شُبه المشركين وفتونهم في تكذيب القرآن، عُقّب ذلك بالوعيد على الكفر بعد الإيمان، فالكلام استئناف ابتدائي.

ومناسبة الانتقال أنّ المشركين كانوا يحاولون فتنة الراغبين في الإسلام والذين أسلموا. فلذلك ردّ عليهم بقوله تعالى { قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ - إلى قوله - لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا } [102].

وكان الغلام الذي عنوه بقولهم { إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ } قد أسلم ثم فتنه المشركون فكفر، وهو جبر مولى عامر

بن الحضرمي. وكانوا راودوا نفرا من المسلمين على الارتداد، منهم: بلال، وخباب بن الأرت، وياسر وسُميّة أبوا عمار بن ياسر، فثبتوا على الإسلام. وفتنوا عمارا فأظهر لهم الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان.

وفتنوا نفرا آخرين فكفروا، وذُكر منهم: (الحارث بن ربيعة بن الأسود / أبو قيس بن الوليد بن المغيرة / علي بن أميّة بن خلف / العاصي بن منبّه بن الحجاج). وأحسب أنّ هؤلاء هم الذين نزل فيهم قوله تعالى { وَمِنَ النّاس مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النّاس كَعَذَابِ اللَّهِ } [العنكبوت:10]، فكان من هذه المناسبة رد لعجز الكلام على صدره.

{ **مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ** } مضمونها مقابل لقوله تعالى { مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ} [97]، فحصل الترهيب بعد الترغيب، كما ابتدئ بالتحذير تحفّظا على الصالح من الفساد، ثم أعيد الكلام بإصلاح الذين اعتراهم الفساد، وفتح باب الرخصة للمحافظين على صلاحهم بقدر الإمكان.

وقد تشير الآية إلى نفر كفروا بعد إسلامهم، كما روي في شأن جبر غلام ابن الحضرمي.

وإن كانت الآية لا تشير إلى نفر كفروا بعد إسلامهم، فهي مجرّد تحذير للمسلمين من العود إلى الكفر، ولذلك تكون (من) شرطية، والشرط غير مراد به معين بل هو تحذير، أي: من يكفروا بالله، لأنّ الماضي في الشرط ينقلب إلى معنى المضارع، ويكون قوله { فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ } جوابا.

والتحذير حاصل على كلا المعنيين.

{ **إِلّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْأِيمَانِ** } فهو ترخيص ومعذرة لِمَا صدر من عمار بن ياسر وأمثاله إذا اشتدّ عليهم عذاب من فتنوهم.

{ **إِلّا مَنْ أُكْرِهَ** } استثناء من عموم { مَنْ كَفَرَ }، أي: إلّا من أكرهه المشركون على الكفر، أي: على إظهاره فأظهره بالقول لكنّه لم يتغيّر اعتقاده.

{ **وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً** } استدراك على الاستثناء، وهو احتراس من أن يُفهم أنّ المكرَه مرخّص له أن ينسلخ عن الإيمان من قلبه.

{ **فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** } تدلّ الجملة الاسمية على الدوام والثبات، أي: غضب لا مغفرة معه. وتقديم الخبر المجرور على المبتدأ للاهتمام بأمرهم، فقُدّم ما يدل عليهم، ولتصحيح الإتيان بالمبتدأ نكرة حين قُصد بالتنكير التعظيم، أي: غضب عظيم، فاكتفى بالتنكير عن الصفة.

الإكراه: الإلجاء إلى فعل ما يُكره فعله. وإنّما يكون ذلك بفعل شيء تضيق عن تحمّله طاقة الإنسان من إيلام بالغ أو سجن أو قيد أو نحوه.

وقد رخّصت هذه الآية للمُكْرَه على إظهار الكفر أن يُظهِره بشيء من مظاهره التي يطلق عليها أنّها كفر في عرف النّاس من قول أو فعل.

وقد أجمع علماء الإسلام على الأخذ بذلك في أقوال الكفر، فقالوا: فمن أكره على الكفر غير جارية عليه أحكام الكفر، لأنّ الإكراه قرينة على أنّ كفره تقيّة ومصانعة بعد أن كان مسلما.

وفي الحديث: أنّ ذلك وقع لعمار بن ياسر، وأنّه ذكر ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم فصوّبه وقال له: " **وإن عادوا لك فعُد** ".

وسوّى جمهور العلماء بين أقوال الكفر وأفعاله كالسجود للصنم. وقالت طائفة: إن الإكراه على أفعال الكفر لا يبيحها. ونُسب إلى الأوزاعي وسحنون والحسن البصري، وهي تفرقة غير واضحة. وقد ناط الله الرخصة باطمئنان القلب بالإيمان.

وإذا كان الإكراه موجب الرخصة في إظهار الكفر فهو في غير الكفر من المعاصي أولى كشرب الخمر والزنا، وفي رفع أسباب المؤاخذة في غير الاعتداء على الغير كالإكراه على الطلاق أو البيع.

وأمّا في الاعتداء على النّاس من ترتب الغُرم فبين مراتب الإكراه ومراتب الاعتداء المُكْرَه عليه تفاوت، وأعلاها الإكراه على قتل نفس. وهذا يظهر أنّ الإكراه لا يبيح الإقدام على القتل لأنّ التوعّد قد لا يتحقّق وتفوت نفس القتيل.

والخلاف في طلاق المُكْرَه معلوم، والتفاصيل والتفاريع مذكورة في كتب الفروع وبعض التفاسير.

{ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } [107].

هذه الجملة واقعة موقع التعليل لمضمون قوله تعالى { فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [106].

{ **بِأَنَّهُمُ** } الضمير عائد إلى { مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ } [106]، والباء للسببية.

{ **اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ** } مبالغة في (أحبّوا). وضُمّن معنى (فضّلوا) بحرف (على)، أي: لأنّهم قدّموا نفع الدنيا على نفع الآخرة، فهم قد استقرّ في قلوبهم أحقيّة الإسلام، وما رجعوا عنه إلّا خوف الفتنة أو رغبة في رفاهية العيش، فيكون كفرهم أشدّ من كفر المستصحبين للكفر من قبل البعثة.

{ **وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ** } سبب ثانٍ للغضب والعذاب، أي: وبأنّ الله حرمهم الهداية فهم موافقونه على الكفر. وقد تقدّم تفسير ذلك عند قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ } [104].

وهو تذييل لما في صيغة { الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } من العموم الشامل للمتحدَّث عنهم وغيرهم، فليس ذلك إظهارا في مقام الإضمار ولكنّه عموم بعد خصوص.

{ **الْقَوْمَ** } للدلالة على أنّ من كان هذا شأنهم فقد عرفوا به وتمكّن منهم وصار سجيّة، حتّى كأنّهم يجمعهم هذا الوصف.

{ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ [108] لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ } [109].

مبيّنة لجملة { وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ }، بأنّ حرمانهم الهداية بحرمانهم الانتفاع بوسائلها: من

النظر الصادق في دلائل الوحدانيّة، ومن الوعي لدعوة الرّسول صلى الله عليه وسلم والقرآن المنزّل عليه. ومن ثبات القلب على حفظ ما داخَلَه من الإيمان، حيث انسلخوا منه بعد أن تلبّسوا به.

الطبع: مستعار لمنع وصول الإيمان وأدلّته، على طريقة تشبيه المعقول بالمحسوس. وقد تقدّم مفصّلا عند قوله تعالى { خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ } [البقرة:7].

{ **وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** } تكملة للبيان، أي: الغافلون الأكملون في الغفلة. والقصر قصر موصوف على صفة، وهو حقيقي ادعائي يقصد به المبالغة، لأنّهم بلغوا الغاية في الغفلة.

{ **لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ** } واقعة موقع النتيجة لما قبلها، لأنّ ما قبلها صار كالدليل على مضمونها، ولذلك افتتحت بكلمة نفي الشك.

{ **لَا جَرَمَ** } بمعنى (لا محالة) أو (لا بدّ). وتقدّم بسط تفسيرها عند قوله تعالى { لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ } [هود:22]. ووقع هنا { هُمُ الْخَاسِرُونَ } لأنّ آية هود تقدّمها { أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ }، فكان المقصود بيان خسارتهم في الآخرة أشد من خسارتهم في الدنيا.

والمعنى هنا: أن خسارتهم هي الخسارة، لأنّهم أضاعوا النعيم إضاعة أبدية.

{ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } [110].

عطف على { مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ - إلى قوله - هُمُ الْخَاسِرُونَ } [106-109].

{ **ثُمَّ** } للتراخي الرتبي، كما هو شأنها في عطفها الجمل. وذلك أنّ مضمون هذه الجملة المعطوفة أعظم رتبة من المعطوف عليها، إذ لا أعظم من رضى الله تعالى كما قال تعالى { وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ } [التوبة:72].

{ **لِلَّذِينَ هَاجَرُوا** } المهاجرون إلى الحبشة الذين أذن لهم النبيّ صلى الله عليه وسلم بالهجرة للتخلّص من أذى المشركين. <u>ولا يستقيم معنى الهجرة إلّا لهذه لأن السورة مكية</u>.

قال ابن إسحاق: " فلمّا رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء وما هو فيه من العافية بمكانة من الله ومن عمه أبي طالب، وأنّه لا يقدر على أن يمنعهم ممّا هم فيه من البلاء، قال لهم: **لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإنّ بها مَلِكا لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتّى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه**، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفرارا بدينهم " .

{ **هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا** } أومأ إلى حظّهم من الفضل فسمّى عملهم هجرة. وهذا الاسم في مصطلح

القرآن يدلّ على مفارقة الوطن لأجل المحافظة على الدين، كما حُكي عن إبراهيم عليه السلام { وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي } [العنكبوت:26]. وسمَّى ما لقوه من المشركين فتنة.

الفتنة: العذاب والأذى الشديد المتكرّر الذي لا يترك لمن يقع به صبرا ولا رأيا. وتقدّم بيانها عند قوله تعالى { وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ } [البقرة:191].

المجاهدة: المقاومة بالجهد، أي: الطاقة. والمراد هنا: دفاعهم المشركين عن أن يردّوهم إلى الكفر.

وهاتان الآيتان مكّيّتان نازلتان قبل شرع الجهاد الذي هو بمعنى قتال الكفار لنصر الدين.

الصبر: الثبات على تحمّل المكروه والمشاق.

ويدلّ على ذلك ما في صحيح البخاري: أنّ أسماء بنت عُميس، وهي ممن قدم من أرض الحبشة، دخلت على حفصة فدخل عمر عليها فقال لها: سبقناكم بالهجرة فنحن أحقّ برسول الله منكم، فغضبت أسماء وقالت: كلّا والله، كنتم مع النبيّ يُطعم جائعكم ويعظ جاهلكم، وكنّا في أرض البعداء البُغضاء بالحبشة، ونحن كنّا نؤذى ونخاف، وذلك في الله ورسوله، وأيّم الله لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا حتّى أذكر ما قلت لرسول الله، فلمّا جاء النبيّ صلى الله عليه وسلم بيت حفصة قالت: أسماء: يا رسول الله إنّ عمر قال كذا وكذا، قال: **فما قلت له؟** قالت: قلت له كذا وكذا، قال: **" ليس بأحقّ بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان ".**

{ **إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** } تعريف المسند إليه الذي هو اسم (إنّ) بطريق الإضافة دون العلميّة لما يومئ إليه إضافة لفظ (ربّ) إلى ضمير النبيّ من كون المغفرة والرحمة لأصحابه كانت لأنّهم أوذوا لأجل الله ولأجل النبيّ صلى الله عليه وسلم فكان إسناد المغفرة إلى الله بعنوان كونّه ربّ محمد صلى الله عليه وسلم حاصلا بأسلوب يدلّ على الذات العليّة وعلى الذات المحمدية. وهذا من أدق لطائف القرآن في قرن اسم النبيّ باسم الله بمناسبة هذا الإسناد بخصوصه.

{ **مِنْ بَعْدِهَا** } الضمير عائد إلى الهجرة المستفادة من { هَاجَرُوا } ، أو إلى المذكورات: من هجرة وفتنة وجهاد وصبر، أو إلى الفتنة المأخوذة من { فُتِنُوا }. وكل تلك الاحتمالات تشير إلى أنّ المغفرة والرحمة لهم جزاء على بعض تلك الأفعال أو كلّها.

{ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } [111].

<u>يجوز</u> أن يكون هذا استئنافا وتذييلا بتقدير: اذكر يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها، وقع عقب التحذير والوعيد؛ وعيدا للذين أُنذروا ووعدا للذين بُشّروا.

<u>ويجوز</u> أن يكون متّصلا بقوله تعالى { إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } [110]، فيكون انتصاب { يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ } على الظرفيّة { لَغَفُورٌ رَحِيمٌ }، أي: يغفر لهم ويرحمهم يوم القيامة، بحيث لا يجدون أثرا لذنوبهم التي لا يخلو عنها غالب النّاس، ويجدون رحمة من الله بهم يومئذ. فهذا المعنى هو مقتضى

الإتيان بهذا الظرف.

المجادلة: دفاع بالقول للتخلّص من تبعة فعل. وتقدّم عند قوله تعالى { وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ } [النساء:107].

{ **كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا** } النفس الأولى: بمعنى الذات والشخص كقوله تعالى { أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ } [المائدة:45]، والنفس الثانية ما به الشخص شخص، فالاختلاف بينهما بالاعتبار. وتقدّم في قوله تعالى { وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ } [البقرة:44].

وذلك أن العرب يستشعرون للإنسان جملة مركّبة من جسد وروح فيسمّونها النفس، أي: الذات، وهي ما يُعبّر عنه المتكلم بضمير (أنا)، ويستشعرون للإنسان قوة باطنية بها إدراكه ويسمّونها نفسا أيضا. ومنه أخذ علماء المنطق اسم النفس الناطقة.

المعنى: يأتي كل أحد يدافع عن ذاته، أي: يدافع بأقواله ليدفع تبعات أعماله. ففاعل المجادلة وما هو في قوّة مفعوله شيء واحد. وهذا قريب من نوع وقوع الفاعل والمفعول شيئا واحد في أفعال الظن والدعاء، مثل: أراني فاعلا كذا.

{ **وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** } أي: تُعطى شيئا وافيا، أي: كاملا غير منقوص.

{ **مَا عَمِلَتْ** } مفعول ثان، وهو على حذف مضاف تقديره: جزاء ما علمت، أي: من ثواب أو عقاب.

وإظهار { كُلُّ نَفْسٍ } في مقام الإضمار لتكون الجملة مستقلة فتجري مجرى المثل.

الظلم: الاعتداء على الحقّ. وأطلق هنا على مجاوزة الحدّ المعيّن للجزاء في الشرّ والإجحاف عنه في الخير، لأنّ الله لمّا عين الجزاء على الشرّ ووعد بالجزاء على الخير صار ذلك كالحقّ لكل فريق. والعلم بمراتب هذا التحديد مفوّض لله تعالى { وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً } [الكهف:49].

{ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ } [112].

بعد أن توعّدهم بقوارع الوعيد بقوله تعالى { وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [104]، وقوله تعالى { فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ - إلى قوله - لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ } [106-109]. عاد الكلام إلى تهديدهم بعذاب في الدنيا، بأن جعلهم مضرب مثل لقريةٍ عُذّبت عذاب الدنيا، أو جعلهم مثلًا وعظة لمن يأتي بمثل ما أتوا به من إنكار نعمة الله.

ويجوز أن يكون المعطوف عليها جملة { يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ } [111]، على اعتبار تقدير (اذكر).

{ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً** } بمعنى: جعل، أي: صاغ المثل وأوحى به إلى رسوله صلى الله عليه وسلم.

وصيغة الماضي للتشويق إلى الإصغاء إليه، وهو من استعمال الماضي في الحال لتحقيق وقوعه، كقوله تعالى { أَتَى أَمْرُ اللَّهِ } [1]، أو لتقريب زمن الماضي من زمن الحال، مثل: قد قامت الصلاة.

ويجوز أن يكون { ضَرَبَ } مستعملا في معنى الطلب والأمر، أي: اضرب يا محمد لقومك مثلا قرية إلى آخره، كما سيجيء عند قوله تعالى { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاء } [الزمر:29]. وإنّما صيغ في صيغة الخبر توسّلا إلى إسناده إلى الله، تشريفا له وتنويها به.

{ **قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً** } استُغني عن تعيين القرية، للتعريض بالمشركين باحتمال أن تكون القرية قريتهم أعني مكّة، بأن جعلهم مثلا للنّاس من بعدهم. ويقوى هذا الاحتمالُ إذا كانت هذه الآية قد نزلت بعد أن أصاب أهل مكّة الجوع الذي أنذروا به في قوله تعالى { فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ يَغْشَى النّاس هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ } [الدخان:11/10]. وهو الدخان الذي كان يراه أهل مكّة أيام القحط الذي أصابهم بدعاء النبيّ صلى الله عليه وسلم. ويؤيد هذا قوله بعد { وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ } [113].

ولعلّ المخاطب بهذا المثل هم المسلمون الذين هاجروا من بعد ما فتنوا، أي: أصحاب هجرة الحبشة، تسلية لهم مفارقة بلدهم، وبعثا لهم على أن يشكروا الله تعالى إذ أخرجهم من تلك القرية فسلموا مما أصاب أهلها وما يصيبهم.

{ **قَرْيَةً** } تقدّم معنى القرية عند قوله تعالى { أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ } [البقرة:259]. والمراد بالقرية أهلها إذ هم المقصود، كقوله تعالى { وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ } [يوسف:82].

{ **آمِنَةً** } السلامة من تسلّط العدو.

{ **مُطْمَئِنَّةً** } الدعة وهدوء البال. وقد تقدّم في قوله تعالى { وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي } [البقرة:260].

وقُدّم الأمن على الطمأنينة إذ لا تحصل الطمأنينة بدونه.

{ **يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً** } تيسير الرزق فيها من أسباب راحة العيش، وقد كانت مكّة كذلك. قال تعالى { أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ } [القصص:57].

الرزق: الأقوات. وقد تقدّم عند قوله تعالى { لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ } [يوسف:37].

الرغد: الوافر الهنيء. وتقدّم عند قوله تعالى { وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا } [البقرة:35].

{ **مِنْ كُلِّ مَكَانٍ** } بمعنى: من أمكنة كثيرة. و(كلّ) تستعمل في معنى الكثرة، كما تقدّم في قوله تعالى { وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا } [الأنعام:25].

الأنعُم: جمع نعمة على غير قياس.

{ **فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ** } الكفر بالمُنعِم، لأنّهم أشركوا غيره في عبادته، فلم يشكروا المنعِم الحقّ. وهذا يشير إلى قوله تعالى { يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ } [83].

{ **فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ** } تعقيب عرفي في مثل ذلك المعقَّب، لأنّه حصل بعد مضيّ زمن عليهم وهم مصرّون على كفرهم والرّسول يكرّر الدعوة وإنذارهم به. فلمّا حصل عقِب ذلك بمدّة غير طويلة، وكان جزاء على كفرهم، جُعل كالشيء المعقَّب به كفرهم.

الإذاقة: حقيقتها إحساس اللسان بأحوال الطعوم. وهي مستعارة هنا وفي مواضع من القرآن إلى إحساس الألم والأذى، إحساسا مَكينا، كتمكّن ذوق الطعام من فم ذائقه لا يجد له مدفعا، وقد تقدّم في قوله تعالى { لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ } [المائدة:95].

اللباس: حقيقته الشيء الذي يُلبس. وإضافته إلى الجوع والخوف قرينة على أنّه مستعار إلى ما يغشى من حالة إنسان ملازمة له كملازمة اللباس لابسه، كقوله تعالى { هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ } [البقرة:187].

ومن لطائف البلاغة جعل اللباس لباس شيئين لأنّ تمام اللبسة أن يلبس المرء إزارا ودرعا.

{ **بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** } أجمل هنا، اعتمادا على سبق ما بيّنه من قوله تعالى { فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ }.

{ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ } [113].

لمّا أخبر عنهم بأنّهم أذيقوا لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون، وكان إنّما ذُكر من صُنعهم أنّهم كفروا بأنعم الله. زيد هنا أنّ ما كانوا يصنعون عام لكلّ عمل لا يرضي الله، غير مخصوص بكفرهم نعمة الله، وإنّ من أشنع ما كانوا يصنعون تكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أنّه منهم. وذلك أظهر في معنى الإنعام عليهم والرفق بهم. وما من قرية أُهلكت إلّا وقد جاءها رسول من أهلها { وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حتّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا } [القصص:59].

الأخذ: الإهلاك. وقد تقدّم عند قوله تعالى { فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } [الأعراف:95].

وتأكيد الجملة بلام القسم وحرف التحقيق للاهتمام بهذا الخبر تنبيها للسامعين المعرّض بهم لأنّه محل الإنذار.

{ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ } [114].

تفريع على الموعظة وضرب المثل، وخوطب به فريق من المسلمين كما دل عليه قوله تعالى { إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ } [115/114] إلى آخره.

ولعلّ هذا موجّه إلى أهل هجرة الحبشة إذ أصبحوا آمنين عند ملك عادل في بلد يجدون فيه رزقا حلالا وهو ما يُضافون به وما يكسبونه بكدّهم، أي: إذا علمتم حال القرية الممثّل بها أو المعرّض بها فاشكروا الله الذي نجّاكم من مثل ما أصاب القرية، فاشكروا الله ولا تكفروه كما كفر بنعمته أهل تلك القرية.

{ **فَكُلُوا** } الأمر للامتنان. وإدخال حرف التفريع عليه باعتبار أنّ الأمر بالأكل مقدّمة للأمر بالشكر، وهو المقصود بالتفريع. والمقصود: فاشكروا نعمة الله ولا تكفروها فيحلّ بكم ما حل بأهل القرية المضروبة مثلا.

الحلال: المأذون فيه شرعا. و**الطيب**: ما يطيب للنّاس طعمه وينفعهم قوته.

{ **وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ** } إظهار اسم الجلالة مع أن مقتضى الظاهر الإضمار لزيادة التذكير، ولتكون جملة هذا الأمر مستقلّة بدلالتها بحيث تصحّ أن تجرى مجرى المثل.

{ **إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ** } أي: إن كنتم لا تعبدون غيره كما هو مقتضى الإيمان. وتعليق ذلك بالشرط للبعث على الامتثال لإظهار صدق إيمانهم.

{ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [115].

بيان لمضمون { فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً } [114] لتمييز الطيّب من الخبيث، فإنّ المذكورات في المحرَّمات هي خبائث خبثا فطريّا لأنّ بعضها مفسد لتولّد الغذاء، لما يشتمل عليه من المضرّة. وتلك هي الميتة والدم ولحم الخنزير. وبعضها مناف للفطرة، وهو ما أُهلّ به لغير الله لأنّه مناف لشكر المنعِم بها، فالله خلق الأنعام والمشركون يذكرون اسم غير الله عليها.

ولإفادة بيان الحلال الطيب بهذه الجملة جيء فيها بأداة الحصر، أي: ما حرم عليكم إلّا الأربع المذكورات فبقي ما عداها طيّبا. وهذا بالنظر إلى الطيّب والخبث بالذات. وقد يعرض الخبث لبعض المطعومات عرضا.

ومناسبة هذا التحديد في المحرّمات أنّ بعض المسلمين كانوا بأرض غربة وقد يؤكل فيها لحم الخنزير وما أهل به لغير الله، وكان بعضهم ببلد يؤكل فيه الدم وما أهل به لغير الله. وقد مضى تفسير نظير هذه الآية في سورة البقرة والأنعام.

{ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ [116] مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [117] }.

عاد الخطاب إلى المشركين، فالجملة معطوفة على جملة { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً } [112].

وفيه تعريض بتحذير المسلمين لأنّهم كانوا قريبي عهد بجاهلية فربما بقيت في نفوس بعضهم كراهية أكل ما كانوا يتعفّفون عن أكله في الجاهلية.

{ **لِمَا تَصِفُ** } اللام هي إحدى اللامين اللتين يتعدّى بهما فعل القول وهي التي بمعنى (عن) الداخلة على المتحدَّث عنه، فهي كاللام في قوله تعالى { الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا } [آل عمران:168]، أي: قالوا عن إخوانهم. وليست هي لام التقوية الداخلة على المخاطب بالقول.

{ **تَصِفُ** } معناه: تذكر وصفا وحالا، كما في قوله تعالى { وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى }

[62]. أي: لا تقولوا ذلك وصفا كذبا لأنّه تقوُّل لم يقله الذي له التحليل والتحريم وهو الله تعالى.
{ **الْكَذِبَ** } انتصب على المفعول المطلق لـ { تَصِفُ }، أي: وصفا كذبا.
{ **هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ** } اسم الإشارة حكاية بالمعنى لأوصافهم أشياء بالحلّ وأشياء بالتحريم.
{ **لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ** } علّة لـ { تَقُولُوا } باعتبار كون الافتراء حاصلا لا باعتبار كونه مقصودا للقائلين، فهي لام العاقبة وليست لام العلة. وقد تقدّم قريبا أنّ المقصد منها تنزيل الحاصل المحقّق حصوله بعد الفعل منزلة الغرض المقصود منه.
افتراء الكذب تقدّم آنفا. والذين يفترون هم المشركون الذين حرّموا أشياء.
{ **مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** } استئناف بياني في صورة جواب عمّا يجيش بخاطر سائل يسأل عن عدم فلاحهم مع مشاهدة كثير منهم في حالة من الفلاح، فأجيب بأنّ ذلك متاع، أي: نفع موقّت زائل ولهم بعده عذاب أليم.
والآية تحذّر المسلمين من أن يتقوّلوا على الله ما لم يقله.

{ **وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**} [118].

لما شنّع على المشركين أنّهم حرّموا على أنفسهم ما لم يحرّمه الله، وحذّر المسلمين من تحريم أشياء على أنفسهم جريا على ما اعتاده قومهم من تحريم ما أحلّ لهم، نظّر أولئك وحذّر هؤلاء. فهذا وجه تعقيب الآية السالفة بهذه الآية.
{ **وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا** } تقديم المجرور للاهتمام، وللإشارة إلى أنّ ذلك حُرّم عليهم ابتداء ولم يكن محرّما من شريعة إبراهيم عليه السلام التي كان عليها سلفهم، كما قال تعالى { كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرائيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرائيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ } [آل عمران:93]، أي: عليهم دون غيرهم فلا تحسبوا أنّ ذلك من الحنيفيّة.
{ **مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ** } المراد منه ما ذُكر في سورة الأنعام { وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ } [146]، كما روي عن الحسن وعكرمة وقتادة.
{ **وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** }، أي: وما ظلمناهم بما حرّمنا عليهم ولكنّهم كفروا النعمة فحُرموا من نعم عظيمة.
وغُيّر أسلوب الكلام إلى خطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّ جانب التحذير فيه أهم من جانب التنظير.

{ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } [119].

لمّا ذكرت أحوال أهل الشرك وكان منها ما حرّموه على أنفسهم، وكان المسلمون قد شاركوهم أيام الجاهلية في ذلك، ووردت قوارع الذمّ لما صنعوا، كان مما يُتوهّم علوقه بأذهان المسلمين أن يحسبوا أنّهم سينالهم شيء من غمص لما اقترفوه في الجاهلية، فطمأن الله نفوسهم بأنّهم لمّا تابوا بالإقلاع عن ذلك بالإسلام وأصلحوا عملهم بعد ان أفسدوا فإنّ الله قد غفر لهم مغفرة عظيمة ورحمهم رحمة واسعة.

{ **رَبَّكَ** } وقع الإقبال بالخطاب على النبيّ صلى الله عليه وسلم إيماء إلى أنّ تلك المغفرة من بركات الدين الذي أرسل به.

وذكر اسم الربّ مضافا إلى ضمير النبيّ للنكتة المتقدمة آنفا في قوله تعالى { ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا }.

الجهالة: انتفاء العلم بما يجب. والمراد: جهالتهم بأدلّة الإسلام.

{ **ثُمَّ** } للتراخي الرتبي، لأنّ الجملة المعطوفة تضمّنت حكم التوبة وأنّ المغفرة والرحمة من آثارها، وذلك أهم عند المخاطبين مما سبق من وعيد، أي: الذين عملوا السوء جاهلين بما يدلّ على فساد ما عملوه.

ويدخل في هذا الحكم من عمل حراما من المسلمين جاهلا بأنّه حرام وكان غير مقصّر في جهله.

وقد تقدّم عند قوله تعالى { إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ } [النساء:17].

{ **إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** } تأكيد لفظي لقوله تعالى { ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ } لزيادة الاهتمام بالخبر على الاهتمام الحاصل بحرف التوكيد ولام الابتداء.

{ **مِنْ بَعْدِهَا** } عائد إلى الجهالة أو إلى التوبة.

ووقع الخبر بوصف الله بصفة المبالغة في المغفرة والرحمة، وهو كناية عن غفرانه لهم ورحمته إيّاهم.

{ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [120] شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [121] وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ [122] }.

استئناف ابتدائي للانتقال إلى غرض التنويه بدين الإسلام. فبعد أن بشّرهم بأنّه غفر لهم ما عملوه من قبل، زادهم فضلا ببيان فضل الدين الذي اتّبعوه. وجعل الثناء على إبراهيم عليه السلام مقدّمة لذلك.

والمقصود بعد هذا التمهيد و هاته المقدّمة: هو الإفضاء إلى قوله تعالى { ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً } [123].

والأصل الأصيل الذي تفرَّع عنه وعن فروعه هذا الانتقال، ما ذكر في الآية قبلها من تحريم أهل

الجاهلية على أنفسهم كثيرا ممّا أنعم الله به على الناس، ونظّرهم باليهود إذ حرم الله عليهم أشياء، تشديدا عليهم، فجاء بهذا الانتقال لإفادة أنّ كلا الفريقين قد حادوا عن الحنيفيّة التي يزعمون أنهم متابعوها، وأنّ الحنيفة هي ما جاء به الإسلام من إباحة ما في الأرض جميعا من الطيبات إلّا ما بيّن الله تحريمه في آية { قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً } [الأنعام:145].

الأمة: الطائفة العظيمة من النّاس التي تجمعها جهة جامعة. وتقدم قوله تعالى { كَانَ النّاس أُمَّةً وَاحِدَةً } [البقرة:213]. ووصف إبراهيم عليه السلام بذلك وصفٌ بديعٌ لمعنيين:

أحدهما: أنّه كان في الفضل والفتوّة والكمال بمنزلة أمّة كاملة. وهذا كقولهم: أنت الرجل كلّ الرجل.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: **" معاذٌ أمة قانتٌ لله "**.

الثاني: أنّه كان أمّة وحده في الدين، لأنّه لم يكن في وقت بعثته، موحّد لله غيره. فهو الذي أحيا الله به التوحيد، وبثّه في الأمم والأقطار، وبنى له معلما عظيما، وهو الكعبة، ودعا النّاس إلى حجّه لإشاعة ذكره بين الأمم، ولم يزل باقيا على العصور.

القانت: المطيع. وقد تقدّم في قوله تعالى { وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ } [البقرة:238].

الحنيف: المجانب للباطل. وقد تقدّم عند قوله تعالى { قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً } [البقرة:135].

{ **وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** } اعتراض لإبطال مزاعم المشركين أنّ ما هم عليه هو دين إبراهيم عليه السلام، فقد صوّروا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يستقسمان بالأزلام ووضعوا الصورة في جوف الكعبة.

فليس القول مسوقا مساق الثناء على إبراهيم ولكنّه تنزيه له عمّا اختلقه عليه المبطلون. فوزانه وزان قوله تعالى { وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ } [التكوير:22]. وهو كالتأكيد لوصف الحنيف بنفي ضدّه مثل قوله تعالى { وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى } [طه:79].

{ **وَلَمْ يَكُ** } نفي كونه من المشركين بحرف (لَمْ) لأنّها تقلب زمن الفعل المضارع إلى الماضي، فتفيد انتفاء مادة الفعل في الزمن الماضي، وتفيد تجدّد ذلك المنفي. أي: أنّ إبراهيم عليه السلام لم يتلبس بالإشراك قط، وأنّه لا يتلبس بالإشراك أبدا.

{ **شَاكِراً لأَنْعُمِهِ** } مدح لإبراهيم عليه السلام وتعريض بذرّيّته الذين أشركوا وكفروا نعمة الله مقابل قوله تعالى { فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ } [112]. وتقدّم قريبا الكلام على أنعم الله.

{ **اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** } مستأنفة استئنافا بيانيا لبيان سبب فوز إبراهيم بهذه المحامد.

الاجتباء: الاختيار، وهو افتعال من جبى إذا جمع.

الهداية إلى الصراط المستقيم: الهداية إلى التوحيد ودين الحنيفيّة.

{ **وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ** } ضمير { آتَيْنَاهُ } التفات من الغيبة إلى التكلم تفنّنا في الأسلوب لتوالي ثلاثة ضمائر غيبة.

الحسنة في الدنيا: كلّ ما فيه راحة العيش من اطمئنان القلب بالدين، والصحة، والسلامة، وسعة الرزق الكافي، وحسن الذكر بين النّاس. وتقدّم في قوله { وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً } [البقرة:201].

الصلاح: تمام الاستقامة في دين الحقّ. واختير هذا الوصف إشارة إلى أنّ الله أكرمه بإجابة دعوته، إذ حكى عنه أنّه قال { رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ } [الشعراء:83].

{ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [123].

{ **ثُمَّ** } للتراخي الرتبي المشير إلى أنّ مضمون الجملة المعطوفة متباعد في رتبة الرفعة على مضمون ما قبلها، تنويها جليلا بشأن النبيّ صلى الله عليه وسلم وبشريعة الإسلام، وزيادة في التنويه بإبراهيم عليه السلام، أي: جعلناك متّبعا ملة إبراهيم، وذلك أجلّ ما أوليناكما من الكرامة.

وقد بيّنتُ آنفا أنّ هذه الجملة هي المقصود، وأنّ جملة { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً } تمهيد لها.

{ **أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ** } للتنبيه على أن اتّباع محمد ملّة إبراهيم كان بوحي من الله وإرشاد صادق، تعريضا بأنّ الذين زعموا اتّباعهم ملّة إبراهيم من العرب من قبل قد أخطأوها بشبهة، مثل أمية بن أبي الصلت، وزيد ابن عمرو بن نفيل، أو بغير شبهة مثل مزاعم قريش في دينهم.

{ **أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً** } بيان وتفسير لفعل { أَوْحَيْنَا }، لأنّ فيه معنى القول دون حروفه، فاحتيج إلى تفسيره بحرف التفسير(أن).

الاتّباع: اقتفاء السير على سير آخر. وهو هنا مستعار للعمل بمثل عمل الآخر.

{ **حَنِيفاً** } انتصب على الحال من { إِبْرَاهِيمَ } فيكون زيادة تأكيد لمماثلة قبله، أي: كن يا محمد حنيفا كما كان إبراهيم. ولذلك قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" بعثت بالحنيفيّة السمحة "**.

وهذا تفسير بكلام جامع لما أوحى الله به إلى محمد صلى الله عليه وسلم من شرائع الإسلام مع الإعلام بأنّها مقامة على أصول ملّة إبراهيم. وليس المراد أوحينا إليك كلمة { اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنيفاً }، لأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لا يعلم تفاصيل ملّة إبراهيم، فتعيّن أنّ المراد، أنّ الموحى به إليه منبجس من شريعة إبراهيم عليه السلام .

{ **وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** } هو مما أوحاه الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم المحكي بقوله تعالى { ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ }.

وقد عُلم من هذا أنّ دين الإسلام منزّه عن أن تتعلّق به شوائب الإشراك لأنّه جاء كما جاء إبراهيم معلنا توحيدا لله بالإلهية ومجتثّا لوشيج الشرك. والشرائع الإلهية كلّها وإن كانت تحذّر من الإشراك فقد امتاز القرآن من بينها بسد المنافذ التي يتسلّل منها الإشراك بصراحة أقواله وفصاحة بيانه، وأنّه لم يترك في ذلك كلاما متشابها كما قد يوجد في بعض الكتب الأخرى، مثل ما جاء في التوراة من وصف اليهود

بأبناء الله، وما في الأناجيل من موهِم بنوّة عيسى عليه السلام لله، سبحانه عما يصفون.

وقد أشار إلى هذا المعنى قول النبيّ صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع: **" أيّها النّاس إنّ الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه أبدا، ولكنّه قد رضي أن يُطاع فيما سوى ذلك مما تَحْقِرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم "**.

ومعنى اتباع محمد ملّة إبراهيم الواقع في كثير من آيات القرآن:

*/ أنّ دين الإسلام بُني على أصول ملّة إبراهيم، وهي أصول الفطرة، والتوسّط بين الشدّة واللين، كما قال تعالى { وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ } [الحج:78]. فالشريعة التي تُبنى تفاصيلها وتفاريعها على أصول شريعة تعتبر كأنّها تلك الشريعة.

*/ وليس المراد أنّ جميع ما جاء به الإسلام قد جاء به إبراهيم عليه السلام إذ لا يخطر ذلك بالبال، فإنّ الإسلام شريعة قانونية سلطانية، وشرع إبراهيم شريعة قبائليّة خاصة بقوم.

*/ ولا أنّ المراد أنّ الله أمر النبيّ محمدا صلى الله عليه وسلم باتباع ملة إبراهيم ابتداء قبل أن يوحي إليه بشرائع دين الإسلام، لأنّ ذلك وإن كان صحيحا من جهة المعنى، وتحتمله ألفاظ الآية، لكنّه لا يستقيم، إذ لم يرد في شيء من التشريع الإسلامي ما يشير إلى أنّه نسخ لما كان عليه النبيّ صلى الله عليه وسلم من قبل.

فاتباع النبيّ ملة إبراهيم كان بالقول والعمل في أصول الشريعة من إثبات التوحيد والمحاجّة له، واتباع ما تقتضيه الفطرة. وفي فروعها ممّا أوحى الله إليه من الحنيفيّة مثل الختان وخصال الفطرة والإحسان.

{ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } [124].

موقع هذه الآية ينادي على أنّها تضمّنت معنى يرتبط بملة إبراهيم وبمجيء الإسلام على أساسها.

فلمّا نفت الآية قبل هذه أن يكون إبراهيم عليه السلام من المشركين، ردا على مزاعم العرب المشركين أنّهم على ملّة إبراهيم، انتُقل بهذه المناسبة إلى إبطال ما يشبه تلك المزاعم. وهي مزاعم اليهود أنّ ملّة اليهودية هي ملّة إبراهيم زعما ابتدعوه حين ظهور الإسلام جحدا لفضيلة فاتتهم، وهي فضيلة بناء دينهم على أوّل دين للفطرة الكاملة حسدا من عند أنفسهم. وقد بيّنّا ذلك عند قوله تعالى { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ } [آل عمران:65]. ولمّا كانت هذه السورة مكّيّة لم يتعرّض فيها للنصارى الذين تعرض لهم في سورة آل عمران.

{ **إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ** } استئنافا بيانيّا نشأ عن قوله تعالى { ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً } [123]، إذ يثير سؤالا من المخالفين: كيف يكون الإسلام من ملة إبراهيم وفيه جُعل يوم الجمعة اليومَ

المقدَّس وقد جعلت التوراة لليهود يوم التقديس يوم السبت؟ ولعل اليهود شغبوا بذلك على المسلمين، فكانت هذه الآية بيانا لجواب هذا السؤال.

{ **إنّما** } للحصر، وهو قصر قلب مقصود به الرد على اليهود بالاستدلال عليهم بأنّهم ليسوا على ملة إبراهيم، لأنّ السبت جعله الله لهم شرعا جديدا بصريح كتابهم إذ لم يكن عليه سلفهم.

{ **جُعِلَ** } فُرض وعُيّن عليهم، أي: فُرضت عليهم أحكام السبت؛ من تحريم العمل فيه، وتحريم استخدام الخدم والدواب. وعُدل عن ذكر اسم اليهود أو بني إسرائيل مع كونه أوجز إلى التعبير عنهم بالموصول لأنّ اشتهارهم بالصلّة كاف في تعريفهم، مع ما في الموصول وصلته من الإيماء إلى وجه بناء الخبر. وذلك الإيماء هو المقصود هنا، لأنّ المقصود إثبات أنّ اليهود لم يكونوا على الحنيفيّة كما علمت آنفا.

{ **عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ** } ليس المعنى وقوع خلاف بينهم بأمر السبت، بل فعل { اخْتَلَفُوا } مراد به خالفوا، أي: عملهم خلاف ما أمر به أنبياؤهم. فحاصل المعنى هكذا: ما فُرض عليهم السبت إلّا لأنّهم لم يكونوا على ملّة إبراهيم، إذ مما لا شك فيه عندهم أنّ ملّة إبراهيم ليس منها حرمة السبت ولا هو من شرائعها.

ولا يؤخذ من هذا أنّ ملة إبراهيم كان اليوم المقدّس فيها يوم الجمعة، لعدم ما يدلّ على ذلك.

ثم الأظهر أنّ حرمة يوم الجمعة أُدّخِرت للملّة الإسلامية لقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله إليه فالنّاس لنا فيه تبعٌ اليهود غدا والنصارى بعد غد** ". فقوله: " **فهدانا الله إليه** " يدل على أنّه لم يسبق ذلك في ملّة أخرى.

فهذا وجه تفسير هذه الآية، ومحمل الفعل والضمير المجرور في قوله تعالى { اخْتَلَفُوا فِيهِ } وما ذكره المفسّرون من وجوه لا يخلو من تكلّف وعدم طائل وقد جعلوا ضمير { فيه } عائدا إلى { السَّبْتُ } وتأوّلوا معنى الاختلاف فيه بوجوه.

{ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } [125].

يتنزل معنى هذه الآية منزلة البيان لقوله تعالى { أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً } [123]، فإنّ المراد بما أوحي إليه من اتّباع ملّة إبراهيم هو دين الإسلام، ودين الإسلام مبني على قواعد الحنيفيّة، فلا جرم كان الرّسول صلى الله عليه وسلم بدعوته النّاس إلى الإسلام داعيا إلى اتباع ملة إبراهيم.

{ **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ** } صيغة الأمر مستعملة في طلب الدوام. فتضمّنت الآية تثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم على الدعوة، وأنّ لا يؤيّسه قول المشركين له { إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ } [101]، وقولهم { إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ } [103]، وأن لا يصدّه عن الدعوة أنّه تعالى لا يهدي الذين لا يؤمنون بآيات الله.

ذلك أنّ المشركين لم يتركوا حيلة يحسبونها تثبّط النبيّ صلى الله عليه وسلم عن دعوته إلّا ألقوا بها إليه؛ من تصريح بالتكذيب، واستسخار، وتهديد، وبذاءة، واختلاق، وبهتان، كما ذلك محكي في تضاعيف القرآن.

قال القرطبي: إنّ هذه الآية نزلت بمكّة في وقت الأمر بمهادنة قريش، أي: في مدّة صلح الحديبية.

{ **سَبِيلِ رَبِّكَ** } طريقه. وهو مجاز لكل عمل من شأنه أن يبلّغ عامله إلى رضى الله تعالى.

وصار هذا المركّب عَلَما بالغلبة على دين الإسلام، كما في قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } [الأنفال:36].

ويطلق سبيل الله عَلَما بالغلبة أيضا على نصرة الدين بالقتال كما في قوله تعالى { وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } [التوبة:41].

وحُذف مفعول { ادْعُ } لقصد التعميم. أو لأنّ الفعل نزل منزلة اللازم، لأنّ المقصود الدوام على الدعوة لا بيان المدعوين.

{ **بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ** } الباء للملابسة. ومعنى الملابسة يقتضي أن لا تخلو دعوته إلى سبيل الله عن هاتين الخصلتين: الحكمة، والموعظة الحسنة.

الحكمة: هي المعرفة المُحكمة، أي: الصائبة المجرّدة عن الخطأ، فلا تطلق الحكمة إلّا على المعرفة الخالصة عن شوائب الأخطاء وبقايا الجهل في تعليم النّاس وفي تهذيبهم.

ولذلك عرَّفوا الحكمة بأنّها معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه بحسب الطاقة البشرية بحيث لا تلتبس على صاحبها الحقائق المتشابهة بعضها ببعض ولا تخطئ في العلل والأسباب. وهي اسم جامع لكل كلام أو علم يُراعى فيه إصلاح حال النّاس واعتقادهم إصلاحا مستمرا لا يتغيّر. وقد تقدّم الكلام عليها عند قوله تعالى { يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ } [البقرة:269] مفصّلا فانظره.

وتطلق الحكمة على العلوم الحاصلة للأنبياء، ويرادفها الحُكم.

الموعظة: القول الذي يُلين نفس المقول له لعمل الخير. وهي أخصّ من الحكمة، لأنّها حكمة في أسلوب خاص لإلقائها. وتقدّمت عند قوله تعالى { فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ } [النساء:63].

{ **الْحَسَنَةِ** } وصف الموعظة بالحسن تحريض على أن تكون ليّنة مقبولة عند الناس، أي: حسنة في جنسها.

{ **وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** } لمّا كان ما لقيه النبيّ صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين قد يبعثه على الغلظة في المجادلة أمره الله بأن يجادلهم بالتي هي أحسن. وتقدّمت عند قوله { تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا } [111].

المجادلة: الاحتجاج لتصويب رأي أو عمل، وإبطال ما يخالفه.

<u>المعنى</u>: إذا ألجأتك الدعوة إلى محاجّة المشركين فحاججهم بالتي هي أحسن.

والمفضَّل عليه المحاجة الصادرة منهم، فإنّ المجادلة تقتضي صدور الفعل من الجانبين، فعُلم أنّ المأمور به أن تكون المحاجّة الصادرة منه أشدّ حسنا من المحاجّة الصادرة منهم، كقوله تعالى { ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } [المؤمنون:96].

ولما كانت المجادلة لا تكون إلّا مع المعارضين صرّح في المجادلة بضمير جمع الغائبين المراد منه المشركون، فإن المشركين متفاوتون في كيفيات محاجّتهم، فمنهم من يحاجّ بلين، مثل ما في الحديث: " أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ القرآن على الوليد بن المغيرة ثم قال له: " **هل ترى بما أقول بأسا** " قال: لا والدماء ".

وقرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم القرآن على عبد الله بن أبي بن سلول في مجلس قومه، فقال عبد الله بن أبي: " أيّها المرء إن كان ما تقول حقا فاجلس في بيتك فمن جاءك فحدّث إيّاه، ومن لم يأتك فلا تُغتّه ولا تأته في مجلسه بما يكره منه ".

وتصدّي المشركين لمجادلة النبيّ صلى الله عليه وسلم تكرّر غير مرة. ومن ذلك ما روي عن ابن عباس: أنّه لما نزل قوله تعالى { إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ } [الأنبياء:98]، قال عبد الله الزِبَعْرَي: لأخْصُمَنّ محمدا، فجاءه فقال: يا محمد قد عُبد عيسى، وعُبدت الملائكة فهل هم حصب لجهنم؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **اقرأ ما بعدُ** { إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ } [الأنبياء:101]. أبو داود في كتاب (الناسخ والمنسوخ).

وقُيّدت الموعظة بالحسنة ولم تقيّد الحكمة بمثل ذلك لأنّ الموعظة لمّا كان المقصود منها غالبا ردع نفس الموعوظ عن أعماله السيّئة أو عن توقّع ذلك منه كانت مظنةّ لصدور غلظة من الواعظ ولحصول انكسار في نفس الموعوظ أرشد الله رسوله أن يتوخّى في الموعظة أن تكون حسنة، أي: بإلانَة القول وترغيب الموعوظ في الخير، قال تعالى خطابا لموسى وهارون { اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيّناً لَعَلَّه يَتَذَكَّرُ أَوْيَخْشَى } [طه:43].

وفي حديث الترمذي عن العرباض بن سارية أنه قال: "وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون ".

وأمّا الحكمة فهي تعليم لمتطلّبي الكمال، من معلّم يهتم بتعليم طلابه، فلا تكون إلّا في حالة حسنة، فلا حاجة إلى التنبية على أن تكون حسنة.

والمجادلة لما كانت محاجّة في فعل أو رأي لقصد الإقناع بوجه الحقّ فيه فهي لا تعدو أن تكون من الحكمة أو من الموعظة، ولكنّها جعلت قسيما لهما هنا بالنظر إلى الغرض الداعي إليها.

{ **وَجَادِلْهُمْ** } الضمير عائد إلى المشركين بقرينة المقام لظهور أنّ المسلمين لا يجادلون النبيّ صلى الله عليه وسلم ولكن يتلقون منه تلقي المستفيد والمسترشد. وهذا موجب تغيير الأسلوب بالنسبة إلى المجادلة إذ لم يقل: والمجادلة الحسنة. قال تعالى { وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إلّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } [العنكبوت:46].

والآية تقتضي أنّ القرآن مشتمل على هذه الطرق الثلاثة من أساليب الدعوة، وأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم إذا دعا النّاس بغير القرآن من خطبه ومواعظه وإرشاده يسلك معهم هذه الطرق الثلاثة، وذلك كلّه بحسب ما يقتضيه المقام من معاني الكلام ومن أحوال المخاطبين من خاصة وعامة.

{ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِين }.

هذه الجملة تعليل للأمر بالاستمرار على الدعوة بعد الإعلام بأنّ الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله، وبعد وصف أحوال تكذيبهم وعنادهم. فلمّا كان التحريض بعد ذلك على استدامة الدعوة إلى الدين محتاجا لبيان الحكمة في ذلك بُيّنت الحكمة، بأنّ الله هو أعلم بمصير النّاس وليس ذلك لغير الله من النّاس فما عليك إلّا البلاغ، أي: فلا تيأس من هدايتهم ولا تتجاوز إلى حد الحزن على عدم اهتدائهم.

{ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ } قُدّم العلم بمن ضلّ لأنّه المقصود من التعليل، لأنّ دعوتهم أوكد والإرشاد إلى اللين في جانبهم بالموعظة الحسنة والمجادلة الحسنى أهمّ، ثم أتبع ذلك بالعلم بالمهتدين على وجه التكميل. وفيه إيماء إلى أنّه لا يدري أن يكون بعض من أيس من إيمانه قد شرح الله صدره للإسلام بعد اليأس منه.

{ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ } تأكيد الخبر بضمير الفصل للاهتمام به. وأما { إِنَّ } فهي في مقام التعليل وليست لمجرّد الاهتمام، وهي قائمة مقام فاء التفريع على ما أوضحه عبد القاهر في دلائل الإعجاز، فإنّ إفادتها التأكيد هنا مستغنى عنها بوجود ضمير الفصل في الجملة المفيدة لقصر الصفة على الموصوف، فإن القصر تأكيد على تأكيد.

{ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } إعادة ضمير الفصل للتنصيص على التقوية ، لأنّه لو قيل: وأعلم بالمهتدين، لاحتمل أن يكون معطوفا على جملة { هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ }، فأعيد ضمير الفصل لدفع هذا الاحتمال. ولم يقل: (وبالمهتدين)، تصريحا بالعلم في جانبهم ليكون صريحا في تعلّق العلم به. وهذان القصران إضافيّان، أي: ربك أعلم بالضالين والمهتدين.

{ هُوَ أَعْلَمُ } التفضيل تفضيل على علم غيره بذلك. وفي هذا التفضيل إيماء إلى وجوب طلب كمال العلم بالهدى، وتمييز الحقّ من الباطل، وغوص النظر في ذلك، وتجنّب التسرّع في الحكم دون قوّة ظنّ بالحقّ.

والتخلّق بهذه الآية هو أنّ كلّ من يقوم مقاما من مقامات الرسول صلى الله عليه وسلم في إرشاد المسلمين أو سياستهم يجب عليه أن يكون سالكا للطرائق الثلاث: الحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، وإلّا كان منصرفا عن الآداب الإسلامية وغير خليق بما هو فيه من سياسة الأمّة، وأن يخشى أن يعرّض مصالح الأمّة للتلف، فإصلاح الأمّة يتطلّب إبلاغ الحقّ إليها بهذه الوسائل الثلاث. والمجتمع الإسلامي لا يخو عن مُتعنّت أو مُلبّس، وكلاهما يلقي في طريق المصلحين شوك الشُبه بقصد

أو بغير قصد. فسبيل تقويمه هو المجادلة، فتلك أدنى لإقناعه وكشف قناعه.
في الموطأ أنّ عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال في خطبة خطبها في آخر عمره: " أيّها النّاس قد سُنّت لكم السنن، وفُرضت لكم الفرائض، وتُرِكتم على الواضحة، إلّا أن تضلّوا بالنّاس يمينا وشمالا " وضرب بإحدى يديه على الأخرى.

{ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ } [126].
عطف على { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ } [125]، أي: إن كان المقام مقام الدعوة فلتكن دعوتك إيّاهم كما وصفنا، وإن كنتم أيّها المؤمنون معاقبين المشركين على ما نالكم من أذاهم فعاقبوهم بالعدل لا بتجاوز حدّ ما لقيتم منهم. فهذه الآية متّصلة بما قبلها أتمّ اتصال، وحسبك وجود العاطف فيها.
وهذا تدرّج في رتب المعاملة، من معاملة الذين يُدعَوْن ويوعظون إلى معاملة الذين يجادَلون ثم إلى معاملة الذين يجازَوْن على أفعالهم. وبذلك حصل حسن الترتيب في أسلوب الكلام.
وهذا مختار النحاس وابن عطية وفخر الدين، وبذلك يترجَّح كون هذه الآية مكّيّة مع سوابقها ابتداء من الآية الحادية والأربعين، وهو قول جابر بن زيد، كما تقدّم في أوّل السورة. واختار ابن عطية أنّ هذه الآية مكّيّة. ولعلّه اشتبه على الرواة تذكّر النبيّ صلى الله عليه وسلم الآية حين توعّد المشركين بأن يمثّل بسبعين منهم إن أظفره الله بهم. في قصّة التمثيل بحمزة يوم أحد.
{ **فَعَاقِبُوا** } الأمر للوجوب باعتبار متعلّقه، وهو { بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ} فإن عدم التجاوز في العقوبة واجب. والخطاب للمؤمنين ويدخل فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم.
المعاقبة: الجزاء على فعل السوء بما يسوء فاعل السوء.
{ **بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ** } مشاكلة لـ { عَاقَبْتُمْ }. استُعمل { عُوقِبْتُمْ } في معنى عوملتم به، فهو استعارة وجه شبهها هو المشاكلة. ويجوز أن يكون { عُوقِبْتُمْ } حقيقة لأنّ ما يلقونه من الأذى من المشركين قصدوا به عقابهم على مفارقة دين قومهم وعلى شتم أصنامهم وتسفيه آباءهم.
وفي هذه الآية إيماء إلى أنّ الله يظهر المسلمين على المشركين ويجعلهم في قبضتهم، فلعلّ بعض الذين فتنهم المشركون يبعثه الحنق على الإفراط في العقاب.
{ **وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ** } رغّبهم في الصبر على الأذى، أي: بالإعراض عن أذى المشركين وبالعفو عنهم، لأنّه أجلب لقلوب الأعداء، فوصف بأنه { **خَيْرٌ** }، أي: خير من الأخذ بالعقوبة، كقوله تعالى { ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } [فصلت:34]، وقوله تعالى { وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ } [الشورى:40].
وأكّد كون الصبر خيرا بلام القسم زيادة في الحثّ عليه. وعُبّر عنهم بالصابرين إظهارا في مقام الإضمار لزيادة التنويه بصفة الصابرين.

{ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ } [127].

خُصّ النبيّ صلى الله عليه وسلم بالأمر بالصبر للإشارة إلى أنّ مقامه أعلى، فهو بالتزام الصبر أولى أخذا بالعزيمة بعد أنّ رُخصّ لهم في المعاقبة.

{ **وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ** } معترضة بين المتعاطفات، أي: وما يحصل صبرك إلّا بتوفيق الله إيّاك. وفي هذا إشارة إلى أنّ صبر النبيّ صلى الله عليه وسلم عظيم لأنّه لقي من أذى المشركين أشدّ مما لقيه عموم المسلمين. فصبره ليس كالمعتاد، لذلك كان حصوله بإعانة من الله.

{ **وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ** } حذّره من الحزن عليهم إن لم يؤمنوا، كقوله تعالى { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِين } [الشعراء:3].

{ **وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ** } ثمّ أعقبه بأن لا يضيق صدره من مكرهم. وهذه أحوال مختلفة تحصل في النفس باختلاف الحوادث المسبّبة لها، فإنّهم كانوا يعاملون النبيّ مرة بالأذى علنا، ومرة بالإعراض عن الاستماع إليه وإظهار أنهم يغيظونه بعدم متابعته، وآونة بالكيد والمكر له، وهو تدبير الأذى في خفاء.

الضَيْق: مصدر ضاق، مثل السير والقول. وبها قرأ الجمهور. وتقدّم عند قوله تعالى { وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ } [هود:12]. والمراد ضيق النفس، يقال: فلان ضيّق الصدر، وهو **مستعار للجزع والكدر**، كما استعير ضدّه وهو السعة والاتساع للاحتمال والصبر، يقال: سعة الصدر. قال تعالى { وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ } [الحجر:97].

{ **فِي ضَيْقٍ** } ظرفية مجازية.

{ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ } [128].

تعليل للأمر بالاقتصار على قدر الجرم في العقوبة، وللترغيب في الصبر على الأذى، والعفو عن المعتدين، ولتخصيص النبيّ صلى الله عليه وسلم بالأمر بالصبر، والاستعانة على تحصيله بمعونة الله تعالى، ولصرف الكدر عن نفسه من جراء أعمال الذين لم يؤمنوا به. عُلّل ذلك كلّه بأنّ الله مع الذين يتّقونه، فيقفون عند ما حدّ لهم، ومع المحسنين. **والمعية هنا مجاز في التأييد والنصر.**

<u>وأُتي في جانب التقوى</u> بصلة فعلية ماضية للإشارة إلى لزوم حصولها وتقرّرها من قبل، لأنّها من لوازم الإيمان، لأنّ التقوى آيلة إلى أداء الواجب وهو حقّ على المكلّف. ولذلك أمر فيها بالاقتصار على قدر الذنب.

<u>وأُتي في جانب الإحسان</u> بالجملة الاسمية للإشارة إلى كون الإحسان ثابتا لهم دائما معهم، لأنّ الإحسان فضيلة، فبصاحبه حاجة إلى رسوخه من نفسه وتمكّنه.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الإسْراء

سُمّيت في كثير من المصاحف (**سورة الإسراء**)، إذ قد ذُكر في أوّلها الإسراء بالنبيّ صلى الله عليه وسلم، واختُصّت بذكره.

وتُسمّى في عهد الصحابة (**سورة بني إسرائيل**). ففي جامع الترمذي في أبواب الدعاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: " كان النبيّ صلى الله عليه وسلم لا ينام حتّى يقرأ الزمر وبني إسرائيل ".

وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود أنّه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم:" إنّهنّ من العِتاق الأُوَل وهنّ من تِلادي". وبذلك ترجم لها البخاري في كتاب التفسير، والترمذي في أبواب التفسير. ووجه ذلك أنّها ذُكر فيها من أحوال بني إسرائيل ما لم يُذكر في غيرها. وهو استيلاء قوم أولى بأس (الآشوريين) عليهم ثمّ استيلاء قوم آخرين وهم (الروم) عليهم.

وتُسمّى أيضا (**سورة سبحان**)، لأنّها افتُتحت بهذه الكلمة. قاله في (بصائر ذوي التمييز).

وهي مكّيّة عند الجمهور. قيل: إلّا آيتين منها، وهما { وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ - إلى قوله - قَلِيلاً } [74/73]. وقيل: إلّا أربعا، هاتين الآيتين، وقوله تعالى { وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنّاس } [60]، وقوله تعالى { وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْق } [80].

وقيل: إلّا خمسا، هاته الأربع، وقوله تعالى { قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِه } [107] إلى آخر السورة.

وقيل: إلّا خمس آيات غير ما تقدّم.

وقيل: إلّا ثمانيا من قوله تعالى { وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ - إلى قوله - سُلْطَاناً نَصِيراً } [73-80].

وأحسب أنّ منشأ هاته الأقوال أنّ ظاهر الأحكام التي اشتملت عليها تلك الأقوال يقتضي أنّ تلك الآي لا تناسب حالة المسلمين فيما قبل الهجرة **فغلبت على ظنّ أصحاب تلك الأقوال أنّها مدنيّة**. وسيأتي بيان أنّ ذلك غير متّجه عند التعرّض لتفسيرها.

ويظهر أنّها نزلت في زمن كثرت فيه جماعة المسلمين بمكّة، وأخذ التشريع المتعلّق بمعاملات جماعتهم يتطرّق إلى نفوسهم، فقد ذُكرت فيها أحكام متتالية لم تذكر أمثال عددها في سورة مكية غيرها عدا سورة الأنعام، وذلك من قوله تعالى { وَقَضَى رَبُّكَ إِلّا تَعْبُدُوا إِلّا إِيَّاهُ - إلى قوله - كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً } [23-38].

وقد اختُلف في وقت الإسراء. والأصح أنّه كان قبل الهجرة بنحو سنة وخمسة أشهر، فإذا كانت قد نزلت عقب وقوع الإسراء بالنبيّ صلى الله عليه وسلم تكون قد نزلت في حدود سنة اثنتي عشرة بعد البعثة، وهي سنة اثنتين قبل الهجرة في منتصف السنة.

وليس افتتاحها بذكر الإسراء مقتضيا أنها نزلت عقب وقوع الإسراء. بل يجوز أنّها نزلت بعد الإسراء بمدّة.

نزلت هذه السورة بعد سورة القصص وقبل سورة يونس.

وعدّت السورة الخمسين في تعداد نزول سورة القرآن.

وعدد آيها مائة وعشر في عدّ أهل المدينة، ومكّة، والشام، والبصرة. ومائة وإحدى عشرة في عد أهل الكوفة.

أغراض السورة

*/ العماد الذي أقيمت عليه أغراض هذه السورة إثبات نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم، وإثبات أنّ القرآن وحي من الله. وإثبات فضله وفضل من أنزل عليه. وذكر أنّه معجز.

*/ ردّ مطاعن المشركين فيه وفيمن جاء به، وأنّهم لم يفقهوه فلذلك أعرضوا عنه.

*/ إبطال إحالتهم أن يكون النبيّ صلى الله عليه وسلم أسري به إلى المسجد الأقصى. فافتتحت بمعجزة الإسراء توطئة للتنظير بين شريعة الإسلام وشريعة موسى عليه السلام، على عادة القرآن في ذكر المثل والنظائر الدينية، ورمزا إلهيا إلى أنّ الله أعطى محمدا صلى الله عليه وسلم من الفضائل أفضل ممّا أعطى من قبله.

*/ وأنّه أكمل له الفضائل فلم يفته منها فائت. فمن أجل ذلك أحلّه بالمكان المقدس الذي تداولته الرّسل من قبل، فلم يستأثرهم بالحلول بذلك المكان الذي هو مهبط الشريعة الموسوية، ورمز أطوار تاريخ بني إسرائيل وأسلافهم، والذي هو نظير المسجد الحرام، في أنّ أصل تأسيسه في عهد إبراهيم كما سننبه عليه عند تفسير قوله تعالى { إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى } [1]، فأحلّ الله به محمدا صلى الله عليه وسلم بعد أن هُجِر وخُرّب، إيماء إلى أنّ أمّته تجدّد مجده.

*/ وأنّ الله مكّنه من حرميّ النبوّة والشريعة، فالمسجد الأقصى لم يكن معمورا حين نزول هذه السورة وإنّما عمرت كنائس حوله، وأنّ بني إسرائيل لم يحفظوا حرمة المسجد الأقصى، فكان إفسادهم سببا في تسلّط أعدائهم عليهم وخراب المسجد الأقصى. وفي ذلك رمز إلى أنّ إعادة المسجد الأقصى ستكون على يد أمّة هذا الرسول الذي أنكروا رسالته.

*/ ثم إثبات دلائل تفرّد الله بالإلهية، والاستدلال بآية الليل والنهار وما فيهما من المنن على إثبات الوحدانيّة.

*/ التذكير بالنعم التي سخّرها الله للنّاس، وما فيها من الدلائل على تفرّده بتدبير الخلق، وما تقتضيه من شكر المنعم وترك شكر غيره، وتنزيهه عن اتّخاذ بنات له.

*/ إظهار فضائل من شريعة الإسلام وحكمته، وما علّمه الله المسلمين من آداب المعاملة نحو ربّهم

سبحانه، ومعاملة بعضهم مع بعض، والحكمة في سيرتهم وأقوالهم، ومراقبة الله في ظاهرهم وباطنهم.

عن ابن عباس أنّه قال: " التوراة كلّها في خمس عشرة آية من سورة بني إسرائيل ". وفي رواية عنه:" ثمان عشرة آية منها كانت في ألواح موسى"، أي: من قوله تعالى { لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً - إلى قوله - وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً } [22 - 39]. ويعني بالتوراة الألواح المشتملة على الوصايا العشر، وليس مراده أنّ القرآن حكى ما في التوراة ولكنها أحكام قرآنية موافقة لما في التوراة.

على أن كلام ابن عباس معناه: أن ما في الألواح مذكور في تلك الآي، ولا يريد أنهما سواء، لأن تلك الآيات تزيد بأحكام، منها قوله { رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ - إلى قوله - لِرَبِّهِ كَفُوراً } [25-27]، وقوله تعالى { وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ } [31]، وقوله تعالى { وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ - إلى قوله - ذَلِكَ ممّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ } [34-39]، مع ما تخلّل ذلك كلّه من تفصيل وتبيين عرّيت عنه الوصايا العشر التي كتبت في الألواح.

*/ إثبات البعث والجزاء.

*/ الحثّ على إقامة الصلوات في أوقاتها.

*/ التحذير من نزغ الشيطان وعداوته لآدم وذرّيّته، وقصّة إبايته من السجود.

*/ الإنذار بعذاب الآخرة.

*/ ذكر ما عرض للأمم من أسباب الاستئصال والهلاك.

*/ تهديد المشركين بأنّ الله يوشك أن ينصر الإسلام على باطلهم.

*/ ما لقي النبيّ صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين واستعانتهم باليهود. واقتراحهم الآيات، وتحميقهم في */ جهلهم بآية القرآن وأنّه الحقّ.

*/ تخلّل ذلك من المستطردات والنذر والعظات ما فيه شفاء ورحمة، ومن الأمثال ما هو علم وحكمة.

{ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } [1].

{ سُبْحَانَ } الافتتاح بكلمة التسبيح من دون سبق كلام متضمّن ما يجب تنزيه الله عنه يؤذن بأنّ خبرا عجيبا يستقبله السامعون دالا على عظيم القدرة من المتكلّم، ورفيع منزلة المتحدَّث عنه.

فإنّ جملة التسبيح في الكلام الذي لم يقع فيه ما يوهم تشبيها أو تنقيصا لا يليقان بجلال الله تعالى، يتعيّن أن تكون مستعملة في أكثر من التنويه، وذلك هو **التعجيب من الخبر المتحدَّث به،** كقوله تعالى { قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ } [النور:16].

ولمّا كان هذا الكلام من جانب الله تعالى والتسبيح صادرا منه كان المعنى تعجيب السامعين، لأنّ التعجيب مستحيلة حقيقته على الله، لا لأنّ ذلك لا يُلتفت إليه في محامل الكلام البليغ لإمكان الرجوع إلى التمثيل، بل لأنّه لا يستقيم تعجّب المتكلم من فعل نفسه.

وأصل صيغ التسبيح هو كلمة (سبحان الله) التي نُحت منها السبحلة. ووقع التصرّف في صيغها بالإضمار نحو: سبحانك وسبحانه، وبالموصول نحو { سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا } [يس:36] ومنه هذه الآية.

{ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى } التعبير عن الذات العليّة بطريق الموصول دون الاسم العلم للتنبيه على ما تفيده صلة الموصول من الإيماء إلى وجه هذا التعجيب والتنويه وسببه، وهو ذلك الحادث العظيم والعناية الكبرى. ويفيد أنّ حديث الإسراء أمر فشا بين القوم، فقد آمن به المسلمون وأكبَره المشركون.

وفي ذلك إدماج لرفعة قدر محمد صلى الله عليه وسلم وإثبات أنّه رسول من الله، وأنّه أوتي من دلائل صدق دعوته ما لا قبل لهم بإنكاره، فقد كان إسراؤه إطلاعا له على غائب من الأرض، وهو أفضل مكان بعد المسجد الحرام.

{ أَسْرَى } لغة في سرى، بمعنى سار في الليل، فالهمزة هنا ليست للتعدية لأنّ التعدية حاصلة بالباء، بل أسرى فعل مفتتح بالهمزة مرادف سرى.

وللمبرّد والسهيلي نكتة في التفرقة بين التعدية بالهمزة والتعدية بالباء: بأنّ الثانية أبلغ لأنّها في أصل الوضع تقتضي مشاركة الفاعل المفعول في الفعل. وفي هذا لطيفة تناسب المقام هنا إذ قال {أَسْرَى بِعَبْدِهِ} دون سرى بعبده، وهي التلويح إلى أنّ الله تعالى كان مع رسوله في إسرائه بعنايته وتوفيقه، كما قال تعالى { فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا } [الطور:48]، وقال { إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا } [التوبة:40].

{ لَيْلاً } إشارة إلى أنّ السير به إلى المسجد الأقصى كان في جزء ليلة، و إلّا لم يكن ذكره إلّا تأكيدا، على أنّ الإفادة كما يقولون خير من الإعادة. وفي ذلك إيماء إلى أنّه إسراء خارق للعادة لقطع المسافة التي بين مبدأ السير ونهايته في بعض ليلة، وأيضا ليُتوسّل بذكر الليل إلى تنكيره المفيد للتعظيم.

أي: هو ليل عظيم باعتبار جعله زمنا لذلك السرى العظيم، فقام التنكير هنا مقام ما يدل على التعظيم.

ألا ترى كيف احتيج إلى الدلالة على التعظيم بصيغة خاصة في قوله تعالى { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ } [القدر:2/1] إذ وقعت ليلة القدر غير منكرة.

{ **بِعَبْدِهِ** } هو محمد صلى الله عليه وسلم كما هو مصطلح القرآن، فإنّه لم يقع فيه لفظ العبد مضافا إلى ضمير الغيبة الراجع إلى تعالى إلّا مرادا به النبيّ صلى الله عليه وسلم. ولأنّ خبر الإسراء به إلى بيت المقدس قد شاع بين المسلمين وشاع إنكاره بين المشركين، فصار المراد { بِعَبْدِهِ } معلوما.

والإضافة إضافة تشريف لا إضافة تعريف، لأنّ وصف العبودية لله متحقّق لسائر المخلوقات.

{ **مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** } هو الكعبة والفناء المحيط بالكعبة بمكّة المتّخذ للعبادة المتعلقة بالكعبة من طواف بها واعتكاف عندها وصلاة.

المسجد: اسم مكان السجود.

الحرام: أصله الأمر الممنوع لأنّه مشتق من الحَرْم (بفتح فسكون) وهو المنع.

فوصف الشيء بالحرام يكون بمعنى: أنّه ممنوع، نحو قوله تعالى { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ } [المائدة:3].

ويكون بمعنى: الممنوع من أن يُعمل فيه عمل ما. ويُبيَّن بذكر المتعلِّق الذي يتعلق به. وقد لا يذكر متعلّقه إذا دلّ عليه العرف، ومنه قولهم { الشَّهْرُ الْحَرَامُ } [البقرة:194] أي: الحرام فيه القتال في عرفهم. وقد يُحذف المتعلّق لقصد التكثير، فهو من الحذف للتعميم فيرجع إلى العموم العرفي، ففي نحو قوله { الْبَيْتَ الْحَرَامَ } [المائدة:2] يراد الممنوع من عدوان المعتدين، وغزو الملوك والفاتحين، وعمل الظلم والسوء فيه.

وقد بنى قريش في زمن الجاهلية بيوتهم حول المسجد الحرام. وجعل قُصي بقربه دار الندوة لقريش وكانوا يجلسون فيها حول الكعبة، فانحصر لمّا أحاطت به بيوت عشائر قريش. وكانت كلّ عشيرة تتخذ بيوتها متجاورة. ومجموع البيوت يُسمّى شِعبا (بكسر الشين). وكانت كلّ عشيرة تسلك إلى المسجد الحرام من منفذ دورها، ولم يكن للمسجد الحرام جدار يحفظ به. وكانت المسالك التي بين دور العشائر تُسمّى أبوابا لأنّها يسلك منها إلى المسجد الحرام، مثل باب بني شيبة، وباب بني هاشم، وباب بني مخزوم وهو باب الصفا لقربه منها، وباب بني سهم، وباب بني تيم. وباب الحَزْورة، سُمّي بمكان كانت به سوق لأهل مكّة تُسمّى الحزورة. ولا أدري هل كانت أبوابا تغلق أم كانت منافذ في الفضاء، فإنّ الباب يطلق على ما بين حاجزين.

وأوّل من جعل للمسجد الحرام جدارا يُحفظ به هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة (17هـ).

ولُقّب بالمسجد لأنّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام جعله لإقامة الصلاة في الكعبة كما حكى الله عنه { رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ } [إبراهيم:37]. ولمّا انقرضت الحنيفيّة وترك أهل الجاهلية الصلاة تناسوا وصفه بالمسجد الحرام فصاروا يقولون: البيت الحرام. وأمّا قول عمر: إني نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة في المسجد الحرام، فإنّه عبَّر عنه باسمه في الإسلام.

فغلب عليه هذا التعريف التوصيفي فصار له علما بالغلبة في اصطلاح القرآن. ولا أعرف أنّه كان يُعرف في الجاهلية بهذا الاسم، ولا على مسجد بيت المقدس في عصر تحريمه عند بني إسرائيل. وقد تقدّم وجه ذلك عند قوله تعالى { فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } [البقرة:144]، وعند قوله تعالى { أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } [المائدة:2].

{ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى } المسجد الأقصى هو المسجد المعروف ببيت المقدس الكائن بإيلياء، وهو المسجد الذي بناه سليمان عليه الصلاة والسلام.

الأقصى: الأبعد. والمراد بعده عن مكّة، بقرينة جعله نهاية الإسراء من المسجد الحرام، وهو وصف كاشف اقتضاه هنا زيادة التنبيه على معجزة هذا الإسراء وكونه خارقا للعادة لكونه قطع مسافة طويلة في بعض ليلة.

وبهذا الوصف الوارد له في القرآن صار مجموع الوصف والموصوف علما بالغلبة على مسجد بيت المقدس كما كان المسجد الحرام علما بالغلبة على مسجد مكّة. وأحسب أنّ هذا العلم له من مبتكرات القرآن فلم يكن العرب يصفونه بهذا الوصف ولكنّهم لمّا سمعوا هذه الآية فهموا المراد منه أنّه مسجد إيلياء. ولم يكن مسجد لدين إلهي غيرهما يومئذ.

{ الْأَقْصَى } وفي هذا الوصف بصيغة التفضيل، باعتبار أصل وضعها، معجزة خفيّة من معجزات القرآن، إيماء إلى أنّه سيكون بين المسجدين مسجد عظيم هو مسجد طيبة الذي هو قصي عن المسجد الحرام، فيكون مسجد بيت المقدس أقصى منه حينئذ. فتكون الآية مشيرة إلى جميع المساجد الثلاثة المفضّلة في الإسلام على جميع المساجد الإسلامية، والتي بيّنها قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" لا تشد الرحال إلّا إلى ثلاثة مساجد: مسجد الحرام، ومسجد الأقصى، ومسجدي ".**

{ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى } فائدة ذكر مبدأ الإسراء ونهايته أمران:

<u>أحدهما</u>: التنصيص على قطع المسافة العظيمة في جزء ليلة ليُعلم أنّه من قبيل المعجزات.

<u>ثانيهما</u>: الإيماء إلى أنّ الله تعالى يجعل هذا الإسراء رمزا إلى أنّ الإسلام جمع ما جاءت به شرائع التوحيد والحنيفيّة من عهد إبراهيم عليه الصلاة والسلام الصادر من المسجد الحرام إلى ما تفرع عنه من الشرائع التي كان مقرّها بيت المقدس ثم إلى خاتمتها التي ظهرت من مكّة أيضا، فقد صدرت الحنيفية من المسجد الحرام وتفرّعت في المسجد الأقصى. ثم عادت إلى المسجد الحرام كما عاد الإسراء إلى مكّة، لأنّ كل سرى يعقبه تأويب. وبذلك حصل ردّ العجز على الصدر.

ومن هنا يظهر مناسبة نزول التشريع الاجتماعي في هذه السورة في الآيات المفتتحة بقوله تعالى { وَقَضَى رَبُّكَ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ } ففيها { وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ } وفيها { وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } وفيها { وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ} [23 - 35]. إيماء إلى أنّ هذا الدين سيكون دينا يحكم في النّاس وتنفذّ أحكامه.

والمسجد الأقصى هو ثاني مسجد بناه إبراهيم عليه السلام كما ورد ذلك عن النبيّ صلى الله عليه وسلم. ففي الصحيحين عن أبي ذر قال: " قلت: يا رسول الله أيّ مسجد وضع في الأرض أوّل؟ قال: **المسجد الحرام**. قلت: ثم أي؟ قال: **المسجد الأقصى**. قلت: كم بينهما؟ قال: **أربعون سنة** ". فهذا الخبر قد بيّن أنّ المسجد الأقصى من بناء إبراهيم، لأنّه حُدّد بمدّة هي من مدّة حياة إبراهيم عليه السلام . وقد قرن ذكره بذكر المسجد الحرام.

وهذا ممّا أهمل أهل الكتاب ذكره وخصّ الله نبيّه بمعرفته. والتوراة تشهد له، فقد جاء في [سفر التكوين، الإصحاح:12]: أنّ إبراهيم لمّا دخل أرض كنعان (وهي بلاد فلسطين)نصب خيمته في الجبل شرقي بيت إيل (بيت إيل مدينة على بعد أحد عشر ميلا من أورشليم إلى الشمال وهو بلد كان اسمه عند الفلسطينيين (**لوزا**) فسماه يعقوب: بيت إيل، كما في [سفر التكوين، الإصحاح:28]) وغربي بلاد عاي (مدينة عبرانية تعرف الآن **الطيّبة**) وبنى هنالك مذبحا للربّ. وهم يطلقون المذبح على المسجد لأنّهم يذبحون القرابين في مساجدهم. قال عمر بن أبي ربيعة:

دُميةٌ عند راهب قسيس ... صوروها في مذبح المحراب

ولا شكّ أنّ مسجد إبراهيم هو الموضع الذي توخّى داود عليه السلام أن يضع عليه الخيمة وأن يبني عليه محرابه، أو أوحى إليه الله بذلك، وهو الذي أوصى ابنه سليمان عليه السلام أن يبني عليه المسجد (الهيكل). وقد ذكر مؤرخو العبرانيين ومنهم (يوسيفوس) أنّ الجبل الذي سكنه إبراهيم بأرض كنعان اسمه (نابو) وأنّه الجبل الذي ابتنى عليه سليمان الهيكل وهو المسجد الذي به الصخرة. وقصة بناء سليمان إيّاه مفصلة في سفر الملوك الأول من أسفار التوراة.

وقد انتابه التخريب ثلاث مرات:

أولاها : حين خرّبه بختنصر ملك بابل سنة (578 ق م) ثم جدّده اليهود تحت حكم الفرس.

الثانية : خرّبه الرومان في مدة طيطوس بعد حروب طويلة بينه وبين اليهود وأعيد بناؤه، فأكمل تخريبه أدريانوس سنة (135م) وعفى آثاره فلم تبق منه إلّا أطلال.

الثالثة : لما تنصرت الملكة هيلانة أمّ الأمبراطور قسطنطين ملك الروم ببزنطة وصارت متصلّبة في النصرانية، وأُشرب قلبها بغض اليهود بما تعتقده من قتلهم المسيح كان ممّا اعتدت عليه حين زارت أورشليم أن أمرت بتعفية أطلال هيكل سليمان وأن ينقل ما بقي من الأساطين ونحوها فتبنى بها كنيسة على قبر المسيح المزعوم عندهم في موضع توسّموا أن يكون هو موضع القبر (والمؤرخون من النصارى يشكّون في كون ذلك المكان هو المكان الذي يُدّعى أن المسيح دفن فيه) وأن تسمّيها كنيسة القيامة، وأمرت بأن يجعل موضع المسجد الأقصى مرمى أزبال البلد وقماماته فصار موضع الصخرة مزبلة تراكمت عليها الأزبال فغطتها وانحدرت على درجها.

ولمّا فتح المسلمون بقيّة أرض الشام في زمن عمر وجاء عمر بن الخطاب ليشهد فتح مدينة إيليا، وهي

المعروفة من قبل (**أورشليم**) وصارت تُسمّى إيلياء (بكسر الهمزة وكسر اللام) وكذلك كان اسمها المعروف عند العرب عندما فتح المسلمون فلسطين. وإيلياء اسم نبي من بني إسرائيل كان في أوائل القرن التاسع قبل المسيح. قال الفرزدق:

وبـيتـان بـيت الله نـحن ولّاتـه ... وبيتٌ بـأعلى إيلـياء مُشرَّف

وانعقد الصلح بين عمر وأهل تلك المدينة وهم نصارى. قال عمر لبطريق لهم اسمه (صفرونيوس) : " دلّني على مسجد داود "، فانطلق به حتّى انتهى إلى مكان الباب وقد انحدر الزبل على درج الباب فتجشم عمر حتّى دخل ونظر فقال: " الله أكبر، هذا والذي نفسي بيده مسجد داود الذي أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه أسري به إليه ". ثم أخذ عمر والمسلمون يكنسون الزبل عن الصخرة حتّى ظهرت كلّها، ومضى عمر إلى جهة محراب داود فصلى فيه، ثم ارتحل من بلد القدس إلى فلسطين.

ولم يُبن هنالك مسجد إلى أن كان في زمن عبد الملك بن مروان الذي أمر بابتداء بناء القبة على الصخرة وعمارة المسجد الأقصى. ووكلّ على بنائها رَجاء بن حَيْوَة الكِندي أحد علماء الإسلام، فابتدأ ذلك سنة (66هـ) وكان الفراغ من ذلك في سنة (73هـ).

ولهذا فتسمية ذلك المكان بالمسجد الأقصى في القرآن تسمية قرآنية اعتُبر فيها ما كان عليه من قبل، لأنّ حكم المسجديّة لا ينقطع عن أرض المسجد. فالتسمية باعتبار ما كان، وهي إشارة خفيّة إلى أنّه سيكون مسجدا بأكمل حقيقة المساجد.

واستقبله المسلمون في الصلاة من وقت وجوبها المقارن ليلة الإسراء إلى ما بعد الهجرة بستة عشر شهرا. ثم نسخ استقباله وصارت الكعبة هي القبلة الإسلامية.

وقد رأيت أنّ سائحا نصرانيا اسمه (اركولف) زار القدس سنة 670م، أي: بعد خلافة عمر بأربع وثلاثين سنة، وزعم أنّه رأى مسجدا بناه عمر على شكل مربع من ألواح وجذوع أشجار ضخمة وأنّه يسع نحو ثلاثة آلاف (مقال حرّره عارف عارف في الجملة المسمّاة رسالة العلم بالمملكة الأردنية في عدد2 من السنة12 سنة 1968).

والظاهر أن نسبة المسجد الأقصى إلى عمر بن الخطاب وهم من أوهام النصارى اختلط عليهم كشف عمر موضع المسجد فظنّوه بناه. وإذا صدق (اركولف) فيما ذكر كان ذلك شيئا أحدثه مسلمو البلاد لصيانة ذلك المكان عن الامتهان.

{ **الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَه** } صفة للمسجد الأقصى. وجئ في الصفة بالموصوليّة لقصد تشهير الموصوف بمضمون الصلة، حتّى كأنّ الموصوف مشتهر بالصلة عند السامعين. والمقصود: إفادة أنّه مبارك حوله. وصيغة المفاعلة هنا للمبالغة في تكثير الفعل.

البركة: نماء الخير والفضل في الدنيا والآخرة بوفرة الثواب للمصلّين فيه بإجابة دعاء الداعين فيه. وقد تقدّم ذكر البركة عند قوله تعالى { مُبَارَكاً وَهُدىً لِّلْعَالَمِينَ } [آل عمران:96]. وقد وُصف المسجد الحرام

بمثل هذا في قوله تعالى { إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ } [آل عمران:96].
ووجه الاقتصار على وصف المسجد الأقصى في هذه الآية بذكر هذا التبريك أنّ شهرة المسجد الحرام بالبركة وبكونه مقام إبراهيم معلومة للعرب، وأمّا المسجد الأقصى فقد تناسى النّاس ذلك كلّه، فالعرب لا علم لهم به والنصارى عفوا أثره من كراهيتهم لليهود، واليهود قد ابتعدوا عنه وأيسوا من عوده إليهم، فاحتيج إلى الإعلام ببركته.
وكون البركة حوله كناية عن حصول البركة فيه بالأولى، لأنّها إذا حصلت حوله فقد تجاوزت ما فيه، ففيه لطيفة التلازم، ولطيفة فحوى الخطاب، ولطيفة المبالغة بالتكثير.
وأسباب بركة المسجد الأقصى كثيرة؛ منها أن واضعه إبراهيم عليه السلام ، ومنها ما لحقه من البركة بمن صلى به من الأنبياء من داود وسليمان ومن بعدهما من أنبياء بني إسرائيل، ثم بحلول الرسول عيسى عليه السلام وإعلانه الدعوة إلى الله فيه وفيما حوله، ومنها بركة من دُفن حوله من الأنبياء، فقد ثبت أن قبري داود وسليمان حول المسجد الأقصى. وأعظم تلك البركات حلول النبيّ صلى الله عليه وسلم فيه ذلك الحلول الخارق للعادة، وصلاته فيه بالأنبياء كلّهم.
{ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا } تعليل ببعض الحِكم التي لأجلها منح الله نبيّه منحة الإسراء، فإنّ للإسراء حِكما جمّة تتضح من حديث الإسراء المروي في الصحيح. وأهمّ الحكم وأجمعها إراءته من آيات الله تعالى ودلائل قدرته ورحمته. لأنّ إراءة الآيات تزيد يقين الرائي بوجودها الحاصل من قبل الرؤية. قال تعالى { وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ } [الأنعام:75].
فإن فطرة الله جعلت إدراك المحسوسات أثبت من إدراك المدلولات البرهانية. قال تعالى { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي } [البقرة:260]. ولذلك لم يقل الله بعد هذا التعليل: أو لم يطمئن قلبك، لأنّ اطمئنان القلب متسع المدى لا حدّ له، فقد أنطق الله إبراهيم عن حكمة نبوّة، وقد بادر محمدا صلى الله عليه وسلم بإراءة الآيات قبل أن يسأله إيّاها توفيرا في الفضل.
قال علي بن حزم الظاهري وأجاد:

ولكن للعيان لطيفُ معنى ... له سأل المعاينة الكليمُ

واعلم أنّ تقوية يقين الأنبياء من الحكم الإلهية لأنهم بمقدار قوّة اليقين يزيدون ارتقاء على درجة مستوى البشر والتحاقا بعلوم عالم الحقائق ومساواة في هذا المضمار لمراتب الملائكة.
{ بَارَكْنَا / لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا } في تغيير الأسلوب من الغيبة التي في اسم الموصول وضميريه إلى التكلّم سلوك لطريقة الالتفات المتّبعة كثيرا في كلام البلغاء. والالتفات هنا امتاز بلطائف:
منها، أنّه لما استُحضرت الذات العليّة بجملة التسبيح وجملة الموصولية صار مقام الغيبة مقام مشاهدة فناسب أنّ يُغيّر الإضمار إلى ضمائر المشاهدة وهو مقام التكلّم.

ومنها، الإيماء إلى أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم عند حلوله بالمسجد الأقصى قد انتقل من مقام الاستدلال على عالم الغيب إلى مقام مصيره في عالم المشاهدة.

ومنها، التوطئة والتمهيد إلى محمل معاد الضمير في قوله تعالى { إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } ، فيتبادر عود ذلك الضمير إلى غير من عاد إليه ضمير { لِنُرِيَهُ } لأنّ الشأن تناسق الضمائر، ولأنّ العود إلى الالتفات بالقرب ليس من الأحسن.

{ **إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** } الأظهر أنّ الضميرين عائدان إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم. قاله بعض المفسّرين، واستقرّبه الطيبي، ولكن جمهرة المفسّرين على أنّه عائد إلى الله تعالى. ولعلّ احتماله للمعنيين مقصود.

وقد تجيء الآيات محتملة عدة معان. واحتمالها مقصود تكثيرا لمعاني القرآن، ليأخذ كلّ منه على مقدار فهمه كما ذكرنا في المقدمة التاسعة. وأيّا ما كان فموقع (إنّ) التوكيد والتعليل كما يؤذن به فصل الجملة عما قبلها.

وهي إمّا تعليل لإسناد فعل { لِنُرِيَهُ } إلى فاعله، وإمّا تعليل لتعليقه بمفعوله، فيفيد أنّ تلك الإراءة من باب الحكمة، وهي إعطاء ما ينبغي لمن ينبغي، فهي من إيتاء الحكمة من هو أهلها.

والتعليل على اعتبار مرجع الضمير إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم أوقع، إذ لا حاجة إلى تعليل إسناد فعل الله تعالى، لأنّه محقَّق معلوم. وإنّما المحتاج للتعليل هو إعطاء تلك الإراءة العجيبة لمن شك المشركون في حصولها له زمن يحسبون أنّه لا يطيقها مثله.

على أنّ الجملة مشتملة على صيغة قصر بتعريف المسند باللام وبضمير الفصل قصرا مؤكَّدا، وهو قصر موصوف على صفة قصرا إضافيا للقلب، أي: هو المدرِك لما سمعه وأبصره لا الكاذبُ ولا المتوهمُ كما زعم المشركون. <u>وهذا القصر يؤيّد عود الضمير إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّه المناسب للردّ</u>. ولا ينازع المشركون في أنّ الله سميع وبصير.

ثم إن الصفتين على تقدير كونهما للنبيّ صلى الله عليه وسلم هما على أصل اشتقاقهما للمبالغة في قوّة سمعه وبصره وقبولهما لتلقّي تلك المشاهدات المدهشة، على حدّ قوله تعالى { مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى } [النجم:17]، وقوله تعالى { أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى } [النجم:12].

وأمّا على تقدير كونهما صفتين لله تعالى فالمناسب أن تؤوَّلا بمعنى المُسمِع المُبصِر، أي: القادر على إسماع عبده وإبصاره.

وقد اختلف السلف في الإسراء أكان بجسد رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكّة إلى بيت المقدس أم كان بروحه في رؤيا هي مشاهدة روحانية كاملة، ورؤيا الأنبياء حقّ. والجمهور قالوا: هو إسراء بالجسد في اليقظة، وقالت عائشة ومعاوية والحسن البصري وابن إسحاق رضي الله عنهم أنّه إسراء بروحه في المنام ورؤيا الأنبياء وحي.

واستدل الجمهور بانّ الامتنان في الآية وتكذيب قريش بذلك دليلان على أنّه ما كان الإخبار به إلّا على أنّه بالجسد. واتفق الجميع على أنّ قريشا استوصفوا من النبيّ صلى الله عليه وسلم علامات في بيت المقدس وفي طريقه فوصفها لهم كما هي، ووصف لهم عيرا لقريش قافلة في طريق معيّن ويوم معين فوجدوه كما وصف لهم.

ففي صحيح البخاري أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: **" بينما أنا في المسجد الحرام بين النائم واليقظان إذ أتاني جبريل..."** إلى آخر الحديث. وهذا أصحّ وأوضح ممّا روي في حديث آخر أنّ الإسراء كان من بيته أو كان من بيت أم هاني بنت أبي طالب أو من شعب أبي طالب.

والتحقيق حمْل ذلك على أنّه إسراء آخر، وهو الوارد في حديث المعراج إلى السماوات وهو غير المراد في هذه الآية. فللنبيّ صلى الله عليه وسلم كرامتان: أولاهما الإسراء وهو المذكور هنا، والأخرى المعراج وهو المذكور في حديث الصحيحين مطولا وأحاديث غيره. وقد قيل: أنّه هو المشار إليه في سورة النجم.

{ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائيلَ إلّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً } [2].

عطف على جملة { سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى } فهي ابتدائية. والتقدير: الله أسرى بعبده محمد وآتى موسى الكتاب. فهما منّتان عظيمتان على جزء عظيم من البشر. وهو انتقال إلى غرض آخر لمناسبة ذكر المسجد الأقصى، فإنّ أطوار المسجد الأقصى تمثّل ما تطوّر به حال بني إسرائيل في جامعتهم من أطوار الصلاح والفساد، والنهوض والركود، ليعتبر بذلك المسلمون فيقتدوا أو يحذروا.

على ما في حالة الإسراء بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ليلا ليرى من آيات الله تعالى من المناسبة لحالة موسى عليه السلام حين أوتي النبوّة، فقد أوتي النبوّة ليلا وهو سار بأهله من أرض مدين إذ آنس من جانب الطور نارا، ولحاله أيضا حين أسرى إلى مناجاة ربّه بآيات الكتاب.

الكتاب: التوراة. والإخبار عنه بأنّه هدى مبالغة لأنّ الهدى بسبب العمل بما فيه فجُعل كأنّه نفس الهدى، كقوله تعالى في القرآن { هُدىً لِلْمُتَّقِينَ } [البقرة:2].

وخصّ بني إسرائيل لأنّهم المخاطبون بشريعة التوراة دون غيرهم، فالجعل هو جعل التكليف. وهم المراد بـ { لِلنَّاسِ } في قوله تعالى { قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ } [الأنعام:91]، لأنّ النّاس قد يطلق على بعضهم، على أنّ ما هو هدى لفريق من النّاس صالح لأن ينتفع بهديه من لم يكن مخاطبا به.

الوكيل: الذي تفوّض إليه الأمور. والمراد به الربّ، لأنّه يتّكل عليه العباد في شؤونهم، أي: أن لا تتخذوا شريكا تلجؤون إليه. وقد عُرف إطلاق الوكيل على الله في لغة بني إسرائيل كما حكى الله عن يعقوب وأبنائه { فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ } [يوسف:66].

{ **ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ أنّه كَانَ عَبْداً شَكُوراً** } [3].

يجوز أن يكون اعتراضا في آخر الحكاية. ويجوز أن يكون من تمام الجملة التفسيريّة، أي: حال كونهم ذرّيّة من حملنا مع نوح عليه السلام ، أو ينتصب على النداء بتقدير النداء، أي: يا ذرية من حملنا مع نوح، مقصودا به تحريضهم على شكر نعمة الله واجتناب الكفر به باتخاذ شركاء دونه.

الحمل: وضع شيء على آخر لنقله، والمراد الحمل في السفينة كما قال { حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ } [الحاقة:11].

أي: ذرّية من أنجيناهم من الطوفان مع نوح عليه السلام.

{ **إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً** } مفيدة تعليل النهي عن أن يتخذوا من دون الله وكيلا، لأنّ أجدادهم حُملوا مع نوح بنعمة من الله عليهم لنجاتهم من الغرق، وكان نوح عبدا شكورا والذين حُملوا معه كانوا شاكرين مثله.

أي: فاقتدوا بهم ولا تكفروا نعم الله.

واعلم أن في اختيار وصفهم بأنّهم ذرّيّة من حمل مع نوح عليه السلام معاني عظيمة من التذكير والتحريض والتعريض لأنّ بني إسرائيل من ذرية سام بن نوح وكان سام ممّن ركب السفينة.

وفيه تذكير بأنّ الله أنجى نوحا ومن معه من الهلاك بسبب شكره وشكرهم تحريضا على الائتساء بأولئك.

وفيه تعريض بأنّهم إن أشركوا لَيُوشَكَنَّ أن ينزل بهم عذاب واستئصال.

وفيه أنّ ذرية نوح كانوا شقين؛ شق بار مطيع، وهم الذين حملهم معه في السفينة، وشق متكبّر كافر وهو ولده الذي غرق، فكان نوح عليه السلام مثلا لأبي فريقين. وكان بنو إسرائيل من ذرية الفريق البار، فإن اقتدوا به نجوا وإن حادوا فقد نزعوا إلى الفريق الآخر فيوشك أن يهلكوا. وقد ذكر في هذه السورة استئصال بني إسرائيل مرّتين بسبب إفسادهم في الأرض وعلوّهم مرتين، وأنّ ذلك جزاء أهمالهم وعد الله نوحا عليه السلام حينما نجّاه.

والتأكيد بحرف (إنّ) تنزيل لهم منزلة من يجهل ذلك، إمّا لتوثيق حملهم على الاقتداء به، إن كانت الجملة خطابا لبني إسرائيل من تمام الجملة التفسيرية، وإمّا لتنزيلهم منزلة من جهل ذلك حتّى تورّطوا في الفساد فاستأهلوا الاستئصال وذهاب ملكهم، لينتقل منه إلى التعريض بالمشركين من العرب بأنّهم غير مقتدين بنوح لأنّ مثلهم ومثل بني إسرائيل في هذا السياق واحد في جميع أحوالهم، فيكون التأكيد تعريضي.

{ **عَبْداً** } أي: أنّه معترف لله بالعبودية غير متكبّر بالإشراك.

{ **شَكُوراً** } أي: شديدا لشكر الله بامتثال أوامره. وروي أنّه كان يكثر حمد الله.

والاقتداء بصالح الآباء مجبولة عليه النفوس ومحلّ تنافس عند الأمم، بحيث يُعدّ خلاف ذلك كمثير للشك في صحة الانتساب. وكان نوح عليه السلام مثلا في كمال النفس وكانت العرب تعرف ذلك وتنبعث على الاقتداء به. قال النابغة: فألفيت الأمانة لم تخنها ... كذلك كان نوح لا يخون

{ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً [4] **فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاَهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً }** [5].

عطف على { وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ } [2]، أي: آتينا موسى الكتاب هُدى، وبيّنّا لبني إسرائيل في الكتاب ما يحلّ بهم من جراء مخالفة هدي التوراة إعلاما لهذه الأمّة بأنّ الله لم يدّخر أولئك إرشادا ونصحا.

{ **وَقَضَيْنَا** } القضاء هنا بمعنى الحكم وهو التقدير، ومعنى كونه **في الكتاب**: أنّ القضاء ذُكر في الكتاب. والتعدية بحرف (إلى) لتضمين معنى (أبلغنا)، أي: قضينا وأنهينا، كقوله تعالى {وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ} [الحجر:66].

فيجوز أن يكون المراد بـ { الْكِتَابِ } كتاب التوراة، ويوجد في مواضع، منها ما هو قريب ممّا في هذه الآية لكن بإجمال [الإصحاح: 26 / 28 / 30]، فيكون العدول عن الإضمار إلى الإظهار لمجرّد الاهتمام.

ويجوز أن يكون الكتاب بعض كتبهم الدينية. لأنّه لمّا أظهر اسم الكتاب أشعر بأنّه كتاب آخر من كتبهم، وهو الأسفار المسمّاة بكتب الأنبياء (أشعياء، وأرميا، وحزقيال، ودانيال)، وهي في الدرجة الثانية من التوراة. وكذلك كتاب النبيّ ملاخي. والإفساد مرتين ذُكر في كتاب أشعياء وكتاب أرمياء.

{ **لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً** } مبيّنة لجملة { وَقَضَيْنَا }، وأيّا ما كان فضمائر الخطاب في هذه الجملة مانعة من أن يكون المراد بالكتاب اللوح المحفوظ أو كتاب الله بمعنى علمه.

وهذه الآية تشير إلى حوادث عظيمة بين بني إسرائيل وأعدائهم من أمّتين عظيمتين: حوادث بينهم وبين البابليين، وحوادث بينهم وبين الرومانيين. فانقسمت بهذا الاعتبار إلى نوعين: نوع منهما تندرج فيه حوادثهم مع البابليين، والنوع الآخر حوادثهم مع الرومانيين، فعُبّر عن النوعين بمرتين، لأنّ كلّ مرّة منهما تحتوي على عدة ملاحم.

فالمرّة الأولى: هي مجموع حوادث متسلسلة تُسمّى في التاريخ بالأسر البابلي وهي غزوات (بختنصر) ملك بابل وأشور بلاد أورشليم. والغزو الأوّل كان سنة (606 ق م)، أسر جماعات كثيرة من اليهود، ويُسمّى الأسر الأوّل. ثم غزاهم أيضا غزوا يسمّى الأسر الثاني، وهو أعظم من الأوّل، كان سنة (598 ق م)، وأسر ملك يهوذا وجمعا غفيرا من الإسرائيلين وأخذ الذهب الذي في هيكل سليمان وما فيه من الآنية النفيسة.

والأسر الثالث المُبير سنة (588 ق م) غزاهم (بختنصر) وسبى كلّ شعب يهوذا، وأحرق هيكل سليمان، وبقيت أورشليم خرابا يبابا. ثم أعادوا تعميرها كما سيأتي عند قوله تعالى { ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ } [6].

وأمّا المرة الثانية: فهي سلسلة غزوات الرومانيين بلاد أورشليم. وسيأتي بيانها عند قوله تعالى { فَإِذَا جَاءَ

وَعْدُ الْآَخِرَةِ } [6].

وإسناد الإفساد إلى ضمير بني إسرائيل مفيد أنّه إفساد من جمهورهم بحيث تعدّ الأمّة كلّها مفسدة وإن كانت لا تخلو من صالحين.

{ **وَلَتَعْلُنَّ** } مجاز في الطغيان والعصيان كقوله تعالى { إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ } [القصص:4]. تشبيها للتكبّر والطغيان بالعلو على الشيء لامتلاكه، تشبيه معقول بمحسوس.

{ **فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ** }.

الوعد: مصدر بمعنى المفعول، أي: الموعود الذي هو أولى المرّتين من الإفساد والعلو.

{ **بَعَثْنَا** } البعث مستعمل في تكوين السير إلى أرض إسرائيل وتهيئة أسبابه حتّى كأنّ ذلك أمر بالمسير إليهم. كما مر في قوله تعالى { لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ } [الأعراف:167]، وهو بعث تكوين وتسخير لا بعث بوحي وأمر. وتعدية { بَعَثْنَا } بحرف الاستعلاء (على) لتضمينه معنى التسليط.

العباد: الأشوريون أهل بابل وهم جنود بختنصر.

{ **بَأْسٍ شَدِيدٍ** } الشوكة والشدّة في الحرب. ووصفه بالشديد لقوّته في نوعه كما في قوله تعالى { قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيد } [النمل:33].

{ **فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً** } عطف على { بَعَثْنَا } فهو من المقضي في الكتاب.

الجوس: التخلّل في البلاد وطرقها ذهابا وإيّابا لتتبع ما فيها. وأريد به هنا تتبع المقاتلة فهو جوس مضرّة وإساءة بقرينة السياق.

{ **خِلَال** } اسم جاء على وزن الجموع ولا مفردا له، وهو وسط الشيء الذي يتخلّل منه.

قال تعالى { فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ } [الروم:48].

{ **الدِيَار** } تعريف العهد، أي: دياركم، وذلك أصل جعل (ال) عوضا عن المضاف إليه. وهي ديار بلد أورشليم فقد دخلها جيش بختنصر وقتل الرجال وسبى، وهدم الديار، وأحرق المدينة وهيكل سليمان بالنار وأسر كلّ بني إسرائيل وبذلك خلت بلاد اليهود منهم.

ولفظ (الديار) يشمل هيكل سليمان لأنّه بيت عبادتهم.

{ **ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا** [6] **إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً** [7] **عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً** [8] }.

{ **ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا** }

عطف على { فَجَاسُوا } [5] ومن بقية المقضي في الكتاب، وهو ماضٍ لفظا مستقبل معنًى، لأنّ (إذا) ظرف لما يُستقبل. وجيء به في صيغة الماضي لتحقيق وقوع ذلك. و{ **ثُمَّ** } تفيد التراخي الرتبي والزمني معا.

الردّ: الإرجاع. وجيء بالفعل ماضيا جريا على الغالب في جواب (إذا) كما جاء شرطها فعلا ماضيا في قوله تعالى { فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا } [5]، أي: إذا يجيء يبعث.

الكرّة: الرجعة إلى المكان الذي ذهب منه.

{ **عَلَيْهِمْ** } ظرف مستقرّ هو حال من { الكَرَّةَ }، لأنّ رجوع بني إسرائيل إلى أورشليم كان بتغلّب ملك فارس على ملك بابل.

وذلك أنّ بني إسرائيل بعد أن قضوا نيفا وأربعين سنة في أسر البابليين وتابوا إلى الله وندموا على ما فرط

منهم سلّط الله ملوك فارس على ملوك بابل الأشوريين، فإنّ الملك **(كُورش)** ملك فارس حارب البابليين وهزمهم فضعف سلطانهم، ثمّ نزل بهم **(دَاريوس)** ملك فارس وفتح بابل سنة (538 ق م)، وأذن لليهود في سنة (530 ق م) أن يرجعوا إلى أورشليم ويجدّدوا دولتهم. وذلك نصر انتصروه على البابليين إذ كانوا أعوانا للفرس عليهم.

والوعد بهذا النصر ورد أيضا في كتاب أشعيا [الإصحاحات: 10/ 11 / 12]، وغيرها، وفي كتاب أرميا [الإصحاح: 28 /29].

{ **وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً** } هو من جملة المقضي الموعود به. ووقع في كتاب أرميا [الإصحاح:29]: " هكذا قال الربّ إله إسرائيل لكلّ الذي سبيته من أورشليم إلى بابل: ابنوا بيوتا واسكنوا، واغرسوا جنّات، وكلوا ثمرها، خذوا نساء ولدوا بنين وبنات، وأكثروا هناك ولا تقلّوا".

{ **نَفِيراً** } تمييز لـ { أَكْثَرَ } فهو تبيين لجهة الأكثرية. والنفير اسم جمع **للجماعة التي تنفر مع المرء** من قومه وعشيرته، ومنه قول أبي جهل: " لا في العير ولا في النفير".

أي: جعلناكم أكثر ممّا كنتم قبل الجلاء، وهو المناسب لمقام الامتنان. وقال جمع من المفسرين: أكثر نفيرا من أعدائكم الذين أخرجوكم من دياركم، أي: أفنى معظم البابليين في الحروب مع الفرس حتّى صار عدد بني إسرائيل في بلاد الأسر أكثر من عدد البابليين.

{ **إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا** } من جملة المقضي في الكتاب ممّا خوطب به بنو إسرائيل، وهو حكاية لما في كتاب أرميا [الإصحاح: 29]: " وصلّوا لأجلها إلى الربّ لأنّه بسلامها يكون لكم سلام ". وفي [الإصحاح:31]: " يقول الرب أزرع بيت إسرائيل وبيت يهوذا ويكون كما سهرت عليهم للاقتلاع والهدم والقرض والإهلاك، كذلك أسهر عليهم للبناء والغرس، في تلك الأيام لا يقولون: الآباء أكلوا حِصْرِما وأسنان الأبناء ضرست بل كلّ واحد يموت بذنبه كل إنسان يأكل الحِصْرِم تَضْرِس أسنانُه ".

{ **إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ** } أي: أنّنا نردّ لكم الكَرَّة لأجل التّوبة وتجدّد الجيل وقد أصبحتم في حالة نعمة، فإن أحسنتم كان جزاؤكم حسنا وإن أسأتم لأنفسكم، فكما أهلكنا من قبلكم بذنوبهم فقد أحسنّا إليكم بتوبتكم فاحذروا الإساءة كيلا تصيروا إلى مصير من قبلكم.

وإعادة فعل { أَحْسَنْتُمْ } تنويه، ومثله قوله تعالى { هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا } [القصص:63]. وأسلوب إعادة الفعل عند إرادة تعلّق شيء به أسلوب عربي فصيح **يُقصد به الاهتمام**. وقد تكرّر في القرآن، قال تعالى { وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ } [الشعراء:130]، وقال تعالى { وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً } [الفرقان:72].

{ **وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا** }، قوله تعالى { فَلَهَا } متعلّق بفعل محذوف بعد فاء الجواب، تقديره: أسأتم لها. وليس المجرور بظرف مستقر خبرا عن مبتدأ محذوف يدل عليه فعل { أَسَأْتُمْ } لأنّه لو كان كذلك لقال: فعليها، كقوله تعالى { مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا } [فصلت:46].

ووجه المخالفة بين أسلوب الآيتين أنّ آية فصلت ليس فيها تجريد، إذ التقدير فيها: فعمله لنفسه وإساءته عليها، فلمّا كان المقدّر اسما كان المجرور بعده مستقرا غير حرف تعدية.

وأمّا هذه آية فالفعلان { أَحْسَنْتُمْ / أَسَأْتُمْ } الواقعان في الجوابين مقتضيان التجريد فجاءا على أصل تعديتهما باللام لا لقصد نفع ولا ضر.

{ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً }.

إيجاز بديع قضاء لحق التقسيم الأوّل في قوله تعالى { فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا } [5]، ولِحَقّ إفادة ترتُّب مجيء وعد الآخرة على الإساءة، ولو عطف بالواو كما هو مقتضى ظاهر التقسيم إلى مرّتين فاتت إفادة الترتّب والتفرّع.

{ **الآخرة** } صفة لمحذوف دلّ عليه قوله تعالى { مَرَّتَيْنِ } [4]، أي: وعد المرة الآخرة. وهذا الكلام من بقية ما قضي في الكتاب بدليل تفريعه بالفاء. والآخرة: ضدّ الأولى.

{ **لِيَسُوءُوا / وَلِيَدْخُلُوا / وَلِيُتَبِّرُوا** } اللامات للتعليل وليست للأمر لاتفاق القراءات المشهورة على كسر اللامين الثاني والثالث. والتقدير: فإذا جاء وعد الآخرة بعثنا عبادا لنا ليسوءوا وجوهكم الخ.

سوء الوجوه: جَعْل المساءة عليها، أي: تسليط أسباب المساءة والكآبة عليكم حتّى تبدو على وجوهكم، لأنّ ما يُخالج الإنسان من غمّ وحزن أو فرح ومسرّة يظهر أثره على الوجه دون غيره من الجسد.

{ **وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ** } دخول غزو بقرينة التشبيه في قوله تعالى { كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ } المراد منه قوله تعالى { فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَار } [5].

التتبير: الإهلاك والإفساد.

{ **مَا عَلَوْا** } موصول هو مفعول (يتبّروا)، وعائد الصلة محذوف لأنّه متّصل منصوب، والتقدير: ما علوه، والعلو علو مجازي وهو الاستيلاء والغلب.

{ **عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ** } لم يعدهم الله في هذه المرة إلّا بتوقّع الرحمة دون ردّ الكرّة، فكان إيماء إلى أنّهم لا ملك لهم بعد هذه المرّة. وبهذا تبيّن أنّ المشار إليه بهذه المرّة الآخرة هو ما اقترفه اليهود من المفاسد والتمرّد وقتل الأنبياء والصالحين والاعتداء على عيسى وأتباعه، وقد أنذرهم النبيّ ملّاخي في كتابه [الإصحاحين:4/3]، وأنذرهم زكرياء ويحيى وعيسى [انجيل مرقس، الإصحاح:3]، فلم يرعووا فضربهم الله الضربة القاضية بيد الرومان.

وبيان ذلك: أنّ اليهود بعد أن عادوا إلى أورشليم وجدّدوا ملكهم ومسجدهم في زمن (داريوس) وأطلق لهم التصرّف في بلادهم التي غلبهم عليها البابليون، وكانوا تحت نفوذ مملكة فارس، فمكثوا على ذلك مائتي سنة (من 530 إلى 330 ق م)، ثم أخذ ملكهم في الانحلال بهجوم البطالسة ملوك مصر على أورشليم فصاروا تحت سلطانهم إلى (سنة 166 ق م) إذ قام قائد من إسرائيل اسمه (**ميثيا**) وكان من اللاويين فانتصر لليهود وتولّى الأمر عليهم وتسلسل الملك بعده في أبنائه في زمن مليءٍ بالفتن إلى سنة (40 ق م).

دخلت المملكة بعد ذلك تحت نفوذ الرومانيين وأقاموا عليها أمراء من اليهود كان أشهرهم (**هيرودس**) ثمّ تمرّدوا للخروج على الرومانيين فأرسل قيصر رومية القائد (**سيسيانوس**) مع ابنه القائد (**طيطوس**) بالجيوش في حدود سنة (40 م) فخُرّبت أورشليم واحترق المسجد، وأسر(**طيطوس**) نيفا وتسعين ألفا من اليهود، وقتل من اليهود في تلك الحروب نحو ألف ألف، ثم استعادوا المدينة وبقي منهم شرذمة قليلة بها إلى أن وافاهم الأمبراطور الروماني (**أدريانوس**) فهدمها وخرّبها ورمى قناطير الملح على أرضها كيلا تعود صالحة للزراعة، وذلك سنة (135م). وبذلك انتهى أمر اليهود وانقرض، وتفرّقوا في الأرض ولم

تخرج أورشليم من حكم الرومان إلّا حين فتحها المسلمون في زمن عمر بن الخطاب (16 هـ) صلحا مع أهلها وهي تُسمّى يومئذ (**أيلياء**).

{ **وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا** } يجوز أن تكون الواو عاطفة على جملة { عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ } عطف الترهيب على الترغيب. ويجوز أن تكون معترضة. والمعنى: بعد أن يرحمكم ربكم ويؤمّنكم في البلاد التي تلجأون إليها إن عدتم إلى الإفساد عدنا إلى عقابكم، أي: عدنا لمثل ما تقدّم من عقاب الدنيا.

{ **وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً** } عطف على { عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ } لإفادة أنّ ما ذُكر قبله من عقاب إنّما هو عقاب دنيوي وأنّ وراءه عقاب الآخرة.

{ **لِلْكَافِرِين** } يعمّ المخاطبين وغيرهم، وفيه معنى التذييل. ويومئ هذا إلى أنّ عقابهم في الدنيا ليس مقصورا على ذنوب الكفر بل هو منوط بالإفساد في الأرض وتعدّي حدود الشريعة. وأمّا الكفر بتكذيب الرّسل فقد حصل في المرة الآخرة فإنّهم كذّبوا عيسى، وأمّا في المرة الأولى فلم تأتهم رسل ولكنهم قتلوا الأنبياء مثل أشعياء، وأرمياء، وقتْل الأنبياء كفر.

الحصير: المكان الذي يُحصر فيه، فلا يستطاع الخروج منه.

{ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً [9] وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً [10] }.

استئناف ابتدائي عاد به الكلام إلى الغرض الأهم من هذه السورة وهو تأييد النبيّ صلى الله عليه وسلم بالآيات والمعجزات، وإيتاؤه الآيات التي أعظمها آية القرآن. وأُعقِب ذلك بذكر ما أنزل على بني إسرائيل من الكتب للهُدى والتحذير، وما نالهم من جزاء مخالفتهم ما أمرهم الله به، ومن عدولهم عن سنن أسلافهم من عهد نوح. وفي ذلك فائدة التحذير من وقوع المسلمين فيما وقع فيه بنو إسرائيل، وهي الفائدة العظمى من ذكر قصص القرآن، وهي فائدة التاريخ.

{ **إِنَّ** } تأكيد الجملة مراعى فيه حال بعض المخاطبين وهم الذين لم يذعنوا إليه، وحال المؤمنين من الاهتمام بهذا الخبر، فالتوكيد مستعمل في معنييه دفع الإنكار والاهتمام، ولا تعارض بين الاعتبارين.

{ **هذا القرآن** } إشارة إلى الحاضر في أذهان النّاس من المقدار المنزّل من القرآن قبل هذه الآية. وبُيّنت الإشارة بالاسم الواقع بعدها تنويها بشأن القرآن.

وقد جاءت هذه الآية تنفيسا على المؤمنين من أثر القصص المهولة التي قُصّت عن بني إسرائيل وما حلّ بهم من البلاء ممّا يثير في نفوس المسلمين الخشية من أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك، فأُخبروا بأنّ في القرآن ما يعصمهم عن الوقوع فيما وقع فيه بنو إسرائيل إذ هو يهدي للطريق التي هي أقوم ممّا سلكه بنو إسرائيل، ولذلك ذُكر مع الهداية بشارة المؤمنين الذين يعملون الصالحات، ونذارة الذين لا يؤمنون بالآخرة. وتلك عادة القرآن في تعقيب الرهبة بالرغبة وعكسه.

{ **لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ** } صفة لمحذوف دلّ عليه { يَهْدِي }، أي: للطريق التي هي أقوم، لأنّ الهداية من ملازمات السير والطريق، أو للملّة الأقوم.

الأقوم: تفضيل القَويم. والمعنى: أنّه يهدي للتي هي أقوم من هُدى كتاب بني إسرائيل الذي في قوله تعالى { وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائيلَ } [2]، ففيه إيماء إلى ضمان سلامة أمّة القرآن من الحَيْدة عن الطريق الأقوم، لأنّ القرآن جاء بأسلوب من الإرشاد قويم ذي أفنان لا يحول دونه ودون الولوج إلى العقول حائل، ولا يغادر مسلكا إلى ناحية من نواحي الأخلاق والطبائع إلّا سلكه إليها تحريضا أو تحذيرا، بحيث لا يعدم المتدبّر في معانيه اجتناء ثمار أفنانه، وبتلك الأساليب التي لم تبلغها الكتب السابقة كانت الطريقة التي يهدي إلى سلوكها أقوم من الطرائق الأخرى، وإن كانت الغاية المقصود الوصول إليها واحدة.

{ **أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً** } فُسّر الأجر الكبير بالجنّة، والعذاب الأليم بجهنّم، والأظهر أن يُحمل على عموم الأجر والعذاب، فيشمل أجر الدنيا وعذابها، وهو المناسب لما تقدّم من سعادة عيش بني إسرائيل وشقائه، فجُعل اختلاف الحالين فيهما موعظة لحالي المسلمين والمشركين.

{ **وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً** } المراد بهم مشركو قريش وهم أعداء المؤمنين، فلا جرم أنّ عذاب العدو بشارة لمن عاداه.

والاقتصار على هذين الفريقين هو مقتضى المقام لمناسبة تكذيب المشركين بالإسراء فلا غرض في الإعلام بحال أهل الكتاب.

{ وَيَدْعُ الْأِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْأِنْسَانُ عَجُولاً } [11].

موقع هذه الآية هنا غامض، وانتزاع المعنى من نظمها وألفاظها أيضا، ولم يأت فيها المفسّرون بما ينثلج له الصدر، والذي يظهر لي أنّ الآية التي قبلها لمّا اشتملت على بشارة وإنذار وكان المنذَرون إذا سمعوا الوعيد والإنذار يستهزئون به { وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [يس:48]، عُطف هذا الكلام على ما سبق تنبيها على أنّ لذلك الوعد أجلا مسمّى.

{ **وَيَدْعُ الْأِنْسَانُ** } المراد به الذي لا يؤمن بالآخرة كما في سورة مريم { وَيَقُولُ الْأِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً [66] أَوَلا يَذْكُرُ الْأِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً [67] }.

وإطلاق الإنسان على الكافر كثير في القرآن. وفعل (يدعو) مستعمل في معنى يطلب ويبتغي.

وكتب في المصحف { يَدْعُ } بدون واو بعد العين إجراء لرسم الكلمة على حالة النطق بها في الوصل.

{ **دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ** } مصدر يفيد تشبيها، أي: يستعجل الشرّ كاستعجاله الخير، يعني: يستبطئ حلول الوعيد كما يستبطئ أحد تأخّر خير وُعد به.

{ **وَكَانَ الْأِنْسَانُ عَجُولا** } تذييل، فالإنسان هنا مراد به الجنس لأنّه المناسب للتذييل، أي: وما هؤلاء الكافرون الذين لا يؤمنون بالآخرة إلّا من نوع الإنسان، وفيه الاستعجال، كقوله تعالى { وَكَانَ الْأِنْسَانُ

أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً } [الكهف:54]. وهو كناية عن عدم تبصّره، وأن الله أعلم بمقتضى الحكمة في توقيت الأشياء، قال تعالى { وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ } [يونس:11]، ولكنه درّج لهم وصول الخير والشرّ لطفا بهم في الحالين.

عجول: صيغة مبالغة في عاجل، يقال: عجِل فهو عاجل وعجول.

{ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً } [12].

عطف على { وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ } [11]. والمناسبة أنّ السابقة تتضمّن أنّ تأخير الوعد لا يرفعه، وأنّ الاستعجال لا يجدي صاحبه لأنّ لكلّ شيء أجلا، ولمّا كان الأجل عبارة عن أزمان كان مشتملا على ليل ونهار متقضِّيَيْن.

فلمّا أريد التنبيه على ذلك أُدمج فيه ما هو أهم في العبرة بالزمنين وهو كونهما آيتين على وجود الصانع وعظيم القدرة، وكونهما منّتين على النّاس، وكون النّاس ربما كرهوا الليل لظلمته، واستعجلوا انقضاءه بطلوع الصباح. ثم بزيادة العبرة في أنّهما ضدّان، وفي كلّ منهما آثار النعمة المختلفة وهي نعمة السير في النهار. واكتُفي بعدِّها عن عدّ نعمة السكون في الليل لظهور ذلك بالمقابلة، وبتلك المقابلة حصلت نعمة العلم بعدد السنين والحساب، لأنّه لو كان الزمن كلّه ظلمة أو كلّه نورا لم يحصل التمييز بين أجزائه.

وفي هذا بعد ذلك كله إيماء إلى ضرب مثل للكفر والأيمان، وللضلال والهدى، ولذلك عُقّب بقوله تعالى بعده { مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ } [15].

وكل هذا الإدماج تزويد للآية بوافر المعاني شأن بلاغه القرآن وإيجازه.

{ آيَةَ اللَّيْلِ / آيَةَ النَّهَارِ } إضافة آية إلى الليل وإلى النهار يجوز أن تكون بيانيّة، أي: الآية التي هي الليل، والآية التي هي النهار.

ويجوز أن تكون آية الليل الآية الملازمة له وهي القمر، وآية النهار الشمس. ويكون معنى المحو: أنّ القمر مطموس لا نور في جرمه ولكنّه يكتسب الإنارة بانعكاس شعاع الشمس. ومعنى كون آية النهار مبصرة: أنّ الشمس جُعل ضوءها سبب إبصار النّاس الأشياء.

وهذا أدقّ معنى وأعمق في إعجاز القرآن بلاغة وعلما، فإنّ هذه حقيقة من علم الهيئة. وما أعيد لفظ (آية) إلّا لأجلها.

المحو: الطمس. وأطلق على انعدام النور، لأنّ النور يُظهر الأشياء والظلمة لا تظهر فيها الأشياء، فشُبّه اختفاء الأشياء بالمحو.

{ لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ } علّة لخصوص آية النهار. وجاء التعليل لحكمة آية النهار خاصة دون ما

يقابلها من حكمة الليل لأنّ المنّة بها أوضح، ولأنّ من التنبيه إليها يحصل التنبّه إلى ضدّها وهو حكمة السكون في الليل، كما قال تعالى { لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً } [يونس:67].

{ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ } ثم ذُكرت حكمة أخرى حاصلة من كلتا الآيتين وهي حكمة حساب السنين، وهي في آية الليل أظهر، لأنّ جمهور البشر يضبط الشهور والسنين بالليالي، أي: حساب القمر.

{ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً } تذييل، باعتبار ما سبق له من الإشارة إلى أنّ للشرّ والخير الموعود بهما أجلا ينتهيان إليه. والمعنى: أنّ ذلك الأجل محدود في علم الله تعالى لا يعدوه، فلا يقرّبه استعجال ولا يؤخّره استبطاء لأنّ الله قد جعل لكلّ شيء قدرا لا إبهام فيه ولا شكّ عنده.

التفصيل: التبيين والتمييز. وهو مشتقّ من الفصل بمعنى القطع، لأنّ التبيين يقتضي عدم التباس الشيء بغيره. وقد تقدّم في قوله تعالى { كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ } [هود:1].

والتفصيل في الأشياء يكون في خلقها، ونظامها، وعلم الله بها، وإعلامه بها. فالتفصيل الذي في علم الله وفي خلقه ونواميس العوالم عام لكلّ شيء وهو مقتضى العموم هنا. وأمّا ما فصّله الله للنّاس من الأحكام والأخبار فذلك بعض الأشياء، ومنه قوله تعالى { يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ } [الرعد:2]، وقوله تعالى { قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } [الأنعام:97]. وذلك بالتبليغ على ألسنة الرّسل، وبما خلق في النّاس من إدراك العقول. ومن جملة ما فصّله للنّاس الإرشاد إلى التوحيد وصالح الأعمال والإنذار على العصيان. وفي هذا تعريض بالتهديد.

{ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً [13] اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً } [14] }.

لمّا كان سياق الكلام جاريا في طريق الترغيب في العمل الصالح والتحذير من الكفر والسيّئات ابتداء من قوله تعالى { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ - إلى قوله - عَذَاباً أَلِيماً } [10/9]، وما عقبه ممّا يتعلّق بالبشارة والنذارة، وما أدمج في خلال ذلك من التذكير، ثم بما دلّ على أنّ علم الله محيط بكلّ شيء تفصيلا، وكان أهمّ الأشياء في هذا المقام إحاطة علمه بالأعمال كلّها، فأُعقِب ذكر ما فصّله الله من الأشياء بالتنبيه على تفصيل أعمال النّاس تفصيلا لا يقبل الشكّ ولا الإخفاء، وهو التفصيل المشابه للتقييد بالكتابة.

{ وَكُلَّ إِنْسَانٍ } عطف على قوله تعالى { وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً } [12] عطف خاص على عام للاهتمام بهذا الخاص. والمعنى: وكلّ إنسان قدّرنا له عمله في علمنا فهو عامل به لا محالة، وهذا من أحوال الدنيا.

الطائر: أطلق على السهم، أو القرطاس الذي يُعيّن فيه صاحب الحظّ في عطاء أو قرعة لقسمة أو أعشار جزور المَيْسِر، يقال: اقتسموا الأرض فطار لفلان كذا، ومنه قول أم العلاء الأنصارية في حديث الهجرة:

" أقتسم الأنصار المهاجرين فطار لنا عثمان بن مظعون... "، وذكرت قصّة وفات.

وأصل إطلاق الطائر على هذا؛ إمّا لأنّهم كانوا يرمون السهام المرقومة بأسماء المتقاسمين على صُبر الشيء المقسوم المعدّة للتوزيع. فكلّ من وقع السهم المرقوم باسمه على شيء أخذه. وكانوا يطلقون على رمي السهم فعل الطيران لأنّهم يجعلون للسهم ريشا في قُذذه ليخف به اختراقه الهواء عند رميه من القوس. فالطائر هنا أطلق على الحظّ من العمل مثل ما يطلق اسم السهم على حظ الإنسان من شيء ما.

وإمّا من زجر الطير لمعرفة بخت أو شؤم الزاجر من حالة الطير التي تعترضه في طريقه، والأكثر أن يفعلوا ذلك في أسفارهم، وشاع ذلك في الكلام فأطلق الطائر على حظ الإنسان من خير أو شرّ.

الإلزام: جعله لازما له، أي: غير مفارق، يقال: لزمه إذا لم يفارقه.

{ **فِي عُنُقِهِ** } يجوز أن يكون كناية عن الملازمة والقرب، أي: عمله لازم له لزوم القلادة. ومنه قول العرب تقلّدها طوق الحمامة، فلذلك خُصّت بالعنق، لأنّ القلادة توضع في عنق المرأة.

ويحتمل أن يكون تمثيلا لحالة لعلّها كانت معروفة عند العرب وهي وضع علامات تعلّق في الرقاب للذين يعيّنون لعمل ما أو ليؤخذ منهم شيء. ويجوز أن يكون تمثيلا بالبعير الذي يُوسم في عنقه بسمْةٍ كيلا يختلط بغيره، أو الذي يوضع في عنقه جُلجل لكيلا يضلّ عن صاحبه.

والمعنى على الجميع: أنّ كلّ إنسان يعامل بعمله من خيرّ أو شر لا يُنقص له منه شيء.

{ **وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً** } إخبار عن كون تلك الأعمال المعبَّر عنها بالطائر تظهر يوم القيامة مفصَّلة معيَّنة لا تُغادَر منها صغيرةٌ ولا كبيرةٌ إلّا أُحصيت للجزاء عليها.

الكتاب: ما فيه ذكر الأعمال وإحصاؤها.

{ **يَلْقَاهُ مَنْشُوراً** } النشر ضدّ الطيّ. ومعنى { يَلْقَاهُ } يجده. وهو كناية عن سرعة اطلاعه على جميع ما عمله، بحيث إنّ الكتاب يحضر من قبل وصول صاحبه مفتوحا للمطالعة.

نشر الكتاب: إظهاره ليُقرأ، قال تعالى { وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ } [التكوير:10].

{ **اقْرَأْ كِتَابَكَ** } مقول قول محذوف دل عليه السياق. والأمر مستعمل في التسخير ومُكنّى به عن الإعذار لهم والاحتجاج عليهم كما دلّ عليه قوله تعالى { كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً }، ولذلك كان معرفة تلك الأعمال من ذلك الكتاب حاصلة للقارئ.

القراءة: مستعملة في معرفة ما أُثبِت للإنسان من الأعمال، أو في فهم النقوش المخصوصة إن كانت هنالك نقوش وهي خوارق عادات.

{ **بِنَفْسِكَ** } الباء مزيدة للتأكيد، كما في قوله تعالى { وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً } [النساء:79].

{ **حَسِيباً** } انتصب على التمييز لنسبة الكفاية إلى النفس. والحسيب: فعيل بمعنى فاعل أي الحاسب والضابط. وكثر ورود التمييز بعد (كفى بكذا) وعُدّي بـ (على) لتضمينه معنى الشهيد. وما صدق النفس هو الإنسان في قوله تعالى { وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ } فلذلك جاء { حَسِيباً } بصيغة التذكير.

{ مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتّى نَبْعَثَ رَسُولاً } [15].

هذه الجملة بيان أو بدل اشتمال من جملة { وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ } [13] مع توابعها. وفيه تبيين اختلاف الطائر بين نافع وضار، فطائر الهداية نفع لصاحبه وطائر الضلال ضرّ لصاحبه. ولكون الجملة كذلك فصلت ولم تعطف على التي قبلها.

{ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } واقعة موقع التعليل لمضمون { وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا } لما في هذه من عموم الحكم، فإنّ عمل أحد لا يلحق نفعه ولا ضرّه بغيره.

وفي الجملة إبطال أوهام قوم يظنّون أنّ أوزارهم يحملها عنهم غيرهم. وقد روي أنّ الوليد بن المغيرة وهو من أئمة الكفر كان يقول لقريش: " اكفروا بمحمد وعليّ أوزاركم". ولعلّه قال ذلك لما رأى تردّدهم في أمر الإسلام وميلهم إلى النظر في أدلّة القرآن خشية الجزاء يوم البعث، فأراد التمويه عليهم بأنّه يتحمّل ذنوبهم إن تبين أنّ محمدا على حق، وقد يروج على دهمائهم لأنّهم اعتادوا بالحملات والكفالات والرهائن، فبيّن الله للنّاس إبطال ذلك إنقاذا لهم من الاغترار بالذي يهوي بهم إلى المهالك، مع ما في هذا البيان من تعليم أصل عظيم في الدين وهو { وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى }. فكانت هذه الآية أصلا عظيما في الشريعة، وتفرَّع عنها أحكام كثيرة.

ولمّا روى ابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّ الميت ليعذب ببكاء أهله عليه قالت عائشة رضي الله عنها: " يرحم الله أبا عبد الرحمان، ما قال رسول الله ذلك والله يقول {وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} ". وسكتت الآية عن أن لا ينتفع أحد بصالح عمل غيره اكتفاء إذ لا داعي إلى بيانه لأنّه لا يوقع في غرور، وتُعلم المساواة بطريق لحن الخطاب أو فحواه.

وقد جاء في القرآن ما يومي إلى أنّ المتسبِّب لأحد في هدي ينال من ثواب المهتدي قال تعالى { وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً } [الفرقان:74]، وفي الحديث: " **إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلّا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم بثّه في صدور الرجال، وولد صالح يدعو له بخير** " [مسلم].

ومن التخليط توهّم أنّ حمل الديّة في قتل الخطأ على العاقلة مناف لهذه الآية، فإنّ ذلك فرع قاعدة أخرى وهي قاعدة التعاون والمواساة وليست من حمل التبعات.

{ تَزِرُ } تحمل الوزر، وهو الثقل. و**الوازرة**: الحاملة، وتأنيثها باعتبار أنّها نفس لقوله تعالى قبله { يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ }.

الوزر: الإثم لتشبيهه بالحمل الثقيل لما يجرّه من التعب لصاحبه في الآخرة، كما أطلق عليه الثقل، قال تعالى { وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ } [العنكبوت:13].

{ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتّى نَبْعَثَ رَسُولاً } وهذا استقصاء في الإعذار لأهل الضلال، زيادة على نفي مؤاخذتهم بأجرام غيرهم، ولهذا اقتصر على { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ } دون أن يقال: ولا مثيبين. لأنّ المقام

مقام إعذار وقطع حجّة وليس مقام امتنان بالإرشاد.

والعذاب هنا عذاب الدنيا بقرينة السياق وقرينة ما بعده. ودلّت على ذلك آيات كثيرة، كقوله تعالى { وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ } [الشعراء:209].

{ **حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً** } يؤذن بأنّ بعثة الرسول متّصلة بالعذاب شأن الغاية، وهذا اتصال عرفي بحسب ما تقتضيه البعثة من مدّة للتبليغ والاستمرار على تكذيبهم الرّسول والإمهال للمكذِّبين، ولذلك يظهر أن يكون العذاب هنا عذاب الدنيا كما يقتضيه الانتقال إلى الآية بعدها.

على أنّنا إذا اعتبرنا التوسّع في الغاية صحّ حمل التعذيب على ما يعمّ عذاب الدنيا والآخرة.

ودلّت الآية على أنّ الله لا يؤاخذ النّاس إلّا بعد أن يرشدهم، رحمة منه لهم. وهي دليل بيّن على انتفاء مؤاخذة أحد ما لم تبلغه دعوة رسول من الله إلى قومه، فهي حجة للأشعري ناهضة على الماتريدي والمعتزلة الذين اتفقوا على إيصال العقل إلى معرفة وجود الله. فوجود الله وتوحيده عندهم واجبان بالعقل فلا عذر لمن أشرك بالله وعطّل.

وتأويل المعتزلة أن يراد بالرسول العقل تطوُّحٌ عن استعمال اللغة وإغماضٌ عن كونه مفعولا لفعل {نَبْعَثُ} إذ لا يقال بعث عقلا بمعنى جعل. وقد تقدّم ذلك في تفسير قوله تعالى { لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ } [النساء:165].

{ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً } [16].

هذا تفصيل للحكم المتقدّم قُصد به تهديد قادة المشركين وتحميلهم تبعة ضلال الذين أضلّوهم. وهو تفريع لتبيين أسباب حلول التعذيب بعد بعثة الرّسول أُدمج فيه تهديد المضلّين. فكان مقتضى الظاهر أن يعطف بالفاء على قوله تعالى { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتّى نَبْعَثَ رَسُولاً } [15]، ولكنّه عُطف بالواو للتنبيه على أنّه خبر مقصود لذاته باعتبار ما يتضمّنه من التحذير من الوقوع في مثل الحالة الموصوفة.

فهذه الآية تهديد للمشركين من أهل مكة وتعليم للمسلمين.

المعنى: أنّ بعثة الرسول تتضمّن أمرا بشرع، وأنّ سبب إهلاك المرسَل إليهم بعد أن يُبعث إليهم الرسول هو عدم امتثالهم لما يأمرهم الله به على لسان ذلك الرسول.

{ **وَإِذَا أَرَدْنَا** } معنى إرادة الله إهلاك قرية التعلّق التنجيزي لإرادته. وتلك الإرادة تتوجّه إلى المراد عند حصول أسبابه { فَفَسَقُوا فِيهَا }.

{ **أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا** } المتعلّق محذوف، أي: أمرناهم بما نأمرهم على لسان رسولهم فعصوا الرّسول وفسقوا في قريتهم.

واعلم أنّ تصدير هذه الجملة بـ (إذا) أوجب استغلاق المعنى في الربط بين جملة شرط (إذا) وجملة

جوابه، لأنّ شأن (إذا) أن تكون ظرفا للمستقبل وتتضمّن معنى الشرط، أي: الربط بين جملتيها. فيقتضي ذلك أنّ إرادة الله تتعلق بإهلاك القرية ابتداء، فيأمر الله مترفي أهل القرية فيفسقوا فيها فيحقّ عليها القول الذي هو مظهر إرادة الله إهلاكهم، مع أنّ مجرى العقل يقتضي أن يكون فسوق أهل القرية وكفرهم هو سبب وقوع إرادة الله إهلاكهم، وأنّ الله لا تتعلّق إرادته بإهلاك قوم إلّا بعد أن يصدر منهم ما توعّدهم عليه لا العكس. وليس من شأن الله أن يريد إهلاكهم قبل أن يأتوا بما يسبّبه، ولا من الحكمة أن يسوقهم إلى ما يفضي إلى مؤاخذتهم ليحقّق سببا لإهلاكهم.

فيكون أصل نظم الكلام هكذا: وما كنا معذّبين حتّى نبعث رسولا ونأمر مترفي قرية بما نأمرهم به على لسان الرسول فيفسقوا عن أمرنا فيحقّ عليهم الوعيد فنهلكهم إذا أردنا إهلاكهم. وقرينة السياق واضحة في هذا، فبنا أن نجعل الواو عاطفة فعل { أمرنا مترفيها } على { نَبْعَثَ رَسُولاً }، فإن الأفعال يعطف بعضها على بعض سواء أتحدت في اللوازم أم اختلفت.

وإنّما عُدل عن نظم الكلام بهذا الأسلوب إلى الأسلوب الذي جاءت به الآية لإدماج التعريض بتهديد أهل مكة بأنّهم معرَّضون لمثل هذا ممّا حلّ بأهل القرى التي كذّبت رسل الله.

وللمفسّرين طرائق كثيرة تزيد على ثمانٍ لتأويل هذه الآية متعسّفة أو مدخولة، وهي متفاوتة.

المُتْرَف: اسم مفعول من أترفه إذا أعطاه التُّرْفة (بضم التاء وسكون الراء)، أي: النعمة. والمترفون هم أهل النعمة وسعة العيش، وهم معظم أهل الشرك بمكّة. وكان معظم المؤمنين يومئذ ضعفاء، قال تعالى { وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً } [المزمل:11].

وتعليق الأمر بخصوص المترفين مع أنّ الرسل يخاطبون جميع النّاس، لأنّ عصيانهم الأمر الموجّه إليهم هو سبب فسقهم وفسق بقية قومهم، إذ هم قادة العامة وزعماء الكفر، فالخطاب في الأكثر يتوجّه إليهم، فإذا فسقوا عن الأمر اتّبعهم الدهماء فعم الفسق أو غلب على القرية فاستحقت الهلاك.

الفسق: الخروج عن المقر وعن الطريق. والمراد به في اصطلاح القرآن الخروج عمّا أمر الله به، وتقدّم عند قوله تعالى { وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلّا الْفَاسِقِينَ } [البقرة:26].

{ **الْقَوْلُ** } هو ما يبلّغه الله إلى النّاس من كلام بواسطة الرسل، وهو قول الوعيد كما قال تعالى { فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ } [الصافات:31].

التدمير: هدم البناء وإزالة أثره، وهو مستعار هنا للاستئصال إذ المقصود إهلاك أهلها ولو مع بقاء بنائهم. وتقدّم التدمير عند قوله تعالى { وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَومَهُ } [الأعراف:137].

{ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً } [17].

ضرب مثال لإهلاك القرى الذي وُصف سببه وكيفيّتة في الآية السابقة، لأنّه أشدّ في الكشف وأدخل في التحذير المقصود. وفي ذلك تحقيق لكون حلول العذاب بالقرى مقدّما بإرسال الرسول إلى أهل القرية، ثم

بتوجيه الأوامر إلى المترَفين ثم فسقهم عنها. وكان زعماء الكفرة من قوم نوح مترفين وهم الذين قالوا { وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ } [هود:27].

فكان مقتضى الظاهر عطف هذه الجملة بالفاء لأنّها كالفرع على الجملة قبلها ولكنّها عطفت بالواو إظهارا لاستقلالها بوقع التحذير من جهة أخرى، فكان ذلك تخريجا على خلاف مقتضى الظاهر لهذا الاعتبار.

{ **وَكَمْ** } في الأصل استفهام عن العدد، وتستعمل خبريّة دالة على عدد كثير مبهم النوع، فلذلك تحتاج إلى تمييز لنوع العدد. و{ **مِنَ الْقُرُونِ** } تمييز للإبهام الذي اقتضته { كَمْ }.

القرون: جمع قرن، وهو في الأصل المدّة الطويلة من الزمن فقد يقدّر بمائة سنة وبأربعين سنة، ويطلق على النّاس الذين يكونون في تلك المدّة كما هنا، وفي الحديث: **" خير القرون قرني ثم الذين يلونهم "** ، أي: أهل القرن الذي أنا فيه. قال الله تعالى { وَعَاداً وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً } [الفرقان:38].

{ **مِنْ بَعْدِ نُوحٍ** } إيجاز، كأنّه قيل: من قوم نوح فمن بعدهم، وقد جُعل زمن نوح مبدأ لقصص الأمم لأنّه أوّل رسول، واعتُبر القصص من بعده لأنّ زمن نوح صار كالمنقطع بسبب تجديد عمران الأرض بعد الطوفان، ولأنّ العذاب الذي حل بقومه عذاب مهول وهو الغرق الذي أحاط بالعالم.

ووجه ذكره تذكير المشركين به، وأنّ عذاب الله لا حدّ له، والتنبيه على أنّ الضلالة تحول دون الاعتبار بالعواقب ودون الاتعاظ بما يحل بمن سبق.

والآية إقبال على خطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم بالخصوص، لأنّ كلّ ما سبق من الوعيد والتهديد إنّما مآله إلى حمل النّاس على تصديق محمد صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من القرآن بعد أن لجّوا في الكفر وتفنّنوا في التكذيب، فلا جرم خُتم ذلك بتطمين النبيّ بأنّ الله مطّلع على ذنوب القوم. وهو تعريض بأنّه مجازيهم بذنبوهم بما يناسب فظاعتها، ولذلك جاء بفعل { كَفَى } وبوصفي {خَبِيراً بَصِيراً } المُكنّى بذكرهما عن عدم إفلات شيء من ذنوبهم المرئية والمعلومة من ضمائرهم، أعني: أعمالهم ونواياهم.

وقُدّم ما هو متعلّق بالضمائر والنوايا لأنّ العقائد أصل الأعمال في الفساد والصلاح. وفي الحديث: **" ألا وإنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّه وإذا فسدت فسد الجسد كلّه ألا وهي القلب "** [متفق عليه].

{ **وَكَفَى بِرَبِّكَ** } إيماء إلى أنّ النبيّ غير محتاج إلى من ينتصر له غير ربّه فهو كافية وحسبه. قال تعالى { فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [البقرة:137].

أو إلى أنّه في غنية عن الهمّ في شأنهم كقوله تعالى لنوح { فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ } [هود:46].

فهذا إمّا تسلية له عن أذاهم، وإمّا صرف له عن التوجّع لهم.

وفي الخطاب تعريض بالوعيد لسامعيه من الكفار.

{ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً [18] وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً [19] }.

بيان لجملة { مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ } [15]، وهو راجع أيضا إلى جملة { وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ } [13] تدريجا في التبيان للنّاس بأنّ أعمالهم من كسبهم واختيارهم؛

فابتدئوا بأنّ الله قد ألزمهم تبعة أعمالهم بقوله تعالى { وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ }.

ثم وكّل أمرهم إليهم، وأنّ المسيء لا يضرّ بإساءته غيره ولا يحملها عنه غيره فقال تعالى { مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ } [15].

ثم أعذر إليهم بأنّه لا يأخذهم على غرّة ولا يأخذهم إلّا بسوء أعمالهم بقوله تعالى { وما كنا معذبين - إلى قوله - خَبِيراً بَصِيراً } [15-17].

ثم كشف لهم مقاصدهم من أعمالهم، وأنّهم قسمان:

قسم لم يُرد إلّا الدنيا فكانت أعماله لمرضاة شهواته معتقدا أنّ الدنيا هي قصارى مراتع النفوس لا حظ لها إلّا ما حصل لها في مدّة الحياة، لأنّه لا يؤمن بالبعث فيقصر عمله على ذلك.

وقسم علم أنّ الفوز الحقّ هو في الآخرة فعمل لها مقتفيا ما هداه الله إليه من الأعمال بواسطة رسله.

وأنّ الله عامل كل فريق بمقدار همّته.

{ **مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ** } أي: الدنيا بقرينة مقابلته بقوله تعالى { وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ } لأنّ هذه المقابلة تقوم مقام الحصر الإضافي، إذ ليس الحصر الإضافي سوى جملتين لإثبات الشيء ونفي لخلافه.

كقوله تعالى { مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا } [هود:15].

والمراد من التعجيل أن يعطى ذلك في الدنيا قبل الآخرة، وقرينة ذلك قوله { فِيهَا } .

{ **مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ** } لأنّ ما يُعطاه من أرادوا العاجلة يُعطاه بعضهم بالمقادير التي شاء الله إعطاءها.

المشيئة: الطواعية وانتفاء الإكراه.

الإرادة: مرادف المشيئة، فالتعبير بها بعد قوله تعالى { ما نشاء } تفنّن.

المعنى: أنّ هذا الفريق الذي يريد الحياة الدنيا فقط قد نعطي بعضهم بعض ما يريد على حسب مشيئتنا وإرادتنا لأسباب مختلفة. ولا يخلو أحد في الدنيا من أن يكون قد عُجّل له بعض ما يرغبه من لذات الدنيا.

{ **ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً** } (ثمّ) لإفادة التراخي الرتبي.

{ **يَصْلاهَا** } يقال: صلى النّار إذا أصابه حرقها.

الذم: الوصف بالمعائب التي في الموصوف.

المدحور: المطرود. يقال: دحره، والمصدر: الدحور، وتقدّم عند قوله تعالى { قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَدْحُورا } [الأعراف:18].

{ **وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا** } الاختلاف بين جملة { مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ } وهذه الجملة بجعل الفعل مضارعا في الأولى للإيماء إلى أنّ إرادة النّاس العاجلة متكرّرة متجدّدة. وفيه تنبيه على أنّ أمور العاجلة متقضية زائلة. وجعل فعل إرادة الآخرة ماضيا لدلالة الماضي على الرسوخ، تنبيها على أنّ خير الآخرة أولى بالإرادة.

{ **وَسَعَى** } حقيقته المشي دون العدو، فسعي الآخرة هو الأعمال الصالحة لأنّها سبب الحصول على نعيم الآخرة، فالعامل للصالحات كأنّه يسير سيرا سريعا إلى الآخرة ليصل إلى مرغوبه منها. وإضافته إلى ضمير الآخرة من إضافة المصدر إلى مفعوله في المعنى، وهو مفعول مطلق لبيان النوع.

وفي الآية تنبيه على أنّ إرادة خير الآخرة من غير سعي غرور وأنّ إرادة كل شيء لا بد لنجاحها من السعي في أسباب حصوله. قال عبد الله بن المبارك:

ترجو النجاة ولم تسلتك مسالكها ... إنّ السفينة لا تجري على اليبس

{ **وَهُوَ مُؤْمِنٌ** } حال من ضمير { وَسَعَى } وجيء بالجملة الإسميّة لدلالتها على الثبات والدوام، أي: وقد كان راسخ الإيمان، وهو في معنى قوله تعالى { ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا } [البلد:17].

{ **فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً** } اسم الإشارة للتنبيه على أنّ المشار إليهم جديرون بما سيُخبر به عنهم لأجل ما وصفوا به قبل ذكر اسم الإشارة.

والسعي المشكور هو المشكور ساعيه، فوصفه به مجاز عقلي. وهو أبلغ في الإخبار عن عامله بأنّه مرضي عنه، لأنّه في معنى الكناية الراجعة إلى إثبات الشيء بواسطة إثبات ملزومه.

{ كُلّاً نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً } [20].

تذييل للآيتين السابقتين. وهي فذلكة للتنبيه على أنّ الله تعالى لم يترك خلقه من أثر رحمته حتّى الكفرة منهم، فقد أعطاهم من نعمة الدنيا على حسب ما قدّر لهم، وأعطى المؤمنين خيري الدنيا والآخرة. وذلك مصداق قوله تعالى { وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ } [الأعراف:156]، وقوله تعالى فيما رواه عنه نبيه صلى الله عليه وسلم : " **لَمَّا قَضَى اللَّهُ الخَلْقَ، كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي** " [متفق عليه].

{ **كُلّا** } الّتنوين عوض عن المضاف إليه، أي: كلّ الفريقين. ومجموع المعطوف والمعطوف عليه هو البدل كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي مِنْ أَصْحَابِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَاهْتَدُوا بِهَدْيِ عَمَّارٍ، وَتَمَسَّكُوا بِعَهْدِ ابْنِ مَسْعُودٍ** " [الترمذي:3805، وصححه الألباني].

{ **هَؤُلاءِ** } الإشارة في الموضعين إلى من كان يريد العاجلة ومن أراد الآخرة.

الإمداد: استرسال العطاء وتعاقبه. وجُعل الجديد منه مددا للسالف بحيث لا ينقطع.

{ **وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً** } اعتراض أو تذييل، وعطاء ربك جنس العطاء.

المحظور: الممنوع، أي: ما كان ممنوعا بالمرّة، بل لكل مخلوق نصيب منه.

{ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً } [21].

لمّا كان العطاء المبذول للفريقين هو عطاء الدنيا وكان النّاس مفضّلين فيه على وجه يدركون حكمته لفت الله لذلك نظر نبيّه عليه الصلاة والسلام لفت اعتبار وتدبّر، ثم ذكّره بأنّ عطاء الآخرة أعظم عطاء، وقد فضّل الله به المؤمنين.

{ **انْظُرْ** } الأمر موجّه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ترفيعا في درجات علمه، ويحصل به توجيه العبرة إلى غيره.

وحقيقته توجّه آلة الحس البصري إلى المبصر. وقد شاع في كلام العرب استعماله في النظر المصحوب بالتدبّر وتكرير مشاهدة أشياء في غرض ما، فيقوم مقام الظنّ ويستعمل استعماله بهذا الاعتبار، ولذلك شاع إطلاق النظر في علم الكلام على الفكر المؤدي إلى علم أو ظنّ، وهو هنا كذلك. وتقدّم نظيره في قوله تعالى { انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ } [النساء:50].

{ **كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ** } اسم الاستفهام مستعمل في التنبيه. والمراد: التفضيل في عطاء الدنيا، لأنّه الذي يدركه التأمّل والنظر. والمقصود من هذا التنظير التنبيه إلى أنّ عطاء الدنيا غير منوط بصلاح الأعمال. ألا ترى إلى ما فيه من تفاضل بين أهل العمل المتّحد، وقد يفضل المسلم فيه الكافر، ويفضل الكافر المسلم، ويفضل بعض المسلمين بعضا، وبعض الكفرة بعضا، وكفاك بذلك هاديا إلى أنّ مناط عطاء الدنيا أسباب ليست من وادي العمل الصالح ولا ممّا يُساق إلى النفوس الخيّرة.

{ **وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً** } نصب { دَرَجَاتٍ / تَفْضِيلاً } على التمييز، والمفضّل عليه هو عطاء الدنيا.

الدرجات: مستعارة لعظمة الشرف.

التفضيل: إعطاء الفضل، وهو الجدّة والنعمة. وفي الحديث: " قيلَ: يا رسولَ اللهِ، ذهَبَ أهلُ الدُّثورِ بالأُجورِ، يُصلُّونَ كما نُصلِّي، ويَصومونَ كما نَصومُ، ويَتصدَّقونَ بفُضولِ أموالِهم، فقال: **أوليس قد جعَلَ اللهُ لكم ما تَصدَّقونَ، إنَّ بكلِّ تَسبيحةٍ صَدَقةً، وبكلِّ تَكبيرةٍ صَدَقةً، وبكلِّ تَهليلةٍ صَدَقةً، وبكلِّ تَحميدةٍ صَدَقةً، وأمْرٌ بالمَعروفِ صَدَقةٌ، ونَهْيٌ عنِ المُنكَرِ صَدَقةٌ، وفي بُضْعِ أحَدِكم صَدَقةٌ**، قالوا: يا رسولَ اللهِ، يَأْتي أحَدُنا شَهوتَه ويكونُ له فيها أجْرٌ؟ فقال: **أرَأَيْتم لو وضَعَها في الحَرامِ أليس كان يكونُ عليه وِزرٌ، أوِ الوِزرُ؟** قالوا: بَلى، قال: **فكذلك إذا وضَعَها في الحَلالِ يكونُ له الأجْر** " [مسلم:1006].

{ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَـهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً } [22].

تذييل هو فذلكة لاختلاف أحوال المسلمين والمشركين، فإنّ خلاصة أسباب الفوز ترك الشرك، لأنّ ذلك

هو مبدأ الإقبال على العمل الصالح، فهو أوّل خطوات السعي لمريد الآخرة، لأنّ الشرك قاعدة اختلال التفكير وتضليل العقول، قال الله تعالى في ذكر آلهة المشركين { وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ } [هود:101]. والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم تبع لخطاب قوله تعالى { انْظُرْ }، والمقصود إسماع الخطاب غيره بقرينة تحقّق أنّ النبيّ قائم بنبذ الشرك ومُنْحٍ على الذين يعبدون مع الله إلها آخر.

{ **فَتَقْعُدَ** } مستعار لمعنى المكث والدوام. أريد بهذه الاستعارة تجريد معنى النهي إلى أنّه نهي تعريض بالمشركين لأنّهم متلبّسون بالذم والخذلان.

المذموم: المذكور بالسوء والعيب.

المخذول: الذي أسلمه ناصره.

فأمّا ذمّه فمن ذوي العقول، إذ أعظم سخرية أن يتّخذ المرء حجرا أو عودا ربا له ويعبده، كما قال إبراهيم عليه السلام { قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ } [الصافات:95]، وذمّه من الله على لسان الشرائع.

وأمّا خذلانه فلأنّه اتخذ لنفسه وليّا لا يغني عنه شيئا، قال تعالى { إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ } [فاطر:14]، وقال إبراهيم عليه السلام { يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً } [مريم:42]، وخذلانه من الله لأنّه سبحانه لا يتولى من لا يتولّاه، قال تعالى { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ } [محمد:11]، وقال تعالى { وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ } [غافر:50].

{ وَقَضَى رَبُّكَ أَلّا تَعْبُدُوا إِلّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً [23] وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً [24] }.

{ **وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلّا إِيَّاهُ** } عطف على الكلام السابق عطف غرض على غرض تخلّصا إلى أعمدة من شريعة الإسلام بمناسبة الفذلكة المتقدّمة تنبيها على أنّ إصلاح الأعمال متفرّع على نبذ الشرك كما قال تعالى { فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَة أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا } [البلد:13-17]. وهذه الآيات أوّل تفصيل للشريعة وقع بمكّة.

وما ذكر في هذه الآيات مقصود به تعليم المسلمين، ولذلك اختلف أسلوبه عن أسلوب نظيره في سورة الأنعام الذي وجّه فيه الخطاب إلى المشركين لتوقيفهم على قواعد ضلالتهم. فمن الاختلاف بين الأسلوبين:

*/ أنّ هذه الآية افتُتحت بفعل القضاء المقتضي الإلزام، وهو مناسب لخطاب أمّة تمتثل أمر ربّها، وافتُتح خطاب سورة الأنعام بـ { تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ } [151].

*/ ومنها أنّ هذه الآية جعلت المقضي هو توحيد الله بالعبادة، لأنّه المناسب لحال المسلمين فحذّرهم من عبادة غير الله. وآية الأنعام جعلت المحرّم فيها هو الإشراك بالله في الإلهية المناسب لما كانوا عليه من الشرك إذ لا عبادة لهم.

*/ وأنّ هذه الآية فُصّل فيها حكم البرّ بالوالدين وحكم القتل وحكم الإنفاق ولم يُفصّل ما في الأنعام.

وكان ما ذكر في هذه الآيات خمسة عشر تشريعا هي أصول التشريع الراجع إلى نظام المجتمع.

وأحسب أن هذه الآيات اشتهرت بين النّاس في مكة وتناقلها العرب في الآفاق، فلذلك ألمّ الأعشى ببعضها في قصيدته المروية التي أعدّها لمدح النبيّ صلى الله عليه وسلم حين جاء يريد الإيمان فصدّته قريش عن ذلك، وهي القصيدة الدالية التي يقول فيها:

أجدّك لم تسمع وَصاة محمدٍ ... نبيِّ الإله حين أوصى وأشهدا
فإيّاك والميتات لا تأكلنها ... ولا تأخذنْ سهمًا حديدًا لتفصدا
وذا النصُب المنصوب لا تنسكنَّه ... ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا
وذا الرحم القربى فلا تقطعنَّه ... لفاقته ولا الأسيرَ المقيدا
ولا تسخرنّ من بائس ذي ضرارة ... ولا تحسبن المال للمرء مخلدا
ولا تقربنّ جارةً إنَّ سِترَّها ... عليك حرام فأنكحَنْ أو تأبَّدا

{ **وَقَضَى رَبُّكَ** } افتُتحت هذه الأحكام والوصايا بفعل القضاء اهتماما به وأنّه ممّا أمر الله به أمرا جازما وحكما لازما، وليس هو بمعنى التقدير كقوله تعالى { وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ فِي الْكِتَابِ } [4]، لظهور أنّ المذكورات هنا ممّا يقع ولا يقع.

{ **ربّك** } الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم كالذي في قوله تعالى قبل { مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ } [20]، والقرينة ظاهرة. ويجوز أن يكون لغير معيّن فيعمّ الأمّة، والمآل واحد.

{ **أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ** } جيء بخطاب الجماعة لأنّ النهي يتعلّق بجميع النّاس وهو تعريض بالمشركين. وابتدئ التشريع بالنهي عن عبادة غير الله لأنّ ذلك هو أصل الإصلاح، لأنّ إصلاح التفكير مقدّم على إصلاح العمل، إذ لا يساق العقل إلى طلب الصالحات إلّا إذ كان صالحا. عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " **أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ** " [متفق عليه].

وقد فصّلت ذلك في كتابي (أصول النظام الاجتماعي في الإسلام).

{ **وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً** } هذا أصل ثان من أصول الشريعة وهو برّ الوالدين. وعُطف الأمر بالإحسان إلى الوالدين على ما هو في معنى الأمر بعبادة الله لأنّ الله هو الخالق فاستحقّ العبادة لأنّه أوجد النّاس، ولأنّها أعظم الشكر على أعظم منّة، فالخالق مستحقّ العبادة لغناه عن الإحسان. ولمّا جعل الله الأبوين مظهر إيجاد النّاس أمر بالإحسان إليهما. ولأنّ الله جبل الوالدين على الشفقة على ولدهما، فأمر الولد بمجازاة

ذلك بالإحسان، كما سيأتي { وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً }.

{ وَبِالْوَالِدَيْنِ } متعلّق بـ { إِحْسَاناً }، والباء فيه للتعدية يقال: أحسن بفلان كما يقال: أحسن إليه، و تقدّم عند قوله تعالى { وَقَدْ أَحْسَنَ بِي } [يوسف:100]. وتقديمه على متعلّقة للاهتمام به.

{ إِحْسَاناً } انتصب على المفعولية المطلقة مصدر نائبا عن فعله. أي: وقضى إحسانا بالوالدين.

وشمل الإحسان كل ما يصدق فيه هذا الجنس، من الأقوال والأفعال والبذل والمواساة.

{ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً }

بيان لجملة { إِحْسَاناً }، و{ إِمَّا } مركبة من (إن) الشرطية و(ما) الزائدة المهيّئة لنون التوكيد، أي: إن يبلغ أحد الوالدين أو كلاهما حدّ الكبر وهما عندك، أي: في كفالتك فوطِّئ لهما خُلُقك وليِّن جانبك.

والخطاب لغير معيّن فيعمّ كلّ مخاطب، وليس خطابا للنبيّ صلى الله عليه وسلم إذ لم يكن له أبوان يومئذ.

وإيثار ضمير المفرد هنا دون ضمير الجمع لأنّه خطاب يختصّ بمن له أبوان من بين الجماعة المخاطبين فكان الإفراد أنسب به، وإنّ كان الإفراد والجمع سواء في المقصود، لأنّ خطاب غير المعيّن يساوي خطاب الجمع.

وخصّ هذه الحالة بالبيان لأنها مظنّة انتفاء الإحسان بما يلقى الولد من أبيه وأمه من مشقة القيام بشؤونهما ومن سوء الخلق منهما.

{ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا } وجه تعدّد الفاعل مظهَرا دون جعله بضمير التثنية، بأن يقال: إمّا يبلغانّ عندك الكبر، الاهتمام بتخصيص كلّ حالة من أحوال الوالدين بالذكر.

{ أَوْ كِلاهُمَا } للتحذير من اعتذار الابن لنفسه عن التقصير بأنّ حالة اجتماع الأبوين أحرج عليه، فلأجل ذلك ذُكرت الحالتان وأجري الحكم عليهما على السواء.

وأكِّد فعل الشرط بنون التوكيد لتحقيق الربط بين مضمون الجواب ومضمون الشرط في الوجود.

{ عندك } الخطاب لكلّ من يصلح لسماع الكلام فيعمّ كل مخاطب.

{ فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ } الجملة بتمامها جواب لـ { إِمَّا }.

{ أُفٍّ } اسم فعل مضارع معناه أتضجّر. وفيه لغات كثيرة أشهرها كلّها ضم الهمزة وتشديد الفاء. وليس المقصود من النهي عن أن يقول لهما { أُفٍّ } خاصة، وإنّما المقصود النهي عن الأذى الذي أقلّه الأذى باللسان بأوجز كلمة، وبأنّها غير دالة على أكثر من حصول الضجر لقائلها دون شتم أو ذمّ، فيُفهم منه النهي ممّا هو أشدّ أذى بطريق فحوى الخطاب بالأولى.

{ وَلَا تَنْهَرْهُمَا } ثمّ عطف عليه النهي عن نهرهما لئلّا يُحسب أنّ ذلك تأديب لصلاحهما وليس بالأذى.

النهر: الزجر، يقال: نهره وانتهره.

{ وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً } ثمّ أمر بإكرام القول لهما. والكريم من كل شيء: الرفيع في نوعه. وتقدّم عند

قوله تعالى { وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } [لأنفال:4]. وبهذا الأمر انقطع العذر بحيث إذا رأى الولد أن ينصح لأحد أبويه أو أن يحذّره ممّا قد يضرّ به أدى إليه ذلك بقول ليّن حسن الوقع.

{ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً } ثمّ ارتقى في الوصاية بالوالدين إلى أمر الولد بالتواضع لهما تواضعا يبلغ حدّ الذلّ لهما لإزالة وحشة نفوسهما إن صارا في حاجة إلى معونة الولد، لأنّ الأبوين يبغيان أن يكونا هما النافعين لولدهما. والقصد من ذلك التخلّق بشكره على أنعامهما السابقة عليه.

وصيغ التعبير عن التواضع بتصويره في هيئة تذلّل الطائر عندما يعتريه خوف من طائر أشدّ منه إذ يخفض جناحه متذللا. ففي التركيب استعارة مكنية والجناح تخييل، ومجموع هذه الاستعارة تمثيل. وقد تقدّم في قوله تعالى { وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ } [الحجر:88].

{ مِنَ الرَّحْمَةِ } التعريف عوض عن المضاف إليه، أي: من رحمتك إيّاهما. و{ مِنَ } ابتدائية، أي: الذلّ الناشئ عن الرحمة لا عن الخوف أو عن المداهنة. والمقصود اعتياد النفس على التخلّق بالرحمة باستحضار وجوب معاملته إيّاهما بها حتّى يصير له خُلُقا.

وهذه أحكام عامة في الوالدين وإن كانا مشركين، ولا يطاعان في معصية ولا كفر كما في آية سورة العنكبوت. عن أبي هريرة: " جَاءَ رَجُلٌ إِلى رَسولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقالَ: يا رَسولَ اللَّهِ، مَن أَحَقُّ النَّاسِ بحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قالَ: **أُمُّكَ**، قالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قالَ: **ثُمَّ أُمُّكَ**، قالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قالَ: **ثُمَّ أُمُّكَ**، قالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قالَ: **ثُمَّ أَبُوكَ** " [البخاري:5971]. وهو ظاهر في ترجيح جانب الأمّ لأنّ سؤال السائل دل على أنّه يسأل عن حسن معاملته لأبويه. وللعلماء أقوال:

<u>أحدها</u>: ترجيح الأمّ على الأب، وإلى هذا ذهب الليث بن سعد، والمحاسبي، وأبو حنيفة. وهو ظاهر قول مالك، فقد حكى القرافي في (الفرق 23) عن مختصر الجامع أنّ رجلا سأل مالكا فقال: إنّ أبي في بلد السودان وقد كتب إليّ أن أقدم عليه وأمّي تمنعني من ذلك؟ فقال مالك: أطع أباك ولا تعص أمّك. وذكر القرافي في المسألة السابعة من ذلك الفرق أنّ مالكا أراد منع الابن من الخروج إلى السودان بغير إذن الأمّ.

<u>الثاني</u>: قول الشافعية أنّ الأبوين سواء في البرّ. وهذا القول يقتضي وجوب طلب الترجيح إذا أمرا ابنهما بأمرين متضادين.

وحكى القرطبي عن المحاسبي في كتاب (الرعاية) أنّه قال: لا خلاف بين العلماء في أنّ للأمّ ثلاثة أرباع البرّ وللأب الربع. وحكى القرطبي عن الليث أنّ للأم ثلثي البر وللأب الثلث، بناء على اختلاف رواية الحديث المذكور أنّه قال: ثم أبوك بعد المرّة الثانية أو بعد المرّة الثالثة.

<u>والوجه عندي</u> أنّ تحديد ذلك بالمقدار حوالة على ما لا ينضبط وأنّ محمل الحديث مع اختلاف روايتيه على أنّ الأمّ أرجح على الإجمال.

{ **وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً** } أمْر بالدعاء لهما برحمة الله إيّاهما، وهي الرحمة التي لا يستطيع الولد إيصالها إلى أبويه إلّا بالابتهال إلى الله تعالى. وفي حديث أبي هريرة: " **إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عنْه عَمَلُهُ إِلَّا مِن ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِن صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو له** " [مسلم:1631] .

وفي الآية إيماء إلى أنّ الدعاء لهما مستجاب لأنّ الله أذن فيه. والحديث المذكور مؤيّد ذلك إذ جعل دعاء الولد عملا لأبويه. وحكم هذا الدعاء خاص بالأبوين المؤمنين بأدلة أخرى دلّت على التخصيص كقوله تعالى { مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِين } [التوبة:113].

{ **كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرا** } الكاف للتشبيه المجازي يُعبّر عنه النحاة بمعنى التعليل في الكاف، ومثاله قوله تعالى { وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ } [البقرة:198]، أي: ارحمهما رحمة تكافئ ما ربياني صغيرا.

والرحمة حفظ للوجود من اجتناب انتهاكه وهو مقتضى الشكر، فجمع الشكر على ذلك كلّه بالدعاء لهما بالرحمة. والأمر يقتضي الوجوب. وأمّا مواقع الدعاء لهما فلا تنضبط وهو بحسب حال كل امرئ في أوقات ابتهاله. وعن سفيان بن عيينة: إذا دعا لهما في كل تشهد فقد امتثل.

ومقصد الإسلام من الأمر ببر الوالدين وبصلة الرحم ينحلّ إلى مقصدين:

المقصد الأوّل : نفساني وهو تربية نفوس الأمّة على الاعتراف بالجميل لصانعه، وهو الشكر، تخلّقا بأخلاق الباري تعالى في اسمه الشكور، فكما أمر بشكر الله على نعمة الخلق والرزق أمر بشكر الوالدين على نعمة الإيجاد الصوري ونعمة التربية والرحمة. وفي الأمر بشكر الفضائل تنويه بها وتنبيه على المنافسة في إسدائها.

المقصد الثاني: عمراني، وهو أن تكون أواصر العائلة قويّة العُرى مشدودة الوثوق فأمر بما يُحقّق ذلك الوثوق بين أفراد العائلة، وهو حسن المعاشرة ليربّي في نفوسهم من التحاب والتواد ما يقوم مقام عاطفة الأمومة الغريزية في الأم، ثم عاطفة الأبوّة المنبعثة عن إحساس بعضه غريزي ضعيف وبعضه عقلي قوي حتّى أنّ أثر ذلك الإحساس ليساوي بمجموعه أثر عاطفة الأم الغريزية أو يفوقها في حالة كبر الابن.

ثم وزّع الإسلام ما دعا إليه من ذلك بين بقيّة مراتب القرابة على حسب الدنو في القرب النسبي بما شرعه من صلة الرحم، وقد عزّز الله قابلية الانسياق إلى تلك الشرعة في النفوس.

وفي حديث أبي هريرة : " **خَلَقَ اللَّهُ الخَلْقَ، فَلَمَّا فَرَغَ منه قامَتِ الرَّحِمُ، فأخَذَتْ بحَقْوِ الرَّحْمَنِ، فقالَ له: مَهْ، قالَتْ: هذا مَقامُ العائِذِ بكَ مِنَ القَطِيعَةِ، قالَ: ألا تَرْضَيْنَ أنْ أصِلَ مَن وصَلَكِ، وأَقْطَعَ مَن قَطَعَكِ، قالَتْ: بَلَى يا رَبِّ، قالَ: فَذاكِ.** قالَ أبو هُرَيْرَةَ: اقْرَؤُوا إنْ شِئْتُمْ: { فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ } [محمد: 22] " [البخاري: 4830 / مسلم: 2554].

وفي هذا التكوين لأواصر القرابة صلاح عظيم للأمّة تظهر آثاره في مواساة بعضهم بعضا، وفي اتحاد

بعضهم مع بعض، قال تعالى {يَا أَيُّهَا النّاس إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا} [الحجرات:13]. وزاده الإسلام توثيقا بما في تضاعيف الشريعة من تأكيد شدّ أواصر القرابة أكثر ممّا حاوله كل دين سلف. وقد بيّنّا ذلك في بابه من كتاب (مقاصد الشريعة الإسلامية).

{ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً } [25].

تذييل لآية الأمر بالإحسان بالوالدين وما فُصّل به، وما يقتضيه الأمر من اختلاف أحوال المأمورين بهذا الأمر قبل وروده بين موافق لمقتضاه ومفرّط فيه، ومن اختلاف أحوالهم بعد وروده من محافظ على الامتثال، ومقصّر عن قصد أو عن بادرة غفلة. فلذلك ذيّله بأنّه المطّلع على النفوس والنوايا، فوعد الولد بالمغفرة له إن هو أدّى ما أمره الله به لوالديه وافيا كاملا.

{ **بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ** } يشمل جميع أحوال النفوس وخاصة حالة التفريط وبوادر المخالفة. وهذا من رحمة الله تعالى بخلقه.

{ **إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ** } أي: ممتثلين لما أُمرتم به. وغُيّر أسلوب الضمير فعاد إلى ضمير جمع المخاطبين لأنّ هذا يشترك فيه النّاس كلّهم فضمير الجمع أنسب به.

{ **لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً** } لمّا شمل الصلاح الصلاح الكامل والصلاح المشوب بالتقصير ذيّله بوصف الأوابين المفيد بعمومه معنى الرجوع إلى الله، أي: الرجوع إلى أمره وما يرضيه، ففُهم من الكلام معنى احتباك بطريق المقابلة. والتقدير: إن تكونوا صالحين أوّابين إلى الله فإنّه كان للصالحين محسنا وللأوّابين غفورا. وهذا يعم المخاطبين وغيرهم، وبهذا العموم كان تذييلا.

وقد جمعت هذه الآية مع إيجازها تيسيرا بعد تعسير مشوبا بتضييق وتحذير ليكون المسلم على نفسه رقيبا.

{ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً [26] إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً [27] }.

{ **وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ** } القرابة كلّها متشعّبة عن الأبوّة فلا جرم انتقل من الكلام على حقوق الأبوين إلى الكلام على حقوق القرابة.

{ **حَقَّهُ** } للقرابة حقّان: حقّ الصلة، وحقّ المواساة. والخطاب لغير معيّن.

والعدول عن الخطاب بالجمع في قوله تعالى { رَبُّكُمْ أَعْلَمُ } [25] إلى الخطاب بالإفراد بقوله تعالى { وَآتِ ذَا الْقُرْبَى } تفنّن لتجنّب كراهة إعادة الصيغة الواحدة عدّة مرّات، والمخاطب غير معيّن فهو في معنى الجمع.

الإيتاء: الإعطاء وهو حقيقة في إعطاء الأشياء، ومجاز شائع في التمكّن من الأمور المعنويّة كحسن المعاملة والنصرة. ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" لَا حَسَدَ إلّا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا، فسَلَّطَه على هَلَكَتِهِ في الحَقِّ، ورجل آتاه الله حِكْمَة، فهو يقضي بها ويُعَلِّمَها "** [البخاري:1409 / مسلم:816].

وإطلاق الإيتاء هنا صالح للمعنيين كما هي طريقة القرآن في توفير المعاني وإيجاز الألفاظ.

وقد بيّنت أدلة شرعية حقوق ذي القربى ومراتبها: من واجبة، مثل بعض النفقة على بعض القرابة مبيّنة شروطها عند الفقهاء، ومن غير واجبة مثل الإحسان.

وليس لهاته تعلّق بحقوق قرابة النبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّ حقوقهم في المال تقرّرت بعد الهجرة لمّا فُرضت الزكاة وشُرعت المغانم والأفياء وقسمتها. ولذلك حمل جمهور العلماء هذه الآية على حقوق قرابة النسب بين النّاس. وعن عليّ زين العابدين أنّها تشمل قرابة النبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ **الْقُرْبَى** } تعريف الجنس، أي: القربى منك، وهو الذي يُعبّر عنه بأنّ (ال)عوض عن المضاف إليه.

{ **وَالْمِسْكِينَ** } بمناسبة ذكر إيتاء ذي القربى عُطف عليه من يماثله في استحقاق المواساة. وحقّ المسكين هو الصدقة. قال تعالى { وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ } [الفجر:18]. وقد بيّنت آيات وأحاديث كثيرة حقوق المساكين وأعظمها آية الزكاة ومراتب الصدقات الواجبة وغيرها.

{ **وَابْنَ السَّبِيلِ** } هو المسافر يمر بحيّ من الأحياء، فله على الحيّ الذي يمرّ به حقّ ضيافته.

وحقوق الأضياف جاءت في كلام النبيّ صلى الله عليه وسلم كقوله: **" من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، جائزته يوم وليلة، والضيافة ثلاثة أيام، فما بعد ذلك فهو صدقة، ولا يحلّ له أن يثوي عنده حتّى يحرجه "** [البخاري:6135] . وكانت ضيافة ابن السبيل من أصول الحنيفيّة ممّا سنّه إبراهيم عليه السلام.

وقد جُعل لابن السبيل نصيب الزكاة.

فأمّا **<u>إيتاء ذي القربى</u>** فالمقصد منه مقارب للمقصد من الإحسان للوالدين رعيا لاتحاد المنبت القريب وشدًّا لآصرة العشيرة التي تتكوّن منها القبيلة. وفي ذلك صلاح عظيم لنظام القبيلة وأمنها وذبّها عن حوزتها.

وأمّا **<u>إيتاء المسكين</u>** فلمقصد انتظام المجتمع بأن لا يكون من أفراده من هو في بؤس وشقاء، على أنّ ذلك المسكين لا يعدوا أن يكون من القبيلة في الغالب أقعده العجز عن العمل والفقر عن الكفاية.

وأمّا **<u>إيتاء ابن السبيل</u>** فلإكمال نظام المجتمع، لأنّ المارّ به من غير بنيه بحاجة عظيمة إلى الإيواء ليلا ليقيه من عوادي الوحوش واللصوص، وإلى الطعام والدفء أو التظلّل من إضرار الجوع والفقر أو الحرّ.

{ **وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً** } لمّا ذُكر البذل المحمود وكان ضدّه معروفا عند العرب أعقبه بذكره للمناسبة.

وليس قوله تعالى { وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً } متعلّقا بقوله تعالى { وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ }، لأنّ التبذير لا يوصف به بذل المال في حقّه ولو كان أكثر من حاجة المعطَى (بالفتح)، بل هي معطوفة على جملة { أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ } لأنّها من جملة ما قضى الله به، وهي معترضة بين جملة { وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ } وجملة { وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ } [28] فتضمّنت وصيّة سادسة ممّا قضى الله به.

التبذير: تفريق المال في غير وجهه، وهو مرادف الإسراف، فإنفاقه في الفساد تبذير، ولو كان المقدار قليلا، وإنفاقه في المباح إذا بلغ حد السرف تبذير، وإنفاقه في وجوه البرّ والصلاح ليس بتبذير. وقد قال بعضهم لمن رآه ينفق في وجوه الخير: لا خير في السرف، فأجابه المنفق: لا سرف في الخير، فكان فيه من بديع الفصاحة مُحسِّن العكس.

ووجه النهي عن التبذير هو أنّ المال جُعل عوضا لاقتناء ما يحتاج إليه المرء في حياته من ضروريات وحاجيات وتحسينات. وكان نظام القصد في إنفاقه ضامن كفايته في غالب الأحوال بحيث إذا أنفق في وجهه على ذلك الترتيب بين الضروري والحاجي والتحسيني أمن صاحبه من الخصاصة فيما هو إليه أشد احتياجا، وتجاوز هذا الحدّ فيه يُسمّى تبذيرا بالنسبة إلى أصحاب الأموال ذات الكفاف، وأمّا أهل الوفر والثروة فأحسن ما يُبذل فيه وفر المال هو اكتساب الزلفى عند الله، قال تعالى { وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } [التوبة:41]، واكتساب المحمدة بين قومه. وقديما قال المثل العربي" نعم العون على المروءة الجِدة ". وقال آخر: " اللهم هب لي حمدا، وهب لي مجدا، فإنّه لا حمد إلّا بفعال، ولا فعال إلّا بمال ".

والمقصد الشرعي أن تكون أموال الأمّة عُدة لها وقوّة لابتناء أساس مجدها والحفاظ على مكانتها حتّى تكون مرهوبه الجانب مرموقة بعين الاعتبار غير محتاجة إلى من قد يستغلّ حاجتها فيبتزّ منافعها ويدخلها تحت نير سلطانه. ولهذا أضاف الله تعالى الأموال إلى ضمير المخاطبين في قوله تعالى { وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً } [النساء:5] ولم يقل أموالهم مع أنّها أموال السفهاء، لقوله بعده { فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ } [النساء:6] فأضافها إليهم حين صاروا رشداء. وما منع السفهاء من التصرف في أموالهم إلّا خشية التبذير. ولذلك لو تصرّف السفيه في شيء من ماله تصرّف السداد والصلاح لمضى.

{ **تَبْذِيراً** } المفعول المطلق لتأكيد النهي كأنّه قيل: لا تبذر، لا تبذر.

{ **إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ** } تعليل للمبالغة في النهي عن التبذير.

{ **الْمُبَذِّرِينَ** } تعريف الجنس، أي: الذين عرفوا بهذه الحقيقة، كالتعريف في قوله { هُدىً لِلْمُتَّقِينَ } [البقرة:2].

الإخوان: جمع أخ، وهو هنا مستعار للملازم غير المفارق لأنّ ذلك شأن الأخ، كقولهم: أخو السفر لمن يكثر الأسفار، وأخو العلم، أي: ملازمه والمتصف به. والمعنى: أنّهم من أتباع الشياطين وحلفائهم.

{ **كَانُوا** } تأكيد، أنّ تلك الأخوّة صفة راسخة فيهم. وكفى بحقيقة الشيطان كراهة في النفوس واستقباحا.
ومعنى ذلك: أنّ التبذير يدعو إليه الشيطان لأنّه إمّا إنفاق في الفساد وإمّا إسراف يستنزف المال في السفاسف واللذات فيعطل الإنفاق في الخير وكل ذلك يرضي الشيطان.
وهذا تحذير من التبذير، فإنّ التبذير إذا فعله المرء اعتاده فأدمن عليه فصار له خُلقا لا يفارقه شأن الأخلاق الذميمة أن يسهل تعلّقها بالنفوس كما ورد في الحديث: إنّ المرء لا يزال يكذب حتّى يُكتب عند الله كذابا.
{ **وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً** } تحذير شديد من أن يفضي التبذير بصاحبه إلى الكفر تدريجا بسبب التخلُّق بالطبائع الشيطانية، فيذهب بتدهور في مهاوي الضلالة حتّى يبلغ به إلى الكفر، كما في قوله تعالى { وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ } [الأنعام:121].
ويجوز حمل الكفر هنا على كفر النعمة فيكون أقرب درجات إلى حال التخلق بالتبذير، لأنّ التبذير صرف المال في غير ما أمر الله به فهو كفر لنعمة الله بالمال. فالتخلُّق به يفضي إلى التخلّق والاعتياد لكفران النعم.
وعلى الوجهين فالكلام جار على ما يُعرف في المنطق بقياس المساواة، إذ كان المبذر مؤاخيا للشيطان وكان الشيطان كفورا، فكان المبذر كفورا بالمآل أو بالدرجة القريبة.
وقد كان التبذير من خُلُق أهل الجاهلية، ولذلك يتمدّحون بصفة المِتلاف والمُهْلِكِ المال، فكان عندهم الميسر من أسباب الإتلاف، فحذَّر الله المؤمنين من التلبُّس بصفات أهل الكفر، وهي من المذام، وأدّبهم بآداب الحكمة والكمال.

{ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً } [28].

عطف على قوله تعالى { وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ } [26] لأنّه من تمامه.
والخطاب لغير معيّن ليعمّ كل مخاطب. والمقصود بالخطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّه على وزان نظم قوله تعالى { وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ } [23]، فإنّ المواجهة بـ { رَبُّكَ } في القرآن جاءت غالبا لخطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم. ويعدله ما روي أنّ النبيّ كان إذا سأله أحد مالا ولم يكن عنده ما يُعطيه يُعرض عنه حياء فنبَّهه الله إلى أدب أكمل من الذي تعهّده من قبل، ويحصل من ذلك تعليم لسائر الأمّة.
{ **عَنْهُمُ** } الضمير عائد إلى ذي القربى والمسكين وابن السبيل.
الإعراض: أصله ضدّ الإقبال مشتقّ من العُرض (بضم العين) أي: الجانب، فأعرض بمعنى أعطى جانبه كقوله تعالى { وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ } [83]. وهو هنا مجاز في عدم الإيتاء أو كناية عنه لأنّ الإمساك يلازمه الإعراض، أي: إن سألك أحدهم عطاء فلم تجبه إليه فقل له قولا ميسورا.

الميسور: مفعول من اليُسر، وهو السهولة، وفعله مبني للمجهول. يقال: يُسِر الأمرُ (بضم الياء وكسر السين) كما يقال: سُعِد الرجل ونُحِس. والمعنى: جُعل يسيرا غير عسير، وكذلك يقال: عسير.
القول الميسور: الليّن الحسن المقبول عندهم، شُبّه المقبول بالميسور في قبول النفس إيّاه لأنّ غير المقبول عسير. أمر الله بإرفاق عدم الإعطاء لعدم الموجدة بقول لين حسن بالاعتذار والوعد عند الموجدة، لئلا يُحمل الإعراض على قلّة الاكتراث والشحّ.
وقد شرط الإعراض بشرطين: أن يكون إعراضا لابتغاء رزق من الله، أي: إعراضا لعدم الجدة لا اعراضا لبخل عنهم، وأن يكون معه قول لين في الاعتذار.
{ **ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ** } حال من ضمير { تُعْرِضَنَّ } مصدر بالوصف، أي: مبتغيا رحمة من ربّك. والرحمة هنا هي الرزق الذي يتأتّى منه العطاء بقرينة السياق. وفيه إشارة إلى أنّ الرزق سبب للرحمة لأنّه إذا أعطاه مستحقّه أثيب عليه، وهذا إدماج. وعُلم منه أنّه اعتذار صادق وليس تعلّلا.
وفي ضمن هذا الشرط تأديب للمؤمن إن كان فاقدا ما يبلغ به إلى فعل الخير أن يرجو من الله تيسير أسبابه، وأن لا يحمله الشحّ على السرور بفقد الرزق للراحة من البذل، بحيث لا يعدم البذل الآن إلّا وهو راج أن يسهل له في المستقبل حرصا على فضيلته، وأنّه لا ينبغي أن يعرض عن ذي القربى والمسكين وابن السبيل إلّا في حال رجاء حصول نعمة فإن حصلت أعطاهم.

{ **وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً** } [29].
عود إلى بيان التبذير والشحّ، فالجملة عطف على جملة { وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً } [26].ولولا تخلّل الفصل بينهما بقوله تعالى { وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ } [28] لكانت هذه الجملة غير مقترنة بواو العطف، لأنّ شأن البيان أن لا يُعطف على المبين، وأيضا على أنّ في عطفها اهتماما بها بجعلها مستقلّة بالقصد، لأنّها مشتملة على زيادة على البيان بما فيها من النهي عن البخل المقابل للتبذير. والخطاب لغير معيّن.
وقد أتت هذه الآية تعليما بمعرفة حقيقة من الحقائق الدقيقة فكانت من الحكمة. وجاء نظمها على سبيل التمثيل فصيغت الحكمة في قالب البلاغة .
<u>فأمّا الحكمة</u>: فإذا بيّنت أنّ المحمود في العطاء هو الوسط الواقع بين طرفي الإفراط والتفريط، وهذه الأوساط هي حدود المحامد بين المذام من كل حقيقة لها طرفان. وقد تقرّر في حكمة الأخلاق أنّ لكل خلق طرفين ووسطا، فالطرفان إفراطٌ وتفريطٌ وكلاهما مقر مفاسد للمصدر وللمورد، وأنّ الوسط هو العدل.
فالإنفاق والبذل حقيقة أحد طرفيها الشحّ وهو مفسدةٌ للمحاويج ولصاحب المال، إذ يجرّ إليه كراهية النّاس إيّاه وكراهيته إيّاهم. والطرف الآخر التبذير والإسراف، وفيه مفاسد لذي المال وعشيرته لأنّه يصرف ماله عن مستحقّه إلى مصارف غير جديرة بالصرف، والوسط هو وضع المال في مواضعه وهو الحدّ

الذي عُبّر عنه في الآية بنفي حالين بين { وَلَا } و{ وَلَا }.

وأمّا البلاغة: فبتمثيل الشحّ والإمساك بغلّ اليد إلى العُنق، وهو تمثيل مبني على تخيّل اليد مصدرا للبذل والعطاء وتخيّل بسطها وغلّها شحا، وهو تخيّل معروف لدى البلغاء والشعراء.

ومن ثَمَّ قالوا: له يد على فلان، أيّ نعمة وفضل، فجاء التمثيل في الآية مبنيّا على التصرّف في ذلك المعنى بتمثيل الذي يشحّ بالمال بالذي غلت يده إلى عنقه، أي: شُدَّت بالغُل، وهو القيد من السير يشدّ به الأسير. وبضدّه مُثِّل المسرف بباسط يده غاية البسط ونهايته وهو المفاد من قوله { **كُلَّ الْبَسْطِ** } أي البسط كلّه الذي لا بسط بعده، وهو معنى النهاية. وتقدّم عند قوله تعالى { وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ - إلى قوله - بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاء } [المائدة:64].

{ **فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً** } جواب لكلا النّهيين على التوزيع بطريقة النشر المرتّب، فالملوم يرجع إلى النهي عن الشحّ، والمحسور يرجع إلى النهي عن التبذير، فإنّ الشحيح ملوم مذموم. وقد قيل:

إنّ البــخــيــل مــلــوم حــيــثــمــا كــانــا

وقال زهير:

ومـن يـك ذا فـضـل فـيـبـخـل بـفـضـلـه ... عـلـى قـومـه يُـسـتـغـنَ عـنـه ويُذمـم

المحسور: المنهوك القوى. يقال: بعير حسير، إذا أتعبه السير فلم تبق له قوّة، ومنه قوله تعالى { يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ } [الملك:4]، والمعنى: غير قادر على إقامة شؤونك.

{ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ أنّه كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً } [30].

موقع هذه الجملة موقع اعتراض بالتعليل لما تقدّم من الأمر بإيتاء ذي القربى والمساكين، والنهي عن التبذير، وعن الإمساك المفيد الأمر بالقصد، بأنّ هذا واجب النّاس في أموالهم وواجبهم نحو قرابتهم وضعفاء عشائرهم، فعليهم أن يمتثلوا ما أمرهم الله من ذلك. وليس الشحّ بمبق مال الشحيح لنفسه، ولا التبذير بمغن من يبذّر فيهم المال فإنّ الله قدّر لكلّ نفس رزقها.

فيجوز أن يكون الكلام جاريا على سنن الخطاب السابق لغير معيّن. ويجوز أن يكون قد حُوِّل الكلام إلى خطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم، فوُجِّه بالخطاب إلى النبيّ لأنّه الأولى بعلم هذه الحقائق العالية، وإنّ كانت أمّته مقصودة بالخطاب تبعا له، فتكون هذه الوصايا مخلّلة بالإقبال على خطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ **وَيَقْدِرُ** } ضدّ { يَبْسُطُ } وقد تقدّم عند قوله تعالى { اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ } [الرعد:26].

{ **إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً** } تعليل لجملة { إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ } إلى آخرها، أي: هو يفعل ذلك لأنّه عليم بأحوال عباده وما يليق بكلّ منهم بحسب ما جُبلت عليه نفوسهم، وما يحفّ بهم من أحوال النظم العالمية التي اقتضتها الحكمة الإلهية المودعة في هذا العالم.

الخبير: العالم بالأخبار. و**البصير**: العالم بالمبصرات. وهذان الاسمان الجليلان يرجعان إلى معنى بعض تعلق العلم الإلهي.

{ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً } [31].

عطف جملة حكم على جملة حكم للنهي عن فعل ينشأ عن اليأس من رزق الله. وهذه الوصيّة السابعة من الأحكام المذكورة في آية { وَقَضَى رَبُّكَ } [23]. وغُيّر أسلوب الإضمار من الإفراد إلى الجمع لأنّ المنهي عنه هنا من أحوال الجاهلية زجرا لهم عن هذه الخطيئة الذميمة.

وتقدّم الكلام على نظير هذه الآية في [الأنعام:151]، ولكن بين الآيتين فرقا في النظم من وجهين:

الوجه الأول: أنّه قيل هنا { خَشْيَةَ إِمْلاقٍ } وقيل في آية الأنعام { مِنْ إِمْلاقٍ }. ويقتضي ذلك أنّ الذين كانوا يئدون بناتهم يئدونهن لغرضين: إمّا لأنّهم فقراء لا يستطيعون إنفاق البنت ولا يرجون منها إن كبرت إعانة على الكسب فهم يئدونها لذلك، فذلك مورد قوله في الأنعام { مِنْ إِمْلاقٍ } فإنّ (من) التعليلية تقتضي أنّ الإملاق سبب قتلهن فيقتضي أنّ الإملاق موجود حين القتل.

وإمّا أن يكون الحامل على ذلك ليس فقر الأب ولكن خشية عروض الفقر له أو عروض الفقر للبنت بموت أبيها، إذ كانوا في جاهليتهم لا يورّثون البنات، فيكون الدافع للوأد هو توقّع الإملاق، كما قال إسحاق بن خلف، شاعر إسلامي قديم:

إذا تذكرت بنتي حين تندبني ... فاضت لعَبرة بنتي عَبْرتي بدم
أحاذر الفقر يوما أن يلمّ بها ... فيهتك السترَ عن لحم على وضم
تهوى حياتي وأهوى موتها شفقا ... والموت أكرم نزَّال على الحُرم
أخشى فظاظة عمٍّ أو جفاء أخٍ ... وكنت أخشى عليها من أذى الكلم

فلتحذير المسلمين من آثار هذه الخواطر ذكِّروا بتحريم الوأد وما في معناه. وقد كان ذلك في جملة ما تؤخذ عليه بيعة النساء المؤمنات كما في آية سورة الممتحنة.

الوجه الثاني : فمن أجل هذا الاعتبار في الفرق للوجه الأول قيل هنالك { نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ } بتقديم ضمير الآباء على ضمير الأولاد، لأنّ الإملاق الدافع للوأد المحكي به في آية الأنعام هو إملاق الآباء فقدّم الإخبار بأنّ الله هو رازقهم وكمّل بأنّه رازق بناتهم.

وأمّا الإملاق المحكي في هذه الآية فهو الإملاق المخشي وقوعه. والأكثر أنّه توقع إملاق البنات كما رأيت في الأبيات، فلذلك قدّم الإعلام بأنّ الله رازق الأبناء وكمّل بأنّه رازق آبائهم. وهذا من نكت القرآن.

الإملاق: الافتقار. وتقدّم الكلام على الوأد عند قوله تعالى { وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ } [الأنعام:137]

{ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ } معترضة بين المتعاطفات وجملة { إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً } تأكيد للنهي وتحذير من

الوقوع في المنهي.

{ **وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ** } المراد خصوص البنات لأنّهنّ اللاتي كانوا يقتلونهنّ وأدا، ولكن عُبّر عنهنّ بلفظ الأولاد في هذه الآية ونظائرها لأنّ البنت يقال لها: ولد. وجرى الضمير على اعتبار لفظ { نَرْزُقُهُمْ }.

الخِطء: (بكسر الخاء وسكون الطاء) مصدر خطئ بوزن فرح، إذا أصاب إثما، ولا يكون الإثم إلّا عن عمد، قال تعالى { إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ } [القصص:8].

وأمّا الخَطَأ (بفتح الخاء والطاء) فهو ضدّ العمد. وفعله: أخطأ واسم الفاعل مخطئ، قال تعالى { وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ } [الأحزاب:5] وهذه التفرقة هي سرّ العربية وعليها المحقّقون.

وأكّد بـ { إِنَّ } لتحقيقه، ردّا على أهل الجاهلية إذ كانوا يزعمون أنّ وأد البنات من السداد، ويقولون: دفن البنات من المكرمات. وأكّد أيضا بفعل (كان) للإشعار بأنّ كونه إثمًا أمرًا استقر.

{ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّه كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً } [32].

الوصية الثامنة من الوصايا الإلهية بقوله تعالى { وَقَضَى رَبُّكَ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ } [23].

عطف هذا النهي على النهي عن وأد البنات إيماء إلى أنّهم كانوا يعدّون من أعذارهم في وأد البنات الخشية من العار الذي قد يلحق من جراء إهمال البنات الناشئ عن الفقر الرامي بهن في مهاوي العهر، ولأنّ في الزنى إضاعة نسب النسل بحيث لا يعرف للنسل مرجع يأوي إليه، وهو يشبه الوأد في الإضاعة.

وجرى الإضمار فيه بصيغة الجمع كما جرى في قوله تعالى { وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ } [31] لمثل ما وجّه به تغيير الأسلوب هنالك، فإنّ المنهي عنه هنا كان من غالب أحوال أهل الجاهلية.

{ **وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى** } القرب المنهي عنه هو أقل الملابسة. وهو كناية عن شدّة النهي عن ملابسة الزنا.

الزنى: في اصطلاح الإسلام مجامعة الرجل امرأة غير زوجته له ولا مملوكة غير ذات الزوج.

وفي الجاهلية الزنى: مجامعة الرجل امرأة حرّة غير زوج له، وأمّا مجامعة الأمّة غير المملوكة للرجل فهو البغاء.

{ **إِنَّه كَانَ فَاحِشَةً** } تعليل للنهي عن ملابسته تعليلا مبالغا فيه من جهات بوصفه بالفاحشة الدال على فعلة بالغة الحد الأقصى في القبح، وبتأكيد ذلك بحرف التوكيد، وبإقحام فعل (كان) المؤذن بأنّ خبره وصف راسخ مستقر. والمراد أنّ ذلك وصف ثابت له في نفسه سواء علمه النّاس أم لم يعلموه إلّا بعد نزول الآية.

السبيل: الطريق. وهو مستعار هنا للفعل الذي يلازمه المرء ويكون له دأبا، استعارة مبنيّة على استعارة السير للعمل كقوله تعالى { سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى } [طه:21]. وقد تقدّم نظيرها في قوله { إِنَّهُ كَانَ

فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلا } [النساء:22].

وعناية الإسلام بتحريم الزنى لأنّ فيه إضاعة النسب وتعريض النسل للإهمال إن كان الزنى بغير متزوّجة وهو خلل عظيم في المجتمع، ولأنّ فيه إفساد النساء على أزواجهنّ والأبكار على أوليائهنّ، ولأنّ فيه تعريض المرأة إلى الإهمال بإعراض النّاس عن تزوّجها، وطلاق زوجها إيّاها، ولما ينشأ عن الغيرة من الهرج والتقاتل.

فالزنى مِئنَّةٌ لإضاعة الانساب ومَظنَّةٌ للتقاتل فكان جديرا بالتحريم. ومن تأمّل ونظر جزم بما يشتمل عليه الزنى من المفاسد ولو كان المتأمّل ممن يفعله في الجاهلية، فقُبحه ثابت لذاته، ولكنّ العقلاء متفاوتون في إدراكه وفي مقدار إدراكه، فلمّا أيقظهم التحريم لم يبق للنّاس عذر.

وقد زعم بعض المفسّرين أنّ هذه الآية مدنية، كما تقدّم في صدر السورة، ولا وجه لذلك الزعم.

{ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ أنّه كَانَ مَنْصُوراً } [33].

معلومة حالة العرب في الجاهلية من التسرّع إلى قتل النفوس، فكان حفظ النفوس من أعظم القواعد الكلّية للشريعة الإسلامية. ولذلك كان النهي عن قتل النفس من أهمّ الوصايا التي أوصى بها الإسلام أتباعه في هذه الآيات الجامعة. وهذه هي الوصية التاسعة.

{ **النَّفْسَ** } هنا الذات كقوله تعالى { وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ } [النساء:29]، وقوله تعالى { أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النّاس جَمِيعاً } [المائدة:32]. وتطلق النفس على الروح الإنساني، وهي النفس الناطقة.

القتل: الإماتة بفعل فاعل، أي: إزالة الحياة عن الذات.

{ **الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إلّا بِالْحَقِّ** } حذف العائد من الصلة إلى الموصول لأنّه ضمير منصوب بفعل الصلة وحذفه كثير. والتقدير: حرّمها الله. وعلّق التحريم بعين النفس، والمقصود تحريم قتلها.

{ **إلّا بِالْحَقِّ** } أي: الذي يشهد الحق أن نفسا معيّنة استحقت الإعدام من المجتمع، وهذا مجمل يفسّره في وقت النزول ما هو معروف من أحكام القَوَد على وجه الإجمال. ولمّا كانت هذه الآيات سيقت مساق التشريع للأمّة وإشعارا بأن سيكون في الأمّة قضاء وحكم فيما يُستقبل أبقي مجملا حتّى تفسّره الأحكام المستأنفة من بعد، مثل آية { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إلّا خَطَأً - إلى قوله - وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً } [النساء:92 / 93].

الحق: بمعنى العدل، أو بمعنى الاستحقاق، أي: حقّ القتل، كما في الحديث: " **إذا قالوها** (أي: لا إله إلّا الله) **عصموا مني دماءهم وأموالهم إلّا بحقّها** ".

ولمّا كان الخطاب بالنهي لجميع الأمّة، كما دلّ عليه الفعل في سياق النهي، كان تعيين الحقّ المبيح لقتل

النفس موكولا إلى من لهم تعيين الحقوق. ولمّا كانت هذه الآية نازلة قبل الهجرة فتعيين الحقّ يجري على ما هو متعارف بين القبائل، وهو ما سيُذكر في قوله تعالى عقب هذا { وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً }.

{ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ أنّه كَانَ مَنْصُوراً } حين كان المسلمون وقت نزول هذه الآية مختلطين في مكّة بالمشركين ولم يكن المشركون أهلا للثقة بهم في الطاعة للشرائع العادلة، وكان قد يعرض أن يعتدي أحد المشركين على أحد المسلمين بالقتل ظلما أمر الله المسلمين بأنّ المظلوم لا يظلم، أي: قد جعل لولي المقتول تصرفا في القاتل بالقود أو الديّة.

السلطان: مصدر من السلطة كالغفران، والمراد به ما استقرّ في عوائدهم من حكم القود. فالمراد بالجعل ما أرشد الله إليه أهل الجاهلية من عادة القود.

والقود من جملة المستثنى بقوله تعالى { إِلَّا بِالْحَقِّ }، لأنّ القود من القاتل الظالم هو قتل للنفس بالحقّ.

وهذه حالة خصّها الله بالذكر لكثرة وقوع العدوان في بقيّة أيام الجاهلية، فأمر الله المسلمين بقبول القود.

وهذا مبدأ صلاح عظيم في المجتمع الإسلامي، وهو حمل أهله على اتباع الحقّ والعدل حتّى لا يكون الفساد من طرفين فيتفاقم أمره. فنهى الله المسلمين عن أن يكونوا مثالا سيّئا يقابلوا الظلم بالظلم كعادة الجاهلية بل عليهم أن يتّبعوا سبيل الإنصاف فيقبلوا القود، ولذلك قال { فلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ }.

السرف: الزيادة على ما يقتضيه الحقّ، وليس خاصا بالمال كما يفهم من كلام أهل اللغة. فالسرف في القتل هو أن يقتل غير القاتل، إمّا مع القاتل، وإمّا قتل غير القاتل عند العجز عن قتل القاتل، فقد كانوا يقتنعون عند العجز عن القاتل بقتل رجل من قبيلة القاتل. وكانوا يتكايلون الدماء، أي: يجعلون كيلها متفاوتا بحسب شرف القتيل.

{ **يُسْرِفْ** } الضمير بياء الغيبة، في قراءة الجمهور، يعود إلى الولي مظنّة السرف في القتل.

{ **إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً** } استئناف، حذّرهم الله من السرف في القتل، وذكّرهم بأنّه جعل للولي سلطانا على القاتل. وقد أكّد ذلك بحرف التوكيد وبإقحام (كان) الدال على أنّ الخبر مستقر الثبوت.

وفيه إيماء إلى أنّ من تجاوز حدّ العدل إلى السرف في القتل لا يُنصر.

ومن نكت القرآن وبلاغته وإعجازه الخفي الإتيان بلفظ (سلطان) هنا الظاهر في معنى المصدر، أي: السلطة والحق، والصالح لإرادة إقامة السلطان. ففيه إيماء إلى أنّ الله سيجعل للمسلمين دولة دائمة، إذ لم يكن للمسلمين يوم نزول الآية سلطان.

وهذا الحكم منوط بالقتل الحادث بين الأشخاص وهو قتل العدوان، فأما القتل الذي هو لحماية البيضة والذبّ عن الحوزة، وهو الجهاد، فله أحكام أخرى.

ولما رأى بعض المفسرين أنّ الحكم الذي تضمنته هذه الآية لا يناسب إلّا أحوال المسلمين استبعد أن تكون الآية نازلة بمكة فزعم أنّها مدنية، وقد بيّنّا وجه مناسبتها وأبطلنا أن تكون مكية في صدر هذه السورة.

{ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حتّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً } [34].

{ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حتّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ } الوصية العاشرة، وهي من أهم الوصايا التي أوصى الله بها في هذه الآيات، لأنّ العرب في الجاهلية كانوا يستحلّون أموال اليتامى لضعفهم عن التفطّن لمن يأكل أموالهم وقلّة نصيرهم لإيصال حقوقهم، فحذّر الله المسلمين من ذلك لإزالة ما عسى أن يبقى في نفوسهم من أثرٍ من تلك الجاهلية. وقد تقدّم القول في نظير هذه الآية في [الأنعام:152].

والقول في الإتيان بضمير الجماعة المخاطبين كالقول في سابقيه لأنّ المنهي عنه من أحوال أهل الجاهلية.

{ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً }.

الوصية الحادية عشرة. أمروا بالوفاء بالعهد. والتعريف في { **الْعَهْدَ** } للجنس المفيد للاستغراق يشمل العهد الذي عاهدوا عليه النبيّ صلى الله عليه وسلم، وهو البيعة على الإيمان والنصر. وتقدّم عند قوله تعالى { وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ } [النحل:91]، وقوله تعالى { وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا } [الأنعام:151].

وهذا التشريع من أصول حرمة الأمّة في نظر الأمم والثقة بها للانزواء تحت سلطانها. وقد مضى القول فيه في سورة الأنعام. والجملة معطوفة على التي قبلها.

{ **إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً** } تعليل للأمر، أي: للإيجاب الذي اقتضاه، وإعادة لفظ { الْعَهْدَ } في مقام إضماره للاهتمام به، ولتكون هذه الجملة مستقلة فتسري مسرى المثل.

{ **مَسْؤُولاً** } حذف المتعلّق لظهوره، أي: مسؤولا عنه، أي: يسألكم الله عنه يوم القيامة.

{ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً } [35].

هذان حكمان هما الثاني عشر والثالث عشر من الوصايا التي قضى الله بها. وتقدّم نظيره في [الأنعام:152].

وزيادة الظرف في هذه الآية وهو { إِذَا كِلْتُمْ }، دون ذكر نظيره في آية الأنعام، لما في (إذا) من معنى الشرطيّة، فتقتضي تجدّد ما تضمّنه الأمر في جميع أزمنة حصول مضمون شرط (إذا) الظرفية الشرطية للتنبيه على عدم التسامح في شيء من نقص الكيل عند كل مباشرة له. ذلك أنّ هذا خطاب للمسلمين بخلاف آية الأنعام فإنّ مضمونها تعريض بالمشركين في سوء شرائعهم، وكانت هنا أجدر بالمبالغة في التشريع.

{ **إِذَا كِلْتُمْ** } يدلّ على أنّ فاعله مباشر الكيل، فهو الذي يدفع الشيء المكيل، وهو بمنزلة البائع، ويقال للذي يقبض الشيء المكيل: مكتال. وهو من أخوات باع وابتاع، وشرى واشترى، ورهن وارتهن.

قال تعالى { الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النّاس يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ } [المطففين:3/2].

{ **بِالْقِسْطَاسِ** } بضم القاف في قراءة الجمهور. وقرأه بالكسر حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف. وهما لغتان فيه، وهو اسم للميزان، أي: آلة الوزن، واسم للعدل. قيل: هو معرب من الرومية مركّب من كلمتين قسط، أي: عدل، وطاس وهو كفة الميزان. وفي البخاري: " وقال مجاهد: القسطاس: العدل بالرومية ".

ومعنى العدل والميزان صالحان هنا، لكن التي في الأنعام جاء فيها { بِالْقِسْطِ } فهو العدل لأنّها سيقت مساق التذكير للمشركين بما هم عليه من المفاسد فناسب أن يُذكّروا بالعدل ليعلموا أنّ ما يفعلونه ظلم.

والباء هنالك للملابسة. وهذه الآية جاءت خطابا للمسلمين فكانت أجدر باللفظ الصالح لمعنى آلة الوزن، لأنّ شأن التشريع بيان تحديد العمل، مع كونه يومئ إلى معنى العدل على استعمال المشترك في معنييه. فالباء هنا ظاهرة في معنى الاستعانة والآلة، ومفيدة للملابسة أيضا.

المستقيم: السويّ، مشتق من القَوام (بفتح القاف) وهو اعتدال الذات. يقال: قوّمته فاستقام. ووصف الميزان به ظاهر. وأمّا العدل فهو وصف له كاشف، لأنّ العدل كلّه استقامة.

{ **ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً** } مستأنفة. والإشارة إلى المذكور وهو الكيل والوزن المستفاد من { كِلْتُمْ / زِنُوا }.

{ **خَيْرٌ** } تفضيل، أي: خير من التطفيف، أي: خير لكم، تفضيلا لخير الآخرة الحاصل من ثواب الامتثال على خير الدنيا الحاصل من الاستفضال الذي يطفّفه المطفّف، وهو أيضا أفضل منه في الدنيا لأنّ انشراح النفس الحاصل للمرء من الإنصاف في الحقّ أفضل من الارتياح الحاصل له باستفضال شيء من المال.

التأويل: تفعيل من الأَوْل. وهو الرجوع. يقال: أوّله إذا أرجعه، أي: أحسن إرجاعا، إذا أرجعه المتأمّل إلى مراجعه وعواقبه.

ومعنى كون ذلك أحسن تأويلا: أنّ النظر إذا جال في منافع التطفيف في الكيل والوزن وفي مضار الإيفاء فيهما ثم عاد فجال في مضار التطفيف ومنافع الإيفاء استقر وآل إلى أنّ الإيفاء بهما خير من التطفيف، لأنّ التطفيف يعود على المطفّف باقتناء جزء قليل من المال ويُكسبه الكراهيّة والذمّ عند النّاس وغضب الله والسحت في ماله مع احتقار نفسه في نفسه، والإيفاء بعكس ذلك يُكسبه ميل النّاس إليه ورضى الله عنه ورضاه عن نفسه والبركة في ماله. فهو أحسن تأويلا.

وتقدم ذكر التأويل بمعانيه في المقدمة الأولى من مقدمات هذا التفسير.

{ **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** } [36].

القفو: الاتّباع، يقال: قفاه يقفوه إذا اتّبعه، وهو مشتقّ من اسم القفا، وهو ما وراء العنق. واستعير هذا الفعل هنا للعمل.

{ **مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ** } الخاطر النفساني الذي لا دليل عليه ولا غلبة ظنّ به. ويندرج تحت هذا أنواع كثيرة: */ منها خلّة من خلال الجاهلية، وهي الطعن في أنساب النّاس، فكانوا يرمون النساء برجال ليسوا بأزواجهنّ ويليطون بعض الأولاد بغير آبائهم بهتانا، أو سوء ظنّ إذا راوا بعدا في الشبه بين الابن وأبيه أو رأوا شبهه برجل آخر من الحيّ أو رأوا لونا مخالفا للون الأب أو الأم، تخرّصا وجهلا بأسباب التشكّل، وجهلا بالشبه الناشئ عن الرحم. وقد جاء أعرابي إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: إنّ امرأتي ولدت ولدا أسود، يريد أن ينتفي منه، فقال له النبيّ: **هل لك من إبل؟** قال: نعم. قال: **ما ألوانهن؟** قال: وُرْق. قال: **وهل فيها من جمل أسود؟** قال: نعم. قال: **فمن أين ذلك؟** قال: لعلّه عرق نزعه. فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **فلعل ابنك نزعه عرق** . ونهاه عن الانتفاء منه. فهذا كان شائعا في مجتمعات الجاهلية فنهى الله المسلمين عن ذلك.

*/ ومنها القذف بالزنى وغيره من المساوي بدون مشاهدة، وربما رموا الجيرة من الرجال والنساء بذلك. وكذلك كان عملهم إذا غاب زوج المرأة لم يلبثوا أن يلصقوا بها تهمة ببعض جيرتها، وكذلك يصنعون إذا تزوّج منهم شيخ مسنّ امرأة شابة أو نصفا فولدت له ألصقوا الولد ببعض الجيرة. ولذلك لمّا قال النبيّ صلى الله عليه وسلم يوما سلوني أكثر الحاضرون أن يسأل الرجل فيقول: من أبي؟ فيقول: **أبوك فلان.**
وكان العرب في الجاهلية يطعنون في نسب أسامة بن زيد من أبيه زيد بن حارثة لأنّ أسامة كان أسود اللون وكان زيد أبوه أبيض أزهر، وقد أثبت النبيّ صلى الله عليه وسلم أن أسامة بن زيد بن حارثة.
فهذا خلق باطل كان متفشّيا في الجاهليّة نهى الله المسلمين عن سوء أثره.

*/ ومنها الكذب. قال قتادة: لا تقف: لا تقل رأيتُ وأنت لم تر، ولا سمعتُ وأنت لم تسمع، وعلمتُ وأنت لم تعلم.

*/ ومنها شهادة الزور وشملها هذا النهي، وبذلك فسّر محمد ابن الحنفية وجماعة.

{ **إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** } كلام يشهد لإرادة جميع تلك المعاني. فموقع الجملة موقع تعليل، أي: أنّك أيّها الإنسان ستُسأل عمّا تسنده إلى سمعك وبصرك وعقلك.

وهذا أدب خلقي عظيم، وهو أيضا إصلاح عقليّ جليل يُعلّم الأمّة التفرقة بين مراتب الخواطر العقليّة، بحيث لا يختلط عندها المعلوم والمظنون والموهوم. ثم هو أيضا إصلاح اجتماعيّ جليل يجنّب الأمّة من الوقوع والإيقاع في الأضرار والمهالك من جرّاء الاستناد إلى أدلّة موهومة.

وقد صيغت جملة { كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً } على هذا النظم بتقديم (كلّ) الدالة على الإحاطة من

أوّل الأمر. وأُتي باسم الإشارة دون الضمير بأن يقال: (كلّها كان عنه مسئولا)، لما في الإشارة من زيادة التمييز. وأُقحم فعل (كان) لدلالته على رسوخ الخبر كما تقدّم غير مرة.

{ **عَنْهُ** } جار ومجرور في موضع النائب عن الفاعل لاسم المفعول، وقُدّم عليه للاهتمام، وللرعي على الفاصلة. والتقدير: كان مسئولا عنه، كما تقول: كان مسؤولا زيد.

{ **مَسْؤُولاً** } كناية عن المؤاخذة بالتقصير وتجاوز الحق، كقول كعب:

وقـــيـــل إنّـــك مـــنـــسـوب ومـــســـؤول

أي: مؤاخذ بما اقترفت من هجو النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين.

وهو في الآية كناية بمرتبة أخرى عن مؤاخذة صاحب السمع والبصر والفؤاد بكذبه على حواسه. وليس هو بمجاز عقلي. وهذا المعنى كقوله { يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [النور:24].

أي: يُسأل السمع: هل سمعت؟ فيقول: لم أسمع، فيؤاخذ صاحبه بأن أسند إليه ما لم يبلّغه إيّاه وهكذا.

{ **أُولَئِكَ** } الاسم الإشارة يعود إلى السمع والبصر والفؤاد تنزيلا لتلك الحواس منزلة العقلاء لأنّها جديرة بذلك إذ هي طريق العقل والعقل نفسه. على أنّ استعمال (أولئك) لغير العقلاء استعمال مشهور، قيل: هو استعمال حقيقي أو لأن هذا المجاز غلب حتّى ساوى الحقيقة، قال تعالى { مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إلّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [الإسراء: 102].

والمقصود سؤال أصحابها، وهو من نكت بلاغة القرآن.

{ **وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً** } [37].

الوصية الخامسة عشرة. نهيٌ عن خصلة من خصال الجاهلية، وهي خصلة الكبرياء، وكان أهل الجاهلية يتعمّدونها. والخطاب لغير معيّن ليعم كلّ مخاطب، وليس خطابا للنبيّ صلى الله عليه وسلم إذ لا يناسب ما بعده.

المَرَح: شدّة ازدهاء المرء وفرحه بحاله في عظمة الرزق.

{ **مَرَحاً** } مصدر وقع حالا من ضمير { تَمْشِ }. ومجيء المصدر حالا كمجيئه صفة يراد منه المبالغة في الاتصاف. وتأويله باسم الفاعل، أي: لا تمش مشية المارح، وهي المشية الدالة على كبرياء الماشي بتمايل وتبختر. ويجوز أن يكون مفعولا مطلقا مبيّنا لفعل { تَمْشِ } لأن للمشي أنواعا، منها: ما يدل على أنّ صاحبه ذو مرح. فإسناد المرح إلى المشي مجاز عقلي.

{ **إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً** } استئناف ناشئ عن النهي بتوجيه خطاب ثانٍ في هذا المعنى على سبيل التهكّم، أي: أنّك أيّها الماشي مرحا لا تخرق بمشيك أديم الأرض، ولا تبلغ بتطاولك

في مشيك طول الجبال، فماذا يغريك بهذه المشية؟

الخرق: قطع الشيء والفصل بين الأديم، فخرق الأرض تمزيق قشر التراب.

وعن عمر بن الخطاب: أنّه رأى غلاما يتبختر في مشيته فقال له:" إنّ البخترة مِشية تُكره إلّا في سبيل الله " يعني لأنّها يُرهَب بها العدو إظهارا للقوة على أعداء الدين في الجهاد.

{ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً } [38].

تذييل للجمل المتقدّمة ابتداء من قوله تعالى { وَقَضَى رَبُّكَ إلّا تَعْبُدُوا إلّا إيَّاهُ } [23] باعتبار ما اشتملت عليه من التحذيرات والنواهي. فكلّ جملة فيها أمر هي مقتضية نهيا عن ضدّه، وكلّ جملة فيها نهي هي مقتضية شيئا منهيّا عنه.

فقوله تعالى { أَلَّا تَعْبُدُوا إلّا إيَّاهُ } يقتضي عبادة مذمومة منهيّا عنها،

وقوله تعالى { وَبِالْوَالِدَيْنِ إحْسَاناً } يقتضي إساءة منهيّا عنها، وعلى هذا القياس.

وقرأ الجمهور{ سيّئة } بفتح الهمزة بعد المثناة التحتية وبهاء تأنيث في آخره، وهي ضدّ الحسنة.

وقرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف { كَانَ سَيِّئُهُ } بضم الهمزة وبهاء ضمير في آخره .

والضمير عائد إلى { كُلُّ ذَلِكَ }، و{ كُلُّ ذَلِكَ } هو نفس السيّئ. فإضافة (سيّئ) إلى ضميره إضافة بيانيّة تفيد قوّة صفة السيّئ حتّى كأنّه شيئان يضاف أحدهما إلى الآخر. وهذه نكتة الإضافة البيانيّة كلّما وقعت، أي: كان ما نهى عنه من ذلك مكروها عند الله.

{ **مَكْرُوهاً** } ينبغي أن يكون خبرا ثانيا لـ (كان) لأنّه المناسب للقراءتين.

{ ذَلِكَ ممّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً } [39].

{ **ذَلِكَ ممّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ** } عُدل عن مخاطبة الأمّة بضمائر جمع المخاطبين وضمائر المخاطب غير المعيّن إلى خطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم ردّا إلى ما سبق في أوّل هذه الآيات من قوله تعالى { وَقَضَى رَبُّكَ } [23].

تذييل معترض بين جمل النهي، وفيه تنبيه على أنّ ما اشتملت عليه الآيات السبع عشرة هو من الحكمة، تحريضا على اتباع ما فيها وأنّه خير كثير. وفيه امتنان على النبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّ الله أوحى إليه، فذلك وجه قوله تعالى { ممّا أَوْحَى إِلَيْكَ } تنبيها على أنّ مثل ذلك لا يصل إليه الأمّيّون لولا الوحي من الله.

الحكمة: معرفة الحقائق على ما هي عليه دون غلط ولا اشتباه، وتطلق على الكلام الدال عليها، وتقدّم في

قوله تعالى { يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ } [البقرة:269].

{ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً }.

عطف على جمل النهي المتقدّمة، وهذا تأكيد لمضمون جملة { أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ } [23]، أعيد لقصد الاهتمام بأمر التوحيد بتكرير مضمونه وبما رُتّب عليه من الوعيد بأن يجازى بالخلود في النّار مهانا.

والخطاب لغير معيّن على طريقة المنهيّات قبله، وبقرينة قوله عقبه { أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ } [40].

الإلقاء: رمي الجسم من أعلى إلى أسفل، وهو يؤذن بالإهانة.

الملوم: الذي يُنكَر عليه ما فعله.

المدحور: المطرود، أي: المطرود من جانب الله، أي: مغضوب عليه ومُبعَد من رحمته في الآخرة.

{ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً } [40].

تفريع على مقدّر يدلّ على تقديره المفرَّع عليه. والتقدير: أفضَّلكم الله فأعطاكم البنين وجعل لنفسه البنات. ومناسبته لما قبله أنّ نسبة البنات إلى الله ادّعاء آلهة تنتسب إلى الله بالبنوّة. إذ عبد فريق من العرب الملائكة كما عبدوا الأصنام، واعتلّوا لعبادتهم بأنّ الملائكة بنات الله تعالى كما حكى عنهم في قوله تعالى { وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً - إلى قوله - وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ } [الزخرف:20/19].

فلمّا نُهوا عن أن يجعلوا مع الله إلها آخر خُصّص بالتحذير عبادة الملائكة، لئلّا يتوهّموا أنّ عبادة الملائكة ليست كعبادة الأصنام، لأنّ الملائكة بنات الله ليتوهّموا أنّ الله يرضى بأن يعبدوا أبناءه.

وقد جاء إبطال عبادة الملائكة بإبطال أصلها في معتقدهم، وهو أنّهم بنات الله.

{ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ } إلى آخرها متفرّعة على جملة { وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ } [39] تفريعا على النهي كما بيّنّاه، باعتبار أنّ المنهي عنه مشتمل عمومه على هذا النوع الخاص الجديد بتخصيصه بالإنكار وهو شبيه ببدل البعض. فالفاء للتفريع وحقّها أن تقع في أوّل جملتها ولكن أخّرها أنّ للاستفهام الصدر في أسلوب الكلام العربي، وهذا هو الوجه الحسن في موقع حروف العطف مع همزة الاستفهام.

الإصفاء: جعل الشيء صفْوا، أي: خالصا. وأصله: أفأصفى لكم.

{ بِالْبَنِينَ } الباء إمّا مزيدة لتوكيد لصوق فعل (أصفى) بمفعوله. وأصله: أفأصفى لكم ربكم البنين، كقوله تعالى { وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ } [المائدة:6]. أو ضمّن أصفى معنى آثر فتكون الباء للتعدية دالة على معنى الاختصاص بمجرورها.

أي: جعل لكم البنين خالصة لا يساويكم هو بأمثالهم، وجعل لنفسه الإناث التي تكرهونها.

وفساد ذلك ظاهر بأدنى نظر فإذا تبيّن فساده على هذا الوضع فقد تبيّن انتفاء وقوعه إذ هو غير لائق بجلال الله تعالى. وتقدّم هذا عند قوله تعالى { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ } [النحل:57]،

وقوله تعالى { إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلّا إِنَاثاً } [النساء:117].

{ **إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً** } تقرير لمعنى الإنكار وبيان له، أي: تقولون: اتخذ الله الملائكة بنات. وأكِّد فعل (تقولون) بمصدره تأكيدا لمعنى الإنكار. وجعله مجرّد قول لأنّه لو تأمّله قائله أدنى تأمّل لوجده غير داخل تحت قضايا المقبول عقلا.

العظيم: القويّ. والمراد هنا أنّه عظيم في الفساد والبطلان بقرينة سياق الإنكار. ولا أبلغ في تقبيح قولهم من وصفه بالعظيم.

{ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلّا نُفُوراً } [41].

لمّا ذكر فظاعة قولهم بأنّ الملائكة بنات الله أعقب ذلك بأنّ في القرآن هديا كافيا، ولكنّهم يزدادون نفورا من تدبّره. فالجملة معترضة. والضمير عائد إلى الذين عبدوا الملائكة وزعموهم بنات الله.

التصريف: أصله تعدّد الصرف، وهو النقل من جهة إلى أخرى. ومنه تصريف الرياح، وهو هنا كناية عن التبيين بمختلف البيان و متنوّعه. وتقدّم في قوله { انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ } [الأنعام:46].

وحذف مفعول { صَرَّفْنَا } لأنّ الفعل نزل منزلة اللازم فلم يُقدّر له مفعول، أي: بيّنّا البيان، أي: ليذكّروا ببيانه.

{ **لِيَذَّكَّرُوا** } أصله يتذكّروا، فأدغم التاء في الذال لتقارب مخرجيهما، وقد تقدّم في [يونس:3]، وهو من الذُّكر المضموم الذال الذي هو ضدّ النسيان. والضمير عائد إلى معلوم من المقام دلّ عليه قوله تعالى { أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ } [40]، فهو التفات من الخطاب إلى الغيبة، أو من خطاب المشركين إلى خطاب المؤمنين.

{ **وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلّا نُفُوراً** } في موضع الحال، وهو حال مقصود منه التعجيب من حال ضلالتهم، إذ كانوا يزدادون نفورا من كلام فُصِّل وبُيِّن لتذكيرهم. وشأن التفصيل أن يفيد الطمأنينة للمقصود.

النفور: هروب الوحشيّ والدابة بجزع وخشية من الأذى. واستعير هنا لإعراضهم تنزيلا لهم منزلة الدواب والأنعام.

{ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً } [42].

عود إلى إبطال تعدّد الآلهة زيادة في استئصال عقائد المشركين من عروقها، فالجملة استئناف ابتدائي بعد جملة { وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً } [39]. والمخاطب بالأمر بالقول هو النبيّ صلى الله عليه وسلم لدمغهم بالحجّة المقنعة بفساد قولهم.

{ قُلْ } للاهتمام، تخصيصا لهذا بالتبليغ وإن كان جميع القرآن مأمورا بتبليغه.

{ كَمَا يَقُولُونَ } معترضة للتنبيه على أنّ تعدّد الآلهة لا تَحقّق له وإنّما هو مجرّد قول عار عن المطابقة لما في نفس الأمر.

ابتغاء السبيل: طلب طريق الوصول إلى الشيء، أي: توخّيه والاجتهاد لإصابته، وهو هنا مجاز في توخّي وسيلة الشيء. وقد جاء في حديث موسى والخضر عليهما السلام أنّ موسى سأل السبيل إلى لقيا الخضر.

{ إذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً } و(إذن) دالة على الجواب والجزاء فهي مؤكِّدة لمعنى الجواب الذي تدلّ عليه اللام المقترنة بجواب (لو) الامتناعية الدالة على امتناع حصول جوابها لأجل امتناع وقوع شرطها، وزائدة بأنّها تفيد أنّ الجواب جزاء عن الكلام المجاب.

فالمقصود الاستدلال على انتفاء إلهية الأصنام والملائكة الذين جعلوهم آلهة. وهذا الاستدلال يحتمل معنيين مآلهما واحد:

<u>المعنى الأوّل</u>: أن يكون المراد بالسبيل سبيل السعي إلى الغلبة والقهر، أي: لطلبوا مغالبة ذي العرش وهو الله تعالى. وهذا كقوله تعالى { وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ } [المؤمنون:91]. ووجه الملازمة التي بني عليها الدليل أنّ من شأن أهل السلطان في العرف والعادة أن يتطلّبوا توسعة سلطانهم ويسعى بعضهم إلى بعض بالغزو ويتألّبوا على السلطان الأعظم ليسلبوه ملكه.

وتمام الدليل محذوف للإيجاز يدلّ عليه ما يستلزمه ابتغاء السبيل على هذا المعنى من التدافع والتغالب. وذلك المفضي إلى اختلال العالم لاشتغال مدبّريه بالمقاتلة والمدافعة على نحو ما يوجد في ميثلوجيا اليونان من تغالب الأرباب وكيد بعضهم لبعض، فيكون هذا في معنى قوله تعالى { لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا } [الانبياء:22]. وهو الدليل المسمّى **ببرهان التمانع** في علم أصول الدين.

*/ السبيل على هذا المعنى: مجاز عن التمكّن والظفر بالمطلوب.

*/ الابتغاء على هذا ابتغاء عن عداوة وكراهة.

*/ وقوله تعالى { كَمَا يَقُولُونَ } على هذا الوجه: تنبيه على خطئهم، وهو من استعمال الموصول في التنبيه على الخطأ.

<u>المعنى الثاني</u>: أن يكون المراد بالسبيل سبيل الوصول إلى ذي العرش، وهو الله تعالى، وصول الخضوع والاستعطاف والتقرّب، أي: لطلبوا ما يوصلهم إلى مرضاته كقوله تعالى { يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ } [57].

ووجه الاستدلال: أنّكم جعلتموهم آلهة وقلتم ما نعبدهم إلّا ليكونوا شفعاءنا عند الله، فلو كانوا آلهة كما وصفتم إلهيتهم لكانوا لا غنى لهم عن الخضوع إلى الله، وذلك كاف لكم بفساد قولكم، إذ الإلهيّة تقتضي

عدم الاحتياج فكان مآل قولكم إنّهم عباد لله مكرمون عنده، وهذا كاف في تفطّنكم لفساد القول بإلهيتهم.
*/ الابتغاء على هذا: ابتغاء محبة ورغبة، كقوله تعالى { فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً } [المزمل:19].
*/ السبيل على هذا المعنى: مجاز عن التوسل إليه والسعي إلى مرضاته.
*/ وقوله تعالى { كَمَا تَقُولُونَ } على هذا المعنى: تفيد للكون في قوله تعالى { لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ }، أي: لو كان معه آلهة حال كونهم كما تقولون، أي: كما تصفون إلهيتهم من قولكم { هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ } [يونس:18].
{ **ذِي الْعَرْشِ** } استحضار الذات العليّة بوصف دون اسمه العلم لما تتضمّنه الإضافة إلى العرش من الشأن الجليل الذي هو مثار حسد الآلهة إيّاه وطمعهم في انتزاع ملكه على المعنى الأوّل، أو الذي هو مطمع الآلهة الابتغاء من سعة ما عنده على المعنى الثاني.
وقرأ الجمهور{ كَمَا تَقُولُونَ } بتاء الخطاب على الغالب في حكاية القول المأمور بتبليغه أن يُحكى كما يقول المبلغ حين إبلاغه. وقراه ابن كثير وحفص بياء الغيبة على الوجه الآخر في حكاية القول المأمور بإبلاغه للغير أن يُحكى بالمعنى، لأنّ في حال خطاب الآمر المأمور بالتبليغ يكون المبلَّغ له غائبا وإنّما يصير مخاطبا عند التبليغ فإذا لوحظ حاله هذا عبر عنه بطريق الغيبة كما في قوله تعالى { قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ } [آل عمران:12] ـ بالتاء وبالياء ـ ، أو على أن قوله { كَمَا يَقُولُونَ } اعتراض بين شرط (لو) وجوابه.

{ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً** } [43].

إنشاء تنزيه لله تعالى عما ادّعوه من وجود شركاء له في الإلهيّة. وهذا من المقول اعتراض بين أجزاء المقول، وهو مستأنف لأنّه نتيجة لبطلان قولهم: إنّ مع الله آلهة، بما نهضت به الحجّة عليهم من قوله تعالى { إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً } [42]. وقد تقدّم الكلام على نظيره في قوله تعالى { سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ } [الأنعام:100].
{ **عُلُوّاً** } مفعول مطلق عامله { تَعَالَى }، منصوب على المفعولية المطلقة المبيّنة للنوع. جيء به على غير قياس فعله للدلالة على أنّ التعالي هو الاتصاف بالعلو بحقّ لا بمجرد الادعاء كقوله سبحانه { مَا هَذَا إِلّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ } [المؤمنون:24]، أي: يدّعي الفضل ولا فضل له .
{ **كَبِيراً** } الكامل في نوعه. وأصل الكبير صفة مشبّهة: الموصوف بالكبر. والكبر: ضخامة جسم الشيء في متناول الناس، أي: تعالى أكمل علوّ لا يشوبه شيء من جنس ما نسبوه إليه، لأنّ المنافاة بين استحقاق ذاته وبين نسبة الشريك له والصاحبة والولد بلغت في قوّة الظهور إلى حيث لا تحتاج إلى زيادة، لأنّ وجوب الوجود والبقاء ينافي آثار الاحتياج والعجز.

{ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ أَنَّه كَانَ حَلِيماً غَفُوراً } [44].

الجملة حال من الضمير في { سُبْحَانَهُ }، أي: نسبّحه في حال أنّه { يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ }.

{ لَهُ } لام تعدية { تُسَبِّحُ } المضمّن معنى يشهد بتنزيهه، أو هي اللام المسمّاة لام التبيين، كالتي في قوله تعالى { أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ } [الشرح:1]. وفي قولهم: حمدت الله لك.

ولمّا أسنِد التسبيح إلى كثير من الأشياء التي لا تنطق دلّ على أنّه مستعمل في الدلالة على التنزيه بدلالة الحال، وهو معنى قوله تعالى { وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ } حيث أعرضوا عن النظر فيها فلم يهتدوا إلى ما يحفّ بها من الدلالة على تنزيهه عن كل ما نسبوه من الأحوال المنافية للإلهية.

{ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ } يجوز أن يكون الخطاب للمشركين جريا على أسلوب الخطاب السابق في قوله تعالى { إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً } [40]، لأنّ الذين لم يفقهوا دلالة الموجودات على تنزيه الله تعالى هم الذين لم يثبتوا له التنزيه عن النقائص التي شهدت الموجودات - حيثما توجّه إليها النظر- بتنزيهه عنها، فلم يُحرم من الاهتداء إلى شهادتها إلّا الذين لم يقلعوا عن اعتقاد أضدادها. فأمّا المسلمون فقد اهتدوا إلى ذلك التسبيح بما أرشدهم إليه القرآن من النظر في الموجودات، وإن تفاوتت مقادير الاهتداء على تفاوت القرائح والفهوم.

ويجوز أن يكون الخطاب لجميع النّاس باعتبار انتفاء تمام العلم بذلك التسبيح.

ولعلّ إيثار فعل { لا تَفْقَهُونَ } دون أن يقول: لا تعلمون، للإشارة إلى أنّ المنفي علم دقيق.

وقرأ الجمهور { يُسَبِّحُ } بياء الغائب وقرأه عمرو، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، ويعقوب، وخلف بتاء جماعة مؤنث، والوجهان جائزان في جموع غير العاقل وغير حقيقي التأنيث.

{ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً } استئناف يفيد التعريض بأنّ مقالتهم تقتضي تعجيل العقاب لهم في الدنيا لولا أنّ الله عاملهم بالحلم والإمهال. وفي ذلك تعريض بالحث على الإقلاع عن مقالتهم ليغفر الله لهم.

{ كَانَ } للدلالة على أنّ الحلم والغفران صفتان له محققتان.

{ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً } [45].

عطف جملة على جملة وقصّة على قصّة، فإنّه لمّا نوّه بالقرآن في قوله تعالى { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ } [9]، ثم أعقب بما اقتضاه السياق من الإشارة إلى ما جاء به القرآن من أصول العقيدة وجوامع الأعمال وما تخلّل ذلك من المواعظ والعبر عاد هنا إلى التنبيه على عدم انتفاع المشركين بهدي القرآن لمناسبة الإخبار عن عدم فقههم دلالة الكائنات على تنزيه الله تعالى عن النقائص، وتنبيها للمشركين على وجوب إقلاعهم عن عبثهم وعنادهم، وتأمينا للنبيّ صلى الله عليه وسلم من مكرهم به وإضمارهم

إضراره، وقد كانت قراءته القرآن تغيظهم وتثير في نفوسهم الانتقام.
{ **حِجَاباً** } حقيقته الساتر الذي يحجب البصر عن رؤية ما وراءه. وهو هنا مستعار للصرْفة التي يصرف الله بها أعداء النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الإضرار به، وللإعراض الذي يعرضون به عن استماع القرآن وفهمه. وجعل الله الحجاب المذكور إيجاد ذلك الصارف في نفوسهم بحيث يهمّون ولا يفعلون، من خور الإرادة والعزيمة بحيث يخطر الخاطر في نفوسهم ثم لا يصمّمون، وتخطر معاني القرآن في أسماعهم ثم لا يتفهّمون. وذلك خلق يسري إلى النفوس تدريجيا تغرسه في النفوس، بادئ الأمر، شهوة الإعراض وكراهية المسموع منه ثم لا يلبث أن يصير مَلَكَةً في النفس لا تقدر على خلعه ولا تغييره.
{ **مَسْتُوراً** } مبالغة في حقيقة جنسه، أي: حجابا بالغا الغاية في حجب ما يحجبه هو حتّى كأنّه مستور بساتر آخر، فذلك في قوّة أن يقال: جعلنا حجابا فوق حجاب. مثل قوله { وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً } [الفرقان:22].
أو أريد أنّه حجاب من غير جنس الحجب المعروفة، فهو حجاب لا تراه الأعين ولكنها ترى آثار أمثاله.
وقد ثبت في أخبار كثيرة أن نفرا هموا الإضرار بالنبيّ صلى الله عليه وسلم فما منهم إلّا وقد حدث له ما حال بينه وبين همّه وكفى الله نبيه شرهم، قال تعالى { فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ } [البقرة:137].
وفي الجميع بين { حِجَاباً } و{ مَسْتُوراً } من البديع الطباق.

{ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً } [46].

عطف جعل على جعل. والتصريح بإعادة فعل الجعل يؤذن بأنّ هذا جعل آخر، فيُرجّح أن يكون جعل الحجاب المستور جعل الصرفة عن الإضرار، ويكون هذا جعل عدم التدبّر في القرآن خلقة في نفوسهم.
والقول في نظم هذه الآية ومعانيها تقدّم في نظيرها في [الأنعام:25].
لمّا كان الإخبار عنهم قبل هذا يقتضي أنّهم لا يفقهون معاني القرآن أُتبع ذلك بأنّهم يُعرِضون عن فهم ما فيه

خير لهم، فإذا سمعوا ما يُبطل إلهية أصنامهم فهموا ذلك فولّوا على أدبارهم نفورا، أي: زادهم ذلك الفهم ضلالا كما حرمهم عدم الفهم هديا، فحالهم متناقض. فهم لا يسمعون ما يحقّ أن يُسمع، ويسمعون ما يهوَوْن أن يسمعوه ليزدادوا به كفرا.
{ **وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ** } يحتمل أنّ المعنى: إذا ذكرت ربك بتوحيده بالإلهية، وهو المناسب لنفورهم وتولّيهم، لأنّهم إنّما ينكرون انفراد الله تعالى بالإلهيّة، فتكون دلالة { وَحْدَهُ } على هذا المعنى بمعونة المقام وفعل { ذَكَرْتَ } أي: ذكرته موصوفا بالوحدانية.

{ **وَحْدَهُ** } تقدّم الكلام عليها عند قوله تعالى { قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ } [الأعراف:70].

التولية: الرجوع من حيث أتى.

{ **عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً** } تقدّم القول فيه في قوله تعالى { وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ } [المائدة:21].

{ **نُفُوراً** } يجوز أن يكون جمع نافر مثل سجود وشهود. ووزن فعول يطّرد في جمع فاعل فيكون اسم الفاعل على صيغة المصدر، فيكون نفورا على هذا منصوبا على الحال من ضمير { وَلَّوْا }.

ويجوز جعله مصدرا منصوبا على المفعولية لأجله، أي: ولّوا بسبب نفورهم من القرآن.

{ **نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً** } [47].

كان المشركون يحيطون بالنبيّ صلى الله عليه وسلم في المسجد الحرام إذا قرأ القرآن يستمعون لما يقوله ليتلقّفوا ما في القرآن ممّا ينكرونه، مثل توحيد الله، وإثبات البعث بعد الموت، فيعجّب بعضهم بعضا من ذلك. فكان الإخبار عنهم بأنّهم جُعلت في قلوبهم أكنّة أن يفقهوه وفي آذانهم وقر، وأنّهم يولّون على أدبارهم نفورا إذا ذكر الله وحده، يثير في نفس السامع سؤالا عن سبب تجمّعهم لاستماع قراءة النبيّ صلى الله عليه وسلم، فكانت هذه الآية جوابا عن ذلك السؤال. فالجملة مستأنفة استئنافا بيانيا.

{ **نَحْنُ** } افتتاح الجملة بضمير الجلالة لإظهار العناية بمضمونها. والمعنى: أن الله يعلم علما حقّا داعي استماعهم.

{ **أَعْلَمُ** } اسم تفضيل مسلوب المفاضلة، إذ لا يقتضيه المقام، مستعمل في معنى قوّة العلم وتفصيله.

{ **بِمَا يَسْتَمِعُونَ** } الباء لتعدية اسم التفضيل إلى متعلّقه لأنّه قاصر عن التعدية إلى المفعول. واسم التفضيل المشتق من العلم ومن الجهل يعدّى بالباء وفي سوى ذينك يعدّى باللام، يقال: هو أعطى للدراهم.

{ **يَسْتَمِعُونَ بِهِ** } الباء للملابسة. والضمير المجرور بالباء عائد إلى (ما) الموصولة، أي: نحن أعلم بالشيء الذي يلابسهم حين يستمعون إليك.

{ **إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى** }.

النجوى: اسم مصدر المناجاة، وهي المحادثة سرّا. وتقدّم في قوله تعالى { لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ } [النساء: 114]. وأخبر عنهم بالمصدر للمبالغة في كثرة تناجيهم عند استماع القرآن تشاغلا عنه.

أي نحن أعلم بالذي يستمعونه، ونحن أعلم بنجواهم.

{ **إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً** } بدل من { وَإِذْ هُمْ نَجْوَى } بدل بعض من كلّ، لأنّ نجواهم غير منحصرة في هذا القول. وإنّما خُصّ هذا القول بالذكر لأنّه أشدّ غرابة من بقية آفاكهم، للبَون الواضح بين حال النبيّ صلى الله عليه وسلم وبين حال المسحور.

{ **إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ** } وقع إظهار في مقام الإضمار، دون: إذ يقولون، للدلالة على أنّ باعث قولهم ذلك هو الظلم، أي: الشرك، فإنّ الشرك ظلم، أي: ولولا شركهم لما مثّل عاقل حالة النبيّ الكاملة بحالة المسحور. ويجوز أن يراد بالظلم الاعتداء، أي: الاعتداء على النبيّ صلى الله عليه وسلم كذبا.

{ **انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً** } [48].

جملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا ونظائرها كثيرة في القرآن. والتعبير بفعل النظر إشارة إلى أنّه بلغ من الوضوح أن يكون منظورا. والاستفهام بـ { كَيْفَ } للتعجيب من حالة تمثيلهم للنبيّ صلى الله عليه وسلم بالمسحور ونحوه.

{ **ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ** } أصل ضرب وضع الشيء وتثبيته، يقال: ضرب خيمة، ويطلق على صوغ الشيء على حجم مخصوص، يقال: ضرب دنانير، وهو هنا مستعار للإبراز والبيان، تشبيها للشيء المبرز المبيَّن بالشيء المثبت. وتقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً } [البقرة:26].

{ **لَكَ** } اللام للتعليل والأجل، أي: ضربوا الأمثال لأجل تمثيلك، أي: مثّلوك. يقال: ضربت لك مثلا بكذا. وأصله مثّلتك بكذا، قال تعالى { فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ } [النحل:74]، وقال تعالى { وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ } [يس:13]، أي: اجعلهم مثلا لحالهم.

{ **الْأَمْثَال** } جمع هنا، وإن كان المحكي عنهم أنّهم مثّلوه بالمسحور، وهو مثل واحد، لأنّ المقصود التعجيب من هذا المثل ومن غيره فيما يصدر عنهم من قولهم: هو شاعر، هو كاهن، هو مجنون، هو ساحر، هو مسحور، وسمّيت أمثالا باعتبار حالهم لأنّهم تحيّروا فيما يصفونه به للنّاس لئلا يعتقدوه نبيّا.

{ **فَضَلُّوا** } فُرّع ضلالهم على ضرب أمثالهم لأنّ ما ضربوه من الأمثال كلّه باطل وضلال وقوّة في الكفر. أي: فظهر ضلالهم في ذلك، كقوله تعالى { كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا } [القمر:9].

ويجوز أن يراد بالضلال هنا أصل معناه، وهو الحيرة في الطريق وعدم الاهتداء، أي: ضربوا لك أشباها كثيرة لأنّهم تحيّروا فيما يعتذرون به عن شأنك العظيم.

{ **فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً** } تفريع على { فَضَلُّوا }، تفريع لتوغّلهم في الحيرة على ضلالهم في ضرب تلك الأمثال.

السبيل: الطريق، واستطاعته استطاعة الظفر به، فيجوز أن يراد بالسبيل سبيل الهدى على الوجه الأوّل في تفسير الضلال، ويجوز أن يكون تمثيلا لحال ضلالهم بحال الذي وقف في فيفاء لا يدري من أية جهة يسلك إلى المقصود، على الوجه الثاني في تفسير الضلال.

والمعنى على الوجه الثاني: أنّهم تحيّروا كيف يصفون حالك للنّاس لتوقّعهم أنّ النّاس يكذّبونهم، فلذلك جعلوا ينتقلون من صفة إلى صفة لاستشعارهم أن ما يصفونه به باطل لا يطابقه الواقع.

{ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً } [49].

يجوز أن تكون الجملة معطوفة على جملة { قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ } [42] باعتبار ما تشتمل عليه من قوله { كَمَا يَقُولُونَ } لقصد استئصال ضلالة أخرى من ضلالاتهم بالحجّة الدامغة.

ويجوز أن تكون عطفا على جملة { إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلّا رَجُلاً مَسْحُوراً } [47] التي مضمونها مظروف للنجوى، فيكون هذا القول ممّا تناجوا به بينهم، ثم يجهرون بإعلانه ويعدّونه حجّتهم على التكذيب.

{ أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً } تقديم الظرف للاهتمام به لأنّ مضمونه هو دليل الاستحالة في ظنّهم، فالإنكار متسلّط على جملة { أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ }. وأصل تركيب الجملة: أإنا لمبعوثون إذا كنا عظاما ورفاتا.

البعث: الإرسال. وأطلق هنا على إحياء الموتى، لأنّ الميّت يشبه الماكث في عدم مبارحة مكانه.

العظام: جمع عظم، وهو ما منه تركيب الجسد للإنسان والدواب.

الرفات: الأشياء المرفوتة، أي: المفتتة. يقال: رفت الشيء إذا كسّره كِسرًا دقيقة.

{ خَلْقاً جَدِيداً } حال من ضمير { لَمَبْعُوثُونَ }، وذكر الحال لتصوير استحالة البعث بعد الفناء لأنّ البعث هو الإحياء، فإحياء العظام والرفات محال عندهم، وكونهم خلقا جديدا أدخل في الاستحالة.

{ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً [50] أَوْ خَلْقاً ممّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبا [51] يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلّا قَلِيلاً [52] }.

جواب عن قولهم { أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً }. أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يجيبهم بذلك.

وقرينة ذلك مقابلة فعل { كُنَّا } في مقالهم بقوله تعالى { كُونُوا }، ومقابلة { عِظَاماً وَرُفَاتاً } في مقالهم بقوله تعالى { حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً }، مقابلة أجسام واهية بأجسام صلبة. ومعنى الجواب أنّ وهن الجسم مساو لصلابته بالنسبة إلى قدرة الله تعالى على تكييفه كيف يشاء.

لهذا كانت الجملة غير معطوفة، جريا على طريقة المحاورات التي بيّنتها عند قوله تعالى { قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا } [البقرة:30].

واعلم أن ارتباط رد مقالتهم بقوله تعالى { كُونُوا حِجَارَةً ... } غامض، لأنّهم إنّما استبعدوا أو أحالوا إرجاع الحياة إلى أجسام تفرّقت أجزاؤها وانخرم هيكلها، ولم يعلّلوا الإحالة بأنّها صارت أجساما ضعيفة، فيردّ عليهم بأنّها لو كانت من أقوى الأجسام لأعيدت لها الحياة. فبنا أن نبيّن وجه الارتباط بين الردّ على مقالتهم وبين مقالتهم المردودة، وفي ذلك ثلاثة وجوه:

الوجه الأوّل: أن تكون صيغة الأمر في قوله تعالى { كُونُوا } **مستعملة في معنى التسوية**، ويكون دليلا على جواب محذوف تقديره: إنّكم مبعوثون سواء كنتم عظاما و رفاتا أو كنتم حجارة أو حديدا، تنبيها على أنّ قدرة الله تعالى لا يتعاصى عليها شيء. وذلك إدماج يجعل الجملة في معنى التذييل.

الوجه الثاني: أن تكون صيغة الأمر في قوله تعالى { كُونُوا } **مستعملة في الفرض**، أي: لو فرض أن تكون الأجساد من الأجسام الصلبة وقيل لكم: إنكم مبعوثون بعد الموت لأحلتم ذلك واستبعدتم إعادة الحياة فيها. وعلى كلا الوجهين يكون قوله تعالى { ممّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ } نهاية الكلام، ويكون قوله تعالى { فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا } مفرَّعا على جملة { وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا } [49] تفريعا على الاستئناف، وتكون الفاء للاستئناف وهي بمعنى الواو على خلاف في مجيئها للاستئناف، والكلام انتقال لحكاية تكذيب آخر من تكذيباتهم.

الوجه الثالث: أن يكون قوله تعالى { قُلْ كُونُوا حِجَارَةً } **كلاما مستأنفا ليس جوابا** على قولهم { أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً } [49]، وتكون صيغة الأمر { كُونُوا } مستعملة في التسوية. وفي هذا الوجه يكون قوله تعالى { فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا } متصلا بقوله تعالى { كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً }، ومفرَّعا على كلام محذوف يدلّ عليه قوله تعالى { كُونُوا حِجَارَةً }، أي: فلو كانوا كذلك لقالوا: من يعيدنا، أي: لانتقلوا في مدارج السفسطة من إحالة الإعادة إلى ادعاء عدم وجود قادر على إعادة الحياة لهم لصلابة أجسادهم. وبهذه الوجوه يلتئم نظم الآية وينكشف ما فيه من غموض.

الحديد: تراب معدني لا يوجد إلّا في مغاور الأرض، وهو تراب غليظ مختلف الغلظ ثقيل أدكن اللون، وهو إما محتّت الأجزاء وإما مُورِقها، أي: مثل الورق. وأصنافه ثمانية عشر باعتبار اختلاف تركيب أجزائه، وتتفاوت ألوان هذه الأصناف، وأشرف أصنافه الخالص، وهو السالم في جميع أجزائه من المواد الغريبة.

الخلق: بمعنى المخلوق، أي: أو خلقا آخر ممّا يعظم في نفوسكم عن قبوله الحياة، ويستحيل عندكم على الله إحياؤه مثل الفولاذ والنحاس.

{ **ممّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ** } صفة { خَلقاً }، ومعنى { يَكْبُرُ } يعظم، وهو عِظَمٌ مجازي بمعنى القويّ في نوعه وصفاته. **الصدور**: العقول، أي: ممّا تعدّونه عظيما لا يتغيّر. وفي الكلام حذف، والتقدير: كونوا أشياء أبعد عن قبول الحياة من العظام والرفات.

{ **فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا** } التفريع في على جملة { قُلْ كُونُوا حِجَارَةً }. جعل سؤالهم هنا عن المُعيد لا عن أصل الإعادة لأنّ البحث عن المُعيد أدخل في الاستحالة من البحث عن أصل الإعادة، فهو بمنزلة الجواب بالتسليم الجدلي بعد الجواب بالمنع، فإنّهم نفوا إمكان إحياء الموتى، ثم انتقلوا إلى التسليم الجدلي، لأنّ التسليم الجدلي أقوى، في معارضة الدعوى، من المنع.

{ **مَنْ يُعِيدُنَا** } الاستفهام تهكّمي.

{ **قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ** } لمّا كان قولهم هذا محقّق الوقوع في المستقبل أمر النبيّ بأن يجيبهم، عندما يقولونه، جواب تعيين لمن يُعيدهم إبطالا للازم التهكّم، وهو الاستحالة في نظرهم، إجراء لظاهر استفهامهم على أصله بحمله على خلاف مرادهم، لأنّ ذلك أجدر على طريقة الأسلوب الحكيم لزيادة المحاجة، كقوله في محاجة موسى لفرعون { قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ إلّا تَسْتَمِعُونَ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ } [الشعراء:26/25].

{ **الَّذِي فَطَرَكُمْ** } جيء بالمسند إليه موصولا لقصد ما في الصلة من الإيماء إلى تعليل الحكم بأنّ الذي فطرهم أوّل مرة قادر على إعادة خلقهم، كقوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ } [الروم:27] فإنّه لقدرته التي ابتدأ بها خلقكم في المرة الأولى قادر أن يخلقكم مرّة ثانية.

الانغاض: التحريك من أعلى إلى أسفل والعكس. وهو تحريك الاستهزاء.

{ **وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ** } استفهموا عن وقته استفهام تهكّم أيضا. فأمر الرسول بأن يجيبهم جوابا حقّا إبطالا للازم التهكّم، كما تقدّم في نظيره آنفا. وضمير { **هُوَ** } عائد إلى العود المأخوذ من قوله { يُعِيدُنَا }.

{ **قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبا** } للرجاء على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم، والمعنى: لا يبعد أن يكون قريبا.

{ **يَوْمَ** } بدل من الضمير المستتر في { يَكُونَ }. وفتحته فتحة بناء لأنّه أضيف إلى الجملة الفعلية.

ويجوز أن يكون ظرفا لـ { يَكُونَ }، أي: يكون يوم يدعوكم، وفتحته فتحة نصب على الظرفية.

{ **يَدْعُوكُمْ** } يجوز أن يُحمل على حقيقته، أي: دعاء الله النّاس بواسطة الملائكة الذين يسوقون النّاس إلى المحشر. ويجوز أن يُحمل على الأمر التكويني بإحيائهم، فأطلق عليه الدعاء، لأنّ الدعاء يستلزم إحياء المدعو وحصول حضوره، فهو مجاز في الإحياء والتسخير لحضور الحساب.

{ **فَتَسْتَجِيبُونَ** } مستعارة لمطاوعة معنى { يَدْعُوكُمْ }، أي: فتحيون وتمثلون للحساب. وليس للعظام والرفات إدراك واستماع ولا ثمّ استجابة، لأنّها فرع السماع، وإنّما هو تصوير لسرعة الإحياء والإحضار وسرعة الانبعاث والحضور للحساب. وضمائر الخطاب على هذا خطاب للكفار القائلين { مَنْ يُعِيدُنَا - مَتَى هُوَ }.

{ **بِحَمْدِهِ** } الباء للملابسة، فهي في معنى الحال، أي: حامدين، فهم إذا بُعثوا خُلق فيهم إدراك الحقائق علموا أنّ الحق لله. ويجوز أن يكون { بِحَمْدِهِ } متعلّقا بمحذوف على أنّه من كلام النبيّ صلى الله عليه وسلم. والتقدير: انطق بحمده، أي: احمد الله على ظهور صدق ما أنبأتكم به، ويكون اعتراضا بين المتعاطفات.

{ **وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلّا قَلِيلاً** } عطف على { فَتَسْتَجِيبُونَ }، أي: وتحسبون أنّكم ما لبثتم في الأرض إلّا قليلا. والمراد: التعجيب من هذه الحالة، ولذلك جاء في بعض آيات أخرى سؤال المولى حين يُبعثون عن مدّة لبثهم تعجيبا من حالهم، قال تعالى { قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ

فاسْأَلِ الْعَادِّينَ قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلّا قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [المؤمنون:112- 114]، وقال { فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ } [البقرة:259].

وهذا التعجيب تنديم للمشركين وتأييد للمؤمنين. والمراد هنا: أنّهم ظنّوا ظنّا خاطئا، وهو محلّ التعجيب.

وأمّا قوله تعالى في الآية الأخرى { قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلّا قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } فمعناه: أنّه وإن طال فهو قليل بالنسبة لأيام الله.

{ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً } [53].

لمّا أُعقِب ما أمِر النبيّ صلى الله عليه وسلم بتبليغه إلى المشركين من أقوال تعظهم من قوله تعالى { قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا تَقُولُونَ } [42]، وقوله تعالى { قُلْ كُونُوا حِجَارَةً } [50]، وقوله تعالى { قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً } [51] ثُنِّيَ العنان إلى الأمر بإبلاغ المؤمنين تأديبا ينفعهم في هذا المقام، على عادة القرآن في تلوين الأغراض وتقريب بعضها ببعض أضدادها، استقصاء لأصناف الهُدى ومختلف أساليبه، ونفع مختلف النّاس.

ولمّا كان ما سبق من حكاية أقوال المشركين تُنبئ عن ضلال اعتقادٍ نُقل الكلام إلى أمر المؤمنين بأن يقولوا أقوالا تُعرب عن حسن النيّة وعن نفوس زكيّة. وأوتوا في ذلك كلمة جامعة وهي { يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ }.

{ **الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** } صفة لمحذوف يدلّ عليه فعل { يَقُولُوا }. تقديره: بالتي هي أحسن. وليس المراد مقالة واحدة. واسم التفضيل مستعمل في قوّة الحسن. ونظيره قوله { وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } [النحل:125].

فهذه الآية شديدة الاتصال بالتي قبلها وليست بحاجة إلى تطلّب سبب لنزولها. وهذا تأديب عظيم في مراقبة اللسان وما يصدر منه. وفي الحديث الصحيح عن معاذ بن جبل: أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أمره بأعمال تدخله الجنّة ثم قال له:**" ألا أخبرك بملاك ذلك كلّه؟** قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه وقال: **كف عليك هذا.** قال: قلت: يا رسول الله وإنّا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: **ثكلتك أمك، وهل يكبّ النّاس في النار على وجوههم،** (أو قال: **على مناخرهم**)، **إلّا حصائد ألسنتهم ".**

والمقصد الأهمّ من هذا التأديب تأديب الأمّة في معاملة بعضهم بعضا بحسن المعاملة وإلانة القول. لأنّ القول ينمّ عن المقاصد بقرينة قوله تعالى { إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ }. ثم تأديبهم في مجادلة المشركين اجتنابا لما تثيره المشادة والغلظة من ازدياد مكابرة المشركين وتصلّبهم، فذلك من نزغ الشيطان بينهم وبين عدوّهم.

قال تعالى { ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كأنّه وَلِيٌّ حَمِيمٌ } [فصلت:34]. والمسلمون في مكّة يومئذ طائفة قليلة وقد صرف الله عنهم ضرّ أعدائهم بتصاريف من لطفه ليكونوا آمنين. فأمرهم أن لا يكونوا سببا في إفساد تلك الحالة.

{ **لِعِبَادِي** } المؤمنون كما هو المعروف من اصطلاح القرآن في هذا العنوان.

وروي أنّ قول التي هي أحسن أن يقولوا للمشركين: يهديكم الله. يرحمكم الله، أي: بالإيمان.

وعن الكلبي: كان المشركون يؤذون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقول والفعل، فشكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله هذه الآية.

{ **يَقُولُوا** } مجزوم على حذف لام الأمر وهو وارد كثيرا بعد الأمر بالقول. والتقدير: قل لهم: قولوا التي هي أحسن. فيكون كناية على أنّ الامتثال شأنهم فإذا أمروا امتثلوا. وقد تقدّم نظيره في قوله تعالى { قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ } [إبراهيم:31].

النزغ: أصله الطعن السريع. واستُعمل هنا في الإفساد السريع الأثر. وتقدّم في قوله تعالى { مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي } [يوسف:100].

{ **إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ** } تعليل للأمر بقول التي هي أحسن. والمقصود من التعليل أنّ لا يستخفّوا بفاسد الأقوال، فإنّها تثير مفاسد من عمل الشيطان.

{ **بَيْنَهُمْ** } لمّا كان الضمير عائدا إلى { لِعِبَادِي } كان المعنى التحذير من إلقاء الشيطان العداوة بين المؤمنين تحقيقا لمقصد الشريعة من بثّ الأخوّة الإسلامية.

روى الواحدي: أنّ عمر بن الخطاب شتمه أعرابي من المشركين فشتمه عمر وهمّ بقتله فكاد أن يثير فتنة فنزلت هذه الآية. وأياما كان سبب النزول فهو لا يُقيّد إطلاق صيغة الأمر للمسلمين بأن يقولوا التي أحسن في كل حال.

{ **إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً** } تعليل لجملة { يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ }، وعلّة العلّة علّة.

{ **كَانَ** } للدلالة على أنّ صفة العداوة أمر مستقرّ في خِلقته قد جُبل عليه. وعداوته للإنسان متقرّرة من وقت نشأة آدم عليه الصلاة والسلام، وأنّه يسوّل للمسلمين أن يغلظوا على الكفار يوهمهم أنّ ذلك نصر للدين ليوقعهم في الفتنة، فإنّ أعظم كيد الشيطان أن يوقع المؤمن في الشرّ وهو يوهمه أنّه يعمل خيرا.

{ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً } [54].

هذا الكلام متّصل بقوله تعالى { نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ - إلى قوله - فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً } [48]. فإنّ ذلك ينطوي على ما هو شأن نجواهم من التصميم على العناد والإصرار على الكفر. وذلك يسوء النبيّ صلى الله عليه وسلم ويحزنه أن لا يهتدوا. فوُجّه هذا الكلام إليه تسلية له. ويدلّ لذلك تعقيبه بقوله تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً }.

{ **رَبُّكُمْ** } أوتي بالمسند إليه بلفظ الربّ مضافا إلى ضمير المؤمنين الشامل للرّسول، تذكيرا بأنّ الاصطفاء للخير شأن من معنى الربوبيّة التي هي تدبير شؤون المربوبين بما يليق بحالهم، ليكون لإيقاع المسند على المسند إليه بعد ذلك بقوله تعالى { أَعْلَمُ بِكُمْ } وقع بديع، لأنّ الذي هو الربّ هو الذي يكون أعلم بدخائل النفوس وقابليّتها للاصطفاء.

{ **أَعْلَمُ بِكُمْ** } أعلم بحالكم، لأنّ الحالة هي المناسبة لتعلّق العلم.

{ **إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ** } مبيّنة للمقصود من جملة { أَعْلَمُ بِكُمْ }. الكناية عن مشيئة هديه إيّاهم الذي هو سبب الرحمة. أو مشيئة تركهم وشأنهم. وهذا أحسن ما تفسّر به هذه الآية ويُبيّن موقعها، وما قيل غيره أراه لا يلتئم.

والرحمة والتعذيب مُكنًّى بهما عن الاهتداء والضلال، بقرينة مقارنته لقوله تعالى { رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ } الذي هو كالمقدّمة. وسلك سبيل الكناية بهما لإفادة فائدتين: صريحهما وكنايتهما، ولإظهار أنّه لا يُسأل عما يفعل، لأنّه أعلم بما يليق بأحوال مخلوقاته. فلمّا ناط الرحمة بأسبابها والعذاب بأسبابه، بحكمته وعدله، عُلم أنّ معنى مشيئته الرحمة أو التعذيب هو مشيئة إيجاد أسبابهما.

{ **أَوْ** } للتقسيم، لأنّ الرحمة والتعذيب لا يجتمعان.

{ **إِنْ يَشَأْ - إِنْ يَشَأْ** } ذكر شرط المشيئة هنا فائدته التعليم بأنّه تعالى لا مُكره له، فجمعت الآية الإشارة إلى صفة العلم والحكمة وإلى صفة الإرادة والاختيار. وإعادة شرط المشيئة في الجملة المعطوفة لتأكيد تسلط المشيئة على الحالتين.

{ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً** } زيادة لبيان أنّ الهداية والضلال من جعل الله تعالى، وأنّ النبيّ غير مسؤول عن استمرار من استمر في الضلالة، إزالة للحرج عنه فيما يجده من عدم اهتداء من يدعوهم، أي: ما أرسلناك لتجبرهم على الإيمان وإنّما أرسلناك داعيا.

الوكيل على الشيء: هو المسؤول به. والمعنى: أرسلناك نذيرا وداعيا لهم وما أرسلناك عليهم وكيلا، فيفيد معنى القصر لأنّ كونه داعيا ونذيرا معلوم بالمشاهدة، فإذا نفي عنه أن يكون وكيلا وملجئا آل إلى معنى: ما أنت إلّا نذير.

{ **عَلَيْهِمْ** } الضميرعائد إلى المشركين. وهو متعلّق بـ { وَكِيلاً }. وقُدّم على متعلّقه للاهتمام وللرعاية على الفاصلة.

{ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً } [55].

تماثل القرينتين في فاصلتي هذه الآية من كلمة { وَالْأَرْضِ } وكلمة { عَلَى بَعْضٍ }. يدلّ دلالة واضحة على أنّهما كلام مرتبط بعضه ببعض، وأن ليس قوله تعالى { وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }

تكملة لآية { رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ } [54].

{ **وَرَبُّكَ أَعْلَمُ** } تغيير أسلوب الخطاب بعد قوله تعالى { رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ } [54] إيماء إلى أنّ الغرض من هذه الجملة عائد إلى شأن من شؤون النبيّ صلى الله عليه وسلم التي لها مزيد اختصاص به، تقفية على إبطال أقوال المشركين في شؤون الصفات الإلهية. بإبطال أقوالهم في أحوال النبيّ بغرورهم أنّه لم يكن من عظماء أهل بلادهم وقادتهم، وقالوا: أبعث الله يتيم أبي طالب رسولا، أبعث الله بشرا رسولا. فأبكتهم الله بهذا الرد.

{ **وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } كالمقدمة لقوله تعالى{ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ }. أعاد تذكيرهم بأنّ الله أعلم منهم بالجدير بالرسالة بحسب ما أعدّه الله فيه من الصفات القابلة لذلك، كما قال عنهم { قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حتّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ } [الأنعام:124].

وكان الحكم في هذه المقدّمة على عموم الموجودات لتكون بمنزلة الكليّة التي يؤخذ كل حكم لجزئيّاتها، لأنّ المقصود بالإبطال من أقوال المشركين جامع لصور كثيرة من أحوال الموجودات من البشر والملائكة وأحوالهم، لأنّ بعض المشركين أحالوا إرسال رسولا من البشر. وبعضهم أحالوا إرسال رسول ليس من عظمائهم، وبعضهم أحالوا إرسال من لا يأتي بمثل ما جاء به موسى عليه السلام . وذلك يثير أحوالا جمّة من العصور والرجال والأمم أحياء وأمواتا. فلا جرم كان للتعميم موقع عظيم في قوله تعالى { بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }.

وهو أيضا كالمقدّمة لجملة { وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ }، مشيرا إلى أنّ تفاضل الأنبياء ناشئ على ما أودعه الله فيهم من موجبات التفاضل. وهذا إيجاز تضمّن إثبات النبوّة وتقرّرها فيما مضى ممّا لا قِبل لهم بإنكاره، وتعدد الأنبياء، ممّا يجعل محمدا صلى الله عليه وسلم ليس بدعا من الرّسل.

فعُلم أنّ طعنهم في نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم طعن مكابرة وحسد.

كما قال تعالى في شأن اليهود { أَمْ يَحْسُدُونَ النّاس عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً } [النساء:54].

{ **وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً** } تخصيص داود عليه السلام بالذكر عقب هذه القضيّة العامة وجّهه صاحب الكشاف ومن تبعه بأنّ فائدة التلميح إلى أنّ محمدا صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء وأمته أفضل الأمم لأنّ في الزبور أنّ الأرض يرثها عباد الله الصالحون. وهذا حسن.

وأنا أرى أن يكون وجه هذا التخصيص الإيماء إلى أن كثيرا من الأحوال المرموقة في نظر الجاهلين وقاصري الأنظار بنظر الغضاضة، هي أحوال لا تعوق أصحابها عن الصعود في مدارج الكمال التي اصطفاها الله لها، وأن التفضيل بالنبوّة والرسالة لا ينشأ عن عظمة سابقة، فإنّ داود عليه السلام كان راعيا من رعاة الغنم في بني إسرائيل. وكان ذا قوة في الرمي بالحجر، فأمر الله شاول ملك بني إسرائيل

أن يختار داود لمحاربة جالوت الكنعاني، فلمّا قتل داود جالوت آتاه الله النبّوة وصيّره ملكا لإسرائيل، فهو النبيّ الذي تجلّى فيه اصطفاء الله تعالى لمن لم يكن ذا عظمة وسيادة.

وذِكر إيتائه الزبور هو محلّ التعريض للمشركين بأنّ المسلمين سيرثون أرضهم وينتصرون، عليهم لأنّ ذلك مكتوب في الزبور كما تقدّم آنفا. وقد أوتي داود الزبور ولم يؤت أحد من أنبياء بني إسرائيل كتابا بعد موسى عليه السلام.

داود: تقدّم ذكره في [النساء:163]، وفي [الأنعام:84].

الزبور: اسم لجموع أقوال داود عليه السلام التي بعضها ممّا أوحاه الله إليه وبعضها ممّا ألهمه من دعوات ومناجاة وهو المعروف اليوم بكتاب المزامير من كتب العهد القديم.

وتقدّم ذكره عند قوله تعالى { وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً } [النساء:163].

{ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً } [56].

لم أر لهذه الآية تفسيرا يُثْلَج له الصدر، والحيرة بادية على أقوال المفسّرين في معناها وانتظام موقعها مع سابقها، ولا حاجة إلى استقراء كلماتهم. ومرجعها إلى طريقتين في محمل { الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ } إحداهما في تفسير الطبري وابن عطية عن ابن مسعود والحسن. وثانيتهما في تفسير القرطبي والفخر غير معزوّة لقائل.

<u>والذي أرى في تفسيرها</u> أنّ الآية معترضة بين جملة { وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ } وجملة {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ} [57]. وذلك أنّه لمّا جرى ذكر الأفضلين من الأنبياء في أثناء آية الردّ على المشركين مقالتهم في اصطفاء محمد صلى الله عليه وسلم للرسالة واصطفاء أتباعه لولايته ودينه، وهي آية { وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [55] إلى آخرها، جاءت المناسبة لردّ مقالة أخرى من مقالاتهم الباطلة وهي اعتذارهم عن عبادة الأصنام بأنّهم ما يعبدونهم إلّا ليقرّبوهم إلى الله زلفى، فجعلوهم عبادا مقرّبين ووسائل لهم إلى الله.

فلمّا جرى ذكر المقرّبين حقّا انتُهزت مناسبة ذكرهم لتكون مخلصًا إلى إبطال ما ادّعوه من وسيلة أصنامهم على عادة إرشاد القرآن من اغتنام مناسبات الموعظة. وذلك من أسلوب الخطباء.

فبعد أن أبطل أن يكون مع الله آلهة ببرهان العقل عاد إلى إبطال إلهيتهم المزعومة ببرهان الحسّ، وهو مشاهدة أنّها لا تغني عنهم كشف الضرّ.

{ **فَلَا يَمْلِكُونَ** } بمعنى الاستطاعة والقدرة كما في قوله تعالى { قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً } [المائدة:17].

والمقصود من ذلك بيان البون بين الدعاء الحقّ والدعاء الباطل. ومن نظائر هذا المعنى في القرآن قوله تعالى { إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ } [الأعراف:197/196].

الكشف: مستعار للإزالة.

التحويل: نقل الشيء من مكان إلى مكان، أي: لا يستطيعون إزالة الضرّ عن الجميع، ولا إزالته عن واحد إلى غيره.

{ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً } [57].

{ **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ** } الإشارة إلى النبيين لزيادة تمييزهم.

المعنى: أولئك الذين إن دعوا يُستجب لهم ويُكشف عنهم الضرّ، وليسوا كالذين تدعونهم فلا يملكون كشف الضرّ عنكم بأنفسهم ولا بشفاعتهم عند الله، كما رأيتم من أنّهم لم يغنوا عنكم من الضر كشفا ولا صرفا.

الوسيلة: المرتبة العالية القريبة من عظيم كالمَلك.

{ **أَيُّهُمْ أَقْرَبُ** } يجوز أن يكون بدلا من ضمير { يَبْتَغُونَ } بدل بعض، وتكون (أي) موصولة. والمعنى: الذي هو أقرب من رضى الله يبتغي زيادة الوسيلة إليه، أي: يزداد عملا للازدياد من رضى الله عنه واصطفائه.

ويجوز أن يكون بدلا من جملة { يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ }، و(أي) استفهامية، أي: يبتغون معرفة جواب: أيّهم أقرب عند الله.

أقرب: اسم تفضيل، ومتعلّقه محذوف دلّ عليه السياق. والتقدير: أيّهم أقرب إلى ربّهم.

{ **وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ** } ذكر خوف العذاب بعد رجاء الرحمة للإشارة إلى أنّهم في موقف الأدب مع ربّهم فلا يزيدهم القرب من رضاه إلّا إجلالا له وخوفا من غضبه. وهو تعريض بالمشركين الذين ركبوا رؤوسهم وتوغّلوا في الغرور فزعموا أنّ شركاءهم شفعاؤهم عند الله.

{ **إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً** } تذييل. ومعنى { كَانَ مَحْذُوراً } أن حقيقته تقتضي حذر الموفّقين، إذ هو جدير بذلك.

{ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً } [58].

لمّا عرَّض بالتهديد للمشركين في قوله تعالى { إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً } [57]، وتحدّاهم بقوله تعالى { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً } [56]، جاء بصريح التهديد على مسمع منهم بأنّ كلّ قرية مثل قريتهم في الشرك لا يعدوها عذاب الاستيصال، وهو يأتي على القرية وأهلها، أو عذاب الانتقام بالسيف والذلّ والأسر والخوف والجوع وهو يأتي على أهل القرية،

مثل صرعى بدر، كلّ ذلك في الدنيا.

فالمراد: القرى الكافر أهلها لقوله تعالى { وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ } [هود:117]، وقوله تعالى { وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ } [القصص:59].

وحذف الصفة في مثل هذا معروف كقوله تعالى { يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً } [الكهف:79]، أي: كل سفينة صالحة، بقرينة قوله { فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا } [الكهف:79].

فلوا سلّمنا أنّ هذا الحكم لا تنفلت منه قرية من القرى بحكم سنة الله في مصير كل حادث إلى الفناء لما سلّمنا أنّ في ذكر ذلك هنا فائدة.

{ **وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ** } و(من) مزيدة بعد (إن) النافية لتأكيد استغراق مدخولها باعتبار الصفة المقدّرة، أي: جميع القرى الكافرة كيلا يحسب أهل مكّة عدم شمولهم.

{ **قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ** } التقييد زيادة في الإنذار والوعيد كقوله تعالى { وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى } [طه:127].

{ **كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً** }، **الكتاب**: مستعار لعلم الله وسابق تقديره، فتعريفه للعهد، أو أريد به الكتب المنزلة على الأنبياء، فتعريفه للجنس فيشمل القرآن وغيره.

المسطور: المكتوب، يقال: سَطَر الكتاب إذا كتبه سطورا، قال تعالى { وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ } [القلم:1].

{ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً } [59].

هذا كشف شبهة أخرى من شُبه تكذيبهم إذ كانوا يسألون النبيّ أن يأتيهم بآيات على حسب اقتراحهم، ويقولون: لو كان صادقا وهو يطلب منّا أن نؤمن به لجاءنا بالآيات التي سألناه. غرورا بأنفسهم أنّ الله يتنازل لمباراتهم.

والجملة معطوفة على جملة { وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا } [58]، أي: إنّما أمهلنا المتمرّدين على الكفر إلى أجل نزول العذاب ولم نجبهم إلى ما طلبوا من الآيات لعدم جدوى إرسال الآيات للأوّلين من قبلهم في الكفر على حسب اقتراحهم فكذّبوا بالآيات.

{ **وَمَا مَنَعَنَا** } حقيقة المنع: كفّ الفاعل عن فعل يريد فعله أو يسعى في فعله. وهذا محال عن الله تعالى إذ لا مُكره للقادر المختار. فالمنع هنا مستعار للصرف عن الفعل وعدم إيقاعه دون محاولة إتيانه.

{ **أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ** } يجوز أن يكون حقيقة فيكون مفعول { أَنْ نُرْسِلَ } محذوفا دل عليه الفعل. والتقدير: أن نرسل رسولنا. فالباء في قوله { بالآيات } للمصاحبة، أي: مصاحبا للآيات التي اقترحها المشركون.

ويجوز أن يكون الإرسال مستعارا لإظهار الآيات وإيجادها فتكون الباء مزيدة لتأكيد تعلّق فعل {نُرْسِلَ}، وتكون { بِالْآياتِ } مفعولا في المعنى كقوله تعالى { وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ } [المائدة:6].

{ **إلّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ** } إسناد المنع إلى تكذيب الأولين بالآيات مجاز عقلي لأنّ التكذيب سبب الصرف.

والمعنى: أنّنا نعلم أنّهم لا يؤمنون كما لم يؤمن من قبلهم من الكفرة لمّا جاءتهم أمثال تلك الآيات.

فالإصرار على الكفر سجيّة للمشرك لا يقلعها إظهار الآيات، فلو آمن الأوّلون عندما أُظهرت لهم الآيات لكان لهؤلاء أن يجعلوا إيمانهم موقوفا على إيجاد الآيات التي سألوها. قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ } [يونس:97/96].

والأظهر أن هذا تثبيت لأفئدة المؤمنين لئلا يفتنهم الشيطان، وتسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم لحرصه على إيمان قومه، فلعلّه يتمنّى أن يجيبهم الله لما سألوا من الآيات، ولحزنه من أن يظنّوه كاذبا.

{ **وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ** } في محلّ الحال من ضمير الجلالة، أي: وقد أتينا ثمودا آية كما سألوا فزادوا كفرا بسببها حتّى عُجّل لهم العذاب.

{ **مُبْصِرَةً** } واضحة الدلالة، فهو اسم فاعل أبصر المتعدّي إلى مفعول، أي جعل غيره مبصرا وذا بصيرة. فالمعنى: أنّها مفيدة البصيرة، أي اليقين. أي تجعل من رآها ذا بصيرة وتفيده أنها آية. ومنه قوله تعالى { فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ } [النمل:13].

وخُصَّ بالذكر ثمود وآيتها لشهرة أمرهم بين العرب، ولأنّ آثار هلاكهم في بلاد العرب قريبة من أهل مكّة يبصرها صادرهم وواردهم في رحلاتهم بين مكّة والشام.

{ **فَظَلَمُوا بِهَا** } يجوز أن يكون استُعمل الظلم بمعنى الكفر لأنّه ظلم النفس، وتكون الباء للتعدية، لأنّ فعل الكفر يُعدّى إلى المكفور بالباء. ويجوز أن يكون الظلم مضمَّنا معنى الجحد، أي: كابروا في كونها آية، كقوله تعالى { وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً } [النمل:14]. ويجوز بقاء الظلم على حقيقته، وهي الاعتداء بدون حقّ، والباء صلة لتوكيد التعدية مثل الباء في { وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ } [المائدة:6]، أي: ظلموا الناقة حين عقروها وهي لم تجن عليهم، فكان عقرها ظلما. والاعتداء على العجماوات ظلم إذا كان غير مأذون فيه شرعا كالصيد.

{ **وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً** } هذا بيان لحكمة أخرى في ترك إرسال الآيات إلى قريش، تشير إلى أنّ الله تعالى أراد الإبقاء عليهم ليدخل منهم في الإسلام كثير ويكون نشر الإسلام على يد كثير منهم.

وتلك مكرمة للنبيّ صلى الله عليه وسلم فلو أرسل الله لهم الآيات كما سألوا، مع أن جبلّتهم العناد، لأصرّوا على الكفر فحقّت عليهم سنة الله التي قد خلت في عباده، وهي الاستئصال عقب إظهار الآيات، لأنّ إظهار الآيات تخويف من العذاب، والله أراد الإبقاء على هذه الأمّة، قال تعالى { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ } [الأنفال:33]، فعوّضنا تخويفهم بدلا عن إرسال الآيات التي اقترحوها.

التخويف: جعل المرء خائفا.

{ **إِلَّا تَخْوِيفاً** } لقصر الإرسال بالآيات على علّة التخويف، وهو قصر إضافي، أي: لا مباراة بين الرّسل

وأقوامهم أو لا طمعا في إيمان الأقوام فقد علمنا أنّهم لا يؤمنون.

{ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنّاس وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إلّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إلّا طُغْيَاناً كَبِيراً } [60].

{ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ } تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم على حزنه من تكذيب قومه إيّاه، ومن إمهال عتاة أعداء الدين الذين فتنوا المؤمنين، فذكّره الله بوعده نصره.

والجملة يجوز أن تكون معطوفة على جملة { وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآياتِ }، ويجوز أن تكون معترضة.

{ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ } متعلّقة بفعل محذوف، أي: اذكر إذ قلنا لك كلاما هو وعد بالصبر، أي: اذكر لهم ذلك وأعده على أسماعهم، أو هو فعل (اذكر) على أنّه مشتق من الذُّكر (بضم الذال) وهو إعادة الخبر إلى القوة العقلية الذاكرة.

{ رَبَّكَ } أومأ جعْل المسند إليه لفظ الرب مضافا إلى ضمير الرسول أنّ هذا القول مسوق مساق التكرمة للنبيّ وتصبيره، وأنّه بمحلّ عناية الله به إذ هو ربّه وهو ناصره، قال تعالى {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} [الطور:48].

{ أَحَاطَ بِالنَّاسِ } الإحاطة لمّا عُدِّي فعلها هنا إلى ذات النّاس لا إلى حال من أحوالهم تعيّن أنّها مستعملة في معنى الغلبة كما في قوله تعالى { وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ } [يونس:22]. وعُبّر بصيغة الماضي للتنبيه على تحقيق وقوع إحاطة الله بالنّاس في المستقبل القريب. والمعنى: فلا تحزن لافترائهم وتطاولهم فسننتقم منهم.

{ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إلّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ } عطف على { وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآياتِ } وما بينهما معترضات.

{ الرُّؤْيا } أشهر استعمالها في رؤيا النوم، وتستعمل في رؤية العين كما نقل عن ابن عباس في هذه الآية. قال: هي رؤيا عين أريها النبيّ صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به إلى بيت المقدس، رواه الترمذي وقال: إنّه قول عائشة ومعاوية وسبعة من التابعين، سماهم الترمذي.

وتأوّلها جماعة أنّها ما رآه ليلة أسري به إذ رأى بيت المقدس وجعل يصفه للمشركين، ورأى عيرهم واردة في مكان معيّن من الطريق ووصف لهم حال رجال فيها فكان كما وصف. ويؤيد هذا الوجه قوله تعالى { الَّتِي أَرَيْنَاكَ } فإنّه وصف للرؤيا ليعلم أنّها رؤية عين.

وقيل: رأى أنّه يدخل مكّة في سنة الحديبية فردّه المشركون فلم يدخلها فافتُتن بعض من أسلموا.

وقيل: هي رؤيا مصارع صناديد قريش في بدر أريها النبيّ صلى الله عليه وسلم قبل ذلك، أي: بمكّة.

وعلى هذين القولين فهي رؤيا نوم ورؤيا الأنبياء وحي.

الفتنة: اضطراب الرأي واختلال نظام العيش، وتطلق على العذاب المكرّر الذي لا يطاق.

قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ } [البروج:10].

فيكون المعنى على أوّل القولين في الرؤيا: أنّها سبب فتنة المشركين بازدياد بُعدهم عن الإيمان.

ويكون على القول الثاني: أنّ المرئي، وهو عذابهم بالسيف، فتنة لهم.

{ **وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ** } عطف على الرؤيا، أي: ما جعلنا ذكر الشجرة الملعونه في القرآن إلّا فتنة للنّاس. وهذا إشارة إلى قوله تعالى { إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كأنّه رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ } [الصافات:64-66]. وقوله تعالى { إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ } [الدخان:44/43]، وقوله تعالى { ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ } [الواقعة:52/51].

روي أنّ أبا جهل قال: " زعم صاحبكم أنّ نار جهنم تحرق الحجر، ثم يقول بأنّ في النار شجرة لا تحرقها النار". وجهلوا أنّ الله يخلق في النار شجرة لا تأكلها النار. وهذا مروي عن ابن عباس وأصحابه في أسباب النزول للواحدي وتفسير الطبري.

ويجوز أن يكون المعنى: أن إيجادها فتنة. أي عذاب مكرّر.

الملعونة: أي: المذمومة في القرآن. وقيل: إنّها موضوعة في مكان اللعنة وهي الإبعاد من الرحمة، لأنّها مخلوقة في موضع العذاب. وفي الكشّاف: قيل: تقول العرب لكلّ طعام ضار: ملعون.

{ **وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلّا طُغْيَاناً كَبِيراً** }.

عطف على { وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ } [59] الدال على أنّهم متصلّبون في كفرهم مكابرون معاندون. وهذه زيادة في تسلية النبيّ صلى الله عليه وسلم حتّى لا يأسف من أنّ الله لم يُرهم آيات لأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم حريص على إيمانهم.

{ **نُخَوِّفُهُمْ** } جئ بصيغة المضارع للإشارة إلى تخويف حاضر، فإنّ الله خوّفهم بالقحط والجوع حتّى رأوا الدخان بين السماء والأرض وسألوا الله كشفه، فقال تعالى { إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ } [الدخان:15]. فذلك وغيره من التخويف الذي سبق فلم يزدهم إلّا طغيانا. فالظاهر أن هذه الآية نزلت في مدة حصول بعض المخوّفات.

الكبير: مستعار لمعنى الشديد القوي في نوع الطغيان. وتقدّم عند قوله تعالى { قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ } [البقرة:217].

{ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً [61] قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلّا قَلِيلاً [62] }.

عطف على { وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ } [60]، أي: واذكر إذ قلنا للملائكة. والمقصود من هذا تذكير النبيّ صلى الله عليه وسلم بما لقي الأنبياء قبله من معاندة الأعداء والحسدة من عهد آدم حين حسده

إبليس على فضله. وأنّهم لا يَعدمون مع ذلك معترفين بفضلهم وهم خيرة زمانهم كما كانت الملائكة نحو آدم عليه السلام ، وأنّ كِلا الفريقين في كل عصر يمُتّ إلى أحد الفريقين الذي في عهد آدم، فلفريق الملائكة المؤمنون ولفريق الشيطان الكافرون. كما أومأ إليه قوله تعالى { قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ } [63] ، ففي ذلك تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم.

وذكر النبيّ ذلك موعظة للنّاس بحال الفريقين لينظر العاقل أين يضع نفسه.

وتفسير قصّة آدم وبيان كلماتها مضى في [البقرة:30-38].

{ **قَالَ أَأَسْجُدُ** } الاستفهام للإنكار، أي: لا يكون. والجملة مستأنفة استئنافا بيانيّا، لأنّ استثناء إبليس من حكم السجود لم يفد أكثر من عدم السجود.

{ **طِيناً** } حال من اسم الموصول، فيفيد معنى أنّك خلقته من الطين. لأنّ ذلك أشدّ في تحقيره في نظر إبليس.

{ **قَالَ أَرَأَيْتَكَ** } بدل اشتمال من جملة { أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً } باعتبار ما تشتمل عليه من احتقار آدم وتغليط الإرادة من تفضيله. فقد أعيد إنكار التفضيل بقوله { أَرَأَيْتَكَ } المفيد الإنكار.

{ **أَرَأَيْتَكَ** } تركيب يُفتتح بها الكلام الذي يراد تحقيقه والاهتمام به. ومعناه: أخبرني عمّا رأيت، وهو مركب من همزة استفهام، و(رأى) التي بمعنى علم، و(تاء) المخاطب المفرد المرفوع، ثم يزاد على ضمير الخطاب (كاف) خطاب تشبه ضمير الخطاب المنصوب بحسب المخاطب واحدا أو متعددا. يقال: أرأيتك وأرأيتكم كما تقدّم في قوله تعالى { قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ } [الأنعام:40].

{ **هَذَا الَّذِي** } اسم الإشارة مستعمل في التحقير، كقوله تعالى { أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ } [الانبياء:36].

{ **لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلا قَلِيلاً** } مستأنفة استئنافا ابتدائيا، وهي جملة قَسَمية، واللام موطئة للقسم المحذوف مع الشرط، والخبر مستعملٌ في الدعاء فهو في معنى قوله تعالى { قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ } [ص:79].

وهذا الكلام صدر من إبليس إعرابا عمّا في ضميره. وإنّما شرط التأخير إلى يوم القيامة ليعمّ بإغوائه جميع أجيال ذرّيّة آدم فلا يكون جيل آمنا من إغوائه. قال تعالى { إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ } [فاطر:6].

الاحتناك: وضع الراكب اللجام في حنك الفرس ليركبه ويسيّره، فهو هنا تمثيل لجلب ذرية آدم إلى مراده من الإفساد والإغواء بتسيير الفرس على حبّ ما يريد راكبه.

{ **قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً** [63] **وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً** [64] }.

جواب من الله تعالى عن سؤال إبليس التأخير إلى يوم القيامة، ولذلك فُصلت على طريقة المحاورات.

{ **اذْهَبْ** } ليس مرادا به الانصراف بل هو مستعمل في الاستمرار على العمل، أي: امض لشأنك الذي نويته. وصيغة الأمر مستعملة في التسوية.

{ **فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ** } تفريع على التسوية والزجر كقوله تعالى { قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ } [طه:97].

الجزاء: مصدر جزاه على عمل، أي: أعطاه عن عمله عوضا. وهو هنا بمعنى اسم المفعول.

الموفور: اسم مفعول من وفّره إذا كثّره.

{ **جَزَاءً** } أعيد للتأكيد، اهتماما وفصاحة، ولأنه أحسن في جريان وصف (الموفور) على موصوف متصل به دون فصل. وأصل الكلام: فإن جهنم جزاؤكم موفورا. فانتصاب { جَزَاءً } على الحال الموطئة، و{ مَوْفُوراً } صفة له، وهو الحال في المعنى، أي: جزاء غير منقوص.

الاستفزاز: طلب الفزّ، وهو الخفّة والانزعاج وترك التثاقل. والسين والتاء للطلب والحثّ الذي هو أصل معنى السين والتاء، أي: استخفّهم وأزعجهم.

الصوت: يطلق على الكلام كثيرا، لأنّ الكلام صوت من الفم، واستعير هنا لإلقاء الوسوسة في نفوس النّاس. ويجوز أن يكون مستعملا هنا تمثيلا لحالة إبليس بحال قائد الجيش فيكون متصلا بقوله تعالى { وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ } كما سيأتي.

الإجلاب: جمع الجيش وسوقه، مشتق من الجَلَبة بفتحتين، وهي الصياح، لأنّ قائد الجيش إذا أراد جمع الجيش نادى فيهم للنفير أو للغارة والهجوم.

الخيل: اسم جمع الفرس. والمراد به عند ذكر ما يدل على الجيش الفرسان. ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **يا خيلَ الله اركبي** ". وهو تمثيل لحال صرف قوّته ومقدرته على الإضلال بحال قائد الجيش يجمع فرسانه ورجَّالته.

{ **بِخَيْلِكَ** } الباء إمّا لتأكيد لصوق الفعل لمفعوله فهي لمجرد التأكيد، وإمّا لتضمين فعل { أَجْلِبْ } معنى (اغزُهم)، فيكون الفعل مضمّنا معنى الفعل اللازم وتكون الباء للمصاحبة.

{ **وَرَجِلِكَ** } اسم جمع الرجال كصحب. وقد كانت جيوش العرب مؤلفة من رجَّالة يقاتلون بالسيوف ومن كتائب فرسان يقاتلون بنضح النبال، فإذا التحموا اجتلدوا بالسيوف جميعا.

وقرأ حفص عن عاصم { وَرَجِلِكَ } (بكسر الجيم)، وهو لغة في رجُل (مضموم الجيم)، وهو الواحد من

الرجال. والمراد الجنس. والمعنى: بخيلك ورجالك، أي: الفرسان والمشاة.

{ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ }

المشاركة في الأموال: أنّ يكون للشيطان نصيب في أموالهم وهي إنعامهم وزروعهم إذ سوّل لهم أن يجعلوا نصيبا في النتاج والحرث للأصنام. قال تعالى { وَجَعَلُوا لِلَّهِ ممّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا } [الأنعام:136].

مشاركة الأولاد: هي أن يكون للشيطان نصيب في أحوال أولادهم مثل تسويله لهم أن يئدوا أولادهم وأن يستولدوهم من الزنى، وأنّ يسمّوهم بعبدة الأصنام، كقولهم: عبد العزى، وعبد اللات، وزيد مناة.

{ وَعِدْهُمْ } أعطهم المواعيد بحصول ما يرغبونه، كما يسوّل لهم بأنّهم إن جعلوا أولادهم للأصنام سلم الآباء من الثكل والأولاد من الأمراض، ويسوّل لهم أنّ الأصنام تشفع لهم عند الله في الدنيا، وتضمن لهم النصر على الأعداء، كما قال أبو سفيان يوم أحد: أعلُ هُبل. ومنه وعدهم بأنّهم لا يخشون عذابا بعد الموت لإنكار البعث، ووعد العصاة بحصول اللذات المطلوبة من المعاصي مثل الزنى والسرقة والخمر والمقامرة.

وحُذف مفعول { وَعِدْهُمْ } للتعميم في الموعود به. والمقام دال على أنّ المقصود أن يعدهم بما يرغبون.

{ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً } اعتراض.

الغرور: إظهار الشيء المكروه في صورة المحبوب الحسن. وتقدّم عند قوله تعالى { لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ } [آل عمران:196]، وقوله تعالى { زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً } [الأنعام:112].

والمعنى: أنّ ما سوّله لهم الشيطان في حصول المرغوب إمّا باطل لا يقع، مثل ما يسوّله للنّاس من العقائد الفاسدة، وكونه غرورا لأنّه إظهار لما يقع في صورة الواقع فهو تلبيس، وإمّا حاصل لكنه مكروه غير محمود بالعاقبة، مثل ما يسوّله للنّاس من قضاء دواعي الغضب والشهوة ومحبّة العاجل دون تفكير في الآجل، وكل ذلك لا يخلو عن مقارنة الأمر المكروه أو كونه آيلا إليه بالإضرار.

وقد بسط هذا الغزالي في كتاب الغرور من كتاب (إحياء علوم الدين).

وإظهار اسم الشيطان دون أن يؤتى بضميره المستتر لأنّ هذا الاعتراض جملة مستقلّة فلو كان فيها ضمير عائد إلى ما في جملة أخرى لكان في النثر شبه عيب التضمين في الشعر، ولأن هذه الجملة جارية مجرى المثل فلا يحسن اشتمالها على ضمير ليس من أجزائها.

{ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً } [65].

من تمام الكلام المحكي بـ { قَالَ اذْهَبْ } [63]. وهي جملة مستأنفة استئنافا بيانيّا. فإنّ مفهوم {فَمَنْ تَبِعَكَ} و{ مَنِ اسْتَطَعْتَ } من قبيل مفهوم الصفة فيفيد أنّ فريقا من ذرّية آدم لا يتبع إبليس فلا يحتنكه.

وهذا المفهوم يفيد أنّ الله قد عصم أو حفظ هذا الفريق من الشيطان. فوقعت الإشارة إلى تعيين هذا الفريق بالوصف وبالسبب؛

فأمّا الوصف ففي قوله تعالى { عِبَادِي } المفيد أنّهم تمحّضوا لعبودية الله تعالى كما تدلّ عليه الإضافة، فعُلم أنّ من عبدوا الأصنام والجنّ وأعرضوا عن عبودية الله تعالى ليسوا من أولئك.

وأمّا السبب ففي قوله تعالى { وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً } المفيد أنّهم توكّلوا على الله واستعاذوا به من الشيطان، فكان خير وكيل لهم إذ حاطهم من الشيطان وحفظهم منه.

{ **لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ** } السلطان المنفي هو الحكم المستمّر بحيث يكونون رعيّته ومن جنده. وأمّا غيرهم فقد يستهويهم الشيطان ولكنّهم لا يلبثون أن يثوبوا إلى الصالحات، وكفاك من ذلك دوام توحيدهم لله، وتصديقهم رسوله، واعتبارهم أنفسهم عبادا لله متطلّبين شكر نعمته، فشتان بينهم وبين أهل الشرك.

وقد تقدّم معنى هذا عند قوله تعالى { إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } [النحل:100/99].

فالمؤمن لا يتولّى الشيطان أبدا ولكنّه قد ينخدع لوسواسه، وهو مع ذلك يلعنه فيما أوقعه فيه من الكبائر، وبمقدار ذلك الانخداع يقترب من سلطانه. وهذا معنى قول النبيّ صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع: **" إنّ الشيطان قد يئس أن يُعبد في بلدكم هذا ولكنّه قد رضي بما دون ذلك ممّا تحقّرون من أعمالكم ".**

{ **وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً** } يجوز أن تكون تكملة لتوبيخ الشيطان، فيكون كاف الخطاب ضمير الشيطان تسجيلا عليه بأنّه عبد الله. ويجوز أن تكون معترضة في آخر الكلام فتكون كاف الخطاب ضمير النبيّ صلى الله عليه وسلم، تقريبا للنبيّ بالإضافة إلى ضمير الله. ومآل المعنى على الوجهين واحد وإن اختلف الاعتبار.

{ رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ أنّه كَانَ بِكُمْ رَحِيماً } [66].

استئناف ابتدائي وهو عود إلى تقرير أدلّة الانفراد بالتصريف في العالم المشوبة بما فيها من نعم على الخلق، والدالة بذلك الشوب على إتقان الصنع ومحكم التدبير لنظام هذا العالم وسيادة الإنسان فيه وعليه.

ويشبه أن يكون هذا الكلام عودا إلى قوله تعالى { وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ } [11].

فلمّا جرى الكلام على الإنذار والتحذير أُعقِب هنا بالاستدلال على صحّة الإنذار والتحذير.

والخطاب لجماعة المشركين كما يقتضيه قوله تعالى عقبه { فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ } [67]، أي: أعرضتم عن دعائه ودعوتم الأصنام.

{ **رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ** } افتُتحت الجملة بالمسند إليه معرّفا بالإضافة ومستحضرا بصفة الربوبيّة لاستدعاء إقبال السامعين على الخبر المؤذن بأهميّته، حيث افتتح بما يُترقّب منه خبر عظيم

لكونه من شؤون الإله الحقّ وخالق الخلق ومدبّر شؤونهم تدبير اللطيف الرحيم، فيوجب إقبال السامع بشراشره إن مؤمنا متذكّرا أو مشركا ناظرا متدبّرا. وجيء بالجملة الاسمية لدلالتها على الدوام والثبات. وبتعريف طرفيها للدلالة على الانحصار، أي: ربكم هو الذي يزجي لكم الفلك لا غيره ممن تعبدونه باطلا، وهو الذي لا يزال يفعل ذلك لكم.

يزجي: يسوق سوقا بطيئا. شُبّه تسخير الفلك للسير في الماء بإزجاء الدابة المثقلة بالحمل.

الفلك: هنا جمع لا مفرد.

البحر: الماء الكثير فيشمل الأنهار، وتقدّم عند قوله تعالى { وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ } [البقرة:164].

الابتغاء: الطلب. و**الفضل**: الرزق، أي: للتجارة. وتقدّم عند قوله تعالى { لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ } [البقرة:198]. وهذا امتنان على النّاس كلّهم، مناسب لعموم الدعوة، لأنّ أهل مكّة ما كانوا ينتفعون بركوب البحر وإنّما ينتفع بذلك عرب اليمن وعرب العراق والنّاس غيرهم.

{ **إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً** } تعليل وتنبيه لموقع الامتنان ليرفضوا عبادة غيره ممّا لا أثر له في هذه المنة.

{ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْأِنْسَانُ كَفُوراً } [67].

بعد أن ألزمهم الحجّة على حقّ إلهية الله تعالى بما هو من خصائص صنعه باعترافهم، أعقبه بدليل آخر من أحوالهم المتضمّنة إقرارهم بانفراده بالتصرّف، ثم بالتعجيب من مناقضة أنفسهم عند زوال اضطرارهم.

{ **وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلّا إِيَّاهُ** } خبر مستعمل في التقرير وإلزام الحجّة إذ لا يخبر أحد عن فعله إخبارا حقيقيا.

{ **فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ** } خبر مستعمل في التعجيب والتوبيخ.

ضرّ البحر: هو الإشراف على الغرق، لأنّه يزعج النفوس خوفا، فهو ضرّ لها.

{ **ضَلَّ** } من الضلال، وهو سلوك طريق غير موصلة للمقصود خطأ.

{ **مَنْ تَدْعُونَ** } العدول إلى الموصولية لما تؤذن به الصلة من عمل اللسان ليتأتي الإيجاز، أي: من يتكرّر دعاؤكم إيّاهم، كما يدلّ عليه المضارع. فالمعني: غاب وانصرف ذكر الذين عادتكم دعاؤهم، فتعيّن أنّ ضلالهم هو ضلال ذكر أسمائهم، وهذا إيجاز بديع.

{ **إلّا إِيَّاهُ** } الاستثناء من عموم الموصول، لأنّ اسم الله ممّا يجري على ألسنتهم في الدعاء تارة كما تجري أسماء الأصنام، فالاستثناء متّصل.

ويجوز أن يكون اسم الموصول في قوله تعالى { مَنْ تَدْعُونَ } خاصا بأصنامهم لأنّهم يكثر دعاؤهم إيّاها

دون اسم الله تعالى، كما هو مقتضى التجدّد فإذا اشتدّ بهم الضرّ دعوا الله كما قال تعالى { فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ } [العنكبوت:65]. ويكون الاستثناء منقطعا. ولعلّ هذا الوجه أرجح لأنّه أنسب بقوله تعالى { أَعْرَضْتُمْ }.

الإعراض: الترك، أي: تركتم دعاء الله، بقرينة الجمع بين مقتضى المضارع من إعادة التجدّد وبين مقتضى الاستثناء من انحصار الدعاء في الكون باسمه تعالى.

{ **إِلَى الْبَرِّ** } عُدِّي بحرف (إلى) لتضمين { نَجَّاكُمْ } معنى أبلغكم وأوصلكم.

{ **وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً** } اعتراض وتذييل لزيادة التعجّب منهم ومن أمثالهم.

الكفور: صيغة مبالغة. أي: كثير الكفر. والكفر ضدّ الشكر.

{ **الْإِنْسَانُ** } تعريف الجنس وهو مفيد للاستغراق. فهذا الاستغراق يجوز أن يكون استغراقا عرفيّا بحمله على غالب نوع الإنسان، وهم أهل الإشراك، وهم أكثر النّاس يومئذ، فتكون صيغة المبالغة من قوله تعالى { كَفُوراً } راجعة إلى قوّة صفة الكفران أو عدم الشكر، فإنّ أعلاه إشراك غير المنعم مع المنعم في نعمة لا حظّ له فيها.

ويجوز أن يكون الاستغراق حقيقيا، أي: كان نوع الإنسان كفورا، أي: غير خال من الكفران، فتكون صيغة المبالغة راجعة إلى كثرة أحوال الكفران مع تفاوتها. وكثرة كفران الإنسان هي تكرّر إعراضه عن الشكر في موضع الشكر، ضلالا أو سهوا، أو غفلة لإسناده النعم إلى أسبابها المقارِنة دون منعمِها، ولفرضه منعمين وهميين لا حظ لهم في الإنعام.

{ **وَكَانَ** } إشارة إلى أنّ الكفران مستقر في جبلّة هذا الإنسان. لأنّ الإنسان قلّما يشعر بما وراء عالم الحس، فإنّ الحواس تشغله بمدركاتها عن التفكّر فيما عدا ذلك من المعاني المستقرّة في الحافظة والمستنبطة بالفكر.

ولمّا كان الشكر على النعمة متوقّفا على تذكّر النعمة كانت شواغله عن تذكّر النعم الماضية مغطية عليها، ولأنّ مدركات الحواس منها الملائم للنفس، وهو الغالب، ومنها المنافر لها. فالإنسان إذا أدرك الملائم لم يشعر بقدره عنده لكثرة تكرّره حتّى صار عادة فذهل عما فيه من نفع، فإذا أدرك المنافر استذكر فقدان الملائم فضج وضجر. وهو معنى قوله تعالى { وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ } [فصلت:51]. ومن أجل ذلك كان من آداب النفس في الشريعة تذكيرها بنعم الله، قال تعالى { وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ } [ابراهيم:5] ليقوم ذكر النعمة مقام معاهدتها.

{ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً [68] أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً [69] }.

تفريع على جملة { أَعْرَضْتُمْ } [67]، وما بينهما اعتراض. وفُرّع الاستفهام التوبيخي على إعراضهم عن الشكر وعودهم إلى الكفر.

الخسف: انقلاب ظاهر الأرض في باطنها من الزلزال. وتقدّم في قوله تعالى { أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ } [النحل:45].

وفي هذا تنبيه على أنّ السلامة في البرّ نعمة عظيمة تنسونها فلو حدث لكم خسف لهلكتم هلاكا لا نجاة لكم منه بخلاف هول البحر. ولكن لمّا كانت السلامة في البرّ غير مدرَك قدرُها قلَّ أن تشعر النفوس بنعمتها، وتشعر بخطر هول البحر، فينبغي التدرّب على تذكّر نعمة السلامة من الضرّ.

{ **أَفَأَمِنْتُمْ** } الاستفهام إنكاري وتوبيخي.

الجانب: هو الشقّ. وجُعل البرّ جانبا لإرادة الشقّ الذي ينجيهم إليه، وهو الشاطئ الذي يرسون عليه، إشارة إلى إمكان حصول الخوف لهم بمجرد حلولهم بالبرّ بحيث يخسف بهم ذلك الشاطئ، أي: أنّ البرّ والبحر في قدرة الله تعالى سيّان، فعلى العاقل أن يستوي خوفه من الله في البرّ والبحر.

الحاصب: الرامي بالحصباء، وهي الحجارة. يقال: حصبه، وهو هنا صفة، أي: يرسل عليكم عارضا حاصبا، تشبيها له بالذي يرمي الحصباء، أي: مطر حجارة، أي: برد يشبه الحجارة.

الوكيل: الموكَل إليه القيام بمهم مُوَكِّله، والمدافع عن حقّ مُوَكِّله، أي: لا تجدوا لأنفسكم من يجادلنا عنكم أو يطالبنا بما ألحقناه بكم من الخسف أو الإهلاك بالحاصب. وهذا المعنى مناسب لما يقع في البرّ من الحدثان.

{ **أَمْ أَمِنْتُمْ** } عاطفة الاستفهام، وهي للإضراب الانتقالي، أي: بل أمنتم، فالاستفهام مقدّر مع (أم) لأنّها خاصة به. أي: أو هل كنتم آمنين من العود إلى ركوب البحر مرة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح.

{ **أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ** } أن يوجد فيكم الدواعي إلى العود تهيئة لإغراقكم وإرادة للانتقام منكم. كما يدلّ عليه السياق وتفريع { فَيُرْسِلَ } عليه.

التارة: المرّة المتكرّرة، قيل عينه همزة ثم خفّفت لكثرة الاستعمال. مثل: فأس وفاس، وكأس وكاس.

القاصف: التي تقصف، أي: تكسر. وأصل القصف: الكسر. وغلب وصف الريح به، فعومل معاملة الصفات المختصّة بالمؤنث فلم يلحقوه علامة التأنيث، مثل {عَاصِفٌ} في قوله { جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ } [يونس:22]. والمعنى: فيرسل عليكم ريحا قاصفا، أي: تقصف الفلك، أي: تعطبه بحيث يغرق، ولذلك قال { فَيُغْرِقَكُمْ }.

{ **بما كفرتم** } الباء للسببيّة. و(ما) مصدريّة، أي: بكفركم، أي: شرككم.

{ **ثُمَّ** } للتراخي الرتبي كشأنها في عطفها الجمل. وهو ارتقاء في التهديد بعدم وجود منقذ لهم، بعد تهديدهم بالغرق لأنّ الغريق قد يجد منقذا.

التبيع: مبالغة في التابع، أي: المتتبّع غيره المطالب لاقتضاء شيء منه. أي لا تجدوا من يطالب لكم بثأر. وضمير (به) عائد إمّا إلى الإغراق المفهوم من { يُغْرِقَكُمْ } ،وإمّا إلى المذكور من إرسال القاصف وغيره.

{ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً } [70].

اعتراض جاء بمناسبة العبرة والمنّة على المشركين، فاعترض بذكر نعمته على جميع النّاس فأشبه التذييل.

{ **بَنِي آدَمَ** } جميع النوع، فالأوصاف المثبتة هنا إنّما هي أحكام للنوع من حيث هو، كما هو شأن الأحكام التي تسند إلى الجماعات.

وقد جمعت الآية خمس منن: التكريم، وتسخير المراكب في البر، وتسخير المراكب في البحر، والرزق من الطيّبات، والتفضيل على كثير من المخلوقات.

فأمّا منّة التكريم فهي مزيّة خصّ بها الله بني آدم من بين سائر المخلوقات الأرضيّة.

{ **كَرَّمْنَا** } جعله كريما، أي: نفيسا غير مبذول ولا ذليل في صورته ولا في حركة مشيه وفي بشرته، فإنّ جميع الحيوان لا يعرف النظافة ولا اللباس ولا ترفيه المضجع والمأكل، ولا حسن كيفية تناول الطعام والشراب، ولا الاستعداد لما ينفعه ودفع ما يضرّه ولا شعوره بما في ذاته وعقله من المحاسن فيستزيد منها، والقبائح فيسترها ويدفعها، بله الخلو عن المعارف والصنائع وعن قبول التطوّر في أساليب حياته وحضارته.

{ **وَحَمَلْنَاهُمْ** } الوضع على المركب من الرواحل. فالراكب محمول على المركوب. وأصله في ركوب البرّ، وذلك بأنّ سخّر لهم الرواحل وألهمهم استعمالها.

وأمّا الحمل في البحر فهو الحصول في داخل السفينة. وإطلاق الحمل على ذلك استعارة من الحمل على الراحلة وشاعت حتّى صارت كالحقيقة، قال تعالى { إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ } [الحاقة:11]. ومعنى حمل الله النّاس في البحر: إلهامه إيّاهم استعمال السفن والقلوع والمجاذيف، فجعل تيسير ذلك كالحمل.

{ **وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ** } لأنّ الله تعالى ألهم الإنسان أن يطعم ما يشاء ممّا يروق له، وجعل في الطعوم

أمارات على النفع، وجعل ما يتناوله الإنسان من الطعومات أكثر جدا ممّا يتناوله غيره من الحيوان.

{ **وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** } المراد به التفضيل المشاهد لأنّه موضع الامتنان. وذلك الذي جِماعه تمكين الإنسان من التسلّط على جميع المخلوقات الأرضية برأيه وحيلته.

والفرق بين التفضيل والتكريم بالعموم والخصوص؛ فالتكريم منظور فيه إلى تكريمه في ذاته، والتفضيل منظور فيه إلى تشريفه فوق غيره، على أنّه فضّله بالعقل الذي به استصلاح شؤونه ودفع الأضرار عنه وبأنواع المعارف والعلوم. هذا هو التفضيل المراد.

وأمّا نسبة التفاضل بين نوع الإنسان وأنواع من الموجودات الخفي عنا كالملائكة والجنّ فليست هنا وإنّما تعرف بأدلة توقيفية من قبل الشريعة.

{ **تَفْضِيلاً** } الإتيان بالمفعول المطلق لإفادة ما في التنكير من التعظيم، أي: تفضيلا كبيرا.

{ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَأُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً [71] وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً [72] }.

انتقال من غرض التهديد بعاجل العذاب في الدنيا الذي في قوله تعال { رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ - إلى قوله - ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً } [66 - 69] إلى ذكر حال النّاس في الآخرة تبشيرا وإنذارا. فالكلام استئناف ابتدائي، والمناسبة ما علمت.

{ **يَوْمَ** } تخلّص من ذكر التفضيل إلى ذكر اليوم الذي تظهر فيه فوائد التفضيل، فترجّح أنّه ابتداء مستأنف استئنافا ابتدائيا، ففتحة { يَوْمَ } إمّا فتحة إعراب على أنّه مفعول به لفعل شائع الحذف في ابتداء العبر القرآنيّة وهو فعل (اذكر) فيكون { يَوْمَ } هنا اسم زمان مفعولا للفعل المقدّر وليس ظرفا.

وإمّا أن تكون فتحته فتحةَ بناء لإضافته اسم الزمان إلى الفعل، وهو إمّا في محل رفع بالابتداء، وخبره جملة { فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ }. وإمّا ظرف لفعل محذوف دلّ عليه التقسيم الذي بعده.

{ **نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ** } أي: أن يُدعى يا أمّة فلان، ويا أتباع فلان، مثل: يا أمّة محمد، يا أمّة موسى، يا أمّة عيسى، ومثل: يا عَبَدة العزى، يا عبدة بعل ، يا عبدة نسر.

{ **بِإِمَامِهِمْ** } الباء لتعدية فعل { نَدْعُو } لأنّه يتعدّى بالباء، يقال: دعوته بكنيته وتداعوا بشعارهم.

الإمام: ما يؤتمّ به، أي: يُعمل على مثل عمله أو سيرته. والمراد به هنا مبيِّن الدِّين، من دين حقٍّ للأمم المؤمنة ومن دين كفرٍ وباطلٍ للأمم الضالة.

وفائدة ندائهم بمتبوعيهم التعجّل بالمسرّة لاتباع الهداة، وبالمساءة لاتباع الغواة، لأنّهم إذا دعوا بذلك رأوا متبوعيهم في المقامات المناسبة لهم فعلموا مصيرهم.

{ **فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ** } تفريع التفصيل لما أجمله قوله تعالى { نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ }، أي: كتاب

أعماله بيمينه. وإيتاء الكتاب باليمين إلهام صاحبه إلى تناوله باليمين. وتلك علامة عناية بالمأخوذ، لأنّ اليمين يأخذ بها من يعزم عملا عظيما، قال تعالى { لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ } [الحاقة:45]، وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم:" **من تصدّق بصدقة من كسبٍ طيّبٍ، ولا يقبل الله إلّا طيبا، تلقّاها الرحمان بيمينه وكلتا يديه يمين** ".

وأمّا أهل الشقاوة فيؤتَون كتبهم بشمائلهم،كما في قوله تعالى { وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ } [الحاقة:25].

{ **فَأُولَئِكَ يَقْرَأُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً** } الإتيان باسم الإشارة بعد فاء جواب (أمّا) للتنبيه على أنّهم دون غيرهم يقرؤون كتابهم، لأنّ في اطلاعهم على ما فيه من فعل الخير والجزاء عليه مسرّة لهم. وأمّا الفريق الآخر فسكت عن قراءة كتابهم هنا وورد في الآية التي قبلها في هذه السورة { وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً } [14/13].

{ **وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً** } الظلم مستعمل هنا في معنى النقص كما في قوله تعالى { كِلْتَا الجَنَّتَيْنِ آتتَ أُكْلَهَا وَلَمِ تظْلِمَ مِنْهُ شَيْئًا } [الكهف:33]. لأنّ غالب الظلم يكون بانتزاع بعض ما عند المظلوم.

الفتيل: شبه الخيط يكون في شق النواة. وهو مثّل للشيء الحقير التافه.

{ **وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً** } ولمّا كان القسيم المعطوف عليه هم من أوتوا كتابهم باليمين عُلم أنّ المعطوف بضدّ ذلك يؤتى كتابه بالشمال، فاستغنى عن ذكر ذلك وأوتي له بصلة أخرى وهي كونه أعمى.

{ **فِي هَذِهِ** } الإشارة إلى معلوم من المقام وهو الدنيا، وله نظائر في القرآن.

والمراد بالعمى في الدنيا: الضلالة في الدين، وهي استعارة.

والمراد بالعمى في الآخرة: ما ينشأ عن العمى من الحيرة و اضطراب البال.

{ **وَأَضَلُّ سَبِيلاً** } قائم مقام صيغة التفضيل في (العمى). وعدل عن لفظ: أشدّ ونحوه ما يُتوسّل به إلى التفضيل عند تعذّر اشتقاق صيغة (أفعل) ليتأتّى ذكر السبيل. لما في الضلال عن السبيل من تمثيل حال العمى وإيضاحه، لأنّ ضلال فاقد البصر عن الطريق في حال السير أشدّ وقعا في الإضرار منه وهو قابع بمكانه، فعدل عن اللفظ الوجيز إلى التركيب المطنب لما في الإطناب من تمثيل الحال وإيضاحه وإفظاعه وهو إطناب بديع.

فالمعنى: وأضل سبيلا منه في الدنيا. ووجه كون ضلاله في الآخرة أشدّ، أنّ ضلاله في الدنيا كان في مكنته أن ينجو منه بطلب ما يرشده إلى السبيل الموصل من هدي الرسول والقرآن. وأمّا ضلاله في الآخرة فهو ضلال لا خلاص منه وهو مقارن للعذاب الدائم. فلا جرم كان ضلاله في الآخرة أدخل في حقيقة الضلال وماهيته.

{ **وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً** } [73].

حكاية فنّ من أفنين ضلالهم وعماهم في الدنيا، فالجملة عطف على جملة { وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى } [72]. وهو انتقال من وصف حالهم وإبطال مقالهم في تكذيب النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى ذكر حال آخر من حال معارضتهم وإعراضهم، وهي حال طمعهم في أن يستنزلوا النبيّ صلى الله عليه وسلم لأن يقول قولًا فيه حسن ذكر لألهتهم ليتنازلوا إلى مصالحته وموافقته إذا وافقهم في بعض ما سألوه.

وضمائر الغيبة مراد منها كفار قريش، أي: متولُّو تدبير أمورهم.

وغُيّر الأسلوب من خطابهم إلى الإقبال على خطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم لتغيّر المقام، من مقام استدلال إلى مقام امتنان.

{ **وَإِنْ كَادُوا** } (إن) مخفّفة من (إنّ) المشدّدة واسمها ضمير شأن محذوف، واللام في { لَيَفْتِنُونَكَ } هي اللام الفارقة بين (إن) المخففة من الثقيلة وبين (إن) النافية فلا تقتضي تأكيدا للجملة.

{ **لَيَفْتِنُونَكَ** } الفتن والفتون: معاملة يلحق منها ضرّ واضطراب النفس في أنواع من المعاملة يعسر دفعها، من تغلّب على القوّة وعلى الفكر، وتقدّم في قوله تعالى { وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ } [البقرة:191].

{ **عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ** } عُدّي { يَفْتِنُونَكَ } بحرف (عن) لتضمينه معنى فعل كان الفتن لأجله، وهو ما فيه معنى (يصرفونك). والذي أوحي إليه هو القرآن.

هذا هو الوجه في تفسير الآية بما تعطيه معاني تراكيبها مع ملاحظة ما تقتضيه أدلّة عصمة الرسول صلى الله عليه وسلم من أن تتطرّق إليه خواطر إجابة المشركين لما يطمعون.

وللمفسرين بضعة محامل أخرى لهذه الآية استقصاها القرطبي، فمنها ما ليس له حظ من القبول لوهن سنده وعدم انطباقه على معاني الآية، ومنها ما هو ضعيف السند وتتحمله الآية بتكلّف.

ومرجع ذلك إلى أنّ المشركين راودوا النبيّ صلى الله عليه وسلم أن لا يسوّيهم مع من يعدّونهم منحطّين عنهم من المؤمنين المستضعفين عندهم مثل: بلال، وعمار بن ياسر، وخباب، وصهيب، وأنّهم وعدوا النبيّ إن هو فعل ذلك بأن يجلسوا إليه ويستمعوا القرآن حين لا يكون فيه تنقيص آلهتهم، وأنّ رسول الله همّ بأن يظهر لهم بعض اللين رغبة في إقبالهم على سماع القرآن لعلّهم يهتدون. فيكون المراد من قوله تعالى { الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ } بعض الذي أوحينا إليك، وهو ما فيه فضل المؤمنين مثل قوله تعالى { وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ } [الأنعام:52]، أو ما فيه تنقيص الأصنام.

وإذ قد ملئت بها كتب التفسير لم يكن بدّ من تأويل الآية بأمثل ما يناسب تلك الأخبار لئلا تكون فتنة للناظرين فنقول: إنّ رغبة النبيّ صلى الله عليه وسلم في اقترابهم من الإسلام وفي تأمين المسلمين، أجالت في خاطره أن يجيبهم إلى بعض ما دعوه إليه ممّا يرجع إلى تخفيف الإغلاظ عليهم أو أنظارهم،

أو إرضاء بعض أصحابه بالتخلي عن مجلسه حين يحضره صناديد المشركين وهو يعلم أنّهم ينتدبون إلى ذلك لمصلحة الدين أو نحو ذلك ممّا فيه مصلحة لنشر الدين، وليس فيه فوات شيء على المسلمين.

أي: كادوا يصرفونك عن بعض ما أوحيناه إليك ممّا هو مخالف لما سألوه.

{ **الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ** } الموصول للعهد لما هو معلوم عند النبيّ صلى الله عليه وسلم بحسب ما سأله المشركون من مخالفته.

فهذه الآية مسوقة مَساق المنّ على النبيّ بعصمة الله إيّاه من الخطأ في الاجتهاد، ومَساق إظهار ملل المشركين من أمر الدعوة الإسلامية وتخوّفهم من عواقبها. وفي ذلك تثبيت للنبيّ وللمؤمنين وتأييس للمشركين بأنّ ذلك لن يكون.

{ **لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ** } متعلّق بـ { يَفْتِنُونَكَ }، واللام للعلّة، أي: يفعلون ذلك إضمارا منهم وطمعا في أن تفتري علينا غيره، أي: غير ممّا أوحي إليك. وهذا طمع من المشركين أن يستدرجوا النبيّ من سؤال إلى آخر، فهو راجع إلى نيّاتهم. وليس في الكلام ما يقتضي أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم همّ بذلك، كما فهمه بعض المفسرين. إذ لام التعليل لا تقتضي أكثر من غرض فاعل الفعل المعلّل ولا تقتضي غرض المفعول ولا علمه.

{ **وَإِذاً لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً** } عطف على { وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ }. ووجه عطفها بالواو دون الاقتصار على حرف الجزاء لأنّه باعتبار كونه من أحوالهم التي حاوروا النبيّ صلى الله عليه وسلم فيها وألحوا عليه ناسب أن يعطف على جملة أحوالهم. والتقدير: فلو صرفوك عن بعض ما أوحينا إليك لاتخذوك خليلا.

الخليل: الصديق. وتقدّم عند قوله تعالى { وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً } [النساء:125].

{ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً [74] إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً } [75].

يجوز أن يكون هذا كلاما مستقلّا غير متّصل بقوله تعالى { وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ } [73] بناء على ما نحوناه في تفسير الآية السابقة. وهذه منّة أخرى ومقام آخر من مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم تجاه المشركين.

ويجوز أن يكون من تكملة ما قبله فيكون الركون إليهم ركونا فيما سألوه منه على نحو ما ساقه المفسرون من الأخبار المتقدّمة.

{ **لَوْلَا** } حرف امتناع لوجود، أي: يقتضي امتناع جوابه لوجود شرطه.

{ **ثَبَّتْنَاكَ** } التثبيت جعل الشيء ثابتا، أي: متمكّنا من مكانه غير مقلقل ولا مقلوع. وهو مستعار للبقاء على حاله غير متغيّر. وتقدّم عند قوله تعالى { وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ } [البقرة:265].

وعُدّي التثبيت إلى ضمير النبيّ الدال على ذاته. والمراد تثبيت فهمه ورأيه. وهذا من الحكم على الذات.

والمراد بعض أحوالها بحسب دلالة المقام، مثل { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ } [النساء:23].

فالمعنى: ولولا أن ثبتنا رأيك فأقررناه على ما كان عليه في معاملة المشركين لقاربت أن تركن إليهم.

{ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً } يجوز أن تكون اللام لام جواب لولا، وهي ملازمة لجوابها لتحقيق الربط بينه وبين الشرط.

والمعنى على الوجه الأول في موقع هذه الآية: أنّ الركون مجمل في أشياء هي مظنّة الركون ولكن الركون منتف من أصله لأجل التثبيت بالعصمة كما انتفى أن يفتنه المشركون عن الذي أوحي إليه بصرف الله إيّاهم عن تنفيذ فتنتهم.

والمعنى على الوجه الثاني: ولولا أن عصمناك من الخطأ في الاجتهاد وأريناك أنّ مصلحة الشدّة في الدين والتنويه بأتباعه، ولو كانوا من ضعفاء أهل الدنيا، لا تعارضها مصلحة تأليف قلوب المشركين، ولو كان المسلمون راضين بالغضاضة من أنفسهم استئلافا للمشركين، فإنّ إظهار الهوادة في أمر الدين تُطمِع المشركين في الترقّي إلى سؤال ما هو أبعد مدى ممّا سألوه، فمصلحة ملازمة موقف الحزم معهم أرجح من مصلحة ملاينتهم وموافقتهم، أي: فلا فائدة من ذلك. ولولا ذلك كله لقد كدت تركن إليهم قليلا، أي تميل إليهم.

الركون: الميل بالركن، أي: بالجانب من الجسد واستعمل في الموافقة بعلاقة القرب. وتقدّم في قوله تعالى { وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا } [هود:113]، كما استُعمل ضدّه في المخالفة في قوله تعالى { وإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ } [83].

فركون النبيّ صلى الله عليه وسلم إليهم غير واقع ولا مقارب الوقوع لأنّ الآية قد نفته بأربعة أمور:

*/ لولا الامتناعية.

*/ فعل المقاربة المقتضي أنّه ما كان يقع الركون ولكن يقع الاقتراب منه.

*/ التحقير المستفاد من { شَيْئاً }.

*/ التقليل المستفاد من { قَلِيلاً }.

{ إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ }.

{ **إِذاً** } الثانية جزاء لـ { كِدْتَ تَرْكَنُ } ولكونها جزاء فصلت عن العطف إذ لا مقتضى له.

والمعنى: لو تركن إليهم لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات.

الضّعف: مماثل مقدار شيء ذي مقدار. وأطلق هنا على القويّ الشديد لعدم حمل الضعف على حقيقته إذ ليس ثمّ علم بمقدار العذاب يراد تضعيفه كقوله تعالى { فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ } [الأعراف:38].

وإضافة الضعف إلى الحياة وإلى الممات على معنى (في). فالتقدير: لأذقناك ضعفا في الحياة وضعفا في الممات، فضعف عذاب الحياة هو تراكم المصائب والأرزاء في مدة الحياة، وضعف عذاب الممات أن يموت مكمودا مستذلّا.

ويشبه أن يكون قوله تعالى { وَضِعْفَ الْمَمَاتِ } في استمرار ضعف الحياة، فيكون المعنى: لأذقناك ضعف الحياة حتّى الممات. فليس المراد من ضعف الممات عذاب الآخرة لأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لو ركن إليهم شيئا قليلا لكان ذلك عن اجتهاد واجتلابا لمصلحة الدين في نظره، فلا يكون على الاجتهاد عقاب في الآخرة إذ العقاب الأخروي لا يكون إلّا على مخالفة في التكليف، وقد سوّغ الله لنبيه الاجتهاد وجعل للمخطئ في اجتهاده أجرا كما قُرّر في تفسير قوله تعالى { لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [الأنفال:68].

وأمّا مصائب الدنيا وأرزاؤها فهي مسبَّبة على أسباب من الأغلاط والأخطاء فلا يؤثّر في التفادي منها حسن النيّة إن كان صاحبها قد أخطأ وجه الصواب، فتدبَّر في هذه المعاني تدبُّر ذوي الألباب.

ولهذا خولف التعبير المعتاد استعماله لعذاب الآخرة. وعُبّر هنا بـ { ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ }.

{ **ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً** } معطوفة على جملة { لَأَذَقْنَاكَ }.

النصير: الناصر المخلّص من الغلبة أو الذي يثأر للمغلوب، أي: لا تجد لنفسك من ينتصر لك.

{ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلّا قَلِيلاً [76] سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً [77] }.

عطف على جملة { وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ } [3] تعدادا لسيّئات أعمالهم. والضمائر متّحدة.

الاستفزاز: الحمل على الترحّل، وهو استفعال من فزَّ بمعنى بارح المكان، أي: كادوا أن يسعوا أن تكون خارجا من مكّة. وتقدّم معنى هذا الفعل عند قوله تعالى { وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ } [64].

<u>المعنى</u>: كادوا أن يخرجوك من بلدك. وذلك بأن همّوا بأن يخرجوه كرها ثم صرفهم الله عن ذلك، لأنّهم ارتأوا بعد زمان أن يبقوه بينهم حتّى يقتلوه.

{ **مِنَ الْأَرْضِ** } تعريف للعهد، أي: من أرضك وهي مكّة.

{ **لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا** } تعليل للاستفزاز، أي: استفزازا لقصد الإخراج.

{ **وَإِذاً لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلّا قَلِيلاً** } عطف على جملة { وَإِنْ كَادُوا }. أو هي اعتراض في آخر الكلام، فتكون الواو للاعتراض و(إذا) ظرفا لقوله تعالى { لَا يَلْبَثُونَ } وهي (إذا) الملازمة الإضافة إلى الجملة.

<u>ويجوز</u> أن يكون (إذا) حرف جواب وجزاء لكلام سابق، وهي التي نونها حرف من الكلمة ولكن كثرت كتابتها بألف في صورة الاسم المنون.

<u>ويجوز</u> أن تكون (إذًا) ظرفا للزمان، وتنوينها عوض عن جملة محذوفة على قول جماعة من نحاة الكوفة. وهو غير بعيد. والتقدير: وإذا أخرجوك أو وإذا خرجت لا يلبثون خلفك إلّا قليلا.

وقرأ الجمهور { خَلْفَكَ } أريد به بعدك. وأصل الخلف الوراء فاستُعمل مجازا في البعدية، أي: لا يلبثون بعدك. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وحفص، وخلف { خِلَافَكَ } وهو لغة في خلف. وتقدّم عند

قوله تعالى { بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ } [التوبة:81].
اللبث: الاستقرار في المكان، أي: لا يستقرّون في مكّة بل يخرجون منها فلا يرجعون. وقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك مهاجرا وكانوا السبب في خروجه فكأنّهم أخرجوه، فلم يلبث الذين تسبّبوا في إخراجه وألّبوا عليه قومهم بعده إلّا قليلا ثم خرجوا إلى وقعة بدر فلقوا حتفهم هنالك فلم يرجعوا وحقّ عليهم الوعيد، وأبقى الله عامّتهم ودهماءهم لضعف كيدهم فأراد الله أن يدخلوا في الإسلام بعد ذلك.

وفي الآية إيماء إلى أنّ الرسول سيخرج من مكّة وأن مخرجيه، أي: المتسببين في خروجه، لا يلبثون بعده بمكة إلّا قليلا.

{ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا }.

السنّة: العادة والسيرة التي يلتزمها صاحبها. وتقدّم القول في أنّها اسم جامد أو اسم مصدر عند قوله تعالى { قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ } [آل عمران:136]، أي: عادة الله في كل رسول أخرجه قومه أن لا يبقوا بعده؛ خرج هود من ديار عاد إلى مكّة، وخرج صالح من ديار ثمود، وخرج إبراهيم ولوط، وهلكت أقوامهم.

والتقدير: سَنَنَّا ذلك لمن أرسلنا قبلك من رسلنا، أي: لأجلهم. وإنّما سنّ الله هذه السنّة لرسله لأنّ تآمر الأقوام على إخراجهم يستدعي حكمة الله تعالى لأن تتعلق إرادته بأمره إيّاهم بالهجرة لئلا يبقوا مرموقين بعين الغضاضة بين قومهم وأجوارهم بشبه ما كان يُسمّى بالخلع عند العرب.

{ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً } اعتراض لتكملة البيان. والمعنى: أنّ ذلك كائن لا محالة لأنّنا أجريناه على الأمم السالفة ولأنّ عادتنا لا تتحول.

{ وَلَا تَجِدُ } مبالغة في الانتفاء كما في قوله تعالى { وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ } [الأعراف:117].

التحويل: تغيير الحال وهو التبديل.

{ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً } [78].

كان شرع الصلوات الخمس للأمّة ليلة الإسراء، كما ثبت في الحديث الصحيح، ولكنّه كان غير مثبت في التشريع المتواتر إنّما أبلغه النبيّ أصحابه فيوشك أن لا يعلمه غيرهم ممن يأتي من المسلمين. وأيضا فقد عيّنت الآية أوقاتا للصلوات بعد تقرّر فرضها، فلذلك جاءت هذه الآية في هذه السورة التي نزلت عقب حادث الإسراء جمعا للتشريع الذي شُرّع للأمّة أيّامئذ المبتدأ بقوله تعالى {وَقَضَى رَبُّكَ إِلّا تَعْبُدُوا إلّا إِيَّاهُ} [23].

فالجملة استئناف ابتدائي. ومناسبة موقعها عقب ما قبلها أنّ الله لمّا امتنّ على النبيّ صلى الله عليه وسلم

بالعصمة وبالنصر ذكَّره بشكر النعمة بأن أمره بأعظم عبادة يعبده بها، وبالزيادة منها طلبا لازدياد النعمة عليه، كما دلّ عليه قوله تعالى في آخر الآية { عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً } [79].

فالخطاب بالأمر للنبيّ صلى الله عليه وسلم، ولكن قد تقرّر من اصطلاح القرآن أنّ خطاب النبيّ بتشريع تدخل فيه أمّته إلّا إذا دلّ دليل على اختصاصه بذلك الحكم، وقد علم المسلمون ذلك وشاع بينهم بحيث ما كانوا يسألون عند اختصاص حكم إلّا في مقام الاحتمال القويّ، كمن سأله: ألنا هذه أم للأبد؟ فقال: **بل للأبد**.

الإقامة: مجاز في المواظبة والإدامة. وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ } [البقرة:3].

{ **لِدُلُوكِ الشَّمْسِ** } اللام لام التوقيت. وهي بمعنى (عند).

الدلوك: من أحوال الشمس. فورد بمعنى زوال الشمس عن وسط قوس فرضي في طريق مسيرها اليومي. وورد بمعنى: ميل الشمس عن مقدار ثلاثة أرباع القوس وهو وقت العصر. وورد بمعنى غروبها. فصار لفظ الدلوك مشتركا في المعاني الثلاثة.

الغسق: الظلمة، وهي انقطاع بقايا شعاع الشمس حين يماثل سواد أفق الغروب سواد بقية الأفق وهو وقت غيبوبة الشفق. وذلك وقت العشاء. ويُسمّى العتمة، أي: الظلمة.

وقد جمعت الآية أوقاتا أربعة، فالدلوك يجمع ثلاثة أوقات باستعمال المشترك في معانيه. والقرينة واضحة. وفُهم من حرف { إِلَى } الذي للانتهاء أنّ في تلك الأوقات صلوات لأنّ الغاية كانت لفعل { أَقِمِ الصَّلاَةَ } فالغاية تقتضي تكرّر إقامة الصلاة. وليس المراد غاية صلاة واحدة جُعل وقتها متسعا.

وقد زاد عمل النبيّ صلى الله عليه وسلم بيانا للآية.

وأمّا مقدار الاتساع فيُعرف من أدلة أخرى وفيه خلاف بين الفقهاء. فكلمة (دلوك) لا تعادلها كلمة أخرى.

وقد ثبت في حديث أبي مسعود الأنصاري في الموطأ: أنّ أوّل الوقت هو المقصود. وثبت في حديث عطاء بن يسار مرسلا في الموطأ وموصولا عن أنس ابن مالك عند ابن عبد البر وغيره: أنّ للصبح وقتا له ابتداء ونهاية. وهو أيضا ثابت لكل صلاة بآثار كثيرة عدا المغرب فقد سكت عنها الأثر، فتردّدت أنظار الفقهاء فيها بين وقوف عند المروي وبين قياس وقتها على أوقات غيرها. وهذا الثاني أرجح، لأنّ امتداد وقت الصلاة توسعة على المصلّي وهي تناسب تيسير الدين.

{ **إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ** } جُعل الغسق نهاية للأوقات، فعُلم أنّ المراد أوّل الغسق كما هو الشأن المتعارف في الغاية بحرف (إلى) فعُلم أنّ ابتداء الغسق وقت صلاة، وهذا جمع بديع.

{ **وَقُرْآنَ الْفَجْرِ** } عطف على { الصَّلاَةَ }. والتقدير: وأقم قرآن الفجر، أي: الصلاة به. كذا قدّر القراء وجمهور المفسرين ليُعلم أنّ لكل صلاة من تلك الصلوات قرآنا كقوله { فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ } [المزمل:20]، أي: صلوا به نافلة الليل.

وخُصَّ ذكر ذلك بصلاة الفجر دون غيرها لأنّها يُجهر بالقرآن في جميع ركوعها، ولأنّ سنّتها أن يُقرأ

بسور من طوال المفصّل، فاستماع القرآن للمأمومين أكثر فيها وقراءته للإمام والفذ أكثر أيضا.

ويجوز أن يكون عطف جملة والكلام على الإغراء، والتقدير: والزم قرآن الفجر، قاله الزجاج. فيُعلم أنّ قراءة القرآن في كلّ صلاة حتم.

وهذا مجمل في كيفيّة الصلوات. ومقادير ما تشتمل عليه من القرآن بيّنته السنّة المتواترة والعرف في معرفة أوقات النهار والليل.

{ **إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودا** } استئناف بياني لوجه تخصيص صلاة الصبح باسم القرآن، بأنّ صلاة الفجر مشهودة، أي: محضورة. وفُسّر ذلك بأنّها تحضرها ملائكة الليل وملائكة النهار، كما ورد في الحديث:

" **وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الصبح** ". وذلك زيادة في فضلها وبركتها.

{ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً } [79].

{ **وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ** } قُدّم المجرور المتعلّق بـ (تهجّد) على متعلّقه اهتماما به وتحريضا عليه. وبتقديمه اكتسب معنى الشرط والجزاء فجُعل متعلّقه بمنزلة الجزاء فأدخلت عليه فاء الجزاء. وهو استعمال فصيح. ومنه قوله تعالى { وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ } [المطففين:26]، وقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **ففيهما فجاهد** ".

التهجّد: الصلاة في أثناء الليل. وهو اسم مشتق من الهجود. وهو النوم فمادة (التفعّل) للإزالة مثل التحرّج.

{ **بِهِ** } الضمير للقرآن المذكور في قوله تعالى { وَقُرْآنَ الْفَجْرِ } [78]، والباء للسببيّة.

النافلة: الزيادة من الأمر المحبوب.

{ **لَكَ** } متعلقة بـ { نَافِلَةً } وهي لام العلة. أي: نافلة لأجلك. وفي هذا دليل على أنّ الأمر بالتهجّد خاصّ بالنبيّ صلى الله عليه وسلم فالأمر للوجوب. وبذلك انتظم في عداد الصلوات الواجبة، فبعضها واجب عليه وعلى الأمّة، وبعضها واجب عليه خاصة. ويُعلم منه أنّه مرغّب فيه كما صرّحت به الآية في قوله تعالى { إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ - إلى قوله - فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ } [المزمل:20].

وفي هذا الإيجاب عليه زيادة تشريف له. ولهذا أعقب بوعد أن يبعثه الله مقاما محمودا.

{ **عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً** } تعليل لتخصيصه بإيجاب التهجّد عليه.

{ **عَسَى** } الرجاء من الله تعالى وعد. فالمعنى: ليبعثك ربك مقاما محمودا.

المقام: محلّ القيام. والمراد به المكان المعدود لأمر عظيم، لأنّه من شأنه أن يقوم النّاس فيه ولا يجلسوا. وإلا فهو المجلس.

{ **مَحْمُوداً** } وصف المقام بالمحمود وصف مجازي. والمحمود من يقوم فيه. أي: يُحمد أثره فيه. وذلك لغنائه عن أصحاب ذلك المقام. ولذلك فُسّر المقام المحمود **بالشفاعة العظمى**.

وفي صحيح البخاري عن ابن عمر:" أنّ النّاس يصيرون يوم القيامة جُثاً (بضم الجيم وتخفيف المثلّثة، أي: جماعات) كلّ أمة تتبع نبيّها يقولون: يا فلان اشفع! حتى تنتهي الشفاعة إلى النبيّ فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود". وفي جامع الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : { عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً } قال: هي الشفاعة ". [قال: هذا حديث حسن صحيح].

وقد ورد وصف الشفاعة في صحيح البخاري مفصّلا. وذلك مقام يحمده فيه كلّ أهل المحشر.

{ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً} [80].

لمّا وعده بأن يقيمه مقاما محمودا ناسب أن يسأل أن يكون ذلك حاله في كل مقام يقومه. وفي هذا التلقين إشارة إلهية أنّ الله تعالى مخرجه من مكّة إلى مهاجَر. والظاهر أنّ هذه الآية نزلت قبيل العقبة الأولى التي كانت مقدّمة للهجرة إلى المدينة.

{ **أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ** } والمُدخَل والمُخرَج أصله اسم مكان الإدخال والإخراج. اختير هنا الاسم المشتقّ من الفعل المتعدّى للإشارة إلى أنّ المطلوب دخول وخروج ميسّران من الله تعالى وواقعان بإذنه. وذلك دعاء بكلّ دخول وخروج مباركين لتتمّ بين المسؤول وبين الموعود به، وهو المقام المحمود. وهذا السؤال يعمّ كل مكان يدخل إليه ومكان يخرج منه.

الصدق: هنا الكمال وما يُحمد في نوعه، لأنّ ما ليس بمحمود فهو كالكاذب لأنّه يخلف ظنّ المتلبّس به.

{ **وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً** } سؤال التأييد والنصر في تلك المداخل والمخارج وغيرها من الأقطار النائية والأعمال القائم بها غيره من أتباعه وأعدائه، بنصر أتباعه وخذل أعدائه.

السلطان: اسم مصدر يطلق على السلطة وعلى الحجّة وعلى المُلك. وهو في هذا المقام كلمة جامعة، على طريقة استعمال المشترك في معانيه أو هو من عموم المشترك، تشمل أن يجعل له الله تأييدا وحجّة وغلبة وملكا عظيما، وقد آتاه الله ذلك كلّه.

النصير: مبالغة في الناصر، أي: سلطانا ينصرني. وإذا قد كان العمل القائم به النبيّ هو الدعوة إلى الإسلام كان نصره تأييدا له فيما هو قائم به، فصار هذا الوصف تقييدا للسلطان، بأنّه لم يسأل سلطانا للاستعلاء على النّاس، وإنّما سأل سلطانا لنصره فيما يطلب النصرة وهو التبليغ وبثّ الإسلام في النّاس.

{ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً } [81].

أعقب تلقينه الدعاء بسداد أعماله وتأييده فيها بأن لقّنه هذا الإعلان المُنبئ بحصول إجابة الدعوة المُلْهَمَة بإبراز وعده بظهور أمره في صورة الخبر عن شيء مضى. ولمّا كانت دعوة الرّسول هي لإقامة الحقّ وإبطال الباطل كان الوعد بظهور الحقّ وعدا بظهور أمر الرسول وفوزه على أعدائه. واستحفظه الله هذه الكلمة الجليلة إلى أن ألقاها يوم فتح مكّة على مسامع من كانوا أعداءه فإنّه لمّا دخل الكعبة ووجد فيها وحولها الأصنام جعل يشير إليها بقضيب ويقول { جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً } فتسقط تلك الأنصاب على وجوهها.

ومجيء الحقّ مستعمل في إدراك النّاس إيّاه وعملهم به وانتصار القائم به على معاضديه تشبيها للشيء الظاهر بالشيء الذي كان غائبا فورد جائيا.

{ زَهَقَ } اضمحل بعد وجوده. ومصدره الزُّهُوق والزَّهَق. وزهوق الباطل مجاز في تركه أصحابه فكأنّه كان مقيما بينهم ففارقهم. والمعنى: استقر وشاع الحقّ الذي يدعوا إليه النبيّ وانقضّ الباطل الذي كان النبيّ صلى الله عليه وسلم ينهى عنه.

{ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً } تذييل للجملة التي قبله لما فيه من عموم يشمل كلّ باطل في كلّ زمان. وإذا كان هذا شأن الباطل كان الثبات والانتصار شأن الحقّ، لأنّه ضدّ الباطل فإذا انتفى الباطل ثبت الحقّ.

{ كان } دلّ على أنّ الزهوق شنشنة الباطل، وشأنه في كل زمان أنّه يظهر ثم يضمحل، كما تقدّم في قوله تعالى { أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً } [يونس:2].

{ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً } [82].

عطف على { وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ } [81]، على ما في تلك الجملة والجمل التي سبقتها من معنى التأييد للنبيّ صلى الله عليه وسلم ومن الإغاظة للمشركين ابتداء من قوله تعالى { وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ } [73]. فإنّه بعد أن امتنّ عليه بأن أيّده بالعصمة من الركون إليهم، وتبشيره بالنصرة عليهم وبالخلاص من كيدهم، وبعد أن هدّدهم بأنّهم صائرون قريبا إلى هلاك وأنّ دينهم صائر إلى الاضمحلال، أعلن له ولهم في هذه الآية أنّ ما منه غيظهم وحنقهم، وهو القرآن الذي طمعوا أن يسألوا النبيّ أن يبدّله بقرآن ليس فيه ذكر أصنامهم بسوء، أنّه لا يزال متجدّدا مستمرّا، فيه شفاء للرّسول وأتباعه وخسارة للظالمين.

{ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ } لأنّ القرآن مصدر الحقّ ومُدحِض الباطل جاء هذا الكلام تعقيبا على قوله تعالى { جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ } [81]. ولهذا اختير للإخبار عن التنزيل الفعل المضارع المشتقّ من فعل المضاعف للدلالة على التجديد والتكرير والتكثير، وهو وعد بأنّه يستمر هذا التنزيل زمنا طويلا.

{ **مَا هُوَ شِفَاءٌ** } مفعول { نُنَزِّلُ }. والشفاء حقيقته زوال الداء، ويُستعمل مجازا في زوال ما هو نقص وضلال وعائق عن النفع من العقائد الباطلة والأعمال الفاسدة والأخلاق الذميمة تشبيها له ببرء السقم، كقول عنترة: ولقد شفى نفسي وابرأ سُقمها ... قيلُ الفوارس: وَيْكَ عنترَ قَدِّمِ

المعنى: أنّ القرآن كلّه شفاء ورحمة للمؤمنين ويزيد خسارة للكافرين، لأنّ كلّ آية من القرآن من أمره ونهيه ومواعظه وقصصه وأمثاله ووعده ووعيده، مشتملة على هديٍ وصلاحِ حالٍ للمؤمنين المتَّبعينه. ومشتملة بضدّ ذلك على ما يزيد غيظ المستمرّين على الظلم. أي: الشرك. فيزدادون بالغيظ كراهية للقرآن فيزدادون بذلك خسارا بزيادة آثامهم واستمرارهم على فاسد أخلاقهم وبُعد ما بينهم وبين الإيمان. وهذا كقوله تعالى { فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ } [التوبة:125/124].

وفي الآية دليل على أنّ في القرآن آيات يُشتفى بها من الأدواء والآلام ورد تعيينها في الأخبار الصحيحة فشملتها الآية بطريقة استعمال المشترك في معنييه. وهذا ممّا بينا تأصيله في المقدمة التاسعة.

{ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُساً } [83].

لمّا كان القرآن نعمة عظيمة للنّاس، وكان إعراض المشركين عنه حرمانا عظيما لهم من خيرات كثيرة، أُعقب ذلك ببيان السبب النفساني الذي يوقع العقلاء في مِهواة هذا الحرمان، وذلك بالاشتغال بما هم فيه من نعمة. كما أشار إليه قوله تعالى { وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً } [المزمل:11] وقوله تعالى { لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ } [آل عمران:197/196].

فهذه الجملة مضمونها مقصود بذاته استفيد بيانها بوقوعها عقب التي قبلها.

{ **الْإِنْسَانِ** } تعريف الجنس، وهو يفيد الاستغراق وهو استغراق عرفي، أي: أكثر أفراد الإنسان، لأنّ أكثر النّاس يومئذ كفّار وأكثر العرب مشركون. فالمعنى: إذا أنعمنا على المشركين أعرضوا وإذا مسّهم الشرّ يئسوا. وهذا مقابل حال أهل الإيمان الذين كان القرآن شفاء لأنفسهم وشكر النعمة من شيمهم والصبر على الضر من خلقهم.

الإنعام: إعطاء النعمة. وليس المراد النعم الكاملة من الإيمان والتوفيق، كما في قوله تعالى { صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ } [الفاتحة:7]. وقوله { فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ } [النساء:69].

الإعراض: الصدّ وضدّ الإقبال. وتقدّم عند قوله تعالى { فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ } [النساء:63].

النأي: البعد. وتقدّم في قوله تعالى { وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ } [الأنعام:26].

الجانب: الجنب. وهو الجهة من الجسد التي فيها اليد. وهما جانبان: يمين ويسار.

{ **وَنَأَى بِجَانِبِهِ** } صدّ عن العبادة والشكر. وهذا غير المفاد من معنى { أَعْرَضَ } فليس تأكيدا له. وحذف

المتعلّق لدلالة المقام عليه من قوله تعالى { أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ }، أي: أعرض عنّا وأجفل منّا، أي: من عبادتنا وأمرنا ونهينا.

وقرأ الجمهور { وَنَأَى } بهمزة بعد النون وألف بعد الهمزة. وقرأ ابن عامر في رواية ابن ذكوان وأبو جعفر {وناء} بألف بعد النون ثم همزة. وقيل: ناء في هذه القراءة بمعنى ثَقُل، أي: عن الشكر، أي: في معنى قوله تعالى { وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ } [لأعراف:176].

{ **وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً** } احتراس من أن يتوهّم السامع من التقييد بقوله تعالى { وَإِذَا أَنْعَمْنَا } أنّه إذا زالت عنه النعمة صلح حاله، فبيّن أنّ حاله ملازم لنكران الجميل في السرّاء والضرّاء، فإذا زالت النعمة عنه لم يقلع عن الشرك والكفر ويتب إلى الله ولكنّه ييأس من الخير ويبقى حَنِقا ضيّق الصدر لا يعرف كيف يتدارك أمره. ولا تعارض بين هذه الآية وبين قوله تعالى { وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ } [فصلت:51] كما سيأتي.

{ **كَانَ يَؤُوساً** } دلّ على قوّة يأسه إذ صيغ له مثال المبالغة. وأقحم معه فعل (كان) الدال على رسوخ الفعل تعجيبا من حاله في وقت مسّ الضرّ إيّاه، لأنّها حالة أدعى إلى الفكرة في وسائل دفعه، بخلاف حالة الإعراض في وقت النعمة فإنّها حالة لا يُستغرب فيها الازدهاء لما هو فيه من النعمة.

{ **قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً** } [84].

هذا تذييل، وهو تنهية للغرض الذي ابتدئ من قوله تعالى { رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ } [66] الراجع إلى التذكير بنعم الله تعالى على النّاس في خلال الاستدلال على أنّه المتصرّف الوحيد، وإلى التحذير من عواقب كفران النعم. وإذ قد ذُكر في خلال ذلك فريقان في قوله تعالى { يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ } [71]، وقوله { وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلّا خَسَاراً } [82].

{ **كُلٌّ** } التنوين عوض عن المضاف إليه، أي: كلّ أحد ممّا شمله عموم قوله تعالى { وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى } [72]، وقوله تعالى { وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلّا خَسَاراً } [82] وقوله تعالى { وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ } [83].

الشاكلة: الطريقة والسيرة التي اعتادها صاحبها ونشأ عليها. وأصلها شاكلة الطريق، وهي الشعبة التي تتشعب منه. وهذه الجملة في الآية تجري مجرى المثل.

{ **فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً** } تفريع. وهو كلام جامع لتعليم النّاس بعموم علم الله، والترغيب للمؤمنين، والإنذار للمشركين مع تشكيكهم في دينهم لعلّهم ينظرون، كقوله تعالى { وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً } [سبأ:24].

{ وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إلَّا قَلِيلاً } [85].

وقع هذه الآية بين الآي التي معها يقتضي نظمه أنّ مرجع ضمير { يَسْأَلونَكَ } هو مرجع الضمائر المتقدّمة، فالسائلون عن الروح هم قريش. وروى الترمذي عن ابن عباس قال: قالت قريش لليهود أعطونا شيئا نسأل هذا الرجل عنه، فقالوا: سلوه عن الروح، قال: فسألوه عن الروح، فأنزل الله قوله { وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الرُّوحِ }. وظاهر هذا أنّهم سألوه عن الروح خاصة وأنّ الآية نزلت بسبب سؤالهم. وحينئذ فلا إشكال في إفراد هذا السؤال في هذه الآية على هذه الرواية. وبذلك يكون موقع هذه الآية بين الآيات التي قبلها والتي بعدها مسبَّبا على نزولها بين نزول تلك الآيات.

واعلم أنّه كان بين قريش وبين أهل يثرب صلات كثيرة من مصاهرة وتجارة وصحبة. وكان لكل يثربي صاحب بمكّة ينزل عنده إذا قدم الآخر بلده، كما كان بين أميّة بن خلف وسعد بن معاذ. وقصّتهما مذكورة في حديث غزوة بدر من صحيح البخاري.

روى ابن إسحاق أنّ قريشا بعثوا النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بيثرب يسألانهم عن أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال اليهود لهما: سلوه عن ثلاثة. وذكروا لهم أهل الكهف وذا القرنين وعن الروح كما سيأتي في سورة الكهف. فسألته قريش عنها فأجاب عن أهل الكهف وعن ذي القرنين بما في سورة الكهف، وأجاب عن الروح بما في هذه السورة. وهذه الرواية تثير إشكالا في وجه فصل جواب سؤال الروح عن المسألتين الأخريين بذكر جواب مسألة الروح في سورة الإسراء وهي متقدّمة في النزول على سورة الكهف. ويدفع الإشكال أنّه <u>يجوز</u> أن يكون السؤال عن الروح وقع منفردا أوّل مرة ثم جمع مع المسألتين الأخريين ثاني مرة.

<u>ويجوز</u> أن تكون آية سؤال الروح ممّا ألحق بسورة الإسراء كما سنبينه في سورة الكهف.

<u>والجمهور</u> على أنّ الجميع نزل بمكّة، قال الطبري عن عطاء ابن يسار نزل قوله تعالى { وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إلّا قَلِيلاً } بمكّة.

وأمّا ما روي في صحيح البخاري عن ابن مسعود أنّه قال: " بينما أنا مع النبيّ في حرث بالمدينة إذ مرّ اليهود فقال بعضهم لبعض سلوه عن الروح. فسألوه عن الروح فأمسك النبيّ صلى الله عليه وسلم فلم يرد عليهم شيئا، فعلمت أنّه يوحى إليه، فقمت مقامي، فلما نزل الوحي قال { وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الرُّوحِ }. فالجمع بينه وبين حديث ابن عباس المتقدّم: أنّ اليهود لمّا سألوا النبيّ صلى الله عليه وسلم قد ظنّ النبيّ أنّهم أقرب من قريش إلى فهم الروح فانتظر أن ينزل عليه الوحي بما يجيبهم به أبين ممّا أجاب به قريشا، فكرّر الله تعالى إنزال الآية التي نزلت بمكّة أو أمره أن يتلوها عليهم ليعلم أنّهم وقريشا سواء في العجز عن إدراك هذه الحقيقة، أو أنّ الجواب لا يتغيّر.

<u>والذي يترجّح عندي</u>: أنّ فيما ذكره أهل السير تخليطا، وأنّ قريشا استقوا من اليهود شيئا ومن النصارى شيئا فقد كانت لقريش مخالطة مع نصارى الشام في رحلتهم الصيفية إلى الشام، لأنّ قصة أهل الكهف لم

تكن من أمور بني إسرائيل وإنّما هي من شؤون النصارى. بناء على أنّ أهل الكهف كانوا نصارى كما سيأتي في سورة الكهف، وكذلك قصة ذي القرنين، إن كان المراد به الاسكندر المقدوني، لأنّها ممّا عني به النصارى لارتباط فتوحاته بتأريخ بلاد الروم، فتعيّن أنّ اليهود ما لقّنوا قريشا إلّا السؤال عن الروح.

وبهذا يتّضح السبب في إفراد السؤال عن الروح في هذه السورة وذكر القصتين الأخريين في سورة الكهف. على أنّه يجوز أن يتكرّر السؤال في مناسبات وذلك شان الذين معارفهم محدودة فهم يلقونها في كل مجلس.

الروح: يطلق على الموجود الخفي المنتشر في سائر الجسد الإنساني الذي دلّت عليه آثاره من الإدراك والتفكير، وهو الذي يتقوّم في الجسد الإنساني حين يكون جنينا بعد أن يمضي على نزول النطفة في الرحم مائة وعشرون يوما وهذا الإطلاق هو الذي في قوله تعالى { فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ } [ص:72]. وهذا يُسمّى أيضا بالنفس كقوله تعالى { يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ } [الفجر:27].

ويطلق لفظ (الروح) على الملك الذي ينزل بالوحي على الرّسل. وهو جبريل عليه السلام، منه قوله تعالى { نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ } [الشعراء:194/193].

واختلف المفسّرون في الروح المسؤول عنه هنا ما هو من هذه الثلاثة؟ فالجمهور قالوا: المسؤول عنه هو الروح بالمعنى الأوّل، لأنّه الأمر المشكل الذي لم تتضح حقيقته، وأمّا الروح بالمعنيين الآخرين فيشبه أن يكون السؤال عنه سؤالا عن معنى مصطلح قرآني. وقد ثبت أنّ اليهود سألوا عن الروح بالمعنى الأوّل لأنّه هو الوارد في أوّل كتابهم وهو سفر التكوين من التوراة، لقوله في الإصحاح الأول: " وروح الله يرفّ على وجه المياه ". وليس الروح بالمعنيين الآخرين بوارد في كتبهم.

فالروح وبيان ماهيتها، قد شغلت الفلاسفة وحكماء المتشرّعين، لظهور أنّ في الجسد الحيّ شيئا زائدا على الجسم، به يكون الإنسان مدركا وبزواله يصير الجسم مسلوب الإرادة والإدراك، فعُلم بالضرورة أنّ في الجسم شيئا زائدا على الأعضاء الظاهرة والباطنة غير مشاهد إذ قد ظهر بالتشريح أنّ جسم الميت لم يفقد شيئا من الأعضاء الباطنة التي كانت له في حال الحياة.

وإذ قد كانت عقول النّاس قاصرة عن فهم حقيقة الروح وكيفية اتصالها بالبدن وكيفية انتزاعها منه وفي مصيرها بعد ذلك الانتزاع، أجيبوا بأنّ الروح من أمر الله. أي: أنّه كائن عظيم من الكائنات المشرّفة عند الله ولكنّه ممّا استأثر الله بعلمه.

{ **مِنْ أَمْرِ رَبِّي** } لفظ (أمر) يحتمل أن يكون مرادف الشيء. فالمعنى: الروح بعض الأشياء العظيمة التي هي لله. فإضافة { أَمْرِ } إلى اسم الجلالة على معنى لام الاختصاص، أي: أمر اختص الله بعلمه.

وروى ابن العربي في الأحكام عن ابن وهب عن مالك أنّه قال:" لم يأته في ذلك جواب ". أي: أنّ قوله تعالى { قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي } ليس جوابا ببيان ما سألوا عنه ولكنه صرف عن استعلامه وإعلام لهم

بأنّ هذا من العلم الذي لم يؤتوه. والاحتمالات كلّها مرادة، وهي كلمة جامعة.
{ **وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً** } يجوز أن تكون ممّا أمر الله رسوله أن يقوله للسائلين، فيكون الخطاب لقريش أو لليهود الذين لقّنوهم، ويجوز أن يكون تذييلا أو اعتراضا فيكون الخطاب لكل من يصلح للخطاب.

والمراد بالعلم هنا المعلوم، أي: ما شأنه أن يُعلم أو من معلومات الله. ووصفه بالقليل بالنسبة إلى ما من شأنه أن يُعلم من الموجودات والحقائق.

وإذ قد جرى ذكر الروح في هذه الآية وصُرف السائلون عن مرادهم لغرض صحيح اقتضاه حالهم وحال زمانهم ومكانهم، فما علينا أن نتعرّض لمحاولة تعرّف حقيقة الروح بوجه الإجمال فقد تهيأ لأهل العلم من وسائل المعرفة ما تغيّرت به الحالة التي اقتضت صرف السائلين في هذه الآية بعض التغير، وقد تتوفر تغيرات في المستقبل تزيد أهل العلم استعدادا لتجلّي بعض ماهية الروح، فلذلك لا نجاري الذين قالوا: إن حقيقة الروح يجب الإمساك عن بيانها لأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أمسك عنها فلا ينبغي الخوض في شأن الروح بأكثر من كونها موجودة. فقد رأى جمهور العلماء من المتكلمين والفقهاء منهم أبو بكر بن العربي في (العواصم)، والنووي في(شرح مسلم): أن هذه الآية لا تصدّ العلماء عن البحث عن الروح لأنّها نزلت لطائفة معيّنة من اليهود ولم يقصد بها المسلمون.

{ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً [86] إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً }]87[.

هذا متّصل بقوله تعالى { وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ } [82]، أفضت إليه المناسبة، فإنّه لمّا تضمن قوله تعالى { قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي } [85] تلقين كلمة علم جامعة، وتضمّن أنّ الأمّة أوتيت علما ومُنعت علما. وأنّ علم النبوّة من أعظم ما أوتيته، أعقب ذلك بالتنبيه إلى الشكر على نعمة العلم دفعا لغرور النفس، لأنّ العلم بالأشياء يكسبها إعجابا بتميّزها عمن دونها فيه. فأوقظت إلى أنّ الذي منح العلم قادر على سلبه، وخوطب بذلك النبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّ علمه أعظم علم، فإذا كان وجود علمه خاضعا لمشيئة الله فما الظنّ بعلم غيره، تعريضا لبقيّة العلماء. فالكلام صريحُه تحذير، وهو كناية عن الامتنان كما دلّ عليه قوله تعالى بعده { إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً }.
{ **لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ** } جواب القسم. بمعنى لنُذهبنّه، أي: عنك، وهو أبلغ من نُذهبه. وما صدق الموصول القرآن.
{ **ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً** } (ثمّ) للترتيب الرتبي، لأنّ نفي الطمع في استرجاع المسلوب أشدّ على النفس من سلبه، فذكره أدخل في التنبيه على الشكر والتحذير من الغرور.
الوكيل: من يوكل إليه المهم. والمراد به هنا المدافع عنك والشفيع لك. ولِما فيه من معنى الغلبة عُدّي بـ

(على)، ولِما فيه من معنى التعهّد والمطالبة عُدّي إلى المردود بالباء. أي: متعهّدا بالذي أوحينا إليك.

{ **إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ** } استثناء منقطع، فحرف الاستثناء فيه بمعنى الاستدراك. وهو استدراك على ما اقتضاه فعل الشرط من توقّع ذلك، أي: لكن رحمة من ربّك نفت مشيئة الذهاب بالذي أوحينا إليك، فهو باق. وهذا إيماء إلى بقاء القرآن وحفظه، قال تعالى { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [الحجر:9].

{ **إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً** } موقع التعليل للاستثناء المنقطع، لأنّ فضله كان عليك كبيرا فلا يحرمك فضل الذي أوحاه إليك.

{ **كَانَ** } لتوكيد الجملة، زيادة على توكيدها بحرف التوكيد المستعمل في معنى التعليل والتفريع.

{ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً } [88].

استئناف للزيادة في الامتنان. وهو استئناف بياني لمضمون جملة { إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً } [87]. وافتتاحه بـ (قل) للاهتمام به. وهذا تنويه بشرف القرآن، فكان هذا التنويه امتنانا على الذين آمنوا به وهم الذين كان لهم شفاء ورحمة، وتحدّيا بالعجز على الإتيان بمثله للذين أعرضوا عنه وهم الذين لا يزيدهم إلّا خسارا.

{ **لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ** } الاجتماع هنا بمعنى الاتفاق واتحاد الرأي، أي: لو تواردت عقول الإنس والجنّ على أن يأتي كلّ واحد منهم بمثل هذا القرآن لما أتوا بمثله. فهو اجتماع الرأي لا اجتماع التعاون، كما تدلّ عليه المبالغة في قوله تعالى بعده { وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً }.

وذكر الجنّ مع الإنس لقصد التعميم، كما يقال: " لو اجتمع أهل السماوات والأرض ". وأيضا لأنّ المُتَحَدَّيْن بإعجاز القرآن كانوا يزعمون أنّ الجنّ يقدرون على الأعمال العظيمة.

{ **عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ** } المراد بالمماثلة للقرآن: المماثلة في مجموع الفصاحة والبلاغة والمعاني والآداب والشرائع. وهي نواحي إعجاز القرآن اللفظي والعلمي.

{ **لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ** } جواب القسم الموطأ له باللام.

{ **وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً** } في موقع الحال من ضمير { لَا يَأْتُونَ }. و{ لَوْ } وصلية، وهي تفيد أنّ ما بعدها مظنّة أن لا يشمله ما قبلها. وتقدّم معناها عند قوله تعالى { وَلَوِ افْتَدَى بِهِ } [آل عمران:91].

الظهير: المعين.

وهذه الآية مفحمة للمشركين في التحدي بإعجاز القرآن.

{ **وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النّاس إلاّ كُفُوراً** } [89].

لمّا تحدّى الله بلغاء المشركين بالإعجاز تطاول عليهم بذكر فضائل القرآن على ما سواه من الكلام، مدمجا في ذلك النعي عليهم إذ حرموا أنفسهم الانتفاع بما في القرآن من كل مثل. وذكرت هنا ناحية من نواحي إعجازه، وهي ما اشتمل عليه من أنواع الأمثال.

وتقدّم ذكر المثل عند قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا } [البقرة:126].

{ **وَلَقَدْ صَرَّفْنَا** } معطوفة على { قُل لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ } مشاركة لها في حكمها المتقدّم بيانه زيادة في الامتنان والتعجيز. وتأكيدها بلام القسم وحرف التحقيق لردّ أفكار المشركين أنّه من عند الله، فمورد التأكيد هو فعل { صَرَّفْنَا } الدال على أنّه من عند الله.

التصريف: تقدّم آنفا عند قوله تعالى { وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا } [41]. وزيد في هذه الآية قيد { للنَّاسِ} دون الآية السابقة لأنّ هذه الآية واردة في مقام التحدّي والإعجاز، فكان النّاس مقصودين به قصدا أصليّا مؤمنهم وكافرهم، بخلاف الآية المتقدّمة فإنّها في مقام توبيخ المشركين خاصة فكانوا معلومين.

{ **لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ** } وجه تقديم أحد المتعلّقين بفعل { صَرَّفْنَا } على الآخر: أنّ ذكر النّاس أهم في هذا المقام لأجل كون الكلام مسوقا لتحدّيهم والحجّة عليهم، وإن كان ذكر القرآن أهم بالأصالة، إلّا أنّ الاعتبارات الطارئة تُقدّم في الكلام البليغ على الاعتبارات الأصلية، لأنّ الاعتبارات الأصلية لتقرّرها في النفوس تصير متعارفة فتكون الاعتبارات الطارئة أعزّ منالا. ومن هذا باب تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر.

{ **مِنْ كُلِّ مَثَلٍ** } ذكر في هذه الآية متعلّق التصريف بخلاف الآية السابقة، لأنّ ذكر ذلك أدخل في الإعجاز، فإنّ كثرة أغراض الكلام أشدّ تعجيزا لمن يروم معارضته عن أن يأتي بمثله، إذ قد يقدر بليغ من البلغاء على غرض من الأغراض ولا يقدر على غرض آخر، فعجزهم عن معارضة سورة من القرآن مع كثرة أغراضه عجز بيّن من جهتين، لأنّهم عجزوا عن الإتيان بمثله ولو في بعض الأغراض.

{ **مِنْ كُلِّ** } (من) للتبعيض، و(كلّ) تفيد العموم، فالقرآن مشتمل على أبعاض من جميع أنواع المثل.

{ **مَثَلٍ** } التنوين للتعظيم والتشريف، أي: من كل مثل شريف. والمراد: شرفه في المقصود من التمثيل.

{ **فَأَبَى أَكْثَرُ النّاس إلاّ كُفُوراً** } حذف مفعول { أبى } للقرينة، أي: أبى العمل به.

{ **إِلَّا كُفُوراً** } تأكيد الشيء بما يشبه ضدّه، لما فيه من الإطماع بأنّ إبايتهم غير مطّردة، ثم يأتي المستثنى مؤكّدا لمعنى المستثنى منه، إذ الكفور أخصّ من المفعول الذي حُذف للقرينة.

الكُفور (بضم الكاف):المجحود، أي: جحدوا بما في القرآن من هدى وعاندوا.

{ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حتّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً [90] أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْـهَارَ خِلالَـهَا تَفْجِيراً [91] أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً [92] أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حتّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَأُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إلّا بَشَراً رَسُولاً } [93].

عطف على جملة { فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلّا كُفُوراً } [99]. أي: كفروا بالقرآن وطلبوا بمعجزات أخرى.

وضمير الجمع عائد إلى أكثر النّاس الذين أبوا إلّا كفورا، باعتبار صدور هذا القول بينهم وهم راضون به ومتمالئون عليه متى علموه، فلا يلزم أن يكون كلّ واحد منهم قال هذا القول كلّه، بل يكون بعضهم قائلا جميعه أو بعضهم قائلا بعضه.

ولما اشتمل قولهم على ضمائر الخطاب تعيّن أنّ بعضهم خاطب به النبيّ صلى الله عليه وسلم مباشرة، إمّا في مقام واحد وإمّا في مقامات. وقد ذكر ابن إسحاق: أنّ عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبا سفيان بن حرب، والأسود بن المطلب، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية، وأمية بن خلف، وناسا معهم اجتمعوا بعد غروب الشمس عند الكعبة وبعثوا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم. فأسرع إليهم حرصا على هداهم، فعاتبوه على تسفيه أحلامهم والطعن في دينهم، وعرضوا عليه ما يشاء من مال أو تسويد. وأجابهم بأنّه رسول من الله إليهم لا يبغي غير نصحهم، فلمّا رأوا منه الثبات انتقلوا إلى طلب بعض ما حكاه الله عنهم في هذه الآية.

وروي أنّ الذي سأل ما حكي بقوله تعالى { أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ } [93] إلى آخره، هو عبد الله بن أبي أميّة المخزومي.

{ **لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ** } أي: لن نصدّقك أنك رسول الله إلينا.

الإيمان: التصديق. يقال: آمنه، أي: صدّقه. وكثر أن يُعدّى إلى المفعول بـ (اللام)، قال تعالى { وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا } [يوسف:17]، وقال تعالى { فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ } [العنكبوت:26]. وهذه اللام من قبيل ما سمّاه في (مغني اللبيب) لام التبيين. وغفل عن التمثيل لها بهذه الآية ونحوها.

التفجير: مصدر فجّر بالتشديد مبالغة في الفجر، وهو الشق باتساع. ومنه سُمّي فجر الصباح فجرا لأنّ الضوء يشق الظلمة شقا طويلا عريضا، فالتفجير أشدّ من مطلق الفجر وهو تشقيق شديد باعتبار اتساعه. ولذلك ناسب الينبوع هنا والنهر في قوله تعالى { وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً } [الكهف:33].

وقرأه الجمهور { تُفَجِّرَ } ـ بضم التاء وتشديد الجيم ـ على أنّه مضارع (فجّر) المضاعف. وقرأه عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف { تَفْجُرَ } ـ بفتح التاء وسكون الفاء وضم الجيم مخففة ـ على أنّه مضارع فجر كنصر، فلا التفات فيها للمبالغة لأنّ الينبوع يدل على المقصود أو يُعبّر عن مختلف أقوالهم الدالة على التصميم في الامتناع.

{ **مِنَ الْأَرْضِ** } أرض مكّة، فالتعريف للعهد، ووجه تخصيصها أنّ أرضها قليلة المياه بعيدة عن الجنّات.

الينبوع: اسم للعين الكثيرة النبع التي لا ينضب ماؤها. وصيغة يفعول صيغة مبالغة غير قياسية.

والينبوع مشتقة من مادة النبع.

{ **أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً** } الجنّة والنخيل والعنب والأنهار تقدّمت في قوله تعالى { أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ } [البقرة:266].

المقترح هو تفجير الماء في الأرض القاحلة. وإنّما ذكروا وجود الجنّة تمهيدا لتفجير أنهار خلالها فكأنّهم قالوا: حتّى تفجر لنا ينبوعا يسقي النّاس كلّهم، أو تفجّر أنهارا تسقي جنّة واحدة تكون تلك الجنّة وأنهارها لك. فنحن مقتنعون بحصول ذلك لا بغية الانتفاع منه. وهذا كقولهم { أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ } [93].

{ **تَفْجِيراً** } المفعول المطلق للدلالة على التكثير، لأنّ { تَفْجُرَ } قد كفى في الدلالة على المبالغة في الفجر، فتعيّن أن يكون الإتيان بمفعوله المطلق للمبالغة في العدد، كقوله تعالى { وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً } [106]، وهو المناسب لقوله تعالى { خِلَالَهَا }، لأنّ الجنّة تتخلّلها شعب النهر لسقي الأشجار. فجمع الأنهار باعتبار تشعّب ماء النهر إلى شعب عديدة. ويدلّ لهذا المعنى إجماع القراء على قراءة { فَتُفَجِّرَ } هنا بالتشديد مع اختلافهم في الذي قبله. وهذا من لطائف معاني القراءات المروية عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فهي من أفانين إعجاز القرآن.

{ **أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً** } انتقال من تحديه بخوارق فيها منافع لهم إلى تحديه بخوارق فيها مضرّتهم. أي: فليأتهم بآية على ذلك ولو في مضرّتهم. وهذا حكاية لقولهم كما قالوا. ولعلّهم أرادوا به الإغراق في التعجيب من ذلك فجمعوا بين جعل الإسقاط لنفس السماء. وعززوا تعجيبهم بالجملة المعترضة وهي { كَمَا زَعَمْتَ } إنباء بأنّ ذلك لا يصدّق به أحد. وعنوا به قوله تعالى { إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ } [سبأ: 9] وبقوله تعالى { وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ } [الطور:44]، إذ هو تهديد لهم بأشراط الساعة وإشرافهم على الحساب.

الكسف (بكسر الكاف وفتح السين): ـ جمع كسفة، وهي القطعة من الشيء مثل سدرة وسدر. وكذلك قرأه نافع، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم، وأبو جعفر، وقرأه الباقون بسكون السين بمعنى المفعول، أي: المكسوف بمعنى المقطوع.

{ **زَعَمْتَ** } الزعم: القول المستبعد أو المحال.

{ **أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً** }

القبيل: الجماعة من جنس واحد. وهو منصوب على الحال من الملائكة، أي: هم قبيل خاص غير معروف، كأنّهم قالوا: أو تأتي بفريق من جنس الملائكة.

الزخرف: الذهب.

{ **أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ** } عُدّي الفعل { تَرْقَى } بحرف (في) الظرفية للإشارة إلى أنّ الرقيّ تدرّج في السماوات، كمن يصعد في المرقاة والسلم.

{ **وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حتّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَأُهُ** } ثم تفنّنوا في الاقتراح فسألوه إن رقي أن يُرسل إليهم بكتاب ينزل من السماء يقرأونه، فيه شهادة بأنّه بلغ السماء. قيل: قائل ذلك عبد الله بن أبي أمية، قال: حتّى تأتينا بكتاب معه أربعة من الملائكة يشهدون لك.

ولعلّهم إنّما أرادوا أن ينزّل عليهم من السماء كتابا كاملا دفعة واحدة، فيكونوا قد ألحدوا بتنجيم القرآن، توهما بأنّ تنجيمه لا يناسب كونه منزلا من عند الله، لأنّ التنجيم عندهم يقتضي التأمّل والتصنّع في تأليفه. ولذلك يكثر في القرآن بيان حكمة تنجيمه.

{ **قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إلّا بَشَراً رَسُولاً** } لمّا كان اقتراحهم اقتراح مُلاجَّة وعناد، أمره الله بأن يجيبهم بما يدلّ على التعجّب من كلامهم بكلمة { سُبْحَانَ رَبِّي } التي تُستعمل في التعجّب كما تقدّم في طالع هذه السورة، ثم بالاستفهام الإنكاري، وصيغة الحصر المقتضية قصر نفسه على البشرية والرسالة قصرا إضافيا، أي: لست ربّا متصرّفا أخلق ما يُطلب مني.

{ وَمَا مَنَعَ النّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً [94] قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً } [95].

بعد أن عَدَّت أشكال عنادهم ومظاهر تكذيبهم أُعقبت ببيان العلّة الأصلية التي تبعث على الجحود في جميع الأمم وهي توهّمهم استحالة أن يبعث الله للناس برسالة بشرا مثلهم. فذلك التوهّم هو مثار ما يأتونه من المعاذير. فالذين هذا أصل معتقدهم لا يُرجى منهم أن يؤمنوا ولو جاءتهم كلّ آية. ومع ما في هذا من بيان أصل كفرهم هو أيضا رد بالخصوص لقولهم { أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً } [92].

{ **إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً** } يقتضي بصريحه أنّهم قالوا بألسنتهم وهو مع ذلك كناية عن اعتقادهم ما قالوه. ولذلك جُعل قولهم ذلك مانعا من أن يؤمنوا لأنّ اعتقاد قائليه يمنع من إيمانهم بضده ونطقهم بما يعتقدونه يمنع من يسمعونهم من متبعي دينهم.

{ **النّاسَ** } الظاهر حمل التعريف على الاستغراق. أي: ما منع جميع النّاس أن يؤمنوا إلّا ذلك التوهّم الباطل لأنّ الله حكى مثل ذلك عن كل أمّة كذبت رسولها:

*/ فقال حكاية عن قوم نوح { مَا هَذَا إلّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ } [المؤمنون:24].

*/ وحكي مثله عن هود { مَا هَذَا إلّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ ممّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ ممّا تَشْرَبُونَ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ } [المؤمنون:34/33].

*/ وعن قوم صالح { مَا أَنْتَ إِلّا بَشَرٌ مِثْلُنَا } [الشعراء:154].

*/ وعن قوم شعيب { وَمَا أَنْتَ إِلّا بَشَرٌ مِثْلُنَا } [الشعراء:186].

*/ وحكي عن قوم فرعون { فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا } [المؤمنون:47].

*/ وقال في قوم محمد صلى الله عليه وسلم { بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ } [قّ:2].

{ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً } وإذا شمل العموم كفّار قريش أمر الرسول بأن يجيبهم عن هذا الشبهة، فاختص الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم باجتثاث هذه الشبهة من أصلها اختصاصا لم يُلقنه من سبق من الرسل، فإنّهم تلقوا تلك الشبهة باستنصار الله تعالى على أقوالهم:

فقال عن نوح { قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } [الشعراء:118/117]. وقال مثله عن هود وصالح، وقال عن موسى وهارون { فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ } [المؤمنون:48].

فقد ادّخر الله لرسوله قواطع الأدلة على إبطال الشرك وشبه الظلال بما يناسب كونه خاتم الرسل، ولهذا قال في خطبة حجة الوداع: **" إنّ الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرضكم هذه ولكنّه قد رضي أن يطاع فيما دون ذلك ممّا تحقّرون من أعمالكم ".**

المعنى: أنّ الله يرسل الرسول للقوم من نوعهم للتمكّن من المخالطة لأنّ اتحاد النوع هو قوام تيسير المعاشرة، قال تعالى { وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً } [الأنعام:9]، أي: في صورة رجل ليمكن التخاطب بينه وبين الناس.

{ مُطْمَئِنِّينَ } المطمئن: الساكن. وأريد به هنا المتمكّن غير المضطرب، أي: مشي قرار في الأرض، أي: لو كان في الأرض ملائكة قاطنون على الأرض غير نازلين برسالة للرسل أنزلنا عليهم ملكا. ولمّا كان المشي والاطمئنان في الأرض من صفة الإنسان آل المعنى إلى: لو كنتم ملائكة لنزلنا عليكم من السماء ملكا فلما كنتم بشرا أرسلنا إليكم بشرا مثلكم.

{ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنّه كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً } [96].

بعد أن خصّ الله محمدا صلى الله عليه وسلم بتلقين الحجّة القاطعة للضلالة أردف ذلك بتلقينه أيضا ما لقّنه الرسل السابقين من تفويض الأمر إلى الله وتحكيمه في أعدائه.

{ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ } تسلية للرّسول صلى الله عليه وسلم وتثبيتا لنفسه وتعهدا له بالفصل بينه وبينهم كما قال نوح وهود { قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ } [المؤمنون:26]، وغيرهما من الرسل قال قريبا من ذلك. وفي هذا رد لمجموع مقترحاتهم المتقدّمة على وجه الإجمال.

{ **كَفَى** } المفعول محذوف، تقديره: كفاني.

الشهيد: الشاهد، وهو المخبر بالأمر الواقع كما وقع. وأريد بالشهيد هنا الشهيد للمُحقّ على المُبطل، فهو كناية عن النصير والحاكم، لأنّ الشهادة سبب الحكم. والقرينة قوله تعالى { بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ }.

والباء الداخلة على اسم الجلالة زائدة لتأكيد لصوق فعل { كَفَى } بفاعله. وأصله: كفى الله شهيدا.

{ **إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً** } تعليل للاكتفاء به تعالى.

الخبير: العليم. وأريد به العليم بالنوايا والحقائق.

البصير: العليم بالذوات والمشاهدات من أحوالها. والمقصود من اتباعه به إحاطة العلم وشموله.

{ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً } [97].

{ **وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ** } <u>يجوز</u> أن تكون الجملة معطوفة على جملة { وَمَا مَنَعَ النّاس أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى } [94] جمعا بين المانع الظاهر المعتاد من الهدى وبين المانع الحقيقي وهو حرمان التوفيق من الله تعالى.

<u>ويجوز</u> أن تكون الجملة معطوفة على جملة { قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ } [96] ارتقاء في التسلية، أي: لا يحزنك عدم اهتدائهم فإنّ الله حرمهم الاهتداء لمّا أخذوا بالعناد قبل التدبر في حقيقة الرسالة.

والمراد بالهدى الهدى إلى الإيمان بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

{ **الْمُهْتَدِ** } تعريف العهد الذهني، فالمعرّف مساو للنكرة، فكأنه قيل: فهو مهتدٍ. وفائدة الإخبار عنه بأنّه مهتدٍ التوطئة إلى ذكر مقابله وهو { وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ }.

<u>ويجوز</u> أن تجعل التعريف تعريف الجنس فيفيد قصر الهداية على الذي هداه الله قصرا إضافيا، أي: دون من تريد أنت هداه وأضله الله. ولا يحتمل أن يكون المعنى على القصر الادعائي الذي هو بمعنى الكمال، لأنّ الهدى المراد هنا هدي واحد وهو الهدي إلى الإيمان.

وحُذفت ياء { الْمُهْتَدِ } في رسم المصحف لأنهم وقفوا عليها بدون ياء على لغة من يقف على الاسم المنقوص غير المنون بحذف الياء، وهي لغة فصيحة غير جارية على القياس ولكنها أوثرت من جهة التخفيف لثقل صيغة اسم الفاعل مع ثقل حرف العلة في آخر الكلمة. ورُسمت بدون ياء لأنّ شأن أواخر الكلم أن ترسم بمراعاة حال الوقف. وأمّا في حال النطق في الوصل فقرأها نافع وأبو عمرو بإثبات الياء في الوصل وهو الوجه، ولذلك كتبوا الياء في مصاحفهم باللون الأحمر وجعلوها أدق من بقية الحروف المرسومة في المصحف تفرقة بينها وبين ما رسمه الصحابة كُتّاب المصحف. والباقون حذفوا الياء في النطق في الوصل إجراء للوصل مجرى الوقف. وذلك وإن كان نادرا في غير الشعر إلّا أن الفصحاء يجرون الفواصل مجرى القوافي. واعتبروا الفاصلة كل جملة تم بها الكلام، كما دلّ عليه تمثيل سيبويه

في كتابة الفاصلة بقوله تعالى { وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ } [الفجر:4] وقوله تعالى { قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ } [الكهف:64].

{ **فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ** } الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّ هذا الكلام مسوق لتسليته على عدم استجابتهم له. فنفي وجدان الأولياء كناية عن نفي وجود الأولياء لهم.

الأولياء: الأنصار، أي: لن تجد لهم أنصارا يخلّصونهم من جزاء الضلال، وهو العذاب.

ويجوز أن يكون الأولياء بمعنى متولّي شأنهم، أي: لن تجد لهم من يصلح حالهم فينقلهم من الضلال.

وجمع الأولياء باعتبار مقابلة الجمع بالجمع، أي: لن تجد لكل واحد وليا ولا لجماعته وليا.

{ **مِنْ دُونِهِ** } أي: غيره.

{ **وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً** }

ذكر المقصود من نفي الولي أو المآل له بذكر صورة عقابهم.

الحشر: جمع النّاس من مواضع متفرّقة إلى مكان واحد. ولمّا كان ذلك يستدعي مشيهم عُدّي الحشر بحرف (على) لتضمينه معنى (يمشون). وقد فهم النّاس ذلك من الآية فسألوا النبيّ صلى الله عليه وسلم كيف يمشون على وجوههم؟ فقال صلى الله عليه وسلم: **" إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم ".**

وهذا جزاء مناسب للجرم، لأنّهم روجوا الضلالة في صورة الحق ووسموا الحق بسمات الضلال.

{ **عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً** } جزاء أقوالهم الباطلة على الرسول وعلى القرآن، وجزاء امتناعهم من سماع الحق، كما قال تعالى عنهم { وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ ممّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ } [فصلت:5]. وقال عنهم { قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراًقَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى } [طه:126/125].

المأوى: محل الأوْي، أي: النزول بالمأوى، أي: المنزل والمقرّ.

{ **خَبَتْ** } خبت النار خُبُوًّا وخَبْوًا: نقص لهيبها.

السعير: لهب النّار، وهو مشتق من سعَّر النّار إذا هيّج وقودها. وقد جرى الوصف فيه على التذكير تبعا لتذكير اللهب. والمعنى: زدناهم لهبا فيها.

{ **ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً** } [98].

استئناف بياني لأنّ العقاب الفظيع المحكي يثير في نفوس السامعين السؤال عن سبب تركّب هذه الهيئة من تلك الصورة المفظّعة، فالجواب بأنّ ذلك بسبب الكفر بالآيات وإنكار المعاد.

{ **ذَلِكَ** } الإشارة إلى ما تقدّم من قوله تعالى { وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ } [97].

الجزاء: العوض عن عمل.

{ **بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا** } الباء للسببية.

{ **وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً** } الظاهر أنّها عطف على جملة { بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا}، فذُكر وجه اجتماع تلك العقوبات لهم. وذُكر سببان:

أحدهما: الكفر بالآيات ويندرج فيه صنوف من الجرائم تفصيلا وجمعا تناسبها العقوبة التي في قوله تعالى

{ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ }.

ثانيهما: إنكارهم البعث المناسب له أن يعاقبوا عقابا يناسب ما أنكروه من تجدّد الحياة بعد المصير رفاتا، فإنّ رفات الإحراق أشد اضمحلالا من رفات العظام في التراب.

{ **أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً / أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ** } الاستفهام إنكاري.

{ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إلّا كُفُوراً } [99].

عطف على جملة { ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ } باعتبار ما تضمّنته الجملة المعطوف عليها من الردع عن قولهم { أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً } [98]. فبعد زجرهم عن إنكارهم البعث بأسلوب التهديد عُطف عليه إبطال اعتقادهم بطريق الاستدلال بقياس التمثيل في الإمكان. فكان تمثيل خلق أجسام من أجزاء بالية بخلق أشياء أعظم منها من عدم أوغل في الفناء دليلا يقطع دعواهم.

{ **أَوَلَمْ يَرَوْا** } الاستفهام إنكاري مشوب بتعجّب من انتفاء علمهم لأنّهم لمّا جرت عقائدهم على استبعاد البعث كانوا بحال من لم تظهر له دلائل قدرة الله تعالى، فيؤول الكلام إلى إثبات أنّهم علموا ذلك في نفس الأمر. والرؤية مستعملة في الاعتقاد لأنّها عدّيت إلى كون الله قادرا. وذلك ليس من المبصرات.

المعنى: أو لم يعلموا أنّ الله قادر على أن يخلق مثلهم.

{ **عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ** } المثل: المماثل، أي: قادر على أن يخلق ناسا أمثالهم، لأنّ الكلام في إثبات إعادة أجسام المردود عليهم لا في أنّ الله قادر على أن يخلق خلقا آخر. ويكون في الآية إيماء إلى أنّ البعث إعادة أجسام أخرى عن عدم، فيُخلق لكلّ ميّت جسد جديد على مثال جسده الذي كان في الدنيا وتُوضع فيه الروح التي كانت له.

ولعلمائنا طرق في إعادة الأجسام عند البعث: فقيل: تكون الإعادة عن عدم، وقيل: تكون عن جميع ما تفرّق من الأجسام. وقيل: ينبت من عجْب ذنب كل شخص جسد جديد مماثل لجسده كما تنبت من النواة شجرة مماثلة للشجرة التي أثمرت ثمرة تلك النواة.

{ **اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ** } وصف اسم الجلالة بالموصول للإيماء إلى وجه بناء الخبر، وهو الإنكار عليهم، لأنّ

خلق السماوات والأرض أمر مشاهد معلوم، وكونه من فعل الله لا ينازعون فيه.

{ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لا رَيْبَ فِيهِ } معطوفة على جملة { أَوَلَمْ يَرَوْا } لتأويلها بمعنى قد رأوا ذلك لو كان لهم عقول، أي: تحقّقوا أنّ الله قادر على إعادة الخلق وقد جعل لهم أجلا لا ريب فيه.

الأجل: الزمان المجعول غاية يُبلغ إليها في حال من الأحوال. وشاع إطلاقه على امتداد الحياة، وهو المدّة المقدرة لكلّ حي بحسب ما أودع الله فيه من سلامة آلات الجسم، وما علمه الله من العوارض التي تعرض له فتخرم بعض تلك السلامة أو تقويها.

والأجل هنا محتمل لإرادة الوقت الذي جُعل لوقوع البعث في علم الله تعالى.

ووجه كون هذا الجعل لهم لأنّهم الذين أنكروا البعث، والمعنى: وجعل لهم ولغيرهم أجلا.

{ لا رَيْبَ فِيهِ } أي: أنّه لا ينبغي أن يكون فيه ريب، وأنّ ريب المرتابين فيه مكابرة أو إعراض عن النظر، فهو من باب قوله تعالى { ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ } [البقرة:2].

{ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلّا كُفُوراً } [99]، تفريع على الجملتين باعتبار ما تضمنتاه من الإنكار والتعجيب.

أي: علموا أنّ الذي خلق السماوات والأرض قادر على إعادة الأجسام ومع علمهم أبوا إلّا كفورا.

فالتفريع من تمام الإنكار عليهم والتعجيب من حالهم.

{ إِلّا كُفُوراً } استثناء الكفور من الإباية تأكيد للشيء بما يشبه ضدّه.

الكفور: جحود النعمة، وتقدّم آنفا. واختير (الكفور) تنبيها على أنّهم كفروا بما يجب اعتقاده، وكفروا نعمة المنعم عليهم فعبدوا غير المنعم.

{ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُوراً } [100].

اعتراض ناشئ عن بعض مقترحاتهم التي توهّموا عدم حصولها، دليلا على انتفاء إرسال بشر، فالكلام استئناف لتكملة ردّ شبهاتهم. وهذا ردّ لما تضمّنه قولهم { حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً - إلى قوله – تَفْجِيراً } [91]، وقولهم { أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ } [93]، من تعذّر حصول ذلك لعظيم قيمته.

<u>ومعنى الردّ</u>: أنّ هذا ليس بعظيم في جانب خزائن رحمة الله لو شاء أن يظهره لكم.

وأدمج في هذا الردّ بيان ما فيهم من البخل عن الإنفاق في سبيل الخير، وتذكيرهم بأنّ الله أعطاهم من خزائن رحمته فكفروا نعمته وشكروا الأصنام التي لا نعمة لها. ويصلح لأن يكون هذا خطابا للنّاس كلّهم مؤمنهم وكافرهم كلّ على قدر نصيبه.

{ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ } شأن (لو) أن يليها الفعل ماضيا في الأكثر أو مضارعا في اعتبارات، فهي مختصّة بالدخول على الأفعال، فإذا أوقعوا الاسم بعدها في الكلام وأخروا الفعل عنه فإنّما يفعلون ذلك لقصد بليغ : إمّا لقصد التقوّي والتأكيد، وإمّا للانتقال من التقوّي إلى الاختصاص، وهذا الاعتبار هو الذي

يتعيّن التخريج عليه في هذه الآية ونحوها من الكلام البليغ، ومنه قول عمر لأبي عبيدة: " لو غيرك قالها ".

والمعنى: لو أنتم أختصصتم بملك خزائن رحمة الله لما أنفقتم على الفقراء شيئا. وذلك أشدّ في التقريع وفي الامتنان بتخييل أنّ إنعام غيره كالعدم. واختير الفعل المضارع لأنّ المقصود فرض أن يملكوا ذلك في المستقبل.

{ **لَأَمْسَكْتُمْ** } الفعل هنا منزَّل منزلة اللازم فلا يُقدّر له مفعول، لأنّ المقصود: إذن لاتّصفتم بالإمساك، أي: البخل. يقال: فلان ممسك، أي: بخيل. ولا يراد أنّه ممسك شيئا معيّنا.

{ **إذاً** } تأكيد جواب (لو) وفيه تقوية معنى الجوابية، ولأنّ في (إذن) معنى الجزاء كما تقدّم آنفا عند قوله تعالى { قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً } [42].

{ **وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُوراً** } حالية أو اعتراضية في آخر الكلام، وهي تفيد تذييلا لأنّها عامة الحكم.

القتور: شديد البخل، مشتقّ من القتر وهو التضييق في الإنفاق.

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرائيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً [101] قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً } [102].

بقي قولهم { أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً } [92] غير مردود عليهم، لأنّ له مخالفة لبقيّة ما اقترحوه بأنّه اقتراح آية عذاب ورعب، فهو من قبيل آيات موسى عليه السلام التسع. فكان ذكر ما آتاه الله موسى من الآيات وعدم إجداء ذلك في فرعون وقومه تنظيرا لما سأله المشركون.

والمقصود: أنّنا آتينا موسى عليه السلام تسع آيات بيّنات الدلالة على صدقه فلم يهتد فرعون وقومه وزعموا ذلك سحرا، ففي ذلك مثل للمكابرين كلّهم، وما قريش إلّا منهم. ففي هذا مثل للمعاندين وتسلية للرسول.

{ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ** } وهي: بياض يده كلّما أدخلها في جيبه وأخرجها، وانقلاب العصا حيّة، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والرجز وهو الدمل، والقحط وهو السنون ونقص الثمرات، وهي مذكورة في [الأعراف:133].

وبهذا القول حصلت الحجّة على المشركين الذين يقترحون الآيات. ثم لم يزل الاعتناء في هذه السورة بالمقارنة بين رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ورسالة موسى عليه السلام إقامة للحجّة على المشركين الذين كذّبوا بالرسالة بعلّة أنّ الذي جاءهم بشر، وللحجّة على أهل الكتاب الذين ظاهروا المشركين ولقّنوهم شبه الإلحاد في الرسالة المحمدية ليصْفو لهم الجو في بلاد العرب.

{ **فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرائيلَ إِذْ جَاءَهُمْ** } الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم. والمراد: سؤال الاحتجاج بهم على المشركين لا سؤال الاسترشاد كما هو بيّن. وفيه تعريض بهم بأنّهم ساووا المشركين في إنكار نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ومظاهرتهم المشركين بالدسّ وتلقين الشبه، تذكيرا لهم بردّ فرعون وقومه.

{ **فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً** } ظاهره أنّ معناه متأثّرا بالسحر، أي: سحرك السحرة وأفسدوا عقلك. وهذا قول قاله فرعون في مقام غير الذي قال له فيه { يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ } [الشعراء:35]، والذي قال فيه { إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ } [الشعراء:34]، فيكون إعراضا عن الاشتغال بالآيات وإقبالا على تطلّع حال موسى. ألا ترى إلى قوله تعالى حكاية عنه { قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ إِلَّا تَسْتَمِعُونَ } [الشعراء:25]. وكل تلك الأقوال صدرت من فرعون في مقامات محاوراته مع موسى عليه السلام فحكي في كل آية شيء منها.

{ **إِنِّي لَأَظُنُّكَ** } كان فرعون تعلّق ظنّه بحقيقة ما أظهر موسى عليه السلام من الآيات فرجح عنده أنّها سحر، أو تعلّق ظنّه بحقيقة حال موسى فرجح عنده أنّه أصابه سحر، لأنّ الظن دون اليقين، وقد يُستعمل الظن بمعنى اليقين.

{ **قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ** } أكّد كلام موسى بلام القسم وحرف التحقيق تحقيقا لحصول علم فرعون بذلك. وإنّما أيقن موسى بأنّ فرعون قد علم بذلك، إمّا بوحي من الله أعلمه به، وإمّا برأي مصيب.

{ **هَؤُلاءِ** } الإشارة إلى الآيات التسع، جيء لها باسم إشارة العاقل، وهو استعمال مشهور. ومنه قوله تعالى { إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً } [36]. والأكثر أن يشار بـ (أولاء) إلى العاقل.

{ **رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } عُبّر عن الله بطريق إضافة وصف الربّ للسماوات والأرض تذكيرا بأنّ الذي خلق السماوات والأرض هو القادر على أن يخلق مثل هذه الخوارق.

البصائر: الحجج المفيدة للبصيرة، أي: العلم، فكأنّها نفس البصيرة. وقد تقدّم عند قوله تعالى { هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ } [الأعراف:203].

{ **وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً** } جعله موسى ظنّا تأدّبا مع الله تعالى، أو لأنّه علم ذلك باستقراء تام أفاده هلاك المعاندين للرسل، ولكنه لم يدر لعل فرعون يقلع عن ذلك وكان عنده احتمالا ضعيفا، فلذلك جعل توقّع هلاك فرعون ظنّا. ويجوز أن يكون الظنّ هنا مستعملا بمعنى اليقين كما تقدّم آنفا.

المثبور: الذي أصابه الثبور وهو الهلاك. وهذا نذارة وتهديد لفرعون بقرب هلاكه.

{ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً [103] وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرائيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً [104] }.

أكملت قصّة المثل بما فيه تعريض بتمثيل الحالين، إنذارا للمشركين بأنّ عاقبة مكرهم وكيدهم ومحاولاتهم صائرة إلى ما صار إليه مكر فرعون وكيده.

فقد أضمر المشركون إخراج النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين من مكّة، فمُثّلت إرادتهم بإرادة فرعون إخراج موسى وبني إسرائيل من مصر، قال تعالى { وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلّا قَلِيلاً } [76].

الاستفزاز: الاستخفاف، وهو كناية عن الإبعاد وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ } [76].

{ وَمَنْ مَعَهُ } جنده الذين خرجوا معه يتبعون بني إسرائيل.

والأرض الأولى هي المعهودة وهي أرض مصر، والأرض الثانية أرض الشام وهي المعهودة لبني إسرائيل بوعد الله إبراهيم إيّاها.

{ وَعْدُ الْآخِرَةِ } ما وعد الله به الخلائق على ألسنة الرّسل من البعث والحشر.

اللفيف: الجماعات المختلطون من أصناف شتّى.

المعنى: حكمنا بينهم في الدنيا بغرق الكفرة وتمليك المؤمنين، وسنحكم بينهم يوم القيامة.

{ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً } [105].

عود إلى التنويه بشأن القرآن متّصل بقوله تعالى { وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النّاس إِلّا كُفُوراً } [89].

وقد وُصِف القرآن بصفتين عظيمتين كل واحدة منهما تحتوي على ثناء عظيم وتنبيه للتدبّر فيهما.

{ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ } ذكر فعل النزول مرتين، وذكر له في كل مرة متعلّق متماثل اللفظ لكنّه مختلف المعنى؛

فعلق إنزال الله إيّاه بأنّه بالحق فكان معنى الحق الأوّل: الثابت الذي لا ريب فيه ولا كذب، فهو كقوله تعالى { ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ } [البقرة:2]، وهو ردّ لتكذيب المشركين أن يكون القرآن وحيا من الله.

وعلق نزول القرآن، أي: بلوغه للنّاس بأنّه بالحقّ فكان معنى الحق الثاني: مقابل الباطل، أي: مشتملا على الحق الذي به قوام صلاح النّاس وفوزهم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى { وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ } [81]، وقوله { إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النّاس بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ } [النساء:105].

وضمائر الغيبة عائدة إلى القرآن المعروف من المقام.

والباء في الموضعين للمصاحبة، لأنّه مشتمل على الحقّ والهدى، والمصاحبة تشبه الظرفية. ولولا اختلاف معنى الباءين في الآية لكان قوله تعالى { وَبِالْحَقِّ نَزَلَ } مجرّد تأكيد.

وتقديم المجرور في الموضعين على عامله للقصر ردا على المنكرين الذين ادّعوا أنّه أساطير الأولين أو سحر مبين أو نحو ذلك.

{ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً** } معترضة بين جملة { وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ } وجملة { وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ } [106]، أي: وفي ذلك الحقّ نفع وضرّ، فأنت به مبشّر للمؤمنين ونذير للكافرين.

{ **إِلَّا** } القصر للردّ على الذين سألوه أشياء من تصرّفات الله تعالى والذين ظنّوا أن لا يكون الرسول بشرا.

{ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً } [106].

عطف على جملة { وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ }.

{ **وَقُرْآناً** } انتصب على الحال من الضمير المنصوب في { فَرَقْنَاهُ } مقدّمة على صاحبها تنويها بكونه قرآنا، أي: كونه كتابا مقروءا. فإنّ اسم القرآن مشتق من القراءة، وهي التلاوة، إشارة إلى أنّه من جنس الكلام الذي يحفظ ويتلى، كما أشار إليه قوله تعالى { تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ } [الحجر:1]، وقد تقدّم بيانه.

فهذا الكتاب له أسماء باختلاف صفاته فهو: كتاب، وقرآن، وفرقان، وذكر، وتنزيل.

وتجري عليه الأوصاف أو بعضها باختلاف المقام:

*/ مقام الأمر بالتلاوة في الصلاة أو مطلقا. مثل قوله تعالى { وَقُرْآنَ الْفَجْرِ } [78] وقوله { فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ } [المزمل:20]

*/ مقام كونه فارقا بين الحق والباطل، مثل قوله تعالى { تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً } [الفرقان:1].

ولهذا لم يوصف من الكتب السماوية بوصف القرآن غير الكتاب المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم.

{ **فَرَقْنَاهُ** } جعلناه فِرَقًا، أي: أنزلناه منجّما مفرّقا. يقال: فرَّق الأشياء إذا باعد بينها. ويطلق الفرق على البيان لأنّ البيان يشبه تفريق الأشياء المختلطة، فيكون { فَرَقْنَاهُ } محتملا معنى: بيّنّاه وفصّلناه.

{ **لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاس عَلَى مُكْثٍ** } علّتان: أن يُقرأ على النّاس وتلك علّة لجعله قرآنا، وأن يُقرأ على مُكث، أي: مهل وبطء وهي علة لتفريقه. والحكمة في ذلك أن تكون ألفاظه ومعانيه أثبت في نفوس السامعين.

{ **وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً** } إشارة إلى تفريق إنزاله المذكور في قوله تعالى { وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ } [105].

وطُوي بيان الحكمة للاجتزاء بما في قوله تعالى { لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاس عَلَى مُكْثٍ } من اتحاد الحكمة.

ويجوز أن يراد: فرقنا إنزاله رعيا للأسباب والحوادث. وفي كلا الوجهين إبطال لشبهتهم إذ قالوا { لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً } [الفرقان:32].

{ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً [107] وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً [108] وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً [109] }.

استئناف خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم ليلقّنه بما يقوله للمشركين الذين لم يؤمنوا بأنّ القرآن منزّل من عند الله، فإنّه بعد أنّ أوضح لهم الدلائل على أنّ مثل ذلك القرآن لا يكون إلّا منزّلا من عند الله من قوله تعالى { قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ } [88]، فعجزوا عن الإتيان بمثله، ثم بيان فضائل ما اشتمل عليه بقوله تعالى { وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ } [89]، ثمّ بالتعرّض إلى ما اقترحوه من الإتيان بمعجزات أخر، ثمّ بكشف شبهتهم التي يموّهون بها امتناعهم من الإيمان برسالة البشر، وبيّن لهم غلطهم أو مغالطتهم، ثمّ بالأمر بإقامة الله شهيدا بينه وبينهم، ثمّ بتهديدهم بعذاب الآخرة، *ثمّ بتمثيل* حالهم مع رسولهم بحال فرعون وقومه مع موسى وما عُجّل لهم من عذاب الدنيا بالاستئصال، ثمّ بكشف شبهتهم في تنجيم القرآن، أُعقِب ذلك بتفويض النظر في ترجيح الإيمان بصدق القرآن وعدم الإيمان بقوله تعالى { قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا } للتسوية بين إيمانهم وعدمه عند الله تعالى.

{ **قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا** } الأمر للتسوية، أي: إن شئتم. وجزم { لا تُؤْمِنُوا } بالعطف على المجزوم. ومثله قوله تعالى { فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ } [الطور:16]، فحرف (لا) حرف نفي وليس حرف نهي، ولا يقع مع الأمر المراد به التسوية إلّا كذلك، وهو كناية عن الإعراض عنهم واحتقارهم وقلّة المبالاة بهم. ويندمج فيه مع ذلك تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم.

{ **إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً** } تعليل لمعنى التسوية بين إيمانهم به وعدمه أو تعليل لفعل { قُلْ }، أو لكليهما، شأن العلل التي ترد بعد جمل متعدّدة، ولذلك فُصلت. وموقع (إنّ) فيها موقع فاء التفريع، أي: إنّما كان إيمانكم بالقرآن وعدمه سواء، لأنّه مستغن عن إيمانكم به بإيمان الذين أوتوا العلم من قبل نزوله. فهم أرجح منكم أحلاما وأفضل مقاما، فإنّهم يسمعونه ويؤمنون به ويزيدهم إيمانا بما في كتبهم من الوعد بالرسول الذي أنزل هذا عليه. وفي هذا تعريض بأن الذين أعرضوا عن الإيمان بالقرآن جهلة.

والمراد بالذين أوتوا العلم أمثال: ورقة بن نوفل، فقد تسامع أهل مكّة بشهادته للنبيّ صلى الله عليه وسلم، ومن آمن بعد نزول هذه السورة من مثل: عبد الله بن سلام، ومعيقيب، وسلمان الفارسي.

ففي هذه الآية إخبار بمغيَّب.

{ **يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً** } **الخرور**: سقوط الجسم. وتقدّم في قوله { وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً } [الأعراف:143].

{ **لِلْأَذْقَانِ** } اللام بمعنى (على) كما في قوله تعالى { وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ } [الصافات:103].

وأصل هذه اللام أنّها استعارة تبعية. استعير حرف الاختصاص لمعنى الاستعلاء للدلالة على مزيد التمكّن، كتمكّن الشيء بما هو مختص به.

الأذقان: جمع الذَقَن (بفتح الذال وفتح القاف) مجتمع اللحيين، وذكر الذقن للدلالة على تمكينهم الوجوه كلّها من الأرض من قوة الرغبة في السجود لما فيه من استحضار الخضوع لله تعالى.

{ **سُجَّداً** } جمع ساجد، وهو في موضع الحال من ضمير { يَخِرُّونَ } لبيان الغرض من هذا الخرور.

{ **وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا** } عطفت على { يَخِرُّونَ } للإشارة إلى أنّهم يجمعون بين الفعل الدال على الخضوع والقول الدال على التنزيه والتعظيم. ونظيره قوله تعالى { خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ } [السجدة:15].

على أنّ في قولهم { سُبْحَانَ رَبِّنَا } دلالة على التعجّب والبهجة من تحقّق وعد الله في التوراة والإنجيل بمجيء الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم.

{ **إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً** } من تمام مقولهم. وهو المقصود من القول، لأنّ تسبيحهم قبله تسبيح تعجّب واعتبار بأنّه الكتاب الموعود به وبرسوله في الكتب السابقة.

{ **مَفْعُولاً** } أي: أن الله يفعل ما جاء في وعده، أي: يحقّقه. وهذا السجود سجود تعظيم لله إذ حقق وعده.

{ **وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً** } تكرير للجملة باختلاف الحال المقترنة بها. فالخرور المحكي بالجملة الثانية هو الخرور الأول، وأنّما خروا خرورا واحدا ساجدين باكين، فذكر مرّتين اهتماما بما صحبه من علامات الخشوع.

{ **يَبْكُونَ** } صيغة المضارع لاستحضار الحالة. والبكاء بكاء فرح وبهجة.

ويزيدهم القرآن خشوعا على خشوعهم الذي كان لهم من سماع كتابهم.

ومن السنة سجود القارئ والمستمع له بقصد عند هذه الآية اقتداء بأولئك الساجدين بحيث لا يذكر المسلم سجود أهل الكتاب عند سماع القرآن إلّا وهو يرى نفسه أجدر بالسجود عند تلاوة القرآن.

{ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً } [110].

لا شكّ أنّ لنزول هذه الآية سببا خاصا إذ لا موجب لذكر هذا التخيير بين دعاء الله تعالى باسمه العلم وبين دعائه بصفة الرحمان خاصة دون ذكر غير تلك الصفة من صفات الله مثل: الرحيم أو العزيز

وغيرهما من الصفات الحسنى. ثمّ لا بد بعد ذلك من طلب المناسبة لوقوعها في هذا الموضع من السورة.
فأمّا سبب نزولها فروى الطبري والواحدي عن ابن عباس قال: " كان النبيّ صلى الله عليه وسلم ساجدا يدعو يا رحمان يا رحيم، فقال المشركون: هذا يزعم أنّه يدعو واحدا وهو يدعو مثنى مثنى، فأنزل الله تعالى { قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} . وعليه فالاقتصار على التخيير في الدعاء بين اسم الله وبين صفة الرحمان اكتفاء، أي: أو الرحيم.
وفي الكشاف: عن ابن عباس: سمع أبو جهل النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول: يا الله يا رحمان. فقال أبو جهل: أنّه ينهانا أن نعبد إلهين وهو يدعو إلها آخر ". وأخرجه ابن مردويه. وهذا أنسب بالآية لاقتصارها على اسم الله وصفة الرحمان.
وأما موقعها هنا فيتعين أن يكون سبب نزولها حدث حين نزول الآية التي قبلها.
والكلام ردّ وتعليم بأنّ تعدّد الأسماء لا يقتضي تعدد المُسمّى، وشتان بين ذلك وبين دعاء المشركين آلهة مختلفة الأسماء والمسمّيات، والتوحيد والإشراك يتعلقان بالذوات لا بالأسماء.
{ **ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ** } ادعوا هذا الاسم أو هذا الاسم، أي: اذكروا في دعائكم هذا أو هذا، فالمُسمّى واحد. وعلى هذا التفسير قد وقع تجوُّز في فعل { ادْعُوا } مستعملا في معنى اذكروا أو سمّوا في دعائكم.
<u>ويجوز</u> أن يكون الدعاء مستعملا في معنى سمّوا، وهو حينئذ يتعدى إلى مفعولين. والتقدير: سمّوا ربكم الله أو سمّوه الرحمان.
{ **أَيّاً** } اسم استفهام في الأصل، فإذا اقترنت بها (ما) الزائدة أفادت الشرط، كما تفيده (كيف) إذا اقترنت بها (ما) الزائدة. ولذلك جزم الفعل بعدها وهو { تَدْعُوا } شرطا، وجيء لها بجواب مقترن بالفاء:
{ **فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى** } علّة الجواب. والتقدير: لا حرج في دعائه بعدة أسماء إذ له الأسماء الحسنى.
{ **وَلَا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً** } لا شك أنّ لهذه الجملة اتصالا بجملة { قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ }، فقد كان ذلك بسبب جهر النبيّ صلى الله عليه وسلم في دعائه باسم الرحمان.
الصلاة: تحتمل الدعاء، وتحتمل العبادة المعروفة. وقد فسّرها السلف هنا بالمعنيين. ومعلوم أنّ من فسّر الصلاة بالعبادة المعروفة فإنّما أراد قراءتها خاصة، لأنّها التي توصف بالجهر والمخافتة.
ولعلّ سفهاء المشركين توهّموا من صدع النبيّ صلى الله عليه وسلم بالقراءة أو بالدعاء أنّه يريد بذلك التحكّك بهم والتطاول عليهم بذكر الله تعالى مجردا عن ذكر آلهتهم فاغتاظوا وسبّوا. فأمره الله تعالى بأن لا يجهر بصلاته هذا الجهر تجنّبا لما من شأنه أن يثير حفائظهم ويزيد تصلّبهم في كفرهم في حين أنّ المقصود تليين قلوبهم.
والمقصود من الكلام النهي عن شدّة الجهر.

{ **وَلَا تُخَافِتْ بِهَا** } المقصود منه الاحتراس لكيلا يجعل دعاءه سرّا أو صلاته كلّها سرا فلا يبلغ أسماع المتهيّئين للاهتداء به، لأنّ المقصود من النهي عن الجهر تجنّب جهر يتوهّم منه الكفار تحكّكا أو تطاولا.

الجهر: قوّة صوت الناطق بالكلام.

المخافتة: من خفت بكلامه، إذا أسرّ به. وصيغة المفاعلة مستعملة في معنى الشدّة، أي: لا تسرّها.

{ **وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً** } [111].

لمّا كان النهي عن الجهر بالدعاء أو قراءة الصلاة سدّا لذريعة زيادة تصميمهم على الكفر أعقب ذلك بأمره بإعلان التوحيد لقطع دابر توهّم من توهّموا أنّ الرحمان اسم لمسمّى غير مسمّى اسم الله، فبعضهم توهّمه إلها شريكا، ويعضهم توهّمه معينا وناصرا، أمر النبيّ بأن يقول ما يقلع ذلك كلّه وأن يعظّمه بأنواع من التعظيم.

{ **وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ** } تقتضي تخصيصه تعالى بالحمد، أي: قصر جنس الحمد عليه تعالى لأنّه أعظم مستحقّ لأن يُحمد. فالتخصيص ادعائي بادعاء أنّ دواعي حمد غير الله تعالى في جانب دواعي حمد الله بمنزلة العدم، كما تقدّم في سورة الفاتحة.

{ **مِنَ الذُّلِّ** } (من) بمعنى لام التعليل.

الذلّ: العجز والافتقار. والمراد: نفي الناصر له على وجه مؤكّد، فإنّ الحاجة إلى الناصر لا تكون إلّا من العجز عن الانتصار للنفس.

{ **كَبِّرْهُ** } اعتقد أنّه كبير، أي: عظيم.

{ **تَكْبِيراً** } المفعول المطلق للتوكيد، ولما في التنوين من التعظيم. ولأنّ من هذه صفاته هو الذي يقدر على إعطاء النعم التي يعجز غيره عن إسدائها.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الكهف

سمّاها رسول الله صلى الله عليه وسلم (**سورة الكهف**).

روى مسلم، وأبو داود، عن أبي الدرداء عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: **" من حفظ عشر آيات من أوّل سورة الكهف،** (وفي رواية لمسلم) **من آخر الكهف، عُصم من فتنة الدجال ".**

ورواه الترمذي عن أبي الدرداء بلفظ: **" من قرأ ثلاث آيات من أول الكهف عُصم من فتنة الدجال"**. قال الترمذي: " حديث حسن صحيح ".

وكذلك وردت تسميتها عن البراء بن عازب في صحيح البخاري، قال: " كان رجل يقرأ سورة الكهف وإلى جانبه حصان مربوط بشَطَنين فتغشّته سحابة فجعلت تدنو، وتدنو، وجعل فرسه ينفر، فلمّا أصبح أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له، فقال: **" تلك السكينة تنزّلت بالقرآن "**.

وفي حديث أخرجه ابن مردويه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم " أنّه سمّاها سورة أصحاب الكهف ".

وهي مكّيّة بالاتفاق كما حكاه ابن عطية. وقيل قوله تعالى { وَاصْبِرْ نَفسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ } [28] نزلتا بالمدينة، وقيل قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً } [107] إلى آخر السورة نزل بالمدينة. وكلّ ذلك ضعيف كما سيأتي التنبيه عليه في مواضعه.

نزلت بعد سورة الغاشية وقبل سورة الشورى.

وهي الثامنة والستون في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد.

وقد ورد في فضلها أحاديث متفاوتة أصحّها الأحاديث المتقدّمة.

وهي من السور التي نزلت جملة واحدة. روى الديلمي في سند الفردوس عن أنس قال: نزلت سورة الكهف جملة معها سبعون ألفا من الملائكة. وقد أغفل هذا صاحب (الإتقان) .

وعُدّت آيها في عدد قرّاء المدينة ومكّة **مائة وخمسا**، وفي عدد قرّاء الشام مائة وستا، وفي عدد قرّاء البصرة مائة وإحدى عشرة، وفي عدّ قرّاء الكوفة مائة وعشرا، بناء على اختلافهم في تقسيم بعض الآيات إلى آيتين.

وسبب نزولها ما ذكره كثير من المفسّرين، وبسطه ابن إسحاق في سيرته بدون سند، وأسنده الطبري إلى ابن عبّاس بسند فيه رجل مجهول: " أنّ المشركين لمّا أهمّهم أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم وازدياد المسلمين معه وكثر تساؤل الوافدين إلى مكّة من قبائل العرب عن أمر دعوته، بعثوا النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة يثرب يسألونهم رأيهم في دعوته، وهم يطمعون أن يجد لهم الأحبار ما لم يهتدوا إليه ممّا يوجّهون به تكذيبهم إيّاه . قالوا: فإنّ اليهود أهل الكتاب الأوّل وعندهم من علم الأنبياء، أي: صفاتهم وعلاماتهم علم ليس عندنا، فقدم النضر وعقبة إلى المدينة ووصفا لليهود

دعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم وأخبراهم ببعض قوله. فقال لهم أحبار اليهود: سلوه عن ثلاث؟ فإن أخبركم بهنّ فهو نبيّ وإن لم يفعل فالرجل متقوّل؛ سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأوّل ما كان أمرهم، وسلوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وسلوه عن الروح ما هي. فرجع النضر وعقبة فأخبرا قريشا بما قاله أحبار اليهود، فجاء جمع من المشركين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه عن هذه الثلاثة، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" أخبركم بما سألتم عنه غدا "** وهو ينتظر وقت نزول الوحي عليه بحسب عادة يعلمها. ولم يقل: إن شاء الله. فمكث رسول الله ثلاثة أيام لا يوحى إليه، وقال ابن إسحاق: خمسة عشر يوما، فأرجف أهل مكّة وقالوا: وعدنا محمد غدا وقد أصبحنا اليوم عدّة أيام لا يخبرنا بشيء ممّا سألناه عنه، حتّى أحزن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وشقّ عليه، ثم جاءه جبريل عليه السلام بسورة الكهف وفيها جوابهم عن الفتية وهم أهل الكهف، وعن الرجل الطواف وهو ذو القرنين. وأنزل عليه فيما سألوه من أمر الروح { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً } [الاسراء: 85].

وقد يعترضك هنا: أن الآية التي نزلت في أمر الروح هي من سورة الإسراء فلم تكن مقارنة للآية النازلة في شان الفتية وشأن الرجل الطواف فماذا فرَّق بين الآيتين، وأنّ سورة الإسراء نزلت قبل سورة الكهف.

وقد يجاب عن هذا: بأنّ آية الروح قد تكون نزلت على أن تلحق بسورة الإسراء، فإنّها نزلت في أسلوب سورة الإسراء وعلى مثل فواصلها، ولأن الجواب فيها جواب بتفويض العلم إلى الله، وهو مقام يقتضي الإيجاز، بخلاف الجواب عن أهل الكهف وعن ذي القرنين فإنه يستدعي بسطا وإطنابا ففُرّقت آية الروح عن القصتين.

على أنه يجوز أن يكون نزول سورة الإسراء مستمرا إلى وقت نزول سورة الكهف، فأنزل قرآن موزع عليها وعلى سورة الكهف.

فاتّضح من هذا أنّ أهم غرض نزلت فيه سورة الكهف هو بيان قصّة أصحاب الكهف، وقصّة ذي القرنين. وقد ذكرت أولاهما في أوّل السورة وذكرت الأخرى في آخرها.

وهي مفتتحة بالحمد حتّى يكون افتتاح النصف الثاني من القرآن بـ { الْحَمْدُ لِلَّهِ } كما كان افتتاح النصف الأول بـ { الْحَمْدُ لِلَّهِ } .

أغراض السورة

*/ افتُتحت بالتحميد على إنزال الكتاب للتنويه بالقرآن تطاولا من الله تعالى على المشركين وملقّنيهم من أهل الكتاب.

*/ أدمج فيه إنذار المعاندين الذين نسبوا لله ولدا، وبشارة للمؤمنين.

*/ تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أقوالهم حين تريّث الوحي، لما اقتضته سنّة الله مع أوليائه من إظهار عتبه على الغفلة عن مراعاة الآداب الكاملة.

*/ ذكر افتتان المشركين بالحياة الدنيا وزينتها وأنّها لا تُكسب النفوس تزكيّة.

*/ انتقل إلى خبر أصحاب الكهف المسؤول عنه.

*/ حذّرهم من الشيطان وعداوته لبني آدم ليكونوا على حذر من كيده.

*/ قُدّم لقصة ذي القرنين قصّة أهم منها وهي قصّة موسى والخضر عليهما السلام، لأنّ كلتا القصتين تشابهتا في السفر لغرض شريف. فذو القرنين خرج لبسط سلطانه على الأرض، وموسى عليه السلام خرج في طلب العلم.

*/ في ذكر قصّة موسى تعريض بأحبار بني إسرائيل إذ تهمّموا بخبر ملك من غير قومهم ولا من أهل دينهم ونسوا خبرا من سيرة نبيّهم.

*/ تخلّل ذلك مستطردات من إرشاد النبيّ صلى الله عليه وسلم وتثبيته. وأنّ الحقّ فيما أخبر به، وأنّ أصحابه الملازمين له خير من صناديد المشركين.

*/ مستطردات من الوعد والوعيد، وتمثيل المؤمن والكافر، وتمثيل الحياة الدنيا وانقضائها، وما يعقبها من البعث والحشر.

*/ التذكير بعواقب الأمم الدنيا وانقضائها، وما يعقبها من البعث والحشر، والتذكير بعواقب الأمم المكذبة للرّسل.

*/ ما خُتمت به من إبطال الشرك ووعيد أهله، ووعد المؤمنين بضدّهم، والتمثيل لسعة علم الله تعالى.

*/ ختمت بتقرير أنّ القرآن وحي من الله تعالى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم فكان في هذا الختام مُحسِّن رد العجز على الصدر.

{ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا [1] قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً [2] مَاكِثِينَ فيهِ أَبَداً [3]}.

{ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا * قَيِّماً } موقع الافتتاح بهذا لتحميد كموقع الخطبة يفتتح بها الكلام في الغرض المهمّ.

ولمّا كان إنزال القرآن على النبيّ صلى الله عليه وسلم أجزل نَعماء الله تعالى على عباده المؤمنين، لأنّه سبب نجاتهم في حياتهم الأبدية، وسبب فوزهم في الحياة العاجلة بطيب الحياة وانتظام الأحوال والسيادة على النّاس، ونعمة على النبيّ صلى الله عليه وسلم بأن جعله واسطة ذلك ومبلّغه ومبيّنه، لأجل ذلك استحقّ الله تعالى أكمل الحمد إخبارا وإنشاء. وقد تقدّم إفادة جملة { الْحَمْدُ لِلَّهِ } استحقاقه أكمل الحمد في صدر سورة الفاتحة.

{ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ } جملة خبرية. أخبر الله نبيه والمسلمين بأنّ مستحقّ الحمد هو الله تعالى لا غيره. فأجرى على اسم الجلالة الوصف بالموصول تنويها بمضمون الصلة ولما يفيده الموصول من تعليل الخبر.

{ عَلَى عَبْدِهِ } ذكر النبيّ صلى الله عليه وسلم بوصف العبودية لله تقريب لمنزلته وتنويه به بما في إنزال الكتاب عليه من رفعة قدره كما في قوله تعالى { تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ } [الفرقان:1].

الكتاب: القرآن. فكلّ مقدار منزّل من القرآن فهو { الكِتَابَ }. فالمراد بالكتاب هنا ما وقع إنزاله من يوم البعثة في غار حراء إلى يوم نزول هذه السورة، ويلحق به ما ينزل بعد هذه الآية.

{ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا } معترضة بين { الْكِتَابَ } وبين الحال منه وهو { قَيِّمًا }.

<u>ويجوز</u> كون الجملة حالا.

العِوَج (بكسر العين وفتحها وبفتح الواو): حقيقته انحراف جسم ما عن الشكل المستقيم، فهو ضد الاستقامة. ويطلق مجازا على الانحراف عن الصواب والمعاني المقبولة المستحسنة.

والذي عليه المحقّقون من أئمة اللغة أن مكسور العين ومفتوحها سواء في الإطلاقين الحقيقي والمجازي.

والمراد بالعوج هنا عوج مدلولات كلامه بمخالفتها للصواب وتناقضها وبعدها عن الحكمة وإصابة المراد.

<u>والمقصود من هذه الجملة المعترضة أو الحالية</u>: إبطال ما يرميه به المشركون من قولهم افتراه، وأساطير الأوّلين، وقول كاهن، لأنّ تلك الأمور لا تخلو من عوج. قال تعالى { أَفلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً } [النساء:82].

وإنّما عُدّي الجعل بـ (اللام) دون (في) لأنّ العوج المعنوي يناسبه حرف الاختصاص دون حرف الظرفيّة، لأنّ الظرفيّة من علائق الأجسام، وأمّا معنى الاختصاص فهو أعمّ.

<u>فالمعنى</u>: أنّه متّصف بكمال أوصاف الكتب من صحة المعاني والسلامة من الخطأ والاختلاف. وهذا

وصف كمال للكتاب في ذاته، وهو مقتضٍ أنّه أهل للانتفاع به، فهذا كوصفه بـ { أنّه لا رَيْبَ فيهِ } [البقرة:2].

{ **قَيِّماً** } حال من { الْكِتَابَ }. و**القيّم**: صفة مبالغة من القيام المجازي الذي يطلق على دوام تعهّد شيء وملازمة صلاحه، لأنّ التعهّد يستلزم القيام لرؤية الشيء والتيقّظ لأحواله، كما تقدّم عند قوله تعالى { الْحَيُّ الْقَيُّومُ } [البقرة:255]. والمراد به هنا أنّه قيّم على هدي الأمّة وإصلاحها، فالمراد أنّ كماله متعدٍّ بالنفع، فوِزانه وِزان وصفه بأنّه { هُدىً لِلْمُتَّقِينَ } [البقرة:2].

{ **لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ** } متعلّق بـ { أَنْزَلَ }. والضمير المرفوع عائد إلى اسم الجلالة، أي: لينذر الله بأسا شديدا من لدنه، والمفعول الأوّل لـ (ينذر) محذوف لقصد التعميم، أو تنزيلا للفعل منزلة اللازم لأنّ المقصود المنذر به وهو البأس الشديد تهويلا له ولتهديد المشركين المنكرين إنزال القرآن من الله.

البأس: الشدّة في الألم. ويطلق على القوّة في الحرب لأنّها تؤلم العدو. وقد تقدّم في قوله تعالى { وَالصَّابِرِينَ في الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ } [البقرة:177]. والمراد هنا: **شدّة الحال في الحياة الدنيا،** <u>وذلك هو الذي أطلق على اسم البأس في القرآن</u>. وعليه درج الطبري. وهذا إيماء بالتهديد للمشركين بما سيلقونه من القتل والأسر بأيدي المسلمين، وذلك بأس من لدنه تعالى، لأنّه بتقديره وبأمره عباده أن يفعلوه.

{ **مِنْ لَدُنْهُ** } مستعمل هنا في معنييه الحقيقي والمجازي. <u>ويجوز</u> أن يراد بالبأس عذاب الآخرة فإنّه بأس شديد، ويكون قوله تعالى { مِنْ لَدُنْهُ } مستعملا في حقيقته. وبهذا الوجه فسّر جمهور المفسرين.

{ **وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً مَاكِثِينَ فيهِ أَبَداً** } عطف على قوله تعالى { لِيُنْذِرَ بَأْساً }، فهو سبب آخر لإنزال الكتاب أثارته مناسبة ذكر الإنذار ليبقى الإنذار موجّها إلى غيرهم.

{ **أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً** } متعلّق بـ { يُبَشِّرَ }. وذكر الإيمان والعمل الصالح للإشارة إلى أنّ استحقاق ذلك الأجر بحصول الأمرين.

المكث: الاستقرار في المكان، للدلالة على أنّ الأجر الحسن كالمحيط بهم لا يفارقهم طرفة عين.

{ **أَبَداً** } ليس بتأكيد لمعنى { مَاكِثِينَ } بل أفيد بمجموعها الإحاطة والدوام.

{ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً [4] مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً [5] }.

تعليل آخر لإنزال الكتاب على عبده، باعتبار أنّ المراد هنا إنذار مخصوص مقابل لما بشّر به المؤمنين. وهذا إنذار بجزاء خالدين فيه وهو عذاب الآخرة، <u>فإن جريتَ</u> على تخصيص البأس في قوله تعالى { بَأْساً شَدِيداً } بعذاب الدنيا، كما تقدّم، كان هذا الإنذار مغايرا لما قبله، <u>وإن جريتَ</u> على شمول البأس للعذابين كانت إعادة فعل { يُنْذِرَ } تأكيدا، وهو يومئ إلى المنذرين المحذوف في قوله تعالى { لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً }

ويغني عن ذكره. وهذه العلة أثارتها مناسبة ذكر التبشير قبلها.

{ **الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً** } المراد بهم هنا المشركون الذين زعموا أنّ الملائكة بنات الله، وليس المراد به النصارى الذين قالوا بأنّ عيسى ابن الله تعالى، لأنّ القرآن المكّي ما تعرّض للردّ على أهل الكتاب مع تأهّلهم للدخول في العموم لاتّحاد السبب.

والتعبير عنهم بالموصول وصلته لأنّهم قد عُرفوا بهذه المقالة بين أقوامهم وبين المسلمين تشنيعا عليهم.

الولد: اسم لمن يولد من ذكر أو أنثى، يستوي فيه الواحد والجمع. وتقدّم في قوله تعالى { قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ } [يونس:68].

{ **مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ** } حال من { الَّذِينَ قَالُوا }. وفائدة ذكر هذه الحال أنّها أشنع في كفرهم وهي أن يقولوا كذبا ليست لهم فيه شبهة.

{ **وَلَا لِآبَائِهِمْ** } لقطع حجّتهم لأنّهم كانوا يقولون { إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ } [الزخرف:23]، فإذا لم يكن لآبائهم حجّة على ما يقولون فليسوا جديرين بأن يقلّدوهم.

{ **كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً** } استئناف بالتشاؤم بذلك القول الشنيع. ووجه فصل الجملة أنّها مخالفة للتي قبلها بالإنشائيّة المخالفة للخبريّة.

{ **كَبُرَتْ** } أصله الإخبار عن الشيء بضخامة جسمه، ويُستعمل مجازا في الشدّة والقوّة في وصف من الصفات المحمودة والمذمومة على وجه الاستعارة، وهو هنا مستعمل في التعجّب من كبر هذه الكلمة في الشناعة بقرينة المقام. ودلّ على قصد التعجّب منها انتصاب { كَلِمَةً } على التمييز إذ لا يحتمل التمييز هنا معنى غير أنّه تمييز نسبة التعجّب.

{ **كَلِمَةً** } أطلقت على الكلام وهو إطلاق شائع، ومنه قوله تعالى { إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا } [المؤمنون:100]، وقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كلُّ شيء ما خلَا اللهَ باطلُ** ".

{ **تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ** } صفة لـ { كَلِمَةً } مقصود بها من جرأتهم على النطق بها ووقاحتهم في قولها.

والتعبير بالفعل المضارع لاستحضار صورة خروجها من أفواههم تخيلا لفظاعتها.

الأفواه: جمع فم بوزن أفعال، لأنّ أصل فم (فَوَه)، أو (فيه) بوزن ريح. ولما جمعوه ردوه إلى أصله.

{ **إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً** } مؤكِّدة لمضمون جملة { تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ } لأنّ الشيء الذي تنطق به الألسن ولا تحقّق له في الخارج ونفس الأمر هو الكذب. أي: ليس لكلامهم صفة إلّا صفة الكذب.

{ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً } [6].

تفريع على جملة { وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً } [4] باعتبارهم مكذّبين كافرين.

{ **فَلَعَلَّكَ** } حقيقتها إنشاء الرجاء والتوقّع، وتُستعمل في الإنكار والتحذير على طريقة المجاز المرسل

لأنّهما لازمان الأمر المكروه. وهي هنا مستعملة في تحذير الرسول صلى الله عليه وسلم من الاغتمام والحزن على عدم إيمان من لم يؤمنوا من قومه. وذلك في معنى التسلية.

الباخع: قاتل نفسه، كذا فسّره ابن عباس ومجاهد والسدّي وابن جبير. وفسّره البخاري بمُهلك.

وفي اشتقاقه خلاف، فقيل مشتق البِخاع (بوزن كتاب) وهو عرق مستبطن في القفا فإذا بلغ الذابح البِخاع فذلك أعمق الذبح، قاله الزمخشري في قوله تعالى { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفسَكَ } [الشعراء:3]. وانفرد الزمخشري بذكر هذا الاشتقاق في (الكشاف) و (الفائق) و (الأساس) . وكفى بالزمخشري حجّة فيما أثبته. وقد تبعه عليه المطرزي في (المغرب) وصاحب (القاموس) .

البخع: أصله أن يبلغ الذابح بالذبح إلى القفا ثم أطلق على القتل المشوب بغيظ.

{ **آثَارِهِمْ** } جمع أثر وهو ما يؤثره، أي: يبقيه الماشي أو الراكب في الرمل أو الأرض من مواطئ أقدامه وأخفاف راحلته. والأثر أيضا ما يبقيه أهل الدار إذا ترحّلوا عنها من تافه آلاتهم التي كانوا يعالجون بها شؤونهم كالأوتاد والرماد.

المعنى: لعلّك مهلك نفسك لأجل إعراضهم عنك كما يعرض السائر عن المكان الذي كان فيه. فتكون (على) للتعليل.

ويجوز أن يكون المعنى: تمثيل حال الرسول صلى الله عليه وسلم في شدّة حرصه على اتّباع قومه له وفي غمّه من إعراضهم. وتمثيل حالهم في النفور والإعراض بحال من فارقه أهله وأحبّته فهو يرى آثار ديارهم ويحزن لفراقهم. ويكون حرف (على) مستقرّا في موضع الحال من ضمير الخطاب، ومعنى (على) الاستعلاء المجازي وهو شدة الاتصال بالمكان.

وكأن هذا الكلام سيق إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، في آخر أوقات رجائه في إيمانهم، إلى أنّهم غير صائرين إلى الإيمان، وتهيئة لنفسه أن تتحمل ما سيلقاه من عنادهم، رأفة من ربّه.

{ **بِهَذَا الْحَدِيثِ** } اسم الإشارة وبيانه مراد به القرآن، لأنّه لحضوره في الأذهان كأنه حاضر في مقام نزول الآية فأشير إليه بذلك الاعتبار. وبُيّن بأنّه الحديث.

الحديث: الخبر. وإطلاق اسم الحديث على القرآن باعتبار أنّه إخبار من الله لرسوله، إذ الحديث هو الكلام الطويل المتضمّن أخبارا وقصصا. أي: الأخبار المستجدّة التي لا يعلمها المخاطب.

{ **أَسَفًا** } مفعول له من { بَاخِعٌ نَفسَكَ }، أي: قاتلها لأجل شدة الحزن، والشرط معترض بين المفعولين.

{ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً [7] وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً [8] }.

مناسبة موقع هذه الآية هنا خفيّة جدًّا أعوز المفسّرين بيانها، منهم ساكت عنها، ومنهم محاول بيانها بما لا يزيد على السكوت.

والذي يبدو أنّها تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم على إعراض المشركين بأنّ الله أمهلهم وأعطاهم زينة الدنيا لعلّهم يشكرونه، وأنّهم بطروا النعمة، فإنّ الله يسلب عنه النعمة فتصير بلادهم قاحلة. وهذا تعريض بأن سيحلّ بهم قحط السنين السبع التي سأل الله رسول الله ربه أن يجعلها على المشركين كسنين يوسف عليه السلام.

ولهذا اتصال بقوله تعالى { لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ } [2].

ويحصل من ذلك تذكير بعضهم قدرة الله تعالى، وخاصة ما كان منها إيجادا للأشياء وأضدادها من حياة الأرض وموتها المماثل لحياة النّاس وموتهم، والمماثل للحياة المعنويّة والموت المعنوي من إيمان وكفر، ونعمة ونقمة، كلّها عِبَر لمن يعتبر بالتغيّر ويأخذ إلى الانتقال من حال إلى حال فلا يثق بقوته وبطشه.

وأوثر الاستدلال بحال الأرض التي عليها النّاس لأنّها أقرب إلى حسّهم وتعلّقهم، كما قال تعالى { وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ } [الذريات:20].

وقد جاء نظم هذا الكلام على أسلوب الإعجاز في جمع معان كثيرة يصلح اللفظ لها من مختلف الأعراض المقصودة، فإنّ الإخبار عن خلق ما على الأرض زينة يجمع الامتنان على النّاس والتذكير ببديع صنع الله إذ وضع هذا العالم على أتقن مثال ملائم لما تحبّه النفوس من الزينة والزخرف. والامتنان بمثل هذا كثير، مثل قوله تعالى { وَلَكُمْ فيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ } [النحل:6]، وقاله تعالى { زُيِّنَ للنّاس حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ } [آل عمران:14]

ولا تكون الأشياء زينة إلّا وهي مبثوثة فيها الحياة التي بها نماؤها وازدهارها.

ومن لوازم هذه الزينة أنها توقظ العقول إلى النظر في وجود منشئها وتسبر غور النفوس في مقدار الشكر لخالقها وجاعلها لهم، فمن موفٍ بحق الشكر، ومقصّر فيه، وجاحد كافر بنعمة هذا المنعم ناسب إيّاها إلى غير موجدها.

البَلْو: الاختبار والتجربة. وقد تقدّم عند قوله تعالى { هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفسٍ مَا أَسْلَفتْ } [يونس:30]. وهو هنا مستعار لتعلّق علم الله التنجيزي بالمعلوم عند حصوله، بقرينة الأدلة العقلية والسمعية الدالة على إحاطة علم الله بكلّ شيء قبل وقوعه، فهو مستغنٍ عن الاختبار والتجربة. وفائدة هذه الاستعارة الانتقال منها إلى الكناية عن ظهور ذلك لكلّ النّاس حتّى لا يلتبس عليهم الصالح بضدّه.

{ **وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً** } تكميل للعبرة وتحقيق لفناء العالم. أي: سنجعل ما على الأرض كلّه معدوما، فلا يكون على الأرض إلّا تراب جاف أجرد لا يصلح للحياة فوقه وذلك هو فناء العالم، قال تعالى { يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ } [ابراهيم:48].

الصعيد: التراب. وسيأتي بيان معناه عند قوله تعالى { فتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً } [40].

الجرز: القاحل الأجرد.

{ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً } [9].

{ أَمْ } للإضراب الانتقالي من غرض إلى غرض. ولمّا كان هذا من المقاصد التي أنزلت السورة لبيانها لم يكن هذا الانتقال اقتضابا بل هو كالانتقال من الديباجة والمقدّمة إلى المقصود.

على أنّ مناسبة الانتقال إليه تتصل بقوله تعالى { فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً } [6]، إذ كان ممّا صرف المشركين عن الإيمان إحالتهم الإحياء بعد الموت، فكان ذكر أهل الكهف وبعثهم بعد خمودهم سنين طويلة مثالا لإمكان البعث.

والتقدير هنا: أحسبت أنّ أصحاب الكهف كانوا عجبا من بين آياتنا، فإنّ إماتة الأحياء بعد حياتهم من عجب إنامة أهل الكهف، لأنّ في إنامتهم إبقاء للحياة في أجسامهم وليس في إماتة الأحياء إبقاء لشيء من الحياة فيهم على كثرتهم وانتشارهم. وهذا تعريض بغفلة الذين طلبوا من النبيّ صلى الله عليه وسلم بيان قصّة أهل الكهف لاستعلام ما فيها من العجب، بأنّهم سألوا عن عجيب وكفروا بما هو أعجب، وهو انقراض العالم، فإنّهم كانوا يُعْرِضون عن ذكر فناء العالم ويقولون كما حكى الله عنهم: { مَا هِيَ إلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إلَّا الدَّهْرُ } [الجاثية: 24]. أي: إن الحياة إلّا حياتنا الدنيا لا حياة الآخرة وأنّ الدهر يهلكنا.

وفيه لفت لعقول السائلين عن الاشتغال بعجائب القصص إلى أنّ الأولى لهم الاتّعاظ بما فيها من العبر والأسباب وآثارها. ولذلك ابتدئ ذكر أحوالهم بقوله تعالى { إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فقَالُوا رَبَّنَا } [10]، فأعلَم النّاس بثبات إيمانهم بالله ورجائهم فيه، وبقوله تعالى { إِنَّهُمْ فتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدىً} [13]. الدال على أنّهم أبطلوا الشرك وسفّهوا أهله، تعريضا بأنّ حقّ السامعين أن يقتدوا بهداهم.

والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد قومه الذين سألوا عن القصة، وأهل الكتاب الذين أغروهم بالسؤال عنها وتطلّب بيانها.

<u>ويظهر أنّ الذين لقّنوا قريشا السؤال عن أهل الكهف هم بعض النصارى</u> الذين لهم صلة بأهل مكّة، من التّجار الواردين إلى مكّة، أو من الرهبان الذين في الأديرة الواقعة في طريق رحلة قريش من مكّة إلى الشام وهي رحلة الصيف.

{ مِنْ آيَاتِنَا } أي: من بين آياتنا الكثيرة المشاهدة لهم وهم لا يتعجّبون منها ويقصرون تعجّبهم على أمثال هذه الخوارق، فيؤول المعنى إلى أنّ أهل الكهف ليسوا هم العجب من بين الآيات الأخرى، بل عجائب صنع الله تعالى كثيرة، منها ما هو أعجب من حال أهل الكهف ومنها ما يساويها.

الكهف: الشقّ المتسع الوسط في جبل، فإن لم يكن متّسعا فهو غار.

الرقيم: فعيل بمعنى مفعول من الرقم وهو الكتابة. فالرقيم كتاب كان مع أصحاب الكهف في كهفهم.

<u>قيل</u>: كتبوا فيه ما كانوا يدينون به من التوحيد، <u>وقيل</u>: هو كتاب دينهم، دين كان قبل عيسى عليه السلام. <u>وقيل</u>: هو دين عيسى، <u>وقيل</u>: كتبوا فيه الباعث الذي ألجأهم إلى الكهف فرارا من كفر قومهم.

وقد أشارت الآية إلى قصّة نفرٍ من صالحي الأمم السالفة ثبتوا على دين الحقّ في وقت شيوع الكفر والباطل فانزووا إلى الخلوة تجنبا لمخالطة أهل الكفر فأووا إلى كهف استقروا فيه فرارا من الفتنة في دينهم، فأكرمهم الله تعالى بأن ألقى عليهم نوما بقوا فيه مدّة طويلة ثم أيقظهم فأراهم انقراض الذين كانوا يخافونهم على دينهم. وبعد أن أيقنوا بذلك أعاد نومتهم الخارقة للعادة فأبقاهم أحياء إلى أمد يعلمه الله أو أماتهم وحفظ أجسادهم من البلى كرامة لهم.

وقد عرف النّاس خبرهم ولم يقفوا على أعيانهم ولا وقفوا رقيمهم، ولذلك اختلفوا في شأنهم، فمنهم من يثبت وقوع قصّتهم ومنهم من ينفيها.

ولمّا كانت معاني الآيات لا تتضح إلّا بمعرفة ما أشارت إليه من قصّة أهل الكهف تعيّن أن نذكر ما صح عند أعلام المؤرّخين على ما فيه من اختلاف. وقد ذكر ابن عطية ملخّصا في ذلك دون تعريج على ما هو من زيادات المبالغين والقصاص.

والذي ذكره الأكثر أن في بلد يقال له (**أَبْسُس**) وكان بلدا من ثغور طرطوس بين حلب وبلاد أرمينية وأنطاكية. وليست هي (أفسس) المعروفة في بلاد اليونان بشهرة هيكل المشتري فيها فإنها من بلاد اليونان وإلى أهلها كتب بولس رسالته المشهور. وقد اشتبه ذلك على بعض المؤرخين والمفسرين.

وهي قريبة من مرعش من بلاد أرمينية، وكانت الديانة النصرانية دخلت في تلك الجهات، وكان الغالب عليها دين عبادة الأصنام على الطريقة الرومية الشرقية قبل تنصّر قسطنطين، فكان من أهل أبْسُس نفر من صالحي النصارى يقاومون عبادة الأصنام. وكانوا في زمن الامبراطور (**دوقيوس** ويقال **دقيانوس)** الذي ملك في حدود سنة (237م)، وكان ملكه سنة واحدة، وكان متعصّبا للديانة الرومانية وشديد البغض للنصرانية، فأظهر كراهية الديانة الرومانية. وتوعّدهم (دوقيوس) بالتعذيب، فاتفقوا على أن يخرجوا من المدينة إلى جبل بينه وبين المدينة فرسخان يقال له (**بنجلوس**) فيه كهف أووا إليه وانفردوا فيه بعبادة الله.

ولما بلغ خبر فرارهم مسامع الملك وأنّهم أووا إلى الكهف أرسل وراءهم فألقى الله عليهم نومة فظنهم أتباع الملك أمواتا. وقد بقوا في رقدتهم مدة طويلة، وذكر القرآن أنّها ثلاثمائة سنة.

وكان انبعاثهم في مدة ملك (**ثاوذوسيوس**) قيصر الصغير، ثم إنّ الله جعلهم آية لأنفسهم وللنّاس فبعثهم من مرقدهم، ولم يعلموا مدّة مكثهم وأرسلوا أحدهم إلى المدينة، وهي (**أبسس**)، بدراهم ليشتري لهم طعاما. تعجب النّاس من هيئته ومن دراهمه وعجب هو ممّا رأى من تغيير الأحوال. وتسامع أهل المدينة بأمرهم، فخرج قيصر الصغير مع أساقفة وقسيسين وبطارقة إلى الكهف فنظروا إليهم وكلموهم وآمنوا بآيتهم، ولما انصرفوا عنهم ماتوا في مواضعهم. وكانت آية تأيّد بها دين المسيح.

والذي في كتاب الطبري أنّ الذين ذهبوا إلى مشاهدة أصحاب الكهف هم رئيسا المدينة: أريوس وأطيوس ومن معهما من أهل المدينة، وقيل: لما شاهدهم النّاس كتب واليا المدينة إلى ملك الروم. فحضر وشاهدهم وأمر بأن يبنى عليهم مسجد. ولم يذكروا هل نُفّذ بناء المسجد أو لم ينفّذ. ولم يُذكر أنّه وقع العثور على

هذا الكهف بعد ذلك. ولعلّه قد انسد بحادث زلزال أو نحوه كرامة من الله لأصحابه.
وللكهوف ذكر شائع في اللوذ إليها والدفن بها. وقد كان المتنصّرون يُضطهدون في البلاد فكانوا يفرّون من المدن والقرى إلى الكهوف يتّخذونها مساكن فإذا مات أحدهم دفن هنالك. وربما كانوا إذا قتلوهم وضعوهم في الكهوف التي كانوا يتعبّدون فيها. ولذلك يوجد في رومية كهف عظيم من هذه الكهوف اتخذه النصارى لأنفسهم هنالك، وكانوا كثيرا ما يستصحبون معهم كلبا ليدفع عنهم الوحوش من ذئاب ونحوها. وما الكهف الذي ذكره ابن عطية إلّا واحدٌ من هذه الكهوف.

{ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً } [10].

يجوز كون الظرف (إذ) متعلّقا بفعل محذوف تقديره: اذكر، فتكون مستأنفة استئنافا بيانيّا للجملة التي قبلها. وأيّا ما كان فالمقصود إجمال قصّتهم ابتداءً تنبيها على أنّ قصتهم ليست أعجب آيات الله. مع التنبيه على أنّ ما أكرمهم الله به من العناية إنّما كان تأييدا لهم لأجل إيمانهم.

أوى أُوِيًّا إلى المكان: جعله مسكنا له، فالمكان: المأوى. وقد تقدّم عند قوله تعالى { أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } [يونس:8].

الفتية: جمع قلّة لفتى، وهو الشاب المكتمل. وتقدّم في [يوسف:62]. والمراد بهم: أصحاب الكهف. وهذا من الإظهار في مقام الإضمار لأنّ مقتضى الظاهر أن يقال: إذ أووا، فعدل عن ذلك لما يدلّ عليه لفظ الفتية من كونهم أترابا متقاربي السنّ. وذكرهم بهذا الوصف للإيماء إلى ما فيه من اكتمال خُلُق الرجوليّة المعبّر عنه بالفتوّة الجامع لمعنى سداد الرأي، وثبات الجأش، والدفاع عن الحقّ.

{ **فَقَالُوا** } دلّت الفاء على أنّهم بادروا بالابتهال إلى الله.

{ **رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً** } دعوا الله أن يؤتيهم رحمة من لدنه، وذلك جامع لخير الدنيا والآخرة، فزيادة {مِنْ لَدُنْكَ } للتعلّق بفعل الإيتاء، لأنّ في (من) معنى الابتداء وفي (لدن) معنى العندية والانتساب إليه، فذلك أبلغ ممّا لو قالوا: آتنا رحمة، لأنّ الخَلْق كلّهم بمحل الرحمة من الله، ولكنّهم سألوا رحمة خاصة وافرة، وقصدوا الأمن على إيمانهم من الفتنة.

{ **وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً** } ثمّ سألوا الله أن يُقدّر لهم أحوالا تكون عاقبتها حصول ما خوّلهم من الثبات على الدين الحقّ والنجاة من مناواة المشركين. فعُبّر عن ذلك التقدير بالتهيئة التي هي إعداد الأسباب.

{ **أَمْرِنَا** } الشأن والحال الذي يكونون فيه، وهو مجموع الإيمان والاعتصام إلى محلّ العزلة عن أهل الشرك. وقد أعدّ الله لهم من الأحوال ما به رشدهم. فمن ذلك صرف أعدائهم عن تتبعهم. وأن ألهمهم موضع الكهف، وأن كان وضعه على جهة صالحة ببقاء أجسامهم سليمة، وأن أنامهم نوما طويلا ليمضي عليهم الزمن الذي تتغير فيه أحوال المدينة، وحصل رشدهم إذ ثبتوا على الدين الحقّ وشاهدوه منصورا

متّبعا. وجعلهم آية للنّاس على صدق الدين وعلى قدرة الله وعلى البعث.
الرَشَد (بفتحتين): الخير وإصابة الحقّ والنفع والصلاح، وقد تكرّر في سورة الجنّ باختلاف هذه المعاني. والرُشْد (بضم الراء وسكون الشين) مرادف الرَشَد. وغلب في حسن تدبير المال.
ولم يقرأ هذا اللفظ هنا في القراءات المشهورة إلّا بفتح الراء بخلاف قوله تعالى {قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} [البقرة: 256]. وقوله تعالى { فإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً } [النساء:6] فلم يقرأ فيهما إلّا بضم الراء.
ووجه إيثار مفتوح الراء والشين في هذه السورة في هذا الموضع وفي قوله الآتي { وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً } [24]، أنّ تحريك الحرفين فيهما أنسب بالكلمات الواقعة في قرائن الفواصل.

{ فضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْف سِنِينَ عَدَداً [11] **ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً** [12] }.

تفريع هذه الجملة بـ (الفاء) إمّا على جملة دعائهم، فيؤذن بأنّ مضمونها استجابة دعوتهم، فجعل الله إنامتهم كرامة لهم بأن سلّمهم من التعذيب بأيدي أعدائهم، وأيّد بذلك أنّهم على الحقّ، وأرى النّاس ذلك بعد زمن طويل. وإمّا تفريع على جملة { إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ } [10]، فيؤذن بأنّ الله عجّل لهم حصول ما قصدوه.
{ **فضَرَبْنَا** } الضرب هنا بمعنى الوضع، كما يقال: ضرب عليه حجابا، ومنه قوله تعالى { ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ } [البقرة:61]، وتقدّم تفصيله عند قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا } [البقرة:26]. وحذف المفعول لظهوره. أي: ضربنا على آذانهم غشاوة أو حائلا عن السمع.
والضرب على الآذان كناية عن الإنامة، لأنّ النوم الثقيل يستلزم عدم السمع، بخلاف البصر الصحيح فقد يُحجب بتغميض الأجفان. وهذه الكناية من خصائص القرآن لم تكن معروفة قبل هذه الآية وهي من الإعجاز.
{ **سِنِينَ عَدَداً** } العدد مستعمل في الكثرة، أي: سنين ذات عدد كثير. ونظيره ما في حديث بدء الوحي من قول عائشة: " فكان يخرج إلى غار حراء فيتحنّث فيه الليالي ذوات العدد ". وقد أجمل العدد هنا.
البعث: هنا الإيقاظ، أي: أيقظناهم من نومتهم. وحسَّن هذه الاستعارة هنا أنّ المقصود من هذه القصّة إثبات البعث بعد الموت فكان في ذكر لفظ البعث تنبيه على أنّ في هذه الإفاقة دليلا على إمكان البعث وكيفيته.
الحزب: الجماعة الذين توافقوا على شيء واحد. فالحزبان فريقان: أحدهما مصيب والآخر مخطئ في عدّ الأمد الذي مضى عليهم. فقيل: هما فريقان من أهل الكهف أنفسهم. وفي هذا بعد من لفظ حزب.
فالوجه: أنّ المراد بالحزبين حزبان من النّاس، أهل بلدهم، اختلفت أقوالهم في مدّة لبثهم بعد أن علموا انبعاثهم من نومتهم. أحد الفريقين مصيب والآخر مخطيء، والله يعلم المصيب منهم والمخطئ.

{ **أَحْصَى** } يحتمل أن يكون فعلا ماضيا، وأن يكون اسم تفضيل مصوغا من الرباعي على خلاف القياس.

والوجه عندي اسم تفضيل، والتفضيل منصرف إلى ما في معنى الإحصاء من الضبط والإصابة.

والمعنى: لنعلم أيّ الحزبين أتقن إحصاء. أي: عَدًّا بأن يكون هو الموافق للواقع ويكون ما عداه تقريبا ورجما بالغيب، وذلك هو ما فصّله قوله تعالى { سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ } [22].

{ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدىً [13] وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً [14] }.

لمّا اقتضى قوله تعالى { لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى} أنّ في نبأ أهل الكهف تخرّصات ورجما بالغيب أثار ذلك في النفس تطلعا إلى معرفة الصدق في أمرهم، من أصل وجود القصّة إلى تفاصيلها، من مخبر لا يشكّ في صدق خبره فكانت جملة { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ } استئنافا بيانيا للآية السابقة.

وهذا شروع في مجمل القصّة والاهتمام بمواضع العبرة منها. وقُدّم منها ما فيه وصف ثباتهم على الإيمان ومنابذتهم قومهم الكفرة ودخولهم الكهف.

{ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ** } تقديم المسند إليه على المسند الفعلي يفيد الاختصاص، أي: نحن لا غيرنا يقصّ قصصهم بالحقّ.

الحقّ: هنا الصدق. والصدق من أنواع الحقّ، ومنه قوله تعالى { حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الحقّ } [الأعراف:105]. والباء للملابسة، أي: القصص المصاحب للصدق لا للتخرّصات.

القصص: سرد خبر طويل، فالإخبار بمخاطبة مفرّقة ليس بقصص. وتقدّم في طالع سورة يوسف.

النبأ: الخبر الذي فيه أهميّة وله شأن.

{ **إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدىً وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ** } مبيّنة للقصص والنبأ. وافتتاح الجملة بحرف التأكيد لمجرد الاهتمام لا لرد الإنكار.

زيادة الهدى: يجوز أن يكون تقوية هدى الإيمان المعلوم من قوله تعالى { آمَنُوا بِرَبِّهِمْ } بفتح بصائرهم للتفكير في وسائل النجاة بإيمانهم وألهمهم التوفيق والثبات، فكلّ ذلك هدى زائد على هدى الإيمان.

{ **وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ** } مستعار إلى تثبيت الإيمان وعدم التردّد فيه. فلمّا شاع إطلاق القلب على الاعتقاد استعير الربط عليه للتثبيت. كما قال تعالى { لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } [القصص:10]. ومنه قولهم: هو رابط الجأش. وفي ضدّه يقال: اضطرب قلبه.

{ **عَلَى** } للمبالغة في الشدّ، لأنّ حرف الاستعلاء مستعار لمعنى التمكّن من الفعل.

{ **إِذْ قَامُوا فقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهاً** } ظرف للربط، أي: كان الربط في وقت قيامهم. أي: كان ذلك الخاطر الذي قاموا به مقارنا لربط الله على قلوبهم.

والقيام يحتمل أن يكون حقيقيا، بأن وقفوا بين يدي ملك الروم المشرك، أو وقفوا في مجامع قومهم خطباء معلنين فساد عقيدة الشرك. ويحتمل أن يكون القيام مستعارا للإقدام والجسر على عمل عظيم، وللاهتمام بالعمل أو القول، تشبيها للاهتمام بقيام الشخص من قعود للإقبال على عمل ما.

{ **فقَالُوا رَبُّنَا** } عرّفوا الله بطريق الإضافة إلى ضميرهم: إمّا لأنّهم عُرفوا من قبل بأنّهم عبدوا الله المنزّه عن الجسم وخصائص المحدثات، وإمّا لأنّ الله لم يكن معروفا باسم علم عند أولئك المشركين الذين يزعمون أنّ ربّ الأرباب هو جوبتير الممثَّل في كوكب المشتري، فلم يكن طريق لتعريفهم الإله الحقّ إلا طريق الإضافة. وقريب منه ما حكاه الله عن قول موسى لفرعون بقوله تعالى { قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ } [الشعراء:25/24].

هذا إن كان القول مسوقا إلى قومهم المشركين قصدوا به إعلان إيمانهم بين قومهم وإظهار عدم الاكتراث بتهديد الملك وقومه، فيكون موقفهم هذا كموقف السحرة حين قالوا لفرعون { لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ } [الشعراء:50]، أو قصدوا به موعظة قومهم بدون مواجهة خطابهم، استنزالا لطائرهم على طريقة التعريض، واستقصاء لتبليغ الحقّ إليهم. وهذا هو الأظهر لحمل القيام على حقيقته.

{ **لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً** } استئناف بياني لما أفاده توكيد النفي بـ (لن). واللام للقسم.

الشطط: الإفراط في مخالفة الحقّ والصواب. وهو مشتقّ من الشطّ، وهو البعد عن الموطن لما في البعد عنه من كراهية النفوس، فاستعير للإفراط في شيء مكروه، أي: لقد قلنا قولا شططا، وهو نسبة الإلهية إلى من دون الله.

{ هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً } [15].

من بقية كلام الفتية. والإشارة إلى قومهم بـ { **هَؤُلاءِ** } لقصد تمييزهم بما سيخبر به عنهم. وفي هذه الإشارة تعريض بالتعجّب من حالهم وتفضيح صنعهم. وهو من لوازم قصد التمييز.

{ **اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً** } خبر عن اسم الإشارة، مستعمل في الإنكار عليهم دون الإخبار، إذ اتخاذهم آلهة من دون الله معلوم بين المتخاطبين. وكان قومهم يومئذ يعبدون الأصنام على عقيدة الروم ولا يؤمنون بالله.

{ **لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ** } مؤكّدة للجملة التي قبلها باعتبار أنّها مستعملة في الإنكار لأنّ مضمون هذه الجملة يقوّي الإنكار عليهم.

{ **لَوْلَا** } حرف تحضيض. حقيقته: الحث على تحصيل مدخولها. ولمّا كان الإتيان بسلطان على ثبوت

الإلهية للأصنام التي اتخذوها آلهة متعذرا انصرف التحضيض إلى التبكيت والتغليط.

السلطان: الحجّة والبرهان.

البيّن: الواضح الدلالة.

{ **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً** } إنكار، أي: لا أظلم ممن افترى. والمعنى: أنّه أظلم من غيره. كما تقدّم في قوله تعالى { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ } [البقرة:114].

افتراء الكذب: تقدّم في قوله تعالى { وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ } [المائدة:103].

{ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً } [16].

يتعيّن أن يكون هذا من كلام بعضهم لبعض على سبيل النصح والمشورة الصائبة. فيجوز أن يكونوا قال بعضهم لبعض ذلك بعد الاعتزال. ويجوز أن يكون ذلك في نفس المقام الذي خاطبوا فيه قومهم بأن غيّروا الخطاب من مواجهة قومهم إلى مواجهة بعضهم بعضا، وهو ضرب من الالتفات.

وعلى الاحتمالين فالقرآن اقتصر في حكاية أقوالهم على المقصد الأهمّ منها في الدلالة على ثباتهم دون ما سوى ذلك ممّا لا أثر له في الغرض وإنّما هو مجرّد قصص.

الاعتزال: التباعد والانفراد عن مخالطة الشيء، فمعنى اعتزال القوم ترك مخالطتهم. ومعنى اعتزال ما يعبدون: التباعد عن عبادة الأصنام.

{ **إلّا الله** } الاستثناء منقطع، لأنّ الله تعالى لم يكن يعبده القوم.

{ **فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ** } الفاء للتفريع على جملة { وَإِذِاعْتَزَلْتُمُوهُمْ } فيقدّر بعدها جملة نحو: وإذ اعتزلتم دينهم يعذبونكم فأووا إلى الكهف.

الأَوْيُ: تقدّم آنفا، أي: فاسكنوا الكهف.

{ **الكهف** } يجوز أن يكون تعريف العهد، بأن كان الكهف معهودا عندهم يتعبّدون فيه من قبل. ويجوز أن يكون تعريف الحقيقة مثل { وَأَخَاف أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ } [يوسف:13]، أي: فأووا إلى كهف من الكهوف.

{ **يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ** } نشر الرحمة توفّر تعلّقها بالمرحومين. شُبِّه تعليق الصفة المتكرّر بنشر الثوب في أنّه لا يُبقي من الثوب شيئا مخفيًّا، كما شُبِّه بالبسط، وشُبِّه ضدّه بالطيّ وبالقبض.

{ **وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ** } مستعارة للإكرام والعناية، تشبيها بتهيئة القِرى للضيف المعتنى به. وهو مبني على الثقة بالرجاء والدعاء. وساقوه مساق الحاصل لشدّة ثقتهم بلطف ربّهم بالمؤمنين.

المَرْفِق (بفتح الميم وكسر الفاء): ما يُرتفق به ويُنتفع. وبذلك قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر، و{ **مِرْفَقاً** } (بكسر الميم وفتح الفاء) قرأ الباقون.

{ **وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً** } [17].

عطف بعض أحوالهم على بعض، انتُقل إلى ذكره بمناسبة الإشارة إلى تحقيق رجائهم في ربّهم حين قال بعضهم لبعض { يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفقاً }. وهذا حال عظيم، وهو ما هيّأ الله لهم في أمرهم من مرفق، وأنّ ذلك جزاؤهم على اهتدائهم وهو من لطف الله بهم.

والخطاب لغير معيّن.

{ **تَزَاوَرُ** } مضارع مشتق من الزَّور بفتح الزاي، وهو الميل. وقرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح التاء وتشديد الزاي بعدها ألف وفتح الواو. وأصله: تتزاور. وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وخلف بتخفيف الزاي على حذف إحدى التاءين وهي تاء المضارعة للتخفيف اجتزاء برفع الفعل الدال على المضارعة. وقرأه ابن عامر ويعقوب { تَزْوَرُّ } بفتح التاء بعدها زاي ساكنة وبفتح الواو وتشديد الراء بوزن تَحْمَرُّ. وكلها أبنية مشتقة من (الزَّوَرُ) بالتحريك، وهو الميل عن المكان، قال عنتره:

فـازورَّ مـن وقـع الـقـنـا بـلَـبـانـه

(أي: مال بعض بدنه إلى بعض وانقبض).

{ **وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ** } أي: تنصرف عنهم. وأصل القرض القطع، أي: أنّها لا تطلع في كهفهم. فيدلّ على أنّ فم الكهف كان مفتوحا إلى الشمال الشرقي، فالشمس إذا طلعت تطلع على جانب الكهف ولا تخترقه أشعتها، وإذا غربت كانت أشعتها أبعد عن فم الكهف منها حين طلوعها. وهذا وضع عجيب يسّره الله لهم بحكمته ليكون داخل الكهف بحالة اعتدال فلا ينتاب البلى أجسادهم، وذلك من آيات قدرة الله.

الفجوة: المتّسع من داخل الكهف، بحيث لم يكونوا قريبين من فم الكهف. وفي تلك الفجوة عون على حفظ هذا الكهف كما هو.

{ **ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ الله** } الإشارة إلى المذكور من قوله تعالى { وَتَرَى الشَّمْسَ }، والإشارة للتعظيم.

آيات الله: دلائل قدرته وعنايته بأوليائه ومؤيّدي دين الحقّ.

والجملة معترضة في خلال القصّة للتنويه بأصحابها.

{ **مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً** } استئناف بياني لما اقتضاه اسم الإشارة من تعظيم أمر الآية وأصحابها.

والمعنى: أنّهم كانوا مهتدين لأنّ الله هداهم فيمن هدى، تنبيها على أنّ تيسير ذلك لهم من الله هو أثر تيسيرهم لليسرى والهدى، فأبلغهم الحقّ على لسان رسولهم. ورزقهم أفهاما تؤمن بالحقّ.

وقد تقدّم الكلام على نظير { مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فهُوَ الْمُهْتَدِ }، وعلى كتابة { الْمُهْتَدِ } بدون ياء في [الإسراء:97].

المرشد: الذي يبيّن للحيران وجه الرشد، وهو إصابة المطلوب من الخير.

{ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً } [18].

عطف على بقيّة القصّة، وما بينهما اعتراض. والخطاب فيه كالخطاب في قوله { وَتَرَى الشَّمْسَ } [17]. وهذا انتقال إلى ما في حالهم من العبرة، مُدمَج فيه بيان كرامتهم وعظيم قدرة الله في شأنهم، وهو تعجيب من حالهم لمن لو رآه من النّاس.

{ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ } أي: أنّهم في حالة تشبه حال اليقظة وتخالف حال النوم. قيل: كانت أعينهم مفتوحة.

{ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ } التقليب: تغيير وضع الشيء من ظاهره إلى باطنه.

والمعنى: أنّ الله أجرى عليهم حال الأحياء الأيقاظ فجعلهم تتغير أوضاعهم من أيمانهم إلى شمائلهم والعكس. وذلك لحكمة لعلّ لها أثرا في بقاء أجسامهم بحالة سلامة.

والإتيان بالمضارع للدلالة على التجدّد بحسب الزمن المحكي.

{ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ } لم يذكر التقليب لكلبهم بل استمر في مكانه باسطا ذراعيه.

الوصيد: مدخل الكهف، شُبّه بالباب الذي هو الوصيد لأنّه يوصد ويغلق.

{ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً } الخطاب لغير معيّن، أي: لو اطلعت عليهم أيّها السامع حين كانوا في تلك الحالة قبل أن يبعثهم الله، لفررت منهم وملكك الرعب.

الاطلاع: الإشراف على الشيء ورؤيته من مكان مرتفع، لأنّه افتعال من طلع إذا ارتقى جبلا، فصيغ الافتعال للمبالغة في الارتقاء، وضُمّن معنى الإشراف فعدّي بـ (على)، ثم استعمل مجازا مشهورا في رؤية الشيء الذي لا يراه أحد.

الرعب: تقدّم في قوله تعالى { سَنُلْقِي في قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ } [آل عمران:151].

{ **وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّف وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً** [19] **إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً** [20] }.

عطف لجزء من القصّة الذي فيه عبرة لأهل الكهف بأنفسهم ليعلموا ما أكرمهم الله به من حفظهم عن أن تنالهم أيدي أعدائهم بإهانة، ومن إعلامهم علم اليقين ببعض كيفية البعث، فإنّ علمه عظيم.

{ **وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ** } الإشارة إلى المذكور من إنامتهم وكيفيّتها، أي: كما أنمناهم قرونا بعثناهم.

ووجه الشبه: أنّ في الإفاقة آية على عظيم قدرة الله تعالى مثل آية الإنامة.

وتقدّم الكلام على معنى البعث في الآية المتقدّمة، وفي حسن موقع لفظ البعث في هذه القصّة.

{ **قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ** } بيان لجملة { ليتساءلوا }. وسُمّيت هذه المحاورة تساؤلا لأنّها تحاور للوصول إلى تحقيق المدّة.

{ **قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ** } اسند الجواب إلى ضمير جماعتهم: إمّا لأنّهم تواطأوا عليه، وإمّا على إرادة التوزيع، أي: منهم من قال: لبثنا يوما، ومنهم من قال: لبثنا بعض يوم. وعلى هذا يجوز أن تكون (أو) للتقسيم في القول.

{ **قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ** } أي: لمّا اختلفوا رجعوا فعدلوا عن القول بالظنّ إلى تفويض العلم إلى الله تعالى، وذلك من كمال إيمانهم. فالقائلون يجوز أن يكون جميعهم وهو الظاهر، ويجوز أن يكون قول بعضهم فأسند إليهم لأنّهم رأوه صوابا.

{ **فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ** } تفريع على قولهم { رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ } لأنّه في معنى فدعوا الخوض في مدّة اللبث فلا يعلمها إلّا الله وخذوا في شيء آخر ممّا يهمّكم.

الوَرِق (بفتح الواو وكسر الراء): الفضّة. وكذلك قرأه الجمهور. والمراد بالورق هنا القطعة المسكوكة من الفضة، وهي الدراهم. قيل: كانت من دراهم دقيوس سلطان الروم. والإشارة بـ { هَذِهِ } إلى دراهم معيّنة عندهم.

{ **إِلَى الْمَدِينَةِ** } هي (أَبْسُس)، وقد قدّمنا ذكرها في صدر القصّة.

{ **فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ** } أي: فلينظر أيّ مكان منها هو أزكى طعاما، أي: أزكى طعامه من طعام غيره.

الأزكى: الأطيب والأحسن، لأنّ الزَّكْوَ الزيادة في الخير والنفع.

الرزق: القوت. وقد تقدّم عند قوله تعالى { قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ } [يوسف:37].

{ **وَلْيَتَلَطَّف وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا** } أمر لأحد غير معيّن سيوكّلونه.

قيل التاء من كلمة { وَلْيَتَلَطَّف } هي نصف حروف القرآن عدًّا. وهنالك قول اقتصر عليه ابن عطية هو أنّ النون من قوله تعالى { لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً } [74] هي نصف حروف القرآن.

الإشعار: الإعلام، وهو إفعال من شَعَر من باب نصر، أي: علم. فالهمزة للتعدية مثل همزة { أعلم }.

والتقدير: ولا يخبرنّ بوجودكم أحدا.

{ **إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ** } علّة للأمر بالتلطّف والنهي عن إشعار أحد بهم.

{ **يَظْهَرُوا** } الظهور أصله البروز دون ساتر. ويطلق على الظفر بالشيء، وعلى الغلبة، وهو المراد هنا. قال تعالى { تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ } [البقرة:85].

الرجم: القتل برمي الحجارة على المرجوم حتّى يموت، وهو قتل إذلال وإهانة وتعذيب.

{ **أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ** } يرجعوكم إلى الملّة الفاسدة التي فررتم منها.

أي: لا يخلو أمرهم عن أحد الأمرين إمّا إرجاعكم إلى دينهم أو قتلكم.

الملّة: الدين. وقد تقدّم عند قوله { إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } [يوسف:37].

{ **وَلَنْ تُفلِحُوا إِذاً أَبَداً** } أكّد التحذير من الإرجاع إلى ملّتهم بأنّها يترتّب عليها انتفاء فلاحهم في المستقبل، لما دلّت عليه حرف (إذا) من الجزائيّة. و{ أَبَدًا } ظرف للمستقبل كلّه.

{ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً } [21].

انتقل إلى جزء القصّة الذي هو موضع عبرة أهل زمانهم بحالهم، وانتفاعهم باطمئنان قلوبهم لوقوع البعث يوم القيامة بطريقة التقريب بالمشاهدة، وتأييد الدين بما ظهر من كرامة أنصاره.

وقد كان القوم الذين عثروا عليهم مؤمنين مثلهم، فكانت آيتهم آية تثبيت وتقوية إيمان.

{ **وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ** } العثور على الشيء الاطلاع عليه والظفر به بعد الطلب. وقد كان الحديث عن أهل الكهف في تلك المدينة يتناقله أهلها فيسّر الله لهم العثور عليهم للحكمة التي في قوله تعالى { لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حق}. ومفعول { أَعْثَرْنَا } محذوف، تقديره: أعثرنا أهل المدينة عليهم.

{ **لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا** } وعد الله هو إحياء الموتى للبعث. وأمّا علمهم بأنّ الساعة لا ريب فيها، أي: ساعة الحشر، فهو إن صار علمهم بذلك عن مشاهدة تزول بها خواطر الخفاء التي تعتري المؤمن في اعتقاده حين لا يتصوّر كيفيّة العقائد السمعية، وما هو بريب في العلم ولكنّه في الكيفية، وهو الوارد فيه أنّه لا يخطر إلّا لصدّيق ولا يدوم إلّا عند زنديق.

{ **إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ** }.

التنازع: الجدال القويّ، أي: يتنازع أهل المدينة بينهم شأن أهل الكهف، مثل: أكانوا نياما أم أمواتا، وأيبقون أحياء أم يموتون، وأيبقون في ذلك الكهف أم يرجعون إلى سكنى المدينة، وفي مدّة مكثهم. والإتيان بالمضارع لاستحضار حالة التنازع.

{ **فقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً** }.

طوي هنا وصْف العثور عليهم وذِكْر عودهم إلى الكهف لعدم تعلّق الغرض بذكره، إذ ليس موضع عبرة لأن المصير إلى مرقدهم وطُرُوِّ الموت عليهم شأن معتاد لكل حيّ.

وإنّما ارتأوا أن يبنوا عليهم بنيانا لأنّهم خشوا عليهم من تردّد الزائرين غير المتأدّبين، فلعلّهم أن يؤذوا أجسادهم وثيابهم باللمس والتقليب، فأرادوا أن يبنوا عليهم بناء يمكن غلق بابه وحراسته.

{ **رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ** } يجوز أن تكون من حكاية كلام الذين قالوا، ابنوا عليهم بنيانا، تنهية للتنازع في أمرهم. ويجوز أن تكون معترضة من كلام الله تعالى في أثناء حكاية تنازع الذين أعثروا عليهم، أي: ربّ أهل الكهف أو ربّ المتنازعين في أمرهم أعلم منهم بواقع ما تنازعوا فيه.

{ **قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ** } ولّاة الأمور بالمدينة.

{ **لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً** } وإنّما رأوا أن يكون البناء مسجدا ليكون إكراما لهم ويدوم تعهّد النّاس كهفهم. وقد كان اتخاذ المساجد على قبور الصالحين من سنّة النصارى، ونهى عنه النبيّ صلى الله عليه وسلم، كما في حديث عائشة رضي الله عنها يوم وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

واتخاذ المساجد على القبور والصلاة فيها منهيّ عنه، لأنّ ذلك ذريعة إلى عبادة صاحب القبر، أو شبيه بفعل من يعبدون صالحي ملّتهم. وإنّما كانت الذريعة مخصوصة بالأموات لأنّ ما يعرض لأصحابهم من الأسف على فقدانهم يبعثهم على الإفراط فيما يحسبون أنّه إكرام لهم بعد موتهم، ثم يتناسى الأمر ويظنّ النّاس أن ذلك لخاصيّة في ذلك الميّت.

وكان بناء المساجد على القبور سنّة لأهل النصرانية، فإن كان شرعا لهم فقد نسخه الإسلام، وإن كان بدعة منهم في دينهم فأجدر.

{ **سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً** [22] }.

لمّا شاعت قصّة أهل الكهف حين نزل بها القرآن صارت حديث النوادي، فكانت مثار تخرّصات في معرفة عددهم، وحصر مدّة مكثهم في كهفهم، وربّما أملى عليهم المتنصّرة من العرب في ذلك قصصا،

وقد نبّههم القرآن إلى ذلك وأبهم على عموم النّاس الإعلام بذلك لحكمة، وهي أن تتعوّد الأمّة بترك الاشتغال فيما ليست منه فائدة للدين أو للنّاس، ودلّ عَلَم الاستقبال على أنّ النّاس لا يزالون يخوضون في ذلك.

{ **سَيَقُولُونَ / وَيَقُولُونَ / وَيَقُولُونَ** } عائد إلى غير مذكور لأنّه معلوم من المقام، أي: يقول النّاس أو المسلمون، إذ ليس في هذا القول حرج ولكنّهم نُبّهوا إلى أن جميعه لا حجّة لهم فيه. ومعنى سين الاستقبال سار إلى الفعلين المعطوفين على الفعل المقترن بالسين.

وقد أعلم الله أنّ قليلا من الخلق يعلمون عدّتهم وهم من أطلعهم الله على ذلك. وفي مقدمتهم محمد صلى الله عليه وسلم لأنّ قصّتهم جاءت على لسانه فلا شك أنّ الله أطلعه على عدتهم. وروي أنّ ابن عباس قال: أنا من القليل.

{ **رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ / سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ** } في موضع الصفة لاسم العدد الذي قبلها، أو موضع الخبر الثاني عن المبتدأ المحذوف.

{ **رَجْماً بِالْغَيْبِ** } الرجم حقيقته الرمي بحجر ونحوه. واستعير هنا لرمي الكلام من غير رويّة ولا تثبّت. والباء للتعدية، كأنّهم لمّا تكلّموا عن أمر غائب كانوا يرجمون به.

{ **وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ** } واو الحال، وهي في موضع الحال من المبتدأ المحذوف، أو من اسم العدد الذي هو خبر المبتدأ، وهو إن كان نكرة فإنّ وقوعه خبرًا على معرفةٍ أكسبه تعريفا. على أن وقوع الحال جملة مقترنة بالواو قد عُدّ من مسوّغات مجيء الحال من النكرة.

روي عن ابن الحاجب: أنّ القاضي الفاضل كان يعتقد أنّ الواو هي **واو الثمانية**.

ومن غريب الاتفاق أن كان لحقيقة الثمانية اعتلاق بالمواضع الخمسة المذكورة من القرآن؛ إمّا بلفظه كما هنا وآية الحاقة { سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً } [7]، وإمّا بالانتهاء إليه كما في آية التوبة { وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [112]، وآية التحريم { ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً } [التحريم: 5] ، وإمّا بكون مسمّاه معدودا بعدد الثمانية كما في آية الزمر { وَفتِحَتْ أَبْوَابُهَا } [73]. ولقد يُعدُّ الانتباه إلى ذلك من اللطائف، ولا يبلغ أن يكون من المعارف. ومثل هذه اللطائف كالزهرةِ تُشم ولا تُحك.

وقد تقدّم الكلام عليها عند قوله تعالى { وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ } [التوبة:112].

{ **قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ** } مستأنفة استئنافا بيانيّا لما تثيره جملة { سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ } إلى آخرها من ترقّب تعيين ما يُعتمد عليه من أمر عدّتهم. فأجيب بأنّ يحال العلم بذلك على علّام الغيوب.

{ **أَعْلَمُ** } إسناد اسم التفضيل إلى الله تعالى يفيد أنّ علم الله بعدّتهم هو العلم الكامل وأنّ علم غيره مجرّد ظنّ وحدس قد يصادف الواقع وقد لا يصادفه.

{ **مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ** } كذلك مستأنفة استئنافا بيانيّا، وهم من أطلعهم الله على ذلك بوحي. وعلى كل حال فهم لا يوصفون بالأغلبية لأنّ علمهم مكتسب من جهة الله.

{ **فلَا تُمَارِ فيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً وَلَا تَسْتَفْتِ فيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً** } تفريع على الاختلاف في عدد أهل الكهف، أي: إذا أراد بعض المشركين المماراة في عدّة أهل الكهف لأخبار تلقوها من أهل الكتاب أو لأجل طلب تحقيق عدّتهم فلا تمارهم إذ هو اشتغال بما ليس فيه جدوى. وهذا التفريع وما عطف عليه معترض في أثناء القصّة.

التماري: تفاعل مشتق من المِرْيَة، وهي الشكّ. واشتقاق المفاعلة يدل على أنّها إيقاع من الجانبين في الشكّ، فيؤول إلى معنى المجادلة في المعتقد لإبطاله وهو يفضي إلى الشك فيه، فأطلق المراء على المجادلة بطريق المجاز، ثم شاع فصار حقيقة لمّا ساوى الحقيقة.

{ **إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً** } هو الذي لا سبيل إلى إنكاره ولا يطول الخوض فيه. وذلك مثل قوله تعالى { قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ }، وقوله تعالى { مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ }، فإنّ هذا ممّا لا سبيل إلى إنكاره وإبايته لوضوح حجّته.

الاستفتاء: طلب الفتوى، وهي الخبر عن أمر علمي ممّا لا يعلمه كلّ أحد.

والمراد من النهي عن استفتائهم الكناية عن جهلهم بأمر أهل الكهف. أو يكون كناية رمزية عن حصول علم النبيّ صلى الله عليه وسلم بحقيقة أمرهم بحيث هو غني عن استفتاء أحد، وأنه لا يُعلم المشركين بما علّمه الله من شأن أهل الكهف.

{ **مِنْهُمْ أَحَداً** } أهل مكة الذين سألوا عن أمر أهل الكهف. ولا يستقيم جعل ضمير { مِنْهُمْ } عائدا إلى أهل الكتاب، لأنّ هذه الآيات مكّيّة باتفاق الرواة والمفسرين.

{ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذَلِكَ غَداً [23] إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً [24] }.

عطف على الاعتراض. ومناسبة موقعه هنا ما رواه ابن إسحاق والطبري في أوّل هذه السورة والواحدي في سورة مريم: أنّ المشركين لمّا سألوا النبيّ صلى الله عليه وسلم عن أهل الكهف وذي القرنين وعدهم بالجواب عن سؤالهم من الغد ولم يقل (إن شاء الله)، فلم يأته جبريل عليه السلام بالجواب إلّا بعد خمسة عشر يوما، وقيل: بعد ثلاثة أيام كما تقدّم، أي: فكان تأخير الوحي إليه بالجواب عتابا رمزيا من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم.

أعلم الله رسوله بقصّة أهل الكهف، ثم نهاه عن أن يعد بفعل شيء دون التقييد بمشيئة الله.

{ **لِشَيْءٍ** } اسم متوغّل في التنكير يفسّره المقام، أي الشيء تريد أن تفعله.

{ **غَداً** } مستعمل في المستقبل مجازا. وليست الكلمة مرادا بها اليوم الذي يلي يومه، ولكنه مستعمل في معنى الزمان المستقبل، كما يستعمل اليوم بمعنى زمان الحال، والأمس بمعنى زمن الماضي.

{ **إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ** } استثناء حقيقي من الكلام الذي قبله. فالمراد بالمشيئة إذن الله له.

وقد جمعت هذه الآية كرامة للنبيّ صلى الله عليه وسلم من ثلاث جهات:

الأولى: أنّه أجاب سُؤْله، فبيّن لهم ما سألوه إيّاه على خلاف عادة الله مع المكابرين.

الثانية: أنّه علّمه علما عظيما من أدب النبوّة.

الثالثة: أنّه ما علّمه ذلك إلّا بعد أن أجاب سؤله استئناسا لنفسه أن لا يبادره بالنهي عن ذلك قبل أن يجيبه كيلا يتوهّم أنّ النهي يقتضي الإعراض عن إجابة سؤاله، وكذلك شأن تأديب الحبيب المكرَّم.

ومثاله ما في الصحيح: أنّ حكيم بن حزام قال: " سألت رسول الله فأعطاني ثم سألته فأعطاني ثم سألته فأعطاني، ثم قال: **يا حكيم إنّ هذا المال خَضِرة حُلوة فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارَك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى.** قال حكيم: يا رسول الله والذي بعثك بالحقّ لا أرزأ أحدا بعدك شيئا حتّى أفارق الدنيا ". فعلم حكيم أنّ قول رسول الله صلى الله عليه وسلم له ذلك ليس القصد منه منعه من سؤله وإنّما قصد منه تخليقه بخلق جميل، فلذلك أقسم حكيم أن لا يأخذ عن أحد غير رسول الله شيئا. ولم يقل: لا أسألك بعد هذه المرّة شيئا.

وظاهر الآية اقتصار إعمالها على الإخبار بالعزم على فعل في المستقبل دون ما كان من الكلام إنشاء مثل الأيمان، فلذلك اختلف فقهاء الأمصار في شمول هذه الآية لإنشاء الأيمان ونحوها، فقال جمهورهم: يكون ذكر { إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ } حلًّا لعقد اليمين يُسقط وجوب الكفارة. بحيث إذا أُعقِبت اليمين بقول { إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ } ونحوه لم يلزم البرّ في اليمين.

{ **وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ** } عطف على النهي، أي: لا تعد بوعد فإن نسيت فقلت: إني فاعل، فاذكر ربك، أي: اذكر ما نهاك عنه. والمراد بالتذكير التدارك وهو هنا مشتقّ من الذُكر بضم الذال وهو كناية عن لازم التذكّر، وهو الامتثال، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أفضل من ذكر الله باللسان ذكر الله عند أمره ونهيه.

{ **رَبَّكَ** } في تعريف الجلالة بلفظ الربّ مضافا إلى ضمير المخاطَب من كمال الملاطفة ما لا يخفى.

{ **نَسِيتَ** } حذف المفعول لظهوره من المقام، أي: إذا نسيت النهي فقلتَ: إني فاعل.

والجمهور على أن قوله تعالى { وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ } لا دلالة فيه على جواز تأخير الثنيا (قول: إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)، واستدلوا بأن السنة وردت بخلافة. وعن ابن عباس: لا تحديد بمدّة بل ولو طال ما بين اليمين والثنيا.

{ **وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً** } لما أبرّ الله وعد نبيه صلى الله عليه وسلم الذي وعده المشركين أن يُبيّن لهم أمر أهل الكهف فأوحاه إليه وأوقفهم عليه، أعقب ذلك بعتابه على التصدّي لمجاراتهم في السؤال عمّا هو خارج عن غرض الرسالة دون إذن من الله، وأمره أن يذكر نهي ربّه. ويعزم على تدريب نفسه على إمساك الوعد ببيان ما يسأل منه بيانه دون أن يأذنه الله به. حيث أمره هنا أن يخبر سائليه بأنّه ما بعث للاشتغال بمثل ذلك، وأنّه يرجو أنَ الله يهديه إلى ما هو أقرب إلى الرشد من

بيان أمثال هذه القصّة، وإن كانت هذه القصّة تشتمل على موعظة وهدى ولكن الهدى الذي في بيان الشريعة أعظم وأهم.

فالجملة معطوفة على جملة { فلاَ تُمَارِ فيهِمْ }. ويجوز أن تكون معطوفة على جملة { وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ }، أي: اذكر أمره ونهيه وقل في نفسك: عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشدا، أي: ادع الله بهذا. أي: ارج من الله أن يهديك فيذكّرك أن لا تعيد وعدا ببيان شيء دون إذن الله.

{ **عَسَى** } مستعملة في الرجاء تأدّبا.

{ **مِنْ هَذَا** } اسم الإشارة عائد إلى المذكور من القصّة بقرينة وقوع هذا الكلام معترضا في أثنائها.

الرَشَد (بفتحتين) الهدى والخير. وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً } [10].

{ **وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً** } [25].

رجوع إلى بقيّة القصّة بعد أن تخلّل الاعتراض بينها بقوله تعالى { فلاَ تُمَارِ فيهِمْ - إلى قوله - رَشَدًا } [22-24]. فيجوز أن تكون الجملة عطفا على مقولهم في قوله { سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ } [22]. أي: ويقولون: لبثوا في كهفهم، ليكون موقع قوله تعالى { قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا } [26] كموقع قوله تعالى { قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ } [22]، وعليه فلا يكون هذا إخبار عن مدّة لبثهم.

وعن ابن مسعود أنّه قرأ (وقالوا لَبثوا في كَهفهم) إلى آخره، فذلك تفسير لهذا العطف.

ويجوز أن يكون العطف على القصّة كلّها. والتقدير: وكذلك أعثرنا عليهم إلى آخره، وهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنة وتسع سنين.

ثم إنّ الظاهر أنّ القرآن أخبر بمدّة لبث أهل الكهف في كهفهم، ومؤرخو النصارى يزعمون أنّ مدة نومة أهل الكهف مائتان وأربعون سنة.

والمعنى: أن يقدّر لبثهم بثلاثمائة وتسع سنين. فعُبّر عن هذا العدد بأنّه ثلاثمائة سنة وزيادة تسع. ليُعلم أنّ التقدير بالسنين القمرية المناسبة لتاريخ العرب والإسلام مع الإشارة إلى موافقة ذلك المقدار بالسنين الشمسية التي بها تاريخ القوم الذين منهم أهل الكهف وهم أهل بلاد الروم.

فالتفاوت بين أيام السنة القمرية وأيام السنة الشمسية يحصل منه سنة قمرية كاملة في كلّ ثلاث وثلاثين سنة شمسية، فيكون التفاوت في مائة سنة شمسية بثلاث سنين زائدة قمرية. وبهذا تظهر نكتة التعبير عن تسع السنين بالازدياد. وهذا من علم القرآن وإعجازه العلمي الذي لم يكن لعموم العرب علم به.

{ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً } [26].

إنّ كان قوله تعالى { وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ } إخبارا من الله عن مدّة لبثهم يكون قوله { قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا } قطعا للمماراة في مدّة لبثهم المختلَف فيها بين أهل الكتاب، أي: الله أعلم منكم بمدة لبثهم.

وإن كان قوله تعالى { وَلَبِثُوا } حكاية عن قول أهل الكتاب في مدة لبثهم كان قوله تعالى { قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا } تفويضا إلى الله في علم ذلك، كقوله تعالى { قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ } [22].

{ لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } ما غاب علمه عن النّاس من موجودات السماوات والأرض وأحوالهم.

واللام للملك. وتقديم الخبر المجرور لإفادة الاختصاص، أي: لله لا لغيره، ردا على الذين يزعمون علم خبر أهل الكهف ونحوهم.

{ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ } صيغتا تعجيب من عموم علمه تعالى بالمغيّبات من المسموعات والمبصرات، وهو العلم الذي لا يشاركه فيه أحد.

{ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ } ضمير الجمع يعود إلى المشركين. وهو إبطال لولاية آلهتهم بطريقة التنصيص على عموم النفي بدخول (من) الزائدة على النكرة المنفيّة.

{ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً } ردّ على زعمهم بأنّ الله اتخذ آلهتهم شركاء له في ملكه.

وهنا انتهت قصّة أصحاب الكهف بما تخلّلها، وقد أكثر المفسّرون من رواية الأخبار الموضوعة فيها.

{ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً } [27].

المقصود من الآية الردُّ على المشركين إذ كانوا أيّامئذ لا يُبيَّن لهم شيء إلّا وانتقلوا إلى طلب شيء آخر فسألوا عن أهل الكهف وعن ذي القرنين، وطلبوا من النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يجعل بعض القرآن للثناء عليهم، ونحو ذلك، كما تقدّم ذلك عند قوله تعالى { وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ } [73].

لمّا وعدهم الجواب عن الروح وعن أهل الكهف وأبرّ الله وعده إيّاهم قطعا لمعذرتهم ببيان إحدى المسألتين ذيّل ذلك بأن أمر نبيّه أن يقرأ القرآن كما أنزل عليه وأنّه لا مبدّل لكلمات الله، لكي لا تُطمِعهم الإجابة عن بعض ما سألوه بالطمع في أن يجيبهم عن كل ما طلبوه.

<u>المعنى</u>: لا تعبأ بهم إن كرهوا تلاوة بعض ما أوحى إليك واتل جميع ما أوحي إليك فإنّه لا مبدّل له.

{ وَاتْلُ } كناية عن الاستمرار.

التلاوة: القراءة. وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ } [البقرة:102].

{ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ } مفيد للعموم، أي: كلّ ما أوحي إليك، ومفهوم الموصول أن ما لم يوح إليه لا يتلوه.

وهو ما اقترحوا أن يقوله في الثناء عليهم وإعطائهم شطرًا من التصويب.
التبديل: التغيير بالزيادة والنقص. أي: بإخفاء بعضه، بترك تلاوة ما لا يرضون بسماعه من إبطال شركهم وضلالهم. وهذا يؤذن بأنّهم طعنوا في بعض ما اشتملت عليهم القصّة في القرآن. وقد تقدّم نظير هذا عند قوله تعالى { وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ } [الأنعام:34].
الملتحد: مكان الالتحاد، والالتحاد: الميل إلى جانب. وجاء بصيغة الافتعال لأنّ أصله تكلّف الميل. ويُفهم من صيغة التكلّف أنّه مفر من مكروه يتكلّف الخائف أن يأوي إليه. فلذلك كان الملتحد بمعنى الملجأ.
المعنى: لن تجد شيئا ينجيك من عقابه. والمقصود من هذا تأييسهم ممّا طمعوا فيه.

{ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً } [28].

هذا من ذيول الجواب عن مسألتهم عن أهل الكهف. فهو مشارك لقوله تعالى { وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ } [27]. وتقدّم عند قوله تعالى {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} [الأنعام:52] أنّ سادة المشركين كانوا زعموا أنّه لولا أنّ من المؤمنين ناسا أهل خصاصة في الدنيا وأرقاء لا يدانوهم ولا يستأهلون الجلوس معهم لأتوا إلى مجالسة النبيّ صلى الله عليه وسلم واستمعوا القرآن، فاقترحوا عليه أن يطردهم من حوله إذا غشيه سادة قريش، فرد الله عيهم بما في سورة الأنعام وما في هذه السورة.
{ **وَاصْبِرْ نَفسَكَ** } تأكيد لما سبق، إذ أمره بملازمتهم، أي: احبس نفسك معهم حبس ملازمة.
الصبر: الشدّ بالمكان بحيث لا يفارقه. ومنه سمّيت المَصْبورة وهي الدابة تشدّ لتجعل غرضا للرمي.
ولتضمين فعل { اصْبِرْ } معنى الملازمة عُلّق به ظرف (مع).
{ **مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ** } التعبير عنهم بالموصول للإيماء إلى تعليل الأمر بملازمتهم، أي: لأنّهم أحرياء بذلك لأجل إقبالهم على الله فهم الأجدر بالمقارنة والمصاحبة.
الدعاء: المناجاة والطلب. والمراد به ما يشمل الصلوات.
الغداة: قرأه الجمهور بألف بعد الدال: اسم الوقت الذي بين الفجر وطلوع الشمس.
وقرأ ابن عامر { بالغدْوَة } بسكون الدال وواو بعد مفتوحة وهو مرادف الغداة.
العشي: المساء. والمقصود أنّهم يدعون الله دعاء متخلّلا سائر اليوم والليلة.
{ **يُرِيدُونَ وَجْهَهُ** } في موضع الحال. ووجه الله: مجاز في إقباله على العبد.
{ **وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ** } ثمّ أكّد الأمر بمواصلتهم بالنهي عن أقل إعراض عنهم. ومعنى نهي العينين نهي صاحبهما. أي: أن تُجاوزاهم، أي: تَبعُدا عنهم. وهو إيجاز بديع.

{ **تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** } أي: لا تكن إرادة الزينة سبب الإعراض عنهم، لأنّهم لا زينة لهم.
وهذا تعريض بحماقة سادة المشركين الذين جعلوا همّهم وعنايتهم بالأمور الظاهرة وأهملوا الاعتبار بالحقائق والمكارم النفسية، فاستكبروا عن مجالسة أهل الفضل والعقول الراجحة وجعلوا همّهم الصور الظاهرة.

{ **وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً** } هذا نهي جامع عن ملابسة شيء ممّا يأمره به المشركون. والمقصود من النهي تأسيس قاعدة لأعمال الرسول والمسلمين تجاه رغائب المشركين، وتأييس المشركين من نوال شيء ممّا رغبوه.

قيل: نزلت في أميّة بن خلف الجُمَحي، دعا النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى طرد فقراء المسلمين عن مجلسه حين يجلس إليه هو وأضرابه من سادة قريش.

{ **مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ** } جعله غافلا عن التفكّر في الوحدانيّة حتّى راج فيه الإشراك، فإنّ ذلك ناشئ عن عقول ضيّقة التبصّر مسوقة بالهوى والإلف. وأصل الإغفال: إيجاد الغفلة، وهي الذهول عن تذكّر الشيء، وأريد بها هنا غفلة خاصة.

{ **وَاتَّبَعَ هَوَاهُ** } اتباع الهوى يكون عن بصيرة لا عن ذهول، فالغفلة خِلقة في قلوبهم، واتباع الهوى كسب من قدرتهم.

{ **فُرُطاً** } الظلم والاعتداء. وهو مشتق من الفُروط وهو السبق، لأنّ الظلم سَبْق في الشرّ.

وزيادة فعل الكون للدلالة على تمكّن الخبر من الاسم، أي: حالة تمكّن الإفراط والاعتداء على الحق.

{ وَقُلِ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفرْ إنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفقاً } [29].

بعد أن أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بما فيه نقض ما يفتلونه من مقترحاتهم وتعريض بتأييسهم من ذلك أمره أن يصارحهم بأنّه لا يعدل عن الحقّ الذي جاءه من الله، وأنّه مبلّغه بدون هوادة، وأنّه لا يرغب في إيمانهم ببعضه دون بعض، ولا يتنازل إلى مشاطرتهم في رغباتهم بشطر الحقّ الذي جاء به، وأنّ إيمانهم وكفرهم موكول إلى أنفسهم، لا يحسبون أنّهم بوعد الإيمان يستنزلون النبيّ صلى الله عليه وسلم عن بعض ما أوحي إليه.

{ **الحَقُّ** } خبر مبتدأ محذوف معلوم من المقام، أي: هذا الحقّ.

{ **مِنْ رَبِّكُمْ** } للتذكير بوجوب توحيده.

{ **فمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفرْ** } الأمر في { فلْيُؤْمِنْ / فلْيَكْفرْ } للتسوية المُكنَّى بها عن الوعد والوعيد. وقُدّم الإيمان على الكفر لأنّ إيمانهم مرغوب فيه.

{ **إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا** } مستأنفة استئنافا بيانيّا، والمراد بالظالمين: المشركون، قال تعالى { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان:13].

{ **نارًا** } التنوين للتهويل والتعظيم.

السُرادق: قيل هو الفسطاط، أي: الخيمة. وقيل: الحُجْزة (بضم الحاء وسكون الجيم)، أي: الحاجز الذي يكون محيطا بالخيمة يمنع الوصول إليها، فقد يكون من جنس الفسطاط أديما أو ثوبا وقد يكون غير ذلك كالخندق. وهو كلمة معرّبة من الفارسية، أصلها (سراطاق).

والسرادق هنا تخييل لاستعارة مكنية بتشبيه النار بالدار، وشأن السرادق يكون في بيوت أهل الترف، فإثباته لدار العذاب استعارة تهكمية.

{ **وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ** }.

الاستغاثة: طلب الغوث وهو الإنقاذ من شدّة وبتخفيف الألم. يطلبون شيئا يبرّد عليهم.

{ **يُغَاثُوا** } مستعارة للزيادة ممّا استغيث من أجله على سبيل التهكّم، وهو من تأكيد الشيء بما يشبه ضدّه.

المُهل: له معان كثيرة أشبهها هنا أنه دُرْدِيُّ الزيت فإنّه يزيدها التهابا، قال تعالى { يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ} [المعارج: 8]. والتشبيه في سواد اللون وشدّة الحرارة فلا يزيدهم إلا حرارة، ولذلك عُقّب بقوله { **يَشْوِي الْوُجُوهَ** }. والوجه أشد الأعضاء تألما من حرّ النار، قال تعالى { تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ } [المؤمنون:104].

{ **بِئْسَ الشَّرَابُ** } مستأنفة ابتدائية أيضا لتشنيع ذلك الماء مَشْرُوبًا كما شُنِّع مُغْتَسَلًا. وفي عكسه الماء الممدوح في قوله تعالى { هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ } [صّ:42].

{ **وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً** } معطوفة على جملة { يَشْوِي الْوُجُوهَ }، فهي مستأنفة أيضا لإنشاء ذمّ تلك النّار بما فيها.

المرتفق: محل الارتفاق، اشتُقّ من المرفق وهو مجمع العضد والذراع. سُمّي مرفقا لأنّ الإنسان يحصل به الرفق إذا أصابه إعياء فيتكئ عليه. فالمرتفق هو المتكأ، وتقدم في [يوسف:31].

وشأن المرتفق أن يكون مكان استراحة، فإطلاق ذلك على النّار تهكّم، كما أطلق على ما يزاد به عذابهم لفظ الإغاثة، وكما أطلق على مكانهم السرادق.

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً } [30].

جملة مستأنفة استئنافا بيانيا مراعى فيه حال السامعين من المؤمنين، فإنّهم حين يسمعون ما أُعِدَّ للمشركين تتشوّف نفوسهم إلى معرفة ما أُعِدَّ للذين آمنوا ونبذوا الشرك فأُعلِموا أنّ عملهم مَرْعِيٌّ عند ربّهم. وجريا على عادة القرآن في تعقيب الوعيد بالوعد والترهيب بالترغيب.

وافتتاح الجملة بحرف التوكيد (إنّ) لتحقيق مضمونها. وإعادة حرف (إن) في الجملة المخبر بها عن

المبتدأ الواقع في الجملة الأولى لمزيد العناية والتحقيق.

الإضاعة: جعل الشيء ضائعا. وحقيقته الضيعة: تلف الشيء من مظنّة وجوده. وتطلق مجازا على انعدام الانتفاع بشيء موجود فكأنّه قد ضاع وتلف، قال تعالى { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ } [البقرة:143].

ويطلق على منع التمكين من شيء والانتفاع به، كما في هذه الآية، أي: أنّا لا نحرم من أحسن عملا أجر عمله. ومنه قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } [التوبة:120].

{ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفقاً } [31].

الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا، لأنّ ما أجمل من عدم إضاعة أجرهم يستشرف بالسامع إلى ترقّب ما يُبيِّنه.

{ **أُولَئِكَ** } افتتاح الجملة باسم الإشارة لما فيه من التنبيه على أنّ المشار إليهم جديرون لما بعده لأجل الأوصاف المذكورة قبله، وهي كونهم آمنوا وعملوا الصالحات.

{ **لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ** } اللام لام الملك. و(من) للابتداء، جعلت جهة تحتهم مَنْشَأً لجري الأنهار. وتقدّم في قوله { وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ } [التوبة:72].

{ **عَدْنٍ** } الخلد والاستقرار المستمّر، تقدّم في قوله تعالى { وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً في جَنَّاتِ عَدْنٍ } [التوبة:72].

اجتمع في هذا الخبر عدّة مقرّرات لمضمونه، وهي: التأكيد مرّتين، وذكر اسم الإشارة. ولام الملك، وجر اسم الجهة بـ (من)، وإضافة اسم الجهة إلى ضميرهم، والمقصود من ذلك: التعريض بإغاظة المشركين لتتقرّر بشارة المؤمنين أتّم تقرّر.

{ **يُحَلَّوْنَ فيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ** } صفة لـ {جَنَّاتُ عَدْنٍ}.

التحلية: التزيين، والحلية: الزينة. وأسند الفعل إلى المجهول، لأنّهم يجدون أنفسهم محلَّين بتكوين الله تعالى.

الأساور: جمع أسورة الذي هو جمع سوار. فصيغة جمع الجمع للإشارة إلى اختلاف أشكال ما يحلّون به.

السوار: حليّ من ذهب أو فضة يحيط بموضع الذراع، وهو اسم معرّب عن الفارسية عند المحققين وهو في الفارسية (دستوراه) بهاء في آخره.

{ **مِنْ ذَهَبٍ** } (من) للبيان، وفي الكلام اكتفاء، أي: من ذهب وفضّة كما اكتفى في آية سورة الإنسان بذكر الفضة عن ذكر الذهب بقوله { وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فضَّةٍ } [21]، ولكلّ من المعدنين جمالة الخاص.

اللباس: ستر البدن بثوب من قميص أو إزار أو رداء، وجميع ذلك للوقاية من الحر والبرد وللتجمّل.

الثياب: جمع ثوب، وهو الشقة من النسيج.

{ **خُضْراً** } واللون الأخضر أعدل الألوان وأنفعها عند البصر، وكان من شعار الملوك. قال النابغة:

يصونون أجسادا قديما نعيمُها ... بخالصة الأردان خُضْرِ المناكب

السندس: صنف من الثياب، وهو الديباج الرقيق يُلبس مُباشِرا للجلد ليقيه غلظ الإستبرق.

الإستبرق: الديباج الغليظ المنسوج بخيوط الذهب، يلبس فوق الثياب المباشِرة للجلد.

وكلا اللفظين مُعرّب.

وقُدّم ذكر الحليّ على اللباس هنا لأنّ ذلك وقع صفة للجنّات ابتداء، وكانت مظاهر الحلي أبهج للجنّات، فقدّم ذكر الحليّ وأخّر اللباس، لأنّ اللباس أشدّ اتصالا بأصحاب الجنّة لا بمظاهر الجنّة، وعكس ذلك في قوله تعالى { عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ } [الانسان:21]، لأنّ الكلام هنالك جرى على صفات أصحاب الجنّة.

{ **مُتَّكِئِينَ فيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ** } في موضع الحال من ضمير { يَلْبَسُونَ }.

الاتكاء: جلسة الراحة والترف. وتقدّم عند قوله تعالى { وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً } [يوسف:31].

الأرائك: جمع أريكة. وهي اسم لمجموع سرير وحَجَلة. والحَجَلة: قبّة من ثياب تكون في البيت تجلس فيها المرأة أو تنام فيها. ولذلك يقال للنساء: ربّات الحِجَال، فإذا وضع فيها سرير للاتكاء أو الاضطجاع فهي أريكة. ويجلس فيها الرجل وينام مع المرأة، وذلك من شعار أهل الترف.

{ **نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفقاً** } استئناف مدح، ومخصوص فعل المدح محذوف لدلالة ما تقدّم عليه. والتقدير: نعم الثواب الجنّات الموصوفة.

{ **وَحَسُنَتْ مُرْتَفقاً** } هذا مقابل قوله في حكاية حال أهل النار { وَسَاءَتْ مُرْتَفقاً }.

المرتفق: هنا مستعمل في معناه الحقيقي بخلاف مقابله المتقدّم.

{ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَففنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً [32] كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَراً [33] وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفراً [34] وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً [35] وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً [36] }.

بعد أن بيّن لهم ما أعدّ لأهل الشرك، وذكر ما يقابله ممّا أعدّه للذين آمنوا، ضرب مثلا لحال الفريقين بمثل قصّة أظهر الله فيها تأييده للمؤمن وإهانته للكافر، فكان لذلك المثل شبه بمثل قصّة أصحاب الكهف من عصر أقرب لعلم المخاطبين. ليظهر للفريقين ما يجرّه الغرور والإعجاب والجبروت إلى صاحبه من الأرزاء، وما يلقاه المؤمن المتواضع العارف بسنن الله في العالم من التذكير والتدبّر في العواقب فيكون

معرَّضا للصلاح والنجاح.

{ **وَاضْرِبْ لَهُمْ** } الضمير في { لَهُمْ } يعود إلى المشركين من أهل مكّة على الوجه الأول ولم يتقدّم لهم ذكر، ويعود إلى جماعة الكافرين والمؤمنين على الوجه الثاني.

{ **مَثَلاً رَجُلَيْنِ** } قال الكلبي: المعني بالرجلين رجلان من بني مخزوم من أهل مكّة أخوان أحدهما كافر وهو الأسود ابن عبد الأشد (بشين معجمة وقيل بسين مهملة) بن عبد ياليل، والآخر مسلم وهو أخوه: أبو سلمة عبد الله بن عبد الأشد بن عبد ياليل. وكان زوج أم سلمة قبل أن يتزوّجها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولم يذكر المفسرون أين كانت الجنتان، ولعلّهما كانت بالطائف، فإنّ فيه جنّات أهل مكّة.

وعن ابن عباس: هما أخوان من بني إسرائيل مات أبوهما وترك لهما مالا فاشترى أحدهما أرضا وجعل فيها جنتين، وتصدق الآخر بماله فكان من أمرهما في الدنيا ما قصّه الله تعالى في هذه السورة، وحكى مصيرهما في الآخرة بما حكاه الله في قوله تعالى { فأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ } [الصافات:50-52]. فتكون قصّتهما معلومة بما نزل فيها من القرآن في سورة الصافات قبل سورة الكهف.

وجوّز بعض المفسّرين، فيما نقله عنهم ابن عطية، أنّ تلك الحالة متصوّرة متخيّلة. قال ابن عطية: فهذه الهيئة التي ذكرها الله تعالى لا يكاد المرء يتخيّل أجمل منها في مكاسب النّاس، وعلى هذا الوجه يكون هذا التمثيل كالذي في قوله تعالى { وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ } [البقرة:265].

والأظهر من سياق الكلام وصنع التراكيب أن يكون هذا المثل قصّة معلومة، ولأنّ ذلك أوقع في العبرة والموعظة مثل المواعظ بمصير الأمم الخالية.

{ **جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَففنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً** } ذكر الجنّة والأعناب والنخل تقدّم في قوله تعالى { أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ } [البقرة:266].

{ **حَففنَاهُمَا** } أحطناهما، يقال: حفّه بكذا، إذا جعله حافًّا به، أي: محيطا، قال تعالى { وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ } [الزمر:75].

{ **وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً** } ألهمناه أن يجعل بينهما. وظاهر الكلام أنّ هذا الزرع كان فاصلا بين الجنتين: كانت الجنتان تكتنفان حقل الزرع فكان المجموع ضيعة واحدة. وتقدّم ذكر الزرع في [الرعد:4].

{ **كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً** } معترضة بين الجمل المتعاطفة. والمعنى: أثمرت الجنتان إثمارا كثيرا.

{ **أُكُلَهَا** } قرأه الجمهور بضم الهمزة وسكون الكاف. وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف بضم الهمزة وضم الكاف وهو الثمر، وتقدّم.

{ **وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً** } لم تنقص منه، أي: لم تنقصه عن مقدار ما تعطيه الأشجار في حال الخصب. ففي الكلام إيجاز بحذف مضاف. والتقدير: ولم تظلم من مقدار أمثاله. واستعير الظلم لإقلال الإغلال، واستعير نفيه للوفاء بحق الإثمار.

{ **وَفجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً** } تقدّم عند قوله تعالى { حَتَّى تَفجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً } [الإسراء:90]. والنهر بتحريك الهاء لغة في النهر بسكونها. وتقدم عند قوله تعالى { قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ } [البقرة:249]

{ **وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ** } في موضع الحال من { لِأَحَدِهِمَا }.

الثُّمُر (بضم الثاء والميم): المال الكثير المختلف من النقدين والأنعام والجنات والمزارع. وهو مأخوذ من ثُمِّر ماله (بتشديد الميم بالبناء للنائب)، يقال: ثمّر الله ماله إذا كثُر. قال النابغة:

فلما رأى أن ثَمَّر الله ماله ... وأثَّل موجودا وسدّ مفاقِرَه

مشتقا من اسم الثمرة على سبيل المجاز أو الاستعارة لأن الأرباح وعفو المال يشبهان ثمر الشجر. وشاع هذا المجاز حتّى صار حقيقة.

وقرأ الجمهور { ثُمُر} بضم المثلثة وضم الميم. وقرأه أبو عمرو ويعقوب بضم المثلثة وسكون الميم. وقرأه عاصم بفتح المثلثة وفتح الميم { ثَمَر }. فقالوا: إنّه جمع ثمار الذي هو جمع ثَمر، فيكون دالا على أنواع كثيرة ممّا تنتجه المكاسب، كما تقدّم آنفا في جمع أساور من قوله تعالى { أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ }.

والمعنى: وكان لصاحب الجنتين مال، أي: غير الجنّتين.

{ **فقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفرا** } الفاء للتفريع على الجمل السابقة، لأنّ ما تضمّنته الجمل السابقة من شأنه أن ينشأ عنه غرور بالنفس ينطق عن مثل ذلك القول.

{ **لِصَاحِبِهِ** } هنا بمعنى المقارن في الذكر حيث انتظمهما خبر المثل، أو أريد به الملابس المخاصم. والمراد بالصاحب هنا الرجل الآخر من الرجلين، ولم يتعلّق الغرض بذكر مكان هذا القول ولا سببه لعدم الاحتياج إليه في الموعظة.

المحاورة: مراجعة الكلام بين متكلّمين. ودلّ فعل المحاورة على أنّ صاحبه قد وعظه في الإيمان والعمل الصالح، فراجعه الكلام بالفخر عليه والتطاول، شأن أهل الغطرسة والنقائص.

{ **وَأَعَزُّ نَفرًا** } أشدّ عزّة. والعزة: ضدّ الذلّ. وهي كثرة عدد عشيرة الرجل وشجاعته.

النفر: عشيرة الرجل الذين ينفرون معه. وأراد بهم هنا ولده، كما دل عليه مقابلته في جواب صاحبه { إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَداً } [39].

{ **وَدَخَلَ جَنَّتَهُ** } في موضع الحال من ضمير(قال) ، أي: قال ذلك وقد دخل جنّته مرافقا لصاحبه. وإنّما أفرد الجنّة هنا وهما جنتان لأنّ الدخول إنّما يكون لإحداها.

{ **وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفسِهِ** } أي: وهو مشرك مكذّب بالبعث بَطِرٌ بنعمة الله عليه.

{ **قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً** } الظن هنا بمعنى الاعتقاد.

تبيد: تهلك وتفنى. والإشارة بـ { هَذِهِ } إلى الجنّة التي هما فيها، أي: لا أعتقد أنّها تنتقض وتضمحل.

الأبد: مراد منه طول المدّة، أي: هي باقية بقاء أمثالها لا يعتريها ما يبيدها. وهذا اغترار منه بغناه واغترار بما لتلك الجنّة من وثوق الشجر وقوته وثبوته واجتماع أسباب نمائه ودوامه حوله، من مياه وظلال.

{ **وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً** } انتقل من الإخبار عن اعتقاده دوام تلك الجنّة إلى الإخبار عن اعتقاده بنفي قيام الساعة. ولا تلازم بين المعتقدين. ولكنه أراد التورّك على صاحبه المؤمن.

{ **وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً** } تهكّم. وقرينة التهكّم قوله { وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً }. وأكّد كلامه بلام القسم ونون التوكيد مبالغة في التهكّم. وهذا كقول العاصي ابن وائل السهمي لخباب بن الأرت: ليكونّن لي مال هنالك فأقضيك دينك منه.

{ **مُنْقَلَباً** } انتصب على تمييز نسبة الخبر. والمنقلب: المكان الذي ينقلب إليه، أي: يرجع.

{ **مِنْهَا** } قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بالإفراد جريا على قوله تعالى { وَدَخَلَ جَنَّتَهُ } وقوله { أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ }. وعلى قراءة الجمهور{ مِنْهُمَا } بالتثنية.

{ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً [37] لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً [38] وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَداً [39] فعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ فتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً [40] أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً } [41].

حكي كلام صاحبه بفعل القول بدون عطف، للدلالة على أنّه واقع موقع المحاورة والمجاوبة.

{ **أَكَفرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ** } الاستفهام مستعمل في التعجيب والإنكار، وليس على حقيقته، لأنّ الصاحب كان يعلم أن صاحبه مشرك بدليل قوله له { وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً } . فالمراد بالكفر هنا الإشراك الذي من جملة معتقداته إنكار البعث.

{ **مِنْ تُرَابٍ** } إشارة إلى الأجزاء التي تتكون منها النطفة وهي أجزاء الأغذية المستخلصة من تراب الأرض، كما قال تعالى { سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ممّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ } [يس:36].

النطفة: ماء الرجل، مشتقّة من النطف وهو السيلان.

{ **ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً** } عدل خلقك، أي: جعله متناسبا في الشكل والعمل.

{ **لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي** } كتب في المصحف بألف بعد النون. واتفق القراء العشرة على إثبات الألف في النطق في حال الوقف، وأما في حال الوصل فقرأه الجمهور بدون نطق بالألف، وقرأه ابن عامر وأبو جعفر ورويس عن يعقوب بإثبات النطق بالألف في حال الوصل، ورسم المصحف يسمح بكلتا الروايتين.

{ **لَكِنَّا** } مركب من (لكنْ) بسكون النون الذي هو حرف استدراك، ومن ضمير المتكلم (أنا). وأصله: لكن أنا، فحذفت الهمزة تخفيفا كما قال الزجاج. فـ (أنا) مبتدأ، وجملة { هُوَ اللَّهُ رَبِّي } ضمير شأن وخبره.

أي: شأني هو الله ربي. والخبر مستعمل في الإقرار، أي: أعترف بأنّه ربّي خلافا لك.

وأكّد إثبات اعترافه بالخالق الواحد بمؤكدات أربعة، وهي: الجملتان الاسميتان، وضمير الشأن في قوله { لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي }، وتعريف المسند والمسند إليه في قوله { اللَّهُ رَبِّي } المفيد قصر صفة ربوبية الله على نفس المتكلم، قصرا إضافيّا بالنسبة لمخاطبه، أي: دونك، إذ تعبد آلهة غير الله، وما القصر إلّا توكيد مضاعف، ثم بالتوكيد اللفظي للجملة بقوله { **وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً** }.

{ **وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ** } عطف على جملة { أَكَفرْتَ } عطف إنكار على إنكار.

{ **وَلَوْلا** } للتوبيخ، كشأنها إذا دخلت على الفعل الماضي، نحو { لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ } [النور:13] أي: كان الشأن أن تقول { مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ } عوض قولك { مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً }.

{ **لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ** } تعليل لكون تلك الجنّة من مشيئة الله، أي: لا قوة لي على إنشائها، أو لا قوة لمن أنشأها إلّا بالله، فإنّ القوى كلّها موهبة من الله تعالى لا تؤثّر إلّا بإعانته بسلامة الأسباب والآلات المفكّرة والصانعة.

{ **إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَداً فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً** }.

جملة ابتدائية رجع بها إلى مجاوبة صاحبه عن قوله { أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفراً } [37]، وعظه فيها بأنّه لا يدري أن تصير كثرة ماله إلى قلّة أو إلى اضمحلال وأن يصير القليل ماله ذا مال كثير.

{ **تَرَنِ** } حذفت ياء المتكلّم بعد نون الوقاية تخفيفا وهو كثير.

{ **فَعَسَى** } للرجاء، وهو طلب الأمر القريب الحصول. ولعلّه أراد به الدعاء لنفسه وعلى صاحبه.

الحُسبان: مصدر حسب كالغفران. وهو هنا صفة لموصوف محذوف، أي: هلاكا حسبانا، أي: مقدّرا من الله، كقوله تعالى { عَطَاءً حِسَاباً } [النبأ:36].

وقيل: الحسبان اسم جمع لسهام قصار يرمى بها في طلق واحد وليس له مفرد.

وقيل: اسم جمع حسبانة وهي الصاعقة.

وقيل: اسم للجراد.

والمعاني الأربعة صالحة هنا.

السماء: الجو المرتفع فوق الأرض.

الصعيد: وجه الأرض. وتقدّم عند قوله تعالى { فتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً } [المائدة:6].

وفي (اللسان) عن الليث: " يقال للحديقة، إذا خربت وذهب شجراؤها: قد صارت صعيدا، أي: أرضا مستوية لا شجر فيها ". وهذا إذا صحّ أحسن هنا، ويكون وصفه بـ { زَلَقًا } مبالغة في انعدام النفع به بالمرّة.

لكني أظن أن الليث ابتكر هذا المعنى من هذه الآية وهو تفسير معنى الكلام وليس تبيينا لمدلول لفظ صعيد. ونظيره قوله تعالى { وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا } [8].

الزلق: مصدر زلقت الرِّجل، إذا اضطربت وزلّت على الأرض فلم تستقر. ووصف الأرض بذلك مبالغة، أي ذات زلق، أي: هي مزلقة.

الغور: مصدر غار الماء، إذا ساخ في الأرض. ووصفه بالمصدر للمبالغة.

{ **فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً** } جاء بحرف توكيد النفي زيادة في التحقيق لهذا الرجاء الصادر مصدر الدعاء.

{ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفيْهِ عَلَى مَا أَنْفقَ فيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً [42] **وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً** [43] }.

كان صاحبه المؤمن رجلا صالحا فحقّق الله رجاءه، أو كان رجلا محدَّثا من محدَّثي هذه الأمّة، أو من محدَّثي الأمم الماضية، على الخلاف في المعنيّ بالرجلين في الآية، ألهمه الله معرفة ما قدّره في الغيب من عقاب في الدنيا للرجل الكافر المتجبّر.

{ **وَأُحِيطَ** } لم تعطف الجملة بفاء التفريع على رجاء صاحبه المؤمن إذ لم يتعلّق الغرض في هذا المقام بالإشارة إلى الرجل المؤمن، وإنّما المهمّ التنبيه على أنّ ذلك حادث حلّ بالكافر عقابا له على كفره، ليعلم السامعون أنّ ذلك جزاء أمثاله، وأن ليس بخصوصيّة لدعوة الرجل المؤمن.

الإحاطة: الأخذ من كل جانب، مأخوذة من إحاطة العدو بالقوم إذا غزاهم. وتقدّمت في قوله تعالى { إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ } [يوسف:66] وقوله تعالى { إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ } [الإسراء:60].

والمعنى: أُتلف ماله كلّه بأن أُرسل على الجنّة والزرع حُسْبَانٌ من السماء فأصبحت صعيدا زلقا وهلكت أنعامه وسُلبت أمواله، أو خُسف بها بزلزال أو نحوه.

{ **بِثَمَرِهِ** } تقدّم اختلاف القراء في لفظ { ثمر} آنفا عند قوله تعالى { وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ } [34].

تقليب الكفّين: حركة يفعلها المتحسّر وذلك أن يقلّبهما إلى أعلى ثم إلى قبالته تحسّرا. ومثله قولهم: قرع السنّ من ندم، وقوله تعالى { عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ } [آل عمران:119].

الخاوية: الخالية، أي: وهي خالية من الشجر والزرع.
العروش: السقف. و(على) للاستعلاء.
{ **خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا** } هذا التركيب أرسله القرآن مثلا للخراب التام الذي هو سقوط سقوف البناء وجدرانه. وتقدّم في قوله تعالى { أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا } [البقرة:259]، على أنّ الضمير في آية البقرة مراد به جدران القرية بقرينة مقابلته بعروشها، إذ القرية هي المنازل.
{ **وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي** } حرف النداء مستعمل في التلهّف. و{ لَيْتَنِي } تمنّ مراد به التندّم. ومثله قوله تعالى { أَنْ تَقُولَ نَفسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فرَّطْتُ في جَنْبِ اللَّهِ } [الزمر:56].
{ **لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً** } هذا ندم على الإشراك فيما مضى وهو يؤذن بأنّه آمن بالله وحده حينئذ.
{ **وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ** } موعظة وتنبيه على جزاء قوله { وَأَعَزُّ نَفراً } [34].
الفئة: الجماعة. وجملة { يَنْصُرُونَهُ } صفة، أي: لم تكن له فئة هذه صفتها.
{ **وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً** } أي: ولا يكون له انتصار وتخلّص من العذاب.
وأحاط به هذا العقاب لا لمجرد الكفر، لأنّ الله قد يمتّع كافرين كثيرين طوال حياتهم ويملي لهم ويستدرجهم. وإنّما أحاط به هذا العقاب جزاء على طغيانه وجعله ثروته وماله وسيلة إلى احتقار المؤمن الفقير، فإنّه لمّا اعتز بتلك النعم وتوسّل بها إلى التكذيب بوعد الله استحقّ عقاب الله بسلب تلك النعم عنه كما سُلبت النعمة عن قارون حين قال { إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي } [القصص:78]. وبهذا كان هذا المثل موضع العبرة للمشركين الذين جعلوا النعمة وسيلة للترفّع عن مجالس الدعوة لأنّها تجمع قوما يرونهم أحطّ منهم، وطلبوا من النبيّ صلى الله عليه وسلم طردهم عن مجلسه كما تقدّم.

{ هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً } [44].

تذييل للجمل قبلها لما في هذه الجملة من العموم الحاصل من قصر الولاية على الله تعالى، المقتضي تحقيق جملة { وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً }، وجملة { وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً } [34]، لأنّ الولاية من شأنها أن تبعث على نصر المولى وأن تُطمع المولى في أنّ وليّه ينصره. ولذلك لما رأى الكافر ما دهاه من جرّاء كفره التجأ إلى أن يقول { يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً } [42]، إذ علم أنّ الآلهة الأخرى لم تغن ولايتهم عنه شيئا، كما قال أبو سفيان يوم أسلم " لقد علمت أن لو كان معه إله آخر لقد أغنى عني شيئا ".
{ **هُنَالِكَ** } اسم إشارة المكان البعيد مستعار للإشارة إلى الحال العجيبة، بتشبيه الحالة بالمكان لإحاطتها بصاحبها، وتشبيه غرابتها بالبعد لندرة حصولها. والمعنى: أنّ في مثل تلك الحالة تقصر الولاية على الله.
الوَلاية: (بفتح الواو) مصدر وَلِيَ، إذا ثبت له الولاء. وتقدّمت عند قوله تعالى { مَا لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حتّى يُهَاجِرُوا } [الأنفال:72].

{ **الحَقِّ** } قرأه الجمهور بالجر، على أنّه وصف الله تعالى، كما وصف بذلك في قوله تعالى { وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ } [يونس:30]. وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف { الحَقُّ } بالرفع صفة للولاية، فالحقّ على هذا الوجه بمعنى الصدق لأنّ ولاية غيره كذب وباطل.

ووصفه هنا بالحقّ دون وصف آخر لأنه قد ظهر في مثل تلك الحال أنّ غير الله لا حقيقة له أو لا دوام له.

{ **هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً** } يجوز أن يكون بمعنى أخْيَرُ، فيكون التفضيل في الخيرية على ثواب غيره وعُقُب غيره، فإنّ ما يأتي من ثوابٍ من غيره ومن عقبى إمّا زائف مفض إلى ضرّ وإما زائل، وثواب الله خالص دائم وكذلك عقباه.

ويجوز أن يكون { **خَيْرٌ** } اسمًا ضدّ الشرّ، أي: هو الذي ثوابه وعُقُبه خير وما سواه فهو شرّ.

{ **عُقْباً** } بمعنى العاقبة، أي: آخرة الأمر. وهي ما يرجوه المرء من سعيه وعمله. وقرأ الجمهور بضمّتين وبالتنوين. وقرأه عاصم وحمزة وخلف بإسكان القاف وبالتنوين.

فكأنّ ما ناله ذلك المشرك الجبّار من عطاء إنّما ناله بمساع وأسباب ظاهرية ولم ينله بعناية من الله تعالى وكرامة فلم يكن خيرا وكانت عاقبته شرا عليه.

{ **وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً** } [45].

كان أعظم حائل بين المشركين وبين النظر في أدلة الإسلام انهماكهم في الإقبال على الحياة الزائلة ونعيمها، والغرور الذي غرّ طغاة أهل الشرك وصرفهم عن إعمال عقولهم في فهم أدلة التوحيد والبعث كما قال تعالى { وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً } [المزمل:11]، وقال تعالى { أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ } [القلم 15/14]. وكانوا يحسبون هذا العالم غير آيل إلى الفناء { وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ } [الجاثية:24]. وما كان أحد الرجلين الذين تقدّمت قصتهما إلّا واحدا من المشركين إذ قال { وَمَا أَظُنّ السَّاعةَ قَائِمَةً } [36].

فأمر الله رسوله بأن يضرب لهم مثل الحياة الدنيا التي غرَّتهم بهجتها.

{ **لَهُمْ** } الضمير عائد إلى المشركين كما دلّ عليه تناسق ضمائر الجمع.

الحياة الدنيا: تطلق على مدّة بقاء الأنواع الحيّة على الأرض وبقاء الأرض على حالتها. فإطلاق هذا الاسم على تلك المدة لأنّها مدّة الحياة الناقصة، غير الأبديّة لأنها مُقدّر زوالها، فهي دنيا. ووصفها بـ (الدنيا) بمعنى القريبة، أي: الحاضرة غير المنتظرة، كنّى عن الحضور بالقرب.

وتطلق (الحياة الدنيا) على مدّة حياة الأفراد، أي: حياة كلّ أحد.

{ **كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ** } الكاف في محلّ الحال من الحياة المضاف إليه

{ مَثَلَ }، أي: اضرب لهم مثلا لها حال أنّها كماء أنزلناه. وهذا المثل منطبق على الحياة الدنيا بإطلاقيها.
اختلاط النبات: وفرته والتفاف بعضه ببعض من قوّة الخصب والازدهار. و{ بِهِ } باء السببية، والضمير عائد إلى { **كَمَاءٍ** }، أي: فاختلط النبات بسبب الماء. وليست الباء لتعدية فعل (اختلط) إلى المفعول لعدم وضوح المعنى عليه. وفي ذكر الأرض بعد ذكر السماء مُحسِّن الطباق.
{ **فَأَصْبَحَ** } مستعملة هنا بمعنى صار، وهو استعمال شائع لـ (أصبح).
الهشيم: اسم على وزن فعيل بمعنى مفعول، أي: مهشوما محطّما. والهشم: الكسر والتفتيت.
{ **تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ** } أي: تفرّقه في الهواء. و**الذرو**: الرمي في الهواء.
شُبهت حالة هذا العالم بما فيه بحالة الروضة تبقى زمانا بَهِجة خَضِرة ثم يصير نبتُها بعد حين إلى اضمحلال ووجه الشبه: المصير من حال حسن إلى حال سيء.
وأيضا شُبِّهت هيئة إقبال نعيم الدنيا في الحياة مع الشباب والجِدَّة وزخرف العيش لأهله، ثم تقلّص ذلك وزوال نفعه ثم انقراضه أشتاتا، بهيئة إقبال الغيث منبت الزرع ونشأته عنه ونضارته ووفرته ثم أخذه في الانتقاص وانعدام التمتّع به ثم تطايره أشتاتا في الهواء، تشبيها لمركَّب محسوس بمركَّب محسوس.
{ **وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً** } جملة معترضة في آخر الكلام. موقعها التذكير بقدرة الله تعالى على خلق الأشياء وأضدادها، وجعل أوائلها مفضية إلى أواخرها، وترتيبه أسباب الفناء على أسباب البقاء، وذلك اقتدار عجيب. وقد أفيد ذلك على أكمل وجه بالعموم الذي في قوله تعالى { عَلَى كُلِّ شَيْءٍ } وهو بذلك أشبه التذييل.
المقتدر: قويّ القدرة.

{ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً } [46].

اعتراض أريد به الموعظة والعبرة للمؤمنين بأنّ ما فيه المشركون من النعمة من مال وبنين ما هو إلّا زينة الحياة الدنيا التي علمتم أنّها إلى زوال، كقوله تعالى { لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفرُوا فِي الْبِلادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ } [آل عمران:196] وأنّ ما أعد الله للمؤمنين خير عند الله وخير أملا.
{ **الْمَالُ وَالْبَنُونَ** } تقديم المال على البنين في الذكر لأنّه أسبق خطورا لأذهان النّاس، لأنّه يرغب فيه الصغير والكبير والشاب والشيخ ومن له من الأولاد ما قد كفاه.
{ **وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ** } صفتان جرتا على موصوف محذوف، أي: الأعمال الصالحات البقيات، أي: التي لا زوال لخيرها، وهو ثوابها الخالد، فهي خير من زينة الحياة الدنيا التي هي غير باقية.
وكان مقتضى الظاهر في ترتيب الوصفين أن يقدّم { الصَّالِحَاتُ } على { الْبَاقِيَاتُ }، لأنّه قد شاع أن يقال: الأعمال الصالحات ولا يقال الأعمال البقيات، ولأن بقاءها مترتّب على صلاحها، فلا جرم أنّ

الصالحات وصف قام مقام الموصوف وأغنى عنه كثيرا في الكلام حتّى صار لفظ { الصَّالِحَاتُ } بمنزلة الاسم الدال على عمل خير، وذلك كثير في القرآن قال تعالى { وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } [العصر:3].

ولكن خولف مقتضى الظاهر هنا، فقدّم { الْبَاقِيَاتُ } للتنبيه على أنّ ما ذكر قبله إنّما كان مفصولا لأنه ليس بباق، وهو المال والبنون. ونظير هذه الآية قوله تعالى { وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَرَدًّا } [مريم:76].

{ **وَخَيْرٌ أَمَلاً** } أنّ أمل الآمِلِ في المال والبنين إنّما يأمل حصول أمر مشكوك في حصوله ومقصور على مدّته. وأمّا الآمِلُ لثواب الأعمال الصالحة فهو يأمل حصول أمر موعود به من صادق الوعد. ويأمل شيئا تحصل منه منفعة الدنيا ومنفعة الآخرة كما قال تعالى { مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل:97].

{ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً [47] وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفاً لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً [48] }.

عطف على جملة { وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } [45]، فلفظ { يَوْمَ } منصوب بفعل مضمر تقديره: اذكر، كما هو متعارف في أمثاله. فبعد أن بيّن لهم تعرّض ما هم فيه من نعيم إلى الزوال على وجه الموعظة، أعقبه بالتذكير بما بعد ذلك الزوال، بتصوير حال البعث وما يترقّبهم فيه من العقاب على كفرهم به، وذلك مقابلة لضدّه المذكور في قوله تعالى { وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ }.

{ **نُسَيِّرُ الْجِبَالَ** } نقلها من مواضعها بزلزال أرضي عظيم، وهو مثل قوله تعالى { وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ } [التكوير:3]. وقيل: أطلق التسيير على تناثر أجزائها، فيكون كقوله تعالى { وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفوشِ } [القارعة:5]، وقوله تعالى { وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثّاً } [الواقعة:6/5] وقوله تعالى { وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فكَانَتْ سَرَاباً } [النبأ:20]. وهو من أحوال انقراض نظام هذا العالم، وإقبال عالم الحياة الخالدة والبعث.

{ **وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً** } الخطاب لغير معيّن. والمعنى: ويرى الرائي. وهو نظير قوله تعالى { فتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفقِينَ ممّا فيهِ } [49].

البارزة: الظاهرة، أي: الظاهر سطحها، إذ ليس عليها شيء يستر وجهها من شجر ونبات أو حيوان، كقوله تعالى { فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ } [النازعات:14].

{ **وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً** } في موضع الحال من ضمير { نُسَيِّرُ }. يجوز أن نجعل الجملة معطوفة على جملة { نُسَيِّرُ الْجِبَالَ }. و**المغادرة**: إبقاء شيء وتركه من تعلّق فعل به.

{ **وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفاً** } في موضع الحال من الضمير المنصوب في { حَشَرْنَاهُمْ }، أي: حشرناهم وقد عُرضوا، تنبيها على سرعة عرضهم في حين حشرهم.

عرض الشيء: إحضاره ليرى حاله وما يحتاجه. وفي الحديث: **" عُرضت عليَّ الأمم "**.
وهو هنا مستعار لإحضارهم، حيث يعلمون أنّهم سيتلقّون ما يأمر الله به في شأنهم.
الصفّ: جماعة يقفون واحدا حذو واحد بحيث يبدو جميعهم لا يحجب أحد منهم أحدا. وأصله مصدر صفّهم إذا أوقفهم. وتلك الحالة إيذان بأنّهم أحضروا بحالة الجناة الذين لا يخفى منهم أحد، إيقاعا للرعب في قلوبهم.
{ **عَلَى رَبِّكَ** } عُدل عن الإضمار إلى التعريف بالإضافة، دون أن يقال: علينا، لتضمّن الإضافة تنويها بشأن المضاف إليه بأنّ في هذا العرض، وما فيه من التهديد، نصيبا من الانتصار للمخاطَب إذ كذّبوه حين أخبرهم وأنذرهم بالبعث.
{ **لَقَدْ جِئْتُمُونَا** } مقول لقول محذوف دلّ عليه أنّ الجملة خطاب للمعروضين، فتعيّن تقدير القول.
والجملة في محلّ الحال. والتقدير: قائلين لهم لقد جئتمونا. وذلك بإسماعهم هذا الكلام من جانب الله تعالى.
المجيء: مجاز في الحضور، شُبّهوا حين موتهم بالغائبين، وشُبّهت حياتهم بعد الموت بمجيء الغائب.
{ **كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ** } واقع موقع المفعول المطلق المفيد للمشابهة، أي: جئتمونا مجيئا كخلقكم أوّل مرّة. فالخلق الثاني أشبه الخلق الأوّل، أي: فهذا خلق ثان. قال تعالى { أَفعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ } [قّ:15]. والمقصود: التعريض بخطئهم في إنكارهم البعث.
{ **بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً** } الإضراب انتقال من التهديد وما معه من التعريض بالتغليط إلى التصريح بالتغليط في قالب الإنكار، فالخبر مستعمل في التغليط مجازا وليس مستعملا في إفادة مدلوله الأصلي.
الزعم: الاعتقاد المخطئ، أو الخبر المعرّض للكذب.
الموعد: أصله وقت الوعد بشئ أو مكان الوعد. وهو هنا الزمن الموعود به الحياة بعد الموت.
والمعنى: أنّكم اعتقدتم باطلا أن لا يكون لكم موعد للبعث بعد الموت أبدا.

{ **وَوُضِعَ الْكِتَابُ فتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً** } [49].
معطوفة على جملة { وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ } [48]، فهي في موضع الحال، أي: وقد وُضع الكتاب.
{ **الْكِتَابُ** } مراد به الجنس، أي: وضعت كتب أعمال البشر، لأنّ لكلّ أحد كتابا، كما دلّت عليه آيات أخرى كقوله { وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً } [الاسراء:14/13]. وإفراد الضمير في قوله تعالى { مِمَّا فِيهِ } لمراعاة إفراد لفظ { الْكِتَابُ }.
{ **فتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ** } الخطاب لغير معيّن، وليس للنبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّ الرسول

صلى الله عليه وسلم يومئذ في مقامات عالية عن ذلك الموضع.

الإشفاق: الخوف من أمر يحصل في المستقبل.

{ **وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا** } التعبير بالمضارع لاستحضار الحالة الفظيعة، أو لإفادة تكرّر قولهم ذلك وإعادته، شأن الفزعين الخائفين.

نداء الويل: ندبة للتوجّع من الويل. وأصله نداء استُعمل مجازا بتنزيل ما لا ينادى منزلة ما ينادى لقصد حضوره، ثم شاع ذلك فصار لمجرّد الغرض من النداء، وهو التوجّع ونحوه.

الويلة: تأنيث الويل للمبالغة، وهو سوء الحال والهلاك. كما أنّثت الدار على دارة، للدلالة على سعة المكان. وقد تقدّم عند قوله تعالى { قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ } [المائدة:31].

{ **مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا** } الاستفهام مستعمل في التعجيب. فـ **(ما)** اسم استفهام، ومعناها: أيّ شيء، و { هَذَا الْكِتَابِ } صفة لـ (ما) الاستفهامية لما فيها من التنكير، أي: ما ثبت لهذا الكتاب. والـ **(لام)** للاختصاص.

{ **لَا يُغَادِرُ** } في موضع الحال، هي مثار التعجيب.

المغادرة: الترك، وتقدّم آنفا في قوله { فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً } [47].

{ **صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً** } وصفان لموصوف محذوف لدلالة المقام. والمراد بالصغر والكبر هنا الأفعال العظيمة والأفعال الحقيرة. والعظم والحقارة يكونان بحسب الوضوح والخفاء ويكونان بحسب القوّة والضعف.

وتقديم ذكر الصغيرة لأنّها أهم من حيث يتعلّق التعجّب من إحصائها. وعطفت عليها الكبيرة لإرادة التعميم في الإحصاء لأنّ التعميم أيضا ممّا يثير التعجّب.

{ **إِلَّا أَحْصَاهَا** } الاستثناء هنا من تأكيد الشيء بما يشبه ضدّه لأنّه إذا أحصاه فهو لم يغادره، فآل إلى معنى أنه لا يغادر شيئا، وانتفت حقيقة الاستثناء.

الإحصاء: العدّ، أي: كانت أفعالهم معدودة مفصّلة.

{ **وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً** } في موضع الحال من ضمير { يَقُولُونَ }. أي: إنّما قالوا ذلك حين عُرضت عليهم أعمالهم كلّها عند وضع ذلك الكتاب عرضا سريعا حصل به علم كلّ بما في كتابه على وجه خارق للعادة.

{ **وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً** } عطف على جملة { وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً } لِما أفْهمته الصلة من أنّهم لم يجدوا غير ما عملوا، لأنّ الله لا يظلم أحدا فيؤاخذه بما لم يقترفه. وقد حدّد لهم من قبل ذلك ما ليس لهم أن يفعلوه وما أمروا بفعله، وتوعّدهم ووعدهم، فلم يكن في مؤاخذتهم بما عملوه من المنهيات بعد ذلك ظلم لهم.

{ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ ففسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً } [50].

عطف على جملة { وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ } [47] بتقدير: واذكر إذ قلنا للملائكة، تفنّنا لغرض الموعظة الذي سيقت له هذه الجمل، وهو التذكير بعواقب اتّباع الهوى والإعراض عن الصالحات، وبمداحض الكبرياء والعُجب واحتقار الفضيلة والابتهاج بالأعراض التي لا تُكسب أصحابها كمالا نفسيّا. وكما وُعظوا بآخر أيّام الدنيا ذُكّروا هنا بالموعظة بأوّل أيّامها، وهو يوم خلق آدم، وهذا أيضا تمهيد وتوطئة لقوله تعالى { يَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ } [52]، فإنّ الإشراك كان من غرور الشيطان ببني آدم.

ولها أيضا مناسبة بما تقدّم من الآيات التي أنحت على الذين افتخروا بجاههم وأموالهم واحتقروا فقراء أهل الإسلام ولم يميّزوا بين الكمال الحقّ والغرور الباطل، فكان في قصّة إبليس نحو آدم مثل لهم، ولأنّ في هذه القصّة تذكيرا بأنّ الشيطان هو أصل الضلال، وأنّ خسران الخاسرين يوم القيامة آيل إلى اتّباعهم خطوات الشيطان وأوليائه. ولهذا فُرّع على الأمرين قوله تعالى { أَفتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ }.

وهذه القصّة تكرّرت في مواضع كثيرة من القرآن، وهي في كل موضع تشتمل على شيء لم تشتمل عليه في الآخر، ولها في كل موضع ذكرت فيه عبرة تخالف عبرة غيره، فذكرها في سورة البقرة مثلا إعلام بمبادئ الأمور، وذكرها هنا تنظير للحال وتوطئة للإنكار والتوبيخ، وقسّ على ذلك.

{ **ففسَقَ** } تجاوز عن طاعته. وأصله قولهم: فسقت الرُّطَبة، إذا خرجت من قشرها، فاستعمل مجازا في التجاوز. قال أبو عبيدة: " والفسق بمعنى التجاوز عن الطاعة، ولم نسمع ذلك في شيء من أشعار الجاهلية ولا أحاديثها وإنّما تكلّم به العرب بعد نزول القرآن"، أي: في هذه الآية ونحوها. ووافقه المبرّد وابن الأعرابي. وأُطلق الفسق في مواضع من القرآن على العصيان العظيم، كقوله تعالى { وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ } [البقرة:26].

{ **عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ** } الأمر بمعنى المأمور، أي: ترك وابتعد عمّا أمره الله به. والعدول إلى التعريف بطريق الإضافة دون الضمير لتفظيع فسق الشيطان عن أمر الله.

{ **أَفتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ** } فُرّع على التذكير بفسق الشيطان وعلى تعاظمه على أصل النوع الإنساني إنكار اتخاذه واتخاذ جنده أولياء، لأن تكبّره على آدم يقتضي عداوته للنوع، ولأنّ عصيانه أمر مالكه يقتضي أنّه لا يُرجى منه خير وليس أهلا لأن يُتّبع.

والاستفهام مستعمل في الإنكار والتوبيخ للمشركين، إذ كانوا يعبدون الجنّ، قال تعالى { وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ } [الأنعام:100].

الذرية: النسل، وذرية الشيطان الشياطين والجنّ.

الولي: من يتولّى، أي: يُتّخذ ذا وَلاية (بفتح الواو) وهي القرب. والمراد به القرب المعنوي، وهو الصداقة والنسب والحلف.

العدو: اسم يصدق على الواحد وعلى الجمع، قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ } [الممتحنة:1]، وقال تعالى { هُمُ الْعَدُوُّ } [المنافقون:4].

{ **بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً** } مستأنفة لإنشاء ذم إبليس وذريته باعتبار اتخاذ المشركين إيّاهم أولياء. أي: بئس البدل للمشركين الشيطان وذرّيّته.

{ **بَدَلاً** } تمييز مفسر لاسم { بِئْسَ } المحذوف لقصد الاستغناء عنه بالتمييز على طريقة الإجمال ثم التفصيل.

والظالمون هم المشركون. وإظهار الظالمين في موضع الإضمار للتشهير بهم. ولما في الاسم الظاهر من معنى الظلم الذي هو ذمّ لهم.

{ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً } [51].

تتنزّل هذه الجملة منزلة التعليل للجملتين اللتين قبلها وهما { أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ - إلى قوله – بَدَلًا } [50]، فإنّهم لمّا لم يشهدوا خلق السماوات والأرض لم يكونوا شركاء لله في الخلق بطريق الأولى فلم يكونوا أحقّاء بأن يُعبدوا. وهذا احتجاج على المشركين بما يعترفون به، فإنّهم يعترفون بأنّ الله هو المتفرّد بخلق السماوات والأرض وخلق الموجودات.

الإشهاد: جعل الغير شاهدا، أي: حاضرا، وهو هنا كناية عن إحضار خاص، وهو إحضار المشاركة في العمل أو الإعانة عليه. ونفي هذا الشهود يستلزم نفي المشاركة في الخلق والإلهية بالأولى، فإنّ خلق السماوات كان قبل وجود إبليس وذرّيّته، فهو استدلال على انتفاء إلهيتهم بسبق العدم على وجودهم.

وكل ما جاز عليه العدم استحال عليه القدم، والقدم من لوازم الإلهيّة.

{ **أَشْهَدْتُهُمْ / أَنْفُسِهِمْ** } ضمائر الغيبة عائدة إلى المتحدَّث عنه، أي: إبليس وذرّيّته كما عاد إليهم الضمير في قوله تعالى { وَهُمْ لَكُمْ عَدُو }.

واعلم أنّ الله تعالى خلق السماوات والأرض قبل أن يخلق لهما سكّانهما كما دلّ عليه قوله تعالى { قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ في يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فوْقِهَا وَبَارَكَ فيهَا وَقَدَّرَ فيهَا أَقْوَاتَهَا في أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ } [فصلت:9-12].

وكان أهل الجاهلية يعتقدون في الأرض جنّا متصرّفين فكانوا إذا نزلوا واديا مَخُوفًا قالوا: أعوذ بعزيز هذا الوادي، ليكونوا في أمن من ضرّه.

{ **وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً** } الجملة تذييل لجملة { مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }. والعدول عن الإضمار بأن يقال: وما كنت متخذهم إلى { المضلّين } لإفادة الذم، ولأنّ التذييل ينبغي أن يكون كلاما مستقلّا.

{ **الْمُضِلِّينَ** } الشياطين، لأنّهم أضلّوا النّاس بإلقاء خواطر الضلالة والفساد في النفوس، كما قال تعالى { وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ } [الأنعام:121].

العَضُد: بفتح العين وضم الضاد المعجمة في الأفصح، و بالفتح وسكون الضاد في لغة تميم. وفيه لغات أخرى أضعف. وهو: العظم الذي بين المرفق والكتف. وهو يطلق مجازا على المعين على العمل، يقال: فلان عضدي واعتضدت به.

والمعنى: لا يليق بالكمال الإلهي أن أتّخذ أهل الإضلال أعوانا فأشركهم في تصرّفي في الإنشاء، فإنّ الله مفيض الهداية وواهب الدراية فكيف يكون أعوانه مصادر الضلالة.

{ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً } [52].

عطف على { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ } فيقدّر: واذكر يوم يقول نادوا شركائي، أو على جملة { مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [51]، فالتقدير: ولا أشهدت شركاءهم جميعا ولا تنفعهم شركاؤهم يوم الحشر، فهو انتقال من إبطال معبودية الشيطان والجنّ إلى إبطال إلهية جميع الآلهة التي عبدها دهماء المشركين، مع بيان ما يعتريهم من الخيبة واليأس يومئذ.

وقد سلك في إبطال إلهيتها طريق المذهب الكلامي وهو الاستدلال على انتفاء الماهية بانتفاء لوازمها، فإنّه إذا انتفى نفعها للذين يعبدونها استلزم ذلك انتفاء إلهيتها، وحصل بذلك تشخيص خيبتهم ويأسهم من النجاة.

{ **وَيَوْمَ يَقُولُ** } يوم الحشر. والمعنى: يقول للمشركين، كما دل عليه قوله تعالى { الَّذِينَ زَعَمْتُمْ }، أي: زعمتموهم شركائي. وقُدّم وصفهم بوصف الشركاء قبل فعل الزعم، تهكّما بالمخاطبين وتوبيخا لهم.

{ **نَادُوا** } النداء طلب الإقبال للنصرة والشفاعة.

{ **فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ** } الاستجابة الكلام الدال على سماع النداء والإقبال على المنادي بنحو قول: لبيكم. وأمره إيّاهم بمناداة شركائهم مستعمل في معناه مع إرادة لازمه وهو إظهار باطلهم بقرينة الزعم. ولذلك لم يسعهم إلّا أن ينادوهم، { **فَدَعَوْهُمْ** } لطمعهم، فإذا نادوهم تبيّن لهم خيبة طمعهم. ولذلك عطف فعل الدعاء بالفاء الدالة على التعقيب. وأتى به في صيغة الماضي للدلالة على تعجيل وقوعه، حتّى كأنّه قد انقضى.

الموبق: مكان الوُبوق، أي: الهلاك. يقال: وَبَقَ مثل وعد. والموبق هنا جهنم، أي: حين دعوا أصنامهم بأسمائهم كوّن الله فيما بين مكانهم ومكان أصنامهم فوهات جهنم، ويجوز أن تكون الجملة في مقام الحال.

{ وَرَأى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً } [53].

عطف على جملة { وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً }، أي: جعلنا الموبق ورآه المجرمون، فذِكر المجرمين إظهار في مقام الإضمار للدلالة على تلبّسهم بما استحقوا به عذاب النار. وكذلك عُبّر بـ { **النّارَ** } في مقام الإضمار للموبق للدلالة على أنّ الموبق هو النّار، فهو شبيه بعطف البيان.

{ **فظَنُّوا** } الظنّ مستعمل هنا في معنى التحقّق وهو من استعمالاته. ولعل اختياره هنا ضرب من التهكّم بهم، بأنّهم رجّحوا أن تلك النار أعدت لأجلهم في حين أنّهم موقنون بذلك.

المواقعة: مفاعلة من الوقوع، وهو الحصول لقصد المبالغة.

المصرف: مكان الصرف، أي: التخلّص والمجاوزة.

وفي الكلام إيجاز، تقديره: وحاولوا الانقلاب أو الانصراف فلم يجدوا عنها مصرفا، أي: مخلصا.

{ وَلَقَدْ صَرَّفنَا في هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً } [54].

عطف على الجمل السابقة التي ضُربت فيها أمثال من قوله تعالى { وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ } [32]، وقوله تعالى { وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } [45]. ولمّا كان في ذلك لهم مقنع وما لهم منه مدفع عاد إلى التنويه بهدي القرآن عودا ناظرا إلى قوله تعالى { وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ } [27]، وقوله تعالى { وَقُلِ الحقّ مِنْ رَبِّكُمْ فمَنْ شَاءَ فلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فلْيَكْفرْ } [29]، فأشار لهم أنّ هذه الأمثال التي قرعت أسماعهم هي من جملة هدي القرآن الذي تبرّموا منه.

وتقدّم الكلام على نظير هذه الآية عند قوله تعالى { وَلَقَدْ صَرَّفنَا للنّاس في هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فأَبَى أَكْثَرُ النّاس إِلَّا كُفوراً } [الإسراء:89]، سوى أنّه يتجه أن يُسال لمَ قُدّم في هذه الآية أحد متعلّقي فعل التصريف على الآخر، إذ قُدّم هنا قوله تعالى { في هَذَا الْقُرْآنِ } على قوله { لِلنَّاسِ } عكس آية الإسراء؟ والجواب ما أشرنا إليه عند الآية السابقة من أنّ ذكر القرآن أهم من ذكر النّاس بالأصالة، ولا مقتضى للعدول عنه هنا بل الأمر بالعكس لأنّ الكلام جار في التنويه بشأن القرآن وأنّه ينزل بالحق لا بهوى الأنفس.

{ **لِلنَّاسِ** } اسم عام لكلّ من يبلغه القرآن في سائر العصور المستقبلة، والمقصود على الخصوص المشركون، كما دل عليه جملة { وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً }. وسيجيء قوله تعالى { وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ } [56]. وهذا يشبه العام الوارد على سبب خاص وقرائن خاصة.

{ **وَكَانَ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً** } تذييل، وهو مؤذن بكلام محذوف على وجه الإيجاز، والتقدير: فجادلوا فيه وكان الإنسان أكثر جدلا.

{ **الْإِنْسَانُ** } ليس المراد الإنسان الكافر كما في قوله تعالى {وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً} [مريم: 66]، ولا المراد بالجدل الجدل بالباطل، لأنّ هذا سيجيء في قوله تعالى { وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ } فالكلام هنا تمهيد لقوله تعالى بعده { وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ } [56].

{ **أَكْثَرَ** } اسم التفضيل هنا مسلوب المفاضلة، وإنّما أتي بصيغته لقصد المبالغة في شدّة جدل الإنسان وجنوحه إلى المماراة والنزاع. وإنما أُلجئنا إلى هذا التأويل في اسم التفضيل لظهور أنّ غير الإنسان من أنواع ما على الأرض لا يُتصوّر منه الجدل. فالجدل خاص بالإنسان لأنّه من شعب النطق الذي هو فصل حقيقة الإنسانية، أما الملائكة فجدلهم محمود مثل قولهم { أَتَجْعَلُ فيهَا مَنْ يُفسِدُ فيهَا - إلى قوله - ونُقَدِّسُ لَكَ } [البقرة:30]. وأمّا الشياطين فهم أكثر جدلا من الإنسان، ولكن لمّا نبا المقام عن إرادتهم كانوا غير مرادين بالتفضيل عليهم في الجدل.

{ **شَيْءٍ** } اسم مفرد متوغّل في العموم. ولذلك صحّت إضافة اسم التفضيل إليه، أي: أكثر الأشياء.

{ **جَدَلاً** } تمييز لنسبة الأكثرية إلى الإنسان. أي كثيرا جدله.

الجدل: المنازعة بمعاوضة القول، أي: هو الكلام الذي يحاول به إبطال ما في كلام المخاطب من رأي أو عزم عليه، بالحجة أو بالإقناع أو بالباطل، قال تعالى { وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } [العنكبوت:46]، وقال تعالى { قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ في زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ } [المجادلة:1]، وقال تعالى { يُجَادِلُنَا في قَوْمِ لُوطٍ } [هود:74]، وقال تعالى { وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفسَهُمْ } [النساء:107]، وقال تعالى { يجادلونك في الحقّ بعد ما تبين} [الأنفال:6].

والمراد هنا مطلق الجدل وبخاصة ما كان منه بباطل، أي: أنّ كل إنسان في طبعه الحرص على إقناع المخالف بأحقية معتقده أو عمله. وسياق الكلام يقتضي إرادة الجدل الباطل.

{ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً } [55].

عطف على جملة { وَلَقَدْ صَرَّفنَا في هَذَا الْقُرْآنِ } [54]. ومعناها متّصل تمام الاتصال بمعنى الجملة التي قبلها بحيث لو عطفت عليها بفاء التفريع لكان ذلك مقتضى الظاهر. وتعتبر جملة { وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً } [54] معترضة بينهما.

{ **النَّاسَ** } يعم النّاس الذين يسمعون القرآن في أزمان ما بعد نزول تلك الآية، وهذا يعم النّاس كلهم الذين امتنعوا من الإيمان بالله.

{ **الْهُدَى** } لفظ عام يشمل هدى القرآن وما قبله من الكتب الإلهية وأقوال الأنبياء كلّها، فكانت هذه الجملة

قياسا تمثيليا بشواهد التاريخ وأحوال تلقّي الأمم دعوات رسلهم.

{ **وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ** } ذكر الاستغفار هنا بعد ذكر الإيمان لتلقينهم بأن يبادروا بالإقلاع عن الكفر وأن يتوبوا إلى الله من تكذيب النبيّ ومكابرته.

{ **تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ** } تحلّ فيهم وتعتريهم. أي: تُلقى في نفوسهم وتسوّل إليهم. والمعنى: أنهم يشبهون خُلُق من كانوا قبلهم من أهل الضلال ويقلّدونهم، كما قال تعالى { أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ} [الذريات:53].

{ **الْأَوَّلِينَ** } السابقون من الأمم في الضلال والعناد. ويجوز أن يراد بهم الآباء، أي: سنّة آبائهم، أي: طريقتهم ودينهم. ولكلّ أمّةٍ أمّةٌ سبقتها. وإسناد منعهم من الإيمان إلى إتيان سنة الأولين استعارة.

والمعنى: ما منع النّاس أن يؤمنوا إلّا الذي منع الأولين قبلهم من عادة العناد والطغيان، وطريقتهم في تكذيب الرّسل والاستخفاف بهم.

{ **أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً** } { أَوْ } هنا هي التي بمعنى (إلى)، وانتصاب فعل { يَأْتِيَهُمُ العَذَابُ } بـ (أن) مضمرة بعد (أو). أي: منعهم تقليد سنة الأولين من الإيمان إلى أنّ يأتيهم العذاب كما أتى الأوّلين.

هذا ما بدا لي في تفسير هذه الآية وأراه أليق بموقع هاته الآية من التي قبلها.

{ **قُبُلاً** } حال من العذاب. وهو في قراءة الجمهور { قِبَلاً } (بكسر القاف وفتح الباء) بمعنى المقابل الظاهر. وقرأ حمزة وعاصم والكسائي وأبو جعفر وخلف { قُبُلاً } (بضمّتين) وهو جمع قبيل، أي: يأتيهم العذاب أنواعا.

{ **وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُواً** } [56].

بعد أن أشار إلى جدالهم في هدى القرآن بما مهّد له من قوله تعالى { وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً } [54]، وأشار إلى أنّ الجدال فيه مجرّد مكابرة وعناد، وأنّه لا يحفّ بالقرآن ما يمنع من الإيمان به، كما لم يحف بالهدى الذي أرسل إلى الأمم ما يمنعهم الإيمان به، أعقب ذلك بأنّ وظيفة الرسل التبليغ بالبشارة والنذارة لا التصدي للمجادلة، لأنّها مجادلة لم يُقصد منها الاسترشاد بل الغاية منها إبطال الحقّ.

{ **وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ** } مفيدة معنى الاستدراك، أي: أرسلنا الرّسل مبشّرين ومنذرين بما فيه مقنع لطالب الهدى، ولكن الذين كفروا جادلوه بالباطل لإزالة الحقّ لا لقصد آخر.

واختيار فعل المضارعة للدلالة على تكرر المجادلة، أو لاستحضار صورة المجادلة.

المجادلة: تقدّمت في قوله تعالى { يُجَادِلُنَا في قَوْمِ لُوطٍ } [هود:74].

{ **لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ** } الإدحاض: الإزلاق، يقال: دحضت القدم، إذا زلّت، وهو مجاز في الإزالة، لأنّ الرجل إذا زلقت زالت عن موضع تخطيها، قال تعالى { فسَاهَمَ فكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ } [الصافات:141].

{ **وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُواً** } عطف على جملة { وَيُجَادِلُ } فإنّهم ما قصدوا من المجادلة الاهتداء، ولكن أرادوا إدحاض الحقّ واتخاذ الآيات كلها وبخاصة آيات الإنذار هزؤا.
الهُزُو: مصدر هَزَا، أي: اتخذوا ذلك مستهزأ به. والاستهزاء بالآيات هو الاستهزاء عند سماعها، كما يفعلون عند سماع آيات الإخبار بالبعث وعند سماع آيات الوعيد والإنذار بالعذاب.
وعطف { وَمَا أُنْذِرُوا } على { آيَاتِي } عطف خاص على عام لأنّه أبلغ في الدلالة على توغل كفرهم وحماقة عقولهم.

{ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً** } [57].
لمّا بُيّن حالهم من مجادلة الرّسل لسوء نيّة، ومن استهزائهم بالإنذار، وعُرّض بحماقتهم أُتبع ذلك بأنّه أشدّ الظلم. وذلك لأنّه ظلم المرء نفسه، وهو أعجب الظلم. فقد ذُكّروا ما هم في غفلة عنه تذكيرا بواسطة آيات الله فأعرضوا عن التأمّل فيها مع أنّها تنذرهم بسوء العاقبة. وشأن العاقل إذا سمع مثل ذلك أن يتأهّب للتأمّل وأخذ الحذر، كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لقريش **" إذا أخبرتكم أنّ العدوّ مصبّحكم غدا أكنتم مصدِّقي**؟ فقالوا: ما جرّبنا عليك كذبا، فقال: **فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد ".**
{ **وَمَنْ أَظْلَمُ** } المراد بها المشركين من العرب الذين ذُكّروا بالقرآن فأعرضوا عنه. والاستفهام مستعمل في الإنكار، أي: لا أحد أظلم من هؤلاء المتحدّث عنهم.
{ **فَأَعْرَضَ عَنْهَا** } عطف إعراضهم عن الذكر على التذكير بفاء التعقيب إشارة إلى أنّهم سارعوا بالإعراض ولم يتركوا لأنفسهم مهلة النظر والتأمّل.
{ **وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ** } أي: أنّه لم يعرض حاله وأعماله على النظر والفكر ليعلم أهي صالحة لا تُخشى عواقبها أم هي سيّئة من شأنها أن لا يسلم مقترفها من مؤاخذة، والصلاح بيّن والفساد بيّن، ولذلك سُمّي الأوّل معروفا والثاني منكرا، ولا سيما بعد أن جاءتهم الذكرى على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم.
النسيان: مستعمل في التغاضي عن العمل. وتقدّم عند قوله تعالى { مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا } [البقرة:106]
{ **مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ** } ما أسلفه من الأعمال. وأكثر ما يُستعمل مثل هذا التركيب في القرآن في العمل السيّء، فصار جاريا مجرى المثل، قال تعالى { ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ } [آل عمران:182] وقال تعالى { وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ } [الشورى:30].
والآية مصوغة بصيغة العموم، والمقصود الأوّل منها مشركو أهل مكّة.
{ **إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً** } مستأنفة بيانيّة وهي تفيد معنى التعليل بالمآل.

{ **قُلُوبِهِمْ** } مراد بها مدارك العلم.

الأكنّة: جمع كِنان، وهو الغطاء، لأنّه يُكنّ الشيء، أي: يحجبه.

{ **أَنْ يَفقَهُوهُ** } مجرور بحرف محذوف، أي: من أن يفقهوه، لتضمين { أَكِنَّةً } معنى الحائل أو المانع.

والضمير المفرد في { يَفقَهُوهُ } عائد إلى القرآن المفهوم من المقام والمعبّر عنه بالآيات.

الوقر: ثقل السمع المانع من وصول الصوت إلى الصماخ.

{ **وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً** } عطف على جملة { إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ }، وهي متفرّعة عليها، ولكنها لم تعطف بالفاء لأنّ المقصود جعل ذلك في الإخبار المستقلّ.

وأكّد نفي اهتدائهم بحرف توكيد النفي وهو (لن)، وبلفظ { أبدا } المؤكّد لمعنى (لن)، وبحرف الجزاء (إذا) المفيد تسبّب الجواب على الشرط. وإنّما حصل معنى الجزاء باعتبار تفرّع جملة الشرط على جملة الاستئناف البياني، أي: ذلك مسبَّب على فطر قلوبهم على عدم قبول الحقّ.

{ وَرَبُّكَ الْغَفورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً } [58].

جرى القرآن على عادته في تعقيب الترهيب بالترغيب والعكس، فلمّا رماهم بقوارع التهديد والوعيد عطف على ذلك التعريض بالتذكير بالمغفرة، لعلّهم يتفكّرون في مرضاته، ثم التذكير بأنّه يشمل الخلق برحمته في حين الوعيد، فيؤخّر ما توعّدهم به إلى حد معلوم إمهالا للنّاس لعلّهم يرجعون عن ضلالهم ويتدبّرون فيما هم فيه من نعم الله تعالى فلعلّهم يشكرون، موجّها الخطاب إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم.

وخصّ بالذكر من أسماء الله تعالى اسم { الْغَفورُ } تعريضا بالترغيب في الاستغفار.

الغفور: اسم يتضمّن مبالغة الغفران لأنّه واسع المغفرة إذ يغفر لمن لا يحصون ويغفر ذنوبا لا تحصى إن جاءه عبده تائبا منكسرا، على أنّ إمهاله الكفّار والعصاة هو أيضا من أثر المغفرة إذ هو مغفرة مؤقّتة.

{ **ذُو الرَّحْمَةِ** } بيان لجملة { وَرَبُّكَ الْغَفورُ } باعتبار الغفور الخبر وهو الوصف الثاني.

والمعنى: أنّهم فيما كسبوه من الشرك والعناد أحرياء بتعجيل العقوبة ولكنّ الله يمهلهم إلى أمد معلوم مقدّر. وفي ذلك التأجيل رحمة بالنّاس بتمكين بعضهم من مهلة التدارك وإعادة النظر.

فوصف { ذُو الرَّحْمَةِ } يساوي وصف (الرحيم) لأنّ (ذو) تقتضي رسوخ النسبة بين موصوفها وما تضاف إليه. وإنّما عُدل عن وصف (الرحيم) إلى { ذُو الرَّحْمَةِ } للتنبيه على أنّه خبر لا نعت، تنبيها بطريقة تغيير الأسلوب، فإنّ اسم (الرحيم) صار شبيها بالأسماء الجامدة، لأنّه صيغ بصيغة الصفة المشبّهة فبعُد عن ملاحظة الاشتقاق فيه واقترب من صنف الصفة الذاتية.

{ **بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً** } (بل) للإضراب الإبطالي عن مضمون جواب (لو)، أي: لم يعجّل لهم العذاب إذ لهم موعد للعذاب متأخّر. وهذا تهديدٌ بما يحصل لهم يوم بدر.

الموئل: مَفْعل من (**وَأَلَ**) بمعنى لجأ، فهو اسم مكان بمعنى الملجأ.
وأكِّد النفي بـ (لن) ردا على إنكارهم، إذ هم يحسبون أنّهم مفلتون من العذاب حين يرون أنّه تأخّر مدة طويلة، أي: لأنّ لا ملجأ لهم من العذاب دون وقت وعده أو مكان وعده، فهو ملجؤهم. وهذا من تأكيد الشيء بما يشبه ضدّه، أي: هم غير مفلتين منه.

{ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً } [59].

بعد أن أزيل غرورهم بتأخّر العذاب، وأبطل ظنّهم الإفلات منه ببيان أنّ ذلك إمهال من أثر رحمة الله بخلقه. ضُرب لهم المثل في ذلك بحال أهل القرى السالفين الذين أُخِّر عنهم العذاب مدّة ثمّ لم ينجوا منه بأَخَرة، فالجملة معطوفة على جملة { بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ } [58].
{ **وَتِلْكَ الْقُرَى** } الإشارة بـ (تلك) إلى مقدّر في الذهن. والعرب يعرفون ديار عاد وثمود ومدين ويسمعون بقوم لوط وقوم فرعون فكانت كالحاضرة حين الإشارة.
الظلم: الشرك وتكذيب الرّسل.
{ **وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً** } والمُهْلَك (بضم الميم وفتح اللام) مصدر ميمي من (أهلك)، أي: جعلنا لإهلاكنا إيّاهم وقتا معيّنا في علمنا إذا جاء حلّ بهم الهلاك. وهذه قراءة الجمهور. وقرأه حفص عن عاصم بفتح الميم وكسر اللام على أنّه اسم زمان على وزن (**مَفْعِل**). وقرأه أبو بكر عن عاصم بفتح الميم وفتح اللام على أنه مصدر ميمي لهلك.

{ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفتَاهُ لَا أَبْرَحُ حتّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً } [60].

لما جرى ذكر قصّة خلق آدم وأمر الله الملائكة بالسجود له، وما عرض للشيطان من الكبر والاعتزاز بعنصره، جهلا بأسباب الفضائل ومكابرة في الاعتراف بها وحسدا في الشرف والفضل، فضرب بذلك مثلا لأهل الضلال عبيد الهوى والكبر والحسد، أعقب تلك القصّة بقصة هي مَثَل في ضدّها، لأنّ تطلُّب ذي الفضل والكمال للازدياد منهما وسعيه للظفر بمن يبلّغه الزيادة من الكمال، اعترافا للفاضل بفضيلته. وفي ذلك إبداء المقابلة بين الخُلُقين ولإقامة الحجّة على المماثلة والمخالفة بين الفريقين المؤمنين والكافرين، وفي خلال ذلك تعليم وتنويه بشأن العلم والهدى، وتربية للمتّقين.
ولأن هذه السورة نزلت بسبب ما سأل المشركون والذين أملوا عليهم من أهل الكتاب عن قصتين قصّة أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين. وقد تقضّى الجواب عن القصّة الأولى وما ذيّلت به، وآن أن ينتقل إلى الجواب عن القصّة الثانية، قُدّمت لهذه القصّة قصّة لها شبه بها في أنّها تطواف في الأرض لطلب نفع صالح. وهي قصّة سفر موسى عليه السلام لطلب لقاء من هو على علم لا يعلمه موسى.

وفي سوق هذه القصّة تعريض بأهل الكتاب بأنّ الأولى لهم أن يدُلُّوا النّاس على أخبار أنبياء بني إسرائيل وعلى سفر لأجل تحصيل العلم والحكمة لا سفر لأجل بسط الملك والسلطان.

{ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ } معطوفة على { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ } [50]، عطف القصّة على القصّة. التقدير: واذكر إذ قال موسى لفتاه. وناسبها تقدير فعل (اذكر) لأنّ في هذه القصّة موعظة وذكرى كما في قصّة آدم.

الفتى: الذكر الشاب، والأنثى فتاة، وهو مستعمل مجازا في التابع والخادم. وتقدّم عند قوله تعالى { تُرَاوِدُ فَتَاهَا } [يوسف:30]. وفتى موسى: خادمه وتابعه، وهو (**يوشع بن نون**) من سبط أفرايم.

وقد قيل: إنّه ابن أخت موسى، كان اسمه الأصلي (هوشع) فدعاه موسى حين بعثه للتجسّس في أرض كنعان يوشع. ولعل ذلك التغير في الاسم تلطّف به، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة: **" يا أبا هرّ "**. وفي التوراة أنّ إبراهيم كان اسمه أبرام فلما أمره الله بخصال الفطرة دعاه إبراهام. ولعلّ هذه التغييرات في العبرانية تفيد معاني غير معاني الأسماء الأولى، فتكون كما دعا النبيّ صلى الله عليه وسلم زيد الخيل زيدَ الخير.

(يوشع بن نون) أحد الرجال الاثني عشر الذين بعثهم موسى عليه السلام ليتجسّسوا في أرض كنعان في جهات حلب وحبرون ويختبروا بأس أهلها وخيرات أرضها ومكثوا أربعين يوما في التجسّس. وهو أحد الرجلين اللذين شجعا بني إسرائيل على دخول أرض كنعان اللذين ذكرهما القرآن في آية { قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فإِنَّكُمْ غَالِبُونَ } [المائدة:23].

كان ميلاد يوشع في حدود سنة (1463 ق م) ووفاته في حدود سنة (1353 ق م) وعمّر مائة وعشر سنين. وكان موسى عليه السلام قد قرّبه إلى نفسه واتخذه تلميذا وخادما.

وكان يوشع أحد الرجلين الذين عهد إليهما موسى عليه السلام بأن يقسّما الأرض بين أسباط بني إسرائيل بعد وفاته. وأمر الله موسى بأن يعهد إليه بتدبير أمر الأمّة الإسرائيلية، فعهد إليه موسى بذلك فصار نبيّا من يومئذ. ودبّر أمر الأمّة بعد موسى سبعا وعشرين سنة. وكتاب يوشع هو أوّل كتب الأنبياء.

{ لَا أَبْرَحُ حتّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً } ابتدئت القصّة بحكاية كلام موسى عليه السلام المقتضي تصميما على أن لا يزول عما هو فيه، أي لا يشتغل بشيء آخر حتّى يبلغ مجمع البحرين، ابتداء عجيبا في باب الإيجاز. ويدلّ على أن فتاه استعظم هذه الرحلة.

{ **أَبْرَحُ** } مضارع برِح بكسر الراء، بمعنى زال يزول. وتقدّم في [يوسف:80]. واستعير هنا لمعنى: لا أترك، أولا أكف عن السير حتّى أبلغ مجمع البحرين.

وحُذف ذكر الغرض الذي سار لأجله موسى عليه السلام لأنه سيذكر بعد، وهو حذف إيجاز وتشويق له موقع عظيم في حكاية القصة لإخراجها عن مطروق القصص إلى أسلوب بديع الحكم والأمثال قضاء لحق بلاغة الإعجاز.

وتفصيل هذه القصّة وارد في صحيح البخاري من حديث: عمرو بن دينار ويعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أُبيّ بن كعب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: " أنّ موسى عليه السلام قام خطيبا في بني إسرائيل فسئل: أي النّاس أعلم؟ فقال: أنا. فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه. فأوحى الله إليه: بلى عبدُنا خضر هو أعلم منك. قال: فأين هو؟ قال: بمجمع البحرين. قال موسى عليه السلام: يا رب اجعل لي عَلَمًا أعلم ذلك به. قال: تأخذ معك حوتا في مِكْتل فحيث ما فقدت الحوت فهو ثَمَّ، فأخذ حوتا فجعله في مكتل وقال لفتاه يوشع بن نون: لا أكلفك إلّا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت، قال (فتاه): ما كلّفتَ كثيرا. ثم انطلق وانطلق بفتاه حتّى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سربا وموسى نائم، فقال فتاه (وكان لم ينم): لا أوقظه وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار الماء عليه مثل الطاق. فلما استيقظ موسى نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقيّة يومهما وليلتهما حتّى إذا كان من الغد قال موسى عليه السلام لفتاه: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا. قال: ولم يجد موسى النصب حتّى جاوز المكان الذي أمره الله به (أي: لأنّ الله ميسّر أسباب الامتثال لأوليائه) فقال له فتاه: أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنّي نسيت الحوت وما أنسانيه إلّا الشيطان أن أذكره وأتخذ سبيله في البحر عجبا. قال: فكان للحوت سربا ولموسى ولفتاه عجبا. فقال موسى: ذلك ما كنا نبغي، فارتدّا على آثارهما قصصا، قال: رجعا يَقُصَّان آثارهما حتّى انتهى إلى الصخرة، فإذا رجل مسجّى ثوبا فسلم عليه موسى. فقال الخضر: وأنّى بأرضك السلام...".

{ **مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ** } لا ينبغي أن يُختلف في أنّه مكان من أرض فلسطين. والأظهر أنّه مصب نهر الأردن في بحيرة طبرية فإنّه النهر العظيم الذي يمرّ بجانب الأرض التي نزل بها موسى عليه السلام وقومه. وكانت تُسمّى عند الإسرائيليين بحر الجليل.

ومعنى كون هذا العبد أعلم من موسى عليه السلام أنّه يعلم علوما من معاملة النّاس لم يعلّمها الله لموسى. فالتفاوت في العلم في هذا المقام تفاوت بفنون العلوم. وهو تفاوت نسبي.

الخضر: اسم رجل صالح. قيل: هو نبي من أحفاد عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام. فهو الخضر بن ملكان بن فالغ بن عابر. فيكون ابن عم الجد الثاني لإبراهيم عليه السلام.

وقيل: الخضر لقبه. وأمّا اسمه فهو (بليا) بموحدة أو (إيليا) بهمزة وتحتية.

وزعم بعض العلماء: أن الخضر هو جرجس. وقيل: هو من ذرية عيسو بن إسحاق. وقيل: هو نبي بعث بعد شعيب. وقيل: إن الخضر هو إلياس المذكور في سورة يس.

واتفق النّاس على أنّه كان من المعمّرين، ثم اختلفوا في أنّه لم يزل حيّا، اختلافا لم يُبْنَ على أدلّة مقبولة متعارفة ولكنّه مستند إلى أقوال بعض الصوفية. وهي لا ينبغي اعتمادها لكثرة ما يقع في كلامهم من الرموز والخلط بين الحياتين الروحية والمادية، والمشاهدات الحسّيّة والكشفيّة، وقد جعلوه رمز العلوم الباطنية كما سيأتي.

قيل: لقّب خضرا لأنّه كان إذا جلس على الأرض أخضر ما حوله، أي: أخضرَّ بالنبات من أثر بركته. والمحقّق أن قصّة الخضر وموسى يهوديّة الأصل ولكنّها غير مسطورة في كتب اليهود المعبّر عنها بالتوراة أو العهد القديم. ولعلّ عدم ذكرها في تلك الكتب هو الذي أقدم (نَوْفًا البكالي) على أن قال: إنّ موسى المذكور في هذه الآيات هو غير موسى بني إسرائيل، كما ذكر ذلك في صحيح البخاري، وأنّ ابن عباس كذّب نوفا، وساق الحديث المتقدّم.

ولا يصح أن يكون الخضر من بني إسرائيل إذ لا يجوز أن يكون مكلفا بشريعة موسى ويُقرُّه موسى على أفعال لا تبيحها شريعته. بل يتعيّن أن يكون نبيّا موحى إليه بوحي خاص، وعَلِمَ موسى أنّه من أمّة غير مبعوث موسى إليها. لذلك لم يصرفه عنه ما رأى من أعماله التي تخالف شريعة التوراة.

وأمّا وجوده في أرض بني إسرائيل فهو من السياحة في العبادة، أو أمره الله بأن يحضر في المكان الذي قدّره للقاء موسى رفقا بموسى عليه السلام.

{ **أَوَ أَمْضِيَ** } أو أسير. والمضيّ: الذهاب والسير.

الحُقُب: (بضمتين) اسم للزمان الطويل غير منحصر المقدار، وجمعه أحقاب.

أي: إمّا أن أبلغ المكان أو أمضي زمنا طويلا. ولما كان موسى لا يخامره الشك في وجود مكان هو مجمع للبحرين وإلقاء طلبته عنده، لأنّه علم ذلك بوحي من الله تعالى، تعين أن يكون المقصود بحرف الترديد تأكيد مضيّه زمنا يتحقّق فيه الوصول إلى مجمع البحرين.

وكأنه أراد بهذا تأييس فتاه من محاولة رجوعهما. كما دلّ عليه قوله بعد { لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفرِنَا هَذَا نَصَباً } [62]، أو أراد شحذ عزيمة فتاه ليساويه في صحّة العزم، حتّى يكونا على عزم متّحد.

{ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فاتَّخَذَ سَبِيلَهُ في الْبَحْرِ سَرَباً [61] فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفرِنَا هَذَا نَصَباً [62] قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ في الْبَحْرِ عَجَباً [63] }.

{ **فَلَمَّا بَلَغَا** } الفاء للتفريع والفصيحة لأنّها تفصح عن كلام مقدّر، أي: فسارا حتّى بلغا مجمع البحرين.

{ **بَيْنِهِمَا** } عائد إلى البحرين، أي: محلا يجمع بين البحرين.

{ **نَسِيَا حُوتَهُمَا** } الحوت هو الذي أمر الله موسى باستصحابه معه ليكون له علامة على المكان الذي فيه الخضر، كما تقدّم في سياق الحديث.

النسيان: تقدّم في قوله تعالى { أَوْ نُنْسِهَا } [البقرة:106].

السَّرَبُ: النفق. و**الاتخاذ**: الجعل. وقد انتصب { سَرَباً } على الحال من { سَبِيلَهُ } مرادا بالحال التشبيه. وقد مر تفسير كيف اتخذ البحر سربا في الحديث السابق عن أبي بن كعب.

الغداء: طعام النهار مشتقّ من كلمة الغدوة، لأنّه يؤكل في وقت الغدوة، وضدّه العشاء، وهو طعام العشيّ. **النصب**: التعب.

الصخرة: صخرة معهودة لهما. إذ كانا قد أويا إليها في سيرهما فجلسا عليها، وكانت في مجمع البحرين. قيل: إن موضعها دون نهر يقال له: نهر الزيت، لكثرة ما عنده من شجر الزيتون.

{ **فإنّي نَسِيتُ الْحُوتَ** } أي: نسيت حفظه وافتقاده. أي: فانقلب في البحر.

{ **وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ** } هذا نسيان آخر غير النسيان الأوّل. فهذا نسيان ذكر الإخبار عنه. وقرأ حفص عن عاصم { وَمَا أَنْسَانِيهُ } بضم هاء الضمير على أصل الضمير وهي لغة. والكسر أشهر لأنّ حركة الكسرة بعد الياء أخف.

{ **أَنْ أَذْكُرَهُ** } بدل اشتمال من ضمير { أَنْسَانِيهُ } لا من الحوت، والمعنى: ما أنساني أن أذكره لك إلّا الشيطان. فالذكر هنا ذكر اللسان.

ووجه حصره إسناد هذا الإنساء إلى الشيطان أنّ ما حصل له من نسيان أن يخبر موسى بتلك الحادثة نسيان ليس من شأنه أن يقع في زمن قريب مع شدّة الاهتمام بالأمر المنسي وشدّة عنايته بإخبار نبيّه به. ومع كون المنسي أعجوبة شأنها أن لا تُنسى، يتعيّن أنّ الشيطان يسوءه التقاء هذين العبدين الصالحين، وما له من الأثر في بث العلوم الصالحة، فهو يصرف عنها ولو بتأخير وقوعها طمعا في حدوث العوائق.

{ **وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً** } عطف على جملة { فإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ} وهي بقية كلام فتى موسى، أي: وأنّه اتخذ سبيله في البحر، أي: سبح في البحر بعد أن كان ميّتا زمنا طويلا.

{ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً [64] فوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً [65] قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ ممّا عُلِّمْتَ رُشْداً [66] قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً [67] وَكَيْف تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً [68] قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً [69] قَالَ فإِنِ اتَّبَعْتَنِي فلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً [70] }.

{ **قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ** } جواب عن كلامه، ولذلك فصلت كما بيّنّاه غير مرّة. والإشارة إلى ما تضمّنه خبر الفتى من فقد الحوت. ومعنى كونه المبتغى أنّه وسيلة المبتغى. وإنّما المبتغى هو لقاء العبد الصالح في المكان الذي يُفقد فيه الحوت.

{ **نَبْغِ** } كتب في المصحف بدون ياء في آخره، فقيل: أراد الكاتبون مراعاة حالة الوقف، لأنّ الأحسن في الوقف على ياء المنقوص أن يوقف بحذفها. وقيل: أرادوا التنبيه على أنهّا رويت محذوفة في هذه الآية.

والعرب يميلون إلى التخفيف. فقرأ نافع، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو جعفر بحذف الياء في الوقف وإثباتها في الوصل. وقرأ عاصم، وحمزة، وابن عامر بحذف الياء في الوصل والوقف. وقرأ ابن كثير، ويعقوب بإثباتها في الحالين.

والنون نون المتكلّم المشارك، أي: ما أبغيه أنا وأنت، وكلاهما يبغي ملاقاة العبد الصالح.

الارتداد: أي: رجعا على آثار سيرهما، أي: رجعا على طريقهما الذي أتيا منه.

القصص: مصدر قصّ الأثر، تتبّعه.

{ **فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا** } المراد به الخِضْر، ووُصف بأنّه من عباد الله تشريفا له، كما تقدّم عند قوله تعالى { سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ } [الاسراء:1]. وعُدل عن الإضافة إلى التنكير والصفة لأنّه لم يسبق ما يقتضي تعريفه، وللإشارة إلى أنّ هذا الحال الغريب الذي ذكر من قصّته ما هو إلّا من أحوال عباد كثيرين لله تعالى.

{ **آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا** } إيتاء الرحمة <u>يجوز</u> أن يكون معناه: أنّه جُعل مرحوما، وذلك بأن رفق الله به في أحواله. <u>ويجوز</u> أن يكون جعلناه سبب رحمة بأن صرَّفه تصرّفا يجلب الرحمة العامة.

{ **وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً** } هو الإعلام بطريق الوحي.

(**لدن**) حقيقته اسم مكان قريب، مثل {عند}. ويستعملان مجازا في اختصاص المضاف إليه بموصوفهما. والمخالفة بين { مِنْ عِنْدِنَا } وبين { مِنْ لَدُنَّا } للتفنّن تفاديا من إعادة الكلمة.

أي: آتيناه رحمة صدرت من مكان القرب، وهو قرب تشريف بالانتساب إلى الله، وعلما صدر منه أيضا. وذلك أنّ ما أوتيه من الولاية أو النبوّة رحمة عزيزة، أو ما أوتيه من العلم عزيز، فكأنّهما ممّا يُدّخر عند الله فلا يُعطى إلّا للمصطفين.

{ **قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ ممّا عُلِّمْتَ رُشْداً** } ابتداء محاورة، فهو استئناف ابتدائي، ولذلك وقع التعبير بـ { قَالَ } مجرّدة عن العاطف.

{ **هَلْ أَتَّبِعُكَ** } الاستفهام مستعمل في العرض بقرينة أنّه استفهام عن عمل نفس المستفهم.

الاتّباع: مجاز في المصاحبة، كقوله تعالى { إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ } [لنجم:28].

{ **عَلَى** } مستعملة في معنى الاشتراط، لأنّه استعلاء مجازي. فصيغة: أفعل كذا على كذا. من صيغ الالتزام والتعاقد.

<u>ويؤخذ من الآية جواز التعاقد على تعليم القرآن والعلم</u>. كما في حديث تزويج المرأة التي عرضت نفسها على النبيّ صلى الله عليه وسلم فلم يقبلها، فزوّجها من رغب فيها على أن يعلّمها ما معه من القرآن. وفيه أنّه التزام يجب الوفاء به. وقد تفرّع عن حكم لزوم الالتزام أنّ العرف فيه يقوم مقام الاشتراط، فيجب على المنتصب للتعليم أن يعامل المتعلمين بما جرى عليه عرف أقاليمهم.

ذكر عياض في باب صفة مجلس مالك للعلم من كتاب المدارك: أنّ رجلا خراسانيا جاء من خراسان إلى المدينة للسماع من مالك فوجد النّاس يعرضون عليه وهو يسمع ولا يسمعون قراءة منه عليهم، فسأله أن يقرأ عليهم فأبى مالك، فاستدعى الخراساني قاضي المدينة. وقال: جئت من خراسان ونحن لا نرى العرض وأبى مالك أن يقرأ علينا. فحكم القاضي على مالك: أن يقرأ له، فقيل لمالك: أأصاب القاضي الحق؟ قال: نعم.

وفيه أيضا إشارة إلى أنّ حقّ المعلّم على المتعلّم اتباعه والاقتداء به.

{ **رُشْداً** } انتصب على المفعولية لـ { **تُعَلِّمَنِ** } أي ما به الرشد، أي الخير.

وهذا العلم الذي سأل موسى تعلّمه هو من العلم النافع الذي لا يتعلّق بالتشريع للأمّة الإسرائيلية، فإنّ موسى مستغن في علم التشريع عن الازدياد إلّا من وحي الله إليه مباشرة، لأنّه لذلك أرسله، وما عدا ذلك لا تقتضي الرسالة علمه.

وإنّما رام موسى أن يعلم شيئا من العلم الذي خصّ الله به الخضر، لأنّ الازدياد من العلوم النافعة هو من الخير. وقد قال الله تعالى تعليما لنبيّه { وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً } [طه:114].

وهذا العلم الذي أوتيه الخضر هو علم سياسة خاصة غير عامة، تتعلّق بمعيَّنين لجلب مصلحة أو دفع مفسدة بحسب ما تهيّئه الحوادث والأكوان لا بحسب ما يناسب المصلحة العامة. فلعلّ الله يسّره لنفع معيّنين من عنده كما جعل محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة عامة لكافة النّاس، ومن هنا فارق سياسة التشريع العامة.

ونظيره معرفة النبيّ صلى الله عليه وسلم أحوال بعض المشركين والمنافقين، وتحقّقه أنّ أولئك المشركين لا يؤمنون وهو مع ذلك يدعوهم دوما إلى الإيمان، وتحقّقه أن أولئك المنافقين غير مؤمنين وهو يعاملهم معاملة المؤمنين، وكان حذيفة بن اليمان يعرفهم بأعيانهم بإخبار النبيّ صلى الله عليه وسلم إيّاه بهم.

{ **إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً** } أكّد الجملة بحرف (إنّ) وبحرف (لن) تحقيقا لمضمونها من توقّع ضيق ذرع موسى عن قبول ما يبديه إليه، لأنّه عَلِم أنّه تصدر منه أفعال ظاهرها المنكر وباطنها المعروف.

ولمّا كان موسى عليه السلام من الأنبياء الذين أقامهم الله لإجراء الأحكام على الظاهر، علم أنّه سينكر ما يشاهده من تصرّفاته، لاختلاف المشربين، لأنّ الأنبياء لا يقرّون المنكر.

وهذا تحذير منه لموسى وتنبيه على ما يستقبله منه، حتّى يقدم على متابعته، إن شاء، على بصيرة وعلى غير اغترار، وليس المقصود منه الإخبار.

فمناط التأكيدات في الجملة إنّما هو تحقيق خطورة أعماله وغرابتها في المتعارف بحيث لا تُتحمّل.

وفي هذا أصل من أصول التعليم، أن ينبّه المعلِّمُ المتعلِّمَ بعوارض موضوعات العلوم الملقّنة، لا سيما إذا كانت في معالجتها مشقّة.

{ **صَبْراً** } النكرة في سياق النفي زيادة تأكيد. فأفاد هذا التركيب نفي حصول الصبر منه في المستقبل

على آكد وجه.

{ **وَكَيْف تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً** } في موضع الحال من اسم (إن) أو من ضمير { تَسْتَطِيعَ }. فالواو واو الحال وليست واو العطف، لأنّ شأن هذه الجملة أن لا تعطف على التي قبلها لأنّ بينهما كمال الاتصال إذ الثانية كالعلّة للأولى.

{ **وَكَيْف** } للاستفهام الإنكاري في معنى النفي، أي: وأنت لا تصبر على ما لم تحط به خبرا.

{ **خُبْراً** } العلم. وهو منصوب على أنّه تمييز لنسبة الإحاطة في قوله تعالى { مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ }.

الإحاطة: مجاز في التمكّن، تشبيها لقوّة تمكّن الاتصاف بتمكّن الجسم المحيط بما أحاط به.

{ **قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً** } أبلغ في ثبوت الصبر من نحو: سأصبر، لأنّه يدلّ على حصول صبر ظاهر لرفيقه ومتبوعه. وظاهر أنّ متعلّق الصبر هنا هو الصبر على ما من شأنه أن يثير الجزع أو الضجر من تعب في المتابعة، ومن مشاهدة ما لا يتحمّله إدراكه، ومن ترقّب بيان الأسباب والعلل والمقاصد.

{ **إِنْ شَاءَ اللَّهُ** } في تأكيده ذلك بالتعليق على مشيئة الله استعانة به وحرصا على تقدّم التيسير، تأدّبا مع الله إيذانٌ بأنّ الصبر والطاعة من المتعلّم الذي له شيء من العلم أعسر من صبر وطاعة المتعلّم الساذج، لأنّ خلو ذهنه من العلم لا يحرجه من مشاهدة الغرائب. إذ ليس في ذهنه من المعارف ما يعارض قبولها. فالمتعلّمُ الذي له نصيب من العلم وجاء طالبا الكمال في علومه إذا بدا له من علوم أستاذه ما يخالف ما تقرّر في علمه يبادر إلى الاعتراض والمنازعة. وذلك قد يثير النفرة بينه وبين أستاذه.

{ **وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً** } ولمّا كان هذا الصبر الكامل يقتضي طاعة الآمر فيما يأمره به عطف عليه ما يفيد الطاعة إبلاغا في الاتّسام بأكمل أحوال طالب العلم. فالجملة معطوفة على جملة { سَتَجِدُنِي }، أو هو من عطف الفعل على الاسم المشتق عطفا على { صَابِراً } فيؤوّل بمصدر، أي: وغير عاص.

وفي هذا دليل على أنّ أهم ما يتّسم به طالب العلم هو الصبر والطاعة للمعلّم.

والتزام موسى ذلك مبني على ثقته بعصمة متبوعه، لأنّ الله أخبره بأنّه آتاه علما.

{ **قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً** } تفريع على وعد موسى إيّاه بأنّه يجده صابرا، ففرّع على ذلك نهيه عن السؤال عن شيء ممّا يشاهده من تصرفاته حتّى يبيّنه له من تلقاء نفسه. وأكّد النهي بحرف التوكيد تحقيقا لحصول أكمل أحوال المتعلّم مع المعلّم، لأنّ السؤال قد يصادف وقت اشتغال المسؤول بإكمال عمله فتضيق له نفسه، فربّما كان الجواب عنه بدون شره نفس. وربّما خالطه بعض القلق فيكون الجواب غير شاف. فأراد الخضر أن يتولّى هو بيان أعماله في الإبّان الذي يراه مناسبا، ليكون البيان أبسط والإقبال أبهج فيزيد الاتصال بين القرينين.

الذكر: هنا ذكر اللسان. أعني بيان العلل والتوجيهات وكشف الغوامض .

{ **حَتّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً** } إحداث الذكر إنشاؤه وإبرازه.

{ **تَسْأَلْنِي** } قرأ نافع بالهمز وبفتح اللام وتشديد النون { تَسْأَلَنِّي } على أنّه مضارع سأل المهموز مقترنا بنون التوكيد الخفيفة المدغمة في نون الوقاية وبإثبات ياء المتكلّم. وقرأ ابن عامر مثله. لكن بحذف ياء المتكلّم. وقرأ البقية { تَسْأَلْنِي } بالهمز وسكون اللام وتخفيف النون. وأثبتوا ياء المتكلم.

{ فانْطَلَقَا حتّى إِذَا رَكِبَا في السَّفينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً } [71].

الانطلاق: الذهاب والمشي، مشتقّ من الإطلاق وهو ضدّ التقييد. لأنّ الدابة إذا حُلّ عقالها مشت.

{ **حتّى إِذَا رَكِبَا في السَّفينَةِ خَرَقَهَا** } غاية للانطلاق. أي: إلى أن ركبا في السفينة. و(حتّى) ابتدائية. وفي الكلام إيجاز، وأصل الكلام: حتّى استأجرا سفينة فركباها فلمّا ركبا في السفينة خرقها.

{ **إِذَا** } ظرف للزمان الماضي هنا. وليست متضمّنة معنى الشرط. وهذا التوقيت يؤذن بأخذه في خرق السفينة حين ركوبهما. وفي ذلك ما يشير إلى أنّ الركوب فيها كان لأجل خرقها.

{ **السَّفينَةِ** } تعريف العهد الذهني، مثل التعريف في قوله تعالى { وَأَخَاف أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ } [يوسف:13].

الخرق: الثقب والشق. وهو ضد الالتئام.

{ **قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً** } الاستفهام للإنكار. ومحلّ الإنكار هو العلة { لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا } لأنّ العلّة ملازمة للفعل المستفهم عنه. ولذلك توجّه أن يُغيّر موسى عليه السلام هذا المنكر في ظاهر الأمر.

الإمر (بكسر الهمزة): هو العظيم المفظع. يقال: أَمِرَ (كفرح) إِمْرًا، إذا كثر في نوعه. ولذلك فسّره الراغب بالمنكر. لأنّ المقام دال على شيء ضارّ. ومقام الأنبياء في تغيير المنكر مقام شدّة وصراحة. ولم يجعله نكرا كما في الآية بعدها لأنّ العمل الذي عمله الخضر ذريعة للغرق ولم يقع الغرق بالفعل.

{ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً } [72].

استفهام تقرير وتعريض باللوم على عدم الوفاء بما التزم، أي: أتقرّ أني قلت إنّك لا تستطيع معي صبرا. فاستطاعة الصبر المنفيّة هي التي تكون في صحبته، لأنّه يرى أمورا عجيبة لا يدرك تأويلها.

{ قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً } [73].

اعتذر موسى بالنسيان وكان قد نسي التزامه بما غشي ذهنه من مشاهدة ما ينكره.

{ **لا تُؤَاخِذْنِي** } النهي مستعمل في التعطّف والتِماس عدم المؤاخذة، لأنّه قد يؤاخذه على النسيان مؤاخذة من لا يصلح للمصاحبة لما ينشأ عن النسيان من خطر. ولذلك بُني كلام موسى على طلب عدم المؤاخذة

بالنسيان ولم يُبن على الاعتذار بالنسيان، كأنه رأى نفسه محقوقا بالمؤاخذة، فكان كلاما بديع النسيج في الاعتذار. **المؤاخذة**: مفاعلة من الأخذ، وهي هنا للمبالغة لأنّها من جانب واحد كقوله تعالى { وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النّاس بِظُلْمِهِمْ } [النحل:61].

الإرهاق: تعدية رهق، إذا غشي ولحق، أي: لا تُغشني عسرا. وهو هنا مجاز في المعاملة بالشدّة.

العسر: الشدّة وضدّ اليسر. والمراد، هنا: عسر المعاملة، أي: عدم التسامح معه فيما فعله، فهو يسأله الإغضاء والصفح.

{ **مِنْ** } يجوز أن تكون ابتدائيّة، فيكون المراد بأمره نسيانه، أي: لا تجعل نسياني منشئا لإرهاقي عسرا. ويجوز أن تكون بيانيّة، فيكون المراد بأمره شأنه معه.

{ فانْطَلَقَا حَتّى إِذَا لَقِيَا غُلَاماً فقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً } [74].

{ **فانْطَلَقَا** } يدل هذا التفريع على أنّ الخضر قبل عذره وانطلقا مصطحبين.

{ **حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلاما** } كقوله تعالى { حَتَّى إِذَا رَكِبَا في السَّفِينَةِ } [71].

{ **فقَتَلَهُ** } تعقيب لفعل { لَقِيَا } تأكيدا للمبادرة المفهومة من تقديم الظرف، فكانت المبادرة بقتل الغلام عند لقائه أسرع من المبادرة بخرق السفينة حين ركوبها.

وكلام موسى في إنكار ذلك جرى على نسق كلامه في إنكار خرق السفينة سوى أنّه وصف هذا الفعل بأنّه **نُكُر** (بضمّتين): الذي تنكره العقول وتستقبحه. فهو أشدّ من { شَيْئاً إِمْراً }، لأنّ هذا فساد حاصل والآخر ذريعة فساد، كما تقدّم.

{ **نَفساً زَكِيَّةً** } لأنّها نفس غلام لم يبلغ الحلم، فلم يقترف ذنبا فكان زكيّا طاهرا. و**الزكاء**: الزيادة في الخير.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ورويس عن يعقوب { زَاكِيَةً } بألف بعد الزاي اسم فاعل من زكا. وقرأ الباقون { زَكِيَّةً }. وهما بمعنى واحد.

{ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً [75] قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً [76] }.

كان جواب الخضر هذا على نسق جوابه السابق إلّا أنّه زاد ما حُكي في الآية بكلمة { **لَكَ** } وهو تصريح بمتعلّق فعل القول. وإذ كان المقول له معلوما من مقام الخطاب كان في التصريح بمتعلق فعل القول تحقيق لوقوع القول وتثبيت له وتقوية، والداعي لذلك أنّه أهمل العمل به.

{ **قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فلا تُصَاحِبْنِي** } هنا لم يعتذر موسى بالنسيان، إمّا لأنّه لم يكن نسي ولكنّه رجّح تغيير المنكر العظيم. وهو قتل النفس بدون موجب، وإمّا لأنّه نسي وأعرض عن الاعتذار بالنسيان لسماجة تكرّر الاعتذار به. وعلى الاحتماليين فقد عدل إلى المبادرة باشتراط ما تطمئن إليه نفس صاحبه، بأنّه إن عاد للسؤال الذي لا يبتغيه صاحبه فقد جعل له أن لا يصاحبه بعده.

وفي الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" كانت الأولى من موسى نسيانا، والثانية شرطا "** ، فاحتمل كلام النبيّ الاحتمالين المذكورين.

وأنصف موسى إذ جعل لصاحبه العذر في ترك مصاحبته في الثالثة تجنبا لإحراجه.

{ **قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً** } أي: قد وصلت من جهتي إلى العذر. فاستعير { بَلَغْتَ } لمعنى: تحتّم وتعيّن لوجود أسبابه، بتشبيه العذر في قطع الصحبة بمكان ينتهي إليه السائر على طريقة المكنية.

وقرأ نافع، وأبو بكر، وأبو جعفر { مِنْ لَدُنِي } بتخفيف النون على أنّه حذف منه نون الوقاية تخفيفا، وقرأ الجمهور{ لَدُنِّي } بتشديد النون. قال ابن عطية: وهي قراءة النبيّ صلى الله عليه وسلم يعني أنّ فيها سندا خاصا مرويا فيه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم كما تقدّم في المقدمة السادسة من مقدّمات هذا التفسير.

{ **فانْطَلَقَا حَتّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفوهُمَا فوَجَدَا فيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً** } [77].

نظم قوله تعالى { فانْطَلَقَا حتّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا } كنظم نظيريه السابقين.

الاستطعام: طلب الطعام. وموقع جملة { اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا } كموقع جملة {خَرَقَهَا } وجملة { فَقَتَلَهُ }.

{ **اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفوهُمَا** } إظهار لفظ { أَهْلَهَا } دون الإتيان بضميرهم بأن يقال: استطعماهم، لزيادة التصريح. تشنيعا بهم في لؤمهم، إذ أبوا أن يضيّفوهما وذلك لؤم، لأنّ الضيافة كانت شائعة في الأمم من عهد إبراهيم عليه السلام، وهي من المواساة المتّبعة عند النّاس، ويقوم بها من يُنتدب إليها ممّن يمرّ عليهم عابر السبيل ويسألهم الضيافة، أو من أعدّ نفسه لذلك من كرام القبيلة.

وفي الآية دليل على إباحة طلب الطعام لعابر السبيل لأنّه شرع من قبلنا، وحكاه القرآن ولم يرد ما ينسخه.

ودل لَوْم موسى الخضر على أن لم يأخذ أجر إقامة الحائط على صاحبه من أهل القرية، على أنّه أراد مقابلة حرمانهم لحق الضيافة بحرمانهم من إقامة الجدار في قريتهم.

وفي الآية مشروعية ضيافة عابر السبيل إذا نزل بأحد من الحي أو القرية. وفي حديث الموطأ أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: **" ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته يوم وليلة** (أي: يتحفه ويبالغ في برّه) **وضيافته ثلاثة أيام** (أي: إطعام وإيواء بما حضر من غير تكلّف كما يتكلّف في أول ليلة) **فما كان بعد ذلك فهو صدقة "**

قال الجمهور: الضيافة من مكارم الأخلاق وهي مستحبة. وهو قول مالك وأبي حنيفة والشافعي. وقال سحنون: " الضيافة على أهل القُرى والأحياء، أمّا الحضر فالفندق ينزل فيه المسافرون ". ونُسب إلى مالك. وقال الشافعي ومحمد بن عبد الحكم من المالكية: " الضيافة حق على أهل الحضر والبوادي".
وقال الليث واحمد: الضيافة فرض يوما وليلة.
{ **أَنْ يُضَيِّفوهُمَا** } يقال: ضيّفه وأضافه. فهو مضيِّف بالتشديد. ومُضيف بالتخفيف.
والمتعرّض للضيافة: ضائف ومتضيّف. يقال: ضفته وتضيّفته. إذا نزل به ومال إليه.
الجدار: الحائط المبني.
{ **يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ** } أشرف على الانقضاض. أي: يكاد يسقط. فعُبّر عن إشرافه على الانقضاض بإرادة الانقضاض على طريقة الاستعارة.
إقامة الجدار: تسوية ميله. وكانت إقامته بفعل خارق للعادة بأن أشار إليه بيده كالذي يسوّي شيئا ليّنا، كما ورد في بعض الآثار.
{ **قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً** } لَوْم، أي: كان في مُكنتك أن تجعل لنفسك أجرا على إقامة الجدار، تأخذه ممّن يملكه من أهل القرية ولا تقيمه مجانا لأنّهم لم يقوموا بحقّ الضيافة.
وهذا اللوم يتضمّن سؤالا عن سبب ترك المشارطة على إقامة الجدار عند الحاجة إلى الأجر. وليس هو لومًا على مجرد إقامته مجانا، لأنّ ذلك من فعل الخير وهو غير ملوم.

{ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً [78] أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً [79] وأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفراً [80] فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً [81] وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً [82] }.
{ **قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ** } المشار إليه بلفظ { هَذَا } مقدّر في الذهن حاصل من اشتراط موسى على نفسه أنّه إن سأله عن شيء بعد سؤاله الثاني فقد انقطعت الصحبة بينهما، أي: هذا الذي حصل الآن هو فراق بيننا، وكثيرا ما يكون المشار إليه مقدَّرا في الذهن كقوله تعالى { تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ } [القصص:83].
{ **سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً** } مستأنفة استئنافا بيانيّا، تقع جوابا لسؤال يهجس في خاطر موسى عليه السلام عن أسباب الأفعال التي فعلها الخضر عليه السلام وسأله عنها موسى، فإنّه قد وعده

أن يُحدث له ذكرا ممّا يفعله.

التأويل: تفسير لشيء غير واضح، وهو مشتقّ من الأول وهو الرجوع. شُبّه تحصيل المعنى على تكلّفٍ بالرجوع إلى المكان بعد السير إليه. وقد مضى في المقدّمة الأولى من مقدّمات هذا التفسير.

{ **مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً** } تعريض باللوم على الاستعجال وعدم الصبر إلى أن يأتيه إحداث الذكر حسبما وعده بقوله { فلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً }.

المساكين: هنا بمعنى ضعفاء المال الذين يرتزقون من جهدهم ويُرَقّ لهم لأنّهم يكدحون دهرهم لتحصيل عيشهم. فليس المراد أنهم فقراء أشدّ الفقر كما في قوله { إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ } [التوبة:60].

{ **فأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا** } متفرّعة على كل من جملتي { فكَانَتْ لِمَسَاكِينَ }، و{ وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ }، فكان حقّها التأخير عن كلتا الجملتين بحسب الظاهر، ولكنّها قُدّمت لقصد الاهتمام والعناية بإرادة إعابة السفينة، حيث كان عملا ظاهره الإنكار وحقيقته الصلاح، زيادة في تشويق موسى إلى علم تأويله، لأنّ كون السفينة لمساكين ممّا يزيد السامع تعجّبا في الإقدام على خرقها.

{ **وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً** } هو ملك بلادهم بالمرصاد منهم ومن أمثالهم يسخّر كل سفينة يجدها غصبا، أي: بدون عوض، وكان ذلك لنقل أمور بناء أو نحوه ممّا يستعمله الملك في مصالح نفسه وشهواته. كما كان الفراعنة يسخّرون النّاس للعمل في بناء الأهرام.

ولو كان ذلك لمصلحة عامة للأمّة لجاز التسخير من كلٍّ بحسب حاله من الاحتياج، لأنّ ذلك فرض كفاية بقدر الحاجة وبعد تحقّقها.

وراء: اسم الجهة التي خلف ظهر من أضيف إليه ذلك الاسم،وهو ضدّ أمام وقدّام. ويستعار (الوراء) لحال تعقّب شيء شيئا، وحال ملازمة طلب شيء شيئا بحق، وحال الشيء الذي سيأتي قريبا. كلّ ذلك تشبيه بالكائن خلف شيء لا يلبث أن يتّصل به، كقوله تعالى { مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ } [الجاثية:10].

وبعض المفسّرين فسروا { وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ } بمعنى أمامهم ملك. فتوهّم بعض مدوني اللغة أن (وراء) من أسماء الأضداد، وأنكره الفراء. وقال الزجاج: وليس من الأضداد كما زعم بعض أهل اللغة.

{ **كُلَّ سَفِينَةٍ** } أي: صالحة، بقرينة قوله { فأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا } .

وقد ذكروا في تعيين هذا الملك وسبب أخذه للسفن قصصا وأقوالا لم يثبت شيء منها بعينه، ولا يتعلّق به غرض في مقام العبرة.

وتصرُّف الخضر في أمر السفينة تصرّف برَعي المصلحة الخاصة عن إذن من الله بالتصرّف في مصالح الضعفاء، إذ كان الخضر عالما بحال الملك، أو كان الله أعلمه بوجوده حينئذ، فتصرّف الخضر قائم مقام تصرّف المرء في ماله، بإتلاف بعضه لسلامة الباقي. وهذا أمر خفي لم يطلع عليه إلّا الخضر. فلذلك أنكره موسى.

{ **وأمَّا الْغُلامُ فكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفراً** } أمّا تصرّفه في قتل الغلام فتصرّف بوحي من الله جار على قطع فساد خاص علمه الله وأعلم به الخضر بالوحي، فليس من مقام التشريع. وأراد الله اللطف بأبويه بحفظ إيمانهما، ففي هذا مصلحة للدين بحفظ أتباعه من الكفر، وهو مصلحة خاصة فيها حفظ الدين.

الخشية: توقع ذلك لو لم يتدارك بقتله.

{ **فأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً** }.

الزكاة: الطهارة

الرُحْم: نظير الكُثْر للكثرة.

{ **يُبْدِلَهُمَا** } قرأ الجمهور { أَنْ يُبَدِّلَهُمَا } بفتح الموحدة وتشديد الدال من التبديل. وقرأه ابن كثير، وابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف بسكون الموحدة وتخفيف الدال من الإبدال.

{ **فخَشِينَا / فأَرَدْنَا** } ضميرا الجماعة عائدان إلى المتكلّم الواحد بإظهار أنّه مشارك لغيره في الفعل. وهذا الاستعمال يكون من التواضع لا من التعاظم، لأنّ المقام مقام الإعلام بأنّ الله أطلعه على ذلك وأمره فناسبه التواضع فقال: { فخَشِينَا / فأَرَدْنَا } ، ولم يقل مثله عندما قال { فأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا } لأنّ سبب الإعابة إدراكه متيسّر لمن له علم بحال تلك الأصقاع.

{ **وَأَمَّا الْجِدَارُ فكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ في الْمَدِينَةِ** } أمّا قضية الجدار فالخضر تصرّف في شأنها عن إرادة الله اللطف باليتيمين جزاء لأبيهما على صلاحه. إذ علم الله أنّ أباهما كان يهمّه أمر عيشهما بعده. وكان قد أودع تحت الجدار مالا. ولعلّه سأل الله أن يلهم ولديه عند بلوغ أشدهما أن يبحثا عن مدفن الكنز تحت الجدار بقصد أو بمصادفة. فلو سقط الجدار قبل بلوغهما لتناولت الأيدي مكانه بالحفر ونحوه فعثر عليه عاثر، فذلك أيضا لطف خارق للعادة. وقد أسند الإرادة في قصّة الجدار إلى الله تعالى دون القصتين السابقتين لأنّ العمل فيهما كان من شأنه أن يسعى إليه كلّ من يقف على سرّه لأنّ فيهما دفع فساد عن النّاس بخلاف قصّة الجدار فتلك كرامة من الله لأبي الغلامين.

{ **رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ** } تصريح بما يزيل إنكار موسى عليه تصرفاته هذه بأنّها رحمة ومصلحة فلا إنكار فيها بعد معرفة تأويلها.

{ **وَمَا فعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي** } ثم زاد بأنّه فعلها عن وحي من الله، وقد علم موسى ذلك، لأنّ النبيّ إنّما يتصرّف عن اجتهاد أو عن وحي، فلمّا نفى أن يكون فعله ذلك عن أمر نفسه تعيّن أنّه عن أمر الله تعالى.

{ **ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً** } فذلكة للجمل التي قبلها ابتداء من قوله تعالى { أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ }، فالإشارة بذلك إلى المذكور في الكلام السابق، وهو تلخيص للمقصود، وكالحوصلة للدرس.

{ **تَسْطِعْ** } مضارع (اسطاع) بمعنى (استطاع). حذف تاء الاستفعال تخفيفا لقربها من مخرج الطاء.

والمخالفة بينه وبين قوله { سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً } للتفنّن، تجنبا لإعادة لفظ بعينه مع وجود مرادفه. وابتدئ بأشهرهما استعمالا وجيء بالثانية بالفعل المخفّف.

واعلم أن قصّة موسى والخضر قد اتّخذتها طوائف من أهل النحل الإسلامية أصلا بنوا عليه قواعد موهومة.

فأوّل ما أسّسوه منها أنّ الخضر لم يكن نبيّا وإنّما كان عبدا صالحا، وأنّ العلم الذي أوتيه ليس وحيا ولكنّه إلهام، وأنّ تصرّفه الذي تصرّفه في الموجودات أصل لإثبات العلوم الباطنية، وأنّ الخضر منحه الله البقاء إلى انتهاء مدّة الدنيا ليكون مرجعا لتلقّي العلوم الباطنية، وأنّه يظهر لأهل المراتب العليا من الأولياء فيفيدهم من علمه ما هم أهل لتلقّيه.

وبنوا على ذلك أنّ الإلهام ضرب من ضروب الوحي، وسمّوه الوحي الإلهامي، وأنّه يجيء على لسان ملك الإلهام، وقد فصّله الشيخ محيي الدين ابن عربي في الباب الخامس والثمانين من كتابه (الفتوحات المكّيّة)، وبيّن الفرق بينه وبين وحي الأنبياء بفروق وعلامات ذكرها منشورة في الأبواب الثالث والسبعين، والثامن والستين بعد المائتين، والرابع والستين بعد ثلاثمائة (73 / 268 / 364)، وجزم بأنّ هذا الوحي الإلهامي لا يكون مخالفا للشريعة، وأطال في ذلك، ولا يخلو ما قاله من غموض ورموز. وقد انتصب علماء الكلام وأصول الفقه لإبطال أن يكون ما يُسمّى بالإلهام حجّة. وعرّفوه بأنّه إيقاع شيء في القلب يثلج له الصدر، وأبطلوا كونه حجّة لعدم الثقة بخواطر من ليس معصوما، ولتفاوت مراتب الكشف عندهم. وقد تعرّض لها النسفي في عقائده ، وكلّ ما قاله النسفي في ذلك حقّ، ولا يقام التشريع على أصول موهومة لا تنضبط.

والأظهر أنّ الخضر نبيّ عليه السلام وأنّه كان موحى إليه بما أوحي، لقوله { وَمَا فعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي }، وأنّه قد انقضى خبره بعد تلك الأحوال التي قصّت في هذه السورة، وأنه قد لحقه الموت الذي يلحق البشر في أقصى غاية من الأجل يمكن أن تُفرض.

{ وَيَسْأَلونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً [83] إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً [84] }.

{ **وَيَسْأَلونَكَ** } يدلّ على أنّها ممّا نزلت السورة للجواب عنه، كما كان الابتداء بقصّة أصحاب الكهف. وقد ذكرنا عند تفسير قوله تعالى { وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي } [الإسراء:85] عن ابن عباس أنّ المشركين بمكّة سألوا النبيّ صلى الله عليه وسلم ثلاثة أسئلة، بإغراء من أحبار اليهود في يثرب. فقالوا: سلوه عن أهل الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح، فإن أجاب عنها كلّها فليس بنبيّ وإن أجاب عن بعضها وأمسك عن بعض فهو نبيّ. وبيّنا هنالك وجه التعجيل في سورة الإسراء النازلة قبل سورة الكهف بالجواب عن سؤالهم عن الروح وتأخير الجواب عن أهل الكهف وعن ذي القرنين إلى

سورة الكهف. وأعقبنا ذلك بما رأيناه في تحقيق الحقّ من سوق هذه الأسئلة الثلاثة في مواقع مختلفة.

فالسائلون: قريش لا محالة. والمسئول عنه: خبر رجل من عظماء العالم عرف بلقب ذي القرنين، كانت أخبار سيرته خفيّة مجملة مغلقة، فسألوا النبيّ عن تحقيقها وتفصيلها. وأذن له الله أن يُبيّن منها ما هو موضع العبرة للنّاس في شؤون الصلاح والعدل، وفي عجيب صنع الله تعالى في اختلاف أحوال الخلق، فكان أحبار اليهود منفردين بمعرفة إجماليّة عن هذه المسائل وكانت من أسرارهم، فلذلك جرّبوا بها نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم.

ولم يتجاوز القرآن ذكر هذا الرجل بأكثر من لقبه المشتهر به إلى تعيين اسمه وبلاده وقومه، لأنّ ذلك من شؤون أهل التاريخ والقصص وليس من أغراض القرآن، فكان منه الاقتصار على ما يفيد الأمّة من هذه القصّة عبرة حِكَميّة أو خُلُقيّة فلذلك قال الله { **قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً** }.

الذكر: التذكّر والتفكّر، أي: سأتلو عليكم ما به التذكّر، فجعل المتلو نفسه ذكرا مبالغة بالوصف بالمصدر، ولكن القرآن جاء بالحقّ الذي لا تخليط فيه من حال الرجل الذي يوصف بذي القرنين، بما فيه إبطال لما خلط به النّاس بين أحوال رجال عظماء كانوا في عصور متقاربة، أو كانت قصصهم تساق مساق من جاسوا خلال بلاد متقاربة متماثلة، وشوّهوا تخليطهم بالأكاذيب، وأكثرهم في ذلك صاحب (الشاهنامة) الفردوسي وهو معروف بالأكاذيب والأوهام الخرافية.

{ **ذِي الْقَرْنَيْنِ** } اختلف المفسرون في تعيين المسمّى بذي القرنين اختلافا كثيرا تفرّقت بهم فيه أخبار قصصيّة وأخبار تاريخيّة واسترواح من الاشتقاقات اللفظيّة، ولعلّ اختلافهم له مزيد اتصال باختلاف القصّاصين الذين عنو بأحوال الفاتحين عناية تخليط لا عناية تحقيق، فراموا تطبيق هذه القصّة عليها.

والذي يجب الانفصال فيه، بادئ ذي بدء، أنّ وصفه بذي القرنين يتعيَّن أن يكون وصفا ذاتيّا له، وهو وصف عربي يظهر أن يكون عُرف بمدلوله بين المثيرين للسؤال عنه فترجموه بهذا اللفظ.

ويتعيّن أن لا يُحمل القرنان على الحقيقة بل هما على التشبيه أو على الصورة.

فالأظهر أن يكونا ذؤابتين من شعر الرأس متدليتين، وإطلاق القرن على الضفيرة من الشعر شائع في العربية، قال عمر بن أبي ربيعة:

فلثمتُ فاها آخذًا بقرونها ... شُرب النزيف ببرد ماء الحشرج

وفي حديث أم عطية في صفة غسل ابنة النبيّ صلى الله عليه وسلم قالت أم عطية: " **فجعلنا رأسها ثلاثة قرون** "، فيكون هذا الملك قد أطال شعر رأسه وضفره ضفرتين فسمّي ذا القرنين، كما سُمِّي خرباق: ذا اليدين.

وقيل: هما شبه قرني الكبش من نحاس كانا في خوذة هذا الملك فنعت بهما.

وقيل: هما ضربتان على موضعين من رأس الإنسان يشبهان منبتي القرنين من ذوات القرون.

ومن هنا تأتي الأقوال في تعيين ذي القرنين:

القول الأوّل: إنّه الإسكندر بن فيليبوس المقدوني. وذكروا في وجه تلقيبه بذي القرنين أنّه ضفر شعره قرنين. وقيل: كان يلبس خوذة في الحرب بها قرنان. وقيل: رسم ذاته على بعض نقوده بقرنين في رأسه تمثيلا لنفسه بالمعبود آمون، معبود المصريين وذلك حين ملك مصر.

القول الثاني: إنّه ملك من ملوك حِمْيَر هو (تُبَّع أبو كرب.)

القول الثالث: إنّه ملك من ملوك الفرس وأنّه (أفريدون بن أنفيان بن جمشيد).

هذه أوضح الأقوال، وما دونها لا ينبغي التعويل عليه ولا تصحيح روايته.

ونحن تجاه هذا الاختلاف يحقّ علينا أن نستخلص من قصّته في هذه الآية أحوال تقرّب تعيينه وتزييف ما عداه من الأقوال. وليس يجب الاقتصار على تعيينه من بين أصحاب هذه الأقوال بل الأمر في ذلك أوسع.

والقصّة القرآنية تعطى صفات لا محيد عنها:

الأولى: أنّه كان ملكا صالحا عادلا.

الثانية: أنّه كان مُلْهَما من الله.

الثالثة: أنّ مُلْكه شمل أقطارا شاسعه.

الرابعة: أنّه بلغ في فتوحه من جهة المغرب مكانا كان مجهولا وهو عين حمئة.

الخامسة: أنّه بلغ بلاد يأجوج ومأجوج، وأنّها كانت في جهة ممّا شمله ملكه غير الجهتين الشرقية والغربية فكانت وسطا بينهما كما يقتضيه استقراء مبلغ أسبابه.

السادسة: أنّه أقام سُدًّا يحول بين يأجوج ومأجوج وبين قوم آخرين.

السابعة: أنّ يأجوج ومأجوج هؤلاء كانوا عائثين في الأرض فسادا، وأنّهم كانوا يفسدون بلاد قوم موالين له.

الثامنة: أنّه كان معه قوم أهل صناعة متقنة في الحديد والبناء.

التاسعة: أنّ خبره خفيّ دقيق لا يعلمه إلّا الأحبار، علما إجماليا كما دلّ عليه سبب النزول.

وأنت إذا تدبّرت جميع هذه الأحوال نفيت أن يكون ذو القرنين إسكندر المقدوني، لأنّه لم يكن ملكا صالحا بل كان وثنيا، فلم يكن أهلا لتلقي الوحي من الله، وإن كانت له كمالات على الجملة، وأيضا فلا يعرف في

تاريخه أنّه أقام سُدًّا بين بلدين.

وأما نسبة السُدّ الفاصل بين الصين وبين بلاد يأجوج ومأجوج إليه في كلام بعض المؤرخين فهو ناشئ عن شهرة الاسكندر فتوهّم القصاصون أن ذلك السدّ لا يكون إلّا من بنائه، كما توهّم العرب أنّ مدينة تدمر بناها سليمان عليه السلام. وأيضا فإنّ (هيرودوتس اليوناني) المؤرخ ذكر أن الاسكندر حارب أمّة

(سكيثوس). وهذا الاسم هو اسم مأجوج [انظر القاموس الجديد تأليف لاروس في مادة سكيتس].
وأحسب أن لتركيب القصّة المذكورة في هذه السورة على اسم إسكندر المقدوني أثرا في اشتهار نسبة السُدّ إليه. وذلك من أوهام المؤرّخين في الإسلام.
ولا يُعرف أن مملكة إسكندر كانت تبلغ في الغرب إلى عين حمئة، وفي الشرق إلى قوم مجهولين عراة أو عديمي المساكن، ولا أنّ أمّته كانت تلقّبه بذي القرنين. وإنّما انتُحل هذا اللقب له لمّا توهّموا أنّه المعنيّ بذي القرنين في هذه الآية. فمنحُه هذا اللقب من مخترعات مؤرخي المسلمين، وليس رسم وجهه على النقود بقرنين ممّا شأنه أن يلقّب به. وأيضا فالإسكندر كانت أخباره مشهورة لأنّه حارب الفرس والقبط وهما أمتان مجاورتان للأمّة العربية.
ومثل هذه المبطلات التي ذكرناها تتأتى، أيضا، لإبطال أن يكون الملك المتحدَّث عنه هو (أفريدون بن أنفيان بن جمشيد).
فإمّا أن يكون من تبابعة حِمْيَر، فقد يجوز أن يكون في عصر متوغّل في القدم.
وقد توهّم بعض المفسّرين أنّه كان معاصرا إبراهيم عليه السلام، وكانت بلاده التي فتحها مجهولة المواقع. ولكن يبعد أن يكون هو المراد لأنّ العرب لا يعرفون من خبره مثل هذا. وقد ظهر من أقوالهم أن سبب هذا التوهّم هو وجود كلمة (ذو) التي اشتهر وجود مثلها في ألقاب ملوك اليمن وتبابعته.
فالذي يظهر لي أنّ ذا القرنين كان ملكا من ملوك الصين لوجوه:
الأوّل: أنّ بلاد الصين اشتهر أهلها منذ القدم بأنّهم أهل تدبير وصنائع.
الثاني: أنّ معظم ملوكهم كانوا أهل عدل وتدبير للمملكة.
الثالث: أنّ من سماتهم تطويل شعر رؤوسهم وجعلها في ضفيرتين فيظهر وجه تعريفه بذي القرنين.
الرابع: أنّ سُدًّا ورَدْمًا عظيما لا يعرف له نظير في العالم هو موجود بين بلاد الصين وبلاد المغول. وهو المشهور في كتب الجغرافيا والتاريخ بالسور الأعظم، وسيرد وصفه.
الخامس: ما روت أمّ حبيبة عن زينب بنت جحش رضي الله عنها أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم خرج ليلة فقال: **" ويل للعرب من شرّ قد اقترب فُتح اليوم من ردم ياجوج وماجوج هكذا "**. وأشار بعقد تسعين (أعني بوضع طرف السبابة على طرف الإبهام). وقد كان زوال عظمة سلطان العرب على يد المغول في بغداد فتعيّن أن يأجوج ومأجوج هم المغول، وأنّ الردم المذكور في القرآن هو الردم الفاصل بين بلاد المغول وبلاد الصين وبانيه ملك من ملوكهم. وأنّ وصفه في القرآن بذي القرنين توصيف لا تلقيب فهو مثل التعبير عن شاول ملك إسرائيل باسم طالوت.
واسم هذا الملك (**تْسِيْنشي هْوانْقتي** - أو- **تْسِينْ شِى هْوَانْقْ تي**). وكان موجودا في حدود سنة (247 ق م) فهو متأخّر عن إسكندر المقدوني بنحو قرن. وبلاد الصين في ذلك العصر كانت متديّنة بدين

(كنفيشيوس) المشرّع المصلح. فلا جرم أن يكون أهل شريعته صالحين.

... والله أعلم بالحقيقة.

{ **قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ** } الأمر إذْن من الله لرسوله بأن يعد بالجواب عن سؤالهم عملا بقوله تعالى { وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذَلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ } [23]، على أحد تأويلين في معناه.

والسين في { سَأَتْلُو } لتحقيق الوعد كما في قوله تعالى { قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ } [يوسف:98].

{ **مِنْهُ ذِكْراً** } جعل خبر ذي القرنين تلاوة وذكرا للإشارة إلى أنّ المهمّ من أخباره ما فيه تذكير وما يصلح لأن يكون تلاوة، حسب شأن القرآن، فإنّه يُتلى لأجل الذكر ولا يساق مساق القصص.

{ **مِنْهُ** } للتنبيه على أنّ أحواله وأخباره كثيرة وأنّهم إنّما يهمّهم بعض أحواله المفيدة ذكرا وعظة. ولذلك لم يقل في قصّة أهل الكهف: نحن نقصّ عليك من نبئهم. لأنّ قصتهم منحصرة فيما ذكر. وأحوال ذي القرنين غير منحصرة فيما ذكر هنا.

{ **إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً** }.

التمكين: جعل الشيء متمكّنا، أي: راسخا. وهو تمثيل لقوّة التصرّف بحيث لا يزعزع قوّته أحد. وحقّ الفعل التعدية بنفسه، فيقال: مكّنّاه في الأرض كقوله تعالى { مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ } [الأنعام:6].

فاللام في { **لَهُ** } للتوكيد، كاللام في قولهم: شكرت له، ونصحت له، والجمع بينهما تفنّن.

فمعنى التمكين في الأرض: إعطاء المقدرة على التصرّف.

{ **فِي الْأَرْضِ** } المراد بها أهل الأرض، وهي أرض ملكه.

{ **مِنْ كُلِّ شَيْءٍ** } مستعمل هنا في الأشياء الكثيرة، أي: آتيناه وسائل أشياء عظيمة كثيرة .

{ **سَبَباً** } حقيقته الحبل، وأطلق هنا على ما يُتوسّل به إلى الشيء، من علم أو مقدرة أو آلات التسخير، على وجه الاستعارة كقوله تعالى { وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ } [البقرة:166].

{ فَأَتْبَعَ سَبَباً [85] حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْماً قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً [86] قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً [87] وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً [88] }.

السبب: الوسيلة. المراد هنا معنى مجازي وهو الطريق، لأنّ الطريق وسيلة إلى المكان المقصود، وقرينة المجاز ذكر الاتباع والبلوغ في قوله تعالى { فأَتْبَع سَبَبا حتّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشّمْسِ }. والدليل على إرادة غير معنى السبب في قوله تعالى { وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً } إظهار اسم السبب دون

إظماره، لأنّه لمّا أريد به معنى غير ما أريد بالأوّل حسن إظهار اسمه تنبيها على اختلاف المعنيين، أي: فاتبع طريقا للسير.

ولم يعدّ أهل اللغة معنى الطريق في معاني لفظ السبب، لعلّهم رأوه لم يكثر وينتشر في الكلام.

ويظهر أن قوله تعالى { أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ } [غافر:37] من هذا المعنى.

{ **مَغْرِبَ الشَّمْسِ** } من حيث يلوح الغروب من طريق غزوته أو مملكته. إذ ليس للشمس مغرب حقيقي إلّا فيما يلوح للتخيّل. والأشبه أن يكون ذو القرنين قد بلغ بحر الخزر وهو (بحيرة قزوين) فإنّها غرب الصين.

{ **فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ** } العين: منبع ماء. والمعنى: عين مختلط ماؤها بالحمأة: وهو **الطين الأسود**.

ويظهر أنّ هذه العين من عيون النفط الواقعة على ساحل بحر الخزر حيث مدينة باكو، وفيها منابع النفط الآن، ولم يكن معروفا يومئذ. والمؤرخون المسلمون يسمُّونها البلاد المنتنة.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وحفص { في عَيْنٍ حَمِئَةٍ } مهموزا مشتقا من الحمأة (الطين الأسود).

وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم، وأبو جعفر، وخلف { **في عَيْنٍ حامية** } بألف بعد الحاء وياء بعد الميم، أي حارة من **الحمو** وهو الحرارة، أي: أنّ **ماءها سُخن**.

{ **قَوْماً** } التنكير يؤذن بأنّهم أمّة غير معروفة ولا مألوفة حالة عقائدهم وسيرتهم.

{ **قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً** } استئناف بياني. وقد دلّ على أنّهم مستحقّون للعذاب، فدلّ على أنّ أحوالهم كانت في فساد من كفر وفساد عمل.

{ **قُلْنَا** } إسناد القول إلى ضمير الجلالة يحتمل أنّه قول إلهام، أي: ألقينا في نفسه تردّدا بين أن يبادر استئصالهم وأن يمهلهم ويدعوهم إلى الإيمان وحسن العمل، ويكون قوله { قال أَمَّا مَنْ ظَلَمَ }، قال في نفسه معتمدا على حالة وسط بين صورتي التردّد.

وقيل: إنّ ذا القرنين كان نبيّا يوحى إليه، فيكون القول كلاما موحى به إليه يخيّره فيه، مثل التخيير الذي في قوله تعالى { فإمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فدَاءً } [محمد:4]. ويكون قوله تعالى { أَمَّا مَنْ ظَلَمَ } جوابا منه إلى ربّه.

{ **حُسْناً** } مصدر. مبالغة في الإحسان إليهم، مثل قوله تعالى { وَقُولُوا للنّاس حُسْناً } [البقرة:83].

{ **قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فسَوْف نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً** }.

الظلم: الشرك، بقرينه قسيمه في قوله { وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً }.

{ **فَسَوفَ نُعَذِّبُهُ** } اجتلاب حرف الاستقبال يشير إلى أنّه سيدعوه إلى الإيمان فإن أصرّ على الكفر يعذّبه. وقد صرّح بهذا المفهوم في قوله { وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً } أي: آمن بعد كفره. ولا يجوز أن يكون المراد من هو مؤمن الآن، لأنّ التخيير بين تعذيبهم واتخاذ الإمهال معهم يمنع أن يكون فيهم مؤمنون

حين التخيير.

{ **ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً** } وذلك عذاب الآخرة.

{ **وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً** } قرأ الجمهور {جَزَاءَ الْحُسْنَى} بإضافة (جزاء) إلى (الحسنى) على الإضافة البيانية. وقرأه حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، ويعقوب، وخلف { جَزَاءً الْحُسْنَى } بنصب (جزاء) منونا على أنّه تمييز لنسبه استحقاقه الحسنى، أو مصدر مؤكّد، أو حال مقدّمة.

{ **الْحُسْنَى** } يجوز أن تكون هي الجنّة كما في قوله تعالى { لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ } [يونس:26].

القول اليُسر: هو الكلام الحسن. وُصف باليسر المعنوي لكونه لا يثقل سماعه. وهو مثل قوله تعالى { فقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً } [الاسراء: 28] أي: جميلا.

فإن كان المراد من { **الْحُسْنَى** } الخصال الحُسنى، فمعنى عطف { وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً } أنه يجازي بالإحسان وبالثناء. وكلاهما من ذي القرنين، وإن كان المراد ثواب الآخرة فذلك من أمر الله تعالى، وإنّما ذو القرنين مخبر به، على معنى: إنّا نبشّره بذلك، أو مستعملا في لازم الفائدة تأدبا مع الله تعالى، أي: أنّي أعلم جزاءه عندك الحسنى.

{ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً [89] حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً [90] }.

مطلع الشمس: جهة المشرق من سلطانه ومملكته، بلغ جهة قاصية من الشرق حيث يخال أن لا عمران وراءها، فالمطلع مكان الطلوع. والظاهر أنّه بلغ ساحل بحر اليابان في حدود منشوريا أو (كوريا شرقا).

{ **لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً** } فوجد قوما تطلع عليهم الشمس لا يسترهم من حرها شيء، أي: لا جبل فيها يستظلّون بظله ولا شجر فيها، فهي أرض مكشوفة للشمس.

<u>ويجوز</u> أن يكون المعنى أنّهم كانوا قوما عراة، فكانوا يتّقون شعاع الشمس في الكهوف أو في أسراب يتخذونها في التراب. فالمراد بالستر ما يستر الجسد.

وفي هذه الحالة عبرة من اختلاف الأمم في الطبائع والعوائد، وسيرتهم على نحو مناخهم.

{ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً } [91].

{ **كَذَلِكَ** } الكاف للتشبيه، والمشبّه به شيء تضمّنه الكلام السابق بلفظة أو معناه.

<u>ويجوز</u> أن يكون جزء جملة حذف أحد جزأيها والمحذوف مبتدأ. والتقدير: أمر ذي القرنين كذلك، أي: كما سمعت.

ويجوز أن يكون صفة لـ { قَوْمٍ } أي: قوما كذلك القوم الذين وجدهم في مغرب الشمس، أي: في كونهم كفارا، وفي تخييره في إجراء أمرهم على العقاب أو على الإمهال.

ويجوز أن يكون المجرور جزء جملة أيضا جُلبت للانتقال من كلام إلى كلام، فيكون فصل خطاب كما يقال: هذا الأمر كذا.

وعلى الوجوه كلّها فهو اعتراض.

{ **وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً** } حال من الضمير المرفوع في { ثُمَّ أَتْبَعَ }.

{ **بِمَا لَدَيْهِ** } ما عنده من عظمة الملك من جند وقوّة وثروة.

الخُبْر: العلم والإحاطة بالخبر. كناية عن كون المعلوم عظيما بحيث لا يحيط به علما إلّا علّام الغيوب.

{ **ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً** [92] **حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْماً لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً** [93] **قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً** [94] **قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً** [95] **آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً** [96] **فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً** [97] **قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً** } [98] }.

السدّ (بضم السين وفتحها): الجبل. ويطلق أيضا على الجدار الفاصل، لأنّه يُسَدُّ به الفضاء، وقيل: الضم في الجبل والفتح في الحاجز.

وقرأه نافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم، وأبو جعفر. وخلف، ويعقوب بضم السين. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم بفتح السين على لغة عدم التفرقة.

{ **بَيْنَ السَّدَّيْنِ** } المراد بالسدّين هنا الجبلان، وبالسد المفرد الجدار الفاصل، والقرينة هي التي عيّنت المراد من هذا اللفظ المشترك. والتعريف تعريف الجنس، أي: بين سدّين معينين. أي: اتبع طريقا آخر في غزوة حتّى بلغ بين جبلين معلومين.

ويظهر أن هذا السبب اتجه به إلى جهة غير جهتي المغرب والمشرق فيحتمل أنّها الشمال أو الجنوب. وعينه المفسرون أنّه للشمال، وبنوا على أنّ ذا القرنين هو إسكندر المقدوني، فقالوا: إن جهة السدين بين أرمينيا وأذربيجان. ونحن نبني على ما عيّنّاه في الملقب بذي القرنين، فنقول: إنّ موضع السدين هو الشمال الغربي لصحراء قوبي الفاصلة بين الصين وبلاد المغول شمال الصين وجنوب مغوليا. وقد وجد السدّ هنالك ولم تزل آثاره إلى اليوم شاهدها الجغرافيون والسائحون وصورت صورا شمسية في كتب

الجغرافيا وكتب التاريخ العصرية.

{ **قَوْماً لَا يَكَادُونَ يَفقَهُونَ قَوْلاً** } أي: أنّهم لا يعرفون شيئا من قول غيرهم، فلغتهم مخالفة للغات الأمم المعروفة، بحيث لا يعرفها تراجمة ذي القرنين، لأنّ شأن الملوك أن يتّخذوا تراجمة ليترجموا لغات الأمم الذين يحتاجون إلى مخاطبتهم، فهؤلاء القوم كانوا يتكلّمون بلغة غريبة، لانقطاع أصقاعهم عن الأصقاع المعروفة، فلا يوجد من يستطيع إفهامهم مراد الملك ولا هم يستطيعون الإفهام.

ويجوز أن يكون المعنى أنّهم قوم متوغّلون في البداوة والبلاهة فلا يفهمون ما يقصده من يخاطبهم.

وهؤلاء القوم مجاورون يأجوج ومأجوج. وكانوا أضعف منهم فسألوا ذا القرنين أن يقيهم من فساد يأجوج ومأجوج. ولم يذكر المفسّرون تعين هؤلاء القوم ولا أسماء قبيلتهم سوى أنّهم قالوا: هم في منقطع بلاد الترك نحو المشرق، وكانوا قوما صالحين فلا شك أنّهم من قبائل بلاد الصين التي تتاخم بلاد المغول والتتر.

{ **قَالُوا** } استئناف للمحاورة. وقد بيّنّا في غير موضع أنّ جمل حكاية القول في المحاورات لا تقترن بحرف العطف.

فعلى الاحتمال الأوّل في معنى { لا يَكَادُونَ يَفقَهُونَ قَوْلاً } أنّهم لا يدركون ما يطلب منهم من طاعة ونظام، ومع ذلك يُعربون عمّا في نفوسهم من الأغراض مثل إعراب الأطفال.

وعلى الاحتمال الثاني أنّهم أمكنهم أن يُفهم مرادهم بعد لأي.

{ **يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ** } افتتاحهم الكلام بالنداء أنّهم نادوه نداء المستغيثين المضطرّين. ونداؤهم إيّاه بلقب ذي القرنين على أنّه مشهور بمعنى ذلك اللقب بين الأمم المتاخمة لبلاده.

يأجوج ومأجوج: أمّة كثيرة العدد فيحتمل أنّ الواو الواقعة بين الاسمين حرف عطف فتكون أمّة ذات شعبين. وهم المغول وبعض أصناف التتار. وهذا هو المناسب لأصل رسم الكلمة ولا سيما على القول بأنّهما اسمان عربيان كما سيأتي، فقد كان الصنفان متجاورين.

ووقع لعلماء التأريخ وعلماء الأنساب اختلاف إطلاق اسمي المغول والتتار كلّ على ما يطلق عليه الآخر لعسر التفرقة بين المتقاربين منهما. وقد قال بعض العلماء: إنّ المغول هم مأجوج (بالميم) اسم جدّ لهم يقال أيضا (سكيشوس). وكان الاسم العام الذي يجمع القبيلتين مأجوج، ثم أنقسمت الأمّة فسمّيت فروعها بأسماء خاصة؛ فمنها مأجوج ويأجوج وتتر ثم التركمان ثم الترك.

ويحتمل أنّ (الواو) المذكورة ليست عاطفة ولكنها جاءت في صورة العاطفة فيكون اللفظ كلمة واحدة مركبة تركيبا مزْجيا. فيتكوَّن اسما لأمّة وهم المغول.

والذي يجب اعتماده أن يأجوج ومأجوج هم المغول والتتر.

وقد ذكر أبو الفداء أن مأجوج هم المغول فيكون يأجوج هم التتر. وقد كثرت التتر على المغول فاندمج المغول في التتر وغلب اسم التتر على القبيلتين. وأوضح شاهد على ذلك ما ورد في حديث أم حبيبة عن

زينب بنت جحش أنّ النبيّ صلى الله عليه و سلم دخل عليها فزعا يقول: **" لا اله إلّا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه "**. وحلّق بأصبعيه الإبهام والتي تليها. وقد تقدّم آنفا.

ولا يُعرف بالضبط وقت إنطلاقهم من بلادهم ولا سبب ذلك. ويُقدّر أن انطلاقهم كان أواخر القرن السادس الهجري. وتشتت ملك العرب بأيدي المغول والتتر من خروج جنكيز خان المغولي واستيلائه على بخارى سنة (616 هـ) ووصلوا ديار بكر سنة (628 هـ) ثم ماكان من تخريب هولاكو بغداد عاصمة ملك العرب سنة (660 هـ).

ونظير إطلاق اسمين على حي مؤتلف من قبيلتين إطلاق (طسم وجديس) على أمّة من العرب البائدة. وإطلاق (السكاسك والسكرن) في القبائل اليمنية، وإطلاق (هلال وزغبة) على أعراب إفريقيّة الواردين من صعيد مصر. وإطلاق (أولاد يحيى) على حي بتونس بالجنوب الغربي. و(مُرادة وفِرجان) على حي من وطن نابل بتونس.

وقرأ الجمهور { يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ } كلتيهما بألف بعد التحتية بدون همز. وقرأه عاصم بالهمز.

واختلف المفسّرون في أنّه اسم عربي أو معرَّب. وغالب ظنّي أنّه اسم وضعه القرآن حاكى به معناه في لغة تلك الأمّة المناسب لحال مجتمعهم فاشتق لهما من مادة (**الأج**)، وهو **الخلط**. إذ قد علمت أنّ تلك الأمّة كانت أخلاطا من أصناف.

{ **فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً** } الاستفهام مستعمل في العرض.

الخَرْج: المال الذي يُدفع للملك. وهو بفتح الخاء المعجمة وسكون الراء في قراءة الجمهور. ويقال فيه الخراج بألف بعد الراء. وكذلك قرأه حمزة، والكسائي، وخلف.

وقرأ الجمهور { سُدًّا } بضم السين وقرأه ابن كثير، وأبو عمرو، وحفص، والكسائي، وخلف بفتح السين.

{ **قَالَ مَا مَكَّنِّي فيهِ رَبِّي خَيْرٌ فأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكَمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً** } أي: ما آتاني الله من المال والقوّة خير من الخراج الذي عرضتموه أو خير من السدّ الذي سألتموه. أي: ما مكنني فيه ربي يأتي بخير ممّا سألتم، فإنّه لاح له أنّه إن سدّ عليهم المرور من بين الصدفين تحيّلوا فتسلقوا الجبال ودخلوا بلاد الصين، فأراد أن يبني سورا ممتدا على الجبال في طول حدود البلاد حتّى يتعذر عليهم تسلق تلك الجبال، ولذلك سمّاه ردْما.

الردم: البناء المردَّم. شُبِّه بالثوْب المردَّم المؤتلف من رقاع فوق رقاع. أي: سدّا مضاعفا. ولعله بني جدارين متباعدين وردم الفراغ الذي بينهما بالتراب المخلوط ليتعذر نقبه.

{ **فأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ** } أي: بقوة الأبدان. أراد تسخيرهم للعمل لدفع الضرر عنهم.

وقد بنى ذو القرنين وهو (تسين شى هوانق تي) سلطان الصين هذا الردم بناء عجيبا في القرن الثالث قبل المسيح وكان يعمل فيه ملايين من الخدمة. وهو مبنيّ بالحجارة والآجر وبعضه من الطين فقط.

وهو الآن بحالة خراب فلم يبق له اعتبار من جهة الدفاع. ولكنّه بقي علامة على الحدّ الفاصل بين المقاطعات الأرضية فهو فاصل بين الصين ومنغوليا. ويخترق جبال بابلوني التي هي حدود طبيعية بين الصين وبلاد منغوليا، فمنتهى طرفه إلى الشمال الغربي لصحراء قوبي.

{ **آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ** } هو أمر لهم بمناولة زبر الحديد. فالإيتاء مستعمل في حقيقة معناه وهو المناولة، وليس تكليفا للقوم بأن يجلبوا له الحديد من معادنه لأنّ ذلك ينافي قوله { مَا مَكَّنِّي فيهِ رَبِّي خَيْرٌ فأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ }، أي أنّه غنيّ عن تكليفهم إنفاقا على جعل السدّ. وكأنّ هذا لقصد إقامة أبواب من حديد في مداخل الردم لمرور سيول الماء في شعب الجبل حتّى لا ينهدم البناء بأن جعل الأبواب الحديدية كالشبابيك تمنع مرور النّاس ولا تمنع انسياب الماء، وجعل قضبان الحديد معضودة بالنحاس المذاب المصبوب على الحديد.

الزُّبر: جمع زُبْرة، وهي القطعة الكبيرة من الحديد.

الحديد: معدن من معادن الأرض يكون قطعا كالحصى ودون ذلك، يكون فيها صلابة. وهو إذا صهر بنار قويّة في أتون مغلق التأمت أجزاؤه وتجمعت في وسط النار كالاسفنجة واشتدت صلابته لأنّه بالصهر يدفع ماكان فيه من الأجزاء الترابية، وهي المسماة بالصدأ والخبث، فتعلو تلك الأجزاء على سطحه وهي الزبد. ولذلك فبمقدار ما يطفو من تلك الأجزاء الغريبة الخبيثة يخلص الجزء الحديدي ويصفو ويصير زُبُرا. ومن تلك الزبر تُصنع الأشياء الحديديّة؛ من سيوف ودروع وغيرها.

{ **حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ** } أشعرت (حتّى) بشيء مُغَيًّا قبلها، وهو كلام محذوف تقديره: فآتوه زبر الحديد فنضدها وبناها حتّى إذا جعل بين الصدفين. وهذا إيجاز الحذف.

المساواة: جعل الأشياء متساوية، أي: متماثلة في مقدار أو وصف.

الصَّدَفان: (بفتح الصاد وفتح الدال) في قراءة الجمهور، وهو الأشهر، هما جانبا الجبلين وهما السدّان. وعن أبي عيسى: الصدف كل بناء عظيم مرتفع.

{ **انْفخُوا / آتُونِي** } خطاب للعملة. وحذف متعلق { انْفُخُوا } لظهوره. والتقدير: انفخوا في الكيران المصفوفة على طول ما بين الصدفين من زُبُر الحديد.

القِطر (بكسر القاف): النحاس المذاب.

{ **فمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً** } الضمائر ليأجوج ومأجوج.

الظهور: العلو. و{ **نَقْباً** } كسر الردم، وعدم استطاعتهم ذلك لارتفاعه وصلابته.

{ **اسْطَاعُوا** } تخفيف { اسْتَطَاعُوا }، والجمع بينهما تفنّن في فصاحة الكلام كراهية إعادة الكلمة. وابتدئ بالأخف منهما لأنّه وليه الهمز وهو حرف ثقيل لكونه من الحلق، بخلاف الثاني إذ وليه اللام وهو خفيف. ومقتضى الظاهر أن يبتدأ بفعل { استطاعوا } ويثنى بفعل { اسطاعوا } لأنّه يثقل بالتكرير، كما وقع في قوله تعالى آنف { مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً } [78]، ثم قوله تعالى { مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً } [82].

ومن خصائص مخالفة مقتضى الظاهر هنا إيثار فعل ذي زيادة في المبنى بموقع فيه زيادة المعنى، لأنّ استطاعة نقب السد أقوى من استطاعة تسلّقه، فهذا من مواضع دلالة زيادة المبنى على زيادة في المعنى.

{ **قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي** } مستأنفة استئنافا بيانيا. والإشارة بـ { هَذَا } إلى الردم. وهو رحمة للنّاس لما فيه من رد فساد أمّة يأجوج ومأجوج عن أمّة أخرى صالحة.

{ **مِنْ** } ابتدائية. وجُعلت من الله، لأنّ الله ألهمه لذلك ويسَّر له ما هو صعب.

{ **فإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ** } لأنّه يعلم أنّ كلّ حادث صائر إلى زوال. ولأنّه علم أنّ عملا عظيما مثل ذلك يحتاج إلى التعهّد والمحافظة عليه من الانهدام. وعلم أنّ ذلك لا يتسنّى في بعض أزمان انحطاط المملكة الذي لا محيص منه لكلّ ذي سلطان.

الوعد: هو الإخبار بأمر مستقبل، وأراد به ما في علم الله تعالى من الأجل الذي ينتهي إليه دوام ذلك الردم.

{ **دَكَّاءَ** } على قراءة عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف. والدكّاء: اسم للناقة التي لا سنام لها، وذلك على التشبيه البليغ. وعلى قراءة الجمهور { دَكًّا }، مصدر بمعنى المفعول للمبالغة، أي: جعله مدكوكا، أي: مُسوَّى بالأرض بعد ارتفاع.

{ **وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً** } تذييل للعلم بأنّه لا بد له من أجل ينتهي إليه لقوله تعالى { لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ } [الرعد:38]، أي: وكان تأجيل الله الأشياء حقا ثابتا لا يتخلّف. وهذه الجملة بعمومها وما فيها من حكمة كانت تذييلا بديعا.

{ **وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ في بَعْضٍ وَنُفِخَ في الصُّورِ فجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً [99] وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضاً [100] الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ في غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً [101]** }.

{ **وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ في بَعْضٍ** }.

الترك: حقيقته مفارقة شيء شيئا كان بقربه، ويطلق مجازا على جعل الشيء بحالة مخالفة لحالة سابقة.

{ **يَوْمَئِذٍ** } هو يوم إتمام بناء السدّ المستفاد من قوله تعالى { فمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ }.

{ **يَمُوجُ** } يضطرب، تشبيها بموج البحر. أي: جعلنا ياجوج وماجوج يومئذ مضطربين بينهم، لأنّهم إذا لم يجدوا ما اعتادوه من غزو الأمم المجاورة لهم رجع قويّهم على ضعيفهم بالاعتداء.

{ **وَنُفِخَ في الصُّورِ فجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضاً الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ في غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً** }.

تخلّص من أغراض الاعتبار بما في القصّة من إقامة المصالح في الدنيا على أيدي من اختاره الله

لإقامتها من خاصة أوليائه، إلى غرض التذكير بالموعظة بأحوال الآخرة، وهو تخلّص يؤذن بتشبيه حال تموّجهم بحال تموّج النّاس في المحشر، تذكيرا للسامعين بأمر الحشر وتقريبا بحصوله في خيال المشركين، فإنّ القادر على جمع أمّة كاملة وراء هذا السد، بفعل من يسّره لذلك من خلقه، هو الأقدر على جمع الأمم في الحشر بقدرته، لأن متعلّقات القدرة في عالم الآخرة أعجب.

وقد تقدّم أنّ من أهم أغراض هذه السورة إثبات البعث. واستُعمل الماضي موضع المضارع تنبيها على تحقيق وقوعه.

{ **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ** } تمثيليّة مكنية تشبيها لحال الداعي المطاع وحال المدعو الكثير العدد السريع الإجابة، بحال الجند الذين ينفذون أمر القائد بالنفير فينفخون في بوق النفير، وبحال بقيّة الجند حين يسمعون بوق النفير فيسرعون إلى الخروج. على أنّه يجوز أن يكون الصور من مخلوقات الآخرة. والحالة الممثّلة حالة غريبة لا يعلم تفصيلها إلّا الله تعالى.

{ **وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ** } عرض جهنم مستعمل في إبرازها حين يُشرفون عليها وقد سيقوا إليها فيعلمون أنّها المهيّئة لهم، فشُبّه ذلك بالعرض تهكّما بهم، لأنّ العرض هو إظهار ما فيه رغبة وشهوة.

{ **فَجَمَعْنَاهُمْ / جَمْعاً - عَرَضْنَا / عَرْضاً** } تأكيد فعلي (جمعناهم) و (عرضنا) بمصدريهما لتحقّق أنّه جمع حقيقي وعرض حقيقي ليسا من المجاز، وفي تنكير الجمع والعرض تهويل.

{ **كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ** } الغطاء مستعار لعدم الانتفاع بدلالة البصر على تفرد الله بالإلهية. وحرف (في) للظرفية المجازية. وهي تمكّن الغطاء من أعينهم بحيث كأنّها محوية للغطاء.

{ **عَنْ ذِكْرِي** } للمجاوزة، أي: عن النظر فيما يحصل به ذكري.

{ **وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً** } لشدّة كفرهم لا تطاوعهم نفوسهم للاستماع. وحذف مفعول { سَمْعًا } لدلالة قوله تعالى { عَنْ ذِكْرِي } عليه.

{ **أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً** } [102].

أُعقب وصف حرمانهم الانتفاع بدلائل المشاهدات على وحدانية الله، وإعراضهم عن سماع الآيات بتفريع الإنكار لاتّخاذهم أولياء من دون الله يزعمونها نافعة لهم تنصرهم. أي: حسبوا حسبانا باطلا فلم يغن عنهم ما حسبوه شيئا، ولأجله { كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً }.

{ **أَفَحَسِبَ** } تقدّم حرف الاستفهام على فاء العطف لأنّ للاستفهام صدر الكلام وهو كثير في أمثاله. والاستفهام إنكاري. والإنكار عليهم فيما يحسبونه يقتضي أنّ ما ظنّوه باطل. ونظيره قوله تعالى { أَحَسِبَ النّاس أَنْ يُتْرَكُوا } [العنكبوت:2].

{ **الَّذِينَ كَفَرُوا** } إظهار الذين كفروا دون أن يقال: أفحسبوا، بإعادة الضمير إلى الكافرين في الآية قبلها، لقصد استقلال الجملة بدلالتها، وزيادة في إظهار التوبيخ لهم.
{ **أَنْ يَتَّخِذُوا** } صيغ فعل الاتخاذ بصيغة المضارع للدلالة على تجدّده منهم وأنّهم غير مقلعين عنه.
وجَعل في (الكشّاف) فعل { يَتَّخِذُوا } للمستقبل. أي: أحسبوا أن يتّخذوا عبادي أولياء يوم القيامة، كما اتخذوهم في الدنيا. ونظَّره بقوله تعالى { وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ } [سبأ:41/40].
{ **عِبَادِي** } صادق على الملائكة والجن والشياطين ومن عبدوهم من الأخيار مثل عيسى عليه السلام، ويصدق على الأصنام بطريق التغليب.
{ **مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ** } <u>إمّا يجعل</u> { دُونِي } اسما بمعنى **حول**، أي: من حول عذابي، وتأويل { أَوْلِيَاءَ } بمعنى أنصارا، أي: حائلين دون عذابي ومانعينهم منه.
<u>وإمّا يجعل</u> دوني بمعنى **غيري**. أي: أحسبوا أنّهم يستغنون بولايتهم.
{ **إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً** } مقرّرة لإنكار انتفاعهم بأوليائهم، فأكّد بأنّ جهنم أُعدّت لهم نزلا، فلا محيص لهم عنها، ولذلك أكّد بحرف (إنّ).
{ **أَعْتَدْنَا** } أعددنا، أُبدل الدال الأول تاء لقرب الحرفين، والإعداد: التهيئة، وتقدّم آنفا عند قوله تعالى { إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً } [29]. وجُعل المسند إليه ضمير الجلالة لإدخال الروع في ضمائر المشركين.
النُّزُل (بضمتين): ما يُعدّ للنزيل والضيف من القِرى. وإطلاق اسم النزل على العذاب استعارة علاقتها التهكّم.

{ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً [103] الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً [104] }.

اعتراض باستئناف ابتدائي أثاره مضمون جملة { أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا }. فإنّهم لمّا اتّخذوا أولياء من ليسوا ينفعونهم، فاختاروا الأصنام وعبدوها وتقرّبوا إليها بما أمكنهم من القرب، اغترارا بأنّها تدفع عنهم، وهي لا تغني عنهم شيئا، فكان عملهم خاسرا وسعيهم باطلا.
{ **قُلْ** } افتتاح الجملة بالأمر بالقول للاهتمام بالمقول بإصغاء السامعين، لأنّ مثل هذا الافتتاح يُشعر بأنّه في غرض مُهِمّ.
{ **هَلْ نُنَبِّئُكُمْ** } كذلك افتتاحه باستفهامهم عن إنبائهم استفهاما مستعملا في العرض لأنّه بمعنى: أتحبون أن ننبّئكم بالأخسرين أعمالا، وهو عرض تهكّم، لأنّه منبئهم بذلك دون توقّف على رضاهم.
ونون المتكلّم المشارك في قوله تعالى { **نُنَبِّئُكُمْ** } <u>يجوز</u> أن تكون نون العظمة راجعة إلى ذات الله على طريقة الالتفات في الحكاية. <u>ويجوز</u> أن تكون للمتكلّم المشارك راجعة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم

وإلى الله تعالى، لأنّه ينبئهم بما يوحى إليه من ربّه. ويجوز أن تكون راجعة للرسول وللمسلمين.

{ **بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ...**} تمليح، إذ عُدل فيه عن طريقة الخطاب، بأن يقال لهم: هل ننبئكم بأنّكم الأخسرون أعمالا، إلى طريقة الغيبة بحيث يستشرفون إلى معرفة هؤلاء الأخسرين فما يروعهم إلّا أن يعلموا أنّ المخبَر عنهم هم أنفسهم.

والمقول لهم: المشركون توبيخا لهم وتنبيها على ما غفلوا عنه من خيبة سعيهم.

{ **الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ** } بدل من { بالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً } وفي هذا الإطناب زيادة التشويق إلى معرفة هؤلاء الأخسرين حيث أجرى عليهم من الأوصاف ما يزيد السامع حرصا على معرفة الموصوفين بتلك الأوصاف والأحوال.

الضلال: خطأ السبيل. شُبّه سعيهم غير المثمر بالسير في طريق غير موصلة.

السعي: المشي في شدّة. وهو هنا مجاز في العمل كما تقدّم عند قوله تعالى { وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا } [الإسراء:19]، أي: عملوا أعمالا تقرّبوا بها للأصنام يحسبونها مبلّغة إيّاهم أغراضا وقد أخطأوها وهم يحسبون أنّهم يفعلون خيرا.

وإسناد الضلال إلى سعيهم مجاز عقلي. والمعنى: الذين ضلّوا في سعيهم.

{ **يَحْسَبُونَ / يُحْسِنُونَ** } جناس مصحَّف، وقد مُثّل بهما في مبحث الجناس.

{ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً } [105].

استئناف بياني بعد قوله تعالى { قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ }.

{ **أُولَئِكَ** } اسم الإشارة لتمييزهم أكمل تميز لئلّا يلتبسوا بغيرهم. وللتنبيه على أنّ المشار إليهم أحرياء بما بعد اسم الإشارة من حكم بسبب ما أجري عليهم من الأوصاف.

الآيات: القرآن والمعجزات.

الحبط: البطلان والدحض.

{ **فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً** } نفي إقامة الوزن مستعمل في عدم الاعتداد بالشيء. وفي حقارته لأنّ النّاس يزنون الأشياء المتنافس في مقاديرها والشيء التافه لا يوزن، فشُبّهوا بالمحقّرات.

وجُعل عدم إقامة الوزن مفرَّعا على حبط أعمالهم، لأنّهم بحبط أعمالهم صاروا محقَّرين لا شيء لهم من الصالحات.

{ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً } [106].

الإشارة إمّا إلى ما تقدّم من وعيدهم في قوله تعالى { إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً }، أي: ذلك الإعداد

جزاؤهم. وإمّا إلى مقدّر في الذهن دلّ عليه السياق بيّنه ما بعده. والتقدير: الأمر والشأن ذلك جزاؤهم جهنّم.

{ **وَاتَّخَذُوا** } عطف على { كَفرُوا } فهو من صلة (ما) المصدريّة. والتقدير: وبما اتخذوا آياتي ورسلي هزوا.

{ **وَرُسُلِي** } يجوز أن يراد به حقيقة الجمع فيكون إخبارا عن حال كفار قريش ومن سبقهم من الأمم المكذّبين، ويجوز أن يراد به الرّسول صلى الله عليه وسلم، الذي أرسل إلى النّاس كلّهم وأطلق عليه اسم الجمع تعظيما، كما في قوله تعالى { نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ } [ابراهيم:44].

{ **هُزُواً** } (بضمّتين) مصدر بمعنى المفعول. وهو أشد مبالغة، أي: كانوا كثيري الهزو بهم.

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً [107] **خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً** [108] }.

هذا مقابل قوله تعالى { إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً } على عادة القرآن في ذكر البشارة بعد الإنذار. وهي مؤكَّدة كي لا يظنّ ظان أنّ جزاء المؤمنين غير مهتمّ بتأكيده.

{ **الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** } جعل المسند إليه الموصول بصلة الإيمان وعمل الصالحات للاهتمام بشأن أعمالهم، فلذلك خولف نظم الجملة التي تقابلها فلم يقل: جزاؤهم الجنّة. وقد تقدّم نظير هذا الأسلوب في المخالف بين وصف الجزاءين عند قوله تعالى في هذه السورة { إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا } [29]، ثم قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً } [30].

{ **كَانَتْ** } دلالة على أنّ استحقاقهم الجنّات أمر مستقرّ من قبل مهيّأ لهم.

{ **لَهُمْ** } جيء بلام الاستحقاق تكريما لهم بأنّهم نالوا الجنّة باستحقاق إيمانهم وعملهم.

{ **جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً** } جمع الجنّات إيماء إلى سعة نعيمهم، وأنّها جنات كثيرة كما جاء في الحديث : " **إنّها جنان كثيرة** ".

الفردوس: البستان الجامع لكلّ ما يكون في البساتين. وعن مجاهد هو معرَّب عن الروميّة. وقيل: عن السريانية. وقال الفراء: هو عربي. ولم يرد ذكره في كلام العرب قبل القرآن.

وأهل الشام يقولون للبساتين والكروم: الفراديس. وفي مدينة حلب باب يسمّى باب الفراديس.

وإضافة الجنّات إلى الفردوس بيانية، أي: جنّات هي من صنف الفردوس. وورد في الحديث أنّ الفردوس أعلى الجنّة أو وسط الجنّة. وذلك إطلاق آخر على هذا المكان المخصوص يرجع إلى أنّه علم بالغلبة.

{ **لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً** } أي: ليس بعدما حوته تلك الجنات من ضروب اللذات والتمتع ما تتطلع النفوس

إليه فتودّ مفارقة ما هي فيه إلى ما هو خير منه. أي: هم يجدون فيها كل ما يخامر أنفسهم من المشتهى.
الحِوَل: مصدر بوزن العِوَج والصِغَر. المفارقة والانتقال.

{ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً} [109].

لمّا ابتدئت هذه السورة بالتنويه بشأن القرآن، ثم أفيض فيها من أفانين الإرشاد والإنذار والوعد والوعيد، وذُكر فيها من أحسن القصص ما فيه عبرة وموعظة، وما هو خفيّ من أحوال الأمم، حُوِّل الكلام إلى الإيذان بأنّ كلّ ذلك قليل من عظيم علم الله تعالى.

فهذا استئناف ابتدائي وهو انتقال إلى التنويه بعلم الله تعالى، مفيض العلم على رسوله صلى الله عليه وسلم. لأنّ المشركين لمّا سألوه عن أشياء يظنّونها مفحمة للرسول وأن لا قبل له بعلمها، علّمه الله إيّاها، وأخبر عنها أصدق خبر، وبيّنها بأقصى ما تقبله أفهامهم، وبما يقصر عنه علم الذين أغروا المشركين بالسؤال عنها، وكان آخرها خبر ذي القرنين، أتبع ذلك بما يُعلم منه سعة علم الله تعالى وسعة ما يجري على وفق علمه من الوحي، إذا أراد إبلاغ بعض ما في علمه إلى أحد من رسله. وفي هذا ردّ عجز السورة على صدرها.

كلمات الله: ما يدلّ على شيء من علمه ممّا يوحي إلى رسله أن يبلّغوه، فكلّ معلوم يمكن أن يخبر به، فإذا أخبر به صار كلمة. ولذلك يطلق على المعلومات كلمات لأنّ الله أخبر بكثير منها ولو شاء لأخبر بغيرها. فإطلاق الكلمات عليها مجاز بعلاقة المآل. ونظيرها قوله تعالى { وَلَوْ أَنَّمَا في الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ } [لقمان:27].وفي هذا دليل لإثبات الكلام النفسي، ولإثبات التعلّق الصلوحي لصفة العلم. وقلّ من يتنبه لهذا التعلّق.

ولما كان شأن ما يخبر الله به على لسان أحد رسله أن يُكتب حرصا على بقائه في الأمّة، شُبّهت معلومات الله المخبر بها والمطلق عليها كلمات بالمكتوبات.

{ **لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً** } المداد يطلق على الحبر لأنّه تُمد به الدواة، أي: يمد به ما كان فيها من نوعه، ويطلق المداد على الزيت الذي يُمد به السراج، فقد شُبّه نور الله وهديه بالمصباح في قوله تعالى { مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فيهَا مِصْبَاحٌ } [النور:35].

وغلب إطلاقه على الحبر. وهو في هذه الآية يحتمل المعنيين.

النفاد: الفناء والاضمحلال. ونفاد البحر ممكن عقلا. وأمّا نفاد كلمات الله، بمعنى تعلّقات علمه فمستحيل، فلا يُفهم من تقييد نفاد كلمات الله بقيد الظرف وهو { قَبْلَ } إمكان نفاد كلمات الله. والكلام كناية عن عدم تناهي معلومات الله تعالى التي منها تلك المسائل الثلاث التي سألوا عنها النبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ **وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا** } في موضع الحال. و(لو) وصلية، وهي الدالة على حالة هي أجدر الأحوال بأن

لا يتحقّق معها مفاد الكلام السابق، فيُنبَّه السامع على أنّها متحقّق معها مُفاد الكلام السابق. وقد تقدّم عند قوله تعالى { فلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افتَدَى بِه } [آل عمران:91]. وهذا مبالغة ثانية.
{ **مَدَدًا** } انتصب على التمييز المفسر للإبهام الذي في لفظ { بِمِثْلِهِ } أي: مثل البحر في الإمداد.

{ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً } [100].

استئناف ثان، انتقل به من التنويه بسعة علم الله تعالى وأنّه لا يعجزه أن يوحي إلى رسوله بعلم كل ما يُسأل عن الإخبار به، إلى إعلامهم بأنّ الرّسول لم يبعث للإخبار عن الحوادث الماضية والقرون الخالية. ولا أنّ من مقتضى الرسالة أن يحيط علم الرسول بالأشياء، فيتصدّى للإجابة عن أسئلة تلقى إليه، ولكنّه بشر علمه كعلم البشر، أوحى الله إليه بما شاء إبلاغه عباده من التوحيد والشريعة. ولا علم له إلّا ما علّمه ربّه، كما قال تعالى { قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي } [الأعراف:203].
{ **إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ** } فالحصر قصر الموصوف على الصفة وهو إضافي للقلب. أي: ما أنا إلّا بشر لا أتجاوز البشريةّ إلى العلم بالمغيَّبات.
وأدمج في هذا أهم ما يوحى إليه وما بعث لأجله وهو توحيد الله والسعي لما فيه السلامة عند لقاء الله تعالى. وهذا من رد العجز على الصدر من قوله تعالى في أوّل السورة { لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْه - إلى قوله - إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً } [2-5].
{ **فمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً** } هو من جملة الموحى به إليه. أي: يُوحى إليَّ بوحدانية الإله وبإثبات البعث وبالأعمال الصالحة.
فجاء النظم بطريقة بديعة في إفادة الأصول الثلاثة، إذ جعل التوحيد أصلا لها وفُرّع عليه الأصلان الآخران، وأكِّد الإخبار بالوحدانية بالنهي عن الإشراك بعبادة الله تعالى. وحصل مع ذلك ردّ العجز على الصدر وهو أسلوب بديع.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة مريم

اسم هذه السورة في المصاحف وكتب التفسير وأكثر كتب السنّة (**سورة مريم**).

ورويت هذه التسمية عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في حديث رواه الطبراني والديلمي، ولا أحسب الحديث المروي عنه مقبولا.

وابن عباس سمّاها سورة (**كهيعص**)، وكذلك وقعت تسميتها في صحيح البخاري في كتاب التفسير في أكثر النسخ وأصحّها. ولم يعدّها جلال الدين في الإتقان في عداد السور المسمّاة باسمين ولعلّه لم ير الثاني اسما.

وهي مكّيّة عند الجمهور. وعن مقاتل: أنّ آية السجدة مدنية. ولا يستقيم هذا القول لاتصال تلك الآية بالآيات قبلها إلّا أن تكون ألحقت بها في النزول، وهو بعيد.

وهي السورة الرابعة والأربعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة فاطر وقبل سورة طه. وكان نزول سورة طه قبل إسلام عمر بن الخطاب كما يُؤخذ من قصّة إسلامه، فيكون نزول هذه السورة أثناء سنة أربع من البعثة.

ووجه التسمية أنّها بُسطت فيها قصّة مريم وابنها وأهلها قبل أن تُفصّل في غيرها.

ولا يشبهها في ذلك إلّا سورة آل عمران التي نزلت في المدينة.

وعُدّت آياتها في عدد أهل المدينة ومكّة **تسعا وتسعين**. وفي عدد أهل الشام والكوفة ثمانا وتسعين.

أغراض السورة

*/ يظهر أنّ هذه السورة نزلت للردّ على اليهود فيما اقترفوه من القول الشنيع في مريم وابنها، فكان فيها بيان نزاهة آل عمران وقداستهم في الخير.

*/ التنويه بجمع من الأنبياء والمرسلين من أسلاف هؤلاء وقرابتهم.

*/ الإنحاء على بعض خلفهم من ذرّيّاتهم الذين لم يكونوا على سننهم في الخير، من أهل الكتاب والمشركين وأتوا بفاحش من القول إذ نسبوا لله ولدا، وأنكر المشركون منهم البعث وأثبت النصارى ولدا لله تعالى.

*/ التنويه بشأن القرآن في تبشيره ونذارته. وأنّ الله يسّره بكونه عربيا ليسر تلك اللغة.

*/ الإنذار ممّا حلّ بالمكذّبين من الأمم من الاستئصال.

*/ اشتملت على كرامة زكرياء إذ أجاب الله دعاءه فرزقه ولدا على الكبر وعقر امرأته.

*/ كرامة مريم بخارق العادة في حملها وقداسة ولدها، وهو إرهاص لنبوّة عيسى عليه السلام، ومثله كلامه في المهد.

*/ التنويه بإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وموسى، وإسماعيل، وإدريس عليهم السلام.

*/ وصف الجنّة وأهلها.

*/ حكاية إنكار المشركين البعث بمقالة أُبيّ بن خلف والعاصي ابن وائل وتبجّحهم على المسلمين بمقامهم ومجامعهم.

*/ إنذار المشركين أنّ أصنامهم التي اعتزّوا بها سيندمون على اتّخاذها.

*/ وعد الرسول النصر على أعدائه.

*/ ذكر ضرب من كفرهم بنسبة الولد لله تعالى.

*/ التنويه بالقرآن، وأنّه بشير لأوليائه ونذير بهلاك معانديه كما هلكت قرون قبلهم.

وقد تكرّر في هذه السورة صفة الرحمان ست عشرة مرّة، وذكر اسم الرحمة أربع مرات، فأنبأ بأنّ من مقاصدها تحقيق وصف الله تعالى بصفة الرحمان. والردّ على المشركين الذين تقعّروا بإنكار هذا الوصف كما حكى الله تعالى عنهم في قوله { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ } [الفرقان:60].

ووقع في هذه السورة استطراد بآية { وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ ربّك } [64].

{ **كهيعص** } [1].

حروف هجاء مرسومة بمسمّياتها ومقروءة بأسمائها فكأنّها كتبت لمن يتهجّاها. وقد تقدّم القول في مجموع نظائرها. وفي المختار من الأقوال منها في سورة البقرة، وكذلك موقعها من الكلام.

والأصل في النطق بهذه الحروف أن يكون كلّ حرف منها موقوفا عليه، لأنّ الأصل فيها أنّها تعداد حروف مستقلة أو مختزلة من كلمات. وقرأ الجمهور جميع أسماء هذه الحروف الخمسة بإخلاص الحركات والسكون بإسكان أواخر أسمائها.

{ **ذِكْرُ رَحْمَتِ ربّك عَبْدَهُ زَكَرِيَّا** [2] **إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً** [3] }.

افتتاح كلام، فيتعيّن أنّ { ذِكْرُ } خبر مبتدأ محذوف. والتقدير: هذا ذكر رحمة ربّك عبده. وهو بمعنى: اذكر.

وقد جاء نظم هذا الكلام على طريقة بديعة من الإيجاز والعدول عن الأسلوب المتعارف في الإخبار، وأصل الكلام: ذكر عبدنا زكرياء إذ نادى ربّه.

{ **رَحْمَتِ ربّك عَبْدَهُ زَكَرِيَّا** } في تقديم الخبر اهتمام بهذه المنقبة له، والإنباء بأنّ الله يرحم من التجأ إليه، مع ما في إضافة (رَبِّ) إلى ضمير النبيّ صلى الله عليه وسلم وإلى ضمير زكرياء من التنويه بهما.

وافتُتحت قصّة مريم وعيسى بما يتّصل بها من شؤون آل بيت مريم وكافلها لأنّ في تلك الأحوال كلّها تذكيرا برحمة الله تعالى وكرامته لأوليائه.

والمراد بالرحمة: استجابة دعائه، كما سيُصرَّح به بقوله تعالى { يَا زكرياء إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى} وإنّما حُكي في الآية وصف دعاء زكرياء كما وقع.

{ **زَكَرِيَّا** } نبي من أنبياء بني إسرائيل، وهو زكرياء الثاني زوجُ خالة مريم، وليس له كتاب في أسفار التوراة، وأمّا الذي له كتاب فهو (زكرياء بن برخيا) الذي كان موجودا في القرن السادس قبل المسيح. وقد مضت ترجمة زكرياء الثاني في سورة آل عمران ومضت قصّة دعائه هنالك.

{ **إِذْ نَادَى رَبَّهُ** } ظرف لـ { رَحْمَتِ }، أي: رحمة الله إيّاه في ذلك الوقت، أو بدل من { ذِكْرُ }.

النداء: أصله رفع الصوت بطلب الإقبال. وتقدّم عند قوله تعالى { رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ } [آل عمران:193]، وقوله تعالى { وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أورثتموها } [الأعراف:43]. ويطلق النداء كثيرا على الكلام الذي فيه طلب إقبال الذات لعمل أو إقبال الذهن لوعي كلام، فلذلك سُمّيت الحروف التي يُفتتح بها طلب الإقبال حروف النداء. ويطلق على الدعاء بطلب حاجة وإن لم يكن فيه نداء، لأنّ شأن الدعاء في المتعارف أن يكون جهرا، أي: تضرّعا، لأنّه أوقع في نفس المدعو.

{ **نِدَاءً خَفِيّاً** } أي: بصوت خفيّ. وإنّما كان خفيّا لأنّ زكرياء رأى أنّه أَدْخل في الإخلاص، مع رجائه أنّ الله يجيب دعوته، لئلّا تكون استجابته ممّا يتحدّث به الناس. فلذلك لم يدعه تضرّعا، وإن كان التضرّع أعون على صدق التوجه غالبا. فلعلّ يقين زكرياء كاف في تقوية التوجّه.

ولا منافاة بين كونه نداء وكونه خفيّا، لأنّه نداء من يسمع الخفاء.

{ **قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً** [4] **وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً** [5] **يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً** [6] }.

{ **قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً** } مبيّنة لجملة { نَادَى رَبَّهُ } وهي وما بعدها تمهيد للمقصود من الدعاء، وهو قوله { فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً } وإنّما كان ذلك تمهيدا لما يتضمّنه من اضطراره لسؤال الولد. والله يجيب المضطرّ إذا دعاه. فليس سؤاله الولد سؤال توسعة لمجرّد تمتّع أو فخر.

الوهن: الضعف. وإسناده إلى العظم دون غيره ممّا شمله الوهن في جسده لأنّه أوجز في الدلالة على عموم الوهن جميع بدنه، لأنّ العظم هو قوام البدن وهو أصلب شيء فيه فلا يبلغه الوهن إلّا وقد بلغ ما فوقه.

{ **وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً** } شبّه عموم الشيب شعرَ رأسه أو غلبته عليه باشتعال النار في الفحم، تشبيها مركّبا تمثيليا قابلا لاعتبار التفريق في التشبيه. وهو أبدع أنواع المركّب. فشبّه الشعر الأسود بفحم والشعر الأبيض بنار، على طريق التمثيلية المكنية ورمز إلى الأمرين بفعل { اشْتَعَل }.

وعموم الشيب في الرأس أمارة التوغّل في كبر السنّ. وإسناد الاشتعال إلى الرأس مجاز عقلي.

وأصل النظم المعتاد: واشتعل الشيب في شعر الرأس.

الشيب: بياض الشعر. ويعرض للشعر البياض بسبب نقصان المادة التي تعطي اللون الأصلي للشعر، ونقصانها بسبب كبر السن غالبا، فلذلك كان الشيب علامة على الكبر، وقد يَبْيَض الشعر من مرض.

{ **وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً** } معترضة بين الجمل التمهيدية. والباء للمصاحبة.

الشقيّ: الذي أصابته الشقوة، وهي ضدّ السعادة، أي: هي الحرمان من المأمول وضلال السعي. وأطلق نفي الشقاوة والمراد حصول ضدّها وهو السعادة على طريق الكناية، إذ لا واسطة بينهما عرفا.

ومثل هذا التركيب جرى في كلامهم مجري المثل في حصول السعادة من شيء. ونظيره قوله تعالى في هذه السورة في قصّة إبراهيم { عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً } [48]. وفي حديث أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربّه في شأن الذين يذكرون الله: " **هم الجلساء لا يشقي بهم**

جليسهم ".

والمعنى: لم أكن فيما دعوتك من قبل مردود الدعوة منك، أي: أنّه قد عهد من الله الاستجابة كلّما دعاه. وهذا تمهيد للإجابة من طريق غير طريق التمهيد الذي في الجمل المصاحبة له، بل طريق الحثّ على استمرار جميل صنع الله معه، وتوسّلٌ إليه بما سلف له معه من الاستجابة.

روي أنّ محتاجا سأل حاتمًا الطائي أو معنَ بن زائدة قائلا: أنا الذي أحسنت إليَّ يوم كذا، فقال: مرحبا بمن توسّل بنا إلينا.

{ **وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائي** }، أي: قاربت الوفاة وخفت الموالي من بعدي.

الموالي: العصبة وأقرب القرابة، جمع مولى بمعنى الولي.

{ **مِنْ وَرَائي** } من بعدي، فإنّ الوراء يطلق ويراد به ما بعد الشيء. أي: من بعد حياتي.

{ **امْرَأَتِي** } وامرأة زكرياء اسمها (إليصابات) من نسل هارون أخي موسى فهي من سبط لاوي.

العاقر: الأنثى التي لا تلد، فهو وصف خاص بالمرأة، ولذلك جرّد من علامة التأنيث إذ لا لبس. ومصدره العَقْر (بفتح العين وضمها مع سكون القاف).

{ **مِنْ لَدُنْكَ** } لأنّ المتكلّم يعلم أنّ كل شيء من عند الله، بتقديره وخلقه الأسباب ومسبباتها تبعا لخلقها، فلمّا قال { مِنْ لَدُنْكَ } دلّ على أنّه سأل كرامة لانعدام الأسباب المعتادة.

{ **يَرِثُنِي** } يعني به وراثة ماله. ويؤيده ما روي عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وأبي صالح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم مرسلا أنّه قال: **" يرحم الله زكرياء ما كان عليه من وراثة ماله "**.

أو لعلّه خشي سوء معرفتهم بما يخلّفه من الآثار الدينية والعلمية، فإنّ نفوس الأنبياء لا تطمح إلّا لمعالي الأمور ومصالح الدين، وما سوى ذلك فهو تبع.

والظواهر تؤذن بأنّ الأنبياء كانوا يورِّثون، قال تعالى { وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ }. وأمّا قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" نحن معشر الأنبياء لا نورِّث ما تركنا صدقة "**، فإنّما يريد به رسول الله نفسه، كما حمله عليه عمر في حديثه مع العباس وعليّ في صحيح البخاري، إذ قال عمر: يريد رسول الله بذلك نفسه. فيكون ذلك من خصوصيات محمد صلى الله عليه وسلم.

فإن كان ذلك حكما سابقا كان مراد زكرياء إرث آثار النبوّة خاصة، من الكتب المقدّسة وتقاييده عليها.

{ **وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ** } يجوز أن يراد بهم خاصة بني إسرائيل كما يقتضيه لفظ { آلِ } المشعر بالفضيلة والشرف، فيكون يعقوب هو إسرائيل، كأنّه قال: ويرث من آل إسرائيل، أي: حملة الشريعة وأحبار اليهوديّة كقوله تعالى { فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ } [النساء:54]، وإنّما يذكر آل الرجل في مثل هذا السياق إذا كانوا على سنّته.

ويجوز أن يراد يعقوب آخر غير إسرائيل. وهو (يعقوب بن ماثان)، قاله: معقل والكلبي. وهو عم مريم أخو أبيها. وقيل: هو أخو زكريا، أي: ليس له أولاد، فيكون ابن زكرياء وارثا ليعقوب لأنّه ابن أخيه.

{ **يَا زكرياء إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً** [7] **قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً** [8] }.

مقول قول محذوف دلّ عليه السياق عقب الدعاء إيجازا.

التبشير: الوعد بالعطاء. وفي الحديث أنه قال للأنصار: " **فأبشروا وأمِّلوا** ". وفي حديث وفد بني تميم: " **اقبلوا البشرى**"، فقالوا: بشرّتنا فأعطيتنا.

{ **اسْمُهُ يَحْيَى** } سمّيه يحيى، خبر مستعمل في الأمر.

{ **سَمِيّاً** } السَّمِيُّ فسّروه بالموافق في الاسم، أي: لم نجعل له من يوافقه في هذا الاسم من قبل وجوده. وهذه منّة من الله وإكرام لزكريا إذا جعل اسم ابنه مبتكرا. وللأسماء المبتكرة مزيّة قوّة تعريف المسمَّى لقلّة الاشتراك. وله مزيّة اقتداء النّاس به من بعد حين يسمّون أبناءهم ذلك الاسم، تيمّنا واستجادة.

وعندي: أن السَّمي هنا هو الموافق في الاسم الوصفي بإطلاق الاسم على الوصف، كما في قوله تعالى { لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى } [النجم:27]، أي: يصفونهم أنهم إناث.

والمعنى: أنهّ لم يجيء قبل يحيى من الأنبياء من اجتمع له ما اجتمع ليحيى:

*/ فإنّه أعطي النبوّة وهو صبي، قال تعالى { وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً } [12].

*/ وجُعل حصورا ليكون غير مشقوق عليه في عصمته عن الحرام.

*/ وولد لأبيه بعد الشيخوخة ولأمّه بعد العقر.

*/ وبُعث مبشرا برسالة عيسى عليه السلام، ولم يكن هو رسولا.

*/ وجُعل اسمه العلم مبتكرا غير سابق من قلبه.

وهذه مزايا وفضائل وهبت له ولأبيه، وهي لا تقتضي أنه أفضل الأنبياء لأنّ الأفضلية تكون بمجموع فضائل لا ببعضها وإن جلَّت، ولذلك قيل: المزيّة لا تقتضي الأفضلية، وهي كلمة صدق.

{ **قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ** } جواب للبشارة. و{ أَنَّى } استفهام مستعمل في التعجّب. والتعجّب مُكنّى به عن الشكر، فهو اعتراف بأنّها عطية عزيزة غير مألوفة، لأنه لا يجوز أن يسأل الله أن يهب له ولدا ثمّ يتعجب من استجابة الله له. ويجوز أن يكون قد ظنّ الله يهب له ولدا من امرأة أخرى بأن يأذنه بتزوج امرأة غير عاقر، وتقدّم القول في نظير هذه الآية في سورة آل عمران.

{ **وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً** } وهو يقتضي أنّ زكرياء كان يظنّ أنّ عدم الولادة بسبب عقر امرأته، وكان النّاس يحسبون ذلك إذا لم يكن بالرجل عُنَّة ولا خصاء ولا اعتراض، لأنّهم يحسبون الإنعاض والإنزال هما سبب الحمل إن لم تكن بالمرأة عاهة العُقر.

{ **وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً** } مجاز في معنى التعليل.

الكبر: كثرة سني العمر. لأنّه يقارنه ظهور قلة النشاط واختلال نظام الجسم.

البلوغ: مجاز في حلول الإبّان. وجعل نفسه هنا بالغا الكبر، وفي آل عمران { وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ } [40].

{ **عِتِيّاً** } العُتيّ (بضم العين) في قراءة الجمهور: مصدر (عَتَا) العود إذا يبس.
شبَّه عظامه بالأعواد اليابسة على طريقة المكنية، وإثبات وصف العُتي لها استعارة تخييلية.

{ **قَالَ كَذَلِكَ قَالَ ربّك هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً** } [9].

جواب عن تعجّبه. والمقصود منه إبطال التعجّب. وضمير { قَالَ } عائد إلى الربّ.

{ **كَذَلِكَ** } الإشارة إلى قول زكرياء { وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً }، أي: كذلك الحال من كبرك وعقر امرأتك قدّر ربّك، ففعل { **قَالَ رَبُّكَ** } مراد به القول التكويني، أي: التقديري، أي: تعلّق الإرادة والقدرة. والمقصود من تقديره التمهيد لإبطال التعجّب.

ويجوز أن يكون المشار إليه بقول { كَذَلِكَ } هو القول المأخوذ من { قَالَ رَبُّكَ }، أي: أنّ قول ربك { هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ } بلغ غاية الوضوح في بابه بحيث لا يبين بأكثر ممّا علمت، فيكون جاريا على طريقة التشبيه كقوله تعالى { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً } [البقرة:143].

{ **هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ** } استئناف بياني جوابا لسؤال ناشئ عن قوله تعالى { كَذَلِكَ }. وعلى الاحتمال الثاني الجملة تعليل لإبطال التعجّب إبطالا مستفادا من قوله تعالى { كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ }.

الهيّن (بتشديد الياء): السهل حصوله.

{ **وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ** } على الاحتمالين هي في موضع الحال. أي: إيجاد الغلام لك هيّن عليّ في حال كوني قد خلقتك ولم تكن موجودا، فكما لا عجب من خلق الولد في الأحوال المألوفة، كذلك لا عجب من خلق الولد في الأحوال النادرة، إذ هما إيجاد بعد عدم.

{ **وَلَمْ تَكُ شَيْئاً** } لم تكن موجودا.

وقرأ الجمهور { وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ } بتاء المتكلم. وقرأه حمزة والكسائي وخلف { وقد خلقناك } بنون العظمة.

{ **قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النّاس ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً** } [10].

أراد نصب علامة على وقوع الحمل بالغلام، لأنّ البشارة لم تعيّن زمنا، وقد يتأخر الموعود به لحكمة، فأراد زكرياء أن يعلم وقت الموعود به. وفي هذا الاستعجال تعريض بطلب المبادرة به.

{ **آيَتُكَ** } أي: آية لك، أي: جعلنا علامة لك.

{ **أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ** } أي: أن لا تقدر على الكلام، لأنّ ذلك هو المناسب لكونه آية من قبل الله تعالى. وليس المراد نهيه عن كلام النّاس، وقد قدّمنا تحقيق ذلك في سورة آل عمران.

{ **ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً** } جُعلت مدّة انتفاء تكليمه النّاس هنا ثلاث ليال، وجُعلت في سورة آل عمران ثلاثة أيام فعلم أنّ المراد هنا ليال بأيامها، وأنّ المراد في آل عمران أيام بلياليها.

{ **سَوِيّاً** } أكّد ذلك بوصفها، أي: ثلاث ليال كاملة، أي: بأيامها.
سويّ: فعيل بمعنى مفعول، يستوي الوصف به الواحد والواحدة والمتعدد منهما.
وفسّر أيضا { سَوِيّاً } بأنّه حال من ضمير المخاطب، أي: حال كونك سويّا، أي: بدون عاهة الخرس والبكم. وعلى هذا فذكر الوصف لمجرّد تأكيد الطمأنينة الحاصلة بالتقييد بثلاث ليال.

{ **فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً** } [11].
الظاهر أنّ المعنى أنّه خرج لصلاة الجماعة، إذ هو الحَبر الأعظم لهم.
وضُمّن (خَرَجَ) معنى (طلع) فعدّي بـ { عَلَى } كقوله تعالى { فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ } [القصص:79].
المحراب: بيت أو مُخْتَجَر يُخصَّص للعبادة الخاصة.
الوحي: الإشارة بالعين أو بغيرها، والإيماء لإفادة معنى شأنه أن يفاد بالكلام.
{ **أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً** } تفسير لـ { فَأَوْحَى }. وإنّما أمرهم بالتسبيح لئلّا يحسبوا أنّ زكرياء لمّا لم يكلمهم قد نذر صمتا فيقتدوا به فيصمتوا، وكان الصمت من صنوف العبادة في الأمم السالفة. كما سيأتي في قوله تعالى { فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً } [26]. فأومأ إليهم أن يشرعوا فيما اعتادوه من التسبيح. أو أراد أن يسبحوا الله تسبيح شكر على أن وهب نبيهم ابنا يرث علمه. ولعلّهم كانوا علموا ترقّبه استجابة دعوته.

{ **يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً** [12] **وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّاً** [13] **وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً** [14] }.
مقول قول محذوف، بقرينة أنّ هذا الكلام خطاب ليحيى، فلا محالة أنّه صادر من قائل، ولا يناسب إلّا أن يكون قولا من الله تعالى، وهو انتقال من البشارة به إلى نبوّته.
<u>والأظهر أنّ هذا من إخبار القرآن</u> للأمّة لا من حكاية ما قيل لزكرياء. فهذا ابتداء ذكر فضائل يحيى.
وطوي ما بين ذلك لعدم تعلّق الغرض به، والسياق يدلّ عليه. والتقدير: قلنا يا يحيى خذ الكتاب.
الكتاب: التوراة لا محالة، إذ لم يكن ليحيى كتاب منزّل عليه.
الأخذ: مستعار للتفهّم والتدبّر، كما يقال: أخذت العلم عن فلان، لأنّ المعتني بالشيء يشبه الآخذ.
القوّة: المراد بها قوّة معنوية، وهي العزيمة والثبات. والباء للملابسة، أي: على العمل به وحمل الأمّة على اتّباعه، فقد أخذ الوهن يتطرّق إلى الأمة اليهوديّة في العمل بدينها.
{ **وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً** } عطف على جملة القول المحذوفة، أي: قلنا: يا يحيى خذ الكتاب وآتيناه الحكم.

الحكم: اسم للحكمة. وتقدّم معناها في قوله تعالى { وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً } [البقرة:269]. قيل: هو الحكمة والفهم.

{ **صَبِيًّا** } حال من الضمير المنصوب في { آتَيْنَاهُ }. وهذا يقتضي أنّ الله أعطاه استقامة الفكر وإدراك الحقائق في حال الصبا على غير المعتاد، كما أعطى نبيّه محمدا صلى الله عليه وسلم الاستقامة وإصابة الرأي في صباه. ويبعد أن يكون يحيى أعطيّ النبوة وهو صبي، لأنّ النبوّة رتبة عظيمة فإنّما تعطى عند بلوغ الأشدّ. واتفق العلماء على أن يحيى أعطي النبوّة قبل بلوغ الأربعين سنة بكثير. ولعلّ الله لمّا أراد أن يكون شهيدا في مقتبل عمره باكره بالنبوّة.

الحنان: الشفقة. ومن صفات الله تعالى الحنّان. ومن كلام العرب: حنانيك، أي: حنانا منك بعد حنان. وجعل حنان يحيى من لدن الله إشارة إلى أنّه متجاوز المعتاد بين النّاس.

الزكاة: زكاة النفس ونقاؤها من الخبائث، كما في قوله تعالى { فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى } [النازعات:18].

تقيّ: فعيل بمعنى مُفعل، من اتّقى إذا اتّصف بالتقوى، وهي تجنّب ما يخالف الدين. وجيء في وصفه بالتقوى بفعل { كَانَ } للدلالة على تمكّنه من الوصف.

{ **وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ** } وكذلك عُطف بروره بوالديه على كونه تقيّا للدلالة على تمكّنه من هذا الوصف.

البرور: الإكرام والسعي في الطاعة. والبَرّ (بفتح الباء) وصف على وزن المصدر، فالوصف به مبالغة. وأمّا البِرّ (بكسر الباء) فهو اسم مصدر لعدم جريه على القياس.

الجبّار: المستخفّ بحقوق النّاس، كأنّه مشتقّ من الجبر، وهو القسر والغصب، لأنّه يغصب حقوق النّاس.

العصيّ: فعيل من أمثلة المبالغة، أي: شديد العصيان. والمبالغة منصرفة إلى النفي لا إلى المنفي، أي: لم يكن عاصيا بالمرّة.

{ وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً } [15].

الأظهر أنّه عطف على { وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً } مخاطبًا به المسلمين ليعلموا كرامة يحيى عند الله.

السلام: اسم الكلام الذي يُفاتح به الزائر والراحل، فيه ثناء أو دعاء. وسُمّي ذلك سلاما لأنّه يشتمل على الدعاء بالسلامة، ولأنّه يُؤذن بأنّ الذي أقدم هو عليه مسالم له لا يخشى منه بأسا. فالمراد هنا سلام من الله عليه، وهو ثناء الله عليه، كقوله تعالى { سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ } [يس:58].

فالمعنى: أنّ إكرام الله متمكّن من أحواله الثلاثة المذكورة: طور الورود على الدنيا، وطور الارتحال عنها، وطور الورود على الآخرة. وهذا كناية على أنّه بمحل العناية الإلهية في هذه الأحوال.

ولم تذكر قصّة قتله في القرآن إلّا إجمالا.

{ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً [16] فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً [17] قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً [18] قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً [19] قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً [20] قَالَ كَذَلِكِ قَالَ ربّك هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً [21] }.

عطف القصّة على القصّة فلا يراعى حسن اتحاد الجملتين في الخبرية والإنشائية.

{ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ** } المراد بـ { اذْكُرْ } التلاوة، أي: اتل خبر مريم الذي نقصّه عليك. وفي افتتاح القصّة بهذا زيادة اهتمام بها وتشويق للسامع أن يتعرّفها ويتدبّرها.

الكتاب: القرآن، لأنّ هذه القصّة من جملة القرآن. وقد اختصت هذه السورة بزيادة كلمة { فِي الْكِتَابِ }. وفائدة ذلك التنبيه إلى أنّ ذِكْر من أُمر بذكرهم كائن بآيات القرآن. ولم يأت مثل هذه الجملة في سورة أخرى لأنّه قد حصل علم المراد في هذه السورة فعُلم أنّه المراد في بقية الآيات التي جاء فيها لفظ (اذكر). ولعلّ سورة مريم هي أوّل سورة أتى فيها لفظ (اذكر) في قصص الأنبياء، فإنّها السورة الرابعة والأربعون في عدد نزول السور.

الانتباذ: الانفراد والاعتزال، لأنّ النبْذ: الإبعاد والطرح، فالانتباذ في الأصل افتعال مطاوع نبذه، ثمّ أطلق على الفعل الحاصل بدون سبق فاعل له.

{ **مَكَاناً** } مفعول { انْتَبَذَتْ } لتضمّنه معنى حلّت. ويجوز نصبه على الظرفيّة لما فيه من الإبهام.

والمعنى: ابتعدت عن أهلها في مكان شرقي.

ونُكّر المكان إبهاما له لعدم تعلّق الغرض بتعيين نوعه إذ لا يفيد كمالا في المقصود من القصّة. وأمّا التصدي لوصفه بأنّه شرقي فللتنبيه على أصل اتخاذ النصارى الشرق قبلة لصلواتهم، إذ كان حمل مريم بعيسى في مكان من جهة مشرق الشمس. كما قال ابن عباس: " إنّي لأعلم خلقِ الله لأيّ شيء اتخذت النصارى الشرقَ قبلة، لقوله تعالى { مَكَاناً شَرْقِيّاً } ". أي: أنّ ذلك الاستقبال ليس بأمر من الله تعالى. فذِكر كون المكان شرقيا نكتة بديعة من تاريخ الشرائع مع ما فيه من مؤاخاة الفواصل.

{ **فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً** } جعل شيء يحجب عن النّاس.

الروح: الملك، لأنّ تعليق الإرسال به وإضافته إلى ضمير الجلالة دلا على أنّه من الملائكة وقد تمثّل لها بشرا.

التمثّل: تكلّف المماثلة، أي: أنّ ذلك الشكل ليس شكل الملك بالأصالة.

{ **بَشَراً سَوِيّاً** } أي: الإنسان التام الخلق. وإنّما تمثّل لها كذلك للتناسب بين كمال الحقيقة وكمال الصورة.

{ **قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً** } للإشارة إلى كمال عصمتها، لأنّها حسبت أنّه بشر اختبأ لها ليراودها عن نفسها فبادرته بالتعوّذ منه قبل أن يكلّمها، مبادرة بالإنكار على ما توهمته من قصده الذي هو المتبادر من أمثاله في مثل تلك الحالة.

المعنى: أنّها أخبرته بأنّها جعلت الله معاذا لها منه. وذِكرها صفة الرحمان طلبا للرحمة.

{ **إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً** } هذا أبلغ وعظ وتذكير وحثّ على العمل بتقواه.

{ **قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ ربّك لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيّاً** } قصر إضافي، أي: لست بشرا.

{ **لِأَهَبَ** } قرأ الجمهور بهمزة المتكلّم بعد لام العلة. ومعنى إسناد الهبة إلى نفسه مجاز عقلي لأنّه سبب هذه الهبة. وقرأه أبو عمرو، وورش عن نافع (ليهب) بياء الغائب، أي ليهب ربّك لك، مع أنّها مكتوبة في المصحف بألف. وعندي أنّ قراءة هؤلاء بالياء بعد اللام إنّما هي للتخفيف.

{ **قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ** } محاورتها الملك محاولة قصدت بها صرفه عمّا جاء لأجله، لأنّها علمت أنّه مرسل من الله فأرادت مراجعة ربها في أمر لم تطقه. ومعنى المحاورة أنّ ذلك يجرّ لها ضرّا عظيما.

{ **وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ** } أي: لم يبن بي زوج، لأنّها كانت مخطوبة و مراكنة ليوسف النجّار ولكنه لم يبن بها فإذا حملت بولد اتهمها خطيبها وأهلها بالزنى.

{ **وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً** } الكلام كناية عن التنزّه عن الوصم بالبغاء.

وللمفسّرين في هذا المقام حيرة ذكرها الفخر والطيبي، وفيما ذكرنا مخرج من مأزقها. وليس كلام مريم مسوقا مساق الاستبعاد مثل قول زكريا { أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً } [8] لاختلاف الحالين لأنّ حال زكرياء حال راغب في حصول الولد، وحال مريم حال متشائم منه متبرئ من حصوله.

البغيّ: اسم للمرأة الزانية، ولذلك لم تتصل به هاء التأنيث.

{ **قَالَ كَذَلِكِ قَالَ ربّك** } جواب الملك معناه: أنّ الأمر كما قلت، نظير قوله في قصّة زكرياء { كَذَلِكَ قَالَ ربّك هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ }، وهو عدول عن إبطال مرادها من المراجعة، لا بيان هون هذا الخلق في جانب القدرة، على طريقة الأسلوب الحكيم.

{ **هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ** } توجيه بأنّ ما اشتكته من توقّع ضد قومها وطعنهم في عرضها ليس بأمر عظيم في جانب ما أراد الله من هدى النّاس لرسالة عيسى عليه السلام، فالله تعالى لا يصرفه عن إنفاذ مراده ما عسى أن يعرض من ضرّ في ذلك لبعض عبيده، لأنّ مراعاة المصالح العامّة متقدّم على مراعاة المصالح الخاصة.

فبين جواب الملك إيّاها وبين جواب الله زكرياء اختلاف في المعنى. والكلام في الموضوعين على لسان الملك من عند الله، ولكنّه أسند في قصّة زكرياء إلى الله لأنّ كلام الملك كان تبليغ وحي عن الله جوابا من الله عن مناجاة زكرياء، وأسند في هذه القصّة إلى الملك لأنّه جواب عن خطابها إيّاه.

{ **وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا** } عطف على { فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا }، أي: لأنّ هبة الغلام الزكيّ

كرامة من الله لها، وجعله آية للنّاس ورحمة كرامة للغلام، فوقع التفات من طريقة الغيبة إلى طريقة التكلّم.

{ **وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً** } يجوز أن تكون في قول المَلَك، ويجوز أن تكون مستأنفه. وضمير (كان) عائد إلى الوهب. وهذا قطع للمراجعة وإنباء بأنّ التخليق قد حصل في رحمها.

{ **فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً [22] فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً [23]** }.

{ **فَحَمَلَتْهُ** } الفاء للتفريع والتعقيب، أي: فحملت بالغلام في فور تلك المراجعة.

الحمل: العلوق، يقال: حملت المرأة ولدا، وهو الأصل، قال تعالى { حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً }. ويقال: حملت به.

الانتباذ: تقدّم قريبا.

{ **قَصِيًّا** } بعيدا، أي: بعيدا عن مكان أهلها. قيل: خرجت إلى البلاد المصريّة فرارا من قومها، ولا يصح. وفي إنجيل لوقا: أنّها ولدته في قرية بيت لحم من البلاد اليهوديّة حين صعدت إليها مع خطيبها يوسف النجار، إذ كان مطلوبا للحضور بقرية أهله لأنّ ملك البلاد يجري إحصاء سكان البلاد، وهو ظاهر قوله تعالى { فَأَتَتْ بِهِ قَومَهَا تَحْمِلُهُ }.

{ **فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ** } الفاء للتعقيب العرفي، و(أَجَاءَهَا) معناه ألجأها، وأصله جاء، عُدّي بالهمزة فقيل: أجاءه، أي: جعله جائيا. ثمّ أطلق مجازا على إلجاء شيء شيئا إلى شيء، كأنّه يضطرّه إلى المجيء إليه.

المَخاض (بفتح الميم): طلق الحامل، وهو تحرّك الجنين للخروج.

الجِذْع: العود الأصلي للنخلة الذي يتفرّع منه الجريد. وهو ما بين العروق والأغصان. أي: إلى أصل نخلة استندت إليه.

{ **قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً** } استئناف بياني. تمنّت الموت قبل ذلك، فهي في حالة من الحزن ترى أنّ الموت أهون عليها من الوقوع فيها. أرادت أن لا يتطرّق عرضها بطعن ولا تجرّ على أهلها معرّة. وهذا دليل على مقام صبرها وصدقها في تلقّي البلوى التي ابتلاها الله تعالى. فلذلك كانت في مقام الصدّيقية.

{ **مِتُّ** } قرأ الجمهور بكسر الميم للوجه الذي تقدّم في قوله تعالى { وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ } في سورة [آل عمران:157]. وقرأه ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، وعاصم، وأبو جعفر بضم الميم على الأصل. وهما لغتان في فعل { مات } إذا اتصل به ضمير رفع متصل.

{ **نَسْياً** } النِسْي (بكسر النون وسكون السين) في قراءة الجمهور: الشيء الحقير الذي شأنه أن يُنْسى. والعرب تُسمّي الأشياء التي يغلب إهمالها أنساء، ويقولون عند الارتحال: أنظروا أنساءكم، أي: الأشياء التي شأنكم أن تنسوها.

أي: ليتني كنت شيئا غير متذكّر وقد نسيه أهله وتركوه فلا يلتفتون إلى ما يحلّ به، فهي تمنت الموت وانقطاع ذكرها بين أهلها من قبل ذلك.

وقرأه حمزة، وحفص، وخلف { نَسْياً } بفتح النون، وهو لغة في النِّسي، كالوِتر والوَتر، والجِسر والجَسر.

{ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ ربّك تَحْتَكِ سَرِيّاً } [24].

{ نَادَاهَا } ضمير الرفع المستتر عائد إلى ما عاد عليه الضمير الغائب في { فَحَمَلَتْه }، أي: ناداها المولود.

وهذا إرهاص لعيسى وكرامة لأمّه عليهما السلام.

{ مِنْ تَحْتِهَا } القيد لتحقيق ذلك، ولإفادة أنّه ناداها عند وضعه قبل أن ترفعه، مبادرة للتسلية والبشارة وتصويرا لتلك الحالة التي هي حالة تمام اتصال الصبي بأمّه.

{ قَدْ جَعَلَ ربّك تَحْتَكِ سَرِيّاً } تعليل لجملة { أَلَّا تَحْزَنِي }، أي: أنّ حالتك حالة جديرة بالمسرّة دون الحزن لما فيها من الكرامة الإلهيّة.

السريّ: الجدول من الماء كالساقية، كثير الماء الجاري.

وهبها الله طعاما طيّبا وشرابا طيّبا كرامة لها يشهدها كلّ من يراها، وكان معها خطيبها يوسف النجار، ومن عسى أن يشهدها فيكون شاهدا بعصمتها وبراءتها ممّا يُظنّ بها. فأمّا الماء فلأنّه لم يكن الشأن أن تأوي إلى مجرى ماء لتضع عنده. وأما الرطب فقيل كان الوقت شتاء ولم يكن إبان رطب وكان جذع النخلة جذع نخلة ميتة فسقوط الرطب منها خارق للعادة. وإنما أعطيت رطبا دون التمر لأن الرطب أشهى للنفس إذ هو كالفاكهة وأمّا التمر فغذاء.

{ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً [25] فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً [26] }.

{ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ } أن يكون إثمار الجذع اليابس رُطبا ببركة تحريكها إيّاه كرامة أخرى لها.

{ وهُزِّي } معنى قرّبي أو أدني، فعدّي بـ (إلى)، أي: حرّكي جذع النخلة وقرّبيه يدن إليك ويلن بعد اليبس ويُسقط عليك رطبا.

الرطب: تمر لم يتم جفافه.

الجَنيّ: فعيل بمعنى مفعول، أي: مجتنى، وهو كناية عن طراوته.

{ تُسَاقِطْ } قرأه الجمهور بفتح التاء وتشديد السين أصله تتساقط بتاءين أدغمت التاء الثانية في السين

ليتأتى التخفيف بالإدغام. وقرأه حفص بضم التاء وتخفيف السين على أنّه مضارع ساقَطَت النخلة تمرها، مبالغة في أسقطت، و{ رُطَباً } مفعول به.

{ **فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً** } فذلكة للجمل التي قبلها، أي: فأنت في بحبوحة عيش.

قرّة العين: كناية عن السرور بطريق المضادة، لقولهم: سخنت عينه إذا كثر بكاؤه. وقرّة العين تشمل هناء العيش وتشمل الأنس بالطفل المولود. وفي كونه قرّة عين كناية عن ضمان سلامته ونباهة شأنه.

{ **فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً** }.

هذا من بقيّة ما زادها به عيسى، وهو وحي من الله إلى مريم أجراه على لسان الطفل، تلقينا من الله لمريم وإرشادا لقطع المراجعة مع من يريد مجادلتها. فعلّمها أن تنذر صوما يقارنه انقطاع عن الكلام، فتكون في عبادة وتستريح من سؤال السائلين ومجادلة الجهلة.

وكان الانقطاع عن الكلام من ضروب العبادة في بعض الشرائع السالفة، وقد اقتبسه العرب في الجاهلية كما دلّ عليه حديث المرأة من أحمس التي حجّت مُصمتة. ونُسخ في شريعة الإسلام بالسنّة، ففي الموطأ " أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا قائما في الشمس فقال: **ما بال هذا؟** فقالوا: نذر أن لا يتكلّم ولا يستظلّ من الشمس ولا يجلس ويصوم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **مروه فليتكلم وليستظل وليجلس وليُتم صيامه** ". وكان هذا الرجل يدعى أبا إسرائيل.

وروى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنّه دخل على امرأة قد نذرت أن لا تتكلّم. فقال لها: " إنّ الإسلام قد هدم هذا فتكلمي ".

وقد دلت الآثار الواردة في هذه على أشياء:

<u>الأول</u>: أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يوجب الوفاء بالنذر في مثل هذا، فدلّ على أنّه غير قربة.

<u>الثاني</u>: أنّه لم يأمر فيه بكفّارة شأن النذر الذي يتعذّر الوفاء به أو الذي لم يسم له عمل معين كقوله: علي نذر، وفي الموطأ، عقب ذكر الحديث المذكور، قال مالك: " ولم يأمره بكفّارة، ولو كانت فيه كفّارة لأمره بها، فدلّ ذلك على أنّه عمل لا اعتداد به بوجه ".

<u>الثالث</u>: أنّه أومأ إلى علّة عدم انعقاد النذر به بقوله: " **إنّ الله عن تعذيب هذا نفسه لغنيّ** ".

فعلمنا من ذلك أنّ معنى العبادة أن تكون قولا أو فعلا يشتمل على معنى يُكسب النفس تزكية ويبلغ بها إلى غاية محمودة مثل الصوم والحجّ، فيحتمل ما فيها من المشقة لأجل الغاية السامية، وليست العبادة بانتقام من الله لعبده ولا تعذيب له، كما كان أهل الضلال يتقرّبون بتعذيب نفوسهم، وكما شرع في بعض الأديان التعذيب القليل لخضد جلافتهم.

وفي البخاري : " عن أنس أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم رأى شيخا يهادى بين ابنيه فقال: **ما بال هذا؟** قالوا: نذر أن يمشي. قال: **إنّ الله عن تعذيب هذا نفسه لغني** ". وأمره أن يركب، فلم ير له في المشي في الطواف قربة.

وفيه عن ابن عباس: " أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم مر وهو يطوف بالكعبة بإنسان ربط يده إلى إنسان بسير أو بخيط أو بشيء غير ذلك، فقطعه النبيّ بيده ثمّ قال: **قده بيده** ".

الرابع: أنّ الراوي لبعض هذه الآثار رواها بلفظ :" نهى رسول الله عن ذلك ". ولذلك قال مالك في الموطأ عقب حديث الرجل الذي نذر أن لا يستظل ولا يتكلم ولا يجلس: " قد أمره رسول الله أن يُتمّ ما كان لله طاعة ويترك ما كان لله معصية ".

ووجه كونه معصية أنّه جراءة على الله بأن يعبده بما لم يشرّع له ولو لم يكن فيه حرج على النفس، كنذر صمت ساعة، وأنّه تعذيب للنفس التي كرّمها الله تعالى من التعذيب.

ولذلك قال الشيخ أبو محمد في الرسالة :" ومن نذر معصية من قتل نفس أو شرب خمر أو نحوه أو ما ليس بطاعة ولا معصية فلا شيء عليه. وليستغفر الله ".

وقد بقي عند النصارى اعتبار الصمت عبادة وهم يجعلونه ترحّما على الميّت أن يقفوا صامتين هنيهة.

{ **فقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً** } أطلق القول على ما يدلّ على ما في النفس، وهو الإيماء إلى أنّها نذرت صوما مجازا بقرينة قولها { فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً }، فالمراد أن تؤدّي ذلك بإشارة إلى أنّها نذرت صوما بأن تشير إشارة تدلّ على الانقطاع عن الأكل وإشارة تدل على أنّها لا تتكلم لأجل ذلك، فإن كان الصوم في شرعهم مشروطا بترك الكلام كما قيل، فالإشارة الواحدة كافية. وإن كان الصوم عبادة مستقلة قد يأتي بها الصائم مع ترك الكلام تشير إشارتين للدلالة على أنّها نذرت الأمرين، وقد علمت مريم أنّ الطفل الذي كلّمها هو الذي يتولّى الجواب عنها حين تسأل بقرينة قوله تعالى { فأَشَارَتْ إِلَيْهِ } [29].

{ **تَرَيِنَّ** } نون التوكيد الشديدة اتصلت بالفعل الذي صار آخره ياء بسبب حذف نون الرفع لأجل حرف الشرط فحركت الياء بحركة مجانسة لها كما هو الشأن مع نون التوكيد الشديدة.

الإنسيّ: الإنسان، والياء فيه للنسب إلى الإنس، وهو اسم جمع إنسان، فياء النسب لإفادة فرد من الجنس.

وهذا نكره في سياق النفي يفيد العموم، أي: لن أكلم أحدا.

وعدل عن (أحد) إلى { إِنْسِيّاً } للرعي على فاصلة الياء، وليس ذلك احترازا عن تكليمها الملائكة إذ لا يخطر ذلك بالبال، فالحمل عليه سماجة.

{ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً [27] يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً [28] }.

دلّت الفاء على أنّ مريم جاءت أهلها عقب انتهاء الكلام الذي كلّمها ابنها. وفي إنجيل لوقا: أنّها بقيت في بيت لحم إلى انتهاء واحد وأربعين يوما، وهي أيام التطهير من دم النفاس، فعلى هذا يكون التعقيب المستفاد من الفاء تعقيبا عرفيّا مثل: تزوج فولد له.

{ **قَوْمَهَا** } أهل محلّتها.

{ **تَحْمِلُهُ** } حال من تاء { أَتَتْ } للدلالة على أنّها أتت معلنة به غير ساترة، لأنّها قد علمت أنّ الله سيبرّئها.

{ **قَالُوا يَا مَرْيَمُ** } مستأنفة استئنافا بيانيا. وقال قومها هذه المقالة توبيخا لها.

{ **شَيْئاً فَرِيّاً** } و(فَرِيّ) فعيل من فرى من ذوات الياء. ولهذا اللفظ عدة إطلاقات، وأظهر محامله هنا أنّه الشنيع في السوء، قاله مجاهد والسدي، وهو جاءٍ من مادة افترى إذا كذب، ومنه قوله تعالى { لا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ } [الممتحنة:12].

ومن أهل اللغة من قال: إنّ الفريّ والفريّة مشتقّان من الإفراء بالهمز. وهو قطع الجلد لإفساده أو لتحريقه، تفرقة بين أفرى وفرى، وأنّ فرى المجرّد للاصلاح.

الأخت: مؤنث الأخ، اسم يضاف إلى اسم آخر، فيطلق حقيقة على ابنة أبوي ما أضيفت إلى اسمه أو ابنة أحد أبويه. ويطلق على من تكون من أبناء صاحب الاسم الذي تضاف إليه إذا كان اسم قبيلة كقولهم: يا أخا العرب. كما في حديث ضيف أبي بكر الصديق قوله لزوجه " يا أخت بني فراس ما هذا " .

{ **يَا أُخْتَ هَارُونَ** } يحتمل أن يكون على حقيقته. فيكون لمريم أخ اسمه هارون كان صالحا في قومه، خاطبوها بالإضافة إليه زيادة في التوبيخ، أي: ما كان لأخت مثله أن تفعل فعلتك، وهذا أظهر الوجهين. ففي صحيح مسلم وغيره عن المغيرة بن شعبة قال: " بعثني رسول الله إلى أهل نجران فقالوا: أرأيت ما تقرؤون { يَا أُخْتَ هَارُونَ } وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ قال المغيرة: فلم أدر ما أقول. فلمّا قدمت على رسول الله ذكرت ذلك له. فقال: **ألم يعلموا أنّهم كانوا يُسمّون بأسماء أنبيائهم والصالحين قبلهم** ".

ففي هذا تجهيل لأهل نجران أن طعنوا في القرآن على توهّم أن ليس في القوم من اسمه هارون إلّا هارون الرسول أخا موسى.

ويحتمل أنّ المعنى أنّها إحدى النساء من ذرية هارون أخي موسى. وقد كانت مريم من ذرية هارون أخي موسى من سبط لاوي. ففي إنجيل لوقا كان كاهن اسمه زكرياء من فرقة أَبِيًّا وامرأته من بنات هارون واسمها إليصابات، واليصابات زوجة زكرياء نسيبة مريم، أي: ابنة عمها.

وما وقع للمفسّرين في نسب مريم أنّها من نسل سليمان بن داود خطأ.

السَوْء: مصدر ساءه، إذا أضرّ به وأفسد بعض حاله، فإضافة اسم إليه تفيد أنّه من شؤونه وأفعاله وأنّه هو مصدر له.

البغيّ: تقدّم قريبا.

عنوا بهذا الكلام الكناية عن كونها أتت بأمر ليس من شأن أهلها، وخالفت سيرة أبويها.

{ **فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً** } [29].

أي: أشارت إليه إشارة دلّت على أنّها تحيلهم عليه ليسألوه عن قصّته، أو أشارت إلى أن يسمعوا منه

الجواب عن توبيخهم إيّاها، وقد فهموا ذلك من إشارتها.
والاستفهام إنكار، أنكروا أن يكلّموا من ليس من شأنه أن يتكلّم، وأنكروا أن تحيلهم على مكالمته.
{ **مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً** } زيادة فعل الكون للدلالة على تمكّن المظروفية { فِي الْمَهْدِ } من هذا الذي أحيلوا على مكالمته، وذلك مبالغة منهم في الإنكار، وتعجّب من استخفافها بهم.
المهد: فراش الصبي وما يُمهَّد لوضعه.

{ **قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً [30] وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً [31] وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً [32] وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً [33]** }.
كلام عيسى هذا ممّا أهملته أناجيل النصارى لأنّهم طووا خبر وصولها إلى أهلها بعد وضعها، وهو طيّ يُتعجّب منه. ويدلّ على أنّها كُتبت في أحوال غير مضبوطة، فأطلع الله تعالى عليه نبيّه صلى الله عليه وسلم.
{ **قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ** } الابتداء بوصف العبوديّة لله ألقاه الله على لسان عيسى لأنّ الله علم بأنّ قوما سيقولون: إنّه ابن الله.
{ **آتَانِيَ الْكِتَابَ** } الفعل الماضي مراد به أنّ الله قدّر إيتاءه إيّاه، أي: قدّر أن يؤتيني الكتاب.
الكتاب: الشريعة التي من شأنها أن تُكتب لئلّا يقع فيها تغيير. فإطلاق الكتاب على شريعة عيسى كإطلاق الكتاب على القرآن. والمراد بالكتاب الإنجيل وهو ما كتب من الوحي الذي خاطب الله به عيسى.
<u>ويجوز</u> أن يراد بالكتاب التوراة، فيكون الإيتاء إيتاء علم ما في التوراة، كقوله تعالى { يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ } [12].
{ **وَجَعَلَنِي نَبِيّاً** } ارتقاء في المراتب التي آتاه الله إيّاها. والقول في التعبير بالماضي كالقول في { آتَانِيَ }.
المبارك: الذي تقارن البركة أحواله في أعماله ومحاورته ونحو ذلك، لأنّ المبارك اسم مفعول من باركه، إذا جعله ذا بركة. أو من بارك فيه، إذا جعل البركة معه. و**البركة**: الخير واليمن.
ذلك أنّ الله أرسله برحمة لبني إسرائيل ليُحلّ لهم بعض الذي حُرّم عليهم وليدعوهم إلى مكارم الأخلاق بعد أن قست قلوبهم وغيّروا من دينهم، فهذه أعظم بركة تقارنه. ومن بركته أن جعل الله حلوله في المكان سببا لخير أهل تلك البقعة من خصبها واهتداء أهلها وتوفيقهم إلى الخير. ولذلك كان إذا لقيه الجهلة والقساة والمفسدون انقلبوا صالحين وانفتحت قلوبهم للإيمان والحكمة. ولذلك ترى أكثر الحواريين كانوا من عامة الأمّيّين من صيادين وعشّارين فصاروا دعاة هدى وفاضت ألسنتهم بالحكمة.
وبهذا يظهر أنّ كونه مباركا أعمّ من كونه نبيّا.

{ **أَيْنَ مَا كُنْتُ** } تعميم للأمكنة، أي: حيثما حلّ تحلّ معه البركة.

الوصاية: الأمر المؤكّد بعمل مستقبل، أي: قدّر وصيّتي بالصلاة والزكاة، أي: أن يأمرني بهما أمرا مؤكّدا مستمرّا، فاستعمال صيغة الماضي في { وَأَوْصَانِي } مثل استعمالها في قوله { آتَانِيَ الْكِتَابَ }.

الزكاة: الصدقة. والمراد: أن يصلّي ويزكّي. وهذا أمر خاص به، كما أمر نبيّنا صلى الله عليه وسلم بقيام الليل، وقرينة الخصوص قوله { مَا دُمْتُ حَيّاً }.

{ **مَا دُمْتُ حَيّاً** } استغراق عرفي مراد به الكثرة، وليس المراد الصلاة والصدقة المفروضتين على أمته، لأن سياق الكلام في أوصاف تميّز بها عيسى عليه السلام، ولأنّه لم يأت بشرع صلاة زائدة على ما شرع في التوراة.

{ **وَبَرّاً بِوَالِدَتِي** } البَرُّ (بفتح الباء): اسم بمعنى البار. وتقدّم آنفا. وقد خصّه الله تعالى بذلك بين قومه، لأنّ برّ الوالدين كان ضعيفا في بني إسرائيل يومئذ، وبخاصة الوالدة لأنّها تُستضعف.

الجبّار: المتكبّر الغليظ على النّاس في معاملتهم. وقد تقدّم في قوله { وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ } [هود:59].

الشقي: الخاسر والذي تكون أحواله كدرة له ومؤلمة، وهو ضد السعيد. وتقدّم عند قوله تعالى { فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ } [هود:105].

ووصف الجبّار بالشقي باعتبار مآله في الآخرة وربّما في الدنيا.

{ **وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً** } تنويه بكرامته عند الله أجراه على لسانه ليعلموا أنّه بمحلّ العناية من ربّه، والقول فيه تقدّم في آية ذكر يحيى.

{ **السَّلامُ** } التعريف للمبالغة في تعلّق السلام به حتّى كان جنس السلام بأجمعه عليه. وهذا مؤذن بتفضيله على يحيى إذ قيل في شأنه { وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ }، وذلك هو الفرق بين المعرف بلام الجنس وبين النكرة.

ومن هذا القبيل السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً } [الأحزاب:56]، وما أمرنا به في التشهد في الصلاة من قول المتشهّد " السلام عليك أيّها النبيّ ورحمة الله وبركاته ".

ومؤذن أيضا بتمهيد التعريض باليهود إذ طعنوا فيه وشتموه في الأحوال الثلاثة، فقالوا: ولد من زنى، وقالوا: مات مصلوبا، وقالوا: يحشر مع الملاحدة والكفرة، لأنّهم يزعمون أنّه كفر بأحكام من التوراة.

{ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ [34] مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [35] }.

اعتراض بين الجمل المقولة في قوله { قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ } مع قوله { وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ }، أي: ذلك

المذكور هو عيسى ابن مريم لا كما تزعم النصارى واليهود.

{ **ذَلِكَ** } الإشارة لتمييز المذكور أكمل تمييز، تعريضا بالرد على اليهود والنصارى جميعا، إذ أنزله اليهود إلى حضيض الجناة، ورفعه النصارى إلى مقام الإلهية، وكلاهما مخطئ مبطل، أي: ذلك هو عيسى بالحقّ. والمقصود بالتمييز تمييز صفاته الحقيقية عن الصفات الباطلة التي ألصقوها به لا تمييز ذاته عن الذوات إذ ليست ذاته بحاضرة وقت نزول الآية، أي: تلك حقيقة عيسى عليه السلام وصفته.

{ **قَوْلَ الْحَقِّ** } قرأه الجمهور بالرفع. وقرأه ابن عامر، وعاصم، ويعقوب بالنصب، فأمّا الرفع فهو خبر ثان عن اسم الإشارة أو وصف لعيسى أو بدل منه، وأمّا النصب فهو حال من اسم الإشارة أو من عيسى.

المعنى: أنّ تلك الصفات التي سمعتم هي قول الحق وما خالفها باطل، أو أنّ عيسى عليه السلام هو قول الحق، أي: مقول الحقّ، أي: المكوَّن من قول { كُنْ }، فيكون مصدرا بمعنى اسم المفعول كالخلق في قوله تعالى { هَذَا خَلْقُ اللَّهِ } [لقمان:11]. وعلى هذين الوجهين يكون اعتراضا.

ويجوز أن يكون { قَوْلَ } مصدرا بمعنى الفاعل صفة لـ { عِيسَى } أو حالا منه، أي: قائل الحق إذ قال { قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ - إلى قوله - وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً } [30-33].

{ **الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ** } صفة ثانية أو حال ثانية أو خبر ثانٍ عن { عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ } على ما يناسب الوجوه المتقدّمة.

الامتراء: الشكّ، أي: الذي فيه يشكّون، أي: يعتقدون اعتقادا مبناه الشكّ والخطأ.

فإن عاد الموصول إلى { قَوْلَ } فالامتراء فيه هو الامتراء في صدقة، وإن عاد إلى { عِيسَى } فالامتراء فيه هو الامتراء في صفاته بين رافع وخافض.

{ **مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ** } تقرير لمعنى العبوديّة، أو تفصيل لمضمون جملة { الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ } فتكون بمنزلة بدل البعض أو الاشتمال منها، اكتفاء بإبطال قول النصارى بأنّ عيسى ابن الله، لأنّه أهمّ بالإبطال، إذ هو تقرير لعبوديّة عيسى، وتنزيه لله تعالى عمّا لا يليق بجلال الألوهية من اتخاذ الولد ومن شائبة الشرك، ولأنّه القول الناشئ عن الغلو في التقديس، بخلاف قول اليهود فقد ظهر بطلانه بما عُدّد لعيسى من صفات الخير.

والصيغة تفيد انتفاء الولد عنه تعالى بأبلغ وجه، لأنّ لام الجحود تفيد مبالغة النفي، وأنّه مما لا يلاقي وجود المنفي عنه، ولأنّ في قوله تعالى { أَنْ يَتَّخِذَ } إشارة إلى أنّه لو كان له ولد لكان هو خلقه، فإثبات البنوّة له خلف من القول.

{ **إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** } بيان لجملة { مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ }، لإبطال شبهة النصارى إذ جعلوا تكوين إنسان بأمر التكوين عن غير سبب معتاد دليلا على أنّ المكوَّن ابن لله تعالى، فأشارت الآية إلى أنّ هذا يقتضي أن تكون أصول الموجودات أبناء لله.

{ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ } [36].

قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ورويس عن يعقوب همزة { **وَأَنَّ** } مفتوحة، فخرّجه الزمخشري أنّه على تقدير لام التعليل.

فإن كان من كلام عيسى فهو تعليل لقوله { فَاعْبُدُوهُ }.

يجوز أن يكون هذا بقية لكلام جرى على لسان عيسى تأييدا لبراءة أمّه، وما بينهما اعتراض كما تقدّم آنفا. والمعنى: تعميم ربوبيّة الله تعالى لكلّ الخلق.

ويجوز أن يكون عطفا على قوله { بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ }، أي: وأوصاني بأنّ الله ربّي وربّكم، فيكون بحذف حرف الجر وهو مطرد مع (أَنَّ).

ويجوز أن يكون معطوفا على { الْحَقِّ } من قوله { قَوْلَ الْحَقِّ } على وجه جعل { قَوْلَ } بمعنى قائل.

وإن كان الكلام ممّا خوطب النبيّ صلى الله عليه وسلم بأن يقوله كان بتقدير قول محذوف، أو عطفا على { مَرْيَمَ } من قوله تعالى { وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ } أي: اذكر يا محمد أنّ الله ربّي كذلك، ويكون تفريع { فَاعْبُدُوهُ } على قوله تعالى { مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ } إلى آخره.

وقرأه ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وخلف، وروح عن يعقوب بكسر همزة { **وَإِنَّ** } ووجهها ظاهر على كلا الاحتمالين.

{ **هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ** } تذييل وفذلكة لما سبقه على اختلاف الوجوه. والإشارة إلى مضمون ما تقدّم على اختلاف الوجوه. والمراد بالصراط المستقيم اعتقاد الحقّ، شُبّه الاعتقاد الحقّ في كونه موصلا إلى الهدى بالصراط المستقيم في إيصاله إلى المكان المقصود باطمئنان بال، كقوله تعالى { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ }.

{ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ } [37].

الفاء لتفريغ الإخبار بحصول الاختلاف على الإخبار بأنّ هذا صراط مستقيم، أي: حاد عن الصراط المستقيم الأحزابُ فاختلفوا بينهم في الطرائق التي سلوكها، أي: هذا صراط مستقيم لا يختلف سالكوه اختلافا أصليا.

{ **مِنْ بَيْنِهِمْ** } متعلّق بـ { فَاخْتَلَفَ }، أي: اختلفوا بينهم.

والمراد بالأحزاب أحزاب النصارى، لأنّ الاختلاف مؤذن بأنّهم كانوا متّفقين، ولم يكن اليهود موافقين النصارى في شيء من الدين. وقد كان النصارى على قول واحد على التوحيد في حياة الحواريين ثمّ حدث الاختلاف في تلاميذهم. وقد ذكرنا في تفسير قوله تعالى { فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ } [النساء:171] أنّ الاختلاف انحلّ إلى ثلاثة مذاهب: (**المَلْكانية** (وتسمّى الجاثُليقية) / **اليعقوبية** / **النسطورية**).

وانشعبت من هذه الفرق عدّة فرق ذكرها الشهرستاني، ومنها: (الأليانة / البليارسية / المقدانوسية / السبالية / البوطينوسية / البولية ...). منها فرقة كانت في العرب تسمَّى الركوسية ورد ذكرها في الحديث: أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لعدي بن حاتم: **" إنّك ركوسي"**. قال أهل اللغة هي نصرانية مشوبة بعقائد الصابئه.

وحدثت بعد ذلك فرقة الاعتراضية (البُروتستان) أتباع لوثير.

وأشهر الفرق اليوم هي: الملكانية (**كاثوليك**)، واليعقوبية (**أرثودوكس**)، والاعتراضية (**البروتستان**).

{ **فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ** } لمّا كان اختلافهم قد انحصر في مرجع واحد يرجع إلى إلهية عيسى اغترارا وسوء فهم في معنى لفظ (ابن) الذي ورد صفة للمسيح في الأناجيل، مع أنّه قد وصف بذلك فيها أيضا أصحابه. وقد جاء في التوراة أيضا أنتم أبناء الله. وفي إنجيل متى الحواري وإنجيل يوحنا الحواري كلمات صريحة في أنّ المسيح ابن إنسان وأن الله إلهه وربّه، فقد انحصرت مذاهبهم في الكفر بالله. فشمل قوله تعالى { لِلَّذِينَ كَفَرُوا } هؤلاء المخبر عنهم من النصارى وشمل المشركين غيرهم.

{ **مَشْهَدِ** } صالح لمعان، وهو أن يكون مشتقّا من المشاهدة أو من الشهود، ثمّ إمّا أن يكون مصدرا ميميا في المعنيين أو اسم مكان لهما أو اسم زمان لهما، أي: يوم فيه ذلك وغيره.

والويل حاصل لهم في الاحتمالات كلّها وقد دخلوا في عموم الذين كفروا بالله، أي: نفوا وحدانيّته، فدخلوا في زمرة المشركين لا محالة، ولكنّهم أهل كتاب دون المشركين.

{ **أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ** } [38].

{ **أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ** } صيغتا تعجّب، وهو تعجّب على لسان الرسول والمؤمنين، أو هو مستعمل في التعجيب، والمعنيان متقاربان، وهو كناية أيضا عن تهديدهم. والمعنى: ما أسمعهم وما أبصرهم في ذلك اليوم، أي: ما أقدرهم على السمع والبصر بما يكرهونه. ومثله قوله تعالى { فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ } [البقرة:175].

<u>وجُوّز</u> أن يكون غير مستعمل في التعجّب بل صادف أن جاء على صورة فعل التعجّب، وإنّما هو على أصل وضعه أمْرٌ للمخاطب غير المعيَّن بأن يسمع ويبصر بسببهم، ومعمول السمع والبصر محذوف لقصد التعميم ليشمل كل ما يصح أن يسمع وأن يبصر. وهذا كناية عن التهديد.

{ **لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ** } الاستدراك راجع إلى ما يفيده التقييد بالظرف في قوله تعالى { يَوْمَ يَأْتُونَنَا } من ترقّب سوء حالهم يوم القيامة الذي يقتضي الظنّ بأنّهم الآن في سعة من الحال. فأفيد أنّهم متلبّسون بالضلال المبين.

{ **الظَّالِمُونَ** } إظهار في مقام الإضمار. نكتته التخلّص إلى خصوص المشركين، لأنّ اصطلاح القرآن

إطلاق الظالمين على عبدة الأصنام، وإطلاق الظلم على عبادة الأصنام، قال تعالى { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان:13].

{ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } [39].

عُقّب تحذيرهم من عذاب الآخرة والنداء على سوء ضلالهم في الدنيا بالأمر بإنذارهم، استقصاء في الإعذار لهم. والضمير عائد إلى الظالمين، وهم المشركون من أهل مكّة وغيرهم من عبدة الأصنام.

{ يَوْمَ الْحَسْرَةِ } انتصب على أنّه مفعول خلف عن المفعول الثاني لـ { وَأَنْذِرْهُمْ } لأنّه بمعنى أنذرهم عذاب يوم الحسرة.

الحسرة: الندامة الشديدة الداعية إلى التلهّف. والمراد بيوم الحسرة يوم الحساب، أضيف اليوم إلى الحسرة لكثرة ما يحدث فيه من تحسّر المجرمين على ما فرّطوا فيه من أسباب النجاة، وإن كان يوم فرح بالنسبة إلى الصالحين.

{ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ } تُمِّم أمر الله بزجّهم في العذاب فلا معقّب له. <u>ويجوز</u> أن يكون المراد أمر الله بمجيء يوم القيامة، أي: إذا حُشروا. و { إِذْ } اسم زمان، بدل من { يَوْمَ الْحَسْرَةِ }.

{ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ } حال من { الْأَمْرُ } وهي حال سببية، إذ التقدير: إذ قضي أمرهم.

الغفلة: الذهول عن شيء شأنه أن يُعلم.

<u>ومعنى جملة الحال على الاحتمال الأوّل</u> في معنى الأمر، الكناية عن سرعة صدور الأمر بتعذيبهم، أي: قُضي أمرهم على حين أنّهم في غفلة، أي بهت.

<u>وعلى الاحتمال الثاني</u> تحذير من حلول يوم القيامة بهم قبل أن يؤمنوا كقوله تعالى { لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً } [لأعراف:187]، وهذا أليق بقوله تعالى { وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ }.

{ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } استمرار عدم إيمانهم إلى حلول قضاء الأمر يوم الحسرة. فاختيار صيغة المضارع فيه دون صيغة اسم الفاعل لما يدلّ عليه المضارع من استمرار الفعل وقتًا فوقتًا، استحضارا لذلك الاستمرار العجيب في طوله وتمكّنه.

{ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ } [40].

تذييل لختم القصّة على عادة القرآن في تذييل الأغراض عند الانتقال منها إلى غيرها. والكلام موجّه إلى المشركين لإبلاغه إليهم.

{ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ } حقيقة الإرث: مصير مال الميت إلى من يبقى بعده. وهو هنا مجاز في تمحّض التصرّف في الشيء دون مشارك، فإنّ الأرض كانت في تصرّف سكّانها من الإنسان والحيوان، كلّ بما يناسبه. فإذا هلك النّاس والحيوان لم يبق تصرّف فيها إلّا لخالقها، ومن جملة ذلك تصرّفه بالجزاء.

وتأكيد الجملة بحرف التوكيد لدفع الشكّ، لأنّ المشركين ينكرون الجزاء، فهم ينكرون أنّ الله يرث الأرض ومن عليها بهذا المعنى. وأمّا ضمير الفصل { نَحْنُ } فهو لمجرّد التأكيد ولا يفيد تخصيصا، إذ لا يفيد ردّ اعتقاد مخالف لذلك.

وظهر لي: أنّ مجيء ضمير الفصل لمجرّد التأكيد كثير إذا وقع ضمير الفصل بعد ضمير آخر نحو قوله تعالى { إِنَّنِي أَنَا اللَّه } [طه:14]، وقوله تعالى { وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ } [يوسف:37].

وأفاد هذا التذييل التعريف بتهديد المشركين بأنّهم لا مفرّ لهم من قبضة الربّ الواحد الذي أشركوا بعبادته بعض ما على الأرض، وأنّ آلهتهم ليست بمرجوّة لنفعهم إذ ما هي إلّا مما يرثه الله.

{ **وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ** } موقعها بيّن، فالتقديم مفيد القصر، أي: لا يرجعون إلى غيرنا.

ومحمّل هذا التقديم بالنسبة إلى المسلمين الاهتمام، ومحمله بالنسبة إلى المشركين القصر كما تقدّم في قوله تعالى { إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ }.

{ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً** [41] **إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً** [42] }.

قد تقدّم أنّ من أهمّ ما اشتملت عليه هذه السورة التنويه بالأنبياء والرّسل السالفين. وإذ كان إبراهيم عليه السلام أبا الأنبياء وأوّل من أعلن التوحيد إعلانا باقيا، لبنائه هيكل التوحيد، وهو الكعبة، كان ذكر إبراهيم من أغراض السورة. وذُكر عقب قصّة عيسى لمناسبة وقوع الردّ على المشركين في آخر القصّة، ابتداء من قوله تعالى { فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ - إلى قوله - إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا }. ولمّا كان إبراهيم قد جاء بالحنيفيّة وخالفها العرب بالإشراك، وهم ورثة إبراهيم، كان لتقديم ذكره على البقية الموقع الجليل من البلاغة.

وفي ذلك تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم على ما لقي من مشركي قومه، لمشابهة حالهم بحال قوم إبراهيم. وقد جرى سرد خبر إبراهيم عليه السلام على أسلوب سرد قصّة مريم عليها السلام.

{ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ** } تقدّم تفسيرها في أوّل قصّة مريم.

{ **صِدِّيقاً** } صيغة مبالغة في الاتصاف، وتقدّم في قوله تعالى { يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ } [يوسف:46].

وُصِف إبراهيم بالصدّيق لفرط صدقه في امتثال ما يكلّفه الله تعالى، لا يصدّه عن ذلك ما قد يكون عذرا للمكلّف، مثل مبادرته إلى محاولة ذبح ولده حين أمره الله بذلك في وحي الرؤيا.

وتأكيد هذا الخبر بحرف التوكيد وبإقحام فعل الكون للاهتمام بتحقيقه زيادة في الثناء عليه.

{ **إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً** } واقعة موقع التعليل للاهتمام بذكره في التلاوة، وهذه الجملة معترضة بين المبدل منه والبدل فإن (إذ) اسم زمان وقع بدلا من إبراهيم، أي: اذكر ذلك خصوصا من أحوال إبراهيم، فإنّه أهمّ ما يذكر فيه، لأنّه مظهر صدّيقيته إذ خاطب أباه بذلك الإنكار.

النبيّ: فعيل بمعنى مفعول، من أنبأه بالخبر. والمراد هنا أنّه منبّأ من جانب الله تعالى بالوحي. والأكثر أن يكون النبيّ مرسلا للتبليغ، وهو معنى شرعي، فالنبيّ فيه حقيقة عرفية. فدلّ ذلك على أنّ قوله لأبيه { يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ } إنّما كان عن وحي من الله ليبلّغ قومه إبطال عبادة الأصنام.

{ **إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ** } بدل اشتمال من إبراهيم. و(إذ) اسم زمان مجرّد عن الظرفية، لأنّه ظرف متصرّف على التحقيق. والمعنى: اذكر إبراهيم زمان قوله لأبيه، فإنّ ذلك الوقت أجدر أوقات إبراهيم بأن يُذكر.

{ **لِأَبِيهِ** } هو (آزار)، وتقدّم ذكره في [الأنعام:74].

وافتتح إبراهيم خطابه أباه بندائه مع أنّ الحضرة مغنية عن النداء قصدا لإحضار سمعه وذهنه لتلقي ما سيلقيه إليه.

قال الجدّ الوزير رحمة الله فيما أملاه عليَّ ذات ليلة من عام (1318هـ): " علم إبراهيم أنّ في طبع أهل الجهالة تحقيرهم للصغير كيفما بلغ حاله في الحذق، وبخاصة الآباء مع أبنائهم، فتوجّه إلى أبيه بخطابه بوصف الأبوة إيماء إلى أنّه مخلص له النصيحة، وألقى إليه حجّة فساد عبادته في صوره الاستفهام عن سبب عبادته وعمله المخطئ، منبّها على خطئه عندما يتأمّل في عمله، فإنّه إن سمع ذلك وحاول بيان سبب عبادة أصنامه لم يجد لنفسه مقالا ففطن بخطل رأيه وسفاهة حلمه، فإنّه لو عبد حيّا مميّزا لكانت له شبهة ما. وابتدأ بالحجّة الراجعة إلى الحسّ إذ قال له { لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ } فذلك حجّة محسوسة، ثمّ أتبعها بقوله { وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً }، ثمّ انتقل إلى دفع ما يخالج عقل أبيه من النفور عن تلقي الإرشاد من ابنه بقوله { يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً }، فلمّا قضى حقّ ذلك انتقل إلى تنبيهه على أنّ ما هو فيه أثر من وساوس الشيطان، ثمّ ألقى إليه حجّة لائقة بالمتصلّبين في الضلال بقوله {يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً}، أي: أنّ الله أبلغ إليك الوعيد على لساني، فإن كنت لا تجزم بذلك فافرض وقوعه فإنّ أصنامك لم تتوعّدك على أن تفارق عبادتها.

وفي النداء بقوله { يَا أَبَتِ } أربع مرّات، تكرير اقتضاه مقام استنزاله إلى قبول الموعظة، لأنّها مقام إطناب. ونظّر ذلك بتكرير لقمان قوله { يَا بُنَيَّ } [لقمان:13] ثلاث مرات، بخلاف قول نوح لابنه { يَا بُنَيَّ ارْكَبْ } [هود:42] مرة واحدة دون تكرير، لأن ضيق المقام يقتضي الإيجاز وهذا من طرق الإعجاز". انتهى كلامه بما يقارب لفظه.

أقول: الوجه ما بني عليه من أنّ الاستفهام مستعمل في حقيقته، كما أشار إليه صاحب الكشّاف، ومُكنّى به عن نفي العلّة المسؤول عنها بقوله { لِمَ تَعْبُدُ } فهو كناية عن التعجيز عن إبداء المسؤول عنه، فهو من التورية في معنيين يحتملهما الاستفهام.

{ **أَبَتِ** } أصله أبي، حذفوا ياء المتكلّم وعوّضوا عنها (تاء) تعويضا على غير قياس، وهو خاص بلفظ الأب والأم في النداء خاصة، ولعلّه صيغة باقية من العربية القديمة. ورأى سيبويه أنّ التاء تصير في

الوقف هاء، وخالفه الفراء فقال: ببقائها في الوقف. والتاء مكسورة في الغالب لأنّها عوض عن الياء والياء بنت الكسرة.

{ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً } [43].

إعادة ندائه بوصف الأبوّة تأكيد لإحضار الذهن ولإمحاض النصيحة المستفاد من النداء الأوّل.

قال في الكشاف: " ثمّ ثُنّي بدعوته إلى الحقّ مترفّقا به مُتلطِّفا، فلم يَسِمْ أباه بالجهل المفرط ولا نفسه بالعلم الفائق ولكنّه قال: إنّ معي طائفة من العلم ليست معك، فلا تستنكف ".

{ قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ } أراد إبراهيم علم الوحي والنبوّة، ذلك أنّ أباه كان يرى نفسه على علم عظيم لأنّه كان كبير ديانة قومه.

{ أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً } استعارة مكنية، شُبّه إبراهيم بهادي الطريق البصير بالثنايا، وإثبات الصراط السوي قرينة التشبيه.

{ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً } [44].

إعادة النداء لزيادة تأكيد ما أفاده النداء الأوّل والثاني.

{ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ } المراد عبادة الأصنام، عبّر عنها بعبادة الشيطان إفصاحا عن فسادها وضلالها، فإنّ نسبة الضلال والفساد إلى الشيطان مقرّرة في نفوس البشر، ولكن الذين يتّبعونه لا يفطنون إلى حالهم ويتّبعون وساوسه تحت ستار التمويه مثل قولهم { إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ } [الزخرف:23]، ففي الكلام إيجاز. فمن عبد الأصنام فقد عبد الشيطان، وكفى بذلك ضلالا معلوما.

وهذا كقوله تعالى { وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَاناً مَرِيداً } [النساء:117]. وفيه تبغيض لعبادة الأصنام.

{ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً } تعليل للنهي عن عبادته وعبادة آثار وسوسته بأنّه شديد العصيان للربّ الواسع الرحمة. وإظهار اسم الشيطان في مقام الإضمار، إذ لم يقل: إنّه كان للرحمن عصيا، لإيضاح إسناد الخبر إلى المسند إليه، ولزيادة التنفير من الشيطان، لأنّ في ذكر صريح اسمه تنبيها إلى النفرة منه، ولتكون الجملة موعظة قائمة بنفسها.

{ عَصَيَّاً } من صيغ المبالغة في العصيان مع زيادة فعل { كَانَ } للدلالة على أنّه لا يفارق عصيان ربّه، وأنّه متمكّن منه، فلا جرم أنّه لا يأمر إلّا بما ينافي الرحمة، أي: بما يفضي إلى النقمة، ولذلك اختير وصف الرحمان من بين صفات الله تعالى تنبيها على أنّ عبادة الأصنام توجب غضب الله فتفضي إلى الحرمان من رحمته، فمن كان هذا حاله فهو جدير بأن لا يُتّبع.

{ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً } [45].

لا جرم أنّه لما قرّر أن عبادته الأصنام اتباع لأمر الشيطان ومعصية للرحمان انتقل إلى توقّع حرمانه من رحمة الله بأن يحلّ به عذاب من الله، فحذّره من عاقبة أن يصير من أولياء الشيطان الذين لا يختلف البشر في مذمّتهم وسوء عاقبتهم.

{ **إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ** } التعبير بالخوف الدال على الظنّ دون القطع تأدّب مع الله تعالى بأن لا يُثبت أمرا فيما هو من تصرّف الله، وإبقاء للرجاء في نفس أبيه لينظر في التخلّص من ذلك العذاب بالإقلاع عن عبادة الأوثان.

{ **الرَّحْمَنِ** } عبّر عن الجلالة بوصف الرحمان للإشارة إلى أنّ حلول العذاب ممّن شأنه أن يرحم إنّما يكون لفظاعة جرمه إلى حد أن يحرمه من رحمته.

الوليّ: الصاحب والتابع ومن حالهما حال واحد وأمرهما جميع، فكُنِّي بالولاية عن المقارنة في المصير.

{ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً } [46].

فصلت الجملة لوقوعها في المحاورة. والاستفهام للإنكار، إنكارا لتجافي إبراهيم عن عبادة أصنامهم.

وقد جاء في جوابه دعوة ابنه بمنتهى الجفاء والعنجهيّة بعكس ما في كلام إبراهيم من اللين والرقّة، فدلّ ذلك على أنّه كان قاسي القلب بعيد الفهم، شديد التصلّب في الكفر.

{ **أَرَاغِبٌ أَنْتَ** } جملة اسمية مركبة من مبتدأ وفاعل سدّ مسد الخبر. والتحقيق أنّه في قوة خبر مقدّم ومبتدأ مؤخّر. قال في الكشّاف : " قدّم الخبر على المبتدأ لأنّه كان أهم عنده وهو به أعنى ".

فدل النظم في هذه الآية على أنّ أبا إبراهيم ينكر على إبراهيم تمكّن الرغبة عن آلهتهم من نفسه، ويهتم بأمر الرغبة عن الآلهة لأنّها موضع عجب.

{ **يَا إِبْرَاهِيمُ** } تكملة لجملة الإنكار والتعجّب، لأنّ المتعجَّب من فعله مع حضوره يقصد بندائه تنبيهه على سوء فعله، فالمتكلّم ينزله منزلة الغائب فيناديه لإرجاع رشده إليه، فينبغي الوقف على قوله { يَا إِبْرَاهِيمُ } وجملة { لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ } مستأنفة.

{ **لَأَرْجُمَنَّكَ** } اللام موطّئة للقسم تأكيدا لكونه راجمهُ إن لم ينته عن كفره بآلهتهم.

الرجم: الرمي بالحجارة، وهو كناية مشهورة في معنى القتل بذلك الرمي. وإسناد أبي إبراهيم ذلك إلى نفسه يحتمل الحقيقة، إمّا لأنّه كان من عادتهم أنّ الوالد يتحكّم في عقوبة ابنه، وإمّا لأنّه كان حاكما في قومه. ويحتمل المجاز العقلي، إذ لعله كان كبيرا في دينهم فيرجم قومُه إبراهيم استناد لحكمه بمروقه عن دينهم.

{ **وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً** } عطف على { لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ }، وذلك أنّه هدّده بعقوبة آجلة إن لم يقلع عن كفره بآلهتهم، وبعقوبة عاجلة وهي طرده من معاشرته وقطع مكالمته.

الهجر: قطع المكالمة وقطع المعاشرة، وإنّما أمر أبو إبراهيم ابنه بهجرانه ولم يخبره بأنّه هو يهجره ليدلّ على أنّ هذا الهجران في معنى الطرد والخلع، إشعارا بتحقيره.

{ **مَلِيّاً** } طويلا، وهو فعيل، ولا يعرف له فعل مجرّد ولا مصدر. وهو فعيل بمعنى فاعل لأنّه يقال: أملى له، إذا أطال له المدّة، فيأتون بهمزة التعدية. فـ { مَلِيّاً } صفة لمصدر محذوف منصوب على المفعولية المطلقة، أي: هجرا مليّا. ويجوز أن ينتصب على الصفة لظرف محذوف، أي: زمانا طويلا.

{ **قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً** [47] **وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً** [48] }.

{ **قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ** } سلام توديع ومتاركة. وبادره به قبل الكلام الذي أعقبه به إشارة إلى أنّه لا يسوءه ذلك الهجر في ذات الله تعالى ومرضاته. ومن حلم إبراهيم أن كانت مشاركته أباه مشوبة بالإحسان في معاملته.

السلام: السلامة، كلمة تحيّة وإكرام، وتقدّمت آنفا عند قوله تعالى { وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ } [15].

{ **سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي** } أظهر حرصه على هداه، أي: أطلب منه لك المغفرة من هذا الكفر، بأن يهديه الله إلى التوحيد فيغفر له الشرك الماضي، إذا لم يكن إبراهيم تلقّى نهيا من الله عن الاستغفار للمشرك. وهذا ظاهر ما في قوله تعالى { وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ }. واستغفاره له هو المحكي في قوله تعالى { وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ } [الشعراء:86].

{ **إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً** } تعليل لما يتضمّنه الوعد بالاستغفار من رجاء المغفرة استجابة لدعوة إبراهيم بأن يوفّق الله أبا إبراهيم للتوحيد ونبذ الإشراك.

الحفيّ: الشديد البرّ والإلطاف. وتقدّم عند قوله تعالى { يَسْأَلونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ } [الأعراف:187].

{ **وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي** } عطف على { سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي }، أي يقع الاستغفار في المستقبل ويقع اعتزالي إيّاكم الآن، لأنّ المضارع غالب في الحال. أظهر إبراهيم العزم على اعتزالهم وأنّه لا يتوانى في ذلك ولا يأسف له إذا كان في ذات الله تعالى، وهو المحكي بقوله تعالى { وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ } [الصافات:99]، وقد خرج من بلد الكلدان عازما على الالتحاق بالشام حسب أمر الله تعالى. رأى إبراهيم أن هجرانه أباه غير مغن، لأنّ بقية القوم على رأي أبيه فرأى أن يهجرهم جميعا.

{ **وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ** } عطف على ضمير القوم أصنامهم للإشارة إلى عداوته لتلك الأصنام إعلانا بتغيير المنكر. وعُبّر عن الأصنام بطريق الموصولية للإيماء إلى وجه بناء الخبر وعلّة اعتزاله إيّاهم وأصنامهم؛ بأنّ تلك الأصنام تُعبد من دون الله.

الدعاء: العبادة، لأنّها تستلزم دعاء المعبود.

{ **وَأَدْعُو رَبِّي** } زاد الإعلان بأنّه يدعوا الله، احتراسا من أن يحسبوا أنّه نوى مجرّد اعتزال عبادة أصنامهم فربما اقتنعوا بإمساكه عنهم، ولذا بيّن لهم أنّه بعكس ذلك يدعوا الله الذي لا يعبدونه.

وعبَّر عن الله بوصف الربوبية المضاف إلى ضمير نفسه للإشارة إلى انفراده من بينهم بعبادة الله تعالى فهو ربّه وحده من بينهم، فالإضافة هنا تفيد معنى القصر الإضافي، مع ما تتضمّنه الإضافة من الاعتزاز بربوبية الله إيّاه والتشريف لنفسه بذلك.

{ **عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً** } في موضع الحال من ضمير { وَأَدْعُو }، أي: راجيا أن لا أكون بدعاء ربي شقيا. وتقدّم معناه عند قوله تعالى { وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً } [4]. وفي إعلانه هذا الرجاء بين ظهرانيهم تعريض بأنّهم أشقياء بدعاء آلهتهم.

{ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلّاً جَعَلْنَا نَبِيّاً [49] وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً [50] }.

طُوي ذكر اعتزاله إيّاهم بعد أن ذكر عزمه عليه إيجازا في الكلام للعلم بأنّ مثله لا يعزم أمرا إلّا نفّذه.

{ **وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ** } لمّا اعتزل أباه وقومه واستوحش بذلك الفراق وهبه الله ذرّيّة يأنس لهم، إذ وهبه إسحاق ابنه، ويعقوب ابن ابنه، وجعلهما نبيّين. وحسبك بهذا مكرمة له عند ربّه.

وليس مجازاة الله إبراهيم مقصورة على أن وهبه إسحاق ويعقوب، إذ ليس في الكلام ما يقتضي الانحصار، فإنّه قد وهبه إسماعيل أيضا، وظهرت موهبته إيّاه قبل ظهور موهبة إسحاق، وكل ذلك بعد أن اعتزل قومه.

وإنّما اقتُصر على ذكر إسحاق ويعقوب دون ذكر إسماعيل فلم يقل: وهبنا له إسماعيل وإسحاق ويعقوب، لأنّ إبراهيم لمّا اعتزل قومه خرج بزوجه سارة قريبته، فهي قد اعتزلت قومها أيضا إرضاء لربّها ولزوجها، فذكر الله الموهبة الشاملة لإبراهيم ولزوجه، وهي أن وهب لهما إسحاق وبعده يعقوب، ولأنّ هذه الموهبة لمّا كانت كفاء لإبراهيم على مفارقته أباه وقومه كانت موهبة من يعاشر إبراهيم ويؤنسه وهما إسحاق ويعقوب. أمّا إسماعيل فقد أراد الله أن يكون بعيدا عن إبراهيم في مكّة ليكون جار بيت الله. وإنّه لجوار أعظم من جوار إسحاق ويعقوب أباهما.

وقد خُصّ إسماعيل بالذكر استقلالا عقب ذلك، ومثله قوله تعالى { وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ } [ص:45] ثمّ قال { وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ } [ص:48]، وقد قال في آية الصافات { وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ } [99-101] إلى أن قال { وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ } [الصافات:112] فذكر هنالك إسماعيل عقب قوله { وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ } [99]، إذ هو المراد بالغلام الحليم.

الهبة: هنا تقدير ما في الأزل عند الله، لأنّ ازدياد إسحاق ويعقوب كان بعد خروج إبراهيم بمدّة بعد أن

سكن أرض كنعان وبعد أن اجتاز بمصر ورجع منها. وكذلك ازدياد إسماعيل كان بعد خروجه بمدّة وبعد أن اجتاز بمصر كما ورد في الحديث وفي التوراة.

{ **يَعْقُوبَ** } النكتة في ذكر يعقوب أنّ إبراهيم رآه حفيدا وسُرّ به، فقد ولد يعقوب قبل موت إبراهيم بخمس عشر سنة، وأنّ من يعقوب نشأت أمة عظيمة.

{ **وَوَهَبْنَا لَهُمْ** } ضمير { لَهُمْ } عائد إلى إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام.

اللسان: هنا مجاز في الذكر والثناء.

الصدق: بلوغ كمال نوعه، كما تقدّم آنفا، فلسان الصدق ثناء الخير والتبجيل.

{ **عَلِيّاً** } مجاز لشرف ذلك الثناء.

وقد رُتّب جزاء الله إبراهيم على نبذه أهل الشرك ترتيبا بديعا إذ جوزي بنعمة الدنيا وهي العقب الشريف، ونعمة الآخرة وهي الرحمة، وبأثر تينك النعمتين وهو لسان الصدق، إذ لا يُذكر به إلّا من حصّل النعمتين.

{ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً [51] وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً [52] وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً [53] }.

أفضت مناسبة ذكر إبراهيم ويعقوب إلى أن يُذكر موسى في هذا الموضع لأنّه أشرف نبيّ من ذرية إسحاق ويعقوب.

{ **مُخْلَصاً** } قرأ الجمهور { مُخْلِصاً } (بكسر اللام) من أخلص القاصر إذا كان الإخلاص صفته.

والإخلاص في أمر ما: الإتيان به غير مشوب بتقصير ولا تفريط، مشتقّ من الخلوص، وهو التمحّض وعدم الخلط. والمراد هنا: الإخلاص فيما هو شأنه، وهو الرسالة بقرينة المقام.

وقرأ حمزة، وعاصم، والكسائي، وخلف { مُخْلَصاً } (بفتح اللام) من أخلصه، إذا اصطفاه.

وخُصَّ موسى بعنوان المخلص، على الوجهين، لأنّ ذلك مزيّته، فإنّه أخلص في الدعوة إلى الله فاستخفّ بأعظم جبّار وهو فرعون، وجادله مجادلة الأكْفاء، كما حكى الله عنه في قوله تعالى { قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ - إلى قوله - قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ } [الشعراء:18-30]. وكذلك ما حكاه الله عنه بقوله تعالى { قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ } [القصص:17].

فكان الإخلاص في أداء أمانة الله تعالى ميزته. ولأنّ الله اصطفاه لكلامه مباشرة قبل أن يرسل إليه الملك بالوحي، فكان مخلَصا بذلك، أي: مصطفًى، لأنّ ذلك مزيّته قال تعالى { وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي } [طه:41].

{ **وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً** } الرسول هو المرسل بوحي من الله ليبلّغ إلى النّاس فلا يكون الرسول إلّا نبيئا، وأمّا النبيّ فهو المُنبَّأ بوحي من الله وإن لم يؤمر بتبليغه، فإذا لم يؤمر بالتبليغ فهو نبي وليس رسولا، فالجمع

بينهما هنا لتأكيد الوصف، إشارة إلى أنّ رسالته بلغت مبلغا قويّا.

{ **وَنَادَيْنَاهُ** } النداء: الكلام الدال على طلب الإقبال، وأصله جهر الصوت لإسماع البعيد، فأطلق على طلب إقبال أحد مجازا مرسلا، ومنه { إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ } [الجمعة:9]، وهو مشتقّ من النّدى (بفتح النون وبالقصر) وهو بعد الصوت. ولم يُسمع فعله إلّا بصيغة المفاعلة، وهي للمبالغة.

وهذا النداء هو الكلام الموجّه إليه من جانب الله تعالى، قال تعالى { إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي } [الأعراف:144].

وتقدّم تحقيق صفة (**الكلام**) هناك وعند قوله تعالى { حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ } [التوبة:4].

الطور: الجبل الواقع بين بلاد الشام ومصر، ويقال: له طور سيناء.

جانبه: ناحيته السفلى.

{ **الْأَيْمَنِ** } لأنّه الذي على يمين مستقبل مشرق الشمس، لأنّ جهة الشمس هي الجهة التي يضبط بها البشر النواحي.

{ **وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً** } التقريب أصله الجعل بمكان القرب، وهو الدنو وهو ضدّ البعد. وأريد هنا القرب المجازي وهو الوحي. فقوله تعالى { نَجِيّاً } حال من ضمير { مُوسَى } ، وهي حال مؤكِّدة لمعنى التقريب.

نَجِيّ: فعيل بمعنى مفعول من المناجاة. وهي المحادثة السريّة.

{ **وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً** } المعنى: أنّ الله عزّزه به وأعانه به، إذ جعله نبيّا وأمره أن يرافقه في الدعوة، لأنّ في لسان موسى حبسة وكان هارون فصيح اللسان. فكان يتكلّم عن موسى بما يريد إبلاغه، وكان يستخلفه في مهمّات الأمّة. وإنّما جعلت تلك الهبة من رحمة الله لأنّ الله رحم موسى إذ يسّر له أخا فصيح اللسان، وأكرمه بالإنباء حتّى يعلم مراد موسى مما يبلّغه عن الله تعالى. ولم يوصف هارون بأنّه رسول، إذ لم يرسله الله تعالى وإنّما جعله مبلّغا عن موسى. وأمّا قوله تعالى { فَقُولاَ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ } [طه:47] فهو من التغليب.

{ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً [54] وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً [55] }.

خُصَّ إسماعيل بالذكر هنا تنبيها على جدارته بالاستقلال بالذكر عقب ذكر إبراهيم وابنه اسحاق، لأنّ إسماعيل صار جدّ أمّة مستقلّة قبل أن يصير يعقوب جدّ أمّة، ولأنّ إسماعيل هو الابن البكر لإبراهيم وشريكه في بناء الكعبة.

وتقدم ذكر إسماعيل عند قوله تعالى { وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ } [البقرة:127].

{ **إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ** } خصّه بوصف صدق الوعد لأنّه اشتهر به وتركه خُلُقا في ذرّيّته. وأعظم وعدٍ

صدَّقه وعدُه أباه إبراهيم بأن يجده صابرا على الذبح، فقال: { سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ } [الصافات:102].

{ **وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً** } وجعله الله نبيّا ورسولا إلى قومه، وهم يومئذ لا يَعْدُون أهلَه؛ أمّه وبنيه وأصهاره من جرهم، فلذلك قال الله تعالى { وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ }، ثمّ إنّ أمّة العرب نشأت من ذرّيّته فهم أهله أيضا، وقد كان من شريعته الصلاة والزكاة وشؤون ملّة أبيه إبراهيم.

وتقدّم توجيه الجمع بين وصف رسول ونبيّ عند ذكر موسى عليه السلام آنفا.

{ **وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً** } إنعامه عليه نعما كثيرة، إذ باركه وأنْمى نسله وجعل أشرف الأنبياء من ذرّيّته، وجعل الشريعة العظمى على لسان رسول من ذرّيّته.

{ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً [56] وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً [57] } .

إدريس: اسم جُعل علما على جدّ أبي نوح، وهو المسمّى في التوراة (**أخنوخ**). فنوح هو ابن لامك بن متوشالح بن أخنوخ، فلعلّ اسمه عند نسّابي العرب إدريس، أو أنّ القرآن سمّاه بذلك اسما مشتقا من الدرس لما سيأتي قريبا. واسمه (**هرمس**) عند اليونان، ويُزعم أنّه كذلك يُسمّى عند المصرين القدماء، والصحيح أنّ اسمه عند المصريين (**توت**) أو تحوتي أو تهوتي، لهجات في النطق باسمه.

وذكر ابن العِبْري في تاريخه: " أنّ إدريس كان يُلقّب عند قدماء اليونان (**طريسمجيسطيس**)، ومعناه بلسانهم ثلاثي التعليم، لأنّه كان يصف الله بثلاث صفات ذاتية وهي الوجود والحكمة والحياة ".

ولا يخفى قرب الحروف الأولى في هذا الاسم من حروف إدريس، فلعلّ العرب اختصروا الاسم لطوله فاقتصروا على أوّله مع تغيير.

وكان إدريس نبيّا، ففي الإصحاح الخامس من سفر التكوين: " وسار أخنوخ مع الله ".

قيل: هو أوّل من وضع للبشر عمارة المدن، وقواعد العلم، وقواعد التربية، وأوّل من وضع الخط، وعلم الحساب بالنجوم وقواعد سير الكواكب، وتركيب البسائط بالنار، فلذلك كان علم الكيمياء ينسب إليه، وأوّل من علّم النّاس الخياطة. فكان هو مبدأ من وضع العلوم، والحضارة، والنظم العقلية.

فوجه تسميّته في القرآن بإدريس أنّه اشتُق له اسم من (**الدرس**) على وزن مناسب للأعلام العجميّة، فلذلك مُنع من الصرف مع كون حروفه من مادة عربية، كما مُنع إبليس وطالوت من الصرف.

{ **وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً** } قال جماعة من المفسّرين: هو رفع مجازي. والمراد: رفع المنزلة، لما أوتيه من العلم الذي فاق به على من سلفه. ونُقل هذا عن الحسن، وقال به أبو مسلم الأصفهاني.

وقال جماعة: هو رفع حقيقي إلى السماء. وفي [سفر التكوين، الإصحاح:5]: " وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد، لأنّ الله أخذه ". وعلى هذا فرفعه مثل رفع عيسى عليه السلام.

{ **أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرائيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً** } [58] الجملة استئناف ابتدائي، واسم الإشارة عائد إلى المذكورين من قوله { ذِكْرُ رَحْمَتِ ربّك عَبْدَهُ زَكَرِيَّا } [2]. والإتيان به دون الضمير للتنبيه على أنّ المشار إليهم جديرون بما يذكر بعد اسم الإشارة لأجل ما ذكر من الأوصاف، أي: كانوا أحرياء بنعمة الله عليهم وكونهم في عداد المهديين المجتبين.

{ **إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ** } مستأنفة دالة على شكرهم نعم الله عليهم وتقريبه إيّاهم بالخضوع له بالسجود عند تلاوة آياته، وبالبكاء الناشئ عن انفعال النفس انفعالا مختلطا من التعظيم والخوف.

{ **سُجَّداً** } جمع ساجد، { **وَبُكِيّاً** } جمع باك. والأول بوزن فُعَّل مثل عُذَّل، والثاني وزنه فُعول جمع فاعل مثل قوم قُعود.

وقد سجد النبيّ صلى الله عليه وسلم عند هذه الآية وسَنّ ذلك لأمّته، اقتداء بأولئك الأنبياء، فهم سجدوا كثيرا عند تلاوة آيات الله التي أنزلت عليهم، ونحن نسجد اقتداء بهم عند تلاوة الآيات التي أنزلت إلينا.

{ **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً** [59] **إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئاً** [60] **جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً** [61] **لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلَّا سَلاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً** [62] **تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيّاً** [63] }.

فُرّع على الثناء عليهم اعتبار وتنديد بطائفة من ذرّيّاتهم لم يقتدوا بصالح أسلافهم وهم المعني بـ {خَلْفٌ}.

الخَلْف (بسكون اللام) عقِب السوء، و**الخَلَف** (بفتح اللام) عقب الخير. وتقدّم عند قوله تعالى { فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ } [الأعراف:169].

وهو هنا يشمل جميع الأمم التي ضلّت، لأنّها راجعة في النسب إلى إدريس جدّ نوح، إذ هم من ذرّية ّنوح، ومن يرجع أيضا إلى إبراهيم، فمنهم من يدلي إليه من نسل إسماعيل وهم العرب، ومنهم من يدلي إليه من نسل يعقوب وهم بنو إسرائيل.

{ **مِنْ بَعْدِهِمْ** } يشمل طبقات وقرونا كثيرة، وليس قيدا، لأنّ الخلف لا يكون إلّا من بعد أصله، وإنّما ذكر لاستحضار ذهاب الصالحين.

{ **أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ** } هذان وصفان جامعان لأصناف الكفر والفسوق، فالشرك إضاعة للصلاة لأنّه انصراف عن الخضوع لله تعالى، فالمشركون أضاعوا الصلاة تماما، واتبعوا عبادة الأصنام

لمجرّد الشهوة من غير دليل، وهؤلاء هم المقصود هنا، وغير المشركين كاليهود والنصارى فرّطوا في صلوات واتّبعوا شهوات ابتدعوها، ويشمل ذلك كلّه اسم الغيّ.

الإضاعة: مجاز في التفريط بتشبيهه بإهمال العرض النفيس، فرّطوا في عبادة الله واتّبعوا شهواتهم فلم يخالفوا ما تميل إليه أنفسهم ممّا هو فساد.

الصلاة: عبادة الله وحده.

الغيّ: الضلال، ويطلق على الشرّ، كما أطلق ضدّه وهو الرشد على الخير في قوله تعالى { أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً } [الجن:10]، فيجوز أن يكون المعنى فسوف يلقون جزاء غيّهم، كقوله تعالى { وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً } [الفرقان:68]، أي: جزاء الآثام. وقرينة ذلك مقابلته في ضدّهم بقوله تعالى { فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ }.

{ **فَسَوْفَ** } دال على أنّ لقاءهم الغي متكرّر في أزمنة المستقبل مبالغة في وعيدهم وتحذيرا لهم من الإصرار على ذلك.

{ **فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ** } جيء في جانبهم باسم الإشارة إشادة بهم وتنبيها لهم للترغيب في توبتهم من الكفر. وجيء بالمضارع الدال على الحال للإشارة إلى أنّهم لا يُمطَلون في الجزاء.

الجنة: عَلَمٌ لدار الثواب والنعيم. وفيها جنات كثيرة كما ورد في الحديث: **" أَوَ جنّة واحدة هي، إنّها لجنان كثيرة "**.

الظلم: هنا بمعنى النقص والإجحاف والمطل، كقوله تعالى { كِلْتَا الْجَنَّتَينِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا } [الكهف:33].

{ **شَيْئًا** } سياق النفي يفيد نفي كلّ فرد من أفراد النقص والإجحاف والإبطاء.

{ **جَنَّاتِ** } بدل من { الْجَنَّةَ }. جيء بصيغة الجمع مع أنّ المبدل منه مفرد لأنّه يشتمل على جنات كثيرة كما علمت، وهو بدل مطابق وليس بدل اشتمال.

{ **عَدْنٍ** } الخلد والإقامة، أي: جنات خلد.

{ **الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ** } لزيادة تشريفها وتحسينها، وفي ذلك إدماج لتبشير المؤمنين السابقين في أثناء وعد المدعوين إلى الإيمان.

الغيب: مصدر غاب، فكلّ ما غاب عن المشاهدة فهو غيب. تقدّم في قوله تعالى { الذين يؤمنون بالغيب } [البقرة:3].

{ **بِالْغَيْبِ** } الباء للظرفية، أي: في الأزل إذ خلقها لهم، قال تعالى { أُعِدَّتْ لِلمُتَّقِين }. وفيه تنبيه على أنّها وإن كانت محجوبة عنهم في الدنيا فإنّها مهيّئة لهم.

{ **إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً** } تعليل، أي: يدخلون الجنّة وعدا من الله واقعا. وهذا تحقيق للبشارة.

الوعد: هنا مصدر مستعمل في معنى المفعول. فالله وعد المؤمنين الصالحين جنّات عدن، فالجنّات لهم

موعودة من ربّهم.

المأتيّ: الذي يأتيه غيره، وقد استعير الإتيان لحصول المطلوب المترقّب، تشبيها لمن يُحصّل الشيء بعد أن سعى لتحصيله بمن مشى إلى مكان حتى أتاه، وتشبيها للشيء المحصَّل بالمكان المقصود.

{ **لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً** } حال من { عِبَادَهُ }

اللغو: فضول الكلام وما لا طائل تحته. وإنفاؤه كناية عن انتفاء أقلّ المكدّرات في الجنّة، كما قال تعالى { لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً } [الغاشية:11]، وكناية عن جعل مجازاة المؤمنين في الجنّة بضدّ ما كانوا يلاقونه في الدنيا من أذى المشركين ولغوهم.

{ **إِلَّا سَلَاماً** } استثناء منقطع وهو مجاز من تأكيد الشيء بما يشبه ضده.

أي: لكن تسمعون سلاما، قال تعالى { وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ } [يونس:10]، وقال أيضا { لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلا تَأْثِيماً إِلَّا قِيلاً سَلاماً سَلاماً } [الواقعة:26/25].

الرزق: الطعام.

وجيء بالجملة الاسميّة للدلالة على ثبات ذلك ودوامه، فيفيد التكرّر المستمر وهو أخصّ من التكرّر المفاد بالفعل المضارع وأكثر. وتقديم الظرف للاهتمام بشأنهم، وإضافة رزق إلى ضميرهم لزيادة الاختصاص.

البكرة: النصف الأول من النار، و**العشي**: النصف الأخير، والجمع بينهما كناية عن استغراق الزمن، أي: لهم رزقهم غير محصور ولا مقدّر بل كلّما شاؤوا، فلذلك لم يذكر الليل.

{ **تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيّاً** } مستأنفة ابتدائية، واسم الإشارة لزيادة التمييز تنويها بشأنها وأجريت عليها الصفة بالموصول وصلته تنويها بالمتّقين وأنّهم أهل الجنّة كما قال تعالى { أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ }.

{ **نُورِثُ** } نجعل وارثا، أي: نعطي الإرث. وحقيقة الإرث: انتقال مال القريب إلى قريبه بعد موته لأنّه أولى النّاس بماله، فهو انتقال مقيّد بحالة. واستعير هنا للعطيّة المدّخرة لمعطاها، تشبيها بمال لموروث الذي يصير إلى وارثه آخر الأمر.

{ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ ربّك لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ ربّك نَسِيّاً } [64].

موقع هذه الآية هنا غريب. فقال جمهور المفسّرين: إنّ سبب نزولها أنّ جبريل عليه السلام أبطأ أياما عن النزول إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم وأنّ النبيّ ودّ أن تكون زيارة جبريل له أكثر مما هو يزوره فقال لجبريل: **ألا تزورنا أكثر مما تزورنا**، فنزلت { وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ } إلى آخر الآية. رواه البخاري والترمذي عن ابن عباس. وظاهره أنّه رواية، وهو أصحّ ما روي في سبب نزولها وألْيَقه بموقعها هنا.

والمعنى: أنّ الله أمر جبريل عليه السلام أن يقول هذا الكلام جوابا عنه، فالنظم نظم القرآن بتقدير: وقل ما نتنزّل إلّا بأمر ربّك، فكان هذا خطابا لجبريل ليبلّغه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم قرآنا. فالواو عاطفة فعل القول المحذوف على الكلام الذي قبله عطف قصّة على قصّة مع اختلاف المخاطب، وأمر الله رسوله أن يقرأها هنا، ولأنّها نزلت لتكون من القرآن.

ولا شك أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال ذلك لجبريل عليه السلام عند انتهاء قصص الأنبياء في هذه السورة فأثبتت الآية في الموضع الذي بلغ إليه نزول القرآن.

والضمير لجبريل والملائكة، أعلم الله نبيّه على لسان جبريل أنّ نزول الملائكة لا يقع إلّا عن أمر الله تعالى وليس لهم اختيار في النزول ولقاء الرسل، قال تعالى { لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ } [الانبياء:27].

{ **نَتَنَزَّلُ** } مرادف ننزل، وأصل التنزّل: تكلّف النزول. فأطلق ذلك على نزول الملائكة إلى الأرض، لأنّه نزول نادر وخروج عن عالمهم فكأنّه متكلّف، قال تعالى { تَنَزَّلُ الملائكة والروح فيها } [القدر:4].

{ **لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ** } اللام للملك، وهو ملك التصرف. ما هو أمامنا، وما هو وراءنا، وما كان عن أيمانهم وعن شمائلهم، لأنّ ما كان عن اليمين وعن الشمال هو بين الأمام والخلف. والمقصود استيعاب الجهات.

{ **وَمَا كَانَ ربّك نَسِيّاً** } على هذا الوجه من الكلام الملقّن به جبريل جوابا للنبي صلى الله عليه وسلم.

{ **نَسِيّاً** } صيغة مبالغة من نسي، أي: كثير النسيان أو شديده. فيتعيّن صرف المبالغة إلى جانب نسبة نفي النسيان عند الله، أي: تحقيق نفي النسيان مثل المبالغة في قوله تعالى { وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ }.

فهو هنا كناية عن إحاطة علم الله، أي: أنّ تنزّلنا بأمر الله لما هو على وفق علمه وحكمته في ذلك.

النسيان: الغفلة عن توقيت الأشياء بأوقاتها. وقد فسروا هنا بتارك، أي: ما كان ربّك تاركك. وعليه فالمبالغة منصرفة إلى طول مدّة النسيان.

وجوّز أبو مسلم وصاحب الكشّاف: أنّ هذه الآية من تمام حكاية كلام أهل الجنّة بتقدير فعل يقولون، حالا من قوله تعالى { مَنْ كَانَ تَقِيًّا } ، أي: وما نتنزل في هذه الجنّة إلّا بأمر ربّك. **وهو تأويل حسن**.

وعليه فكاف الخطاب في قوله { بِأَمْرِ رَبِّكَ } خطاب كل قائل لمخاطبه.

وهذا التجويز بناء على أن ما روى عن ابن عباس رأي له في تفسير الآية لا تتعيّن متابعته.

وعليه فجملة { وَمَا كَانَ ربّك نَسِيّاً } من قول الله تعالى لرسوله تذييلا لما قبله، أو هي من كلام أهل الجنة، أي: وما كان ربنا غافلا عن إعطاء ما وعدنا به.

{ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً } [65].

جملة مستأنفة من كلام الله تعالى كما يقتضيه قوله تعالى { فَاعْبُدْهُ } إلى آخره، ذيّل به الكلام الذي لقّنه

جبريل المتضمّن: أن الملائكة لا يتصرّفون إلّا عن إذن ربّهم، وأنّ أحوالهم كلّها في قبضته، بما يفيد عموم تصرّفه تعالى في سائر الكائنات، ثمّ فُرّع عليه أمر الرسول عليه السلام بعبادته، فقد انتقل الخطاب إليه.

{ **رَبُّ السَّمَاوَاتِ** } ارتفع على الخبرية لمبتدأ محذوف ملتزم الحذف في المقام الذي يذكر فيه أحد بأخبار وأوصاف ثمّ يراد تخصيصه بخبر آخر.

السماوات: العوالم العلوية. و**الأرض**: العالم السفلي، و**ما بينهما**: الأجواء والآفاق. وتلك الثلاثة تعمّ سائر الكائنات.

{ **فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً** } الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم.

وتفريع الأمر بعبادته على ذلك ظاهر المناسبة، ويحصل منه التخلّص إلى التنويه بالتوحيد وتفظيع الإشراك.

الاصطبار: شدّة الصبر على الأمر الشاق، لأنّ صيغة الافتعال ترد لإفادة قوّة الفعل. وكان الشأن أن يُعدّى الاصطبار بحرف (على) كما قال تعالى { وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا } [طه:132] ولكنّه عدّي هنا باللام لتضمينه معنى الثبات، أي: اثبت للعبادة، لأنّ العبادة مراتب كثيرة من مجاهدة النفس.

وقد يغلب بعضها بعض النفوس فتستطيع الصبر على بعض العبادات دون بعض كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم في صلاة العشاء: " **هي أثقل صلاة على المنافقين** ".

فلذلك لمّا أمر الله رسوله بالصبر على العبادة كلّها، وفيها أصناف جمّة تحتاج إلى ثبات العزيمة، نزل القائم بالعبادة منزلة المغالب لنفسه، فعدّي الفعل باللام كما يقال: اثبت لعُداتك.

{ **هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً** } واقعة موقع التعليل للأمر بعبادته والاصطبار عليها.

السَّمي: هنا الأحسن أن يكون بمعنى المسامي، أي: المماثل في شؤونه كلّها. فعن ابن عباس أنّه فسّره بالنظير، فالسَّمي هنا بمعنى: **المماثل في الصفات**، بحيث تكون المماثلة في الصفات كالمساماة.

والاستفهام إنكاري، أي: لا مسامي لله تعالى، أي ليس من يساميه، أي: يضاهيه.

وقيل: **المماثل في الاسم**، كقوله في ذكر يحيى { لم نجعل له من قبل سميّا }. والمعنى: لا تعلم له مماثلا في اسمه (الله)، فإنّ المشركين لم يسمّوا شيئا من أصنامهم (الله) باللام وإنّما يقولون للواحد منها إله، فانتفاء تسمية غيره من الموجودات المعظمّة باسمه كناية عن إعتراف النّاس بأنّ لا مماثل له في صفة الخالقية، لأنّ المشركين لم يجترئوا على أن يدّعوا لآلهتهم الخالقيّة، قال تعالى { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ }. وبذلك يتمّ كون الجملة تعليلا للأمر بإفراده بالعبادة على هذا الوجه أيضا.

وكُنّي بانتفاء العلم بسميّه عن انتفاء وجود سميٍّ له، لأن العلم يستلزم وجود المعلوم.

{ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً [66] أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً [67] }.

لمّا تضمّن قوله تعالى { فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ } إبطال عقيدة الإشراك به ناسب الانتقال إلى إبطال أثر من آثار الشرك، وهو نفي المشركين وقوع البعث بعد الموت، حتّى يتمّ انتقاض أصلي الكفر.

{ **وَيَقُولُ** } الواو عاطفة قصّة على قصة. والإتيان بالمضارع لاستحضار حالة هذا القول للتعجيب والإنكار.

{ **الْإِنْسَانُ** } المراد جمع من النّاس، بقرينة قوله تعالى بعده { فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ } ، فيراد من كانت هاته مقالته، وهم معظم المخاطبين بالقرآن في أوّل نزوله. ويجوز أن يكون وصفٌ حُذف، أي: الإنسان الكافر، كما حذف الوصف في قوله تعالى { يَأخذُ كُلَّ سَفِينةٍ غَصْباً }، أي: كلّ سفينة صالحة.

وكذلك إطلاق النّاس على خصوص المشركين منهم ورد في آيات كثيرة كقوله تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الذِي خَلَقَكُمْ وَالذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ - إلى قوله - فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ } فإنّ ذلك خطاب للمشركين.

وقيل: التعريف للعهد، لإنسان معيّن. فقيل: قائل هذا أبَي بن خلف، وقيل: الوليد بن المغيرة.

{ **أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً** } الاستفهام إنكاري لتحقيق وقوع البعث، فلذلك أُتي بالجملة المسلّط عليها الإنكار مقترنة بـ (لام) الابتداء الدالة على توكيد الجملة الواقعة هي فيها.

{ **أُخْرَجُ** } المتعلّق محذوف، أي: أخرج من القبر.

{ **أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ** } معطوفة على { يَقُولُ الْإِنْسَانُ }، أي: يقول ذلك ومن النكير عليه أنّه لا يتذكر أنّا خلقناه من قبل. والاستفهام إنكار وتعجيب من ذهول الإنسان، المنكر البعث، عن خلقه الأوّل.

{ **وَلَمْ يَكُ شَيْئاً** } الشيء: هو الموجود، أي: أنّا خلقناه ولم يك موجودا.

المعنى: الإنكار على الكافرين أن يقولوا ذلك ولا يتذكّروا حال النشأة الأولى فإنّها أعجب عند الذين يجرون في مداركهم على أحكام العادة، فإنّ الإيجاد عن عدم من غير سبق مثال أعجب وأدعى إلى الاستبعاد من إعادة موجودات كانت لها أمثلة، ولكنّها فسدت هياكلها وتغيّرت تراكيبها. وهذا قياس على الشاهد، وإن كان القادر سواء عليه الأمران.

{ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثمّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً [68] ثمّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيّاً [69] ثمّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيّاً [70] }.

{ **فَوَرَبِّكَ** } الفاء تفريع على جملة { أَوَلا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ }، باعتبار ما تضمّنته من التهديد. و(واو) القسم

لتحقيق الوعيد. والقسم بالربّ مضافا إلى ضمير المخاطب، وهو النبيّ صلى الله عليه وسلم، إدماج للتشريف.

{ **لَنَحْشُرَنَّهُمْ** } الضمير عائد إلى { الْإِنْسَانُ } المراد به الجنس المفيد للاستغراق العرفي كما تقدّم، أي: لنحشرنّ المشركين.

{ **وَالشَّيَاطِينَ** } عطف على ضمير المشركين لقصد تحقيرهم بأنّهم يحشرون مع أحقر جنس وأفسده، وللإشارة إلى أنّ الشياطين هم سبب ظلالهم الموجب لهم هذه الحالة، فحشرهم مع الشياطين إنذار لهم بأنّ مصيرهم هو مصير الشياطين.

{ **ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً** } الضمير للجميع. وهذا إعداد آخر للتقريب من العذاب، فهو إنذار على إنذار وتدرّج في إلقاء الرعب في قلوبهم.

{ **ثُمَّ** } للترتيب الرتبي لا للمهلة إذ ليست المهلة مقصودة وإنّما المقصود أنّهم ينقلون من حالة عذاب إلى أشدّ.

{ **جِثِيّاً** } حال من ضمير { لَنُحْضِرَنَّهُمْ }. و**الجُثيّ**: جمع جاث. ووزنه فُعول مثل قُعود وجُلوس، وهو وزن سماعي في جمع فاعل. يقال: جثا يجثو إذا برك على ركبته وهي **هيئة الخاضع الذليل**.

وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص، وخلف { جِثِيّاً } (بكسر الجيم) وهو كسر إتباع لحركة الثاء.

وهذا الجثو هو غير جثو النّاس في الحشر المحكي بقوله تعالى { وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا } [الجاثية:28] فإن ذلك جثو خضوع لله، وهذا جثو مذلّة.

{ **ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ** } هذه حالة أخرى من الرعب أشدّ من اللتين قبلها، وهي حالة تميّزهم للإلقاء في دركات الجحيم، على حسب مراتب غلوّهم في الكفر.

النزع: إخراج شيء من غيره، ومنه نزع الماء من البئر.

الشيعة: الطائفة التي شايعت أحدا، أي: اتّبعته، فهي على رأي واحد. وتقدّم في قوله تعالى { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ } [الحجر:10]. والمراد هنا شيع أهل الكفر، أي: ممّن أحضرناهم حول جهنّم.

العُتيّ: العصيان والتجبّر، فهو مصدر بوزن فُعول مثل: خُروج وجُلوس، فقلبت الواو ياء. وقرأه حمزة، والكسائي، وحفص، وخلف { عِتِيّاً } (بكسر العين) إتباعا لحركة التاء كما تقدّم في { جِثِيّاً }.

المعنى: لنميّزنّ من كل فرقة تجمعها محلّة خاصة من دين الضلال من هو من تلك الشيعة أشدّ عصيانا لله وتجبّرا عليه، وهذا تهديد لعظماء المشركين مثل أبي جهل وأميّة بن خلف ونظرائهم.

{ **أَيُّهُمْ** } و(أيّ) اسم موصول بمعنى (ما) و(من). والغالب أن يحذف صدر صلتها فتبنى على الضمّ. وأصل التركيب: أيّهم هو أشدّ عتيّا على الرحمان.

{ **الرَّحْمَنِ** } هذه الصفة لتفظيع عتوّهم، لأنّ شديد الرحمة حقيق بالشكر له والإحسان لا بالكفر به والطغيان. **الصُّلْيُ**: مصدر صَلِيَ النار كرضي، وهو مصدر سماعي بوزن فعول. وقرأه حمزة،

والكسائي، وحفص، وخلف { صِلِيّاً } (بكسر الصاد) إتّباعا لحركة اللام، كما تقدّم في { جِثِيّاً }.

{ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى ربّك حَتْماً مَقْضِيّاً [71] ثمّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً [72] }.

معترضة بين { فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ } وجملة { وإذا تتلى عليهم آياتنا بيّنات قال الذين كفروا }. لمّا ذُكر انتزاع الذين هم أولى بالنّار من بقية طوائف الكفر عُطف عليه أنّ جميع طوائف الشرك يدخلون النّار دفعا لتوهّم أنّ انتزاع من هو أشدّ على الرحمان عتيّا هو قصارى ما ينال تلك الطوائف من العذاب، بأن يحسبوا أنّ كبراءهم يكونون فداء لهم من النّار أو نحو ذلك.

{ وَإِنْ مِنْكُمْ } الخطاب التفات عن الغيبة في قوله تعالى { لَنَحْشُرَنَّهُمْ / لَنُحْضِرَنَّهُمْ }، عُدل عن الغيبة إلى الخطاب ارتقاء في المواجهة بالتهديد، فإنّ ضمير الخطاب أعرف من ضمير الغيبة. وعن ابن عباس أنّه كان يقرأ (وإن منهم)، وكذلك قرأ عكرمة وجماعة.

فالمعنى: وما منكم أحد ممّن نُزع من كل شيعة وغيره إلّا وارد جهنّم حتما، قضاه الله فلا مبدّل لكلماته.

الورود: حقيقته الوصول إلى الماء للاستقاء. ويطلق على الوصول مطلقا مجازا شائعا، وأمّا إطلاق الورود على الدخول فلا يعرف إلّا أن يكون مجازا غير مشهور، فلا بدّ له من قرينة.

{ كَانَ عَلَى ربّك حَتْماً مَقْضِيّاً } زيادة في الارتقاء بالوعيد بأنّهم خالدون في العذاب، فليس ورودهم النّار بمؤقّت بأجل.

الحتم: اصله مصدر حتمه إذ جعله لازما، وهو هنا بمعنى المفعول، أي: محتوما على الكافرين.

{ ثمّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا } (ثُمَّ) للترتيب الرتبي، تنويها بإنجاء الذين اتقوا، وليس المعنى: ثمّ ينجي المتقين من بينهم، بل المعنى أنّهم نَجَوا من الورود إلى النّار. وذكر إنجاء المتقين، أي: المؤمنين، إدماج ببشارة المؤمنين في أثناء وعيد المشركين.

{ وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً } عطف على { وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا }. والظالمون: المشركون. والتعبير بالذين ظلموا إظهار في مقام الإضمار. والأصل: ونذركم أيها الظالمون.

نذر: نترك، وهو مضارع ليس له ماض من لفظه، أمات العرب ماضي (نذر) استغناء عنه بماضي (ترك)، كما تقدّم عند قوله تعالى { ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ } [الأنعام:91]. وفيه إشعار بالتحقير، أي: نتركهم في النّار لا نعبأ بهم، لأنّ في فعل الترك معنى الإهمال.

وهذه الآية مثار إشكال ومحطّ قيل وقال، واتفق جميع المفسّرين على أنّ المتّقين لا تنالهم نار جهنّم. واختلفوا في محل الآية فمنهم من جعل ضمير { مِنْكُمْ } لجميع المخاطبين بالقرآن، ورووه عن بعض

السلف فصدمهم فساد المعنى ومنافاة حكمة الله والأدلة الدالة على سلامة المؤمنين يومئذ من لقاء أدنى عذاب، فسلكوا مسالك من التأويل؛

فمنهم من تأوّل الورود بالمرور المجرّد دون أن يمسّ المؤمنين أذى، وهذا بُعد عن الاستعمال. وفي آي القرآن ما جاء (الورود) إلّا لمعنى المصير إلى النّار كقوله تعالى { إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ } [الانبياء:98]، وقوله تعالى { يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ } [هود:98]، وقوله تعالى { وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً } [86]. على أنّ إيراد المؤمنين إلى النّار لا جدوى له فيكون عبثا، ولا اعتداد بما ذكره له الفخر مما سمّاه فوائد.

ومنهم من تأوّل ورود جهنّم بمرور الصراط، وهو جسر على جهنّم، فساقوا الأخبار المروية في مرور النّاس على الصراط متفاوتين في سرعة الاجتياز. وهذا أقلّ بعدا من الذي قبله.

وروى الطبري وابن كثير في هذين المحملين أحاديث لا تخرج عن مرتبة الضعف مما رواه أحمد في مسنده والحكيم الترمذي في (نوادر الأصول)، وأصحّ ما في الباب ما رواه أبو عيسى الترمذي قال: " يرد النّاس النار ثمّ يصدرون عنها بأعمالهم ". الحديث في مرور الصراط.

ومن النّاس من لفّق تعضيدا لذلك بالحديث الصحيح: " **أنّه لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فيلج النّار إلّا تحلّة القسم** ". فتأوّل تحلّة القسم بأنّها ما في هذه الآية من قوله تعالى { وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا } وهذا محمل باطل، إذ ليس في هذه الآية قسم يُتحلّل، وإنّما معنى الحديث: أنّ من استحق عذابا من المؤمنين لأجل معاص فإذا كان قد مات له ثلاثة من الولد كانوا كفّارة له فلا يلج النّار إلّا ولوجا قليلا يشبه ما يفعل لأجل تحلّة القسم، أي: التحلّل منه. وذلك أن المقسم على شيء إذا صعب عليه برّ قسمه اخذ بأقلّ ما يتحقّق فيه ما حلف عليه، فقوله تحلّة القسم تمثيل.

ويروي عن بعض السلف روايات أنّهم تخوّفوا من ظاهر هذه الآية. من ذلك ما نقل عن عبد الله بن رواحة، وعن الحسن البصري، وهو من الوقوف في موقف الخوف من شيء محتمل.

والقول عندي أنّ الخطاب في قوله تعالى { وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا } ليس لجميع النّاس مؤمنهم وكافرهم على معنى ابتداء كلام بحيث يقتضي أنّ المؤمنين يردون النّار مع الكافرين ثمّ ينجون من عذابها، لأنّ هذا معنى ثقيل ينبو عنه السياق، إذ لا مناسبة بينه وبين سياق الآيات السابقة. ولأن فضل الله على المؤمنين بالجنّة وتشريفهم بالمنازل الرفيعة ينافي أن يسوقهم مع المشركين مساقا واحدا، كيف وقد صدر الكلام بقوله تعالى { فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ }، وقوله تعالى { يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدا * ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا } [86/85] ، وهو صريح في اختلاف حشر الفريقين.

فموقع هذه الآية هنا كموقع قوله تعالى { وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ } [الحجر:43] عقب قوله تعالى { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ } [الحجر:42].

{ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً [73] وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً [74] }.

عطف على قوله تعالى { وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً } [66]. وهذا صنف آخر من غرور المشركين بالدنيا وإناطتهم دلالة على السعادة بأحوال طيب العيش في الدنيا، فكان المشركون يتشفّقون على المؤمنين ويرون أنفسهم أسعد منهم.

التلاوة: القراءة. وقد تقدّمت عند قوله تعالى { وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ } [البقرة:102]. كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يقرأ على المشركين القرآن فيسمعون آيات النعي عليهم وإنذارهم بسوء المصير، وآيات البشارة للمؤمنين بحسن العاقبة، فكان المشركون يكذّبون بذلك ويقولون: لو كان للمؤمنين خير لعُجّل لهم، فنحن في نعمة وأهل سيادة. فلأجل كون المشركين كانوا يقيسون هذا القياس الفاسد ويغالطون به جعل قولهم به معلّقا بزمان تلاوة آيات القرآن عليهم.

{ **آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ** } آيات القرآن، ومعنى كونها **بيّنات**: أنّها واضحات الحجّة عليهم، ومفعمة بالأدلة المقنعة.

{ **لِلَّذِينَ آمَنُوا** } اللام يجوز كونها للتعليل، أي: قالوا لأجل الذين آمنوا، أي: من أجل شأنهم، فيكون هذا القول المشركين فيما بينهم. ويجوز كونها متعلّقة بفعل { قَالَ } لتعديته إلى متعلّقه، فيكون قولهم خطابا منهم للمؤمنين.

{ **أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ** } الاستفهام تقريري.

{ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ** } خطاب من الله لرسوله. وقد أهلك الله أهل قرون كثيرة كانوا أرفه من مشركي العرب متاعا وأجمل منهم منظرا. فهذه الجملة معترضة بين حكاية قولهم وبين تلقين النبيّ صلى الله عليه وسلم ما يجيبهم به عن قولهم. وموقعها التهديد وما بعدها هو الجواب.

الأثاث: متاع البيوت الذي يُتزيّن به.

{ **وَرِئْياً** } قرأه الجمهور بهمزة بعد الراء وبعد الهمزة ياء على وزن (فِعل) بمعنى مفعول، **من الرؤية**، أي: أحسن مرئيّا، أي: منظرا وهيئة.

وقرأه قالون عن نافع وابن ذكوان عن ابن عامر { رِيًّا } بتشديد الياء بلا همز إمّا على أنّه من قلب الهمزة ياء وإدغامها في الياء الأخرى، وإمّا على أنّه من (**الريِّ**) الذي هو النعمة والترفّه، من قولهم: ريّان من النعيم، وأصله من الريّ ضد العطش، لأنّ الريّ يستعار للتنعم كما يستعار التلهّف للتألم.

{ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً [75] وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ ربّك ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَرَدّاً [76] }.

هذا جواب قولهم { أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً }. لقّن الله رسوله صلى الله عليه وسلم كشف مغالطتهم أو شبهتهم، فأعلمهم بأنّ ما هم فيه من نهمة الدنيا إنّما هو إمهال من الله إيّاهم، لأنّ ملاذ الكافر استدراج.

فمعيار التفرقة بين النعمة الناشئة عن رضى الله تعالى على عبده وبين النعمة التي هي استدراج لمن كفر به هو النظر إلى حال من هو في نعمة بين حال هدى وحال ضلال، قال تعالى في شأن الأوّلين { مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [النحل:97]. وقال في شأن الآخرين { أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ } [المؤمنون:56/55].

{ **فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً** } اللام لام الأمر أو الدعاء، استُعملت مجازا في لازم معنى الأمر، أي: التحقيق، أي: فسيمدّ له الرحمان مدا، أي: أنّ ذلك واقع لا محالة على سنّة الله في إمهال الضُلّال إعذارا لهم، كما قال تعالى { أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ } [فاطر:37] وتنبيها للمسلمين أن لا يغتروا بإنعام الله على الضُلّال.

المَدُّ: حقيقته إرخاء الحبل وإطالته، ويستعمل مجازا في الإمهال كما هنا، وفي الإطالة كما في قولهم: مدّ الله في عمرك. و{ **مَدّاً** } مفعول مطلق مؤكّد لعامله، أي: فليمدد له المد الشديد، فسينتهي ذلك.

{ **حَتَّى** } لغاية المدّ، وهي ابتدائية، أي: يمدّ لهم الرحمان إلى أن يروا ما يوعدون.

{ **إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ** } تفصيل لـ { مَا يُوعَدُونَ }، أي: إمّا عذاب الدنيا وإمّا عذاب الآخرة، فإنّ كل واحد منهم لا يعدو أن يرى أحد العذابين أو كليهما.

{ **فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً** } مقابل قولهم { خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً } فالمكان يرادف المقام، والجند الأعوان، لأنّ (نَدِيّاً) أريد به أهله كما تقدّم.

{ **وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً** } معطوفة على جملة { مَنْ كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً } لِما تضمّنه ذلك من الإمهال المفضي إلى الاستمرار في الضلال، والاستمرار زيادة. فالمعنى على الاحتباك، أي: فليمدد له الرحمان مدا فيزدد ضلالا، ويمدّ للذين اهتدوا فيزدادوا هدى.

{ **وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ ربّك ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَرَدّاً** } عطف على جملة { وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً }. وهو ارتقاء من بشارتهم بالنجاة إلى بشارتهم برفع الدرجات، أي: الباقيات الصالحات خير من السلامة من العذاب، أي: فسيظهر أن ما كان فيه الكفرة من النعمة والعزّة هو أقل ممّا كان عليه

المسلمون من الشظف والضعف باعتبار المآلين. إذ كان مآل الكفرة العذاب ومآل المؤمنين السلامة من العذاب والفوز بالنعيم.

الباقيات الصالحات: صفتان لمحذوف معلوم من المقام. أي: الأعمال الباقي نعيمها وخيرها، والصالحات لأصحابها، هي خير عند الله من نعمة النجاة من العذاب. وقد تقدّم وجه تقديم الباقيات على الصالحات عند الكلام على نظيره في [الكهف:46].

{ **مَرَدّاً** } المردّ: المرجع. والمراد به عاقبة الأمر.

{ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً [77] أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً [78] كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدّاً [79] وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً [80] }.

تفريع على قوله تعالى { وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً } [66] وما اتصل به من الاعتراض والتفريعات. والمناسبة: أنّ قائل هذا الكلام كان في غرور مثل الغرور الذي كان فيه أصحابه، وهو غرور إحالة البعث.

والآية تشير إلى قصّة خباب بن الأرت مع العاصي بن وائل السهمي. ففي الصحيح : أنّ خبابا كان يصنع السيوف في مكّة. فعمل للعاصي ابن وائل سيفا وكان ثمنه دينا على العاصي، وكان خباب قد أسلم، فجاء خباب يتقاضى دينه من العاصي فقال له العاصي بن وائل: لا أقضيكه حتّى تكفر بمحمد، فقال خباب وقد غضب: لا أكفر بمحمد حتى يميتك الله تم يبعثك. قال العاصي: أو مبعوث أنا بعد الموت؟ قال: نعم. قال العاصي متهكّما: إذا كان ذلك فسيكون لي مال وولد وعند ذلك أقضيك دينك، فنزلت هذه الآية في ذلك.

{ **أَفَرَأَيْتَ** } الاستفهام مستعمل في التعجيب من كفر هذا الكافر. والرؤية مستعارة للعلم بقصّته العجيبة. نزلت القصّة منزلة الشيء المشاهد بالبصر، لأنّه من أقوى طرق العلم. والمقصود من الاستفهام لفت الذهن إلى معرفة هذه القصّة، أو إلى تذكّرها إن كان عالما بها.

والخطاب لكلّ من يصلح للخطاب فلم يرد به معيّن. ويجوز أن يكون خطابا للنبيّ صلى الله عليه وسلم.

الآيات: القرآن، أي: كفر بما أنزل من الآيات وكذّب بها. ومن جملتها آيات البعث.

الولد: اسم جَمْع لوَلَد المفرد، وكذلك قرأه الجمهور، وقرأ حمزة، والكسائي في هذه السورة في الألفاظ الأربعة { وُلْدا } (بضم الواو وسكون اللام) فهو جمع ولد، كأسد وأُسد.

{ **أَطَّلَعَ الْغَيْبَ** } جواب لكلامه على طريقة الأسلوب الحكيم بحمل كلامه على ظاهر عبارته من الوعد بقضاء الدين من المال الذي سيجده حين يبعث، فالاستفهام إنكاري وتعجيبي.

{ **أَطَّلَعَ** } افتعل من طلع للمبالغة في حصول فعل الطلوع وهو الارتقاء، ولذلك يقال لمكان الطلوع

(مَطْلَع) بالتخفيف و(مُطَّلَعٌ) بالتشديد. ومن أجل هذا أطلق الاطلاع على الإشراف على الشيء. فالأصل أن فعل (اطلع) قاصر غير محتاج إلى التعدية، { قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ [54] فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ [55] }، فإذا ضُمّن معنى (أشرف) عُدّي بحرف الاستعلاء كقوله تعالى { لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا } [الكهف:18].

والمعنى: أشرف على عالم الغيب فرأى مالا وولدا معدّين له حين يأتي يوم القيامة أو فرأى ماله وولده صائرين معه في الآخرة.

{ **أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً** } متعلّق العهد محذوف يدل عليه السياق. تقديره: بأن يعطيه مالا وولدا.

{ **عِنْدَ** } ظرف مكان، وهو استعارة بالكناية بتشبيه الوعد بصحيفة مكتوب بها تعاهد وتعاقد بينه وبين الله موضوعة عند الله، لأنّ النّاس كانوا إذا أرادوا توثيق ما يتعاهدون عليه كتبوه في صحيفة ووضعوها في مكان حصين مشهور.

{ **الرَّحْمَنِ** } استحضار مدلوله أجدر في وفائه بما عهد به من النعمة المزعومة لهذا الكافر، ولأنّ في ذكر هذا الاسم تورّكا على المشركين الذين قالوا { وَمَا الرَّحْمَنُ } [الفرقان:60].

{ **كَلَّا** } حرف ردع وزجر عن مضمون كلام سابق من متكلّم واحد، أو من كلام يُحكى عن متكلّم آخر أو مسموع منه كقوله تعالى { قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ } [الشعراء:62/61]

والأكثر أن تكون عقب آخر الكلام المبطَل بها، وقد تُقدَّم على الكلام المبطَل للاهتمام بالإبطال وتعجيله والتشويق إلى سماع الكلام الذي سيرد بعدها، كما في قوله تعالى { كَلَّا وَالْقَمَرِ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ } [المدثر:32- 35] على أحد تأويلين.

ولما فيها من معنى الإبطال كانت في معنى النفي، فهي نقيض (إي) و (أجل) ونحوهما من أحرف الجواب بتقدير الكلام السابق. والغالب أن تكون متبعة بكلام بعدها، فلا يعهد في كلام العرب أن يقول قائل في رد كلام: كلا، ويسكت.

ولكونها حرف ردع أفادت معنى تاما يحسن السكوت عليه. فلذلك جاز الوقف عليها عند الجمهور. ومنع المبرّد الوقف عليها بناء على أنّها لابد أن تتبع بكلام، وقال الفرّاء: مواقعها أربعة:

1/ موقع يحسن الوقف عليها والابتداء بها كما في هذه الآية.

2/ موقع يحسن الوقف عليها ولا يحسن الابتداء بها كقوله {فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا} [الشعراء:15].

3/ موقع يحسن فيه الابتداء بها ولا يحسن الوقف عليها كقوله تعالى { كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ } [المدثر:54].

4/ موقع لا يحسن فيه شيء من الأمرين كقوله تعالى { ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ } [التكاثر:4].

وكلام الفراء يبيّن أن الخلاف بين الجمهور وبين المبرد لفضي لأنّ الوقف أعمّ من السكوت التام.

{ **سَنَكْتُبُ** } حرف التنفيس لتحقيق أنّ ذلك واقع لا محالة كقوله { قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي } [يوسف:98].

المدّ في العذاب: الزيادة منه، كقوله تعالى { فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً }

{ **وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً** } الإرث: مستعمل مجازا في السلب والأخذ، أو كناية عن لازمه وهو الهلاك. والمقصود: تذكيره بالموت، أو تهديده بقرب هلاكه.

ومعنى إرث أولاده أنّهم يصيرون مسلمين فيدخلون في حزب الله، فإنّ العاصي ولد عَمرا الصحابي الجليل وهشامًا الصحابي الشهيد يوم أجنادين، فهنا بشارة للنبيّ صلى الله عليه وسلم ونكاية وكمد للعاصي بن وائل.

{ **مَا يَقُولُ** } في الموضعين إيجاز، لأنّه لو حكي كلامه لطال. أي: ما قاله من الإلحاد والتهكّم بالإسلام. وما قاله من المال والولد، أي: سنكتب جزاءه ونهلكه فنرثه ما سمَّاه، من المال والولد.

الفرد: الذي ليس معه ما يصير به عددا، إشارة إلى أنّه يحشر كافرا وحده دون ولده، ولا مال له.

{ **وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً** [81] **كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً** [82] }.

عطف على جملة { وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ } فضمير { اتَّخَذُوا } عائد إلى الذين أشركوا.

الاتخاذ: جعل الشخص الشيء لنفسه، وهنا الاعتقاد والعبادة. وفي فعل الاتخاذ إيماء إلى أنّ عقيدتهم في تلك الآلهة شيء مصطلح عليه مختلق لم يأمر الله به، كقول إبراهيم { قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ } [الصافات:95].

{ **مِنْ دُونِ اللَّهِ** } إيماء إلى أنّ الحقّ يقتضي أن يتّخذوا الله إلها، إذ بذلك تقرّر الاعتقاد الحق من مبدأ الخليقة، وعليه دلّت العقول الراجحة.

{ **لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً** } ليكونوا معزّين لهم، أي: ناصرين، فأخبر عن الآلهة بالمصدر لتصوير اعتقاد المشركين في آلهتهم أنّهم نفس العزّ، أي: أنّ مجرّد الانتماء لها يكسبهم عزّا. وأجرى على الآلهة ضمير العاقل لأنّ المشركين الذين اتخذوهم توهموهم عقلاء مدبّرين.

{ **سَيَكْفُرُونَ** } الأظهر أنّ الضمير عائد إلى المشركين، أي: سيكفر المشركون بعبادة الآلهة فيكون مقابل قوله تعالى { وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً }. وفيه تمام المقابلة، أي: بعد أن تكلّفوا جعلهم آلهة لهم سيكفرون بعبادتهم.

{ **وَيَكُونُونَ** } الضمير للآلهة، وفيه تشتيت الضمائر. ولا ضير في ذلك إذ كان السياق يرجع كلًّا إلى ما يناسبه.

ويجوز أن يكون ضميرا { سَيَكْفُرُونَ - يَكُونُونَ } راجعين إلى المشركين، وأنّ حرف الاستقبال للحصول

قريبا، أي: سيكفر المشركون بعبادة الأصنام ويدخلون في الإسلام ويكونون ضدًّا على الأصنام يهدمون هياكلها ويلعنونها، فهو بشارة للنبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّ دينه سيظهر على دين الكفر. وفي هذه المقابلة طباق مرّتين.

الضدّ: اسم مصدر، وهو خلاف الشيء في الماهية أو المعاملة. ومن الكنائي تسمية العدو ضدّا.

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً [83] **فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً** [84] }.

استئناف بياني لجواب سؤال يجيش في نفس الرسول صلى الله عليه وسلم من إيغال الكافرين في الضلال، جماعتهم وآحادهم، وما جرّه إليهم من سوء المصير، ابتداء من قوله تعالى { وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً }، وما تخلّل ذلك من ذكر إمهال الله إيّاهم في الدنيا، وما أعدّ لهم من العذاب في الآخرة.

وهي معترضة بين { وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً } و { يَوْمَ نَحْشُرُ المتقين }. وأيضا هي كالتذييل لتلك الآيات والتقرير لمضمونها لأنّها تستخلص أحوالهم، وتتضمّن تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عن إمهالهم وعدم تعجيل عقابهم.

{ **أَلَمْ تَرَ** } الاستفهام تعجيبي. ومثله شائع في كلام العرب، يجعلون الاستفهام على نفي فعل. والمراد حصول ضدّه بحثّ المخاطب على الاهتمام بتحصيله، أي: كيف لم تر ذلك؟

{ **أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً** } نزل إرسال الشياطين على الكافرين، لاتضاح آثاره، منزلة الشيء المرئي المشاهد، فوقع التعجيب من مرآه بالاستفهام.

وإرسال الشياطين عليهم تسخيرهم لها وعدم انتفاعهم بالإرشاد النبويّ المنقذ من حبائلها، وذلك لكفرهم وإعراضهم عن استماع مواعظ الوحي. وللإشارة إلى هذا المعنى عُدل عن الإضمار إلى الإظهار في قوله تعالى {عَلَى الْكَافِرِينَ } وجعل { تَؤُزُّهُمْ } حالا مقيّدا للإرسال، لأنّ الشياطين مرسلة على جميع النّاس ولكن الله يحفظ المؤمنين من كيد الشياطين على حسب قوّة الإيمان وصلاح العمل، قال تعالى { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ } [الحجر:42].

الأزّ: الهزّ والاستفزاز الباطني، مأخوذ من أزيز القدر إذا اشتدّ غليانها. شُبِّه اضطراب اعتقادهم وتناقض أقوالهم واختلاق أكاذيبهم بالغليان في صعود وانخفاض وفرقعة وسكون، فهو استعارة فتأكيده بالمصدر ترشيح.

{ **فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ** } أي: فلا تستعجل العذاب لهم إنّما نعدّ لهم عدّا.

وعدّي الفعل بحرف الاستعلاء إكراما للنبيّ صلى الله عليه وسلم بأن نزل منزلة الذي هلاكهم بيده. فنُهي عن تعجيله بهلاكهم. وذلك إشارة إلى قبول دعائه عند ربّه، فلو دعا عليهم بالهلاك لأهلكهم الله، كيلا يرد

دعوة نبيّه صلى الله عليه وسلم.

يقال: عجل على فلان بكذا، أي: أسرع بتسليطه عليه، كما يقال: عجل إليه إذا أسرع بالذهاب إليه كقوله تعالى { وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى } [طه:84]، فاختلاف حروف تعدية فعل (عجل) ينبئ عن اختلاف المعنى.

ولعلّ سبب الاختلاف بين هذه الآية وبين قوله تعالى { وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ } [الاحقاف:35] أنّ المراد هنا استعجال الاستئصال والإهلاك وهو مقدّر كونه على يد النبيّ صلى الله عليه وسلم، فلذلك قيل هنا { فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ }، أي: انتظر يومهم الموعود، وهو يوم بدر، وأنّ العذاب المقصود في سورة الأحقاف هو عذاب الآخرة لوقوعه في خلال الوعيد لهم بعذاب النّار لقوله هنالك { وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ } [الأحقاف:35/34].

{ **إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً** } للقصر، أي ما نحن إلّا نعدّ لهم، وهو قصر موصوف على صفة قصرا إضافيا، أي نعدّ لهم ولسنا بناسين لهم كما يظنّون، بل نؤخّرهم إلى يوم موعود. وأفادت الجملة تعليل النهي عن التعجيل.

العد: الحساب. وقد استُعمل العد مجازا في قِصر المدّة، لأنّ الشيء القليل يعدّ ويحسب. وفي هذا إنذار باقتراب استئصالهم.

{ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً [85] وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً [86] لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً [87] }.

إتمام لإثبات قلّة غناء آلهتهم عنهم تبعا لقوله تعالى { وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً } [82]. فجملة { لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ } هو مبدأ الكلام، وهو بيان لجملة { وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً }، والظرف وما أضيف الظرف إليه إدماج بُيّنت به كرامة المؤمنين وإهانة الكافرين.

الحشر: الجمع مطلقا، يكون في الخير، كما هنا، وفي الشرّ كقوله تعالى { احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ } [الصافات:23/22]، ولذلك أتبع الفعل بقيد { وَفْداً }، أي: حشر الوفود إلى الملوك، فإنّ الوفود يكونون مكرَّمين.

وكانت لملوك العرب وكرمائهم وفود في أوقات، ولأعيان العرب وفادات سنويه على ملوكهم وسادتهم. ولكلّ قبيلة وفادة، وفي المثل: إنّ الشقي وافد البراجم. وقد اتبع العرب هذه السنة فوفدوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّه أشرف السادة. وسنة الوفود هي سنة تسع من الهجرة تلت فتح مكّة بعموم الإسلام بلاد العرب.

{ **الرَّحْمَنِ** } ذكر هذه صفة هنا واضحة المناسبة للوفد.

{ **وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ** } السوق: تسيير الأنعام قُدّام رعاتها، يجعلونها أمامهم لترهَب زجرهم وسياطهم، فلا تتفلّت عليهم، فالسوق: **سير خوف وحذر**.

{ **وِرْداً** } حال قصد منها التشبيه، فلذلك جاءت جامدة لأنّ معنى التشبيه يجعلها كالمشتق.

الوِرد (بكسر الواو): أصله السير إلى الماء، وتُسمّى الأنعام الواردة (وِرْدا)، تسمية على حذف المضاف، أي: ذات ورد، كما يُسمّى الماء الذي يرده القوم وردا. قال تعالى { وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ } [هود:98].

{ **لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ** } أي: لَا يستطيعون، فإنّ المِلك يطلق على المقدرة والاستطاعة. وقد تقدّم عند قوله تعالى { قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً } [المائدة:76].

{ **إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً** } استثناء منقطع، أي: لكن يملك الشفاعة يومئذ من اتخذ عند الرحمان عهدا، أي: من وعده الله بأن يشفّع، وهم الأنبياء والملائكة.

{ **وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً** [88] **لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً** [89] **تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً** [90] **أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً** [91] **وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً** [92] **إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً** [93] **لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً** [94] **وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً** [95] }.

عطف على جملة { وَيَقُولُ الْأِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ } [66] أوعلى جملة { وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً } [81] إتماما لحكاية أقوالهم، وهو القول بأنّ لله ولدا، وهو قول المشركين: الملائكة بنات الله. وقد تقدّم في سورة النحل وغيرها. فصريح الكلام ردّ على المشركين، وكنايته تعريض بالنصارى الذين شابهوا المشركين في نسبة الولد إلى الله، فهو تكملة للإبطال الذي في قوله تعالى آنفا { مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ } [35].

{ **وَقَالُوا** } الضمير عائد إلى المشركين، فيُفْهم منه أنّ المقصود من حكاية قولهم ليس مجرد الإخبار عنهم أو تعليم دينهم ولكن تفظيع قولهم وتشنيعه.

وإنّما قالوا ذلك تأييدا لعبادتهم الملائكة والجن، واعتقادهم شفعاء لهم.

{ **الرَّحْمَنُ** } هنا حكاية لقولهم بالمعنى، فهم لا يذكرون اسم الرحمان ولا يقرّون به، وقد أنكروه كما حكى الله عنهم { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ } [الفرقان:60]. فهم إنّما يقولون { اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً } كما حُكي عنهم في آيات كثيرة، منها آية سورة الكهف. فذكر { الرَّحْمَنُ } لقصد إغاظتهم بذكر اسم أنكروه.

{ **لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً** } الخطاب للذين قالوا اتخذ الرحمان ولدا، فهو التفات لقصد إبلاغهم التوبيخ على

وجه شديد الصراحة لا يلتبس فيه المراد. والجملة مستأنفة لبيان ما اقتضته جملة { وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً } من التشنيع والتفظيع.

{ **تَكَادُ** } قرأ نافع، والكسائي { يَكَادُ } بياء تحتية على عدم الاعتداد بالتأنيث. وذلك جائز في الاستعمال إذا لم يكن الفعل رافعا لضمير مؤنث متصل، وقرأ البقية { تَكَادُ } بالتاء المثناة الفوقية، وهو الوجه الآخر.

التفطّر: الانشقاق، والجمع بينه وبين { وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ } تفنّن في استعمال المترادف لدفع ثقل تكرير اللفظ. **الخرور**: السقوط.

والكلام جار على المبالغة في التهويل من فظاعة هذا القول بحيث إنّه يبلغ إلى الجمادات العظيمة فيغيّر كيانها.

الهدّ: هدم البناء. وانتصب على المفعولية المطلقة لبيان نوع الخرور. أي: سقوط الهدم، وهو أن يتساقط شظايا وقطعا.

{ **أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً** } متعلّق بكل من (يَتَفَطَّرْنَ / تَنْشَقُّ / تَخِرُّ)، وهو على حذف (لام الجر) قبل (أن) المصدرية وهو حذف مطّرد. والمقصود منه تأكيد ما أفيد من قوله تعالى { مِنْهُ } .

{ **دَعَوْا** } نسبوا، كقوله تعالى { ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ } [الأحزاب:5].

{ **وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً** } أي: ما يتأتّى، أو ما يجوز. وأصل **الانبغاء**: أنّه مطاوع فعل (بغى) الذي بمعنى طلب.

<u>والمعنى في هذه الآية</u>: وما يجوز أن يتخذ الرحمان ولدا. بناء على أن المستحيل لو طُلب حصوله لما تأتّى لأنّه مستحيل لا تتعلق به القدرة، لا لأنّ الله عاجز عنه.

نحو قوله تعالى { قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ } [الفرقان: 18] يفيد معنى: لا يستقيم لنا، أو لا يخوَّل لنا أن نتّخذ أولياء غيرك.

ونحو قوله تعالى { لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ } [يس:40] يفيد معنى لا تستطيع.

ونحو قوله تعالى { وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ } [يس:69] يفيد معنى: أنّه لا يليق به.

ونحو قوله تعالى { وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي } يفيد معنى: لا يستجاب طلبه لطالبه إن طلبه.

{ **آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً** } الإتيان المجازي، وهو الإقرار والاعتراف.

{ **عَبْدا** } حال، أي: معترف لله بالإلهيّة غير مستقل عنه في شيء في حال كونه عبدا.

<u>ويجوز</u> جعل { آتِي الرَّحْمَنِ } بمعنى صائر إليه بعد الموت، ويكون المعنى أنّه يحيا عبدا ويحشر عبدا بحيث لا تشوبه نسبة البنوّة في الدنيا ولا في الآخرة.

{ **الرَّحْمَنِ** } تكرّر الاسم في هذه الآية أربع مرات إيماء إلى أن وصف الرحمان ثابت لله.

<u>فذكر</u> هذا الوصف عند قوله تعالى { وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً } وقوله تعالى { أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً }

تسجيل لغباوتهم.

وذكره عند قوله تعالى { وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً } إيماء إلى دليل عدم لياقة اتخاذ الابن بالله.

وذكره عند قوله تعالى { إلاّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا } استدلال على احتياج جميع الموجودات إليه وإقرارها له بملكه إياها.

{ **لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً** } مستأنفة ابتدائية لتهديد القائلين هذه المقالة. فضمائر الجمع عائدة إلى ما عاد إليه ضمير { وقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً } وما بعده. أي: لقد علم الله كلّ من قال ذلك وعدّهم فلا ينفلت أحد منهم من عقابه.

{ **وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً** } إبطال ما لأجله قالوا اتخذ الله ولدا، لأنّهم زعموا ذلك موجب عبادتهم الملائكة والجنّ ليكونوا شفعاءهم عند الله، فأيأسهم الله من ذلك بأنّ كلّ واحد يأتي يوم القيامة مفردا لا نصير له، كما في قوله تعالى { ويَأْتِينَا فَرْداً }.

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً } [96].

يقتضي اتصال الآيات بعضها ببعض في المعاني أنّ هذه الآية وصف لحال المؤمنين يوم القيامة بضدّ حال المشركين، فيكون حال إتيانهم غير حال انفراد بل حال تأنّس بعضهم ببعض.

ولمّا خُتمت الآية قبلها بأنّ المشركين آتون يوم القيامة مفردين. وكان ذلك مشعرا بأنّهم آتون إلى ما من شأنه أن يتمنّى المورّط فيه من يدفع عنه وينصره، وإشعار ذلك بأنّهم مغضوب عليهم، أُعقب ذلك بذكر حال المؤمنين الصالحين، وأنّهم على العكس من حال المشركين، وأنّهم يكونون يومئذ بمقام المودّة والتبجيل. فالمعنى: سيجعل لهم الرحمان أوُدَّاء من الملائكة، كما قال تعالى {نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} [فصلت:31]، ويجعل بين أنفسهم مودّة كما قال تعالى { وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ } [الحجر:47].

وفُسّر أيضا جعْل الود بأن الله يجعل لهم محبّة في قلوب أهل الخير. رواه الترمذي عن قتيبة بن سعيد عن الدراوردي.

وأظهر الوجوه في تفسير الود أنّ الله سيجعل لهم محبّة منه تعالى. فالجعل هنا كالإلقاء في قوله تعالى { وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي } [طه:39] .

{ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً } [97].

إيذان بانتهاء السورة، فإنّ شأن الإتيان بكلام جامع بعد أفنان الحديث أن يؤذن بأنّ المتكلّم سيطوي بساطه. وذلك شأن التذييلات والخواتم. فلمّا احتوت السورة على عبر وقصص وبشارات ونذر جاء هنا بالتنويه بالقرآن وبيان بعض ما في تنزيله من الحكم.

{ **فَإِنَّمَا** } يجوز جعل الفاء فصيحة مؤذنة بكلام مقدّر يدل عليه المذكور، كأنّه قيل: بلّغ ما أنزلنا إليك ولو كره المشركون ما فيه من إبطال دينهم وإنذارهم بسوء العاقبة، فما أنزلناه إليك إلّا للبشارة والنذارة، ولا تعبأ بما حصل مع ذلك من الغيظ أو الحقد. وذلك أنّ المشركين كانوا يقولون للنبيّ صلى الله عليه وسلم: " لو كففت عن شتم آلهتنا وآبائنا وتسفيه أرائنا لاتّبعناك ".

ويجوز أن تكون الفاء للتفريع على وعيد الكافرين ووعد المؤمنين، أي: ذلك أثر الإعراض عمّا جئت به من النذارة، وأثر الإقبال على ما جئت به من البشارة، مما يسّرناه بلسانك فإنّا ما أنزلناه عليك إلّا لذلك.

{ **يَسَّرْنَاهُ** } ضمير الغائب عائد إلى القرآن بدلالة السياق، وبذلك علم أن التيسير تسهيل قراءة القرآن.

وهذا إدماج للثناء على القرآن بأنّه ميسّر للقراءة، كقوله تعالى { وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ } [القمر:17].

اللسان: اللغة، أي: بلغتك، وهي العربية، كقوله تعالى { وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ } [الشعراء:192-195] فإنّ نزول القرآن بأفضل اللغات وأفصحها هو من أسباب فضله على غيره من الكتب، وتسهيل حفظه ما لم يسهّل مثله لغيره من الكتب.

{ **قَوْماً لُدّاً** } أي: أهل إيغال في المِراء والمكابرة، أي: أهل تصميم على باطلهم، **فاللدّ**: جمع ألدّ، وهو الأقوى في اللَّدد، وهو الإباية من الاعتراف بالحق. وفي الحديث الصحيح: " **أبغض الرجال إلى الله الألدّ الخَصِم** " . وممّا جرَّه الإشراك إلى العرب من مذام الأخلاق التي خلطوا بها محاسن أخلاقهم أنّهم ربما تمدّحوا باللّدد، قال بعضهم في رثاء البعض:

إن تحتَ الأحجار حَزْما وعَزْما ... وخصيما ألدّ ذا مِغلاق

وقد حَسُن مقابلة المتّقين بقوم لدّ، لأنّ التقوى امتثال وطاعة والشرك عصيان ولَدَد.

وفيه تعريض بأنّ كفرهم عن عناد، وهم يعلمون أنّ ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو الحقّ، كما قال تعالى { فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ } [الأنعام:33].

{ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً } [98].

لمّا ذُكِروا بالعناد والمكابرة أتبع بالتعريض بتهديدهم على ذلك بتذكيرهم بالأمم التي استأصلها الله لجبروتها وتعنّتها، لتكون لهم قياسا ومثلا. فالجملة معطوفة على جملة { فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ } باعتبار ما تضمّنته من بشارة المؤمنين ونذارة المعاندين، لأنّ في التعريض بالوعيد لهم نذارة لهم وبشارة للمؤمنين باقتراب إراحتهم من ضرّهم.

القرن: الأمّة والجيل. ويطلق على الزمان الذي تعيش فيه الأمّة. وشاع تقديره بمائة سنة.

{ **هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ** } الاستفهام إنكاري. والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم تبعا لقوله تعالى

{ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ }، أي: ما تحس، أي: ما تشعر بأحد منهم.

الإحساس: الإدراك بالحسّ، أي: لا ترى منهم أحدا.

الرِّكز: الصوت الخفيّ، ويقال: الرزّ. وهو كناية عن اضمحلالهم، كُنّي باضمحلال لوازم الوجود عن اضمحلال وجودهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة طه

سُمِّيت (**سورة طاها**) باسم الحرفين المنطوق بهما في أوّلها. ورسم الحرفان بصورتهما لا بما ينطق به الناطق من اسميهما تبعا لرسم المصحف، كما تقدّم في سورة الأعراف. وكذلك وردت تسميتها في كتب السنّة في حديث إسلام عمر بن الخطاب كما سيأتي قريبا.

وذكر في الإتقان عن السخاوي أنّها تسمّى أيضا (**سورة الكليم**)، وفيه عن الهذلي في كامله أنّها تسمّى (**سورة موسى**).

وهي مكّيّة كلّها على قول الجمهور. واقتصر عليه ابن عطية وكثير من المفسرين. وفي الإتقان أنّه استثني منها آية { فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا } [130]، واستظهر في الإتقان أن يُستثنى منها قوله { وَلا تَمُدَّنَ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } [131].

وهذه السورة هي **الخامسة والأربعون في ترتيب النزول** نزلت بعد سورة مريم وقبل سورة الواقعة.

ونزلت قبل إسلام عمر بن الخطاب لما روى الدارقطني عن أنس بن مالك، وابن إسحاق في سيرته عنه قال: " خرج عمر متقلّدا بسيف. فقيل له: إن ختنك وأختك قد صبوا، فأتاهما عمر وعندهما خباب بن الأرت يقرئهما سورة (طاها)، فقال: " أعطوني الكتاب الذي عندكم فأقرأه. فقالت له أخته: إنّك رجس، ولا يمسّه إلّا المطهّرون فقم فاغتسل أو توضأ. فقام عمر وتوضأ وأخذ الكتاب فقرأ طه. فلمّا قرأ صدرا منها قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه "، إلى آخر القصة.

وكان إسلام عمر في سنة خمس من البعثة قبيل الهجرة الأولى إلى الحبشة، فتكون هذه السورة قد نزلت في سنة خمس أو أواخر سنة أربع من البعثة.

وعُدَّت آيها في عدد أهل المدينة ومكّة مائة وأربعا وثلاثين وفي عدد أهل الشام مائة وأربعين، وفي عدد أهل البصرة مائة واثنتين وثلاثين. وفي عدد أهل الكوفة مائة وخمسا وثلاثين.

أغراض السورة

*/ التحدّي بالقرآن بذكر الحروف المقطّعة في مفتتحها.

*/ التنويه بأنّه تنزيل من الله لهدي القابلين للهداية، فأكثرها في هذا الشأن.

*/ التنويه بعظمة الله تعالى. وإثبات رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بأنّها تماثل رسالة أعظم رسول قبله شاع ذكره في النّاس. فضرب المثل لنزول القران على محمد صلى الله عليه وسلم بكلام الله موسى عليه السلام.

*/ بسط نشأة موسى وتأييد الله إيّاه ونصره على فرعون بالحجّة والمعجزات، وبصرف كيد فرعون عنه وعن أتباعه.

*/ إنجاء الله موسى وقومه، وغرق فرعون، وما أكرم الله به بني إسرائيل في خروجهم من بلد القبط.

*/ قصّة السامري وصنعه العجل الذي عبده بنو إسرائيل في مغيب موسى عليه السلام. وكل ذلك تعريض بأنّ مآل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم صائر إلى ما صارت إليه بعثة موسى عليه السلام من النصر على معانديه. فلذلك انتقل من ذلك إلى وعيد من أعرضوا عن القرآن ولم تنفعهم أمثاله ومواعظه.

*/ تذكير النّاس بعداوة الشيطان الإنسان بما تضمَّنته قصّة خلق آدم.

*/ ورتّب على ذلك سوء الجزاء في الآخرة لمن جعلوا مقادتهم بيد الشيطان، وإنذارهم بسوء العقاب في الدنيا.

*/ تسلية النبيّ صلى الله عليه وسلم على ما يقولونه وتثبيته على الدين.

وتخلّل ذلك إثبات البعث. وتهويل يوم القيامة وما يتقدّمه من الحوادث والأهوال.

{ **طه** } [1].

هذان الحرفان من حروف فواتح بعض السور مثل (الم ، يس). ورُسِما في خط المصحف بصورة حروف التهجّي التي هي مسمّى (طا) و(ها) كما رُسم جميع الفواتح التي بالحروف المقطّعة. وقُرئا لجميع القراء كما قُرأت بقيّة فواتح السور. فالقول فيهما كالقول المختار في فواتح تلك السور، وقد تقدّم في أوّل سورة البقرة.

<u>وقيل</u>: هما حرفان مقتضبان من كلمتي (طاهر) و(هاد)، وأنّهما على معنى النداء بحذف حرف النداء.

<u>وقيل</u>: مقتضبان من فعل (طأ) أمرا من الوطء، ومن (ها) ضمير المؤنثة الغائبة عائد إلى رجل واحدة فأمره الله بهذه الآية أن يطأ الأرض برجله الأخرى. **ولم يصح**.

<u>وقيل</u>: (طاها) كلمة واحدة، وأنّ أصلها من الحبشيّة، ومعناها إنسان، أو يا إنسان، وتكلمت بها قبيلة (عك) أو (عُكل) وأنشدوا ليزيد بن مهلهل:

إنّ السفاهة طاها من شمائلكم ... لا بارك الله في القوم الملاعين

<u>وقيل</u>: هي اسم سمّى الله به نبيّه صلى الله عليه وسلم وأنّه على معنى النداء. أو هو قسم به.

<u>وقيل</u>: هي اسم من أسماء الله تعالى على معنى القسم. ورويت في ذلك آثار وأخبار ذكر بعضها عياض. ويجري فيها قول من جعل جميع هذه الحروف متّحدة في المقصود منها. كقول من قال: هي أسماء للسور الواقعة فيها، ونحو ذلك مما تقدّم في سورة البقرة. وإنّما غرّهم بذلك تشابه في النطق فلا نطيل بردّها.

<u>وكذلك لا التفات إلى قول من زعموا أنّه من أسماء النبيّ صلى الله عليه وسلم.</u>

{ **مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى** [2] **إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى** [3] **تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى** [4] **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى** [5] **لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى** [6] }.

افتُتحت السورة بملاطفة النبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّ الله لم يرد من إرساله وإنزال القرآن عليه أن يشقى بذلك ولكن أراد أن يذكّر بالقرآن من يخاف وعيده. وفي هذا تنويهٌ أيضا بشأن المؤمنين الذين آمنوا بأنّهم كانوا من أهل الخشية ولولا ذلك لما ادَّكروا بالقرآن.

وفي هذه الفاتحة تمهيد لما يرد من أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالاضطلاع بأمر التبليغ، وبكونه من أولي العزم مثل موسى عليه السلام، وأن لا يكون مفرّطا في العزم كما كان آدم عليه السلام قبل نزوله إلى الأرض. وأدمج في ذلك التنويه بالقرآن لأنّ في ضمن ذلك تنويها بمن أنزل عليه وجاء به.

{ **مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى** } وقوع الفعل في سياق النفي يقتضي عموم مدلوله، أي: جميع أنواع

الشقاء فلا يكون إنزال القرآن سببا في شيء من الشقاء للرسول صلى الله عليه وسلم.

الشقاء: فرط التعب بعمل أو غم في النفس. وأول ما يراد منه أسف النبيّ صلى الله عليه وسلم من إعراض قومه عن الإيمان بالقرآن. قال تعالى { فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً } [الكهف:6]. ويجوز أن يكون المراد: ما أرسلناك لتخيب بل لنؤيّدك وتكون لك العاقبة.

{ **إِلَّا تَذْكِرَةً** } استثناء مفرَّغ من أحوال للقرآن محذوفة، أي: ما أنزلنا عليك القرآن في حال من أحوال إلّا حال تذكرة، فصار المعنى: ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى وما أنزلناه في حال من الأحوال إلّا تذكرة.

قال الواحدي في (أسباب النزول) : " قال مقاتل: قال أبو جهل والنضر بن الحارث (وزاد غير الواحدي: الوليد بن المغيرة، والمطعم ابن عدي) للنبيّ صلى الله عليه وسلم: إنّك لشقي بترك ديننا، لما رأوا من طول عبادته واجتهاده، فأنزل الله تعالى { طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى } الآية ". **وليس فيه سند.**

التذكرة: خطور المنسيّ بالذهن، فإنّ التوحيد مستقرّ في الفطرة والإشراك مناف لها، فالدعوة إلى الإسلام تذكير لما في الفطرة، أو تذكير لملّة إبراهيم عليه السلام.

{ **مَنْ يَخْشَى** } هو المستعد للتأمّل والنظر في صحة الدين، وهو كل من يفكر للنجاة في العاقبة. فالخشية هنا مستعملة في المعنى العربي الأصلي. ويجوز أن يراد بها المعنى الإسلامي، وهو خوف الله، فيكون المراد من الفعل المآل، أي: من يؤول أمره إلى الخشية بتيسير الله تعالى له التقوى، كقوله تعالى { هُدىً لِلْمُتَّقِينَ } [البقرة:2]، أي: الصائرين إلى التقوى.

{ **تَنْزِيلاً** } حال ثانية من { الْقُرْآنَ }. والمقصود منها التنويه بالقرآن والعناية به لينتقل من ذلك إلى الكناية بأنّ الذي أنزله عليك بهذه المثابة لا يترك نصرك وتأييدك.

{ **مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى** } العدول عن اسم الجلالة أو عن ضميره إلى الموصوليّة لما تؤذن به الصلة من تحتّم إفراده بالعبادة، لأنّه خالق المخاطبين بالقرآن وغيرهم ممّا هو أعظم منهم خلقا.

{ **الْعُلَى** } صفة كاشفة زيادة في تقرير معنى عظمة خالقها. وأيضا لمّا كان ذلك شأن منزل القرآن لا جرم كان القرآن شيئا عظيما، كقول الفرزدق:

إن الذي سمك السماء بنى لنا ... بيتا دعائمه أعزّ وأطول

{ **الرَّحْمَنُ** } يجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف لازم الحذف، ويجوز أن يكون مبتدأ. واختير هذا وصف لتعليم النّاس به، لأن المشركين أنكروا تسميته تعالى الرحمان { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ } [الفرقان:60]. وفي ذكره هنا وكثرة التذكير به في القرآن بعث على إفراده بالعبادة شكرا على إحسانه بالرحمة البالغة.

{ **عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى** } حال من { الرَّحْمَنُ } أو خبر ثان عن المبتدأ المحذوف.

العرش: عالم عظيم من العوالم العليا، فقيل: هو أعلى سماء من السماوات وأعظمها. وقيل: غير ذلك. ويُسمّى الكرسي أيضا على الصحيح. وقيل: الكرسي غير العرش.

وأيًّا ما كان فذكر الاستواء عليه زيادة في تصوير عظمة الله تعالى وسعة سلطانه.

الاستواء: الاستقرار. قال تعالى { فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ } [المؤمنون:28]، وقال تعالى { وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ } [هود:44]. فتأويله أنّه تمثيل لشأن عظمة الله بعظمة أعظم الملوك الذين يجلسون على العروش وقد عرف العرب من أولئك ملوك الفرس وملوك الروم وكان هؤلاء مضرب الأمثال عندهم في العظمة.

وحسَّن التعبير بالاستواء مقارنته بالعرش الذي هو مما يُستوى عليه في المتعارف. فكان ذكر الاستواء كالترشيح لإطلاق العرش على السماء العظمى، فالآية من المتشابه البيّن تأويله باستعمال العرب وبما تقرّر في العقيدة: أن ليس كمثله شيء.

وقيل: الاستواء يستعمل بمعنى **الاستيلاء**. وأنشدوا قول الأخطل:

قد استوى بشر على العراق ... بغير سيف ودمٍ مُهراق

وتقدّم القول في هذا عند قوله تعالى { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } [لأعراف:54].

{ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى } بيان لجملة { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى }، والجملتان تدلّان على عظيم قدرته، لأنّ ذلك هو المقصود من سعة السلطان.

وتقديم المجرور في قوله تعالى { لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ } للقصر ردا على زعم المشركين أنّ لآلهتهم تصرّفات في الأرض وأنّ للجنّ اطّلاعا على الغيب.

الثرى: التراب. و**ما تحته**: هو باطن الأرض كلّه.

{ وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى } [7].

عطف على جملة { لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } لدلالة هذه الجملة على سعة علمه تعالى كما دلّت الجملة المعطوف عليها على عظيم سلطانه وقدرته. وأصل النظم: ويعلم السر وأخفى إن تجهر بالقول، فموقع { وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ } موقع الاعتراض بين جملة { يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى } وجملة { اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ }. فصيغ النظم في قالب الشرط والجزاء زيادة في تحقيق حصوله على طريقة ما يُسمّى بالمذهب الكلامي، وهو سوق الخبر في صيغة الدليل على وقوعه تحقيقا له.

والمعنى: أنّه يعلم السر وأخفى من السر. أي: فهو لا يحتاج إلى الجهر لأنّه يعلم السر وأخفى.

فالخطاب يجوز أن يكون خطابا للنبيّ صلى الله عليه وسلم وهو يعمّ غيره.

ويجوز أن يكون لغير معيَّن ليعم.

واختير في إثبات سعة علم الله تعالى خصوص علمه بالمسموعات لأنّ السر أخفى الأشياء عن علم النّاس في العادة. ولمَّا جاء القرآن مذكّرا بعلم الله تعالى توجّهت أنظار المشركين إلى معرفة مدى علم الله تعالى وتجادلوا في ذلك في مجامعهم.

وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود قال: اجتمع عند البيت ثقفيان وقرشي أو قرشيان وثقفي كثيرة شحم بطونِهم قليلة فقه قلوبِهم فقال أحدهم: أترون أنّ الله يسمع ما نقول؟ قال الآخر: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا. وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا فإنّه يسمع إذا أخفينا. فأنزل الله تعالى { وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ } [فصلت:22].

وقد كثر في القرآن أنّ الله يعلم ما يسر النّاس وما يعلنون ولا أحسب هذه الآية إلّا ناظرة إلى مثل ما نظرت الآية الآنفة الذكر. يبقى النظر في توجيه الإتيان بهذا الشرط بطريقة الاعتراض، وتوجيه اختيار فرض الشرط بحالة الجهر دون حالة السرّ، مع أن الذي يتراءى للناظر أنّ حالة السرّ أجدر بالذكر في مقام الإعلام بإحاطة علم الله تعالى بما لا يحيط به علم الناس.

وأحسب لفرض الشرط بحالة الجهر بالقول خصوصية بهذا السياق اقتضاها اجتهاد النبيّ صلى الله عليه وسلم في الجهر بالقرآن في الصلاة أو غيرها، فيكون مورد هذه الآية كمورد قوله تعالى { وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ } [الأعراف:205]، فيكون هذا مما نسخه قوله تعالى { فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ } [الحجر:94]، وإبطال لتوهّم المشركين أنّ الجهر أقرب إلى علم الله من السرّ، كما دل عليه الخبر المروي عن أبي مسعود المذكور آنفا.

القول: مصدر، وهو تلفّظ الإنسان بالكلام، فيشمل القراءة والدعاء والمحاورة.

وجواب الشرط محذوف يدلّ عليه قوله تعالى { فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى } والتقدير: فلا تشق على نفسك فإنّ الله يعلم السرّ وأخفى. أي: فلا مزيّة للجهر به.

وبهذا تعلم أنّ ليس مساق الآية لتعليم النّاس كيفية الدعاء، فقد ثبت في السنة الجهر بالدعاء والذكر، فليس من الصواب فرض تلك المسألة هنا إلّا على معنى الإشارة.

{ **أَخْفَى** } اسم تفضيل، وحذف المفضّل عليه لدلالة المقام عليه، أي: وأخفى من السرّ. والمراد بأخفى منه: ما يتكلّم اللسان من حديث النفس ونحوه من الأصوات التي هي أخفى من كلام السرّ.

{ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } [8].

تذييل لما قبله، لأنّ ما قبله تضمّن صفات من فعل الله تعالى ومن خلقه ومن عظمته فجاء هذا التذييل بما يجمع صفاته.

{ **اللَّهُ** } خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: هو الله. وبقية الجملة حال من اسم الجلالة.

الأسماء: الكلمات الدالة على الاتصاف بحقائق. وهي بالنسبة إلى الله، إمّا عَلَم، وهو اسم الجلالة خاصة، وإمّا وصف مثل الرحمان والجبّار وبقية الأسماء الحسنى.

{ **لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى** } تقديم المجرور للاختصاص. أي: لا لغيره، لأنّ غيره إمّا أن يكون اسمه مجرّدا

من المعاني المدلولة للأسماء مثل الأصنام، وإمّا أن تكون حقائقها فيه غير بالغة منتهى كمال حقيقتها كاتصاف البشر بالرحمة والملك، وإمّا أن يكون الاتصاف بها كذبا لا حقيقة، كاتصاف البشر بالكبر، إذ ليس أهلا للكبر والجبروت والعزّة.

{ **الْحُسْنَى** } لأنّها دالة على حقائق كاملة بالنسبة إلى المَسمّى بها تعالى وتقدّس. وذلك ظاهر في غير اسم الجلالة، وأمّا في اسم الجلالة الذي هو الاسم العَلَم فلأنّه مخالف للأعلام من حيث إنّه في الأصل وصف دال على الانفراد بالإلهية لأنّه دال على الإله، وعُرّف باللام الدالة على انحصار الحقيقة عنده. فكان جامعا لمعنى وجوب الوجود، واستحق العبادة لوجود أسباب استحقاقها عنده.

وقد تقدّم شيء من هذا عند قوله تعالى { وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا } [الأعراف:180].

{ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى [9] إِذْ رَأى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً [10] }.

أعقب تثبيت الرسول على التبليغ والتنويه بشأن القرآن بالنسبة إلى من أنزله ومن أُنزل عليه بذكر قصّة موسى عليه السلام ليتأسّى به في الصبر على تحمّل أعباء الرسالة ومقاساة المصاعب، وتسلية له بأنّ الذين كذّبوه سيكون جزاؤهم جزاء من سلفهم من المكذّبين، ولذلك جاء في عقب قصّة موسى قوله تعالى { وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً } [99]. وجاء بعد ذكر قصّة آدم { فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ } [130].

{ **وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى** } هذه القصّة تقدّم بعضها في [الأعراف:103-156]، و[يونس:75-92].

والاستفهام مستعمل في التشويق إلى الخبر مجازا وليس مستعملا في حقيقته سواء كانت هذه القصّة قد قصت على النبيّ صلى الله عليه وسلم من قبل أم كان هذا أوّل قصصها عليه.

{ **هَلْ** } أوثر في هذا المقام لما فيه من معنى التحقيق لأنّ (هَلْ) في الاستفهام مثل (قد) في الإخبار.

الحديث: الخبر. وهو اسم للكلام الذي يُحكى به أمر حدث، ويُجمع على أحاديث على غير قياس.

{ **إِذْ رَأَى نَاراً** } زيادة في التشويق كما يأتي قريبا. و(إذ) ظرف الحديث، وقد تقدّم نظائره. وخُصّ هذا الظرف بالذكر لأنّه يزيد تشويقا إلى استعلام كنه الخبر، لأنّ رؤية النار تحتمل أحوالا كثيرة، وهي تدلّ على أنّ ذلك كان بليل، وأنّه كان بحاجة إلى النّار.

الأهل: الزوج والأولاد. وكانوا معه بقرينة الجمع في قوله { امْكُثُوا }. وفي سفر الخروج من التوراة: " فأخذ موسى امرأته وبنيه وأركبهم على الحمير ورجع إلى أرض مصر".

الإيناس: الإبصار البيّن الذي لا شبهة فيه.

وتأكيد الخبر بـ (إن) لقصد الاهتمام به بشارة لأهله إذ كانوا في الظلمة.

القبس: ما يؤخذ اشتعاله من اشتعال شيء ويُقبس، كالجمرة من مجموع الجمر والفتيلة ونحو ذلك.

{ **أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً** } أي: أو ألقى عارفا بالطريق فيهديني إلى السبيل. قيل: كان موسى قد خفي

عليه الطريق من شدّة الظلمة.

{ **أَوْ** } هنا للتخيير، لأنّ إتيانه بقبس أمر محقّق، فهو إمّا أن يأخذ القبس لا غير. وإمّا أن يزيد فيجد صاحب النار قاصدا الطريق مثله فيصحبه.

{ **عَلَى** } مستعمل في الاستعلاء المجازي، أيّ شدّة القرب من النّار قربا أشبه الاستعلاء، وذلك أنّ مشعل النار يستدني منها للاستنارة بضوئها أو للاصطلاء بها.

{ **هُدىً** } أجرى الله على لسان موسى معنى هذه الكلمة إلهاما إيّاه أنّه سيجد عند تلك النار هُدى عظيما، ويُبلّغ قومه منه ما فيه نفعهم.

وإظهار النار لموسى رمز ربّاني لطيف، إذ جعل اجتلابه لتلقي الوحي باستدعاء بنور في ظلمة رمزا على أنّه سيتلقى ما به إنارة ناس بدين صحيح بعد ظلمة الضلال وسوء الاعتقاد.

{ **فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى [11] إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً [12] وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى [13]** }.

{ **نُودِيَ** } بُني فعل النداء للمجهول زيادة في التشويق إلى استطلاع القصّة، فإذا فاجأه { إِنِّي أَنَا رَبُّكَ } علم أنّ المنادي هو الله تعالى فتمكّن في النفس كمال التمكّن. ولأنّه أدخل في تصوير تلك الحالة بأنّ موسى ناداه مناد غير معلوم له.

{ **إِنِّي أَنَا رَبُّكَ** } بيان لجملة { نُودِيَ } وبهذا النداء علم موسى أنّ الكلام موجّه إليه من قبل الله تعالى لأنّه كلام غير معتاد، والله تعالى لا يغير العوائد التي قرّرها في الأكوان إلّا لإرادة الإعلام بأنّ له عناية خاصة بالمغيَّر. فالله تعالى خلق أصواتا خلقا غير معتاد غير صادرة عن شخص مشاهد، ولا موجّهة له بواسطة ملك يتولى هو تبليغ الكلام، لأنّ قوله تعالى { إِنِّي أَنَا رَبُّكَ } ظاهر في أنّه لم يبلّغ إليه ذلك بواسطة الملائكة، فلذلك قال الله { وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً } [النساء:164]، إذ علم موسى أنّ تلك الأصوات دالة على مراد الله تعالى.

والمراد التي تدل عليه تلك الأصوات الخارقة للعادة هو ما نسمّيه بالكلام النفسي. وليس الكلام النفسيّ هو الذي سمعه موسى لأنّ الكلام النفسي صفة قائمة بذات الله تعالى منزّه عن الحروف والأصوات والتعلّق بالأسماع.

والإخبار عن ضمير المتكلم بأنّه ربّ المخاطب لتسكين روعة نفسه من خطاب لا يرى مخاطبه، فإنّ شأن الربّ الرفق بالمربوب. وتأكيد الخبر بحرف (إن) لتحقيقه لأجل غرابته، دفعا لتطرّق الشكّ عن موسى في مصدر هذا الكلام.

{ **فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ** } إشارة إلى أنّ ذلك المكان قد حلّه التقديس بإيجاد كلام من عند الله فيه.

الخلع: فصل شيء عن شيء كان متّصلا به.

النعلان: جلدان غليظان يُجعلان تحت الرجل ويشدّان برباط من جلد لوقاية الرجل ألَمَ المشي على التراب والحصى، وكانت النعل تجعل على مثال الرِّجل.

وإنّما أمره الله بخلع نعليه تعظيما منه لذلك المكان الذي سيسمع فيه الكلام الإلهي. وفيه أيضا زيادة خشوع.

{ **إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً** } حرف التوكيد مفيد هنا التعليل، كما هو شأنه في كلّ مقام لا يقتضي التأكيد. وهذه خصوصيّة من جهات فلا يؤخذ منها حكم يقتضي نزع النعل عند الصلاة.

الواد: المَفْرَج بين الجبال والتلال. وأصله بياء في آخره. وكثر تخفيفه بحذف الياء كما في هذه الآية، فإذا ثني لزمته الياء يقال: واديان ولا يقال وادان، وكذلك إذا أضيف يقال: بواديك ولا يقال بوادك.

المقدّس: المطهّر المنزّه. وتقدّم في قوله تعالى { وَنُقَدِّسُ لَكَ } [البقرة:30]. وتقديس الأمكنة يكون بما يحلّ فيها من الأمور المعظّمة، وهو هنا حلول الكلام الموجّه من قبل الله تعالى.

{ **طُوىً** } (بضم الطاء وبكسرها)، ولم يقرأ في المشهور إلّا بضم الطاء. اختلف المفسّرون في معناها؛ فقيل: اسم لذلك المكان، وقيل: هو اسم مصدر بمعنى اسم المفعول، أي: طواه موسى بالسير في تلك الليلة، كأنّه قيل له: إنّك بالواد المقدّس الذي طويته سيرا. وأحسن منه على هذا الوجه أن يقال: هو أمر لموسى بأن يطوي الوادي ويصعد إلى أعلاه لتلقي الوحي. وقد قيل: إنّ موسى صعد أعلى الوادي.

وقيل: هو بمعنى المقدّس تقديسين، لأنّ (الطيّ) هو جعل الثوب على شقين. فالمعنى: المقدّس تقديسا شديدا.

والظاهر عندي: أنّ { طُوىً } اسم لصنف من الأودية يكون ضيّقا بمنزلة الثوب المطوي، أو غائرا كالبئر المطويّة، والبئر تسمّى طَوِيًّا. وسُمِّي واد بظاهر مكّة (ذا طوى) بتثليث الطاء، وهو مكان يسنّ للحاج أو المعتمر القادم إلى مكّة أن يغتسل عنده.

{ **وَأَنَا اخْتَرْتُكَ** } أُخبر عن اختيار الله تعالى موسى بطريق المسند الفعلي المفيد تقوية الحكم.

الاختيار: تكلّف طلب ما هو خير. واستُعملت صيغة التكلّف في معنى إجادة طلب الخير.

{ **فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى** } فُرّع على الإخبار باختياره أن أُمر بالاستماع للوحي لأنّه أثر الاختيار، إذ لا معنى للاختيار إلّا اختياره لتلقي ما سيوحي الله. والمراد: ما يوحى إليه حينئذ من الكلام، أو ما يوحى إليه في مستقبل الأيام.

{ **لِمَا يُوحَى** } اللام للتقوية في تعدية فعل { اسْتَمِعْ } إلى مفعوله.

{ **إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي** [14] **إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى** [15] **فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى** [16]}.

بدل من { ما يُوحَى } بدلا مطابقا. وهو المأمور باستماعه.

ووقع الإخبار عن ضمير المتكلّم باسمه العلم الدال على الذات الواجب الوجود المستحقّ لجميع المحامد.

وفي هذا إشارة إلى أنّ أوّل ما يتعارف به المتلاقون أن يعرّفوا أسماءهم. فأشار الله إلى أنّه عالم باسم كليمه وعلّم كليمه اسمه، وهو الله.

وهذا الاسم هو علم الربّ في اللغة العربية. واسمه تعالى في اللغة العبرانيه (يَهْوَهْ) أو (أَهْيَهْ) المذكور في التوراة [سفر الخروج، الإصحاح:6/3]. وقد ذُكر اسم { الله } في مواضع من التوراة مثل [سفر الخروج، الإصحاح:31، الفقرة:16]، ولعلّه من تعبير المترجمين، وأكثر تعبير التوراة إنّما هو (الربّ) أو (الإله). ولفظ (أَهْيَهْ) أو (يهوه) قريب الحروف من كلمة إله في العربية.

ويقال: إن اسم الجلالة في العبرانية (**لَاهُمْ**). ولعل الميم في آخره هي أصل التنوين في إله.

{ **لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا** } خبر ثان عن اسم (إن). والمقصود منه حصول العلم لموسى بوحدانية الله تعالى.

{ **فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي** } ثم فُرّع الأمر بعبادته. والعبادة تجمع معنى العمل الدال على التعظيم من قول وفعل وإخلاص بالقلب. ووجه التفريع أنّ انفراده تعالى بالإلهية يقتضي استحقاقه أن يُعبد.

وخُصّ من العبادات بالذكر إقامة الصلاة لأنّها تجمع أحوال العبادة.

إقامة الصلاة: إدامتها، أي: عدم الغفلة عنها.

{ **لِذِكْرِي** } يجوز أن يكون التذكّر بالعقل، ويجوز أن يكون الذكر باللسان. واللام للتعليل، أي: أقم الصلاة لأجل أن تذكرني، لأنّ الصلاة تذكّر العبد بخالقه إذ يستشعر أنّه واقف بين يدي الله لمناجاته.

ففي هذا الكلام إيماء إلى حكمة مشروعية الصلاة وبضميمته إلى قوله تعالى { إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ } [العنكبوت:45] يظهر أنّ التقوى من حكمة مشروعية الصلاة، لأنّ المكلّف إذا ذكر أمر الله ونهيه فعل ما أمره واجتنب ما نهاه عنه.

{ **إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ** } مستأنفة لابتداء إعلام بأصل ثان من أصول الدين بعد أصل التوحيد، وهو إثبات الجزاء.

الساعة: عَلَم بالغلبة على ساعة القيامة أو ساعة الحساب.

{ **أَكَادُ أُخْفِيهَا** } في موضع الحال من { السَّاعَةَ } أو معترضة بين جملة { إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ } وعلّتها.

الإخفاء: الستر وعدم الإظهار، وأريد به هنا المجاز عن عدم الإعلام.

ولمّا كانت الساعة مخفيّة الوقوع، أي: مخفية الوقت، كان قوله تعالى { أَكَادُ أُخْفِيهَا } غير واضح المقصود، فاختلفوا في تفسيره على وجوه كثيرة أمثلها ثلاثة:

فقيل: المراد إخفاء الحديث عنها، أي: من شدّة إرادة إخفاء وقتها، أي: يراد ترك ذكرها، ولعلّ توجيه ذلك أنّ المكذّبين بالساعة لم يزدهم تكرّر ذكرها في القرآن إلّا عنادا على إنكارها.

وقيل: وقعت { أَكَادُ } زائدة هنا بمنزلة زيادة (كان) في بعض المواضع، تأكيدا للإخفاء.

وتأوّل أبو علي الفارسي معنى { أُخْفِيهَا } بمعنى أظهرها، فالمعنى: أكاد أظهرها، أي: أظهر وقوعها، أي: وقوعها قريب.

{ **لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى** } تعليم بحكمة جعل يوم للجزاء.

{ **بِمَا تَسْعَى** } بما تعمل، فإطلاق السعي على العمل مجاز مرسل، كما تقدّم في قوله تعالى { وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا } [الاسراء:19].

{ **فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى** } التحذير من أن يصدّه عن الإيمان بها قوم لا يؤمنون بوقوعها اغترارا بتأخّر ظهورها، فالتفريع على قوله تعالى { أَكَادُ أُخْفِيهَا } أوقع، لأنّ ذلك الإخفاء هو الذي يشبِّه به الذين أنكروا البعث على النّاس، قال تعالى { فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً } [الاسراء:51]، وقال تعالى { وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ } [الجاثية:32].

إي: لا تكن ليّن الشكيمة لمن يصدّك ولا تصغ إليه فيكون لينك له مُجرّئًا إيّاه على أن يصدّك، فوقع النهي عن المسبّب، والمراد النهي عن السبب. وهذا الأسلوب من قبيل قولهم: لا أعرفنَّك تفعل كذا، ولا أرينَّك هاهنا.

{ **وَاتَّبَعَ هَوَاهُ** } للإيماء بالصلة إلى تعليل الصدّ، أي: لا داعي لهم للصدّ عن الإيمان بها إلّا اتباع الهوى.

{ **فَتَرْدَى** } فُرّع على النهي أنّه إن صدّ عن الإيمان بالساعة رَدِيَ، أي: هلك. والهلاك مستعارا لأسوأ الحال.

{ **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى [17] قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى [18] قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى [19] فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى [20] قَالَ خُذْهَا وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى [21]** }.

بقيّة ما نودي به موسى. والجملة معطوفة على الجمل قبلها انتقالا إلى محاورة أراد الله منها أن يُري موسى كيفيّة الاستدلال على المرسَل إليهم بالمعجزة العظيمة، وهي انقلاب العصا حيّة تأكل الحيّات التي يُظهرونها.

وإبراز انقلاب العصا حيّة في خلال المحاورة لقصد تثبيت موسى، ودفع الشك عن أن يتطرّقه لو أمره بذلك دون تجربة. فلذلك ابتدئ بسؤاله عما بيده ليوقن أنّه ممسك بعصاه، حتّى إذا انقلبت حيّة لم يشك في

أنّ تلك الحيّة هي التي كانت عصاه. فالاستفهام مستعمل في تحقيق حقيقة المسؤول عنه.
والقصد من ذلك زيادة اطمئنان قلبه بأنّه في مقام الاصطفاء، وأنّ الكلام الذي سمعه كلام من قبل الله.
{ **هِيَ عَصَايَ** } كلام من يتعجّب من الاحتياج إلى الإخبار، ولذلك عقّب موسى جوابه ببيان الغرض من اتخاذها لعلّه أن يكون هو قصد السائل.
{ **أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى** }.
التوكؤ: الاعتماد على شيء من المتاع، والاتكاء كذلك، فلا يقال: توكأ على الحائط ولكن يقال: توكأ على وسادة، وتوكأ على عصا.
الهشّ: الخبط، وهو ضرب الشجرة بعصا ليتساقط ورقها، وعُدِّي إلى ما لأجله يوقع الهش بـ (على) لتضمين (أهش) معنى أُسقط على غنمي الورق فتأكله.
مآرب: جمع مأربة، (مثلث الراء): الحاجة، أي: أمور احتاج إليها.
{ **قَالَ أَلْقِهَا** } الضمير عائد إلى الله تعالى على طريقة الالتفات. يتضح أن السؤال كان ذريعة إلى غرض سيأتي، وهو القرينة على أنّ الاستفهام في قوله تعالى { وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ } مستعمل في التنبيه إلى أهميّة المسؤول عنه كالذي يجيء في قوله تعالى { وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى } [83].
الحيّة: اسم لصنف من الحنش مسموم، ويطلق على الذكر.
{ **تَسْعَى** } لإظهار أنّ الحياة فيها كانت كاملة. و**السعي**: المشي الذي فيه شدّة، ولذلك خُصَّ غالبا بمشي الرجل دون المرأة.
{ **سِيرَتَهَا الْأُولَى** } السيرة في الأصل: هيئة السير، وأطلقت على العادة والطبيعة، أي: سنعيدها عصا كما كانت أول مرة.

{ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى [22] لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى [23] }.
هذه معجزة أخرى علّمه الله إيّاها حتّى إذا تحدّى فرعون وقومه عمل مثل ذلك أمام السحرة. فهذا تمرين على معجزة ثانية متّحد الغرض مع إلقاء العصا.
الجناح: العضد وما تحته إلى الإبط، أطلق عليه ذلك تشبيها بجناح الطائر.
الضمّ: الإلصاق، أي: ألصق يدك اليمنى التي كنت ممسكا بها العصا. وكيفية إلصاقها بجناحه أن تباشر جلد جناحه، بأن يدخلها في جيب قميصه حتّى تماس بشرة جنبه، كما في قوله تعالى { وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ } [النمل:12].
{ **بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ** } من غير مرض، مثل البرص والبَهق، بأن تصير بيضاء ثم تعود إلى لونها.
{ **لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى** } هذا التعليل راجع إلى تكرير الآية، أي: كرّرنا الآيات لنريك بعض آياتنا

فتعلم قدرتنا على غيرها.

{ **الْكُبْرَى** } صفة لـ { آيَاتِنَا } والكبر: مستعار لقوّة الماهية. أي: آياتنا القويّة الدلالة على قدرتنا أو على أنّا أرسلناك.

{ **اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى** [24] **قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي** [25] **وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي** [26] **وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي** [27] **يَفْقَهُوا قَوْلِي** [28] **وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي** [29] **هَارُونَ أَخِي** [30] **اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي** [31] **وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي** [32] **كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً** [33] **وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً** [34] **إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً** [35] **قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى** [36] }.

لما أظهر الله له الآيتين فعلم بذلك أنّه مؤيّد من الله تعالى أمره الله بالأمر العظيم الذي من شأنه أن يدخل الروع في نفس المأمور به، وهو مواجهة أعظم ملوك الأرض يومئذ بالموعظة ومكاشفته بفساد حاله.

{ **اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ** } والذهاب المأمور به ذهاب خاص، قد فهمه موسى من مقدّمات الإخبار باختياره، وإظهار المعجزات له، أو صرّح له به وطوى ذكره هنا على طريقة الإيجاز.

{ **إِنَّهُ طَغَى** } تعليل للأمر بالذهاب إليه، وإنّما صلحت للتعليل لأنّ المراد ذهاب خاص، وهو إبلاغ ما أمر الله بإبلاغه إليه من تغييره عمّا هو عليه من عبادة غير الله. ولمّا علم موسى ذلك لم يبادر بالمراجعة في الخوف من ظلم فرعون، بل تلقى الأمر وسأل الله الإعانة عليه، بما يؤول إلى رباطة جأشه وخلق الأسباب التي تعينه على تبليغه، وإعطاءه فصاحة القول للإسراع بالإقناع بالحجّة.

{ **اشْرَحْ لِي صَدْرِي** } الشرح حقيقته: تقطيع ظاهر شيء ليّن. واستعير هنا لإزالة ما في نفس الإنسان من خواطر تكدّره أو توجب تردّده في الإقدام على عمل ما، تشبيها بتشريح اللحم.

الصدر: إشارة إلى القلب، ويراد به في كلامهم العقل. فالمعنى: أزل عن فكري الخوف ونحوه، ممّا يعترض الإنسان من عقبات تحول بينه وبين الانتفاع بإقدامه وعزامته، وذلك من العسر.

{ **وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي** } سأل تيسير أمره، أي: إزالة الموانع الحافة بما كُلِّف به. و**الأمر** هنا: الشأن.

التيسير: جعل الشيء يسيرا، أي: ذا يسر. وقد تقدّم عند قوله تعالى { يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ } [البقرة:185].

{ **وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي** } ثم سأل سلامة آلة التبليغ وهو اللسان، بأن يرزقه فصاحة التعبير والمقدرة على أداء مراده بأوضح عبارة، فشبَّه حُبسة اللسان بالعقدة في الحبل أو الخيط.

العقدة: موضع ربط بعض الخيط أو الحبل ببعض آخر منه، أطلقت على عسر النطق بالكلام أو ببعض الحروف على وجه الاستعارة. ويقال لها حُبسة.

الوزير: فعيل بمعنى فاعل، من (وازر) على غير قياس، مثل حكيم من أحكم، وهو مشتق من **الأزر**، وهو المعونة، والمؤازرة كذلك، والكلّ مشتق من الأزر: أي: الظهر، كما سيأتي قريبا، فحقّه أن يكون أزيرا

بالهمزة إلّا أنهم قلبوا همزته واو حملا على موازر الذي هو بمعناه.

{ **هَارُونَ أَخِي** } خصّ هارون لفرط ثقته به، ولأنّه كان فصيح اللسان مقوالا، فكونه من أهله مظنّة النصح له، وكونه أخاه أقوى في المناصحة، ولأنّه معلوم عنده بأصالة الرأي.

{ **اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي** } على قراءة الجمهور بصيغة الأمر في فعلي { اشْدُدْ / أَشْرِكْ } بيان لجملة { وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً }. سأل الله أن يجعله معينا له في أعماله، وسأله أن يأذن له بأن يكون شريكا لموسى في أمره، أي: أمر رسالته. و**الشدّ**: الإمساك بقوة.

الأزر: أصله الظهر. ولما كان الظهر مجمع حركة الجسم وقوام استقامته أطلق اسمه على القوّة، إطلاقا شائعا يساوي الحقيقة، فقيل: الأزر للقوّة. وقيل: آزره إذا أعانه وقوّاه. وسُمّي الإزار إزارا لأنّه يُشدّ به الظهر.

{ **كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً** } علّل موسى عليه السلام سؤاله تحصيل ما سأله لنفسه ولأخيه بأن يسبحا الله كثيرا ويذكرا الله كثيرا. ووجه ذلك:

*/ أنّ فيما سأله لنفسه تسهيلا لأداء الدعوة بتوفّر آلاتها ووجود العون عليها، وذلك مظنّة تكثيرها.

*/ وأيضا فيما سأله لأخيه تشريكه في الدعوة، وذلك يبعث أخاه أيضا على الدعوة. ودعوة كل منهما تشتمل على التعريف بصفات الله وتنزيهه، فهي مشتملة على التسبيح.

*/ وفي الدعوة حثّ على العمل بوصايا الله تعالى عباده، وإدخال الأمّة في حضرة الإيمان والتقوى.

*/ وفي ذلك إكثار من ذكر الله بإبلاغ أمره ونهيه. ألا ترى إلى قوله تعالى { اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآياتِي وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي } [42].

{ **إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً** } تعليل لسؤاله شرح صدره وما بعده، أي: لأنّك تعلم حالي وحال أخي، وأنّي ما دعوتك بما دعوت إلّا لأنّنا محتاجان لذلك، وفيه تفويض إلى الله تعالى بأنّه أعلم بما فيه صلاحهم، وأنّه ما سأل سؤاله إلّا بحسب ما بلغ إليه علمه.

{ **قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى** } وعد له بالإجابة، وتصديق له فيما توسّمه من المصالح فيما سأله لنفسه ولأخيه.

{ **سُؤْلَكَ** } بمعنى المسؤول. وهو وزن (فُعْل) بمعنى مفعول كالخُبز بمعنى المخبوز، والأُكل بمعنى المأكول. <u>وهذا يدل على أنّ العقدة زالت عن لسانه</u>، ولذلك لم يُحك فيما بعد أنّه أقام هارون بمجادلة فرعون.

ووقع في التوراة: " فقال الرب لموسى أنت تتكلم بكل ما أمرك به وهارون أخوك يكلّم فرعون " [سفر الخروج، الإصحاح:7].

{ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى [37] إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى [38] أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي [39] إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى [40] وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي [41] }.

{ **وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ** } معطوفة على { قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ }، تذكير بمنّة عليه أخرى في وقت ازدياده ليعلم أنّه لمّا كان بمحل العناية من ربّه من أوّل أوقات وجوده فعنايته به بعد سؤاله أحرى، ولأنّ تلك العناية الأولى تمهيد لما أراد الله به من الاصطفاء والرسالة.

فالكرم يقتضي أنّ الابتداء بالإحسان يستدعي الاستمرار عليه. فهذا طمأنة لفؤاده وشرح لصدره ليعلم أنّه سيكون مؤيَّدا في سائر أحواله المستقبلة، كقوله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم { وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى ووجدك عائلا فأغنى } [الضحى:5-8].

وتأكيد الخبر بـ (لام القسم) و(قد) لتحقيق الخبر، زيادة في تطمين خاطره بعد قوله { قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ } [36]

المرّة: فعلة من المرور، غلبت على معنى الفعلة الواحدة من عمل معيّن يعرف بإضافة أو بدلالة المقام. وقد تقدّمت عند قوله تعالى { وَهُمْ بَدَأُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ } [التوبة:13].

{ **إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ** } الوحي هنا: وحي الإلهام الصادق. وهو إيقاع معنى في النفس ينثلج له نفس الملقى إليه بحيث يجزم بنجاحه فيه، وذلك من توفيق الله تعالى. وقد يكون بطريق الرؤيا الصالحة التي يُقذف في نفس الرائي أنّها صدق.

{ **مَا يُوحَى** } موصول مفيد أهمية ما أوحي إليها. ومفيد تأكيد كونه إلهاما من قبل الحقّ.

القذف: أصله الرمي، وأطلق هنا على الوضع في التابوت. تمثيلا لهيئة المُخفي عمله. فهو يسرع وضعه من يده كهيئة من يقذف حجرا ونحوه.

التابوت: الصندوق. وتقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ } [البقرة:248].

اليمّ: البحر، والمراد به نهر النيل.

الساحل: الشاطئ، وهو الذي يقصده آل فرعون للسباحة.

{ **عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ** } فرعون، فهو عدو الله لأنّه انتحل لنفسه الإلهية، وعدو موسى تقديرا في المستقبل، وهو عدّوه لو علم أنّه من غلمان إسرائيل لأنّه اعتزم على قتل أبنائهم.

{ **وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي** } عطف على جملة { أَوْحَيْنَا }، أي: خلق المحبّة في قلب المُحبّ بدون سبب عادي حتّى كأنّه وضع باليد.

ووصف المحبّة بأنّها من الله للدلالة على أنّها محبّة خارقة للعادة لعدم ابتداء أسباب المحبة العرفية من الإلف والانتفاع، ألا ترى قول امرأة فرعون { عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً } [القصص:9]، مع قولها { قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ } [القصص:9]. فكان قرّة عين لها قبل أن ينفعها وقبل اتخاذه ولدا.

{ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي [39] إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ }

عطف على جملة { إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ }. جُعل الأمران إتماما لمنّة واحدة لأنّ إنجاءه من القتل لا يظهر أثره إلّا إذا أنجاه من الموت بالذبول لترك الرضاعة، ومن الإهمال المفضي إلى الهلاك أو الوهن إذا ولي تربيته من لا يشفق عليه الشفقة الجبليّة.

والتقدير: وإذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله، لأجل أن تُصنع على عيني.

الصنع: مستعار للتربية والتنمية، تشبيها لذلك بصنع شيء مصنوع، ومنه يقال لمن أنعم عليه أحد نعمة عظيمة: هو صنيعة فلان.

{ عَلَى عَيْنِي } (على) للاستعلاء المجازي، أي: المصاحبة المتمكّنة، بمعنى باء المصاحبة كقوله تعالى { فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا } [الطور:48].

العين: مجاز في المراعاة والمراقبة كقوله تعالى { وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا } ، وقول النابغة:

عهدتك ترعاني بعينٍ بصيرة ... وتبعثُ حُرَّاسًا عليَّ وناظِرًا

أخت موسى: مريم ابنة عمران. وفي التوراة: أنّها كانت نبيّة [سفر الخروج، الإصحاح:15]. وتوفّيت سنة (ثلاث) من خروج بني إسرائيل من مصر [سفر العدد، الإصحاح:19]. وذلك سنة (1417 ق م). ووقع اختصار في حكاية قصّة مشي أخته، وفُصّلت في [القصص:11-13].

{ هَلْ أَدُلُّكُمْ } الاستفهام للعرض.

{ مَنْ يَكْفُلُهُ } أرادت أمّه. فلذلك قال تعالى { فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ}. وهذه منّة عليه لإكمال نمائه، وعلى أمّه بنجاته فلم تفارق ابنها إلّا ساعات قلائل، أكرمها الله بسبب ابنها.

{ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ } عطف نفي الحزن على قرّة العين لتوزيع المنّة، لأنّ قرّة عينها برجوعه إليها، وانتفاء حزنها بتحقيق سلامته من الهلاك ومن الغرق وبوصوله إلى أحسن مأوى.

{ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى [40] وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي [41] }.

قُدّم ذكر قتله النفس على ذكر الإنجاء من الغم لتعظيم المنّة، حيث افتُتحت القصّة بذكر جناية عظيمة التبعة، إذ أنجاه من عقوبة لا ينجو من مثلها مثله.

وهذه النفس هي نفس القبطي من قوم فرعون الذي اختصم مع رجل من بني إسرائيل في المدينة فاستغاث الإسرائيلي بموسى لينصره فوكز موسى القبطي فقضى عليه، كما في [القصص:15-19].

الغم: الحزن. ما خامر موسى من خوف الاقتصاص منه، لأنّ فرعون لمّا بلغه الخبر أضمر الاقتصاص من موسى للقبطي، إذ كان القبط سادة الإسرائيليين، فليس اعتداء إسرائيلي على قبطي بهيّن بينهم.

ويظهر أنّ فرعون الذي تبنّى موسى كان قد هلك قبل ذلك.

{ **فُتُوناً** } والفُتون مصدر فتن، كالخُروج، وهو مفعول مطلق لتأكيد عامله وهو { فَتَنَّاكَ } وتنكيره للتعظيم.

الفتون: كالفتنة هو اضطراب حال المرء في مدّة من حياته. وتقدّم عند قوله { وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ } [البقرة:191]. ويظهر أنّ أصل مصدر فتن بمعنى اختبر، فيكون في الشرّ وفي الخير. وأمّا الفتنة فلعلها خاصة باختبار المضر.

والمراد بهذا الفتون خوف موسى من عقاب فرعون وخروجه من البلد المذكور في قوله تعالى { فَأَصْبَحَ فِي المَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ - إلى قوله - قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } [القصص:18-21].

فلإن أنجى الله موسى من المؤاخذة بدمه في شرع فرعون فقد ابتلاه بالخوف والغربة عتابا له على إقدامه على قتل النفس. وعباد الله الذين أراد بهم خيرا ورعاهم بعنايته يجعل لهم من كل حالة كمالا يكسبونه، ويُسمّى مثل ذلك بالابتلاء، فكان من فتون موسى بقضية القبطي أن قُدّر له الخروج إلى أرض مدين ليكتسب رياضة نفس وتهيئة ضمير لتحمّل المصاعب، ويتلقى التهذيب من صهره الرسول، شعيب عليه السلام.

{ **فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى** }.

أهل مدين: قوم شعيب، و**مدين**: اسم أحد أبناء إبراهيم عليه السلام سكنت ذرّيّته في موطن تسمَّى الأيكة على شاطئ البحر الأحمر جنوب عقبة أيلة، وغلب اسم القبيلة على الأرض وصار علما للمكان فمن ثمّ أضيف إليه (أهل). وقد تقدّم في [الأعراف:85].

{ **جِئْتَ** } حضرت لدينا. وهو حضوره بالواد المقدّس لتلقي الوحي. و(على) للاستعلاء المجازي بمعنى التمكّن.

القدر: تقدير الشيء على مقدار مناسب لما يريد المقدِّر بحيث لم يكن على سبيل المصادفة.

فقوله تعالى { ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى } يفيد أنّ ما حصل لموسى من الأحوال كان مقدّرا من الله تقديرا مناسبا متدرّجا، بحيث تكون أعماله وأحواله قد قدّرها الله وحدّدها تحديدا منظّما لأجل اصطفائه وما أراد الله من إرساله، فالقدر هنا كناية عن العناية بتدبير إجراء أحواله على ما يسفر عن عاقبة الخير.

{ **وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي** } خُتم الامتنان بما هو كالفذلكة، الذي هو بمنزلة ردّ العجز على الصدر، وهو تخلّص بديع إلى الغرض المقصود وهو الخطاب بأعمال الرسالة المبتدأ من قوله تعالى { وَأَنَا اخْتَرْتُكَ

فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى } [13]، ومن قوله تعالى { اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى } [24].
الاصطناع: صنع الشيء باعتناء: واللام للأجل، أي: لأجل نفسي. والكلام تمثيل لهيئة الاصطفاء لتبليغ الشريعة بهيئة من يصطنع شيئا لفائدة نفسه فيصرف فيه غاية إتقان صنعه.

{ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآياتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي } [42].

بيان لجملة { اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى } [24]، أو هي استئناف بياني، لأنّ قوله تعالى { وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي } يؤذن بأنّه اختاره وأعدّه لأمر عظيم، لأنّ الحكيم لا يتّخذ شيئا لنفسه إلّا مريدا جعله مظهرا لحكمته.

أمره هنا بالذهاب إلى فرعون وأن يذهب أخوه معه. ومعنى ذلك أن يبلّغ أخاه أنّ الله أمره بمرافقته، فتعيّن أن الأمر لطلب حصول الذهاب المستقبل عند الوصول إلى مصر بلد فرعون وعند لقائه أخاه هارون وإبلاغه أمر الله إيّاه، فقرينة عدم إرادة الفور هنا قائمة.

{ **وَلَا تَنِيَا** } لا تضعفا. يقال: ونى يني وَنًى، أي: ضعف في العمل، أي: لا تن أنت وأبلغ هارون أن لا يني، فصيغة النهي مستعملة في حقيقتها ومجازها.

{ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى [43] **فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى** [44] **}**.

يجوز أن يكون انتقال إلى خطاب موسى وهارون. فيقتضي أن هارون كان حاضرا لهذا الخطاب. وهو ظاهر قوله بعده { قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ }. وكان حضور هارون عند موسى بوحي من الله أوحاه إلى هارون في أرض (جاسان) حيث منازل بني إسرائيل من أرض قرب طيبة. جاء في التوراة: " وقال [أي: الله] هاهو هارون خارجا لاستقبالك فتكلّمه أيضا ". وفيه أيضا: " وقال الربّ لهارون اذهب إلى البريّة لاستقبال موسى فذهب والتقيا في جبل الله " (أي: جبل حوريب) [سفر الخروج ،الإصحاح:4].
فيكون قد طوي ما حدث بين تكليم الله تعالى موسى في الوادي عند النّار وما بين وصول موسى مع أهله إلى جبل حوريب في طريقه إلى أرض مصر.

ويجوز أن تكون جملة { اذْهَبا إِلَى فِرْعَوْنَ } بدلا من جملة { اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ } فيكون قوله { اذهبا } أمرا لموسى بأن يذهب وأن يأمر أخاه بالذهاب معه وهارون غائب. **وهذا أنسب لسياق الجمل**.
وتكون جملة { قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ } مستأنفة استئنافا ابتدائيا، وقد طوى ما بين خطاب الله موسى وما بين حكاية { قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ}. والتقدير: فذهب موسى ولقي أخاه هارون وأبلغه أمر الله له بما أمره، فقالا ربّنا إنّنا نخاف.

{ **إِنَّهُ طَغَى** } تعليل للأمر بأن يذهبان إليه. فعُلم أنّه لقصد كفّه عن طغيانه. وفعل (طغى) رسم في المصحف آخره ألفا ممالة للإشارة إلى أنّه من طَغِيَ مثل رضي. ويجوز فيه الواو فيقال: يطغو مثل

يدعو.

القول الليّن: الكلام الدال على معاني الترغيب والعرض واستدعاء الامتثال. فشُبّه الكلام المشتمل على المعاني الحسنة بالشيء اللين. واللين حقيقة من صفات الأجسام، ويُستعار لسهولة المعاملة والصفح.

وهو من شعار الدعوة إلى الحقّ، قال تعالى { وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } [النحل:125]، وقال تعالى { فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ } [آل عمران:159].

ومن اللين في دعوة موسى لفرعون قوله تعالى { فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَّكَّى وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى } [النازعات:19/18]، وقوله تعالى { وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى } [47]، إذ المقصود من دعوة الرسل حصول الاهتداء لا إظهار العظمة وغلظة القول بدون جدوى.

فإذا لم ينفع اللين مع المدعو وأعرض واستكبر جاز في موعظته الإغلاظ معه، قال تعالى { وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ } [العنكبوت:46]، وقال عن موسى { إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى } [48].

{ **لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى** } الترجّي المستفاد من (لعلّ)، إمّا تمثيل لشأن الله في دعوة فرعون بشأن الراجي، وإمّا أن يكون إعلاما لموسى وهارون بأن يرجوا ذلك، فكان النطق بحرف الترجّي على لسانهما، كما تقول للشخص إذا أشرت عليه بشيء: فلعلّه يصادفك تيسير، وأنت لا تريد أنك ترجو ذلك ولكن بطلب رجاء من المخاطب. وقد تقدمت نظائره في القرآن غير مرة.

التذكّر: من الذُّكر (بضم الذال) أي: النظر، أي: لعلّه ينظر نظر المتبصّر فيعرف الحقّ أو يخشى حلول العقاب به فيطيع عن خشية. وكان فرعون من أهل الطغيان واعتقاد أنّه على الحق. فالتذكّر: أن يعرف أنّه على الباطل، والخشية: أن يتردّد في ذلك فيخشى أن يكون على الباطل فيحتاط لنفسه بالأخذ بما دعاه إليه موسى.

وهنا انتهى تكليم الله تعالى موسى عليه السلام.

{ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى [45] قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى [46] فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرائيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى [47] إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى [48] }.

فُصلت الجملتان لوقوعهما موقع المحاورة بين موسى مع أخيه وبين الله تعالى على كلا الوجهين اللذين ذكرناهما آنفا، أي: جمعا أمرهما وعزما على الذهاب إلى فرعون فناجيا ربهما { قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى }، لأنّ غالب التفكير في العواقب والموانع يكون عند العزم على الفعل والآخذ

في التهيؤ له، ولذلك أعيد أمرهما بقوله تعالى { فَأْتِيَاهُ }.

{ **يَفْرُطَ** } معناه يعجل ويسبق، ويقال: فرط يفرط من باب نصر. و**الفارط**: الذي يسبق الواردة إلى الحوض للشرب. والمعنى: نخاف أن يعجل بعقابنا بالقتل أو غيره من العقوبات قبل أن نبلّغه ونحجّه.

الطغيان: التظاهر بالتكبّر. وتقدّم آنفا عند قوله تعالى { اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى }، أي: يصدر منه ما هو أثر الكبر من التحقير والإهانة. فذكر الطغيان بعد الفرط إشارة إلى أنّهما لا يطيقان ذلك، فهو انتقال من الأشدّ إلى الأضعف لأنّ { نَخَافُ } يؤول إلى معنى النفي. وفي النفي يذكر الأضعف بعد الأقوى بعكس الإثبات ما لم يوجد ما يقتضي عكس ذلك.

وحذف متعلّق { يَطْغَى } لدلالة نظيره عليه، وأوثر بالحذف لرعاية الفواصل. والتقدير: أو أن يطغي علينا.

ويحتمل أنّ متعلّقه ليس نظير المذكور قبله بل هو متعلّق آخر، لكون التقسيم التقديري دليلا عليه، لأنّهما لمّا ذكرا متعلّق { يَفْرُطَ عَلَيْنَا } وكان الفرط شاملا لأنواع العقوبات حتّى الإهانة بالشتم لزم أن يكون التقسيم بـ (أو) منظورا فيه إلى حالة أخرى وهي طغيانه على من لا يناله عقابه، أي: أن يطغي على الله بالتنقيص، كقوله { مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي } [القصص:38]، وقوله { لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى } [القصص:38]،

فحُذف المتعلّق حينئذ لتنزيهه، والتقدير: أو أن يطغي عليك فيتصلّب في كفره ويعسر صرفه عنه.

{ **قَالَ لَا تَخَافَا** } أي: لا تخافا حصول شيء من الأمرين.

{ **إِنَّنِي مَعَكُمَا** } تعليل للنهي عن الخوف الذي هو في معنى النفي، والمعيّة معيّة حفظ.

{ **أَسْمَعُ وَأَرَى** } حالان من ضمير المتكلّم، أي: أنا حافظكما من كل ما تخافانه، وأنا أعلم الأقوال والأعمال فلا أدَعُ عملا أو قولا تخافانه.

{ **فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ** } إعادة الأمر بالذهاب إلى فرعون.

الإتيان: الوصول والحلول، لأنّ الإتيان اثر الذهاب المأمور به في الخطاب السابق، وكانا قد اقتربا من مكان فرعون لأنّهما في مدينته.

{ **إِنَّا رَسُولَا** } جاءت تثنية رسول على الأصل في مطابقة الوصف الذي يجرى عليه في الإفراد وغيره. وفعول الذي بمعنى مفعول تجوز فيه المطابقة وعدم المطابقة. وهما وجهان مستويان.

ومن مجيئه غير مطابق قوله تعالى { فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [الشعراء:16].

{ **رَبِّكَ** } خَصَّا الرب بالإضافة إلى ضمير فرعون قصدا لأجل الدعوة، لأنّ فرعون يدّعي أنّه هو الربّ.

{ **وَلَا تُعَذِّبْهُمْ** } هو ما كان فرعون يسخّر له بني إسرائيل من الأعمال الشاقة في الخدمة، لأنه كان يعُد بني إسرائيل كالعبيد والخول، جزاء إحلالهم بأرضه.

{ **قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ** } فيها بيان لجملة { إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ } فكانت الأولى إجمالا والثانية بيانا. وفيها

معنى التعليل لتحقيق كونهما مرسلين من الله بما يظهره الله على يد أحدهما من دلائل الصدق.
وهذه الآية هي انقلاب العصا حيّة، وقد تبعها آيات أخرى.
والاقتصار على طلب إطلاق بني إسرائيل يدلّ على أنّ موسى أرسل لإنقاذ بني إسرائيل وتكوين أمّة مستقلّة، بأن يبثّ فيهم الشريعة المصلحة لهم والمقيمة لاستقلالهم وسلطانهم، ولم يرسل لخطاب القبط بالشريعة، ومع ذلك دعا فرعون وقومه إلى التوحيد، لأنّه يجب عليه تغيير المنكر الذي هو بين ظهرانيه.
وهذا يؤخذ ممّا في هذه الآية وما في آية سورة الإسراء وما في آية سورة النازعات والآيات الأخرى.
{ **وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى** } السلامة والإكرام. وليس المراد به هنا التحية، وهذا كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم في كتابه إلى هرقل وغيره: " **أسلم تَسلم** ".
و{ عَلَى } للتمكن، أي: سلامة من اتبع الهدى ثابتة لهم دون ريب. وهذا احتراس ومقدمة للإنذار، وفيه تعريض بأن يطلب فرعون الهدى الذي جاء به موسى عليه السلام.
{ **إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى** } تعريض لإنذاره على التكذيب قبل حصوله منه ليبلّغا الرسالة على أتمّ وجه قبل ظهور رأي فرعون في ذلك، حتّى لا يجابهاه بعد ظهور رأيه بتصريح توجيه الإنذار إليه. وهذا أسلوب القول الليّن الذي أمرهما الله به.
وإطلاق { السَّلامُ / الْعَذَابَ } دون تقيّد بالدنيا أو الآخرة تعميم للبشرة والنذارة، قال تعالى { فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى* إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى } [النازعات:26/25].
وهذا كلّه كلام الله الذي أمرهما بتبليغه إلى فرعون.

{ **قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى [49] قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى [50]** }.
هذا حكاية جواب فرعون عن الكلام الذي أمر الله موسى وهارون بإبلاغه فرعون، ففي الآية حذف جمل دلّ عليها السياق قصدا للإيجاز. والتقدير: فأتياه فقالا له ما أُمرا به، فقال: فمن ربكما؟
ووجّه فرعون الخطاب إليهما بالضمير المشترك، ثم خَصّ موسى بالإقبال عليه بالنداء، لعلمه بأنّ موسى هو الأصل بالرسالة وأنّ هارون تابع له، ولعلّ موسى هو الذي تولى الكلام وهارون يصدّقه بالقول أو بالإشارة.
{ **قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى** } أجاب موسى بإثبات الربوبية لله لجميع الموجودات جريا على قاعدة الاستدلال بالكلية على الجزئية بحيث ينتظم من مجموعهما قياس، فإن فرعون من جملة الأشياء.
الخلق: مصدر بمعنى الإيجاد، وجيء بفعل (الإعطاء) للتنبيه على أنّ الخلق والتكوين نعمة، فهو استدلال على الربوبيّة وتذكير بالنعمة معا.
<u>ويجوز</u> أن يكون الخلق بالمعنى الأخصّ، وهو الخلق على شكل مخصوص، فهو بمعنى الجعل،

أي: الذي أعطى كل شيء من الموجودات شكله المختصّ به، فكُوّنت بذلك الأجناس والأنواع والأصناف والأشخاص من آثار ذلك الخلق.

ويجوز أن يكون { كُلَّ شَيْءٍ } مفعولا ثانيا لـ { أَعْطَى } ومفعوله الأوّل { خَلْقَهُ }، أي: أعطى خلقه ما يحتاجونه، كقوله تعالى { فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ }. فتركيب الجملة صالح للمعنيين.

{ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى [51] قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى [52]}.

البال: كلمة دقيقة المعنى، تطلق على **الحال المهمّ**، ومصدره (البالَة) بتخفيف اللام، قال تعالى { كَفَّرَ عَنْهُمْ

سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ } [محمد:2]، أي: حالهم. وفي الحديث **" كلّ أمر ذي بال.."**، وتطلق على الرأي، يقال: خطر كذا ببالي. ويقولون: ما ألقى له بالا، وإيثار هذه الكلمة هنا من دقيق الخصائص البلاغية.

أراد فرعون أن يحاجّ موسى بما حصل للقرون الماضية الذين كانوا على ملّة فرعون، أي: قرون أهل مصر، أي: كيف حالهم؟ أفتزعم أنهم اتفقوا على ضلالة. وهذه شنشنة من لا يجد حجّة، وهو في معنى قول فرعون وملئه { قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا } [يونس:78].

ويجوز أن يكون المعنى أنّ فرعون أراد التشغيب على موسى حين نهضت حجّته بأن ينقله إلى الحديث عن حال القرون الأولى: هل هم في عذاب بمناسبة قول موسى { أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى } [48]، فإذا قال: إنّهم في عذاب، ثارت ثائرة أبنائهم فصاروا أعداء لموسى، وإذا قال: هم في سلام، نهضت حجّة فرعون لأنّه متابع لدينهم.

{ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ } صالح للاحتمالين؛

فعلى الاحتمال الأوّل يكون موسى صرفه عن الخوض فيما لا يجدي في مقامه ذلك المتمحّض لدعوة الأحياء لا البحث عن الأموات الذين أفضوا إلى عالم الجزاء. وهذا نظير قول النبيّ صلى الله عليه وسلم لما سئل عن ذراري المشركين فقال: **" الله أعلم بما كانوا عاملين "**.

وعلى الاحتمال الثاني يكون موسى قد عدل عن ذكر حالهم خيبة لمراد فرعون وعدولا عن الاشتغال بغير الغرض الذي جاء لأجله.

{ فِي كِتَابٍ } كناية عن تحقيق العلم، لأنّ الأشياء المكتوبة تكون محقّقة.

{ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى } تأكيد. و**الضلال**: الخطأ في العلم، و**النسيان**: عدم تذكر الأمر المعلوم.

{ **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى [53] كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهَى [54]** }.

هذه جمل ثلاث، معترضة في أثناء قصّة موسى.

{ **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ** - إلى قوله - **مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى** } الجملة الأولى، مستأنفة ابتدائية على عادة القرآن من تفنّن الأغراض لتجديد نشاط الأذهان. ولا يحتمل أن تكون من كلام موسى إذ لا يناسب ذلك تفريع قوله تعالى { فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً }. أي: الجاعل الأرض مهادا فكيف تعبدون غيره. وهذا قصر حقيقي غير مقصود به الرد على المشركين ولكنّه تذكير بالنعمة وتعريض بأنّ غيره ليس حقيقا بالإلهيّة.

{ **مَهْداً** } قرأ الجمهور { مِهَادًا } (بكسر الميم) وهو اسم بمعنى الممهود مثل الفراش واللباس.

ويجوز أن يكون جمع مهْد، وهو اسم لما يُمهد للصبي. وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف { مَهْداً } بفتح الميم وسكون الهاء، أيّ كالمهد الذي يمهد للصبي. ومعنى القراءتين واحد، أي: جعل الأرض مسهّلة، كقوله تعالى { وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطاً * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً } [نوح:20/19].

{ **سَلَكَ** } فعل مشتق من السلوك والسَّلْك الذي هو الدخول مجتازا في الطريق، تشبيها للسائر بالشيء الداخل في شيء آخر. يقال: سلك طريقا. فحقّ هذا الفعل أن يتعدّى إلى مفعول واحد وهو المدخول فيه، ويستعمل متعدّيا بمعنى أسلك. فيقال: أسلك المسمار في اللوح، أي: جعله سالكا إيّاه.

{ **وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً** } أي: جعل سبلا سالكة في الأرض، أي: متخلّلة. وذلك كناية عن كثرتها.

{ **سُبُلاً** } كل سبيل يمكن السير فيه سواء كان من أصل خلقة الأرض كالسهول والرمال، أو كان من أثر فعل النّاس مثل الثنايا التي تكرّر السير فيها فتعبّدت وصارت طرقا يتابع النّاس السير فيها.

{ **وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى** } لمّا ذكر منّة خلق الأرض شفعها بمنّة إخراج النبات منها بما ينزل عليها من السماء من ماء. وتلك منّة تنبئ عن خلق السماوات.

{ **فَأَخْرَجْنَا** } التفات. وحسّنه هنا أنّه بعد أن حجّ المشركين بحجّة انفراده بخلق الأرض وتسخير السماء ممّا لا سبيل بهم إلى نكرانه ارتقى إلى **صيغة المتكلّم المطاع**، فإن الذي خلق الأرض وسخّر السماء حقيق بأن تطيعه القوى والعناصر، فهو يُخرج النبات من الأرض بسبب ماء السماء، فكان تسخير النبات أثرا لتسخير أصل تكوينه من ماء السماء وتراب الأرض.

ولملاحظة هذه النكتة تكرّر في القرآن مثل هذا الالتفات عند ذكر الإنبات كما في قوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ } [الأنعام:99]، وقوله تعالى { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا } [فاطر:27]، وقوله تعالى { أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ }، ومنها قوله تعالى { وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً } [الزخرف:11]. وقد نبّه إلى ذلك في الكشّاف، ولله درّه. ونظائره كثيرة في القرآن.

الأزواج: جمع زوج. وحقيقة الزوج أنّه اسم لكلّ فرد من اثنين من صنف واحد. فكل أحد منهما هو زوج باعتبار الآخر، لأنّه يصير بسبق الفرد الأوّل إيّاه زوجا. ثم غلب على الذكر والأنثى المقترنين من نوع الإنسان أو من الحيوان، قال تعالى { فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ } [المؤمنون:27].

ولمّا شاعت فيه ملاحظة معنى اتحاد النوع تطرّقوا من ذلك إلى استعمال لفظ الزوج في معنى النوع بغير قيد كونه ثانيا لآخر، على طريقة المجاز المرسل بعلاقة الإطلاق، قال تعالى { سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ } [يس:36]، ومنه قوله تعالى { فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ } [لقمان:10]. وفي الحديث: **" من أنفق زوجين في سبيل الله ابتدرته حَجَبة الجنّة..."** ، أي: من أنفق نوعين مثل: الطعام والكسوة، ومثل: الخيل والرواحل. وهذا الإطلاق هو المراد هنا. أي: فأنبتنا به أنواعا من نبات.

النبات: مصدر سمّي به النابت، فلكونه مصدرا في الأصل استوى فيه الواحد والجمع.

شتّى: جمع شتيت بوزن فَعلى، مثل: مريض ومرضى. والشتيت: المشتّت، أي: المُبعَّد. وأريد به هنا التباعد في الصفات من الشكل واللون والطعم، وبعضها صالح للإنسان وبعضها للحيوان.

{ **كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ** } الجملة الثانية، مقول قول محذوف هو حال من ضمير { فَأَخْرَجْنَا }، والتقدير: قائلين: كلوا وارعوا أنعامكم. والأمر للإباحة مراد به المنّة.

وفعل (رعى) يُستعمل قاصرا ومتعدّيا. يقال: رعت الدابة ورعاها صاحبها. وفُرّق بينهما في المصدر فمصدر القاصر: الرعي، ومصدر المتعدي: الرعاية.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى** } الجملة الثالثة، معترضة مؤكّدة للاستدلال، فبعد أن أشير إلى ما في المخلوقات المذكورة آنفا من الدلالة على وجود الصانع ووحدانيّته، والمنّة بها على الإنسان لمن تأمّل، جُمعت في هذه الجملة وصُرّح بما في جميعها من الآيات الكثيرة.

{ **إِنَّ** } التأكيد لتنزيل المخاطبين منزلة المنكرين، لأنّهم لم ينظروا في دلالة تلك المخلوقات على وحدانيّة الله، وهم يحسبون أنفسهم من أولي النهى، فما كان عدم اهتدائهم بتلك الآيات إلّا لأنّهم لم يعدّوها آيات.

النُّهى: اسم جمع نُهْية (بضم النون وسكون الهاء)، أي: العقل، سُمّي نُهية لأنّه سبب انتهاء المتحلي به عن كثير من الأعمال المفسدة والمهلكة، ولذلك أيضا سُمّي بالعقل وسُمّي بالحجر.

{ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى } [55].

مستأنفة استئنافا ابتدائيا. وهذا إدماج للتذكير بالخلق الأوّل ليكون دليلا على إمكان الخلق الثاني بعد الموت. والمناسبة متمكّنة، فإنّ ذكر خلق الأرض ومنافعها يستدعي إكمال ذكر المهمّ للنّاس من أحوالها، فكان خلق أصل الإنسان من الأرض شبيها بخروج النبات منها. وإخراج النّاس إلى الحشر شبيه بإخراج النبات من الأرض. قال تعالى { وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً }

[نوح:18/17].

{ **مِنْهَا / فِيهَا / مِنْهَا** } تقديم المجرور الأوّل والمجرور الثالث للاهتمام بكون الأرض مبدأ الخلق الأوّل والخلق الثاني. وأمّا تقديم الثاني فللمزاوجة مع نظيريه.

{ **وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ** } دلّ على أنّ دفن الأموات في الأرض هو الطريقة الشرعيّة لمواراة الموتى سواء كان شقّا في الأرض أو لحدا، لأنّ كليهما إعادة في الأرض. فما يأتيه بعض الأمم غير المتديّنة من إحراق الموتى بالنّار، أو إغراقهم في الماء، أو وضعهم في صناديق فوق الأرض، فذلك مخالف لسنة الله وفطرته، لأنّ الفطرة اقتضت أنّ الميت يسقط على الأرض فيجب أن يوارى فيها. وكذلك كانت أوّل مواراة في البشر حين قتل أحد ابني آدم أخاه. كما قال تعالى { فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي } [المائدة:31] فجاءت الشرائع الإلهية بوجوب الدفن في الأرض.

الإخراج: هو إخراجها إلى الحشر بعد إعادة هياكل الأجسام. وفيه إيماء إلى أنّ إخراج الأجساد من الأرض بإعادة خلقها كما خلقت في المرّة الأولى، قال تعالى { كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ } [الانبياء:104].

التارة: المرّة، وجمعها تارات. ويظهر أنّها اسم جامد ليس له أصل مشتقّ منه.

{ **وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى** } [56].

رجوع إلى قصص موسى عليه السلام مع فرعون. وهذه الجملة بين الجمل التي حكت محاورة موسى وفرعون، وقعت هذه كالمقدّمة لإعادة سوق ما جرى بين موسى وفرعون من المحاورة.

{ **وَلَقَدْ** } تأكيد الكلام بـ (لام القسم) و (قد) مستعمل في التعجيب من تصلّب فرعون في عناده، وقُصد منها بيان شدّته في كفره، وبيان أنّ لموسى آيات كثيرة أظهرها الله لفرعون.

وأُجْملت وعُمّمت فلم تفصَّل، لأنّ المقصود هنا بيان شدة تصلبه في كفره بخلاف آية [الأعراف:133] التي قُصد منها بيان تعاقب الآيات وكثرتها.

{ **أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا** } إظهارها له بحيث شاهدها. أي: أرينا فرعون آياتنا التي جرت على يد موسى، وهي المذكورة في قوله تعالى { فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ } [النمل:12] وهي: (انقلاب العصا حيّة / تبدّل لون اليد بيضاء / سِنُو القحط / الجراد / القمل / الضفادع / الدم / الطوفان / انفلاق البحر).

وقد استمر تكذيبه بعد جميعها حتّى لمّا رأى انفلاق البحر اقتحمه طمعا للظفر ببني إسرائيل.

{ **كُلَّهَا** } أداة التوكيد لزيادة التعجيب من عناده.

{ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى [57] فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَاناً سُوًى [58] قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحىً [59] }.

متّصلة بجملة { قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى } [51] وجواب موسى عنها. وافتتاحها بفعل { قَالَ } وعدم عطفه لا يترك شكا في أنّ هذا من تمام المحاورة.

{ **أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ** } يقتضي أنّه أراه آية انقلاب العصا حيّة، وانقلاب يده بيضاء. وذلك ما سمّاه فرعون سحرا. وقد صُرّح بهذا المقتضى في [الشعراء:29-35]. وقد استُغني عن ذكره هنا بما في جملة { وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا } من العموم الشامل لآية انقلاب العصا حيّة.

وإنّما جعل فرعون العلّة في مجيء موسى إليه أن يخرجهم من أرضهم قياسا منه على الذين يقومون بدعوة ضدّ الملوك، أنّهم إنّما يبغون بذلك إزالتهم عن الملك وحلولهم محلّهم.

ويجوز أن يكون ضمير المتكلّم المشارك مستعملا في الجماعة تغليبا، ونزل فرعون نفسه واحدا منها. وأراد بالجماعة جماعة بني إسرائيل حيث قال له موسى { فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرائيلَ } [47]، أي: جئت لتخرج بعض الأمّة من أرضنا وتطمع أن يتبعك جميع الأمّة بما تظهر لهم من سحرك.

{ **فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ** } أي: فلنأتينّك بسحرة.

وقصد فرعون من مقابلة عمل موسى بمثله أن يزيل ما يخالج نفوس النّاس من تصديق موسى.

{ **فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ مَكَاناً سُوًى** } فُرّع على ذلك طلب تعيين موعد بينه وبين موسى ليحضر له فيه السحرة.

الموعد: هنا يجوز أن يراد به المصدر الميمي، أي: الوعد، وأن يراد به مكان الوعد، وهذا إيجاز في الكلام.

{ **مَكَاناً** } بدل اشتمال من { مَوْعِداً } بأحد معنييه، لأنّ الفعل يقتضي مكانا وزمانا فأبدل منه مكانه.

{ **سُوًى** } قرأه نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي { سِوًى } بكسر السين. وقرأه عاصم، وحمزة، وابن عامر، ويعقوب، وخلف بضم السين وهما لغتان.

والمعنى: قال مجاهد: إنّه مكان نِصف، وكأنّ المراد أنّه نصف من المدينة لئلّا يشقّ الحضور فيه على أهل أطراف المدينة. وعن ابن زيد: المعنى مكانا مستويا، أي: ليس فيه مرتفعات تحجب العين، أراد مكانا منكشفا للناظرين ليشهدوا أعمال موسى وأعمال السحرة.

{ **قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحىً** } جواب موسى. فيقتضي أنّ محشر النّاس في يوم الزينة كان مكانا معروفا. ولعلّه كان بساحة قصر فرعون، لأنّهم يجتمعون بزينتهم ولهوهم بمرأى منه ومن أهله على عادة الملوك في المواسم.

{ **يَوْمُ الزِّينَةِ** } كان يوم عيد عظيم عند القبط، وهو يوم كسر الخليج أو الخلجان، وهي المنافذ والترع المجعولة على النيل لإرسال الزائد من مياهه إلى الأرضين البعيدة عن مجراه للسقي، فتنطلق المياه في جميع النواحي التي يمكن وصولها إليها ويزرعون عليها.

وزيادة المياه في النيل هو توقيت السنة القبطية، وذلك هو أوّل يوم من شهر (توت) القبطي. وهو (أيلول) بحسب التاريخ الاسكندري، وذلك قبل حلول الشمس في برج الميزان بثمانية عشر يوما، أي: قبل فصل الخريف بثمانية عشر يوما، فهو يوافق اليوم الخامس عشر من شهر تشرين (سبتمبر).

وأوّل أيّام شهر (توت) هو يوم النيروز عند الفرس، وذلك مبني على حساب انتهاء زيادة النيل لا على حساب بروج الشمس.

واختار موسى هذا الوقت وهذا المكان لأنّه يعلم أن سيكون الفوز له، فأحبّ أن يكون ذلك في وقت أكثرَ مشاهِدا وأوضح رؤية.

{ **فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى** [60] **قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى** [61] }.

إشارة إلى أنّ فرعون بادر بالاستعداد لهذا الموعد.

التولّي: الانصراف، وهو هنا مستعمل في حقيقته، وهذا كقوله تعالى { ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى* فَحَشَرَ فَنَادَى } [النازعات:23/22].

{ **فَجَمَعَ كَيْدَهُ** } تدبير أسلوب مناظرة موسى، وإعداد الحيل لإظهار غلبة السحرة عليه، وإقناع الحاضرين بأنّ موسى ليس على شيء. فالجمع هنا مستعمل في معنى إعداد الرأي، واستقصاء ترتيب الأمر، كقوله تعالى { فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ } [يونس:71].

الكيد: إخفاء ما به الضرّ إلى وقت فعله. وقد تقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ } [الأعراف:183].

{ **ثُمَّ أَتَى** } ثمّ حضر الموعد، و(ثمّ) هنا للمهلة الحقيقية والرتبية معا، لأنّ حضوره للموعد كان بعد مضيّ مهلة الاستعداد، ولأنّ ذلك الحضور أهم من جمع الكيد، لأنّ فيه ظهور أثر ما أعدّه.

{ **قَالَ لَهُمْ مُوسَى** } مستأنفة استئنافا بيانيا. أراد موسى مفاتحة السحرة بالموعظة.

{ **لَهُمْ** } الضميرعائد إلى معلوم من قوله { فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ } أي: بأهل سحر، أو يكون الخطاب للجميع، لأنّ ذلك المحضر كان بمرأى ومسمع من فرعون وحاشيته.

{ **وَيْلَكُمْ** } يجوز أن يكون أراد به حقيقة الدعاء. ويجوز أن تكون الكلمة مستعملة في التعجّب من حال غريبة، أي: أعجب منكم وأحذّركم، كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم لأبي بصير: **" ويل أمِّه، مُسْعِرُ حرب "**.

فحُكي تعجّب موسى باللفظ العربي الدال على العجب الشديد.

الويل: اسم للعذاب والشرّ، وليس له فعل.

الافتراء: اختلاق الكذب. والجمع بينه وبين { كَذِباً } للتأكيد، وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ } [المائدة:103].

والافتراء الذي عناه موسى هو ما يخيّلونه للناس من الشعوذة، أو قولهم: ما نفعله تأييد من الله لنا، أو قولهم: إنّ موسى كاذب وساحر، أو قولهم: إن فرعون إلههم، أو آلهة فرعون آلهة. وقد كانت مقالات كفرهم أشتاتا.

{ **فَيُسْحِتَكُمْ** } مضارع سَحَتَه: إذا استأصله.

{ **وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى** } في موضع الحال من ضمير { لَا تَفْتَرُوا } وهي مسوقة مساق التعليل للنهي، أي: اجتنبوا الكذب على الله فقد خاب من افترى عليه من قبل. بعد أن وعظهم فنهاهم عن الكذب على الله وأنذرهم عذابه ضرب لهم مثلا بالأمم البائدة الذين افتروا الكذب على الله فلم ينجحوا فيما افتروا لأجله.

{ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى [62] قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى [63] فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفّاً وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى [64] }.

تفرّع على موعظة موسى تنازعهم الأمر بينهم، وهذا يؤذن بأنّ منهم من تركت فيه الموعظة بعض الأثر، ومنهم من خشي الانخذال، فلذلك دعا بعضهم بعضا للتشاور.

التنازع: تفاعل من النزع، وهو الجذب من البئر، وجذب الثوب من الجسد، وهو مستعمل تمثيلا في اختلاف الرأي ومحاولة كلّ صاحب رأي أن يقنع المخالف له بأن رأيه هو الصواب. فالتنازع: **التخالف**.

النجوى: الحديث السرّي، أي: اختَلَوا وتحادثوا سرًّا ليصدروا عن رأي لا يطّلع عليه غيرهم.

{ **بَيْنَهُمْ** } زيادة للمبالغة، أي: أنّ النجوى بين طائفة خاصة لا يشترك معهم فيها غيرهم.

{ **قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ** } بدل اشتمال من جملة { وَأَسَرُّوا النَّجْوَى } لأنّ إسرار النجوى يشتمل على أقوال كثيرة ذُكر منها هذا القول، لأنّه القول الفصل بينهم والرأي الذي أرسوا عليه. وهو تحقّقهم أنّ موسى وأخاه ساحران.

واعلم أنّ جميع القرّاء المعتبرين قرأوا بإثبات الألف في اسم الإشارة (هاذان) ما عدا أبا عمرو من العشرة وما عدا الحسن البصري من الأربعة عشر. وذلك يوجب اليقين بأنّ إثبات الألف في لفظ (هذان) أكثر تواترا بقطع النظر عن كيفية النطق بكلمة (إن) مشدّدة أو مخففة، وأنّ أكثر مشهور القراءات المتواترة قرأوا بتشديد نون (إنّ) ما عدا ابن كثير وحفصا عن عاصم فهما قرءا (إنْ) بسكون النون على

أنّها مخففة من الثقيلة.

وأنّ المصحف الإمام ما رسموه إلّا اتباعا لأشهر القراءات المسموعة المروية من زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم، وقرّاء أصحابه، فإنّ حفظ القرآن في صدور القرّاء أقدم من كتابته في المصاحف، وما كتب في أصول المصاحف إلّا من حفظ الكاتبين، ومن مجموع محفوظ الحفاظ، وما كتبه كتّاب الوحي في مدّة نزول الوحي.

فأمّا قراءة الجمهور { إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ } بتشديد نون (إنَّ) وبالألف في { هَذَانِ } وكذلك في {لَسَاحِرَانِ} فللمفسرين في توجيهها آراء بلغت الستة. وأظهرها أن تكون (إنّ) **حرف جواب مثل**: **نعم وأجل**، وهو استعمال من استعمالات (إن) أي: اتّبعوا لما استقر عليه أمرهم بعد النجوى كقول عبد الله بن قيس الرقيَّات:

ويقلن شَيْبٌ قد علا ... كَ وقد كبِرْتَ فقلت إنّه

(أي: أجل أو نعم، والهاء في البيت هاء السكت).

وقول عبد الله بن الزبير لأعرابي استجداه فلم يعطه، فقال الأعرابي: لعن الله ناقة حملتني إليك. قال ابن الزبير: إنّ وراكبها.

وهذا التوجيه من مبتكرات أبي إسحاق الزجاج ذكره في تفسيره. وقال: عرضته على عالمينا وشيخينا وأستاذينا محمد بن يزيد يعني المبرّد، وإسماعيل بن إسحاق بن حماد (يعني القاضي الشهير) فقبلاه وذكرا أنّه أجود ما سمعاه في هذا. **قلت**: لقد صدقا وحقّقا. وما أورده ابن جنّي عليه من الرد فيه نظر.

وقرأ حفص بكسر الهمزة وتخفيف نون (إنْ) مسكنة على أنّها مخففة (إنّ) المشدّدة. ووجه ذلك أن يكون اسم (إنْ) المخففة ضمير شأن محذوفا على المشهور. وتكون اللام في { لَسَاحِرَانِ } اللام الفارقة بين (إن) المخففة وبين (إن) النافية.

وأمّا قراءة أبي عمرو وحده { إنّ هذين } بتشديد نون وبالياء بعد ذال (هذين). فقال القرطبي: هي مخالفة للمصحف. و**أقول**: ذلك لا يطعن فيها، لأنّها رواية صحيحة ووافقت وجها مقبولا في العربية.

ونزول القرآن بهذه الوجوه الفصيحة في الاستعمال ضرب من ضروب إعجازه لتجري تراكيبه على أفانين مختلفة المعاني متّحدة المقصود.

فلا التفات إلى ما روي من ادعاء أن كتابة (إن هاذان) خطأ من كاتب المصحف، وروايتهم ذلك عن أبان بن عثمان بن عفان عن أبيه، وعن عروة بن الزبير عن عائشة، وليس في ذلك سند صحيح. حسبوا أنّ المسلمين أخذوا قراءة القرآن من المصاحف وهذا تغفُّل، فإنّ المصحف ما كتب إلّا بعد أن قرأ المسلمون القرآن نيفا وعشرين سنة في أقطار الإسلام، وما كتبت المصاحف إلّا من حفظ الحفّاظ، وما أخذ المسلمون القرآن إلّا من أفواه حفّاظه قبل أن تكتب المصاحف، وبعد ذلك إلى اليوم فلو كان في بعضها

خطأ في الخط لما تبعه القرّاء، ولكان بمنزلة ما ترك من الألفات في كلمات كثيرة وبمنزلة كتابة ألف الصلاة، والزكاة، والحياة، والربا بالواو في موضع الألف وما قرأوها إلّا بألفاتها.

{ **قَالُوا** } قد يكون بعضهم ممّن شاهد ما أتى به موسى في مجلس فرعون، أو ممّن بلغهم ذلك.

{ **لَسَاحِرَانِ** } جُعل ما أظهره موسى من المعجزة بين يدي فرعون سحرا لأنّهم يطلقون السحر عندهم على خوارق العادات، كما قالت المرأة التي شاهدت نبع الماء من بين أصابع النبيّ صلى الله عليه وسلم لقومها: جئتكم من عند أسحر النّاس، وهو في كتاب المغازي من صحيح البخاري.

{ **أَنْ يُخْرِجَاكُمْ** } الخطاب لملئهم. ووجه اتهامه بذلك هو ما تقدّم عند قوله تعالى { أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى } [57]. ويجوز أن يكون هذا من النجوى بين السحرة، أي: يريدان الاستئثار بصناعة السحر في أرضكم فتخرجوا من الأرض بإهمال النّاس لكم وإقبالهم على سحر موسى وهارون.

{ **وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى** } الطريقة: السنّة والعادة، شُبّهت بالطريق الذي يسير فيه السائر، لجامع الملازمة.

والباء لتعدية فعل { يَذْهَبَا }. والمعنى: يُذهبانها، وهو أبلغ في تعلّق الفعل بالمفعول من نصب المفعول. وتقدّم عند قوله تعالى { ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ } [البقرة:17].

المثلى: مؤنث الأمثل. وهو اسم تفضيل مشتقّ من المثالة، وهي حسن الحالة يقال: فلان أمثل قومه، أي: أقربهم إلى الخير وأحسنهم حالا.

أرادوا من هذا إثارة حميّة بعضهم غيرة على عوائدهم، فإنّ لكلّ أمة غيرة على عوائدها وشرائعها وأخلاقها. { **فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفّاً** } فرّعوا على ذلك أمرهم بأن يجمعوا حيلهم وكلّ ما في وسعهم أن يغلبوا به موسى. وسمّوا عملهم كيدا لأنّهم تواطؤوا على أن يُظهروا للعامة أنّ ما جاء به موسى ليس بعجيب، فهم يأتون بمثله أو أشدّ منه، ليصرفوا النّاس عن سماع دعوته.

{ **ثُمَّ ائْتُوا صَفّاً** } الصفّ: مصدر معنى الفاعل أو المفعول، أي: صافّين أو مصفوفين، إذا ترتّبوا واحدا حذو الآخر بانتظام بحيث لا يكونون مختلطين، لأنّهم إذا كانوا كذلك وكان الصف منهم تلو الآخر كانوا أبهر منظرا، قال تعالى { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ } [الصف:4]. وكان جميع سحرة البلاد المصرية قد أُحضروا بأمر فرعون، فكانوا عددا كثيرا.

{ **وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى** } تذييل للكلام يجمع ما قصدوه من تآمرهم بأنّ الفلاح يكون لمن غلب وظهر في ذلك الجمع.

{ **اسْتَعْلَى** } مبالغة في علا، أي: علا صاحبه وقهره. فالسين والتاء للتأكيد. وأرادوا الفلاح في الدنيا.

{ **قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى [65] قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى [66]** }.

تقدّمت هذه القصة ومعانيها في [الأعراف:115]، سوى أنّ الأوّليّة هنا مصرَّح بها في أحد الشقّين.

فكانت صريحة في أنّ التخيير يتسلّط على الأوّليّة في الإلقاء، وسوى أنّه صرَّح هنا بأنّ السحر الذي ألقوه كان بتخييل أنّ حبالهم وعصيهم ثعابين تسعىّ، لأنّها لا يشبهها في شكلها من أنواع الحيوان سوى الحيّات والثعابين.

وهذا التخييل الذي وجده موسى من سحر السحرة هو أثر عقاقير يشربونها تلك الحبال والعصي، وتكون الحبال من صنف خاص، والعصي من أعواد خاصة فيها فاعلية لتلك العقاقير، فإذا لاقت شعاع الشمس اضطربت تلك العقاقير فتحرّكت الحبال والعصي. قيل: وضعوا فيها طلاء الزئبق.

وليس التخييل لموسى من تأثير السحر في نفسه لأنّ نفس الرسول لا تتأثر بالأوهام، ويجوز أن تتأثر بالمؤثّرات التي يتأثر منها الجسد كالمرض.

{ **فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى [67] قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى [68] وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى [69]** }.

أوجس: أضمر واستشعر. أي: وجد في نفسه. وتقدّم عند قوله { نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً } [هود:70].

{ **خِيفَةً** } اسم هيئة من الخوف، أريد به مطلق المصدر. وأصله خوفة، فقلبت الواو ياء لوقوعها أثر كسرة.

{ **فِي نَفْسِهِ** } للإشارة إلى أنّها خيفة تفكّر لم يظهر أثرها على ملامحه. وهذا مقام الخوف، وهو مقام جليل مثله مقام النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم بدر إذ قال: **" اللهم إني أسألك نصرك ووعدك اللهم إن شئت لم تُعبد في الأرض "**.

{ **قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى** } تأكيد الجملة بحرف التأكيد وتقوية تأكيدها بضمير الفصل وبالتعريف في { الْأَعْلَى } دليل على أنّ ما خامره من الخوف إنّما هو خوف ظهور السحرة عند العامة ولو في وقت ما. وهو وإن كان موقنا بأنّ الله ينجز له ما أرسله لأجله لكنّه لا مانع من أن يستدرج الله الكفرة مدة لإظهار ثبات إيمان المؤمنين، كما قال لرسوله صلى الله عليه وسلم { لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ } [آل عمران:196].

{ **وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ** } عُبّر عن العصا بـ (ما) الموصولة تذكيرا له بيوم التكليم إذ قال له { وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى } [17] ليحصل له الاطمئنان بأنّها صائرة إلى الحالة التي صارت إليها يومئذ.

التلقّف: الابتلاع. وقرأه الجمهور بجزم { تَلَقَّفْ } في جواب قوله { أَلْقِ }.

وقرأه ابن ذكوان برفع { تَلَقَّفُ } على الاستئناف. وقرأ الجمهور { تَلَقّفْ } بفتح اللام وتشديد القاف. وقرأه حفص بسكون اللام وفتح القاف.

{ **إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ** } مستأنفة ابتدائية. والكلام إخبار بسيط لا قصر فيه.

{ **وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى** } من تمام الجملة التي قبلها، أي: لا ينجح الساحر حيث كان.

{ **فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى [70] قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى [71]** }.

الإلقاء: الطرح على الأرض. وأُسند الفعل إلى المجهول لأنّهم لا مُلقي لهم إلّا أنفسهم، فكأنّه قيل: فألقوا أنفسهم سجّدا، فإنّ سجودهم كان إعلانا باعترافهم أنّ موسى مرسل من الله. <u>ويجوز</u> أن يكون سجودهم تعظيما لله تعالى. <u>ويجوز</u> أن يكون دلالة على تغلّب موسى عليهم فسجدوا تعظيما له.

<u>ويجوز</u> أن يريدوا به تعظيم فرعون، جعلوه مقدّمة لقولهم { آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى } حذرا من بطشه.

سجّد: جمع ساجد.

وإنّما آمنوا بالله حينئذ لأنّهم أيقنوا أن ما جرى على يد موسى ليس من جنس السحر لأنّهم أئمة السحر فعلموا أنّه آية من عند الله.

{ **بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى** } تعبيرهم عن الربّ بطريق الإضافة إلى هارون وموسى لأنّ الله لم يكن يُعرف بينهم يومئذ إلّا بهذه النسبة، لأنّ لهم أربابا يعبدونها ويعبدها فرعون.

وتقديم هارون على موسى هنا وتقديم موسى على هارون في قوله تعالى { قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ } [الأعراف:122/121] لا دلالة فيه على تفضيل ولا غيره، لأنّ الواو العاطفة لا تفيد أكثر من مطلق الجمع في الحكم المعطوف فيه، فهم عرّفوا الله بأنّه رب هذين الرجلين؛ فحكي كلامهم بما يدلّ على ذلك، ألا ترى أنّه حكي هناك قول السحرة { قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ }، ولم يحك ذلك هنا، لأنّ حكاية الأخبار لا تقتضي الإحاطة بجميع المحكي وإنّما المقصود موضع العبرة في ذلك المقام بحسب الحاجة. ووجه تقديم هارون هنا الرعاية على الفاصلة، فالتقديم وقع في الحكاية لا في المحكي.

<u>ويجوز</u> أن يكون تقديم هارون في هذه الآية من حكاية قول السحرة، فيكون صدر منهم قولان، قدموا في أحدهما اسم هارون اعتبارا بكبر سنّه، وقدموا اسم موسى في القول الآخر اعتبارا بفضله على هارون بالرسالة وكلام الله تعالى، فاختلاف العبارتين باختلاف الاعتبارين.

{ **قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ** } يقال: آمن له، أي: حصل عنده الإيمان لأجله. كمه يقال: آمن به، أي: حصل الإيمان عنده بسببه، وأصل الفعل أن يتعدّى بنفسه لأنّ آمنه بمعنى

صدّقه. ولكنه كاد أن لا يُستعمل في معنى التصديق إلّا بأحد هذين الحرفين.
لمّا رأى فرعون إيمان السحرة تغيّظ ورام عقابهم ولكنّه علم أنّ العقاب على الإيمان بموسى بعد أن فتح باب المناظرة معه نكث لأصول المناظرة فاختلق للتشفي من الذين آمنوا علّة إعلانهم الإيمان قبل استئذان فرعون، فعدّ ذلك جرأة عليه، وأوهم أنّهم لو استأذنوه لأذن لهم، واستخلص من تسرعهم بذلك أنّهم تواطؤا مع موسى من قبل فأظهروا العجز عند مناظرته. ومقصد فرعون من هذا إقناع الحاضرين بأنّ موسى لم يأت بما يعجز السحرة، إدخالا للشك على نفوس الذين شاهدوا الآيات.
التقطيع: شدّة القطع. ومرجع المبالغة إلى الكيفية، وهي ما وصفه بقوله { مِنْ خِلاَفٍ } أي: مختلفة، بأن لا تقطع على جانب واحد بل من جانبين مختلفين. والظاهر: أن القطع على هذه الكيفية كان شعارا لقطع المجرمين.
التصليب: مبالغة في الصلب. والصلب: ربط الجسم على عود منتصب أو دقّه عليه بمسامير، وتقدّم عند قوله تعالى { وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ } [النساء:157]. والمبالغة راجعة إلى الكيفيّة أيضا، بشدّة الدقّ على الأعواد.
ولذلك عُدل عن حرف الاستعلاء إلى حرف الظرفية (في) تشبيهًا لشدّة تمكّن المصلوب من الجذع بتمكّن الشيء الواقع في وعائه.
الجذوع: جمع جِذْع وهو عود النخلة.
{ **أَيُّنَا** } استفهام عن مشتركين في شدّة التعذيب. أراد نفسه وربّ موسى سبحانه، لأنّه علم من قولهم { آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى } أنّ الذي حملهم على الإيمان به ما قدّم لهم موسى من الموعظة حين قال لهم بمسمع من فرعون { وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ } [61]، أي: وستجدون عذابي أشد من العذاب الذي حُذرتموه.

{ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا [72] إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى [73] }.

أظهروا استخفافهم بوعيده وبتعذيبه، إذ أصبحوا أهل إيمان ويقين، وكذلك شأن المؤمنين بالرسل إذا أشرقت عليهم أنوار الرسالة فسرعان ما يكون انقلابهم عن جهالة الكفر وقساوته إلى حكمة الإيمان وثباته. ولنا في عمر بن الخطاب ونحوه ممن آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم مَثَلُ صدق.
الإيثار: التفضيل. وتقدّم في قوله تعالى { قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا } [يوسف:91]. والتفضيل بين فرعون وما جاءهم من البيّنات مقتض حذف مضاف يناسب المقابلة بالبيّنات، أي: لن نؤثر طاعتك أو

دينك على ما جاءنا من البيّنات الدالة على وجوب طاعة الله تعالى، وبذلك يلتئم عطف { وَالَّذِي فَطَرَنَا }، أي: لا نؤثرك في الربوبية على الذي فطرنا. وجيء بالموصول للإيماء إلى التعليل، لأنّ الفاطر هو المستحق بالإيثار.

{ **فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ** } صيغة الأمر مستعملة في التسوية، لأنّ { مَا أَنْتَ قَاضٍ } ما صدقه ما توعّدهم به من تقطيع الأيدي والأرجل والصلب، أي: سواء علينا ذلك بعضه أو كلّه أو عدم وقوعه.

{ **إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا** } فإنّ عذابك لا يتجاوز هذه الحياة ونحن نرجو من ربّنا الجزاء الخالد. والقصر المستفاد من { إِنَّمَا } قصر موصوف على صفة، أي: أنّك مقصور على القضاء في هذه الحياة الدنيا، فهو قصر حقيقي.

{ **إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا** } في محل العلّة لما تضمّنه كلامهم.

{ **وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ** } المعنى: أنّه اكرههم على تحدّيهم موسى بسحرهم، فعلموا أنّ فعلهم باطل وخطيئة لأنّه استُعمل لإبطال إلهية الله، فبذلك كان مستوجبا طلب المغفرة.

{ **وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى** } في موضع الحال، أو معترضة في آخر الكلام للتذييل. والمعنى: أن الله خير لنا بأن نؤثره منك. والمراد: رضى الله، وهو أبقى منك، أي: جزاؤه في الخير والشر أبقى من جزائك، فذلك مقابلة لوعيده مقابلة تامة.

{ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى [74] وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى [75] جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى [76] }.

هذه الجمل معترضة بين حكاية قصّة السحرة وبين ذكر قصّة خروج بني إسرائيل، ساقها الله موعظة وتأييدا لمقالة المؤمنين من قوم فرعون. وقيل: هي من كلام أولئك المؤمنين. ويُبعده أنّه لم يحك نظيره عنهم في نظائر هذه القصّة.

المجرم: فاعل الجريمة، وهي المعصية والفعل الخبيث. والمجرم في اصطلاح القرآن هو الكافر، كقوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ } [المطفّفين:29].

{ **لَهُ جَهَنَّمَ** } لام الاستحقاق، أي: هو صائر إليها لا محالة.

{ **لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى** } يكون عذابه متجدّدا فيها، فلا هو ميّت لأنّه يحسّ بالعذاب، ولا هو حيّ لأنّه في حالة الموت أهون منها، فالحياة المنفية حياة خاصة وهي الحياة الخالصة من العذاب والآلام. وبذلك لم يتناقض نفيها مع نفي الموت.

{ **فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى** } الإتيان باسم الإشارة للتنبيه على أنّهم أحرياء بما يذكر بعد اسم الإشارة

من أجل ما سبق اسم الإشارة.

{ **جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى** } تقدّم نظيرها في سورة التوبة عند قوله تعالى { وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ } [72].

التزكّي: التطهر من المعاصي.

{ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لَا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَى } [77].

{ **وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى** } ابتدائية، والواو عاطفة قصّة على قصّة وليست عاطفة بعض أجزاء قصّة على بعض آخر. وافتتاح الجملة بحرف التحقيق (لقد) للاهتمام بالقصّة ليلقي السامعون إليها أذهانهم.

وتغيير الأسلوب في ابتداء هذه الجملة مؤذن بأنّ قصصا طويت بين ذكر القصتين، فلو اقتصر على حرف العطف لتُوهّم أنّ حكاية القصّة الأولى لم تزل متّصلة، فتُوهّم أنّ الأمر بالخروج وقع مواليا لانتهاء محضر السحرة، مع أنّ بين ذلك قصصا كثيرة ذكرت في سورة الأعراف وغيرها، فإنّ الخروج وقع بعد ظهور آيات كثيرة لإرهاب فرعون، إلى أن أذن لهم بآخرة فخرجوا ثم ندم على ذلك فأتبعهم.

{ **أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي** } أمر من السُرَى وتقدّم في [الإسراء:1] أنّه يقال: سرى وأسرى. وإنّما أمره الله بذلك تجنّبا لنكول فرعون عليهم.

{ **بِعِبَادِي** } لتشريفهم وتقريبهم والإيماء إلى تخليصهم من استعباد القبط، وأنّهم ليسوا عبيدا لفرعون.

الضرب: هنا بمعنى الجعل كقولهم: ضرب الذهب دنانير. وفي الحديث: " **واضربوا إليَّ معكم بسهم** ".

اليَبَس: (بفتح المثناة والموحدة ويقال: بسكون الموحدة) وصف بمعنى اليابس. وصف به للمبالغة ولذلك لا يؤنّث فقالوا: ناقة يَبَس إذا جفّ لبنها.

{ **لَا تَخَافُ دَرَكاً** } مرفوع في قراءة الجمهور، وعد لموسى، اقتصر على وعده دون بقيّة قومه لأنّه قدوتهم فإذا لم يخف هو تشجعوا وقوي يقينهم، فهو خبر مراد به البشرى. والجملة في موضع الحال.

الدَرَك: اسم مصدر الإدراك، أي: لا تخاف أن يدركك فرعون.

{ **وَلَا تَخْشَى** } الإجماع على قراءته بألف في آخره. فتكون الألف للإطلاق لأجل الفواصل مثل ألف {فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا } [الأحزاب:67]، وألف { وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا } [الأحزاب:10].

أو أن تكون الواو في قوله { وَلا تَخْشَى } للاستئناف لا للعطف.

الخشية: شدة الخوف. وحذف مفعوله لإفادة العموم، أي: لا تخشى شيئا، وهو عام مراد به الخصوص، أي: لا تخشى شيئا مما يُخشى من العدو ولا من الغرق.

{ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ [78] وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى [79] }.

الفاء فصيحة عاطفة على مقدّر يدلّ عليه الكلام السابق، أي: فسرى بهم فأتبعهم فرعون. فإنّ فرعون بعد أن رأى آيات غضب الله عليه وعلى قومه وأيقن أنّ ذلك كلّه تأييد لموسى أذن لموسى وهارون أن يُخرجا بني إسرائيل، وكان إذن فرعون قد حصل ليلا لحدوث موتان عظيم في القبط في ليلة الشهر السابع من أشهر القبط، وهو شهر (برمهات) وهو الذي اتخذه اليهود رأس سنتهم بإذن من الله وسمّوه (**تِسَّرِي**)، فخرجوا من مدينة (رعمسيس) قاصدين شاطئ البحر الأحمر. وندم فرعون على إطلاقهم فأراد أن يلحقهم.

أتبع: مرادف تبع. و{ **بِجُنُودِهِ** } الباء للمصاحبة.

اليمّ: البحر. وغشيانه إيّاهم: تغطيته جثثهم، أي: فغرقوا.

{ **مَا غَشِيَهُمْ** } المقصود منه التهويل، أي: بلغ من هول ذلك الغرق أنّه لا يُستطاع وصفه.

وهذا الجزء من القصة تقدّم في [يونس90-92].

{ **وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ** } في موضع الحال من الضمير في { فَغَشِيَهُمْ }.

الإضلال: الإيقاع في الضلال، وهو خطأ الطريق الموصل. ويُستعمل بكثرة في معنى الجهالة وعمل ما فيه ضرّ وهو المراد هنا. والمعنى: أنّ فرعون أوقع قومه في الجهالة وسوء العاقبة بما بثّ فيهم من قلب الحقائق والجهل المركّب، حتّى كانت خاتمتها وقوعهم غرقى في البحر بعناده في تكذيب دعوة موسى عليه السلام.

{ **وَمَا هَدَى** } عطف على { أَضَلَّ }، إمّا من عطف الأعمّ على الأخصّ، لأنّ عدم الهدى يصدق بترك الإرشاد من دون إضلال، وإمّا أن يكون تأكيدا لفظيا بالمرادف مؤكِّدا لنفي الهدى عن فرعون لقومه.

وفي الكشاف: إنّ نكتة ذكر { وَمَا هَدَى } التهكّم بفرعون في قوله { وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ } [غافر:29].

{ يَا بَنِي إِسْرائيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى [80] كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى [81] وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى [82] }.

هذه الجمل معترضة في أثناء القصّة مثل ما تقدّم آنفا في قوله تعالى { إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً }.

وهذا خطاب لليهود الذين في زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم تذكيرا لهم بنعم أخرى. وقُدّمت عليها النعمة العظيمة، وهي خلاصهم من استعباد الكفرة.

{ **وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ** } ذكّرهم بنعمة نزول الشريعة.

المواعدة: اتّعاد من جانبين، أي: أمرنا موسى بالحضور للمناجاة فذلك وعد من جانب الله بالمناجاة، وامتثال موسى لذلك وعد من جانبه، فتمّ معنى المواعدة، قال تعالى { وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً } [البقرة:51].

ويظهر أنّ الآية تشير إلى ما جاء في التوراة: " في الشهر الثالث بعد خروج بني إسرائيل من أرض مصر جاؤوا إلى برية سيناء هنالك نزل إسرائيل مقابل الجبل. وأمّا موسى فصعد إلى الله فناداه الرب من الجبل قائلا: هكذا تقول لبيت يعقوب أنتم رأيتم ما صنعت بالمصريين وأنا حملتكم على أجنحة النسور، إن سمعتم لصوتي وحفظتم عهدي تكونون لي خاصة ". [سفر الخروج، الإصحاح:19].

الطور: تقدّم في [البقرة:93].

جانب الطور: سفحه. ووصفه بالأيمن باعتبار جهة الشخص المستقبل مشرق الشمس، وإلّا فليس للجبل يمين وشمال معينان، وإنّما تعرف بمعرفة أصل الجهات وهو مطلع الشمس، فهو الجانب القبلي باصطلاحنا. وجُعل محل المواعدة الجانب القبلي وليس هو من الجانب الغربي الذي في سورة القصص { وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ } [القصص:44]، أي: من جهة مغرب الشمس من الجبل، وهو الذي آنس موسى منه نارا.

وانتصب { جَانِبَ الطُّورِ } على الظرفيّة المكانية لأنّه لاتساعه بمنزلة المكان المبهم.

{ **وَوَاعَدْنَاكُمْ** } التعدية إلى ضمير جماعة بني إسرائيل وإن كانت مواعدة لموسى ومن معه الذين اختارهم من قومه باعتبار أنّ المقصد من المواعدة وحي أصول الشريعة التي تصير صلاحا للأمّة، فكانت المواعدة مع أولئك كالموعدة مع جميع الأمّة.

السلوى: تقدّم في [البقرة:57].

وكان ذلك في نصف الشهر الثاني من خروجهم من مصر كما في [سفر الخروج، الإصحاح:16].

الطغيان: أشدّ الكبر.

{ **وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ** } ومعنى النهي عن الطغيان في الرزق: النهي عن ترك الشكر عليه وقلة الاكتراث بعبادة المنعِم.

{ **فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي** }.

الحلول: النزول والإقامة بالمكان، شبّهت إصابة آثار الغضب إيّاهم بحلول الجيش ونحوه بديار قوم.

{ **فَقَدْ هَوَى** } سقط من علو، وقد استعير هنا للهلاك الذي لا نهوض بعده، كما قالوا: هوت أمّه، دعاء عليه، ومنه { فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ } [القارعة:9].

{ **وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً** } استطراد بعد التحذير من الطغيان في النعمة بالإرشاد إلى ما يتدارك به الطغيان إن وقع، بالتوبة والعمل الصالح.

{ **ثُمَّ اهْتَدَى** } للتراخي في الرتبة، استعيرت (ثمّ) للدلالة على التباين بين الشيئين في المنزلة، كما كانت للتباين بين الوقتين في الحدوث. ومعنى { اهْتَدَى }: استمر على الهدى وثبت عليه.

والآيات تشير إلى ما جاء في سفر الخروج: " الرب إله رحيم ورؤوف بطيء الغضب وكثير الإحسان غافر الإثم والخطيئة ولكنّه لن يبرئ إبراء ".

{ **وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى** [83] **قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى** [84] **قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ** [85] }.

{ **وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ** } هو ممّا أوحى الله به إلى موسى. وهو إشارة إلى ما وقع لهم أيّام مناجاة موسى في الطور في الشهر الثالث لخروجهم من مصر. وهذا الجزء من القصة لم يذكر في سورة الأعراف.

الإعجال: جعل الشيء عاجلا.

والاستفهام مستعمل في اللوم. والذي يؤخذ من كلام المفسرين وتشير إليه الآية: أنّ موسى تعجل مفارقة قومه ليحضر إلى المناجاة قبل الإبّان الذي عيّنه الله له، اجتهادا منه ورغبة في تلقّي الشريعة حسبما وعده الله، قبل أن يحيط بنو إسرائيل بجبل الطور، ولم يراع في ذلك إلّا السبق إلى ما فيه خير لنفسه ولقومه، وكان ذلك سبب افتتان قومه بصنع صنم يعبدونه.

وليس في كتاب التوراة ما يشير إلى أكثر من صنع بني إسرائيل العجل من ذهب اتخذوه إلها في مدة مغيب موسى، وأنّ سبب ذلك استبطاؤهم رجوع موسى، قال تعالى { قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حتّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى } [91].

{ **قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى** } يدلّ على أنّهم كانوا سائرين خلفه وأنّه سبقهم إلى المناجاة. واعتذر عن تعجّله بأنّه عجل إلى استجابة أمر الله مبالغة في إرضائه.

الأَثَر (بفتحتين): ما يتركه الماشي على الأرض من علامات قدم أو حافر أو خف. ويقال: إِثْر (بكسر الهمزة وسكون الثاء) وهما لغتان فصيحتان كما ذكر ثعلب.

{ **هُمْ أُولَاءِ** } استُعمل التركيب مجرّدا عن حرف التنبيه في أوّل اسم الإشارة خلافا لقوله تعالى { هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ جَادَلْتُمْ } [النساء:109]، وتجريد اسم الإشارة من هاء التنبيه استعمال جائز، وأقلّ منه استعماله بحرف التنبيه مع الضمير دون اسم الإشارة، نحو قول عبد بني الحسحاس: هـا أنـا دون الـحـبـيـب يـا وجـع.

{ **قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ** } إسناد الفتن إلى الله باعتبار أنّه مقدّره وخالق أسبابه البعيدة.

{ **وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ** } إسناده حقيقي، لأنّه السبب المباشر لضلالهم.

{ **السَّامِرِيُّ** } يظهر أنّ ياءه ياء نسبة، وأن تعريفه باللام للعهد. فالسامري نسب إلى اسم أبي قبيلة من

بني إسرائيل أو غيرهم يقارب اسمه لفظ سامر، وقد كان من الأسماء القديمة (شومر) و (شامر) وهما يقاربان اسم سامر لا سيما مع التعريب.

وفي (أنوار التنزيل) للبيضاوي: " السامري نسبة إلى قبيلة من بني إسرائيل يقال لها: السامرة ".

وأمّا قوله: "من بني إسرائيل" فليس بصحيح. لأنّ السامرة أمّة من سكان فلسطين في جهة نابلس في عهد الدولة الرومية البيزنطية وكانوا في فلسطين قبل مصير فلسطين بيد بني إسرائيل، ثم امتزجوا بالإسرائيليين واتّبعوا شريعة موسى عليه السلام مع تخالف في طريقتهم عن طريقة اليهود. فليس هو منسوبا إلى مدينة السامرة القريبة من نابلس، لأنّ مدينة السامرة بناها الملك (عَمْري) ملك مملكة إسرائيل سنة (925 ق م)، وجعلها قصبة مملكته، وسماها (شوميرون) لأنّه بناها على جبل اشتراه من رجل اسمه (شامر) بوَزْنتين من الفضة، فعرّبت في العربية إلى سامرة، وكان اليهود يعدّونها مدينة كفر وجور، لأنّ (عَمْري) بانيها وابنه (آخاب) قد أفسدا ديانة التوراة وعبدا الأصنام الكنعانية. وأمر الله النبيّ إلياس بتوبيخهما والتثوير عليهما، فلا جرم لم تكن موجودة زمن موسى، ولا كانت ناحيتها من أرض بني إسرائيل زمن موسى عليه السلام.

<u>ويحتمل</u> أن يكون السامري نسبًا إلى قرية اسمها السامرة من قرى مصر، كما قال بعض أهل التفسير، فيكون فتًى قبطيا اندس في بني إسرائيل لتعلّقه بهم في مصر أو لصناعة يصنعها لهم.

<u>وعن سعيد بن جبير</u>: كان السامري من أهل كرمان، وهذا يقرب أن يكون السامري تعريب كرماني بتبديل بعض الحروف، وذلك كثير في التعريب.

<u>ويجوز</u> أن تكون الياء من السامري غير ياء نسب بل حرفا من اسم مثل: ياء علي وكرسي، فيكون اسما أصليا أو منقولا في العبرانية وتكون اللام في أوله زائدة.

واعلم أنّ السامريين لقب لطائفة من اليهود يقال لهم أيضا (السامرة)، لهم مذهب خاص مخالف لمذهب جماعة اليهودية في أصول الدين، فهم لا يعظّمون بيت المقدس وينكرون نبوّة أنبياء بني إسرائيل عدا موسى وهارون ويوشع، وما كانت هذه الشذوذات فيهم إلّا من بقايا تعاليم الإلحاد التي كانوا يتلقّونها في مدينة السامرة المبنية على التساهل والاستخفاف بأصول الدين والترخّص في تعظيم آلهة جيرتهم الكنعانيين أصهار ملوكهم، ودام ذلك الشذوذ فيهم إلى زمن عيسى عليه السلام. ففي إنجيل متى [الإصحاح: 10] وفي إنجيل لوقا [الإصحاح:9] ما يقتضي أنّ بلدة السامريين كانت منحرفة على اتباع المسيح، وأنّه نهى الحواريين عن الدخول إلى مدينتهم.

ووقعت في التوراة [كتاب الخروج، الإصحاح:32] زلة كبرى، إذ زعموا أنّ هارون صنع العجل لهم لمّا قالوا له: اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأنّا لا نعلم ماذا أصاب موسى في الجبل فصنع لهم عجلا من ذهب. وأحسب أن هذا من آثار تلاشي التوراة الأصلية بعد الأسر البابلي، وأنّ الذي أعاد كَتْبها لم يحسن تحرير هذه القصة. وممّا نقطع به أن هارون معصوم من ذلك لأنّه نبيّ.

{ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي } [86].

الغضب: انفعال للنفس وهيجان ينشأ عن إدراك ما يسوءها ويسخطها دون خوف، والوصف منه غضبان.

الأسف: انفعال للنفس ينشأ من إدراك ما يحزنها وما تكرهه مع انكسار الخاطر. والوصف منه أسِف.

وقد اجتمع الانفعالان في نفس موسى لأنّه يسوءه وقوع ذلك في أمّته، فانفعاله المتعلّق بحالهم غضب، وهو أيضا يحزنه وقوع ذلك وهو في مناجاة الله تعالى التي كان يأمل أن تكون سبب رضى الله عن قومه، فإذا بهم أتوا بما لا يرضي الله، فقد انكسر خاطره بين يديّ ربّه.

وهذا ابتداء وصف قيام موسى في جماعة قومه وفيهم هارون وفيهم السامري، وهو يقرع أسماعهم بزواجر وعظه، فابتدأ بخطاب قومه كلّهم، وقد علم أنّ هارون لا يكون مشايعا لهم.

{ **قَالَ يَا قَوْمِ** } مستأنفة بيانيّة. وافتتاح الخطاب بـ { يَا قَوْمِ } تمهيد للوم، لأنّ انجرار الأذى للرجل من قومه أحقّ في توجيه الملام عليهم.

{ **أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ** } استفهام انكاري، نزلوا منزلة من زعم أنّ الله لم يعدهم وعدا حسنا. **ويجوز** أن يكون تقريريا، وشأنه أن يكون على فرض النفي كما تقدّم غير مرة.

{ **وَعْداً حَسَناً** } وعده موسى بإنزال التوراة، ومواعدته ثلاثين ليلة للمناجاة، وقد أعلمهم بذلك، فهو وعد لقومه، لأنّ ذلك لصلاحهم، ولأنّ الله وعدهم بأن يكون ناصرا لهم على عدوّهم وهاديا لهم في طريقهم، وهو المحكي في قوله تعالى { وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ } [80].

{ **أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ** } الاستفهام مفرَّع على قوله { أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ }، وهو استفهام إنكاري، أي: ليس العهد بوعد الله إيّاكم بعيدا. أي: لم يبعد زمن وعد ربّكم إيّاكم حتّى يكون لكم يأس من الوفاء فتكفروا وتكذّبوا من بلّغكم الوعد وتعبدوا ربّا غير الذي دعاكم إليه.

العهد: معرفة الشيء وتذكّره، وهو مصدر. يجوز أن يكون أطلق على المفعول كإطلاق الخلق على المخلوق، أي: طال المعهود لكم وبعد زمنه حتّى نسيتموه وعملتم بخلافه. **ويجوز** أن يبقى على أصل المصدر وهو عهدهم الله على الامتثال والعمل بالشريعة. وتقدم في قوله تعالى { الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ } [البقرة:27]، وقوله تعالى { وَأَوْفُوا بِعَهْدِي } [البقرة:40].

{ **أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ** } (أم) إضراب إبطالي، والاستفهام المقدّر بعدها إنكاري أيضا، إذ التقدير: بل أردتم أن يحلّ عليكم غضب، فلا يكون كفركم إذن إلّا إلقاء بأنفسكم في غضب الله كحال من يحب أن يحلّ عليه غضب من الله. والكلام استعارة تمثيلية.

{ **فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي** } تفريع على الاستفهام الإنكاري الثاني. ومعنى { مَوْعِدِي }: وعد الله على لسانه، فإضافته إلى ضميره لأنّه الواسطة فيه.

{ **قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ** [87] **فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ** [88]}.

{ **قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا** } وقعت الجملة غير معطوفة لأنّها جرت في المحاورة جوابا عن كلام موسى عليه السلام. وضمير { قَالُوا } عائد إلى القوم وإنّما القائل بعضهم، وهم كبراء القوم وأهل الصلاح منهم.

{ **بِمَلْكِنَا** } قرأه نافع، وعاصم، وأبو جعفر بفتح الميم. وقرأه ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، ويعقوب بكسر الميم. وقرأه حمزة، والكسائي، وخلف بضم الميم. وهي وجوه ثلاثة في هذه الكلمة، ومعناها: **بإرادتنا** واختيارنا، أي: ما تجرّأنا ولكن غرَّهم السامري وغلبهم دهماء القوم.

والاستدراك راجع إلى ما أفاده نفي أن يكون إخلافهم العهد عن قصد للضلال. ومحل الاستدراك هو قوله تعالى { فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى } وما قبله تمهيد له، فعُطفت الجمل قبله بحرف الفاء، واعتذروا بأنّهم غُلبوا على رأيهم بتضليل السامري.

أُدمجت في هذا الاعتذار الإشارة إلى قضية صوغ العجل الذي عبدوه واغترّوا بما مُوّه لهم من أنّه إلههم المنشود، من كثرة ما سمعوا من رسولهم أنّ الله معهم أو أمامهم، وممّا جاش في خواطرهم من الطمع في رؤيته تعالى.

{ **أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ** }، **الأوزار**: الأثقال. و**الزينة**: الحليّ والمصوغ. وقد كان بنو إسرائيل حين أزمعوا الخروج قد احتالوا على القبط فاستعار كل واحد من جاره القبطي حليا فضة وذهبا وأثاثا، كما في [سفر الخروج، الإصحاح: 12]. والمعنى: أنّهم خشوا تلاشي تلك الزينة فارتأوا أن يصوغوها قطعة واحدة أو قطعتين ليتأتى لهم حفظها في موضع مأمون.

القذف: الإلقاء. وأريد به هنا الإلقاء في نار السامري، كما يومئ إليه [سفر الخروج، الإصحاح:32].

{ **فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ** }.

ظاهر حال الفاء التفريعيّة أن يكون ما بعدها صادرا من قائل الكلام المفرّع عليه. والمعنى: فمثل قذفنا زينة القوم، أي: في النار، ألقى السامري شيئا من زينة القوم فأخرج لهم عجلا. والمقصود من هذا التشبيه التخلّص إلى قصة صوغ العجل الذي عبدوه.

{ **فَأَخْرَجَ لَهُمْ / فَقَالُوا** } ضميرا الغيبة عائدان إلى غير المتكلّمين. علّق المتكلّمون الإخراجَ والقولَ بالغائبين للدلالة على أنّ المتكلّمين مع موسى لم يكونوا ممّن اعتقد إلهية العجل ولكنّهم صانعوا دهماء القوم. وعلى هذا درج جمهور المفسرين، فيكون من تمام المعذرة التي اعتذر بها المجيبون لموسى.

<u>وجعل بعض المفسرين هذا الكلام كلّه من جانب الله</u>، وهو اختيار أبي مسلم، فيكون اعتراضا وإخبارا للرسول صلى الله عليه وسلم وللأمّة. وموقع الفاء يناكد هذا لأنّ الفاء لا ترد للاستئناف على التحقيق.

{ **عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ** } الجسد: الجسم ذو الأعضاء سواء كان حيّا أم لا.
قال الزجاج: الجسد هو الذي لا يعقل ولا يميز إنّما هو الجثة، أي: أخرج لهم صورة عجل مجسّدة بشكله وقوائمه وجوانبه، وليس مجرد صورة منقوشة على طبق من فضة أو ذهب.
الإخراج: إظهار ما كان محجوبا. والتعبير بالإخراج إشارة إلى أنّه صنعه بحيلة مستورة عنهم حتّى أتمّه.
الخوار: صوت البقر. وكان الذي صنع لهم العجل عارفا بصناعة الحيل التي كانوا يصنعون بها الأصنام ويجعلون في أجوافها وأعناقها منافذ تخرج منها أصوات.
وصنع لهم السامري صنما على صورة عجل لأنّهم كانوا قد اعتادوا في مصر عبادة العجل (ايبيس)، فلمّا رأوا ما صاغه السامريّ في صورة معبود عرفوه من قبل ورأوه يزيد عليه بأنّ له خوارا، رسخ في أوهامهم الآفنة أنّ ذلك هو الإله الحقيقي الذي عبّروا عنه بقولهم { هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى }، لأنّهم رأوه من ذهب أو فضة، فتوهّموا أنّه أفضل من العجل (إيبيس).
وقصة اتخاذهم العجل في كتاب التوراة غير ملائمة للنظر السليم.
{ **فَنَسِيَ** } يحتمل أن يكون تفريعا على { فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ } تفريع علّة على معلول، فالضمير عائد إلى السامري، أي: قال السامريّ ذلك لأنّه نسي ما كان تلقاه من هدي، أو تفريع معلول على علّة، أي: قال ذلك، فكان قوله سببا في نسيانه ما كان عليه من هدي، إذ طبع الله على قلبه بقوله ذلك فحرمه التوفيق من بعد.
النسيان: مستعمل في الإضاعة، كقوله تعالى { قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا } [126]، وقوله تعالى { الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ } [الماعون:5]. ويكون مستعملا مجازا في الغفلة.
<u>وجعله جمع من المفسرين عائدا إلى موسى</u>، أي: فنسي موسى إلهكم وإلهه، أي: غفل عنه، وذهب إلى الطور يفتش عليه وهو بين أيديكم، وموقع فاء التفريع يبعد هذا التفسير.

{ **أَفَلا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً** } [89].
<u>يجوز</u> أن يكون اعتراضا وليس من حكاية كلام القوم، فهو معترض بين جملة { فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ} [87] وجملة { قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ... } [92-93]، فتكون الفاء لتفريع كلام متكلّم على كلام غيره.
<u>ويجوز</u> أن يكون من حكاية كلام الذين تصدّوا لخطاب موسى عليه السلام من بين قومه، وهم كبراؤهم وصلحاؤهم ليعلم أنّهم على بصيرة من التوحيد.
{ **أَفَلا يَرَوْنَ** } الاستفهام إنكاري، نُزّلوا منزلة من لا يرى العجل، فأنكر عليهم عدم رؤيتهم ذلك مع ظهوره، أي: كيف يدعون الإلهية للعجل وهم يرون أنّه لا يتكلم ولا يستطيع نفعا ولا ضرّا.
والرؤية هنا بصريّة مُكنًى بها أو مستعملة في مطلق الإدراك، فآلت إلى معنى الاعتقاد والعلم، ولا سيما بالنسبة لجملة { وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً }.

{ **أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً** } لا يجيب القول، لأنّ ذلك محلّ العبرة من فقدانه صفات العاقل، لأنّهم يدعونه ويثنون عليه ويمجّدونه وهو ساكت لا يشكر لهم ولا يعدهم باستجابة، ولأنّ شواهد حاله من عدم التحرّك شاهدة بأنّه عاجز عن أن ينفع أو يضرّ، فلذلك سلّط الإنكار على عدم الرؤية لأنّ حاله ممّا يرى.
{ **وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً** } قُدّم الضرّ على النفع قطعا لعذرهم في اعتقاد إلهيّته، لأنّ عذر الخائف من الضرّ أقوى من عذر الراغب في النفع.

{ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي [90] قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حتّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى [91] }.

الجملة في موضع الحال من ضمير { أَفَلَا يَرَوْنَ } [89] على كلا الاحتماليين، أي: كيف لا يستدلّون على عدم استحقاق العجل الإلهية بأنّه لا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا، وتلك دلالة عقلية، في حال أنّ هارون قد وعظهم ونبّههم إلى أنّه فتنة فتنهم بها السامري وأمرهم بأن يتّبعوا أمره، وتلك دلالة سمعية.
{ **وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ** } تأكيد الخبر بحرف التحقيق ولام القسم لتحقيق إبطال ما في كتاب اليهود من أنّ هارون هو الذي صنع لهم العجل، وأنّه لم ينكر عليهم عبادته، وغاية الأمر أنّه كان يستهزئ بهم في نفسه، وذلك إفك عظيم في كتابهم.
{ **يَا قَوْمِ** } تمهيد لمقام النصيحة.
{ **إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ** } ما هو إلّا فتنة لكم، وليس ربّا، وإنّ ربكم الرحمان الذي يرحمكم في سائر الأحوال، فأجابوه بأنّهم لا يزالون عاكفين على عبادته حتّى يرجع موسى فيصرّح لهم بأنّ ذلك العجل ليس هو ربّهم.
ورتّب هارون خطابه على حسب الترتيب الطبيعي لأنّه ابتدأه بزجرهم عن الباطل وعن عبادة ما ليس برب، ثم دعاهم إلى معرفة الربّ الحقّ، ثم دعاهم إلى اتّباع الرسول، إذ كان رسولا بينهم، ثم دعاهم إلى العمل بالشرائع، فما كان منهم إلّا التصميم على استمرار عبادتهم العجل فأجابوا هارون جوابا جازما.
{ **قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حتّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى** } و(عَلَيْهِ) متعلق بـ { عَاكِفِينَ } قدّم على متعلّقة لتقوية الحكم، أو أرادوا: لن نبرح نخصّه بالعكوف لا نعكف على غيره.
العكوف: الملازمة بقصد القربة والتعبّد، وكان عبدة الأصنام يلزمونها ويطوفون بها.

{ **قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا** [92] **أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي** [93] **قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي** [94] }.

انتقل موسى من محاورة قومه إلى محاورة أخيه، وقد وجدت مناسبة لحكاية خطابه هارون بعد أن وقع الفصل بين أجزاء الحكاية بالجمل المعترضة التي منها جملة { وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ من قبل }، فهو استطراد في خلال الحكاية للإشعار بعذر هارون كما تقدّم.

علم موسى أنّ هارون مخصوص من قومه بأنّه لم يعبد العجل، إذ لا يجوز عليه ذلك لأنّ الرسالة تقتضي العصمة، فلذلك خصّه بخطاب يناسب حاله. وهو خطاب توبيخ وتهديد على بقائه بين عبدة الصنم.

{ **مَا مَنَعَكَ** } الاستفهام إنكاري، أي: لا مانع لك من اللحاق بي لمّا لم يمتثلوا أمرك. والمقصود تأكيد وتشديد التوبيخ. ونظيره قوله تعالى { قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ } [لأعراف:12].

{ **أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي** } الاستفهام مفرَّع على الإنكار. فهو إنكار ثان على مخالفة أمره، مشوب بتقرير للتهديد.

{ **قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي** } نداء لقصد الترقيق والاستشفاع. وهو مؤذن بأنّ موسى حين وبّخه أخذ بشعر لحية هارون. وقد صُرّح به في الأعراف { وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ } [150].

وقرأ الجمهور { يَا ابْنَ أُمَّ } بفتح الميم. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم، وخلف بكسر الميم وأصله: يا ابن أمّي، فحذفت ياء المتكلم تخفيفا، وهو حذف مخصوص بالنداء. والقراءتان وجهان في حذف ياء المتكلم المضاف إليها لفظ (أمّ) ولفظ (عمّ) في النداء.

وعدل عن (يا أخي) إلى (ابن أمّ) لأنّ ذكر الأمّ تذكير بأقوى أواصر الأخوّة، وهي آصرة الولادة من بطن واحد والرضاع من لبان واحد.

{ **إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي** } وهذا اجتهاد منه في سياسة الأمّة إذ تعارضت عنده مصلحتان مصلحة حفظ العقيدة ومصلحة حفظ الجامعة من الهرج. وفي أثنائها حفظ الأنفس والأموال والجماعة، فرجّح الثانية. وإنّما رجّحها لأنّه رآها أدوم فإنّ مصلحة حفظ العقيدة يستدرك فواتها الوقتي برجوع موسى. بخلاف مصلحة حفظ الأنفس والأموال واجتماع الكلمة إذا انثلمت عسر تداركها.

وكان اجتهاده ذلك مرجوحا لأنّ حفظ الأصل الأصيل للشريعة أهمّ من حفظ الأصول المتفرّعة عليه. لأنّ مصلحة صلاح الاعتقاد هي أم المصالح التي بها صلاح الاجتماع. كما بيّنّاه في كتاب (أصول نظام الاجتماع الإسلامي).

ولذلك لم يكن موسى خافيا عليه أنّ هارون كان من واجبه أن يتركهم وضلالهم وأن يلتحق بأخيه مع علمه بما يفضي إلى ذلك من الاختلاف بينهم، فإن حرمة الشريعة بحفظ أصولها وعدم التساهل فيها،

وبحرمة الشريعة يبقى نفوذها في الأمّة والعمل بها، كما بيّنته في كتاب (مقاصد الشريعة).
وهذا بعض ما اعتذر به هارون، وحكي عنه في سورة الأعراف أنّه اعتذر بقوله { إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي } [الأعراف:150].

{ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ [95] **قال بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي** [96] }.

التفت موسى بتوجيه الخطاب إلى السامري الذي كان سببا في إضلال القوم.
ولعلّ موسى لم يغلظ له القول كما أغلظ لهارون لأنّه كان جاهلا بالدين فلم يكن في ضلاله عجب. ولعلّ هذا يؤيّد ما قيل: إنّ السامري لم يكن من بني إسرائيل ولكنه كان من القبط أو من كرمان.
ولمّا كان موسى مبعوثا لبني إسرائيل خاصة، ولفرعون وملئه لأجل إطلاق بني إسرائيل، كان اتّباع غير الإسرائيليين لشريعة موسى أمرا غير واجب ولكنّه مُرغّب فيه لما فيه من الاهتداء، فلذلك لم يعنفه موسى لأنّ الأجدر بالتعنيف هم القوم الذين عاهدوا الله على الشريعة.
{ مَا خَطْبُكَ } ما طلبك. قال ابن عطية: وهي كلمة أكثر ما تُ ستعمل في المكاره، لأنّ الخطب هو الشأن المكروه، كقوله تعالى { فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ } [الذاريات:31]، فالمعنى: ما هي مصيبتك التي أصبت بها القوم، وما غرضك مما فعلت.
{ قال بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا } إن حُملت كلمات (بصرت بما لم يبصروا به / قبضت قبضة / أثر/ نبذتها) على حقائق مدلولاتها كما ذهب إليه جمهور المفسّرين كان المعنى أبصرت ما لم يبصروه، أي: نظرت ما لم ينظروه، بناء على أن بصرت وأبصرت كلاهما من أفعال النظر بالعين.
إلّا أن **بصُر** بالشيء حقيقته صار بصيرا به أو بصيرا بسببه، أي: شديد الإبصار، فهو **أقوى من أبصرت،** لأنّه صيغ من فعُل (بضم العين) الذي تشتق منه الصفات المشبّهة الدالة على كون الوصف شجيّة.
ولمّا كان المعنى هنا جليا عن أمر مرئي **تعيّن حمل اللفظ على المجاز** باستعارة بصر الدال على قوة الإبصار إلى معنى: **العلم القويّ** بعلاقة الإطلاق عن التقييد، كما في قوله { فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ } [قّ:22] وكما سُمّيت المعرفة الراسخة بصيرة في قوله تعالى { أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ } [يوسف:108].
وحكى في لسان العرب عن اللحياني: إنّه لبصير بالأشياء، أي: عالم بها، وبصُرت بالشيء: علمته.
<u>فالمعنى</u>: علمت ما لم يعلموه وفطنت لما لم يفطنوا له.

القَبضة: (بفتح القاف): من القَبض، وهو غلق الراحة على شيء، فالقبضة مصدر بمعنى المفعول. وضد القبض: البسط.

النبذ: إلقاء ما في اليد.

الأثر: حقيقته ما يتركه الماشي من صورة قدمه في الرمل او التراب.

وعلى حمل الكلمات على حقائقها يتعيّن صرف الرسول على جبريل فإنّه رسول من الله إلى الأنبياء.

فقال جمهور المفسّرين: المراد بالرسول جبريل. وروَوا قصّة قالوا: إنّ السامري فتنه الله. فأراه الله جبريل راكبا فرسا فوطئ حافر الفرس مكانا فإذا هو مخضرّ بالنبات، فعلم السامري أن أثر جبريل إذا القي في جماد صار حيّا، فأخذ قبضة من ذلك التراب وصنع عجلا وألقى بقبضة عليه فصار جسدا، أي: حيّا له خوار كخوار العجل. فعبر عن ذلك الإلقاء بالنبذ.

<u>وهذا الذي ذكروه لا يوجد في كتب الإسرائيليين ولا ورد به أثر من السنّة وإنّما هي أقوال لبعض السلف، ولعلّها تسربت للنّاس من روايات القصّاصين.</u>

فإذا صُرفت هذه الكلمات الستُّ إلى معان مجازية كان { بَصُرْتُ } بمعنى علمت واهتديت، أي: اهتديت إلى علم لم يعلموه، وهو علم صناعة التماثيل والصور الذي به صنع العجل، وعلمُ الحيل الذي أوجد به خُوار العجل. وكانت القبضة بمعنى النصيب القليل، وكان الأثر بمعنى التعليم، أي: الشريعة، وكان { فَنَبَذْتُهَا } بمعنى أهملت ونقضت، أي: كنت ذا معرفة إجمالية من هدي الشريعة فانخلعت عنها الكفر.

وبذلك يصحّ أن يُحمل لفظ الرسول على المعنى الشائع المتعارف وهو مَن أوحي إليه بشرع من الله وأمر بتبليغه.

<u>والمعنى</u>: أنّه اعترف أمام موسى بصنعه العجل واعترف بأنه جَهِلَ فَضَلَّ، واعتذر بأنّ ذلك سوّلته له نفسه. وعلى هذا المعنى فسّر أبو مسلم الأصفهاني ورجّحه الزمخشري بتقديمه في الذكر على تفسير الجمهور واختاره الفخر.

{ **وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي** } التسويل: تزين ما ليس بزين . أي: كذلك التسويل سولت لي نفسي، أي: تسويلا لا يقبل التعريف بأكثر من ذلك.

{ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفا } [97].

لم يزد موسى في عقاب السامري على أن خلعه من الأمّة، إمّا لأنّه لم يكن من أنفسهم فلم يكن بالذي تجري عليه أحكام الشريعة، وإمّا لأنّ موسى أُعلِم بأنّ السامري لا يرجى صلاحه بوحي أو إلهام.

{ **فَاذْهَبْ** } الأظهر أنّه أمر له بالانصراف والخروج من وسط الأمّة، <u>ويجوز</u> أن يكون كلمة زجر، كقوله تعالى { قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ } [الاسراء:63].

ويجوز أن يكون مرادا به عدم الاكتراث به.

{ **فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ** } إخبار بما عاقبه الله به في الدنيا والآخرة، فجعل حظّه في حياته أن يقول (لا مساس)، أي: سلبه الله الأنس الذي في طبع الإنسان فعوّضه به هوسا ووسواسا وتوحّشا، فأصبح متباعدا عن مخالطة الناس، فإذا لقيه إنسان قال له: لا مساس، يخشى أن يمسّه، أي: لا تمسّني ولا أمسّك، أو أراد لا تقتراب مني، فإنّ المسّ يطلق على الاقتراب كقوله تعالى { وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ } [لأعراف:73]، وهذا أنسب بصيغة المفاعلة.

مِساس: (بكسر الميم) في قراءة جميع القراء وهو مصدر ماسه بمعنى مسّه.

{ **وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً** } استعارة تهكّميّة، كقوله تعالى { وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا } [الاسراء:7] أي: فعليها. توعّده بعذاب الآخرة فجعله موعدا له، أي: موعد الحشر والعذاب.

{ **لَنْ تُخْلَفَهُ** } (بفتح اللام) مبنيا للمجهول للعلم بفاعله، وهو الله تعالى، أي: لا يؤخّره الله عنك، فاستعير الإخلاف للتأخير لمناسبة الموعد.

{ **وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً** } بعد أن أوعد موسى السامري بيّن له وللذين اتّبعوه ضلالهم بعبادتهم العجل بأنّه لا يستحق الإلهية لأنّه للامتهان والعجز.

وأضاف الإله إلى ضمير السامري تهكّما بالسامري وتحقيرا له، ووصف ذلك الإله المزعوم بطريق الموصولية لما تدل عليه الصلة من التنبيه على الضلال والخطأ، أي: الذي لا يستحق أن يُعكف عليه.

{ **ظَلْتَ** } (بفتح الظاء) في القراءات المشهورة، وأصله: ظللت، حُذفت اللام الأولى تخفيفا.

العكوف: ملازمة العبادة وتقدّم آنفا. وتقديم المجرور للتخصيص، أي الذي اخترته للعبادة دون الله تعالى.

{ **لَنُحَرِّقَنَّهُ** } قرأ الجمهور بضم النون الأولى وفتح الحاء وكسر الراء مشدّدة. والتحريق: الإحراق الشديد، أراد به أن يذيبه بالنار حتّى يفسد شكله ويصير قطعا.

النسف: تفريق وإذراء لأجزاء شيء صلب كالبناء والتراب.

{ **فِي الْيَمِّ** } البحر الأحمر المُسمّى بحر القلزم، والمُسمّى في التوراة (بحر سُوف)، وكانوا نازلين حينئذ على ساحله في سفح الطور.

{ **نَسْفاً** } المفعول المطلق إشارة إلى أنّه لا يتردد في ذلك.

{ **إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً** } [98].

من حكاية كلام موسى عليه السلام فموقعها موقع التذييل لوعظه. وقد التفت من خطاب السامري إلى خطاب الأمّة إعراضا عن خطابه تحقيرا له، وقصدا لتنبيههم على خطئهم، وتعليمهم صفات الإله الحقّ، واقتصر منها على الوحدانية وعموم العلم لأنّ الوحدانيّة تجمع جميع الصفات.

وأمّا عموم العلم فهو إشارة إلى علم الله تعالى بجميع الكائنات الشاملة لأعمالهم ليرقبوه في خاصتهم.

{ **وَسِعَ** } استعير لمعنى الإحاطة التامة.

{ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً [99] مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً [100] خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً [101] }.

جملة مستأنفة تذييليّة أفادت التنويه بقصّة رسالة موسى وما عقبها من الأعمال التي مع بني إسرائيل.

{ **نَقُصُّ** } قصصنا، وإنّما صيغ المضارع لاستحضار الحالة الحسنة في ذلك القصص.

{ **مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ** } تبعيضية. والأنباء: الأخبار. ومعلوم أن: المقصود ما فيها من أحوال الأمم.

{ **وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً** } إيماء إلى أنّ ما يُقصّ من أخبار الأمم المقصود منه العبرة والتذكرة، وإيقاظ لبصائر المشركين من العرب إلى موضع الاعتبار من هذه القصّة، وهو إعراض الأمّة عن هدي رسولها وانصياعها إلى تضليل المضلّلين من بينها.

{ **من لَدُنَّا** } توكيد لمعنى { آتيناك } وتنويه بشأن القرآن.

{ **ذِكْرًا** } التنكير للتعظيم، أي: آتيناك كتابا عظيما.

الوزر: الإثم. وجُعل محمولًا تمثيل لملاقاة المشقّة من جراء الإثم، أي: من العقاب عنه.

{ **وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً** } حال ثانية. و { **سَاءَ** } هنا هو أحد أفعال الذمّ مثل (بئس). وفاعله ضمير مستتر مبهم يفسّره التمييز الذي بعده وهو { حِمْلًا}.

الحِمل: (بكسر الحاء) اسم بمعنى المحمول كالذِبح بمعنى المذبوح. والمخصوص بالذم محذوف لدلالة لفظ { وِزْراً } عليه. والتقدير: وساء لهم حملا وزرهم.

{ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً [102] يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً [103] نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً [104] }.

{ **يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ** } بدل من يوم القيامة في قوله تعالى { وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً }. تخلّص لذكر البعث والتذكير به والنذارة بما يحصل للمجرمين يومئذ.

الصور: قرن عظيم يُجعل في داخله سداد لبعض فضائه فإذا نفخ فيه النافخ بقوة خرج منه صوت قوي، وقد اتُّخذ للإعلام بالاجتماع للحرب، وتقدّم عند قوله { قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ } [الأنعام:73].

المجرمون: المشركون والكفرة.

{ **زُرْقاً** } جمع أزرق، وهو الذي لونه الزرقة. والزُّرقة: لون كلون السماء إثر الغروب، وهو في جلد الإنسان قبيح المنظر لأنّه يشبه لون ما أصابه حرق نار. وظاهر الكلام أن الزُّرقة لون أجسادهم.

وقيل: المراد لون عيونهم، فقيل: لأن زرقة العين مكروهة عند العرب. وقيل: المراد بالزرق العُمي.

التخافت: الكلام الخفي من خوف ونحوه. وتخافتهم لأجل ما يملأ صدورهم من هول ذلك اليوم كقوله تعالى { وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً } [108].

{ **إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً** } مبيّنة لجملة { يَتَخَافَتُونَ }، المراد باللبث: المكث في القبور، كقوله تعالى { قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ } [المؤمنين:113/112]، وقوله تعالى { وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ } [الروم:55].

وهم قد علموا أنّهم كانوا أمواتا ورفاتا فأحياهم الله فاستيقنوا ضلالهم إذ كانوا ينكرون الحشر. فزعموا أنّهم ما لبثوا في القبور إلّا عشر ليال فلم يصيروا رفاتا، وذلك لما بقي في نفوسهم من استحالة الإحياء بعد تفرّق الأوصال، فزعموا أنّ إحياءهم ما كان إلّا برد الأرواح إلى الأجساد.

{ **نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ** } معترضة بين فعل { يَتَخَافَتُونَ } وظرفية { إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ }، أي: أنّهم يقولون ذلك سرًّا ونحن أعلم به وأنّنا نخبر عن قولهم يومئذ خبر العليم الصادق.

الأمثل: الأرجح والأفضل. والمَثالة: الفضل، أي: صاحب الطريقة المثلى لأنّ النسبة في الحقيقة للتمييز.

الطريقة: الحالة والسنّة والرأي. والمراد هنا الرأي، وتقدّم في قوله { وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى } [63].

{ **إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً** } لم يأت المفسّرون في معناها بوجه تطمئن له النفس.

<u>والذي أراه</u> أنّه يحتمل الحقيقة والمجاز:

<u>فإن سلكنا به مسلك الحقيقة</u> كان المعنى أنّه أقربهم إلى اختلاق الاعتذار عن خطئهم في إنكارهم البعث.

أي: أنّه الأمثل من بينهم في المعاذير، وليس المراد أنّه مصيب.

<u>وإن سلكنا به مسلك المجاز</u> فهو تهكّم بالقائل في سوء تقديره من لبثهم في القبور. فكان الذي قدّر زمن المكث في القبور بأقل قدر أوغل في الغلط، فعُبّر عنه بـ { أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً } تهكّما به وبهم معا.

{ وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً [105] فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً [106] لَا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً [107] }.

لمّا جرى ذكر البعث ووصف ما سينكشف للذين أنكروه من خطئهم في شبهتهم بتعذّر إعادة الأجسام بعد تفرّق أجزائها، ذُكرت أيضا شبهة من شبهاتهم كانوا يسألون عنها النبيّ صلى الله عليه وسلم سؤال تعنّت لا سؤال استهداء، فكانوا يحيلون انقضاء هذا العالم ويقولون: فأين تكون هذه الجبال التي نراها؟

وروي أنّ رجلا من ثقيف سأل النبيّ صلى الله عليه وسلم عن ذلك، وهم أهل جبال لأنّ موطنهم الطائف وفيه جبل (كَرَى).

وسواء كان سؤالهم استهزاءً أم استرشادًا. فقد أنبأهم الله بمصير الجبال إبطالا لشبهتهم وتعلّما للمؤمنين.

{ **يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً** } تأكيد لإثبات أنّه حقيقة لا استعارة. و**النسف**: تفريق وإذراء، وتقدّم آنفا.

{ **فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً** } **القاع**: الأرض السهلة. و**الصفصف**: الأرض المستوية التي لا نتوء فيها.
والمعنى: أنّها تندك في مواضعها وتسوّى مع الأرض، وذلك يحصل بزلزال أو نحوه، قال تعالى { إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجّاً وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثّاً } [الواقعة:4-6].
{ **لَا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً** } حال مؤكّدة لمعنى { قَاعاً صَفْصَفاً } لزيادة تصوير حالة فيزيد تهويلها.
والخطاب لغير معيّن يخاطب به الرسول صلى الله عليه وسلم سائليه.
العِوَج (بكسر العين وفتح الواو): ضدّ الاستقامة، ويقال **عَوَج** (بفتح العين والواو)، فهما مترادفان على الصحيح من أقوال أئمة اللغة. وتقدّم هذا اللفظ في [الكهف:1] فانظره.
الأمت: النتوء اليسير، أي: لا ترى فيها وهدة ولا نتوءا ما.

{ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً [108] يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً [109] يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْما [110] وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً [111] وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً [112] }.

{ **يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ** } في معنى المفرَّعة على جملة { يَنْسِفُهَا } [105]، أي: إذا نُسفت الجبال نودوا للحشر فحضروا يتبعون الداعي لذلك.
الداعي: قيل: هو الملك إسرافيل عليه السلام يدعو بنداء التسخير والتكوين، فتعود الأجساد والأرواح فيها وتهطع إلى المكان المدعو إليه. وقيل: الداعي الرّسول، أي: يتبع كل قوم رسولهم.
{ **لَا عِوَجَ لَهُ** } حال من { الدَّاعِي } . واللام على كلا القولين في المراد من الداعي للأجل، أي: لا عوج لأجل الداعي، أي: لا يروغ المدعوون في سيرهم لأجل الداعي بل يقصدون متّجهين إلى صوبه بحيث لا يسلكون غير الطريق القويم، أو لا يسلك بهم غير الطريق القويم، أو بحيث يعلمون براءة رسولهم من العوج.
{ **وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً** } في موضع الحال من ضمير { يَتَّبِعُونَ } وإسناد الخشوع إلى الأصوات مجاز عقلي، فإنّ الخشوع لأصحاب الأصوات، أو استعير الخشوع لانخفاض الصوت وإسراره، وهذا الخشوع من هول المقام.
الخشوع: الخضوع، وفي كل شيء من الإنسان مظهر من الخشوع، فمظهر الخشوع في الصوت: الإسرار.
{ **يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ** } المقصود من هذا أنّ جلال الله والخشية منه يصدّان عن التوسّط عنده لنفع أحد إلّا بإذنه. وفيه تأييس للمشركين من أن يجدوا شفعاء لهم عند الله.

{ **إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ** } استثناء من عموم الشفاعة، أي: إلّا أن يشفع من أذن له الرحمان، فهو استثناء. وتفسير هذا ما ورد في حديث الشفاعة من قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" فيقال لي: سل تعطه واشفع تشفَّع "**.

{ **وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً** } عائد إلى { مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ } وهو الشافع. واللام الداخلة على ذلك الضمير لام التعليل، أي: رضي الرحمان قول الشافع إكراما له. فإنّ الله ما أذن للشافع بأن يشفع إلّا وقد أراد قبول شفاعته، فصار الإذن بالشفاعة وقبولها عنوانا على كرامة الشافع عند الله تعالى.

{ **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ** } كلّ ذلك يجري على ما يقتضيه علم الله بسائر العبيد وبأعمالهم الظاهرة، فعُبّر عن الأعمال الظاهرة بما بين أيديهم، لأنّ شأن ما بين الأيدي أن يكون واضحا، وعُبّر عن السرائر بما خلفهم، لأنّ شأن ما يجعل خلف المرء أن يكون محجوبا. وقد تقدّم ذلك في آية الكرسي [البقرة:255].

{ **وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً** } تذييل للتعليم بعظمة علم الله تعالى وضآلة علم البشر، نظير ما في آية الكرسي.

{ **وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ** } معطوفة على جملة { وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ }، أي: ظهر الخضوع في الأصوات والعناء في الوجوه.

العناء: الذلّة، وأصله الأسر، والعاني: الأسير. ولمّا كان الأسير ترهقه ذلّة في وجهه أسند العناء إلى الوجوه على سبيل المجاز العقلي، والجملة كلّها تمثيل لحال المجرمين الذين الكلام عليهم.

ويجوز أن يُجعل التعريف في { الْوُجُوهُ } على العموم. ويراد بـ {عَنَتِ } خضعت، أي: خضع جميع النّاس إجلالا لله تعالى.

الحيّ: الذي ثبت له وصف الحياة، وهي كيفية حاصلة لأرقى الموجودات، وهي قوّة للموجود بها بقاء ذاته وحصول إدراكه أبدا أو إلى أمد ما. والحياة الحقيقيّة هي حياة الله تعالى لأنّها ذاتية غير مسبوقة بضدّها ولا منتهية.

القيّوم: القائم بتدبير النّاس، مبالغة في القيّم. أي: الذي لا يفوته تدبير شيء من الأمور.

{ **وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً** } إمّا معترضة في آخر الكلام تفيد التعليل. والمعنى: قد خاب كلّ من حمل ظلما.

وإمّا احتراس لبيان اختلاف عاقبة عناء الوجوه، فمن حمل ظلما فقد خاب يومئذ واستمر عناؤه. ومن عمل صالحا عاد عليه ذلك الخوف بالأمن والفرح. و**الظلم** هنا: ظلم النفس.

{ **وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً** } شرطيّة مفيدة قسيم مضمون جملة { وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً }، أي: لا يخاف جزاء الظالمين، لأنّه آمِنٌ منه بإيمانه وعمله الصالحات.

الهضم: النقص، أي: لا ينقصون من جزائهم الذي وعدوا به شيئا.

ويجوز أن يكون الظلم بمعنى النقص الشديد كما في قوله تعالى { وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً } [الكهف:33]،

أي: لا يخاف إحباط عمله، وعليه يكون الهضم بمعنى النقص الخفيف، وعطفه على الظلم على هذا التفسير احتراس.

{ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً [113] فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً [114] }.

عطف على جملة { كَذَلِكَ نَقُص عَلَيكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ } [99]، والغرض واحد، وهو التنويه بالقرآن. فابتدئ بالتنويه به جزئيا، بالتنويه بقصصه، ثم عطف عليه التنويه به كلّيًّا.

{ **وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً** } الإشارة نحو الإشارة في قوله تعالى { كَذَلِكَ نَقُص عَلَيكَ }، أي: كما سمعته لا يبين بأوضح من ذلك.

{ **قُرْآناً** } تسمية بالمصدر. والمراد المقروء، أي: المتلو، وصار القرآن عَلَما بالغلبة على الوحي المنزّل على محمد صلى الله عليه وسلم. وسُمّي قرآنا لأنّه نظم على أسلوب تسهل تلاوته. ولوحظ هنا المعنى الاشتقاقي قبل الغلبة، وهو ما تفيده مادة قرأ من يسر تلاوته، وما ذلك إلّا لفصاحة تأليفه وتناسب حروفه. والتنكير يفيد الكمال.

{ **عَرَبِيّاً** } صفة. وهذا وصف يفيد المدح، لأنّ اللغة العربية أبلغ اللغات وأحسنها فصاحة وانسجاما. وفيه تعريض بالامتنان على العرب، وتحميق للمشركين منهم حيث أعرضوا عنه وكذّبوا به.

{ **وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً** }

التصريف: التنويع والتفنين. وتقدّم عند قوله تعالى { وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا } [الإسراء:41].

{ **مِنَ الْوَعِيدِ** } للتهديد، ولمناسبة قوله تعالى قبله { وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً }.

{ **لَعَلَّهُمْ** } للرجاء، أي: أن حال القرآن أن يُقرّب الناس من التقوى والتذكّر.

التقوى: الخوف. وهي تستعمل كناية عن الطاعة لله، أي: فعلنا ذلك رجاء أن يؤمنوا ويطيعوا.

{ **يُحْدِثُ** } إيماء إلى أنّ الذكر ليس من شأنهم قبل نزول القرآن، فالقرآن أوجد فيهم ذكرا لم يكن من قبل.

الذكر: هنا بمعنى التذكّر، أي: يحدث لهم القرآن تذكّرا ونظرا فيما يحقّ عليهم أن يختاروه لأنفسهم.

{ **فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ** } معترضة بين جملة { وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ } وبين جملة { وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ } . وهذا إنشاء ثناء على الله مُنْزِل القرآن، وعلى منّة هذا القرآن، وتلقين لشكره على ما بيَّن لعباده من وسائل الإصلاح.

والتفريع مؤذن بأنّ ذلك الإنزال والتصريف ووسائل الإصلاح، كلّ ذلك ناشئ عن جميل آثار يُشعر جميعها بعلوّه وعظمته وأنّه الملك الحقّ المدبِّر لأمور مملوكاته على أتمّ وجوه الكمال وأنفذ طرق السياسة.

الحقّ: الذي ليس في ملكه شائبة عجز ولا خضوع لغيره. وفيه تعريض بأن ملك غيره زائف.
وفي تفريع ذلك على إنزال القرآن إشارة أيضا إلى أنّ القرآن قانون ذلك الملك، وأّن ما جاء به هو السياسة الكاملة الضامنة صلاح أحوال متّبعيه في الدنيا والآخرة.
{ **وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ** } ناشئة على ما تقدّم من التنويه بالقرآن وما اشتمل عليه من تصاريف إصلاح الناس. فلمّا كان النبيّ صلى الله عليه وسلم حريصا على صلاح الأمّة شديد الاهتمام بنجاتهم لا جرم خطرت بقلبه الشريف عقب سماع تلك الآيات رغبة أو طِلبة في الإكثار من نزول القرآن وفي التعجيل به إسراعا بعظة الناس وصلاحهم، فعلّمه الله أن يكِل الأمر إليه فإنّه أعلم بحيث يناسب حال الأمّة العام.
فالمنهي عنه هو سؤال التعجيل أو الرغبة الشديدة في النفس التي تشبه الاستبطاء لا مطلق مودة الازدياد، فقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم في شأن قصّة موسى مع الخضر عليه السلام: **" وددنا أنّ موسى صبر حتّى يقص الله علينا من أمرهما أو من خبرهما ".**
ويجوز أن يكون معنى العجلة بالقرآن العجلة بقراءته حال إلقاء جبريل آياته. فعن ابن عباس: كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يبادر جبريل فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل حرصا على الحفظ وخشية من النسيان فأنزل الله { وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ }. وهذا كما قال ابن عباس في قوله تعالى {لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ} [القيامة:16] [صحيح البخاري] .
وعلى هذين التأويلين يكون المراد بقضاء وحيه إتمامه وانتهاؤه، أي: انتهاء المقدار الذي هو بصدد النزول.
وعن مجاهد وقتادة أنّ معناه: لا تعجل بقراءة ما أنزل إليك لأصحابك ولا تُمْلِه عليهم حتّى تتبين لك معانيه. وعلى هذا التأويل يكون قضاء الوحي تمام معانيه.
{ **وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً** } يشير إلى أن المنهي عنه استعجال مخصوص وأنّ الباعث على الاستعجال محمود. وفيه تلطّف مع النبيّ صلى الله عليه وسلم، إذ أتبع نهيه عن التعجل الذي يرغبه بالإذن له بسؤال الزيادة من العلم إيماء إلى أن رغبته في التعجّل رغبة صالحة.

{ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً } [115].

لمّا كانت قصّة موسى عليه السلام مع فرعون ومع قومه ذات عبرة للمكذّبين والمعاندين الذين كذّبوا النبيّ صلى الله عليه وسلم وعاندوه، فكأن النبيّ صلى الله عليه وسلم استحبّ الزيادة من هذه القصص ذات العبرة رجاء أنّ قومه يفيقون من ضلالتهم، كما أشرنا إليه قريبا عند قوله تعالى { وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ }، أُعقبت تلك القصّة بقصة آدم عليه السلام وما عرَّض له به الشيطان تحقيقا لفائدة قوله تعالى { وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً }.

{ **وَلَقَدْ** } افتتاح الجملة بحرف التحقيق ولام القسم لمجرّد الاهتمام بالقصّة تنبيها على قصد التنظير بين القصّتين في التفريط في العهد، لأنّ في القصّة الأولى تفريط بني إسرائيل في عهد الله، كما قال فيها { أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ } [96]، وفي قصّة آدم تفريطا في العهد أيضا، وفي كون ذلك من عمل الشيطان، كما قال في القصّة الأولى { وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي } [96]، وقال في هذه { فَوَسْوَسَ إِلَيهِ الشَّيْطَانُ } [120]، وفي أنّ في القصّتين نسيانا لما يجب الحفاظ عليه وتذكّره، فقال في القصّة الأولى { فَنَسِيَ } [16]، وقال في هذه القصة { فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً }.

{ **مِنْ قَبْلُ** } حُذف ما أضيف إليه { قَبْلُ }. وتقديره: من قبل إرسال موسى أو من قبل ما ذُكر، فإنّ بناءه على الضم علامة حذف المضاف إليه ونيّة معناه. والذي ذُكر:

إمّا عهد موسى، قال تعالى { وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى } [13]، وقوله تعالى { فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى } [16].

وإمّا عهد الله لبني إسرائيل الذي ذكّرهم به موسى عليه السلام لمّا رجع إليهم غضبان أسفا، وهو ما في قوله تعالى { أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ } [86].

{ **عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ** } هو المبيَّن في قوله تعالى { فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ } [117].

النسيان: أطلق هنا على إهمال العمل بالعهد عمدا، كقوله في قصّة السامري { فَنَسِيَ } ، فيكون عصيانا. وهو الذي يقتضيه قوله تعالى { وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ [20] وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ } [الأعراف:21].

العزم: الجزم بالفعل وعدم التردّد فيه، وهو مغالبة ما يدعو إليه الخاطر من الانكفاف عنه لعسر عمله أو إيثار ضدّه عليه. وتقدّم قوله تعالى { وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ } [البقرة:227]. والمراد هنا: العزم على امتثال الأمر وإلغاء ما يحسّن إليه عدم الامتثال، قال تعالى { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } [آل عمران:159].

{ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى } [116].

هذا بيان لجملة { وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ }، فكان مقتضى الظاهر أن لا يكون معطوفا بالواو بل أن يكون مفصولا، فوقوع هذه الجملة معطوفة اهتمام بها لتكون قصّة مستقلة فتلفت إليها أذهان السامعين.

التقدير: واذكر إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم.

{ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى [117] إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى [118] وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى [119] }.

قصة خلق آدم وسجود الملائكة له وإباء الشيطان تقدّمت في [البقرة:34-38] وفي [الأعراف:11-25]،

فلنقتصر على بيان ما اختصّت به هاته السورة من الأفانين والتراكيب.

{ **إِنَّ هَذَا** } إشارة إلى الشيطان إشارة مرادا منها التحقير، وفي سورة الأعراف {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُما عَدُوٌّ}.

{ **عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ** } هو كقوله في الأعراف { لكما عَدُوٌّ مُبينٌ } [22]، فذكرت عداوته لهما جملة هنالك وذكرت تفصيلا هنا، فابتدئ في ذكر متعلّق عداوته بآدم لأنّ آدم هو منشأ عداوة الشيطان لحسده، ثم أتبع بذكر زوجه لأنّ عداوته إيّاها تبع لعداوته آدم زوجها، وكانت عداوته متعلّقة بكليهما لاتحاد علة العداوة، وهي حسده إيّاهما على ما وهبهما الله من علم الأسماء الذي هو عنوان الفكر الموصل إلى الهدى، وعنوان التعبير عن الضمير الموصل للإرشاد، وكلّ ذلك مما يُبطل عمل الشيطان ويشقّ عليه في استهوائهما واستهواء ذرّيّتهما، ولأن الشيطان رأى نفسه أجدر بالتفضيل على آدم فحنق لمّا أمر بالسجود لآدم.

{ **فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى** } تفريع على الإخبار بعداوة إبليس له ولزوجه بأن نُهيا نهي تحذير عن أن يتسبّب إبليس في خروجهما من الجنة، لأنّ العدو لا يروقه صلاح حال عدوّه.

وأسند ترتّب الشقاء إلى آدم خاصة دون زوجه إيجازا، لأنّ في شقاء أحد الزوجين شقاء الآخر لتلازمهما، مع الإيماء إلى أنّ شقاء الذكر أصل شقاء المرأة، مع ما في ذلك من رعاية الفاصلة.

{ **إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى** } تعليل للشقاء المترتّب على الخروج من الجنة المنهي عنه، لأنّه لمّا كان ممتَّعا في الجنة برفاهية العيش من مأكل وملبس ومشرب واعتدال جو مناسب للمزاج كان الخروج منها مقتضيا فقدان ذلك.

{ **وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى** }

{ **تَضْحَى** } مضارع ضَحِيَ، كرضي، إذا أصابه حرّ الشمس في وقت الضحى. ومصدره الضحو، وحر الشمس في ذلك الوقت هو مبدأ شدته. والمعنى: لا يصيبك ما ينافر مزاجك.

وجمع له في هذا الخبر أصول كفاف الإنسان في معيشته إيماء إلى أن الاستكفاء منها سيكون غاية سعي الإنسان في حياته المستقبلية.

وقد قُرن بين انتفاء الجوع واللباس في قوله تعالى { أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى }، وقُرن بين انتفاء الظمأ وألم الجسم في قوله تعالى { لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى } لمناسبة بين الجوع والعرى، في أنّ الجوع خلو باطن الجسم عما يقيه تألّمه وهو لفح الحر وقرص البر، ولمناسبة بين الظمأ وبين حرارة الشمس في أنّ الأوّل ألم حرارة الباطن والثاني ألم حرارة الظاهر، فهذا اقتضى عدم اقتران ذكر الظمأ والجوع، وعدم اقتران ذكر العري بألم الحر وإن كان مقتضى الظاهر جمع النظيرين في كليهما، إذ جمع النظائر من أساليب البديع في نظم الكلام بحسب الظاهر لولا أن عرض هنا ما أوجب تفريق النظائر.

{ **فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى** } [120].

{ **فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ** } تقدّم مثله في الأعراف. والفاء لتعقيب مضمون جملتها على مضمون التي قبلها. وهو تعقيب نسبي بما يناسب مدّة تقلّب في خلالها بخيرات الجنّة حتّى اشتد حسد الشيطان.

{ **قَالَ يَا آدَمُ** } بيان لجملة { فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ }. وهذه الآية مثال للجملة المبيّنة لغيرها في علم المعاني.

وهذا القول خاطر ألقاه الشيطان في نفس آدم بطريق الوسوسة، وهي الكلام الخفي؛ إمّا بألفاظ نطق بها الشيطان سرا لآدم لئلا يطّلع عليه الملائكة فيحذّروا آدم من كيد الشيطان. فيكون إطلاق القول عليه حقيقة، وإمّا كما يوسوس للنّاس في الدنيا، فيكون إطلاق القول عليه مجازا باعتبار المشابهة.

{ **هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى** } استفهام مستعمل في العرض، وهو أنسب المعاني المجازية للاستفهام لقربه من حقيقته.

{ **أَدُلُّكَ** } الدلالة: الإرشاد إلى شيء مطلوب غير ظاهر لطالبه، والدلالة على الشجرة لقصد الأكل من ثمرتها. والشجرة هي التي نهاه الله عن الأكل منها دون جميع شجر الجنة، ولم يذكر النهي عنها هنا وذكر في قصّة سورة البقرة. وهذا العرض متقدّم على الإغراء بالأكل منها المحكي في قوله تعالى { وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ } [الأعراف:20].

{ **شَجَرَةَ الخُلْدِ** } سمّاها هنا بالإجمال للتشويق إلى تعيينها حتّى يقبل عليها، ثم عيّنها له عقب ذلك بما أنبا به قوله تعالى { فَأَكَلا مِنْهَا }. وقد أفصح هذا عن استقرار محبّة الحياة في جبلّة البشر.

الملك: التحرّر من حكم الغير، وهو يوهم آدم أنّه يصير هو المالك للجنّة المتصرّف فيها غير مأمور لآمر.

{ **لَا يَبْلَى** } استُعمل البلى مجازا في الانتهاء، لأنّ الثوب إذا بلي فقد انتهى لبسه.

{ **فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى** [121] **ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى** [122] }.

تفريع على ما قبله، وثَمَّ جملة محذوفة دلّ عليها العرض، أي: فعمل آدم بوسوسة الشيطان فأكل من الشجرة وأكلت حواء معه.

{ **وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ** } عطف على { فَأَكَلا مِنْهَا }، أي: أكلا معا، وتعمّد آدم مخالفة نهي الله تعالى إياه عن الأكل من تلك الشجرة، وإثبات العصيان لآدم دون زوجه يدلّ على أنّ آدم كان قدوة لزوجه، فلمّا أكل من الشجرة تبعته زوجه.

الغواية: ضدّ الرشد، فهي عمل فاسد أو اعتقاد باطل.

وليس في هذه الآية مستند لتجويز المعصية على الأنبياء ولا لمنعها، لأنّ ذلك العالم لم يكن عالم تكليف.

{ **ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى** } معترضة بين جملة { وَعَصَى آدَمُ } وجملة {قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً}، لأنّ الاجتباء والتوبة عليه كانا بعد أن عُوقب آدم وزوجه بالخروج من الجنّة كما في سورة البقرة، وهو المناسب لترتّب الإخراج من الجنّة على المعصية دون أن يترتّب على التوبة.

وفائدة هذا الاعتراض التعجيل ببيان مآل آدم إلى صلاح.

الاجتباء: الاصطفاء. وتقدّم عند قوله تعالى { وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } [الأنعام:87]، وقوله تعالى { اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } [النحل:121].

الهداية: الإرشاد إلى النفع. والمراد بها إذا ذكرت مع الاجتباء في القرآن: النبوّة كما في هذه الآيات الثلاث.

{ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى [123] وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى [124] قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً [125] قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى [126] وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى [127] }.

{ **قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ** } استئناف بياني. والخطاب لآدم وإبليس. والأمر في { اهْبِطَا } أمر تكوين لأنّهما عاجزان عن الهبوط إلى الأرض إلّا بتكوين من الله.

{ **جَمِيعًا** } اسم لمعنى كل أفراد ما يوصف. ونصبه على الحال. وهو هنا حال من ضمير { اهْبِطَا }.

{ **بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ** } حال ثانية. فالمأمور بالهبوط من الجنة آدم وإبليس وأمّا حواء فتبع لزوجها. وخوطبا بضمير الجمع لأنّه أريد عداوة نسليهما، فإنّهما أصلان لنوعين؛ نوع الإنسان ونوع الشيطان.

{ **فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً** } تفريع على الأمر بالهبوط من الجنّة إلى الدنيا إنباءٌ بأنّهم يستقبلون في هذه الدنيا سيرة غير التي كانوا عليها في الجنّة لأنّهم أودعوا في عالم خليط خيره بشرّه، وحقائقه بأوهامه، بعد أن كانوا في عالم الحقائق المحضة والخير الخالص. وفي هذا إنباء بطور طرأ على أصل الإنسان في جبلّته كان معدّا له من أصل تركيبه.

{ **يَأْتِيَنَّكُمْ** } الخطاب لآدم باعتبار أنّه أصل لنوع الإنسان إشعارا له بأنّه سيكون منه جماعة، ولا يشمل هذا الخطاب إبليس لأنّه مفطور على الشر والضلال إذ قد أنباه الله بذلك عند إبايته السجود لآدم.

وأمّا الحديث الذي رواه الدارقطني: أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: **" ما منكم من أحد إلّا وقد وُكّل به قرينه من الجن "**، قالوا: وإيّاك يا رسول الله؟ قال: **" وإيّاي ولكن الله أعانني** [عليه] **فأسلم "**.

فلا يقتضي أنّه دعاه للإسلام ولكن الله ألهم قرينه إلى أن يأمره بالخير.

الهدى: الإرشاد إلى الخير.

وفي هذه الآية وصاية الله آدم وذرّيّته باتباع رسل الله والوحي الإلهي. وبذلك يعلم أن طلب الهدى مركوز في الجبلّة البشريّة حتّى قال كثير من علماء الإسلام: إنّ معرفة الإله الواحد كائنة في العقول أو شائعة في الأجيال والعصور. وإنّه لذلك لم يُعذر أهل الشرك في مدد الفتر التي لم تجئ فيها رسل للأمم. وهذه مسألة عظيمة وقد استوعبها علماء الكلام، وحررناها في رسالة (النسب النبوي).

{ **فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى** } من اتبع الهدى الوارد من الله على لسان رسله سلم من أن يعتريه شيء من ضلال، أي: فلا يعتريه ضلال في الدنيا، بخلاف من اتبع ما فيه هدى وارد من غير الله، فإنّه وإن استفاد هدى في بعض الأحوال لا يسلم من الوقوع في الضلال في أحوال أخرى. وهذا حال متّبعي الشرائع الوضعية، فإنّ واضعيها وإن أفرغوا جهودهم في تطلّب الحقّ لا يسلمون من الوقوع في ضلالات بسبب غفلات، أو تعارض أدلة، أو انفعال بعادات مستقرة، أو مصانعة لرؤساء أو أمم رأوا أنّ من المصلحة طلب مرضاتهم. وحالهم بخلاف حال الرسل الذين يتلقّون الوحي من علّام الغيوب الذي لا يضل ولا ينسى، وأيّدهم الله، وعصمهم من مصانعة أهل الأهواء، وكوّنهم تكوينا خاصا مناسبا لما سبق في علمه من مراده منهم، وثبّت قلوبهم على تحمّل الأهواء، ولا يخافون في الله لومة لائم.

{ **وَلَا يَشْقَى** } هو شقاء الآخرة، لأنّه إذا سلم من الضلال في الدنيا سلم من الشقاء في الآخرة.

{ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً** } المعيشة مراد بها مدّة الحياة.

الضنك: مصدر ضَنُك، من باب كَرُم. والضنك: الضيق، يقال: مكان ضنك، أي: ضيق. ويستعمل مجازا في عسر الأمور في الحياة.

{ **وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى** } جعل الله عقابه يوم الحشر أن يكون أعمى، تمثيلا لحالته الحسّيّة يومئذ بحالته المعنويّة في الدنيا، وهي حالة عدم النظر في وسائل الهدى والنجاة. وذلك المعنى عنوان على غضب الله عليه وإقصائه عن رحمته.

{ **قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى** } الإشارة راجعة إلى العمى المضمّن في قوله تعالى { لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى }، أي: مثل ذلك الحال التي تساءلت عن سببها كنت نسيت آياتنا حين أتتك، وكنت تُعرض عن النظر في الآيات حين تدعى إليه، فكذلك الحال كان عقابك عليه جزاء وفاقا.

{ **فَنَسِيتَهَا / تُنْسَى** } النسيان في الموضعين مستعمل كناية أو استعارة في الحرمان من حظوظ الرحمة.

{ **وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ** } تذييل، <u>يجوز</u> أن تكون من حكاية ما يخاطب الله به من يحشر يوم القيامة أعمى قُصد منها التوبيخ له والتنكيل، فالواو عاطفة الجملة على التي قبلها.

<u>ويجوز</u> أن تكون تذييلا للقصّة وليست من الخطاب المخاطب به من يحشر يوم القيامة أعمى، قُصد منها موعظة السامعين ليحذروا من أن يصيروا إلى مثل ذلك المصير، فالواو اعتراضية.

الإسراف: هنا الاعتقاد الضال وعدم الإيمان بالآيات ومكابرتها وتكذيبها.
والمعنى: ومثل ذلك الجزاء نجزي من أسرف، أي: كفر ولم يؤمن بآيات ربه.
{ **وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى** } يجوز أن يكون تذييلا للقصّة وليس من حكاية خطاب الله للذي حشره يوم القيامة أعمى. فالمراد بعذاب الآخرة مقابل عذاب الدنيا المفاد من قوله تعالى { فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً }.
ويجوز أن تكون الجملة من حكاية خطاب الله للذي يحشره أعمى، فالمراد بعذاب الآخرة العذاب الذي وقع فيه المخاطب، أي: أشد من عذاب الدنيا وأبقى منه لأنّه أطول مدّة.

{ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى} [128].

استفهام إنكاري تعجيبي من حال غفلة المخاطبين المشركين عمّا حل بالأمم المماثلة لهم في الإشراك والإعراض عن كتب الله وآيات الرُّسل.
الهداية: هنا مستعارة للإرشاد إلى الأمور العقليّة، بتنزيل العقلي منزلة الحسّي، فيؤول معناها إلى معنى التبيين، ولذلك عُدّي فعلها باللام.
{ **كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ** } معلّقة فعل { يَهْدِ } عن العمل في المفعول لوجود اسم الاستفهام بعدها. والمعنى: أفلم يهد الله لهم جواب { كَمْ أَهْلَكْنَا }، أي: كثرة إهلاكنا القرون.
{ **الْقُرُونِ** } عاد وثمود. فقد كان العرب يمرّون بمساكن عاد في رحلاتهم إلى اليمن ونجران وما جاورها، وبمساكن ثمود في رحلاتهم إلى الشام. وقد مرّ النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمون بديار ثمود في مسيرهم إلى تبوك.
{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى** } في موضع التعليل للإنكار والتعجيب من حال غفلتهم عن هلاك تلك القرون. فحرف التأكيد للاهتمام بالخبر وللإيذان بالتعليل.
النُّهى: (بضم النون والقصر) جمع نُهْيَة (بضم النون وسكون الهاء): اسم العقل. وقد يستعمل النُّهى مفردا بمعنى العقل. وفي هذا تعريض بالذين لم يهتدوا بتلك الآيات بأنّهم عديمو العقول.

{ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُسَمّىً [129] فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى [130] }.

{ **وَلَوْلَا كَلِمَةٌ** } عطف على جملة { أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ } باعتبار ما فيها من التحذير والتهديد والعبرة بالقرون الماضية، بأنّهم جديرون بأن يحلّ بهم مثل ما حلّ بأولئك. فلمّا كانوا قد غرّتهم أنفسهم بتكذيب الوعيد لِما

رأوا من تأخّر نزول العذاب بهم، عُقّب وعيدهم بالتنبيه على ما يزيل غرورهم أنّ سبب التأخير كلمة سبقت من الله بذلك، لحِكم يعلمها. وهذا في معنى قوله تعالى { وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ } [سبأ:30/29].

الكلمة: ما علمه الله من تأجيل حلول العذاب بهم، فالله تعالى بحكمته أنظر قريشا فلم يُعجّل لهم العذاب لأنّه أراد أن ينشر الإسلام بمن يؤمن منهم وبذرّيّاتهم. وفي ذلك كرامة للنبيّ محمد صلى الله عليه وسلم بتيسير أسباب بقاء شرعه وانتشاره، لأنّه الشريعة الخاتمة. وخصّ الله منهم بعذاب السيف والأسر من كانوا أشدّاء في التكذيب والإعراض حكمة منه، قال تعالى { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } [الأنفال:34/33].

{ **لَكَانَ لِزَاماً** } اللّزام (بكسر اللام) مصدر لازم، كالخصام، استُعمل مصدرًا لفعل لَزِمَ الثاني لقصد المبالغة في قوّة المعنى كأنّه حاصل من عدّة ناس. ويجوز أن يكون وزن فِعال بمعنى فاعل.

فانتصب { لِزَامًا } على أنّه خبر (كان)، واسمها ضمير راجع إلى الإهلاك، أي: لكان الإهلاك الذي أهلك مثله من قبلهم من القرون، وهو الاستئصال، لازما لهم.

{ **وَأَجَلٌ مُسَمّىً** } عطف على { كَلِمَةٌ }. التقدير: لولا كلمة وأجل مسمّى يقع عنده الهلاك لكان إهلاكهم لزاما.

ويظهر أنّه شاع في عصر الصحابة تأويل اسم اللزام أنّه عذاب توعد الله به مشركي قريش. وقيل: هو عذاب يوم بدر. ففي صحيح البخاري عن ابن مسعود قال خمس قد مضين: الدخان، والقمر، والروم، والبطشة، واللزام { فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً }. يريد بذلك إبطال أن يكون اللزام مترقبا في آخر الدنيا.

وليس في القرآن ما يحوج إلى تأويل اللزام بهذا كما علمت.

{ **فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ** } أُمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصبر على ما يقولون من التكذيب بالوعيد لتأخير نزوله بهم. والمعنى: فلا تستعجل لهم العذاب واصبر على تكذيبهم ونحوه. وأمره بأن يُقبل على مزاولة تزكية نفسه وتزكية أهله بالصلاة، والإعراض عمّا متّع الله الكفار برفاهية العيش، ووعده بأنّ العاقبة للمتقين.

{ **وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ** } التسبيح هنا مستعمل في الصلاة لاشتمالها على تسبيح الله وتنزيهه. والباء للملابسة، وهي ملابسة الفاعل لفعله، أي: سبّح حامدا ربك، فموقع المجرور موقع الحال.

{ **قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ** } هي أوقات الصلاة:

قبل طلوع الشمس: وقت الصبح.

قبل غروبها: وقتان وهما الظهر والعصر، وقيل المراد صلاة العصر.

{ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ }: وذلك وقتا المغرب والعشاء.

{ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ }: وقت الظهر، كما سيأتي.

وهذا كلّه من المجمل الذي بيّنته السنة المتواترة.

آناء الليل: ساعاته، وهو جمع **إِنْي** (بكسر الهمزة وسكون النون وياء في آخره). ويقال: إنو بواو في آخره. ويقال: إنًى بألف في آخره مقصورا. ويقال: أناء بفتح الهمزة في أوّله وبمد في آخره. وجمع ذلك على آناء.

{ **وَأَطْرَافَ النَّهَارِ** } طرف الشيء منتهاه. قيل: المراد أوّل النهار وآخره، وهما وقتا الصبح والمغرب، فيكون من عطف البعض على الكل للاهتمام بالبعض، كقوله تعالى {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى } [البقرة:238]. وقيل: المراد طرف سير الشمس في قوس الأفق، وهو بلوغ سيرها وسط الأفق المعبّر عنه بالزوال، وهما طرفان طرف النهاية وطرف الزوال، وهو انتهاء النصف الأول وابتداء النصف الثاني من القوس، كما قال تعالى { وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ } [هود:114]. وعلى هذا التفسير يتّجه أن يكون ذكر الطرفين معا لوقت صلاة واحدة أنّ وقتها ما بين الخروج من أحد الطرفين والدخول في الطرف الآخر وتلك حصة دقيقة (أي: وقت صلاة الظهر).

وعلى التفسيرين فللنّهار طرفان لا أطراف، كما قال تعالى { وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ } فالجمع في قوله تعالى { وَأَطْرَافَ النَّهَارِ } من إطلاق اسم الجمع على المثنّى، وهو متسع فيه في العربية عند أمن اللبس، كقوله تعالى { فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا } [التحريم:4]. والذي حسَّنه هنا مشاكلة الجمع للجمع في قوله تعالى { وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ }.

{ **لَعَلَّكَ تَرْضَى** } أي: رجاء لك أن تنال من الثواب عند الله ما ترضى به نفسك.

ويجوز أن يكون المعنى: لعلّ في ذلك المقدار الواجب من الصلوات ما ترضى به نفسك دون زيادة في الواجب رفقا بك وبأمتك. ويبيّنه قوله صلى الله عليه وسلم: " **وجُعلت قرّة عيني في الصلاة** ".

{ **وَلَا تَمُدَّنَ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى** } [131].

أُعقب أمره بالصبر على ما يقولونه بنهيه عن الإعجاب بما يَنعم به من تنعَّم من المشركين بأموال وبنين في حين كفرهم بالله بأنّ ذلك لحِكم يعلمها الله تعالى، منها إقامة الحجّة عليهم، كما قال تعالى { أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ } [المؤمنون:56/55].

مدّ العينين: مستعمل في إطالة النظر للتعجيب لا للإعجاب، شُبّه ذلك بمدّ اليد. وتقدّم نظيره [الحجر:88]

{ **أَزْوَاجاً مِنْهُمْ** } ذكر الأزواج هنا لدلالته على العائلات والبيوت، أي: إلى ما متعناهم وأزواجهم به من المتع؛ كالبنين والرياش والمنازل والخدم.

{ **زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** } الزَهْرة: واحدة الزهر، وهو نَوْر الشجر والنبات. وتُستعار للزينة المعجِبة المبهِتة، لأنّ منظر الزهرة يزين النبات ويُعجب الناظر، فزهرة الحياة: زينة الحياة، من اللباس والأنعام والجنان

والنساء والبنين، كقوله تعالى { فَمَتَاع الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِيْنَتَهَا } [القصص:60].
{ **لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ** } (في) للظرفية المجازية، أي: لتحصل فتنتهم في خلاله، ففي كل صنف من ذلك المتاع فتنة مناسبة له. واللام للعلّة المجازية التي هي عاقبة الشيء. وإنّما متّعهم الله بزهرة الدنيا لأسباب كثيرة متسلسلة عن نظم الاجتماع، فكانت لهم فتنة في دينهم، فجُعل الحاصل بمنزلة الباعث.
الفتنة: اضطراب النفس وتبلبل البال من خوف أو توقّع أو التواء الأمور، وكانوا لا يخلون من ذلك، فلشركهم يقذف الله في قلوبهم الغمّ والتوقّع، وفتنتهم في الآخرة ظاهرة.
{ **وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى** } تذييل، لأنّ قوله تعالى { وَلَا تَمُدَّنَ عَيْنَيْكَ ...} يفيد أن ما يبدو للناظر من حسن شارتهم مشوب ومبطّن بفتنة في النفس وشقاء في العيش وعقاب عليه في الآخرة، فذُيّل بأنّ الرزق الميسَّر من الله للمؤمنين خير من ذلك وأبقى في الدنيا، ومنفعته باقية في الآخرة لما يقارنه في الدنيا من الشكر.
{ **وَرِزْقُ رَبِّكَ** } إضافة تشريف، وإلّا فإنّ الرزق كلّه من الله، ولكن رزق الكافرين لما خالطه وحفّ به حال أصحابه من غضب الله عليهم، ولما فيه من التبعة على أصحابه في الدنيا والآخرة لكفرانهم النعمة، جُعل كالمنكور انتسابه إلى الله، وجعل رزق الله هو السالم من ملابسة الكفران ومن تبعات ذلك.
{ **خَيْرٌ** } تفضيل، والخيرية حقيقة اعتبارية تختلف باختلاف نواحيها. فمنها: خير لصاحبه في العاجل شرّ عليه في الآجل، ومنها خير مشوب بشرور وفتن، وخير صاف من ذلك، فالتفضيل باعتبار توفر السلامة من العواقب السيّئة والفتن كالمقرون بالقناعة، فتفضيل الخيرية جاء مجملا يظهر بالتدبّر.
{ **وَأَبْقَى** } تفضيل على ما مُتّع به الكافرون، لأنّ في رزق الكافرين بقاء، وهو أيضا يظهر بقاؤه بالتدبّر.

{ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى } [132].
أي: مِتْعَتُكَ ومِتْعَةَ أهلك الصلاة فلا تَلْفَتوا إلى زخارف الدنيا. وأهل الرجل يكونون أمثل من ينتمون إليه.
ومن آثار العمل بهذه الآية في السنة ما في صحيح البخاري : أنّ فاطمة رضي الله عنها بلغها أنّ سبيا جيء به إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فأتت تشتكي إليه ما تلقى من الرحى، تسأله خادما من السبي فلم تجده. فأخبرت عائشة بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءها النبيّ صلى الله عليه وسلم وقد أخذت وعلي مضجعهما فجلس في جانب الفراش وقال لها ولعلي: **" ألا أخبركما بخير لكما مما سألتما، تسبحان وتحمدان وتكبّران دُبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين، فذلك خير لكما من خادم ".**
وأمر اللهُ رسولَه بما هو أعظم مما يأمر به أهله وهو أن يصطبر على الصلاة.
الاصطبار: الانحباس، مطاوع صبره، إذا حبسه، وهو مستعمل مجازا في إكثاره من الصلاة في النوافل.
قال تعالى { يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً } [المزمل:2/1]، وقال تعالى { وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ } [الاسراء:79].

{ **لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً** } أي: ما كلّفناك إلّا بالعبادة، لأنّ العبادة شكر الله على ما تفضّل به على الخلق ولا يطلب الله منهم جزاء آخر. وفي هذا المعنى قوله تعالى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ } [الذاريات:56-58].

والمقصود من هذا الخطاب ابتداء هو النبيّ صلى الله عليه وسلم ويشمل أهله والمؤمنين.

{ **وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى** } عطف على جملة { لا نَسْأَلُكَ رِزْقاً } المعلّل بها أمره بالاصطبار للصلاة،

العاقبة: حقيقتها أنّها كلّ ما يعقب أمرا ويقع في آخره من خير وشرّ، إلّا أنّها غلب استعمالها في أمور الخير. فالمعنى: أن التقوى تجيء في نهايتها عواقب خير.

وهذه الجملة تذييل لما فيها من معنى العموم. أي: لا تكون العاقبة إلّا للتقوى. فقد أرسلت مجرى المثل.

{ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى } [133].

رجوع إلى التنويه بشأن القرآن وبأنّه أعظم المعجزات. والمناسبة في الانتقال هو ما تضمّنه قوله تعالى { فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ } [130]، فجيء هنا بشِنَعٍ من أقوالهم التي أمر الله رسوله بأن يصبر عليها في قوله تعالى { فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ }، من مثل قولهم { فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ } [الانبياء:5].

{ **لَوْلَا** } حرف تحضيض.

{ **أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ** } الاستفهام إنكاري، أنكر به نفي إتيان آية لهم الذي اقتضاه تحضيضهم على الإتيان بآية.

البيّنة: الحجّة.

{ **الصُّحُفِ الْأُولَى** } كتب الأنبياء السابقين. كقوله تعالى { إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى* صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى } [الأعلى:19/18].

الصحف: جمع صحيفة. وهي قطعة من ورق أو كاغد أو خرقة يُكتب فيها. ولمّا كان الكتاب مجموع صحف أطلق الصحف على الكتب.

ووجه اختيار { الصُّحُفِ } هنا على الكتب أنّ في كل صحيفة من الكتب علما، وأنّ جميعه حواه القرآن، فكان كل جزء من القرآن آية ودليلا.

{ **بَيِّنَةُ** } هذه البينة هي محمد صلى الله عليه وسلم وكتابه القرآن، لأنّ الرسول موعود به في الكتب السالفة، ولأنّ في القرآن تصديقا لما في تلك الكتب من أخبار الأنبياء ومن المواعظ وأصول التشريع. وكانوا لا يحقّقون كثيرا منها بما طرأ عليهم من التفرّق وتلاشي أصول كتبهم وإعادة كتابة كثير منها بالمعنى على حسب تأويلات سقيمة.

وأمّا القرآن فما حواه من دلائل الصدق والرشاد، وما امتاز به عن سائر الكتب من البلاغة والفصاحة البالغتين حدّ الإعجاز، وهو ما قامت به الحجّة على العرب مباشرة وعلى غيرهم استدلالا. وهذا مثل قوله تعالى { لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حتّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ

يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً } [البينة:2/1].

{ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى } [134].

الارتقاء في الاستدلال عليهم بأنّهم ضالون حين أخّروا الإيمان بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وجعلوه متوقّفا على أن يأتيهم بآية من ربّه، لأنّ ما هم متلبّسون به من الإشراك بالله ضلال بيّن، قد حجبت عن إدراك فساده العاداتُ واشتغالُ البال بشؤون دين الشرك. فالإشراك وحده كاف في استحقاقهم العذاب، ولكنّ الله رحمهم فلم يؤاخذهم به إلّا بعد أن أرسل إليهم رسولا يوقظ عقولهم. فمجيء الرسول بذلك كاف في استدلال العقول على فساد ما هم فيه، فكيف يسألون بعد ذلك إتيان الرسول لهم بآية على صدقه فيما دعاهم إليه من نبذ الشرك.

{ مِنْ قَبْلِهِ } الضمير عائد إلى القرآن الذي الكلام عليه، أو على الرسول باعتبار وصفه بأنّه بيّنة، أو على إتيان البينة المأخوذ من قوله تعالى { أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى } [133].

وفي هذه الآية دليل على أنّ الإيمان بوحدانية خالق الخلق يقتضيه العقل لولا حجب الضلالات والهوى، وأنّ مجيء الرسل لإيقاظ العقول والفطر، وأنّ الله لا يؤاخذ أهل الفترة على الإشراك حتّى يبعث إليهم رسولا، وأنّ قريشا كانوا أهل فترة قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم.

{ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً } أنّهم يقولون ذلك يوم الحساب بعد أن أهلكهم الله الإهلاك المفروض، لأنّ الإهلاك بعذاب الدنيا يقتضي أنّهم معذبون في الآخرة.

{ لَوْلا } حرف تحضيض، مستعمل هنا في اللوم أو الاحتجاج، لأنّه قد فات وقت الإرسال.

{ نَذِلَّ وَنَخْزَى } الذل: الهوان. والخزي: الافتضاح، أي: الذلّ بالعذاب. والخزي في حشرهم مع الجناة كما قال إبراهيم عليه السلام { وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ } [الشعراء:87].

{ قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى } [135].

جواب عن قولهم { لَوْلا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ } وما بينهما اعتراض. والمعنى: كلّ فريق متربّص؛ فأنتم تتربّصون بالإيمان، أي: تؤخّرون الإيمان إلى أن تأتيكم آية من ربي، ونحن نتربّص أن يأتيكم عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة.

{ فَتَرَبَّصُوا } مادة الفعل المأمور به مستعملة في الدوام ،أي: فدوموا على تربّصكم، وفيه معنى الإنذار. ويُسمّى المتاركة، أي: نترككم وتربّصكم لأنّا مؤمنون بسوء مصيركم.

وفي معناه قوله تعالى { فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ } [السجدة:30]، وفي ما يقرب من هذا جاء قوله تعالى { قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ } [التوبة:52].

التربّص: الانتظار. تفعُّل من الربص، وهو انتظار حصول حدث من خير أو شرّ، وتقدّم في [التوبة:52].

{ **فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى** } فُرّغ على المتاركة إعلامهم بأنّهم يعلمون في المستقبل مَنْ مِنَ الفريقين أصحاب الصراط المستقيم ومن هم المهتدون. وهذا تعريض بأنّ المؤمنين هم أصحاب الصراط المستقيم المهتدون.

الصراط: الطريق. وهو مستعار هنا للدين والاعتقاد، كقوله { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } [الفاتحة:6].

السويّ: فعيل بمعنى مفعول. وهو مشتقّ من التسوية.

يحتمل أنّهم يعلمون ذلك في الدنيا عند انتشار الإسلام وانتصار المسلمين، فيكون الذين يعلمون ذلك من يبقى من الكفار المخاطبين حين نزول الآية سواء ممن لم يسلموا مثل أبي جهل، وصناديد المشركين اللذين شاهدوا نصر الدين يوم بدر، أو من أسلموا مثل أبي سفيان، وخالد بن الوليد، ومن شاهدوا عزّة الإسلام.

ويحتمل أنّهم يعلمون ذلك في الآخرة علم اليقين.

وقد جاءت خاتمة هذه السورة كأبلغ خواتم الكلام لإيذانها بانتهاء المحاجّة وانطواء بساط المقارعة.

ومن محاسنها: أن فيها شبيه ردّ العجز على الصدر لأنّها تنظر إلى فاتحة السورة. وهي قوله تعالى { مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى* إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى } [2]، لأنّ الخاتمة تدلّ على أنّه قد بلّغ كلّ ما بُعث به من الإرشاد والاستدلال، فإذا لم يهتدوا به فكفاه انثلاج صدر أنّه أدى الرسالة والتذكرة، فلم يكونوا من أهل الخشية فتركهم وضلالهم حتّى يتبيّن لهم أنّه الحقّ.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأنبياء

سمّاها السلف **(سورة الأنبياء)**. ففي صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود قال: " بنو إسرائيل، والكهف، ومريم، طه، والأنبياء، هن من العتاق الأوَل وهن من تلادي ". ولا يعرف لها اسم غير هذا.

ووجه تسميتها بذلك أنّها ذُكر فيها أسماء **ستة عشر نبيا ومريم**، ولم يأت في سورة القرآن مثل هذا العدد من أسماء الأنبياء في سور القرآن عدا ما في سورة الأنعام، فقد ذُكر فيها أسماء ثمانية عشر نبيّا في قوله تعالى { وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ - إلى قوله - وَيُونُسَ وَلُوطاً } فإن كانت سورة الأنبياء هذه نزلت قبل سورة الأنعام فقد سبقت بالتسمية بالإضافة إلى الأنبياء، وإلّا فاختصاص سورة الأنعام بذكر أحكام الأنعام أوجب تسميتها بذلك الاسم، فكانت سورة الأنبياء أجدر من بقية سور القرآن بهذه التسمية.

وهي مكية بالاتفاق. وحكى ابن عطية والقرطبي الإجماع على ذلك ونقل السيوطي في الإتقان استثناء قوله تعالى { أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ }، ولم يعزه إلى قائل.

وهي السورة **الحادية والسبعون في ترتيب النزول**، نزلت بعد حم السجدة وقبل سورة النحل، فتكون من أواخر السور النازلة قبل الهجرة. ولعلّها نزلت بعد إسلام من أسلم من أهل المدينة كما يقتضيه قوله تعالى

{ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ }، كما سيأتي بيانه، غير أنّ ما رواه ابن إسحاق عن ابن عباس أنّ قوله تعالى في سورة الزخرف { وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ }، أنّ المراد بضرب المثل هو المثل الذي ضربه ابن الزِّبَعْرَى لمّا نزل قوله تعالى { إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ } كما يأتي، يقتضي أنّ سورة الأنبياء نزلت قبل سورة الزخرف. وقد عُدَّت الزخرف ثانية وستين في النزول.

وعدد آيها في عدّ أهل المدينة ومكّة والشام والبصرة **مائة وإحدى عشرة** وفي عد أهل الكوفة مائة واثنتا عشرة.

أغراض السورة

*/ الإنذار بالبعث، وتحقيق وقوعه وإنّه لتحقّق وقوعه كان قريبا. وإقامة الحجّة عليه بخلق السماوات والأرض عن عدم وخلق الموجودات من السماء.

*/ التحذير من التكذيب بكتاب الله تعالى ورسوله. والتذكير بأنّ هذا الرّسول صلى الله عليه وسلم ما هو إلّا كأمثاله من الرّسل وما جاء إلّا بمثل ما جاء به الرّسل من قبله. وذكر كثير من أخبار الرّسل عليهم السلام.

*/ التنويه بشأن القرآن وأنّه نعمة من الله على المخاطبين، وشأن رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم وأنّه رحمة للعالمين.

*/ التذكير بما أصاب الأمم السالفة من جرّاء تكذيبهم رسلهم، وأنّ وعد الله للذين كذّبوا واقع ولا يغرّهم تأخيره فهو جاء لا محالة. وحذّرهم من أن يغترّوا بتأخيره كما اغترّ الذين من قبلهم حتّى أصابهم بغتة.

*/ ذكر من أشراط الساعة فتح يأجوج ومأجوج.

*/ ذكّرهم بما في خلق السماوات والأرض من الدلالة على الخالق. والإيماء إلى أنّ وراء هذه الحياة حياة أخرى أتقن وأحكم لتُجزى كلّ نفس بما كسبت، وينتصر الحقّ على الباطل.

*/ ما في ذلك الخلق من الدلائل على وحدانية الخالق، إذا لا يستقيم هذا النظام بتعدّد الآلهة. وتنزيه الله تعالى عن الشركاء وعن الأولاد، والاستدلال على وحدانيّة الله تعالى.

*/ أنّ جميع المخلوقات صائرون إلى الفناء. وأعقب ذلك تذكيرهم بالنعمة الكبرى عليهم وهي نعمة الحفظ.

*/ عُطف الكلام إلى ذكر الرّسل والأنبياء. وتنظير أحوالهم وأحوال أممهم بأحوال محمد صلى الله عليه وسلم وأحوال قومه.

*/ كيف نصر الله الرّسل على أقوامهم واستجاب دعواتهم. وأنّ الرسل كلّهم جاؤوا بدين الله وهو دين واحد في أصوله قطّعه الضالون قطعا. وأثنى على الرّسل وعلى من آمنوا بهم.

*/ أنّ العاقبة للمؤمنين في خير الدنيا وخير الآخرة، وأنّ الله سيحكم بين الفريقين بالحقّ ويعين رسله على تبليغ شرعه.

{ **اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ** } [1].

افتتاح الكلام بهذه الجملة أسلوب بديع في الافتتاح لما فيه من غرابة الأسلوب وإدخال الروع على المنذَرين.

{ **اقْتَرَبَ** } مبالغة في القرب، أي: اشتدّ قرب وقوعه بهم. وفي إسناد الاقتراب إلى الحساب استعارة تمثيليّة شُبّه حال إظلال الحساب لهم بحالة شخص يسعى ليقرب من ديار ناس، ففيه تشبيه هيئة الحساب المعقولة بهيئة محسوسة.

{ **لِلنَّاسِ** } تقديم الجار والمجرور للاهتمام، ليعلم السامع أنّ المراد تهديد المشركين، لأنّهم الذين يُكنّى عنهم بالنّاس كثيرا في القرآن.

{ **حِسَابُهُمْ** } المراد إمّا يوم الحساب، ومعنى اقترابه: أنّه قريب عند الله لأنّه محقّق الوقوع. أو قريب بالنسبة إلى ما مضى من مدة بقاء الدنيا، كقول النبي صلى الله عليه وسلم:" **بُعثت أنا والساعة كهاتين** ". أو كناية عن اقتراب موتهم لأنّهم إذا ماتوا رأوا جزاء أعمالهم، وذلك من الحساب. وفي هذا تعريض بالتهديد لقرب هلاكهم وذلك بفنائهم يوم بدر.

أو المراد بالحساب: المؤاخذة بالذنب كما في قوله تعالى { إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي }، وعليه فالاقتراب مستعمل في حقيقته أيضا فهو من استعمال اللفظ في حقيته ومجازه.

{ **وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ** } حال من { لِلنَّاسِ }، أي: اقترب منهم الحساب في حال غفلتهم وإعراضهم.

{ **فِي** } دلّت على الظرفيّة المجازيّة التي هي شدّة تمكّن الوصف منهم، أي: وهم غافلون أشدّ الغفلة حتّى كأنّهم منغمسون فيها أو مظروفون في محيطها، ذلك أنّ غفلتهم عن يوم الحساب متأصّلة فيهم بسبب سابق كفرهم.

الغفلة: الذهول عن الشيء وعن طرق علمه، وتقدّمت عند قوله تعالى { وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ } [الأنعام:156]، وقوله تعالى { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ } [الأعراف:136].

الإعراض: صرف العقل عن الاشتغال بالشيء. وتقدّم في قوله تعالى { فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ } [النساء:63]، وقوله تعالى { فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حتّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ } [الأنعام:68].

وإعراضهم هو إبايتهم التأمّل في آيات القرآن التي تذكّرهم بالبعث وتستدلّ لهم عليه، فمتعلّق الإعراض غير متعلّق الغفلة، لأنّ المعرض عن الشيء لا يُعدّ غافلا عنه، أي: أنّهم لمّا جاءتهم دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان وإنذارهم بيوم القيامة استمروا على غفلتهم عن الحساب بسبب إعراضهم عن دلائل التذكير به فكانت الغفلة عن الحساب منهم غير مقلوعة من نفوسهم بسبب تعطيلهم ما شأنه أن يُقلع الغفلة عنهم بإعراضهم عن الدلائل المثبتة للبعث.

{ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ [2] لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ [3] }.

{ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ } مبيّنة لجملة { وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ }. لبيان تمكّن الغفلة منهم وإعراضهم، بأنّهم إذا سمعوا في القرآن تذكيرا لهم بالنظر والاستدلال اشتغلوا عنه باللعب واللهو فلم يفقهوا معانيه وكان حظّهم منه سماع ألفاظه كقوله تعالى { وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ } [البقرة:171].

الذكر: القرآن، أطلق عليه اسم الذكر الذي هو مصدر لإفادة قوّة وصفه بالتذكير.

المُحدَث: الجديد، أي: الجديد نزوله متكرّرا، وهو كناية عن عدم انتفاعهم بالذكر كلّما جاءهم بحيث لا يزالون بحاجة إلى إعادة التذكير وإحداثه، مع قطع معذرتهم لأنّه لو كانوا سمعوا ذكرا واحدا فلم يعبأوا به لانتحلوا لأنفسهم عذرا أنّهم كانوا ساعتئذ في غفلة. فلمّا تكرّر حدثان إتيانه تبيّن لكلّ منصف أنّهم معرضون عنه صدًّا. ونظير هذا قوله { وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ } [الشعراء:5]. وليس المراد بمحدَث ما قابل القديم في اصطلاح علم الكلام، لعدم مناسبته لسياق النظم.

{ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ } أي: استماعا لا وعي معه. وفائدة هذا الترتيب بين الجملتين الحاليتين الزيادة لقطع معذرتهم المستفاد من قوله تعالى { مُحْدَثٍ } كما علمت.

{ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ }.

جملة مستأنفة يجوز أن تكون عطفا على جملة { اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ } إلى آخرها لأنّ كلتا الجملتين مسوقة لذكر أحوال تلقّي المشركين لدعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم بالتكذيب والبهتان والتآمر على رفضها. فالذين ظلموا هم المراد بالناس كما تقدّم. وليست عطفا على جملة { اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ }، لأنّ مضمونها ليس في معنى التقييد لما يأتيهم من ذكر.

{ الَّذِينَ ظَلَمُوا } بدل من واو الجماعة لزيادة التقرير. ولِما في الموصول من الإيماء إلى سبب تناجيهم بما ذكر، وأنّ سبب ذلك كفرهم وظلمهم أنفسهم، وللنداء على قبح ما هم متّصفون به.

{ هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ } بدل من { النَّجْوَى } لأنّ ذلك هو ما تناجوا به. فهو بدل مطابق. وليست هي كجملة { قَالُوا إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ } من جملة { فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى } [طه:62]، فإنّ تلك بدل بعض من كلّ، لأنّ ذلك القول هو آخر ما أسفرت عليه النجوى.

ووجه إسرارهم بذلك الكلام قصدهم أن لا يطّلع المسلمون على ما تآمروا به، لئلّا يتصدّى الرسول صلى الله عليه وسلم للردّ عليهم، لأنّهم علموا أنّ حجّتهم في ذلك واهية يرومون بها أن يضلّلوا الدهماء.

<u>أو أنّهم أسرّوا بذلك لفريق</u> رأوا منهم مخائل التصديق لما جاء به النبيّ صلى الله عليه وسلم لمّا تكاثر بمكة الذين أسلموا فخشوا أن يتتابع دخول النّاس في الإسلام فاختلوا بقوم ما زالوا على الشرك وناجوهم

بذلك ليدخلوا الشكّ في قلوبهم.

النجوى: المحادثة الخفية. و**الإسرار**: هو الكتمان والكلام الخفيّ جدّا. وتقدّم الجمع بينهما في قوله تعالى { أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ } [التوبة:78]. أي: جعلوا نجواهم مقصودة بالكتمان وبالغوا في إخفائها، لأنّ شأن التشاور في المهمّ كتمانه كيلا يطّلع عليه المخالف فيفسده.

{ **هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ** } الاستفهام إنكاري يقتضي أنّهم خاطبوا من قارب أن يصدّق بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، أي: فكيف تؤمنون بنبوّته وهو أحد منكم.

{ **أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ** } الاستفهام إنكاري كذلك، وأرادوا بالسحر القرآن. وأطلق الإتيان على القبول والمتابعة على طريق المجاز أو الاستعارة، لأنّ الإتيان لشيء يقتضي الرغبة فيه.

ويجوز أن يراد بالإتيان هنا حضور النبيّ صلى الله عليه وسلم لسماع دعوته، فجعلوه إتيانا، لأنّ غالب حضور المجالس أن يكون بإتيان إليها، وجعلوا كلامه سحرا فنهوا من ناجوهم عن الاستماع إليه. وهذا كقوله تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ } [فصلت:26].

{ **وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ** } في موضع الحال، أي: تأتون السحر وبصركم سليم، وأرادوا به العلم البديهي، فعبّروا عنه بالبصر لأنّ المبصرات لا يحتاج إدراكها إلى تفكير.

{ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [4].

أطلع الله رسوله على نجواهم فلم يتم لهم ما أرادوا من الإسرار بها، فبعد أن حكى ما تناجوا به أمره أن يخبرهم بأنّ الله الذي علم نجواهم يعلم كلّ قول في السماء والأرض من جهر أو سر.

{ **قَالَ** } وقرأ الجمهور { قُلْ } بصيغة الأمر. وقرأ حمزة والكسائي وحفص وخلف { قَالَ } بصيغة الماضي، وكذلك هي مرسومة في المصحف الكوفي، قاله أبو شامة، أي: قال الرسول لهم، حكى الله ما قاله الرسول لهم، وإنما قاله عن وحي، فكان في معنى قراءة الجمهور { قُلْ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ }.

{ **الْقَوْلَ** } التعريف للاستغراق، وبذلك كان هذا تذييلا.

{ **وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** } أعلمهم بأنّه المتّصف بتمام العلم للمسموعات وغيرها.

{ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ } [5].

{ **بَلْ** } الأولى من كلام الله تعالى إضراب انتقال من حكاية قول فريق منهم { أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ} إلى حكاية قول آخر من أقوال المشركين، وهو زعمهم أنّ ما يُخبر عنه ويحكيه هو أحلام يراها فيحكيها، فضمير { قَالُوا } لجماعة المشركين لا لخصوص القائلين الأوّلين.

{ **بَلْ** } الثانية يجوز أن تكون من الكلام المحكي عنهم وهي إضراب انتقال فيما يصفون به القرآن. والمعنى: بل افتراه واختلقه من أحلام، أي: هو كلام مكذوب.

{ **بَلْ** } الثالثة إضراب منهم عن كلامهم، انتقلوا فقالوا { هُوَ شَاعِرٌ } أي: كلامه شعر.
وذلك مؤذن باضطرابهم، وهذا الاضطراب ناشئ عن تردّدهم ممّا ينتحلونه من الاعتلال عن القرآن.
وذلك شأن المبطل المباهت أن يتردّد في حجّته كما قيل: الباطل لَجْلَج، أي: ملتبس متردّد فيه.
ويجوز أن تكون (بل) الثانية والثالثة مثل (بل) الأولى للانتقال في حكاية أقوالهم. والتقدير: بل قالوا افتراه، بل قالوا هو شاعر، وحُذف فعل القول لدلالة القول الأوّل عليهما، وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون المحكي كلام جماعات من المشركين انتحلت كلّ جماعة اعتلالا.
الأضغاث: جمع ضِغث (بكسر الضاد)، وهو الحزمة من أعواد أو عشب أو حشيش مختلط، ثم أطلق على الأخلاط مطلقا كما في قوله تعالى { قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ } [يوسف:44].
أرادوا أن ما يخبركم به من أنّه أوحي إليه ومن أخبار البعث والحساب ويوم القيامة هو أحلام يراها.
{ **فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ** } فرَّعوا على تردّدهم أو فرَّع كلّ فريق على مقالته نتيجة واحدة وهي المطالبة أن يأتيهم بمعجزة تدلّ على صدقه غير هذا القرآن، من نوع ما يُحكى عن الرسل السابقين.
ومن البهتان أن يسألوا الإتيان بآية يكون الادعاء بأنّها سحر أروج في مثلها.

{ **مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ** } [6].

استئناف ابتدائي جوابا على قولهم { كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ }، والمعنى: أنّ الأمم التي أرسل إليها الأوّلون ما أغنت فيهم الآيات التي جاءتهم، كما وددتم أن تكون لكم مثلها، فما آمنوا ولذلك حقّ عليهم الإهلاك، فشأنكم أيّها المشركون كشأنهم. كقوله تعالى { وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ } [الإسراء:59].
وإنّما أمسك الله الآيات الخوارق عن مشركي مكّة لأنّه أراد استبقاءهم ليكون منهم مؤمنون وتكون ذرّيّاتهم حملة هذا الدين في العالم، ولو أرسلت عليهم الآيات البيّنة لكانت سنة الله أن يعقبها عذاب الاستئصال للذين لا يؤمنون بها.
{ **أَهْلَكْنَاهَا** } صفة لـ { قَرْيَةٍ } وردت مستطردة للتعريض بالوعيد بأنّ المشركين أيضا يترقّبون الإهلاك.
وذُكرت القرية هنا مرادا بها أهلها ليُبنى عليها الوصف بإهلاكها، لأنّ الإهلاك أصاب أهل القرى وقراهم، فلذلك قيل { أَهْلَكْنَاهَا } دون { أَهْلَكْنَاهُمْ } كما في قوله تعالى { وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ } [الكهف:59].
{ **أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ** } فُرّعت على جملة { مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ } مقترنة باستفهام الإنكار، أي: فهم لا يؤمنون لو أتيناهم بآية كما اقترحوا كما لم يؤمن الذين من قبلهم الذين جعلوهم مثالا في قولهم { كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ }.

{ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ** } [7].

عطف جواب على جواب. والمقصود من هذا إبطال مقصودهم من قولهم { هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ } إذ أرادوا أنّه ليس بأهل للامتياز عنهم بالرسالة عن الله تعالى، فبيّن خطأهم في استدلالهم بأنّ الرّسل الأوّلين الذين اعترفوا برسالتهم ما كانوا إلّا بشرا، وأنّ الرسالة ليست إلّا وحيا من الله لمن اختاره من البشر.

ثم عرَّض بجهلهم وفضح خطأهم فأمرهم أن يسألوا أهل الذكر، أي: العلم بالكتب والشرائع السالفة من الأحبار والرهبان.

وتوجيه الخطاب لهم بعد كون الكلام جرى على أسلوب الغيبة التفات، ونكتته أنّ الكلام لمّا كان في بيان الحقائق الواقعة أعرض عنهم في تقريره وجعل الكلام موجّه إلى كل سامع، وجُعلوا فيه مُعبَّرا عنهم بضمائر الغيبة، ولمّا أريد تجهيلهم وإلجاؤهم إلى الحجّة عليهم غُيّر الكلام إلى الخطاب، تسجيلا عليهم وتقريعا لهم بتجهيلهم.

{ **إِلَّا رِجَالاً** } يقتضي أن ليس في النساء رسلا وهذا مجمع عليه. وإنّما الخلاف في نبوّة النساء، مثل مريم أخت موسى ومريم أم عيسى.

{ **وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ** } [8].

الجسد: الجسم الذي لا حياة فيه، وهو يرادف الجثّة. هذا قول المحقّقين من أئمة اللغة مثل أبي إسحاق الزجاج في تفسير قوله تعالى { فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً }. وقد تقدّم هناك. أي: ما جعلناهم أجراما غير منبثّة فيها الأرواح بحيث تنتفي عنهم صفات البشر التي خاصتها أكل الطعام، وهذا رد لما يقولونه { مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ }، مع قولهم هنا { هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ }.

وذكر الجسد يفيد التهكّم بالمشركين لأنّ مقتضى أقوالهم أنّ الرسل الأوّلين كانوا في صور الآدميين لكنّهم لا يأكلون الطعام، وأكل الطعام من لوازم الحياة، فلزمهم أن يكونوا أجسادا بلا أرواح، وهذا من السخافة بمكانة.

{ **وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ** } زيادة استدلال لتحقيق بشريّتهم. وأُتي في نفي الخلود عنهم بصيغة { مَا كَانُوا } تحقيقا لتمكّن عدم الخلود منهم.

{ **ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ** } [9].

{ **ثُمَّ** } عاطفة للجمل فهي للتراخي الرتبي. والمعنى: وأهمّ مما ذُكر أنّا صدقناهم الوعد فأنجيناهم وأهلكنا الذين كذّبوهم. ومضمون هذا أهمّ في الغرضين التبشير والإنذار؛ فالتبشير للرّسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بأنّ الله صادقه وعده من النصر، والإنذار لمن ماثل أقوام الرّسل الأوّلين.

{ **الْوَعْدَ** } وعدهم النصر على المكذّبين بقرينة قوله تعالى { فَأَنْجَيْنَاهُمْ } المؤذن بأنّه وعد عذاب لأقوامهم، فالكلام مسوق مساق التنويه بالرّسل الأوّلين، وهو تعريض بوعيد الذين قالوا { فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ}. وفي هذا تقريع للمشركين، وهو كقوله تعالى { قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ } [يونس:102].

{ **وَمَنْ نَشَاءُ** } صيغة المستقبل احتباك، والتقدير: فأنجيناهم ومن شئنا وننجي رسولنا ومن نشاء منكم، وهو تأميل لهم أن يؤمنوا، لأنّ من المكذّبين يوم نزول هذه الآية من آمنوا فيما بعد إلى يوم فتح مكّة.

وهذا من لطف الله بعباده في ترغيبهم في الإيمان، ولذلك لم يقل: ونهلك المسرفين، بل عاد إلى صيغة الماضي الذي هو حكاية لما حلّ بالأمم السالفة، وبقي المقصود من ذكر الذين أهلكوا وهو التعريض بالتهديد والتحذير أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك مع عدم التصريح بالوعيد.

المسرفون: المفرطون في التكذيب بالإصرار والاستمرار عليه حتّى حلّ بهم العذاب.

{ **لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ** } [10].

استئناف جواب عن قولهم { فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ } بإيقاظهم إلى أنّ الآية التي جاءتهم هي أعظم من الآيات التي أرسل بها الأوّلون، وتجهيلا لألبابهم التي لم تدرك عظم الآية التي جاءتهم.

وفيها تحقيق لكون القرآن حقا، وتذكير بما يشتمل عليه من المنافع التي عَمُوا عنها.

{ **لَقَدْ** } ولقصد هذا الإيقاظ صدرت الجملة بما يفيد التحقيق.

{ **أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ** } جُعل الإنزال إليهم لكونهم بمنزلة من أنزل إليه نظرا إلى أنّ الإنزال كان لأجل دعوتهم. وذلك أبلغ من أن يقال: أنزلنا لكم.

{ **كِتَاباً** } التنكير للتعظيم إيماء إلى أنّه جمع خصلتين عظيمتين: كونه كتاب هدى، وكونه آية ومعجزة للرسول صلى الله عليه وسلم لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله أو مدانيه.

{ **فِيهِ ذِكْرُكُمْ** } يطلق الذكر على التذكير بما فيه الصلاح، ويطلق على السمعة والصيت كقوله تعالى { ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا } [مريم:2]. وقد أوثر هذا المصدر هنا وجعل معرّفا بالإضافة إلى ضمير المخاطبين ليكون كلاما موجّها فيصحّ قصد المعنيين معا من كلمة (الذكر) بأنّ مجيء القرآن مشتملًا على أعظم الهدى، هو تذكيرٌ لهم بما به نهاية إصلاحهم، ومجيئه بلغتهم وفي قومهم وبواسطة واحد منهم سمعةٌ عظيمة لهم كما قال { بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ } [الشعراء:195]، وقال تعالى { كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ } [البقرة:151].

وقد فسّر السلف هذه الآية بالمعنيين. وفي تفسير الطبري هنا قال جماعة: أي: فيه شرفكم.

{ **أَفَلَا تَعْقِلُونْ** } الاستفهام الإنكاري لنفي عقلهم، وهو متّجه على كلا المعنيين؛ فإنّ من جاءه ما به هديه

فلم يهتد يُنكر عليه سوء عقله، ومن جاءه ما به مجده وسمعته فلم يعبأ به يُنكر عليه سوء قدره للأمور حق قدرها.

{ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ [11] فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ [12] لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ [13] قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ [14] }.

تعريض بالتهديد. ومناسبة موقعها أنّه بعد أن أخبر أنّه صَدَق رَسُله وعده، وهو خبر يفيد ابتداءً التنويه بشأن الرّسل ونصرهم، وبشأن الذين آمنوا بهم. وفيه تعريض بنصر محمد صلى الله عليه وسلم وذكر إهلاك المكذّبين له تبعا لذلك، فأعقب ذلك بذكر إهلاك أمم كثيرة من الظالمين ووصف ما حلّ بهم، ليكون ذلك مقصودًا بذاته ابتداء اهتماما به ليقرع أسماعهم، فهو تعريض بإنذار المشركين بالانقراض بقاعدة قياس المساواة، وأنّ الله ينشئ بعدهم أمّة مؤمنة كقوله تعالى { إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ } [إبراهيم:19].

{ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً }، **{ كَمْ }** اسم له حقّ صدر الكلام لأنّ أصله اسم استفهام عن العدد، وشاع استعماله للإخبار عن كثرة الشيء على وجه المجاز، لأنّ الشيء الكثير من شأنه أن يُستفهم عنه.

القصم: الكسر الشديد الذي لا يرجى بعده التئام ولا انتفاع. واستعير للاستئصال والإهلاك القويّ إيماءً إلى أن هذه الكثرة تستلزم عدم تخلّف إهلاك هذه القرى، وبضميمة وصف تلك الأمم بالظلم (الشرك) إيماء إلى سبب الإهلاك، فحصل منه ومن اسم الكثرة معنى العموم، فيعلم المشركون بأن ذلك حال بهم لا محالة.

فما روي عن ابن عباس: أنّ المراد بالقرية حَضوراء (بفتح الحاء) مدينة باليمن قتلوا نبيّا اسمه (شعيب بن ذي مهدم) في زمن أرمياء نبي بني إسرائيل فسلط الله عليهم بختنصر فأفناهم. فإنّما أراد أنّ هذه القرية ممّن شملتهم هذه الآية.

{ قَرْيةٍ } المراد أهلها، كما يدل عليه قوله تعالى { وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ }.

{ وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ } معترضة بين { وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ } وجملة { فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا }، التي هي تفريع على جملة { وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ }.

{ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا }.

الإحساس: الإدراك بالحسّ، فيكون برؤية ما يزعجهم أو سماع أصوات مؤذنة بالهلاك كالصواعق والرياح.

البأس: شدّة الألم والعذاب.

{ **إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ** } أي: خارجين منها، ويجوز أن يكون (من) للتعليل بتأويل { يَرْكُضُونَ } معنى (يهربون)، أي: من بأسنا الذي أحسّوه في القرية.

{ **إِذَا** } للدلالة على أنّهم ابتدروا الهروب من شدّة الإحساس بالبأس، تصويرا لشدة الفزع.

الركض: سرعة سير الفرس، وأصله الضرب بالرجل فيُسمّى به العدو، لأنّ العدو يقتضي قوة الضرب بالرجل، وأطلق الركض في هذه الآية على سرعة سير النّاس على وجه الاستعارة.

{ **لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ** } معترضة وهي خطاب للراكضين بتخيّل كونهم كالحاضرين المشاهَدين في وقت حكاية قصتهم، ترشيحا لما اقتضى اجتلاب حرف المفاجأة. وهي معترضة بين جملة { فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا }، وبين جملة { قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ }.

ويجوز جعل الجملة مقول قول محذوف خوطبوا به حينئذ. وهذا ما فسّر به المفسّرون، ويُبعده استبعاد أن يكون ذلك واقعا عند كلّ عذاب أصيبت به كل قرية. وأيّا ما كان فالكلام تهكّم بهم.

الإتراف: إعطاء الترف، وهو النعيم ورفه العيش، أي: ارجعوا إلى ما أُعطيتم من الرفاهية وإلى مساكنكم.

{ **لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ** } من جملة التهكّم. وذكر المفسّرون في معناها احتمالات ستة. أظهرها: ارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعيم لتروا ما آل إليه فلعلّكم يسألكم سائل عن حال ما أصابكم فتعلموا كيف تجيبون، تكملة للتهكّم.

{ **قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ** } إن جعلتَ جملة { لا تَرْكُضُوا } معترضة على ما قررته آنفا تكون هذه مستأنفة استئنافا بيانيا، يقرّون بظلمهم وينشئون التلهّف والتندّم بقولهم.

وإن جعلتَ جملة { لَا تَرْكُضُوا } مقول قول محذوف على ما ذهب إليه المفسرون كانت الجملة جوابا، أي: قالوا: قد عرفنا ذنبنا وحقّ التهكّم بنا.

{ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حتّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ } [15].

{ **تِلْكَ** } إشارة إلى القول المستفاد من قوله تعالى { قَالَوا يَا وَيْلَنَا }، وتأنيثه من الإخبار عنه بدعواهم، أي: ما زالوا يكرّرون تلك الكلمة يدعون بها على أنفسهم.

وهذا الوجّه يُرجّح التفسير الأوّل لمعنى قوله تعالى { لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ } لأن شأن الأقوال التي يقولها الخائف أن يكرّرها.

والمعنى: فما زالوا يكرّرون مقالتهم تلك حتّى هلكوا عن آخرهم.

الحصيد: فعيل بمعنى مفعول، أي: المحصود. والحصد: جزّ الزرع والنبات بالمنجل لا باليد. وقد شاع إطلاق الحصيد على الزرع المحصود بمنزلة الاسم الجامد.

الخامد: اسم فاعل من خمدت النار تخمُد إذا زال لهيبها.

{ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ [16] لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ [17] } .

كثر في القرآن الاستدلال بإتقان نظام خلق السماوات والأرض وما بينهما على أنّ لله حكمة في خلق المخلوقات وخلق نظمها وسننها وفطرها، بحيث تكون أحوالها وآثارها وعلاقة بعضها ببعض متناسبة مجارية لما تقتضيه الحكمة، قال تعالى { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ } [الحجر:85]. وقد بيّنا هنالك كيفيّة ملابسة الحقّ لكلّ أصناف المخلوقات وأنواعها بما يغني عن إعادته هنا.

وكُثر أن ينبّه القرآن العقول إلى الحكمة التي اقتضت المنسبة بين خلق ما في السماوات والأرض ملتبسا بالحقّ، وبين جزاء المكلّفين على أعمالهم، على القانون الذي أقامته الشرائع لهم في مختلف أجيالهم وعصورهم وبلدانهم، إلى أن عمّتهم الشريعة العامة الخاتمة، شريعة الإسلام، والى الحكمة التي اقتضت تكوين حياة أبدية تلقى فيها النفوس جزاء ما قدّمته في هذه الحياة الزائلة جزاء وفاقا.

فلذلك كثر أن تُعقَّب الآيات المبيّنة لما في الخلق من الحقّ بالآيات التي تذكر الجزاء والحساب، والعكس، كقوله تعالى { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ } [المؤمنين:115]، وقوله تعالى { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ } [الحجر:85]، وقوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ } [ص:26-28]، وقوله تعالى { أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ } [الدخان:37-40]، وقوله تعالى { مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمّىً وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ } [الأحقاف:3].

فكذلك هذه الآية عُقّب بها ذكر القوم المهلَكين، والمقصود من ذلك إيقاظ العقول إلى الاستدلال بما في خلق السماوات والأرض وما بينهما من دقائق المناسبات، وإعطاء كلّ مخلوق ما به قوامه، فإذا كانت تلك سنّة الله في خلق العوالم ظرفها ومظروفها، استُدل بذلك على أنّ تلك السنّة لا تختلف في رتب المسبّبات على أسبابها فيما يأتيه جنس المكلَّفين من الأعمال، فإذا ما لاح لهم تخلّف سبب عن سببه أيقنوا أنّه تخلّف مؤقّت فإذا علّمهم الله على لسان شرائعه بأنّه ادّخر الجزاء الكامل على الأعمال إلى يوم آخر آمنوا به، وإذا علّمهم أنّهم لا يفوتون ذلك بالموت، بل إنّ لهم حياة آخرة، وأنّ الله باعثهم بعد الموت، أيقنوا بها، وإذا علّمهم أنّه ربّما عجّل لهم بعض الجزاء في الحياة الدنيا أيقنوا به.

ولأجل هذا اطَّرد أو كاد أن يطَّرد ذكر لفظ { **وَمَا بَيْنَهُمَا** } بعد ذكر خلق السماوات والأرض في مثل هذا

المقام، لأنّ تخصيص (ما بينهما) بالذكر يدلّ على الاهتمام به، لأنّ أشرفه نوع الإنسان المقصود بالعبرة والاستدلال، وهو مناط التكليف.

{ **لَاعِبِينَ** } اللعب: العمل أو القول الذي لا يقصد به تحصيل فائدة من مصلحة أو دفع مفسدة، وإنّما يقصد به إرضاء النفس حين تميل إلى العبث كما قيل: لابد للعاقل من حمقة يعيش بها. ويرادفه العبث واللهو، وضدّه الجدّ. واللعب من الباطل إذ ليس في عمله حكمة، فضدّه الحقّ أيضا.

{ **لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا** } مقرّرة لمعنى جملة { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ }، تقريرا بالاستدلال على مضمون الجملة، وتعليلا لنفي أن يكون خلق السماوات والأرض لعبا. بأنّ اللعب ليس من شأننا، أو على الفرض والتنازل لو أردنا اللهو لكان ما يلهو به حاصلا في أشرف الأماكن من السماوات، فإنّها أشدّ اختصاصا بالله تعالى إذ جعل سكّانها عبادا له مخلصين.

{ **إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ** } إن جعلتَ (إن) شرطية فارتباطها بالتي قبلها ارتباط الشرط بجزائه، فيكون تكريرا للتلازم. وإن جعلتها حرف نفي كانت الجملة مستأنفة لتقرير الامتناع ، أي: ما كنا فاعلين لهوا.

{ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ } [18].

{ **بَلْ** } للإضراب عن اتخاذ اللهو وعن أن يكون الخلق لعبا، إضراب إبطال وارتقاء، أي: بل نحن نعمد إلى باطلكم فنقذف بالحقّ عليه.

القذف: حقيقته رمي جسم على جسم. واستعير هنا لإيراد ما يزيل ويبطل الشيء من دليل أو زجر أو إعدام، أو تكوين ما يغلب، لأنّ ذلك مثل رمي الجسم المبطَل بشيء يأتي عليه ليتلفه أو يشتّته. فالله يبطل الباطل بالحق بأن يبيّن للنّاس بطلان الباطل على لسان رسله، وبأن أوجد في عقولهم إدراكا للتمييز بين الصلاح والفساد، وبأن يُسلّط بعض عباده على المبطلين لاستئصالهم، وبأن يخلق مخلوقات يُسخّرها لإبطال الباطل، قال تعالى { إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ } [الأنفال:12].

الدمغ: كسر الجسم الصُّلب الأجوف، وهو هنا ترشيح لاستعارة القذف لإيراد ما يبطل، وهو استعارة أيضا حيث استعير الدمغ لمحق الباطل وإزالته، فالاستعارتان من استعارة المحسوسين للمعقولين.

{ **فَإِذَا** } دل حرف المفاجأة على سرعة محق الحق الباطلَ عند وروده.

الزاهق: المنفلت من موضعه والهالك، وفعله كسمع وضرب، والمصدر الزهوق. وتقدّم في قوله تعالى { وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ } [التوبة:85/55]، وقوله تعالى { إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً } [الإسراء:81].

{ **وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ** } عندما انتهت مقارعتهم بالحجج الساطعة لإبطال قولهم في الرسول وفي القرآن خُتم الكلام بشتمهم وتهديدهم.

الويل: كلمة دعاء بسوء. وفيها في القران توجيه لأنّ الويل اسم للعذاب.

{ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ [19] يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ [20] }.

عطف على جملة { لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا }، مبيّنة أنّ كلّ من في السماوات والأرض عباد الله تعالى مخلوقون لقبول تكليفه والقيام بما خلقوا لأجله، وهو تخلّص إلى إبطال الشرك بالحجّة الدامغة بعد الإفاضة في إثبات صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وحجيّة القران.

{ **وَلَهُ** } اللام للملك، والمجرور باللام خبر مقدم و{ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ } مبتدأ، والتقديم للاختصاص، أي: له من في السماوات والأرض لا لغيره، وهو قصر إفراد ردّا على المشركين الذين جعلوا لله شركاء في الإلهية.

{ **مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } يعمّ العقلاء وغيرهم، وغُلّب العقلاء لأنّهم المقصود الأوّل.

{ **وَمَنْ عِنْدَهُ** } هم المقرّبون في العوالم المفضّلة وهم الملائكة. يجوز أن يكون معطوفا على { مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } فيكون من عطف الخاص على العام للاهتمام به.

ويجوز أن يكون مبتدأ وجملة { لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ } خبرا.

{ **لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ** } على كلا الوجهين يكون المقصود منها التعريض بالذين يستكبرون عن عبادة الله ويعبدون الأصنام، وهم المشركون.

الاستحسار: مصدر كالحُسور وهو التعب، فـ (السين والتاء) فيه للمبالغة في الوصف كالاستكبار، أي: لا يصدر منهم التعب الشديد الذي يقتضيه عملهم العظيم. ونفيه من قبيل نفي المقيّد بقيد خرج مخرج الغالب في أمثاله. فلا يفهم من نفي الحسور القوي أنّهم قد يحسرون حسورا ضعيفا.

وهذا المعنى قد يُعبّر عنه أهل المعاني بأنّ المبالغة في النفي لا في المنفي.

{ **يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ** } بيان، لأنّ من لا يتعب من عمل لا يتركه فهو يواظب عليه.

الليل والنهار: ظرفان. والأصل في الظرف أن يستوعبه الواقع فيه، أي: يسبحون في جميع الأوقات.

الفتور: الانقطاع عن الفعل.

{ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ } [21].

{ **أَمِ** } هذه منقطعة عاطفة الجملة على الجملة عطف إضراب انتقالي، هو انتقال من إثبات صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وحجّيّة دلالة القرآن إلى إبطال الإشراك. وهذا الانتقال وقع اعتراضا بين جملة { يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ } وجملة { لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ }.

وهي تؤذن بأنّ الكلام بعدها مسوق للاستفهام وهو استفهام إنكاري، أنكر عليهم اتخاذهم آلهة.
{ اتَّخَذُوا } الضمير عائد إلى المشركين المتبادرين من المقام في مثل هذه الضمائر. وله نظائر كثيرة في القرآن. ويجوز جعله التفاتا عن ضمير { وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ }.
{ آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ } وصف الآلهة بأنّها من الأرض تهكّم بالمشركين، وإظهار لأفن رأيهم، أي: جعلوا لأنفسهم آلهة من عالم الأرض أو مأخوذة من أجزاء الأرض؛ من حجارة أو خشب، تعريضا بأنّ ما كان مثل ذلك لا يستحقّ أن يكون معبودا، كما قال إبراهيم عليه السلام { أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ } [الصافات:95].
{ هُمْ يَنْشُرُونْ } صفة ثانية لـ { آلِهَةً } واقترانها بضمير الفصل يفيد التخصيص أن لا ينشر غير تلك الآلهة.
والمراد: إنشار الأموات، أي: بعثُهم. وهذا مسوق للتهكّم وإدماج لإثبات البعث بطريقة سَوق المعلوم مَساقَ غيره، المُسمَّى بتجاهل المعارف، إذ أبرز تكذيبهم بالبعث الذي أخبرهم الله على لسان محمد صلى الله عليه وسلم في صورة تكذيبهم استطاعة الله ذلك وعجزه عنه، أي: أنّ الأولى بالقدرة على البعث شركاؤهم، فكأنّ وقوع البعث أمر لا ينبغي النزاع فيه فإن نازع فيه المنازعون فإنّما ينازعون في نسبته إلى الله، ويرومون بذلك نسبته إلى شركائهم فأنكرت عليهم هذه النسبة على هذه الطريقة المفعمة بالنكت، والمشركون لم يدَّعوا لآلهتهم أنّها تبعث الموتى ولا هم معترفون بوقوع البعث ولكن نُزّلوا منزلة من يزعم ذلك إبداعا في الإلزام. ونظيره قوله تعالى في ذكر الآلهة { أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ } [النحل:21].

{ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ } [22].
جملة مبيّنة للإنكار الذي في قوله تعالى { أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً } ولذلك فصلت ولم تعطف.
وضمير المثنّى عائد إلى { السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }، أي: لو كان في السماوات والأرض آلهة أخرى ولم يكن جميع من فيها ملكا لله وعبادا له لفسدت السماوات والأرض واختل نظامها الذي خلقتا به.
وهذا استدلال على بطلان عقيدة المشركين إذ زعموا أنّ الله جعل آلهة شركاء له في تدبير الخلق، أي: أنّه بعد أن خلق السماوات والأرض أقام في الأرض شركاء له، ولذلك كانوا يقولون في التلبية في الحجّ (لبيك لا شريك لك إلّا شريكا هو لك تملكه وما ملك) وذلك من الضلال المضطرب الذي وضعه لهم أئمة الكفر بجهلهم وترويج ضلالهم على عقول الدهماء.
وبذلك يتبيّن أن هذه الآية استدلال على استحالة وجود آلهة غير الله بعد خلق السماوات والأرض، لأنّ المشركين لم يكونوا ينكرون أنّ الله خالق السماوات والأرض، قال تعالى { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ } [الزمر:38]، وقال تعالى { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ

لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ } [الزخرف:9]. فهي مسوقة لإثبات الوحدانية لا لإثبات وجود الصانع إذ لا نزاع فيه عند المخاطبين، ولا لإثبات انفراده بالخلق إذ لا نزاع فيه كذلك، ولكنّها منتظمة على ما يناسب اعتقادهم الباطل لكشف خطئهم وإعلان باطلهم.

الفساد: هو اختلال النظام وانتفاء النفع من الأشياء. ففساد السماء والأرض هو أن تصيرا غير صالحتين ولا منتسقتي النظام بأن يبطل الانتفاع بما فيها. فمن صلاح السماء نظام كواكبها، وانضباط مواقيت طلوعها وغروبها، ونظام النور والظلمة. ومن صلاح الأرض مهدها للسير، وإنباتها الشجر والزرع، واشتمالها على المرعى والحجارة والمعادن والأخشاب، وفساد كل من ذلك ببطلان نظامه الصالح.

ووجه انتظام هذا الاستدلال أنّه لو تعدّدت الآلهة للزم أن يكون كل إله متصفا بصفات الإلهية المعروفة آثارها، وهي الإرادة المطلقة والقدرة التامة على التصرّف، ثم إنّ التعدّد يقتضي اختلاف متعلّقات الإرادات والقدر، لأنّ الآلهة لو استوت في تعلُّقات إرادتها ذلك لكان تعدّد الآلهة عبثًا للاستغناء بواحد منهم، ولأنّه إذا حصل كائن فإنّ كان حدوثه بإرادة متعدّدين لزم اجتماع مؤثرين على مؤثر واحد، وهو محال لاستحالة اجتماع علتين تامتين على معلول واحد، فلا جرم أنّ تعدد الآلهة يستلزم اختلاف متعلّقات تصرّفاتها اختلافا بالأنواع، أو بالأحوال، أو بالبقاع، فالإله الذي لا تَنْفُذ إرادته في بعض الموجودات ليس بإله بالنسبة إلى تلك الموجودات التي أوجدها غيره.

فثبت أنّ التعدّد يستلزم اختلاف الإرادات وحدوث الخلاف. فلا جرم دلّت مشاهدة دوام السماوات والأرض على انتظامها في متعدّد العصور والأحوال على أنّ إلهها واحد غير متعدد.

{ **فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ** } فُرّع على ذلك الاستدلال إنشاء تنزيه الله تعالى عن المقالة التي أبطلها الدليل، أي: عمّا يصفونه به من وجود الشريك.

وإظهار اسم الجلالة في مقام الإضمار لتربية المهابة. ووصفه هنا بـ { رَبِّ الْعَرْشِ } للتذكير بأنّه انفرد بخلق السماوات وهو شيء لا ينازعون فيه، بل هو خالق أعظم السماوات وحاويها وهو العرش تعريضا بهم بإلزامهم لازم قولهم بانفراده بالخلق أن يلزم انتفاء الشركاء له فيما دون ذلك.

{ **لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ** } [23].

الأظهر أن هذه الجملة حال مكمِّلة لمدلول قوله تعالى { لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ } [20/19]، كما تقدّم عند قوله تعالى { أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ } [21].

فالمعنى: أنّ من عنده، وهم المقرّبون من المخلوقات، هم مع قربهم يُسألون عمّا يفعلون ولا يسألونه عمّا يفعل، أي: لم يبلغ بهم قربهم إلى حدّ الإدلال عليه وانتصابهم لتعقّب أفعاله.

فلمّا كان الضمير المرفوع بالنيابة عن الفاعل مشعرا بفاعل حذف لقصد التعميم، أي: لا يسأل سائل الله تعالى عما يفعل. وكان ممّن يشملهم الفاعل المحذوف هم مَن عنده من المقربين، صحّ كون هذه الجملة حالا من { وَمَنْ عِنْدَهُ } [19]، على أنّ جملة { لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ } تمهيد لجملة { وَهُمْ يُسْأَلُونَ }.

وبهذا تعلم أن ليس ضمير { وَهُمْ يُسْأَلُونَ } براجع إلى ما رجع إليه ضمير { يَصِفُونَ } لأنّ أولئك لا جدوى للإخبار بأنّهم يُسألون إذ لا يتردّد في العلم بذلك أحد، ولا براجع إلى { آلِهَةً مِنَ الأَرْضِ } لعدم صحّة سؤالهم، وذلك هو ما دعانا إلى اعتبار جملة { لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ } حالا من { مَنْ عِنْدِهِ }.

السؤال: هنا بمعنى المحاسبة، وطلب بيان سبب الفعل، وإبداء المعذرة عن فعل بعض ما يُفعل، وتخلّص من ملام أو عتاب على ما يُفعل.

فكونهم يُسألون كناية عن العبودية، لأنّ العبد بمظنّة المؤاخذة على ما يفعل وما لا يَفعل، وبمظنّة التعرُّض للخطأ في بعض ما يَفعل. وفي هذا إبطال لإلهيّة المقربين التي زعمها المشركون الذين عبدوا الملائكة وزعموهم بنات الله تعالى، بطريقة انتفاء خاصية الإله الحقّ عنهم إذ هم يُسألون عمّا يفعلون.

وفي جملة { لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ } كناية عن جريان أفعال الله تعالى على مقتضى الحكمة بحيث إنّها لا مجال فيها لانتقاد منتقد، إذا أتقن الناظر التدبّر فيها أو كُشف له عمّا خفي منها.

{ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ } [24].

تأكيد لجملة { أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الأَرْضِ }، أُكِّد ذلك الإضراب الانتقالي بمثله استعظاما لفظاعته وليُبنى عليه استدلالٌ آخر كما بُني على نظيره السابق، فإنّ الأوّل بُني عليه دليل استحالة من طريق العقل، وهذا بُني عليه دليل بطلان بشهادة الشرائع؛ سابقها ولاحقها.

{ **قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ** } لقّن الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول ذلك، أي: هاتوا دليلا على أنّ لله شركاء من شواهد الشرائع والرُّسل.

البرهان: الحجّة الواضحة. وتقدّم في قوله تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ } [النساء:174].

{ **هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِي** } الإشارة إلى مقدّر في الذهن يفسّره الخبر. والمقصود من الإشارة تمييزه وإعلانه بحيث لا يستطيع المخاطب المغالطة فيه ولا في مضمونه، أي: أنّ كتب الذكر (الكتب الدينية) في متناول النّاس فانظروا هل تجدون في أحد منها أنّ لله شركاء وأنّ الله أذن باتخاذهم آلهة.

{ **مَن مَعِي** } معيّة المتابعة، أي: من معي من المسلمين، أي: الذكر المنزّل لأجلكم. أي: القرآن.

{ **وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي** } ذكر الأمم الذين هم قبلي، يشمل جميع الكتب السالفة المعروفة: التوراة والزبور والإنجيل وكتاب لقمان.

{ **بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ** } أضرب عن الاستدلال بأنّه استدلال مضيَّع فيهم، أي: لا ترجُ منهم اعترافا ببطلان شركهم من دليل العقل المتقدّم، ولا من دليل شهادة الشرائع المذكور ثانيا، فإنّ أكثرهم لا يعلمون الحقّ ولا يكتسبون علمه. أي: أنّهم لا يتطلّبون علمه كما دلت عليه قرينة التفريع عليه بقوله تعالى { فَهُمْ مُعْرِضُونَ }، أي: معرضون عن النظر في الأدلة التي تدعوهم أنت إلى معرفتها والنظر فيها.

{ **بَلْ أَكْثَرُهُمْ** } أسند هذا الحكم إلى أكثرهم لا لجميعهم تسجيلا عليهم بأنّ قليلا منهم يعلمون الحقّ ويجحدونه، أو إيماء إلى أنّ قليلا منهم تهيأت نفوسهم لقبول الحقّ. وتلك هي الحالة التي تعرض للنفس عند هبوب نسمات التوفيق عليها، مثل ما عرض لعمر بن الخطاب حين وجد اللوح عند أخته مكتوبا فيه سورة طه فأقبل على قراءته بشراشِره فما أتمّهما حتّى عزم على الإسلام.

{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ } [25].

لمّا أظهر لرسوله أنّ المعاندين لا يعلمون الحقّ لإعراضهم عن تلقّيه أقبل على رسوله صلى الله عليه وسلم بتأييد مقاله الذي لقّنه أن يجيبهم به وهو قوله تعالى { قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي }، فأفاده تعميمه في شرائع سائر الرُّسل سواء من أنزل عليه كتاب ومن لم ينزل عليه كتاب، وسواء من كان كتابه باقيا مثل موسى وعيسى وداود ومن لم يبق كتابه مثل إبراهيم.

وفيها إظهار لعناية الله تعالى بإزالة الشرك من نفوس البشر وقطع دابره إصلاحا لعقولهم بأن يُزال منها أفظع خطل وأسخف رأي.

{ **لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ** } فُرّع على الإعلان بأنّه لا إله غيره أمرُه إيّاهم بعبادته.

قرأ الجمهور { إلّا يُوحَى إِلَيْهِ } بمثناة تحتية مبنيا للنائب، وقرأه حفص وحمزة والكسائي بالنون مبنيا للفاعل.

{ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ [26] لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ [27] يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ [28] وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ [29]}

لمّا فُرغ من بيان باطلهم فيما اتخذوا من دون الله آلهة انتُقل إلى بيان باطل آخر وهو اعتقادهم أنّ الله اتخذ ولدا. وقد كانت خُزاعة من سكّان ضواحي مكّة يزعمون أنّ الملائكة بنات الله من سَرَوات الجنّ، وشاركهم في هذا الزعم بعض من قريش وغيرهم من العرب. وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ

الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ } [النحل:57].

الولد: اسم جمع، مفرده مثله، أي: اتخذ أولادا، والولد يشمل الذكر والأنثى، والذين قالوا اتخذ الله ولدا أرادوا أنّه اتخذ بنات، كما تقدّم في [النحل:57].

{ **سُبْحَانَهُ** } لمّا كان اتخاذ الولد نقصا في جانب واجب الوجود أعقب مقالتهم بكلمة التنزيه، فإنّ اتخاذ الولد إنّما ينشأ عن الافتقار كما قال تعالى { قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ } [يونس:68].

{ **بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ** } لمّا كان المراد من قولهم أنّهم زعموا الملائكة بنات الله تعالى أعقب حرف الإضراب عن قولهم بالإخبار بأنّهم عباد دون ذكر المبتدأ للعلم به. والتقدير: بل الملائكة عباد مكرمون، أي: أكرمهم الله برضاه عنهم وجعلهم من عباده المقرّبين وفضّلهم على كثير من خلقه الصالحين.

{ **لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ** }.

السبق: حقيقته التقدّم في السير على سائر آخر. وقد شاع إطلاقه مجازا على التقدّم في كل عمل. ومنه السبق في القول، أي: التكلّم قبل الغير كما في هذه الآية. ونفيه هنا كناية عن عدم المساواة، أي: كناية عن التعظيم والتوقير. ونظيره النهي عن التقدّم في قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ } [الحجرات:1]، فإنّ التقدّم في معنى السبق.

وهذا عام يدخل فيه الردّ على زعم المشركين أنّ معبوداتهم تشفع لهم عند الله.

{ **بِأَمْرِهِ** } تقديمه لإفادة القصر، أي: لا يعملون عملا إلّا عن أمر الله تعالى، فكما أنّهم لا يقولون قولا لم يأذن فيه كذلك لا يعملون عملا إلّا بأمره.

{ **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ** } تقدم نظيره في [البقرة:255].

{ **وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى** } تخصيص بالذكر ليعمّ ما شمله قوله تعالى { لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ } اهتماما بشأنه لأنّه ممّا كفروا بسببه إذ جعلوا الآلهة شفعاء لهم عند الله. أي: ارتضى الشفاعة له بأن يأذن للملائكة أن يشفعوا له إظهارا لكرامتهم عند الله، أو استجابة لاستغفارهم لمن في الأرض، كما في قوله تعالى { وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ } [الشورى:5].

{ **وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ** } ثمّ زاد تعظيمهم ربَّهم تقريرا، أي: هم يعظّمونه تعظيم من يخاف بطشته ويحذر مخالفة أمره. و{ مِنْ } هنا للتعليل، أي: وهم لأجل خشيته.

الإشفاق: توقّع المكروه والحذر منه.

{ **وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ** } الشرط على سبيل الفرض، أي: لو قاله واحد منهم، مع العلم بأنّهم لا يقولونه لأجل ما تقرّر من شدة خشيتهم. فالمقصود من هذا الشرط التعريض بالذين ادّعوا لهم الإلهية بأنّهم ادعوا لهم ما لا يرضونه ولا يقولونه، وأنّهم ادعوا ما يوجب لقائله نار جهنّم.

{ **كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ** } صُرّح بما اقتضاه التعريض، أي: مثل ذلك الجزاء، وهو جهنم، يجزي المثبتين لله شريكا.

الظلم: الشرك.

{ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ } [30].

{ **أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا** } قرأ الجمهور { أَوَلَمْ } بواو بعد الهمزة وهي واو العطف، فالجملة معطوفة عطف الاستدلال على الخلق الثاني بالخلق الأوّل وما فيه من العجائب. وقرأ ابن كثير { أَلَمْ يَرَ } بدون واو عطف. والاستفهام على كلتا القراءتين إنكاري، توجّه الإنكار على إهمالهم للنظر.

الرؤية: تحتمل أن تكون بصرية وأن تكون علمية. والاستفهام صالح لأن يتوجّه إلى كلتيهما.

الرتق: الاتصال والتلاصق بين أجزاء الشيء.

الفتق: ضدّه، وهو الانفصال والتباعد بين الأجزاء.

{ **كَانَتَا** } يحتمل أن تكونا معا رتقا واحدا بأن تكون السماوات والأرض جسما ملتئما متصلا. ويحتمل أن تكون كل سماء رتقا على حدتها، والأرض رتقا على حدتها، وكذلك الاحتمال في قوله تعالى {فَفَتَقْنَاهُمَا}.

فإن اعتبرنا الرؤية بصرية فالرتق المشاهد هو ما يشاهده الرائي من عدم تخلل شيء بين أجزاء السماوات وبين أجزاء الأرض، والفتق هو ما يشاهده الرائي من ضد ذلك حين يرى المطر نازلا من السماء، وحين يرى انشقاق الأرض بماء المطر وانبثاق النبات والشجر منها بعد جفافها، وكل ذلك مشاهد مرئي دال على تصرّف الخالق، وفي هذا المعنى جمع بين العبرة والمنّة.

وإن اعتبرنا الرؤية علمية احتمل أن يراد بالرتق مثل ما أريد به على اعتبار كون الرؤية بصرية، وكان الاستفهام أيضا إنكاريا متوجّها إلى إهمالهم التدبّر في المشاهدات. واحتمل أن يراد بالرتق معانٍ غيرُ مشاهدة ولكنّها مما ينبغي طلب العلم به، لما فيه من الدلائل على عظم القدرة وعلى الوحدانية، فيحتمل أن يراد بالرتق والفتق حقيقتاهما، أي: الاتصال والانفصال.

ويجوز أن يكون على معنى الجملة، أي: كانت السماوات والأرض رتقا واحدا، أي: كانتا كتلة واحدة ثم انفصلت السماوات عن الأرض كما أشار إليه قوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ } [هود:7].

ويجوز على هذا الاحتمال أن يكون الرتق والفتق على التوزيع، أي: كانت السماوات رتقا في حدّ ذاتها وكانت الأرض رتقا في حدّ ذاتها ثم فتق الله السماوات وفتق الأرض، وهذا كقوله تعالى { قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ

فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } [فصلت:9-12].

وعلى هذين الاحتمالين يكون الاستفهام تقريريا عن إعراضهم عن استماع الآيات التي وصفت بدء الخلق ومشوبا بالإنكار على ذلك.

ويحتمل أن يراد بالرتق العدم وبالفتق الإيجاد.

والظاهر أنّ الآية تشمل جميع ما يتحقّق فيه معاني الرتق والفتق، إذ لا مانع من اعتبار معنى عام يجمعها جميعا، فتكون الآية قد اشتملت على عبرة تعمّ كلّ النّاس، وعلى عبرة خاصة بأهل النظر والعلم، فتكون من معجزات القرآن العلمية التي أشرنا إليها في مقدمات هذا التفسير.

{ **وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ** } زيادة استدلال بما هو أظهر لرؤية الأبصار وفيه عبرة للنّاس في أكثر أحواله. وهو عبرة للمتأمّلين في دقائقه في تكوين الحيوان من الرطوبات. وهي تكوين التناسل وتكوين جميع الحيوان، فإنّه لا يتكوّن إلّا من الرطوبة ولا يعيش إلّا ملابسا لها، فإذا انعدمت منه الرطوبة فقد الحياة، ولذلك كان استمرار الحُمّى مفضيا إلى الهزال ثم إلى الموت.

{ **وَجَعَلْنَا** } هنا بمعنى خلقنا، متعدّية إلى مفعول واحد لأنّها غير مراد منها التحوّل من حال إلى حال.

{ **أَفَلَا يُؤمِنُونْ** } أنكر عليهم عدم إيمانهم الإيمان الذي دعاهم إليه محمد صلى الله عليه وسلم وهو الإيمان بوحدانية الله.

{ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ } [31].

هذا من آثار فتق الأرض في حدّ ذاتها إذ أخرج الله منها الجبال وذلك فتق تكوين، وجعل فيها الطرق، أي: الأرضين السهلة التي يتمكّن الإنسان من المشي فيها عكس الجبال.

الرواسي: الجبال، لأنّها رست في الأرض، أي: رسخت فيها.

المَيْد: الاضطراب. وتقدّم في [النحل:15]. وفيها أن معنى { أَنْ تَمِيدَ } أن لا تميد، أو لكراهة أن تميد.

الفجاج: جمع فجّ، وهو الطريق الواسع.

السبل: جمع سبيل، وهو الطريق مطلقا.

والمقصود إتمام المنّة بتسخير سطح الأرض ليسلكوا منها طرقا واسعة ولو شاء لجعل مسالك ضيقة بين الجبال كأنّها الأدوية.

{ **لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ** } مستأنفة إنشاء رجاء اهتداء المشركين إلى وحدانية الله، فإنّ هذه الدلائل مشاهدة لهم واضحة الدلالة. ويجوز أن يراد بالاهتداء في السير، أي :جعلنا سبلا واضحة غير محجوبة بالضيق إرادة اهتدائهم في سيرهم، فتكون هذه منّة أخرى وهو تدبير الله الأشياء على نحو ما يلائم الإنسان

ويصلح أحواله.

{ **وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ** } [32].

لمّا ذُكر الاعتبار بخلق الأرض وما فيها ناسب بحكم الطباق ذِكر خلق السماء عقبه، إلّا أنّ حالة خلق الأرض فيها منافع للنّاس بيّنة، فعُقّب ذكرها بالامتنان بقوله { أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ } وبقوله { لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ }. وأمّا حال خلق السماء فلا تظهر فيه منفعة فلم يُذكر بعده امتنان، ولكنّه ذُكر إعراضهم عن التدبّر في آيات خلق السماء الدالة على الحكمة البالغة فعُقّب بقوله تعالى { وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ }، والمنّة مدمجة، وهي حفظ السماء من أن تقع بعض الأجرام الكائنة فيها أو بعض أجزائها على الأرض فتُهلك الناس أو تفسد الأرض فتعطّل منافعها.

السقف: حقيقته غطاء فضاء البيت الموضوع على جدرانه، ولا يقال على غطاء الخباء والخيمة، وأطلق السقف على السماء على طريقة التشبيه البليغ، أي: جعلناها كالسقف، لأنّ السماء ليست موضوعة على عمد من الأرض، قال تعالى { اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا } [الرعد:2].

{ **وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ** } في موضع الحال. وآيات السماء ما تشتمل عليه السماء من الشمس والقمر والكواكب والشهب وسيرها وشروقها وغروبها وظهورها وغيبتها، وابتناء ذلك على حساب قويم وترتيب عجيب، وكلّها دلائل على الحكمة البالغة فلذلك سمّاها آيات.

{ **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** } [33].

ولكون المنّة والعبرة في أيجاد نفس الليل والنهار، ونفس الشمس والقمر، لا في إيجادها على حالة خاصة، جيء هنا بفعل الخلق لا بفعل الجعل.

والليل ظلمة ترجع لجرم الأرض عند انصراف الأشعة عن الأرض. وأمّا خلق النهار فهو بخلق الشمس ومن توجه أشعتها إلى النصف المقابل للأشعة من الكرة الأرضية، ولذلك كان لذكر خلق الشمس عقب ذكر خلق النهار مناسبة قويّة، للتنبيه على منشأ خلق النهار. وأمّا ذكر خلق القمر فلمناسبة خلق الشمس، وللتذكير بمنّة إيجاد ما ينير على النّاس بعض النور في بعض أوقات الظلمة. وكل ذلك من المنن.

{ **كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** } مستأنفة استئنافا بيانيّا لأنّه لمّا ذكر الأشياء المتضادة بالحقائق أو بالأوقات ذكرا مجملا في بعضها الذي هو آيات السماء، ومفصّلا في بعض آخر وهو الشمس والقمر، كان المقام مثيرا في نفوس السامعين سؤالا عن كيفية سيرها وكيف لا يقع لها اصطدام أو يقع منها تخلّف عن الظهور في وقته المعلوم، فأجيب بأنّ كلّ المذكورات له فضاء يسير فيه لا يلاقي فضاء سير غيره.

الفلك: فسّره أهل اللغة بأنّه مدار النجوم، وكذلك فسّره المفسّرون لهذه الآية ولم يذكروا أنّه مستعمل في هذا

المعنى في كلام العرب. ويغلب على ظني أنه من مصطلحات القرآن ومنه أخذه علماء الإسلام للتعبير عن الدوائر المفترَضة التي يُضبط بها سير كوكب من الكواكب وخاصة سير الشمس وسير القمر.

والأظهر أن القرآن نقله من فلك البحر وهو الموج المستدير بتنزيل اسم الجمع منزلة المفرد.

والأصل الأصيل في ذلك كله **فَلْكَة المَغْزِل** (بفتح الفاء وسكون اللام) وهي خشبة مستديرة في أعلاها مسمار مثني يدخل فيه الغزل ويدار لينفتل الغزل.

{ **كُلٌّ فِي فَلَكٍ** } من بدائع الإعجاز في هذه الآية أنّ فيه مُحَسِّن بديعي فإنّ حروفه تقرأ من آخرها على الترتيب كما تقرأ من أولها مع خفة التركيب ووفرة الفائدة وجريانه مجرى المثل من غير تنافر ولا غرابة. ومثله قوله تعالى { وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ } بطرح واو العطف، وكلتا الآيتين بني على سبعة أحرف، وهذا النوع سماه السكاكي (المقلوب المستوي) وجعله من أصناف نوع سمّاه القلب.

{ **يَسْبَحُونَ** } الضمير عائد إلى عموم آيات السماء وخصوص الشمس والقمر. وأجري عليها ضمير جماعة الذكور باعتبار تذكير أسماء بعضها مثل القمر والكوكب. والجملة في موضع الحال.

السبح: مستعار للسير في متسع لا طرائق فيه متلاقية كطرائق الأرض، وهو تقريب لسير الكواكب في الفضاء العظيم.

{ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ } [34].

عُنيت الآيات من أوّل السورة باستقصاء مطاعن المشركين في القرآن ومن جاء به بقولهم { أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ }، وقولهم { أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ }، وكان من جملة أمانيهم لمّا أعياهم اختلاق المطاعن أن كانوا يتمنّون موت محمد صلى الله عليه وسلم أو يرجونه أو يدبّرونه، قال تعالى { أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ } [الطور:30]، وقال تعالى { وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ } [الأنفال:30].

وقد دلّ على أنّ هؤلاء هم المقصود من الآية.

{ **فَهُمُ الْخَالِدُونَ** } وُجّه إليهم استفهام الإنكار على طريقة التعريض بتنزيلهم منزلة من يزعم أنّهم خالدون.

وفي الآية إيماء إلى أنّ الذين لم يقدّر الله لهم الإسلام ممّن قالوا ذلك القول سيموتون قبل موت النبيّ صلى الله عليه وسلم فلا يشمتون به، فإنّ الرسول صلى الله عليه وسلم لم يمت حتّى أهلك الله رؤوس الذين عاندوه وهدى بقيّتهم إلى الإسلام.

{ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ } [35].

الجملة السابقة { وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ } للرد على المشركين وهذه لتعليم المؤمنين.

{ **نَفْسٍ** } النفوس الحالة في الأجساد كالإنسان والحيوان. ولا يدخل فيه الملائكة، لأنّ إطلاق النفوس عليهم غير متعارف في العربية بل هو اصطلاح الحكماء، وهو لا يطلق عندهم إلّا مقيّدا بوصف المجردات.

وأمّا إطلاق النفس على الله تعالى فمشاكلة، إمّا لفظية كما في قوله تعالى { تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ } [المائدة:116]، وإمّا تقديرية كما في قوله تعالى { وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ } [آل عمران:30].

{ **ذَائِقَةُ** } استعير الذوق لمطلق الإحساس الباطني لأنّ الذوق إحساس باللسان يقارنه ازدراد إلى الباطن. وذوق الموت ذوق آلام مقدّماته وأمّا بعد حصوله فلا إحساس للجسد.

{ **وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً** } عطف على الجملة المعترضة بمناسبة أنّ ذوق الموت يقتضي سبق الحياة، والحياة مدة يعتري فيها الخير والشر جميع الأحياء، فعلَّم الله تعالى المسلمين أنّ الموت مكتوب على كل نفس حتّى لا يحسبوا أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم مخلَّد. وقد عرض لبعض المسلمين عارض من ذلك، ومنهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد قال يوم انتقال النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى: " ليرجعن رسول الله فيقطع أيدي قوم وأرجلهم " حتّى حضر أبو بكر رضي الله عنه وثبّته الله في ذلك الهول، فكشف عن وجه النبي صلى الله عليه وسلم وقبّله وقال: طبت حيا وميتا والله لا يجمع الله عليك موتتين.

وأعقب الله ذلك بتعليمهم أنّ الحياة مشتملة على خير وشر وأنّ الدنيا دار ابتلاء.

البلوى: الاختبار. وتقدّم غير مرة. وإطلاق البلوى على ما يصدر من النّاس من تجلّد ووهن وشكر وكفر، على ما ينالهم من اللذّات والآلام ممّا بنى الله تعالى عليه نظام الحياة، إطلاق مجازي، لأنّ ابتناء النظام عليه دلّ على اختلاف أحوال النّاس في تصرّفهم فيه وتلقيهم إيّاه. أشبه اختبار المختبر ليعلم أحوال من يختبرهم.

{ **فِتْنَةً** } منصوب على المفعولية المطلقة توكيدا لفعل { نَبْلُوكُم } لأنّ الفتنة ترادف البلوى.

{ **وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ** } إثبات للبعث، فجمعت الآية الموت والحياة والنشر.

وتقديم المجرور للرعاية على الفاصلة وإفادة تقوّي الخبر. وأمّا احتمال القصر فلا يقوم هنا، إذ ليس ضدّ ذلك باعتقاد للمخاطبين كيفما افترضتهم.

{ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ } [36].

هذا وصف آخر لما يؤذي به المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يرونه، فهو أخصّ من أذاهم إيّاه في مغيبه، فإذا رأوه يقول بعضهم لبعض { أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ }.

الهُزُؤ: (بضم الهاء وضم الزاي) مصدر هزأ به، إذا جعله للعبث والتفكّه. ومعنى اتّخاذه هزوا أنّهم

يجعلونه مستهزأ به، فهذا من الإخبار بالمصدر للمبالغة، أو هو مصدر بمعنى المفعول كالخلق بمعنى المخلوق.

{ **أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ** } مبيّنة لجملة { إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً } فهي في معنى قول محذوف دلّ عليه قوله تعالى { إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً } لأنّ الاستهزاء يكون بالكلام.

والاستفهام مستعمل في التعجيب، واسم الإشارة مستعمل في التحقير بقرينة الاستهزاء.

{ **يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ** } يذكرهم بسوء، بقرينة المقام، لأنّهم يعلمون ما يذكر به آلهتهم ممّا يسوءهم. وكلامهم مسوق مساق الغيظ والغضب، ولذلك أعقبه الله بجملة الحال:

{ **وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ** } أي: يغضبون من أن تذكر آلهتهم بما هو كشف لكُنهها المطابق للواقع في حال غفلتهم عن ذكر الرحمان الذي هو الحقيق بأن يذكروه. فالذكر الثاني مستعمل في الذكر بالثناء والتمجيد بقرينة المقام. والأظهر أنّ المراد بذكر الرحمان هنا القرآن، أي: الذكر الوارد من الرحمان. ومعنى كفرهم بذكر الرحمان إنكارهم أن يكون القرآن آية دالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، وأيضا كفرهم بما جاء به القرآن من إثبات البعث.

{ **الرَّحمَن** } عُبّر عن الله تعالى بهذا الاسم تورُّكًا عليهم إذ كانوا يأبون أن يكون الرحمان اسما لله تعالى { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً } [الفرقان:60].

{ **هُمْ كَافِرُونْ** } ضمير الفصل يجوز أن يفيد الحصر، أي: هم كافرون بالقرآن دون غيرهم ممّن أسلم من أهل مكّة وغيرهم من العرب، لإفادة أنّ هؤلاء باقون على كفرهم مع توفّر الآيات والنذر.

ويجوز أن يكون الفصل لمجرّد التأكيد تحقيقا لدوام كفرهم مع ظهور ما شأنه أن يقلعهم عن الكفر.

{ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ } [37].

{ **خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ** } معترضة بين جملة { وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا } وبين جملة { سَأُرِيكُمْ آيَاتِي }، جُعلت مقدّمة لجملة { سَأُرِيكُمْ آيَاتِي }.

{ **سَأُرِيكُمْ آيَاتِي** } استئناف بياني جاء معترضا بين الجمل التي تحكي أقوال المشركين وما تفرَّع عليها. فالخطاب إلى المسلمين الذين كانوا يستبطئون حلول الوعيد الذي توعّد الله تعالى به المكذّبين.

ومناسبة موقع الجملتين أنّ ذكر استهزاء المشركين بالنبيّ عليه الصلاة والسلام يُهيج حنق المسلمين عليهم فيودّوا أن ينزل بالمكذبين الوعيد عاجلا فخوطبوا بالتريث وأن لا يستعجلوا ربّهم لأنّه أعلم بمقتضى الحكمة في توقيت حلول الوعيد. وأهمها مصلحة إمهال القوم حتّى يدخل منهم كثير في الإسلام.

العَجَل: السرعة. وخلق الإنسان منه استعارة لتمكّن هذا الوصف من جبلّة الإنسانية. لأنّ ضعف صفة الصبر في الإنسان من مقتضى التفكير في المحبّة والكراهية. فإذا فكر العقل في شيء محبوب استعجل

حصوله بداعي المحبّة، وإذا فكر في شيء مكروه استعجل إزالته بداعي الكراهيّة، ولا تخلو أحوال الإنسان عن هذين، فلا جرم كان الإنسان عجولا بالطبع. ونحوه قوله تعالى { وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً } [الإسراء:11]، وقوله تعالى { إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً } [المعارج:19].

وأمّا من فسّر العجل بالطين وزعم أنّها كلمة حميرية فقد أبعد وما أسعد.

فالآية وعد بأنّهم سيرون آيات الله في نصر الدين، وذلك بما حصل يوم بدر من النصر وهلك أئمة الشرك وما حصل بعده من أيام الإسلام التي كان النصر فيها عاقبة المسلمين.

وتفرّع على هذا الوعد نهي عن طلب التعجيل، أي: عليكم أن تكلوا ذلك إلى ما يؤقّته الله ويؤجله، ولكلّ أجل كتاب. فهو نهي عن التوغّل في هذه الصفة وعن لوازم ذلك التي تفضي إلى الشك في الوعيد.

{ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [38] لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ [39] بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ [40] }

نشأ عن ذكر استبطاء المسلمين وعد الله بنصرهم على الكافرين ذكر نظيره في جانب المشركين أنّهم تساءلوا عن وقت هذا الوعد تهكّما. وهذا مُعبِّر عن مقالة أخرى من مقالاتهم التي يتلقّون بها دعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم استهزاء وعنادا. وبهذا الاعتبار تكون متّصلة بجملة { وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً }.

وخاطبوا بضمير الجماعة النبيَّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين، ولأجل هذه المقالة كان المسلمون يستعجلون وعيد المشركين.

{ **وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ** } استفهامهم استعملوه في التهكّم مجازا مرسلا بقرينة { إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } لأنّ المشركين موقنين بعدم حصول الوعد.

الوعد: ما توعّدهم به القرآن من نصر رسوله واستئصال معانديه. وإلى هذه الآية ونظيرها يُنظر قول النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم بدر حين وقف على القليب الذي دفنت فيه جثث المشركين وناداهم بأسمائهم { قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً }، أي: ما وعدنا ربّنا من النصر وما وعدكم من الهلاك وعذاب النار.

{ **لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا** } مستأنفة للبيان، لأنّ المسلمين يترقّبون ماذا يكون جوابهم عن تهكّمهم. وحاصل الجواب أنّه واقع لا محالة ولا سبيل إلى إنكاره.

{ **حِينَ** } اسم منصوب على المفعولية لا على الظرفية، فهو من أسماء الزمان المتصرّفة، أي: لو علموا وقته وأيقنوا بحصوله لما كذّبوا به وبمن أنذرهم به ولما عدّوا تأخيره دليلا على تكذيبه.

{ **لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ** } ضمير { يَكُفُّونَ } فيه وجهان:

الوجه الأوّل: بدا لي أن يكون الضمير عائدا إلى ملائكة العذاب فمعاد الضمير معلوم من المقام، ونظائر هذا المعاد كثيرة في القرآن وكلام العرب. ومعنى الكف على هذا الوجه: الإمساك وهو حقيقته، أي: حين لا يمسك الملائكة اللفح بالنار عن وجود المشركين. وتكون هذه الآية في معنى قوله تعالى { وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ } [الأنفال:50]، فإنّ ذلك ضرب بسياط من نار.

{ **وُجُوهِهِمُ / ظُهُورِهِمْ** } وذكرها للتنكيل بهم وتخويفهم، لأنّ الوجوه أعزّ الأعضاء على الناس. ولأنّ الأدبار يأنف الناس من ضربها لأنّ ضربها إهانة وخزي، ويسمَّى الكسع.

الوجه الثاني: أن يكون ضمير { يَكُفُّونَ } عائدا إلى الذين كفروا، والكفّ بمعنى الدرء والستر مجازا بعلاقة اللزوم، أي: حين لا يستطيعون أن يدفعوا النار عن وجوههم بأيديهم ولا عن ظهورهم. أي: حين تحيط بهم النار مواجَهة ومدَابرة. وذكر الظهور بعد ذكر الوجوه عن هذا الاحتمال احتراس لدفع توهّم أنّهم قد يكفونها عن ظهورهم إن لم تشتغل أيديهم بكفها عن وجوههم.

وهذا الوجه هو الذي اقتصر عليه جميع من لدينا كتبهم من المفسّرين. **والوجه الأوّل أرجح معنى،** لأنّه المناسب مناسبة تامة للكافرين الحاضرين المقرَّعين ولتكذيبهم بالوعيد بالهلاك.

{ **وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ** } عطف على { لا يَكُفُّونَ }، أي: لا يُكفّ عنهم نفح النّار، أو لا يدفعون عن أنفسهم نفح النار ولا يجدون لهم ناصرا ينصرهم.

{ **بَلْ** } للإضراب الانتقالي من تهويل ما أُعدّ لهم إلى التهديد بأنّ ذلك يحلّ بهم بغتة وفجأة، وهو أشدّ على النفوس لعدم التهيّؤ له والتوطن عليه.

وإن كان المراد عذاب الآخرة فنفي الناصر تكذيب لهم في قولهم { هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ }.

{ **تَأْتِيهِمْ** } الفاعل ضمير عائد إلى الوعد. وإنما قرن الفعل بعلامة المؤنث على الوجه الأوّل المتقدّم في قوله تعالى { حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ} باعتبار الوقعة أو نحو ذلك، وهو إيماء إلى أنّ ذلك سيكون فيما اسمه لفظ مؤنث مثل الوقعة والغزوة. وأمّا على الوجه الثاني المتقدّم فلتأويل الوعد بالساعة أو القيامة أو الحين في معنى الساعة.

البغتة: المفاجأة، وهي حدوث شيء غير مترقّب.

البهت: الغلب المفاجئ المعجز عن المدافعة، يقال: بهته فبهت. قال تعالى { فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ } [البقرة:258].

{ **فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ** } تفريع، أي: لا تؤخّر عنهم. وفيه تنبيه لهم إلى أُنّهم أنظروا زمنا طويلا لعلّهم يقلعون عن ضلالهم.

وما أشدّ انطباق هذه الهيئة على ما حصل لهم يوم بدر، قال تعالى { وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ

وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً } [الأنفال:42]. ولا شك في أن المستهزئين مثل أبي جهل وشيبة ابني ربيعة وعتبة ابن ربيعة وأمية بن خلف، كانوا ممّن بغتهم عذاب السيف وكان أنصارهم من قريش ممّن بهتهم ذلك.

وأمّا إذا أريد بضمير { تَأتِيهِمْ } الساعة والقيامة فهي تأتي بغتة لمن هم من جنس المشركين أو تأتيهم النفخة والنشرة.

{ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } [41].

تطمين للنبيّ صلى الله عليه وسلم وتسلية له. ومناسبة عطفها على جملة { لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ } إلى آخرها ظاهرة. وقد تقدّم نظير هذه الآية في [الأنعام:10].

{ قُلْ مَنْ يَكْلَأُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ [42] أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ [43] بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حتّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ [44] }.

بعد أن سُلِّيَ الرسول صلى الله عليه وسلم على استهزائهم بالوعيد أُمر أن يُذكّرهم بأنّ غرورهم بالإمهال من قبل الله رحمة منه بهم كشأنه في الرحمة بمخلوقاته، وبأنّهم إذا نزل بهم عذابه لا يجدون حافظا.

والاستفهام إنكار وتقريع، أي: لا يكلؤكم منه أحد، فكيف تجهلون ذلك؟ تنبيها لهم إذ نسوا نعمه.

{ **بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ** } لاستيعاب الأزمنة كأنّه قيل: من يكلؤكم في جميع الأوقات. وقُدّم الليل لأنّه زمن المخاوف.

{ **مِنَ الرَّحمَن** } من بأسه وعذابه.

وجيء بعد هذا التفريع بإضرابات ثلاثة انتقالية على سبيل التدريج الذي هو شأن الإضراب:

{ **بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ** } الإضراب الأوّل، وهو ارتقاء من التقريع المجعول للإصلاح إلى التأييس من صلاحهم بأنّهم عن ذكر ربهم معرضون فلا يُرجى منهم الانتفاع بالقوارع.

{ **أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا** } ثمّ أضرب إضرابا ثانيا بـ (أم) المنقطعة التي هي أخت (بل) مع دلالتها على الاستفهام لقصد التقريع، أي: ما لهم آلهة مانعة لهم من دوننا. وهذا إبطال لمعتقدهم شفاعة الأصنام.

{ **لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ** } مستأنفة معترضة. والضمير عائد إلى آلهة، أجري عليهم ضمير العقلاء مجاراة لكلامهم. والمعنى: كيف ينصرونهم وهم لا يستطيعون نصر أنفسهم.

{ **يُصْحَبُونَ** } إمّا مضارع صحبه إذا خالطه ولازمه، والصحبة تقتضي النصر والتأييد، **فيجوز** أن يكون الفاعل مرادا به الله تعالى، أي: لا يصحبهم الله، أي: لا يؤيدهم. وهذا نفي لما اعتقده المشركون بقولهم { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى }.

ويجوز أن يكون الفاعل المحذوف محذوفا لقصد العموم، أي: لا يصحبهم صاحب، أي: لا يجيرهم جار. وإمّا مضارع أصحبه المهموز بمعنى حفظه ومنعه، أي: من السوء.

{ **بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حتّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ** } ثم أضرب إضرابا ثالثا انتقل به إلى كشف سبب غرورهم الذي من جهلهم به حسبوا أنفسهم آمنين من أخذ الله إيّاهم بالعذاب فجرّأهم ذلك على الاستهزاء بالوعيد، أي: فما هم مستمرون فيه من النعمة إنّما هو تمتيع وإمهال كما متّعنا آباءهم من قبل.

وقد وُجّه الخطاب إليهم ابتداء بقوله تعالى { قُلْ مَنْ يَكْلَأُكُمْ } ثمّ أُعرض عنهم من طريق الخطاب إلى طريق الغيبة لأنّ ما وُجّه إليهم من إنكار أن يكلأهم أحد من عذاب الله جعلهم أحرياء بالإعراض عنهم كما في قوله { هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حتّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا } [يونس:22].

{ **هَؤُلاءِ** } الإشارة لحاضرين في الأذهان وهم كفّار قريش. وقد استقريت أنّ القرآن إذا ذُكرت فيه هذه الإشارة دون وجود مشار إليه في الكلام فهو يعني بها كفار قريش.

{ **أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ** } تفريع على إحالتهم نصر المسلمين وعدّهم تأخير الوعد به دليلا على تكذيب وقوعه حتّى قالوا { مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } تهكّما وتكذيبا. فلمّا أنذرهم بما سيحلّ بهم في قوله تعالى { لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ - إلى قوله تعالى - مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } فُرّع على ذلك كلّه استفهاما تعجيبيًّا من عدم اهتدائهم إلى أمارات اقتران الوعد بالموعود استدلالا على قربه بحصول أماراته.

الرؤية: علمية، وسدّت الجملة مسدّ المفعولين لأنّها في تأويل مصدر.

الإتيان: تمثيل بحال الغازي الذي يسعى إلى أرض قوم فيقتل ويأسر كما تقدم في قوله تعالى { فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ }.

{ **الْأَرْضَ** } تعريف العهد، أي: أرض العرب، كما في قوله تعالى { فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ } [يوسف:80]، أي: أرض مصر.

النقصان: تقليل كمية شيء.

الأطراف: جمع طرف بفتح الطاء والراء. وهو ما ينتهي به الجسم من جهة من جهاته. وضدّه الوسط.

والمراد: نقصان عدد المشركين بدخول كثير منهم في الإسلام ممّن أسلم من أهل مكة، ومن هاجر منهم إلى الحبشة. ومن أسلم من أهل المدينة إن كانت الآية نزلت بعد إسلام أهل العقبة الأولى أو الثانية، فكان

عدد المسلمين يومئذ يتجاوز المائتين. وتقدّم نظير هذه الجملة في [الرعد:41].

{ **أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ** } مفرَّعة على جملة التعجيب من عدم اهتدائهم إلى هذه الحالة. والاستفهام إنكاري، أي: فكيف يحسبون أنّهم غلبوا المسلمين وتمكنوا من الحجّة عليهم.

واختيار الجملة الاسمية دون الفعلية لدلالتها بتعريف جزأيها على القصر، أي: ما هم الغالبون بل المسلمون.

{ قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ } [45].

استئناف ابتدائي مقصود منه الإتيان على جميع ما تقدّم من استعجالهم بالوعد تهكّما { وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ }، ومن التهديد الذي وُجِّه إليهم بقوله تعالى { لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا }، ومن تذكيرهم بالخالق وتنبيههم إلى بطلان آلهتهم بقوله تعالى { قُلْ مَنْ يَكْلَأُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ - إلى قوله تعالى - حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ}، ومن الاحتجاج عليهم بظهور بوارق نصر المسلمين، واقتراب الوعد بقوله تعالى { أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا }، عُقِّب به أمر الله رسوله أن يخاطبهم بتعريف كنه دعوته، وهي قصره على الإنذار بما سيحلّ بهم في الدنيا والآخرة إنذارا من طريق الوحي المنزّل عليه من الله تعالى وهو القرآن.

وهذا الكلام يستلزم متاركة لهم بعد الإبلاغ في إقامة الحجّة عليهم.

{ **وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ** } عطف استئناف على استئناف، لأنّ التذييل من قبيل الاستئناف. والأظهر أن الكلام مخاطب به الرسول صلى الله عليه وسلم وليس من جملة المأمور بأن يقوله لهم.

{ **الصُّمَّ** } التعريف للاستغراق، مستعار لعدم الانتفاع بالكلام المفيد. وتقدّم في قوله تعالى {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ} [البقرة:18].

ودخل في عمومه المشركون المعرضون عن القرآن وهم المقصود من سوق التذييل ليكون دخولهم في الحكم بطريقة الاستدلال بالعموم على الخصوص.

وتقييد عدم السماع بوقت الإعراض عند سماع الإنذار لتفظيع إعراضهم عن الإنذار لأنّه إعراض يفضي بهم إلى الهلاك فهو أفظع من عدم سماع البشارة أو التحديث، ولأن التذييل مسوق عقب إنذارات كثيرة.

{ **الدُّعَاءَ** } اختير لفظ الدعاء لأنّه المطابق للغرض إذ كان النبيّ صلى الله عليه وسلم داعيا.

{ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ } [46].

عطف على الآية السابقة والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم، أي: أنذرهم بأنّهم سيندمون عندما ينالهم أوّل العذاب في الآخرة. وهذا انتقال من إنذارهم بعذاب الدنيا إلى إنذارهم بعذاب الآخرة.

وأكد الشرط بلام القسم لتحقيق وقوع الجزاء.

المسّ: اتصال بظاهر الجسم.

النفحة: العطيّة، يقال نفحه بشيء إذا أعطاه. وفي مادة النفح أنّه عطاء قليل، وبضميمة بناء المرّة فيها والتنكير، وإسناد المسّ إليها دون فعل آخر، فهذه أربع مبالغات في التقليل.

الويل: تقدّم عند قوله تعالى { فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ } [البقرة:79]، وعند قوله تعالى { وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ } [إبراهيم:2].

{ **إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ** } إنّا كنّا معتدين على أنفسنا إذ أعرضنا عن التأمّل في صدق دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم. فالظلم في هذه الآية مراد به الإشراك.

{ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ } [47].

<u>يجوز</u> أن تكون عطف على { وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ } لمناسبة قولهم { إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ }، ولبيان أنّهم مجازون على جميع ما أسلفوه من الكفر وتكذيب الرسول بيانا بطريق ذكر العموم بعد الخصوص في المجازين، فشابه التذييل من أجل عموم قوله تعالى { فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً }.

<u>ويجوز</u> أن تكون حال، وتكون نون المتكلّم المعظم التفاتا لمناسبة الجزاء للأعمال.

<u>ويجوز</u> أن تكون الجملة معترضة وتكون الواو اعتراضية.

الوضع: حقيقته حطّ الشيء ونصبه في مكان، وهو ضدّ الرفع. ويطلق على صنع الشيء وتعيينه للعمل به وهو في ذلك مجاز.

الميزان: اسم آلة الوزن. وله كيفيات كثيرة تختلف باختلاف العوائد.

{ **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ** } اختلف علماء السلف في المراد من الموازين هنا: أهو الحقيقة أم المجاز:

<u>فذهب الجمهور</u> إلى أنّه حقيقة وأنّ الله يجعل في يوم الحشر موازين لوزن أعمال العباد تشبه الميزان المتعارف. فمنهم من ذهب إلى أنّ لكل أحد من العباد ميزانا خاصا به توزن به أعماله، وهو ظاهر صيغة الجمع في هذه الآية وفي قوله تعالى { فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ } [القارعة:7/6].

ومنهم من ذهب إلى أنّه ميزان واحد توزن فيه أعمال العباد واحدا فواحدا.

وعلى هذا التفسير يكون { **نَضَعُ** } مستعملا في معناه الحقيقي وهو النصب والإرصاد.

<u>وذهب مجاهد وقتادة والضحاك وروي عن ابن عباس أيضا</u> أنّ الميزان الواقع في القرآن مثلٌ للعدل في الجزاء كقوله تعالى { وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ } [الأعراف:8]، ومال إليه الطبري.

قال في الكشاف: " الموازين الحساب السويّ والجزاء على الأعمال بالنَّصَفة من غير أن يُظلم أحد ".

فهو مستعار للعدل في الجزاء لمشابهته للميزان في ضبط العدل في المعاملة كقوله تعالى { وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ } [الحديد:25]. و يكون { **نَضَعُ** } ترشيح ومستعار للظهور.

وذهب الأشاعرة إلى أخذ الميزان على ظاهره. وللمعتزلة في ذلك قولان: حقيقة و مجاز.

ويظهر لي أنّ التزام صيغة جمع الموازين في الآيات الثلاث التي ذكر فيها الميزان يرجّح أنّ المراد بالوزن فيها **معناه المجازي** وأنّ بيانه بقوله { الْقِسْطَ } في هذه الآية يزيد ذلك ترجيحا.

وتقدم ذكر الوزن في قوله تعالى { وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ } [الأعراف:8].

القِسْط: العدل، مصدر أقسط، ويقال: القسطاس، وهو كلمة معرّبة من اللغة اللاتينية. وقد نقل البخاري ذلك عن مجاهد. وتقدّم في قوله تعالى { قَائِماً بِالْقِسْطِ } [آل عمران:18].

{ **لِيُومِ الْقِيَامَةِ** } اللام تحتمل أن تكون للعلّة مع تقدير مضاف، أي: لأجل يوم القيامة، أي: الجزاء في يوم القيامة، وتحتمل أن تكون للتوقيت بمعنى: (عند) التي هي للظرفية الملاصقة، أي: نضع الموازين عند يوم القيامة .كما يقال: كتب لثلاث خلون من شهر كذا، وكقوله تعالى { فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ }.

{ **فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً** } تفريع على وضع الموازين، تفريع العلّة على المعلول أو المعلول على العلّة.

الظلم: ضدّ العدل، ولذلك فُرّع نفيه على إثبات وضع العدل.

شيئا: منصوب على المفعولية المطلقة، أي: شيئا من الظلم. ووقوعه في سياق النفي دلّ على تأكيد العموم من فعل { تُظْلَمُ } الواقع أيضا في سياق النفي، أي: لا تظلم بنقص من خير استحقّته ولا بزيادة شيء لم تستحقّه، فالظلم صادق بالحالين والشيء كذلك.

{ **وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ** } في موضع الحال. و(إِنْ) وصلية دالة على أنّ مضمون ما بعدها من شأنه أن يُتوهّم تخلّف الحكم عنه فإذا نصّ على شمول الحكم إيّاه علم أنّ شموله لما عداه بطريق الأولى.

وقرأ الجمهور { مِثْقَالَ } بالنصب على أنّه خبر (كان) وأنّ اسمها ضمير عائد إلى { شَيْئًا }. وقرأ نافع وأبو جعفر { مِثْقَالُ } مرفوعا على أنّه فاعل.

ومعنى القراءتين متحد المآل، وهو: أنّه إن كان لنفس مثقال حبّة من خردل من خير أو من شر يؤت بها في ميزان أعمالها ويجاز عليها.

المثقال: ما يماثل شيئا في الثقل، أي: الوزن، فمثقال الحبة: مقدارها.

الحبة: الواحدة من ثمر النبات الذي يخرج من السنبل أو في المزادات التي كالقرون أو العبابيد كالقطاني.

الخردل: حبوب دقيقة كحب السمسم هي بزور شجر يُسمّى عند العرب الخردل. واسمه في علم النبات (سينابيس). وهو صنفان بري وبستاني، وينبت في الهند ومصر وأوروبا.

{ **أَتَيْنَا بِهَا** } على القراءة الأولى مستأنفة، وعلى القراءة الثانية إمّا جواب للشرط أو مستأنفة وجواب الشرط محذوف. وضمير { بها } عائد إلى { مِثْقَالَ حَبَّةٍ } .

{ **وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ** } أي: كفى الناس أنّنا نحن الحاسبين، فهم لا يتطلّعون إلى حاسب آخر يعدل مثلنا. وهذا تأمين للنّاس، وفيه تحذير من العذاب وترغيب في الثواب.

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ [48] الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ [49] وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ [50] }.

عطف على { بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ - إلى قوله تعالى - فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ } لإقامة الحجّة على المشركين بالدلائل العقلية والإقناعية والزجرية، ثمّ بدلائل شواهد التاريخ وأحوال الأمم السابقة الشاهدة بتنظير ما أوتيه النبيّ صلى الله عليه وسلم بما أوتيه سلفه من الرسل والأنبياء، وأنّه ما كان بدعا من الرّسل في دعوته إلى التوحيد، تلك الدعوة التي كذّبه المشركون لأجلها، مع ما تخلّل ذلك من ذكر عناد الأقوام، وثبات الأقدام، والتأييد من الملك العلّام، وفي ذلك تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم على ما يلاقيه من قومه بأنّ تلك سنّة الرّسل السابقين كما قال تعالى { سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا } [الإسراء:77].

{ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ** } ابتدئ بذكر موسى وأخيه مع قومهما لأنّ أخبار ذلك مسطورة في كتاب موجود عند أهله يعرفهم العرب، ولأنّ أثر إتيان موسى عليه السلام بالشريعة هو أوسع أثر لإقامة نظام أمّة يلي عظمة شريعة الإسلام.

وافتتاح القصة بلام القسم المفيدة للتأكيد لتنزيل المشركين في جهل بعضهم بذلك وذهول بعضهم عنه وتناسي بعضهم إيّاه منزلة من ينكر تلك القصّة.

ومحلّ التنظير في هذه القصّة هو تأييد الرسول صلى الله عليه وسلم بكتاب مبين وتلقّي القوم ذلك الكتاب بالإعراض والتكذيب.

الفرقان: ما يُفرّق به بين الحقّ والباطل من كلام أو فعل. وقد سمّى الله تعالى يوم بدر يوم الفرقان لأنّ فيه كان مبدأ ظهور قوّة المسلمين ونصرهم.

فيجوز أن يراد بالفرقان التوراة، كقوله تعالى { وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ } [الصافات:117].

ويجوز أن يراد بالفرقان المعجزات الفارقة بين المعجزة والسحر كقوله تعالى { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ } [غافر:23].

ويجوز أن يراد به الشريعة الفارقة بين العدل والجور كقوله تعالى { وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } [البقرة:53].

الضياء: النور. يُستعمل مجازا في الهدى والعلم، وهو استعمال كثير، وهو المراد هنا، قال تعالى { إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ } [المائدة:44].

الذكر: أصله خطور شيء بالبال بعد غفلة عنه. ويطلق على الكتاب الذي فيه ذكر الله.

{ **لِلمُتَّقِينْ** } يجوز أن يكون الكلام فيه للتقوية فيكون المجرور باللام في معنى المفعول، أي: الذين اتّصفوا بتقوى الله، أي: امتثال أوامره واجتناب ما نهى عنه، لأنّه يذكّرهم بما يجهلون وبما يذهلون عنه ممّا علموه ويجدّد في نفوسهم مراقبة ربّهم. ويجوز أن يكون (اللام) للعلّة، أي: ذكر لأجل المتقين، أي: كتاب ينتفع بما فيه المتقون دون غيرهم من الضالين.

{ **الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ** } وصفهم بما يزيد معنى المتّقين بيانا وهو على نحو قوله تعالى { هُدىً لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ } [البقرة:3/2].

الْغَيْب: ما غاب عن عيون الناس، أي: يخشون ربّهم في خاصتهم لا يريدون بذلك رياء ولا لأجل خوف الزواجر الدنيوية والمذمّة من الناس.

الإشفاق: رجاء حادث مخوف. ومعنى الإشفاق من الساعة: الإشفاق من أهوالها، فهم يُعدّون لها عدّتها بالتقوى بقدر الاستطاعة.

وفيه تعريض بالذين لم يهتدوا بكتاب الله تعالى بدلالة مفهوم المخالفة لقوله تعالى { الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ }. فمن لم يهتد بكتاب الله فليس هو من الذين يخشون ربّهم بالغيب، وهؤلاء هم فرعون وقومه.

{ **وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ** } أُعقب التعريض بذكر المقصود من سوق الكلام الناشئ هو عنه، وهو المقابلة.

{ **وَهَذَا** } الإشارة إلى القرآن لأنّ حضوره في الأذهان وفي التلاوة بمنزلة حضور ذاته.

ووصف القرآن بأنّه ذكر لأنّ لفظ الذكر جامع لجميع الأوصاف المتقدّمة كما تقدّم عند قوله تعالى { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ } [النحل:44].

{ **مُبَارَكٌ** } وصف القرآن بالمبارك يعمّ نواحي الخير كلّها لأنّ البركة زيادة الخير، فالقرآن كلّه خير من جهة بلاغة ألفاظه وحسنها وسرعة حفظه وسهولة تلاوته، وهو أيضا خير لما اشتمل عليه من أفنان الكلام والحكمة والشريعة واللطائف البلاغية، وهو في ذلك كلّه آية على صدق الذي جاء به، لأنّ البشر عجزوا عن الإتيان بمثله وتحدّاهم النبيّ صلى الله عليه وسلم بذلك فما استطاعوا.

{ **أَنْزَلْنَاهُ** } زاده تشريفا بإسناد إنزاله إلى ضمير الجلالة. وجُعل الوحي إلى الرسول إنزالا لما يقتضيه الإنزال من رفعة القدر، إذ اعتُبر مستقرا في العالم العلوي حتّى أنزل إلى هذا العالم.

{ **أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ** } فُرّع على هذه الأوصاف العظيمة استفهام توبيخي تعجيبي من إنكارهم صدق هذا الكتاب ومن استمرارهم على ذلك الإنكار. ولكون إنكارهم صِدْقَه حاصلًا منهم في حال الخطاب جيء بالجملة الاسمية ليتأتّى جعل المسند اسما دالا على الاتصاف في زمن الحال وجعل الجملة دالة على الثبات في الوصف وفاء بحق بلاغة النظم.

{ **وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ [51] إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ [52] قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ [53] قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ [54] قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ [55] قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ [56] وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ [57]** }.

أُعقبت قصّة موسى وهارون بقصّة إبراهيم فيما أوحي إليه من مقاومة الشرك ووضوح الحجّة على بطلانه، لأنّ إبراهيم كان هو المثل الأوّل، قبل مجيء الإسلام، في مقاومة الشرك، إذ قاومه بالحجّة وبالقوة وبإعلان التوحيد إذ أقام للتوحيد هيكلا بمكّة هو الكعبة، وبجبل (نابو) من بلاد الكنعانيين حيث كانت مدينة تُسمّى يومئذ (لوزا)، ثم بنى بيت (أيل) بالقرب من موضع مدينة أورشليم في المكان الذي أقيم به هيكل سليمان من بعد، فكانت قصّة إبراهيم مع قومه شاهدا على بطلان الشرك الذي كان مماثلا لحال المشركين بمكّة الذين جاء محمد صلى الله عليه وسلم لقطع دابره. وفي ذكر قصة إبراهيم تورّك على المشركين من أهل مكّة إذ كانوا على الحالة التي نعاها جدّهم إبراهيم على قومه، وكفى بذلك حجّة عليهم. وأيضا فإنّ شريعة إبراهيم أشهر شريعة بعد شريعة موسى.

{ **وَلَقَدْ** } تأكيد الخبر عنه بلام القسم للوجه الذي بيّنّاه آنفا في تأكيد الخبر عن موسى وهارون، وهو تنزيل العرب في مخالفتهم لشريعة أبيهم إبراهيم منزلة المنكر لكون إبراهيم أوتي رشدا وهديا.

{ **آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ** } إسناد الإيتاء إلى ضمير الجلالة لمثل ما قُرّر في قصة موسى وهارون للتنبيه على تفخيم ذلك الرشد الذي أوتيه.

الرشد: الهدى والرأي الحق، وضدّه الغي. وتقدّم في قوله تعالى { قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ } [البقرة:256].

وإضافة الرشد إلى ضمير إبراهيم للتنبيه على عظم شأن هذا الرشد، أي: رشدا يليق به، ولأنّ رشد إبراهيم قد كان مضرب الأمثال بين العرب وغيرهم. فإنّ الإضافة لمّا كانت على معنى (اللام) كانت مفيدة للاختصاص فكأنّه انفرد به.

{ **وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ** } اعتراض للتذييل تنويها وتفخيما، أي: آتيناه رشدا عظيما على علم منّا بإبراهيم، أي: بكونه أهلا لذلك الرشد. وهذا كقوله تعالى { وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ } [الدخان:32]، وقوله تعالى { اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ } [الأنعام:124].

{ **مِنْ قَبْلُ** } أي: قبل أن نوتي موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا. ووجه ذكر هذه القبليّة التنبيه على أنّ ما وقع إيتاء الذكر موسى وهارون إلّا لأنّ شريعتهما لم تزل معروفة مدروسة.

{ **إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ** } ظرف لفعل { آتَينَا }، أي: كان إيتاؤه الرشد حين قال لأبيه وقومه { مَا هَذِهِ

التَّمَاثِيلُ } فذلك هو الرشد الذي أوتيه، أي: حين نزل الوحي إليه بالدعوة إلى توحيد الله تعالى.
قوم إبراهيم: كانوا من (الكَلدان) وكان يسكن بلدا يقال له (كوثا) - بمثلثة في آخره بعدها ألف - وهي المسمَّاة في التوراة (أور الكلدان)، ويقال: أيضا إنها (أورفة) في (الرها)، ثم سكن هو وأبوه وأهله (حاران) وحاران هي (حرَّان)، وكانت من بلاد الكلدان، كما جاء في التوراة: " اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك ". [سفر التكوين، الإصحاح:12]

ومات أبوه في (حاران) [سفر التكوين، الإصحاح:11]، فيتعيّن أن دعوة إبراهيم كانت من (حاران) لأنّه منها خرج إلى أرض كنعان. وقد اشتهر حرَّان بأنه بلد الصابئة وفيه هيكل عظيم للصابئة، وكان قوم إبراهيم صابئة يعبدون الكواكب ويجعلون لها صورا مجسّمة.

{ **مَا هَذِهِ التَمَاثِيلُ** } الاستفهام يتسلّط على الوصف في قوله تعالى { الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ } فكأنّه قال: ما عبادتكم هذه التماثيل؟ وهذا من تجاهل العارف، استعمله تمهيدا لتخطئتهم بعد أن يسمع جوابهم، فهم يظنّونه سائلا مستعلما ولذلك أجابوا سؤاله بقولهم { وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ }.

والأصنام التي كان يعبدها الكلدان هي (بَعْل) وهو أعظمها، وكان مصوغا من ذهب، وهو رمز الشمس في عهد (سميرميس)، وعبدوا رموزا للكواكب، ولا شك أنّهم كانوا يعبدون أصنام قوم نوح: (ودًّا، وسُواعا، ويغوث، ويعوق، ونسرا)، إمّا بتلك الأسماء وإمّا بأسماء أخرى. وقد دلّت الآثار على أنّ من أصنام أشور، إخوان الكلدان، صنما اسمه (نسروخ)، وهو نسر لا محالة.

{ **الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ** } جعْلُ العكوف مسندا إلى ضميرهم مؤذن بأنّ إبراهيم لم يكن من قبل مشاركا لهم في ذلك، فيُعلم منه أنّه في مقام الردّ عليهم. وضُمّن معنى العبادة، فلذلك عُدّي باللام لإفادة ملازمة عبادتها.

{ **قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ** } جاؤوا في جوابه بما توهَّموا إقناعه به وهو أنّ عبادة تلك الأصنام كانت من عادة آبائهم.

{ **لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ** } فلمّا ذكروا له آباءهم شرَّكهم في التخطئة بدون هوادة بعطف الآباء عليهم في ذلك ليعلموا أنّهم لا عذر لهم في اتّباع آبائهم ولا عذر لآبائهم في سنّ ذلك لهم لمنافاة حقيقة تلك الأصنام لحقيقة الألوهية واستحقاق العبادة.

{ **قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ** } لإنكارهم أن يكون ما عليه آباؤهم ضلالا، وإيقانهم أنّ آباءهم على الحق شكُّوا في حال إبراهيم أَنَطق عن جدّ منه أم أراد به المزح.

والمراد باللعب هنا لعب القول وهو المُسمَّى مزحا، وأرادوا بتأويل كلامه بالمزح التلطّف معه وتجنّب نسبته إلى الباطل استجلابا لخاطره لما رأوا من قوّة حجّته.

{ **قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ** } جاء هو في جوابهم بالإضراب عن قولهم { أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ } لإبطال أن يكون من اللاعبين وإثبات أنّ ربّهم هو الربّ الذي خلق السماوات.

{ **وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ** } إعلام لهم بأنّه مرسل من الله لإقامة دين التوحيد، لأنّ رسول كلّ أمة شهيد عليها كما قال تعالى { فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً } [النساء:41].

ولم يكن يومئذ في قومه من يشهد ببطلان إلهيّة أصنامهم فتعيّن أنّ المقصود من { الشَّاهِدِينَ } أنّه بعض الذين شهدوا بتوحيد الله بالإلهية في مختلف الأزمان أو الأقطار.

{ **وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ** } ثم انتقل إبراهيم عليه السلام من تغيير المنكر بالقول إلى تغييره باليد معلنا عزمه على ذلك، مؤكّدا عزمه بالقسم.

{ **وَتَاللَّهِ** } التاء تختصّ بقسم على أمر متعجّب منه وتختصّ باسم الجلالة وقد تقدّم عند قوله تعالى { قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ } [يوسف:85].

الكيد: التحيّل على إلحاق الضرّ في صورة غير مكروهة عند المتضرّر. وقد تقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ } [يوسف:28].

{ **مُدْبِرِينَ** } حال مؤكّدة لعاملها. وتقدّم نظيره غير مرة منها قوله تعالى { ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ } [التوبة:25].

{ **فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ** [58] **قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ** [59] **قَالُوا سَمِعْنَا فَتىً يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ** [60] **قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ** [61] }.

الجُذاذ: (بضم الجيم) في قراءة الجمهور: اسم جمع جذاذة، وهي فُعالة من الجذّ، وهو القطع مثل قُلامة وكُناسة، أي: كسرهم وجعلهم قطعا. وقرأ الكسائي { جِذاذا } بكسر الجيم على أنّه مصدر، فهو من الإخبار بالمصدر للمبالغة.

قيل: كانت الأصنام سبعين صنما مصطفّة ومعها صنم عظيم وكان هو مقابل باب بيت الأصنام، وبعد أن كسرها جعل الفأس في رقبة الصنم الأكبر استهزاء بهم.

{ **لَعَلَّهُمْ إِلِيهِ يَرْجِعُونَ** } رجاء أن يرجع الأقوام إلى استشارة الصنم الأكبر ليخبرهم بمن كسر بقية الأصنام لأنّه يعلم أنّ جهلهم يُطمعهم في استشارة الصنم الكبير.

وهذا العمل الذي عمله إبراهيم عمله بعد أن جادل أباه وقومه في عبادة الأصنام والكواكب ورأى جماحهم عن الحجّة الواضحة كما ذُكر في [الأنعام:83].

{ **قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ** } يدلّ على أنّهم لم يخطر ببالهم أن يكون كبير الآلهة فعل ذلك، وهؤلاء القوم هم فريق لم يسمع توعّد إبراهيم إيّاهم بأن يكيد أصنامهم.

{ **قَالُوا سَمِعْنَا فَتىً يَذْكُرُهُمْ** } هم الذين توعّد إبراهيم الأصنام بمسمع منهم.

الفتى: الذَّكَر الذي قوي شبابه. ويكون من الناس ومن الإبل. والأنثى: فتاة. وقد يطلقونه صفة مدح دالة على استكمال خصال الرجل المحمودة.

الذكر: التحدث بالكلام. وحُذف المتعلق لدلالة القرينة عليه، أي: يذكرهم بتوعّد.

{ **يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ** } دلالة على أنّ المنتصبين للبحث في القضية لم يكونوا يعرفون إبراهيم، أو أن الشهداء أرادوا تحقيره بأنّه مجهولا لا يُعرف وإنّما يُدعى أو يُسمّى إبراهيم، أي: ليس هو من الناس المعروفين.

{ **قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ** } أي: على مشاهدة الناس. لعلّهم يشهدون عليه بأنّه الذي توعّد الأصنام بالكيد.

{ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ [62] قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ [63] فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ [64] ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنْطِقُونَ [65] قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ [66] أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ [67] }.

وقع هنا حذف جملة تقتضيها دلالة الاقتضاء. والتقدير: فأتوا به فقالوا: أأنت فعلت هذا بآلهتنا؟

{ **قَالَ بَلْ** } إبطال لأن يكون هو الفاعل لذلك، لأنّ (بل) تقتضي نفي ما دلّ على كلامهم من استفهامه.

{ **فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا** } الخبر مستعمل في معنى التشكيك. جاء بكلام يفيد ظنّه بذلك، حيث لم يبق صحيحا من الأصنام إلّا الكبير.

فإبراهيم في إنكاره أن يكون هو الفاعل أراد إلزامهم الحجّة على انتفاء ألوهية الصنم العظيم، وانتفاء ألوهية الأصنام المحطّمة بطريق الأولى على نيّة أن يكرَّ على ذلك كلّه بالإبطال ويوقنهم بأنّه الذي حطم الأصنام وأنّها لو كانت آلهة لدفعت عن أنفسها ولو كان كبيرهم كبير الآلهة لدفع عن حاشيته.

{ **فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُون** } تهكّم بهم وتعريض بأنّ ما لا ينطق ولا يُعْرِب عن نفسه غير أهل للإلهية.

{ **فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ** } يجوز أن يكون معناه فرجع بعضهم إلى بعض، أي: أقبل بعضهم على خطاب بعض على نحو قوله تعالى { فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ }، وقوله تعالى { وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ }، أي: فقال بعضهم لبعض ذلك.

{ **نُكِسُوا** } مبني للمجهول، أي: نَكَسهم ناكس. ولمّا لم يكن لذلك النكس فاعل إلّا أنفسهم بني الفعل للمجهول فصار بمعنى: انتكسوا على رؤوسهم، وهذا تمثيل لتغيّر رأيهم عن الصواب. فهو من تمثيل

المعقول بالمحسوس والمقصود به التشنيع.
النكس: قلب أعلى الشيء أسفله وأسفله أعلاه، يقال: صُلب اللص منكوسا، أي: مجعولا رأسه مباشرا للأرض، وهو أقبح هيئات المصلوب. ولمّا كان شأن انتصاب جسم الإنسان أن يكون منتصبا على قدميه فإذا نكس صار انتصابه كأنه على رأسه. والمعنى: ثم تغيّرت آراؤهم بعد أن كادوا يعترفون بحجّة إبراهيم فرجعوا إلى المكابرة والانتصار للأصنام.
{ **لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنْطِقُونَ** } أي: أنت تعلم أنّ هؤلاء الأصنام لا تنطق فما أردت بقولك { فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ } إلّا التنصلّ من جريمتك.
{ **قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ** } فلمّا اعترفوا بأنّ الأصنام لا تستطيع النطق انتهز إبراهيم الفرصة لإرشادهم مُفرِّعا على اعترافهم بأنّها لا تنطق استفهاما إنكاريا على عبادتهم إيّاها وزائدا بأنّ تلك الأصنام لا تنفع ولا تضرّ.
{ **أُفٍّ** } اسم فعل دال على الضجر، وهو منقول من صورة تنفس المتضجِّر لضيق نفسه من الغضب. والتنوين يُسمَّى تنوين التنكير والمراد به التعظيم، أي: ضجرا قويّا لكم. وتقدّم في قوله تعالى { فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ } [الإسراء:23].
{ **أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ** } أي: أفٍ لأجلكم وللأصنام التي تعبدونها من دون الله. وإظهار اسم الجلالة لزيادة البيان وتشنيع عبادة غيره.
{ **أَفَلا تَعْقِلُونَ** } فرَّع على الإنكار والتضجّر استفهاما إنكاريا عن عدم تدبّرهم في الأدلة الواضحة من العقل والحس.

{ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ [68] قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ [69] }.

لما غلبهم بالحجّة القاهرة لم يجدوا مَخْلَصًا إلّا بإهلاكه. وكذلك المُبطِل إذا قرعت باطلَه حجّة فسادِه غضِب على المُحِق، ولم يبق له مفزع إلّا مناصبته والتشفي منه، كما فعل المشركون من قريش مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين عجزوا عن المعارضة. واختار قوم إبراهيم أن يكون إهلاكه بالإحراق.
التحريق: مبالغة في الحرق، أي: حرقا متلفا.
وأسند قول الأمر بإحراقه إلى جميعهم لأنّهم قبلوا هذا القول وسألوا ملكهم – النمروذ - إحراق إبراهيم فأمر بإحراقه.
{ **إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ** } تحريض وتلهيب لحميّتهم.
{ **قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ** } مفصولة عن التي قبلها، إمّا لأنّها وقعت كالجواب عن

قولهم { حَرِّقُوهُ } فأشبهت جمل المحاورة، وإمّا لأنّها استئناف عن سؤال ينشأ عن قصة التآمر على الإحراق.

{ **قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي** } تعلّق الإرادة بسلب قوة الإحراق من النار، وأن تكون بردا وسلاما إن كان الكلام على الحقيقة، أو أزال عن الطبيعة البشريّة لإبراهيم التأثّر بحرارة النار، إن كان الكلام على التشبيه البليغ،

أي: كوني كبرد في عدم تحريق الملقى فيك.

{ **بَرْداً وَسَلاماً** } وأمّا كونها سلاما فهو حقيقة لا محالة، وذكر بعد ذكر البرد كالاحتراس لأنّ البرد مؤذ بدوامه ربما إذا اشتد، فعقّب ذكره بذكر السلام لذلك. وعن ابن عباس: لو لم يقل ذلك لأهلكته ببردها.

{ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ } [70].

تسمية عزمهم على إحراقه كيدا يقتضي أنّهم دبّروا ذلك خفية منه. ولعلّ قصدهم من ذلك أن لا يفر من البلد فلا يتمّ الانتصار لآلهتهم.

الأخسر: مبالغة في الخاسر، فهو اسم تفضيل مسلوب المفاضلة.

وتعريف جزأي الجملة يفيد القصر، وهو قصر للمبالغة وكأنهم انفردوا بوصف الأخسرين فلا يصدق هذا الوصف على غيرهم. والمراد بالخسارة الخيبة. وذلك أنّ خيبتهم جُمع لهم بها سلامة إبراهيم من أثر عقابهم وأن صار ما أعدّوه للعقاب معجزة وتأييدا لإبراهيم عليه السلام.

وأمّا شدة الخسارة التي اقتضاها اسم التفضيل فهي بما لحقهم عقب ذلك من العذاب إذ سلّط الله عليهم عذابا كما دلّ عليه قوله تعالى { فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ } [الحج:44]، وقد عُدّ فيهم قوم إبراهيم، والظاهر أنّ الله سلط عليهم الآشوريين فأخذوا بلادهم، وانقرض ملكهم وخلفهم الأشوريون، وقد أثبت التاريخ أن العيلاميين من أهل السوس تسلّطوا على بلاد الكلدان في حياة إبراهيم في حدود سنة (2286 ق م).

{ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ [71] وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلّاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ [72] وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ [73] }.

هذه نجاة ثانية بعد نجاته من ضرّ النار، هي نجاته من الحلول بين قوم عدوّ له كافرين بربّه وربّهم، وهي نجاة من دار الشرك وفساد الاعتقاد. وتلك بأن سهّل الله له المهاجرة من بلاد (الكَلدان) إلى أرض (فلسطين) وهي بلاد (كنعان).

وهجرة إبراهيم هي أوّل هجرة في الأرض لأجل الدِّين. واستصحب إبراهيم معه لوطا ابن أخيه (هاران) لأنّه آمن بما جاء به إبراهيم. وكانت سارة امرأة إبراهيم معهما، وقد فُهمت معيَّتها من أنّ المرء لا يهاجر إلّا ومعه امرأته.

{ **إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ** } هي أرض فلسطين. أي: باركها للناس، يعني الساكنين بها، لأنّ الله خلقها أرض خصب ورخاء عيش. وورد في التوراة أنّ الله قال لإبراهيم: إنّها تفيض لبنا وعسلا.

البركة: وفرة الخير والنفع. وتقدّم في قوله { إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً } [آل عمران:96].

هبة إسحاق: ازدياده له على الكبر وبعد أن يئست زوجه سارة من الولادة.

هبة يعقوب: ازدياده لإسحاق بن إبراهيم في حياة إبراهيم ورؤيته إيّاه كهلا صالحا.

النافلة: الزيادة غير الموعودة، فإنّ إبراهيم سأل ربه فقال { رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ } [الصافات:100]، أراد الولد فوُلد له إسماعيل، كما في [الصافات:101]، ثم وُلد له إسحاق عن غير مسألة كما في [هود:71] فكان نافلة، وولد لإسحاق يعقوب فكان أيضا نافلة.

{ **وَكُلّاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ** } المعنى: وكلّهم جعلنا صالحين. والمراد إبراهيم وإسحاق ويعقوب، لأنّهم الذين كان الحديث الأخير عنهم. وأمّا لوط فإنّما ذكر على طريق المعيّة وسيُخص بالذكر بعد هذه الآية.

{ **وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا** } إعادة فعل (جعل) دون أن يقال: وأئمة يهدون اهتماما بهذا الجعل الشريف، وهو جعلهم هادين للنّاس بعد أن جعلهم صالحين في أنفسهم، فأعيد الفعل ليكون له مزيد استقرار.

الأئمة: جمع إمام وهو القدوة والذي يعمل كعمله. وأصل الإمام المثال الذي يُصنع الشيء على صورته في الخير أو في الشرّ.

{ **يَهْدُونَ** } الجملة في موضع الحال مقيّدة لمعنى الإمامة، أي: أنّهم أئمة هدى وإرشاد.

{ **لِأَمْرِنَا** } أي: كانوا هادين بأمر الله، وهو الوحي زيادة على الجعل.

وهذا الهدي هو تزكية نفوس الناس وإصلاحها وبث الإيمان. ويشمل هذا شؤون الإيمان وشعبه وآدابه.

{ **وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ** } أي: إقامة شرائع الدين بين الناس من العبادات والمعاملات.

{ **وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ** } تخصيصهما بالذكر بعد شمول الخيرات إيّاهما تنويه بشأنهما لأنّ بالصلاة صلاح النفس إذ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وبالزكاة صلاح المجتمع لكفاية عوز المعوزين.

وهذا إشارة إلى أصل الحنيفيّة التي أُرسل بها إبراهيم عليه السلام.

{ **وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ** } ثمّ خصّهم بذكر ما كانوا متميّزين به على بقيّة النّاس من ملازمة العبادة، كما دلّ عليه فعل الكون المفيد تمكّن الوصف. ودلّت الإشارة بتقديم المجرور إلى أنّهم أفردوا الله بالعبادة فلم

يعبدوا غيره قطّ كما تقتضيه رتبة النبوّة من العصمة عن عبادة غير الله من وقت التكليف كما قال يوسف { مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ } [يوسف:38] .

{ وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ [74] وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ [75] }.

{ **وَلُوطاً آتَيْنَاهُ** } قُدّم المفعول اهتماما به لينبّه على أنّه محل العناية إذ كان قد تأخّر ذكر قصّته بعد أن جرى ذكره تبعا لذكر إبراهيم، تنبيها على أنّه بُعث بشريعة خاصة، وإلى قوم غير القوم الذين بُعث إليهم إبراهيم، وإلى أنه كان في مواطن غير المواطن التي حلّ فيها إبراهيم، بخلاف إسحاق ويعقوب في ذلك كله.

وخُصّ لوط بالذكر من بين الرّسل لأنّ أحواله تابعة لأحوال إبراهيم في مقاومة أهل الشرك والفساد.

وإنّما لم يذكر ما عليه قوم لوط من الشرك استغناء بذكر الفواحش الفظيعة التي كانت لهم سنّة، فإنها أثر من الشرك.

الحكم: الحكمة، وهو النبوّة، قال تعالى { وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً }.

العلم: علم الشريعة، والتنوين فيهما للتعظيم.

القرية: سدوم. وقد تقدّم ذكر ذلك في [هود:77]. والمراد من القرية أهلها.

الخبائث: جمع خبيثة بتأويل الفعلة، أي: الشنيعة. .

السَوْء: (بفتح السين وسكون الواو) مصدر، أي: القبيح المكروه. وأمّا السُوء (بضم السين) فهو اسم مصدر، وهو أعمّ لأنّ الوصف بالاسم أضعف من الوصف بالمصدر.

{ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ [76] وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ [77] }.

عطف على { وَلُوطاً } أي: وآتينا نوحا حكما وعلما. لمّا ذُكر أشهر الرسل بمناسبات أُعقب بذكر أوّل الرسل.

{ **وَنُوحًا إِذْ نَادَى** } أي: دعا ربّه أن ينصره على المكذّبين من قومه بدليل قوله تعالى { فَاسْتَجَبْنَا لَهُ }.

{ **مِنْ قَبْلُ** } البناء على الضمّ يدلّ على مضاف إليه مقدّر، أي: من قبل هؤلاء، أي: قبل الأنبياء المذكورين. وفائدة ذكر هذه القبليّة التنبيه على أنّ نصر الله أولياءه سنّته المرادة له تعريضا بالتهديد للمشركين المعاندين ليتذكّروا أنّه لم تشذ عن نصر الله رسله شاذة ولا فاذة.

أهل نوح: أهل بيته عدا أحد بنيه الذي كفر به.

الكرب العظيم: هو الطوفان. والكرب: شدّة حزن النفس بسبب خوف أو حزن.

{ **وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا** } عُدّي { نَصَرْنَاهُ } بحرف (من) لتضمينه معنى المنع والحماية، وهو أبلغ من تعديته بـ (عَلَى) لأنّه يدلّ على نصر قويّ تحصل به المنعة والحماية فلا يناله العدوّ بشيء. وأمّا نصره عليه فلا يدلّ إلّا على المدافعة والمعونة.

{ **إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ** } علّة لنصر نوح، لأنّ نصره يتضمّن إضرار القوم المنصور عليهم.

وإضافة قوم إلى السوء إشارة إلى أنّهم عُرفوا به. والمراد به الكفر والتكبّر والعناد والاستسخار برسولهم.

{ **فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ** } الحال لإفادة أنّه لم ينج من الغرق أحد من القوم ولو كان قريبا من نوح كابنه.

وهذا تهديد لقريش لئلّا يتّكلوا على قرابتهم بمحمد صلى الله عليه وسلم.

روي: أنّه لما قرأ صلى الله عليه وسلم على عتبة بن ربيعة سورة فصلت حتّى بلغ { فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ } فزع عتبة وقال له: ناشدتُك الرحم.

{ **وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ** [78] **فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ** [79] }.

شروع في عداد جمع من الأنبياء الذين لم يكونوا رسلا. وقد روعي في تخصيصهم بالذكر ما اشتهر به كلّ فرد منهم من المزيّة التي أنعم الله بها عليه، بمناسبة ذكر ما فضّل الله به موسى وهارون من إيتاء الكتاب. ولم يكن بعد موسى في بني إسرائيل عصر له ميزة خاصة مثل عصر داود وسليمان إذ تطور أمر جامعة بني إسرائيل من كونها مسوسة بالأنبياء من عهد يوشع بن نون. ثم بما طرأ عليها من الفوضى من بعد موت شمشون إلى قيام شاول حَمِيّ داود، إلّا أنّه كان ملكا قاصرا على قيادة الجند ولم يكن نبيّا، وأمّا تدبير الأمور فكان للأنبياء والقضاة مثل صمويل.

فهذه القضية التي تضمّنتها الآية مظهر من مظاهر العدل ومبالغ تدقيق فقه القضاء، والجمع بين المصالح والتفاصيل بين مراتب الاجتهاد، واختلاف طرق القضاء بالحق، فلذلك خُصّ داود وسليمان بشيء من تفصيل أخبارهما.

{ **وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ** } عطف على { وَنُوحًا }، أي: وآتينا داود وسليمان حكما وعلما إذ يحكمان.

داود: أوّل من جُمعت له النبوّة والملك في أنبياء بني إسرائيل. وبلغ ملك إسرائيل في مدّة داود حدّا عظيما من البأس والقوّة وإخضاع الأعداء. وأوتي داود الزبور فيه حكمة وعظة فكان تكملة للتوراة التي كانت تعليم شريعة، فاستكمل زمن داود الحكمة ورقائق الكلام.

سليمان: أوتي الحكمة وسُخِّر له أهل الصنائع والإبداع فاستكملت دولة إسرائيل في زمانه عظمة النظام والثروة والحكمة والتجارة، فكان في قصّتهما مثل.

{ **إِذْ يَحْكُمَانِ** } متعلق بـ { آتَيْنَا } المحذوف، أي: كان وقت حكمهما في قضية الحرث مظهرا من مظاهر حكمهما وعلمهما.

خلاصة القصّة: أنّ داود جلس للقضاء بين النّاس، وكان ابنه سليمان حينئذ يافعا فكان يجلس خارج باب بيت القضاء. فاختصم إلى داود رجلان أحدهما عامل في حرث لجماعة في زرع أو كرم، والآخر راعي غنم لجماعة، فدخلت الغنم الحرث ليلا فأفسدت ما فيه فقضى داود أن تُعطى الغنم لأصحاب الحرث إذ كان ثمن تلك الغنم يساوي ثمن ما تلف من ذلك الحرث، فلمّا حكم بذلك وخرج الخصمان فقُصَّ أمرهما على سليمان، فقال: لو كنت أنا قاضيا لحكمت بغير هذا. فبلغ ذلك داود فأحضره وقال له: بماذا كنت تقضي؟ قال: إني رأيت ما هو أرفق بالجميع. قال: وما هو؟ قال: أن يأخذ أصحاب الغنم الحرث يقوم عليه عاملهم ويصلحه عاما كاملا حتّى يعود كما كان ويردّه إلى أصحابه، وأن يأخذ أصحاب الحرث الغنم تسلّم لراعيهم فينتفعوا من ألبانها وأصوافها ونسلها في تلك المدّة، فإذا كمل الحرث وعاد إلى حاله الأوّل صُرف إلى كل فريق ما كان له. فقال داود: وفِّقت يا بنيّ. وقضى بينهما بذلك.

{ **نَفَشَتْ فِيهِ** } دخلته ليلا، قالوا: والنفش الانفلات للرعي ليلا.

{ **غَنَمُ الْقَوْمِ** } أضيف الغنم إلى القوم لأنّها كانت لجماعة من الناس. وكذلك كان الحرث شركة بين أناس. وأمّا ما ورد في الروايات الأخرى من ذكر رجلين فإنّما يُحمل على أنّ اللذين حضرا للخصومة هما راعي الغنم وعامل الحرث.

وقد كان قضاء داود حقا لأنه مستند إلى غرم الأضرار على المتسببين في إهمال الغنم، وأصل الغرم أن يكون تعويضا ناجزا فكان ذلك القضاء حقا. وحسبك أنّه موافق لما جاءت به السنّة في إفساد المواشي.

وكان **حكم سليمان** حقا لأنّه مستند إلى إعطاء الحق لذويه مع إرفاق المحقوقين باستيفاء مالهم إلى حين، فهو **يشبه الصلح**. ولعل أصحاب الغنم لم يكن لهم سواها كما هو الغالب، وقد رضي الخصمان بحكم سليمان لأنّ الخصمين كانا من أهل الإنصاف لا من أهل الاعتساف، ولو لم يرضيا لكان المصير إلى حكم داود إذ ليس الإرفاق بواجب.

وتشبه هذه القضية قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الزبير والأنصاري في السقي من ماء شراج الحرة إذ قضى أوّل مرة بأن يُمسك الزبير الماء حتّى يبلغ الكعبين ثم يرسل الماء إلى جاره، فلمّا لم يرض الأنصاري قضى رسول الله بأن يمسك الزبير الماء حتّى يبلغ الجدْر ثم يرسل، فاستوفى للزبير حقّه. وإنّما ابتدأ النبيّ صلى الله عليه وسلم بالأرفق ثم لمّا لم يرض أحد الخصمين قضى بينهما بالفصل، فكان قضاء النبي مبتدأ بأفضل الوجهين على نحو قضاء سليمان.

{ **فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ** } أي: أنّه ألهمه وجها آخر في القضاء أرجح، لما تقتضيه صيغة التفهيم من شدّة

حصول الفعل أكثر من صيغة الإفهام، فدلّ على أنّ فهم سليمان في القضية كان أعمق. وذلك أنّه أرفق بهما.

والله تعالى أراد أن يُظهر علم سليمان عند أبيه ليزداد سروره به، وليتعزّى على من فقده من أبنائه قبل ميلاد سليمان.

قال ابن عطية وابن العربي: وفي بقية القصّة ما يصلح لأن يكون أصلا في رجوع الحاكم عن حكمه، وذلك غفلة منهما، لأنّ ذلك لم تتضمّنه الآية ولا جاءت به السنة الصحيحة فلا ينبغي أن يكون تأصيلا.

{ **وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً** } تذييل للاحتراس لدفع توهّم أنّ حكم داود كان خطأ أو جورا وإنّما كان حكم سليمان أصوب. وهذه الآية أصل في اختلاف الاجتهاد، وفي العمل بالراجح، وفي مراتب الترجيح، وفي عذر المجتهد إذا أخطأ الاجتهاد أو لم يهتد إلى المعارض.

ترجمة داود عليه السلام تقدّمت عند قوله تعالى { وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً } [النساء:163]، وقوله تعالى { وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ } [الأنعام:84].

ترجمة سليمان عليه السلام تقدّمت عند قوله { وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ } [البقرة:102].

{ **وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ** } هذه مزية اختص بها داود هي تسخير الجبال والطير يسبّحن معه. فيكون المعنى: أنّ داود كان إذا سبّح بين الجبال سَمع الجبال تُسبِّح مثل تسبيحه. وهذا معنى التأويب في قوله تعالى { يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ } [سبأ:10]، إذ التأويب الترجيع، مشتقّ من الأوب وهو الرجوع. وكذلك الطير، وتلك كلّها معجزة له.

ويتعيّن أن يكون هذا التسخير حاصلا له بعد أن أوتي النبوّة كما يقتضيه سياق تعداده في عداد ما أوتيه الأنبياء من دلائل الكرامة على الله، ولا يُعرف لداود بعد أن أوتي النبوّة مزاولة صعود الجبال ولا الرعي فيها وقد كان قبل النبوة راعيا. فلعلّ هذا التسخير كان أيام سياحته في جبل برية (زيف) الذي به كهف كان يأوي إليه داود مع أصحابه الملتفين حوله في تلك السياحة أيام خروجه فارا من الملك شاول (طالوت) حين تنكّر له شاول بوشاية بعض حسّاد داود، كما حُكي في [سفر صمويل الأول،الإصحاحين: 24/23].

وفي هذا التسخير للجبال والطير مع كونه معجزة له كرامة وعناية من الله به إذ آنسه بتلك الأصوات في وحدته في الجبال وبعده عن أهله وبلده.

{ **وَكُنَّا فَاعِلِينَ** } معترضة بين الإخبار عما أوتيه داود. وفاعل هنا بمعنى قادر، لإزالة استبعاد تسبيح الجبال والطير معه. وفي اجتلاب فعل الكون إشارة إلى أن ذلك شأن ثابت لله من قبل، أي: وكنا قادرين على ذلك.

{ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ } [80].

وامتن الله بصنعة علّمها داود فانتفع بها الناس وهي صنعة الدروع، أي: دروع السرد. قيل كانت الدروع من قبل داود ذات حراشف من الحديد، فكانت تثقل على الكُماة إذا لبسوها فألهم الله داود صنع دروع الحلق الدقيقة فهي أخف محملا وأحسن وقاية.

اللَبوس (بفتح اللام) أصله اسم لكلّ ما يُلبس فهو فعول بمعنى مفعول مثل رسول. وغلب إطلاقه على ما يلبس من لامة الحرب من الحديد، وهو الدرع فلا يطلق على الدرع لباس ويطلق عليها لبوس.

{ لِتُحْصِنَكُمْ } قرأ ابن عامر، وحفص عن عاصم، وأبو جعفر بالمثناة الفوقية على تأويل معنى { لَبُوسٍ } بالدرع، وهي مؤنّثة. وقرأ الجمهور { لِيُحْصِنَكُمْ } بالمثناة التحتية على ظاهر إضمار لفظ { لَبُوسٍ } . وقرأ أبو بكر عن عاصم، ورويس عن يعقوب { لِنُحْصِنَكُمْ }.

وإسناد الإحصان إلى اللبوس إسناد مجازي. وضمائر الخطاب موجّهة إلى المشركين لأنّهم أهملوا شكر نعم الله تعالى التي منها هذه النعمة.

الإحصان: الوقاية والحماية.

البأس: الحرب.

{ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ } الاستفهام مستعمل في استبطاء عدم الشكر ومُكنّى به عن الأمر بالشكر. والعدول عن الجملة الفعلية إلى الاسمية على ما تقتضيه الاسمية من معنى الثبات والاستمرار.

{ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ } [81].

عطف على جملة { وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ } بمناسبة تسخير خارق للعادة في كلتا القصّتين معجزة للنبيين عليهما السلام. والأرض التي بارك الله فيها هي أرض الشام.

تسخير الريح: تسخيرها لما تصلح له، وهو سير المراكب في البحر.

{ عَاصِفَةً } بمعنى قوية. ووصفها في سورة ص بأنها { رُخَاءً } في قوله تعالى { فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ} [ص:36]. و**الرخاء**: الليّنة المناسبة لسير الفلك.

وذلك باختلاف الأحوال فإذا أراد الإسراع في السير سارت { عَاصِفَةً } وإذا أراد اللين سارت { رُخَاءً }، والمقام قرينة على أنّ المراد: المواتاة لإرادة سليمان كما دلّ عليه قوله تعالى { تَجْرِي بِأَمْرِهِ }.

{ بِأَمْرِهِ } عن رغبته وما يلائم أسفار سفائنه، وهي رياح موسميّة منتظمة سخرها الله له.

<u>أمر سليمان</u>: دعاؤه الله أن يجري الريح كما يريد ويرغب.

{ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ } معترضة بين الجمل المسوقة لذكر عناية الله بسليمان. والمناسبة أنّ تسخير

الريح لمصالح سليمان أثر من آثار علم الله بمختلف أحوال الأمم والأقاليم وما هو منها لائق بمصلحة سليمان فيجري الأمور على ما تقتضيه الحكمة التي أرادها سبحانه إذ قال { وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ }.

{ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ } [82].

هذا ذكر معجزة وكرامة لسليمان. وهي أن سخّر إليه من القوى المجرّدة من طوائف الجن والشياطين التي تتأتّى لها معرفة الأعمال العظيمة من غوص البحار لاستخراج اللؤلؤ والمرجان ومن أعمال أخرى أُجملت في قوله تعالى { وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ }. وفُصّل بعضها في آيات أخرى كقوله تعالى { يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ } [سبأ:13].

{ **وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ** } أي: جعلهم منقادين له وقائمين بخدمته دون عناء له، وحال دونهم ودون الناس لئلا يؤذوهم.

ولمّا توفّي سليمان لم يُسخِّر الله الجنّ لغيره استجابة لدعوته إذ قال { وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي } ولما مكَّن الله النبيّ محمدا صلى الله عليه وسلم من الجنّي الذي كاد أن يفسد عليه صلاته وهم بأن يربطه، ذكر دعوة سليمان فأطلقه فجمع الله له بين التمكين من الجنّ وبين تحقيق رغبة سليمان.

{ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ [83] **فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ** [84] }.

عطف على { دَاودَ وَسُلَيمَانَ } أي: وآتينا أيوب حكما وعلما إذ نادى ربّه. وتخصيصه بالذكر مع من ذُكر من الأنبياء لما اختصّ به من الصبر حتّى كان مثلا فيه.

{ **أَيُّوبَ** } تقدّمت ترجمته في [الأنعام:84].

وأمّا القصة التي أشارت إليها هذه الآية فهي المفصّلة في السفر الخاص بأيوب من أسفار النبيين الإسرائيلية. وحاصلها أنّه كان نبيّا وذا ثروة واسعة وعائلة صالحة متواصلة، ثم ابتلي بإصابات لحقت أمواله متتابعة فأتت عليها، وفقد أبناءه السبعة وبناته الثلاث في يوم واحد، فتلقّى ذلك بالصبر والتسليم. ثم ابتلي بإصابة قروح في جسده وتلقّى ذلك كلّه بصبر وحكمة وهو يبتهل إلى الله بالتمجيد والدعاء بكشف الضرّ. وتلقّى رثاء أصحابه لحاله بكلام عزيز الحكمة والمعرفة بالله، وأوحى الله إليه بمواعظ. ثمّ أعاد عليه صحته وأخلفه مالا أكثر من ماله وولدت له زوجه أولادا وبنات بعدد من هلكوا له من قبل.

وقد ذُكرت قصّته بأبسط من هنا في [ص:41-47]. ولأهل القصص فيها مبالغات لا تليق بمقام النبوّة.

{ **أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ** } بفتح الهمزة على تقدير باء الجر، أي: نادى ربه بأنّي مسّني الضرّ.

المسّ: الإصابة الخفيفة. والتعبير به حكاية لما سلكه أيوب في دعائه من الأدب مع الله إذ جعل ما حلّ به

من الضرّ كالمسّ الخفيف.

الضُرّ: (بضم الضاد) ما يتضرّر به المرء في جسده من مرض أو هزل، أو في ماله من نقص ونحوه.

{ **وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** } التعريض بطلب كشف الضرّ عنه بدون سؤال فجعل وصف نفسه بما يقتضي الرحمة له، ووصف ربّه بالأرحمية تعريضا بسؤاله، كما قال أميّة بن أبي الصلت:

إذا أثنى عليك المرء يوما ... كفاه عن تعرُّضه الثناءُ.

وكون الله تعالى أرحم الراحمين لأنّ رحمته أكمل الرحمات لأنّ كلّ من رحم غيره فإمّا أن يرحمه طلبا للثناء في الدنيا أو للثواب في الآخرة أو دفعا للرقة العارضة للنفس من مشاهدة من تحقّ الرحمة له فلم يخل من قصد نفع لنفسه، وأمّا رحمته تعالى عباده فهي خلية عن استجلاب فائدة لذاته العلية.

{ **فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ** } السين والتاء للمبالغة في الإجابة، أي: استجبنا دعوته العرضيّة بإثر كلامه وكشفنا ما به من ضرّ، إشارة إلى سرعة كشف الضرّ عنه، والتعقيب في كل شيء بحسبه. وهو ما تقتضيه العادة في البرء وحصول الرزق وولادة الأولاد.

الكشف: مستعمل في الإزالة السريعة. شُبّهت إزالة الأمراض والأضرار المتمكّنة التي يُعتاد أنّها لا تزول إلّا بطول بإزالة الغطاء عن الشيء في السرعة.

{ **مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ** } الموصول مقصود منه الإبهام. ثم تفسيره بـ { مِنْ } البيانية لقصد تهويل ذلك الضرّ لكثرة أنواعه بحيث يطول عدّها. ومثله قوله تعالى { وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ } إشارة إلى تكثيرها.

أي: كشفنا ما حل به من ضرّ في جسده وماله، فأعيدت صحته وثروته.

الإيتاء: الإعطاء، أي: أعطيناه أهله، وأهل الرجل أهل بيته وقرابته. وفُهم من تعريف الأهل بالإضافة أنّ الإيتاء إرجاع ما سُلب منه من أهل، يعني بموت أولاده وبناته، أي: مثل أهله، بأن رزق أولادا بعدد ما فقد.

{ **وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ** } وزاده مثلهم فيكون قد رزق أربعة عشر ابنا وست بنات من زوجه.

{ **رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ** } انتصب { رَحْمَةً } على المفعول لأجله. ووصفت الرحمة بأنّها من عند الله تنويها بشأنها.

الذكرى: التذكير بما هو مظنّة أن يُنسى أو يُغفل عنه. وهو معطوف على رحمة فهو مفعول لأجله، أي: وتنبيها للعابدين بأن الله لا يترك عنايته بهم. وبما في { العَابِدِينَ } من العموم صارت الجملة تذييلا.

{ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ [85] وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ [86] }.

عطف على { وَأَيُّوبَ }، أي: وآتينا إسماعيل وإدريس وذا الكفل حكما وعلما.

وجمع هؤلاء الثلاثة في سلك واحد لإشراكهم في خصيصية الصبر كما أشار إليه قوله تعالى { كُلٌّ مِنَ

الصَّابِرِينَ } . جرى ذلك لمناسبة ذكر المثل الأشهر في الصبر وهو أيوب.

فأمّا صبر إسماعيل عليه السلام فقد تقرّر بصبره على الرضى بالذبح حين قال له إبراهيم { إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ } فقال { سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ } [الصافات:102]، وتقرّر بسكناه بواد غير ذي زرع امتثالا لأمر أبيه المتلقَّى من الله تعالى. وتقدّمت ترجمة إسماعيل في [البقرة:125].

وأمّا إدريس فهو اسم (أخنوخ) على أرجح الأقوال. وقد ذُكر أخنوخ في التوراة في سفر التكوين جَدًّا لنوح. وتقدّمت ترجمته في [مريم:56] ووصف هنالك بأنّه صدِّيق نبيّ. والظاهر أنّ صبره كان على تتبّع الحكمة والعلوم وما لقي في رحلاته من المتاعب. وقد عُدّت من صبره قصص، منها أنّه كان يترك الطعام والنوم مدّة طويلة لتصفو نفسه للاهتداء إلى الحكمة والعلم.

وأمّا ذو الكفل فهو نبيّ أُختلف في تعيينه، فقيل: هو إلياس المُسمّى في كتب اليهود إيليا.

وقيل: هو خليفة اليسع في نبوّة بني إسرائيل. والظاهر أنّه (عُوبديا) الذي له كتاب من كتب أنبياء اليهود وهو الكتاب الرابع من الكتب الاثني عشر وتعرف بكتب الأنبياء الصغار.

الكِفْل: (بكسر الكاف وسكون الفاء) أصله النصيب من شيء، مشتقّ من كَفَلَ إذ تعهَّد، لُقِّب بهذا لأنّه تعهَّد بأمر بني إسرائيل لليسع. وذلك أنّ (اليسع) لمّا كبر أراد أن يستخلف خليفة على بني إسرائيل فقال: من يتكفّل لي بثلاث أستخلفه: أن يصوم النهار، ويقوم الليل، ولا يغضب. فلم يتكفّل له بذلك إلّا شاب اسمه (عُوبديا)، وأنّه ثبت على ما تكفّل به فكان لذلك من أفضل الصابرين. وقد عُدَّ (عُوبديا) من أنبياء بني إسرائيل على إجمال في خبره [سفر الملوك الأول، الإصحاح: 18. ورؤيا عوبديا صفحة 891 من الكتاب المقدس].

وروى العبدري عن أبي موسى الأشعري ومجاهد أنّ ذا الكفل لم يكن نبيّا.

وتقدّمت ترجمة إلياس واليسع في [الأنعام:86/85].

{ **إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ** } تعليل لإدخالهم في الرحمة، وتذييل للكلام يفيد أن تلك سنة الله مع جميع الصالحين.

{ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ [87] فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ [88] }.

عطف على { وَذَا الْكِفْلِ }. وذِكر ذي النون في جملة من خُصُّوا بالذكر من الأنبياء لأجل ما قَصَّته من الآيات في الالتجاء إلى الله والندم على ما صدر منه من الجزع واستجابة الله تعالى له.

{ **ذَا النُّونِ** } وصف، أي: صاحب الحوت. لُقِّب به يونس بن متّى عليه السلام، وتقدّمت ترجمته في [الأنعام:86]، وتقدّمت قصّته مع قومه في [يونس:98].

{ **إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً** } قيل: خروجه غضبان من قومه أهل (نينوى) إذ أبوا أن يؤمنوا بما أرسل إليهم به وهم غاضبون من دعوته، فالمغاضبة مفاعلة. وهذا مقتضى المروي عن ابن عباس.

وقيل: إنّه أوحي إليه أنّ العذاب نازل بهم بعد مدّة فلمّا أشرفت المدّة على الانقضاء آمنوا فخرج غضبان من عدم تحقّق ما أنذرهم به، فالمغاضبة حينئذ للمبالغة في الغضب لأنّه غضب غريب. وهذا مقتضى المروي عن ابن مسعود والحسن والشعبي وسعيد بن جبير، وروي عن ابن عباس أيضا واختاره ابن جرير.

{ **فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** } يقتضي أنّه خرج خروجا غير مأذون له فيه من الله. ظن أنّه إذا ابتعد عن المدينة المرسل إليها يرسل الله غيره إليهم. أي: ظن أن لن نؤاخذه بخروجه من بين قومه دون إذن. ونُقل هذا عن مجاهد وقتادة والضحّاك والكلبي وهو رواية عن ابن عباس واختاره الفراء والزجّاج. وعلى هذا يكون يونس اجتهد وأخطأ، فالتفريع تفريع خطور هذا الظن في نفسه بعد أن كان الخروج منه بادرة بدافع الغضب من غير تأمّل في لوازمه وعواقبه. قالوا: وكان في طبعه ضيق الصدر.

{ **نَقْدِرَ عَلَيْهِ** } قيل: نقدر مضارع قَدَرَ عليه أمرا بمعنى ضيَّق كقوله تعالى { اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ }، وقوله تعالى { وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ }. أي: ظنّ أن لن نضيّق عليه تحتيم الإقامة مع القوم الذين أرسل إليهم أو تحتيم قيامه بتبليغ الرسالة، وأنّه إذا خرج من ذلك المكان سقط تعلّق تكليف التبليغ عنه اجتهادا منه، فعوتب بما حلّ به، إذ كان عليه أن يستعلم ربّه عما يريد فعله.

وقيل: معنى الكلام على الاستفهام حذفت همزته. والتقدير: أفظنّ أن لن نقدر عليه؟ ونسب إلى سليمان بن المعتمر أو أبي المعتمر. قال منذر بن سعيد في تفسيره : وقد قرئ به.

وعندي فيه تأويل آخر: أنّه ظنّ وهو في جوف الحوت أنّ الله غير مخلّصه في بطن الحوت لأنّه رأى ذلك مستحيلا عادة، وعلى هذا يكون التعقيب بحسب الواقعة، أي: ظنّ بعد أن ابتلعه الحوت.

وأمّا نداؤه ربه فذلك توبة صدرت منه عن تقصيره، ولذلك قال { إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ }.

{ **أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ** } تقديمه الاعتراف بالتوحيد مع التسبيح كنَّى به عن انفراد الله تعالى بالتدبير وقدرته على كلّ شيء.

الظلمات: جمع ظلمة. والمراد: ظلمة الليل، وظلمة قعر البحر، وظلمة بطن الحوت. وقيل: الظلمات مبالغة في شدّة الظلمة كقوله تعالى { يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ }. وتقدّم أنّ الظلمة لم ترد مفردة في القرآن.

الاستجابة: مبالغة في الإجابة، وهي إجابة توبته ممّا فرط منه. و**الإنجاء** وقع حين الاستجابة إذ الصحيح أنّه ما بقي في بطن الحوت إلّا ساعة قليلة. وإنجاؤه هو بتقدير وتكوين في مزاج الحوت حتّى خرج الحوت إلى قرب الشاطئ فتقيأه فخرج يسبح إلى الشاطئ.

وهذا الحوت هو من صنف الحوت العظيم الذي يبتلع الأشياء الضخمة ولا يقضمها بأسنانه.

{ **وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ** } تذييل. والإشارة بـ { كَذَلِكَ } إلى الإنجاء الذي أُنجِي به يونس، أي: مثل ذلك الإنجاء نُنجّي المؤمنين من غموم يحسب من يقع فيها أنّ نجاته عسيرة. وفي هذا تعريض للمشركين من العرب بأنّ الله منجي المؤمنين من الغم والنكد الذي يلاقونه من سوء معاملة المشركين إيّاهم في بلادهم.

{ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ [89] فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ [90] }.

{ **وَزَكَرِيَّا** } القول في عطفها كالقول في نظائره السابقة. وقصّة زكريّا آية من آيات الله في عنايته بأوليائه المنقطعين لعبادته فخُصَّ بالذكر لذلك.

{ **لا تَذَرْنِي فَرْداً** } مبيّنة لجملة { نَادَى رَبَّهُ }. وأطلق الفرد على من لا ولد له تشبيها له بالمنفرد الذي لا قرين له، قال تعالى { وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً } [مريم:95]، ويقال مثله (الواحد) للذي لا رفيق له.

{ **وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ** } ثناء لتمهيد الإجابة، أي: أنت الوارث الحقّ فاقض علي من صفتك العليّة شيئا. وقد شاع في الكتاب والسنّة ذكر صفة من صفات الله عند سؤاله إعطاء ما هو من جنسها.

ودلّ ذكر ذلك على أنّه سأل الولد لأجل أن يرثه كما في قوله { يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ } [مريم:6]. حذفت هاته الجملة لدلالة المحكي هنا عليها. والتقدير: يرثني مالي وعلمي وأنت ترث نفسي كلّها بالمصير إليك مصيرا أبديا، فأرثك خير إرث لأنّه أشمل وأبقى، وأنت خير الوارثين في تحقّق هذا الوصف.

{ **وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ** } جعلها صالحة للحمل بعد أن كانت عاقرا. وتقدّم ذكر زكريا في [آل عمران:37]، وذكر زوجه في [مريم:5].

{ **إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً** } جملة واقعة موقع التعليل للجمل المتقدّمة في الثناء على الأنبياء المذكورين، وما أوتوه من النصر، واستجابة الدعوات، والإنجاء من كيد الأعداء، وما تبع ذلك، ابتداء من قوله تعالى { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً } [48].

{ **إِنَّهُمْ** } حرف التأكيد مفيد معنى التعليل والتسبّب، أي: ما استحقّوا ما أوتوه إلّا لمبادرتهم إلى مسالك الخير وجِدِّهم في تحصيلها.

{ **كَانُوا** } أفاد فعل الكون أنّ ذلك كان دأبهم.

المسارعة: مستعارة للحرص وصرف الهمّة والجِدِّ للخيرات، أي: لفعلها.

الخيرات: جمع خَيْر (بفتح الخاء وسكون الياء) وهو جمع بالألف والتاء على خلاف القياس. والخير ضدّ الشر، فهو ما فيه نفع. وقد تقدّم الكلام فيها في قوله تعالى { وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ } [التوبة:88].

{ **وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً** } أي: أنّهم يدعون الله رغبة في ثوابه ورهبة من غضبه، كقوله تعالى { يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ }.

الرغَب والرهَب: (بفتح ثانيهما) مصدران من رغب ورهب. وهما وصف لـ { يَدْعُونَنَا } لبيان نوع الدعاء بما هو أعم في جنسه، أو يُقدّر مضاف، أي: ذوي رغب ورهب.

{ **وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ** } ذكر فعل الكون هنا مثل ذكره في قوله تعالى { كَانُوا يُسَارِعُونَ }

الخشوع: خوف القلب بالتفكّر دون اضطراب الأعضاء الظاهرة.

{ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ } [91].

لمّا انتهى التنويه بفضل رجال من الأنبياء أُعقب بالثناء على امرأة نبيّة إشارة إلى أنّ أسباب الفضل غير محجورة، كما قال الله تعالى { إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ }. هذه هي مريم ابنة عمران.

{ **وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا** } عُبّر عنها بالموصول دلالة على أنّها قد اشتهرت بمضمون الصلة كما هو شأن طريق الموصوليّة غالبا، وأيضا لما في الصلة من معنى تسفيه اليهود الذين تقوّلوا عنها إفكا وزورا.

{ **فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا** } في حكم الصلة أيضا، فكأنه قيل: والتي نفخنا فيها من روحنا، لأنّ كلا الأمرين موجب ثناء. وقد أراد الله إكرامها بأن تكون مظهر عظيم قدرته في مخالفة السنّة البشريّة لحصول حمل أنثى دون قربان ذكر، ليرى النّاس مثالا من التكوين الأوّل، كما أشار إليه قوله تعالى { إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }.

النفخ: حقيقته إخراج هواء الفم بتضييق الشفتين. وأطلق هنا تمثيلا لإلقاء روح التكوين للنسل في رحم المرأة دفعة واحدة بدون الوسائل المعتادة تشبيها لهيئة التكوين السريع بهيئة النفخ.

{ **فِيهَا** } الظرفية المفادة بـ (فِي) كون مريم ظرفا لحلول الروح المنفوخ فيها إذ كانت وعاءه. ولم قيل (فِيهِ) للإشارة إلى أنّ الحمل الذي كُوّن في رحمها حمل من غير الطريق المعتاد.

{ **مِنْ** } تبعيضي، والمنفوخ روح لأنّه جُعل بعض روح الله، أي: بعض جنس الروح الذي به يجعل الله الأجسام ذات حياة.

الروح: هو القوة التي بها الحياة، قال تعالى { فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي }.

وإضافة الروح إلى الله إضافة تشريف لأنّه روح مبعوث من لدن الله تعالى.

{ **وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ** } جعلها وابنها آية هو من أسباب تشريفهما والتنويه بهما إذ جعلهما الله وسيلة لليقين بقدرته ومعجزات أنبيائه كما في قوله تعالى { وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً } [المؤمنون:50] .

وبهذا الاعتبار حصل تشريف بعض المخلوقات فأقسم الله بها نحو { وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى } [الليل:1].

{ **آيَةً** } إفراد الآية لأنّه أريد بها الجنس. وحيث كان المذكور ذاتين فأخبر عنهما بأنّهما آية عُلم أنّ كلّ واحد آية خاصة.

{ **إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ** } [92].

الخطاب للأنبياء المذكورين في الآيات السابقة. والوجه حينئذ أن يكون القول المحذوف مصوغا في صيغة اسم الفاعل منصوبا على الحال. والتقدير: قائلين لهم: إنّ هذه أمتكم، إلى آخره.

فصيغة الجمع مراد بها التوزيع، والتأكيد لمجرّد الاهتمام بالخبر ليتلقّاه الأنبياء بقوّة عزم. وهو وإن كان خطابا للرّسل فإنّ ممّا يُقصد منه تبليغ ذلك لأتباعهم ليعلموا أنّ دين الله واحد.

ويجوز أن تكون الجملة استئنافا والخطاب لأمّة محمد صلى الله عليه وسلم، أي: أنّ هذه الملة، وهي الإسلام، هي ملّة واحدة لسائر الرسل. أي: أصولها واحدة كقوله تعالى { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً }. والتأكيد على هذا لردّ إنكار من ينكر ذلك مثل المشركين.

الأمّة: هنا بمعنى الملّة كقوله تعالى { قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ }. وأصلها الجماعة التي حالها واحد.

{ **أُمَّةً وَاحِدَةً** } حال من { أُمَّتُكُمْ } مؤكِّدة لما أفادته الإشارة التي هي العامل في صاحب الحال. وأفادت التمييز والتشخيص لحال الشرائع التي عليها الرسل أو التي دعا إليها محمد صلى الله عليه وسلم.

ومعنى كونها واحدة أنّها توحِّد الله تعالى فليس دونه إله. وهذا حال شرائع التوحيد وبخلافها أديان الشرك فإنّها لتعدُّد آلهتها تتشعب إلى عدّة أديان.

{ **وَأَنَا رَبُّكُمْ** } أفاد الحصر، أي: أنا لا غيري، بقرينة السياق والعطف على { أُمَّةً وَاحِدَةً }.

{ **فَاعْبُدُونِ** } تفريع، أي: فاعبدون دون غيري. وهذا الأمر مراعى فيه ابتداء حال السامعين من أمم الرسل، فالمراد من العبادة التوحيد بالعبادة والمحافظة عليها.

{ **وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ** } [93].

عطف على الآية السابقة. وضمائر الغيبة عائدة إلى مفهوم من المقام وهم الذين من الشأن التحدّث عنهم في القرآن المكي بمثل هذه المذام، وهم المشركون. ومثل هذه الضمائر المراد منها المشركون كثير في القرآن. ويجوز أن تكون الضمائر عائدة إلى أمم الرسل.

فعلى الوجه الأول الذي قدّمناه في ضمائر الخطاب في قوله تعالى { إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً } يكون الكلام انتقالا من الحكاية عن الرسل إلى الحكاية عن حال أممهم في حياتهم أو الذين جاؤوا بعدهم مثل اليهود والنصارى، إذ نقضوا وصايا أنبيائهم. وعلى الوجه الثاني تكون ضمائر الغيبة التفاتا.

التقطّع: مطاوع قطع، أي: تفرّقوا. وأسند التقطّع إليهم لأنّهم جعلوا أنفسهم فرقا فعبدوا آلهة متعدّدة واتخذت كل قبيلة لنفسها إلها من الأصنام مع الله، فشُبّه فعلهم ذلك بالتقطّع.

الأمر: الحال. والمراد به الدين كما دلّ عليه قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ } [الأنعام:159].

{ **بَيْنَهُمْ** } زيادة لإفادة أنّهم تعاونوا وتظاهروا على تقطّع أمرهم. فرُبَّ قبيلة اتخذت صنما لم تكن تعبده

قبيلة أخرى ثم سوَّلوا لجيرتهم وأحلافهم أن يعبدوه فألحقوه بآلهتهم. وهكذا حتّى كان في الكعبة عدة أصنام وتماثيل لأنّ الكعبة مقصودة لجميع قبائل العرب. وقد روي أنّ عمرو بن لُحي الملقب بخزاعة هو الذي نقل الأصنام إلى العرب.

{ **كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ** } استئناف بيانيّ لجواب سؤال يجيش في نفس سامع حول معرفة عاقبة هذا التقطّع. والكلام يفيد تعريضا بالتهديد.

{ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ } [94].

فُرِّع على الوعيد المُعَرَّض به في قوله تعالى { كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ } تفريع بديع من بيان صفة ما تُوعِّدوا به، وذلك من قوله تعالى { فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا }.

وقُدّم وعد المؤمنين بجزاء أعمالهم الصالحة اهتماما به، ولوقوعه عقب الوعيد تعجيلا لمسرّة المؤمنين قبل أن يسمعوا قوارع تفصيل الوعيد، فليس هو مقصودا من التفريع، ولكنّه يشبه الاستطراد تنويها بالمؤمنين كما سيُعتنى بهم عقب تفصيل وعيد الكافرين بقوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى } إلى آخر السورة.

الكفران: مصدر أصله عدم الاعتراف بالإحسان، ضدّ الشكران، واستُعمل هنا في حرمان الجزاء على العمل الصالح على طريقة المجاز، لأنّ الاعتراف بالخير يستلزم الجزاء عليه عرفا كقوله تعالى { وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ } . فالمعنى: أنّهم يعطون جزاء أعمالهم الصالحة.

{ **وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ** } تأكيد للاهتمام به. و**الكتابة** كناية عن تحقّقه وعدم إضاعته، لأنّ الاعتناء بإيقاع الشيء يستلزم الحفظ عن إهماله وعن إنكاره، ومن وسائل ذلك كتابته ليذكر ولو طالت المدة.

والكتابة مستعملة في معناها الأصلي كما جاءت بذلك الظواهر من الكتاب والسنّة.

{ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ } [95].

جملة معترضة، والمراد بالقرية أهلها. وهذا يعمّ كلّ قرية من قرى الكفر.

الحرام: الشيء الممنوع.

{ **وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ** } أي: ممنوع على قرية قدّرنا إهلاكها أن لا يرجعوا، فـ { حَرَامٌ } خبر مقدّم و { أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ } في قوة مصدر مبتدأ.

<u>وقيل</u>: { حَرَامٌ } اسم مشترك بين الممنوع والواجب.

<u>وقيل</u>: (حرام الله) يمين على لغة العُقيليين، أي: ويمين منّا على قرية، فحرف (على) داخل على المسلّطة عليه اليمين، كما تقول: عزمت عليك، وكما يقال: حلفت على فلان أن لا ينطق.

وقوله تعالى { لا يَرْجِعُونَ } على هذا الوجه معناه: لا يرجعون إلى الإيمان، لأنّ الله علم ذلك منهم فقدّر إهلاكهم.

{ **أَهْلَكْنَاهَا** } مستعمل في إرادة وقوع الفعل، أي: أردنا إهلاكها.

الرجوع: في الحقيقة العود إلى ما كان فيه المرء.

يحتمل أنّ المراد رجوعهم عن الكفر فيتعيّن أن تكون (لا) في قوله تعالى { لا يَرْجِعُونَ } زائدة للتوكيد، لأنّ { حَرَامٌ } في معنى النفي و(لا) نافية ونفي النفي إثبات، فيصير المعنى: منع عدم رجوعهم إلى الإيمان، فيؤول إلى أنّهم راجعون إلى الإيمان، وليس هذا بمراد. فتعين أن المعنى: مُنع على قرية قدرنا هلاكها أن يرجعوا عن ضلالهم لأنّه قد سبق تقدير هلاكها.

وهذا إعلام بسنة الله تعالى في تصرّفه في الأمم الخالية مقصود منه التعريض بتأييس فريق من المشركين من المصير إلى الإيمان وتهديدهم بالهلاك. وهؤلاء هم الذين قدّر الله هلاكهم يوم بدر بسيوف المؤمنين.

ويجوز أن يراد رجوعهم إلى الآخرة بالبعث، وهو المناسب لتفريعه على قوله تعالى {كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ} فتكون (لا) نافية. والمعنى: ممنوع عدم رجوعهم إلى الآخرة الذي يزعمونه، أي: فهم راجعون إلينا فمجازون على كفرهم، فيكون إثباتا للبعث بنفي ضدّه، وهو أبلغ من صريح الإثبات لأنّه إثبات بطريق الملازمة، فكأنّه إثبات الشيء بحجّة.

وفعل { أَهْلَكْنَاهَا }، على هذا الوجه، مستعمل في أصل معناه، أي: وقع إهلاكنا إيّاها.

والمعنى: ما من قرية أهلكناها فانقرضت من الدنيا إلّا وهم راجعون إلينا بالبعث.

{ **حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ [96] وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ [97]** }.

{ **حَتَّى** } ابتدائية. والجملة بعدها كلام مستأنف لا محل له من الإعراب ولكن (حتّى) تكسبه ارتباطا بالكلام الذي قبله. وظاهر كلام الزمخشري: أنّ معنى الغاية لا يفارق (حتّى) حين تكون للابتداء، ولذلك عني هو ومن تبعه من المفسّرين بتطلب المغيَّا بها هاهنا فجعلها في الكشاف غاية لقوله { وَحَرَامٌ }، لأنّ امتناع رجوعهم لا يزول حتّى تقوم القيامة.

فأما دلالة (حتّى) الابتدائية على معنى الغاية، أي: كون ما بعدها غاية لمضمون ما قبلها، فلا أراه لازما. ولأمر ما فرّق العرب بين استعمالها جارة وعاطفة وبين استعمالها ابتدائية. فإن معنى الغاية في (حتّى) الجارة، وهي الأصل في استعمال هذا الحرف، ظاهر لأنّها بمعنى (إلى)، وفي (حتّى) العاطفة لأنّها تفيد التشريك في الحكم فتعيّن أن يكون المعطوف بها نهاية للمعطوف عليه في المعنى المراد.

فأما (حتّى) الابتدائية فإنّ وجود معنى الغاية معها في مواقعها غير منضبط ولا مطّرد، ولمّا كان ما

بعدها كلاما مستقلًّا تعيّن أن يكون وجودها بين الكلامين لمجرد الربط بين الكلامين. من ذلك قوله تعالى { وَزُلْزِلُوا حتّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ } فإنّ قول الرسول ليس غاية للزلزلة ولكنه ناشئ عنها.

{ **إِذَا فُتِحَتْ** } إسناد فعل إلى { يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ } بتقدير مضاف، أي: فُتح ردمهما أو سدّهما.

يأجوج ومأجوج: هم قبيلتان من أمّة واحدة مثل طسم وجديس. وتقدّم الكلام حولهما في [الكهف:94].

الحدب: النشز من الأرض، وهو ما ارتفع منها.

{ **يَنْسِلُونَ** } يمشون النَّسَلان بفتحتين، وأصله: مشي الذئب. والمراد: المشي السريع.

وقد مُثلت حالة الكافرين في ذلك الحين بأبلغ تمثيل وأشدّه وقعا في نفس السامع، إذ جُعلت مفرَّعة على فتح يأجوج ومأجوج.

وعلى هذا التفسير ففتح يأجوج ومأجوج هو فتح السدّ الذي هو حائل بينهم وبين الانتشار في أنحاء الأرض بالفساد، وهو المذكور في قصة ذي القرنين في سورة الكهف.

ويجوز أن يكون المراد بفتح يأجوج ومأجوج تمثيل إخراج الأموات إلى الحشر، ويكون اسم يأجوج ومأجوج تشبيها بليغا. وتخصيصهما بالذكر لشهرة كثرة عددهما عند العرب من خبر ذي القرنين.

أو يكون اسم يأجوج ومأجوج استعمل مثلا للكثرة، وتؤيّده قراءة ابن عباس وابن مسعود ومجاهد، (جدث) بجيم ومثلثة، أي: من كل قبر، في معنى قوله تعالى { وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ } فيكون ضميرا { وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ } عائدين إلى مفهوم من المقام دلت عليه قرينة الرجوع من قوله تعالى { لَا يَرْجِعُونَ }، أي: أهل كل قرية أهلكناها.

{ **وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ** } القرب الشديد وهو المشارفة، أي: اقترب الوعد الذي وُعِده المشركون، وهو العذاب بأن رأوا النار والحساب. وفيه إشارة إلى سرعة حصول تلك الحالة لهم.

{ **فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا** } تصدير الجملة بحرف المفاجأة والمجازاة يفيد الحصول دفعة بلا تدرّج ولا مهلة، ثم بالإتيان بضمير القصة ليحصل للسامع علم مجمل يفصّله ما يفسّر ضمير القصة.

الشخوص: إحداد البصر دون تحرّك كما يقع للمبهوت.

{ **يَا وَيْلَنَا** } مقول قول محذوف كما هو ظاهر، أي: يقولون حينئذ: يا ويلنا. دعاء على أنفسهم من شدة ما لحقهم.

{ **فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا** } دلت (في) على تمكّن الغفلة منهم حتّى كأنّها محيطة بهم إحاطة الظرف بالمظروف، أي: كانت لنا غفلة عظيمة، وهي غفلة الإعراض عن أدلة الجزاء والبعث.

{ **مِنْ هَذَا** } المشار إليه هو مجموع تلك الأحوال؛ من الحشر والحساب والجزاء.

{ **بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ** } للإضراب الإبطالي، أي: ما كنّا في غفلة لأنّنا قد دُعينا وأُنذرنا وإنّما كنّا ظالمين أنفسنا بمكابرتنا وإعراضنا.

{ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ [98] لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ [99] لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ [100] }.

مقول قول محذوف على طريقة المحاورات، فالتقدير: يقال لهم: إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم.

وهو ارتقاء في ثبورهم، فهم قالوا { يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا } فأُخبروا بأنّ آلهتهم، وهم أعزّ عليهم من أنفسهم وأبعد في أنظارهم عن أن يلحقهم سوء، صائرون إلى مصيرهم من الخزي والهوان، ولذلك أكّد الخبر بحرف التأكيد لأنّهم كانوا بحيث ينكرون ذلك.

{ **وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ** } و(ما) موصولة وأكثر استعمالها فيما يكون فيه صاحب الصلة غير عاقل. وأطلقت هنا على معبوداتهم من الأصنام والجن والشياطين تغليبا. وكانت أصنامهم ومعبوداتهم حاضرة في ذلك المشهد كما دلت عليه الإشارة { لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا }.

الحصب: اسم بمعنى المحصوب به. أي المَرمي به. ومنه سمّيت الحصباء لأنّها حجارة يُرمى بها، أي: يُرمَوْن في جهنم، كما قال تعالى { وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ }. أي: الكفار وأصنامهم.

{ **أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ** } بيان للجملة السابقة. والمقصود: الاتصاف بورود النار في الحال، كما هو شأن الخبر باسم الفاعل فإنّه حقيقة في الحال مجاز في الاستقبال.

{ **لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا** } وقد زيد في نكايتهم بإظهار خطئهم في عبادتهم تلك الأصنام بأن أُشهدوا إيرادها النار.

{ **وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ** } تذييل، أي: هم وأصنامهم.

الزفير: النفس يخرج من أقصى الرئتين لضغط الهواء من التأثّر بالغمّ. وهو هنا من أحوال المشركين.

{ **وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ** } اقتضاه قوله تعالى { لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ } لأنّ شأن الزفير أن يُسمع فأخبر الله بأنّهم من شدّة العذاب يفقدون السمع.

وقد روى ابن إسحاق في سيرته أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس يوما مع الوليد بن المغيرة في المسجد الحرام فجاء النضر بن الحارث فجلس معهم في مجلس من رجال قريش، فتلا رسول الله عليهم قوله تعالى { إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ} ثم قام رسول الله، وأقبل عبد الله بن الزِبَعْرَى السهمي، قبل أن يسلم، فحدّثه الوليد بن المغيرة بما جرى في ذلك المجلس فقال عبد الله بن الزبعرى: أما والله لو وجدته لخصمته، فاسألوا محمدًا أكلُّ ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبدوهم؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيرا، والنصارى تعبد عيسى ابن مريم. فحُكي ذلك لرسول الله، فقال رسول الله: **" إنّ كلّ من أحبّ أن يُعبد من دون الله فهو مع من عبده، إنّهم إنّما يعبدون الشيطان الذي أمرهم بعبادتهم "**، فأنزل الله { إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ} ".

{ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ [101] لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ [102] لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ [103] }.

الجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا دعا إليه مقابلة حكاية حال الكافرين وما يقال لهم يوم القيامة بحكاية ما يلقاه الذين آمنوا يوم القيامة وما يقال لهم. فالذين سبقت لهم الحسنى هم الفريق المقابل لفريق القرية التي سبق في علم الله إهلاكها، ولمّا كان فريق القرية هم المشركين فالفريق المقابل له هم المؤمنون.

السبق: حقيقته تجاوز الغير في السير إلى مكان معيّن. ومنه سباق الخيل. واستُعمل هنا مجازا في ثبوت الأمن في الماضي، يقال: كان هذا في العصور السابقة.

أي: الذين حصلت لهم الحسنى في الدنيا، أي: حصل لهم الإيمان والعمل الصالح بتوفيق من الله وتقديره.

الحُسنى: الحالة الحسنة في الدين، قال تعالى { لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ } [يونس:26] .أو الموعدة الحسنى، أي: تقرّر وعد الله إيّاهم بالمعاملة الحسنى.

{ **أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ** } ذكر اسم الإشارة لتمييزهم بتلك الحالة الحسنة، وللتنبيه على أنّهم أحرياء بما يذكر بعد اسم الإشارة من أجل ما تقدّم على اسم الإشارة من الأوصاف، وهو سبق الحسنى من الله.

واختير اسم إشارة البعيد للإيماء إلى رفعة منزلتهم، والرفعة تُشبّه بالبعد.

{ **لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا** } بيان، أي: مبعدون عنها بعدا شديدا بحيث لا يلفحهم حرّها ولا يروّعهم منظرها ولا يسمعون صوتها، والصوت يبلغ إلى السمع من أبعد ما يبلغ منه المرئي.

الحسيس: الصوت الذي يبلغ الحسّ، أي الصوت الذي يُسمع من بعيد، أي لا يقربون من النار ولا تبلغ أسماعهم أصواتها، فهم سالمون من الفزع من أصواتها.

{ **وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ** } عُقّب بما هو أخصّ من السلامة وهو النعيم الملائم. وجيء فيه بما يدلّ على العموم وهو { فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ } وما يدلّ على الدوام وهو { خَالِدُونَ }.

الشهوة: تشوّق النفس إلى ما يلذّ لها.

{ **لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ** } خبر ثان عن الموصول.

الفزع: نفرة النفس وانقباضها ممّا تتوقّع أن يحصل لها من الألم، وهو قريب من الجزع، والمراد به هنا فزع الحشر حين لا يعرف أحد ما سيؤول إليه أمره، فيكونون في أمن من ذلك بطمأنة الملائكة إيّاهم.

{ **وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ** } مقول لقول محذوف، أي: يقولون لهم: هذا يومكم الذي كنتم توعدون تذكيرا لهم بما وُعدوا في الدنيا من الثواب.

التلقّي: التعرّض للشيء عند حلوله تعرّض كرامة. والصيغة تشعر بتكلّف لقائه وهو تكلّف تهيؤ واستعداد.

{ **هَذَا يَوْمُكُمُ** } إشارة للقريب لتعيين اليوم وتمييزه بأنّه اليوم الحاضر. وإضافة (يوم) إلى ضمير المخاطبين لإفادة اختصاصه بهم وكون فائدتهم حاصلة فيه.

{ **يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ**} [104].

جملة مستأنفة قُصد منها إعادة ذكر البعث والاستدلال على وقوعه وإمكانه إبطالا لإحالة المشركين وقوعه بعلّة أنّ الأجساد التي يُدّعى بعثها قد انتابها الفناء العظيم { وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ } [السجدة:10]. والمناسبة في هذا الانتقال هو ما جرى من ذكر الحشر والعقاب والثواب.

وقد رُتّب نظم الجملة على التقديم والتأخير لأغراض بليغة.

{ **يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ** } تغيير أجرامها من موقع إلى موقع، أو اقتراب بعضها من بعض كما تتغيّر أطراف الورقة المنشورة حين تطوى ليكتب الكاتب في إحدى صفحتيها. وهذا مظهر من مظاهر انقراض النظام الحالي، وهو انقراض له أحوال كثيرة وصف بعضها في سور من القرآن.

وليس في الآية دليل على اضمحلال السماوات بل على اختلال نظامها، وفي سورة الزمر { وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ } [الزمر:67] .

{ **كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ** } قرأه حفص وحمزة والكسائي وخلف { للكُتُب } بصيغة الجمع. وقرأ الجمهور { للكِتَابَ } بصيغة الإفراد. فأمّا قراءتها بصيغة الإفراد ففيها مُحسِّن مراعاة النظير في الصيغة، وأمّا القراءة بصيغة الجمع، مع كون السجل مفردا، ففيها حسُن التفنّن بالتضاد.

الطيّ: رد بعض أجزاء الجسم الليّن المطلوق على بعضه الآخر، وضدّه النشر.

السِجِلّ: (بكسر السين وكسر الجيم)، وفيه لغات. يطلق على الورقة التي يُكتب فيها، ويطلق على كاتب الصحيفة، ولعلّه تسمية على تقدير مضاف محذوف، أي: صاحب السجلّ.

وقيل: اسم ملك في السماء تُرفع إليه صحائف أعمال العباد فيحفظها.

ولا يحسن حمله على معنى الصحيفة لأنّه لا يلائم إضافة الطيّ إليه ولا إرادفه لقوله { للكتاب / للكتب }، ولا حمله على معنى الملك الموكل بصحائف الأعمال لأنّه لم يكن مشهورا فكيف يشبّه بفعله.

فالوجه: أن يراد بالسجلّ الكاتب الذي يكتب الصحيفة ثم يطويها عند انتهاء كتابتها، وذلك عمل معروف. فالتشبيه بعمله رشيق.

{ **كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ** } حال مقدّم من الضمير المنصوب في { نُعِيدُهُ } للتعجيل بإيراد الدليل قبل الدعوى لتتمكّن في النفس أفضل تمكّن. وكل ذلك وجوه للاهتمام بتحقيق وقوع البعث.

وظاهر ما أفاده (الكاف) من التشبيه أنّ إعادة خلق الأجسام شُبِّهت بابتداء خلقها. ووجه الشبه هو إمكان كليهما والقدرة عليهما وهو الذي سيق له الكلام.

البدء: الفعل الذي لم يسبق مماثله بالنسبة إلى فاعل أو إلى زمان أو نحو ذلك. وبدء الخلق كونه لم يكن قبل، أي: كما جعلنا خلقا مبدوءا غير مسبوق في نوعه.

خلق: مصدر بمعنى المفعول.

نُعِيدُهُ: معنى إعادة الخلق إعادة مماثلة في صورته فإنّ الخلق، أي: المخلوق، باعتبار أنّه فرد من جنس إذا اضمحل فقيل: أُعيد، فإنما يعاد مثله. كما قال تعالى { سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى } أي: مثل سيرتها في جنسها، أي: في أنّها عصا من العصي.

{ **وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ** } عُقّب ذلك بما يفيد تحقيق حصول البعث من كونه وعدا على الله، بتضمين الوعد معنى الإيجاب، فعدّي بحرف (على)، أي: حقا واجبا.

{ **إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ** } مؤكَّدة بحرف التوكيد لتنزيل المخاطبين منزلة من ينكر قدرة الله، لأنّهم لمّا نفوا البعث بعلّة تعذر إعادة الأجسام بعد فنائها فقد لزمهم إحالتهم ذلك في جانب قدرة الله.

{ **فَاعِلِينَ** } أنّه الفاعل لما وعد به، أي: القادر.

{ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ [105] إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عَابِدِينَ [106] }.

{ **أَنَّ الْأَرْضَ** } المُراد الراجح أرضا من الدنيا، أي: مصيرها بيد عباد الله الصالحين، فالآية مسوقة لوعد المؤمنين بميراث الأرض التي لقوا فيها الأذى، وهي أرض مكّة وما حولها، فتكون بشارة بصلاح حالهم في الدنيا بعد بشارتهم بحسن مآلهم في الآخرة على حد قوله تعالى { مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }.

أي: أنّ سلطان العالم سيكون بيد المسلمين ما استقاموا على الإيمان والصلاح. وقد صدق الله وعده في الحالين وعلى الاحتمالين [أرض الدنيا وأرض الآخرة]. وفي حديث أبي داود والترمذي عن ثوبان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" إنّ الله زوّى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وأنّ أمتي سيبلغ ملكها ما زُوِّيَ لي منها ".**

{ **فِي الزَّبُورِ** } وقرأ الجمهور { فِي الزَّبُورِ } بصيغة الإفراد وهو اسم المزبور، أي المكتوب. وقرأ حمزة بصيغة الجمع زُبور جمع زِبْر، أي: في الكتب.

فعلى قراءة الجمهور، يكون تخصيص هذا الوعد بكتاب داود، لأنّه لم يُذكر وعد عام للصالحين بهذا الإرث في الكتب السماوية قبله. وما ورد في التوراة فيما حكاه القرآن من قول موسى عليه السلام { إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ } فذلك خاص بأرض المقدس وببني إسرائيل.

الزّبور: كتاب داود وهو مبثوث في الكتاب المسمّى بالمزامير من كتب اليهود. ولم أعثر على الجملة التي تضمّنت هذا الوعد في المزامير. ووجدت في محاضرة للإيطالي المستعرب (فويدو) أنّ نصّ هذا الوعد

من الزبور باللغة العبرية هكذا: " صديقين يرشون أرص " (بشين معجمة، وبصاد مهملة)، أي: الصدِّيقون يرثون الأرض.

والمقصود: الشهادة على هذا الوعد من الكتب السالفة وذلك قبل أن يجيء مثل هذا الوعد في القرآن في قوله تعالى { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } [النور:55].

وعلى قراءة حمزة أن هذا الوعد تكرر لفرق من العباد الصالحين.

{ **مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ** } أي: أنّ ذلك الوعد ورد في الزبور عقب تذكير ووعظ للأمّة. فبعد أن ألقيت إليهم الأوامر وُعِدوا بميراث الأرض. وقيل المراد بـ { الذِّكْرِ } كتاب الشريعة، وهو التوراة. قال تعالى { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ } [الانبياء:48]. فيكون الظرف في قوله تعالى { مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ } مستقرا في موضع الحال من الزبور.

والمقصود من هذه الحال الإيماء إلى أنّ الوعد المتحدّث عنه هنا هو غير ما وعد الله بني إسرائيل على لسان موسى من إعطائهم الأرض المقدسة { يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ } [المائدة:21]، وأنّه غير الإرث الذي أورثه الله بني إسرائيل من الملك والسلطان، لأنّ ذلك وعد كان قبل داود. بل المراد الإيماء إلى أنّه وعد وعده الله قوما صالحين بعد بني إسرائيل، وليسوا إلّا المسلمين الذين صدقهم الله وعده فملكوا الأرض ببركة رسولهم صلى الله عليه وسلم وأصحابه، واتسع ملكهم وعظم سلطانهم حسب ما أنبأ به نبيّهم عليه الصلاة والسلام في الحديث المتقدم آنفا، " **إنّ الله زوّى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها...** ".

{ **إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عَابِدِينَ** } تذييل للوعد وإعلان بأنّ قد آن أوانه وجاء إبّانه. فإنّه لم يأت بعد داود قوم مؤمنون ورثوا الأرض، فلمّا جاء الإسلام وآمن الناس بمحمد صلى الله عليه وسلم فقد بلغ البلاغ إليهم.

{ **إِنَّ فِي هَذَا** } إشارة إلى الوعد الموعود في الزبور والمبلّغ في القرآن.

{ **لِقَوْمٍ عَابِدِينَ** } الذين من شأنهم العبادة لا ينحرفون عنها قيد أنملة، كما أشعر بذلك جريان وصف العابدين على لفظ (قوم). والقوم العابدون هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم، والموجودون يومئذ والذين جاؤوا من بعدهم.

العبادة: الوقوف عند حدود الشريعة.

وما أشبه هذا الوعد المذكور هنا ونوطه بالعبادة بالوعد الذي وعدته هذه الأمّة في القرآن { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ }.

{ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ** } [107].

أقيمت هذه السورة على عماد إثبات الرسالة لمحمد صلى الله عليه وسلم وتصديق دعوته. فافتُتحت بإنذار المعاندين باقتراب حسابهم ووشك حلول وعد الله فيهم، وإثبات رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وأنّه لم يكن بدعا من الرسل، وذُكّروا إجمالا، ثم ذكّرت طائفة منهم على التفصيل. وتخلّل ذلك بمواعظ ودلائل.

فهذه الجملة عُطفت على جميع ما تقدّم من ذكْر الأنبياء الذين أوتوا حكما وعلما وذكْر ما أوتوه من الكرامات، فجاءت هذه الآية مشتملة على وصف جامع لبعثة محمد صلى الله عليه وسلم. ومزيّتها على سائر الشرائع مزية تناسب عمومها ودوامها، وذلك كونها رحمة للعالمين.

وصيغت بأبلغ نظم إذ اشتملت هاته الآية بوجازة ألفاظها على مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ومدح مرسله تعالى، ومدح رسالته بأن كانت مظهر رحمة الله تعالى بخلقه.

{ **رَحْمَةً** } التنكير للتعظيم، إذ لا مقتضي لإيثار التنكير في هذا المقام غير إرادة التعظيم. ووقوع الوصف مصدرا يفيد المبالغة في هذا الاتحاد بحيث تكون الرحمة صفة متمكّنة من إرساله.

وتفصيل ذلك يظهر في مظهرين:

<u>المظهر الأوّل: تخلُّق نفسه الزكية بخلق الرحمة.</u>

يعني أنّ محمدا صلى الله عليه وسلم فُطر على خُلق الرحمة في جميع أحوال معاملته الأمّة لتتكوّن مناسبة بين روحه الزكيّة وبين ما يُلقى إليه من الوحي بشريعته التي هي رحمة. قالت عائشة: " كان خلقه القرآن ". ولهذا خصَّ الله محمدا صلى الله عليه وسلم في هذه السورة بوصف الرحمة ولم يصف به غيره من الأنبياء، وكذلك في القرآن كلّه، قال تعالى { لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ } [التوبة:128]، وقال تعالى { فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ } [آل عمران:159]،

أي: برحمةٍ جَبَلَكَ عليها وفطرك بها فكنت لهم ليّنا.

وفي حديث مسلم: " أنّ رسول الله لما شُجَّ وجهه يوم أُحُد شقّ ذلك على أصحابه فقالوا: لو دعوت عليهم فقال: " **إنّي لم أبعث لعَّانا وإنّما بعثت رحمة** ".

<u>المظهر الثاني: إحاطة الرحمة بتصاريف شريعته</u>.

أي ما فيها من مقوّمات الرحمة العامة للخلق كلّهم لأنّ قوله تعالى { لِلْعَالَمِينَ } متعلّق بقوله { رَحْمَةً }.

العَالَمِينَ: التعريف لاستغراق كل ما يصدق عليه اسم العالم.

فمعنى كون الشريعة المحمدية منحصرة في الرحمة أنّها أوسع الشرائع رحمة بالنّاس وبكافة المخلوقات، فإن الشرائع السالفة وإن كانت مملوءة برحمة إلّا أنّ الرحمة فيها غير عامة؛

<u>إمّا لأنّها لا تتعلّق بجميع أحوال المكلّفين</u>، فالحنيفية شريعة إبراهيم عليه السلام كانت رحمة خاصة بحالة الشخص في نفسه وليس فيها تشريع عام. وشريعة عيسى عليه السلام قريبة منها في ذلك.

وإمّا لأنّها قد تشتمل في غير القليل من أحكامها على شدّة اقتضتها حكمة الله في سياسة الأمم المشروعة هي لها، مثل شريعة التوراة، فإنّها أوسع الشرائع السالفة لتعلّقها بأكثر أحوال الأفراد والجماعات، وهي رحمة كما وصفها الله بذلك في قوله تعالى { ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ } [الأنعام:154]، فإن كثيرا من عقوبات أمّتها جعلت في فرض أعمال شاقة قال تعالى { فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ } [النساء:160]، وقال تعالى { فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ } [البقرة:54] إلى آيات كثيرة.

وحكمة تمييز شريعة الإسلام بهذه المزية أن أحوال النفوس البشرية مضت عليها عصور وأطوار تهيّأت بتطوراتها لأن تُساس بالرحمة وأن تُدفع عنها المشقة إلّا بمقادير ضرورية لا تقام المصالح بدونها، فما في الشرائع السالفة من اختلاط الرحمة بالشدّة وما في شريعة الإسلام من تمحّض الرحمة لم يجر في زمن من الأزمان إلا على مقتضى الحكمة.

وما يُتخيّل من شدّة في نحو القصاص والحدود فإنّما هو لمراعاة تعارض الرحمة والمشقة كما أشار إليه قوله تعالى { وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ } . فالقصاص والحدود شدّة على الجناة ورحمة ببقيّة النّاس.

وأمّا رحمة الإسلام بالأمم غير المسلمين فإنّما نعني به رحمته بالأمم الداخلة تحت سلطانه وهم أهل الذمّة. ورحمته بهم عدم إكراههم على مفارقة أديانهم. وإجراء العدل بينهم في الأحكام بحيث لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم في الحقوق العامة.

كما رغّبت الشريعة في رحمة الحيوان، ففي حديث الموطأ عن أبي هريرة مرفوعا:" **أنّ الله غفر لرجل وجد كلبا يلهث من العطش، فنزل في بئر فملأ خفّه ماء وأمسكه بفمه حتّى رقي فسقى الكلب، فغفر الله له** ".

وقد أذنت الشريعة الإسلامية للنّاس في الانتفاع بما ينتفع به من الحيوان ولم تأذن في غير ذلك. ولذلك كره صيد اللهو وحرّم تعذيب الحيوان لغير أكله. أمّا المؤذي والمضرّ من الحيوان فقد أُذن في قتله وطرده لترجيح رحمة الناس على رحمة البهائم. وفي تفاصيل الأحكام من هذا القبيل كثرة لا يعوز الفقيه تتبّعها.

{ **قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ** } [108].

عُقِّب الوصف الجامع لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم من حيث ما لها من الأثر في أحوال البشر بوصف جامع لأصل الدعوة الإسلامية في ذاتها الواجب على كل متّبع لها وهو الإيمان بوحدانية الله تعالى وإبطال إلهية ما سواه، لنبذ الشرك المبثوث بين الأمم يومئذ.

{ **قُلْ** } للاهتمام بذلك صُدرت جملته بالأمر لاستصغاء أسماعهم.

{ **إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ** } قصر الوحي إلى الرسول على مضمون جملة { أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ } هو قصر إضافي.

{ **أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ** } صيغت الجملة في صيغة حصر الوحي إليه في مضمونها لأنّ مضمونها هو أصل الشريعة الأعظم، وكل ما تشتمل عليه الشريعة متفرّع عليه، فالدعوة إليه هي مَقادة الاجتلاب إلى الشريعة كلّها، إذ كان أصل الخلاف يومئذ بين الرسول ومعانديه هو قضية الوحدانية ولذلك قالوا { أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ } [ص:5/4].

وما كان إنكارهم البعث إلّا لأنّهم لم يجدوه في دين شركهم، إذ كان الذين وضعوا لهم الشرك لا يحدّثونهم إلّا عن حالهم في الدنيا. فلا جرم كان الاهتمام بتقرير الوحدانية تضييقا لشقّة الخلاف بين النبيّ وبين المشركين.

{ **فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ** } الاستفهام حقيقي، أي: فهل تسلمون بعد هذا البيان. وهو مستعمل أيضا في معنى كنائي وهو التحريض على نبذ الإشراك وعلى الدخول في دعوة الإسلام. وصيغ ذلك في الجملة الاسمية الدالة على الثبات، لإفادة أنّ المطلوب منهم إسلام ثابت.

{ **فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ** } [109].

فإن أعرضوا بعد هذا التبيين المفصّل والجامع فأبلغهم الإنذار بحلول ما توعّدهم الله به.

الإيذان: الإعلام، من أذن لكذا بمعنى سمع. واشتقاقه من اسم الأذن، وهي جارحة السمع، ثم استعمل بمعنى العلم بالسمع ثم شاع استعماله في العلم مطلقا. وأمّا (آذن) فهو فعل متعدّ بالهمزة، وكثر استعمال الصيغتين في معنى الإنذار وهو الإعلام المشوب بتحذير. فمن استعمال أذن قوله { فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ }.

{ **آذَنْتُكُمْ** } حُذف المفعول الثاني لدلالة قوله تعالى { مَا تُوعَدُونَ } عليه، أو يقدّر: آذنتكم ما يوحى إليّ.

{ **عَلَى سَوَاءٍ** } (على) هنا للاستعلاء المجازي، وهو قوّة الملابسة وتمكّن الوصف من موصوفه.

سواء: اسم معناه مستو. و**الاستواء**: المماثلة في شيء ويُجمع على أسواء.

<u>فيجوز</u> أن يكون { عَلَى سَوَاءٍ } ظرفا مستقرا هو حال من ضمير الخطاب في قوله تعالى { آذَنْتُكُمْ }، أي: أنذرتكم مستوين في إعلامكم به لا يدّعي أحد منكم أنّه لم يبلغه الإنذار. وهذا إعذار لهم وتسجيل عليهم كقوله في خطبته: " **ألا هل بلغت** ".

<u>ويجوز</u> أن يتعلّق المجرور بفعل { آذَنْتُكُمْ } قال أبو مسلم: " الإيذان على السواء: الدعاء إلى الحرب مجاهرة، لقوله تعالى { فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ } ". يريد أنّ هذا مُثّل بحال النذير بالحرب، إذ لم يكن في القرآن النازل بمكة دعاء إلى حرب حقيقية.

{ **وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ** } يشمل كل ما يوعدونه من عقاب في الدنيا والآخرة.

{ **إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ** } [110].

جملة معترضة بين الجمل المتعاطفة. وضمير الغائب عائد إلى الله تعالى بقرينة المقام. والمقصود من الجملة تعليل الإنذار بتحقيق حلول الوعيد بهم، وتعليل عدم العلم بقربه أو بعده، عُلّل ذلك بأنّ الله تعالى يعلم جهرهم وسرّهم وهو الذي يؤاخذهم عليه وهو الذي يعلم متى يحلّ بهم عذابه.

{ **وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ** } [111].

عطف على جملة { وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ } والضمير الذي هو اسم (لعلّ) عائد إلى ما يدلّ عليه قوله تعالى { أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ } من أنّه أمر منتظر الوقوع وأنه تأخّر عن وجود موجبه. والتقدير: لعلّ تأخير ما توعدون فتنة لكم أرادها الله ليملي لكم، إذ بتأخير الوعد يزدادون في التكذيب والتولّي وذلك فتنة.

الفتنة: اختلال الأحوال المفضي إلى ما فيه مضرّة.

المتاع: ما يُنتفع به مدّة قليلة. كما تقدّم في قوله تعالى { لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ } [آل عمران:197/196]. و**الحين**: الزمان.

{ **قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ** } [112].

استئناف ابتدائي بعدما مضى من وصف رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وإجمال أصلها وأمره بإنذارهم وتسجيل التبليغ. قُصد من هذا الاستئناف التلويح إلى عاقبة أمر هذا الدين المرجوّة المستقبلة لتكون قصة هذا الدين وصاحبه مستوفاة المبدأ والعاقبة على وزان ما ذكر قبلها من قصص الرسل السابقين.

وفي أمر الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم بالالتجاء إليه والاستعانة به بعد ما قال له { فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ } رمز إلى أنّهم متولون لا محالة وأن الله سيحكم فيهم بجزاء جرمهم.

{ **بِالْحَقِّ** } الباء للملابسة. وحذف المتعلق الثاني لفعل { احْكُمْ } لتنبيههم إلى أنّ النبيّ على الحقّ، فإنّه ما سأل الحكم بالحقّ إلّا لأنّه يريده، أي: احكم لنا أو فيهم أو بيننا.

{ **رَبِّ** } منادى مضاف حذفت منه ياء المتكلّم المضاف هو إليها وبقيت الكسرة دليلا على الياء.

{ **وَرَبُّنَا** } تعريف المسند إليه بالإضافة لتضمّنها تعظيما لشأن المسلمين بالاعتزاز بأنّ الله ربّهم.

وضمير المتكلم المشارك للنبيّ ومن معه من المسلمين. وفيه تعريض بالمشركين بأنّهم ليسوا من مربوبية الله في شيء حسب إعراضهم عن عبادته إلى عبادة الأصنام.

{ **الرَّحْمَنُ** } عطف بيان من { رَبُّنَا } لأن المراد به هنا الاسم لا الوصف تورّكا على المشركين، لأنّهم أنكروا اسم الرحمان { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ } [الفرقان:60].

{ **الْمُسْتَعَانُ** } التعريف لإفادة القصر، أي: لا أستعين بغيره على ما تصفون، إذ لا ينصرنا غير ربّنا، وهو ناظر إلى قوله تعالى { وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }.

{ **عَلَى مَا تَصِفُونَ** } هناك مضاف محذوف هو مجرور { عَلَى }، أي: على إبطال ما تصفون.

{ **مَا تَصِفُونَ** } ما تصدر به أقوالكم من الأذى لنا. فالوصف هنا هو الأقوال الدالة عن الأوصاف. وهم وصفوا النبيّ صلى الله عليه وسلم بصفات ذم كقولهم: مجنون وساحر، ووصفوا القرآن بأنّه شعر وأساطير الأولين، وشهّروا ذلك في دهمائهم لتأليب الناس عليه.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحجّ

سمِّيت هذه السورة (**سورة الحجّ**) في زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم. أخرج أبو داود، والترمذي عن عقبة بن عامر قال: **"** قلت: يا رسول الله، أفُضِّلت سورة الحجّ على سائر القرآن بسجدتين؟ قال: **نعم "**.

وأخرج أبو داود، وابن ماجه عن عمرو بن العاص أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن منها ثلاث في المفصّل، وفي سورة الحجّ سجدتان.

وليس لهذه السورة اسم غير هذا. ووجه تسميتها سورة الحجّ أنّ الله ذكر فيها كيف أمر إبراهيم عليه السلام بالدعوة إلى حجّ البيت الحرام، وذكر ما شرع للناس يومئذ من النسك تنويها بالحجّ وما فيه من فضائل ومنافع، وتقريعا للذين يصدّون المؤمنين عن المسجد الحرام، وإن كان نزولها قبل أن يُفرض الحجّ على المسلمين بالاتفاق، وإنّما فُرض الحجّ بالآيات التي في سورة البقرة وفي سورة آل عمران.

واختُلف في هذه السورة هل هي مكية أو مدنية أو كثير منها مكي وكثير منها مدني؟

قال الجمهور هذه السورة **بعضها مكّي وبعضها مدني** وهي مختلطة، أي لا يعرف المكي بعينه، والمدني بعينه. قال ابن عطية: **وهو الأصح**.

ويشبه أن يكون أوّلها نزل بمكة فإنّ افتتاحها بـ { يَا أَيُّهَا النَّاسُ } جار على سنن فواتح السور المكّية. وفي أساليب نظم كثير من آياتها ما يلائم أسلوب القرآن النازل بمكّة. ومع هذا فليس الافتتاح بـ { يَا أَيُّهَا النَّاسُ} بمعيِّن أن تكون مكية. قال ابن عباس: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ } يراد به المشركون.

ولعل ترتيبها كان بتوقيف من النبيّ صلى الله عليه وسلم، ومثل ذلك كثير.

وقد عُدّت السورة الخامسة والمائة في عداد نزول سورة القرآن في رواية جابر بن زيد عن ابن عباس.

وعدّت آياتها عند أهل المدينة ومكّة: سبعا وسبعين. وعدّها أهل الشام: أربعا وسبعين. وعدّها أهل البصرة: خمسا وسبعين: وعدّها أهل الكوفة: ثمانا وسبعين.

أغراض السورة

*/ خطاب النّاس بأمرهم أن يتّقوا الله ويخشوا يوم الجزاء وأهواله.

*/ الاستدلال على نفي الشرك وخطاب المشركين بأن يقلعوا عن المكابرة في الاعتراف بانفراد الله تعالى بالإلهية وعن المجادلة في ذلك اتباعا لوساوس الشياطين، وأنّ الشياطين لا تغني عنهم شيئا ولا ينصرونهم في الدنيا وفي الآخرة.

*/ تفظيع جدال المشركين في الوحدانية بأنّهم لا يستندون إلى علم وأنّهم يعرضون عن الحجّة ليضلّوا الناس.

*/ أنّهم يرتابون في البعث وهو ثابت لا ريبة فيه، وكيف يرتابون فيه بعلّة استحالة الإحياء بعد الإماتة ولا ينظرون أنّ الله أوجد الإنسان من تراب ثم من نطفة ثم طوَّره أطورا.

*/ أنّ الله ينزل الماء على الأرض الهامدة فتحيا وتُخرج من أصناف النبات، فالله هو القادر على كل ذلك، فهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير.

*/ أنّ مجادلتهم بإنكار البعث صادرة عن جهالة وتكبّر عن الامتثال لقول الرسول صلى الله عليه وسلم.

*/ وصف المشركين بأنّهم في تردّد من أمرهم في اتباع دين الإسلام.

*/ التعريض بالمشركين بتكبّرهم عن سنّة إبراهيم عليه السلام الذي ينتمون إليه ويحسبون أنّهم حماة دينه وأمناء بيته وهم يخالفونه في أصل الدين.

*/ تذكير لهم بما منّ الله عليهم في مشروعية الحجّ من المنافع.

*/ تنظيرهم في تلقي دعوة الإسلام بالأمم البائدة الذين تلقوا دعوة الرسل بالإعراض والكفر فحلّ بهم العذاب.

*/ أنّه يوشك أن يحلّ بهؤلاء مثله، وفي ذلك تأنيس للرسول صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا.

*/ أنّ اختلاف الأمم بين أهل هدى وأهل ضلال أمر به افترق النّاس إلى ملل كثيرة.

*/ التنويه بالقرآن والمتلقّين له، والثناء عليهم، وأنّ الله يسّر لهم أتّباع الحنيفيّة وسمّاهم المسلمين.

*/ الإذن للمسلمين بالقتال وضمان النصر والتمكين في الأرض.

*/ خُتمت السورة بتذكير النّاس بنعم الله عليهم وأنّ الله اصطفى خلقا من الملائكة ومن النّاس فأقبل على المؤمنين بالإرشاد إلى ما يقرّبهم إلى الله زلفى، وأنّ الله هو مولاهم وناصرهم.

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ } [1].

نداء للنّاس كلّهم من المؤمنين وأهل الكتاب والمشركين الذين يسمعون هذه الآية من الموجودين يوم نزولها ومن يأتون بعدهم إلى يوم القيامة ليتلقّوا الأمر بتقوى الله وخشيته، أي: خشية مخالفة ما يأمرهم به على لسان رسوله.

وأوّل فريق هم المشركون من أهل مكّة، حتّى قيل: إنّ الخطاب بذلك خاص بهم. وهذا يشمل مشركي أهل المدينة قبل صفائها منهم.

{ رَبَّكُمْ } التعبير عن الذات العليّة بصفة (الربّ) مضافا إلى ضمير المخاطبين إيماء إلى استحقاقه أن يُتَّقى لعظمته بالخالقيّة، وإلى جدارة النّاس بأن يتّقوه، لأنّه لا يأمر ولا ينهى إلّا لرعي المصالح ودرء المفاسد.

وأوّل تقواه هو تنزيهه عن النقائص، وفي مقدّمة ذلك تنزيهه عن الشركاء باعتقاد وحدانيّته في الإلهية.

{ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ } في موضع العلّة للأمر بالتقوى كما يفيد حرف التوكيد الواقع في مقام خطاب لا تردّد للسامع فيه.

الزلزلة: حقيقتها تحرّك عنيف في جهة من سطح الأرض، وهي من الظواهر الأرضية المرعبة ينشأ عنها تساقط البناء وقد ينشأ عنها خسف الأشياء في باطن الأرض.

الساعة: عَلَم بالغلبة في اصطلاح القرآن على وقت فناء الدنيا والخلوص إلى عالم الحشر الأخروي، قال تعالى { إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا - إلى قوله - يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُم } [الزلزلة:1-6].

وإضافة { زَلْزَلَةَ } إلى { السَّاعَةِ } على معنى (في)، أي: الزلزلة التي تحدث وقت حلول الساعة.

والظاهر حمل الزلزلة على الحقيقة، وهي حاصلة عند إشراف العالم الدنيوي على الفناء وفساد نظامه.

<u>ويجوز</u> أن تكون الزلزلة مجازا عن الأهوال والمُفزعات التي تحصل يوم القيامة، فإنّ ذلك تُستعار له الزلزلة قال تعالى { وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ } أي: أصيبوا بالكوارث والأضرار لقوله قبله { مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاء } . وفي دعاء النبيّ صلى الله عليه وسلم على الأحزاب: **" اللّهم اهزمهم وزلزلهم "**.

{ شَيْءٌ } للتهويل بتوغله في التنكير.

العظيم: الضخم، وهو هنا استعارة للقوي الشديد. والمقام يفيد أنّه شديد الشرّ.

{ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ } [2].

بيان للجملة السابقة، لأنّ ما ذكر في هذه الجملة يُبيّن معنى كونها شيئا عظيما.

{ **يَوْمَ تَرَوْنَهَا** } يتعلّق بفعل { تَذْهَلُ }، وتقديمه على عامله للاهتمام بالتوقيت بذلك اليوم وتوقّع رؤيته لكلّ مخاطب من النّاس. وأصل نظم الجملة: تذهل كل مرضعة عمّا أرضعت يوم ترون زلزلة الساعة.

رؤيتها: رؤية ما يحدث فيها من المرئيّات من حضور النّاس للحشر وما يتبعه، ومشاهدة أهوال العذاب.

الذهول: نسيان ما من شأنه أن لا ينسى لوجود مقتضى تذكّره، وإنّما يُنسى لشاغل عظيم عنه. فذكر لفظ الذهول هنا دون النسيان لأنّه أدل على شدّة التشاغل. وقد حصل من هذه الكناية دلالة على جميع لوازم شدّة الهول، وليس يلزم في الكناية أن يُصرّح بجميع اللوازم لأنّ دلالة الكناية عقلية وليست لفظية.

{ **مُرْضِعَةٍ** } التحقت هاء التأنيث للدلالة على تقريب الوصف من معنى الفعل، أي: أنّها في حالة التلبس بالإرضاع، كما يقال: هي ترضع. ولولا هذه النكتة لكان مقتضى الظاهر أن يقال: كلّ مرضع، لأنّ هذا الوصف من خصائص الأنثى فلا يحتاج معه إلى الهاء.

وهذا من بديع الكناية عن شدّة ذلك الهول لأنّ استلزام ذهول المرضع عن رضيعها لشدة الهول يستلزم شدّة الهول لغيرها بطريق الأولى، فهو لزوم بدرجة ثانية. وهذا النوع من الكناية يُسمّى الإيماء.

{ **وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا** } هو كناية أيضا. ووضع الحمل لا يكون إلّا لشدّة اضطراب نفس الحامل من فرط الفزع والخوف، لأنّ الحمل في قرار مكين.

الحمل: مصدر بمعنى المفعول، بقرينة تعلّقه بفعل { تضع }، أي: تضع جنينها.

{ **ذَاتِ حَمْلٍ** } دون التعبير: بحامل لأنّه الجاري في الاستعمال في الأكثر. فلا يقال: امرأة حامل، بل يقال: ذات حمل، قال تعالى { وَأُولاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ }، مع ما في هذه الإضافة من التنبيه على شدّة اتصال الحمل بالحامل، فيدلّ على أنّ وضعها إيّاه لسبب مفظع.

{ **وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى** } الخطاب لغير معيّن. وعدل عن الفعل الماضي إلى المضارع لاستحضار الحالة والتعجيب منها.

سُكارى: وسَكرى جمع سكران. وهو الذي اختلّ شعور عقله من أثر شرب الخمر.

{ **وَمَا هُمْ بِسُكَارَى** } في موضع الحال من النّاس.

{ **وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ** } هو عذاب الفزع والوجع، وعذاب الرعب في الآخرة بالإحساس بلفح النار.

{ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ } [3].

عطف على { يَا أَيُّهَا النَّاسُ }، أي: الناس فريقان: فريق يمتثل الأمر فيتّقي الله ويخشى عذابه، وفريق

يعرض عن ذلك ويعارضه بالجدل الباطل في شأن الله تعالى من وحدانيّته وصفاته ورسالته. وهذا الفريق هم أئمة الشرك وزعماء الكفر لأنّهم الذين يتصدّون للمجادلة بما لهم من أغاليط وسفسطة وما لهم من فصاحة.

والاقتصار على ذكرهم إيماء إلى أنّهم لولا تضليلهم قومهم وصدّهم إيّاهم عن متابعة الدِّين لاتبع عامة المشركين الإسلام لظهور حجّته.

وقيل: أريد بـ { مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ } النضر بن الحارث أو غيره كما سيأتي.

المجادلة: المخاصمة والمحاجّة. والظرفية مجازية، أي: يجادل جدلا واقعا في شأن الله.

{ **بِغَيْرِ عِلْمٍ** } أي: جدلا ناشئا عن سوء نظر وسوء تفكير.

اتباع الشيطان: الانقياد إلى وسوسته التي يجدها في نفسه والتي تلقاها بمعتاده، والعمل بذلك دون تردّد ولا عرض على نظر واستدلال.

مَرِيدٍ: صفة مشبّهة من مرُد (بضم الراء) على عمل. إذا عتا فيه وبلغ الغاية. أي: العاتي في الشيطنة.

{ **كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ** } [4].

صفة ثانية لـ { شَيْطَانٍ مَرِيدٍ } فالضمير المجرور عائد إلى { شَيْطَانٍ }، وأمّا الضميران البارزان في قوله { يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ } فعائدان إلى (من) الموصولة. أي: يضلُّ الشيطان متولّيه عن الحقِّ ويهديه إلى عذاب السعير.

الكتابة: مستعارة للثبوت واللزوم، أي: وجب عليه، فالعقد إذا أريد تحقيق العمل به كتب في صحيفة.

التولّي: اتخاذ وليّ، أي: نصير، أي: من استنصر به.

{ **يُضِلُّهُ** } لمّا كان الضلال مشتهرا في معنى البعد عن الخير والصلاح لم يحتج هنا إلى ذكر متعلّق.

{ **وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ** } ذُكر متعلّق فعل { يَهْدِيَهُ } لأنّ تعلُّقه به غريب إذ الشأن أن يكون الهدي إلى ما ينفع لا إلى ما يضرّ ويعذب.

وفي الجمع بين { يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ } مُحسّن الطباق بالمضادة.

وقد عُدّ من هذا الفريق الشامل له قوله تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ } النضر بن الحارث. وقيل: نزلت فيه. كان كثير الجدل يقول: الملائكة بنات الله، والقرآن أساطير الأولين، والله غير قادر على إحياء أجساد بليت وصارت ترابا. وعُدّ منهم أيضا أبو جهل، وأبي بن خلف.

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ } [5].

أعاد خطاب النّاس بعد أن أنذرهم بزلزلة الساعة، وذكر أنّ منهم من يجادل في الله بغير علم، فأعاد خطابهم بالاستدلال على إمكان البعث وتنظيره بما هو أعظم منه، وهو الخلق الأوّل. قال تعالى { فَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ } [ق:15]. فالذي خلق الإنسان من عدم وأخرجه من تراب، ثم كوّنه من ماء، ثم خلقه أطوارا عجيبة، إلى أن يتوفّاه في أحوال جسمه وإدراكه، قادر على إعادة خلقه بعد فنائه.

ودخول المشركين بادئ ذي بدء في هذا الخطاب أظهر من دخولهم في الخطاب السابق لأنّهم الذين أنكروا البعث، فالمقصود الاستدلال عليهم، ولذلك قيل: إن الخطاب هنا خاص بهم.

{ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ } واقعة موقع جواب الشرط ولكنّها لا يصلح لفظها لأن يكون جوابا لهذا الشرط بل هي دليل الجواب. والتقدير: فانظروا في بدء خلقكم فإنّا خلقناكم من تراب.

{ مِنْ تُرَابٍ } الذي خُلق من تراب هو أصل النوع، وهو آدم عليه السلام وحواء، ثم كوّنت فيهما قوّة التناسل. فصار الخلق من النطفة، فلذلك عُطفت وما بعدها بـ (ثمّ) للتراخي الحقيقي.

النطفة: اسم لمنيّ الرجل، وهو بوزن فُعلة بمعنى مفعول، أي منطوف. والنَّطف: القطر والصبّ.

العلقة: القطعة من الدم الجامد الليّن.

المضغة: القطعة من اللحم بقدر ما يُمضغ مثله. وهي فُعلة بمعنى مفعولة بتأويل: مقدار ممضوغة.

{ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ } صفة { مُضْغَةٍ }. وذلك تطوّر من تطوّرات المضغة. إشارة إلى أطوار تشكّل تلك المضغة، فإنّها في أوّل أمرها تكون غير مخلّقة، أي: غير ظاهر فيها شكل الخلقة. ثم تكون مخلّقة، والمراد تشكيل الوجه ثم الأطراف.

التخلّق: صيغة تدلّ على تكرير الفعل، أي: خلقا بعد خلق.

وقُدّم ذكر المخلّقة على ذكر غير المخلّقة خلاف الترتيب في الوجود، لأنّ المخلّقة أدخل في الاستدلال، وذكر بعده غير المخلّقة لأنّه إكمال للدليل وتنبيه على أنّ تخليقها نشأ عن عدم.

{ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ } أي: لنظهر لكم إذا تأملتم دليلا واضحا على إمكان الإحياء بعد الموت.

وحُذف مفعول { لِنُبَيِّنَ } لتذهب النفس في تقديره كلّ مذهب ممّا يرجع إلى بيان ما في هذه التصرّفات من القدرة والحكمة، أي: لنبيّن لكم قدرتنا وحكمتنا.

{ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً } عطف على السابق، وعدل عن الفعل الماضي إلى المضارع للدلالة على استحضار تلك الحالة لما فيها من مشابهة استقرار الأجساد في الأجداث ثم إخراجها منها بالبعث كما يخرج الطفل من قرارة الرحم، مع تفاوت القرار. والاستدلال في هذا كلّه بأنّه إيجاد بعد العدم وإعدام بعد الوجود، لتبيين إمكان البعث بالنظير وبالضدّ.

الأجل: الأمد المجعول لإتمام عمل ما، والمراد هنا مدّة الحمل.

المُسمَّى: اسم مفعول سمَّاه إذا جعل له اسما، ويستعار المُسمَّى للمعيَّن المضبوط. ومنه قول الفقهاء: المهر المُسمّى، أي: المعيَّن من نقد معدود أو عرض موصوف، وقول الموثّقين: وسُمِّي لها من الصداق كذا وكذا.

ولكلّ مولود مدّة معيّنة عند الله لبقائه في رحم أمّه قبل وضعه. والأكثر استكمال تسعة أشهر وتسعة أيام، وقد يكون الوضع أسرع من تلك المدّة لعارض، وكلّ معيّن في علم الله تعالى.

{ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً } (ثمّ) هنا للدلالة على التراخي الرتبي فإنّ إخراج الجنين هو المقصود.

وأفرد { طِفْلاً } لأنّ المقصود به الجنس، فهو بمنزلة الجمع.

{ ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ } مرتبطة بجملة { ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً } ارتباط العلة بالمعلول.

وإنّما جُعل بلوغ الأشُد علّة لأنّه أقوى أطوار الإنسان وأجلى مظاهر مواهبه في الجسم والعقل وهو الجانب الأهم كما أومأ إلي ذلك قوله تعالى بعد هذا { لِكَيْلا يَعْلَمَ مَنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً } فجعل (الأشّد) كأنّه الغاية المقصودة من تطويره.

الأشُد: سن الفتوّة واستجماع القوى. وقد تقدم في قوله { وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً } [يوسف:22]، ووقع في قوله تعالى { ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً } [غافر:67]، فعطف طور الشيخوخة على طور الأشُد باعتبار أنّ الشيخوخة مقصد للأحياء لحبّهم التعمير. وتلك الآية وردت مورد الامتنان فذكر فيها الطور الذي يتملّى المرء فيه بالحياة. ولم يذكر ذلك الطور (الشيخوخة) في آية سورة الحجّ لأنها وردت مورد الاستدلال على الإحياء بعد العدم.

{ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى } على وجه الاعتراض، استقراء لأحوال الأطوار الدالة على عظيم القدرة والحكمة الإلهية مع التنبيه على تخلل الوجود والعدم أطوار الإنسان بدءا ونهاية، كما يقتضيه مقام الاستدلال على البعث. والمعنى: ومنكم من يتوفّى قبل بلوغ بعض الأطوار. وأمّا أصل الوفاة فهي لاحقة لكلّ إنسان.

{ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ } عديل قوله تعالى { وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى }. وسكت عن ذكر الموت بعد أرذل العمر لأنّه معلوم بطريقة لحن الخطاب.

{ لِكَيْلا يَعْلَمَ مَنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً } جعل انتفاء علم الإنسان عند أرذل العمر علّة إلى أرذل العمر باعتبار أنّه علة غائية لذلك. فإنّ ضعف القوى الجسيمة يستتبع ضعف القوى العقلية، قال تعالى { وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ } [يس:68]. فالخلق يشمل كل ما هو من الخلقة ولا يختصّ بالجسم.

{ **شَيْئاً** } واقع في سياق النفي يعمّ كل معلوم، أي: لا يستفيد معلوما جديدا. ولذلك مراتب في ضعف العقل بحسب توغّله في أرذل العمر تبلغ إلى مرتبة انعدام قبوله لعلم جديد، وقبلها مراتب من الضعف متفاوتة كمرتبة نسيان الأشياء ومرتبة الاختلاط بين المعلومات وغير ذلك.

{ **وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ** }.

عطف على جملة { فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ }، والخطاب لغير معيّن فيعمّ كل من يسمع هذا الكلام.

ارتقاء في الاستدلال على الإحياء بعد الموت بقياس التمثيل لأنّه استدلال بحالة مشاهدة فلذلك افتتح بفعل { تَرَى }، بخلاف الاستدلال بخلق الإنسان فإنّ مبدأه غير مشاهد فقيل في شأنه {فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ}.

{ **فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ** } محلّ الاستدلال أنّ همود الأرض بمنزلة موت الإنسان واهتزازها وإنباتها بعد ذلك يماثل الإحياء بعد الموت.

الهمود: قريب من الخمود. فهمود الأرض جفافها وزوال نباتها، وهمود النار خمودها.

الاهتزاز: التحرّك إلى أعلى، فاهتزاز الأرض تمثيل لحال ارتفاع ترابها بالماء وحال ارتفاع وجهها بما عليه من العشب بحال الذي يهتز ويتحرك إلى أعلى.

ربت: حصل لها رُبُوٌّ (بضم الراء وضم الموحدة) وهو ازدياد الشيء، يقال: ربا يربو رُبُوًّا، وفُسّر هنا بانتفاخ الأرض من تفتّق النبت والشجر. وقرأ أبو جعفر { وربأت } بهمزة مفتوحة بعد الموحّدة، أي: ارتفعت.

الزوج: الصنف من الأشياء. أطلق عليه اسم الزوج تشبيها له بالزوج من الحيوان وهو صنف الذكر وصنف الأنثى. أطلق هنا على أنواع النبات.

البهيج: حسن المنظر السَّارّ للناظر. وقد سيق هذا الوصف إدماجا للامتنان في أثناء الاستدلال امتنانا بجمال صورة الأرض المنبتة، لأنّ كونه بهيجا لا دخل له في الاستدلال، كقوله تعالى { وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ } [النحل:6]، وقوله تعالى { وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ } [الملك:5].

{ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [6] وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ [7]** }.

فذلكة لما تقدّم، فالجملة تذييل. والإشارة إلى ما تقدّم من أطوار خلق الإنسان وفنائه، ومن إحياء الأرض بعد موتها وانبثاق النبت منها. وإفراد حرف الخطاب المقترن باسم الإشارة لإرادة مخاطب غير معيّن.

{ **بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ** } خبر عن اسم الإشارة، أي: ذلك حصل بسبب أنّ الله هو الحقّ.

والراجح أن تكون الباء للملابسة، وهذه الملابسة ملابسة الدليل لمدلوله. وهذا ارشق من حمل الباء على معنى السببية وهو أجمع لوجود الاستدلال.

الحقّ: الثابت الذي لا مراء فيه، أي: هو الموجود. والقصر إضافي، أي: دون غيره من معبوداتكم.

وهذا الاستدلال هو أصل بقيّة الأدلة، لأنّه نقض للشرك الذي هو الأصل لجميع ضلالات أهله.

{ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ } لبيان إمكان البعث. ووجه كون هذه الأمور الخمسة المعدودة في هذه الآية ملابسة لأحوال خلق الإنسان وأحوال إحياء الأرض أنّ تلك الأحوال دالة على هذه الأمور الخمسة:

إمّا بدلالة المسبِّب بالنسبة إلى وجود الله وإلى ثبوت قدرته على كل شيء.

وإمّا بدلالة التمثيل على الممثّل والواقع على إمكان نظيره الذي لم يقع بالنسبة إلى إحياء الله الموتى، ومجيء الساعة، والبعث، وإذا تبيَّن إمكان ذلك حقَّ التصديق بوقوعه، لأنّهم لم يكن بينهم وبين التصديق به حائل إلّا ظنهم استحالته، فالذي قدر على خلق الإنسان عن عدم سابق قادر على إعادته بعد اضمحلاله الطارئ على وجوده.

{ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدىً وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ [8] ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ [9] ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ [10] }.

عطف على جملة { يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ }، والمعنى: إن كنتم في ريب من وقوع البعث فإنّا نزيل ريبكم بهذه الأدلة الساطعة، فالنّاس بعد ذلك فريقان:

فريق يوقن بهذه الدلالة فلا يبقى في ريب.

وفريق من الناس يجادل في الله بغير علم، وهؤلاء هم أئمة الشرك وزعماء الباطل.

والمعنيُّ بهذه الآية هو المعنيُّ بقوله تعالى فيما مضى { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ } فيكون المراد فريق المعاندين المكابرين الذين يجادلون في الله بغير علم بعد أن بلغهم الإنذار من زلزلة الساعة. فهم كذلك يجادلون في الله بغير علم بعد أن وضحت لهم الأدلة على وقوع البعث.

ودافعهم إلى الجدال في الله عند وضوح الأدلة على البعث عدم علمهم ما يجادلون فيه، وانتفاء الهدى، وانتفاء تلقّي شريعته من قبل، والتكبّر عن الاعتراف بالحجّة، ومحبّة إضلال الناس عن سبيل الله. فيؤول إلى معنى أنّ أحوال هؤلاء مختلفة وأصحابها فريق واحد، هو فريق أهل الشرك والضلالة.

ومن أساطين هذا الفريق: النضر بن حارث. وأبي جهل، وأُبي بن خلف. وقيل: المراد في هذه الآية بمن يجادل في الله: النضر بن الحارث، وروي ذلك عن أبن عباس، وقيل: هو الأخنس بن شريق.

{ **بِغَيْرِ عِلْمٍ** } تقدّم معناه في نظير هذه الآية.

الهدى: مصدر في معنى المضاف إلى مفعوله، أي: ولا هدى هو مهديّ به.

الكتاب المنير: كتب الشرائع مثل: التوراة والإنجيل. و**المنير**: المبيّن للحقّ، شُبّه بالمصباح المضيء. وفيه تعريض بالنضر ابن الحارث إذ كان يجادل في شأن الإسلام بالموازنة بين كتاب الله المنير وكتاب أخبار رستم، وكتاب أخبار أسفنديار المظلمة الباطلة.

الثَّنْي: ليُّ الشيء، يقال: ثنى عنان فرسه، إذا لواه ليدير رأس فرسه إلى الجهة التي يريد أن يوجّهه إليها.

العِطف: المنكب والجانب، و{ ثَانِيَ عِطْفِهِ } تمثيل للتكبّر والخيلاء. ويقال: لوى جيده، إذا أعرض تكبّرا. وهذه الصفة تنطبق على حال أبي جهل فلذلك قيل إنّه المراد هنا.

{ **لِيُضِلَّ** } اللام لتعليل المجادلة، فهو متعلّق بـ { يُجَادِلُ }، أي: غرضه من المجادلة الإضلال.

سبيل الله: الدين الحق.

خزي الدنيا: الإهانة، وهو ما أصابهم من القتل يوم بدر ومن القتل والأسر بعد ذلك. وهؤلاء هم اللذين لم يُسلموا بعد. وينطبق الخزي على ما حصل لأبي جهل يوم بدر من قتله بيد غلامين من شباب الأنصار وهما أبناء عفراء. وينطبق أيضا على ما حلّ بالنضر بن الحارث من الأسر يوم بدر وقتله.

{ **ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ** } مقول قول محذوف تدلّ عليه صيغة الكلام، وهي جملة مستأنفة، أو في موضع الحال من ضمير النصب في قوله تعالى { وَنُذِيقُهُ }. والإشارة إلى العذاب، والباء سببيّة، و(ما) موصولة.

{ **قَدَّمَتْ** } بمعنى: أسلفت.

{ **وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ** } صيغة المبالغة تقتضي بظاهرها نفي الظلم الشديد. والمقصود أنّ الظلم من حيث هو ظلم أمر شديد فصيغت له زنة المبالغة، وكذلك التزمت في ذكره حيثما وقع في القرآن. وقد اعتاد جمع من المتأخرين أن يجعلوا المبالغة راجعة للنفي لا للمنفي وهو بعيد.

{ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ } [11].

هذا وصف فريق آخر من الذين يقابلون الأمر بالتقوى والإنذار بالساعة مقابلة غير المطمئنّ بصدق دعوة الإسلام ولا المعرض عنها إعراضا تاما ولكنهم يضعون أنفسهم في معرض الموازنة بين دينهم القديم ودين الإسلام.

<u>والظاهر أنّ الآية نزلت بالمدينة</u>، ففي صحيح البخاري عن ابن عباس في قوله تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ } قال: كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلاما ونتجت خيله قال: هذا دين صالح، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال: هذا دين سوء.

وفي حديث الموطأ: " أنّ أعرابيا أسلم وبايع النبيّ صلى الله عليه وسلم فأصابه وعك بالمدينة، فجاء إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم يستقيله بيعته فأبى أن يقيله، فخرج من المدينة فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **المدينة كالكير تنفي خبثها وينصع طيبها** "، فجعله خبثا لأنّه لم يكن مؤمنا ثابتا.

وهذا كلّه ناشئ عن الجهل وتخليط الأسباب الدنيوية بالأسباب الأخروية، وجعل المقارنات الاتفاقية كالمعلومات اللزوميّة. وهذا أصل كبير من أصول الضلالة في أمور الدين وأمور الدنيا. ولنِعْم المعبِّر عن ذلك قوله تعالى { خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةَ }، إذ لا يهتدي إلى تطلّب المسبّبات من أسبابها.

{ عَلَى حَرْفٍ } حرف الشيء طرفه وجانبه سواء كان مرتفعا كحرف الجبل والوادي، أم كان مستويا كحرف الطريق. ويطلق الحرف على طرف الجيش. ويجمع على طِرَف بوزن عِنب.

{ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ } تمثيل لحال المتردّد في عمله، يريد تجربة عاقبته بحال من يمشي على حرف جبل أو حرف واد فهو متهيّئ لأن يزلّ عنه إلى أسفله فينقلب، أي: ينكبّ.

اطمأنّ: استقر وسكن في مكانه. ومصدره الاطمئنان واسم المصدر الطمأنينة. وتقدّم في قوله تعالى { وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي } [البقرة:260].

والمعنى: استمر على التوحيد فرحا بالخير الذي أصابه. واستقرار مثل هذا على الإيمان يُصيّره مؤمنا إذا زال عنه التردّد، وحال هؤلاء قريب من حال المؤلّفة قلوبهم.

الانقلاب: مطاوع قلبه إذا كبّه، أي: ألقاه على عكس ما كان عليه. فالانقلاب مستعمل في حقيقته، والكلام تمثيل. وتفسيرنا الانقلاب هنا بهذا المعنى هو المناسب لقوله تعالى { عَلَى وَجْهِهِ }، أي: سقط وانكبّ عليه، كقول النبي صلى الله عليه وسلم: **" إنّ هذا الأمر في قريش لا ينازعهم فيه أحد إلّا كبَّه الله على وجهه "**.

ويطلق الانقلاب كثيرا على الانصراف من الجهة التي أتاها إلى الجهة التي جاء منها، وهو مجاز شائع وبه فسّر المفسّرون. ولا يناسب اعتباره هنا لأنّ مثله يقال فيه: انقلب على عقبيه لا على وجهه، كما قال تعالى { إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ } إذ الرجوع إنما يكون إلى جهة غير جهة الوجه.

الفتنة: اضطراب الحال وقلق البال من حدوث شرّ لا مدفع له. وهي مقابل الخير.

{ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةَ } بدل اشتمال من جملة { انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ }.

{ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ } معترضة بين جملة { انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِه } وجملة { يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ }، أي: أُسقط في الشرك.

الخسران: تلف جزء من أصل مال التجارة، فشُبِّه نفع الدنيا ونفع الآخرة بمال التاجر الساعي في توفيره. وتعلّق الخسران بالدنيا والآخرة على حذف مضاف. والتقدير: خسر خير الدنيا وخير الآخرة؛ فخسارة الدنيا بسبب ما أصابه فيها من الفتنة، وخسارة الآخرة بسبب عدم الانتفاع بثوابها المرجوّ له.

المبين: الذي فيه ما يبين للنّاس أنّه خسران بأدنى تأمّل. والمراد: أنّه خسران شديد لا يخفى.

والقصر المستفاد من تعريف المسند قصر ادعائي. والمقصود من القصر الادعائي تحقيق الخبر ونفي الشك في وقوعه. وضمير الفصل { هُوَ } أكّد معنى القصر فأفاد تقوية الخبر المقصور.

{ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ } [12].

الجملة حال من ضمير { انْقَلَبَ }.

{ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ } قُدّم الضرّ على النفع إيماء إلى أنّه تملّص من الإسلام تجنّبا للضرّ لتوهّمه أن ما لحقه من الضرّ بسبب الإسلام وبسبب غضب الأصنام عليه. وفي هذا الإيماء تهكّم به.

والمعنى: أنّها لا تفعل ما يجلب ضرّا ولا ما يجلب نفعا.

{ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ } الإشارة إلى الدعاء المستفاد من { يَدْعُو }. والقول في اسم الإشارة وضمير الفصل والقصر مثل ما تقدم في قوله تعالى { ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ }.

البعيد: المتجاوز الحدّ المعروف في مدى الضلال، أي: هو الضلال الذي لا يماثله ضلال.

{ يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ } [13].

جملة في موضع حال ثانية. ومضمونها ارتقاء في تضليل عابدي الأصنام. فبعد أن بيّن لهم أنّهم يعبدون ما لا غناء لهم فيه زاد فبيّن أنّهم يعبدون ما فيه ضرّ. وذلك أن عبادة الأصنام تضرّه في الدنيا بالتوجّه عند الاضطرار إليها فيضيع زمنه في تطلّب ما لا يحصل، وتضرّه في الآخرة بالإلقاء في النار.

ولمّا كان الضرّ الحاصل من الأصنام ليس ضرّا ناشئا عن فعلها بل هو ضرّ ملابس لها أثبت الضرّ بطريق الإضافة دون طريق الإسناد فلم يقل: لمن يضرّ ولا ينفع، لأنّ الإضافة أوسع من الإسناد فلم يحصل تناف بين قوله تعالى { مَا لا يَضُرُّهُ } وقوله تعالى { لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ }.

{ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ } إنشاء ذمّ للأصنام التي يدعونها بأنّها شرّ الموالي وشرّ العشراء، لأنّ شأن المولى جلب النفع لمولاه، وشأن العشير جلب الخير لعشيره.

{ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ } [14].

هذا مقابل قوله تعالى { وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ }، وقوله تعالى { خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ }، فالجملة معترضة. وقد اقتُصر على ذكر ما للمؤمنين من ثواب الآخرة.

{ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ } تذييل للكلام المتقدّم من قوله تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ } إلى هنا، وهو اعتراض بين الجمل الملتئم منها الغرض. وفيها معنى التعليل الإجمالي لاختلاف أحوال النّاس في الدنيا والآخرة.

فعل الله ما يريد: هو إيجاد أسباب أفعال العباد في سنّة نظام هذا العالم، وتبيينه الخير والشرّ، وترتيبه الثواب والعقاب، وذلك لا يحيط بتفاصيله إلّا الله تعالى.

{ **مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ** } [15].

موقع هذه الآية غامض، ومُفادها كذلك.

الاحتمال الأوّل: أن يكون موقعها استئنافا ابتدائيا أريد به ذكر فريق ثالث غير الفريقين المتقدّمين في قوله تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ }، وقوله تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ }. وهذا الفريق الثالث جماعة أسلموا واستبطأوا نصر المسلمين فأيسوا منه وغاظهم تعجّلهم للدخول في الإسلام، وهؤلاء هم المنافقون.

الاحتمال الثاني: أن يكون موقعها تذييلا لقوله تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ }، بعد أن اعترض بين تلك الجملة وبين هاته بجمل أخرى، فيكون المراد: أنّ الفريق الذين يعبدون الله على حرف، والمخبر عنهم بقوله تعالى { خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ }، هم قوم يظنّون أنّ الله لا ينصرهم في الدنيا ولا في الآخرة إن بقوا على الإسلام. فأمّا ظنّهم انتفاء النصر في الدنيا فلأنّهم قد أيسوا من النصر استبطاءً. وأمّا في الآخرة فلأنّهم لا يؤمنون بالبعث ، وهؤلاء مشركون متردّدون.

وعلى كلا الاحتمالين:

{ **يَنْصُرَهُ** } ضمير النصب عائد إلى { مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ }.

{ **السَّمَاءِ** } مراد به المعنى المشهور، أخذا بما رواه القرطبي عن ابن زيد (عبد الرحمان بن زيد ابن أسلم).

{ **فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ** } الأمر للتعجيز. فيُعلم أن تعليق الجواب على حصول شرط لا يقع، كقوله تعالى { يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا } [الرحمان:33].

السبب: الحبل. وتقدّم في قوله تعالى { وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ } [البقرة:166].

{ **ثُمَّ لْيَقْطَعْ** } المفعول محذوف لدلالة المقام عليه. والتقدير: ثم ليقطعه، أي: ليقطع السبب.

فالمعنى: فلينط حبلا بالسماء مربوطا به ثم يقطعه فيسقط من السماء فيتمزّق كلّ ممزّق فلا يغني عنه فعله شيئا من إزالة غيظه.

الاحتمال الثالث: أن تكون الآية مشيرة إلى فريق آخر أسلموا في مدّة ضعف الإسلام واستبطأوا النصر فضاقت صدورهم فخطرت لهم خواطر شيطانية أن يتركوا الإسلام ويرجعوا إلى الكفر فزجرهم الله وهدّدهم بأنّهم إن كانوا آيسين من النصر في الدنيا ومرتابين في نيل ثواب الآخرة فإنّ ارتدادهم عن الإسلام لا يضرّ الله ولا رسوله ولا يكيد الدين، وإن شاؤوا فليختنقوا فينظروا هل يزيل الاختناق غيظهم. ولعلّ هؤلاء من المنافقين.

القطع: على هذا الوجه يراد به الاختناق. قيل: لأنه يقطع الأنفاس.
فموقع الآية على هذا الوجه موقع الاستئناف الابتدائي لذكر فريق آخر يشبه من يعبد الله على حرف. والمناسبة ظاهرة.
{ **يَنْصُرَهُ اللَّهُ** } ويجيء على هذا الوجه أن يكون الضمير عائدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهذا مروي عن ابن عباس واختاره الفراء والزجاج.
<u>وعلى كلّ الوجوه</u> فالآية تعريض بالتنبيه لخلّص المؤمنين أن لا ييأسوا من نصر الله في الدنيا والآخرة أو في الآخرة فقط. قال تعالى { مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً. لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ } [الأحزاب:24/23].

{ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ } [16].
لمّا تضمّنت الآيات السابقة تبيين أحوال الناس تجاه دعوة الإسلام بما لا يبقى بعده التباس عُقِّبت بالتنويه بتبيينها، بأن شُبِّه ذلك التبيينُ بنفسه كناية عن بلوغه الغاية في جنسه بحيث لا يلحق بأوضح منه، أي: مثل هذا الإنزال أنزلنا القرآن آيات بينات.

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } [17].
فذلكة لما تقدّم. لأنّه لما اشتملت الآيات السابقة على بيان أحوال المتردّدين في قبول الإسلام كان ذلك مثارًا لأن يُتساءل عن أحوال الفرق بعضهم مع بعض في مختلف الأديان. وأن يُسأل عن الدين الحقّ، لأنّ كلّ أمّة تدَّعى أنّها على الحقّ وغيرها على الباطل وتجادل في ذلك.
فبيّنت هذه الآية أنّ الفصل بين أهل الأديان فيما اختصموا فيه يكون يوم القيامة إذ لم تفدهم الحجج في الدنيا.
وهذا الكلام بما فيه من إجمال هو جار مجرى التفويض. لأنّ مثل ذلك التفويض لله لا يكون إلّا من الواثق بأنّه على الحقّ وهو كقوله تعالى { لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} وذلك من قبيل الكناية التعريضية.
{ **الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى** } تقدّم ذكرهم في [البقرة:62] و[المائدة:69].
وزاد في هذه الآية ذكر المجوس والمشركين، لأنّ الآيتين المتقدّمتين كانتا في مساق بيان فضل التوحيد والإيمان بالله واليوم الآخر في كل زمان وفي كل أمّة. وزيد في هذه السورة ذكر المجوس والمشركين

لأنّ هذه الآية مسوقة لبيان التفويض إلى الله في الحكم بين أهل الملل، فالمجوس والمشركون ليسوا من أهل الإيمان بالله واليوم الآخر.

المجوس: هم أهل دين يُثبت إلهين: إلها للخير، وإلها للشرّ، وهم أهل فارس. ثم هي تتشعّب شعبا تأوي إلى هذين الأصلين. وأقدم النحل المجوسية أسسها (**كيومرث**) الذي هو أوّل ملك بفارس في أزمنة قديمة يُظنّ أنّها قبل زمن إبراهيم عليه السلام، ولذلك يُلقّب أيضا بلقب (جهان شاه) تفسيره: ملك الأرض.

غير أن ذلك ليس مضبوطا بوجه علمي. وهي تثبت إلهين هما (**يَزدان**) و (**أهرُمُن**). قالوا: كان يزدان منفردا بالوجود الأزلي، وأنّه كان نورانيا، وأنّه بقي كذلك تسعة آلف وتسعين سنة ثم حدث له خاطر في نفسه: أنّه لو حدث له منازع كيف يكون الأمر فنشأ من هذا الخاطر موجود جديد ظلماني سُمِّي (أهرُمُن) وهو إله الظلمة مطبوعا على الشرّ والضرّ. فحدث بين الاثنين خلاف ومحاربة إلى الأبد.

ثم نشأت على هذا الدين نحل خُصّت بألقاب وهي متقاربة التعاليم أشهرها نحلة (زرادشت) الذي ظهر في القرن السادس قبل ميلاد المسيح، وبه اشتهرت المجوسية. وجعل إله الخير نورا، وإله الشرّ ظلمة. ثم دعا الناس إلى عبادة النار على أنّها مظهر إله الخير وهو النور. ووسّع شريعة المجوسية، ووضع لها كتابا سماه (**زَندافستا**). ومن أصول شريعته تجنّب عبادة التماثيل.

ثم ظهرت في المجوس نحلة المانوية. وهي المنسوبة إلى (ماني) الذي ظهر في زمن سابور بن أردشير ملك الفرس بين سنة (238م - 271م).

وظهرت في المجوس نحلة المزدكية، وهي منسوبة إلى (مَزدك) الذي ظهر في زمن قُباذ بين سنة (487 م - 523م)، وهي نحلة قريبة من (المانوية)، وهي آخر نحلة ظهرت في تطور المجوسية قبل الفتح الإسلامي لبلاد الفرس.

وللمجوسية شبه في الأصل بالإشراك إلّا أنّها تخالفه بمنع عبادة الأحجار، وبأنّ لها كتابا، فأشبهوا بذلك أهل الكتاب. ولذلك قال النبيّ صلى الله عليه وسلم فيهم: **" سُنُّوا بهم سنّة أهل الكتاب "**، أي: في الاكتفاء بأخذ الجزية منهم دون الإكراه على الإسلام. وقد تقدّم شيء من هذا عند قوله تعالى { وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ } [النحل:51].

الفصل: الحكم، أي: يحكم بينهم فيما اختلفوا فيه من تصحيح الديانة.

{ **إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** } مستأنفة استئنافا ابتدائيا للإعلام بإحاطة علم الله بأحوالهم واختلافهم والصحيح من أقوالهم.

{ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ** } [18].

جملة مستأنفة لابتداء استدلال على انفراد الله تعالى بالإلهية. وهي مرتبطة بمعنى قوله تعالى { يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنْفَعُهُ - إلى قوله - لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ } [13/12] ارتباط الدليل بالمطلوب، فإنّ دلائل أحوال المخلوقات كلّها - عاقلها وجمادها - شاهدة بتفرّد الله بالإلهية. وفي تلك الدلالة شهادة على بطلان دعوة من يدعو من دون الله ما لا يضرّه وما لا ينفعه. وما وقع بين الجملتين استطراد واعتراض.

{ **أَلَمْ تَرَ** } الرؤية علميّة. <u>والخطاب لغير معيَّن</u>. والاستفهام إنكاري، أنكر على المخاطبين عدم علمهم بدلالة أحوال المخلوقات على تفرّد الله بالإلهية.

ويجوز أن يكون الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والاستفهام تقريريا، لأنّ حصول علم النبيّ صلى الله عليه وسلم بذلك متقرّر.

{ **أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ** ... } تقدّم الكلام على معنى هذا السجود في [الرعد:15]، و[النحل:50].

وقد استُعمل السجود في حقيقته ومجازه، وهو حسن وإن أباه الزمخشري، وقد حققناه في المقدمة التاسعة، لأنّ السجود المثبت لكثير من النّاس هو السجود الحقيقي، ولولا إرادة ذلك لما احترس بإثباته لكثير من الناس لا لجميعهم.

ووجه هذا التفكيك (حقيقي ومجازي) أنّ سجود الموجودات غير الإنسانية ليس إلّا دلالة تلك الموجودات على أنّها مسخرة بخلق الله، فاستعير السجود لحالة التسخير والانطباع. وأمّا دلالة حال الإنسان على عبوديّته لله تعالى فلمّا خالطها إعراض كثير من الناس عن السجود لله تعالى، وتلبّسهم بالسجود للأصنام كما هو حال المشركين غطّى سجودهم الحقيقي على السجود المجازي الدال على عبوديتهم لله، لأنّ المشاهدة أقوى من دلالة الحال، فلم يثبت لهم السجود الذي أثبت لبقية الموجودات وإن كان حاصلا في حالهم كحال المخلوقات.

{ **وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ** } معترضة بالواو. مُكنًّى بها عن ترك السجود لله، أي: حقّ عليهم العذاب لأنّهم لم يسجدوا لله، وقد قضى الله في حكمه استحقاق المشرك لعذاب النار. فالذين أشركوا بالله وأعرضوا عن إفراده بالعبادة قد حقّ عليهم العذاب بما قضى الله به وأنذرهم به.

{ **وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ** } اعتراض ثانٍ بالواو. والمعنى: أنّ الله أهانهم باستحقاق العذاب فلا يجدون من يكرمهم بالنصر أو بالشفاعة.

{ **إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ** } في محلّ العلة للجملتين المعترضتين، لأنّ وجود حرف التوكيد في أوّل الجملة مع عدم المنكر يمحّض حرف التوكيد إلى إفادة الاهتمام، فنشأ من ذلك معنى السببية والتعليل.

وهذا موضع سجود من سجود القرآن باتفاق الفقهاء.

{ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ [19] يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ [20] وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ [21] كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ [22] }.

استئناف بياني، لأنّ قوله تعالى { وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ } يثير سؤال من يسأل عن بعض تفصيل صفة العذاب الذي حقّ على كثير من الناس الذين لم يسجدوا لله تعالى، فجاءت الآيات لتفصيل ذلك.

{ **هَذَانِ** } اسم الإشارة مشير إلى ما يفيده قوله تعالى { وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ } من انقسام المذكورين إلى فريقين: أهل توحيد وأهل شرك.

الاختصام: افتعال من الخصومة. وهي الجدل والاختلاف بالقول، يقال: خاصمه واختصما، وهو من الأفعال المقتضية جانبين فلذلك لم يسمع منه فعل مجرد إلّا إذا أريد منه معنى الغلب في الخصومة لأنّه بذلك يصير فاعله واحدا. وتقدّم قوله تعالى { وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً } [النساء:105].

واختصام فريقي المؤمنين وغيرهم معلوم عند السامعين قد ملأ الفضاء جلبتُه، فالإخبار عن الفريقين بأنّهما خصمان مسوق لغير إفادة الخبر بل تمهيدا للتفصيل في قوله تعالى { فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ}.

فالمراد من هذه الآية ما يعم جميع المؤمنين وجميع مخالفيهم في الدين.

ووقع في الصحيحين عن أبي ذر: أنّه كان يقسم أنّ هذه الآية { هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ } نزلت في حمزة وصاحبيه، علي ابن أبي طالب وعتبة بن الحارث، الذين بارزوا يوم بدر شيبة ابن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة.

وعليه فهذه الآية مدنيّة فتكون { هَذَانِ } إشارة إلى فريقين حاضرين في أذهان المخاطبين فنزل حضور قصّتهما العجيبة في الأذهان منزلة المشاهدة حتّى أعيد عليها اسم الإشارة الموضوع للمشاهد، وهو استعمال في كلام البلغاء.

والأظهر أنّ أبا ذر عنى بنزول الآية في هؤلاء أنّ أولئك النفر الستة هم أبرز مثال وأشهر فرد في هذا العموم. فعبّر بالنزول وهو يريد أنّهم ممّن يُقصد من معنى الآية. ومثل هذا كثير في كلام المتقدّمين.

والاختصام على الوجه الأوّل حقيقي وعلى الوجه الثاني أطلق الاختصام على المبارزة مجازا مرسلا لأنّ الاختصام في الدين هو سبب تلك المبارزة.

{ **هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا** } اسم الخصم يطلق على الواحد وعلى الجماعة إذا اتّحدت خصومتهم كما في قوله تعالى { وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ } [ص:21]، فلمراعاة تثنية اللفظ أُتي باسم الإشارة الموضوع للمثنّى، ولمراعاة العدد أُتي بضمير الجماعة في قوله تعالى { اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ }.

{ **فِي رَبِّهِمْ** } في شأنه وصفاته، فالكلام على حذف مضاف ظاهر.

التقطيع: مبالغة القطع، وهو فصل بعض أجزاء شيء عن بقيته. والمراد: قطع شقة الثوب. وصيغت صيغة الشدّة في القطع للإشارة إلى السرعة في إعداد ذلك لهم فيجعل لهم ثياب من نار.

{ **ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ** } ثياب محرقة للجلود، وذلك من شؤون الآخرة.

الحميم: الماء الشديد الحرارة.

الإصهار: الإذابة بالنّار أو بحرارة الشمس، يقال: أصهره وصهره.

ما في بطونهم: أمعاؤهم، أي: هو شديد في النفاذ إلى باطنهم.

المقامع: جمع مقمعة بكسر الميم بصيغة اسم آله القمع. والقمع: الكف عن شيء بعنف. والمقمعة: **السوط**، أي: يُضربون بسياط من حديد.

{ **كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا** } أنّهم لشدّة ما يغمّهم، أي: يمنعهم من التنفس، يحاولون الخروج فيعادون فيها فيحصل لهم ألم الخيبة، ويقال لهم: ذوقوا عذاب الحريق.

الحريق: النّار الضخمة المنتشرة. وهذا القول إهانة لهم فإنّهم قد علموا أنّهم يذوقونه.

{ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ [23] وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ [24] }.

الكلام قسيم للذي قبله في تفصيل إجمال { هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ } لوصف حال المؤمنين المقابل لحال الذين كفروا في المكان واللباس وخطاب الكرامة.

{ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا } مقابل قوله تعالى { كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا }.

{ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ } يقابل قوله تعالى { يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ }.

{ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ } مقابل قوله تعالى { قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ }.

{ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ } مقابل قوله تعالى { وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ } فإنّه من القول النكد.

التحلية: وضع الحَلْي على أعضاء الجسم. حلاه: ألبسه الحَلي مثل جلبب.

الأساور: جمع أسورة الذي هو جمع سوار. أشير بجمع الجمع إلى التكثير كما في قوله تعالى { يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً } [الكهف:31].

{ **لُؤْلُؤاً** } الدرّ. ويقال له الجُمان والجوهر. وهو حبوب بيضاء وصفراء ذات بريق رقراق تستخرج من أجواف حيوان مائي حلزوني. وقد أشارت إليه آية { وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا } [النحل:14].

الحرير: يطلق على ما نسج من خيوط الحرير كما هنا. وأصل اسم الحرير اسم الخيوط التي تفرزها من لعابها دودة مخصوصة تلفّها لفا بعضها إلى بعض مثل كبة تلتئم مشدودة كصورة الفول السوداني تحيط بالدودة كمثل الجوزة وتمكث فيه مدة إلى أن تتحوّل إلى فراشة. وإنّما تحصل الخيوط من ذلك البيت بوضعها في ماء حار في درجة الغليان حتّى يزول تماسكها بسبب انحلال المادة الصمغية اللعابية التي تشدّها فيطلقونها خيطا واحدا طويلا. ومن أصناف ثياب الحرير السندس والإستبرق، وتقدّما في [الكهف:31].

{ **وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ** } أي: يلهمهم أقوالا حسنة يقولونها بينهم. وقد ذُكر بعضها في قوله تعالى { دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [يونس:10]، وقوله تعالى { وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ } [الزمر:74].

ويجوز أن يكون المعنى: أنّهم يُرشَدون إلى أماكن يسمعون فيها أقوالا طيّبة، وهو معنى قوله تعالى { وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ } [الرعد:24/23].

وهذا أشدّ مناسبة بمقابلة ما يسمعه أهل النار في قوله تعالى { وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ }.

{ **وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ** } معترضة في آخر الكلام، هي كالتكملة لوصف حسن حالهم لمناسبة ذكر الهداية في قوله تعالى { وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ }. والمعنى: وقد هدوا إلى صراط الحميد في الدنيا، وهو دين الإسلام، شُبّه بالصراط لأنّه موصل إلى رضى الله.

الحميد: من أسماء الله تعالى، أي: المحمود كثيرا فهو فعيل بمعنى مفعول، فالإضافة إلى اسم من أسماء الله لتعريف أيّ صراط هو.

ويجوز أن يكون { الْحَمِيدِ } صفة لـ { صِرَاطِ }، أي: المحمود لسالكه. فإضافة صراط إليه من إضافة الموصوف إلى الصفة. والصراط المحمود هو صراط دين الله.

{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ } [25].

استئناف بياني وهو مقابل قوله تعالى { وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ } بالنسبة إلى أحوال المشركين.

والمعنى: كما كان سبب استحقاق المؤمنين ذلك النعيم اتّباعهم صراط الله كذلك كان سبب استحقاق المشركين ذلك العذاب كفرهم وصدّهم عن سبيل الله.

وفيه مع هذه المناسبة لما قبله تخلّص بديع إلى ما بعده من بيان حقّ المسلمين في المسجد الحرام، وتهويل أمر الإلحاد فيه، والتنويه به وتنزيهه عن أن يكون مأوى للشرك ورجس الظلم والعدوان.

{ **يَصُدُّونَ** } صيغة المضارع للدلالة على تكرّر ذلك منهم وأنّه دأبهم سواء فيه أهل مكّة وغيرهم، لأنّ البقية ظاهروهم على ذلك الصد ووافقوهم.

سبيل الله: الإسلام، فصدّهم عنه هو الذي حقّق لهم عذاب النار، كما حقّق اهتداء المؤمنين إليه لهم النعيم.

الصدّ عن المسجد الحرام: ممّا شمله الصدّ عن سبيل الله فخُصّ بالذكر للاهتمام به، وليُنتقل منه إلى التنويه بالمسجد الحرام، وذكر بنائه، وشرع الحجّ له من عهد إبراهيم. والمراد: صدٌّ عَرَفه المسلمون يومئذ. والمعروف من ذلك أنّهم منعوا المسلمين بعد الهجرة من زيارة البيت، فقد قال أبو جهل لسعد بن معاذ لمّا جاء إلى مكّة معتمرا وقال لصاحبه أمية بن خلف: انتظر لي ساعة من النهار لعلّي أطوف بالبيت، فبينما سعد يطوف إذ أتاه أبو جهل وعرفه. فقال له أبو جهل: أتطوف بالكعبة آمنا وقد أوتيتم الصُّباة (يعني المسلمين). ومن ذلك ما صنعوه يوم الحديبية. وأحسب أنّ الآية نزلت قبل ذلك سواء نزلت بمكّة أم بالمدينة.

{ **الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ** } للإيماء إلى علّة مؤاخذة المشركين بصدّهم عنه لأجل أنّهم خالفوا ما أراد الله منه، فإنّه جعله للنّاس كلّهم يستوي في أحقّية التعبّد به العاكف فيه، أي: المستقر في المسجد، والبادي، أي: البعيد عنه إذا دخله.

أطلق العكوف في المسجد على سكنى مكة مجازا بعلاقة اللزوم العرفي. وفي ذكر العكوف تعريض بأنّهم لا يستحقّون بسكنى مكة مزيّة على غيرهم، وبأنّهم حين يمنعون الخارجين عن مكة من الدخول للكعبة قد ظلموهم باستئثارهم بمكة.

العكوف: الملازمة. و**البادي**: ساكن البادية.

{ **وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** } تذييل للجملة السابقة لما في (مَنْ) الشرطية من العموم.

الإلحاد: الانحراف عن الاستقامة وسواء الأمور.

الظلم: يطلق على الإشراك وعلى المعاصي، لأنّها ظلم النفس.

{ **بِإِلْحَادٍ** } الباء زائدة للتوكيد مثلها في قوله تعالى { وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ } [المائدة:6].

{ **بِظُلْمٍ** } الباء للملابسة. فالظلم: الإشراك، لأن المقصود تهديد المشركين الذين حملهم الإشراك على مناواة المسلمين ومنعهم من زيارة المسجد الحرام.

{ **مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** } (من) للتوكيد ولك أن تجعلها للتبعيض، أي: نذقه عذابا من عذاب أليم.

{ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ } [26].

عطف على جملة { وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ }، عطف قصّة على قصّة. ويُعلم منها تعليل الجملة المعطوفة عليها بأنّ الملحد في المسجد الحرام قد خالف بإلحاده فيه ما أراده الله من تطهيره حين أمر ببنائه.

والتخلّص من ذلك إلى إثبات ظلم المشركين وكفرانهم نعمة الله في إقامة المسجد الحرام وتشريع الحجّ.

{ وَإِذْ بَوَّأْنَا } التقدير: واذكر إذ بوّأنا، أي: اذكر ذلك الوقت العظيم. وعُرف معنى تعظيمه من إضافة اسم الزمان إلى الجملة الفعلية دون المصدر فصار بما يدلّ عليه الفعل من التجدّد كأنه زمن حاضر.

التبوئة: الإسكان. وتقدّم في قوله تعالى { وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا } [يوسف:56].

المكان: الساحة من الأرض وموضع للكون فيه، فهو فعل مشتقّ من الكون، فتبوئته المكان: إذنه بأن يتّخذه مَباءة، أي: مقرا يبني فيه بيتا.

{ البَيْتِ } معروف معهود عند نزول القرآن فلذلك عُرّف بلام العهد ولولا هذه النكتة لكان ذكر { مَكَانَ } حشوا. والمقصود أن يكون مأوى للدين.

{ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً } كان أصل الدين هو نفي الإشراك بالله فعُلم أنّ البيت جُعل مَعْلَما للتوحيد بحيث يُشترط على الداخل إليه أن لا يكون مشركا، فكانت الكعبة لذلك أّول بيت وضع للناس لإعلان التوحيد، كما بيّنّاه عند قوله تعالى { إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ } [آل عمران:96].

{ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ } إضافة البيت إلى ضمير الجلالة تشريف للبيت.

التطهير: تنزيهه عن كل خبيث؛ معنًى كالشرك والفواحش وظلم الناس وبثّ الخصال الذميمة، وحسًّا من الأقذار ونحوها، أي: أعدده طاهرا للطائفين والقائمين فيه.

الطواف: المشي حول الكعبة، وهو عبادة قديمة من زمن إبراهيم قرّرها الإسلام وقد كان أهل الجاهلية يطوفون حول أصنامهم كما يطوفون بالكعبة.

القائمين: الداعون تجاه الكعبة، ومنه سمّي مقام إبراهيم، وهو مكان قيامه للدعاء فكان الملتزم موضعا للدعاء.

الرُّكَّع: جمع راكع.

السُّجُود: جمع ساجد.

{ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ [27] لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ [28] }.**

عطف على { وَطَهِّرْ بَيْتِيَ }. وفيه إشارة إلى أنّ من إكرام الزائر تنظيف المنزل وأنّ ذلك يكون قبل الدعوة.

التأذين: رفع الصوت بالإعلام بشيء. وأصله مضاعف أَذِنَ إذا سمع ثم صار بمعنى بلغه الخبر فجاء منه آذن بمعنى أخبر. وأذَّن بما فيه من مضاعفة الحروف مشعر بتكرير الفعل، أي: أكثر الإخبار بالشيء.

{ **فِي النَّاسِ** } يعمّ كل البشر.

{ **بِالْحَجِّ** } القصد إلى بيت الله. وصار لفظ الحجّ علما بالغلبة على الحضور بالمسجد الحرام لأداء المناسك. ومن حكمة مشروعيّته تلقي عقيدة توحيد الله بطريق المشاهدة للهيكل الذي أُقيم لذلك حتّى يرسخ معنى التوحيد في النفوس لأن للنفوس ميلا إلى المحسوسات ليتقوّى الإدراك العقلي بمشاهدة المحسوس.

{ **يَأْتُوكَ** } تعليق الفعل بضمير خطاب إبراهيم دلالة على أنّه كان يحضر موسم الحجّ كلّ عام يبلّغ للنّاس التوحيد وقواعد الحنيفية. وقد كان إبراهيم رحّالة فلعلّه كان ينادي في النّاس في كلّ مكان يحلّ فيه.

{ **يَأتُوكَ** } جواب للأمر، جُعل التأذين سببا للإتيان تحقيقا لتيسير الحجّ على النّاس. فدلّ الجواب على أنّ الله ضمن له استجابة ندائه.

{ **رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ** } حال من ضمير الجمع في قوله { يَأتُوكَ } والمقصود منه استيعاب أحوال الآتين. أي: يأتيك من لهم رواحل ومن يمشون على أرجلهم.

{ **رِجَالاً** } جمع راجل وهو ضد الراكب.

الضامر: قليل لحم البطن. والضمور من محاسن الرواحل والخيل لأنّه يعينها على السير والحركة. فالضامر هنا بمنزلة الاسم كأنّه قال: وعلى كل راحلة.

{ **كُلِّ** } مستعملة في الكثرة، أي: وعلى رواحل كثيرة. وأصلها الدلالة على استغراق جنس ما تضاف إليه.

{ **يَأْتِينَ** } إسناد الإتيان إلى الرواحل تشريف لها بأن جعلها مشاركة للحجيج في الإتيان إلى البيت.

الفجّ: الشقّ بين جبلين تسير فيه الرِكاب، فغلب الفج على الطريق، لأنّ أكثر الطرق المؤدية إلى مكّة تسلك بين الجبال.

العميق: البعيد إلى أسفل، لأنّ العمق البعد في القعر، فأطلق على البعيد مطلقا بطريقة المجاز المرسل، أو هو استعارة بتشبيه مكة بمكان مرتفع والناس مصعدون إليه.

{ **لِيَشْهَدُوا** } يتعلق بقوله تعالى { يَأْتُوكَ } فهو علّة لإتيانهم. والمعنى: ليحضروا منافع لهم. وأهمّ المنافع ما وعدهم الله على لسان إبراهيم عليه السلام من الثواب. فكُنّي بشهود المنافع عن نيلها. وأعظم ذلك اجتماع أهل التوحيد في صعيد واحد ليتلقى بعضهم عن بعض ما به كمال إيمانه.

{ **مَنَافِعَ** } التنكير للتعظيم المراد منه الكثرة، وهي المصالح الدينية والدنيوية، لأنّ في مجمع الحجّ فوائد جمّة للنّاس؛ لأفرادهم من الثواب والمغفرة لكل حاج، ولمجتمعهم بالتعارف والتعامل.

{ **وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ** } ذلك هو النحر والذبح للهدايا الواجبة والمتطوّع بها. وقد بيّنته شريعة إبراهيم من قبل بما لم يبلغ إلينا. وبيّنه الإسلام بما فيه شفاء.

وأُدمج في هذا الحكم الامتنان بأنّ الله رزقهم تلك الأنعام. وهذا تعريض بطلب الشكر على هذا الرزق بالإخلاص لله في العبادة وإطعام المحاويج من عباد الله من لحومها. وفي ذلك سدّ لحاجة الفقراء بتزويدهم ما يكفيهم لعامهم. ولذلك فُرّع عليه قوله:

{ **فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ** } الأمر بالأكل منها يحتمل أن يكون أمر وجوب في شريعة إبراهيم. عُدل عن الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات أو على تقدير قول محذوف مأمور به إبراهيم عليه السلام.

وفي حكاية هذا تعريض بالردّ على أهل الجاهلية إذ كانوا يمنعون الأكل من الهدايا.

الأيام المعلومات: أجملت هنا لعدم تعلّق الغرض ببيانها إذ غرض الكلام ذكر حج البيت وقد بُيّنت عند التعرض لأعمال الحجّ عند قوله تعالى { وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ } [البقرة:203].

البائس: الذي أصابه البؤس، وهو ضيق المال، وهو الفقير. هذا قول جمع من المفسّرين. وفي الموطأ : في باب ما يكره من أكل الدواب، قال مالك: " سمعت أنّ البائس هو الفقير ".

قلتُ: من أجل ذلك لم يعطف أحد الوصفين على الآخر لأنّه كالبيان له، وإنّما ذكر البائس مع أن الفقير مغن عنه لترقيق أفئدة الناس على الفقير بتذكيرهم أنّه في بؤس، لأنّ وصف (فقير) لشيوع تداوله على الألسن صار كاللقب غير مشعر بمعنى الحاجة، وقد حصل من ذكر الوصفين التأكيد.

وعن ابن عباس: البائس الذي ظهر بؤسه في ثيابه وفي وجهه، والفقير الذي تكون ثيابه نقية ووجهه وجه غني. فعلى هذا التفسير يكون البائس هو المسكين ويكون ذكر الوصفين لقصد استيعاب أحوال المحتاجين.

{ **ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ** } [29].

هذا من جملة ما خاطب الله به إبراهيم عليه السلام.

{ **ثُمَّ** } للتراخي الرتبي لا الزمني فتفيد أنّ المعطوف بها أهم في الغرض المسوق إليه الكلام من المعطوف عليه. وذلك في الوفاء بالنذر والطواف بالبيت العتيق ظاهر إذ هما نسكان أهمّ من نحر الهدايا،

وقضاء التفث محمول على أمر مهم كما سنبيّنه.

{ **لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ** } قرأ ورش عن نافع وقُنبل عن ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو بكسر لام { لِيَقْضُوا }. وقرأه الباقون بسكون اللام. وهما لغتان في لام الأمر إذا وقعت بعد (ثمّ)، كما تقدّم آنفا في قوله تعالى { ثُمَّ لْيَقْطَعْ }.

التفث: كلمة وقعت في القرآن وتردّد المفسرون في المراد منها. واضطرب علماء اللغة في معناها، لعلّهم لم يعثروا عليها في كلام العرب المحتجّ به. قال الزجاج: إنّ أهل اللغة لا يعلمون التفث إلّا من أقوال المفسّرين. فعن ابن عمر وابن عباس: التفث: مناسك الحج وأفعاله كلّها. **قلت**: رواه الطبري عنهما بأسانيد مقبولة.

وقال نفطويه وقطرب: التفث: هو الوسخ والدرن. ورواه ابن وهب عن مالك بن أنس. واختاره أبو بكر ابن العربي. قال نفطويه: سألت أعرابيا: ما معنى قوله { ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ } ، فقال: ما أفسر القرآن ولكن نقول للرجل ما أتفثك، أي: ما أدرنك.

وعندي: أنّ فعل { لْيَقْضُوا} ينادي على أن التفث عمل من أعمال الحج وليس وسخا ولا ظفرا ولا شعرا. ويؤيّده ما روي عن ابن عمر وابن عباس آنفا، وأنّ موقع (ثمّ) في عطف جملة الأمر على ما قبلها ينادي على معنى التراخي الرتبي فيقتضي أن المعطوف أهمّ، فإنّ أعمال الحجّ هي المهم في الإتيان إلى مكة، فلا جرم أنّ **التفث هو مناسك الحج** وهذا الذي درج عليه الحريري في قوله في المقامة المكّية: " فلمّا قضيت بعون الله التفث، واستبحت الطيب والرفث، صادف موسم الخيف معمعان الصيف ".

{ **وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ** } أي: إن كانوا نذروا أعمالا زائدة على ما تقتضيه فريضة الحجّ، مثل نذر طواف زائد أو اعتكاف في المسجد الحرام أو نسكا أو إطعام فقير أو نحو ذلك.

النذر: التزام قربة الله تعالى لم تكن واجبة على ملتزمها بتعليق على حصول مرغوب أو بدون تعليق، وبالنذر تصير القربة الملتزَمة واجبة على الناذر. وأشهر صيغة: " لله عليَّ ... ".

وفي هذه الآية دليل على أنّ النذر كان مشروعا في شريعة إبراهيم. وقد نذر عمر في الجاهلية اعتكاف ليلة بالمسجد الحرام ووفّى به بعد إسلامه كما في الحديث.

{ **وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ** } خُتم خطاب إبراهيم بالأمر بالطواف بالبيت إيذانا بأنّهم كانوا يجعلون آخر أعمال الحجّ الطواف بالبيت، وهو المُسمّى في الإسلام طواف الإفاضة.

العتيق: المحرّر غير المملوك للناس. شُبّه بالعبد العتيق في أنّه لا ملك لأحد عليه. وفيه تعريض بالمشركين إذ كانوا يمنعون منه من يشاؤون حتّى جعلوا بابه مرتفعا بدون درج لئلا يدخله إلّا من شاؤوا كما جاء في حديث عائشة أيام الفتح. وأخرج الترمذي بسند حسن أن رسول الله قال: " **إنّما سمَّى الله البيت العتيق لأنّه أعتقه من الجبابرة فلم يظهر عليه جبّار قط** ".

وهذه الآيات حكاية عمّا كان في عهد إبراهيم عليه السلام فلا تؤخذ منها أحكام الحجّ والهدايا في الإسلام.

{ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ [30] **حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ** [31]}.

{ **ذَلِكَ** } اسم الإشارة مستعمل هنا للفصل بين كلامين أو بين وجهين من كلام واحد، والقصد منه التنبيه على الاهتمام بما سيُذكر بعده. في معنى: ذلك بيان أو ذكر. وأوثر اسم إشارة البعيد للدلالة على بعد المنزلة، كناية عن تعظيم مضمون ما قبله.

{ **وَمَنْ يُعَظِّمْ** } معترضة عطفا على جملة { وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ } عطف الغرض على الغرض. وهو انتقال إلى بيان ما يجب الحفاظ عليه من الحنيفيّة، والتنبيه إلى أنّ الإسلام بُني على أساسها.

والكلام موجّه إلى المسلمين تنبيها لهم على أنّ تلك الحرمات لم يعطّل الإسلام حرمتها، فيكون الانتقال من غرض إلى غرض ومن مخاطب إلى مخاطب آخر. فإنّ المسلمين كانوا يعتمرون ويحجّون قبل إيجاب الحجّ.

الحرمات: جمع حُرُمة (بضمتين): وهي ما يجب احترامه.

الاحترام: اعتبار الشيء ذا حَرَم، كناية عن عدم الدخول فيه، أي: عدم انتهاكه بمخالفة أمر الله في شأنه.
والحرمات يشمل كلّ ما أوصى الله بتعظيم أمره فتشمل مناسك الحجّ كلّها.

وعن زيد بن أسلم: الحرمات خمس: المسجد الحرام، والبيت الحرام، والبلد الحرام، والشهر الحرام، والمُحْرم ما دام مُحْرما. فقصره على الذوات دون الأعمال.

{ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ }

لما ذكر آنفا بهيمة الأنعام وتعظيم حُرمات الله أعقب ذلك بإبطال ما حرّمه المشركون على أنفسهم من الأنعام مثل: البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحامي، وبعض ما في بطونها. وقد ذُكر في [الأنعام:138/139] واستثني منه ما يتلى تحريمه في القرآن وهو ما جاء في قوله تعالى { قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً } [الأنعام:145]، وما ذكر في [النحل:115] وكلتاهما مكيتان سابقتان.

{ **إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ** } جيء بالمضارع ليشمل ما نزل من القرآن في ذلك ممّا سبق نزول سورة الحجّ، ويشمل ما عسى أن ينزل من بعد مثل قوله { مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ } [المائدة:103].

{ **فَاجْتَنِبُوا** } الأمر مستعمل في طلب الدوام.

{ **قَوْلَ الزُّورِ** } الكذب على الله بقولهم لبعض المحرّمات { هَذَا حَلَالٌ } مثل الدم وما أهلّ لغير الله به،

وقولهم لبعض { هَذَا حَرَامٌ } مثل: البحيرة، والسائبة، قال تعالى { وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ } [النحل:116].

الرجس: حقيقته الخبث والقذارة. وتقدّم في قوله تعالى { فَإِنَّهُ رِجْسٌ } [الأنعام:145]. ورجس الأوثان رجس معنوي لكون اعتقاد إلهيتها في النفوس بمنزلة تعلّق الخبث بالأجساد، فإطلاق الرجس عليها تشبيه بليغ.

{ **حُنَفَاءَ لِلَّهِ** } حال من ضمير { اجْتَنِبُوا }، أي: تكونوا إن اجتنبتم ذلك حنفاء لله. جمع حنيف وهو المخلص لله في العبادة، أي: تكونوا على ملّة إبراهيم حقًّا.

{ **غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ** } زاد معنى { حُنَفَاءَ } بيانا. وهذا كقوله تعالى { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [النحل:120]. والباء للمصاحبة والمعيّة، أي: غير مشركين معه غيره.

{ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ }.

أعقب نهيهم عن الأوثان بتمثيل فظاعة حال من يشرك بالله في مصيره. يعني أنّ المشرك لمّا عدل عن الإيمان الفطري، وكان في مكنته، فكأنّه كان في السماء فسقط منها، فتوزّعته أنواع المهالك.

الخرور: السقوط وتقدّم في قوله تعالى { فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ } [النحل:26].

{ **فَتَخْطَفُهُ** } الخطف: أخذ شيء بسرعة سواء كان في الأرض أم كان في الجو، ومنه تخطُّف الكرة. والمضاعف { فَتَخَطَّفُهُ } للمبالغة، قراءة نافع وأبو جعفر.

الهُويّ: نزول شيء من علو إلى الأرض.

{ **أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ** } تخيير في نتيجة التشبيه. أشارت الآية إلى أنّ الكافرين قسمان:

<u>قسم شركه ذبذبة وشك</u>، فهذا مُشبّه بمن اختطفته الطير فلا يستولي طائر على مزعة منه إلّا انتهبها منه آخر، فكذلك المذبذب متى لاح له خيال اتّبعه وترك ما كان عليه.

<u>وقسم مصمّم على الكفر</u> مستقرّ فيه، فهو مُشبّه بمن ألقته الريح في واد سحيق.

السحيق: البعيد فلا نجاة لمن حلّ فيه.

{ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ } [32].

الشعائر: جمع شعيرة، المعلم الواضح، مشتقّة من الشعور. و**شعائر الله**: لقب لمناسك الحج.

ومضمون الجملة أخصّ من مضمون جملة { وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ } وذكر الأخص بعد الأعم للاهتمام.

وتقدّم ذكرها في قوله تعالى { إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ } [البقرة:158].

فكل ما أمر الله به بزيارته أو بفعل يوقَع فيه فهو من شعائر الله، أي: مما أشعر الله للناس وقرّره وشهّره. وهي معالم الحج: الكعبة، والصفا والمروة، وعرفة، والمشعر الحرام. ونحوها من معالم الحج.

وتطلق الشعيرة أيضا على بدنة الهدي قال تعالى { وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ } لأنّهم يجعلون فيها

شعارا، والشعار العلامة بأن يطعنوا في جلد جانبها الأيمن طعنا حتّى يسيل منه الدم فتكون علامة على أنّها نذرت للهدي.

{ **فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ** } جواب الشرط والرابط بين الشرط وجوابه هو العموم في قوله { الْقُلُوبِ }، فإنّ من جملة القلوب قلوب الذين يعظّمون شعائر الله. فالتقدير: فقد حلّت التقوى قلبه بتعظيم الشعائر لأنّها من تقوى القلوب. أي: لأنّ تعظيمها من تقوى القلوب.

{ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ } [33].

حال من الأنعام في قوله تعالى { وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ } وما بينهما اعتراضات. والمقصود بالخبر: هو صنف من الأنعام، وهو صنف الهدايا بقرينة قوله تعالى { ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ }. والخطاب موجّه للمؤمنين.

المنافع: جمع منفعة، وهي اسم النفع، وهو حصول ما يلائم. وجعْل المنافع فيها يقتضي أنّها انتفاع بخصائصها ممّا يراد من نوعها قبل أن تكون هديا.

وهو ردّ على المشركين إذ كانوا إذا قلّدوا الهديَ وأشعروه حظروا الانتفاع به: من ركوبه وحمل عليه وشرب لبنه.

وفي الموطأ عن أبي هريرة: " أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يسوق بدنة فقال: **اركبها،** فقال: إنّها بدنة، فقال: **اركبها،** فقال: إنّها بدنة، فقال: **اركبها ويلك،** في الثانية أو الثالثة ".

الأجل المُسمَّى: هو وقت نحرها، وهو يوم من أيام منى. وهي الأيام المعدودات.

المَحِل: (بفتح الميم وكسر الحاء) مصدر ميمي من حلَّ يحلّ، إذا بلغ المكان واستقرّ فيه. وهو كناية عن نهاية أمرها، كما يقال: بلغ الغاية. ونهاية أمرها النحر أو الذبح.

{ **إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ** } انتهاء مجازي لأنّها لا تنحر في الكعبة، لأنّ الهدايا إنّما شرعت تكملة لشرع الحجّ، والحجّ قصد البيت، فالهدايا تابعة للكعبة، قال تعالى { هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ }.

وإنّما المناحر: منى، والمروة، وفجاج مكّة، أي: طرقها بحسب أنواع الهدايا. وتبيينه في السنّة.

{ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ [34] الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ [35] }.

الأمّة: أهل الدين الذين اشتركوا في اتباعه. والمراد: أنّ المسلمين لهم منسك واحد وهو البيت العتيق كما تقدّم. والمقصود من هذا الردَّ على المشركين إذ جعلوا لأصنامهم مناسك تشابه مناسك الحجّ، وجعلوا لها

مواقيت ومذابح، مثل الغَبْغَب منحر العُزَّى. فذكّرهم الله تعالى بأنّه ما جعل لكلّ أمّة إلّا منسكا واحدا للقربان إلى الله تعالى الذي رزق النّاس الأنعام التي يتقرّبون إليه منها.

{ **مَنْسَكًا** } التنكير للإفراد، أي: واحدا لا متعددا، ومحلّ الفائدة هو إسناد الجعل إلى ضمير الجلالة.

{ **عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ** } يجوز أن تكون (عَلَى) للاستعلاء المجازي متعلّقة بـ { لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ} مع تقدير مضاف بعد (على) تقديره: إهداء ما رزقهم. أي: عند إهداء ما رزقهم.

ويجوز أن تكون (عَلَى) بمعنى: لام التعليل. والمعنى: ليذكروا اسم الله لأجل ما رزقهم من بهيمة الأنعام.

{ **فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ** } تفريع على الكلام السابق تنصيص على الانفراد بالإلهية، أي: إذ كان قد جعل لكم منسكا واحدا فقد نبّهكم بذلك أنّه إله واحد، ولو كانت آلهة كثيرة لكانت شرائعها مختلفة.

{ **فَلَهُ أَسْلِمُوا** } تفريع ثانٍ، وهو المقصود، فوقع في النظم تغيير بتقديم وتأخير. وأصل النظم: فلله أسلموا، لأنّ إلهكم إله واحد. وتقديم المجرور للحصر، أي: أسلموا له لا لغيره.

{ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ }.

اعتراض بين سَوق المِنن. والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم. وأصحاب هذه الصفات هم المسلمون.

المُخبت: المتواضع الذي لا تكبّر عنده. وأصل المُخبت من سلك الخَبْت. وهو المكان المنخفض ضدّ المُصعِد. ثم استعير للمتواضع، والمراد بهم هنا المؤمنون، لأن التواضع من شيمهم كما كان التكبّر من سمات المشركين قال تعالى { كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ } [غافر:35].

الوجل: الخوف الشديد. وتقدّم في قوله تعالى { قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ } [الحجر:52].

وقد أتبع صفة { المُخْبِتِيْنَ } بأربع صفات وهي: وجل القلوب عند ذكر الله، والصبر على الأذى في سبيله، وإقامة الصلاة، والإنفاق. وكلّ هذه الصفات الأربع مظاهر للتواضع.

{ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [36].

عطف على جملة { وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً }، أي: جعلنا منسكا للقربان والهدايا، وجعلنا البدن التي تُهدى ويُتقرّب بها شعائر من شعائر الله.

المعنى: أن الله أمر بقربان البُدْن في الحجّ من عهد إبراهيم عليه السلام وجعلها جزاء عمّا يُترخّص فيه من أعمال الحجّ. وأمر بالتطوّع بها فوعد عليها بالثواب الجزيل، فنالت بذلك الجعْل الإلهي يُمْنا وبركة وحرمة ألحقتها بشعائر الله، وامتنّ بذلك على النّاس بما اقتضته كلمة { لَكُمْ }.

البُدْن: جمع بَدَنَة بالتحريك، وهي البعير العظيم البدن. وهو اسم مأخوذ من البدانة. وهي عظم الجثة والسمن. وغلب اسم البدنة على البعير المعيّن للهدي.

وتقديم { الْبُدْنَ } على عامله للاهتمام بها تنويها بشأنها. والاقتصار على البدن الخاص بالإبل لأنّها أفضل في الهدي لكثرة لحمها. وقد أُلحقت بها البقر والغنم بدليل السنّة. واسم ذلك **هدي**.

{ **مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ** } أي: أنّ الله جعلها معالم تؤذن بالحجّ وجعل لها حرمة. وهذا وجه تسميتهم وضع العلامة التي يعلّم بها بعير الهدي في جلده إشعارا.

قال مالك في الموطأ : كان عبد الله بن عمر إذا أهدى هديا من المدينة قلّده وأشعره بذي الحليفة، يقلّده قبل أن يشعره... يقلّده بنعلين ويشعره من الشق الأيسر... "، بطعن في سنامه، فالإشعار إعداد للنحر.

وقد عُدّت في جملة الحرمات في قوله { لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ } [المائدة:2].

الخير: النفع. وهو ما يحصل للنّاس من النفع في الدنيا من انتفاع الفقراء بلحومها وجلودها وجلالها ونعالها وقلائدها. وما يحصل للمُهدين وأهلهم من الشبع من لحمها يوم النحر، وخير الآخرة من الثواب.

{ **فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ** } أمر النّاس بأن يذكروا اسم الله عليها حين نحرها.

صوافّ: جمع صافّة. يقال: صف إذا كان مع غيره صفا بأن اتصل به. ولعلّهم كانوا يصفُّونها في المنحر يوم النحر بمنى، لأنّه كان بمنى موضع أعدّ للنحر، وهو المنحر.

وقد ورد في حديث مسلم عن جابر بن عبد الله في حجة الوداع قال فيه: " ثم انصرف رسول الله إلى المنحر فنحر رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ثلاثا وستين بدنة جعل يطعنها بحربة في يده ثم أعطى الحربة عليّا فنحر ما غَبَر (أي: ما بقي) وكانت مائة بدنة ". وهذا يقتضي أنّها كانت مجتمعة متقاربة.

وفائدة هذه الحال ذكر محاسن من مشاهد البدن، فإنّ إيقاف النّاس بدنهم للنحر مجتمعة ومنتظمة غير متفرقة ممّا يزيد هيئتها جلالا. وقريب منه قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ } [الصف:4].

{ **فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا** } سقطت إلى الأرض، وهو كناية عن زوال الروح التي بها الاستقلال. والقصد من هذا التوقيت المبادرة بالانتفاع بها إسراعا إلى الخير الحاصل من ذلك في الدنيا بإطعام الفقراء وأكل أصحابها منها، فإنّه يُستحبّ أن يكون فطور الحاجّ يوم النحر من هديه، وكذلك الخير الحاصل من ثواب الآخرة.

{ **فَكُلُوا مِنْهَا** } الأمر مجمل، يحتمل الوجوب ويحتمل الإباحة ويحتمل الندب. وقرينة عدم الوجوب ظاهرة لأنّ المكلف لا يفرض عليه ما الداعي إلى فعله من طبعه. وإنّما أراد الله إبطال ما كان عند أهل الجاهلية من تحريم أكل المهدي من لحوم هديه، فبقي النظر في أنّه مباح بحت أو هو مندوب.

واختلف الفقهاء في الأكل من لحوم الهدايا الواجبة.

فقال مالك: يباح الأكل من لحوم الهدايا الواجبة. وهو عنده مستحب ولا يؤكل من فدية الأذى وجزاء الصيد ونذر المساكين. والحجّة لمالك صريح الآية.

وقال أبو حنيفة: يأكل من هدي التمتع والقران. ولا يأكل من الواجب الذي عيّنه الحاج عند إحرامه.

وقال الشافعي: لا يأكل من لحوم الهدايا بحال مستندا إلى القياس. وهو أن المهدي أوجب إخراج الهدي من ماله فكيف يأكل منه. كذا قال ابن العربي. وإذا كان هذا قصارى كلام الشافعي فهو استدلال غير وجيه ولفظ القرآن ينافيه لا سيما وقد ثبت أكل النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه من لحوم الهدايا بأحاديث صحيحة.

وقال أحمد: يؤكل من الهدايا الواجبة إلّا جزاء الصيد والنذر.

{ **وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ** } قال الشافعي: الأمر للوجوب. وهو الأصح. قال ابن العربي: وهو صريح قول مالك.

القانع: المتّصف بالقُنُوع. وهو التذلّل. يقال: قنُع قُنُوعا (بضم القاف) إذا سأل بتذلّل.

وأمّا القناعة ففعلها من باب تعب ويستوي الفعل المضارع مع اختلاف الموجب. ومن أحسن ما جُمع من النظائر ما أنشده الخفاجي:

العبد حرٌّ إن قنع ... والحر عبد إن قنُع

فاقنع ولا تقنع فما ... شيء يشين سوى الطمع

وفي الموطأ في كتاب الصيد: قال مالك: والقانع هو الفقير .

المعترّ: اسم فاعل من اعترّ، إذا تعرض للعطاء، أي: دون سؤال بل بالتعريض وهو أن يحضر موضع العطاء، يقال: اعترّ، إذا تعرّض.

وفي الموطأ في كتاب الصيد: قال مالك: وسمعت أنّ المعترّ هو الزائر، أي: فتكون من عرّ إذا زار.

والمراد زيارة التعرّض للعطاء. وهذا التفسير أحسن. ويرجّحه أنّه عطف { الْمُعْتَرَّ } على { القَانِعَ }، فدلّ العطف على المغايرة، ولو كانا في معنى واحد لما عطف عليه كما لم يعطف في قوله { وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ }.

{ **كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ** } استئناف للامتنان بما خلق من المخلوقات لنفع الناس. والأمارة الدالة على إرادته ذلك أنّه سخّرها للناس مع ضعف الإنسان وقوة تلك الأنعام فيأخذ الرجل الواحد العدد منها ويسوقها منقادة، ويؤلمونها بالإشعار. ولولا أن الله أودع في طباعها هذا الانقياد لما كانت أعجز من بعض الوحوش التي هي أضعف منها فتنفر من الإنسان ولا تُسخَّر له.

{ **كَذَلِكَ** } هو مثل نظائره، أي: مثل ذلك التسخير العجيب الذي ترونه كان تسخيرها لكم.

{ **لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** } خلقناها مسخَّرة لكم استجلابا لأن تشكروا الله بإفراده بالعبادة. وهذا تعريض بالمشركين إذ وضعوا الشرك موضع الشكر.

{ لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ } [37].

{ لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ } جملة في موضع التعليل لجملة { كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }. أي: أنّه لا انتفاع لله بشيء من لحومها ولا دمائها، فلا يريد الله منكم على ذلك إلّا أن تتقوه.

النيل: الإصابة. يقال: ناله، أي: أصابه ووصل إليه. ويقال أيضا بمعنى أحرز، فإنّ فيه معنى الإصابة كقوله تعالى { لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ } [آل عمران:92] وقوله { وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا } [التوبة:74].

والمقصود من نفي أن يصل إلى الله لحومها ودماؤها إبطال ما يفعله المشركون من نضح الدماء في المذابح وحول الكعبة وكانوا يذبحون بالمروة. قال الحسن: كانوا يلطّخون بدماء القرابين وكانوا يشرّحون لحوم الهدايا وينصبونها حول الكعبة قربانا لله تعالى. يعني زيادة على ما يعطونه للمحاويج.

وفي الآية إيماء إلى أنّ إراقة الدماء وتقطيع اللحوم ليسا مقصودين بالتعبّد ولكنّهما وسيلة لنفع النّاس.

<u>فأمّا المُهدون</u> فانتفاعهم بالأكل منها في يوم عيدهم كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم في تحريم صيام يوم النحر:" **يوم تأكلون فيه من نُسككم** " فذلك نفع لأنفسهم ولأهاليهم ولو بالادخار منه إلى رجوعهم إلى آفاقهم. <u>وأمّا غيرهم</u>، فانتفاع من ليس له هدي من الحجيج بالأكل ممّا يهديه إليهم أقاربهم وأصحابهم، وانتفاع المحاويج من أهل الحرم بالشبع والتزوّد منها والانتفاع بجلودها وجلالها وقلائدها.

وقد عُرضت جملة من الأسئلة هنا:

إذا كانت الهدايا أوفر من حاجة أهل الموسم، فهل يجوز بيعها؟

واللحم الذي يفضل هل يجوز تصبيره؟

وهل الأجدى نحر كلّ الهدايا يوم النحر أم يجوز توزيعها على أيام التشريق؟

وقد تردّدت في الجواب عن ذلك أنظار المتصدّين للإفتاء من فقهاء هذا العصر، وكادوا أن تتفق كلمات من صدرت منهم فتاوى على أنّ تصبيرها مناف للتعبّد بهديها.

أمّا أنا فالذي أراه أنّ المصير إلى كلا الحالين من البيع والتصبير لما فضل عن حاجة النّاس في أيّام الحجّ، لينتفع بها المحتاجون في عامهم، رعيا لمقصد الشريعة من نفع المحتاج وحفظ الأموال، مع عدم تعطيل النحر والذبح للقدر المحتاج إليه منها، جمعا بين المقاصد الشرعية.

كذلك الرأي عندي توزيع المقادير الكافية للانتفاع بها على أيام النحر الثلاثة بحيث لا يُتعجّل بنحر جميع الهدايا في اليوم الأوّل طلبا لفضيلة المبادرة. فإنّ التقوى التي تصل إلى الله من تلك الهدايا هي الانتفاع بها. وهذا قياس على أصل حفظ الأموال. وحكم الهدايا مركّب من تعبد وتعليل. ومعنى التعليل فيه أقوى. وعلّته انتفاع المسلمين، ومسلك العلة الإيماء الذي في قوله تعالى {فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ}.

واعلم أنّ توهّم التقرّب بتلطيخ دماء القرابين وانتفاع المتقرّب إليه بتلك الدماء عقيدة وثنية قديمة، فربّما كانوا يطرحون ما يتقربون به من لحم وطعام فلا يدعون أحدا يأكله. وكان اليونان يشوون لحوم القرابين على النار حتى تصير رمادا ويتوهّمون أنّ رائحة الشواء تسرّ الآلهة المتقرّب إليها بالقرابين. وكان المصريّون يلقون الطعام للتماسيح التي في النيل لأنّها مقدّسة.

{ **وَلَكِنْ يَنَالُهُ** } مشاكله لـ { يَنَالَ } الأول، استعير النيل لتعلّق العلم. شُبّه علم الله تقواهم بوصول الشيء المبعوث إلى الله تشبيها وجهه الحصول في كلٍّ وحسَّنته المشاكلة.

{ **التَّقْوَى مِنْكُمْ** } يشمل التقوى ذكر اسم الله عليها والتصدّق ببعضها على المحتاجين.

{ **كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ** } تكرير لجملة { كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ } ليُبنى عليه التنبيه إلى أنّ الثناء على الله، مُسخِّرها، هو رأس الشكر المنبّه عليه في الآية السابقة، فصار مدلول الجملتين مترادفا، فوقع التأكيد.

{ **عَلَى مَا هَدَاكُمْ** } للاستعلاء المجازي الذي هو بمعنى التمكّن. أي: لتكبّروا الله عند تمكّنكم من نحرها.

الهداية إليها: هي تشريع الهدايا في تلك المواقيت لينتفع بها الناس ويرتزق سكان الحرم الذين اصطفاهم الله ليكونوا دعاة التوحيد، لا يفارقون ذلك المكان. والخطاب للمسلمين.

{ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ } [38].

استئناف بياني جوابا لسؤال يخطر في نفوس المؤمنين ينشأ من قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } [25]، فإنّه توعّد المشركين على صدّهم عن سبيل الله والمسجد الحرام بالعذاب الأليم، وبشّر المؤمنين المخبتين والمحسنين بما يتبادر منه ضدّ وعيد المشركين وذلك ثواب الآخرة. فهل ينتصر لهم من أعدائهم أو يدّخر لهم الخير كله إلى الدار الآخرة ؟

فكان المقام خليقا بأن يطمئن الله نفوسهم بأنّه كما أعدّ لهم نعيم الآخرة هو أيضا مدافع عنهم في الدنيا وناصرهم. فالكلام موجه إلى المؤمنين. ولذلك فافتتاحه بحرف التوكيد إمّا لمجرد تحقيق الخبر، وإمّا لتنزيلهم منزلة المتردّدين لشدّة انتظارهم النصر واستبطائهم إيّاه.

{ **الَّذِينَ آمَنُوا** } التعبير بالموصول لما فيه من الإيماء أنّ دفاع الله عنهم لأجل إيمانهم.

{ **إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ** } تعليل، فلذلك يدفع عن المؤمنين لرد أذى الكافرين.

الخوّان: شديد الخون. والخون كالخيانة: الغدر بالأمانة. والمراد بالخوّان: الكافر، لأنّ الكفر خيانة لعهد الله الذي أخذه على المخلوقات بأن يوحّدوه فجعله في الفطرة وأبلغه الناس على ألسنة الرسل.

الكفور: شديد الكفر.

{ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ** } [39].

بدل اشتمال من جملة { إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ }، لأنّ دفاع الله عن الناس يكون تارة بالإذن لهم بمقاتلة من أراد الله مدافعتهم عنهم، فإنّه إذا أذن لهم بمقاتلتهم كان متكفّلا لهم بالنصر.

{ **لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ** } مراد بهم المؤمنون على كلتا القراءتين لأنّهم إذا قوتلوا فقد قاتلوا. فعلى قراءة فتح التاء فالمراد بالقتال فيه القتل المجازي، وهو الأذى. وأمّا على قراءة { يُقَاتِلونَ } (بكسر التاء) فصيغة الماضي مستعملة مجازا في التهيؤ والاستعداد. أي: أذن للذين تهيّئوا للقتال وانتظروا إذن الله.

وذلك أنّ المشركين كانوا يؤذون المؤمنين بمكة أذًى شديدًا فكان المسلمون يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين مضروب ومشجوج يتظلّمون إليه. فيقول لهم: " **اصبروا فإنّي لم أؤمر بالقتال** ". فلمّا هاجر نزلت هذه الآية بعد بيعة العقبة إذنا لهم بالتهيّؤ للدفاع عن أنفسهم، ولم يكن قتال قبل ذلك كما يؤذن به قوله تعالى عقب هذا { الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ }.

{ **بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا** } الباء أراها متعلّقة بـ { أُذِنَ } لتضمينه معنى الإخبار. أيّ: أخبرناهم بأنّهم مظلومون. وهذا الإخبار كناية عن الإذن للدفاع لأنّك إذا قلت لأحد: إنّك مظلوم، فكأنّك استعديته على ظالمه وذكّرته بوجوب الدفاع، وقرينة ذلك تعقيبه بقوله تعالى { وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ }.

وذهب المفسّرون إلى أنّ الباء سببية، والتفسير الذي رأيته أنسب وأرشق.

{ **وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ** } أي: أذن لهم بذلك وذُكّروا بقدرة الله على أن ينصرهم. وهذا وعد من الله بالنصر وارد على سُنن كلام العظيم المقتدر بإيراد الوعد في صورة الإخبار بأنّ ذلك بمحلّ العلم منه ونحوه، كقولهم: عسى أن يكون كذا، أو أنّ عندنا خيرا، أو نحو ذلك، بحيث لا يبقى للمترقّب شك في الفوز بمطلوبه.

وتوكيد هذا الخبر بحرف التوكيد لتحقيقه أو تعريض بتنزيلهم منزلة المتردّد في ذلك لأنّهم استبطأوا النصر.

{ **الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** } [40].

{ **الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ** } بدل من { لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ }. وفي إجراء هذه الصلة عليهم إيماء إلى أنّ المراد بالمقاتلة الأذى، وأعظمه إخراجهم من ديارهم كما قال تعالى { وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ }.

{ **بِغَيْرِ حَقٍّ** } حال من ضمير { أُخْرِجُوا }، أي: أخرجوا متلبسين بعدم الحقّ عليهم الموجب إخراجهم.

فإنّ للمرء حقا في وطنه ومعاشرة قومه، وهذا الحقّ ثابت بالفطرة لأنّ من الفطرة أنّ الناشئ في أرض والمتولّد بين قوم هو مساو لجميع أهل ذلك الموطن في حقّ القرار في وطنهم وبين قومهم. كما قال عمر بن الخطاب: " إنّها لبلادهم قاتلوا عليها في الجاهلية وأسلموا عليها في الإسلام ".

ولا يزول ذلك الحقّ إلّا بموجب قرّره الشرع أو العوائد قبل الشرع. فمن ذلك في الشرائع التغريب والنفي، وفي قوانين أهل الجاهلية الجلاء والخلع. وإنّما يكون ذلك لاعتداء يعتديه المرء على قومه لا يجدون له مسلكا من الردع غير ذلك.

{ **إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ** } استثناء من عموم الحقّ. ولمّا كان المقصود من الحقّ حقّا يوجب الإخراج، كان هذا الاستثناء مستعملا على طريقة الاستعارة التهكّميّة. أي: إن كان عليهم حقّ فهو أن يقولوا ربنا الله، فيستفاد من ذلك تأكيد عدم الحقّ عليهم بسبب استقراء ما قد يتخيل أنّه حق عليهم. وهذا من تأكيد الشيء بما يوهم نقضه. ويسمَّى عند أهل البديع تأكيد المدح بما يشبه الذمّ، وشاهده قول النابغة:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهنّ فُلول من قراع الكتائب

وهذه الآية لا محالة نزلت بالمدينة.

{وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً}.

اعتراض بين جملة { أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ } وبين قوله { الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ }. فلما تضمّنت الجملة الأولى الإذن للمسلمين بدفاع المشركين عنهم أتبع ذلك ببيان الحكمة في هذا الإذن بالدفاع، مع التنويه بهذا الدفاع، والمتولّين له، بأنّه دفاع عن الحقّ والدين، ينتفع به جميع أهل أديان التوحيد، وليس هو دفاعا لنفع المسلمين خاصة.

{ **وَلَوْلَا** } حرف امتناع لوجود، أي: حرف يدلّ على امتناع جوابه لأجل وجود شرطه. والمعنى: لولا دفاع الناس عن مواضع عبادة المسلمين لتمادى المشركون ولتجاوزوا فيه المسلمين إلى الاعتداء على ما يجاور بلادهم من أهل الملل الأخرى المناوئة لملّة الشرك ولهدموا معابدهم من صوامع، وبيع، وصلوات، ومساجد. فذكر الصوامع، والبِيَع، والصلوات، إدماج لينتبهوا إلى تأييد المسلمين.

{ **دَفْعُ اللَّهِ** } إضافة الدفاع إلى الله إسناد مجازي عقلي، لأنّه إذن للنّاس أن يدفعوا عن معابدهم فكان إذن الله سبب الدفع. وهذا يهيب بأهل الأديان إلى التألّب على مقاومة أهل الشرك.

{ **النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ** } التعريف تعريف العهد، أي: النّاس الذين يتقاتلون، وهم المسلمون ومشركو مكّة. ويجوز أن يكون المراد: لولا ما سبق قبل الإسلام من إذن الله لأمم التوحيد بقتال أهل الشرك كما قاتل داود جالوت، وكما تغلّب سليمان على ملكة سبأ. لمحق المشركون معالم التوحيد، كما محق بختنصر هيكل سليمان فتكون هذه الجملة تذييلا لجملة { أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا }.

أي: أذن للمسلمين بالقتال كما أذن لأمم قبلهم لكيلا يطغى عليهم المشركون كما طغوا على من قبلهم، فالتعريف في { النَّاسَ } تعريف الجنس.

الهدم: تقويض البناء وتسقيطه. وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو جعفر { لهُدِمت } - بتخفيف الدال - وقرأه الباقون - بتشديد الدال - للمبالغة في الهدم، أي: لهدّمت هدما ناشئا عن غيظ بحيث لا يبقون لها أثرا.

الصوامع: جمع صومعة بوزن فوعلة، وهي بناء مستطيل مرتفع يصعد إليه بدرج وبأعلاه بيت، كان الرهبان يتخذونه للعبادة ليكونوا بعداء عن مشاغلة النّاس إيّاهم، وكانوا يوقدون به مصابيح للإعانة على السهر للعبادة ولإضاءة الطريق للمارين. من أجل ذلك سُمِّيت الصومعة المنارة. قال امرؤ القيس:

تضيء الظلام بالعشي كأنها ... منارة مُمْسَى راهب مُتبتّل

البِيعَ: جمع بِيْعة (بكسر الباء وسكون التحتية) مكان عبادة النصارى ولا يعرف أصل اشتقاقها. ولعلها معرّبة عن لغة أخرى.

الصلوات: جمع صلاة وهي هنا مراد بها كنائس اليهود معرّبة عن كلمة (صلوثا) - بالمثلثة في آخره بعدها ألف -. فلما عُرّبت جعلوا مكان المثلثة مثناة فوقية وجمعوها كذلك.

المساجد: اسم لمحلّ السجود من كل موضع عبادة، ليس من الأنواع الثلاثة المذكورة قبله وقت نزول هذه الآية، فتكون الآية نزلت في ابتداء هجرة المسلمين إلى المدينة حين بنوا مسجد قباء ومسجد المدينة.

{ **يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً** } صفة، والغالب في الصفة الواردة بعد جمل متعاطفة فيها أن ترجع إلى ما في تلك الجمل. فلذلك قيل برجوعها إلى (صوامع، وبيع، وصلوات، ومساجد). وفائدة هذا الوصف الإيماء إلى أنّ سبب هدمها أنّها يذكر فيها اسم الله كثيرا ولا تذكر أسماء أصنام أهل الشرك.

<u>وقيل</u>: الصفة راجعة إلى مساجد خاصة.

{ **كَثِيراً** } الكثرة مستعملة في الدوام لاستغراق الأزمنة، وفي هذا إيماء إلى أنّ في هذه المواضع فائدة دينية وهي ذكر اسم الله.

وتقديم الصوامع في الذكر على ما بعده لأنّ صومع الرهبان كانت أكثر في بلاد العرب من غيرها، وكانت أشهر عندهم، لأنّهم كانوا يهتدون بأضوائها في أسفارهم ويأوون إليها. وتعقيبها بذكر البيع للمناسبة إذ هي معابد النصارى مثل الصوامع. وأمّا ذكر الصلوات بعدهما فلأنّه قد تهيّأ المقام لذكرها، وتأخير المساجد لأنّها أعمّ.

{ **وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ** } تذييل لما فيها من العموم الشامل للمسلمين الذين أخرجهم المشركون. أي: أمر الله المسلمين بالدفاع عن دينهم. وضمن لهم النصر في ذلك الدفاع، لأنّهم بدفاعهم ينصرون دين الله، فكأنّهم نصروا الله. ولذلك أكد الجملة بلام القسم ونون التوكيد.

{ **إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** } تعليل لجملة { وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ }، أي: كان نصرهم مضمونا، لأنّ ناصرهم قدير على ذلك بالقوة والعزّة. والقوة مستعملة في القدرة. والعزة هنا حقيقة، لأنّ العزة هي المنعة.

{ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ } [41].

بدل من { الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ } وما بينهما اعتراض. فالمراد بهم المهاجرون، فهو ثناء عليهم وشهادة لهم بكمال دينهم. وعن عثمان: هذا والله ثناء قبل بلاء. أي: قبل اختبار.

ويجوز أن يكون بدلا من { مَنْ يَنْصُرُه } فيكون المراد: كلّ من نصر الدين من أجيال المسلمين.

وعلى الاحتمالين فالكلام مسوق للتنبيه على الشكر على نعمة النصر بأن يأتوا بما أمر الله به من أصول الإسلام، فإنّ بذلك دوام نصرهم، وانتظام عقد جماعتهم، والسلامة من اختلال أمرهم، فإن حادوا عن ذلك فقد فرّطوا في ضمان نصرهم وأمرهم إلى الله.

{ **إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ** } أي: بالنصر الذي وعدوا في قوله تعالى { وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ }.

التمكين: التوثيق. وأصله إقرار الشيء في مكان وهو مستعمل هنا في التسليط والتمليك، والأرض للجنس، أي: تسليطهم على شيء من الأرض. وتقدّم قوله تعالى { وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ } [الأعراف:10]، وقوله تعالى { وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ } [يوسف:21].

{ **أَقَامُوا الصَّلاةَ** } لدلالتها على القيام بالدين وتجديد لمفعوله في النفوس.

{ **وَآتَوُا الزَّكَاةَ** } ليكون أفراد الأمّة متقاربين في نظام معاشهم.

{ **وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ** } لتنفيذ قوانين الإسلام بين سائر الأمّة من تلقاء أنفسهم.

المعروف: ما هو مقرّر من شؤون الدين. إمّا بكونه معروفا للأمّة كلها، وهو ما يعلم من الدين بالضرورة فيستوي في العلم بكونه من الدين سائر الأمّة. وإمّا بكونه معروفا لطائفة منهم، وهو دقائق الأحكام، فيأمر به الذين من شأنهم أن يعلموه وهم العلماء.

المنكر: ما شأنه أن يُنكَر في الدين، أي أن لا يُرضى بأنّه من الدين. وذلك كلّ عمل يُدخل في أمور الأمّة والشريعة وهو مخالف لها. ولا يدخل في ذلك ما يفعله الناس في شؤون عاداتهم ممّا هو في منطقة المباح.

والنهي عن المنكر آيل إلى الأمر بالمعروف وكذلك الأمر بالمعروف آيل إلى النهي عن المنكر.

{ **وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ** } عطف على جملة { وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ }، أو على جملة { إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ }، والمآل واحد، وهو تحقيق وقوع النصر، لأنّ الذي وعد به لا يمنعه من تحقيق وعده مانع، وفيه تأنيس للمهاجرين لئلّا يستبطئوا النصر.

العاقبة: آخر الشيء وما يعقب الحاضر. وتأنيثها لملاحظة معنى الحالة، وصارت بكثرة الاستعمال اسما. وتقديم المجرور هنا للاهتمام والتنبيه على أنّ ما هو لله فهو يصرفه كيف يشاء.

{ **وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ** [42] **وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ** [43] **وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ** [44] }.

لمّا نعى على المشركين مساويهم في شؤون الدين بإشراكهم وإنكارهم البعث وصدّهم عن الإسلام وعن المسجد الحرام بإخراج أهله منه، عطف هنا إلى ضلالهم بتكذيب النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقصد من ذلك تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام، وتمثيلهم بأمثال الأمم التي استأصلها الله، وتهديدهم بالمصير إلى مصيرهم. ونظير هذه الآية إجمالا وتفصيلا تقدّم غير مرّة في [آل عمران:184] وغيرها.

قوم إبراهيم: هم الكَلدان.

أصحاب مدين: هم قوم شعيب. وإنّما لم يعبّر عنهم بقوم شعيب لئلّا يتكرّر لفظ قوم أكثر من ثلاث مرات.

{ **وَكُذِّبَ مُوسَى** } لأنّ مكذّبيه هم القبط قوم فرعون، ولم يكذّبه قومه، بنو إسرائيل.

{ **فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ** } معناه: فأمليت لهم، فوضع الظاهر موضع الضمير للإيماء إلى أنّ علّة الإملاء لهم ثمّ أخذهم هو الكفر بالرسل، تعريضا بالنذارة لمشركي قريش.

الأخذ: حقيقته التناول لما لم يكن في اليد، واستعير هنا للقدرة عليهم بتسليط الإهلاك بعد إمهالهم.

وهذا الأخذ معلوم في آيات أخرى عدا أنّ قوم إبراهيم لم يتقدّم في القرآن ذكر لعذابهم أو أخذهم سوى أنّ قوله تعالى { وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ } [الأنبياء:70] مشير إلى سوء عاقبتهم ممّا أرادوا به من الكيد. وهذه الآية صريحة في ذلك كما أشرنا هنالك.

ومناسبة عدّ قوم إبراهيم هنا في عداد الأقوام الذين أخذهم الله دون الآيات الأخرى التي ذكر فيها من أخذوا من الأقوام، أنّ قوم إبراهيم أتمّ شبها بمشركي قريش في أنهم كذّبوا رسولهم وآذوه، وألجأوه إلى الخروج من موطنه { وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ } [الصافات:99]، فكان ذكر إلجاء قريش المؤمنين إلى الخروج من موطنهم في قوله تعالى { الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ } مناسبة لذكر قوم إبراهيم.

الإملاء: ترك المتلبّس بالعصيان دون تعجيل عقوبته وتأخيرها إلى وقت متأخّر حتّى يحسب أنّه قد نجا.

{ **فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ** } الفاء للتعقيب، دلالة على أنّ تقدير هلاكهم حاصل في وقت تكذيبهم وإنّما أخّر لهم، وهو تعقيب موزّع، فلكلّ قوم من هؤلاء تعقيب إملائه.

{ **ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ** } الأخذ حاصل بعد الإملاء بمهلة، فلذلك عطف فعله بحرف المهلة.

{ **فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ** } عطفت بالفاء لأنّ حق ذلك الاستفهام أن يحصل عند ذكر ذلك الأخذ، وهو استفهام تعجيبي. ووجه التعجيب منه أنّهم أُبدلوا بالنعمة مِحنة، وبالحياة هلاكا، وبالعمارة خرابا، فهو عبرة لغيرهم.

النكير: الإنكار الزجري لتغيير الحالة التي عليها الذي يُنْكَر عليه.

وكأنّ مناسبة اختيار النكير في هذه الآية دون العذاب ونحوه أنّه وقع بعد التنويه بالنهي عن المنكر لينبّه

المسلمين على أن يبذلوا في تغيير المنكر منتهى استطاعتهم، فإنّ الله عاقب على المنكر بأشد العقاب، فعلى المؤمنين الائتساء بصنع الله، وقد قال الحكماء: إن الحكمة هي التشبه بالخالق بقدر ما تبلغه القوة الإنسانية، وفي هذا المجال تتسابق جياد الهمم.

{ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ} [45].

تفرّع ذكر جملة { فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ } على جملة { فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ } فعُطفت عليها بفاء التفريع، والتعقيب في الذكر لا في الوجود، لأن الإملاء لكثير من القرى ثم أخذها بعد الإملاء لها يبيّن كيفيّة نكير الله وغضبه على القرى الظالمة ويفسّره، فناسب أن يذكر التفسير عقب المفسّر بحرف التفريع.

{ **فَكَأَيِّنْ** } اسم دال على الإخبار عن عدد كثير، وموضعها من الجملة محلّ رفع بالابتداء، وجملة { أَهْلَكْنَاهَا } الخبر. والتقدير: كثير من القرى أهلكناها. ويجوز أن تكون جملة { أَهْلَكْنَاهَا } في محل جر صفة { قَرْيَةٍ }. وقد تقدم نظيره في قوله تعالى { وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ } [آل عمران:146].

{ **وَهِيَ ظَالِمَةٌ** } أهل المدن الذين أهلكهم الله لظلمهم كثيرون، منهم من ذُكر في القرآن مثل عاد وثمود، ومنهم من لم يُذكر مثل طسم وجديس وآثارهم باقية في اليمامة.

{ **فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا** } أي: أنّها لم يبق فيها سقف ولا جدار.

العروش: جمع عرش، وهو السقف. وتقدّم تفسير نظيرها عند قوله تعالى { أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا } [البقرة:259].

المعطّلة: التي عُطّل الانتفاع بها مع صلاحها للانتفاع، أي: هي نابعة بالماء وحولها وسائل السقي ولكنّها لا يُستقى منها لأنّ أهلها هلكوا. وقد وجد المسلمون في مسيرهم إلى تبوك بِئارًا في ديار ثمود ونهاهم النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الشرب منها إلّا بئرا واحدة التي شربت منها ناقة صالح عليه السلام.

القصر: المسكن المبني بالحجارة المجعول طباقا.

المَشيد: المبني بالشِّيد (بكسر الشين وسكون الياء) وهو الجص، وإنّما يبنى به البناء من الحجر.

القصور المُشَيَّدة: هي المخلَّفة عن القرى التي أهلكها الله وكثيرة مثل: قصر غُمدان في اليمن، وقصور ثمود في الحِجر، وقصور الفراعنة في صعيد مصر.

وفي تفسير القرطبي يقال: إنّ هذه البئر وهذا القصر بحضرموت معروفان.

ويقال: إنّها بئر الرسّ وكانت في عدن وتُسمَّى حَضور (بفتح الحاء) وكان أهلها بقيّة من المؤمنين بصالح الرسول عليه السلام، وكان صالح معهم، وأنّهم آل أمرهم إلى عبادة صنم وأنّ الله بعث إليهم حنظلة بن صفوان رسولا فنهاهم عن عبادة الصنم فقتلوه فغارت البئر وهلكوا عطشا.

غير أنّ كلمة { فَكَأَيِّنْ } تنافي إرادة قرية معينة.

{ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ } [46].

تفريع على جملة { فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا } وما بعدها.

{ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ** } الاستفهام تعجيبي من حالهم في عدم الاعتبار بمصارع الأمم المكذِّبة لأنبيائها. والتعجيب متعلّق بمن سافروا منهم ورأوا شيئا من تلك القرى المهلَكة، وبمن لم يسافروا، فإنّ شأن المسافرين أن يخبروا القاعدين بعجائب ما شاهدوه في أسفارهم كما يشير إليه قوله تعالى { أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا }.

{ **فَتَكُونَ** } الفاء سببية جوابية مسبَّب ما بعدها على السير، أي: لم يسيروا سيرا تكون لهم به قلوب يعقلون بها وآذان يسمعون بها.

وهذا شأن الأسفار أن تفيد المسافر ما لا تفيده الإقامة في الأوطان من اطلاع على أحوال الأقوام وخصائص البلدان واختلاف العادات، فهي تفيد كل ذي همّة. وأعظم ذلك فوائد العبرة بأسباب النجاح والخسارة.

{ **قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا** } أطلقت القلوب على تقاسيم العقل على وجه المجاز المرسل لأنّ القلب هو مُفيض الدم وهو مادة الحياة على الأعضاء الرئيسة وأهمها الدماغ الذي هو عضو العقل، ولذلك قال { يَعْقِلُونَ بِهَا } وإنّما آلة العقل هي الدماغ ولكنّ الكلام جرى أوّله على متعارف أهل اللغة ثم أجري عقب ذلك على الحقيقة العلمية ونزلت عقولهم منزلة المعدوم كما نزل سيرهم في الأرض منزلة المعدوم.

{ **أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا** } لأن الأذان آلة السمع، والسائر في الأرض ينظر آثار الأمم ويسمع أخبار فنائهم فيستدل من ذلك على ترتّب المسبَّبات على أسبابها، على أنّ حظ الذين لم يسافروا أن يتلقّوا الأخبار من المسافرين فيعلموا ما علمه المسافرون علما سبيله سماع الأخبار.

وفي ذكر الآذان اكتفاء عن ذكر الأبصار إذ يُعلم أنّ القلوب التي تعقل إنّما طريق علمها مشاهدة آثار العذاب.

فحصل من مجموع نظم الآية أنّهم بمنزلة الأنعام لهم آلات الاستدلال وقد انعدمت منهم آثارها. كقوله تعالى { وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ } [البقرة:171].

{ **فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** } تفريع على جواب النفي في قوله تعالى { فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا }، وفذلكة للكلام السابق، وتذييل له بما في هذه الجملة من العموم.

أي: لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب. واستعير العمى الثاني لانتفاء إدراك المبصرات بالعقل مع سلامة حاسة البصر لشبهه به في الحالة الحاصلة لصاحبه.

{ **فَإِنَّهَا** } حرف التوكيد لغرابة الحكم لا لأنّه ممّا يُشك فيه. وغالب الجمل المفتتحة بضمير الشأن اقترانها

بحرف التوكيد.

والقصر المستفاد من النفي وحرف الاستدراك قصر ادعائي للمبالغة بجعل فقد حاسة البصر المُسمَّى بالعمى كأنه غير عمى، وجعل عدم الاهتداء إلى دلالة المبصرات مع سلامة حاسة البصر هو العمى مبالغة في استحقاقه لهذا الاسم الذي استعير إليه، فالقصر ترشيح للاستعارة.

ففي هذه الآية أفانين من البلاغة والبيان وبداعة النظم.

{ **الَّتِي فِي الصُّدُورِ** } صفة لـ { الْقُلُوبُ } تفيد التأكيد. ويفيد هذا الوصف وراء التوكيد تعريضا بالقوم المتحدَّث عنهم بأنّهم لم ينتفعوا بأفئدتهم مع شدّة اتصالها بهم إذ هي قارة في صدورهم، على نحو قول عمر بن الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم: " فالآن أنت أحبّ إليّ من نفسي التي بين جنبي"، فإنّ كونها بين جنبيه يقتضي أن تكون أحبّ الأشياء إليه.

{ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ }

[47]. عطف على جملة { وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ } عطف القصّة على القصّة، فإنّ من تكذيبهم أنّهم كذّبوا بالوعيد وقالوا: لو كان محمد صادقا في وعيده لعُجّل لنا وعيده، فكانوا يسألونه التعجيل بنزول العذاب استهزاء، كما حكى الله عنهم في قوله تعالى { وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [الأنفال:32]، وقوله تعالى { وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [السجدة:28].

{ **وَيَسْتَعْجِلُونَكَ** } المضارع للإشارة إلى تكريرهم ذلك تجديدا منهم للاستهزاء وتورّكا على المسلمين. والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمقصود إبلاغه إيّاهم.

{ **بِالعَذَابِ** } الباء زائدة لتأكيد معنى الاستعجال، كأنّه قيل: يحرصون على تعجيله. وتقدّم ذلك عند قوله تعالى { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ } [الرعد:6].

{ **وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ** } لمّا كان استعجالهم إيّاه تعريضا منهم بأنّهم موقنون بأنّه غير واقع جاء هذا التعقيب، أي: فالعذاب الموعود لهم واقع لا محالة، لأنّه وعد من الله، والله لا يخلف وعده. وفي القول تأنيس للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لئلّا يستبطئونه.

{ **وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ** } عطف على جملة { وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ } فإنّ الله توعّدهم بالعذاب، وهو صادق على عذاب الدنيا والآخرة. ثم أعقبه بإنذارهم بأنّ عذاب الآخرة لا يفلتون منه أيضا وهو أشدّ العذاب. فالقول خبر مستعمل في التعريض بالوعيد. وهذا اليوم هو يوم القيامة.

وفي معنى هذه الآية قوله تعالى { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمّىً لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ } [العنكبوت:54/53].

{ **مِمَّا تَعُدُّونَ** }الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين. وقرأ الجمهور { تَعُدُّونَ } بالفوقية. وقرأه

ابن كثير، وحمزة، والكسائي { مِمَّا يَعُدُّونَ } بياء الغائبين، أي: ممّا يعدّه المشركون المستعجلون بالعذاب.

{ وَكَأَيِّنْ مَنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ } [48].

عطف على جملة { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ } أو على جملة { وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ } باعتبار ما تضمّنه استعجالهم بالعذاب من التعريض بأنّهم آيسون منه لتأخّره، فذُكِّروا بأنّ أمما كثيرة أُمهِلت ثمّ حلّ بها العذاب. فوزان هذه الآية وزان قوله آنفا { فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ }، إلّا أنّ الأولى قُصد منها كثرة الأمم التي أُهلكت لئلّا يُتوهم من ذكر قوم نوح ومن عطف عليهم أنّ الهلاك لم يتجاوزهم، ولذلك اقتصر فيها على ذكر الإهلاك دون الإمهال. وهذه الآية القصد منها التذكير بأنّ تأخير الوعيد لا يقتضي إبطاله، ولذلك اقتصر فيها على ذكر الإمهال ثم الأخذ بعده المناسب للإملاء من حيث إنّه دخول في القبضة بعد بُعْده عنها.

{ وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ } تذييل، أي: مصير النّاس كلّهم إليَّ.

المصير: مصدر ميمي لـ (صار) بمعنى: رجع، وهو رجوع مجازي بمعنى الحصول في المُكنة.

وتقديم المجرور للحصر الحقيقي، أي: لا يصير الناس إلّا إلى الله، وهو يقتضي أنّ المصير إليه لا محالة.

{ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ [49] فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ [50] وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ [51] }.

استئناف بعد المواعظ السالفة والإنذارات.

{ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ } افتتاحه بـ { قُلْ } للاهتمام به، وافتتاح المقول بنداء الناس للفت ألبابهم إلى الكلام.

والمخاطبون هم المشركون. والغرض من خطابهم إعلامهم بأنّ تكذيبهم واستهزاءهم لا يغيظ النبيّ صلى الله عليه وسلم ولا يصدّه عن إداء رسالته. ففي ذلك قمع لهم، وتثبيت للنبيّ وتسلية فيما يلقاه منهم.

{ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ } قصر إضافي، أي: لست طالبا نكايتكم ولا تزلّفا فمن آمن فلنفسه ومن عمي فعليها.

النذير: المحذِّر من شر يُتوقّع.

المبين: المُفصِح الموضِّح، أي: مُبيِّن للإنذار بما لا إيهام فيه ولا مصانعة.

وفي تقديم المجرور، المؤذن بالاهتمام بنذارتهم، إيماء إلى أنّهم مشرفون على شرّ عظيم فهم أحرياء بالنذارة.

{ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } فُرّع على الأمر بالقول تقسيم للناس في تلقّي هذا الإنذار المأمور

الرسول بتبليغه إلى مصدِّق ومكذِّب، لبيان حال كلا الفريقين في الدنيا والآخرة ترغيبا وترهيبا.
المغفرة: غفران ما قدّموه من الشرك وما يتبعه من شرائع الشرك وضلالاته ومفاسده. وهذه المغفرة تفضي إلى نعيم الآخرة، فالمعنى: أنهم فازوا في الدار الآخرة.
الرزق: العطاء. ووصفه بـ { كَرِيمٌ } يجمع وفرته وصفائه من المكدّرات، كقوله تعالى { لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ }. والرزق منه ما هو حاصل لهم في الدنيا، وأعظمه ما يحصل لهم في الآخرة.
{ **وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ** } هم الفريق المقابل، فمعناه: والذين استمروا على الكفر، فعُبّر عن الاستمرار بالسعي في الآيات، لأنّه أخصّ من الكفر، وذلك حال المشركين المتحدّث عنهم.
السعي: المشي الشديد، ويطلق على شدّة الحرص.
المُعاجز: المسابق الطالب عجز مسايره عن الوصول إلى غايته وعن اللحاق به، فصيغ له المفاعلة لأنّ كلّ واحد يطلب عجز الآخر عن لحاقه. والمعنى: أنّهم بعملهم يغالبون رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم لا يشعرون أنّهم يحاولون أن يغلبوا الله وقد ظنوا أنهم نالوا مرادهم في الدنيا ولم يعلموا ما لهم من سوء العاقبة.
وقرأ الجمهور { مُعَاجِزِينَ } - بألف بعد العين - وقرأه ابن كثير، وأبوا عمرو { مُعَجِّزين } - بفتح العين وتضعيف الجيم – أي: محاولين إعجاز الله تعالى وهم لا يعلمون.
{ **أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ** } التصدير باسم الإشارة للتنبيه على أنّ المخبَر عنهم جديرون بما سيرد بعد اسم الإشارة من الحكم لأجل ما ذكر قبله من الأوصاف، أي: هم أصحاب الجحيم لأنّهم سعوا في آياتنا معاجزين. ومن أحسن ما يفسّر هذه الآية ما جاء في الحديث الصحيح أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: **" إن مَثَلي ومَثَل ما بعثني الله به كمثَل رجل أتى قومه فقال: يا قوم إنّي رأيت الجيش بعيني وأنا النذير العُريان** [المجرد من الثياب - والنذير العريان مَثَلٌ أصله: أن أحد القوم إذا رأى عدوا يريد غرة قومه ولم يجد شيئا يشير به نزع ثوبه فألوى به أي لوّح] **فالنجاء النجاء، فأطاعته طائفة من قومه فأَدْلجوا** [أي: ساروا في دلجة الليل، أي: ظلامه.] **وانطلقوا على مَهَلهم** [عدم العجلة، أي: انطلقوا غير فزعين]. **وكذّبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم. فذلك مَثَلي ومثَل من أطاعني واتبع ما جئت به، ومثَل من عصاني وكذّب ما جئت به من الحقّ ".**

{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ [52] لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ [53] وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [54] }.

عطف على { قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ }، لأنّه لمّا أفضى الكلام السابق إلى تثبيت النبيّ صلى الله عليه وسلم وتأنيس نفسه فيما يلقاه من قومه من التكذيب، بأنّ تلك شنشنة الأمم الظالمة من قبلهم، وأنّه مقصور على النذارة، فمن آمن فقد نجا ومن كفر فقد هلك، أريد الانتقال من ذلك إلى تفصيل تسليته وتثبيته بأنّه لقي ما لقيه سلفه من الرسل والأنبياء عليهم السلام وأنّه لم يسلم أحد منهم من محاولة الشيطان أن يفسد بعض ما يحاولونه من هدي الأمم، وأنّهم لقوا من أقوامهم مكذِّبين ومصدِّقين سنة الله في رسله عليهم السلام.

{ **مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ** } نصّ في العموم. والعطف دال على المغايرة.

الرسول: هو الرجل المبعوث من الله إلى الناس بشريعة.

النبيّ: من أوحى الله إليه بإصلاح أمر قوم بحملهم على شريعة سابقة أو بإرشادهم إلى ما هو مستقرّ في الشرائع كلّها.

التمنّي: كلمة مشهورة وحقيقتها طلب الشيء العسير حصوله. و**الأمنيّة:** الشيء المُتمنَّى.

وإنّما يتمنّى الرسل والأنبياء أن يكون قومهم كلّهم صالحين مهتدين.

{ **إِلَّا إِذَا تَمَنَّى** } الاستثناء من عموم أحوال { مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ }، أي: في حال حصول الإلقاء عند حصول التمنّي، لأنّ أماني الأنبياء خير محض والشيطان دأبه الإفساد وتعطيل الخير.

الإلقاء: حقيقته رمي الشيء من اليد. واستعير هنا للوسوسة وتسويل الفساد، تشبيها للتسويل بإلقاء شيء من اليد بين الناس. ومنه قوله تعالى { فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ }.

ومفعول { أَلْقَى } محذوف دلّ عليه المقام لأنّ الشيطان إنّما يلقي الشرّ والفساد.

فالتقدير: أدخل الشيطان في نفوس الأقوام ضلالات تفسد ما قاله الأنبياء من الإرشاد.

{ **أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ** } ألقاه ما يضادها، كمن يمكر فيلقي السمَّ في الدسم، فإلقاء الشيطان بوسوسته: أن يأمر الناس بالتكذيب والعصيان، ويلقي في قلوب أئمة الكفر مطاعن يبثّونها في قومهم. ويروّج الشبهات بإلقاء الشكوك التي تصرف نظر العقل عن تذكّر البرهان.

{ **فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ** } فالله تعالى يعيد الإرشاد ويكّرر الهدي على لسان النبيّ. ويفضح وساوس الشيطان وسوء فعله بالبيان الواضح كقوله تعالى { يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ

كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ } [الأعراف:27] وقوله تعالى { إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً } [فاطر:6].

فالله بهديه وبيانه ينسخ ما يلقي الشيطان، أي: يزيل الشبهات التي يلقيها الشيطان، ويزيد آيات دعوة رسله بيانا، وذلك هو إحكام آياته، أي: تحقيقها وتثبيت مدلولها وتوضيحها بما لا شبهة بعده إلّا لمن رِين على قلبه. وقد تقدّم معنى الآيات المحكمات في [آل عمران:7].

وقد فسّر كثير من المفسرين { تَمَنَّى } بمعنى **قرأ**. وتبعهم أصحاب كتب اللغة وذكروا بيتا نسبوه إلى حسان بن ثابت وذكروا قصة (قصّة الغرانيق) بروايات ضعيفة سنذكرها. وأيّا ما كان فالقول فيه هو والقول في تفسير التمني بالمعنى المشهور سواء، أي: إذا قرأ على النّاس ما أنزل إليه ليهتدوا به ألقى الشيطان في أمنيته، أي: في قراءته، أي: وسوس لهم في نفوسهم ما يناقضه وينافيه، بوسوسته للنّاس التكذيب والإعراض عن التدبر.

وعندي في صحة إطلاق لفظ الأمنية على القراءة **شك عظيم**، فإنّه وإن كان قد ورد تمنّى بمعنى قرأ في بيت نسب إلى حسان بن ثابت، إن صحت رواية البيت، فلا أظن أن القراءة يقال لها أمنية.

تمنى كتاب الله أولَ ليله ... تَمَنِيَ داود الزبور على مَهل

<u>ويجوز أن يكون المعنى</u>: أنّ النبيّ إذا تمنّى هدي قومه أو حرص على ذلك فلقي العناد، وتمنى حصول هداهم بكل وسيلة ألقى الشيطان في نفس النبيّ خاطر اليأس من هداهم عسى أن يُقْصِر النبيّ من حرصه أو أن يضجره، وهي خواطر تلوح في النفس ولكن العصمة تعترضها فلا يلبث ذلك الخاطر أن ينقشع ويرسخ في نفس الرسول ما كُلِّف به من الدأب على الدعوة والحرص على الرشد. فيكون معنى الآية على هذا الوجه مُلَوِّحًا إلى قوله تعالى { وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ } [الأنعام:35].

{ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } معترضة.

<u>ومعنى هذه الآية</u>: أنّ الأنبياء والرسل يرجون اهتداء قومهم ما استطاعوا فيبلّغونهم ما ينزل إليهم من الله ويعظونهم ويدعونهم بالحجّة والمجادلة الحسنة حتّى يظنّوا أن أمنيّتهم قد نجحت ويقترب القوم من الإيمان، فيأتي الشيطان فلا يزال يوسوس في نفوس الكفّار فينكصون على أعقابهم، وتلك الوساوس ضروب شتّى من تذكيرهم بحب آلهتهم، ومن تخويفهم بسوء عاقبة نبذ دينهم، ونحو ذلك من ضروب الضلالات التي حكيت عنهم في تفاصيل القرآن، فيتمسّك أهل الضلالة بدينهم ويصدّون عن دعوة رسلهم، وذلك هو الصبر الذي في قوله { وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ } [ص:6]. وكلّما أفسد الشيطان دعوة الرسل أمر الله رسله فعاودوا الإرشاد وكرّروه وهو سبب تكرّر مواعظ متماثلة في القرآن. فبتلك المعاودة يُنسخ ما ألقاه الشيطان وتثبت الآيات السالفة. **فالنسخ**: الإزالة،

و**الإحكام**: التثبيت. وفي كلتا الجملتين حذف مضاف، أي: ينسخ آثار ما يلقي الشيطان، ويحكم آثار آياته.

الجعل: هنا جعل نظام ترتّب المسبَّبات على أسبابها، وتكوين تفاوت المدارك ومراتب درجاتها.

فالمعنى: أنّ الله مكّن الشيطان من ذلك الفعل بأصل فطرته من يوم خلق فيه داعية الإضلال. فهذا كقوله تعالى { قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ } [الحجر:39-42].

{ **لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً** } الـ (لام) مستعارة لمعنى التعقيب، أي: تحصل عقب النسخ الذي فعله الله فتنة من أفتُتِن من المشركين بانصرافهم عن التأمّل في أدلة نسخ ما يلقيه الشيطان، وعن استماع ما أحكم الله به آياته، فيستمر كفرهم ويقوى.

{ **لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ** } هم المتردّدون في قبول الإيمان.

{ **وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ** } هم الكافرون المصمّمون على الكفر.

{ **وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ** } الفريقان هم المراد بـ { الظَّالِمِينَ }. إظهار في مقام الإضمار للإيماء إلى أنّ علة كونهم في شقاق بعيد هي ظلمهم. أي: كفرهم. والجملة معترضة بين المتعاطفات.

الشقاق: الخلاف والعداوة.

البعيد: هنا مستعمل في معنى: البالغ حدًّا قويّا في حقيقته. تشبيها لانتشار الحقيقة فيه بانتشار المسافة في المكان البعيد كما في قوله تعالى { فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ } [فصلت:51]، أي: دعاء كثير ملحّ.

{ **وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ** } (لام) التعليل، أي: ينسخ ما يلقي الشيطان لإرادة أن يعلم المؤمنون انّه الحقّ برسوخ ما تمنّاه الرسول والأنبياء لهم من الهدي، كما يحصل لهم، بما يُحكم الله من آياته، ازدياد الهدى في قلوبهم.

{ **الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ** } هم المؤمنون بقرينة مقابلته بـ { لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ } وبقوله تعالى { وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }. فالمراد بالعلم الوحي والكتب التي أوتيها أصحاب الرسل السابقين. وإطلاق { الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ } على المؤمنين تكرّر في القرآن، وهو ثناء على أصحاب الرسل.

{ **أَنَّهُ الحَقُّ** } الضمير عائد إلى العلم الذي أوتوه، أي: ليزدادوا يقينا بأنّ الوحي الذي أوتوه هو الحق لا غيره

{ **فَيُؤْمِنُوا بِهِ** } أي: فيزدادوا إيمانا، أو فيؤمنوا بالناسخ والمحكم كما آمنوا بالأصل.

الإخبات: الاطمئنان والخشوع. وتقدّم آنفا عند قوله تعالى { وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ }.

القول الفصل في قصّة الغرانيق:

وبما تلقيتَ في تفسير هذه الآية من الانتظام البيّن الواضح المستقلّ بدلالته والمستغني بنهله عن علالته، والسالم من التكلّفات والاحتياج إلى ضميمة القصص، ترى أنّ الآية بمعزل عمّا ألصقه بها الملصقون

والضعفاء في علوم السنّة، وتلقاه منهم فريق من المفسّرين حبّا في غرائب النوادر دون تأمّل ولا تمحيص، من أنّ الآية نزلت في قصة تتعلّق بسورة النجم فلم يكتفوا بما أفسدوا من معنى هذه الآية حتّى تجاوزوا بهذا الإلصاق إلى إفساد معاني سورة النجم، فذكروا في ذلك روايات عن سعيد بن جبير، وابن شهاب، ومحمد بن كعب القرطبي، وأبي العالية، والضحاك وأقربها رواية عن ابن شهاب وابن جبير والضحاك قالوا: " إنّ النبي صلى الله عليه وسلم جلس في ناد من أندية قريش كثير أهله من مسلمين وكافرين، فقرأ عليهم سورة النجم فلما بلغ قوله { أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى } [النجم:20/19] القى الشيطان بين السامعين عقب ذلك قوله (تلك الغرانيق العلى وإنّ شفاعتهن لتُرتجى) ففرح المشركون بأن ذكر آلهتهم بخير. وكان في آخر تلك السورة سجدة من سجود التلاوة. فلمّا سجد في آخر السورة سجد كلّ من حضر من المسلمين والمشركين. وتسامع النّاس بأنّ قريشا أسلموا حتّى شاع ذلك ببلاد الحبشة. فرجع من مهاجرة الحبشة نفر منهم عثمان بن عفان إلى المدينة. وأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يشعر بأنّ الشيطان ألقى. فأعلمه جبريل عليه السلام فاغتمّ لذلك فنزل قوله تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ } الآية تسلية له.

وهي قصة يجدها السامع ضِغْثًا على إبَّالة، ولا يلقي إليها النحرير باله. وما رُويت إلّا بأسانيد واهية ومنتهاها إلى ذكر قصة، وليس في أحد أسانيدها سماع صحابي لشيء في مجلس النبيّ صلى الله عليه وسلم وسندها إلى ابن عباس سند مطعون. على أنّ ابن عباس يوم نزلت سورة النجم كان لا يحضر مجالس النبيّ صلى الله عليه وسلم، وهي أخبار آحاد تعارض أصول الدين لأنّها تخالف أصل عصمة الرسول صلى الله عليه وسلم لا التباس عليه في تلقي الوحي وفي معرفة الملك. ويكفي تكذيبا لها قوله تعالى { وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى} [النجم:3]. فلو رووها الثقات لوجب رفضها وتأويلها فكيف وهي ضعيفة واهية. وكيف يروج على ذي مسكة من عقل أن يجتمع في كلام واحد تسفيه المشركين في عبادتهم الأصنام بقوله تعالى { أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى - إلى قوله - مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ } [النجم:19-23]، فيقع في خلال ذلك مدحها بأنها الغرانيق العلى وأن شفاعتهم لترتجى. وهل هذا إلّا كلام يلعن بعضه بعضا.

وقد اتفق الحاكون أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ سورة النجم كلّها حتى خاتمتها {فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا} لأنّهم إنما سجدوا حين سجد المسلمون، فدلّ على أنّهم سمعوا السورة كلّها وما بين آية { أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى } وبين آخر السورة آيات كثيرة في إبطال الأصنام وغيرها من معبودات المشركين، وتزييف لعقائد المشركين، فكيف يصحّ أنّ المشركين سجدوا من أجل الثناء على آلهتهم.

فإن لم تكن تلك الأخبار مكذوبة من أصلها فإنّ تأويلها: أنّ بعض المشركين وجدوا ذكر اللات والعزى فرصة للدَّخَل لاختلاق كلمات في مدحهن، وهي هذه الكلمات، وروّجوها بين الناس تأنيسا لأوليائهم من المشركين وإلقاء للريب في قلوب ضعفاء الإيماء. وفي شرح الطيبي على الكشاف نقلا عن بعض

المؤرخين: أنّ هذه الجمل من مفتريات ابن الزِّبعْرى.

وأمّا تركيب تلك القصّة على الخبر الذي ثبت فيه أنّ المشركين سجدوا في آخر سورة النجم لمّا سجد المسلمون، وذلك مروي في الصحيح، فذلك من تخليط المؤلفين.

وكذلك تركيب تلك القصة على آية سورة الحج. وكم بين نزول سورة النجم التي هي من أوائل السور النازلة بمكة وبين نزول سورة الحج التي بعضها من أول ما نزل بالمدينة وبعضها من آخر ما نزل بمكة.

وكذلك ربط تلك القصّة بقصّة رجوع من رجع من مهاجرة الحبشة. وكم بين مدّة نزول سورة النجم وبين سنة رجوع من رجع من مهاجرة الحبشة.

فالوجه عندي: أنّ هذه الشائعة التي أشيعت بين المشركين في أوّل الإسلام، إنّما هي من اختلاقات المستهزئين من سفهاء الأحلام بمكّة مثل ابن الزِّبَعْرى، وأنّهم عمدوا إلى آية ذكرت فيها اللات والعزى ومناة فركّبوا عليها كلمات أخرى لإلقاء الفتنة في الناس وإنّما خصّوا سورة النجم بهذه المرجَفة لأنّهم حضروا قراءتها في المسجد الحرام وتعلّقت بأذهانهم، وتطلّبا لإيجاد المعذرة لهم بين قومهم على سجودهم فيها الذي جعله الله معجزة للنبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ **وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** } معترضة. والمؤمنون هم الذين أوتوا العلم. وقد جُمع لهم الوصفان كما في قوله تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْأِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ } [الروم:56]، وكما في قوله تعالى { وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ } [سبأ:6]. فإظهار لفظ { الذِينَ آمَنُوا } لقصد مدحهم بوصف الإيمان، والإيماء إلى أنّ إيمانهم هو سبب هديهم.

{ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ } [55].

لمّا حكى عن الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم أنّ ما يلقيه لهم الشيطان من إبطال ما جاءت به الرسل يكون عليهم فتنة، خصّ في هذه الآية الكافرين بالقرآن بعد أن عمّهم مع جملة الكافرين بالرسل، فخصَّهم بأنّهم يستمر شكُّهم فيما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ويتردَّدون في الإقدام على الإسلام إلى أن يُحال بينهم وبينه بحلول الساعة بغتة أو بحلول عذاب بهم قبل الساعة.

{ **وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا** } هم مشركو العرب بقرينة المضارع في فعل { لَا يَزَالُ } وفعل { حَتَّى تَأْتِيَهُمْ } الدالين على استمرار ذلك في المستقبل.

{ **فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ** } قال جمع من المفسرين: إنّ الضمير عائد إلى القرآن المفهوم من المقام. والأظهر أنّه عائد إلى ما عاد عليه ضمير { أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ }.

{ **السَّاعَةُ** } علم بالغلبة على يوم القيامة في اصطلاح القرآن.

{ **يَوْمٍ عَقِيمٍ** } يوم الحرب. وقد شاع إطلاق اسم اليوم على وقت الحرب. ومنه دعيت حروب العرب المشهورة (أيّام العرب).

العقيم: المرأة التي لا تلد، استعير العقيم للمشؤوم، لأنّهم يعدّون المرأة التي لا تلد مشؤومة.

فالمعنى: يأتيهم يوم يُستأصلون فيه قتلا. وهذا إنذار بيوم بدر.

{ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ [56] وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ [57] وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ [58] لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ [59] }.

جواب عن سؤال حول اليوم الذي يزول فيه شك الذين كفروا، وعن ماذا يلقونه عند زواله. فالجملة استئناف بياني والتعريف في { الْمُلْكُ } للجنس.

يومئذٍ: التنوين عوض عن مضاف، والتقدير: يوم إذ تزول مريتهم بحلول الساعة وظهور أنّ ما وعدهم الله هو الحق، أو يوم إذ تأتيهم الساعة بغتة.

وقد دلت الجملة على أنّ ماهية الملك مقصورة يومئذ لله، أي: لا ملك لغيره يومئذ. كما في قوله تعالى { الحَمْدُ لِلَّهِ }.

{ **يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ** } الحكم فيما اختلفوا فيه من أدعاء كل فريق أنّه على الحقّ وأنّ ضدّه على الباطل.

{ **فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ** } أريد به العموم، وخُصّ بالذكر منهم الذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا، تنويها بشأن الهجرة، ولأجلها استوى أصحابها في درجات الآخرة سواء منهم من قُتل في سبيل الله أو مات في غير قتال بعد أن هاجر من دار الكفر.

{ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ** } افتُتح الخبر عن الذين كفروا باسم الإشارة للتنبيه على أنّهم استحقّوا العذاب المهين لأجل ما تقدّم من صفتهم بالكفر والتكذيب بالآيات.

المهين: المذلّ، أي: لهم عذاب مشتمل على ما فيه مذلّتهم كالضرب بالمقامع ونحوه.

{ **وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً** } خُصّ بالذكر منهم الذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا تنويها بشأن الهجرة.

الرزق: العطاء، وهو كلّ ما يُتفضّل به من أعيان ومنافع. ووصفه بالحسن لإفادة أنّه يرضيهم بحيث لا يتطلّبون غيره، لأنّه لا أحسن منه.

{ **وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ** } معترضة بين البدل والمبدل منه. وصريحها الثناء على الله، وكنايتها

التعريض بأنّ الرزق الذي يرزقهم الله هو خير الأرزاق لصدوره من خير الرازقين. وأكّدت الجملة بحرف التوكيد ولامه وضمير الفصل تصويرا لعظمة رزق الله تعالى.

{ **لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ** } بدل اشتمال من جملة { لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً }، لأنّ كرامة المنزل من جملة الإحسان في العطاء بل هي أبهج لدى أهل الهمم، ولذلك وصف المدخل بـ { يَرْضَوْنَهُ }.

{ **وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ** } تذييل، أي: عليم بما تجشّموه من المشاق في شأن هجرتهم من ديارهم وأهلهم وأموالهم، وهو حليم بهم فيما لاقوه، فهو يجازيهم بما لقوه من أجله.

وهذه الآية تبيّن مزيّة المهاجرين في الإسلام.

{ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ } [60].

{ **ذَلِكَ** } اسم الإشارة للفصل بين الكلامين لفتًا لأذهان السامعين إلى ما سيجيء من الكلام، لأنّ ما بعده غير صالح لأن يكون خبرا عن اسم الإشارة. وقد تقدّم نظيره عند قوله تعالى { ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ }.

والآية معطوفة على جملة { وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ }، والغرض منها التهيئة للجهاد والوعد بالنصر الذي أشير إليه سابقا بقوله تعالى { أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ }.

{ **وَمَنْ عَاقَبَ** } للإشارة إلى إرادة العموم، ليكون الكلام بمنزلة القاعدة الكلّيّة لسنّة من سنن الله تعالى في الأمم. ففي الكلام تنبيه على أنّ القتال المأذون فيه هو قتال جزاء على اعتداء سابق كما دلّ عليه أيضا قوله تعالى { بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا }. وفيه أيضا تحديد لقانون العقاب، أن يكون مماثلا للعدوان المُجزى عليه، اي: أنّ لا يكون أشدّ منه.

{ **بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ** } سُمِّي اعتداء المشركين على المؤمنين عقابا لأنّ الذي دفع المعتدين إلى الاعتداء قصد العقاب على خروجهم عن دين الشرك ونبذ عبادة أصنامهم.

والمراد المماثلة في الجنس، فإنّ المشركين آذوا المسلمين وأرغموهم على مغادرة موطنهم فيكون عقابهم على ذلك بإخراج من يمكنهم أن يخرجوه من ذلك الوطن، ولا يستطيعون ذلك إلّا بالجهاد.

{ **ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ** } للتراخي الرتبي، فإنّ البغي عليه أهمّ من كونه عاقب بمثل ما عُوقب به، إذ كان مبدوءًا بالظلم. فكان المشركون محقوقين بأن يعاقبوا، لأنّهم بغوا على المسلمين. ومعنى الآية في معنى قوله تعالى { أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَأُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ } [التوبة:13].

وكان هذا شرعا لأصول الدفاع عن البيضة، وأمّا آيات الترغيب في العفو فليس هذا مقام تنزيلها وإنّما هي في شرع معاملات الأمّة بعضها مع بعض. وقد أكّد لهم الله نصره إن هم امتثلوا لما أُذنوا به وعاقبوا بمثل ما عوقبوا به.

{ **إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ** } تعليل للاقتصار على الإذن في العقاب بالمماثلة دون الزيادة في الانتقام مع أن

البادئ أظلم، بأنّ عفو الله ومغفرته لخلقه قضيا بحكمته أن لا يأذن إلّا بمماثلة العقاب للذنب، لأنّ ذلك هو أوفق بالحقّ. وليس ذكر وصفي { عَفُوٌّ غَفُورٌ} إيماء إلى الترغيب في العفو عن المشركين، فالسياق لا يقتضيه.

{ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ } [61].

يجوز أن تكون الإشارة هنا إلى الكلام السابق الدال على تكفّل النصر، فإنّ النصر يقتضي تغليب أحد الضدّين على ضدّه وإقحام الجيش في الجيش الآخر في الملحمة، فضرب له مثلا بتغليب مدّة النهار على مدّة الليل في بعض السنة، وتغليب مدّة الليل على مدّة النهار في بعضها، لما تقرّر من اشتهار التضاد بين الليل والنهار، أي: الظلمة والنور. فخبر اسم الإشارة هنا هو قوله تعالى { بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ }.

ويجوز أن يكون اسم الإشارة تكريرا لشبيهه السابق لقصر توكيده.

{ بِأَنَّ اللَّهَ } الباء للسببية، أي: لا عجب في النصر الموعود به المسلمون على الكافرين مع قلة المسلمين، فإنّ القادر على تغليب النهار على الليل حينا بعد أن كان أمرهما على العكس حينا آخر قادر على تغليب الضعيف على القوي، فصار حاصل المعنى: ذلك بأن الله قادر على نصرهم.

الإيلاج: الإدخال. مُثِّل به اختفاء ظلام الليل عند ظهور نور النهار وعكسه، تشبيها لذلك التصيير بإدخال جسم في جسم آخر. واستعارة الإيلاج لذلك استعارة بديعة، لأنّ كلّ ذلك يحصل تدريجا.

والجمع بين ذكر إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل للإيماء إلى تقلّب أحوال الزمان فقد يصير المغلوب غالبا ويصير ذلك الغالب مغلوبا. مع ما فيه من التنبيه على تمام القدرة بحيث تتعلّق بالأفعال المتضادة ولا تلزم طريقة واحدة كقدرة الصُنَّاع من البشر. وفيه إدماج التنبيه بأنّ العذاب الذي استبطأه المشركون منوط بحلول أجله، وما الأجل إلّا إيلاج ليل في نهار ونهار في ليل.

وفي ذكر الليل والنهار في هذا المقام إدماج تشبيه الكفر بالليل والإسلام بالنهار لأنّ الكفر ضلالة اعتقاد.

{ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ } إشارة إلى علم الله بالأحوال كلّها، فهو ينصر من ينصره بعلمه وحكمته ويعد بالنصر من علم أنّه ناصره لا محالة، فلا يصدر منه شيء إلّا عن حكمة.

{ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ } [62].

اسم الإشارة هنا تكرير لاسم الإشارة الذي سبقه ولذلك لم يعطف.

هذه سبب آخر لنصر المؤمنين على المشركين بأنّ الله هو الربّ الحقّ الذي إذا أراد فَعَلَ وقدر، فهو ينصر أولياءه، وأنّ ما يدعوه المشركون من دون الله هو الباطل فلا يستطيعون نصرهم ولا أنفسهم ينصرون.

{ **بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ** } حمل المفسّرون الباء على معنى السببية، والأظهر حمل الباء على الملابسة ليلتئم عطف { وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ }.

الحقّ: المطابق للواقع، أي: الصدق، مأخوذ من حقَّ الشيء إذا ثبت. والمعنى: أنّه الحق في الإلهية.

فالقصر في هذه الجملة المستفاد من ضمير الفصل قصر حقيقي.

{ **وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ** } القصر المستفاد من ضمير الفصل قصر ادعائي لعدم الاعتداد بباطل غيرها حتّى كأنّه ليس من الباطل. وهذا مبالغة في تحقير أصنامهم لأنّ المقام مقام مناضلة وتوعّد، وإلّا فكثير من أصنام وأوثان غير العرب باطل أيضا.

علو الله: مستعار للجلال والكمال التام.

الكبر: مستعار لتمام القدرة، أي: هو العلي الكبير دون الأصنام التي تعبدونها إذ ليس لها كمال ولا قدرة ببرهان المشاهدة.

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ } [63].

انتقال إلى التذكير بنعم الله تعالى على الناس بمناسبة ما جرى من قوله { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ }. والمقصود: التعريض بشكر الله على نعمه وأن لا يعبدوا غيره، كما دلّ عليه التذييل عقب تعداد هذه النعم بقوله تعالى { إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ }، أي: المشرك. وفي ذلك كلّه إدماج الاستدلال على انفراده بالخلق والتدبير، فهو الربّ الحقّ المستحقّ للعبادة. والمناسبة هي ما جرى من أنّ الله هو الحقّ وأنّ ما يدعونه الباطل، فالجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا.

{ **أَلَمْ تَرَ** } الخطاب لكلّ من تصلح منه الرؤية لأنّ المرئي مشهور. والاستفهام إنكاري، نُزّلت غفلة كثير من الناس عن الاعتبار بهذه النعمة والاعتداد بها منزلة عدم العلم بها.

{ **أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** } جاء الإنزال بصيغة الماضي ولم يراع فيه معنى التجدّد لأنّ موقع إنكار عدم العلم بذلك هو كونه أمرا متقرّرا ماضيا لا يُدَّعى جهله.

{ **فَتُصْبِحُ** } بمعنى تصير فإنّ خمسًا من أخوات (كان) تستعمل بمعنى: صار. وعُبّر عن مصير الأرض خضراء بصيغة المضارع مع أنّ ذلك مفرّع على فعل { أَنْزَلَ } الذي هو بصيغة الماضي لأنّه قصد من المضارع استحضار تلك الصورة العجيبة الحسنة، ولإفادة بقاء أثر إنزال المطر زمانا بعد زمان كما تقول: أنعم فلان عليَّ فأروح وأغدو شاكرا له.

والفعل مفرَّع على فعل { أَنْزَلَ } فهو مثبَت في المعنى. وليس مفرَّعا على النفي ولا على الاستفهام.

قال في الكشاف: " لو نُصب لأعطى ما هو عكس الغرض لأنّ معنى الكلام إثبات الاخضرار فينقلب بالنصب إلى نفي الاخضرار. مثاله أن تقول لصاحبك: ألم تر أني أنعمت عليك فتشكر، إن نصبته فأنت ناف لشكره شاك تفريطه فيه، وإن رفعته فأنت مثبت للشكر ".

{ **الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً** } اختير في التعبير عن النبات، الذي هو مقتضى الشكر لما فيه من إقامة أقوات الناس والبهائم، بذكر لونه الأخضر لأنّ ذلك اللون ممتع للأبصار فهو أيضا موجب شكر على ما خلق الله من جمال المصنوعات في المرأى كما قال تعالى { وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ } [النحل:6].

المخضرّة: التي صار لونها الخضرة. يقال: اخضرّ الشيء، كما يقال: اصفرّ الثمر واحمرّ، واسودّ الأفق.

{ **إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ** } في موقع التعليل للإنزال، أي: أنزل الماء المتفرّع عليه الاخضرار لأنه لطيف، أي: رفيق بمخلوقاته، ولأنّه عليم بترتيب المسبَّبات على أسبابها.

{ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ } [64].

الجملة خبر ثان عن اسم الجلالة في قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ } للتنبيه على اختصاصه بالخالقية والملك الحقّ، ليُعلم من ذلك أنّه المختصّ بالمعبودية فيُردّ زعم المشركين أنّ الأصنام له شركاء في الإلهيّة. والمناسبة هي ذكر إنزال المطر وإنبات العشب فما ذلك إلّا بعض ما في السماوات وما في الأرض.

وإنّما لم تعطف الجملة على التي قبلها مع اتحادهما في الغرض لأنّ هذه تتنزل من الأولى منزلة التذييل بالعموم الشامل لما تضمّنته الجملة التي قبلها، ولأنّ هذه لا تتضمّن تذكيرا بنعمة.

{ **وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** } تقديم المجرور للدلالة على القصر. أي: له ذلك لا لغيره من أصنامكم، إن جعلتَ القصر إضافيا، أو لعدم الاعتداد بغنى غيره ومحموديّته إن جعلتَ القصر ادعائيا.

{ **الْغَنِيُّ** } نُبّه بوصف الغنى على أنّه غير مفتقر إلى غيره، وهو معنى الغنى في صفاته تعالى: أنّه عدم الافتقار بذاته وصفاته لا إلى محل ولا إلى مخصِّص بالوجود دون العدم، وفيه إشارة إلى أنّ افتقار الأصنام إلى من يصنعها ومن ينقلها من مكان إلى آخر ومن ينفض عنها القتام والقذر دليل على انتفاء الإلهيّة عنها.

{ **الْحَمِيدُ** } بمعنى المحمود كثيرا، فذكره لمزاوجة وصف الغنى، لأنّ الغني مفيض على النّاس فهم يحمدونه.

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ } [65].

هذا من نسق التذكير بنعم الله، فهو من عداد الامتنان والاستدلال، فكان كالتكرير لغرض، ولذلك فُصلت الجملة ولم تعطف. وهذا تذكير بنعمة تسخير الحيوان وغيره.

وفيه إدماج الاستدلال على انفراده بالتسخير.
{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم } مستأنفة كجملة { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ}. والخطاب والاستفهام كما في الآية السابقة.
التسخير: تسهيل الانتفاع بدون مانع، وهو يؤذن بصعوبة الانتفاع لولا ذلك التسخير. وأصله تسهيل الانتفاع بما فيه إرادة التمتّع مثل تسخير الخادم وتسهيل استخدام الحيوان الداجن من الخيل، والإبل، والبقر، والغنم ونحوها، بأن جعل الله فيها طبع الخوف من الإنسان مع تهيئتها للإلف بالإنسان. ثم أطلق على تسهيل الانتفاع بما ألهم الله إليه الإنسان من وسائل التغلّب عليها بتعرّف نواميسه وأحواله، وبالاحتيال على تملّكه مثل صيد الوحش ومغاصات اللؤلؤ والمرجان، ومثل آلات الحفر والنقر للمعادن، ومثل التشكيل في صنع الفلك والعَجَل، ومثل التركيب والتصهير في صنع البواخر والمزجيّات والصياغة، ومثل الإرشاد إلى ضبط أحوال المخلوقات العظيمة من الشمس والقمر والكواكب والأنهار والأودية والأنواء والليل والنهار، باعتبار كون تلك الأحوال تظهر على وجه الأرض، وما لا يُحصى مما ينتفع به الإنسان مما على الأرض فكلّ ذلك داخل في معنى التسخير.
{ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ } في موضع الحال من { الْفُلْكِ }. وإنّما خُصَّ هذا بالذكر لأنّ ذلك الجري في البحر هو مظهر التسخير، إذ لولا الإلهام إلى صنعها على الصفة المعلومة لكان حظها من البحر الغرق.
{ بِأَمْرِهِ } أمر التكوين إذ جعل البحر صالحا لحملها.
{ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ }.
الإمساك: السدّ، هو ضد الإلقاء. وقد ضُمِّن معنى المنع هنا فيُقدّر حرف جر لتعدية فعل الإمساك بعد هذا التضمين فيقدّر (عن) أو(من). ومناسبة عطف إمساك السماوات على تسخير ما في الأرض وتسخير الفلك أنّ إمساك السماء عن أن تقع على الأرض ضرب من التسخير لما في عظمة المخلوقات السماوية من مقتضيات تغلّبها على المخلوقات الأرضية لولا ما قدّر الله تعالى لكل نوع منها من سنن ونظم تمنع من تسلّط بعضها على بعض، كما أشار إليه قوله تعالى { لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } [يس:40] .
والذي ظهر لي في معنى الآية: أن يكون لفظ السماء قد أطلق على جميع الموجودات العلوية التي يشملها لفظ { السَّمَاءَ } الذي هو ما علا الأرض <u>فأطلق على ما يحويه</u>، كما أطلق لفظ الأرض على سكّانها في قوله تعالى { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا } [الرعد:41]. فالله يمسك ما في السماوات من الشهب ومن كريات الأثير والزمهرير عن اختراق كرة الهواء. ويمسك ما فيها من القوى كالمطر والبرد والثلج والصواعق من الوقوع على الأرض والتحكّك بها إلّا بإذن الله فيما اعتاد الناس إذنه به من وقوع المطر والثلج والصواعق والشهب، وما لم يعتادوه من تساقط الكواكب.
فيكون موقع { وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ } بعد قوله تعالى { وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ } كموقع قوله تعالى

{ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ } [الجاثية:13/12].

ويكون في قوله { **إِلَّا بِإِذْنِهِ** } إدماجا بين الامتنان والتخويف: فإنّ من الإذن بالوقوع على الأرض ما هو مرغوب للناس، ومنه ما هو مكروه. وهذا المحمل أجمع وأنسب بالإعجاز.

الإذن: حقيقته قول يطلب به فعل شيء. واستعير هنا للمشيئة والتكوين، وهما متعلَّق الإرادة والقدرة.

وقد استوعبت الآية العوالم الثلاثة: البر، والبحر، والجو.

{ **إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ** } موقع التعليل للتسخير والإمساك باعتبار الاستثناء، لأنّ في جميع ذلك رأفة بالناس بتيسير منافعهم الذي في ضمنه دفع الضرّ عنهم.

الرؤوف: صيغة مبالغة من الرأفة أو صفة مشبّهة. وهي صفة تقتضي صرف الضرّ.

الرحيم: وصف من الرحمة. وهي صفة تقتضي النفع لمحتاجه.

وقد تتعاقب الصفتان، والجمع بينهما يفيد ما تختصّ به كل صفة منهما ويؤكّد ما تجتمعان عليه.

{ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ } [66].

بعد أنّ أدمج الاستدلال على البعث بالمواعظ والمنن والتذكير بالنعم أعيد الكلام على البعث هنا بمنزلة نتيجة القياس، فذُكِّر الملحدون بالحياة الأولى التي لا ريب فيها، وبالإماتة التي لا يرتابون فيها، وبأنّ بعد الإماتة إحياء آخر كما أُخذ من الدلائل السابقة.

{ **إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ** } تذييل يجمع المقصد من تعداد نعم المنعم بجلائل النعم المقتضية انفراده باستحقاق الشكر واعتراف الخلق له بوحدانية الربوبية.

{ **الْإِنْسَانَ** } تعريف الاستغراق العرفي المؤذن بأكثر أفراد الجنس من باب قوله تعالى { فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ } [الشعراء:38]. وقد كان أكثر العرب يومئذ منكرين للبعث.

أو أريد بالإنسان خصوص المشرك كقوله { وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً } [مريم:66].

الكفور: مبالغة في الكافر، لأنّ كفرهم كان عن تعنّت ومكابرة.

ويجوز كون الكفور مأخوذا من كفر النعمة وتكون المبالغة باعتبار آثار الغفلة عن الشكر، وحينئذ يكون الاستغراق الذي في { الْإِنْسَانَ } حقيقيا.

{ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدىً مُسْتَقِيمٍ } [67].

هذا متّصل في المعنى بقوله تعالى { وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ } [34].

وقد فُصل بين الكلامين ما اقتضى الحال استطراده من قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا} [38] إلى هنا.

فهذا استدلال على توحيد الله تعالى بما سبق من الشرائع لقصد إبطال تعدّد الآلهة، بأنّ الله ما جعل لأهل كلّ ملّة سبقت إلّا منسكا واحدا يتقرّبون فيه إلى الله، لأنّ المتقرَّب إليه واحد. وقد جعل المشركون مناسك كثيرة فلكلّ صنم بيت يذبح فيه.

فالجملة استئناف. والمناسبة ظاهرة ولذلك فُصلت ولم تعطف كما عطفت نظيرتها المتقدّمة.

المَنْسَك: (بفتح الميم وفتح السين) اسم مكان النُّسُك. وأصل النُّسُك العبادة ويطلق على القربان.

فالمراد بالمنسك هنا مواضع الحجّ، بخلاف المراد به في الآية السابقة فهو موضع القربان.

{ **فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ** } فُرّع على هذا الاستدلال أنّهم لم تبق لهم حجّة ينازعون بها النبيّ صلى الله عليه وسلم في شأن التوحيد بعد شهادة الملل السابقة كلّها، فالنهي ظاهره موجّه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّ ما أعطيه من الحجج كاف في قطع منازعة معارضيه، فالمعارضون هم المقصود بالنهي، ولكن لمّا كان سبب نهيهم هو ما عند الرسول صلى الله عليه وسلم من الحجج وُجّه إليه النهي عن منازعتهم إيّاه، كأنه قيل: فلا تترك لهم ما ينازعونك به، وهو من قول العرب: لا أعرفنك تفعل كذا، وهو نهي للغير بطريق الكناية.

وقال الزجاج: هو نهي للرسول عن منازعتهم لأنّ صيغة المفاعلة تقتضي حصول الفعل من جانبي فاعله ومفعوله، أي: أنّه أمر للرسول بالإعراض عن مجادلتهم بعد ما سيق لهم من الحجج.

{ **الأَمْرِ** } مجمل مراد به التوحيد بالقرينة، ويحتمل أنّ المشركين كانوا ينازعون في كونهم على ضلال بأنّهم على ملّة إبراهيم، وأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قرّر الحجّ الذي هو من مناسكهم، فجعلوا ذلك ذريعة إلى ادّعاء أنّهم على الحقّ وعلى ملة إبراهيم، فكانت الآية كشفا لشبهتهم بأنّ الحجّ منسك حقٍّ، وهو رمز التوحيد، وأنّ ما عداه باطل طارئ عليه، فلا ينازعنّ في أمر الحج بعد هذا.

وهذا المحمل هو المناسب لتناسق الضمائر العائدة على المشركين، ولأنّ هذه السورة نزل بعضها بمكة في آخر مقام النبيّ صلى الله عليه وسلم بها وبالمدينة في أول مقامه بها فلا منازعة بين النبيّ وبين أهل الكتاب يومئذ.

{ **وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ** } عُطف على انتهاء المنازعة في الدين أمرٌ بالدوام على الدعوة وعدم الاكتفاء بظهور الحجّة لأنّ المكابرة تجافي الاقتناع، ولأنّ في الدوام على الدعوة فوائد للنّاس أجمعين.

{ **إِنَّكَ لَعَلَى هُدىً مُسْتَقِيمٍ** } تعليل للدوام على الدعوة وأنّها قائمة مقام (فاء) التعليل لا لردّ الشك.

{ **مُسْتَقِيمٍ** } وُصف الهدى بالمستقيم استعارة مكنية، شُبِّه الهدى بالطريق الموصل إلى المطلوب، ورُمز إليه بالمستقيم لأنّ المستقيم أسرع إيصالا، فدين الإسلام أيسر الشرائع في الإيصال إلى الكمال النفساني الذي هو غاية الأديان. وفي هذا الخبر تثبيت للنبيّ صلى الله عليه وسلم وتجديد لنشاطه.

{ وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ [68] اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ [69] }.

عطف على الجملة السابقة. والمعنى: إن تبيَّن عدم اقتناعهم بالأدلة التي تقطع المنازعة وأبوا إلّا دوام المجادلة تشغيبا واستهزاء فقل: الله أعلم بما تعملون.

{ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ } تفويض أمرهم إلى الله تعالى، وهو كناية عن قطع المجادلة معهم، وإدماج بتعريض بالوعيد والإنذار بكلام موجّه صالح لما يتظاهرون به من تطلّب الحجّة. كقوله تعالى { فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ } [السجدة:30].

{ مَا تَعْمَلُونَ } ما يعملونه من أنواع المعارضة والمجادلة بالباطل ليدحضوا به الحق وغير ذلك.

{ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم وليس للمشركين بقرينة قوله { بَيْنَكُمْ }. والمقصود تأييد الرسول والمؤمنين.

ما كانوا فيه يختلفون: هو ما عُبّر عنه بـ { الْأَمْرِ } في قوله تعالى { فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ }.

{ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } [70].

استئناف لزيادة تحقيق التأييد الذي تضمّنه قوله تعالى { اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ }. أي: فهو لا يفوته شيء من أعمالكم فيجازي كلًّا على حساب عمله. فالكلام كناية عن جزاء كلّ بما يليق به.

{ أَلَمْ تَعْلَمْ } الاستفهام إنكاري أو تقريري، أي: أنّك تعلم ذلك. وهذا الكلام كناية عن التسلية.

{ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ } بيان للجملة قبلها. أي: يعلم ما في السماء والأرض علما مفصّلا لا يختلف، لأنّ شأن الكتاب أن لا تتطرّق إليه الزيادة والنقصان.

واسم الإشارة إلى العمل في قوله { اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ } أو إلى (ما) في قوله { مَاكُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ }.

الكتاب: هو ما به حفظ جميع الأعمال: إمّا على تشبيه تمام الحفظ بالكتابة، وإمّا على الحقيقة، وهو جائز.

{ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } بيان لمضمون الاستفهام من الكناية عن الجزاء.

ولك أن تجعلها بيانا لجملة { يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ } واسم الإشارة عائد إلى العلم المأخوذ من فعل { يَعْلَمُ }، أي: أنّ علم الله بما في السماء والأرض حاصل دون اكتساب، لأنّ علمه ذاتي.

{ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ } [71].

يجوز أن تكون الجملة معطوفة على الجملة السابقة بما تفرّع عليها، عطف غرض على غرض.

ويجوز أن تكون حالا من الضمير المرفوع في قوله تعالى { جَادَلُوكَ }. والمعنى: جادلوك في الدين مستمرّين على عبادة ما لا يستحقّ العبادة بعد ما رأوا من الدلائل تعجيبا من شأنهم في مكابرتهم وإصرارهم.

{ **وَيَعْبُدُونَ** } الإتيان بالفعل المضارع المفيد للتجدّد على الوجهين لأنّ في الدلائل التي تحفّ بهم والتي ذُكِّروا ببعضها في الآيات الماضية ما هو كاف لإقلاعهم عن عبادة الأصنام لو كانوا يريدون الحقّ.

{ **مِنْ دُونِ اللَّهِ** } يفيد أنهم يعرضون عن عبادة الله، لأنّ كلمة { دُونِ } وإنّ كانت اسما للمباعدة قد يصدق للمشاركة بين ما تضاف إليه وبين غيره. فوجه ذلك أنّهم لمّا أشربت قلوبهم الإقبال على عبادة الأصنام وإدخالها في شؤون قرباتهم حتّى الحجّ، إذ قد وضعوا في شعائره أصناما بعضها وضعوها في الكعبة وبعضها فوق الصفا والمروة، جُعلوا كالمعطّلين لعبادة الله أصلا.

{ **مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً** } الأمر الإلهي الوارد على ألسنة رسله وفي شرائعه، أي: يعبدون ما لا يجدون عذرا لعبادته من الشرائع السالفة. وقصارى أمرهم أنّهم اعتذروا بتقدّم آبائهم بعبادة أصنامهم.

{ **وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ** } أي: ليس لهم به اعتقاد جازم، لأنّ الاعتقاد الجازم لا يكون إلّا عن دليل، والباطل لا يمكن حصول دليل عليه. وتقديم انتفاء الدليل الشرعي على انتفاء الدليل العقلي لأنّ الدليل الشرعي أهم.

{ **وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ** } (مَا) النافية. أي: يعبدون ما ذكر وما لهم نصير، فلا تنفعهم عبادة الأصنام. فالمراد بالظالمين المشركون المتحدّث عنهم، فهو من الإظهار في مقام الإضمار للإيماء إلى أنّ سبب انتفاء النصير لهم هو ظلمهم، أي: كفرهم.

{ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } [72].

عطف على جملة { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً } لبيان جرم آخر مع جرم عبادة الأصنام، وهو جرم تكذيب الرسول والتكذيب بالقرآن.

{ **آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ** } هي القرآن لا غيره من المعجزات لقوله تعالى { وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ }. وتقييد الآيات بوصف البينات لتفظيع إنكارهم إيّاها. إذ ليس فيها ما يُعذر به منكروها.

{ **تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ** } الخطاب لكلّ من يصلح للخطاب. و{ الَّذِينَ كَفَرُوا } إظهار في مقام الإضمار، أي: وجوه الذين يعبدون من دون الله ما لم ينزّل به سلطانا. فخولف مقتضى الظاهر للتسجيل عليهم بالإيماء إلى أنّ علّة ذلك هو ما يبطنونه من الكفر.

المنكر: إمّا الشيء الذي تنكره الأنظار والنفوس فيكون هنا اسما، أي: دلائل كراهيّتهم وغضبهم وعزمهم

على السوء، وإمّا مصدر ميمي بمعنى الإنكار، كالمكرم بمعنى الإكرام.

والمحملان آيلان إلى معنى: أنّهم يلوح على وجوههم الغيظ والغضب عندما يُتلى عليهم القرآن ويُدعَون إلى الإيمان. وهذا كناية عن امتلاء نفوسهم من الإنكار والغيظ حتّى تجاوز أثره بواطنهم على وجوههم.

{ **يَكَادُونَ يَسْطُونَ** } بدل اشتمال لجملة { تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ } لأنّ الهمَّ بالسطو ممّا يشتمل عليه المنكر.

السطو: البطش، أي: يقاربون أن يصولوا على الذين يتلون عليهم الآيات من شدّة الغضب والغيظ.

{ **بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا** } يجوز أن يكون مرادا به النبيّ صلى الله عليه وسلم من إطلاق اسم الجمع على الواحد. ويجوز أن يراد به من يقرأ عليهم القرآن من المسلمين والرسول.

{ **قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** } استئناف ابتدائي يفيد زيادة إغاظتهم بأنْ أمر الله النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يتلو عليهم ما يفيد أنّهم صائرون إلى النار.

{ **أَفَأُنَبِّئُكُمْ** } الاستفهام مستعمل في الاستئذان، وهو استئذان تهكّمي لأنّه قد نبأهم بذلك دون أن ينتظر جوابهم. والتفريع بالفاء على التلاوة المأخوذة من قوله تعالى { وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا }، أي: اتل عليهم الآيات المنذرة والمبيّنة لكفرهم، وفُرّع عليها وعيدهم بالنار.

شرّ: اسم تفضيل، أصله أشرّ. كثر حذف الهمزة تخفيفا، كما حُذفت في خير بمعنى أخير.

{ **ذَلِكُمُ** } الإشارة إلى ما أثار منكرهم وحفيظتهم، أي: فإن كنتم غاضبين لما تلي عليكم من الآيات فازدادوا غضبا بهذا الذي أنبئكم به. والجملة استئناف بياني، أي: إن سألتم عن الذي هو أشد شرا فاعلموا أنّه النار.

{ **وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا** } إظهار في مقام الإضمار، أي: وعدها الله إيّاكم لكفركم.

{ **وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** } تذييل لما فيها من عموم الحكم للمخاطبين وغيرهم وتكون الواو اعتراضية تذييلية. أي: بئس المصير هي لمن صار إليها.

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ } [73].

أُعقبت تضاعيف الحجج والمواعظ والإنذارات التي اشتملت عليها السورة بمثل جامع لوصف حال تلك المعبودات وعابديها.

{ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ** } الخطاب للمشركين لأنّهم المقصود بالرد والزجر وبقرينة قوله { إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ }. ويجوز أن يكون المراد بـ { النَّاسِ } جميع النّاس، من مسلمين ومشركين.

ضرب المثل: ذكره وبيانه، استعير الضرب للقول والذكر تشبيها بوضع الشيء بشدّة، أي: ألقي إليكم مثل.

{ **ضُرِبَ** } بني الفعل بصيغة النائب فلم يُذكر له فاعل بعكس ما في المواضع الأخرى التي صُرّح فيها

بفاعل ضرب المثل نحو قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا } [البقرة:26]، وقوله تعالى { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً } [النحل:75]، وقوله تعالى { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً } [الزمر:29]، إذ أسند في تلك المواضع وغيرها ضرب المثل إلى الله، لأن المقصود هنا نسج التركيب على إيجاز صالح لإفادة احتمالين:

أحدهما: أنّ يُقدّر الفاعل الله تعالى وأن يكون المثل تشبيها تمثيليا، أي: أوضح الله تمثيلا يوضّح حال الأصنام في فرط العجز عن إيجاد أضعف المخلوقات كما هو مشاهد لكلّ أحد.

الثاني: أن يُقدّر الفاعل المشركين ويكون المثل بمعنى المماثل، أي: جعلوا أصنامهم مماثلة لله تعالى في الإلهية.

{ **إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ** } إلى آخرها، يجوز أن تكون بيانا لفعل { ضُرِبَ } على الاحتمال الأول. ويجوز أن تكون بيانا للفظ { مَثَلٌ } على الاحتمال الثاني.

{ **فَاسْتَمِعُوا لَهُ** } تفريع لاسترعاء الأسماع إلى مفاد هذا المثل ممّا يبطل دعوى الشركة لله في الإلهية. أي: استمعوا استماع تدبّر. وصيغة الأمر مستعملة في التحريض على الاحتمال الأول، وفي التعجيب على الاحتمال الثاني.

المثل: شاع في تشبيه حالة بحالة، كما تقدم في قوله تعالى { مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً } [البقرة:17]. فالتشبيه في هذه الآية ضمني خفي ينبئ عنه قوله تعالى { وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ } وقوله تعالى { لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ }. شُبّهت الأصنام المتعدّدة في العجز بهيئة ناس تعذّر عليهم خلق أضعف المخلوقات، وهو الذباب. ولو فُرض أنّ الذباب سلبهم شيئا لم يستطيعوا أخذه منه.

الذباب: اسم جمع ذبابة، وهي حشرة طائرة معروفة، وتُجمع على ذِبَّان (بكسر الذال) ولا يقال في العربية للواحدة ذِبَّابة.

{ **وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ** } موقع الحال، و(لو) فيه وصلية. أي: لن يستطيعوا ذلك الخلق وهم مفترقون، بل ولو اجتمعوا وتعاونوا على خلق الذباب لن يخلقوه.

الاستنقاذ: مبالغة في الإنقاذ، مثل الاستحياء والاستجابة.

{ **ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ** } تذييل وفذلكة للغرض من التمثيل، أي: ضعف الداعي والمدعو. أي ضعفتم أنتم في دعوتهم آلهة وضعفت الأصنام عن صفات الإله. وهذه الجملة كلام أرسل مثلا.

{ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } [74].

تذييل للمثل بأنّ عبادتهم الأصنام مع الله استخفاف بحقّ إلهيّته تعالى، إذ أشركوا معه في أعظم الأوصاف أحقر الموصوفين، وإذ استكبروا عند تلاوة آياته تعالى عليهم، وإذ همّوا بالبطش برسوله.

القدر: العظمة. وفعل قدر يفيد أنّه عاملٌ بقدره. فالمعنى: ما عظّموه حقّ تعظيمه إذ أشركوا معه الضعفاء

العُجَّز وهو الغالب القويّ. وأسلوب الغيبة التفات، تعريضا بهم بأنّهم ليسوا أهلا للمخاطبة توبيخا لهم.
وتقدّم في قوله تعالى { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ } [الأنعام:91].
{ **إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** } تعليل لمضمون الجملة قبلها. وفيه تهديد لهم بأنّه ينتقم منهم على وقاحتهم.
وتوكيد الجملة بحرف التوكيد ولام الابتداء مع أن مضمونها مما لا يختلف فيه لتنزيلهم منزلة المنكرين.
القويّ: من أسمائه تعالى، وهو مستعمل في القدرة على كل مراد له.
العزيز: من أسمائه، وهو بمعنى: الغالب لكلّ معاند.

{ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ } [75].

لما نفت الآيات السابقة أن يكون للأصنام التي يعبدها المشركون مزية في نصرهم بقوله تعالى{ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ }، وقوله تعالى { ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ }، ونعى على المشركين تكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى { يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا }، وقد كان من دواعي التكذيب أنّهم أحالوا أن يأتيهم رسول من البشر { وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ } [الأنعام:8]، أي: يصاحبه، { وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا } [الفرقان:21]، أعقب إبطال أقوالهم بأنّ الله يصطفي من شاء اصطفاءه من الملائكة ومن الناس، وأنّه يصطفيهم ليرسلهم إلى النّاس، أي: لا ليكونوا شركاء. فلا جرم أبطلت الآية جميع مزاعمهم في أصنامهم. فالجملة استئناف ابتدائي. والمناسبة ما علمت.
{ **اللَّهُ يَصْطَفِي** } تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي لإفادة الاختصاص، أي: الله وحده هو الذي يصطفي.
{ **إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** } تعليل، لأنّ المحيط علمه بالأشياء هو الذي يختصّ بالاصطفاء كناية عن عموم العلم.

{ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ } [76].

مُقرّرة لمضمون جملة { إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ }، وفيها تعريض بوجوب مراقبتهم ربّهم في السر والعلانية.
{ **مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ** } مستعار لما يظهرونه. ويجوز أن يكون مستعارا لما سيكون من أحوالهم.
{ **وَمَا خَلْفَهُمْ** } ما يخفونه لأنّ الشيء الذي يخفيه صاحبه يجعله وراءه. ويجوز أن يكون مستعارا لما مضى.
{ **وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ** } إرجاع القضاء في جزائها من ثواب وعقاب إليه يوم القيامة. وبني الفعل إلى النائب لظهور من هو فاعل الإرجاع فإنّه لا يليق إلّا بالله تعالى.
وتقديم المجرور لإفادة الحصر الحقيقي، أي: إلى الله لا إلى غيره يرجع الجزاء لأنّه ملك يوم الدين.
{ **الْأُمُورُ** } التعريف للاستغراق، أي: كلّ أمر. وذلك جمع بين البشارة والنذارة.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [77].

بعد استيفاء ما سيق إلى المشركين من الحجج والقوارع والنداء على مساوي أعمالهم، خُتمت السورة بالإقبال على خطاب المؤمنين بما يُصلح أعمالهم ويُنوِّه بشأنهم.

وفي هذا الترتيب إيماء إلى أنّ الاشتغال بإصلاح الاعتقاد مقدّم على الاشتغال بإصلاح الأعمال.

{ ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا } المراد الصلوات، وتخصيصهما بالذكر من بين أعمال الصلاة لأنّهما أعظم أركان الصلاة إذ بهما إظهار الخضوع والعبودية. وتخصيص الصلاة بالذكر قبل الأمر ببقية العبادات المشمولة بقوله تعالى { وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ } تنبيه على أنّ الصلاة عماد الدين.

{ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ } أمر بإسداء الخير إلى الناس، وهذا مجمل بيّنته وبيّنت مراتبه أدلة أخرى.

{ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } رجاء مستعمل في معنى تقريب الفلاح لهم إذا بلغوا بأعمالهم الحدّ الموجب للفلاح فيما حدّد الله تعالى. فهذه حقيقة الرجاء. وأمّا ما يستلزمه الرجاء من تردّد الراجي في حصول المرجو فذلك لا يخطر بالبال لقيام الأدلة التي تحيل الشك على الله تعالى.

اختلف الأئمة في كون الآية موضع سجدة من سجود القرآن:

<u>رأي الجمهور</u> أن ليس ذلك موضع سجدة وهو قول مالك في الموطأ و المدونة ، وأبي حنيفة، والثوري.

<u>وذهب جمع غفير</u> إلى أنّ ذلك موضع سجدة، وروى الشافعي، وأحمد، وإسحاق، وفقهاء المدينة، ونسبه ابن العربي إلى مالك في رواية المدنيين من أصحابه عنه. وقال ابن عبد البر في الكافي : " ومن أهل المدينة قديما وحديثا من يرى السجود في الثانية من الحجّ ".

{ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} [78].

الجهاد: بصيغة المفاعلة حقيقة عرفيّة في قتال أعداء المسلمين في الدين لأجل إعلاء كلمة الإسلام أو للدفع عنه، كما فسّره النبيّ صلى الله عليه وسلم:**" من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله"**.

{ فِي } للتعليل، أي: لأجل الله، أي: لأجل نصر دينه، كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" دخلت امرأة النار في هرة "**، أي: لأجل هرة، كما بيّنه بقوله: **" حبستها لا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها ترمم من خشاش الأرض حتّى ماتت هزلا "**.

{ حَقَّ جِهَادِهِ } انتصب على المفعول المطلق المبيّن للنوع، وأضيفت الصفة إلى الموصوف، وأصله: جهاده الحقّ. و**الحق** بمعنى: الخالص، أي: الجهاد الذي لا يشوبه تقصير.

والآية أمر بالجهاد. ولعلّها أوّل آية جاءت في الأمر بالجهاد لأنّ السورة بعضها مكّي وبعضها مدني ولأنّه تقدم آنفا قوله تعالى { ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ }. فهذا الآن أمر بالأخذ في وسائل النصر، فالآية نزلت قبل وقعة بدر لا محالة.

{ **هُوَ اجْتَبَاكُمْ** } أي: هو اختاركم لتلقّي دينه ونشره ونصره على معانديه. فيظهر أنّ هذا موجّه لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصالة ويشاركهم فيه كلّ من جاء بعدهم بحكم اتّحاد الوصف في الأجيال، كما هو الشأن في مخاطبات التشريع. هذا إن حُملت الجملة على أنّها واقعة موقع العلّة لما أمروا به من العبادة، أي: لأنّه لمّا اجتباكم كان حقيقا بالشكر له بتلك الخصال المأمور بها. وإن حُملت على معنى التفضيل على الأمم كان ملحوظا فيها تفضيل مجموع الأمّة على مجموع الأمم السابقة.

وقد تقدّم مثل هذين المحملين في قوله تعالى { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ } [آل عمران:110].

{ **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** } أُعقب ذلك الاجتباء بتفضيل هذا الدين، المستتبع تفضيل أهله، بأن جعله دينا لا حرج فيه، لأنّ ذلك يسهل العمل به مع حصول مقصد الشريعة من العمل فيسعد أهله بسهولة امتثاله. قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" بُعثت بالحنيفيّة السمحة "**.

الحرج: الضيق، أطلق على عسر الأفعال تشبيها للمعقول بالمحسوس ثم شاع ذلك حتى صار حقيقة عرفية.

{ **مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ** } زيادة في التنويه بهذا الدين وتحضيض على الأخذ به بأنّه اختص بأنه دين جاء به رسولان إبراهيم ومحمد صلى الله عليه وسلم، وهذا لم يستتب لدين آخر، وهو معنى قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" أنا دعوة أبي إبراهيم "** [رواه أبو داود الطيالسي عن عبادة بن الصامت]، أي: بقوله { رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ } [البقرة:129]. أي: أنّ الإسلام احتوى على دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام. ومعلوم أن للإسلام أحكاما كثيرة ولكنه اشتمل على ما لم يشتمل عليه غيره من الشرائع الأخرى من دين إبراهيم.

إن كان الخطاب موجّها إلى الذين صحبوا النبيّ صلى الله عليه وسلم فإضافة أبوّة إبراهيم إليهم باعتبار غالب الأمّة، لأنّ غالب الأمّة يومئذ من العرب المُضَرية وأمّا الأنصار فإنّ نسبهم لا ينتمي إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأنّهم من العرب القحطانيين، على أنّ أكثرهم كانت لإبراهيم عليهم ولادة من قبل الأمهات.

وإن كان الخطاب لعموم المسلمين كانت إضافة أبوّة إبراهيم لهم على معنى التشبيه في الحرمة واستحقاق التعظيم كقوله تعالى { وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ }، ولأنّه أبو النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم ومحمد له مقام الأبوّة للمسلمين.

ويجوز أن يكون الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم على طريقة التعظيم كأنّه قال: ملة أبيك إبراهيم.

{ **هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ** } الضمير عائد إلى الجلالة كضمير { هُوَ اجْتَبَاكُم } فتكون الجملة استئنافا ثانيا،

أي: هو اجتباكم وخصّكم بهذا الاسم الجليل فلم يعطه غيركم.
{ **مِنْ قَبْلُ** } بُني على الضم إشعارا بالمضاف إليه. والتقدير: من قبل القرآن. والقرينة قوله { وَفِي هَذَا }.
{ **وَفِي هَذَا** } الإشارة إلى القرآن كما في قوله تعالى { ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [الأحقاف:4]، أي: وسمّاكم المسلمين في القرآن.
{ **لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ** } اللام يتعلّق بقوله { ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا }، أو بقوله تعالى { اجْتَبَاكُمْ }، أي: ليكون الرسول صلى الله عليه وسلم، شهيدا على الأمّة الإسلامية بأنّها آمنت به، وتكون الأمّة الإسلامية شاهدة على الناس، أي: على الأمم بأنّ رسلهم بلّغوهم الدعوة فكفر بهم الكافرون. ومن جملة الناس القوم الذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم.
وقُدّمت شهادة الرسول للأمّة هنا وقدّمت شهادة الأمة في قوله تعالى { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً } [البقرة:143]، لأنّ آية هذه السورة في مقام التنويه بالدين الذي جاء به الرسول. فالرسول هنا أسبق إلى الحضور فكان ذكر شهادته أهم، وآية البقرة صدرت بالثناء على الأمّة فكان ذكر شهادة الأمة أهم.
{ **فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ** } تفريع على قوله تعالى { هُوَ اجْتَبَاكُمْ } وما بعدها، أي: فاشكروا الله بالدوام على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله.
الاعتصام: افتعال من العَصْم. وهو المنع من الضرّ والنجاة، قال تعالى { قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ } [هود:43]. والمعنى: اجعلوا الله ملجأكم ومنجاكم.
{ **هُوَ مَولاكُمْ** } مستأنفة معلِّلة للأمر بالاعتصام بالله، لأنّ المولى يُعتصم به ويُرجع إليه لعظيم قدرته وبديع حكمته.
المولى: السيد الذي يراعي صلاح عبده.
{ **فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ** } فُرّع على التعليل إنشاء الثناء على الله بأنّه أحسن مولى وأحسن نصير.
أي: نعم المدبّر لشؤونكم، ونعم الناصر لكم.
نصير: صيغة مبالغة في النصر.
وهذا الإنشاء يتضمّن تحقيق حسن ولاية الله تعالى وحسن نصره. وبذلك الاعتبار حسن تفريعه على الأمر بالاعتصام به، وهذا من براعة الختام. كما هو بين لذوي الأفهام.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المؤمنون

يقال (**سورة المؤمنين**)، ويقال (**سورة المؤمنون**). فالأوّل على اعتبار إضافة السورة إلى المؤمنين لافتتاحها بالإخبار عنهم بأنّهم أفلحوا. والثاني على حكاية لفظ { الْمُؤْمِنُونَ } الواقع أوّلها، فجعل ذلك اللفظ تعريفا للسورة.

وقد وردت تسمية هذه السورة (سورة المؤمنين) في السنّة. روى أبو داود: عن عبد الله بن السائب قال: " صلى بنا رسول الله الصبح بمكة فاستفتح سورة المؤمنين حتى إذا جاء ذكر موسى وهارون أو ذكر موسى وعيسى أخذت النبيَّ سعلة فحذف فركع ".

وممّا جرى على الألسنة أن يسمّوها (**سورة قد أفلح**). ووقع ذلك في كتاب الجامع من العتبية في سماع ابن القاسم. قال ابن القاسم: " أخرج لنا مالك مصحفا لجدّه فتحدثنا أنّه كتبه على عهد عثمان بن عفان وغاشيته من كسوة الكعبة فوجدنا... [إلى أن قال] ... وفي قد أفلح ".

ويسمّونها أيضا (**سورة الفلاح**).

وهي **مكّية بالاتفاق**. ولا اعتداد بتوقّف من توقّف في ذلك بأنّ الآية التي ذكرت فيها الزكاة وهي قوله تعالى { وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ } [4]، تُعيِّن أنّها مدنية لأنّ الزكاة فرضت في المدينة. فالزكاة المذكورة فيها هي الصدقة لا زكاة النصب المعيّنة في الأموال. وإطلاق الزكاة على الصدقة مشهور في القرآن، قال تعالى { وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ } [فصلت:7/6] وهي من سورة مكية بالاتفاق، وقال تعالى { وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ } [مريم:55/54]، ولم تكن زكاة النُصب مشروعة في زمن إسماعيل.

وهي السورة **السادسة والسبعون في عداد** نزول سور القرآن، نزلت بعد سورة الطور وقبل سورة الملك.

وآياتها مائة وسبع عشرة في عدّ الجمهور. وعدّها أهل الكوفة مائة وثمان عشرة، فالجمهور عدوا قوله تعالى { أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } آية، وأهل الكوفة عدوا { أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ } آية وما بعدها آية أخرى.

أغراض السورة

*/ هذه السورة تدور آيها حول محور تحقيق الوحدانية وإبطال الشرك ونقض قواعده، والتنويه بالإيمان وشرائعه.

*/ افتُتحت بالبشارة للمؤمنين بالفلاح العظيم على ما تحلّوا به من أصول الفضائل الروحية والعملية التي بها تزكية النفس واستقامة السلوك.

*/ أعقب ذلك بوصف خَلق الإنسان، أصلِه ونسلِه، الدال على تفرّد الله تعالى بالإلهية لتفرّده بخلق الإنسان ونشأته ليبتدئ الناظر بالاعتبار في تكوين ذاته ثم بعدمه بعد الحياة.

*/ دلالة ذلك الخلق على إثبات البعث بعد الممات وأنّ الله لم يخلق الخلق سدى ولعبا.

*/ الاعتبار بخلق السماوات ودلالته على حكمة الله تعالى.

*/ الاعتبار والامتنان بمصنوعات الله تعالى التي أصلها الماء الذي به حياة ما في هذا العالم من الحيوان والنبات وما في ذلك من دقائق الصنع، وما في الأنعام من المنافع ومنها الحمل.

*/ تسخير المنافع للناس وما أوتيه الإنسان من آلات الفكر والنظر.

*/ ذكر الحمل على الفلك، فكان منه تخلّص إلى بعثة نوح وحدث الطوفان.

*/ التذكير ببعثة الرسل للهدى والإرشاد إلى التوحيد والعمل الصالح، وما تلقاها به أقوامهم من الإعراض والطعن والتفرّق، وما كان من عقاب المكذّبين، وتلك أمثال لموعظة المعرضين عن دعوة محمد صلى الله عليه وسلم فأُعقب ذلك بالثناء على الذين آمنوا واتقوا.

*/ تنبيه المشركين على أنّ حالهم مماثل لأحوال الأمم الغابرة وكلمتهم واحدة فهم عرضة لأن يحلّ بهم ما حلّ بالأمم الماضية المكذِّبة. وقد أراهم الله مخائل العذاب لعلّهم يقلعون عن العناد فأصروا على إشراكهم بما ألقى الشيطان في عقولهم.

*/ ذُكّروا بأنّهم يُقرّون إذا سئلوا بأنّ الله مُفْرَد بالربوبية ولا يجرون على مقتضى إقرارهم، وأنّهم سيندمون على الكفر عندما يحضرهم الموت وفي يوم القيامة.

*/ وبأنّهم عرفوا الرسول وخبروا صدقه وأمانته ونصحه المجرّد عن طلب المنفعة لنفسه إلّا ثواب الله، فلا عذر لهم بحال في إشراكهم وتكذيبهم الرسالة، ولكنّهم متّبعون أهواءهم معرضون عن الحقّ.

*/ وما تخلل ذلك من جوامع الكلم.

*/ خُتمت بأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يغضّ عن سوء معاملتهم ويدفعها بالتي هي أحسن، ويسأل المغفرة للمؤمنين، وذلك هو الفلاح الذي ابتدئت به السورة.

{ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ } [1].

افتتاح بديع لأنّه من جوامع الكلم، فإنّ الفلاح غاية كل ساع إلى عمله، فالإخبار بفلاح المؤمنين دون ذكر متعلّق بفعل الفلاح يقتضي في المقام الخطابي التعميم، فكأنّه قيل: قد أفلح المؤمنون في كل ما رغبوا فيه.

ولمّا كانت همّة المؤمنين منصرفة إلى تمكّن الإيمان والعمل الصالح من نفوسهم كان ذلك إعلاما بأنّهم نجحوا فيما تعلّقت به هممهم من خير الآخرة وللحقّ من خير الدنيا، ويتضمّن بشارة برضى الله عنهم ووعدا بأنّ الله مكمل لهم ما يتطلّبونه من خير.

وأُكّد هذا الخبر بحرف (قد) الذي إذا دخل على الفعل الماضي أفاد التحقيق. فحرف (قد) في الجملة الفعلية يفيد مفاد (إن واللام) في الجملة الاسمية.

الفلاح: الظفر بالمطلوب من عمل العامل. وقد تقدّم في أوّل البقرة. ونيط الفلاح بوصف الإيمان للإشارة إلى أنّه السبب الأعظم في الفلاح، فإنّ الإيمان وصف جامع للكمال لتفرّع جميع الكمالات عليه.

{ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ } [2].

إجراء الصفات على { الْمُؤْمِنُونَ } بالتعريف بطريق الموصول وبتكريره للإيماء إلى وجه فلاحهم وعلّته، أي: أنّ كلّ خصلة من هاته الخصال هي من أسباب فلاحهم. لأنّه لم يقصد أن سبب فلاحهم مجموع الخصال المعدودة هنا، فإنّ الفلاح لا يتمّ إلّا بخصال أخرى ممّا هو مرجع التقوى، ولكن لمّا كانت كل خصلة من هذه الخصال تنبئ عن رسوخ الإيمان من صاحبها اعتُبرت لذلك سببا للفلاح، كما كانت أضدادها كذلك في قوله تعالى { مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ } [المدثر:42-46]، على أن ذكر عدة أشياء لا يقتضي الاقتصار عليها.

الخشوع: تقدّم في قوله تعالى { وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ } [البقرة:45]، وفي قوله تعالى { وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ } [الأنبياء:90]. وهو خوف يوجب تعظيم المخوف منه، ولاشك أنّ الخشوع، يقتضي التقوى، فهو سبب فلاح.

{ فِي صَلاتِهِمْ } تقييده لقصد الجمع بين وصفهم بأداء الصلاة وبالخشوع، لأنّ الخشوع لله يكون في حالة الصلاة وفي غيرها. والخشوع محلّه القلب فليس من أفعال الصلاة ولكنّه يتلبّس به المصلي في حالة صلاته. وذُكر مع الصلاة لأن الصلاة أوْلى الحالات بإثارة الخشوع وقوّته ولذلك قُدمت، ولأنه بالصلاة أعلق فإنّ الصلاة خشوع لله تعالى وخضوع له. ولهذا الاعتبار قُدّم هذا الوصف وجُعل مواليا للإيمان.

وتقديم { فِي صَلاتِهِمْ } على { خَاشِعُونَ } للاهتمام بالصلاة للإيذان بأنّ لهم تعلقا شديدا بالصلاة.

{ **وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ** } [3].

القول في تركيب هذه جملة كالقول في سابقتها، وكذلك تقديم { عَنِ اللَّغْوِ } على متعلّقه.

وإعادة اسم الموصول دون اكتفاء بعطف صلة على صلة للإشارة إلى أنّ كلّ صفة من الصفات موجبة للفلاح، ولما في الإظهار في مقام الإضمار من زيادة تقرير للخبر في ذهن السامع.

اللغو: الكلام الباطل. وتقدّم في قوله تعالى { لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ } [البقرة:225].

الإعراض: الصدّ، أي: عدم الإقبال على الشيء، من العُرض (بضم العين) وهو الجانب، لأنّ من يترك الشيء يوليه جانبه ولا يقبل عليه، فيشمل الإعراضُ:

إعراضَ السمع عن اللغو. وتقدّم عند قوله تعالى { فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ } [النساء:63].

وأهمه الإعراض عن لغو المشركين عند سماع القرآن. قال تعالى { وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا } [الفرقان:72].

الاعراضَ عن اللغو بالألسنة، أي: أن يلغو في كلامهم.

وعُقّب ذكر الخشوع بذكر الإعراض عن اللغو لأنّ الصلاة في الأصل الدعاء، وهو من الأقوال الصالحة، فكان اللغو ممّا يخطر بالبال عند ذكر الصلاة بجامع الضدّية، فكان الإعراض عن اللغو بمعنَيي الإعراض مما تقتضيه الصلاة والخشوع، لأنّ من اعتاد القول الصالح تجنّب القول الباطل ومن اعتاد الخشوع لله تجنب قول الزور. وفي الحديث: " **إنّ العبد ليتكلّم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالا يرفعه الله بها درجات وإنّ العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي بها في جهنم** ".

والإعراض عن اللغو من خُلُق الجِد، ومن تخلّق بالجِد في شؤونه كملت نفسه ولم يصدر منه إلّا الأعمال النافعة، فالجِد في الأمور من خلق الإسلام.

{ **وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ** } [4].

أصل الزكاة أنها اسم مصدر زكّى المشدّد، إذا طهّر النفس من المذمّات. ثم أطلقت على إنفاق المال لوجه الله مجازا، لأنّ القصد من ذلك المال تزكية النفس أو لأنّ ذلك يزيد في مال المعطي. فأطلق اسم المسبَّب على السبب. وأصله قوله تعالى { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا } [التوبة:103].

{ **فَاعِلُونَ** } المراد هنا الفعل المناسب لهذا المفعول وهو **الإيتاء**، فهو كقوله تعالى { وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ } [المائدة:55]، فلا حاجة إلى تقدير أداء الزكاة. وإنما أوثر هنا الاسم الأعم لأن مادة (ف . ع . ل) مشتهرة في إسداء المعروف.

وعُقّب ذكر الصلاة بذكر الزكاة لكثرة التآخي بينهما في آيات القرآن، وإنما فصل بينهما هنا بالإعراض عن اللغو للمناسبة التي ذُكرت.

{ **وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ [5] إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ [6] فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ [7]** }.

الحفظ: الصيانة والإمساك. وحفظ الفرج معلوم، أي: عن الوطء.

{ **إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ** } استثناء من عموم متعلّقات الحفظ، فضُمّن حافظون معنى عدم البذل، يقال: احفظ عليَّ عنان فرسي، كما يقال: أمسك عليَّ، كما في قوله تعالى { أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ } [الأحزاب:37]. والمراد حِلُّ الصنفين من بين بقية أصناف النساء. وهذا مجمل تبيّنه تفاصيل الأحكام.

{ **فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ** } تصريح بزائد على حكم مفهوم الاستثناء، لأنّ الاستثناء لم يدل على أكثر من كون عدم الحفظ على الأزواج والمملوكات لا يمنع الفلاح فأريد زيادة بيان أنّه أيضا لا يوجب اللوم الشرعي، فيدلّ هذا بالمفهوم على أنّ عدم الحفظ على من سواهن يوجب اللوم الشرعي ليحذره المؤمنون.

{ **فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ** } زيد التحذير السابق تقريرا، لأنّ داعية غلبة شهوة الفرج على حفظ صاحبه إيّاه غريزة طبيعية يُخشى أن تتغلب على حافظها.

وذكر حفظ الفرج هنا عطفا على الإعراض عن اللغو لأنّ حفظ الفرج من الإعراض عن اللغو. وفي الحديث " **من يضمن لي ما بين لَحْيَيه وما بين رِجليه أضمن له الجنّة** ".

اللوم: الإنكار على الغير ما صدر منه من فعل أو قول لا يليق عند المُلام، وهو مرادف العذل وأضعف من التعنيف.

{ **وَرَاءَ ذَلِكَ** } منصوب على المفعول به. وأصل الوراء اسم المكان الذي في جهة الظهر، ويطلق على الشيء الخارج عن الحدّ المحدود، تشبيها للمتجاوز الشيء بشيء موضوع خلف ظهر ذلك الشيء، وهذا التخيّل شاع عنه هذا الإطلاق بحيث يقال: هو وراء الحدّ، ولو كان مستقبله. ثم تُوسّع فيه فصار بمعنى: **غير** أو **ما عدا** كما هنا، أي: فمن ابتغوا بفروجهم شيئا غير الأزواج وما ملكت أيمانهم.

{ **فَأُولَئِكَ** } اسم الإشارة لزيادة تمييزهم بهذه الخصلة الذميمة ليكون وصفهم بالعدوان مشهورا مقرّرا كقوله تعالى { وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ } [البقرة:177].

العادي: هو المعتدي، أي: الظالم، لأنّه عدا على الأمر.

{ **هُمُ** } توسيط ضمير الفصل لتقوية الحكم، أي: هم البالغون غاية العدوان على الحدود الشرعية.

{ **وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ** } [8].

هذه صفة أخرى من جلائل صفات المؤمنين تنحلُّ إلى فضيلتين: هما فضيلة أداء الأمانة التي يؤتمنون عليها وفضيلة الوفاء بالعهد.

الأمانة: تكون غالبا من النفائس التي يخشى صاحبها عليها التلف فيجعلها عند من يظنّ فيه حفظها، وفي الغالب يكون ذلك على انفراد بين المؤتمِن والأمين، فهي لنفاستها قد تغري الأمين عليها بأن لا يردّها

وبأن يجحدها ربّها، ولكون دفعها في الغالب عَرْيا عن الإشهاد تبعث محبّتها الأمين على التمسّك بها وعدم ردّها، فلذلك جعل الله ردّها من شعب الإيمان.

وفي الحديث عن حذيفة بن اليمان قال: " حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: **أنّ الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة** "، وحدثنا عن رفعها قال: " **ينام الرجل النومة فتُقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر الوكت، ثم ينام النومة فتقبض فيبقى أثرها مثل المَجْل، كجمر دحرجته على رجلك فنَفِط فتراه مُنْتَبِرًا وليس فيه شيء، فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة، فيقال: إنّ في بني فلان رجلا أمينا، ويقال للرجل: ما أعقله وما أظرفه وما أجلده وما في قلبه مثقال حبّة من خردل من إيمان** ".

<u>الوكت</u>: سواد يكون في قشر التمر.

<u>المَجْل</u>: انتفاخ في الجلد الرقيق يكون شبه قشر العنبة ينشأ من مسّ النار الجلد ومن كثرة العمل باليد.

<u>مثقال حبة من خردل من إيمان</u>: هو مصدر آمنه، أي: وما في قرارة نفسه من إيمان الناس إيّاه، فلا يأتمنه إلّا مغرور.

وقد تقدّم الكلام على الأمانة في قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا } [النساء:58].

{ **لِأَمَانَاتِهِمْ** } جمع باعتبار تعدّد أنواعها وتعدّد القائمين بالحفظ، تنصيصا على العموم.

العهد: التزام بين اثنين أو أكثر على شيء يُعامل كل واحد من الجانبين الآخر به. وسُمّي عهدا لأنّهم يتحالفان بعهد الله، أي: بأن يكون الله رقيبا عليهما في ذلك. وتقدّم عند قوله تعالى { الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ } [البقرة:27].

والوفاء بالعهد من أعظم خلق الكريم لدلالته على شرف النفس وقوّة العزيمة، فإنّ المَرْأين قد يلتزم كلّ منهما للآخر عملا عظيما فيصادف أن يتوجّه الوفاء بذلك الالتزام على أحدهما فيصعب عليه أن يتجشّم عملا لنفع غيره بدون مقابل ينتفع به هو فتسوّل له نفسه الخَتْر بالعهد شحًّا أو خورًا في العزيمة، فلذلك كان الوفاء بالعهد علامة على عظم النفس، قال تعالى { وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً } [الإسراء:34].

الرعي: مراقبة شيء بحفظه من التلاشي وبإصلاح ما يفسد منه، فمنه رعي الماشية، ومنه رعي الناس، ومنه أطلقت المراعاة على ما يستحقّه ذو الأخلاق الحميدة من حسن المعاملة. والقائم بالرعي: راع.

رَعْيُ الأمانة: حفظها. ولمّا كان الحفظ مقصودا لأجل صاحبها كان ردّها إليه أولى من حفظها.

رَعْيُ العهد: مجاز، أي: ملاحظته عند كلّ مناسبة.

والجمع بين رعي الأمانات ورعي العهد لأنّ العهد كالأمانة لأنّ الذي عاهدك قد ائتمنك على الوفاء بما يقتضيه ذلك العهد.

وذكرهما عقب أداء الزكاة لأنّ الزكاة أمانة الله عند الذين أنعم عليهم بالمال، ولذلك سُمِّيت: حقّ الله، وحقّ المال، وحقّ المسكين.

{ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ } [9].

ثناء على المؤمنين بالمحافظة على الصلوات، أي: بعدم إضاعتها أو إضاعة بعضها.

المحافظة: مستعملة في المبالغة في الحفظ، إذ ليست المفاعلة هنا حقيقية، وتقدّم معنى الحفظ قريبا.

{ صَلَوَاتِهِمْ } جيء بصيغة الجمع تنصيصا على العموم. وإنّما ذُكر هذا مع ما تقدّم من قوله تعالى { الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ }، لأنّ ذكر الصلاة هنالك جاء تبعا للخشوع، فأريد ختم صفات مدحهم بصفة محافظتهم على الصلوات ليكون لهذه الخصلة كمال الاستقرار في الذهن لأنّها آخر ما قرع السمع من هذه الصفات. وقد حصل بذلك تكرير ذكر الصلاة تنويها بها، وردا للعجز على الصدر، تحسينا للكلام الذي ذكرت فيه تلك الصفات لتزداد النفس قبولا لسماعها ووعيها فتتأسّى بها.

{ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ... وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ } [1-9]، وقد جمعت هذه الآيات أصول التقوى الشرعية لأنّها أتت على أعسر ما تُراض له النفس <u>من أعمال القلب والجوارح</u>:

<u>فجاءت بوصف الإيمان</u>، وهو أساس التقوى، <u>ثم ذكرت الصلاة</u>، وهي عماد التقوى والتي تنهى عن الفحشاء والمنكر، لما فيها من تكرّر استحضار الوقوف بين يدي الله ومناجاته.

<u>وذكرت الخشوع</u>، وهو تمام الطاعة، لأنّ المرء قد يعمل الطاعة للخروج من عُهدة التكليف غير مستحضر خشوعا لربّه الذي كلّفه بالأعمال الصالحة، فإذا تخلّق المؤمن بالخشوع اشتدت مراقبته ربّه فامتثل واجتنب. فهذان **من أعمال القلب.**

<u>وذكرت الإعراض عن اللغو</u>، واللغو من سوء الخُلُق المتعلّق باللسان الذي يعسر إمساكه، فإذا تخلّق المؤمن بالإعراض عن اللغو فقد سهل عليه ما هو دون ذلك. وفي الإعراض عن اللغو خُلُق للسمع أيضا كما علمت.

<u>وذكرت إعطاء الصدقات</u> وفي ذلك مقاومة داء الشحّ { وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [الحشر:9]

<u>وذكرت حفظ الفرج</u>، وفي ذلك خُلق مقاومة اطّراد الشهوة الغريزية بتعديلها وضبطها والترفّع بها عن حضيض مشابهة البهائم، فمن تخلّق بذلك فقد صار كبح الشهوة ملكة له وخُلقا.

<u>وذكرت أداء الأمانة</u>، وهو مظهر للإنصاف وإعطاء ذي الحقّ حقّه ومغالبة شهوة النفس لأمتعة الدنيا.

<u>وذكرت الوفاء بالعهد</u>، وهو مظهر لخُلُق العدل في المعاملة والإنصاف من النفس بأن يبذل لأخيه ما يحب لنفسه من الوفاء.

وذكرت المحافظة على الصلوات وهو التخلّق بالعناية والوقوف عند الحدود والمواقيت وذلك يجعل انتظام أمر الحياتين ملكة وخلقا راسخا.

وأنت إذا تأمّلت هذه الخصال وجدتها ترجع إلى حفظ ما من شأن النفوس إهماله؛ مثل الصلاة والخشوع وترك اللغو وحفظ الفرج وحفظ العهد، وإلى بذل ما من شأن النفوس إمساكه؛ مثل الصدقة وأداء الأمانة.

فكان في مجموع ذلك أعمال ملكتي الفعل والترك في المهمّات، وهما منبع الأخلاق الفاضلة لمن تتبّعها.

روى النسائي: أنّ عائشة قيل لها: كيف كان خلق رسول الله ؟ قالت: كان خُلُقه القرآن، وقرأت { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ } حتى انتهت إلى قوله تعالى { وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ }.

وقد كان خُلُق أهل الجاهلية على العكس من هذا، فيما عدا حفظ العهد غالبا، قال تعالى { وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً } [الأنفال:35]، وقال في شأن المؤمنين مع الكافرين { وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ } [القصص:55]، وقال تعالى { وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ. الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ } [فصلت:7/6]. وقد كان البغاء والزنى فاشيين في الجاهلية.

{ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ [10] الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [11] }.

{ **أُولَئِكَ** } جيء لهم باسم الإشارة بعد أن أُجريت عليهم الصفات المتقدّمة ليفيد أنّ جدارتهم بما سيُذكر بعده حصلت من اتصافهم بتلك الصفات. والمعنى: أولئك هم الأحقّاء بأن يكونوا الوارثين بذلك.

{ **هُمُ** } توسيط ضمير الفصل لتقوية الخبر عنهم بذلك.

{ **الْوَارِثُونَ** } حُذف المعمول ليحصل إبهام وإجمال فيترقّب السامع بيانه قصدا لتفخيم هذه الوراثة.

{ **الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ** } الإتيان في البيان باسم الموصول الذي شأنه أن يكون معلوما للسامع بمضمون صلته إشارة إلى أنّ تعريف { الْوَارِثُونَ } تعريف العهد، كأنّه قيل: هم أصحاب هذا الوصف المعروفون به. واستعيرت الوراثة للاستحقاق الثابت، لأنّ الإرث أقوى الأسباب لاستحقاق المال.

الفردوس: اسم من أسماء الجنّة في مصطلح القرآن، أو من أسماء أشرف جهات الجنّات. وأصل الفردوس: البستان الواسع الجامع لأصناف الثمر. وفي الحديث: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال لأمّ حارثة بن سراقة لما أصابه سهم غرب يوم بدر فقتله وقالت أمّه: إنّ كان في الجنّة أصبر وأحتسب، فقال لها: **" ويحك أهَبِلْتِ أَوَ جنّة واحدة هي، إنّها لجِنان كثيرة وإنّه لفي الفردوس "**.

وقد ورد في فضل هذه الآيات عن عمر بن الخطاب أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **" أُنزل عليَّ عشر آيات من أقامهنّ دخل الجنة "** ثم قرأ { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ } حتّى ختم عشر آيات.

قال ابن العربي في العارضة: قوله { الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ } هي العاشرة. رواه الترمذي وصحّحه.

{ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ** [12] **ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ** [13] **ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** [14] }.

الجملة مستأنفة، وهي عطف قصّة على القصّة، للشروع في الاستدلال على انفراد الله تعالى بالخلق وبعظيم القدرة التي لا يشاركه فيها غيره، وعلى أنّ الإنسان مربوب لله تعالى وحده، وللاعتبار بما في خلق الإنسان وغيره من دلائل القدرة ومن عظيم النعمة. فالمقصود إبطال الشرك لأنّ ذلك الأصل الأصيل في ضلال المعرضين عن الدعوة المحمّدية. ويتضمّن ذلك امتنانا على النّاس بأنّه أخرجهم من مهانة العدم.

{ **وَلَقَدْ** } تأكيد الخبر بلام القسم وحرف التحقيق مراعى فيه التعريض بالمشركين المنزَّلين منزلة من ينكر هذا الخبر، لعدم جريهم على موجب العلم.

الخلق: الإنشاء والصنع، تقدّم في قوله تعالى { قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ } [عمران:47].

{ **الْأِنْسَانَ** } يجوز أن يكون النوع الإنساني. وفسّر به ابن عباس ومجاهد، فالتعريف للجنس.

السلالة: الشيء المسلول، أي: المنتزع من شيء آخر، يقال: سللت السيف، إذا أخرجته من غمده. فالسلالة خلاصة من شيء، ووزن فُعالة يؤذن بالقلة مثل القُلامة والصُّبابة.

أي: خلقناه منفصلا وآتيا من سلالة، فتكون السلالة على هذا: مجموع ماء الذكر والأنثى المسلول من دمهما.

{ **مِنْ طِينٍ** } وهذه السلالة هي ما يفرزه جهاز الهضم من الغذاء حين يصير دما، فدم الذكر حين يمرّ على غدّتي التناسل (الأنثيين) تفرز منه الأنثيان مادة دهنية شحمية تحتفظ بها وهي التي تتحول إلى منيّ حين حركة الجماع، فتلك السلالة مُخْرَجة من الطين لأنّها من الأغذية التي أصلها من الأرض. ودم المرأة إذا مرّ على قناة الرحم ترك فيها بويضات دقيقة هي بذر الأجنة. ومن اجتماع تلك المادة الدهنيّة التي في الأنثيين مع البويضة من البويضات التي في قناة الرحم يتكوّن الجنين، فلا جرم هو مخلوق من سلالة من طين.

{ **ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ** } طور آخر للخلق وهو طور اختلاط السلالتين في الرحم.

سُمِّيت سلالة الذكر نطفة لأنّها تنطُف، أي: تقطر في الرحم في قناة معروفة، وهو القرار المكين.

{ **جَعَلْنَاهُ** } عائد إلى الإنسان باعتبار أنّه من السلالة، فالمعنى: جعلنا السلالة في قرار مكين، أي: وضعناها فيه حفظا لها، ولذلك غيّر في الآية التعبير عن فعل الخلق إلى فعل الجعل المتعدّي بـ (في) بمعنى الوضع.

القرار: في الأصل: مصدر (قرّ) إذا ثبت في مكانه. وقد سُمّي به هنا المكان نفسه.

المكين: الثابت في المكان بحيث لا يُقلع من مكانه، فمقتضى الظاهر أن يوصف بالمكين الشيء الحال في المكان الثابت فيه. وقد وقع هنا وصفا لنفس المكان الذي استقرّت فيه النطفة، على طريقة المجاز العقلي للمبالغة، وحقيقته: مكين حاله. وقد تقدّم قوله { أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ } [الكهف:37]، وقوله تعالى { فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ } [الحجّ:5].

<u>ويجوز أن يراد بالإنسان</u> في قوله تعالى { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ }: **آدم**. وقال بذلك قتادة، فتكون السلالة الطينة الخاصة التي كوّن الله منها آدم، وهي الصلصال الذي ميّزه من الطين في مبدإ الخليقة، فتلك الطينة مسلولة سلّا خاصا من الطين ليتكوّن منها حيٌّ، وعليه فضمير { جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً } على هذا الوجه، عائد إلى الإنسان باعتبار كونه نسلا لآدم، ويكون معنى هذه الآية كمعنى قوله تعالى { وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ } [السجدة:8/7].

{ **ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً** } حرف (ثمّ) للتراخي الرتبي، إذ كان خلق النطفة علقة أعجب من خلق النطفة إذ صُيِّر الماء السائل دما جامدا فتغيّر بالكثافة وتبدّل اللون من عوامل أودعها الله في الرحم.

العلقة: قطعة من دم عاقد.

المضغة: القطعة الصغيرة من اللحم مقدار اللقمة التي تُمضغ.

وتقدّم في [الحجّ:5] كيفية تخلّق الجنين.

{ **فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً** } عُطفت بالفاء لأنّ الانتقال من العلقة إلى المضغة يشبه تعقيب شيء عن شيء، إذ اللحم والدم الجامد متقاربان فتطوّرهما قريب، وإن كان مكث كل طور مدّة طويلة.

{ **فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً** } هو تكوين العظام في داخل تلك المضغة، وذلك ابتداء تكوين الهيكل الإنساني.

{ **فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً** } لا يقتضي ذلك أنّ العظام بقيت حينا غير مكسوّة.

وفي الحديث الصحيح: " **إنّ أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمّه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يُرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ...** ".

{ **ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ** } نفخ الروح، لأنّ الخلق المذكور قبله كان دون حياة ثم نشأ فيه خلق الحياة وهي حالة أخرى طرأت عليه عُبّر عنها بالإنشاء.

{ **فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** } فُرِّع على حكاية هذا الخلق العجيب إنشاء الثناء على الله تعالى بأنّه أحسن الخالقين، لأنّه أنشأ ما لا يستطيع غيره إنشاءه.

ولمّا كانت دلالة خلق الإنسان على عظم القدرة أسبق إلى اعتبار المعتبر كان الثناء المعقَّب به ثناء على بديع قدرة الخالق مشتقًّا من البركة، وهي الزيادة.

فمعنى تبارك الله أنّه موصوف بالعظمة في الخير، أي: عظمة ما يقدّره من خير للناس وصلاح لهم.

وبهذا الاعتبار تكون الجملة تذييلا، لأنّ { فَتَبَارَكَ } لمّا حُذف متعلّقه كان عاما فيشمل عظمة الخير في الخلق وفي غيره. وكذلك حذف متعلّق { الْخَالِقِينَ } يعمّ خلق الإنسان وخلق غيره كالجبال والسماوات.

{ **ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ** [15] **ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ** [16] }.

إدماج في أثناء تعداد الدلائل على تفرّد الله بالخلق على اختلاف أصناف المخلوقات لقصد إبطال الشرك.

{ **ثُمَّ** } للتراخي الرتبي، لأنّ أهميّة التذكير بالموت في هذا المقام أقوى من أهميّة ذكر الخلق، لأنّ الإخبار عن موتهم توطئة لما بعده وهي قوله تعالى { ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ } وهو المقصود. فهو كقوله تعالى { الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً } [الملك:2].

{ **بَعْدَ ذَلِكَ** } إشارة إلى الخلق المبيَّن آنفا، أي: بعد ذلك التكوين العجيب والنماء المحكم أنتم صائرون إلى الموت. وأكّد هذا الخبر بـ (إن واللام) مع كونهم لا يرتابون فيه لأنّهم لمّا أعرضوا عن التدبّر فيما بعد هذه الحياة كانوا بمنزلة من ينكرون أنّهم يموتون.

{ **ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ** } توكيد الخبر لأنّهم ينكرون البعث. ويكون ما ذكر قبله من الخلق الأوّل دليلا على إمكان الخلق الثاني كما قال تعالى { أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ } [ق:15].

ونُقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات، ونكتته هنا أنّ المقصود التذكير بالموت وما بعده على وجه التعريض بالتخويف، والتخويف يناسبه الخطاب.

{ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ** } [17].

عطف على جملة { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ }، انتقال من الاستدلال بخلق الإنسان إلى الاستدلال بخلق العوالم العلوية لأنّ أمرها أعجب، وإن كان الإنسان إلى نظره أقرب.

وإنّما ذكر هذا عقب قوله تعالى { ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ } للتنبيه على أنّ الذي خلق هذا العالم العلوي ما خلقه إلّا لحكمة، وأنّ الحكيم لا يُهمل ثواب الصالحين على حسناتهم، ولا جزاء المسيئين على سيّئاتهم.

{ **فَوْقَكُمْ** } للتنبيه على وجوب النظر في أحوالها للاستدلال بها على قدرة الخالق.

الطرائق: جمع طريقة وهي اسم للطريق تذكّر وتؤنّث. والمراد بها هنا طرائق سير الكواكب السبعة وهي أفلاكها، أي: الخطوط الفرضية التي ضبط الناس بها سُموت سير الكواكب. وقد أطلق على الكواكب اسم الطارق في قوله تعالى { وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ } [الطارق:1] من أجل أنّه ينتقل في سَمْت يُسمَّى (**طريقة**)، فإنّ الساير في طريق يقال له: طارق، ولا شك أنّ الطرائق تستلزم سائرات فيها، فكان المعنى: خلقنا سيّارات وطرائقها.

{ **وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ** } جملة في موضع الحال تعقيب مشعر بأنّ في ذلك لطفا بالخلق وتيسيرا عليهم في شؤون حياتهم، وهذا امتنان. وفيه تنبيه للنظر في أنّ عالم الجزاء كائن بتلك العوالم، قال تعالى { وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ } [الذاريات:22].

الخلق: مفعول سُمِّي بالمصدر، أي: ما كنا غافلين عن حاجة مخلوقاتنا، يعني: البشر. والعدول عن

الإضمار إلى الإظهار، دون أن يقال: وما كنا عنكم غافلين، لما يفيده المشتقّ من معنى التعليل، أي: ما كنا عنكم غافلين لأنّكم مخلوقاتنا فنحن نعاملكم بوصف الربوبية، وفي ذلك تنبيه على وجوب الشكر.

نفي الغفلة: كناية عن العناية والملاحظة، فأفاد ذلك أن في خلق الطرائق السماوية لطفا بالناس أيضا إذ كان نظام خلقها صالحا لانتفاع الناس به في مواقيتهم وأسفارهم في البر والبحر كما قال تعالى { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ } [الأنعام:97]. وأعظم تلك الطرائق طريقة الشمس.

{ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ [18] فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ [19] وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ [20] }.

ومناسبة عطف إنزال ماء المطر أنّه ينزل من جهة السماء. وفي إنزاله دلالة على سعة العلم ودقيق القدرة، وفي ذلك أيضا منّة على الخلق، فالكلام اعتبار وامتنان.

ومعنى هذه الآية تقدّم في [الأنعام:99]، و[الرعد:17]، و[النحل:65].

وإنزال الماء هو إسقاطه من السحب ماء وثلجا وبردا على السهول والجبال.

القدر: هنا التقدير والتعيين للمقدار في الكم وفي النوبة، فيصحّ أن يُحمل على صريحه، أي: بمقدار معيّن مناسب للإنعام به، لأنّه إذا أُنزل كذلك حصل به الري والتعاقب، وكذلك ذوبان الثلوج النازلة.

ويصحّ أن يُقصد مع ذلك الكناية عن الضبط والإتقان. وليس المراد بالقدر هنا المعنى الذي في قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" وتؤمن بالقدر خيره وشره "**.

الإسكان: جعل الشيء في مسكن، والمسكن: محلّ القرار، وهو مَفْعل، اسم مكان مشتقّ من السكون.

وأطلق الإسكان على الإقرار في الأرض على طريق الاستعارة. وهذا الإقرار على نوعين:

إقرار قصير: مثل إقرار ماء المطر في القشرة الظاهرة من الأرض عقب نزول الأمطار على حسب ما تقتضيه غزارة المطر ورخاوة الأرض وشدّة الحرارة أو شدّة البرد. وهو ما ينبت به النبات وتمتصّ منه الأشجار بعروقها فتثمر إثمارها، وتخرج به عروق الأشجار وأصولها من البزور التي في الأرض.

إقرار طويل: وهو إقرار المياه التي تنزل من المطر وعن ذوب الثلوج النازلة فتتسرّب إلى دواخل الأرض فتنشأ منها العيون التي تنبع بنفسها أو تُفجّر بالحفر آبارا.

{ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ } معترضة بين الجملة وما تفرع عليها، وفي هذا تذكير بأنّ قدرة الله تعالى صالحة للإيجاد والإعدام.

ذَهَابٍ: التنكير للتفخيم والتعظيم، ومعنى التعظيم هنا تعدّد أحوال الذهاب به من تغويره إلى أعماق

الأرض بانشقاق الأرض بزلزال ونحوه، ومن تجفيفه بشدّة الحرارة، ومن إمساك إنزاله زمنا طويلا.
وفي معناه قوله تعالى { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ } [الملك:30].
{ **فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ** } إنشاء الجنات من صنع الله تعالى، ومن بعد ذلك أنبتت الجنّات بغرس البشر، وذلك أيضا من صنع الله بما أودع في العقول من معرفة الغرس والزرع والسقي وتفجير المياه واجتلابها.

الجنّة: المكان ذو الشجر. وأكثر إطلاقه على ما كان فيه نخل وكرم.

وتقدّم الكلام على النخيل والأعناب والزيتون في [النحل:11].

الفواكه: جمع فاكهة، وهي الطعام الذي يُتفكَّه بأكله، أي: يُتلذّذ بطعمه من غير قصد القوت، فإن قُصد به القوت قيل له طعام. فمن الأطعمة ما هو فاكهة وطعام كالتمر والعنب لأنّه يؤكل رطبا ويابسا، ومنها ما هو فاكهة وليس بطعام كاللوز والكمثرى، ومنها ما هو طعام غير فاكهة كالزيتون، ولذلك أخّر ذكر شجرة الزيتون، لأنّه أريد الامتنان بما في ثمرتهما من التفكّه والقوت فتكون منّة بالحاجي والتحسيني.

{ **كَثِيرَةٌ** } باعتبار اختلاف الأصناف، وأيضا باعتبار كثرة إثمارها.

{ **وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ** } عطف على { جَنَّاتٍ }، أي: وأخرجنا لكم به شجرة تخرج من طور سيناء، وهي شجرة الزيتون، وجملة { تَخْرُجُ } صفة { لشَجَرَةً }. وتخصيصها بالذكر تنويه بشأنها، وإيماء إلى كثرة منافعها، لأنّ من ثمرتها طعاما وإصلاحا ومداواة، ومن أعوادها وقود وغيره. وفي الحديث: **" كلوا الزيت وادَّهِنوا به فإنّه من شجرة مباركة "**.

طور سيناء: جبل في صحراء سيناء الواقعة بين عقبة أيلة وبين مصر، وهي من بلاد فلسطين في القديم وفيه ناجى موسى ربّه تعالى، وتقدّم الكلام عليه عند قوله تعالى { وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ } [الأعراف:143].

يقال: الطور بدون إضافة، وطور سيناء أو طور سينين. ومعنى الطور: **الجبل**.

سيناء: قيل: اسم شجر يكثر هنالك، وقيل: اسم حجارة. وقيل: هو اسم لذلك المكان. قيل: هو اسم نبطي.

{ **تخْرُجُ** } يقتضي أنّ لها مزيد اختصاص بطور سيناء. وقد غمض وجه ذاك.

<u>والذي أراه</u> أن الخروج مستعمل في معنى: **النشأة والتخلّق**. فيظهر أنّ المعنى: أن الله خلق أوّل شجر الزيتون في طور سيناء، وذلك أن الأجناس والأنواع الموجودة على الكرة الأرضية لابد لها من مواطن كان فيها ابتداء وجودها قبل وجودها في غيرها، لأنّ بعض الأمكنة تكون أسعد لنشأة بعض الموجودات من بعض آخر لمناسبة بين طبيعة المكان وطبيعة الشيء الموجود فيه، من حرارة أو برودة أو اعتدال. وكذلك فصول السنة كالربيع لبعض الحيوان والشتاء لبعض آخر والصيف لبعض غيرها، فالله تعالى يوجد الموجودات في الأحوال المناسبة لها.

ولم يرد ذكر استعمال زيت الزيتون في طعام في التاريخ القديم إلّا في عهد موسى عليه السلام أيّام كان

بنو إسرائيل حول طور سيناء، فقد استعمل الزيت لإنارة خيمة الاجتماع [سفر الخروج، الإصحاح:25]، وسكب موسى دهن المسحة على رأس هارون أخيه حين أقامه كاهنا لبني إسرائيل [سفر الخروج، الإصحاح:9].

ويجوز أن يكون معنى { تخْرُجُ }: **تظهر وتُعرف**، فيكون أوّل اهتداء النّاس إلى منافع هذه الشجرة كان من الزيتون الذي بطور سيناء. وهذا كما تُسمَّى بعض السيوف في بلاد العرب بالمشرفيّة لأنّها عرفت من مشارف الشام، وبعض الرماح الخطّية لأنها ترد إلى بلاد العرب من مرفأ يقال له: الخط، وبعض السيوف بالمهنّد لأنه يجلب من الهند.

وأيّا ما كان فليس القصد من ذكر أنّها تخرج من طور سيناء إلّا التنبيه على أنّه منبتها الأصلي وإلّا فإنّ الامتنان بها لم يكن موجّها يومئذ لسكان طور سيناء. وما كان هذا التنبيه إلّا للتنويه بشرف منبتها وكرم الموطن الذي ظهرت فيه. ولم تزل شجرة الزيتون مشهورة بالبركة بين الناس.

وكان الزيت نادرا في معظم بلاد العرب إذ كان يجلب إلى بلاد العرب من الشام.

وقد ضرب الله بزيت الزيتونة مثلا لنوره في قوله تعالى { مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ } [النور:35].

{ **تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ** } أي: أنّ ثمرتها تشتمل على الزيت وهو يكون دهنا وصبغا للآكلين. فأمّا كونه دهنا فهو أنّه يدهن به النّاس أجسادهم ويرجّلون به شعورهم ويجعلون فيه عطورا فيرجّلون به الشعور، وقد كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يدهن بالزيت في رأسه.

الدُّهن: (بضم الدال) اسم لما يُدهن به، أي يطلى به شيء.

الصِبغ: (بكسر الصاد) ما يُصبغ به، أي: يُغيّر به اللون. ثمّ تُوسّع في إطلاقه على كل مائع يطلى به ظاهر جسم ما، ومنه قوله تعالى { صِبْغَةَ اللَّهِ } [البقرة:138]، وسُمِّي الزيت صبغا لأنّه **يُصبغ به الخبز**. وكانوا يأدمون به الطعام وذلك صبغ للطعام. أخرج الترمذي في سننه عن عمر بن الخطاب وعن أبي أسيد أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: **" كلوا الزيت وادّهنوا به فإنّه من شجرة مباركة ".**

{ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ [21] وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ [22] }.

استدلال ومِنّة.

العِبرة: الدليل، لأنّه يُعبر من معرفته إلى معرفة أخرى. والمعنى: إنّ في الأنعام دليلا على انفراد الله تعالى بالخلق وتمام القدرة وسعة العلم.

الأنعام: تقدّم أنّها الإبل في غالب عرف العرب.

{ **نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا** } بيان لما قبلها، فلذلك لم تعطف. والعبرة حاصلة من تكوين ما في بطونها. والمنّة واضحة في { نُسْقِيكُمْ }. وقد تقدّم نظير هذه الآية مفصّلا في [النحل:66].

{ **وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ** } بقية بيان العبرة. وهذه المنافع هي الأصواف والأوبار والأشعار والنتاج. وفي الأكل منّة عظيمة ظاهرة.

{ **وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ** } فإنّ في ذلك عبرة بإعداد الله تعالى إيّاها لذلك، وفي ذلك منّة ظاهرة.

{ **وَعَلَى الْفُلْكِ** } إدماج وتهيئة للتخلّص إلى قصة نوح.

{ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ [23] فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ [24] إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ [25]** }.

لمّا كان الاستدلال والامتنان اللذان تقدّما موجّهين إلى المشركين الذين كفروا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم واعتلّوا لذلك بأنّهم لا يؤمنون برسالة بشر مثلهم وسألوا إنزال ملائكة ووسَمُوا الرسول عليه الصلاة والسلام بالجنون، فلمّا شابهوا بذلك قوم نوح ومن جاء بعدهم ناسب أن يُضرب لهم بقوم نوح مثلٌ تحذيرا اهم.

{ **وَلَقَدْ** } تصدير الجملة بلام القسم تأكيد للمضمون التهديدي من القصة، وتأكيد الإرسال أيضا.

{ **فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ** } عطف مقالة نوح على جملة إرساله بـ (فاء) التعقيب لإفادة أدائه رسالة ربّه بالفور من أمره وهو شأن الامتثال. وأمره قومه بأن يعبدوا الله يقتضي أنّهم كانوا معرضين عن عبادة الله بأن أقبلوا على عبادة أصنامهم (ودّ / سواع / يغوث / يعوق / نسر) حتّى أهملوا عبادة الله ونسوها.

{ **مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** } في موقع التعليل للأمر بعبادته، وهو تعليل أخصّ من المعلّل، وهو أوقع لما فيه من الإيجاز لاقتضائه معنى: اعبدوا الله وحده. فالمعنى: اعبدوا الله الذي تركتم عبادته وهو إلهكم دون غيره.

{ **أَفَلَا تَتَّقُونَ** } فُرّع على الأمر بإفراده بالعبادة استفهام إنكار على عدم اتّقائهم عذاب الله تعالى.

{ **فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ** } خولفت في حكاية جواب الملإ من قومه الطريقة المألوفة في القرآن في حكاية المحاورات وهي ترك العطف. فعطف هنا جواب الملإ من قومه بـ (الفاء) لوجهين:

أحدهما: أنّهم لم يوجّهوا الكلام إليه بل تركوه وأقبلوا على قومهم يفنّدون لهم ما دعاهم إليه نوح.

الثاني: ليفاد أنّهم أسرعوا لتكذيبه وتزييف دعوته قبل النظر.

{ **الَّذِينَ كَفَرُوا** } للإيماء إلى أنّ كفرهم هو الذي أنطقهم بهذا الردّ على نوح، وهو تعريض بأنّ مثل ذلك الردّ لا نهوض له ولكنهم روّجوا به كفرهم خشية على زوال سيادتهم.

{ **مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ** } خاطب به بعضهم بعضا، إذ الملأ هم القوم ذوو السيادة والشارة، أي: فقال عظماء القوم لعامتهم. وإخبارهم بأنّه بشر مثلهم مستعمل كناية عن تكذيبه، أوهموهم أنّ المساواة في البشرية مانعة من الوساطة بين الله وبين خلقه، وهذا من الأوهام التي أضلت أمما كثيرة. وقد تقدّم في [هود:27].

{ **يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ** } زيادة عمّا في هود، فإنّ سادة القوم ظنّوا أنّه ما جاء بتلك الدعوة إلّا حبًّا في أن يسود على قومهم فخشوا أن تزول سيادتهم.

التفضّل: تكلّف الفضل وطلبه، والفضل أصله الزيادة ثم شاع في زيادة الشرف والرفعة، أي: أن يكون أفضل الناس لأنّه نسبهم كلّهم إلى الضلال.

{ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً** } عطف على ما سبق بعد أن مهّدوا له بأنّ البشريّة مانعة من أن يكون صاحبها رسولا لله.

{ **مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ** } مستأنفة قصدوا بها تكذيب الدعوة بعد تكذيب الداعي، فلذلك جيء بها مستأنفة غير معطوفة تنبيها على أنّها مقصودة بذاتها وليست تكملة لما قبلها.

{ **بِهَذَا** } إشارة إلى الكلام الذي قاله نوح، إي: ما سمعنا بأنّ ليس لنا إله غير الله في مدّة أجدادنا.

{ **إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ** } استئناف بياني لأنّه بزعمهم طمع فيما لا يطمع عاقل في مثله. أي: هو متلبّس بشيء من الجنون. وقصروه على صفة المجنون، وهو قصر إضافي، أي: ليس برسول من الله.

{ **فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ** } فرَّعوا على ذلك الحكم أمرا لقومهم بانتظار ما ينكشف عنه أمره بعد زمان: إمّا شفاء من الجِنّة فيرجع إلى الرشد، أو ازدياد الجنون به فيتّضح أمره، فتعلموا أن لا اعتداد بكلامه.

الحين: اسم للزمان غير المحدود.

التربّص: التوقّف عن عمل يراد عمله والتريّث فيه انتظارا لما قد يغني عن العمل أو انتظارا لفرصة تمكّن من إيقاعه على أتقن كيفية لنجاحه. وتقدّم عند قوله تعالى { وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ } [التوبة:98].

{ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ [26] فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ [27] }.

استئناف بياني لأنّ ما حُكي عن صدّهم عن تصديق دعوة نوح وما لفّقوه من البهتان يثير سؤالا عن رد نوح فيجاب بأنّه توجّه إلى ربّه بالدعاء. ودعاؤه بطلب النصر لتكذيبهم ولما لفّقوه من البهتان.

النصر: تغليب المعتدَى عليه على المعتدِي. سأل نوح نصرا مجملا كما حكي هنا، وأعلمه الله أنّه لا رجاء في إيمان قومه إلّا من آمن منهم، كما جاء في [هود:36].
{ **بِمَا كَذَّبُونِ** } الباء سببية في موضع الحال من النصر المأخوذ من فعل الدعاء، أي: نصرا كائنا بسبب تكذيبهم، فجعل حظ نفسه فيما اعتدوا عليه مُلغًى واهتم بحظ الرسالة عن الله.
{ **فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ** } تعقيب بتقدير جمل محذوفة، وهو إيجاز في حكاية القصّة.
{ **أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا** } جملة مفسّرة لجملة { أَوْحَيْنَا }، وتقدّم نظيرها عند قوله تعالى { وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا } [هود:37].

{ **فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ** }.
فرّع على الأمر بصنع الفلك تفصيل ما يفعله عند الحاجة إلى استعمال الفلك، فوُقِّت له استعماله بوقت الاضطرار إلى إنجاء المؤمنين والحيوان. وتقدم الكلام حولها في سورة هود.
{ **فَاسْلُكْ فِيهَا** } وإنّما عبر هنالك بقوله تعالى { قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا }، لأنّ آية سورة هود حكت ما خاطبه الله به عند حدوث الطوفان وذلك وقت ضيق، فأمر أن يحمل في السفينة من أراد الله إبقاءهم، فأسند الحمل إلى نوح تمثيلا للإسراع بإركاب ما عيُن له في السفينة، حتّى كأنّ حاله في إدخاله إيّاهم حال من يحمل شيئا ليضعه في موضع، وآية هذه السورة حكت ما خاطبه الله به من قبل حدوث الطوفان إنباء بما يفعله عند حدوث الطوفان، فأمره بأنّه حينئذ يدخل في السفينة من عين الله إدخالهم، مع ما في ذلك من التفنّن في حكاية القصة.

{ **اسْلُكْ** } أدخل، وفعل سلك يكون قاصرا بمعنى دخل ومتعدّيا بمعنى أدخل، ومنه قوله تعالى { مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ } [المدثر:41].
{ **وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ** } تقدّم الكلام على مثله في [هود:37].

{ **فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [28] وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ [29]** }.
الاستواء: الاعتلاء. وتقدّم عند قوله تعالى { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } [الأعراف:54].
وإطلاق الاستواء على الاستقرار في داخل السفينة مجاز مرسل بعلاقة الإطلاق وإلّا فحقيقة الاستقرار في الفلك أنّه دخول. وأُتي بحرف الاستعلاء دون حرف الظرفية لأنّه الذي يتعدّى به معنى الاعتلاء إيذانا بالتمكّن من الفلك، فهو ترشيح للمجاز.
التنجية من القوم الظالمين: الإنجاء من أذاهم والكون فيهم، لأنّ في الكون بينهم مشاهدة كفرهم

ومناكرهم وذلك ممّا يؤذي المؤمن.

الظلم: يجوز أن يراد به الشرك، كما قال تعالى { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان:13]، ويجوز أن يراد به الاعتداء على الحقّ، لأنّ الكافرين كانوا يؤذون نوحا والمؤمنين بشتى الأذى باطلا وعدوانا.

وقد ألهمه الله بالوحي أن يحمد ربه على ما سهَّل له من سبيل النجاة وأن يسأله نزولا في منزل مبارك عقب ذلك الترحّل، والدعاء لذلك يتضمّن سؤال سلامة من غرق السفينة.

{ **وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ** } في موضع الحال. وفيها معنى تعليل سؤاله ذلك.

{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ } [30].

لمّا ذكر هذه القصّة العظيمة أعقبها بالتنبيه إلى موضع العبرة منها للمسلمين فأتى بهذا الاستئناف.

{ **ذَلِكَ** } إشارة إلى ما ذكر من قصة نوح مع قومه وما فيها.

الآيات: الدلالات، أي: لآيات كثيرة، منها ما هي دلائل على صدق رسالة نوح، وهي إجابة دعوته وتصديق رسالته وإهلاك مكذّبيه، ومنها آيات لأمثال قوم نوح من الأمم المكذّبين لرسلهم، ومنها آيات على عظيم قدرة الله تعالى في إحداث الطوفان وإنزال من في السفينة منزلا مباركا، ومنها آيات على علم الله تعالى وحكمته إذ قدّر لتطهير الأرض من الشرك مثل هذا الاستئصال العام لأهله.

{ **وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ** } عطف على الجملة السابقة، أي: إنّ في ذلك لبلوى، أي: وشأننا ابتلاء أوليائنا.

فإن الابتلاء من آثار الحكمة الإلهية لترتاض به نفوس أوليائه وتظهر مغالبتها للدواعي الشيطانية فتحمل عواقب البلوى، ولتتخبّط نفوس المعاندين وينزوي بعض شرّها زمانا.

والمعنى: أنّ ما تقدّم قبل الطوفان من بعد بعثة نوح من تكذيب قومه وآذاهم إيّاه والمؤمنين معه إنّما كان ابتلاء من الله لحكمته تعالى ليميز الله للنّاس الخبيث من الطيب، ولو شاء الله لآمن بنوح قومه.

الابتلاء: تقدّم في قوله تعالى { وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ } [البقرة:49]، وقوله تعالى { وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ } [البقرة:124].

وفيه تسلية للنبيّ محمد صلى الله عليه وسلم على ما يلقاه من المشركين، وتعريض بتهديد المشركين بأنّ ما يواجهون به الرسول صلى الله عليه وسلم لا بقاء له وإنّما هو بلوى تزول عنه وتحل بهم.

{ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ [31] فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ [32] }.

ما يأتي من القصص يراد منه أنّ ما أصاب قوم نوح على تكذيبهم له لم يكن صدفة ولكنّه سنّة الله في المكذّبين لرسله، ولذلك لم يعيّن القرن ولا القرون بأسمائهم.

القرن: الأمّة. والأظهر أنّ المراد به هنا **ثمود** لأنّه الذي يناسبه قوله في آخر القصّة { فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ }، لأنّ ثمود أُهلكوا بالصاعقة، ولقوله بعد { قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ }، مع قوله في سورة الحجر { فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ } [الحجر:83] فكان هلاكهم في الصباح.

ولعلّ تخصيصهم بالذكر هنا دون عاد خلافا لما تكرّر في غير هذه الآية لأنّ العبرة بحالهم أظهر، لبقاء آثار ديارهم بالحِجر كما قال تعالى { وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ} [الصافات:137/138].

{ **فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً** } أي: جُعل الرسول منهم، أي: من قبيلتهم. وعُدّي فعل أرسلنا بـ (في) دون (إلى) لإفادة ذلك.

{ وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ [33] وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ [34] أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ [35] هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ [36] إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ [37] إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ [38] }.

لم يعطف قول الملأ بـ (فاء) التعقيب، كما ورد في قصة نوح آنفا، لأنّ قولهم هذا كان متأخّرا عن وقت مقالة رسولهم التي هي فاتحة دعوته، بأن يكونوا أجابوا كلامه بالردّ والزجر فلمّا استمر على دعوتهم وكرّرها فيهم وجّهوا مقالتهم المحكيّة هنا إلى قومهم، ومن أجل هذا عُطفت جملة جوابهم ولم تأت على أسلوب الاستعمال في حكاية أقوال المحاورات.

وأيضا لأنّ كلام رسولهم لم يحك بصيغة قول بل حكي بـ (أن) التفسيرية لما تضمّنه معنى الإرسال في قوله تعالى { فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ }.

وقد حكى الله في آيات أخرى عن قوم هود وعن قوم صالح أنّهم أجابوا دعوة رسولهم بالردّ والزجر، كقول قوم هود { قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ } [هود:53/54]، وقول قوم صالح { قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ } [هود:62].

{ وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا }.

{ **الَّذِينَ كَفَرُوا** } نعت ثان لـ { الْمَلأُ } فيكون على وزان قوله تعالى في قصة نوح { فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ }. وإنّما أخر النعت هنا ليتّصل به الصفتان المعطوفتان { وَكَذَّبُوا / وَأَتْرَفْنَاهُمْ }.

اللقاء: حضور أحد عند آخر. والمراد لقاء الله تعالى للحساب كقوله { وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ } [البقرة:223]، وقوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا } [الأنفال:45].

وإضافة لقاء إلى الآخرة على معنى (في)، أي: اللقاء في الآخرة.

الإتراف: جعلهم أصحاب ترف. والترف: النعمة الواسعة، كما في قوله تعالى { وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ } [الأنبياء:13].

وفي هذين الوصفين إيماء إلى أنّهما الباعث على تكذيبهم رسولَهم، لأنّ تكذيبهم بلقاء الآخرة ينفي عنهم توقّع المؤاخذة بعد الموت، وثروتهم ونعمتهم تغريهم بالكبر والصلف، إذ ألفوا أن يكونوا سادة لا تبعا، قال تعالى { وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ } [المزمل:11]، ولذلك لم يتقبّلوا ما دعاهم إليه رسولهم.

{ **مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ** } كناية عن تكذيبهم لتوهّمهم أنّ البشريّة تنافي أن يكون صاحبها رسولا من الله.

{ **يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ** } في موقع التعليل والدليل للبشرية، لأنّه يأكل مثلهم ويشرب مثلهم ولا يمتاز فيما يأكله وما يشربه.

{ **وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ** } اللام موطّئة للقسم، فجملة { إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ} جواب القسم، وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم. وأقحم حرف الجزاء في جواب القسم لما في جواب القسم من مشابهة الجزاء لاسيما متى اقترن القسم بحرف شرط.

{ **أَيَعِدُكُمْ** } الاستفهام للتعجّب، وهو انتقال من تكذيبه في دعوى الرسالة إلى تكذيبه في المرسَل به.

{ **أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً** } مفعول { يَعِدُكُمُ }. أي: يعدكم إخراجكم من القبور بعد موتكم.

{ **أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ** } يجوز أن يكون إعادة لكلمة { أَنَّكُمْ } الأولى اقتضى إعادتها بُعد ما بينها وبين خبرها. وتفيد إعادتها تأكيدا لاستبعاد المستفهَم عنه. وهذا تأويل الجَرمي والمبرِّد.

وجعلوا موجب الاستبعاد هو حصول أحوال تنافي أنّهم مبعوثون بحسب قصور عقولهم، وهي حال الموت المنافي للحياة، وحال الكون ترابا وعظاما المنافي لإقامة الهيكل الإنساني بعد ذلك.

{ **هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ** } بيان لجملة { أَيَعِدُكُمُ } فلذلك فصلت ولم تعطف.

{ **هَيْهَاتَ** } كلمة مبنيّة على فتح الآخر وعلى كسره أيضا. وقرأها الجمهور بالفتح، وقرأها أبو جعفر بالكسر. وتدلّ على البعد. وأكثر ما تستعمل مكرّرة مرتين كما في هذه الآية أو ثلاثا.

{ **تُوعَدُونَ** } من **أوعد** وجاء قبله فعل { أَيَعِدُكُمْ } وهو من **وعد** مع أنّ الموعود به شيء واحد، لأنّه عُبّر مرّة بالوعد ومرّة بالوعيد على وجه الاحتباك، فإنّ إعلامهم بالبعث مشتمل على وعد بالخير إن صدّقوا وعلى وعيد إن كذّبوا، فذكر الفعلان على التوزيع إيجازا.

{ **إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا** } يجوز أن يكون بيانا للاستبعاد الذي في قوله { هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ } ويجوز أن يكون استدلالا وتعليلا له، ولكلا الوجهين كانت الجملة مفصولة عن التي قبلها.

{ **هِيَ** } عائد على مذكور بعده قصدا للإبهام ثم التفصيل ليتمكّن المعنى في ذهن السامع. وهذا من

مواضع عود الضمير على ما بعده إذا كان ما بعده بيانا له، ولذلك يجعل الاسم الذي بعد الضمير عطف بيان.

{ **إِلَّا حَيَاتُنَا** } مبيَّن الضمير فيكون الاسم الذي بعد (إلّا) عطف بيان من الضمير. والتقدير: إن حياتنا إلّا حياتنا الدنيا. وليس هذا الضمير ضمير القصة والشأن لعدم صلاحية المقام له.

الدنيا: مؤنث الأدنى، أي: القريبة، بمعنى الحاضرة.

{ **نَمُوتُ وَنَحْيَا** } معناه: يموت هؤلاء القوم ويحيا قوم بعدهم. أي: يموت من يموت ويولد من يولد، أو المراد: يموت من يموت فلا يرجع ويحيا من لم يمت إلى أن يموت.

{ **وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ** } انكار صريح للبعث.

{ **إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً** } نتيجة عقب الاستدلال، فجاءت مستأنفة لأنّها مستقلة على ما تقدّمها فهي تصريح بما كُنّي عنه آنفا في قوله تعالى { مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ } وما بعده من تكذيب دعوته.

الافتراء: الاختلاق. وهو الكذب الذي لا شبهة فيه للمخبر. وتقدّم عند قوله تعالى { وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ } [المائدة:103].

{ **وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ** } وإنّما صرَّحوا بأنهم لا يؤمنون به، مع دلالة نسبته إلى الكذب على أنّهم لا يؤمنون به، إعلانا بالتبرّي من أن ينخدعوا لما دعاهم إليه، وهو مقتضى حال خطاب العامة.

{ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ [39] قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ [40] }.

استئناف بياني لشأن الرسول حيال صدّهم وتكذيبهم. فقد توجّه إلى الله الذي أرسله بالدعاء بأن ينصره عليهم. وتقدّم القول في نظيره آنفا في قصّة نوح.

وجاء جواب دعاء هذا الرسول غير معطوف لأنّه جرى على أسلوب حكاية المحاورات الذي بيّنّاه في مواضع منها قوله تعالى { قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا } [البقرة:30].

{ **عَمَّا قَلِيلٍ** } أفاد عن المجاوزة، أي: بعد نحو قليل.

الإصباح: هنا مراد به زمن الصباح لا معنى الصيرورة بدليل قوله في سورة الحجر { فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ } [الحجر:83].

{ **نَادِمِينَ** } ندمهم يكون عند رؤية مبدأ الاستئصال ولا ينفعهم ندمهم بعد حلول العذاب.

{ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } [41].

تقتضي الفاء تعجيل إجابة دعوة رسولهم. والأخذ مستعار للإهلاك.

الصيحة: صوت الصاعقة، وهذا يُرجّح أو يُعيّن أن يكون هؤلاء القرن هم ثمود، قال تعالى { فَأَمَّا ثَمُودُ

فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ } [الحاقة:5]، وقال في شأنهم { فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ } [الحجر:83].

وإسناد الأخذ إلى الصيحة مجاز عقلي لأنّ الصيحة سبب الأخذ أو مقارنة سببه، فإنّها تحصل من تمزق كرة الهواء عند نزول الصاعقة.

{ **بَالحَقِّ** } الباء للملابسة، أي: أخذتهم أخذا ملابسا للحقّ، أي: لا اعتداء فيه عليهم لأنّهم استحقّوه بظلمهم.

الغثاء: ما يحمله السيل من الأعواد اليابسة والورق. والكلام على التشبيه البليغ للهيئة، فهو تشبيه حالة بحالة، أي: جعلناهم كالغثاء في البلى والتكدّس في موضع واحد، فهلكوا هلكة واحدة.

{ **فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** } فُرِّع على حكاية تكذيبهم دعاء عليهم وعلى أمثالهم دعاء شتم وتحقير بأن يَبْعَدوا تحقيرا لهم وكراهية، وليس مستعملا في حقيقة الدعاء لأنّ هؤلاء بعدوا بالهلاك.

الظالمين: الكافرون. والتعريف للاستغراق فشملهم، ولذلك تكون الجملة بمنزلة التذييل.

{ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِين [42] مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ [43] }.

القرون: الأمم، وهذا كقوله تعالى { وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً } [الفرقان:38].

وهي الأمم الذين لم ترسل إليهم رسل وبقوا على إتباع شريعة نوح أو شريعة هود أو شريعة صالح، أو لم يؤمروا بشرع، لأنّ الاقتصار على ذكر الأمم هنا دون ذكر الرسل ثمّ ذكر الرسل عقب هذا يومئ إلى أنّ هذه إمّا أمّم لم تأتهم رسل لحكمة اقتضت تركهم على ذلك لأنّهم لم يتأهّلوا لقبول شرائع، أو لأنّهم كانوا على شرائع سابقة.

{ **مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ** } جواب بالإجمال عن سؤال حول مدّة تعمير تلك الأمم ووقت انقراضهم، لأنّ لكلّ قرن منهم أجلا عيّنه الله يبقى إلى مثله ثم ينقرض ويخلفه قرن آخر يأتي بعده، أو يعمر بعده قرن كان معاصرا له، وأنّ ما عُيّن لكلّ قرن لا يتقدّمه ولا يتأخر عنه كقوله تعالى { لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ } [الأعراف:34].

السبق: تجاوز السائر وتركه مُسائرَه خلفه، وعكسه التأخّر. والمعنى واضح. والسين والتاء للتأكيد.

{ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ } [44].

الرسل الذين جاؤوا من بعد، أي: من بعد هذه القرون منهم: إبراهيم ولوط ويوسف وشعيب، ومن أرسل قبل موسى، ورسل لم يقصصهم الله على رسوله. والمقصود بيان اطّراد سنّة الله تعالى في استئصال المكذّبين رسله المعاندين في آياته، كما دل عليه قوله تعالى { فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً }.

{ **تَتْرَا** } قرأه الجمهور بألف في آخره دون تنوين فهو مصدر على وزن فَعْلى مثل دعوى وسلوى.

وأصله **وترى** (بواو في أوّله) مشتقّا من الوتر وهو الفرد. أي: فردا فردا، أي فردا بعد فرد فهو نظير مَثنى. ولا يقال { تَتْرَا } إلّا إذا كان بين الأشياء تتعاقب مع فترات وتقطّع. ومنه التواتر وهو تتابع الأشياء وبينها فجوات. وأمّا التعاقب بدون فترة فهو التدارك. يقال: جاؤوا متداركين، أي: متتابعين.
وفي حديث ابن عباس عند مسلم أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **"عُرضت عليّ الأمم فرأيت النبيّ ومعه الرهط والنبيّ ومعه الرجل والرجلان والنبيّ وليس معه أحد..."**.
{ **فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً** } إلحاقهم بهم في الهلاك بقرينة المقام وبقرينة قوله اللاحق.
{ **وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ** } أي: صيّرناهم أحدوثات يتحدّث الناس بما أصابهم. وإنّما يتحدّث الناس بالشيء الغريب النادر مثله. والأحاديث هنا جمع أحدوثة. وهو كناية عن إبادتهم.
{ **فَبُعْداً لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ** } مثل الكلام على { فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ }، إلّا أنّ الدعاء نيط هنا بوصف أنّهم لا يؤمنون ليحصل من مجموع الدعوتين التنبيه على مذمّة الكفر وعلى مذمّة عدم الإيمان بالرسل تعريضا بمشركي قريش، على أنّه يشمل كلّ قوم لا يؤمنون برسل الله، لأنّ النكرة في سياق الدعاء تعمّ.

{ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ [45] إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ [46] فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ [47] فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ [48] }.

الآيات: المعجزات، وإضافتها إلى ضمير الجلالة للتنويه بها وتعظيمها.
السلطان المبين: الحجّة الواضحة التي لقّنها الله موسى فانتهضت على فرعون وملئه. والباء للملابسة.
ملأ فرعون: أهل مجلسه وعلماء دينه وهم السحرة. وإنّما جُعل الإرسال إليهم دون بقية أمّة القبط لأنّ دعوة موسى وأخيه إنّما كانت خطابا لفرعون وأهل دولته الذين بيدهم تصريف أمور الأمة لتحرير بني إسرائيل من استعبادهم، قال تعالى { فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرائيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ } [طه:47]. ولم يرسلا بشريعة إلى القبط. وأمّا الدعوة إلى التوحيد فمقدّمة لإثبات الرسالة لهم.
{ **فَاسْتَكْبَرُوا** } العطف بفاء التعقيب يفيد أنّهم لم يتأمّلوا الدعوة والآيات والحجّة ولكنّهم أفرطوا في الكبرياء. والسين والتاء للتوكيد، أي: تكبّروا كبرياء شديدة بحيث لم يعيروا آيات موسى وحجّته أذنا صاغية.
{ **وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ** } معترضة بين فعل (استكبروا) وما تفرّع عليه من قوله { فَقَالُوا } في موضع الحال من فرعون وملئه، أي: فاستكبروا بأن أعرضوا عن استجابة دعوة موسى وهارون وشأنهم الكبرياء والعلو، أي: كان الكبر خُلُقهم وسجيّتهم. لأنّ إجراء وصف على لفظ (قوم) أو الإخبار بلفظ (قوم) متبوع باسم فاعل إنّما يقصد منه تمكّن ذلك الوصف من الموصوف بلفظ قوم أو تمكّنه من أولئك

القوم. فالمعنى هنا: أنّ استكبارهم على تلقي دعوة موسى وآياته وحجّته إنّما نشأ عن سجيّتهم من الكبر وتطبّعهم.

{ **فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ** } متفرّع على قوله { فَاسْتَكْبَرُوا } ، أي: استكبر فرعون وملؤه عن اتباع موسى وهارون، فأفصحوا عن سبب استكبارهم عن ذلك { فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ }.

وهذا ليس من قول فرعون ولكنّه قول بعض الملإ لبعض، ولمّا كانوا قد تراضوا عليه نُسب إليهم جميعا.

وأمّا فرعون فكان مصغيا لرأيهم ومشورتهم وكان له قول آخر حكي في قوله تعالى { وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي } [القصص:38].

{ **أَنُؤْمِنُ** } استفهام إنكاري، أي: ما كان لنا أن نؤمن بهما وهما مثلنا في البشرية. وهذه الشبهة هي سبب ضلالة أكثر الأمم الذين أنكروا رسلهم.

{ **لِبَشَرَينِ** } اللام لتعدية فعل { نُؤْمِنُ }. يقال للذي يُصدّق المخبر فيما أخبر به: آمن له. وأصل هذه اللام لام العلة والأجل. ومنه قوله تعالى { فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ } [العنكبوت:26].

وأمّا تعدية فعل الإيمان بالباء فإنّها إذا علق به ما يدل على الخبر تقول: آمنت بأن الله واحد. وبهذا ظهر الفرق بين قولك: آمنت بمحمد، وقولك: آمنت لمحمد. فمعنى الأول: أنك صدقت شيئا، والمعنى الثاني يتعلق بذاته. ولذلك لا يقال: آمنت لله وإنما يقال: آمن بالله.

{ **وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ** }، أي: وهم من قوم هم عُبَّاد لنا وأحطّ منّا.

{ **عَابِدُونَ** } جمع عابد، أي: مطيع خاضع. وقد كانت بنو إسرائيل خَوَلًا للقبط وخدما لهم، قال تعالى { وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائيلَ } [الشعراء:22].

{ **فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ** } أي: أرسي أمرهم على أن كذّبوهما، ثم فُرّع على تكذيبهم أن كانوا من المهلكين، إذ أهلكهم الله بالغرق، أي فانتظموا في سلك الأقوام الذين أهلكوا.

وهذا أبلغ من أن يقال: فأُهلكوا.

وفي هذا تعريض بتهديد قريش على تكذيبهم رسولهم صلى الله عليه وسلم لأنّ في قوله { مِنَ الْمُهْلَكِينَ } إيماء إلى أنّ الإهلاك سنة الله في الذين يكذّبون رسله.

{ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ** } [49].

وقع الإعراض عن هارون لأنّ رسالته قد انتهت لاقتصاره على تبليغ الدعوة لفرعون وملئه إذ كانت مقام محاجّة واستدلال فسأل موسى ربّه إشراك أخيه هارون في تبليغها لأنّه أفصح منه لسانا في بيان الحجّة.

{ **الْكِتَابَ** } التعريف للعهد. وهو التوراة.

{ **لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ** } الضمير ظاهر العود إلى غير مذكور في الكلام بل إلى معلوم من المقام وهم القوم

المخاطبون بالتوراة، وهم بنو إسرائيل، فانتساق الضمائر ظاهر في المقام دون حاجة إلى تأويل.

لعلّهم: للرجاء، لأنّ ذلك الكتاب من شأنه أن يُترقب من إيتائه اهتداء الناس به.

{ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ } [50].

لما كانت آية عيسى العظمى في كيفية تكوينه كان الاهتمام بذكرها هنا، ولم تذكر رسالته لأنّ معجزة تخليقه دالة على صدق رسالته.

{ **وَأُمَّهُ** } إدماج لتسفيه اليهود فيما رموا به مريم عليها السلام، فإنّ ما جعله الله آية لها ولابنها جعلوه مطعنا ومغمزا فيهما.

{ **آيَةً** } التنكير للتعظيم لأنّها آية تحتوي على آيات.

{ **وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ** } تنويه بهما إذ جعلهما الله محلّ عنايته ومظهر قدرته ولطفه.

الإيواء: جعل الغير آويا، أي: ساكنا. وتقدّم عند قوله تعالى { أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ } [هود:80].

الرُبوة: المرتفع من الأرض. ويجوز الحركات الثلاث. قال تعالى { كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ } [البقرة:265].

والمراد بهذا الإيواء وحي الله لمريم أن تنفرد بربوة حين اقترب مخاضها لتلد عيسى في منعزل من الناس حفظا لعيسى من أذاهم.

القرار: المكث في المكان، أي: هي صالحة لأن تكون قرارا، فأضيفت الربوة إلى المعنى الحاصل فيها لأدنى ملابسة، وذلك بما اشتملت عليه من النخيل المثمر فتكون في ظلّه ولا تحتاج إلى طلب قوتها.

المعين: الماء الظاهر الجاري على وجه الأرض، وهو وصف جرى على موصوف محذوف، أي: ماء معين. وهذا في معنى قوله تعالى { قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً } [مريم:24-26].

{ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ } [51].

استئناف ابتدائي، أي: قلنا: يا أيها الرسل كلوا. والمحكي هنا حكي بالمعنى لأنّ الخطاب المذكور هنا لم يكن موجها للرسل في وقت واحد. وذلك على طريقة التوزيع لمدلول الكلام وهي شائعة في خطاب الجماعات.

والغرض من هذا بيان كرامة الرّسل عند الله ونزاهتهم في أمورهم الجسمانية والروحانية، فالأكل من الطيبات نزاهة جسمية والعمل الصالح نزاهة نفسانية.

والمناسبة لهذا الاستئناف هي قوله تعالى { وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ } وليحصل من ذلك الردّ على اعتقاد الأقوام المعلّلين تكذيبهم رسلهم بعلّة أنّهم يأكلون الطعام، كما حكى سبحانه عنهم { وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ } [الفرقان:7]، وليبطل بذلك ما ابتدعه النصارى من الرهبانية.

{ **كُلُوا** } الأمر للإباحة، وإن كان الأكل أمرا جبلِّيًّا للبشر إلّا أنّ المراد به هنا لازمه وهو إعلام المكذّبين بأنّ الأكل لا ينافي الرسالة، وأنّ الذي أرسل الرّسل أباح لهم الأكل.

{ **مِنَ الطيِّبَاتِ** } زيادة في الردّ على المكذّبين بأنّ الرسل إنما يجتنبون الخبائث ولا يجتنبون ما أحل الله لهم من الطيبات. والطيبات: ما ليس بحرام ولا مكروه.

{ **وَاعْمَلُوا صَالِحاً** } إيماء إلى أنّ همّة الرّسل إنّما تنصرف إلى الأعمال الصالحة.

{ **إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ** } تحريض على الاستزادة من الأعمال الصالحة لأنّ القول يتضمّن الوعد بالجزاء عنها وأنّه لا يضيع منه شيء.

{ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ } [52].

يجوز أن تكون الواو عاطفة على جملة { يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ }، فيكون هذا ممّا قيل للرسل. ويجوز أن تكون عطفا على قصص الإرسال المبدوءة من قوله تعالى { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ } لأنّ تلك القصص إنّما قُصّت عليهم ليهتدوا بها إلى أنّ شأن الرسل منذ ابتداء الرسالة هو الدعوة إلى توحيد الله بالإلهية. وعلى هذا الوجه يكون سياقها كسياق آية سورة الأنبياء { إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً } [الأنبياء:92].

وتأكيد الكلام بحرف { إِنَّ } على القراءات كلّها للرد على المشركين من أمم الرسل أو المشركين المخاطبين بالقرآن.

{ **هَذِهِ** } اسم الإشارة مراد به شريعة كل من الأنبياء أو شريعة الإسلام على الوجهين في المخاطب.

وتقدّم تفسير نظيرها في سورة الأنبياء، إلّا أنّ الواقع هنا { فَاتَّقُونِ } وهناك { فَاعْبُدُونِ } [الأنبياء:25] فيجوز أنّ الله أمرهم بالعبادة وبالتقوى ولكن حكى في كلّ سورة أمرا من الأمرين، ويجوز أن يكون الأمران وقعا في خطاب واحد، فاقتصر على بعضه في سورة الأنبياء وذكر معظمه في سورة المؤمنين بحسب ما اقتضاه مقام الحكاية في كلتا السورتين.

وأيّا ما كان من الاحتمالين فوجه ذلك أنّ آية سورة الأنبياء لم تذكر فيها رسالات الرسل إلى أقوامهم بالتوحيد عدا رسالة إبراهيم في قوله تعالى { وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ } [الأنبياء:51] ثم جاء ذكر غيره من الرسل والأنبياء مع الثناء عليهم وطال البُعد بين ذلك وبين قصة إبراهيم فكان الأمر بعبادة الله تعالى أولى هنالك لأنّ المقصود من ذلك الأمر أن يبلغ إلى أقوامهم، فكان ذكر الأمر بالعبادة أولى بالمقام في تلك السورة لأنّه الذي حظ الأمم منه أكثر.

وأمّا آية هذه السورة فقد جاءت بعد ذكر ما أرسل به الرسل إلى أقوامهم من التوحيد وإبطال الشرك فكان حظ الرسل من ذلك أكثر كما يقتضيه افتتاح الخطاب بـ { يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ } فكان ذكر الأمر بالتقوى هنا أنسب بالمقام، لأنّ التقوى لا حدّ لها، فالرسل مأمورون بها وبالازدياد منها كما قال تعالى في حقّ نبيّه

{ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً أَوْ زِدْ عَلَيْهِ } [المزمل:1-4]، ثم قال في حقّ الأمّة { فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ } [المزمل:20].

فالإشارة بقوله { هَذِهِ } إلى أمر مستحضر في الذهن بيّنه الخبر والحال، ولذلك أُنّث اسم الإشارة، أي: هذه الشريعة التي أوحينا إليك هي شريعتك. ومعنى هذه الإخبار أنك تلتزمها ولا تنقص منها ولا تغيّر منها شيئا، ولأجل هذا المراد جُعل الخبر ما حقّه أن يكون بيانا لاسم الإشارة لأنّه لم يُقصد به بيان اسم الإشارة بل قصد به الإخبار عن اسم الإشارة لإفادة الاتحاد بين مدلولي اسم الإشارة وخبره فيفيد أنّه هو هو لا يُغيَّر عن حاله. وبهذا يُعلم بأنّه ليس المقصود من الإخبار عن اسم الإشارة حقيقته بل الخبر مستعمل مجازا في معنى التحريض والملازمة، وهو يشبه لازم الفائدة.

{ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } [53].

جيء بفاء التعقيب لإفادة أنّ الأمم لم يتريثوا عقب تبليغ الرسل إيّاهم أن تقطّعوا أمرهم بينهم فاتخذوا آلهة كثيرة فصار لكلّ فريق صنم وعبادة خاصة به.

فالكلام مسوق مساق الذم. ولذلك قد تفيد الفاء مع التعقيب معنى التفريع، أي: فتفرّع على ما أمرناهم به من التوحيد أنّهم أتوا بعكس المطلوب منهم، فيفيد الكلام زيادة على الذمّ تعجيبا من حالهم. وممّا يزيد معنى الذم تذييله بقوله تعالى { كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ }، أي: وهم ليسوا بحال من يفرح.

التقطّع: أصله مطاوع قطع. واستُعمل فعلا متعدّيا بمعنى قطع بقصد إفادة الشدّة في حصول الفعل.

فالمعنى: تفرّقوا على نحل كثيرة، فجعل كل فريق منهم لنفسه دينا. وضمير الجمع عائد إلى أمم الرسل.

{ **وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ** } بسطنا القول في معناها في [الأنبياء:93].

الأمر: هنا بمعنى الشأن والحال، وما صدقه أمور دينهم.

الزُبُر: (بضم الزاي وضم الموحدة) كما قرأ به الجمهور، جمع **زبور** وهو الكتاب. استعير اسم الكتاب للدين لأنّ شأن الدين أن يكون لأهله كتاب، فيظهر أنّها استعارة تهكمية إذ لم يكن لكلّ فريق كتاب ولكنّهم اتخذوا لأنفسهم أديانا وعقائد لو سجلت لكانت زبرا.

وقرأه أبو عمرو بخلاف عنه { زُبَرا } (بضم الزاء وفتح الموحدة) وهو جمع زُبرة بمعنى قطعة.

{ **كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ** } تذييل، لأنّ التقطّع يقتضي التحزّب فذيّل بأنّ كل فريق منهم فرح بدينه.

الفرح: شدّة المسرّة، أي: راضون جذلون بأنّهم اتخذوا طريقتهم في الدين. والمعنى: أنهم فرحون بدينهم عن غير دليل ولا تبصّر بل لمجرّد العكوف على المعتاد.

الحزب: الجماعة المجتمعون على أمر من اعتقاد أو عمل، أو المتفقون عليه.

{ **فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ** } [54].

انتقال بالكلام إلى خطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم. وضمير الجمع عائد إلى معروف من السياق وهم مشركو قريش، فإنّهم من جملة الأحزاب الذين تقطّعوا أمرهم بينهم زبرا، أو هم عينهم، فمنهم من اتخذ إلهه العُزَّى، ومنهم من اتخذ مَناة، ومنهم من اتخذ ذا الخَلَصة إلى غير ذلك.

والكلام ظاهره المتاركة، والمقصود منه الإملاء لهم وإنذارهم بما يستقبلهم من سوء العاقبة في وقت ما. ولذلك نُكِّر لفظ { حِينٍ } المجعول غاية لاستدراجهم، أي: زمن مبهم، كقوله تعالى { لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً } [الأعراف:187].

الغمرة: حقيقتها الماء الذي يغمر قامة الإنسان بحيث يغرقه. وتقدّم في قوله تعالى { وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ } [الأنعام:92].

وإضافتها إلى ضميرهم باعتبار ملازمتها إيّاهم حتّى قد عُرفت بهم، وذلك تمثيل لحال اشتغالهم بما هم فيه من الازدهار وترف العيش عن التدبر فيما يدعوهم إليه الرسول لينجيهم من العقاب بحال قوم غمرهم الماء فأوشكوا على الغرق وهم يحسبون أنّهم يسبحون.

{ **أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ** [55] **نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ** [56] }.

الأشبه أن تكون بدل اشتمال من جملة { فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ } باعتبار أنّ جملة { فَذَرْهُمْ } تشتمل على معنى عدم الاكتراث بما هم فيه من الأحوال التي ألهتهم عن النظر في دعوة الإسلام، وغرّتهم بأنّهم بمحل الكرامة على الله بما خولهم من العزّة والترف، وما تشتمل عليه من التوعّد بأنّ ذلك له نهاية ينتهون إليها، وأنّ الله أعطاهم ما هم فيه زمن النعمة استدراجا لهم. وهذا كقوله تعالى { وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً } [المزمل:11].

{ **أَيَحْسَبُونَ** } استفهام إنكاري وتوبيخي على هذا الحسبان، سواء كان هذا الحسبان حاصلا لجميع المشركين أم لبعضهم، لأنّ حالهم حال من هو مظنّة هذا الحسبان فيُنكر عليه لإزالته من نفسه أو لدفع حصوله فيها.

{ **أَنَّمَا** } هنا كلمتان (أن) المؤكدة و(ما) الموصولة وكتبتا في المصحف متّصلتين كما تكتب (إنّما) المكسورة التي هي أداة حصر، لأنّ الرسم القديم لم يكن منضبطا كلّ الضبط وحقّها أن تكتب مفصولة.

الإمداد: إعطاءه المدد، وهو العطاء.

المسارعة: التعجيل، وهي هنا مستعارة لتوخّي المرغوب والحرص على تحصيله. ومتعلّقه محذوف تقديره: نسارع لهم به، أي: بما نمدّهم به من مال وبنين.

{ **فِي الْخَيْرَاتِ** } ظرفية مجازية. جُعلت { الخَيْرَاتِ } بمنزلة الطريق يقع فيه المسارعة بالمشي فتكون

(في) قرينة مكنية. وقد تقدّم ذلك عند قوله تعالى { إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ } [الأنبياء:90]. وقوله تعالى { فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ } [المائدة:52].

الخيرات: جمع خير، وهو من الجموع النادرة. وتقدّم عند قوله تعالى { وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ } [التوبة:88].

{ **بَلْ لَا يَشْعُرُونَ** } إضراب عن المظنون لا على الظنّ كما هو ظاهر بالقرينة، أي: لسنا نسارع لهم بالخيرات كما ظنّوا، بل لا يشعرون بحكمة ذلك الإمداد، وأنّها لاستدراجهم وفضحهم بإقامة الحجّة عليهم.

{ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ [57] وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ [58] وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ [59] وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ [60] أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ [61] }.

هذا الكلام مقابل ما تضمّنته (الغمرة) من قوله تعالى { فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ } من الإعراض عن عبادة الله وعن التصديق بآياته، ومن إشراكهم آلهة مع الله، ومن شحّهم عن الضعفاء وإنفاق مالهم في اللذات، ومن تكذيبهم بالبعث. كلّ ذلك مما شملته الغمرة فجيء في مقابلها بذكر أحوال المؤمنين ثناء عليهم.

واختير أن يكون التفصيل بذكر المقابل لحسن تلك الصفات وقبح أضدادها، فحصل بهذا إيجاز بديع، وطباق من ألطف البديع، وصون للفصاحة من كراهة الوصف الشنيع.

{ **إِنَّ الَّذِينَ ... وَالَّذِينَ ... وَالَّذِينَ ... وَالَّذِينَ** } افتتاح الجملة بـ (إنّ) للاهتمام بالخبر، والإتيان بالموصولات للإيماء إلى وجه بناء الخبر وهو أنّهم يسارعون في الخيرات ويسابقون إليها، وتكرير أسماء الموصولات للاهتمام بكلّ صلة من صلاتها، فلا تذكر تبعا بالعطف.

الإشفاق: توقّع المكروه، وتقدم عند قوله تعالى { وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ } [الأنبياء:28]. وقد حذف المتوقّع منه لظهور أنّه هو الذي كان الإشفاق بسبب خشيته، أي: أنّهم لخشية ربّهم يخافون عقابه.

{ **بِآيَاتِ رَبِّهِمْ** } الدلائل التي تضمّنها القرآن، ومنها إعجاز القرآن.

وتقديم المجرورات الثلاثة على عواملها للرعاية على الفواصل مع الاهتمام بمضمونها.

{ **يُؤْتُونَ مَا آتَوْا** } يعطون الأموال صدقات وصلات ونفقات في سبيل الله. قال تعالى { وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى } [البقرة:177]. واستعمال الإيتاء في إعطاء المال شائع في القرآن، متعيّن أنّه المراد هنا. وإنما عُبّر بـ { مَا آتَوْا } ليعمّ كلّ أصناف العطاء المطلوب شرعا، وليعمّ القليل والكثير.

{ **وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ** } في موضع الحال، وحق الحال إذا جاءت بعد جمل متعاطفة أن تعود إلى جميع الجمل التي قبلها، أي: يفعلون ما ذُكر من الأعمال الصالحة بقلوبهم وجوارحهم وهم مضمرون وجلا وخوفا من

ربّهم أن يرجعوا إليه فلا يجدونه راضيا عنهم، فهم لذلك يسارعون في الخيرات ويكثرون منها ما استطاعوا، وكذلك كان شأن المسلمين الأولين.

وفي الحديث أنّ أهل الصفَّة قالوا: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور يصلّون كما نصلّي ويصومون كما نصوم ويتصدّقون بفضول أموالهم. قال: **" أوَليس قد جعل الله لكم ما تصدَّقون به، إن لكلم بكلّ تسبيحة صدقة وكلّ تحميدة صدقة، وكلّ تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة "**.

وقال أبو مسعود الأنصاري: " لما أُمرنا بالصدقة كنّا نحامل فيصيب أحدنا المُدّ فيتصدَّق به ".

{ **أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ** } الجملة خبر { إِنَّ }، وافتتاحها باسم الإشارة لزيادة تمييزهم للسامعين لأنّ مثلهم أحرياء بأن يُعرفوا.

{ **يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ** } تقدّم الكلام على معناها آنفا.

{ **وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ** } أنّهم يتنافسون في الإكثار من أعمال الخير، فالسبق تمثيل للتنافس والتفاوت في الإكثار من الخيرات بحال السابق إلى الغاية. أو المعنى: وهم محرزون لما حرصوا عليهم، فالسبق مجاز لإحراز المطلوب لأنّ الإحراز من لوازم السبق.

{ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } [62].

تذييل لما تقدّم من أحوال الذين من خشية ربهم مشفقون، لأنّه لمّا ذُكر ما اقتضى مخالفة المشركين لما أمروا به من توحيد الدين، وذُكر بعده ما دلّ على تقوى المؤمنين بالخشية وصحّة الإيمان والبذل ومسارعتهم في الخيرات، ذيّل ذلك بأنّ الله ما طلب من الذين تقطّعوا أمرهم إلّا تكليفا لا يشقّ عليهم، وبأنّ الله عذر من المؤمنين من لم يبلغوا مبلغ من يفوتهم في الأعمال عذرا يقتضي اعتبار أجرهم على ما فاتهم إذ بذلوا غاية وسعهم. قال تعالى { لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ } [التوبة:91].

{ **وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا** } خبر مراد منه لازمه وهو تسجيل التقصير على الذين تقطّعوا أمرهم بينهم. وقطع معذرتهم، وتيسير الاعتذار على الذين هم من خشية ربهم مشفقون كقوله تعالى { يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ }، مع ما في ذلك من جبر الخواطر المنكسرة من أهل الإيمان الذين لم يلحقوا غيرهم لعجز أو خصاصة.

{ **وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ** } لمراعاة المعنى السابق، والمراد الإحاطة بأحوالهم ونواياهم.

{ **لَدَيْنَا** } دلالة على أنّ ذلك محفوظ لا يستطيع أحد تغييره بزيادة ولا نقصان.

الكتاب: هنا هو الأمر الذي فيه تسجيل الأعمال من حسنات وسيئات، وإطلاق الكتاب عليه لإحاطته.

النطق: مستعار للدلالة، ويجوز أن يكون نطق الكتاب حقيقة بأن تكون الحروف المكتوبة فيه ذات أصوات.

{ **وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** } المناسب أن يكون هذا القول مسوقا لمؤاخذة المفرّطين والمعرضين، فيكون الضمير عائدا إلى ما عاد إليه ضمير { فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ } وأشباهه من الضمائر، والاعتماد على قرينة السياق، وقوله تعالى { بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا} وما بعده من الضمائر. والظلم على هذا الوجه محمول على ظاهره.

ويجوز أن يكون الضمير عائدا إلى عموم الأنفس في قوله تعالى { وَلا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا } فيكون قوله تعالى { وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ } من بقية التذييل، والظلم على هذا الوجه مستعمل في النقص من الحقّ، كقوله تعالى { كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً } [الكهف:33]، فيكون وعيدا لفريق ووعدا لفريق. وهذا أليق الوجهين بالإعجاز.

{ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ } [63].

إضراب انتقال إلى ما هو أغرب ممّا سبق وهو وصف غمرة أخرى انغمس فيها المشركون فهم في غمرة غمرت قلوبهم وأبعدتها عن أن تتخلّق بخلق الذين هم من خشية ربهم مشفقون، كيف وأعمالهم إلى الضدّ من أعمال المؤمنين، تناسب كفرهم، فكلٌّ يعمل على شاكلته.

{ **مِنْ هَذَا** } حرف (من) يوهم البدلية، أي: في غمرة تباعدهم عن هذا. والإشارة بـ { هَذَا } إلى ما ذكر آنفا من صفات المؤمنين في قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ - إلى قوله - وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ }.

{ **وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ** } يبين { هَذَا }، أي: وأعمالهم التي يعملونها غير ذلك. والـ (لام) للاختصاص. أي: لهم أعمال لا يعملون غيرها من أعمال الإيمان والخيرات.

{ **دُونِ** } تدل على المخالفة لأحوال المؤمنين، أي: ليسوا أهلا للتحلّي بمثل تلك المكارم.

{ **هُمْ لَهَا عَامِلُونَ** } للدلالة على أنّهم مستمرّون عليها لا يقلعون عنها. وجيء بالجملة الاسمية لإفادة الدوام.

{ حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ [64] لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ [65] قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ [66] مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ [67] }.

{ **حَتَّى** } ابتدائية، يكون ما بعدها ابتداء كلام، فليس الدال على الغاية لفظا مفردا كما هو الشأن مع (حتّى)

الجارة و(حتّى) العاطفة، بل هي غاية يدلّ عليها المقام، والأكثر أن تكون في معنى التفريع.

وبهذه الغاية صار الكلام تهديدا لهم بعذاب سيحلّ بهم يجأرون منه ولا ملجأ لهم منه. والظاهر أنّه عذاب في الدنيا بقرينة قوله تعالى { وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } [75].

{ **حَتَّى إِذَا ... إِذَا هُمْ** } الأولى ظرفية فيها معنى الشرط، فلذلك كان الأصل والغالب فيها أن تدلّ على ظرف مستقبل. والثانية فجائية داخلة على جواب شرط (إذا).

المترفون: المنعَّمون، كقوله تعالى { وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ } [المزمل:11]. فالمترفون منهم هم سادتهم وأكابرهم. والضمير المضاف إليه عائد إلى جميع المشركين أصحاب الغمرة.

وإنّما جُعل الأخذ واقعا على المترفين منهم لأنّهم الذين أضلّوا عامة قومهم ولولا نفوذ كلمتهم على قومهم لاتبعت الدهماء الحقّ، لأنّ العامة أقرب إلى الإنصاف إذا فهموا الحقّ.

وتخصيص المترفين بالتعذيب مع أنّ شأن العذاب الإلهي إن كان دنيويا أن يعمّ الناس كلّهم إيماء إلى أنّ المترفين هم سبب نزول العذاب بالعامة، ولأنّ المترفين هم أشدّ إحساسا بالعذاب لأنّهم لم يعتادوا مسّ الضرّاء والآلام.

ويجوز أن يكون المراد بالمترفين جميع المشركين فتكون الإضافة بيانية ويكون ذكر المترفين تهويلا في التهديد تذكيرا لهم بأنّ العذاب يزيل عنهم ترفهم، فقد كان أهل مكّة في ترف ودعة إذ كانوا سالمين من غارات الأقوام لأنّهم أهل الحرم الآمن وكانوا تجبى إليهم ثمرات كلّ شيء وكانوا مكرَّمين لدى جميع القبائل.

وكانت أرزاقهم تأتيهم من كل مكان، قال تعالى { الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ } [قريش:4]. فيكون المعنى: حتّى إذا أخذناهم وهم في ترفهم.

{ **يجَأَرُونَ** } يصرخون، ومصدره الجأر. والاسم الجُؤار (بضم الجيم) وهو كناية عن شدّة ألم العذاب، بحيث لا يستطيعون صبرا عليه فيصدر منهم صراخ التأوّه والويل والثبور.

{ **لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ** } مقول قول محذوف، أي: يقال لهم: لا تجأروا اليوم. وهذا تأييس لهم من النجاة من العذاب الذي هُدّدوا به. وإذا كان العذاب الآخرة فالقول لفظي والمقصود منه قطع طماعيّتهم في النجاة. والنهي عن الجؤار مستعمل في معنى التسوية.

{ **إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ** } تعليل للنهي المستعمل في التسوية، أي: لا تجأروا إذ لا جدوى لجؤاركم إذ لا يقدر مجير أن يجيركم من عذابنا، فموقع (إن) إفادة التعليل لأنّها تغني غناء (فاء) التفريع.

وضُمِّن { تُنْصَرُونَ } معنى النجاة فعدّي الفعل بـ (من)، أي: لا تنجون من عذابنا.

{ **قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ** } استئناف. والخبر مستعمل في التنديم والتلهيف.

{ **آيَاتِي** } هي آيات القرآن بقرينة تتلى، إذ التلاوة القراءة.

{ **فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ** } ذكر فعل { كُنْتُمْ } للدلالة على أنّ ذلك شأنهم. وذكر المضارع للدلالة على التكرّر، فذلك خلق منهم معاد مكرور.

النكوص: الرجوع من حيث أتى، وهو الفرار.

الأعقاب: مؤخّر الأرجل.

والنكوص هنا تمثيل للإعراض وذكر الأعقاب ترشيح للتمثيل. وقد تقدّم في قوله تعالى { فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ } [الأنفال:48].

{ **مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ** }.

{ **بِهِ** } يجوز أن يكون عائدا على الآيات لأنّها في تأويل القرآن، فيكون { مُسْتَكْبِرِينَ } بمعنى معرضين استكبارا ويكون الباء بمعنى (عن)، أو ضمّن {مُسْتَكْبِرِينَ} معنى ساخرين فعدّي بالباء للإشارة إلى تضمينه.

ويجوز أيضا أن يكون الضمير للبيت أو المسجد الحرام وإن لم يتقدّم له ذكر لأنّه حاضر في الأذهان. وإنّما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتلوا عليهم آيات القرآن في المسجد الحرام إذ هو مجتمعهم. فتكون الباء للظرفيّة. وفيه إنحاء عليهم في استكبارهم، وفي كون استكبارهم في ذلك الموضع الذي أمر الله أن يكون مظهرا للتواضع ومكارم الأخلاق، فالاستكبار في الموضع الذي شأن القائم فيه أن يكون قانتا لله حنيفا أشنع.

السامر: اسم لجمع السامرين، أي: المتحدِّثين في ظلمة الليل. وأطلق السمر على الكلام في الليل.

وعندي أنّه يجوز أن يكون { سَامِراً } مرادا منه مجلس السمر حيث يجتمعون للحديث ليلا ويكون نصبه على نزع الخافض، أي: في سامركم، كما قال تعالى { وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ } [العنكبوت:29].

{ **تَهْجُرُونَ** } بضم التاء وسكون الهاء وكسر الجيم في قراءة نافع مضارع أهجر: إذ قال الهُجْر (بضم الهاء وسكون الجيم) وهو اللغو والسب والكلام السيّئ. وقرأ بقية العشرة بفتح التاء من هجر إذا لغا.

والجملة في موضع الصفة لـ { سَامِراً }، أي: في حال كونكم متحدّثين هجرا. وكان كبراء قريش يسمرون حول الكعبة يتحدّثون بالطعن في الدين وتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم.

{ **أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ [68] أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ [69] أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقّ كَارِهُونَ [70]** }.

استفهامات عن سبب إعراضهم واستمرار قلوبهم في غمرة إلى أن يحلّ بهم العذاب الموعودونه.

وهذه الاستفهامات مستعملة في التخطئة على طريق المجاز المرسل، لأنّ اتضاح الخطأ يستلزم الشك في صدوره عن العقلاء فيقتضي ذلك الشكّ السؤال عن وقوعه من العقلاء.

والاستفهامات إحصاء لمثار ضلالهم وخطئهم، لذلك خُصَّت بذكر أمور من هذا القبيل. وكذلك احتجاج

عليهم وقطع لمعذرتهم وإيقاظ لهم بأنّ صفات الرسول كلّها دالة على صدقه.
{ **أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ** } استفهام أوّل عن عدم تدبّرهم فيما يتلى عليهم من القرآن وهو المقصود بـ {الْقَوْلَ}، قال تعالى { أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ } [النساء:82].

التدبّر: إعمال النظر العقلي في دلالات الدلائل على ما نصّت له. وأصله أنّه من النظر في دبر الأمر، أي: فيما منه للمتأمل بادئ ذي بدء. وقد تقدم في [النساء:82].

والمعنى: أنّهم لو تدبّروا قول القرآن لعلموا أنّه الحقّ بدلالة إعجازه وبصحة أغراضه. وهذا أحد العلل التي غمرت بهم في الكفر.

{ **أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ** } الاستفهام الثاني وهو المقدّر بعد (أم)، التي هي حرف إضراب انتقالي من استفهام إلى غيره، وهي (أم) المنقطعة بمعنى (بل) ويلزمها تقدير استفهام بعدها لا محالة.

المجيء: مجاز في الإخبار والتبليغ، وكذلك **الإتيان**.

{ **مَا** } موصولة صادقة على دين. والمعنى: أجاءهم دين لم يأت آباءهم الأوّلين، وهو الدين الداعي إلى توحيد الإله وإثبات البعث، ولذلك كانوا يقولون كما حكى الله عنهم { إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ } [الزخرف:22].

إن كان المراد ظاهر معنى الصلة، من أنّ الدين الذي جاءهم لا عهد لهم به، تعيَّن أن يكون في الكلام تهكّم بهم إذ قد أنكروا دينا جاءهم ولم يسبق مجيئه لآبائهم. ووجه التهكّم أنّ شأن كلّ رسول جاء بدين أن يكون دينه أُنُفًا، ولو كان للقوم مثله لكان مجيئه تحصيل حاصل.

وإن كان المراد من الصلة أنّه مخالف لما كان عليه آباؤهم، لأنّ ذلك من معنى { لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ }، كان الكلام مجرد تغليط، أي: لا اتجاه لكفرهم به لأنّه مخالف لما كان عليه آباؤهم إذ لا يكون الدين إلّا مخالفا للضلالة، ويكون في معنى قوله تعالى { أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ } [الزخرف:22/21].

{ **أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ** } الاستفهام الثالث المقدّر بعد (أم) الثانية، فهو استفهام عن عدم معرفتهم الرسول. فإنّ رميهم الرسول بالكذب وبالسحر والشعر يناسب أن لا يكونوا يعرفونه من قبل، إذ العارف بالمرء لا يصفه بما هو منه بريء، ولذلك تفرّع على عدم معرفتهم إنكارهم إيّاه، أي: إنكارهم صفاته الكاملة.

{ **أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ** } الاستفهام الرابع، أي: ألعلهم ادعوا أنّ رسولهم الذي يعرفونه قد أصيب بجنون فانقلب صدقه كذبا.

الجِنّة: الجنون، وهو الخلل العقلي الذي يصيب الإنسان. إذ كانوا يعتقدون أنّه من مس الجنّ.

والجنّة يطلق على الجنّ وهو المخلوقات المستترة عن أبصارنا كما في قوله { مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ } [الناس:6]. وتقدّم عند قوله تعالى { أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ } [الأعراف:184].

وهم لم يظنوا به الجنون ولكنّهم كانوا يقولونه بألسنتهم بهتانا.

الحقّ: الثابت في الواقع ونفس الأمر، يكون في الذوات وأوصافها، وفي الأجناس، وفي المعاني، وفي الأخبار. فهو ضدّ الكذب وضدّ السحر وضدّ الشعر.

فالحق الذي جاءهم به النبيّ أوله إثبات الوحدانية لله تعالى وإثبات البعث وما يتبع ذلك من الشرائع النازلة بمكّة كالأمر بالصلاة والزكاة وصلة الرحم، والاعتراف للفاضل بفضله، وزجر الخبيث عن خبثه، وأخوة المسلمين بعضهم لبعض، والمساواة بينهم في الحقّ، ومنع الفواحش من الزنى وقتل الأنفس ووأد البنات والاعتداء وأكل الأموال بالباطل وإهانة اليتيم والمسكين. ونحو ذلك من إبطال ما كان عليه أمر الجاهلية من العدوان والخلافة التي نشأوا عليها من عهد قديم. فكلّ ما جاء به الرسول يومئذ هو الموافق لمقتضى نظام العمران الذي خلق الله عليه العالم، فهو الحقّ.

{ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ } ظاهر تناسق الضمائر يقتضي أنّ الضمير يعود إلى القوم المتحدَّث عنهم في قوله تعالى { فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ }، فيكون المعنى: أكثر المشركين من قريش كارهون للحقّ. وهذا تسجيل عليهم بأنّ طباعهم تأنف الحقّ الذي يخالف هواهم لما تخلُّقوا به من الشرك وإتيان الفواحش والظلم والكبر والغصب وأفانين الفساد، فلا جرم كانوا بذلك يكرهون الحقّ لأنّ جنس الحقّ يجافي هذه الطباع.

وإنّما أسندت كراهية الحقّ إلى أكثرهم دون جميعهم إنصافا لمن كان منهم من أهل الأحلام الراجحة الذين علموا بطلان الشرك وكانوا يجنحون إلى الحقّ ولكنّهم يشايعون طغاة قومهم مصانعة لهم واستبقاء على حرمة أنفسهم بعلمهم أنّهم إن صدعوا بالحقّ لقوا من طغاتهم الأذى والانتقاص، وكان من هؤلاء أبو طالب والعباس والوليد بن المغيرة.

{ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ } تقديم المعمول اهتمام بذكر الحقّ حتّى يستوعب السامع ما بعده فيقع من نفسه حين سماعه موقع العجب من كارهيه، ولمّا ضعف العامل فيه بالتأخير قُرن المعمول بـ (لام) التقوية.

{ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ } [71].

عطف هذا الشرط الامتناعي على جملة { وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ } زيادة في التشنيع على أهوائهم فإنّها مفضية إلى فساد العالم ومن فيه، وكفى بذلك فظاعة وشناعة.

الحقّ: هنا هو الحقّ المتقدّم في قوله تعالى { بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ } وهو الشيء الموافق للوجود الواقعي ولحقائق الأشياء.

{ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ } أي: أنّ كراهة أكثرهم للحقّ ناشئة عن كون الحقّ مخالفا أهواءهم، فسُجّل عليهم أنّهم أهل هوى.

الهوى: شهوة ومحبّة لما يلائم غرض صاحبه. وإنّما يجري الهوى على شهوة دواعي النفوس، أعني: شهوات الأفعال غير التي تقتضيها الجبلّة، فشهوة الطعام والشراب ونحوهما ممّا تدعو إليه الجبلة ليست من الهوى إلّا أن تكون على كيفيّة وحالة لا تقتضيها الجبلّة، لما يترتّب على تلك الحالة من فساد وضرّ مثل شهوة الطعام المغصوب وشهوة الزنا، فمرجع معنى الهوى إلى المشتهى الذي لا تقتضيه الجبلّة.

الاتّباع: مجاز شائع في الموافقة، أي: لو وافق الحقّ ما يشتهونه. ومعنى موافقة الحقّ الأهواء أن تكون ماهية الحق موافقة لأهواء النفوس. فإنّ حقائق الأشياء لها تقرّر في الخارج سواء كانت موافقة لما يشتهيه الناس أم لم تكن موافقة له:

فمنها الحقائق الوجودية وهي الأصل، فهي متقرِّرة في نفس الأمر مثل كون الإله واحدا، وكونه لا يلد، وكون البعث واقعا للجزاء، فكونها حقّا هو عين تقرّرها في الخارج.

ومنها الحقائق المعنوية الموجودة في الاعتبار فهي متقرِّرة في الاعتبارات. وكونها حقًّا هو كونها جارية على ما يقتضيه نظام العالم مثل كون الوأد ظلما، وكون القتل عدوانا، وكون القمار أخذ مال بلا حقّ.

{ **لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ** } ووجه الملازمة بين فساد السماوات والأرض وفساد الناس وبين كون الحقّ جاريا على أهواء المشركين في الحقائق هو أنّ أهواءهم شتى، فمنها المتفق، وأكثرهم مختلف، وأكثر اتفاق أهوائهم حاصل بالشرك، فلو كان الحق الثابت في الواقع موافقا لمزاعمهم لاختلت أصول انتظام العوالم. فإن مبدأ الحقائق هو حقيقة الخالق تعالى، فلو كانت الحقيقة هي تعدّد الآلهة لفسدت العوالم بحكم قوله تعالى { لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا } [الأنبياء:22].

وكذا لو كان الحقُّ حسنَ الاعتداء والباطلُ قبحَ العدل لارتمى الناس بعضهم على بعض بالإهلاك جهد المستطاع، فهلك الضرع والزرع، قال تعالى { وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ } [البقرة:205]، وهكذا الحال في أهوائهم المختلفة.

{ **وَمَنْ فِيهِنَّ** } يجوز أن يكون (من) صادقا على المخلوقات كلّها على وجه التغليب في استعمال (مَن). ووجه الملازمة ينتظم بالأصالة مع وجه الملازمة بين تعدّد الآلهة وبين فساد السماوات والأرض ثم يسري إلى اختلاف مواهي الموجودات فتصبح غير صالحة لما خلقت عليه، فيفسد العالم.

{ **بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ** } إبطال لما اقتضاه الفرض في قوله تعالى { وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ }، أي: بل لم يتبع الحقّ أهواءهم فأبلغنا إليهم الحقّ على وجهه بالقرآن، الذي هو ذكر لهم يوقظ عقولهم من سباتها.

الذكر: يجوز أن يكون مصدرا بمعنى التذكير. ويجوز أن يكون اسما للكلام الذي يذكِّر سامعيه بما غفلوا عنه وهو شأن الكتب الربّانية. والمعنى: أرسلنا إليهم القرآن ليذكّرهم.

وقيل: إضافة الذكر إلى ضميرهم معنوية، أي: الذكر الذي سألوه حين كانوا يقولون { لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْراً

مِنَ الْأَوَّلِينَ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ } [الصافات:169/168]، فيكون الذكر على هذا مصدرا بمعنى الفاعل،

أي: ما يتذكّرون به. والفاء على هذا الوجه فاء فصيحة، أي: فها قد أعطيناهم ما سألوه فأعرضوا عنه. والتعبير عن إعراضهم بالجملة الاسمية للدلالة على ثبات إعراضهم وتمكّنه منهم. وتقديم المجرور على عامله للاهتمام بذكرهم ليكون إعراضهم عنه محلّ عجب.

{ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ } [72].

{ أَمْ } عاطفة على { أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ } وهي للانتقال إلى استفهام آخر عن دواعي إعراضهم عن الرسول واستمرار قلوبهم في غمرة.

والاستفهام المقدر هنا على سبيل الفرض إنكاري، أي: ما تسألهم خرجا فيعتذروا بالإعراض عنك لأجله شُحًّا بأموالهم. وهذا في معنى قوله تعالى { قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ } [سبأ:47]. والتقدير: إن كنت سألتكم أجرا فقد رددته عليكم فماذا يمنعكم من اتباعي؟

الخرج: العطاء المعيّن على الذوات أو على الأرضين كالإتاوة. وعن ابن الأعرجي: الخرج الإتاوة على الذوات والخراج الإتاوة على الأرضين. وقيل: الخراج مرادف الخرج وهو ظاهر كلام جمهور اللغويين. وقيل الخرج: ما تبرّع به المعطي، والخراج: ما لزمه أداؤه. وهذا الذي ينبغي التعويل عليه لأنّ الأصل في اللغة عدم الترادف.

{ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ } معترضة تكميلا للغرض بالثناء على الله والتعريف بسعة فضله. ويفيد التأكيد.

{ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [73] وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُون [74] }.

أعقب تنزيه الرسول عمّا افتروه عليه بتنزيه الإسلام عمّا وَسَموه به من الأباطيل، بإثبات ضدّ ذلك، وهو أنّه: **صراط مستقيم**: أي: طريق لا التواء فيه ولا عقبات. فالكلام تعريض بالذين اعتقدوا خلاف ذلك. وإطلاق الصراط المستقيم عليه من حيث إنّه موصل إلى ما يتطلّبه كلّ عاقل من النجاة وحصول الخير، فالنبيّ صلى الله عليه وسلم لمّا دعاهم إلى الإسلام دعاهم إلى السير في طريق موصل بلا عناء.

{ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ } التأكيد بـ (إن) والـ (لام) باعتبار أنّه مسوق للتعريض بالمنكرين.

{ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ } التوكيد هنا كذلك جار على نفس التركيب السابق.

{ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ } إظهار في مقام الإضمار حيث عدل عن أن يقول: وإنّهم عن الصراط لناكبون.

والغرض منه ما تنبئ به الصلة من سبب تنكّبهم عن الصراط المستقيم أنّ سببه عدم إيمانهم بالآخرة.

{ **الصِّرَاطِ** } التعريف للجنس، أي: هم ناكبون عن الصراط من حيث هو، حيث لم يتطلّبوا طريق نجاة. فتعريف الجنس أتمّ في نسبتهم إلى الضلال بقرينة أنّهم لا يؤمنون بالآخرة التي هي غاية العامل من عمله فهم إذن ناكبون عن كل صراط موصل إذ لا همّة لهم في الوصول.

الناكب: العادل عن شيء المعرض عنه. وكأنّه مشتقّ من المنكب وهو جانب الكتف، لأنّ العادل عن شيء يولي وجهه عنه بجانبه.

{ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } [75].

عطف على جملة { حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ } وما بينهما اعتراضات باستدلال عليهم وتنديم وقطع لمعاذيرهم، أي: لو استجاب الله جؤارهم عند نزول العذاب بهم وكشف عنهم العذاب لعادوا إلى ما كانوا فيه من الغمرة لأنّها صارت سجيّة لهم. كقوله { إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ } [الدخان:15].

{ **وَلَوْ** } هنا داخلة على الفعل الماضي { رَحِمْنَاهُمْ } المراد منه الاستقبال بقرينة المقام، إذ المقام للإنذار والتأييس من الإغاثة عند نزول العذاب الموعود به، وليس مقام اعتذار من الله عن عدم استجابته.

اللَّجاج: (بفتح اللام) الاستمرار على الخصام وعدم الإقلاع عن ذلك، يقال: لَجَّ يَلَجُّ ويَلِجُّ.

الطغيان: أشدّ الكبر.

العَمَه: التردُّد في الضلالة.

وتقدّم المعنى عند قوله تعالى { وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } [البقرة:15].

{ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ [76] حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ [77] }.

استدلال على مضمون الآية السابقة، بسابق إصرارهم على الشرك والإعراض عن الالتجاء إلى الله وعدم الاتّعاظ بأنّ ما حلّ بهم من العذاب هو جزاء شركهم.

{ **بِالْعَذَابِ** } التعريف للعهد، أي: بالعذاب المذكور آنفا في قوله { حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ } [64].

والمعنى: فلم يكن حظّهم حين أخذناهم بالعذاب إلّا العويل والجؤار دون التوبة والاستغفار.

الاستكانة: مصدر بمعنى الخضوع، مشتقّة من السكون، لأنّ الذي يخضع يقطع الحركة أمام من خضع له، فهو افتعال من السكون للدلالة على تمكّن السكون وقوّته.

التضرّع: الدعاء بتذلّل، والتعبير بالمضارع لدلالته على تجدّد انتفاء تضرّعهم. وتقدّم في قوله تعالى

{ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ } [الأنعام:42].

{ **حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً** } كالقول في { حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ }. وفتح الباب تمثيل لمفاجأتهم بالعذاب بعد أن كان محجوزا عنهم حسب قوله تعالى { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ } [الأنفال:33]. وقريب من هذا التمثيل قوله تعالى { وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا } [الأحزاب:14]. شُبِّهت هيئة إصابتهم بالعذاب بعد أن كانوا في سلامة بهيئة ناس في بيت مغلق عليهم ففُتح عليهم باب البيت من عدو مكروه.

{ **ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ** } هذا التركيب يفيد من شدّة انتساب العذاب إلى الباب ما لا تفيده إضافة باب إلى عذاب. والمراد عذاب مستقبل. <u>والأرجح</u>: أنّ المراد به عذاب السيف يوم بدر. وعن مجاهد: أنّه عذاب الجوع. <u>وقيل</u>: عذاب الآخرة. وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون الباب حقيقة وهو باب من أبواب جهنم كقوله تعالى { حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا } [الزمر:71].

الإبلاس: شدّة اليأس من النجاة. يقال: أبلس، إذا ذلّ ويئس من التخلّص. فالظاهر أنّه مشتقّ من البَلاس وهو المسح، وأنّ أصل أبلس صار ذا بلاس. وكان شعار من زهدوا في النعيم. يقال: لبس المسوح، إذا ترهّب.

{ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ } [78].

هذا رجوع إلى غرض الاستدلال على انفراد الله تعالى بصفات الإلهية، والامتنان بما منح الناس من نعمة لعلّهم يشكرون بتخصيصه بالعبادة.

فالجملة إمّا معطوفة على جملة { وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً } [21] والغرض واحد وما بينهما انتقالات. وإمّا مستأنفة رجوعا إلى غرض الاستدلال والامتنان وقد تقدّمت الإشارة إلى هذا عند قوله تعالى { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ } [25].

وفي هذا الانتقال من أسلوب إلى أسلوب ثم الرجوع إلى الغرض تجديد لنشاط الذهن وتحريك للإصغاء إلى الكلام وهو من أساليب كلام العرب في خطبهم وطِوالهم.

{ **وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ** } تذكير بواحدانية الله تعالى. فهم لمّا عبدوا غيره نزلوا منزلة من جهل أنّه الذي أنشأ لهم السمع، فأتى لهم بكلام مفيد لقصر القلب أو الإفراد، أي: الله الذي أنشأ ذلك دون أصنامكم. والخطاب للمشركين على طريقة الالتفات، أو لجميع الناس، والمقصود منه التعريض بالمشركين.

الإنشاء: الإحداث، أي: الإيجاد.

{ **وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ** } الجمع باعتبار تعدّد أصحابها. وأمّا إفراد السمع فجرى على الأصل في إفراد المصدر لأنّ أصل السمع أنّه مصدر. وقيل: الجمع باعتبار المتعلّقات، فلما كان البصر يتعلّق بأنواع كثيرة من الموجودات وكانت العقول تدرك أجناسا وأنواعا جمعا بهذا الاعتبار. وأفراد السمع لأنّه لا

يتعلّق إلّا بنوع واحد وهو الأصوات.

{ **قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ** } إن كان الخطاب للمشركين فالشكر مراد به التوحيد، أي: فالشكر الصادر منكم قليل بالنسبة إلى تشريككم غيره معه في العبادة، وإن كان الخطاب لجميع الناس فالشكر عام في كلّ شكر نعمة، وهو قليل بالنسبة لقلّة عدد الشاكرين، وإن كان الخطاب للمسلمين، والمقصود التعريض بالمشركين، فالشكر عام وتقليله تحريض على الاستزادة منه ونبذ الشرك.

{ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } [79].

الذرء: البثّ. وتقدّم في [الأنعام:136]. وهذا امتنان بنعمة الإيجاد والحياة وتيسير التمكّن من الأرض وإكثار النوع لأنّ الذرء يستلزم ذلك كلّه.

وهذا استدلال آخر على انفراد الله تعالى بالإلهية إذ قد علموا أنّه لا شريك له في الخلق فكيف يشركون معه في الإلهية أصنافا هم يعلمون أنّها لا تخلق شيئا.

وهو أيضا استدلال على البعث لأنّ الذي أحيا الناس عن عدم قادر على إعادة إحيائهم بعد تقطّع أوصالهم.

{ **وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** } قوبل الذرء بضدّه وهو الحشر والجمع، فإنّ الحشر يجمع كلّ من كان على الأرض من البشر، وفيه مُحسِّن الطباق. والمقصود من هذه المقابلة الرد على منكري البعث، وفيه تهديد.

{ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } [80].

هو من أسلوب { وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ }. وأُعقب ذكر الحشر بذكر الإحياء لأنّ البعث إحياء.

وأمّا ذكر الإماتة فلمناسبة التّضاد، ولأنّ فيها دلالة على عظيم القدرة والقهر. ولمّا كان من الإحياء خلق الإيقاض، ومن الإماتة خلق النوم عطف على ذلك أنّ بقدرته اختلاف الليل والنهار لتلك المناسبة، ولأنّ في تصريف الليل والنهار دلالة على عظيم القدرة.

{ **لَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ** } اللام للملك، أي: بقدرته تصريف الليل والنهار، فالنهار يناسب الحياة ولذلك يُسمَّى الهبوب في النهار بعثا، والليل يناسب الموت ولذلك سمَّى الله النوم وفاة في قوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ } [الأنعام:60].

وتقديم المجرور للقصر، أي: له اختلاف الليل والنهار لا لغيره.

{ **أَفَلا تَعْقِلُونَ** } لمّا كانت هذه الأدلّة تفيد من نظر فيها علما بأنّ الإله واحد وأنّ البعث واقع، وكان المقصودون بالخطاب قد أشركوا به ولم يهتدوا بهذه الأدلة جُعلوا بمنزلة غير العقلاء فأنكر عليهم عدم العقل بالاستفهام الإنكاري المفرّع على الأدلة الأربعة بالفاء.

{ **بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ** [81] **قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ** [82] **لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ** [83] }.

هذا إدماج لذكر أصل آخر من أصول الشرك وهو إحالة البعث بعد الموت.

{ **بَلْ** } للإضراب الإبطالي، أبطلت كونهم يعقلون، وأثبتت إنكارهم البعث، مع بيان ما بعثهم على إنكاره وهو تقليد الآباء. والمعنى: أنّهم لا يعقلون الأدلة لكونهم يتّبعون أقوال آبائهم.

والكلام جرى على طريقة الالتفات من الخطاب إلى الغيبة لأنّ الكلام انتقل من التقريع والتهديد إلى حكاية ضلالهم فناسب هذا الانتقال مقام الغيبة لما في الغيبة من الإبعاد، فالضمير عائد إلى المخاطبين.

{ **قَالُوا** } القول هنا مراد به ما طابق الاعتقاد، لأنّ الأصل في الكلام مطابقة اعتقاد قائله.

الأوّلون: أسلافهم في النسب أو أسلافهم في الدين من الأمم المشركين.

{ **قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ** } بدل مطابق من جملة { قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ }، تفصيل لإجمال المماثلة، فالضمير الذي مع { قَالُوا } الثاني عائد إلى ما عاد إليه ضمير { قَالُوا } الأوّل وليس عائدا على { الْأَوَّلُونَ }.

<u>ويجوز</u> جعل قالوا الثاني استئنافا بيانيّا لبيان { مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ } ويكون الضمير عائدا إلى { الْأَوَّلُونَ }.

والمعنى واحد على التقديرين. ونكتته هنا التعجيب من هذا القول.

والاستفهام إنكاري، و(إذا) ظرف لقوله { لَمَبْعُوثُونَ }.

والجمع بين ذكر الموت والكون ترابا وعظاما لقصد تقوية الإنكار بتفظيع إخبار القرآن بوقوع البعث، أي: الإحياء بعد ذلك التلاشي القويّ.

{ **لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ** } تعليل للإنكار وتقوية له. وقد جعلوا مستند تكذيبهم بالبعث أنّه تكرّر الوعد به في أزمان متعدّدة فلم يقع ولم يُبعث واحد من آبائهم.

{ **إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ** } من القول الأوّل، وصيغة القصر بمعنى: هذا منحصر في كونه من حكايات الأوّلين. وهو قصر إضافي لا يعدو كونه من الأساطير إلى كونه واقعا كما زعم المدَّعون.

الأساطير: جمع أسطورة وهي الخبر الكاذب الذي يُكسى صفة الواقع مثل الخرافات والروايات الوهمية لقصد التلهّي بها.

{ **قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** [84] **سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** [85] }.

استئناف استدلال عليهم في إثبات الوحدانية لله تعالى عاد به الكلام متّصلا بقوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ } [80].

والاستفهام تقريري، أي: أجيبوا عن هذا، ولا يسعهم إلّا الجواب بأنّها لله. والمقصود: إثبات لازم جوابهم وهو انفراده تعالى بالوحدانية.

{ **إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** } شرط حُذف جوابه لدلالة الاستفهام عليه، تقديره: فأجيبوني عن السؤال. وفي هذا الشرط توجيه لعقولهم أن يتأمّلوا فيظهر لهم أنّ الأرض لله وأنّ من فيها لله، فإنّ كون جميع ذلك لله قد يخفى لأنّ الناس اعتادوا نسبة المسببات إلى أسبابها المقارنة والتصرّفات إلى مباشريها فنُبِّهوا إلى التأمّل.

{ **سَيَقُولُونَ لِلَّهِ** } أي: يجيبون عقب التأمل جوابا غير بطيء.

وانظر ما تقدّم في تفسير قوله تعالى { قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ } [الأنعام:12].

{ **قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ** } وقعت جوابا لإقرارهم واعترافهم بأنّها لله. والاستفهام إنكاري إنكار لعدم تذكّرهم بذلك.

{ **قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ** [86] **سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ** [87]}.

تكرير الأمر بالقول وإن كان المقول مختلفا دون أن تعطف الجملة لأنّها وقعت في سياق التعداد فناسب أن يعاد الأمر بالقول دون الاستغناء بحرف العطف. والمقصود وقوع هذه الأسئلة متتابعة دفعا لهم بالحجّة، ولذلك لم تعد في السؤالين الثاني والثالث جملة { إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } اكتفاء بالافتتاح بها.

{ **قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ** } لم يؤت مع هذا الاستفهام بشرط { إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } ونحوه كما جاء في سابقه لأنّ انفراد الله تعالى بالربوبية في السماوات والعرش لا يشكّ فيه المشركون.

وخُصّ وعظهم عقب جوابهم بالحثّ على تقوى الله لأنّه لمّا تبيَّن من الآية التي قبلها أنّهم لا يسعهم إلّا الاعتراف بأنّ الله مالك الأرض ومن فيها، وعُقِّبت تلك الآية بحظّهم على التذكير ليظهر لهم أنّهم عباد الله لا عباد الأصنام، وتبيَّن من هذه الآية أنّه ربّ السماوات وهي أعظم من الأرض، وأنّهم لا يسعهم إلّا الاعتراف بذلك، ناسب حثّهم على تقواه لأنّه يستحقّ الطاعة له وحده وأن يطيعوا رسوله، فإنّ التقوى تتضمّن طاعة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

{ **قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** [88] **سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ** [89] }.

الملكوت: مبالغة في المُلك بضم الميم. فالمَلكوت: الملك المقترن بالتصرّف في مختلف الأنواع والعوالم لذلك جاء بعده { كُلِّ شَيْءٍ }.

اليد: القدرة.

{ **يُجِيرُ** } يغيث ويمنع من يشاء من الأذى. ومصدره الإجارة فيفيد معنى الغلبة.

{ **لَا يُجَارُ عَلِيهِ** } لا يستطيع أحد أن يمنع أحدا من عقابه، فيفيد معنى العزّة التامة. وبُني الفعل للمجهول لقصد انتفاء الفعل عن كل فاعل، فيفيد العموم مع الاختصار.

{ **إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** } تعقيب للاستفهام، لأنّ هذا التصرّف من الله خفيّ يحتاج إلى تدبّر العقل لإدراكه، كما عُقِّب الاستفهام الأوّل بمثله حثًّا لهم على علمه والاهتداء إليه.

{ **سَيَقُولُونَ لِلَّهِ** } يدلّ على أنّهم إذا تدبّروا علموا.

{ **فَأَنَّى** } يجوز أن تكون بمعنى (من أين) كما تقدّم في قوله { قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا } [آل عمران:37]. والاستفهام تعجيبي.

السحر: مستعار لترويج الباطل. والمعنى: فمن أين اختلّ شعوركم فراج عليكم الباطل.

{ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } [90].

إضراب لإبطال أن يكونوا مسحورين، أي: بل ليس الأمر كما خيّل إليهم، فالذي أتيناهم به القرآن.

والباء للتعدية كما يقال: ذهب به. وهذا كقوله آنفا { بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ }.

والعدول عن الخطاب من قوله { فَأَنَّى تُسْحَرُونَ } إلى الغيبة التفات لأنّهم الموجه إليهم الكلام في هذه الجملة. **الحقّ**: هنا الصدق فلذلك قوبل بنسبتهم إلى الكذب فيما رموا به القرءان من قولهم { إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ }. وفي مقابلة الحق بـ { لَكَاذِبُونَ } مُحسِّن الطباق.

وتأكيد نسبتهم إلى الكذب بإن واللام لتحقيق الخبر.

وقد سُلكت في ترتيب هذه الأدلة طريقة الترقّي: <u>فابتدئ</u> بالسؤال عن مالك الأرض ومن فيها لأنّها أقرب العوالم لإدراك المخاطبين، <u>ثمّ ارتقي</u> إلى الاستدلال بربوبية السماوات والعرش، <u>ثمّ ارتقي</u> إلى ما هو أعمّ وأشمل وهو تصرّفه المطلق في الأشياء كلّها، ولذلك اجتُلبت فيه أداة العموم وهي (كلّ).

{ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ [91] عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ [92] }.

أتبع الاستدلال على إثبات الوحدانية لله تعالى بالاستدلال على انتفاء الشركاء له في الإلهيّة. وقُدِّمت النتيجة على القياس لأنّها المطلوب هنا، فإنّ النتيجة والمطلوب متّحدان في المعنى مختلفان بالاعتبار، فهي باعتبار حصولها عقب القياس تسمَّى نتيجة، وباعتبار كونها دعوى مقام عليها الدليل، وهو المقياس، تسمَّى مطلوبا كما في علم المنطق.

وذكر نفي الولد استقصاء للردّ على مختلف عقائد أهل الشرك من العرب فإنّ منهم من توهّم أنّه ارتقى عن عبادة الأصنام فعبدوا الملائكة وقالوا: هم بنات الله.

وإنّما قُدّم نفي الولد على نفي الشريك مع أنّ أكثر المشركين عبدة أصنام لا عبدة الملائكة نظرا إلى أنّ شبهة عبدة الملائكة أقوى من شبهة عبدة الأصنام، لأنّ الملائكة غير مشاهدين فليست دلائل الحدوث بادية عليهم كالأصنام، ولأنّ الذي زعموهم بنات الله أقرب للتمويه من الذين زعموا الحجارة شركاء لله.

{ **إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ** } استدلال على امتناع أن يكون مع الله آلهة. وإنّما لم يستدلّ على امتناع أن يتخذ الله ولدا لأن الاستدلال على ما بعده مغن عنه لأن ما بعده أعم منه وانتفاء الأعم يقتضي انتفاء الأخص.

{ **لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ** } الذهاب هنا مستعار للاستقلال بالمذهوب به وعدم مشاركة غيره له فيه.

وبيان انتظام هذا الاستدلال: أنّه لو كان مع الله آلهة لاقتضى ذلك أن يكون الآلهة سواء في صفات الإلهية وتلك الصفات كمالات تامة فكان كل إله خالقا لمخلوقات. وهذا يستلزم لازمين باطلين:

<u>أوّل اللازمين</u> أن يكون كلّ إله مختصا بمخلوقاته فلا يتصرّف فيها غيره من الآلهة ولا يتصرّف هو في مخلوقات غيره، فيقتضي ذلك أنّ كل إله من الآلهة عاجز عن التصرّف في مخلوقات غيره. وهذا يستلزم المحال، لأنّ العجز نقص والنقص ينافي حقيقية الإلهيّة. وهذا دليل برهاني على الوحدانية.

{ **وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ** } <u>ثاني اللازمين</u> أن تصير مخلوقات بعض الآلهة أوفر أو أقوى من مخلوقات إله آخر بعوارض تقتضي ذلك من آثار الأعمال النفسانية وآثار الأقطار والحوادث، كما هو المشاهد في اختلاف أحوال مخلوقات الله تعالى الواحد، فلا جرم أنّ ذلك يفضي إلى اعتزاز الإله الذي تفوقت مخلوقاته، وهذا يقتضي أن يصير بعض تلك الإلهة أقوى من بعض، وهو مناف للمساواة في الإلهية.

{ **سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ** } تنزيه الله تعالى عن أقوال المشركين، وهو بمنزلة نتيجة الدليل.

{ **عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ** } عموم العلم وإحاطته بكلّ شيء كما أفادته لام التعريف في { الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ } من الاستغراق الحقيقي، أي: عالم كل مغيَّب وكل ظاهر.

{ **فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ** } أي: هو منزه من أن يكون موصوفا بكونه مشارَكا في وصفه العظيم، أي: هو منزَّه عن ذلك.

{ **قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ [93] رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [94] وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ [95]** }.

آذنت الآيات السابقة بأقصى ضلال المشركين وانتفاء عذرهم فيما دانوا به الله وبغضب الله عليهم لذلك، وأنّهم سواء في ذلك مع الأمم التي عجّل الله لها العذاب في الدنيا وادّخر لها عذابا آخر في الآخرة، فكان ذلك نذارة لهم بمثله وتهديدا بما سيلاقونه، وكان مثارا لخشية النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يحلّ العذاب بقومه في حياته والخوف من هوله، فلقّن الله نبيّه أن يسأل النجاة من ذلك العذاب.

فهذه الجملة استئناف بياني جوابا عما يختلج في نفس رسول الله عليه الصلاة والسلام. وقد تحقّق ذلك

فيما حلّ بالمشركين يوم بدر ويوم حنين، فالوعيد المذكور هنا وعيد بعقاب في الدنيا.
{ **قُلْ رَبِّ ... رَبِّ فَلا** } التكرار إشارة وتمهيد للإجابة، لأنّ وصف الربوبية يقتضي الرأفة بالمربوب.
{ **إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ** } أُدخل بعد حرف الشرط (ما) الزائدة للتوكيد، فاقترن فعل الشرط بنون التوكيد لزيادة تحقيق ربط الجزاء بالشرط. وقد تقدّم في قوله { وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ } [الأعراف:200].
{ **فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** } أي: إذا كان ما يوعدون حاصلا في حياتي فأنا أدعوكم أن لا تجعلوني فيهم حينئذ. وقد تحقق ذلك بالهجرة إلى المدينة، فالظرفية هنا حقيقية، أي: بينهم.
{ **وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ** } خبر مستعمل في إيجاد الرجاء بحصول وعيد المكذبين في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، وإلّا فلا حاجة إلى إعلام الرسول بقدرة الله على ذلك.
{ **أَنْ نُرِيَكَ** } إيماء إلى أنّه في منجاة من أن يلحقه ما يوعدون به وأنّه سيراه. وقد يبدو أن هذا وعد غريب لأنّ المتعارف أن يكون العذاب سماويا فإذا نجى الله منه بعض رسله، مثل لوط، فإنّه يبعده عن موضع العذاب، ولكن كان عذاب هؤلاء غير سماوي فتحقّق في مصرع صناديدهم يوم بدر بمرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ووقف رسول الله على القليب (قليب بدر) وناداهم بأسمائهم واحدا واحدا وقال لهم: **" لقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقّا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقّا "**.

{ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ } [96].

لمّا أنبأ الله رسوله عليه الصلاة والسلام بما يُلمّح له بأنّه منجز وعيده من الذين كذّبوه فعلم الرسول والمسلمون أنّ الله ضمن لهم النصر، أعقب ذلك بأن أمره بأن يدفع مكذّبيه بالتي هي أحسن، وأن لا يضيق بتكذيبهم صدره. وسيأتي بيانه عند قوله تعالى { ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } [فصلت:34].
{ **نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ** } خبر مستعمل كناية عن كون الله يعامل أصحاب الإساءة لرسوله بما هم أحقّاء به من العقاب، لأنّ الذي هو أعلم بالأحوال يجري عمله على مناسب تلك الأحوال بالعدل، وفي هذا تطمين لنفس الرسول صلى الله عليه وسلم.
{ **الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** } مراد بها الحسنة الكاملة، فاسم التفضيل للمبالغة.
والتخلّق بهذه الآية هو أنّ المؤمن الكامل ينبغي له أن يفوّض أمر المعتدين عليه إلى الله فهو يتولّى الانتصار لمن توكّل عليه، وأنّه إن قابل السيئة بالحسنة كان انتصار الله أشفى لصدره وأرسخ في نصره، وماذا تبلغ قدرة المخلوق تجاه قدرة الخالق. وهكذا كان خلق النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقد كان لا ينتقم لنفسه.

{ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ [97] وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ [98] }.

لمّا أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يفوّض جزاءهم إلى ربّه أمره بالتعوّذ من حيلولة الشياطين دون الدفع بالتي هي أحسن، أي: التعوّذ من تحريك الشيطان داعية الغضب والانتقام في نفس النبيّ صلى الله عليه وسلم، فيكون { الشَّيَاطِينِ } مستعملا في حقيقته.

همزات الشياطين: تصرفاتهم بتحريك القوى التي في نفسه، أي: في غير أمور التبليغ مثل تحريك القوّة الغضبية، كما تأوّل الغزالي في قول النبيّ صلى الله عليه وسلم في الحديث: **" ولكن الله أعانني عليه فأسلم "** ويكون أمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بالتعوّذ من همزات الشياطين مقتضيا تكفّل الله تعالى بالاستجابة، أو أن يكون أمره بالتعوّذ من همزات الشياطين مرادا به الاستمرار على السلامة منهم.

قال في الشفاء: الأمّة مجتمعة (أي مُجْمِعة) على عصمة النبيّ صلى الله عليه وسلم من الشيطان لا في جسمه بأنواع الأذى، ولا على خاطره بالوساوس.

<u>ويجوز</u> أن تكون الجملة عطفا على جملة { قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ } بأن أمره الله بأن يلجأ إليه بطلب الوقاية من المشركين وأذاهم، فيكون المراد من الشياطين المشركين فإنّهم شياطين الإنس كما قال تعالى { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ } [الأنعام:112]، ويكون هذا في معنى قوله تعالى { قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ - إلى قوله - الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ} [الناس]. فيكون المراد: أعوذ بك من همزات القوم الظالمين، أو من همزات الشياطين منهم.

الهمز: حقيقته الضغط باليد والطعن بالإصبع ونحوه، ويستعمل مجازا بمعنى الأذى بالقول أو بالإشارة، ومنه قوله تعالى { هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ } [القلم:11]، وقوله تعالى { وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ } [الهمزة:1].

<u>ومحمله عندي</u> على المعنى المجازي على كلا الوجهين في المراد من الشياطين. وهمز شياطين الجنّ ظاهر، وأمّا همز شياطين الإنس فقد كان من أذى المشركين النبيّ صلى الله عليه وسلم لمزه والتغامز عليه والكيد له

{ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ } تعوّذ من قربهم لأنّهم إذا اقتربوا منه لحقه أذاهم.

{ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ [99] لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ [100] }.

{ **حَتَّى** } ابتدائية ولا تفيد أنّ مضمون ما قبلها مغيًّا بها. فهذا انتقال إلى وصف ما يلقون من العذاب في الآخرة، بعد أن ذُكر عذابهم في الدنيا، فيكون الكلام وصفًا أُنُفًا لعذابهم في الآخرة.

وضمائر الغيبة عائدة إلى ما عادت عليه الضمائر السابقة من قوله تعالى { قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ } [82] إلى ما هنا، وليست عائدة إلى الشياطين.

ولقصد إدماج التهديد بما سيشاهدون من عذاب أعدّ لهم فيندمون على تفريطهم في مدّة حياتهم.

{ **ارْجِعُونِ** } ضمير الجمع تعظيم للمخاطب. والخطاب بصيغة الجمع لقصد التعظيم طريقة عربية، وهو يلزم صيغة التذكير فيقال في خطاب المرأة إذا قصد تعظيمها: أنتم. ولا يقال: أنتن.

{ **لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ** } جملة الترجّي في موضع العلّة لمضمون { ارْجِعُونِ }.

الترك: هنا مستعمل في حقيقته وهو معنى التخلية والمفارقة. وما صدق ما تركت: عالم الدنيا. ويجوز أن يراد بالترك معناه المجازي وهو الإعراض والرفض، على أن يكون ما صدق الموصول: الإيمان بالله وتصديق رسوله، فالمعنى: لعلّي أُسلم وأعمل صالحا، فاشتمل هذا المعنى على وعد بالامتثال واعتراف بالخطأ فيما سلف. وركِّب بهذا النظم الموجز قضاء لحق البلاغة.

{ **كلَّا** } ردع للسامع ليعلم إبطال طلبة الكافر.

{ **إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا** } تركيب يجري مجرى المثل وهو من مبتكرات القرآن.

وحاصل معناه: أنّ قول المشرك { رَبِّ ارْجِعُونِ } لا يتجاوز أن يكون كلاما صدر من لسانه لا جدوى له فيه، فلا يستجاب طلبه به.

{ **وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ** }.

الوراء: هنا مستعار للشيء الذي يصيب المرء لا محالة ويناله، وهو لا يظنه يصيبه. وهذا كقوله تعالى { وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ } [البروج:20].

البرزخ: الحاجز بين مكانين. قيل: المراد به في هذه الآية القبر، وقيل: هو بقاء مدّة الدنيا. وقيل: هو عالم بين الدنيا والآخرة تستقر فيه الأرواح فتكاشَف على مقرّها المستقبل. وإلى هذا مال الصوفية. وقال السيد في التعريفات: البرزخ العالم المشهود بين عالم المعاني المجرّدة وعالم الأجسام المادية، أعني الدنيا والآخرة.

{ **إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ** } أنّهم غير راجعين إلى الحياة إلى يوم البعث. فهي إقناط لهم.

{ **فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ [101] فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [102] وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ [103] تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ [104]** }.

تفريع على قوله تعالى { إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ }، فإن زمن النفخ في الصور هو يوم البعث. فالتقدير: فإذا جاء يوم يبعثون { نُفِخَ فِي الصُّورِ }.

الصور: البوق الذي ينفخ فيه النافخ للتجمّع والنفير، وهو مما يُنادى به للحرب ويُنادى به للصلاة عند اليهود كما جاء في حديث بدء الأذان في البخاري. وتقدّم عند قوله تعالى { وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي

الصُّورِ } [الأنعام:73].

وأسند الفعل إلى المجهول لأنّ المعتنى به هو حدوث النفخ لا تعيين النافخ. وإنّما يُنفخ فيه بأمر تكوين من الله تعالى، أو يَنفخ فيه أحد الملائكة، وقد ورد أنّه الملك إسرافيل.

{ **فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ** } كالتمهيد، مبادرة بتأييسهم من أن تنفعهم أنسابهم أو استنجادهم.

وضمير { بَيْنَهُمْ } عائد إلى ما عادت عليه ضمائر جمع الغائبين قبله وهي عائدة إلى المشركين.

ومعنى نفي الأنساب نفي آثارها من النجدة والنصر والشفاعة، لأن تلك في عرفهم من لوازم القرابة. فالقول كناية عن عدم النصير.

التساؤل: سؤال بعضهم بعضا. والمعنيُّ به التساؤل المناسب لحلول يوم الهول، وهو أن يسأل بعضهم المعونة والنجدة، كقوله تعالى { وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً } [المعارج:10].

وأمّا إثبات التساؤل يومئذ في قوله تعالى { وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طَاغِينَ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلَ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ } [الصافات:27-33]، فذلك بعد يأسهم من وجود نصير أو شفيع.

{ **فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ** } ذكْرهم في هذه الآية إدماج، للتنويه بالمؤمنين وتهديد المشركين، لأنّ المشركين لا يجدون في موازين الأعمال الصالحة شيئا، قال تعالى { وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً } [الفرقان:23]. وتقدّم الكلام على نظيره في [الأعراف:8].

الخسارة: نقصان مال التجارة، وتقدّم في قوله تعالى { الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ } [الأنعام:12]، وقوله تعالى { فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ } [الأعراف:9]. وهي هنا تمثيل لحال خيبتهم فيما كانوا يأملونه من شفاعة أصنامهم وأنّ لهم النجاة في الآخرة.

{ **تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ** } في موضع الحال من { الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ }.و**اللفح**: شدّة إصابة النّار.

الكالح: الذي به الكلوح وهو تقلّص الشفتين وظهور الأسنان من أثر تقطّب أعصاب الوجه عند شدّة الألم.

{ ألم أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ [105] قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ [106] رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ [107] }.

{ **أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ** } مقول قول محذوف، أي: يقال لهم يومئذ. وهذا تعرّض لبعض ما يجري يومئذ. **الآيات**: آيات القرآن بقرينة قوله تعالى { تُتْلَى عَلَيْكُمْ }، وقوله { فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ }، حملا على ظاهر اللفظ.

التلاوة: القراءة. وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ } [البقرة:102]. والاستفهام إنكار.

{ **قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا** } مُثِّلت حالة اختيارهم لأسباب الشقوة بدل أسباب السعادة بحالة غائرة بين السعادة والشقاوة على نفوسهم.

الغلب: حقيقته: الاستيلاء والقهر.

الشِقْوة: (بكسر الشين وسكون القاف) في قراءة الجمهور. من الشقاء. وقرأ حمزة والكسائي وخلف { شَقَاوتنا } (بفتح الشين وبألف بعد القاف) وهو مصدر على صيغة الفعالة مثل الجزالة والسذاجة.

{ **وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ** } زيادة { قَوماً } ليدلّ على أنّ الضلالة من شيمتهم وبها قوام قوميّتهم.

{ **رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ** } حذف متعلّق { عُدْنَا } لظهوره من المقام، إذ كان إلقاؤهم في النار لأجل الإشراك والتكذيب، كما دلّ عليه قولهم { وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ }.

والظلم هنا تجاوز العدل، والمراد ظلم آخر بعد ظلمهم الأول وهو الذي ينقطع عنده سؤال العفو.

{ **قَالَ اخْسَأُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ [108] إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ [109] فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ [110] إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ [111]** }.

{ **اخْسَأُوا** } زجر وشتم بأنّهم خاسئون، ومعناه عدم استجابة طلبهم. وفعل خسأ من باب منع ومعناه ذلّ.

{ **وَلا تُكَلِّمُونِ** } نهوا عن خطاب الله، والمقصود تأييسهم من النجاة ممّا هم فيه.

{ **إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي** } إلى آخرها، استئناف قصد منه إغاظتهم بمقابلة حالهم يوم العذاب بحال الذين أنعم الله عليهم، وتحسيرهم على ما كانوا يعاملون به المسلمين.

{ **إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي** - إلى قوله - **سِخْرِيّاً** } الإخبار مستعمل في كون المتكلّم عالما بمضمون الخبر وضمير الشأن للتعجيل بإرهابهم.

السُخري: من السُخرة (بضم السين) وهي الاستخدام بلا أجر.

{ **حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ** } { حَتَّى } هنا ابتدائية ومعناها معنى فاء السببيّة فهي استعارة تبعية. شُبّه التسبّب القوي بالغاية فاستعملت فيه { حَتَّى }. والمعنى: أنّكم لهوتم عن التأمل فيما جاء به القرآن. وتقدّم الكلام على فعل سخر عند قوله { فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ } [الأنعام:10]، وقوله تعالى { يَسْخَرُونَ مِنْهُمْ } [التوبة:79].

{ **أَنْسَوْكُمْ** } إسناد الإنساء إلى الفريق مجاز عقلي لأنّهم سببه، أو هو مجاز بالحذف بتقدير: حتّى أنساكم السخريّ بهم ذكري، والقرينة على الأول معنوية وعلى الثاني لفظية.

{ **إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ** } ضمير الفصل للاختصاص، أي: هم الفائزون لا أنتم.

{ **بِمَا صَبَرُوا** } إدماج للتنويه بالصبر، والتنبيه على أنّ سخريّتهم بهم كانت سببا في صبرهم الذي أكسبهم الجزاء. وفي ذلك زيادة تلهيف للمخاطبين بأن كانوا هم السبب في ضرّ أنفسهم ونفع من كانوا يعدّونهم أعداءهم.

{ **قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ** [112] **قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فاسْأَلِ الْعَادِّينَ** [113] **قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** [114] }.

هذا القول يقع عند النفخ في الصور وحياة الأموات من الأرض، فالأظهر أن يكون هو جواب { إِذَا } في قوله فيما سبق { فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ } [101] . والتقدير: قال الله لهم إذا نفخ في الصور: كم لبثتم في الأرض عدد سنين، وما بينهما اعتراضات نشأت بالتفريع والعطف والحال والمقاولات العارضة في خلال ذلك، كما علمته ممّا تقدّم في تفسير تلك الآي. وليس من المناسب أن يكون هذا القول حاصلا بعد دخول الكافرين النّار، والمفسّرون الذين حملوه على ذلك تكلّفوا ما لا يناسب انتظام المعاني.

وقرأه ابن كثير وحمزة والكسائي { قل } بصيغة الأمر. والخطاب للملك الموكل بإحياء الأموات.

{ **قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ** } الاستفهام عن عدد سنوات المكث في الأرض مستعمل في التنبيه ليظهر لهم خطؤهم إذ كانوا يزعمون أنّهم إذا دفنوا في الأرض لا يخرجون منها.

{ **فاسْأَلِ الْعَادِّينَ** } تفريع على جملة { **لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ** } لما تضمّنته من تردّدهم في تقدير مدّة لبثهم في الأرض. والمفسرون جعلوا المراد من العادّين الملائكة أو النّاس الذين يتذكرون حساب مدّة المكث.

والظاهر أن المراد بقولهم { يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ } أنهم قدّروا مدّة مكثهم في باطن الأرض بنحو يوم من الأيام المعهودة لديهم في الدنيا كما دلّ عليه قوله تعالى { وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ } [الروم:55].

ولم يعرّج المفسرون على تبيين المقصد من سؤالهم وإجابتهم عنه وتعقيبه بما يقرره في الظاهر. والذي لاح لي في ذلك أنّ إيقافهم على ضلال اعتقادهم الماضي جيء به في قالب السؤال عن مدة مكثهم في الأرض كناية عن ثبوت خروجهم من الأرض أحياء وهو ما كانوا ينكرونه، وكناية عن خطأ استدلالهم على إبطال البعث باستحالة رجوع الحياة إلى عظام ورفات. فذلك أدلّ وأظهر في سعة القدرة الإلهية وأدخل في إبطال شبهتهم. وقد دلّ على هذا قوله تعالى في آخر الآية { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ }.

وقد ألجأهم الله إلى إظهار اعتقادهم قصر المدة التي بقوها زيادة في تشويه خطأهم فإنّهم لمّا أحسوا أنفسهم أنهم صاروا أحياء كحياتهم الأولى وعاد لهم تفكيرهم القديم الذي ماتوا عليه، وكانوا يتوهّمون أنّهم إذا فنيت أجسادهم لا تعود إليهم الحياة أوهمهم كمال أجسادهم أنّهم ما مكثوا في الأرض إلّا زمنا يسيرا لا

يتغيّر في مثله الهيكل الجثماني، فبنوا على أصل شبهتهم الخاطئة خطأ آخر.

{ **قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً** } فهو يؤذن بكلام محذوف على طريقة دلالة الاقتضاء، لأنّهم قد لبثوا أكثر من يوم أو بعض يوم بكثير فكيف يُجعل قليلا؟ ولذلك تعيَّن أن يكون التقدير: قال بل لبثتم قرونا، وإن لبثتم إلّا قليلا فيما عند الله، قال تعالى { وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ } [الحجّ:47].

{ **لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** } أي: لو كنتم تعلمون ما يترّقبكم من مدة العذاب كانت مدة قليلة، وهذا إرهاب لهم.

{ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ } [115].

هذا من تمام القول المحكي فيه { قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ } مفرَّع على ما قبله. فُرّع الاستفهام عن حسبانهم أنّ الخلق لأجل العبث على إظهار بطلان ما زعموه من إنكار البعث. والاستفهام تقرير وتوبيخ لأنّ لازم إنكارهم البعث أن يكون خلق الناس مشتملا على عبث، فنزلوا منزلة من حسب ذلك فقُرّروا ووُبّخوا أخذا لهم بلازم اعتقادهم.

العبث: العمل الذي لا فائدة فيه. وكلمّا تضاءلت الفائدة كان لها حكم العدم فلو لم يكن خلق البشر في هذه الحياة مرتبا عليه مجازاة الفاعلين على أفعالهم لكان خالقه قد أتى في فعله بشيء عديم الفائدة فكان فيه حظ من العبث.

{ **وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ** } فهم قد حسبوا ذلك حقيقة بلا تنزيل، وهذا من تمام الإنكار.

{ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ } [116].

تفرَّع على ما تقدّم بيانه من دلائل الوحدانيّة والقدرة والحكمة ظهور أنّ الله هو الملك الذي ليس في اتصافه بالملك شائبة من معنى الملك، فملكه الملك الكامل في حقيقته، الشامل في نفاذه.

التعالي: مبالغة في العلو. وأُتبع ذلك بما هو دليل عليه وهو انفراده بالإلهية وذلك وصف ذاتي، وبأنّه مالك أعظم المخلوقات، أعني: العرش، وذلك دليل عظمة القدرة.

{ **الْمَلِكُ** } التعريف للجنس.

الحقّ: ما قابل الباطل، ومفهوم الصفة يقتضي أنّ ملك غيره باطل، أي: فيه شائبة الباطل لا من وجهة الجور والظلم، لأنه قد يوجد ملك لا جور فيه ولا ظلم كملك الأنبياء، بل من جهة أنّه غير مستكمل حقيقة المالكية.

{ **الْكَرِيمِ** } بالجر صفة العرش. وكرم الجنس أن يكون مستوفيا فضائل جنسه كما في قوله تعالى { إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ } [النمل:29].

{ **وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ** } [117].

لمّا كان أعظم ما دعا الله إليه توحيده، وكان أصل ضلالة المشركين إشراكهم، أعقب وصف الله بالعلو العظيم والقدرة الواسعة ببيان أنّ الحساب الواقع بعد البعث ينال الذين دعوا مع الله آلهة، دعوى لا عذر لهم فيها لأنها عريَّة عن البرهان، لأنّهم لم يُثبتوا لله الملك الكامل إذ أشركوا معه آلهة، ولم يثبتوا ما يقتضي له عظيم التصرّف إذ أشركوا معه تصرّف آلهة.

{ **فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ** } قصر حقيقي. وفيه إثبات الحساب وأنّه لله وحده، وفيه تخطئتهم وتهديدهم.

ويجوز أن يكون القصر إضافيا، تطمينا للنبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّ الله لا يؤاخذه باستمرارهم على الكفر

كقوله تعالى { إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ } [الشورى:48]، وقوله تعالى { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ } [الشعراء:3].

{ **إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ** } تذييل، وفيه ضرب من ردّ العجز على الصدر، إذ افتُتحت السورة بـ { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ } وخُتمت بـ { إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ }، وهو نفي الفلاح عن الكافرين ضدّ المؤمنين.

{ **وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ** } [118].

عطف على جملة { وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ } باعتبار قوله تعالى { فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ }. فإنّ المقصود من الجملة خطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم بأن يدعو ربه بالمغفرة والرحمة.

{ **اغْفِرْ وَارْحَمْ** } في حذف المتعلّق تفويض الأمر إلى الله في تعيين المغفور لهم والمرحومين، والمراد من كانوا من المؤمنين. ويجوز أن يكون المعنى اغفر لي وارحمني، بقرينة المقام.

وأمره بأن يدعو بذلك يتضمّن وعدا بالإجابة.

وهذا الكلام مؤذن بانتهاء السورة فهو من براعة المقطع.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النور

سُمّيت هذه السورة (**سورة النور**) من عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم. وعن حارثة بن مضر: كتب إلينا عمر بن الخطاب أن تعلّموا سورة النساء والأحزاب والنور. وهذه تسميتها في المصاحف وكتب التفسير والسنّة، ولا يُعرف لها اسم آخر. ووجه التسمية أنّ فيها آية { اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }.

وهي مدنيّة باتفاق أهل العلم ولا يُعرف مخالف في ذلك.

وسيأتي أنّ سبب نزول قوله تعالى { الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً } قضية مرثد ابن أبي مرثد مع عَناق. ومرثد بن أبي مرثد استشهد في صفر سنة ثلاث للهجرة في غزوة الرجيع، فيكون أوائل هذه السورة نزل قبل سنة ثلاث، والأقرب، أن يكون في أواخر السنة الأولى أو أوائل السنة الثانية أيام كان المسلمون يتلاحقون للهجرة وكان المشركون جعلوهم كالأسرى.

ومن آياتها آيات قصة الإفك وهي نازلة عقب غزوة بني المصطلق من خُزاعة. والأصح أنّ غزوة بني المصطلق كانت سنة أربع فإنّها قبل غزوة الخندق.

ومن آياتها { وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ } نزلت في شعبان سنة تسع بعد غزوة تبوك فتكون تلك الآيات ممّا نزل بعد نزول أوائل هذه السورة وهذا يقتضي أنّ هذه السورة نزلت منجّمة متفرقة في مدة طويلة وألحق بعض آياتها ببعض.

وقد عُدَّت هذه السورة المائة في ترتيب نزول سور القرآن عند جابر ابن زيد عن ابن عباس. قال: نزلت بعد سورة النصر وقبل سورة الحج، أي: عند القائلين بأنّ سورة الحج مدنية.

وآيها اثنتان وستون في عدّ المدينة ومكة، وأربع وستون في عد البقية.

أغراض السورة

*/ أحكام معاشرة الرجال للنساء.

*/ من آداب الخلطة والزيارة.

*/ أوّل ما نزلت بسببه قضية التزوّج بامرأة اشتهرت بالزنى وصُدِّر ذلك ببيان حدّ الزنى.

*/ عقاب الذين يقذفون المحصنات.

*/ حكم اللعان.

*/ التعرّض إلى براءة عائشة رضي الله عنها ممّا أرجفه عليها أهل النفاق، وعقابهم، والذين شاركوهم.

*/ الزجر عن حبّ إشاعة الفواحش بين المؤمنين والمؤمنات.

*/ الأمر بالصفح عن الأذى مع الإشارة إلى قضية مسطح بن أثاثة.

*/ أحكام الاستئذان في الدخول إلى بيوت الناس المسكونة، ودخول البيوت غير المسكونة.

*/ آداب المسلمين والمسلمات في المخالطة وإفشاء السلام.

*/ التحريض على تزويج العبيد والإماء.

*/ التحريض على مكاتبتهم، أي: إعتاقهم على عوض يدفعونه لمالكيهم.

*/ تحريم البغاء الذي كان شائعا في الجاهلية.

*/ الأمر بالعفاف.

*/ ذمّ أحوال أهل النفاق والإشارة إلى سوء طويّتهم مع النبيّ صلى الله عليه وسلم.

*/ التحذير من الوقوع في حبائل الشيطان.

*/ ضرب المثل لهدي الإيمان وضلال الكفر.

*/ التنويه ببيوت العبادة والقائمين فيها.

*/ تخلّل ذلك وصف عظمة الله تعالى وبدائع مصنوعاته وما فيها من منن على الناس.

*/ أردف ذلك بوصف ما أعدّه الله للمؤمنين، وأنّ الله علم بما يضمره كل أحد وأن المرجع إليه والجزاء بيده.

{ سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } [1].

اسم الإشارة المقدّر: هذه سورة، يشير إلى حاضر في السمع وهو الكلام المتتالي، فكلّ ما ينزل من هذه السورة وألحق بها من الآيات فهو من المشار إليه باسم الإشارة المقدّر.

سورة: جزء من القرآن معيّن بمبدأ ونهاية وعدد آيات. وتقدّم بيانه في المقدّمة الثامنة.

{ **أَنْزَلْنَاهَا** } وما عطف عليها في موضع الصفة لسورة. والمقصود من تلك الأوصاف التنويه بهذه السورة ليُقبل المسلمون بشراشرهم على تلقّي ما فيها. وفي ذلك امتنان على الأمّة لتحديد أحكام سيرتها في أحوالها.

وعُبّر عن إنزالها بصيغة الماضي، وإنّما هو واقع في الحال، باعتبار إرادة إنزالها، فكأنّه قيل: أردنا إنزالها وإبلاغها، فجُعل ذلك الاعتناء كالماضي حرصا عليه.

{ **وَفَرَضْنَاهَا** } المعنى عند المفسرين: أوجبنا العمل بما فيها. وإنّما يليق هذا التفسير بالنظر إلى معظم هذه السورة لا إلى جميعها. فالذي أختاره أن يكون الفرض هنا بمعنى: **التعيين والتقدير**، كقوله تعالى { نَصِيباً مَفْرُوضاً } [النساء:7]، وقوله تعالى { مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ } [الأحزاب:38].

وتعدية فعل فرضنا إلى ضمير السورة من قبيل ما يُعبّر عنه في مسائل أصول الفقه من إضافة الأحكام إلى الأعيان بإرادة أحوالها، مثل { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ } [المائدة:3]، أي: أكلها. فالمعنى: وفرضنا آياتها.

{ **وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ** } تنويه آخر بهذه السورة، تنويه بكلّ آية اشتملت عليها السورة؛ من الهدي إلى التوحيد، وحقّيّة الإسلام، ومن حجج وتمثيل، وما في دلائل صنع الله على سعة قدرته وعلمه وحكمته، وهي ما أشار إليه قوله { وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ } [34]. ومن الآيات البيّنات التي أنزلت فيها اطلاع الله رسوله على دخائل المنافقين ممّا كتموه في نفوسهم من قوله تعالى { وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ - إلى قوله - إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } [48-53]، فحصل التنويه بمجموع السورة ابتداء والتنويه بكلّ جزء منها ثانيا.

الآيات: جمع آية وهي قطعة من الكلام القرآني دالة على معنى مستقلّ. وتقدّم بيانها في المقدمة الثامنة.

بيّنات: واضحات، مجاز عقلي لأنّ البيّن هو معانيها.

وأعيد فعل الإنزال، مع إغناء حرف العطف عنه، لإظهار مزيد العناية بها.

{ **لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** } مرتبطة بجملة { أَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ } لأن الآيات بهذا المعنى مظنّة التذكّر. فحصل بهذا الرجاء وصف آخر للسورة هو أنّها مبعث تذكّر وعظة.

التذكر: خُطُور ما كان منسيًّا في الذهن، وهو هنا مستعار لاكتساب العلم من أدلّته اليقينية بجعله كالعلم الحاصل من قبل فنسيه الذهن، أي: العلم الذي شأنه أن يكون معلوما، فشُبّه جهله بالنسيان.

{ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } [2].

{ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ } كالعنوان والترجمة في التبويب فلذلك أتي بعده بالفاء المؤذنة بأنّ ما بعدها في قوّة الجواب، وأنّ ما قبلها في قوّة الشرط. فالتقدير: إن أردتم حكمهما فاجلدوا كلّ واحد منهما مائة جلدة. ومن صرفوا ذهنهم عن هذه الدقائق في الاستعمال قالوا: الفاء زائدة في الخبر.

{ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي } صيغة اسم الفاعل بمنزلة الفعل المضارع في الدلالة على الاتصاف بالحدث في زمن الحال، فكأنّه قيل: التي تزني والذي يزني فاجلدوا كلّ واحد منهما.

ثم يجوز أن تكون قصّة مرثد بن أبي مرثد النازل فيها قوله تعالى { الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً } هي سبب نزول أوّل هذه السورة، فتكون آية { الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً } هي المقصد الأوّل من هذه السورة ويكون قوله تعالى { الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ } تمهيدا ومقدّمة، فإنّ تشنيع حال البغايا جدير بأن يُقدّم.

وتقديم المرأة في الذكر لأنّه أشدّ في تحذيرها.

الزنى: اسم مصدر زنى، وهو الجماع بين الرجل والمرأة اللذين لا يحلّ أحدهما للآخر، يقال: زنى الرجل وزنت المرأة، ويقال: زانى بصيغة المفاعلة لأنّ الفعل حاصل من فاعلين ولذلك جاء مصدره الزناء بالمد أيضا بوزن الفعال ويخفّف همزه فيصير اسما مقصورا.

وأكثر ما كان في الجاهلية أن يكون بداعي المحبّة والموافقة بين الرجل والمرأة دون عوض، فإن كان بعوض فهو البغاء. يكون في الحرائر ويغلب في الإماء وكانوا يجهرون به فكانت البغايا يجعلن رايات على بيوتهن. وكل ذلك يشمله اسم الزنى في اصطلاح القرآن وفي الحكم الشرعي.

وتقدّم ذكر الزنى في قوله تعالى { وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى } [الإسراء:32].

الجلد: الضرب بسير من جلد. مشتقّ من الجِلد (بكسر الجيم) لأنّه ضرب الجلد. أي: البشرة، كما يقال: جَبَهَه إذا ضرب جبهته، وبَطَنَه إذا ضرب بطنه، ورَأَسَه إذا ضرب رأسه.

قال في الكشّاف: " وفي لفظ الجلد إشارة إلى أنّه لا ينبغي أن يتجاوز الألم إلى اللحم ". أي: لا يكون الضرب يطير الجلد حتى يظهر اللحم، فاختيار هذا اللفظ دون الضرب مقصود به الإشارة إلى هذا المعنى.

واتفق فقهاء الأمصار على: أن ضرب الجلد بالسَّوط. والسوط: هو ما يضرب به الراكب الفرس، وهو جلد مضفور، وأن يكون السوط متوسّط اللين، وأن يكون رفع يد الضارب متوسّطا. ومحل الجلد هو الظهر عند مالك، وقال الشافعي: تضرب سائر الأعضاء ما عدا الوجه والفرج وأجمعوا على ترك الضرب على المَقاتل.

{ **كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا** } تأكيد للعموم المستفاد من التعريف.

{ **فَاجْلِدُوا** } الخطاب موجّه إلى المسلمين فيقوم به من يتولى أمور المسلمين من الأمراء والقضاة ولا يتولاه الأولياء. قال أبو حنيفة: لا يقيمه إلّا الإمام.

وكان أهل الجاهلية لا يعاقبون على الزنى لأنّه بالتراضي بين الرجل والمرأة إلّا إذا كان للمرأة زوج أو ولي يذبّ عن عرضه بنفسه.

{ **مِائَةَ جَلْدَةٍ** } فرض حدّ الزنى بهذه الآية جلد مائة، فعمّ المحصن وغيره، وخصّصته السنّة بغير المحصن من الرجال والنساء. فأمّا من أحصن منهما، أي: تزوّج بعقد صحيح ووقع الدخول فإنّ الزاني المحصن حدّه الرجم بالحجارة حتّى يموت. وكان ذلك سنة متواترة في زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم، ورجم ماعز ابن مالك. وأجمع على ذلك العلماء وكان ذلك الإجماع أثرا من آثار تواترها.

والخوارج بأجمعهم يرون هذه الآية على عمومها في المحصن وغيره ولا يرون الرجم ويقولون: ليس في كتاب الله الرجم فلا رجم.

وقد ثبت بالسنة أيضا تغريب الزاني بعد جلده تغريب سنة كاملة، ولا تغريب على المرأة. وليس التغريب عند أبي حنيفة بمتعيّن، ولكنّه لاجتهاد الإمام إن رأى تغريبه لدعارته.

{ **وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ** } فلمّا كان الجلد موجعا وكان المباشر له قد يرقّ على المجلود من وجعه نهي المسلمون أن تأخذهم رأفة فيتركوا الحدّ أو ينقصوه.

الأخذ: حقيقته الاستيلاء. وهو هنا مستعار لشدّة تأثير الرأفة على المخاطبين وامتلاكها إرادتهم بحيث يضعفون عن إقامة الحدّ فيكون كقوله تعالى { أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ } [البقرة:206]، فهو مستعمل في قوة ملابسة الوصف للموصوف.

الرأفة: رحمة خاصة تنشأ عند مشاهدة ضرّ بالمرؤوف. وتقدّم الكلام عليها عند قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ } [البقرة:143].

{ **فِي دِينِ اللهِ** } لإفادة أنّها رأفة غير محمودة لأنّها تعطّل دين الله، أي: أحكامه، وإنّما شرع الله الحدّ استصلاحا، فكانت الرأفة في إقامته فسادا. وفيه تعريض بأنّ الله الذي شرع الحدّ هو أرأف بعباده.

{ **إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ** } شرط محذوف الجواب لدلالة ما قبله عليه، أي: إن كنتم مؤمنين فلا تأخذكم بهما رأفة. وهذا صادر مصدر التلهيب والتهييج حتّى يقول السامع: كيف لا أومن بالله واليوم الآخر.

{ **وَالْيَوْمِ الْآخِرِ** } للتذكير بأنّ الرأفة بهما في تعطيل الحد أو نقصه نسيان لليوم الآخر، فإنّ تلك الرأفة تفضي بهما إلى أن يؤخذ منهما العقاب يوم القيامة، فهي رأفة ضارة كرأفة ترك الدواء للمريض، فإنّ الحدود جوابر على ما تؤذِن به أدلّة الشريعة.

{ **وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** } أمر أن تحضر جماعة من المسلمين إقامة حدّ الزنا تحقيقا

لإقامة الحدّ وحذرا من التساهل فيه فإنّ الإخفاء ذريعة للإنساء. وفيه فائدة أخرى وهي أنّ من مقاصد الحدود مع عقوبة الجاني أن يرتدع غيره.

الطائفة: الجماعة من الناس. وقد تقدّم ذكرها عند قوله تعالى { فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ } [النساء:102]. وظاهر الأمر يقتضي وجوب حضور طائفة للحد. وحمله الحنفية على الندب وكذلك الشافعية، ولم أقف على تصريح بحكمه في المذهب المالكي.

{ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ } [3]

هذه الآية نزلت مستقلّة بأوّلها ونهايتها كما يأتي قريبا في ذكر سبب نزولها، سواء كان نزولها قبل الآيات التي افتتحت بها السورة أم كان نزولها بعد تلك الآيات. فهذه الجملة ابتدائية، ومناسبة موقعها بعد الجملة التي قبلها واضحة.

وسبب نزول هذه الآية ما رواه أبو داود وما رواه الترمذي وصححه وحسنه: " أنّه كان رجل يقال له مرثد بن أبي مرثد الغنوي من المسلمين كان يخرج من المدينة إلى مكّة يحمل الأسرى [أي: الذين أوثقهم المشركون بمكة لأجل إيمانهم ولم يتركوهم يهاجرون إلى المدينة، فكان مرثد يحملهم إلى المدينة سرا] فيأتي بهم إلى المدينة. وكانت امرأة بغي بمكة يقال لها عَناق، وكانت خليلة له، وأنّه كان وعد رجلا من أسارى مكّة ليحمله. قال: فجئت حتى انتهيت إلى حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة. فقال: فجاءت عناق فقالت: مرثد؟ قلت: مرثد. قالت: مرحبا وأهلا هلم فبت عندنا الليلة. قال فقلت: حرّم الله الزنى. فقالت عناق: يا أهل الخيام هذا الرجل يحمل أسراكم، فتبعني ثمانية (من المشركين) ... إلى أن قال: ثم رجعوا ورجعت إلى صاحبي فحملته ففككت عنه كبله حتّى قدمت المدينة فأتيت رسول الله فقلت: يا رسول الله أنكح عَناق ؟ فأمسك رسول الله فلم يرد عليّ شيئا حتّى نزلت { الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ } قال رسول الله: **" يا مرثد لا تنكحها "**.

فتبيّن أنّ هذه الآية نزلت جوابا عن سؤال مرثد بن أبي مرثد هل يتزوّج عناق.

ومثار ما يشكل ويعضل من معناها: أنّ النكاح هنا عقد التزوّج كما جزم به المحقّقون من المفسّرين مثل الزجاج والزمخشري وغيرهما. وأنّه لا تردّد في أنّ هذه الآية نزلت بعد تحريم الزنى إذ كان تحريم الزنى من أوّل ما شرع من الأحكام في الإسلام كما في الآيات الكثيرة النازلة بمكّة.

وأنّه يلوح في بادئ النظر من ظاهر الآية أن صدرها إلى قوله { أَوْ مُشْرِكٌ } إخبار عن حال تزوّج امرأة زانية وأنّه ليس لتشريع حكم النكاح بين الزناة المسلمين، ولا نكاح بين المشركين. فإذا كان إخبارا لم يستقم معنى الآية إذ الزاني قد ينكح الحصينة والمشرك قد ينكح الحصينة وهو الأكثر فلا يستقيم لقوله تعالى { الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً} معنًى، وأيضا الزانية قد ينكحها المسلم العفيف لرغبة في

جمالها أو لينقذها من عهر الزنى وما هو بزان ولا مشرك فلا يستقيم معنى لقوله { وَالزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ }.

وإنّنا لو تنازلنا وقبلنا أن تكون لتشريع حكم فالإشكال أقوى إذ لا معنى لتشريع حكم نكاح الزاني والزانية والمشرك والمشركة فتعين تأويل الآية بما يفيد معنًى معتبرا.

والوجه في تأويلها: أن مجموع الآية مقصود منه التشريع دون الإخبار لأنّ الله قال في آخرها { وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ }. ولأنّها نزلت جوابا عن سؤال مرثد تزويجه عناق وهي زانية ومشركة ومرثد مسلم تقي. غير أن صدر الآية ليس هو المقصود بالتشريع، بل هو تمهيد لآخرها مشير إلى تعليل ما شُرع في آخرها، وفيه ما يفسّر مرجع اسم لإشارة الواقع في قوله تعالى { وَحُرَّمَ ذَلِكَ }، وأنّ حكمها عام لمرثد وغيره من المسلمين بحق عموم لفظ { الْمُؤْمِنِينَ }.

وينبني على هذا التأصيل أن قوله تعالى { الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً } تمهيد للحكم المقصود الذي في قوله تعالى { وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ } وأنّه مسوق مساق الإخبار دون التشريع فيتعيّن أن المراد من لفظ { الزَّانِي } المعنى الاسمي لاسم الفاعل، وهو معنى التلبّس بمصدره دون معنى الحدوث. إذ يجب أن لا يُغفل عن كون اسم الفاعل له شائبتان: شائبة كونه مشتقا من المصدر فهو بذلك بمنزلة الفعل المضارع، فضارب يشبه يضرب في إفادة حصول الحدث من فاعل، وشائبة دلالته على ذات متلبّسة بحدث فهو بتلك الشائبة يقوى فيه جانب الأسماء الدالة على الذوات. وحمله في هذه الآية على المعنى الاسمي تقتضيه قرينة السياق إذ لا يُفهم أن يكون المعنى أن الذي يُحدث الزنى لا يتزوج إلّا زانية لانتفاء جدوى تشريع منع حالة من حالات النكاح عن الذي أتى الزنى. وهذا على عكس محمل قوله تعالى { الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ } فإنّه بالمعنى الوصفي، أي: التلبّس بإحداث الزنى حسبما حملناه على ذلك آنفا بقرينة سياق ترتّب الجلد على الوصف، إذ الجلد عقوبة إنّما تترتّب على إحداث جريمة توجبها.

فتمخض أن يكون المراد من قوله تعالى { الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً ...}. من كان الزنى دأبا له قبل الإسلام وتخلّق به ثم أسلم وأراد تزوّج امرأة ملازمة للزنى مثل البغايا ومتّخذات الأخدان (ولا يكنّ إلّا غير مسلمات لا محالة) فنهى الله المسلمين عن تزوّج مثلها بقوله { وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ }. وقدّم له ما يفيد تشويهه بأنّه لا يلائم حال المسلم وإنّما هو شأن أهل الزنى، أي: غير المؤمنين، لأنّ المؤمن لا يكون الزنى له دأبا، ولو صدر منه لكان على سبيل الفلتة كما وقع لماعز بن مالك.

فالكلام تمهيد وليس بتشريع، لأنّ الزاني، بمعنى مَن الزنى له عادة، لا يكون مؤمنا فلا تشرّع له أحكام الإسلام. وهذا من قبيل قوله تعالى { الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ } [26]، وهذا يتضمّن أنّ المسلم إذا تزوج زانية فقد وضع نفسه في صف الزناة، أي: المشركين.

وعطف { أَوْ مُشْرِكَةً } على { زَانِيَةً } لزيادة التفظيع، فإنّ الزانية غير المسلمة قد تكون غير مشركة مثل

زواني اليهود والنصارى وبغاياهما. وكذلك عطف { أَو مُشْرِك } على { إِلَّا زَانٍ} لظهور أنّ المقام ليس بصدد التشريع للمشركات والمشركين أحكام التزوج بينهم إذ ليسوا بمخاطبين بفروع الشريعة.

فتمحّض من هذا أنّ المؤمن الصالح لا يتزوّج الزانية. ذلك لأنّ الدربة على الزنى يتكوّن بها خلق يناسب أحوال الزناة من الرجال والنساء فلا يرغب في معاشرة الزانية إلّا من تروق له أخلاق أمثالها، وقد كان المسلمون أيّامئذ قريبي عهد بشرك وجاهلية فكان من مهم سياسة الشريعة للمسلمين التباعد بهم عن كل ما يُستروَح منه أن يذكّرهم بما كانوا يألفونه، قصد أن تصير أخلاق الإسلام ملكات فيهم فأراد الله أن يبعدهم عمّا قد يُجدّد فيهم أخلاقا أوشكوا أن ينسوها.

فموقع هذه الآية موقع المقصود من الكلام بعد المقدّمة ولذلك جاءت مستأنفة كما تقع النتائج بعد أدلّتها، وقدّم قبلها حكم عقوبة الزنى لإفادة حكمه وما يقتضيه ذلك من تشنيع فعله. فلذلك فالمراد بالزاني: من وصف الزنى عادته.

وابتدئ في هذه الآية بذكر الزاني قبل ذكر الزانية على عكس ما تقدّم في قوله { الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ } فإنّ وجه تقديم الزانية في الآية السابقة هو ما عرفته، فأمّا هنا فإنّ سبب نزول هذه الآية كان رغبة رجل في تزوّج امرأة تعوّدت الزنى فكان المقام مقتضيا الاهتمام بما يترتّب على هذا السؤال من مذمّة الرجل الذي يتزوّج مثل تلك المرأة.

{ **وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** } ميل للمقصود من الجملتين قبلها، وهو تصريح بما أريد من تفظيع نكاح الزانية وببيان الحكم الشرعي في القضية.

{ **ذَلِكَ** } الإشارة إلى المعنى الذي تضمّنته الجملتان من قبل وهو نكاح الزانية.

ومن العلماء من حمل الآية على ظاهرها من التحريم وقالوا: هذا حكم منسوخ نسختها الآية بعدها { وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ } دخلت الزانية في الأيامي، أي: بعد أنّ استقر الإسلام وذهب الخوف على المسلمين من أن تعاودهم أخلاق أهل الجاهلية. وروي هذا عن سعيد بن المسيب وعن عبد الله بن عمرو بن العاص وابن عمر، وبه أخذ مالك وأبو حنيفة والشافعي.

وقال الخطابي: هذا خاص بهذه المرأة إذ كانت كافرة فأمّا الزانية المسلمة فإنّ العقد عليها لا يفسخ.

{ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ [4] إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [5] }.

كان فاشيا في الجاهلية رمي بعضهم بعضا بالزنى إذا رأوا بين النساء والرجال تعارفا أو محادثة. وكان فاشيا فيهم الطعن في الأنساب بهتانا إذا رأوا قلّة شبه بين الأب والابن، فكان ممّا يقترن بحكم حدّ الزنى

أن يذيّل بحكم الذين يرمون المحصنات بالزنا إذا كانوا غير أزواجهنّ وهو **حدّ القذف**.

الرمي: حقيقته قذف شيء من اليد. وشاع استعماله في نسبة فعل أو وصف إلى شخص. وتقدّم في قوله تعالى { ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً } [النساء:112].

المحصنات: هنّ المتزوّجات. والإحصان: الدخول بزوج بعقد النكاح. والمحصَن: اسم مفعول من أحصن الشيء إذا منعه من الإضاعة واستيلاء الغير عليه، فالزوج يُحصن امرأته، أي: يمنعها من الإهمال واعتداء الرجال. وهذا كتسمية الأبكار مخدَّرات ومقصورات. وتقدّم في [النساء:24].

{ **وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ** } أسند الفعل إلى اسم الموصول المذكّر وضمائر { تَابُوا / وَأَصْلَحُوا } وكذلك وصف { الفَاسِقُونَ } بصيغ التذكير. وعدّي فعل الرمي إلى مفعول { الْمُحْصَنَاتِ } بصيغة الإناث كلّ ذلك بناء على الغالب أو على مراعاة قصّة كانت سبب نزول الآية. إذ قد سوّى الإسلام التحريم والحدّ والعقاب الآجل والذمّ العاجل بين المرأة والرجل.

{ **بِأَرْبَعَةِ** } من البيّن أنّهم غير القاذف، لأنّ معنى { يَأْتُوا } لا يتحقّق فيما إذا كان القاذف من جملة الشهداء.

{ **شُهَدَاءَ** } حذف المتعلّق لظهور أنّهم شهداء على إثبات ما رمى به القاذف، أي: إثبات وقوع الزنى.

الجلد: تقدّم آنفا. وشرع هذا الجلد عقابا للرامي بالكذب أو بدون تثبّت، ولسد ذريعة ذلك.

{ **وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً** } لأنّه لمّا قذف بدون إثبات قد دلّ على تساهله في الشهادة فكان حقيقا بأن لا يؤخذ بشهادته.

الأبد: الزمن المستقبل كله.

{ **وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** } الحصر للمبالغة في شناعة فسقهم حتّى كأنّ ما عداه من الفسوق لا يعدّ فسقا.

{ **إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا** } الاستثناء حقّه أن يعود إلى جميع ما تقدّم قبله كما هو شأن الاستثناء عند الجمهور إلّا أنّه هنا راجع إلى خصوص عدم قبول شهادتهم وإثبات فسقهم وغير راجع إلى إقامة الحد، بقرينة { مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ} أي: بعد أن تحقّقت الأحكام الثلاثة، فالحدّ قد فات. على أنّه قد عُلم من استقراء الشريعة أنّ الحدود الشرعية لا تسقطها توبة مقترف موجبها.

التوبة: الإقلاع والندم وظهور عزمه على ألّا يعود لمثل ذلك.

وعند الجمهور، ليس من شرط التوبة هنا أن يُكذّب نفسه فيما قذف به، وهو قول مالك، لأنّه قد يكون صادقا، ولكنّه عجز عن إثبات ذلك بأربعة شهداء على الصفة المعلومة، فتوبته أن يُصلح ويحسن حاله.

وقال قوم: لا تعتبر توبته حتى يُكذّب نفسه. وهذا قول عمر بن الخطاب والشعبي.

{ **أَصْلَحُوا** } فعلوا الصلاح، أي: صاروا صالحين. فمفعول الفعل محذوف دلّ عليه السياق، أي: اصلحوا أنفسهم باجتناب ما نهوا عنه، وقد تقدّم عند قوله تعالى { إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا } [البقرة:160].

{ **فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } أي: فإنّ الله أمر بالمغفرة لهم لأنّه غفور رحيم، كما في قوله تعالى { إِلَّا الَّذِينَ

تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } [البقرة:160].

وإنّما صرّح في آية البقرة بما قُدّر نظيره هنا لأنّ المقام هنالك مقام إطناب لشدّة الاهتمام بأمرهم إذ ثابوا إلى الإيمان والإصلاح وبيان ما أنزل إليهم من الهدى بعد ما كتموه وكتمه سلفهم.

وظاهر الآية يقتضي أنّ حدّ القذف حقّ لله تعالى، وهو قول أبي حنيفة.

وقال مالك والشافعي: حقّ المقذوف. وترتّب على الخلاف سقوطه بالعفو من المقذوف.

وهذه الآية أصل في حد الفرية والقذف الذي كان أوّل ظهوره في رمي المحصنات بالزنى. فكلّ رمي بما فيه معرّة موجب للحدّ بالإجماع المستند للقياس.

{ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ [6] وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ [7] وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ [8] وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ [9] }.

هذا تخصيص للعمومَين اللذَين في قوله تعالى { وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ } فإنّ من المحصنات من هنّ أزواج لمن يرميهنّ، فخُصَّ هؤلاء الذين يرمون أزواجهم. إذ عُذر الأزواج خاصة في إقدامهم على القول في أزواجهم بالزنى إذا لم يستطيعوا إثباته بأربعة شهداء.

ووجه عذرهم في ذلك ما في نفوس النّاس من سجيّة الغيرة على أزواجهم وعدم احتمال رؤية الزنى بهنّ فدفع عنهم حدّ القذف بما شرع لهم من الملاعنة.

وفي هذا الحكم قبول لقول الزوج في امرأته في الجملة إذا كان متثبّتا، حتّى أنّ المرأة بعد أيمان زوجها تُكلّف بدفع ذلك بأيمانها وإلّا قُبِلَ قوله فيها مع أيمانه، فكان بمنزلة شهادة أربعة فكان موجبا حدّها إذا لم تدفع ذلك بأيمانها.

وعلّة ذلك هو أن في نفوس الأزواج وازعا يزعهم عن أن يرموا نساءهم بالفاحشة كذبا، وهو وازع التعيُّر من ذلك، ووازع المحبّة في الأزواج غالبا، ولذلك سمَّى الله ادّعاء الزوج عليها باسم الشهادة بظاهر الاستثناء في قوله تعالى { وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ } .

وكانوا في الجاهلية يقتلون على ذلك وكان الرجل مصدَّقًا فيما يدّعيه على امرأته. فمنع الإسلام من ذلك إذ ليس من حقّ أحد إتلاف نفس إلّا الحاكم. ولم يقرّر جعل أرواح الزوجات تحت تصرّف نفسيّات أزواجهنّ.

روى مالك في الموطأ عن سهل بن سعد: أنّ عويمرا العجلاني جاء إلى عاصم بن عدي الأنصاري فقال له: يا عاصم أرأيت رجلا وجد مع امرأته رجلا أيقتله فتقتلونه أم كيف يفعل؟ سل لي يا عاصم رسول الله

عن ذلك. فسأل عاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فكره رسول الله المسائل وعابها حتّى كبر على عاصم ما سمع من رسول الله. فلمّا رجع عاصم إلى أهله جاءه عويمر فقال: يا عاصم ماذا قال لك رسول الله؟ فقال عاصم لعويمر: لم تأتني بخير، قد كره رسول الله المسألة التي سألته عنها. فقال عويمر: والله لا أنتهي حتّى أسأله عنها. فقام عويمر حتّى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسط الناس فقال: يا رسول الله أرأيت رجلا وجد مع امرأته رجلا أيقتله فتقتلونه أم كيف يفعل؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" قد أُنزل فيك وفي صاحبتك فاذهب فأت بها "**. قال سهل: فتلاعنا وأنا مع الناس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد علم من أحاديث سبب نزول الآية، ومن علّة تخصيص الأزواج في حكم القذف بحكم خاص، ومن لفظ { يَرْمُونَ }، ومن ذكر الشهداء، أنّ اللعان رخصة منّ الله بها على الأزواج في أحوال الضرورة فلا تتعداها. قال مالك في المشهور عنه وآخر قوليه، وجماعة: لا يلاعن بين الزوجين إلى إذا ادعى الزوج رؤية امرأته تزني أو نفى حملها نفيا مستندا إلى حدوث الحمل بعد تحقّق براءة رحم زوجه وعدم قربانه إيّاها، فإن لم يكن كذلك ورماها بالزنى، أي: بمجرّد السماع أو برؤية رجل في البيت في غير حال الزنى، أو بقوله لها: يا زانية، أو نحو ذلك مما يجري مجرى السب والشتم فلا يشرع اللعان، ويحدّ الزوج في هذه الأحوال حدّ القذف لأنّه افتراء لا بيّنة عليه ولا عذر يقتضي تخصيصه، إذ العذر هو عدم تحمّل رؤية امرأته تزني وعدم تحمل رؤية حمل يتحقق أنّه ليس منه.

وقال أبو حنيفة والشافعي والجمهور: إذا قال تحمُّلًا لها: يا زانية، وجب اللعان ذهابا منهم إلى أنّ اللعان بين الزوجين يجري في مجرّد القذف أيضا، تمسكا بمطلق لفظ { يَرْمُونَ }.

ويقدح في قياسهم أنّ بين دعوى الزنى على المرأة وبين السب بألفاظ فيها نسبة إلى الزنا فرقا بيّنا عند الفقيه. وتسمية القرآن أيمان اللعان شهادة يومئ إلى أنّها لردّ دعوى، وشرط ترتّب الآثار على الدعوى أن تكون محققة، فقول مالك أرجح من قول الجمهور لأنه أغوص على الحقيقة الشرعية.

{ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ } لمّا تعذّر على الأزواج إلفاء الشهادة في مثل هذا الحال وعذرهم الله في الادعاء بذلك ولم يترك الأمر سبهللًا ولا ترك النساء مضغة في أفواه من يريدون التشهير بهنّ من أزواجهن لشقاق أو غيظ مفرط أو حماقة كلّف الأزواج شهادة لا تعسر عليهم إن كانوا صادقين فيما يدّعون، فأوجب عليهم الحلف بالله أربع مرات لتقوم الأيمان مقام الشهود الأربعة المفروضين.

وسُمِّي اليمين شهادة لأنّه بدل منها فهو مجاز بعلاقة الحلول الاعتباري.

ولأجل المحافظة على هذه البدلية اشترط أن تكون أيمان اللعان بصيغة: **(أشهد بالله)**عند الأئمة الأربعة.

وأمّا ما بعد صيغة أشهد فيكون كاليمين على حسب الدعوى التي حلف عليها بلفظ لا احتمال فيه.

وقرأ الجمهور بنصب { أَربَعَ } على أنه مفعول مطلق لشهادة. وقرأ حمزة والكسائي وحفص وخلف بالرفع على أنّه خبر المبتدأ وجملة { إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ } إلى آخرها بدل.

ولا خلاف بين القراء في نصب { أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ }.

{ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ } حكاية للفظ اليمين مع كون الضمير مراعى فيه سياق الغيبة، أي: يقول: أنّي لمن الصادقين فيما ادعيت عليها.

{ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ } التقدير: والشهادة الخامسة. وليس لها مقابل في عدد شهود الزنى. فلعلّ حكمة زيادة هذه اليمين مع الأيمان الأربع القائمة مقام الشهود الأربعة أنّها لتقوية الأيمان الأربع باستذكار ما يترتب على أيمانه، أن كانت غموسا، من الحرمان من رحمة الله تعالى. وهذا هو وجه كونها مخالفة في صيغتها لصيغ الشهادات الأربع التي تقدّمتها.

{ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ } لأنّه، إن كان كاذبا، فقد عرّض بامرأته للعنة الناس ونبذ الأزواج إيّاها فناسب أن يكون جزاؤه اللعنة.

اللعنة واللعن: الإبعاد بتحقير. وقد تقدّم في قوله تعالى { وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ } [الحجر:35].

واعلم أنّ الزوج إن سمّى رجلا معيّنا زنى بامرأته صار قاذفا له، زيادة على قذفه المرأة، وأنّه إذا لاعن وأتم اللعان سقط عنه حدّ القذف للمرأة، وهو ظاهر، ويبقى النظر في قذفه ذلك الرجل الذي نسب إليه الزنى. وقد اختلف الأئمة في سقوط حدّ القذف للرجل:

<u>قال الشافعي</u>: يسقط عنه حدّ القذف للرجل لأنّ الله تعالى لم يذكر إلّا حدًّا واحدا، ولأنّه لم يثبت بالسنّة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام حدّ الفرية على عويمر العجلاني ولا على هلال أبن أميّة بعد اللعان.

<u>قال مالك و أبو حنيفة</u>: يسقط اللعان حدّ الملاعن لقذف امرأته ولا يسقط حدّ القذف لرجل سمّاه، والحجّة لهما بأنّ الله شرع حدّ القذف.

{ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ } لمّا كانت هذه الأيمان مقتضية صدق دعوى الزوج على المرأة كان من أثر ذلك أن تعتبر المرأة زانية أو أن يكون حملها ليس منه فهو من زنى لأنّها في عصمة فكان ذلك مقتضيا أن يقام عليها حدّ الزنى، فلم تهمل الشريعة حقّ المرأة ولم تجعلها مأخوذة بأيمان قد يكون حالفها كاذبا فيها، فجعل للزوجة معارضة أيمان زوجها، كما جعل للمشهود عليه الطعن في الشهادة بالتجريح أو المعارضة.

الدرء: الدفع بقوّة، واستعير هنا للإبطال. وتقدّم عند قوله تعالى { وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ } [الرعد:22].

{ الْعَذَابَ } التعريف للعهد لتقدّم ذكر العذاب في قوله تعالى { وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } .

يؤخذ من الآية أنّ المرأة إذا لم تحلف أيمان اللعان أقيم عليها الحدّ. وهذا هو الذي تشهد به روايات حديث اللعان في السنّة. وقال أبو حنيفة: إذا نكلت المرأة عن أيمان اللعان لم تحد لأنّ الحد عنده لا يكون إلا بشهادة شهود أو إقرار.

{ **وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ** } عُيّن لها في الخامسة الدعاء بغضب الله عليها إن صدق زوجها لأنّها أغضبت زوجها بفعلها فناسب أن يكون جزاؤها على ذلك غضب ربّها عليها كما أغضبت بعلها.

وتتفرع من أحكام اللعان فروع كثيرة هي من موضوع كتب الفروع.

{ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ } [10].

تذييل لما مرّ من الأحكام العظيمة المشتملة على التفضّل من الله والرحمة منه، والمؤذنة بأنّه توّاب على من تاب من عباده، والمنبئة بكمال حكمته تعالى إذ وضع الشدّة موضعها والرفق موضعه، وكفّ بعض الناس عن بعض، فلمّا دخلت تلك الأحكام تحت كلّي هذه الصفات كان ذكر الصفات تذييلا.

{ **وَلَوْلَا** } الجواب محذوف لقصد تهويل مضمونه. والتقدير: لولا فضل الله عليكم فدفع عنكم أذى بعضكم لبعض بما شرع من الزواجر لتكالب بعضكم على بعض، ولولا رحمة الله بكم فقدّر لكم تخفيضا ممّا شرع من الزواجر في حالة الاضطرار والعذر لما استطاع أحد أن يسكت على ما يرى من مثار الغيرة، ولولا أنّ الله توّاب حكيم لما ردّ على من تاب فأصلح ما سلبه منه من العدالة وقبول الشهادة.

{ **تَوَّابٌ حَكِيمٌ** } إشارة إلى أنّ في هذه التوبة حكمة وهي استصلاح الناس.

{ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [11].

استئناف ابتدائي فإنّ هذه الآيات العشر من قوله { إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا - إلى قوله - وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [11-21] نزلت في زمن بعيد عن زمن نزول الآيات السابقة.

الإفك: اسم يدلّ على كذب لا شبهة فيه، فهو بهتان يفجأ الناس. وهو مشتق من **الأفك** (بفتح الهمزة) وهو قلب الشيء، ومنه سُمِّي أهل سدوم وعمورة وأدمة وصبوييم، قرى قوم لوط أصحاب المؤتفكة لأنّ قراهم ائتفكت، أي: قُلبت وخُسف بها فصار أعلاها أسفلها. وتقدّم عند قوله { فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ } [الأعراف:117].

{ **جَاءُوا بِالْإِفْكِ** } معناه: قصدوا واهتمّوا. وأصله: أنّ الذي يخبر بخبر غريب يقال له: جاء بخبر كذا، ولأنّ شأن الأخبار الغريبة أن تكون مع الوافدين من أسفار أو المبتعدين عن الحي، فشُبّه الخبر بقدوم

المسافر أو الوافد على وجه المكنية وجعل المجيء ترشيحا وعُدِّي بباء المصاحبة تكميلا للترشح.

حادثة الإفك: حديث اختلقه المنافقون وراج عند المنافقين ونفر من سذّج المسلمين، إمّا لمجرّد اتباع النعيق وإمّا لإحداث الفتنة بين المسلمين. وحاصل هذا الخبر: أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لمّا قفل من غزوة بني المصطلق من خزاعة، (وتسمّى غزوة المريسيع) ولم تبق بينه وبين المدينة إلّا مرحلة، آذن بالرحيل آخر الليل. فلمّا علمت عائشة بذلك خرجت من هودجها وابتعدت عن الجيش لقضاء شأنها كما هو شأن النساء قبل الترحّل فلمّا فرغت أقبلت إلى رحلها فافتقدت عقدا من جزع ظَفار كان في صدرها فرجعت على طريقها تلتمسه فحبسها طلبه وكان ليل. فلمّا وجدته رجعت إلى حيث وُضع رحلها فلم تجد الجيش ولا رحلها، وذلك أنّ الرجال الموكّلين بالترحّل قصدوا الهودج فاحتملوه وهم يحسبون أنّ عائشة فيه، وكانت خفيفة قليلة اللحم، فرفعوا الهودج وساروا، فلمّا لم تجد أحدا اضطجعت في مكانها رجاء أن يفتقدوها فيرجعوا إليها فنامت وكان صفوان بن المعطِل (بكسر الطاء) السُلَمي (بضم السين وفتح اللام نسبة إلى بني سُليم) وكان مستوطنا المدينة من مهاجرة العرب قد أوكل إليه النبيّ صلى الله عليه وسلم حراسة ساقة الجيش، فلمّا علم بابتعاد الجيش وأمن عليه من غدر العدو ركب راحلته ليلتحق بالجيش فلمّا بلغ الموضع الذي كان به الجيش بصر بسواد إنسان فإذا هي عائشة وكان قد رآها قبل الحجاب فاسترجع، واستيقظت عائشة بصوت استرجاعه ونزل عن ناقته وأدناها منها وأناخها فركبتها عائشة وأخذ يقودها حتّى لحق بالجيش في نحر الظهيرة، وكان عبد الله ابن أُبَي بن سلول رأس المنافقين في الجيش فقال: والله ما نجت منه ولا نجا منها، فراج قوله على حسان بن ثابت ومِسطَح بن أُثاثة وحَمنة بنت جحش، أخت زينب أم المؤمنين، حملتها الغيرة لأختها ضرّة عائشة وساعدهم في حديثهم طائفة من المنافقين أصحاب بن سلول.

العصبة: الجماعة من عشرة إلى أربعين، كذا قال جمهور أهل اللغة. وقيل: الجماعة من الثلاثة إلى العشرة وروي عن ابن عباس. ويقال: عصابة. وقد تقدّم في [يوسف:8].

وذكر عصبة تحقير لهم ولقولهم، أي: لا يُعبأ بقولهم في جانب تزكية جميع الأمّة لمن رموهما بالإفك.

{ **عُصْبَةٌ مِنْكُمْ** } يدلّ على أنّهم من المسلمين، وفي ذلك تعريض بهم بأنّهم حادوا عن خلق الإسلام حيث تصدّوا لأذى المسلمين.

{ **لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ** } لإزالة ما حصل في نفوس المؤمنين من الأسف من اجتراء عصبة على هذا البهتان الذي اشتملت عليه القصّة، فضمير تحسبوه عائد إلى الإفك.

والشرّ المحسوب: أنّه أحدث في نفر معصية الكذب والقذف، والمؤمنون يودّون أن تكون جماعتهم خالصة من النقائص. فلما حدث فيهم الاضطراب حسبوه شرا نزل بهم.

ومعنى نفي أن يكون ذلك شرا لهم لأنّه يضيرهم بأكثر من ذلك الأسف الزائل، وهو دون الشرّ، لأنّه آيل إلى توبة المؤمنين منهم، فيتمخّض إثمه للمنافقين، وهم جماعة أخرى لا يضرّ ضلالهم المسلمين.

وقال أبو بكر ابن العربي: حقيقة الخير ما زاد نفعه على ضرّه، وحقيقة الشرّ ما زاد ضرّه على نفعه، وأنّ خيرا لا شرّ فيه هو الجنّة وشرًّا لا خير فيه هو جهنم.

الخير: تقدم عند قوله تعالى { أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ } [النحل:76].

الإثم: الذنب، وتقدّم عند قوله تعالى { قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ } [البقرة:219].

{ **وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ** } تولّي الأمر مباشرة عمله والتهمّم به.

الكِبر: بكسر الكاف في قراءة الجمهور، ويجوز ضم الكاف، وقرأ به يعقوب وحده، ومعناه: أشدّ الشيء ومعظمه، فهما لغتان عند جمهور أئمة اللغة. وقال ابن جنّي والزجّاج: المكسور بمعنى الإثم، والمضموم: معظم الشيء.

والذي تولّى كبره هو عبد الله بن أُبَي بن سلول وهو منافق وليس من المسلمين. وقيل: الذي تولى كبره حسان بن ثابت، والوعيد بأنّ له عذابا عظيما يقتضي أنّه عبد الله بن أُبي بن سلول. وفيه إنباء بأنّه يموت على الكفر فيعذّب العذاب العظيم في الآخرة وهو عذاب الدرك الأسفل من النار، وأمّا بقية العصبة فلهم من الإثم بمقدار ذنبهم. وفيه إيماء بأنّ الله يتوب عليهم إن تابوا، كما هو الشأن في هذا الدين.

{ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ } [12].

استئناف لتوبيخ عصبة الإفك من المؤمنين وتعنيفهم بعد أن سمَّاه إفكا.

{ **لَوْلَا** } هنا بمعنى (هلّا) للتوبيخ كما هو شأنها إذا وليها الفعل الماضي وهو هنا { ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ }.

{ **إِذْ سَمِعْتُمُوهُ** } ظرف متعلّق بفعل الظنّ فقُدّم عليه للاهتمام بمدلول ذلك الظرف تنبيها على أنّهم كان من واجبهم أن يطرق ظنّ الخير قلوبهم بمجرد سماع الخبر وأن يتبرّؤوا من الخوض فيه.

{ **ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ** } محلّ التوبيخ، فأسند السماع إلى جميع المخاطبين وخُصّ بالتوبيخ من سمعوا ولم يكذّبوا الخبر. وجرى الكلام على الإبهام في التوبيخ بطريقة التعبير بصيغة الجمع وإن كان المقصود دون عدد الجمع، فإنّ من لم يظنّ خيرا رجلان (**حسان بن ثابت** و **مِسطَح بن أُثاثة**)، فعُبّر عنهما بالمؤمنين، وامرأة (**حَمنة بنت جحش**) فعُبّر عنها بالمؤمنات.

والعدول عن ضمير الخطاب في إسناد فعل الظنّ إلى المؤمنين التفات، للاهتمام بالتوبيخ، فإنّ الالتفات ضرب من الاهتمام بالخبر، وليُصرَّح بلفظ الإيمان، دلالة على أنّ الاشتراك في الإيمان يقتضي أن لا يُصدِّق مؤمن على أخيه وأخته في الدين ولا مؤمنة على أخيها وأختها في الدين قول عائب ولا طاعن.

وفيه تنبيه على أنّ حقّ المؤمن إذا سمع قَالَةً في مؤمن أن يبني الأمر فيها على الظنّ لا على الشك، ثم ينظر في قرائن الأحوال وصلاحيّة المقام.

وفيه تعريض بأنّ ظنّ السوء الذي وقع هو من خصال النفاق التي سرت لبعض المؤمنين عن غرور وقلّة بصارة فكفى بذلك تشنيعا له.

{ **بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً** } يقتضي التوزيع، أي: ظنّ كلّ واحد منهم بالآخرين ممّن رُموا بالإفك خيرا. وهذا كقوله تعالى { وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ } [الحجرات:11] أي: يلمز بعضكم بعضا.

روي أنّ أبا أيوب الأنصاري لمّا بلغه خبر الإفك قال لزوجه: ألا ترين ما يقال؟ فقالت له: لو كنت بدل صفوان أكنت تظنّ بحرمة رسول الله سوءا ؟ قال: لا. قالت: ولو كنت أنا بدل عائشة ما خنت رسول الله، فعائشة خير منّي وصفوان خير منك. قال: نعم.

{ **وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ** } تشريع لوجوب المبادرة بإنكار ما يسمعه المسلم من الطعن في المسلم بالقول كما ينكره بالظنّ، وكذلك تغيير المنكر بالقلب واللسان.

المبين: البالغ الغاية في البيان، أي: الوضوح، كأنّه لقوّة بيانه قد صار يُبيّن غيره.

{ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ } [13].

استئناف ثان لتوبيخ العصبة الذين جاؤوا بالإفك وذمٌّ لهم. و{ **لَوْلَا** } هذه مثل (لولا) السابقة بمعنى هلّا. والمعنى: أنّ الذي يخبر خبرا عن غير مشاهدة يجب أن يستند في خبره إلى إخبار مشاهد، ويجب كون المشاهدين المخبرين عددا يفيد خبرهم الصدق. وهذا مستند إلى الحكم المتقرّر من قبل في أوّل السورة بقوله تعالى { وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً } [4]، فقد علمت أنّ أوّل السورة نزل أواخر سنة اثنتين أو أوائل سنة ثلاث قبل استشهاد مرثد بن أبي مرثد.

{ **فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ** } صيغة الحصر للمبالغة، كأنّ كذبهم لقوّته وشناعته لا يعدّ غيرهم من الكاذبين كاذبا، فكأنّهم انحصرت فيهم ماهية الموصوفين بالكذب.

{ **فَأُولَئِكَ** } اسم الإشارة لزيادة تمييزهم بهذه الصفة ليحذر الناس أمثالهم.

{ **عِنْدَ اللَّهِ** } التقييد لزيادة تحقيق كذبهم، أي: هو كذب في علم الله. وليس المراد ما ذكره كثير من المفسّرين أن المعنى: في شرعه، لأنّ ذلك يصيره قيدا للاحتراز، فيصير المعنى: هم الكاذبون في إجراء أحكام الشريعة. وهذا ينافي غرض الكلام ويجافي ما اقترن به من تأكيد وصفهم بالكذب.

{ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [14].

{ **وَلَوْلا** } هذه حرف امتناع لوجود. والفضل في الدنيا يتعيّن أنّه إسقاط عقوبة الحدّ عنهم بعفو عائشة وصفوان عنهم، وفي الآخرة إسقاط العقاب عنهم بالتوبة. والخطاب للمؤمنين دون رأس المنافقين.

وهذه الآية تؤيّد ما عليه الأكثر أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يحدَّ القذف أحدا من العصبة الذين تكلّموا في الإفك. وهو الأصح من الروايات: إمّا لعفو عائشة وصفوان، وإمّا لأنّ كلامهم في الإفك كان تخافتا

وسرارا ولم يجهروا به ولكنهم أشاعوه في أوساطهم ومجالسهم.
وقيل: حُدَّ حسان ومسطحا وحَمنة، قاله ابن إسحاق وجماعة، وأمّا عبد الله بن أبي فقال فريق: إنّه لم يحدّ حدّ القذف تأليفا لقلبه للإيمان. وعن ابن عباس أن أُبَيًّا جلد حد القذف أيضا.
الإفاضة: مستعار من إفاضة الماء في الإناء، أي: كثرته فيه. فالمعنى: ما أكثرتم القول فيه والتحدّث به بينكم.

{ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ } [15].

{ **إِذْ** } ظرف متعلّق بـ { **أَفَضْتُمْ** } والمقصود منه ومن الجملة المضاف هو إليها استحضار صورة حديثهم في الإفك وبتفظيعها.
{ **تَلَقَّوْنَهُ** } أصلها (تتلقّونه) بتاءين حذفت إحداهما. وأصل التلقّي أنه التكلّف للقاء الغير، وتقدّم في قوله تعالى { فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ } [البقرة:37]، أي: عُلِّمها ولُقِّنها. ثم يطلق التلقي على أخذ شيء باليد من يد الغير. وفي الحديث: **" من تصدّق بصدقة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا طيبا، تلقّاها الرحمان بيمينه ".**
{ **بِأَلْسِنَتِكُمْ** } تشبيه الخبر بشخص وتشبيه الراوي للخبر بمن يتهيّأ ويستعدّ للقائه، استعارة مكنية.
وفيه تعريض بحرصهم على تلقّي هذا الخبر بلا تروٍّ ولا تريُّثٍ. وفيه توبيخ أيضا .
{ **وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ** }، أي: هو قول غير موافق لما في العلم، ولكنّه عن مجرّد تصوّر.
وفي هذا من الأدب الأخلاقي أنّ المرء لا يقول بلسانه إلّا ما يعلمه ويتحقّقه، وإلّا فهو أحد رجلين:
<u>أفن الرأي</u> يقول الشيء قبل أن يتبيّن له الأمر فيوشك أن يقول الكذب فيحسبه الناس كذّابا. كما في الحديث : **" بحسب المرء من الكذب أن يحدِّث بكل ما سمع ".**
<u>أو رجل مُمَوِّه</u> مُراء يقول ما يعتقد خلافه، قال تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ } [البقرة:204]، وقوله تعالى { كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ } [الصف:3].
هذا في الخبر، وكذلك الشأن في الوعد، فلا يعد إلّا بما يعلم أنّه يستطيع الوفاء به. وفي الحديث: **" آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان ".**
{ **وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ** } زيادة في توبيخهم، أي: تحسبون الحديث بالقذف أمرا هيّنا.
الهيّن: مشتق من الهوان، وهوانُ الشيء عدم توقيره والمبالاة بشأنه.

وإنّما حسبوه هيّنا مع أنّ الحدّ ثابت قبل نزول الآية بحسب ظاهر ترتيب الآية في قوله تعالى { وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ } [4] لجواز أنّه لم تحدث قضية قذف فيما بين نزول تلك الآية ونزول هذه الآية، أو حدثت قضيّة عويمر العجلاني ولم يعلم بها أصحاب الإفك، أو حسبوه هيّنا لغفلتهم عمّا تقدّم من حكم الحدّ، إذ كان العهد به حديثا.

{ **عِنْدِ اللَّهِ** } في علم الله ممّا شرعه لكم من الحكم، كما تقدّم في قوله تعالى {فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ}.

{ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ } [16].

عطف على جملة { لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ }. وأُعيدت (لولا) وشرطها وجوابها لزيادة الاهتمام بالجملة فلذلك لم يعطف { قُلْتُمْ } الذي في هذه الجملة على { قُلْتُمْ } الذي في الجملة قبلها لقصد أن يكون صريحا في عطف الجمل.

{ **إِذْ سَمِعْتُمُوهُ** } تقديم الظرف على عامله وهو { قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا } كتقديم نظيره { لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ } وهو للاهتمام بمدلول الظرف.

{ **قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا** } أي: أن يقولوا ذلك للذين أخبروهم بهذا الخبر الإفك زجرا وموعظة.

{ **لَنَا** } مراد به القائلون والمخاطَبون. فأمّا المخاطبون فلأنّهم تكلّموا به حين حدَّثوهم بالخبر. والمعنى: ما يكون لكم أن تتكلموا بهذا. وأمّا المتكلّمون فلتنزههم أن يجري ذلك البهتان على ألسنتهم.

{ **مَا يَكُونُ لَنَا** } أشدّ في نفي الفعل من قولك: ليس لي أن أفعل. ومنه قوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام { قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ } [المائدة:116].

وهذا مسوق للتوبيخ على تناقلهم الخبر الكاذب وكان الشأن أن يقول القائل في نفسه: ما يكون لنا أن نتكلّم بهذا، ويقول ذلك لمن يجالسه ويسمعه منه.

{ **سُبْحَانَكَ** } جملة إنشاء وقعت معترضة. لإعلان المتكلّم البراءة من شيء بتمثيل حال نفسه بحال من يُشهد الله على ما يقول فيبتدئ بخطاب الله بتعظيمه ثم بقول { هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ } تبرُّؤًا من لازم ذلك، وهو مبالغة في إنكار الشيء والتعجّب من وقوعه.

{ **هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ** } تعليل لجملة { مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا } فهي داخلة في توبيخ المقول لهم.

البهتان: مصدر، وهو الخبر الكذب الذي يُبهت السامع لأنّه لا شبهة فيه. وقد مضى عند قوله تعالى { وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً } [النساء:156].

وإنّما كان عظيما لأنّه مشتمل على منكرات كثيرة وهي: الكذب، وكون الكذب بطعن في سلامة العرض، وكونه يسبّب إحَنًا عظيمة بين المفترين والمفترى عليهم بدون عذر، وكون المفترى عليهم من خيرة الناس وانتمائهم إلى أخير الناس من أزواج وآباء وقرابات، وأعظم من ذلك أنّه اجتراء على مقام النبيّ صلى الله عليه وسلم ومقام أمّ المؤمنين رضي الله عنها.

{ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [17] وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ [18] }.

بعد أن بيّن الله تعالى ما في خبر الإفك من تبعات لحق بسببها للذين جاؤوا به والذين تقبّلوه عديدُ التوبيخ والتهديد، وافتضاحٌ للذين روّجوه، وخيبةٌ مختلقة بنقيض قصدهم، وانتفاع للمؤمنين بذلك، ونعى على المؤمنين تهاونهم وغفلتهم عن سوء نيّة مختلقيه، وكيف ذهلوا عن ظنّ الخير بمن لا يعلمون منهما إلّا خيرا، فلم يفنّدوا الخبر، وأنّهم اقتحموا بذلك ما يكون سببا للحاق العذاب بهم في الدنيا والآخرة، وكيف حسبوه أمرا هيّنا وهو عند الله عظيم، ولو تأمّلوا لعلموا عظمه عند الله، وسكوتهم عن تغيير هذا، بعد أن بيّن كلّ ذلك أعقبه بتحذير المؤمنين من العود إلى مثله.

الوعظ: الكلام الذي يُطلب به تجنّب المخاطَب به أمرا قبيحا. وتقدّم في [النحل:90].

وضمّن فعل { **يَعِظُكُمُ** } معنى التحذير. فالتقدير: يحذركم من العود لمثله. وفي الكلام إيجاز.

الأبد: الزمان المستقبل كلّه، والغالب أن يكون ظرفا للنفي.

{ **إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** } تهييج وإلهاب لما يبعث حرصهم على ألّا يعودوا لمثله، لأنّهم حريصون على إيمانهم.

{ **وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ** } أي: يجعلها لكم واضحة الدلالة على المقصود.

الآيات: آيات القرآن النازلة في عقوبة القذف، وموعظة الغافلين عن المحرّمات.

{ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** } مناسبة التذكير بصفتي العلم والحكمة ظاهرة.

{ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ } [19].

وعيد على محبّة شيوع الفاحشة في المؤمنين، فالجملة استئناف ابتدائي، واسم الموصول يعمّ كلّ من يتّصف بمضمون الصلة، فهو تحذير للمؤمنين، وإخبار عن المنافقين والمشركين.

وجُعل الوعيد على مطلق المحبّة، لأنّها دالة على خبث النيّة نحو المؤمنين. ومن شأن تلك الطويّة ألّا يلبث صاحبها إلّا يسيرا حتّى يصدر عنه ما هو محبٌّ له، أو يُسرُّ بصدور ذلك من غيره.

فالمحبّة هنا كناية عن التهيؤ لإبراز ما يحبّ وقوعه. وجيء بصيغة الفعل المضارع للدلالة على الاستمرار. وتلك المحبّة شيء غير الهمّ بالسيئة وغير حديث النفس لأنهّما خاطران يمكن أن ينكفّ عنهما صاحبهما، وأمّا المحبّة المستمرّة فهي رغبة في حصول المحبوب.

{ **أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا** } أن يشيع خبرها، لأنّ الشيوع من صفات الأخبار والأحاديث، كالفشو وهو: اشتهار التحدّث بها. فتعيّن تقدير مضاف، أي: أن يشيع خبرها.

{ **الْفَاحِشَةُ** } الفعلة البالغة حدًا عظيما في الشناعة. وشاع إطلاق الفاحشة على الزنى ونحوه وتقدّم في قوله تعالى { وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ } [النساء:15]. وتقدّم ذكر الفاحشة بمعنى الأمر المنكر في قوله تعالى { وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا } [الأعراف:28.

وتقدّم لفظ الفحشاء في قوله تعالى { إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ } [البقرة:169].

ومن أدب هذه الآية أنّ شأن المؤمن ألّا يحبّ لإخوانه المؤمنين إلّا ما يحبّ لنفسه، فكما أنّه لا يحبّ أن يشيع عن نفسه خبر سوء كذلك عليه ألّا يحبّ إشاعة السوء عن إخوانه المؤمنين. ولشيوع أخبار الفواحش بين المؤمنين بالصدق أو الكذب مفسدة أخلاقية، فإنّ مما يزع الناس عن المفاسد تهيُّبهم وقوعها وتجهّمهم وكراهتهم سوء سمعتها.

{ **وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ** } أي: يعلم ما في ذلك من المفاسد فيعظكم لتجتنبوا، وأنتم لا تعلمون فتحسبون التحدث بذلك لا يترتّب عليه ضرّ، وهذا كقوله تعالى { وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ } [15].

{ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ } [20].

هذه ثالث مرّة كرّر فيها { وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ } [20/14/10]. وحُذف في الأوّل والثالث جواب (لولا) لتذهب النفس كلّ مذهب ممكن في تقديره بحسب المقام.

وقد ذكر في المرّة الأولى وصف الله بأنّه { تَوَّابٌ حَكِيمٌ } للمناسبة المتقدّمة، وذكر هنا بأنّه { رَؤُوفٌ رَحِيمٌ }، لأنّ هذا التنبيه الذي تضمّنه التذييل فيه انتشال للأمّة من اضطراب عظيم في أخلاقها وآدابها وانفصام عرى وحدتها فأنقذها من ذلك رأفة ورحمة لآحادها وجماعتها وحفظا لأواصرها.

{ **وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ** } ذكر وصف الرأفة والرحمة هنا لأنّه قد تقدّمه إنقاذه إيّاهم من سوء محبّة أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، تلك المحبة التي انطوت عليها ضمائر المنافقين، كان إنقاذ المؤمنين من التخلّق بها رأفة بهم من العذاب ورحمة لهم بثواب المتاب.

وهذه الآية هي منتهى الآيات العشر التي نزلت في أصحاب الإفك على عائشة رضي الله عنها، نزلت متتابعة على النبيّ صلى الله عليه وسلم وتلاها حين نزولها وهو في بيته.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [21].

هذه الآية نزلت بعد العشر الآيات المتقدّمة، فالجملة استئناف ابتدائي، ووقوعه عقب الآيات العشر التي في قضية الإفك مشير إلى أنّ ما تضمّنته تلك الآيات من المناهي وظنون السوء ومحبّة شيوع الفاحشة

كلّه من وساوس الشيطان. وفيه تشبيه وسوسة الشيطان في نفوس الذين جاؤوا بالإفك بالمشي.

{ **خُطُوَاتِ** } جمع خُطوة. والخُطوة اسم لنقل الماشي إحدى قدميه. وتقدّم عند قوله تعالى { وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ } [البقرة:168].

{ **فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ** } الضميران عائدان إلى الشيطان. والمعنى: ومن يتّبع خطوات الشيطان يفعل الفحشاء والمنكر لأنّ الشيطان يأمر الناس بكل ذلك.

الفحشاء: كل فعل أو قول قبيح. وتقدّم عند قوله تعالى { إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ } [البقرة:169].

المنكر: ما تنكره الشريعة وينكره أهل الخير. وتقدّم عند قوله { وَيَنْهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ } [آل عمران:104].

{ **وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ** }، أي: لولا فضله بأن هداكم إلى الخير ورحمته بالمغفرة عند التوبة ما كان أحد من الناس زاكيا لأنّ فتنة الشيطان عظيمة لا يكاد يسلم منها النّاس لولا إرشاد الدين.

{ **وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** } تذييل بين الوعد والوعيد، أي: سميع لمن يشيع الفاحشة، عليم بما في نفسه من محبّة إشاعتها، وسميع لمن ينكر على ذلك، عليم لما في نفسه من كراهة ذلك فيجازي كلًّا على عمله.

{ **وَاللَّهُ** } إظهار اسم الجلالة ليكون التذييل مستقلًّا بنفسه لأنّه ممّا يجري مجرى المثل.

{ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [22].

من ذيول قصّة الإفك أنّ أبا بكر رضي الله عنه كان ينفق على مِسطَح بن أُثاثة المطلبي إذ كان ابن خالة أبي بكر الصديق وكان من فقراء المهاجرين فلمّا علم بخوضه في قضية الإفك أقسم ألّا ينفق عليه. ولمّا تاب مسطح وتاب الله عليه لم يزل أبو بكر واجدا في نفسه على مِسطَح فنزلت هذه الآية. فالمراد من أولي الفضل ابتداء أبو بكر، والمراد من أولي القربى ابتداء مِسطَح بن أُثاثة، وتعمّ الآية غيرهما ممّن شاركوا في قضية الإفك وغيرهم ممّن يشمله عموم لفظها، فقد كان لمسطح عائلة تنالهم نفقة أبي بكر.

قال ابن عباس: إنّ جماعة المؤمنين قطعوا منافعهم عن كلّ من قال في الإفك وقالوا: والله لا نصل من تكلّم في شأن عائشة، فنزلت الآية في جميعهم.

ولما قرأ رسول الله على الله عليه وسلم الآية إلى قوله { أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ } قال أبو بكر: بلى أحبّ أن يغفر الله لي. ورجّع إلى مِسطَح وأهله ما كان ينفق عليهم. وكفّر عن يمينه.

{ **وَلَا يَأْتَلِ** } الايتِلاء افتعال من الإلية وهي **الحلف**، وأكثر استعمالها في الحلف على امتناع، يقال: آلى وائتلى وقد تقدّم عند قوله تعالى { لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ } [البقرة:226].

الفضل: أصله الزيادة فهو ضدّ النقص، وشاع إطلاقه على الزيادة في الخير والكمال الديني وهو المراد هنا. ويطلق على زيادة المال فوق حاجة صاحبه، وليس مرادا هنا لأنّ عطف { وَالسَعَةِ } عليه يبعده.

السعة: الغنى.

{ **أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** } هذه الأوصاف مقتضية المواساة بانفرادها، فالحلف على ترك مواساة واحد منهم سدّ لباب عظيم من المعروف وناهيك بمن جمع الأوصاف كلّها مثل مِسطَح الذي نزلت الآية بسببه.

{ **وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا** } فيه إشعار بأنّه قد تعارض عند أبي بكر سبب المعروف وسبب البَرّ في اليمين وتجهّم الحنث، وأنّه أخذ بجانب البَرّ في يمينه وترك جانب ما يفوته من ثواب الإنفاق ومواساة القرابة وصلة الرحم، وكأنّه قدّم جانب التأثّم على جانب طلب الثواب، فنبّهه الله على أنّه يأخذ بترجيح جانب المعروف لأنّ لليمين مخرجا وهو الكفارة.

وهذا يؤذن بأنّ كفارة اليمين كانت مشروعة من قبل هذه القصّة ولكنّهم كانوا يهابون الإقدام على الحنث.

{ **أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ** } الاستفهام إنكاري مستعمل في التحضيض على السعي فيما به المغفرة.

{ **وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } زيادة في الترغيب في العفو والصفح وتطمينا لنفس أبي بكر في حنثه وتنبيها على الأمر بالتخلّق بصفات الله تعالى.

{ **إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** [23] **يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** [24] **يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ** [25] }.

استئناف بعد استئناف قوله { إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ } والكلّ تفصيل للموعظة التي في قوله تعالى { يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً } فابتدئ بوعيد العود إلى محبّته ذلك وثُنِّي بوعيد العودة إلى إشاعة القالة.

{ **إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ** } اسم الموصول ظاهر في إرادة جماعة وهم عبد الله بن أبي بن سلول ومن معه.

{ **الْغَافِلاتِ** } هنّ اللاتي لا علم لهنّ بما رُمين به. وهذا كناية عن عدم وقوعهنّ فيما رُمين به، لأنّ الذي يفعل الشيء لا يكون غافلا عنه. فالمعنى: إنّ الذين يرمون المحصنات كذبا عليهنّ.

{ **الْمُؤْمِنَاتِ** } للتشنيع، لأنّ وصف الإيمان وازع لهنّ عن الخنى.

{ **لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ** } إخبار عن لعن الله إيّاهم بما قدّر لهم من الإثم وما شرع لهم من الحدّ.

اللعن: في الدنيا التفسيق، وسلب أهلية الشهادة، وحدّ القذف، وفي الآخرة: الإبعاد من رحمة الله.

{ **وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** } عذاب جهنم. والمقصود هنا من كان من الكفرة.

{ **يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ** } الظرف متعلّق بما تعلّق به الظرف في قوله { وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ }، أي: يوم القيامة.

{ **أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } شهادة ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم للتهويل عليهم لعلهم يتّقون ذلك الموقف فيتوبون. وشهادة الأعضاء على صاحبها من أحوال حساب الكفّار.

وتخصيص هذه الأعضاء بالذكر مع أنّ الشهادة تكون من جميع الجسد كما قال تعالى { وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا } [فصلت:21]، لأنّ لهذه الأعضاء عملا في رمي المحصنات، فهم ينطقون بالقذف ويشيرون بالأيدي إلى المقذوفات ويسعون بأرجلهم إلى مجالس النّاس لإبلاغ القذف.

{ **يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ** } استئناف بياني، لأنّ ذكر شهادة الأعضاء يثير سؤالا عن آثار تلك الشهادة فيجاب بأنّ أثرها أن يجازيهم الله على ما شهدت به أعضاؤهم عليهم. فدينهم: جزاؤهم، { مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ }.

{ **الحَقَّ** } نعت للدين، أي: الجزاء العادل الذي لا ظلم فيه، فالوصف بالمصدر للمبالغة.

{ **وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ** } أي: ينكشف للنّاس أنّ الله الحقّ.

وصفة الله بأنّه { الْحَقَّ } بمعنيين:

<u>أولهما</u>: بمعنى الثابت الحاقّ، وذلك لأنّ **وجوده واجب،** فذاته حقّ متحقّقة لم يسبق عليها عدم ولا انتفاء فلا يقبل إمكان العدم. وعلى هذا المعنى في اسمه تعالى (الحقّ) اقتصر الغزالي في شرح الأسماء الحسنى.

<u>ثانيهما</u>: معنى أنّه ذو الحقّ، أي: **العدل،** وهو الذي يناسب وقوع الوصف بعد قوله تعالى { دِينَهُمُ الْحَقَّ }.

المبين: اسم فاعل من (أبان) الذي يُستعمل متعدّيا بمعنى (أظهر) على أصل معنى إفادة الهمزة التعدية، ويستعمل بمعنى (بان)، أي: (ظهر) على اعتبار الهمزة زائدة.

والمعنى: أنّهم يتحقّقون ذلك يومئذ بعلم قطعي لا يقبل الخفاء ولا التردّد، وإن كانوا عالمين ذلك من قبل.

{ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّأُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } [26].

<u>بعد أن برّأ</u> الله عائشة رضي الله عنها ممّا قال عصبة الإفك ففضحهم بأنّهم ما جاؤوا إلّا بسيّئ الظنّ واختلاق القذف، <u>وتوعّدهم</u> وهدّدهم ثم تاب على الذين تابوا، <u>أنحى عليهم ثانية</u> ببراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن تكون له أزواج خبيثات، لأنّ عصمته وكرامته على الله يأبى الله معها أن تكون أزواجه غير طيّبات. فمكانة الرسول صلى الله عليه وسلم كافية في الدلالة على براءة زوجه وطهارة أزواجه كلّهن. وهذا من الاستدلال على حال الشيء بحال مقارنه ومماثله، وفي هذا تعريض بالذين اختلقوا الإفك بأنّ ما أفكوه لا يليق مثله إلّا بأزواجهم، فقوله { الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ } تعريض بالمنافقين المختلقين الإفك.

{ **الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ** } الابتداء بذكر { الْخَبِيثَاتُ } لأنّ غرض الكلام الاستدلال على براءة عائشة وبقية أمّهات المؤمنين.

{ **وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ** } إطناب لمزيد العناية بتقرير هذا الحكم ولتكون الجملة بمنزلة المثل مستقلّة بدلالتها على الحكم وليكون الاستدلال على حال القرين بحال مقارنه حاصلا من أيّ جانب ابتدأه السامع.

{ **وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ** } إطناب أيضا للدلالة على أنّ المقارنة دليل على حال القرينين في الخير أيضا.

وتقدّم الكلام على الخبيث والطيّب عند قوله { قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً } [آل عمران:38]، وقوله تعالى { وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ } [الأعراف:157]، وقوله تعالى { لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ } [الأنفال:37].

{ **أُولَئِكَ مُبَرَّأُونَ مِمَّا يَقُولُونَ** } العدول عن التعبير عن الإفك باسمه إلى { مَا يَقُولُونَ } إشارة إلى أنّه لا يعدو كونه قولا، أي: أنّه غير مطابق للواقع.

الرزق الكريم: نعيم الجنّة. وتقدّم أنّ الكريم هو النفيس في جنسه عند قوله تعالى { دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } [الأنفال:4].

وبهذه الآيات انتهت زواجر الإفك.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون [27] فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ [28] }.

ذكرنا أنّ من أكبر الأغراض في هذه السورة تشريع نظام المعاشرة والمخالطة العائليّة. فهذه الآيات استئناف لبيان أحكام التزاور وتعليم آداب الاستئذان.

وقد كان الاستئذان معروفا في الجاهلية وصدر الإسلام وكان يختلف شكله باختلاف حال المستأذن عليه من ملوك وسوقة فكان غير متماثل. وقد يتركه أو يقصّر فيه من لا يهمّه إلّا قضاء وطره وتعجيل حاجته، ولا يبعد بأن يكون ولوجه محرجا للمزور أو مثقلا عليه فجاءت هذه الآيات لتحديد كيفيّته وإدخاله في آداب الدين حتّى لا يُفرّط الناس فيه أو في بعضه.

وشرع الاستئذان لمن يزور أحدا في بيته لأنّ الناس اتخذوا البيوت للاستتار ممّا يؤذي الأبدان من حرّ وقرّ ومطر وقتام، وممّا يؤذي العرض والنفس من انكشاف ما لا يحب الساكن اطّلاع الناس عليه، فإذا كان في بيته وجاءه أحد فهو لا يدخله حتّى يُصلح ما في بيته ويستر ما يجبّ أن يستره ثم يأذن له أو يخرج له فيكلّمه من خارج الباب.

{ **تَسْتَأْنِسُوا** } تطلبوا الأنس بكم، أي: تطلبوا أن يأنس بكم صاحب البيت. وهذا كناية لطيفة عن الاستئذان.

قال ابن وهب قال مالك: الاستئناس فيما نرى والله أعلم الاستئذان. وهذا الذي قاله مالك هو القول الفصل.
وفي ذلك من الآداب أنّ المرء لا ينبغي أن يكون كَلًّا على غيره، ولا ينبغي له أن يعرض نفسه إلى الكراهية والاستثقال، وأنّه ينبغي أن يكون الزائر والمزور متوافقين متآنسين وذلك عون على توفّر الأخوة الإسلامية.
{ **وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا** } عطف الأمر بالسلام على الاستئناس وجعل كلاهما غاية للنهي عن دخول البيوت تنبيها على وجوب الإتيان بهما، لأنّ النهي لا يرتفع إلّا عند حصولهما.
وعن ابن سيرين: أن رجلا استأذن على النبيّ فقال: أأدخل؟ فأمر النبيّ رجلا عنده أو أمة اسمها روضة فقال: **" إنّه لا يحسُن أن يستأذن، فليقل: السلام عليكم أأدخل "**. فسمعه الرجل فقال: السلام عليكم أأدخل؟ فقال: **" ادخل "**.
وروى مطرف عن مالك عن زيد بن أسلم: أنّه استأذن على عبد الله بن عمر فقال: أألج؟ فأذن له ابن عمر، فلما دخل قال له ابن عمر: ما لك واستئذان العرب؟ (يريد أهل الجاهلية) إذا استأذنت فقل: السلام عليكم. فإذا ردّ عليك السلام فقل: أأدخل، فإن أذن لك فادخل.
وظاهر الآية أنّ الاستئذان واجب وأنّ السلام واجب غير أنّ سياق الآية لتشريع الاستئذان. وأمّا السلام فتقرّرت مشروعيّته من قبل في أوّل الإسلام ولم يكن خاصا بحالة دخول البيوت فلم يكن للسلام اختصاص هنا وإنّما ذكر مع الاستئذان للمحافظة عليه مع الاستئذان لئلّا يلهي الاستئذان الطارق فينسى السلام أو يحسب الاستئذان كافيا عن السلام.
قال ابن العربي في أحكام القرآن: قال جماعة: الاستئذان فرض والسلام مستحب.
وروي عن عطاء: الاستئذان واجب على كل محتلم. ولم يفصح عن حكم الاستئذان سوى فقهاء المالكية.
قال الشيخ أبو محمد في الرسالة: الاستئذان واجب فلا تدخل بيتا فيه أحد حتّى تستأذن ثلاثا فإن أذن لك وإلّا رجعت. وحكى أبو الحسن المالكي في شرح الرسالة الإجماع على وجوب الاستئذان.
أقول: ليس قرن الاستئذان بالسلام في الآية بمقتضٍ مساواتهما في الحكم إذ كانت هنالك أدلّة أخرى تفرّق بين حكميهما وتلك أدلة من السنّة.
وأمّا فائدة السلام مع الاستئذان فهي تقوية الألفة المتقرّرة فلا تقتضي أكثر من تأكّد الاستحباب. فالقرآن أمر بالحالة الكاملة وأحال تفصيل أجزائها على تبيين السنة كما قال { لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ } [النحل:44].
{ **وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا** } معناه تقولوا: السلام عليكم، فهو من الأفعال المشتقة من حكاية الأقوال الواقعة في الجمل مثل: رحَّب وأهَّل، إذا قال: مرحبا أهلًا. وفي الحديث **" تسبِّحون وتحمدون وتكبِّرون دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين "**. وهي قريبة من النحت مثل: بسمل، إذا قال: بسم الله، وحَسْبَلَ، إذا قال: حسبنا الله.
وصيغة التسليم هي: السلام عليكم. وقد علّمها النبيّ صلى الله عليه وسلم أصحابه.

وتقدّم السلام في قوله تعالى { وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ } [الأنعام:54].

وقد جمعت الآية الاستئذان والسلام بواو العطف المفيد التشريك فقط فدلّت على أنّه إن قدّم الاستئذان على السلام أو قدّم السلام على الاستئذان فقد جاء بالمطلوب منه، وورد في أحاديث كثيرة الأمر بتقديم السلام على الاستئذان فيكون ذلك أولى ولا يعارض الآية.

وليس للاستئذان صيغة معينة. وما ورد في بعض الآثار فإنّما محمله على أنّه المتعارف بينهم أو على أنّه كلام أجمع من غيره في المراد. وقد بيّنت السنة أن المستأذن إن لم يؤذن له بالدخول يكرره ثلاث مرات فإذا لم يؤذن له انصرف.

وورد في هذا حديث أبي موسى الأشعري مع عمر بن الخطاب في صحيح البخاري وهو ما روي عن أبي سعيد الخدري قال: كنت في مجلس من مجالس الأنصار إذ جاء أبو موسى الأشعري كأنّه مذعور قال: استأذنت على عمر ثلاثا فلم يأذن لي فرجعت. (وفسروه في رواية أخرى: بأنّ عمر كان مشتغلا ببعض أمره ثم تذكر فقال: ألم أسمع صوت عبد الله ابن قيس؟ قالوا: استأذن ثلاثا ثم رجع)، فأرسل وراءه فجاء أبو موسى فقال عمر: ما منعك؟ قال: قلت: استأذنت ثلاثا فلم يؤذن لي فرجعت. وقال رسول الله: **" إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع "**. فقال عمر: والله لتقيمنّ عليه بيّنة. قال أبو موسى: أمنكم أحد سمعه من النبي؟ فقال أبي بن كعب: والله لا يقوم معك إلّا أصغرنا فكنت أصغرهم فقمت معه فأخبرت عمر أنّ النبيّ قال ذلك. فقال عمر: خفي عليّ هذا من أمر رسول الله ألهاني الصفق بالأسواق.

{ **ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** } حكمة الاستئذان، أي: ذلكم الاستئذان خير لكم.

{ **فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ** } للاحتراس من أن يظنّ ظان أنّ المنازل غير المسكونة يدخلها الناس في غيبة أصحابها بدون إذن منهم، توهّما بأن علّة شرع الاستئذان ما يكره أهل المنازل من رؤيتهم على غير تأهّب، بل العلّة هي كراهتهم رؤية ما يحبّون ستره من شؤونهم.

{ **حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ** } الغاية لتأكيد النهي. أي: حتّى يأتي أهلها فيأذنوا لكم.

{ **وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ** } عُلم أن الاستئذان يقتضي إذنا ومنعا وسكوتا، وهذا صريح المنع. وأمّا السكون فهو ما بيّن حكمه حديث أبي موسى.

{ **أَزْكَى لَكُمْ** } أنّه أفضل وخير لكم من أن يأذنوا على كراهية.

وفي هذا أدب عظيم وهو تعليم الصراحة بالحقّ دون المواربة ما لم يكن فيه أذى. وتعليم قبول الحقّ لأنّه أطمن لنفس قابله من تلقّي ما لا يدرى أهو حقّ أم مواربة، ولو اعتاد الناس التصارح بالحقّ بينهم لزالت عنهم ظنون السوء بأنفسهم.

{ **وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ** } تذييل لهذه الوصايا بتذكيرهم بأنّ الله عليم بأعمالهم ليزدجر أهل الإلحاح عن إلحاحهم بالتثقيل، وليزدجر أهل الحيل أو التطلع من الشقوق ونحوها. وهذا تعريض بالوعيد لأنّ في ذلك عصيانا لما أمر الله به. فعلمه به كناية عن مجازاته فاعليه بما يستحقون.

{ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ } [29].

هذا تخصيص لعموم قوله تعالى { بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ } بالبيوت المعدّة للسكنى، فأمّا البيوت التي ليست معدودة للسكنى فهي تجعل القاطن بها غير محترز من دخول الغير إليها بل هو على استعداد لمن يغشاه، فهي لا تخلو من أن تكون خاوية من الساكن مثل البيوت المقامة على طرق المسافرين لنزولهم، كما كانت بيوت على الطريق بين الحجاز والشام في طريق التجّار كانوا يأوون إليها ويحطّون فيها متاعهم للاستراحة.

وأمّا أن تكون تلك البيوت مأهولة بأناس يقطنونها يأوون المسافرين ورحالهم ورواحلهم ويحفظون أمتعتهم ويبيتونهم حتّى يستأنفوا المرحلة، مثل الخانات المأهولة والفنادق. وكذلك البيوت المعدودة لبيع السلع، والحمّامات، وحوانيت التجار، وكذلك المكتبات وبيوت المطالعة، فهذه مأهولة ولا تسمَّى مسكونة، لأنّ السكنى هي الإقامة التي يسكن بها المرء ويستقر فيها ويقيم فيها شؤونه.

{ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ } صفة ثانية لـ { بُيُوتاً }، الظاهر أنّ المتاع موضوع هناك قبل دخول الداخل، فلا مفهوم لهذه الصفة لأنّها خرجت مخرج التنبيه على العذر في الدخول. ويشمل ذلك أن يدخلها لوضع متاعه لدلالة لحن الخطاب، وكذلك يشمل دخول المسافر وإن كان لا متاع له لقصد التظلّل أو المبيت، بدلالة لحن الخطاب أو القياس.

وقد فسِّر المتاع بالمصدر، أي: التمتّع والانتفاع. فيكون إيماء إلى أنّ من لا منفعة له في دخولها لا يؤذن له في دخولها لأنّه يضيّق على أصحاب الاحتياج إلى بقاعها.

{ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ } مستعملة في التحذير من تجاوز ما أشارت إليه الآية من القيود وهي كون البيوت غير مسكونة وكون الداخل محتاج إلى دخولها.

{ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ } [30].

أعقب حكم الاستئذان ببيان آداب ما تقتضيه المجالسة بعد الدخول وهو ألّا يكون الداخل إلى البيت محدّقا بصره إلى امرأة فيه، بل إذا جالسته المرأة غضّ بصره واقتصر على الكلام ولا ينظر إليها إلّا النظر الذي يعسر صرفه.

الغضّ: صرف المرء بصره عن التحديق وتثبيت النظر. ويكون من الحياء. ومادة الغض تفيد معنى الخفض والنقص.

{ مِنْ أَبْصَارِهِمْ } لمّا كان الغضّ التام لا يمكن جيء في الآية بحرف (من) الذي هو للتبعيض إيماء إلى

ذلك إذ من المفهوم أنّ المأمور بالغضّ فيه هو مالا يليق تحديق النظر إليه، فيشمل غضّ البصر عمّا اعتاد الناس كراهية التحقّق فيه كالنظر إلى خبايا المنازل، بخلاف ما ليس كذلك. فقد جاء في حديث عمر بن الخطاب حين دخل مشربة النبيّ صلى الله عليه وسلم: فرفعت بصري إلى السقف فرأيت أَهَبَة معلّقة.

وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم لعليّ: **" لا تُتبع النظرة النظرة فإنّما لك الأولى وليست لك الثانية "**.

وفي هذا الأمر بالغضّ أدب شرعي عظيم في مباعدة النفس عن التطلّع إلى ما عسى أن يوقعها في الحرام.

{ **وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ** } الأمر بحفظ الفروج عقب الأمر بالغض من الأبصار، لأنّ النظر رائد الزنى، تنبيها على المبالغة في غضّ الأبصار في محاسن النساء.

{ **ذَلِكَ** } الإشارة إلى المذكور، أي: ذلك المذكور من غضّ الأبصار وحفظ الفروج.

{ **أَزْكَى لَهُمْ** } اسم التفضيل مسلوب المفاضلة. والمراد تقوية تلك التزكية، لأنّ ذلك جُنَّة من ارتكاب الذنوب.

{ **إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ** } تذييل لأنّه كناية عن جزاء ما يتضمّنه الأمر من الغضّ والحفظ، لأنّ المقصد من الأمر الامتثال.

{ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [31].

لمّا كان هذا الأمر قد يُظنّ أنّه خاص بالرجال لأنّهم أكثر ارتكابا لضدّه وقع النصُّ على هذا الشمول بأمر النساء بذلك أيضا.

وانتُقل من ذلك إلى نهي النساء عن أشياء عُرف منهنّ التساهل فيها، ونهيهنّ عن إظهار أشياء تعوَّدن أن يُحببن ظهورها وجمعها القرآن في اللفظ { زِينَتَهُنَّ }.

الزينة: ما يحصل به الزين، وهو الحُسن، مصدر زانه. وتقدّم الكلام عن معناها عند قوله تعالى { زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ } [آل عمران:14]، وقوله تعالى { وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ } [الحجر:16].

والزينة قسمان خِلْقية ومكتسبة:

<u>الخِلقية</u>: الوجه والكفان أو نصف الذراعين.

المكتسبة: سبب التزيّن من اللباس الفاخر والحليّ والكحل والخِضاب بالحناء.

وقد أطلق اسم الزينة على اللباس في قوله تعالى { يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ } [الأعراف:31]، وقوله تعالى { قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ } [الأعراف:32].

والتزيّن يزيد المرأة حسنا ويلفت إليها الأنظار، فلذلك نُهي النساء عن إظهار زينتهن إلّا للرجال الذين ليس من شأنهم أن تتحرّك منهم شهوة نحوها لحرمة قرابة أو صهر.

{ **إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا** } وهو ما في ستره مشقّة على المرأة أو في تركه حرج على النساء، مثل الكحل والخضاب والخواتيم .روى أبن القاسم عن مالك: ليس الخضاب من الزينة.

فالزينة الظاهرة هي التي جعلها الله بحكم الفطرة بادية، ويكون سترها معطّلا الانتفاع بها أو مدخلا حرجا على صاحبتها وذلك الوجه والكفان، وأمّا القدمان فحالهما في الستر لا يعطل الانتفاع ولكنّه يعسره، لأنّ الحفاء غالب حال نساء البادية، فمن أجل ذلك اختلف في سترهما الفقهاء، ففي مذهب مالك قولان: أشهرهما أنّها يجب ستر قدميها، وقيل: لا يجب، وقال أبو حنيفة: لا يجب ستر قدميها.

وجمهور الأئمة على أن استثناء إبداء الوجه والكفين من عموم منع إبداء زينتهن يقتضي إباحة إبداء الوجه والكفين في جميع الأحوال لأنّ الشأن أن يكون للمستثنى جميع أحوال المستثنى منه. وتأوّله الشافعي بأنّه استثناء في حالة الصلاة خاصة دون غيرها وهو تخصيص لا دليل عليه.

{ **وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ** } ونُهينَ عن التساهل في الخِمرة. **والخِمار**: ثوب تضعه المرأة على رأسها لستر شعرها وجيدها وأذنيها. وكان النساء ربّما يسدلن الخمار إلى ظهورهنّ كما تفعل نساء الأنباط فيبقى العنق والنحر والأذنان غير مستورة فلذلك أمرن بذلك.

الضرب: تمكين الوضع.

والمعنى: ليشددن وضع الخمر على الجيوب، أي: بحيث لا يظهر شيء من بشرة الجِيد.

{ **بِخُمُرِهِنَّ** } الباء لتأكيد اللصوق، مبالغة في إحكام وضع الخمار على الجيب زيادة على المبالغة المستفادة من فعل (يضربن).

الجيوب: جمع جَيب (بفتح الجيم) وهو طوق القميص مما يلي الرقبة. والمعنى: وليضعن خمرهن على جيوب الأقمصة بحيث لا يبقى بين منتهى الخمار ومبدأ الجيب ما يظهر منه الجيد.

{ **وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ** } أعيد لفظ { وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ } للتأكيد وليُبنى عليه الاستثناء. أي: لا يبدين زينتهن غير الظاهرة إلّا لمن ذكروا بعد حرف الاستثناء لشدّة الحرج في إخفاء الزينة غير الظاهرة في أوقات كثيرة، فإنّ الملابسة بين المرأة وبين أقربائها وأصهارها المستثنين ملابسة متكرّرة فلو وجب عليها ستر زينتها في أوقاتها كان ذلك حرجا عليها.

وذكرت الآية **اثني عشر مستثنى** كلّهم ممّن يكثر دخولهم. وسكتت الآية عن غيرهم ممّن هو في حكمهم بحسب المعنى. وسنذكر ذلك عند الفراغ من ذكر المصرّح بهم في الآية.

البعولة: جمع بعل، وهو الزوج. وأصل البعل الربّ والمالك.

وكلّ من عُدَّ من الرجال الذين استُثنوا من النهي هم من الذين لهم بالمرأة صلة شديدة هي وازع من أن يهمّوا بها. وفي سماع ابن القاسم من كتاب الجامع من العتبية: سئل مالك عن الرجل تضع أم امرأته عنده جلبابها قال: لا بأس بذلك.

{ **أَوْ نِسَائِهِنَّ** } أي: المؤمنات، مثل الإضافة في قوله { وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ } [البقرة:282]، أي: من رجال دينكم.

واختلف الفقهاء في جواز نظر النساء المشركات والكتابيّات إلى ما لا يجوز للمرأة المسلمة إظهاره للأجنبي من جسدها. وكلام المفسّرين من المالكية وكلام فقهائهم في هذا غير مضبوط.

وفي مذهب الشافعي قولان:

القول الأوّل: أنّ غير المسلمة لا ترى من المرأة المسلمة إلّا الوجه والكفّين، ورجّحه البغوي وصاحب المنهاج البيضاوي، واختاره الفخر في التفسير. ونقل مثل هذا عن عمر بن الخطاب وابن عباس، وعلّله ابن عباس بأنّ غير المسلمة لا تتورّع عن أن تصف لزوجها المسلمة. وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة بن الجرّاح: أنّه بلغني أنّ نساء أهل الذمّة يدخلن الحمامات مع نساء المسلمين فامنع من ذلك وحُلْ دونه، فإنّه لا يجوز أن ترى الذمّيّة عِرْية المسلمة.

القول الثاني: أنّ المرأة غير المسلمة كالمسلمة ورجّحه الغزالي.

ومذهب أبي حنيفة كذلك فيه قولان: أصحّهما أنّ المرأة غير المسلمة كالرجل الأجنبي فلا ترى من المرأة المسلمة إلّا الوجه والكفين والقدمين، وقيل: هي كالمرأة المسلمة.

{ **أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ** } هم صنف من الرجال الأحرار تشترك أفراده في الوصفين وهما التبعيّة وعدم الإربة.

التبعية: فهي كونهم من أتباع بيت المرأة وليسوا ملك يمينها ويتردَّدون على بيتها لأخذ الصدقة أو للخدمة.

الإربة: الحاجة. والمراد بها الحاجة إلى قربان النساء. وانتفاء هذه الحاجة تظهر في المجبوب والعنّين والشيخ الهرم، فرخّص الله في إبداء الزينة لنظر هؤلاء لرفع المشقّة عن النساء مع السلامة الغالبة من تطرّق الشهوة وآثارها من الجانبين.

{ **أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ** } كناية عن خلو بالهم من شهوة النساء وذلك ما قبل سن المراهقة.

والظاهر أنّ سكوت الآية عن العمّ والخال ليس لمخالفة حكمهما حكم بقية المحارم ولكنّه اقتصار على الذين تكثر مزاولتهم بيت المرأة، فالتعداد جرى على الغالب.

ويلحق بهؤلاء القرابة من كان في مراتبهم **من الرضاعة** لقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب "**. وجزم بذلك الحسن، ولم أر فيه قولا للمالكية. وظاهر الحديث أنّ فيهم من الرخصة ما في محارم النسب والصهر.

{ **وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ** } الضرب بالأرجل إيقاع المشي بشدّة كقوله: يضرب في الأرض. ذلك أنّ من النساء من كنّ إذا لبسن الخلخال ضربن بأرجلهنّ في المشي بشدّة لتسمع قعقعة الخلاخل غنجا وتباهيا بالحسن، فنهين عن ذلك مع النهي عن إبداء الزينة.

وفي أحاديث أبن وهب من جامع العتبية: سئل مالك عن الذي يكون في أرجل النساء من الخلاخل قال: ما هذا الذي جاء فيه الحديث وترْكه أحب إليّ من غير تحريم. قال ابن رشد في شرحه: أراد أن الذي يحرم إنما هو أن يقصدن في مشيهن إلى إسماع قعقعة الخلاخل، إظهارا بهن من زينتهن.

وهذا يقتضي النهي عن كل ما من شأنه أن يذكّر الرجل بلهو النساء، من زينة أو حركة كالتثنّي والغناء وكلم الغَزَل.

{ **لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ** } علّة النهي عن الضرب بالأرجل.

ولعن النبيّ صلى الله عليه وسلم المستوشمات والمتفلّجات للحسن.

{ **وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** } أُعقبت الأوامر والنواهي الموجّهة إلى المؤمنين بأمر جميعهم بالتوبة إلى الله إيماء إلى أنّ فيما أمروا به ونهوا عنه دفاعا لداع تدعو إليه الجبلّة البشرية من الاستحسان والشهوة، فيصدر ذلك عن الإنسان عن غفلة ثمّ يتغلغل هو فيه، فأمروا بالتوبة ليحاسبوا أنفسهم على ما يفلت منهم من ذلك اللمم المؤدّي إلى ما هو أعظم.

والجملة معطوفة على جملة { قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ }، ووقع التفات من خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى خطاب الأمّة، لأنّ هذا تذكير بواجب التوبة المقرَّرة من قبل وليس استئناف تشريع.

{ **وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ** } تقدم الكلام على التوبة عند قوله تعالى { إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ } [التوبة:17].

{ **جَمِيعَاً** } تنبيه على أنّ المخاطبين هم المؤمنون والمؤمنات، والتذكير على التغليب.

{ **أَيُّهَ** } كتب في المصحف بهاء في آخره اعتبارا بسقوط الألف في حال الوصل مع كلمة { الْمُؤْمِنُونَ }.

قال مكي بن أبي طالب: ليس في كتاب الله آية أكثر ضمائر من هذه الآية جمعت خمسة وعشرين ضميرا للمؤمنات من مخفوض ومرفوع، وسماها أبو بكر ابن العربي: **آية الضمائر**.

{ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } [32].

أُردفت أوامرُ العفاف بالإرشاد إلى ما يُعين عليه، ويُعفّ نفوس المؤمنين والمؤمنات، ويغضّ من أبصارهم، فأمر الأولياء بأن يزوِّجوا أياماهم ولا يتركوهنّ متأيّمات لأنّ ذلك أعفّ لهنّ وللرجال الذين

يتزوّجونهنّ. وأمر السادة بتزويج عبيدهم وإمائهم. وهذا وسيلة لإبطال البغاء كما سيُتبع به في آخر الآية.
الآيامى: جمع أيّم (بفتح الهمزة وتشديد الياء المكسورة) بوزن فَيْعِلْ، وهي **المرأة التي لا زوج لها** كانت ثيّبًا أم بكرًا. والشائع إطلاق الأيّم على التي كانت ذات زوج ثم خلت عنه بفراق أو موته. وأمّا إطلاقه على البكر التي لا زوج لها فغير شائع فيحمل على أنّه مجاز كثر استعماله.
والأيّم في الأصل من أوصاف النساء، ولذلك لم تقترن به هاء التأنيث فلا يقال: امرأة أيّمة. وإطلاق الأيّم على الرجل الخليّ عن امرأة إمّا لمشاكلة أو تشبيه، وبعض أئمة اللغة يجعل الأيّم مشتركا للمرأة والرجل.
{ **الْأَيَامَى** } صيغة عموم لأنّه جمع معرف باللام فتشمل البغايا. أمر أولياؤهن بتزويجهنّ فكان هذا العموم ناسخا لقوله تعالى { وَالزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ } فقد قال جمهور الفقهاء: إنّ هذه ناسخة للآية التي تقدّمت، وهو قول مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد.
{ **مِنْكُمْ** } أي: أنّهنّ من المسلمات. والمقصود: الأيامى الحرائر، خصّصه قوله تعالى بعده:
{ **وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ** } المراد اتّصافهم بالصلاح الديني، أي: الأتقياء. فيفيد أنّهم إن لم يكونوا صالحين كان تزويجهم آكد أمرا. وهذا من دلالة الفحوى فيشمل غيرُ الصالحين غيرَ الأعفَّاء والعفائف من المماليك المسلمين، ويشمل المماليك غير المسلمين. وبهذا التفسير تنقشع الحيرة التي عرضت للمفسّرين في التقييد بهذا الوصف. وقيل أريد بالصالحين: الصلاح للتزوّج، بمعنى اللياقة لشؤون الزوج.
وصيغة الأمر في قوله تعالى { وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ } إلى آخره مجملة تحتمل الوجوب والندب بحسب ما يعرض من حال المأمور بإنكاحهم: فإن كانوا مظنّة الوقوع في مضار في الدين أو الدنيا كان إنكاحهم واجبا، وإن لم يكونوا كذلك فعند مالك وأبي حنيفة إنكاحهم مستحبّ. وقال الشافعي: لا يندب، وحمل الأمر على الإباحة، وهو محمل ضعيف في مثل هذا المقام، إذ ليس المقام مظنّة تردّد في إباحة تزويجهم.
{ **إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ** } استئناف بياني لأنّ عموم الأيامى والعبيد والإماء في صيغة الأمر يثير سؤال الأولياء والموالي أن يكون الراغب في تزوّج المرأة الأيّم فقيرا فهل يردّه الوليّ؟ أو أن يكون سيّد العبيد فقيرا لا يجد ما ينفقه على زوجه، وكذلك سيّد الأمة يخطبها رجل فقير حرّ أو عبد؟
فجاء هذا لبيان إرادة العموم في الأحوال. ووعد الله المتزوّج من هؤلاء إن كان فقيرا أن يغنيه الله. وإغناء الله إيّاهم توفيق ما يتعاطونه من أسباب الرزق التي اعتادوها.
{ **وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** } وصفة الله (الواسع) مشتقّة من فعل (وسِع) باعتبار أنّه مجازي، لأنّ الموصوف بالسعة هو إحسانه. قال حجّة الإسلام: " والسعة تضاف مرّة إلى العلم إذا اتسع وأحاط بالمعلومات الكثيرة، وتضاف مرّة إلى الإحسان وبذل النعم، وكيفما قُدّر وعلى أيّ شيء نزل، فالواسع المطلق هو الله تعالى لأنّه إن نُظر إلى علمه فلا ساحل لبحر معلوماته وإن نُظر إلى إحسانه ونعمه فلا نهاية لمقدوراته".

والذي يؤخذ من استقراء القرآن أن وصف الواسع المطلق إنّما يراد به سعة الفضل والنعمة، ولذلك يُقرن بوصف العلم ونحوه، قال تعالى { وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلّاً مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً } [النساء:130]. أمّا إذا ذُكرت السعة بصيغة الفعل فيراد بها الإحاطة فيما تميّز به كقوله تعالى { وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً } [الأعراف:89].

{ **عَلِيمٌ** } إشارة إلى أنّه يعطي فضله على مقتضى ما علمه من الحكمة في مقدار الإعطاء.

{ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [33].

{ **وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ** } أُمِر كلُّ من تعلَّق به الأمر بالإنكاح بأن يلازموا العفاف في مدّة انتظارهم تيسير النكاح لهم بأنفسهم أو بأذن أوليائهم ومواليهم.

والسين والتاء للمبالغة في الفعل، أي: وليعفَّ الذين لا يجدون نكاحا. ووجه دلالته على المبالغة أنّه في الأصل استعارة. وجُعل طلب الفعل بمنزلة طلب السعي فيه ليدلّ على بذل الوسع.

{ **لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً** } لا يجدون قدرة على النكاح ففيه حذف مضاف. وقيل: النكاح هنا اسم ما هو سبب تحصيل النكاح كاللباس واللحاف. فالمراد المهر الذي يبذل للمرأة.

الإغناء: هنا هو إغناؤهم بالزواج.

الفضل: زيادة العطاء.

{ **وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ** } لمّا ذُكر وعد الله من يُزوَّج من العبيد الفقراء بالغنى وكان من وسائل غناه أن يذهب يكتسب بعمله وكان ذلك لا يستقلّ به العبد لأنّه في خدمة سيّده، جعل الله للعبيد حقًّا في الاكتساب لتحرير أنفسهم من الرقِّ، ويكون في ذلك غنًى للعبد إن كان من ذوي الأزواج.

{ **فَكَاتِبُوهُمْ** } أمر الله السادة بإجابة من يبتغي الكتابة من عبيدهم تحقيقا لمقصد الشريعة من بثّ الحرية في الأمّة، ومن إكثار النسل، ومن تزكية الأمّة واستقامة دينها.

ودخول الفاء على الفعل لتضمين الموصول معنى الشرطية، كأنّه قيل: إن ابتغى الكتاب ما ملكت أيمانكم فكاتبوهم تأكيدا لترتّب الخبر على تحقّق مضمون صلة الموصول بأن يكون كترتّب الشروط على الشرط.

الكتاب: مصدر كاتب إذا عاقد على تحصيل الحرية من الرقِّ على قدر معيّن من المال يدفع لسيد العبد منجَّما، أي: موزعا على مواقيت معيَّنة. كانوا في الغالب يوقّتونها بمطالع نجوم المنازل مثل الثريا، فلذلك سمُّوا توقيت دفعها نجما وسموا توزيعها تنجيما.

وسمُّوا ذلك كتابة لأنّ السيد وعبده كانا يسجّلان عقد تنجيم عوض الحرّيّة بصكٍّ يكتبه كاتب بينهما، فلمّا كان في الكتب حفظ لحقّ كليهما أطلق على ذلك التسجيل كتابة، لأنّ ما يتضمّنه هو عقد من جانبين، وإن كان الكاتب واحدا والكَتْب واحدا.

{ **إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً** } إن ظننتم أنّهم لا يبتغون بذلك إلّا تحرير أنفسهم.

<u>وكانت الكتابة معروفة من عهد الجاهلية ولكنّها كانت على خيار السيّد فجاءت هذه الآية تأمر السادة بذلك</u> إن رغبه العبد، أو لحثّه على ذلك، على اختلاف بين الأئمة في محمل الأمر.

فعن عمر بن الخطاب ومسروق وعمرو بن دينار وابن عباس والضحاك وعطاء وعكرمة والظاهرية أنّ الكتابة **واجبة** على السيد إذا علم خيرا في عبده، واختاره الطبري **وهو الراجح**.

وقد ورد في السنة حديث كتابة بريرة مع سادتها وكيف أدّت عنها عائشة أم المؤمنين مال الكتابة كلّه.

وذكر ابن عطيّة أن سبب نزول هذه الآية: أنّ غلاما لحويطب بن عبد العزّى أو لحاطب بن أبي بلتعة اسمه صبيح القبطي (أو صُبح) سأل مولاه الكتابة فأبى عليه فأنزل الله هذه الآية فكاتبه مولاه.

{ **وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ** } الظاهر أنّ الخطاب موجّه إلى سادة العبيد ليتناسق الخطابان، وهو أمر للسادة بإعانة مكاتبيهم بالمال الذي أنعم الله به عليهم فيكون ذلك بالتخفيف عنهم من مقدار المال الذي وقع التكاتب عليه. وهذا التخفيف أطلق عليه لفظ (الإيتاء) وليس ثمّة إيتاء ولكنّه لمّا كان إسقاطا لما وجب على المكاتب كان ذلك بمنزلة الإعطاء.

وقال بعض المفسّرين: الخطاب للمسلمين، أمرهم الله بإعانة المكاتبين.

والأمر محمول على الندب عند أكثر العلماء وحمله الشافعي على الوجوب.

{ **مِنْ مَالِ اللَّهِ** } إضافة المال إلى الله لأنّه مُيسّر أسباب تحصيله. وفيه إيماء إلى أنّ الإعطاء من ذلك المال شكر والإمساك جحد للنعمة قد يتعرّض به المُمسك لتسلب النعمة عنه.

{ **الَّذِي آتَاكُمْ** } <u>يجوز</u> أن يكون وصفا لـ { مَالِ اللَّهِ } ويكون العائد محذوفا تقديره: آتاكموه.

<u>ويجوز</u> أن يكون وصفا لاسم الجلالة فيكون امتنانا وحثًّا على الامتثال بتذكير أنّه ولي النعمة ويكون مفعول

{ آتَاكُمْ } محذوفا للعموم، أي: آتاكم على الامتثال.

{ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ }.

انتقال إلى تشريع من شؤون المعاملات بين الرجال والنساء التي لها أثر في الأنساب ومن شؤون حقوق الموالي والعبيد، وهذا الانتقال لمناسبة ما سبق من حكم المكاتبة فانتقل إلى حكم البغاء.

البغاء: مصدر بَاغَت الجارية إذا تعاطت الزنى بالأجر حرفة لها. واشتقاق صيغة المفاعلة فيه للمبالغة والتكرير ولذلك لا يقال إلّا: باغت الأمة، ولا يقال: بَغَتْ. وهو مشتقّ من (البغي) بمعنى الطلب. وتُسمَّى المرأة المحترفة له بغيًّا.

وقد كانت في المدينة إماء بغايا منهن ست إماء لعبد الله بن أبي بن سلول وهن: مُعاذة ومُسيكة وأُميمة وعَمرة وأروى وقتيلة، وكان يكرههنّ على البغاء بعد الإسلام. قال ابن العربي: روى مالك عن الزهري: أنّ رجلا من أسرى قريش في يوم بدر قد جُعل عند عبد الله بن أُبَي وكان هذا الأسير يريد معاذة على نفسها وكانت تمتنع منه لأنّها أسلمت، وكان عبد الله ابن أبي يضربها على امتناعها منه رجاء أن تحمل منه، (أي: من الأسير القرشي) فيطلب فداء ولده، أي: فداء رقّه من ابن أُبَي. وكان الزاني بالأمة يفتدي ولده بمائة من الإبل يدفعها لسيّد الأمة، وأنّها شكته إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية.

وقالوا: إن عبد الله بن أبي كان قد أعد معاذة لإكرام ضيوفه فإذا نزل عليه ضيف أرسلها إليه ليواقعها إرادة الكرامة له. فأقبلت معاذة إلى أبي بكر فشكت ذلك إليه فذكر أبو بكر ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم فأمر النبيّ أبا بكر بقبضها فصاح عبد الله بن أبي: من يعذرنا من محمد يغلبنا على مماليكنا. فأنزل الله هذه الآية، وذلك قبل أن يتظاهر عبد الله بن أبي بالإسلام. وجميع هذه الآثار متظافرة على أنّ هذه الآية كان بها تحريم البغاء على المسلمين والمسلمات المالكات أمر أنفسهن.

والبغاء في الجاهلية كان معدودا من أصناف النكاح. ففي الصحيح من حديث عائشة أنّ النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: " ... ونكاح رابع يجتمع الناس فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممّن جاءها، وهن البغايا كنّ ينصبن على أبوابهن الرايات تكون علما، فمن أرادهن دخل عليهنّ فإذا حملت إحداهن ووضعت جمعوا لها ودعوا لهم القافة ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتاط به ودعي ابنه، فلما بعث محمد بالحق هدم نكاح الجاهلية كلّه إلّا نكاح الناس اليوم " .

فكان البغاء في الحرائر باختيارهنّ إيّاه للارتزاق، وكانت عَناق صاحبة مرثد بن أبي مرثد التي تقدّم ذكرها عند قوله تعالى { الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً } [3]. وكان في الإماء من يُلزمهنّ سادتهنّ عليه لاكتساب أجور بغائهن. فكما كانوا يتّخذون الإماء للخدمة وللتسرّي كانوا يتّخذون بعضهن للاكتساب وكانوا يسمَّون أجرهنّ مهرا، كما جاء في حديث أبن مسعود أنّ رسول الله نهى عن مهر البغيّ، ولأجل هذا اقتصرت الآية على ذكر الفتيات، جمع فتاة بمعنى الأمة، كما قالوا للعبد: غلام.

ولا ريب أنّ الخطاب بقوله تعالى { وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ } موجّه إلى المسلمين، فإذا كانت

قصة أمة ابن سلول حدثت بعد أن أظهر سيّدها الإسلام كان هو سبب النزول فشمله العموم لا محالة، وإن كانت حدثت قبل أن يظهر الإسلام فهو سبب ولا يشمله الحكم.

وقد كان إظهار عبد الله بن أُبَي بن سلول الإسلام في أثناء السنة الثانية من الهجرة فإنّه تردّد زمنا في الإسلام ولمّا رأى قومه دخلوا في الإسلام دخل فيه كارها مصرا على النفاق. ويظهر أنّ قصة أمته حدثت في مدّة صراحة كفره لمَا علمتَ ممّا روي عن الزهري من قول ابن سلول حين نزلت: من يعذرنا من محمد يغلبنا على ممالكنا، ونزول سورة النور كان في حدود السنة الثانية كما علمت في أول الكلام عليها، فلا شك أنّ البغاء الذي هو من عمل الجاهلية استمر زمنا بعد الهجرة بنحو سنة.

ولا شك أن البغاء يمتُّ إلى الزنى بشبه لما فيه من تعريض الأنساب للاختلاط وإن كان لا يبلغ مبلغ الزنى في خرم كلّيّة حفظ النسب من حيث كان الزنى سرًّا لا يطّلع عليه إلّا من اقترفه وكان البغاء علنا، وكانوا يرجعون في إلحاق الأبناء الذي تلدهم البغايا بآبائهم إلى إقرار البغي بأنّ الحمل ممّن تعيّنه.

واصطلحوا على الأخذ بذلك في النسب فكان شبيها بالاستلحاق، على أنّه قد يكون من البغايا من لا ضبط لها في هذا الشأن فيفضي الأمر إلى عدم التحاق الولد بأحد.

ولا شكّ في أن الزنى كان محرّما تحريما شديدا على المسلم من مبدأ ظهور الإسلام. وكانت عقوبته فرضت في حدود السنة الأولى بعد الهجرة بنزول سورة النور كما تقدّم في أوّلها. وقد أثبتت عائشة أنّ الإسلام هدم أنكحة الجاهلية الثلاثة وأبقى النكاح المعروف ولكنها لم تعيّن ضبط زمان ذلك الهدم.

ولا يعقل أن يكون البغاء محرّما قبل نزول هذه الآية إذ لم يعرف قبلها شيء في الكتاب والسنة يدلّ على تحريم البغاء، ولأنّه لو كان كذلك لم يتصوّر حدوث تلك الحوادث التي كانت سبب نزول الآية إذ لا سبيل للإقدام على محرم بين المسلمين أمثالهم.

ولذلك فالآية نزلت توطئة لإبطاله كما نزل قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى } [النساء:43] توطئة لتحريم الخمر البتّة. وهو الذي جرى عليه المفسّرون مثل الزمخشري والفخر بظاهر عباراتهم دون صراحة.

{ **لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** } متعلّق بـ { تُكْرِهُوا } لزيادة التبشيع. وهو الأجر الذي يكتسبه الموالي من إمائهم وهو ما يُسمَّى بالمهر أيضا.

{ **وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } فهو صريح في أنّه حكم متعلّق بالمستقبل لأنّه مضارع في حيّز الشرط، وهو صريح في أنّه عفو عن إكراه.

والذي يشتمل عليه هذا الخبر جانبان: جانب المكرِهين وجانب المكرَهات؛ فأمّا جانب المكرِهين فلا يخطر بالبال أنّ الله غفور رحيم لهم بعد أن نهاهم عن الإكراه إذ ليس لمثل هذا التبشير نظير في القرآن. وأمّا الإماء المكرَهات فإنّ الله غفور رحيم لهنّ. وقد قرأ بهذا المقدّر عبد الله بن مسعود وابن عباس فيما يروى عنهما، وعن الحسن أنّه كان يقول: غفور رحيم لهن والله .

وجعلوا فائدة هذا الخبر أن الله عذر المكرَهات لأجل الإكراه، وأنّه من قبيل قوله تعالى { فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [البقرة:173].

{ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ } [34].

ذُيّلت الأحكام والمواعظ التي سبقت بإثبات نفعها وجدواها لما اشتملت عليه ممّا ينفع الناس ويقيم عمود جماعتهم، ويميّز الحقّ من الباطل، ويزيل من الأذهان اشتباه الصواب بالخطأ، فيعلم الناس طرق النظر الصائب، وذلك تنبيه لما تستحقّه من التدبّر فيها، ولنعمة الله على الأمّة بإنزالها ليشكروا الله حق شكره.

ووصفت هذه الآيات المنزّلة بثلاث صفات كما وصف السورة في طالعتها بثلاث صفات.

والمقصد من الأوصاف في الموضعين هو الامتنان، فكان هذا يشبه ردّ العجز على الصدر.

فالآية مستأنفة استئناف التذييل وكان مقتضى الظاهر ألّا تعطف لأنّ شأن التذييل والاستئناف الفصل كما فُصلت أختها الآتية قريبا { لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ } [46]. وإنّما عدل عن الفصل إلى العطف لأنّ هذا ختام التشريعات والأحكام التي نزلت السورة لأسبابها.

وقد خُلّلت بمثل هذا التذييل مرّتين قبل هذا؛ بقوله تعالى في ابتداء السورة { وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ } [1]، ثمّ قوله تعالى { وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [18]، ثم قوله هنا { وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ }، فكان كلّ واحد من هذه التذييلات زائدا على الذي قبله؛

<u>الأول زائد بقوله</u> تعالى { وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ } لأنّه أفاد أنّ بيان الآيات لفائدة الأمّة.

<u>وما هنا زاد بقوله</u> تعالى { وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ }.

فكانت كل زيادة من هاتين مقتضية العطف لما حصل من المغايرة بينها وبين أختها، وتعتبر كل واحدة عطفا على نظيرتها، فوصفت السورة كلّها بثلاث صفات، ووصف ما كان من هذه السورة مشتملا على أحكام القذف والحدود وما يفضي إليها أو إلى مقاربها من أحوال المعاشرة بين الرجال والنساء بثلاث صفات:

*/ فقوله تعالى هنا { وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ } يطابق قوله في أوّل السورة { وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ }.

*/ وقوله تعالى { وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ } يقابل قوله في أوّل السورة { وَفَرَضْنَاهَا }، على ما اخترناه في تفسير ذلك بأنّ معناه التعيين والتقدير، لأنّ في التمثيل تقديرا وتصويرا للمعاني بنظائرها.

*/ وقوله تعالى { وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ } يقابل قوله في أوّلها { لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ }.

{ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ } ابتدئ الكلام بلام القسم وحرف التحقيق للاهتمام به.

الآيات: جمل القرآن لأنّها لكمال بلاغتها وإعجازها المعاندين عن أن يأتوا بمثلها كانت دلائل على أنّه كلام منزّل من عند الله.

{ **مُبَيِّنَاتٍ** } قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر ويعقوب { مُبَيَّنَاتٍ } بفتح التحتية على صيغة المفعول. فالمعنى: أنّ الله بيّنها ووضّحها. وقرأ الباقون بكسر التحتية { مُبَيِّنَاتٍ } على معنى أنّها أبانت المقاصد التي أنزلت لأجلها. ومعنيا القراءتين متلازمان فبذلك لم يكن تفاوت بين مفاد هذه الآية ومفاد قوله في نظيرتها { وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ } في أوّل السورة، لأنّ البيّنات هي الواضحة، أي: واضحة الدلالة والإفادة.

المثل: النظير والمشابه. ويجوز أن يراد به الحال العجيبة.

{ **مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ** } (مِن) ابتدائية، أي: مثلا ينشأ ويتقوَّم من الذين خلوا. والمراد: نشأة المشابهة. وفي الكلام حذف مضاف يدلّ عليه السياق، تقديره: من أمثال الذين خلوا من قبلكم. وهم الأمم الذين سبقوا المسلمين، وأراد: من أمثال صالحي الذي خلوا من قبلكم.

وهذا المثل هو قصّة الإفك النظيرة لقصّة يوسف وقصّة مريم، في تقوّل البهتان على الصالحين البُرآء.

الموعظة: كلام أو حالة يعرف منها المرء مواقع الزلل فينتهي عن اقتراف أمثالها. وقد تقدّم عند قوله تعالى { فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ } [النساء:63] وقوله تعالى { مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ } [الأعراف:145].

المتّقون: الذين يتّقون، أي: يتجنّبون ما نُهوا عنه.

{ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [35].

{ **اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } أتبع منّة الهداية الخاصة في أحكام خاصة المفادة من قوله تعالى { وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ } بالامتنان بأنّ الله هو مكوّن أصول الهداية العامة والمعارف الحقّ للنّاس كلّهم بإرسال رسوله بالهدى ودين الحقّ، مع ما في هذا الامتنان من الإعلام بعظمة الله تعالى ومجده وعموم علمه وقدرته.

والذي يظهر لي أنّ الجملة معترضة بين الجملة التي قبلها وبين جملة { مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ }، وأنّ جملة {مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ } بيان لجملة { وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ } كما سيأتي في تفسيرها. ومناسبة ذلك البيان أنّ آيات القرآن نور، قال تعالى { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً } [النساء:174]، وقال { قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ } [المائدة:10].

وموقع الجملة عجيب من عدّة جهات، وانتقال من بيان الأحكام إلى غرض آخر من أغراض الإرشاد

وأفانين من الموعظة والبرهان.

النور: حقيقته الإشراق والضياء. وهو اسم جامد لمعنى، فهو كالمصدر.

فالإخبار عن الله تعالى بأنّه نور إخبار بمعنى مجازي للنور لا محالة بقرينة أصل عقيدة الإسلام أنّ الله تعالى ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض، ولا يتردّد في ذلك أحد من أصحاب اللسان العربي.

ولا تخلو حقيقة معنى النور عن كونه جوهرا أو عرضا. وأسعد إطلاقات النور في اللغة بهذا المقام أن يراد به جلاء الأمور التي شأنها أن تخفى عن مدارك الناس وتلتبس فيقلّ الاهتداء إليها، فإطلاقه على ذلك مجاز بعلامة التسبّب في الحسّ والعقل.

قال الغزالي في رسالته المعروفة بمشكاة الأنوار[التي جعلها فيما يُستخلص من آية { اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }]: " النور هو الظاهر الذي به كل ظهور، أي: الذي تنكشف به الأشياء وتنكشف له وتنكشف منه، وهو النور الحقيقي وليس فوقه نور. وجعل اسمه تعالى النور دالا على التنزّه عن العدم، وعلى إخراج الأشياء كلّها عن ظلمة العدم إلى ظهور الوجود، فآل إلى ما يستلزمه اسم النور من معنى الإظهار والتبيين في الخلق والإرشاد والتشريع " .

وقد أشرنا آنفا إلى أنّ للنور إطلاقات كثيرة وإضافات أخرى صالحة لأن تكون مرادا من وصفه تعالى بالنور، وقد ورد في مواضع من القرآن والحديث فيُحمل الإطلاق في كلّ مقام على ما يليق بسياق الكلام، ولا يطّرد ذلك على منوال واحد حيثما وقع، كما في قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" ولك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهنّ "** . فإنّ عطف (ومن فيهن) يؤذن بأنّ المراد بـ (السماوات والأرض) ذاتهما لا الموجودات التي فيهما، فيتعيّن أن يراد بالنور هنالك إفاضة الوجود المعبّر عنه بالفتق في قوله تعالى { كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا } [الأنبياء:30]. والمعنى: أنّه بقدرته تعالى استقامت أمورهما.

ولحكماء الإشراق من المسلمين وصوفية الحكماء معاني من إطلاقات النور. وأشهرها ثلاث: البرهان العلمي، والكمال النفساني، وما به مشاهدة النورانيّات من العوالم.

ونلحق بهذه المعاني <u>إطلاق النور على الإرشاد</u> إلى الأعمال الصالحة وهو **الهدي**.

فلفظ (نور) في قوله تعالى { مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ } غير المراد بلفظ (نور) في قوله تعالى { اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } <u>فالنور لفظ مشترك استعمل في معنى وتارة أخرى في معنى آخر.</u>

فأحسن ما يُفسر به قوله تعالى { اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } أنّ الله مُوجد كلّ ما يعبَّر عنه بالنور وخاصة أسباب المعرفة الحقّ والحجّة القائمة والمرشد إلى الأعمال الصالحة التي بها حسن العاقبة في العالمين العلوي والسفلي، وهو من استعمال المشترك في معانيه.

{ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } يجوز أن يراد من فيهما من باب { وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ } [يوسف:82]، وذلك أبلغ في الدلالة على الإحاطة بالمقصود وألطف دلالة. فيشمل تلقين العقيدة الحقّ والهداية إلى الصلاح.

{ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ }.

يظهر أنّ هذه الجملة بيان لجملة { وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ }، فالجملة مستأنفة استئنافا بيانيّا. وجرى كلام كثير من المفسّرين على ما يقتضي أنّها بيان لجملة الله نور السماوات والأرض، فيكون موقعها موقع عطف البيان، فلذلك فصلت فلم تعطف.

{ **نُورِهِ** } الضمير عائد إلى اسم الجلالة، أي: مثل نور الله. والمراد: كتابه أو الدين الذي أختاره، أي: مثله في إنارة عقول المهتدين. فالكلام تمثيل لهيئة إرشاد الله المؤمنين بهيئة المصباح الذي حقّت به وسائل قوّة الإشراق، فهو نور الله لا محالة.

وإنّما أوثر تشبيهه بالمصباح الموصوف بما معه من الصفات دون أن يشبّه نوره بطلوع الشمس بعد ظلمة الليل لقصد إكمال مشابهة الهيئة المشبّه بها بأنّها حالة ظهور نور يبدو في خلال ظلمة فتنقشع به تلك الظلمة في مساحة يراد تنويرها.

ودون أن يُشبّه بهيئة بزوغ القمر في خلال ظلمة الأفق لقصد إكمال المشابهة لأنّ القمر يبدو ويغيب في بعض الليلة بخلاف المصباح الموصوف. وبعد هذا فلأن المقصود ذكر ما حفّ بالمصباح من الأدوات ليتسنى كمال التمثيل بقبوله تفريق التشبيهات كما سيأتي، وذلك لا يتأتّى في القمر.

المثل: تشبيه حال بحال، وقد تقدّم في أوائل سورة البقرة.

{ **كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ** } المقصود كمصباح في مشكاة. وإنّما قدّم المشكاة في الذكر لأنّ المشبّه به هو مجموع الهيئة.

المشكاة : المعروف من كلام أهل اللغة أنّها فرجة في الجدار مثل الكوّة لكنّها غير نافذة، فإن كانت نافذة فهي الكوّة. ولا يوجد في كلام الموثوق عنهم من أهل العربية غير هذا المعنى، واقتصر عليه الراغب وصاحب القاموس والكشاف واتفقوا: على أنّها كلمة حبشيّة أدخلها العرب في كلامهم فعدّت في الألفاظ الواقعة في القرآن بغير لغة العرب. ووقع ذلك في صحيح البخاري فيما فسّره من مفردات سورة النور. ووقع في تفسير الطبري وابن عطية عن مجاهد: أنّ المشكاة العمود الذي فيه القنديل يكون على رأسه. وفي الطبري عن مجاهد أيضا: المشكاة الصُّفر (أي: النحاس، أي قطعة منه شبيه القُصيبة) الذي في جوف القنديل. وفي معناه ما رواه هو عن ابن عباس: المشكاة موقع الفتيلة.

المصباح: اسم للإناء الذي يوقد فيه بالزيت للإنارة، وهي من صيغ أسماء الآلات مثل المفتاح، وهو مشتقّ من اسم الصبح، أي: ابتداء ضوء النهار، فالمصباح آلة الإصباح، أي: الإضاءة.

وإذا كان المشكاة اسما للقُصيبة التي توضع في جوف القنديل كان المصباح مرادا به الفتيلة التي توضع في تلك القُصيبة.

{ **الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ** } وإعادة لفظ { الْمِصْبَاحُ } دون أن يقال: فيها مصباح في زجاجة، إظهار في مقام

الإضمار للتنويه بذكر المصباح لأنّه أعظم أركان هذا التمثيل. وكذلك إعادة لفظ { الزُّجَاجَةُ } في قوله تعالى: { **الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ** } إظهار في مقام الإضمار للتنويه، لأنّه من أعظم أركان التمثيل. وتُسمَّى مثل هذه الإعادة تشابه الأطراف في فن البديع.

الزجاجة: اسم إناء يصنع من الزجاج، سُمِّيت زجاجة لأنّها قطعة مصنوعة من الزُجاج. كانوا يتّخذون من الزجاج آنية للخمر وقناديل للإسراج بمصابيح الزيت، لأن الزجاج شفاف لا يحجب نور السراج.

الزجاج: صنف من الطين المطيّن من عجين رمل مخصوص يوجد في طبقة الأرض وليس هو رمل الشطوط. وقد كان الزجاج معروفا عند القدماء الفينيقيين وعند القبط من نحو القرن الثلاثين قبل المسيح ثمّ عرفه العرب وهم يسمونه الزجاج والقوارير. قال بشّار:

أرفق بعمرو إذا حركت نسبته ... فإنه عربي من قوارير

وقد عرفه العبرانيّون في عهد سليمان واتّخذ منه سليمان بلاطا في ساحة صرحه كما ورد في قوله تعالى { قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ } [النمل:44].

{ **كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ** } النجم الساطع. واحد الدراري، وهي الكواكب الساطعة النور، مثل الزهرة والمشتري. منسوبة إلى الدر في صفاء اللون وبياضه. والدرُّ يضرب مثلا للإشراق والصفاء.

{ **يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ** }.

في موضع الصفة لمصباح. أي: تنير. وإسناد التوقد إليها مجاز عقلي.

الإيقاد: وضع الوقود وهو ما يزاد في النار المشتعلة ليقوى لهبها، وأريد به هنا ما يُمَدُّ به المصباح من الزيت، وفي صيغة المضارع على قراءة الأكثرين إفادة تجدّد إيقاده، أي: لا يذوى ولا يطفأ. وعلى قراءة ابن كثير ومن معه بصيغة الماضي إفادة أنّ وقوده ثبت وتحقق.

{ **شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ** } ذكر الجنس ثم أبدل منه اسم نوعها للإبهام الذي يعقبه التفصيل اهتماما بتقرّر ذلك في الذهن.

{ **مُبَارَكَةٍ** } لما فيها من كثرة النفع، فإنّها يُنتفع بحَبّها أكلا وبزيتها كذلك، ويُستنار بزيتها ويُدخل في أدوية وإصلاح أمور كثيرة، ويُنتفع بحطبها وهو أحسن حطب لأن فيه المادة الدهنية، قال تعالى {تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ} [المؤمنون:20]، ويُنتفع بجودة هواء غاباتها.

وقد قيل إن بركتها لأنّها من شجر بلاد الشام والشام بلد مبارك من عهد إبراهيم عليه السلام، قال تعالى { وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ } [الأنبياء:71].

{ **لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ** } وصف لـ { زَيْتُونَةٍ }. دخل حرف (لا) النافية في كلا الوصفين فصار بمنزلة حرف هجاء من الكلمة بعده، ولذلك لم يكن في موضع إعراب، نظير (ال) المعرفة التي ألغز فيها الدماميني بقوله:

حــاجيــتـكـم لـتـخـبـروا مـا اسـمـان ... وأوّل إعــرابـــه فـــي الـــثـــانـــي

وهـــو مـــبـــنـــي بـــكـــل حـــال ... هـــا هـــو لـــلـــنـــاظـــر كـــالـعـيـان

لإفادة الاتصاف بنفي كل وصف، وعطف على كلّ وصف ضدّه لإرادة الاتصاف بوصف وسط بين الوصفين المنفيين، لأنّ الوصفين ضدان. والعطف هنا من عطف الصفات كقوله تعالى { لَا إِلَى هَؤُلاءِ وَلا إِلَى هَؤُلاءِ } [النساء:143].

<u>والمعنى</u>: أنّها زيتونة جهتها بين جهة الشرق وجهة الغرب، فنُفي عنها أن تكون شرقية وأن تكون غربية. وهذا الاستعمال من قبيل الكناية لأنّ المقصود لازم المعنى لا صريحه.

واعلم أنّ هذا الاستعمال إنّما يكون في عطف نفي الأسماء وأمّا عطف الأفعال المنفيّة فهو من عطف الجمل نحو { فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى } [القيامة:31]، وقوله صلى الله عليه وسلم: **" لا هي أطعمتها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض "**.

<u>ثم يحتمل أن يكون المعنى:</u> أنّها نابتة في موضع بين شرق بلاد العرب وغربها وذلك هو البلاد الشامية، وقد قيل: إنّ أصل منبت شجرة الزيتون بلاد الشام.

{ **يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ** } أي: يكاد زيتها يضيء في كلّ حال حتّى في حالة لم تمسسه فيها نار. وهذا تشبيه بالغ كمال الإفصاح بحيث هو مع أنّه تشبيه هيئة بهيئة هو أيضا مفرَّق التشبيهات لأجزاء المركَّب المشبّه مع أجزاء المركَّب المشبّه به، وذلك أقصى كمال التشبيه التمثيلي في صناعة البلاغة.

{ **نُورٌ عَلَى نُورٍ** } مستأنفة إشارة إلى أنّ المقصود من مجموع أجزاء المركّب التمثيلي هنا هو البلوغ إلى إيضاح أنّ الهيئة المشبّه بها قد بلغت حد المضاعفة لوسائل الإنارة إذ تظاهرت فيها المشكاة والمصباح والزجاج الخالص والزيت الصافي، فالمصباح إذا كان في مشكاة كان شعاعه منحصرا فيها غير منتشر فكان أشد إضاءة لها ممّا لو كان في بيت، وإذا كان موضوعا في زجاجة صافية تضاعف نوره، وإذا كان زيته نقيا صافيا كان أشدّ إسراجا، فحصل تمثيل حال الدين أو الكتاب المنزّل من الله في بيانه وسرعة فشوّه في الناس بحال انبثاق نور المصباح وانتشاره فيما حفّ به من أسباب قوّة شعاعه وانتشاره في الجهة المضاءة به.

{ **عَلَى نُورٍ** } للاستعلاء المجازي، وهو التظاهر والتعاون. والمعنى: أنّه نور مكرّر مضاعف.

وقد أشرت آنفا إلى أنّ هذا التمثيل قابل لتفريق التشبيه في جميع أجزاء ركني التمثيل بأن يكون كل جزء من أجزاء الهيئة المشبّهة مشابها لجزء من الهيئة المشبه بها وذلك أعلى التمثيل:

*/ النور هو معرفة الحقّ على ما هو عليه، المكتسبة من وحي الله وهو القرآن. **شُبِّه** بالمصباح المحفوف بكل ما يزيد نوره انتشارا وإشراقا.

*/ المشكاة **يُشبهها** ما في الإرشاد الإلهي من انضباط اليقين وإحاطة الدلالة بالمدلولات دون تردّد ولا

انثلام، وحفظ المصباح من الانطفاء مع ما يحيط بالقرآن من حفظه من الله بقوله تعالى { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [الحجر:9]

*/ معاني هداية إرشاد الإسلام **تُشبه** المصباح في التبصير والإيضاح، وتبيين الحقائق من ذلك الإرشاد.

*/ سلامته من أن يطرقه الشك واللبس **يُشبه** الزجاجة في تجلية حال ما تحتوي عليه كما قال تعالى { وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ } [النور:34].

*/ الوحي الذي أبلغ الله به حقائق الديانة من القرآن والسنة **يُشبه** الشجرة المباركة التي تعطي ثمرة يستخرج منها دلائل الإرشاد.

*/ سماحة الإسلام وانتفاء الحرج عنه **يُشبه** توسّط الشجرة بين طرفي الأفق، فهو وسط بين الشدّة المحرجة وبين اللين المفرط.

*/ دوام ذلك الإرشاد وتجدده **يُشبه** الإيقاد.

*/ تعليم النبيّ صلى الله عليه وسلم أمّته ببيان القرآن وتشريع الأحكام **يُشبه** الزيت الصافي الذي حصلت به البصيرة وهو مع ذلك بين قريب التناول يكاد لا يحتاج إلى إلحاح المعلّم.

*/ انتصاب النبيّ عليه الصلاة والسلام للتعليم **يُشبه** مس النار للسراج وهذا يومئ إلى استمرار هذا الإرشاد.

*/ { مِنْ شَجَرَةٍ } يومئ إلى الحاجة إلى اجتهاد علماء الدين في استخراج إرشاده على مرور الأزمنة، لأنّ استخراج الزيت من ثمر الشجرة يتوقف على اعتصار الثمرة وهو الاستنباط.

{ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }.

هذه الجمل الثلاث معترضة أو تذييل للتمثيل. والمعنى: دفع التعجّب من عدم اهتداء كثير من الناس بالنور الذي أنزله الله، وهو القرآن والإسلام.

وأنّ الله يضرب الأمثال للناس مرجوا منهم التذكّر بها: فمنهم من يعتبر بها فيهتدي، ومنهم من يُعرض فيستمرّ على ضلاله، ولكن شأن تلك الأمثال أن يهتدي بها غير من طبع على قلبه.

{ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } تذييل لمضمون الجملتين قبلها، أي: لا يعزب عن علمه شيء. ومن ذلك علم من هو قابل للهدى ومن هو مصرّ على غيّه. وهذا تعريض بالوعد للأوّلين والوعيد للآخرين.

{ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ [36] رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ [37] لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ [38] }.

{ **فِي بُيُوتٍ** } تردّد المفسّرون في تعلق الجار والمجرور. فقيل: من تمام التمثيل، أي: يوقد المصباح في بيوت. وقيل هو صفة لمشكاة، أي: مشكاة في بيوت، وما بينهما اعتراض.

وقيل: أريد بالبيوت المساجد. ولا يستقيم إلّا تنويها، كما سنبيّنه.

وقيل: البيوت مساجد بيت المقدس وكانت يومئذ بيعا للنصارى. ويجوز، على هذا الوجه، أن يكون المراد بالبيوت صوامع الرهبان وأديرتهم، وكانت معروفة في بلاد العرب في طريق الشام يمرّون عليها وينزلون عندها في ضيافة رهبانها.

ويجوز أن يكون { فِي بُيُوتٍ } غير مرتبط بما قبله وأنّه مبدأ استئناف ابتدائي وأنّ المجرور متعلّق بقوله تعالى { يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا }. وتقديم المجرور للاهتمام بتلك البيوت وللتشويق إلى متعلّق المجرور، وهو التسبيح وأصحابه. والتقدير: يسبح لله رجال في بيوت، ويكون قوله { فِيهَا } تأكيدا، لزيادة الاهتمام بها. وفي ذلك تنويه بالمساجد وإيقاع الصلاة والذكر فيها، كما في الحديث: **صلاة أحدكم في المسجد** (أي: الجماعة) **تفضل صلاته في بيته بسبع وعشرين درجة ".**

والأظهر عندي: أنّ قوله تعالى { فِي بِيُوتٍ } ظرف مستقرّ، هو حال من { نُورِهِ } في قوله تعالى { مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ }، فيكون هذا الحال تجريدا للاستعارة التمثيلية بذكر ما يناسب الهيئة المشبّهة، أعني هيئة تلقي القرآن وقراءته وتدبّره، كما أشار إليه الحديث: " **وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلّا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده** " [مسلم]

{ **أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ** } أي: ألهم متّخذيها أن يجعلوها عالية، وكانوا صالحين يقرأون الإنجيل، فهو كقوله تعالى { لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ - إلى قوله - يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً } [الحج:40].

وعُبِّر بـ { أَذِنَ } دون الأمر لأنّ الله لم يأمرهم باتخاذ الأديرة في أصل النصرانية ولكنّهم أحدثوها للعون على الانقطاع للعبادة باجتهاد منهم، فلم ينههم الله عن ذلك، إذ لا يوجد في أصل الدين ما يقتضي النهي عنها، فكانت في قسم المباح.

وقيل: أريد بالرفع، الرفع المعنوي وهو التعظيم والتنزيه عن النقائض، فالإذن حينئذ بمعنى الأمر. وهذا بعيد عن أغراض القرآن، وخاصة المدني منه، لأنّ الثناء على هؤلاء الرجال ثناء جمّ ومعقَّب بقوله تعالى { لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا }.

الغدو: الصباح، لأنّه وقت خروج الناس في قضاء شؤونهم.

الآصال: جمع أصيل وهو آخر النهار، وتقدم في [الأعراف:205].

{ **رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ** } قيل: الرهبان الذين انقطعوا للعبادة وتركوا الشغل بأمور الدنيا، فيكون المعنى: أنّهم لا تجارة لهم ولا بيع من شأنهما أن يلهياهم عن ذكر الله.

والثناء عليهم يومئذ لأنّهم كانوا على إيمان صحيح إذ لم تبلغهم يومئذ دعوى الإسلام ولم تبلغهم إلّا بفتوح مشارف الشام بعد غزوة تبوك، وأمّا كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل فإنّه لم يذع في العامة.

وقيل: المراد بالرجال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن كان مثلهم في التعلّق بالمساجد. فهم لا تشغلهم تجارة ولا بيع عن الصلوات وأوقاتها في المساجد. وهذا تعريض بالمنافقين.

التجارة: جلب السلع للربح في بيعها. و**البيع** أعم، وهو أن يبيع أحد ما يحتاج إلى ثمنه.

{ **وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ** } تقدّم المعنى في [البقرة:43].

{ **يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ** } انتصب { يَوْماً } على المفعول به لا على الظرف بتقدير مضاف، أي: يخافون أهواله.

تقلّب القلوب والأبصار: اضطرابها عن مواضعها من الخوف والوجل، كما يتقلّب المرء في مكانه. وقد تقدّم في قوله تعالى { وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ } [الأنعام:110]. والمقصود العمل لما فيه الفلاح والنجاة يومئذ.

{ **لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ** } متعلّق بـ { يَخَافُونَ }، أي: كان خوفهم سببا للجزاء على أعمالهم الناشئة عن ذلك الخوف.

الزيادة من فضله: هي زيادة أجر الرهبان إن آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم حينما تبلغهم دعوته، لما في الحديث الصحيح: " **أنّ لهم أجرين** ".

أو هي زيادة فضل الصلاة في المساجد إن كان المراد بالبيوت مساجد الإسلام.

{ **وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** } تذييل لجملة { لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ }. أي: وهم ممّن يشاء الله لهم الزيادة.

الحساب: هنا بمعنى التحديد كما في قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [آل عمران:37].

وأمّا قوله تعالى { جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً } [النبأ:36]، فهو بمعنى التعيين والإعداد للاهتمام بهم.

{ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ } [39].

لمّا جرى ذكر أعمال المتّقين من المؤمنين وجزائهم عليها أعقب ذلك بضدّه من حال أعمال الكافرين التي يحسبونها قربات عند الله تعالى وما هي بمغنية عنهم شيئا، على عادة القرآن في إرداف البشارة بالنذارة،

وعكس ذلك.

ولعلّ المشركين كانوا إذا سمعوا ما وعد الله به المؤمنين من الجزاء على الأعمال الصالحة يقولون: ونحن نعمر المسجد الحرام ونطوف ونطعم المسكين ونسقي الحاج ونقري الضيف، كما أشار إليه قوله تعالى

{ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ } [التوبة:19]، يعدّون أعمالا من أفعال الخيرات، فكانت هذه الآيات إبطالا لحسابهم، كقوله تعالى { وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً } [الفرقان:23].

وقد أعلمناك أن هذه السورة نزل أكثرها عقب الهجرة وذلك حين كان المشركون يتعقّبون أخبار المسلمين في مهاجرهم ويتحسَّسون ما نزل من القرآن.

{ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ** } جُعل المسند إليه ما يدل على ذوات الكافرين ثم بُني عليه مسند إليه آخر وهو { أَعْمَالُهُمْ }، ولم يُجعل المسند إليه (أعمال الذين كفروا) من أوّل وهلة لما في الافتتاح بذكر الذين كفروا من التشويق إلى معرفة ما سيذكر من شؤونهم ليتقرّر في النفس كمال التقرّر وليظهر أنّ للذين كفروا حظا في التمثيل بحيث لا يكون المشبّه (أعمالهم) فقط.

على أنه قد يكون عنوان (الذين كفروا) قد غلب على المشركين من أهل مكّة فيكون افتتاح الكلام بهذا الوصف إشارة إلى أنّه إبطال لشيء اعتقده الذين كفروا.

السراب: رطوبة كثيفة تصعد على الأرض ولا تعلو في الجو تنشأ من بين رطوبة الأرض وحرارة الجو في المناطق الحارة الرملية فيلوح من بعيد كأنّه ماء.

{ **بِقِيعَةٍ** } الباء بمعنى (في) و (قيعة) أرض، والجار والمجرور وصف لسراب. و**القيعة**: الأرض المنبسطة ليس فيها ربى ويرادفها القاعة.

{ **يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً** } يفيد وجه الشبه ويتضمّن أحد أركان التمثيل: الرجل العطشان، وهو مشابه الكافر.

{ **حَتَّى إِذَا جَاءَهُ** } (حتّى) ابتدائية فهي بمعنى (فاء) التفريع. أي: فلما بلغ إلى حيث توهّم وجود الماء لم يجد الماء فتحقّق أن ما لاح له سراب. فضرب ذلك مثلا لقرب زمن إفضاء الكافر إلى عمله وقت موته حين يرى مقعده، أو في وقت الحشر.

{ **لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً** } أي: لم يجد ما كان يخيّل إلى عينه أنّه ماء. وهذا التمثيل كقوله تعالى { وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً } [الفرقان:23].

{ **وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ** } هو من تمام التمثيل، أي: أعطاه جزاء كفره وافيا لا تخفيف فيه.

{ **وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ** } تذييل. والمعنى: أنّه لا يماطل الحساب ولا يؤخّره عند حلول مقتضيه، فهو عام في حساب الخير والشر ولذلك كان تذييلا.

واعلم أنّ هذا التمثيل العجيب صالح لتفريق أجزائه في التشبيه بأن ينحلّ إلى تشبيهات واستعارات:
*/ فأعمال الكافرين شبيهة بالسراب في أنّ لها صورة الماء وليست بماء.
*/ والكافر يشبه الظمآن في الاحتياج إلى الانتفاع بعمله، ففي قوله { يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ } استعارة مصرّحة.
*/ وخيبة الكافر عند الحساب تشبه خيبة الظمآن عند مجيئه السراب، ففيه استعارة مصرّحة.
*/ ومفاجأة الكافر بالأخذ والعتْل من جند الله أو بتكوين الله، تشبه مفاجأة من حسب أنّه يبلغ الماء للشراب فبلغ إلى حيث تحقّق أنّه لا ماء، فوجد عند الموضع الذي بلغه من يترصّد له لأخذه أو أسره. فهنا استعارة مكنيّة إذ شُبِّه أمر الله أو ملائكته بالعدو، ورمز إلى العدو بقوله { فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ }.

{ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ } [40].

{ **أَوْ** } شأن (أو) إذا جاءت في عطف التشبيهات أن تدلّ على تخيير السامع أن يُشبّه بما قبلها أو بما بعدها. وقد تقدّم ذلك عند قوله تعالى { أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ } [البقرة:19].

فإذا كان الكلام هنا جاريا على ذلك الشأن، مع اتّحاد وجه الشبه، كان المعنى تمثيل الذين كفروا في أعمالهم التي يظنّون أنّهم يتقرّبون بها إلى الله بحال ظلمات ليل غشيت مَاخِرًا في بحر شديد الموج قد اقتحمه ليصل إلى غاية مطلوبة، وإنّما يكون ذلك عند اشتداد الرياح حتّى لا يكاد يرى يده التي هي أقرب شيء إليه وأوضحه في رؤيته، فكيف يرجو النجاة.

وإن كان الكلام جاريا على التخيير في التشبيه، مع اختلاف وجه الشبه، كان المعنى تمثيل حال الذين كفروا في أعمالهم التي يعملونها، وهم غير مؤمنين، بحال من ركب البحر يرجو بلوغ غاية فإذا هو في ظلمات لا يهتدي معها طريقا، فوجه الشبه هو ما حفّ بأعمالهم من ضلال الكفر الحائل دون حصول مبتغاهم. ويُرجّح هذا الوجه تذييل التمثيل بقوله تعالى { وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ }.

{ **كَظُلُمَاتٍ** } على الوجهين، عطف على { كَسَرَابٍ } والتقدير: والذين كفروا أعمالهم كظلمات. وهذا التمثيل من قبيل تشبيه حالة معقولة بحالة محسوسة.

الظلمات: الظلمة الشديدة. والجمع مستعمل في لازم الكثرة وهو الشدّة، فالجمع كناية، لأنّ شدّة الظلمة يحصل من تظاهر عدّة ظلمات.

وقد ذكرنا فيما مضى أنّ لفظ (ظلمة) بالإفراد لم يرد في القرآن. انظر قوله تعالى { وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ } [الأنعام:1].

{ **فِي بَحْرٍ** } أنّ الظلمات انطبع سوادها على ماء البحر فصارت كأنها في البحر.

{ **لُجِّيٍّ** } منسوب إلى اللُّجَّة، واللجّ: هو معظم البحر، أي: في بحر عميق، فالنسب مستعمل في التمكُّن من الوصف.

الموج: اسم جمع موجة: مقدار يتصاعد من ماء البحر أو النهر عن سطح مائه بسبب اضطراب في سطحه بهبوب ريح يدفعه إلى الشاطئ. وأصله مصدر: ماج البحر، أي: اضطرب، وسُمِّي به ما ينشأ عنه.

{ **مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ** } أي: أنّ الموج لا يتكسَّر حتّى يلحقه موج آخر من فوقه، وذلك أبقى لظلمته.

السحاب: تقدم في [الرعد:12]. والسحاب يزيد الظلمة إظْلَامًا، لأنّه يحجب ضوء النجم والهلال.

{ **ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ** } استئناف. والتقدير: هي ظلمات.

والمراد بالظلمات هنا غير { أَوْ كَظُلُمَاتٍ } لأنّ الجمع هنا جمع أنواع وهنالك جمع أفراد من نوع واحد.

{ **إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا** } لا يكاد يرى يده التي هي أقرب شيء إليه وأوضحه في رؤيته.

{ **وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ** } تذييل للتمثيل، أي: هم باؤوا بالخيبة فيما ابتغوا ممّا عملوا وقد حقّهم الضلال الشديد فيما عملوا حتّى عدموا فائدته. وفيه تنبيه على أنّ الله تعالى متصرّف بالإعطاء والمنع على حسب إرادته وحكمته وما سبق من نظام تدبيره.

وهذا التمثيل صالح لاعتبار التفريق في تشبيه أجزاء الهيئة المشبهة بأجزاء الهيئة المشبه بها:

*/ فالضلالات تشبه الظلمات.

*/ والأعمال التي اقتحمها الكافر لقصد التقرّب بها تشبه البحر.

*/ وما يخالط أعماله الحسنة من الأعمال الباطلة كالبحيرة.

*/ والسائبة يشبه الموج في تخليطه العمل الحسن وتخلله فيه وهو الموج الأوّل.

*/ وما يرد على ذلك من أعمال الكفر كالذبح للأصنام يشبه الموج الغامر الآتي على جميع ذلك بالتخلُّل والإفساد وهو الموج الثاني.

*/ وما يحفّ اعتقاده من الحيرة في تمييز الحسن من العبث ومن القبيح يشبه السحاب الذي يغشى ما بقي في السماء من بصيص أنوار النجوم.

*/ وتطلّبه الانتفاع من عمله يشبه إخراج الماخِر يده لتناول ما يحتاجه فلا يرى يده بله الشيء الذي يريده.

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ } [41].

الجملة استئناف ابتدائي، أعقب تمثيل ضلال أهل الضلالة وكيف حرمهم الله الهدى بطلب النظر والاعتبار كيف هدى الله تعالى كثيرا من أهل السماوات والأرض إلى تنزيه الله المقتضي الإيمان به وحده، وبما ألهم الطير إلى أصواتها المعربة عن بهجتها بنعمة وجودها ورزقها الناشئين عن إمداد الله

إيّاها بهما، فكانت أصواتها دلائل حال على تسبيح الله وتنزيهه عن الشريك، فأصواتها تسبيح بلسان الحال.

{ **أَلَمْ تَرَ** } الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم. والمراد من يبلغ إليه، أو الخطاب لغير معيَّن فيعم كل مخاطب كما هو الشأن في أمثاله.

والاستفهام مستعمل كناية عن التعجيب من حال فريق المشركين الذين هم من أصحاب العقول ومع ذلك قد حُرموا الهدى لمّا لم يجعله الله فيهم. وقد جعل الهدى في العجماوات إذ جبلها على إدراك أثر نعمة الوجود والرزق. وهذا في معنى قوله تعالى { إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً } [الفرقان:44].

والجملة جارية مجرى الأمثال في كلام البلغاء فلا التفات فيها إلى معنى الرؤية.

{ **أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } فتسبيح العقلاء حقيقة. وتسبيح الطير مجاز مرسل في الدلالة على التنزيه. وفيه استعمال لفظ التسبيح في حقيقته ومجازه، ولذلك خولف بينهما في الجملة الثانية فعُبّر بالصلاة والتسبيح مراعاة لاختلاف حال الفريقين: فريق العقلاء، وفريق الطير وإن جمعتهما كلمة { كُلٌّ }.

{ **وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ** } يراد به صفّهنّ أجنحتهنّ في الهواء حين الطيران.

{ **كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ** } أطلق على تسبيح العقلاء اسم الصلاة لأنه تسبيح حقيقي. فالمراد بالصلاة الدعاء وهو من خصائص العقلاء، وليس في أحوال الطير ما يستقيم إطلاق الدعاء عليه على وجه المجاز وأبقي لدلالة أصوات الطير اسم التسبيح لأنّه يطلق مجازا على الدلالة بالصوت بعلاقة الإطلاق وذلك على التوزيع، ولولا إرادة ذلك لقيل: كلّ قد علم تسبيحه، أو كلّ قد علم صلاته.

{ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ** } تذييل وهو إعلام بسعة علم الله تعالى الشامل للتسبيح وغيره من الأحوال.

{ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ } [42].

تحقيق لما دلّ عليه الكلام السابق من إعطائه الهدى للعجماوات في شؤونه وحرمانه إيّاه فريقا من العقلاء، فلو كان ذلك جاريا على حسب الاستحقاق لكان هؤلاء أهدى من الطير في شأنهم.

وتقديم المعمولين للاختصاص، أي: أنّ التصرّف في العوالم لله لا لغيره.

وفي هذا انتقال إلى دلالة أحوال الموجودات على تفرّد الله تعالى بالخلق ولذلك أعقب بقوله تعالى:

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ } [43].

أعقب الدلالة على إعطاء الهدى في قوانين الإلهام في العجماوات بالدلالة على خلق الخصائص في الجماد بحيث تسير على السير الذي قدّره الله لها سيرا لا يتغيّر، فهي بذلك أهدى من فريق الكافرين الذين لهم عقول وحواس لا يهتدون بها إلى معرفة الله تعالى والنظر في أدلّتها، وفي ذلك دلالة على عظم القدرة وسعة العلم ووحدانية التصرّف.

وهذا استدلال بنظام بعض حوادث الجو حتّى آل إلى قوله تعالى { فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ }.

{ **يُزْجِي** } يسوق. يقال: أزجى الإبل إزجاء. وأطلق الإزجاء على دنو بعض السحاب من بعض بتقدير الله تعالى الشبيه بالسوق حتّى يصير سحابا كثيفا.

{ **ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ** } انضمام بعض السحاب إلى بعض. وتقدّم الكلام على السحاب في قوله تعالى { وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ } [البقرة:164].

الركام: مشتق من الرَكْم. والركم: الجمع والضم. فالركام بمعنى المركوم، كما جاء في قوله تعالى { وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ } [الطور:44].

{ **فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ** } فإذا تراكم السحاب بعضه على بعض حدث فيه ما يُسمَّى في علم حوادث الجو بالسيال الكهربائي وهو **البرق**. فقال بعض المفسرين: هو الودق. وأكثر المفسّرين على أنّ الودق هو المطر، وهو الذي اقتصرت عليه دواوين اللغة، والمطر يخرج من خلال السحاب.

الخِلال: الفتوق، جمع خَلَل كجَبَل وجِبال. وتقدّم قوله تعالى { خِلالَ الدِّيَارِ } [الإسراء:5].

{ **يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ** } يسقط من علو إلى سفل، أي: ينزل من جو السماء إلى الأرض.

السماء: الجوّ الذي فوق جهة الأرض.

{ **مِنْ جِبَالٍ** } بدل من { السَّمَاءِ } بإعادة حرف الجر العامل في المبدل منه وهو بدل بعض، لأنّ المراد بالجبال سحاب أمثال الجبال. وإطلاق الجبال في تشبيه الكثرة معروف، يقال: فلان جبل علم، وطود علم.

{ **مِنْ بَرَدٍ** } (من) هذه مزيدة في الإثبات على رأي الذين جوزوا ذلك. أو تكون اسما بمعنى بعض.

{ **فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ** } جُعل نزول البرد إصابة لأنّ الإصابة إذا أطلقت في كلامهم دلّت على أنّها حلول مكروه. ومن ذلك سُمِّيت المصيبة الحادثة المكروهة. وأصاب: مشتقّ من الصوب وهو النزول، ومنه صوب المطر، فجُعل نزول البرد إصابة لأنّه يفسد الزرع والثمرة.

وأمّا قوله تعالى { إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ } [التوبة:50] فلأن قوله { حَسَنَةٌ } قرينة على إطلاق الإصابة على مطلق الحدوث، إمّا مجازا مرسلا وإمّا مشتركا لفظيا أو مشتركا معنويا.

{ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ } وصف لـ { سَحَاباً }. وفائدة هذه الصفة تنبيه العقول إلى التدبّر في هذه التغيرات، إذ كان شعور النّاس بحدوث البرق أوضح وأكثر من شعورهم بتكوّن السحاب وتراكمه ونزول المطر والبرد، إذ قد يغفل النّاس عن ذلك لكثرة حدوثه وتعوّدهم به، بخلاف اشتداد البرق. ولهذه النكتة خُصّصت هذه الحالة من أحوال البرق بالذكر.

السَنَا: ضوء البرق وضوء النّار. وأمّا السناء الممدود فهو الرِفعة.

{ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ } هو كقوله تعالى { يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ } [البقرة:20]، سوى أنّ هذه الآية زيد فيها لفظ { سَنَا }، لأنّها واردة في مقام الاعتبار بتكوين السحاب وإنزال الغيث فكان المقام مقتضيا للتنويه بهذا البرق وشدّة ضيائه حتّى يكون الاعتبار بأمرين: بتكوين البرق في السحاب، وبقوّة ضيائه، حتّى يكاد يذهب بالأبصار. وآية البقرة واردة في مقام التهديد والتشويه لحالهم حين كانوا مظهرين الإسلام ومنطوين على الكفر والجحود، فكانت حالهم كحالة الغيث المشتمل على صواعق ورعد وبرق فظاهره منفعة وفي باطنه قوارع ومصائب.

ومن أجل اختلاف المقامين وقع التعبير هنا بـ { يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ } وهنالك بقوله { يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ }، لأنّ في الخطف من معنى النكاية بهم والتسلّط عليهم ما ليس في { يَذْهَبُ }، إذ هو مجرّد الاستلاب.

وأمّا التعبير هنا { بِالْأَبْصَارِ } معرّفا باللام فلأنّ المقصود أنّ البرق مقارب أن يزيل طائفة من جنس الأبصار، إذ اللام هنا لام الحقيقة. بخلاف آية البقرة فإنّها في مقام التوبيخ لهم بأنّ ما شأنه أن ينتفع النّاس به قد أشرف على الضرّ بهم فلذلك ذكر لفظ {بْصَارَهُمْ } مضافا إلى ضميرهم.

مع ما في هذا التخالف من تفنين الكلام الواحد على أفانين مختلفة حتّى لا يكون الكلام معادا، وإن كان المعنى متّحدا، ولا تجد حقّ الإيجاز فائتا، فإنّ هذين الكلامين في حد التساوي في الحرف والنطق. وهكذا نرى بلاغة القرآن وإعجازه وحلاوة نظمه.

{ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ } [44].

الكلام استئناف. وجيء به مستأنفا غير معطوف على آيات الاعتبار المذكور قبله لأنّه أريد الانتقال من الاستدلال بما قد يخفى على بعض الأبصار إلى الاستدلال بما يشاهده كلّ ذي بصر كلّ يوم وكلّ شهر فهو لا يكاد يخفى على ذي بصر. وهذا تدرّج في موقع هذه الجملة عقب جملة { يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ } كما أشرنا إليه آنفا. ولذلك فالمقصود من الكلام هو جملة {إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ}، ولكن بُني نظم الكلام على تقديم الجملة الفعلية لما تقتضيه من إفادة التجدّد.

التقليب: تغيير هيئة إلى ضدّها. ومنه { فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا } [الكهف:42]، أي: يدير كفّيه من ظاهر إلى باطن، فتقليب الليل والنهار تغيير الأفق من حالة الليل إلى حالة الضياء، ومن حالة النهار إلى حالة الظلام، فالمقلَّب هو الجو بما يختلف عليه من الأعراض، ولكن لمّا كانت حالة ظلمة الجوّ تُسمَّى ليلا وحالة نوره تُسمَّى نهارا عُبّر عن الجوّ في حالتيه بهما، وعُدِّي التقليب إليهما بهذا الاعتبار.

وممّا يدخل في معنى التقليب تغيير هيئة الليل والنهار بالطول والقصر.

ولرعي تكرّر التقلّب بمعنييه عُبّر بالمضارع المقتضي للتكرّر والتجدّد.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ** } إشارة إلى ما تضمّنه فعل { يُقَلِّبُ } من المصدر. أي: إنّ في التقليب.

والتأكيد بـ { إنَّ } إمّا لمجرّد الاهتمام بالخبر، وإمّا لتنزيل المشركين، في تركهم الاعتبار بذلك، منزلة من ينكر أنّ في ذلك عبرة.

وقيل: الإشارة إلى جميع ما ذكر آنفا ابتداء من قوله تعالى { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً } [43]، فيكون الإفراد في قوله تعالى { **لَعِبْرَةً** } ناظرا إلى أنّ مجموع ذلك يفيد جنس العبرة الجامعة لليقين بأنّ الله هو المتصرّف في الكون. ولم ترد العبرة في القرآن معرَّفة بلام الجنس ولا مذكورة بلفظ الجمع.

{ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [45].

{ **وَاللَّهُ خَلَقَ** } لمّا كان الاعتبار بتساوي أجناس الحيوان في أصل التكوين من ماء التناسل مع الاختلاف في أوّل أحوال تلك الأجناس في آثار الخلقة، وهو حال المشي، إنّما هو باستمرار ذلك النظام بدون تخلّف، وكان ذلك محقَّقًا، كان إفراغ هذا المعنى بتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي مفيدا لأمرين: التحقّق بالتقديم على الخبر الفعلي، والتجدّد بكون الخبر فعليًّا.

وإظهار اسم الجلالة دون الإضمار للتنويه بهذا الخلق العجيب.

{ **خَلَقَ** } صيغة الماضي للدلالة على تقرير التقوّي بأنّ هذا شأن متقرّر منذ القدم، مع عدم فوات الدلالة على التكرير، حيث عُقّب الكلام بقوله { يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ }.

الدابة: ما دبّ على وجه الأرض، أي: مشى. وغُلِّب هنا الإنسان فأتى بضمير العقلاء.

{ **مِنْ مَاءٍ** } تنكير ماء لإرادة النوعية، تنبيها على اختلاف صفات الماء لكلّ نوع من الدواب، إذ المقصود تنبيه النّاس إلى اختلاف النطف للزيادة في الاعتبار.

وهذا بخلاف قوله تعالى { وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ } [الأنبياء:30]، إذ قُصد ثمّة إلى أنّ أجناس الحيوان كلّها مخلوقة من جنس الماء، وهو جنس واحد اختلفت أنواعه، فتعريف الجنس هناك إشارة إلى ما يعرفه النّاس إجمالا ويعهدونه من أنّ الحيوان كلّه مخلوق من نُطَف أصوله.

{ **فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ** } رُتّب ذكر الأجناس في حال المشي على ترتيب قوّة دلالتها على عظم القدرة.

{ **مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ** } الزحف، ذُكر الأوّل لأنّ الماشي بلا آلة مشي متمكّنة أعجب من الماشي على رجلين. وأطلق المشي على الزحف بالبطن للمشاكلة مع بقية الأنواع.

وليس في الآية ما يقتضي حصر المشي في هذه الأحوال الثلاثة لأنّ المقصود الاعتبار بالغالب المشاهد.

{ **يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ** } جملة مستأنفة زيادة في العبرة، أي: يتجدّد خلق الله ما يشاء أن يخلقه ممّا علمتم وما لم تعلموا.

{ **إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } تعليل وتذييل. ووقع فيه إظهار اسم الجلالة في مقام الإضمار ليكون كاملا مستقلا بذاته لأنّ شأن التذييل أن يكون كالمثل.

{ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } [46].

تذييل للدلائل والعبر السالفة وهو نتيجة الاستدلال. أي: إن لم يهتد بتلك الآيات أهل الضلالة فذلك لأنّ الله لم يهدهم لأنّه يهدي من يشاء.

{ **آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ** } المراد هنا: آيات القرآن كما يقتضيه فعل { أَنْزَلْنَا }، ولذلك لم تعطف هذه الجملة على ما قبلها بعكس قوله السابق { وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ } [34].

ولمّا كان المقصود من هذا إقامة الحجّة دون الامتنان لم يقيّد إنزال الآيات بأنّه إلى المسلمين كما قُيِّد في قوله تعالى قبله { وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا **إِلَيْكُمْ** آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ }.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب { مُبَيَّنَاتٍ } - بفتح الياء - على صيغة اسم المفعول، أي: بيّنها الله ووضّحها ببلاغتها وقوّة حجّتها. وقرأ الباقون { مُبَيِّنَاتٍ } - بكسر الياء - على صيغة اسم الفاعل، فإسناد التبيين إلى الآيات على هذه القراءة مجاز عقلي، لأنّها سبب البيان.

والمعنى: أنّ دلائل الحقّ ظاهرة ولكنّ الله يقدّر الهداية إلى الحقّ لمن يشاء هدايته.

{ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ [47] وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ [48] وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ [49] أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ [50] }.

عطف على جملة { وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } لما تتضمّنه جملة { يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ } من هداية بعض الناس وحرمان بعضهم، كما هو مقتضى { مَنْ يَشَاءُ }. وهذا تخلُّص إلى ذكر بعض ممّن لم

يشأ الله هدايتهم، وهم الذين أبطنوا الكفر وأظهروا الإسلام، وهم أهل النفاق.

فبعد أن ذُكرت دلائل انفراد الله تعالى بالإلهية وذُكر الكفّار الصرحاء الذين لم يهتدوا بها في قوله تعالى { وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ } تهيّأ المقام لذكر صنف آخر من الكافرين الذين لم يهتدوا بآيات الله وأظهروا أنّهم اهتدوا بها.

وضمير الجمع عائد إلى معروفين عند السامعين وهم المنافقون، لأنّ ما ذكر بعده هو من أحوالهم، وعود الضمير إلى شيء غير مذكور كثير في القرآن، على أنّهم قد تقدّم ما يشير إليهم بطريق التعريض في قوله تعالى { رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ } [37].

وقد أشارت الآية إلى المنافقين عامة، ثمّ إلى فريق منهم أظهروا عدم الرضى بحكم الرسول صلى الله عليه وسلم، فكلا الفريقين موسوم بالنفاق، ولكن أحدهما استمر على النفاق والمواربة، وفريقا لم يلبثوا أن أظهروا الرجوع إلى الكفر بمعصية الرسول علنا.

{ **وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا** } إيماء إلى أنّ حظّهم من الإيمان مجرّد القول دون الاعتقاد كما قال تعالى { قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ } [الحجرات:14].

وعُبّر بالمضارع لإفادة تجدّد ذلك منهم واستمرارهم عليه.

{ **أَطَعْنَا** } المفعول محذوف دلّ عليه ما قبله، أي: أطعنا الله والرسول.

{ **وَمَا أُولَئِكَ** } الإشارة إلى ضمير { يَقُولُونَ }، أي: يقولون آمنا وهم كاذبون في قولهم.

{ **وَإِذَا دُعُوا** } الضمير عائد إلى معاد ضمير { يَقُولُونَ }. وإسناد فعل { دُعُوا } إلى جميعهم، وإن كان المعرضون فريقا منهم لا جميعهم، للإشارة إلى أنّهم سواء في التهيّؤ إلى الإعراض ولكنّهم لا يظهرونه إلّا عندما تحلّ بهم النوازل، فالمعرضون هم الذين حلّت بهم الخصومات.

وقد شملت الآية نفرا من المنافقين حلت بهم خصومات فأبوا حكم النبيّ صلى الله عليه وسلم، قبل أن يحكم عليهم أو بعدما حكم عليهم، فلم يُرضهم حكمه.

روى المفسّرون أنّ (بِشْرًا) - أحد الأوس أو الخزرج - تخاصم إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم مع يهودي فلمّا حكم النبيّ لليهوديّ لم يرض (بِشْر) بحكمه ودعاه إلى الحكم عند كعب بن الأشرف اليهوديّ، فأبى اليهوديّ. وقيل إنّ أحد المنافقين اسمه (المغيرة بن وائل) من الأوس من بني أميّة بن زيد الأوسي تخاصم مع عليّ بن أبي طالب في أرض اقتسماها ثم كره أمية القِسْم الذي أخذه فرام نقض القسمة وأبى عليٌّ نقضها ودعاه إلى الحكومة لدى النبيّ صلى الله عليه وسلم. فقال المغيرة: أمّا محمد فلست آتيه لأنّه يبغضني وأنا أخاف أن يحيف عليَّ، فنزلت هذه الآية.

{ **إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ** } جُعل الدعاء إلى الله ورسوله كليهما، مع أنّهم دُعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنّ حُكم الرسول حُكم الله، لأنّه لا يحكم إلّا عن وحي. ولهذا الاعتبار أفرد ضمير { لِيَحْكُمَ }.

{ **إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ** } وقع حرف (إذا) المفاجأة في جواب (إذا) الشرطية لإفادة مبادرتهم بالإعراض دون تريّث لأنّهم قد أيقنوا من قبل بعدالة الرسول وأيقنوا بأن الباطل في جانبهم.

{ **وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ** } أي: إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. المعنى: أنّه يكون في ظنّ صاحب الحقّ ويقينه أنّه على الحق. ومفهومه أنّ من لم يكن له الحقّ منهم، وهو العالم بأنّه مبطل، لا يأتي إذا دعي إلى الرسول عليه الصلاة، فعُلم منه أن الفريق المعرضين هم المبطلون. فسبب إعراض المعرضين علمهم بأن في جانبهم الباطل وهم قد تحقّقوا أنّ الرسول لا يحكم إلّا بالحقّ.

الإذعان: الانقياد والطاعة.

{ **أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ** } لمّا كان هذا شأنا عجيبا استؤنف عقبه بالجملة ذات الاستفهامات المستعملة في التنبيه على أخلاقهم ولفت الأذهان إلى ما انطووا عليه، والداعي إلى ذلك أنّها أحوال خفيّة لأنّهم كانوا يظهرون خلافها.

وأتبع بعض الاستفهامات بعضا بحرف { **أَمْ** } المنقطعة التي هي هنا للإضراب الانتقالي. والانتقال هنا تدرّج في عدّ أخلاقهم. فكان الاستفهام، المكرّر ثلاث مرات، مستعملا في التنبيه مجازا مرسلا، كقوله { أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا } [الأعراف:195].

القلوب: العقول. **والمرض**: مستعار للفساد أو للكفر أو للنفاق، قال تعالى { فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً } [البقرة:10]. وأتي في جانب هذا الاستفهام بالجملة الاسمية للدلالة على ثبات المرض وتأصّله فيها.

الارتياب: الشك. والمراد: ارتابوا في حقّيّة الإسلام، أي: حدث لهم ارتياب بعد أن آمنوا إيمانا غير راسخ. وأتي في جانبه بالجملة الفعلية المفيدة للحدوث والتجدّد.

وهذا يشير إلى أنّهم فريقان: فريق لم يؤمنوا ولكنّهم أظهروا الإيمان وكتموا كفرهم، وفريق آمنوا إيمانا ضعيفا ثم ظهر كفرهم بالإعراض.

{ **أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ** } جيء في جانبه بالفعلين المضارعين للإشارة إلى أنّه خوف في الحال من الحيف في المستقبل. فهم خافوا من وقوع الحيف بعد نشر الخصومة، فمن ثمّة أعرضوا عن التحاكم.

الحيف: الظلم والجور في الحكومة.

{ **أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ** } أسند الحيف إلى الله ورسوله بمعنى أن يكون ما شرعه الإسلام حيفا لا يُظهر الحقوق. فالكلام كناية عن إنكارهم أن تكون الشريعة إلهية وأن يكون الآتي بها صادقا فيما أتى به. واعلم أن المنافقين اتصفوا بهذه الأمور الثلاثة وكلّها ناشئة عن عدم تصديقهم الرسول سواء في ذلك من حلّت به قضية ومن لم تحلّ.

{ **بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** } و(بل) للإضراب الانتقالي من الاستفهام التنبيهي إلى خبر آخر. وليست بل

هنا للإبطال لأنّه لا يستقيم إبطال جميع الأقسام المتقدّمة. والجملة مستأنفة استئنافا بيانيّا لأنّ السامع بعد تلك الاستفهامات الثلاثة يترقّب ماذا سيُرسي عليه تحقيق حالهم.

والمعنى: أنّهم يخافون أن يحيف الرسول عليهم ويظلمهم. وليس الرسول بالذي يظلم بل هم الظالمون.

وفي الجملة أربعة مؤكِّدات: اثنان من صيغة الحصر إذ ليس الحصر والتخصيص إلّا تأكيدا على تأكيد، والثالث ضمير الفصل، والرابع اسم الإشارة.

{ **أُولَئِكَ** } اسم الإشارة، الموضوع للتمييز، استُعمل هنا مجازا لتحقيق اتصافهم بالظلم، فهم يقيسون الناس على حسب ما يقيسون أنفسهم، فلمّا كانوا أهل ظلم ظنّوا بمن هو أهل الإنصاف أنّه ظالم.

{ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [51].

استئناف بياني يضع الفاصل الذي يميّز بين المؤمن الحقّ وبين الذي يُرائي بإيمانه. فقد كان المنافقون يموّهون بأنّ إعراض من أعرض منهم عن التحاكم عند رسول الله ليس لتزلزل في إيمانه بصدق الرسول ولكنّه إعراض لمراعاة أعراض من العلائق الدنيوية كقول بشْر: إنّ الرسول يبغضني. فبيّن الله بطلان ذلك بأنّ المؤمن لا يرتاب في عدل الرسول وعدم مصانعته.

وقد أفاد هذا الاستئناف أيضا الثناء على المؤمنين الأحقّاء بضدّ ما كان ذمّا للمنافقين على عادة القرآن في إرداف التوبيخ بالترغيب والوعيد بالوعد والنذارة بالبشارة والذمّ بالثناء.

{ **إِنَّمَا** } جيء بهذه الصيغة للحصر لدفع أن يكون مخالف هذه الحالة في شيء من الإيمان، وإن قال بلسانه إنه مؤمن، فهذا القصر إضافي، أي: هذا قول المؤمنين الصادقين في إيمانهم لا كقول الذي أعرضوا عن حكم الرسول. وليس قصرا حقيقيا لأنّ أقوال المؤمنين حين يُدعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحكم بينهم غير منحصرة في قول { سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا } ولا في مرادفه، فلعلّ منهم من يزيد على ذلك. وإنّما خُصّ هذان اللفظان بالذكر هنا من أجل أنّهما كلمة مشهورة وهي ممّا جرى مجرى المثل، كما يقال أيضا (سمعٌ وطاعةٌ) و(سمعًا وطاعةً). وتقدّم عند قوله تعالى { وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا } [النساء:46]. وفي حديث أبي هريرة قال النبيّ للأنصار: **" تكفوننا المؤونة ونشرككم في الثمرة "**. فقال الأنصار: سمعنا وأطعنا.

والمقصود من القصر الثناء على المؤمنين برسوخ إيمانهم وثبات طاعتهم في المنشط والمكروه. وفيه تعريض بالمنافقين إذ يقولون كلمة الطاعة ثم ينقضونها بضدّها من كلمات الإعراض والارتياب.

ونظير هذه الآية في طريق قصر بـ (إلّا) قوله تعالى { وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا } [آل عمران:147].

{ **قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ** } خبر { كَانَ } و{ أَنْ يَقُولُوا } هو اسمها، وقُدّم الخبر متابعة للاستعمال العربي لأنّهم إذا

جاؤوا بعد (كان) بـ (أن) والفعل لم يجيئوا بالخبر إلّا مقدّما على الاسم، كراهية توالي أداتين وهما: (كان) و(أن). ونظائر هذا الاستعمال كثيرة في القرآن. وتقدّم عند قوله تعالى { وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا } [آل عمران:147].

{ **وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** } جيء بمثل التركيب الذي وُصف به المنافقون بالظلم بصيغة القصر المؤكَّد ليكون الثناء على المؤمنين ضدا لمذمّة المنافقين تاما.

{ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ } [52].

إطناب ليحصل تعميم الحكم والمحكوم عليه. وموقع هذه الجملة موقع تذييل لأنّها تعمّ ما ذُكر قبلها من قول المؤمنين { سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا } وتشمل غيره من الطاعات بالقول أو بالفعل. وصيغة الحصر للتعريض بالذين أعرضوا إذا دعوا إلى الله ورسوله، وهي على وزان صيغة القصر التي تقدمتها.

وجمعت الآية أسباب الفوز في الدنيا والآخرة.

{ **وَمَنْ** } شرطية عامة، وجملة { **فَأُولَئِكَ** } جواب الشرط.

الطاعة: امتثال الأوامر واجتناب النواهي.

الخشية: الخوف. وهي تتعلق بالخصوص بما عسى أن يكون قد فُرّط فيه من التكاليف، وتعمّ التقصير كلّه.

التقوى: الحذر من مخالفة التكاليف في المستقبل.

الفوز: الظفر بالمطلوب الصالح.

{ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } [53].

عطف على جملة { وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ } [47]. أُتبعت حكاية قولهم ذلك بحكاية قسم أقسموه بالله ليتنصَّلوا من وصمة الإعراض عن حكم الرسول صلى الله عليه وسلم، فجاؤوه فأقسموا إنّهم لا يضمرون عصيانه فيما يقضي به فإنّه لو أمرهم الرسول بأشقّ شيء، وهو الخروج للقتال، لأطاعوه.

قال القرطبي: لما بيَّن كراهتهم لحكم النبيّ أتوه فقالوا: والله لو أمرتنا أن نخرج من ديارنا وأموالنا لخرجنا، ولو أمرتنا بالجهاد لجاهدنا. فنزلت هذه الآية.

الإقسام: النطق بالقسم، أي: اليمين. وضمير { أَقْسَمُوا } عائد إلى ما عاد إليه ضمير { يَقُولُونَ }.

الجَهْد: منتهى الطاقة. ولذلك يطلق على المشقّة، كما في حديث بدء الوحي: " **فغطّني حتّى بلغ مني الجَهْد** ". لأنّ الأمر الشاق لا يُعمل إلّا بمنتهى الطاقة.

يجوز أن يكون نصب { جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ } على الحال من ضمير { أَقْسَمُوا }، أي: جاهدين. والتقدير: جاهدين أنفسهم. ومعنى ذلك: أنّهم كرّروا الأيمان وعدّدوا عباراتها حتّى أتعبوا أنفسهم ليوهموا أنّهم صادقون في أيمانهم. وإضافة { جَهْدَ } إلى { أَيْمَانِهِمْ } إضافة على معنى (مِن)، أي: جهدا ناشئا مِن أيمانهم.

ويجوز أن يكون { جَهْدَ } منصوبا على المفعول المطلق الواقع بدلا من فعله. والتقدير: جهدوا أيمانهم جهدا. والتقدير: أقسموا يجهدون أيمانهم جهدا. وإضافة { جَهْدَ } إلى { أَيْمَانِهِمْ } على هذا الوجه من إضافة المصدر إلى مفعوله، جُعلت الأيمان كالشخص الذي له جَهد، ففيه استعارة مكنية.

وتقدّم الكلام على شيء من هذا عند قوله تعالى { أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ } [المائدة:53]، وقوله تعالى { وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ } [الأنعام:109].

{ **لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ** } بيان لـ { أَقْسَمُوا } وحذف المفعول لدلالة السياق. والتقدير: لئن أمرتهم بالخروج.

{ **قُلْ لا تُقْسِمُوا** } أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم هذه الكلمات ذات المعاني الكثيرة.

فيحتمل أن يكون نهيا عن إعادته، لأنّهم كانوا بصدد إعادته، بمعنى: لا حاجة بكم إلى تأكيد القسم.

ويحتمل أن يكون النهي مستعملا في معنى عدم المطالبة بالقسم، أي: ما كان لكم أن تقسموا إذ لا حاجة إلى القسم لعدم الشك في أمركم.

ويحتمل أن يكون النهي مستعملا في التسوية مثل { فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ } [الطور:16].

ويحتمل أن يكون النهي مستعملا في حقيقته والمقسم عليه محذوف، أي: لا تقسموا على الخروج من دياركم وأموالكم فإنّ الله لا يكلّفكم بذلك.

ومقام مواجهة نفاقهم أن تكون هذه الاحتمالات مقصودة.

{ **طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ** } كلام أرسل مثلا وتحته معانٍ جمّة تختلف باختلاف الاحتمالات المتقدّمة.

فعلى احتمال أن يكون النهي عن القسم مستعملا في النهي عن تكريره يكون المعنى من قبيل التهكّم، أي: لا حرمة للقسم فلا تعيدوه فطاعتكم معروفة، أي: معروف وَهَنُهَا وانتفاؤها.

وعلى احتمال استعمال النهي في عدم المطالبة باليمين يكون المعنى: لماذا تقسمون فلست أشك في حالكم فإنّ طاعتكم معروفة عندي، أي: أعرف عدم وقوعها، والكلام تهكّم أيضا.

وعلى احتمال استعمال النهي في التسوية، فالمعنى: قسمكم ونفيه سواء لأنّ أيمانكم فاجرة وطاعتكم معروفة.

وعلى احتمال استعمال النهي في حقيقته، فالمعنى: لا تقسموا هذا القسم، أي: على الخروج من دياركم وأموالكم لأنّ الله لا يكلّفكم الطاعة إلّا في معروف.

{ **إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** } صالحة لتذييل الاحتمالات المتقدّمة وهي تعليل لما قبلها.

{ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ } [54].

تلقين آخر للرسول عليه الصلاة والسلام بما يردُّ بهتانهم بقلّة الاكتراث بمواعيدهم الكاذبة وأن يقتصروا من الطاعة على طاعة الله ورسوله فيما كلّفهم دون ما ادعوا كذبا.

{ **قُلْ** } أعيد الأمر للاهتمام بهذا القول فيقع كلاما مستقلًّا غير معطوف.

{ **فَإِنْ تَوَلَّوْا** } يجوز أن يكون تفريعا على فعل { أَطِيعُوا } فيكون فعل { تَوَلَّوْا } من جملة ما أُمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بأن يقوله لهم ويكون فعلا مضارعا بتاء الخطاب. وأصله: (تتولوا) بتاءين حذفت منهما تاء الخطاب للتخفيف، وهو حذف كثير في الاستعمال. والكلام تبليغ عن الله تعالى إليهم، فيكون ضميرا { عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ } عائدين إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.

ويجوز أن يكون تفريعا على فعل { قُلْ }، أي: فإذا قلتَ ذلك فتولوا ولم يطيعوا ...، فيكون فعل { تَوَلَّوْا } ماضيا بتاء واحدة مواجَهًا به النبيّ صلى الله عليه وسلم، أي: فإن تولوا ولم يطيعوا فإنّما عليك ما حمِّلت من التبليغ وعليهم ما حمِّلوا من تبعة التكليف. كمعنى قوله { فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ } [النحل:82]. فيكون في ضمائر { فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ } التفات. وأصل الكلام: فإنّما عليك ما حُمِّلت وعليهم ما حُمِّلوا. والالتفات مُحسِّن لا يحتاج إلى نكتة.

وبهذين الوجهين تكون الآية مفيدة معنيين: معنًى من تعلّق خطاب الله تعالى بهم، وهو تعريض بتهديد ووعيد، ومعنًى من موعظة النبيّ صلى الله عليه وسلم إيّاهم وموادعة بهم. وهذا كلّه تبكيت لهم ليعلموا أنّهم لا يضرّون بتوليهم إلّا أنفسهم.

البلاغ: اسم مصدر بمعنى التبليغ كالأداء بمعنى التأدية. ومعنى كونه مبيِّنا أنّه فصيح واضح.

{ **وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا** } إرداف الترهيب الذي تضمّنه قوله تعالى { وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ } بالترغيب في الطاعة، استقصاء في الدعوة إلى الرشد.

{ **وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ** } بيان للإبهام الذي في قوله تعالى { مَا حُمِّلَ }.

{ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } [55].

الأشبه أنّ هذا الكلام استئناف ابتدائي انتُقل إليه بمناسبة التعرّض إلى أحوال المنافقين الذين أبقاهم على النفاق تردّدهم في عاقبة أمر المسلمين، وخشيتهم ألّا يستقرّ بالمسلمين المقام بالمدينة حتّى يغزوهم المشركون، أو يُخرجهم المنافقون حين يجدون الفرصة لذلك، كما حكى الله تعالى من قول ابن سلول

{ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ } [المنافقون:8]، فكانوا يُظهرون الإسلام اتقاء من تمام أمر الإسلام ويبطنون الكفر ممالأة لأهل الشرك.

وللكلام مناسبة مع قوله تعالى { وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا }. فيكون المعنى: وإن تطيعوه تهتدوا وتُنصروا وتأمنوا.

قال أبو العالية: مكث رسول الله بمكة عشر سنين، بعد ما أوحي إليه، خائفا هو وأصحابه ثم أُمر بالهجرة إلى المدينة وكانوا فيها خائفين، يصبحون ويمسون في السلاح، فقال رجل: يا رسول الله أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح؟ فقال رسول الله: **" لا تُغبَّرون** (أي: لا تمكثون) **إلّا قليلا حتّى يجلس الرجل منكم في الملإ العظيم محتبيا ليس عليه حديدة "**. ونزلت هذه الآية.

{ **لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ** } وقد كان المسلمون واثقين بالأمن ولكنّ الله قدَّم على وعدهم بالأمن أن وعدهم بالاستخلاف في الأرض وتمكين الدين والشريعة فيهم تنبيها لهم بأنّ سنة الله أنّه لا تأمن أمّة بأس غيرها حتّى تكون قويّة مكينة مهيمنة على أصقاعها.

ففي الوعد بالاستخلاف والتمكين وتبديل الخوف أمنا إيماء إلى التهيّؤ لتحصيل أسبابه مع ضمان التوفيق لهم والنجاح إن هم أخذوا في ذلك، وأنّ ملاك ذلك هو طاعة الله والرسول صلى الله عليه وسلم.

{ **مِنْكُمْ** } الخطاب لأمّة الدعوة، بمشركيها ومنافقيها، بأنّ الفريق الذي يتحقّق فيه الإيمان وعمل الصالحات هو الموعود بهذا الوعد.

{ **الصَّالِحَاتِ** } التعريف للاستغراق، أي: عملوا جميع الصالحات، وهي الأعمال التي وصفها الشرع بأنّها صلاح، وترك الأعمال التي وصفها الشرع بأنّها فساد لأنّ إبطال الفساد صلاح.

الصالحات: جمع صالحة، وهي الخصلة والفعلة ذات الصلاح.

وقد بيّن الله تعالى أصول انتظام أمور الأمّة في تضاعيف كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم مثل قوله { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ } [النحل:90]. وبيّن الرسول عليه الصلاة والسلام تصرّفات ولّاة الأمور في شؤون الرعيّة، ومع أهل الذمة، ومع الأعداء في الغزو والصلح والمهادنة والمعاهدة، وبين أصول المعاملات بين النّاس.

فمتى اهتمّ ولّاة الأمور وعموم الأمّة باتباع ما وضّح لهم الشرع تحقّق وعد الله إيّاهم بهذا الوعد الجليل.

فلو أن قومًا غير مسلمين عملوا في سيرتهم وشؤون رعيّتهم بمثل ما أمر الله به المسلمين لتحقّق لهم الكثير من آثار النجاح. ألا ترى أنّ القادة الأوربيين بعد أن اقتبسوا من الإسلام قوانينه ونظامه بما مارسوه من شؤون المسلمين في خلال الحروب الصليبية، ثم بما اكتسبوه من ممارسة كتب التاريخ الإسلامي والفقه والسيرة النبوية قد نظّموا ممالكهم على قواعد العدل والإحسان والمواساة وكراهة البغي والعدوان فعظمت دولهم واستقامة أمورهم.

ولا عجب في ذلك فقد سلّط الله الآشوريين، وهم مشركون، على بني إسرائيل لفسادهم فقال { وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً } [الإسراء:5/4].

الاستخلاف: جعلهم خلفاء، أي: عن الله في تدبير شؤون عباده، كما في قوله تعالى { إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً } [البقرة:30]. والسين والتاء للتأكيد. وأصله: ليخلفنّهم في الأرض.

{ **كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** } المراد: صلحاء الملوك مثل: يوسف، وداود، وسليمان، وأنو شروان، وأصحمة النجاشي، وحمورابي الذي كان في زمن إبراهيم، وذي القرنين...

{ **وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ** } انتشاره في القبائل والأمم وكثرة متّبعيه. استعير التمكين الذي حقيقته التثبيت والترسيخ لمعنى الشيوع والانتشار لأنّه إذا انتشر لم يُخش عليه الانعدام، فكان كالشيء المثبَّت المرسَّخ، وإذا كان متَّبعوه في قلّة كان كالشيء المضطرب المتزلزل.

وهذا الوعد هو الذي أشار إليه النبيّ صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة منها حديث الحديبية إذ جاء فيه قوله: " **وإن هم أبوا** (أي: إلّا القتال) **فوالذي نفسي بيده لأقاتلنّهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي،** (أي: ينفصل مقدم العنق عن الجسد) **ولينفذن الله أمره** ".

{ **لَهُمْ** } مقتضى الظاهر فيه أن يكون بعد قوله { دِينَهُمْ } لأنّ المجرور بالحرف أضعف تعلّقا من مفعول الفعل، فقُدِّم عليه للإيماء إلى العناية بهم، أي: بكون التمكين لأجلهم، كقوله تعالى { أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ } [الشرح:2/1].

{ **دِينَهُمُ** } إضافة الدين إلى ضميرهم لتشريفهم به لأنّه دين الله.

{ **الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ** } الذي اختاره ليكون دينهم، فيقتضي ذلك أنّه اختارهم أيضا ليكونوا أتباع هذا الدين. وفيه إشارة إلى أنّ الموصوفين بهذه الصلة هم الذين ينشرون هذا الدين في الأمم.

{ **وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً** } ولم يقل: وليؤمِّننَّهم، كما قال في سابقيه، لأنّهم ما كانوا يطمحون يومئذ إلى الأمن، كما ورد في حديث أبي العالية المتقدّم آنفا، فكانوا في حالة هي ضدّ الأمن، ولو أعطوا الأمن دون أن يكونوا في حالة خوف لكان الأمن منّة واحدة.

{ **أَمْناً** } التنكير للتعظيم بقرينة كونه مبدَّلا من بعد خوفهم المعروف بالشدّة. والمقصود: الأمن من أعدائهم المشركين والمنافقين. وفيه بشارة بأنّ الله مزيل الشرك والنفاق من الأمّة.

وليس هذا الوعد بمقتضٍ ألّا تحدث حوادث خوف في الأمّة.

{ **يَعْبُدُونَنِي** } حال من ضمائر الغيبة المتقدّمة، أي: هذا الوعد جرى في حال عبادتهم إيّاي. وفي هذه الحال إيذان بأنّ ذلك الوعد جزاء لهم.

وعُبّر بالمضارع لإفادة استمرارهم على ذلك تعريضا بالمنافقين إذ كانوا يؤمنون ثم ينقلبون.

{ **لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً** } حال من ضمير الرفع في { يَعْبُدُونَنِي } تقييدا للعبادة بهذه الحالة لأنّ المشركين قد يعبدون الله ولكنّهم يشركون معه غيره.

{ **وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** } تحذير بعد البشارة على عادة القرآن في تعقيب البشارة بالنذارة والعكس دفعا للاتكال.

{ **بَعْدَ ذَلِكَ** } الإشارة إلى الإيمان المعبّر عنه هنا بـ { يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً } والمعبّر عنه في أوّل الآيات بقوله { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا } أي: ومن كفر بعد الإيمان وما حصل له من البشارة عليه فهم الفاسقون.

وصيغة الحصر المأخوذة من تعريف المسند بلام الجنس مستعملة للمبالغة، للدلالة على أنّه الفسق الكامل.

ووصف الفاسقين له رشيق الموقع، لأنّ مادة الفسق تدل على الخروج من المكان من منفذ ضيق.

{ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [56].

عطف على جملة { يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً } لما فيها من معنى الأمر بترك الشرك، فكأنّه قيل: اعبدوني ولا تشركوا وأقيموا الصلاة، لأنّ الخبر إذا كان يتضمّن معنى الأمر كان في قوّة فعل الأمر.

والخطاب موجّه للذين آمنوا خاصة بعد أن كان موجّها لأمّة الدعوة. فالطاعة المأمور بها هنا غير الطاعة التي في قوله تعالى { قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا ...} [54]، لأنّ تلك دعوة للمعرضين وهذه ازدياد للمؤمنين.

{ **وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ** } أي: في كل ما يأمركم وينهاكم.

{ **لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** } أي: في الدنيا بتحقيق الوعد الذي من رحمته الأمن، وفي الآخرة بالدرجات العلى.

والكلام على لعلّ تقدم في غير موضع في سورة البقرة.

{ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ } [57].

استئناف ابتدائي لتحقيق ما اقتضاه قوله تعالى { وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً }، فقد كان المشركون يومئذ لم يزالوا في قوّة وكثرة وكان المسلمون لم يزالوا يخافون بأسهم فربّما كان الوعد بالأمن من بأسهم متلقّى بالتعجّب والاستبطاء الشبيه بالتردّد فجاء القول تطمينا وتسلية.

والخطاب لمن قد يخامره التعجّب والاستبطاء دون تعيين.

والمقصود من النهي عن هذا الحسبان التنبيه على تحقيق الخبر.

المُعْجِز: الذي يُعجز غيره، أي: يجعله عاجزا عن غلبه. وتقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ } [الأنعام:134]. وكذلك **المُعاجز** بمعنى المحاول عجز غيره.

وتقدّم في قوله تعالى { وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ } [الحج:51].

الأرض: هي أرض الدنيا، أي: هم غير غالبين في الدنيا.

{ **وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ** } أي: هم في الآخرة معلوم أنّ مأواهم النار.

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ [58] وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ [59]** }.

استئناف انتقالي إلى غرض من أحكام المخالطة والمعاشرة. وهو عود إلى الغرض الذي ابتدئت به السورة وقُطع عند قوله { وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ }.

وقد ذُكر في هذه الآية شرع الاستئذان لأتباع العائلة ومن هو شديد الاختلاط إذا أراد دخول بيت، فهو من متمّمات ما ذكر في قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا } [27].

وهو بمفهوم الزمان يقتضي تخصيص العموم، ويقتضي عدم استئذانهم في غير تلك الأوقات الثلاثة.

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ** } وُجِّه الخطاب إلى المؤمنين وجُعلت صيغة الأمر موجَّهة إلى المماليك والصبيان على معنى: لتأمروا الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم أن يستأذنوا عليكم، لأنّ على أرباب البيوت تأديب أتباعهم، فلا يشكل توجيه الأمر إلى الذين لم يبلغوا الحلم.

والأمر للوجوب عند الجمهور. وقال أبو قلابة: هو ندب.

{ **الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ** } فأمّا المماليك فلأنّ في عرف الناس أن لا يتحرّجوا من اطلاع المماليك عليهم إذ هم خَوَل وتَبَع. ويشمل الذكور والإناث لمالكيهم الذكور والإناث.

وأمّا الأطفال فلأنّهم لا عناية لهم بتطلع أحوال الناس.

وأمّا مسألة النظر وتفصيلها في الكبير والصغير والذكر والأنثى فهي من علائق ستر العورة المفصّلة في كتب الفقه. وقد تقدّم شيء من ذلك عند قوله تعالى { وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا - إلى قوله - عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ } [31]، فلا ينبغي التصدي بإيراد صورها في هذه الآية.

{ **ثَلَاثَ مَرَّاتٍ** } كانت هذه الأوقات أوقاتا يتجرّد فيها أهل البيت من ثيابهم كما آذن به قوله تعالى { وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ }، فكان من القبيح أن يرى مماليكهم وأطفالهم عوراتهم لأنّ ذلك منظر يخجل منه المملوك وينطبع في نفس الطفل، ولأنّه يجب أن ينشأ الأطفال على ستر العورة حتّى يكون ذلك كالسجيّة فيهم إذا كبروا. ولأنّها أوقات خلوة الرجال والنساء، وهي أوقات نوم، وقد سمّاها الله {عَوْرَاتٍ}.

وانتصب { ثَلاثَ مَرَّاتٍ } على أنّه مفعول مطلق { لِيَسْتَأْذِنْكُمُ } لأنّ مرات في قوّة استئذانات.

الظهيرة: وقت الظهر وهو انتصاف النهار.

وما بعد صلاة العشاء: هو الليل كلّه إلى حين الهبوب من النوم قبل الفجر.

{ **ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ** } نصّ على علّة إيجاب الاستئذان فيها.

العورة: في الأصل الخلل والنقص. وفيه قيل لمن فُقدت عينه: أعْوَر وعُوِرت عينه، ومنه عورة الحيّ: وهي الجهة غير الحصينة منه بحيث يمكن الدخول منها كالثغر. كقوله { يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ } [الأحزاب:13]. ثم أطلقت على ما يُكره انكشافه كما هنا. وكما سُمِّي ما لا يحب الإنسان كشفه من جسده عورة.

{ **لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ** } أي: بعد تلك الأوقات المحدّدة؛ فصلاة الفجر حدّ معلوم، وحالة وضع الثياب من الظهيرة تحديد بالعرف، وما بعد صلاة العشاء من الحصة التي تسع في العرف تصرّف الناس في التهيّؤ إلى النوم.

ولك أن تجعل { **بَعْدَهُنَّ** } بمعنى دون، أي: في غير تلك الأوقات، كقوله تعالى { فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ } [الجاثية:23].

{ **لَيْسَ عَلَيْكُمْ** } إيماء إلى لحن خطاب حاصل من قوله { لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ } فإنّ الأمر باستئذان هؤلاء عليهم يقتضي أمر أهل البيت بالاستئذان على الذين ملكت أيمانهم إذا دعاهم داع إلى الدخول عليهم في تلك الأوقات. وإنّما لم يصرّح بأمر المخاطبين بأن يستأذنوا على الذين ملكت أيمانهم لندور دخول السادة على عبيدهم أو على غلمانهم إذ الشأن أنّهم إذا دعتهم حاجة إليهم أن ينادوهم.

{ **طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ** } الكلام استئناف بياني، أي: إنّما رُفع الجناح عليهم وعليكم في الدخول بدون استئذان بعد تلك الأوقات الثلاثة لأنّهم طوّافون عليكم فلو وجب أن يستأذنوا لكان فيه حرج على الكلّ.

{ **كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ** } أي: مثل ذلك البيان الذي طرق أسماعكم يبيّن الله لكم الآيات، فبيانه بالغ الغاية في الكمال. والتعريف في { الْآيَاتِ } تعريف الجنس. والمراد بالآيات: القرآن، فإنّ ما يقع فيه إجمال منها يُبيَّن بآيات أخرى.

{ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** } معترضة. والمعنى: يبيّن الله لكم الآيات بيانا كاملا وهو عليم حكيم، فبيانه بالغ غاية الكمال لا محالة.

{ **وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ** } في موقع التصريح بمفهوم الصفة في قوله تعالى {وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ} ليُعلم أنّ الأطفال إذ بلغوا الحلم تغيّر حكمهم في الاستئذان إلى حكم استئذان الرجال الذي في قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ } [27].

{ **كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** } القول فيه كالقول في نظيره المتقدّم آنفا، وهو تأكيد له بالتكرير لمزيد الاهتمام والامتنان. وإنّما أضيفت الآيات هنا لضمير الجلالة { آيَاتِهِ } تفنّنا ولتقوية تأكيد معنى كمال التبيين الحاصل من قوله { كَذَلِكَ }. وتأكيد معنى الوصفين العليم الحكيم.

{ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [60].

هذه الآية مخصِّصة لقوله { وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا - إلى قوله - عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ } [31]. ومناسبة هذا التخصيص هنا أنّه وقع بعد فرض الاستئذان في الأوقات التي يضع الرجال والنساء فيها ثيابهم عن أجسادهم، فعطف الكلام إلى نوع من وضع الثياب عن لابسها، وهو وضع النساء القواعد بعض ثيابهنّ عنهنّ، فاستُثني من عموم النساء النساءُ المتقدّمات في السن، بحيث بلغن إبّان الإياس من المحيض.

القواعد: جمع قاعد بدون هاء تأنيث مثل: حامل وحائض، لأنّه وصف نُقل لمعنى خاص بالنساء، وهو القعود عن الولادة وعن المحيض. استعير القعود لعدم القدرة، لأنّ القعود يمنع الوصول إلى المرغوب، وإنّما رغبة المرأة في الولد والحيض من سبب الولادة.

{ **اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً** } وصف كاشف للقواعد وليس قيدا. وذلك من الكبر.

{ **فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ** } رخصّ لهنّ ألّا يضربن بخمرهن على جيوبهن، وألّا يدنين عليهن من جلابيبهن. عن ابن مسعود وابن عباس: الثياب الجلباب، أي: الرداء والمقنعة التي فوق الخمار.

وقال السدي: يجوز لهن وضع الخمار أيضا.

الوضع: إناطة شيء على شيء، وأصله أن يُعدَّى بحرف (على)، وقد يعدّى بحرف (عن) إذا أريد أنّه أزيل عن مكان ووضع على غيره، وهو المراد هنا. أي: أن يُزلن عنهنّ ثيابهنّ.

لمّا كان في الأمر بضرب الخُمُر على الجيوب أو إدناء الجلابيب كلفة على النساء المأمورات، اقتضاها سدّ الذريعة، فلمّا انتفت الذريعة رُفع ذلك الحكم رحمة من الله، فإنّ الشريعة ما جَعلت في حكمٍ مشقّة لضرورة إلّا رُفعت تلك المشقّة بزوال الضرورة، وهذا معنى الرخصة.

{ **وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ** } تعقيب على الرخصة.

الاستعفاف: التعفّف، فالسين والتاء فيه للمبالغة مثل استجاب، أي: تعفّفهنّ عن وضع الثياب أفضل لهنّ.

{ **غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ** } قيد، أي: وضعا لا يقارنه تبرّج بزينة. لأنّها وإن كانت من القواعد فإنّ تعريضها بذلك يخالف الآداب ويزيل وقار سنّها، وقد يرغب فيها بعض أهل الشهوات.

التبرج: التكشّف.

وفي الموطأ: دخلت حفصة بنت عبد الرحمان بن أبي بكر على عائشة أم المؤمنين وعلى حفصه خمار رقيق فشقّته عائشة وكستها خمارا كثيفا. أي: شقّته لئلّا تختمر به فيما بعد.

{ **وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** } مسوقة مساق التذييل للتحذير من التوسّع في الرخصة أو جعلها ذريعة لما لا يحمد شرعا، فوصف **السميع** تذكير بأنّه يسمع ما تحدّثن به أنفسهنّ من المقاصد، ووصف **العليم** تذكير بأنّه يعلم أحوال وضعهنّ الثياب وتبرجهنّ ونحوها.

{ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } [61].

{ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ }.

اختُلف في أنّ قوله تعالى { لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ } منفصل عن قوله { وَلا عَلَى أَنْفُسِكُمْ }، وأنّه في غرض غير غرض الأكل في البيوت، أي: فيكون من تمام آية الاستئذان، أو متّصل بما بعده في غرض واحد.

<u>قال بالأوّل (منفصل)</u>: الحسن وجابر بن زيد، وهو مختار الجبّائي وابن العربي وأبي حيّان. قال ابن عطية : " إنّه ظاهر الآية ". **وهو الذي نختاره** تفاديا من التكلّف الذي ذكره مخالفوهم لبيان اتصاله بما بعده في بيان وجه الرخصة لهؤلاء الثلاثة الأصناف في الطعام في البيوت المذكورة، ولأنّ في قوله تعالى { أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ } إلى آخر المعدودات لا يظهر اتصاله بالأعمى والأعرج والمريض، فتكون هذه الآية نفيا للحرج عن هؤلاء الثلاثة فيما تجرّه ضرارتهم إليهم من الحرج من الأعمال.

فالحرج منفي عن الأعمى في التكليف الذي يشترط فيه البصر، وعن الأعرج فيما يشترط فيه المشي والركوب، وعن المريض في التكليف الذي يؤثّر المرض في إسقاطه، كالصوم وشروط الصلاة والغزو.

ولكن المناسبة في ذكر هذه الرخصة عقب الاستئذان أنّ المقصد الترخيص للأعمى أنّه لا يتعيّن عليه استئذان لانتفاء السبب الموجبة. ثم ذكر الأعرج والمريض إدماجا وإتماما لحكم الرخصة لهما للمناسبة مع الأعمى.

<u>قال بالثاني (المتصل)</u>: جمهور المفسّرين وقد تكلّفوا لوجه عَدِّ هذه الأصناف الثلاثة في عداد الآكلين من الطعام الذي في بيوت من ذُكروا في الآية الموالية.

والجملة على كلا الوجهين مستأنفة استئنافا ابتدائيا.

{ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً }

مناسبة عطف هذه الرخص على رخصة الأعمى، على تقدير أنّه منفصل عنه، وهو المختار عند المحققين، هو تعلّق كليهما بالاستئذان والدخول للبيوت سواء كان لغرض الطعام فيها أو كان للزيارة ونحوها، لاشتراك الكلّ في رفع الحرج.

وعلى تقدير أنّه متصل به، على قول الجمهور، فاقتران الجميع في الحكم هو الرخصة للجميع في الأكل، فأذن الله للأعمى والأعرج والمريض أن يدخلوا للأكل لأنّهم محاويج لا يستطيعون التكسّب، فرُخِّص لهؤلاء أن يدخلوا بيوت المسلمين لشبع بطونهم.

{ **وَلَا** } أعيد حرف (لا) مع المعطوف على المنفي قبله تأكيدا لمعنى النفي، وهو استعمال كثير.

{ **عَلَى أَنْفُسِكُمْ** } ذوات المخاطبين بعلامات الخطاب، فكأنه قيل: ولا عليكم جناح أن تأكلوا، إلى آخره.

{ **أَنْ تَأْكُلُوا** } المقصود هنا الأكل بدون دعوة، وذلك إذا كان الطعام محضرًا دون المختزن.

{ **مِنْ بُيُوتِكُمْ** } المراد بأكل الإنسان من بيته الأكل غير المعتاد، أي: أن يأكل أكلا لا يشاركه فيه بقيّة أهله، كأن يأكل الرجل وزوجته غائبة، أو أن تأكل هي وزوجها غائب، فهذه أثرة مرخّص فيها.

{ **أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ** } عطف على بيوت أنفسهم بيوت آبائهم وأمّهاتهم ولم يذكر بيوت أولادهم مع أنّهم أقرب إلى الآكلين من الآباء، فهم أحق بأن يأكلوا من بيوتهم، لأنّ بيوت الأبناء معلوم حكمها بالأولى من البقية، لقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" أنت ومالك لأبيك "**.

{ **أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ ... أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ** } هؤلاء المعدودون في الآية بينهم من القربة أو الولاية أو الصداقة ما يعتاد بسببه التسامح بينهم في الحضور للأكل بدون دعوة، لا يتحرّج أحد منهم من ذلك غالبا.

{ **أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ** } أريد به حفظها بقرينة إضافته إلى المفاتيح دون الدور أو الحوائط.

وهذه رخصة للوكيل والمختزن للطعام وناطور الحائط ذي الثمر أن يأكل كلّ منهم ما تحت يده بدون إذن، ولا يتجاوز شبع بطنه. وذلك للعرف بأنّ ذلك كالإجارة، فلذلك قال الفقهاء: إذا كان لواحد من هؤلاء أجرة على عمله لم يجز له الأكل ممّا تحت يده.

{ **أَوْ صَدِيقِكُمْ** } و**الصديق**: فعيل بمعنى فاعل وهو الصادق في المودّة. وقد جُعل في مرتبة القرابة، ممّا هو موقور في النفوس من محبّة الصلة مع الأصدقاء.

{ **لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً** } أعيدت تأكيدا للأولى، إذ الجناح والحرج كالمترادفين.

الجميع: المجتمعون على أمر.

الأشتات: الموزّعون فيما الشأن اجتماعهم فيه، قال تعالى { تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى } [الحشر:14].

والأشتات: جمع شَت، وهو مصدر شَتَّ إذا تفرّق. وأمّا شتَّى فجمع شتيت.
والمعنى: لا جناح عليكم أن يأكل الواحد منكم مع جماعة جاؤوا للأكل مثله أو أن يأكل وحده.

{ **فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** } تفريع على الإذن لهم في الأكل من هذه البيوت بأن ذكّرهم بأدب الدخول المتقدّم في قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا } [27]، لئلّا يجعلوا القرابة والصداقة والمخالطة مبيحة لإسقاط الآداب، فإنّ واجب المرء أن يلازم الآداب مع القريب والبعيد.
{ **فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ** } فليسلّم بعضكم على بعض. ولقد عكف قوم على ظاهر هذا اللفظ وأهملوا دقيقته، فظنّوا أنّ الداخل يسلِّم على نفسه إذا لم يجد أحدا وهذا بعيد من أغراض التكليف والآداب.
وأماّ ما ورد في التشهّد من قوله: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فذلك سلام بمعنى الدعاء بالسلامة، جعله النبيّ صلى الله عليه وسلم لهم عوضا عمّا كانوا يقولون: السلام على الله، السلام على النبيّ، السلام على جبريل وميكائيل، السلام على فلان وفلان. فقال لهم رسول الله: **" إنّ الله هو السلام "** ، إبطالا لقولهم: السلام على الله. ثم قال لهم: **" قولوا السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فإنّكم إذا قلتموها أصابت كل عبد الله صالح في السماء وفي الأرض ".**
وأمّا السلام في هذه الآية فهو التحيّة كما فسره بقوله { تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً } ولا يُؤمر أحد بأن يسلِّم على نفسه.
التحيّة: أصلها مصدر حيّاه تحية. وهي قول: حيّاك الله. وتقدّم في قوله تعالى { وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا } [النساء:86].
وكانت تحية الملوك (عِم صباحًا) فجعل الإسلام التحية كلمة (**السلام عليكم**)، وهي من جوامع الكلم، لأنّ المقصود من التحيّة تأنيس الداخل بتأمينه إن كان لا يعرفه، وباللطف له إن كان معروفا.
المباركة: المجعولة فيها البركة. و**البركة**: وفرة الخير. وإنّما كانت هذه التحية مباركة لما فيها من نيّة المسالمة وحسن اللقاء والمخالطة.
الطيّبة: ذات الطِّيب، وهو طيب مجازي بمعنى النزاهة والقَبول في نفوس الناس. وتقدّم في قوله تعالى { قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً } [آل عمران:38]، وفي قوله { وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ } [يونس:22].
{ **كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** } تكرير للجملتين الواقعتين قبلها في آية الاستئذان لأنّ في كلّ ما وقع قبل هذه الجملة بيانا لآيات القرآن اتضحت به الأحكام التي تضمّنتها، وهو بيان يُرجى معه أن يحصل لكم الفهم والعلم بما فيه كمال شأنكم.

{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [62].

لمّا جرى الكلام السابق في شأن الاستئذان للدخول عُقّب ذلك بحكم الاستئذان للخروج ومفارقة المجامع فاعتُني من ذلك بالواجب منه، وهو استئذان الرسول صلى الله عليه وسلم في مفارقة مجلسه أو مفارقة جمعٍ جُمِعَ عن إذنه لأمرٍ مهمٍّ كالشورى والقتال والاجتماع للوعظ ونحو ذلك.

وكان من أعمال المنافقين أن يحضروا هذه المجامع ثم يتسلّلوا منها تفاديا من عمل يشقّ أو سآمة من سماع كلام لا يهتبلون به، فنعى الله عليهم فعلهم بأن أعرض عن وصف نفاق المنافقين واعتنى باتصاف المؤمنين الأحقّاء بضدّ صفة المنافقين، قال تعالى { وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ} [التوبة:127]، ولذلك جاء في أواخر هذه الآيات قوله { قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذاً } [63].

{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ } قصر موصوف على صفة. والتعريف تعريف الجنس أو العهد، أي: أنّ جنس المؤمنين، أو أنّ الذين عُرفوا بوصف الإيمان هم الذين آمنوا بالله ورسوله ولم ينصرفوا حتّى يستأذنوه.

فالمقصود: إظهار علامة المؤمنين وتمييزهم عن علامة المنافقين.

فليس سياق الآية لبيان حقيقة الإيمان لأنّ للإيمان حقيقة معلومة ليس استئذان النبيّ صلى الله عليه وسلم عند إرادة الذهاب من أركانها.

فعلمتَ أن ليس المقصود من هذا الحصر سلب الإيمان عن الذي ينصرف دون إذن، لو وقع منه ذلك عن غير قصد الخذل للنبيّ صلى الله عليه وسلم أو أذاه إذ لا يعدو ذلك، لو فعله أحد المؤمنين، عن أن يكون تقصيرا في الأدب يستحقّ التأديب والتنبيه.

وعلمتَ أيضا أن ليس المقصود من التعريف في { الْمُؤْمِنُونَ } معنى الكمال، لأنّه لو كان كذلك لم يحصل قصد التشهير بنفاق المنافقين.

الأمر: الشأن والحال المهمّ. وتقدّم في قوله تعالى { وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ } [النساء:59].

الجامع: الذي من شأنه أن يجتمع الناس لأجله للتشاور أو التعلّم. والمراد: ما يجتمع المسلمون لأجله حول الرسول عليه الصلاة والسلام في مجلسه أو في صلاة الجماعة.

عن مالك: أنّ هذه الآية نزلت في المنافقين يوم الخندق، وذلك سنة خمس، كان المنافقون يتسلّلون من جيش الخندق ويعتذرون بأعذار كاذبة.

{ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ } تأكيد لجملة { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ } لأنّ مضمون معنى هذه الجملة هو مضمون معنى الجملة الأولى. وقد تفنن في نظم الجملة الثانية بتغيير أسلوب الجملة

الأولى فجعل مضمون المسند في الأولى مسندا إليه في الثانية، والمسند إليه الأولى مسندا في الثانية، ومآل الأسلوبين واحد، لأنّ المآل الإخبار بأنّ هذا هو ذاك، تنويها بشأن الاستئذان وليبني عليها تفريع { فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ } ليعلِّم المؤمنين الأعذار الموجبة للاستئذان، أي: ليس لهم أن يستأذنوا في الذهاب إلّا لشأن مهمّ من شؤونهم.

{ **يَسْتَأْذِنُونَكَ** } التفات من الغيبة إلى الخطاب تشريفا للرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الخطاب.

{ **فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ** } خيَّر الله رسوله في الإذن لمن استأذنه من المؤمنين، لأنّه أعلم بالشأن الذي قضاؤه أرجح من حضور الأمر الجامع، لأنّ مشيئة النبيّ لا تكون عن هوى.

{ **وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } مؤذن بأنّ ذلك الانصراف خلاف ما ينبغي لأنّه لترجيح حاجته على حاجة الأمّة.

وهذه الآية أصل من نظام الجماعات في مصالح الأمّة لأنّ من السنّة أن يكون لكلّ اجتماع إمام ورئيس يدير أمر ذلك الاجتماع. وقد أشارت مشروعيّة الإمامة إلى ذلك النظام. ومن السنّة ألّا يجتمع جماعة إلّا أمَّروا عليهم أميرا، فالذي يترأس الجمع هو قائم مقام ولي أمر المسلمين، فهو في مقام النبيّ صلى الله عليه وسلم فلا ينصرف أحد عن اجتماعه إلّا بعد أن يستأذنه، لأنّه لو جعل أمر الانسلال لشهوة الحاضر لكان ذريعة لانفضاض الاجتماعات دون حصول الفائدة التي جمعت لأجلها، وكذلك الأدب أيضا في التخلّف عن الاجتماع عند الدعوة إليه، أو التخلف عن ميقات الاجتماع المتفق عليه إلّا لعذر واستئذان.

{ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [63].

لمّا كان الاجتماع للرسول في الأمور يقع بعد دعوته الناس للاجتماع وقد أمرهم الله ألّا ينصرفوا عن مجامع الرسول صلى الله عليه وسلم إلّا لعذر بعد إذنه، أنبأهم بهذه الآية وجوب استجابة دعوة الرسول إذا دعاهم. وقد تقدّم قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ } [الأنفال:24].

<u>فيجوز أن يكون المعنى</u>: لا تجعلوا دعوة الرسول إيّاكم للحضور لديه مخيَّرين في استجابتها كما تتخيّرون في استجابة دعوة بعضكم بعضا، فوجه الشبه المنفي بين الدعوتين هو الخيار في الإجابة. والغرض من هذه الجملة ألّا يتوهَّموا أنّ الواجب هو الثبات في مجامع الرسول إذا حضروها، وأنّهم في حضورها إذا دعوا إليها بالخيار. والدعاء: على هذا التأويل، مصدر دعاه إذا ناداه أو أرسل إليه ليحضر.

<u>ويجوز</u> أن تكون إضافة { دُعَاءَ } من إضافة المصدر إلى مفعوله الفاعل المقدّر ضمير المخاطبين. والتقدير: لا تجعلوا دعاءكم الرسول، فالمعنى نهيهم. ووقع الالتفات من الغيبة إلى خطاب المسلمين، حثًّا على تلقي الجملة بنشاط، فالخطاب للمؤمنين، نهوا عن أن يدعوا الرسول عند مناداته كما يدعو بعضهم

بعضا في اللفظ أو في الهيئة:

فأمّا في اللفظ، فبأن لا يقولوا: يا محمد، أو يا ابن عبد الله، أو يا ابن عبد المطلب، ولكن **يا رسول الله،** أو **يا نبي الله،** أو بكنية **يا أبا القاسم.**

وأمّا في الهيئة، فبأن لا يدعوه من وراء الحجرات، وأن لا يلحّوا في دعائه إذا لم يخرج إليهم، كما جاء في [الحجرات:4]، لأنّ ذلك كلّه من الجلافة التي لا تليق بعظمة قدر الرسول صلى الله عليه وسلم.

فهذا أدب للمسلمين وسد لأبواب الأذى عن المنافقين.

وإذ كانت الآية تحتمل ألفاظها هذا المعنى صحّ للمتدبّر أن ينتزعه منها.

وفي الكلام على الوجهين تعريض بالمنافقين الذين تمالؤوا بينهم على التخلّف عن رسول الله إذا دعاهم كلّما وجدوا لذلك سبيلا كما أشار إليه قوله تعالى { مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ } [التوبة:120].

{ **قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذاً** } استئناف تهديد للذين كانوا سبب نزول الآية. أي: أولئك المؤمنون وضدّهم المعرَّض بهم ليسوا بمؤمنين. وقد علمهم الله وأطّلع على تسلُّلِهم.

{ **قَدْ** } لتحقيق الخبر لأنّهم يظنّون أنّهم إذا تسلُّلوا متسترين لم يطّلع عليهم النبيّ، فأعلمهم الله أنّه علمهم، أي: أنه أعلم رسوله بذلك.

{ **الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ** } هم المنافقون. والتسلُّل: الانسلال من صُبرة، أي: الخروج منه بخفية، خروجا كأنّه سَلٌّ شيء من شيء. يقال: تسلَّل، أي: تكلّف الانسلال.

اللواذ: مصدر لاوَذَهُ، إذا لاذ به الآخر. شُبّه تستر بعضهم ببعض عن اتفاق وتآمر عند الانصراف خفية بلوذ بعضهم ببعض، لأنّ الذي ستر الخارج حتّى يخرج هو بمنزلة من لاذ به أيضا فجعل حصول فعله مع فعل اللائذ كأنّه مفاعلة من اللوذ.

{ **مِنْكُمْ** } خطاب للمؤمنين، أي: قد علم الله الذين يخرجون من جماعتكم متسلِّلين ملاوذين.

{ **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** } تحذير من مخالفة ما نهى الله عنه بقوله تعالى { لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ }، بعد التنبيه على أنّه تعالى مطّلع على تسلّلهم.

المخالفة: المغايرة في الطريق التي يمشي فيها، بأن يمشي الواحد في طريق غير الطريق الذي مشى فيه الآخر، ففعلها متعدّ. وتعدية فعل المخالف بحرف (عن) لأنّه ضُمِّن معنى الصدود، كما عُدّي بـ (إلى) في قوله تعالى { وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ } [هود:88] لمّا ضُمِّن معنى الذهاب. يقال: خالفه إلى الماء، إذا ذهب إليه دونه.

{ **عَنْ أَمْرِهِ** } الضمير عائد إلى الله تعالى. والأمر هو ما تضمَّنه قوله تعالى { لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً }، فإنّ النهي عن الشيء يستلزم الأمر بضدِّه، فكأنّه قال: اجعلوا لدعاء الرسول الامتثال في العلانية والسرّ.

الحذر: تجنب الشيء المخيف.

الفتنة: اضطراب حال الناس، وتقدّمت عند قوله تعالى { وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ } [البقرة:191].

العذاب الأليم: هنا عذاب الدنيا، وهو عذاب القتل.

{ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [64].

تذييل لما تقدّم في هذه السورة كلّها.

{ **أَلَا** } الافتتاح بحرف التنبيه إيذان بانتهاء الكلام، وتنبيه للنّاس ليعوا ما يرد بعد حرف التنبيه، وهو أنّ الله مالك ما في السماوات والأرض فهو يجازي عباده بما يستحقّون، وهو عالم بما يفعلون.

{ **مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ** } أحوالكم من خير وشر، فحرف الاستعلاء مستعار للتمكّن.

{ **وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ** } ذكّرهم بالمعاد إذ كان المشركون والمنافقون منكريه.

{ **فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا** } كناية عن الجزاء، لأنّ إعلامهم بأعمالهم لو لم يكن كناية عن ذلك لما كانت له جدوى.

{ **وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** } تذييل لجملة { قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ } لأنّه أعم منه.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفرقان

سُمِّيت هذه السورة (**سورة الفرقان**) في عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم وبمَسمع منه.

ففي صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب أنّه قال: " سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان، في حياة رسول الله، فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله فكدت أساوره في الصلاة فتصبَّرت حتّى سلّم فلبَّبته بردائه فانطلقت به أقوده إلى رسول الله، فقلت: إنّي سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها ... ".

ووجه تسميتها سورة الفرقان لوقوع لفظ الفرقان فيها ثلاث مرات، في أوّلها ووسطها وآخرها.

وهي مكّيّة عند الجمهور. وروي عن ابن عباس أنّه استثنى منها ثلاث آيات نزلت بالمدينة [68-70]. والصحيح عنه أنّ هذه الآيات الثلاث مكية كما في صحيح البخاري في تفسير الفرقان. عن القاسم بن أبي بَزة أنّه سأل سعيد بن جبير: هل لمن قتل مؤمنا متعمّدا من توبة؟ فقرأت عليه { وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ } [68]. فقال سعيد: قرأتها على ابن عباس كما قرأتها عليّ؟ فقال: هذه مكية نسختها آية مدنية التي في سورة النساء. يريد قوله تعالى { وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً } [النساء:93]. وعن الضحّاك: أنّها مدنية إلّا الآيات الثلاث من أوّلها. وأسلوب السورة وأغراضها شاهدة بأنّها مكية.

وهي السورة **الثانية والأربعون في ترتيب النزول**، نزلت بعد سورة يس وقبل سورة فاطر.

وعدد آياتها **سبع وسبعون** باتفاق أهل العدد.

أغراض السورة

*/ الابتداء بتحميد الله تعالى وإنشاء الثناء عليه، ووصفه بصفات الإلهية والوحدانية.

*/ التنويه بالقرآن، وجلال منزِّله، وما فيه من الهدى، وتعريض بالامتنان على الناس بهديه وإرشاده إلى اتقاء المهالك، والتنويه بشأن النبيّ صلى الله عليه وسلم.

*/ أقيمت هذه السورة على ثلاث دعائم:

الدعامة الأولى: إثبات أنّ القرآن منزَّل من عند الله، والتنويه بالرسول المنزَّل عليه صلى الله عليه وسلم، ودلائل صدقه، ورفعة شأنه عن أن تكون له حظوظ الدنيا، وأنّه على طريقة غيره من الرسل، ومن ذلك تلقِّي قومه دعوته بالتكذيب.

الدعامة الثانية: إثبات البعث والجزاء، والإنذار بالجزاء في الآخرة، والتبشير بالثواب فيها للصالحين، وإنذار المشركين بسوء حظّهم يومئذ، وتكون لهم الندامة على تكذيبهم الرسول وعلى إشراكهم واتّباع أئمة كفرهم.

الدعامة الثالثة: الاستدلال على وحدانيّة الله، وتفرّده بالخلق، وتنزيهه عن أن يكون له ولد أو شريك، وإبطال إلهية الأصنام، وإبطال ما زعموه من بنوّة الملائكة لله تعالى.

وافتتحت آيات كلّ دعامة من هذه الثلاث بجملة { **تَبَارَكَ الَّذِي** }. قال الطيبي: مدار هذه السورة على كونه صلى الله عليه وسلم مبعوثا إلى الناس كافة ينذرهم ما بين أيديهم وما خلفهم، ولهذا جُعل براعة استهلالها { تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً }.

*/ ذكر بدائع من صنعه تعالى جمعا بين الاستدلال والتذكير.

*/ تثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم على دعوته ومقاومته الكافرين.

*/ ضرب الأمثال للحالين ببعثة الرسل السابقين وما لقوا من أقوامهم، مثل قوم موسى وقوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس وقوم لوط.

*/ التوكّل على الله، والثناء على المؤمنين به، ومدح خصالهم ومزايا أخلاقهم، والإشارة إلى عذاب قريب يحلّ بالمكذبين.

{ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً } [1].

افتتاح بديع لندرة أمثاله في كلام بلغاء العرب، لأنّ غالب فواتحهم أن تكون بالأسماء مجرّدة أو مقترنة بحرف غير منفصل، أو بأفعال المضارعة ونحوها، أو بحروف التأكيد أو الاستفهام أو التنبيه مثل (إن) و(قد) و(الهمزة) و(هل). وبهذه الندرة يكون في طالع هذه السورة براعة المطلع، لأنّ الندرة من العزّة، والعزّة من محاسن الألفاظ، وضدّها الابتذال.

تبارك: تعاظم خيره وتوفّر، والمراد بخيره: كمالاته وتنزّهاته. وتقدّم في قوله { تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } [الأعراف:54].

البركة: الخير، وتقدّم عند قوله تعالى { اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ } [هود:48]، وعند قوله تعالى { تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً } [النور:61].

{ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ } <u>الظاهر</u> أنّه إخبار عن عظمة الله وتوفُّر كمالاته فيكون المقصود به التعليم والإيقاظ. <u>ويجوز</u> مع ذلك أن يكون كناية عن إنشاء ثناء على الله تعالى، كقوله { سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ } [الإسراء:1] على طريقة الكلام العربي في إنشاء التعجّب من صفات المتكلّم في مقام الفخر والعظمة.

والموصول يومئ إلى علّة ما قبله فهو كناية عن تعظيم شأن الفرقان وبركته على الناس. فتلك منّة عظيمة توجب الثناء على الله. وهو أيضا كناية عن تعظيم شأن الرسول عليه الصلاة والسلام.

{ الَّذِي نَزَّلَ } التعريف بالموصول هنا لكون الصلة من صفات الله.

الفرقان: القرآن، وهو في الأصل مصدر (فَرَقَ)، كما في قوله تعالى {وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ} [الأنفال:41]. وجُعل عَلَمًا بالغلبة على القرآن، لأنّه فرَّق بين الحقِّ والباطل. وتقدّم في قوله تعالى { وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ } [آل عمران:4].

وإيثار اسم الفرقان بالذكر هنا للإيماء إلى أنّ ما سيُذكر من الدلائل على الوحدانية وإنزال القرآن دلائل قيّمة تفرّق بين الحقّ والباطل.

{ عَلَى عَبْدِهِ } تقريب للنبيّ وتمهيد لإبطال طلبهم منه في قوله تعالى { وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ } [7].

{ لِلْعَالَمِينَ } جميع الأمم من البشر، لأنّ العالم يطلق على الجنس وعلى النوع وعلى الصنف بحسب ما يسمح به المقام، والنذارة لا تكون إلّا للعقلاء ممّن قُصدوا بالتكليف. ومضى الكلام على { الْعَالَمِينَ } [الفاتحة:2].

النذير: المخبر بسوء يقع، وهو فعيل بمعنى مُفْعِل بصيغة اسم الفاعل مثل الحكيم. والاقتصار في وصف الرسول هنا على النذير دون البشير لأنّ المقام هنا لتهديد المشركين إذ كذّبوا بالقرآن وبالرسول عليه الصلاة والسلام. وفي ذلك اكتفاء لأنّ البشارة تخطر ببال السامع عند ذكر النذارة.

والآية جمعت بين التنويه بشأن القرآن، وأنّه منزّل من الله والتنويه بشأن النبيّ عليه الصلاة والسلام ورفعة منزلته عند الله وعموم رسالته.

{ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً } [2].

من بديع النظم أن جُعل الوصفان المختلف فيهما مع المشركين { لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ} متوسطين بين الوصفين اللذين لا مريّة فيهما { لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ } حتّى يكون الوصفان المسلّمين كالدليل أوّلا والنتيجة آخرا، فإنّ الذي له ملك السماوات والأرض لا يليق به أن يتّخذ ولدا ولا أن يتخذ شريكا، لأنّ ملكه العظيم يقتضي غناه المطلق، فيقتضي أن يكون اتّخاذه ولدا وشريكا عبثا، إذ لا غاية له، وإذا كانت أفعال العقلاء تصان عن العبث فكيف بأفعال أحكم الحكماء تعالى وتقدّس.

الخلق: الإيجاد، أي: أوجد كلّ موجود من عظيم الأشياء وحقيرها.

{ **قَدَّرَهُ** } جعله على مقدار وحَدٍّ معيَّن لا مجرد مصادفة، أي: خلقه مقدَّرا، أي: محكما مضبوطا صالحا لما خُلق لأجله لا تفاوت فيه ولا خلل. كقوله تعالى { إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ } [القمر:49]. وتقدّم في قوله تعالى { أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا } [الرعد:17].

{ **تَقْدِيراً** } تأكيد الفعل بالمفعول المطلق للدلالة على أنّه تقدير كامل في نوع التقادير.

وما جاء من أوّل السورة إلى هنا براعة استهلال بأغراضها وهو يتنزل منزلة خطبة الكتاب أو الرسالة.

{ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً } [3].

الخبر غير مقصود به الإفادة بل هو للتعجيب من حالهم كيف قابلوا نعمة إنزال الفرقان بالجحد والطغيان، وكيف أشركوا بالذي تلك صفاته آلهة أخرى صفاتهم على الضدّ من صفات من أشركوهم به، وإلّا فإنّ اتخاذ المشركين آلهة أمر معلوم لهم وللمؤمنين فلا يقصد إفادتهم لحكم الخبر.

{ **وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً** } بينه وبين قوله تعالى { وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً } [2] مُحسّن الطباق. والضمير عائد إلى المشركين ولم يسبق لهم ذكر في الكلام وإنّما هم معروفون في مثل هذا المقام.

{ **لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً** } مقابلة جملة { الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }.

{ **وَهُمْ يُخْلَقُونَ** } مقابلة جملة { وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً }، أي: وهم يُصنعون، أي: يصنعهم الصانعون، لأنّ أصنامهم كلّها حجارة منحوتة قوّمتها الصنعة، فأطلق الخلق على التشكيل والنحت من فعل الناس، وإن

كان الخلق شاع في الإيجاد بعد العدم، إمّا اعتبارا بأصل مادة النحت وإمّا على سبيل المجاز المرسل وإمّا مشاكلة لقوله تعالى { لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً }.

{ **وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً** } مقابلة جملة { وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ }، لأنّ الشركة في الملك تقتضي الشركة في التصرّف.

{ **لِأَنْفُسِهِمْ** } يجوز أن يعود الضمير إلى { آلِهَةً }، أي: لا تقدر الأصنام على ضرّ أنفسها ولا على نفعها. ويجوز أن يعود إلى ما عاد إليه ضمير { وَاتَّخَذُوا }، أي: لا تقدر الأصنام على نفع الذين عبدوها ولا على ضرّهم.

{ **ضَرّاً وَلا نَفْعاً** } جرى مجرى المثل لقصد الإحاطة بالأحوال، فكأنّه قيل: لا يملكون التصرّف بحال من الأحوال. وهذا نظير أن يقال: شرقا وغربا، وليلا ونهارا.

الضَرّ: (بفتح الضاد) مصدر ضرَّه، إذا أصابه بمكروه. وتقدّم نظيره في قوله تعالى { قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلا نَفْعاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ } [يونس:49].

{ **وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلا حَيَاةً وَلا نُشُوراً** } مقابلة جملة { وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً } [2]، لأنّ أعظم مظاهر تقدير الخلق هو مظهر الحياة والموت، وذلك من المشاهدات.

{ **وَلا نُشُوراً** } تكميل لقرع المشركين نفاة البعث. و**النشور**: الإحياء بعد الموت. أصله نشر الشيء المطوي.

ذُكر في هذه الآية من أقوالهم المقابلة للجمل الموصوف بها الله تعالى اهتماما بإبطال كفرهم المتعلّق بصفات الله، لأنّ ذلك أصل الكفر ومادته.

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُو ظُلْماً وَزُوراً } [4].

انتقال من ذكر كفرهم في أفعالهم إلى ذكر كفرهم بأقوالهم الباطلة.

{ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا** } الإظهار هنا لإفادة أنّ مضمون الصلة هو علّة قولهم هذا، أي: ما جرّأهم على هذا البهتان إلّا إشراكهم وتصلّبهم فيه وليس ذلك لشبهة.

وهذه الجملة مقابلة جملة { تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ } [1] فهي المقصود من افتتاح الكلام كما آذنت بذلك فاتحة السورة. وإنّما أخّرت هذه الجملة مع أنّ مقتضى ظاهر المقابلة أن تذكر هذه الجملة قبل جملة { وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً } [3] اهتماما بإبطال الكفر المتعلّق بصفات الله، كما تقدم آنفا.

{ **إِنْ هَذَا إِلَّا** } قصر قلب زعموا به ردّ دعوى أنّ القرآن منزّل من عند الله. والقصر متسلّط على كلتا الجملتين، أي: لا يخلو هذا القرآن بحسب زعمهم من مجموع الأمرين، هما: أن يكون افترى بعضه من نفسه، وأعانه قوم على بعضه.

وممّن قال هذه المقالة النضر بن الحارث، وعبد الله بن أمية، ونوفل بن خويلد. فإسناد هذا القول إلى جميع الكفّار لأنّه واقع بين ظهرانيهم وكلّهم يتناقلونه. والمشار إليه القرآن.

{ **افْتَرَاهُ** } الضمير المرفوع عائد إلى الرسول صلى الله عليه وسلم المعلوم من قوله { عَلَى عَبْدِهِ }.

الإفك: الكذب. وتقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ } [النور:11].

الافتراء: اختلاق الأخبار، أي: ابتكارها، وهو الكذب عن عمد، وتقدّم في قوله تعالى { وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ } [المائدة:103].

{ **وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ** } أرادوا اليهود. روي هذا التفسير عن مجاهد وعن ابن عباس: أشاروا إلى عبيد كانوا للعرب من الفرس وهم: (عداس مولى حويطب ابن عبد العزى - يسار أبو فكيهة الرومي مولى العلاء بن الحضرمي [وفي سيرة ابن هشام أنّه مولى صفوان بن أمية بن محرّث] - جبر مولى عامر).

وكان هؤلاء من موالي قريش بمكّة ممّن دانوا بالنصرانية وكانوا يعرفون شيئا من التوراة والإنجيل ثم أسلموا، وقد مرّ ذلك في [النحل:103]. فزعم المشركون أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم كان يتردّد إلى هؤلاء سرًّا ويستمدّ منهم أخبار ما في التوراة والإنجيل.

{ **فَقَدْ جَاءُو ظُلْماً وَزُوراً** } مستعمل في معنى (عملوا) وهو مجاز في العناية بالعمل والقصد إليه، لأنّ من اهتم بتحصيل شيء مشى إليه، وبهذا الاستعمال صحّ تعديته إلى مفعول.

الظلم: الاعتداء بغير حقّ بقول أو فعل، قال تعالى { قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ } [ص:24]. وتقدم في قوله تعالى { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ } [البقرة:114].

والظلم الذي أتوه هو نسبتهم الرسول إلى الاختلاق، فإنّه اعتداء على حقّه الذي هو الصدق.

الزور: الكذب، وأحسن ما قيل في الزور: إنّه الكذب المُحسَّن المُموَّه بحيث يشتبه بالصدق.

{ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً } [5].

الأساطير: جمع أُسطورة (بضم الهمزة) كالأحدوثة والأحاديث. وتقدّم معناها مفصّلا عند قوله تعالى { حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } [الأنعام:25].

وقائل هذه المقالة هو النضر بن الحارث العبدري قال: إنّ القرآن قصص من قصص الماضين. وكان النضر هذا قد تعلّم بالحيرة قصص ملوك الفرس وأحاديث رستم وأسفنديار فكان يقول لقريش: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثا من محمد فهلّم أحدثكم، وكان يقول في القرآن: هو أساطير الأوّلين.

قال ابن عبّاس: كلّ ما ذكر فيه أساطير الأوّلين في القرآن فالمقصود منه قول النضر بن الحارث. وقد تقدّم هذا في [الأنعام:25]، وفي [يوسف:3].

الاكتتاب: افتعال من الكتابة، وصيغة الافتعال تدلّ على التكلّف لحصول الفعل.

ومعنى هذا التكلّف: أنّه سأل من يكتبها له، والقرينة ما هو مقرّر لدى الجميع من أنّه أمّيّ لا يكتب، ومن

قوله { فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ } لأنّه لو كتبها لنفسه لكان يقرأها بنفسه. وهذا كلّه حكاية لكلام النضر بلفظه أو معناه.

الإملاء: هو الإملال وهو إلقاء الكلام لمن يكتب ألفاظه أو يرويها أو يحفظها.

البُكْرة: أوّل النهار. و**الأصيل**: آخر المساء، وتقدّم في قوله تعالى { بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ } [الأعراف: 205]، وهذا مستعمل كناية عن كثرة الممارسة لتلقي الأساطير.

{ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً } [6].

لقّن الله رسوله الجواب لردّ بهتانهم.

{ **الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ** } عبَّر عن مُنزل القرآن بطريق الموصول لما تقتضيه الصلة من استشهاد الرسول الله على ما في سرّه، لأنّ الله يعلم كلّ سرّ في كل مكان. وفي ذلك كناية عن مراقبته الله فيما يبلّغه عنه. وفي ذلك إيقاظ لهم بأن يتدبّروا في هذا الذي زعموه إفكا أو أساطير الأوّلين ليظهر لهم اشتماله على الحقائق الناصعة التي لا يحيط بها إلّا الله الذي يعلم السرّ، فيوقنوا أنّ القرآن لا يكون إلّا من إنزاله، وليعلموا براءة الرسول صلى الله عليه وسلم من الاستعانة بمن زعموهم يعينونه.

{ **إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً** } ترغيب لهم في الإقلاع عن هذه المكابرة وفي اتباع دين الحق ليغفر الله لهم ويرحمهم، وفيه تعريض بأنّهم إن لم يقلعوا ويتوبوا حقَّ عليهم الغضب والنقمة.

{ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً [7] أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً [8] انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً [9] }.

انتقال من حكاية مطاعنهم في القرآن وبيان إبطالها إلى حكاية مطاعنهم في الرسول عليه الصلاة والسلام. والضمير عائد إلى الذين كفروا، فمدلول الصفة مراعى كما تقدّم.

وقد أوردوا طعنهم في نبوّة النبيّ صلى الله عليه وسلم بصيغة الاستفهام، والاستفهام تعجيبي مستعمل في لازمه وهو بطلان كونه رسولا، بناء على أنّ التعجّب من الدعوى يقتضي استحالتها أو بطلانها.

{ **مَالِ هَذَا** } تركيب يفيد الاستفهام عن أمر ثابت له، فمثار الاستفهام في هذه الآية هو ثبوت حال أكل الطعام والمشي في الأسواق للذي يدّعي الرسالة من الله.

وكتبت الـ (لام) منفصلة عن اسم الإشارة الذي بعدها في المصحف الإمام فاتبعته المصاحف، لأنّ رسم المصحف سنّة فيه، كما كتب { مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً } [الكهف:49]، وكما كتب { فَمَالِ الذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ } [المعارج:36]، كما كتب { فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ } [النساء:78].

ولعلّ وجه هذا الانفصال أنّه طريقة رسم قديم كانت الحروف تكتب منفصلا بعضها عن بعض، ولا سيما حروف المعاني، فعاملوا ما كان على حرف واحد معاملة ما كان على حرفين فبقيت على يد أحد كتّاب المصحف آثاره من ذلك، وأصل حروف الهجاء كلها الانفصال، وكذلك هي في الخطوط القديمة للعرب وغيرهم. وكان وصل حروف الكلمة الواحدة تحسينا للرسم وتسهيلا لتبادر المعنى، وأمّا ما كان من كلمتين فوصله اصطلاح. وأكثر ما وصلوا منه الكلمة الموضوعة على حرف واحد مثل حروف القسم أو كالواحد مثل (ال).

{ **يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ** } كنُّوا بأكل الطعام والمشي في الأسواق عن مماثلة أحواله لأحوال الناس تنزُّعا منهم إلى إبطال كونه رسولا لزعمهم أنّ الرسول عن الله تكون أحواله غير مماثلة لأحوال الناس. وسيردّ الله عليهم قولهم ردًّا مباشرا لاحقا { وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ } [20].

{ **لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً** } و(لولا) حرف تحضيض مستعمل في التعجيز، أي: لو أُنزل إليه ملك لاتبعناه. وخصّوا من أحوال الرسول حال النذارة لأنّها التي أنبتت حقدهم عليه.

{ **أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ** } و(أو) للتخيير في دلائل الرسالة في وهمهم .أي: ينزل إليه كنز من السماء إذ كان الغنى فتنة لقلوبهم.

الإلقاء: الرمي وهو هنا مستعار للإعطاء من عند الله.

الكنز: تقدّم في قوله تعالى { أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ } [هود:12].

{ **أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا** } جعلوا إعطاء جنّة له علامة على النبوّة، لأنّ وجودها في مكّة خارق للعادة.

ذكر أصحاب السير أنّ هذه المقالة صدرت من كبراء المشركين في مجلس لهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبا سفيان بن حرب، وأبا البختري، والأسود بن عبد المطلب، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام، وأميّة بن خلف، وعبد الله بن أبي أميّة، والعاصي بن وائل، ونبيه بن الحجاج ومنبه بن الحجاج، والنضر بن الحارث، وأنّ هذه الأشياء التي ذكروها تداولها أهل المجلس، إذ لم يعيّن أهل السير قائلها. قال ابن عطية: وأشاعوا ذلك في النّاس فنزلت هذه الآية. وقد تقدّم شيء من هذا في [الإسراء:90-93].

{ **وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً** } القائلون هم المشركون، فغُيّر عنوانهم الأوّل إلى عنوان الظلم تنبيها على أنّ في هذا القول اعتداء على الرسول بنبزه بما هو بريء منه، وهم يعلمون أنّه ليس كذلك.

ذكر الماوردي: أن القائل هو عبد الله ابن الزِّبَعْرَى، أي: هو مبتكر هذا البهتان، وإنّما أسند القول إلى جميع الظالمين لأنّهم تلقّفوه ولهجوا به.

المسحور: الذي أصابه السحر، وهو يورث اختلال العقل عندهم، أي: ما تتّبعون إلّا رجلا أصابه خلل العقل فهو يقول ما لا يقول مثله العقلاء.

{ **رَجُلاً** } هنا لتمهيد استحالة كونه رسولا، لأنّه رجل من الناس.

وهذا الخطاب خاطبوا به المسلمين الذين اتّبعوا النبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ **انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا** } أي: أنّهم ضربوا لك الأمثال الباطلة بأن مثّلوك برجل مسحور.

{ **انْظُرْ** } مستعار لمعنى العلم تشبيها للأمر المعقول بالأمر المرئي لشدّة وضوحه.

{ **كَيْفَ** } اسم للكيفية والحالة مجرّد هنا عن معنى الاستفهام.

{ **فَضَلُّوا** } فُرّع على هذا التعجيب إخبار عنهم بأنّهم ضلّوا في تلفيق المطاعن في رسالة الرسول فسلكوا طرائق لا تصل بهم إلى دليل مقنع على مرادهم. فالفعل مستعمل في معنييه المجازيين هما: معنى عدم التوفّق في الحجّة، ومعنى عدم الوصول للدين الحقّ، وهو هنا تعجيب من خطلهم وإعراض عن مجاوبتهم.

{ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً} [10].

ابتدئت السورة بتعظيم الله وثنائه على أن أنزل الفرقان على رسوله، وأعقب ذلك بما تلقّى به المشركون هذه المزيّة من الجحود والإنكار الناشئ عن تمسّكهم بما اتّخذوه من آلهة من صفاتهم ما ينافي الإلهية، ثم طعنوا في القرآن والذي جاء به بما هو كفران للنعمة ومن جاء بها.

فلمّا أريد الإعراض عن باطلهم والإقبال على خطاب الرسول بتثبيته وتثبيت المؤمنين أعيد اللفظ الذي ابتدئت به السورة على طريقة وصل الكلام.

والجملة استئناف واقع موقع الجواب عن قولهم { أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ }، أي: إن شاء جعل لك خيرا من الذي اقترحوه. فالإشارة إلى المذكور من قولهم. ولكن الحكمة اقتضت عدم البسط للرسول في هذه الدنيا ولكن المشركين لا يدركون المطالب العالية.

{ **إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَلِكَ** } اقتران هذا الوعد بشرط المشيئة جار على ما تقتضيه العظمة الإلهية، وإلّا فسياق الوعد يقتضي الجزم بحصوله، فالله شاء ذلك لا محالة. فموقع { إِنْ شَاءَ } اعتراض.

وأصل المعنى: تبارك الذي جعل لك خيرا من ذلك. ويساعد هذا قراءة ابن كثير وابن عامر وأبي بكر عن عاصم { وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُوراً } برفع { يَجْعَلُ } على الاستئناف دون إعمال حرف الشرط. وهذا المحمل أشدّ تبكيتا للمشركين وقطعا لمجادلتهم.

القصور: المباني العظيمة الواسعة على وجه الأرض، وتقدّم في قوله تعالى { تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً } [الأعراف:74]، وقوله تعالى { وَقَصْرٍ مَشِيدٍ } [الحج:45].

{ **بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً** } [11].

{ **بَلْ** } للإضراب، فيجوز أن يكون إضراب انتقال من ذكر ضلالهم في صفة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ذكر ضلالهم في إنكار البعث.

ويجوز أن يكون إضراب إبطال لما تضمّنه قوله تعالى { إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَلِكَ } على تأويل ابن عطية من الوعد بإيتائه ذلك في الآخرة، أي: بل هم لا يقنعون بأنّ حظّ الرسول عند ربه ليس في متاع الدنيا الفاني الحقير ولكنّه في خيرات الآخرة الخالدة غير المتناهية، أي: أنّ هذا ردّ عليهم ومقنع لهم لو كانوا يصدّقون بالساعة ولكنّهم كذّبوا بها فهم متمادون على ضلالهم لا تقنعهم الحجج.

الساعة: اسم غلب على عالم الخلود، تسمية باسم مبدئه وهو ساعة البعث. وإنّما قصر تكذيبهم على الساعة لأنّهم كذّبوا بالبعث فهم بما وراءه أحرى تكذيبا.

{ **وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً** } معترضة بالوعيد لهم، وهو لعمومه يشمل المشركين المتحدّث عنهم، فهو تذييل. ومن غرضه مقابلة ما أعدّ الله للمؤمنين في العاقبة بما أعدّه للمشركين.

السعير: الالتهاب، وهو فعيل بمعنى مفعول، أي: مسعور، أي: زيد فيها الوقود. وتقدّم في قوله تعالى { كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً } [الإسراء:97].

وقد يطلق عَلَما بالغلبة على جهنّم وذلك على حذف مضاف، أي: ذات سعير.

{ **إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً** [12] **وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً** [13] **لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً** [14] }.

تُخلِّص من اليأس من اقتناعهم إلى وصف السعير الذي أُعِدَّ لهم، وأُجري على السعير ضمير { رَأَتْهُمْ } بالتأنيث لتأويل السعير بجهنّم إذ هو عَلَم عليها بالغلبة كما تقدّم. وإسناد الرؤية إلى النّار استعارة.

ويجوز أن يكون معنى { رَأَتْهُمْ }: رآهم ملائكتها فأطلقوا منافذها فانطلقت ألسنتها بأصوات اللهيب كأصوات المتغيّظ وزفيره، فيكون إسناد الرؤية إلى جهنم مجازا عقليا.

التغيّظ: شدة الغيظ. والغيظ: الغضب الشديد، وتقدّم {عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ } [آل عمران:119]. والمراد به هنا الصوت، بقرينة تعلّقه بفعل { سَمِعُوا }، فهو تشبيه بليغ.

الزفير: امتداد النفس من شدّة الغيظ وضيق الصدر، أي: صوتا كالزفير، فهو تشبيه بليغ أيضا.

ويجوز أن يكون الله قد خلق لجهنم إدراكا للمرئيّات بحيث تشدّد أحوالها عند انطباع المرئيات فيها فتضطرب وتفيض، فيكون إسناد الرؤية والتغيظ والزفير حقيقة، وأمور العالم الأخرى لا تقاس على أحوال الدنيا.

وعلى هذين الاحتمالين يُحمل ما ورد في القرآن والحديث نحو قوله تعالى { يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ

وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ } [ق:30].

{ **وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً** } وصف داخل جهنم ووصف وضع المشركين فيها.

الإلقاء: الرمي، وهو هنا كناية عن الإهانة.

{ **ضَيِّقاً** } قرأ الجمهور - بتشديد الياء - وقرأه ابن كثير { ضَيْقاً } - بسكون الياء - وكلاهما للمبالغة مثل: ميْت وميّت، لأنّ الضيق بالتشديد صيغة تمكّن الوصف من الموصوف، والضيق بالسكون وصف بالمصدر.

{ **مُقَرَّنِينَ** } حال من ضمير { أُلْقُوا } أي: مُقرَّنًا بعضهم في بعض، كحال الأسرى والمساجين أن يقرن عدد منهم في وثاق واحد، كما قال تعالى { وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ } [ص:38].

الدعاء: النداء بأعلى الصوت.

الثبور: الهلاك، أي: نادوا: يا ثبورنا، والنداء كناية عن التمنّي، أي: تمنوا حلول الهلاك.

{ **لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً** } مقولة لقول محذوف، أي: يقال لهم.

ووصف الثبور بالكثير إمّا لكثرة ندائه بالتكرير، وهو كناية عن عدم حصول الثبور لأنّ انتهاء النداء يكون بحضور المنادى، أو هو يأس يقتضي تكرير التمني أو التحسّر.

{ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً [15] لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْداً مَسْؤُولاً [16] }.

يجوز أن يقصد: قل للمشركين الذين يسمعون الوعيد والتهديد السابق. فالجمل متّصلة السياق والاستفهام حينئذ للتهكّم إذ لا شبهة في كون الجنة الموصوفة خيرا.

ويجوز أن يقصد: قل للمؤمنين، فالجملة معترضة بين آيات الوعيد لمناسبة إبداء البون بين حال المشركين وحال المؤمنين. والاستفهام حينئذ مستعمل في التلميح والتلطّف. وهذا كقوله تعالى { أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ } [الصافات:62].

{ **أَذَلِكَ** } الإشارة إلى المكان الضيّق في جهنّم.

{ **خَيْرٌ** } اسم تفضيل وأصله (أخير) بوزن اسم التفضيل فحذفت الهمزة لكثرة الاستعمال.

{ **كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً** } تذييل لما فيها من التنويه بشأن الجنّة، مع الإيماء إلى أنّهم وعدوا بها وعد مجازاة على نحو قوله تعالى { نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً } [الكهف:31].

{ **لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ** } حال من { جَنَّةُ الْخُلْدِ }، أو صفة ثانية.

{ **كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْداً مَسْؤُولاً** } حال ثانية والرابط محذوف إذ التقدير: وعدا لهم.

المسؤول: الذي يسأله مستحقّه ويطالب به، أي: حقًّا للمتقين أن يترقّبوا حصوله كأنّه أجر لهم عن عمل.

وهذا مسوق مساق المبالغة في تحقيق الوعد والكرم كما يشكرك شاكرٌ على إحسان فتقول: ما أتيتُ إلا واجبا.

ولا يتبادر هنا غير هذا المعنى إذ لا معنى للوجوب على الله تعالى سوى أنّه تفضّل وتعهّد به.

{ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ [17] **قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْماً بُوراً** [18] }.

عطف على جملة { قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ } إن كان المراد: قل للمشركين.

أو عطف على جملة { وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً } على جواز أنّ المراد: قل للمؤمنين.

والظاهر أنّ ضمير { يَحْشُرُهُمْ } يعود على المشركين الذين قرّعتهم الآية بالوعيد، وهم الذين قالوا { وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ - إلى قوله – مَسْحُوراً } [8/7]، لكن ما يقتضيه وصفهم بـ { الظَّالِمُونَ } والإخبار عنهم بأنّهم كذبوا بالساعة، وما يقتضيه ظاهر الموصول في قوله تعالى { لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ } [11] من شمول كلّ من تحقق فيه مضمون الصلة، كلّ ذلك يقتضي أن يكون ضمير { يَحْشُرُهُمْ } عائدا إلى { مَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ } فيشمل المشركين الموجودين في وقت نزول الآية ومن انقرض منهم بعد بلوغ الدعوة المحمدية ومن سيأتي بعدهم من المشركين.

ووصفهم بـ { **عِبَادِي هَؤُلاءِ** } تسجيل عليهم بالعبودية وتعريض بكفرانهم حقّها. والإشارة إليهم لتمييزهم من بين بقية العباد.

وعلى كلا الوجهين فانتصاب { يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ } على المفعولية لفعل محذوف معلوم في سياق أمثاله، تقديره: اذكر ذلك اليوم، لأنّه لمّا توعّدهم بالسعير وما يلاقون من هولها بيّن لهم حال ما قبل ذلك، وهو حالهم في الحشر مع أصنامهم. وهذا مظهر من مظاهر الهول لهم في المحشر إذ يشاهدون خيبة آمالهم في آلهتهم إذ يرون حقارتها بين يدي الله وتبرؤها من عبَّادها وشهادتها عليهم بكفرانهم نعمة الله وإعراضهم عن القرآن.

{ **وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ** } عموم الموصول شامل لأصناف المعبودات التي عبدوها ولذلك أوثرت (ما) الموصولة لأنّها تصدق على العقلاء وغيرهم على أنّ التغليب هنا لغير العقلاء.

{ **فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ** } الاستفهام تقريري للاستنطاق والاستشهاد. والمعنى: أأنتم أضللتموهم أم ضلّوا من تلقاء أنفسهم دون تضليل منكم؟ ففي الكلام حذف دلّ عليه المذكور.

{ **قَالُوا سُبْحَانَكَ** } جواب عن سؤال الله إيّاهم { أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي }، فهو استئناف ابتدائي.

{ **سُبْحَانَكَ** } كلمة تنزيه كُنّي بها عن التعجّب من قول فظيع، وتقدّم { سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ } [النور:16].

والمجيبون هم العقلاء من المعبودين: الملائكة وعيسى عليهم السلام.

{ **مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا** } أي: لا يمكن لنا أن نَتَّخِذَ عَبَدة، لأنّ (انبغى) مطاوع (بغاه): إذا طلبه، قال تعالى { وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي } [ص:35]. وهو هنا كناية عن انتفاء طلبهم هذا الاتخاذ انتفاء شديدا.

الأولياء: جمع الولي بمعنى التابع في الولاء، كما في قوله تعالى { فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً } [مريم:45].

المعنى عليه: أنّهم يتبرّؤون من أن يدعوا الناس لعبادتهم، وهذا تسفيه للذين عبدوهم ونسبوا إليهم موالاتهم.

{ **وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْماً بُوراً** } الاستدراك الذي أفاده (لكن) ناشئ عن التبرّؤ من أن يكونوا هم المضلّين لهم بتعقيبه ببيان سبب ضلالهم لئلّا يُتوهّم أنّ تبرئة أنفسهم من إضلالهم يرفع تبعة الضلال عن الضالين. والمقصود بالاستدراك { نَسُوا الذِّكْرَ }.

{ **مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ** } الخبر مستعمل في الثناء على الله بسعة الرحمة وفي الإنكار على المشركين مقابلة النعمة بالكفران غضبا عليهم. ففيه تعريض بشناعة الإشراك ولو قبل مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم.

{ **حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ** } للإيماء إلى أنّ ذلك التمتّع أفضى إلى الكفران لخبث نفوسهم.

النسيان: مستعمل هنا في الإعراض عن عمد، على وجه الاستعارة، لأنّه إعراض يشبه النسيان في كونه عن غير تأمّل ولا بصيرة. وتقدّم في قوله تعالى { وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ } [الأنعام:41].

الذكر: القرآن، لأنّه يُتذكّر به الحق، وتقدّم في قوله { وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ } [الحجر:6].

البور: جمع بائر، والبائر: هو الذي أصابه البوار، أي: الهلاك. وتقدّم في قوله تعالى { وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ} [إبراهيم:28] أي: الموت.

وقد استعير البور لشدّة سوء الحالة بناء على العرف الذي يعدّ الهلاك آخر ما يبلغ إليه الحي من سوء الحال. وقيل: البوار الفساد في لغة الأزد، وأنّه وما اشتق منه، مما جاء في القرآن، بغير لغة مضر.

{ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلَا نَصْراً وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً} [19].

{ **فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ** } الفاء فصيحة، أي: إفصاح عن حجّة بعد تهيئة ما يقتضيها، وهو إفصاح رائع وزاده الالتفات في قوله تعالى { كَذَّبُوكُمْ }، وفي الكلام حذف فعل (قول) يدلّ عليه المقام. والتقدير: إن

قلتم هؤلاء آلهتنا فقد كذّبوكم. فالجملة مستأنفة ابتدائية، هو إقبال على خطاب الحاضرين وهو ضرب من الالتفات مثل قوله تعالى { وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ } بعد قوله { يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا } [يوسف:29].

وفي حذف فعل القول في هذه الآية استحضار لصورة المقام كأنّه مشاهد غير محكي. وهو تفنّن بديع في الحكاية يعتمد على تخييل المحكي واقعا، ومنه قوله تعالى { يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ } [القمر:48].

{ **بِمَا تَقُولُونَ** } يجوز أن تكون (الباء) بمعنى (في) للظرفية المجازية، أي: كذّبوكم تكذيبا واقعا فيما تقولون. ويجوز أن تكون للسببية، أي: كذّبوكم بسبب ما تقولون.

والذي قالوه هو ما يُستفاد من السؤال والجواب، وهو أنّهم قالوا: إنّهم دعوهم إلى أن يعبدوهم.

{ **فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلا نَصْراً** } فُرِّع على الإعلان بتكذيبهم إيّاهم تأييسهم من الانتفاع بهم في ذلك الموقف إذ بيّن لهم أنّهم لا يستطيعون **صرفا**، أي: صرف ضرّ عنهم، ولا **نصرا**، أي: إلحاق ضرّ بمن يغلبهم. ووجه التفريع ما دلّ عليه قولهم { سُبْحَانَكَ } [18] الذي يقتضي أنّهم في موقف العبودية والخضوع.

{ **وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً** } تذييل للكلام يشمل عمومه جميع الناس، ويكون خطاب { مِنْكُمْ } لجميع المكلّفين. ويفيد ذلك أنّ المشركين المتحدَّث عنهم معذَّبون عذابا كبيرا: و**العذاب الكبير**: عذاب جهنم.

{ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً } [20]

{ **وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ** } هذا ردّ على قولهم { مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ } [7] الذي توسّلوا به إلى إبطال رسالته بثبوت صفات البشر له، فكان الردّ عليهم بأنّ جميع الرسل كانوا متّصفين بصفات البشر، ولم يكن المشركون منكرين وجود رسل قبل محمد صلى الله عليه وسلم، فقد قالوا { فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ } [الأنبياء:5].

وإنّما أبقى الله الرسل على الحالة المعتادة للبشر فيما يرجع إلى أسباب الحياة المادية إذ لا حكمة في تغيير حالهم عن ذلك وإنّما يغير الله حياتهم النفسية لأنّ في تغييرها إعداد نفوسهم لتلقي الفيوضات الإلهية.

والله تعالى حافظ على نواميس نظام الخلائق والعوالم لأنّه ما خلقها عبثا فهو لا يغيّرها إلّا بمقدار ما تتعلّق به إرادته من تأييد الرسل بالمعجزات ونحو ذلك.

{ **وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً** } تذييل، فضمير الخطاب في قوله { بَعْضَكُمْ } يعمّ جميع الناس بقرينة السياق، وكِلَا البعضين مبهم يبيّنه المقام.

{ **فِتْنَةً** } حال الفتنة مختلف؛ فبعضها فتنة في العقيدة، وبعضها فتنة في الأمن، وبعضها فتنة في الأبدان.
والكلام تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم عن إعراض بعض قومه عن الإسلام، ولذلك عُقّب بقوله تعالى:
{ **أَتَصْبِرُونَ** } استفهام مستعمل في الحثّ والأمر كقوله تعالى { فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ } [المائدة:91].
{ **وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً** } موقع الحثّ على الصبر المأمور به، أي: هو عليم بالصابرين، وإيذان بأنّ الله لا يضيع جزاء الرسول على ما يلاقيه من قومه وأنّه ناصره عليهم.
{ **رَبُّكَ** } في الإسناد إلى وصف الربّ مضافا إلى ضمير النبيّ إلماع إلى هذا الوعد، فإنّ الربّ لا يضيع أولياءه.

{ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً } [21].

حكاية مقالة أخرى من مقالات تكذيبهم الرسول عليه الصلاة والسلام، وقد عُنون عليهم في هذه المقالة بـــ { الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا } وعُنون عليهم في المقالات السابقة بـ { الَّذِينَ كَفَرُوا } وبـ { الظَّالِمُونَ }، لأنّ بين هذا الوصف وبين مقالتهم انتقاض، فهم كذّبوا بلقاء الآخرة بما فيه من رؤية الله والملائكة، وطلبوا رؤية الله في الدنيا، ونزول الملائكة عليهم، وأرادوا تلقّي الدين من الملائكة أو من الله مباشرة، فكان في حكاية قولهم وذكر وصفهم تعجيب من تناقض مداركهم.
واعلم أنّ أهل الشرك شهدوا على أنفسهم بإنكار البعث وتوهّموا أنّ شبهتهم في إنكاره أقوى حجّة لهم في تكذيب الرسل، فمن أجل ذلك أيضا جُعل قولهم ذلك طريقا لتعريفهم بالموصول كما قال تعالى { وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ } [يونس:15].
{ **لَا يَرْجُونَ** } لا يظنّون ظنا قريبا، أي: يعدُّون لقاء الله محالا.
{ **لَوْلَا** } حرف تحضيض مستعمل في التعجيز والاستحالة، أي: هلّا أنزل علينا الملائكة فنؤمن بما جئت به، يعنون أنّه إن كان صادقا فليسأل من ربّه وسيلة أخرى لإبلاغ الدين إليهم.
{ **أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا** } مقصدهم من مقالهم أنّهم أعلى من أن يتلقّوا الدين من رجل مثلهم.
{ **لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً** } تعقيب على معنى التعجيب من ازدهائهم وغرورهم الباطل. والجملة استئناف يتنزّل منزلة جواب عن قولهم.
الاستكبار: مبالغة في التكبّر، فالسين والتاء للمبالغة مثل استجاب.
{ **فِي** } <u>للظرفية المجازية</u>، شُبّهت أنفسهم بالظروف في تمكّن المظروف منها، أي: هو استكبار متمكّن منهم كقوله تعالى { وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ } [الذاريات:21].
<u>ويجوز أن تكون { فِي } للتعليل</u> كما في الحديث: " **دخلت امرأة النار في هرة حبستها ...**".
أي: استكبروا لأجل عظمة أنفسهم في زعمهم.

العتو: تجاوز الحدّ في الظلم، وتقدّم في قوله تعالى { وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ } [الأعراف:77].
وفي هذا إيماء إلى أنّ النبوّة لا تكون بالاكتساب وإنّما هي إعداد من الله الحكيم، قال تعالى { اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ } [الأنعام:124].

{ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً } [22].

استئناف ثان جواب عن مقالتهم، فبعد إبداء التعجيب منها عُقّب بوعيد لهم فيه حصول بعض ما طلبوا حصوله الآن، أي: هم سيرون الملائكة ولكنّها رؤية تسوؤهم، حين يرون زبانية العذاب يسوقونهم إلى النار، ففي هذا الاستئناف تمليح وتهكّم بهم لأنّ ابتداءه مُطْمع بالاستجابة وآخره مُؤيِّس بالوعيد، فالكلام جرى على طريقة الغيبة لأنّه حكاية عن تورّكهم، والمقصود إبلاغه لهم حين يسمعونه.
{ **لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ** } انتفاء البشرى مستعمل في إثبات ضدّه وهو الحزن.
{ **لِلْمُجْرِمِينَ** } ذكر وصف المجرمين إظهار في مقام الإضمار للتسجيل عليهم بأنّهم مجرمون بعد أن وُصفوا بالكفر والظلم واليأس من لقاء الله.
{ **وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً** } الحِجْر (بكسر الحاء وسكون الجيم، ويقال بفتح الحاء وضمّها على الندرة) كلمة يقولونها عند رؤية ما يُخاف من إصابته بمنزلة الاستعاذة. قال الخليل وأبو عبيدة: كان الرجل إذا رأى الرجل الذي يخاف منه أن يقتله في الأشهر الحرم يقول له: (حِجْراً مَحْجُوراً)، أي: حرام قتلي.
حِجْر: مصدر حَجَره، إذا منعه، قال تعالى { وَحَرْثٌ حِجْرٌ } [الأنعام:138].

{ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً } [23].

كانوا في الجاهلية يعدّون الأعمال الصالحة مجلبة لخير الدنيا لأنّها ترضي الله تعالى فيجازيهم بنعم في الدنيا إذا كانوا لا يؤمنون بالبعث، وقد قالت خديجة للنبيّ صلى الله عليه وسلم حين تحيّر في أمر ما بدأه من الوحي وقال لها: " **لقد خشيت على نفسي** "، فقالت " والله لا يخزيك الله أبدا. إنّك لتصل الرحم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق ".
فالظاهر أنّ المشركين إذا سمعوا آيات الوعيد يقولون في أنفسهم: لئن كان البعث حقًّا لنجدنّ أعمالا عملناها من البرّ تكون سببا لنجاتنا، فعلم الله ما في نفوسهم فأخبر بأنّ أعمالهم تكون كالعدم يومئذ.
{ **وَقَدِمْنَا** } القدوم مستعمل في معنى العمد والإرادة، وأفعال المشي والمجيء تجيء في الاستعمال لمعاني القصد والعزم والشروع مثل: قام يفعل، وذهب يقول، وأقبل، ونحوها. فموقعه في الكلام أرشق.
{ **إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ** } (مِنْ) بيانية. والمراد: من عمل الخير.
الهباء: كائنات جسمية دقيقة لا ترى إلّا في أشعة الشمس المنحصرة في كوة ونحوها، تلوح كأنّها سابحة في الهواء، وهي أدقّ من الغبار، أي: فجعلناه كهباء منثور، وهو تشبيه لأعمالهم في عدم الانتفاع بها مع

كونها موجودة بالهباء في عدم إمساكه مع كونه موجودا، وهذا تشبيه بليغ وهو هنا رشيق. ونظيره قوله تعالى { وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثّاً } [الواقعة:6/5].

المنثور: غير المنتظم، وهو وصف كاشف لأنّ الهباء لا يكون إلّا منثورا، فذكر هذا الوصف للإشارة إلى ما في الهباء من الحقارة ومن التفرّق.

{ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً } [24].

استئناف ابتدائي جيء به لمقابلة حال المشركين في الآخرة بضدّها من حال أصحاب الجنّة وهم المؤمنون، لأنّه لمّا وصف حال المشركين في الآخرة عُلم أن لا حظ لهم في الجنّة فتعيّنت الجنّة لغير المشركين يومئذ وهم المؤمنون.

الخير: هنا تفضيل، وهو تهكّم بالمشركين، وكذلك { أَحْسَنُ }.

المستقرّ: مكان الاستقرار.

المقيل: المكان الذي يُؤوى إليه في القيلولة، والاستراحة في ذلك الوقت من عادة المترفين.

{ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلاً [25] الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً [26] }.

عطف على جملة { يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ } [22]. والمقصود تأييسهم من الانتفاع بأعمالهم وبآلهتهم وتأكيد وعيدهم. وأدمج في ذلك وصف بعض شؤون ذلك اليوم، وأنّه يوم تنزيل الملائكة بمرأى من النّاس.

{ **وَيَوْمَ** } أعيد اللفظ على طريقة الإظهار في مقام الإضمار، وإن كان ذلك يوما واحدا، لبعد ما بين المعاد ومكان الضمير.

التشقّق: التفتّح بين أجزاء ملتئمة، ومنه { إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ } [الانشقاق:1]. ولعلّه انخراق يحصل في كور تلك العوالم. وتشقّق السماء حالة عجيبة تظهر يوم القيامة، ومعناه زوال الحواجز والحدود التي كانت تمنع الملائكة من مبارحة سماواتهم.

الغمام: السحاب الرقيق. وهو ما يغشى مكان الحساب قال تعالى { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ } [البقرة:210].

{ **بِالْغَمَامِ** } الباء قيل بمعنى (عن)، أي: تشقّق عن غمام يحفّ بالملائكة. وقيل للسببية، أي: يكون غمام يخلقه الله فيه قوّة تنشقّ بها السماء لينزل الملائكة، مثل قوّة البرق التي تشقّ السحاب. وقيل الباء للملابسة، أي: تشقّق ملابسة لغمام يظهر حينئذ.

{ **وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلاً** } التأكيد بالمفعول المطلق لإفادة أنّه نزول بالذات لا بمجرد الاتصال النوراني.

{ **الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ** } أي: المُلك الخالص، كقولك: هذا ذهبٌ حقًّا. لأنّه لا يماثله ملك، لأنّ حالة الملك في الدنيا متفاوتة. والملك الكامل إنّما هو لله، ولكن العقول قد لا تلتفت إلى ما في الملوك من نقص وعجز وتبهرهم بهرجة تصرفاتهم وعطاياهم فينسون الحقائق، فأما في ذلك اليوم فالحقائق منكشفة وليس ثمّة من يدّعي شيئا من التصرّف، وفي الحديث: **" ثم يقول الله: أنا الملك أين ملوك الأرض "**.

{ **وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً** } باعتبار ما فيه من أمور عسيرة على المشركين.

وتقديم { عَلَى الْكَافِرِينَ } للحصر. وهو قصر إضافي، أي: دون المؤمنين.

{ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً [27] يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً [28] لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً [29] }.

حال آخر من أحوال المشركين في ذلك اليوم، أو باعتبار حال بعض المشركين المقصود من الآية.

{ **الظَّالِمُ** } يجوز أن يكون التعريف للاستغراق. والمراد بالظلم: الشرك، فيعم جميع المشركين الذين أشركوا بعد ظهور الدعوة المحمدية. ويجوز أن يكون للعهد المخصوص. والمراد بالظلم الاعتداء الخاص المعهود من قصّة عقبة بن أبي معيط وما أغراه به أبي بن خلف.

قال الواحدي وغيره عن الشعبي وغيره: كان عقبة بن أبي معيط خليلا لأميّة بن خلف، وكان عقبة لا يقدم من سفر إلّا صنع طعاما ودعا إليه أشراف قومه، وكان يكثر مجالسة النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقدم من بعض أسفاره فصنع طعاما ودعا رسول الله فلمّا قرّبوا الطعام قال رسول الله: **ما أنا بآكل من طعامك حتّى تشهد أن لا اله إلا الله وأنّي رسول الله "** فقال عقبة: أشهد أن لا اله إلا الله وأنّ محمدا رسول الله، فأكل رسول الله من طعامه. وكان أبي بن خلف غائبا فلما قدم أُخبر بقضيّته، فقال: صبأت يا عقبة. قال: والله ما صبأت ولكن دخل عليّ رجل فأبي أن يأكل من طعامي حتّى أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم فشهدت له فطعم، فقال أبي: ما أنا بالذي أرضى عنك أبدا إلّا أن تأتيه فتبصق في وجهه، فكفر عقبة وأخذ في امتثال ما امره به أميّة بن خلف، فيكون المراد بــ { **فُلاناً** } الكناية عن أبي بن خلف، فخصوصه يقتضي لحاق أمثاله من المشركين الذين أطاعوا أخلّتهم في الشرك ولم يتّبعوا سبيل الرسول.

العضّ: الشدّ بالأسنان على الشيء ليؤلمه أو ليمسكه، وحقّه التعدية بنفسه إلّا أنه كثرت تعديته بـ {عَلَى} لإفادة التمكّن من المعضوض إذا قصدوا عضًّا شديدا كما في هذه الآية.

العضّ على اليد: كناية عن الندامة، لأنّهم تعارفوا في بعض أغراض الكلام أن يصحبوها بحركات بالجسد مثل التشذّر وهو رفع اليد عند كلام الغضب، ومثل وضع اليد على الفم عند التعجّب، قال تعالى { فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ } [إبراهيم:9]. ومنه في الندم قرع السن بالأصبع، وعضّ السبابة، وعضّ

اليد، وفي الغيض عضّ الأنامل، قال تعالى { عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ } [آل عمران:119]، وكانت كنايات بناء على ما يلازمها في العرف من معان نفسيّة.

{ **يَا لَيْتَنِي** } على نحو قوله تعالى { يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا } [الأنعام:31].

الرسول: هو المعهود وهو محمد صلى الله عليه وسلم.

اتخاذ السبيل: أصل الأخذ: التناول باليد، أطلق هنا على قصد السير فيه، قال تعالى { واتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ} [الكهف:63].

{ **مَعَ الرَّسُولِ** } أي: متابعا للرسول، وإنّما عُدل عن الإتيان بفعل الاتّباع ونحوه بأن يقال: يا ليتني اتّبعت الرسول، إلى هذا التركيب المطنب لأنّ في هذا التركيب تمثيل هيئة الاقتداء بهيئة مسايرة الدليل تمثيلا محتويا على تشبيه دعوة الرسول بالسبيل.

{ **يَا وَيْلَتَا** } هو تحسّر بطريق نداء الويل. وتقدّم في قوله تعالى { يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ } [الكهف:49]. والألف عوض عن ياء المتكلّم، وهو تعويض مشهور في نداء المضاف إلى ياء المتكلّم.

الويل: سوء الحال، وقد تقدّم الكلام على الويل في قوله تعالى { فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ } [البقرة:79].

{ **لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً** } بدل من جملة { لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً }، بدل اشتمال لأنّ اتباع سبيل الرسول يشتمل على نبذ خلّة الذين يصدّون عن سبيله فتمنّي وقوع أوّلهما يشتمل على تمنّي وقوع الثاني.

{ **فُلَاناً** } اسم يُكنَّى عمّن لا يُذكر اسمه العَلَم، كما يُكنَّى بـ (فلانة) عمّن لا يراد ذكر اسمها العلم.

والداعي إلى الكناية بـ (فلان) إمّا قصد إخفاء اسمه خيفة عليه أو خيفة من أهله أو للجهل به، أو لعدم الفائدة لذكره، أو لقصد نوع من له اسمٌ عَلَم. وهذان الأخيران هما اللذان يجريان في هذه الآية إن حملت على إرادة خصوص عقبة وأبي، أو حملت على إرادة كلّ مشرك له خليل صدَّه عن اتباع الإسلام.

وإنّما تمنَّى أن لا يكون اتّخذه خليلا دون تمنِّي أن يكون عصاه فيما سوَّل له قصدا للاشمئزاز من خلّته من أصلها إذ كان الإضلال من أحوالها.

وفيه إيماء إلى أنّ شأن الخلّة الثقة بالخليل وحمل مشورته على النصح فلا ينبغي أن يضع المرء خلَّته إلّا حيث يوقن بالسلامة من إشارات السوء، قال الله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً } [آل عمران:118].

هو عندي محمل قول النبيّ صلى الله عليه وسلم:" **لو كنت متّخذا خليلا غير ربي لاتّخذت أبا بكر خليلا** " فإنّ مقام النبوّة يستدعي من الأخلاق ما هو فوق مكارم الأخلاق المتعارفة في الناس، فلا يليق به إلّا متابعة ما لله من الكمالات بقدر الطاقة، ولهذا قالت عائشة: " كان خُلُقه القرآن ". وعلمنا بهذا أنّ أبا بكر أفضل الأمّة مكارم أخلاق بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّ النبيّ جعله المخيَّر لخلَّته لو كان متخذا خليلا غير الله.

{ **لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي** } تعليلية لتمنّيه ألّا يكون اتّخذ فلانا خليلا بأنّه قد صدر عن خلّته أعظم خسران لخليله إذ أضلّه عن الحقّ بعد أن كاد يتمكّن منه.

الضلال: إضاعة الطريق وخطؤه. ويستعار الضلال للحياد عن الحقّ والرشد إلى الباطل والسفه، كما يستعار ضدّه، وهو الهدى (إصابة الطريق) لمعرفة الحقّ والصواب، حتّى تساوى المعنيان الحقيقان والمعنيان المجازيّان لكثرة الاستعمال.

الإضلال: مستعار هنا للصرف عن الحق.

{ **الذِّكْرِ** } هو القرآن، أي: نهاني عن التدبّر فيه والاستماع له بعد أن قاربت فهمه.

وقيل: كلمة الشهادة، بناء على تخصيص الظالم بعقبة بن أبي معيط، وتأتي في ذلك الوجوه المتقدّمة، فإنّ كلمة الشهادة لمّا كانت سبب النجاة مُثّلت بسبيل الرسول الهادي، ومُثّل الصرف عنها بالإضلال عن السبيل.

فإذا حمل الظالم في قوله تعالى { وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ } على معيّن، وهو عقبة بن أبي معيط، فمعنى مجيء الذكر إيّاه أنّه كان يجلس إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ويأنس إليه حتّى صرفه عن ذلك أبَي بن خلف وحمله على عداوته وأذاته.

وإذا حمل الظالم على العموم فمجيء الذكر هو شيوع القرآن بينهم، وإمكان استماعهم إيّاه. وإضلال خِلّانهم إيّاهم صرف كلّ واحد خليله عن ذلك، وتعاون بعضهم على بعض في ذلك.

{ **وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً** } تذييل من كلام الله تعالى لا من كلام الظالم تنبيها للنّاس على أنّ كل هذا الإضلال من عمل الشيطان فهو الذي يسوِّل لخليل الظالم إضلال خليله، لأنّ الشيطان خذول الإنسان، أي: مجبول على شدّة خذله.

الخذل: تركُ نصر المستنجِد مع القدرة، وتقدّم عند قوله تعالى { وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ } [آل عمران:160].

فإذا أعان على الهزيمة فهو أشدّ الخذل، وهو المقصود من صيغة المبالغة في وصف الشيطان بخذل الإنسان، لأنّ الشيطان يكيد الإنسان فيورِّطه في الضرّ فهو خذول.

{ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً } [30].

عطف على أقوال المشركين ومناسبته لقوله تعالى { لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ } أنّ الذكر هو القرآن، فحكيت شكاية الرسول إلى ربّه قومه من نبذهم القرآن بإضلال زعمائهم وسادتهم إيّاهم.

والمقصود إنذار قريش بأنّ الرسول توجه إلى ربّه في هذا الشأن فهو يستنصر به ويوشك أن ينصره.

{ **إِنَّ قَوْمِي** } قريش، لزيادة التذمّر من فعلهم معه لأنّ شأن قوم الرجل أن يوافقوه. والتأكيد للاهتمام به ليكون التشكّي أقوى.

{ **اتَّخَذُوا** } فعل الاتخاذ إذا قيّد بحالة يفيد شدّة اعتناء المتخذ بتلك الحالة. فهذا أشد مبالغة في هجرهم القرآن من أن يقال: إنّ قومي هجروا القرآن.
{ **هَذَا الْقُرْآنُ** } اسم الإشارة لتعظيمه وأنّ مثله لا يُتّخذ مهجورا بل هو جدير بالإقبال عليه والانتفاع به.
المهجور: المتروك والمفارق. والمراد هنا ترك سماعه.

{ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً** } [31].
هذه تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّ ما لقيه من بعض قومه هو سنّة من سنن الأمم مع أنبيائهم. وفيه تنبيه للمشركين ليعرضوا أحوالهم على هذا الحكم التاريخي.
{ **وَكَذَٰلِكَ** } تقدّم الكلام فيه عند قوله تعالى { وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً } [البقرة:143].
العدوّ: اسم يقع على المفرد والجمع والمراد هنا الجمع.
{ **الْمُجْرِمِينَ** } الإجرام أعمّ من عداوة الأنبياء وهو أعظمها. وإنّما أريد هنا تحقيق انضواء أعداء الأنبياء في زمرة المجرمين لأنّ ذلك أبلغ في الوصف.
{ **وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً** } التسلية بالوعد بهداية كثير ممّن هم يومئذ معرضون عنه، كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" لعلّ الله أن يُخرج من أصلابهم من يعبده "**، وبأنّه ينصره على الذين يصرّون على عداوته.

{ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً**} [32].
عَود إلى معاذيرهم وتعلّلاتهم الفاسدة إذ طعنوا في القرآن بأنّه نزل منجّما، وقالوا: لو كان من عند الله لنزل كتابا جملة واحدة. وهذه جهالة منهم بكتب الرسل فإنّها لم ينزل شيء منها جملة واحدة وإنما كانت وحيا مفرّقا، فالتوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام في الألواح هي عشرة كلمات بمقدار سورة الليل في القرآن، وما كان الإنجيل إلّا أقوالا ينطق بها عيسى عليه السلام في الملأ، وكذلك الزبور نزل قطعا كثيرة.
<u>وقيل</u>: إنّ قائل هذا اليهود أو النصارى، فإن صحّ ذلك فهو بهتان منهم لأنّهم يعلمون أنّه لم تنزل التوراة والإنجيل والزبور إلّا مفرّقة.
{ **كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ** } ردّ على طعنهم، فهو كلام مستأنف. وعُدل فيه عن خطابهم إلى خطاب الرسول عليه الصلاة والسلام إعلاما له بحكمة تنزيله مفرّقا، وفي ضمنه امتنان على الرسول.
التثبيت: جعل الشيء ثابتا. والثبات: استقرار الشيء في مكانه غير متزلزل، قال تعالى { كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ

أَصْلُهَا ثَابِتٌ } [إبراهيم:24]. ويستعار الثبات لليقين وللاطمئنان بحصول الخير لصاحبه، قال تعالى { لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً } [النساء:66].

الفؤاد: هنا العقل. وتثبيته بذلك الإنزال جعله ثابتا في ألفاظه ومعانيه لا يضطرب فيه.

قال الزمخشري: " الحكمة في تفريقه أن نقوّي بتفريقه فؤادك حتّى تعيه وتحفظه، لأنّ المتلقّن إنّما يقوى قلبه على حفظ العلم إذ ألقي إليه شيئا بعد شيء وجزءا عقب جزء، [وهو ينزل] على حسب الدواعي والحوادث وجوابات السائلين " .

قلتُ: إنّ نزوله منجّما أعون لحفّاظه على فهمه وتدبّره.

{ **وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً** } الترتيل يوصف به الكلام إذا كان حسن التأليف بيّن الدلالة. واتفقت أقوال أئمة اللغة على أنّ هذا الترتيل مأخوذ من قولهم: ثغر مُرَتَّلٌ ورَتِلٌ، إذا كانت أسنانه مفلّجة تشبه نور الأقحوان.

أي: نزّلناه مفرَّقا منسَّقا في ألفاظه ومعانيه غير متراكم، فهو مفرّق في الزمان فإذا كمل إنزال سورة جاءت آياتها مرتَّبة متناسبة كأنها أنزلت جملة واحدة.

ويجوز أن يراد بـ { رَتَّلْنَاهُ } أمرنا بترتيله، أي: بقراءته مرتَّلا، أي: بتمهُّل بأن لا يعجّل في قراءته، وهو المذكور في قوله تعالى { وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً } [الزمر:4].

{ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً } [33].

فذلكة جامعة تعمّ ما تقدّم وما عسى أن يأتوا به من الشكوك والتمويه بأنّ كلّ ذلك مدحوض بالحجّة الواضحة.

{ **وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ** } فعل الإتيان مجاز في أقوالهم والمحاجّة به، وتنكير (مثل) في سياق النفي للتعميم، أي: بكلّ مثل من أمثالهم المتقدّمة ابتداء من قوله تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ } [4]، وقوله تعالى { وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } [5]، وقوله تعالى { وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ } [7]، وقوله تعالى { وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً } [8]، وقوله تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ } [21]، وقوله تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً } [32].

{ **يَأْتُونَكَ** } تعدية الفعل إلى ضمير النبيّ صلى الله عليه وسلم لإفادة أنّ إتيانهم الأمثال يقصدون به أن يفحموه. والإتيان مستعمل مجازا في الإظهار. وصيغة المضارع تشمل ما عسى أن يأتوا به من هذا النوع كقولهم { أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً } [الإسراء:92].

{ **إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ** } استثناء من أحوال عامة يقتضيها عموم الأمثال، لأنّ عموم الأشخاص يستلزم عموم الأحوال. وهو مقابل قوله تعالى { وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ }، إشارة إلى أن ما يأتون به باطل. وهو مجيء مجازي.

والتعبير في جانب ما يؤيّده الله من الحجّة بـ {جِئْنَاكَ} دون: أتيناك، كما عُبّر عمّا يجيئون به بـ {يَأْتُونَكَ}، إمّا لمجرّد التفنّن، وإمّا لأنّ فعل الإتيان إذا استعمل مجازا كثر فيما يسوء وما يكره، كالوعيد والهجاء.

بخلاف فعل (المجيء) إذا استعمل في مجازه فأكثر ما يستعمل في وصول الخير والوعد والنصر، كقوله تعالى { قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ } [النساء:174]، وقوله تعالى { وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً } [الفجر:22]، وقوله تعالى { إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ } [النصر:1]، وقوله تعالى { وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ } [الإسراء:81].

وقد يكون متعلّق الفعل ذا وجهين باختلاف الاعتبار فيطلق كلا الفعلين نحو {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ} [هود:40]، فإنّ الأمر هنا منظور فيه إلى كونه تأييدا نافعا لنوح.

التفسير: البيان والكشف عن المعنى، وقد تقدّم ما يتعلّق به مفصّلا في المقدّمة الأولى من مقدّمات هذا الكتاب، والمراد هنا كشف الحجّة والدليل.

{ **وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً** } أي: أنّه أحقّ في الاستدلال، فالتفضيل للمبالغة إذ ليس في حجّتهم حسن. أو يراد بالحسن ما يبدو من بهرجة سفسطتهم وشبههم فيجيء الكشف عن الحقّ أحسن وقعا في نفوس السامعين من مغالطاتهم، فيكون التفضيل بهذا الوجه على حقيقته. فهذه نكتة من دقائق الاستعمال ودقائق التنزيل.

{ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً } [34].

استئناف ابتدائي لتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم، ولوعيد المشركين وذمّهم.

{ **الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ** } الموصول واقع موقع الضمير كأنّه قيل: هم يحشرون على وجوههم، فيكون الضمير عائدا إلى الذين كفروا من قوله تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً} [32] إظهار في مقام الإضمار لتحصيل فائدة أنّ أصحاب الضمير ثبت لهم مضمون الصلة، وليُبنى على الصلة موقع اسم الإشارة، وليُعلم من السياق بطريق التعريض أنّ الذين يحشرون على وجوههم هم الذين يأتون بالأمثال تكذيبا للنبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ **يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ** } تقدم عند قوله تعالى { وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ } [الإسراء:97].

{ **أُولَئِكَ** } الإتيان باسم الإشارة عقب ما تقدّم للتنبيه على أن المشار إليهم أحرياء بالمكان الأشرّ والسبيل الأضلّ لأجل ما سبق من أحوالهم التي منها قولهم { لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً } [32].

شرّ: اسم تفضيل. وأصله (أشرّ). وصيغتا التفضيل في قوله { شَرٌّ / وَأَضَلُّ } مستعملتان للمبالغة في الاتصاف بالشر والضلال كقوله تعالى { قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً } [يوسف:77].

المكان: المقر. و**السبيل**: الطريق، مكانهم جهنم، وطريقهم الطريق الموصول إليها، وهو الذي يحشرون فيه على وجوههم.

{ **سَبِيلاً** } تمييز محوَّل عن الفاعل، فأصله: وضلَّ سبيلهم. وإسناد الضلال إلى السبيل في التركيب المحوَّل عنه مجاز عقلي لأنّ السبيل سبب ضلالهم.

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً [35] فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً [36] }.

لمّا جرى الوعيد والتسلية بذكر حال المكذّبين للرسول عليه الصلاة والسلام عُطف على ذلك تمثيلهم بالأمم المكذّبين رسلهم ليحصل من ذلك موعظة هؤلاء وزيادة تسلية الرسول والتعريض بوعده بالانتصار له.

وابتدئ بذكر موسى وقومه لأنّه أقرب زمنا من الذين ذكروا بعده ولأنّ بقايا شرعه وأمّته لم تزل معروفة عند العرب. فإن صحّ ما روي أنّ الذين قالوا { لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً } [32] اليهود فوجه الابتداء بذكر ما أوتى موسى أظهر.

{ **وَلَقَدْ** } حرف التحقيق ولام القسم لتأكيد الخبر باعتبار ما يشتمل عليه من الوعيد بتدميرهم.

{ **الْكِتَابَ** } الوحي الذي يُكتب ويُحفظ وذلك من أوّل ما ابتدئ بوحيه إليه، وليس المراد بالكتاب الألواح لأنّ إيتاءه الألواح كان بعد زمن قوله تعالى { اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ }.

وفي وصف الوحي بالكتاب تعريض بجهالة المشركين القائلين { لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً }، فإنّ الكتب التي أوتيها الرسل ما كانت إلّا وحيا نزل منجّما فجمعه الرسل وكتبه أتباعهم.

{ **وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً** } تعريض آخر بالردّ على المشركين إذ قالوا { لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ يَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً } [32]، فإنّ موسى لمّا اقتضت الحكمة تأييده لم يؤيّد بملك ولكنّه أُيّد برسول مثله.

الوزير: المؤازر وهو المعاون المظاهر، مشتقّ من الأزر وهو القوّة. وأصل الأزر: شدّ الظهر بإزار عند الإقبال على عمل ذي تعب، وقد تقدم في [طه:29].

القوم: هم قبط مصر قوم فرعون.

{ **الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنَا** } الموصول للإيماء إلى علة الخبر عنهم بالتدمير. والتركيب وصف للقوم وليس هو من المقول لموسى وهارون لأنّ التكذيب حينئذ لمّا يقع منهم، ولكنّه وصف لإفادة قرّاء القرآن أنّ موسى وهارون بلّغا الرسالة وأظهر الله منها الآيات فكذّب بها قوم فرعون فاستحقوا التدمير تعريضا بالمشركين في تكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم.

{ **فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً** } تفريع، وهو المقصود من الموعظة والتسلية.

وقد حصل بهذا النظم إيجاز عجيب اختُصرت به القصّة فذُكر منها حاشيتاها: أوّلها وآخرها، لأنّهما المقصود بالقصّة، وهو استحقاق الأمم التدمير بتكذيبهم رسلهم.

التدمير: الإهلاك، والهلاك: دُمور.
{ **تَدْمِيراً** } إتباع الفعل بالمفعول المطلق للمبالغة.

{ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً } [37].

في هذا النظم اهتمام بقوم نوح لأنّ حالهم هو محلّ العبرة فقُدّم ذكرهم ثم أُكّد بضميرهم.
الآية: الدليل، أي: جعلناهم دليلا على مصير الذين يُكذّبون رسلهم.
{ **لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ** } جُعل قوم نوح مكذّبين الرسل مع أنّهم كذّبوا رسولا واحدا لأنّهم استندوا في تكذيبهم رسولهم إلى إحالة أن يرسل الله بشرا إذ قالوا {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ} [المؤمنون:24]، فكان تكذيبهم مستلزما تكذيب عموم الرسل، ولأنّهم أوّل من كذّب رسولهم، فكانوا قدوة للمكذّبين من بعدهم. وقصّة قوم نوح تقدّمت في [الأعراف:59-64] وفي [هود:25-49].
{ **وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً** } عطف على { أَغْرَقْنَاهُمْ }. والمعنى: عذّبناهم في الدنيا بالغرق وأعتدنا لهم عذابا أليما في الآخرة. ووقع الإظهار في مقام الإضمار فقيل { لِلظَّالِمِينَ } عوضا عن: أعتدنا لهم، لإفادة أنّ عذابهم جزاء على ظلمهم بالشرك وتكذيب الرسول.

{ وَعَاداً وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً [38] وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيراً [39] }.

انتصبت الأسماء الأربعة بفعل محذوف دل عليه { تَبَّرْنَا }. وفي تقديمها تشويق إلى معرفة ما سيُخبر به عنها. <u>ويجوز</u> أن تكون منصوبة بالعطف على ضمير النصب من قوله تعالى { فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً }.
{ **عَاداً** } التنوين وجه وجيه لأنّه اسم عَرِيّ عن علامة التأنيث وغير زائد على ثلاثة أحرف فحقّه الصرف.
{ **ثَمُودَا** } صرفه في قراءة الجمهور { ثَمُودًا } على اعتبار اسم الأب، والأظهر عندي أنّ تنوينه للمزاوجة مع { عَاداً } كما قال تعالى { سَلَاسِلًا وَأَغْلَالاً وَسَعِيراً } [الإنسان:4].
وقرأه حمزة وحفص ويعقوب بغير تنوين على ما يقتضيه ظاهر اسم الأمّة من التأنيث المعنوي.
وتقدّم ذكر عاد في [الأعراف:65-72].
{ **وَأَصْحَابَ الرَّسِّ** } اختلف المفسّرون في تعيينهم واتفقوا على أنّ **الرّسّ**: بئر عظيمة أو حفير كبير. ولمّا كان اسما لنوع من أماكن الأرض أطلقه العرب على أماكن كثيرة في بلاد العرب.
وإضافة { أَصْحَابُ } إلى { الرَّسِّ } إمّا لأنّهم أصابهم الخسف في رسّ، وإمّا لأنهم نازلون على رسّ،

وإمّا لأنّهم احتفروا رسًّا، كما سُمّي أصحاب الأخدود الذين خدُّوه وأضرموه.
والأكثر على أنّه من بلاد اليمامة ويسمّى (فَلَجاً).

قيل: هم قوم من بقايا ثمود. وقال السهيلي: هم قوم كانوا في عدن أُرسل إليهم (**حنظلة بن صفوان**) رسولا. وقد عبدوا الأصنام وقتلوا نبيهم فأهلكهم الله. قال وهب بن منبه: خسف بهم وبديارهم.

وقيل: هم قوم شعيب. وقيل: قوم كانوا مع قوم شعيب.

وقال مقاتل والسدي: الرس بئر بإنطاكية، وأصحاب الرس أهل إنطاكية بُعث إليهم (**حبيب النجار**) فقتلوه ورسُّوه في بئر، وهو المذكور في قوله تعالى { وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ } [يس:20].

القرون : الأمم، فإنّ القرن يطلق على الأمّة، وتقدّم عند قوله تعالى { أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ } [الأنعام: 6]. وفي الحديث: " **خير القرون قرني ثم الذين يلونهم** ".

{ **بَيْنَ ذَلِكَ** } المعنى: أنّ أمما تخلّلت تلك الأقوام ابتداء من قوم نوح.

{ **كَثِيراً** } إيذان بطول مدد هذه القرون وكثرتها.

{ **وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ** } تنوين عوض عن المضاف إليه. والتقدير: وكلّهم ضربنا له الأمثال.

وانتصب { كُلاًّ } بإضمار فعل يدل عليه { ضَرَبْنَا لَهُ } تقديره: حذَّرنا كلًّا وضربنا له الأمثال.

ضرب الأمثال: قولها وتبيينها. وتقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا } [البقرة:26].

{ **وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيراً** } انتصب { كُلًّا } بإضمار فعل يدل عليه { تَبَّرْنَا } وهو من قبيل الاشتغال كسابقه.

التتبير: التفتيت للأجسام الصلبة كالزجاج والحديد. وأطلق التتبير على الإهلاك على طريقة الاستعارة تبعية في { تَبَّرْنَا } وأصلية في { تَتْبِيراً }، وتقدّم في قوله تعالى { إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ } [الأعراف:139]، وقوله تعالى { وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً } [الإسراء:7].

{ **تَتْبِيراً** } مفعول مطلق مؤكّد لعامله لإفادة شدّة هذا الإهلاك.

{ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُوراً } [40].

لمّا كان سوق خبر قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرسّ وما بينهما من القرون مقصودا لاعتبار قريش بمصائرهم نُقل نظم الكلام هنا إلى إضاعتهم الاعتبار بذلك وبما هو أظهر منه لأنظارهم، وهو آثار العذاب الذي نزل بقرية قوم لوط.

وكانت قريش يمرّون بديار قوم لوط في أسفارهم للتجارة إلى الشام، قال تعالى { وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ } [الصافات:137-138]. وكان طريق تجارتهم من مكة على المدينة

ويدخلون أرض فلسطين فيمرون حذو بحيرة لوط التي على شافتها بقايا مدينة (سدوم) ومعظمها غمرها الماء. وتقدّم ذكر ذلك عند قوله تعالى { وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ } في سورة [الحجر:79].

الإتيان: المجيء. وتعديته بـ { عَلَى } لتضمينه معنى: مرّوا، لأنّ المقصود من التذكير بمجيء القرية التذكير بمصير أهلها فكأنّ مجيئهم إيّاها مرور بأهلها، فإنّ المرور يتعلّق بالسكان والمجيء يتعلق بالمكان.

{ **عَلَى الْقَرْيَةِ** } هي المسماة (**سَدُوم**) وكانت لقوم لوط قرى خمس أعظمها سدوم. وتقدّم ذكرها عند قوله تعالى { ولوطا إذ قال لقومه } [الأعراف:80].

{ **الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ** } وصفت بذلك لأنّها اشتهرت بمضمون الصلة بين العرب وأهل الكتاب. وهو عذاب نزل عليهم من السماء، وهو حجارة من كبريت ورماد، وتسميته مطرا على طريقة التشبيه لأنّ حقيقة المطر ماء السماء.

السَّوْء (بفتح السين): الضرّ والعذاب، وأمّا السُّوء (بضم السين) فهو ما يسوء.

{ **أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا** } استفهام صوري عن انتفاء رؤيتهم إيّاها حينما يأتون عليها. وهو استفهام إمّا مستعمل في الإنكار والتهديد، وإمّا مستعمل في الإيقاظ لمعرفة سبب عدم اتّعاظهم.

{ **بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُوراً** } يجوز أن يكون { بَلْ } للإضراب الانتقالي انتقالا من وصف تكذيبهم بالنبيّ صلى الله عله وسلم وعدم اتعاظهم بما حلّ بالمكذبين من الأمم إلى ذكر تكذيبهم بالبعث، فيكون انتهاء الكلام عند قوله تعالى { أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا} وهو الذي يجري على الوجه الأول في الاستفهام (الإنكار والتهديد). وعبّر عن إنكارهم البعث بعدم رجائه لأنّ منكر البعث لا يرجو منه نفعا ولا يخشى منه ضرّا.

النشور: مصدر نشر الميّت أحياه. وهو من الألفاظ التي جرت في كلام العرب على معنى التخيّل لأنّهم لا يعتقدونه.

<u>المعنى</u>: أنّهم كانوا لا يؤمنون بالبعث فلم يكن لهم استعداد للاعتبار، لأنّ الاعتبار ينشأ عن المراقبة ومحاسبة النفس لطلب النجاة، وهؤلاء المشركون لمّا نشأوا على إهمال الاستعداد لما بعد الموت قصرت أفهامهم على هذا العالم العاجل فلم يُعْنَوا إلّا بأسباب وسائل العاجلة، فهم مع براعتهم في تفرّس الذوات والشيات ومراقبة سير النجوم وأنواء المطر والريح ورائحة أتربة منازل الأحياء، هم مع ذلك كلّه معرضون بأنظارهم عن توسّم الالهيات وحياة الأنفس ونحو ذلك. وأصل ذلك الضلال كلّه انجرّ لهم من إنكار البعث، فلذلك جُعل هنا علّة لانتفاء اعتبارهم بمصير أمّة كذّبت رسولها وعصت ربها. وفي هذا المعنى جاء قوله تعالى { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ } [الحجر:75].

{ وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً [41] إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً [42] }.

كان ما تقدّمت حكايته من صنوف أذاهم الرسول عليه الصلاة والسلام أقوالا في مغيبه فعُطف عليها في هذه الآية أذى خاص وهو الأذى حين يرونه. وهذا صنف من الأذى تبعثهم إليه مشاهدة الرسول في غير زيّ الكبراء والمترفين لا يجر المطارف ولا يركب النجائب ولا يمشي مرحا ولا ينظر خيلاء ويجالس الصالحين ويُعرِض عن المشركين ويرفق بالضعفاء ويواصل الفقراء، وأولئك يستخفّون بالخُلُق الحسن لما غلب على آرائهم من أفن. وهذا الكلام صدر من أبي جهل وأهل ناديه.

{ **إِذَا** } ظرف زمان مضمّن معنى الشرط فلذلك يُجعل متعلَّقه جوابا له { إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً }.

{ **يَتَّخِذُونَكَ** } إسناد الفعل إلى ضمير الجمع للدلالة على أنّ جماعاتهم يستهزئون به إذا رأوه وهم في مجالسهم ومنتدياتهم.

{ **إِلَّا هُزُوًا** } مصدر هزأ به. وتقدّم في قوله تعالى { إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا } [البقرة:67].

وصيغة الحصر للتشنيع عليهم بأنّهم انحصر اتخاذهم إيّاه في الاستهزاء به يلازمونه ويدأبون عليه.

{ **أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً** } بيان لجملة { إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً } لأنّ الاستهزاء من قبيل القول فكان بيانه بما هو من أقوالهم ومجاذبتهم الأحاديث بينهم.

والاستفهام للإنكار. واسم الإشارة مستعمل في الاستصغار كما علمت في أوّل تفسير هذه الآية.

وقد تقدّم قريب من هذه الجملة في قوله تعالى { وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ } [الأنبياء:36]، سوى أنّ الاستفهام هنالك تعجّبي.

{ **إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا** } تفاخرهم بتصلّبهم في دينهم وأنّهم كادوا أن يتّبعوا دعوته بما يلقيه إليهم من الإقناع والإلحاح لولا أنّهم تريّثوا.

الصبر: الاستمرار على ما يشقّ عمله على النفس. ويُعدَّى فعله بحرف (على) لما يقتضيه من التمكّن من الشيء المستمرّ عليه.

{ **لَوْلَا** } حرف امتناع لوجود، أي: امتناع وقوع جوابها لأجل وجود شرطها فتقتضي جوابا لشرطها، والجواب هنا محذوف لدلالة ما قبل { لَوْلا } عليه، وهو { إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا } .

{ **وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا** } هذا جواب قولهم { إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا } المتضمّن أنّهم على هدى في دينهم، وكان الجواب بقطع مجادلتهم وإحالتهم على حين رؤيتهم العذاب ينزل بهم، فتضمّن ذلك وعيدا بعذاب. والأظهر أنّ المراد عذاب السيف النازل بهم يوم بدر، وممّن رآه أبو جهل سيد أهل الوادي، وزعيم القالة في ذلك النادي.

وأسلوب التهكّم للإعراض عن المحاجّة بجعل ما ينكشف عنه المستقبل هو معرفة من هو أشدّ ضلالا من الفريقين على طريقة المجاراة وإرخاء العنان للمخطئ إلى أن يقف على خطئه.

{ **أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً** } [43].

استئناف خوطب به الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يخطر بنفسه من الحزن على تكرّر إعراضهم عن دعوته إذ كان حريصا على هداهم والإلحاح في دعوتهم، فأعلمه بأنّ مثلهم لا يُرجى اهتداؤه لأنّهم جعلوا هواهم إلههم.

{ **اتَّخَذَ** } يتعدّى إلى مفعولين وهو من أفعال التصيير، فإنّ معناه: صيّر شيئا إلى حالة غير ما كان عليه أو إلى صورة أخرى. والأصل فيه أنّ مفعوله الأوّل هو الذي أُدخل عليه التغيير إلى حال المفعول الثاني فلا يقدّم مفعوله الثاني على مفعوله الأوّل إلّا إذا لم يكن في الكلام لبس يلتبس فيه المعنى، أو كان المعنى الحاصل من التقديم مساويا للمعنى الحاصل من الترتيب في كونه مرادا للمتكلم.

{ **أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ** }.

إذا أجري على الترتيب كان معناه: جعل إلهه الشيء الذي يهوى عبادته، أي: لمجرّد الشهوة لا لأنّ إلهه مستحق للإلهية. فإطلاق { إِلَهَهُ } على هذا الوجه إطلاق حقيقي. وهذا يناسب قوله قبله { إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا } [42]، ومعناه منقول عن سعيد بن جبير. واختاره ابن عرفة في تفسيره.

وإذا أجري على اعتبار تقديم المفعول الثاني كان المعنى: من اتّخذ هواه قدوة له في أعماله لا يأتي عملا إلّا إذا كان وفاقا لشهوته، فكأنّ هواه إلهه. وعلى هذا يكون معنى { إِلَهَهُ } شبيها بإلهه في إطاعته على طريقة التشبيه البليغ. وهذا المعنى أشمل في الذمّ لأنّه يشمل عبادتهم الأصنام ويشمل غير ذلك من المنكرات والفواحش من أفعالهم. ونحا إليه ابن عباس، وإلى هذا المعنى ذهب صاحب الكشاف وابن عطية.

وكلا المعنيين ينبغي أن يكون محملا للآية.

{ **أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً** }.

إن كانت متّصلة بالتي قبلها تعيَّن فعل { **أَرَأَيْتَ** } لأن يكون فعلا قلبيا بمعنى العلم وكان الاستفهام الذي في الجملة الأولى إنكاريا كالذي هنا، وكان مجموع الجملتين كلاما على طريقة الإجمال ثم التفصيل.

وتكون الفاء في قوله تعالى { أَفَأَنْتَ } فاء الجواب للموصول لمعاملته معاملة الشرط، وهمزة الاستفهام الثانية تأكيد للاستفهام الأول، وتكون جملة { أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً } عوضا عن المفعول الثاني لفعل {أَرَأَيْتَ}، والفعل معلّق عن العمل فيه بسبب الاستفهام، وعليه لا يُوقف على قوله { هَوَاهُ } بل يوصل الكلام. وهذا النظم هو الذي مشى عليه كلام (الكشاف).

وإن كانت كل جملة من الجملتين مستقلّة عن الأخرى في نظم الكلام كان الاستفهام الذي في الجملة الأولى مستعملا في التعجيب من حال الذين اتخذوا إلههم هواهم تعجيبا مشوبا بالإنكار، وكانت الفاء في الجملة الثانية للتفريع على ذلك التعجيب والإنكار، وكان الاستفهام الثاني إنكاريا بمعنى: إنّك لا تستطيع قلعه عن ضلاله، كما أشار إليه قوله تعالى قبله { مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً } [42].

{ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً } [44].

انتقال عن التأييس من اهتادئهم، لغلبة الهوى على عقولهم، إلى التحذير من أن يُظنّ بهم إدراك الدلائل والحجج، وهذا توجيه ثان للإعراض عن مجادلتهم التي أنبأ عنها قوله تعالى { وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً } [42].

{ **أَمْ** } منقطعة للإضراب الانتقالي من إنكار على إنكار وهي مؤذنة باستفهام.

{ **أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ** } نفي أثر السماع، وهو فهم الحقّ، لأنّ ما يلقيه الرسول صلى الله عليه وسلم لا يرتاب فيه إلّا من هو كالذي لم يسمعه.

وعطف { أَوْ يَعْقِلُونَ } على { يَسْمَعُونَ } لنفي فهم الأدلّة السمعية والعقلية.

{ **أَكْثَرَهُمْ** } دون جميعهم، لأنّ هذا حال دهمائهم ومقلّديهم، وفيهم معشر عقلاء يفهمون ويستدلّون بالكائنات ولكنّهم غلب عليهم حبّ الرئاسة وأنفوا من أن يعودوا أتباعا للنبيّ صلى الله عليه وسلم ومساوين للمؤمنين من ضعفاء قريش وعبيدهم مثل عمار وبلال.

{ **إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ** } مستأنفة استئنافا بيانيّا، فكان تشبيههم بالأنعام تبيينا للجمع بين حصول اختراق أصوات الدعوى آذانهم مع عدم انتفاعهم بها.

{ **بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً** } انتقل في صفة حالهم إلى ما هو أشدّ من حال الأنعام بأنّهم أضلّ سبيلا منها.

ضلال السبيل: عدم الاهتداء للمقصود، لأنّ الأنعام تفقه بعض ما تسمعه من أصوات الزجر ونحوها من رعاتها وسائقيها، وهؤلاء لا يفقهون شيئا من أصوات مرشدهم وسائسهم وهو الرسول عليه الصلاة والسلام. وهذا كقوله تعالى { فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ } [البقرة:74].

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً [45] ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً [46] }.

استئناف ابتدائي فيه انتقال إلى الاستدلال على بطلان شركهم وإثبات الوحدانية لله. متصل بقوله تعالى { وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً } [3]. والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم.

وقد جُعل مدّ الظل وقبضُه تمثيلا لحكمة التدريج في التكوينات الإلهية والعدول بها عن الطفرة في الإيجاد ليكون هذا التمثيل بمنزلة كبرى القياس للتدليل على أنّ تنزيل القرآن منجّما جار على حكمة التدرّج لأنّه أمكن في حصول المقصود.

{ **أَلَمْ تَرَ** } الاستفهام تقريري فهو صالح لطبقات السامعين: من غافل يُسأل عن غفلته ليُقرَّ بها تحريضا على النظر، ومن جاحد يُنكَر عليه إهماله النظر، ومن موفّق يُحثُّ على زيادة النظر.

والرؤية بصرية، وقد ضُمّن الفعل معنى النظر فعدِّي إلى المرئي بحرف (إلى).

{ **كَيْفَ** } مجرّدة عن الاستفهام وهي اسم دال على الكيفية فهي في محل بدل الاشتمال من { رَبِّكَ }.

والتقدير: ألم تر إلى ربك إلى هيئة مده الظل. وقد تقدّم ذكر خروج (كيف) عن الاستفهام عند قوله تعالى { هَوَ الذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ} [آل عمران:6]، فإنّه لا يخلو النهار من وجود الظل.

المدّ: بسط الشيء المنقبض المتداخل. يقال: مدّ الحبل ومدّ يده، ويطلق المدُّ على الزيادة في الشيء وهو استعارة شائعة، وهو هنا الزيادة في مقدار الظلّ.

{ **الظِّلَّ** } مقدار محدّد من الظلمة يحصل من حيلولة جسم بين شعاع الشمس وبين المكان الذي يقع عليه الشعاع.

{ **وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً** } أي: غير متزايد، لأنّه لمّا كان مدّ الظلّ يشبه صورة التحرّك أطلق على انتفاء الامتداد اسم السكون بأن يلازم مقدارا واحدا لا ينقص ولا يزيد، أي: لو شاء الله لجعل الأرض ثابتة في سمت واحد تجاه أشعة الشمس فلا يختلف مقدار ظلّ الأجسام التي على الأرض.

والجملة معترضة للتذكير بأنّ في الظل منّة.

{ **ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً** } أي: أنّ الله مدّ الظل بأن جعل الشمس دليلا على مقادير امتداده.

والالتفات من الغيبة إلى التكلّم لأنّ ضمير المتكلّم أدخل في الامتنان من ضمير الغائب فهو مشعر بأنّ هذا الجعل نعمة، وهي نعمة النور الذي به تمييز أحوال المرئيات، وعليه فالقول ارتقاء في المنّة.

الدليل: المرشد إلى الطريق والهادي إليه. فكما أنّ الهادي يخبر السائر أين ينزل من الطريق، كذلك الشمس بتسبّبها في مقادير امتداد الظل تعرِّف المستدلَّ بالظل بأوقات أعماله ليشرع فيها.

{ **ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً** } عطف على جملة { مَدَّ الظِّلَّ } أو على جملة {جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً}.

{ **ثُمَّ** } مثل الأولى مفيدة التراخي الرتبي لأنّ مضمون هذه الجملة أهمّ في الاعتبار بمضمونها من مضمون السابقة إذ في قبض الظلّ دلالة من دلالات الشمس هي عكس دلالتها على امتداده فكانت أعجب إذ هي عملٌ ضدٌّ للعمل الأول، وصدور الضدّين من السبب الواحد أعجب من صدور أحدهما السابق في الذكر.

القبض: ضدّ المدّ، فهو هنا استعارة للنقص. وتعديته بقوله تعالى { إِلَيْنَا } تخييل، شُبّه الظلّ بحبل أو ثوب طواه صاحبه بعد أن بسطه على طريقة المكنية.

{ **قَبْضاً يَسِيراً** } أريد أنّ هذا القبض يحصل ببطء دون طفرة، فأطلق اليسر وأريد به لازم معناه عرفا وهو التدريج ببطء، على طريقة الكناية، ليكون صالحا لمعنى آخر سنتعرض إليه في آخر كلامنا.

وفي مدّ الظل وقبضه نعمة معرفة أوقات النهار للصلوات وأعمال الناس، ونعمة التناوب في انتفاع الجماعات والأقطار بفوائد شعاع الشمس وفوائد الفيء بحيث إنّ الفريق الذي كان تحت الأشعة يتبرّد بحلول الظل، والفريق الذي كان في الظلّ ينتفع بانقباضه.

هذا محل العبرة والمنة اللتين تتناولهما عقول الناس على اختلاف مداركهم. ووراء ذلك عبرة علمية كبرى توضّحها قواعد النظام الشمسي وحركة الأرض حول الشمس وظهور الظلمة والضياء.

ومن وراء ذلك إشارة إلى أصل المخلوقات كيف طرأ عليها الإيجاد بعد أن كانت عدما، وكيف يمتدّ وجودها في طور نمائها، ثم كيف تعود إلى العدم تدريجا في طور انحطاطها إلى أن تصير إلى العدم، فذلك ممّا يشير إليه { ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً }.

فيكون قد حصل من التذكير بأحوال الظل في هذه الآية مع المنّة والدلالة على نظام القدرة تقريب لحالة إيجاد الناس وأحوال الشباب وتقدّم السن، وأنّهم عقب ذلك صائرون إلى ربّهم يوم البعث مصيرا لا إحالة فيه ولا بعد، كما يزعمون، فلمّا صار قبض الظل مثلا لمصير النّاس إلى الله بالبعث وُصف القبض بيسير تلميحا إلى قوله تعالى { ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ } [ق:44].

وفي هذا التمثيل إشارة إلى أنّ الحياة في الدنيا كظل يمتد وينقبض وما هو إلّا ظلّ.

{ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً } [47].

مناسبة الانتقال من الاستدلال باعتبار أحوال الظلّ إلى الاعتبار بأحوال الليل والنهار ظاهرة فالليل يشبه الظلّ في أنّه ظلمة تعقب نور الشمس.

{ **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ** } قصر إفراد، أي: لا يشاركه غيره في جعل الليل والنهار. فهم يقرّون به ولكنّهم لمّا جعلوا له شركاء على الإجمال أُبطلت شركتهم بقصر التصرف في الأزمان على الله تعالى.

وقد رجع أسلوب الكلام من المتكلم إلى الغيبة على طريقة الالتفات.

{ **لِبَاساً** } مُشبّه به على طريقة التشبيه البليغ، أي: ساترا لكم يستر بعضكم عن بعض، وفي هذا الستر منن كثيرة لقضاء الحوائج التي يجب إخفاؤها.

وتقديم الاعتبار بحالة ستر الليل على الاعتبار بحالة النوم لرعي مناسبة الليل بالظلّ كما تقدّم، بخلاف قوله تعالى { وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً } [النبأ:8-10]، فإنّ نعمة النوم أهمّ من نعمة الستر، ولأنّ المناسبة بين نعمة خلق الأزواج وبين النوم أشدّ.

وقد جمعت الآية استدلالا وامتنانا فهي دليل على عظم قدرة الخالق، وهي أيضا تذكير بنعمه، فإنّ في اختلاف الليل والنهار آيات جمّة لما يدلّ عليه حصول الظلمة من دقّة نظام دوران الأرض حول الشمس ومن دقّة نظام خلق الشمس، ولما يتوقّف عليه وجود النهار من تغيّر دوران الأرض ومن فوائد نور الشمس، ثم ما في خلال ذلك من نظام النوم المناسب للظلمة حين ترتخي أعصاب الناس فيحصل لهم بالنوم تجدّد نشاطهم، ومن الاستعانة على التستّر بظلمة الليل، ومن نظام النهار من تجدّد النشاط وانبعاث الناس للعمل وسآمتهم من الدعة، مع ما هو ملائم لذلك من النور الذي به إبصار ما يقصده العاملون.

السبات: له معان متعدّدة في اللغة ناشئة عن التوسّع في مادة (السبت) الذي هو **القطع**.

وأنسب المعاني بمقام الامتنان هو معنى **الراحة**، وإن كان في كلا المعنيين اعتبار بدقيق صنع الله تعالى.
وفسّر الزمخشري السبات **بالنوم** على طريقة التشبيه البليغ.
{ **وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً** } إعادة فعل { جَعَلَ } دون أن يعاد في قوله تعالى { وَالنَّوْمَ سُبَاتاً } مشعرة بأنّه تنبيه إلى أنّه جعْل مخالف لجعل الليل لباسا.
النشور: الحياة بعد الموت، وتقدّم قريبا عند قوله تعالى { بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً } [40].
<u>يحتمل أن يكون مرادا به البروز</u> والانتشار فيكون ضدّ اللباس في قوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً }، فيكون الإخبار به عن النهار حقيقيا، والمنّة في أنّ النهار ينتشر فيه الناس لحوائجهم واكتسابهم.
<u>ويحتمل أن يكون مرادا به بعث الأجساد</u> بعد موتها فيكون الإخبار على طريقة التشبيه البليغ. وفي هذا المعنى قول النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا أصبح " **الحمد لله الذي أحيانا بعد إذ أماتنا وإليه النشور** ".

{ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً [48] لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا [49] وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً [50] }.

استدلال على الانفراد بالخلق وامتنان بتكوين الرياح والأسحبة والمطر. ومناسبة الانتقال من حيث ما في الاستدلال الذي قبله من ذكر حال النشور والامتنان به. ومردود الاستدلال قصر إرسال الرياح وما عطف عليه على الله تعالى إبطالًا لادعاء الشركاء له في الإلهية.
{ **أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ** } أطلق على تكوين الرياح فعل { أَرْسَلَ }، الذي هو حقيقته في بعث شيء وتوجيهه، لأنّ حركة الرياح تشبه السير. وقد شاع استعمال الإرسال في إطلاق العنان لخيل السباق.
وهذا استدلال بدقيق خلق الله في تكوين الرياح؛ فالعامة يعتبرون بما هو داخل تحت مشاهدتهم من ذلك، والخاصة يدركون كيفية حدوث الرياح وهبوبها واختلافها. ثم إنّ الرياح بهبوبها حارة مرة وباردة أخرى تكوِّن الأسحبة وتؤذن بالمطر.
قرأ الجمهور { أَرْسَلَ الرِّيَاحَ } بصيغة الجمع، وقرأ ابن كثير { الرِّيحُ } بصيغة الإفراد على معنى الجنس. والقراءتان متّحدتان في المعنى.
{ **بُشْراً** } تقدّم الكلام حول اختلاف القرّاء حولها عند قوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ } [الأعراف:57].
والالتفات من الغيبة إلى المتكلّم في قوله تعالى { وَأَنْزَلْنَا - لِنُحْيِيَ - وَنُسْقِيَهُ - وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ } للامتنان.
{ **رَحْمَتِهِ** } المطر، لأنّه رحمة للناس والحيوان بما ينبته من الشجر والمرعى.

{ **وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً** } عطف على جملة { أَرْسَلَ الرِّيَاحَ }، فهي داخلة في حيّز القصر، أي: وهو الذي أنزل من السماء ماء طهور. وتقدّم معنى إنزال الماء من السماء عند قوله تعالى { أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ } [البقرة:19].

الطَهور: من أمثلة المبالغة في الوصف بالمصدر كما يقال: رجل صَبور. والمعنى: أنّ الماء النازل من السماء هو بالغ نهاية الطهارة في جنسه من المياه. ووصف الماء بالطهور يقتضي أنّه مُطهِّر لغيره.

فيكون ذكر هذا الوصف إدماجا لمنّة في أثناء المنن المقصودة، كقوله تعالى { وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ } [الأنفال:11].

البلدة: الأرض. ووصفها بالحياة والموت مجازان للريّ والجفاف، لأنّ ريّ الأرض ينشأ عنه النبات وهو يشبه الحي، وجفاف الأرض يجفّ به النبات فيشبه الميّت.

ولماء المطر خاصيّة الإحياء لكلّ أرض لأنّه لخلوّه من الجراثيم ومن بعض الأجزاء المعدنية والترابية التي تشتمل عليها مياه العيون ومياه الأنهار والأودية كان صالحا بكلّ أرض وبكلّ نبات.

{ **بَلْدَةً مَيْتاً** } البلد يذكّر ويؤنّث مثل كثير من أسماء أجناس البقاع كما قالوا: دار ودارة. ووصفت البلدة بميت، وهو وصف مذكر، لتأويل { بَلْدَةً } بمعنى مكان لقصد التخفيف.

{ **لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً** } إيماء إلى تقريب إمكان البعث.

{ **وَنُسْقِيَهُ** } بضم النون مضارع (أسقى) مثل الذي بفتح النون فقيل هما لغتان يقال: أسقى وسقى. قال تعالى { قَالَتَا لا نَسْقِي } [القصص:23].

وقيل: سقى: أعطى الشراب، وأسقى: هيّأ الماء للشرب. وهذا القول أسدّ لأنّ الفروق بين معاني الألفاظ من محاسن اللغة فيكون المعنى: هيأناه لشرب الأنعام والأناسي.

{ **مِمَّا خَلَقْنَا** } حال من { أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ }، و(من) تبعيضية، و(ما) موصولة، أي: بعض ما خلقناه، والموصول للإيماء إلى علّة الخبر، أي: نسقيهم لأنّهم مخلوقات. إشارة إلى رحمة الله بها لأنّها خلقه.

الأناسيّ: جمع إنسي، وهو مرادف إنسان. فالياء فيه ليست للنسب. وجمع على (فعالي) مثل كرسي وكراسي. { **وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا** } لأنّ بعض الأناسي لا يشربون من ماء السماء وهم الذين يشربون من مياه الأنهار كالنيل والفرات، والآبار والصهاريج، ولذلك وصف العرب بأنّهم (بنو ماء السماء). فالمنّة أخصّ بهم.

قال أبو هريرة، في ذكر هاجر زوج إبراهيم عليه السلام: " فتلك أمّكم يا بني ماء السماء "، يعني العرب.

وتقديم ذكر الأنعام على الأناسي اقتضاه نسج الكلام على طريقة الأحكام في تعقيبه بقوله تعالى { وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا }، ولو قُدّم ذكر { أناسيَّ } لتفكك النظم. ولم يقدّم ذكر الناس في قوله تعالى { مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ } [النازعات:33] لانتفاء الداعي للتقديم فجاء على أصل الترتيب.

{ **وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً** } توكيد الجملة بـ (لام القسم) و(قد) لتحقيق التعليل، لأنّ تصريف المطر محقّق لا يحتاج إلى التأكيد وإنّما الشيء الذي لم يكن لهم علم به هو أنّ من حكمة تصريفه بين الناس أن يذكروا نعمة الله تعالى عليهم مع نزوله عليهم وفي حالة إمساكه عنهم، فيعلموا أنّ الله هو الربّ الواحد المختار في خلق الأسباب والمسببات. وقد كانوا لا يتدبرون حكمة الخالق ويسندون الآثار إلى مؤثرات وهمية أو صورية.

التصريف: التغيير. والمراد هنا تغيير أحوال الماء، أي: مقاديره ومواقعه.

{ **لِيَذَّكَّرُوا** } لمّا كن التذكّر شاملا لشكر المنعم عليهم بإصابة المطر ولتفطّن المحرومين إلى سبب حرمانهم إيّاه لعلهم يستغفرون جيء في التعليل بهذا الفعل ليكون علّة لحالتي التصريف بينهم.

{ **فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً** } تركيب جرى بمادته وهيئته مجرى المثل في الإخبار عن تصميم المخبر عنه على ما بعد حرف الاستثناء { كُفُوراً }، أي: فصمّموا على اختيار الكفور، وإن لم يكن هنالك عرض ولا إباء. ومنه قوله تعالى { وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ } [التوبة:32].

الكفور: مصدر بمعنى الكفر. وتقدّم نظير في [الإسراء:27]، أي: أبوا إلّا الإشراك بالله وعدم التذكّر.

{ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً [51] فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً [52]}.

جملة اعتراض بين ذكر دلائل تفرّد الله بالخلق وذكر منّته على الخلق. متّصلة بقوله تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً } [32]، فبعد أن بيّن إبطال طعنهم فقال تعالى { كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ } [32] انتقل إلى تنظير القرآن بالكتاب الذي أوتيه موسى عليه السلام وكيف استأصل الله من كذّبوه، ثمّ استطرد بذكر أمم كذّبوا رسلهم، ثم انتقل إلى استهزاء المشركين بالنبيّ صلى الله عليه وسلم وأشار إلى تحرّج النبيّ صلى الله عليه وسلم من إعراض قومه عن دعوته بقوله تعالى { أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً } [43]. وتسلسل الكلام بضرب المثل بمدّ الظل وقبضه، وبحال الليل والنهار، وبإرسال الرياح، حتّى انتهى إلى هذه الآية { وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً }.

ويؤيّد ما ذكرنا اشتمال التفريع على ضمير القرآن في قوله تعالى { وَجَاهِدْهُمْ بِهِ }.

{ **فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ** } تفريع على جملة { وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً } لأنّها تتضمّن أنّه مرسل إلى المشركين من أهل مكة وهم يطلبون منه الكفّ عن دعوتهم وعن تنقُّص أصنامهم.

والنهي مستعمل في التحذير والتذكير، وفعل { تُطِعِ } في سياق النهي يفيد عموم التحذير من أدنى طاعة.

الطاعة: عمل المرء بما يُطلب منه، أي: فلا تَهِن في الدعوة رعيا لرغبتهم أن تلين لهم.

{ **وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً** } بعد أن حذّره من الوهن في الدعوة أمره بالحرص والمبالغة فيها. وعُبّر عن ذلك بالجهاد، وهو الاسم الجامع لمنتهى الطاقة. وصيغة المفاعلة فيه ليفيد مقابلة مجهودهم بمجهوده

فلا يهن ولا يضعف ولذلك وصف بـ { كَبِيراً }، أي: الجامع لكل مجاهدة.

{ بِهِ } عائد إلى غير مذكور: فإمّا أن يعود إلى **القرآن**، لأنّه مفهوم من مقام النذارة، وإمّا أن يعود إلى المفهوم من { لا تُطِعِ } وهو **الثبات على دعوته**، بأن يعصيهم، فإنّ النهي عن الشيء أمر بضده.

{ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً } [53].

عود إلى الاستدلال على تفرّده تعالى بالخلق. جمعت هذه الآية استدلالا وتمثيلا وتثبيتا ووعدا:

فصريحها استدلال على شيء عظيم من آثار القدرة الإلهية، وهو التقاء الأنهار والأبحر كما سيأتي.

وفي ضمنها تمثيل لحال دعوة الإسلام في مكة يومئذ واختلاط المؤمنين مع المشركين بحال تجاور البحرين؛ أحدهما عذب فرات والآخر ملح أجاج. وتمثيل الإيمان بالعذب الفرات والشرك بالملح الأجاج، وأن الله تعالى كما جعل بين البحرين برزخا يحفظ العذب من أن يكدّره الأجاج، وكذلك حجز بين المسلمين والمشركين فلا يستطيع المشركون أن يدسّوا كفرهم بين المسلمين.

وفي هذا تثبيت للمسلمين بأنّ الله يحجز عنهم ضرّ المشركين.

والوعد من خلال التعريض الكنائي بأنّ الله ناصر لهذا الدين.

ولأجل ما فيها من التمثيل والتثبيت والوعد كان لموقعها عقب جملة { فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً } [52] أكمل حُسْن. وهي معطوفة على جملة { وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ } [48] ومناسبة وقوعها عقب التي قبلها أنّ كلتيهما استدلال بآثار القدرة في تكوين المياه المختلفة.

ومفاد القصر هنا نظير ما تقدّم في الآيتين السابقتين، إبطال لادعاء الشركاء له في الإلهية.

المَرَج: الخلط. واستعير هنا لشدّة المجاورة والقرينة قوله تعالى {وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً}.

البحر: الماء المستبحر، أي: الكثير العظيم.

العذاب: الحلو. و**الفرات**: شديد الحلاوة.

المِلح: وصف للماء بمعنى المالح، ولا يقال في الفصيح إلّا ملح وأمّا مالح فقليل.

وأريد هنا ملتقى ماء نهري الفرات والدجلة مع ماء بحر خليج العجم.

البرزخ: الحائل بين شيئين. والمراد بالبرزخ تشبيه ما في تركيب الماء الملح ممّا يدفع تخلل الماء العذب فيه بحيث لا يخلط أحدهما بالآخر ويبقى كلاهما حافظا لطعمه عند المصب.

{ حِجْراً } مصدر منصوب على المفعولية به لأنّه معطوف على مفعول { جَعَلَ }. وليس هنا مستعملا في التعوّذ كالذي تقدّم آنفا في قوله تعالى { وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً } [22] .

{ مَحْجُوراً } وصف لـ { حِجْراً } مشتق من مادته للدلالة على تمكّن المعنى كما قالوا: ليل أليل.

{ **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً** } [54].

استدلال بدقيق آثار القدرة في تكوين المياه وجعلها سبب حياة مختلفة الأشكال والأوضاع. ومن أعظمها دقائق الماء الذي خُلق منه أشرف الأنواع التي على الأرض وهو نطفة الإنسان، بأنّها سبب تكوين النسل للبشر، فإنّه يكون أوّل أمره ماء ثم يتخلّق منه البشر العظيم، فالتنوين في قوله تعالى { بَشَراً } للتعظيم.

والقصر المستفاد من تعريف الجزئين قصر إفراد لإبطال دعوى شركة الأصنام لله في الإلهية.

البشر: الإنسان. وقد تقدّم في قوله تعالى { فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً } [مريم:17].

{ **فَجَعَلَهُ** } الضمير المنصوب عائد إلى البشر، أي: فجعل البشر الذي خلقه من الماء نسبا وصهرا.

{ **نَسَباً وَصِهْراً** } مصدران سُمّي بهما صنفان من القرابة على تقدير: ذا نسب وصهر، وشاع ذلك في الكلام.

النسب: لا يخلو من أبوَّة وبنوَّة وأخوّة لأولئك، وبنوَّة لتلك الأخوَّة.

الصهر: اسم لما بين المرء وبين قرابة زوجه وأقاربه من العلاقة، ويُسمَّى أيضا **مصاهرة**، لأنّه يكون من جهتين، وهو آصرة اعتبارية تتقوّم بالإضافة إلى ما تضاف إليه، فصهر الرجل قرابة امرأته، وصهر المرأة قرابة زوجها. والأكثر أن يُخصّ بقريب زوج الرجل، وأمّا قريب زوج المرأة فهو خَتَن لها أو حَمٌ.

وذلك أصل نظام الاجتماع البشري لتكوين القبائل والشعوب وتعاونهم ممّا جاء بهذه الحضارة المرتقية. قال تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا } [الحجرات:13].

{ **وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً** } إشارة إلى ما في هذا الخلق العجيب من دقائق نظام إيجادٍ طبيعي واجتماعي، أي: عظيم القدرة إذ أوجد من هذا الماء خلقا عظيما صاحب عقل وتفكير.

وفي التركيب من دقيق الإيذان بأنّ قدرته راسخة واجبة له متّصف بها في الأزل بما اقتضاه فعل {كَانَ}، وما في صيغة { قَدِير } من الدلالة على قوّة القدرة المقتضية تمام الإرادة والعلم.

{ **وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً** } [55].

عَوْدٌ إلى حكاية شيء من أحوال مشركي مكّة، و(الواو) للحال. وهذا مستعمل في التعجيب من استمرارهم في الشرك بمناسبة ما وقع ذكره في الآيات السابقة من إلطافه بهم في تصاريف الكائنات إذ جعل لهم الليل والنهار، وخلق لهم الماء فأنبت به الزرع وسقى به الناس والأنعام، مع ما قارنه من دلائل القدرة.

{ **وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ** } المضارع للدلالة على تجدّد عبادتهم الأصنام وعدم إجداء الدلائل في جانبهم.

{ **مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ** } للتنبيه على انتفاء شبهة عبدة الأصنام في شركهم، لأنّ موجب العبادة إمّا رجاء النفع وإمّا اتّقاء ضرّ المعبود، وكلاهما منتف عن الأصنام بالمشاهدة.

{ **وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً** } تذييل لما قبله، فاللام في تعريف { الْكَافِرُ } للاستغراق.

{ كَانَ } للدلالة على أنّ اتصاف الكافر بالخبر أمر متقرّر معتاد من كلّ كافر.
الظهير: المظاهر، أي: المعين، وتقدّم في قوله تعالى { وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً } [الإسراء:88]، وهو فعيل بمعنى مفاعل، أي: مظاهر، وعوين بمعنى معاون. جُعل المشرك في إشراكه، مع وضوح دلالة عدم استئهال الأصنام للإلهية، كأنّه ينصر الأصنام على ربّه الحقّ.

{ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً [56] قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً [57] }.

لمّا أفضى الكلام بأفانين انتقالاته إلى التعجيب من استمرارهم على أن يعبدوا ما لا يضرّهم ولا ينفعهم أُعقِب بما يومئ إلى استمرارهم على تكذيبهم محمد صلى الله عليه وسلم في دعوى الرسالة بنسبة ما بلَّغه إليهم إلى الإفك، وأنّه أساطير الأولين، وأنّه سحر، فأُبطلت دعاويهم كلّها بوصف النبيّ بأنّه مرسل من الله، وقصره على صفتي التبشير والنذارة. والكلام جامع بين إبطال إنكارهم لرسالته وبين تأنيس الرسول عليه الصلاة والسلام. وفيه تعريض بأن لا يحزن لتكذيبهم إيّاه.
ثم أمره بأن يخاطبهم بأنّه غير طامع من دعوتهم في أن يعتزّ باتباعهم إيّاه حتّى يحسبوا أنّهم إن أعرضوا عنه فقد بلغوا من النكاية به أملهم، بل ما عليه إلّا التبليغ بالتبشير والنذارة لفائدتهم لا يريد منهم الجزاء.
الأجر: العوض على العمل ولو بعمل آخر يقصد به الجزاء.
{ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا } الاستثناء تأكيد لنفي أن يكون يسألهم أجرا لأنّه استثناء من أحوال عامة محذوف ما يدل عليها لقصد التعميم. فالكلام على حذف مضاف يناسب { أَجْرٍ }، إذ التقدير: إلّا عمل من شاء أن يتّخذ إلى ربّه سبيلا، وذلك هو اتباع دين الإسلام.
وقد يُسمُّون هذا الاستثناء الاستثناء المنقطع، ويقدّرونه كالاستدراك.
السبيل: الطريق. واتخاذ السبيل تقدّم آنفا في قوله { لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا } [27]. وجُعل السبيل هنا إلى الله، لأنه وسيلة إلى إجابته فيما دعاهم إليه، كقوله تعلى { فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً } [النبأ:39].

{ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً } [58].
عطف على جملة { قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ } [57]، أي: قل لهم ذلك وتوكّل على الله في دعوتك إلى الدين فهو الذي يجازيك على ذلك ويجازيهم.
التوكّل: الاعتماد وإسلام الأمور إلى المتوكَّل عليه، وهو الوكيل، أي: المتولّي مَهمّات غيره، وتقدّم في قوله تعالى { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ } [آل عمران:159].

{ **الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ** } هو الله تعالى. وعُدل عن اسم الجلالة إلى هذين الوصفين لما يؤذن به من تعليل الأمر بالتوكّل عليه لأنّه الدائم فيفيد ذلك معنى حصر التوكّل عليه.

{ **الْحَيِّ** } التعريف للكامل، أي: الكامل حياته لأنّها واجبة باقية مستمرّة وحياة غيره معرضة للزوال بالموت ومعرّضة لاختلال أثرها بالذهول كالنوم ونحوه، فإنّه من جنس الموت.

وفي ذكر الوصفين تعريض بالمشركين إذ ناطوا آمالهم بالأصنام وهي أموات غير أحياء.

{ **وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ** } أمره بتنزيه الله عمّا لا يليق به، وأوّل ذلك الشركة في الإلهية، أي: إذا أهمّك أمر إعراض المشركين عن دعوة الإسلام فعليك نفسك فنزّه الله.

{ **بِحَمْدِهِ** } الباء للمصاحبة، أي: سبّحه تسبيحا مصاحبا للثناء عليه بما هو أهله.

جمع له في هذا الأمر التخلية والتحلية مقدّما التخلية، لأنّ شأن الإصلاح أن يبدأ بإزالة النقص.

وأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم يشمل الأمّة ما لم يرد دليل على الخصوصيّة.

{ **وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً** } اعتراض في آخر الكلام فيفيد معنى التذييل لما فيه من الدلالة على عموم علمه تعالى بذنوب الخلق، ومن ذلك أحوال المشركين الذين هم غرض الكلام.

الكفاية: الإجزاء، وفي فعل { كَفَى } إفادة أنّه لا يحتاج إلى غيره، وهو مستعمل في الأمر بالاكتفاء بتفويض الأمر إليه.

{ **بِهِ** } الباء لتأكيد إسناد الفعل إلى الفاعل. وقد كثر دخول باء التأكيد بعد فعل الكفاية على فاعله أو مفعوله، وتقدّم في قوله تعالى { كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً } [الإسراء:14].

{ **بِذُنُوبِ عِبَادِهِ** } عمومان: عمومُ ذنوبهم كلّها، لإفادة الجمع المضاف عمومَ أفراد المضاف، وعمومُ الناس لإضافة (عباد) إلى ضمير الجلالة، أي: جميع عباده.

{ **خَبِيراً** } شدّة العلم، وهو يستلزم العموم فكان كعموم ثالث. والعلم بالذنوب كناية عن لازمه وهو أن يجازيهم عن ذنوبهم، والشرك جامع الذنوب. وفي الكلام تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم على ما يلاقيه.

{ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً } [59].

أجريت هذه الصلة وصفا ثانيا لـ { الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ } [58] لاقتضائها سعة العلم وسعة القدرة وعظيم المجد، فصاحبها حقيق بأن يُتوكّل عليه ويُفوّض أمر الجزاء إليه. وهذا تخلّص إلى العود إلى الاستدلال على تصرّف الله تعالى بالخلق.

{ **فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ** } تقدم الكلام حولها في [البقرة:29]، وفي [الأعراف:54].

{ **الرَّحْمانِ** } خبر مبتدأ محذوف، أي: هو الرحمان. وهذا من حذف المسند إليه الغالب في الاستعمال

عندما تتقدّم أخبار أو أوصاف لصاحبها، ثم يراد الإخبار عنه بما هو إفصاح عن وصف جامع لما مضى أو أهم في الغرض ممّا تقدّمه، فإنّ وصف الرحمان أهمّ في الغرض المسوق له الكلام.

{ **فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً** } تفريع للدلالة على أنّ في رحمته من العظمة والشمول ما لا يحيط به الوصف فيُسأل عنها من علمها وجرّبها.

{ **خَبِيراً** } التنكير للدلالة على العموم، لأنّ النكرة إذا تعلّق بها فعل اقتضت عموما.

وهذا يجري مجرى المثل، ولعله من مبتكرات القرآن نظير قول العرب (على الخبير سقطت).

ويجوز أن تكون الباء متعلقة بـ { خَبِيراً } وتقديم المجرور للرعي على الفاصلة وللاهتمام، فله سببان.

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً } [60].

لمّا جرى وصف الله تعالى بالرحمان مع صفات أخر استطرد ذكر كفر المشركين بهذا الوصف. وقد علمتَ عند الكلام على البسملة في أوّل هذا التفسير أنّ وصف الله تعالى باسم (الرحمان) هو من وضع القرآن ولم يكن معهودا للعرب، ولذلك لمّا سمعوه من القرآن أنكروه قصدا بالتورُّك على النبيّ صلى الله عليه وسلم وليس ذلك عن جهل بمدلول هذا الوصف.

والخبر مستعمل كناية في التعجيب من عنادهم وبهتانهم وليس المقصود إفادة الإخبار عنهم بذلك لأنّه أمر معلوم من شأنهم.

{ **اسْجُدُوا** } السجود الذي أمروا به سجود الاعتراف له بالوحدانية وهو شعار الإسلام، ولم يكن السجود من عبادتهم وإنّما كانوا يطوفون بالأصنام، وأمّا سجود الصلاة التي هي من قواعد الإسلام فليس مرادا هنا إذ لم يكونوا ممن يؤمر بالصلاة ولا فائدة في تكليفهم بها قبل أن يسلموا. ويدلّ لذلك حديث معاذ بن جبل حين أرسله النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى اليمن فأمره أن يدعوهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمدا رسول الله، ثم قال: **" فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أنّ الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة ... "**. <u>ومسألة تكليف الكفار بفروع الشريعة لا طائل تحتها.</u>

{ **قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ** } استفهام مستعمل في الاستغراب، يعنون تجاهل هذا الاسم.

{ **أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا** } إنكار وامتناع، أي: لا نسجد لشيء تأمرنا بالسجود له. ومقصدهم من ذلك إباء السجود لله، لأنّ السجود الذي أمروا به سجود لله بنية افراد الله بالعبادة والتوجّه، وهم لا يجيبون إلى ذلك كما قال الله تعالى { وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ } [القلم:43]، أي: فيأبون.

{ **وَزَادَهُمْ نُفُوراً** } فالنفور من السجود سابق قبل سماع اسم الرحمان.

النفور: الفرار من الشيء. وأطلق هنا على لازمه وهو البعد. وإسناد زيادة النفور إلى القول { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ } لأنّه سبب تلك الزيادة، فهم كانوا أصحاب نفور من سجود لله فلمّا أمروا بالسجود للرحمان زادوا بعدا من الإيمان، وهذا كقوله تعالى { فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائي إِلَّا فِرَاراً } [نوح:6].

والآية موضع سجدة من سجود القرآن بالاتفاق. ووجه السجود هنا إظهار مخالفة المشركين إذ أبوا السجود للرحمان، فلمّا حُكي إباؤهم من السجود للرحمان في معرض التعجيب من شأنهم عُزّز ذلك بالعمل بخلافهم فسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم هنا.

{ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً } [61].

استئناف ابتدائي جُعل تمهيدا لقوله تعالى { وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ }، التي هي محصول الدعامة الثالثة من الدعائم الثلاث التي أقيم عليها بناء هذه السورة، وافتُتحت كل دعامة منها بـ قوله تعالى { تَبَارَكَ الَّذِي }.

{ **تَبَارَكَ** } ثناء على الله بالبركة والخير لما جعله للخلق من المنافع. وتقدّم المعنى في أوّل السورة وفي قوله تعالى { تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } [الأعراف:54].

البروج: منازل مرور الشمس فيما يرى الراصدون. وتقدّم الكلام عليها عند قوله تعالى { وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً } [الحجر:16]. والامتنان بها لأنّ الناس يوقّتون بها أزمانهم.

{ **سِرَاجاً** } قرأ الجمهور بصيغة المفرد. و**السراج**: الشمس كقوله تعالى { وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً } [نوح:16] ومناسبة ذلك لما يرد بعده من قوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً } [62].

وقرأ حمزة والكسائي { **سُرُجاً** } - بضم السين والراء - جمع سراج، فيشمل مع الشمس النجوم، فيكون امتنانا بحسن منظرها للناس كقوله تعالى { وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ } [الملك:5].

والكلام جار على التشبيه البليغ لأنّ حقيقة السراج: المصباح زاهر الضياء. والمقصود: أنّه جعل الشمس مزيلة للظلمة كالسراج، أو خلق النجوم كالسراج في التلألؤ وحسن المنظر.

ودلالة خلق البروج والشمس والقمر على عظيم القدرة دلالة بيّنة للعاقل، وكذلك دلالته على دقيق الصنع ونظامه بحيث لا يختلّ ولا يختلف حتّى تسنّى للناس رصد أحوالها وإناطة حسابهم بها.

{ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّـهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً } [62].

استدلال بما في الليل والنهار من اختلاف الحال بين ظلمة ونور، وبرد وحر، وهذا مخالف للاستدلال الذي في قوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً } [47]، فهذه دلالة أخرى.

{ **وَهُوَ الَّذِي** } قصر حقيقي وليس إضافيا، فلذلك لا يراد به الردّ على المشركين بخلاف صيغ القصر السابقة من قوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً - إلى قوله - وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً } [45-47].

الخِلْفة: (بكسر الخاء وسكون اللام) اسم لما يَخْلف غيره في بعض ما يصلح له.

فالمعنى: جعل الليل خلفة والنهار خلفة: أي: كلّ واحد منهما خلفة عن الآخر.

{ **لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ** } اللام لام التعليل وهي متعلّقة بـ { جَعَلَ }، فأفاد ذلك أن هذا الجعل نافع من أراد أن

يذّكّر أو أراد شكورا.

التذكّر: تفعُّل من الذِّكر، أي: تكلّف الذكر. والذكر جاء في القرآن بمعنى التأمّل في أدلة الدين، وجاء بمعنى: تذكر فائت أو منسي، ويجمع المعنيين: استظهار ما احتجب عن الفكر.

الشُكور: مصدر مرادف الشكر، والشكر: عرفان إحسان المحسن. والمراد به هنا العبادة لأنّها شكر لله تعالى.

فتفيد الآية معنى: لينظر في اختلافهما المتفكّر فيعلم أن لابد لانتقالهما من حال إلى حال مؤثّر حكيم فيستدلّ بذلك على توحيد الخالق ويعلم أنّه عظيم القدرة فيوقن بأنّه لا يستحق غيره الإلهية، وليشكر الشاكر على ما في اختلاف الليل والنهار من نعم عظيمة منها ما ذكر في قوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً } [47]، فيكثر الشاكرون على اختلاف أحوالهم ومناسباتهم.

وتفيد معنى: ليتدارك الناسي ما فاته في الليل بسبب غلبة النوم أو التعب فيقضيه في النهار أو ما شغله عنه شواغل العمل في النهار فيقضيه بالليل عند التفرّغ فلا يرزؤه [يحرمه] ذلك ثواب أعماله.

روي أنّ عمر بن الخطاب أطال صلاة الضحى يوما فقيل له: صنعت شيئا لم تكن تصنعه ؟ فقال: إنّه بقي عليَّ من وردي شيء فأحببت أن أقضيه، وتلا قوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً }.

وتفيد معنى: لمن أراد أن يتقرّب إلى الله شكرا له بصلاة أو صيام فيكون الليل أسعد ببعض ذلك والنهار أسعد ببعض. فهذا مفاد عظيم في إيجاز بديع.

{ **أَنْ يَذَّكَّرَ** } المضارع للدلالة على التجدّد.

{ **شُكُوراً** } اقتصر في جانب الشاكرين على المصدر لأنّ الشكر يحصل دفعة.

{ **لِمَنْ أَرَادَ - أَوْ أَرَادَ** } أعيد الفعل لأجل الاختلاف بين النظمين، إذ لا يلتئم عطف قوله تعالى { شُكُوراً } على قوله تعالى { أَنْ يَذَّكَّرَ }.

{ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً } [63].

بمناسبة ذكر { لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً } تخلّص إلى خصال المؤمنين أتباع النبيّ صلى الله عليه وسلم حتّى تستكمل السورة أغراض التنويه بالقرآن، ومن جاء به، ومن اتبعوه، كما أشرنا إليه في الإلمام بأهم أغراضها في طالعة تفسيرها. وهذا من أبدع التخلّص.

{ **عِبَادُ الرَّحْمَنِ** } المراد بادئ ذي بدء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالصلات الثمان التي وصفوا بها في هذه الآية حكاية لأوصافهم التي اختصّوا بها. وقد شرّفهم الله بأن جعل عنوانهم عباده، واختار لهم من الإضافة إلى اسمه اسم الرحمان لوقوع ذكرهم بعد ذكر الفريق الذين قيل لهم { اسْجُدُوا

لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ } [60].

وإذ قد أجريت عليهم تلك الصفات في مقام الثناء والوعد بجزاء الجنّة، عُلم أنّ من اتّصف بتلك الصفات موعود بمثل ذلك الجزاء.

وفي الإطناب بصفاتهم الطيّبة تعريض بأنّ الذين أبوا السجود للرحمان، وزادهم نفورا، هم على الضدّ من تلك المحامد، تعريضًا تُشعر به إضافة { عِبَادُ } إلى { الرَّحْمَنِ }.

واعلم أنّ هذه **الصلات** التي أجريت على { عِبَادُ الرَّحْمَنِ } جاءت على أربعة أقسام:

*/ قسم هو من التحلّي بالكمالات الدينية: وهي التي ابتدئ بها من قوله تعالى { الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً - إلى قوله – سَلاماً } [63].

*/ قسم هو من التخلّي عن ضلالات أهل الشرك: وهو من قوله { وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ } [68].

*/ قسم هو من الاستقامة على شرائع الإسلام: وهو قوله تعالى { وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً } [64]، وقوله تعالى { وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا } [67]، وقوله تعالى { وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ - إلى قوله - لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ } [68 - 72].

*/ قسم من تطلّب الزيادة من صلاح الحال في هذه الحياة: وهو قوله تعالى { وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا - إلى قوله - لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً } [74].

{ **يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً** } الظاهر أنّه مدح لمشية بالأرجل، وهو الذي حمل عليه جمهور المفسّرين.

وجوَّز الزجاج أن يكون قوله { يَمْشُونَ } عبارة عن تصرَّفاتهم في معاشرة الناس، فعُبّر عن ذلك بالانتقال في الأرض وتبعه ابن عطية وهذا الذي ذكره مأخوذ ممّا روي عن زيد بن أسلم كما سيأتي.

الهون: اللين والرفق. ووقع هنا صفة لمصدر المشي محذوف تقديره: (مشياً).

المشي الهون: هو الذي ليس فيه ضرب بالأقدام وخفق النعال، فهو مخالف لمشي المتجبّرين المعجبين بنفوسهم وقوّتهم. وهذا الهون ناشئ عن التواضع لله تعالى والتخلّق بآداب النفس العالية وزوال بطر أهل الجاهلية، فكانت هذه المشية من خِلال الذين آمنوا.

عن عمر بن الخطاب أنه رأى غلاما يتبختر في مِشيته فقال له " إنّ البَخْتَرة مِشية تُكره إلّا في سبيل الله ". وحكى الله تعالى عن لقمان قوله لابنه { وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً } [لقمان:18].

والتخلّق بهذا الخلق مظهر من مظاهر التخلّق بالرحمة المناسب لعباد الرحمان.

وعن زيد بن أسلم قال: كنت أسأل عن تفسير قوله تعالى { الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً } فما وجدت في ذلك شفاء فرأيت في المنام من جاءني فقال لي: " هم الذين لا يريدون أن يفسدوا في الأرض ".

فهذا رأي لزيد بن أسلم أُلْهِمه يجعل معنى { يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ } مستعار لفعل الخير، لأنّه هون على الناس، كما يُسمّى بالمعروف.

{ **وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً** } قُرن وصفهم بالتواضع في سمتهم (المشي على الأرض هونا) بوصف آخر يناسب التواضع وكراهية التطاول، وهو متاركة الذين يجهلون عليهم في الخطاب بالأذى والشتم وهؤلاء الجاهلون يومئذ هم المشركون، إذ كانوا يتعرّضون للمسلمين بالأذى والشتم فعلّمهم الله متاركتهم.

{ **الْجَاهِلُونَ** } الجهل هنا ضدّ الحلم، وذلك أشهر إطلاقاته عند العرب قبل الإسلام. وذكرهم بصفة الجاهلين دون غيرها، مما هو أشدّ مذمة مثل الكافرين، لأنّ هذا الوصف يُشعر بأنّ الخطاب الصادر منهم خطاب الجهالة والجفوة.

{ **قَالُوا سَلاماً** } السلام يجوز أن يكون مصدرا بمعنى السلامة، أي: لا خير بيننا ولا شر فنحن مُسْلَمون منكم. ويجوز أن يكون مرادا به لفظ التحيّة، فيكون مستعملا في لازمه وهو **المتاركة**.

{ **وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً** } [64]

عطف صفة أخرى على صفتيهم السابقتين. وإعادة الموصول لتأكيد أنّهم يُعرفون بهذه الصلة، والظاهر أنّ هذه الموصولات وصلاتها كلّها أخبار أو أوصاف لعباد الرحمان.

روي عن الحسن البصري أنّه كان إذا قرأ { الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً } قال: هذا وصف نهارهم، ثمّ إذا قرأ { وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً } قال: هذا وصف ليلهم.

القيام: جمع قائم كالصِحاب، والسجود والقيام رُكنا الصلاة. فالمعنى: يبتون يصلّون، فوقع إطناب في التعبير عن الصلاة بركنيها تنويها بكليهما.

وتقديم { سُجَّداً } على { قِيَاماً } للرعي على الفاصلة، مع الإشارة إلى الاهتمام بالسجود، وهو ما يبيّنه النبيّ صلى الله عليه وسلم بقوله: **" أقرب ما يكون العبد من ربّه وهو ساجد "**. وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيري التهجّد، كما أثنى الله عليهم بذلك بقوله { تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ } [السجدة:16].

{ **وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً** [65] **إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً** [66] }.

دعاؤهم هذا أمارة على شدّة مخافتهم الذنوب فهم يسعون في مرضاة ربّهم لينجوا من العذاب.

{ **اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ** } المراد: إنجاؤهم منه بتيسير العمل الصالح وتوفيره واجتناب السيّئات.

{ **إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً** } يجوز أن تكون حكاية من كلام القائلين. ويجوز أن تكون من كلام الله تعالى معترضة بين اسمي الموصول، وعلى كلّ فهي تعليل لسؤال صرف عذابها عنهم.

الغرام: الهلاك المُلِحّ الدائم، وغلب إطلاقه على الشرّ المستمر.

{ **إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً** } يجوز أن تكون حكاية لكلام القائلين فتكون تعليلا ثانيا مؤكّدا لتعليلهم الأول، ويجوز أن تكون من جانب الله تعالى دون التي قبلها فتكون تأييدا لتعليل القائلين، ويجوز أن تكون من كلام الله مع التي قبلها فتكون تكريرا للاعتراض.

المستقرّ: مكان الاستقرار. والاستقرار: قوّة القرار. **المقام**: اسم مكان الإقامة.

أي: ساءت موضعا لمن يستقرّ فيها بدون إقامة مثل عصاة أهل الأديان، ولمن يقيم فيها من المكذّبين للرسل.

{ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً } [67].

{ **إِذَا أَنْفَقُوا** } أفاد أنّ الإنفاق من خصالهم. وأريد بالإنفاق هنا الإنفاق غير الواجب وذلك إنفاق المرء على أهل بيته وأصحابه، لأنّ الإنفاق الواجب لا يذمّ الإسراف فيه، والإنفاق الحرام لا يحمد مطلقا.

الإسراف: تجاوز الحدّ الذي يقتضيه الإنفاق بحسب حال المنفِق وحال المنفَق عليه. وتقدّم في قوله تعالى { وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً } [النساء:6]، وقوله تعالى { وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ } [الأنعام:141].

الإقتار - القَتْر: عكس الإسراف. الإحجاف والنقص ممّا تسعه الثروة ويقتضيه حال المنفَق عليه.

وكان أهل الجاهلية يسرفون في النفقة في اللذّات ويفتخرون بإتلاف المال ليتحدّث الناس عنهم، ويقترون على المساكين والضعفاء لأنّهم لا يسمعون ثناء الناس في ذلك. وقد تقدّم عند قوله تعالى { كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ } [البقرة:180].

{ **بَيْنَ ذَلِكَ** } أي: بين الإسراف والإقتار.

القَوام: (بفتح القاف) العدل والقصد بين الطرفين.

وفيها إشعار بمدح { بَيْنَ ذَلِكَ } بأنّه الصواب الذي لا عوج فيه. وقد جرت الآية على مراعاة الأحوال الغالبة في إنفاق الناس. قال القرطبي: والقوام في كل واحد بحسب عياله وحاله، ولهذا ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق يتصدّق بجميع ماله ومنع غيره من ذلك.

{ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً [68] يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً [69] }.

هذا قسم آخر من صفات عباد الرحمان وهو قسم التخلّي عن المفاسد التي كانت ملازمة لقومهم من المشركين، فتنزّه عباد الرحمان عنها بسبب إيمانهم.

{ **وَالَّذِينَ** } جُمع التخلّي عن هذه الجرائم الثلاث في صلة موصول واحد ولم يكرّر اسم الموصول كما

كُرّر في ذكر خصال تحلّيهم، للإشارة إلى أنّهم لمّا أقلعوا عن الشرك ولم يدعوا مع الله إلها آخر فقد أقلعوا عن أشدّ القبائح لصوقا بالشرك وذلك قتل النفس والزنى. فجلّ ذلك شبيه خصلة واحدة.

وقد يكون تكرير { **لَا** } مجزئا عن إعادة اسم الموصول وكافيا في الدلالة على أنّ كل خصلة من هذه الخصال موجبة لمضاعفة العذاب، ويؤيّده ما في صحيح مسلم من حديث عبد الله ابن مسعود قال: قلت يا رسول الله أي الذنب أكبر؟: قال: **أن تدعوَ لله ندا وهو خلقك.** قلت: ثم أي؟ قال: **أن تقتل ولدك خيفة أن يَطْعَمَ معك.** قلت: ثم أي؟ قال: **أن تزاني حليلة جارك.** فأنزل الله تعالى تصديقا { وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ - إلى - أَثَاماً }، (وفي رواية ابن عطية: ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية).

{ **الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ** } بيان لحرمة النفس التي تقرّرت من عهد آدم. وكان قتل النفس متفشّيا في العرب بالعداوات والغارات وبالوأد في كثير من القبائل، وبالقتل لفرط الغيرة.

{ **إِلَّا بِالْحَقِّ** } المراد به يومئذ: قتل قاتل أحدهم، وهو تهيئة لمشروعية الجهاد عقب مدّة نزول هذه السورة. ولم يكن بيد المسلمين يومئذ سلطان لإقامة القصاص والحدود.

{ **وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً** } الإشارة إلى ما ذكر من الكبائر، والمتبادر من الإشارة أنّها إلى المجموع، أي: من يفعل مجموع الثلاث. ويُعلم أن جزاء من يفعل بعضها ويترك بعضا، عدا الإشراك، دون جزاء من يفعل جميعها، وأنّ البعض أيضا مراتب.

الأثام: (بفتح الهمزة) جزاء الإثم على زنة الوبال والنكال، وهو أشد من الإثم، أي: يجازى على ذلك سوءا لأنّها آثام.

{ **يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً** }

<u>يجوز أن يكون</u> المراد من مضاعفة العذاب أن يُعذّب على كل جرم ممّا ذكر عذابا مناسبا ولا يكتفي بالعذاب الأكبر عن أكبر الجرائم، وهو الشرك، تنبيها على أنّ الشرك لا ينجي صاحبه من تبعة ما يقترفه من الجرائم والمفاسد، وذلك أنّ دعوة الإسلام للناس جاءت بالإقلاع عن الشرك وعن المفاسد كلّها. وهذا معنى قول من قال من العلماء بأنّ الكفار مخاطبون بفروع الشريعة، يعنون خطاب المؤاخذة على ما نهوا عن ارتكابه، وليس المراد أنّهم يطلب منهم العمل، إذ لا تقبل منهم الصالحات بدون الإيمان، ولذلك رام بعض أهل الأصول تخصيص الخلاف بخطاب التكليف.

<u>ويجوز أن تكون</u> مضاعفة العذاب مستعملة في معنى قوّته، أي: يُعذّب عذابا شديدا وليست لتكرير عذاب مقدّر.

{ **وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً** } الخلود في العذاب اقتضاه الإشراك. فقد نهضت أدلة متظافرة من الكتاب والسنة على أنّ ما عدا الكفر من المعاصي لا يوجب الخلود.

{ **مُهَاناً** } حال قُصد منها تشنيع حالهم في الآخرة، أي: يعذّب ويهان إهانة زائدة على إهانة التعذيب.

{ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً } [70].

الاستثناء من العموم الذي أفادته { مَنْ } الشرطية في قوله تعالى { وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ }. وهذا تطمين لنفوس فريق من المؤمنين الذين قد كانوا تلبّسوا بخصال أهل الشرك ثم تابوا عنها بسبب الإيمان.

وفي صحيح مسلم: عن ابن عباس أنّ ناسا من أهل الشرك قَتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا، فأتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقالوا: إنّ الذي تقول وتدعوا إليه لحسن لو تخبرنا أنَّ لِما عملنا كفّارةً فنزلت { وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ }.

<u>المعنى</u>: أنّه يُعفى عنه من عذاب الذنوب التي تاب منها، ولا يخطر بالبال أنّه يُعذب عذابا غير مضاعف وغير مخلد فيه، لأن ذلك ليس من مجاري الاستعمال العربي بل الأصل في ارتفاع الشيء المقيّد أن يقصد منه رفعه بأسره لا رفع قيوده إلّا بقرينة.

التوبة: الإقلاع عن الذنب، والندم على ما فرط، والعزم على ألّا يعود إلى الذنب، وإذ كان فيما سبق ذكر الشرك فالتوبة هنا التلبّس بالإيمان، والإيمان بعد الكفر يوجب عدم المؤاخذة بكلّ ما اقترفه المشرك في مدة شركه كما في الحديث: **" الإسلام يَجُبَّ ما قبله "**.

{ وَآمَنَ } عُطف على { مَنْ تَابَ } للتنويه بالإيمان، وليُبنى عليه قوله تعالى **{ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً }**، وهو شرائع الإسلام، تحريضا على { عَمَلاً صَالِحاً }، وإيماء إلى أنّه لا يعتدّ به إلّا مع الإيمان، كما في قوله تعالى { ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا } [سورة البلد:17]، وقال في عكسه { وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً } [النور:39].

{ فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ } كلام مسوق لبيان فضل التوبة المذكورة التي هي الإيمان بعد الشرك.

التبديل: جعل شيء بدلا عن شيء آخر، وتقدّم عند قوله { ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ } [الأعراف:95]. أي: يجعل الله لهم حسنات كثيرة عوضا عن تلك السيئات التي اقترفوها قبل التوبة، وهذا لفضل الإيمان بالنسبة للشرك ولفضل التوبة بالنسبة للآثام الصادرة من المسلمين.

{ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً } لم تتعرّض الآية لمقدار الثواب، ولذلك جاء هذا التعقيب المقتضي أنّه عظيم المغفرة.

{ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً } [71].

إذا وقع الإخبار عن شيء أو توصيفٌ له أو حالةٌ منه بمرادف لما سبق مثله في المعنى دون زيادة تعيَّن أن يكون الخبر الثاني مستعملا في شيء من لوازم معنى الإخبار يبيّنه المقام، كقول النبيّ صلى الله عليه

وسلم: **" من رآني في المنام فقد رآني "**.

فيجوز أن يكون المقصود هو قوله تعالى { إِلَى اللَّهِ }، فيكون كناية عن عظيم ثوابه.

ويجوز أن يكون المقصود ما في المضارع من الدلالة على التجدّد، أي: فإنّه يستمرّ على توبته ولا يرتدّ على عقبيه، فيكون وعدا من الله تعالى أن يثبّته على القول الثابت إذا كان قد تاب وأيّد توبته بالعمل الصالح.

ويجوز أن يكون المقصود ما للمفعول المطلق من معنى التأكيد، أي: من تاب وعمل صالحا فإنّ توبته هي التوبة الكاملة الخالصة لله على حد قول النبي صلى الله عليه وسلم: **" إنّما الأعمال بالنيّات وإنّما لكلّ امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه "**.

{ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً } [72].

أتبع خصال المؤمنين الثلاث التي هي قوام الإيمان بخصال أخرى من خصالهم هي من كمال الإيمان، والتخلّق بفضائله، ومجانبة أحوال أهل الشرك.

{ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ } فعل (شهد) يُستعمل بمعنى (حضر) وهو أصل إطلاقه كقوله تعالى { فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ } [البقرة:185]، ويستعمل بمعنى (أخبر) عن شيء شهده وعلمه كقوله تعالى { وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا } [يوسف:26].

الزور: الباطل من قول أو فعل وقد غلب على الكذب. وقد تقدّم في أوّل السورة.

فيجوز أن يكون معنى الآية: أنّهم لا يحضرون محاضر الباطل التي كان يحضرها المشركون، وهي مجالس اللهو والغناء والغيبة ونحوها، وكذلك أعياد المشركين وألعابهم. وهذا ثناء على المؤمنين بمقاطعة المشركين وتجنّبهم. وفي معنى هذه الآية قوله تعالى { وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } [الأنعام:68].

ويجوز أن يكون فعل { يَشْهَدُونَ } بمعنى الإخبار عمّا علموه ويكون الزور منصوبا على نزع الخافض، أي: لا يشهدون بالزور، أو مفعولا مطلقا لبيان نوع الشهادة، أي: لا يشهدون شهادة هي زور.

{ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً } مناسب لكلا المعنيين.

اللغو: الكلام العبث والسفه الذي لا خير فيه. وتقدّم في قوله تعالى { لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً } [مريم:62].

أي: المرور بأصحابه اللاغين في حال لغوهم، فجعل المرور بنفس اللغو للإشارة إلى أنّ أصحاب اللغو متلبّسون به وقت المرور.

{ مَرُّوا كِرَاماً } أنّهم يمرّون وهم في حال كرامة، أي: غير متلبّسين بالمشاركة فيه.

الكرامة: النزاهة ومحاسن الخِلال، وضدّها اللؤم والسفالة. وأصل الكرامة أنّها نفاسة الشيء في نوعه، قال تعالى { أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ } [الشعراء:7]. وقال تعالى { وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً } [الأحزاب:44]. وهذا ثناء على المؤمنين بترفّعهم على ما كانوا عليه في الجاهلية، كقوله تعالى { وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً } [الأنعام:70]، وقوله تعالى { وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ } [القصص:55].

{ **مَرُّوا** } إعادة الفعل لبناء الحال عليه، وذلك من محاسن الاستعمال، ومنه قوله تعالى { رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا } [القصص:63].

{ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً } [73].

أريد تمييز المؤمنين والثناء عليهم مع التعريض بتفظيع حال المشركين، فإنّ المشركين إذا ذكّروا بآيات الله خرّوا صمًّا وعميانا. كحال من لا يحب أن يرى شيئا فيجعل وجهه على الأرض، فاستعير الخرور لشدّة الكراهية والتباعد. ومنه استعارة القعود للتخلّف عن القتال، وفي عكس ذلك يستعار الإقبال والتلقّي والقيام للاهتمام بالأمر والعناية به.

وقريب من هذا المعنى قوله تعالى { وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً } [نوح:7].

ويجوز أن يكون الخرور واقعا منهم حقيقة، بطأطأة الرؤوس عندما يدعوهم الرسول صلى الله عليه وسلم لأنّهم يكونون جلوسا في نواديهم. وتقدّم الخرور الحقيقي في قوله تعالى { يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً } [الإسراء:107]، وقوله تعالى { فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ } [النحل:26]، وقوله تعالى { وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً } [الأعراف:143].

{ **صُمّاً وَعُمْيَاناً** } حالان من ضمير { يَخِرُّوا }، أي: يخرّون كالصمّ والعميان في عدم الانتفاع بالمسموع من الآيات والمبصر منها ممّا يذكّرون به.

{ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً } [74]

هذه صفة ثالثة للمؤمنين بأنّهم يُعْنَون بانتشار الإسلام وتكثير أتباعه فيدعون الله أن يرزقهم أزواجا وذرّيّات تقرّ بهم أعينهم، فالأزواج يطعنهم باتباع الإسلام وشرائعه، فقد كان بعض أزواج المسلمين مخالفات أزواجهم في الدين، والذرّيّات إذا نشأوا نشأوا مؤمنين، وقد جُمع ذلك لهم في صفة **{قُرَّةَ أَعْيُنٍ}**. فإنّها جامعة للكمال في الدين واستقامة الأحوال في الحياة إذ لا تقر عيون المؤمنين إلّا بأزواج وأبناء مؤمنين.

وقد نهى الله المسلمين عن إبقاء النساء الكوافر في العصمة بقوله تعالى { وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ } [الممتحنة:10]. فمن أجل ذلك جُعل دعاؤهم هذا من أسباب جزائهم بالجنة وإن كان فيها حظّ لنفوسهم

بقرّة أعينهم إذ لا يناكد حظّ النفس حظّ الدين في أعمالهم.

{ **وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً** } كما سألوا التوفيق والخير لأزواجهم وذرّيّاتهم سألوا لأنفسهم، بعد أن وفقهم الله إلى الإيمان، أن يجعلهم قدوة يقتدي بها المتّقون. وهذا يقتضي أنّهم يسألون لأنفسهم بلوغ الدرجات العظيمة من التقوى، فإنّ القدوة يجب أن يكون بالغا أقصى غاية العمل. وهذا يقتضي أيضا أنّهم يسألون أن يكونوا دعاة للدخول في الإسلام وأن يهتدي الناس إليه بواسطتهم.

الإمام: أصله المثال والقالب، وتقدّم في قوله تعالى { إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً } [البقرة:124].

{ **أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً** [75] **خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً** [76] }.

{ **أُولَئِكَ** } اسم الإشارة للتنبيه على أنّ ما يرد بعده كانوا أحرياء به لأجل ما ذكر قبله.

وتلك مجموع **إحدى عشرة خصلة** وهي: (التواضع / الحلم / التهجّد والخوف / ترك الإسراف / ترك الإقتار / التنزه عن الشرك / ترك الزنا / ترك قتل النفس / التوبة / ترك الكذب / قبول دعوة الحق / إظهار الاحتياج إلى الله بالدعاء).

{ **الْغُرْفَةَ** } البيت المعتلي يُصعد إليه بدرج، وهو أعز منزلا من البيت الأرضي، والتعريف في الغرفة تعريف الجنس فيستوي فيه المفرد والجمع. فالمعنى: يجزون الغرف، أي: من الجنّة، قال تعالى { وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ } [سبأ:37].

{ **بِمَا صَبَرُوا** } الباء للسببية، أي: بصبرهم، وهو صبرهم على ما لقوا من المشركين من أذى، وصبرهم على كبح شهواتهم لأجل إقامة شرائع الإسلام، وصبرهم على مشقة الطاعات.

اللُّقيُّ - اللقاء: استقبال شيء ومصادفته، وتقدّم في قوله تعالى { وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ } [البقرة:223]، وفي قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً } [الأنفال:15]، وتقدّم قريبا قوله تعالى { وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً } [68].

وقد استعير اللُّقي لسماع التحية والسلام، أي: أنّهم يسمعون ذلك في الجنّة، تحية إكرام وثناء.

التحيَّة: تقدّمت في قوله تعالى { وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ } [النساء:86]، وفي قوله تعالى { وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ } [يونس:10]، وقوله تعالى { تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً } [النور:61].

{ **حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً** } هو ضدّ ما قيل في المشركين { إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً } [66].

{ **قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً** } [77].

لمّا استوعبت السورة أغراض التنويه بالرسالة والقرآن، وما تضمّنته من توحيد الله، ومن صفة كبرياء

المعاندين وتعللاتهم، وأحوال المؤمنين، وأقيمت الحجج الدامغة للمعرضين، خُتمت بأمر الله رسوله عليه الصلاة والسلام أن يخاطب المشركين بكلمة جامعة يُزال بها غرورهم وإعجابهم بأنفسهم وحسبانهم أنّهم قد شفوا غليلهم من الرسول بالإعراض عن دعوته وتورّكهم في مجادلته، فبيّن لهم حقارتهم وأنّه ما بعث إليهم رسوله وخاطبهم بكتابه إلّا رحمة منه بهم لإصلاح حالهم وقطعا لعذرهم، فإذ كذّبوا فسوف يحلّ بهم العذاب.

{ **مَا يَعْبَأُ** } نافية. والتركيب يدلّ على التحقير، وضدّه (عبأ به) يفيد الحفاوة.

والمعنى: ما يبالي وما يهتم، وهو مضارع عبأ مثل: ملأ يملأ، مشتقّ من **العِبء** (بكسر العين) وهو الحِمْل (بكسر الحاء وسكون الميم)، أي: الشيء الثقيل الذي يُحمل على البعير.

{ **بِكُمْ** } الباء فيه للسببية، أي: بسببكم، وهو على حذف مضاف يدل عليه مقام الكلام. فالتقدير: ما يعبأ بخطابكم.

الدعاء: الدعوة إلى شيء، وهو هنا مضاف إلى مفعوله، والفاعل يدل عليه { رَبِّي }، أي: لولا دعاؤه إيّاكم، أي: لولا أنّه يدعوكم. وحذف متعلّق الدعاء لظهوره من قوله تعالى { فَقَدْ كَذَّبْتُمْ } ، أي: الداعي هو محمد صلى الله عليه وسلم، فتعين أنّ **الدعاء**: الدعوة إلى الإسلام.

والمعنى: أنّ الله لا يلحقه من ذلك انتفاع ولا اعتزاز بكم. وهذا كقوله تعالى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ } [الذاريات:57/56].

{ **دُعَاؤُكُمْ** } ضمير الخطاب موجّه إلى المشركين بدليل تفريغ { فَقَدْ كَذَّبْتُمْ } عليه، وهو تهديد لهم، أي: فقد كذّبتم الداعي وهو الرسول عليه الصلاة والسلام.

وهذا التفسير هو الذي يقتضيه المعنى، ويؤيّده قول مجاهد والكلبي والفراء. وقد فسّر بعض المفسّرين الدعاء بالعبادة فجعلوا الخطاب موجّها إلى المسلمين فترتّب على ذلك التفسير تكلّفات.

{ **فَقَدْ كَذَّبْتُمْ** } تفريع على قوله تعالى { لَوْلا دُعَاؤُكُمْ }، والتقدير: فقد دعاكم إلى الإسلام فكذّبتم.

{ **فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً** }، أي: سوف يكون تكذيبكم لزاما لكم، أي: لازما لا انفكاك لكم منه. وهذا تهديد بعواقب التكذيب، تهديدا مهولا بما فيه من الإبهام.

ودخل في هذا الوعيد ما يحلّ بهم في الدنيا من قتل وأسر وهزيمة، وما يحلّ بهم في الآخرة من العذاب.

اللزام: مصدر لازم، وقد صيغ على زنة المفاعلة لإفادة اللزوم، أي: عدم المفارقة، قال تعالى { وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً } [طه:129].

وعن ابن مسعود وأبي بن كعب: اللزام: عذاب يوم بدر. ومرادهما بذلك أنّه جزئي من جزئيات اللزام الموعود لهم. ولعلّ ذلك شاع حتّى صار اللزام كالعلم بالغلبة على يوم بدر.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الشعراء

اشتهرت عند السلف بـ (**سورة الشعراء**) لأنّها تفرّدت من بين سور القرآن بذكر كلمة الشعراء. وكذلك جاءت تسميتها في كتب السنّة. وتسمّى أيضا (**سورة طسم**).

وفي (أحكام القرآن) لابن العربي أنّها تُسمّى أيضا (**الجامعة**)، ونسبه أبن كثير والسيوطي في (الإتقان) إلى تفسير مالك المروي عنه [تفسير مالك بن أنس، ذكره عياض في (المدارك) والداودي في (طبقات المفسرين)]. ولم يظهر وجه وصفها بهذا الوصف. ولعلّها أوّل سورة جمعت ذكر الرسل أصحاب الشرائع المعلومة.

وهي مكّية، فقيل: جميعها مكّي، وهو المروي عن ابن الزبير. ورواية عن ابن عباس ونسبه ابن عطية إلى الجمهور. وروي عن ابن عباس أنّ قوله تعالى { وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ } [224] إلى آخر السورة نزل بالمدينة لذكر شعراء رسول الله صلى الله عليه وسلم (حسان بن ثابت - ابن رواحة - كعب بن مالك).

وعن الداني قال: نزلت { وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ } [224] في شاعرين تهاجيا في الجاهلية.

وعن مقاتل: أنّ قوله تعالى { أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرائيلَ }[197] نزل بالمدينة.

أقول: كان شعراء بمكّة يهجون النبيّ صلى الله عليه وسلم منهم النضر بن الحارث، والعوراء بنت حرب زوج أبي لهب ونحوهما، وهم المراد بآيات { وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ }. وكان شعراء المدينة قد أسلموا قبل الهجرة وكان في مكّة شعراء مسلمون من الذين هاجروا إلى الحبشة كما سيأتي.

<u>والذي نوقن به أنّ السورة كلها مكّيّة.</u>

وهي السورة **السابعة والأربعون في عداد نزول السور** نزلت بعد سورة الواقعة وقبل سورة النمل. وسيأتي في تفسير قوله تعالى { وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ } [214] ما يقتضي أنّ تلك الآية نزلت قبل نزول سورة أبي لهب.

وقد **جعل** أهل المدينة وأهل مكة وأهل البصرة **عدد آيها مائتين وستا وعشرين،** وجعله أهل الشام وأهل الكوفة مائتين وسبعا وعشرين.

أغراض السورة

*/ أوّلها التنويه بالقرآن، والتعريض بعجزهم عن معارضته.

*/ تسلية النبيّ صلى الله عليه وسلم على ما يلاقيه من إعراض قومه عن التوحيد الذي دعاهم إليه القرآن.

*/ وفي ضمنه تهديدهم على تعرّضهم لغضب الله تعالى، وضرب المثل لهم بما حلّ بالأمم المكذّبة رسلها والمعرضة عن آيات الله.

*/ وأحسب أنّها نزلت إثر طلب المشركين أن يأتيهم الرسول بخوارق، فافتتحت بتسلية النبي صلى الله عليه وسلم وتثبيت له وربطة لجأشه بأن ما يلاقيه من قومه هو سنّة الرسل من قبله مع أقوامهم مثل موسى وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب، ولذلك ختم كل استدلال جيء به على المشركين المكذّبين بتذييل واحد هو قوله { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ }، تسجيلا عليهم بأنّ آيات الوحدانية وصدق الرسل عديدة كافية لمن يتطلّب الحقّ ولكن أكثر المشركين لا يؤمنون، وأنّ الله عزيز قادر على أن يُنْزِل بهم العذاب، وأنّه رحيم برسله فناصرهم على أعدائهم.

*/ التنويه بالقرآن، وشهادة أهل الكتاب له، والردّ على مطاعنهم في القرآن وجعله عضين، وأنّه منزه عن أن يكون شعرا ومن أقوال الشياطين.

*/ أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بإنذار عشيرته، وأنّ الرسول ما عليه إلا البلاغ، وما تخلل ذلك من دلائل.

{ **طسم** } [1].

قد علمتَ في أّول سورة البقرة أنّها حروف للتهجّي واستقصاء في التحدّي يُعجزهم عن معرضة القرآن، وعليه تظهر مناسبة تعقيبه بقوله تعالى { تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ } [2].

والجمهور قرأوا { طسم } كلمة واحدة، وأدغموا النون من سين في الميم وقرأ حمزة بإظهار النون. وقرأ أبو جعفر حروفا مفكّكة، وقالوا: كذلك هي مرسومة في مصحف ابن مسعود حروفا مفككة (طَ سَ مَ).

{ **تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ** } [2].

الإشارة إلى الحاضر في الأذهان من آيات القرآن المنزّل من قبل. ومعنى الإشارة إلى آيات القرآن قصد التحدي بأجزائه تفصيلا كما قُصد التحدي بجميعه إجمالا. والمعنى: هذه آيات القرآن تقرأ عليكم وهي بلغتكم وحروف هجائها فأتوا بسورة من مثلها. والخطاب لغير معيّن من كل متأهّل لهذا التحدّي من بلغائهم.

{ **الْمُبِينِ** } الظاهر، وهو من أبان مرادف بان، أي: تلك آيات الكتاب الواضح كونه من عند الله لما فيه من المعاني العظيمة والنظم المعجز.

ويجوز أن يكون من أبان المتعدي، أي: الذي يُبيِّن ما فيه من معاني الهدى والحق.

وهذا من استعمال اللفظ في معنييه كالمشترك.

{ **لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** } [3].

حُوِّل الخطاب من توجيهه إلى المعاندين إلى توجيهه للرسول عليه الصلاة والسلام. والكلام استئناف بياني جوابا عما يثيره مضمون قوله تعالى { تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ } من تساؤل النبيّ صلى الله عليه وسلم في نفسه عن استمرار إعراض المشركين عن الإيمان وتصديق القرآن كما في قوله تعالى { فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً } [الكهف:6]، وقوله تعالى { فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ } [فاطر:8].

{ **لَعَلَّ** } إذا جاءت في ترجِّي الشيء المخوف سُمِّيت إشفاقا وتوقّعا. والترجي مستعمل في الطلب. والأظهر أنّه حثّ على ترك الأسف من ضلالهم.

الباخع: القاتل. وحقيقة البخع إعماق الذبح. يقال: بخع الشاة. وتقدّم عند قوله تعالى { فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ } [الكهف:6]. وهو هنا مستعار للموت السريع.

{ **أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** } حُذف المتعلّق إمّا لأن المراد مؤمنين بما جئت به من التوحيد والبعث، وإمّا لأنّه أريد بـ { مُؤْمِنِينَ } المعنى اللَّقبي، أي: الفريق المعروف بالمؤمنين وهم أمّة الإسلام.

وعُدل عن: أن لا يؤمنوا، لأنّ في فعل الكون دلالة على الاستمرار زيادة على ما أفادته صيغة المضارع، فتأكّد استمرار عدم إيمانهم الذي هو مورد الإقلاع عن الحزن له. وقد جاء في سورة الكهف { فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ } بحرف نفي الماضي وهو (لم) لأنّ سورة الكهف متأخرة النزول عن سورة الشعراء فعدم إيمانهم قد تقرّر حينئذ وبلغ حد المأيوس منه.

{ إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ } [4].

استئناف بياني ناشئ عن قوله تعالى { أَنَّ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ } لأنّ التسلية على عدم إيمانهم تثير في النفس سؤالا عن إمهالهم دون عقوبة ليؤمنوا فأجيب بأنّ الله قادر على ذلك، فهذا الاستئناف اعتراض بين الجملتين المعطوفة إحداهما على الأخرى.

{ **إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ** } جيء بحرف { إِنْ } الذي الغالب فيه أن يفيد عدم الجزم بوقوع الشرط للإشعار بأنّ ذلك لا يشاؤه الله لحكمة اقتضت. ومعنى انتفاء هذه المشيئة أنّ الحكمة الإلهية اقتضت أن يحصل الإيمان عن نظر واختيار لأنّ ذلك أجدى لانتشار سمعة الإسلام في مبدأ ظهوره.

{ **آيَةً** } العلامة التي تدلّ على تهديدهم بالإهلاك تهديدا محسوسا بأن تظهر لهم بوارق تنذر باقتراب عذاب. وليس المراد آيات القرآن.

فإن قلتَ: لماذا لم يُرِهِم آية كما أُرِي بنو إسرائيل نتق الجبل فوقهم كأنّه ظلة ؟

قلتُ: كان بنو إسرائيل مؤمنين بموسى وما جاء به فلم يكن إظهار الآيات لهم لإلجائهم على الإيمان ولكنّه كان لزيادة تثبيتهم، كما قال إبراهيم { أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى } [البقرة:260].

{ **فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ** } عطف { فَظَلَّتْ } وهو ماض على المضارع { نُنَزِّلْ } لأنّ المعطوف عليه جواب شرط. والاختلاف بين الفعلين لا يخلو من خصوصية في كلام البليغ وخاصة في الكلام المعجز، وهي هنا أمران: التفنّن بين الصيغتين، وتقريب زمن مضي المعقَّب بالفاء من زمن حصول الجزاء، بحيث يكون حصول خضوعهم للآية بمنزلة حصول تنزيلها فيتمّ ذلك سريعا حتّى يخيّل لهم من سرعة حصوله أنّه أمر مضى، فلذلك قال { فَظَلَّتْ } ولم يقل: فتظلّ. وهذا قريب من استعمال الماضي في قوله تعالى { أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ } [النحل:1]. وكلاهما للتهديد، ونظيره لقصد التشويق: قد قامت الصلاة.

الخضوع: التطامن والتواضع. ويستعمل في الانقياد مجازا لأنّ الانقياد من أسباب الخضوع.

وإسناد الخضوع إلى الأعناق مجاز عقلي، لأنّه لمّا كانت الأعناق هي مظهر الخضوع أسند الخضوع إليها وهو في الحقيقة ممّا يُسند إلى أصحابها، ومنه قوله تعالى { وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ } [طه:108]، أي: أهل الأصوات.

الأعناق: جمع عُنُق (بضمّتين وقد تسكن النون) وهو الرقبة، وهو مؤنث.

{ **وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ** } [5].

عطف على جملة { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ } [3]، أي: هذه شنشنتهم فلا تأسف لعدم إيمانهم بآيات الكتاب المبين، وما يجيئهم منها من بعد فسيُعرِضون عنه لأنّهم عُرفوا بالإعراض.

{ **وَمَا يَأْتِيهِمْ** } المضارع هنا لإفادة التجدّد والاستمرار.

الذكر: القرآن، لأنّه تذكير للناس بالأدلة. وتقدّم وجه تسميته ذكرا عند قوله تعالى { وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ } [الحجر:6].

{ **مِنَ الرَّحْمَنِ** } ذكر اسم الرحمان هنا دون وصف الربّ كما في [الأنبياء:2] لأنّ السياق هنا لتسلية النبيّ صلى الله عليه وسلم على إعراض قومه، وتشنيع لحال المعرضين، وتعريض لغباوتهم أن يعرضوا عمّا هو رحمة لهم.

المحدَث: الجديد، أي: من ذكر بعد ذكر يذكّرهم بما أنزل من القرآن من قبله. أي: أنّ بعضه يعقب بعضا ويؤيّده. وقد تقدّم في قوله تعالى { مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ } [الأنبياء:2].

{ **إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ** } في الإتيان بفعل { كَانُوا } وخبره دون أن يقال: إلّا أعرضوا، إفادة أنّ إعراضهم راسخ فيهم وأنّه قديم مستمر.

{ **فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** } [6].

{ **فَقَدْ كَذَّبُوا** } فاء الفصيحة، أي: فقد تبيّن أنّ إعراضهم إعراض تكذيب بعد الإخبار بأنّ سنّتهم الإعراض عن الذكر الآتي بعضه عقب بعض.

{ **فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ** } الفاء لتعقيب الإخبار بالوعيد بعد الإخبار بالتكذيب، وليس المراد هنا البلوغ كالذي في قوله تعالى { وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ } [ص:21] لأنّ بلوغ الأنباء قد وقع فلا يُحكى بعلامة الاستقبال، وإنّما المراد ظهور صدقها.

الأنباء: جمع نبأ، وهو الخبر عن الحدث العظيم، كقوله تعالى { وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ } [الأنعام:34].

{ **مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** } ضمير { بِهِ } عائد إلى معلوم من المقام وهو القرآن أو الرسول صلى الله عليه وسلم. والمراد بأنباء استهزائهم أنباء جزائه وعاقبته، وهو ما توعّدهم به القرآن في غير ما آية.

{ **كَانُوا** } القول في إقحامه هنا كالقول في إقحامه في قوله تعالى { كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ } ولكن أوثر الإتيان بالمضارع { يَسْتَهْزِئُونَ } دون اسم الفاعل كالذي في { كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ } لأنّ الاستهزاء يتجدّد عند تجدّد وعيدهم بالعذاب وأمّا الإعراض فمتمكّن منهم.

{ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ [7] إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ [8] وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ [9] }.

{ **أَوَلَمْ يَرَوْا** } الواو عاطفة على جملة { وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ } [5]، فالهمزة الاستفهامية منه مقدّمة على واو العطف لفظًا لأنّ للاستفهام الصدارة. والمقصود من الاستفهام إقامة الحجّة عليهم بأنّهم لا تغني فيهم الآيات لأنّ المكابرة تَصْرِفهم عن التأمّل في الآيات.

{ **إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ** } الاستفهام إنكار على عدم رؤيتهم ذلك لأنّ دلالة الإنبات على الصانع الواحد دلالة بيّنة لكلّ من يراه، فلمّا لم ينتفعوا بتلك الرؤية نزلت رؤيتهم منزلة العدم، فأنكر عليهم ذلك. والمقصود: إنكار عدم الاستدلال به.

الزوج: النوع، وشاع إطلاق الزوج على النوع في غير الحيوان، وتقدم قوله تعالى { فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى } [طه:53].

الكريم: النفيس من نوعه، قال تعالى { وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } [الأنفال:4].

وهذا من إدماج الامتنان في ضمن الاستدلال، لأنّ الاستدلال على بديع الصنع يحصل بالنظر في إنبات الكريم وغيره، ففي الاستدلال بإنبات الكريم من ذلك وفاءٌ بغرض الامتنان مع عدم فوات الاستدلال.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً** } المشار إليه هو المذكور من الأرض، وإنبات الله الأزواج فيها، وما في تلك الأزواج من منافع وبهجة .والتأكيد بحرف { إِنَّ } لتنزيل المتحدَّث عنهم منزلة من ينكر دلالة ذلك الإنبات وصفاته على ثبوت الوحدانية التي هي باعث تكذيبهم الرسول.

{ **لَآيَةً** } الإفراد لإرادة الجنس، أو لأنّ في المذكور عدّة أشياء في كلّ واحد منها آية فيكون على التوزيع.

{ **وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ** } إخبار عنهم بأنّهم مصرّون على الكفر بعد هذا الدليل الواضح.

{ **وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** } تذييل لهذا الخبر بوصف الله بالعزّة، أي: تمام القدرة، فتعلمون أنّه لو شاء لعجّل لهم العقاب.

{ **الرَّحِيمُ** } إيماء إلى أنّ في إمهالهم رحمة بهم لعلهم يشكرون. وفيه أيضا إيماء إلى أنّه يرحم رسله بتأييده ونصره.

{ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ [10] قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ [11] }.

شروع في عدِّ آيات على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم بذكر عواقب المكذّبين برسلهم ليحذر المخاطبون بالدعوة إلى الإسلام من أن يصيبهم ما أصاب المكذّبين.

وفي ضمن ذلك تبيين لبعض ما نادى به الرسل من البراهين.

وإنّما ابتدئ بذكر قصّة موسى ثم قصّة إبراهيم على خلاف ترتيب حكاية القصص الغالب في القرآن من

جعلها على ترتيب سبقها في الزمان، لعلّه لأنّ السورة نزلت للردّ على المشركين في إلحاحهم على إظهار آيات من خوارق العادات في الكائنات زاعمين أنّهم لا يؤمنون إلّا إذا جاءتهم آية، فضرب لهم المثل بمكابرة فرعون وقومه في آيات موسى.

{ **وَإِذْ** } اسم زمان منصوب بفعل محذوف تقديره: واذكر إذ نادى ربّك موسى. وفي هذا المقدَّر تذكير للرسول عليه الصلاة والسلام بما يسلّيه عمّا يلقاه من قومه.

{ **نَادَى رَبُّكَ مُوسَى** } هو الوحي إليه بكلام سمعه من غير واسطة ملك.

{ **أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** } تفسير لجملة { نَادَى }. واستحضار قوم فرعون بوصفهم بالقوم الظالمين إيماء إلى علّة الإرسال. وفي هذا الإجمال إثارة لغضب موسى عليهم حتّى ينضمّ داعي غضبه عليهم إلى داعي امتثال أمر الله، وذلك أوقع لكلامه في نفوسهم. وفيه إيماء إلى أنّهم اشتهروا بالظلم.

وظلمهم يعمّ أنواعه: فمنها ظلمهم أنفسهم بعبادة ما لا يستحق العبادة، ومنها ظلمهم الناس حقوقهم إذ استعبدوا بني إسرائيل واضطهدوهم، وتقدّم استعماله في المعنيين مرارا، في ضدّ العدل { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ } [البقرة:114]، وبمعنى الشرك في قوله تعالى { الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ } [الأنعام:82].

الإتيان: هو ذهابه لتبليغ الرسالة إليهم. وهذا إيجاز يبينه قوله تعالى { فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [16] إلى آخره.

{ **قَوْمَ فِرْعَوْنَ** } في تكرير كلمة { قَوْمِ } موقع من التأكيد، فلم يقل: ائت قوم فرعون الظالمين.

واعلم أنّه قد عُدل هنا عن ذكر ما ابتدئ به نداء موسى ممّا هو في سورة طه بقوله تعالى { إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ - إلى قوله - لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى } [طه:12-23] لأنّ المقام هنا يقتضي الاقتصار على ما هو شرح دعوة قوم فرعون وإعراضهم للاتعاظ بعاقبتهم. وأمّا مقام ما في سورة طه فلبيان كرامة موسى عند ربه ورسالته معا فكان مقام إطناب، مع ما في ذلك من اختلاف الأسلوب في حكاية القصّة الواحدة كما تقدّم في المقدمة السابعة من مقدّمات هذا التفسير.

{ **أَلَا يَتَّقُونَ** } مستأنفة استئنافا بيانيا. جيء بما يدلّ على توغّلهم في الظلم ودوامهم عليه تقوية للباعث لموسى على بلوغ الغاية في الدعوة، وتهيئة لتلقيه تكذيبهم بدون مفاجأة، فيكون { أَلَا } مركّبا من حرفين همزة الاستفهام و(لا) النافية. والاستفهام لإنكار انتفاء تقواهم، وتعجيب موسى من ذلك، فإنّ موسى كان مطّلعا على أحوالهم إذ كان قد نشأ فيهم وقد علم مظالمهم وأعظمها الإشراك وقتل أنبياء بني إسرائيل.

ويجوز أن يكون { أَلا } كلمة واحدة هي أداة العرض والتحضيض فتكون جملة { أَلا يَتَّقُونَ } بيانا لجملة {ائْتِ}، والمعنى: قل لهم: ألا تتقون. فحكى مقالته بمعناها لا بلفظها.

وهذا العرض نظير قوله تعالى { فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى } [النازعات:18].

الاتقاء: الخوف والحذر، وحذف المتعلّق لظهور أن المراد: ألا يتّقون عواقب ظلمهم.
موسى: تقدّم ذكره عند قوله تعالى { وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً } [البقرة:51].
فرعون: تقدمت ترجمته عند قوله تعالى { إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ } [الأعراف:103].

{ **قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ** [12] **وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ** [13] **وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ** [14] }.

{ **قَالَ رَبِّ** } افتتاح مراجعته بنداء الله بوصف الربّ مضافا إليه تحنين واستسلام.
{ **إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ** } لعلمه بأن مثل هذه الرسالة لا يتلقآها المرسَل إليهم إلّا بالتكذيب.
{ **وَيَضِيقُ صَدْرِي** } الواو للحال فتكون حالا مقدّرة، أي: فيضيق ساعتئذ صدري من عدم اهتدائهم.
الضيق: ضدّ السعة، وهو هنا مستعار للغضب والكمد. وتقدّم عند قوله تعالى {يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً} [الأنعام:125]، وقوله تعالى { وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ } [هود:12].
المعنى: أنّه يأسف ويكمد لتكذيبهم إيّاه ويجيش في نفسه روم إقناعهم بصدقه، وتلك الخواطر إذا خطرت في العقل نشأ منها إعداد البراهين، وفي ذلك الإعداد تكلّف وتعب للفكر، فإذا أبانها أحسّ بارتياح وبشبه السعة في الصدر فسمَّى ذلك شرحا للصدر، ولذلك سأله موسى { قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي } [طه:25].
{ **وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي** } الانطلاق حقيقته مطاوع أطلقه إذا أرسله ولم يحبسه، فهو حقيقة في الذهاب.
واستعير هنا لفصاحة اللسان وبيانه في الكلام، أي: ينحبس لساني فلا يبين عند إرادة المحاجّة والاستدلال.
قيل: كانت بموسى حُبسة في لسانه إذا تكلّم. وقد تقدّم في سورة طه وسيجيء في سورة الزخرف.
وليس القصد من هذا الكلام التنصّل من الاضطلاع بهذا التكليف العظيم ولكن القصد تمهيد ما فرَّعه عليه من طلب تشريك أخيه هارون معه لأنّه أقدر منه على الاستدلال والخطابة.
{ **فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ** } مجمل يبيّنه ما في قوله تعالى {وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ} [القصص:34]، فيُعلم أن في الكلام هنا إيجازا. وأنه ليس المراد: فأرسل إلى هارون عوضا عني.
{ **وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ** } تعريض بسؤال النصر والتأييد وأن يكفيه شرّ عدوّه حتّى يؤدّي ما عهد الله إليه على أكمل وجه.
الذنب: الجرم ومخالفة الواجب في قوانينهم. وأطلق الذنب على المؤاخذة، فإنّ الذي لهم عليه هو حقّ المطالبة بدم القتيل الذي وكزه موسى فقضى عليه، وتوعّده القبط فخرج من مصر خائفا، وكان ذلك سبب توجّهه إلى بلاد مَدْيَن.
هارون: تقدم ذكره عند قوله تعالى { وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ } [البقرة:248].

{ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ [15] فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ [16] أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرائيل [17] }.

{ كَلَّا } حرف إبطال. وتقدّم في قوله تعالى { كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ } [مريم:79]. أي: لا يقتلونك.

{ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا } تفريع، والأمر لموسى أن يذهب هو وهارون يقتضي أنّ موسى مأمور بإبلاغ هارون ذلك، فكان موسى رسولا إلى هارون بالنبوّة. ولذلك جاء في التوراة أنّ موسى أبلغ أخاه هارون ذلك عندما تلقّاه في (حوريب). وفي الكلام وعد بالتأييد بمعجزات تظهر عند الحاجة.

ومن الآيات: العصا التي انقلبت حيّة عند المناجاة، وكذلك بياض يده.

{ إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ } كناية عن عدم إهمال تأييدهما وكفّ فرعون عن اذاهما.

{ مَعَكُمْ } الضمير عائد إلى موسى وهارون وقوم فرعون. والمعيّة معيّة علم كالتي في قوله تعالى { إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا } [المجادلة:7].

{ مُسْتَمِعُونَ } أشد مبالغة من (سامعون) لأنّ أصل الاستماع أنّه تكلّف السماع والتكلّف كناية عن الاعتناء، فأريد هنا علم خاص بما يجري بينهما وبين فرعون وملئه، وهو العلم الذي ترافقه العناية واللطف.

والجمع بين قوله تعالى { بِآيَاتِنَا } وقوله تعالى { إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ } تأكيد للطمأنة ورباطة لجأشهما.

{ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ } مبادأة خطابهما فرعونَ بأن وصفا الله بصفة رب العالمين مجابهة لفرعون بأنّه مربوب وليس بربّ، وإثبات ربوبية الله تعالى للعالمين. والنفي يقتضي وحدانية الله تعالى لأنّ { الْعَالَمِينَ } شامل جميع الكائنات فيشمل معبودات القبط كالشمس وغيرها، فهذه كلمة جامعة لما يجب اعتقاده يومئذ.

الرسول: فعول بمعنى مفعل، أي: مرسل. والأصل فيه مطابقة موصوفه، بخلاف فعول بمعنى فاعل فحقه عدم المطابقة سماعا، ولكن رسول يجوز فيه أن يجرى مجرى المصدر فلا يطابق ما يجري عليه في تأنيث وما عدا الإفراد، وورد في كلامهم بالوجهين تارة ملازما الإفراد والتذكير كما في هذه الآية، وورد مطابقا كما في قوله تعالى { فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ } [طه:47].

{ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرائيلَ } تفسيرية لمّا تضمّنه { رَسُولُ } من الرسالة التي هي في معنى القول، أي: هذا قول رب العالمين لك.

{ أَرْسِلْ مَعَنَا } أي: أطلقهم ولا تحبسهم، فالإرسال هنا ليس بمعنى التوجيه. وهذا الكلام يتضمّن أنّ موسى أُمِر بإخراج بني إسرائيل من بلاد الفراعنة لقصد تحريرهم من استعباد المصريين كما سيأتي عند قوله تعالى { أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائيلَ } [22].

وقد تقدّم في سورة البقرة بيان أسباب سُكنى بني إسرائيل بأرض مصر ومواطنهم بها وعملهم لفرعون.

{ **قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ** [18] **وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ** [19] }.

طوي من الكلام ذهاب موسى وهارون إلى فرعون واستئذانهما عليه وإبلاغهما ما أمرهما الله أن يقولا لفرعون إيجازا للكلام. ووجّه فرعون خطابه إلى موسى وحده لأنّه علم من تفصيل كلام موسى وهارون أنّ موسى هو الرسول بالأصالة وأنّ هارون كان عونا له.

أعرض فرعون عن الاعتناء بإبطال دعوة موسى فعدل إلى تذكيره بنعمة الفراعنة أسلافه على موسى وتخويفه من جنايته حسبانا بأنّ ذلك يقتلع الدعوة من جذمها ويكف موسى عنها، وقصده من هذا الخطاب إفحام موسى حيث أوجد له سببا يتذرّع به إلى قتله ويكون معذورا فيه حيث كفر نعمة الولاية بالتربية، واقترف جرم الجناية على الأنفس.

{ **أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً** } الاستفهام تقريري وجعل التقرير على نفي التربية مع أنّ المقصود الإقرار بوقوع التربية مجاراة لحال موسى في نظر فرعون إذ رأى في هذا الكلام جرأة عليه لا تناسب حال من هو ممنون لأسرته بالتربية لأنّها تقتضي المحبّة والبرّ.

ويجوز أن يجعل الاستفهام إنكاريا عليه لأنّ لسان حال موسى في نظر فرعون حال من يجحد أنّه مربًّى فيهم ومن يظنّ نسيانهم لفعلته، فأنكر فرعون عليه ذلك.

وكلا الوجهين لا يخلو من تنزيل موسى منزلة من يجحد ذلك.

التربية: كفالة الصبي وتدبير شؤونه.

{ **فِينَا** } في عائلتنا، أي: عائلة ملك مصر.

الوليد: الطفل من وقت ولادته وما يقاربها فإذا نمى لم يُسم وليدا وسُمِّي طفلا، ويعني بذلك التقاطه من نهر النيل. وذلك أن موسى ربّي عند (رمسيس الثاني) من ملوك العائلة التاسعة عشرة من عائلات فراعنة مصر حسب ترتيب المحقّقين من المؤرخين.

وخرج موسى من مصر بعد أن قتل القبطي وعمره أربعون سنة لقوله تعالى { وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً - إلى قوله - وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ } [القصص:14-15]، وبُعث وعمره ثمانون سنة حسبما جاء في التوراة [سفر الخروج، الإصحاح:7].

وكان فرعون الذي بعث إليه موسى هو (منفتاح الثاني ابن رمسيس الثاني)، فلا جرم كان موسى مُرَبًّى والده فلذلك قال له: ألم نربك فينا وليدا، ولعلّه رُبِّيَ مع هذا الفرعون كالأخ.

{ **مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ** } السنين التي لبثها موسى فيهم هي نحو أربعين سنة.

الفعلة: المرة الواحدة من الفعل، أراد قتله القبطي.

{ **فَعْلَتَكَ** } عُبر بالموصول تهويلا للفعلة يُكنّى به عن تذكيره بما يوجب توبيخه.

{ **وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ** } حال من ضمير { وَفَعَلْتَ }. والمراد به كفر نعمة فرعون من حيث اعتدى على

أحد خاصته وموالي آله، وكان ذلك انتصارا لرجل من بني إسرائيل الذين يعدّونهم عبيد فرعون وعبيد قومه، فجعل فرعون انتصار موسى لرجل من عشيرته كفرانا لنعمة فرعون لأنّه يرى واجب موسى أن يعدّ نفسه من قوم فرعون. وليس المراد الكفر بديانة فرعون.

ويجوز أن تكون جملة { وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ } عطفا على الجمل التي قبلها التي هي توبيخ ولوم، فوبّخه على ما تقدّم رعيه تربيتهم إيّاه فيما مضى ثمّ وبّخه على كونه كافرا بدينهم في الحال.

{ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ [20] فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ [21] وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائيلَ [22] }.

كانت رباطة جأش موسى وتوكّله على ربه باعثةً له على الاعتراف بالفعلة وذكر ما نشأ عنها من خير له، فابتدأ بالإقرار بفعلته ليعلم فرعون أنّه لم يجد لكلامه مدخل تأثير في نفس موسى. وأخَّر موسى الجواب عن قول فرعون { قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ }.

{ **إِذاً** } هنا حرف جواب وجزاء، فنونه الساكنة ليست تنويا بل حرفا أصليا للكلمة، وقدّم { فَعَلْتُهَا } على (إذن) مبادرة بالإقرار ليكون كناية عن عدم خشيته من هذا الإقرار.

ومعنى الجزاء في قوله { فَعَلْتُهَا إِذاً } أنّ قول فرعون { وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ } قصد بها إفحام موسى وتهديده فجعل موسى الاعتراف بالفعلة جزاء لذلك التهديد على طريقة القول بالموجب، أي: لا أتهيّب ما أردت.

{ **وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ** } إن كان مراد كلامه الذي حكت الآية معناه إلى العربية المعنى المشهور للضلال في العربية، وهو ضلال الفساد، فيكون مراده: أنّ سورة الغضب أغفلته عن مراعاة حرمة النفس. ويؤيد هذا قوله في الآية الأخرى { قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ } [القصص:16].

وإن كان المعنى: ضلال الطريق، أي: كنت يومئذ على غير معرفة بالحقّ لعدم وجود شريعة، وهو معنى الجهالة كقوله تعالى { وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى } [الضحى:7]، فالأمر ظاهر.

وعلى كلا الوجهين فجواب موسى فيه اعتراف بظاهر التقرير وإبطال لما يستتبعه من جعله حجّة لتكذيبه برسالته عن الله.

{ **فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ** } استرسال في الجواب، أي: فكان فراري قد عقبه أنّ الله أنعم عليَّ فأصلح حالي وعلّمني وهداني وأرسلني. فليس ذلك من موسى مجرّد إطناب بل لأنّه يفيد معنى أن الإنسان ابن يومه لا ابن أمسه والأحوال بأواخرها.

الحكم: الحكمة والعلم، وأراد بها النبوّة وهي الدرجة الأولى حين كلّمه ربه.

{ **وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ** } بعد أن أظهر له المعجزة وقال له { إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ } [الأعراف:144] أرسله بقوله تعالى { اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى } [طه:24].

{ **وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائيلَ** } عاد إلى أوّل الكلام فكرَّ على امتنانه عليه بالتربية فأبطله وأبى أن يسمِّيه نعمة. إشارة إلى النعمة التي اقتضاها الامتنان في كلام فرعون.

ويجوز أن يكون { أَنْ عَبَّدْتَ } في محل نصب على نزع الخافض وهو لام التعليل والتقدير: لأن عبّدت بني إسرائيل. وقيل: الكلام استفهام بحذف الهمزة وهو استفهام إنكار.

{ **عَبَّدْتَ** } ذلَّلْت، يقال: عبَّد كما يقال: أعبد بهمزة التعدية.

وكلام موسى على التقادير الثلاثة نقض لامتنان فرعون بقلب النعمة نقمة، بتذكيره أنّ نعمة تربيته ما كانت إلّا بسبب إذلال بني إسرائيل، إذ أمر فرعون باستئصال أطفال بني إسرائيل. وفيه أن الإحسان إليه مع الإساءة إلى قومه لا يزيد إحسانا ولا منّة.

{ **قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ** [23] **قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ** [24] }.

لما لم يَرُج تهويله على موسى عليه السلام وعلم أنّه غير مقلع عن دعوته ثَنَى عنان جداله إلى تلك الدعوة فاستفهم عن حقيقة ربّ العالمين الذي ذكر موسى وهارون أنّهما مرسلان منه { إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ }.

{ **قَالَ فِرْعَوْنُ** } إظهار اسم فرعون مع أنّ طريقة حكاية المقاولات والمحاورة يُكتفى فيها بضمير القائلين بطريقة قال قال، أو قال فقال، لإيضاح صاحب هذه المقالة، لبعد ما بين قوله هذا وقوله الآخر.

{ **وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ** } الواو عاطفة هذا الاستفهام على الاستفهام الأول. وحرف { مَا } الغالب فيه أن يكون للسؤال عن حقيقة الاسم بعده، كما في حديث الوفود، أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لهم: **" مَا أَنْتُمْ ؟ "**. ففرعون سأل موسى عليه السلام تبيين حقيقة هذا الذي وصفه بأنّه { رَبُّ الْعَالَمِينَ }، فقد كانت عقائد القبط تثبت آلهة متفرّقة قد اقتسمت التصرّف في عناصر هذا العالم وأجناس الموجودات.

وهو استفهام مشوب بتعجّب وإنكار على طريق الكناية.

ومن دقائق هذه المجادلة أنّ الاستفسار مقدّم في المناظرات ولذلك ابتدأ فرعون بالسؤال عن حقيقة الذي أرسل موسى عليه السلام.

{ **قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا** } كان جواب موسى عليه السلام بيانا لحقيقة رب العالمين بما يصير وصفه بربّ العالمين نصا لا يحتمل غير ما أراداه من ظاهره، فأتى بشرح اللفظ بما هو تفصيل لمعناه، فبذكر السماوات والأرض وبعموم ما بينهما حصل بيان حقيقة المسؤول عنه بـ { مَا } .

ومرجع هذا البيان إلى أنّه تعريف لحقيقة الربّ بخصائصها، لأنّ ذلك غاية ما تصل إليه العقول في معرفة الله أن يُعرف بآثار خلقه، فهو تعريف رسمي في الاصطلاح المنطقي.

وجواب موسى، كما أشار صاحب (الكشاف)، تضمّن تنبيها على أنّ الاستدلال على إثبات الخالق الواحد

يحصل بالنظر في السماوات والأرض وما بينهما نظرا يؤدّي إلى العلم بحقيقة الربّ الواحد الممتازة عن حقائق المخلوقات.

{ **إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ** } أي: إن كنتم مستعدّين للإيقان طالبين لمعرفة الحقائق غير مكابرين.

وضمير الجمع مراد به جميع حاضري مجلس فرعون، أراد موسى تشريكهم في الدعوة.

{ **قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ** } [25].

أعرض فرعون عن خطاب موسى واستثار نفوس الملأ من حوله وهم مجلسه فاستفهمهم استفهام تعجّب، تهييجا لنفوسهم كي لا تتمكّن منهم حجّة موسى، فسلّط الاستفهام على نفي استماعهم. وهذا التعجّب يقتضي التعجّب من كلام موسى بطريق فحوى الخطاب، فهو كناية عن تعجّب آخر.

{ **قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ** } [26].

كلام موسى هذا في معرض الجواب عن تعجيب فرعون من سكوت من حوله فلذلك كانت حكايته قوله على الطريقة التي تُحكى بها المقالات. ولمّا كان في كلام فرعون إعراض عن مخاطبة موسى إذ تجاوزه إلى مخاطبة من حوله وجّه موسى خطابه إلى جميعهم، وإذ رأى موسى أنّهم جميعا لم يهتدوا إلى الاقتناع بالاستدلال على خلْق الله العوالم الذي ابتدأ به، إذ هو أوسع دلالة على وجود الله تعالى ووحدانيّته، فنزل بهم إلى الاستدلال بأنفسهم وبآبائهم، إذ أوجدهم الله بعد العدم ثم أعدم آباءهم بعد وجودهم، لأنّ أحوال أنفسهم وآبائهم أقرب إليهم وأيسر استدلالا على خالقهم، فالاستدلال الأوّل يمتاز بالعموم والاستدلال الثاني يمتاز بالقرب من الضرورة.

الربّ: الخالق والسيد بموجب الخالقيّة.

{ **قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ** } [27].

احتدّ فرعون لمّا ذكر موسى ما يشمل آباءه المقدّسين بذكرٍ يخرجهم من صفة الإلهية زاعما أنّ هذا يخالف العقل بالضرورة فلا يصدر إلّا من مختلّ الإدراك.

{ **إِنَّ رَسُولَكُمُ** } قصد بإطلاق وصف الرسول على موسى التهكّم به بقرينة رميه بالجنون المحقّق عنده.

وأضاف الرسول إلى المخاطبين رَبْئًا بنفسه عن أن يكون مقصودا بالخطاب، وتهييجا للسامعين كيلا يتأثروا أو يتأثر بعضهم بصدق موسى.

{ **قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ** } [28].

لمّا رأى موسى سوء فهمهم وعدم اقتناعهم بالاستدلال على الوحدانية بالتكوين المعتاد، انتقل إلى ما لا قبل لهم بجحده ولا التباسه وهو التصرّف العجيب المشاهد كل يوم مرّتين. كما انتقل إبراهيم عليه السلام من الاستدلال على وجود الله بالإحياء والإماتة إلى الاستدلال بطلوع الشمس، قال تعالى { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ } [البقرة:258]، فكانت حجة موسى حجّة خليلية.

المشرق والمغرب: هما منتهى الأرض المعروفة للناس يومئذ فكأنّه قيل: ربّ طرفي الأرض، وهو كناية عن كون جميع الأرض ملكًا لله. وهذا استدلال عرفي، إذ لم يكونوا يعرفون يومئذ مِلِكا يملك ما بين المشرق والمغرب، وما كان مُلك فرعون المؤلَّه عندهم إلّا لبلاد مصر والسودان.

{ **إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ** } التذييل تنبيه لنظرهم العقلي ليعاودوا النظر فيدركوا وجه الاستدلال، أي: إن كنتم تُعملون عقولكم. ومن اللطائف جعل ذلك مقابل قول فرعون: إن رسولكم لمجنون، لأنّ الجنون يقابله العقل فكان موسى يقول لهم قولا ليّنا ابتداء فلما رأى منهم المكابرة ووصفوه بالجنون خاشنهم في القول.

{ **قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ** } [29].

لمّا لم يجد فرعون لحِجاجه نجاحا ورأى شدّة شكيمة موسى في الحقّ عدل عن الحِجاج إلى التخويف. وهذا شأن من قهرته الحجّة وفيه كبرياء أن ينصرف عن الجدل إلى التهديد.

{ **لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي** } اللام موطّئة للقسم. والمعنى: أنّ فرعون أكّد وعيده بما يساوي اليمين المجملة التي تؤذن بها اللام الموطئة، كأن يكون فرعون قال: عليَّ يمين، أو بالأيمان، أو أقسم.

{ **اتَّخَذْتَ** } يفيد الاستمرار، أي: أصررت على أنّ لك إلها أرسلك. وكان فرعون معدودا إلها للأمّة.

{ **لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ** } لأسجننّك، سلك فيه طريقة الإطناب لأنّه أنسب بمقام التهديد.

{ **قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ** [30] **قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** [31] **فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ** [32] **وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ** [33] }.

لمّا رأى موسى من مكابرة فرعون عن الاعتراف بدلالة النظر ما لا مطمع معه إلى الاسترسال في الاستدلال، لأنّه مُتَعَامٍ عن الحقّ، عدل إلى إظهار آية من خوارق العادة دلالة على صدقه، وعرض عليه ذلك قبل وقوعه ليسد عليه منافذ ادّعاء عدم الرضى بها.

{ **أَوَلَوْ جِئْتُكَ** } استفهمه استفهامًا مشوبا بإنكار واستغراب على تقدير عدم اقرار فرعون بالشيء المبين،

وأنّه ساجنه لا محالة إن لم يعترف بإلهية فرعون، قطعا لمعذرته من قبل الوقوع. وهذا التقدير دلّت عليه { لَوْ } الوصلية التي هي لفرض حالة خاصة. و(الواو) واو الحال، والمستفهم عنه بالهمزة محذوف دلّ عليه أنّ الكلام جواب قول فرعون { لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ }.

{ **مُبِينٌ** } اسم فاعل من أبان المتعدّي، أي: شيء يُظهر أنّي رسول من الله.

{ **قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** } أعرض فرعون عن التصريح بالتزام الاعتراف بما سيجيء به موسى. وفي كلام فرعون ما يقتضي أنّ فرض صدق موسى فرض ضعيف، كما هو الغالب في شرط (إنْ).

الإلقاء: الرمي من اليد إلى الأرض، وتقدّم في [الأعراف:107].

الثعبان: الحيّة الضخمة الطويلة.

{ **مُبِينٌ** } اسم فاعل من أبان القاصر الذي بمعنى بان بمعنى ظهر، فـ { مُبِينٌ } دال على شدّة الظهور، من أجل أنّ زيادة المبنى تدلّ على زيادة المعنى، أي: ثعبان ظاهر، لا لبس فيه ولا تخييل.

النزع: سَلُّ شيء ممّا يحيط به، ومنه نزع اللباس. ونزع اليد: إخراجها من القميص، فلذلك استغنى عن ذكر المنزوع منه لظهوره، أي: أخرج يده من جيب قميصه.

{ **فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ** } دلت (إذا) المفاجئة على سرعة انقلاب لون يده بياضا. والأظهر أن تكون اللام في قوله تعالى { لِلنَّاظِرِينَ } بمعنى (عند) ويكون الجار والمجرور حالا. ومضى بيان ذلك عند قوله تعالى { وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ] [الأعراف:108]. والتعريف للاستغراق العرفي، أي: لجميع الناظرين في ذلك المجلس. وهذا يفيد أنّ بياضها كان واضحا بيّنا مخالفا لون جلده بصورة بعيدة عن لون البرص.

{ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ [34] يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ [35] }.

تقدّم الكلام على نظير هذه الآية في [الأعراف:109-110] سوى أنّ في هذه الآية زيادة { بِسِحْرِهِ } وهو واضح، وفي هذه الآية أنّ هذا قول فرعون للملإ، وفي آية الأعراف { قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ }، والجمع بينهما أنّ فرعون قاله لمن حوله فأعادوه بلفظه للموافقة التامة بحيث لم يكتفوا بقول: نعم، بل أعادوا كلام فرعون ليكون قولهم على تمام قوله.

{ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ [36] يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ [37] }.

تقدّم الكلام على نظيرها في [الأعراف:111] سوى أنّ في هذه الآية { وَابْعَثْ } بدل { وَأَرْسِلْ } وهما

مترادفان، وفي هذه الآية { سَحَّارٍ } وهنالك { سَاحِرٍ }، و**السحّار** مرادف للساحر في الاستعمال، لأنّ صيغة فعّال هنا للنسب، دلالة على الصناعة مثل النجّار والقصّاب، ولذلك أتبع هنا وهناك بوصف {عَلِيمٍ}، أي: قويّ العلم بالسحر.

{ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ [38] وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ [39] لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ [40] }.

دلّت (الفاء) على أنّ جمع السحرة وقع في أسرع وقت.

{ **فَجُمِعَ / وَقِيلَ** } بُني الفعلان للنائب لعدم تعيّن جامعين وقائلين.

{ **لِمِيقَاتِ** } اللام بمعنى (عند)، كاللام في قوله تعالى { أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ } [الإسراء:78].

اليوم: هو يوم الزينة وهو يوم وفاء النيل. و**الوقت**: هو الضحى كما في [طه:59].

الميقات: الوقت، وأصله اسم آلة التوقيت. سمّي به الوقت المعيّن تشبيها له بالآلة.

{ **لِلنَّاسِ** } التعريف للاستغراق العرفي، وهم ناس بلدة فرعون (منفيس / طيبة).

{ **هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ** } استحثاث للنّاس على الاجتماع، فالاستفهام مستعمل في طلب الإسراع بالاجتماع، كقوله تعالى { فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ } [المائدة:91].

{ **لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ** } كناية عن رجاء تأييدهم في إنكار رسالة موسى فلا يتّبعونه. وليس المقصود أن يصير السحرة أيمة لهم لأنّ فرعون هو المتّبَع.

{ **إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ** } جيء بحرف (إنْ) لأنّها أصل أدوات الشرط ولم يكن لهم شك في أنّ السحرة غالبون.

{ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ [41] قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ [42] }.

تقدّم نظيرها في [الأعراف:113] بقوله تعالى { وَجَاءَ السَّحَرَةُ } وبطرح همزة الاستفهام إذ قال هناك { إِنَّ لَنَا لَأَجْراً }، وبدون كلمة { إذاً }، وهو تفنّن في حكاية مقالتهم عند إعادتها لئلّا تعاد كما هي.

وكذلك شأن القرآن في قصصه ألّا يخلو المعاد منها عن فائدة لم تذكر قبل تجديدا لنشاط السامع.

وسؤالهم عن استحقاق الأجر إدلال بخبرتهم وبالحاجة إليهم إذ علموا أنّ فرعون شديد الحرص على أن يكونوا غالبين وخافوا أن يسخّرهم فرعون بدون أجر فشرطوا أجرهم من قبل الشروع.

{ **قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ [43] فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ [44]** }.

حُكي كلام موسى في ذلك الجمع بإعادة فعل { قَالَ } مفصولا بطريقة حكاية المحاورات لأنّه كان المقصود بالمحاورة إذ هم حضروا لأجله.

ووقع في [الأعراف: 115] { قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ }، واختصر هنا تخييرهم موسى في الابتداء بالأعمال، وقد تقدّم بيانه هناك.

{ **أَلْقُوا** } تقدّم الإلقاء آنفا. وذكر هنا مفعول { أَلْقُوا } واختصر في سورة الأعراف.

{ **مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ** } في كلام موسى عليه السلام استخفاف بما سيلقونه لأنّه عبّر عنه بصيغة العموم، أي: ما تستطيعون إلقاءه.

{ **فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ** } تقدّم الكلام حولها عند الكلام على مثل هذه القصة في [طه:66].

{ **وَقَالُوا** } قرنت حكاية قول السحر بالواو خلافا للحكايات التي سبقتها لأنّ هذا قولٌ لم يقصد به المحاورة وإنّما هو قولٌ ابتدأوا به عند الشروع في السحر استعانة وتيمّنا بعزة فرعون.

{ **بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ** } الباء هنا كالباء في (بسم الله)، أرادوا التيمّن بقدرة فرعون، قاله ابن عطية.

وقيل الباء للقسم: أقسموا بعزة فرعون على أنّهم يغلبون، ثقة منهم. وهذا الذي نحاه المفسّرون، والوجه الأوّل أحسن لأنّ الجملتين على مقتضاه تفيدان فائدتين.

العزّة: القدرة، وتقدّم في قوله { أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ } [البقرة:206].

{ **إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ** } أرادوا بذلك إلقاء الخوف في نفس موسى ليكون ما سيلقيه في نوبته عن خور نفس. وقد أفادت الجملة بما فيها من المؤكّدات مفاد القسم.

{ **فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ** } [45]

تقدّم قريب منه في [الأعراف:117]، وفي [طه:69].

{ **فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ [46] قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ [47] رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ [48] قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ [49]** }.

قصد فرعون إرهابهم بهذا الوعيد لعلّهم يرجعون عن الإيمان بالله.

ونظير أوّل هذه الآية تقدم في [الأعراف:120-124]، ونظير آخرها تقدم فيها وفي [طه:71].

{ **فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ** } لام القسم.

{ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ [50] إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ [51] }.

الضَيْر: مرادف الضرّ، يقال: ضَارَه (بتخفيف الراء) يَضِيرُه، والمعنى: لا يضرّنا وعيدك. ومعنى نفي ضرّه هنا: أنّه ضرّ لحظة يحصل عقبه النعيم الدائم، فهو بالنسبة لما تعقبه بمنزلة العدم.

{ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ } تعليل لنفي الضير، وهي القرينة على المراد من النفي.

الانقلاب: الرجوع، وتقدّم في [الأعراف:125].

{ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا } بيان للمقصود من جملة { إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ }.

الطمع: يطلق على الظنّ الضعيف، وعُرف بطلب ما فيه عسر. ويراد به الظنّ كما في قول إبراهيم عليه السلام { وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ } [82]، فهذا الإطلاق تأدّب مع الله لأنّه يفعل ما يريد.

{ أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ } علّلوا ذلك الطمع بأنّهم كانوا أوّل المؤمنين بالله بتصديق موسى عليه السلام، وفي هذا دلالة على رسوخ إيمانهم بالله ووعده.

{ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ } [52].

هذه قصّه أخرى من أحوال موسى في دعوة فرعون، فـ (الواو) لعطف القصّة ولا تفيد التتابع المتلاحق، فقد لبث موسى زمنا يطالب فرعون بإطلاق بني إسرائيل ليخرجوا من مصر وفرعون يماطل في ذلك حتّى رأى الآيات التسع كما تقدّم في [الأعراف:134].

ونظير بعض هذه الآية تقدّم في [طه:77]. وزادت هذه بقوله { إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ }، أي: أعلم الله موسى أنّ فرعون سيتبعهم. والقصد من إعلامه بذلك تشجيعه.

{ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ [53] إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ [54] وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ [55] وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ [56] }.

ظاهر ترتيب الجمل يقتضي أنّ الفاء للتعقيب على جملة { وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى } وأنّ بين الجملتين محذوفا تقديره: فأسرى موسى وخرج بهم فأرسل فرعون حاشرين، أي: لمّا خرج بنو إسرائيل خشي فرعون أن ينتشروا في مدائن مصر فأرسل فرعون في المدائن جُندا يحشرون الناس ليلحقوا بني إسرائيل فيردّوهم إلى المدينة قاعدة الملك.

{ الْمَدَائِنِ } جمع مدينة، أي: البلد العظيم. ومدائن القطر المصري يومئذ كثيرة. منها: (منفيس - طيبة بالأقصر - سنى / سيناء - ساورت / أسيوط - سودو / الفيوم ...). والتعريف للاستغراق، أي: المدائن

التي لحكم فرعون أو المظنون وقوعها قرب طريقهم. وكان فرعون وقومه لا يعلمون أين اتجه بنو إسرائيل فأراد أن يتعرّض لهم في كل طريق يُظنّ مرورهم به. وما كان يظنّ أنّهم يقصدون شاطئ البحر الأحمر بحر (القلزم) وكان يومئذ يُسمَّى بحر (سُوف).

{ **إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ** } الإشارة إلى حاضر في أذهان الناس لأنّ أمر بني إسرائيل قد شاع في أقطار مصر في تلك المدّة التي بين جمع السحرة وبين خروج بني إسرائيل.

وفي اسم الإشارة إيماء إلى تحقير شأنهم أكّده التصريح.

الشرذمة: الطائفة القليلة من النّاس، هكذا فسّره المحقّقون من أئمة اللغة، فإتباعه بوصف { قَلِيلُونَ } للتأكيد.

{ **قَلِيلُونَ** } خبر ثان عن اسم الإشارة، فهو وصف في المعنى لمدلول { هَؤُلاءِ } وليس وصفا لشرذمة ولكنه لمعناها، ولهذا جيء به بصيغة جمع السلامة الذي هو ليس من جموع الكثرة، ويجوز ملازمته الإفراد والتذكير. ونظيره في ذلك لفظ (كثير) وقد جمعها قوله تعالى { إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ } [الأنفال:43].

{ **وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ** } اسم فاعل من غاظه الذي هو بمعنى أغاظه، أي: جعله ذا غيظ. والغيظ: أشدّ الغضب. وتقدّم في قوله تعالى { عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ } [آل عمران:119]، وقوله تعالى { وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ } [براءة:15]، أي: وأنّهم فعلوا ما يغضبنا.

{ **وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ** } حثّ لأهل المدائن على أن يكونوا حذرين إذ جعل نفسه معهم في ذلك.

وقرأه الجمهور بدون ألف بعد الحاء { حَذِرُونَ } فهو جمع حذر وهو من أمثلة المبالغة عند سيبويه والمحقّقين. وقرأه حمزة وعاصم والكسائي وابن ذكوان عن ابن عامر وخلف { حَاذِرُونَ } جمع (حاذر) بصيغة اسم الفاعل.

الحذر: أصل عظيم من أصول السياسة وهو سد ذرائع الفساد ولو كان احتمال إفضائها إلى الفساد ضعيفا، فالذرائع الملغاة في التشريع في حقوق الخصوص غير ملغاة في سياسة العموم، ولذلك يقول علماء الشريعة: إن نظر ولّاة الأمور في مصالح الأمّة أوسع من نظر القضاة، فالحذر أوسع من حفظ الحقوق، وهو الخوف من وقوع شيء ضار يمكن وقوعه، والترصّد لمنع وقوعه، وتقدّم في قوله تعالى { يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ } [التوبة:64]. والمحمود منه هو الخوف من الضار عند احتمال حدوثه دون الأمر الذي لا يمكن حدوثه، فالحذر منه ضرب من الهوس.

{ **فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ** [57] **وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ** [58] **كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرائيلَ** [59] **فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ** [60] }.

الفاء في { فَأَخْرَجْنَاهُمْ } تفريع على { إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ }. والتقدير: فأسرى موسى ببني إسرائيل فأخرجنا فرعون وجنده من بلادهم في طلب بني إسرائيل.

الجنّات: جنّات النخيل التي كانت على ضفاف النيل.

العيون: منابع تحفر على خلجان النيل.

الكنوز: الأموال المدّخرة.

المقام: أصله محلّ القيام أو مصدر قام. والمعنى على الأول: مساكن، وعلى الثاني: قيامهم في مجتمعهم.

الكريم: النفيس في نوعه. وذلك ما كانوا عليه من الأمن والثروة والرفاهية، كلّ ذلك تركه فرعون وجنوده الذين خرجوا منه لمطاردة بني إسرائيل لأنّهم هلكوا فلم يرجعوا إلى شيء ممّا تركوا.

{ **كَذَلِكَ** } تقدّم الكلام على نظيره عند قوله تعالى { كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً } [الكهف،91]، فهو بمنزلة الاعتراض.

{ **وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرائيلَ** } معترضة أيضا، والواو اعتراضية وليست عطفا لأجزاء القصة لما ستعلمه.

الإيراث: جَعْل أحد وارثا. وأصله إعطاء مال الميت، ويطلق على إعطاء ما كان ملكا لغير المعطَى (بفتح الطاء)، كما قال تعالى {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا} [الأعراف:137]، أي: أورثنا بني إسرائيل أرض الشام، وقال تعالى { ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا } [فاطر:32].

<u>المعنى</u>: أنّ الله أرزأ أعداء موسى ما كان لهم من نعيم إذ أهلكهم وأعطى بني إسرائيل خيرات مثلها لم تكن لهم، وليس المراد أنّه أعطى بني إسرائيل ما كان بيد فرعون وقومه من الجنات والعيون والكنوز، لأنّ بني إسرائيل فارقوا أرض مصر حينئذ وما رجعوا إليها كما يدل عليه قوله تعالى { كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ} [الدخان:28]. ولا صحة لما يقوله بعض أهل القصص من أنّ بني إسرائيل رجعوا فملكوا مصر، فإنّ بني إسرائيل لم يملكوا مصر بعد خروجهم منها سائر الدهر، فلا محيص من صرف الآية عن ظاهرها إلى تأويل يدلّ عليه التاريخ ويدلّ عليه ما في سورة الدخان.

{ **وَأَوْرَثْنَاهَا** } الضمير هنا عائد للأشياء المعدودة باعتبار أنّها أسماء أجناس، أي: أورثنا بني إسرائيل جنّات وعيونا وكنوزا، فعود الضمير هنا إلى لفظ مستعمل في الجنس وهو قريب من الاستخدام وأقوى منه.

أي: أعطيناهم أشياء ما كانت لهم من قبل.

{ **فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ** } مفرّعة على جملة { فَأَخْرَجْنَاهُمْ } وما بينهما اعتراض. والتقدير: فأخرجناهم فأتبعوهم. والضمير المرفوع عائد إلى ما عاد عليه ضمير النصب من قوله تعالى { فَأَخْرَجْنَاهُمْ }،

وضمير النصب عائد إلى { بِعِبَادِي } من قوله تعالى { أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي } [52].

{ **فَأَتْبَعُوهُمْ** } بهمزة قطع وسكون التاء بمعنى تبع، أي: فلحقوهم.

{ **مُشْرِقِينَ** } حال من الضمير المرفوع، يجوز أن يكون معناه قاصدين جهة الشرق، يقال: أشرق، إذا دخل في أرض الشرق، كما يقال: أنجد. ويُعلم من هذا أنّ بني إسرائيل توجّهوا صوب الشرق وهو صوب بحر (القلزم) وهو البحر الأحمر، وسُمّي يومئذ (بحر سُوف) وهو شرقي مصر.

ويجوز أن يكون المعنى داخلين في وقت الشروق، أي: أدركوهم عند الشروق.

{ **فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ** [61] **قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ** [62] **فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ** [63] **وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ** [64] **وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ** [65] **ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ** [66] }.

لمّا بلغ فرعون وجنوده قريبا من مكان جموع بني إسرائيل بحيث يرى كلّ فريق منهما الفريق الآخر.

الترائي: تفاعل، لأنّه حصول الفعل من الجانبين.

{ **إِنَّا لَمُدْرَكُونَ** } التأكيد لشدّة الاهتمام بهذا الخبر، وهو مستعمل في معنى الجزع.

{ **كَلَّا** } ردع. وتقدّم في قوله { كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ } [مريم:79]. ردع به موسى ظنّهم أنّهم يدركهم فرعون. { **إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ** } علّل ردعهم عن ذلك. وإسناد المعيّة إلى الربّ على معنى مصاحبة لطف الله به وعنايته بتقدير أسباب نجاته من عدوه. وذلك أنّ موسى واثق بأنّ الله منجيه.

{ **سَيَهْدِينِ** } مستأنفة أو حال من { رَبِّي }. والمعنى: أنّه سيبيّن لي سبيل سلامتنا.

{ **أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ** } أمره الله أن يضرب بعصاه البحر فانفلق طرقا مرّت منها أسباط بني إسرائيل، واقتحم فرعون البحر فمدّ عليهم حين توسطوه فغرق جميعهم.

الفِرْق: الجزء المفروق منه، وهو بمعنى مفعول مثل الفلق.

الطود: الجبل.

{ **أَزْلَفْنَا** } قرّبنا وأدنينا، مشتقّ من الزلَف (بالتحريك) وهو القرب. ويقال: ازدلف: اقترب، وتزلّف: تقرَّب، فالهمزة للتعدية.

{ **الْآخَرِينَ** } : هم قوم فرعون، لوقوعه في مقابلة فريق بني إسرائيل.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ** [67] **وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** [68] }.

تقدّم القول في نظيره آنفا قبل قصة موسى [9/8]، وكانت هذه القصّة آية لأنّها دالة على أنّ ذلك الانقلاب

العظيم في أحوال الفريقين، الخارج عن معتاد تقلّبات الدول والأمم، دليل على أنّه تصرّف إلهيّ خاص، أيّد به رسوله وأمّته، فهو آية على عواقب تكذيب رسل الله، مع ما تتضمّنه القصّة من دلائل التوحيد.
ووجه تذييل كل استدلال من دلائل الوحدانية وصدق الرسل في هذه السورة بجملة { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً } إلى آخرها، تقدّمت الإشارة إليه في طالعة السورة.

{ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ [69] إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ [70] قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ [71] قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ [72] أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ [73] قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ [74] قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ [75] أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ [76] فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ [77] }.

عُقِّبت قصّة موسى مع فرعون وقومه بقصّة إبراهيم. وقُدِّمت هنا على قصّة نوح على خلاف المعتاد في ترتيب قصصهم في القرآن لشدّة الشبه بين قوم إبراهيم وبين مشركي العرب في عبادة الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر، وفي تمسّكهم بضلال آبائهم، وأنّ إبراهيم دعاهم إلى الاستدلال على انحطاط الأصنام عن مرتبة استحقاق العبادة ليكون إيمان الناس مستندا لدليل الفطرة، وفي أنّ قوم إبراهيم لم يُسلّط عليهم من عذاب الدنيا مثل ما سُلِّط على قوم نوح وعلى عاد وثمود وقوم لوط وأهل مدين، فأشبهوا قريشا في إمهالهم.
فرسالة محمد وإبراهيم صلى الله عليهما قائمتان على دعامة الفطرة في العقل والعمل، أي: في الاعتقاد والتشريع، فإنّ الله ما جعل في خلق الإنسان هذه الفطرة ليضيعها ويهملها، بل ليقيمها ويُعْمِلها.
فلمّا ضرب الله المثل للمشركين لإبطال زعمهم أنّهم لا يؤمنون حتّى تأتيهم الآيات كما أوتي موسى، فإنّ آيات موسى وهي أكثر آيات الرسل السابقين لم تقض شيئا في إيمان فرعون وقومه لمَّا كان خُلُقهم المكابرة والعناد، أعقب ذلك بضرب المثل بدعوة إبراهيم المماثلة لدعوة محمد صلى الله عليه وسلم في النداء على إعمال دليل النظر.
التلاوة: القراءة. وتقدّم في قوله تعالى { مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ } [البقرة:102].
{ **عَلَيْهِمْ** } الضمير عائد إلى معلوم من السياق كما تقدّم في قوله أوّل السورة { أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ } [3].
نبأ إبراهيم: قصّته المذكورة هنا، أي: اقرأ عليهم ما ينزل عليك الآن من نبأ إبراهيم. وإنّما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بتلاوته للإشارة إلى أنّ الكلام المتضمِّن نبأ إبراهيم هو آية معجزة.
إبراهيم: تقدّم ذكره عند قوله تعالى { وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ } [البقرة:124].
{ **إِذْ قَالَ** } ظرف، أي: حين قال. والجملة بيان للنبأ، لأنّ الخبر عن قصّة مضت فناسب أن تبيَّن باسم زمان مضاف إلى ما يفيد القصّة. نظيره قوله { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ } [يونس:71].

{ **لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ** } أدخل أباه في إلقاء السؤال عليهم، إمّا لأنّه كان حاضرا في مجلس قومه، إذ كان سادن بيت الأصنام كما روي، وإمّا لأنّه سأله على انفراد وسأل قومه مرّة أخرى فجمعت الآية حكاية ذلك.

والأظهر أنّ إبراهيم ابتدأ بمحاجّة أبيه ثم انتقل إلى محاجّة قومه، وأنّ هذه هي المحاجّة الأولى في ملأ أبيه وقومه، ألقى فيها دعوته في صورة سؤال استفسار غير إنكار استنزالا لطائر نفورهم، وأمّا قوله تعالى { إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ } [الصافات:86/85] فذلك مقام آخر له في قومه كان بعد الدعوة الأولى.

{ **مَا تَعْبُدُونَ** } (مَا) اسم استفهام يُسأل به عن تعيين الجنس، كما تقدّم في قوله { وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ } [23]. والاستفهام صوري فإنّ إبراهيم يعلم أنّهم يعبدون أصناما ولكنّه أراد بالاستفهام افتتاح المجادلة معهم فألقى عليهم هذا السؤال ليكونوا هم المبتدئين بشرح حقيقة عبادتهم ومعبوداتهم فتلوح لهم من خلال شرح ذلك لوائح ما فيه من فساد، لأنّ الذي يتصدّى لشرح الباطل يشعر بما فيه من بطلان عند نظم معانيه أكثر ممّا يشعر بذلك من يسمعه، ولأنّه يعلم أنّ جوابهم ينشأ عنه ما يريده من الاحتجاج على فساد دينهم.

{ **قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ** } أجابوا استفهامه بتعيين نوع معبوداتهم. وأتوا في جوابهم بتكرير الفعل الواقع في السؤال، مع أنّ الشأن الاستغناء عن التصريح، ابتهاجا بهذا الفعل وافتخارا به. ولذلك عطفوا على الفعل ما يزيده تأكيدا بقولهم { فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ } .

{ **أَصْنَاماً** } التنوين للتعظيم. ولهذا قال إبراهيم لهم في مقام آخر { إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً } [العنكبوت:17]، على وجه التحقير لمعبوداتهم والتحميق لهم.

{ **عَاكِفِينَ** } ضُمّن معنى (عابدين) فعُدّي إليه الفعل بـ (اللام) دون (على).

{ **قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ [72] أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ** } لمّا كان شأن الربّ أن يُلجأ إليه في الحاجة وأن ينفع أو يضرّ ألقى إبراهيم عليهم استفهاما عن حال هذه الأصنام: هل تسمع دعاء الداعين وهل تنفع أو تضرّ تنبيها على دليل انتفاء الإلهية عنها.

{ **قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ** } {بَلْ} في حكاية جواب القوم لإضراب الانتقال من مقام إثبات صفاتهم إلى مقام قاطع للمجادلة في نظرهم، وهو أنّهم ورثوا عبادة هذه الأصنام.

{ **فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ** } اقتصر إبراهيم في هذا المقام، الذي رجّحنا أنّه أوّل مقام قام فيه للدعوة، على أن أظهر قلّة اكتراثه بهذه الأصنام.

العدوّ: مشتقّ من العدوان، وهو الإضرار بالفعل أو القول. والعدوّ: المبغض، فعدوّ: فعول بمعنى فاعل يلازم الإفراد والتذكير فلا تلحقه علامات التأنيث إلّا نادرا.

والأصنام لا إدراك لها فلا توصف بالعداوة. ولذلك فقوله من قبيل التشبيه البليغ، أي: هم كالعدو لي في أنّي أبغضهم وأضرّهم. وهذا قريب من قوله تعالى { إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً } [فاطر:6]،

أي: عاملوه معاملة العدوّ.

{ **إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ** } الاستثناء منقطع. و{ إِلَّا } بمعنى (لَكِنِ) إذ كان رب العالمين غير مشمول لعبادتهم، إذ الظاهر أنّهم ما كانوا يعترفون بالخالق ولم يكونوا يجعلون آلهتهم شركاء لله كما هو حال مشركي العرب، ألا ترى إلى قوله تعالى { قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا} فهو الصنم الأعظم عندهم.

ويظهر أن الكلدانيين، قوم إبراهيم، لم يكونوا يؤمنون بالخالق الذي لا تدركه الأبصار. وكان أعظم الآلهة عندهم هو كوكب الشمس والصنم الذي يمثّل الشمس هو (بعل)، فوظيفة الأصنام عندهم هو تدبير شؤون الناس في حياتهم. وأمّا الإيجاد والإعدام فكانوا من الذين يقولون { وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ } [الجاثية:24].

وقد يكونون معترفين بربّ عظيم للأكوان وإنّما جعلوا الأصنام شركاء له في التصرّف في نظام تلك المخلوقات، كما كان حال الإشراك في العرب، فيكون الاستثناء متّصلا، لأنّ الله من جملة معبوديهم، أي: إلّا الرب الذي خلق العوالم.

وتقدّم ذكر أصنام قوم إبراهيم في [الأنبياء:52].

{ **الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ [78] وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ [79] وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ [80] وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ [81] وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ [82]** }.

{ **فَهُوَ يَهْدِينِ** } لأنّه إذا كان هو الخالق فهو الأولى بتدبير مخلوقاته دون أن يتولّاها غيره.

وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي، دون أن يقول: فيهدين، لتخصيصه بأنّه متولي الهداية دون غيره، لأنّ المقام لإبطال اعتقادهم تصرّف أصنامهم بالقصر الإضافي، وهو قصر قلب.

والتعبير بالمضارع لأنّ الهداية متجدّدة له. وجُعل فعل الهداية مفرَّعا بـ (الفاء) على فعل الخلق لأنّه ملازم له، لأنّ الهداية بهذا المعنى من مقتضى الخلق لأنّها ناشئة عن خلق العقل، كما قال تعالى { الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى } [طه:50]. ومن الهداية الدلالة على طُرق العلم، كما في قوله تعالى { وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ } [البلد:10].

{ **وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ** } القول في تقديم المسند إليه هنا وفي قوله تعالى { فَهُوَ يَشْفِينِ } كالقول في سابقهما للردّ على زعمهم أنّ الأصنام تقدّر لهم تيسير ما يأكلون وما يشربون وبها برؤهم إذا مرضوا.

{ **وَإِذَا مَرِضْتُ** } في إسناده فعل المرض إلى نفسه تأدّب مع الله.

{ **وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ** } لم يأت فيه ما يقتضي الحصر لأنّهم لم يكونوا يزعمون أنّ الأصنام تميت، بل عمل الأصنام قاصر على الإعانة أو الإعاقة في أعمال الناس في حياتهم.

{ **وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ** } أطلق على رجاء المغفرة لفظ الطمع تواضعا لله تعالى ومباعدة لنفسه عن هاجس استحقاقه المغفرة، وإنّما طمع في ذلك لوعد الله بذلك.

الخطيئة: الذنب. يقال: خطئ إذا أذنب. وتقدّم في قوله تعالى { نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ } [البقرة:58]. والمقصود في لسان الشرائع: مخالفة ما أمر به الشرع. وإذا قد كان إبراهيم حينئذ نبيّا والأنبياء معصومون من الذنوب كبيرها وصغيرها فالخطيئة منهم هي مخالفة مقتضى المقام النبوي.

المغفرة: العفو عن الخطايا، وإنّما قيّده بـ { يَوْمِ الدِّينِ } لأنّه اليوم الذي يظهر فيه أثر العفو.

يوم الدين: هو يوم الجزاء، وهذا الكلام خبر يتضمّن تعريضا بالدعاء.

جمعت كلمات إبراهيم عليه السلام، مع دلالتها على انفراد الله بالتصرّف في أطوار الخلق الجسماني، دلالة أخرى على جميع أصول النعم من أوّل الخلق إلى الخلق الثاني وهو البعث، فذكر خلق الجسد وخلق العقل وإعطاء ما به بقاء المخلوق وهو الغذاء والماء، وما يعتري المرء من اختلال المزاج وشفائه، وذكر الموت الذي هو خاتمة الحياة الأولى، وأعقبه بذكر الحياة الثانية للإشارة إلى أنّ الموت حالة لا يظهر كونها نعمة إلّا بغوص فكر لأنّ وراءه حياة هي نعمة لا محالة لمن شاء أن تكون له كذلك.

{ **يَهْدِينِ/ يَسْقِينِ/ يَشْفِينِ/ يُحْيِينِ** } حذفت ياآت المتكلّم لأجل التخفيف ورعاية الفاصلة لأنّها يوقف عليها، وفواصل هذه السورة أكثرها بالنون الساكنة.

{ رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ [83] وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ [84] وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ [85] وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ [86] وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ [87] يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ [88] إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ [89] }.

قابل إبراهيم في دعائه النعم الخمس التي أنعم الله بها عليه المذكورة في قوله تعالى { الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ - إلى قوله - يَوْمِ الدِّينِ } الراجعة إلى مواهب حسّيّة، بسؤال خمس نعم راجعة إلى الكمال النفساني، وأقحم بين طلباته سؤاله المغفرة لأبيه.

{ **رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً** } ابتدأ دعاءه بأن يُعطى حكما، هو الحِكمة والنبوّة، قال تعالى عن يوسف { آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً } [القصص:14] أي: النبوّة. وقد كان إبراهيم حين دعا نبيّا فلذلك كان السؤال طلبا للازدياد بأن يُعطى الرسالة مع النبوّة، أو يُعطى شريعة مع الرسالة، أو سأل الدوام على ذلك.

{ **وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** } ثم ارتقى فطلب إلحاقه بالصالحين. ولفظ الصالحين يعمّ جميع الصالحين من الأنبياء والمرسلين.

{ **وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ** } ثم سأل بقاء ذكر له حسن في الأمم والأجيال الآتية من بعده. وهذا يتضمّن سؤال الدوام والختام على الكمال، وطلب نشر الثناء عليه، وهذا ما تتغذى به الروح من بعد موته. وقد جعل الله في ذرّيّته أنبياء ورسلا يذكرونه وتذكره الأمم التابعة لهم ويخلد ذكره في الكتب.

وتقدّم الكلام على هذا مشبعا عند قوله تعالى { وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ

وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً } [الفرقان:74].

اللسان: مراد به الكلام، من إطلاق اسم الآلة على ما يتقوّم بها.

الصدق: هنا كناية عن المحبوب المرغوب فيه، لأنّه يرغب في تحقّقه ووقوعه في نفس الأمر.

{ **وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ** } سأل أن يكون من المستحقّين الجنّة، فاستعير اسم الورثة إلى أهل الاستحقاق، قال تعالى { أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [المؤمنون:10-11].

{ **وَاغْفِرْ لِأَبِي** } سأل المغفرة لأبيه قبل سؤال ألّا يخزيه الله يوم القيامة، لأنّه أراد ألّا يلحقه يومئذ شيء ينكسر منه خاطره.

{ **إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ** } تعليل لطلب المغفرة لأبيه فيه إيماء إلى أنّه سأل له مغفرة خاصة وهي مغفرة أكبر الذنوب، أعني الإشراك بالله، وهو سؤال اقتضاه مقام الخُلّة، وقد كان أبوه حيّا حينئذ، لقوله { قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً } [مريم:47].

ويجوز أن يكون طلب الغفران له كناية عن سبب الغفران وهو هدايته إلى الإيمان.

{ **وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ** } تقدّم الكلام على معنى الخزي عند تفسير قوله تعالى { إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [سورة البقرة:85]، وقوله تعالى { إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ } [آل عمران:192].

{ **يُبْعَثُونَ** } الضمير راجع إلى العباد المعلوم من المقام.

{ **يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ** } يظهر أنّه من كلام إبراهيم عليه السلام قصد به إظهار أنّ الالتجاء في ذلك اليوم إلى الله وحده ولا عون فيه بما اعتاده الناس في الدنيا من أسباب الدفع عن أنفسهم.

ويرى ابن عطية: أنّ الآيات التي أولها { يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ - إلى قوله - فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } منقطعة عن كلام إبراهيم عليه السلام وهي إخبار من الله تعالى صفة لليوم الذي وقف إبراهيم عنده في دعائه ألّا يُخزى فيه. وهو استظهار رشيق.

والاقتصار على المال والبنين في نفي النافعين جرى على غالب أحوال القبائل في دفاع أحد عن نفسه بأن يدافع إمّا بفدية وإمّا بنجدة، فالمال وسيلة الفدية والبنون أحقّ من ينصرون أباهم. واقتضى ذلك أنّ انتفاء نفع ما عدا المال والبنين من وسائل الدفاع حاصل بالأولى بحكم دلالة الاقتضاء المستندة إلى العرف. فالكلام من قبيل الاكتفاء، كأنّه قيل: يوم لا ينفع مال ولا بنون ولا شيء آخر.

{ **إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** } استثناء من مفعول { يَنْفَعُ }، تقديره: إلّا أحد أتى الله بقلب سليم.

فالذي يأتي الله يومئذ بقلب سليم هو منفوع بدلالة الاستثناء وهو نافع، أي: نافع نفسه بدلالة المجرور المتعلق بفعل { أَتَى }.

القلب: يراد به هنا الإدراك الباطني.

السليم: الموصوف بقوّة السلامة، والمراد بها هنا السلامة المعنوية المجازية، أي: الخلوص من عقائد

الشرك مما يرجع إلى معنى الزكاء النفسي. والاقتصار على السليم هنا لأنّ السلامة باعث الأعمال الصالحة والظاهرية، وإنّما تثبت للقلوب هذه السلامة في الدنيا باعتبار الخاتمة فيأتون بها سالمة يوم القيامة.

{ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ [90] وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ [91] وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ [92] مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ [93] فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ [94] وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ [95] }.

{ **وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ** } الظاهر أنّ الواو واو الحال والعامل فيها { لا يَنْفَعُ مَالٌ } [88]، أي: يوم عدم نفع من عدا من أتى الله بقلب سيلم وقد أزلفت الجنّة للمتقين.

والانتقال إلى تصوير هذه الأحوال شيء اقتضاه مقام الدعوة إلى الإيمان بالرغبة والرهبة لأنّه ابتدأ الدعوةَ بإلقاء السؤال على قومه فيما يعبدون إيقاظا لبصائرهم، ثمّ أعقب ذلك بإبطال إلهية أصنامهم، والاستدلال على عدم استئهالها الإلهية بدليل التأمّل، وهو أنّها فاقدة السمع والبصر وعاجزة عن النفع والضرّ، ثمّ طال دليل التقليد الذي نحا إليه قومه لمّا عجزوا عن تأييد دينهم بالنظر.

فلمّا نهضت الحجّة على بطلان إلهية أصنامهم انتصب لبيان الإله الحق رب العالمين، الذي له صفات التصرّف في الأجسام والأرواح، تصرّف المنعم المتوحّد بشتّى التصرّف، إلى أن يأتي تصرّفه بالإحياء المؤبّد ليعلموا أنّهم إن استغفروا الله عمّا سلف منهم من كفر فإنّ الله يغفر لهم، وأنّهم إن لم يقلعوا عن الشرك لا ينفعهم شيء يوم البعث. ثمّ صوّر لهم عاقبة حالي التقوى والغواية بذكر الدارين.

ولما كان قوم إبراهيم مستمرّين على الشرك ولم يكن يومئذ أحد مؤمنا غيره وغير زوجه وغير لوط ابن أخيه، كان المقام بذكر الترهيب أجدر، فلذلك أطنب في وصف حال الضالين يوم البعث وسوء مصيرهم حيث يندمون على ما فرّطوا في الدنيا من الإيمان والطاعة ويتمنّون أن يعودوا إلى الدنيا ليتداركوا.

الإزلاف: التقريب. وتقدّم في قوله تعالى { وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ } [64]. والمعنى: أنّ المتّقين يجدون الجنّة حاضرة فلا يتجشّمون مشقّة السوق إليها.

{ **وَبُرِّزَتِ** } مبالغة في أُبرزت لأنّ التضعيف فيه مبالغة ليست في التعدية بالهمزة، ونظيره قوله تعالى { وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى } [النازعات:36].

{ **لِلْغَاوِينَ** } الموصوفون بالغواية، أي: ضلال الرأي.

{ **وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ** } ذكر ما يقال للغاوين للإنحاء عليهم وإظهار حقارة أصنامهم، وفي الاقتصار على ذكر هذا دون غيره ممّا يخاطبون به يومئذ لمقام طلب الإقلاع عن عبادة تلك الأصنام.

{ **وَقِيلَ** } أُسند فعل القول إلى غير معلوم لأنّ الغرض معرفة القول لا القائل، فالقائل الملائكة بإذن من الله تعالى لأنّ المشركين أحقر من أن يوجّه الله إليهم خطابه مباشرة.

والاستفهام استفهام عن تعيين مكان الأصنام إن لم تكن حاضرة أو عن عملها إن كانت حاضرة في ذلك الموقف تنزيلا لعدم جدواها فيما كانوا يأملونه منها منزلة العدم تهكّما وتوبيخا وتوقيفا على الخطأ.

{ **هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ** } استفهام مع الإنكار أن تكون الأصنام نصراء.

الانتصار: طلب النصير.

{ **أَوْ** } للتخيير في التوبيخ والتخطئة، أي: هل أخطأتم في رجاء نصرها إياكم؟ أو في الأقل هل تستطيع نصر أنفسها؟ وذلك حين يُلقى بالأصنام في النار بمرأى من عبدتها.

{ **فَكُبْكِبُوا** } كُبُّوا فيها كبًّا بعد كبٍّ. مضاعف بالتكرير، وتكرير اللفظ مفيد تكرير المعنى مثل: كفكف الدمع، ونظيره في الأسماء: جيش لَمْلَمٌ، أي: كثير، مبالغة في اللَّم.

{ **يَنْصُرُكُمُ / يَنْتَصِرُونَ / كُبْكِبُوا** } الضمائر راجعة إلى { مَا تَعْبُدُونَ } بتنزيلها منزلة العقلاء.

جنود إبليس: هم أولياؤه وأصناف أهل الضلالات التي هي من وسوسة إبليس.

وتقدّم الكلام على إبليس في سورة البقرة.

{ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ [96] تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ [97] إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ [98] وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ [99] فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ [100] وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ [101] فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [102] }.

يجوز أن يكون هذا من حكاية كلام إبراهيم عليه السلام أطنب به الموعظة لتصوير هول ذلك اليوم، فتكون الجملة حالا أو تكون مستأنفة استئنافا بيانيا كما سيأتي.

ويجوز أن يكون هذا الكلام موعظة من الله للسامعين من المشركين وتعليما منه للمؤمنين، فتكون الجملة استئنافا معترضا بين ذكر القصّة والتي بعدها، وهو استئناف بياني ناشئ عن قوله تعالى {فَكُبْكِبُوا فِيهَا}، لأنّ رؤيتهم أصنامهم هو مثار الخصومة بينهم.

{ **قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ** } في موضع الحال.

{ **تَاللَّهِ** } جيء في القسم بـ (التاء) دون (الواو) لأنّ التاء تختصّ بالقسم في شيء متعجَّب منه كما تقدّم في قوله تعالى { قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ } [يوسف:73]، وقوله تعالى { وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ } [الأنبياء:57]. فهم يعجبون من ضلالهم إذ ناطوا آمالهم المعونة والنصر بحجارة لا تغني عنهم شيئا.

{ **إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ** } أفادوا تمكّن الضلال منهم باجتلاب حرف الظرفية المستعار لمعنى الملابسة،

وأكّدوا ذلك بوصفهم الضلال بالمبين، أي: الواضح البيّن. وفي هذا تسفيه منهم لأنفسهم إذ تمشّى عليها هذا الضلال الذي ما كان له أن يروج على ذي مسكة من عقل.

{ **إِذْ نُسَوِّيكُمْ** } ظرف متعلق بـ { كُنَّا }، أي: كنّا في ضلال عند تسوية الأصنام برب العالمين.

وليست { إِذْ } بموضوعة للتعليل.

التسوية: المعادلة والمماثلة، أي: إذ نجعلكم مثل ربّ العالمين، فالظاهر أنّهم جعلوهم مثله مع الاعتراف بالإلهية، وهو ظاهر حال إشراكهم كما تقدّم في قوله { فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ } [77]،

وضمير الخطاب موجَّه إلى الأصنام، وهو من توجيه المتندِّم الخطابَ إلى الشيء الذي لا يعقل وكان سببا في الأمر الذي جرَّ إليه الندامة. والمقصود من ذلك المبالغة في توبيخ نفسه.

روى الغزالي في الإحياء: أنّ عمر بن الخطاب دخل على أبي بكر الصديق فوجده ممسكا بلسانه بأصبعيه وهو يقول: أنت أوردتني الموارد.

وعن ابن مسعود أنّه وقف على الصفا يلبِّي ويقول: يا لسان قل خيرا تغنم واسكت عن شرّ تسلم.

وصيغة المضارع لاستحضار الصورة العجيبة حين يتوجّهون إلى الأصنام بالدعاء والنعوت الإلهية.

{ **وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ** } خطاب بعض العامة لبعض. وعنوا بالمجرمين أيمة الكفر الذين ابتدعوا لهم الشرك واختلقوا لهم دينا. والمناسب أن يكون التعريف في { الْمُجْرِمُونَ } مستعملا في كمال الإجرام، فإنّ من معاني اللام أن تدلّ على معنى الكمال.

{ **فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ** } رتّبوا بـ (الفاء) انتفاء الشافعين على جملة { وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ } حيث أطمعوهم بشفاعة الأصنام لهم عند الله، مثل المشركين من العرب { وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ } [يونس:18]. وهذا الخبر مستعمل في التحسّر والتوجّع.

الشافع: الذي يكون واسطة جلب نفع لغيره أو دفع ضرّ عنه. وتقدّم ذكر **الشفاعة** في قوله تعالى { وَلا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ } [البقرة:123]، و**الشفيع** في [يونس:18].

{ **وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ** } تتميم أثاره ما يلقونه من سوء المعاملة ومن الحرمان الذي يعاملهم به كلّ من يسألونه الرفق بهم، حتّى علموا أنّ جميع الخلق تتبرّأ منهم، كما قال تعالى { وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ } [البقرة:166]. ويومئذ حقّت كلمة الله { الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ } [الزخرف:67].

الصديق: هو الذي يواسيك أو يتوجّع لحالك، وتقدّم في قوله تعالى { أَوْ صَدِيقِكُمْ } [النور:61].

الحميم: القريب، فعيل من حَمَّ (بفتح الحاء) إذ دنا وقرب، أخصّ من الصديق.

{ **مِنْ شَافِعِينَ / وَلَا صَدِيقٍ** } المراد جنس الشفيع وجنس الصديق لوقوع الاسمين في سياق النفي المؤكّد بـ {مِنْ} الزائدة، وفي ذلك السياق يستوي المفرد والجمع في الدلالة على الجنس. والذي يبدو لي أنّه أوثر جمع { شَافِعِينَ } لأنّه أنسب بصورة ما في أذهانهم. وأمّا إفراد { صَدِيقٍ } فلأنّه أريد أن يجرى عليه

وصف { حَمِيمٍ } فلو جيء بالموصوف جمعا لاقتضى جمع وصفه، وجمع { حَمِيمٍ } فيه ثقل لا يناسب منتهى الفصاحة ولا يليق بصورة الفاصلة، مع ما حصل في ذلك من التفنّن الذي هو من مقاصد البلغاء.

{ **فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** } فرَّعوا على هذا التحسّر والندامة تمنِّي أن يُعادوا إلى الدنيا ليتداركوا أمرهم في الإيمان بالله وحده. و(لو) هذه للتمني، وأصلها (لو) الشرطية لكنّها تنوسي منها معنى الشرط.

وأصلها: لو أُرجعنا إلى الدنيا لآمنا. لكنّه إذا لم يُقصد تعليق الامتناع على امتناع تمحَّضت (لو) للتمنِّي لما بين الشيء الممتنع وبين كونه متمنًّى من المناسبة.

الكرَّة: مرة من الكَرّ وهو الرجوع.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ** [103] **وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** [104] }.

تكرير ثالث لهاته الجملة تعدادا على المشركين وتسجيلا لتصميمهم.

{ **ذَلِكَ** } إشارة إلى كلام إبراهيم عليه السلام، فإنّ فيه دليلا بيّنا على وحدانيّة الله تعالى وبطلان إلهية الأصنام، فكما لم يهتد بها قوم إبراهيم فما كان أكثر المشركين بمكة بمؤمنين بها بعد سماعها، ولكنّ التبليغ حقّ على الرسول صلى الله عليه وسلم.

{ **كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ** [105] **إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ** [106] **إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ** [107] **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ** [108] **وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ** [109] **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ** [110] }.

استئناف لتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم ناشئ عن قوله تعالى { وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ } [103]، أي: لا تأس عليهم ولا يعظم عليك أنّهم كذبوك فقد كذَّبت قوم نوح المرسلين. وقد علم العرب رسالة نوح.

{ **كَذَّبَتْ** } أُنِّث الفعل المسند إلى قوم نوح لتأويل { قَوْمُ } بمعنى الأمّة أو الجماعة كما يقال: قالت قريش، وقالت بنو عامر، وذلك قياس في كل اسم جمع لا واحد له من لفظه إذا كان للآدمي مثل: نفر ورهط، فأمّا إذا كان لغير الآدميين نحو إبل فمؤنث لا غير. قاله الجوهري.

{ **الْمُرْسَلِينَ** } جُمع لأنّ تكذيبهم لم يكن لأجل ذاته ولكنّه كان لإحالتهم أن يرسل الله بشرا وأن تكون عبادة أصنامهم ضلالا، فكان تكذيبهم إيّاه مقتضيا تكذيب كلّ رسول لأنّ كلّ رسول يقول مثل ما قاله نوح عليه السلام. وقد حُكي تكذيبهم أن يكون الرسول بشرا في قوله تعالى { أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ } [الأعراف:63].

{ **إِذْ قَالَ لَهُمْ** } ظرف، أي: كذّبوه حين قال لهم { أَلَا تَتَّقُون } خُصّ بالذكر في هذه السورة هذا الموقف من مواقفه لأنّه أنسب بغرض السورة في تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم بذكر مماثل حاله مع قومه.

{ **أَخُوهُمْ نُوحٌ** } الأخ هنا مستعمل في معنى القريب من القبيلة. وتقدّم في قوله تعالى { وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً } [الأعراف:65]. وتقدّم ذكر **نوح** عند قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً } [آل عمران:33].

{ **أَلَا تَتَّقُونَ** } يجوز أن يكون لفظ { أَلَا } مركّبا من حرفين همزة استفهام دخلت على (لا) النافية، فهو استئناف عن انتفاء تقواهم مستعمل في الإنكار وهو يقتضي امتناعهم من الامتثال لدعوته.

ويجوز أن يكون { أَلَا } حرفا واحدا هو حرف التحضيض مثل قوله تعالى { أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ } [التوبة:13]، وهو يقتضي تباطؤهم عن تصديقه.

التقوى: خشية الله من عقابه إيّاهم على أن جعلوا معه شركاء.

ويظهر أن قوله تعالى { أَلا تَتَّقُونَ } صدر بعد أن دعاهم من قبل وكرّر دعوتهم إذ رآهم مصرّين على الكفر، ويدلّ لذلك قولهم في مجاوبته { وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ } [111].

{ **إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ** } تعليل للإنكار أو للتحضيض، أي: كيف تستمرون على الشرك وقد نهيتكم عنه وأنا رسول لكم أمين عنكم. وكان نوح موسوما بالأمانة لا يُتّهم في قومه كما كان محمد صلى الله عليه وسلم يُلقّب الأمين في قريش. وفي حكاية استدلال نوح بأمانته بين قومه في هذه القصة المسوقة مثلا للمشركين في تكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم تعريض بهم إذ كذّبوه بعد أن كانوا يدعونه الأمين.

والتأكيد لتوقّع الإنكار منهم.

{ **وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ** } عطف على الكلام السابق، أي: علمتم أنّي أمين لكم وتعلمون أنّي لا أطلب من دعوتكم إلى الإيمان نفعا لنفسي.

{ **عَلَيْهِ** } الضمير عائد إلى معلوم من مقام الدعوة.

{ **إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ** } إشارة إلى يوم الجزاء، وكانوا ينكرون البعث كما دلّ عليه قوله تعالى { وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً } [نوح:18].

{ **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ** } تأكيد لقوله { أَلا تَتَّقُونَ } وهو اعتراض بين الجملتين المتعاطفتين. وكرّر الجملة لزيادة التأكيد، فيكون قد افتتح دعوته بالنهي عن ترك التقوى ثمّ علّل ذلك ثم أعاد ما تقتضيه جملة الاستفتاح، ثم علّل ذلك بقوله { وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ }، ثمّ أعاد جملة الدعوة في آخر كلامه مرة ثانية بمنزلة النتيجة للدعوة ولتعليلها.

{ **أَطِيعُونِ** } حذفت الياء في الموضعين كما حذفت في قوله { فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ } [14].

{ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ [111] قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [112] إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ [113] وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ [114] إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ [115] }.

{ **قَالُوا** } هم كبراء القوم الذي تصدّوا لمحاورة نوح.

{ **أَنُؤْمِنُ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ** } استفهام إنكاري، أي: لا نؤمن لك وقد اتّبعك الأرذلون. والجملة حاليّة.

الأرذلون: سقط القوم الموصوفون بالرذالة: وهي الخسّة والحقارة، أرادوا بهم ضعفاء القوم وفقراءهم. تكّبروا وتعاظموا أن يكونوا والضعفاء سواء في اتّباع نوح. وهذا كما قال عظماء المشركين للنبيّ صلى الله عليه وسلم لمّا كان من المؤمنين عمار وبلال وزيد ابن حارثة: أنحن نكون تبعا لهؤلاء، أطردهم عنك فلعلّك إن طردتهم أن نتّبعك. فأنزل الله قوله تعالى { وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ } [الأنعام:52].

{ **قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } جواب نوح يحتاج إلى تدقيق في **لفظه ومعناه؛**

فأمّا لفظه فاقتران أوله بـ (الواو) يجعله في حكم المعطوف على كلام قومه تنبيها على اتصاله بكلامهم. وذلك كناية عن مبادرته بالجواب، كما في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام { وَمِنْ ذُرِّيَّتِي } بعد قوله تعالى { قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً } [البقرة:124]. ويُسمَّى عطف تلقين مراعاة لوقوعه في تلك الآية والأَوْلى أن يسمَّى عطف تكميل.

وأمّا معناه فهو استفهام بمعنى: وما علمي بأعمالهم؟ أي: الله اعلم بحالهم. فهو إمساك عن الجواب. ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن الذين ماتوا من صبيان المشركين: **" الله أعلم بما كانوا عاملين ".**

{ **إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ** } قصر موصوف على الصفة، والموصوف هو حسابهم والصفة هي على ربّي. وهو ردّ لما تضمّنه كلام قومه من مطالبته بإبعاد الذين آمنوا لأنّهم لا يستحقّون أن يكونوا مساوين لهم في الإيمان الذي طلبه نوح من قومه.

الحساب: حقيقته العدّ، واستُعمل في معنى تمحيص الأعمال وتحقيق ظواهرها وبواطنها بحيث لا يفوت منها شيء أو يشتبه.

والمعنى: أنّ الله هو الذي يتولّى معاملتهم بما أسلفوا وما يعملون وبحقائق أعمالهم. وهذا كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم:" **فإذا قالوها** (لا إله إلا الله) **عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقّها وحسابهم على الله "،**

أي: تحقيق مطابقة باطنهم لظاهرهم على الله.

{ **لَوْ تَشْعُرُونَ** } تجهيل لهم ورَغْمٌ لغرورهم وإعجابهم الباطل. وجواب { لَوْ } محذوف دلّ عليه ما قبله.

والتقدير: لو تشعرون لشعرتم بأنّ حسابهم على الله لا عليَّ. ودلّ على أنّه جهّلهم قوله { وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ } [هود:29].

{ **وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ** } بعد أن أبطل مقتضى طردهم صرّح بأنّه لا يفعله.

{ **إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ** } استئناف في معنى التعليل.

المبين: من أبان المتعدّي، بمعنى بيَّن ووضَّح. والقصر إضافي وهو قصر موصوف على صفة.

وقد تقدّم في [هود:29] حكاية موقف لنوح عليه السلام مع قومه شبيه بما حُكي هنا، وبين الحكايتين اختلاف ما، فلعلّهما موقفان أو هما كلامان في موقف واحد حُكي أحدهما هنالك والآخر هنا، على عادة قصص القرآن، فما في إحدى الآيتين من زيادة يُحمل على أنّه مُكمِّل لما في الأخرى.

{ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ [116] قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ [117] فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [118] فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ [119] ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ [120] }.

لمّا أعياهم الاستدلال صاروا إلى سلاح المبطلين وهو المناضلة بالأذى.

الرجم: الرمي بالحجارة، وقد غلب استعماله في القتل به.

{ **مِنَ الْمَرْجُومِينَ** } أي: من بين الذين يستحقّون الرجم.

{ **إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ** } خبر مستعمل في إنشاء التحسّر واليأس من إقلاعهم عن التكذيب تمهيدا للدعاء عليهم. وحذف الياء للفاصلة كما تقدّم في قوله { فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ }.

الفتح: الحُكم، وتأكيده بـ { **فَتْحاً** } لإرادة حكم شديد وهو الاستئصال.

{ **وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** } احتراس.

المشحون: المملوء.

{ **ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ** } للتراخي الرتبي في الإخبار لأنّ إغراق أمّة كاملة أعظم دلالة على عظيم القدرة من إنجاء طائفة من الناس.

{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ [121] وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ [122] }.

الآية في قصّة نوح دلالتها على أنّ الله لا يقرّ الذين يكذّبون رسله، ففي هذه القصّة آية للمشركين من قريش وهم يعلمون قصة نوح والطوفان.

{ **كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ** [123] **إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ** [124] **إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ** [125] **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ** [126] **وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ** [127] }.

جملة مستأنفة استئناف تعداد لأخبار التسلية للرسول صلى الله عليه وسلم، وتكرير الموعظة للمكذّبين.

والقول في هذه الآيات كالقول في نظيرتها في أوّل قصّة نوح سواء، سوى أنّ قوله تعالى:

{ **كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ** } يفيد أنّهم كذبوا رسولهم هودا وكذّبوا رسالة نوح، لأنّ هودا وعظهم بمصير قوم نوح في قوله تعالى { وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ } [الأعراف:69].

{ **كَذَّبَتْ** } اقترن الفعل بتاء التأنيث لأنّ اسم (عاد) علم على أمّة فهو مؤوّل بمعنى الأمّة.

{ **أَلا تَتَّقُونَ** } القول فيه مثل القول في نظيره المتقدّم في قصّة قوم نوح.

{ **إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ** } هو كقول نوح لقومه، فإنّ الرسول لا يُبعث إلّا وقد كان معروفا بالأمانة وحسن الخُلق قبل الرسالة. ويدلّ لكون هود قد كان كذلك في قومه قول قومه له { إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ } [هود:54] الدال على أنّهم زعموا أن تغيّر حاله عمّا كان معروفا به بسبب سوء اعتقاده في آلهتهم.

{ **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ** } تفريع. وحذف (الياء) للفاصلة كحذفها في قصة نوح وإبراهيم.

{ **عاد / هود** } تقدّم ذكرهما عند قوله تعالى { وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً } [الأعراف:65].

{ **أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ** [128] **وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ** [129] **وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ** [130] }.

كانت عاد قد بلغوا مبلغا عظيما من البأس وعِظَم السلطان والتغلُّب على البلاد مما أثار قولهم { مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً } [فصلت:15]. فقد كانت قبائل العرب تصف الشيء العظيم في نوعه بأنّه (عادي)، وكانوا أهل رأي سديد ورجاحة أحلام. فطال عليهم الأمد، وتفنَّنوا في إرضاء الهوى، وأقبلوا على الملذّات واشتدّ الغرور بأنفسهم فأضاعوا الجانب الأهم للإنسان وهو جانب الدين وزكاء النفس، وأهملوا أن يقصدوا من أعمالهم المقاصد النافعة ونيّة إرضاء الله على أعمالهم لحُبّ الرئاسة والسمعة، فعبدوا الأصنام واستخفّوا بجانب الله تعالى، واستحمقوا الناصحين. وأرسل الله إليهم هودا ففاتحهم بالتوبيخ على ما فتنوا بالإعجاب به وبذمّه إذ ألهاهم التنافس فيه عن معرفة الله.

فمِن سابق أعمال عاد أنّهم كانوا بنوا في طرق أسفارهم أعلاما ومنارات تدلّ على الطريق كيلا يضلّ السائرون في تلك الرمال المتنقّلة، واحتفروا وشيّدوا مصانع للمياه، وهي الصهاريج تجمع ماء المطر في الشتاء ليشرب منها المسافرون وينتفع بها الحاضرون في زمن قلة الأمطار، وبنوا حصونا وقصورا على

أشراف من الأرض.

وهذا من الأعمال النافعة في ذاتها لأنّ فيها حفظ النّاس من الهلاك في الفيافي بضلال الطرق، ومن الهلكة عطشا إذا فقدوا الماء وقت الحاجة إليه، فمتى أريد بها رضى الله تعالى بنفع عبيده كانت جديرة بالثناء عاجلا والثواب آجلا. فأمّا إذا أُهمل إرضاء الله تعالى بها واتُّخذت للرياء والغرور بالعظمة، وكانوا معرضين عن التوحيد وعن عبادة الله، انقلبت عظمة دنيوية محضة لا يُنظر فيها إلى جانب النفع ولا تحثُّ الناس على الاقتداء في تأسيس أمثالها، وقصاراها التمدّح بما وجدوه منها. **فصار وجودها شبيها بالعبث** لأنّها خلت عن روح المقاصد الحسنة فلا عبرة عند الله بها لأنّ الله خلق هذا العالم ليكون مظهر عبادته وطاعته.

{ **أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ** } الهمزة للإنكار، لأنّه لمّا صار أثر البناء شاغلا عن المقصد النافع للحياة في الآخرة نزل فعلهم المفضي إلى العبث منزلة الذي أريد منه العبث عند الشروع فيه.

{ **بِكُلِّ** } مستعمل في الكثرة، أي: في الأرياع المشرفة على الطرق المسلوكة.

الرِيع: (بكسر الراء) الشَّرف، أي: المكان المرتفع، كذا عن ابن عباس. والطريق والفجُّ بين الجبلين، كذا قال مجاهد وقتادة.

الآية: العلامة الدالة على الطريق، وتطلق الآية على المصنوع المعجِب لأنّه يكون علامة على إتقان صانعه أو عظمة صاحبه.

العبث: العمل الذي لا فائدة نفع فيه.

المصانع: جمع مصنع وأصله (مَفْعَل) مشتق من صَنَعَ، فهو مصدر ميمي وصف به للمبالغة.

<u>قيل:</u> الجابية المحفورة في الأرض. وروي عن قتادة: مبنية بالجير يخزّن بها الماء ويُسمَّى صهريجا وماجلا. <u>وقيل:</u> قصور، وهو عن مجاهد.

<u>وكانت بلاد عاد ما بين عمان وحضرموت شرقا وغربا ومتغلغلة في الشمال إلى الرمال وهي **الأحقاف.**</u>

{ **لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ** } مستأنفة. و(لعلّ) للترجي، وهو طلب المتكلّم شيئا مستقرب الحصول، والكلام تهكّم بهم، أي: أرجو لكل الخلود بسبب تلك المصانع.

<u>وقيل</u>: جعلت عاد بنايات على المرتفعات على الطرق يعبثون فيها ويسخرون بالمارة. وقد يُفسّر هذا القول بأنّ الأمّة في حال انحطاطها حوَّلت ما كان موضوعا للمصالح إلى مفاسد فعمدوا إلى ما كان مبنيّا لقصد تيسير السير والأمن على السابلة من الضلال في الفيافي المهلكة فجعلوه مكامن لهو وسخرية، كما اتُّخذت بعض أديرة النصارى في بلاد العرب مجالس خمر، وكما أدركنا الصهاريج التي في قرطاجنة كانت خزانا لمياه زغوان المنسابة إليها على الحنايا فرأيناها مكامن للصوص ومخازن للدواب، وذلك سنة 1303 هـ. <u>وقيل</u>: إنّ المصانع قصور عظيمة اتّخذوها، فيكون الإنكار عليهم متوجّها إلى الإسراف في الإنفاق على أبنية راسخة مكينة كأنّها تمنعهم من الموت فيكون الكلام مسوقا مساق الموعظة من

التوغّل في الترف والتعاظم.

{ **وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ** } أعقب به موعظتهم على اللهو واللعب والحرص على الدنيا بأن وعظهم على الشدّة على الخلق في العقوبة، وهذا من عدم التوازن في العقول فهم يبنون العلامات لإرشاد السابلة ويصطنعون المصانع لإغاثة العطاش فكيف يلاقي هذا التفكير تفكيرا بالإفراط في الشدّة على الناس.

البطش: الضرب عند الغضب بسوط أو سيف، وتقدّم في قوله تعالى { أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا } [الأعراف:195].

{ **جَبَّارِينَ** } حال من ضمير { بَطَشْتُمْ }، وهو جمع جبّار، و**الجبّار**: الشديد في غير الحقّ. أي: الإفراط في الأذى وهو ظلم، قال تعالى { إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ } [القصص:19]. وشأن العقاب أن يكون له حدّ مناسب للذنب المعاقَب عليه بلا إفراط ولا تفريط.

{ **وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ** } يُقصد مثل هذا النظم لإفادة الاهتمام بالفعل إذ يحصل من تكريره تأكيد مدلوله.

{ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ [131] وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ [132] أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ [133] وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ [134] إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ [135] }.

لمّا أفاد الاستفهام في قوله { أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً } معنى الإنكار على ما قارن بناءهم الآيات واتخاذهم المصانع وعلى شدّتهم على الناس عند الغضب فُرّع عليه أمرهم باتقاء الله، وحصل مع ذلك التفريع تكرير جملة الأمر بالتقوى والطاعة.

{ **وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ** } علّق بفعل التقوى في الجملة الأولى اسم الذات المقدّسة للإشارة إلى استحقاقه سبحانه التقوى لذاته، ثمّ علّق بفعل التقوى في هذه الجملة اسم الموصول بصلته الدالة على إنعامه، للإشارة إلى استحقاقه جلّ وعلا التقوى التي هي عنوان الشكر على ما أنعم به.

{ **أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ** } تفصيل النعمة التي جاءت مجملة في القول السابق { الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ }، وأعيد فعل { أَمَدَّكُمْ } في جملة التفصيل لزيادة الاهتمام بذلك الإمداد، فهو للتوكيد اللفظي. والجملة بمنزلة بدل البعض من جملة { أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ }، فإنّ فعل { أَمَدَّكُمْ } الثاني وإن كان مساويا للأوّل فإنّما صار بدلا منه باعتبار ما يتعلّق به من قوله { بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ } الذي هو بعض مما تعلمون. وكلا الاعتبارين، التوكيد والبدل، يقتضي الفصل فلأجله لم تعطف الجملة.

وابتدأ في تعداد النعم بذكر { بِأَنْعَامٍ } لأنّها اجلّ نعمة على أهل ذلك البلد لأنّ منها أقواتهم ولباسهم وعليها أسفارهم، وكانوا أهل نجعة، فهي سبب بقائهم، وعطف عليها { وَبَنِينَ } لأنّهم نعمة عظيمة فهم أنسهم وعونهم على أسباب الحياة وبقاء ذكرهم بعدهم وكثرة أمّتهم، وعطف { جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ } لأنّها بها رفاهيّة حالهم واتّساع رزقهم وعيش أنعامهم.

{ **إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** } تعليل لإنكار عدم تقواهم وللأمر بالتقوى، أي: أخاف عليكم عذابا إن لم تتقوا، فإنّ الأمر بالشيء يستلزم النهي عن ضدّه.

العذاب: يجوز أن يريد به عذابا في الدنيا توعّدهم الله به على لسانه.

ويجوز أن يريد به عذاب يوم القيامة.

{ **يَوْمٍ عَظِيمٍ** } وصف { يَوْمٍ } بـ { عَظِيمٍ } على طريقة المجاز العقلي، أي: عظيم ما يحصل فيه من الأهوال.

{ **قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ** [136] **إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ** [137] **وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ** [138] **فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ** [139] **وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** [140] }.

أجابوا بتأييسه من أن يقبلوا إرشاده فجعلوا وعظه وعدمه سواء.

{ **أَوَعَظْتَ** } الهمزة للتسوية. وتقدّمت عند قوله { سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ } [البقرة:6].

الوعظ: التخويف والتحذير من شيء فيه ضرّ، والاسم **الموعظة**، { وهدى وموعظة للمتقين } [المائدة:46].

{ **أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ** } هو أشد في نفي الصفة عنه من أن لو قيل: أم لم تعظ.

{ **إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ** } تعليل لمضمون جملة { سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ }، أي: كان سواء علينا فلا نتّبع وعظك لأنّ هذا خلق الأوّلين.

{ **خُلُقُ الْأَوَّلِينَ** } قرأه نافع وابن عامر وحمزة وعاصم وخلف { خُلُقُ } بضم الخاء وضم اللام. وقرأه ابن كثير وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر ويعقوب { خَلْقُ } بفتح الخاء وسكون اللام.

فعلى قراءة الفريق الأول { خُلُقُ }: فهو السجيّة المتمكّنة في النفس الباعثة على عمل يناسبها من خير أو شرّ، وقد فُسّر بالقوى النفسية، وهو تفسير قاصر فيشمل طبائع الخير وطبائع الشرّ ولذلك لا يعرف أحد النوعين من اللفظ إلّا بقيد يُضمّ إليه، فيقال: خُلُق حسن، ويقال في ضدّه: سوء خُلُق، أو خُلُق ذميم، قال تعالى { وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ } [القلم:4]. وفي الحديث: " **وخالق الناس بخُلق حسن** ".

فإذا أطلق عن التقييد انصرف إلى الخُلق الحسن.

فخُلُق المرء مجموع غرائز (طبائع نفسية) مؤتلفة من انطباع فكري: إمّا **جبلّي** في أصل خلقته، وإمّا **كسبي** ناشئ عن تمرّن الفكر عليه وتقلّده إيّاه لاستحسانه عن تجربة نفعه أو عن تقليد ما يشاهده من بواعث محبّة ما شاهد. ومحاولته تسمى تَخَلُّقًا. فإذا استقر وتمكّن من النفس صار سجيّة له يُجري أعماله

على ما تمليه عليه وتأمره به نفسه بحيث لا يستطيع ترك العمل بمقتضاها ولو رام حمل نفسه على عدم العمل بما تمليه سجيّته لاستصغر نفسه وإرادته وحقّر رأيه.

يجوز أن يكون المعنى على هذا: أنّهم أرادوا مدحا لما هم عليه من الأحوال التي أصرُّوا على عدم تغييرها، فيكون مرادهم أنّها خُلُق أسلافهم وأسوتهم، كما قال تعالى عن أمثالهم { تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا } [إبراهيم:10]. فالإشارة تنصرف إلى ما هم عليه الذي نهاهم عنه رسولهم.

ويجوز أن يكونوا أرادوا: ما يدعو إليه رسولهم: أي: ما هو إلّا من خُلق أناس قبله انتحلها، كما قال مشركو قريش { إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } [الأنعام:25]. والإشارة إلى ما يدعوهم إليه.

وأمّا على قراءة الفريق الثاني { خَلْقُ }: مصدر هو الإنشاء والتكوين. والخَلْقُ أيضا مصدر **خَلَقَ**: إذا كذب في خبره، ومنه قوله تعالى { وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً } [العنكبوت:17]. وتقول العرب: حدّثنا فلان بأحاديث الخَلْق، وهي الخرافات المفتعلة، ويقال له: اختلاق بصيغة الافتعال الدالة على التكلّف والاختراع، قال تعالى { إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلاقٌ } [ص:7].

فيجوز أن يكون المعنى: أنّ ما تزعم من الرسالة عن الله كذب، وما تخبرنا من البعث اختلاق، فالإشارة إلى ما جاء به هود.

ويجوز أن يكون المعنى: أنّ حياتنا كحياة الأوّلين نحيا ثم نموت، فالكلام على التشبيه البليغ وهو كناية عن التكذيب بالبعث الذي حذّرهم جزاءه في قوله { إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } [135].

يقولون: كما مات الأوّلون ولم يُبعث أحد منهم قط فكذلك نحيا نحن ثم نموت ولا نُبعث. وهذا كقول المشركين { فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [الجاثية:25]، فالإشارة في قولهم { إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ } إلى الخَلق الذي هم عليه، كما دل عليه المستثنى.

ولا شك أن قوم هود نطقوا بلغتهم جملا كثيرة تنحلّ إلى هذه المعاني فجمعها القرآن في قوله { إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ } باحتمال اسم الإشارة واختلاف النطق بكلمة (خلق)، فلله إيجازه وإعجازه.

{ **فَكَذَّبُوهُ** } الفاء الفصيحة، أي: فتبيَّن أنّهم بقولهم { سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ ...} قد كذّبوه فأهلكناهم.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً** ...} إلى آخره، هو مثل نظيره في قصة نوح.

{ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ [141] إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ [142] إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ [143] فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ [144] وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ [145] }.

موقع هذا الجملة استئناف تعداد وتكرير كما تقدّم في قوله تعالى { كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ } [123].

والكلام على هذه الآيات مثل الكلام على نظيرها في قصة نوح.

{ **كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ** } لأنّهم كذّبوا صالحا وكذّبوا هودا، لأنّ صالحا وعظهم بعاد في قوله { وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ } [الأعراف:74] وبتكذيبهم هود كذّبوا بنوح أيضا، لأنّ هودا ذكّر قومه بمصير قوم نوح في آية { وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ } [الأعراف:69].

ثمود - صالح : تقدم ذكرهم عند قوله تعالى { وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً } [الأعراف:73]، وكان صالح معروفا بالأمانة لأنّه لا يرسل رسول إلّا وهو معروف بالفضائل، قال تعالى { اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ } [الأنعام:124]. وقد دلّ على هذا المعنى قولهم { إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ } [153] المقتضي تغيير حاله عمّا كان عليه، وهو ما حكاه الله عن قومه { قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا } [هود: 62].

{ **أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ** [146] **فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ** [147] **وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ** [148] **وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ** [149] **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ** [150] **وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ** [151] **الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ** [152] }.

كانوا قد أعرضوا عن عبادة الله تعالى وأنكروا البعث وغرَّهم أيمة كفرهم في ذلك فجاءهم صالح عليه السلام رسولا يذكّرهم بنعمة الله عليهم بما مُكّن لهم من خيرات وما سُخّر لهم من أعمال عظيمة.

{ **أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ** } نُزّل حالهم منزلة من يظنّ الخلود ودوام النعمة فخاطبهم بالاستفهام الإنكاري التوبيخي وهو في المعنى إنكار على ظنّهم ذلك. وسلط الإنكار على فعل الترك لأنّ تركهم على تلك النعم لا يكون. فكان إنكار حصوله مستلزما إنكار اعتقاده.

وهذا الكلام تعليل للإنكار الذي في قوله { أَلا تَتَّقُونَ } [142] لأنّ الإنكار عليهم دوام حالهم يقتضي أنّهم مفارقون هذه الحياة وصائرون إلى الله. وفيه حث على العمل لاستبقاء تلك النعم بأن يشكروا الله عليها.

{ **هَاهُنَا** } إشارة إلى بلادهم، أي: في جميع ما تشاهدونه، وهذا إيجاز بديع.

{ **آمِنِينَ** } حال مبيّنة لبعض ما أجمله قوله { فِيمَا هَاهُنَا }. وذلك تنبيه على نعمة عظيمة لا يدلّ عليها اسم الإشارة لأنّها لا يشار إليها وهي **نعمة الأمن** التي هي من أعظم النعم، ولا يُتذوَّق طعم النعم الأخرى إلّا بها.

{ **فِي جَنَّاتٍ** } ينبغي أن يعلَّق بـ { آمِنِينَ } ليكون مجموع ذلك تفصيلا لإجمال اسم الإشارة، أي: اجتمع لهم الأمن ورفاهية العيش. و**الجنّات**: الحوائط التي تشجّر بالنخيل والأعناب.

الطلع: وعاء يطلع من النخل فيه ثمر النخلة في أوّل أطواره يخرج كنصل السيف في باطنه شماريخ القِنو، ويُسمَّى هذا الطلع **الكِمَّ** (بكسر الكاف)، وبعد خروجه بأيام ينفلق ذلك الوعاء عن الشماريخ وهي الأغصان التي فيها الثمر كحب صغير، ثم يغلظ ويصير بسرا ثم تمرا.

الهضيم: بمعنى المهضوم، وأصل الهضم شدخ الشيء حتّى يلين، واستعير هنا للدقيق الضامر. وتلك علامة على أنّه يُخرج تمرا جيّدا. والنخل الذي يثمر تمرا جيّدا يقال له: النخل الإناث وضدّه فحاحيل، وهي جمع فُحَّال (بضم الفاء وتشديد الحاء المهملة) أي: ذكر، وطلعه غليظ وتمره كذلك.

وخص النخل بالذكر مع أنّه مما تشمله الجنّات لقصد بيان جودته بأن طلعه هضيم.

{ **وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً** } عطف على { آمِنِينَ }، عُبّر بصيغة المضارع لاستحضار الحالة. وتقدّم ذلك في [الأعراف:74].

{ **فَارِهِينَ** } بصيغة اسم الفاعل في قراءة ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف. وفي قراءة الجمهور بدون ألف بعد الفاء { **فَرِهِين** } صيغة مبالغة مشتقّ من الفراهة وهي الحذق والكياسة، أي: عارفين حذقين بنحت البيوت من الجبال بحيث تصير بالنحت كأنّها مبنيّة.

{ **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ** } مفرَّع مثل نظيره في قصّة عاد.

{ **الْمُسْرِفِينَ** } أيمة القوم وكبراؤهم الذين يُبقونهم في الضلالة استغلالا لجهلهم وليسخِّروهم لفائدتهم.

الإسراف: الإفراط في شيء، والمراد به هنا الإسراف المذموم كلّه؛ في المال وفي الكفر.

{ **الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ** } وصفهم بذلك لأنّ الإسراف منوط بالفساد.

{ **وَلَا يُصْلِحُونَ** } عطف تأكيد بنفي الضدّ، مثل قوله تعالى { وأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى } [طه:79].

{ **قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ [153] مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ [154]** }.

أجابوا موعظته بالبهتان فزعموه فقد رشده وتغيّر حاله واختلقوا أنّ ذلك من اثر سحر شديد.

المسحَّر: اسم مفعول سَحَّرَه إذا سَحَرَه سحرّا متمكّنا منه.

{ **مِنَ الْمُسَحَّرِينَ** } أبلغ في الاتصاف بالتسحير من أن يقال: إنّما أنت مسحَّر.

{ **مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا** } لمّا تضمّن قولهم { إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ } تكذيبهم إيّاه أيدوا تكذيبه بأنّه بشر مثلهم.

{ **فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** } فرّعوا على تكذيبه المطالبة بأن يأتي بآية على صدقه، أي: أن يأتي بخارق عادة يدلّ على أنّ الله صدَّقه في دعوى الرسالة عنه.

{ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ [155] وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ [156] فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ [157] فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ [158] وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ [159] }.

تقدّم خبر هذه الناقة في [هود:64].

{ **لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ** } ذُكر هنالك أنّ صالحا جعل لها شِرْبا: النوبة في الماء للناقة، يوما تشرب فيه لا يزاحمونها فيه بأنعامهم.

{ **عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ** } تقدّم الكلام على نظيره في قصة عاد ورسولهم.

{ **فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ** } وذلك لمّا رأوا أشراط العذاب الذي توعّدهم به صالح، ولذلك لم ينفعهم الندم لأنّ العذاب قد حلّ بهم سريعا، فلذلك عطف بـ (فاء) التعقيب.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً** ...} تقدّم نظيره.

{ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ [160] إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ [161] إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ [162] فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ [163] وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ [164] }.

القول في موقعها كالقول في سابقتها، والقول في تفسيرها كالقول في نظيرتها.

{ **أَخُوهُمْ لُوطٌ** } كان قوم لوط من أهل فلسطين من الكنعانيين وكان لوط عبرانيّا وهو ابن أخي إبراهيم ولكنّه لمّا استوطن بلادهم وعاشر فيهم وحالفهم وظاهرهم جُعل أخا لهم. وهذا من إطلاق الأخوّة على ملازمة الشيء وممارسته، كقوله تعالى { إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ } [الإسراء: 27].

{ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ [165] وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ [166] }.

هو في الاستئناف كقوله { أَتُتْرَكُونَ } [146] في قصّة ثمود.

الإتيان: كناية. و**الذكران**: جمع ذكر وهو ضد الأنثى.

{ **مِنَ الْعَالَمِينَ** } الأظهر فيه أنّه في موضع الحال من الواو في { أَتَأْتُونَ }.

{ **مِنْ** } فصلية، أي: تفيد معنى الفصل بين متخالفين بحيث لا يماثل أحدهما الآخر. فالمعنى: مفصولين من العالمين لا يماثلكم في ذلك صنف من العالمين. وهذا المعنى جوّزه في الكشاف ثانيا، وهو أوفق بمعنى { الْعَالَمِينَ }.

فهذا تنبيه على أنّ هذا الفعل الفظيع مخالف للفطرة لا يقع من الحيوان العجم، فهو عمل ابتدعوه ما فعله

غيرهم، ونحوه قوله تعالى { إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ } [العنكبوت:28].

{ **وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ** } إيماء إلى الاستدلال بالصلاحية الفطرية لعمل على بطلان عمل يضاده، لأنّه مناف للفطرة. فهو من تغيير الشيطان وإفساده لسنّة الخلق، قال تعالى حكاية عنه { وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ } [النساء:119].

{ **بَلْ** } لإضراب الانتقال من مقام الموعظة والاستدلال إلى مقام الذمّ تغليظا للإنكار بعد لينه، لأنّ شرف الرسالة يقتضي الإعلان بتغيير المنكر والأخذ بأصرح مراتب الإعلان، فإنّه إن استطاع بلسانه غليظ الإنكار لا ينزل منه إلى لينه، وأنّه يبتدئ باللين فإن لم ينفع انتقل منه إلى ما هو أشدّ، ولذلك انتقل لوط من قوله { أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ } إلى قوله { بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ }.

{ **أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ** } الإتيان بالجملة الاسمية دون أن يقول: بل كنتم عادين، مبالغة في تحقيق نسبة العدوان إليهم.

{ **قَوْمٌ** } تنبيه على أنّ العدوان سجيّة فيهم حتّى كأنه من مقومات قوميّتهم، كما تقدم في قوله تعالى { لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [البقرة:164].

العادي: هو الذي تجاوز حدّ الحقّ إلى الباطل، يقال: عدا عليه، أي: ظلمه، وعدوانهم خروجهم عن الحدّ الموضوع بوضع الفطرة إلى ما هو مناف لها محفوف بمفاسد التغيير للطبع.

{ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ [167] قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ [168] رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ [169] فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ [170] إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ [171] ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ [172] وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ [173] }.

كقول قوم نوح إلّا أنّ هؤلاء قالوا { لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ }، أي: هدّدوه بالإخراج لأنّه لم يكن من مدينتهم.

{ **مِنَ الْمُخْرَجِينَ** } هذه الصيغة أبلغ من: لنخرجنّك.

{ **قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ** } جواب لوط على وعيدهم جواب مستخفّ بوعيدهم.

{ **رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ** } أقبل على الدعاء إلى الله أن ينجيه وأهله ممّا يعمل قومه، أي: من عذاب ما يعملونه، فلا بد من تقدير مضاف كما دلّ عليه قوله تعالى { فَنَجَّيْنَاهُ }. ولا يحسُن جعل المعنى: نجّني من أن أعمل عملهم لأنّه يفوت معه التعريض بعذاب سيحلّ بهم.

والقصة تقدّمت في [الأعراف: 80-84]، وفي [هود:77-83]، وفي [الحجر:59-77].

{ **فَنَجَّيْنَاهُ** } الفاء للتعقيب، أي: كانت نجاته عقب دعائه حسبما يقتضي ذلك من أسرع مدّة بين الدعاء وأمر الله إيّاه بالخروج بأهله إلى قرية (صوغر).

العجوز: المرأة المسنّة، وهي زوج لوط.

{ **فِي الْغَابِرِينَ** }، **الغابر**: المتّصف بالغبور، وهو البقاء بعد ذهاب الأصحاب أو أهل الخيل. أي: باقية في العذاب بعد نجاة زوجها وأهله.

{ **ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ** } للتراخي الرتبي لأنّ إهلاك المكذّبين أجدر بأن يُذكر في مقام الموعظة من ذكر إنجاء لوط والمؤمنين.

التدمير: الإصابة بالدمار وهو الهلاك، وذلك أنّهم استؤصلوا بالخسف وإمطار الحجارة عليهم.

المطر: الماء الذي يسقط من السحاب. و**الإمطار**: إنزال المطر. وسُمِّي ما أصابهم من الحجارة مطرا لأنّه نزل عليهم من الجو. قيل: هو من مقذوفات براكين في بلادهم أثارتها زلازل الخسف فهو تشبيه بليغ.

{ **ساء** } فعل ذمّ بمعنى بئس.

{ **الْمُنْذَرِينَ** } تسجيل عليهم بأنّهم أنذروا فلم ينتذروا.

{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ [174] وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ [175] }.

أي: في قصّتهم المعلومة للمشركين آية، قال تعالى { وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ } [الصافات:137-138]. وتقدّم القول في نظيره آنفا.

{ كَذَّبَ أَصْحَابُ لْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ [176] إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ [177] إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ [178] فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ [179] وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ [180] }.

استئناف تعداد وتكرار كما تقدّم في جملة { كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ }.

الأيكة: الشجر الملتف وهي الغيضة. وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو جعفر { لَيْكَةِ } بلام مفتوحة بعدها ياء تحتية ساكنة ممنوعا من الصرف للعلمية والتأنيث. وقرأه الباقون { لْأَيْكَةِ } بحرف التعريف بعده همزة مفتوحة وبجر آخره على أنّه تعريف عهد لأيكة معروفة.

أصحاب الأيكة: اختُلف في أنّ أصحاب ليكة هم مدين أو هم قوم آخرون ساكنون في ليكة جوار مدين أرسل شعيب إليهم وإلى أهل مدين. وإلى هذا مال كثير من المفسّرين. روى عبد الله بن وهب عن جبير بن حازم عن قتادة قال: أُرسل شعيب إلى أمّتين؛ إلى قومه من أهل مدين وإلى أصحاب الأيكة.

وروى ابن جريح عن ابن عباس: أنّ أصحاب الأيكة هم أهل مدين.

والأظهر أنّ أهل الأيكة قبيلة غير مدين، فإنّ مدين هم أهل نسب شعيب وهم ذرّيّة مدين بن إبراهيم من زوجه (قطورة) سكن مدين في شرق بلد الخليل كما في التوراة، فاقتضى ذلك أنّه وجده بلدا مأهولا بقوم،

فهم إذن أصحاب الأيكة، فبنى مدين وبنوه المدينة وتركوا البادية لأهلها وهم سكّان الغيضة.

والذي يشهد لذلك ويرجّحه أنّ القرآن لمّا ذكر هذه القصة لأهل مدين وصف شعيبا بأنّه أخوهم، ولمّا ذكرها لأصحاب ليكة لم يصف شعيبا بأنّه أخوهم إذ لم يكن شعيب نسيبا ولا صهرا لأصحاب ليكة، وهذا إيماء دقيق إلى هذه النكتة. وممّا يرجّح ذلك قوله تعالى { وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ **وَإِنَّهُمَا** لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ } [الحجر:79/78] ، فجعل ضميرهم مثنّى باعتبار أنّهم مجموع قبيلتين: مدين وأصحاب ليكة.

وإنّما ترسل الرسل من أهل المدائن، قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا يُوحَى إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى } [يوسف:109] وتكون الرسالة شاملة لمن حول القرية.

{ **إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ** } افتتح شعيب دعوته بمثل دعوات الرسل من قبله للوجه الذي قدّمناه.

وشمل قوله { أَلا تَتَّقُونَ } النهي عن الإشراك، فقد كانوا مشركين، كما في آية سورة هود.

{ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ [181] وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ [182] وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ [183] }.

استئناف من كلامه انتقل به من غرض الدعوة الأصلية بقوله { أَلا تَتَّقُونَ } إلى الدعوة التفصيليّة بوضع قوانين المعاملة بينهم، فقد كانوا مع شركهم بالله يطفّفون المكيال والميزان ويبخسون أشياء الناس إذا ابتاعوها منهم ويفسدون في الأرض.

{ **أَوْفُوا الْكَيْلَ** } أمر بالإيفاء، أي: جعل الشيء تاما، أي: اجعلوا الكيل غير ناقص.

المُخْسِر: فاعل الخسارة لغيره، أي: المنقص.

القسطاس: (بضم القاف وبكسرها) من أسماء العدل، ومن أسماء الميزان، وتقدّم في قوله تعالى { وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً } [الإسراء:35]، حُمل على المعنيين هنا كما هنالك وإن كان الوصف بـ { المُسْتَقِيمِ } يُرجّح أنّ المقصود به الميزان.

وتقدّم تفصيل ما يرجع إليه هذا التشريع في قصّته في [الأعراف:85].

{ **وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ** } غبن منافعها وذمُّها بغير ما فيها ليضطرُّوهم إلى بيعها بغبن.

البخس: النقص والذمّ. وتقدّم في قوله تعالى { وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً } [البقرة:282].

ومن بخس الأشياء أن يقولوا للذي يعرض سلعة سليمة للبيع: إنّ سلعتك رديئة ليصرف عنها الراغبين فيشتريها برخص.

{ **وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ** } [184].

كرّر هنا أمره بالتقوى للتأكيد، وزاد فيه دليل استحقاقه سبحانه التقوى بأنّه خلقهم وخلق الأمم من قبلهم، وباعتبار هذه الزيادة أدخل حرف العطف ولو كان مجرّد تأكيد لم يصح عطفه.

{ **الَّذِي خَلَقَكُمْ** } إيماء إلى نبذ اتقاء غيره من شركائهم.

الجِبِلّة: الخِلْقة، وأريد به المخلوقات، لأنّ الجبلّة اسم كالمصدر ولهذا وصف بـ { الْأَوَّلِينَ }. والمعنى: الذي خلقكم وخلق الأمم قبلكم.

{ **قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ** [185] **وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ** [186] **فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** [187] **قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ** [188] }.

نفوا رسالته عن الله كناية وتصريحا فزعموه مسحورا. وذلك كناية عن بطلان أن يكون ما جاء به رسالة عن الله. وفي صيغة { **مِنَ الْمُسَحَّرِينَ** } من المبالغة ما تقدم في قوله { مِنَ الْمَرْجُومِينَ } [116] ومثيلاتها.

{ **وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا** } الإتيان بواو العطف يجعل كونه بشرا إبطالا ثانيا لرسالته. وترك العطف في قصّة ثمود يجعل كونه بشرا حجّة على أنّ ما يصدر منه ليس وحيا على الله بل هو من تأثير كونه مسحورا. فمآل معنيي الآيتين متّحد ولكن طريق إفادته مختلف وذلك على حسب أسلوب الحكايتين.

{ **وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ** } أطلق الظنّ على اليقين، وهو إطلاق شائع كقوله تعالى { الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ } [البقرة:46]، وقرينته هنا دخول اللام على المفعول الثاني لفعل (ظنّ)، لأنّ أصلها لام قسم.

{ **فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ** } الأمر للتعجيز.

الكِسْف: (بكسر الكاف وسكون السين) في قراءة من عدا حفصا: القطعة من الشيء. وقرأ حفص {كِسَفاً} على أنّه جمع كِسْف كما في قوله تعالى { أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً } [الإسراء:92].

{ **إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** } كقول ثمود { فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } [154]، إلّا أنّ هؤلاء عيّنوا الآية فيحتمل أنّ تعيينها اقتراح منهم، ويحتمل أنّ شعيبا أنذرهم بكسف يأتي فيه عذاب، وذلك هو يوم الظلّة.

{ **قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ** } كان جواب شعيب بإسناد العلم إلى الله، فهو العالم بما يستحقّونه من العذاب.

{ **أَعْلَمُ** } هنا مبالغة في العالم وليس هو بتفضيل.

{ **فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** } [189].

{ **فَكَذَّبُوهُ** } الفاء فصيحة، أي: فتبيّن من قولهم { إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ } أنّهم كذّبوه. وفي إعادة فعل التكذيب إيقاظ للمشركين بأنّ حالهم كحال أصحاب شعيب فيوشك أن يكون عقابهم كذلك.

الظلّة: السحابة، كانت فيها صواعق متتابعة اصابتهم فأهلكتهم، كما تقدّم في [الأعراف:91]. وقد كان العذاب من جنس ما سألوه، ومن إسقاط شيء من السماء.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ** [190] **وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** [191] }.

أي: في ذلك آية لكفّار قريش إذ كان حالهم كحال أصحاب ليكة، فقد كانوا من المطفّفين مع الإشراك، قال تعالى { وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ - إلى قوله - لِيَوْمٍ عَظِيمٍ } [المطففين:1-5].

وقد تقدم القول في نظائره. وقد ذكرنا في طالعة هذا السورة وجه تكرير قوله تعالى { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً }.

{ **وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ** [192] **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ** [193] **عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ** [194] **بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ** [195] }.

عَود إلى ما افتُتحت به السورة من التنويه بالقرآن وكونه الآية العظمى بما اقتضاه قوله تعالى { تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ } [2] كما تقدّم، لتُختتم السورة بإطناب التنويه بالقرآن كما ابتدئت بإجمال التنويه به، والتنبيه على أنّه أعظم آية اختارها الله أن تكون معجزة أفضل المرسلين.

{ **وَإِنَّهُ** } الضمير عائد إلى معلوم من المقام بعد ذكر آيات الرسل الأوّلين. فبـ (واو) العطف اتصلت الجملة بالجمل التي قبلها، وبضمير القرآن اتصل غرضها بغرض صدر السورة.

{ **وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ** } معطوفة على الجمل التي قبلها المحكيّة فيها أخبار الرسل المماثلة أحوال أقوامهم لحال قوم محمد صلى الله عليه وسلم، وما أيّدهم الله به من الآيات، ليُعلم أنّ القرآن هو آية الله لهذه الأمّة، فعطْفها على الجمل التي مثلها عطْف القصّة على القصّة لتلك المناسبة. ولكن هذه الجملة متصلة في المعنى بجملة { تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ } [2] بحيث لولا ما فُصل بينها وبين الأخرى من طول الكلام لكانت معطوفة عليها.

وُجّه الخطاب إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّ في التنويه بالقرآن تسلية له على ما يلاقيه من إعراض الكافرين عن قبوله وطاعتهم فيه.

{ **وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ** } التأكيد بـ (إنّ) و(لام) الابتداء لردّ إنكار المنكرين.

التنزيل: مصدر بمعنى المفعول للمبالغة في الوصف حتّى كأنّ المنزَّل نفس التنزيل.

{ **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ** } بيان لـ { تَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ }. والباء للمصاحبة.

{ **الرُّوحُ الْأَمِينُ** } جبريل، وهو لقبه في القرآن، سُمّي روحا لأنّ الملائكة من عالم الروحانيّات.

وتقدّم الكلام على **الروح** في [الإسراء:85]، وتقدّم { رُوحُ الْقُدُسِ } [البقرة:87].

{ **الْأَمِينُ** } صفة جبريل لأنّ الله أمنه على وحيه.

{ **عَلَى قَلْبِكَ** } للاستعلاء المجازي، لأنّ النزول وصول من مكان عال فهو مقتض الاستقرار والتمكّن.

مثل (على) التي في قوله تعالى { أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ }]البقرة:5].

القلب: يطلق على ما به قبول المعلومات كما قال تعالى { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ } [ق:37].

ومعنى نزول جبريل على قلب النبيّ عليهما السلام: اتصاله بقوّة إدراك النبيّ لإلقاء الوحي الإلهي.

وقد وصف النبيّ صلى الله عليه وسلم ذلك في حديث الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنّ الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله: **أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس فيُفصم عنّي وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانا يتمثّل لي المَلَك رجلا فيكلّمني فأعي ما يقول "**. وهذان الوصفان خاصَّان بوحي نزول القرآن.

وثمّة وحي من قبيل إبلاغ المعنى وسمّاه النبيّ صلى الله عليه وسلم في حديث آخر **نَفْثًا**. فقال: **" إنّ روح القدس نفث في رُوعي أنّ نفسا لن تموت حتّى تستوفي أجلها "**. فهذا اللفظ ليس من القرآن فهو وحي بالمعنى. (**الرُّوع**: العقل).

وقد يكون الوحي في رؤيا النوم، فإنّ النبيّ لا ينام قلبه.

ويكون أيضا بسماع كلام الله من وراء حجاب.

وقد بيّنّا في شرح الحديث النكتة في اختصاص إحدى الحالتين ببعض الأوقات.

{ **لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ** } أي: لتكون من الرُّسل. واختير من أفعاله النذارة لأنّها أخصّ بغرض السورة فإنّها افتُتحت بذكر إعراضهم وبإنذارهم.

{ **بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ** } حال من الضمير المجرور في { نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ }، والباء للملابسة.

اللسان: اللغة، أي: نزل بالقرآن بلغة عربية.

المبين: الموضِّح الدلالة على المعاني التي يعنيها المتكلّم، فإنّ لغة العرب أفصح اللغات وأوسعها لاحتمال المعاني الدقيقة الشريفة مع الاختصار، فإنّ ما في أساليب نظم كلام العرب من علامات الإعراب، والتقديم والتأخير، والحقيقة والمجاز والكناية، وما في سعة اللغة من الترادف، وأسماء المعاني المقيّدة، وما فيها من المحسّنات، ما يلج بالمعاني إلى العقول سهلة متمكّنة، فقدّر الله تعالى هذه اللغة أن تكون هي لغة كتابه الذي خاطب به كافة الناس فأُنزل بادئ ذي بدء بين العرب، أهل ذلك اللسان ومقاويل البيان، ثم جُعل منهم حملته إلى الأمم تترجم معانيه فصاحتُهم وبيانُهم.

{ **وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ [196] أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرائيلَ [197]** }.

تنويه آخر بالقرآن بأنّه تُصدِّقه كتب الأنبياء الأوّلين بموافقتها لما فيه، وخاصة في أخباره عن الأمم وأنبيائها.

{ **فِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ** } أي: كتب الرسل السالفين.

ومعلوم أن ضمير القرآن لا يراد به ذات القرآن، أي: ألفاظه المنزّلة على النبيّ صلى الله عليه وسلم إذ ليست سور القرآن وآياته مسطورة في زبر الأوّلين بلفظها كلّه، فتعيّن أن يكون الضمير للقرآن باعتبار اسمه ووصفه الخاص أو باعتبار معانيه:

فأمّا الاعتبار الأول (اسمه ووصفه الخاص): فالضمير مؤوَّل بالعود إلى اسم القرآن كقوله تعالى { الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ } [الأعراف:157]، أي: يجدون اسمه ووصفه الذي يُعيِّنه. فالمعنى: أنّ ذكر القرآن وارد في كتب الأولين، أي: جاءت بشارات بمحمد صلى الله عليه وسلم وأنّه رسول يجيء بكتاب. ففي [سفر التثنية، الإصحاح:18] قول موسى: " قال لي الربُّ: أقيم لهم نبيّا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه فيكلّمهم بكلّ ما أوصيه به ".

إذ لا شك أنّ إخوة بني إسرائيل هم العرب كما ورد في [سفر التكوين، الإصحاح:16] عند ذكر الحمل بإسماعيل " وأمام جميع إخوته يسكن"، أي: لا يسكن معهم ولكن قبالتهم.

ولم يأت نبيّ بوحي مثل موسى وبشرع كشرع موسى غير محمد صلى الله عليه وسلم، وكلام الله المجعول في فمه هو القرآن.

وفي [إنجيل متَّى، الإصحاح:14] قال عيسى عليه السلام: " ويقوم أنبياء كذبة كثيرون ويضلّون كثيرا... ولكن الذي يصبر إلى المنتهى (أي: يدوم إلى آخر الدهر، أي: دينه، إذ لا خلود للأشخاص) فهذا يخلص ويَكْرَز (أي: يدعو) ببشارة الملكوت هذه في كلّ المسكونة (أي: الأرض المأهولة) شهادة لجميع الأمم (رسالة عامة) ثمّ يأتي المنتهى (أي: نهاية العالم) ".

فالبشارة هي الوحي، وهو القرآن، وهو الكتاب الذي دعا جميع الأمم، قال تعالى { كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ } [إبراهيم:1]، وقوله تعالى { وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ } [الإسراء: 89].

وفي [إنجيل يوحنا، الإصحاح:14] قول المسيح: " وأنا أطلب من الأب فيعطيكم معَزيا (أي: رسولا) آخر ليمكث معكم إلى الأبد (هو دوام الشريعة)، هذا روح الحقّ الذي لا يستطيع العالم أن يقبله (إشارة إلى تكذيب المكذبين) لأنّه لا يراه ولا يعرفه ".

وأمّا الاعتبار الثاني (باعتبار معانيه): نحو قوله تعالى { إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ } [فاطر:10]، وقوله تعالى { وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ } [مريم:41] أي: أحواله.

فالمعنى: أنّ ما جاء به القرآن موجود في كتب الأوّلين. وهذا كقول الإنجيل:" ويذكِّركم بكلّ ما قلته لكم".

{ **أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرائيلَ** } تنويه ثالث بالقرآن، وحجّة على التنويه الثاني به الذي هو شهادة كتب الأنبياء له بالصدق، بأنّ علماء بني إسرائيل يعلمون ما في القرآن ممّا يختص بعلمهم.

{ **يَعْلَمَهُ** } شامل للعلم بصفة القرآن، أي: تحقّق صدق الصفات الموصوف بها، وشامل للعلم بما يتضمَّنه ممّا في كتبهم.

والضمير عائد إلى القرآن على تقدير: أن يعلم ذكره. ويجوز أن يعود على { وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ }.

{ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ [198] فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ [199] }.

كان من جملة مطاعن المشركين في القرآن أنّه ليس من عند الله ويقولون: تقوّله محمد من عند نفسه، وقالوا { أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا } فدمغهم الله بأن تحدّاهم بالإتيان بمثله فعجزوا.

وقد أظهر الله بهتانهم في هذه الآية بأنّهم إنّما قالوا ذلك حيث جاءهم بالقرآن رسول عربي وأنّه لو جاءهم بهذا القرآن رسول أعجمي لا يعرف العربية بأن أوحى الله بهذه الألفاظ إلى رسول لا يفهمها ولا يحسن تأليفها فقرأه عليهم، وفي قراءته وهو لا يحسن اللغة أيضا خارق عادة، لو كان ذلك لما آمنوا بأنّه رسول.

فلما فرغ من الاستدلال بتعجيزهم فضح نيّاتهم بأنّهم لا يؤمنون به في كلّ حال، قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ } [يونس:97/96].

{ **الْأَعْجَمِينَ** } جمع أعجم. والأعجم: شديد العُجمة، أي: لا يحسن كلمة بالعربية، وهو هنا مرادف أعجميّ (بياء النسب) فيصحّ في جمعه على أعجمين اعتبار أنّه لا حذف فيه، ويصحّ اعتبار حذف الياء للتخفيف.

{ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ [200] لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ [201] فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ [202] فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ [203] }.

{ **كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ** } مستأنفة بيانية، أي: إن سألت عن استمرار تكذيبهم بالقرآن في حين أنّه نزل بلسان عربي مبين فلا تعجب، فكذلك سلوكه في قلوب المشركين، دخل قلوبهم بإبانته وعرفوا دلائل صدقه من أخبار علماء بني إسرائيل ومع ذلك لم يؤمنوا به. وتقدّم نظيره في [الحجر:12].

{ **سَلَكْنَاهُ** } أدخلناه.

{ **الْمُجْرِمِينَ** } لأنّ كفرهم بعد نزول القرآن إجرام.

{ **لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ** } في موضع الحال من { الْمُجْرِمِينَ }.

{ **حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ** } تهديد بعذاب سيحلّ بهم، وحثّ على المبادرة بالإيمان.

العذاب: صادق بعذاب الآخرة لمن هلكوا قبل حلول عذاب الدنيا، وصادق بعذاب السيف يوم بدر.

{ **فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً** } بدل اشتمال من جملة { يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ } وأدخلت الفاء فيها لبيان صورة الاشتمال، أي: أنّ رؤية العذاب مشتملة على حصوله بغتة، أي: يرونه دفعة دون سبق أشراط له.

{ **فَيَقُولُوا** } الفاء لإفادة التعقيب في الوجود وهو صادق بأسرع تعذيب فتكون خطرت في نفوسهم قبل أن يهلكوا في الدنيا، أو يقولون ذلك ويردّدونه يوم القيامة حين يرون العذاب وحين يلقون فيه.

{ **هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ** } استفهام مراد به التمنّي مجازا، وجيء بعدها بالجملة الاسمية الدالة على الثبات، أي: تمنّوا إنظارا طويلا يتمكّنون فيه من الإيمان والعمل الصالح.

{ **أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ** [204] **أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ** [205] **ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ** [206] **مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ** [207] }.

{ **أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ** } الاستفهام مستعمل في التعجيب من غرورهم. والمعنى: أيستعجلون بعذابنا؟ فما تأخيره إلّا تمتيع لهم. وكانوا يستهزئون فيقولون { مَتَى هَذَا الْوَعْدُ } [يونس:48]. قال مقاتل: قال المشركون للنبيّ صلى الله عليه وسلم: يا محمد إلى متى تعدنا بالعذاب ولا تأتي به، فنزلت { أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ }.

{ **أَفَبِعَذَابِنَا** } التقديم للرعاية على الفاصلة وللاهتمام به في مقام الإنذار.

{ **أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ** } الاستفهام للتقرير، أي: أنّهم في مهلة منه ومتعة بالسلامة وأنّ ذلك يغرّهم بأنّهم في منجاة من الوعيد الذي جاءهم على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم. ففي الكلام تعريض بالتهديد. والرؤية قلبية، أي: أفعلمت؟ والخطاب لغير معيّن يعمّ كّل مخاطب حتّى المجرمين.

{ **ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ** } للترتيب والمهلة، أي: جاءهم بعد سنين.

وفيه رمز إلى أنّ العذاب حالّ بهم.

{ **مَا أَغْنَى عَنْهُمْ** } استفهام مستعمل في الإنكار، أي: لم يغن عنهم شيئا.

والمعنى: أعلمت أنّ تمتيعهم بالسلامة وتأخير العذاب، إن فرض امتداده سنين عديدة، غير مغن عنهم شيئا إن جاءهم العذاب بعد ذلك. وهذا كقوله تعالى { وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا

يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } [هود:8]، وذلك أنّ الأمور بالخواتيم.

{ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ } [208] .

تذكير لقريش بأنّ القرى التي أهلكها الله والتي تقدّم ذكرها في هذه السورة قد كان لها رسل ينذرونها عذاب الله ليقيسوا حالتهم على أحوال الأمم التي قبلهم.

والاستثناء من أحوال محذوفة. والتقدير: وما أهلكنا من قرية في حال من الأحوال إلّا في حال لها منذرون. وعُبّر عن الرُّسل بصفة الإنذار لأنّه المناسب للتهديد بالإهلاك.

{ ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ } [209].

أي: هذا بلاغ، وفي [إبراهيم:52] {هَذَا بَلاغٌ لِلنَّاسِ}، وفي [ص: 49] { هَذَا ذِكْرٌ } . والمعنى: هذه ذكرى لكم يا معشر قريش. وهذا المعنى هو أحسن الوجوه وهو قول ابي إسحاق الزجاج والفراء.

وفي الآية معنى الإعذار لكفار قريش والإنذار بأنّهم سيحل بهم هلاك.

وحُذف مفعول { ظَالِمِينَ } لقصد تعميمه، كقوله تعالى { وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً } [الكهف:49].

{ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ [210] وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ [211] إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ [212] }.

عطف على جملة { وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ } وما بينهما اعتراض استدعاه تناسب المعاني وأخذ بعضها بحُجُز بعض تفنّنا في الغرض. وهذا ردّ على قولهم في النبيّ صلى الله عليه وسلم هو كاهن { فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ } [الطور: 29]، وزعمهم أنّ الذي يأتيه شيطان.

فقد قالت العوراء بنت حرب امرأة أبي لهب لمّا تخلّف رسول الله عن قيام الليل ليلتين لمرض: أرجو أن يكون شيطانك قد تركك.

فقد كانت العرب تعتقد أنّ الشياطين تسترق السمع، أي: تتحيّل على الاتصال بعلم ما يجري في الملأ الأعلى. وبيان ذلك تقدّم في [الحجر:18] ويأتي في [الصافات:7].

{ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ } ما يستقيم وما يصح، أي: لا يستقيم لهم تلقّي كلام الله تعالى الذي الشأن أن يتلقّاه الروح الأمين. والضمير عائد إلى ما عاد عليه ضمير { بِهِ }، أي: ما ينبغي القرآن لهم، أي: ما ينبغي أن ينزلوا به.

{ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ } المفعول محذوف، أي: ما يستطيعون تلقّيه لأنّ النفوس الشيطانية ظلمانية خبيثة بالذات فلا تقبل الانتقاش بصور ما يجري في عالم الغيب، فإنّ قبول فيضان الحق مشروط بالمناسبة بين المبدأ والقابل.

وتقدّم في سورة الحجر أنّ صنفا من الشياطين يتهيّأ للتلقي بما يُسمَّى **استراق السمع** وأنّه يُصرف عنه

بالشهب.

{ **إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ** } استئناف كالفذلكة لما قبله وهو بعمومه يتنزّل منزلة التذييل.

المعزول: المُبْعد عن أمر، فهو في عُزلة عنه. وفي هذا إبطال للكهانة من أصلها. وهي وإن كانت فيها شيء من الاتصال بالقوى الروحية في سالف الزمان فقد زال ذلك منذ ظهور الإسلام.

{ **فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ** } [213].

لمّا ُجّه الخطاب إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم من قوله تعالى { نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ } [194/193] إلى هنا، في آيات أشادت بنزول القرآن من عند الله تعالى وحقّقت صدقه بأنّه مذكور في كتب الأنبياء السالفين، وشهد به علماء بني إسرائيل، وأنحى على المشركين بإبطال ما ألصقوه بالقرآن من بهتانهم، لا جرم اقتضى ذلك ثبوت ما جاء به القرآن.

وأصل ذلك هو إبطال دين الشرك الذي تقلّدته قريش وغيرها وناضلت عليه بالأكاذيب، فناسب أن يتفرّع عليه النهي عن الإشراك بالله والتحذير منه.

{ **فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ** } خطاب لغير معيَّن فيعم كل من يسمع هذا الكلام.

<u>ويجوز</u> أن يكون الخطاب موجَّها إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّه المبلّغ عن الله تعالى للاهتمام بهذا النهي مع تحقّق أنّه منته عن ذلك، فتعيَّن أن يكون النهي للذين هم متلبّسون بالإشراك، ونظير هذا قوله تعالى { ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين } [الزمر:65].

وفي الكلام تعريض بالمشركين أنّهم سيعذّبون.

{ **وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ** } [214].

عطف على قوله تعالى { نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ } [194/193]، فهو تخصيص بعد تعميم، للاهتمام بهذا الخاص. ووجه الاهتمام أنّهم أولى الناس بقبول نصحه وتعزيز جانبه، ولئلّا يسبق إلى أذهانهم أنّ ما يلقيه الرسول من الغلظة في الإنذار وأهوال الوعيد لا يقع عليهم لأنّهم قرابة هذا المنذِر وخاصته. ويدلّ على هذا قوله صلى الله عليه وسلم في ندائه لهم: **" لا أغني عنكم من الله شيئا "**.

وفيه تعريض بقلّة رعي كثير منهم حقّ القرابة، إذ آذاه كثير منهم وعصوه مثل أبي لهب.

وأن يعلموا أنّهم لا يُكتفى من مؤمنهم بإيمانه حتّى يضمّ إليه العمل الصالح، فهذا ممّا يدخل في النذارة، ولذلك دعا النبيّ صلى الله عليه وسلم عند نزول هذه الآية قرابته مؤمنين وكافرين.

ففي حديث عائشة وابن عباس وأبي هريرة في صحيحي البخاري ومسلم: لمّا نزلت { وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ

الْأَقْرَبِينَ } قام رسول الله على الصفا فدعا قريشا فجعل ينادي: **يا بني فهر يا بني عدي**، لبطون قريش، حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو، فقال: **يا معشر قريش،** (فعمّ وخصّ)، **يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مُرَّة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، أشتروا أنفسكم من الله لا أغني عنكم من الله شيئا، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا، يا صفيّة عمَّة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئا، يا فاطمة بنت رسول الله سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئا، غير أنّ لكم رحما سأبُلُّها ببِلالها** ".

وكانت صفيّة وفاطمة من المؤمنين وكان إنذارهما إعمال لفعل الأمر في معانيه كلّها من الدعوة إلى الإيمان وإلى صالح الأعمال، فجمع النبيّ صلى الله عليه وسلم بين الإنذار من الشرك والإنذار من المعاصي.

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس قال: لما نزلت { وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ } صعد النبيّ صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادي: **يا بني فهر يا بني عدي**، لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو فجاء أبو لهب وقريش فقال: **أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مُصَدِّقِيَّ** ؟ قالوا: نعم ما جرّبنا عليك إلّا صدقا. قال: **فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**. فقال أبو لهب: تبّا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت { تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ } [المسد:2/1].

العشيرة: الأدنون من القبيلة، فوصف { **الْأَقْرَبِينَ** } تأكيد لمعنى العشيرة واجتلاب لقلوبهم إلى إجابة ما دعاهم إليه، وتعريض بأهل الإدانة منهم.

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة ... على المرء من وقع الحسام المهند.

وتقدّم ذكر العشيرة في قوله { قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ } [براءة:24].

{ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } [215].

معترض بين الجملتين ابتدارًا لكرامة المؤمنين قبل الأمر بالتبرؤ من الذين لا يؤمنون، وبعد الأمر بالإنذار الذي لا يخلو من وقع أليم في النفوس.

خفض الجناح: مَثَل للمعاملة باللين والتواضع. وتقدّم عند قوله تعالى { وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ } [الحجر:88]، وقوله تعالى { وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ } [الإسراء:24]. والجناح للطائر بمنزلة اليدين للإنسان.

{ **لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** } المراد المتابعة في الدين، وهي الأيمان. والغرض التنويه بشأن الإيمان.

كأنّه قيل: واخفض جناحك لهم لأجل إيمانهم.

{ **فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ** } [216].

تفريع على جملة { وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ } أي: فإن عصوك فما عليك إلّا أن تتبرّأ من عملهم. فالتبرُّؤ إنّما هو من كفرهم. وذلك لا يمنع من صلتهم لأجل الرحم وإعادة النصح لهم كما قال تعالى { قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى } [الشورى:23]. وإنّما أُمر بأن يقول لهم ذلك لإظهار أنّهم أهل للتبرّؤ من أعمالهم، فلا يقتصر على إضمار ذلك في نفسه.

{ **وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ** [217] **الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ** [218] **وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ** [219] **إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** [220] }.

قرأ نافع وابن عامر وأبي جعفر { فَتَوَكَّلْ } بفاء التفريع، فيكون تفريعا على {فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ} تنبيها على المبادرة بالعوذ من شرّ أولئك الأعداء وتنصيصا على اتصال التوكل بقوله { إِنِّي بَرِيءٌ }.

وقرأ الجمهور { وَتَوَكَّلْ } بالواو وهو عطف على جواب الشرط، أي: قل إنّي بريء وتوكّل، وعطفه على الجواب يقتضي تسبّبه على الشرط كتسبّب الجواب، وهو يستلزم البدار به.

ومآل القراءتين واحد وإنّ اختلف طريق انتزاعه.

<u>والمعنى</u>: فإن عصاك أهل عشيرتك فتبرأ منهم. ولما كان التبرُّؤ يؤذن بحدوث مجافاة وعداوة بينه وبينهم ثبّت الله جأش رسوله بأن لا يعبأ بهم وأن يتوكّل على ربه فهو كافيه، كما قال تعالى { وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ } [الطلاق:3].

{ **الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** } الإيماء إلى أنّه يلاحظ قوله ويعلم نيّته، وللإشارة إلى أنّه بعزّته قادر على أن ينصره على عدوّه الذي هو أقوى منه، وأنّه برحمته يعصمه منهم.

وقد لوحظ هذان الاسمان غير مرّة في هذه السورة لهذا الاعتبار.

التوكّل: تفويض المرء أمره إلى من يكفيه مهمّه، وقد تقدّم عند قوله تعالى { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } [آل عمران:159].

{ **الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ** } الوصف مقصود به لازم معناه، وهو أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم بمحلّ العناية منه لأنّه يعلم توجّهه إلى الله ويقبل ذلك منه.

{ **يَرَاكَ** } رؤية خاصة وهي رؤية الإقبال والتقبّل، كقوله تعالى { فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا } [الطور:48].

القيام: الصلاة في جوف الليل، غلب هذا الاسم عليه في اصطلاح القرآن.

{ **وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ** } صلاته في جماعات المسلمين في مسجده. وهذا يجمع معنى العناية بالمسلمين

تبعا للعناية برسولهم، فهذا من بركته صلى الله عليه وسلم، وقد جمعها هذا التركيب عجيب الإيجاز.
وفي هذه الآية ذكر صلاة الجماعة.
{ **إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** } موقع التعليل للأمر بـ { فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ }، وللأمر بـ { تَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ }، فصفة { السَّمِيعُ } مناسبة للقول، وصفة { الْعَلِيمُ } مناسبة للتوكّل، أي: أنّه يسمع قولك ويعلم عزمك. وضمير الفصل للتقوية.

{ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ [221] تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ [222] يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ [223] }.

لما سفّه قولهم في القرآن: إنّه قول كاهن، فردّ عليهم بقوله تعالى { وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ } وأنّه لا ينبغي للشياطين ولا يستطيعون مثله، وأنّهم حيل بينهم وبين أخبار أوليائهم، عاد الكلام إلى وصف حال كهّانهم.
{ **هَلْ أُنَبِّئُكُمْ** } استفهام صوري مستعمل كناية عن كون الخبر مما يُستأذن في الإخبار به. واختير له حرف استفهام دال على التحقيق وهو { هَلْ } لأنّها في الاستفهام بمعنى (قد). وهو استفهام لا يُترقّب منه جواب المستفهَم لأنّه ليس بحقيقي، فلذلك يعقبه الإفضاء بما استُفهم عنه قبل الإذن من السامع. ونظيره في الجواب قوله تعالى { عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ } [النبأ:2/1] وإن كان بين الاستفهامين فرق.
{ **عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ** } المجرور مقدّم على عاملة للاهتمام بالمُتنزَّل عليه.
{ **تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ** } { كُلِّ } هنا مستعملة في معنى التكثير، أي: على كثير من الأفّاكين، وهم الكهّان.
الأفّاك: كثير الإفك، أي: الكذب، و**الأثيم**: كثير الإثم.
وإنّما كان الكاهن أثيما لأنّه يضمّ إلى كذبه تضليل الناس بتمويه أنّه لا يقول إلّا صدقا، وأنّه يتلقّى الخبر من الشياطين التي تأتيه بخبر السماء.
{ **يُلْقُونَ السَّمْعَ** } صفة لـ { كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ }، أي: يُظهرون أنّهم يُلقون أسماعهم عند مشاهدة كواكب لتتنزل عليهم شياطينهم بالخبر، وذلك من إفكهم وإثمهم.
إلقاء السمع: هو شدة الإصغاء، شُبّه توجيه حاسة السمع إلى المسموع الخفي بإلقاء الحجر من اليد إلى الأرض أو في الهواء، قال تعالى { أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ } [ق:37].
{ **وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ** } أي: أكثر هؤلاء الأفّاكين كاذبون فيما يزعمون أنّهم تلقّوه من الشياطين. فالقليل منهم فقط يتلقّى الشيء اليسير فيكذب عليه أضعافه.
ففي الحديث الصحيح أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم سُئل عن الكهّان فقال: **ليسوا بشيء** قيل: يا رسول

الله فإنّهم يحدّثون أحيانا بالشيء يكون حقًّا. فقال: **تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيَقَرُّها في أذُن وليّه قَرَّ الدجاجة فيخلطون عليها أكثر من مائة كذبة ".**

ولمّا كان حال الكهّان قد يلتبس على ضعفاء العقول ببعض أحوال النبوّة في الإخبار عن غيب، وأسجاعهم قد تلتبس بآيات القرآن في بادئ النظر. أطنبت الآية في بيان ماهية الكهانة وبيّنت أنّ قصاراها الإخبار عن أشياء قليلة قد تصدق. فأين هذا من هدي النبيّ والقرآن وما فيه من الآداب والإرشاد والتعليم والبلاغة والفصاحة والصراحة والإعجاز.

{ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ [224] أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ [225] وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ [226] إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ [227] }.

كان ممّا حوته كنانة بهتان المشركين أن قالوا في النبيّ صلى الله عليه وسلم: هو شاعر، فلما نثلت الآيات السابقة سهام كنانتهم وكسرتها، وكان منها قولهم: هو كاهن، لم يبقَ إلّا إبطال قولهم: هو شاعر.

وكان بين الكهانة والشعر جامع في خيال المشركين إذ كانوا يزعمون أنّ للشاعر شيطانا يملي عليه الشعر وربما سمُّوه (الرَّئِيّ)، فناسب أن يقارن بين تزييف قولهم في القرآن: هو شعر، وقولهم في النبيّ صلى الله عليه وسلم: هو شاعر، وبين قولهم: هو قول كاهن، كما قرن بينهما في قوله تعالى { وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ } [الحاقة:42/41].

ولمّا كان حال الشعراء في نفس الأمر مخالفا لحال الكهان، إذ لم يكن لملكة الشعر اتصال بالنفوس الشيطانية وإنّما كان ادعاء ذلك من اختلاق بعض الشعراء أشاعوه بين عامة العرب، اقتصرت الآية على نفي أن يكون الرسول شاعرا وأن يكون القرآن شعرا. دون تعرّض إلى أنّه تنزيل الشياطين، كما جاء في ذكر الكهانة.

وقد كان نفر من الشعراء بمكّة يهجون النبيّ صلى الله عليه وسلم وكان المشركون يُعْنَون بمجالسهم وسماع أقوالهم، ويجتمع إليهم الأعراب خارج مكة يستمعون أشعارهم وأهاجيهم، ومن هؤلاء (النضر بن الحارث / هبيرة بن أبي وهب / مُسافع بن عبد مناف / أبو عزّة الجمحمي / ابن الزِّبَعْرَى / أميّة بن أبي الصلت / أبو سفيان ابن الحارث / العوراء بنت حرب زوج أبي لهب، التي لقّبها القرآن { حَمَّالَةَ الْحَطَبِ } [المسد:4]).

فكانت هذه الآية نفيا للشعر أن يكون من خلق النبيّ صلى الله عليه وسلم وذمّا للشعراء الذين تصدّوا لهجائه.

{ **يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ** } ذم لأتباعهم وهو يقتضي ذمّ المتبوعين بالأحرى.

الغاوي: المتّصف بالغيّ والغواية، وهي الضلالة الشديدة، أي: يتبعهم أهل الضلالة والبطالة الراغبون في الفسق والأذى.

فقد اشتملت هذه الجملة على تنزيه النبيّ صلى الله عليه وسلم وتنزيه أصحابه وعلى ذمّ الشعراء وذم أتباعهم وتنزيه القرآن عن أن يكون شعرا.

وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي هنا لمجرّد التقوّي والاهتمام بالمسند إليه للفت السمع إليه، والمقام مستغن عن الحصر، لأنّه إذا كانوا يتّبعهم الغاوون فقد انتفى أتباعهم عن الصالحين.

وجعله في الكشاف للحصر، أي: لا يتبعهم إلّا الغاوون، لأنّه أصرح في نفي اتباع الشعراء عن المسلمين.

{ **أَلَمْ تَرَ** } الرؤية قلبية، لأنّ الهُيام والوادي مستعاران لمعاني اضطراب القول في أغراض الشعر، وذلك ممّا يُعلم لا ممّا يُرى.

والاستفهام تقريري، وأجري التقرير على نفي الرؤية لإظهار أنّ الإقرار لا محيد عنه. والخطاب لغير معيَّن.

ومُثّلت حال الشعراء بحال الهائمين في أودية كثيرة مختلفة، لأنّ الشعراء يقولون في فنون من الشعر من هجاء واعتداء على أعراض الناس، ومن نسيب وتشبيب بالنساء، ومدح من يمدحونه رغبة في إعطائه وإن كان لا يستحق المدح، وذمّ من يمنعهم وإن كان من أهل الفضل، وربّما ذمّوا من كانوا يمدحونه ومدحوا من سبق لهم ذمّه.

{ **كُلِّ** } مستعمل في الكثرة.

الواد: المنخفَض بين عدوتين. وإنّما ترعى الإبل الأودية إذا أقحلت الرُّبى، فمُثِّل حال الشعراء بحال الإبل الراعية في الأودية متحيّرة.

الهُيام: هو الحيرة والتردّد في المرعى.

{ **وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ** } شفَّع مذمَّتهم هذه بمذمَّة الكذب. والشاعر يقول ما لا يعتقد وما يخالف الواقع حتّى قيل: أحسن الشعر أكذبه.

والكذب مذموم في الدين الإسلامي فإن كان الشعر كذبا لا قرينة على مراد صاحبه فهو قبيح، وإن كان عليه قرينة كان كذبا معتذرا عنه فكان غير محمود.

وفي هذا إبداء للبون الشاسع بين حال الشعراء وحال النبيّ صلى الله عليه وسلم الذي كان لا يقول إلّا حقًّا ولا يصانع ولا يأتي بما يُضلِّل الأفهام.

{ **إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** } استثناء من عموم الشعراء، أي: من حكم ذمّهم. وبهذا الاستثناء تعيّن أنّ المذمومين هم شعراء المشركين الذين شغلهم الشعر عن سماع القرآن والدخول في الإسلام.

{ **وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً** } أي: كان إقبالهم على القرآن والعبادة أكثر من إقبالهم على الشعر.

{ **وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا** } وهم من أسلموا من الشعراء وقالوا الشعر في هجاء المشركين

والانتصار للنبيّ صلى الله عليه وسلم، مثل الذين أسلموا وهاجروا إلى الحبشة، فقد قالوا شعرا كثيرا في ذمّ المشركين. وكذلك من أسلموا من الأنصار (عبد الله بن رواحة - حسّان بن ثابت)، ومن أسلم من بعد من العرب مثل (لبيد - كعب بن زهير - سُحيم عبد بني الحسحاس)

وليس ذكر المؤمنين من الشعراء بمقتضي كون بعض السورة مدنيّا.

وقد دلّت الآية على أن للشعر حالتين: حالة مذمومة، وحالة مأذونة، فتعيّن أن ذمّه ليس لكونه شعرا ولكن لما حفّ به من معان وأحوال اقتضت المذمّة، فانفتح بالآية للشعر باب قبول ومدح فحقّ على أهل النظر ضبط الأحوال التي تأوي إلى جانب قبوله أو إلى جانب مدحه، والتي تأوي إلى جانب رفضه.

وقد أومأ إلى الحالة الممدوحة قوله تعالى { وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا }، وإلى الحالة المأذونة قوله تعالى { وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ }.

وقد أثنى النبيّ صلى الله عليه وسلم على بعض الشعر مما فيه محامد الخصال واسْتَنْصَتَ أصحابه لشعر كعب بن زهير ممّا فيه دقة صفات الرواحل الفارهة، وأذن لحسّان في مهاجاة المشركين وقال له: **"كلامك أشد عليهم من وقع النبل "** وقال له: **" قل ومعك روح القدس ".**

وسيأتي شيء من هذا عند قوله تعالى { وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ } [يس:69].

وأجاز عليه كما أجاز كعب بن زهير فخلع عليه بردته، فتلك حالة مقبولة لأنّه جاء مؤمنا.

وقال أبو هريرة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على المنبر: **" أصدق كلمة، أو أشعر كلمة قالتها العرب كلمة لبيد:** " ألّا كلّ شيء ما خلا الله باطل ".

وكان يستنشد شعر أمية بن أبي الصلت لما فيه من الحكمة وقال: **" كاد أمية أن يسلم ".**

وفي الشعر تحبيب لفصاحة العربية وبلاغتها، وهو آيل إلى غرض شرعي من إدراك بلاغة القرآن.

{ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا } أي: من بعد ما ظلمهم المشركون بالشتم والهجاء.

{ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ } ناسب ذكر الظلم أن ينتقل منه إلى وعيد الظالمين وهم المشركون الذين ظلموا المسلمين بالأذى والشتم بأقوالهم وأشعارهم.

وجُعلت هذه الآية في موقع التذييل فاقتضت العموم في مُسمَّى الظلم الشامل للكفر وهو ظلم المرء نفسه، وللمعاصي القاصرة على النفس كذلك، وللاعتداء على حقوق الناس.

والآية تحذيرٌ من غمص الحقوق وحثٌّ عن استقصاء الجهد في النصح للأمّة، وهي ناطقة بأهْيَبِ موعظة وأَهْوَل وعيد لمن تدبّرها لما اشتملت عليه من حرف التنفيس المؤذن بالاقتراب، ومن اسم الموصول المؤذن بأنّ سوء المنقلب يترقّب الظالمين لأجل ظلمهم، ومن الإبهام في قوله تعالى {أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ}، إذ ترك تبيينه بعقاب معيّن لتذهل نفوس الموعدين في كلّ مذهب ممكن من هول المنقلب، وهو على الإجمال منقلب سوء.

المنقلب: مصدر ميمي من الانقلاب، وهو المصير والمآل، لأنّ الانقلاب هو الرجوع.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النمل

أشهر أسمائها (**سورة النمل**). وكذلك سُمِّيت في صحيح البخاري وجامع الترمذي.

وتُسمَّى أيضا (**سورة سليمان**).

وذكر أبو بكر ابن العربي في أحكام القرآن أنّها تسمَّى (**سورة الهدهد**).

ووجه الأسماء الثلاثة أنّ لفظ النمل ولفظ الهدهد لم يذكرا في سورة من القرآن غيرها، وأمّا تسميتها سورة سليمان فلأنّ ما ذكر فيها من مُلك سليمان مفصَّلًا لم يذكر مثله في غيرها.

وهي مكّيّة بالاتفاق كما حكاه ابن عطية والقرطبي والسيوطي وغير واحد.

وهي السورة **الثامنة والأربعون** في عداد نزول السور، نزلت بعد الشعراء وقبل القصص. كذا روي عن ابن عباس وسعيد بن جبير.

وقد عُدَّت آياتها في عدد أهل المدينة ومكة **خمسا وتسعين**، وعند أهل الشام والبصرة والكوفة أربعا وتسعين.

أغراض السورة

*/ افتتاحها بما يشير إلى إعجاز القرآن ببلاغة نظمه وعلو معانيه بما يشير إليه الحرفان المقطّعان.

*/ التنويه بشأن القرآن وأنّه هدى لمن يسّر الله له الاهتداء به دون من جحدوا أنّه من عند الله.

*/ التحدّي بعلم ما فيه من أخبار الأنبياء.

*/ الاعتبار بأعظم مُلك أوتيه نبيّ. وهو ملك داود وملك سليمان عليهما السلام.

*/ الإشارة إلى أشهر أمّة في العرب أوتيت قوّة وهي أمّة ثمود.

*/ الإشارة إلى ملك عظيم من العرب وهو ملك سبأ.

*/ محاجَّة المشركين في بطلان دينهم وتزييف آلهتهم وإبطال أخبار كُهَّانهم وعرَّافيهم وسدنة آلهتهم.

*/ إثبات البعث وما يتقدّمه من أهوال القيامة وأشراطها.

*/ إثبات أنّ القرآن مهيمن على الكتب السابقة.

*/ موادعة المشركين وإنباؤهم بأنّ شأن الرسول الاستمرار على إبلاغ القرآن وإنذارهم بأنّ آيات الصدق سيشاهدونها والله مطّلع على أعمالهم.

قال ابن الفرس ليس في هذه السورة إحكام ولا نسخ. أي: أنّها لم تشتمل على تشريع قار ولا على تشريع منسوخ. **أقول**: قوله تعالى { لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً } يؤخذ منه حكمان كما سيأتي.

{ **طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ** } [1] .

{ **طس** } تقدّم القول في أنّ الراجح أنّ هذه الحروف تعريض بالتحدّي بإعجاز القرآن، وأنّه مؤتلف من حروف كلامهم.

{ **تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ** } القول فيه كالقول في صدر سورة الشعراء، وخالفت هذه الآية سابقتها بثلاثة أشياء: بذكر اسم { الْقُرْآنِ } وبعطف { وَكِتَابٍ } عليه وبتنكير { كِتَابٍ }.

فأمّا ذكر اسم القرآن فلأنّه عَلَم للكتاب الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم للإعجاز والهدي. وهذا العلم يرادف (**الكتاب**) المعرّف بلام العهد المجعول علما بالغلبة على القرآن، إلّا أنّ اسم القرآن أدخل في التعريف لأنّه علم منقول. وأمّا الكتاب فعلم بالغلبة.

{ **وَكِتَابٍ مُبِينٍ** } المراد القرآن أيضا ولا وجه لتفسيره باللوح المحفوظ للتفصّي من إشكال عطف الشيء على نفسه، فعطف إحدى صفتين على أخرى كثير في الكلام. ونظيره قوله تعالى { تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ} [الحجر:1].

وإنّما قدّم في هذه الآية القرآن وعطف عليه { كِتَابٍ مُبِينٍ }، على عكس ما في طالعة سورة الحجر، لأنّ المقام هنا مقام التنويه بالقرآن ومتّبعيه المؤمنين فلذلك وُصف بأنّه { هُدىً وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ }، أي: بأنّهم على هدى في الحال ومبشّرون بحسن الاستقبال، فكان الأهمّ هنا للوحي المشتمل على الآيات هو استحضاره باسمه العلم المنقول من مصدر القراءة لأنّ القراءة تناسب حال المؤمنين به المتقبّلين لآياته، ثم عطف عليه { كِتَابٍ مُبِينٍ } ليكون التنويه به جامعا لعنوانيه ومستكملا للدلالة بالتعريف على معنى الكمال في نوعه من المقروآت.

وأمّا ما في أول سورة الحجر فهو مقام التحسير للكافرين من جرّاء إعراضهم عن الإسلام فناسب أن يبتدئوا باسم الكتاب المشتق من الكتابة دون القرآن لأنّهم بمعزل عن قراءته ولكنّه مكتوب، وحجّة عليهم باقية على مرّ الزمان. وقد تقدّم تفصيل ذلك في أوّل سورة الحجر.

{ **مُبِينٍ** } اسم فاعل إمّا من (أبان) القاصر بمعنى (بان). فالمبين أفاد معنيين أحدهما: أن شواهد صدقه وإعجازه وهديه بيّنة لكلّ متأمّل، وثانيهما أنّه مرشد ومفصّل.

{ **هُدىً وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ** [2] **الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ** [3] }.

{ **هُدىً وَبُشْرَى** } حالان من { كِتَابٌ } بعد وصفه بـ { مُبِينٌ }، وجُعل الحال مصدرا للمبالغة بقوّة تسبّبه في الهدى وتبليغه البشرى للمؤمنين. ووصف الكتاب بالهدى والبشرى مجاز عقلي، وإنّما الهادي والمبشّر الله أو الرسول بسبب الكتاب.

{ **لِلْمُؤْمِنِينَ** } يتنازعه { هُدىً وَبُشْرَى } لأنّ المؤمنين هم الذين انتفعوا بهديه، قال تعالى { هُدىً لِلْمُتَّقِينَ}.
{ **الَّذِينَ** } الوصف بالموصول لتمييزهم عن غيرهم لأنّهم عُرفوا يومئذ بإقامة الصلاة وإعطاء الصدقات للفقراء والمساكين، ألا ترى أنّ الله عرّف الكفار بقوله تعالى { وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ } [فصلت:7/6]، ولأنّ في الصلة إيماء إلى وجه بناء الإخبار عنهم بأنّهم على هدى من ربهم ومفلحون.
الزكاة: الصدقة لأنّها تزكّي النفس أو تزكّي المال، أي: تزيده بركة. والمراد بالزكاة هنا الصدقة مطلقا أو صدقة واجبة كانت على المسلمين، وهي مواساة بعضهم بعضا، كما دلّ عليه قوله تعالى في صفة المشركين { كَلَّا بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ } [الفجر:18/17].
وأمّا الزكاة المقدّرة بالنُّصب والمقادير الواجبة على أموال الأغنياء فإنّها فرضت بعد الهجرة فليست مرادا هنا فالسورة مكّية.
{ **وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ** } عطف على الصلة وليست من الصلة ولذلك خولف بين أسلوبها وأسلوب الصلة فأتي له بجملة اسمية اهتماما بمضمونها لأنّه باعث على فعل الخيرات.
{ **هُمْ** } الضمير الثاني يجوز أن يُعتبر ضمير فصل دالا على القصر، أي: ما يوقن بالآخرة إلّا هؤلاء.
والقصر إضافي بالنسبة إلى مجاوريهم من المشركين وإلّا فإنّ أهل الكتاب يوقنون بالآخرة إلّا أنّهم غير مقصود حالهم للمخاطبين من الفريقين.
{ **بِالْآخِرَةِ** } التقديم للرعاية على الفاصلة وللاهتمام بها.

{ **إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ** } [4].
يثير كون الكتاب المبين هدى وبشرى للذين يوقنون بالآخرة سؤالا في نفس السامع عن حال أضدادهم الذين لا يوقنون بالآخرة، لماذا لا يهتدون بهدي هذا الكتاب البالغ حدًّا عظيما في التبين والوضوح؟ فلا جرم أن يصلح المقام للإخبار عمّا صرف هؤلاء الأضداد عن الإيمان بالحياة الآخرة، فوقع هذا الاستئناف البياني لبيان سبب استمرارهم على ضلالهم. ذلك بأنّ الله يعلم خبث نواياهم فحرمهم التوفيق ولم يصرف إليهم عناية تنشلهم من كيد الشيطان لحكمة علمها الله من حال ما جُبلت عليه نفوسهم، فوقع هذا الاستئناف بتوابعه موقع الاعتراض بين أخبار التنويه بالقرآن بما سبق والتنويه به بمن أنزل عليه بقوله { وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ } [6].
{ **إِنَّ** } التأكيد للاهتمام بالخبر، لأنّه بحيث يلتبس على الناس سبب افتراق الناس في تلقّي الهدى بين مبادر ومتقاعس ومصرّ على الاستمرار في الضلال.
{ **الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ** } مجيء المسند إليه موصولا يومئ إلى أنّ الصلة علّة في المسند.
{ **زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ** } تصوُّرهم إيّاها في نفوسهم زَينًا، فهم لإلفهم إيّاها وتصلّبهم فيها صاروا غير قابلين لهدي هذا الكتاب الذي جاءتهم آياته.

وقد أشارت الآية إلى معنى دقيق جدًّا وهو أنّ تفاوت الناس في قبول الخير كائن بمقدار رسوخ ضدّ الخير في نفوسهم وتعلّق فطرتهم به. وذلك من جرّاء ما طرأ على سلامة الفطرة من فساد، كما أشار إليه قوله { لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } [التين:6/5].

فإسناد تزيين أعمال المشركين إلى الله في هذه الآية وغيرها مثل قوله تعالى {كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ} [الأنعام:108] لا ينافي إسناد ذلك إلى الشيطان في قوله الآتي { وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ } [24]. فالله تعالى مُزيّن لهم بسبب فساد جِبلَّة نفوسهم، والشيطان مُزيّن لهم بالوسوسة التي تجد في نفوسهم مرتعا خصبا ومنبتا لا يقحل، كما قال تعالى حكاية عنه { قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ } [ص:83/82]. وتقدّم ذلك في قوله تعالى { خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ } [البقرة:7].

{ **فَهُمْ يَعْمَهُونَ** } فُرّع على تزيين أعمالهم لهم أنّهم في عَمَه متمكِّن منهم، والتمكّن أفادته الجملة الاسمية، والمضارع للتجدّد.

العَمَه: الضلال عن الطريق بدون اهتداء. وتقدّم قوله تعالى {وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [البقرة:15].

{ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ } [5].

{ **أُولَئِكَ** } قُصد باسم الإشارة زيادة تمييزهم فضحا لسوء حالهم مع ما ينبّه إليه اسم الإشارة في مثل هذا المقام من أنّ استحقاقهم ما يُخبر به عنهم ناشئ عمّا تقدّم اسم الإشارة.

{ **الَّذِينَ** } عُقّب باسم الموصول وصلته لما فيه من الإيماء إلى وجه بناء الخبر.

{ **سُوءُ الْعَذَابِ** } الظاهر أنّ المراد به عذاب الدنيا وهو عذاب السيف وخزي الغلب يوم بدر بقرينة ما بعده.

ففي الآية إشارة إلى جزاءين: <u>جزاء في الدنيا</u> معدود لهم يستحقّونه بكفرهم فهم ما داموا كافرين متهيّئون للوقوع في ذلك العذاب إن جاء إبانه وهم على الكفر.

<u>وجزاء في الآخرة</u> ينال من صار إلى الآخرة وهو كافر وهذا المصير يُسمَّى بـ (الموافاة) عند الأشعري.

{ **لَهُمْ** } لام الاختصاص مفيدة كون العذاب مهيَّأ تهيّئة، وكون نوال العذاب الأوّل إيّاهم قابلا للتفصّي منه بالإيمان قُبيل حلوله بهم. أمّا أصالة جزاء الآخرة إيّاهم فلا مندوحة لهم عنه إن جاؤوا يوم القيامة بكفرهم.

{ **وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ** } الجملة الاسمية وضمير الفصل للدلالة على ثبات مضمون الجملة وعلى انحصار مضمونها فيهم، كما تقدّم في قوله تعالى { وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ } [3].

{ **الْأَخْسَرُونَ** } اسم التفضيل للدلالة على أنّ خسرانهم لا يشبهه خسران غيرهم لأن الخسران في الآخرة متفاوت المقدار والمدّة وأعظمه فيهما خسران المشركين.

{ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ } [6].

عطف على جملة { تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ } انتقال من التنويه بالقرآن إلى التنويه بالذي أنزل عليه، بأنّ القرآن آيات دالة على أنّه كتاب مبين، وذلك آية أنّه من عند الله، ثم بأنّه آية على صدق من أنزل عليه إذ أنبأه بأخبار الأنبياء والأمم الماضين التي ما كان يعلمها هو ولا قومه.

والآية تمهيد لما يذكر بعده من القصص.

{ **تُلَقَّى** } مضارع لقاه مبني للمجهول، أي: جعله لاقيا. واللُّقيُّ واللقاء: وصول أحد الشيئين إلى شيء آخر قصدا أو مصادفة. والتلقية: جعل الشيء لاقيا غيره، قال تعالى { وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً } [الإنسان:11]، وهو هنا تمثيل لحال إنزال القرآن إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم بحال التلقية كأنّ جبريل سعى للجمع بين النبيّ صلى الله عليه وسلم والقرآن.

{ **مِنْ لَدُنْ** } تنبيه على شدّة انتساب القرآن إلى جانب الله تعالى، فإنّ أصل { لَدُنْ } الدلالة على المكان مثل (عند) ثم شاع إطلاقها على ما هو من خصائص ما تضاف هي إليه تنويها بشأنه، قال تعالى { وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً } [الكهف:65].

الحكيم: القوي الحكمة، و**العليم**: الواسع العلم. وفي التنكير إيذان بالتعظيم.

وفي الوصفين الشريفين مناسبة للمعطوف عليه وللممهّد إليه، فإنّ ما في القرآن دليل على حكمة وعلم من أوحى به، وأنّ ما يُذكر هنا من القصص وما يُستخلص منها من المغازي والأمثال والموعظة من آثار حكمة وعلم حكيم عليم، وكذلك ما في ذلك من تثبيت فؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم.

{ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ } [7].

استئناف ابتدائي. ومناسبة موقع الجملة إفادة تنظير تلقّي النبيّ صلى الله عليه وسلم القرآن بتلقّي موسى عليه السلام كلام الله. وذلك من بديع التخلّص إلى ذكر قصص هؤلاء الأنبياء عقب التنويه بالقرآن.

والمعنى: أنّ الله يقصّ عليك من أنباء الرسل ما فيه مثل لك ولقومك وما يثبّت به فؤادك.

{ **إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ** } زمان قول موسى لأهله هذه المقالة هو وقت اجتلابه للمبادرة بالوحي إليه.

الأهل: مراد به زوجه، ولم يكن معه إلّا زوجه وابنان صغيران.

{ **إِنِّي آنَسْتُ نَاراً** } لم تظهر النار إلّا لموسى دون غيره من أهله لأنّها لم تكن نارا معتادة لكنّها من أنوار

عالم الملكوت جلّاه الله لموسى فلا يراه غيره. ويؤيد هذا تأكيده الخبر بـ (إن) المشير إلى أنّ زوجه تردّدت في ظهور نار لأنّها لم ترها.

الإيناس: الإحساس والشعور بأمر خفي، فيكون في المرئيات وفي الأصوات.

{ **سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ** } خبر المكان الذي تلوح منه النار. ولعلّه ظنّ أنّ هنالك بيتا يرجو استضافتهم.

{ **أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ** } أو يأت منهم بجمرة نار.

الشهاب: الجمر المشتعل. و**القبس**: جمرة أو شعلة نار تُقْبَس، أي: يؤخذ اشتعالها من نار أخرى.

الاصطلاء: افتعال من الصلْي وهو الشيُّ بالنار. ودلت صيغة الافتعال أنّه محاولة الصلْي فصار بمعنى التدفؤ بوهج النار.

{ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [8] يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [9] وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ [10] إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ [11] }.

{ **جَاءَهَا** } أُنِّث الضمير جريا على ما تقدّم من تسمية النور نارا بحسب ما لاح لموسى. وتقدّم ذكر هذه القصة في [طه:9-12]، فبنا أن نتعرّض هنا لما انفردت به هذه الآيات من المفردات والتراكيب.

{ **أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا** } هو بعض ما اقتضاه قوله تعالى في طه { فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً } [طه:12].

{ **أَنْ** } تفسيرية لفعل { نُودِيَ } لأنّ فيه معنى القول دون حروفه، أي: نودي بهذا الكلام.

{ **بُورِكَ** } قُدِّس وزُكِّيَ. وتقدّم بيان معنى البركة في قوله تعالى { لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً } [آل عمران:96]، وقوله تعالى { وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ } [هود:48].

{ **مَنْ فِي النَّارِ** } مراد به موسى، فإنّه لمّا حلّ في موضع النور صار محيطا به.

والكلام بشارة لموسى عليه السلام ببركة النبوّة.

{ **وَمَنْ حَوْلَهَا** } هو جبريل والملائكة الذين وُكِّل إليهم إنارة المكان وتقديسه إذ كان النداء بغير واسطة جبريل بل كان من لدن الله تعالى. فهذا التبريك تبريك ذوات لا تبريك مكان بدليل ذكر { مَنْ } الموصولة في الموضعين، وهو تبريك الاصطفاء الإلهي بالكرامة.

وقيل: إنّ قوله تعالى { أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ } إنشاء تحية من الله تعالى إلى موسى عليه السلام كما كانت تحية الملائكة لإبراهيم { رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ } [هود:73] أي: أهل هذا البيت الذي نحن فيه.

{ **وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** } عطف على ما نودي به موسى إخبارا بتنزيه الله تعالى عمّا لا يليق بإلهيّته من أحوال المحدثات ليعلم موسى أمرين:

الأوّل: أنّ النداء وحي من الله تعالى.

الثاني: أنّ الله منزّه عمّا عسى أن يخطر بالبال أن جلالته في ذلك المكان.

ويجوز أن يكون { وَسُبْحَانَ اللَّهِ } مستعملا للتعجيب من ذلك المشهد، وأنّه أمر عظيم من أمر الله تعالى وعنايته يقتضي تذكّر تنزيهه وتقديسه.

فالمعنى: ونزِّه الله تنزيها عن كلّ ما لا يليق به، ومن أوّل تلك الأشياء تنزيهه عن أن يكون حالا بالمكان.

{ **رَبِّ الْعَالَمِينَ** } فيه معنى التعليل للتنزيه عن شؤون المحدثات لأنّه ربّ العالمين فلا يشبههم.

{ **إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } الضمير { إِنَّهُ } ضمير الشأن والجملة بعده خبر عنه. والمعنى: إعلامه بأنّ أمرا مهمّا يجب علمه وهو أنّ الله عزيز حكيم، أي: لا يغلبه شيء ولا يستصعب عليه تكوين.

وتقديم هذا بين يدي ما سيُلقى إليه من الأمر لإحداث رباطة جأش لموسى ليعلم أن قد خُلعت عليه النبوّة، ويعلم أنّه سيتعرّض إلى أذى وتألُّب عليه، وأنّ الله يؤيّده وينصره، وليعلم أنّ ما شاهد من النار وما تلقّاه من الوحي وما سيشاهده من قلب العصا حيّة ليس بعجيب في جانب حكمة الله تعالى، فتلك ثلاث كنايات.

{ **وَأَلْقِ عَصَاكَ** } المعنى: وقلنا: ألق عصاك.

الاهتزاز: الاضطراب، وهو افتعال من الهزّ وهو الرفع.

الجانّ: ذَكَر الحيّات، وهو شديد الاهتزاز وجمعه جِنَّان (وأمّا الجان بمعنى واحد الجنّ فاسم جمعه جِنٌّ).

والتشبيه في سرعة الاضطراب لأنّ الحيّات خفيفة التحرّك، وأمّا تشبيه العصا بالثعبان في آية { فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ } [الأعراف:107] فذلك لضخامة الجرم.

التولّي: الرجوع عن السير في طريقه. وفعل (تولّى) مرادف فعل { وَلَّى } كما هو ظاهر صنيع القاموس وإن كان مقتضى ما في فعل (تولّى) من زيادة المبنى أن يفيد زيادة في المعنى.

{ **مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ** } قُصد من هذا التأكيد إفادة قوّة تولّيه لمّا رأى عصاه تهتزّ.

الإدبار: التوجّه إلى جهة الخلف وهو ملازم للتولّي فقوله تعالى { مُدْبِراً } حال لازمة لفعل { وَلَّى }.

التعقُّب: الرجوع بعد الانصراف مشتقّ من العقب لأنّه رجوع إلى جهة العقب، أي: الخلف.

وكان ذلك التولّي منه لتغلّب القوّة الواهمة التي في جبلّة الإنسان على قوّة العقل الباعثة على التأمّل فيما دلّ عليه قوله تعالى { إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } من الكناية عن إعطائه النبوّة والتأييد إذ كانت القوّة الواهمة متأصّلة في الجبلّة سابقة على ما تلقّاه من التعريض بالرسالة.

{ **يَا مُوسَى لَا تَخَفْ** } مقول قول محذوف، أي: قلنا له. والنهي عن الخوف مستعمل في النهي عن استمرار الخوف لأنّ خوفه قد حصل.

{ **إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ** } تعليل للنهي عن الخوف، وتحقيق لما يتضمّنه نهيه عن الخوف من

انتفاء موجبه. وهذا كناية عن تشريفه بمرتبة الرسالة، إذ عُلِّل بأنّ المرسلين لا يخافون لدى الله تعالى.
{ **لَدَيَّ** } في حضرتي، أي: حين تلقِّي رسالتي. وحقيقة { لَدَيَّ } مستحيلة على الله لأنّ حقيقتها المكان.
وليس في النهي حطٌّ لمرتبة موسى عليه السلام عن مراتب غيره من المرسلين.
{ **إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ** }
ظاهره أنّ الاستثناء متّصل. ونسب ابن عطية هذا إلى مقاتل وابن جريج، فيكون الكلام مستثنى من عموم الخوف الواقع فعله في حيّز النفي، فيعمّ الخوف بمعنى الرعب والخوف الذي هو خوف العقاب على الذنب، أي: إلّا رسولا ظَلَم، أي: فَرَط منه ظلم، أي: ذنب قبل اصطفائه للرسالة، فهو يخاف أن يؤاخذه الله به ويجازيه على ارتكابه، وذلك مثل كيد إخوة يوسف لأخيهم، واعتداء موسى على القبطي بالقتل.
والمقصود من هذا الاستثناء على هذا الوجه تسكين خاطر موسى وتبشيره بأنّ الله غفر له.
ومن ألطف الإيماء الإتيان بـ { ظَلَمَ } ليومئ إلى قول موسى يوم ارتكب الاعتداء { رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي} [القصص:16].
وقيل: الاستثناء منقطع، قاله الفرّاء والزجّاج والزمخشري وجرى عليه كلام الضحّاك. وحرف الاستثناء بمعنى الاستدراك، فالكلام استطراد للتنبيه على أنّ من ظلم وبدّل حسنا بعد سوء من الناس يُغفر له.
وعليه تكون { مَنْ } صادقة على كلّ شخص ظلم وليس المراد بها مخالفات بعض الرسل، وهذا التأويل دعا إليه أن الرسالة تنافي سبق ظلم النفس. **والقول الأوّل أظهر كما أسلفنا**.
{ **بَدَّلَ** } يقتضي شيئين: مأخوذا، ومعطى، فيتعدّى الفعل إلى الشيئين تارة بنفسه كقوله تعالى { فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ } [الفرقان:70]، ويتعدّى تارة إلى المأخوذ بنفسه وإلى المعطى بـ (الباء) على تضمينه معنى عاوض كقوله تعالى { وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ } [النساء:2].
{ **ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ** } أي: أخذ حسنا بسوء، فإنّ كلمة { بَعْدَ } تدل على أنّ ما أضيفت إليه هو الذي كان ثابتا ثم زال وخلفه غيره، فالحالة الحسنة هي المجعولة في موضع الحالة السيئة.

{ **وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ** } [12].
عطف على قوله تعالى { وَأَلْقِ عَصَاكَ } وما بينهما اعتراض، بعد أن أراه آية انقلاب العصا ثعبانا أراه آية أخرى ليطمئن قلبه بالتأييد، والمقصود من ذلك أن يجعل له ما تطمئن له نفسه من تأييد الله إيّاه عند لقاء فرعون.
{ **فِي تِسْعِ آيَاتٍ** } والآيات هي: (العصا / اليد / الطوفان / الجراد / القُمَّل / الضفادع / الدم / القحط / انفلاق البحر)، وقد عُدّ بعضها في [الأعراف:103].

{ **إِلَى فِرْعَوْنَ** } صفة لآيات، أي: آيات مسوقة إلى فرعون. وفي هذا إيذان بكلام محذوف إيجازا وهو أمر الله موسى بأن يذهب إلى فرعون كما بيّن في سورة الشعراء.

{ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ [13] وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ [14] }.

أوجز بقية القصّة وانتقل إلى العبرة بتكذيب فرعون وقومه الآيات، ليُعتَبر بذلك حال الذين كذّبوا بآيات محمد صلى الله عليه وسلم، وقُصد من هذا الإيجاز طيّ بساط القصّة لينتقل منها إلى قصّة داود ثم قصّة سليمان.

{ **فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا** } حصولها واحدة بعد أخرى، وهي الآيات الثمان التي قبل الغرق.

المبصرة: الظاهرة. صيغ لها وزن اسم فاعل الإبصار على طريقة المجاز العقلي، وإنّما المبصِر الناظر إليها. وتقدّم نظيره في قوله تعالى { وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً } [الإسراء:59].

الجحود: الإنكار باللسان.

{ **وَاسْتَيْقَنَتْهَا** } بمعنى أيقنت بها، فحُذف حرف الجر وعُدّي الفعل إلى المجرور على التوسّع أو على نزع الخافض، أي: تحقَّقتها عقولهم. والسين والتاء للمبالغة.

{ **ظُلْماً وَعُلُوّاً** } الظلم في تكذيبهم الرسول لأنّهم ألصقوا به ما ليس بحقّ، فظلموه حقّه. و**العلو**: الكبر. نشر على ترتيب اللف؛ فالظلم في الجحد بها والعلو في كونهم موقنين بها.

{ **فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ** } جُعل ما هو معلوم من حالهم فيما لحق بهم من العذاب بمنزلة الشيء المشاهد للسامعين فأمر بالنظر إليه. والخطاب لغير معيَّن. ويجوز أن يكون الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم تسلية له بما حل بالمكذّبين بالرسل قبله لأنّ في ذلك تعريضا بتهديد المشركين بمثل تلك العاقبة.

{ **كَيْفَ** } يجوز أن يكون مجردا عن معنى الاستفهام، ويجوز أن يكون استفهاما للتعجيب.

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ} [15].

كما كان في قصّة موسى وإرساله إلى فرعون آياتٍ عبرةٌ ومَثَلٌ للذين جحدوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم كذلك في قصّة سليمان وملكة سبأ وما رأته من آياته وإيمانها به مثلٌ لعلم النبيّ صلى الله عليه وسلم وإظهار لفضيلة ملكة سبأ إذ لم يصدّها ملكها عن الاعتراف بآيات سليمان فآمنت به.

{ **وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ** } افتتاح الجملة بلام القسم وحرف التحقيق لتنزيل المخاطبين به منزلة من يتردّد في

ذلك لأنّهم جحدوا نبوّة مثل داود وسليمان إذ قالوا { لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ } [سبأ:31].
وتقديم ذكر داود ليُبنى عليه ذكر سليمان إذ ورث ملكه من أبيه. ولأنّ في ذكر داود مَثَل لإفاضة الحكمة على من لم يكن متصدِّيا لها وما كان من أهل العلم بالكتاب، فقد كان داود راعيا غنم أبيه (يسِّي) في بيت لحم، فأمر الله (شمويل النبيّ) أن يجعل داود نبيّا في مدّة ملك (طالوت / شاول).
لذلك فلا عجب أن يُعطى محمد صلى الله عليه وسلّم الحكمة والنبوّة ولم يكن يعلم ذلك من قبل، كما قال تعالى { مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا } [هود:49]، لذا فللقصّة اتصال بقوله تعالى { وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ } [6].
{ **عِلْماً** } التنكير للتعظيم لأنّه علم بنبوّة وحكمة. وفي فعل { **آتَيْنَا** } ما يؤذن بأنّه علم مفاض من عند الله لأنّ (الإيتاء) أخصّ من { وَعَلَّمْنَاهُ }، فلذلك استُغني هنا عن كلمة { مِنْ لَدُنَّا } التي في قوله تعالى { وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً } [الكهف:65].
{ **وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ** } حكاية قولهما كناية عن تفضيلهما بفضائل غير العلم، وتنويه بأنّهما شاكران نعمته. ولأجل ذلك عطف قولهما بـ (الواو) دون (الفاء) لأنّه ليس حمدا لمجرّد الشكر على إيتاء العلم.

{ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ } [16].
{ **وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ** } طوى خبر ملك داود وبعض أحواله إلى وفاته لأنّ المقصود هو قصة سليمان.
وقد كان داود ملكا على بني إسرائيل ودام ملكه أربعين سنة وتوفي وهو ابن سبعين سنة.
وخلف سليمان أباه، فهو وارث ملكه والقائم في مقامه في سياسة الأمة وظهور الحكمة ونبوّة بني إسرائيل.
الإرث: هنا مستعمل في معناه المجازي لظهور أن ليس غرض الآية إفادة من انتقلت إليه أموال داود بقرينة ما قبله { وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا } [15]. وقد كان لداود أحد عشر ولدا فلا يختص إرث ماله بسليمان وليس هو أكبرهم. وكان داود قد أقام سليمان ملكا على إسرائيل.
{ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ }
قال سليمان هذه المقالة في مجمع عظيم لأنّ لهجة هذا الكلام لهجة خطبته في مجمع من الناس الحاضرين مجلسه من الخاصة والسامعين من العامة. فهذه الجملة متضمّنة شكر الله تعالى ما منحه من علم وملك، وليقدِّر الناس قدره ويعلموا واجب طاعته إذ كان الله قد اصطفاه لذلك.
كما كان تعليم فضائل النبوّة من مقاصد الشرع، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: **" أنا سيد ولد آدم ولا فخر "** أي: أقوله لقصد الإعلام بواجب التقدير لا لقصد الفخر على الناس.

{ **عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ** } عِلْم منطق الطير أوتيه سليمان من طريق الوحي بأن أطلعه الله على ما في تقاطيع وتخاليف صفير الطيور أو نعيقها من دلالة على ما في إدراكها وإرادتها. وفائدة هذا العلم أنّ الله جعله سبيلا له يهتدي به إلى تعرّف أحوال يسبق الطير إلى إدراكها بما أودع فيه من القوى الكثيرة.

والاقتصار على منطق الطير إيجاز لأنّه إذا عُلِّم منطق الطير، وهي أبعد الحيوان عن الركون إلى الإنسان وأسرعها نفورا منه، عُلم أنّ منطق ما هو أكثر اختلاطا بالإنسان حاصل له بالأحرى كما يدلّ عليه قوله تعالى فيما يأتي قريبا { فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا } [19]، فتدلّ هذه الآية على أنّه عُلِّم منطق أصناف الحيوان.

وهذا العلم سماه العرب علم **الحُكْل** (بضم الحاء المهملة وسكون الكاف).

{ **مَنْطِقَ** } عُبّر عن أصوات الطير بهذا الفظ تشبيها له بنطق الإنسان من حيث هو ذو دلالة لسليمان على ما في ضمائر الطير، فحقيقة المنطق: الصوت المشتمل على حروف تدلّ على معان.

{ **عُلِّمْنَا / أُوتِينَا** } الضمير مراد به نفسه، جاء به على صيغة المتكلّم المشارك، إمّا لقصد التواضع، كأنّ جماعة علموا وأوتوا وليس هو وحده، وإمّا لأنّه المناسب لإظهار عظمة الملك.

{ **وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ** } كلّ شيء من الأشياء المهمة، فـ { كُلِّ } مستعملة في الكثرة و{ شَيْءٍ } مستعمل في الأشياء المهمّة مما له علاقة بمقام سليمان.

{ **إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ** } التأكيد بحرف التوكيد ولامه، الذي هو في الأصل لام قسم، وبضمير الفصل مقصود به تعظيم النعمة أداءً للشكر عليها بالمستطاع من العبارة.

{ **الْفَضْلُ** } الزيادة من الخير والنفع. و{ **الْمُبِينُ** } : الظاهر الواضح.

{ **وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ** } [17].

وهب الله سليمان قوّة من قوى النبوّة يدرك بها من أحوال الأرواح والمجرّدات كما يدرك منطق الطير ودلالة النمل ونحوها.

وقد وهب الله هذه القوّة محمدًا صلى الله عليه وسلم فصرف إليه نفرا من الجنّ يستمعون القرآن، ويخاطبونه. وإنّما أمسك رسول الله عن أن يتصرّف فيها ويزعها كرامة لأخيه سليمان إذ سأل الله ملكا لا ينبغي لأحد من بعده. فالله قد محّضه لما هو أهم وأعلى، فنال بذلك فضلا مثل فضل سليمان، ورجح بإعراضه عن التصرف لأنّ جانب النبوّة في رسول الله أقوى من جانب الملك، كما قال للرجل الذي رعد حين مثل بين يديه " **إنّي لست بملك ولا جبّار** ". وقد ورد في الحديث: " أنّه خُيِّر بين أن يكون نبيّا عبدا أو نبيّا ملكا فاختار أن يكون نبيّا عبدا ". فرتبة رسول الله صلى الله عليه وسلم رتبة التشريع وهي أعظم من رتبة الملك، وسليمان لم يكن مشرّعا لأنّه ليس برسول، فوهبه الله ملكا يتصرّف به في السياسة.

الحشر: الجمع. والمعنى: أنّ جنوده كانت مُحْضَرة في حضرته مُسَخَّرة لأمره.

الجنود: جمع جند، وهو الطائفة التي لها عمل متّحد تُسَّخر له. وغلب إطلاق الجند على طائفة من الناس يُعدّها الملك لقتال العدو ولحراسة البلاد.

{ **مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ** } بيان للجنود، فهي ثلاثة أصناف:

صنف الجنّ، وهو لتوجيه القوى الخفيّة، والتأثير في الأمور الروحيّة.

صنف الإنس، وهو جنود تنفيذ أوامره ومحاربة العدو وحراسة المملكة.

صنف الطير، وهو من تمام الجند لتوجيه الأخبار وتلقيها وتوجيه الرسائل إلى قوّاده وأمرائه.

واقتصر على الجن والطير لغرابة كونهما من الجنود، فلذلك لم يذكر الخيل وهي من الجيش.

الوزع: الكفّ عمّا لا يراد، فشمل الأمر والنهي، أي: فهم يُؤمرون فيأتمرون، ويُنهون فينتهون.

وفي الآية إشارة إلى أنّ جمع الجنود وتدريبها من واجبات الملوك.

{ **حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ** [18] **فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ** [19] }.

{ **حَتَّى** } ابتدائية ومعنى الغاية لا يفارقها ولكنّها مع الابتدائية غاية غير نهاية.

{ **إِذَا** } ظرف زمان بمعنى حين. والتقدير: قالت نملة حين أتوا على واد النمل.

{ **وَادِ النَّمْلِ** } يجوز أن يكون مرادا به الجنس، لأنّ للنمل شقوقا ومسالك هي بالنسبة إليها كالأودية للبشر.

ويجوز أن يراد به مكان مشتهر بالنمل غلب عليه هذا المضاف كما سُمِّي (وادي السباع) موضع معلوم بين البصرة ومكّة. قيل: وادي النمل في جهة الطائف وقيل غير ذلك، وكلّه غير ظاهر من سياق الآية.

{ **النَّمْلِ** } اسم جنس لحشرات صغيرة ذات ستة أرجل تسكن في شقوق من الأرض. وهي أصناف متفاوتة في الحجم، والواحد منه نملة بتاء الوحدة، فكلمة نملة لا تدل إلّا على فرد واحد من هذا النوع دون دلالة على تذكير ولا تأنيث فقوله تعالى { قَالَتْ نَمْلَةٌ } مفاده: قال واحد من هذا النوع.

{ **يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ** } يجوز أن يخلق الله لها دلالة وللنمل الذي معها فهما لها وأن يخلق فيها إلهاما بأنّ الجيش جيش سليمان على سبيل المعجزة له.

الحطم: حقيقته الكسر لشيء صلب. واستعير هنا للرفس.

{ **لَا يَحْطِمَنَّكُمْ** } إن جعلت { **لا** } فيه ناهية كانت الجملة مستأنفة تكريرا للتحذير ودلالة على الفزع لأنّ المحذِّر من شيء مفزع يأتي بجمل متعدّدة للتحذير من فرط المخافة. والنهي عن حطم سليمان إيّاهن

كناية عن نهيهن عن التسبّب فيه وإهمال الحذر منه.

وإن جعلت { **لا** } نافية كانت الجملة واقعة في جواب الأمر فكان لها حكم جواب شرط مقدّر. فالتقدير: إن تدخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وإن لم تفعلوا حطّمكم.

{ **سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ** } تسمية سليمان في حكاية كلام النملة يجوز أن تكون حكاية بالمعنى وإنّما دلت دلالة النملة على الحذر من حطم ذلك المحاذي لواديها فلمّا حُكيت دلالتها حُكيت بالمعنى لا باللفظ، ويجوز أن يكون قد خلق الله علما في النملة علمت به أنّ المار بها يدعى سليمان على سبيل المعجزة وخرق العادة.

{ **فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا** } تبسّم تعجّب. والتبسّم أضعف حالات الضحك، فقوله { ضَاحِكاً } حال مؤكّدة.

وإنّما تعجّب من أنّها عرفت اسمه وأنّها قالت { وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ } فوسمته وجنده بالصلاح والرأفة وأنّهم لا يقتلون ما فيه روح لغير مصلحة، وهذا تنويه برأفته وعدله الشامل بكلّ مخلوق لا فساد منه.

{ **وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ** } سأل الله الدوام على شكر النعمة لما في الشكر من الثواب ومن ازدياد النعم.

أوزع: مزيد (وَزَعَ) الذي هو بمعنى (كفَّ) كما تقدّم آنفا، والهمزة للإزالة، أي: أزال الوزع، أي: الكف. وهو كناية عن ضدّ معناه، أي: كناية عن الحثّ على العمل. وشاع هذا الإطلاق فصار معنى أوزع: أغرى بالعمل. أي: اجعلني ملازما شكر نعمتك.

{ **وَعَلَى وَالِدَيَّ** } أدرج سليمان ذكر والديه عند ذكر إنعام الله تعالى عليه لأنّ صلاح الولد نعمة على الوالدين بما يُدخل عليهما من مسرّة في الدنيا وما ينالهما من دعائه وصدقاته عنهما من الثواب.

ووالداه هما: أبوه (**داود بن يسّي**) وأمه (**بتشبع بنت اليعام**) وهي التي كانت زوجة (أوريا) الحثّي فاصطفاها داود لنفسه [سفر صمويل الثاني، الإصحاح:11 والإصحاح: 12 - سفر الملوك الأول، الإصحاح: 2] وهي التي جاءت فيها قصة نبأ الخصم المذكور في [ص:21].

{ **وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ** } عطف على { أَنْ أَشْكُرَ }.

والإدخال في العباد الصالحين مستعار لجعله واحدا منهم، فشبّه إلحاقه بهم في الصلاح بإدخاله في زمرتهم، وسؤاله ذلك مراد به الاستمرار والزيادة من رفع الدرجات لأنّ لعباد الله الصالحين مراتب كثيرة.

{ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ [20] لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ [21] }.

{ **وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ** } صيغة التفعّل تدلّ على التكلّف والطلب. واشتقاق { تَفَقَّد } من الفقد يقتضي أنّ { تَفَقَّد } بمعنى طلب الفقد. ولكنّهم توسعوا فيه فأطلقوه على طلب معرفة سبب الفقد.

والمعنى: تفقّد الطير في جملة ما تفقّده فقال لمن يلون أمر الطير:

{ **مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ** } في موضع الحال من ياء المتكلّم المجرور باللام، فالاستفهام حقيقي وهو كناية عن عدم ظهور الهدهد.

الهدهد: نوع من الطير وهو ما يقرقر وفي رائحته نتن وفوق رأسه قزعة سوداء، وهو أسود البراثن، أصفر الأجفان، يقتات الحبوب والدود، يرى الماء من بعد ويحس به في باطن الأرض فإذا رفرف على موضع عُلم أن به ماء، وهذا سبب اتخاذه في جند سليمان.

{ **أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ** } إضراب الانتقال من استفهام إلى استفهام آخر أفادته { أَمْ }. والتقدير: بل أكان من الغائبين؟ ولما كان قول سليمان هذا صادرا بعد تقصّيه أحوال الطير ورجح عنده أنّه غاب فقال:

{ **لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ** } لأنّ تغيّبه من دون إذن عصيان يقتضي عقابه وذلك موكول لاجتهاد سليمان في المقدار الذي يراه استصلاحا له، إن كان يُرجى صلاحه، أو إعداما له لئلّا يلقّن بالفساد غيره. ويؤخذ من هذا جواز عقاب الجندي إذا خالف ما عيّن له من عمل أو تغيّب عنه.

وأمّا عقوبة الحيوان فإنّما تكون عند تجاوزه المعتاد في أحواله. قال القرافي في (تنقيح الفصول): سئل الشيخ عز الدين بن عبد السلام عن قتل الهرّ المؤذي هل يجوز؟ فكتب وأنا حاضر: " إذا خرجت أذيّته عن عادة القطط وتكرّر ذلك منه قتل ".

أمّا العقاب الخفيف للحيوان لتربيته وتأديبه كضرب الخيل لتعليم السير ونحو ذلك فهو مأذون فيه للمصلحة، وكذلك السبق بين الخيل مع ما فيه من إتعابها لمصلحة السير عليها في الجيوش.

{ **أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ** } جعله ثالث الأمور التي جعلها جزاء لغيبته وهو أن يأتي بما يدفع به العقاب عن نفسه من عذر مقبول في التخلّف.

السلطان: الحجّة. و**المبين**: المظهر للحقّ المحتجّ بها. وهذه الزيادة من النبيّ سليمان استقصاء للهدهد في حقه، لأنّ الغائب حجّته معه.

{ **فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ [22] إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ [23] وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ [24] أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ [25] اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ [26]** }.

{ **فَمَكَثَ** } الفاء للتفريع والعطف والضمير للهدهد. و**المكث**: البقاء في المكان وملازمته زمنا ما. وأُطلق المكث هنا على البطء لأنّ الهدهد لم يكن ماكثا بمكان ولكنّه كان يطير وينتقل، فإطلاق المكث

على البطء مجاز مرسل لأنّ المكث يستلزم زمنا.

{ **غَيْرَ بَعِيدٍ** } صفة لاسم زمن أو اسم مكان، أي: مكث زمنا غير بعيد، أو في مكان غير بعيد. وكلا المعنيين يقتضي أنّه رجع إلى سليمان بعد زمن قليل.

والبعد والقرب حقيقتهما من أوصاف المكان ويستعاران لقلّة الحصّة بتشبيه الزمن القصير بالمكان القريب وشاع ذلك حتى ساوى الحقيقة، قال تعالى { وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ } [هود:89].

{ **فَقَالَ** } الفاء عاطفة. وجعل القول عقيب المكث لأنّه لمّا حضر صدر القول من جهته، فالتعقيب حقيقي.

والقول المسند إلى الهدهد **إن حُمل على حقيقة القول فهذا وحي لسليمان أجراه الله على لسان الهدهد**.

فليس للهدهد قِبَل بإدراك ما اشتمل عليه القول المنسوب إليه ولا باستفادة الأحوال من مشاهدة الأقوام والبلدان حتّى تخطر في نفسه وحتّى يُعبّر عنها بمنطقه الذي عُلِّم سليمان دلالته.

وأمّا قول سليمان { سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ } فيجوز أنّ سليمان قد خشي أن يكون ذلك الكلام الذي سمعه من تلقاء الهدهد كلاما ألقاه الشيطان من جانب الهدهد.

{ **أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ** } تنبيه لسليمان بأنّ في مخلوقات الله ممالك وملوكا تداني ملكه أو تفوقه في بعض أحوال الملك جعله الله مثلا له، كما جُعل عِلم الخضر مثلا لموسى عليه السلام.

وفي هذا الاستهلال استدعاء لإقباله على ما سيلقى إليه بشراشره لأهمية هذا المطلع في الكلام، فإنّ معرفة أحوال الممالك والأمم من أهم ما يُعنى به ملوك الصلاح.

الإحاطة: الاشتمال على الشيء وجعله في حوزة المحيط، وهي هنا مستعارة لاستيعاب العلم بالمعلومات كقوله تعالى { وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً } [الكهف:68].

{ **بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ** } معلومات لم يحط بها علم سليمان.

{ **سَبَأٍ** } : بهمزة في آخره وقد يخفّف، اسم رجل هو (**عَبْشَمْس بن يَشْجُب بن يعرب بن قحطان**) لُقِّب بسبأ. قالوا: لأنّه أوّل من سبى في غزوه. وهو جد جِذَم عظيم من أجذام العرب. وذرّيّته كانوا باليمن ثم تفرّقوا كما سيأتي في (سورة سبإ).

وأطلق هذا الاسم هنا على ديارهم لأنّ { مِنْ } ابتدائية، وهي لابتداء الأمكنة غالبا.

فاسم { سَبَأٍ } غلب على القبيلة المتناسلة من سبأ المذكور وهم من الجِذم القحطاني المعروف بالعرب المستعربة، أي: الذين لم ينشأوا في بلاد العرب ولكنّهم نزحوا من العراق إلى بلاد العرب.

وأوّل نازح منهم هو **يَعْرُب** (بفتح التحتية وضم الراء) بن قحطان. ولمّا انتقل **يَعْرُب** سكن جنوب البلاد العربية (اليمن) فاستقر بموضع بنى فيه مدينة **ظَفَارِ** (بفتح الظاء المشالة المعجمة وكسر الراء) فهي أوّل مدينة في بلاد اليمن وانتشر أبناؤه في بلاد الجنوب الذي على البحر وهو بلاد (**حضرموت**) ثم بنى ابنه **يَشْجُب** مدينة **صنعاء** وسمَّى البلاد بـ (**اليمن**)، ثم خلفه ابنه **عَبْشَمِس** ومعناه ضوء الشمس، وساد قومه ولُقِّب سبأ، واستقل بأهله فبنى مدينة **مأرب** حاضرة سبأ.

ثم جاء بعد سبأ ابنه **حِمْيَر** ويُلَقَّب العَرَنْجج (أي: العتيق)، ويظهر أنّه جعل بلاده **ظَفَارِ** بعد أن انتقل أبناء يشجُب منها إلى صنعاء.

فكانت البلاد اليمنية أو القحطانية منقسمة إلى ثلاث قبائل: **اليمنية – السبئية - الحِمْيرية.** وكان على كلّ قبيلة ملك منها، واستقلّت أفخاذهم بمواقع أطلقوا على الواحد منها اسم مِخلاف (بكسر الميم) وكان لكلّ مخلاف رئيس يلقب بـ (**القَيْل**) ويقال له: ذو كذا، بالإضافة إلى اسم مخلافه، مثل: **ذو رعين.**

والملك الذي تتبعه الأقيال كلّها ويحكم اليمن كلّها يلقب (**تُبَّع**) لأنّه متبوع بأمراء كثيرين.

وقد انفردت سبأ بالملك في حدود (القرن 17 ق هـ) وكان أشهر ملوكهم، أو أوّلهم، **الهَدهاد بن شراحيل** ويلقب **اليَشْرَّح** (بفتح التحتية وفتح الشين المعجمة وفتح الراء مشددة وبحاء مهملة في آخره).

ثم وليت بعده **بلقيس** ابنته ولم تكن ذات زوج فيما يظهر من سياق القرآن. وقيل كانت متزوجة **شدد بن زرعة**، فإنّ صحّ ذلك فلعلّه لم تطل مدّته فمات.

وكان أهل سبأ **صابئة يعبدون الشمس.** وبقيّة ذكر حضارتهم تأتي في تفسير سورة سبأ.

{ **بِنَبَإٍ يَقِينٍ** } تحقيق لكون ما سيلقى إليه شيء محقّق لا شبهة فيه، فوصف بالمصدر للمبالغة.

{ **إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ** } بيان لـ { نَبَأ } فلذلك لم تعطف.

{ **إِنَّ** } التأكيد لأهمية الخبر، إذ لم يكن معهودا في بني إسرائيل أن تكون المرأة ملكا.

{ **تَمْلِكُهُمْ** } هنا مشتق من المُلك (بضم الميم) وفعله كفعل ملك الأشياء.

وهذه المرأة أريد بها **بِلْقِيس** (بكسر الموحدة وسكون اللام وكسر القاف) ابنة شراحيل، كانت معاصرة سليمان في أوائل القرن (17 ق هـ)، وكانت امرأة عاقلة. ويقال: هي التي بنت سُدَّ مأرب. وكانت حاضرة ملكها مأرب مدينة عظيمة باليمن، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة مراحل، وسيأتي ذكرها في سورة سبأ.

{ **وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ** } عموم { كُلِّ شَيْءٍ } عموم عرفي من جهتين يفسّره المقام، أي: أوتيت من خصال الملوك ومن ذخائرهم وعُددهم وجيوشهم وثراء مملكتهم وزخرفها ونحو ذلك من المحامد والمحاسن.

{ **أُوتِيَتْ** } بُني الفعل إلى المجهول لانعدام الغرض بتعيين أسباب ما نالته. والأسباب شتّى فمنها ما كان إرثا من الملوك الذي سلفوها، ومنها ما كان كسبا من كسبها واقتنائها، ومنها ما وهبها الله من عقل وحكمة، وما منح بلادها من خصب ووفرة مياه. وقد كان اليونان يلقبون مملكة اليمن بـ (العربية السعيدة) أخذا من معنى اليمن في العربية. قال تعالى { لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ } [سبأ:15]. وأمّا رجاحة عقولهم ففي الحديث: **" أتاكم أهل اليمن هم أرقّ أفئدة، الإيمان يمان، والحكمة يمانية ".**

{ **وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ** } خصّ من نفائس الأشياء عرشها إذ كان عرشا بديعا ولم يكن لسليمان عرش مثله. جاء في [سفر الملوك الأول، الإصحاح:10] ما يقتضي أنّ سليمان صنع كرسيَّهُ البديع بعد أن زارته ملكة سبأ.

العظيم: مستعمل في عظمة القدر والنفاسة في ضخامة الهيكل والذات.

{ **وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ** } أعقب التنويه بشأنها بالحطّ من حال اعتقادهم إذ هم يعبدون الشمس. ولأجل الاهتمام بهذا الخبر أعيد فعل { وَجَدْتُهَا } إنكارا عليهم.

وكان عرب اليمن أيّامئذ من عبدة الشمس ثم دخلت فيهم الديانة اليهودية في زمن **تُبَّع أسعد** من ملوك حِمْير. ولكونهم عَبَدة شمس كانوا يُسمُّون (عبد شمس) كما تقدّم في اسم سبأ.

{ **وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ** }

<u>يجوز</u> أن يكون هذا من جملة الكلام الذي ألقي على لسان الهدهد، فالواو للعطف.

<u>والأظهر</u> أنّه كلام آخر من القرآن ذُيّل به الكلام الملقى إلى سليمان، فالواو للاعتراض بين الكلام الملقى لسليمان وبين جواب سليمان، والمقصود التعريض بالمشركين.

{ **وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ** } تقدّم في أوّل السورة عند قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ } [4]. وإسناده هنا للشيطان حقيقي.

{ **السَّبِيلِ** } مستعار للدين الذي باتّباعه تكون النجاة من العذاب وبلوغ دار الثواب.

{ **أَلَّا يَسْجُدُوا** } قرأه الجمهور بتشديد اللام على أنّه مركب في الخط من (أن) و(لا) النافية. أي: صدّهم لأجل أن لا يسجدوا لله.

الخبء: مصدر خبَّأ الشيء إذا أخفاه. أطلق هنا على اسم المفعول، أي: المخبوء، للمبالغة في الخفاءِ.

إخراج الخبء: إبرازه للناس، أي: إعطاء ما هو غير معلوم لهم من المطر وإخراج النبات وإعطاء الأرزاق، وهذا مؤذن بصفة القدرة.

{ **وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ** } مؤذن بعموم صفة العلم.

{ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ** } استئناف هو بمنزلة النتيجة للصفات التي أجريت على اسم الجلالة، وهو المقصود من هذا التذييل، أي: ليس لغير الله شبهة إلهية.

{ **رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ** } أي: مالك الفلك الأعظم المحيط بالعوالم العليا.

وفي هذا تعريض بأن عظمة ملك بلقيس وعظم عرشها ما كان حقيقا بأن يغرّها بالإعراض عن عبادة الله تعالى لأنّ الله هو رب الملك الأعظم.

{ **الْعَرْشِ** } التعريف للدلالة على معنى الكمال.

{ **الْعَظِيمِ** } للدلالة على كمال العظم في تجسّم النفاسة.
وفي منتهى هذه الآية موضع سجود تلاوة تحقيقا للعمل بمقتضى قوله تعالى { أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ } .

{ **قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ** } [27].
تقدّم عند قوله تعالى { أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ } بيان وجه تطلّب سليمان تحقيق صدق خبر الهدهد.
{ **سَنَنْظُرُ** } النظر هنا نظر العقل وهو التأمّل.
وفي القول إيذان بتوضيح تهمته بالكذب ليتخلّص من العقاب، وفيه إيذان بالتوبيخ والتهديد وإدخال الروع عليه بأنّ كذبه أرجح عند الملك ليكون الهدهد مغلِّبا الخوف على الرجاء، وذلك أدخل في التأديب على مثل فعلته وفي حرصه على تصديق نفسه بأن يبلّغ الكتاب الذي يرسله معه.

{ **اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ** } [28].
مبيّنة للجملة السابقة لأنّ فيما سينكشف بعد توجيه كتابه إلى ملكة سبأ ما يصدّق خبر الهدهد إن جاء من الملكة جواب عن كتابه، أو يكذّب خبره إن لم يجيء منها جواب.
ألهم الله سليمان بحكمته أن يجعل لاتصاله ببلاد اليمن طريق المراسلة فكتب إلى ملكة سبا كتابا لتأتي إليه وتدخل تحت طاعته وتصلح ديانة قومها، وليعلم أنّ الله ألقى في نفوس الملوك المعاصرين له رهبة من ملكه وجلبا لمرضاته لأنّ الله أيّده وأن كانت مملكته أصغر من ممالك جيرانه مثل مملكة اليمن ومملكة مصر. وكانت مملكة سليمان يومئذ محدودة بالأردن وتخوم مصر وبحر الروم [سفر الملوك الأولى،الإصحاح:4].
ولم يزل تبادل الرسائل بين الملوك من سنة الدول ومن سنّة الدعاة إلى الخير. وقد كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر.
الإلقاء: الرمي إلى الأرض. وتقدّم في قوله تعالى { وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ } [يوسف:10]، وهو هنا مستعمل إمّا في حقيقته إن كان شأن الهدهد أن يصل إلى المكان فيرمي الكتاب من منقاره، وإمّا في مجازه إن كان يدخل المكان المرسل إليه فيتناول أصحابه الرسالة من رجله التي تربط فيها الرسالة.
{ **مَاذَا يَرْجِعُونَ** } رجع الجواب عن الكتاب، أي: من قبول أو رفض.

{ **قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ** [29] **إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** [30] **أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ** [31] }.
طويت أخبار كثيرة دلّ عليها ما بين الخبرين المذكورين من اقتضاء عدّة أحداث.

والجملة مستأنفة استئنافا بيانيا لأنّ غرابة قصّة إلقاء الكتاب إليها يثير سؤالا عن شأنها حين بلغها الكتاب.

{ **الْمَلأُ** } الجماعة من أشراف القوم وهم أهل مجلسها.

{ **أُلْقِيَ إِلَيَّ** } الظاهر أنّ الكتاب سُلّم إليها دون حضور أهل مجلسها.

{ **كِتَابٌ كَرِيمٌ** } وصف الكتاب بالكريم ينصرف إلى نفاسته في جنسه. بأن كان نفيس الصحيفة نفيس التخطيط بهيج الشكل مستوفيا كل ما جرت عادة أمثالهم بالتأنق فيه. ومن ذلك أن يكون مختوما، وقد قيل: كرم الكتاب ختمه.

قال ابن العربي: " الوصف بالكرم في الكتاب غاية الوصف، ألا ترى إلى قوله تعالى { إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ } [الواقعة:77]، وأهل الزمان يصفون الكتاب بالخطير، والأثير، والمبرور، فإن كان لملك قالوا: العزيز، وأسقطوا الكريم غفلة وهو أفضلها خصلة ".

{ **إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** } يحتمل أن يكون قد تُرجم لها قبل أن تخرج إلى مجلس مشورتها، ويحتمل أن تكون عارفة بالعبرانية، ويحتمل أن يكون الكتاب مكتوبا بالعربية القحطانية فإنّ عظمة ملك سليمان لا تخلو من كتّاب عارفين بلغات الأمم المجاورة لمملكته، وكونه بلغته أظهر وأنسب بشعار الملوك، وقد كتب النبيّ صلى الله عليه وسلم للملوك باللغة العربية.

أمّا الكلام المذكور في هذه الآية فهو ترجمة الكتاب إلى اللغة العربية الفصحى بتضمين دقائقه وخصوصيات اللغة التي أنشئ بها.

{ **إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ** } حكاية لمقالها، وعرفت هي ذلك من عنوان الكتاب بأعلاه أو بظاهره على حسب طريقة الرسائل السلطانية في ذلك العهد في بني إسرائيل، مثل افتتاح كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الملوك بجملة (من محمد رسول الله).

{ **إِنَّهُ / وَإِنَّهُ** } التأكيد بـ (إنَّ) في الموضعين يترجم عمّا في كلامهما باللغة السبائية من عبارات دالة على اهتمامها بمرسل الكتاب وبما تضمّنه.

{ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** } افتتاح الكتاب بجملة البسملة يدلّ على أنّ مرادفها كان خاصا بكُتُب النبيّ سليمان أن يُتْبع اسم الجلالة بوصفي: الرحمان الرحيم، فصار ذلك سنة لافتتاح الأمور ذوات البال في الإسلام، ادّخره الله للمسلمين من بقايا سنة الأنبياء بعد أن تُنوسي ذلك، فإنّه لم يعرف أن بني إسرائيل افتتحوا كتبهم باسم الله الرحمن الرحيم.

روى أبو داود في كتاب (المراسيل): أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يكتب (باسمك اللهم)، كما كانت قريش تكتب، فلمّا نزلت هذه الآية صار يكتب (بسم الله الرحمن الرحيم).

{ **أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ** } كان كتاب سليمان وجيزا لأنّ ذلك أنسب بمخاطبة من لا يحسن لغة المخاطِب فيقتصر له على المقصود لإمكان ترجمته وحصول فهمه. وهو نهي مستعمل في التهديد، وطلب للطاعة له، كما كان شأن الملوك المجاورين له بمصر وصور والعراق.

{ **وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ** } هو إتيان مجازي مثل ما يقال: اتّبع سبيلي.

{ **مُسْلِمِينَ** } جمع سليمان بين دعوتها إلى مسالمته وطاعته، وذلك تصرّف بصفة الملك، وبين دعوتها قومها إلى اتباع دين التوحيد وذلك تصرّف بالنبوّة، لأنّ النبيّ يلقي الإرشاد إلى الهدى حيثما تمكّن منه. فالأنبياء مأمورون أمرا عاما بالإرشاد إلى الحقّ. قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" لأن يهدي الله بك رجلا خير لك من حُمْر النعم "**، فهذه سنة الشرائع لأن الغاية عندها هو إصلاح النفوس دون التشفّي وحبّ الغلبة.

{ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ } [32].

سألتهم إبداء آرائهم ماذا تعمل تجاه دعوة سليمان. والجملة مستأنفة استئنافا بيانيا مثل التي قبلها.

الإفتاء: الإخبار بالفتوى، وهي إزالة مشكل يعرض. وقد تقدّمت عند قوله تعالى { قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ } [يوسف:41].

الأمر: الحال المهم، وإضافته إلى ضميرها لأنّها المخاطبة بكتاب سليمان، ولأنّها المضطلعة بما يجب إجراؤه من شؤون المملكة وعليها تبعة الخطأ في المنهج الذي تسلكه من السياسة، ولذلك يقال للخليفة وللملك وللأمير ولعالم الدين: وليّ الأمر.

{ **مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ** } تؤذن الصيغة بأنّ ذلك دأبها وعادتها معهم، فكانت عاقلة حكيمة مستشيرة لا تخاطر بالاستبداد بمصالح قومها ولا تعرض ملكها لمهاوي أخطاء المستبدّين.

{ **حَتَّى تَشْهَدُونِ** } كناية من معنى: توافقوني فيما أقطعه.

وليس في هذه الآية دليل على مشروعية الشورى لأنّها لم تحك شرعا إلهيا ولا سيق مساق المدح ولكنّه حكاية ما جرى عند أمّة غير متدينة بوحي إلهي. غير أنّ شأن القرآن فيما يذكره من القصص أن يذكر المهم منها للموعظة أو للإسوة، كما قدمنه في المقدمة السابعة. فلذلك يُستروح من سياق هذه الآية حسن الشورى. وتقدّم ذكر الشورى في [آل عمران:159].

{ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ } [33].

جواب بأسلوب المحاورة فلذلك فُصل ولم يعطف كما هي طريقة المحاورات.

القوّة: حقيقتها ومجازها تقدّم عند قوله تعالى { فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ } [الأعراف:145]. وأطلقت على وسائل القوّة كما تقدّم في قوله تعالى { وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ } [الأنفال:60]، أي: وسائل القدرة على القتال والغلبة. ومن القوة كثرة القادرين على القتال والعارفين بأساليبه.

البأس: الشدّة على العدو، قال تعالى { وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ } [البقرة:177]، أي: في مواقع القتال، وقال تعالى { بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ } [الحشر:14].

تصريح بأنّهم مستعدّون للحرب للدفاع عن مُلكهم، وتعريض بأنّهم يميلون إلى الدفع بالقوة إن أراد أن يكرههم على الدخول تحت طاعته.

{ **وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ** } مع إظهار رأيهم، الذي جاء مضمّنا، فوّضوا الأمر إلى الملكة لثقتهم بأصالة رأيها لتنظر ما تأمرهم فيمتثلونه.

{ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ [34] وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ [35] }.

أَبْدَت لهم رأيها مفضِّلة جانب السلم على جانب الحرب لأنّ نهاية الحرب فيها احتمال أن ينتصر سليمان فتصير مملكة سبا إليه، وفي نفس الوقت حذّرت من الدخول تحت سلطة سليمان اختيارا لأنّ ذلك إلقاء للمملكة في تصرّفه، وفي كلا الحالين يحصل تصرف ملك جديد في مدينتها.

{ **وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ** } استدلال على المستقبل بحكم الماضي على طريقة الاستصحاب، وهو كالنتيجة للدليل الذي في قوله تعالى { إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا }. والإشارة إلى المذكور من الإفساد وجعل الأعزّة أذلة.

{ **وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ** } دبّرت أن تتفادى من الحرب ومن الإلقاء باليد بطريقة المصانعة والتزلّف إلى سليمان بإرسال هدية إليه. وهذا الكلام مقدّمة لما ستلقيه إليهم من عزمها. ويتضمَّن تعليلا لما عزمت عليه.

فالتقدير: مرسلة إليهم كتابا ووفدا مصحوبا بهدية، إذ لا بدّ أن يكون الوفد مصحوبا بكتاب تجيب به كتاب سليمان، فإنّ الجواب عن الكتاب عادة قديمة.

<u>حكم الردّ على الرسالة</u>: هو من سنن المسلمين، وعُدَّ من حقّ المسلم على المسلم. قال القرطبي: إذا ورد على إنسان في كتاب بالتحية أو نحوها ينبغي أن يردّ الجواب لأنّ الكتاب من الغائب كالسلام من الحاضر.

وروي عن ابن عباس أنّه كان يرى ردّ الكتاب واجبا كردّ السلام. ولم أقف على حكم فيه من مذاهب الفقهاء.

والظاهر أنّ الجواب إن كان عن كتاب مشتمل على صيغة السلام أن يكون ردّ الجواب واجبا وأن يشتمل على ردّ السلام لأنّ الردّ بالكتابة يقاس على الرد بالكلام.

ولم أر في كتب النبيّ صلى الله عليه وسلم جوابا عن كتاب إلّا جوابه عن كتاب مسيلمة: " والسلام على من أتبع الهدى ".

الهديّة: فعيلة من أهدى: فالهديّة ما يُعطى لقصد التقرّب والتحبّب، والجمع هدايا على اللغة الفصحى.

{ **فَنَاظِرَةٌ** } اسم فاعل من نظر بمعنى انتظر، أي: مترقّبة.

{ **بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ** } مبيّنة لجملة { فَنَاظِرَةٌ }، أو مستأنفة.
(الباء) متعلّقة بفعل { يَرْجِعُ } قُدِّمت على متعلّقها لاقترانها بحرف (ما) الاستفهامية، لأنّ الاستفهام له صدر الكلام. وفي التقديم إشارة إلى أنّها متردّدة فيما يرجع به المرسلون.

{ **فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ** [36] **ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ** [37]}.

{ **فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ** } أي: فلما جاء الرسول الذي دل عليه قوله تعالى على لسان بلقيس { وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ }، والرسول لفظه مفرد ويصدق بالواحد والجماعة. وأيضا فإنّ هدايا الملوك يحملها ركب. وقد أبى سليمان قبول الهدية لأنّ الملكة أرسلتها بعد بلوغ كتابه، ولعلّها سكتت عن الجواب عمّا تضمّنه كتابه من قوله { وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ } فتبيّن له قصدها من الهدية أن تصرفه عن محاولة ما تضمّنه الكتاب.
{ **قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ** } الخطاب لوفد الهدية لقصد تبليغه إلى الملكة. والاستفهام إنكاري لأن حال إرسال الهدية والسكوت عن الجواب يقتضي محاولة صرف سليمان عن طلبه. ويظهر أنّ الهديّة كان ذهبا ومالا.
{ **فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ** } الفاء لتفريع الكلام الذي بعدها على الإنكار السابق، أي: أنكرت عليكم ظنّكم فرحي بما وجّهتم لي لأنّ ما أعطاني الله خير مما أعطاكم.
وسوق التعليل يشعر بأنّه علم أنّ الملكة لا تعلم أن لدى سليمان من الأموال ما هو خير مما لديها.
وهذا من أسرار الفرق في الكلام البليغ بين (الواو) و(الفاء) في هذه الجملة، فلو قال: وما آتاني الله خير مما آتاكم، لكان مشعرا بأنّها تعلم ذلك لأنّ (الواو) تكون للحال.
{ **بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ** } { بَلْ } للإضراب الانتقالي، وهو انتقال من إنكاره عليهم إمداده بمال إلى ردّ ذلك المال وإرجاعه إليهم. فالخبر استُعمل كناية عن ردّ الهديّة.
{ **تَفْرَحُونَ** } يجوز أن يكون تُسَرُّون، ويجوز أن يكون تفتخرون، أي: أنتم تعظم عندكم تلك الهدية لا أنا لأنّ الله أعطاني خيرا منها.
{ **ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ** } توعّدهم وهدّدهم بأنّه مرسل إليهم جيشا لا قبل لهم بحربه.
القِبَل: الطاقة. وأصله المقابلة، فأطلق على الطاقة لأنّ الذي يطيق شيئا يثبت للقائه ويقابله. فإذا لم يطقه تقهقر عن لقائه. ولعلّ أصل هذا الاستعمال ناظر إلى المقابلة في القتال.
{ **بِهَا** } الضمير للجنود.
{ **مِنْهَا** } الضمير للمدينة، وهي مأرب، أي: يخرجهم أسرى ويأتي بهم إلى مدينته.

الصاغر: الذليل، اسم فاعل من **صغُر** (بضم الغين) المستعمل بمعنى ذَلَّ، ومصدره الصَّغَار.
المراد: ذلّ الهزيمة والأسر.

{ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ [38] قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ [39] قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ [40] }.

طوي خبر رجوع الرسل والهداية، وعلم سليمان أنّ ملكة سبأ لا يسعها إلّا طاعته ومجيئها إليه، أو ورد له منها أنّها عزمت على الحضور عنده عملا بقوله { وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ } [31].

{ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا } مستأنفة ابتداء لجزء من القصة. يحتمل أن يكون سليمان قال ذلك بعد أن حطت رحال الملكة في مدينة أورشليم وقبل أن تتهيأ للدخول على الملك، أو حين جاءه الخبر بأنّها شارفت المدينة فأراد أن يحضر لها عرشها قبل أن تدخل عليه ليريها مقدرة أهل دولته.

{ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا } قد يكون عرشها محمولا معها في رحالها جاءت به معها لتجلس عليه خشية ألّا يهيئ لها سلميان عرشا.

أراد سليمان أن يبهتها بإحضار عرشها الذي تفتخر به وتعدّه نادرة الدنيا.

{ عِفْرِيتٌ } حسبما يُستخلص من مختلف كلمات أهل اللغة أنّه اسم للشديد الذي لا يُصاب ولا يُنال، فهو يُتَّقى لشرّه. <u>وأصله اسم لعتاة الجنّ</u>، ويوصف به الناس على معنى التشبيه.

{ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ } رجل من أهل الحكمة من حاشية سليمان.

{ مِنَ الْكِتَابِ } أي: عنده علم مكتسب من الكتب، أي: من الحكمة، <u>وليس المراد بالكتاب التوراة</u>.

وذكر أهل التفسير والقصص أنّه (**آصف بن برخيا**) وأنّه كان وزير سليمان.

ارتداد الطرف: حقيقته رجوع تحديق العين إلى جهة منظورة تحوّل عنها لحظة. وعبّر عنه بالارتداد لأنّهم يعبّرون عن النظر بإرسال الطرف وإرسال النظر فكان الارتداد استعارة مبنيّة على ذلك.

وهذه المناظرة بين العفريت من الجن والذي عنده علم من الكتاب ترمز إلى أنّه يتأتى بالحكمة والعلم ما لا يتأتّى بالقوة، وأنّ الحكمة مكتسبة لقوله { عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ }. فذكر في هذه القصة <u>مثلا لتغلّب العلم على القوّة</u>. ولمّا كان هذان الرجلان مسخَّرين لسليمان كان ما اختُصَّا به من المعرفة مزيّة لهما ترجع إلى فضل سليمان وكرامته أن سخر الله له مثل هذه القوى.

الاستقرار: التمكّن في الأرض وهو مبالغة في القرار.

{ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي } لإظهار أنّ فضل الله عليه عظيم. فليس إحسان الله إليه إلّا فضلا محضا.

{ **لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ** } لم يشتغل سليمان حين أُحضِر له العرش بأن يبتهج بسلطانه ولا بمقدرة رجاله ولكنّه انصرف إلى شكر الله تعالى على ما منحه من فضل وأعطاه من جند مسخَّرين بالعلم والقوة.

{ **وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ** } ضرب حكمة خلقية دينية، فكلّ متقرّب إلى الله بعمل صالح يجب أن يستحضر أنّ علمه إنّما هو لنفسه يرجو به ثواب الله ورضاه في الآخرة ويرجو دوام التفضُّل من الله عليه في الدنيا، فالنفع حاصل له في الدارين، ولا ينتفع الله بشيء من ذلك.

{ **وَمَنْ كَفَرَ** } المراد: من كفر فضل الله عليه بأن عبد غير الله فإنّ الله غني عن شكره وهو كريم في إمهاله ورزقه في هذه الدنيا. وقد تقدم عند قوله تعالى { قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ } [19].

{ **فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ** } العدول عن الإضمار إلى الإظهار، دون أن يقول: فإنه غني كريم، تأكيد للاعتراف بتمحّض الفضل المستفاد من قوله { فَضْلِ رَبِّي }.

{ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ } [41].

هذا من جملة المحاورة التي جريت بين سليمان عليه السلام وبين ملئه ولذلك لم يعطف لأنه جرى على طريقة المقاولة والمحاورة. قالوا: أراد مفاجأتها واختبار فطنتها.

التنكير: التغيير للحالة.

{ **مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ** } أبلغ في انتفاء الاهتداء من: لا تهتدي، كما تقدّم في نظائره غير مرّة.

{ فَلَمَّا جَاءتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ [42] وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ [43] }.

{ **فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ** } طُوي خبر ارتحالها إذ ليس موضع عبرة. والمقصود أنّها خضعت لأمر سليمان وجاءته راغبة في الانتساب إليه. والظاهر أنّ الذي قال ذلك هو سليمان.

{ **وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ** } هذا من قول سليمان. أي: قال سليمان ذلك في ملئه شكرا لله على ما لديه من العلم، أو قال بعض ملأ سليمان لبعض هذه المقالة.

{ **وَأُوتِينَا الْعِلْمَ** } أرادوا بالعلم علم الحكمة الذي علَّمه الله سليمان ورجال مملكته وتشاركهم بعض أهل سبأ في بعضه، فقد كانوا أهل معرفة أنشأوا بها حضارة مُبْهِتَةٍ.

{ **مِنْ قَبْلِهَا** } إن حُمل على ظاهره كان المعنى أنّ بني إسرائيل كانوا أسبق في معرفة الحكمة والحضارة من أهل سبا لأنّ الحكمة ظهرت في بني إسرائيل من عهد موسى، فقد سنّ لهم الشريعة، وأقام لهم نظام الجماعة، وعلّمهم أسلوب الحضارة بتخطيط رسوم مساكنهم وملابسهم ونظام الجيش والحرب والمواسم

والمحافل. ثمّ أخذ ذلك يرتقي إلى أن بلغ غاية بعيدة في مدّة سليمان، فبهذا الاعتبار كان بنو إسرائيل الأسبق.

وإن أريد القبلية الاعتبارية، وهي الفضل والتفوّق في المزايا **وهو الأليق بالمعنى**، كان المعنى: إنّا أوسع وأقوى منها علما، كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" نحن الأوّلون السابقون بَيْدَ أنّهم أوتوا الكتاب من قبلنا "**، أي: نحن الأوّلون في غايات الهدى، وجعل مثلا لذلك اهتداء أهل الاسلام ليوم الجمعة فقال: **" وهذا يومهم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله إليه "**.

{ **وَكُنَّا مُسْلِمِينَ** } زادوا في إظهار فضلهم عليها بذكر الناحية الدينية، أي: وكنّا مسلمين دونها. وفي ذكر فعل الكون دلالة على تمكّنهم من الإسلام منذ القدم.

{ **وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ** } أي: صدّها معبودها من دون الله. وما كانت تعبده هو **الشمس**. وإسناد الصدِّ إلى المعبود مجاز عقلي لأنّه السبب في صدّها عن التوحيد، كقوله تعالى { وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ } [هود:101]، وقوله تعالى { غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ } [الأنفال:49].

{ **إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ** } دلالة على تمكّنها من عبادة الشمس، وكان ذلك التمكّن بسبب الانحدار من سلالة المشركين، فالشرك منطبع في نفسها بالوراثة، فمن أين يخلص إليها الهدى والإيمان.

{ **قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** } [44].

استئناف ابتدائي لجزء من القصة. وطُوي ذكر ترحُّلها إلى وصولها في ذكر ما يدلّ عليه من حلولها أمام صرح سليمان للدخول معه إليه أو الدخول عليه وهو فيه.

لمّا أراها سليمان عظمة حضارته انتقل بها حيث تشاهد أثرا بديعا من آثار الصناعة الحكيمة وهو الصرح. **الصَّرْح**: يطلق على صحن الدار وعَرصتها. هو بيت وَعْر له بابان كان يجلس فيه سليمان للقضاء بين الناس [سفر الملوك الأول، الإصحاح:7] .

{ **فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا** } بدا لها ذلك في حين دخولها، فهو لا محالة ساحة مَعْنِيَّةٌ للنزهة فُرشت بزجاج شفَّاف وأجري تحته الماء حتّى يخاله الناظر لجّة ماء. وهذا من بديع الصناعة التي اختصت بها قصور سليمان في ذلك الزمان لم تكن معروفة في اليمن على ما بلغته من حضارة وعظمة بناء.

كشف ساقيها: كان من أجل أنّها شمَّرت ثيابها كراهية ابتلالها بما حسبته ماء. فالكشف عن ساقيها يجوز أن يكون بخلع خفَّيها أو نعليها، ويجوز أن يكون بتشمير ثوبها.

{ **إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ** } القائل هو سليمان كان مصاحبا لها أو كان يترقّبها.

القوارير: جمع قارورة وهي اسم لإناء من الزجاج كانوا يجعلونه للخمر ليظهر للرائي ما قرّ في قعره من نفث الخمر، فيظهر المقدار الصافي منها. فسُمِّي ذلك الإناء قارورة لأنّه يظهر منه ما يقرّ في قعره. وتقدّم ذكر الزجاج عند قوله تعالى { الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ } [النور:35].

{ **قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي** } بهرها ما رأت من آيات علمت منها أنّ سليمان صادق فيما دعاها إليه وأنّه مؤيّد من الله تعالى، وعلمت أنّ دينها ودين قوها باطل فاعترفت بأنّها ظلمت نفسها في اتباع الضلال بعبادة الشمس. وهذا درجة أولى في الاعتقاد وهو **درجة التخلية**.

{ **وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** } ثم صعدت إلى الدرجة التي فوقها وهي **درجة التحلِّي** بالإيمان الحقّ، فاعترفت بأنّ الله هو ربّ جميع الموجودات، وهذا مقام التوحيد.

{ **مَعَ سُلَيْمَانَ** } إيمان بالدين الذي تقلّده سليمان وهو دين اليهودية، وقد أرادت جمع معاني الدين في هذه الكلمة ليكون تفصيلها فيما تتلقّاه من سليمان من الشرائع والأحكام.

الإسلام: الانقياد إلى الله تعالى. وتقلّد بلقيس للتوحيد كان في خاصة نفسها إذ لم يثبت أنّ أهل سبأ انخلعوا عن عبادة الأصنام كما يأتي في (سورة سبأ). وأمّا دخول اليهودية بلاد اليمن فيأتي في (سورة البروج).

وسكت القرآن عن بقية خبرها ورجوعها إلى بلادها وللقصّاصين أخبار لا تصح، فهذا تمام القصة.

ومكان العبرة من القصّة الاتعاظ بحال هذه الملكة، إذ لم يصدّها علو شأنها وعظمة سلطانها مع ما أوتيته من سلامة الفطرة وذكاء العقل عن أن تنظر في دلائل صدق الداعي إلى التوحيد وتوقن بفساد الشرك وتعترف بالوحدانية لله. فما يكون إصرار المشركين على شركهم بعد أن جاءهم الهدي الاسلامي إلّا لسخافة أحلامهم أو لعمايتهم عن الحق وتمسّكهم بالباطل وتصلّبهم فيه.

ولا أصل لما يذكره القصّاصون وبعض المفسّرين من أنّ سليمان تزوّج بلقيس ولا أنّ له ولدا منها. فإنّ **رحبعام** ابنه الذي خلفه في الملك كان من زوجة عَمُّونيَّة.

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ } [45].

هذا مثل ثالث ضربه الله لحال المشركين مع المؤمنين وجعله تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم بأنّ له أسوة بالرسل والأنبياء من قبله.

والانتقال من ذكر ملك سليمان وقصة ملكة سبأ إلى ذكر ثمود ورسولهم دون ذكر عاد لمناسبة جوار البلاد لأنّ ديار ثمود كانت على تخوم مملكة سليمان وكانت في طريق السائر من سبأ إلى فلسطين.

ألا ترى أنّه أعقب ذكر ثمود بذكر قوم لوط وهم أدنى إلى بلاد فلسطين، فكان سياق هذه القصص مناسبا لسياق السائر من بلاد اليمن إلى فلسطين.

{ **إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً** } لمّا كان ما حلّ بالقوم أهمّ ذكرا في هذا المقام قدّم المجرور على المفعول لأنّ المجرور هو محلّ العبرة، وأمّا المفعول فهو محل التسلية، والتسلية غرض تبعي.

{ **وَلَقَدْ** } لام القسم لتأكيد الإرسال باعتبار ما اتصل به من بقية الخبر، فإمّا أن يكون التأكيد لمجرّد الاهتمام، وإمّا أن يُبنى على تنزيل المخاطبين منزلة من يتردّد فيما تضمّنه الخبر من تكذيب قومه إيّاه واستخفافهم بوعيد ربهم على لسانه.

{ **أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ** } تفسير لما دلّ عليه { أَرْسَلْنَا } من معنى القول.

{ **فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ** } الفاء للتعقيب وهو تعقيب بحسب ما يقتضيه العرف بعد سماع الدعوة. والجملة تفريع على { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا }. فالمعنى: أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا لإنقاذهم من الشرك فأعرض فريق عن الإيمان وآمن فريق.

{ **فَإِذَا** } الإتيان بحرف المفاجأة كناية عن كون انقسامهم غير مرضي، فكأنَّه غير مترقَّب، إشارة إلى أنّ مجرّد بقاء الكفر فيهم كاف في قبح فعلهم. وحالهم هذا مساو لحال قريش تجاه الرسالة المحمّدية.

{ **فَرِيقَانِ** } هما: فريق الذين استكبروا، وفريق الذين استُضعفوا وفيهم صالح.

الاختصام: واقع مع صالح ابتداء ومع أتباعه تبعا.

{ **قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** } [46].

لمّا كان الاختصام بين الفريقين في شأن صالح ابتداء جيء بجواب صالح عمّا تضمّنه اختصامهم من محاولتهم إفحامه بطلب نزول العذاب. فقوله هذا ليس هو ابتداء دعوته فقد تقدّم قوله { أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ } [45] اقتصر هنا على مراجعة صالح قومه في شأن غرورهم بظنّهم أنّ تأخّر العذاب أمارة على كذب الذي توعّدهم به، فإنّهم قالوا { فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } [الأعراف:70]، لأنّ الغرض هنا موعظة قريش في قولهم { فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [الأنفال:32] ليعلموا أنّ عاقبة ذلك مماثلة لعاقبة ثمود لتماثل الحالين، قال تعالى { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمّىً لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ } [العنكبوت:53].

{ **لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ** } الاستفهام إنكار لأخذهم جانب العذاب دون جانب الرحمة. فالاستعجال: المبادرة. و(الباء) للملابسة. والمفعول محذوف تقديره: تستعجلونني متلبّسين بسيّئة التكذيب.

{ **السَّيِّئَةِ** } صفة لمحذوف، أي: الحالة السيئة التي يترقبون حلولها، وهي ما سألوا من تعجيل العذاب المحكي عنهم في [الأعراف:70].

{ **الْحَسَنَةَ** } ضدّ ذلك، أي: حالة سلامتهم من حلول العذاب.

المعنى: إنكار جعلهم تأخير العذاب أمارة على كذب الوعيد به، وأنّ الأولى بهم أن يجعلوا امتداد السلامة أمارة على إمهال الله إيّاهم فيتّقوا حلول العذاب.

{ **لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** } أعقب الإنكار بتحريضهم على الإقلاع عن ذلك بالتوبة وطلب المغفرة لما مضى منهم عسى أن يرحمهم الله. والكلام استنزال لطائرهم، وترغيب بعد ترهيب.

{ **قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ** } [47].

هذا من محاورتهم مع صالح فلذلك لم يعطف فعلا القول وجاء على سنن حكاية أقوال المحاورات.

{ **اطَّيَّرْنَا** } أصلها تطيَّرنا، فقلبت التاء طاء لقرب مخرجيهما وسكنت لتخفيف الإدغام وأدخلت همزة الوصل لابتداء الكلمة بساكن. { **بِكَ** } الباء للسببية.

التطير: التشاؤم. أطلق عليه التطير لأنّ أكثره ينشأ من الاستدلال بحركات الطير من سانح وبارح. وكان التطيّر من أوهام العرب (وثمود من العرب). وتقدّم معنى الشؤم عند قوله تعالى { بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ } [الأعراف:131].

{ **قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ** } أجاب كلامهم بأنّه ومن معه ليسوا سبب شؤم ولكن سبب شؤمهم وحلول المضار بهم هو قدرة الله. واستُعير لما حلَّ بهم اسم الطائر مشاكلة لقولهم، ومخاطبة لهم بما يفهمون لإصلاح اعتقادهم.

{ **عِنْدَ** } للمكان المجازي مستعارا لتحقّق شأن من شؤون الله، يُقدَّر به الخير والشرّ، وهو تصرّف الله وقدره.

{ **بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ** } أضرب بـ { بَلْ } عن مضمون قولهم { اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ } بأنّهم قوم فتنهم الشيطان فتنة متجدّدة بإلقاء الاعتقاد بصحة ذلك في قلوبهم. وصيغة المضارع دالة على التجدّد.

{ **وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ** [48] **قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ** [49] }.

{ **الْمَدِينَةِ** } هي حِجْرُ ثمود المعروف مكانها اليوم بديار ثمود ومدائن صالح، وهي بقايا تلك المدينة من أطلال وبيوت منحوتة في الجبال. وهي بين المدينة المنوّرة وتبوك في طريق الشام وقد مرّ بها النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمون في مسيرهم في غزوة تبوك ورأوا فيها آبارا نهاهم النبيّ عن الشرب والوضوء منها إلّا بئرا واحدة أمرهم بالشرب والوضوء بها وقال: " **إنّها البئر التي كانت تشرب منها ناقة صالح** ".

الرهط: العدد من الناس حوالي العشرة وهو مثل النفر. وكان هؤلاء الرهط من عتاة القوم، واختُلف في أسمائهم على روايات هي من وضع القصَّاصين ولم يثبت في ذلك ما يُعتمد. وأشتهر أنّ الذي عقر الناقة اسمه **قُدار** (بضم الميم وتخفيف الدال).

{ **الأرض** } أرض ثمود فالتعريف للعهد.

{ **وَلَا يُصْلِحُونَ** } للدلالة على أنّهم تمحَّضوا للإفساد ولم يكونوا ممّن خلطوا إفسادا بإصلاح.

{ **قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ** } فعل أمر، أي: قال بعضهم: تقاسموا. فلمّا قال ذلك بعضهم توافقوا عليه وأعادوه

فصار جميعهم قائلا ذلك، فلذك أسند القول إلى التسعة.

والقَسم بالله يدلّ على أنّهم يعترفون بالله ولكنّهم يشركون به الآلهة، كما تقدّم في قصصهم فيما مرّ من السور.

{ **لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ** } جواب القسم، والضمير عائد إلى صالح. و**التبييت والبيات**: مباغتة العدو ليلا. وعكسه التصبيح: الغارة في الصباح، وكان شأن الغارات عند العرب أن تكون في الصباح. فالتبييت لا يكون إلّا لقصد الغدر. والمعنى: أنّهم يغيرون على بيته ليلا فيقتلونه وأهله غدرا من حيث لا يُعرف قاتله ثم ينكرون أن يكونوا هم قتلوهم ولا شهدوا مقتلهم.

{ **ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ** } وليُّ صالح هم أقرب القوم إليه، أي: إذا راموا الأخذ بثأره.

المُهلك: مصدر ميمي من أهلك الرباعي، أي: شهدنا مقتلهم.

{ **وَإِنَّا لَصَادِقُونَ** } أي: ونؤكّد إنّا لصادقون. ولم يذكروا أنّهم يحلفون على أنّهم صادقون.

وهذا الجزء من قصة ثمود لم يذكر في غير هذه السورة. وأحسب أن سبب ذكره هنا أنّ نزول هذه السورة كان في وقت تآمر فيه المشركون على الإيقاع بالنبيّ صلى الله عليه وسلم وهو التآمر الذي حكاه الله في قوله تعالى { وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ } [الأنفال:30]، فضرب الله لهم مثلا بتآمر الرهط من قوم صالح عليه وكيف كان عاقبة مكرهم، ولذلك ترى بين الآيتين تشابها، وترى تكرير ذكر (مكرهم ومكر الله بهم)، وذكر أنّ في قصتهم آية لقوم يعلمون.

{ وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ [50] فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ [51] فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ [52] وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ [53] }.

{ **وَمَكَرُوا مَكْراً** } سمَّى الله تآمرهم مكرا لأنّه كان تدبير ضرٍّ في خفاء. وأكّد مكرهم بالمفعول المطلق للدلالة على قوّته في جنس المكر، وتنوينه للتعظيم.

{ **وَمَكَرْنَا مَكْراً** } مكر مجازي. استعير اللفظ لمبادرة الله إيّاهم باستئصالهم قبل أن يتمكّنوا من تبييت صالح وأهله، وتأخير ذلك إلى الوقت الذي تآمروا فيه على قتل صالح، مع عدم إشعارهم بذلك.

{ **وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** } تأكيد لاستعارة المكر لتقدير الاستئصال، فليس في ذلك ترشيح للاستعارة ولا تجريد.

{ **فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ** } الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم. واقترانه بـ (فاء) التفريع إيماء إلى أنّ الاعتبار بمكر الله بهم هو المقصود من سوق القصة تعريضا بأنّ عاقبة أمره مع قريش أن يكفّ عنه

كيدهم وينصره عليهم، وفي ذلك تسلية له. و**النظر** نظر قلبي.

{ **أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ** } قرأه عاصم والكسائي ويعقوب وخلف بفتح الهمزة فيكون المصدر بدلا من { عَاقِبَةُ }. والتأكيد للاهتمام بالخبر. وقرأ الجمهور بكسر الهمزة فتكون الجملة مستأنفة استئنافا بيانيّا لما يثيره الاستفهام في قوله تعالى { كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ } من سؤال عن هذه الكيفية. والتأكيد أيضا للاهتمام.

التدمير: الإهلاك الشديد، وتقدّم غير مرة في سورة الشعراء.

والقصة تقدمت وتقدّم إنجاء صالح والذين آمنوا معه، وذلك أنّ الله أوحى إليه أن يخرج ومن معه إلى أرض فلسطين حين أنذر قومه بتمتّع ثلاثة أيام.

{ **فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً** } تفريع إخبار. والإشارة منصرفة إلى معلوم غير مشاهد، لأنّ تحقّقه يقوم مقام حضوره، فإنّ ديار ثمود معلومة لجميع قريش وهي في طريقهم إلى الشام.

الخاوية: الخالية، ومصدره الخواء، أي: فالبيوت باق بعضها في الجبال لا ساكن بها.

{ **بِمَا ظَلَمُوا** } الباء للسببية، والـ (مَا) مصدرية، أي: كان خواؤها بسبب ظلمهم.

الظلم: الشرك وتكذيب رسولهم، فذلك ظلم في جانب الله لأنّه اعتداء على حق وحدانيّته، وظلم للرسول بتكذيبه وهو الصادق.

ولمّا خَصّ الله عملهم بوصف الظلم من بين عدّة أحوال يشتمل عليها كفرهم كالفساد كان ذلك إشارة إلى أنّ للظلم أثرا في خراب بلادهم. وهذا معنى ما روي عن ابن عباس أنّه قال: أجد في كتاب الله أنّ الظلم يخرّب البيوت وتلا: { فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا }.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** } معترضة بين الجمل المتعاطفة. والإشارة إلى ما ذكر من عاقبة مكرهم. **الآية**: الدليل على انتصار الله لرسله.

{ **لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** } اللام لام التعليل، يعني: آية لأجلهم، أي: لأجل إيمانهم. وفيه تعريض بأنّ المشركين الذين سبقت إليهم هذه الموعظة إن لم يتّعظوا بها فهم قوم لا يعلمون.

{ **وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ** } في تأخير الجملة طمأنه لقلوب المؤمنين بأنّ الله ينجيهم ممّا توعّد به المشركين، كما نجَّى الذين آمنوا وكانوا يتّقون من ثمود وهم صالح ومن آمن معه.

{ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ [54] أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ [55] }.

لم يذكر المرسل إليهم هنا كما ذكر في قصّة ثمود لعدم تمام المشابهة بين قوم لوط وبين قريش فيما عدا التكذيب والشرك.

والاقتصار على قصة قوم لوط دون قصة عاد وقصة مدين لمناسبة مجاورة ديار قوم لوط لمملكة سليمان ووقوعها بين ديار ثمود وبين فلسطين، وكانت ديارهم ممر قريش إلى بلاد الشام، قال تعالى { وَإِنَّهَا

لِسَبِيلٍ مُقِيمٍ } [الحجر:76]، وقوله تعالى { وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ } [الصافات:138/137].

{ **أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ** } استفهام إنكاري.

{ **وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ** } حال زيادة في التشنيع، أي: تفعلون ذلك عَلَنًا يبصر بعضكم بعضا.

فإنّ التجاهر بالمعصية معصية لأنّه يدلّ على استحسانها وذلك استخفاف بالنواهي.

{ **أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ** } تقدّم في [الأعراف:81] { إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ }، فهنا جيء بالاستفهام الإنكاري وما في الأعراف جاء الخبر مستعملا في الإنكار. فيجوز أن يكون اختلاف الحكاية تفنّنا مع اتحاد المعنى. وكلا الأسلوبين يقع في قصص القرآن لأنّ في تغيير الأسلوب تجديدا لنشاط السامع.

ونظير بقية الآية تقدّم في [الأعراف:79-83].

{ **بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ** } وصفهم هنا بالجهالة وهي اسم جامع لأحوال أفن الرأي وقساوة القلب. وفي [الأعراف:80] وصفهم بأنّهم { قَوْمٌ مُسْرِفُونَ } وذلك يُحمل على اختلاف المقالتين في مقامين.

{ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ [56] فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ [57] وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ [58] }.

تقدّم نظير هاته الآية في [الأعراف:82-84]، وخالفتها هذه بوقوع العطف بالفاء في قوله تعالى { فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ } دون (الواو)، وبقوله تعالى { أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ } عوض { أَخْرِجُوهُمْ }، وبقوله { قَدَّرْنَاهَا } عوض { كَانَتْ }، وبقوله تعالى { فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ } عوض { فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ }.

{ **فَمَا كَانَ** } الفاء هنا لتعقيب الجملة المعطوفة على التي قبلها تعقيب جزء القصة على أوّله فلا تفيد إلّا تعقيب الإخبار، وهي في ذلك مساوية للواو ولكن أوثر حرف التعقيب لكونها على نسج ما حكيت به قصة ثمود في قوله تعالى { فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ } [45]، فالاختلاف بين هذه الآية وآية الأعراف تفنّن في الحكاية ومراعاة للنظير في النسج. وهذا من أساليب قصص القرآن كما بيّنته في المقدمة السابعة.

{ **أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ** } دون { أَخْرِجُوهُمْ }، لأنّ المحكي من كلام القوم هو تآمرهم على إخراج آل لوط، فما هنا حكاية بمرادف كلامهم وما في الأعراف حكاية بالمعنى، والغرض هو التفنّن أيضا.

{ **قَدَّرْنَاهَا** } الاختلاف بينها وبين { كَانَتْ } تفنّن كذلك.

{ **فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ** } الاختلاف بينها وبين { فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ } للتوزيع، فهما

عبرتان بحالهم تفرّعتا على وصف ما حلّ بهم فوزّعت العبرتان على الآيتين لئلّا يخلو تكرير القصة من فائدة.

{ **آلَ لُوطٍ** } المراد لوط وأهل بيته.

{ **قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ** } [59].

لمّا استوفى غرض الاعتبار والإنذار حقّه بذكر عواقب بعض الأمم التي كذّبت الرسل، وهي أشبه أحوالا بأحوال المكذّبين بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالكتاب الذي انزل عليه، اقبل الله بالخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يلقّنه ماذا يقول عقب القصص والمواعظ السالفة استخلاصا واستنتاجا منها.

{ **قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ** } أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالحمد على ما احتوت عليه القصص السابقة من نجاة الرسل من العذاب الحال بقومهم، وعلى ما أعقبهم الله على صبرهم من النصر ورفعة الدرجات، وعلى أن اهلك الأعداء الظالمين كقوله تعالى { فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [الأنعام:45]. ونظيره قوله تعالى { قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ } [العنكبوت:45].

{ **وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى** } إنشاء طلب من الله أن يسلّم على المصطفين من عباده، أي: أن يجعل لهم ذكرا حسنا في الملأ الأعلى.

السلام: في الأصل اسم يقوله القائل لمن يلاقيه بلفظ: سلام عليك، أو السلام عليك. ومعناه سلامة وأمن ثابت لك. فكان اللفظ كالعهد بالأمان. ثم لمّا كانت المفاتحة بذلك تدلّ على الابتداء بالإكرام والتلطّف عند اللقاء ونيّة الإعانة والقِرى شاع إطلاق كلمة: السلام عليك ونحوها عند قصد الإعراب عن التلطّف والتكريم، فشاعت في العرب وصارت بمنزلة الدعاء الذي هو إعراب عن إضمار الخير للمدعو له بالسلامة في حياته. فلذلك قال تعالى {فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً} [النور:61].

ثم ذكر القرآن السلام من عند الله تعالى على معنى كونه معاملة منه سبحانه بكرامة الثناء وحسن الذكر للذين رضي الله عنهم من عباده في الدنيا وكذلك في الآخرة كقوله حكاية عن عيسى إذ أنطقه بقوله { وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ } [مريم:33].

وجاء في القرآن السلام على خمسة من الأنبياء في [الصافات: 130/120/109/79]. وأيضا أمر الله الأمة بالسلام على رسولها فقال تعالى { أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً } [الأحزاب:56].

{ **عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى** } في مقدّمتهم الرسل والأنبياء ويشمل ذلك الصالحين من عباده كما في صيغة التشهّد: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

{ **آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ** } أُمر الرسول أن يَشرع في الاستدلال على مسامع المشركين فيقول لهم هذا الكلام، بقرينة قوله { أَمَّا تُشْرِكُونَ } بصيغة الخطاب في قراءة الجمهور.

والاستفهام مستعمل في الإلجاء وإلزام المخاطب بالإقرار بالحقّ وتنبيهه على خطئه. وهذا دليل إجمالي يقصد به ابتداء النظر في التحقيق بالإلهية والعبادة.

{ **خَيْرٌ** } في هذا الاستفهام عن الأفضل في الخير تنبيه لهم على الخطأ المفرط والجهل المورّط لتنفتح بصائرهم إلى الحقّ إن أرادوا اهتداء. والاستفهام على حقيقته بقرينة وجود { أَمْ } المعادلة للهمزة، فإنّ التهكّم يُبنى على الاستعمال الحقيقي. والمعنى: الله الحقيق بالإلهية أم ما تشركون معه؟

{ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ } [60].

{ **أَمْ** } منقطعة بمعنى (بَلْ) للإضراب الانتقالي من غرض إلى غرض مع مراعاة وجود معنى الاستفهام أو لفظه بعدها، لأنّ (أَمْ) لا تفارق معنى الاستفهام. انتقل بهذا الإضراب من الاستفهام الحقيقي التهكّمي إلى الاستفهام التقريري، ومن المقدّمة الإجمالية وهي قوله تعالى { آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ }، إلى الغرض المقصود

وهو الاستدلال. وهو مشوب بتوبيخ، فلذلك ذُيّل بقوله تعالى { بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ }.

وفي الكلام تعداد للخيرات والمنافع التي هي من آثار رحمته ومن آثار قدرته.

فهو <u>استدلال مشوب بامتنان</u>، امتنان بنعمة إيجادهم وإيجاد ما به قوام شؤونهم في الحياة، وبسابق رحمته.

{ **وَأَنْزَلَ لَكُمْ** } الخطاب موجّه إلى المشركين للتعريض بأنّهم ما شكروا نعمة الله.

{ **مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا** } ذكر إنزال الماء لأنّه من جملة ما خلقه الله، ولقطع شبهة أن يقولوا: إنّ المنبت للشجر الذي فيه رزقنا هو الماء اغترارا بالسبب فبودروا بالتذكير بأنّ الله خلق الأسباب وهو خالق المسبّبات بإزالة الموانع والعوارض وتقدير المقادير المناسبة للانتفاع بالأسباب.

{ **فَأَنْبَتْنَا** } نون الجمع التفات من الغيبة إلى الحضور. ومن لطائفه هنا التنصيص على أنّ المقصود إسناد الإنبات إليه لئلّا ينصرف ضمير الغائب إلى الماء لأنّ التذكير بالمُنبت الحقيقي الذي خلق الأسباب أليق بمقام التوبيخ على عدم رعايتهم نعمه.

الإنبات: تكوين النبات.

الحدائق: جمع حديقة وهي البستان والجنّة التي فيها نخل وعنب. سُمّيت حديقة لأنّهم كانوا يُحْدِقون بها حائطا يمنع الداخل إليها صونا للعنب لأنّه ليس كالنخل الذي يعسر اجتناء ثمره. ولا تطلق الحديقة إلّا على ذلك.

البهجة: حسن المنظر لأنّ الناظر يبتهج به.

{ **مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا** } ليس في ملككم أن تنبتوا شجر تلك الحدائق. وقدّم الخبر على الاسم للاهتمام بنفي ملك ذلك.

{ **أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ** } استئناف هو كالنتيجة للجملة قبلها لأنّ إثبات الخلق والرزق والإنعام لله تعالى بدليل لا يسعهم إلّا الإقرار به يقود ولابد إلى الاعتراف أنّه لا إله معه. والاستفهام إنكاري.

{ **بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ** } للإضراب عن الاستفهام الإنكاري تفيد معنى (لكن) باعتبار ما تضمّنه الإنكار من انتفاء أن يكون مع الله إله. فكان حقّ الناس ألّا يشركوا معه في الإلهية غيره فجيء بالاستدراك لأنّ المخاطبين لم ينتفعوا بالدليل مع أنّه دليل ظاهر مكشوف، فهم مكابرون في إعراضهم عن الاهتداء بهذا الدليل إذ يعدلون بالله غيره، أي: يجعلون غيره مثيلا له في الإلهية.

{ **يَعْدِلُونَ** } من عدل الذي يتعدى بـ (الباء)، أو يعدلون عن الحق من عدل الذي يُعدَّى بـ (عَنْ). والإخبار عنهم بالمضارع لإفادة أنّهم مستمرّون على شركهم لم يستنيروا بدليل العقل ولا أقلعوا بعد التذكير بالدلائل. وفي الإخبار عنهم بأنّهم { قَوْمٌ } إيماء إلى تمكّن صفة العدول عن الحق منهم حتّى كأنّها من مقوّمات قوميّتهم.

{ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ } [61].

{ **أَمْ** } للإضراب الانتقالي مثل أختها السابقة. وهذا انتقال من الاستدلال المشوب بالامتنان إلى الاستدلال المجرّد بدلائل قدرته وعلمه بأنْ خلق المخلوقات العظيمة، وبتدبيره نظامها حتّى لا يطغى بعضها على بعض. ولأجل كون الغرض من هذا الاستدلال إثبات عظم القدرة وحكمة الصنع لم يجيء خلاله بخطاب للمشركين كما جاء في الآية السابقة، وإن كان هذا الصنع العجيب لا يخلو من لطف بالمخلوقات، ولكن ذلك غير مقصود بالقصد الأوّل من سوق الدليل هنا.

القرار: مصدر قَرَّ، إذا ثبت وسكن. ووصف الأرض به للمبالغة، أي: ذات قرار. والمعنى: جعل الأرض ثابتة قارة غير مضطربة. وهذا تدبير عجيب ولا يُدرك تمام هذا الصنع العجيب إلّا عند العلم بأنّ هذه الأرض سابحة في الهواء متحرّكة في كل لحظة وهي مع ذلك قارة فيما يبدو لسكّانها فهذا تدبير أعجب.

{ **وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً** } أي: شقّ فيها الأنهار فجعلها خلالها. وخلال الشيء: منفرج ما بين أجزائه. والأنهار تشقّ الأرض في أخاديد فتجري خلال الأرض.

الرواسي: الجبال، جمع راسٍ، وهو الثابت.

{ **لَهَا** } لام العلة، أي: الرواسي لأجل قرار الأرض.

{ **وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً** } جعْل الحاجز بين البحرين من بديع الحكمة وهو حاجز معنوي حاصل من دفع كلا الماءين عن الاختلاط بسبب تفاوت الثقل النسبي لاختلاف الأجزاء المركّب منها الماء المالح والماء العذب. فالحاجز حاجز من طبعهما وليس جسما آخر فاصلا بينهما، وتقدّم في [النحل:14].

{ **أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ** } ثمّ ذيّل بالاستفهام الإنكاري وبالاستدراك بجملة مماثلة لما ذُيّل به الاستدلال الذي قبلها على طريقة التكرير تعدادا للإنكار وتمهيدا للتوبيخ بقوله:

{ **بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ** } أوثر هنا نفي صفة العلم عن أكثر المشركين لقلّة من ينظر في دقائق هذه المصنوعات وخصائصها، فإنّ اعتياد مشاهدتها من أوّل نشأة الناظر يذهله عمّا فيها من دلائل بديع الصنع.

{ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ } [62].

ارتقى الاستدلال من التذكير بالتصرّف الربّاني في ذوات المخلوقات إلى التذكير بتصرّفه في أحوال الناس التي لا يخلو عنها أحد وهي: حالة الاحتياج، وحالة البؤس، وحالة الانتفاع.

{ **أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ** } فالمضطرّ هو ذو الضرورة. فالمرء محتاج إلى أمور كثيرة بها قوام أوده ليست متّصلة بذاته مثل الأقوات والنكاح والملابس اللازمة، فالمرء يتطلّبها بوجوه من المعاوضات، وهي تتعسّر بقدر وفرة منافعها وعزة حصولها، فيسأل الله سُبل التيسير. <u>وهذه مرتبة الحاجيات</u>.

الاضطرار: افتعال من الضرورة لا من الضُرّ. وليس له فعل مجرّد وإنّما يقال: اضطرّه كذا إلى كذا.

الإجابة: إعطاء الأمر المسؤول.

{ **وَيَكْشِفُ السُّوءَ** } حالة البؤس.

الكشف: أصله رفع الغشاء، فشُبِّه السوء الذي يعتري المضرور بغشاء يحول دون المرء ودون الاهتداء إلى الخلاص، تشبيه معقول بمحسوس.

<u>وهذه مرتبة الضروري</u> فإنّ معظمها أو جميعها حفظ من تطرّق السوء إلى مُهِمّ أحوال الناس، مثل الكلّيّات وهي: حفظ الدين والنفس والعقل والنسب والعرض.

وظاهر التقييد بالظرف يقتضي ضمان الإجابة. والواقع أنّ الإجابة منوطة بإرادة الله تعالى بحسب ما يقتضيه حال الداعي وما يقتضيه معارضه من أصول أخرى، والله أعلم بذلك.

{ **وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ** } حالة الانتفاع، أي: يجعلكم تعمرون الأرض وتجتنون منافعها، فضمَّن {خُلَفَاءَ} معنى المالكين فأضيف إلى الأرض على تقدير: مالكين لها، والملك يستلزم الانتفاع بما يُنتفع به منها. <u>وهذه مرتبة التحسيني</u>.

وقد جمعت الآية الإشارة إلى مراتب المناسب وهو ما يجلب نفعا أو يدفع ضررا، وهو من مسالك العلة في أصول الفقه.

{ **يُجِيبُ - يَكْشِفُ - يَجْعَلُكُمْ** } ولِمَا اقتضته الخلافة من تجدّد الأبناء عقب الآباء والأجيال بعد الأجيال، وما اقتضته الاستجابة وكشف السوء من كثرة الداعين والمستائين عُبّر في أفعال الجعل التي تعلقت بها

بصيغة المضارع الدال على التجدّد بخلاف أفعال الجعل الأربعة التي في الآية قبلها.

{ **أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ** } ثمّ استؤنف عقب هذا الاستدلال باستفهام إنكاري تكريرا لما تقدّم عقب الأدلة السابقة زيادة في تعداد أخطائهم.

{ **قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ** } انتصب { قَلِيلًا } على الحال، أي: فعل ذلك لكم وأنتم في حال قلّة تذكّركم، فتفيد معنى التعجّب من حالهم.

التذكّر: من الذُّكر (بضم الذال) وهو ضدّ النسيان، فهو استحضار المعلوم، أي: قليلا استحضاركم الافتقار إلى الله وما أنتم فيه من إنعامه فتهتدوا بأنّه الحقيق بأن لا تشركوا معه غيره.

والقليل هنا مُكنًّى به عن المعدوم لأنّ التذكّر المقصود (الاستدلال) معدوم منهم.

{ **أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** } [63].

{ **أَمْ** } لإضراب الانتقال من نوع دلائل التصرّف في أحوال عامة الناس إلى دلائل التصرّف في أحوال المسافرين منهم في البر والبحر، فإنّهم أدرى بهذه الأحوال وأقدر لما في خلالها من النعمة والامتنان.

{ **يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ** } الهدى في هذه الظلمات بسير النجوم كما قال تعالى { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ } [الأنعام:97]. فالله الهادي للسير في تلك الظلمات بأنّ خلق النجوم على نظام صالح للهداية في ذلك، وبأنّ ركّب في الناس مدارك للمعرفة بإرصاد سيرها وصعودها وهبوطها، وهداهم أيضا بمهاب الرياح، وخوّلهم معرفة اختلافها بإحساس جفافها ورطوبتها.

{ **وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ** } وبهذه المناسبة أدمج الامتنان بفوائد الرياح في إثارة السحاب الذي به المطر وهو المعني برحمة الله. وإرساله الرياح هو خلق أسباب تكوّنها.

{ **بُشْراً** } اختلفت القراءات، وتقدّمت في قوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ } [الأعراف:57]، وفي قوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ } [الفرقان:48]. وتوجيه هذه القراءات هنالك.

{ **أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** } ذُيّل هذا الدليل بتنزيه الله تعالى عن إشراكهم معه آلهة لأنّ هذا خاتمة الاستدلال عليهم بما لا ينازعون في أنّه من تصرّف الله، فجيء بعده بالتنزيه عن الشرك كلّه، وذلك تصريح بما أشارت إليه التذييلات السابقة.

{ أَمَّنْ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [64].

تذكير بنعمة الإيجاد ونعمة الإمداد. والاستفهام تقريري لأنّهم لا ينكرون أنّه يبدأ الخلق وأنّه يرزقهم.

{ **ثُمَّ يُعِيدُهُ** } ادماج في خلال الاستفهام لأنّ تسليم بدئه الخلق يلجئهم الى فهم إمكان إعادة الخلق التي أحالوها.

{ **وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ** } أعيد الاستفهام حتّى لا يظنّوا أن رزقهم في الدنيا من نعم آلهتهم.

{ **أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } وإذا قد كانوا منكرين للبعث ذُيّلت الآية بأمر التعجيز بالإتيان ببرهان على عدم البعث.

البرهان: الحجّة. وتقدّم عند قوله تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ } [النساء:174].

وجُماع ما تقدّم في هذه الآيات [59-64] أنّها أجملت الاستدلال على أحقية الله تعالى بالإلهية وحده، ثم فصّلت ذلك بآيات { أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ - إلى قوله - قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [60-64]. **فابتدأت** بدليل قريب من برهان المشاهدة، وهو خلق السماوات والأرض وما يأتي منهما من خير للناس، ودليل كيفية خلق الكرة الأرضية وما على وجهها منها، وهذا ملحق بالمشاهدات. **وانتقلت** إلى استدلال من قبيل الأصول الموضوعة وهو ما تمالأ عليه الناس من اللجأ إلى الله تعالى عند الاضطرار. **وانتقلت** إلى الاستدلال عليهم بما مكّنهم من التصرّف في الأرض إذ جعل البشر خلفاء في الأرض، وسخّر لهم التصرّف بوجوه التصاريف المعينة على هذه الخلافة، وهي تكوين هدايتهم في البر والبحر، وذلك جامع لأصول تصرفات الخلافة المذكورة في الارتحال والتجارة والغزو.

وختم ذلك بكلمة جامعة لنعمتي الإيجاد والإمداد وفي مطاويها جوامع التمكّن في الأرض.

{ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ [65] بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ [66] }.

لما أبطلت الآيات السابقة إلهية أصنام المشركين بالأدلة المتظاهرة فانقطع دابر عقيدة الإشراك ثُنّيَ عنانُ الإبطال إلى أثر من آثار الشرك وهو ادعاء علم الغيب بالكهانة وإخبار الجنّ، كما كان يزعمه الكُهَّان والعرَّافون وسدنة الأصنام، ويؤمن به المشركون.

قيل: نزلت في المشركين حين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وقت قيام الساعة، وما كان سؤالهم عن ذلك إلّا لظنهم أنّ ادعاء العلم بوقتها من شأن النبوّة توصلا لجحد النبوّة إن لم يعيّن لهم وقتها، فأبطلت الآية هذه المزاعم إبطالا عاما معياره الاستثناء بقوله { إِلَّا اللَّهُ }.

{ **وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ** } أي: أنّ الذين يزعمون علم الغيب ما يشعرون بوقت بعثهم.

{ **أَيَّانَ** } اسم استفهام عن الزمان. وهذا تورّك وتعيير للمشركين فإنّهم لا يؤمنون بالبعث بله شعورهم بوقته.

{ **بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ** } إضراب انتقالي، وهو ارتقاء إلى ما هو أغرب وأشدّ ارتقاء من تعييرهم بعدم شعورهم بوقت بعثهم إلى وصف علمهم بالآخرة التي البعث من أوّل أحوالها.

{ **ادَّارَكَ** } قرأ الجمهور بهمز وصل في أوّله وتشديد الدال على أن أصله (تدارك). قال الفراء وشمر: وهو تفاعل من الدَّرَك بفتحتين وهو **اللحاق**. وقد امتلكت اللغويين والمفسرين حيرة في تصوير معنى الآية.

والذي أراه في تفسيرها على هذا الاعتبار اللغوي أنّ معنى التدارك هو أنّ علم بعضهم لَحِقَ علم بعض آخر في أمر الآخرة. أي: تلاحقت وتتابعت علومهم، فتلقّي الخلف عن السلف علمهم في الآخرة وتقلّدوها عن غير بصيرة ولا نظر. وقريب من هذا قوله تعالى { بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ } [المؤمنين:81].

الوجه الثاني: أن يكون التدارك مستعملا مجازا مرسلا في الاختلاط والاضطراب، لأنّ التدارك والتلاحق يلزمه التداخل. فهم ينفون البعث ثمّ يزعمون أنّ الأصنام شفعاؤهم عند الله من العذاب، وهذا يقتضي إثبات البعث ولكنّهم لا يعذبون، ثم يتزوّدون تارة للآخرة ببعض أعمالهم التي منها: أنّهم كانوا يحبسون الراحلة على قبر صاحبها ويتركونها لا تأكل ولا تشرب حتّى تموت فيزعمون أن صاحبها يركبها ويسمونها البليَّة.

ويجوز وجه آخر: وهو أن يكون { ادَّارَكَ } مبالغة في (أدرك) ومفعوله محذوفا تقديره: إدراكهم، أي: حصل لهم علمهم بوقت بعثهم، أي: في اليوم الذي يبعثون فيه، أي: يومئذ يوقنون بالبعث، فيكون الفعل الماضي مستعملا في معنى التحقّق، ويكون حرف (فِي) على اصله من الظرفية.

{ **بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا** } إضراب انتقال للارتقاء من كونهم اضطرب علمهم في الآخرة، أو تقلّد خلفهم ما لقنه سلفهم، أو من أنّهم انتفى علمهم في الآخرة، إلى أنّ ذلك الاضطراب في العلم قد أثار فيهم شكًّا من وقوع الآخرة. وجيء بالجملة الاسمية للدلالة على ثبات الخبر ودوامه، والظرفية للدلالة على إحاطة الشك بهم.

{ **بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ** } آخر درجات الارتقاء في إثبات ضلالهم وهو أنّهم عميان عن شأن الآخرة.

{ **عَمُونَ** } : جمع عَمٍ (بالتنوين)، وهو (فَعِلٌ) من العمى صاغوا له مثال المبالغة للدلالة على **شدّة العمى**. فشُبّه ضلالهم عن البعث بالعمى في عدم الاهتداء إلى المطلوب، تشبيه المعقول بالمحسوس.

وترتيب هذه الإضرابات الثلاثة ترتيب لتنزيل أحوالهم:

فوصفوا أوّلا بأنّهم لا يشعرون بوقت البعث، ثم بأنّهم تلقّفوا في شأن الآخرة التي البعث من شؤونها علما مضطربا أو جهلا فخبطوا في شك ومِرْية، فأعقبهم عمًى وضلالة. بحيث إنّ هذه الانتقالات مندرجة

متصاعدة حتى لو قيل: بل أدّارك علمهم في الآخرة فهم في شك منها فهم منها عمون لحصل المراد.
ولكن جاءت طريقة التدرّج بالإضراب الانتقالي أجزل وأبهج وأروع وأدلّ على أنّ كلًّا من هذه الأحوال المرتّبة جدير بأن يعتبر فيه المعتبِر باستقلاله لا بكونه متفرّعا على ما قبله.
{ **يَشْعُرُونَ - يُبْعَثُونَ - عِلْمُهُمْ - هُمْ فِي شَكٍّ - هُمْ مِنْهَا عَمُونَ** } ضمائر جمع الغائبين عائدة إلى (مَنْ) الموصولة في قوله تعالى { قُلْ لا يَعْلَمُ **مَنْ** فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ }. و(مَنْ) هذه وإن كانت من صيغ العموم فالضمائر المذكورة عائدة إليها بتخصيص عمومها ببعض من في الأرض، وهم الذين يزعمون أنّهم يعلمون الغيب؛ من الكُهّان والعرّافين وسدنة الأصنام الذين يستقسمون للناس بالأزلام.

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ [67] لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ [68] }.

{ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا** } ذِكر شبهتهم التي أرتهم البعث مستحيل الوقوع، ولذلك أسند القول هنا إلى جميع الذين كفروا دون خصوص الذين يزعمون علم الغيب، ولذلك عطفت الجملة لأنّها غايرت التي قبلها بأنّها أعمّ. والتعبير عنهم باسم الموصول لما في الموصول من الإيماء إلى علّة قولهم هذه المقالة، وهي ما أفادته الصلة من كونهم كافرين.
{ **أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا** } أتوا بالإنكار في صورة الاستفهام لتجهيل معتقد ذلك وتعجيزه عن الجواب بزعمهم.
وقد تقدّم في [المؤمنون:82] حكاية مثل هذه المقالة عن الذين كفروا إلّا أنّ اسم الإشارة الأول وقع مؤخرا عن { نَحْنُ } في سورة المؤمنين ووقع مقدّما عليه هنا، وتقديمه وتأخيره سواء في اصل المعنى. وفي الاختلاف بين أسلوب الآيتين تفنّن كما تقدّم في المقدّمة السابعة.
الأساطير: جمع أسطورة، وهي القصّة والحكاية. وتقدّم الكلام على ذلك عند قوله تعالى { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } [النحل:24].
<u>المعنى</u>: ما هذا إلّا كلام معاد قاله الأوّلون وسطّروه وتلقّفه من جاء بعدهم ولم يقع شيء منه.

{ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ } [69].

أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بأنّ يقول لهم هذه الكلمة ولذلك فُصل فعل (قُلْ)، وتقدّم نظيره [الأنعام:11]. والمناسبة في الموضعين هي الموعظة بحال المكذّبين لأنّ إنكارهم البعث تكذيب للرسول وإجرام، والوعيد بأن يصيبهم ما أصابهم، إلّا أنّها هنالك عطفت بـ { ثُمَّ انْظُرُوا } وهنا بالفاء { فَانْظُرُوا }. وذكر هنالك { عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ } وذكر هنا { عَاقِبَةُ الْجُرْمِينَ }، والمكذّبون مجرمون.

والاختلاف بين الحكايتين للتفنّن.

{ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ } [70].

كانت الرحمة غالبة على النبيّ صلى الله عليه وسلم والشفقة على الأمة من خلاله، فلمّا أُنذِر المكذّبون بهذا الوعيد تحرّكت الشفقة في نفس الرسول عليه الصلاة والسلام فربط الله على قلبه بهذا التشجيع ألّا يحزن عليهم إذا أصابهم ما أنذروا به. وكان من رحمته صلى الله عليه وسلم حرصه على إقلاعهم عمّا هم عليه من تكذيبه والمكر به.

الضيق: (بفتح الضاد وكسرها)، قرأه الجمهور بالفتح، وابن كثير بالكسر. وحقيقته: عدم كفاية المكان أو الوعاء لما يراد حلوله فيه، وهو هنا مجاز في الحالة الحرجة التي تعرض للنفس عند كراهية شيء فيحس المرء في مجاري نَفَسه بمثل ضَيق عرض لها. وإنّما هو انضغاط في أعصاب صدره. وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ } [النحل:127].

المكر: تقدّم عند قوله تعالى { وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ } [آل عمران:54].

{ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [71] قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ [72] }.

عطف على { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً } [67]. والتعبير هنا بالمضارع للدلالة على تجدّد ذلك القول منهم، أي: لم يزالوا يقولون.

{ **مَتَى هَذَا الْوَعْدُ** } المراد ما أنذروا به من العقاب. والاستفهام عن زمانه، وهو استفهام تهكّم منهم بقرينة قولهم { إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ }.

{ **قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ** } أمر الله نبيّه بالجواب عن قولهم لأنّ هذا من علم الغيب الذي لا يعلمه إلّا الله ومن أطلعه على شيء منه من عباده المصطفين. والجواب جار على الأسلوب الحكيم بحمل استفهام على حقيقته تنبيها على أنّ حقّهم أن يسألوا عن وقت الوعيد ليتقدّموه بالإيمان.

{ **عَسَى** } للرجاء، وهو مستعمل في التقريب مع التحقيق.

{ **رَدِفَ** } تبع بقرب. وعُدّي بـ (اللام) هنا مع أنّه صالح للتعدية بنفسه لتضمينه معنى (اقترب). و(اللام) للتوكيد مثل شكر له. والمعنى: رجاء أن يكون ذلك قريب الزمن. وهذا إشارة إلى ما سيحلّ بهم يوم بدر.

{ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ } [73].

استدراك على قوله تعالى { قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ } [72] أي: أنّ تأخير العذاب عنهم هو من فضل الله عليهم. وهذا خبر خاص بالنبيّ صلى الله عليه وسلم تنبيها على أنّ تأخير الوعيد أثر من آثار رحمة الله، لأنّ أزمنة التأخير أزمنة إمهال فهم فيها بنعمة، لأنّ الله ذو فضل على الناس كلّهم.

ومسألة أنّ نعمة الكافر نعمة حقيقية أو ليست نعمة؟ مختلف فيها بين الأشعري والماتريدي.

{ ذُو فَضْلٍ } يدلّ على أّن الفضل من شؤونه سبحانه. والتنكير للتعظيم.

{ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ } استدراك ناشئ عن عموم الفضل منه تعالى، فإنّ عمومه وتكرّره يستحق بأن يعلمه الناس فيشكروه، ولكن أكثر الناس لا يشكرون، كهؤلاء الذين قالوا { مَتَى هَذَا الْوَعْدُ } [الأنبياء:38] فإنّهم يستعجلون العذاب تهكّما وتعجيزا.

{ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ } [74].

استئناف بياني، لأنّ قوله تعالى { وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ } [73] يثير سؤالا في نفوس المؤمنين أن يقولوا: إنّ هؤلاء المكذّبين قد أضمروا المكر وأعلنوا الاستهزاء فحالهم لا يقتضي إمهالهم. فيجاب بأنّ الذي أمهلهم مطّلع على ما في صدورهم وما أعلنوه وأنّه أمهلهم لحكمة يعلمها.

وفيه إشارة إلى أنّهم يكنُّون أشياء للنبيّ صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، منها: أنّهم يتربّصون بهم الدوائر، وأنّهم تخامر نفوسهم خواطر إخراجه وإخراج المؤمنين.

{ وَإِنَّ رَبَّكَ } التوكيد لك أن تجعله لتنزيل السائل منزلة المتردّد، وذلك تلويح بالعتاب.

{ تَكُنُّ } تُخفي، وهو من (أَكَنَّ) إذا جعل شيئا كانًّا، أي: حاصلا في كِنّ. والكِنُّ: المسكن. وإسناد { تَكُنُّ } إلى الصدور مجاز عقلي باعتبار أنّ الصدور مكانه.

الإعلان: الإظهار.

{ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } [75].

عطف على الجملة السابقة وهو في معنى التذييل لها لأنّها ذكر منها علمُ الله بضمائرهم فذُيّل ذلك بأنّ الله يعلم كل غائبة في السماء والأرض.

وإنّما جاء معطوفا لأنّه جدير بالاستقلال بذاته من حيث إنّه تعليمٌ لصفة علم الله تعالى وتنبيه لهم من غفلتهم عن إحاطة علم الله لما تُكنّ صدورهم وما يعلنون.

الغائبة: اسم للشيء الغائب، والتاء فيه للنقل من الوصفية إلى الاسمية كالتاء في العافية والعاقبة.

مشتقّ من الغيب وهو ضدّ الحضور. والمراد: الغائبة عن علم الناس. استُعمِل الغيب في الخفاء مجازا مرسلا.

الكتاب: يُعبّر به عن علم الله. استعير له الكتاب لما فيه من التحقّق وعدم قبول التغيير. ويجوز أن يكون مخلوقا غيبيّا يُسجّل فيه ما سيحدث.

المبين: المفصَّل، لأنّ الشيء المفصَّل يكون بيِّنًا واضحا. والمعنى: أنّ الله لا يعزب عن علمه شيء ممّا خفي على العالمين. وذلك يقتضي أنّ كلّ ما يتلقّاه الرسل من جانب الله تعالى فهو حقّ.

{ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } [76].

إبطال لقول الذين كفروا { إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } [68]. ولها مناسبة بما قبلها، فإنّ القرآن وحي من عند الله إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم فكلّ ما فيه فهو من آثار علم الله تعالى.

ومن ذلك ما اشتمل عليه القرآن من تحقيق أمور الشرائع الماضية والأمم الغابرة ممّا خبطت فيه كتب بني إسرائيل خبطا من جرّاء ما طرأ على كتبهم من التشتّت والتلاشي وسوء النقل من لغة إلى لغة في عصور انحطاطهم، ولما في القرآن من الأصول الصريحة في الإلهيات ممّا يكشف سوء تأويلهم لكلمات كتابهم في متشابه التجسيم ونحوه، فإنّك لا تجد في التوراة ما يساوي قوله تعالى { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } [الشورى:11].

فموقع هذه الآية استكمال نواحي هدي القرآن للأمم، فإنّ السورة افتتحت بأنّه هدى وبشرى للمؤمنين، وأنّ المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة يعمهون في ضلالهم فلم ينتفعوا بهديه. فاستكملت هذه الآية ما جاء به من هدي بني إسرائيل لما اختلفوا فيه.

{ **إِنَّ** } للتأكيد مثل ما تقدّم في نظائره.

{ **أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** } هو ما جاء في القرآن من إبطال قولهم فيما يقتضي إرشادهم إلى الحقّ أن يُبيَّن لهم، وغيره ما لا مصلحة في بيانه لهم.

ومن مناسبة التنبيه على أنّ القرآن يقصّ على بني إسرائيل أكثر ما هم فيه مختلفون أنّ ما قصّه ممّا جرى بين ملكة سبأ مع سليمان كان فيه ممّا يخالف ما في (كتاب الملوك الأوّل وكتاب الأيام الثاني) ففي ذينك الكتابين أنّ ملكة سبأ جاءت إلى أورشليم من تلقاء نفسها، محبة منها في الاطلاع على ما بلغ مسامعها من عظمة ملك سليمان وحكمته. وليس ممّا يصح في حُكم العقل وشواهد التاريخ في تلك العصور أنّ ملكة عظيمة كملكة سبأ تعمد إلى الارتحال عن بلدها وتدخل بلد ملك آخر غير هائبة لولا أنّها كانت مضطرّة إلى ذلك بسياسة ارتكاب أخف الضرَّين إذ كان سليمان قد ألزمها بالدخول في دائرة نفوذه.

ومن العجيب أيضا إهمال كُتَّاب اليهود دعوة سليمان بلقيس إلى عقيدة التوحيد، وهل يُظنّ بنبيّ أن يقرّ الشرك على منتحليه.

{ وَإِنَّهُ لَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ } [77].

هذا راجع إلى قوله في طالع السورة { هُدىً وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ } [2] ذُكر هنا لاستيعاب جهات هدي القرآن. أمّا كونه **هدى** للمؤمنين فظاهر، وأمّا كونه **رحمة لهم** فلأنّهم لمّا اهتدوا به قد نالوا الفوز في الدنيا بصلاح نفوسهم واستقامة أعمالهم واجتماع كلمتهم، وفي الآخرة بالفوز بالجنة. والرسالة المحمدية وإن كانت رحمة للعالمين كما في قوله تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ } [الأنبياء:107] فرحمتها للمؤمنين أخصّ.

{ **إِنَّ** } التأكيد منظور فيه إلى المُعرَّض بهم كما تقدّم في قوله { وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ } [73].

{ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ } [78].

لمّا سبق ذكرُ المشركين بطعنهم في القرآن وتكذيبهم بوعيده، وذكرُ بني إسرائيل بما يقتضي طعنهم فيه، وذكرُ المؤمنين بأنّهم اهتدوا به وكان لهم رحمة فهم موقنون بما فيه، تمخّض الكلام عن خلاصة هي افتراق الناس في القرآن فريقين: فريق طاعن، وفريق موقن، فلا جرم اقتضى ذلك حدوث تدافع بين الفريقين.

{ **إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ** } استئناف بياني أفاد أنّ الله يقضي بين المؤمنين بالقرآن والطاعنين فيه قضاء يبيِّن المُحقّ من المُبطل. وهذا تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين عن استبطائهم النصر.

{ **وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ** } تذييل، فإنّ العزيز لا يصانع، والعليم لا يفوته الحق.

{ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ } [79].

أمر للرسول بأن يطمئن بالا ويتوكّل على ربّه فيما يقضي به، فإنّه يقضي له بحقّه وعلى معانده بما يستحقّه.

{ **فَتَوَكَّلْ** } الـ (الفاء) للتفريع، والأمر بالتوكل مستعمل في كنايته وصريحه فإنّ من لازمه أنّه أدى رسالة ربّه، وأنّ إعراض المعرضين عن أمر الله ليس تقصيرا منه. وهو معنى تكرّر في القرآن كقوله تعالى { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ } [الشعراء:3]، وقوله تعالى { وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ } [النحل:27].

التوكّل: تفعُّل من وَكَلَ إليه الأمر إذا أسند إليه تدبيره ومباشرته، فالتفعُّل للمبالغة. وتقدّم عند قوله تعالى { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } [آل عمران:159]، وقوله تعالى { فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } [المائدة:23].

وجيء في فعل التوكّل بعنوان اسم الجلالة لأنّ ذلك الاسم يتضمّن معاني الكمال كلّها، ومن أعلاها العدل في القضاء ونصر المُحق.

{ **إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ** } لم يخاطب الله تعالى أحدا من رسله بمثله، فكان ذلك شهادة لرسوله بالعظمة الكاملة المنزَّهة عن كلّ نقص لما دلّ عليه حرف { عَلَى } من التمكّن، وما دلّ عليه اسم { الْحَقِّ } من معنى جامع لحقائق الأشياء. وما دلّ عليه وصف { الْمُبِينِ } من الوضوح والنهوض.

والجملة تعليل للأمر بالتوكل على الله إشعارا بأنّه على الحق.

{ **إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ** } [80].

استئناف بياني جوابا عمّا يخطر في بال السامع عقب قوله تعالى { إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ } من التساؤل عن إعراض أهل الشرك لما عليه الرسول من الحق المبين. وهو أيضا تعليل آخر للأمر بالتوكّل على الله بالنظر إلى مدلوله الكنائي. وهذا عذر للرسول صلى الله عليه وسلم وتسلية له.

الإسماع: إبلاغ الكلام إلى المسامع.

{ **الْمَوْتَى / الصُّمَّ** } مستعاران للقوم الذين لا يقبلون القول الحق ويكابرون. شُبِّهوا بالموتى على طريقة الاستعارة في انتفاء فهمهم معاني القرآن، وشُبِّهوا بالصمّ كذلك في انتفاء أثر بلاغة ألفاظه عن نفوسهم.

وللقرآن أثران:

<u>أثر عقلي</u>: ما يشتمل عليه من المعاني المقبولة لدى أهل العقول السليمة، وهي المعاني التي يدركها ويُسْلم لها من تبلغ إليه ولو بطريقة الترجمة بحيث يستوي في إدراكها العربي والعجمي.

<u>أثر لفظي</u>: دلالة نظمه وبلاغته على أنّه خارج عن مقدرة البلغاء العرب. وهو دليل الإعجاز، وهو خاص بالعرب مباشرة، وحاصل لغيرهم من أهل النظر والتأمّل إذا تدبّروا في عجز البلغاء من أهل اللسان الذي جاء به القرآن، فهؤلاء يوقنون بأنّ عجز بلغاء أهل ذلك اللسان على معارضته دال على أنّه فوق مقدرتهم. فالمشركون شُبّهوا بالموتى بالنظر إلى الأثر الأول، وشُبّهوا بالصم بالنظر إلى الأثر الثاني.

واستدلت السيدة عائشة رضي الله عنها بهذه الآية على ردّ ظاهر حديث ابن عمر: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف على قليب بدر وفيه قتلى المشركين فناداهم بأسمائهم وقال: **" هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا "**، قال ابن عمر: فقيل له: يا رسول الله أتنادي أمواتا فقال: **" إنّهم الآن يسمعون ما أقول لهم"**. فقالت عائشة: إنّما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: إنّهم الآن ليعلمون أنّ الذي كنت أقول لهم هو الحق ثم قرأت قوله تعالى { إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى }.

وهذا من الاستدلال بظاهر الدلالة من القرآن ولو باحتمال مرجوح، كما بيّنّاه في المقدمة التاسعة، وإلّا فإنّ الموتى هنا استعارة وليس بحقيقة.

{ **إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ** } الضميران عائدان إلى الصمّ، وهو تتميم للتشبيه حيث شُبِّهوا في عدم بلوغ الأقوال إلى عقولهم بصمٍّ ولوا مدبرين.

{ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ } [81].

كُرِّر تشبيه المشركين في إعراضهم عن الحق بأنّ شُبّهوا في ذلك بالعُمي بعد أن شُبّهوا بالموتى وبالصم، على طريقة الاستعارة إطنابا في تشنيع حالهم الموصوفة.

وحسَّن هذا التكرير هنا ما بين التشبيهين من الفروق مع اتحاد الغاية، فإنّهم شُبّهوا بالموتى في انتفاء إدراك المعاني الذي يتمتع به العقلاء، وبالصمّ في انتفاء إدراك بلاغة الكلام الذي يضطلع به بلغاء العرب. وشُبّهوا ثالثا بالعُمي في انتفاء التمييز بين طريق الهدى وطريق الضلال من حيث إنّهم لم يتّبعوا هدي دين الإسلام.

الهدى: الدلالة على طريق السائر بأن يصفه له. والذي يسلك بالقوافل مسالك الطريق يُسمَّى هاديا. والتوصّل إلى معرفة الطريق يُسمّى اهتداء.

{ **عَنْ ضَلالَتِهِمْ** } مستعارة لعدم إدراك الحق تبعا للاستعارة المكنية، وأطلقت هنا على عدم الاهتداء للطريق.

وضُمِّن { بِهَادِي } معنى صارف. فصار المعنى: ما أنّت بصارفهم عن ضلالتهم.

وسُلّط النفي هنا على جملة اسمية للدلالة على ثبات النفي. وأكِّد ذلك الثبات بالباء المزيدة لتأكيد النفي.

وهذا كقوله تعالى { إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ } [القصص:56].

{ **إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ** } استئناف بياني لترقّب السامع معرفة من يهتدون بالقرآن. والإسماع مستعمل في معناه المجازي كما تقدّم.

{ **مَنْ يُؤْمِنُ** } أوثر التعبير بالمضارع ليشمل من آمنوا من قبل فيفيد استمرار إيمانهم ويشمل من يلحقهم.

{ **فَهُمْ مُسْلِمُونَ** } تفريع مفيد للدوام والثبات، لأنّهم إذا آمنوا فقد صار الإسلام راسخا فيهم ومتمكّنا منهم.

{ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ} [82].

انتقال إلى التذكير بالقيامة وما اُدُّخر لهم من الوعيد. فهذه الجملة معطوفة على الجمل قبلها عطف قصة على قصة. ومناسبة ذكرها ما تقدّم من قوله تعالى { إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى - إلى قوله - عَنْ ضَلالَتِهِمْ } [81/80]. والضمير عائد إلى الموتى والصم والعُمي، وهم المشركون.

{ **الْقَوْلُ** } أريد به أخبار الوعيد التي كذّبوها متهكّمين باستبطاء وقوعها بقولهم { مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ } [يونس:48]، فالتعريف فيه للعهد يفسّره المقام.

الوقوع: مستعار لحلول وقته وذلك من وقت تهيّؤ العالم للفناء إلى انتهاء الحساب. والآية تشير إلى شيء من أشراط الساعة، وهو من خوارق العادات.

{ **وَقَعَ** } صيغة الماضي لتقريب زمن الحال من المُضي، أي: أشرف وقوعه.

{ **دَابَّةً** } اسم للحي من غير الإنسان، مشتقّ من الدبيب، وهو المشي على الأرض، وهو من خصائص الأحياء. وتقدم الكلام عنها في [الأنعام: 38]. وقد رويت في وصف هذه الدابة ووقت خروجها ومكانه أخبار مضطربة ضعيفة الأسانيد لا طائل في جلبها ونقدها.

وإخراج الدابة من الأرض ليريهم كيف يحي الله الموتى إذ كانوا قد أنكروا البعث. ولا شك أن كلامها لهم خطاب لهم بحلول الحشر. وإنّما خلق الله الكلام لهم على لسان دابة تحقيرا لهم وتنديما على إعراضهم عن قبول أبلغ كلام وأوقعه من أشرف إنسان وأفصحه، ليكون لهم خزيا في آخر الدهر يُعيَّرون به في المحشر. فيقال: هؤلاء الذين أعرضوا عن كلام رسول كريم فخوطبوا على لسان حيوان بهيم.

{ **أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآياتِنَا لَا يُوقِنُونَ** } تعليل لإظهار هذا الخارق للعادة حيث لم يوقن المشركون بآيات القرآن فجعل ذلك إلجاء لهم حين لا ينفعهم. وهو تسجيل توبيخ وتنديم لأنّهم حينئذ قد وقع القول عليهم { لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ } [الأنعام:158].

{ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ [83] حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآياتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [84] }.

هذا حشر خاص بعد حشر جميع الخلق المذكور في قوله تعالى بعد هذا { وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ } [87]، وهو في معنى قوله تعالى { وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ } [يس:59]، فيُحشر من كلّ أمّة مكذّبو رسولها.

الفوج: الجماعة من الناس. وهذا الفوج هو زعماء المكذّبين وأئمتهم فيكونون في الرعيل الأوّل إلى العذاب. وهذا قول أبن عباس إذ قال: مثل أبي جهل والوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة يساقون بين يدي أهل مكة.

{ **مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ** } (من) هنا تبعيضية.

{ **مِمَّنْ يُكَذِّبُ** } (من) هنا بيانية، فيكون فوج كلّ أمّة.

{ **فَهُمْ يُوزَعُونَ** } تقدّم تفسيرها في قصة سليمان من هذه السورة. والمعنى هنا: أنّهم يُزجرون إغلاظا عليهم كما يُفعل بالأسرى.

{ **حَتَّى إِذَا جَاءُوا** } لم يذكر الموضع الذي جاؤوه لظهوره وهو مكان العذاب، أي: جهنم ، كما في قوله

تعالى { حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا } [فصلت: 20].

{ **قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآياتِي** } هو صدر الجملة في التقدير وما قبله مقدم للاهتمام.

{ **قَالَ** } التفات من التكلم إلى الغيبة، وهو صادر من جانب الله تعالى يسمعونه أو يبلّغهم إيّاه الملائكة.

والاستفهام يجوز أن يكون توبيخا مستعملا في لازمه وهو الإلجاء إلى الاعتراف بأنّ المستفهم عنه واقع منهم تبكيتا لهم. ويجوز أن يكون الاستفهام تقريرا.

{ **وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً** } في موضع الحال، أي: كذّبتم دون أن تحيطوا علما بدلالة الآيات.

{ **أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } استفهام واسم إشارة وهو بمعنى اسم الموصول إذا وقع بعد (مَا). كأنه قيل: ما الذي كنتم تعملون؟

{ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ } [85].

هو القول السابق في آية { وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ }، فإنّ ذلك القول مشتمل على حوادث كثيرة فكلّما تحقّق شيء منها فقد وقع القول.

{ **وَقَعَ** } التعبير بالماضي هنا على حقيقته، وأعيد ذكره تعظيما لهوله.

{ **بِمَا ظَلَمُوا** } بمعنى المصدر، والباء السببية، أي: بسبب ظلمهم.

الظلم: هنا الشرك وما يتبعه من الاعتداء على حقوق الله وحقوق المؤمنين، فكان ظلمهم سبب حلول الوعيد بهم، وفي الحديث: **" الظلم ظلمات يوم القيامة "**، فكلّ من ظلم سيقع عليه القول الموعود به الظالمون.

{ **فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ** } تفريع، أي: وقع عليهم وقوعا يمنعهم الكلام، أي: الاعتذار أو الإنكار، أي: فوجموا لوقوع ما وعِدوا به، قال تعالى { هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ } [المرسلات:36/35].

{ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [86].

هذا الكلام متصل بسابقه ذكّرهم بدلائل الوحدانية بذكر أظهر الآيات وأكثرهم تكرارا على حواسهم وأجدرها بأن تكون مقنعة في ارعوائهم عن شركهم وهي آية اختلاف الليل والنهار الدالة على انفراده تعالى بالتصرّف في هذا العالم، وفيها تذكير بتمثيل الموت والحياة بعده بسكون الليل وانبثاق النهار عقبه. والجملة معترضة بين جملة { وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ } [85] وجملة { وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ } [87] ليتخلل الوعيد بالاستدلال فتكون الدعوة إلى الحق بالإرهاب تارة واستدعاء النظر تارة أخرى.

{ **أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً** } الاستفهام مستعمل كناية عن التعجيب من حالهم لأنّها لغرابتها تستلزم سؤال من يسأل عن عدم رؤيتهم. أي: كيف لم يعلموا أنّا جعلنا الليل ليسكنوا فيه

والنهار مبصرا مع أنّ ذلك واضح الدلالة على هذا الجعل؟

الرؤية: يجوز أن تكون قلبية، ويجوز أن تكون الرؤية بصرية.

والمعنى: كيف لم يبصروا جعل الليل للسكون والنهار للإبصار مع أنّ ذلك بمرأى من أبصارهم؟

المُبصر: اسم فاعل أبصر بمعنى رأى. ووصف النهار بأنّه مُبصر من قبيل المجاز العقلي لأنّ نور النهار سبب الإبصار.

{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } تعليل للتعجّب من حالهم إذ لم يستدلّوا باختلاف الليل والنهار على الوحدانية ولا على البعث.

{ لَآياتٍ } وجه كون الآيات في ذلك كثيرة، كما اقتضاه الجمع، هو أنّ في نظام الليل آيات على الانفراد بخلق الشمس وخلق نورها الخارق للظلمات، وخلق الأرض، وخلق نظام دورانها اليومي تجاه أشعة الشمس، وفي خلق طبع الإنسان بأن يتلقى الظلمة بطلب السكون لما يعتري الأعصاب من الفتور دون بعض الدواب التي تنشط في الليل كالهوام والخفافيش، وفي ذلك أيضا دلالة على تعاقب الموت والحياة، فتلك آيات وفي كلّ آية منها دقائق ونظُم عظيمة.

وفي جعل النهار مبصرا آيات كثيرة على الوحدانية ودقة الصنع تقابل ما تقدّم في آيات جعل الليل سكنا.

{ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } لناس شأنهم الإيمان والاعتراف بالحجّة، ولذلك جُعل الإيمان صفة جارية على (قوم) لما قلناه غير مرة من أن إناطة الحكم بلفظ (قوم) يومئ إلى أنّ ذلك الحكم متمكّن منهم حتّى كأنّه من مقوّماتهم.

وجيء بصيغة المضارع لأنّ الإيمان مرجو منهم، إذ ليس المقصود أنّ في ذلك آيات للذين آمنوا لأنّ ذلك حاصل بالفحوى والأولوية، فصار المعنى: أنّ في ذلك لآيات للمؤمنين ولمن يُرجى منهم الإيمان عند النظر في الأدلة. وقريب منه قوله تعالى { إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ } [التكوير:28/27]. ولهذا خولف بين ما هنا وبين ما في قوله تعالى { هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ } [يونس:67]، لأنّ آية يونس مسوقة مساق الاستدلال والامتنان فخاطب بها جميع الناس من مؤمن وكافر فجاءت بصيغة الخطاب، وجُعلت دلالتها لكلّ من يسمع أدلّة القرآن، فمنهم مهتد وضال، ولذلك جيء فيها بفعل { يَسْمَعُونَ } المؤذن بالامتثال والإقبال على طلب الهدى.

وأمّا هذه الآية فمسوقة مساق التعجيب والتوبيخ فجُعل ما فيها آيات لمن الإيمان من شأنهم ليفيد بمفهومهم أنّه لا تحصل منه دلالة لمن ليس من شأنهم الإنصاف والاعتراف ولذلك أوثر فيه فعل { يُؤْمِنُونَ }.

{ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ } [87].

عطف على { وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً } [83] عاد به السياق إلى الموعظة والوعيد، فإنّهم لما ذُكّروا بيوم الحشر إلى النار ذُكّروا أيضا بما قبل ذلك، وهو يوم النفخ في الصور تسجيلا عليهم بإثبات وقوع البعث وإنذارا بما يعقبه ممّا دلّ عليه قوله تعالى { أَتَوْهُ دَاخِرِينَ }.

النفخ في الصور: تقدّم في قوله تعالى { وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ } [الأنعام:73]، وهو تقريب لكيفية صدور الأمر التكويني لإحياء الأموات، وهو النفخة الثانية المذكورة في قوله تعالى { ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ } [الزمر:68]، وذلك هو يوم الحساب.

وأمّا النفخة الأولى فهي نفخة يُعنى بها الإحياء، أي: نفخ الأرواح في أجسامها، وهي ساعة انقضاء الحياة الدنيا، فهم يصعقون.

{ **فَفَزِعَ** } هو الخوف من عاقبة الحساب، فكلّ أحد يخشى أن يكون معذّبا. وجيء بصيغة الماضي، مع أنّ النفخ مستقبل، للإشعار بتحقّق الفزع وأنّه واقع لا محالة كقوله تعالى { أَتَى أَمْرُ اللَّهِ } [النحل:1]، فصيغة الماضي كناية عن التحقّق، وقرينة الاستقبال ظاهرة من المضارع في قوله { يُنْفَخُ }.

{ **إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ** } الاستثناء مجمل يبيّنه قوله تعالى بعد { مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ } [89]، وقوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى - إلى قوله - لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ } [الأنبياء:101-103].

وأمّا من استثنى الله بأنّه شاء أن لا يفزعوا فهم لا يرهق وجوههم قتر ولا ذلّة، وذلك بأن يبادرهم الملائكة بالبشارة. قال تعالى { وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ } [الأنبياء:103]، وقال تعالى { لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ } [يونس:64].

{ **أَتَوْهُ** } ضمير الغيبة الظاهر عائد إلى اسم الجلالة، والإتيان إلى الله الإحضار في مكان قضائه.

ويجوز أن يعود الضمير على { يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ }.

الداخرون: الصاغرون. أي: الأذلّاء، يقال: دَخِرَ بوزن فرح. والمصدر الدَّخْرُ بالتحريك والدُّخُور.

{ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ } [88].

الجملة وقعت موقع الجملة المعترضة بين المُجْمل وبيانه من قوله تعالى { فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ - إلى قوله - مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ } [87-89] بأن يكون من تخلّل دليل على دقيق صنع الله تعالى في أثناء الإنذار والوعيد.

فإنّ الناس كانوا يحسبون أنّ الشمس تدور حول الأرض فينشأ من دورانها نظام الليل والنهار، ويحسبون الأرض ساكنة. واهتدى بعض علماء اليونان أن الأرض هي التي تدور حول الشمس في كل يوم وليلة دورة تتكون منها ظلمة نصف الكرة الأرضية تقريبا وضياء النصف الآخر وذلك ما يعبّر عنه بالليل والنهار.

والقرآن يدمج في ضمن دلائله الجمّة وعقب دليل تكوين النور والظلمة دليلا **رمز إليه رمزا**: هو دوران الأرض. وإنّما ناط دلالة تحرك الأرض بتحرّك الجبال منها لأنّ الجبال هي الأجزاء الناتئة من الكرة الأرضية. ولهذا الاعتبار غير أسلوب الاستدلال الذي في قوله تعالى { أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ } [86] فجُعل هنا بطريق الخطاب { وَتَرَى الْجِبَالَ }.

وهذا التأويل للآية هو الذي يساعد قوله تعالى { وَتَرَى الْجِبَالَ } المقتضي أنّ الرائي يراها في هيئة الساكنة.

الجامدة: الساكنة، قاله أبن عباس. وفي الكشاف: الجامدة من جمد في مكانه إذا لم يبرح، يعني أنّه جمود مجازي، كثر استعمال هذا المجاز حتى ساوى الحقيقة.

{ **وهي تَمُرُّ** } أي: مرا واضحا لكنّه لا يبين من أوّل وهلة.

{ **مَرَّ السَّحَابِ** } مصدر مُبيّن لنوع مرور الجبال، أي: مرورا تنتقل به من جهة إلى جهة أخرى مع أنّ الرائي يخالها ثابتة في مكانها كما يخال ناظر السحاب الذي يعم الأفق أنّه مستقر وهو ينتقل. وبهذا تعلم أن المَرَّ غير السير الذي في قوله تعالى { وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً } [الكهف:47]، فإنّ ذلك في وقت اختلال نظام العالم الأرضي.

{ **صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ** } المقتضي أنّه اعتبار بحالة نظامها المألوف لا بحالة انخرام النظام لأنّ خرم النظام لا يناسب وصفه بالصنع المتقن ولكنّه يوصف بالأمر العظيم أو نحو ذلك من أحوال الآخرة التي لا تدخل تحت التصوّر. وهذا تمجيد لهذا النظام العجيب إذ تتحرك الأجسام العظيمة مسافات شاسعة والناس يحسبونها ثابتة.

الصنع: قال الراغب: إجادة الفعل فكلّ صنع فعل وليس كلّ فعل صنعا، قال تعالى { وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ } [هود:38]، وقال تعالى { وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ } [الأنبياء: 80]. فالصنع إذا أطلق انصرف للعمل الجيّد النافع وإذا أريد غير ذلك وجب تقييده على أنّه قليل أو تهكّم أو مشاكلة.

واعلم أنّ الصنع يطلق على العلم المتقن في الخير أو الشر قال تعالى { تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ } [طه:69].

{ **إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ** } تذييل أو اعتراض في آخر الكلام للتذكير والوعظ والتحذير لأنّ إتقان الصنع أثر من آثار سعة العلم فالذي بعلمه أتقن كلّ شيء هو خبير بما يفعل الخلق فليحذروا أن يخالفوا عن أمره.

{ **مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ** [89] **وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** [90] }.

هذه الجملة بيان ناشئ عن قوله تعالى { فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ } [87] لأنّ الفزع مقتضٍ الحشر والحضور للحساب.

والمجيء مستعمل في حقيقته. والباء في { بِالْحَسَنَةِ / بِالسَّيِّئَةِ } للمصاحبة المجازية، ومعناها: أنّه ذو الحسنة أو ذو السيئة. فالمعنى هنا: من يجيء يومئذ وهو من فاعلي الحسنة ومن جاء وهو من أهل السيئة.

{ **فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا** } اسم تفضيل اتصلت به (مِنْ) التفضيلية، أي: فله جزاء خير من حسنة واحدة لقوله تعالى { فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا } [الأنعام:160]، أو خير منها شرفا لأنّ الحسنة من فعل العبد والجزاء عليها من عطاء الله.

{ **وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ** } تبيين قوله تعالى آنفا { إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ } [87]، وهؤلاء هم أهل الحسنات.

{ **وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ** } أي: غلبت سيئاتهم وغطت على حسناتهم أو تمحّضوا للسيئات بأن كانوا غير مؤمنين أو كانوا من المؤمنين أهل الجرائم والشقاء.

وبين أهل هاتين الحالتين أصناف كثيرة في درجات الثواب ودرجات العقاب.

الكَبُّ: جعل ظاهر الشيء إلى الأرض. وعُدّي الكب في هذه الآية إلى الوجوه دون بقية الجسد، وإن كان الكب لجميع الجسم، لأنّ الوجوه أوّل ما يُقلب إلى الأرض عند الكبّ.

{ **هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } تذييل للزواجر المتقدّمة، فالخطاب للمشركين الذين يسمعون القرآن على طريقة الالتفات من الغيبة بذكر الأسماء الظاهرة وهي من قبيل الغائب. ومقتضى الظاهر أن يقال: هل يجزون إلّا ما كانوا يعملون. فكانت هذه الجملة كالتلخيص لما تقدّم وهو أنّ الجزاء على حسب عقائدهم وأعمالهم وما العقيدة إلّا عمل القلب فلذلك وُجّه الخطاب إليهم بالمواجهة.

{ **إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** [91] **وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ** [92] }.

تثبيت وتطمين للرسول صلى الله عليه وسلم بأنّه أرضى ربه بأداء أمانة التبليغ وذلك بأن أمر الرسول عليها الصلاة والسلام أن يقول لهم هذا الكلام. والجملة مقول قول محذوف.

{ **إِنَّمَا أُمِرْتُ** } افتتاح الكلام بأداة الحصر لإفادة حصر إضافي باعتبار ما تضمّنته محاوراتهم السابقة من

طلب تعجيل الوعيد، وما تطاولوا به من إنكار الحشر.

المعنى: ما أمرت بشيء ممّا تبتغون، من تعيين أجل الوعيد ولا من اقتلاع إحالة البعث من نفوسكم ولا بما سوى ذلك إلّا بأن أَثبُت على عبادة ربٍّ واحد وأن أكون مسلما وأن أتلو القرآن عليكم، ففيه البراهين الساطعة والدلالات القاطعة، فمن اهتدى فلا يمنّ علي اهتداءه وإنّما نفع به نفسه، ومن ضلّ فما أنا بقادر على اهتدائه، ولكنّي منذره كما أنذرت الرسل أقوامها فلم يملكوا لهم هديا حتّى أهلك الله الضالين. وهذا في معنى قوله تعالى { فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ } [آل عمران:20].

{ **رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا** } تنويه بشأن مكة وتعريض بكفرهم بالذي أسكنهم بها وحرَّمها فانتفعوا بتحريمها، وأشعرهم بأنّهم لا يملكون تلك البلدة. وقد كاشفهم الله سابقا بما تكنّه صدورهم من خواطر إخراج الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من مكة وذلك من جملة ما اقتضاه قوله تعالى { وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ } [74].

{ **هَذِهِ الْبَلْدَةِ** } الإشارة إلى البلدة التي هم بها لأنّها حاضرة لديهم بحضور ما هو باد منها للأنظار.

والعدول عن ذكر مكة باسمها العلم إلى طريقة الإشارة لما تقتضيه الإشارة من التعظيم.

{ **الَّذِي حَرَّمَهَا** } أجرى على الله صلة (حرَّم) تلك البلدة، دون أن يكون الموصول للبلدة، فلذا لم يقل: التي حرّمها الله، لما تتضمّنه الصلة من التذكير بالنعمة عليهم ومن التعريض بظلالهم إذ عبدوا أصناما لا تملك من البلدة شيئا ولا أكسبتها فضلا ومزية، وهذا كقوله تعالى { فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ } [قريش:3].

{ **حَرَّمَهَا** } جعلها حراما، والحرام الممنوع، والتحريم المنع. ويُعلم متعلّق المنع بسياق ما يناسب الشيء الممنوع. فالمراد من تحريم البلدة تحريم أن يدخل فيها ما يضاد صلاحها وصلاح ما بها. فيدخل في ذلك منع غزو أهلها والاعتداء عليهم وظلمهم وإخافتهم، ومنع صيدها وقطع شجرها على حدود معلومة. وهذا التحريم استجابة لدعوة إبراهيم إذ قال { رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً } [البقرة:126].

التحريم : يكون كمالا للمحرَّم ويكون نقصا على اختلاف اعتبار سبب التحريم وصفته:

فتحريم الزمان والمكان مزية وتفضيل، فتحريم المكان: منع ما يضرّ بالحال فيه. وتحريم الزمان، كتحريم الأشهر الحرم: منع ما فيه ضرّ للموجودين فيه.

وتحريم الفواحش والميتة والدم والخمر تحقير لها.

والمحرّمات للنسل والرضاع والصهر زيادة في الحرمة.

{ **وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ** } تعقيب للاحتراس لئلّا يُتوهّم من إضافة ربوبيته إلى البلدة اقتصار مُلكه عليها ليُعلم أن تلك الإضافة لتشريف المضاف إليه لا لتعريف المضاف بتعيين مظهر مُلكه.

{ **وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** } تكرير (أمرت) للإشارة إلى الاختلاف بين الأمرين، فإنّ الأوّل أمر يعلمه في خاصة نفسه، وهو أمر إلهام، إذ عصمه الله من عبادة الأصنام من قبل الرسالة. والأمر الثاني أمر يقتضي الرسالة وقد شمل دعوة الخلق إلى التوحيد. ولهذه النكتة لم يكرّر أمرت في قوله { وأن أتلوا

القرآن } لأنّ كلًّا من الإسلام والتلاوة من شؤون الرسالة.

{ **أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** } تنويه بهذه الأمّة إذ جعل الله رسوله آحادها، وذلك نكتة من العدول عن أن يقول: أن أكون مسلما.

التلاوة: قراءة كلام معيّن على الناس، وتقدم في قوله تعالى { الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ } [البقرة:121]، وقوله تعالى { وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ } [البقرة:102].

وحذف متعلق التلاوة لظهوره، أي: أن أتلوا القرآن على الناس.

{ **فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ** } فُرّع على التلاوة ما يقتضي انقسام الناس إلى مهتد وضال، أي: منتفع بتلاوة القرآن عليه وغير منتفع، مبيّنا أنّ من اهتدى فإنّما كان اهتداؤه لفائدة نفسه. وهذا زيادة في تحريض السامعين على الاهتداء بهدي القرآن لأنّ فيه نفعهم.

المنذِرين: الرسل، أي: إنّما أنا واحد من الرسل، ما كنت بدعا منهم، وسنّتي سنّة من أرسل قبلي وهي التبليغ { فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ } [النحل:35].

{ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } [93].

كان ما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقول للمعاندين مشتملا على أنّ الله هداه للدين الحقّ من التوحيد وشرائع الإسلام، وأنّ هدى به الناس بما أنزل عليه من القرآن المتلو، وأنّه جعله في عداد الرسل المنذِرين، فكان ذلك من أعظم النعم عليه في الدنيا وأبشرها بأعظم درجة في الآخرة، من أجل ذلك أمر بأن يحمد الله بالكلمة التي حمد الله بها نفسه وهي كلمة { **الْحَمْدُ لِلَّهِ** } الجامعة لمعان من المحامد تقدّم بيانها في الفاتحة.

وقد تقدم الكلام على قوله تعالى { قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى } [59].

{ **سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** } استأنف بالاحتراس ممّا يتوهّمه المعاندون حين يسمعون آيات التبرّؤ من معرفة الغيب، وقصر مقام الرسالة على الدعوة إلى الحق من أن يكون في ذلك نقض للوعيد بالعذاب فختم الكلام بتحقيق أنّ الوعيد قريب لا محالة وأنّ الله لا يُخلف وعده فتظهر لهم دلائل صدق الله في وعده.

{ **آيَاتِهِ** } عُبّر عن الوعيد بالآيات للدلالة على أنّهم سيحلّ بهم ما فيه تصديق لما أخبرهم به الرسول.

{ **سَيُرِيكُمْ** } السين تؤذن بأنها إراءة قريبة، فالآيات حاصلة في الدنيا مثل الدخان، وانشقاق القمر، واستئصال صناديدهم يوم بدر، ومعرفتهم إيّاها تحصل عقب حصولها ولو في وقت النزع والغرغرة.

{ **وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** } قرأه نافع وابن عامر وحفص وأبو جعفر ويعقوب { تَعْمَلُون } بتاء الخطاب فيكون ذلك من تمام ما أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بأن يقوله للمشركين. وفيه زيادة إنذار بأنّ أعمالهم تستوجب ما سيرونه من الآيات. وقرأ الباقون { يَعْمَلُونَ } بياء الغيبة فهو عطف على { قُلْ }

والمقصود تسلية الرسول عليه السلام.

{ **بِغَافِلٍ** } نفي الغفلة عن الله مستعمل في التعريض بأنّه منهم بالمرصاد لا يغادر لهم من عملهم شيئا.

وقد جاءت خاتمة جامعة بالغة أقصى حد من بلاغة حسن الختام.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة القَصَص

سُمِّيت (**سورة القَصَص**) ولا يُعرف لها اسم آخر. ووجه التسمية بذلك وقوع لفظ { الْقَصَصُ } فيها عند قوله تعالى { فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ } [25]. والقصص الذي أضيفت إليه السورة هو قصص موسى الذي قصَّه على شعيب عليهما السلام فيما لقيه في مصر قبل خروجه منها.

وجاء لفظ { الْقَصَصُ } في [يوسف:3] ولكن سورة يوسف نزلت بعد هذه السورة.

وهي مكيّة في قول جمهور التابعين. وفيها آية { إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ } [85]. قيل: نزلت على النبيّ صلى الله عليه وسلم في (الجُحفة) في طريقه إلى المدينة للهجرة تسلية له على مفارقة بلده. وهذا لا يناكد أنّها مكية لأنّ المراد بالمكي ما نزل قبل حلول النبيّ صلى الله عليه وسلم بالمدينة، كما أنّ المراد بالمدني ما نزل بعد ذلك ولو كان نزوله بمكة.

وعن مقاتل وأبن عباس أنّ قوله تعالى { الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ - إلى قوله - سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ } [52-55] نزل بالمدينة.

وهي السورة **التاسعة والأربعون** في عداد نزول سور القرآن، نزلت بعد سورة النمل وقبل سورة الإسراء، وهي متماثلة في افتتاح ثلاثتها بذكر موسى عليه السلام.

وهي **ثمان وثمانون آية** باتفاق العادين.

أغراض السورة

*/ التنويه بشأن القرآن والتعريض بأنّ بلغاء المشركين عاجزون عن الإتيان بمثله.

*/ تفصيل ما أجمل في [الشعراء19/18] من قول فرعون لموسى { قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً - إلى قوله - وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ } ففصَّلت سورة القصص كيف كانت تربية موسى في آل فرعون.

*/ بيَّن فيها سبب زوال ملك فرعون.

*/ تفصيل ما أجمل في [النمل:7] من قوله تعالى { إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً } ففصَّلت سورة القصص كيف سار موسى وأهله وأين آنس النار، ووصف المكان الذي نودي فيه بالوحي إلى أن ذكرت دعوة موسى فرعون، فكانت هذه السورة أوعب لأحوال نشأة موسى إلى وقت إبلاغه الدعوة ثم أجملت ما بعد ذلك لأنّ تفصيله في سورة الأعراف وفي سورة الشعراء. والمقصود من التفصيل زيادة المواعظ والعبر.

*/ تنبيه المشركين وتحذيرهم من سوء عاقبة الشرك، وأنذرهم إنذارا بليغا، وفند قولهم { لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى } [48] من الخوارق كقلب العصا حية.

*/ تحدّاهم بإعجاز القرآن وهديه مع هدي التوراة.

*/ أبطل معاذيرهم ثم أنذرهم بما حلّ بالأمم المكذّبة رسل الله.

*/ ساق لهم أدلة على وحدانية الله تعالى وفيها كلّها نعم عليهم، وذكّرهم بما سيحل بهم يوم الجزاء.

*/ أنحى عليهم في اعتزازهم على المسلمين بقوّتهم ونعمتهم ومالهم بأنّ ذلك متاع الدنيا وأنّ ما ادُّخر للمسلمين عند الله خير وأبقى.

*/ أعقبه بضرب المثل لهم بحال قارون في قوم موسى. وتخلّص من ذلك إلى التذكير بأنّ أمثال أولئك لا يحظون بنعيم الآخرة وأنّ العاقبة للمتقين.

*/ تخلّل ذلك إيماء إلى اقتراب مهاجرة المسلمين إلى المدينة، وإيماء إلى أنّ الله مظهرهم على المشركين.

*/ ختم الكلام بتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم وتثبيته ووعده بأنّه يجعل بلده في قبضته.

ويقرب عندي أن يكون المسلمون ودّوا أن تُفصَّل لهم قصة رسالة موسى عليه السلام فكان المقصود انتفاعهم بما في تفاصيلها من معرفة نافعة لهم تنظيرا لحالهم وحال أعدائهم. فالمقصود ابتداءً هم المسلمون ولذلك قال تعالى في أوّلها { نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [3]، أي: للمؤمنين.

{ **طسم** } [1]

تقدّم القول في نظيره في فاتحة سورة الشعراء.

{ **تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ** [2] **نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** [3]}.

{ **تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ** } الإشارة على نحو الإشارة في نظيره في سورة الشعراء. فالمشار إليه ما هو مقروء يوم نزول هذه الآية من القرآن تنويها بشأن القرآن.

{ **نَتْلُو عَلَيْكَ** } للتشويق لهذا النبأ لما فيه من شتّى العبر بعظيم تصرّف الله في خلقه. والمفعول محذوف دلّ عليه صفته وهي { مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ }. فالتقدير: نتلو عليك كلاما من نبأ موسى وفرعون.

التلاوة: القراءة لكلام مكتوب أو محفوظ كما قال تعالى { وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ } [النمل:92]، وهو يتعدّى إلى من تُبلّغ إليه التلاوة بحرف (على)، وتقدّمت عند قوله تعالى { وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ } [البقرة:102]. وإسناد التلاوة إلى الله إسناد مجازي لأنّه الذي يأمر بتلاوة ما يوحى إليه من الكلام والذي يتلو حقيقة هو جبريل بأمر من الله، وهذا كقوله تعالى { تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ } [البقرة:202].

{ **عَلَيْكَ** } جعلت التلاوة على النبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّه الذي يتلقى ذلك المتلو.

{ **مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ** } النبأ الخبر المهم العظيم. و(من) تبعيضية، فإنّ المتلو في هذه السورة بعض قصة موسى وفرعون. ألا ترى أنّه لم تذكر هنا آية الطوفان والجراد.

{ **بِالْحَقِّ** } الباء للملابسة، وهو حال من ضمير { نَتْلُو }، أو صفة للتلاوة.

الحق: الصدق، لأنّ الصدق حقٌّ، إذ الحق هو ما يحقُّ له أن يثبت عند أهل العقول السليمة والأديان القويمة.

{ **لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** } لام التعليل، أي: نتلو عليك لأجل قوم يؤمنون، فكانت الغاية من تلاوة النبأ على النبيّ صلى الله عليه وسلم هي أن ينتفع بذلك قوم يؤمنون، فالنبيّ يبلّغ ذلك للمؤمنين.

فإن كان فريق من المؤمنين سألوا أو تشوّفوا إلى تفصيل ما جاء من قصة موسى وفرعون في سورة الشعراء وسورة النمل **وهو الظاهر**، فتخصيصهم بالتعليل واضح وانتفاع النبيّ بذلك معهم أجدر وأقوى.

وإن لم يكن نزول هذه القصة عن تشوّف من المسلمين فتخصيص المؤمنين بالتلاوة لأجلهم تنويه بأنّهم الذين ينتفعون بالعبر والمواعظ لأنّهم بإيمانهم أصبحوا متطلّبين للعلم والحكمة متشوّفين لأمثال هذه القصص.

وحصول ازدياد العلم للنبيّ صلى الله عليه وسلم بذلك معلوم من كونه هو المتلقّي والمبلغ، وفي ذلك أيضا تثبيت فؤاده كما قال تعالى { وَكُلّاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ } [هود:120].

{ **لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** } قوم الإيمان شأنهم وسجيّتهم. وللإشارة إلى معنى تمكّن الإيمان من نفوسهم أجري

وصف الإيمان على كلمة { قَوْمٍ } ليفيد أنّ كونهم مؤمنين هو من مقوّمات قوميّتهم كما قدّمناه غير مرة.
وجيء بصيغة المضارع للدلالة على أنّ إيمانهم موجود في الحال ومستمر متجدّد.
وفي هذا إعراض عن المشركين في سوق هذه القصة بما يقصد فيها من العبرة والموعظة فإنّهم لم ينتفعوا بذلك وإنّما انتفع بها من آمن ومن سيؤمن بعد سماعها.

{ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ } [4].

بيان لجملة { نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ } [3]، فقُدّم له الإجمال للدلالة على أنّه نبأ له شأن عظيم بما فيه من شتّى العبر. وافتتاحها بحرف التوكيد للاهتمام.

{ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ } ابتدأت القصة بذكر أسبابها لتكون عبرة للمؤمنين يتخذون منها سُننا يعلمون بها علل الأشياء ومعلولاتها، ويسيرون في شؤونهم على طرائقها، فلولا تجبّر فرعون، وهو من قبيح الخلال، ما حلّ به وبقومه الاستئصال.

صُوِّرت عظمة فرعون في الدنيا بقوله تعالى { عَلا فِي الْأَرْضِ } لتكون العبرة بهلاكه أكبر العبر.

العلوّ: هنا الكبر، وهو المذموم، من العلوّ المعنوي كالذي في قوله تعالى { نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ } [83]. ومعناه أن يستشعر المرء نفسه عاليا على موضع غيره، ليس يساويه أحد. فإذا استشعر ذلك لم يعبأ في تصرّفاته برعي صلاح وتجنّب فساد وضرّ، وإنّما يتّبع ما تحدوه إليه شهوته وإرضاء هواه. وحسبك أنّ فرعون كان يجعل نفسه إلها وأنّه ابن الشمس.

فرعون: هو رمسيس الثاني وهو الملك الثالث من ملوك العائلة التاسعة عشرة في اصطلاح المؤرخين للفراعنة، وكان فاتحا كبيرا شديد السطوة، وهو الذي وُلِد موسى عليه السلام في زمانه على التحقيق.

{ الْأَرْضِ } أرض مصر، فالتعريف فيها للعهد، لأنّ ذكر فرعون يجعلها معهودة عند السامع لأنّ فرعون اسم ملك مصر.

الشيع: جمع شيعة، وهي الجماعة التي تشايع فردا على ما يريد، أي: تتابعه وتطيعه وتنصره، كما قال تعالى { هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ } [15]، وأُطلق على الفرقة من الناس على سبيل التوسّع، قال تعالى { مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } [الروم: 32].

ومن البلاغة اختيار هذه اللفظة هنا ليدلّ على أنّه جعل أهل بلاد القبط فرقا ذات نزعات تتشيع كلّ فرقة إليه وتعادي الفرقة الأخرى ليتم له ضرب بعضهم ببعض. وهي سياسة لا تليق بولي أمر الأمّة الواحدة.
وكان رمسيس الثاني قسّم بلاد مصر إلى ست وثلاثين إيالة وأقام على كل إيالة أمراء نوّابا عنه ليتسنّى له ما حُكي عنه في هذه الآية.

{ **يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ** } حال من ضمير { جَعَلَ }. وضمير { مِنْهُمْ } عائد إلى أهلها لا إلى { شِيَعاً }. والطائفة المستضعفة هي طائفة بني إسرائيل.

{ **يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ** } بدل اشتمال، لأنّه ما فعل ذلك بهم إلّا لأنّه عدَّهم ضعفاء، أي: أذلّة، فكان يسومهم العذاب ويسخّرهم للأعمال الشاقة. وتقدّم الكلام على ذبح أبناء بني إسرائيل في [البقرة:49].

{ **إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ** } تعليل. والخبر بتلك الصيغة أدلّ على تمكّن الوصف مما لو قيل: كان فاسدا. وفعله هذا اشتمل على مفاسد عظيمة:

<u>المفسدة الأولى</u>: **التكبّر والتجبّر،** فإنّه مفسدة نفسية عظيمة تتولّد منها مفاسد جمّة من احتقار الناس والاستخفاف بحقوقهم وسوء معاشرتهم وبثّ عداوته فيهم، وسوء ظنّه بهم، فإذا انضمّ إلى ذلك أنّه ولي أمرهم وراعيهم كانت صفة الكبر مقتضية سوء رعايته لهم والاجتراء على دحض حقوقهم، وأن يرمقهم بعين الاحتقار فلا يعبأ بجلب الصالح لهم ودفع الضرّ عنهم، وأن يبتزّ منافعهم لنفسه ويسخّر من استطاع منهم لخدمة أغراضه، وأن لا يلين لهم في سياسة فيعاملهم بالغلظة، وفي ذلك بثّ الرعب في نفوسهم.

فهذه الصفة هي أمّ المفاسد وجماعها ولذلك قُدّمت على ما يُذكر بعدها ثم أعقبت بأنّه {كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ}.

<u>المفسدة الثانية</u>: أنّه **جعل أهل المملكة شيعا** وفرّقهم أقساما وجعل منهم شيعا مقربين منه وبعضهم بضدّ ذلك، وذلك فساد في الأمّة لأنّه يثير بين أفرادها التحاسد والتباغض، ويجعل بعضهم يتربّص الدوائر ببعض. وشأن الملك الصالح أن يجعل الرعيّة منه كلّها بمنزلة واحدة.

<u>المفسدة الثالثة</u>: أنّه **يستضعف طائفة** من أهل مملكته فيجعلها محقّرة مهضومة الجانب لا مساواة بينها وبين فرق أخرى ولا عدل في معاملتها.

والمراد بالطائفة المستضعفة: بنو إسرائيل وقد كانوا قطنوا في أرض مصر برضى ملكها في زمن يوسف وأعطوا أرض (جاسان) وعمروها وتكاثروا فيها ومضى عليهم فيها أربعمائة سنة، فكان لهم من الحقّ في أرض المملكة ما لسائر سكّانها فلم يكن من العدل جعلهم بمنزلة دون منازل غيرهم، وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى { طَائِفَةً مِنْهُمْ } إذ جعلها من أهل الأرض.

وأشار بقوله { طَائِفَةً } إلى أنّه استضعف فريقا كاملا، أي: أنّ الاستضعاف ليس جاريا على أشخاص معينين لأسباب تقضي استضعافهم، ككونهم ساعين بالفساد أو ليسوا أهلا للاعتداد بهم لانحطاط في أخلاقهم وأعمالهم، بل جرى استضعافهم على اعتبار العنصرية والقبلية، وذلك فساد.

<u>المفسدة الرابعة</u>: أنّه { **يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ** } أي: يأمر بذبحهم، فإسناد الذبح إليه مجاز عقلي.

والمراد بالأبناء: الذكور من الأطفال. وقد تقدّم ذكر ذلك في [البقرة:49]. وقصده من ذلك ألّا تكون لبني إسرائيل قوّة من رجال قبيلتهم حتّى يكون النفوذ في الأرض لقومه خاصة.

<u>المفسدة الخامسة</u>: أنّه **يستحيي النساء،** أي: يستبقي حياة الإناث من الأطفال، فأطلق عليهم اسم النساء

باعتبار المآل إيماء إلى أنّه يستحييهن ليصرن نساء فتصلحن لما تصلح له النساء وهو أن يصرن بغايا، إذ كان احتقارهنّ يصدّ قومه عن التزوّج بهن. وباعتبار هذا المقصد انقلب الاستحياء مفسدة.

{ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ [5] وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ [6] }.

بيان لنبأ موسى وفرعون، فإنّ إرادة الله الخير بالذين استضعفهم فرعون من تمام النبأ، وهو موقع عبرة عظيمة من عبر هذه القصة.

{ **وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ** } جيء بصيغة المضارع في حكاية إرادة مضت لاستحضار ذلك الوقت كأنّه في الحال، لأنّ المعنى أنّ فرعون يطغى عليهم والله يريد في ذلك الوقت إبطال عمله وجعلهم أمّة عظيمة.

المنّ: الإنعام، وجاء مضارعه مضموم العين على خلاف القياس.

{ **عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ** } هم الطائفة التي استضعفها فرعون. ونكتة إظهار الذين استضعفوا دون إيراد ضمير الطائفة للتنبيه على ما في الصلة من التعليل، فإنّ الله رحيم بعباده، وينصر المستضعفين المظلومين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا.

وخصّ بالذكر من المنّ أربعة أشياء عطفت على فعل { نَمُنَّ } عطف الخاص على العام وهي: جعلهم أئمة، وجعلهم الوارثين، والتمكين لهم في الأرض، وأن يكون زوال ملك فرعون على أيديهم، في نعم أخرى جمة، ذكر كثير منها في سورة البقرة.

{ **وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً** } بأن أخرجهم من ذلّ العبودية وجعلهم أمّة حرّة مالكة أمر نفسها لها شريعة عادلة وقانون معاملاتها، وقوّة تدفع بها أعداءها، ومملكة خالصة لها، وحضارة كاملة تفوق حضارة جيرتها، بحيث تصير قدوة للأمم في شؤون الكمال وطلب الهناء، فهذا معنى جعلهم أئمة، أي: يقتدي بهم غيرهم، ويدعون الناس إلى الخير، وناهيك بما بلغه ملك إسرائيل في عهد سليمان عليه السلام.

{ **وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ** } فهو أن يعطيهم الله ديار قوم آخرين ويحكّمهم فيهم، فالإرث مستعمل مجازًا في خلافة أمم أخرى. فإنّ الله أورثهم أرض (الكنعانيين والحثّيين والأموريين والأراميين)، وأحلّهم محلّهم على ما كانوا عليه من العظمة، حتّى عُرفوا بالجبابرة، قال تعالى { قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ } [المائدة: 22].

{ **وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ** } تثبيت سلطانهم فيما ملكوه منها، وهي أرض الشام. ويحتمل أن يكون المعنى تقويتهم بين أمم الأرض إن حمل التعريف على العهد.

التمكين: أصله الجعل في المكان، وقد تقدّم في قوله تعالى { إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ } [الكهف:84]، وتقدّم الكلام على اشتقاق التمكين وتصاريفه عند قوله تعالى { مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ } [الأنعام: 6].

{ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ } أن يكون زوال ملكهم بسبب رجل من بني إسرائيل حسبما أنذره بذلك الكُهّان. ومعنى إراءتهم ذلك إراءتهم مقدّماته وأسبابه.

فرعون: الذي أُري ذلك هو ملك مصر **منفتاح الثالث** وهو الذي حكم مصر بعد **رمسيس الثاني** الذي كانت ولادة موسى في زمانه، وهو الذي كان يحذر ظهور رجل من إسرائيل يكون له شأن.

{ هَامَانَ } قال المفسّرون: هو وزير فرعون. وظاهر آيات هذه السورة يقتضي ذلك. وأحسب أنّ هامان ليس باسم علم ولكنّه **لقب خطة** مثل فرعون وكسرى وقيصر ونجاشي. فالظاهر أنّ هامان لقب وزير الملك.

الجنود: جمع الجند. والجند اسم جمع لا واحد له من لفظه: هو الجماعة من الناس التي تجتمع على أمر تتبعه، فلذلك يطلق على العسكر لأنّ عملهم واحد وهو خدمة أميرهم وطاعته. ويطلق على الأمّة، قال تعالى { هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ } [البروج:18/17].

{ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ } [7].

تتضمّن هذه الجملة تفصيلا لمجمل قوله تعالى { وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا }، فإنّ الإرادة لمّا تعلّقت بإنقاذ بني إسرائيل من الذلّ خلق الله المنقذ لهم.

{ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى } وحي إلهام. أوجد عندها من انشراح الصدر ما يُحقّق لديها أنّه خاطر من الواردات الإلهية. فإنّ الإلهام الصادق يعرض للصالحين فيُوقع في نفوسهم يقينا ينبعثون به إلى عمل ما ألهموا إليه. وقد يكون هذا الوحي برؤيا صادقة رأتها.

أم موسى: لم يعرف اسمها في كتب اليهود، وذكر المفسّرون لها أسماء لا يُوثق بصحتها.

{ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ } تفسير لـ { أَوْحَيْنَا }. أي: أخفيه مدّة ترضعينه فيها، فإذا خفت عليه أن يُعرف خبره فألقيه في اليمّ. والظاهر أنّ هذا الوحي إليها كان عند ولادته وأنّها أمرت بأن تلقيه في اليم عند الضرورة، ثم ألقي في يقينها بأنّه لا بأس عليه.

وحكت كتب اليهود أنّ أم موسى خبّأته ثلاثة أشهر ثم خافت أن يفشو أمره فوضعته في سفط مقيَّر وقذفته في النهر. وقد بشرها الله بما يزيل همّها بأنه رادُّه إليها، وزاد على ذلك فبشّرها بما سيكون له من مقام كريم في الدنيا والآخرة { وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ }.

{ الْيَمِّ } في كلام العرب مرادف البحر، والبحر في كلامهم يطلق على الماء العظيم المستبحر، فالنهر العظيم يُسمَّى بحرا قال تعالى { وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ } [فاطر:12]، وهو هنا نهر النيل الذي كان يشقّ مدينة فرعون حيث منازل بني إسرائيل.

وقد كانت هذه الآية مثالا من أمثلة دقائق الإعجاز البياني، حيث جمع في آية واحدة خبرين، وأمرين، ونهيين، وبشارتين:

الخبران: هما { وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى } وقوله تعالى { فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ }.

الأمران: هما { أَرْضِعِيهِ } و{ ألقيه }.

النهيان: { وَلا تَخَافِي } و{ وَلا تَحْزَنِي }.

البشارتان: { إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ }.

الخوف: توقّع أمر مكروه. **الحزن**: حالة نفسية تنشأ من حادث مكروه للنفس كفوات أمر محبوب.

والمعنى: لا تخافي عليه الهلاك من الإلقاء في اليم، ولا تحزني على فراقه.

{ **إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ** } في موقع العلّة للنهيين لأنّ ضمان ردّه إليها يقتضي أنّه لا يهلك وأنه لا يغيب عنها طويلا.

{ **وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ** } إدخالٌ للمسرّة عليها.

{ **فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ**} [8].

الالتقاط: افتعال من اللقط، وهو تناول الشيء الملقى في الأرض ونحوها بقصد أو ذهول. أسند الالتقاط إلى آل فرعون لأنّ استخراج تابوت موسى من النهر كان من إحدى النساء الحافّات بابنة فرعون حين كانت مع أترابها ودāياتها على ساحل النيل [سفر الخروج، الإصحاح:2].

{ **لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً** } لام التعليل وهي المعروفة عند النحاة بلام (كي). والكلام استعارة لظهور أنّهم لم يكن داعيهم إلى التقاطه أن يكون لهم عدوا وحزنا ولكنّهم التقطوه رأفة به وحبا له لِما ألقي في نفوسهم من الشفقة عليه، ولكن لمّا كانت عاقبة التقاطهم إيّاه أن كان لهم عدوّا في الله وموجب حزن لهم شُبّهت العاقبة بالعلّة في كونها نتيجة للفعل، أي: استعير الحرف تبعا لاستعارة معناه فلذلك سُمِّيت استعارة تبعية.

{ **لَهُمْ** } ضمير يعود إلى آل فرعون، لأنّ موسى كان عدوّا لفرعون آخر بعد هذا، أي: عدوّا لدولتهم وأمّتهم.

{ **إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ** } في موضع العلّة لجملة { لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً } أي: قدَّر الله نجاة موسى ليكون لهم عدوّا وحزنا، لأنّهم كانوا مجرمين، فجعل الله ذلك عقابا لهم على ظلمهم بني إسرائيل وعلى عبادة الأصنام.

الخاطئ: اسم فاعل من خَطِئَ كفرح، إذا فعل الخطيئة وهي الإثم والذنب، قال تعالى { نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ } [العلق:16]. ومصدره الخِطْء (بكسر الخاء وسكون الطاء). وتقدّم في قوله { إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ

خِطْئاً كَبِيراً } [الإسراء:31]. وأمّا الخَطَأ وهو ضد العَمْد ففعله أخطأ فهو مخطئ، قال تعالى { وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ } [الأحزاب:5].

ويظهر أنّ أصلهما لغتان في معنى مخالفة الصواب عن غير عمد أو عن عمد، ثم غلب الاستعمال الفصيح على تخصيص أخطأ بفعل على غير عمد وخَطِئَ بالإجرام والذنب، وهذا الذي استقرّ عليه استعمال اللغة.

فأمّا محمل الآية هنا فلا يناسبه إلّا أن يكون { خَاطِئِينَ } من الخطيئة ليكون الكلام تعليلا.

{ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } [9].

يدّل الكلام على أنّ الذين انتشلوه جعلوه بين ايدي فرعون وامرأته فرقَّت له امرأة فرعون وصرفت فرعون عن قتله بعد أن همّ به لأنّه علم أنّ الطفل ليس من أبناء القبط بلون جلدته وملامح وجهه. فعلم أنّ وضعه في التابوت لقصد إنجائه من الذبح.

وكانت امرأة فرعون امرأة ملهَمة للخير وقدّر الله نجاة موسى بسببها. وقد قال تعالى في شأنها { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } [التحريم:11].

{ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ } سُمّيت آسية كما في الحديث المروي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلّا مريم ابنة عمران وآسية امرأة فرعون "**.

{ قُرَّتُ عَيْنٍ } خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هذا الطفل. وحذفه لأنّه دلّ عليه حضوره بين أيديهم.

قرّة العين: كناية عن السرور، وهي كناية ناشئة عن ضدّها وهو **سُخْنة العين** التي هي أثر البكاء اللازم للأسف والحزن، فلمّا كُنِّي عن الحزن بسُخنة العين في قولهم في الدعاء بالسوء: أسخن الله عينه، أتبعوا ذلك بأن كنُّوا عن السرور بضدّ هذه الكناية فقالوا: قُرّة عين، وأَقَرَّ الله عينه.

فحكى القرآن ما في لغة امرأة فرعون من دلالة على معنى المسرّة الحاصلة للنفس ببليغ ما كنّى به العرب عن ذلك وهو { قُرَّتُ عَيْنٍ }.

<u>ويجوز</u> أن يكون قسما كما يقال: أيمن الله. فإنّ العرب يقسمون بذلك، أي: أقسم بما تقَرّ به عيني.

{ لَا تَقْتُلُوهُ } ضمير الجمع الأحسن أن يراد به خطاب فرعون داخلا فيه أهل دولته، هامان والكهنة، الذين ألقوا في نفس فرعون الخوف من الفتى باعتباره من بني إسرائيل.

{ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً } في موقع العلّة لمضمون جملة { لَا تَقْتُلُوهُ } فاتصالها بها كاتصال جملة { قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ } بها، ولكن نظم الكلام قضى بهذا الترتيب البليغ بأن جعل الوازع الطبيعي عن القتل، وهو وازع المحبة، هو المقدّمة لأنّه أشدّ تعلقا بالنفس، فهو يشبه المعلوم البديهي. وجعل

الوازع العقلي بعد النهي لاحتياجه إلى الفكر.

تضمّن قولها إزالة ما خامر نفس فرعون من خشية فساد ملكه على يد فتى إسرائيلي بأنّ هذا الطفل لا يكون هو المخوف منه لأنّه لما انضم في أهلهم وسيكون ربيَّهم فإنّه يُرجى منه نفعهم وأن يكون لهم كالولد.

ولعلّ الله حقّق لامرأة فرعون رجاءها فكان موسى قرّة عين لها ولزوجها، فلمّا هلكا وجاء فرعون آخر بعدهما كان ما قدّره الله من نصر بني إسرائيل.

{ **وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ** } لأنّه من العلم الخفي، أي: لا يعلمون هذا الأمر الخفي.

{ **وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** } [10].

{ **أَصْبَحَ** } مستعمل في معنى (صار) فاقتضى تحوّلا من حالة إلى حالة أخرى.

الفؤاد مستعمل في معنى العقل واللب. و**الفراغ** مجازي. أي: عدم جولان معنى ذلك الأمر في العقل، أي: ترك التفكير فيه.

واختلف المفسّرون في متعلّق الفراغ ما هو؟ ومرجع أقوالهم إلى ناحيتين:

*/ الناحية الأولى تؤذن بثبات أم موسى ورباطة جاشها: (وهذا أحسن ما فُسِّرت به الآية) فالمعنى أنّه فارغ من الخوف والحزن فأصبحت واثقة بحسن عاقبته تبعا لما ألهمها الله من ألّا تخاف، فهو ثناء عليها. وهذا اسعد بقوله تعالى بعد { لَوْلا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } لأنّ ذلك الربط من توابع ما ألهمها الله من ألّا تخاف ولا تحزن. أي: أنّها لمّا ألقته في اليمّ، كما ألهمها الله، زال عنها ما كانت تخافه عليه من الظهور عليه عندها وقتله لأنّها لمّا تمكّنت من إلقائه في اليم ولم يشعر بها أحد قد علمت أنّه نجا. وهذا المحمل يساعده أيضا ما شاع من قولهم: فلان خلي البال: إذا كان لا همّ بقلبه.

وهذا التفسير يقتضي الجمع بين الثناء عليها بحسن ثقتها بالله والإشارة إلى ضعف الأمومة.

*/ الناحية الثانية تؤذن بتطرّق الضعف والشك إلى نفسها: قال ابن عطية والقرطبي عن ابن القاسم عن مالك: الفراغ هو ذهاب العقل. قال ابن عطية: هو كقوله تعالى { وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ} [إبراهيم:43]. أي: لا عقول فيها. وكلّ الأقوال الراجعة إلى هذه الناحية ترمى إلى أنّ أم موسى لم تكن جَلْدة على تنفيذ ما أمرها الله تعالى وأن الله تداركها بوضع اليقين في نفسها.

{ **إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا** } تكون بالنسبة للتفسير الأول (الراجح) استئنافا بيانيا لما اقتضاه فعل { أَصْبَحَ }. فالمعنى: كادت أن تبدي خبره في مدّة إرضاعه من شدّة الهلع والإشفاق عليه أن يقتل لولا أن ربطنا على قلبها.

{ **لَتُبْدِي بِهِ** } هنا بمعنى تبوح.

الربط على القلب: توثيقه عن أن يضعف كما يُشدّ العضو الوَهِن، أي: ربطنا على قلبها بخَلْق الصبر فيه.
{ **لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** } المراد بالمؤمنين المصدّقون بوعد الله. واللام للتعليل، أي: لتحرز رتبة المؤمنين بأمر الله الذين لا يتطرّقهم الشك فيما يأتيهم من الواردات الإلهية. فالإيمان هنا مستعمل في معناه اللغوي دون الشرعي لأنّها كانت من المؤمنين من قبل.

{ **وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ** } [11].

ظاهر ترتيب الأخبار أنّها على وفق ترتيب مضامينها في الحصول. أي: لما ألقته في اليم قالت لأخته: انظري أين يلقيه اليم ومتى يُستخرج منه.
أخت موسى: اسمها مريم، وقد مضى ذكر القصّة في [طه:40].
القَصُّ: اتّباع الأثر، استُعمل هنا في تتبّع الذات بالنظر فلذلك عدّي إلى ضمير موسى دون ذكر الأثر. وقد تقدّم في عند قوله تعالى { فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً } [الكهف:64]
{ **فَبَصُرَتْ بِهِ** } بصُر بالشيء صار ذا بصر به. يفيد قوّة الإبصار. وتقدّم في قوله تعالى { قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ } [طه:96].
الجُنُب: (بضمّتين) البعيد. وهو صفة لموصوف يعرف من المقام، أي: من مكان بعيد.
{ **وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ** } أي: آل فرعون حين التقطوه لا يشعرون بأنّ أخته تراقب أحواله وذلك من حذقها.

{ **وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ**} [12].

التحريم: المنع، أي: قدّرنا في نفس الطفل الامتناع من التقام أثداء المراضع وكراهتها ليضطرّ آل فرعون إلى البحث عن مرضع يتقبّل ثديها. ومن مقدّمات ذلك أن جعل الله إرضاعه من أمّه مدّة تعوّد فيها بثديها.
{ **مِنْ قَبْلُ** } من قبل التقاطه.
{ **فقالت** } الفاء فاء فصيحة تؤذن بجملة مقدّرة، أي: فأظهرت أخته نفسها وعرضت سعيها في المساعدة على إيجاد مرضع بطريق الاستفهام المستعمل في العرض تلطفا مع آل فرعون وإبعادا للظنّة عن نفسها.
{ **يَكْفُلُونَهُ** } يتعهّدون بحفظه وإرضاعه. فيدلّ هذا على أنّ عادتهم في الإرضاع أن يُسلَّم الطفل إلى المرأة التي ترضعه يكون عندها كما كانت عادة العرب. كما جاء في خبر إرضاع محمد صلى الله عليه وسلم عند حليمة بنت وهب في حي بني سعد بن بكر.
قال صاحب الكشّاف: فدفعه فرعون إليها وأجرى لها وذهبت به إلى بيتها.

{ **وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ** } العدول عن الجملة الفعلية إلى الاسمية لقصد تأكيد أنّ النصح من سجاياهم وممّا ثبت لهم، فلذلك لم يقل: وينصحون له، كما قيل { يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ } لأنّ الكفالة أمر سهل بخلاف النصح والعناية. **النصح**: العمل الخالص الخلي من التقصير والفساد.

{ **فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**} [13].

{ **فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ** } تقدّم نظيره في [طه:40].

{ **وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ** } لام التعليل لتأكيد حرف { كَيْ } بمرادفه، وهو للتنصيص على أنّه معطوف على الفعل المثبت { تَقَرَّ عَيْنُهَا } لا على الفعل المنفي.

{ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** } عائد إلى الناس المفهوم من المقام أو إلى رعيّة فرعون، ومن الناس بنو إسرائيل. والاستدراك ناشئ عن نصب الدليل لها على أنّ وعد الله حق، أي: فعلمت ذلك وحدها وأكثر القوم لا يعلمون ذلك لأنّهم بين مشركين وبين مؤمنين تقادم العهد على إيمانهم فأصبح قريبا من الشرك.

وفي القصّة مجموعة من العبر و المواعظ تصلح للمؤمنين وللمشركين:

العبرة الأولى: إظهار أنّ ما علمه الله وقدّره هو كائن لا محالة كما دلّ عليه قوله تعالى { وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ - إلى قوله - يَحْذَرُونَ} [6]، وأنّ الحذر لا ينجي من القدر.

العبرة الثانية: إظهار أنّ العلوّ الحق لله تعالى وللمؤمنين وأنّ علوّ فرعون لم يغن عنه شيئا في دفع عواقب الجبروت والفساد ليكون ذلك عبرة لجبابرة المشركين من أهل مكة.

العبرة الثالثة: أنّ تمهيد القصة بعلو فرعون وفساد أعماله مشير إلى أنّ ذلك هو سبب الانتقام منه والأخذ بناصر المستضعفين ليحذر الجبابرة سوء عاقبة ظلمهم وليرجو الصابرون على الظلم أن تكون العاقبة لهم.

العبرة الرابعة: الإشارة إلى حكمة { وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ } [البقرة:216] في جانب بني إسرائيل { وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ } [البقرة:216] في جانب فرعون إذ كانوا فرحين باستخدام بني إسرائيل وتدبير قطع نسلهم.

العبرة الخامسة: أنّ إصابة قوم فرعون بغتة من قبل من أمّلوا منه النفع أشدّ عبرة للمعتبر وأوقع حسرة على المستبصر، وأدلّ على أنّ انتقام الله يكون أعظم كما قال { فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً } [8] مع قوله تعالى { عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً } [9].

العبرة السادسة: أنّه لا يجوز أن تستأصل أمّة كاملة لتوقُّع مَفسد منها لعدم التوازن بين المفسدتين.

العبرة السابعة: تعليم أنّ الله بالغ أمره بتهيئة الأسباب المفضية إليه، ولو شاء الله لأهلك فرعون ومن معه بحادث سماوي، ولكنّه أراد أن يحصل ذلك بمشاهدة تنقّلات الأحوال ابتداء من إلقاء موسى في اليم إلى

أن ردّه إلى أمّه، فتكون في ذلك عبرة للمشركين الذين { قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [الأنفال:32] لينظروا في ظهور النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم وانتقال أحوال دعوته في مدارج القوّة وأنّه سائر على سنّة الله في التمكين.

العبرة الثامنة: بأنّ وجود الصالحين من بين المفسدين يخفّف من لأواء فساد المفسدين، فإنّ وجود امرأة فرعون كان سببا في صدّ فرعون عن قتل الطفل مع تحقّقه أنّه إسرائيلي.

العبرة التاسعة: ما في قوله تعالى { وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ } من الإيماء إلى تذكير المؤمنين بأنّ نصرهم حاصل بعد حين، ووعيد المشركين بأنّ وعيدهم لا مفرّ لهم منه.

العبرة العاشرة: ما في قوله تعالى { وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ } من الإشارة إلى أنّ المرء يؤتى من جهله النظر في أدلة العقل.

{ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ } [14].

هذا اعتراض بين أجزاء القصة المرتّبة على حسب ظهورها في الخارج. وهذا الاعتراض نشأ عن جملة { وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ } [13]، فإنّ وعد الله لها قد حكي في قوله تعالى { إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ } [7]. فلمّا انتهى إلى حكاية ردّه إلى أمّه بقوله تعالى { فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَ ا} [13]، كمّل ما فيه وفاء وعد الله إيّاها بهذا الاستطراد. وإنّما أوتي الحكم (النبوّة) بعد خروجه من أرض مدين كما سيجيء في قوله تعالى { فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ } [29].

وتقدم نظير هذه الآية في [يوسف:22]، إلّا قوله تعالى { وَاسْتَوَى }.

{ **وَاسْتَوَى** } قيل: بمعنى بلغ أشدّه، فيكون تأكيدا، والحقّ أنّ الأشد كمال القوة لأنّ أصله جمع شِدّة (بكسر الشين) وهي هيئة بمعنى القوّة، ثم عومل معاملة المفرد. وأنّ الاستواء: **كمال البنية** كقوله تعالى في وصف الزرع { فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ } [الفتح:29]، ولهذا أريد لموسى الوصف بالاستواء ولم يوصف يوسف إلّا ببلوغ الأشدّ، لأنّ موسى كان رجلا طُوالا كما في الحديث: **" كأنّه من رجال شنوءة "** فكان كامل الأعضاء، ولذلك كان وكزه القبطي قاضيا عليه.

الحكم: الحكمة، و**العلم**: المعرفة بالله.

{ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ } [15].

طويت أخبار كثيرة تنبئ عنها القصّة وذلك أنّ موسى يفع وشبّ في قصر فرعون فكان معدودا من أهل

بيت فرعون. قيل: كان يدعى موسى ابن فرعون.

{ **وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ** } عطف على جملة { وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ } عطف جزء القصة على جزء آخر منها، وقد علم موسى أنّه من بني إسرائيل. و**المدينة**: هي منفيس قاعدة مصر الشمالية.

{ **عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ** } هو الوقت الذي يغفل فيه أهل المدينة عمّا يجري فيها، وهو وقت استراحة الناس وتفرّقهم وخلو الطريق منهم. قيل: كان ذلك في وقت القيلولة.

{ **هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ** } الإشارتان تفصيل لما أجمل في قوله { رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ }.

الشيعة: الجماعة المنتمية إلى أحد، وتقدّم آنفا في قوله { وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً } [4].

العدو: الجماعة التي يعاديها موسى، أي: يبغضها. والعدو وصف يستوي فيه الواحد والجمع كما في قوله تعالى { فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي } [الشعراء:77].

فالمراد بالذي من شيعته أنه رجل من بني إسرائيل، وبالذي من عدوّه رجل من القبط قوم فرعون.

الاستغاثة: طلب الغوث وهو التخليص من شدّة أو العون على دفع مشقّة.

الوكز: الضرب باليد.

{ **فَقَضَى عَلَيْهِ** } جملة تقال بمعنى مات. وكان هذا قتل خطأ، صادف الوكز مَقاتِلَ القبطي ولم يكن عن قصد.

{ **قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ** } مستأنفة استئنافا بيانيا. وحكاية ذلك للتنبيه على أنّ موسى لم يخطر بباله حينئذ إلّا النظر في العاقبة الدينية. وقوله كلام نفسي. والمعنى: أنّ الشيطان أوقد غضبه حتّى بالغ في شدّة الوكز.

{ **إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ** } تعليل لكون شدّة غضبه من عمل الشيطان إذ لولا الخاطر الشيطاني لاقتصر على زجر القبطي أو كفّه عن الذي من شيعته.

وفي هذا دليل على أنّ الأصل في النفس الإنسانية هو الخير وأنّه الفطرة، وأنّ الانحراف عنها يحتاج إلى سبب غير فطري، وهو تخلّل نزع الشيطان في النفس.

{ **مُضِلٌّ مُبِينٌ** } رتّب على الأخبار عنه بالعداوة وصفه بالإضلال لأنّ العدو يعمل لإلحاق الضرّ بعدوه.

{ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } [16].

بدل اشتمال من جملة { قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ } لأنّ الجزم بكون ما صدر منه من عمل الشيطان وتغريره يشتمل على أنّ ذلك ظلم لنفسه، وأنّ يتوجّه إلى الله بالاعتراف بخطئه ويُفرّع عليه طلب غفرانه.

{ **ظَلَمْتُ نَفْسِي** } سمّى فعله ظلما لنفسه لأنّه كان يستطيع أن يملك من غضبه، فكان تعجيله بوكز القبطي وكزة قاتلة ظلما جرّه لنفسه. وسمّاه **ضلالا** في قوله { قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ } [الشعراء:20].

{ **فَغَفَرَ لَهُ** } الفاء للتعقيب، أي: استجاب له ربّه فعجّل له بالمغفرة. وفي الكلام إعلام لأهل القرآن بكرامة موسى عليه السلام عند ربّه.

{ **إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** } تعليل، علّل المغفرة له بأنّه شديد الغفران ورحيم بعباده، مع تأكيد ذلك بصيغة القصر إيماء إلى أنّ ما جاء به هو من ظلم نفسه.

{ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ } [17].

{ **قَالَ** } أعيد القول للتنبيه على اتصال كلام موسى حيث وقع الفصل بينه بجملتي { فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ }. وليس القول مستأنفا عن قوله { فَغَفَرَ لَهُ } لأنّ موسى لم يعلم أّن الله غفر له، إذ لم يكن يوحى إليه.

{ **بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ** } الباء للسببية و(ما) موصولة. أي: ما أوتيه من الحكمة والعلم فتميّزت عنده الحقائق ولم يبق للعوائد والتقاليد تأثير على شعوره. فأصبح لا ينظر الأشياء إلا بعين الحقيقة، ومن ذلك ألّا يكون ظهيرا وعونا للمجرمين. ولعلّ هذا الكلام ساقه موسى مساق الاعتبار عن قتله القبطي وثوقا بأنّه قتله خطأ.

الظهير: النصير.

وقد دلّ هذا النظم على أن موسى أراد أن يجعل عدم مظاهرته للمجرمين جزاء على نعمة الحكمة والعلم بأن جعل شكر تلك النعمة الانتصار للحقّ وتغيير الباطل. وممّا يؤيد هذا التفسير أنّ موسى لمّا أصبح من الغد فوجد الرجل الذي استصرخه في أمسه يستصرخه على قبطي آخر أراد موسى أن يبطش به وفاء بوعده.

وقد جعل جمهور من السلف هذه الآية حجّة على منع إعانة أهل الجور في شيء من أمورهم. ولعلّ وجه الاحتجاج بها أنّ الله حكاها عن موسى في معرض التنويه به فاقتضى ذلك أنّه من القول الحق.

{ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ [18] فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ [19] }.

أي: أصبح خائفا من أن يطالَب بدم القطبي الذي قتله.

{ **يَتَرَقَّبُ** } أي: يراقب ما يقال في شأنه ليكون متحفّزا للاختفاء أو الخروج من المدينة لأنّ خبر قتل القبطي لم يفش أمره لأنّه كان في وقت تخلو فيه أزقة المدينة كما تقدّم.

{ **فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ** } (إذا) للمفاجأة، أي: ففاجأه أنّ الذي استنصره بالأمس يعيد الكَرَّة.

الاستصراخ: المبالغة في الصراخ، أي: النداء. عُبّر عنه سابقا [15] **بالاستغاثة** فخولف بين العبارتين للتفنّن.

{ **إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ** } تذمر من الإسرائيلي إذ كان استصراخه السالف سببا في قتل نفس.

الغويّ: الشديد الغواية، وهي الضلال وسوء النظر وكثرة خصوماته.

البطش: الأخذ بالعنف، والمراد به الضرب.

{ **عَدُوٌّ لَهُمَا** } ظاهر العبارة أنّ المقصود القبطي.

الجبّار: الذي يفعل ما يريد ممّا يضرّ بالنّاس، ويؤاخذ الناس بالشدّة دون الرفق. وتقدّم في قوله تعالى { وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ } [الرعد:15]، وفي قوله تعالى { وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً } [مريم:32].

{ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ [20] فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [21] }.

{ **رَجُلٌ** } قيل كان من بني إسرائيل. وقيل: كان من القبط ولكنّه كان مؤمنا يكتم إيمانه، وهو الراجح.

{ **أَقْصَى الْمَدِينَةِ** } <u>الظاهر</u> أنّه ناحية قصور فرعون وقومه، فإنّ عادة الملوك السكنى في أطراف المدن. <u>وقيل</u>: منازل الأشراف. وبهذا يظهر وجه ذكر المكان الذي جاء منه الرجل، وأنّه كان يعرف موسى.

السعي: السير السريع، وتقدّم عند قوله تعالى { فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى } [طه: 20]. وتقدّم بيان حقيقته ومجازه في قوله تعالى { وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا } [الإسراء:19].

{ **الْمَلأ** } الجماعة أولو الشأن، وتقدّم عند قوله تعالى { قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ } [الأعراف:60]. أراد بهم أهل دولة فرعون.

{ **يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ** } أي: يتشاورون في قتلك فاخرج. وضُمِّن معنى (يهمّون) فعدّي بالباء فكأنّه قيل: يأتمرون ويهمّون بقتلك. وأصل الائتمار: قبول أمر الآمر فهو مطاوع أمره. ثم شاع إطلاق الائتمار على التشاور لأنّ المتشاورين يأخذ بعضهم أمر بعض فيأتمر به الجميع، قال تعالى {وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ} [الطلاق:6]. وهذا يقتضي أنّ القضية رفعت إلى فرعون. وفي التوراة (فسمع فرعون هذا الأمر فطلب أن يقتل موسى) [سفر الخروج، الإصحاح:2]. ولمّا علم هذا الرجل بذلك أسرع إلى موسى ينصحه بالخروج.

{ **إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ** } تعليل لأمره بالخروج. وتقديم المجرور للرعاية على الفاصلة.

الترقّب: حقيقته الانتظار، وهو مشتقّ من رقب إذا نظر أحوال شيء. ومنه سُمِّي المكان المرتفع: مَرْقُبة ومرتقبا، وهو هنا مستعار للحذر.

{ **قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** } بدل اشتمال من جملة { يَتَرَقَّبُ } لأنّ ترقّبه يشتمل على الدعاء.

القوم الظالمون: هم قوم فرعون. ووصفهم بالظلم لأنّهم راموا قتله قصاصا عن قتل خطأ وذلك ظلم لأنّ الخطأ في القتل لا يقتضي الجزاء بالقتل في نظر العقل والشرع.

ومحل العبرة من قصة موسى مع القبطي وخروجه من المدينة:

*/ أنّ الله يصطفي من يشاء من عباده. وأنّه أعلم حيث يجعل رسالاته.

*/ أنّه إذا تعلّقت إرادته بشيء هيّأ له أسبابه بقدرته فأبرزه على أتقن تدبير.

*/ أنّ الناظر البصير في آثار ذلك التدبير يقتبس منها دلالة على صدق الرسول في دعوته كما أشار إليه قوله { فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [يونس:16]. وأوضح تلك المظاهر استقامة السيرة ومحبّة الحقّ.

*/ أنّ دليل عناية الله بمن اصطفاه لذلك هو نصره على أعدائه ونجاته ممّا كادوا له من المكائد.

وفي ذلك كله مثل للمشركين لو نظروا في حال محمد صلى الله عليه وسلم في ذاته وفي حالهم معه.

{ **وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ** } [22].

هذه هجرة نبوية تشبه هجرة إبراهيم عليه السلام إذ قال { إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي } [العنكبوت:26]. وقد ألهم الله موسى عليه السلام أن يقصد بلاد مدين إذ يجد فيها نبيّا يبصّره بآداب النبوّة. ولم يكن موسى يعلم إلى أين يتوجّه ولا من سيجد في وجهته كما دلّ عليه قوله تعالى { عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ }. قال ابن عباس: خرج موسى ولا علم له بالطريق إلّا حسن ظنّ بربّه.

{ **تِلْقَاءَ** } أصله مصدر على وزن التِّفعال بكسر التاء، وليس له نظير في كسر التاء إلّا تمثال. بمعنى: اللقاء والمقاربة. وشاع إطلاق هذا المصدر على جهته فصار من ظروف المكان. وتقدّم قوله تعالى { وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ } [الأعراف:47].

{ **مَدْيَنَ** } قوم من ذرية مدين بن إبراهيم. وقد مضى الكلام عليهم عند قوله تعالى { وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً } [الأعراف: 85]. وأرض مدين واقعة على الشاطئ الغربي من البحر الأحمر، وكان موسى قد سلك إليها عند خروجه من بلد (منفيس) طريقا غربية جنوبية فسلك برّيّة تمرّ به على أرض <u>العمالقة</u> وأرض <u>الأدوميين</u> ثمّ <u>بلاد النبط</u> إلى أرض مدين. تلك مسافة **ثمانمائة وخمسين ميلا** تقريبا. وإذ قد كان موسى في سيره ذلك راجلا فتلك المسافة تستدعي من المدة نحوًا من **خمسة وأربعين يوما**. وكان يبيت في البرّيّة لا محالة.

السواء: النهج المستقيم الذي لا التواء فيه. وقد ألهمه الله هذه الدعوة التي فيها توفيقه إلى الدين الحقّ.

{ **وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ** [23] **فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ** [24] }.

{ **وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ** } الورود هنا: الوصول والبلوغ كقوله تعالى { وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا } [مريم:71].

ماء القوم: هو الذي تعرف به ديارهم لأنّ القبائل كانت تقطن عند المياه وكانوا يكنُّون عن أرض القبيلة بماء بني فلان. أي: عندما بلغ بلاد مدين.

الأمّة: الجماعة كثيرة العدد، وتقدّم في قوله تعالى { كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً } [البقرة:213].

{ **يَسْقُونَ** } حذف المفعول لتعميم ما شأنه أن يُسقى، وهو الماشية والناس، ولأنّ الغرض لا يتعلّق بمعرفة المسقي ولكن بما بعده من انزواء المرأتين. فيكون من تنزيل الفعل المتعدّي منزلة اللازم، أو للاختصار.

{ **مِنْ دُونِهِمُ** } في مكان غير المكان الذي حول الماء، أي: وجد امرأتين في جهة مبتعدة عن جهة الساقين، لأنّ حقيقة كلمة (دون) أنّها وصف للشيء الأسفل من غيره. وتتفرّع من ذلك معان مجازية مختلفة العلاقات.

{ **امْرَأَتَيْنِ** } اسمهما (**ليَّا**) و(**صَفُّورة**)، ابنتا شعيب عليه السلام.

{ **تَذُودَانِ** } تطردان. وحقيقة الذَّود طرد الأنعام عن الماء، ولذلك سمّوا القطيع من الإبل الذَّود. فلا يقال: ذدت الناس إلّا مجازا مرسلا، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: " **فليذادَّن أقوام عن حوضي ...**".

{ **قَالَ مَا خَطْبُكُمَا** } فلما رأى موسى المرأتين تمنعان أنعامهما من الشرب سألهما قصّتهما؟

الخطب: الشأن والحدث المهم، وتقدّم عند قوله { قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ } [يوسف:51]. { **قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ** } فأجابتا بأنّهما كرهتا أن تسقيا في حين اكتظاظ المكان بالرعاء وأنّهما تستمرّان على عدم السقي (كما اقتضاه التعبير بالمضارع) إلى أن ينصرف الرعاء.

{ **الرِّعَاءُ** } جمع راع.

الإصدار: الإرجاع عن السقي، أي: حتّى يسقي الرعاء ويُصدِروا مواشيَهم، أي: حتى يذهب رعاء الإبل بأنعامهم فلا يبقى الزحام. وصدّهما عن المزاحمة عادتهما إذ كانتا ذواتي مروءة وتربية زكيّة.

{ **وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ** } اعتذار عن حضورهما للسقي مع الرجال لأنّ الرجل الوحيد لهما هو أبوهما وهو شيخ كبير لا يستطيع ورود الماء لضعفه عن المزاحمة.

وفي إذنه لابنتيه بالسقي دليل على جواز معالجة المرأة أمور مالها وظهورها في مجامع الناس إذ كانت تستر ما يجب ستره، فإنّ شرع من قبلنا شرع لنا إذا حكاه شرعنا ولم يأت من شرعنا ما ينسخه. وأمّا تحاشي الناس من نحو ذلك فهو من المروءة، والعادات متباينة فيه، وأحوال الأمم فيه مختلفة وخاصة ما بين أخلاق البدو والحضر من الاختلاف.

{ **فَسَقَى لَهُمَا** } أي: رأفة بهما وغوثا لهما. وذلك من قوّة مروءته أن اقتحم ذلك العمل الشاق على ما هو عليه من الإعياء عند الوصول.

التولّي: الرجوع على طريقه، وذلك يفيد أنّه كان جالسا من قبل في ظلّ فرجع إليه.

{ **فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ** } تذكّر وهو في نعمة برد الظل والراحة من التعب نعما سابقة أسداها الله إليه؛ من نجاته من القتل وإيتائه الحكمة والعلم، وتخليصه من تبعة قتل القبطي، وإيصاله إلى أرض معمورة بأمّة عظيمة بعد أن قطع فيافي ومفازات، فجاء بجملة جامعة للشكر والثناء والدعاء.

الفقير: المحتاج، فقوله شكر على نعم سلفت.

الخير: ما فيه نفع وملاءمة لمن يتعلق هو به، فمنه خير الدنيا ومنه خير الآخرة.

*/ من الخير إنجاؤه من القتل، وتربيته الكاملة في بذخة الملك وعزّته، وحفظه من أن تتسرّب إليه عقائد العائلة التي رُبّي فيها، فكان منتفعا بمنافعها مجنَّبا رذائلها وأضرارها.

*/ ومن الخير أن جُعل نصر قومه على يده، وأن أنجاه من القتل الثاني ظلما، وأن هداه إلى منجى من الأرض، ويسر له التعرّف ببيت نبوّة.

وأحسن خير للغريب وجود مأوى له يُطعم فيه ويبيت وزوجةٌ يأنس إليها ويسكن. فكان استجابة الله له بأن ألهم شعيبا أن يرسل وراءه لينزله عنده ويزوّجه ابنته.

{ **فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** } [25].

{ **فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا** } الفاء تؤذن بأنّ الله استجاب له فقيَّض شعيبًا أن يرسل وراءه ليضيّفه. وتؤذن الفاء أيضا بأن شعيبا لم يتريث في الإرسال وراءه فأرسل إحدى البنتين اللتين سقى لهما وهي (**صَفُّورة**) فجاءته وهو لم يزل عند مكانه في الظل.

{ **تَمْشِي** } ذكر الفعل ليبني عليه قوله تعالى { عَلَى اسْتِحْيَاءٍ } وإلّا فإن فعل { فَجَاءَتْهُ } مغن.

{ **عَلَى** } للاستعلاء المجازي مستعارة للتمكّن من الوصف. والمعنى: أنّها مستحيية في مشيها.

الاستحياء: مبالغة في الحياء مثل قوله تعالى { وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ - إلى قوله - لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ } [النور:31].

{ **إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ** } تأكيد الجملة حكاية لما في كلامها من تحقيق الخبر للاهتمام به وإدخال المسرّة على المخبَر به.

الجزاء: المكافأة على عمل حسن أو سيّئ بشيء مثله في الحسن أو الإساءة، قال تعالى { هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ } [الرحمن:60]، وقال تعالى { ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا } [سبأ:17].

الأجر: التعويض على عمل نافع للمعوَّض، ومنه سُمّي ثواب الطاعات أجرا، قال تعالى { وَإِنْ تُؤْمِنُوا

وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ } [محمد:36].

وكان فعل موسى معروفا محضا لا يطلب عليه جزاء لأنّه لا يعرف المرأتين ولا بيتهما، وكان فعل شعيب كرما محضا، وتضييف الغريب من سنة إبراهيم عليه السلام ، فلا غرو أن يعمل بها رجلان من ذرّيّته.

{ **فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** } كانت العوائد أن يفاتَح الضيف بالسؤال عن حاله ومَقْدَمه فلذلك قصّ موسى عليه قصّته كلّها. وذلك يقتضي أنّ شعيبا سأله عن سبب قدومه.

القصص: الخبر، والتعريف عوض عن المضاف إليه، أي: قصصه، أو للعهد، أي: القصص المذكور آنفا.

{ **قَالَ لَا تَخَفْ** } طمأنه شعيب بأنّه أصبح في مأمن من أن يناله حكم فرعون لأنّ بلاد مدين تابعة لملك الكنعانيين وهم أهل بأس ونجدة.

{ **نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** } تعليل للنهي عن الخوف. ووصف قوم فرعون بالظالمين تصديقا لما أخبره به موسى من رَوْمهم قتله قصاصا عن قتل خطأ. وما سبق ذلك من خبر عداوتهم على بني إسرائيل.

{ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ [26] قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ [27] قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ [28] }.

حذف ما لقيه موسى من شعيب من الجزاء بإضافته وإطعامه وانتقل منه إلى عرض إحدى المرأتين على أبيها أن يستأجره للعمل في ماشيته إذ لم يكن لهم ببيتهم رجل يقوم بذلك وقد كبر أبوهما، فلمّا رأت أمانته وورعه رأت أنّه خير من يستأجر للعمل عندهم لقوّته على العمل وأمانته.

{ **أَبَتِ** } التاء عوض عن ياء المتكلّم في النداء خاصة، ويجوز كسرها وبه قرأ الجمهور. ويجوز فتحها وبه قرأ ابن عامر وأبو جعفر.

{ **إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ** } علّة للإشارة عليه باستئجاره، أي: لأنّ مثله من يُستأجر.

وجاءت بكلمة جامعة مرسلة مثلا لما فيها من العموم ومطابقة الحقيقة بدون تخلّف.

{ **مَنِ اسْتَأْجَرْتَ** } الخطاب موجّه إلى شعيب، وصالح لأنّ يعمَّ كلّ من يصلح للخطاب لتتمّ صلاحيّة هذا الكلام لأنّ يُرسل مثلا. فالتقدير: من استأجر شخصا فليستأجر القويّ الأمين.

وعن عمر بن الخطاب أنّه قال: أشكو إلى الله ضعف الأمين وخيانة القوي. يريد أسأله أن يؤيّدني بقويّ

أمين.
{ **إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ** } الإشارة إلى المرأتين اللتين سقى لهما إن كانتا حاضرتين معا دون غيرهما من بنات شعيب، أو تكون الإشارة إليهما لحضورهما في ذهن موسى باعتبار قرب عهده بالسقي لهما.
وفيه جواز عرض الرجل مولاته على من يتزوّجها رغبة في صلاحه.
وجعل لموسى اختيار إحداهما. وكانت التي اختارها موسى (**صَفُّورة**) وهي الصغرى كما جاء في رواية أبي ذر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم. وإنّما اختارها دون أختها لأنّها التي عرف أخلاقها باستحيائها وكلامها، فكان ذلك ترجيحا لها عنده.
{ **عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ** } حرف (على) من صيغ الشرط في العقود.
{ **تَأْجُرَنِي** } مضارع **آجره** مثل ناصره، إذا كان أجيرا له.
الحِجَج: اسم جمع حِجّة (بكسر الحاء) وهي السنة، مشتقّة من أسم الحجّ لأنّ الحجّ يقع كل سنّة.
ولم يقع التعرّض في الآية للعمل المستأجر عليه. وورد في [سفر الخروج] أنّه رعى غنم **يثرون** (شعيب).
{ **فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ** } جعل ذلك إلى موسى تفضّلا منه إن اختاره.
{ **وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ** } معناه: أن أكون شاقا عليك. أي: ما أريد أن أشترط عليك ما فيه مشقتك.
وهذا من السماحة الوارد فيها حديث: " **رحم الله أمرأ سمحا إذا باع، سمحا إذا اشترى ...**".
المشقّة: العسر والتعب والصعوبة في العمل. والأصل أن يوصف بالشاق العمل المتعب فإسناد أشقّ إلى ذاته إسناد مجازي.
{ **سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ** } في حُسْن المعاملة ولين الجانب. وليس هذا من تزكية النفس المنهي عنه لأنّ المنهيّ عنه ما قصد به قائله الفخر والتمدّح، فأمّا ما كان لغرض الدين أو المعاملة فذلك حاصل لداع حسن كما قال يوسف { قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ } [يوسف:55].
{ **قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ** } حكاية لجواب موسى. واسم الإشارة إلى المذكور وهو {أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ} وهذا قبول موسى لما أوجبه شعيب، وبه تمّ التعاقد على النكاح وعلى الإجارة.
{ **أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ** } (أي) اسم موصول مبهم مثل (ما). وزيدت بعدها (ما) للتأكيد ليصير الموصول شبيهًا بأسماء الشرط. والجملة كلّها بدل اشتمال من جملة { ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ }.
العُدوان: (بضم العين) الاعتداء على الحقّ، أي: فلست تعتدي عليَّ بما اشترطّه.
{ **وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ** } استشهد موسى على نفسه وعلى شعيب بشهادة الله.
الوكيل: أصله الذي وُكِّل إليه الأمر. ولمّا ضُمِّن الوكيل معنى الشاهد عُدّي بحرف (على) وكان حقّه بـ (إلى).

{ **وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ** - إلى قوله - **وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ** } [22-28]

العبرة من سياقة هذا الجزء من القصّة هو ما تضمّنته من فضائل الأعمال ومناقب أهل الكمال، وكيف هيّأ الله تعالى موسى لتلقّي الرسالة بأن قلّبه في أطوار الفضائل، وأعظمها معاشرة رسول من رسل الله ومصاهرته، وما تتضمّنه من خصال المروءة والفتوّة التي استكنَّت في نفسه من فعل المعروف، وإغاثة الملهوف، والرأفة بالضعيف، والزهد، والقناعة، وشكر ربّه على ما أسدى إليه، ومن العفاف والرغبة في عشرة الصالحين، والعمل لهم، والوفاء بالعقد، والثبات على العهد حتّى كان خاتمة ذلك تشريفه بالرسالة. ليعتبر المشركون بذلك، إن كان لهم اعتبار، في مقايسة تلك الأحوال بأجناسها من أحوال النبيّ صلى الله عليه وسلم فيهتدوا إلى أنّ ما عرفوه به من زَكِيِّ الخصال قبل رسالته؛ من استقامة سيرته، وإعانته على نوائب الحق، وتزوّجه أفضل امرأة من نساء قومه، إن هي إلّا بوارق لانهطال سحاب الوحي عليه. والله أعلم حيث يجعل رسالته، وليَأْتَسِي المسلمون بالأسوة الحسنة من أخلاق أهل النبوّة والصلاح.

{ **فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ** } [29].

لم يذكر القرآن أيّ الأجلين قضى موسى إذ لا يتعلّق به غرض في سياق القصّة.

وعن ابن عباس: " قضى أوفاهما وأطيبهما، إنّ رسول الله إذا قال فعل ".

الأهل: من إطلاقه الزوجة كما في الحديث: " **والله ما علمتُ على أهلي إلّا خيرا** ".

وفي سفر الخروج: أنّه استأذن صهره في الذهاب إلى مصر لافتقاد أخته وآله.

وبقيّة القصة تقدّمت في [النمل:7] إلّا زيادة قوله تعالى { آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً } وذلك مساو لقوله تعالى هنا { إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً }.

الجذوة: (مثلث الجيم)، وقرئ بالوجوه الثلاثة، فالجمهور بكسر الجيم، وعاصم بفتح الجيم وحمزة وخلف بضمّها، وهي العود الغليظ. قيل: مطلقا وقيل: المشتعل وهو الذي في (القاموس).

{ **فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** [30] **وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ** [31] **اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ** [32] }.

تقدّم مثل هذا في [النمل:8-12] إلّا مخالفة ألفاظ مثل:

*/ { **أَتَاهَا** } هنا، و{ جَاءَهَا } [النمل:8].

*/ { **إِنِّي أَنَا اللَّهُ** } هنا، و{ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ } [النمل:9]، بضمير عائد إلى الجلالة هنالك، وضمير الشأن هنا، وهما متساويان في الموقع لأنّ ضمير الجلالة شأنه عظيم.

*/ { **رَبِّ الْعَالَمِينَ** } هنا، و{ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [النمل:9]، وهذا يقتضي أنّ الأوصاف الثلاثة قيلت له حينئذ.

*/ { **وَأَنْ أَلْقِ** } هنا، و{ أَلْقِ} [النمل:10].

*/ { **اسْلُكْ** } هنا، { وَأَدْخِلَ } [النمل:12].

والمخالفات في مجملها تفنّن في تكرير القصة لتجدّد نشاط السامع لها.

{ **أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** } تقديم صفة الله تعالى قبل إصدار أمره له بإلقاء العصا ليثبّت بذلك قلب موسى من هول تلقّي الرسالة، لأنّ وصف { رَبِّ الْعَالَمِينَ } يدلّ على أنّ جميع الخلائق مسخّرة له.

{ **مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ** } هذا واد في سفح الطور.

شاطئه: جانبه وضفّته.

{ **الْأَيْمَنِ** } وصف الشاطئ بالأيمن، إن حُمل الأيمن على أنّه ضدّ الأيسر، فهو أيمن باعتبار أنّه واقع على يمين المستقبل القبلة على طريقة العرب من جعل القبلة هي الجهة الأصلية لضبط الواقع، وهم ينعتون الجهات باليمين واليسار ويريدون هذا المعنى. فيكون الأيمن يعني الغربي للجبل، أي: جهة مغرب الشمس من الطور. وهذا هو الملائم لقوله تعالى الآتي { وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيّ } [44].

وأمّا جعله بمعنى الأيمن لموسى فلا يستقيم مع قوله تعالى { وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ } [طه:80] فإنّه لم يجر ذكر لموسى هناك.

ويجوز أنّه تفضيل من اليُمْن وهو البركة، فهو كوصفه بـ { الْمُقَدَّسِ } في قوله تعالى { إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً } [النازعات:16].

{ **الْبُقْعَةِ** } (بضم الباء ويجوز فتحها) هي القطعة من الأرض المتميّزة عن غيرها.

المباركة: لاختيارها لنزول الوحي على موسى.

{ **مِنَ الشَّجَرَةِ** } يجوز أن يتعلّق بفعل { نُودِيَ } فتكون الشجرة مصدر هذا النداء وتكون { مِنَ } للابتداء. أي: سمع كلاما خارجا من الشجرة.

ويجوز أن يكون ظرفا مستقرًّا نعتا ثانيا للواد أو حالا، أي: عندها، أي: البقعة التي تتصل بالشجرة.

{ **يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ** } زيادة { أَقْبِلْ } هنا، وهي تصريح بمضمون قوله تعالى {لَا تَخَفْ} [النمل:10]، لأنّه لمّا أدبر خوفا من الحيّة كان النهي عن الخوف يدلّ على معنى طلب إقباله فكان الكلام هنالك إيجازا وكان هنا مساواة تفنّنا في حكاية القصّتين.

{ **إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ** } زيادة هنا ولم يُحكَ في سورة النمل وهو تأكيد لمفاد { وَلَا تَخَفْ }. وفيه زيادة تحقيق أمنه بما دلّ عليه التأكيد بـ (إنّ) وجعله من جملة الآمنين.

{ **وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ** } تردّد المفسّرون في تبيين المعنى.

قيل: الجناح اليد، ولا يحسن أن يكون مجازا عن اليد لأنّه يفضي إمّا إلى تكرير مفاد قوله { اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ }، وحرف العطف مانع من احتمال التأكيد. وادعاء أن يكون التكرير لاختلاف الغرض من الأول والثاني، كما في الكشاف بعيد. وأوّله الضحاك عن ابن عباس ومجاهد بأنّ وضع اليد على الصدر يذهب الخوف، وهو تأويل بعيد. وحجّتهم ورود الجناح مجازا عن اليد في القرآن وغيره، وليس ذلك بقاض بحمله على ذلك المعنى حيثما وقع في القرآن.

الوجه عندي: أنّ قوله تعالى { وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ } تمثيل بحال الطائر إذا سكن عن الطيران، جُعل كناية عن سكون اضطراب الخوف. ويكون {مِنَ} هنا للبدلية، أي: اسكن سكون الطائر بدلا من أن تطير خوفا. لأنّ { الرَّهبِ } معروف أنّه الخوف كقوله تعالى { وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً } [الأنبياء:90].

المعنى: انْكَفِفْ عن التخوّف من أمر الرسالة. وفي الكلام إيجاز وهو ما دلّ عليه قوله تعالى بعده { قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ } [33].

{ **فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ** } تفريع على قوله تعالى { وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ } والإشارة إلى العصا وبياض اليد.

البرهان: الحجّة القاطعة. و{ مِنَ } للابتداء، و{ إِلَى } للانتهاء المجازي.

{ **إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ** } تعليل، فهم يُقرَعون بالبراهين بسبب تمكّن الكفر من نفوسهم حتّى كان كالجبلّة فيهم وبه قوام قوميّتهم، لما يؤذن به قوله { كَانُوا }.

{ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ } [33].

المعنى: أخاف أن يذكروا قتلي القبطي فيقتلوني. أراد أن يكون في أمن إلهيّ من أعدائه. فهذا تعريض بالدعاء، ومقدّمة لطلب تأييده بهارون أخيه.

{ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ } [34]

هذا سؤال صريح يدلّ على أن موسى لا يريد التنصل من التبليغ ولكنّه أراد تأييده بأخيه. وإنّما عيّنه ولم يسأل مؤيّدا ما لعلمه بأمانته وإخلاصه لله ولأخيه وعلمه بفصاحة لسانه.

{ **رِدْءاً** } الردء بالهمز في آخره: العون. وقرأه نافع وأبو جعفر { رِدًا } مخفّفا.

{ **يُصَدِّقُنِي** } قرأه عاصم وحمزة بالرفع على أنّ الجملة حال من الهاء من { أَرْسِلْهُ }.

وقرأه الجمهور { يُصَدِّقْنِي } مجزوما في جواب الطلب بقوله { فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ }.

ومعنى تصديقه إيّاه أن يكون سببا في تصديق فرعون وملئه إيّاه بإبانته عن الأدلة التي يلقيها موسى في مقام مجادلة فرعون. فإسناد التصديق إلى هارون مجاز عقلي لأنّه سببه، والمصدّقون حقيقة هم الذين يحصل لهم العلم بأن موسى صادق فيما جاء به.

{ **إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ** } تعليل لسؤال تأييده بهارون، فهذه مخافة ثانية من التكذيب، والأولى من القتل.

{ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآياتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ } [35].

استجاب الله له دعوتيه وزاده تفضُّلا بما لم يسأله، فاستجابة الدعوة الثانية بقوله تعالى { سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ }، واستجابة الأولى بقوله تعالى { فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا }، والتفضّل بقوله تعالى { وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً }، فأعطى موسى ما يماثل ما لهارون من المقدرة على إقامة الحجّة، إذ أن موسى سأل الله تعالى أن يَحْلُلْ عقدة من لسانه كما في [طه:27]. وقد دلّ على ذلك ما تكلّم به موسى عليه السلام من حجج في مجادلة فرعون، كما في سورة الشعراء وهنا، وما خاطب به بني إسرائيل ممّا حُكي في سورة الأعراف. ولم يحكِ في القرآن أنّ هارون تكلّم بدعوة فرعون.

الشَدُّ: الربط. جُعل الأخ هنا بمنزلة الرباط الذي يُشَدُّ به، وهو مجاز عقلي. المراد: أنّه يؤيّده بفصاحته.

السلطان: هنا مصدر بمعنى التسلُّط على القلوب والنفوس. أي: مهابة في قلوب الأعداء ورعبا منكما، كما ألقى على موسى محبّة حين التقطه آل فرعون.

وتقدّم معنى السلطان حقيقة في قوله تعالى { فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً } [الإسراء:33].

{ **فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا** } تفريع على جعل السلطان. أي: لا يؤذونكما بسوء، وهو القتل ونحوه. فالوصول مستعمل مجازا في الإصابة.

{ **بِآياتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ** } <u>يجوز</u> أن يكون { بِآيَاتِنَا } متعلّقا بمحذوف دلّ عليه قوله تعالى { إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأِهِ } [32] تقديره: اذهبا بآياتنا. وقد صُرّح بذلك في قوله تعالى { قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ } [الشعراء:15].

<u>ويجوز</u> أن يتعلّق بـ { نَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً } أي: سلطانا عليهم بآياتنا حتّى تكون رهبتهم منكما آية من آياتنا. <u>ويجوز</u> أن يتعلّق بـ { لَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا } أي: يُصرفون عن أذاكم بآيات منّا.

<u>ويجوز</u> أن يتعلّق بـ { الْغَالِبُونَ } أي: تغلبونهم وتقهرونهم بآياتنا التي نؤيّدكما بها.

<u>ويجوز</u> أن تكون (الباء) حرف قسم تأكيدا لهما بأنّهما الغالبون وتثبيتا لقلوبهما.

{ **بِآياتِنَا** } وعلى الوجوه كلّها فالآيات تشمل خوارق العادات المشاهدة مثل الآيات التسع، وتشمل المعجزات الخفيّة كصرف قوم فرعون عن الإقدام على أذاهما مع ما لديهم من القوّة، وما هم عليه من

العداوة بحيث لولا الصرفة من الله لأهلكوا موسى وأخاه.

ومحلّ العبرة من هذا الجزء من القصة:

*/ التنبيه إلى أنّ الرسالة فيضٌ من الله على من اصطفاه من عباده.

*/ أنّ رسالة محمد صلى الله عليه وسلم كرسالة موسى جاءته بغتة فنودي محمد في غار جبل حراء كما نودي موسى في جانب جبل الطور، وأنّه اعتراه من الخوف مثل ما اعترى موسى، وأنّ الله ثبّته كما ثبّت موسى، وأن الله يكفيه أعداءه كما كفى موسى أعداءه.

{ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرىً وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ } [36].

طوي ما بين نداء الله إيّاه وبين حضوره عند فرعون من الأحداث لعدم تعلّق العبرة به.

{ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا } أسند المجيء بالآيات إلى موسى عليه السلام وحده دون هارون لأنّه الرسول الأصلي الذي تأتي المعجزات على يديه.

الآيات البيّنات: هي خوارق العادات التي أظهرها، أي: جاءهم بها آية بعد أية في مواقع مختلفة.

{ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرىً وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ } قالوا ذلك عند كل آية.

المفترى: المكذوب. مكذوب في ادّعائه أنّه من عند الله وإخفاء كونه سحرا.

{ بِهَذَا } الإشارة إلى ادعاء الرسالة من عند الله. أي: ما سمعنا من يدعو آباءنا إلى مثل ما تدعو إليه، فالكلام على حذف مضاف دلّ عليه حرف الظرفية، أي: في زمن آبائنا.

{ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ } [37].

لما تمسّكوا بعلم آبائهم تمسّك موسى بعلم الله تعالى. فقد احتجّ موسى بنفسه ولم يَكِلْ ذلك إلى هارون.

{ رَبِّي } عُبّر عن الله بوصف الربوبية مضافا إلى ضميره للتنصيص على أنّ الذي يعلم الحقّ هو الإله الحقّ لا آلهتهم المزعومة.

{ أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ } إشهاد لله تعالى وكلام منصف، أي: ربي أعلم بتعيين الجائي بالهدى أنحن أم أنتم، على نحو قوله تعالى { وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ } [سبأ:24].

عُبّر بالماضي لأنّ المجيء قد تحقّق ومضى.

{ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ } تفويض إلى ما سيظهر من نصر أحد الفريقين على الآخر، وهو تعريض بالوعيد بسوء عاقبتهم. وعُبّر بالمضارع لأنّ العاقبة مرجوة لمّا تظهر بعد.

{ **عَاقِبَةُ الدَّارِ** } كلمة جرت مجرى المثل في خاتمة الخير بعد المشقّة. وتقدّم في قوله تعالى { فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ
مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ } [الأنعام:135] ، وفي قوله تعالى { أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ } [الرعد:22]، وقوله تعالى { وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ } [الرعد:42].
{ **إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ** } تأكيد، دلالة على ثقته بأنّه على الحقّ، وذلك يفُتّ من أعضادهم، ويُلقي رعب الشك في النجاة في قلوبهم. وضمير { إِنَّهُ } ضمير الشأن، لأنّ الجملة بعده ذات معنى له شأن وخطر.

{ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ } [38].
كلام فرعون المحكي هنا واقع في مقام غير مقام المحاورة مع موسى فهو كلام أقبل به على خطاب أهل مجلسه إثر المحاورة فلذلك حُكي بحرف العطف، عطف القصة على القصة.
{ **مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي** } أراد بخطابه مع ملئه أن يثبتهم على عقيدة إلهيّته إبطالا لقول موسى المحكي في قوله تعالى { قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ } [الشعراء:26]، وقوله تعالى { قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إن كُنتُم مُّوقِنِينَ } [الشعراء:24].
والمقصود نفي وجود الإله الذي أثبته موسى وهو خالق الجميع. وأمّا آلهتهم التي يزعمونها فإنّها ممّا تقتضيه إلهية فرعون، لأنّ فرعون عندهم هو مظهر الآلهة المزعومة عندهم لأنّه في اعتقادهم ابن الآلهة.
{ **فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى** }.
أراد أن يظهر لقومه في مظهر المتطلّب للحقّ المستقصي للعوالم حتّى إذا أخبر قومه بعد ذلك بأنّ نتيجة بحثه أسفرت عن كذب موسى ازدادوا ثقة ببطلان قول موسى عليه السلام.
{ **فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ** } أراد أن يأمر { هَامَانُ } العملة أن يطبخوا الطين ليكون آجُرًّا ويبنوا به. فكُنّي عن البناء بمقدّماته وهي إيقاد الأفران لتجفيف الطين. وإسناد الإيقاد على الطين إلى هامان مجاز عقلي باعتبار أنّه الذي يأمر بذلك. و{ **هَامَانُ** } لقب أو اسم لوزير فرعون كما تقدّم آنفا.
الصرح: القصر المرتفع، وقد تقدّم عند قوله تعالى { قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ } [النمل:44].
الاطلاع: الطلوع القوي المتكلّف لصعوبته.
{ **وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ** } استعمل الظنّ بمعنى القطع.
واختلف المفسّرون هل وقع بناء هذا الصرح وتم أو لم يقع، فحكى بعضهم أنّه تم وصعد فرعون إلى أعلاه

ونزل وزعم أنّه قتل رب موسى. وحكى بعضهم أنّ الصرح سقط قبل إتمام بنائه فأهلك خلقا كثيرا. وحكى بعضهم أنّه لم يشرع في بنائه. وقد لاح لي في معنى الآية وجه آخر سأذكره إن شاء الله في سورة غافر.

{ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ } [39].

الاستكبار: أشدّ من الكبر، أي: تكبّر تكبّرا شديدا إذ طمع في الوصول إلى الربّ العظيم.

{ **جُنُودُهُ** } أتباعه. واستكبار جنوده تبع لاستكباره لأنّهم يتّبعونه ويتلقّون ما يمليه عليهم من العقائد.

{ **فِي الْأَرْضِ** } الراجح أن يراد بها المعهودة، أي: أرض مصر.

{ **بِغَيْرِ الْحَقِّ** } حالة لازمة لعاملها إذ لا يكون الاستكبار إلّا بغير الحقّ.

{ **وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ** } معلوم بالفحوى من كفرهم بالله، وإنّما صُرّح به لأهمية إبطاله، ولأنّ في التصريح به تعريضا بالمشركين في أنّهم وإيّاهم سواء فليضعوا أنفسهم في أيّ مقام من مقامات أهل الكفر. وقد كان أبو جهل يُلقّب عند المسلمين بفرعون هذه الأمّة أخذا من تعريضات القرآن.

أي: ظنّوا أن لا بعث ولا رجوع . <u>ويجوز</u> أن يكون المعنى: وظنّوا أنّهم في منعة من أن يرجعوا في قبضة قدرتنا.

{ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ } [40].

أي: ظنّوا أنّهم لا يرجعون إلينا فعجّلنا بهلاكهم، فإنّ ذلك من الرجوع إلى الله لأنّه رجوع إلى حكمه وعقابه، ويعقبه رجوع أرواحهم إلى عقابه، فلهذا فُرّع على ظنّهم ذلك الإعلامُ بأنّه أُخِذ وجنوده، وجُعل هذا التفريع كالاعتراض بين حكاية أحوالهم.

{ **فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ** } يتضمّن استعارة مكنية، شُبِّه وجنوده بحَصَيّات أخذهنّ في كفه فطرحهن في البحر. <u>ويجوز</u> أن يُجعل جميع ذلك استعارة تمثيلية كما لا يخفى.

{ **فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ** } اعتبار بسوء عاقبتهم لأجل ظلمهم أنفسهم بالكفر وظلمهم الرسول بالاستكبار عن سماع دعوتهم.

وهذا موضع العبرة من سوق هذه القصة ليعتبر بها المشركون فيقيسوا حال دعوة محمد صلى الله عليه وسلم بحال دعوة موسى عليه السلام، ويقيسوا حالهم بحال فرعون وقومه، فيوقنوا بأنّ ما أصاب فرعون وقومه من عقاب سيصيبهم لا محالة. وهذا من جملة محلّ العبرة بهذا الجزء من القصة، ابتداء من قوله تعالى { فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ } [36]، ليعتبر الناس بأنّ شأن أهل الضلالة واحد، فإنّهم يتلقّون دعاة الخير بالإعراض والاستكبار واختلاق المعاذير؛

<u>فكما قال فرعون</u> وقومه { مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرىً وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ } [36] قالت قريش

{ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ } [الأنبياء:5]، وقالوا { مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ } [ص:7]، أي: التي أدركناها.

وكما طمع فرعون أن يبلغ إلى الله استكبارا منه في الأرض سأل المشركون { لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً } [الفرقان:21].

وكما ظنّ فرعون وقومه أنّهم لا يرجعون ظنّ المشركون مثل ظنّهم.

فيوشك، نتيجة كلّ ذلك، أن يصيبهم من الاستئصال ما أصاب أولئك.

{ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ } [41].

أي: جعلناه وجنوده أئمة للضلالة المفضية إلى النار، فكأنّهم يدعون إلى النار؛ فدعوة فرعون أمرُه، ودعوة كهنته باختراع قواعد الضلالة وأوهامها، ودعوة جنوده بتنفيذ ذلك والانتصار له.

الأئمة: جمع إمام وهو من يُقتدى به في عمل من خير أو شرّ، قال تعالى { وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا } [الأنبياء:73].

والدعاء إلى النار هو الدعاء إلى العمل الذي يوقع في النار، فهي دعوة إلى النار بالمآل.

{ **وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ** } إذا كانوا في الدنيا يعتزّون بما لديهم من اتباع وجند فإنّهم يوم القيامة لا يجدون من ينصرهم فيدفع عنهم العذاب.

{ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ } [42].

إتباعهم باللعنة في الدنيا جعلُ اللعنة ملازمة لهم في علم الله تعالى، فقدّر لهم هلاكا لا رحمة فيه، فعُبّر عن تلك الملازمة بالإتباع على وجه الاستعارة لأنّ التابع لا يفارق متبوعه، وكانت النار عاقبتهم.

ويجوز أن يراد باللعنة في الدنيا لعن الناس إيّاهم، يعني أنّ أهل الإيمان يلعنونهم.

{ **وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ** } المقبوح المشتوم بكلمة: قُبِّح، أي: قبَّحه الله أو الناس، أي: جعْله مذموما.

{ **هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ** } جيء بالجملة الاسمية المقتضية الدوام والثبات لأنّ تقبيح حالهم يوم القيامة ملازم لهم.

{ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** } [43].

إتمام لتنظير رسالة محمد صلى الله عليه وسلم برسالة موسى عليه السلام في أنّها جاءت بعد فترة طويلة لا رسالة فيها. فإذا كان المشركون يحاولون بقولهم { مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ } [36] إبطال رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بعلّة تأخّرها فإنّ دليلهم مقدوح فيه بقادح القلب بأنّ الرسل قد جاؤوا إلى الأمم من قبل ثم جاء موسى بعد فترة من الرسل.

وقد كان المشركون لمّا بهرهم أمر الإسلام لاذوا باليهود يسترشدونهم في طرق المجادلة الدينية فكان المشركون يخلطون ما يلقّنهم اليهود من المغالطات بما استقر في نفوسهم من تضليل أمّة الشرك فيأتون بكلام يلعن بعضه بعضا، فمرّة يقولون { مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ } [36]، وهو من مجادلات الأميين، ومرّة يقولون { لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى } [48]، وهو تلقين اليهود، ومرّة يقولون { مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ } [الأنعام:91]، فكان القرآن يدمغ باطلهم بحجّة الحق بإلزامهم تناقض مقالاتهم.

والجملة تخلّص من قصة بعثة موسى عليه السلام إلى تأييد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم.

وقد أعرض القرآن عن بيان حكمة الفتر التي تسبق إرسال الرسل، واقتصر على بيان الحكمة في الإرسال عقبها لأنّه المهمّ في مقام نقض حجّة المبطلين للرسالة.

{ **الْكِتَابَ** } التوراة التي خاطب الله بها موسى عليه السلام.

البصائر: جمع بصيرة، وهي إدراك العقل، سُمِّي بصيرة اشتقاقا من بصر العين.

وجُعل الكتاب بصائر باعتبار عدّة دلائله وكثرة بيّناته، كما في قوله تعالى { لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ } [الإسراء:102].

{ **الْقُرُونَ الْأُولَى** } قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط.

القرن: الأمّة، قال تعالى { كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ } [الأنعام:6]. وفي الحديث: " **خير القرون قرني**".

{ **لِلنَّاسِ** } هم الذين أُرسل إليهم موسى من بني إسرائيل وقوم فرعون، ولمن يريد أن يهتدي بهديه مثل الذين تهوّدوا من عرب اليمن.

{ **وَهُدىً وَرَحْمَةً** } لهم ولمن يقتبس منهم، قال تعالى { إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ } [المائدة:44].

ومن جملة ما تشتمل عليه التوراة تحذيرها من عبادة الأصنام.

{ **لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** } الضمير عائد إلى الناس الذين خوطبوا بالتوراة. وفيه تعريض بالمشركين، فكأنّه يخاطبهم: فكذلك إرسال محمد لكم هدى ورحمة لعلكم تتذكّرون.

{ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ } [44].

لما بطلت شبهتهم التي حاولوا بها إحالة رسالة محمد صلى الله عليه وسلم نُقل الكلام إلى إثبات رسالته بالحجّة الدامغة، وذلك بما أعلمه الله به من أخبار رسالة موسى ممّا لا قبل له بعلمه لولا أنّ ذلك وحي إليه من الله تعالى. فهذا تخلّص من الاعتبار بدلالة الالتزام في قصة موسى إلى الصريح من إثبات نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم.

{ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ } نفي لوجوده هناك وحضوره، لذا تعيَّن أن المراد من الشاهدين أهل الشهادة، أي: الخبر اليقين، وهم علماء بني إسرائيل لأنّهم الذين أشهدهم الله على التوراة وما فيها، ألا ترى أنّه ذمّهم بكتمهم بعض ما تتضمنه التوراة من البشارة بالنبيّ صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ } [البقرة:140].

المعنى: ما كنت من أهل ذلك الزمن ولا ممّن تلقّى أخبار ذلك بالخبر اليقين المتواتر من كتبهم يومئذ فتعيّن أنّ طريق علمك بذلك وحي الله تعالى.

{ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ } هو من إضافة الموصوف إلى صفته، وأصله بالجانب الغربي. وهو الذي ذكر آنفا بوصف { شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ } [30]، أي: على بيت القبلة.

{ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ } هو أمر النبوّة لموسى.

{ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ } [45].

{ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ } استدراك متّصل بقوله تعالى { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى } [43]، وإن ما بين ذلك وبين هذا استطراد. وبيانه أنّ الآية [43] مسوقة مساق إبطال تعجّب المشركين من رسالة محمد صلى الله عليه وسلم حين لم يسبقها رسالة رسول إلى آبائهم الأوّلين، كما علمت ممّا تقدّم آنفا، فذكّرهم بأنّ الله أرسل موسى كذلك بعد فترة عظيمة، وأنّ الذين أُرسل إليهم موسى أثاروا مثل هذه الشبهة فقالوا { مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ } [36]، فكما كانت رسالة موسى عليه السلام بعد فترة من الرسل كذلك كانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم. فالمعنى: فكان المشركون حقيقيين بأن يُنظِّروا رسالة محمد برسالة موسى، ولكن الله أنشأ قرونا (أي: أمما بين زمن موسى وزمنهم) فتطاول الزمن فنسي المشركون رسالة موسى فقالوا { مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ } [ص:7]. كما قال تعالى عن اليهود حين صاروا يحرّفون الكلم عن مواضعه { وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ } [المائدة:13]، وقال عن النصارى { أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ } [المائدة:14].

{ عَلَيْهِمُ } ضمير الجمع عائد إلى المشركين لا إلى القرون.

{ وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ }.

هذا تكرير للدليل بمثل آخر مثل ما في قوله تعالى { وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ } أي: ما كنت مع موسى في وقت التكليم ولا كنت من أهل مدين إذ جاءهم موسى وحدث بينه وبين شعيب ما قصصنا عليك.

الثواء: الإقامة.

{ **عَلَيْهِمْ** } عائد إلى المشركين من أهل مكّة لا إلى أهل مدين لأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم يتلو آيات الله على المشركين.

{ **آيَاتِنَا** } الآيات المتضمّنة قصّة موسى في أهل مدين من قوله تعالى { وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ - إلى قوله - فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ } [22-29].

{ **وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ** } استدراك، أي: ما كنت حاضرا في أهل مدين فتعلم خبر موسى عن معاينة ولكنّا كنا مُرسلينك بوحينا فعلّمناك ما لم تكن تعلمه أنت ولا قومك من قبل هذا.

{ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } [46].

جانب الطور: هو الجانب الغربي، وهو الجانب الأيمن المتقدّم وصفه بذلك الوصفين.

{ **نَادَيْنَا** } حذف مفعول النداء لظهور أنّه نداء موسى من قبل الله تعالى، وهو النداء لميقات أربعين ليلة وإنزال ألواح التوراة عقب تلك المناجاة، كما حُكي في [الأعراف:142] وكان ذلك في جانب الطور إذ كان بنو إسرائيل حول الطور كما في قوله تعالى { يَا بَنِي إِسْرائيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ } [طه:80]، وهو نفس المكان الذي نودي فيه موسى للمرّة الأولى في رجوعه من ديار مدين كما تقدّم، فهذا النداء غير النداء الذي في قوله { فلما أتاها نودي من شاطئ الواد الأيمن - إلى قوله - أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ } [30]. وهذا الاحتجاج بما علمه النبيّ صلى الله عليه وسلم من خبر استدعاء موسى عليه السلام للمناجاة. وتلك القصة لم تذكر في هذه السورة وإنّما ذكرت في سور أخرى مثل سورة الأعراف.

{ **وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ** } { لَكِنْ } هنا لمجرّد الاستدراك. والواو اعتراضية. والاستدراك ناشئ عن دلالة قوله تعالى { وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ }. على معنى: ما كان علمك بذلك لحضورك، ولكن كان علمك رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك.

{ **لِتُنْذِرَ قَوْماً** } اللام للتعليل. و**القوم**: قريش والعرب، فهم المخاطبون ابتداء بالدين.

{ **مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ** } وقريش والعرب لم يأتهم نذير قبل محمد صلى الله عليه وسلم، وأمّا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فكانا نذيرين حين لم تكن قبيلة قريش موجودة يومئذ ولا قبائل العرب العدنانية، لأنّ اشتقاق نسب قريش كان من عدنان وعدنان بينه وبين إسماعيل قرون كثيرة.

وأمّا القحطانية فلم يرسل إليهم إبراهيم.

وإنّما اقتصر على قريش أو على العرب دون سائر الأمم التي بُعث إليها النبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّ المنّة عليهم أوفى إذ لم تسبق لهم شريعة من قبل فكان نظامهم مختلًّا غير مشوب بأثارة من شريعة معصومة، فكانوا في ضرورة إلى إرسال نذير.

وليس في الكلام ما يقتضي تخصيص النذارة بهم ولا ما يقتضي أنّ غيرهم ممّن أنذرهم محمد صلى الله عليه وسلم لم يأتهم نذير من قبله مثل اليهود والنصارى وأهل مدين.

{ **لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** } تقدّم آنفا نظيرها.

التذكّر: هو النظر العقلي في الأسباب التي دعت إلى حكمة إنذارهم، وهي تناهي ضلالهم فوق جميع الأمم الضالة إذ جمعوا إلى الإشراك مفاسد جمّة من قتل النفوس، وارتزاق بالغارات وبالمقامرة، واختلاط الأنساب، وانتهاك الأعراض. فوجب تذكيرهم بما فيه صلاح حالهم.

{ وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } [47].

هذا متّصل بقوله تعالى { لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } [46]، لأنّ الإنذار يكون بين يدي عذاب.

{ **لَوْلَا** } الأولى حرف امتناع لوجود، أي: انتفاء جوابها لأجل وجود شرطها. والتقدير هنا: ولولا إصابتهم بمصيبة يعقبها قولهم { رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ ... } لما عبأنا بإرسالك إليهم لأنّهم أهل عناد وتصميم على الكفر.

وجواب { لَوْلَا } محذوف دلّ عليه الكلام السابق، أي: لولا الرحمة بهم بتذكيرهم وإنذارهم لكانوا مستحقّين حلول المصيبة بهم.

{ **لَوْلَا** } الثانية حرف تحضيض، أي: أرسلت إلينا قبل أن تأخذنا بعذاب فتصلح أحوالنا.

{ **تُصِيبَهُمْ** } الضمير عائد إلى القوم الذين لم يأتهم نذير من قبل.

المصيبة: ما يصيب الإنسان، أي: يحلّ به من الأحوال، وغلب اختصاصها بما يحل بالمرء من العقوبة والأذى.

{ **بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ** } ما سلف من الشرك. الباء للسببية، أي: عقوبة كان سببها ما سبق على أعمالهم السيّئة. والمراد بها هنا عذاب الدنيا بالاستئصال ونحوه، وتقدّم عند قوله تعالى { فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ } [النساء:62]. وهي ما يجترحونه من الأعمال الفاحشة.

الأيدي: مستعار للعقول المكتسبة لعقائد الكفر. شُبّه الاعتقاد القلبي بفعل اليد تشبيه معقول بمحسوس.

وهذه الآية تقتضي أنّ المشركين يستحقّون العقاب بالمصائب في الدنيا ولو لم يأتهم رسول، لأنّ أدلة

وحدانية الله مستقرّة في الفطرة ومع ذلك فإنّ رحمة الله أدركتهم فلم يصبهم بالمصائب حتّى أرسل إليهم رسولا.

فالمشركون الذين انقرضوا قبل البعثة المحمّدية مؤاخذون بشركهم ومعاقبون عليه في الآخرة ولو شاء الله لعاقبهم عليه بالدنيا بالاستئصال ولكن الله أمهلهم، والمشركون الذين جاءتهم الرسل ولم يصدّقوهم مستحقّون عذاب الدنيا زيادة على عذاب الآخرة، قال تعالى { وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [السجدة: 21].

{ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ } [48]

الفاء فصيحة. لمّا بهرتهم آيات الرسول صلى الله عليه وسلم لم يجدوا من المعاذير إلّا ما لقّنهم اليهود وهو أن يقولوا { لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى }، أي: بأن تكون آياته مثل آيات موسى التي يقصّها عليهم اليهود، وقصّ بعضها القرآن. وإثبات المجيء إليهم استعارة بتشبيه سماع الحق بمجيء الشخص، أو هو مجاز عقلي وإنّما الجائي الرسول الذي يبلّغه عن الله، فعُبّر عنه بالحقّ لإدماج الثناء عليه في ضمن الكلام.

{ **الْحَقُّ** } هو ما في القرآن من الهدى.

{ **يَكْفُرُوا** } الضمير عائد إلى القوم من قوله { لِتُنْذِرَ قَوْماً }[46] لتتناسق الضمائر من قوله تعالى { وَلَوْلا أَنْ تُصِيبَهُم ْ} [47] وما بعده من الضمائر أمثاله.

فيشكل عليه أنّ الذين كفروا بما أوتي موسى هو قوم فرعون دون مشركي العرب، فقال بعض المفسّرين هذا من إلزام المماثل بفعل مثيله لأنّ الإشراك يجمع الفريقين فتكون أصول تفكيرهم واحدة ويتّحد بهتانهم، فإنّ القبط أقدم منهم في دين الشرك فهم أصولهم فيه والفرع يتبع أصله ويقول بقوله، أي: متماثلون في سبب الكفر والطغيان. والوجه أنّ المشركين كانوا يجحدون رسالة الرسل قاطبة.

{ **قَالُوا سِحْرَانِ** } كذا في قراءة عاصم وحمزة والكسائي وخلف على أنّه من الإخبار بالمصدر للمبالغة، أي: قالوا: هما ذوا سحر، وقرأ الجمهور { سِاحِرَانِ } تثنية ساحر.

من قول مشركي مكة في موسى وهارون لمّا سمعوا قصتهما، أو في موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وهو الأظهر وهو الذي يلتئم مع قوله تعالى بعده { وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا } [48-49].

التظاهر: التعاون.

{ **بِكُلٍّ** } التنوين عوض عن المضاف إليه فيقدّر المضاف إليه.

{ **قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** [49] **فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** [50] }.

{ **قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ** } أي: أجب كلامهم المحكي من قولهم { سِحْرَانِ - وقولهم - إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ } [48]. وفي الكلام ادماج لمدح القرآن والتوراة بأنّهما كتابان من عند الله.

والمراد بالتوراة ما اشتملت عليه الأسفار الأربعة المنسوبة إلى موسى عليه السلام من كلام الله إلى موسى، أو من اسناد موسى أمرا إلى الله لا كلّ ما اشتملت عليه تلك الأسفار، فإنّ فيها قصصا وحوادث ما هي من كلام الله. فيقال للمصحف هو كلام الله بالتحقيق ولا يقال لأسفار العهدين كلام الله إلّا على التغليب.

{ **أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } جواب { فَأْتُوا } أي: إن تأتوا به أتّبعه، وهو مبالغة في التعجيز، وذلك ممّا يوفّر دواعيهم على المحاولة فإن لم يفعلوا فقد حقّ عليهم الحقّ ووجبت عليهم المغلوبية، فكان ذلك أدلّ على عجزهم وأثبت في إعجاز القرآن.

{ **فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ** } أي: إن لم يستجيبوا لدعوتك فاعلم أنّ استمرارهم على الكفر بعد ذلك ما هو إلّا اتّباع للهوى. ويجوز أن يراد بعدم الاستجابة عدم الإتيان بكتاب أهدى من القرآن.

{ **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ** } تذييل عجيب وهو أنّه لا أحد أشدّ ضلالا من أحد اتبع هواه المنافي لهدى الله. وهو كقوله تعالى { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ } [البقرة:140].

ووجه كونه لا أضلّ منه أنّ الضلال في الأصل خطأ الطريق وأنّه يقع في أحوال متفاوتة في عواقب المشقّة أو الخطر أو الهلاك بالكلية، على حسب تفاوت شدة الضلال. وإتباع الهوى مع إلغاء أعمال النظر ومراجعته في النجاة يلقي بصاحبه إلى كثير من أحوال الضرّ بدون تحديد ولا انحصار. فلا جرم يكون هذا الاتباع المفارق لجنس الهدى أشدّ الضلال، فصاحبه أشدّ الضالين ضلالا.

{ **إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** } تمام التذييل، إذ فيه تعيين هذا الفريق المبهم الذي هو أشد الضالين ضلالا فإنّه الفريق الذين كانوا قوما ظالمين، أي: كان الظلم شأنهم وقوام قوميّتهم ولذلك عُبّر عنهم بـ { الْقَوْمَ }.

{ **وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** } [51].

عطف على جملة { وَلَوْلا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ - إلى قوله - لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى} [47-48].

{ **وَلَقَدْ** } الـ (لام) و(قد) كلاهما للتأكيد ردّا عليهم إذ جهلوا حكمة تنجيم نزول القرآن، وذُكرت لهم حكمة تنجيمه هنا بما يرجع إلى فائدتهم بقوله تعالى { لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } .

التوصيل: مبالغة في الوصل، وهو ضمٌّ بعض الشيء إلى بعض، يقال: وصل الحبل إذا ضمّ قطعه بعضها إلى بعض فصار حبلا.

{ **الْقَوْلَ** } المراد به القرآن الكريم، قال تعالى { إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ } [الطارق:13] وقال تعالى { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ } [الحاقة:40]، فالتعريف للعهد، أي: القول المعهود. وللتوصيل أحوال كثيرة فهو:

*/ باعتبار ألفاظه وُصِّل بعضه ببعض ولم ينزل جملة واحدة.

*/ باعتبار معانيه وُصِّل أصنافا من الكلام: وعداً، ووعيداً، وترغيباً، وترهيباً، وقصصاً ومواعظ وعبراً، ونصائح يعقب بعضها بعضا، وينتقل من فنّ إلى فنّ، وفي كلّ ذلك عون على نشاط الذهن للتذكّر والتدبّر.

{ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ** [52] **وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ** [53] }.

لمّا أفْهَم قوله تعالى { لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } [51] أنّهم لم يفعلوا ولم يكونوا عند رجاء الراجي عُقّب ذلك بهذه الجملة المستأنفة استئنافا بيانيا لأنّها جواب لسؤال من يسأل هل تذكّر غيرهم بالقرآن؟ أو استوى الناس في عدم التذكّر به؟ فأجيب بأنّ الذين أوتوا الكتاب من قبل نزول القرآن يؤمنون به إيمانا ثابتا.

{ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ** } المراد طائفة معهودة من أهل الكتاب شهد الله لهم بأنّهم يؤمنون بالقرآن ويتدبّرونه، وهم بعض النصارى ممّن كان بمكة مثل ورقة بن نوفل، وصهيب، وبعض يهود المدينة مثل عبد الله بن سلام ورفاعة بن رفاعة القرظي، ممّن بلغته دعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم قبل أن يهاجر النبيّ إلى المدينة فلمّا هاجر أظهروا إسلامهم.

وقيل: أريد بهم وفد من نصارى الحبشة اثنا عشر رجلا بعثهم النجاشي لاستعلام أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بمكة فجلسوا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فآمنوا به.

{ **مِنْ قَبْلِهِ** } الضمير عائد إلى القرآن.

{ **هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ** } تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي لتقوّي الخبر. وضمير الفصل مقيّد للقصر الإضافي، أي: هم يوقنون بخلاف هؤلاء الذين وصّلنا لهم القول. والمضارع للدلالة على استمرار إيمانهم وتجدّده.

{ **قَالُوا آمَنَّا بِهِ** } حكاية إيمانهم بصيغة الماضي، مع أنّهم يقولون ذلك عند أوّل سماعهم القرآن، الراجح أنّه للإشارة إلى أنّهم آمنوا به من قبل نزوله، أي: آمنوا بأنّه سيجيء رسول بكتاب مصدّق لما بين يديه، يعني إيمانا إجماليا يعقبه إيمان تفصيلي عند سماع آياته. وينظر إلى هذا المعنى قوله تعالى:

{ **إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ** }، أي مصدّقين بمجيء رسول الإسلام.

ويجوز أن يراد موحّدين مصدّقين بالرسل، فإنّ التوحيد هو الإسلام، كما قال إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى { فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } [البقرة:132].

{ **إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا** } في موقع التعليل لجملة { آمَنَّا بِهِ }.

{ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ [54] وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ [55] }.

{ **أُولَئِكَ** } التعبير عنهم باسم الإشارة للتنبيه على أنّهم أحرياء بما سيذكر بعد اسم الإشارة من أجل الأوصاف التي ذكرت قبله. وعدّ الله لهم **سبع خصال** من خصال أهل الكمال:

إحداها: أخروية، وهي { **يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ** } أي: أنّهم يؤتون أجرين على إيمانهم، أي: يضاعف لهم الثواب لأجل أنّهم آمنوا بكتابهم من قبل ثم آمنوا بالقرآن. وفي الصحيح عن أبي موسى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **" ثلاثة يؤتون أجرهم مرّتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيّه وأدركني فآمن بي واتّبعني وصدّقني فله أجران، وعبد مملوك أدّى حقّ الله تعالى وحقّ سيده فله أجران، ورجل كانت له أمة فغذّاها فأحسن غِذاءها ثم أدّبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوّجها فله أجران ".**

الثانية: الصبر، والصبر من أعظم خصال البرّ وأجمعها للمبرّات، وأعونها على الزيادة. والمراد بالصبر صبرهم على أذى أهل ملّتهم أو صبرهم على أذى قريش.

الثالثة: درؤهم السيّئة بالحسنة هي من أعظم خصال الخير وأدعاها إلى حُسن المعاشرة، قال تعالى { وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } [فصلت:34].

الرابعة: لعلّهم كانوا ينفقون على فقراء المسلمين بمكّة. ولا يخفى ما في هذه الخصلة من البرّ.

الخامسة: الإعراض عن اللغو، وهو الكلام العبث الذي لا فائدة فيه، وهذا الخُلُق من مظاهر الحكمة، إذ لا ينبغي للعاقل أن يشغل سمعه ولبّه بما لا جدوى له، وبالأولى يتنزّه عن أن يصدر منه ذلك.

السادسة: الكلام الفصل وهو قولهم { **لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ** } وهذا من أحسن ما يجاب السفهاء، وهو أقرب لإصلاحهم وأسلم من تزايد سفههم.

{ **سَلامٌ عَلَيْكُمْ** } سلام المتاركة المكنًّى بها عن الموادعة. أي: لا نعود لمخاطبتكم.

قال الحسن: كلمة: السلام عليكم، تحيّة بين المؤمنين، وعلامة الاحتمال من الجاهلين.

السابعة: ما أفصح عنه قولهم { **لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ** } أي: أنّهم يتطلّبون العلم ومكارم الأخلاق.

والجملة تعليل للمتاركة، أي: لأنّا لا نحب مخالطة أهل الجهالة بالله وبدين الحق وأهل خُلُق الجهل.

{ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } [56].

لمّا ذكر معاذير المشركين وكفرهم بالقرآن، وأعلم رسوله أنّهم يتّبعون أهواءهم وأنّهم مجرّدون عن هدى الله، ثمّ أثنى على فريق من أهل الكتاب أنّهم يؤمنون بالقرآن، وكان يُحزن النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يُعرض قريش، وهم أخصُّ الناس به، عن دعوته أقبل الله على خطاب نبيّه صلى الله عليه وسلم بما يسلّي نفسه ويزيل كمده بأن ذكَّره بأنّ الهدى بيد الله. وهو كناية عن الأمر بالتفويض في ذلك إلى الله تعالى.

والجملة استئناف ابتدائي، وافتتاحها بحرف التوكيد (إنّ) اهتمام باستدعاء إقبال النبيّ عليه الصلاة والسلام.

{ **أَحْبَبْتَ** } المفعول محذوف دّل عليه { لا تَهْدِي } والتقدير: من أحببت هديه أو اهتداءه.

وقد تضافرت الروايات على أنّ المراد بذلك أبا طالب عمّ النبيّ صلى الله عليه وسلم إذ كان النبيّ صلى الله عليه وسلم قد أغتم لموته على غير الإسلام كما في الأحاديث الصحيحة. قال الزجاج: أجمع المسلمون أنّها نزلت في أبي طالب. قال القرطبي: وهو نصّ حديث البخاري ومسلم، وقد تقدّم في [التوبة:113].

وهذا من العام النازل على سبب خاص فيعمّه وغيره، وهو يقتضي أن تكون هذه السورة نزلت عقب موت أبي طالب، وكانت وفاة أبي طالب سنة ثلاث قبل الهجرة، أو كان وضعها هنا بتوقيف خاص.

{ **وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ** } مفعول فعل المشيئة محذوف لدلالة ما قبله عليه، أي: من يشاء اهتداءه. والمشيئة تعرف بحصول الاهتداء وتتوقف على ما سبق من علمه وتقديره.

{ **وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** } إيماء إلى ذلك، أي: هو أعلم بالمهتدين في أحوالهم ومقادير استعدادهم على حسب ما تهيّأت إليه فطرهم من صحيح النظر وقبول الخير واتقاء العاقبة والانفعال لما يُلقى إليها من الدعوة ودلائلها. ولكلّ ذلك حال ومدى.

{ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } [57].

هذه بعض معاذيرهم قالها فريق منهم ممّن غلبه الحياء على أن يكابر ويجاهر بالتكذيب، وغلبه إلف ما هو عليه من حال الكفر على الاعتراف بالحق، فاعتذروا بهذه المعذرة.

روي عن ابن عباس أنّ الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف وناسا من قريش جاؤوا النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال الحارث: " إنّا لنعلم أنّ قولك حق ولكنّا نخاف إن اتّبعنا الهدى معك ونؤمن بك أن يتخطّفنا العرب من أرضنا ولا طاقة لنا بهم وإنّما نحن أكلة رأس ". (أي: أنَّ جمْعنا يُشبعه الرأس الواحد من الإبل، وهذه الكلمة كناية عن القلّة).

التخطّف: مبالغة في الخطف، وهو انتزاع شيء بسرعة، وتقدّم في قوله تعالى { تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ } [الأنفال: 26].

{ **أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً** } ردّ الله عليهم بأنّ قريشا مع قلّتهم عَدًّا وعُدَّة أتاح الله لهم بلدا هو حرم آمن يكونون فيه آمنين من العدو على كثرة قبائل العرب واشتغالهم بالغارة على جيرتهم، وجبى إليهم ثمرات كثيرة قرونا طويلة، فلو اعتبروا لعلموا أنّ لهم منْعة ربّانية وأنّ الله الذي أمَّنهم في القرون الخالية يؤمّنهم إن استجابوا لله ورسوله. والاستفهام إنكار أن يكون الله لم يمكّن لهم حرما. ووجه الإنكار أنهم نُزّلوا منزلة من ينفي أنّ ذلك الحرم من تمكين الله. وهذا الإنكار يقتضي توبيخا.

التمكين: الجعل في مكان، وتقدّم في قوله تعالى { مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ } [الأنعام: 6]، وقوله تعالى في أوّل هذه السورة { وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ] [6]. واستُعمل هنا مجازا في الإعداد والتيسير.

الجبي: الجمع والجلب ومنه جباية الخراج.

{ **كُلُّ شَيْءٍ** } عام في كلّ ذي ثمرة، وهو عموم عرفي، أي: ثمر كلّ شيء من الأشياء المثمرة المعروفة في بلادهم والمجاورة لهم، أو استعمل { كُلُّ } في معنى الكثرة.

{ **رِزْقاً مِن لَّدُنَّا** } حال من { ثَمَرَاتُ }، أي: من عندنا، والعندية مجاز في التكريم والبركة.

وقد حصل في خلال الرد إدماج للامتنان عليهم بهذه النعمة ليحصل لهم وازعان عن الكفر بالنعم: وازع إبطال معذرتهم عن الكفر، ووازع التذكير بنعمة المكفور به.

{ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** } الاستدراك متعلّق بالكلام المسوق مساق الردّ على قولهم { إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا} إذ التقدير: أنّ تلك نعمة ربانية ولكن أكثرهم لا علم لهم.

{ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ } [58].

عطف على جملة { أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً } [57] باعتبار ما تضمّنته من الإنكار والتوبيخ، فإنّ ذلك يقتضي التعرّض للانتقام شأن الأمم التي كفرت بنعم الله، فهو تخويف لقريش من سوء عاقبة أقوام كانوا في مثل حالهم من الأمن والرزق فغمطوا النعمة وقابلوها بالبطر.

البطر: التكبّر. وفعله قاصر من باب فرح. وضُمِّن الفعل معنى (كفرت) لأنّ البطر، وهو التكبُر، يستلزم عدم الاعتراف بما يُسدى إليه من الخير. أي: كفرت نعمة عيشها.

المعيشة: هنا اسم مصدر بمعنى العيش والمراد حالته، فهو على حذف مضاف دلّ عليه المقام، ويُعلم أنّها حالة حسنة من قوله تعالى { بَطِرَتْ }، وهي حالة الأمن والرزق.

{ **لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ** } خبر عن اسم الإشارة. والتقدير: فمساكنهم لم تسكن من بعدهم إلّا قليلا.

السكنى: الحلول في البيت ونحوه.

والمعنى: لم يتركوا فيها خلفا لهم. كناية عن انقراضهم عن بكرة أبيهم.

{ **إِلَّا قَلِيلاً** } احتراس. أي: إلّا إقامة المارين بها المعتبرين بهلاك أهلها.

السكن القليل: هو مطلق الحلول بغير نيّة إطالة، فهي إلمام لا سكنى. أي: أنّ الله قدر بقاءها خالية لتبقى عبرة وموعظة بعذاب الله في الدنيا. فإطلاق السكنى على ذلك مشاكلة ليتأتّى الاستثناء.

وبهذه الآية يظهر تأويل قول النبيّ صلى الله عليه وسلم حين مر في طريقه إلى تبوك بحجر ثمود فقال: " **لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبك مثل ما أصابهم إلّا أن تكونوا باكين** ". أي: خائفين.

{ **وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ** } قصر إرث تلك المساكن على الله تعالى حقيقي، أي: لا يرثها غيرنا. وهو كناية عن حرمان تلك المساكن من الساكن. وتلك الكناية رمز إلى شدّة غضب الله تعالى على أهلها الأوّلين بحيث تجاوز غضبه الساكنين إلى نفس المساكن فعاقبها بالحرمان من بهجة المساكن، لأن بهجتها سكّانها.

{ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ } [59].

أعقب الاعتبار بالقرى المُهْلَكة ببيان أشراط هلاكها وسببه استقصاء للإعذار لمشركي العرب، فبيّن لهم أن ليس من عادة الله تعالى أن يهلك القرى حتّى يبعث رسولا في القرية الكبرى منها، لأنّ القرية الكبرى هي مهبط أهل القرى والبوادي المجاورة لها فلا تخفى دعوة الرسول فيها، ولأنّ أهلها قدوة لغيرهم.

{ **وَمَا كَانَ** } من صيغ الجحود يفيد رسوخ هذه العادة واطّرادها، كما تقدّم في نظائره منها قوله تعالى { مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ } [آل عمران:79] وقوله تعالى { وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ } [يونس:37].

{ **رَبُّكَ** } إسناد الخبر إلى الله بعنوان ربوبيته للنبيّ صلى الله عليه وسلم إيماء إلى أنّ المقصود بهذا الإنذار هم أمّة محمد الذين كذّبوا، فالخطاب للنبيّ عليه السلام لهذا المقصد.

{ **الْقُرَى** } هي المنازل لجماعات من الناس ذوات البيوت المبنيّة، وتقدّم عند قوله تعالى { وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ } [البقرة:58]. وخُصَّت بالذكر لأنّ العبرة بها أظهر لأنّها إذا أُهْلِكت بقيت آثارها وأطلالها ولم ينقطع خبرها من الأجيال الآتية بعدها. وقرى بلاد العرب كثيرة مثل مكّة وجدّة ومنى والطائف ويثرب وما حولها من القرى، وكذلك قرى اليمن وقرى البحرين.

{ **أُمِّهَا** } أم القرى هي القرية العظيمة منها. وكانت مكّة أعظم بلاد العرب شهرة وأذكرها بينهم وأكثرها مارة وزوّارا لمكان الكعبة فيها والحجّ لها.

{ **عليهم** } الضمير عائد إلى المعلوم من القرى وهو أهلها كقوله تعالى { وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا } [يوسف:82]، ومنه أيضا قوله تعالى { فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ } [العلق:14].

{ **آيَاتِنَا** } التفات إلى ضمير المتكلّم للإشارة إلى أنّ الآيات من عند الله وأنّ الدين دين الله.

{ **وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ** } بيَّن سبب الإهلاك. أي: ما كان من عادتنا أن نهلك أهل القرى بالإشراك، فالإشراك سبب الإهلاك وإرسال رسول شرطه، فيتم ظلمهم بتكذيبهم الرسول.

{ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ } [60]

لمّا ذكّرهم الله بنعمه عليهم تذكيرا أُدْمِج في خلال الردّ على قولهم { إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا} [57] بقوله تعالى { يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا } [57] أعقبه بأنّ كلّ ما أوتوه من نعمة هو من متاع الحياة الدنيا كالأمن والرزق، ومن زينتها كاللباس والأنعام والمال، وأمّا ما عند الله من نعيم الآخرة خير من ذلك وأبقى، لئلّا يحسبوا أنّ ما هم فيه من الأمن والرزق هو الغاية المطلوبة فلا يتطلّبوا ما به تحصيل النعيم العظيم الأبدي، وتحصيله بالإيمان. هذا وجه مناسبة هذه الآية لما قبلها.

{ **وَمَا أُوتِيتُمْ** } التفت الكلام من الغيبة من قوله تعالى { أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً} إلى الخطاب لأنّ ما تقدّم من الكلام أوجب توجيه التوبيخ مواجهة إليهم.

{ **مِنْ شَيْءٍ** } بيان، والمراد المنافع، كما دلّ عليه المقام لأنّ الإيتاء شائع في إعطاء ما ينفع.

المتاع: ما يُنتفع به زمنا ثم يزول.

الزينة: ما يُحسِّن الأجسام.

{ **وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى** } المراد: أنّ أجناس الآخرة خير ممّا أوتوه في كمال أجناسها، وأمّا كونه أبقى فهو بمعنى الخلود.

{ **أَفَلا تَعْقِلُونَ** } تفريع، استفهام توبيخي وتقريري على عدم عقل المخاطبين لأنّهم لمّا لم يستدلوا بعقولهم على طريق الخير نزلوا منزلة من أفسد عقله.

{ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ } [61].

أحسب أن موقع (فاء) التفريع هنا أنّ ممّا أومأ إليه قوله تعالى { وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [60] ما كان المشركون يتبجّحون به على المسلمين من وفرة الأموال ونعيم الترف في حين كان معظم المسلمين فقراء ضعفاء، قال تعالى { وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ } [المطففين:31] أي: منعَّمين،

وقال تعالى { وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً } [المزمل:11].

فلمّا أنبأهم الله بأنّ ما هم فيه من الترف إن هو إلّا متاع قليل قابل ذلك بالنعيم الخالد الذي أُعدّ للمؤمنين.

{ **أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ** } هم الذين وعدهم الله الوعد الحسن وهم المؤمنون.

{ **كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ** } هم الكافرون. والاستفهام مستعمل في إنكار المشابهة والمماثلة التي أفادها كاف التشبيه.

فالمعنى: أنّ الفريقين ليسوا سواء إذ لا يستوي أهل نعيم عاجل زائل وأهل نعيم آجل خالد.

{ **فَهُوَ لاقِيهِ** } معترضة لبيان أنّه وعد محقّق، والفاء للتسبّب.

{ **ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ** } عطف على جملة { مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } فهي من تمام صلة الموصول. و{ ثُمَّ } للتراخي الرتبي لبيان أنّ رتبة مضمونها في الخسارة أعظم من مضمون التي قبلها، أي: لم تقتصر خسارتهم على حرمانهم من نعيم الآخرة بل تجاوزت إلى التعويض بالعذاب الأليم.

{ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ [62] قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ [63] }.

تخلُّصٌ من إثبات بعثة الرسل وبعثة محمد صلى الله عليه وسلم إلى إبطال الشركاء لله.

{ **يُنَادِيهِمْ** } الضمير المرفوع عائد إلى الله تعالى. وضمير الجمع المنصوب عائد إلى المتحدَّث عنهم في الآيات السابقة ابتداء من قوله تعالى { وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا } [57]، فالمنادَون جميع المشركين كما اقتضاه قوله تعالى { أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ }.

{ **أَيْنَ شُرَكَائِيَ** } الاستفهام ظاهره استفهام عن المكان الذي يوجد فيه الشركاء ولكنّه مستعمل كناية عن انتفاء وجود الشركاء المزعومين يومئذ.

{ **قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ** } جُرّدت الجملة عن حرف العطف لأنّها وقعت في موقع المحاورة فهي جواب عن قوله تعالى { أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ }.

والذين تصدّوا للجواب هم أئمة أهل الشرك من أهل مكة مثل أبي جهل وأمية بن خلف وسدنة أصنامهم. ولذلك عبّر عنهم بـ { الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ } ولم يُعبّر عنهم بـ (قالوا).

{ **حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ** } يجوز أن يكون بمعنى تحقّق وثبت، ويكون القول قولا معهودا وهو ما عهد للمسلمين من قوله تعالى { حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } [السجدة:13]، وقوله تعالى { أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ } [الزمر:19].

ويجوز أن يكون { حَقَّ } بمعنى وجب وتعين، أي: حقّ عليهم الجواب لأنّهم علموا أنّ قوله تعالى { فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ } موجّه إليهم فلم يكن لهم بد من إجابة ذلك السؤال.

{ **رَبَّنَا** } ابتدأوا جوابهم بتوجيه النداء إلى الله بعنوان أنّه ربّهم نداء أريد منه الاستعطاف بأنّه الذي خلقهم اعترافا منهم بالعبودية وتمهيدا للتنصّل من أن يكونوا هم المخترعين لدين الشرك.

{ **هَؤُلاءِ** } الإشارة إلى بقية المنادين معهم قصدا لأن يتميّزوا عمن سواهم من أهل الموقف وذلك بإلهام من الله ليزدادوا رعبا وأن يكون لهم مطمع في التخليص.

{ **الَّذِينَ أَغْوَيْنَا** } خبر عن اسم الإشارة وهو اعتراف بأنّهم أغووهم.

{ **أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا** } استئناف بياني لجملة { الَّذِينَ أَغْوَيْنَا } أرادوا بيان الباعث لهم على إغواء إخوانهم وهو أنّهم بثوا الغواية المستقرّة في نفوسهم وظنّوا أنّ ذلك الاعتراف يخفّف عنهم من العذاب بقرينة قولهم:

{ **تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ** } الجملة استئناف.

التبرّؤ: تفعّل من البراءة. فالتبرّؤ: معالجة إثبات البراءة وتحقيقها. فالمعنى هنا تحقّق التبرّؤ لديك، والمتبرَّأ منه هو مضمون جملة { مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ }، فهي بيان لإجمال التبرّؤ.

والمقصود: أنّهم يتبرّؤون من أن يكونوا هم المزعوم أنّهم شركاء، وإنّما قصارى أمرهم أنهم مُضِلّون، وكان هذا المقصد إلجاء من الله إيّاهم ليعلنوا تنصّلهم من إدّعاء أنهم شركاء على رؤوس الملأ، أو حَمَلهم على ذلك ما يشاهدون من فظاعة عذاب كل من ادّعى المشركون له الإلهية.

وتقديم { إِيَّانَا } على { يَعْبُدُونَ } دون أن يقال يعبدوننا للاهتمام بهذا التبرّؤ مع الرعاية على الفاصلة.

{ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ} [64].

هذا موجّه إلى جميع الذين نودوا بقوله تعالى { أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ } [62] فإنّ ذلك النداء كان توبيخا لهم على اتخاذهم آلهة شركاء لله تعالى. فلمّا شعروا بالمقصد من ندائهم وتصدّى كبراؤهم للاعتذار عن اتخاذهم أُتْبِع ذلك بهذا القول.

{ **وَقِيلَ** } أسند الفعل إلى المجهول لأنّ الفاعل معلوم ممّا تقدّم، أي: وقال الله.

{ **ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ** } الأمر مستعمل في الإطماع ليكون التأييس لاحقا أوقع في النفوس.

وإضافة الشركاء إلى ضمير المخاطبين لأنّهم الذين ادعوا لهم الشركة كما في قوله تعالى { الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ } [الأنعام:94].

الدعاء: دعاء الاستغاثة حسب زعمهم أنّهم شفعاؤهم عند الله في الدنيا.

{ **فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ** } محل التأييس المقصود من الكلام.

{ **وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ** } للمفسّرين في تفسيرها أربعة وجوه، ووجه خامس هو من عندي:

<u>الوجه الأوّل</u>: أن يكون عطفا على جملة { فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ }. والرؤية بصرية، والعذاب عذاب الآخرة. وعلى هذا تكون جملة { لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ } مستأنفة ابتدائية مستقلة عن جملة { وَرَأَوُا الْعَذَابَ }.

الوجه الثاني: أن تكون الواو للحال والرؤية أيضا بصرية والعذاب عذاب الآخرة. أي: وقد رأوا العذاب فارتبكوا في الاهتداء إلى سبيل الخلاص فقيل لهم: ادعوا شركاءكم لخلاصكم، وتكون جملة { لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ } كذلك مستأنفة ابتدائية.

الوجه الثالث: أن تكون الرؤية علمية، وحذف المفعول الثاني اختصارا، والعذاب عذاب الآخرة.

والمعنى: وعلموا العذاب حَائِقًا بهم، والواو للعطف أو الحال. وجملة { لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ } مستأنفة استئنافا بيانيا، كأنّ سائلا سأل: ماذا صنعوا حين تحقّقوا أنّهم معذّبون؟ فأجيب بأنّهم لو أنّهم كانوا يهتدون سبيلا لسلكوه ولكنهّم لا سبيل لهم إلى النجاة.

{ **لَوْ** } على هذه الوجوه الثلاثة حرف شرط وجوابها محذوفا دلّ عليه حذف مفعول { يَهْتَدُونَ }، أي: يهتدون خلاصا أو سبيلا. والتقدير: لتخلّصوا منه.

{ **يَهْتَدُونَ** } صيغة المضارع دالة على التجدّد فالاهتداء منقطع منهم، وهو كناية عن عدم الاهتداء من أصله.

الوجه الرابع: أن تكون { لَوْ } للتمنّي المستعمل في التحسّر عليهم. والمراد اهتداؤهم في حياتهم الدنيا كيلا يقعوا في هذا العذاب، وفعل { كَانُوا } حينئذ في موقعه الدال على الاتصاف بالخبر في الماضي، وصيغة المضارع في { يَهْتَدُونَ } لقصد تجدّد الهدى المتحسّر على فواته عنهم، فإنّ الهدى لا ينفع صاحبه إلّا إذا استمر إلى آخر حياته.

وجه خامس عندي: أن يكون المراد بالعذاب عذاب الدنيا، والكلام على حذف مضاف تقديره: ورأوا آثار العذاب. والرؤية بصرية، أي: وهم رأوا العذاب في حياتهم، أي: رأوا آثار عذاب الأمم الذين كذّبوا الرسل. وهذا في معنى قوله تعالى { وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ } [إبراهيم:45] وجملة { لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ } شرط جوابه محذوف. أي: بالاتعاظ وبالاستدلال بحلول العذاب في الدنيا على أنّ وراءه عذابا أعظم منه.

فهذه عدة معان يفيدها لفظ الآية، وكلّها مقصود، فالآية من جوامع الكلم.

{ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ [65] فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ [66] }.

{ **وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ** } هذا كقوله تعالى { وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ } [62]، كُرّر الحديث عن ذلك اليوم باعتبار تعدّد ما يقع فيه، لأنّ مقام الموعظة يقتضي الإطناب في تعداد ما يُستحق به التوبيخ.

{ **مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ** } في الدعوة إلى توحيد الله وإبطال الشركاء. والاستفهام صوري مقصود منه إظهار بلبلتهم. والمراد بـ { الْمُرْسَلِينَ } محمد صلى الله عليه وسلم كما في قوله تعالى { فَكَذَّبُوا رُسُلِي }

[سبأ:45]. وله نظائر في القرآن منها قوله تعالى { ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا } [يونس:103] يريد محمدا صلى الله عليه وسلم، وقوله تعالى { كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ } [الشعراء:105].

وإنّما كذّب كلّ فريق من أولئك رسولا واحدا. والذي اقتضى صيغة الجمع أنّ جميع المكذّبين إنّما كذّبوا رسلهم بعلّة استحالة رسالة البشر إلى البشر، فهم إنّما كذّبوا بجنس المرسلين.

{ **فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ** } خفيت عليهم الأنباء ولم يهتدوا إلى جواب وذلك من الحيرة والوهل فإنّهم لمّا نودوا { أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ } [62] انبرى رؤساؤهم فلفّقوا جوابا عَدَلوا به عن جادة الاستفهام إلى إنكار أن يكونوا هم الذين سنّوا لقومهم عبادة الأصنام، فلمّا سئلوا عن جواب دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم عَيُوا عن الجواب فلم يجدوا مغالطة لأنّهم لم يكونوا مسبوقين من سلفهم بتكذيب الرسول فإنّ الرسول بعث إليهم.

{ **عَمِيَتْ** } خفيت عليهم، وهو مأخوذ من عمى البصر لأنّه يجعل صاحبه لا يتبين الأشياء، فتصرّفت من العمى معان كثيرة متشابهة يبيّنها تعدية الفعل، كما عُدِّي هنا بحرف (على) المناسب للخفاء. يقال: عمي عليه الطريق. إذا لم يعرف ما يوصل منه.

الأنباء: جمع نبأ، وهو الخبر عن أمر مهم.

{ **فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ** } تفريع، أي: لا يسأل بعضهم بعضا، وذلك من شدّة البهت والبغت على الجميع أنّهم لا مُتنصّل لهم من هذا السؤال فوُجموا.

وإذ كان الاستفهام لتمهيد أنّهم محقوقون بالعذاب عُلم من عجزهم عن الجواب أنّهم قد حقّ عليهم العذاب.

{ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ } [67].

تخلّل بين حال المشركين ذكر حال الفريق المقابل وهو فريق المؤمنين على طريقة الاعتراض، لأنّ الأحوال تزداد تميّزا بذكر أضدادها.

{ **فَأَمَّا** } الفاء للتفريع على ما أفاده قوله تعالى { فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ } من أنّهم حقّ عليهم العذاب. ولمّا كانت (أمّا) تفيد التفكيك والفصل بين شيئين أو أشياء في حكم فهي مفيدة هنا أنّ غير المؤمنين خاسرون في الآخرة وذلك ما وقع الإيماء إليه بقوله تعالى { فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ } [66]، فإنّه يُكتفى بتفصيل أحد الشيئين عن ذكر مقابله.

التوبة: هنا الإقلاع عن الشرك والندم على تقلُّده.

{ **وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً** } عطف الإيمان على التوبة لأنّ المقصود حصول إقلاع عن عقائد الشرك وإحلال عقائد الإسلام محلّها ولذلك عُطف عليه { وَعَمِلَ صَالِحاً } لأنّ بعض أهل الشرك كانوا شاعرين بفساد دينهم وكان يصدّهم عن تقلّد شعائر الإسلام أسباب مغرية من الأعراض الزائلة التي فُتنوا بها.

{ **فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ** } ترجٍّ لتمثيل حالهم بحال من يُرجى منه الفلاح. والصيغة أشدّ في إثبات الفلاح من: أن يفلح، كما تقدّم غير مرة.

{ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } [68].

هذا من تمام جملة الاعتراض { فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً } [67]، وظاهر عطفه على ما قبله أنّ معناه آيل إلى التفويض إلى حكمة الله تعالى في خلق قلوب منفتحة للاهتداء ولو بمراحل، وقلوب غير منفتحة له فهي قاسية صمّاء، وأنه الذي اختار فريقا على فريق.

{ **وَرَبُّكَ** } في ذكر الله تعالى بعنوان كونه ربّا للنبيّ صلى الله عليه وسلم إشارة إلى أنّه اختاره لأنّه ربّه وخالقه، فهو قد علم استعداده لقبول رسالته.

في أسباب النزول للواحدي : " قال أهل التفسير نزلت جوابا للوليد بن المغيرة حين قال فيما أخبر الله عنه { وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } [الزخرف:31] ". يعنون بذلك الوليد بن المغيرة من أهل مكة، وعروة بن مسعود الثقفي من أهل الطائف. وهما المراد بالقريتين.

فإذا كان اتصال معناها بقوله تعالى { مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ } [65]، فإنّ قولهم { لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } هو من جملة ما أجابوا به دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم.

أي: ربك وحده لا أنتم تختارون من يرسل إليكم. وهذا في معنى قوله تعالى { اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ } [الأنعام:124]، وأن ليس ذلك لاختيار الناس ورغباتهم.

{ **مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ** } استئناف مؤكِّد لمعنى القصر لئلّا يُتوهّم أنّ الجملة قبله مفيدة مجرّد التقوّي.

وصيغة { مَا كَانَ } تدل على النفي أشدّ ممّا يفيد لو قيل: ما لهم الخيرة.

{ **الْخِيَرَةُ** } (بكسر الخاء وفتح التحتية) اسم لمصدر الاختيار مثل الطِّيَرة اسم لمصدر التطيّر.

{ **لَهُمُ** } اللام للملك، أي: ما كانوا يملكون اختيارا في المخلوقات حتّى يقولوا { لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } [الزخرف:31].

{ **سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ** } استئناف ابتدائي لإنشاء تنزيه الله وعلوّه على طريقة الثناء عليه بتنزُّهه عن كل نقص وهي معترضة بين المتعاطفين.

{ **سُبْحَانَ اللَّهِ** } أضيف { سُبْحَانَ } إلى اسمه العلم دون أن يقال: سبحانه، بعد أن قال { وَرَبُّكَ يَعْلَمُ } [69] لأنّ اسم الجلالة مختصّ به تعالى وهو مستحقّ للتنزيه بذاته.

{ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ } [69].

عطف على { وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ } [68]، أي: وكما أنّه الخالق والمختار على الحقيقة فهو أيضا يعلم ما تخفيه صدورهم، أي: نفوسهم، وما يعلنونه من أقوالهم وأفعالهم.

{ **وَرَبُّكَ** } في إحضار اسم الجلالة إيماء إلى أنّ ممّا تكنّه صدورهم بغض محمد صلى الله عليه وسلم. وحيث أجريت عليهم ضمائر العقلاء فقد تعين أنّ المقصود البشر من المخلوقات، وهم المقصود من العموم في { مَا يَشَاءُ } [68] فبحسب ما يعلم منهم يختارهم ويجازيهم، فحصل بهذا إيماء إلى علة الاختيار وإلى الوعد والوعيد. وهذا منتهى الإيجاز.

وتقدّم نظير هذه الآية في قوله تعالى { وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ } [النمل:74].

{ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [70].

عطف على الجمل السابقة. والمقصود من الآية قوله تعالى { وَلَهُ الْحُكْمُ } وإنّما قدّم عليه ما هو دليل على أنّه المنفرد بالحكم مع إدماج صفات عظمته الذاتية المقتضية افتقار الكلّ إليه.

{ **وَهُوَ اللَّهُ** } ابتدئت الجملة بضمير الغائب ليعود إلى المتحدّث عنه بجميع ما تقدّم من قوله تعالى { وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا } [58] إلى هنا، أي: الموصوف بتلك الصفات العظيمة والفاعل لتلك الأفعال الجليلة. فضمير الغيبة مبتدأ واسم الجلالة خبره، أي: فلا تلتبسوا فيه ولا تخطئوا بادعاء ما لا يليق باسمه. وقريب منه قوله تعالى { فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ } [يونس:64].

{ **لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ** } خبر ثان عن ضمير الجلالة، وفي الخبر الثاني زيادة تقرير لمدلول الخبر الأوّل فإنّ اسم الجلالة اختص بالدلالة على الإله الحقّ إلّا أنّ المشركين حرّفوا أو أثبتوا الإلهية للأصنام مع اعترافهم بأنّها إلهية دون إلهية الله تعالى، فكان هذا إبطال للشرك بعد إبطاله بحكاية تلاشيه عن أهل ملته يوم القيامة بقوله تعالى { وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ } [64].

{ **لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ** } استدلال على انتفاء إلهية غيره بحجّة أنّ الناس مؤمنهم وكافرهم لا يحمدون في الدنيا إلّا الله فلا تسمع أحدا من المشركين يقول: الحمد للعُزَّى.

{ **الْأُولَى** } هي الدنيا، وتخصيص الحمد به في الدنيا اختصاص لجنس الحمد به لأّن حمد غيره مجاز. وأّمّا الحمد في { **الْآخِرَةِ** } فمقصور على الله، فهو ما في قوله { يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ } [الإسراء:52].

{ **وَلَهُ الْحُكْمُ** } اللام فيه أيضا للملك. والتقديم للاختصاص أيضا. والاختصاص مستعمل في حقيقته ومجازه لأنّ الحكم في الدنيا يثبت لغير الله على المجاز، وأمّا الحكم في الآخرة فمقصور على الله.

الحكم: القضاء، وهو تعيين نفع أو ضرّ للغير. وحذف المتعلّق لدلالة قوله تعالى { فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ } عليه، أي: له الحكم في الدارين.

{ **وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** } تخصيص بعد تعميم، فبعد أن أثبت لله كلّ حمد وكلّ حكم ألزمهم إثبات البعث. وتقديم المجرور للرعاية على الفاصلة وللاهتمام بالانتهاء إليه، أي: إلى حكمه.

{ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تسمعون** [71] **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ** [72] }.

انتقال من الاستدلال على انفراده تعالى بالإلهية بصفات ذاته إلى الاستدلال على ذلك ببديع مصنوعاته، وفي ضمن هذا الاستدلال إدماج الامتنان على الناس وتعريض بكفر المشركين جلائل نعمه.

ومن أبدع الاستدلال أن اختير للاستدلال على وحدانية الله هذا الصنع العجيب المتكرّر كل يوم مرتين، والذي يستوي في إدراكه كلّ مميّز، والذي هو أجلى مظاهر التغير في هذا العالم، فهو دليل الحدوث.

{ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ** } سيق إليهم هذا الاستدلال بأسلوب تلقين النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يقوله لهم اهتماما بهذا التذكير. والاستفهام تقريري، والرؤية قلبية.

{ **إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ** } الاستدلال بعبرة خلق النور، فلذلك فرض استمرار الليل، والمقصود ما بعده وهو قوله تعالى { مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ }.

السرمد: الدائم الذي لا ينقطع. قال في الكشاف: من السرد وهو المتابعة.

{ **إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ** } المراد بالغاية إحاطة أزمنة الدنيا وليس المراد انتهاء جعله سرمدا.

{ **مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ** } الاستفهام إنكاري. وهم معترفون بهذا الانتفاء وأنّ خالق الليل والنهار هو الله تعالى لا غيره.

الضياء: النور. وهو في هذا العالم من شعاع الشمس، قال تعالى { هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً } [يونس:5]. وعبّر بالضياء دون النهار لأنّ ظلمة الليل قد تخف قليلا بنور القمر فكان ذكر الضياء إيماء إلى ذلك.

{ **يَأْتِيكُمْ** } في تعدية الفعل في الموضعين إلى ضمير المخاطبين إيماء إلى أنّ إيجاد الضياء وإيجاد الليل نعمة على الناس. وهذا إدماج للامتنان في أثناء الاستدلال على الانفراد بالإلهية.

{ **أَفَلا تَسْمَعُونَ** } وإذ قد استمر المشركون على عبادة الأصنام بعد سطوع هذا الدليل وقد علموا أنّ الأصنام لا تقدر على إيجاد الضياء جُعلوا كأنّهم لا يسمعون هذه الآيات التي أقامت الحجّة الواضحة على فساد معتقدهم، ففُرّع على تلك الحجة الاستفهام الإنكاري عن انتفاء سماعهم. وليس القول تذييلا.

{ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ** } كُرّر الأمر بالقول في مقام التقرير لأنّ التقرير يناسبه التكرير مثل مقام التوبيخ ومقام التهويل. وعُكس الاستدلال الثاني بفرض أن يكون النهار، وهو انتشار نور الشمس، سرمدا بأن خلق الله الأرض غير كروية الشكل بحيث يكون شعاع الشمس منتشرا على جميع سطح الأرض دوما.

{ **تَسْكُنُونَ فِيهِ** } إدماج للمنّة في أثناء الاستدلال للتذكير بالنعمة المشتملة على نعم كثيرة، وتلك هي نعمة السكون فيه، فإنّها تشمل لذة الراحة، ولذة الخلاص من الحر، ولذة استعادة النشاط، ولذة الأمن من العدو.

ولم يوصف الضياء بشيء لكثرة منافعه واختلاف أنواعها.

{ **أَفَلا تُبْصِرُونَ** } تفرَّع على هذا الاستدلال أيضا تنزيلهم منزلة من لا يبصرون الأشياء الدالة على عظيم صنع الله وتفرّده بصنعها وهي منهم بمرأى الأعين. وليس القول تذييلا.

{ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [73].

تصريح بنعمة تعاقب الليل والنهار على الناس، وذلك ممّا دلّت عليه الآية السابقة بطريق الإدماج.

والجملة معطوفة على السابقة.

{ **وَمِنْ رَحْمَتِهِ** } تبعيضية، فإنّ رحمة الله بالناس حقيقة كلّية لها تحقّق في وجود أنواعها وآحادها العديدة. والمقصود إظهار أنّ هذا رحمة من الله وأنّه بعض من رحمته ليتذكّروا نعما أخرى.

{ **لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ** } طريقة اللف والنشر المعكوس، فيعود { لِتَسْكُنُوا فِيهِ } إلى الليل، ويعود { وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ } إلى النهار، والتقدير: ولتبتغوا من فضله فيه. والـ (لام) في كليهما للتعليل.

الابتغاء من فضل الله: كناية عن العمل والطلب لتحصيل الرزق، قال تعالى { وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ } [المزمل:20]. والرزق فضل من الله. وتقدّم في قوله تعالى { لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ } [البقرة:198].

{ **وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** } عطف على العلتين رجاء شكرهم. فالشأن أن يتذكّروا بذلك مظاهر الرحمة الربّانية وجلائل النعم فيشكروه بإفراده بالعبادة. وهذا تعريض بأنّهم كفروا فلم يشكروا.

{ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ [74] وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كَانُوا يَفْتَرُونَ [75] }.

{ **وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ** } أُعيدت الجملة مرة ثانية بعد { وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ } [65] لأنّ التكرير من مقتضيات مقام التوبيخ، فأعيد ذكر أنّ الله يناديهم بهذا الاستفهام التقريعي.

فظاهر الآية أنّ ذلك النداء يُكرّر يوم القيامة. ويحتمل أنّه إنّما كُرّرت حكايته وأنّه نداء واحد يقع عقبه جواب الذين حق عليهم القول من مشركي العرب، ويقع نزع شهيد من كلّ أمّة عليهم فهو شامل لمشركي العرب وغيرهم من الأمم.

{ **وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً** } صيغة الماضي إمّا للدلالة على تحقيق وقوعه حتّى كأنّه قد وقع، وإمّا لأنّ الواو للحال وهي يعقبها الماضي بـ (قد) وبدون (قد)، أي: يوم يكون ذلك النداء وقد أخرجنا من كلّ أمّة شهيدا عليهم وأخرجنا من هؤلاء شهيدا هو محمد صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى { وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي

كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاءِ } [النحل:89]. وشهيد كلّ أمّة رسولها.

النزع: جذب شيء من بين ما هو مختلط به، واستعير هنا لإخراج بعض من جماعة كما في قوله تعالى { ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيّاً } [مريم:69].

وذلك أنّ الأمم تأتي إلى المحشر تتبع أنبياءها. كما ورد في الحديث: **" يأتي النبيّ معه الرهط والنبيّ وحده ما معه أحد "**.

{ **وَنَزَعْنَا** } التُفت من الغيبة إلى التكلّم لإظهار عظمة المتكلّم.

{ **هَاتُوا** } المخاطب هم المشركون، أي: هاتوا برهانكم على إلهية أصنامكم. وتقدّم في قوله تعالى { قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [البقرة:111] .والأمر مستعمل في التعجيز.

{ **فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ** } لمّا علموا عجزهم من إظهار برهان لهم في جعل الشركاء لله أيقنوا أنّ الحقّ مستحق لله تعالى، أي: علموا علم اليقين أنّهم لا حقّ لهم في إثبات الشركاء وأنّ الحق لله إذ كان ينهاهم عن الشرك على لسان الرسول في الدنيا.

{ **وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كَانُوا يَفْتَرُونَ** } يشمل ما كانوا يكذبونه من المزاعم في إلهية الأصنام.

الضلال: أصله عدم الاهتداء إلى الطريق. واستعير هنا لعدم خطور الشيء في البال.

{ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ [76] وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ [77] }.

ضرب الله الأمثال للمشركين في جميع أحوالهم بأمثال نظرائهم من الأمم السالفة، فضرب هنا لحال تعاظمهم بأموالهم مثلا بحال قارون مع موسى. إذ كان من صنوف أذى أئمة الكفر النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين، ومن دواعي تصلّبهم في إعراضهم عن دعوته اعتزازهم بأموالهم { وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } [الزخرف:31] أي: على رجل من أهل الثروة، فهي عندهم سبب العظمة. وقد تكرّر في القرآن توبيخهم على ذلك كقوله تعالى { وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً } [سبأ:35]، وقوله تعالى { وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ } [المزمل:11].

{ **إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى** } استئناف ابتدائي لذكر قصة ضُربت مثلا لحال بعض كفار مكة وهم سادتهم، مثل الوليد بن المغيرة وأبي جهل بن هشام. وللقصة مزيد تعلّق بجملة { وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا - إلى قوله - يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ } [60-61]. ولها أيضا اتصال بانتهاء قصة جند فرعون المنتهية عند قوله تعالى { وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا } [46].

{ **قَارُونَ** } اسم معرّب أصله في العبرانية **قُورَح** (بضم القاف مشبعة وفتح الراء)، وقع في تعريبه تغيير بعض حروفه للتخفيف، وأجري وزنه على متعارف الأوزان العربية مثل طالوت، وجالوت، فليست حروفه حروف اشتقاق من مادة قرن.

وقورح هذا ابن عم موسى عليه السلام. فهو قورح بن يصهار بن قهات بن لاوى بن يعقوب. وموسى هو ابن عمرم (المسمى عمران في العربية) ابن قاهت، فيكون يصهار أخا عمرم.

وورد في [سفر العدد، الإصحاح:16]: أنّ **قورح** هذا تألّب مع بعض زعماء بني إسرائيل على موسى وهارون عليهما السلام حين جعل الله الكهانة في بني هارون من سبط (لاوى) فحسدهم قورح.

وذكر المفسّرون أنّ فرعون كان جعل **قُورح** رئيسا على بني إسرائيل في مصر وأنّه جمع ثروة عظيمة.

وما حكاه القرآن يبيّن سبب نشوء الحسد في نفسه لموسى، لأن موسى لما جاء بالرسالة وخرج ببني إسرائيل زال تأمُّر قَارُونَ على قومه فحقد على موسى.

وقد أكثر القصّاص من وصف بذخه وعظمته ما ليس في القرآن، وما لهم به من برهان.

{ **إِنَّ** } تأكيد، والإخبار عن قارون بأنّه من قوم موسى ليس من شأنه أن يتردّد فيه السامع حتى يؤكّد له، فمصبّ التأكيد هو ما بعد قوله تعالى { إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ } إلى آخر القصة المنتهية بالخسف.

ويجوز أن تكون { إِنَّ } لمجرد الاهتمام بالخبر.

{ **مِنْ قَوْمِ مُوسَى** } إيماء إلى أنّ لقارون اتصالا خاصا بموسى فهو اتصال القرابة. وفي الكلام تمهيد للكناية بهذا الخبر عن إرادة التنظير بما عرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم من بغي بعض قرابته عليه.

{ **فَبَغَى عَلَيْهِمْ** } معترضة بين جملة { إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى } وجملة { وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ }، والفاء فيها للترتيب والتعقيب، أي: لم يلبث أن بطر النعمة واجترأ على ذوي قرابته، وهي أيضا للتعجيب من فعله.

البغي: الاعتداء، والاعتداء على الأمّة الاستخفاف بحقوقها، وأوّل ذلك خرق شريعتها.

{ **وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ** } كثرة المفاتيح كناية عن كثرة الخزائن، وتلك كناية عن وفرة المال، فهو كناية بمرتبتين.

الكنوز: جمع كنز وهو مختزن المال من صندوق أو خزانة، وتقدّم في قوله تعالى { لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ} [هود:12].

المفاتح: جمع مِفتح (بكسر الميم وفتح المثناة الفوقية) وهو آلة الفتح، ويُسمَّى المفتاح أيضا. وتقدّم عند قوله تعالى { وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ } [الأنعام: 59].

{ **لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ** } تَثْقُل. فهي لشدة ثقلها تثقل مع أن حملتها عصبة أولو قوّة.

العصبة: الجماعة، وتقدم في [يوسف:8]. وأقرب الأقوال في مقدارها قول مجاهد أنه من عشرة إلى خمسة عشر.

{ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ }.

{ **إِذْ** } المقصود من هذا الظرف القصّة وليس القصد به توقيت البغي، ولذلك قدّره بعض المفسرين متعلّقا بـ (اذكر) محذوفا، وهو المعني في نظائره من القصص.

{ **قَوْمُهُ** } إمّا جماعة منهم، وهم أهل الموعظة، وإمّا موسى عليه السلام لأنّه قدوة للقوم فكأنّهم قالوا قوله.

الفرح: يطلق على السرور كما في قوله تعالى { وَفَرِحُوا بِهَا } [يونس:22]. ويطلق على البطر والإزدهاء، وهو الفرح المفرط المذموم، وتقدّم في قوله تعالى { وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا } [الرعد:26].

{ **لَا تَفْرَحْ** } حذف المتعلّق لدلالة المقام على أنّ المعنى لا تفرح بلذّات الدنيا معرضا عن الدين والعمل للآخرة، كما أفصح عنه قوله تعالى { وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ }.

{ **إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ** } أي: المفرطين في الفرح. والجملة علّة للتي قبلها، والمبالغة في الفرح تقتضي شدّة الإقبال على ما يفرح به وهي تستلزم الإعراض عن غيره فصار النهي عن شدة الفرح رمزا إلى الإعراض عن الجد والواجب.

{ **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ** } أي: طلب نعيمها وثوابها. أي: أطلب بكنوزك أسباب حصول الثواب بالإنفاق منها في سبيل الله وما أوجبه ورغّب فيه من القربات ووجوه البرّ.

{ **وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا** } جملة معترضة بين الجملتين الحافتين بها. والنهي مستعمل في الإباحة.

النسيان: هنا كناية عن الترك، أي: لا نلومك على أن تأخذ نصيبك من الدنيا. وهذا احتراس في الموعظة خشية نفور الموعوظ من الموعظة.

النصيب: الحظ والقسط، وإضافة النصيب إلى ضميره دالة على أنّه حقه، وأنّ للمرء الانتفاع بماله فيما يلائمه في الدنيا خاصة مما ليس من القربات ولم يكن حراما. قال قتادة: نصيب الدنيا هو الحلال كلّه.

{ **مِنَ الدُّنْيَا** } للتبعيض. والمراد بالدنيا: نعيمها. فالمعنى: نصيبك الذي هو بعض نعيم الدنيا.

{ **وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ** } الإحسان داخل في عموم ابتغاء الدار الآخرة ولكنّه ذُكر هنا ليُبنى عليه الاحتجاج بقوله { كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ}. والكاف للتشبيه، أي: كإحسان الله إليك.

وحُذف متعلّق الإحسان لتعميم ما يُحسن إليه فيشمل نفسه وقومه ومخلوقات الله الداخلة في دائرة التمكّن من الإحسان إليها. وفي الحديث: **" إن الله كتب الإحسان على كل شيء "**. فالإحسان في كل شيء بحسبه، والإحسان لكلّ شيء بما يناسبه، حتّى الأذى المأذون فيه فبقدره.

{ **وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ** } للتحذير من خلط الاحسان بالفساد، فإنّ الفساد ضدّ الإحسان.

{ **فِي الْأَرْضِ** } أرضهم التي هم مقيمون بها. والفساد في الجزء كالفساد في العموم. وتقدّمت نظائره منها قوله تعالى { وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا } [البقرة:205].

{ **إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ** } علّة للنهي عن الإفساد، لأنّ العمل الذي لا يحبّه الله لا يجوز لعباده عمله. وقد كان قارون موحّدا على دين إسرائيل ولكنّه كان شاكا في صدق مواعيد موسى وفي تشريعاته.

{ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ } [78].

جواب متصلّف حاول به إفحامهم وأن يقطعوا موعظتهم.

{ **إِنَّمَا** } أداة حصر مركّبة من (إن) و(ما). والمعنى: ما أوتيت هذا المال إلّا على علم علمته.

{ **أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً** } إقبال على خطاب المسلمين. والهمزة للاستفهام الإنكاري التعجيبي، تعجيبا من عدم جريه على موجب علمه بأنّ الله أهلك أمما على بطرهم النعمة وإعجابهم لقوتهم، ونسيانه حتّى صار كأنّه لم يعلمه.

القوّة: ما به يُستعان على الأعمال الصعبة تشبيها لها بقوّة الجسم التي تخوّل صاحبها حمل الأثقال ونحوها. قال تعالى { وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ } [الأنفال:60].

الجمع: الجماعة من الناس. قيل: كان أشياع قارون مائتين وخمسين من بني إسرائيل، رؤساء جماعات.

{ **وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ** } تذييل للكلام، فهو استئناف وليس عطفا على أنّ الله قد أهلك من قبله. والسؤال المنفي السؤال في الدنيا وليس سؤال الآخرة.

<u>يحتمل</u> أن يكون السؤال كناية عن عدم الحاجة إلى السؤال عن ذنوبهم، فهو كناية عن علم الله تعالى بذنوبهم، وهو كناية عن عقابهم على إجرامهم، فهي كناية بوسائط. والكلام تهديد للمجرمين ليكونوا بالحذر من أن يؤخذوا بغتة.

<u>ويحتمل</u> أن يكون السؤال بمعناه الحقيقي، أي: لا يسأل الله المجرم عن جرمه قبل عقابه، لأنّه قد بيّن للناس على ألسنة الرسل بحدَّي الخير والشر، وأمهل المجرم فإذا أخذه أخذه بغتة، وهذا كقوله تعالى { حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون } [الأنعام:44]، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: **" إنّ الله يمهل الظالم حتّى إذا أخذه لم يفلته ".**

{ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ } [79].

دلّت الفاء على أن خروجه بين قومه في زينته، بعد كلّ تلك المواعظ، كان دليلا على أنّه لم يتعظ.

الزينة: ما به جمال الشيء والتباهي به، من الثياب والطيب والمراكب والسلاح والخدم، وتقدّم قوله تعالى { وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ } [النور:31].

{ **قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا** } فُصلت جملة ولم تعطف لأنّها تتنزّل منزلة بدل الاشتمال لما اشتملت عليه الزينة من أنّها ممّا يتمناه الراغبون في الدنيا. لأنّ الذين يريدون الحياة الدنيا لهم أميال مختلفة ورغبات متفاوتة فكلّ يتمنّى أمنية مما تلبّس به قارون من الزينة، فحصل هذا المعنى مع حصول الإخبار عن انقسام قومه إلى مغترّين بالزخارف العاجلة عن غير علم، وإلى علماء يؤثرون الآجل على العاجل. ولو عطفت الجملة بالواو أو الفاء لفاتت هذه الخصوصية البليغة فصارت الجملة إمّا خبرا من جملة الأخبار عن حال قومه، أو جزء خبر من قصته.

ولمّا قوبلوا بـ { الذين أوتوا العلم } [80] كان المعني بهم عامة الناس وضعفاء اليقين الذين تلهيهم زخارف الدنيا عمّا يكون في مطاويها من سوء العواقب فتقصر بصائرهم عن التدبّر. فهؤلاء وإن كانوا مؤمنين إلّا أنّ إيمانهم ضعيف فلذلك عظم في عيونهم ما عليه قارون من البذخ.

{ **إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ** } أي: أنّه لذو بخت وسعادة. والتوكيد دفع للتعجّب المتوقّع من السامع.

الحظّ: أصله القِسم الذي يُعطاه المقسوم له عند العطاء، وأريد به هنا ما قُسم له من نعيم الدنيا.

{ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ} [80].

مشاركة للجملة السابقة في معناها. وفي كلام الذين { أوتوا العلم } تنبيه على فتنة قارون ببهرجته وقلّة اعتداده بثواب الله، وعلى تمحُّضه للإقبال على لذائذ الدنيا ومفاخرها الباطلة، والكلام أيضا إزالة لما تستجلبه حالة قارون من نفوس المبتلين بزخارف الدنيا.

{ **وَيْلَكُمْ** } اسم للهلاك وسوء الحال، وتقدّم الكلام عليه عند قوله تعالى { فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ } [البقرة:79]. ويستعمل اللفظ في التعجّب المشوب بالزجر، فليس الذين أوتوا العلم داعين بالويل على الذين يريدون الحياة الدنيا، لأنّ المناسب لمقام الموعظة لين الخطاب ليكون أعون على الاتعاظ، ولكنّهم يتعجّبون من تعلق نفوس أولئك بزينة الحياة الدنيا واغتباطهم بحال قارون دون اهتمام بثواب الله.

{ **ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ** } تقديم المسند إليه ليتمكّن الخبر في ذهن السامعين لأنّ الابتداء بما يدلّ على الثواب المضاف إلى أوسع الكرماء كرما ممّا تستشرف إليه النفس.

{ **لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً** } عدل عن الإضمار إلى الموصولية دون: خير لكم لما في الإظهار من الإشارة إلى أنّ ثواب الله إنّما يناله المؤمنون الذين يعملون الصالحات، مع ما في الموصول من الشمول لمن كان منهم كذلك ولغيرهم ممّن لم يحضر ذلك المقام.

{ **وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ** } يجوز أن تكون الواو للعطف، فهي من كلام الذين أوتوا العلم، أمروا الذين فتنهم حال قارون بأن يصبروا على حرمانهم. ويجوز أن تكون الواو اعتراضية والجملة معترضة من جانب الله تعالى، علّم بها عباده فضيلة الصبر.

{ **يُلَقَّاهَا** } الضمير عائد إلى مفهوم من الكلام يجري على التأنيث، أي: ثواب الله أو السيرة القويمة، وهي سيرة الإيمان والعمل الصالح.

التلقية: جعل الشيء لاقيا، أي: مجتمعا مع شيء آخر. وتقدّم عند قوله تعالى { وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً} [الفرقان:75]. وهو مستعمل في الإعطاء على طريقة الاستعارة، أي: لا يُعطى تلك الخصلة أو السيرة إلا الصابرون.

{ **فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ** } [81].

دلت الفاء على تعجيل عقابه في الدنيا بمرأى من الذين تمنّوا أن يكونوا مثله.

الخسف: انقلاب بعض ظاهر الأرض إلى باطنها وعكسه. يقال : خسفت الأرض وخسف الله الأرض فانخسفت، فهو يستعمل قاصرا ومعتدّيا، وإنّما يكون الخسف بقوة الزلزال. وأمّا قولهم : خسفت الشمس فذلك على التشبيه.

{ **بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ** } الباء للمصاحبة، أي: خسفنا الأرض مصاحبة له ولداره، فهو وداره مخسوفان مع الأرض التي هو فيها، وتقدّم قوله تعالى { أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ } [النحل:45].

وهذا الخسف خارق للعادة لأنّه لم يتناول غير قارون ومن ظاهره، فهو معجزة لموسى عليه السلام.

جاء في [سفر العدد، الإصحاح:16] من أنّ قورح (قارون) ومن معه لمّا آذوا موسى كما تقدم ، وذكّرهم موسى بأنّ الله أعطاهم مزيّة خدمة خيمته ولكنّه أعطى الكهانة بني هارون، ولم تجد فيهم الموعظة غضب موسى عليهم ودعا عليهم ثم أمر الناس بأن يبتعدوا من حوالي دار قورح (قارون) وخيام جماعته.

{ **فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ** } كان قد أعدّهم للنصر على موسى فخُسف بهم معه.

{ **وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ** } كما كان يحسب. يقال: انتصر فلان، إذا حصل له النصر، أي: فما نصره أنصاره ولا حصل له النصر بنفسه.

{ **وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ** } [82].

{ **أَصْبَحَ** } هنا بمعنى صار.

{ **مَكَانَهُ** } مستعمل مجازا في الحالة المستقرّ فيها صاحبها، وقد يُعبّر عن الحالة أيضا بالمنزلة.

{ **بِالْأَمْسِ** } مستعمل في مطلق زمن مضى قريبا على طريقة المجاز المرسل.

{ **يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ** } ندامة على ما تمنّوه ورجوعا إلى التفويض لحكمة الله فيما يختاره لمن يشاء من عباده.

{ **وَيْكَأَنَّ** }

*/ عند الأخفش وقطرب مركّبة من **ثلاث كلمات**: (وي - كاف الخطاب - أنّ):

(وي) اسم فعل بمعنى: أعجب.

(الكاف) لتوجيه الخطاب تنبيها عليه مثل الكاف اللاحقة لأسماء الإشارة.

(أنّ) أخت (إنّ) المكسورة الهمزة فما بعدها في تأويل مصدر هو المتعجب منه.

فالتقدير: أعجب يا هذا من بسط الله الرزق لمن يشاء.

*/ وذهب الخليل ويونس وسيبويه والجوهري والزمخشري إلى أنّها مركبة من **كلمتين** (وي - كأنّ).

والمعنى: التعجّب من الأمر وأنّه يشبه أن يكون كذا، والتشبيه مستعمل في الظن واليقين.

*/ وذهب أبو عمرو بن العلاء والكسائي والليث وثعلب أنّها مركبة من **أربع كلمات**: كلمة (ويل) وكاف الخطاب وفعل (أعلم) و(أن). وأصله: ويلك اعلم أنّه كذا.

ومعنى الآية على الأقوال كلّها أنّ الذين كانوا يتمنّون منزلة قارون ندموا على تمنّيهم لمّا رأوا سوء عاقبته وامتلكهم العجب من تلك القصة ومن خفيّ تصرفات الله تعالى في خلقه وعلموا وجوب الرضى بما قُدِّر للناس من الرزق فخاطب بعضهم بعضا بذلك وأعلنوه.

البسط: مستعمل مجازا في السعة والكثرة.

{ **لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ** } فائدة البيان الإيماء إلى أنّه في بسطة الأرزاق وقدرها متصرّف تصرف المالك في ملكه إذ المبسوط لهم والمقدور عليهم كلّهم عبيده فحقّهم الرضى بما قسم لهم مولاهم.

{ **يَقْدِرُ** } مضارع قدر المتعدّي، وهو بمعنى: أعطى بمقدار، وهو مجاز في القلّة لأنّ التقدير يستلزم قلّة المقدَّر لعسر تقدير الشيء الكثير قال تعالى { وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا } [الطلاق:7].

{ **لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا** } لولا أن منّ الله علينا فحفظنا من رزق كرزق قارون لخسف بنا، أي: لكنّا طغينا مثل طغيانه فخسف بنا كما خسف به. أو لو لا أن منّ الله علينا بأن لم نكن من شيعته لخسف بنا كما خسف به وبأتباعه. أو لولا أن منّ الله علينا بثبات الإيمان.

{ **وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ** } تكرير للتعجّب، أي: قد تبيّن أن سبب هلاك قارون هو كفره برسول الله.

{ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } [83]

انتهت قصة قارون بما فيها من العبر من خير وشرّ فأُعقِبت باستئناف كلام عن الجزاء على الخير وضدّه في الحياة الأبدية، وأنّها مُعدَّة للذين حالهم بضدّ حال قارون.

والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمقصود تبليغه إلى الأمّة شأن جميع آي القرآن. ويجوز لغير معيّن فهو موجّه إلى كل سامع.

وذكر الجنّة بعنوان الدار لمناسبة ذكر الخسف بدار قارون للمقابلة بين دار زائلة ودار خالدة.

وابتدئ الكلام بابتداء مشوّق وهو اسم الإشارة إلى غير مذكور من قبل ليستشرف السامع إلى معرفة المشار إليه فيعقبه بيانه بالاسم المعرّف باللام { الدَّارُ } الواقع بيانا أو بدلا من اسم الإشارة.

{ **الدَّارُ** } محل السكنى، كقوله تعالى { لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ } [الأنعام:127]. وأمّا إطلاق الدار على جهنم في قوله تعالى { وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ } [إبراهيم:28] فهو تهكّم.

{ **الْآخِرَةُ** } مراد به الدائمة، أي: التي لا دار بعدها، فاللفظ مستعمل في صريح معناه وكنايته.

{ **نَجْعَلُهَا** } خبر. ومعنى جعلها لهم أنّها مُحضرة لأجلهم، ليس لهم غيرها. وأمّا من عداهم فلهم أحوال ذات مراتب أفصحت عنها آيات أخرى وأخبار نبوية. وعن الفضيل بن عياض أنّه قرأ هذه الآية ثم قال: ذهبت الأماني ههنا، أي: أماني الذين يزعمون أنّه لا يضر مع الإيمان شيء وأنّ المؤمنين كلهم ناجون من العقاب.

{ **لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلا فَسَاداً** } كناية عن: لا يفعلون، لأنّ من لا يريد الفعل لا يفعله إلّا مكرها. وهذا من باب { وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ } [5].

العلوّ: التكبّر عن الحق وعلى الخلق، والطغيان في الأعمال.

الفساد: ضدّ الصلاح، وهو كلّ فعل مذموم في الشريعة أو لدى أهل العقول الراجحة.

{ **وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** } تذييل وهو معطوف على جملة { تِلْكَ الدَّارُ } وبه صارت الجملة كلّها تذييلا.

العاقبة: وصف عومل معاملة الأسماء لكثرة الوصف به، وهي الحالة الآخرة بعد حالة سابقة، وغلب إطلاقها على عاقبة الخير. وتقدّم عند قوله تعالى { ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ } [الأنعام:11].

{ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [84].

بدل اشتمال لجملة { وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } لأنّ العاقبة ذات أحوال من الخير ودرجات من النعيم، وهي على حسب ما يجيء به المتّقون من الحسنات، فتفاوت درجاتهم بتفاوتها.

{ **جَاءَ** } اختيار الفعل في الموضعين إشارة إلى أنّ المراد من حضر بالحسنة ومن حضر بالسيئة يوم العرض على الحساب. ففيه إشارة إلى أنّ العبرة بخاتمة الأمر وهي مسألة الموافاة.

{ **عَمِلُوا** } التنبيه على أنّ عملهم هو علّة جزائهم، زيادة في التنبيه على عدل الله تعالى.

{ **فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا** } فكلّ حسنة تحتوي على خير لا محالة يصل إلى نفس المحسن أو إلى غيره.

المعنى: فله من الله إحسان عليها خير من الإحسان الذي في حسنته.

{ **وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ** } لمّا ذكر جزاء الإحسان أعقب بضدّ ذلك مقابلة فضل الله تعالى على المحسن بعدله مع المسيء، على عادة القرآن من قرن الترغيب بالترهيب.

{ **الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ** } عين { وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ } فكان المقام مقام الإضمار بأن يقال: ومن جاء بالسيئة فلا يجزون...، ولكنّه عدل عن مقتضى الظاهر لأنّ في التصريح بوصفهم بـ { عَمِلُوا السَّيِّئاتِ } تكريرا لإسناد عمل السيئات إليهم لقصد تهجين هذا العمل الذميم وتبغيض السيّئة إلى قلوب السامعين من المؤمنين.

{ **إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } استثناء مفرَّع عن فعل { يُجْزَى } المنفي المفيد بالنفي عموم أنواع الجزاء، والمستثنى تشبيه بليغ، أي: جزاء شبيه الذي كانوا يعملونه. أي: جزاء وفاقا لا حيف فيه.

{ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ } [85].

تنويه بشأن محمد صلى الله عليه وسلم وتثبيت فؤاده ووعده بحسن العاقبة في الدنيا والآخرة، وأنّ إنكار أهل الضلال رسالته لا يضيره، لأنّ الله أعلم بأنّه على هدى وأنّهم على ضلال.

{ **إِنَّ الَّذِي** } افتتاح الكلام بحرف التأكيد للاهتمام به. وجيء بالمسند إليه اسم موصول دون اسمه تعالى العلم لما في الصلة من الإيماء إلى وجه بناء الخبر. وأنّه خبر الكرامة والتأييد. أي: أنّ الذي أعطاك القرآن ما كان إلّا مقدِّرا نصرك وكرامتك، لأنّ إعطاء القرآن شيء لا نظير له فهو دليل على كمال عناية الله بالمعطى.

قال كعب بن زهير:

مهلا هداك الذي أعطاك نافلة الـ ... قرآن فيها مواعيظ وتفصيل

{ **فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ** } اختاره لك، من قولهم: فرض له كذا، إذا عيّن له فرضا، أي: نصيبا. ولمّا ضُمّن معنى (أنزل) عدّي بحرف (على).

الردّ: إرجاع شيء إلى حاله أو مكانه.

{ **مَعَادٍ** } اسم مكان العود، أي: الأول كما يقتضيه حرف الانتهاء. والتنكير للتعظيم كما يقتضيه مقام

الوعد والبشارة. والمعاد يجوز أن يكون مستعملا في معنى آخر أحوال الشيء وقراره الذي لا انتقال منه. قال ابن عطية: " وقد اشتهر يوم القيامة بالمعاد لأنّه معاد الكل ".

أي: فأبشر بما تلقى في معادك من الكرامة التي لا تعادلها كرامة والتي لا تعطى لأحد غيرك. فتنكير {مَعَادٍ} أفاد أنه عظيم الشأن. وترتّبه على الصلة أفاد أنه لا يعطى لغيره مثله كما أنّ القرآن لم يفرض على أحد مثله.

ويجوز أن يراد بالمعاد معناه المشهور القريب من الحقيقة. وهو ما يعود إليه المرء إن غاب عنه، فيراد هنا بلده الذي كان به وهو مكة. فقد قيل: إنّ هذه الآية نزلت عليه وهو في الجحفة في طريقه إلى الهجرة كما تقدّم في أول السورة، فَوُعِدَ بالردِّ عليها، وهو دخوله إليها فاتحا لها ومتمكّنا منها.

وروي هذا عن ابن عباس. وكلا الوجهين يصحّ أن يكون مرادا.

{ **قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى** } بالنسبة إلى الوجه الأول بمنزلة التفريع على جملة { لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ}، أي: رادك إلى يوم المعاد فمظهرٌ المهتدي والضالين، فيكون علم الله بالمهتدي والضال مُكنًّى به عن اتضاح الأمر بلا ريب، لأنّ علم الله تعالى لا يعتريه تلبيس، وتكون هذه الكناية تعريضا بالمشركين أنّهم الضالون وأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم هو المهتدي.

وبالنسبة إلى الوجه الثاني تكون بمنزلة الموادعة والمتاركة وقطع المجادلة. فالمعنى: عُدْ عن إثبات هداك وضلالهم وكِلْهم إلى يوم ردِّك إلى معادك، يوم يتبيّن أنّ الله نصرك وخذلهم.

وعلى المعنيين الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا عن جملة { إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ } جوابا لسؤال سائل يثيره أحد المعنيين.

{ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ [86] وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [87]}.

{ **وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ** } عطف على قوله تعالى { إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ } [85] باعتبار ما تضمّنته من الوعد بالثواب الجزيل أو بالنصر المبين، أي: كما حمَّلك تبليغ القرآن فكان ذلك علامة على أنّه أعدّ لك الجزاء بالنصر في الدنيا والآخرة. كذلك إعطاؤه إيّاك الكتاب عن غير ترقُّب منك بل بمحض رحمة منه.

إلقاء الكتاب: وحيه به إليه. أطلق عليه اسم الإلقاء على وجه الاستعارة، كما في قوله تعالى { فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ } [النحل:87/86].

{ **إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ** } استثناء منقطع لأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يخامر نفسه رجاء أن يبعثه الله بكتاب من عنده بل كان ذلك مجرّد رحمة من الله تعالى به واصطفاء له.

{ **فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ ...** } تفريع على جملة { إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ } وما عطف عليها

وما تخلّل بينهما مما اقتضى جميعه الوعد بنصره وظهور أمره وفوزه في الدنيا والآخرة، وأنّه جاء من الله إلى قوم هم في ضلال مبين، وأنّ الذي رحمه فآتاه الكتاب على غير ترقب منه لا يجعل أمره سدى فأعقب كلّ ذلك بتحذيره من أدنى مظاهرة للمشركين.

الظهير: المعين. والمظاهرة: المعونة، وهي مراتب أعلاها النصرة وأدناها المصانعة والتسامح، لأنّ في المصانعة على المرغوب إعانة لراغبه. فلما شمل النهي جميع أكوان المظاهرة لهم اقتضى النهي عن مصانعتهم والتسامح معهم، وهو يستلزم الأمر بضدّ المظاهرة فيكون كناية عن الأمر بالغلظة.

وهذا المعنى يناسب كون الآيات آخر ما نزل قبل الهجرة وبعد متاركته المشركين.

وقيل: النهي للتهييج لإثارة غضب النبيّ صلى الله عليه وسلم عليهم وتقوية داعي شدّته معهم.

{ **وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ** } توجيه النهي إليه عن أن يصدُّوه عن آيات الله كناية عن نهيه عن أن يتقبّل منهم ما فيه صدّ عن آيات الله كما يقول العرب: لا أعرفنك تفعل كذا، كنّوا به عن: أنّه لا يفعله.

والمقصود: تحذير المسلمين من الركون إلى الكافرين في شيء من شؤون الإسلام.

وقيل: هو للتهييج أيضا.

ويجوز أن يكون النهي في { وَلا يَصُدُّنَّكَ } نهي صرفة. فالمعنى: أنّ الله قد ضمن لرسوله صرف المشركين عن أن يصدُّوه عن آيات الله وذلك إذ حال بينه وبينهم بأن أمره بالهجرة ويسّرها له وللمسلمين معه.

{ **بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ** } التقييد بالبعدية لتعليل النهي أيًّا ما كان المراد منه.

{ **وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ** } الأمر مستعمل في الأمر بالدوام على الدعوة إلى الله لا إلى إيجاد الدعوة لأنّ ذلك حاصل. أي: لا يصرفك إعراض المشركين عن إعادة دعوتهم إعذارا لهم.

ويجوز أن يكون الدعاء مستعملا في الأكمل من أنواعه، أي: أنّك بعد الخروج من مكة أشدّ تمكّنا في الدعوة إلى الله ممّا كنت من قبل.

{ **وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** } الخطاب للنبيّ والتحذير موجّه للمؤمنين.

{ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [88].

هذا النهي موجّه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم في الظاهر والمقصود به إبطال الشرك وإظهار ضلال أهله إذ يزعمون أنّهم معترفون بإلهية الله تعالى وأنّهم إنّما اتخذوا له شركاء وشفعاء، فبيّن لهم أنّ الله لا إله غيره، وأنّ انفراده بالإلهية في نفس الأمر يقضي ببطلان الإشراك في الاعتقاد ولو أضعف إشراك.

{ **لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ** } في معنى العلّة للنهي الذي في الجملة قبلها.

{ **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ** } علة ثانية للنهي، لأنّ هلاك الأشياء التي منها الأصنام وكلّ ما عُبد مع الله

وأشرك به دليل على انتفاء الإلهية عنها، لأنّ الإلهية تنافي الهلاك وهو العدم.

الهلاك: الزوال والانعدام.

{ **وَجْهَهُ** } مستعمل في معنى الذات. والمعنى: كل موجود هالك إلّا الله تعالى.

{ **لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** } تذييل فلذلك كانت مفصولة عمّا قبلها. وتقديم المجرور باللام لإفادة الحصر، والمحصور فيه هو الحكم الأتم.

{ **وَإِلَيْهِ** } تقديم المجرور للاهتمام بالخبر، لأنّ المشركين نفوا الرجوع من أصله.

الرجوع: حقيقته الانصراف إلى مكان قد فارقه فاستعمل في مصير الخلق وهو البعث بعد الموت.

والمقصود من تعدّد هذه الجمل إثبات أنّ الله منفرد بالإلهية في ذاته وهو مدلول جملة { لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ }. وذلك أيضا يدلّ على صفة القدم لأنّه لمّا انتفى جنس الإلهية عن غيره تعالى تعيّن أنّه لم يوجده غيره فثبت له القدم الأزلي، وأنّ الله تعالى باق لا يعتريه العدم لاستحالة عدم القديم وذلك مدلول قوله تعالى { كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ }، وأنّه تعالى منفرد في أفعاله بالتصرّف المطلق الذي لا يردّه غيره فيتضمّن ذلك إثبات الإرادة والقدرة. وفي كل هذا ردّ على المشركين الذين جوّزوا شركته في الإلهية، وأشركوا معه آلهتهم في التصرف بالشفاعة والغوث. ثم أبطل إنكارهم البعث بقوله تعالى { **وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** }.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة العنكبوت

اشتهرت هذه السورة بـ (**سورة العنكبوت**) من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رواه عكرمة قال: كان المشركون إذا سمعوا تسمية سورة العنكبوت يستهزئون بهما، أي: بهذه الإضافة فنزل قوله تعالى { إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئينَ } [الحجر:95]، يعني المستهزئين بهذا ومثله، وقد تقدّم الإلماع إلى ذلك عند قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا } [البقرة:26].

ووجه إطلاق هذا الاسم على هذه السورة أنّها اختصت بذكر مثل العنكبوت في قوله تعالى { مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً } [41].

وهي **مكية كلّها في قول الجمهور**، ومدنية كلّها في أحد قولي ابن عباس وقتادة، وقيل بعضها مدني.

روى الطبري والواحدي في أسباب النزول عن الشعبي أنّ الآيتين الأوليين منها أي: إلى قوله { وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ } [3] نزلتا بعد الهجرة في أناس من أهل مكّة اسلموا فكتب إليهم أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم من المدينة أن لا يُقبل منهم إسلام حتّى يهاجروا إلى المدينة فخرجوا مهاجرين فاتبعهم المشركون فردوهم.

وروى الطبري عن عكرمة عن ابن عباس أنّ قوله تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ - إلى قوله - وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ } [11/10] نزلت في قوم بمكة وذكر قريبا ممّا روي عن الشعبي.

وهذه السورة هي السورة **الخامسة والثمانون في ترتيب النزول**، نزلت بعد سورة الروم وقبل سورة المطففين، فتكون من أخريات السور المكية بحيث لم ينزل بعدها بمكّة إلّا سورة المطففين.

وآياتها تسع وستون باتفاق أصحاب العدد من أهل الأمصار.

أغراض السورة

*/ افتتاح هذه السورة بالحروف المقطعة يؤذن بأنّ من أغراضها تحدّي المشركين بالإتيان بمثل سورة منه كما بيّنّا في سورة البقرة.

*/ أوّل أغراض هذه السورة تثبيت المسلمين الذين فتنهم المشركون وصدّوهم عن الإسلام أو عن الهجرة.

*/ وعد الله بنصر المؤمنين وخذل أهل الشرك وأنصارهم وملقنيهم من أهل الكتاب.

*/ الأمر بمجافاة المشركين والابتعاد عنهم ولو كانوا اقرب القرابة.

*/ وجوب صبر المؤمنين على أذى المشركين وأنّ لهم في سعة الأرض ما ينجيهم من أذى أهل الشرك.

*/ مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن ما عدا الظالمين منهم.

*/ أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بالثبات على إبلاغ القرآن وشرائع الإسلام.

*/ التأسّي بأحوال الأمم التي جاءتها الرسل، وأنّ محمدا صلى الله عليه وسلم جاء بمثل ما جاؤوا به.

*/ ما تخلّل أخبارَ من ذُكر فيها من الرسل من العِبَر.

*/ الاستدلال على أنّ القرآن منزّل من عند الله بدليل أمّيّة من أنزل عليه صلى الله عليه وسلم.

*/ تذكير المشركين بنعم الله عليهم ليقلعوا عن عبادة ما سواه.

*/ إلزامهم بإثبات وحدانيته بأنّهم يعترفون بأنّه خالق من في السماوات ومن في الأرض.

*/ الاستدلال على البعث بالنظر في بدء الخلق وهو أعجب من إعادته.

*/ إثبات الجزاء على الأعمال.

*/ توعّد المشركين بالعذاب الذي يأتيهم بغتة وهم يتهكّمون باستعجاله.

*/ ضرب المثل لاتخاذ المشركين أولياء من دون الله بمَثَل وهن بيت العنكبوت.

{ الم } [1].

تقدّم القول في معاني أمثالها مستوفى عند مفتتح سورة البقرة. واعلم أن التهجي المقصود به التعجيز يأتي في كثير من سور القرآن وليس يلزم أن يقع ذكر القرآن أو الكتاب بعد تلك الحروف وإن كان ذلك هو الغالب ما عدا ثلاث سور: وهي فاتحة سورة مريم وفاتحة هذه السورة وفاتحة سورة الروم. على أنّ هذه السورة لم تخل من إشارة إلى التحدّي لقوله تعالى { أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ} [51].

{ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ } [2].

{ أَحَسِبَ } الاستفهام مستعمل في الإنكار. وحسب بمعنى ظنّ، وتقدّم في قوله تعالى { أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ } [البقرة:214].

{ النَّاسُ } كل الذين آمنوا، فالقول كناية عن حصول المقول في نفس المرء. والتقدير: أحسب الناس تركهم غير مفتونين لأجل قولهم: آمنا.

الترك: عدم تعهّد الشيء بعد الاتصال به. والترك هنا مستعمل في حقيقته لأنّ الذين آمنوا قد كانوا مخالطين للمشركين فلمّا آمنوا اختصّوا بأنفسهم وخالفوا أحوال قومهم وذلك مظنّة أن يتركهم المشركون وشأنهم، فلمّا أبى المشركون إلّا منازعتهم طمعا في إقلاعهم عن الإيمان وقع ذلك منهم موقع المباغتة والتعجّب.

{ وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ } حال، أي: لا يحسبوا أنّهم سالمون من الفتنة إذا آمنوا.

الفتن والفتون: فساد حال الناس بالعدوان والأذى في الأنفس والأموال والأهلين. والاسم الفتنة. وتقدّم عند قوله تعالى { إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ } [البقرة:102].

{ يُتْرَكُوا / يُفْتَنُونَ } البناء للمجهول للاستغناء عن ذكر الفاعل لظهور أن الفاعل قوم ليسوا بمؤمنين. وإنما لم نقدّر أنّ الفاعل هو الله تعالى تحاشيا من التشابه مع وجود مندوحة عنه.

{ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ } [3].

انتقال إلى التنويه بالفتون لأجل الإيمان بالله بأنّه سنّة الله في سالف أهل الإيمان.

{ وَلَقَدْ } تأكيد الجملة بلام القسم وحرف التحقيق لتنزيل المؤمنين، حين استبطأوا النصر على الظالمين، منزلة من ينكر أنّ من يخالف الدهماء في ضلالهم ويتجافى عن أخلاقهم ورذالتهم لا بد أن تلحقه منهم فتنة.

{ فَتَنَّا } أسند فتون تلك الأمم إلى الله تعالى إسنادا مجازيا لأنّه خالق أسبابه، وفي هذا الإسناد إيماء إلى أنّ الذي خلق أسباب تلك الفتن قريبها وبعيدها قادر على صرفها بأسباب تضادها.

والمقصود التذكير بما لحق صالحي الأمم السالفة من الأذى والاضطهاد، كما لقي صالحو النصارى من مشركي الرومان في عصور المسيحية الأولى، وقد قصّ القرآن بعض ذلك في سورة البروج.
وحكمها سار في حال كل من يتمسّك بالحق بين قوم يستخفّون به لأنّ نكران الحق أنواع كثيرة.
{ **فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ** } تفريع على جملة { وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ } [2]، أي: يفتنون فيعلم الله الذين صدقوا منهم والكاذبين. والمراد بالصدق هنا ثبات الشيء ورسوخه، وبالكذب ارتفاعه وتزلزله، وذلك أنّ المؤمنين حين قالوا { آمَنَّا } لم يكن منهم من هو كاذب في إخباره عن نفسه، فإذا لحقهم الفتون من أجل دخولهم في دين الإسلام فمن لم يعبأ بذلك ولم يترك أتباع الرسول فقد تبيّن رسوخ إيمانه ورباطة عزمه فكان إيمانه حقًّا وصدقا، ومن ترك الإيمان خوف الفتنة فقد استبان من حاله عدم رسوخ إيمانه وتزلزله، وتقدم هذا المعنى عند قوله تعالى { أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ } [يونس:2].
{ **فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ** } لمّا كان علم الله بمن يكون إيمانه صادقا عند الفتون ومن يكون إيمانه كاذبا بهذين المعنيين متقرّرا في الأزل من قبل أن يحصل الفتون والصدق والكذب تعيّن تأويل الفعل { فَلَيَعْلَمَنَّ } بمعنى حصول أمر كان في علم الله أنه سيكون، وهو شبيه بتعلّق الإرادة المعبَّر عنه **بالتعلّق التنجيزي**.
ولا مانع من إثبات تعلقين لعلم الله تعالى: أحدهما قديم، والآخر تنجيزي حادث. ولا يفضي ذلك إلى اتصاف الله تعالى بوصف حادث لأنّ تعلّق الصفة تحقّق مقتضاها في الخارج لا في ذات موصوفها، وتقدم عند قوله تعالى { إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ } [البقرة:143]، وقوله { وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ } [آل عمران:140].
وعدل هنا إلى طريق الغيبة بإظهار اسم الجلالة على أسلوب الالتفات لما في هذا الإظهار من الجلالة ليُعلم أنّ الجزاء على ذلك جزاء مالك الملك، لأنّ العلم سبب للجزاء بما يقتضيه فكانت الكناية مقصودة.
{ **الَّذِينَ صَدَقُوا** } تعريف المتَّصفين بصدق الإيمان بالموصول والصلة الماضوية لإفادة أنّهم اشتهروا بحدثان صدق الإيمان وأنّ صدقهم محقّق.
{ **الْكَاذِبِينَ** } تعريف المتّصفين بالكذب بطريق التعريف باللام وبصيغة اسم الفاعل فلإفادة أنّهم عُهدوا بهذا الوصف وتميّزوا به، مع ما في ذلك من التفنّن والرعاية على الفاصلة.
قال الطبري : نزلت هذه الآية { الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا - إلى قوله - وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ } [1-3] في عمار بن ياسر وأمثاله، مثل: عياش بن أبي ربيعة، والوليد بن الوليد، وسلمة ابن هشام ممّن كانوا يعذّبون.

{ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ } [4].

أُعقب تثبيت المؤمنين على ما يصيبهم من فتون المشركين وما في ذلك من الوعد والوعيد بزجر المشركين على ما يعملونه من السيّئات في جانب المؤمنين، وأعظم تلك السيئات فتونهم المسلمين.

وهذا وعيد بأنّ الله لا يفلتهم. وفيه أيضا زيادة تثبيت للمؤمنين بأنّ الله ينصرهم من أعدائهم.
السبق: مستعمل مجازا في النجاة والانفلات. وتقدّم المعنى عند قوله تعالى { وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُواْ } [الأنفال:59]. والمعنى: أم حسبوا أن قد شفوا غيظهم من المؤمنين.
{ **سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** } ذمّ لحسبانهم ذلك وإبطال له. فهي مقرّرة لمعنى الإنكار في جملة { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ } فلها حكم التوكيد فلذلك فُصلت.
الحكم :مستعمل في معنى الظن والاعتقاد تهكّما بهم بأنّهم نصبوا أنفسهم منصب الذي يحكم فيطاع.
وهذه الآية وإن كانت واردة في شأن المشركين المؤذين للمؤمنين فهي تحذير للمسلمين من مشابهتهم في اقتراف السيّئات استخفافا بوعيد الله عليها لأنّهم في ذلك يأخذون بشيء من مشابهة حسبان الانفلات، وإن كان المؤمن لا يظنّ ذلك ولكنّه ينزل منزلة من يظنّه لإعراضه عن الوعيد حين يقترف السيّئة.

{ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [5].
هذا مسوق للمؤمنين خاصة لأنّهم الذين يرجون لقاء الله، فالجملة مفيدة التصريح بما أومأ إليه قوله تعالى { أَنْ يَسْبِقُونَا } من الوعد بنصر المؤمنين على عدوّهم مبيّنة لها ولذلك فُصلت.
رجاء لقاء الله: ظنّ وقوع الحضور لحساب الله. ولقاء الله: الحشر للجزاء لأنّ الناس يتلقون خطاب الله المتعلق بهم، لهم أو عليهم، مباشرة بدون واسطة، وقد تقدّم في قوله تعالى { الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ } [البقرة:46]، وقوله تعالى { وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ } [البقرة: 223].
وعُبر بفعل **الرجاء** عن ترقّب البعث لأنّ الكلام مسوق للمؤمنين وهم ممّن يرجو لقاء الله لأنّهم يترقّبون البعث لما يأملون من الخيرات فيه. قال بلال رضي الله عنه حين احتضاره متمثلا بقول بعض الأشعريين الذين وفدوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم:

غـدا ألـقـى الأحـبـة ... مـحـمـدا وصـحـبـه

{ **فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ** } إظهار اسم الجلالة مع كون مقتضى الظاهر الإضمار لتقدم اسم الجلالة في جملة الشرط { مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ } لئلا يلتبس معاد الضمير بأن يعاد إلى { مَنْ } إذ المقصود الإعلام بأجل مخصوص وهو وقت النصر الموعود كما في قوله تعالى { وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ } [سبأ:30/29]. فيكون الكلام تثبيتا للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين حين استبطأ المؤمنون النصر للخلاص من فتنة المشركين.
المعنى: إن كنتم مؤمنين بالبعث إيقانا ينبعث من تصديق وعد الله به فإنّ تصديقكم بمجيء النصر أجدر لأنّه وعدكم به، فـ { مَنْ } شرطية، وجعل فعل الشرط فعل الكون { مَنْ كَانَ يَرْجُو } للدلالة على تمكّن هذا الرجاء من فاعل فعل الشرط.
{ **وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** } التذييل بهذين الوصفين دون غيرهما من الصفات العلى للإيماء بوصف

{ **السَّمِيعُ** } إلى أنّ الله تعالى سمع مقالة بعضهم من الدعاء بتعجيل النصر، كما أشار إليه قوله تعالى { وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ } [البقرة:214]. وكقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" اللهم أنج عياش بن أبي ربيعة، اللهم أنج الوليد بن الوليد، اللهم أنج سلمة بن هشام، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر اللهم اجعلها عليهم سنين كسنين يوسف "**.

والإيماء بوصف { **الْعَلِيمُ** } إلى أنّ الله علم ما في نفوسهم من استعجال النصر.

ولو كان المراد من { أَجَلَ اللَّهِ } الموت لما كان وجه للإعلام بإتيانه بله تأكيده، وكذا لو كان المراد منه البعث لكان قوله تعالى { فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ } كافيا، فهذا وجه ما أشارت إليه الآيات بالمنطوق والاقتضاء.

{ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ } [6].

أي: ومن جاهد ممّن يرجون لقاء الله، فليست الواو للتقسيم، وليس { مَنْ جَاهَدَ } بقسيم لمن كانوا يرجون لقاء الله، بل الجهاد من عوارض من كانوا يرجون لقاء الله.

الجهاد: مبالغة في الجهد الذي هو مصدر جَهَدَ، إذا جدّ في عمله وتكلّف فيه تعبا، ولذلك شاع إطلاقه على القتال في نصر الإسلام. وهو هنا يجوز أن يكون الصبر على المشاق والأذى اللاحقة بالمسلمين لأجل دخولهم في الإسلام ونبذ دين الشرك حيث تصدّى المشركون لأذاهم. فإطلاق الجهاد هنا هو مثل إطلاقه في قوله تعالى { وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي } [8]، ومثل إطلاقه في قول النبيّ صلى الله عليه وسلم وقد قفل من إحدى غزواته: **" رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر "**.

وهذا المحمل هو المتبادر في هذه السورة بناء على أنّها كلها مكّية لأنّه لم يكن جهاد القتال في مكة.

ويجوز أن يراد بالجهاد المعنى المنقول إليه في اصطلاح الشريعة وهو قتال الكفّار لأجل نصر الإسلام والذب عن حوزته، ويكون ذكره هنا لإعداد نفوس المسلمين، فيكون كقوله تعالى { قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ } [الفتح:16]، ومناسبة التعريض له على هذا المحمل هو أن قوله تعالى { فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ } تضمّن ترقّبا لوعد نصرهم على عدوهم، فقدّم إليهم أن ذلك بعد جهاد شديد وهو ما وقع يوم بدر.

والأوفق ببلاغة القرآن أن يكون المحملان مرادين كما قدّمنا في المقدمة التاسعة من مقدمات هذا التفسير.

{ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ**} [7].

يجوز أن يكون عطفا على جملة { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا } [4] لما تضمّنته الجملة المعطوف عليها من التهديد والوعيد، فعطف عليها ما هو وعد وبشارة للذين آمنوا وعملوا الصالحات، مع ما أفضى إلى ذكر هذا الوعد من قوله تعالى قبله { وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ } [6] فإنّ مضمون جملة { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} يفيد بيان لمن جاهد لنفسه.

ويجوز أن تكون عطفا على جملة { وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ } وسُلك بها طريق العطف باعتبار ما أومأ إليه الموصول وصلته من أنّ سبب هذا الجزاء الحسن هو أنّهم آمنوا وعملوا الصالحات، وهو على هذا الوجه إظهار في مقام الإضمار لنكتة هذا الإيماء.

{ **لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ** } فالجزاء فضل لأنّ العبد إذا امتثل أمر الله فإنما دفع عن نفسه تبعة العصيان، فأمّا الجزاء على طاعة مولاه فذلك فضلٌ من المولى، وغفران ما تقدّم من سيّئاتهم فضلٌ عظيم لأنّهم كانوا أحقّاء بأن يؤاخذوا بما عملوه.

{ **أَحْسَنَ** } انتصب على أنّه وصف لمصدر محذوف هو مفعول مطلق من فعل { لَنَجْزِيَنَّهُمْ }.

والتقدير: ولنجزينهم جزاء أحسن. وإضافته إلى { **الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ** } لإفادة عظم الجزاء.

{ **وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** [8] **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ** [9] }.

لم يترك القرآن فاذَّة من أحوال علائق المسلمين بالمشركين إلّا بيَّن واجبهم فيها المناسب لإيمانهم، ومن أشدّ تلك العلائق علاقة النسب، فالنسب بين المشرك والمؤمن يستدعي الإحسان وطيب المعاشر ولكن اختلاف الدين يستدعي المناواة والمغاضبة ولا سيما إذ كان المشركون متصلّبين في شركهم فهم يلحقون الأذى بالمسلمين ليقلعوا عن متابعة الإسلام، فبيّن الله بهذه الآية ما على المسلم في معاملة أنسبائه من المشركين. وخصّ بالذكر منها نسب الوالدين لأنّه أقرب نسب، فيكون ما هو دونه أولى بالحكم الذي يشرّع له.

وحدثت قضية أو قضيتان دعتا إلى تفصيل هذا الحكم:

*/ روي أنّ سعد بن أبي وقاص حين أسلم قالت له أمّه حمنة بنت أبي سفيان يا سعد بلغني أنّك صبأت، فوالله لا يظلّني سقف بيت، وإنّ الطعام والشراب عليّ حرام حتّى تكفر بمحمد، وبقيت كذلك ثلاثة أيّام فشكا سعد ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم

أن يداريها ويترضّاها بالإحسان.

*/ وروي أنّه لما أسلم عياش بن أبي ربيعة المخزومي وهاجر مع عمر بن الخطاب إلى المدينة قبل هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج أبو جهل وأخوه الحارث وكانا أخوي عياش لأمّه فنزلا بعياش وقالا له: إنّ محمدا يأمر ببر الوالدين وقد تركت أمّك وأقسمت أن لا تطعم ولا تشرب ولا تأوي بيتا حتّى تراك وهي أشدّ حبا لك منها لنا، فاخرج معنا. فاستشار عمر فقال عمر: هما يخدعانك، فلم يزالا به حتّى عصى نصيحة عمر وخرج معهما. فلما انتهوا إلى البيداء قال أبو جهل: إنّ ناقتي كلت فاحملني معك. قال عياش: نعم، ونزل ليوطئ لنفسه ولأبي جهل. فأخذاه وشداه وثاقا وذهبا به إلى أمّه فقالت له: لا تزال بعذاب حتى ترجع عن دين محمد وأوثقته عندها.

فقيل: إن هذه الآية نزلت في شأنهما.

{ **وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي** } المقصود من الآية، وإنما افتتحت بـ { وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً } لأنّه كالمقدمة للمقصود ليُعلم أنّ الوصاية بالإحسان إلى الوالدين لا تقتضي طاعتهما في السوء ونحوه، لقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق "**. ولقصد تقرير حكم الإحسان للوالدين في كل حال إلّا في حال الإشراك حتّى لا يلتبس على المسلمين وجه الجمع بين الأمر بالإحسان للوالدين وبين الأمر بعصيانهما إذا أمرا بالشرك.

التوصية: كالإيصاء، يقال: أوصى ووصّى، وهي أمر بفعل شيء في مغيب الآمر به، وتقدّم في قوله تعالى { الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ } [البقرة:180]، وقوله تعالى { وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ } [البقرة:132].

الحسن: اسم مصدر، أي: بإحسان.

{ **وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي** } عطف على جملة { وَصَّيْنَا } وهو بتقدير قول محذوف لأنّ المعطوف عليه فيه معنى القول. أي: ألحّا لأجل أن تشرك بي. و**المجاهدة**: الإفراط في بذل الجهد في العمل.

{ **مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ** } المراد العلم الحق المستند إلى دليل العقل أو الشرع، أي: أن تشرك بي أشياء لا تجد في نفسك دليلا على استحقاقها العبادة، كقوله تعالى { فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ } [هود:46].

وفي الكشاف: أن نفي العلم كناية عن نفي المعلوم، كأنّه قال: أن تشرك بي شيئا لا يصحّ أن يكون إلها.

{ **إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } مستأنفة استئنافا بيانيا لزيادة تحقيق ما أشارت إليه مقدّمة الآية من قوله تعالى { وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً }، لأنّ بقية الآية لما آذنت بفظاعة أمر الشرك وحذّرت من طاعة المرء والديه فيه كان ذلك ممّا يثير سؤالا في نفوس الأبناء أنّهم هل يعاملون الوالدين بالإساءة لأجل إشراكهما فأنبئوا أنّ عقابهما على الشرك مفوض إلى الله تعالى فهو الذي يجازي المحسنين والمسيئين.

المرجع: البعث.

الإنباء: الإخبار، وهو مستعمل كناية عن علمه تعالى بما يعملونه من ظاهر الأعمال وخفيّها. وذلك ايضاً كناية عن الجزاء عليه من خير أو شرّ.

{ **فَأُنَبِّئُكُمْ** } فيه كنايتان: أولاهما إيماء، وثانيتهما تلويح، أي: فأجازيكم ثوابا على عصيانهما فيما يأمران، وأجازيهما عذابا على إشراكهما.

{ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ** } تصريح ببعض ما أفادته الكناية التي في قوله تعالى { فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } اهتماما بجانب جزاء المؤمنين.

{ **فِي الصَّالِحِينَ** } من لطيف مناسبة هذا الظرف في هذا المقام أنّ المؤمن لمّا أمر بعصيان والديه إذا أمراه بالشرك كان ذلك ممّا يثير بينه وبين أبويه جفاء وتفرقة فجعل الله جزاء عن وحشة تلك التفرقة أنسا بجعله في عداد الصالحين يأنس بهم.

{ **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ** } [10].

هذا فريق من الذين أسلموا بمكّة ولكن لم يصبروا على الأذى فرجعوا إلى الشرك بقلوبهم وكتموا ذلك عن المسلمين فكانوا منافقين، فأنزل الله فيهم هذه الآية قبل الهجرة.

وقد تقدّم في [النحل:106] أنّ من هؤلاء الحارث بن ربيعة بن الأسود، وأبا قيس بن الوليد بن المغيرة، وعلي بن أمية بن خلف، والعاصي بن منبه بن الحجاج. فهؤلاء استزلّهم الشيطان فعادوا إلى الكفر بقلوبهم لضعف إيمانهم وكان ما لحقهم من الأذى سبباً لارتدادهم، ولكنّهم جعلوا يظهرون للمسلمين أنّهم معهم. ولعلّ التظاهر كان بتمالؤ بينهم وبين المشركين فرضوا منهم بأن يختلطوا بالمسلمين ليأتوا المشركين بأخبار المسلمين، فعدّهم الله منافقين وتوعّدهم بهذه الآية.

{ **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ** } إشارة إلى أن إيمان هؤلاء لم يرسخ، فلا جرم أنّهم من الفريق الذين قال الله تعالى فيهم { وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ } [النحل:106]، وأنّهم غير الفريق الذين استثنى الله تعالى بقوله { إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ } [النحل: 106].

فليس بين هذه الآية وآيات أواخر سورة النحل اختلاف كما قد يُتوهّم من سكوت المفسّرين عن بيان الأحكام المستنبطة من هذه الآية مع ذكرهم الإحكام المستنبطة من آيات سورة النحل.

{ **فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ** } حرف الظرفية مستعمل في معنى التعليل كاللام، أي: لأجل اتباع ما دعاه الله إليه.

{ **جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ** } يريد جعلها مساوية لعذاب الله، كما هو مقتضى أصل التشبيه، فهؤلاء إن كانوا قد اعتقدوا البعث والجزاء فمعنى هذا الجعل: أنّهم سوَّوا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فتوقَّوا فتنة الناس وأهملوا جانب عذاب الله فلم يكترثوا به. وإن كانوا نبذوا اعتقاد البعث تبعا لنبذهم الإيمان، فمعنى الجعل: أنّهم جعلوه كعذاب الله عند المؤمنين الذين يؤمنون بالجزاء.

{ **وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ** } بيّن الله تعالى نيّتهم في إظهارهم الإسلام بأنّهم جعلوا إظهار الإسلام عُدَّة لما يُتوقع من نصر المسلمين فيجدون أنفسهم متعرّضين لفوائد ذلك النصر.
وهذا يدلّ على أنّ هذه الآية نزلت بقرب الهجرة من مكة حين دخل الناس في الإسلام وكان أمره في ازدياد.

ولعلّ ذلك حصل يوم فتح مكة فقال ذلك من كان حيا من هذا الفريق، وهو قول يريدون به نيل رتبة السابقية في الإسلام. وذكر أهل التاريخ أنّ الأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن، وسهيل بن عمرو، وجماعة من وجوه العرب كانوا على باب عمر ينتظرون الإذن لهم، وكان على الباب بلال وسلمان وعمّار بن ياسر، فخرج إذن عمر أن يدخل سلمان وبلال وعمّار فتمعَّرت وجوه البقيّة، فقال لهم سهيل بن عمرو: " لم تتمعَّر وجوهكم، دُعوا ودُعينا فأسرعوا وأبطأنا ولئن حسدتموهم على باب عمر لما أعد الله لهم في الجنة أكثر ".

{ **أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ** } تذييل، والواو اعتراضية، والاستفهام إنكاري إنكارا عليهم قولهم { آمَنَّا بِاللَّهِ } وقولهم { إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ }، لأنّهم قالوا ذلك ظنّا منهم أن يروج كذبهم ونفاقهم على رسول الله، فكان الإنكار عليهم متضمّنا أنّهم كاذبون في قوليهم المذكورين.
والخطاب موجّه للنبيّ صلى الله عليه وسلم لقصد إسماعهم هذا الخطاب فإنّهم يحضرون مجالس النبيّ والمؤمنين ويستمعون ما ينزل من القرآن وما يتلى منه بعد نزوله فيشعرون أنّ الله مطّلع على ضمائرهم.
ويجوز أن يكون الاستفهام تقريريا وجّه الله به الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم في صورة التقرير بما أنعم الله به عليه من إنبائه بأحوال الملتبسين بالنفاق. وهذا الأسلوب شائع في الاستفهام التقريري وكثيرا ما يلتبس بالإنكاري ولا يفرق بينهما إلّا المقام، أي: فلا تصدّق مقالهم.
{ **بِأَعْلَمَ** } اسم التفضيل مسلوب المفاضلة، أي: أليس الله عالما علما تفصيليا لا تخفى عليه خافية.

{ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ } [11].

خُصّ بالذكر فريقان هما ممّن شمله عموم قوله تعالى { الْعَالَمِينَ } [10] اهتماما بهاذين الفريقين وحاليهما، لأنّ العلم بما في صدور الفريقين، من إيمان ونفاق، يترتّب عليه الجزاء المناسب لحاليهما في العاجل والآجل، فذلك ترغيب وترهيب.
{ **وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ** } جيء بـ (لام القسم) و(نون التوكيد) في جانب الفعل المضارع المستقبل، إمّا لأنّ العلم مُكنًّى به عن لازمه وهو مقابلة كلّ فريق بما يستحقّه بحسب ما عُلم من حاله، والمجازاة أمر مستقبل.
وإمّا لأنّ المراد علم بمستقبل، وهو اختلاف أحوالهم يوم يجيء النصر، فلعلّ من كانوا منافقين وقت نزول الآية يكونون مؤمنين يوم النصر ويبقى قوم على نفاقهم.
والمخالفة بين المؤمنين والمنافقين في التعبير عن الأولين بطريق الموصول والصلة الماضوية {**الَّذِينَ**

آمَنُوا} وعن الآخرين بطريق اللام واسم الفاعل { **الْمُنَافِقِينَ** } لما يؤذن به الموصول من اشتهارهم بالإيمان وما يؤذن به الفعل الماضي من تمكّن الإيمان منهم وسابقيته، وما يؤذن به التعريف باللام من كونهم عهدوا بالنفاق وطريانه عليهم بعد أن كانوا مؤمنين، ففيه تعريف بسوء عاقبتهم، مع ما في ذلك من التفنّن ورعاية الفاصلة.

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } [12].

هذا غرض آخر من أغراض مخالطة المشركين مع المؤمنين وهو محاولة المشركين ارتداد المسلمين بمحاولات فتنةٍ بالشك والمغالطة للذين لم يقدروا على فتنتهم بالأذى والعذاب، إمّا لعزّتهم وخشية بأسهم مثل عمر بن الخطاب، فقد قيل: إن هذه المقالة قيلت له، وإمّا لكثرتهم حين كثر المسلمون وأعيت المشركين حيل الصدّ عن الإسلام.

{ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا** } طائفة منهم وهم: أبو جهل، والوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، وأبو سفيان بن حرب، قبل أن يسلم، قالوا للمسلمين ومنهم عمر بن الخطاب: لا نبعث نحن ولا أنتم، فإن عسى كان ذلك فإنّا نحمل عنكم آثامكم.

وهذا كقول العاصي بن وائل لخباب بن الأرت: لئن بعثني الله ليكوننّ لي مال فأقضيك دينك، وهو الذي نزل فيه قوله تعالى { أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً } [مريم:77].

{ **وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ** } حكى الله عنهم قولهم بصيغة الأمر بلام الأمر؛ إمّا لأنهم نطقوا بمثل ذلك لبلاغتهم، وإمّا لإفادة ما تضمّنته مقالتهم من تأكيد تحمّلهم بذلك.

الحمل: مجاز تمثيلي لحال الملتزم بمشقة غيره بحال من يحمل متاع غيره، فيؤول إلى معنى الضمان.

{ **خَطَايَاكُمْ** } دلّ على العموم لأنّه جمع مضاف، وهو من صيغ العموم.

{ **وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ** } إبطال لقولهم، نقض العموم في الإثبات بعموم في النفي، لأنّ {شَيْءٍ} في سياق النفي يفيد العموم لأنّه نكرة، وزيادة حرف { مِنْ } تنصيص على العموم.

{ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ } [13].

بعد أن كذّبهم في قولهم { وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ } وكشف كيدهم بالمسلمين عطف عليه ما أفاد أنّهم غير ناجين من حمل تبعات لأقوام آخرين، وهم الأقوام الذين أضلّوهم وسوّلوا لهم الشرك والبهتان.

الأثقال: مجاز عن الذنوب والتبعات، وهو تمثيل للشقاء والعناء يوم القيامة.

{ **وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ** } تذييل جامع لمؤاخذتهم بجميع ما اختلقوه من الإفك والتضليل سواء ما أضلّوا به أتباعهم وما حاولوا به تضليل المسلمين فلم يقعوا في أشراكهم، وقد شمل ذلك كله لفظ **الافتراء**، كما عبّر عن محاولتهم تغرير المسلمين بأنهم فيه كاذبون.

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ [14] فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ [15] }.

سيقت هذه القصة واللاتي بعدها شواهد على ما لقي الرسل والذين آمنوا معهم من تكذيب المشركين.

وابتدئت القصص بقصة أوّل رسول بعثه الله لأهل الأرض، وقد تقدّم تفصيل قصته في [هود:25-49].

{ **فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً** } زيادة على ما في سورة هود. وظاهر الآية أنّ هذه مدّة رسالته إلى قومه ولا غرض في معرفة عمره يوم بعثه الله إلى قومه، وفي ذلك اختلاف بين المفسّرين وفائدة ذكر هذه المدة للدلالة على شدّة مصابرته على أذى قومه ودوامه على إبلاغ الدعوة تثبيتا للنبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ **فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ** } طوي ذكر ما ترتّب عليه أخذهم بالطوفان وهو استمرار تكذيبهم.

{ **وَهُمْ ظَالِمُونَ** } حال، أي: أخذهم وهم متلبسون بالظلم، أي: الشرك وتكذيب الرسول. وهذا تعريض للمشركين بأنّهم سيأخذهم عذاب.

{ **فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ** } إيماء إلى أنّ الله منجي المؤمنين من العذاب.

{ **وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ** } الضمير للسفينة. ومعنى كونها آية أنّها دليل على وقوع الطوفان عذابا من الله للمكذّبين الرسل، فكانت السفينة آية ماثلة في عصور جميع الأمم الذين جاءتهم الرسل بعد نوح موعظة للمكذّبين وحجّة للمؤمنين. ويجوز أن يكون ضمير النصب في { وَجَعَلْنَاهَا } عائدا إلى الخبر المذكور بتأويل القصة أو الحادثة. قال تعالى { وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ } [القمر:15].

{ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ [16] إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [17] }.

الانتقال إلى خبر إبراهيم لمناسبة إنجاء إبراهيم من النار كإنجاء نوح من الماء. وفيه تنبيه إلى عظم القدرة.

{ **إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ** } اقتضى أنّهم لم يكونوا عابدين لله أصلاً، وفي المسألة خلاف كما سنبيّن.

{ **ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** } تعليل للأمر بعبادة الله. أي: إن كنتم تعلمون أدلّة اختصاص الله بالإلهية. ويجوز جعل فعل { تَعْلَمُونَ } منزّلا منزلة اللازم، أي: إن كنتم أهل علم ونظر.

{ **إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً** } تعليل لجملة {اعْبُدُوا اللَّهَ }. يجوز أن يكون قصرا على عبادتهم الأوثان، أي: دون أن يعبدوا الله فهو قصر حقيقي إذ كان قوم إبراهيم لا يعبدون الله، فالقصر منصبّ على قوله {مِنْ دُونِ اللَّهِ } أي: إنّما تعبدون غير الله.

ويجوز أن يكون قصر قلب لإبطال اعتقادهم إلهية تلك الصور كما قال تعالى { قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ}، لأنّهم وُصفوا بالشرك في قوله تعالى { قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ } [الأنعام:78] فهم مثل مشركي العرب، فالقصر منصب على عبادتهم الموصوفة بالوثنية، أي: ما تعبدون إلّا صورا لا إدراك لها.

وعلى كلا الوجهين يكون المعنى: تعبدون أوثانا موصوفة بأنّها مخالفة لصفات الله.

الأوثان: جمع وَثَن (بفتحتين)، وهو صورة من حجر أو خشب مجسّمة على صورة إنسان أو حيوان. والوثن أخصّ من الصنم لأنّ الصنم يطلق على حجارة غير مصوّرة مثل أكثر أصنام العرب كصنم ذي الخلصة لخثعم، وكانت أصنام قوم إبراهيم صورا قال تعالى { قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ } [الصافات:95]. وتقدّم وصف أصنامهم في [الأنبياء:77].

{ **تَخْلُقُونَ** } مضارع خلق الخبر، أي: اختلقه، أي: وتضعون لها أخبارا ومناقب وأعمالا مكذوبة موهومة.

الإفك: الكذب. وتقدّم في قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ } [النور:11].

{ **إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً** } إن كان قوم إبراهيم يعترفون لله تعالى بالإلهية والخلق والرزق ولكنّهم يجعلون له شركاء في العبادة ليكونوا لهم شفعاء كحال مشركي العرب تكون الجملة تعليلا لجملة { اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ }، أي: هو المستحق للعبادة التي هي شكر على نعمه.

وإن كان قومه لا يثبتون إلهية لغير أصنامهم كانت جملة { إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ } مستأنفة ابتدائية إبطالا لاعتقادهم أن آلهتهم ترزقهم، **ويرجّح هذا الاحتمال** التفريع في قوله تعالى { فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ }.

وقد تقدّم في سورة الشعراء التردّد في حال إشراك قوم إبراهيم، وكذلك في سورة الأنبياء.

{ **رِزْقاً** } التنكير في سياق النفي يدلّ على عموم نفي قدرة أصنامهم على كلّ رزق ولو قليلا.

{ **فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ** } تفريع الأمر بابتغاء الرزق من الله إبطال لظنّهم الرزق من أصنامهم، أو تذكير بأنّ الرازق هو الله، فابتغاء الرزق منه يقتضي تخصيصه بالعبادة كما دلّ عليه عطف قوله تعالى { وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ } .

وقد سلك إبراهيم مسلك الاستدلال بالنعم الحسّية لأنّ إثباتها أقرب إلى أذهان العموم.

{ **عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ** } ظرف مكان وهو مجاز. شُبّه طلب الرزق من الله بالبحث عن شيء في مكان يختصّ به.

{ **وَاشْكُرُوا لَهُ** } عُدّي الشكر بـ (اللام) جريا على أكثر استعماله في كلام العرب لقصد إفادة ما في (اللام) من معنى الاختصاص، أي: الاستحقاق.

{ **الرِّزْقَ** } لام التعريف هنا هي لام الجنس المفيدة للاستغراق بمعونة المقام، أي: فاطلبوا كلّ رزق، قلّ أو كثر، من الله دون غيره.

{ **إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** } تعليل للأمر بعبادته وشكره، أي: لأنه الذي يجازي على ذلك ثوابا وعلى ضدّه عقابا، إذ إلى الله لا إلى غيره مرجعكم بعد الموت. وفي هذا إدماج تعليل العبادة بإثبات البعث.

{ وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ } [18].

<u>يجوز</u> أن تكون هذه الجملة من بقية مقالة إبراهيم عليه السلام بأن يكون رأى منهم مخائل التكذيب ففرض وقوعه، أو يكون سبق تكذيبهم إيّاه مقالته هذه فيكون الغرض من هذه الجملة لازم الخبر وهو أنّ تكذيبهم إياه ليس بعجيب فلا يضيره فإنّ ذلك قد انتاب الرسل قبله من أممهم.

<u>ويجوز</u> أن تكون الجملة معترضة بين كلام إبراهيم وجواب قومه، فهو كلام موجّه من جانب الله تعالى إلى المشركين، التفت به من الغيبة إلى الخطاب تسجيلا عليهم، والمقصود منه بيان فائدة سوق قصة نوح وإبراهيم وأنّ للرسول صلى الله عليه وسلم إسوة برسل الأمم الذين قبله وخاصة إبراهيم جدّ العرب المقصودين بالخطاب على هذا الوجه.

{ **وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ** } إعلام للمخاطبين بأنّ تكذيبهم لا يلحقه منه ما فيه تشفٍّ منه، <u>فإن كان من كلام إبراهيم</u> فهو تصريح بأنّ واجبه إبلاغ ما أرسل به بيّنًا واضحا، <u>وإن كان من خطاب الله مشركي قريش</u> فالمراد بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وقد غلب عليه هذا الوصف في القرآن.

{ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } [19].

الراجح أنّ هذا مسوق من جانب الله تعالى إلى المشركين لأنّ الجمهور قرأوا { أَوَلَمْ يَرَوْا } بياء الغيبة. ومناسبة التعرّض لهذا هو ما جرى من الإشارة إلى البعث في قوله تعالى { وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } تنظيرا لحال مشركي العرب بحال قوم إبراهيم.

{ **أَوَلَمْ يَرَوْا** } الهمزة للاستفهام الإنكاري عن عدم الرؤية، نزلوا منزلة من لم ير فأنكر عليهم.

الرؤية: <u>يجوز</u> أن تكون بصرية، والاستدلال بما هو مشاهد من تجدّد المخلوقات في كلّ حين.

<u>ويجوز</u> أن تكون الرؤية علمية متعدّية إلى مفعولين، أنكر عليهم تركهم النظر والاستدلال الموصل إلى

علم كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده، لأنّ أدلة بدء الخلق تفضي بالناظر إلى العلم بأنّ الله يعيد الخلق.

{ **كَيْفَ** } اسم استفهام وهي معلّقة فعل { يَرَوْا } عن العمل في معموله أو معموليه. والمعنى: ألم يتأمّلوا في هذا السؤال، أي: في الجواب عنه. فالاستفهام مستعمل في التنبيه ولفت النظر لا في طلب الإخبار.

إبداء الخلق: بدؤه وإيجاده بعد أن لم يكن موجودا. يقال: **أبدأ**، بهمزة في أوله و**بدأ** بدونها، وقد وردا معا في هذه المقطع إذ قال هنا { أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ } ثم قال لاحقا { فانظروا كيف بدأ الخلق } [20].

وجيء بصيغة المضارع لإفادة تجدّد بدء الخلق. ولم يجيء في أسمائه تعالى إلّا **المبدئ** دون البادئ.

الخلق: مصدر بمعنى المفعول، أي: المخلوق، كقوله تعالى { هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ } [لقمان:11].

{ **ثُمَّ يُعِيدُهُ** } مستأنفة ابتدائية مستقلة معترضة بين جملة { أَوَلَمْ يَرَوْا } وجملة { قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ }.

{ **ثُمَّ** } للتراخي الرتبي لأنّ أمر إعادة الخلق أهم وأرفع رتبة من بدئه لأنّه غير مشاهد ولأنّهم ينكرونه.

{ **إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** } مبيّنة لما تضمّنه الاستفهام من إنكار عدم الرؤية المؤدية إلى العلم بوقوع الإعادة، إذ أحالوها مع أنّ إعادة الخلق إن لم تكن أيسر من البدء في العرف فلا أقل من كونها مساوية لها، وهذا كقوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ }.

{ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [20].

اعتراض انتقالي من الإنكار عليهم ترك الاستدلال بما هو بمرأى منهم إلى إرشادهم للاستدلال بما هو بعيد عنهم من أحوال إيجاد المخلوقات وتعاقب الأمم، فإنّ تعوّد الناس بما بين أيديهم يصرف عقولهم عن التأمّل فيما وراء ذلك من دلائل دقائقها على ما تدّل عليه.

فالسير في الأرض وسيلة جامعة لمختلف الدلائل فلذلك كان الأمر به لهذا الغرض من جوامع الحكمة.

{ **فَانْظُرُوا** } جيء في هذا الاستدلال بفعل النظر لأنّ إدراك ما خلقه الله حاصل بطريق البصر وهو بفعل النظر أولى وأشهر.

{ **كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ** } جيء بالفعل الماضي لأنّ السائر يشهد مخلوقات مبدوءة من قبل فيفطن إلى أنّ الذي أوجدها إنّما أوجدها بعد أن لم تكن وأنّه قادر على إيجاد أمثالها فهو بالأحرى قادر على إعادتها بعد عدمها.

والاستدلال بالأفعال التي مضت أمكن لأنّ للشيء المتقرّر تحقُّقا محسوسا.

{ **ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ** } جملة مستقلّة. و{ ثُمَّ } للتراخي الرتبي. وإظهار اسم الجلالة بعد تقدّم

ضميره في قوله تعالى { كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ } لتسجيل وقوع هذا الإنشاء الثاني، فتكون الجملة مستقلّة حتّى تكون عنوان اعتقاد بمنزلة المثل لأنّ في اسم الجلالة إحضارا لجميع الصفات الذاتية التي بها التكوين.

النشأة: المرة من النشء وهو الإيجاد، وكذلك قرأها الجمهور، عُبِّر عنها بصيغة المرّة لأنّها نشأة دفعية تخالف النشء الأوّل.

{ **إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } تذييل، أي: قدير على البعث وعلى كل شيء إذا أراده. وإظهار اسم الجلالة لتكون جملة التذييل مستقلة بنفسها فتجري مجرى الأمثال.

{ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ } [21].

لمّا ذكر النشأة الآخرة أتبع ذكرها بذكر أهمّ ما تشتمل عليه وما أوجدت لأجله وهو الثواب والعقاب. وابتدئ بذكر العقاب لأنّ الخطاب جار مع منكري البعث الذين حظّهم فيه هو التعذيب. والفريقان معلومان من آيات الوعد والوعيد.

{ **وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ** } تقديم المجرور على عامله للاهتمام والتأكيد، إذ ليس المقام للحصر إذ ليس ثمّة اعتقاد مردود. وفي هذا إعادة إثبات وقوع البعث وتعريض بالوعيد.

القلب: الرجوع، أي: وإليه ترجعون.

{ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ } [22].

عطفت على جملة { وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ } باعتبار ما تضمنته من الوعيد.

المعجز: حقيقته هو الذي يجعل غيره عاجزا عن فعل ما، وهو هنا مجاز في الغلبة، وقد تقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ } [الأنعام:134]. والمفعول محذوف للعلم به، أي: بمعجزين الله.

فالمعنى: وما أنتم بمُفْلَتين من العذاب.

{ **فِي الْأَرْضِ** } يتعلق { بِمُعْجِزِينَ }، أي: ليس لكم انفلات في الأرض، أي: لا تجدون موئلا ينجيكم من قدرتنا عليكم في أي مكان من الأرض.

{ **وَلَا فِي السَّمَاءِ** } احتراس وتأييس من الطمع في النجاة، وإن كانوا لا مطمع لهم في الالتحاق بالسماء. ومنه قوله تعالى { لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ } [سبأ:22].

ولم تقع مثل هذه الزيادة في [الشورى:31] { وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ }، لأن تلك الآية جمعت خطايا للمسلمين والمشركين بقوله { وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ } [الشورى:30] إذ العفو عن المسلمين.

وما في هذه الآية من الزيادة { وَلا فِي السَّمَاءِ } من المبالغة المفروضة وهي من المبالغة المقبولة. وهي أظهر في قوله تعالى { يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا } [الرحمن:33]. وفي هذا إشارة إلى إبطال اغترارهم بتأخير الوعيد الذي تُوعّدوه في الدنيا.

{ **وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ** } لمّا آيسهم من الانفلات بأنفسهم في جميع الأمكنة أعقبه بتأييسهم من الانفلات من الوعيد بسعي غيرهم لهم؛ من أولياء يتوسّطون في دفع العذاب عنهم بنحو السعاية أو الشفاعة، أو من نصراء يدافعون عنهم بالمغالبة والقوّة.

{ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [23].

بيان لما في قوله تعالى { يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ } [21]، وإنّما عطف لما فيه من زيادة الإخبار بأنّهم لا ينالهم الله برحمة وأنّه يصيبهم بعذاب أليم.

الكفر بآيات الله: هو كفرهم بالقرآن. و**الكفر بلقائه**: إنكار البعث.

{ **بِآيَاتِ اللَّهِ** } التعبير بالاسم الظاهر دون ضمير التكلم للتنويه بشأن الآيات حيث أضيفت إلى الاسم الجليل لما في الاسم الجليل من التذكير بأنّه حقيق بأن لا يكفر بآياته.

{ **أُولَئِكَ** } اسم الإشارة يفيد أنّ ما سيذكره بعده نالهم من أجل ما ذكر قبله من أوصاف، أي: أنّهم استحقّوا اليأس من الرحمة وإصابتهم بالعذاب الأليم لأجل كفرهم بالقرآن وإنكارهم البعث.

{ **يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي** } أخبر عن يأسهم من رحمة الله بالفعل الماضي تنبيها على تحقيق وقوعه.

والمعنى: أولئك سييأسون من رحمة الله لا محالة.

{ **رَحْمَتِي** } التفات عاد به أسلوب الكلام إلى مقتضى الظاهر.

{ **وَأُولَئِكَ** } إعادة اسم الإشارة لتأكيد التنبيه على استحقاقهم ذلك.

{ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [24].

لمّا تم الاعتراض الواقع في خلال قصة إبراهيم عاد الكلام إلى بقية القصة بذكر ما أجابه به قومه.

{ **فَمَا** } الفاء تفريع على جملة { إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ } [16].

{ **إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ** } جيء بصيغة حصر الجواب للدلالة على أنّهم لم يتردّدوا في جوابه وكانت كلمتهم واحدة في تكذيبه، وهذا من تصلّبهم في كفرهم. وإنّما تردّدوا في طريق إهلاكه بين القتل بالسيف والإتلاف بالإحراق ثم استقر أمرهم على إحراقه لما دل عليه قوله تعالى:

{ **فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ** } وقد أُجمل إنجاؤه من النار هنا وهو مفصّل في [الأنبياء:69].

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** } الإشارة بـ { ذَلِكَ } إلى الإنجاء من النار، وجعل ذلك الإنجاء آيات ولم يجعل آية واحدة لأنّه يدلّ على قدرة الله، وكرامة رسوله، وتصديق وعده، وإهانة عدوه، وأنّ المخلوقات كلّها جليلها وحقيرها مسخّرة لقدرة الله تعالى.

{ **لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** } جيء بهذا التركيب ليدلّ على أنّ إيمانهم متمكّن منهم ومن مقومات قوميتهم. وفيه تعريض بأنّ تلك الآيات لم يصدق بها قوم إبراهيم لشدّة مكابرتهم وكون الإيمان لا يخالط عقولهم.

{ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ } [25].

الأظهر من ترتيب الكلام أن تكون مقالته هذه بعد أن أنجاه الله من النار، أراد بها إعلان مكابرتهم الحقّ وإصرارهم على عبادة الأوثان بعد وضوح الحجّة عليهم بمعجزة سلامته من حرق النار.

{ **إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ** } محط القصر هو المفعول لأجله { **مَوَدَّةَ** بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا }، أمّا قصر المعبودات من دون الله على كونها أوثانا فقد سبق في قوله { إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً } [17]. أي: ما اتخذتم أوثانا إلّا لأجل مودّة بعضكم بعضا. ووجه الحصر أنّه لم تبق لهم شبهة في عبادة الأوثان بعد مشاهدة دلالة صدق الرسول الذي جاء بإبطالها فتمحّض أن يكون سبب بقائهم على عبادة الأوثان هو مودة بعضهم بعضا الداعية لإباية المخالفة.

الأوثان: تقدم ذكرها قريبا.

المودة: المحبة والإلف، ويتعين أن يكون ضمير { **بَيْنِكُمْ** } شاملا للأوثان.

قال الفخر: أي مودة بين الأوثان وعَبَدتها، فإنّ من غلبت عليه اللذات الجسمية لا يلتفت إلى اللذات العقلية.

والخبر مستعمل في غير إفادة الحكم بل في التنبيه على الخطأ.

{ **ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً** } تنبيه لسوء عاقبة هذه المودّة وإزالة للغرور والغفلة، ليعلموا أنّ اللذات العاجلة لا عبرة بها إن كانت تعقب ندامة آجلة.

<u>المعنى</u>: أنّ المخاطبين يكفرون بالأصنام التي كانوا يعبدونها إذ يجحدون يوم القيامة أنّهم كانوا يعبدونها.

{ **وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ** } ثم ذكر ما يعمّهم من عذاب الخزي وانعدام النصير. وجيء في نفي الناصر بصيغة الجمع هنا خلافا لقوله تعالى آنفا { وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ } [22] لأنّهم لمّا تألّبوا على إبراهيم وتجمّعوا لنصرة أصنامهم كان جزاؤهم حرمانهم من النصراء مطابقة بين الجزاء والحالة التي كانوا عليها. على أن المفرد والجمع في حيّز النفي سواء في إفادة نفي كلّ فرد من الجنس.

{ **فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } [26].

{ **فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ** } جملة معترضة بين الإخبار عن إبراهيم اعتراضَ التفريع، وأفادت الفاء مبادرة لوط بتصديق إبراهيم. والاقتصار على ذكر لوط يدلّ على أنّه لم يؤمن به إلّا لوط لأنّه الرجل الفرد الذي آمن به وأمّا امرأة إبراهيم وامرأة لوط فلا يشملهما اسم القوم في قوله تعالى { وإبراهيم إذ قال لقومه } لأن القوم خاص برجال القبيلة. وفي التوراة أنّه كانت معه زوجه (سارة) وزوج لوط واسمها (ملكة).

ولوط هو ابن (هاران) أخي إبراهيم، فلوط يومئذ من أمّة إبراهيم عليهما السلام.

{ **وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } عطف على جملة { فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ } [24].

{ **قَالَ** } الضمير عائد إلى إبراهيم، أي: أعلن أنّه مهاجر ديار قومه وذلك لأنّ الله أمره بمفارقة أهل الكفر.

وهذه أوّل هجرة لأجل الدين ولذلك جعلها هجرة إلى ربّه.

المهاجرة: مفاعلة من الهجر: وهو ترك شيء كان ملازما له، والمفاعلة للمبالغة أو لأن الذي يهجر قومه يكونون هم قد هجروه أيضا.

{ **إِلَى رَبِّي** } حرف (إِلَى) للانتهاء المجازي، إذ جعل هجرته إلى الأرض التي أمره الله بأن يهاجر إليها كأنها هجرة إلى ذات الله تعالى فتكون { إِلَى } تخييلا لاستعارة مكنية.

أو جعل هجرته من المكان الذي لا يعبد أهله الله لطلب مكان ليس فيه مشركون بالله كأنه هجرة إلى الله، فتكون { إِلَى } على هذا الوجه مستعارة لمعنى لام التعليل استعارة تبعية.

{ **إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } جملة واقعة موقع التعليل لمضمون { إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي }، لأنّ من كان عزيزا يعتز به جاره ونزيله.

{ **الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } لإفادة أنّ عزّته محكمة واقعة موقعها المحمود عند العقلاء مثل نصر المظلوم، ونصر الداعي إلى الحق، ويجوز أن يكون { الْحَكِيمُ } بمعنى الحاكم فيكون زيادة تأكيد معنى { الْعَزِيزُ }.

وقد مضت قصة إبراهيم وقومه وبلادهم مفصّلة في [الأنبياء:51-73].

{ **وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ** } [27].

هذا الكلام عُقّبت به قصة إبراهيم تبيانا لفضله إذ لا علاقة له بالقصة. والظاهر أن يكون المراد بـ { وَهَبْنَا، وَجَعَلْنَا } الإعلام بذلك، فيكون من تمام القصّة كما في [هود:71]. وتقدّم نظير هذه الآية في [الأنعام:84].

الكتاب: مراد به الجنس، فالتوراة والإنجيل والزبور والقرآن كتب نزلت في ذرّيّة إبراهيم.

{ **وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ** } جمع الله له أجرين: أجرا في الدنيا بنصره على أعدائه وبحسن السمعة وبث التوحيد ووفرة النسل، وأجرا في الآخرة وهو كونه في زمرة الصالحين.

{ **الصَّالِحِينَ** } التعريف للكمال، أي: من كُمَّل الصالحين.

{ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ [28] أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ [29] قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ [30] }.

الانتقال من رسالة إبراهيم إلى قومه إلى رسالة لوط لمناسبة أنّه شابه إبراهيم في أن أنجاه الله من عذاب الرجز. وتقدم نظيرها في [النمل:54-58]، وفي [الشعراء:160-169]. وما بين الآيات من تفاوت هو تفنّن في حكاية القصة للغرض الذي ذكرته في المقدّمة السابعة.

قوم لوط: من الكنعانيين، وتقدم ذكرهم في [الأعراف:80].

{ **إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ** } لم يقع له نظير فيما مضى. وتوكيد الجملة بـ (إنَّ) والـ (لام) توكيد لتعلق النسبة بالمفعول، فالمقصود تحقيق أنّ الذي يفعلونه فاحشة، أي: عمل قبيح بالغ الغاية في القبح، لأنّ **الفحش** بلوغ الغاية في شيء قبيح، لأنّهم كانوا غير شاعرين بشناعة عملهم وقبحه.

{ **مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ** } تشديد في الإنكار عليهم في أنّهم الذين سنُّوا هذه الفاحشة السيّئة للناس وكانت لا تخطر لأحد ببال، وإنّ كثيرا من المفاسد تكون الناس في غفلة عن ارتكابها لعدم الاعتياد بها حتّى إذا أقدم أحد على فعلها وشوهد ذلك منه تنبّهت الأذهان إليها وتعلّقت الشهوات بها.

{ **أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ** } بدل اشتمال من مضمون جملة { لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ }، لأن إتيان الرجال وقطع السبيل وإتيان المنكر في ناديهم ممّا يشتمل عليه إتيان الفاحشة.

وأدخل استفهام الإنكار على جميع التفصيل وأعيد حرف التأكيد لتتطابق جملة البدل مع الجملة المبدل منها.

قطع السبيل: قطع الطريق، أي: التصدّي للمارين فيه بأخذ أموالهم أو قتل أنفسهم أو إكراههم على الفاحشة. وكانوا يقعدون بالطرق ليأخذوا من المارة من يختارونه. فهو فساد في ذاته وهو أفسد في هذا المقصد.

إتيان المنكر في ناديهم: فإنّهم جعلوا ناديهم للحديث في ذكر هذه الفاحشة والاستعداد لها.

النادي: المكان الذي ينتدي فيه الناس، أي: يجتمعون نهارا للمحادثة والمشاورة وهو مشتق من **النَّدْو**

بوزن العفو، وهو الاجتماع نهارا. وأمّا مكان الاجتماع ليلا فهو السامر، ولا يقال للمجلس ناد إلّا ما دام فيه أهله فإذا قاموا عنه لم يسم ناديا.

{ **فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** } الكلام فيه كالقول في نظيره المتقدّم في قوله تعالى { فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ } [24].

{ **ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ** } الأمر للتعجيز، وهو يقتضي أنّه أنذرهم العذاب في أثناء دعوته. ولم يتقدّم ذكر ذلك في قصة لوط فيما مضى لكن الإنذار من شؤون دعوة الرسل.

{ **قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ** } أراد بالنصر عقاب المكذّبين ليريهم صدق ما أبلغهم به. ووصفهم بـ { الْمُفْسِدِينَ } لأنّهم يفسدون أنفسهم بشناعات أعمالهم ويفسدون الناس بحملهم على الفواحش وتدريبهم بها، وفي هذا الوصف تمهيد للإجابة بالنصر لأنّ الله لا يحبّ المفسدين.

{ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ [31] قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ [32] }.

{ **لَمَّا** } أداة تدلّ على التوقيت تستلزم جملتين: أولاهما فعلية ماضوية وتضاف إليها { لَمَّا }، والثانية فعلية أو اسمية مشتملة على ما يصلح لأنّ يتعلّق به الظرف من فعل أو اسم مشتق، ويطلق على الجملة الثانية الواقعة بعد (لَمَّا) اسم الجزاء تسامحا.

{ **جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى** } هي ما دلّ عليه قوله تعالى آنفا { وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ } [27]. ومن لطف الله بإبراهيم أن قدّم له البشرى قبل إعلامه بإهلاك قوم لوط.

البشرى: اسم للبشارة، وهي الإخبار بما فيه مسرّة للمخبَر، وتقدّم ذكر البشارة عند قوله تعالى { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً } [البقرة:119].

القرية: هي (سدوم) قرية قوم لوط. وتقدّم ذكرها في [الأعراف:82].

{ **إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ** } تعليل للإهلاك وقُصد به استئناس إبراهيم لقبول هذا الخبر المحزن، وأيضا لأنّ العدل يقتضي ألّا يكون العقاب إلّا على ذنب يقتضيه.

الظلم: ظلمهم أنفسهم بالكفر والفواحش، وظلمهم الناس بالغصب على الفواحش والتدرّب بها.

{ **قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً** } خبر مستعمل في التذكير بسنة الله مع رسله من الإنجاء من العذاب الذي يحلّ بأقوامهم. ولوط وإن لم يكن من أهل القرية بالأصالة إلّا أنّ كونه بينهم يقتضي الخشية عليه من أن يشمله الإهلاك. ولهذا قال { إِنَّ فِيهَا لُوطاً } بحرف الظرفية ولم يقل: إنّ منها.

{ **قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا** } أي: نحن أعلم منك باستحقاق لوط النجاة عند الله واستحقاق غيره العذاب،

فإنّ الملائكة لا يسبقون الله بالقول وهم بأمره يعملون، وكان جوابهم مُطَمْئِنًا إبراهيم.

{ **لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ** } بيان لجملة { نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا } فلذلك لم تعطف عليها وفصلت، فقد علموا بإذن الله ألّا ينجو إلا لوط وأهله، أي: بنتاه لا غير، ويهلك الباقون حتّى امرأته.

{ **كَانَتْ** } مستعمل في معنى تكون، فعُبّر بصيغة الماضي تشبيها للفعل المحقّق وقوعه بالفعل الذي مضى مثل قوله تعالى { أَتَى أَمْرُ اللَّهِ } [النحل:1]، ويجوز أن يكون مرادا به الكون في علم الله وتقديره، كما في قوله تعالى { قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ } [النمل:57]، فتكون صيغة الماضي حقيقة.

{ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ } [33].

{ **أَنْ** } حرف مزيد للتوكيد وأكثر ما يزاد بعد { لَمَّا } وهو يفيد تحقيق الربط بين مضمون الجملتين اللتين بعد { لَمَّا }، فهي لتحقيق الربط بين مجيء الرسل ومساءة لوط بهم. ومعنى تحقيقه هنا سرعة الاقتران بين الشرط والجزاء، وذلك لِما يعلم من عادة معاملة قومه مع الوافدين على قريتهم. ولم يكون لوط عالما بأنّهم ملائكة لأنهم جاؤوا في صورة رجال، فأريد هنا التنبيه على أنّ ما حدث به من المساءة وضيق الذرع كان قبل أن يعلم بأنّهم ملائكة جاؤوا لإهلاك أهل القرية. وقد تقدّم تفصيل ذلك في [هود:77-81].

{ **سِيءَ** } بناء الفعل للمجهول لأنّ المقصود حصول المفعول دون فاعله.

{ **وَقَالُوا لَا تَخَفْ** } قدّموا تأمينه قبل إعلامه بأنّهم منزلون العذاب على أهل القرية تعجيلا بتطمينه.

وقد طويت جمل دلّ عليها قوله تعالى { إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ} وهي الجمل التي ذكرت معانيها في قوله تعالى { وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ - إلى قوله - قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ } [هود:81].

{ **وَلَا تَحْزَنْ** } عطف على { لَا تَخَفْ } جمع بين تأمينه من ضرّ العذاب وبين إعلامه بأنّ الذين سيهلكون ليسوا أهلا لأن يحزن عليهم، ومن أولئك امرأته لأنّه لا يحزن على من ليس بمؤمن به.

{ **إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ** } تعليل للنهي عن الأمرين. واستثناء امرأته من عموم أهله استثناء من التعليل لا من النهي، ففي ذلك معذرة له بما عسى أن يحصل له من الحزن على هلاك امرأته مع أنّه كان يحسبها مخلصة له، وقد بيّنا وجه ذلك في تفسير سورة هود.

{ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ } [34].

مستأنفة وقعت بيانا لما في جملة { لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ } من الإيذان بأنّ ثمة حادثا يخاف منه ويحزن له.

الرجز: العذاب المؤلم. ومعنى كونه من السماء أنّه أنزل عليهم من الأفق، وقد مضى بيانه في سورة هود.

{ **وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** } [35].

عطف على { وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ... } عطف آية على آية لأنّ قصة لوط آية بما تضمّنته من الخبر، وآثار قرية قومه آية أخرى بما يمكن مشاهدته لأهل البصر. ويجوز أن تكون جملة معترضة في آخر القصة. وعلى كلا الوجهين فهو من كلام الله.

المعنى: ولقد تركنا من القرية آثارا دالة لقوم يستعملون عقولهم في الاستدلال بالآثار على أحوال أهلها. وهذه العلامة هي بقايا قريتهم مغمورة بماء بحيرة لوط تلوح من تحت المياه شواهد القرية، وبقايا لون الكبريت والمعدن التي رجمت بها قريتهم وفي ذلك عدّة أدلة باختلاف مدارك المستدلين.

{ **وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ** } [36].

التقدير: وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيباً. والمناسبة في الانتقال من قصة لوط وقومه إلى قصة مدين ورسولهم أنّ **مدين** كان من أبناء إبراهيم وأنّ الله أنجاه من العذاب كما أنجى لوطا.

{ **وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً** } تقديم المجرور ليتأتى الإيجاز في وصف شعيب بأنّه أخوهم لأنّ هذا الوصف غير موجود في نوح وإبراهيم ولوط. وتقدّم معنى كونه أخا لهم في [هود:84].

الرجاء: الترقّب واعتقاد الوقوع في المستقبل. وأمره إيّاهم بترقّب اليوم الآخر دلّ على أنّهم كانوا لا يؤمنون بالبعث.

{ **وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ** } تقدّم الكلام على نظيره عند قوله تعالى { كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ } [البقرة:60]. وتقدمت قصة شعيب في [هود:84-95].

{ **فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ** } [37].

الأخذ: الإعدام والإهلاك، شُبّه الإعدام بالأخذ بجامع الإزالة.

الرجفة: الزلزال الشديد الذي ترتجف منه الأرض، وفي [هود:94] سُمّيت بـ (**الصيحة**) لأنّ لتلك الرجفة صوتا شديدا كالصيحة. وتقدم تفسير ذلك.

{ **وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ** } [38]

لمّا جرى ذكر أهل مدين وقوم لوط أُكملت القصص بالإشارة إلى عاد وثمود، إذ قد عُرف في القرآن اقتران هذه الأمم في نسق القصص.

{ **وَعَاداً** } يجوز أن يكون الفتح بفعل مقدّر يدل عليه السياق، تقديره: وأهلكنا عادا، لأنّ قوله تعالى آنفا { فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ } [37] يدلّ على معنى الإهلاك، قاله الزجاج وتبعه الزمخشري.

ويجوز أن يكون معطوفا على ضمير { فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ }، والتقدير: وأخذت عادا وثمودا.

ويجوز أن يُقدّر فعل (واذكر) كما هو ظاهر ومقدّر في كثير من قصص القرآن.

والأظهر أن نجعله منصوبا بفعل تقديره (وأخذنا) يفسره قوله تعالى { فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ } [40] لأنّ (كلًّا) اسم يعمّ المذكورين فلمّا جاء منتصبا بـ { أَخَذْنَا } تعين أنّ ما قبله منصوب بمثله وتنوين العوض الذي لحق (كلًّا) هو الرابط، وأصل نسج الكلام: وعادا وثمودا وقارون وفرعون الخ... كلّهم أخذنا بذنبه.

{ **وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ** } في موضع الحال أو هي معترضة. والمعنى: تبين لكم من مشاهدة مساكنهم أنّهم كانوا فيها فأُهلكوا عن بكرة أبيهم. ومساكن عاد وثمود معروفة عند العرب ومنقولة بينهم أخبارها وأحوالها ويمرّون عليها في أسفارهم إلى اليمن وإلى الشام.

{ **تَبَيَّنَ** } الضمير المستتر عائد على المصدر المأخوذ من الفعل المقدّر، أي يتبيّن لكم إهلاكهم أو أخذنا إيّاهم.

{ **وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ** } معطوفة على جملة { وَعَاداً وَثَمُودَ}.

التزيين: التحسين. والمراد: زيّن لهم أعمالهم الشنيعة فأوهمهم بوسوسته أنّها حسنة. وقد تقدّم عند قوله تعالى { كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ } [الأنعام:108].

الصدّ: المنع عن عمل. و**السبيل**: هنا ما يوصل إلى المطلوب الحق وهو السعادة الدائمة، فإنّ الشيطان بتسويله لهم كفرهم قد حرمهم من السعادة الأخروية فكأنّه منعهم من سلوك طريق يبلّغهم إلى المقر النافع.

{ **وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ** } أي: أنّهم كانوا أهل بصائر، أي: عقول فلا عذر لهم في صدّهم عن السبيل.

الاستبصار: البصارة بالأمور، والسين والتاء للتأكيد مثل: استجاب واستمسك.

{ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ } [39].

كما ضرب الله المثل لقريش بالأمم التي كذبت رسلها فانتقم الله منها، كذلك ضرب المثل لصناديد قريش مثل أبي جهل، وأمية بن خلف، والوليد بن المغيرة، وأبي لهب بصناديد بعض الأمم السالفة كانوا سبب مصاب أنفسهم ومصاب قومهم الذين اتّبعوهم إنذارا لقريش بما عسى أن يصيبهم من جرّاء تغرير قادتهم بهم وإلقائهم في خطر سوء العاقبة.

{ **بِالْبَيِّنَاتِ** } هي المعجزات التي تحدّاهم بها على صدقه فأعرض فرعون عنها وأتّبعه هامان وقومه. وأمّا ما جاء به موسى لقارون فنهيه عن البطر. وتقدّمت قصصهم في [القصص:36-42 /76-82]

{ **فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ** } إيماء إلى أنّهم كفروا عن عناد وكبرياء لا عن جهل وغلواء كقوله تعالى { وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ } [الجاثية:23]، فكان حالهم كحال صناديد قريش الذين لا يُظنّ أنّ فطنتهم لم تبلغ بهم إلى تحقُّق أنّ ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم صدق وأنّ ما جاء به القرآن حقّ، ولكن غلبت الأَنَفة.

الاستكبار: شدّة الكبر، فالسين والتاء للتأكيد، كقوله تعالى { وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ } [38].

{ **فِي الْأَرْضِ** } التعريف للعهد، فيصحّ أن يكون المعهود هو أرض كلّ منهم، أو أن يكون المعهود الكرة الأرضية مبالغة في انتشار استكبار كلّ منهم في البلاد حتى كأنّه يعمّ الدنيا كلها.

{ **وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ** } أي: الانفلات من تصريف الحكم فيهم. وقد تقدّم في قوله تعالى { وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوا } [الأنفال:59]، فالواو للحال، أي: استكبروا في حال أنّهم لم يفدهم استكبارهم.

وإقحام فعل الكون بعد النفي لأنّ المنفي هو ما حسبوه نتيجة استكبارهم، أي: أنّهم لا ينالهم أحد لعظمتهم.

{ فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [40].

أي: فكان من عاقبة ذلك أن أخذهم الله بذنوبهم العظيمة الناشئة عن تزيين الشيطان لهم أعمالهم وعن استكبارهم في الأرض، وليس المفرَّع هو أخذ الله إياهم بذنوبهم لأنّ ذلك قد أشعر به ما قبل التفريع، ولكنه ذُكر ليُفضي بذكره إلى تفصيل أنواع أخذهم، وللدلالة على عظيم تصرّف الله.

{ **أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً** } المراد بهم عاد. و**الحاصب**: الريح الشديدة، سُمّيت حاصبا لأنّها تقلع الحصباء من الأرض.

وليس المراد بهم قوم لوط كالذي في قوله تعالى { إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ } [القمر:34]، فقد مرّ آنفا الكلام على عذابهم مفصّلا فلا يدخلون في هذا الإجمال.

{ **أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ** } هم ثمود.

{ **خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ** } هو قارون وأهله. وقد تقدّم ذكر الخسف في [القصص:81-82]

{ **مَنْ أَغْرَقْنَا** } فرعون وهامان ومن معهما من قومهما.

الأخذ: الإتلاف والإهلاك، شُبّه الإعدام بالأخذ بجامع إزالة الشيء من مكانه، فاستعير له فعل { أَخَذْنَا }.

{ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ** } نُفي عن الله تعالى ظلم هؤلاء لأنّ إيلامهم كان جزاء على أعمالهم.

{ **وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** } هو تسبّبهم في عذاب أنفسهم فجروا إليها العقاب، لأنّ النفس أولى الأشياء برأفة صاحبها بها وتفكيره في أسباب خيرها. والاستدراك ناشئ عن نفي الظلم عن الله في عقابهم لأنّه يُتوهّم منه انتفاء موجب العقاب فالاستدراك لرفع هذا التوهّم.

{ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } [41].

لمّا بُيِّنت لهم الأشباه والأمثال من الأمم التي اتخذت الأصنام من دون الله فما أغنت عنهم أصنامهم لمّا جاءهم عذاب الله، أعقب ذلك بضرب المثل لحال جميع أولئك وحال من ماثلهم من مشركي قريش في اتخاذهم ما يحسبونه دافعا عنهم، وهو أضعف من أن يدفع عن نفسه، بحال العنكبوت تتخذ لنفسها بيتا تحسب أنّها تعتصم به من المعتدي عليها فإذا هو لا يصمد ولا يثبت لأضعف تحريك فيسقط ويتمزّق. والمقصود بهذا الكلام مشركو قريش.

وهو تمثيل بديع من مبتكرات القرآن كما سيأتي قريبا عند قوله تعالى { وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ } [43].

{ **الْعَنْكَبُوتِ** } صنف من الحشرات ذات بطون وأرجل وهي أصناف، وسُمِّي مسكنها بيتا لشبهه بالخيمة في أنّه منسوج ومشدود من أطرافه، فهو كبيت الشعر.

{ **وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ** } معترضة مبيّنة وجه الشبه، وهذه الجملة تجري مجرى المثل فيضرب لقلة جدوى شيء، فاقتضى ذلك أنّ الأديان التي يعبد أهلها غير الله هي أحقر الديانات وأبعدها عن الرشد، وإن كانت متفاوتة فيما يعرض لتلك العبادات من الضلالات كما تتفاوت بيوت العنكبوت في الأوهنية.

{ **لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** } متصلة بجملة { كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ} لا بجملة { وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ }. فتقدير جواب { لَوْ } هكذا: لو كانوا يعلمون أنّ ذلك مثلهم.

{ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [42].

لما نفى عنهم العلم بما تضمّنه التمثيل من حقارة أصنامهم التي يعبدونها وقلّة جدواها بقوله تعالى { لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [41] المفيد أنّهم لا يعلمون، أعقبه بإعلامهم بعلمه بدقائق أحوال تلك الأصنام على اختلافها واختلاف معتقدات القبائل التي عبدتها دفعا بهم إلى أن يتّهموا عقولهم وأنّ عليهم النظر في حقائق الأشياء. فهذا توقيف لهم على تفريطهم في علم حقائق الأمور التي علمها الله وأبلغهم دلائلها النظرية ونظائرها التاريخية، وقرّبها إليهم بالتمثيلات الحسية فعموا وصموا عن هذا وذاك.

{ **وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } تذييل، فهو عزيز لا يُغلب، وحكيم لا تنطلي عليه الأوهام.

{ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ } [43].

بعد أن بيّن الله لهم فساد معتقدهم في الأصنام، وأعقبه بتوقيفهم على جهلهم بذلك، نعى عليهم هنا أنّهم

ليسوا بأهل لتفهُّم تلك الدلائل التي قُرّبت إليهم بطريقة التمثيل.

{ **وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ** } اسم الإشارة للتنويه بالأمثال المضروبة في القرآن التي منها هذا المثل بالعنكبوت.

{ **نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ** } خبر عن اسم الإشارة. وهذه الجملة الخبرية مستعملة في الامتنان لأنّ في ضرب الأمثال تقريبا لفهم الأمور الدقيقة. قال الزمخشري: " ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المُثل والنظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خبيئات المعاني ورفع الأستار عن الحقائق حتّى تريك المتخيَّل في صورة المتحقّق والغائبَ كالمُشاهد " . وتقدّم بيان مزيّة ضرب الأمثال عند قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا } [البقرة:26].

{ **وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ** } العقل هنا بمعنى الفهم، أي: لا يفهم مغزاها إلّا الذين كملت عقولهم فكانوا علماء غير سفهاء الأحلام. وفي هذا تعريض بأنّ الذين لم ينتفعوا بها جهلاء العقول، فما بالك بالذين اعتاضوا عن التدبّر في دلالتها باتخاذها هُزْءًا وسخرية. كما كان حال قريش لمّا سمعوا قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ } [الحج:73]، وقوله تعالى

{ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً } [41]، قالوا: ما يستحيي محمد أن يُمثِّل بالذباب والعنكبوت والبعوض.

{ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ } [44].

بعد أن بيّن الله تعالى عدم انتفاع المشركين بالحجّة ومقدّماتها ونتائجها الموصلة إلى بطلان إلهية الأصنام مستوفاة مغنية لمن يريد التأمّل والتدبّر في صحة مقدّماتها بإنصاف، نُقل الكلام إلى مخاطبة المؤمنين لإفادة التنويه بشأن المؤمنين إذ انتفعوا بما هو أدقّ من ذلك، وهو حالة النظر والفكر في دلالة الكائنات على أنّ خالقها هو الله، وأن لا شيء غيره حقيقا بمشاركته في إلهيّتة. فأفْهَمَ ذلك أنّ من لم يعقلوها ليسوا بعالمين.

{ **السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ** } ما يشمل ذاتهما والموجودات المظروفة فيهما.

{ **بِالْحَقِّ** } الباء للملابسة. والحق في كلّ عمل هو إتقانه وحصول المراد منه، قال تعالى { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً } [ص:27].

{ **لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ** } الاقتصار عند ذكر دليل الوحدانية على انتفاع المؤمنين بتلك الدلالة المفيد بأن المشركين لم ينتفعوا بذلك يشبه الاحتباك بين الآيتين.

{ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ } [45].

بعد أن ضرب الله للناس المثل بالأمم السالفة، وجاء بالحجّة المبيّنة فساد معتقد المشركين، ونوّه بصحة عقائد المؤمنين بمنتهى البيان الذي ليس وراءه مطلب، أَقْبَلَ على رسوله بالخطاب الذي يزيد تثبيته على نشر الدعوة وملازمة الشرائع وإعلان كلمة الله بذلك. وما الرسول عليه الصلاة والسلام إلّا قدوة للمؤمنين وسيدهم فأمره أمر لهم، كما دلّ عليه التذييل بقوله تعالى { وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ } بصيغة جمع المخاطبين.

{ اتْلُ } حذف متعلّق الفعل ليعم التلاوة على المسلمين وعلى المشركين. وهذا كقوله تعالى { إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا - إلى قوله - وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ } [النمل:92/91].

{ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ } أمره بإقامة الصلاة لأنّ الصلاة عمل عظيم، والأمر يشمل الأمّة فقد تكرّر الأمر بإقامة الصلاة في آيات كثيرة.

وعُلّل الأمر بإقامة الصلاة بالإشارة إلى ما فيها من الصلاح النفساني.

{ إِنَّ } موقع فاء التعليل، ولا شك أنّ هذا التعليل موجّه إلى الأمّة لأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم معصوم.

وإذ كانت الآية مسوقة للتنويه بالصلاة وبيان مزيّتها في الدين تعيّن أن يكون المراد: أنّ الصلاة تُحذّر من الفحشاء والمنكر تحذيرا هو من خصائصها.

قال ابن عطية: " وذلك عندي بأنّ المصلّي إذا كان على الواجب من الخشوع والإخبات صلحت بذلك نفسه وخامرها ارتقاب الله تعالى فاطّرد ذلك في أقواله وأفعاله وانتهى عن الفحشاء والمنكر".

والوجه عندي في معنى الآية: أن يُحمل فعل { تَنْهَى } على المجاز الأقرب إلى الحقيقة وهو تشبيه ما تشتمل عليه الصلاة بالنهي، وتشبيه الصلاة في اشتمالها عليه بالناهي، ووجه الشبه أنّ الصلاة تشتمل على مُذكِّرات بالله، من أقوال وأفعال، من شأنها أن تكون للمصلّي كالواعظ المذكّر بالله تعالى إذ ينهى سامعه عن ارتكاب ما لا يُرضي الله.

<u>ففي الصلاة من الأقوال</u>؛ تكبير لله وتحميده وتسبيحه والتوجه إليه بالدعاء والاستغفار وقراءة فاتحة الكتاب المشتملة على التحميد والثناء على الله والاعتراف بالعبودية له وطلب الإعانة والهداية منه واجتناب ما يغضبه وما هو ضلال، وكلّها تُذكّر بالتعرُّض إلى مرضاة الله والإقلاع عن عصيانه وما يفضي إلى غضبه فذلك صد عن الفحشاء والمنكر.

<u>وفي الصلاة أفعال</u>؛ هي خضوع وتذلّل لله تعالى من قيام وركوع وسجود وذلك يُذكّر بلزوم اجتلاب مرضاته والتباعد عن سخطه، وكلّ ذلك ممّا يصدّ عن الفحشاء والمنكر.

وفي الصلاة أعمال قلبية؛ من نيّة واستعداد للوقوف بين يدي الله وذلك يُذكّر بأنّ المعبود جدير بأن تُمتثل أوامره وتُجتنب نواهيه.

فكانت الصلاة بمجموعها كالواعظ الناهي عن الفحشاء والمنكر، فإن الله تعالى قال { تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ } ولم يقل تصدّ وتحول ونحو ذلك مما يقتضي صرف المصلي عن الفحشاء والمنكر.

وهذا المعنى من النهي عن الفحشاء والمنكر هو من حكمة جعل الصلوات موزّعة على أوقات من النهار والليل ليتجدّد التذكير وتتعاقب المواعظ، وبمقدار تكرّر ذلك تزداد خواطر التقوى في النفوس وتتباعد النفس من العصيان حتّى تصير التقوى ملكة لها.

ووراء ذلك خاصية إلهية جعلها الله في الصلاة يكون بها تيسير الانتهاء عن الفحشاء والمنكر. روى أحمد وابن حبان والبيهقي عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: إنّ فلانا يصلي بالليل فإذا أصبح سرق، فقال: **" سينهاه ما تقول "**، أي: صلاته بالليل.

الفحشاء: اسم للفاحشة، والفحش: تجاوز الحدّ المقبول. فالمراد من الفاحشة: الفعلة المتجاوزة ما يُقبل بين الناس. وتقدّم في قوله تعالى { إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ } [البقرة:169]. والمقصود هنا من الفاحشة: تجاوز الحدّ المأذون فيه شرعا من القول والفعل، و**المنكر**: ما ينكره الشرع ولا يرضى بوقوعه.

{ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ } يجوز أن يكون عطفا على جملة { إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ } فيكون عطف علّة على علّة، ويكون المراد بذكر الله هو الصلاة، كما في قوله تعالى { فَاسَعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ } [الجمعة:9]، أي: صلاة الجمعة. ويكون العدول عن لفظ الصلاة الذي هو كالاسم لها إلى التعبير عنها بطريق الإضافة للإيماء إلى تعليل أنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، أي: إنما كانت ناهية عن الفحشاء والمنكر لأنّها ذكر الله وذكر الله أمر كبير. فاسم التفضيل مسلوب المفاضلة مقصود به قوة الوصف كما في قولنا: الله أكبر، لا نريد أنّه أكبر من كبير آخر.

ويجوز أن يكون عطفا على جملة { اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ }. والمعنى: واذكر الله فإنّ ذكر الله أمر عظيم، فيصحّ أن يكون المراد من الذكر تذكُّر عظمة الله تعالى. ويصحّ أن يكون المراد ذكر الله باللسان ليعمّ ذكر الله في الصلاة وغيرها. واسم التفضيل أيضا مسلوب المفاضلة.

ويجوز أن يكون المراد بالذكر تذكّر ما أمر الله به ونهى عنه، أي: مراقبة الله تعالى وحذر غضبه، فالتفضيل على بابه، أي: ولذكر الله أكبر في النهي عن الفحشاء والمنكر من الصلاة في ذلك النهي، وذلك لإمكان تكرار هذا الذكر أكثر من تكرر الصلاة فيكون قريبا من قول عمر رضي الله عنه: أفضل من شكر الله باللسان ذكر الله عند أمره ونهيه.

{ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ } تذييل لما قبله، وهو وعد ووعيد باعتبار ما اشتمل عليه الكلام السابق.

الصنع: العمل.

{ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } [46].

عطف على جملة { اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ } [45] باعتبار ما تستلزمه تلك من متاركة المشركين والكفّ عن مجادلتهم بعد قوله تعالى { وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ } [43].

وهذه توطئة لما سيحدث من الدعوة في المدينة بعد هجرة النبيّ صلى الله عليه وسلم، لأنّ مجادلة أهل الكتاب لا تعرض للنبيّ صلى الله عليه وسلم ولا للمؤمنين في مكّة، ولكن لمّا كان النبيّ عليه الصلاة والسلام في إبّان نزول أواخر هذه السورة على وشك الهجرة إلى المدينة وكانت الآيات السابقة مجادلة للمشركين غليظة عليهم من تمثيل حالهم بحال العنكبوت، وقوله تعالى { وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ } هيّأ الله لرسوله عليه الصلاة والسلام طريقة مجادلة أهل الكتاب.

والآية معترضة بين محاجّة المشركين والعود إليها في قوله تعالى { وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ } [47].

{ وَلَا تُجَادِلُوا } جيء في النهي بصيغة الجمع ليعمّ النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين، إذ قد تعرض للمسلمين مجادلات مع أهل الكتاب في غير حضرة النبيّ صلى الله عليه وسلم أو قبل قدومه المدينة.

المجادلة: مفاعلة من الجدل، وهو إقامة الدليل على رأي اختلف فيه صاحبه مع غيره، وقد تقدّم في قوله تعالى { وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ } [النساء:107]. ولا علاقة لهذه الآية بحكم قتال أهل الكتاب حتّى يُنظر فيها هل نُسخت أم بقي حكمها.

{ أَهْلَ الْكِتَابِ } اليهود والنصارى في اصطلاح القرآن. والمقصود هنا اليهود فهم الذين كانوا كثيرين في المدينة والقرى حولها. ويشمل النصارى إن عرضت مجادلتهم مثل ما عرض مع نصارى نجران.

{ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } مستثنى من محذوف دل عليه المستثنى، تقديره: لا تجادلوهم بجدال إلّا بجدال بالتي هي أحسن. و{ أَحْسَنُ } اسم تفضيل يجوز أن يكون على بابه فيقدّر المفضل عليه ممّا دلت عليه القرينة، أي: بأحسن من مجادلتكم المشركين، أو بأحسن من مجادلتهم إيّاكم.

ويجوز كون اسم التفضيل مسلوب المفاضلة لقصد المبالغة في الحسن، أي: إلّا بالمجادلة الحسنى، كقوله تعالى { وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } [النحل: 125]. فالله جعل الخيار للنبيّ صلى الله عليه وسلم في مجادلة المشركين بين أن يجادلهم بالحسنى كما اقتضته آية سورة النحل، وبين أن يجادلهم بالشدّة كقوله تعالى { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ } [التوبة:73]، فإنّ الإغلاظ شامل لجميع المعاملات ومنها المجادلات ولا يختص بخصوص الجهاد، فإنّ الجهاد كلّه إغلاظ فلا يكون عطف الإغلاظ على الجهاد إلّا إغلاظا غير الجهاد.

ووجه الوصاية بالحسنى في مجادلة أهل الكتاب أنّ أهل الكتاب مؤمنون بالله غير مشركين به فهم متأهّلون لقبول الحجّة غير مظنون بهم المكابرة، ولأنّ آداب دينهم وكتابهم أكسبتهم معرفة طريق المجادلة فينبغي الاقتصار في مجادلتهم على بيان الحجّة دون إغلاظ حذرا من تنفيرهم، بخلاف

المشركين فقد ظهر من تصلّبهم وصلفهم وجلافتهم ما أيأس من إقناعهم بالحجّة النظرية، وعيَّن أن يُعامَلوا بالغلظة وأن يُبالغ في تهجين دينهم وتفظيع طريقتهم لأنّ ذلك أقرب نجوعا لهم.

{ **إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ** } هم الذين كابروا وأظهروا العداء للنبيّ صلى الله عليه وسلم وللمسلمين وأبوا أن يتلقّوا الدعوة فهؤلاء ظلموا النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين حسدا وبغضا على أن جاء الإسلام بنسخ شريعتهم، وجعلوا يكيدون للنبيّ صلى الله عليه وسلم ونشأ منهم المنافقون، وكلّ هذا ظلم واعتداء. وقد كان اليهود قبل هجرة المسلمين إلى المدينة مسالمين الإسلام وكانوا يقولون: إنّ محمدا رسول الأميين كما قال ابن صيّاد لما قال له النبيّ صلى الله عليه وسلم " **أتشهد أني رسول الله؟** " فقال: أشهد أنّك رسول الأميين ". فلمّا جاء المدينة دعاهم في أوّل يوم قدم فيه، وهو اليوم الذي أسلم فيه عبد الله بن سلام، فأخذوا

من يومئذ يتنكّرون للإسلام.

{ **وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا** } القرآن. والتعبير عنه بهذه الصلة للتنبيه على خطأ أهل الكتاب إذ جحدوا أن يُنزِّل الله كتابا على غير أنبيائهم.

{ **وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ** } التوراة. وهذا كقوله تعالى { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ } [المائدة:59].

{ **وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ** } تذكير بأنّ المؤمنين واليهود يؤمنون بإله واحد. فهذان أصلان يختلف فيهما كثير من أهل الأديان.

{ **وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** } مراد به كلا الفريقين فريق المتكلمين وفريق المخاطبين، أي: وكلانا مسلمون لله تعالى لا نشرك معه غيره.

{ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ } [47].

هذا عود إلى مجادلة المشركين في إثبات أنّ القرآن منزّل من الله على رسوله صلى الله عليه وسلم.

{ **فالذين أتيناهم الكتاب** } ولم يقل: فأهل الكتاب، لأنّ في هذا التركيب تذكيرا لهم بأنّهم أمناء عليه، كما قال تعالى { بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ } [المائدة:44].

{ **يُؤْمِنُونَ بِهِ** } جيء بصيغة المضارع للدلالة على أنّه سيقع في المستقبل، أو للدلالة على تجدّد إيمان هذا الفريق به.

{ **وَمِنْ هَؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ** } الإشارة إلى أهل مكة بتنزيلهم منزلة الحاضرين عند نزول الآية لأنّهم حاضرون في الذهن بكثرة ممارسة أحوالهم وجدالهم. والمعنى: ومن مشركي أهل مكة من يؤمن بأنّ القرآن منزّل من الله، وهؤلاء هم الذين أسلموا والذين يسلمون من بعد، ومنهم من يؤمن به في باطنه ولا

يظهر ذلك عنادا وكبرا مثل الوليد بن المغيرة.

{ **وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ** } إشارة إلى أنّ من الفريقين من يكتم إيمانه جحودا منهم لأجل تصلّبهم.

{ **بِآيَاتِنَا** } عُبّر عن الكتاب بالآيات لأنّه آيات دالة على أنّه من عند الله بسبب إعجازه وتحديه وعجز المعاندين عن الإتيان بسورة مثله. وهذا يتوجّه ابتداء إلى المشركين لأنّ جحودهم واقع، وفيه تهيئة لتوجيهه إلى من عسى أن يجحد به من أهل الكتاب.

{ **الْكَافِرُونَ** } التعريف للدلالة على معنى الكمال في الوصف، أي: إلّا المتوغّلون في الكفر الراسخون فيه.

{ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ } [48].

هذا استدلال بصفة الأمية المعروف بها الرسول صلى الله عليه وسلم، ودلالتها على أنّه موحى إليه من الله أعظم دلالة، وقد ورد الاستدلال بها في القرآن في مواضع كقوله تعالى { مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَان } [الشورى:52]، وقوله تعالى { فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ } [يونس:16].

{ **إِذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ** } وصف المكذّبين بالمبطلين منظور فيه لحالهم في الواقع لأنّهم كذّبوا مع انتفاء شبهة الكذب، فكان تكذيبهم الآن باطلا، فهم مبطلون متوغّلون في الباطل، فالقول في وصفهم بالمبطلين كالقول في وصفهم بالكافرين.

{ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ } [49].

{ **بَلْ** } إبطال لما اقتضاه الفرض من قوله تعالى { إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ }، أي: بل القرآن لا ريب يتطرّقه في أنّه من عند الله، فهو كلّه آيات دالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وأنّه من عند الله لما اشتمل عليه من الإعجاز في لفظه ومعناه.

{ **فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ** } صدر النبيّ صلى الله عليه وسلم عُبّر عنه بالجمع تعظيما له.

و{ الْعِلْمَ } الذي أوتيه النبيّ صلى الله عليه وسلم هو النبوّة كقوله تعالى { وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً }.

<u>ويجوز</u> أن يكون المراد صدور أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم وحفّاظ المسلمين، وهذا يقتضي أن يكون القول تتميما للثناء على القرآن.

{ **وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ** } تذييل يؤذن بأنّ المشركين جحدوا آيات القرآن على ما هي عليه من وضوح الدلالة على أنّها من عند الله لأنّهم ظالمون لا إنصاف لهم، وشأن الظالمين جحد الحقّ، كما قال تعالى { وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً } [النمل:14]، فهم متوغّلون في الظلم كما تقدّم في وصفهم بالكافرين والمبطلين.

{ **وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ** } [50].

لمّا ذكر الجاحدين لآية القرآن ثلاث مرات ووصفهم بالكافرين والمبطلين والظالمين انتقل الكلام إلى مقالتهم الناشئة عن جحودهم، وذلك طلبهم أن يأتي النبيّ صلى الله عليه وسلم بآيات مرئية خارقة للعادة كناقة صالح وعصا موسى. وهذا من جلافتهم أن لا يتأثروا إلّا للأمور المشاهدة.

وقد قدّمتُ بيان هذا الوهم عند قوله تعالى { وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ } [الأنعام:37].

{ **قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ** } أي: أنّها من عمل القدرة الذي يجري على وفق إرادته تعالى، فلكونها منوطة بإرادته شُبِّهت بالشيء المحفوظ عند مالكه.

{ **وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ** } قصر النبيّ عليه الصلاة والسلام على صفة النذارة، أي: الرسالة لا يتجاوزها إلى خلق الآيات أو اقتراحها على ربه، فهو قصر إفراد ردًّا على زعمهم أنّ من حقّ الموصوف بالرسالة أن يأتي بالخوارق المشاهدة. وخصّ بالذكر من أحوال الرسالة وصف النذير تعريضا بالمشركين بأنّ حالهم يقتضي الإنذار، وهو توقع الشر.

المبين: الموضِّح للإنذار بالدلائل العقلية الدالة على صدق ما يخبر به.

{ **أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** } [51].

عطف على الجملة السابقة وهو ارتقاء في المجادلة.

{ **أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ** } الاستفهام تعجيبي إنكاري. والمعنى: وهل لا يكفيهم من الآيات آيات القرآن فإن كل مقدار من مقادير إعجازه آية على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم.

{ **الْكِتَابَ** } القرآن. وعدل عن لفظ القرآن الذي هو كالعلم عليه إلى لفظ الكتاب المعهود لإيمائه إلى معنى تعظيمه بأنّه المشتهر من بين كتب الأنبياء.

{ **يُتْلَى عَلَيْهِمْ** } مستأنفة أو حال، لأنّ الكتاب معلوم غير محتاج للوصف لما تشعر به مادة التلاوة من الانتشار والشيوع. واختير المضارع دون الوصف بأن يقال: متلو عليهم، لما يؤذن به المضارع من الاستمرار، فحصل من مادة { يُتْلَى } ومن صيغة المضارع دلالة على عموم الأمكنة والأزمنة.

مزايا للقرآن: أشار قوله تعالى { يُتْلَى عَلَيْهِمْ } وما بعده إلى خمس مزايا للقرآن على غيره من المعجزات:

المزيّة الأولى: ما أشار إليه قوله تعالى { يُتْلَى عَلَيْهِمْ } من انتشار إعجازه وعمومه في المجامع والآفاق والأزمان المختلفة بحيث لا يختصّ بإدراك إعجازه فريق خاص في زمن خاص شأن المعجزات المشهودة مثل عصا موسى وناقة صالح وبرء الأكمه، فهو معجزة باقية والمعجزات الأخرى مرتبطة بمكان وزمان.

المزيّة الثانية: كونه ممّا يُتلى، فإدراكه إدراك عقلي فكري، وهو أعلى من المدركات الحسية، فكانت معجزة القرآن أليق بما يستقبل من عصور العلم التي تهيّأت إليها الإنسانية.

المزيّة الثالثة: ما أشار إليه قوله تعالى { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً }، فالكتاب المتلو مشتمل على ما هو رحمة لهم لأنّه يشتمل على إقامة الشريعة، فالقرآن مع كونه معجزة دالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ومرشدة إلى تصديقه فهو أيضا وسيلة علم وتشريع وآداب للمتلو عليهم، وبذلك فضل غيره من المعجزات التي لا تفيد إلّا تصديق الرسول الآتي بها.

المزيّة الرابعة: ما أشار إليه قوله تعالى { وَذِكْرَى }، فإنّ القرآن مشتمل على مواعظ ونذر وتعريف بعواقب الأعمال، وإعداد إلى الحياة الثانية، ونحو ذلك ممّا هو تذكير بما في تذكّره خير الدارين، وبذلك فضل غيره من المعجزات الصامتة التي لا تفيد أزيد من كون الآتية على يديه صادقا.

المزيّة الخامسة: أنّ كون القران كتابا متلوًّا مستطاعًا إدراك خصائصه لكلّ عربي، ولكلّ من حذق العربية من غير العرب مثل أئمة العربية، فلا يستطيع طاعن أن يزعم أنّه تخيّلات.

فهذه مزايا عظيمة لمعجزة القرآن حاصلة في حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم وغيبته.

{ **لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** } ولم يقل: للمؤمنين، لما في لفظ قوم من الإيماء إلى أنّ الإيمان من مقوّمات قوميّتهم، أي: لقوم شعارهم النظر والإنصاف، فإذا قامت لهم دلائل الإيمان آمنوا ولم يكابروا ظلما وعلوّا.

وفيه تعريض بالذين لم يكتفوا بمعجزته واقترحوا آيات أخرى لا نسبة بينه وبينها.

{ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } [52].

{ **قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } بعد أن ألقمهم حجر الحجّة الدامغة أُمِرَ بأن يجعل الله حكما بينه وبينهم لمّا استمر تكذيبهم بعد الدلائل القاطعة.

{ **كَفَى بِاللَّهِ** } أي: هو كاف لي في إظهار الحقّ. والباء مزيدة للتوكيد. وتقدّم نظيره في قوله تعالى { وكفى بالله شهيدا } [النساء:79].

الشهيد: الشاهد. ولمّا ضُمِّن معنى الحاكم عُدّي بظرف { **بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ** }.

{ **يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } مقرّرة لمعنى الاكتفاء به شهيدا، فهي تتنزّل منها منزلة التوكيد.

{ **وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** } فهم إن تأمّلوا في إيمانهم بالله حقّ التأمّل وجدوا أنفسهم غير مؤمنين بإلهيته لأنّهم أشركوا معه ما ليس حقيقا بالإلهية فعلموا أنّهم كفروا بالله، فتعين أنّهم آمنوا بالباطل. وفي الجمع بين { آمَنُوا / كَفَرُوا } مُحسّن المضادة وهو الطباق.

الباطل: ضدّ الحق، أي: ما ليس بحقيق أن يؤمن به، أي: ما ليس بإله حق ولكنهم يدعون له الإلهية.

{ **وَكَفَرُوا بِاللَّهِ** } لأنّهم أشركوا معه في الإلهية فكفروا بأعظم صفاته وهي الوحدانية.

{ **أُولَئِكَ** } اسم الإشارة يفيد التنبيه على أنّ المشار إليهم أحرياء بالحكم الوارد بعده لأجل الأوصاف التي ذكرت لهم قبله.

{ **هُمُ الْخَاسِرُونَ** } القصر ادعائي للمبالغة في اتصافهم بالخسران العظيم، فكأنّهم انفردوا بالخسران فأطلق

عليهم المركّب المفيد قصر الخسران عليهم وذلك لأنّهم حقّت عليهم الشقاوة العظمى الأبدية.

واستعير الخسران لانعكاس المأمول من العمل تشبيها بحال من كدّ في التجارة لينال مالا فأفنى رأس ماله، وقد تقدّم عند قوله تعالى { فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ } [البقرة:16].

{ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمّىً لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ [53] يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ [54] يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [55] }.

عطف على جملة { وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ } [50] استقصاء في الردّ على شبهاتهم وإبطالا لتعلّات إعراضهم الناشئ عن المكابرة، وهم يُخيّلون أنّهم إنّما أعرضوا لعدم اقتناعهم بآية صدق الرسول صلى الله عليه وسلم. ومناسبة وقوعه هنا أنّه لمّا ذُكر كفرهم بالله وكان النبيّ عليه الصلاة والسلام ينذرهم على ذلك بالعذاب وكانوا يستعجلونه به ذُكر تورُّكهم عليه عقب ذكر الكفر.

{ **وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ** } طلب تعجيله، وقصدهم من ذلك الاستخفاف بالوعيد. وتقدّم الكلام على نظيره في قوله تعالى { وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ } [يونس:11]، وقوله تعالى { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ} [الرعد:6].

وحكي استعجالهم العذاب بصيغة المضارع لاستحضار حال استعجالهم لإفادة التعجيب منها.

{ **وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمّىً لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ** } أبطل ما قصدوه، وذلك أنّ حلول العذاب ليس بيد الرسول عليه الصلاة والسلام، ولا جاريا على طلبهم واستبطائهم فإنّ الله هو المقدّر لوقت حلوله بهم في أجل قدّره بعلمه.

{ **مُسَمّىً** } أريد به المعيَّن المحدود في علم الله تعالى. وتقدّم عند قوله تعالى { وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً } [الحج:5].

<u>المعنى</u>: لولا الأجل المعيّن لحلول العذاب بهم لجاءهم العذاب عاجلا لأنّ كفرهم يستحق تعجيل عقابهم ولكن أراد الله تأخيره لحِكم علمها؛ منها إمهالهم ليؤمن منهم من آمن بعد الوعيد، وليعلموا أنّ الله لا يستفزّه استعجالهم العذاب لأنّه حكيم لا يخالف ما قدّره بحكمته، حليم يمهل عباده.

{ **وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ** } أنذرهم بأنّه بغتة، وأنّ إتيانه محقّق لما دلّ عليه (لام القسم) و(نون التوكيد) وذلك عند حلول الأجل المقدّر له. وقد حلّ بهم عذاب يوم بدر بغتة كما قال تعالى { وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ } االأنفال:42]، فاستأصل صناديدهم يومئذ وسُقط في أيديهم.

{ **يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ** } أعقب إنذارهم بعذاب يوم بدر بإنذارهم بالعذاب الأعظم. وأعيد لأجله ذكر استعجالهم بالعذاب معترضا بين المتعاطفين إيماء إلى أنّ ذلك جواب استعجالهم، فإنّهم استعجلوا العذاب فأنذروا بعذابين، أحدهما أعجل من الآخر. وفي إعادة { يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ } تهديد وإنذار بأخذهم.

الإحاطة: كناية عن عدم إفلاتهم منها.

{ **بِالْكَافِرِينَ** } المستعجلون. واستحضروا بوصف الكافرين للدلالة على أنّه موجب إحاطة العذاب بهم.

{ **يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ** } متعلّقة بـ { لَمُحِيطَةٌ }، أي: تحيط بهم يوم يغشاهم العذاب. **الغشيان**: التغطية والحجب.

{ **مِنْ فَوْقِهِمْ** } بيان للغشيان لتصويره تفظيعا لحاله وتأكيدا له لرفع احتمال المجاز، فهو في موضع الحال من { الْعَذَابِ }، وهي حال مؤكّدة.

{ **وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ** } احتراس عمّا قد يوهمه الغشيان من الفوقيّة خاصة.

والمقصود من هذا الكناية أنّ العذاب محيط بهم، فلذلك لم يذكر الجانبان الأيمن والأيسر لأنّ الغرض من الكناية قد حصل، والمقام مقام إيجاز لأنّه مقام غضب وتهديد، بخلاف قوله تعالى { ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ } [الأعراف:17] لأنّه حكاية لإلحاح الشيطان في الوسوسة.

{ **وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } قراءة نافع وعاصم وحمزة والكسائي، والضمير عائد إلى معلوم من المقام. فالتقدير: ويقول الله. وعُدل عن ضمير التكلّم على خلاف مقتضى الظاهر على طريقة الالتفات. أو يُقدّر: ويقول الملك الموكل بجهنم.

{ **يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ** } [56].

استئناف ابتدائي وقع اعتراضا بين جملة { وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } وجملة { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً } [58]. وهذا أمر بالهجرة من دار الكفر.

ومناسبته أنّ الله لمّا ذكر عناد المشركين في تصديق القرآن، وذكر إيمان أهل الكتاب به، آذن المؤمنين من أهل مكة أن يخرجوا من دار المكذّبين إلى دار الذين يصدّقون بالقرآن، وهم أهل المدينة، فإنّهم يومئذ ما بين مسلمين وبين يهود، فيكون المؤمنون في جوارهم آمنين من الفتن يعبدون ربهم غير مفتونين.

وقد كان فريق من أهل مكة مستضعفين قد آمنوا بقلوبهم ولم يستطيعوا إظهار إيمانهم خوفا من المشركين مثل الحارث بن ربيعة بن الأسود، كما تقدّم عند قوله تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ } [10]، وكان لهم العذر حين كانوا لا يجدون ملجأ سالما من أهل الشرك، فلمّا أسلم أهل المدينة زال عذر المؤمنين المستضعفين إذ أصبح في استطاعتهم أن يهاجروا إلى المدينة.

{ **يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا** } النداء بعنوان التعريف بالإضافة لتشريف المضاف. ومصطلح القرآن أنّ (عباد) إذا أضيف إلى ضمير الجلالة فالمراد بهم المؤمنون غالبا إلّا إذا قامت قرينة كقوله تعالى { أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ } [الفرقان:17]، وعليه فالوصف بـ { الَّذِينَ آمَنُوا } لما في الموصول من الدلالة على أنّهم آمنوا بالله حقا ولكنّهم فتنوا إلى حد الإكراه على إظهار الكفر.

{ **إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ** } كلام مستعمل مجازا مركّبا في التذكير بأنّ في الأرض بلادا آمنة للمسلمين.

{ **فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ** } أشعر أنّ علّة الأمر لهم بالهجرة هي تمكينهم من إظهار التوحيد وإقامة الدين.

والفاء في قوله تعالى { فَإِيَّايَ } فاء التفريع، والفاء في قوله تعالى { فَاعْبُدُونِ } مؤكِّدة للفاء الأولى للدلالة على تحقيق التفريع في الفعل وفي معموله.

وحذفت ياء المتكلّم بعد نون الوقاية تخفيفا، وللرعاية على الفاصلة. ونظائره كثيرة.

{ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ } [57].

اعتراض ثان بين الجملتين المتعاطفتين قُصد منها تأكيد الوعيد الذي تضمّنته جملة { وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ } إلى آخرها، والوعد الذي تضمّنته جملة { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً }. أي: الموت مُدرك جميع الأنفس ثم يرجعون إلى الله. وقصد منها أيضا تهوين ما يلاقيه المؤمنون من الأذى في الله، ولو بلغ إلى الموت، بالنسبة لما يترقّبهم من فضل الله وثوابه الخالد، وفيه إيذان بأنّهم يترّقبهم جهاد في سبيل الله.

{ **تُرْجَعُونَ** } في قراءة الجمهور بتاء الخطاب على أنّه خطاب للمؤمنين في قوله تعالى { يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا }. وقرأه أبو بكر عن عاصم بياء الغيبة تبعا لقوله تعالى { يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ }.

{ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ [58] الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ [59] }.

عطف على جملة { وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ }.

{ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** } جيء بالموصول للإيماء إلى وجه بناء الخبر، أي: نبوِّئهم غرفًا لأجل إيمانهم وعملهم الصالح.

التبوئة: الإنزال والإسكان، وتقدّم عند قوله تعالى { وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرائيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ } [يونس:93]. وقرأ الجمهور { لَنُبَوِّئَنَّهُمْ }، وقرأ حمزة والكسائي وخلف { لَنُثْوِيَنَّهُمْ } من **أثواه**، بهمزة التعدية، إذا جعله ثاويا، أي: مقيما في مكان.

الغرف: جمع غرفة وهو البيت المعتلي على غيره. وتقدّم عند قوله { أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ } [الفرقان:75].

{ **نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ** } إنشاء ثناء وتعجيب على الأجر الذي أُعطوه، فلذلك قُطعت عن العطف.

{ **الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** } خبر مبتدأ محذوف اتباعا للاستعمال، والتقدير: هم الذين صبروا. والمراد: صبرهم على إقامة الدين وتحمّل أذى المشركين، وقد علموا أنّهم لاقوه فتوكّلوا على ربهم ولم يعبأوا بقطيعة قومهم ولا بحرمانهم من أموالهم، ثمّ فارقوا أوطانهم فرارا بدينهم من الفتن.

التوكّل: تقدّم معناه عند قوله تعالى { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } [آل عمران:159]. وتقديم المجرور على متعلقه للاهتمام.

ومن اللطائف مقابلة غشيان العذاب الكفار من فوقهم ومن تحت أرجلهم بغشيان النعيم المؤمنين من فوقهم بالغرف ومن تحتهم بالأنهار.

{ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [60] .

عطف على جملة { كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ } [57]، فإنّ الله لمّا هوّن بها أمر الموت في مرضاة الله، وكانوا ممّن لا يعبأ بالموت علم أنّهم يقولون في أنفسهم: إنّا لا نخاف الموت ولكنّا نخاف الفقر والضيعة. واستخفاف العرب بالموت سجيّة كما أنّ خشية المعرّة من سجاياهم كما بيّنّاه عند قوله تعالى { وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ } [الإسراء:31]، فأعقب ذلك بأن ذكّرهم بأنّ رزقهم على الله وأنّه لا يضيعهم. وضرب لهم المثل برزق الدواب.

وفيه مناسبة لقوله تعالى { إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ } [56]، من توقّع الذين يهاجرون من مكة ألّا يجدوا رزقا في البلاد التي يهاجرون إليها. وهو أيضا مناسب لوقوعه عقب ذكر التوكّل في قوله { وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } [59]. وفي الحديث: **" لو توكلتم على الله حق توكله لرُزقتم كما تُرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا "**. ولعلّ ما في هذه الآية وما في الحديث مقصود به المؤمنون الأوّلون، ضمن الله لهم رزقهم لتوكّلهم عليه في تركهم أموالهم بمكة للهجرة إلى الله ورسوله. وتوكّلهم هو حقّ التوكّل، أي: أكمله وأحزمه.

{ **وَكَأَيِّنْ** } تقدّم الكلام حولها عند قوله تعالى { وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ } [آل عمران:146].

والخبر غير مقصود منه إفادة الحكم بل هو مستعمل مجازا مركبا في لازم معناه وهو الاستدلال على

ضمان رزق المتوكلين من المؤمنين. وتمثيله للتقريب بضمان رزق الدواب الكثيرة التي تسير في الأرض.

{ **لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا** } يجوز أن يكون الحمل مستعملا في حقيقته، أي: تسير غير حاملة رزقها، ويجوز أن يستعمل مجازا في التكلّف له، أي: لا تتكلّف لرزقها. وهذا حال معظم الدواب عدا بعض الحيوانات.

{ **اللَّهُ يَرْزُقُهَا** } تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي، دون أن يقول: يرزقها الله، ليفيد معنى الاختصاص. أي: الله يرزقها لا غيره، فلماذا تعبدون أصناما ليس بيدها رزق؟

{ **وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** } عطف على جملة { اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ }. فالمعنى: الله يرزقكم وهو السميع لدعائكم العليم بما في نفوسكم من الإخلاص لله في أعمالكم وتوكّلكم ورجائكم منه الرزق.

{ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ } [61].

هذا الكلام عائد إلى قوله تعالى { وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } [52] تعجيبا من نقائض كفرهم، أي: هم كفروا بالله وإن سألهم سائل عمّن خلق السماوات والأرض يعترفوا بأنّ الله هو خالق ذلك ولا يُثبتون لأصنامهم شيئا من الخلق، فكيف يلتقي هذا مع ادعائهم الإلهية لأصنامهم. ولذلك قال تعالى { فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ } أي: كيف يُصرفون عن توحيد الله وعن إبطال إشراكهم به ما لا يخلق شيئا.

{ **وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ** } ضمير جمع الغائبين عائد إلى الذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله واستعجلوا بالعذاب.

{ **وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ** } تخصيص تسخير الشمس والقمر بالذكر لما في حركتهما من دلالة على عظيم القدرة، مع ما في ذلك من المنّة على الناس إذ ناط بحركتهما أوقات الليل والنهار وضبط الشهور والفصول.

تسخير الشيء: إلجاؤه لعمل شديد. وأحسب أنّه حقيقة سواء كان المسخَّر (بالفتح) ذا إرادة أم كان جمادا. وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ } [الأعراف:54].

{ **فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ** } الاستفهام إنكار وتعجيب.

{ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [62].

هذا إلزام آخر لهم بإبطال شركهم وافتضاح تناقضهم، فإنّهم كانوا معترفين بأنّ الرازق هو الله تعالى { قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ - إلى قوله - فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ } [يونس:31]. وإنّما جاء أسلوب هذا الاستدلال مخالفا لأسلوب الذي قبله والذي بعده فعُدل عن تركيب { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ } [61] تفنّنا

في الأساليب لتجديد نشاط السامع. وأدمج في الاستدلال على انفراده تعالى بالرزق التذكير بأنّه تعالى يرزق عباده على حسب مشيئته لأنّه المختار في تصرّفه.

{ **اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ** } بسط الرزق: إكثاره، وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي لإفادة الاختصاص، أي: الله لا غيره يبسط الرزق ويقدر. والتعبير بالمضارع لإفادة تجدّد البسط والقدر.

{ **وَيَقْدِرُ لَهُ** } قدره: تقليله. والمقصود: أنّه الرازق لأحوال الرزق. وتقدّم في قوله تعالى { اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ } [الرعد: 26]. وزيادة { له } بعد { وَيَقْدِرُ } في هذه الآية دون آية الرعد و[القصص:82] للتعريض بتبصير المؤمنين الذين ابتلوا في أموالهم من اعتداء المشركين عليها كما أشار إليه قوله { وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا } [60] بأن ذلك القدر في الرزق هو لهم لا عليهم لما ينجرّ لهم منه من الثواب ورفع الدرجات، فغُلِّب في هذا الغرض جانب المؤمنين، ولهذا لم يُعَّدَ { يَقْدِرُ } بحرف (على) كما هو مقتضى معنى القدر، كما في قوله تعالى {وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ} [الطلاق:7].

{ **لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ** } أي: أنّه يبسط الرزق لفريق ويقدر لفريق.

{ **إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** } التذييل لإفادة أنّ ذلك كلّه جار على حكمة لا يطَّلع عليها الناس، وأنّ الله يعلم صبر الصابرين وجزع الجازعين، كما تقدّم في قوله { فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ } [3].

{ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ } [63].

{ **وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ** } أعيد أسلوب السؤال والجواب ليتّصل ربط الأدلة بعضها ببعض على قرب. فقد كان المشركون لا يدّعون أنّ الأصنام تنزل المطر كما صّرحت به الآية، فقامت الحجّة عليهم.

وأدمج في الاستدلال عليهم بانفراده تعالى بإنزال المطر أنّ الله أحيا به الأرض بعد موتها. وفي هذا الإدماج استدلال تقريبي لإثبات البعث كما قال تعالى { فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [الروم:50]، وقال تعالى { وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ } [الروم:19].

{ **مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا** } لمّا كان سياق الكلام هنا في مساق التقرير كان المقام مقتضيا للتأكيد بزيادة { مِنَ } إلجاء لهم إلى الإقرار بأنّ فاعل ذلك هو الله دون أصنامهم، فلذلك لم يكن مقتض لزيادة (من) في قوله تعالى { فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا } [البقرة:164 / الجاثية:5]

موت الأرض: موت نباتها، ويكون بإمساك المطر عنها في فصول الجفاف أو في سنين الجدب، فلا جرم أن يكون موتها بتقدير الله، للعلم بأنّ موت الأرض كان بعد حياة سبقت من نوع هذه الحياة، فصارت الآية دالة على أنّه المتصرّف بإحياء الأرض وإماتتها، ويُعلم منه أنّه محيي الحيوان ومميته بطريقة لحن

الخطاب. فانتظم من هذه الآيات المفتتحة بقوله تعالى { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ } [61] إلى هنا، أصول صفات أفعال الله تعالى، وهي: **الخلق**، و**الرزق**، و**الإحياء**، و**الإماتة**، من أجل ذلك عُقِّبت بأمر الله نبيّه صلى الله عليه وسلم بأن يحمده بكلام يدلّ على تخصيصه بالحمد.

{ **قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ** } لمّا اتضحت الحجّة على المشركين بأنّ الله منفرد بالخلق والرزق والإحياء والإماتة، ولزم من ذلك أن ليس لأصنامهم شرك في هذه الأفعال التي هي أصول نظام ما على الأرض من الموجودات فكان ذلك موجبا لإبطال شركهم بما لا يستطيعون إنكاره ولا تأويله بعد أن قرعت أسماعهم دلائله، فلزم من ذلك صدق الرسول عليه الصلاة والسلام فيما دعاهم إليه، وكذبهم فيما تطاولوا به عليه، أمر الله ورسوله بأن يحمده على أن نصره بالحجّة نصرا يؤذن بأنّه سينصره بالقوّة. وتلك نعمة عظيمة تستحق أن يحمد الله عليها إذ هو الذي لقّنها رسوله صلى الله عليه وسلم بكتابه وما كان يدري ما الكتاب ولا الإيمان.

{ **بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ** } إضراب انتقال من حمد الله على وضوح الحجج إلى ذمّ المشركين بأنّ أكثرهم لا يتفطّنون لنهوض تلك الحجج الواضحة فكأنّهم لا عقل لهم، لأنّ وضوح الحجج يقتضي أن يفطن لنتائجها كلّ ذي مسكة من عقل فنزلوا منزلة من لا عقول لهم.

{ **أَكْثَرُهُمْ** } أسند عدم العقل إلى أكثرهم دون جميعهم لأنّ من عقلائهم وأهل الفطن منهم من وضحت له تلك الحجج فمنهم من آمنوا، ومنهم من أصرّوا على الكفر عنادا.

{ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } [64].

هذا الكلام مُبلَّغ إلى الفريقين اللذين تضمّنهما قوله تعالى { بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ } [63]، فإنّ عقلاءهم آثروا باطل الدنيا على الحقّ الذي وضح لهم، ودهماءهم لم يشعروا بغير أمور الدنيا، وجميعهم أنكروا البعث فأعقب الله ما أوضحه لهم من الدلائل بأن نبّههم على أنّ الحياة الدنيا كالخيال وأن الحياة الثانية هي الحق.

{ **وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا** } الحصر ادعائي كما تقدّم. وقد زادت هذه الآية بتوجيه اسم الإشارة إلى الحياة وهي إشارة تحقير وقلة اكتراث. ولم توجه الإشارة إلى الحياة في سورة الأنعام { وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ } [الأنعام: 32]. ووجه ذلك أنّ هذه الآية لم يتقدّم فيها ما يقتضي تحقير الحياة فجيء باسم الإشارة لإفادة تحقيرها، وأمّا آية الأنعام فتقدم قوله تعالى { إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا } [31] فذكر لهم في تلك الآية ما سيظهر لهم إذا جاءتهم الساعة من ذهاب حياتهم الدنيا سدى. كذلك كان الابتداء بأنّها لعب مشيرا إلى تحقيرها، لأنّ اللعب أعرق في قلة الجدوى من اللهو.

اللهو: ما يلهو به الناس، أي: يشتغلون به عن الأمور المكدّرة، أو يعمرون به أوقات فراغهم.
اللعب: ما يقصد به الهزل والانبساط. وتقدّم تفسيرهما ووجه حصر الحياة الدنيا فيهما في آية الأنعام.
{ **وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ** } تصريح بأنّ الحياة الآخرة هي الحياة الحق فصيغ لها وزن الفعلان الذي هو صيغة تنبئ عن معنى التحرّك توضيحا لمعنى كمال الحياة. فإنّ التحرّك والاضطراب أمارة على قوّة الحيوية في الشيء مثل الغليان.
{ **لو كانوا يعلمون** } لأنّهم جهلوا الحياة الآخرة ولم يعترفوا بها.

{ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ [65] لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ [66] }.

هذا انتقال إلى إلزامهم بما يقتضيه دعاؤهم حين لا يشركون فيه إلها آخر مع الله بعد إلزامهم بموجبات اعترافاتهم فإنّهم يدعون أصنامهم في شؤون من أحوالهم ويستنصرونهم ولكنّهم إذا أصابهم هول توجهوا بتضرّعهم إلى الله.
{ **فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ** } خُصّ بالذكر حال خوفهم من هول البحر في هذه الآية وفي آيات كثيرة مثل ما في سورة يونس وما في سورة الإسراء لأنّ أسفارهم في البر كانوا لا يعتريهم فيها خوف يعمّ جميع السفر، لأنّهم كانوا يسافرون قوافل، معهم سلاحهم، ويمرّون بسبل يألفونها فلا يعترضهم خوف عام، فأمّا سفرهم في البحر فإنّهم يفرقون من هوله.
وتقدم تعدية الركوب بحرف (في) عند قوله تعالى { وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا } [هود:41].
الإخلاص: التمحيض والإفراد.
الدين: المراد به هنا الدعاء، أي: دعوا الله غير مشركين معه أصنامهم.
{ **إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ** } جيء بحرف المفاجأة للدلالة على أنّهم ابتدروا إلى الإشراك بمجرّد الإرساء في البر. أي: أسرعوا إلى ما اعتادوه من زيارة أصنامهم والذبح لها.
{ **لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** } لام التعليل وهي (لام كي) وهي متعلقة بفعل { يُشْرِكُونَ }. والكفر هنا ليس هو الشرك ولكنّه كفران النعمة بقرينة قوله تعالى { بِمَا آتَيْنَاهُمْ } فإن الإيتاء بمعنى الإنعام وبقرينة تفريعه على { يُشْرِكُونَ }، فالعلة مغايرة للمعلول وكفران النعمة مسبَّب عن الإشراك، لأنّهم لمّا بادروا إلى شؤون الإشراك فقد أخذوا يكفرون النعمة.
{ **وَلِيَتَمَتَّعُوا** } (اللام بالكسر) في قراءة ورش عن نافع وأبي عمرو وابن عامر وعاصم وأبي جعفر ويعقوب على أنها لام التعليل. وقرأه قالون عن نافع وابن كثير، وحمزة والكسائي، وخلف { **وَلْيَتَمَتَّعُوا** } (بسكونها) فهي لام الأمر، والأمر مستعمل في التهديد، نظير قوله تعالى { لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } [الروم:34]

التمتع: الانتفاع القصير زمنه.
{ **فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** } تفريع على التهديد بالوعيد.

{ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ } [67].

هذا تذكير خاص لأهل مكّة لأنّهم قُدوة لجميع القبائل، ألا ترى أنّ أكثر قبائل العرب كانوا ينتظرون ماذا يكون من أهل مكة فلما أسلم أهل مكّة يوم الفتح أقبلت وفود القبائل معلنة إسلامهم.
والجملة معطوفة على الجملة السابقة باعتبار ما اشتملت عليه تلك الجملة من تقريعهم على كفران نعم الله تعالى، ولذلك عُقبت هذه الجملة بقوله تعالى { وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ }.
{ **أَوَلَمْ يَرَوْا** } الاستفهام إنكاري، جُعلت نعمة أمن بلدهم كالشيء المشاهد فأنكر عليهم عدم رؤيته.
ومعنى هذه الآية يُعلم ممّا تقدم عند الكلام على قوله تعالى { وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً } [القصص:57]. فقد كان أهل مكة في بحبوحة من الأمن وكان غيرهم من القبائل حول مكة وما بعُد منها يغزو بعضهم بعضا ويتغاورون ويتناهبون وأهل مكة آمنون لا يعدو عليهم أحد مع قلّتهم، فذكّرهم الله هذه النعمة عليهم.
الباطل: هو الشرك، كما تقدّم عند قوله تعالى { وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ } [52].
{ **وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ** } المراد بها الجنس الذي منه إنجاؤهم من الغرق، وما عداه من النعم المحسوسة المعروفة، ومن النعم الخفية التي لو تأمّلوا لأدركوا عظمها، ومنها نعمة الرسالة المحمدية.
والمضارع في الأفعال دال على تجدد الفعل.

{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكَافِرِينَ} [68].

لمّا أوفاهم ما يستأهلونه من تشنيع أحوالهم وسوء انتظام شؤونهم جاء في عقبه بتذييل يجمعها في أنّها افتراء على الله وتكذيب بالحقّ، ثم جزاهم الجزاء الأوفى اللائق بحالهم وهو أنّ النار مثواهم.
{ **وَمَنْ أَظْلَمُ** } افتتح تشخيص حالهم بالاستفهام عن وجود فريق هم أظلم من هؤلاء الذين افتروا على الله وكذّبوا بالحق توجيهًا لأذهان السامعين نحو البحث هل يجدون أظلم منهم، حتّى إذا أجادوا التأمّل واستقروا مظان الظلمة واستعرضوا أصنافهم تيقّنوا أن ليس ثمّة ظلم أشد من ظلم هؤلاء.
فمدار أمور أهل الشرك على الافتراء على الله بأن سلبوا عنه ما هو متصف به من صفات الإلهية الثابتة بدلالة العقول، وأثبتوا له ما هو منزّه عنه من الصفات والأفعال بدلالة العقول، وعلى تكذيب الرسول

صلى الله عليه وسلم ونكران دلالة المعجزة التي يقتضيها العقل، وعلى رمي الرسول عليه الصلاة والسلام بما هو بريء منه بشهادة العقل والعادة التي عرفوها منه بهتانا وكذبا، فكانوا بمجموع الأمرين وضعوا أشياء في مواضع لا يمكن أن تكون مواضعها، فكانوا أظلم الناس.

{ **افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً** } تقييد الافتراء بالحال المؤكّدة في قوله { كَذِباً } لزيادة تفظيع الافتراء لأنّ اسم الكذب مشتهر القبح في عرف الناس، وإنّما اختير الافتراء للدلالة على أنّهم يتعمّدون الاختلاق.

{ **أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ** } تقييد تكذيبهم بالحق بقوله تعالى { لَمَّا جَاءَهُ } لإدماج ذمّ المكذّبين بنكران نعمة إرسال الحقّ إليهم التي لم يقدّروها قدرها، وكان شأن العقلاء أن يتطلّبوا الحقّ ويرحلوا في طلبه، وهؤلاء جاءهم الحقّ بين أيديهم فكذّبوا به.

{ **أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكَافِرِينَ** } بيان للجملة السابقة وتقرير لها، فالكلام السابق فيه إيذان إجمالي بجزاء فظيع يترقّبهم. وهو بألفاظه ونظمه يفيد تمكّنهم من عذاب جهنم إذ جُعلت مثواهم.

المثوى: مكان الثواء. و**الثواء**: الإقامة الطويلة والسكنى.

{ **لِلْكَافِرِينَ** } تعريف العهد، أي: لهؤلاء الكافرين، وهم الذين ذُكروا من قبل بأنّهم افتروا على الله كذبا وكذّبوا بالحق، فكان مقتضى الظاهر الإتيان بضميرهم فعُدل عنه إلى الاسم الظاهر لإحضارهم بوصف الكفر.

{ **أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ** } الهمزة للاستفهام التقريري، وهو تقرير لمن يسمع هذا الكلام. جُعل كون جهنم مثواهم أمرا مسلّما معروفا بحيث يُقرّ به كل من يسأل عنه.

{ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ } [69].

ختم توبيخ المشركين وذمّهم بالتنويه بالمؤمنين إظهارا لمزيد العناية بهم، فلا يخلو مقام ذمّ أعدائهم عن الثناء عليهم لأنّ ذلك يزيد الأعداء غيظا وتحقيرا.

{ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا** } هم المؤمنون الأوّلون، فالموصول بمنزلة المعرّف بلام العهد. وهذا الجهاد هو الصبر على الفتن والأذى ومدافعة كيد العدو، وهو المتقدّم في أوّل السورة { وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ} [6]. إذ لم يكن يومئذ جهاد القتال كما علمت من قبل. وجيء بالموصول للإيماء إلى أن الصلة سبب الخبر.

{ **جَاهَدُوا فِينَا** } جاهدوا في مرضاتنا والدين الذي اخترناه لهم. والظرفية مجازية، يقال: هي ظرفية تعليل تفيد مبالغة في التعليل.

{ **لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** } إيماء إلى تيسير طريق الهجرة التي كانوا يتأهّبون لها أيام نزول هذه السورة.

الهداية: الإرشاد والتوفيق بالتيسير القلبي والإرشاد الشرعي، أي: لنزيدنّهم هدى.

سبل الله: الأعمال الموصلة إلى رضاه وثوابه، شُبّهت بالطرق الموصلة إلى منزل الكريم المكرم للضيف

{ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ } الجملة في معنى التذييل بما فيها من معنى العموم. وإنّما جيء بها معطوفة للدلالة على أنّ المهم من سوقها هو ما تضمّنته من أحوال المؤمنين، فعُطفت على حالتهم الأخرى وأفادت التذييل بعموم حكمها. وفيه تنويه بالمؤمنين بأنّهم في عداد من مضى من الأنبياء والصالحين. وهذا أوقع في إثبات الفوز لهم مما لو قيل: فأولئك المحسنون، لأن في التمثيل بالأمور المقرّرة المشهورة تقريرا للمعاني.

المعية: هنا مجاز في العناية والاهتمام بهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الروم

تُسمَّى (**سورة الروم**) في عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه. ووجه ذلك أنّه ورد فيها ذكر اسم الروم ولم يرد في غيرها من القرآن.

وهي **مكية كلّها بالاتفاق**، حكاه ابن عطية والقرطبي.

وهي السورة **الرابعة والثمانون** في تعداد نزول السور، نزلت بعد سورة الانشقاق وقبل سورة العنكبوت.

وعدد آيها في عد أهل المدينة وأهل مكة تسع وخمسون. وفي عدد أهل الشام والبصرة والكوفة ستون.

وسبب نزولها ما رواه الترمذي عن ابن عباس والواحدي وغير واحد: أنّه لمّا تحارب الفرس والروم الحرب التي سنذكرها عند قوله تعالى { غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ } [3/2] وتغلّب الفرس على الروم كان المشركون من أهل مكة فرحين بغلب الفرس على الروم لأنّ الفرس كانوا مشركين ولم يكونوا أهل كتاب فكان حالهم أقرب إلى حال قريش، ولأنّ عرب الحجاز والعراق كانوا من أنصار الفرس وكان عرب الشام من أنصار الروم فأظهرت قريش التطاول على المسلمين بذلك فأنزل الله هذه السورة مقتا لهم وإبطالا لتطاولهم بأنّ الله سينصر الروم على الفرس بعد سنين.

فلذلك لما نزلت الآيات الأولى من هذه السورة خرج أبو بكر الصديق يصيح في نواحي مكة { الم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ } [4/1]، وراهن أبو بكر المشركين على ذلك كما سيأتي.

أغراض السورة

*/ أوّل أغراض هذه السورة سبب نزولها على ما سرّ المشركين من تغلّب الفرس على الروم، فقمع الله تعالى تطاول المشركين به وتحدّاهم بأنّ العاقبة للروم في الغلب على الفرس بعد سنين قليلة.

*/ ثمّ تطرق من ذلك إلى تجهيل المشركين بأنّهم لا تغوص أفهامهم في الاعتبار بالأحداث ولا في أسباب نهوض وانحدار الأمم من الجانب الرباني، ومن ذلك إهمالهم النظر في الحياة الثانية ولم يتّعظوا بهلاك الأمم السالفة المماثلة لهم في الإشراك بالله.

*/ ثمّ انتقل إلى ذكر البعث. واستدل لذلك ولوحدانيته تعالى بدلائل من آيات الله في تكوين نظام العالم ونظام حياة الإنسان.

*/ حضّ النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين على التمسّك بهذا الدين وأثنى عليه.

*/ نظر بين الفضائل التي يدعو إليها الإسلام وبين حال المشركين ورذائلهم.

*/ ضرب أمثالا لإحياء مختلف الأموات بعد زوال الحياة عنها ولإحياء الأمم بعد يأس الناس منها، وأمثالا لحدوث القوة بعد الضعف وبعكس ذلك.

*/ ختم ذلك بالعود إلى إثبات البعث ثم بتثبيت النبيّ صلى الله عليه وسلم ووعده بالنصر.

*/ ومن أعظم ما اشتملت عليه السورة التصريح بأنّ الإسلام دين فطر الله الناس عليه وأنّ من ابتغى غيره دينا فقد حاول تبديل ما خلق الله وأنّى له ذلك.

{ **الم** } [1].

تقدّم القول على نظيره في سور كثيرة وخاصة في سورة العنكبوت، وأنّ هذه السورة إحدى ثلاث سور مما افتتح بحروف التهجي المقطّعة غير معقبة بما يشير إلى القرآن، وتقدّم في أوّل سورة مريم.

{ **غُلِبَتِ الرُّومُ** [2] **فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ** [3] **فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ** [4] **بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** [5] }.

{ **غُلِبَتِ الرُّومُ** } خبر مستعمل في لازم فائدته على طريق الكناية، أي: نحن نعلم بأنّ الروم غُلبت، فلا تطاولوا به على رسولنا وأوليائنا فإنّا نعلم أنّهم سيغلبون من غلبوهم بعد بضع سنين بحيث لا يعد الغلب في مثله غلبا. فالمقصود من الكلام هو جملة { وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ } وكان ما قبله تمهيدا له. وإسناد الفعل إلى المجهول لأنّ الغرض هو الحديث عن المغلوب لا على الغالب، ولأنّه قد عرف أنّ الذين غلبوا الروم هم الفرس.

{ **الرُّومُ** } اسم غلب في كلام العرب على أمّة مختلطة من اليونان والصقالبة ومن الرومانيين الذين أصلهم من اللاتينيين سكان إيطاليا نزحوا إلى أطراف شرق أوربا. تقوّمت هذه الأمة المسمّاة الروم على هذا المزيج فجاءت منها مملكة تحتل قطعة من أوربا وقطعة من آسيا الصغرى وهي بلاد الأناضول. وقد أطلق العرب على مجموع هذه الأمّة اسم الروم تفرقة بينهم وبين الرومان اللاتينيين.

وسمُّوا الروم أيضا بـ (**بني الأصفر**)، كما جاء في حديث أبي سفيان عن كتاب النبيّ صلى الله عليه وسلم المبعوث إلى هرقل سلطان الروم وهو في حمص من بلاد الشام إذ قال أبو سفيان لأصحابه، " لقد أمِرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة، إنّه يخافه ملك بني الأصفر ".

ويُعرف الروم عند الإفرنج بـ (**البيزنطيين**) نسبة إلى بيزنطة، اسم مدينة يونانية قديمة واقعة على شاطئ البوسفور.

وهذا الغلب الذي ذكر في هذه الآية هو انهزام الروم في الحرب التي جرت بينهم وبين الفرس سنة (615 م) وذلك أنّ (خسرو ابن هرمز) ملك الفرس غزا الروم في بلاد الشام وفلسطين وهي من البلاد الواقعة تحت حكم هرقل قيصر الروم، فنازل إنطاكية ثم دمشق وكانت الهزيمة العظيمة على الروم في أطراف بلاد الشام المحادَّة بلاد العرب بين (بُصرى) و(أذرعات).

{ **فِي أَدْنَى الْأَرْضِ** } حُذف متعلق { أَدْنَى } لظهور أن تقديره: من أرضكم، أي: أقرب بلاد الروم من أرض العرب، فإنّ بلاد الشام تابعة يومئذ للروم وهي أقرب مملكة الروم من بلاد العرب. وكانت هذه الهزيمة هزيمة كبرى للروم.

{ **وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ، فِي بِضْعِ سِنِينَ** } إخبار بوعد معطوف على الإخبار الذي قبله. وضمائر الجمع عائدة إلى الروم.

{ **غَلَبِهِمْ** } مصدر مضاف إلى مفعوله. وفائدة ذكر { مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ } التنبيه على عظم تلك الهزيمة عليهم، وأنها بحيث لا يُظن نصر لهم بعدها، فابتهج بذلك المشركون. فالوعد بأنهم سيغلبون بعد ذلك الانهزام في أمد غير طويل تحدٍّ تحدّى به ا لقرآن المشركين.

{ **سَيَغْلِبُونَ** } حذف المفعول للعلم بأنّ تقديره: سيغلبون الذين غلبوهم، أي: الفرس.

{ **فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ** } كناية عن عدد قليل لا يتجاوز العشرة، وقد تقدّم في قوله تعالى { فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ } [يوسف:42].

وحكمة إبهام عدد السنين أنّه مقتضى حال كلام العظيم الحكيم أن يقتصر على المقصود إجمالا وألّا يتنازل إلى التفصيل لأنّ ذلك التفصيل يتنزّل منزلة الحشو عند أهل العقول الراجحة.

وهذه الآية من معجزات القرآن الراجعة إلى الجهة الرابعة في المقدمة العاشرة من مقدمات هذا التفسير.

روى الترمذي بأسانيد حسنة وصحيحة: أنّ المشركين كانوا يحبون أن يظهر أهل فارس على الروم لأنّهم وإيّاهم أهل أوثان وكان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس لأنّهم أهل كتاب مثلهم فكانت فارس يوم نزلت { الم غُلِبَتِ الرُّومُ } قاهرين للروم فذكروه لأبي بكر فذكره أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله: **" أما أنّهم سيغلبون "** ونزلت هذه الآية.

فخرج أبو بكر الصديق يصيح في نواحي مكة { الم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ } [1-3]، فقال ناس من قريش لأبي بكر: فذلك بيننا وبينكم، زعم صاحبكم أنّ الروم ستغلب فارس في بضع سنين أفلا نراهنك على ذلك قال: بلى (وذلك قبل تحريم الرهان) وقالوا لأبي بكر: كم تجعل البضع ثلاث سنين إلى تسع سنين فسمّ بيننا وبينك وسطا ننتهي إليه. فسمَّى أبو بكر لهم ست سنين فارتهن أبو بكر والمشركون وتواضعوا الرهان فمضت ست السنين قبل أن يظهر الروم فأخذ المشركون رهن أبي بكر. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر: **" ألا أخفضت يا أبا بكر،**

ألا جعلته إلى دون العشر فإن البضع ما بين الثلاث إلى التسع ". وعاب المسلمون على أبي بكر تسمية ست سنين.

وذكر المفسرون أن الذي راهن أبا بكر هو أبي بن خلف، وأنهم جعلوا الرهان خمس قلائص.

وفي رواية أنهم بعد أن جعلوا الأجل ستة أعوام غيروه فجعلوه تسعة أعوام وازدادوا في عدد القلائص.

والراجح أنّ المدة بين انهزام الروم وانهزام الفرس سبع سنين.

وقد كان غلب الروم على الفرس في سلطنة هرقل قيصر الروم، وبإثره جاء هرقل إلى بلاد الشام ونزل حمص ولقي أبا سفيان بن حرب في رهط من أهل مكة جاؤوا تجارا إلى الشام.

وتحقيق مسألة المراهنة التي جرت بين أبي بكر وأبي بن خلف أنّها جرت على الإباحة الأصلية إذ لم يكن شرع بمكة أيامئذ فلا دليل فيها على إباحة المراهنة، وأن تحريم المراهنة بعد ذلك تشريع أُنُف وليس من النسخ في شيء.

{ **لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ** } جملة معترضة بين المتعاطفات. والمراد بالأمر أمر التقدير والتكوين، أي: أنّ الله قدّر الغلب الأوّل والثاني قبل أن يقعا.

{ **لِلَّهِ الْأَمْر** } تقديم المجرور لإبطال تطاول المشركين الذين بهجهم غلب الفرس على الروم لأنّهم عبدة أصنام مثلهم لاستلزامه الاعتقاد بأنّ ذلك الغلب من نصر الأصنام عبادها، فبيّن لهم بطلان ذلك وأنّ التصرّف لله وحده في الحالين.

وفيه أدب عظيم للمسلمين لكيلا يعلّلوا الحوادث بغير أسبابها وينتحلوا لها عللا توافق الأهواء كما كانت تفعله الدجاجلة من الكُهّان وأضرابهم.

{ **وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** } عطف على جملة { وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ...} أي: ويوم إذ يغلبون يفرح المؤمنون بنصر الله، أي: بنصر الله إيّاهم على الذين كانوا غلبوهم من قبل، وكان غلبهم السابق أيضا بنصر الله إيّاهم على الروم لحكمة اقتضت هذا التعاقب. وفي كلّ ذلك تهيئة أسباب انتصار المسلمين على الفريقين، إذا حاربوهم بعد ذلك لنشر دين الله، وقد أومأ إلى هذا قوله { لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ }.

{ **يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ** } تذييل، لأنّ النصر المذكور فيها عام بعموم مفعوله وهو { مَنْ يَشَاءُ } فكلّ منصور داخل في هذا العموم، أي: من يشاء نصره لحكم يعلمها، فالمشيئة هي الإرادة.

{ **وَهُوَ الْعَزِيزُ** } فإنّ العزيز المطلق هو الذي يغلب كلّ مغالب له، وعقّبه بـ { **الرَّحِيمِ** } للإشارة إلى أن عزّته تعالى لا تخلو من رحمة بعباده.

{ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ [6] يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ [7] }.

{ **وَعْدَ اللَّهِ** } مفعول مطلق مؤكّد لمعنى الجملة السابقة. وإضافة الوعد إلى الله تلويح بأنّه وعد محقّق الإيفاء.

{ **لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ** } بيان للتلويح السابق، بيّن ذلك بالصريح. ولكونها في موقع البيان فصلت، وفائدة الإجمال ثم التفصيل تقرير الحكم لتأكيده، وفيه إدخال الروع على المشركين بهذا التأكيد.

وسمّاه وعدا نظرا لحال المؤمنين الذي هو أهم هنا. وهو أيضا وعيد للمشركين بخذلان أشياعهم.

{ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** } استدراك اقتضاه الإجمال. استدرك بأنّ مراهنة المشركين على عدم وقوعه نشأت عن قصور عقولهم فأحالوا أن تكون للروم بعد ضعفهم دولة على الفرس في زمن قصير، هو بضع سنين، ولم يعلموا أنّ ما قدّره الله أعظم.

{ **أَكْثَرَ النَّاسِ** } ابتداءً المشركون لأنّهم سمعوا الوعد وراهنوا على عدم وقوعه. ويشمل أيضا كلّ من كان يعدُّ انتصار الروم على الفرس في مثل هذه المدة مستحيلا.

{ **يَعْلَمُونَ** } المفعول محذوف، دلّ عليه قوله تعالى { سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ }. فالتقدير: لا يعلمون هذا الغلب القريب العجيب. ويجوز أن يكون المراد تنزيل الفعل منزلة اللازم بأن نزلوا منزلة من لا علم عندهم أصلا، فيكون في ذلك مبالغة في تجهيلهم، وهو مما يقتضيه المقام.

{ **يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** } أعقب إخباره عن انتفاء علمهم صدق وعد القرآن بأن وصف حالة علمهم كلّها بأن قصارى تفكيرهم منحصر في ظواهر الحياة الدنيا غير المحتاجة إلى النظر العقلي وهي المحسوسات، ولا يعلمون بواطن الدلالات المحتاجة إلى إعمال الفكر والنظر.

والكلام يشعر بذم حالهم، ومحط الذم هو جملة { وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ } .

{ **وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ** } عُبّر عن جهلهم الآخرة بالغفلة كناية عن نهوض دلائل وجود الحياة الآخرة لو نظروا في الدلائل المقتضية وجود حياة آخرة، فكان جهلهم بذلك شبيها بالغفلة لأنّه بحيث ينكشف لو اهتموا بالنظر، فاستعير له { غَافِلُونَ } استعارة تبعية.

{ **وَهُمْ** } الأولى في موضع مبتدأ و{ **هُمْ** } الثانية ضمير فصل. والجملة الاسمية دالة على تمكّنهم من الغفلة عن الآخرة وثباتهم في تلك الغفلة، وضمير الفصل لإفادة الاختصاص بهم، أي: هم الغافلون عن الآخرة دون المؤمنين.

{ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمّىً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ } [8].

عطف على جملة { وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ } [7] لأنّهم نفوا الحياة الآخرة فسيق إليهم هذا الدليل على أنّها من مقتضى الحكمة.

{ **أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا** } الضمير عائد إلى الغافلين عن الآخرة وفي مقدمتهم مشركو مكّة. والاستفهام تعجيبي من غفلتهم وعدم تفكّرهم.

التفكّر: إعمال الفكر، وهو التأمّل في الدلالة العقلية. وتقدّم عند قوله تعالى { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ } [الأنعام:50].

الأنفس: جمع نفس. والنفس يطلق على الذات كلّها، ويطلق على باطن الإنسان، ومنه قوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام { تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي } [المائدة:116].

{ **فِي أَنْفُسِهِم** } يجوز أن يكون للظرفية الحقيقية الاعتبارية، فيكون ظرفا لمصدر { يَتَفَكَّرُوا }، أي: تفكّرًا مستقرا في أنفسهم. ويجوز أن يكون للظرفية المجازية متعلّقة بفعل { يَتَفَكَّرُوا }، أي: يتدبّروا ويتأمّلوا في أنفسهم. والمراد بالأنفس الذوات، فهو في معنى قوله تعالى { وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ } [الذاريات:21].

{ **مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمّىً** } أي: أنّ خلقهم ملابس للحقّ.

الحقّ: هنا هو ما يحق أن يكون حكمة لخلق السماوات والأرض وعلّة له، وحقّ كل ماهية ونوع هو ما يحقّ أن يتصرّف به من الكمال في خصائصه.

المسمّى: المقدّر. أطلقت التسمية على التقدير، وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً } [الحج:5]. وعند قوله تعالى { وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمّىً لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ } [العنكبوت:53].

{ **وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ** } تذييل. وتأكيده بـ { إِنَّ } لتنزيل السامع منزلة من يشك في وجود من يجحد لقاء الله بعد هذا الدليل الذي مضى بله أن يكون الكافرون به كثيرا.

{ **كَثِيراً** } المراد بهم مشركو أهل مكة وبقية مشركي العرب المنكرين للبعث ومن ماثلهم من الدهريين. ولم يُعبّر هنا بـ { أَكْثَرَ النَّاسِ } [العنكبوت:60] لأنّ المثبتين للبعث كثيرون مثل أهل الكتاب والصابئة والمجوس والقبط.

{ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [9].

{ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } عطف على الجملة السابقة. متصل بما يتضمّنه قوله تعالى { وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } [6] أنّ من أسباب عدم علمهم تكذيبهم الرسول عليه الصلاة والسلام الذي أنبأهم بالبعث، فلمّا سيق إليهم دليل حكمة البعث والجزاء بالحق أعقب بإنذارهم موعظة لهم بعواقب الأمم الذين كذّبوا رسلهم لأنّ المقصود هو عاقبة تكذيبهم رسل الله.

{ أَوَلَمْ يَسِيرُوا } الاستفهام تقريري. والأمر بالسير في الأرض تقدّم في قوله تعالى { قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ } [الأنعام:11]، وقوله تعالى { قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ } [العنكبوت:20]

النظر: هنا نظر العين لأنّ قريشا كانوا يمرّون في أسفارهم إلى الشام على ديار ثمود وقوم لوط، وفي أسفارهم إلى اليمن على ديار عاد.

{ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } هي حالة آخر أمرهم من خراب بلادهم وانقطاع أعقابهم.

العاقبة: آخر الأمر من الخير والشر، بخلاف **العُقبى** فهي للخير خاصة إلّا في مقام المشاكلة، وتقدّم ذكر العاقبة في قوله تعالى { وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } [الأعراف:128].

والكلام يتضمّن وعيدا على تكذيبهم النبيّ صلى الله عليه وسلم وتجهيلا لإحالتهم المُمْكِنَ حيث أيقنوا بأنّ الفرس لا يُغلبون بعد انتصارهم. فهذه آثار أمم عظيمة كانت سائدة على الأرض فزال ملكهم وخلت بلادهم من سبب تغلّب أمم أخرى عليهم.

{ مِنْ قَبْلِهِمْ } عاد وثمود وقوم لوط، وأمثالهم الذين شاهد العرب آثارهم.

والمعنى: أنّهم كانوا من قبلهم في مثل حالتهم من الشرك وتكذيب الرسل المرسلين إليهم.

{ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً } بيان لجملة { كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ }. كلّ أولئك كانوا أشد قوة من قريش وأكثر تعميرا في الأرض، وكلّهم جاءتهم رسل، وكلّهم كانت عاقبتهم الاستئصال، وكلّ ذلك تقرّ به قريش.

الشدّة: صلابة جسم، وتستعار بكثرة لقوّة صفة من الأوصاف في شيء تشبيها لكمال الوصف وتمامه بالصلابة في عسر التحوّل، وتقدّم في قوله تعالى { وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ } [النمل:33]

القوّة: حالة يقاوم بها صاحبها ما يوجب انخرامه، فمن ذلك قوّة البدن، وتستعار القوّة لما به تُدفع العادية وتستقيم الحالة، فهي مجموع صفات يكون بها بقاء الشيء على أكمل أحواله كما في قوله تعالى { نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ } [النمل:33]. فقوّة الأمّة مجموع ما به تدفع العوادي عن كيانها وتستبقي صلاح أحوالها.

وحالة مشركي قريش لا تداني أحوال تلك الأمم في القوة، وناهيك بعاد فقد كانوا مضرب الأمثال في القوّة في سائر أمورهم، والعرب تصف الشيء العظيم في جنسه بأنّه عادي نسبة إلى عاد.

{ **وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا** } أطلقت الإثارة هنا على قلب تراب الأرض بجعل ما كان باطنا ظاهرا وهو **الحرث**، قال تعالى { لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ } [البقرة:71].

ويجوز أن يكون تمثيلا لحال **شدّة تصرّفهم** في الأرض وتغلّبهم على من سواهم بحال من يثير ساكنا ويهيجه، ومنه أطلقت الثورة على الخروج عن الجماعة. وهذا الاحتمال أنسب بالمقصود الذي هو وصف الأمم بالقوّة والمقدرة. ولكون قريش لم تكن لهم إثارة في الأرض بكلا المعنيين إذ كانوا بواد غير ذي زرع لم يقل في هذا الجانب: أكثر ممّا أثاروها.

عمارة الأرض: جعلها عامرة غير خلاء وذلك بالبناء والغرس والزرع. يقال: ضيعة عامرة، ويقال في ضدّه: ضيعة غامرة.

{ **أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا** } أي: عمر الذين من قبلهم الأرض أكثر ممّا عمرها هؤلاء، فإنّ لقريش عمارة في الأرض من غرس قليل وبناء وتفجير ولكنّه يتضاءل أمام عمارة الأمم السالفة من عاد وثمود.

{ **فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** } تفريع على قوله تعالى {وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَات} إيجاز حذف بديع، لأنّ مجيء الرسل بالبيّنات يقتضي تصديقا وتكذيبا فلما فُرّع عليه أنّهم ظلموا أنفسهم عُلم أنّهم كذّبوا الرسل وأنّ الله جازاهم على تكذيبهم رسله بأن عاقبهم عقابا لو كان لغير جرم لشابه الظلم، فجعل من مجموع نفي ظلم الله إيّاهم ومن إثبات ظلمهم أنفسهم معرفة أنّهم كذّبوا الرسل وعاندوهم وحلّ بهم ما هو معلوم من مشاهدة ديارهم وتناقل أخبارهم.

{ **وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** } عُبّر عن ظلمهم أنفسهم بصيغة المضارع للدلالة على استمرار ظلمهم وتكرّره، وأنّ الله أمهلهم فلم يقلعوا حتّى أخذهم بما دلّت عليه تلك العاقبة.

وتقديم { أَنْفُسَهُم } وهو مفعول { يَظْلِمُونَ } على فعله للاهتمام بأنفسهم في تسليط ظلمهم عليها لأنّه ظلم يُتعجّب منه، مع ما فيه من الرعاية على الفاصلة. وليس تقديم المفعول هنا للحصر.

{ **ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ** } [10].

{ **ثُمَّ** } للتراخي الرتبي لأنّ هذه العاقبة أعظم رتبة في السوء من عذاب الدنيا، فيجوز أن يكون هذا الكلام تذييلا لحكاية ما حلّ بالأمم السالفة، فيكون تعريضا بالتهديد لمشركي العرب، ويكون { الَّذِينَ أَسَاءُوا } كلّ مسيء من جنس تلك الإساءة وهي: الشرك. ويجوز أن يكون إنذارا لمشركي العرب المتحدَّث عنهم من قوله تعالى { وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } [6]، فيكونوا المراد بـ { الَّذِينَ أَسَاءُوا }، ويكون إظهارا في مقام الإضمار على خلاف مقتضى الظاهر لقصد الإيماء بالصلة، أي: أن سبب عاقبتهم السوأى هو إساءتهم.

وهذا إنذار بعد الموعظة ونص بعد القياس، **فإنّ الله وعظ** المكذّبين للرسول صلى الله عليه وسلم بعواقب الأمم التي كذّبت رسلها ليكونوا على حذر من مثل تلك العاقبة بحكم قياس التمثيل، **ثم أعقب** تلك الموعظة بالنذارة بأنّهم ستكون لهم مثل تلك العاقبة، وأوقع فعل { كَانَ } الماضي في موقع المضارع { يَسْتَهْزِئُونَ } للتنبيه على تحقيق وقوعه مثل { أَتَى أَمْرُ اللَّهِ } [النحل:1] إتماما للنذارة.

العاقبة: الحالة الأخيرة التي تعقب حالة قبلها. وتقدّمت في قوله تعالى { ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ } [الأنعام:11]، وقوله تعالى { وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى } [طه:132].

{ **السُّوأَى** } : تأنيث الأسوإ، أي: الحالة الزائدة في الاتصاف بالسوء، وهو أشدّ الشرّ، كما أنّ الحسنى مؤنث الأحسن في قوله تعالى { لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى } [يونس:26].

{ **بآيَاتِ الله** } القرآن ومعجزات الرسول صلى الله عليه وسلم.

{ **بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ** } الباء للتعدية، وتقديم المجرور للاهتمام بشأن الآيات وللرعاية على الفاصلة.

{ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [11].

استئناف ابتدائي، وهو شروع فيما أقيمت عليه هذه السورة من بسط دلائل انفراد الله تعالى بالتصرّف في أحوال الناس لإبطال أن يكون لشركائهم شيء من التصرّف في ذلك. فهي دلائل ساطعة على ثبوت الوحدانية التي عموا عنها.

وإذ كان نزول أوّل السورة على سبب ابتهاج المشركين لتغلّب الفرس على الروم، وبعد أن قطع الله تطاولهم على المسلمين، جعل ذلك الحدث مناسبة لإفاضة الاستدلال في هذه السورة على إبطال دين الشرك.

وقد فُصّلت هذه الدلائل على أربعة استئنافات متماثلة الأسلوب، ابتدئ كل واحد منهم باسم الجلالة مجرى عليه أخبار عن حقائق لا قبل لهم بدحضها لأنّهم لا يسعهم إلّا الإقرار ببعضها أو العجز عن نقض دليلها:

الاستئناف الأوّل المبدوء بقوله تعالى { اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ }.

الاستئناف الثاني المبدوء بقوله تعالى { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ } [40].

الاستئناف الثالث المبدوء بقوله تعالى { اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ } [48].

الاستئناف الرابع المبدوء بقوله تعالى { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ } [54].

{ **اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ** } استدلال بما لا يسعهم إلّا الاعتراف به وهو بدء الخلق، إذ لا ينازعون في أنّ الله وحده هو خالق الخلق، ولذلك قال الله تعالى { أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ } [الرعد:16].

{ **ثُمَّ يُعِيدُهُ** } إدماج، لأنّه إذا سُلِّم له بدء الخلق كان تسليم إعادته أولى وأجدر. وحسن موقع الاستئناف وروده بعد ذكر أمم غابرة وأمم حاضرة خلف بعضها بعضا، وإذ كان ذلك مثالا لإعادة الأشخاص بعد

فنائها وذكر عاقبة مصير المكذبين للرسل في العاجلة ناسب في مقام الاعتبار أن يقام لهم الاستدلال على إمكان البعث ليقع ذكر ما يعقبه من الجزاء موقع الإقناع لهم.

{ **ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** } { ثُمَّ } هنا للتراخي الرتبي كما هو شأنها في عطف الجمل، وذلك أنّ شأن الإرجاع إلى الله أعظم من إعادة الخلق، إذ هو المقصد من الإعادة ومن بدء الخلق.

والخطاب للمشركين على طريقة الالتفات من الغيبة إلى الخطاب.

{ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ [12] وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ [13] }.

عطف على جملة { ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [11] تبيينا لحال المشركين في وقت ذلك الإرجاع. وله مزيد اتصال بجملة { ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى } [10]. وكان مقتضى الظاهر أن يقال: ويومئذ يبلس المجرمون أو ويومئذ تبلسون، فعدل عن ذلك بذكر جملة أخرى هي في معناها لتزيد الإرجاع بيانا أنّه إرجاع الناس إليه يوم تقوم الساعة، فهو إطناب لأجل البيان وزيادة التهويل لما يقتضيه إسناد القيام إلى الساعة من المباغتة والرعب. ويدل لهذا القصد تكرير هذا الظرف في الآية بعدها بهذا الإطناب.

{ **السَّاعَةُ** } شاع إطلاقها على وقت الحشر والحساب. وأصل الساعة: المقدار من الزمن، ويتعيّن تحديده بالإضافة أو التعريف.

الإبلاس: سُكُون بحَيْرَةٍ. يقال: أبلس، إذا لم يجد مخرجا من شدّة هو فيها. وتقدّم عند قوله تعالى { إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُون } [المؤمنين:77].

{ **الْمُجْرِمُونَ** } المشركون، وهم الذين أجريت عليهم ضمائر الغيبة وضمائر الخطاب.

والإظهار في مقام الإضمار لإجراء وصف الإجرام عليهم. ووصفوا بالإجرام لتحقير دين الشرك وأنّه مشتمل على إجرام كبير.

{ **وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ** } ذكر أحد أسباب الإبلاس وأعظمها حينئذ وهو أنّهم لم يجدوا شفعاء من آلهتهم التي أشركوا بها وكانوا يحسبونها شفعاء عند الله، فلما نظروا فلم يجدوا شفعاء خابوا وخسئوا وأبلسوا.

{ **وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِين** } لأنّ المراد أنّهم يكفرون بهم يوم تقوم الساعة، كقوله تعالى { ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا } [العنكبوت:25].

{ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ [14] فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ [15] وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ [16] }.

تفصيل أحوال الناس يومئذ مع بيان مغبة إبلاس الكافرين.

{ **وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ** } أعيدت لزيادة التهويل الذي تقدّم بيانه آنفا.

{ **يَوْمَئِذٍ** } كُرّر لتأكيد حقيقة الظرفية.

التفرّق: انقسام الجمع وتشتت أجزاء الكل. وقد كُنّي به هنا عن التباعد، لأنّ التفرّق يلازمه التباعد عرفا.

الروضة: كلّ أرض ذات أشجار وماء وأزهار في البادية أو في الجنان.

{ **يُحْبَرُونَ** } يُسَرُّون من الحبور، وهو السرور الشديد، يقال: حبره: إذا سرّه سرورا تهلّل له وجهه.

{ **فَأُولَئِكَ** } اسم الإشارة تنبيه على أنّهم أحرياء بتلك العقوبة لأجل ما ذكر قبل اسم الإشارة.

{ **مُحْضَرُونَ** } يجوز أن يكون من الإحضار، أي: جعل الشيء حاضرا، أي: لا يخرجون منه.

ويجوز أن يكون محضرون بمعنى مأتِيٌّ بهم إلى العذاب، فقد كثر في القرآن استعمال محضر ونحوه بمعنى مُعَاقَب، قال تعالى { وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ } [الصافات:158].

{ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ [17] وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ [18] }.

{ **فَسُبْحَانَ اللَّهِ** } الفاء تقتضي اتصال ما بعدها بما قبلها وهي فاء فصيحة، أو عطف تفريع على ما قبلها، وقد كان أوّل الكلام قوله تعالى { أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ } [8].

والقول إنشاء تنزيه الله تعالى عمّا نسبوه إليه من العجز عن إحياء الناس بعد موتهم، وفيه ثناء عليه.

{ **حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ** } الخطاب تابع للخطاب الذي قبله في قوله تعالى { ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [11]، وهو موجه إلى المشركين على طريقة الالتفات.

الإمساء: حلول المساء. و**الإصباح**: حلول الصباح. وتقدّم في قوله تعالى { فَالِقُ الْإِصْبَاحِ } [الأنعام:96].

العشي: ما بعد العصر، وتقدم عند قوله تعالى { وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ } [الأنعام:52].

الإظهار: حلول وقت الظهر وهو نصف النهار.

{ **تُمْسُونَ / تُصْبِحُونَ / عَشِيّاً / تُظْهِرُونَ** } ظروف متعلقة بما في إنشاء التنزيه من معنى الفعل، أي: ينشأ تنزيه الله في هذه الأوقات وهي الأجزاء التي يتجزّأ الزمان إليها، والمقصود التأبيد،

كما تقول: سبحان الله دوما. وسُلك به مسلك الإطناب لأنّه مناسب لمقام الثناء.
{ **وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } جملة معترضة بين الظروف تفيد أنّ تسبيح المؤمنين لله ليس لمنفعة الله تعالى بل لمنفعة المسبّحين لأنّ الله محمود في السماوات والأرض فهو غني عن حمدنا.
وتقديم المجرور لإفادة القصر الادعائي لجنس الحمد على الله تعالى لأنّ حمده هو الحمد الكامل.
ولك أن تجعل التقديم للاهتمام بضمير الجلالة.

{ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ } [19].

بدل من جملة { اللَّهُ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ } [11]. ويجوز أيضا أن تكون موقع العلة لجملة { فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ } [17] وما عطف عليها، أي: هو مستحق للتسبيح والحمد لتصرّفه في المخلوقات بالإيجاد العجيب وبالإحياء بعد الموت. واختير من تصرّفاته العظيمة تصرف الإحياء والإماتة في الحيوان والنبات لأنّه تخلّص للغرض المقصود من إثبات البعث. فتحصَّل من ذلك أنّ الأمر بتسبيحه وحمده معلول بأمرين: إيفاء حقّ شكره، وإيفاء حقّ التعظيم والإجلال. وهذا الخطاب للمؤمنين تعريض بالرد على المشركين.
الإخراج: فصل شيء محوي عن حاويه. يقال: أخرج يده من جيبه، فهو هنا مستعمل لإنشاء شيء من شيء.
{ **يَخْرُجُ / يُحْيِي** } صيغة المضارع لاستحضار الحالة العجيبة. فهذا الإخراج والإحياء آية عظيمة على استحقاقه التعظيم والإفراد بالعبادة، إذ أودع هذا النظام العجيب في الموجودات فجعل في الشيء الذي لا حياة له قوة وخصائص تجعله ينتج الأشياء الحية الثابتة المتصرّفة، ويجعل في تراب الأرض قوى تخرج الزرع والنبات حيا ناميا. وإخراج الحي من الميت يظهر في أحوال كثيرة منها: إنشاء الأجنة من النطف، وإنشاء الفراخ من البيض، وإخراج الميت من الحي يظهر في العكس وقد تقدّم في [آل عمران:27].
<u>وفي الآية إيماء إلى أنّ الله يخرج من غلاة المشركين أفاضل من المؤمنين</u> مثل إخراج خالد بن الوليد من أبيه الوليد بن المغيرة. وإخراج أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط من أبيها. ولما كلمت أم كلثوم بنت عقبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن إسلامها وهجرتها إلى المدينة حين جاء أخواها يرومان ردها إلى مكة حسب شروط الهدنة فقالت: يا رسول الله أنا امرأة وحال النساء إلى الضعف فأخشى أن يفتنوني في ديني ولا صبر لي، فقرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم { يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ }، ونزلت آية الامتحان فلم يردّها رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهما، وكانت أوّل النساء المهاجرات إلى المدينة بعد صلح الحديبية.
{ **وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ** } <u>يجوز</u> أن يكون التشبيه راجعا إلى أقرب مذكور وهو إحياء الأرض بعد موتها،

أي: وكإخراج النبات من الأرض بعد موته فيها يكون إخراجكم من الأرض بعد أن كنتم أمواتا فيها، كما قال تعالى { وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً } [نوح:18/17].

{ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ } [20].

لمّا كان الاستدلال على البعث متضمّنا آيات على تفرّده تعالى بالتصرّف ودلالته على الوحدانية انتقل من ذلك الاستدلال إلى آيات على ذلك التصرّف العظيم تثبيتا للمؤمنين وإعذارا لمن أشركوا في الإلهية.

{ وَمِنْ آيَاتِهِ } هذه أولى ست آيات على الوحدانية. ولها شبه بالاستدلال على البعث لأنّ خلق الناس من تراب وبث الحياة والانتشار فيهم هو ضرب من ضروب إخراج الحيّ من الميت، فلذلك كانت هي الأولى في الذكر لمناسبتها لما قبلها، فجُعلت تخلُّصا من دلائل البعث إلى دلائل عظيم القدرة. وهذه الآية كائنة في خلق جوهر الإنسان وتقويم بشريّته.

{ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ } تقدم معناها عند قوله تعالى { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ } [المؤمنون:13/12]. فضمير النصب في { خَلَقَكُمْ } عائد إلى جميع الناس.

وهذا استدلال للناس بأنفسهم لأنهم أشعر بها مما سواها، والناس يعلمون أن النطف أصل الخلقة، وهم إذا تأمّلوا علموا أن النطفة تتكوّن من ا لغذاء، وأن الغذاء يتكوّن من نبات الأرض، وأن نبات الأرض مشتمل على الأجزاء الترابية التي أنبتته فعلموا أنهم مخلوقون من تراب، فبذلك استقام جعل التكوين من التراب آية للناس، أي: علامة على عظيم القدرة مع كونه أمرا خفيا. على أنّه يمكن أن يكون الاستدلال مبنيا على ما هو شائع بين البشر أن أصل الإنسان تراب حسبما أنبأت به الأديان كلّها. وأوّل الوجوه أظهرها.

{ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ } لمّا كان تمام البشرية ينشأ عن تطور التراب إلى نبات ثم إلى نطفة ثم إلى أطوار التخلّق في أزمنة متتالية عُطفت الجملة بحرف المهلة (**ثُمَّ**) الدال على تراخي الزمن مع تراخي الرتبة الذي هو الأصل في عطف الجمل.

{ إِذَا } صُدِّرت الجملة بحرف المفاجأة لأنّ الخروج يظهر للنّاس فجأة بوضع الأجنة، وما بين ذلك من الأطوار التي اقتضاها حرف المهلة هي أطوار خفية غير مشاهدة.

والجمع بين حرف المهلة وحرف المفاجأة تنبيه على ذلك التطور العجيب.

الانتشار: الظهور على الأرض والتباعد بين الناس في الأعمال، قال تعالى { فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ } [الجمعة: 10].

{ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [21].

{ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ } هذه آية ثانية فيها عظة وتذكير بنظام الناس العام، وهو نظام الازدواج وكينونة العائلة وأساس التناسل، وهو نظام عجيب جعله الله مرتكزا في الجبلّة لا يشذ عنه إلا الشذّاذ. والخطاب لجميع نوع الإنسان الذكور والإناث.

وهي آية تنطوي على عدة آيات منها:

*/ أن جعل للإنسان ناموس التناسل.

*/ أن جعل تناسله بالتزاوج ولم يجعله كتناسل النبات من نفسه.

*/ جعل في ذلك التزاوج أنسا ومحبّة بين الزوجين.

*/ جعل بينهما رحمة فهما قبل التزاوج لا عاطفة بينهما فيصبحان بعده متراحمين كرحمة الأبوة والأمومة.

{ مِنْ أَنْفُسِكُمْ } من نوعكم، فجميع الأزواج من نوع الناس، وما يزعمه المشعوذون من التزوّج بالجنيات فمن تكاذيبهم.

الزوج: هو الذي به يصير للواحد ثان فيطلق على امرأة الرجل ورجل المرأة، فجعل الله لكل فرد زوجه.

{ لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً } ضُمِّن معنى لتميلوا فعُدّي بحرف (إلى).

السكون: هنا مستعار للتأنّس وفرح النفس لأنّ في ذلك زوال اضطراب الوحشة والكمد.

المودة: المحبة. و**الرحمة**: صفة تبعث على حسن المعاملة.

{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } لأجل ما ينطوي عليه هذا الدليل ويتبعه من النعم والدلائل جُعلت هذه الآية آيات عدة.

{ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } لأنّ التفكّر والنظر في تلك الدلائل هو الذي يجلّي كنهها ويزيد الناظر بصارة بمنافع أخرى في ضمنها. والذين يتفكرون: المؤمنون وأهل الرأي من المشركين الذين يؤمنون بعد نزول هذه الآية.

{ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِلْعَالِمِينَ } [22].

هذه الآية الثالثة، وهي آية النظام الأرضي في خلق الأرض بمجموعها وسكانها. والظاهر أنّ المقصود هو آية اختلاف اللغات والألوان، وأنّ ما تقدّمه من خلق السماوات والأرض تمهيد له وإيماء إلى انطواء أسباب الاختلاف في أسرار خلق السماوات والأرض.

الألسنة: جمع لسان، وهو يطلق على اللغة كما في قوله تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ } [إبراهيم:4]، وقوله تعالى { لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ } [النحل:103].

واختلاف لغات البشر آية عظيمة فهم مع اتحادهم في النوع كان اختلاف لغاتهم آية دالة على ما كوّنه الله في غريزة البشر من اختلاف التفكير وتنويع التصرّف في وضع اللغات، وتبدل كيفياتها باللهجات.

فلا شك أنّ اللغة كانت واحدة للبشر حين كانوا في مكان واحد، وما اختلفت اللغات إلّا بانتشار البشر في المواطن المتباعدة، وتطرّق التغير تطرقا تدريجيا. على أنّ توسّع اللغات بتوسّع الحاجة إلى التعبير.

فمحلّ العبرة هو اختلاف اللغات مع اتحاد أصل النوع كقوله تعالى { يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ } [الرعد:4].

وأمّا اختلاف ألوان البشر فهو آية أيضا، لأنّ البشر منحدر من أصل واحد وهو آدم، وله لون واحد لا محالة، ولعله البياض المشوب بحمرة، فلمّا تعدّد نسله جاءت الألوان المختلفة في بشراتهم وذلك الاختلاف معلول لعدّة علل أهمها المواطن المختلفة بالحرارة والبرودة، ومنها التوالد من أبوين مختلفي اللون، ومنها العلل والأمراض، ومنها اختلاف الأغذية.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِلْعَالِمِينَ** } جُعل ذلك آيات لما علمت من تفاصيل دلائله وعلله، أي: آيات لجميع الناس، وهو نظير قوله تعالى آنفا { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [21]. وجُعل ذلك آيات للعالمين لأنّه مُقرَّر معلوم لديهم يمكنهم الشعور بآياته بمجرد التفات الذهن دون إمعان نظر.

{ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ } [23].

هذه آية رابعة، وهي كائنة في أعراض من أعراض الناس لا يخلو عنها أحد من أفرادهم، إلّا أنّها أعراض مفارقة غير ملازمة فكانت دون الأعراض التي أقيمت عليها الآية الثالثة ولذلك ذكرت هذه الآية بعدها.

{ **مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ** } حالة النوم حالة عجيبة من أحوال الإنسان والحيوان إذ جعل الله له في نظام أعصاب دماغه قانونا يستردّ به قوته بعد أن يعتريه فشل الإعياء من إعمال عقله وجسده، فيفيق من نومته وتعود إليه حياته كاملة، وتقدّم ذلك عند قوله تعالى { لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ } [البقرة:255].

المنام: مصدر ميمي للنوم أو هو اسم مصدر.

{ **بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ** } الباء للظرفية بمعنى (في)، فالناس ينامون بالليل ومنهم من ينام بالنهار في القائلة وبخاصة أهل الأعمال المضنية إذا استراحوا منها في منتصف النهار خصوصا في البلاد الحارة أو في فصل الحر.

{ **وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ** } طلب الرزق بالعمل، لأنّ فضل الله الرزق، وجُعل هذا كناية عن الهبوب إلى

العمل لأنّ الابتغاء يستلزم الهبوب من النوم.

{ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ** } جُعلت دلالات المنام والابتغاء من فضل الله { لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ } لوجهين: أحدهما: أنّ هذين حالتان متعاورتان على الناس قد اعتادوهما فقَلّ من يتدبّر في دلالتهما على دقيق صنع الله تعالى، فمعظم الناس في حاجة إلى من يوقفهم على هذه الدلالة ويرشدهم إليها.

ثانيهما: أنّ فيما يسمعه الناس من أحوال النوم ما هو أشد دلالة على عظيم صنع الله تعالى ممّا يشعر به صاحب النوم من أحوال نومه، فطريق السمع هو أعم الطرق لمعرفة تفاصيل أحوال النوم.

{ **لَآياتٍ** } لما تنطوي عليه هذه الآية من تعدّد الدلالات بتعدد المستدلّين، وتولّد دقائق تلك الآية بعضها عن بعض كما تقدم آنفا.

{ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [24].

تلك آية خامسة وهي متعلّقة بالإنسان وليست متّصلة به، فإنّ البرق آية من آيات صنع الله، وهو من خلق القوى الكهربائية النورانية في الأسحبة وجعلها آثارا مشاهدة، وكم من قوى أمثالها منبثّة في العوالم العلوية لا تُشاهد آثارها. ومن الحكم الإلهية في كون البرق مرئيا أنّ ذلك يثير في النفوس خوفا من أن يكون الله سلّطه عقابا، وطمعا في أن يكون أراد به خيرا للناس فيطمعون في نزول المطر.

{ **الْبَرْقَ** } تقدّم الكلام على البرق في قوله تعالى { هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً } [الرعد:12].

{ **خَوْفاً وَطَمَعاً** } مفعول لأجله. فالمصدران مؤوّلان بمعنى الإرادة، أي: إرادة أن تخافوا وتطمعوا.

{ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآياتٍ** } جُعلت هذه الآية آيات لانطوائها على دقائق عظيمة في خلق القوى التي هي أسباب البرق ونزول المطر وخروج النبات من الأرض بعد جفافها وموتها.

{ **لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** } نيط الانتفاع بهذه الآيات بأصحاب صفة العقل لأنّ العقل المستقيم غير المشوب بعاهة العناد والمكابرة كاف في فهم ما في تلك المذكورات من الدلائل والحكم على نحو ما قُرّر في نظائره آنفا.

{ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ} [25].

{ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ** } خُتمت الآيات بهذه الآية السادسة وهي التي دلّت على عظيم القدرة على حفظ نظام المخلوقات العظيمة بعد خلقها، فخلق السماوات والأرض آية مستقلة تقدّمت، وبقاء نظامهما على ممر القرون آية أخرى.

وموقع العبرة من هاته الآية هو أوّلها وهو أن تقوم السماء والأرض هذا القيام المتقن بأمر الله.

وهذا هو المعبّر عنه في قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا } [فاطر:41]، وقوله تعالى { وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ } [الحج:65].

{ **بِأَمْرِهِ** } متعلق بفعل { تَقُومَ }، والباء للسببية. والأمر المضاف إلى الله هو أمره التكويني، وهو مجموع ما وضعه الله من نظام العالم العلوي والسفلي، ذلك النظام الحارس لهما من تطرق الاختلال.

{ **ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ** } احتراس عمّا قد يُتوهّم من الجملة السابقة من أبدية وجود السماوات والأرض، فأفادت الجملة أنّ هذا النظام الأرضي يعتوره الاختلال إذا أراد الله انقضاء العالم الأرضي وإحضار الخلق إلى الحشر تسجيلا على المشركين بإثبات البعث.

ومضمون الجملة ليس من تمام هذه الآية السادسة ولكنّه تكملة وإدماج موجّه إلى منكري البعث.

{ **مِنَ الْأَرْضِ** } الأحسن والأبعد عن التكلّف أن يكون متعلقا بـ { تَخْرُجُونَ } قُدّم عليه. وعليه فتقديم المجرور للاهتمام تعريضا بخطئهم إذ أحالوا أن يكون لهم خروج من الأرض في قولهم المحكي عنهم بقوله تعالى { وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ } [السجدة:10]، وقولهم { أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ } [النمل:67].

{ **إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ** } جيء بحرف المفاجأة لإفادة سرعة خروجهم إلى الحشر كقوله تعالى { فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ } [النازعات:14/13]. وجيء بالمضارع لاستحضار الصورة العجيبة في ذلك الخروج كقوله تعالى { فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ } [يس:51].

{ **وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ** } [26].

أُتبع ذكر إقامة الله تعالى السماوات والأرض بالتذكير بأنّ كل العقلاء في السماوات والأرض عبيد لله تعالى، فيكون من مكمّلات ما تضمّنته جملة { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ } [25] لزيادة بيان معنى إقامته السماء والأرض.

يجوز أن يكون المعنى: أنّهم منقادون لأمره والمخلوقات السماوية ممتثلون لأمره ساعون في مرضاته، قال تعالى { وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ } [الأنبياء:27]. وأمّا المخلوقات الأرضية العقلاء فهم مخلوقون للطاعة، قال تعالى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } [الذاريات:56]، فزيغ الزائغين عن طاعة الله تعالى انحراف منهم عن الفطرة التي فطروا عليها، وهم في انحرافهم متفاوتون، فالضالون الذين أشركوا بالله فجعلوا له أندادا، والعصاة الذين لم يخرجوا عن توحيده ولكنّهم ربّما خالفوا بعض أوامره قليلا أو كثيرا هم في ذلك آخذون بجانب من الإباق متفاوتون فيه.

ويجوز أن تكون الجملة تكملة لجملة { ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ } [25] على معنى: وله يومئذ من في السماوات والأرض كل له قانتون، فالقنوت بمعنى الامتثال الواقع في ذلك اليوم وهو امتثال الخضوع، لأنّ امتثال التكليف قد انقضى بانقضاء الدنيا. أي: لا يسعهم إلّا الخضوع فيما

يأمر الله به من شأنهم، قال تعالى { يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [النور:24].

القنوت: تقدم في قوله تعالى { قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً } [النحل:120].

{ وَهُوَ الَّذِي يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [27].

تقدّم نظير صدر هذه الآية في هذه السورة [11] وأعيد هنا ليُبنى عليه قوله تعالى { وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ } تكملة للدليل إذ لم تذكر هذه التكملة هناك. فهذا ابتداء بتوجيه الكلام إلى المشركين لرجوعه إلى نظيره المسوق إليهم. وهذا أشبه بالتسليم الجدلي في المناظرة، فإنّ إعادة المصنوع مرة ثانية أهون على الصانع من صنعته الأولى وأدخل تحت تأثير قدرته فيما تعارفه الناس في مقدوراتهم.

{ **أَهْوَنُ** } اسم تفضيل مستعمل في معنى المفاضلة على طريقة إرخاء العنان والتسليم الجدلي، أي: الخلق الثاني أسهل من الخلق الأول، وهذا في معنى قوله تعالى { أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ } [ق:15]. ومراده: أنّ إعادة الخلق مرة ثانية مساوية لبدء الخلق في تعلّق القدرة الإلهية، فتُحمل صيغة التفضيل على معنى قوة الفعل. فقوله تعالى { وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ } مجرّد تقريب لأفهامهم لذلك عقّب بقوله:

{ **وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } أي: ثبت له واستحق الشأن الأتم الذي لا يقاس بشؤون الناس المتعارفة وإنّما لقصد التقريب لأفهامكم.

{ **الْأَعْلَى** } الأعظم، أي: البالغ نهاية حقيقة العظمة والقوة.

{ **فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } أي: هو موصوف بأشرف الصفات وأعظم الشؤون على ألسنة العقلاء، وهي الملائكة والبشر المعتدّ بعقولهم ولا اعتداد بالمعطّلين منهم لسخافة عقولهم، وفي دلائل الأدلة الكائنة في السماوات وفي الأرض، فكلّ تلك الأدلة شاهدة بأنّ لله المثل الأعلى.

{ **وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } من جملة المثل الأعلى عزّته وحكمته تعالى، فخُصّا بالذكر هنا لأنّهما الصفتان اللتان تظهر آثارهما في الغرض المتحدث عنه وهو بدء الخلق وإعادته.

العزّة: تقتضي الغنى المطلق، فهي تقتضي تمام القدرة.

الحكمة: تقتضي عموم العلم.

{ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَـهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [28].

الخطاب للمشركين. شُبِّهت الهيئة المنتزعة من زعم المشركين أنّ الأصنام شركاء لله في التصرّف ودافعون عن أوليائهم، وهم مع ذلك يعترفون بأنّها مخلوقة لله، هذه الهيئة شُبِّهت بهيئة ناس لهم عبيد صاروا شركاء في أرزاق سادتهم، شركة على السواء، فصار سادتهم يحذرون إذا أرادوا أن يتصرّفوا في تلك الأرزاق أن يكون تصرفهم غير مرضي لعبيدهم.

فهذه الهيئة المشبّه بها هيئة قبيحة مشوّهة في العادة لا وجود لأمثالها في عرفهم فكانت منفية منكرة، ولذلك أدخل عليها استفهام الإنكار والجحود لينتج أنّ الصورة المزعومة للأصنام صورة باطلة بطريق التصوير والتشكيل.

ضرب المثل: إيقاعه ووضعه، أو يراد بضربه جعله ضربا، أي: مثلا ونظيرا. وتقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا } [البقرة:26].

{ **لَكُمْ** } لام التعليل، أي: ضرب مثلا لأجلكم، أي: لأجل إفهامكم.

{ **مِنْ أَنْفُسِكُمْ** } و{ مِنْ } ابتدائية متعلقة بـ {ضَرَبَ}، أي: جعل لكم مثلا منتزعا من أحوال جماعتكم، إذ لا تخلو جماعة في ذلك الحين عن ناس لهم عبيد. فالخطاب لجميع الأمة باعتبار وجود فريق فيهم ينطبق عليهم هذا المثل.

{ **هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ** } الاستفهام مستعمل في الإنكار ومناط الإنكار قوله تعالى { فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ } إلى آخره، أي: من شركاء لهم هذا الشأن.

الشركاء: جمع شريك، وهو المشارك في المال لقوله تعالى { فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ }، أي: فتكونوا متساوين فيما أنتم فيه شركاء.

{ **تَخَافُونَـهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ** } في موضع الحال من ضمير الفاعل في { سَوَاءٌ }. والأنفس هنا أنفس الذين لهم شركاء ممّا ملكت أيمانهم من المخاطبين لأنّهم بعض المخاطبين.

الخوف: انفعال نفساني ينشأ من توقّع إصابة مكروه، وهو هنا التوقّي من التفريط في حظوظهم من الأرزاق. أي: كما تتوقّون أنفسكم من إضاعة حقوقكم عندهم.

{ **كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** } أي: نفصّل الدلائل على الاعتقاد الصحيح تفصيلا كهذا التفصيل وضوحا بينا. والقوم الذين يعقلون هم المتنزّهون عن المكابرة والإعراض، والطالبون للحق والحقائق.

وفي هذا تعريض بالمتصلّبين في شركهم بأنّهم ليسوا من أهل العقول وليسوا ممّن ينتفعون بالآيات، كقوله تعالى { وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ } [العنكبوت:43]، وقوله تعالى { وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ } [البقرة:171].

{ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ } [29].

إضراب إبطالي لما تضمّنه التعريض الذي في قوله تعالى { كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [28]، إذ اقتضى أنّ الشأن أن ينتفع الناس بمثل هذا المثل فيقلع المشركون منهم عن إشراكهم ويلجوا حظيرة الإيمان، ولكنهم اتبعوا أهواءهم وما تسوّله لهم نفوسهم ولم يطلبوا الحق ويتفهّموا دلائله.

التقدير: فما نفعتهم الآيات المفصّلة بل اتبعوا أهواءهم.

{ **الَّذِينَ ظَلَمُوا** } المشركون، قال تعالى { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان:31].

{ **بِغَيْرِ عِلْمٍ** } التقييد لتشنيع هذا الاتباع، فإنّه اتباع شهوة مع جهالة.

{ **فَمَنْ يَهْدِي** } الفاء للتفريع، أي: يترتّب على اتباعهم أهواءهم بغير علم انتفاء الهدى عنهم أبدا.

{ **مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ** } من قدّر له الضلال وطبع على قلبه، فإسناد الإضلال إلى الله إسناد لتكوينه وذلك بيّن.

{ **وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ** } ردّ على المشركين الزاعمين أنّهم إذا أصابوا خطيئة عند الله أنّ الأصنام تشفع لهم.

{ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } [30].

الفاء فصيحة. والأمر مستعمل في طلب الدوام. والمقصود: ألّا تهتم بإعراضهم، كقوله تعالى { فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ } [آل عمران:20].

إقامة الوجه: تقويمه وتعديله باتجاهه قبالة نظره غير ملتفت يمينا ولا شمالا. وهو تمثيل لحالة الإقبال على الشيء والتمحّض للشغل به، وهذا كقوله تعالى { فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ } [آل عمران:20].

أي: أعطيته لله، وذلك معنى التمحيض لعبادة الله وألّا يلتفت إلى معبود غيره.

{ **لِلدِّينِ** } التعريف للعهد وهو دينهم الذي هم عليه وهو دين الإسلام.

{ **حَنِيفاً** } يجوز أن يكون حالا من الضمير المستتر في فعل { أَقِمْ } فيكون حالا للنبيّ صلى الله عليه وسلم كما كان وصفا لإبراهيم عليه السلام في قوله تعالى { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً } [النحل:120].

ويجوز كونه حالا من الدين على ما فسّر به الزجاج فيكون استعارة بتشبيه الدين برجل حنيف في خلوّه من شوائب الشرك، فيكون الحنيف تمثيلية، وفي إثباته للدين استعارة تصريحية.

حنيف: صيغة مبالغة في الاتصاف بالحنف وهو الميل، وغلب استعمال هذا الوصف في **الميل عن الباطل**، أي: العدول عنه بالتوجّه إلى الحقّ، أي: عادلا ومنقطعا عن الشرك، كقوله تعالى { قُلْ بَلْ مِلَّةَ

إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [البقرة:135].

{ **فِطْرَتَ اللَّهِ** } بدل اشتمال من { حَنِيفاً }، فهو في معنى الحال من { الدِّينِ } وهو حال ثانية، فإنّ الحال كالخبر تتعدد بدون عطف على التحقيق عند النحاة. وهذا أحسن لأنّه أصرح في إفادة أنّ هذا الدين مختص بوصفين هما: التبرؤ من الإشراك، وموافقته الفطرة، فيفيد أنّه دين سمح سهل لا عنت فيه.

ونظيره قوله تعالى { وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا قَيِّماً } [الكهف:2/1].

{ **الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا** } أي: أنّ الله خلق الناس قابلين لأحكام هذا الدين وجعل تعاليمه مناسبة لخلقتهم غير مجافية لها، غير نائين عنه ولا منكرين له مثل إثبات الوحدانية لله لأنّ التوحيد هو الذي يساوق العقل والنظر الصحيح، حتّى لو تُرك الإنسان وتفكيره ولم يُلقن اعتقادا ضالا لاهتدى إلى التوحيد بفطرته.

ومعنى كون الإسلام هو الفطرة: بأن الفطرة هي النظام الذي أوجده الله في كل مخلوق، والفطرة التي تخصّ نوع الإنسان هي ما خلقه الله عليه جسدا وعقلا، فمشي الإنسان برجليه فطرة جسدية، ومحاولته أنّ يتناول الأشياء برجليه خلاف الفطرة الجسدية، واستنتاج المسببات من أسبابها والنتائج من مقدّماتها فطرة عقلية، ومحاولة استنتاج أمر من غير سببه خلاف الفطرة العقلية.

وكون الإسلام هو الفطرة، وملازمة أحكامه لمقتضيات الفطرة صفة اختصّ بها الإسلام من بين سائر الأديان في تفاريعه أمّا أصوله فاشتركت فيها الأديان الإلهية، وهذا ما أفاده قوله تعالى { ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ } فالإسلام عام خالد مناسب لجميع العصور وصالح بجميع الأمم ولا يستتب ذلك إلّا إذا بُنيت أحكامه على أصول الفطرة الإنسانية ليكون صالحا للناس كافة وللعصور عامة.

وتفصيل ذلك وبيانه في كتابي المسمَّى (مقاصد الشريعة الإسلامية) .

{ **الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا** } بيان لمعنى الإضافة في قوله تعالى { فِطْرَتَ اللَّهِ }، وتصريح بأنّ الله خلق الناس سالمة عقولهم ممّا ينافي الفطرة من الأديان الباطلة والعادات الذميمة، وأنّ ما يدخل عليهم من الضلالات ما هو إلّا من جراء التلقّي والتعوّد، وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **يولد الولد على الفطرة ثم يكون أبواه هما اللذان يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه كما تُنْتَجُ البهيمةُ بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء** ".

وفي صحيح مسلم أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال فيما يرويه عن ربه: " **وإنّي خلقت عبادي حنفاء كلهم** (أي: غير مشركين) **وأنّهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرَّمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا** ...".

{ **لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ** } جارية مجرى حال ثالثة من { الدِّينِ } على تقدير رابط محذوف. والتقدير: لا تبديل لخلق الله في هذا الدين. فالمعنى: أنّه الدين الحنيف الذي ليس فيه تبديل لخلق الله خلاف دين أهل الشرك، قال تعالى عن الشيطان { وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ } [النساء:119].

ويجوز أن تكون الجملة معترضة لإفادة النهي عن تغيير خلق الله فيما أودعه الفطرة. فتكون الجملة خبرا مستعملا في معنى النهي على وجه المبالغة.

{ **ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ** } اسم الإشارة لزيادة تمييز هذا الدين مع تعظيمه.

{ **الْقَيِّمُ** } وصف بوزن فَيْعِلَ، مثل هيّن وليّن، يفيد قوة الاتصاف بمصدره، أي: البالغ قوّة القيام.

القيام: حقيقته الانتصاب ضد القعود والاضطجاع، ويطلق مجازا على انتفاء الاعوجاج. كما في قوله تعالى { وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّماً } [الكهف:2/1]، وقوله تعالى { ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ } [التوبة:36].

ويطلق أيضا على الرعاية والمراقبة والكفالة بالشيء لأنّها تستلزم القيام والتعهّد، قال تعالى { أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ } [الرعد:33]، ومنه قلنا لراعي التلامذة ومراقب أحوالهم: **قيّم**.

ويطلق القيّم على المهيمن والحافظ.

والمعاني كلّها صالحة للحمل عليها هنا، فإنّ هذا الكتاب معصوم عن الخطأ ومتكفّل بمصالح الناس وشاهد على الكتب السالفة تصحيحا ونسخا، قال تعالى { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ } [المائدة:48]. فهذا الدين به قوام أمر الأمّة.

قال عمر بن الخطاب لمعاذ بن جبل: يا معاذ ما قوام هذه الأمة؟ قال: الإخلاص وهو الفطرة التي فطر الله الناس عليها، والصلاة وهي الدين، والطاعة وهي العصمة، فقال عمر: صدقت. يريد معاذ بالإخلاص التوحيد كقوله تعالى { مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ } [البينة:5].

{ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** } الاستدراك لدفع توهّم واهم يقول إذا كان هو دين الفطرة وهو القيّم فكيف أعرض كثير من الناس عنه بعد تبليغه، فاستدرك ذلك بأنّهم جهّال لا علم عندهم، فإن كان قد بلغهم فإنّهم جهلوا معانيه لأنّهم لم يسعوا في أن تبلغهم على الوجه الصحيح.

{ **أَكْثَرَ النَّاسِ** } المشركون إذ أعرضوا عن دعوة الإسلام، وأهل الكتاب إذ أبوا اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ومفارقة أديانهم بعد إبطالها لانتهاء صلاحية تفاريعها بانقضاء الأحوال التي شرعت لها.

{ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ [31] مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ [32] }.

{ **مُنِيبِينَ** } حال من ضمير { فَأَقِمْ } [30] للإشارة إلى أنّ الخطاب الموجه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم مراد منه نفسه والمؤمنون معه كما تقدّم.

المنيب: الملازم للطاعة. ويظهر أنّ معنى أناب صار ذا نوبة، أي: ذا رجوع متكرّر. والنوبة: حصة من عمل يتوزّعه عدد من الناس. يقال: تناوبوا عمل كذا. وفي حديث عمر: " كنت أنا وجار لي من الأنصار نتناوب النزول على رسول الله صلى الله عليه وسلم فينزل يوما وأنزل يوما ".

فإطلاق المنيب على المطيع استعارة لتعهّد الطاعة تعهدا متكرّرا، وجعلت تلك الاستعارة كناية عن

مواصلة الطاعة وملازمتها، قال تعالى { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ } [هود:75].

وفُسِّرت الإنابة أيضا بالتوبة. وقد قيل: إنّ ناب مرادف تاب، وهو المناسب لقوله في الآية الموالية { دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ } [33].

{ **وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ** } الأمر مستعمل في طلب الدوام.

{ **مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً** } هم المشركون لأنّهم اتخذوا عدّة آلهة. وتقدّم الكلام على معناها في [الأنعام:159].

وقرأ الجمهور { فَرَّقُوا } بتشديد الراء. وقرأه حمزة والكسائي { فَارَقُوا } بألف بعد الفاء، فالمراد بالدين دين الإسلام. ومعنى مفارقتهم إيّاه ابتعادهم منه، فاستعيرت المفارقة للنبذ إذ كان الإسلام هو الدين الذي فطر الله عليه الناس فلمّا لم يتّبعوه جعل إعراضهم عنه كالمفارقة لشيء كان مجتمعا معه، وليس المراد الارتداد عن الإسلام.

الشيع: جمع شيعة وهي الجماعة التي تشايع رأيا أو شخصا، وتقدّم قوله تعالى {ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ} [مريم:69].

{ **كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ** } تقدّم النظر فيها في [المؤمنون:53].

الحزب: الجماعة الذين رأيهم ونزعتهم واحدة. و{ **مَا لَدَيْهِمْ** } هو ما اتفقوا عليه.

الفرح: الرضا والابتهاج.

وهذه حالة ذميمة من أحوال أهل الشرك يُراد تحذير المسلمين من الوقوع في مثلها، فإذا اختلفوا في أمور الدين الاختلاف الذي يقتضيه اختلاف الاجتهاد، أو اختلفوا في الآراء والسياسات لاختلاف العوائد فليحذروا أن يجرّهم ذلك الاختلاف إلى أن يكونوا شيعا متعادين متفرّقين.

{ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ [33] لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ [34] }.

عطف على الجملة السابقة، أي: فرّقوا دينهم وكانوا شيعا، وإذا مسهم ضرّ فدعوا الله وحده فرحمهم عادوا إلى شركهم وكفرهم نعمة الذي رحمهم، بخلاف حال المؤمنين فإنّهم إذا أذاقهم الله رحمة بعد ضرّ شكروا نعمة ربهم وذلك من إنابتهم إلى الله.

ونُسج الكلام على هذا الأسلوب ليكون بمنزلة التذييل بما في لفظ { النَّاسَ } من العموم وإدماجا لفضيلة المؤمنين الذين لا يكفرون نعمة الرحيم.

المسّ: مستعار للإصابة. وحقيقة المسّ أنّه وضع اليد على شيء، وتقدّم في قوله تعالى { لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [المائدة:73]. واختير هنا لما يستلزمه من خفة الإصابة، أي: يدعون الله إذا

أصابهم خفيف ضر بله الضرّ الشديد.

الضُرّ: (بضم الضاد) سوء الحال في البدن أو العيش أو المال.

وهذا نحو ما أصاب قريشا من الشدّة والقحط حتّى كانوا يرون في الجو مثل الدخان من شدة الجفاف، وحتى أكلوا العظام والميتة، وقد أصاب ذلك مشركيهم ومؤمنيهم، وكانت شدّته على المشركين لأنّهم كانوا في رفاهية. فأرسلوا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم يستشفعون به أن يدعو الله بكشف الضرّ عنهم فدعا فأمطروا فعادوا إلى ترفهم، قال تعالى { فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ } [الدخان:10].

{ **دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ** } فدعاؤهم ربّهم يشمل طلبهم أن يدعو لهم الرسول صلى الله عليه وسلم.

{ **مُنِيبِينَ** } حال من الناس كلّهم، أي: استووا في الإنابة إليه.

الإذاقة: مستعارة للإصابة أيضا، وحقيقتها إصابة المطعوم بطرف اللسان، فهي أقل من المضغ والبلع، وتقدّم في قوله تعالى { لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ } [المائدة:95]، وقوله تعالى { وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ } [يونس:21]. واختير فعل الإذاقة لما يدلّ عليه من إسراعهم إلى الإشراك بمجرّد ابتداء الرحمة لهم.

الرحمة: تخليصهم من الشدّة.

{ **مِنْهُ رَحْمَةً** } الضمير عائد إلى الله تعالى، و{ مِنْ } ابتدائية متعلّقة بـ { أَصَابَهُمْ }. وتقديم المجرور على الفاعل للاهتمام به ليظهر أنّ الذي أصابهم هو من فضل الله وتقديره لا غير ذلك.

{ **لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا** } لام التعليل وهي مستعارة لمعنى التسبّب، لأنّهم لمّا أشركوا محبة للشرك فكان الشرك مفضيا إلى كفرهم نعمة الله. على نحو قوله تعالى { فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً } [القصص:8].

الإيتاء: إعطاء النافع، أي: بما أنعمنا عليهم من النعم التي هي نعمة الإيجاد والرزق وكشف الضرّ عنهم.

{ **فَتَمَتَّعُوا** } ثمّ التفت عن الغيبة إلى الخطاب توبيخا لهم وإنذارا. وجيء بفاء التفريع لأنّ الإنذار والتوبيخ مفرّعان عن الكلام السابق. والأمر مستعمل في التهديد والتوبيخ.

التمتّع: الانتفاع بالملائم وبالنعمة مدّة تنقضي.

{ **فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ** } الفاء لتفريع الإنذار على التوبيخ، وهو رشيق. و**العلم** كناية عن حصول الأمر الذي يُعلم، أي: عن حلول مصائب بهم لا يعلمون كنهها الآن. وهم كانوا يستعجلون بعذاب من جنس ما عُذّب به الأمم الماضية مثل عاد وثمود.

{ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ } [35].

{ أَمْ } منقطعة، مثل (بل) للإضراب، وهو إضراب انتقالي. فهو عطف قصة على قصة بمنزلة ابتداء. والكلام توبيخ ولوم متصل بالتوبيخ الذي أفاده قوله تعالى { فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } [34]. وفيه التفات

من الخطاب إلى الغيبة إعراضا عن مخاطبتهم إلى مخاطبة المسلمين تعجيبا من حال أهل الشرك.

وحيثما وقعت (أَمْ) فالاستفهام مقدّر بعدها، وهو هنا استفهام إنكاري، أي: ما أنزلنا عليهم سلطانا؟

السلطان: الحجّة. ولمّا جُعل السلطان مفعولا للإنزال من عند الله تعيّن أنّ المراد به كتاب، كما قالوا { حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَأُهُ } [الإسراء:93].

{ **فَهُوَ يَتَكَلَّمُ** } الدلالة بالكتابة كقوله تعالى { هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ } [الجاثية:29]، أي: تدلّ كتابته، أي: كتب فيه تفصيل شركهم.

{ **بِهِ يُشْرِكُونَ** } قدّم { بِهِ } للاهتمام بالتنبيه على سبب إشراكهم، وللرعاية على الفاصلة.

{ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ [36] أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [37]}.

أعيد الكلام على أحوال المشركين زيادة في بسط الحالة التي يتلقّون بها الرحمة وضدّها. فأريد تنبيههم هنا إلى حالة تلقّيهم ضدّ الرحمة بالقنوط ليحذروا ذلك ويرتاضوا برجاء الفرج والابتهال إلى الله في ذلك والأخذ في أسباب انكشافها.

الرحمة: أطلقت على أثر الرحمة وهو المنافع والأحوال الحسنة الملائمة. **السيّئة**: ما يسوء صاحبه ويحزنه.

وقدِّمت في هذه الآية إصابة الرحمة على إصابة السيئة عكس التي قبلها للاهتمام بالحالة التي جُعلت مبدأ العبرة وأصل الاستدلال، فقوله تعالى { فَرِحُوا بِهَا } وصف لحال الناس عندما تصيبهم الرحمة ليُبنى عليه ضدّه في قوله تعالى { إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ } لما يقتضيه القنوط من التذمّر والغضب.

فليس في الكلام تعريض بإنكار الفرح. فالقنوط هو محل الإنكار عليهم، وهذا كقوله تعالى { لا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ } [فصلت:49].

<u>المعنى</u>: أنّهم كما يفرحون عند الرحمة ولا يخطر ببالهم زوالها فكذلك ينبغي أن يصبروا عند ما يمسّهم الضرّ ولا يقنطوا من زواله.

الإذاقة: تقدّم ذكرها آنفا [33].

{ **بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ** } إدماج في خلال الإنكار عليهم لتنبيههم إلى أنّ ما يصيبهم من حالة سيّئة في الدنيا إنّما سببها أفعالهم التي جعلها الله أسبابا لمسببات مؤثّرة لا يحيط بأسرارها ودقائقها إلّا الله تعالى، فما على الناس إلّا أن يحاسبوا أنفسهم ليعلموا أسباب إصابة السيئات، ويتداركوا ما فات، فذلك أنجى لهم من السيّئات وأجدر من القنوط. وهذا أدب جليل من آداب التنزيل، قال تعالى { مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ } [النساء: 79].

القنوط: اليأس، وتقدّم عند قوله تعالى { فَلا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ } [الحجر:55].

{ **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ** } عطف على الجملة السابقة. والاستفهام إنكاري في معنى النفي، أنكر عليهم إهمال التأمّل في سنة الله الشائعة في الناس: من لحاق الضر وانفراجه، ومن قسمة الحظوظ في الرزق بين بسط وتقتير.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** } تذييل، أي: في جميع ما ذُكر آيات كثيرة حاصلة كثرتها من اشتمال كلّ حالة من تلك الأحوال على أسباب خفية وظاهرة، ومسبباتها كذلك، ومن تعدد أحوال الناس من الاعتبار بها والأخذ منها، كلّ على حسب استعداده. وخصّ { لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } بذلك لأنّهم أعمق بصائر بما ارتاضت عليه أنفسهم من آداب الإيمان ومن نصب أنفسهم لطلب العلم والحكمة من علوم الدين وحكمة النبوّة.

{ **فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** } [38].

{ **فَآتِ ذَا الْقُرْبَى** } فاء التفريع تفيد أنّ الكلام بعدها مترتّب على الكلام الذي قبلها، وقد اشتمل الكلام قبلها على لحاق آثار رحمة الله بالناس، وإصابة السوء إيّاهم، وعلى أنّ ما يصيبهم من السوء بما قدّمت أيدي الناس، وذكر بسط الرزق وتقديره. وتضمّن ذلك أنّ الفرح يلهيهم عن الشكر، وأنّ القنوط يلهيهم عن المحاسبة في الأسباب، فكان الأمر بإيتاء الضعفاء والمنكوبين إرشادا إلى وسائل شكر النعمة عند حصولها، واستكشاف الضرّ عند نزوله، وإلى أن من الحقِ التوسعة على المضيّق عليهم الرزق.

والخطاب بالأمر للنبيّ صلى الله عليه وسلم باعتبار من معه من المؤمنين ممّن يحقّ عليه الإيتاء، وهو الذي بُسط له في الرزق. ويجوز أن يكون خطابا لغير معيّن من المؤمنين.

الإيتاء: الإعطاء. وهو مُشعر بأنّ المعطى مال، ويقوِّي ذلك وقوع الآية عقب قوله تعالى { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ } [37].

وصيغة الأمر للوجوب في الأصل، والمأمور بإيتائه هنا عُبِّر عنه بأنّه حقّ، والأصل في الحقّ الوجوب.

وعن مجاهد وقتادة: صلة الرحم (بالمال) فرض من الله عز وجل لا تُقبل صدقة أحدٍ ورَحِمُهُ مُحْتَاجَة.

وقال الحسن: حقّ ذي القربى المواساة في اليسر وقول ميسور في العسر.

وقال ابن عطية: " معظم ما قُصد أمر المعونة بالمال ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **في المال حقّ سوى الزكاة** "، وللمساكين وابن السبيل حقّ، وبَيّنٌ أنّ حق هذين في المال ".

أقول: ولذلك قال جمع كثير: إنّ هذه الآية منسوخة بآية المواريث، وقال فريق: لم تنسخ بل للقريب حقّ في البرّ على كل حال، أي: لا نسخ في جميع ما تضمّنته بل نسخ بعضه بآية المواريث وبقي ما عداه.

قلت: وما بقي غير منسوخ مختلفة أحكامه وهو مجمل تبيّنه أدلة أخرى متفرقة من الشريعة.

{ **الْقُرْبَى** } قرب النسب والرحم. وتقدّم عند قوله تعالى { وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى } [النساء:36].
{ **الْمِسْكِينِ** } تقدّم في قوله تعالى { لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ } [التوبة:60].
{ **ابْنَ السَّبِيلِ** } المسافر المجتاز بالقرية أو بالحي.
{ **حَقَّهُ** } وقع الحقّ مجملا والحوالة في بيانه على ما هو متعارف بين الناس وعلى ما يبيّنه النبيّ صلى الله عليه وسلم. وكانت الصدقة قبل الهجرة واجبة على الجملة موكولة إلى حرص المؤمن. وقد أطلق عليها اسم الزكاة في آيات مكية كثيرة، وقرنت بالصلاة، فالمراد بها في تلك الآيات الصدقة الواجبة وكانت غير مضبوطة بنصب ثم ضبطت بعد الهجرة بأصناف ونُصُب ومقادير مُخرَجة عنها فصار ما عداها من الصدقة غير واجب. وقُصر اسم الزكاة على الواجبة وأطلق على ما عداها اسم الصدقة أو البر أو نحو ذلك.
*/ فحق ذي القربى يختلف بحسب حاجته، فللغني حقّه في الإهداء تودّدا، وللمحتاج حقّ أقوى. والظاهر أنّ المراد ذو القرابة ضعيف المال الذي لم يبلغ به ضعفه مبلغ المسكنة بقرينة التعبير عنه بالحقّ. وأمّا إعطاء القريب الغني فلعلّه غير مراد هنا، وإنّما يدخل في حسن المعاملة المرغَّب فيها.
*/ حق المسكين: سد خلّته.
*/ حق ابن السبيل: الضيافة كما في الحديث: " **جائزته يوم وليلة** " .
والمقصود من الآية إبطال عادة أهل الجاهلية إذ كانوا يؤثرون البعيد على القريب في الإهداء والإيصاء حبًّا للمدحة، ويؤثرون بعطاياهم السادة وأهل السمعة تقرُّبا إليهم، فأُمِر المسلمون أن يتجنّبوا ذلك في قوله تعالى { كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ } [البقرة:180].
{ **ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ** } تعقيب، أي: الذين يتوخّون بعطاياهم إرضاء الله وتحصيل ثوابه.
{ **ذَلِكَ خَيْرٌ** } الإشارة إلى الإيتاء المأخوذ من قوله تعالى { فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ }. للتنويه بالمأمور به.
يجوز أن يكون تفضيلا والمفضّل عليه مفهوم من السياق، أنّ ذلك خير من صنيع أهل الجاهلية الذين يعطون الأغنياء البعداء للرياء والسمعة.
أو المراد: ذلك خير من بذل المال في المراباة التي تُذكر بعد في قوله تعالى { وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِباً } [39].
ويجوز أن يكون الخير ما قابل الشر، أي: ذلك فيه خير للمؤمنين، وهو ثواب الله.
{ **يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ** } تمثيل، كأنّ المعطي أعطى المال بمرأى من الله، لأنّ الوجه هو محل النظر. وفيه أيضا مشاكلة تقديرية لأنّ هذا الأمر أريد به مقابلة ما كان يفعله أهل الجاهلية من الإعطاء لوجه المعطى من أهل الوجاهة في القوم، فجعل هنا الإعطاء لوجه الله.
{ **وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** } صيغة قصر من أجل ضمير الفصل، وهو قصر إضافي، أي: أولئك المتفرّدون بالفلاح، وهو نجاح عملهم في إيتاء من ذُكر لوجه الله تعالى لا للرياء والفخر. فمن آتى للرياء والفخر فلا

فلاح له من إيتائه.

{ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ } [39].

لمّا أرشد الله المسلمين إلى مواساة أغنيائهم فقراءهم أتبع ذلك بتهيئة نفوسهم للكفّ عن المعاملة بالربا للمقترضين منهم، فإنّ المعاملة بالربا تنافي المواساة، لأنّ شأن المقترض أنه ذو خَلَّة، وشأن المُقرِض أنّه ذو جِدة، فمعاملته المقترض منه بالربا استغلال لاضطراره، وذلك لا يليق بالمؤمنين.

وكان الربا فاشيا في زمن الجاهلية وصدر الإسلام وخاصة في ثقيف وقريش.

ومضمون هذه الجملة بمنزلة الاستدراك للتنبيه على إيتاء مال هو ذميم. وجيء بالجملة الشرطية لأنّها أنسب بمعنى الاستدراك على الكلام السابق.

فالخطاب للمسلمين الذين يريدون وجه الله الذين كانوا يقرضون بالربا قبل تحريمه.

{ آتَيْتُمْ } آتى بعضكم بعضا، لأنّ الإيتاء يقتضي معطيا وآخذا.

{ لِيَرْبُوَ } قرأ الجمهور { لِيَرْبُوَ } بتحتية مفتوحة وفتحة إعراب على واو. وكتب في المصاحف بألف بعد الواو وليس واو الجماعة بالاتفاق، ورسم المصحف سنة، وقرأ نافع { لِتُرْبُوا} بتاء الخطاب مضمومة وواو ساكنة هي واو الجماعة. أي: لتزيدوا لأنفسكم أموالا على أموالكم.

{ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ } للظرفية المجازية بمعنى (من) الابتدائية، أي: لتنالوا زيادة وأرباحا تحصل لكم من أموال الناس.

{ فَلا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ } جواب الشرط. أي: أنّه عمل ناقص عند الله، والنقص يُكنّى به عن المذمة والتحقير.

وهذا التفسير هو المناسب لمحمل لفظ الربا على حقيقته المشهورة، ولموافقة معنى قوله تعالى { يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ } [البقرة:276]، ولمناسبة ذكر الإضعاف في قوله هنا {فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ} وقوله تعالى { لا تَأْكُلُوا الرِّبا أَضْعَافاً } [آل عمران:130]. وهذا المعنى مروي عن السدي والحسن.

<u>ويجوز</u> أن يكون لفظ { رِباً } في الآية أطلق على الزيادة في مال لغيره، أي: إعطاء المال لذوي الأموال قصد الزيادة في أموالهم تقرّبا إليهم، فيشمل هبة الثواب والهبة للزلفى والملق. ويكون الغرض من الآية التنبيه على أن ما كانوا يفعلونه من ذلك لا يُغني عنهم من موافقة مرضاة الله تعالى شيئا وإنّما نفعه لأنفسهم.

ودرج على هذا المعنى جم غفير من المفسّرين، والمعنى: وما أعطيتم من زيادة لتزيدوا في أموال الناس.

{ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ } رجوع إلى قوله تعالى { فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حقه } [38]، لأنّ ذلك الحق هو المسمَّى بالزكاة.

{ **فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ** } جواب { وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ }، أي: أولئك الذين حصل لهم الإضعاف، وهو إضعاف الثواب.

{ **فَأُولَئِكَ** } اسم الإشارة للتنويه بهؤلاء والدلالة على أنّهم أحرياء بالفلاح.

{ **هُمُ** } ضمير الفصل لقصر جنس المضعفين على هؤلاء، وهو قصر ادعائي للمبالغة .

{ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } [40].

هذا الاستئناف الثاني من الأربعة التي أقيمت عليها دلائل انفراد الله تعالى بالتصرّف في الناس وإبطال ما زعموه من الإشراك في الإلهية كما أنبأ عنه قوله تعالى { هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ}، وإدماجا للاستدلال على وقوع البعث. وقد جاء هذا الاستئناف على طريقة قوله تعالى { الله يبدأ الخلق ثم يعيده } [يونس:34] واطّرد الافتتاح بمثله في الآيات التي أريد بها إثبات البعث كما تقدّم عند قوله تعالى { اللَّهُ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ } [11]، وسيأتي في الآيتين بعد هذه.

{ **ثُمَّ** } مستعمل في معنيي التراخي الزمني والرتبي.

{ **هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ** } استفهام إنكاري في معنى النفي. والمعنى: ما من شركائكم من يفعل شيئا من ذلكم. و(مِنْ) في قوله تعالى { مِنْ شَيْءٍ } زائدة لتحقيق نفي الجنس كلّه.

{ **مِنْ ذَلِكُمْ** } الإشارة إلى الخلق، والرزق، والإماتة، والإحياء، وهي مصادر الأفعال المذكورة.

{ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ** } مستأنفة لإنشاء تنزيه الله تعالى عن الشريك في الإلهية. وموقعها بعد الجملتين السابقتين موقع النتيجة بعد القياس.

{ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } [41].

موقع هذه الآية ومعناها صالح لعدة وجوه من الموعظة، وهي من جوامع كلم القرآن. والمقصد منها هو الموعظة بالحوادث ماضيها وحاضرها للإقلاع عن الإشراك وعن تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم.

الوجه الأوّل: يجوز أن تكون متصلة بقوله تعالى { أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } [9]. فموقع هذه الجملة على هذا الوجه موقع النتيجة من مجموع الاستدلال، أو موقع الاستئناف البياني بتقدير سؤال عن سبب ما حل بأولئك الأمم.

فالكلام تذكير بأنّ ما حلّ بالأمم الماضية من المصائب ما كان إلّا بما كسبت أيديهم، أي: بأعمالهم.

الوجه الثاني: يجوز أن تقع هذه الآية موقع التكملة لقوله { وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ } [33]،

فهي خبر مستعمل في التنديم على ما حلّ بالمكذبين المخاطبين من ضرّ ليعلموا أنّ ذلك عقاب من الله تعالى فيقلعوا عنه خشية أن يحيط بهم ما هو أشدّ منه، كما يؤذن به قوله تعالى عقب ذلك { لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ }.

فالآية تشير إلى مصائب نزلت ببلاد المشركين وعطلت منافعها، ولعلّها مما نشأ عن الحرب بين الروم وفارس، وكان العرب منقسمين بين أنصار هؤلاء وأنصار أولئك، فكان من جرّاء ذلك أن انقطعت سبل الأسفار في البر والبحر فتعطّلت التجارة وقلت الأقوات بمكة والحجاز.

فموقع هذه الجملة على هذا الوجه موقع الاستئناف البياني لسبب مس الضرّ إيّاهم حتّى لجأوا إلى الضراعة إلى الله، وما بينها وبين جملة { وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضرّ ... } [33] اعتراض واستطراد تخلّل في الاعتراض. الوجه الثالث: يجوز أن يكون موقعها موقع الاعتراض بين ذكر ابتهال الناس إلى الله إذا أحاط بهم ضرّ ثم إعراضهم عن عبادته إذا أذاقهم منه رحمة، وبين ذكر ما حل بالأمم الماضية اعتراضا ينبئ أنّ الفساد الذي يظهر في العالم ما هو إلّا من جرّاء اكتساب الناس وأن لو استقاموا لكان حالهم على صلاح.

والتعريف في { الْفَسَادَ } على هذا الوجه؛ إمّا أن يكون تعريف العهد لفساد معهود لدى المخاطبين، وإمّا أن يكون تعريف الجنس الشامل لكل فساد ظهر في الأرض برّها وبحرها. أي: أنّه فساد في أحوال البر والبحر لا في أعمال الناس بدليل قوله تعالى { لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ }.

وتكون الباء في { بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ } للعوض، أي: جزاء لهم بأعمالهم، كالباء في قوله تعالى { وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ } [الشورى:30]. واللام في { لِيُذِيقَهُمْ } على حقيقة معنى التعليل.

الوجه الرابع: يجوز أن يكون المراد بالفساد **الشرك**، قاله قتادة والسدي، فتكون هذه الآية متصلة بقوله تعالى { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ - إلى قوله - هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ } [40]، فتكون الجملة إتماما للاستدلال على وحدانية الله تعالى تنبيها على أنّ الله خلق العالم سالما من الإشراك، وأنّ الإشراك ظهر بما كسبت أيدي الناس من صنيعهم، وهذا معنى قوله في الحديث القدسي في صحيح مسلم: **" إنّي خلقت عبادي حنفاء كلّهم، وأنّهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وأمرتهم أن يشركوا بي "**.

فذكر البر والبحر لتعميم الجهات. ويكون الباء في قوله { بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ } للسببية، ويكون اللام في قوله { لِيُذِيقَهُمْ } لام العاقبة. أي: فأذقنا الذين أشركوا بعض ما استحقوه من العذاب لشركهم.

الوجه الخامس: يجوز أن يكون المعنى أنّ الله تعالى خلق العالم على نظام محكم ملائم صالح للناس فأحدث الإنسان فيه أعمالا سيئة مفسدة، فأخذ الاختلال يتطرّق إلى نظام العالم، قال تعالى { لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } [التين:4-6].

وعلى هذا الوجه يكون محمل الباء ومحمل اللام مثل محملهما على الوجه الرابع.

{ **ظَهَرَ الْفَسَادُ** } أطلق الظهور على حدوث حادث لم يكن، فشُبِّه ذلك الحدوث بعد العدم بظهور الشيء الذي كان مختفيا.

{ **لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا** } تبعيض للجزاء، فالمراد بعض الجزاء على جميع العمل لا الجزاء على بعض العمل، أي: أنّ ما يذيقهم من العذاب هو بعض ما يستحقّونه. وفي هذا تهديد إن لم يقلعوا عن مساوئ أعمالهم كقوله تعالى { وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ } [الفاطر:45]، ثم وراء ذلك عذاب الآخرة كما قال تعالى { وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى } [طه: 127].

الإذاقة: استعارة مكنية، شُبّه ما يصيبهم من الآلام فيحسون بها بإصابة الطعام حاسة المطعم.

{ **لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** } يشير الرجاء إلى أنّ ما ظهر من فساد كاف لإقلاعهم عمّا هم اكتسبوه وأنّ حالهم حال من يُرجى رجوعه، فإن هم لم يرجعوا فقد تبيّن تمرّدهم وعدم إجداء الموعظة فيهم، وهذا كقوله تعالى { أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ } [التوبة:126].

الرجوع: مستعار هنا للإقلاع عن المعاصي.

{ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ } [42].

لمّا وعظهم بما أصابهم من فساد الأحوال، ونبّههم إلى أنّها بعض الجزاء على ما كسبت أيديهم، عرّض لهم بالإنذار بفسادٍ أعظم قد يحلّ بهم، وهو ما أصاب الذين من قبلهم بسبب ما كانوا عليه من نظير حال هؤلاء في الإشراك، فأمرهم بالسير في الأرض والنظر في مصير الأمم التي أشركت وكذّبت، مثل عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم. فهذا تكرير وتأكيد لقوله تعالى { أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } [9]، وإنّما أعيد اهتماما بهذه العبرة مع مناسبة قوله تعالى { لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا } [41].

العاقبة: نهاية الأمر. والمراد بالعاقبة الجنس، وهو متعدّد الأفراد بتعدد الذين من قبل، فلكلّ قوم عاقبة.

{ **كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ** } واقعة موقع التعليل لجملة { كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ }، أي: سبب تلك العاقبة المنظورة هو إشراك الأكثرين منهم.

{ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ } [43].

تفرّع على الإنذار والتحذير من عواقب الشرك تثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم على شريعته، ووعد بأن يأتيه النصر، كقوله تعالى { وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ } [الحجر:99]، مع التعريض بالإرشاد إلى الخلاص من الشرك باتباع الدين القيم، أي: الحق.

والآية تأكيد للأمر بإقامة الوجه للدين في قوله تعالى { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً } [30].

والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم بهذا الأمر إعراضٌ عن صريح خطاب المشركين. والمقصود التعريض بأنّهم حرموا أنفسهم من اتباع هذا الدين العظيم الذي فيه النجاة. يؤخذ هذا التعريض من أمر النبيّ عليه الصلاة والسلام بالدوام على الإسلام ومن قوله تعالى عقب ذلك { يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ }.

{ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ** } تقدّم الكلام على نظيره، وعلى معنى إقامة الوجه عند الآية [30].

{ **الْقَيِّمُ** } بوزن فيعل، وهي زنة تدل على قوّة ما تصاغ منه، أي: شديد القيام، والقيام هنا مجاز في الإصابة، لأنّ الصواب يُشبَّه بالقيام وضدّه يُشبَّه بالعوج، وقد جمعهما قوله { وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا قَيِّماً } [الكهف:2/1]. فوُصف الإسلام في الآية السابقة بالحنيف والفطرة ووُصف هنا بالقيّم.

{ **أَقِمْ / الْقَيِّمُ** } بينهما مُحسِّن الجناس.

{ **مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ** } المراد يوم عذاب في الدنيا وأنّه إذا جاء لا يردُّه عن المجازين به راد لأنه آت من الله. <u>والظاهر أنّ المراد به يوم بدر</u>.

المَرَدُّ: مصدر ميمي من الردّ وهو الدفع.

{ **يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ** } المراد يوم الحشر.

{ **يَصَّدَّعُونَ** } أصله يتصدّعون فقلبت التاء صادا لتقارب مخرجيهما لتأتّي التخفيف بالإدغام.

التصدّع: مطاوع الصدع، وحقيقة الصدع: الكسر والشق، ومنه تصدع القدح. والتصدع هنا التفرّق والتمايز. ويكون ضمير الجمع عائدا إلى جميع الناس، أي: يومئذ يفترق المؤمنون من الكافرين، على نحو قوله تعالى { وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ } [الروم:14-16].

{ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ [44] لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ } [45].

بيان لإجمال قوله تعالى { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ } [43]، إذ التثبيت على الدين بعد ذكر ما أصاب المشركين من الفساد بسبب شركهم يتضمّن تحقير شأنهم عند الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، فبيّن ذلك بأنّهم لا يضرّون بكفرهم إلّا أنفسهم، والذي يكشف هذا المعنى تقديم المسند في قوله تعالى { فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ }، فإنّه يفيد تخصيصه بالمسند إليه، أي: فكفره عليه لا عليك ولا على المؤمنين، ولهذا ابتدئ بذكر حال من كفر ثم ذكر بعده { مَنْ عَمِلَ صَالِحاً } .

{ **فَعَلَيْهِ - فَلِأَنْفُسِهِمْ** } اقتضى حرف الاستعلاء (على) أنّ في الكفر تبعة وشدّة وضرًّا على الكافر، لأنّ (على) تقتضي ذلك في مثل هذا المقام، كما اقتضى الـ (لام) في قوله { فَلِأَنْفُسِهِمْ } أنّ لمجرورها <u>نفعا وغُنما</u>، ومنه قوله تعالى { لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ } [البقرة:286].

{ **مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ** } هذا التركيب من جوامع الكلم لدلالته على ما لا يُحصى من المضار في الكفر

على الكافر وأنّه لا يضرّ غيره، مع تمام الإيجاز، وهو وعيد لأنّه في معنى: من كفر فجزاؤه عقاب الله، فاكتُفي عن التصريح بذلك اكتفاء بدلالة (على)، كما بيّنّاه آنفا.

{ **وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ** } الأمر بملازمة التحلّي بالإسلام وما في ذلك من الخير العاجل والآجل، مع ما تقتضيه عادة القرآن من تعقيب النذارة بالبشارة والترهيب بالترغيب، فهو كالتكملة للبيان.

{ **مَنْ كَفَرَ / مَنْ عَمِلَ صَالِحاً** } لم يقابل بـ (من آمن) للتنويه بشأن المؤمنين بأنّهم أهل الأعمال الصالحة دون الكافرين. فاستغني بذكر العمل الصالح عن ذكر الإيمان لأنّه يتضمّنه، ولتحريض المؤمنين على الأعمال الصالحة لئلا يتكلوا على الإيمان وحده فتفوتهم النجاة التامة. وهذا اصطلاح القرآن في الغالب.

{ **فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ** } التقديم للاهتمام بهذا الاستحقاق وللرعاية على الفاصلة وليس للاختصاص.

{ **يَمْهَدُونَ** } يجعلون مِهادا، والمهاد: الفراش. مُثِّلت حالة المؤمنين في عملهم الصالح بحال من يتطلب راحة رقاده فيوطِّئ فراشه ويسوّيه.

{ **لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ** } عُدل عن الإضمار إلى الإظهار للاهتمام بالتصريح بأنّهم أصحاب صلة الإيمان والعمل الصالح وأنّ جزاء الله إيّاهم مناسب لذلك، لتقرير ذلك في الأذهان.

{ **مِنْ فَضْلِهِ** } يُفهم منه أنّ الله يجازيهم أضعافا لرضاه عنهم ومحبّته إياهم كما اقتضاه القول اللاحق:

{ **إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ** } يدل بتعليله لما قبله على أنّ الكافرين محرومون من الفضل، وبمفهومه على أنّ الجزاء موفور للمؤمنين فضلا وأنّ العقاب معين للكافرين عدلا.

{ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [46].

عود إلى تعداد الآيات الدالة على تفرّده بالإلهية، فهو عطف على جملة { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ } [25]، وما تخلّل بينهما من أفانين الاستدلال على الوحدانية والبعث ومن طرائق الموعظة لتطرية نشاط السامعين لهذه الدلائل الموضّحة المبيَّنة.

الإرسال: مستعار لتقدير الوصول، أي: يقدّر تكوين الرياح ونظامها الذي يوجّهها.

{ **الرِّيَاحَ** } تقدّم ذكرها في آيات كثيرة، منها قوله تعالى { وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ } [البقرة:164]، وعلى كونها لواقح في [الحجر:22].

المبشّرات: المؤذنة بالخير وهو المطر. وأصل البشارة: الخبر السار. شُبهت الرياح برسل موجهة بأخبار المسّرة. وذلك أن الرياح تسوق سحاب المطر.

البشارة: تقدّم ذكرها عند قوله تعالى { وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } [البقرة:25].

{ **وَلِيُذِيقَكُمْ** } عطف على { مُبَشِّرَاتٍ } لأنّ { مُبَشِّرَاتٍ } في معنى التعليل للإرسال. وتقدم الكلام على الإذاقة.

{ **وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ** } من حكمة خلق الرياح ومن نعمه، وتقدّم في [البقرة:164].

{ **بِأَمْرِهِ** } التقييد لتعليم المؤمنين وتحقيق للمنّة، أي: لولا تقدير الله ذلك وجعله أسباب حصوله لما جرت الفلك. وتحت هذا معان كثيرة يجمعها إلهام الله البشر لصنع الفلك وتهذيب أسباب سيرها، وخلق نظام الريح والبحر لتسخير سيرها كما دلّ على ذلك قوله تعالى:

{ **وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** } تقدّم تفصيل معناها في [الحج:36].

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ } [47].

جملة معترضة مستطرَدة أثارها ذكر سير الفلك في عِداد النعم فعُقّب ذلك بما كان سير الفلك فيه تذكير بنقمة الطوفان لقوم نوح، وبجعل الله الفلك لنجاة نوح وصالحي قومه. فأريد تحذير المكذّبين من قريش أن يصيبهم ما أصاب المكذّبين قبلهم. ألا ترى إلى حكاية قول نوح { رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ } [المؤمنون:26]، وقوله تعالى هنا { وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ }.

الانتقام: من النَّقْم وهو الكراهية والغضب، كقوله تعالى { وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا } [الأعراف:126].

والانتقام العقوبة لمن يفعل ما لا يُرضي، كأنّه صيغ منه الافتعال للدلالة على حصول أثر النقم، وتقدّم عند قوله تعالى { فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ } [الأعراف:136].

{ **حَقّاً عَلَيْنَا** } من صيغ الالتزام، قال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام { حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ } [الأعراف:105]، وهو محقوق بكذا، أي: لازم له.

{ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ [48] وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ [49] }.

جاءت هذه الجملة على أسلوب أمثالها كما تقدّم في قوله تعالى { هو الذي يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ } [27]، وجاءت المناسبة هنا لذكر الاستدلال بإرسال الرياح في قوله { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ } [46] استدلالا على التفرّد بالتصرّف وتصوير الصنع الحكيم الدال على سعة العلم، ثم أعقب بالاستدلال بإرسال الرياح تَوَسُّلًا إلى ذكر إحياء الأرض بعد موتها المستدَلّ به على البعث.

{ **اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ** } أفادت صيغة الحصر أنّه المتصرّف في هذا الشأن العجيب دون غيره، وكفى بهذا إبطالا لإلهية الأصنام.

{ **يُرْسِلُ / تُثِيرُ / يَبْسُطُهُ / يَجْعَلُهُ** } التعبير بصيغة المضارع لاستحضار الصور العجيبة في تلك

التصرّفات حتّى كأنّ السامع يشاهد تكوينها، مع الدلالة على تجدّد ذلك.

{ **الرِّيَاحَ** } جيء بصيغة الجمع لما شاع في استعمالهم من إطلاقها على ريح البشارة بالمطر لأنّ الرياح التي تثير السحاب هي الرياح المختلفة جهات هبوبها. بخلاف اسم **الريح** المفردة فإنّه غلب في الاستعمال إطلاقه على ريح القوة والشدة لأنهّا تتصل واردة من صوب واحد فلا تزال تشتد. وتقدّم قوله تعالى { وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ } [البقرة:164].

الإثارة: تحريك القار تحريكا يضطرب به عن موضعه. وإثارة السحاب إنشاؤه بما تحدثه الرياح في الأجواء من رطوبة تحصل من تفاعل الحرارة والبرودة.

البسط: النشر. و**السماء**: الجو الأعلى وهو جو الأسحِبة.

{ **كَيْفَ يَشَاءُ** } هنا مجرّدة عن معنى الاستفهام، مفعول مطلق من { يَبْسُطُهُ }، أي: يبسطه بسطا كيفيته يشاؤها الله، وتقدّم في قوله تعالى { هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ } [آل عمران:6].

ومن زعم أنّها شرط لم يصادف الصواب.

{ **كِسَفاً** } (بكسر ففتح) في قراءة الجمهور جمع كِسْف (بكسر فسكون)، ويقال: كسفة وهو القطعة. وتقدّم في قوله تعالى { أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً } [الإسراء:92]. وفي قوله تعالى { فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } [الشعراء:187].

المعنى: أنه يبسط السحاب في السماء تارة، أي: يجعله ممتدا عاما في جو السماء وهو المدجن الذي يظلم به الجو ويقال المغلق، ويجعله كسفا تارة أخرى، أي: يجعله غمامات، لأنّ حالة جعله كسفا غير حالة بسطه في السماء، فتعيّن أن يكون الجمع بينهما في الذكر مرادا منه اختلاف أحوال السحاب.

والمقصود: أنّ اختلاف الحال آية على سعة القدرة.

{ **فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ** } الخطاب لغير معيّن، وهو كلّ من يتأتّى منه سماع ورؤية الودق.

الودق: المطر.

{ **مِنْ خِلالِهِ** } الضمير للسحاب بحالتيه المذكورتين وهما { فَيَبْسُطُهُ - كِسَفاً }.

الخلال: جمع خَلَل (بفتحتين) وهو الفرجة بين شيئين. وتقدم نظير هذه الجملة في [النور:43].

{ **فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ** } ذكر اختلاف أحوال العباد في وقت نزول المطر وفي وقت انحباسه بين استبشار وإبلاس إدماج للتذكير برحمة الله إيّاهم، وللاعتبار باختلاف تأثّرات نفوسهم في السراء والضراء.

{ **وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ** }.

{ **مِنْ قَبْلِهِ** } تكرير لتوكيد معنى قبلية نزول المطر وتقريره في نفوس السامعين.

الإبلاس: يأس مع انكسار.

{ **فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } [50].

رُتّب على ما تقرّر من استحضار صورة تكوين المطر واستبشار الناس بنزوله بعد الإبلاس، أن اعتُرض بالأمر بالنظر إلى أثر الرحمة وإغاثة الله عباده حين يحيي لهم الأرض بعد موتها بالجفاف.

{ **فَانْظُرْ** } الأمر بالنظر للاعتبار والاستدلال. والنظر: رؤية العين. والخطاب لغير معيّن ليعمّ كلّ من يتأتى منه النظر مثل قوله تعالى { فَتَرَى الْوَدْقَ } [48].

{ **إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ** } أثر الشيء: ما ينشأ عنه ممّا يدلّ عليه. فرحمة الله دلّت عليها الآثار الدالة على وجوده وتصرّفه بما فيه رحمة للخلق. و**رَحْمَةِ اللَّهِ**: هي صفته التي تتعلق بإمداد مخلوقاته ذوات الإدراك بما يلائمها ويدفع عنها ما يؤلمها وذلك هو الإنعام.

{ **كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا** } و{ كَيْفَ } بدل من { أَثَرِ } أو مفعول لـ { انْظُرْ }، أي: انظر هيئة إحياء الله الأرض بعد موتها، تلك الحالة التي هي أثر من آثار رحمته الناس. وقد مضى عند قوله تعالى { أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ } [الفرقان:45]، وتقدّم آنفا في قوله تعالى { فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ } [48].

{ **يُحْيِي الْأَرْضَ** } إنبات الأرض.

{ **مَوْتِهَا** } جفاف الأرض وقحولتها، لأنّ قوام الحياة الرطوبة.

{ **إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى** } استئناف وهو إدماج، أدمج دليل البعث عقب الاعتبار بإحياء الأرض بعد موتها. وحرف التوكيد يفيد مع تقرير الخبر زيادة معنى فاء التسبّب.

{ **ذَلِكَ** } اسم الإشارة عائد إلى اسم الله تعالى بما أجرى عليه من الإخبار بإحياء الأرض بعد موتها ليفيد اسم الإشارة معنى أنّه جدير بما يرد بعده، فالمعنى: أنّ الله الذي يحيي الأرض بعد موتها لمحيي الموتى تقريبا لتصوّر البعث. وعُدل عن الموصول للإيجاز ولما في الإشارة من التعظيم.

{ **وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } تذييل، فإنّه يعمّ جميع الأشياء والبعث من جملتها، إذ ليس هو إلّا إيجاد خلق وهو مقدور لله تعالى كما أنشأ الخلق أوّل مرّة. والشبه تام لأنّ إحياء الأرض إيجاد أمثال ما كان عليها من النبات فكذلك إحياء الموتى إيجاد أمثالهم.

{ **وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ** } [51].

عطف على جملة { وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ } [49] وما بينهما اعتراض واستطراد. والجملة للتنبيه على أنّ الكفران مطبوع في نفوسهم بحيث يعاودهم بأدنى سبب، فهم إذا أصابتهم النعمة استبشروا ولم يشكروا وإذا أصابتهم البأساء أسرعوا إلى الكفران.

{ **رَأَوْهُ** } الضمير المنصوب عائد إلى { أَثَرِ رَحْمَةِ اللَّهِ }، وهو الزرع والكلأ والشجر.
{ **مُصْفَرّاً** } الاصفرار في الزرع ونحوه مؤذن بيبسه. أي: فرأوه يصير أصفر.
ظلّ: بمعنى صار.
{ **يَكْفُرُونَ** } صيغة المضارع لتصوير مبادرتهم إلى الكفر ثم استمرارهم عليه.

{ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ [52] وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ [53] }.

الفاء للترتيب على قوله تعالى { لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ } [51]، أو الفاء فصيحة تدلّ على كلام مقدّر، أي: إن كبر عليك إعراضهم وساءك استرسالهم على الكفر فإنّهم كالموتى، وإنك لا تسمع الموتى. وهذا معذرة للنبيّ صلى الله عليه وسلم ونداء على أنّه بذل الجهد في التبليغ.
وفيما عدا الفاء فالآية نظير التي في [النمل:81/80].
وتعداد التشابيه منظور فيه إلى اختلاف أحوال طوائف المشركين فكان لكلّ فريق تشبيه:
{ **الْمَوْتَى** } هم من غلب عليهم التوغّل في الشرك فلا يصدّقون بما يخالفه، ولا يتأثّرون بالقرآن والدعوة إلى الحق، فهؤلاء بمنزلة الأموات أشباح بلا إدراك، وهؤلاء هم دهماؤهم وأغلبهم ولذلك ابتدئ بهم.
{ **الصُّمَّ الدُّعَاءَ** } هم من يعرض عن استماع القرآن، وهم الذين يقولون { فِي آذَانِنَا وَقْرٌ } [فصلت:5]، ويقولون { لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ } [فصلت:26] وهؤلاء هم ساداتهم ومدبّروا أمرهم، يخافون إن أصغوا إلى القرآن أن يملك مشاعرهم فلذلك يتباعدون عن سماعه، ولهذا قُيِّد الذي شبِّهوا به بوقت توليهم مدبرين إعراضا عن الدعوة { إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ }.
{ **الْعُمْيِ** } هم من سلكوا مسلك ساداتهم واقتفوا خطاهم فانحرفت أفهامهم عن الصواب فهم يسمعون القرآن ولا يستطيعون العمل به، وهؤلاء هم الذين اعتادوا متابعة أهوائهم، وهم الذين قالوا { إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ } [الزخرف: 22].
ويحصل من جميع ذلك تشبيه جماعتهم بجماعة تجمع أمواتا وصما وعميا.

{ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ } [54].

هذا رابع استئناف، رجوع إلى الاستدلال على عظيم القدرة في مختلف المصنوعات من العوالم لتقرير إمكانية البعث وتقريب حصوله إلى عقول منكريه.
موقعها كموقع قوله تعالى { اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً } [48] ونظائرها، ولذلك جاءت فاتحتها على أسلوب فواتح نظائرها وهذا ما يؤذن به تعقيبها بقوله { وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ } [55].

{ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ** } مبتدأ وصفة، وقوله تعالى { يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ } هو الخبر.
الضعف (بضم الضاد وهو أفصح وهو لغة قريش. ويجوز في ضاده الفتح وهو لغة تميم): الوهن واللين.
المعنى: أنّه كما أنشأكم أطوارا تبتدئ من الوهن وتنتهي إليه فكذلك ينشئكم بعد الموت إذ ليس ذلك بأعجب من الإنشاء الأوّل وما لحقه من الأطوار، ولهذا أخبر عنه بقوله تعالى { يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ }.
الشيبة: اسم مصدر الشيب. وتقدّم في قوله تعالى { وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً } [مريم:4].
{ **وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ** } ذكر وصف العلم والقدرة لأنّ التطور هو مقتضى الحكمة وهي من شؤون العلم، وإبرازه على أحكم وجه هو من أثر القدرة.

{ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ } [55].

لمّا ذُكر عدم انتفاع المشركين بآيات القرآن وشُبِّهوا بالأموات والصم والعمي فظهرت فظاعة حالهم في العاجلة، أتبع ذلك بوصف حالهم حين تقوم الساعة في استصحاب مكابرتهم التي عاشوا عليها في الدنيا، بأنّ الله حين يعيد خلقهم وينشئ لهم أجساما كأجسامهم ويعيد إليهم عقولهم يكون تفكيرهم يومئذ على وفاق ما كانوا عليه في الدنيا من السفسطة والمغالطة والغرور.
{ **كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ** } استئناف بياني، لأنّ غرابة حالهم من فساد تقدير المدّة والقسم عليه يثير سؤال سائل عن مثار هذا الوهم في نفوسهم فكان هذا القول بيانا لذلك. ومعناه: أنّهم لا عجب في صدور ذلك منهم فإنّهم كانوا يجيئون بمثل تلك الأوهام مدة كونهم في الدنيا، وكانوا يقسمون على عقائدهم كما في قوله تعالى { وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ} [النحل:38] استخفافا بالأيمان.
وفيه إشارة إلى انصرافهم عن الحق يوم البعث.
الأَفك (بفتح الهمزة): الصَّرف، ويُعدّى إلى الشيء المصروف عنه بحرف (عَنْ)، وتقدّم عند قوله تعالى { لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ } [العنكبوت:60].
{ **كَانُوا** } للدلالة على أنّ المراد في زمان قبل ذلك الزمن، أي: في زمن الحياة الدنيا.
المعنى: أنّ ذلك خُلُق تخلقوا به وصار لهم كالسجيّة في حياتهم الدنيا حتّى إذا أعاد الله إليهم أرواحهم صدر عنهم ما كانوا تخلّقوا به.

{ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } [56].

الجملة معترضة. لمّا سمع المؤمنون، الذين أوتوا علم القرآن وأشرقت عقولهم في الحياة الدنيا بالعقائد الصحيحة وآثار الحكمة، مكابرتهم وقسمهم لم يتمالكوا ألّا يردّوا عليهم غلطهم ردًّا يكون عليهم حسرات

ألّا يكونوا قبلوا دعوة الحقّ كما قبلها المؤمنون. جعل الله منكري البعث هدفا لسهام التغليط والافتضاح في وقت النشور.

{ **أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ** } عطف الإيمان على العلم للاهتمام به، لأنّ العلم بدون إيمان لا يرشد إلى العقائد الحق التي بها الفوز في الحياة الآخرة.

{ **لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ** } صرفٌ لهم عن تلك المعذرة، كأنّهم يقولون: دعوا عنكم هذا فلا جدوى فيه واشتغلوا بالمقصود وما وعدتم به من العذاب يوم البعث.

{ **لَبِثْتُمْ** } مستعمل في حقيقته، أي: مكثتم، والخبر مستعمل في التحزين والترويع باعتبار ما يرد بعده من الإفصاح عن حضور وقت عذابهم.

{ **فِي كِتَابِ اللَّهِ** } للتعليل، أي: لقد بلغكم ذلك وسمعتموه فكان الشأن أن تؤمنوا به ولا تعتذروا بقولكم ما لبثنا غير ساعة.

{ **فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ** } فاء الفصيحة أفصحت عن شرط مقدّر، وتفيد معنى المفاجأة، أي: إذ كان كذلك فهذا يوم البعث. وهذا توبيخ لهم وتهديد وتعجيل لإساءتهم بما يترقّبهم من العذاب.

{ **وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** } استدراك، أي: لقد بلغكم ذلك وكان الشأن أن تستعدّوا له ولكنكم كنتم لا تعلمون، أي: لا تتصدّون للعلم بما فيه النفع بل كان دأبكم الإعراض عن تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم.

{ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ } [57].

تفريع على جملة { كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ } [55]. و{ **الَّذِينَ ظَلَمُوا** } هم المشركون الذين أقسموا ما لبثوا غير ساعة، فالتعبير عنهم بالذين ظلموا إظهار في مقام الإضمار لغرض التسجيل عليهم بوصف الظلم وهو الإشراك بالله لأنّه جامع لفنون الظلم، ففيه الاعتداء على حق الله، وظلمهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالتكذيب، وظلمهم المؤمنين بالاعتداء عليهم.

المعذرة: اسم مصدر اعتذر، إذا أبدى علّة أو حجّة ليدفع عن نفسه مؤاخذة على ذنب أو تقصير. وهو مشتق من فعل عذره، إذا لم يؤاخذه على ذنب أو تقصير لأجل ظهور سبب يدفع عنه المؤاخذة بما فعله.

يجوز أن تكون الإضافة للتعريف بمعذرة معهودة فتكون هي قولهم { مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ } [55].

ويجوز أن يكون التعريف للعموم كما هو شأن المصدر المضاف، أي: لا تنفعهم معذرة يعتذرون بها مثل قولهم { غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا } [المؤمنون:106]، وقولهم { هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا } [الأعراف:38].

واعلم أنّ هذا لا ينافي قوله تعالى { وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ } [المرسلات:36] المقتضي نفي وقوع الاعتذار منهم، لأنّ الاعتذار المنفي هو الاعتذار المأذون فيه، أي: المقبول، لأنّ الله لو أذن لهم في الاعتذار لكان ذلك توطئة لقبوله اعتذارهم نظير قوله تعالى { مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ }

[البقرة:255].

والمثبت هنا معذرة من تلقاء أنفسهم لم يؤذن لهم بها فهي غير نافعة لهم.

{ **وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ** } مبني للمجهول والمبني منه للفاعل **استعتب**، إذا سأل العُتبى (بضم العين وبالقصر)، أي: إزالة العتب، قال تعالى { وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ } [فصلت:24].

المعنى: لا ينفعهم اعتذار بعذر ولا إقرار بالذنب وطلب العفو. وتقدم قوله { وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ } [النحل:84].

{ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ [58] كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ [59] }.

لمّا انتهى ما أقيمت عليه السورة من دلائل الوحدانية وإثبات البعث عُقّب ذلك بالتنويه بالقرآن وبلوغه الغاية القصوى في البيان والهدى.

الضرب: حقيقته الوضع والإلصاق. واستعير في مثل هذه الآية للذكر والتبيين، وتقدّم في قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا } [البقرة:26]، وتقدّم عند قوله تعالى { ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ } [28].

وهذا كقوله تعالى { وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ } [الإسراء:89].

{ **لِلنَّاسِ** } أريد به المشركون لأنّهم المقصود من تكرير هذه الأمثال.

{ **وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ** } وصف لتلقّي المشركين أمثال القرآن، فإذا جاءهم الرسول صلى الله عليه وسلم بآية فيها إرشادهم تلقّوها بالإنكار فقالوا { إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ }.

{ **إِنْ أَنْتُمْ** } ضمير جمع المخاطب للنبيّ صلى الله عليه وسلم لقصد تعظيمه من جانب الله تعالى، وإنّما يقول الذين كفروا: إن أنت إلّا مبطل، فحكي كلامهم بالمعنى للتنويه بشأن الرسول عليه الصلاة والسلام.

<u>وقيل</u>: الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فهو حكاية باللفظ.

{ **كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ** } اعتراض بين الجملتين المتعاطفتين تمهيدا للأمر بالصبر على غلوائهم، أي: تلك سنة أمثالهم.

الطبع على القلب: تصييره غير قابل لفهم الأمور الدينية وهو الختم، وتقدّم في قوله تعالى { خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ } [البقرة:7].

{ **الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ** } مراد بهم الذين كفروا أنفسهم، فعدل عن الإضمار لزيادة وصفهم بانتفاء العلم عنهم بعد أن وصفوا: بالمجرمين، والذين ظلموا، والذين كفروا.

{ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ } [60].

الأمر للنبيّ صلى الله عليه وسلم بالصبر تفرَّع على جملة { وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ } [58] لتضمّنها تأييسه من إيمانهم. وحُذف متعلّق الأمر بالصبر لدلالة المقام عليه، أي: اصبر على تعنّتهم.

{ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ } تعليل للأمر بالصبر وهو تأنيس للنبيّ صلى الله عليه وسلم بتحقيق وعد الله من الانتقام من المكذّبين ومن نصر الرسول عليه الصلاة والسلام.

الحقّ: الثابت الذي لا ريب فيه ولا مبالغة.

الاستخفاف: مبالغة في جعله خفيفا فالسين والتاء للتقوية. والخفّة مستعارة لحالة الجزع وظهور آثار الغضب. وهي مثل القلق المستعار من اضطراب الشيء، لأنّ آثار الجزع والغضب تشبه تقلقل الشيء الخفيف، وفي ضده يُستعار الرسوخ والتثاقل. وشاعت هذه الاستعارات حتى ساوت الحقيقة في الاستعمال.

<u>المعنى</u>: لا يحملُنَّك على ترك الصبر.

وأسند الاستخفاف إليهم على طريقة المجاز العقلي لأنّهم سببه بما يصدر من عنادهم.

{ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ } هم المشركون الذين أجريت عليهم الصفات المتقدّمة من الإجرام، والظلم، والكفر، وعدم العلم، فهو إظهار في مقام الإضمار للتصريح بمساويهم. قيل: كان منهم النضر بن الحارث.

والمعنى: أنّهم لا يوقنون بالأمور التي دلت عليها الدلائل القطعية فهم مكابرون.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة لقمان

سُمِّيت هذه السورة بإضافتها إلى لقمان لأنّ فيها ذكر لقمان وحكمته وجُمُلا من حكمته التي أدّب بها ابنه. وليس لها اسم غير هذا الاسم، وبه عُرفت بين القرّاء والمفسرين.

وهي **مكية** عند جمهور المفسرين. وأمّا القول باستثناء آيتين وثلاث فمستند إلى ما رواه ابن جرير عن قتادة وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس. والأقوال تتجاذبها آراء الرجال ولم يثبت شيء يرجّحها.

قال أبو حيان: **سبب نزول** هذه السورة أنّ قريشا سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصّة لقمان مع ابنه. وهذا القول يؤيّده تصدير السورة بقوله تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ } [6].

وهي **السابعة والخمسون في تعداد نزول السور**، نزلت بعد سورة الصافات وقبل سورة سبأ.

وعُدَّت آياتها ثلاثا وثلاثين في عدّ أهل المدينة ومكة، وأربعا وثلاثين في عدّ أهل الشام والبصرة والكوفة.

أغراض السورة

*/ صدرت بالتنويه بهدى القرآن ليعلم الناس أنّه لا يشتمل إلّا على ما فيه هدى وإرشاد للخير ومثل الكمال النفساني، فلا التفات فيه إلى أخبار الجبابرة وأهل الضلال إلّا في مقام التحذير ممّا هم فيه ومن عواقبه.

*/ انتقل من ذلك إلى تسفيه النضر بن الحارث وقصصه الباطلة.

*/ ذكر لقمان بالتنويه بأن آتاه الله الحكمة وأمره بشكر النعمة.

*/ أطيل الكلام في وصايا لقمان وما اشتملت عليه: من التحذير من الإشراك، ومن الأمر ببرّ الوالدين، ومن مراقبة الله لأنّه عليم بخفيّات الأمور، وإقامة الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر، والتحذير من الكبر والعجب، والأمر بالاتسام بسمات المتواضعين في المشي والكلام.

*/ سلكت السورة أفانين ذات مناسبات لما تضمّنته وصية لقان لابنه.

*/ تذكير المشركين بدلائل وحدانية الله تعالى وبنعمه عليهم وكيف أعرضوا عن هديه وتمسّكوا بما ألفوا عليه آباءهم.

*/ ذكرت مزية دين الإسلام.

*/ تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم بتمسّك المسلمين بالعروة الوثقى، وأنّه لا يحزنه كفر من كفروا.

*/ الردّ على المعارضين للقرآن في قوله تعالى { وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ...} [27].

*/ ختمت بالتحذير من دعوة الشيطان والتنبيه إلى بطلان ادعاء علم الغيب.

{ **الم** } [1].

تقدّم الكلام على نظائرها في أوّل سورة البقرة.

{ **تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ [2] هُدىً وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ [3] الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ [4] أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [5]** }.

إذا كانت هذه السورة نزلت بسبب سؤال قريش عن لقمان وابنه فهذه الآيات إلى قوله تعالى { وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ} [12] بمنزلة مقدّمة لبيان أنّ مرمى القرآن من قصّ القصة ما فيها من علم وحكمة وهدى وأنّها مسوقة للمؤمنين لا للذين سألوا عنها فكان سؤالهم نفعا للمؤمنين.

{ **تِلْكَ** } الإشارة إلى ما سيُذكر في هذه السورة، فالمشار إليه مقدّر في الذهن مترقَّب الذِّكر.

{ **آيَاتُ الْكِتَابِ** } خبر عن اسم الإشارة. وفي الإشارة تنبيه على تعظيم قدر تلك الآيات بما دل عليه اسم الإشارة من البعد المستعمل في رفعة القدر، وبما دلت عليه إضافة الآيات إلى الكتاب الموصوف بأنّه الحكيم وأنّه هدى ورحمة وسبب فلاح.

{ **الْحَكِيمِ** } وصف للكتاب بمعنى ذي الحكمة، أي: لاشتماله على الحكمة. ويجوز أن يكون الحكيم بمعنى المُحكم بصيغة اسم المفعول. وتقدّم وصف الكتاب بـ { الْحَكِيمِ } في [يونس:1].

وفي وصف { الْكِتَابِ } بهذا الوصف براعة استهلال للغرض من ذكر حكمة لقمان.

{ **هُدىً وَرَحْمَةً** } حال من { الْكِتَابِ } والنصب قراءة الجمهور. وقرأه حمزة وحده برفع { رَحْمَةٌ } على جعل { هُدىً } خبرا ثانيا عن اسم الإشارة. وزيادة وصف الكتاب بـ { رَحْمَةً } بعد { هُدىً } لأنّه لمّا كان المقصد من هذه السورة قصّة لقمان نُبّه على أنّ ذكر القصة رحمة لما تتضمّنه من الآداب والحكمة لأنّ في ذلك زيادة على الهدى أنّه تخلّق بالحكمة ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا، والخير الكثير: رحمة من الله تعالى.

{ **لِلْمُحْسِنِينَ** } الفاعلون للحسنات، وأعلاها الإيمان وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ولذلك خُصّت هذه الثلاث بالذكر بعد إطلاق المحسنين لأنّها أفضل الحسنات، وإن كان المحسنون يأتون بها وبغيرها.

{ **الزَّكَاةَ** } هنا الصدقة وكانت موكولة إلى همم المسلمين غير مضبوطة بوقت ولا بمقدار.

{ **وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ [4] أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** } تقدّم الكلام حولها في أوّل سورة [البقرة:7/6].

{ **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ** [6] **وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** [7] }.

عطف على جملة { تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ } [2]. والمعنى: أنّ حال الكتاب الحكيم هدى ورحمة للمحسنين، وأنّ من الناس معرضين عنه يؤثرون لهو الحديث ليضلُّوا عن سبيل الله الذي يهدي إليه الكتاب. وهذا من مقابلة الثناء على آيات الكتاب الحكيم بضد ذلك في ذمّ ما يأتي به بعض الناس، وهذا تخلّص من المقدّمة إلى مدخل للمقصود، وهو تفظيع ما يدعوا إليه النضر بن الحارث ومشايعوه من اللهو بأخبار الملوك التي لا تكسب صاحبها كمالا ولا حكمة.

{ **وَمِنَ النَّاسِ** } تقديم المسند للتشويق إلى تلقّي خبره العجيب. والأصح أنّ المراد بهذا القول النضر بن الحارث فإنّه كان يسافر في تجارة إلى بلاد فارس فيتلقّى الأخبار عن أبطالهم في الحروب المملوءة أكذوبات فيقصّها على قريش في أسمارهم ويقول: إن كان محمد يحدّثكم بأحاديث عاد وثمود فأنا أحدثكم بأحاديث رستم واسفنديار وبهرام.

ومن المفسّرين من قال: إنّ النضر كان يشتري من بلاد فارس كتب أخبار ملوكهم فيحدّث بها قريشا.

ويشمل لفظ { النَّاسِ } أهل سامره الذين ينصتون لما يقصّه عليهم كما يقتضيه قوله تعالى إثره { أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ }.

الاشتراء: كناية عن العناية بالشيء والاغتباط به. فالاشتراء هنا مستعمل في صريحه وكنايته: فالصريح تشويه لاقتناء النضر بن الحارث قصص رستم واسفنديار وبهرام، والكناية تقبيح للذين التفوا حوله وتلقوا أخباره، أي: من الناس من يشغله لهو الحديث والولع به عن الاهتداء بآيات الكتاب الحكيم.

{ **لَهْوَ الْحَدِيثِ** } ما كان من الحديث مرادا للهو، وهو ما يقصد منه تشغيل البال وتقصير طول وقت البطالة دون نفع. وتقدّم اللهو في قوله تعالى { وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ } [الأنعام:32].

{ **لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً** } أنّه يفعل ذلك ليلهي قريشا عن سماع القرآن، فإنّ القرآن سبيل موصل إلى الله تعالى، فلم يكن قصده مجرد اللهو بل تجاوزه إلى الصد عن سبيل الله.

{ **بِغَيْرِ عِلْمٍ** } عن غير بصيرة في صالح نفسه حيث يستبدل الباطل بالحق.

الهزؤ: مصدر هزأ به إذا سخر به، كقوله تعالى { وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً } [البقرة:231]

{ **أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ** } لمّا كان القول صادقا على النضر بن الحارث والذين يستمعون إلى قصصه من المشركين جيء في وعيدهم بصيغة الجمع.

{ **وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً** } دلّ أنّه يواجَه بتبليغ القرآن وإسماعه. وقوله { وَلَّى } تمثيل للإعراض عن آيات الله كقوله تعالى { ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى } [النازعات:22].

{ **مُسْتَكْبِراً** } حال، أي: هو إعراض استكبار لا إعراض تفريط في الخير فحسب. شُبّه في ذلك بالذي لا يسمع الآيات التي تتلى عليه، ووجه الشبه هو عدم التأثّر ولو تأثرا يعقبه إعراضٌ كتأثر الوليد بن المغيرة.

الوقر: أصله الثقل، وشاع في الصمم مجازا مشهورا ساوى الحقيقة، وتقدّم في قوله تعالى { وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً} [الأنعام:25].

{ **فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** } وقد ترتّب على هذه الأعمال التي وُصف بها أن أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يوعده بعذاب أليم. وإطلاق البشارة هنا استعارة تهكّمية.

وقد عُذِّب النضر بالسيف إذ قُتل صبرا يوم بدر، فذلك عذاب الدنيا، وعذاب الآخرة أشد.

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ [8] خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [9] }.

لمّا ذكر عذاب من يُضلّ عن سبيل الله اتبع ببشارة المحسنين الذين وصفوا بأنّهم { الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ } [4].

{ **وَعْدَ اللَّهِ** } انتصب على المفعول المطلق النائب عن فعله. و { حَقّاً } حال مؤكِّدة لمعنى عاملها.

{ **وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } إجراء الاسمين الجليلين على ضمير الجلالة لتحقيق وعده، لأنّه لعزّته لا يعجزه الوفاء بما وعد، ولحكمته لا يخطئ ولا يذهل عمّا وعد، فموقع الجملة موقع التذييل بالأعم.

{ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ [10] هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ [11] }.

استئناف للاستدلال على الذين دأبهم الإعراض عن آيات الله بأنّ الله هو خالق المخلوقات فلا يستحق غيره أن تثبت له الإلهية. فموقع هذه الآيات موقع دليل الدليل، وهو المقام المعبّر عنه في علم الاستدلال بالتدقيق، وهو ذكر الشيء بدليله ودليل دليله، فالخطاب في قوله تعالى { تَرَوْنَهَا } و { بُكْمٌ } للمشركين.

{ **خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا** } تقدم قوله { اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا } [الرعد:2].

{ **وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ** } خوف أن تميد بكم، أو لئلّا تُميدكم، كما بيّنّاه في [النحل:15].

{ **وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ** } تقدّم عند قوله تعالى { وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ } [البقرة:164].

{ **وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ** } هو نظير قوله تعالى { وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ } [البقرة:164]، وقوله تعالى { أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ } [الرعد:17].

{ **وَأَنْزَلْنَا** } الالتفات من الغيبة إلى التكلّم للاهتمام بهذه النعمة التي هي أكثر دورانا عند الناس.

الزوج: الصنف، وتقدّم في قوله تعالى { فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى } [طه:53] وقوله تعالى { وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ } [الحج:5]

الكريم: النفيس في نوعه، وتقدّم عند قوله تعالى { إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ } [النمل:29].

أدمج في أثناء دلائل صفة الحكمة الامتنان بما في ذلك من منافع للخلق، فإنّ من الدواب المبثوثة ما ينتفع به الناس من أكل لحومها والانتفاع بألبانها وأصوافها وجلودها، والحمل عليها والتجمّل، ثم من نعمة منافع النبات من الحب والثمر والكلأ. فالله كما أبدع الصنع أسبغ النعمة، فأرانا آثار الحكمة والرحمة.

{ **هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ** } نتيجة الاستدلال بخلق السماء والأرض والجبال والدواب وإنزال المطر. و{ **هَذَا** } إشارة إلى ما تضمّنه قوله { خَلْقِ السَّمَاوَاتِ - إلى قوله - مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ }.

{ **هَذَا خَلْقُ اللَّهِ** } الانتقال من التكلّم إلى الغيبة التفاتا لزيادة التصريح بأنّ الخطاب وارد من جانب الله.

{ **فَأَرُونِي** } يجوز أن تكون الرؤية علمية، أي: فأنبئوني، والفعل معلّقا عن العمل بالاستفهام بـ { مَاذَا }. فيتعيّن أن يكون الأمر تهكّما مستعملا في التعجيز، لأنّهم لا يمكن لهم أن يكافحوا الله.

{ **الَّذِينَ** } إجراء اسم موصول العقلاء على الأصنام مجاراة للمشركين إذ يعدّنهم عقلاء.

{ **بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ** } للإضراب الانتقالي من غرض المجادلة إلى غرض تسجيل ضلالهم، أي: في اعتقادهم إلهية الأصنام. و{ **الظَّالِمُونَ** } المشركون.

الضلال المبين: الكفر الفظيع، لأنّهم أعرضوا عن دعوة الإسلام للحق وذلك ضلال، وأشركوا مع الله غيره في الإلهية فذلك كفر فظيع.

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ } [12].

الواو عاطفة قصة لقمان على قصة النضر بن الحارث المتقدّمة في قوله تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } [6]، مقابلة بين حالة عجيبة في الضلالة والسفه وحالة عجيبة في الاهتداء والحكمة، فهما حالان متضادان.

لأنّ الكلام لمّا طال في قصة النضر التي سيقت مساق المقدّمة والمدخل إلى المقصود خرجت عن سنن المقدّمات إلى المقصودات بالذات فلذلك عُطفت عطف القصص ولم تفصل فصل النتائج عقب مقدّماتها.

الإيتاء: الإعطاء، وهو مستعار هنا للإلهام أو الوحي.

{ **لُقْمَانَ** } اسم رجل حكيم صالح. وأكثر الروايات في شأنه التي يعضد بعضها، وإن كانت أسانيدها ضعيفة، تقتضي أنّه كان من السود، فقيل: هو من بلاد النوبة، وقيل: من الحبشة.

وقد اختلف السلف في أنّ لقمان المذكور في القرآن كان حكيما أو نبيّا. فالجمهور قالوا: كان حكيما صالحا.

ويظهر من الآيات المذكورة في قصّته هذه أنّه لم يكن نبيّا لأنّه لم يُمْتَنَّ عليه بوحي ولا بكلام الملائكة. والاقتصار على أنّه أوتي الحكمة يومئ إلى أنّه أُلهم الحكمة ونطق بها، ولأنّه لما ذكر تعليمه لابنه قال تعالى { وَهُوَ يَعِظُهُ } [13]، وذلك مؤذن بأنّه تعليم لا تبليغ تشريع.

وذكر أهل التفسير والتاريخ أنّه كان في زمن داود. وبعضهم يقول: إنّه كان ابن أخت أيوب أو ابن خالته، فتعيّن أنّه عاش في بلاد إسرائيل. وذكر بعضهم أنّه كان عبدا فأعتقه سيده. قيل: كان راعيا لغنم، وقيل: كان نجارا، وقيل: خياطا.

وفي تفسير ابن كثير عن ابن وهب: أنّ لقمان كان عبدا لبني الحسحاس وهم من العرب.

{ **الْحِكْمَةَ** } حكمة لقمان مأثورة في أقواله الناطقة عن حقائق الأحوال والمقرّبة للخفيّات بأحسن الأمثال. وقد عُني بها أهل التربية وأهل الخير، وذكر القرآن منها ما في هذه السورة، وذكر منها مالك في الموطأ بلاغين في كتاب (الجامع)، وذكر منها أحمد بن حنبل في مسنده، ولا نعرف كتابا جمع حكمة لقمان.

وكان لقمان معروفا عند خاصة العرب. قال ابن إسحاق في السيرة : " قدم سويد ابن الصامت أخو بني عمرو بن عوف مكة حاجا أو معتمرا فتصدّى له رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاه إلى الإسلام فقال له سويد: فلعلّ الذي معك مثل الذي معي فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: **وما الذي معك؟** قال: مجلّة لقمان. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: **اعرضها عليَّ**، فعرضها عليه، فقال: **" إن هذا الكلام حسن والذي معي أفضل من هذا قرآن أنزله الله "**. قال ابن إسحاق: " قيل: قتلته الخزرج يوم بعاث. وكان رجال من قومه يقولون: إنّا لنراه قد قُتل وهو مسلم، وكان قومه يدعونه الكامل ".

وقد تقدّم في صدر الكلام على هذه السورة أنّ قريشا سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لقمان وابنه وذلك يقتضي أنّه كان معروفا للعرب. وقد انتهى إليَّ حين كتابة هذا التفسير من حِكم لقمان المأثورة ثمان وثلاثون حكمة غير ما ذكر في هذه الآية وسنذكرها عند الفراغ من تفسير هذه الآيات.

{ **الْحِكْمَةَ** } تقدّم تعريفها عند قوله تعالى { يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ } [البقرة:269]، وقوله تعالى { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ } [النحل:125].

{ **أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ** } كان أوّل ما لُقِّنه لقمان من الحكمة هو الحكمة في نفسه بأن أمره الله بشكره على ما هو محفوف به من نعم الله. وهذا رأس الحكمة لتضمّنه النظر في دلائل نفسه وحقيقته قبل النظر في حقائق الأشياء وقبل التصدي لإرشاد غيره. وأيضا فإنّ شكر الله من الحكمة، إذ الحكمة تدعو إلى معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه لقصد العمل بمقتضى العلم، وذلك العمل من الشكر.

{ **وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ** } تنبيه ببيان أنّ فائدة الشكر لنفس الشاكر لا للمشكور، لأنّ آثار شكر الله كمالات حاصلة للشاكر ولا تنفع المشكور شيئا لغناه سبحانه عن شكر الشاكرين، ولذلك جيء به في صورة الشرط، فإنّ الشرط أدلّ على ذلك من الإخبار. أي: ما يشكر إلّا لفائدة نفسه.

وجيء في فعل { يَشْكُرُ } بصيغة المضارع للإيماء إلى جدارة الشكر بالتجديد.

{ **وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ** } زيد ذلك تبينا بعطف ضدّه لإفادة أنّ الإعراض عن الشكر بعد استشعاره كفر للنعمة، وأنّ الله غنيّ عن شكره.

{ **حَمِيدٌ** } أي: كثير المحمودية بلسان حال الكائنات كلّها حتّى حال الكافر به.

{ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [13].

عطف على الجملة السابقة لأنّ الواو نائبة مناب الفعل فمضمون هذه الجملة يُفسّر بعض الحكمة التي أوتيها لقمان. فكان ذلك القول من الحكمة لا محالة. وهذا انتقال من وصفه بحكمة الاهتداء إلى وصفه بحكمة الهدي والإرشاد. وقد جمعت مواعظه أصول الشريعة وهي: الاعتقادات، والأعمال، وأدب المعاملة، وأدب النفس.

{ **وَهُوَ يَعِظُهُ** } إشارة إلى أنّ قوله هذا كان لتلبّس ابنه بالإشراك، وقد قال جمهور المفسّرين: إنّ ابن لقمان كان مشركا فلم يزل لقمان يعظه حتّى آمن بالله وحده. و**الوعظ**: زجر مقترن بتخويف، قال تعالى { فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً } [النساء:63].

{ **يَا بُنَيَّ** } افتتاح الموعظة بنداء المخاطب الموعوظ، مع أن توجيه الخطاب مغن عن ندائه لحضوره بالخطاب، فالنداء مستعمل مجازا في طلب حضور الذهن لوعي الكلام، وذلك من الاهتمام بالغرض المسوق له الكلام، كما تقدّم عند قوله تعالى { يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً } [يوسف:4].

{ **بُنَيَّ** } تصغير (ابن) مضافا إلى ياء المتكلّم فلذلك كسرت الياء. والتصغير فيه لتنزيل المخاطب الكبير منزلة الصغير كناية عن الشفقة به والتحبّب له، ففيه حثّ على الامتثال للموعظة.

وقرأ حفص عن عاصم في المواضع الثلاثة { يَا بُنَيَّ } بفتح الياء مشدّدة على تقدير: يا بُنَيَّا بالألف وهي اللغة الخامسة في المنادى المضاف إلى ياء المتكلّم ثمّ حُذفت الألف واكتُفي بالفتحة عنها، وهذا سماع.

{ **لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ** } ابتدأ لقمان موعظة ابنه بطلب إقلاعه عن الشرك بالله. فإنّ إصلاح الاعتقاد أصل الإصلاح العمل. وكان أصل فساد الاعتقاد أحد أمرين هما الدهرية والإشراك.

{ **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** } تعليل للنهي عنه وتهويل لأمره، فإنّه ظلم لحقوق الخالق، وظلم المرء لنفسه إذ يضع نفسه في حضيض العبودية لأخسّ الجمادات، وظلم لأهل الإيمان الحق إذ يبعث على اضطهادهم وأذاهم، وظلم لحقائق الأشياء بقلبها وإفساد تعلقها. وهذا من جملة كلام لقمان كما هو ظاهر السياق، ودلّ عليه الحديث في صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: لمّا نزلت { الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ

بِظُلْمٍ } [الأنعام:82] شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: أيّنا لا يظلم نفسه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **ليس هو كما تظنّون إنّما هو كما قال لقمان لابنه** { يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ }. وجوّز ابن عطية أن تكون الجملة من كلام الله تعالى، أي: معترضة بين كلم لقمان.

{ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ [14] وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [15] }.

إذا درجنا على أنّ لقمان لم يكن نبيّا مُبلِّغا عن الله وإنّما كان حكيما مرشدا كان هذا الكلام اعتراضا بين كلامي لقمان، لأنّ صيغة هذا الكلام مصوغة على أسلوب الإبلاغ والحكاية لقول من أقوال الله.

والضمائر ضمائر العظمة جرّته مناسبة حكاية نهي لقمان لابنه عن الإشراك وتفظيعه بأنّه عظيم، فهو تأكيد لما في وصية لقمان من النهي عن الشرك بتعميم النهي في الأشخاص والأحوال لئلّا يتوهّم متوهّم أنّ النهي خاص بابن لقمان أو ببعض الأحوال، فحكى الله أنّه أوصى بذلك كلّ إنسان وأن لا هوادة فيه ولو في أحرج الأحوال وهي حال مجاهدة الوالدين أولادهم على الإشراك.

وأحسن من هذه المناسبة أن تجعل مناسبة هذا الكلام المنّة على العباد، إذ أوصى الله الأبناء ببر الآباء فدخل في العموم المنّة على لقمان جزاء على رعيه لحق الله في ابتداء موعظة ابنه، فالله أسبق بالإحسان إلى الذين أحسنوا برعي حقّه. ويقوي هذا التفسير اقتران شكر الله وشكر الوالدين في الأمر.

وإذا درجنا على أنّ لقمان كان نبيّا فهذا الكلام ممّا أبلغه لقمان لابنه وهو مما أوتيه من الوحي ويكون قد حكي بالأسلوب الذي أوحي به إليه على نحو أسلوب قوله { أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ } [12]. وهذا الاحتمال أنسب بسياق الكلام، ويرجّحه اختلاف الأسلوب بينها وبين آيتي [العنكبوت:8]، و[الأحقاف:15]، لأنّ ما هنا حكاية ما سبق في أمّة أخرى والأخريين خطاب أنف لهذه الأمّة.

{ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ } في موضع التعليل للوصاية بالوالدين قصدا لتأكيد تلك الوصاية، لأنّ تعليل الحكم يفيده تأكيدا، ولأنّ في مضمون هذه الجملة ما يثير الباعث في نفس الولد على أن يبرّ بأمّه ويستتبع البرّ بأبيه. وإنما وقع تعليل الوصاية بالوالدين بذكر أحوال خاصة بأحدهما، وهي الأم، اكتفاء بأنّ تلك الحالة تقتضي الوصاية بالأب أيضا للقياس، فإنّ الأب يلاقي مشاق وتعبا في القيام على الأم لتتمكّن من الشغل بالطفل في مدّة حضانته ثم هو يتولى تربيته والذبّ عنه حتّى يبلغ أشدّه ويستغني عن الإسعاف كما قال تعالى { وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً } [الإسراء:24]، فجمعهما في التربية

في حال الصغر مما يرجع إلى حفظه وإكمال نشأته.

الوهْن: (بسكون الهاء) مصدر وَهَنَ يَهِن من باب ضرب. ويقال: وهَن (بفتح الهاء) مصدر وَهِنَ يَوْهَنُ. وهو الضعف وقلّة الطاقة على تحمّل شيء.

{ **عَلَى وَهْنٍ** } صفة لـ { وَهْناً } أي: وهنا واقعا على وهن، كما يقال: رجع عودا على بدء، أي: بعد بدء، أو{ عَلَى } بمعنى (مع).

فإنّ حمل المرأة يقارنه التعب من ثقل الجنين في البطن، والضعف من انعكاس دمها إلى تغذية الجنين، ولا يزال ذلك الضعف يتزايد بامتداد زمن الحمل فلا جرم أنّه وهن على وهن.

{ **وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ** } عطف على جملة { حَمَلَتْهُ أُمُّهُ }، فهي في موقع الحال أيضا.

الفصال: اسم للفطام، فهو فصل عن الرضاعة. وتقدّم في قوله تعالى { فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً } [البقرة:233]. وذكر الفصال في معرض تعليل حقّيّة الأم بالبر، لأنّه يستلزم الإرضاع من قبل الفصال، وللإشارة إلى ما تتحمله الأم من كدر الشفقة على الرضيع حين فصاله.

وذُكر لمدّة فطامه أقصاها وهو عامان، لأنّ ذلك أنسب بالترقيق على الأم، وأشير إلى أنّه قد يكون الفطام قبل العامين بحرف الظرفية (في) لأنّ الظرفية تصدق مع استيعاب المظروف جميع الظرف. وتقدّم ذلك عند قوله تعالى { وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ } [النساء:5]. وقد حمله علي بن أبي طالب أو ابن عباس على هذا المعنى فأخذ منه أنّ أقل مدة الحمل ستة أشهر جمعا بين هذه الآية وآية سورة الأحقاف كما سيأتي هنالك.

{ **أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ** } تفسير لفعل { وَصَّيْنَا }. وإنّما فُسرت الوصية بالوالدين بما فيه الأمر بشكر الله مع شكرهما على وجه الإدماج تمهيدا لقوله تعالى { وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي }.

{ **إِلَيَّ الْمَصِيرُ** } استئناف للوعظ والتحذير من مخالفة ما أوصى الله به من الشكر له. أي: مصير الناس كلّهم. وتقديم المجرور للحصر، أي: ليس للأصنام مصير في شفاعة ولا غيرها.

{ **وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا** } تقدّم الكلام على نظيره في قوله تعالى {وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي – إلى قوله - فَلَا تُطِعْهُمَا } [العنكبوت:8]، سوى أنّه قال هنا { عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي } وقال في العنكبوت { لِتُشْرِكَ بِي }، فأمّا حرف { عَلَى } فهو أدلّ على تمكن المجاهدة، أي: مجاهدة قوية للإشراك، وأمّا آية العنكبوت فجيء فيها بـ (لام العلة) لظهور أنّ سعدا كان غنيّا عن تأكيد النهي عن طاعة أمّه لقوة إيمانه .[روي أن سعد بن ابي وقاص كان سبب نزول آية العنكبوت].

المجاهدة: شدّة السعي والإلحاح.

{ **وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً** }، **المصاحبة**: المعاشرة. ومنه حديث معاوية بن حيدة: " أنّه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: من أحقّ الناس بحُسن صحابتي؟ فقال صلى الله عليه وسلّم: **أمّك** ..." .

المعروف: الشيء المتعارف المألوف الذي لا يُنكر فهو الشيء الحسن، أي: صاحب والديك صحبة

حسنة. وفُهم من ذكر هذا أثر قوله تعالى { وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي }، أنّ الأمر بمعاشرتهما بالمعروف شامل لحالة كون الأبوين مشركين. وفي الحديث: أنّ أسماء بنت أبي بكر قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إنّ أمّي جاءت راغبة أفأصِلها؟ فقال: **" نعم صلي أمّك "**، وهي قتيلة بنت عبد العُزَّى، وكانت مشركة.

{ **وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ** } هو الاقتداء بسيرة المنيبين لله، أي: الراجعين إليه. وقد تقدّم ذكر الإنابة عند قوله تعالى { مُنِيبِينَ إِلَيْهِ } [الروم:33] وفي [هود:88]. أي: المقلعون عن الشرك وعن المنهيّات التي منها عقوق الوالدين، وهم الذين يدعون إلى التوحيد ومن اتّبعوهم في ذلك.

{ **ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } معطوفة على الجمل السابقة.

{ **ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ** } (ثمّ) للتراخي الرتبي المفيد للاهتمام بما بعدها. والجملة وعد ووعيد. وفي هذه الضمائر تغليب الخطاب على الغيبة لأنّ الخطاب أهم لأنّه أعرف.

الإنباء: كناية عن إظهار الجزاء على الأعمال، لأنّ الملازمة بين إظهار الشيء وبين العلم به ظاهرة.

أي: وعلاوة على ذلك كلّه إليَّ مرجعكم فأنبّئكم بما كنتم تعملون.

وضمير الجمع للإنسان والوالدين، أي: مرجع الجميع. وتقديم المجرور للاهتمام بهذا الرجوع أو هو للتخصيص، أي: لا ينفعكم شيء مما تأملونه من الأصنام.

{ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ } [16].

تكرير النداء لتجديد نشاط السامع لوعي الكلام. واجتمع في هذه الجملة ثلاثة مؤكدات: النداء، وإن، وضمير القصّة، لعظم خطر ما بعده المفيد تقرير وصفه تعالى بالعلم المحيط بجميع المعلومات من الكائنات، ووصفه بالقدرة المحيطة بجميع الممكنات بقرينة قوله تعالى { يَأْتِ بِهَا اللَّهُ }.

{ **حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ** } ذُكر أدق الكائنات حالا من حيث تعلّق العلم والقدرة به، وذلك أدق الأجسام المختفي في أصلب مكان أو أقصاه وأعزّه منالا، أو أوسعه وأشده انتشارا، ليُعلم أنّ ما هو أقوى منه في الظهور والدنو من التناول أولى بأن يحيط به علم الله وقدرته.

المِثقال (بكسر الميم): ما يُقدّر به الثقل ولذلك صيغ على زنة اسم الآلة.

الحبة: واحدة الحب، وهو بذر النبات من سنابل أو قطنية، وتقدّم في قوله تعالى { كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ } [البقرة:261]، وقوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى } [الأنعام:95].

الخردل: نبت له جذر وساق قائمة متفرّعة أسطوانية أوراقها كبيرة يخرج أزهارا صغيرة صُفرا سنبلية تتحول إلى قرون دقيقة مربعة الزوايا تخرج بزورا دقيقة، ولب تلك البزور شديد الحرارة يلدغ اللسان

والجلد، وهو كثير الاستعمال في الطب قديما وحديثا. وتقدّم في قوله تعالى { فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا } [الأنبياء:47]

{ **فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ** } لقصد تعميم الأمكنة، أي: ذلك كله سواء في جانب علم الله وقدرته، كأنّه قال: فتك في صخرة أو حيث كانت من العالم العلوي والعالم السفلي، وهو معنى قوله تعالى { وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } [يونس:61].

الإتيان: كناية عن التمكّن منها، وهو أيضا كناية رمزية عن العلم بها، لأنّ الإتيان بأدق الأجسام من أقصى الأمكنة وأعمقها وأصلبها لا يكون إلّا عن علم بكونها في ذلك المكان وعلم بوسائل استخراجها منه.

{ **إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ** } يجوز أن تكون من كلام لقمان فهي كالمقصد من المقدمة أو كالنتيجة من الدليل، ولذلك فصلت ولم تعطف لأنّ النتيجة كبدل الاشتمال يشتمل عليها القياس. ويجوز أن تكون معترضة بين كلام لقمان، تعليما من الله للمسلمين.

اللطيف: من يعلم دقائق الأشياء ويسلك في إيصالها إلى من تصلح به مسلك الرفق، فهو وصف مؤذن بالعلم والقدرة الكاملين، وتقدّم في قوله تعالى { وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ } [الأنعام:103].

وهنا قد استوفى أصول الاعتقاد الصحيح.

{ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُور } [17].

انتقل من تعليمه أصول العقيدة إلى تعليمه أصول الأعمال الصالحة فابتدأها بإقامة الصلاة.

الصلاة: التوجه إلى الله بالخضوع والتسبيح والدعاء في أوقات معيّنة في الشريعة التي يدين بها لقمان. والصلاة عماد الأعمال لاشتمالها على الاعتراف بطاعة الله وطلب الاهتداء للعمل الصالح.

إقامة الصلاة: إدامتها والمحافظة على أدائها في أوقاتها. وتقدّم في أوّل البقرة.

{ **وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ** } شمل الأمر بالمعروف الإتيان بالأعمال الصالحة كلّها على وجه الإجمال ليتطلّب بيانه في تضاعيف وصايا أبيه، كما شمل النهي عن المنكر اجتناب الأعمال السيّئة كذلك. والأمر بأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يقتضي إتيان الأمر وانتهاءه في نفسه لأنّ الذي يأمر بفعل الخير وينهى عن فعل الشر يعلم ما في الأعمال من خير وشر، فلا جرم أن يتوقّاها في نفسه بالأولوية.

فهذه كلمة جامعة من الحكمة والتقوى إذ جمع لابنه الإرشاد إلى فعله الخير وبثّه في الناس وكفّه عن الشر وزجره الناس عن ارتكابه.

{ **وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ** } ثم أعقب ذلك بأن أمره بالصبر على ما يصيبه. ووجه تعقيب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بملازمة الصبر أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد يجران للقائم بهما معاداة من بعض الناس أو أذى من البعض فإذا لم يصبر على ما يصيبه من جراء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أوشك أن يتركهما. ولمّا كانت فائدة الصبر عائدة على الصابر بالأجر العظيم عُدَّ الصبر هنا في عِداد الأعمال القاصرة على صاحبها ولم يلتفت إلى ما في تحمّل أذى الناس من حسن المعاملة معهم حتّى يذكر الصبر مع قوله { وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ } [18] لأنّ ذلك ليس هو المقصود الأول من الأمر بالصبر.

الصبر: تحمّل ما يحلّ بالمرء ممّا يؤلم أو يحزن. وتقدّم في قوله { وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ } [البقرة:45].

{ **إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ** } موقعها كموقع جملة { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [13]. والإشارة إلى المذكور من إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على ما أصاب. والتأكيد للاهتمام.

العزم: مصدر بمعنى الجزم والإلزام.

العزيمة: الإرادة التي لا تردّد فيها. و{ عَزْمِ } مصدر بمعنى المفعول، أي: الأمور التي أوجبها الله.

{ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ } [18]

انتقل لقمان بابنه إلى الآداب في معاملة الناس فنهاه عن احتقار الناس وعن التفخُّر عليهم، وهذا يقتضي أمره بإظهار مساواته مع الناس وعدُّ نفسه كواحد منهم.

{ **وَلَا تُصَعِّرْ** } في قراءة ابن كثير وابن عامر وعاصم وأبو جعفر ويعقوب، وقرأ الجمهور {وَلَا تُصَاعِرْ} يقال: صاعر وصعّر، إذا أمال عنقه إلى جانب ليعرض عن جانب آخر، وهو مشتقّ من الصَّعَر (بالتحريك) لداء يصيب البعير فيلوي منه عنقه، وهو تمثيل للاحتقار.

والمعنى: لا تحتقر الناس، فالنهي عن الإعراض عنهم احتقارا لهم فيشمل الاحتقار بالقول والشتم وغير ذلك.

{ **وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً** } تمثيل كنائي عن النهي عن التكبّر والتفاخر لَا عن خصوص المشي في حال المرح، فيشمل الفخر عليهم بالكلام وغيره.

{ **فِي الْأَرْضِ** } بعد { لا تَمْشِ }، مع أنّ المشي لا يكون إلّا في الأرض، هو الإيماء إلى أنّ المشي في مكان يمشي فيه الناس كلّهم قويّهم وضعيفهم، ففي ذلك موعظة للماشي مرحا أنّه مساو لسائر الناس.

{ **مَرَحاً** } مفعول مطلق، أي: مشيا مرحا. والمرح: فرط النشاط من فرح وازدهاء، ويظهر ذلك في المشي تبخترا واختيالا. وتقدّم في [الإسراء:37].

{ **إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** } كموقع { إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ } [16]. يجوز أن تكون من كلام لقمان

فهي كالمقصد من المقدّمة أو كالنتيجة من الدليل. ويجوز أن تكون معترضة بين كلام لقمان، تعليما من الله للمسلمين.

المختال: اسم فاعل من اختال بوزن الافتعال، من فعل **خالَ** إذا كان ذا خُيلاء فهو خائل. والخُيلاء: الكبر والازدهاء، فصيغة الافتعال فيه للمبالغة في الوصف.

الفخور: شديد الفخر. وتقدّم في قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً } [النساء:36].

{ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ } [19].

بعد أن بيّن له آداب حسن المعاملة مع الناس قفَّاها بحسن الآداب في حالته الخاصة، وتلك حالتا المشي والتكلّم، وهما أظهر ما يلوح على المرء من آدابه.

القصد: الوسط العدل بين طرفين، فالقصد في المشي هو أن يكون بين طرف التبختر وطرف الدبيب.

الغضّ: نقص قوّة استعمال الشيء. يقال: غض بصره، إذا خفض نظره فلم يحدّق. وتقدم قوله تعالى { قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ } [النور:30]. فغض الصوت: جعله دون الجهر.

{ **مِنْ** } دالة على التبعيض، أي: يُنقص من جهورته ولكنّه لا يبلغ به إلى التخافت والسرار.

{ **إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ** } تعليل للأمر بالغض من صوته باعتبارها متضمّنة تشبيها بليغا، أي: لأنّ صوت الحمير أنكر الأصوات.

{ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدىً وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ [20] وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ [21] }.

{ **أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً** }

رجوع إلى تعداد دلائل الوحدانية وما صحب ذلك من منّة على الخلق، فالكلام استئناف ابتدائي ورجوع إلى ما سلف في أوّل السورة في قوله تعالى { خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ } [10]، فإنّه بعد الاستدلال بخلق السماوات والأرض والحيوان والأمطار عاد هنا الاستدلال والامتنان بأن سخّر لنا ما في السماوات وما في الأرض.

{ **أَلَمْ تَرَوْا** } يجوز أن يكون الخطاب لجميع الناس مؤمنهم ومشركهم لأنّه امتنان، ويجوز أن يكون لخصوص المشركين باعتبار أنّه استدلال. والاستفهام تقرير أو إنكار لعدم الرؤية بتنزيلهم منزلة من لم يروا آثار ذلك التسخير لعدم انتفاعهم بها في إثبات الوحدانية.

والرؤية بصرية. ورؤية التسخير رؤية آثاره ودلائله. ويجوز أن تكون الرؤية علمية كذلك.

{ **سَخَّرَ لَكُمْ** } مضى الكلام على هذا التسخير في تفسير قوله تعالى { اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ } [إبراهيم:32]، وكذلك في [النحل:3]. أي: لأجلكم، لأنّ من جملة ذلك التسخير ما هو منافع لنا من الأمطار والرياح ونور الشمس والقمر ومواقيت البروج والمنازل والاتجاه بها.

إسباغ النعم: إكثارها. وأصل الإسباغ: جعل ما يلبس سابغا، أي: وافيا في الستر. ومنه قولهم: درع سابغة. ثم استعير للإكثار، ثم شاع ذلك حتى ساوى الحقيقة فقيل: سوابغ النعم.

{ **نِعَمَهُ** } المنفعة التي يقصد بها فاعلها الإحسان إلى غيره. ولمّا كان المراد الجنس استوى فيه الواحد والجمع. والتنكير فيها للتعظيم.

الظاهرة: الواضحة. و**الباطنة**: الخفية وما لا يُعلم إلّا بدليل أو لا يُعلم أصلا. وأصل الباطنة المستقرة في باطن الشيء أي داخله، قال تعالى { بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ } [الحديد:13].

فكم في بدن الإنسان وأحواله من نعم يعلمها الناس أو لا يعلمها بعضهم، أو لا يعلمها إلّا العلماء، أو لا يعلمها أهل عصر ثمّ تنكشف لمن بعدهم، وكلا النوعين أصناف دينية ودنيوية.

{ **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ** } واو الحال. والمعنى: قد رأيتم أنّ الله سخر لكم ما في السماوات وأنعم عليكم نعما ضافية في حال أنّ بعضكم يجادل في وحدانية الله ويتعامى عن دلائل وحدانيته. وجملة الحال هنا خبر مستعمل في التعجيب من حال هذا الفريق. ولك أن تجعل الواو اعتراضية والجملة معترضة بين قوله تعالى { أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ } وبين قوله تعالى { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ } [25].

{ **وَمِنَ النَّاسِ** } إظهار في مقام الإضمار، كأنّه قيل: ومنكم، و{ مِنَ } تبعيضية. والمراد بهذا الفريق: هم المتصدّون لمحاجة النبيّ صلى الله عليه وسلم والتمويه على قومهم مثل النضر بن الحارث، وأمية بن خلف، وعبد الله بن الزِّبَعْرَى.

{ **بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدىً وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ** } شمل مراتب اكتساب العلم وهي إمّا: الاجتهاد والاكتساب، أو التلقّي من العالم، أو مطالعة الكتب الصائبة. وتقدّم تفسير نظيرها في [الحج:8].

{ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ** } تقدّم نظير هذه الجملة في [البقرة:170].

{ **يَدْعُوهُمْ** } الضمير المنصوب عائد إلى الآباء، أي: أيتَّبعون آباءهم ولو كان الشيطان يدعو الآباء إلى العذاب فهم يتّبعونهم إلى العذاب ولا يهتدون.

والاستفهام تعجيبي من فظاعة ضلالهم وعماهم بحيث يتَّبعون من يدعوهم إلى النّار، وهذا ذمّ لهم. وهو وزان قوله تعالى { أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً } [البقرة:170].

الدعاء إلى عذاب السعير: الدعاء إلى أسبابه.

السعير: تقدّم في قوله تعالى { كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً } [الإسراء:97].

{ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ } [22].

هذا مقابل قوله تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ - إلى قوله - يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ} [20-21]، فأولئك الذين اتّبعوا ما وجدوا آباءهم عليه من الشرك على غير بصيرة فوقعوا في العذاب، وهؤلاء الذين أسلموا لله لمّا دعاهم إلى الإسلام فلم يصدّهم عن اتباع الحقّ إلف ولا تقديس آباء، فأولئك تعلّقوا بالأوهام واستمسكوا بها لإرضاء أهوائهم، وهؤلاء استمسكوا بالحق إرضاء للدليل، وأولئك أرضوا الشيطان وهؤلاء اتبعوا رضى الله.

{ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ } تمثيل لإفراده تعالى بالعبادة كأنّه لا يقبل بوجهه على غير الله، وتقدّم في قوله تعالى { بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ } [البقرة:112]، وقوله { فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ } [آل عمران:20].

الإحسان: العمل الصالح والإخلاص في العبادة. وفي الحديث: **" الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك "**.

{ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى } مضى الكلام على نظيره عند قوله تعالى { فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى } [البقرة:256]، وهو ثناء على المسلمين.

{ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ } تذييل، إيماء إلى وعدهم بلقاء الكرامة عند الله في آخر أمرهم وهو الحياة الآخرة.

{ إِلَى اللَّهِ } التقديم للاهتمام والتنبيه إلى أنّ الراجع إليه يلاقي جزاءه وافيا.

العاقبة: الحالة الخاتمة والنهاية.

{ الْأُمُورِ } : جمع أمر وهو الشأن. والتعريف للاستغراق، وهو تعميم يراد به أنّ أمور المسلمين التي هي من مشمولات عموم الأمور صائرة إلى الله وموكولة إليه فجزاؤهم بالخير مناسب لعظمة الله.

{ وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } [23]

لمّا خلا ذمّ الذين كفروا عن الوعيد وانتقل منه إلى مدح المسلمين ووعدهم، عُطف عِنان الكلام إلى تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم بتهوين كفرهم عليه تسلية له وتعريضا بقلة العبء بهم لأنّ مرجعهم إلى الله فيريهم الجزاء المناسب لكفرهم، فهو تعريض لهم بالوعيد.

{ **فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ** } مجاز عقليّ في نهي الرسول عليه الصلاة والسلام عن مداومة الفكر بالحزن لأجل كفرهم، لأنّه إذا قلع ذلك من نفسه انتفى إحزان كفرهم إيّاه.

وقرأ نافع { **يُحْزِنْكَ** } (بضمّ التحتيّة وكسر الزاي) مضارع أحزنه إذا جعله حزينا. وقرأ البقية { **يَحْزُنْكَ** } (بفتح التحتية وضم الزاي) مضارع حزنه بذلك المعنى، وهما لغتان: الأولى لغة تميم، والثانية لغة قريش، والأولى أقيس وكلتاهما فصحى ولغة تميم من اللغات التي نزل بها القرآن.

{ **إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا** } واقعة موقع التعليل للنهي، وهي أيضا تمهيد لوعد الرسول صلى الله عليه وسلم بأنّ الله يتولّى الانتقام منهم المدلول عليه بقوله تعالى { فَنُنَبِّئُهُمْ }، كناية عن المجازاة.

{ **إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** } تعليل للجملة السابقة، فموقع حرف { إِنَّ } هنا مغن عن فاء التسبّب.

{ **بِذَاتِ الصُّدُورِ** } هي النوايا وأعراض النفس من نحو الحقد وتدبير المكر والكفر. ومناسبته هنا أنّ كفر المشركين بعضه إعلان وبعضه إسرار، قال تعالى {وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [الملك:13]، وتقدّم في قوله تعالى { إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } [الأنفال:43].

{ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ } [24].

استئناف بياني لأنّ قوله تعالى { إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا } [23] يثير في نفوس السامعين سؤالا عن عدم تعجيل الجزاء إليهم، فبيّن بأنّ الله يمهلهم زمنا ثم يوقعهم في عذاب لا يجدون منه منجى.

وهذا الاستئناف وقع معترضا بين الجمل المتعاطفة.

التمتيع: العطاء الموقّت، فهو إعطاء المتاع، أي: الشيء القليل.

{ **قَلِيلاً** } صفة لمصدر مفعول مطلق، أي: تمتيعا قليلا، وقلّته بالنسبة إلى ما أعدّ الله للمسلمين أو لقلّة مدّته في الدنيا بالنسبة إلى مدّة الآخرة، وتقدّم عند قوله تعالى { وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ } [الأعراف:24].

الاضطرار: الإلجاء، وهو جعل الغير ذا ضرورة، أي: لزوم، وتقدّم عند قوله تعالى { ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ } [البقرة:126].

الغليظ: من صفات الأجسام وهو القوي الخشن، وأطلق على الشديد من الأحوال على وجه الاستعارة بجامع الشدّة على النفس وعدم الطاقة على احتماله. وتقدّم قوله تعالى { وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ } [هود:58]، كما أطلق الكثير على القوي.

{ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } [25].

عطف على جملة { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا } [21] باعتبار أنّ ما وجدوا عليه آباءهم هو الإشراك مع الله في الإلهية، وإن سألهم سائل: من خلق السماوات والأرض

يقولوا خلقهن الله، وذلك تسخيف لعقولهم التي تجمع بين الإقرار لله بالخلق وبين اعتقاد إلهية غيره.
السماوات والأرض: يشمل ما فيها من المخلوقات، وتقدّم نظيرها في [العنكبوت:63]. وعُبّر هنا بـ { لَا يَعْلَمُونَ } وفي العنكبوت بـ { لَا يَعْقِلُونَ } تفنّنا في المخالفة بين القصّتين مع اتحاد المعنى.

{ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ } [26].

موقع هذه الجملة من التي قبلها موقع النتيجة من الدليل، فلذلك فُصلت ولم تعطف لأنّها بمنزلة بدل الاشتمال من التي قبلها، كما تقدّم آنفا في قوله تعالى { يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ } [16]، فإنّه لمّا تقرّر إقرارهم لله بخلق السماوات والأرض لزمهم إنتاج أنّ ما في السماوات والأرض ملك لله، ومن جملة ذلك أصنامهم.
{ **هُوَ** } ضمير فصل مفاده اختصاص الغِنى والحمد بالله تعالى، وهو قصر قلب، أي: ليس لآلهتهم المزعومة غنًى ولا تستحق حمدا.
{ **الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** } تقدم الكلام حولها في أوّل السورة [12].

{ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [27].

تكرّر فيما سبق من هذه السورة وصف الله تعالى بإحاطة العلم بجميع الأشياء ظاهرة وخفية، فقال فيما حكى من وصيّة لقمان { إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ - إلى قوله - لَطِيفٌ خَبِيرٌ } [16]، ثمّ قال { فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور } [23]، فعُقّب ذلك بإثبات أنّ لعلم الله تعالى مظاهر يبلغ بعضها إلى من اصطفاه من رسله بالوحي ممّا تقتضي الحكمة إبلاغه، وأنّه يستأثر بعلم ما اقتضت حكمته عدم إبلاغه، وأنّه لو شاء أن يبلّغ ما في علمه لما وفّت به مخلوقاته الصالحة لتسجيل كلامه (الأشجار والبحار).
وقد سُلك في هذا مسلك التقريب بضرب هذا المثل، وقد كان ما قُصَّ من أخبار الماضين موطّئا لهذا، فقد جرت قصة لقمان في هذه السورة كما جرت قصّة أهل الكهف وذي القرنين في سورة الكهف فعُقّبتا بقوله في آخر السورة { قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً } [الكهف:109] وهي مشابهة للآية التي في سورة لقمان. فهذا وجه اتصال هذه الآية بما قبلها من الآيات.
{ **كَلِمَاتُ** } جمع كلمة بمعنى الكلام، كما في قوله تعالى { كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا } [المؤمنون:100].
أي: الكلام المنبئ عن مراد الله من بعض مخلوقاته ممّا يخاطب به ملائكته وغيرهم من المخلوقات

والعناصر المعدودة للتكوّن التي يقال لها: كن فتكون، ومن ذلك ما أنزله من الوحي إلى رسله وأنبيائه.
وتقدّم قوله تعالى { وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ } [الأنفال:7].
الأقلام: جمع قلم وهو العود المشقوق ليُرفع به المداد ويكتب به.
{ **يَمُدُّهُ** } (بفتح الياء التحتية وضم الميم)، يزيده مِدادا. والمِداد (بكسر الميم) الحبر الذي يكتب به.
السبعة: تستعمل في الكناية عن كثرة كثيرا كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **والكافر يأكل في سبعة أمعاء**.
{ **مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ** } ما انتهت. أي: لو فُرض إرادة الله أن يُكتب كلامه كلّه صُحفًا ففُرضت الأشجار كلّها مقسّمة أقلاما، وفُرض أن يكون البحر مدادا فكُتب بتلك الأقلام وذلك المداد لنفد البحر ونفدت الأقلام وما نفدت كلمات الله في نفس الأمر.
وأمّا قوله تعالى { وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً } [الأنعام:115]، فالتمام هنالك بمعنى التحقّق والنفوذ.
{ **إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** } تذييل، فهو لعزّته لا يغلبه الذين يزعمون عدم الحاجة إلى القرآن ينتظرون انفحام الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو لحكمته لا تنحصر كلماته، لأن الحكمة الحقّ لا نهاية لها.

{ **مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** } [28].
استئناف بياني متعلّق بقوله تعالى { إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا } [23] لأنّه كلّما ذُكر أمر البعث هجس في نفوس المشركين استحالة إعادة الأجسام بعد اضمحلالها فيكثر في القرآن تعقيب ذكر البعث بالإشارة إلى إمكانه وتقريبه. وكانوا أيضا يقولون: إنّ الله خلقنا أطوارا؛ نطفة ثمّ علقة ثمّ مضغة ثمّ لحما وعظما فكيف يبعثنا خلقا جديدا في ساعة واحدة؟ وكيف يحيي جميع الأمم والأجيال التي تضمَّنتها الأرض في القرون الكثيرة؟ وكان أُبَي بن خلف وأبو الأسد (أو أبو الأسدين) ونُبيه، ومنبِّه،(ابنا الحجاج من بني سهم)، يقولون ذلك وربما أسرّ به بعضهم.
{ **مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ** } ضميرا المخاطبين مراد بهما جميع الخلق فهما بمنزلة الجنس، أي: ما خلق جميع الناس أوّل مرة ولا بعثهم، أي: خلقهم ثاني مرة، إلّا كخلق نفس واحدة لأنّ خلق نفس واحدة هذا الخلق العجيب دال على تمام قدرة الخالق تعالى. وفي الكلام التفات من الغيبة إلى الخطاب لقصد مجابهتهم بالاستدلال المفحم.
{ **إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ** } حذف مضاف، والتقدير: إلّا كخلق وبعث نفس واحدة.
{ **إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** } إمّا واقعة موقع التعليل لكمال القدرة على ذلك الخلق العجيب استدلالا بإحاطة علمه تعالى بالأشياء والأسباب وتفاصيلها وجزئياتها، وإمّا واقعة موقع الاستئناف البياني لما ينشأ عن الإخبار بأنّ بعثهم كنفس واحدة من تعجّب فريق ممّن أسرّوا إنكار البعث في نفوسهم.

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } [29].

استدلال على إمكان البعث بقياس التمثيل بإمكان ما هو أعظم منه من شؤون المخلوقات بعد أن استدلّ عليه بالقياس الكلّي الذي اقتضاه قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ } [28] من إحاطة العلم الإلهي بالمعلومات المقتضي إحاطة قدرته بالممكنات لأنّها جزئيات المعلومات وفرع عنها.

والخطاب لغير معيّن، والمقصود به المشركون بقرينة { وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ }.

والرؤية علمية. والاستفهام لإنكار عدم الرؤية بتنزيل العالمين منزلة غير عالمين لعدم انتفاعهم بعلمهم.

الإيلاج: الإدخال. وهو هنا تمثيل لتعاقب الظلمة والضياء بولوج أحدهما في الآخر، كقوله تعالى { وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ } [يس:37]. وتقدّم في قوله تعالى { تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ } [آل عمران:27]، وقوله تعالى { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ } [الحج:61]، مع اختلاف الغرضين.

{ **يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ** } الابتداء بالليل لأنّ أمره أعجب كيف تغشى ظلمته تلك الأنوار النهارية، والجمع بين إيلاج الليل وإيلاج النهار لتشخيص تمام القدرة.

والكلام على تسخير الشمس والقمر مضى في [الأعراف:53].

الجري: المشي السريع، استعير لانتقال الشمس في فلكها وانتقال الأرض حول الشمس وانتقال القمر حول الأرض تشبيها بالمشي السريع لأجل شسوع المسافات التي تُقطع في خلال ذلك.

{ **إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً** } للإشارة إلى أنّ لهذا النظام الشمسي أمدا يعلمه الله فإذا انتهى ذلك الأمد بطل ذلك التحرّك والتنقل، وهو الوقت الذي يؤذن بانقراض العالم، فهذا تذكير بوقت البعث.

<u>فيجوز</u> أن يكون { إِلَى أَجَلٍ } ظرفا لغوًا متعلقا بفعل { يَجْرِي }، أي: ينتهي جريه عند أجل معين عند الله لانتهاء سيرهما. <u>ويجوز</u> أن يكون { إِلَى أَجَلٍ } متعلقا بفعل { سَخَّرَ }، أي: جعل نظام تسخير الشمس والقمر منتهيا عند أجل مقدّر.

{ **وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** } عطف على { أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ }، فهو داخل في الاستفهام الإنكاري بتنزيل العالم منزلة غيره لعدم جريه على موجب العلم.

{ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ } [30].

موقع هذه الجملة موقع النتيجة من الدليل فلها حكم بدل الاشتمال ولذلك فُصلت ولم تعطف، فإنّهم معترفون بأنّ الله هو فاعل ذلك فلزمهم الدليل ونتيجته.

والمعنى: أنّ إيلاج الليل في النهار وعكسه وتسخير الشمس والقمر مسبَّب عن انفراد الله تعالى بالإلهية.

{ **هُوَ** } ضمير الفصل مفيد للاختصاص، أي: هو الحق لا أصنامكم ولا غيرها.

{ **الْحَقُّ** } هنا بمعنى الثابت، ويُفهم أنّ المراد حقّيّة ثبوت إلهيته بقرينة السياق ولمقابلته بقوله تعالى { وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ }، والمعنى: لمّا كان ذلك الصنع البديع مسبَّبا عن انفراد الله بالإلهية كان ذلك أيضا دليلا على انفراد الله بالإلهية للتلازم بين السبب والمسبّب. والتعريف في { الْحَقُّ - الْبَاطِلُ } تعريف الجنس.

{ **وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ** } لم يؤت بضمير الفصل في الشق الثاني لأنّ ما يدعونه من دون الله من أصنامهم يشترك معها في أنّه باطل. وذكر ضمير الفصل في نظيره من [الحج:73] لاقتضاء المقام ذلك.

{ **وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ** } واقع موقع الفذلكة لما تقدّم من دلالة إيلاج الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر لأنّه إذا استقر أنّ ما ذُكر دال على أنّ الله هو الحق بالإلهية، ودال على أنّ ما يدعونه باطل، ثبت أنّه العلي الكبير دون أصنامهم.

{ **هُوَ** } ضمير الفصل هنا للدلالة على الاختصاص وسلب العلو والعظمة عن أصنامهم.

{ **الْعَلِيُّ** } صفة مشتقّة من العلو المعنوي المجازي وهو القدسيّة والشرف.

{ **الْكَبِيرُ** } وصف مشتق من الكبر المجازي وهو عظمة الشأن. وتقدّم نظير هذه الآية في [الحج:63].

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ [31] وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ [32] }.

استئناف جاء على سنن الاستئنافين اللذين قبله في قوله تعالى { أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } [20]، وقوله تعالى { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ } [29]، وجيء بها غير متعاطفة لئلّا يتوهم السامع أنّ العطف على ما تخلّل منها، وجاء هذا الاستئناف الثالث دليلا ثالثا على عظيم حكمة الله في نظام هذا العالم وتوفيق البشر للانتفاع بما هيّأه الله لانتفاعهم به.

{ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ** } لمّا أتى الاستئنافان الأوّلان على دلائل صنع الله في السماوات والأرض جاء في هذا الثالث دليل على بديع صنع الله بخلق البحر وتيسير الانتفاع به في إقامة نظام المجتمع البشري. وتخلّص منه إلى اتخاذ فريق من الناس موجبات الشكر دواعي كفر.

فكان خلق البحر على هذه الصفة العظيمة ميسّرا للانتفاع بالأسفار فيه حين لا تغني طرق البر في التنقل فجعله قابلا لحمل المراكب العظيمة، وألهم الإنسان لصنع تلك المراكب على كيفية تحفظها من الغرق في عباب البحر، وعصمهم من توالي الرياح والموج في أسفارهم، وهداهم إلى الحيلة في مصانعتها إذا طرأت حتّى تنجلي، ولذلك وصف هذا الجري بملابسة نعمة الله، فإنّ الناس كلّما مخرت بهم الفلك في

البحر كانوا ملابسين لنعمة الله عليهم بالسلامة إلّا في أحوال نادرة، وقد سُمّيت هذه النعمة أمرا في قوله تعالى { وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ } [الحج:65]، أي: بتقديره ونظام خلقه.

وتقدّم تفصيل ذلك في قوله تعالى { فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ } [العنكبوت:65]، وفي قوله تعالى { هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ } [يونس:22]، وفي قوله تعالى { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ } [الحج:65].

{ **لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ** } يتعلّق بـ { تَجْرِي } أي: تجري في البحر جريا، علّةُ خلقه أن يريكم الله بعض آياته.

المعنى: أن جري السفن فيه حكم كثيرة مقصودة من تسخيره، منها أن يكون آية للناس على وجود الصانع ووحدانيّته وعلمه وقدرته.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ** } لها موقع التعليل للجملة السابقة. ولها موقع الاستئناف البياني إذ يخطر ببال السامع أن يسأل: كيف لم يهتد المشركون بهذه الآيات؟ فأفيد أنّ الذي ينتفع بدلالتها على مدلولها هو { كُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ }، ثناء على هذا الفريق صريحا، وتعريضا بالذين لم ينتفعوا بدلالتها.

{ **إِنَّ** } يفيد في مثل هذا المقام معنى التعليل والتنسيب.

{ **لَآيَاتٍ** } جعل ذلك عدّة آيات لأنّ في ذلك دلائل كثيرة.

الصبّار: مبالغة في الموصوف بالصبر، و**الشكور** كذلك. أي: الذين لا يفارقهم الوصفان. وهذان وصفان للمؤمنين الموحّدين في الصبر للضراء والشكر للسراء، إذ يرجون بهم رضى الله تعالى الذي لا يتوكّلون إلّا عليه في كشف الضر والزيادة من الخير. فهم بين رجاء الثواب وخوف العقاب، فصارا لهم خلقا تطبّعوا به.

ووجه إيثار خلقي الصبر والشكر هنا للكناية بهما، من بين شُعب الإيمان، أنّهما أنسب بمقام السير في البحر، إذ راكب البحر بين خطر وسلامة، كما تقدّم في قوله تعالى { هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ } [يونس:22].

{ **وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ** } إشارة إلى أنّ الناس يذكرون الله عند تلك الآيات عند الاضطرار، وغفلتهم عنها في حال السلامة، وهو ما تقدّم مثله عند قوله تعالى { فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ } [العنكبوت:65]، وقوله تعالى { حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ } [يونس:22].

الغشيان: مستعار للمجيء لأنّه يشبه التغطية، وتقدّم في قوله تعالى { يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ } [الأعراف:54].

الظُّلَل: (بضم الظاء وفتح اللام) جمع ظُلَّة (بالضم) وهي: ما أظلّ من سحاب.

{ **فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ** } الفاء تدلّ على مقدّر كأنّه قيل: فلما نجّاهم انقسموا فمنهم مقتصد ومنهم غيره.

المقتصد: الفاعل للقصد وهو التوسّط بين طرفين، وقد يطلق على الذي يتوسّط حاله بين الصلاح وضدّه،

كما في قوله تعالى { مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ } [المائدة:66].
وعُلم أنّ هنالك قسما ثالثا وهو الموقن بالآيات الشاكر للنعمة، وأولئك هم المؤمنون، قال تعالى { فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ } [فاطر:32].
{ **وَمَا يَجْحَدُ بِآياتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ** } تذييل لأنّها تعمّ كلّ جاحد سواء من جحد آية سير الفلك وهول البحر، ومن يجحد نعمة الله عليه بالنجاة، ومن يجحد غير ذلك من آيات الله ونعمه.
الجحود: الإنكار والنفي. وتقدّم عند قوله تعالى { وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ } [الأنعام:33].
{ **بِآيَاتِنَا** } في الانتقال من الغيبة إلى التكلّم التفات. والباء لتأكيد تعدية الفعل إلى المفعول، كما في قوله تعالى { وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ } [المائدة:6].
الختّار: شديد الختر، والختر: أشد الغدر. و**الكفور**: هو المفرط في الكفر.

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ } [33].
{ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ** } إن لم يكن خطابا خاصا بالمشركين فهو عام لجميع الناس كما تقرّر في أصول الفقه، فيعمّ المؤمن والمشرك والمعطِّل في ذلك الوقت وفي سائر الأزمان، إذ الجميع مأمورون بتقوى الله.
وقد كان فيما سبق من السورة حظوظ للمؤمنين وحظوظ للمشركين فلا يبعد أن تُعقَّب بما يصلح لكلا الفريقين. وإن كان الخطاب خاصا بالمشركين، جريا على ما روي عن ابن عباس أنّ { يَا أَيُّهَا النَّاسُ } خطاب لأهل مكة، فالمراد بالتقوى: الإقلاع عن الشرك.
وموقع هذه الآية بعد ما تقدّمها من الآيات موقع مقصد الخطبة بعد مقدّماتها، إذ كانت المقدّمات الماضية قد هيأت النفوس إلى قبول الهداية والتأثر بالموعظة الحسنة، ولاعتبار هذا الموقع جُعلت الجملة استئنافا لأنّها بمنزلة الفذلكة والنتيجة.
{ **اتَّقُوا رَبَّكُمْ** } والتقوى تبتدئ من الاعتراف بوجود الخالق ووحدانيّته وتصديق الرسول صلى الله عليه وسلم وتنتهي إلى اجتناب المنهيّات وامتثال المأمورات في الظاهر والباطن في سائر الأحوال. وتقدّم تفصيلها عند قوله تعالى { هُدىً لِلْمُتَّقِينَ } [البقرة:2]. وتقدّم نظير هذا في [الحج:32].
{ **وَاخْشَوْا يَوْماً** } الخوف من أهوال ما يقع فيه إذ الزمان لا يخشى لذاته. والأمر بخشيته تتضمّن تأكيد وقوعه، فهو كناية عن إثبات البعث.
{ **لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ** } صفة يوم وحذف منها العائد المجرور بـ (في) توسّعا.
جزى: إذا عُدِّي بـ (عَنْ) فهو بمعنى قضى عنه ودفع عنه، ولذلك يقال للمتقاضي: المتجازي.
{ **وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً** } عطف على الصفة.
وذكر الوالد والولد هنا لأنّهما أشدّ محبة وحميّة من غيرهما، فيُعلم أنّ غيرهما أولى بهذا النفي، كما في

قوله تعالى { يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ } [عبس:35/34].

وابتدئ بـ { وَالِدٌ } لأنّه أشد شفقة على ابنه فلا يجد له مخلصا من سوء إلّا فعله.

ووجه اختيار هذه الطريقة في إفادة عموم النفي هنا دون طريقة قوله تعالى { وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً } [البقرة:123]، أنّ هذه الآية نزلت بمكة وأهلها يومئذ خليط من مسلمين وكافرين، وربّما كان الأب مسلما والوالد كافرا وربما كان العكس. وقد يتوهّم بعض الكافرين حين تداخلهم الظنون في مصيرهم بعد الموت أنّه إذا ظهر صدق وعيد القرآن إيّاهم فإنّ من له أب مسلم أو ابن مسلم يدفع عنه هنالك.

ثم أوثرت جملة { وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً } بطرق من التوكيد لم تشتمل على مثلها جملة { لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ }، فإنّها نظمت جملة أسمية، ووسّط فيها ضمير الفصل، وجُعل النفي فيها منصبا إلى الجنس. ونكتة هذا الإيثار مبالغة تحقيق عدم جُزْءِ هذا الفريق عن الآخر إذ كان معظم المؤمنين من الأبناء والشباب، وكان آباؤهم وأمّهاتهم في الغالب على الشرك، مثل أبي قحافة والد أبي بكر، وأبي طالب والد علي، وأم سعد بن أبي وقاص، وأمّ أسماء بنت أبي بكر، فأريد حسم أطماع آبائهم وما عسى أن يكون من أطماعهم أن ينفعوا آباءهم في الآخرة بشيء.

فهذا تعكيس للترقيق الدنيوي في قوله تعالى { وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً } [الإسراء:24]، وقوله تعالى { وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً } [15].

{ **إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ** } علة لجملتي { اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً }. والتأكيد مراعاة لمنكري البعث.

وعد الله: هو البعث، قال تعالى { وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ } [سبأ:30/29].

{ **فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا** } فُرّع على هذا التأكيد إبطال شبهتهم، أي: لا تغرنّكم حالة الحياة الدنيا بأن تتوهَّموا الباطل حقًّا والضرَّ نفعا، فإسناد التغرير إلى الحياة الدنيا مجاز عقلي لأنّ الدنيا ظرف الغرور أو شبهته، وفاعل التغرير حقيقة هم الذين يضلّونهم بالأقيسة الباطلة، فذُكرت هنا وسيلة التغرير وشبهته ثم ذكر بعده الفاعل الحقيقي للتغرير وهو الغَرور.

{ **وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ** } عطف لأنّه أدخل في تحذيرهم ممّن يُلقون إليهم الشبه أو من أوهام أنفسهم التي تخيّل لهم الباطل حقًّا.

{ **بِاللَّهِ** } هي كالباء في قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ } [الانفطار:6].

{ **الْغَرُورُ** } (بفتح الغين) من يكثر منه التغرير، والمراد به الشيطان بوسوسته.

{ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } [34].

كان من جملة غرورهم في نفي البعث أنّهم يجعلون عدم إعلام الناس بتعيين وقته أمارة على أنّه غير واقع، قال تعالى { وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [يونس: 48]، وقال تعالى { وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا } [الشورى:18/17]، فلما جرى في الآيات قبلها ذكر يوم القيامة أعقبت بأنّ وقت الساعة لا يعلمه إلّا الله.

{ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ } مستأنفة استئنافا بيانيّا لوقوعها جوابا عن سؤال مقدّر في نفوس الناس.

والجمل الأربع التي بعدها إدماج لجمع نظائرها تعليما للأمّة.

{ إِنَّ } أفاد التأكيد تحقيق علم الله تعالى بوقت الساعة وذلك يتضمّن تأكيد وقوعها.

{ عِنْدَهُ } إشارة إلى اختصاصه تعالى بذلك العلم لأنّ العنديّة شأنها الاستئثار. والتقديم يفيد التخصّص بالقرينة الدالة على أنّه ليس مراد به مجرّد التقوّي.

{ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ } المقصود أيضا عنده علم وقت نزول الغيث وليس المقصود مجرّد الإخبار بأنّه ينزل الغيث لأن ذلك ليس ممّا ينكرونه. ونُظمت الجملة بأسلوب الفعل المضارع ليحصل مع الدلالة على الاستئثار بالعلم به الامتنان بذلك المعلوم الذي هو نعمة.

وفي اختيار الفعل المضارع إفادة أنّه يُجدّد إنزال الغيث المرّة بعد المرّة عند احتياج الأرض.

{ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ } أي: ينفرد بعلم جميع أطواره من نطفة وعلقة ومضغة ثم من كونه ذكرا أو أنثى وإبان وضعه بالتدقيق. وجيء بالمضارع لإفادة تكرّر العلم بتبدل تلك الأطوار والأحوال.

{ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ } هذا النفي للدراية بهذين الأمرين عن كل نفس فيه كناية عن إثبات العلم بما تكسب كل نفس والعلم بأي أرض تموت فيها كل نفس إلى الله تعالى، فحصلت إفادة اختصاص الله تعالى بهذين العلمين، فكانا في صميمة ما انتظم معهما ممّا تقدمهما.

{ وَمَا تَدْرِي } عُبّر في جانب نفي معرفة الناس بفعل الدراية لأنّ الدراية علم فيه معالجة للاطلاع على المعلوم، ولذلك لا يُعبّر بالدراية عن علم الله تعالى فلا يقال: الله يدري كذا.

فيفيد: انتفاء علم الناس بعد الحرص على علمه.

ولُقّبت هذه الخمسة في كلام النبيّ صلى الله عليه وسلم بـ **(مفاتح الغيب)** وفُسّر بها قوله تعالى { وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ } [الأنعام:59]، ففي صحيح البخاري من حديث ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **" مفاتح الغيب خمس "** ثم قرأ { إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ }.

{ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } مستأنفة ابتدائية واقعة موقع النتيجة لما تضمّنه الكلام السابق من إبطال شبهة المشركين بقوله تعالى { إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا } [33] كموقع قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ

لَطِيفٌ خَبِيرٌ} [16] عقب قوله تعالى { إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ } [16].

والمعنى: أنّ الله عليم بمدى وعده خبير بأحوالكم. والجمع بين الصفتين لأنّ الثانية أخصّ.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة السجدة

أشهر أسماء هذه السورة هو (**سورة السجدة**)، وهو أخصر أسمائها، وهو المكتوب في السطر المجعول لاسم السورة من المصاحف المتداولة. وبهذا الاسم ترجم لها الترمذي في جامعه.

وتُسمّى أيضا (**ألم تَنْزِيلُ**)، روى الترمذي عن جابر بن عبد الله: " إنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان لا ينام حتى يقرأ { ألم تَنْزِيلُ } [السجدة:2/1] و { تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ } [الملك: 1].

وتسمّى (**ألم تنزيل السجدة**). ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة: " كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يقرأ يوم الجمعة في صلاة الفجر (ألم تنزيل السجدة) و{ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ } [الانسان:1] ".

وتسمّى (**سورة المضاجع**) لوقوع لفظ (المضاجع) في قوله تعالى { تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ } [16].

والذي نعوّل عليه أنّ السورة **كلّها مكية** وأنّ ما خالف ذلك إن هو إلّا تأويل أو إلحاق خاص بعام كما أصَّلنا في المقدمة الخامسة.

نزلت بعد سورة النحل وقبل سورة نوح، وقد **عدّت الثالثة والسبعين** في النزول.

وعدّت آياتها عند جمهور العادين ثلاثين، وعدّها البصريون سبعا وعشرين.

أغراض السورة

*/ التنويه بالقرآن أنّه منزَّل من عند الله.

*/ توبيخ المشركين على ادعائهم أنّه مفترى، بأنّهم لم يسبق لهم التشرّف بنزول كتاب.

*/ الاستدلال على إبطال إلهية أصنامهم بإثبات انفراد الله بأنّه خالق السماوات والأرض ومدبّر أمورهما.

*/ ذكر البعث والاستدلال على كيفية بدء خلق الإنسان ونسله، وتنظيره بإحياء الأرض، وأدمج في ذلك أنّ إحياء الأرض نعمة عليهم كفروا بمُسْدِيها. والإنحاء على الذين أنكروه ووعيدهم. والثناء على المصدّقين

بآيات الله ووعدهم، ومقابلة إيمانهم بكفر المشركين.

*/ إثبات رسالة رسول عظيم قبل محمد صلى الله عليه وسلم هدى به أمّة عظيمة.

*/ التذكير بما حلّ بالمكذّبين السابقين ليكون ذلك عظة للحاضرين، وتهديدهم بالنصر الحاصل للمؤمنين.

*/ ختم ذلك بانتظار النصر. وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالإعراض عنهم تحقيرا لهم.

{ **الم** } [1].
تقدّم القول في نظائره.

{ **تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ** } [2].
افتتحت السورة بالتنويه بشأن القرآن لأنّه جامع الهدى الذي تضمّنته هذه السورة وغيرها، ولأنّ جماع ضلال الضالين هو التكذيب به. فالله جعل القرآن هدى للنّاس وخصّ العرب بأن شرّفهم بجعلهم أوّل من يتلقى هذا الكتاب، وبأن أنزله بلغتهم.
وافتتاح الكلام بالجملة الاسمية لدلالتها على الدوام والثبات.
{ **تَنْزِيلُ الْكِتَابِ** } جيء بالمسند إليه معرّفا بالإضافة لإطالته ليحصل بتطويله ثم تعقيبه بالجملة المعترضة { **لا رَيْبَ فِيهِ** } التشويق إلى معرفة الخبر وهو قوله تعالى { مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ }. وإنّما عدل عن أسلوب { ألم ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ } [البقرة:2/1] لأنّ تلك السورة نازلة بين ظهراني المسلمين ومن يرجى إسلامهم من أهل الكتاب { الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ } [البقرة:4]، وأمّا هذه السورة فقد جابه الله بها المشركين الذين لا يؤمنون بالإله الواحد ولا يوقنون بالآخرة فهم أصلب عودا، وأشد كفرا وصدودا.
{ **لَا رَيْبَ فِيهِ** } أي: أنّه ليس لأحد أن يرتاب في تنزيله من رب العالمين لما حفّ بتنزيله من الدلائل القاطعة بأنّه ليس من كلام البشر بسبب إعجاز أقصر سورة منه فضلا عن مجموعه، وما عضده من حال المرسل به من شهرة الصدق والاستقامة، مع ما هو معلوم من وصف الأمّيّة.
فالذين كذّبوا أن يكون من عند الله لا يعدون أن يكونوا متعنّتين على علم، أو جهّالا يقولون قبل أن يتأمّلوا وينظروا، والأوّلون زعماؤهم والأخيرون دهماؤهم، وقد تقدم ذلك في أوّل سورة البقرة.
{ **مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ** } استحضار الجلالة بطريق الإضافة دون الاسم العلم وغيره من طرق التعريف لما فيه من الإيماء إلى عموم الشريعة وكون كتابها منزّلا للناس كلّهم بخلاف ما سبق من الكتب الإلهية، كما قال تعالى { مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ } [المائدة:48].

{ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ**} [3].
جاءت هذه الآية على أسلوب بديع الإحكام، إذ ثبت أنّ الكتاب تنزيلٌ من ربّ جميع الكائنات وأنّه يحقّ ألّا يرتاب فيه مرتاب، ثمّ انتقل هنا إلى الإنكار والتعجيب من الذين جزموا بأنّ الجائي به مفتر على الله، فردّ عليهم بإثبات أنّه الحق الكامل من ربّ الذي نسبوا إليه افتراءه { **رَبِّكَ** }، ثمّ جاء بما هو أنكى للمكذّبين

وأبلغ في تسفيه أحلامهم وأوغلُ في النداء على إهمالهم النظر في دقائق المعاني، فبيّن ما فيه تذكرة لهم ببعض المصالح التي جاء لأجلها هذا الكتاب { لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ }.

{ **أَمْ** } للإضراب عن الكلام السابق إضراب انتقال، وهي المنقطعة التي بمعنى (بل) التي للإضراب. وحيثما وقعت (أَمْ) فهي مؤذنة باستفهام بالهمزة بعدها الملتزم حذفها. والاستفهام المقدّر بعدها هنا تعجيبي لأنّهم قالوا هذا القول الشنيع وعلمه الناس عنهم فلا جرم كانوا أحقّاء بالتعجيب من حالهم ومقالهم لأنّهم أبدوا به أمرا غريبا، إذ دلائل انتفاء الريب عن كونه من رب العالمين واضحة بله الجزم بأنّه مفترى على الله تعالى.

{ **يَقُولُونَ** } صيغة المضارع لاستحضار حالة ذلك القول تحقيقا للتعجيب منه حتّى لا تغفل عن حال قولهم أذهان السامعين. وفي المضارع مع ذلك إيذان بتجدّد مقالتهم هذه وأنّهم لا يقلعون عنها على الرغم ممّا جاءهم من البيّنات، ورغم افتضاحهم بالعجز عن معارضته.

{ **افْتَرَاهُ** } الضمير المرفوع عائد إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّه معلوم من مقام حكاية مقالهم المشتهر بين الناس، والضمير المنصوب عائد إلى { الْكِتَابُ } [2].

{ **بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ** } أضرب على قولهم { افْتَرَاهُ } إضراب إبطال لإثبات أنّ القرآن حقّ.

الحقّ: الصدق، أي: فيما اشتمل عليه الذي منه أنه منزّل من الله تعالى. والتعريف تعريف الجنس.

{ **مِنْ رَبِّكَ** } في موضع حال من { الْحَقُّ }. وكاف الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم. واستُحضرت الذات العليّة هنا بعنوان { رَبِّكَ } لأنّ الكلام جاء ردًّا على قولهم { افْتَرَاهُ } يعنون النبيّ صلى الله عليه وسلم، فكان مقام الردّ مقتضيا تأييد من ألصقوا به ما هو بريء منه تنويها بشأن الرسول عليه الصلاة والسلام وتخلُّصا إلى تصديقه، لأنّه إذا كان الكتاب الذي جاء به حقّا من عند الله فهو رسول الله حقًّا.

{ **لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ** } بيّن ما فيه تذكرة لهم ببعض المصالح التي جاء لأجلها هذا الكتاب. فهم كانوا أحوج إلى اتّباعه من اليهود والنصارى والمجوس، حيث لم تسبق لهم رسالة مرسل فكانوا أبعد عن طرق الهدى بما تعاقب عليهم من القرون دون دعوة رسول، فكان ذلك كافيا في حرصهم على التمسّك به وشعورهم بمزيد الحاجة إليه رجاء منهم أن يهتدوا، قال تعالى { وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا } [الأنعام:155-175].

القوم: الجماعة العظيمة الذين يجمعهم أمر هو كالقِوام لهم من نسب أو موطن أو غرض تجمّعوا بسببه. وأكثر إطلاقه على الجماعة الذين يرجعون في النسب إلى جدّ اختصّوا بالانتساب إليه.

{ **مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ** } وصف القوم بأنّهم {مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ} قبل النبيّ صلى الله عليه وسلم والنبيّ حينئذ يدعو أهل مكة ومن حولها إلى الإسلام وربما كانت الدعوة شملت أهل يثرب وكلّهم من

العرب فظهر أنّ **المراد بالقوم العرب** الذين لم يأتهم رسول قبل محمد عليه الصلاة والسلام.

فإمّا أن يكون المراد قريشا خاصة، أو عرب الحجاز أهل مكة والمدينة وقبائل الحجاز، وعرب الحجاز جذمان عدنانيون وقحطانيون:

فأمّا **العدنانيّون** فهم أبناء عدنان وهم من ذريّة إسماعيل، وإنّما تقوّمت قوميّتهم في أبناء عدنان: وهم مضر، وربيعة، وأنمار، وإياد. وهؤلاء لم يأتهم رسول منذ تقوّمت قوميتهم. وأمّا جدهم إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام فإنّه وإن كان رسولا نبيّا، كما وصفه الله تعالى في سورة مريم، فإنّما كانت رسالته خاصة بأهله وأصهاره من جرهم ولم يكن مرسلا إلى الذين وُجدوا بعده لأنّ رسالته لم تكن دائمة ولا منتشرة، قال تعالى { وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ } [مريم:55].

وأمّا **القحطانيّون** القاطنون بالحجاز مثل الأوس والخزرج وطيء فإنّهم قد تغيّرت فرقهم ومواطنهم بعد سيل العرم وانقسموا أقواما جددا ولم يأتهم نذير منذ ذلك الزمن وإن كان المنذرون قد جاؤوا أسلافهم مثل هود وصالح وتبّع، فذلك كان قبل تقوّم قوميتهم الجديدة.

وإمّا أن يكون المراد العرب كلهم بما يشمل أهل اليمن واليمامة والبحرين وغيرهم ممن شملتهم جزيرة العرب وكلّهم لا يعدون أن يرجعوا إلى ذينك الجذمين، وقد كان انقسامهم أقواما ومواطن بعد سيل العرم ولم يأتهم نذير بعد ذلك الانقسام، كما تقدّم في حال القحطانيين من أهل الحجاز.

وأمّا ما ورد من ذكر **حنظلة بن صفوان** صاحب أهل الرس، و**خالد بن سنان** صاحب بني عبس فلم يثبت أنهما رسولان واختلف في نبوّتهما. وقد روي أنّ ابنة خالد بن سنان وفدت إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم وهي عجوز وأنّه قال لها: " مرحبا بابنة نبيّ ضيّعه قومه "، **وليس لذلك سند صحيح**.

وأيًّا ما كان فالعرب كلّهم أو الذين شملتهم دعوة الإسلام يومئذ يحقّ عليهم وصف { مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ } من وقت تحقّق قوميّتهم.

والمقصود: تذكيرهم بأنّهم أحوج الأقوام إلى نذير، إذ لم يكونوا على بقيّة من هدى، وإثارة هممهم ليتقبّلوا الكتاب الذي أنزل إليهم ويسبقوا أهل الكتاب إلى اتّباعه، فيكون للمؤمنين منهم السبق في الشرع الأخير.

وقد اهتم بعض أهل الأحلام من العرب بتطلّب الدين الحق فتهوّد كثير من عرب اليمن، وتنصّرت طيء، وكلب، وتغلب وغيرهم من نصارى العرب. وتتبّع الحنيفيّة نفر مثل قس بن ساعدة، وزيد بن عمرو بن نفيل، وأمية بن أبي الصلت، وكان ذلك تطلُّبا للكمال ولم يأتهم رسول بذلك.

وهذا التعليل لا يقتضي اقتصار الرسالة الإسلامية على هؤلاء القوم ولا ينافي عموم الرسالة لمن أتاهم نذير، لأنّ لام العلة لا تقتضي إلّا كون ما بعدها باعثا على وقوع الفعل الذي تعلّقت به دون انحصار باعث الفعل في تلك العلة، فإن الفعل الواحد قد يكون له بواعث كثيرة، وأفعال الله تعالى منوطة بحكم عديدة، ودلائل عموم الرسالة متواترة من صريح القرآن والسنة ومن عموم الدعوة.

{ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ } مستعارة تمثيلا لإرادة اهتدائهم والحرص على حصوله.

{ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ } [4].

لمّا كان الركن الأعظم من أركان هدى الكتاب هو إثبات الوحدانية للإله وإبطال الشرك عُقّب الثناء على الكتاب بإثبات هذا الركن. وتقدّم تفسير نظير هذه الآية في [الأعراف:54].

{ **اللَّهُ** } جيء باسم الجلالة مبتدأ لإحضاره في الأذهان بالاسم المختصّ به قطعا لدابر عقيدة الشريك في الإلهية، والخبر جملة { مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ }، ويكون قوله تعالى { الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا } صفة لاسم الجلالة.

والخطاب موجّه إلى المشركين على طريقة الالتفات.

{ **مِنْ دُونِهِ** } (مِنْ) هنا ابتدائية في محل الحال من ضمير { لَكُمْ }، و(دون) بمعنى غير.

{ **مِنْ وَلِيٍّ** } (مِنْ) هنا زائدة لتأكيد النفي، أي: لا ولي لكم ولا شفيع لكم غير الله فلا ولاية للأصنام ولا شفاعة لها إبطالا لما زعموه لأصنامهم من الوصفين.

الوليّ: مشتق من الولاء بمعنى العهد والحلف والقرابة. ومن لوازم حقيقة الولاء النصر والدفاع عن المولى. وأريد بالولي هنا المشارك في الربوبيّة.

الشفيع: الوسيط في قضاء الحوائج من دفع ضرّ أو جلب نفع. والمشركون زعموا أَن الأصنام آلهة شركاء لله في الإلهية ثم قالوا { هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ } [يونس:18]، وقالوا { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى } [الزمر:3]

{ **أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ** } استفهام إنكاري. و**التذكّر**: مشتقّ من الذُكر (بضم الذال) وهو التفكّر والنظر بالعقل.

{ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ} [5].

{ **يُدَبِّرُ الْأَمْرَ** } في موضع الحال من اسم الجلالة في قوله تعالى { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ } [4]، أي: خلق تلك الخلائق مدبِّرا أمرها. <u>ويجوز</u> أن تكون الجملة استئنافا.

{ **مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ** } المقصود من حرفي الابتداء والانتهاء شمول تدبير الله تعالى الأمور كلّها في العالمين العلوي والسفلي تدبيرا شاملا لها من السماء إلى الأرض.

التدبير: حقيقته التفكير في إصدار فعل متقن أوّله وآخره، وهو مشتقّ من دُبُر الأمر، أي: آخِرَه، لأنّ التدبير النظر في استقامة الفعل ابتداء ونهاية. وهو إذا وصف به الله تعالى كناية عن لازم حقيقته وهو <u>تمام الإتقان</u>. وتقدّم شيء من هذا في [يونس:3]، و[الرعد:2].

{ **الْأَمْرَ** } الشأن للأشياء ونظامُها وما به تقوّمها. والتعريف فيه للجنس وهو مفيد لاستغراق الأمور كلّها.

العروج: الصعود. وضمير { يَعْرُجُ } عائد على { الْأَمْرَ }، وتعديته بحرف الانتهاء (إلى) مفيدة أنّ تلك الأمور المدبَّرة تصعد إلى الله تعالى، فالعروج هنا مستعار إلى تصرّف الخالق. ولمّا كان الجلال يُشبَّه بالرفعة في مستعمل الكلام شُبِّه المصير إلى ذي الجلال بانتقال الذوات إلى المكان المرتفع، وهو المعبّر عنه في اللغة بالعروج، كما قال تعالى { إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ } [فاطر:10].

{ **ثُمَّ** } للتراخي الرتبي لأنّ مرجع الأشياء إلى تصرّفه بعد صدورها من لدنه أعظم وأعجب.

وقد أفاد التركيب أنّ تدبير الأمور من السماء إلى الأرض من وقت خلقهما وخلق ما بينهما يستقرّ على ما دُبِّر عليه كل بحسب ما يقتضيه حال تدبيره من استقراره، ثم يُجمع ذلك كلّه فيصير إلى الله مصيرا مناسبا لحقائقه، فذلك المصير هو المُعبّر عنه بالعروج إلى الله، فيكون الحساب على جميع المخلوقات يومئذ.

{ **فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ** } هو اليوم الذي جاء ذكره في قوله تعالى { وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ } [الحج:47].

والمقصود: التنبيه على عظم القدرة وسعة ملكوت الله وتدبيره. ويظهر أنّ هذا اليوم هو يوم الساعة، أي: ساعة اضمحلال العالم الدنيوي، وليس اليوم المذكور هنا هو يوم القيامة المذكور في [المعارج:4]، قاله ابن عباس، ولم يعيّن واحدا منهما.

{ **أَلْفَ** } عند العرب منتهى أسماء العدد وما زاد على ذلك من المعدودات يعبّر عنه بأعداد أخرى مع عدد الألف كما يقولون خمسة آلاف، ومائة ألف، وألف ألف. <u>يجوز</u> أن يستعمل كناية عن الكثرة الشديدة كما يقال: زرتك ألف مرّة، وقوله تعالى { يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ } [البقرة:96].

<u>ويجوز</u> أن يكون مستعملا في صريح معناه.

{ **مِمَّا تَعُدُّونَ** } ممّا تحسبون في أعدادكم.

{ **ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** } [6].

جيء بالإشارة إلى اسم الجلالة بعدما أجري عليه من أوصاف التصرّف بخلق الكائنات وتدبير أمورها للتنبيه على أنّ المشار إليه باسم الإشارة حقيق بما يرد بعده من أجل تلك الصفات المتقدّمة.

لا جرم أنّ المتصرّف بذلك الخلق والتدبير عالم بجميع مخلوقاته ومحيط بجميع شؤونها فهو **عالم الغيب**: أي: ما غاب عن حواس الخلق. و**عالم الشهادة**،: وهو ما يدخل تحت إدراك الحواس.

والمقصود هو علم الغيب وأمّا عطف { وَالشَّهَادَةِ } فهو تكميل واحتراس، لأنّهم لمّا أنكروا البعث وإحياء الموتى كانت شبهتهم في إحالته أنّ أجزاء الأجسام تفرقت وتخلّلت الأرض، ولذلك عُقّب بقوله تعالى { وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ } [10].

{ **الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** } أي: أنّه خلق الخلق بمحض قدرته بدون معين، فالعزة هي الاستغناء عن الغير، وأنّه خلقهم على أحوال فيها لطف بهم فهو رحيم بهم فيما خلقهم إذ جعل أمور حياتهم ملائمة لهم فيها نعيم لهم وجنّبهم الآلام فيها. فهذا سبب الجمع بين صفتي { الْعَزِيزُ } و{ الرَّحِيمُ } هنا على خلاف الغالب من ذكر الحكيم مع العزيز.

{ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ [7] ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ [8] ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ [9] }.

خبر آخر عن اسم الإشارة أو وصف آخر لـ { عَالِمُ الْغَيْبِ } [6]، وهو ارتقاء في الاستدلال مشوب بامتنان على الناس أن أحسن خلقهم في جملة إحسان خلق كل شيء، وبتخصيص خلق الإنسان بالذكر.
والمقصود: أنّه الذي خلق كلّ شيء وخاصة الإنسان خلقا بعد أن لم يكن شيئا مذكورا، وأخرج أصله من تراب ثم كوَّن فيه نظام النسل من ماء، فكيف تعجزه إعادة أجزائه.
الإحسان: جعل الشيء حسنا، أي: محمودا غير معيب، وذلك بأن يكون وافيا بالمقصود منه، فإنّك إذا تأمّلت الأشياء رأيتها مصنوعة على الوجه الأكمل.
{ **خَلَقَهُ** } قرأه نافع وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بصيغة الفعل الماضي على أنّ الجملة صفة لـ { شَيْءٍ } أي: كلّ شيء من الموجودات التي خلقها، وهم يعرفون كثيرا منها. وقرأه الباقون بسكون اللام على أنّه اسم هو بدل من { كُلَّ شَيْءٍ } بدل اشتمال.
{ **الْإِنْسَانِ** } أريد به الجنس، وبدء خلقه هو خلق أصله آدم، كما في قوله تعالى { وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ } [الأعراف:11]، أي: خلقنا أباكم ثم صورناه ثم قلنا للملائكة اسجدوا له.
وتقدم الحديث عن خلق آدم في [البقرة:30-38].
النسل: الأبناء والذرّيّة. سُمِّي نسلا لأنّه ينسل، أي: ينفصل من أصله وهو مأخوذ من **نَسَلَ** الصوف والوبر إذا سقط عن جلد الحيوان. وسُمّيت النطفة التي يتقوَّم منها تكوين الجنين سلالة لأنّها تنفصل عن الرجل.
{ **مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ** } بيان لـ { سُلالَةٍ }، وفي الآية إيماء علمي لم يدركه الناس إلّا في هذا العصر وهو أنّ النطفة التي يتوقف تكون الجنين عليها جزء من الماء المهين. فالسلالة التي تنفرز من الماء المهين هي النسل لا جميع الماء المهين، فتكون { مِنْ } للتبعيض أو للابتداء.
المهين: الشيء الممتهن الذي لا يُعبأ به.

{ **ثُمَّ سَوَّاهُ** } الضمير المنصوب عائد إلى { نَسْلَهُ } لأنّه أقرب مذكور ولأنّه ظاهر العطف بـ { ثُمَّ }، وإن كان آدم قد سُوّي ونُفخ فيه من الروح بدليل قوله تعالى { فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} [ص:72]. وذكر التسوية ونفخ الروح في جانب النسل يؤذن بأنّ أصله كذلك، فالكلام إيجاز.

التسوية: التقويم، قال تعالى { لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ } [التين:4].

{ **وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ** } إضافة الروح إلى ضمير الجلالة للتنويه بذلك السر العجيب الذي لا يعلم تكوينه إلّا هو تعالى، فالإضافة تفيد أنّه من أشدّ المخلوقات اختصاصا بالله تعالى وإلّا فالمخلوقات كلّها لله.

النفخ: تمثيل لسريان اللطيفة الروحانية في الكثيفة الجسدية مع سرعة الإيداع، وتقدّم في قوله تعالى { فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي } [الحجر:29].

{ **وَجَعَلَ لَكُمُ** } الانتقال من الغيبة إلى الخطاب التفات لأنّ المخاطبين من أفراد الناس وجعل السمع والأبصار والأفئدة للناس كلهّم غير خاص بالمخاطبين، فلما انتهض الاستدلال على عظيم القدرة وإتقان المراد من المصنوعات المتحدّث عنهم بطريقة الغيبة الشامل للمخاطبين وغيرهم ناسب أن يُلتفت إلى الحاضرين بنقل الكلام إلى الخطاب لأنّه آثر بالامتنان وأسعد بما يرد بعده من التعريض بالتوبيخ في قوله تعالى { قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ }. والامتنان بقوى الحواس وقوى العقل أقوى من الامتنان بالخلق وتسويته لأنّ الانتفاع بالحواس والإدراك متكرّر متجدّد فهو محسوس بخلاف التكوين والتقويم فهو محتاج إلى النظر في آثاره.

{ **وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ** } العدول عن أن يقال: وجعلكم سامعين مبصرين عالمين لأنّ ذلك أعرق في الفصاحة، ولِما تؤذن به اللام من زيادة المنّة في هذا الجعل إذ كان جعلا لفائدتهم ولأجلهم، ولِما في تعليق الأجناس من السمع والأبصار والأفئدة بفعل الجعل من الروعة والجلال في تمكّن التصرّف، ولأنّ كلمة { الْأَفْئِدَةَ } أجمع من كلمة عاقلين، لأنّ الفؤاد يشمل الحواس الباطنة كلّها والعقل بعض منها.

وأفرد { السَّمْعَ } لأنّه مصدر لا يجمع، وجمع { وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ } باعتبار تعدّد الناس. وتقديم السمع على البصر تقدّم وجهه عند قوله تعالى { خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ } [البقرة:7].

وتقديم { السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ } على { الْأَفْئِدَةَ } هنا عكس آية البقرة لأنّه رّوعي هنا ترتيب حصولها في الوجود فإنّه يكتسب المسموعات والمبصرات قبل اكتساب التعقّل.

{ **قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ** } أي: أنعم عليكم بهذه النعم الجليلة وحالكم قلّة الشكر. ويجوز أن يكون { قَلِيلاً } كناية عن العدم كقوله تعالى { فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً } [النساء:46]. وعلى الوجهين يحصل التوبيخ لأنّ النعم المستحقّة للشكر وافرة دائمة فالتقصير في شكرها وعدم الشكر سواء.

{ **وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ** } [10].

{ **وَقَالُوا** } الواو للحال، والحال للتعجيب منهم كيف أحالوا إعادة الخلق وهم يعلمون النشأة الأولى، وليست الإعادة بأعجب من بدء الخلق وخاصة بدء خلق آدم.

{ **أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ** } الاستفهام للتعجب والإحالة، أي: أظهروا في كلامهم استبعاد البعث بعد فناء الأجساد واختلاطها بالتراب مغالطة للمؤمنين وترويجا لكفرهم.

الضلال: الغياب، ومنه: ضلال الطريق، والضالة: الدابة التي ابتعدت عن أهلها فلم يُعرف مكانها.

وأرادوا بذلك إذا تفرّقت أجزاء أجسادنا في خلال الأرض واختلطت بتراب الأرض.

وقيل: الضلال في الأرض: الدخول فيها بناء على أنّه يقال: أضل الناسُ الميّتَ، أي: دفنوه.

{ **أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ** } بهمزتين أولاهما للاستفهام والثانية تأكيد لهمزة الاستفهام، وقرأه نافع والكسائي ويعقوب { إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ } بهمزة واحدة على الإخبار اكتفاء بدخول الاستفهام على أوّل الجملة ومتعلّقها.

الجديد: المحدَث، أي: غير خلقنا الذي كنا فيه.

{ **بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ** } إضراب عن كلامهم، أي: ليس إنكارهم البعث للاستبعاد والاستحالة، لأنّ دلائل إمكانه واضحة لكلّ متأمّل، ولكن الباعث على إنكارهم إيّاه هو كفرهم بلقاء الله، أي: كفرهم الذي تلقوه عن أئمّتهم عن غير دليل.

وتقديم المجرور على { كَافِرُونَ } للرعاية على الفاصلة.

والإتيان بالجملة الاسمية لإفادة الدوام على كفرهم والثبات عليه.

{ **قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ** } [11].

أمر الرسول عليه الصلاة والسلام أن يعيد إعلامهم بأنّهم مبعوثون بعد الموت. فالمقصود من الجملة هو قوله تعالى { ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ } إذ هو مناط إنكارهم.

{ **يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ** } لتذكيرهم بالموت، وهم لا ينكرون ذلك ولكنّهم ألهتهم الحياة الدنيا عن النظر في إمكان البعث والاستعداد له فذُكّروا به ثم أدمج فيه ذكر { مَلَكُ الْمَوْتِ } لزيادة التخويف من الموت.

التوفّي: الإماتة. وتقدّم في قوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ } [الأنعام:60]، وقوله تعالى { وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ } [الأنفال:50].

{ **مَلَكُ الْمَوْتِ** } هو الملك الموكل بقبض الأرواح وقد ورد ذكره في القرآن مفردا كما هنا وورد مجموعا في [الأنفال:50]، وقوله تعالى { تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا } [الأنعام:61]، وذلك أنّ الله جعل ملائكة كثيرين لقبض الأرواح وجعل مبلّغ أمر الله بذلك **عزرائيل** فإسناد التوفّي إليه كإسناده إلى الله في قوله تعالى { اللَّهُ يَتَوَفَّى

الْأَنْفُسَ } [الزمر:42]، وجعل الملائكة الموكلين بقبض الأرواح أعوانا له، وأولئك يسلّمون الأرواح إلى عزرائيل فهو يقبضها ويودعها في مقارها التي أعدّها الله لها، ولم يرد اسم عزرائيل في القرآن.

{ **الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ** } التعريض بالوعيد، فإنّه موكل بكل ميّت بما يناسب معاملته عند قبض روحه. وفيه إبطال لجهلهم بأنّ الموت بيد الله تعالى وأنّه كما خلقهم يميتهم وكما يميتهم يحييهم، وأنّ الإماتة والإحياء بإذنه وتسخير ملائكته في الحالين.

{ **وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ** } [12].

أردف ذكر إنكارهم البعث بتصوير حال المنكرين أثر البعث وذلك عند حشرهم إلى الحساب.

{ **وَلَوْ تَرَى** } جيء في تصوير حالهم بطريقة حذف جواب (لَوْ) حذفا يراد منه أن تذهب نفس السامع كلّ مذهب من تصوير فظاعة حالهم وهول موقفهم بين يدي ربّهم، وبتوجيه الخطاب إلى غير معيّن لإفادة تناهي حالهم في الظهور. والمعنى: لو ترى أيّها الرائي لرأيت أمرا عظيما.

{ **الْمُجْرِمُونَ** } هم الذين قالوا { أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ } [10]، فهو إظهار في مقام الإضمار لقصد التسجيل عليهم بأنّهم في قولهم ذلك مجرمون، أي: آتون بجرم وهو جرم تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم وتعطيل الدليل.

الناكس: الذي يجعل أعلى شيء إلى أسفل، يقال: نكس رأسه، إذا طأطأه. ونكس الرؤوس علامة الذل والندامة، وذلك ممّا يلاقون من التقريع والإهانة.

{ **عِنْدَ رَبِّهِمْ** } العندية هنا عنديّة السلطة، أي: وهم في حكم ربّهم لا يستطيعون محيدا عنه، فشُبّه ذلك بالكون في مكان مختصّ بربّهم في أنّهم لا يفلتون منه.

{ **رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ** } مقول قول محذوف دل عليه السياق هو في موضع الحال، أي: ناكسوا رؤوسهم يقولون أو قائلين: أبصرنا وسمعنا ...، وهم يقولون ذلك ندامة وإقرارا بأنّ ما توعَّدهم القرآن به حقّ.

وحذف مفعول { أَبْصَرْنَا } ومفعول { سَمِعْنَا } لدلالة المقام، أي: أبصرنا من الدلائل المبصرة ما يصدِّق ما أُخبرنا به، وسمعنا من أقوال الملائكة ما فيه تصديق الوعيد الذي تُوعّدنا به، أي: فعلمنا أنّ ما دعانا إليه الرسول هو الحقّ الذي به النجاة من العذاب فأرجعنا إلى الدنيا نعمل صالحا، كما قالوا في موطن آخر { رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ } [إبراهيم:44].

{ **إِنَّا مُوقِنُونَ** } تعليل لتحقيق الوعد بالعمل الصالح بأنّهم صاروا موقنين بحقّية ما يدعوهم الرسول صلى الله عليه وسلم إليه.

{ **وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**} [13].

اعتراض بين القول المقدّر قبل قوله تعالى { رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا } [12] وبين الجواب عنه بقوله تعالى { فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ } [14]، فالواو التي في صدر الجملة اعتراضية، وهي من قبيل واو الحال.

المعنى: لو شئنا لجبلنا كل نفس على الانسياق إلى الهدى بدون اختيار كما جُبلت العجماوات على ما ألهمت إليه، فلكانت النفوس غير محتاجة إلى النظر في الهدى وضده، ولا إلى دعوة من الله إلى طريق الهدى، ولكن الله لمّا أراد أن يكل إلى نوع الإنسان تعمير هذا العالم، وأن يجعله عنوانا لعلمه وحكمته، وأن يفضّله على جميع الأنواع والأجناس العامرة لهذا العالم، اقتضى لتحقيق هذه الحكمة أن يخلق في الإنسان عقلا يدرك به النفع والضرّ، والكمال والنقص، والصلاح والفساد، والتعمير والتخريب، وتتكشف له بالتدبّر عواقب الأعمال المشتبهة والمُمَوَّهَة بحيث يكون له اختيار ما يصدر عنه من أجناس وأنواع الأفعال التي هي في مَكْنته بإرادة تتوجه إلى الشيء وضدّه، وخلق فيه من أسباب العمل وآلاته من الجوارح والأعضاء إذا كانت سليمة، فكان بذلك مستطيعا لأن يعمل وأن لا يعمل على وفاق ميله واختياره وكسبه، وهذا المعنى هو الذي سمّاه الأشعري بالكسب وبالاستطاعة.

وتكفّل له بإعانته على ما خُلق له من الإدراك يدعوه إلى ما يريده الله منه من الهدى والصلاح في هذا العالم بواسطة رسل من نوعه يبلّغون إليه مراد ربّهم، وجعلهم وسائط بينه وبين الناس في إبلاغ مراد ربّهم إليهم. ووعده الناس بالجزاء على فعل الخير وفعل الشر بما فيه باعث على الخير ورادع عن الشر.

{ **وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا** ...} جعله جمهور المفسرين جوابا موجّها من قبل الله تعالى إلى المجرمين عن قولهم { رَبَّنَا أَبْصَرْنَا } [12]. ووجود الواو في أوّل هذا الكلام ينادي على أنّه ليس جوابا لقول المشركين يومئذ فهم أقل من أن يُجعلوا أهلا لتلقّي هذه الحكمة بل حقّهم الإعراض عن جوابهم. وإنّما هذا بيان من الله ساقه للرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين ليحيطوا علما بدقائق الحكمة الربانية.

{ **وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي** } لم يقل: حق قولي، لأنّه أريد الإشارة إلى قول معهود وهو قوله تعالى { لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ } [ص:85]، أي: حقّ القول المعهود.

{ **مِنِّي** } اجتلبت (مِنَ) الابتدائية لتعظيم شأن هذا القول بأنّه من الله. وعُدل عن ضمير العظمة إلى ضمير النفس لإفادة الانفراد بالتصرّف، ولأنّه الأصل، مع ما في هذا الاختلاف من التفنّن.

{ **فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } [14].

هذا جواب عن قولهم { رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا } [12] الذي هو إقرار بصدق ما كانوا يُكذّبون به.

{ **فَذُوقُوا** } الـ (الفاء) للتفريع، ومجيء التفريع من المتكلِّم على ما هو من كلام المخاطَب فيه إلزام بالحجّة.

واستعمال الذوق بمعنى مطلق الإحساس مجاز مرسل تقدّم عند قوله { لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ } [المائدة:95].

والمفعول محذوف دلّ عليه السياق، أي: فذوقوا ما أنتم فيه.

{ **بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا** } النسيان هنا الإهمال والإضاعة، وتقدّم في قوله تعالى { فَنَسِيَ } [طه:88].

والباء للسببية، أي: بسبب إهمالكم الاستعداد لهذا اليوم.

اللقاء: حقيقته العثور على ذات، فمنه لقاء الرجل غيره، وتجيء منه الملاقاة، ومنه: لقاء المرء ضالة أو نحوها. ولقاء اليوم في هذه الآية مجاز في حلول اليوم ووجوده على غير ترقّب.

{ **يَوْمِكُمْ** } تهكّم بهم لأنّهم كانوا ينكرونه فلمّا تحقّقوه جُعل كأنّه أشد اختصاصا بهم على طريقة الاستعارة التهكمية، لأنّ اليوم إذا أضيف إلى القوم أو الجماعة فهو إشارة إلى أنّه يوم انتصار لهم على عدوّهم.

{ **إِنَّا نَسِينَاكُمْ** } النسيان هنا مستعمل في الحرمان من الكرامة، وفيه مشاكلة. والجملة مستأنفة استئنافا بيانيا كناية عن تركهم فيما أُذيقوه. وتقدّم في قوله { قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى } [طه:126]. وإخراج الكلام في صيغة الماضي على خلاف مقتضى الظاهر لإفادة تحقّق الفعل حتّى كأنّه مضى ووقع.

{ **وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } عطف على { فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ }، وهو وإن أفاد تأكيد تسليط العذاب عليهم فإنّ عطفه مراعى فيه ما بين الجملتين من المغايرة بالمتعلّقات والقيود مغايرة اقتضت أن تُعتبر الجملة الثانية مفيدة فائدة أخرى، فالجملة الأولى تضمّنت أنّ من سبب استحقاقهم تلك الإذاقة إهمالهم التدبّر في حلول هذا اليوم، والجملة الثانية تضمّنت أنّ ذلك العذاب مستمر وأنّ سبب استمرار العذاب وعدم تخفيفه أعمالهم الخاطئة، وهي أعمّ من نسيانهم لقاء يومهم ذلك.

{ **إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ** [15] **تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ** [16] **فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** [17] }.

استئناف ناشئ عن قوله تعالى { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ } [3]، تفرّغ المقام له. فبعد أن أنحى بالتقريع والوعيد على الكافرين على كفرهم بلقاء الله جيء هنا بأوصاف الذين يقابلونهم وهم الذين يؤمنون بآيات الله .

{ **إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآياتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا** } قصر إضافي، أي: يؤمن بآيات الله الذين إذا ذكّروا بها لم يتريّثوا عن إظهار الخضوع لله. وأوثرت صيغة المضارع لما تُشعر به من أنّهم يتجدَّدون في الإيمان ويزدادون يقينا وإلّا فإن المؤمنين قد حصل إيمانهم فيما مضى فالفعل الماضي آثر بحكاية حالهم في الكلام المتداول لولا هذه الخصوصية، ولهذا عُرِّفوا بالموصوليّة والصلة الدال معناها على أنّهم راسخون في الإيمان.

{ **خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ** } هذه الصفة التي تضمّنتها الصلة هي حالهم التي عُرفوا بها لقوّة إيمانهم وتميَّزوا بها عن الذين كفروا، وليست تقتضي أنّ من لم يسجدوا عند سماع الآيات ولم يسبّحوا بحمد ربهم من المؤمنين ليسوا ممن يؤمنون، ولكن هذه حالة أكمل الإيمان وهي حالة المؤمنين مع النبيّ صلى الله عليه وسلم يومئذ عُرفوا بها.

الخرور: الهُوِيُّ من علو إلى سفل.

السجود: وضع الجبهة على الأرض إرادة التعظيم والخضوع.

{ **سُجَّداً** } انتصب على الحال المبيّنة للقصد من { خَرُّوا }، أي: سجدا لله وشكرا له على ما حباهم به من العلم والإيمان كما دلّ عليه قرنه بقوله تعالى { **وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ** }. والباء فيه للملابسة.

وتقدم المعنى في قوله { إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً } [الإسراء:107].

{ **وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ** } جيء في نفي التكبّر عنهم بالمسند الفعلي لإفادة اختصاصهم بذلك، أي: دون المشركين الذين كان الكبر خُلُقهم.

موضع سجدة من سجدات تلاوة القرآن رجاء أن يكون التالي من أولئك الذين أثنى الله عليهم بأنّهم إذا ذكّروا بآيات الله سجدوا، فالقارئ يقتدي بهم.

{ **تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ** } حال من الموصول أو استئناف، أي: الذين إذا ذكّروا بها خرّوا ومن حالهم تتجافى جنوبهم عن المضاجع. وجيء فيها بالمضارع لإفادة تكرّر ذلك وتجدّده منهم.

التجافي: التباعد والمتاركة. أي: يكثرون السهر بقيام الليل والدعاء لله. وقد فسَّره النبيّ صلى الله عليه وسلم بصلاة الرجل في جوف الليل، كما سيأتي في حديث معاذ عند الترمذي.

{ **الْمَضَاجِعِ** } الفرش جمع مضجع، وهو مكان الضجع، أي: الاستلقاء للراحة والنوم. وهذا تعريض بالمشركين إذ يمضون ليلهم بالنوم أو اللهو.

وقد صرَح بهذا المعنى عبد الله بن رواحة بقوله يصف النبيّ صلى الله عليه وسلم:

يبيت يجافي جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

{ **يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً** } يجوز أن تكون حالا من ضمير { جُنُوبُهُمْ }، والأحسن أن تُجعل بدل اشتمال من جملة { تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ }. وانتصب { خَوْفاً وَطَمَعاً } على الحال بتأويل: خائفين من غضبه

وطامعين في رضاه وثوابه. ويجوز أن ينتصبا على المفعول لأجله، أي: لأجل الخوف من ربّهم والطمع في رحمته.

{ **وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ** } لمّا ذُكر إيثارهم التقرّب إلى الله على حظوظ لذّاتهم الجسدية ذُكر معه إيثارهم إيّاه على ما به نوال لذّات أخرى وهو المال.

{ **فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } ثمّ عظّم الله جزاءهم، أي: لا تبلغ نفس من أهل الدنيا معرفة ما أعدّ الله لهم. قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: قال الله تعالى: **" أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر".**

{ **مَا أُخْفِيَ** } لأنّها نِعم مغيّبة لا تدرك إلّا في عالم الخلود.

قرة الأعين: كناية عن المسرّة، كما تقدّم في قوله تعالى { وَقَرِّي عَيْناً } [مريم:26].

وقد فسَّر النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّه جزاء على هذه الأعمال الصالحات في حديث أغَرٍّ رواه الترمذي عن معاذ بن جبل قال: " قلت يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار. قال: **لقد سألت عن عظيم وإنّه ليسير على من يسّره الله عليه: تعبد الله لا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحجّ البيت** " ثم قال: **" ألا أدلّك على أبواب الخير: الصوم جنّة والصدقة تطفئ الخطايا كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل،** ثم تلا { تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ } حتى بلغ { يَعْمَلُونَ } ".

{ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ [18] أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [19] وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ [20] }.

{ **أَفَمَنْ** } استفهام بالهمزة مستعملٌ في إنكار المساواة بين المؤمن والكافر فُرّع بالفاء على ما تقدّم من الآيات من الوعد للمؤمنين والوعيد للكافرين.

{ **لَا يَسْتَوُونَ** } عطف بيان للمقصود من الاستفهام.

الفاسق: هنا هو من ليس بمؤمن بقرينة قوله تعالى بعده { وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ } فالمراد: الفسق عن الإيمان الذي هو الشرك، وهو إطلاق كثير في القرآن.

{ **أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } الجملة مؤكِّدة لمضمون جملة { فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ ...} [17].

{ **الْمَأْوَى** } المكان الذي يؤوى إليه، أي: يُرجع إليه. والتعريف باللام فيه للعهد، أي: مأوى المؤمنين، قال تعالى { عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى } [النجم:15]. ولك أن تجعل اللام عوضا عن المضاف إليه،

أي: مأواهم، بقرينة قوله في مقابلة { فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ }.

{ **جَنَّاتُ الْمَأْوَى** } من إضافة الموصوف إلى الصفة لقصد التخفيف. والمعنى: فلهم الجنات المأوى لهم، أي: الموعودون بها.

{ **نُزُلاً** } انتصب على الحال من { جَنَّاتُ الْمَأْوَى }.

النُزُل: (بضمّتين) مشتقّ من النزول، فيطلق على ما يُعدّ للنزيل من العطاء والقِرى، ثم صار عاما، أي: يطلق على العطاء ولو بدون ضيافة مجازا مرسلا. ويطلق على محل نزول الضيف. وفسره الزجاج في هذه الآية ونحوها بالمنزل. وتقدّم في [آل عمران:198].

{ **بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } الباء للسببية.

{ **وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ** } مؤكِّدة لمضمون جملة { فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا – إلى قوله - بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [14].

{ **كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا** } تقدّم نظيره في [الحج:22].

{ **وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ** } كان مقتضى الظاهر الإضمار بأن يقال: وقيل لهم ذوقوا عذابها. وهذا السؤال أورده ابن الحاجب في (أماليه) وأجاب بوجهين:

أحدهما: أنّ سياق الآية التهديد وفي إظهار لفظ النار من التخويف ما ليس في الإضمار.

الثاني: أنّ الجملة حكاية لما يقال لهم يومئذ فناسب أن يُحكى كما قيل لهم، وليس فيما يقال لهم تقدّم ذكر النار.

{ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } [21].

إخبار بأنّ لهم عذابا آخر لا يبلغ مبلغ عذاب النار الموعودين به في الآخرة فتعيّن أنّ العذاب الأدنى عذاب الدنيا. والمقصود من هذا: التعريض بتهديدهم لأنّهم يسمعون هذا الكلام أو يبلغ إليهم. وهذا إنذار بما لحقهم بعد نزول الآية وهو ما مُحنوا به من الجوع والخوف، وكانوا في أمن منهما، وما يصيبهم يوم بدر من القتل والأسر، ويوم الفتح من الذل.

{ **لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** } استئناف بياني لحكمة إذاقتهم العذاب الأدنى في الدنيا بأنّه لرجاء رجوعهم، أي: رجوعهم عن الكفر بالإيمان. وكذلك كان، فقد آمن كثير من الناس بعد يوم بدر وبخاصة بعد فتح مكة.

{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ } [22].

عطف على جملة { إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا ...} [15]، حيث اقتضت أنّ الذين قالوا { أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ } [10] ليسوا كأولئك فانتقل إلى الإخبار عنهم بأنّهم أشدّ الناس ظلما لأنّهم يُذكَّرون بآيات الله حين يتلى عليهم القرآن فيُعرِضون عن تدبّرها ويلغون فيها.

{ **وَمَنْ أَظْلَمُ** } للاستفهام الإنكاري كقوله { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ } [البقر:114]، أي: لا أحد أظلم منه، لأنّه ظلم نفسه بحرمانها من التأمّل فيما نفعه، وظلم الآيات بتعطيل نفعها في بعض من أريد انتفاعهم بها، وظلم الرسول عليه الصلاة والسلام بتكذيبه والإعراض عنه، وظلم حقّ ربّه إذ لم يمتثل ما أراد منه.

{ **بِآيَاتِ رَبِّهِ** } مراد بها القرآن.

{ **ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا** } جيء في العطف بحرف { ثُمَّ } لقصد الدلالة على تراخي رتبة الإعراض عن الآيات بعد التذكير بها تراخي استبعاد وتعجيب من حالهم. أي: عجيب إقدامه على مواقع الهلاك بعد مشاهدة غمرات الموت تغمر الذين أقدموا على تلك المواقع.

{ **إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ** } مستأنفة استئنافا بيانيا ناشئا عن تفظيع ظلم الذي ذُكّر بآيات ربه فأعرض عنها لأنّ السامع يترقّب جزاء ذلك الظالم.

{ **الْمُجْرِمِينَ** } المراد بهم هؤلاء الظالمون، عدل عن ذكر ضميرهم لزيادة تسجيل فظاعة حالهم بأنّهم مجرمون مع أنّهم ظالمون، وقد يقال: إنّ المجرمين أعمّ من الظالمين.

{ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائيلَ** } [23].

لما جرى ذكر إعراض المشركين عن آيات الله، وهي آيات القرآن، في قوله تعالى { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا } [22]، استطرد إلى تسلية النبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّ ما لقي من قومه هو نظير ما لقيه موسى من قوم فرعون، فالخبر مستعمل في التسلية بالتنظير والتمثيل.

فهذه الجملة وما بعدها إلى قوله تعالى { فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } [25] معترضات.

{ **وَلَقَدْ** } موقع التأكيد بلام القسم وحرف التحقيق هو ما استُعمل فيه الخبر من التسلية لا لأصل الأخبار لأنّه أمر لا يحتاج إلى التأكيد، وبه تظهر رشاقة الاعتراض بتفريع { فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ }.

{ **آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ** } أريد أرسلنا موسى. وإدماج ذكر { الْكِتَابَ } للتنويه بشأن موسى وليس داخلا في تنظير حال الرسول صلى الله عليه وسلم بحال موسى عليه السلام في تكذيب قومه إيّاه لأنّ موسى لم يكذّبه قومه، ألا ترى إلى قوله تعالى { وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائيلَ }.

{ **فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ** } معترضة وهو اعتراض بالفاء.

المِرْية: الشك والتردّد. وحرف الظرفية مجاز في شدّة الملابسة، أي: لا يكن الشك محيطا بك ومتمكّنا منك، أي: لا تكن ممتريا في أنّك مثله سينالك ما ناله من قومه.

والراجح أن يكون الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم، فالنهي مستعمل في طلب الدوام على انتفاء الشك، فهو نهي مقصود منه التثبيت كقوله تعالى { فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ } [هود:10] وليس للنهي عن المرية لأنّها لم تقع من قبل.

اللقاء: اسم مصدر لقِيَ وهو الغالب في الاستعمال دون لقى الذي هو المصدر القياسي. واللقاء: مصادفة فاعل هذا الفعل مفعوله، ويطلق مجازا على الإصابة كما يقال: لقيت عناء، وهو هنا مجاز، أي: لا تكن في مرية في أن يصيبك ما أصابه، وضمير الغائب عائد إلى موسى. أي: مما لقي موسى من قوم فرعون من تكذيب. وهذا أحسن تفسير للآية.

{ **وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائيلَ** } ضمير النصب يجوز أن يعود على الكتاب أو على موسى وكلاهما سبب هدى، فوُصف بأنّه هدى للمبالغة في حصول الاهتداء به. وهذا تعريض بالمشركين إذ لم يشكروا نعمة الله على أن أُرسل إليهم محمد بالقرآن ليهتدوا فأعرضوا وكانوا أحقّ بأن يحرصوا على الاهتداء.

{ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآياتِنَا يُوقِنُونَ } [24].

أشير إلى ما منَّ الله به على بني إسرائيل إذ جعل منهم أئمة يهدون بأمر الله.

{ **بِأَمْرِنَا** } يشمل الوحي بالشريعة لأنّه أمر بها، ويشمل الانتصاب للإرشاد، فإنّ الله أمر العلماء أن يبيّنوا الكتاب ويرشدوا إليه، فإذا هدوا فإنّما هدوا بأمره وبالعلم الذي آتاهم به أنبياؤهم وأحبارهم. فأنعم الله عليهم بذلك لمّا صبروا وأيقنوا لِما جاءهم من كتاب الله ومعجزات رسولهم.

{ **وَكَانُوا بِآياتِنَا يُوقِنُونَ** } إن كان المراد دلائل صدق موسى عليه السلام، فالمعنى: أنهم صبروا على مشاق التكليف والخروج بهم من أرض مصر وما لقوه من فرعون وقومه من العذاب والاضطهاد وتيههم في البرية أربعين سنة، وتدبّروا في الآيات ونظروا حتّى أيقنوا.

وإن كان المراد من الآيات ما في التوراة من الشرائع والمواعظ فإطلاق اسم الآيات عليها مشاكلة تقديرية لِما هو شائع بين المسلمين من تسمية جمل القرآن آيات لأنّها معجزة في بلاغتها خارجة عن طوق تعبير البشر. وفي هذا تعريض بالبشارة لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنّهم يكونون أيمة لدين الإسلام وهداة للمسلمين إذ صبروا على ما لحقهم في ذات الله من أذى قومهم وصبروا على مشاق التكليف ومعاداة أهلهم وقومهم وظلمهم إيّاهم.

{ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } [25].

الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم. والمراد أمّته تحذيرا من ذلك وإيماء إلى وجوب تجنّب الاختلاف الذي لا يدعو إليه داع في مصلحة الأمة وفهم الدين.

الفصل: القضاء والحكم، وهو يقتضي أنّ اختلافهم أوقعهم في إبطال ما جاءهم من الهدى، فهو اختلاف غير مستند إلى أدلّة ولا جار في مهيع أصل الشريعة، ولكنه متابعة للهوى وميل لأعراض الدنيا كما وصفه القرآن في آيات كثيرة في سورة البقرة وغيرها كقوله تعالى { وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [آل عمران:105].

ومن أعظم ذلك الاختلاف كتمانهم الشهادة ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم وجحدهم ما أخذ عليهم من الميثاق من أنبيائهم.

{ **هُوَ يَفْصِلُ** } ضمير فصل لقصر الفصل عليه تعالى إيماء إلى أنّ ما يذكر في القرآن من بيان بعض ما اختلفوا فيه على أنبيائهم ليس مطموعا منه أن يرتدعوا عن اختلافهم وإنّما هو للتسجيل عليهم وقطع معذرتهم لأنّهم لا يقبلون الحجّة فلا يُفصل بينهم إلّا يوم القيامة.

{ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ } [26].

الاستفهام إنكاري، أي: هم لم يهتدوا بدلائل النظر والاستدلال التي جاءهم بها القرآن فأعرضوا عنها، ولا اتعظوا بمصارع الأمم الذين كذّبوا أنبياءهم، وفي مهلكهم آيات تزجر أمثالهم عن السلوك فيما سلكوه.

{ **لَهُمْ** } الضمير عائد إلى المجرمين أو إلى من ذُكِّر بآيات ربه.

{ **يَهْدِ** } من الهداية وهي الدلالة والإرشاد، يقال: هداه إلى كذا. وضمّن معنى يُبيِّن، فعُدّي باللام فأفاد هداية واضحة بيّنة. وتقدّم نظيره في قوله تعالى { أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ } [الأعراف:100].

واختير فعل الهداية في هذه الآية لإرادة الدلالة الجامعة للمشاهدة ولسماع أخبار تلك الأمم تمهيدا لقوله في آخرها { أَفَلا يَسْمَعُونَ }.

وجوَّز في الكشّاف أن يكون الفاعل جملة { كَمْ أَهْلَكْنَا } على معنى الحكاية لهذا القول، كما يقال: تعصم " لا إله إلا الله" الدماء والأموال، أي: هذه الكلمة.

ويجوز أن يكون الفاعل ضمير الجلالة دالا عليه المقام، أي: ألم يهد الله لهم، فإنّ الله بيّن لهم ذلك وذكّرهم بمصارع المكذّبين، وتكون جملة { **كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ** } على هذا استئنافا، وتقدّم قوله تعالى

{ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ } [الأنعام:6].

{ **يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ** } حال من فاعل { أَوَلَمْ يَرَوْا } [27] والمعنى: أنّهم يمرّون على المواضع التي فيها بقايا مساكنهم مثل حجر ثمود وديار مدين فتعضد مشاهدة مساكنهم الأخبار الواردة عن استئصالهم.

{ **أَفَلَا يَسْمَعُونَ** } استفهام تقريري مشوب بتوبيخ لأنّ اجتلاب المضارع مؤذن بأنّ استماع أخبار تلك الأمم متكرّر متجدّد فيكون التوبيخ على الإقرار المستفهم عنه أوقع.

{ **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ** } [27].

عطف على الآية السابقة. ونيط الاستدلال هنا بالرؤية لأنّ إحياء الأرض بعد موتها ثم إخراج النبت منها دلالة مشاهدة.

{ **نَسُوقُ** } اختير المضارع لاستحضار الصورة العجيبة الدالة على القدرة الباهرة.

السوق: إزجاء الماشي من ورائه. وسوق الماء إلى الأرض هو سوق السحاب الحاملة إيّاه بالرياح التي تنقل السحاب من جو إلى جو، شُبّهت هيئة الرياح والسحاب بهيئة السائق للدابة.

{ **الْجُرُزِ** } اسم للأرض التي انقطع نبتها، وهو مشتق من الجرز، وهو: انقطاع النبت والحشيش، إمّا بسبب يبس الأرض أو بالرعي، والجَرز: القطع. وسُمّي السيف القاطع جُرازا. ولا يقال للأرض التي لا تنبت كالسباخ جرز.

الزرع: ما نبت بسبب بذر حبوبه في الأرض كالشعير والبر.

{ **تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ** } أكل الأنعام غالبه من الكلأ لا من الزرع، فذكر الزرع بلفظه، ثم ذكر أكل الأنعام يدلّ على تقدير: وكلَأً. ففي الكلام اكتفاء. والتقدير: ونخرج به زرعا وكلأ تأكل منه أنعامهم وأنفسهم.

{ **أَفَلا يُبْصِرُونَ** } استفهام تقريري. وتقدّم بيان مثله آنفا في قوله تعالى { أَفَلا يَسْمَعُونَ } [26]. ونيط الحكم بالإبصار هنا لأنّ دلالة إحياء الأرض بعد موتها دلالة مشاهدة.

{ **وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** [28] **قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ** [29] **فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ** [30] }.

يجوز أن يكون عطفا على جملة { ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا } [22]، أي: أعرضوا عن سماع الآيات والتدبّر فيها وتجاوزوا ذلك إلى التكذيب والتهكّم بها. ومناسبة ذكر ذلك هنا أنّه وقع عقب الإشارة إلى دليل وقوع البعث وهو يوم الفصل.

ويجوز أن يعطف على جملة { وقالوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ } [10].

المعنى: أنّهم كذّبوا بالبعث وما معه من الوعيد في الآخرة وكذّبوا بوعيد عذاب الدنيا الذي منه قوله تعالى {وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ } [21].

{ **وَيَقُولُونَ** } حكاية قولهم بصيغة المضارع لإفادة التعجيب منه مع إفادة تكرّر ذلك منهم.

{ **مَتَى هَذَا الْفَتْحُ** } كان المسلمون يتحدّون المشركين بأنّ الله سيفتح بينهم وينصرهم وتظهر حجّتهم، فكان الكافرون يكررون التهكّم بالمسلمين بالسؤال عن وقت هذا الفتح استفهاما مستعملا في التكذيب.

{ **الْفَتْحُ** } النصر والقضاء. والمراد به: نصر أهل الإيمان بظهور فوزهم وخيبة أعدائهم.

{ **قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ** } أمر الله الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يجيبهم على طريقة الأسلوب الحكيم بأنّ يوم الفتح الحقّ هو يوم القيامة، وهو يوم الفصل، وحينئذ ينقطع أمل الكفّار في النجاة والاستفادة من الندامة والتوبة ولا يجدون إنظارا لتدارك ما فاتهم.

وفي هذا الجواب إيماء إلى أنّ زمن حلوله غير معلوم للناس وأنّه مما استأثر الله به، فعلى من يحتاط لنجاة نفسه أن يعمل له من الآن فإنّه لا يدري متى يحلّ به.

ففي هذا الجواب سلوك الأسلوب الحكيم من وجهين: من وجه العدول عن تعيين يوم الفتح، ومن وجه العدول بهم إلى يوم الفتح الحقّ، وهم إنّما أرادوا بالفتح نصر المسلمين عليهم في الحياة الدنيا.

{ **لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا** } إظهار الوصف في مقام الإضمار، مع أنّهم هم القائلون { مَتَى هَذَا الْفَتْحُ } لقصد التسجيل عليهم بأنّ كفرهم هو سبب خيبتهم.

{ **فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ** } ثمّ فُرّع على جميع هذه المجادلات والدلالات توجيه الله خطابه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يُعرض عن هؤلاء القائلين المكذّبين وألّا يزيد في الإلحاح عليهم تأييسا من إيمان المجادلين منهم المتصدِّين للتمويه على دهمائهم.

وهذا إعراض متاركة عن الجدال وقتيا لا إعراض مستمر، ولا عن الدعوة إلى الله، ولا علاقة له بأحكام الجهاد المشروع في غير هذه الآية.

الانتظار: الترقّب. وأصله مشتق من النظر فكأنّه مطاوع: أنظره، أي: تكلّف أن ينظُر.

وحذف مفعول { انْتَظِرْ } للتهويل، أي: انتظر أيّامًا يكون لك فيها النصر ويكون لهم فيها الخسران، ففي الأمر بالانتظار تعريض بالبشارة للمؤمنين بالنصر، وتعريض بالوعيد للمشركين بالعذاب في الدارين.

{ **إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ** } تعليل لما تضمّنه الأمر بالانتظار من إضمار العذاب لهم. والمفعول محذوف دلّ عليه السياق، أي: منتظرون لكم الفرصة لحربكم أو لإخراجكم، قال تعالى { أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ } [الطور:30]، وقال تعالى { وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ } [التوبة:98].

أي: لم نكن ظالمين في تقدير العذاب لهم لأنّهم بدأوا بالظلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأحزاب

هكذا سُمِّيت في المصاحف وكتب التفسير والسنّة، وكذلك رويت تسميتها عن ابن عباس وأبَي بن كعب بأسانيد مقبولة. ولا يُعرف لها اسم غيره. ووجه التسمية أنّ فيها ذكر أحزاب المشركين من قريش ومن تحزّب معهم، أرادوا غزو المسلمين في المدينة فردّ الله كيدهم وكفى الله المؤمنين القتال.

وهي **مدنيّة بالاتفاق**، وسيأتي عن ابن عباس أنّ آية { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ ...} [36] نزلت في تزويج زينب بنت جحش من زيد بن حارثة في مكة.

وهي **التسعون في عداد السور** النازلة من القرآن، نزلت بعد سورة الأنفال، وقبل سورة المائدة.

وكان نزولها على قول ابن إسحاق أواخر سنة خمس من الهجرة وهو الذي جرى عليه ابن رشد في (البيان والتحصيل). وروى ابن وهب وابن القاسم عن مالك: أنّها كانت سنة أربع، وهي سنة غزوة الأحزاب (غزوة الخندق)، حين أحاط جماعات من قريش وأحابيشهم [هم بنو المصطلق وبنو الهون اجتمعوا عند جبل بمكة يقال له: حُبْشيّ (بضم الحاء وسكون الباء) فحالفوا قريشا أنّهم يد على غيرهم]، وكنانة وغطفان وكانوا عشرة آلاف وكان المسلمون ثلاثة آلاف، وعقبتها غزوة قريظة والنضير.

وعدد **آيها ثلاث وسبعون** باتفاق أصحاب العدد.

وممّا يجب التنبيه عليه ممّا يتعلق بهذه السورة

*/ ما رواه الحاكم والنسائي وغيرهما عن زر بن حبيش قال: قال لي أبَي بن كعب: كأيِّن تعدُّون سورة الأحزاب؟ قال: قلت: ثلاثا وسبعين آية. قال: أَقَطْ؟ (بهمزة استفهام دخلت على قط، أي: حسب. أي: فقط؟) فوالذي يحلف به أبَي: إن كانت لتعدل سورة البقرة. ولقد قرأنا فيها: " الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتية نكالا من الله والله عزيز حكيم"، فرُفع فيما رُفع، أي: نُسخ فيما نُسخ من تلاوة آياتها.

*/ وما رواه أبو عبيد القاسم بن سلام بسنده وابن الأنباري بسنده عن عائشة قالت: كانت سورة الأحزاب تقرأ في زمان النبيّ صلى الله عليه وسلم مائتي آية فلما كتب عثمان المصاحف لم يقدر منها إلّا على ما هو الآن.

وأنا أقول: كلام الخبرين ضعيف السند. ومحمل الخبر الأول عند أهل العلم أن أبيًّا حدث عن سورة الأحزاب قبل أن ينسخ منها ما نسخ. فمنه ما نسخت تلاوته وحكمه ومنه ما نسخت تلاوته خاصة مثل آية الرجم.

*/ وإن صحّ عن أبَي ما نسب إليه فما هو إلّا أن شيئا كثيرا من القرآن كان أبَي يلحقه بسورة الأحزاب وهو

من سور أخرى من القرآن، مثل كثير من سورة النساء الشبيه ببعض ما في سورة الأحزاب أغراضا ولهجة، ممّا فيه ذكر المنافقين واليهود، فإنّ أصحاب رسول الله لم يكونوا على طريقة واحدة في ترتيب آي القرآن ولا في عدّة سوره وتقسيمها، كما تقدم في المقدمة الثامنة، ولا في ضبط المنسوخ لفظه.

وبعد فخبر أبي بن كعب خبر غريب لم يؤثر عن أحد من أصحاب رسول الله فنوقن بأنّه دخله وَهْمٌ من بعض روّاته. وهو أيضا خبر آحاد لا ينتقض به إجماع الأمّة على المقدار الموجود من هذه السورة متواترا.

*/ وأمّا الخبر عن عائشة فهو أضعف سندا وأقرب تأويلا، فإن صحّ عنها، ولا أخاله، فقد تحدثت عن شيء نسخ من القرآن كان في سورة الأحزاب.

كيف وقد أجمع حفّاظ القرآن والخلفاء الأربعة وكافة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلّا الذين شذّوا، على أنّ القرآن هو الذي في المصحف، وأجمعوا في عدد آيات القرآن على عدد قريب بعضه من بعض، كما تقدّم في المقدمة الثامنة. وليس بعد إجماع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على مصحف عثمان مطلب لطالب.

ولم يكن تعويلهم في مقدار القرآن وسوره إلّا على حفظ الحفاظ. وقد افتقد زيد ابن ثابت آية من سورة الأحزاب لم يجدها فيما دُفع إليه من صحف القرآن، فلم يزل يسأل عنها حتّى وجدها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري وقد كان يسمع رسول الله يقرؤها، فلمّا وجدها مع خزيمة لم يشك في لفظها الذي كان عرفه. وهي آية { مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ - إلى قوله - تَبْدِيلاً } [23]. وافتقد الآيتين من آخر سورة التوبة فوجدهما عند أبي خزيمة بن أوس ،المشتهر بكنيته.

وفي الكشاف : وأمّا ما يحكى أن تلك الزيادة التي رويت عن عائشة كانت مكتوبة في صحيفة في بيت عائشة فأكلتها الداجن، أي: الشاة، فمن تأليفات الملاحدة والروافض.

ووضع هذا الخبر ظاهر مكشوف فإنّه لو صدق هذا لكانت هذه الصحيفة قد هلكت في زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم أو بعده والصحابة متوافرون وحفاظ القرآن كثيرون فلو تلفت هذه الصحيفة لم يتلف ما فيها من صدور الحفاظ.

وكون القرآن قد تلاشى منه كثير هو أصل من أصول الروافض ليطعنوا به في الخلفاء الثلاثة. وقد استوعب قولهم واستوفى إبطاله أبو بكر بن العربي في كتاب (العواصم من القواصم).

أغراض السورة

لكثير من آيات هذه السورة أسباب لنزولها، وأكثرها نزل للردّ على المنافقين أقوالا قصدوا بها أذى النبيّ صلى الله عليه وسلم. وأهم أغراضها:

*/ الردّ عليهم قولهم لمّا تزوّج النبيّ صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش بعد أن طلّقها زيد بن حارثة فقالوا: تزوّ ج محمد امرأة ابنه وهو ينهى الناس عن ذلك، فأنزل الله تعالى إبطال التبنّي.

*/ أنّ الحقّ في أحكام الله لأنّه الخبير بالأعمال وهو الذي يقول الحق.

*/ أن ولاية النبيّ صلى الله عليه وسلم للمؤمنين أقوى ولاية، ولأزواجه حرمة الأمهات لهم، وتلك ولاية من جعْل الله، فهي أقوى وأشدّ من ولاية الأرحام.

*/ تحريض المؤمنين على التمسّك بما شرع الله لهم لأنّه أخذ العهد بذلك على جميع النبيّين.

*/ الاعتبار بما أظهره الله من عنايته بنصر المؤمنين على أحزاب أعدائهم من الكفرة والمنافقين في وقعة الأحزاب ودفع كيد المنافقين.

*/ الثناء على صدق المؤمنين وثباتهم في الدفاع عن الدين.

*/ نعمة الله عليهم بأن أعطاهم بلاد أهل الكتاب الذين ظاهروا الأحزاب.

*/ انتقل من ذلك إلى أحكام في معاشرة أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم وذكر فضلهن وفضل آل النبيّ صلى الله عليه وسلم، وفضائل أهل الخير من المسلمين والمسلمات.

*/ تشريع في عدّة المطلقة قبل البناء.

*/ ما يسوغ لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الأزواج.

*/ حكم حجاب أمهات المؤمنين ولبسة المؤمنات إذا خرجن.

*/ تهديد المنافقين على الإرجاف بالأخبار الكاذبة.

*/ تخلّل ذلك مستطردات من الأمر بالائتساء بالنبيّ صلى الله عليه وسلم. وتحريض المؤمنين على ذكر الله وتنزيهه شكرا له على هديه. وتعظيم قدر النبيّ صلى الله عليه وسلم عند الله وفي الملأ الأعلى، والأمر بالصلاة عليه والسلام. ووعيد المنافقين الذين يأتون بما يؤذي الله ورسوله والمؤمنين. والتحذير من التورّط في ذلك كيلا يقعوا فيما وقع فيه الذين آذوا موسى عليه السلام.

*/ خُتمت السورة بالتنويه بالشرائع الإلهية فكان ختامها من رد العجز على الصدر لقوله في أولها { واتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ } [2].

{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً } [1].

افتتاح السورة بخطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم وندائه بوصفه مُؤْذِنٌ بأنّ الأهمّ من سوق هذه السورة يتعلّق بأحوال النبيّ صلى الله عليه وسلم. وقد نودي فيها **خمس مرات** في افتتاح أغراض مختلفة من التشريع بعضها خاص به وبعضها يتعلّق بغيره وله ملابسة له.

النداء الأول: لافتتاح غرض تحديد واجبات رسالته نحو ربّه.

النداء الثاني: لافتتاح غرض التنويه بمقام أزواجه، واقترابه من مقامه.

النداء الثالث: لافتتاح بيان تحديد تقلّبات شؤون رسالته في معاملة الأمّة.

النداء الرابع: في طالعة غرض أحكام تزوّجه وسيرته مع نسائه.

النداء الخامس: في غرض تبليغه آداب النساء من أهل بيته ومن المؤمنات.

{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ } النداء الأوّل افتُتح به الغرض الأصلي لبقية الأغراض وهو تحديد واجبات رسالته في تأدية مراد ربّه تعالى على أكمل وجه دون أن يفسد عليه أعداء الدين أعماله، وهو نظير النداء الذي في قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ } [المائدة:41]، وقوله تعالى { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ } [المائدة:67].

والنداء بوصف النبوّة دون اسمه العلم تشريف له بفضل هذا الوصف ليُربأ بمقامه عن أن يخاطَب بمثل ما يخاطَب به غيره، ولذلك لم يناد في القرآن بغير { يَا أَيُّهَا النبيُّ } أو { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ }، بخلاف الإخبار عنه فقد يجيء بهذا الوصف كقوله تعالى { يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النبيَّ } [التحريم:8]، ويجيء باسمه العَلَم كقوله تعالى { مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ } [الأحزاب:40]، وقد يتعيَّن إجراء اسمه العَلَم ليوصف بعده بالرسالة كقوله تعالى { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ } [الفتح: 29]، وقوله { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ } [آل عمران:144].

وتلك مقامات يُقصد فيها تعليم الناس بأنّ صاحب ذلك الاسم هو رسول الله، أو تلقينٌ لهم بأن يسمُّوه بذلك ويدعوه به، فإنّ عِلْم أسمائه من الإيمان لئلّا يلتبس بغيره، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي، الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشَر الناس على قدمي، وأنا العاقب** "، تعليما للأمّة.

{ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ } الأمر للنبيّ بتقوى الله توطئة للنهي عن اتباع الكافرين والمنافقين ليحصل من الجملتين قصر تقواه على التعلّق بالله دون غيره، فإنّ معنى { لا تُطِعِ } مرادف معنى: لا تتق الكافرين والمنافقين، فإن الطاعة تقوى، فصار مجموع الجملتين مفيدا معنى: يا أيها النبيّ لا تتق إلّا الله، فعُدل عن صيغة القصر وهي أشهر في الكلام البليغ وأوجز إلى ذكر جملتي أمر ونهي لقصد النصِّ على أنّه قصر إضافي أريد به أن لا يطيع الكافرين والمنافقين لأنّه لو اقتصر على أن يقال: لا تتق إلّا الله لما أصاخت إليه الأسماع إصاخة خاصة لأنّ تقوى النبيّ صلى الله عليه وسلم ربّه أمر

معلوم، فسُلك مسلك الإطناب لهذا.

وقد تعيَّن بهذا أنّ الأمر في قوله تعالى { اتَّقِ اللَّهَ }، والنهي في قوله تعالى {وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ} مستعملان في طلب الاستمرار على ما هو ملازم له من تقوى الله، فأشعر ذلك أنّ تشريعا عظيما سيُلقى إليه لا يخلو من حرج عليه فيه وعلى بعض أمّته، وأنّه سيلقى مطاعن الكافرين والمنافقين.

وفائدة هذا الأمر والنهي التشهير لهم بأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لا يقبل أقوالهم لييأسوا من ذلك.

{ **الْكَافِرِينَ** } المراد المجاهرون بالكفر لأنّه قوبل بالمنافقين، فيجوز أن يكونوا المشركين، كما هو غالب إطلاق هذا الوصف في القرآن، والأنسب بما سيعقبه من قوله { مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ } [4]. ويجوز أن يكونوا اليهود كما يقتضيه ما يروى في سبب النزول، ولو حُمل على ما يعمّ نوعي الكافرين المجاهرين لم يكن بعيدا.

الطاعة: العمل على ما يأمر به الغير أو يشير به لأجل إجابة مرغوبة.

مثل أن يعدل عن تزوّج مطلقة متبنّاه لقول المنافقين: إنّ محمدا ينهى عن تزوّج نساء الأبناء وتزوّج زوج ابنه زيد بن حارثه، وهو المعنى الذي جاء فيه قوله تعالى { وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ } [37]، وقوله تعالى { وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ } [48] عقب قضية امرأة زيد.

{ **إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً** } تعليل للنهي. والمعنى: أنّ الله حقيق بالطاعة له دون الكافرين والمنافقين لأنّه عليم حكيم فلا يأمر إلّا بما فيه الصلاح.

والخبر الذي ذكره الواحدي في أسباب النزول والثعلبي والقشيري والماوردي في تفاسيرهم سببا لقوله تعالى { وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ } لا سند له ولم يعرّج عليه أهل النقد مثل الطبري وابن كثير.

{ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً } [2].

هذا تمهيد لما يرد من الوحي في شأن أحكام التبنّي وما يتصل بها، ولذلك جيء بالفعل المضارع الصالح للاستقبال وجُرّد من علامة الاستقبال لأنّه قريب من زمن الحال.

{ **وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ** } المقصود أمر خاص. وفيه إيذان بأنّ ما سيوحي إليه قريبا هو ما يشقّ عليه وعلى المسلمين من إبطال حكم التبنّي لأنّهم ألفوه واستقر في عوائدهم وعاملوا المتبنّين معاملة الأبناء.

{ **إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً** } تعليل للأمر بالاتباع وتأنيس به، لأنّ الله خبير بما في عوائدكم ونفوسكم فإذا أبطل شيئا من ذلك فإنّ إبطاله من تعلّق العلم بلزوم تغييره فلا تتريّثوا في امتثال أمره في ذلك.

وفي إفراد الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى { وَاتَّبِعْ } وجمعه بما يشمله وأمته في قوله تعالى { بِمَا تَعْمَلُونَ } إيماء إلى أنّ فيما سينزل من الوحي ما يشتمل على تكليف يشمل تغيير حالة كان

النبيّ عليه الصلاة والسلام مشاركا لبعض الأمّة في التلبّس بها وهو حكم التبنّي إذ كان النبيّ متبنّيا **زيد بن حارثة** من قبل بعثته.

{ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً } [3].

زيادة تمهيد وتوطئة لتلقي تكليف يُترقّب منه أذى من المنافقين مثل قولهم: إنّ محمدا نهى عن تزوّج نساء الأبناء وتزوّج امرأة ابنه، وهو ما يشير إليه قوله تعالى { وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً } [48]، فأمره بتقوى ربه دون غيره، وأتبعه بالأمر باتباع وحيه، وعزّزه بالأمر بما فيه تأييده وهو أن يفوّض أموره إلى الله.

التوكّل: إسناد المرء مُهِمَّه وشأنه إلى من يتولى عمله، وتقدّم عند قوله تعالى { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } [آل عمران:159].

الوكيل: الذي يُسند إليه غيره أمره، وتقدّم عند قوله { وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ } [آل عمران:173].

{ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ } [4].

{ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ } استئناف ابتدائي ابتداء المقدّمة للغرض بعد التمهيد له بما قبله، والمقدّمة أخصّ من التمهيد لأنّها تشتمل على ما يوضّح المقصد بخلاف التمهيد.

والمقصود التنبيه إلى بطلان أمور كان أهل الجاهلية قد زعموها وادّعوها. وابتدئ من ذلك بما دليل بطلانه الحس والاختبار ليُعلم من ذلك أنّ الذين اختلقوا مزاعم يشهد الحس بكذبها يهون عليهم اختلاق مزاعم فيها شبه وتلبيس للباطل في صورة الحقّ فيُتلقى ذلك بالإذعان والامتثال.

{ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ } إشارة إلى أكذوبة من تكاذيب الجاهلية كانوا يزعمون أنّ **جميل بن معمر** (ويقال: ابن أسد) بن حبيب الجُمحي الفهري، وكان رجلا داهية قوي الحفظ، أنّ له قلبين يعملان ويتعاونان، وكانوا يدعونه ذا القلبين، يريدون العقلين، لأنّهم كانوا يحسبون أنّ الإدراك بالقلب وأنّ القلب محل لعقل. وقد غرّه ذلك أو تغاور به فكان لشدّة كفره يقول: " إنّ في جوفي قلبين أعمل بكل واحد منهما عملا أفضل من عمل محمد ".

وسمُّوا بذي القلبين أيضا عبد الله بن خطل التيمي، وكان يسمَّى في الجاهلية عبد العُزَّى وأسلم فسمّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله ثم كفر وقُتل صبرا يوم فتح مكة، وهو الذي تعلّق بأستار الكعبة.

{ لِرَجُلٍ } نفت الآية زعمهم نفيا عاما، أي: ما جعل الله لأي رجل من الناس قلبين. واللفظ لا مفهوم له لأنّه أريد به الإنسان. والنكرة في سياق النفي يقتضي العموم، وكذلك فعل {جَعَلَ} في سياق النفي يقتضي

العموم. والجعل المنفي هنا هو الجعل الجِبلِّي.

الجوف: باطن الإنسان صدره وبطنه وهو مقرّ الأعضاء الرئيسية عدا الدماغ.

{ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ } عطف إبطال ثان لبعض مزاعمهم وهو ما كان في الجاهلية أنّ الرجل إذا أراد فراق زوجه فراقا لا رجعة فيه بحال يقول لها: " أنت عليَّ كظهر أمّي ". وهذه الصيغة معروفة عندهم، وهي موجبة طلاق المرأة وحرمة تزوّجها من بعد لأنّها صارت أمّا له. وليس المقصود هنا تشريع إبطال آثار التحريم به لأنّ ذلك أبطل في سورة المجادلة وهي ممّا نزل قبل نزول سورة الأحزاب، ولكن المقصود أن يكون تمهيدا لتشريع إبطال التبنّي تنظيرا بين هذه الأوهام، إلّا أنّ هذا التمهيد الثاني أقرب إلى المقصود لأنّه من الأحكام التشريعية.

{ تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ } ذكر الظهر في قولهم: أنت عليَّ كظهر أمي، تخييل للتشبيه المضمر في النفس على طريقة الاستعارة المكنية. وقولهم: أنت عليَّ، فيه مضاف محذوف دلّ عليه ما في المخاطبة من معنى الزوجية والتقدير: غشيانك، أي: أنت حرام عليَّ، فصارت الجملة بما لحقها من الحذف علامة على معنى التحريم الأبدي. فلما قال الله { اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ } علم الناس أنّه يعني قولهم: أنت علي كظهر أمّي.

{ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ } هذا هو المقصود الذي وُطِّئ بالآيتين قبله، ولذلك أسهب الكلام بعده بتفاصيل التشريع فيه. وعُطفت هاته الجملة على اللتين قبلها لاشتراك ثلاثتها في أنّها نفت مزاعم لا حقائق لها.

الأدعياء: جمع دَعِيّ بوزن فعيل بمعنى مفعول، والادّعاء: زعم الزاعم الشيء حقًّا له من مال أو نسب أو نحو ذلك بصدق أو كذب، وغلب وصف الدّعيّ على المدَّعِي أنّه ابن لمن يتحقّق أنّه ليس أبا له.

فمن ادَّعى أنّه ابن لمن يحتمل أنّه أب له فذلك هو اللحيق أو المستلحَق.

فالدَّعِيُّ لم يجعله الله ابنا لمن ادّعاه للعلم بأنّه ليس أبا له، وأمّا المستلحق فقد جعله الله ابنا لمن استلحقه بحكم استلحاقه مع إمكان أبوّته له.

نزلت هذه الآية في إبطال التبنّي، أي: إبطال ترتيب آثار البنوّة الحقيقة من الإرث، وتحريم القرابة، وتحريم الصهر، وكانوا في الجاهلية يجعلون للمتبنَّى أحكام البنوّة كلّها، وكان من أشهر المتبنين في عهد الجاهلية زيد بن حارثة تبنّاه النبيّ صلى الله عليه وسلم، وعامر بن ربيعة تبنّاه الخطاب أبو عمر بن الخطاب، وسالم تبنّاه أبو حذيفة، والمقداد بن عمرو تبنّاه الأسود بن عبد يغوث.

زيد بن حارثة الذي نزلت الآية في شأنه كان غريبا من بني كلب من وبَرة، من أهل الشام، وكان أبوه حارثة توفي وترك ابنيه (جبلة / زيدًا) فبقيا في حجر جدّهما، ثم جاء عمَّاهما فطلبا من الجدّ كفالتهما فأعطاهما جبلة وبقي زيد عنده فأغارت على الحي خيل من تهامة فأصابت زيدا، فأخذ جدّه يبحث عن مصيره، وقال أبياتا منها:

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل ... أحي فيرجى أم أتى دونه الأجل

وأنّه علم أنّ زيدا بمكة وأنّ الذين سبوه باعوه بمكة فابتاعه حكيم بن حزام بن خويلد فوهبه لعمّته خديجة بنت خويلد زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم فوهبته خديجة للنبيّ صلى الله عليه وسلم فأقام عنده زمنا ثم جاء جدّه وعمّه يرغبان في فدائه فأبى الفداء واختار البقاء على الرقّ عند النبيّ فحينئذ أشهد النبيّ قريشا أنّ زيدا ابنه يرث أحدهما الآخر فرضي أبوه وعمّه وانصرفا، فأصبح يُدعى: زيد بن محمد، وذلك قبل البعثة. وقُتل زيد في غزوة مؤتة من أرض الشام سنة ثمان من الهجرة.

{ **ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ** } استئناف اعتراضي بين التمهيد والمقصود من التشريع وهو فذلكة كما تقدّم من الجمل الثلاث التي نفت جعلهم ما ليس بواقع واقعا ولذلك فصلت الجملة لأنها تتنزل منزلة البيان بالتحصيل لما قبلها.

{ **ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ** } الإشارة إلى مذكور ضمنا من الكلام المتقدّم، وهو ما نُفي أن يكون الله جعله من وجود قلبين لرجل، ومن كون الزوجة المظاهر منها أمًّا لمن ظاهر منها، ومن كون الأدعياء أبناء للذين تبنوهم. وإذ قد كانت تلك المنفيات الثلاثة ناشئة عن أقوال قالوها صح الإخبار عن الأمور المشار إليها بأنّها أقوال باعتبار أنّ المراد أنّها أقوال فحسب ليس لمدلولاتها حقائق خارجية تطابقها، ولإفادة هذا المعنى قُيّد بقوله { بِأَفْوَاهِكُمْ } إشارة إلى أنّه قول لا تتجاوز دلالته الأفواه إلى الواقع ونفس الأمر، فليس له من أنواع الوجود إلّا الوجود في اللسان والوجود في الأذهان دون الوجود في العيان، ونظير هذا قوله تعالى { كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا } [المؤمنون:100].

{ **وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ** } زيادة في التصريح، فأومأ إلى أنّ قولهم ذلك قول كاذب. وهو داخل في الفذلكة لما تقدّم. وفي الإخبار عن اسم الجلالة وضميره بالمسندين الفعليين إفادة قصر القلب، أي: هو يقول الحقّ لا الذين وضعوا لكم تلك المزاعم، وهو يهدي السبيل لا الذين أضلّوا الناس بالأوهام.

{ **السَّبِيلَ** } الطريق السابلة الواضحة، أي: الواضح أنّها مطروقة فهي مأمونة الإبلاغ إلى غاية السائر فيها.

{ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً } [5].

{ **ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ** } استئناف بالشروع في المقصود من التشريع لإبطال التبنّي وتفصيل لما يحقّ أن يجريه المسلمون في شأنه.

والمراد من دعوتهم بآبائهم ترتّب آثار ذلك.

{ **ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ** } لام الانتساب، وأصلها لام الاستحقاق. يقال: فلان لفلان، أي: هو ابنه. وفي حديث أبي قتادة: " صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاملا أُمامة ابنة بنته زينب ولأبي العاص ابن ربيعة "، فكانت اللام مغنية عن أن يقول: وابنة أبي العاص.

ويُفهم منه النهي عن أن يُنسب أحد إلى غير أبيه بطريق لحن الخطاب. وفي الحديث: **" من انتسب إلى غير أبيه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لَا يقبل الله منه صرفا ولَا عدلا "**.

ويخرج من النهي قول الرجل لآخر: أنت أبي وأنا ابنك على قصد التعظيم والتقريب، وذلك عند انتفاء اللبس.

{ **هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ** } الضمير عائد إلى المصدر المفهوم من فعل { ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ }. والجملة استئناف بياني. أي: هو قسط كامل وغيره جور على الآباء الحقّ والأدعياء، لأنّ فيه إضاعة أنسابهم الحق.

والغرض من هذا الاستئناف أن تُعلم عناية الله تعالى بإبطال أحكام الجاهلية في التبنّي، وأن تطمئن نفوس المسلمين من المتبنين والأدعياء.

{ **فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ** } تفريع، للتشريع بعدم التساهل في بقاء ما كانوا عليه بعذر أنّهم لا يعلمون آباء بعض الأدعياء، وتأنيسا للناس أن يعتاضوا عن ذلك الانتساب المكذوب اتصالا حقا لا يفوت به ما في الانتساب القديم من الصلة. والإخبار بأنّهم إخوان وموال كناية عن الإرشاد إلى دعوتهم بأحد هذين الوجهين.

{ **فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ** } (فِي) للظرفية المجازية، أو تُجعل للتعليل والتسبّب، أي: إخوانكم بسبب الإسلام، مثل قوله تعالى { فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ } [العنكبوت:10]، أي: لأجل الله.

وليس في دعوتهم بوصف الأخوّة ريبة أو التباس مثل الدعوة بالبنوّة، وفي ذلك جبر لخواطر الأدعياء ومن تبنّوهم.

{ **وَمَوَالِيكُمْ** } الواو للتقسيم وهي بمعنى (أو) فتصلح لمعنى التخيير، أي: فإن لم تعلموا آباءهم فادعوهم إن شئتم بإخوان وإن شئتم ادعوهم موالي إن كانوا كذلك. وهذا توسعة على الناس.

والمراد بالولاء ولاء المحالفة لا ولاء العتق، فالمحالفة مثل الأخوّة.

{ **وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ** } عطف على جملة { ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ } لأنّ الأمر فيها للوجوب فهو نهي عن ضدّه لتحريمه.

الجناح: الإثم، وهو صريح في أنّ الأمر في قوله تعالى { ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ } أمر وجوب.

{ **فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ** } ما يجري على الألسنة خارجا مخرج الغالب فيما اعتادوه أن يقولوا: فلان ابن فلان للدعِيّ ومتبنيه، ولذلك قابله بقوله { **وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ** } أي: ما تعمَّدته عقائدكم بالقصد والإرادة إليه.

{ **وَكَانَ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً** } تعليل نفي الجناح عن الخطأ بأنّ نفي الجناح من آثار اتصاف الله تعالى بالمغفرة والرحمة بخلقه.

{ النبيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفاً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً } [6].

{ النبيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ } استئناف بياني لأجل تعليم المؤمنين حقوق النبيّ وحرمته.

والمعنى: أنّه أولى بكلّ مؤمن من نفسه. و {مِنْ} تفضيلية. أي: هو أشد ولاية، أي: أشد قربا، وهو قرب معنوي يراد به آثار القرب من محبة ونصرة. والكلام على تقدير مضاف، أي: أولى بمنافع المؤمنين أو بمصالح المؤمنين، فهذا المضاف حُذف لقصد تعميم كلّ شأن من شؤون المؤمنين الصالحة.

الأنفس: الذوات، أي: هو أحق بالتصرّف في شؤونهم من أنفسهم. ومن هذا المعنى ما في الحديث الصحيح من قول عمر بن الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم: " لأنت أحبّ إليّ من كلّ شيء إلّا من نفسي التي بين جنبيّ، فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" لا يؤمن أحدكم حتّى أكون أحبَّ إليه من نفسه.** فقال: عمر والذي أنزل عليك الكتاب لأنت أحبّ إلي من نفسي ".

وفي الحديث: **" ما من مؤمن إلّا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرأوا إن شئتم** { النبيّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ } ". ولِما علمتَ من أنّ هذه الولاية راجعة إلى حرمته وكرامته تعلم أنّها لا تتعدّى ذلك فيما هو من تصرّفات الناس وحقوق بعضهم من بعض، مثل ميراث الميّت من المسلمين، فإنّ ميراثه لورثته، وقد بيّنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فأيّما مؤمن ترك مالا فليرثه ورثته من كانوا، فإن ترك دينا أو ضِياعا فليأتني فأنا مولاه "**. وهذا ملاك معنى هذه الآية.

{ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ } عَطَفَ على حقوق النبيّ صلى الله عليه وسلم حقوقَ أزواجه على المسلمين لمناسبة جريان ذكر حق النبيّ عليه الصلاة والسلام، فجعل الله لهنّ ما للأمهات من تحريم التزوج بهنّ.

وأمّا ما عدا حكم التزوّج من وجوه البرّ بهنّ ومواساتهنّ فذلك راجع إلى تعظيم أسباب النبيّ صلى الله عليه وسلم وحُرماته ولم يزل أصحاب النبيّ والخلفاء الراشدون يتوخّون حُسن معاملة أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم ويؤثرونهنّ بالخير والكرامة والتعظيم. قال ابن عباس عند حمل جنازة ميمونة: " هذه زوج نبيّكم فإذا رفعتم نعشها فلا تزعزعوا ولا تزلزلوا وارفقوا " رواه مسلم.

وقد أكّد حكم أمومة أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم للمؤمنين بقوله تعالى { وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ } [53]، وبتحريم تزوّج إحداهنّ على المؤمنين بقوله تعالى { وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً } [53]. وسيجيء بيان ذلك في أواخر هذه السورة.

{ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفاً }.

أعقب نسخ أحكام التبنّي التي منها ميراث المتبنّي من تبناه والعكس بإبطال نظيره وهو المؤاخاة التي كانت بين رجال من المهاجرين مع رجال من الأنصار.

وذلك أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لمّا نزل بالمدينة مع من هاجر معه، جعل لكلّ رجل من المهاجرين رجلا أخًا له من الأنصار فآخى بين أبي بكر الصديق وبين خارجة بن زيد، وبين الزبير وكعب بن مالك، وبين عبد الرحمان بن عوف وسعد بن الربيع، وبين سلمان وأبي الدرداء، وبين عثمان بن مظعون وأبي قتادة الأنصاري؛ فتوارث المتآخون منهم بتلك المؤاخاة زمانا كما يرث الإخوة ثم نسخ ذلك بهذه الآية، كما نسخ التوارث بالتبنّي بآية { ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ } [5]، فبيّنت هذه الآية أنّ القرابة هي سبب الإرث.

{ **أُولُو الْأَرْحَامِ** } الإخوة الحقيقيون. وعُبّر عنهم بأولي الأرحام لأنّ الشقيق مقدّم على الأخ للأب في الميراث وهم الغالب، فبيّنت الآية أنّ أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض في الميراث من ولاية المتآخين المهاجرين والأنصار. وقد تقدّم نظير هذه الآية في [الأنفال:75].

{ **أُولُو** } تقدّم الكلام حولها عند قوله تعالى { وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ } [البقرة:197].

{ **فِي كِتَابِ اللَّهِ** } فيما كتبه، أي: فرضه وحكم به. ويجوز أن يراد به القرآن إشارة إلى ما تضمنته آية المواريث.

وتقدّم الكلام في توريث ذوي الأرحام إن لم يكن للميت وارث معلوم سهمه.

{ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ** } يجوز أن يتعلَّق باسم التفضيل وهو { أَوْلَى } فتكون { مِنْ } تفضيلية.

المعنى: أولوا الأرحام أولى بإرث ذوي أرحامهم من إرث أصحاب ولاية الإيمان والهجرة، أي: الولاية التي بين الأنصار والمهاجرين. وأريد بالمؤمنين خصوص الأنصار بقرينة مقابلته بعطف {وَالْمُهَاجِرِينَ} على معنى أصحاب الإيمان الكامل، تنويها بإيمان الأنصار لأنّهم سبقوا بإيمانهم قبل كثير من المهاجرين الذين آمنوا بعدهم، فإنّ الأنصار آمنوا دفعة واحدة لمّا أبلغهم نقباؤهم دعوة محمد صلى الله عليه وسلم إيّاهم بعد بيعة العقبة الثانية.

فالمعنى: كل ذي رحم أولى بإرث قريبه من أن يرثه أنصاري إن كان الميّت مهاجرا، أو أن يرثه مهاجر إن كان الميت من الأنصار، فيكون هذا ناسخا للتوارث بالهجرة الذي شُرع في سورة الأنفال { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا } [الأنفال:72].

ويجوز أن يكون قوله { مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } ظرفا مستقرًّا في موضع الصفة، أي: وأولوا الأرحام الذين هم من المؤمنين والمهاجرين، بعضهم أولى ببعض، أي: لا يرث ذو الرحم ذا رحمه إلّا إذا كانا مؤمنين

ومهاجرين، فتكون الآية ناسخة للتوارث بالحلف والمؤاخاة الذي شرع عند قدوم المهاجرين إلى المدينة، فلما نزلت هذه الآية رجعوا إلى مواريثهم.

وأيًّا ما كان فإنّ آيات المواريث نسخت هذا كلّه.

{ **إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفاً** } استثناء منقطع، و{ إِلَّا } بمعنى (لكن). وهذا استدراك على ما قد يُتوهَّم من قطع الانتفاع بأموال الأولياء عن أصحاب الولاية بالإخاء والحلف فبيّن أنّ الذي أُبطل ونُسخ هو انتفاع الإرث وبقي حكم المواساة وإسداء المعروف بمثل الإنفاق والإهداء والإيصاء.

{ **كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً** } تذييل لهذه الأحكام وخاتمة لها مؤذنة بانتهاء الغرض من الأحكام التي شُرعت من قوله تعالى { ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ } [5] إلى هنا.

{ **ذَلِكَ** } إشارة إلى المذكور من الأحكام المشروعة، فكان هذا التذييل أعم ممّا اقتضاه قوله تعالى { بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ }. وبهذا الاعتبار لم يكن تكريرا له ولكنه يتضمّنه ويتضمَّن غيره فيفيد تقريره وتوكيده تبعا، وهذا شأن التذييلات.

{ **الكِتَابِ** } التعريف للعهد، أي: كتاب الله، أي: ما كتبه على الناس وفرضه كقوله تعالى { كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ} [النساء:24]، فاستعير الكتاب للتشريع. و**المسطور**: المكتوب في سطور.

{ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً [7] لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً [8]}.

عطف على قوله تعالى {يَا أَيُّهَا النبيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ - إلى قوله - وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً} [1-3]، فلذلك تضمّن الأمر بإقامة الدين على ما أراده الله تعالى وأوحى به إلى رسوله صلى الله عليه وسلم، وعلى نبذ سنن الكافرين الصرحاء والمنافقين من أحكام الهوى والأوهام.

فلمّا ذُكر ذلك وعُقّب بثلاثة من أحكام جاهليتهم الضالة بما طال من الكلام إلى هنا ثُني عِنان الكلام إلى الإعلام بأنّ الذي أمره الله به هو من عهود أخذها الله على النبيّين والمرسلين من أوّل عهود الشرائع.

{ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النبيّينَ مِيثَاقَهُمْ** } موقع المقدّمة لقصة الأحزاب لأنّ ممّا أخذ الله عليه ميثاق النبيّين أن ينصروا الدين الذي يرسله الله به، وأن ينصروا دين الإسلام، قال تعالى { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النبيّين لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ } [آل عمران:81].

{ **إِذْ** } اسم للزمان مجرّد عن معنى الظرفية. فالتقدير: واذكر وقتا، وبإضافة { إِذْ } إلى الجملة بعده يكون المعنى: اذكر وقت أخذنا ميثاقا على النبيّين. وهذا الميثاق مجمل هنا بيّنته آيات كثيرة. وجماعها أن يقولوا الحقّ ويبلّغوا ما أمروا به دون ملاينة للكافرين والمنافقين، ولا خشية منهم، ولا مجاراة للأهواء. وأنّ الله واثقهم ووعدهم على ذلك بالنصر.

الميثاق: اسم العهد وتحقيق الوعد، وهو مشتق من وثق، إذا أيقن وتحقّق، وتقدّم في قوله تعالى { الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ } [البقرة:27].

وإضافة ميثاق إلى ضمير النبيّين من إضافة المصدر إلى فاعله على معنى اختصاص الميثاق بهم فيما ألزموا به وما وعدهم الله على الوفاء به. ويضاف أيضا إلى ضمير الجلالة في قوله تعالى { وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ } [المائدة:7].

{ **وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ** } هو من ذكر بعض أفراد العام للاهتمام بهم، فإنّ هؤلاء المذكورين أفضل الرسل، وقد ذُكر ضمير محمد صلى الله عليه وسلم قبلهم إيماء إلى تفضيله على جميعهم، ثم جعل ترتيب ذكر البقية على ترتيبهم في الوجود. ولهذه النكتة خُصّ ضمير النبيّ بإدخال حرف (من) عليه بخصوصه، ثمّ أدخل حرف (من) على مجموع الباقين فكان قد خُصّ باهتمامين: اهتمام التقديم، واهتمام إظهار اقتران الابتداء بضمير بخصوصه غير مندمج في بقيتهم عليهم السلام.

{ **وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً** } أعادت مضمون جملة { وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النبيّينَ مِيثَاقَهُمْ } لزيادة تأكيدها وليُبنى عليها وصف الميثاق بالغليظ، أي: عظيما جليل الشأن في جنسه.

الغليظ: حقيقته القوي المتين الخَلْق، قال تعالى { فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ } [الفتح:29]. واستعير الغليظ للعظيم الرفيع في جنسه لأنّ الغليظ من كلّ صنف هو أمكنه في صفات جنسه.

{ **لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ** } لام كي، أي: أخذنا منهم ميثاقا غليظا لنعظّم جزاء الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق، ولنشدِّد العذاب على الذين يكفرون بما جاءتهم به رسل الله. وهذه علّة من علل أخذ الميثاق من النبيّين وهي آخر العلل حصولا فأشعر ذكرها بأنّ لهذا الميثاق عللا تحصل قبل أن يُسأل الصادقون عن صدقهم، وهي ما في الأعمال المأخوذ ميثاقهم عليها من جلب المصالح ودرء المفاسد.

{ **يَسْأَلَ** } الضمير عائد إلى الله تعالى على طريقة الالتفات من التكلم إلى الغيبة.

{ **الصَّادِقِينَ** } أمم الأنبياء الذين بلغهم ما أخذ على أنبيائهم من الميثاق، ويقابلهم { **لِلْكَافِرِينَ** } الذين كذّبوا أنبياءهم أو الذين صدّقوهم ثم نقضوا الميثاق من بعد فيشملهم اسم الكافرين.

السؤال: كناية عن المؤاخذة.

{ **وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً** } عطف على جملة { لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ } وغُيّر فيها الأسلوب للدلالة على تحقيق عذاب الكافرين حتّى لا يُتوهم أنّهم يُسألون سؤال من يُسمع جوابهم أو معذرتهم.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً } [9].

ابتداء لغرض عظيم من أغراض نزول هذه السورة والذي حُفّ بآيات وعبر من ابتدائه ومن عواقبه تعليما للمؤمنين وتذكيرا ليزيدهم يقينا وتبصيرا. فافتُتح الكلام بتوجيه الخطاب إليهم لأنّهم أهله وأحقّاء به،

ولأنّ فيه تخليد كرامتهم ويقينهم وعناية الله بهم ولطفه لهم وتحقيرا لعدوّهم ومن يكيد لهم.
وأمروا أن يذكروا هذه النعمة ولا ينسوها لأنّ في ذكرها تجديدا للاعتزاز بدينهم والثقة بربّهم والتصديق لنبيّهم صلى الله عليه وسلم.
واختيرت للتذكير بهذا اليوم مناسبة الأمر بعدم طاعة الكافرين والمنافقين لأنّ من النعم التي حقّت بالمؤمنين في يوم الأحزاب أنّ الله ردّ كيد الكافرين والمنافقين فذُكِّر المؤمنون بسابق كيد المنافقين في تلك الأزمة ليحذروا مكائدهم وأراجيفهم في قضية التبنّي وتزوّج النبيّ صلى الله عليه وسلم مطلَّقة متبنَّاه، ولذلك خُصَّ المنافقون بقوله تعالى { وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ } [12]، فقضيّة إبطال التبنّي وإباحة تزوّج مطلّق الأدعياء كانت بقرب وقعة الأحزاب.

قصة غزوة الأحزاب

وكان سبب هذه الغزوة أنّ قريشا **بعد وقعة أُحُد** تهادنوا مع المسلمين لمدّة عام على أن يلتقوا ببدر من العام القابل فلم يقع قتال ببدر لتخلّف أبي سفيان عن الميعاد، فلم يناوش أحد الفريقين الفريق الآخر إلّا ما كان من حادثة غدر المشركين بالمسلمين وهي **حادثة بئر معونة** حين غدرت قبائل عُصَيَّة، ورِعْل، وذكوان من بني سُليم بأربعين من المسلمين، إذ سأل عامر بن مالك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن يوجّههم إلى أهل نجد يدعونهم إلى الإسلام. وكان ذلك كيدا كاده عامر بن مالك، وذلك بعد أربعة أشهر من انقضاء غزوة أُحُد.
فلما أجلى النبيّ صلى الله عليه وسلم بني النضير لِما ظهر من غدرهم به وخيسهم بالعهد الذي لهم مع المسلمين، هنالك اغتاظ كبراء يهود بني النضير بعد الجلاء وبعد أن نزلوا بديار بني قريظة وبخيبر فخرج سلَّام بن أبي الحُقَيق، وكنانة بن أبي الحقيق، وحُيي بن أَخطَب وغيرهم في نفر من بني النضير فقدموا على قريش لذلك وتآمروا مع غطفان على أن يغزوا المدينة.
فخرجت قريش وأحابيشها وبنو كنانة في عشرة آلاف وقائدهم أبو سفيان.
وخرجت غطفان في ألف قائدهم عُيينة بن حصن.
وخرجت معهم هوازن وقائدهم عامر بن الطفيل.
وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم عزمهم على منازلة المدينة، أبلغته إيّاه خُزاعة، وخاف المسلمون كثرة عدوّهم، وأشار **سلمان الفارسي** أن يُحفر خندق يحيط بالمدينة تحصينا لها من دخول العدو، فاحتفره المسلمون، والنبيّ صلى الله عليه وسلم معهم يحفر وينقل التراب.
وكانت **غزوة الخندق سنة أربع** في رواية ابن وهب وابن القاسم عن مالك. وقال ابن إسحاق: سنة خمس. وهو الذي اشتهر عند الناس وجرى عليه ابن رشد في (جامع البيان والتحصيل) اتباعا لما اشتهر، وقول مالك أصح.
وعندما تمّ الحفر أقبلت جنود المشركين، وتسمُّوا بالأحزاب لأنّهم عدة قبائل تحزّبوا.

وانضم إليهم بنو قريظة.
فكان ورود قريش من أسفل الوادي من جهة المغرب. ونزل جيش قريش بمجتمع الأسيال من رُومة بين الجُرف وزُغابة (بزاي معجمة مضمومة وغين معجمة وبعضهم يرويه بالعين المهملة).
وورود غطفان وهوازن من أعلى الوادي من جهة المشرق. ونزل جيش غطفان وهوازن بذَنَب نَقْمَى إلى جانب أحد.
وكان جيش المسلمين ثلاثة آلاف، وخرج المسلمون إلى خارج المدينة فعسكروا تحت جبل سلع وجعلوا ظهورهم إلى الجبل، والخندق بينهم وبين العدو، وجعل المسلمون نساءهم وذراريهم في آطام المدينة.
وأمَّر النبيّ صلى الله عليه وسلم على المدينة عبد الله بن أم مكتوم.
ودام الحال كذلك بضعا وعشرين ليلة لم تكن بينهم فيها حرب إلّا مصارعة بين ثلاثة فرسان اقتحموا الخندق من جهة ضيّقة على أفراسهم فتقاتلوا في السبخة بين الخندق وسلع وقُتل أحدهم، قتله علي بن أبي طالب، وفرّ صاحباه، وأصاب سهم غرب سعد بن معاذ في أكحله فكان منه موته في المدينة.
ولحقت المسلمين شدّة من الحصار وخوف من كثرة جيش عدوّهم حتّى همّ النبيّ صلى الله عليه وسلم بأن يصالح الأحزاب على أن يعطيهم نصف ثمر المدينة في عامهم ذلك يأخذونه عند طيبه وكاد أن يكتب معهم كتابا في ذلك، فاستشار سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فقال سعد بن معاذ: قد كنّا نحن وهؤلاء القوم على الشرك ولا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلّا قِرًى أو بيعا، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وأعزّنا بك نعطيهم أموالنا والله لا نعطيهم إلّا السيف حتّى يحكم الله بيننا وبينهم، فأبطل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان عزم عليه.
وأرسل الله على جيش المشركين ريحا شديدة فأزالت خيامهم وأكفأت قدورهم وأطفأت نيرانهم، واختلّ أمرهم، وهلك كراعهم وخُفُّهم، وحدث تخاذل بينهم وبين قريظة، وظنّت قريش أنّ قريظة صالحت المسلمين وأنهّم ينضمُّون إلى المسلمين على قتال الأحزاب، فرأى أهل الأحزاب الرأي في أن يرتحلوا فارتحلوا عن المدينة وانصرف جيش المسلمين راجعا إلى المدينة.

{ **إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ** } توطئة لقوله تعالى { فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً }، لأنّ ذلك هو محلّ المنّة. والجنود التي لم يروها هي الملائكة الذين أرسلوا الريح وألقوا التخاذل بين الأحزاب، وكانوا وسيلة إلقاء الرعب في نفوسهم.
{ **رِيحاً** } الريح المذكورة هنا هي ريح الصَّبَا وكانت باردة وقلعت الأوتاد والإطناب وسفَّت التراب في عيونهم وماجت الخيل بعضها في بعض وهلك كثير من خيلهم وإبلهم وشائهم. وفيها قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" نصرت بالصَّبَا وأهلكت عاد بالدبور ".**
{ **وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً** } في موقع الحال من اسم الجلالة في قوله تعالى { نِعْمَةَ اللَّهِ }، وهي إيماء

إلى أنّ الله نصرهم على أعدائهم لأنّه عليم بما لقيه المسلمون من المشقة والمصابرة في حفر الخندق والخروج من ديارهم إلى معسكرهم خارج المدينة، وبذلهم النفوس في نصر دين الله فجازاهم الله بالنصر المبين كما قال تعالى { وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ } [الحج:40].

{ **إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ** } في هذا الموقع جمع جند، وهو الجمع المتّحد المتناصر، ولذلك غلب على الجمع المجتمع لأجل القتال فشاع الجند بمعنى الجيش. وذُكر جنود هنا بلفظ الجمع مع أنّ مفرده مؤذن بالجماعة مثل قوله تعالى { جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ } [ص:11] فجمعه هنا لأنّهم كانوا متجمعين من عدة قبائل لكلّ قبيلة جيش، ونظيره قوله تعالى { فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ} [البقرة:249].

{ **وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا** } وفي هذا الموقع جمع جند بمعنى: الجماعة من صنف واحد. والمراد بهم ملائكة أرسلوا لنصر المؤمنين وإلقاء الرعب والخوف في قلوب المشركين.

{ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا [10] **هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً** [11] **}.**

{ **إِذْ جَاءُوكُمْ** } بدل من { إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ } [9] بدل مفصَّل من مجمل.

{ **مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ** } فوق جهة المدينة وأسفلها.

{ **وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ** } عطف على البدل وهو من جملة التفصيل، والتعريف في {الْأَبْصَارُ / الْقُلُوبُ / الْحَنَاجِرَ} للعهد، أي: أبصار المسلمين وقلوبهم وحناجرهم.

الزيغ: الميل عن الاستواء إلى الانحراف. فزيغ البصر ألّا يرى ما يتوجّه إليه، أو أن يريد التوجّه إلى صوب فيقع إلى صوب آخر من شدّة الرعب والانذعار.

{ **الْحَنَاجِرَ** } جمع حَنْجَرة (بفتح الحاء المهملة وسكون النون وفتح الجيم): منتهى الحلقوم وهي رأس الغلصمة. وبلوغ القلوب الحناجر تمثيل لشدّة اضطراب القلوب من الفزع والهلع حتّى كأنّها لاضطرابها تتجاوز مقارها وترتفع طالبة الخروج من الصدور. وقريب منه قولهم: تنفّس الصعداء، وبلغت الروح التراقي.

{ **وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا** } يجوز أن تكون عطفا على جملة { زَاغَتِ الْأَبْصَارُ }، ويجوز أن يكون الواو للحال وجيء بالفعل المضارع للدلالة على تجدّد تلك الظنون بتجدّد أسبابها، كناية عن طول مدّة هذا البلاء.

وفي صيغة المضارع معنى التعجيب من ظنونهم لإدماج العتاب بالامتنان فإنّ شدّة الهلع الذي أزاغ الأبصار وجعل القلوب بمثل حالة أن تبلغ الحناجر دلّ على أنهم أشفقوا من أن يُهزموا.

{ **الظُّنُونَا** } انتصب على المفعول المطلق المبيّن للعدد، وهو جمع ظنّ. وتعريفه باللام تعريف الجنس، وجمعه للدلالة على أنواع من الظنّ.

{ **هُنَالِكَ** } إشارة إلى المكان الذي تضمَّنه قوله تعالى { جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ } [9]، وقوله تعالى { إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ }. والأظهر أن تكون الإشارة إلى الزمان الذي دلت عليه { إِذْ } في قوله تعالى { وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ }. وكثيرا ما ينزل أحد الظرفين منزلة الآخر.

الابتلاء: أصله الاختبار، ويطلق كناية عن إصابة الشدّة لأنّ اختبار حال الثبات والصبر لازم لها، وسمَّى الله ما أصاب المؤمنين ابتلاء إشارة إلى أنّه لم يزعزع إيمانهم.

الزلزال: اضطراب الأرض، وهو مضاعف **(زلّ)** تضعيفا يفيد المبالغة، وهو هنا استعارة لاختلال الحال اختلالا شديدا. والمراد بزلزلة المؤمنين شدّة الانزعاج والذعر لأنّ أحزاب العدو تفوقهم عددا وعُدَّة.

{ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً [12] وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً [13] }.

عطف على { وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ } [10] فإنّ ذلك كلّه ممّا ألحق بالمسلمين ابتلاء، فبعضه من حال الحرب وبعضه من أذى المنافقين، ليحذروا المنافقين فيما يحدث من بعد، ولئلّا يخشوا كيدهم، فإنّ الله يصرفه كما صرف أشدّه يوم الأحزاب.

{ **وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ** ... } وقولهم هذا يحتمل أن يكونوا قالوه علنا بين المسلمين قصدوا به إدخال الشك في قلوب المؤمنين لعلّهم يردّونهم عن دينهم، فأوهموا بقولهم أنّهم ممّن يؤمن بالله ورسوله.

ويحتمل أنّهم قالوا ذلك بين أهل ملَّتهم، فيكون نسبة الوعد إلى الله ورسوله تهكّما، كقول فرعون { إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ } [الشعراء:27].

الغرور: ظهور الشيء المكروه في صورة المحبوب، وتقدّم عند قوله تعالى { لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ } [آل عمران:196]، وقوله تعالى { زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً } [الأنعام:112]. والمعنى: أن الله وعدهم النصر فكان الأمر هزيمة.

{ **الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ** } هم الذين كانوا متردّدين بين الإيمان والكفر فأخلصوا يومئذ النفاق.

{ **وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ** } المراد بالطائفة عبد الله ابن أبَي بن سلول وأصحابه. كذا قال السدي.

وقال الأكثر: هو أوس بن قيظي أحد بني حارثة، وهو والد عَرابة بن أوس، في جماعة من منافقي قومه.

والظاهر هو ما قاله السدي لأنّ عبد الله ابن أبي رأس المنافقين.

{ **يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا** }، أي: لا فائدة لكم في ذلك، وهو يروم تخذيل الناس كما فعل يوم أُحُد.

{ **يَثْرِبَ** } اسم مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، سُمِّيت باسم يثرب من العمالقة، وهو **يثرب من قانية**

الحفيد الخامس لإرم بن سام ابن نوح. وقد روي عن البراء بن عازب وابن عباس أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم نهى عن تسميتها يثرب وسمّاها طابة.

{ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ } جماعة من المنافقين والذين في قلوبهم مرض، وليسوا فريقا من الطائفة المذكورة آنفا، بل هؤلاء هم أوس بن قيظي وجمع من عشيرته بني حارثة، وكان بنو حارثة أكثرهم مسلمين وفيهم منافقون، فجاء منافقوهم يعتذرون بأنّ منازلهم **عورة**، أي: غير حصينة.

وجيء بالفعل المضارع للإشارة إلى أنّهم يلحّون في الاستئذان ويكرّرونه.

ومنازل بني حارثة كانت في أقصى المدينة قرب منازل بني سلمة فإنّهما كانا حيين متلازمين قال تعالى { إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا} [آل عمران: 122] هما بنو حارثة وبنو سلمة في غزوة أُحُد.

وفي الحديث: أنّ بني سلمة راموا أن ينقلوا منازلهم قرب المسجد فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **" يا بني سلمة ألا تحتسبون آثاركم "**، أي خطاكم. فهذا الفريق منهم يعتلّون بأن منازلهم بعيدة عن المدينة وآطامها.

الاستئذان: طلب الإذن، وهؤلاء راموا الانخذال واستحيوا. ولم يذكر المفسّرون أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أذن لهم. وذكر أهل السير أنّ ثمانين منهم رجعوا دون إذنه.

{ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ } التأكيد بحرف { إِنَّ } تمويه لإظهار قولهم في صورة الصدق. لمّا علموا أنّهم كاذبون وأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم يعلم كذبهم جعلوا تكذيبه إيّاهم في صورة أنّه يشك في صدقهم فأكّدوا الخبر.

{ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً } تكذيب لهم، فإنّ المدينة كانت محصَّنة يومئذ بخندق وكان جيش المسلمين حارسها. ولم يقرن هذا التكذيب بمؤكد لإظهار أنّ كذبهم واضح غير محتاج إلى تأكيد.

{ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً } [14].

موقع هذه الآية زيادة تقرير لمضمون جملة { وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً } [13] فإنّها لتكذيبهم في إظهارهم التخوّف على بيوتهم ومرادهم خذل المسلمين.

{ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ } لم أجد فيما رأيت من كلام المفسّرين ولا من أهل اللغة من أفصح عن معنى (الدخول) في مثل هذه الآية وما ذكروا إلّا معنى الولوج إلى المكان مثل ولوج البيوت أو المدن، وهو الحقيقة.

والذي أراه أنّ الدخول كثر إطلاقه على دخول خاص وهو اقتحام الجيش أو المغيرين أرضا أو بلدا لغزو أهله، قال تعالى { يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ } [المائدة:21]، وأنه يعدّى غالبا إلى المَغْزُوّين بحرف (على). ومنه قوله تعالى { قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ - إلى قوله - قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ

نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا } [المائدة:24/23]، فإنّه ما يصلح إلّا معنى دخول القتال والحرب.

فيُفهم من الدخول في مثل هذا المقام معنى الغزو والفتح كما نقول: عام دخول التتار بغداد.

فيتعيّن أن يكون ضمير { **دُخِلَتْ** } عائدا إلى مدينة يثرب لا إلى البيوت من قولهم { إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ } [13]. والمعنى: لو غُزيت المدينة من جوانبها. وأسند الفعل إلى المجهول لظهور أنّ فاعل الدخول قوم غزاة.

الأقطار: جمع قُطْر (بضم القاف وسكون الطاء) وهو الناحية من المكان.

{ **مِنْ أَقْطَارِهَا** } جمع يفيد العموم، أي: من جميع جوانب المدينة، وذلك أشدّ.

{ **ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا** } للتراخي الرتبي، للتنبيه على أنّ ما بعد { ثُمَّ } أهمّ من الذي قبلها، أي: أنّهم مع ذلك يأتون الفتنة.

{ **الْفِتْنَةَ** } هي أن يفتنوا المسلمين، أي: الكيد لهم وإلقاء التخاذل في جيش المسلمين. ومن المفسّرين من فسّر الفتنة بالشرك ولا وجه له، ومنهم من فسّرها بالقتال وهو بعيد.

الإتيان: القدوم إلى مكان. وقد أشعر هذا الفعل بأنّهم يخرجون من المدينة التي كانوا فيها ليفتنوا المسلمين.

{ **وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا** } عطف على جملة { لَأتَوْهَا }. والتلبُّث: اللبث، أي: الاستقرار في المكان وهو هنا مستعار للإبطاء، أي: ما أبطأوا بالسعي في الفتنة ولا خافوا أن تؤخذ بيوتهم.

والمعنى: لو دخلت جيوش الأحزاب المدينة وبقي جيش المسلمين خارجها وسأل الجيش الداخل الفريق المستأذنين أن يلقوا الفتنة في المسلمين بالتفريق والتخذيل لخرجوا لذلك القصد مسرعين ولم يثبّطهم الخوف على بيوتهم.

{ **إِلَّا يَسِيراً** } الاستثناء يظهر أنّه تهكّم بهمّ فيكون المقصود تأكيد النفي بصورة الاستثناء. ويحتمل أنّه على ظاهره، أي: إلّا ريثما يتأمّلون فلا يطيلون التأمّل، فيكون المقصود من ذكره تأكيد قلّة التلبّث.

{ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولاً } [15].

هؤلاء هم بنو حارثة وبنو سَلِمة وهم الذين قال فريق منهم { إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ } [13] واستأذن النبيّ صلى الله عليه وسلم، أي: كانوا يوم **أُحُد** جبنوا ثم تابوا وعاهدوا النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّهم لا يولُّون الأدبار في غزوة بعدها، وهم الذين نزل فيهم قوله { إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا } [آل عمران:122]، فطرأ على نفر من بني حارثة نفاق وضعف في الإيمان فذكَّرهم الله بذلك وأراهم أنّ منهم فريقا قُلَّبًا لا يرعى عهدا ولا يستقرّ لهم اعتقاد، وأنّ ذلك لضعف يقينهم وغلبة الجبن عليهم.

وهذا تنبيه للقبيلين ليزجروا من نكث منهم.

{ **وَلَقَدْ كَانُوا** } تأكيد هذا الخبر بـ (لام القسم) وحرف التحقيق (قد) وفعل (كان)، مع أنّ الكلام موجّه إلى المؤمنين، تنزيلا للسامعين منزلة من يتردَّد في أنّهم عاهدوا الله على الثبات.

{ **مِنْ قَبْلُ** } زيادة للإشارة إلى أنّ ذلك العهد قديم، وهو عهد يوم **أُحُد**.

{ **لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ** } بيان لجملة { عَاهَدُوا }.

التولية: التوجّه بالشيء، وهي مشتقة من الوَلْي وهو القرب، قال تعالى { فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } [البقرة:144].

{ **الْأَدْبَارَ** } الظهور. و**تولية الأدبار**: كناية عن الفرار، فإنّ الذي استأذنوا لأجله في غزوة الخندق أرادوا منه الفرار، ألا ترى قوله تعالى { إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً } [13]، والفرار ممّا عاهدوا الله على تركه.

{ **وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولاً** } تذييل. والمراد بعهد الله: كل عهد يوثقه الإنسان مع ربّه.

المسؤول: كناية عن المحاسَب عليه، كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" وكلكم مسؤول عن رعيته "**، وكما تقدّم آنفا عند قوله تعالى { لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ } [8]. وهذا تهديد.

{ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً } [16].

جواب عن قولهم { إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ } [13] ولذلك فُصلت لأنّها جرت على أسلوب التقاول والتجاوب، وما بين الجملتين من قوله تعالى {وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ - إلى قوله - مَسْؤُولاً} [15/14] اعتراض كما تقدّم. وهذا يُرجّح أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يأذن لهم بالرجوع إلى المدينة وأنّه ردّ عليهم بما أمره الله أن يقوله لهم، أي: قد علم الله أنّكم ما أردتم إلّا الفرار جبنا، والفرار لا يدفع عنكم الموت أو القتل.

{ **الْمَوْتِ** } أريد به: الموت الزؤام وهو الموت حتف أنفه لأنّه قوبل بالقتل.

{ **وَإِذاً لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً** } تعقيب جوابا عن كلام مقدّر دل عليه المذكور، أي: إن خُيّل إليكم أنّ الفرار نفع الذي فرّ، فما هو إلّا نفع زهيد لأنّه تأخير في أجل الحياة، وهو متاع قليل.

{ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً } [17].

{ **قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً** } يظهر أن هذه الجملة واقعة موقع التعليل لجملة { لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ }، فكأنّه قيل: فمن ذا الذي يعصمكم من الله.

{ **قُلْ** } تكرير لأجل الاهتمام بمضمون الجملة.

التقدير: فأنتم إذا عصيتم الله ورسوله وخذلتم المؤمنين تتعرّضون لإرادته بكم السوء فلا عاصم لكم.

{ **مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ** } الاستفهام إنكاري في معنى النفي لاعتقادهم أنّ الحيلة على رسول الله صلى الله عليه وسلم تنفعهم، وأنّ الفرار يعصمهم من الموت إن كان قتال.

العصمة: الوقاية والمنع ممّا يكرهه المعصوم.

{ **إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً** } قوبل السوء بالرحمة لأنّ المراد سوء خاص وهو السوء المجعول عذابا لهم على معصية الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو سوء النقمة.

{ **وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً** } الكلام موجَّه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم وليس هو من قبيل الالتفات. والمقصود لازم الخبر وهو إعلام النبيّ عليه الصلاة والسلام ببطلان تحيُّلاتهم وأنّهم لا يجدون نصيرا غير الله، وقد حرمهم الله النصر لأنّهم لم يعقدوا ضمائرهم على نصر دينه ورسوله.

الولي: الذي يتولى نفعهم. **النصير**: النصير في الحرب فهو أخصّ.

{ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً [18] أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً [19] }.

استئناف بياني ناشئ عن قوله تعالى { مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ } [17]. أي: فالله ينبئ رسوله بكم بأنّ فعل أولئك تعويق للمؤمنين. وقد جُعل هذا الاستئناف تخلُّصا لذكر فريق آخر من المعوِّقين.

{ **قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ** } مفيد للتحقيق لأنّهم لنفاقهم ومرض قلوبهم يشكُّون في لازم هذا الخبر وهو إنباء الله رسولَه عليه الصلاة والسلام بهم، أو لأنّهم لجهلهم الناشئ عن الكفر يظنُّون أنّ الله لا يعلم خفايا القلوب. وذلك ليس بعجيب في عقائد أهل الكفر.

ففي صحيح البخاري عن ابن مسعود: " اجتمع عند البيت قرشيان وثقفي أو ثقفيان وقرشي كثيرة شحم بطونهم قليلة فقه قلوبهم، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع ما نقول؟ قال الآخر: يسمع إذا جهرنا ولا يسمع إذا أخفينا. وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا فإنّه يسمع إذا أخفينا، فأنزل الله تعالى { وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ } [فصلت:22].

ودخول (قد) على المضارع لا يخرجها عن معنى التحقيق عند المحققين من أهل العربية، وأن ما توهموه من التقليل إنما دل عليه المقام في بعض المواضع لا من دلالة { قَدْ }، ومثله إفادة التكثير، وتقدّم عند قوله تعالى { قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ } [البقرة:144]، وقوله تعالى { قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ } [النور:64].

المعوِّق: اسم فاعل من عوَّق الدال على شدّة حصول العوق. يقال: عاقه عن كذا، إذا منعه وثبّطه عن شيء، فالتضعيف فيه للشدة والتكثير مثل: قطَّع الحبل، إذا قطعه قطعا كبيرة، ومنه قوله تعالى { وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ } [يوسف:23]، أي: أحكمت غلقها.

المعنى: يعلم الله الذين يحرصون على تثبيط الناس عن القتال.

{ **مِنْكُمْ** } الخطاب للمنافقين الذين خوطبوا بقوله تعالى { لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ } [16]. ويجوز أن يكون القائلون لإخوانهم { هَلُمَّ إِلَيْنَا } هم المعوِّقين أنفسهم، فيكون من عطف صفات الموصوف الواحد.

ويجوز أن يكونوا طائفة أخرى وإخوانهم هم الموافقون لهم في النفاق، فالمراد: الأخوّة في الرأي والدين. وذلك أن عبد الله بن أبي، ومعتب بن قشير، ومن معهما من الذين انخذلوا عن جيش المسلمين يوم أُحُد فرجعوا إلى المدينة كانوا يرسلون إلى من بقي من المنافقين في جيش المسلمين يقولون لهم { هَلُمَّ إِلَيْنَا }، أي: ارجعوا إلينا.

{ **هَلُمَّ** } اسم فاعل أمر بمعنى أقبل في لغة أهل الحجاز وهي الفصحى، فلذلك تلزم هذه الكلمة حالة واحدة عندهم لا تتغيّر عنها، يقولون: هلّم، للواحد والمتعدّد المذكر والمؤنث، وهي فعل عند بني تميم فلذلك يلحقونها العلامات يقولون: هلمّ وهلمّي وهلمّا وهلمّوا. وتقدّم في قوله تعالى { قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ } [الأنعام:150].

{ **وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً** } كلام مستقل فيجوز أن تكون الجملة حالا من القائلين لإخوانهم {هَلُمَّ إِلَيْنَا}. ويجوز أن تكون عطفا على المعوّقين والقائلين، لأنّ الفعل يعطف على المشتق، كقوله تعالى { فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً فَأَثَرْنَ } [العاديات:4/3]، وقوله تعالى { إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ } [الحديد:18]. فالتقدير هنا: قد يعلم الله المعوّقين والقائلين وغير الآتين البأس، أو والذين لا يأتون البأس.

{ **الْبَأْسَ** } الحرب، وتقدّم في قوله تعالى { لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ } [الأنبياء:80]. وإتيان الحرب مراد به إتيان أهل الحرب أو موضعها.

{ **إِلَّا قَلِيلاً** } إلّا زمانا قليلا، وهو زمان حضورهم مع المسلمين المرابطين. أي: إتيانا قليلا، وقلّته تظهر في قلة زمانه وفي قلة غنائه.

{ **أَشِحَّةً** } جمع شحيح بوزن أفعلة على غير قياس وهو فصيح وقياسه أشحّاء. و**الشحّ**: البخل بما في الوسع ممّا ينفع الغير. وأصله: عدم بذل المال، ويُستعمل مجازا في منع المقدور من النصر أو الإعانة، وهو يتعدّى إلى الشيء المبخول به بـ (الباء) وبـ (عَلَى). وتقدّم عند قوله { وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ } [النساء:128].

{ **عَلَيْكُمْ** } ضمير الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام وللمسلمين، وهو انتقال من القول الذي أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بأن يقوله لهم إلى كشف أحوالهم للرسول والمسلمين بمناسبة الانتقال من الخطاب إلى الغيبة في قوله تعالى { وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ } .

المعنى: يمنعونكم ما في وسعهم من المال أو المعونة، أي: إذا حضروا البأس منعوا فائدتهم عن المسلمين ما استطاعوا، ومن ذلك شحَّهم بأنفسهم.

{ **فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ** } الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم، وهو يقتضي أنّ هذا حكاية حالة وقعت لا فرض وقوعها ولهذا أتي بفعل { رَأَيْتَهُمْ } ولم يقل: فإذا جاء الخوف ينظرون إليك. ونظرهم إليه نظر المتفرّس في ماذا يصنع ولسان حالهم يقول: ألسنا قد قلنا لكم إنّكم لا قبل لكم بقتال الأحزاب فارجعوا، ولذلك خُصّ نظرهم بأنّه للنبيّ صلى الله عليه وسلم ولم يقل: ينظرون إليكم. وجيء بصيغة المضارع ليدلّ على تكرّر هذا النظر وتجدّده.

والمقصود: وصفهم بالجبن، أي: إذا رأوا جيوش العدو مقبلة رأيتهم ينظرون إليك.

المجيء: مجاز مشهور من حدوث الشيء وحصوله. كما قال تعالى { فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ } [الإسراء:7].

{ **الْخَوْفُ** } توقّع القتال بين الجيشين، ومنه سمِّيت صلاة الخوف.

{ **تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ** } حال من ضمير { يَنْظُرُونَ } لتصوير هيئة نظرهم نظر الخائف المذعور الذي يحدّق بعينيه إلى جهات يحذر أن تأتيه المصائب من إحداها.

فمعنى { تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ } أنّها تضطرب في أجفانها كحركة الجسم الدائرة من سرعة تنقلها محملقة إلى الجهات المحيطة. وشُبّه نظرهم بنظر الذي يُغشى عليه بسبب النزع عند الموت، فإنّ عينيه تضطربان.

{ **فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ** } ذهاب الخوف مجاز مشهور في الانقضاء، أي: زوال أسبابه، بأن يترك القتال أو يتبين ألّا يقع قتال. وذلك عند انصراف الأحزاب عن محاصرة المدينة كما سيدل عليه قوله تعالى { يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا } [20].

السَّلق: قوة الصوت والصياح. والمعنى: رفعوا أصواتهم بالملامة على التعرّض لخطر العدو الشديد وعدم الانصياع إلى إشارتهم على المسلمين بمسالمة المشركين.

وفُسِّر السلق بأذى اللسان. قيل: سأل نافع بن الأزرق عبد الله بن عباس عن { سَلَقُوكُمْ } فقال: الطعن باللسان. فقال نافع: هل تعرف العرب ذلك؟ فقال: نعم أما سمعت قول الأعشى:

فيهم الخصب والسماحة والنجـ ... ـدة فيهم والخاطب المِسلاق

{ **حِدَادٍ** } جمع حديد، وحديد: كل شيء نافذُ فعلِ أمثاله، قال تعالى { فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ } [ق:22].

{ **أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ** } انتصب على الحال من ضمير الرفع في { سَلَقُوكُمْ }، أي: خاصموكم ولاموكم وهم في حال كونهم أشحّة على ما فيه الخير للمسلمين، أي: أنّ خصامهم إيّاهم ليس كما يبدو خوفا على المسلمين واستبقاء عليهم ولكنّه عن بغض وحقد.

<u>ويجوز</u> أن يكون الخير هنا هو المال، كقوله تعالى { إِنْ تَرَكَ خَيْراً } [البقرة: 180].

{ **أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ** } جيء باسم الإشارة لقصد تمييزهم بتلك الصفات الذميمة التي أجريت عليهم من قبل، وللتنبيه على أنّهم أحرياء بما سيرد من الحكم بعد اسم الإشارة.

{ **أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا** } أجري عليهم حكم انتفاء الإيمان عنهم كشفا لدخائلهم لأنّهم كانوا يوهمون المسلمين أنّهم منهم، كقوله { وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا } [البقرة:14]. ورُتّب على انتفاء إيمانهم أنّ الله أحبط أعمالهم.

الإحباط: جعل شيء حابطا، فالهمزة فيه للجعل مثل الإذهاب. والحَبْط حقيقته: أنّه فساد ما يراد به الصلاح والنفع. ويطلق مجازا على إفساد ما كان نافعا أو على كون الشيء فاسدا ويُظنّ أنّه ينفع، يقال: حبط حق فلان، إذا بطل. والإطلاق المجازي ورد كثيرا في القرآن.

إحباط الأعمال: إبطال الاعتداد بالأعمال المقصود بها القربة والمظنون بها أنّها أعمال صالحة لمانع منع من الاعتداد بها في الدين.

وقد صار لفظ الحبط والحبوط من الألفاظ الشرعية الاصطلاحية بين علماء الفقه والكلام، فأطلق على عدم الاعتداد بالأعمال الصالحة بسبب الردة، أي: الرجوع إلى الكفر.

قال مالك وأبو حنيفة: الردّة تحبط الأعمال بمجرّد حصولها فإذا عاد إلى الإسلام وكان قد حجّ مثلا قبل ردّته وجبت عليه إعادة الحجّ تمسّكا بإطلاق هذه الآية، إذ ناطت الحبوط بانتفاء الإيمان، ولم يريا أن هذا مما يحمل فيه المطلق على المقيد احتياطا لأنّ هذا الحكم راجع إلى الاعتقادات ولا يكفي فيها الظن.

وقال الشافعي: إذا رجع إلى الإسلام رجعت إليه أعماله الصالحة التي عملها قبل الردة تمسكا بقوله تعالى { وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ } [البقرة:217] حملا للمطلق في آية سورة الأحزاب ونحوها على المقيد في آية سورة البقرة، تغليبا للجانب الفروعي في هذه المسألة على الجانب الاعتقادي.

{ **وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً** } خبر مستعمل في لازمه وهو تحقيرهم وأنّ الله لمّا أخرجهم من حظيرة الإسلام فأحبط أعمالهم لم يعبأ بهم ولا عدّ ذلك ثلمة في جماعة المسلمين.

{ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً } [20].

لمّا ذُكر حال المنافقين والذين في قلوبهم مرض من فتنتهم في المسلمين وأذاهم حين مجيء جنود الأحزاب وحين زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ثُنِيَ عِنان الكلام الآن إلى حالهم حين أنعم الله على المسلمين بانكشاف جنود الأحزاب عنهم، فأفاد بأنّ انكشاف الأحزاب حصل على حين غفلة من المنافقين فلذلك كانوا يشتدُّون في ملام المسلمين ويسلقونهم بألسنة حداد على أن تعرّضوا للعدوّ الكثير، وكان الله ساعتئذ قد هزم الأحزاب فانصرفوا وكفى الله المؤمنين شرهم.

{ **يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا** } يؤذن بانهزام الأحزاب ورجوعهم على أعقابهم، أي: وقع ذلك ولم يشعر به المنافقون. ويجوز أن يكون المعنى: أنّهم كانوا يسلقون المؤمنين اعتزازا بالأحزاب، فتكون الجملة حالا من ضمير الرفع في { سَلَقُوكُمْ } [19]، أي: فعلوا ذلك حاسبين الأحزاب محيطين بالمدينة ومعتزّين بهم فظهرت خيبتهم فيما قدَّروا.

{ **وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ** } وصف لجبن المنافقين، أي: لو جاء الأحزاب كرّة أخرى لأخذ المنافقون حيطتهم فخرجوا إلى البادية بين الأعراب القاطنين حول المدينة (وهم غِفار وأسلم وغيرهم)، قال تعالى { مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ } [التوبة:120].

{ **يَوَدُّوا** } الودّ هنا مستعمل كناية عن السعي لحصول الشيء المودود.

البادي: ساكن البادية. وتقدّم عند قوله تعالى { سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ } [الحج:25].

{ **الْأَعْرَابِ** } هم سكّان البوادي بالأصالة.

أي: يودُّوا الالتحاق بمنازل الأعراب ما لم يعجزوا.

{ **يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ** } لقصد التجسّس على المسلمين للمشركين، وليسرَّهم ما عسى أن يلحق المسلمين من الهزيمة.

الأنباء: جمع نبأ وهو: الخبر المهم، وتقدّم عند قوله تعالى { وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ } [الأنعام:34].

{ **وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً** } أي: أنّهم إذا فُرض أن لا يتمكّنوا من الخروج إلى البادية وبقوا في المدينة مع المسلمين ما قاتلوا مع المسلمين إلّا قتالا قليلا، أي: ضعيفا لا يؤبه به، وإنّما هو تعلّة ورياء.

{ **لَوْ** } حرف يفيد التمنّي بعد فعل ودّ ونحوه. وتقدّم عند قوله تعالى { يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ } [البقرة:96].

{ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً } [21].

بعد توبيخ المنافقين والذين في قلوبهم مرض أقبل الكلام على خطاب المؤمنين في عموم جماعتهم ثناء على ثباتهم وتأسّيهم بالرسول صلى الله عليه وسلم، على تفاوت درجاتهم في ذلك الائتساء، فالكلام خبر ولكن اقترانه بحرفي التوكيد في { لَقَدْ } يومئ إلى تعريض بالتوبيخ للذين لم ينتفعوا بالإسوة الحسنة من المنافقين والذين في قلوبهم مرض.

فمعنى هذه الآية قريب من معنى قوله تعالى في قصة تبوك { رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ } [التوبة:88/87].

الإسوة: (بكسر الهمزة وضمّها) اسم لما يُؤتسى به، أي: يُقتدى به ويُعمل مثل عمله.

{ **فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** } الأصل: رسول الله إسوة. وجعْل متعلّق الائتساء ذات الرسول صلى الله عليه وسلم دون وصف خاص ليشمل الائتساء به في أقواله بامتثال أوامره واجتناب ما ينهى عنه، والائتساء بأفعاله من الصبر والشجاعة والثبات.

{ **لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً** } بدل بعض من كلّ أو شبه الاشتمال لأنّ المخاطبين بضمير { لَكُمْ } يشتملون على من يرجون الله واليوم الآخر، أو هو بدل مطابق إن كان المراد بضمير {لَكُمْ} خصوص المؤمنين. فالذين ائتسوا بالرسول صلى الله عليه وسلم يومئذ ثبت لهم أنّهم ممّن يرجون الله واليوم الآخر وذكروا الله كثيرا.

وفي الآية دلالة على فضل الاقتداء بالنبيّ صلى الله عليه وسلم وأنّه الإسوة الحسنة لا محالة ولكن ليس فيها تفصيل وتحديد لمراتب الائتساء والواجب منه والمستحب، وتفصيله في أصول الفقه. واصطلاح أهل الأصول على جعل التأسّي لقبا لاتباع الرسول في أعماله التي لم يطالب بها الأمّة على وجه التشريع.

{ وَلَمَّا رَأى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً } [22].

لمّا ذُكرت أقوال المنافقين والذين في قلوبهم مرض المؤذنة بما يداخل قلوبهم من الخوف وقلّة الإيمان والشك فيما وعد الله به رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من النصر ابتداء من قوله تعالى { وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ } [12] قوبلت أقوال أولئك بأقوال المؤمنين حينما نزلت بهم الأحزاب ورأوا كثرتهم وعددهم، وكانوا على بصيرة من تفوّقهم عليهم في القوّة والعدد أضعافا، وعلموا أنّهم قد ابتلوا وزلزلوا، كلّ ذلك لم يُخِرْ عزائمهم ولا أدخل عليهم شكًّا فيما وعدهم الله من النصر.

وكان الله وعدهم النصر غير مرة منها قوله تعالى { أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ } [البقرة:214]. فلما رأى المسلمون الأحزاب وابتلوا وزلزلوا ورأوا مثل الحالة التي وُصفت في تلك الآية علموا أنّهم منصورون عليهم. وكانت آية البقرة نزلت قبل وقعة الأحزاب بعام، فيما نُقل عن ابن عباس.

وأيضا فإنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أخبر المسلمين: أنّ الأحزاب سائرون إليكم بعد تسع أو عشر.

فلما رأى المؤمنون الأحزاب وزلزلوا راجعهم الثبات الناشئ عن قوة الإيمان وقالوا { هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ } أي: من النظر ومن الإخبار بمسير الأحزاب وصدّقوا وعد الله إياهم بالنصر وإخبار النبيّ صلى الله عليه وسلم بمسير الأحزاب.

{ **قَالُوا هَذَا** } إشارة إلى ما شاهدوه من جيوش الأحزاب وإلى ما يتبع ذلك من الشدّة والصبر عليها.

{ **مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ** } أخبروا عن صدق الله ورسوله عليه الصلاة والسلام فيما أخبرا به، وصدّقوا الله فيما وعدهم من النصر خلافا لقول المنافقين { مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً } [12]، فالوعد راجع إلى الأمرين والصدق كذلك.

الوعد: إخبار مخبِر بأنّه سيعمل عملا للمخبَر (بالفتح).

{ **وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ** } مستعمل في الخبر عن صدق مضى وعن صدق سيقع في المستقبل محقّق وقوعه مثل ما في قوله تعالى { أَتَى أَمْرُ اللَّهِ } [النحل:1].

{ **وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً** } الضمير المستتر عائد إلى ما عاد إليه اسم الإشارة، أي: وما زادهم ما رأوا إلّا إيمانا وتسليما، بعكس حال المنافقين إذ زادهم شكًّا في تحقّق الوعد.

التسليم: الانقياد والطاعة، لأنّ ذلك تسليم النفس للمنقاد إليه، وتقدّم في قوله { وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً } [النساء:65]. ومن التسليم هنا تسليم أنفسهم لملاقاة عدوّ شديد، ومن التسليم الرضى بما يأمر به الرسول صلى الله عليه وسلم من الثبات معه.

والإيمان الذي زادهُمُوه أريد به مظهر من مظاهر إيمانهم القوي، فجعل تكرّر مظاهر الإيمان وآثاره كالزيادة في الإيمان لأنّ تكّرر الأعمال بقويِّ الباعث عليها في النفس يباعد بين صاحبه وبين الشك والارتداد، فكأنّه يزيد في ذلك الباعث، وهذا من قبيل قوله تعالى { لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ } [الفتح:4]، وقوله تعالى { فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً } [التوبة:124]. وكذلك القول في ضدّ الزيادة، وهو النقص.

وإلّا فإن حقيقة الإيمان، وهو التصديق بالشيء، إذا حصلت بمقوّماتها فهي واقعة، فزيادتها تحصيل حاصل ونقصها نقص لها وانتفاء لأصلها. وهذا هو محمل ما ورد في الكتاب والسنة من إضافة الزيادة إلى الإيمان وكذلك ما يضاف إلى الكفر والنفاق من الزيادة، كقوله تعالى { الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً } [التوبة:97]، وقوله تعالى {وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ} [التوبة:125].

وإلى هذا المحمل يرجع <u>خلاف الأئمة</u> في قبول الإيمان الزيادة والنقص فيؤول إلى <u>خلاف لفظي.</u>

{ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً } [23].

أعقب الثناء على جميع المؤمنين الخُلَّص على ثباتهم ويقينهم واستعدادهم للقاء العدو الكثير وعزمهم على بذل أنفسهم ولم يقدَّر لهم لقاؤه كما يأتي في قوله تعالى { وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ } [25]، أعقب ذلك بالثناء على فريق منهم كانوا وفَّوْا بما عاهدوا الله عليه وفاء بالعمل والنيّة، ليحصل بالثناء عليهم بذلك ثناء على إخوانهم الذين لم يتمكّنوا من لقاء العدو يومئذ، ليُعلم أنّ صدق أولئك يؤذن بصدق هؤلاء.

{ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ** } الإخبار عنهم برجال زيادة في الثناء، لأنّ الرجل مشتقّ من الرِّجل وهي قوّة اعتماد الإنسان. فإن كانت هذه الآية نزلت مع بقية آي السورة بعد غزوة الخندق فهي تذكير بما حصل من المؤمنين من قبل، وإن كانت نزلت يوم أُحُد فموضعها في هذه السورة إنّما هو بتوقيف من النبيّ صلى الله عليه وسلم. وأيّا ما كان وقت نزول الآية فإنّ المراد منها: رجال من المؤمنين ثبتوا في وجه العدو **يوم أُحُد** وهم: (عثمان بن عفان - أنس بن النضر - طلحة بن عبيد الله – حمزة - سعيد ابن زيد - مصعب بن عمير).

فأمّا أنس بن النضر وحمزة ومصعب بن عمير فقد استشهدوا يوم أحد، وأمّا طلحة فقد قطعت يده يومئذ وهو يدافع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمّا بقيّتهم فقد قاتلوا ونجوا.

وسياق الآية وموقعها يقتضيان أنّها نزلت بعد وقعة الخندق.

{ **صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ** } أي: أنّهم حقَّقوا ما عاهدوا عليه.

{ **فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ** }، و**النحب**: النذر وما يلتزمه الإنسان من عهد ونحوه، أي: من المؤمنين من وفَّى بما عاهد عليه من الجهاد، كقول أنس بن النضر حين لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكبر ذلك عليه وقال: أوّل مشهد شهده رسول الله غبت عنه أما والله لئن أراني الله مشهدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بعد ليرين الله ما أصنع " ، فشهد أحدا وقاتل حتّى قتل. ومثل الذين شهدوا أيام الخندق فإنّهم قضوا نحبهم يوم قريظة.

وقد حمل بعض المفسرين { قَضَى نَحْبَهُ } في هذه الآية على معنى الموت في الجهاد على طريقة الاستعارة بتشبيه الموت بالنذر في لزوم الوقوع، وربّما ارتقى ببعض المفسرين ذلك إلى جعل النحب من أسماء الموت، ويمنع منه ما ورد في حديث الترمذي أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال في طلحة بن عبيد الله: " **إنّه ممن قضى نحبه** "، وهو لم يمت في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

{ **وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً** } فهو في معنى { صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ }، وإنّما ذُكر هنا للتعريض بالمنافقين الذين عاهدوا الله لا يولُّون الأدبار ثم ولَّوا يوم الخندق فرجعوا إلى بيوتهم في المدينة.

{ **تَبْدِيلاً** } مفعول مطلق مؤكّد لـ { بَدَّلُوا } المنفي.

{ **لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً** } [24].

لام التعليل يتنازعه من التعلّق كلّ من { صَدَقُوا } و{ مَا بَدَّلُوا } [23] أي: صدق المؤمنون عهدهم وبدله المنافقون، ليجزي الله الصادقين ويعذب المنافقين.

الجزاء: الثواب، لأنّ أكثر ما يُستعمل فعل جزى أن يكون في الخير ولأنّ ذكر سبب الجزاء { بِصِدْقِهِمْ } يدلّ على أنّه جزاء إحسان، وجاء الجزاء في ضدّ ذلك في قوله تعالى { الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ }

[الأنعام:93].

{ **لِيَجْزِيَ اللَّهُ** } إظهار اسم الجلالة في مقام إضماره للدلالة على عظمة الجزاء.

{ **وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ** } تعليق التعذيب على المشيئة تنبيه لهم بسعة رحمة الله وانّه لا يقطع رجاءهم في السعي إلى مغفرة ما أتوه بأن يتوبوا فيتوب الله عليهم.

ولمّا قابل تعذيبه إيّاهم بتوبته عليهم تعين أنّ التعذيب باق عند عدم توبتهم.

التوبة: هنا هي التوبة من النفاق، أي: هي إخلاص الإيمان، وقد تاب كثير من المنافقين بعد ذلك، منهم معتِّب بن قُشير.

{ **إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً** } تعليل للجزاء والتعذيب كليهما على التوزيع، أي: غفور للمذنب إذا أناب إليه، رحيم بالمحسن أن يجازيه على قدر نصبه.

{ **وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً** } [25].

عطف على جملة { فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً } [9] وهو الأنسب بسياق الآيات بعدها، أي: أرسل عليهم ريحا وردَّهم، أو حال من ضمير { يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا } [20]، أي: يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وقد ردّ الله الأحزاب فذهبوا.

{ **وَرَدَّ اللَّهُ** } إظهار اسم الجلالة دون ضمير المتكلّم للتنبيه على عظم شأن هذا الردّ العجيب، كما تقدّم في قوله تعالى { لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ } [24]. فإنّ ردَّهم إلى ديارهم من تمام النعمة على المسلمين بعد نعمة إرسال الريح عليهم، لأنّ رجوعهم أعملُ في اطمئنان المسلمين.

الردّ: الإرجاع إلى المكان الذي صدر منه.

{ **الَّذِينَ كَفَرُوا** } عُبّر عن الأحزاب بالذين كفروا للإيماء إلى أنّ كفرهم هو سبب خيبتهم عجيبة الشأن.

{ **بِغَيْظِهِمْ** } الباء للملابسة، وهو ظرف مستقر في موضع الحال، أي: ردّهم مغيظين.

الغيظ: الحنق والغضب، وكان غضبهم عظيما يناسب حال خيبتهم لأنّهم تجشّموا كلفة التجمع والإنفاق وطول المكث حول المدينة بلا طائل وخابت آمالهم في فتح المدينة، وهم يحسبون أنها منازلة أيام قليلة، ثم غاظهم ما لحقهم من النكبة بالريح والانهزام الذي لم يعرفوا سببه.

{ **لَمْ يَنَالُوا خَيْراً** } حال ثانية. ولك أن تجعل الجملة استئنافا بيانيا لبيان موجب غيظهم.

{ **وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ** } حذف مضاف، أي: كلفة القتال، أو أرزاء القتال، فإنّ المؤمنين كانوا يومئذ بحاجة إلى توفير عددهم وعُددهم بعد مصيبة يوم أُحُد، ولو التقوا مع جيش المشركين لكانت أرزاؤهم كثيرة ولو انتصروا على المشركين. والقول في إظهار اسم الجلالة كالقول في سابقه.

{ **كَفَى** } بمعنى أغنى، أي: أراحهم من كلفة القتال بأن صرف الأحزاب. وهي بهذا المعنى تتعدى إلى مفعولين يقال: كفيتك مهمك، وليست هي التي تزاد الباء في مفعولها فتلك بمعنى: حسب.

{ **وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً** } تذييل. وذكر فعل { كَانَ } للدلالة على أنّ العزّة والقوّة وصفان ثابتان لله تعالى، ومن تعلّقات قوّته وعزّته أن صرف ذلك الجيش العظيم خائبين مفتضحين وألقى بينه وبين أحلافه من قريظة الشك، وأرسل عليهم الريح والقر، وهدى نُعيما بن مسعود الغطفاني إلى الإسلام دون أن يشعر قومه فاستطاع النصح للمسلمين بالكيد للمشركين.

القوّة: القدرة، وتقدّمت في قوله تعالى { لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً } [هود:80].

العزة: العظمة والمنعة، وتقدّمت في قوله تعالى { أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ } [البقرة:206].

{ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً [26] وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَأُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً [27] }.

كان يهود قريظة قد أعانوا الأحزاب وحاصروا المدينة معهم وكان حُيي بن أخطب من بني النضير منضمًّا إليهم وهو الذي حرّض أبا سفيان على غزو المدينة. فلمّا صرف الله الأحزاب أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يغزو قريظة. وهم فريق من اليهود يُعرفون ببني قريظة، وكانت منازلهم وحصونهم بالجنوب الشرقي من المدينة، تُعرف قريتهم باسمهم.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عاد إلى المدينة من الخندق ظهرا وكان بصدد أن يغتسل ويستقرّ فلما جاءه الوحي بأن يغزو قريظة نادى في الناس أن لا يصلينَّ أحدكم العصر إلّا في بني قريظة. وخرج الجيش الذي كان بالخندق معه فنزلوا على قرية قريظة واستعصم أهل القرية بحصونهم فحاصرهم المسلمون نحوا من عشرين ليلة، فلمّا جهدهم الحصار وخامرهم الرعب من أن يفتح المسلمون بلادهم فيستأصلوهم طمعوا أن يطلبوا أن يسلِّموا بلادهم على أن يحكَّم حكمٌ في صفة ذلك التسليم. ويقال لهذا النوع من المصالحة: النزول على حُكْم حَكَم، فأرسلوا شاس بن قيس إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم يعرضون أن ينزلوا على مثل ما نزلت عليه بنو النضير من الجلاء على أنّ لهم ما حملت الإبل إلّا الحَلَقة، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبول ذلك وبعد مداولات نزلوا على حكم سعد بن معاذ، فحكم سعد أن تُقتل المقاتلة وتسبى النساء والذراري وأن تكون ديارهم للمهاجرين دون الأنصار، فأمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما حكم به سعد كما هو مفصّل في السيرة.

{ **الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ** } ناصروهم وأعانوهم، وتقدّم في قوله تعالى { وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً } [التوبة:4].

الإنزال: الإهباط، أي: من الحصون أو من المعتصمات كالجبال.

الصياصي: الحصون، وأصلها أنّها جمع **صِيصَيَة** وهي القرن للثور ونحوه. لأنّه لمّا كان القرن يدافع به الثور عن نفسه سُمِّي المعقل الذي يعتصم به الجيش صِيصَيَة والحصون صياصي.

القذف: الإلقاء السريع.

{ **فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً** } الذين قُتلوا هم الرجال وكانوا زهاء سبعمائة، والذين أسروا هم النساء والصبيان.

{ **وَأَرْضاً لَمْ تَطَأُوهَا** } أي: تنزلوا بها غزاة وهي أرض أخرى غير قريظة وصفت بجملة { لَمْ تَطَأُوهَا }، أي: لم تمشوا فيها. فقيل: إن الله بشّرهم بأرض أخرى يرثونها من بعد. قال قتادة: كنا نُحدَّث أنّها مكة.

وقال مقاتل وابن رومان: هي خيبر، وقيل: أرض فارس والروم.

وأظهر هذه الأقوال أنها أرض خيبر فإنّ المسلمين فتحوها بعد غزوة قريظة بعام وشهر.

وعندي: أن المراد بالأرض التي لم يطؤوها **أرض بني النضير** وأنّ معنى { لَمْ تَطَأُوهَا } لم تفتحوها عنوة فإن الوطء يطلق على معنى الأخذ الشديد، ومنه قوله تعالى { وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَأُوهُمْ } [الفتح:25]، فإنّ أرض بني النضير كانت ممّا أفاء الله على رسوله من غير إيجاف.

{ **وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً** } تذييل إيماء إلى البشارة بفتح عظيم يأتي من بعده.

{ يَا أَيُّهَا النبيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً [28] وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً [29] }.

وجه اتصال هذه الآيات بما قبلها أنّه لمّا فُتحت على المسلمين أرض قريظة وغنموا أموالهم وكانت أرض بني النضير قبيل ذلك فيئا للنبيّ صلى الله عليه وسلم حسب أزواج رسول الله أن مَثَله مَثَل أحد من الرجال إذا وُسِّع عليهم الرزق توسَّعوا فيه هم وعيالهم، فلم يكن أزواج النبيّ عليه الصلاة والسلام يسألنه توسعة قبل أن يفيء الله عليه من بني النضير وقبل أن يكون له الخمس من الغنائم، فلما رأين النبيّ صلى الله عليه وسلم جعل لنفسه ولأزواجه أقواتهم من مال الله ورأين وفرة ما أفاء الله عليه من المال حسبن أنّه يوسِّع في الإنفاق فصار بعضهنّ يستكثرنه من النفقة، كما دلّ عليه قول عمر لحفصة ابنته أم المؤمنين: " لا تستكثري النبيّ ولا تراجعيه في شيء وسليني ما بدا لك ".

وقال عمر: " كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله ممّا لم يوجف المسلمون عليه من خيل ولا ركاب فكانت لرسول الله خالصة ينفق منها على أهله نفقة سنتهم ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عُدّة للمسلمين ".

وقد علمتَ أن أرض قريظة قُسِّمت على المهاجرين بحكم سعد بن معاذ، فلعلّ المهاجرين لمّا اتسعت أرزاقهم على أزواجهم أمل أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يكنّ كالمهاجرين فأراد الله أن يعلِّمهن سيرة الصالحات في العيش وغيره.

وقد روي أنّ بعضهن سألنه أشياء من زينة الدنيا فأوحى إلى رسوله بهذه الآيات المتتابعات.

وهذا مما يؤذن به وقع هذه الآيات عقب ذكر وقعة قريظة وذكر الأرض التي لم يطؤوها وهي أرض بني النضير. وإذ قد كان شأن هذه السيرة أن يشق على غالب الناس وخاصة النساء أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم أن ينبئ أزواجه بها ويخيِّرهنّ عن السير عليها تبعا لحاله وبين أن يفارقهنّ.

{ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ** } افتتاح هذه الأحكام بنداء النبيّ صلى الله عليه وسلم تنبيه على أنّ ما سيُذكر بعد النداء له مزيد اختصاص به وهو غرض تحديد سيرة أزواجه معه سيرة تناسب مرتبة النبوّة، وتحديد تزوّجه، وهو الغرض الثاني من الأغراض التي تقدّم ذكرها.

{ **لِأَزْوَاجِكَ** } هنّ أزواجه التسع اللاتي توفّي عليهن. وهن: (**عائشة** بنت أبي بكر الصديق - **حفصة** بنت عمر بن الخطاب - **أم حبيبة** بنت أبي سفيان - **أم سلمة** بنت أمية المخزومية - **جويرية** بنت الحارث الخزاعية - **ميمونة** بنت الحارث الهلالية من بني عامر بن صعصعة - **سودة** بنت زمعة العامرية القرشية - **زينب** بنت جحش الأسدية - **صفية** بنت حُيي النضيريّة).

وأمّا **زينب** بنت خزيمة الهلالية الملقبة أم المساكين فكانت متوفاة وقت نزول هذه الآية.

{ **إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا** } أي: إن كنتنّ تؤثرن ما في الحياة من الترف على الاشتغال بالطاعات والزهد. و{ **وَزِينَتَهَا** } عطف خاص على عام.

{ **فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً** } اسم فعل أمر بمعنى: أقبِلْنَ، وهو هنا مستعمل تمثيلا لحال تهيُّؤ الأزواج لأخذ التمتيع وسماع التسريح بحال من يحضر إلى مكان المتكلّم. وقد مضى القول على (تعال) عند قوله تعالى { فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ } [آل عمران:61].

التمتيع: أن يعطي الزوج امرأته حين يطلّقها عطية جبرا لخاطرها لما يعرض لها من الانكسار.

وتقدّم الكلام عليها مفصلا عند قوله تعالى { وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ } [البقرة:236].

السراح: الطلاق، وهو من أسمائه وصيغه، قال تعالى { فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ } [البقرة:231].

الجميل: الحَسَن، بمعنى القَبول عند النفس، وهو الطلاق دون غضب ولا كراهية لأنّه طلاق مراعى فيه اجتناب تكليف الزوجة ما يشقّ عليها.

{ **وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ** } أي: إن كنتنّ تؤثرن الله على الحياة الدنيا، أي: تؤثرن رضى الله لما يريده لرسوله، فالكلام على حذف مضاف.

إرضاء الله: فعل ما يحبّه الله ويقرّب إليه.

إرادة رضى الرسول صلى الله عليه وسلم: فعل كل ما يرضي الرسول عليه الصلاة والسلام، وأوّل ذلك أن يبقين في عشرته طيبات الأنفس.

إرادة الدار الآخرة: إرادة فوزها.

{ **فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً** } جُعل الجزاء على ذلك بالإحسان ليعلمن أنّ هذا الأجر حاصل لهنّ على قدر إحسانهنّ، فهذا وجه ذكر وصف المحسنات، وليس هو للاحتراز.

{ **أَعَدَّ** } في ذكر الإعداد إفادة العناية بهذا الأجر والتنويه به زيادة على وصفه بالعظيم.

وقد جاء في كتب السنة: " أنّه لما نزلت هذه الآية ابتدأ النبيّ صلى الله عليه وسلم بعائشة فقال لها: **إنّي ذاكر لك أمرا فلا عليك أن لا تستعجلي حتّى تستأمري أبويك**، ثم تلا هذه الآية، فقالت عائشة: أفي هذا أستأمر أبويّ فإنّي أريد الله ورسوله والدار الآخرة، وقال لسائر أزواجه مثل ذلك فقلن مثل ما قالت عائشة ".

{ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً } [30].

تولّى الله خطابهنّ بعد أن أمر رسوله بتخييرهنّ، فخيَّرهنّ فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة، فخاطبهنّ ربّهنَّ خطابا لأنّهنّ أصبحن على عهد مع الله تعالى أن يؤتيهنَّ أجرا عظيما.

وقد سمَّاه عمر عهدا، فإنّه كان كثيرا ما يقرأ في صلاة الصبح سورة الأحزاب فإذا بلغ هذه الآية رفع بها صوته فقيل له في ذلك فقال: أذكِّرهنّ العهد.

{ **يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ** } نداؤهن للاهتمام بما سيلقى إليهن. وناداهن بوصف { نِسَاءَ النَّبِيِّ } ليعلمن أن ما سيلقى إليهنّ خبر يناسب علوّ أقدارهن.

{ **مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ** } لما كان الأجر الموعود منوطا بالإحسان أريد تحذيرهنّ من المعاصي بلوغا بهن إلى مرتبة الملكية مبالغة في التحذير إذ جعل عذاب المعصية على فرض أن تأتيها إحداهنّ عذابا مضاعفا.

الفاحشة: المعصية، قال تعالى { قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ } [الأعراف:33]. وكلّما وردت الفاحشة في القرآن نكرة فهي المعصية وإذا وردت معرفة فهي الزنا ونحوه.

المبيّنة: قرأها الجمهور بصيغة اسم الفاعل مبالغة في بيان كونها فاحشة ووضوحها حتّى كأنّها تبيّن نفسها. وقرأ ابن كثير وأبو بكر بفتح الياء، أي: يبيّنها فاعلها.

المضاعفة: تكرير شيء ذي مقدار بمثل مقداره. وتقدّم في قوله تعالى { فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ } [الأعراف:38].

{ **ضِعْفَيْنِ** } صيغة التثنية مستعملة في إرادة الكثرة كقوله تعالى { ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ } [الملك:4] لظهور أنّ البصر لا يرجع خاسئا وحسيرا من تكرّر النظر مرتين. والتثنية ترد في كلام العرب كناية عن التكرير، كقولهم: لبيك وسعديك، وقولهم: دواليك.

{ **وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً** } معترضة، وتقدّم القول في نظيرها آنفا. والمعنى: أن الله يحقّق وعيده ولا يمنعه من ذلك أنّها زوجة نبيّ، قال تعالى { كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ - إلى قوله - فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً } [التحريم:10].

{ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً } [31].

أعقب الوعيد بالوعد جريا على سنة القرآن، كما تقدّم في المقدّمة العاشرة.

القنوت: الطاعة، والقنوت للرسول على طاعته واجتلاب رضاه، لأنّ في رضاه رضى الله تعالى، قال تعالى { مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ } [النساء:80].

{ **نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ** } أسند فعل إيتاء أجرهن إلى ضمير الجلالة بوجه صريح تشريفا لإيتائهن الأجر.

{ **أَجْرَهَا** } الضمير عائد إلى { مَنْ } باعتبار أنها صادقة على واحدة من نساء النبيّ صلى الله عليه وسلم. وفي إضافة الأجر إلى ضميرها إشارة إلى تعظيم ذلك الأجر بأنّه يناسب مقامها، وإلى تشريفها بأنّها مستحقة ذلك الأجر.

{ **مَرَّتَيْنِ** } توفير الأجر وتضعيفه كما تقدّم في قوله تعالى { ضِعْفَيْنِ } [30]. ومضاعفة الأجر لهن على الطاعات كرامة لقدرهن، وهذه المضاعفة في الحالين من خصائص أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم لعظم قدرهن لأنّ زيادة قبح المعصية تتبع زيادة فضل الآتي بها. ودرجة أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم عظيمة.

{ **وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً** } القول فيه كالقول في قوله تعالى { فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ } [29]. والعدول عن المضارع إلى الماضي إفادة تحقيق وقوعه.

الرزق الكريم: هو رزق الجنّة، قال تعالى { كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً } [البقرة:25].

ووصفه بالكريم لأنّه أفضل جنسه. وتقدّم في قوله تعالى { إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ } [النمل:29].

{ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً } [32].

{ **يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ** } أعيد خطابهن من جانب ربّهن وأعيد نداؤهن

للاهتمام بهذا الخبر اهتماما يخصّه.

أحد: اسم بمعنى واحد مثل قوله تعالى { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ } [الإخلاص:1]، وهمزته بدل من الواو. وأصله: وَحَد بوزن فَعَل، أي: متوحِّد، كما قالوا: فرد بمعنى منفرد. فلما ثقل الابتداء بالواو شاع أن يقولوا: أحد، وأكثر ما يستعمل في سياق النفي، قال تعالى { فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ } [الحاقة:47].

فإذا وقع في سياق النفي دل على نفي كل واحد من الجنس.

ونفي المشابهة هنا يراد به نفي المساواة مُكنًّى به عن الأفضلية على غيرهن. أي: أنتن أفضل النساء.

{ **إِنِ اتَّقَيْتُنَّ** } التقييد ليس لقصد الاحتراز عن ضدّ ذلك وإنّما هو الهاب وتحريض على الازدياد من التقوى، وقريب من هذا المعنى قول النبيّ صلى الله عليه وسلم لحفصة: **" إنّ عبد الله** - يعني أخاها - **رجل صالح لو كان يقوم الليل "**، فلمّا أبلغت حفصة ذلك عبد الله بن عمر لم يترك قيام الليل بعد ذلك لأنّه علم أنّ المقصود التحريض على القيام.

{ **فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً** } فُرِّع على تفضيلهنّ وترفيع قدرهنّ إرشادهنّ إلى دقائق من الأخلاق قد تقع الغفلة عن مراعاتها لخفاء الشعور بآثارها، ولأنّها ذرائع خفيّة نادرة تفضي إلى ما لا يليق بحرمتهن.

{ **فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ** } ابتدئ بالتحذير من هيئة الكلام، فإنّ الناس متفاوتون في لينه، والنساء في كلامهن رقة طبيعية وقد يكون لبعضهن من اللطافة ولين النفس ما إذا انضم إلى لينها الجبِلّي قرُبت هيئته هيئة التدلّل لقلّة اعتياد مثله إلّا في تلك الحالة. فإذا بدا ذلك على بعض النساء ظنّ بعض من يشافهها من الرجال أنّها تتحبَّب إليه، فربّما اجترأت نفسه على الطمع في المغازلة فبدرت منه بادرة تكون منافية لحرمة المرأة، بله أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم اللاتي هنّ أمهات المؤمنين.

الخضوع: حقيقته التذلّل، وأُطلق هنا على الرقّة لمشابهتها التذلّل.

{ **بِالْقَوْلِ** } الباء يجوز أن تكون للتعدية، بمنزلة همزة التعدية، أي: لا تُخضعن القول، أي: رقيقا متفكِّكا. وموقع الباء هنا أحسن من موقع همزة التعدية لأنّ (باء) التعدية جاءت من (باء) المصاحبة. فلما كان التفكّك والتزيين للقول يتبع تفكّك القائل أسند الخضوع إليهن.

ويجوز أن تكون الباء بمعنى (في)، أي: لا يكن منكنّ لين في القول.

{ **فَيَطْمَعَ** } حذف المتعلِّق تنزُّها وتعظيما لشأن نساء النبيّ صلى الله عليه وسلم مع قيام القرينة.

وانتصب { يَطْمَعَ } في جواب النهي بعد الفاء لأنّ المنهي عنه سبب في هذا الطمع.

{ **الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ** } استعارة لاختلال الوازع الديني، مثل المنافقين ومن كان في أوّل الإيمان من الأعراب ممّن لم ترسخ فيه أخلاق الإسلام، وكذلك من تخلّقوا بسوء الظنّ فيرمون المحصنات الغافلات. وقضية إفك المنافقين على عائشة رضي الله عنها شاهد لذلك. وتقدم قوله تعالى { فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ } [البقرة:10].

{ **وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً** } تذييل بمنزلة الاحتراس لئلّا يحسبنّ أنّ الله كلّفهن بخفض أصواتهن كحديث السرار.

المعروف: هو الذي يألفه الناس بحسب العرف العام، ويشمل القول المعروف هيئة الكلام، وهي التي سيق لها المقام، ويشمل مدلولاته.

{ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً } [33].

{ **وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ** } هذا أمر خُصِّصْنَ به وهو وجوب ملازمتهن بيوتهن توقيرا لهن. وتقوية في حرمتهن، فقرارهن في بيوتهن عبادة، وأنّ نزول الوحي فيها وتردّد النبيّ صلى الله عليه وسلم في خلالها يكسبها حرمة. وقد كان المسلمون لمّا ضاق عليهم المسجد النبوي يصلُّون الجمعة في بيوت أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم كما في حديث (الموطأ).

وهذا الحكم وجوب على أمّهات المؤمنين وهو كمال لسائر النساء.

وقرأ نافع وعاصم وأبو جعفر بفتح القاف، لغة أهل الحجاز في قَرَّ بمعنى: أقام واستقر، يقولون: قرِرت في المكان (بكسر الراء) من باب (علم) فيجيء مضارعه بفتح الراء فأصل قَرْنَ: اقْرَرْنَ

وقرأ بقية العشرة { وَقِرْنَ } بكسر القاف. قال المبرد: هو من القرار، أصله: اقْرِرن (بكسر الراء الأولى).

{ **بُيُوتِكُنَّ** } إضافة البيوت إليهن لأنّهن ساكنات بها أسكنهنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت بيوت النبيّ صلى الله عليه وسلم يميز بعضها عن بعض بالإضافة إلى ساكنة البيت، يقولون: حُجرة عائشة، وبيت حفصة. فهذه الإضافة كالإضافة في قوله تعالى { لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ } [الطلاق:1]. وذلك أن زوج الرجل هي ربّة بيته، والعرب تدعو الزوجة البيت.

ولا يقتضي ذلك أنّها ملك لهنّ لأنّ البيوت بناها الرسول صلى الله عليه وسلم تباعا تبعا لبناء المسجد، ولذلك لمّا توفيّت الأزواج كلّهن أدخلت ساحة بيوتهنّ إلى المسجد في التوسعة التي وسّعها الخليفة الوليد بن عبد الملك في إمارة عمر بن عبد العزيز على لمدينة ولم يُعطِ عوضا لورثتهنّ.

وهذه الآية تقتضي وجوب مكث أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم في بيوتهنّ وأن لا يخرجهن إلّا لضرورة. وجاء في الحديث أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: **"إنّ الله أذن لكنّ أن تخرجن لحوائجكنّ"**.

ومحمل هذا الأمر على ملازمة بيوتهن فيما عدا ما يضطر فيه الخروج مثل موت الأبوين. وقد خرجت عائشة إلى بيت أبي بكر في مرضه الذي مات فيه. وكنّ يخرجن للحج، وفي بعض الغزوات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنّ مقر النبيّ صلى الله عليه وسلم في أسفاره قائم مقام بيوته في الحضر.

وأبت **سودة** أن تخرج إلى الحجّ والعمرة بعد ذلك. ولذلك لمّا مات سعد بن أبي وقاص أمرت **عائشة** أن يُمَرَّ عليها بجنازته في المسجد لتدعو له، أي: لتصلي عليه. رواه في الموطأ.

وقد أشكل على الناس خروج عائشة إلى البصرة في وقعة الجمل، والذي عليه المحقّقون مثل أبي بكر بن العربي أنّ ذلك كان منها عن اجتهاد، فإنّها رأت أن في خروجها إلى البصرة مصلحة للمسلمين تسعى بين فريقي الفتنة بالصلح أخْذًا بقوله { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بينهما } [الحجرات:9]، ورأت أنّ الأمر بالإصلاح يشملها وأمثالها ممّن يرجون سماع الكلمة، فكان ذلك منها عن اجتهاد.

{ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى }.

التبرج: إظهار المرأة محاسن ذاتها وثيابها وحليّها بمرأى الرجال. وتقدّم في قوله تعالى { غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ } [النور:60].

والمقصود من النهي الدوام على الانكفاف عن التبرج وأنّهنّ منهيات عنه. وفيه تعريض بنهي غيرهنّ من المسلمات عن التبرّج.

{ **الْجَاهِلِيَّةِ** } المدّة التي كانت عليها العرب قبل الإسلام، وتأنيثها لتأويلها بالمدّة. والجاهلية نسبة إلى الجاهل لأنّ الناس الذين عاشوا فيها كانوا جاهلين بالله وبالشرائع، وتقدّم عند قوله تعالى { يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ } [آل عمران:154].

{ **الْأُولَى** } وصف كاشف لأنّها أولى قبل الإسلام وجاء الإسلام بعدها، فهو كقوله تعالى { وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى } [النجم:50]، وكقولهم: العشاء الآخرة، وليس ثمة جاهليتان أولى وثانية.

ومن المفسّرين من جعلوه وصفا مقيّدا وجعلوا الجاهلية جاهلتين، ووضعوا حكايات في ذلك مختلفة أو مبالغا فيها أو في عمومها، وكلّ ذلك تكلّف دعاهم إليه حمل الوصف على قصد التقييد.

{ **وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** } أريد بهذه الأوامر الدوام عليها لأنّهنّ متلبِّسات بمضمونها من قبل، وليعلم الناس أنّ المقرّبين والصالحين لا ترتفع درجاتهم عند الله تعالى عن حقّ توجّه التكليف عليهم. وفي هذا مقمع لبعض المتصوّفين الزاعمين أنّ الأولياء إذا بلغوا المراتب العليا من الولاية سقطت عنهم التكاليف الشرعية.

{ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً** } متصل بما قبله إذ هو تعليل لما تضمَّنته الآيات السابقة من أمر ونهي ابتداء من قوله تعالى { يَا نِسَاءَ النبيء مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ } [30] .

<u>المعنى</u>: أمركنّ الله بما أمر ونهاكنّ عمّا نهى لأنه أراد لكنّ تخلية عن النقائص والتحلية بالكمالات.

وهذا التعليل وقع معترضا بين الأوامر والنواهي المتعاطفة.

{ **لِيُذْهِبَ** } استعير الإذهاب للإنجاء والإبعاد. وفي التعبير بالفعل المضارع دلالة على تجدّد الإرادة واستمرارها، وإذا أراد الله أمرا قدّره إذ لا راد لإرادته.

{ **عَنْكُمُ / وَيُطَهِّرَكُمْ** } جيء بالضميرين بصيغة جمع المذكر على طريقة التغليب لاعتبار النبيّ صلى الله

عليه وسلم في هذا الخطاب. وفي هذا التغليب إيماء إلى أنّ هذا التطهير لهنّ لأجل مقام النبيّ صلى الله عليه وسلم. وهو نظير قوله في قصة إبراهيم { رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ } [هود:73].

{ **الرِّجْسَ** } في الأصل: القذَر الذي يلوّث الأبدان، واستعير هنا للذنوب والنقائص الدينية لأنّها تجعل عرض الإنسان في الدنيا والآخرة مرذولا مكروها كالجسم الملوث بالقذر. وتقدم في قوله تعالى { رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ } [المائدة:90]. واستعير التطهير لضد ذلك وهو تجنيب الذنوب والنقائص.

{ **أَهْلَ الْبَيْتِ** } أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم، والخطاب موجّه إليهن وكذلك ما قبله وما بعده، لا يخالط أحدا شك في ذلك، ولم يفهم منها أصحاب النبيّ عليه الصلاة والسلام والتابعون إلّا أنّ أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم هن المراد بذلك وأنّ النزول في شأنهن.

وأمّا ما رواه الترمذي عن عطاء بن أبي رباح عن عمر بن أبي سلمة قال: لما نزلت على النبيّ { إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً } في بيت أم سلمة دعا فاطمة وحَسَنا وحُسينا فجلّلهم بكساء وعليٌّ خلف ظهره فجلَّلهم بكساء ثم قال: **" اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرا "**. [قال الترمذي: هو حديث غريب من حديث عطاء عن عمر بن أبي سلمة].

وفي صحيح مسلم عن عائشة: خرج رسول الله غداةً وعليه مِرط مرحل فجاء الحسن فأدخله ثم جاء الحسين فأدخله ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء علي فأدخله قال { إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً }. وهذا أصرح من حديث الترمذي.

فمحمله أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ألحق أهل الكساء بحكم هذه الآية وجعلهم أهل بيته، كما ألحق المدينة بمكة في حكم الحَرَمية بقوله: **" إنّ إبراهيم حرَّم مكة وإنّي أحرّم ما بين لابتيها "**.

وبهذا يتضح أنّ أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم هن آل بيته بصريح الآية وأنّ فاطمة وابنيها وزوجها مجعولون أهل بيته بدعائه أو بتأويل الآية على محاملها. ولذلك هم أهل بيته بدليل السنة وكل أولئك قد أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرا، بعضه بالجعل الإلهي وبعضه بالجعل النبوي ومثله قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" سلمان منا أهل البيت "** .

وقد تلقّف الشيعة حديث الكساء فغصبوا وصف أهل البيت وقصروه على فاطمة وزوجها وابنيهما عليهم الرضوان، وزعموا أنّ أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم لسن من أهل البيت. وهذه مصادمة للقرآن بجعل هذه الآية حشوا بين ما خوطب به أزواج النبيّ. وليس في لفظ حديث الكساء ما يقتضي قصر هذا الوصف على أهل الكساء.

وأمّا ما وقع من قول عمر بن أبي سلمة أنّ أم سلمة قالت: وأنا معهم يا رسول الله؟ فقال: **" أنت على مكانك وأنت على خير"**. فقد وهم فيه الشيعة فظنّوا أنه منعها من أن تكون من أهل بيته، وهذه جهالة لأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم إنّما أراد أن ما سألته من الحاصل لأنّ الآية نزلت فيها وفي ضرائرها فليست هي بحاجة إلى إلحاقها بهم، فالدعاء لها بأن يذهب الله عنها الرجس ويطهرها دعاء بتحصيل أمر حصل،

وهو مناف بآداب الدعاء كما حرّره شهاب الدين القرافي في الفرق بين الدعاء المأذون فيه والدعاء الممنوع منه، فكان جواب النبيّ صلى الله عليه وسلم تعليما لها. وقد وقع في بعض الروايات أنه قال لأم سلمة: " **إنك من أزواج النبيّ** ". وهذا أوضح في المراد بقوله: " **إنك على خير**".

{ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً } [34].

أمرهنّ بالتزوّد من علم الشريعة بدراسة القرآن ليجمع ذلك اهتداءهن في أنفسهن ازديادًا في الكمال والعلم، وإرشادهنّ الأمّة إلى ما فيه صلاح لها من علم النبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ **اذْكُرْنَ** } يجوز أن يكون من الذُّكر (بضم الذال) وهو التذكُّر، وهذه كلمة جامعة تشمل المعنى الصريح منه، وهو أن لا ينسين ما جاء في القرآن ولا يغفلن عن العمل به، ويشمل المعنى الكنائي وهو أن يراد مراعاة العمل بما يُتلى في بيوتهن ممّا ينزل فيها وما يقرأه النبيّ صلى الله عليه وسلم فيها، وما يبيّن فيها من الدين، ويشمل معنًى كنائيًّا ثانيا وهو تذكّر تلك النعمة العظيمة أن كانت بيوتهنّ موقع تلاوة القرآن.

ويجوز أن يكون من الذِكر (بكسر الذال)، وهو إجراء الكلام على اللسان، أي: بأن يقرأن القرآن ويبلِّغن أقوال النبيّ صلى الله عليه وسلم وسيرته. وفيه كناية عن العمل به أيضا.

التلاوة: القراءة، أي: إعادة كلام مكتوب أو محفوظ، أي: ما يتلوه الرسول صلى الله عليه وسلم.

{ **مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ** } بيان لما يُتلى، فكلّ ذلك متلو، وذلك القرآن، وقد بين المتلو بشيئين:

آيات الله: يعمّ القرآن كلّه، لأنّه معجز عن معارضته فكان آية على أنّه من عند الله.

{ **وَالْحِكْمَةِ** } عطف خاص على عام، وهو ما كان من القرآن مواعظ وأحكاما شرعية، قال تعالى بعد ذكر جملة من الأحكام { ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ } [الإسراء:39].

ولم يزل أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم والتابعون بعدهم يرجعون إلى أمّهات المؤمنين في كثير من أحكام النساء ومن أحكام الرجل مع أهله.

{ **إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً** } تعليل للأمر وتذييل للجمل السابقة. والتعليل صالح لمحامل الأمر كلّها لأنّ اللطف يقتضي إسداء النفع بكيفية لا تشق على المُسدَى إليه.

{ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً } [35].

يجوز أن تكون هذه الجملة استئنافا بيانيا على عادة القرآن إذا ما ذكر مأمورات يعقبها بالتذكير بحال

أمثالها أو بحال أضدادها. ويجوز أن تكون استئنافا ابتدائيا ورد بمناسبة ما ذكر من فضائل أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم.

روى النسائي وأحمد: أنّ أم سلمة قالت للنبيّ صلى الله عليه وسلم: ما لنا لا نُذكر في القرآن كما يُذكر الرجال، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

فالمقصود من أصحاب هذه الأوصاف المذكورة النساء، وأمّا ذكر الرجال فللإشارة إلى أنّ الصنفين في هذه الشرائع سواء ليعلموا أنّ الشريعة لا تختصّ بالرجال. ولعل بهذه الآية وأمثالها تقرّر أصل التسوية فأغنى عن التنبيه عليه في معظم أقوال القرآن والسنّة، ولعلّ هذا هو وجه تعدّد الصفات المذكورة لئلا يُتوهّم التسوية في خصوص صفة واحدة.

وسلك مسلك الإطناب في تعداد الأوصاف لأنّ المقام لزيادة البيان لاختلاف أفهام الناس في ذلك، على أنّ في هذا التعداد إيماء إلى أصول التشريع كما سنبيّنه في آخر تفسير هذه الآية.

وبهذه الآثار يظهر اتصال هذه الآيات بالتي قبلها. وبه يظهر وجه تأكيد هذا الخبر بحرف { إِنَّ } لدفع شك من شك في هذا الحكم من النساء.

{ **الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ** } الإسلام بالمعنى الشرعي هو شهادة أن لا أله إلّا الله وأنّ محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحجّ البيت، ولا يعتبر إسلاما إلّا مع الإيمان. وتقدّم الكلام عليه عند قوله تعالى { فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } [البقرة:132].

{ **وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ** } الإيمان: أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ويؤمن بالقدر خيره وشره. وتقدّم الكلام على الإيمان في أوائل سورة البقرة.

{ **والقانتين والقانتات** } أصحاب القنوت، وهو الطاعة لله وعبادته، وتقدّم آنفا عند قوله تعالى { وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ } [31].

{ **وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ** } من حصل منهم صدق القول، وهو ضد الكذب، والصدق كلّه حسن والكذب لا خير فيه إلّا لضرورة. وشمل ذلك الوفاء بما يلتزم به من أمور الديانة كالوفاء بالعهد والوفاء بالنذر، وتقدّم عند قوله تعالى { أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا } [البقرة:177].

{ **وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ** } أهل الصبر. والصبر محمود في ذاته لدلالته على قوّة العزيمة، ولكن المقصود هنا هو تحمّل المشاق في أمور الدين، وتحمّل المكاره في الذبّ عن الحوزة الإسلامية، وتقدّم عند قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا } [آل عمران:200].

{ **وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ** } أهل الخشوع، وهو الخضوع لله والخوف منه، وهو يرجع إلى معنى الإخلاص بالقلب فيما يعمله المكلّف. ومطابقة ذلك لما يظهر من آثاره على صاحبه. وتقدّم في قوله تعالى { وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ } [البقرة:45].

{ **وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ** } من يبذل الصدقة من ماله للفقراء، وتقدّم في قوله تعالى { إِلَّا مَنْ أَمَرَ

بِصَدَقَةٍ } [النساء:114].

{ **وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ** } لما في الصيام من تخلّق برياضة النفس لطاعة الله إذ يترك المرء ما هو جبلّي من الشهوة تقرّبا إلى الله.

{ **وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ** } هذا الحفظ له حدود سنّتها الشريعة، فالمراد: حفظ الفروج على أن تُستعمل فيما نُهي عنه شرعا، وليس المراد حفظها عن الاستعمال أصلا، وهو الرهبنة، فإنّها مدحوضة في الإسلام بأدلة متواترة المعنى.

{ **وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ** } فهو وصف صالح لأن يكون من الذِكر (بكسر الذال) وهو ذكر اللسان كالذي في قوله تعالى { فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ } [البقرة: 152] وقوله في الحديث: **" ومن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي "**، ومن الذُكر (بضمّها) كما تقدّم آنفا في قوله تعالى {وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ} [34]، والذي في قوله تعالى { ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ } [آل عمران:135].

وقد اشتملت هذه الخصال العشر على جوامع فصول الشريعة كلّها.

الإسلام: يجمع قواعد الدين الخمس المفروضة التي هي أعمال.

الإيمان: يجمع الاعتقادات القلبية المفروضة.

القنوت: يجمع الطاعات كلّها مفروضها ومسنونها، وترك المنهيات والإقلاع عنها ممّن هو مرتكبها، وهو معنى التوبة، فالقنوت هو تمام الطاعة، فهو خير مساوٍ للتقوى.

فهذه { الإسلام – الإيمان – القنوت) جوامع شرائع المكلّفين في أنفسهم.

الصدق: يجمع كلّ عمل هو في موافقة القول والفعل للواقع في القضاء والشهادة والعقود والالتزامات وفي المعاملات بالوفاء بها وترك الخيانة، ومطابقة الظاهر للباطن في المراتب كلّها. ومن الصدق صدقُ الأفعال.

الصبر: جامع لما يختصّ بتحمّل المشاق من الأعمال كالجهاد والحسبة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومناصحة المسلمين وتحمّل الأذى في الله، وهو خُلق عظيم هو مفتاح أبواب محامد الأخلاق والآداب والإنصاف من النفس.

الخشوع: الإخلاص بالقلب الظاهر، وهو الانقياد وتجنّب المعاصي. ويدخل في الإحسان، وهو المفسَّر في حديث جبريل **" أن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك "**. ويدخل تحت ذلك جميع القرب والنوافل فإنّها من آثار الخشوع، ويدخل فيه التوبة ممّا أقترفه المرء من الكبائر، إذ لا يتحقّق الخشوع بدونها.

التصدُّق: يحتوي جميع أنواع الصدقات والعطيّات وبذل المعروف والإرفاق.

الصوم: عبادة عظيمة فلذلك خُصِّصت بالذكر مع أن الفرض منه مشمول للإسلام ، فالتصريح بذكر الصوم تنويه به، وفي الحديث: **" قال تعالى: الصوم لي وأنا أجزي به "**.

حفظ الفروج: أريد به حفظها عمّا ورد الشرع بحفظها عنه، وقد اندرج في هذا جميع أحكام النكاح وما يتفرّع عنها وما هو وسيلة لها.

ذكر الله: كما علمت له محملان:

المحمل الأوّل: ذكره اللساني فيدخل فيه قراءة القرآن وطلب العلم ودراسته، ويشمل ما يذكر عقب الصلوات ونحو ذلك من الأذكار.

المحمل الثاني: الذكر القلبي وهو ذكر الله عند أمره ونهيه كما قال عمر بن الخطاب: " أفضل من ذكر الله باللسان ذكر الله عند أمره ونهيه "، وهو الذي في قوله تعالى { وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ } [آل عمران:135] فدخل فيه التوبة ودخل فيها الارتداع عن المظالم كلّها.

وممّا يوضح شموله بالشرائع كلها تقييده بـ { كَثِيراً } لأنّ المرء إذا ذكر الله كثيرا فقد استغرق المحملين.

{ **أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً** } ذلك هو الجزاء إذا كان الاتصاف بهذه الصفات جاريا على ما حدّده الشرع في تفاصيلها.

المغفرة: عدم المؤاخذة بما فرط من الذنوب، وقد تقدّمت في قوله تعالى { وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } [الأعراف:23].

{ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِيناً } [36].

معظم الروايات على أنّ هذه الآية نزلت في شأن خِطبة زينب بنت جحش على زيد بن حارثة. قال ابن عباس: انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب على فتاه زيد ابن حارثة زينبَ بنت جحش فاستنكفت وأبت وأبى أخوها عبد الله بن جحش فأنزل الله تعالى { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ }، فتابعته ورضيت، لأنّ تزويج زينب بزيد بن حارثة كان قبل الهجرة فتكون هذه الآية نزلت بمكّة ويكون موقعها في هذه السورة التي هي مدنية إلحاقًا لها بها لمناسبة أن تكون مقدّمة لذكر تزوّج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب الذي يظهر أنه وقع بعد وقعة الأحزاب، وقد علم الله ذلك من قبل فقدّر له الأحوال التي حصلت من بعد.

والمناسبة تعقيب الثناء على أهل خصال هي من طاعة الله، بإيجاب طاعة الله والرسول صلى الله عليه وسلم فلمّا أعقب ذلك بما في الاتصاف بما هو من أمر الله ممّا يكسب موعوده من المغفرة والأجر، وسوَّى في ذلك بين النساء والرجال، أعقبه بيان أنّ طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يأمر به هي طاعة واجبة وأنّها ملحقة بطاعة الله، وأنّ صنفي الناس الذكور والنساء في ذلك سواء كما كانا سواء في الأحكام الماضية.

{ **إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً** } قضاء الأمر تبيينه والإعلام به، قال تعالى { وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ } [الحجر:66]. أي: إذا عزم أمره ولم يجعل للمأمور خيارا في الامتثال، فهذا الأمر هو الذي يجب على المؤمنين امتثاله.

وذكر اسم الجلالة هنا للإيماء إلى أنّ طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام طاعة لله، قال تعالى { مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ } [النساء:80].

{ **الْخِيَرَةُ** } اسم مصدر تخيَّر، وتقدّم في قوله تعالى { مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ } [القصص:68].

{ **أَمْرِهِمْ** } بمعنى شأنهم. والمعنى: ما كان اختيار بعض شؤونهم ملكا يملكونه بل يتعيّن عليهم اتباع ما قضى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فلا خيرة لهم فيه.

{ **وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً** } تذييل تعميم للتحذير من مخالفة الرسول عليه الصلاة والسلام سواء فيما هو فيه الخيرة أم كان عن عمد للهوى في المخالفة.

{ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً } [37].

{ **إِذْ** } اسم زمان مفعول لفعل محذوف تقديره: اذكر، وله نظائر كثيرة.

{ **لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ** } زيد بن حارثة هو المعني، فالله أنعم عليه بالإيمان والخلاص من أيدي المشركين بأن يسّر دخوله في ملك رسول الله صلى الله عليه وسلم، والرسول عليه الصلاة والسلام أنعم عليه بالعتق والتبنّي والمحبّة. وتقدّمت قصّته عند قوله تعالى { وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ } [4].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم زوّجه أم أيمن مولاته فولدت له أسامة بن زيد وطلّقها. ثم إنّ رسول اله صلى الله عليه وسلم زوّجه زينب بنت جحش الأسدي حليف آل عبد شمس وهي ابنة عمّته أميمة بنت عبد المطلب وهو يومئذ بمكّة. ثم بعد الهجرة آخى النبيّ صلى الله عليه وسلم بينه وبين حمزة بن عبد المطلب ولمّا بطل حكم التبنّي بقوله تعالى { وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ } [4] صار يُدعى: حِبَّ رسول الله. وفي سنة خمس قبل الهجرة بعد غزوة الخندق طلق زيد بن حارثة زينب بنت جحش فزوّجه رسول الله صلى الله عليه وسلم أمّ كلثوم بنت عقبة بن ابي معيط وأمّها البيضاء بنت عبد المطلب وولدت له زيد بن زيد ورقيّة ثم طلقها، وتزوّج درّة بنت أبي لهب، ثم طلّقها وتزوّج هند بنت العوام أخت الزبير. وشهد زيد بدرا والمغازي كلّها. وقُتل في غزوة مؤتة سنة ثمان وهو أمير على الجيش وهو ابن خمس وخمسون سنة.

{ **لِلَّذِي** } التعبير عن زيد بن حارثة هنا بالموصول دون اسمه العلم الذي يأتي في قوله تعالى { فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ }، لما تُشعر به الصلة المعطوفة، وهي { وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ }، من تنزّه النبيّ صلى الله عليه وسلم عن استعمال ولائه لحمله على تطليق زوجه، فالمقصود هو الصلة الثانية وهي { وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ }، لأنّ المقصود منها أنّ زيدا أخصّ الناس به، وأنّ الرسول عليه الصلاة والسلام احرص على صلاحه.

{ **أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ** } وزوج زيد المذكورة في الآية هي زينب بنت جحش الأسدية وكان اسمها بَرَّة، فلمّا تزوّجها النبيّ صلى الله عليه وسلم سمّاها زينب، وأبوها جحش من بني أسد بن خزيمة وكان أبوها حليفا لآل عبد شمس بمكة وأمّها أميمة بنت عبد المطلب عمّة رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوّجها زيد بن حارثة في الجاهلية ثم طلقها بالمدينة، وتزوّجها النبيّ صلى الله عليه وسلم سنة خمس، وتوفيت سنة عشرين من الهجرة وعمرها ثلاث وخمسون سنة، فتكون مولودة سنة ثلاث وثلاثين قبل الهجرة، أي: سنة عشرين قبل البعثة.

واعلم أنّ المأثور الصحيح في هذه الحادثة: أنّ زيد بن حارثة بقيت عنده زينب سنين فلم تلد له فكان إذا جرى بينه وبينها ما يجري بين الزوجين تارة من خلاف أدلَّت عليه بسؤددها وغضَّت منه بولايته، فلمّا تكرّر ذلك عزم على أن يطلّقها وجاء يعلم رسول الله بعزمه على ذلك لأنّه تزوّجها من عنده.

وروي عن علي زين العابدين: أنّ الله أوحى إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه سينكح زينب بنت جحش.

وعن الزهري: نزل جبريل على النبيّ صلى الله عليه وسلم يعلمه أنّ الله زوّجه زينب بنت جحش.

والظاهر عندي: أنّ ذلك كان في الرؤيا، كما كان الشأن مع عائشة، حيث قال لها: **" أتاني بك المَلَك في المنام في سَرَقة من حرير يقول لي: هذه امرأتك فأكشف، فإذا هي أنت، فأقول: إن يكن هذا من عند الله يمضه "**.

فقول النبيّ صلى الله عليه وسلم لزيد { أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ } توفية بحقّ النصيحة، وهو أمر نصح وإشارة بخير لا أمر تشريع، ولذلك لا يعدّ تصميم زيد على طلاق زينب عصيانا للنبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّ أمره في ذلك كان على وجه التوفيق بينه وبين زوجه. كما في حديث بريرة مع زوجها مغيث إذ قال لها: **" لو راجعته؟** فقالت: يا رسول الله تأمرني؟ قال: **لا، إنّما أنا أشفع**، قالت: لا حاجة لي فيه ".

والقول يؤذن بأنّه جواب عن كلام صدر من زيد بأن جاء مستشيرا في فراق زوجه، أو معلما بعزمه على فراقها.

{ **أَمْسِكْ عَلَيْكَ** } معناه: لازم عشرتها، فالإمساك مستعار لبقاء الصحبة.

{ **وَاتَّقِ اللَّهَ** } أمره بتقوى الله تابع للإشارة بإمساكها، أي: اتق الله في عشرتها كما أمر الله، ولا تحد عن واجب حسن المعاشرة، بملاحظة قوله تعالى { فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ } [البقرة:229].

{ **وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ** } عطف على جملة { تَقُولُ }. والإتيان بالمضارع للدلالة على تكرّر إخفاء ذلك وعدم ذكره. والذي في نفسه: عِلْمه بأنّه سيتزوّج زينب وأن زيدا يطلّقها، وذلك سرّ بينه وبين

ربّه ليس ممّا يجب عليه تبليغه ولا ممّا للناس فائدة من علمه حتّى يبلِّغوه، ألا ترى أنّه لم يُعلم عائشة ولا أباها برؤيا إتيان الملك بها في سَرَقة حرير إلّا بعد أن تزوجها.

{ **وَتَخْشَى النَّاسَ** } عطف على جملة { وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ }، أي: تخفي ما سيبديه الله وتخشى الناس من إبدائه.

الخشية: هنا كراهية ما يرجف به المنافقون، والكراهة من ضروب الخشية، فليست هي خشية خوف.

والنبيّ صلى الله عليه وسلم كان يتوسّم من خبثهم وسوء طويّتهم ما كان منهم في قضية الإفك.

أي: تخشى المنافقين أن يؤذوك بأقوالهم.

ولم تكن خشيةً تبلغ به مبلغ صرفه عمّا يرغبه بدليل أنّه لم يتردّد في تزوّجها بعد طلاقها.

{ **وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ** } معترضة لمناسبة جريان ذكر خشية الناس، والواو اعتراضية وليست واو الحال، فمعنى الآية معنى قوله تعالى { فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ } [المائدة:44].

وحملها على معنى الحال هو الذي حمل كثيرا من المفسِّرين على جعل الكلام عتابا للنبيّ صلى الله عليه وسلم، وليس الأمر كذلك، ولكنّه تشجيع له وتحقير لأعداء الدين، وتعليم له بأن يمضي في سبيله، وأنّ عليه أن يُعرض عن قول المنافقين. فهذا جوهر ما أشارت إليه الآية وليس فيها ما يشير إلى غير ذلك.

{ **أَحَقُّ** } اسم تفضيل مسلوب المفاضلة فهو بمعنى حقيق، إذ ليس في الكلام السابق ما يفيد وقوع إيثار خشية الناس على خشية الله ولا ما يفيد تعارضا بين الخشيتين حتّى يحتاج إلى ترجيح خشية الله على خشية الناس. المعنى: والله حقيق بأن تخشاه.

وبهذا تعلم أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ما فعل إلّا ما يرضي الله، وقد قام بعمل الصاحب الناصح حين أمر زيدا بإمساك زوجه، وانطوى على علم صالح حين خشي ما سيفترضه المنافقون من القالة إذا تزوّج زينب.

وقد رُويت في هذه القصة أخبار مخلوطة، فإيّاك أن تتسرّب إلى نفسك منها أغلوطة.

ولسوء فهم الآية كبر أمرها على بعض المسلمين واستفزت كثيرا من الملاحدة وأعداء الإسلام من أهل الكتاب. وقد تصدّى أبو بكر بن العربي في (الأحكام) لوهن أسانيدها وكذلك عياض في (الشفاء).

{ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً }.

تفريع على الجملة السابقة، وقد طوي كلام يدل عليه السياق، وتقديره: فلم يقبل منك ما أشرت عليه ولم يمسكها.

{ **قَضَى** } استوفى وأتمّ. واسم { **زَيْدٌ** } إظهار في مقام الإضمار للتنويه بشأن زيد.

قال القرطبي: قال السهيلي: " كان يُقال له زيد بن محمد فلمّا نُزع عنه هذا الشرف حين نزل قوله تعالى

{ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ } [5] وعلم الله وحشته من ذلك شرّفه بخصيصة لم يكن يخصّ بها أحدا من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وهي أن سمَّاه في القرآن ".

الوطر: الحاجة المهمّة والنهمة.

المعنى: فلما استتم زيد مدة معاشرة زينب فطلقها، أي: فلمّا لم يبق له وطر منها.

{ **زَوَّجْنَاكَهَا** } أَذِنَّا لك بأن تتزوجها، وكانت زينب أيِّمًا فتزوّجها الرسول عليه الصلاة والسلام برضاها. فلما أمره الله بتزوجها قال لزيد بن حارثة: ما أجد في نفسي أوثق منك فاخطب عليّ، قال زيد: فجئتها فولّيتها ظهري توقيرا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقلت: يا زينب أرسل رسول الله يذكرك.

فقالت: ما أنا بصانعة شيئا حتّى أُوامر ربي، وقامت إلى مسجدها وصلَّت صلاة الاستخارة، فرضيت فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل فبنى بها. وكانت زينب تفخر على نساء النبيّ صلى الله عليه وسلم وتقول: زوجكن آباؤكنّ وزوّجني ربّي. وهذا يقتضي أنّه لم يتول أخوها أبو أحمد تزويجها.

فتكون هذه خصوصية للنبيّ صلى الله عليه وسلم عند الذين يشترطون الولي في النكاح كالمالكية.

ولم يُذكر في الروايات أنّ النبيّ عليه الصلاة والسلام أصدقها فعدّه بعض أهل السير من خصوصياته صلى الله عليه وسلم، فيكون في تزوّجها خصوصيّتان نبويَّتان.

{ **لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً** } أشار إلى حكمة هذا التزويج وهي إبطال الحرج الذي كان يتحرّجه أهل الجاهلية من أن يتزوّج الرجل زوجة دعيّه، فلما أبطله الله بالقول إذ قال { وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ } [4] أكّد إبطاله بالفعل حتّى لا يبقى أدنى أثر من الحرج أن يقول قائل: إنّ ذاك وإن صار حلالا فينبغي التنزّه عنه لأهل الكمال، فاحتيط لانتفاء ذلك بإيقاع التزوّج بامرأة الدعيّ من أفضل الناس وهو النبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ **لِكَيْ** } الجمع بين اللام وكي توكيد للتعليل، كأنّه يقول: ليست العلّة غير ذلك.

<u>ودلّت الآية على أنّ الأصل في الحكام التشريعية أن تكون سواء بين النبيّ صلى الله عليه وسلم والأمّة حتى يدل دليل على الخصوصية.</u>

{ **وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً** } تذييل. و**أمر الله** <u>يجوز</u> أن يراد به من إباحة تزوّج من كنّ حلائل الأدعياء، فهو معنى الأمر التشريعي فيه. ومعنى { مَفْعُولاً } أنه مُتَّبع مُمتَثل فلا ينزّه أحد عنه، قال تعالى { قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ } [الأعراف:32].

<u>ويجوز</u> أن يراد <u>الأمر التكويني</u>، وهو ما علم أنّه يكون وقدّر أسباب كونه، فيكون معنى { مَفْعُولاً } واقعا.

{ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً [38] **الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً** [39] }.

استئناف لزيادة بيان مساواة النبيّ صلى الله عليه وسلم للأمّة في إباحة تزوّج مطلقة دعيّه، وبيان أنّ ذلك لا يُخِلُّ بصفة النبوّة، لأنّ تناول المباحات من سنّة الأنبياء قال تعالى { يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً } [المؤمنون:51]، وأنّ النبيّ إذا رام الانتفاع بمباح لميل نفسه إليه ينبغي له أن يتناوله لئلّا يجاهد نفسه فيما لم يؤمر بمجاهدة النفس فيه، لأنّ الأليق به أن يستبقي عزيمته ومجاهدته لدفع ما أُمر بتجنّبه.

وفي هذا الاستئناف ابتداء لنقض أقوال المنافقين: أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم تزوّج امرأة ابنه.

{ **فَرَضَ اللَّهُ لَهُ** } قدّره، إذ أذنه بفعله. وتعدية فعل { فَرَضَ } بالـ (لام) تدلّ على هذا المعنى بخلاف تعديه بحرف (على) كقوله تعالى { قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ } [50].

{ **سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ** } أي: أنّ محمدا صلى الله عليه وسلم متّبع سنة الأنبياء الذين سبقوه اتباعا لما فرض الله له كما فرض لهم، أي: أباح.

{ **الَّذِينَ خَلَوْا** } الأنبياء بقرينة سياق لفظ النبيّ. وقد زاده بيانا قوله تعالى { الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ }. فالأنبياء كانوا متزوِّجين وكان لكثير منهم عدّة أزواج، وكان بعض أزواجهم أحبّ إليهم من بعضهنّ.

{ **وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً** } اعتراض أو تذييل، والقول فيه مثل نظيره المتقدّم آنفا.

القَدَر: (بفتح الدال) إيجاد الأشياء على صفة مقصودة، وهو مشتقّ من **القدْر** (بسكون الدال) وهو الكمّيّة المحددة المضبوطة، وتقدّم في قوله تعالى { فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا } [الرعد:17]، وقوله تعالى { وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ } [الحجر:21]. ولمّا كان من لوازم هذا المعنى أن يكون مضبوطا محكما كثرت الكناية بالقدر عن الإتقان والصدور عن العلم. ومنه حديث: **" كلّ شيء بقضاء وقدر "**، أي: من الله.

واصطلح علماء الكلام: أنّ القدر اسم للإرادة الأزلية المتعلّقة بالأشياء على ما هي عليه، ويطلقونه على الشيء الذي تعلّق به القدر، وهو المقدور، كما في هذه الآية.

فالمعنى: وكان أمر الله مقدَّرا على حكمة أرادها الله تعالى من ذلك الأمر، فالله لمّا أمر رسوله عليه الصلاة السلام بتزوّج زينب التي فارقها زيد كان عالما بأنّ ذلك لائق برسوله عليه الصلاة والسلام.

{ **الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ** } جيء بالموصول دون اسم الإشارة أو الضمير لما في هذه الصلة من إيماء إلى انتفاء الحرج عن الأنبياء في تناول المباح، وأنّ الله أراد منهم تبليغ الرسالة وخشيته، بتجنَب ما نهى عنه، ولم يكفلِّهم إشقاق نفوسهم بترك الطيّبات التي يريدونها، ولا

كلَّفهم مراعاة أميال الناس ومصطلحاتهم وعوائدهم الراجعة إلى الحيدة بالأمور عن مناهجها، ولذلك عقّب بقوله تعالى { **وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ** }، أي: لا يخشون أحدا خشية تقتضي فعل شيء أو تركه.
{ **وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً** } إظهار اسم الجلالة في مقام الإضمار، حيث تقدّم ذكره، لقصد أن تكون هذه الجملة جارية مجرى المثل والحكمة.

{ **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً** } [40].

استئناف للتصريح بإبطال أقوال المنافقين والذين في قلوبهم مرض، وما يلقيه اليهود في نفوسهم من الشك. وهو ناظر إلى قوله تعالى { وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ } [4]. والغرض من هذا العموم قطع توهّم أن يكون للنبيّ صلى الله عليه وسلم ولد من الرجال تجري عليه أحكام البنوّة.
{ **مِنْ رِجَالِكُمْ** } وصف لـ { أَحَدٍ }، وهو احتراس، لأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أبو بنات.
والمقصود: نفي أن يكون أبا لأحد من الرجال في حين نزول الآية لأنّه كان ولد له ولدان بمكة من خديجة الطيب أو الطاهر والقاسم، وولد له إبراهيم بالمدينة من مارية القبطية، وكلّهم ماتوا صبيانا.
والمنفي هو وصف الأبوّة المباشرة لأنّها الغرض الذي سيق الكلام لأجله والذي وهم فيه من وهم، فلا التفات إلى كونه جدا للحسن والحسين ومحسن أبناء ابنته فاطمة رضي الله عنها، إذ ليس ذلك بمقصود. ولا يخطر ببال أحد نفي أبوّته لهم، بمعنى الأبوّة العليا.
{ **وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ** } استدراك لرفع ما قد يُتوهَّم من نفي أبوته، من انفصال صلة التراحم والبرّ بينه وبين الأمة، فذُكِّروا بأنّه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو كالأب لجميع أمّته في شفقته ورحمته بهم، وفي برّهم وتوقيرهم إيّاه، شأن كلّ نبيّ مع أمته.
{ **وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ** } معطوفة على صفة { رَسُولَ اللَّهِ } تكميل وزيادة في التنويه بمقامه صلى الله عليه وسلم، وإيماء إلى أنّ في انتفاء أبوّته لأحد من الرجال حكمة قدّرها الله تعالى وهي إرادة أن لا يكون إلّا مثل الرسل أو أفضل في جميع خصائصه.
وإذا قد كان الرسل لم يخل عمود أبنائهم من نبيّ، كان كونه خاتم النبيّين مقتضيا أن لا يكون له أبناء بعد وفاته لأنّهم لو كانوا أحياء بعد وفاته ولم تخلع عليهم خلعة النبوّة، لأجل ختم النبوّة به، كان ذلك غضًّا فيه دون سائر الرسل، وذلك ما لا يريده الله به. ألا ترى أنّ الله لما أراد قطع النبوّة من بني إسرائيل بعد عيسى عليه السلام صرف عيسى عن التزوّج.
{ **وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً** } تظهر حكمته فيما قدَّره من الأقدار.
والآية نصّ في أن محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيّين وأنّه لا نبيّ بعده. وقد اجمع الصحابة على أنّ محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم الرسل والأنبياء وعُرف ذلك وتواتر بينهم وفي الأجيال من بعدهم،

ولذلك لم يتردّدوا في تكفير مسيلمة والأسود العنسي، فصار معلوما من الدين بالضرورة، فمن أنكره فهو كافر خارج عن الإسلام ولو كان معترفا بأنّ محمد صلى الله عليه وسلم رسول الله للنّاس كلهم.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً [41] وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً [42] }.

استئناف ابتدائي، وفيه إقبال على مخاطبة المؤمنين بأن يشغلوا ألسنتهم بذكر الله وتسبيحه، أي: أن يمسكوا عن مماراة المنافقين أو عن سبّهم فيما يرجفون به في قضية تزوّج زينب، وهذا كقوله تعالى { فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً } [البقرة:200]، أي: خيرا من التفاخر بذكر آبائكم وأحسابكم.

فذلك أنفع لهم وأبعد عن أن تثور بين المسلمين والمنافقين ثائرة فتنة في المدينة. وفيه تسجيل على المنافقين بأنّ خوضهم في ذلك بعد هذه الآية علامة على النفاق، لأنّ المؤمنين لا يخالفون أمر ربّهم.

الذكر: ذكر اللسان، وهو المناسب لموقع الآية بما قبلها وبعدها.

التسبيح: يجوز أن يراد به الصلوات النوافل، فليس هو من عطف الخاص على العام. ويجوز أن يكون المأمور به من التسبيح قول: سبحان الله، فيكون من عطف الخاص على العام اهتماما بالخاص، لأنّ معنى التسبيح التنزيه عمّا لا يجوز على الله من النقائص، فهو من أكمل الذكر لاشتماله على جوامع الثناء والتمجيد ولأنّ في التسبيح إيماء إلى التبرُّؤ ممّا يقوله المنافقون في حق النبيّ صلى الله عليه وسلم فيكون في معنى قوله تعالى { وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ } [النور:16]، فإنّ كلمة: سبحان الله، يكثر أن تقال في مقام التبرُّؤ من نسبة ما لا يليق إلى أحد، كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم **" سبحان الله المؤمن لا ينجس "**. وقول هند بنت عتبة حين أخذ على النساء البيعة (أن لا يزنين): سبحان الله أتزني الحُرَّة.

البكرة: أوّل النهار. و**الأصيل**: العشيّ الوقت الذي بعد العصر. والمقصود من { **بُكْرَةً وَأَصِيلاً** } إعمار أجزاء النهار بالذكر والتسبيح بقدر المُكنة، لأنّ ذكر طرفي الشيء يكون كناية على استيعابه.

ومنه قولهم: المشرق والمغرب، كناية عن الأرض كلّها، والرأس والعقب كناية الجسد كله.

{ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً} [43].

تعليل للأمر بذكر الله وتسبيحه بأنّ ذلك مجلبة لانتفاع المؤمنين بجزاء الله على ذلك بأفضل منه من جنسه وهو صلاته وصلاة ملائكته. والمعنى: أنّه يصلّي عليكم وملائكته إذا ذكرتموه بكرة وأصيلا.

{ **هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ** } تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي لإفادة التقوّي وتحقيق الحكم. والمقصود تحقيق ما تعلق بفعل { يُصَلِّي } من قول { لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ }.

{ **يُصَلِّي** } اجتلاب صيغة المضارع لإفادة تكرّر الصلاة وتجدّدها كلّما تجدّد الذكر والتسبيح، أو إفادة تجدّدها بحسب أسباب أخرى من أعمال المؤمنين وملاحظة إيمانهم.

الصلاة: الدعاء والذكر بخير، وهي من الله الثناء. وأمره بتوجيه رحمته في الدنيا والآخرة ،أي: اذكروه ليذكركم لقوله تعالى { فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ } [البقرة:152]، وقوله في الحديث القدسي: " **فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملإٍ ذكرته في ملإٍ خير منهم** ".

صلاة الملائكة: دعاؤهم للمؤمنين، ودعاؤهم مستجاب عند الله، فيزيد الذاكرين على ما أعطاهم بصلاته تعالى عليهم.

{ **لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** } الـ (لام) متعلقة بـ { يُصَلِّي }. فعُلم أنّ هذه الصلاة جزاء عاجل حاصل وقت ذكرهم وتسبيحهم.

{ **الظُّلُمَاتِ** } الضلالة.

{**النور**} الهدى.

إخراجهم من الظلمات: دوام ذلك والاستزادة منه، لأنّهم لمّا كانوا مؤمنين كانوا قد خرجوا من الظلمات إلى النور، قال تعالى { وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً } [مريم:76].

{ **وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً** } تذييل. ودلّ بالإخبار عن رحمته بالمؤمنين بإقحام فعل { كَانَ } تحقيقه وأنّه شأن من شؤونه المعروف بها في آيات كثيرة. ورحمته بالمؤمنين أعمّ من صلاته عليهم لأنّها تشمل إسداء النفع إليهم وإيصال الخير لهم بالأقوال والأفعال والألطاف.

{ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً } [44].

أعقب الجزاء العاجل الذي أنبأ عنه قوله تعالى { هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ } [43] بذكر جزاء آجل وهو ظهور أثر الأعمال التي عملوها في الدنيا في كرامتهم يوم يلقون ربّهم.

التحيّة: الكلام الذي يخاطب به عند ابتداء الملاقاة إعرابا عن السرور باللقاء من دعاء ونحوه. وهذا الاسم في الأصل مصدر **حيَّاه**، إذا قال له: أحياك الله، أي: أطال حياتك.

لقاء الله: الحضور إلى حضرة قدسه للحساب في المحشر. وتقدّم الكلام عليها عند قوله تعالى { وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ } [البقرة:223]. وهذا اللقاء عام لجميع الناس لقوله تعالى { فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ } [التوبة:77]، فميّز الله المؤمنين يومئذ بالتحيّة كرامة لهم.

وتحية الإسلام: سلامٌ عليك أو السلام عليكم، دعاء بالسلامة والأمن، أي: من المكروه، لأنّ السلامة أحسن ما يُبتغى في الحياة. ولذلك كانت تحيّة المؤمنين يوم القيامة السلام بشارة بالسلامة ممّا يشاهده الناس من الأهوال المنتظرة. وكذلك تحية أهل الجنة فيما بينهم تلذُّذا باسم ما هم فيه من السلامة من أهوال أهل النار. وتقدّم في قوله تعالى { وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ } [يونس:10].

{ **وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً** } حال من ضمير الجلالة، أي: يحييهم يوم يلقونه وقد أعدّ لهم أجرا كريما. **الأجر**: الثواب. و**الكريم**: النفيس في نوعه، وتقدّم عند قوله تعالى { إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ } [النمل:29]. **الأجر الكريم**: نعيم الجنة.

{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً [45] وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً [46] }.

هذا النداء الثالث للنبيّ صلى الله عليه وسلم، فإنّ الله لمّا أبلغه بالنداء الأوّل ما هو متعلّق بأزواجه وما تخلّل ذلك من التكليف والتذكير، ناداه بأوصاف أودعها سبحانه فيه للتنويه بشأنه وزيادة رفعة مقداره، وبيَّن له أركان رسالته، فهذا الغرض هو وصف تعلّقات رسالته بأحوال أمّته وأحوال الأمم السالفة.

وذكر له هنا خمسة أوصاف هي: **(شاهد / مبشر / نذير / داع إلى الله / سراج منير).**

فهذه الأوصاف ينطوي هو إليها وتنطوي على مجامع الرسالة المحمدية، فلذلك اقتُصر عليها من بين أوصافه الكثيرة.

الشاهد: المخبر عن حجّة المدّعي ودفع دعوى المبطل، فالرسول صلى الله عليه وسلم شاهد بصحّة ما هو صحيح من الشرائع وبقاء ما هو صالح للبقاء منها، ويشهد ببطلان ما ألصق بها وبنسخ ما لا ينبغي بقاؤه من أحكامها بما أخبر عنهم في القرآن والسنّة، قال تعالى { مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ } [المائدة:48]. وفي حديث الحشر: **" يُسأل كل رسول هل بلّغ؟ فيقول: نعم. فيقول الله: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته ...".**

ومحمد صلى الله عليه وسلم شاهد أيضا على أمّته بمراقبة جريهم على الشريعة في حياته، وشاهد عليهم في عرصات القيامة، قال تعالى { وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً } [النساء:41] فهو شاهد على المستجيبين لدعوته وعلى المعرضين عنها، وعلى من استجاب للدعوة ثم بدل. وفي حديث الحوض: **" ليردنّ عليَّ ناسٌ من أصحابي الحوضَ حتّى إذا رأيتُهم وعرفتُهم اختُلِجوا دوني فأقول: يا رب أُصيْحابي أُصيْحابي. فيقال لي: إنّك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول تبًا وسحقًا لمن أحدث بعدي ".**

فلا جرم كان وصف **الشاهد** أشمل هذه الأوصاف للرسول صلى الله عليه وسلم بوصف كونه رسولا لهذه الأمة، وبوصف كونه خاتما للشرائع ومتمّما لمراد الله من بعثة الرسل.

المبشّر: المخبر بالبشرى والبشارة. وهي الحادث المُسِرّ لمن يُخبَر به، وهو الوعد بالعطيّة، والنبيّ صلى الله عليه وسلم مبشّر لأهل الإيمان والمطيعين بمراتب فوزهم. وقد تضمّن هذا الوصف ما اشتملت عليه الشريعة من الدعاء إلى الخير من الأوامر وهو <u>قسم الامتثال من قسمَي التقوى</u>، فإنّ التقوى امتثال المأمورات واجتناب المنهيّات، والمأمورات متضمّنة المصالح فهي مقتضية بشارة فاعليها بحسن الحال في العاجل والآجل. وقُدّمت البشارة على النذارة لأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم غلب عليه التبشير لأنّه

رحمة للعالمين.

النذير: مشتق من لإنذار وهو الإخبار بحلول حادث مسيء أو قرب حلوله، والنبيّ عليه الصلاة والسلام منذر للذين يخالفون عنه دينه من كافرين به ومن أهل العصيان بمتفاوت مؤاخذتهم على عملهم.

وجيء في جانب النِّذارة بصيغة **فعيل** دون اسم الفاعل للإيماء إلى تحقيق ما أنذرهم به حتّى كأنّه قد حلّ بهم، وكأنّ المخبر عنه مخبر عن أمر قد وقع، وهذا لا يؤديه الّا اسم النذير، ولذلك كثر في القرآن الوصف بالنذير وقلّ الوصف بمنذر. وفي الصحيح: أنّ رسول الله لمّا أنزل عليه قوله تعالى { وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ } [الشعراء:214]، خرج حتّى صعد الصفا، فنادى: **يا صباحاه** [كلمة ينادي بها من يطلب النجدة] فاجتمعوا إليه فقال: **أرأيتم إن أخبرتكم أنّ خيلا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدِّقي؟ قالوا: نعم، قال: فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد** ".

وشمل اسم النذير جوامع ما في الشريعة من النواهي والعقوبات وهو قسم الاجتناب من قسمَي التقوى فإنّ المنهيات متضمّنة مفاسد، فهي مقتضية تخويف المقدمين على فعلها من سوء الحال في العاجل والآجل.

الداعي إلى الله: هو الذي يدعو الناس إلى ترك عبادة غير الله ويدعوهم إلى اتباع ما يأمرهم به الله.

وأصل دعاه إلى فلان: أنّه دعاه إلى الحضور عنده. يقال: أدع فلانا إليَّ. ولما عُلم أنّ الله تعالى منزّه من جهة يحضرها الناس عنده تعيّن أنّ معنى الدعاء إليه الدعاء إلى ترك الاعتراف بغيره.

فشمل هذا الوصف أصول الاعتقاد في شريعة الإسلام ممّا يتعلّق بصفات الله.

{ **بِإِذْنِهِ** } يفيد أنّ الله أرسله داعيا إليه ويسّر له الدعاء إليه، مع ثقل أمر هذا الدعاء وعظم خطره، فأطلق اسم الإذن على التيسير على وجه المجاز المرسل ونظيره قوله تعالى خطابا لعيسى عليه السلام { وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي } [المائدة:110].

{ **وَسِرَاجاً مُنِيراً** } تشبيه بليغ بطريقة الحالية وهو طريق جميل، أي: أرسلناك كالسراج المنير في الهداية الواضحة التي لا لبس فيها، والتي لا تترك للباطل شبهة إلّا فضحتها وأوقفت الناس على دخائلها، كما يضيء السراج الوقَّاد ظلمة المكان. وهذا الوصف يشمل ما جاء به النبيّ صلى الله عليه وسلم من البيان وإيضاح الاستدلال وانقشاع ما كان قبله من الأديان من مسالك للتبديل والتحريف، فشمل ما في الشريعة من أصول الاستنباط والتفقّه في الدين والعلم، فإنّ العلم يُشبَّه بالنور فناسبه السراج المنير.

ووصف السراج بـ { مُنِيراً } مع أنّ الإنارة من لوازم السراج لإفادة قوّة معنى الاسم في الموصوف به الخاص، فإنّ هدى النبيّ صلى الله عليه وسلم هو أوضح الهدى، وإرشاده أبلغ إرشاد.

وهذا وصف شامل لجميع الأوصاف التي وصف بها آنفا فهو كالفذلكة وكالتذييل.

{ **وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً** } [47].

عطف على جملة { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ } [45] عطف الإنشاء على الخبر، فالجملة المعطوف عليها إخبار عن

النبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّه أرسله متلبّسا بتلك الصفات الخمسة. وهذا أمر له بالعمل بصفة المبشّر، فلاختلاف مضمون الجملتين عطفت هذه على الأولى.

الفضل: العطاء الذي يزيده المعطي زيادة على العطيّة. فالفضل كناية عن العطيّة أيضا لأنه لا يكون فضلا إلّا إذا كان زائدا على العطيّة. والمراد أنّ لهم ثواب أعمالهم الموعود بها وزيادة من عند ربهم، قال تعالى { لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ } [يونس:26].

{ **كَبِيراً** } مستعار للفائق في نوعه. قال ابن عطية: " قال لي أبي رضي الله عنه [هو أبو بكر بن غالب بن عطية القيسي الغرناطي المالكي مفتي غرناطة، توفي بها سنة 518]: هذه أرجى آية عندي في كتاب الله لأنّ الله قد أمر نبيّه أن يبشر المؤمنين بأنّ لهم عنده فضلا كبيرا. وقد بين الله تعالى الفضل الكبير ما هو في قوله { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ } [الشورى:22]، فالآية التي في هذه السورة خبر والآية التي في حم عسق تفسير لها ".

{ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً } [48].

مقابلة لقوله تعالى { وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ } [47] تحذيرا له من موافقتهم فيما يسألون منه، وتأييدا لفعله معهم حين استأذنه المنافقون في الرجوع عن الأحزاب فلم يأذن لهم، ونُهي عن الإصغاء إلى ما يرغبونه فيترك ما احلّ له من التزوّج، أو فيعطي الكافرين من الأحزاب ثمر النخل صلحا أو نحو ذلك، والنهي مستعمل في معنى الدوام على الانتهاء.

{ **وَدَعْ أَذَاهُمْ** } يجوز أن يكون فعل { وَدَعْ } مرادا به أن لا يعاقبهم فيكون مستعملا في حقيقته. ويجوز أن يكون مستعملا مجازا في عدم الاكتراث وعدم الاهتمام فيما يقولونه ممّا يؤذي، أي: لا تكترث بما يصدر منهم من أذى إليك فإنّك أجلُّ من الاهتمام بذلك. وهذا من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه.

التوكّل: الاعتماد وتفويض التدبير إلى الله. وتقدّم عند قوله تعالى { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } [آل عمران:159]، وقوله تعالى { وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } [المائدة:23]، أي: أعتمد على الله في تبليغ الرسالة وفي كفايته إيّاك شر عدوّك.

{ **وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً** } تذييل لجملة { وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ }. والمعنى: فإنّ الله هو الوكيل الكافي في الوكالة، وتقدّم قوله تعالى { وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً } [النساء:81].

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً } [49].

جاءت هذه الآية تشريعا لحكم المطلّقات قبل البناء بهنّ ألّا تلزمهنّ عدة بمناسبة حدوث طلاق زيد بن

حارثة زوجه زينب بنت جحش لتكون الآية مُخصِّصة لآيات العدّة من سورة البقرة، فإنّ الأحزاب نزلت بعد البقرة وليُخصَّص بها أيضا آية العدّة في سورة الطلاق النازلة بعدها لئلّا يظنّ ظانّ أنّ العدّة من آثار العقد على المرأة سواء دخل بها الزوج أم لم يدخل.

قال ابن العربي: وأجمع علماء الأمّة على ألّا عدّة على المرأة إذا لم يدخل بها زوجها لهذه الآية.

النكاح: هو العقد بين الرجل والمرأة لتكون زوجا بواسطة وليّها. وهو حقيقة في العقد لأنّ أصل النكاح حقيقة هو الضم والإلصاق. ولذلك يقولون: نكحت المرأة فلانا، أي: تزوجته، كما يقولون : نكح فلان امرأة.

وزعم كثير من مدوّني اللغة أنّ النكاح حقيقة في إدخال شيء في أخر فأخذوا منه أنّه حقيقة في الوطء، ودرج على ذلك الأزهري والجوهري والزمخشري، وهو بعيد.

المس والمسيس : كناية عن الوطء، كما سُمّي ملامسة في قوله تعالى { أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ } [النساء:43]. **العِدّة** : (بكسر العين) هي في الأصل أسم هيئة من العَدّ (بفتح العين) وهو الحساب، فأطلقت العدّة على الشيء المعدود، يقال: جاء عِدّة رجال، قال تعالى { فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ} [البقرة:184]. وغلب إطلاق هذا اللفظ في لسان الشرع على المدّة المحدّدة لانتظار المرأة زواجا ثانيا.

{ **لَكُمْ** } الخطاب فيه للأزواج اللذين نكحوا المؤمنات وجُعلت العدة لهم، أي: لأجلهم، لأنّ المقصد منها راجع إلى نفع الأزواج بحفظ أنسابهم، ولأنّهم يملكون مراجعة الأزواج ما دمن في مدّة العدّة كما أشار إليه قوله تعالى { لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً } [الطلاق:1]. وقوله تعالى { وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحاً } [البقرة:228].

ومع ذلك هي حقّ أوجبه الشرع فلو رام الزوج إسقاط العدة عن المطلقة لم يكن له ذلك لانّ ما تتضمّنه العدّة من حفظ النسب مقصد من أصول مقاصد التشريع فلا يسقط بالإسقاط.

{ **تَعْتَدُّونَهَا** } تعدُّونها عليهنّ، كما يقال: اعتدّت المرأة، إذا قضت أيّام عدّتها.

{ **فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً** } تفريع، لأنّ حكم التمتيع مقرّر في قوله تعالى { وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ } [البقرة:236].

المتعة: عطية يعطيها الزوج للمرأة إذا طلّقها. وتقدّم قوله تعالى { لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ } [البقرة:236]، فلذلك جيء بالأمر بالتمتيع مفرَّعا على الطلاق قبل المسيس.

وقد جعل الله التمتيع جبرا لخاطر المرأة المنكسر بالطلاق، وتقدّم في سورة البقرة أنّ المتعة حقّ للمطلقة سواء سمَّى لها صداق أم لم يسم بحكم هذه الآية من سورة الأحزاب.

السراح الجميل: هو الخليّ عن الأذى والإضرار ومنع الحقوق.

{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً } [50].

نداء رابع خوطب به النبيّ صلى الله عليه وسلم في شأن خاص به، هو بيان ما أُحِلّ له من الزوجات والسراري وما يزيد عليه وما لا يزيد، ممّا بعضه تقرير لتشريع له سابق وبعضه تشريع له للمستقبل، وممّا بعضه يتساوى فيه النبيّ عليه الصلاة والسلام مع الأمّة، وبعضه خاص به، أكرمه الله بخصوصيته ممّا هو توسعه عليه، أو ممّا روعي في تخصيصه به علو درجته.

ولعل المناسبة لورودها عقب الآيات التي قبلها أنّه لمّا خاض المنافقون في تزوّج النبيّ صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش وقالوا: تزوج من كانت حليلة متبنّاه، أراد الله أن يجمع في هذه الآية من يحل للنبيّ تزوجهنّ حتّى لا يقع الناس في تردّد ولا يفتنهم المرجفون.

ولعلّ ما حدث من استنكار بعض النساء أن تهدي المرأة نفسها لرجل كان من مناسبات اشتمالها على قوله تعالى { وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا للنبيّ }، ولذلك جمعت الآية تقرير ما هو مشروع وتشريع ما لم يكن مشروعا لتكون جامعه للأحوال، وذلك أوعب وأقطع للتردّد والاحتمال.

<u>تقرير ما هو مشروع:</u> فذلك من قوله تعالى { إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ - إلى قوله - وَبَنَاتِ خَالاتِكَ }.

<u>تشريع ما لم يكن مشروعا:</u> فذلك من قوله تعالى { اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ - إلى قوله - وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ } [52].

{ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ } خبر مراد به التشريع. أي: أبحنا لك، والآية امتنان وتذكير بالنعمة.

وإضافة أزواج إلى ضمير النبيّ صلى الله عليه وسلم تفيد أنّهن الأزواج اللاتي في عصمته، فيكون الكلام إخبارا لتقرير تشريع سابق ومسوقا مساق الامتنان، ثم هو تمهيد لما سيتلوه من التشريع الخاص بالنبيّ صلى الله عليه وسلم من قوله تعالى { اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ...}.

{ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ } صفه لـ { أَزْوَاجَكَ } ، أي: وهن النسوة اللاتي تزوّجتهنّ على حكم النكاح الذي يعمّ الأمّة، فالماضي مستعمل في حقيقته.

وعطف على هؤلاء نسوة أُخَر وهنّ ثلاث أصناف:

<u>الصنف الأول</u>: **{ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ }**، أي: ممّا أعطاه الله من الفيء، وهو ما ناله المسلمون من العدو بغير قتال، أو ممّا أُعطي للنبيّ صلى الله عليه وسلم مثل مارية القبطية أم أبنه

إبراهيم، فقد أفاءها الله عليه إذ وهبها إليه المقوقس صاحب مصر، وإنّما وهبها إليه هدية لمكان نبوّته، فكانت بمنزلة الفيء. والمعروف أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يتسَرَّ غير مارية القطبية. وقيل أيضا: إنّه تسرَّى جارية أخرى وهبتها له زوجه زينب ابنة جحش ولم يثبت. وقيل أيضا: إنّه تسَرَّى ريحانة من سبي قريظة اصطفاها لنفسه ولا تشملها هذه الآية لأنّها ليست من الفيء ولكن من المغنم إلا أن يراد بـ { مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ } المعنى الأعم للفيء وهو ما يشمل الغنيمة.

وهذا الحكم يشرَكه فيه كثيرا من الأمّة مَن كل من أعطاه أميره شيئا من الفيء، كما قال تعالى { مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ } [الحشر:7]، فمن أعطاه الأمير من هؤلاء الأصناف أمّة من الفيء حلّت له.

الصنف الثاني: { **وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ** }.

نساء من قريب قرابته صلى الله عليه وسلم من جهة أبيه أو جهة أمّه مؤمنات مهاجرات. وأغنى قوله تعالى { هَاجَرْنَ مَعَكَ } عن وصف الإيمان لأنّ الهجرة لا تكون إلّا بعد الإيمان، فأباح الله للنبيّ عليه الصلاة والسلام أن يتزوّج من يشاء من نساء هذا الصنف بعقد النكاح المعروف.

فليس له أن يتزوّج في المستقبل امرأة من غير هذا الصنف المشروط بشرط القرابة بالعمومة أو الخؤولة وشرط الهجرة. والمرأة التي لم تستوف هذا الوصف لا يجوز للرسول عليه الصلاة والسلام تزوّجها، وهو الذي درج عليه الجمهور، ويؤيّده خبر روي عن أمّ هانئ بنت أبي طالب.

وخُصّ هؤلاء النسوة من عموم المنع تكريما لشأن القرابة والهجرة التي هي بمنزلة القرابة لقوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا } [الأنفال:72].

بنات عمّ النبيّ صلى الله عليه وسلم: هن بنات إخوة أبيه مثل: بنات العبآس، وبنات أبي طالب، وبنات أبي لهب. وأمّا بنات حمزة فإنّهن بنات أخ من الرضاعة لا يحللن له، وبنات عمّاته هنّ بنات بنات عبد المطلب مثل زينب بنت جحش التي هي بنت أميمة بنت عبد المطلب.

بنات خاله: هن بنات عبد مناف بن زهرة، وهن أخوال النبيّ صلى الله عليه وسلم: عبد يغوث ابن وهب أخو آمنة، ولم يذكروا أنّ له بنات، كما أنّي لم أقف على ذكر خالة لرسول الله فيما رأيت من كتب الأنساب والسير. وقد ذكر في (الإصابة) فريعة بنت وهب، وذكروا هالة بنت وهب الزهرية، إلّا أنّها لكونها زوجة عبد المطلب وابنتها صفية عمّة رسول الله فقد دخلت من قبل في بنات عمّه.

{ **عَمِّكَ / عَمَّاتِكَ - خَالِكَ / خَالاتِكَ** } أُفرد لفظ (عمّ) وجُمع لفظ (عمّات) لأنّ العمّ في استعمال كلام العرب يطلق على أخي الأب ويطلق على أخي الجد وأخي جد الأب، وأمّا لفظ (العمّة) فإنّه لا يراد به الجنس في كلامهم، فإذا قالوا: هؤلاء بنو عمّة، أرادوا أنّهم بنو عمة معنية، فجيء بالجمع لئلّا يفهم منه بنات عمّة معيّنة.

وكذلك القول في إفراد لفظ (الخال) وجمع (الخالة).

{ **اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ** } صفه عائدة إلى { بَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ } كشأن الصفة الواردة بعد مفردات، وهو شرط تشريع لم يكن مشروطا من قبل.

{ **مَعَكَ** } معية المقارنة في الوصف، فليس يلزم أن يكنّ قد خرجن مصاحبات له في طريقه إلى الهجرة.

الصنف الثالث: { **وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ** } أي: تجعل نفسها هبة له دون مهر، وكذلك كان النساء قبل الإسلام يفعلن مع عظماء العرب، فأباح الله للنبيّ أن يتّخذها زوجة له بدون مهر.

وهذا تخصيص من عموم قوله { وَبَنَاتِ عَمِّكَ ... } فإذا وهبت امرأة نفسها للنبيّ صلى الله عليه وسلم وأراد نكاحها جاز له ذلك بدون ذينك الشرطين، ولأجل هذا وصفت بـ { مُؤْمِنَةً } ليعلم عدم اشتراط عدا الإيمان. وقد عدة **زينب بنت خزيمة الهلالية**، وكانت تدعى بالجاهلية أم المساكين، في اللاتي وهبنا أنفسهن، ولم تلبث عنده إلّا قليلا وتوفيت، وكان تزوّجها سنة ثلاث من الهجرة فليست مما شملته الآية.

ولم يثبت أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم تزوّج غيرها ممّن وهبنا أنفسهنّ إليه وهن: أم شريك بنت جابر الدوسية واسمها عزية، وخولة بنت حكيم عرضت على رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسها فقالت عائشة: أما تستحيي المرأة أن تهب نفسها للرجل، وامرأة أخرى عرضت نفسها على النبيّ صلى الله عليه وسلم. روى ثابت البناني عن أنس قال: "جاءت امرأة إلى رسول الله فعرضت عليه نفسها فقالت : يا رسول الله ألك حاجة بي؟ فقالت ابنة أنس - وهي تسمع إلى رواية أبيها -: ما أقل حياءها، واسوأتاه واسوأتاه. فقال أنس: هي خير منك رغبت في النبيّ فعرضت عليه نفسها ".

وعن سهل بن سعد أنّ امرأة عرضت نفسها على النبيّ صلى الله عليه وسلم فلم يجبها. فقال رجل: "يا رسول الله زوِّجنيها، [...] إلى أن قال له: **ملَّكناكها بما معك من القرآن** ".

فهذا الصنف حكمه خاص بالنبيّ صلى الله عليه وسلم، ذلك أنّه نكاح مخالف لسنة النكاح لأنّه بدون مهر وبدون ولي.

{ **لِلنَّبِيِّ** } إظهار في مقام الإضمار لأن مقتضى الظاهر أن يقال: إن وهبت نفسها لك. والغرض من هذا الإظهار ما في لفظ (النبيّ) من تزكية فعل المرأة التي تهب نفسها بأنّها راغبة لكرامة النبوّة.

{ **إِنْ أَرَادَ النبيّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا** } جملة معترضة بين جملة { إِنْ وَهَبَتْ } وبين { خَالِصَةً } وليس مسوقا للتقييد إذ لا حاجة إلى ذكر إرادة نكاحها فإنّ هذا معلوم من معنى الإباحة، وإنّما جيء بهذا الشرط لدفع توهّم أن يكون قبوله هبتها نفسها له واجبا عليه كما كان عرف أهل الجاهلية. وهي أنّهم كانوا إذا وهبت المرأة نفسها للرجل تعيّن عليه نكاحها و لم يجز له ردّها، فابطل الله هذا الالتزام بتخيير النبيّ عليه الصلاة والسلام في قبول هبة المرأة نفسها له وعدمه، وليرفع التعيير عن المرأة الواهبة بأنّ الردّ مأذون به.

{ **خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ** } أي: وليس لبقية المؤمنين ذلك.

{ **قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ** } معترضة بين جملة { مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ } وبين قولة { لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ } أو هي حال سببي من المؤمنين. والمعنى: أنّ المؤمنين مستمر ما شُرع لهم من قبلُ في أحكام الزواج وما ملكت أيمانهم، فلا يشملهم ما عُيّن لك من الأحكام الخاصة.

والإخبار بأنّ الله قد علم ذلك كناية عن بقاء تلك الإحكام.

{ **لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ** } تعليل لما شرعه الله تعالى في حق نبيّه صلى الله عليه وسلم في الآيات السابقة من التوسعة بالازدياد من عدد الأزواج، وتزوّ ج الواهبات أنفسهن دون مهر، وجعل قبول هبتها موكولا لإرادته، وبما أبقى له من مساواته أمّته فيما عدى ذلك من الإباحة فلم يضيّق عليه، وهذا تعليم وامتنان.

الحرج: الضيق. والمراد هنا أدنى الحرج، وهو ما في التكليف من بعض الحرج الذي لا تخلوا عنه التكاليف، وأمّا الحرج القويّ فمنفي عنه وعن أمّته.

{ **وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً** } تذييل لما شرعه من الأحكام للنبيّ صلى الله عليه وسلم لا للجملة المتعرضة، أي: أنّ ما أردناه من نفي الحرج عنك هو من متعلّقات صفتي الغفران والرحمة اللتين هما من تعلّقات الإرادة والعلم فهما ناشئان عن صفات الذات، فلذلك جعل اتصاف الله بهما أمرا متمكّنا بما دل عليه فعل { كَانَ } المشير إلى السابقية والرسوخ، كما علمته في مواضع كثيرة.

{ **تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً** } [51].

{ **تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ** } استئناف بياني، والجملة خبر مستعمل في إنشاء تحليل الإرجاء والإيواء لمن يشاء النبيّ صلى الله عليه وسلم.

الإرجاء: حقيقته التأخير إلى وقت مستقبل. يقال: أرجأت الأمر وأرجيته إذا أخّرته. وفعله ينصرف إلى الأحوال لا الذوات، فإذا عُدِّي فعله إلى أسم ذات تعيين انصرافه إلى وصف من الأوصاف المناسبة والتي تراد منها، فإذا قلت: أرجأت غريمي، كان المراد: أنّك أخرت قضاء دينه.

الإيواء: حقيقته جعل الشيء آويا، أي: راجعا إلى مكانه. يقال: آوى، إذا رجع حيث فارق، وهو هنا مجاز في مطلق الاستقرار سواء كان بعد إبعاد أم بدونه، وسواء كان بعد سبق استقرار بالمكان أم لم يكن.

ومقابلة الإرجاء بالإيواء تقتضي أنّ الإرجاء مراد منه ضدّ الإيواء أو أن الإيواء ضد الإرجاء وبذلك تنشأ احتمالات في المراد من الإرجاء والإيواء صريحهما وكنايتهما.

{ **مِنْهُنَّ** } الضمير عائد إلى النساء المذكورات ممّن هنّ في عصمته، ومن أحلّ الله له نكاحهنّ غيرهنّ

من بنات عمّه وعماته وخاله وخالاته، والواهبات أنفسهن، فتلك أربعة أصناف:

الصنف الأول: وهنّ اللائي في عصمة النبيّ عليه الصلاة والسلم، فإرجاء هذا الصنف ينصرف إلى تأخير الاستمتاع بهنّ إلى وقت مستقبل يريده، والإيواء ضدّه. فيتعيّن أن يكون الإرجاء منصرفا إلى القَسْم، فوسَّع الله على نبيّه صلى الله عليه وسلم بأن أباح له أن يُسقط حقّ بعض نسائه في المبيت معهنّ، فصار حقّ المبيت حقًّا له لا لهنّ، بخلاف بقية المسلمين. وهو قول الجمهور، قال أبن العربي: وهو الذي ينبغي أن يعوّل عليه.

وقد كانت سودة بنت زمعة وهبت يومها لعائشة فكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يقسم لعائشة بيومها ويوم سودة، وكان ذلك قبل نزول هذه الآية ولمّا نزلت هذه الآية صار النبيّ عليه الصلاة و السلام مخيرا.

إلّا أنّه لم يأخذ لنفسه به تكرّما منه على أزواجه. قال الزهري. ما علمنا أنّ رسول الله أرجأ أحدا من أزواجه بل آواهن كلّهن. قال أبو بكر بن العربي: وهو المعنى المراد.

الصنف الثاني: وهن ما ملكت يمينه، والإرجاء حكم أصلي، إذ لا يجب للإماء عدل في المعاشرة ولا في المبيت.

الصنف الثالث: وهنّ بنات عمّه وبنات عمّاته وبنات خاله وبنات خالاته، فالإرجاء تأخير تزوّج من يحلّ منهن، والإيواء العقد على إحداهن، والنبيّ صلى الله عليه وسلم لم يتزوّج واحدة بعد نزول هذه الآية.

الصنف الرابع: وهنّ اللائي وهبن أنفسهن، فإرجاؤهن عدم قبول نكاح الواهبة، عُبّر عنه بالإرجاء إبقاء على أملها أن يقبلها في المستقبل، وإيواؤهن قَبول هبتهنّ.

{ **وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ** } هذا لبيان أنّ هذا التخيير لا يُوجب استمرار ما أخذ به من الطرفين المخيَّر بينهما، أي: لا يكون عمله بالعزل لازم الدوام بمنزلة الظهار والإيلاء، بل أذن الله أن يرجع إلى من يعزلها منهنّ، فصرَّح هنا بأنّ الإرجاء شاملٌ للعزل.

الابتغاء: الرغبة والطلب، والمراد هنا ابتغاء معاشرة من عزلهنّ.

{ **فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ** } جواب الشرط. و يجوز أن تكون موصولة مبتدأ.

{ **ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ** } الإشارة إلى شيء ممّا تقدم، فيجوز أن تكون الإشارة إلى معنى التفويض المستفاد من قوله تعالى { تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ }. ويجوز أن تكون الإشارة إلى الابتغاء المتضمّن له فعل { ابْتَغَيْتَ }، أي: فلا جناح عليك في ابتغائهن بعد عزلهنّ ذلك أدنى لأن تقرَّ أعينهن.

فعلى الوجه الأوّل يكون المعنى: أنّ في هذا التفويض جعل الحقّ في اختيار أحد الأمرين بيد النبيّ صلى الله عليه وسلم ولم يبقى حقًّا لهنّ، فإذا عيَّن لإحداهن حالة من الحالين رضيته فقرّت أعين جميعهنّ.

وهذا التفسير مروي عن قتاده وتبعه الزمخشري وأبن العربي والقرطبي وابن عطية.

على الوجه الثاني يكون المعنى: ذلك الابتغاء بعد العزل أقرب لأن تقرّ أعين اللائي كنت عزلتهنّ.

ففي هذا الوجه ترغيب للنبيّ صلى الله عليه وسلم في اختيار عدم عزلهنّ، وهو المناسب لقوله تعالى { أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ } كما علمت آنفا. ونُقل قريب من هذا المعنى عن ابن عباس ومجاهد واختاره أبو علي الجبائي وهو الأرجح. ويؤيّده أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يأخذ إلّا به، ولم يحفظ عنه أنّه آثر إحدى أزواجه بليلة سوى ليلة سودة التي وهبتها لعائشة أستمر ذلك إلى وفاته صلى الله عليه وسلم.

وقد جاء في الصحيح أنّه كان في مرضه الذي توفي فيه يُطاف به كل يوم على بيوت أزواجه، وكان مبدأ شكواه في بيت ميمونة إلى أن جاءت نوبه ليلة عائشة فأذنّ له أزواجه أن يُمرَّض في بيتها رفقا به.

روي أنّه صلى الله عليه وسلم قال حين قَسَم لهن: **"اللّهم هذه قسمتي فيما أملك فلا تلُمني فيما لا املك"**.

{ **وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ** } إشارة إلى أنّ المراد الرضا الذي يتساوين فيه وإلّا لم يكن للتأكيد بـ { كُلُّهُنَّ } نكتة زائدة، فالجمع بين ضميرهنّ في قوله { كُلُّهُنَّ } يومئ إلى رضا متساوٍ بينهنّ.

الإيتاء: الإعطاء، وغلب على إعطاء الخير إذا لم يُذكر مفعوله الثاني أو ذُكر غير معيَّن كقوله تعالى { فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ } [الأعراف:144].

{ **وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً** } تذييل، كلام جامع لمعنى الترغيب والتحذير، ففيه ترغيب للنبيّ صلى الله عليه وسلم في الإحسان إلى أزواجه وإمائه والمتعرّضات للتزوّج به، وتحذير لهنّ من إضمار عدم الرضا بما يلقينه من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

{ **عَلِيماً حَلِيماً** } فصفة العلم مناسبة لقوله تعالى { وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ }، وصفة الحليم مناسبة باعتبار أنّ المقصود ترغيب الرسول صلى الله عليه وسلم في أليق الأحوال بصفة الحليم لأنّ همّه صلى الله عليه وسلم التخلّق بخُلُق الله تعالى.

قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: ما خُيِّر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين شيئين إلّا أختار أيسرهما ما لم يكن إثما ". ولهذا لم يأخذ رسول الله بهذا التخيير في النساء اللاتي كنّ في معاشرته وأخذ به في الواهبات أنفسهنّ مع الإحسان إليهن بالقول والبذل. وأخذ به في ترك التزوّج من بنات عمّه وعماته وخاله وخالاته لأنّ ذلك لا حرج فيه عليهنّ.

{ **لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً** } [52].

موقع هذه الآية في المصحف عقب التي قبلها يدلّ على أنّها كذلك نزلت وأنّ الكلام متّصل بعضه ببعض ومنتظم هذا النظم البديع، وهذا ممّا لا ينبغي أن يُتردّد فيه.

{ **النِّسَاءُ** } إذ أطلق في مثل هذا المقام غلب في معنى الأزواج، أي: الحرائر دون الإماء.

{ **مِنْ بَعْدُ** } يجوز أن يكون بمعنى (غير) كقوله تعالى { فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ } [الجاثية:23]، وهو استعمال كثير في اللغة، وعليه فلا ناسخ لهذه الآية من القرآن ولا هي ناسخة لغيرها، ومما يؤيد هذا

المعنى التعبير بلفظ الأزواج في قوله تعالى { وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ }، أي: غيرهنّ، وعلى هذا المحمل حمل الآية ابن عباس، ومثله مروي عن أبي بن كعب وعكرمة والضحاك.

ويجوز أن يكون { بَعْدُ } مراد به الشيء المتأخر عن غيره، وذلك حقيقة معنى البعدية، فيتعيّن تقدير حذف معلوم دلّ عليه الكلام السابق، فتقدير المضاف إليه المحذوف لا يخلو: إمّا أن يؤخذ من ذكر الأصناف قبله، أي: من بعد الأصناف المذكورة بقوله تعالى { إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ ...} [50].

وإمّا أن يكون مماً يقتضيه الكلام من الزمان، أي: من بعد هذا الوقت، أي: الوقت الذي نزلت فيه الآية، فيكون نسخا لقوله تعالى { إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَك - إلى قوله - خَالِصَةً لَكَ } [50].

{ **وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ** } أصله تتبدل (بتاءين) حُذفت إحداهما تخفيفا، يقال: بدَّل وتبدَّل، ومادة البدل تقتضي شيئين: يعطي أحدهما عوضا عن أخذ الآخر، فالتبديل يتعدَّى إلى الشيء المأخوذ بنفسه وإلى الشيء المعطى بـ (الباء) أو بحرف (مِنْ)، وتقدّم عند قوله { وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْأِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ } [البقرة:108].

المعنى: أنّ من حصلت في عصمتك من الأصناف المذكورة لا يحلّ لك أن تطلقها، فكُنّي بالتبديل عن الطلاق، لأنّه لازمه في العرف الغالب، لأنّ المرء لا يطلّق إلّا وهو يعتاض عن المطلّقة امرأة أخرى، وهذه الكناية متعيّنة هنا لأنّه لو أريد صريح التبدلّ لخالف آخر الآية أوّلها وسابقتها، فإنّ الرسول صلى الله عليه وسلم أحلّت له الزيادة على النساء اللاتي عنده إذا كانت المزيدة من الأصناف الثلاثة السابقة.

فتمحّض أن يكون الاستبدال مُكنّى به عن الطلاق وملاحظا فيه نيّة الاستبدال. فالمعنى: أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم أبيحت له الزيادة على النساء اللاتي حصلن في عصمته أو يحصلن من الأصناف الثلاثة ولم يبح له تعويض قديمة بحادثة.

{ **وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ** } في موضع الحال، وهي حال من ضمير { تَبَدَّلَ }. و{ لَوْ } للشرط المقطوع بانتفائه وهي للفرض والتقدير. وتقدّم في قوله تعالى { وَلَوِ افْتَدَى بِهِ } [آل عمران:91].

وفي هذا إيذان بأن الله لما أباح لرسوله الأصناف الثلاثة أراد اللطف له وأن لا يناكد رغبته إذا أعجبته امرأة لكنّه حدد له أصنافا معيّنة وفيهن غناء.

{ **إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ** } استثناء منقطع. والمعنى: لكن ما ملكت يمينك حلال في كلّ حال. والمقصود من هذا الاستدراك دفع توهّم أن يكون المراد من لفظ { النِّسَاءُ } ما يرادف لفظ الإناث.

{ **وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً** } تذييل، أي: عالما بجَرْي كلّ شيء على نحو ما حدَّده أو على خلافه، فهو يجازي على حسب ذلك. وهذا وعد النبيّ صلى الله عليه وسلم بثواب عظيم على ما حدَّد له من هذا الحكم.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً } [53].

لمّا بين الله في الآيات السابقة آداب النبيّ صلى الله عليه وسلم مع أزواجه قفّاه في هذه الآية بآداب الأمّة معهنّ. والآية استهلّت بالإشارة إلى قصّة هي سبب نزولها. وهي ما في البخاري وغيره عن أنس بن مالك قال: لمّا تزوّج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب ابنة جحش صنع طعاما بخبز ولحم ودعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدّثون، وإذا هو كأنّه يتهيّأ للقيام فلم يقوموا فلمّا رأى ذلك قام فلمّا قام قام من قام وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبيّ ليدخل فإذا القوم جلوس فجعل النبيّ صلى الله عليه وسلم يخرج ثم يرجع فانطلق إلى حجرة عائشة... فتقَرَّى حُجَرَ نسائه كلّهنّ يسلم عليهن ويسلِّمن عليه ويدعون له، ثم إنّهم قاموا فانطلقتُ فجئت فأخبرت النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّهم قد انطلقوا فجاء حتّى دخل فذهبت أدخل فألقى الحجاب بيني وبينه فأنزل الله { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ - إلى قوله - مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ }. وفي حديث آخر في الصحيح عن أنس أيضا أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال له: " يا رسول الله يدخل عليك البرّ و الفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب "، فأنزل الله آية الحجاب.

وليس بين الخبرين تعارض لجواز أن يكون قول عمر كان قبل البناء بزينب بقليل ثم عقبته قصة وليمة زينب فنزلت الآية بإثرها.

{ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ } ليس ذكر الدعوة إلى طعام تقييدا لإباحة دخول بيوت النبيّ صلى الله عليه وسلم، أي: لا يدخلها إلّا المدعو إلى طعام، ولكنّه مثال للدعوة و تخصيص بالذكر، كما جرى في القصّة التي هي سبب النزول، فيلحق به كلّ دعوة تكون من النبيّ صلى الله عليه وسلم وكل إذن منه بالدخول إلى بيته، كما كان يقع ذلك كثيرا. وإنّما ذُكر الطعام إدماجا لتبيين آدابه.

{ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ } استثناء من عموم الأحوال التي يقتضيها الدخول المنهي عنه، أي: إلّا حال أن يؤذن لكم. فالكلام متضمّن شرطين هما: الدعوة والإذن، فإنّ الدعوة قد تتقدّم على الإذن وقد يقترنان.

{ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ } حال من ضمير { لَكُمْ } فهو قيد في متعلّق المستثنى، فيكون قيدا في قيد فصارت القيود المشروطة ثلاثة.

{ نَاظِرِينَ } اسم فاعل من نظر بمعنى انتظر، كقوله تعالى { فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ} [يونس:102].

{ إِنَاهُ } بكسر الهمزة و بالقصر: مصدر أنى الشيء إذا حان، يقال: أنى يأنِي، قال تعالى { أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ

آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ } [الحديد:16].

المعنى: لا تحضروا البيوت للطعام قبل تهيئته. وعن ابن عباس نزلت في ناس من المؤمنين كانوا يتحيَّنون طعام النبيّ فيدخلون قبل أن يُدرك الطعام فيقعدون إلى أن يُدرك ثم يأكلون ولا يخرجون ".

وقد يقتضي أنّ ذلك تكرَّر قبل قضية النفر الذين حضروا وليمة البناء بزينب، فتكون تلك القضية خاتمة القضايا، فكُنّي بالانتظار عن مبادرة الحضور قبل إبّان الأكل. ونكتة هذه الكناية تشويه السبق بالحضور بجعله نهما وجشعا، وبهذا تعلم أن ليس النهي متوجّها إلى صريح الانتظار.

{ **وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا** } اعتراض، والأمر للندب لأنّ إجابة الدعوة إلى الوليمة سنّة.

{ **طَعِمْتُمْ** } أي: أكلتم، يقال: طعم فلان فهو طاعم، إذا أكل.

{ **فَانْتَشِرُوا** } الأمر للوجوب لأنّ دخول المنزل بغير إذن حرام، وإنّما جاز بمقتضى الدعوة للأكل فهو إذن مقيّد المعنى بالغرض المأذون لأجله، فإذا انقضى السبب المبيح للدخول عاد تحريم الدخول إلى أصله.

الانتشار: افتعال من النشر، وهو إبداء ما كان مطويّا، أطلق على الخروج مجازا، وتقدّم في قوله تعالى { وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً } [الفرقان:47].

{ **وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ** } عطف على { نَاظِرِينَ } وما بينهما من الاستدراك وما تفرّع عليه اعتراض.

الاستئناس: طلب الأنس مع الغير، واللام في { لِحَدِيثٍ } للعلّة، أي: ولا مستأنسين لأجل حديث يجري بينكم.

الحديث: الخبر عن أمر حدث، فهو في الأصل صفة حذف موصوفها ثم غلبت على معنى الموصوف فصار بمعنى الإخبار عن أمر حدث، وتُوسِّع فيه فصار الإخبار عن شيء ولو كان أمرا قد مضى. ومنه سمِّي ما يروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم حديثا كما يُسمى خبرا، ثم تُوسِّع فيه فصار يطلق على كلام يجري بين الجلساء في جدّ أو فكاهة.

{ **إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ** } استئناف ابتدائي للتحذير ودفع الاغترار بسكوت النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يحسبوه رضي بما فعلوا.

فمناط التحذير قوله تعالى { ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ } فإنّ أذى النبيّ صلى الله عليه وسلم مقرّر في نفوسهم أنه عمل مذموم، لأنّ النبيّ عليه الصلاة و السلام أعز خلق في نفوس المؤمنين وذلك يقتضي التحرّز ممّا يؤذيه أدنى أذى. ومناط دفع الاغترار قوله تعالى { فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ } فإنّ السكوت قد يظنّه الناس رضى وإذنا، وربّما تطرّق إلى أذهان بعضهم أنّ جلوسهم لو كان محظورا لما سكت عليه النبيّ صلى الله عليه وسلم فأرشد الله إلى أنّ السكوت لا دلالة له على الرضى وأنّه إنّما سكت حياء.

الأذى: ما يكدّر مفعوله ويسيء من قول أو فعل. وتقدّم في قوله تعالى { لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً }

[آل عمران:111]، وهو مراتب متفاوتة في أنواعه.

{ **فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ** } تفريع على مقدّر دلت عليه القصة. والتقدير: فيهمّ بإخراجكم فيستحيي منكم.

{ **وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ** } معطوفة على جملة { فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ }. والمعنى: أنّ ذلك سوء أدب مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فإذا كان يستحيي منكم فلا يباشركم بالإنكار ترجيحا منه للعفو عن حقة على المؤاخذة به فإنّ الله لا يستحيي من الحق لأنّ أسباب الحياء بين الخلق منتفية عن الخالق سبحانه { وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ } [الأحزاب:4].

{ **الْحَقِّ** } تعريف الجنس المراد منه الاستغراق مثل التعريف في { الْحَمْدُ لِلَّهِ } [الفاتحة:2]. والمعنى: والله لا يستحيي من جميع أفراد جنس الحق.

{ **الْحَقِّ** } ضد الباطل. فمنه حقّ الله وحقّ الإسلام، وحقّ الأمة جمعاء في مصالحها وإقامة آدابها، وحقّ كلّ فرد من أفراد الأمّة فيما هو من منافعه ودفع الضرّ عنه. ويشتمل حق النبيّ صلى الله عليه وسلم في بيته وأوقاته، وبهذا العموم في الحق صارت الجملة بمنزلة التذييل.

{ **وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ** } زيادة بيان للنهي عن دخول البيوت النبويّة وتحديد لمقدار الضرورة التي تدعو إلى دخولها أو الوقوف بأبوابها.

وهذه الآية هي شارعة حكم حجاب أمهات المؤمنين، وقد قيل: إنّها نزلت في ذي القعدة سنة خمس.

{ **سَأَلْتُمُوهُنَّ** } الضمير عائد إلى الأزواج المفهوم من ذكر البيوت في قوله تعالى { بُيُوتَ النَّبِيِّ }.

المتاع: ما يحتاج إلى الانتفاع به مثل عارية الأواني ونحوها، ويلحق بذلك ما هو أولى بالحكم من سؤال عن الدين أو عن القرآن، وقد كانوا يسألون عائشة عن مسائل الدين.

الحجاب: السّتر المُرخَى على باب البيت. وكانت الستور مرخاة على أبواب بيوت النبيّ صلى الله عليه وسلم الشارعة إلى المسجد. وقد ورد ما يُبيِّن ذلك في حديث الوفاة حين خرج النبيّ صلى الله عليه وسلم على الناس وهم في الصلاة، فكشف الستر ثم أرخى الستر.

{ **مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ** } متعلق بـ { فَاسْأَلوهُنَّ } فهو قيد في السائل والمسؤول.

{ **ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ** } اسم التفضيل مستعمل للزيادة دون التفضيل.

المعنى: ذلك أقوى طهارة لقلوبكم وقلوبهنّ، فإنّ قلوب الفريقين طاهرة بالتقوى وتعظيم حرمات الله وحرمة النبيّ صلى الله عليه وسلم ولكن لمّا كانت التقوى لا تصل بهم إلى درجة العصمة أراد الله أن يزيدهم منها بما يُكسب المؤمنين مراتب من الحفظ الإلهي من الخواطر الشيطانية بقطع أضعف أسبابها، وما يُقرِّب أمّهات المؤمنين من مرتبة العصمة الثابتة لزوجهنّ صلى الله عليه وسلم.

وأيضا فإنّ للناس أوهاما وظنونا تتفاوت مراتب نفوس الناس فيها صرامة ووهنا، كما وقع في قضية الإفك المتقدّمة في (سورة النور) فكان شرع حجاب أمهات المؤمنين قاطعا لكلّ تقوّل وإرجاف بعمد أو بغير عمد.

ووراء هذه الحِكم كلّها حِكمة أخرى سامية وهي زيادة تقرير أمومتهنّ للمؤمنين في قلوب المؤمنين.
وبهذه الآية مع الآية التي تتقدمها من قوله تعالى { يَا نِسَاءَ النبيء لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ } [32] تحقّق معنى الحجاب لأمّهات المؤمنين المركّب من ملازمتهن بيوتهن وعدم ظهور شيء من ذواتهنّ حتّى الوجه والكفين، وهو حجاب خاص بهنّ لا يجب على غيرهن.

{ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً }
لما جيء في بيان النهي عن المكث في بيوت النبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّه يؤذيه أُتبع بالنهي عن أذى النبيّ صلى الله عليه وسلم نهيا عاما، فالخطاب للمؤمنين.
{ **مَا كَانَ لَكُمْ** } دلّت على الحظر المؤكّد، لأنّ { مَا كَانَ لَكُمْ } نفي، للاستحقاق الذي دلّت عليه (اللام)، وإقحام فعل { كَانَ } لتأكيد انتفاء الإذن. وهذه الصيغة من صيغ شدّة التحريم.
وتضمنت هذه الآية حكمين:
الحكم الأوّل: تحريم أن يؤذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، والأذى: قول يقال له، أو فعل يعامل به، من شأنه أن يغضبه أو يسوء لذاته. والمعنى: أنّ أذى النبيّ صلى الله عليه وسلم محظور على المؤمنين.
الحكم الثاني: تحريم أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس بقوله { وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً } وهو تقرير لحكم أمومة أزواجه للمؤمنين السالف في قوله تعالى { وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ } [6].
{ **إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً** } استئناف مؤكّد لمضمون جملة { وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله }.
والإشارة إلى ما ذكر من إيذاء النبيّ صلى الله عليه وسلم وتزوّج أزواجه.
{ **عَظِيماً** } في الإثم والجريمة. وتقييد العظيم بكونه { عِنْدَ اللَّهِ } للتهويل والتخويف، لأنّه عظيم في الشناعة.

{ إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً } [54].
كلام جامع تحريضا وتحذيرا ومنبئ عن وعيد، فإنّ ما قبله قد حوى أمرا ونهيا، وإذ كان الامتثال متفاوتا في الظاهر والباطن وبخاصة في النوايا والمُضمَرات كان المقام مناسبا لتنبيههم بأنّ الله مطّلع على كل حال من أحوالهم. والجملة تذييل.
{ **شَيْئاً** } خصوص أحوال الناس الظاهرة والباطنة ، لأنّ النكرة في سياق الشرط تعم.
{ **بِكُلِّ شَيْءٍ** } جميع الموجودات.

{ **لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً** } [55].

تخصيص من عموم الأمر بالحجاب، وإنّما رفع الجُناح عن نساء النبيّ صلى الله عليه وسلم تنبيها على أنهنّ مأمورات بالحجاب كما أمر رجال المسلمين بذلك معهنّ، فكان المعنى: لا جناح عليهن ولا عليكم.

{ **فِي آبَائِهِنَّ ...**} المجرور مقدّر فيه مضاف تقديره: في رؤية آبائهن إيّاهن.

{ **وَلا نِسَائِهِنَّ** } المراد جميع النساء.

ولم يذكر من أصناف الأقرباء الأعمام ولا الأخوال لأنّ ذكر أبناء الإخوان وأبناء الأخوات يقتضي اتحاد الحكم، من أنّه لمّا رفع الحرج عنهنّ فيمن هنّ عمّات لهنّ أو خالات، كان رفع الحرج عنهنّ في الأعمام والأخوال كذلك، وأمّا قرابة الرضاعة فمعلومة من السنّة، فأريد الاختصار هنا، إذ المقصود التنبيه على تحقيق الحجاب ليفضي إلى قوله تعالى { وَاتَّقِينَ اللَّهَ }.

{ **وَاتَّقِينَ اللَّهَ** } التفت من الغيبة إلى خطابهن لتشريف نساء النبيّ صلى الله عليه وسلم بتوجيه الخطاب إليهن.

الشهيد: الشاهد مبالغة في الفعل.

{ **إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً** } [56].

أعقبت أحكام معاملة أزواج النبيّ عليه الصلاة والسلام بالثناء عليه وتشريف مقامه إيماء إلى أنّ تلك الأحكام جارية على مناسبة عظمة مقام النبيّ عليه الصلاة والسلام عند الله تعالى، وإلى أنّ لأزواجه من ذلك التشريف حظًّا عظيما. ولذلك كانت صيغة الصلاة عليه التي علّمها للمسلمين مشتملة على ذكر أزواجه، وليُجعل ذلك تمهيدا لأمر المؤمنين بتكرير ذكر النبيّ صلى الله عليه وسلم بالثناء والدعاء والتعظيم.

وذكر صلاة الملائكة مع صلاة الله ليكون مثالا لصلاة أشرف المخلوقات على الرسول لتقريب درجة صلاة المؤمنين التي يؤمرون بها عقب ذلك.

{ **إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ** } التأكيد للاهتمام، ومجيء الجملة الاسمية لتقوية الخبر، وافتتاحها باسم الجلالة لإدخال المهابة والتعظيم في هذا الحكم. وجيء في صلاة الله وملائكته بالمضارع الدال على التجديد والتكرير ليكون أمر المؤمنين بالصلاة عليه والتسليم عقب ذلك مشيرا إلى تكرير ذلك منهم إسوة بصلاة الله وملائكته.

والصلاة من الله والملائكة تقدّم الكلام عليها عند قوله تعالى { هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ } [43].

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ** } هي المقصودة وما قبلها توطئة لها وتمهيدا، لأنّ الله لمّا حذر المؤمنين من كل ما يؤذي الرسول عليه الصلاة والسلام أعقبه بأنّ ذلك ليس هو أقصى حظّهم من معاملة رسولهم، أن يتركوا أذاه، بل حظّهم أن يصلّوا عليه ويسلِّموا، وذلك هو إكرامهم لرسول الله عليه الصلاة والسلام فيما بينهم وبين ربّهم، فهو يدل على وجوب إكرامه في أقوالهم وأفعالهم بحضرته بدلالة الفحوى.

{ **صَلُّوا عَلَيْهِ** } الأمر بالصلاة عليه معناه: إيجاد الصلاة، وهي الدعاء، فالأمر يؤول إلى إيجاد أقوال فيها دعاء، وهو مجمل في الكيفية.

الصلاة: ذكر بخير، وأقوال تجلب الخير، فلا جرم كان الدعاء هو أشهر مسمّيات الصلاة.

صلاة الله: كلامه الذي يقدّر به خيرا لرسوله صلى الله عليه وسلم، لأن حقيقة الدعاء في جانب الله معطّل، لأنّ الله هو الذي يدعوه الناس.

صلاة الملائكة والناس: استغفار ودعاء بالرحمات.

والصحابة لما نزلت هذه الآية سألوا النبيّ صلى الله عليه وسلم عن كيفية هذه الصلاة قالوا: " يا رسول الله هذا السلام عليك قد علمناه فكيف نصلي عليك ؟ "، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" قولوا: اللّهم صل على محمد وعلى أزواجه وذرّيته كما صليت على إبراهيم وبارك على محمد وأزواجه وذرّيته كما باركت على إبراهيم، إنك حميد مجيد "**. هذه رواية مالك في الموطأ عن أبي حميد الساعدي.

وهناك روايات خمس أخرى متقاربة المعنى وفي بعضها زيادة، وقد استقصاها ابن العربي في (أحكام القرآن)، ومرجع صيغها إلى التوجّه إلى الله بأن يُفيض خيرات على رسوله صلى الله عليه وسلم، لأنّ معنى الصلاة الدعاء.

وقال جمهور العلماء: هي في الصلاة مستحبة، وهي في التشهد الأخير.

ومن أسباب الصلاة عليه أن يصلّي عليه من جرى ذكره عنده، وكذلك في افتتاح الكتب والرسائل، وعند الدعاء، وعند سماع الأذان، وعند انتهاء المؤذن، وعند دخول المسجد، وفي التشهد الأخير.

واعلم أنّا لم نقف على أنّ أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم كانوا يصلّون على النبيّ كلّما ذُكر اسمه ولا أن يكتبوا الصلاة عليه إذا كتبوا اسمه، ولم نقف على تعيين مبدأ كتابة ذلك بين المسلمين.

والذي يبدوا أنّهم كانوا يصلون على النبيّ إذا تذكروا بعض شؤونه كما كانوا يترحّمون على الميت إذا ذكروا بعض محاسنه. ثم أحدثت الصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلم في أوائل الكتب في زمن هارون الرشيد، ذكر ذلك ابن الأثير في (الكامل) في سنة إحدى وثمانين ومائة (181هـ)، وذكره عياض في (الشفاء)، ولم يذكرا صيغة التصلية.

ولا شك أن إتباع اسم النبيّ صلى الله عليه وسلم بالصلاة عليه في كتب الحديث والتفسير وغيرها كان موجودا في القرن الرابع، وقد وقفت على قطعة عتيقة من تفسير يحيى بن سلام البصري مؤرّخ نسخها

سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة (383هـ) فإذا فيها الصلاة على النبيّ عقب ذكره اسمه.

وأحسب أنّ **الذين سنّوا ذلك هم أهل الحديث**، قال **النووي** في مقدّمة شرحه على (صحيح مسلم): " يُستحب لكاتب الحديث إذا مرّ ذكر الله أن يكتب عزّ وجلّ، أو تعالى، أو سبحانه وتعالى، أو تبارك وتعالى، أو جلّ ذكره، أو تبارك اسمه، أو جلّت عظمته، أو ما أشبه ذلك، وكذلك يكتب عند ذكر النبيّ (صلى الله عليه وسلم) بكاملها لا رامزا إليها ولا مقتصرا على بعضها، ويكتب ذلك وإن لم يكن مكتوبا في الأصل الذي ينقل منه، فإن هذا ليس رواية وإنّما هو دعاء. وينبغي للقارئ أن يقرأ كل ما ذكرناه وإن لم يكن مذكورا في الأصل الذي يقرأ منه ولا يسأم من تكرّر ذلك، ومن أغفل ذلك حُرم خيرا عظيما ".

{ **وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً** } القول فيه كالقول في { صَلُّوا عَلَيْهِ } حكما ومكانا وصفة، فإنّ صفته حُدِّدت بقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **والسلام كما قد علمتم** "، فإنّ المعلوم هو صيغته التي في التشهد " **السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته** ".

التسليم: مشهور في التحية بالسلام، والسلام فيه بمعنى الأمان والسلامة، وجعل تحيّة في الأولين عند اللقاء مبادأة بالتأمين من الاعتداء والثأر ونحو ذلك، إذ كانوا إذ اتقوا أحدا توجّسوا خيفة أن يكون مضمرا شرّا لملاقيه، فكلاهما يدفع ذلك الخوف بالإخبار بأنّه ملق على ملاقيه سلامة وأمنا. ثم شاع ذلك حتى صار هذا اللفظ دالا على الكرامة والتلطّف.

والآية تضمّنت الأمر بشيئين: الصلاة على النبيء صلى الله عليه وسلم والتسليم عليه.

{ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً } [57].

الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا، لأنّه لمّا أرشد الله المؤمنين إلى تناهي مراتب حرمة النبيّ صلى الله عليه وسلم وتكريمه وحذّرهم ممّا قد يخفى على بعضهم من خفيّ الأذى في جانبه بقوله { إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النبيّ } [53] وقوله تعالى { وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ } [53]، وعلّمهم كيف يعاملونه معاملة التوقير والتكريم بقوله تعالى { وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ } [53]، وقوله تعالى { وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً } [53]، وقوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النبيّ } [56]، وعلم أنّهم قد امتثلوا أو تعلّموا، أردف ذلك بوعيد قوم أتّسموا بسمات المؤمنين وكان من دأبهم السعي فيما يؤذي الرسول عليه الصلاة والسلام فأعلم الله المؤمنين بأنّ أولئك ملعونون في الدنيا والآخرة، وأنّهم منافقون، لأنّ مثل هذا الوعيد لا يُعهد إلّا للكافرين.

{ **إِنَّ الَّذِين** } جيء باسم الموصول للدلالة على أنّهم عُرفوا بأنّ إيذاء النبيّ صلى الله عليه وسلم من أحوالهم المختصّة بهم، ولدلالة الصلة على أنّ أذى النبيّ صلى الله عليه وسلم هو علّة لعنهم وعذابهم.

{ **يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** } القرن بين أذى الله ورسوله للإشارة إلى أنّ أذى الرسول صلى الله عليه وسلم يغضب الله تعالى، فكأنّه أذى لله. وفعل { يُؤْذُونَ } معدًّى إلى أسم الله على معنى المجاز المرسل في

اجتلاب غضب الله، وتعديته إلى الرسول حقيقة. فاستُعمل { يُؤْذُونَ } في معنييه المجازي والحقيقي.
ومعنى هذا قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" من آذاني فقد آذى الله "**. وأذى الرسول عليه الصلاة والسلام يحصل بالإنكار عليه فيما يفعله، وبالكيد له، وبأذى أهله، مثل المتكلّمين في الإفك، والطاعنين أعماله، كالطعن في إمارة زيد وأسامة، والطعن في أخذه صفية لنفسه.
عن ابن عباس:" أنّها نزلت في الذين طعنوا في اتخاذ النبيّ صلى الله عليه وسلم صفية بنت حُيي لنفسه "
اللعن: الإبعاد عن الرحمة وتحقير الملعون. في الدنيا محقَّرون عند المسلمين ومحرومون من لطف الله وعنايته، وهم في الآخرة محقَّرون بالإهانة في الحشر وفي الدخول في النار.
العذاب المهين: هو عذاب جهنّم في الآخرة، وهو **مهين** لأنّه عذاب مشوب بتحقير وخزي.

{ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً } [58].

ألحقت حرمة المؤمنين بحرمة الرسول صلى الله عليه وسلم تنويها بشأنهم، وذُكروا على حدة للإشارة إلى نزول رتبتهم عن رتبة الرسول عليه الصلاة والسلام. وهذا من الاستطراد معترض بين أحكام حرمة النبيّ صلى الله عليه وسلم وآداب أزواجه وبناته المؤمنات.
{ **الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ** } للتصريح بمساواة الحكم، وإن كان ذلك معلوما من الشريعة، لوزع المؤذين عن أذى المؤمنات لأنّهنّ جانب ضعيف بخلاف الرجال فقد يزعهم عنهم اتقاء غضبهم وثأرهم لأنفسهم.
الأذى: هنا أذى القول بقرينة قوله تعالى { فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً }، لأنّ **البهتان** من أنواع الأقوال المحقَّرة.
{ **بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا** } الضمير عائد إلى المؤمنين والمؤمنات على سبيل التغليب، والمجرور في موضع الحال. وليس المراد بالحال تقييد الحكم حتّى يكون مفهومه جواز أذى المؤمنين والمؤمنات بما اكتسبوا.
أي: أن يُسَبُّوا بعمل ذميم اكتسبوه، لأنّ الجزاء على ذلك ليس موكولا لعموم الناس ولكنه موكول إلي ولّاة الأمور. وقد نهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الغيبة وقال: هي أن تذكر أخاك بما يكره. فقيل: وإن كان حقّا. قال: إن كان غير حق فذلك البهتان.
{ **احْتَمَلُوا** } كلّفوا أنفسهم حملا، وذلك تمثيل للبهتان بحمل ثقيل على صاحبه، وتقدّم نظيره في قوله تعالى { وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً } [النساء:112].
{ **وَإِثْماً مُبِيناً** } أتبع ذلك التحقير بأنّه إثم مبين. أي: العظيم القوي، وهو وعيد بالعقاب عليه.

{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً } [59].

أتبع النهي عن أذى المؤمنات بأن أُمرن باتقاء أسباب الأذى لأنّ من شأن المطالب السعي في تذليل وسائلها كما قال تعالى { وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا } [الإسراء:19]، وقال أبو الأسود:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إنّ السفينة لا تجري على اليَبَسِ

وهذا يرجع إلى قاعدة التعاون على إقامة المصالح وإماتة المفاسد.

{ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ } ابتدئ بأزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم وبناته لأنّهنّ أكمل النساء، فذِكرهنّ من ذِكر بعض أفراد العام للاهتمام به.

{ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ } النساء: اسم جمع للمرأة لا مفرد له من لفظه، وتقدّم آنفا عند قوله تعالى { وَلا نِسَائِهِنَّ } [55]. فليس المراد بالنساء هنا أزواج المؤمنين بل المراد الإناث المؤمنات.

الإدناء: التقريب، وهو كناية عن اللبس والوضع، أي: يضعن عليهن جلابيبهن. فالإدناء هنا اللبس. وكان لبس الجلباب من شعار الحرائر فكانت الإماء لا يلبسن الجلابيب. وكانت الحرائر يلبسن الجلابيب عند الخروج إلى الزيارات ونحوها فكن لا يلبسنها في الليل وعند الخروج إلى المناصع، وما كنّ يخرجن إليها إلّا ليلا فأمرن بلبس الجلابيب في كل الخروج ليعرف أنّهنّ حرائر فلا يُتعرّض إليهّن. فهذا من سدّ الذريعة. **الجلابيب**: جمع جلباب وهو ثوب أصغر من الرداء وأكبر من الخمار والقناع، تضعه المرأة على رأسها فيتدلى جانباه على عَذَارَيْها وينسدل سائره على كتفيها وظهرها، تلبسه عند الخروج والسفر. وهيئات لبس الجلابيب مختلفة باختلاف أحوال النساء تبيّنها العادات.

{ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ } المقصود من الآية. والإشارة بـ { ذَلِكَ } إلى الإدناء المفهوم من { يُدْنِينَ }.

{ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً } تذليل، صفح عمّا سبق من الأذى قبل تنبيه الناس إلى هذا الأدب الإسلامي. والتذييل يقتضي إنهاء الغرض.

{ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً [60] مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً [61] }.

انتقال من زجر قوم عُرفوا بأذى الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين والمؤمنات، ومن توعُّدهم بغضب الله عليهم في الدنيا والآخرة إلى تهديدهم بعقاب في الدنيا يشرّعه الله لهم إن هم لم يقلعوا عن ذلك.

وأولئك هم المنافقون الذين أبتدئ التعريض بهم من قوله تعالى { وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ - إلى قوله تعالى – عَظِيماً } [53]، ثم من قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ - إلى قوله تعالى - ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ } [57-59].

{ **لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ** } استئناف ابتدائي. وحذف المفعول لظهوره، أي: لم ينتهوا عن أذى الرسول والمؤمنين.

{ **لَئِنْ** } اللام موطِّئة للقسم، فالكلام بعدها قسم محذوف. والتقدير: والله لئن لم ينته.

{ **الْمُنَافِقُونَ** } صُرِّح هنا بما كُنِّي عنه في الآيات السالفة إذ عُبّر عنهم بالمنافقين فعُلم أنّ الذين يؤذون الله ورسوله هم المنافقون ومن لفّ لفّهم.

{ **وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ** } قد ذكرناهم في أوّل السورة وهم المنطوون على النفاق، أو التردّد في الإيمان.

{ **وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ** } كان أكثر المرجفين من اليهود وليسوا من المؤمنين لأنّ قوله تعالى عقب ذلك { لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ } لا يساعد أنّ فيهم مؤمنين.

فهذه الأوصاف لأصناف من الناس.

الإرجاف: من الرجف، والرجفان وهو الاضطراب والتزلزل. وفيه معنى كون الأخبار كاذبة أو مسيئة لأصحابها. فالمرجفون قوم يتلقّون الأخبار فيحدّثون بها في مجالس ونوادٍ ويخبرون بها من يسأل ومن لا يسأل. ومعنى الإرجاف هنا: أنّهم يرجفون بما يؤذي النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين والمسلمات.

{ **لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ** } لام جواب القسم، وجواب القسم دليل على جواب الشرط.

الإغراء: الحثّ والتحريض على فعل. ويتعدّى فعله بحرف (على) و (الباء). والأكثر أنّ تعديته بـ (على) تفيد حثًّا على الفعل مطلقا، وأنّ تعديته بـ (الباء) تفيد حثًّا على الإيقاع بشخص، لأنّ الباء للملابسة.

فالمعنى: لنغرينك بعقوبتهم.

{ **ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً** } اختير العطف بـ { ثُمَّ } دون (الفاء) للدلالة على تراخي انتفاء المجاورة عن الإغراء بهم تراخي رتبة، لأنّ الخروج من الأوطان أشد على النفوس ممّا يلحقها من ضرّ في الأبدان كما قال تعالى { وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ } [البقرة:191]، أي: وفتنة الإخراج من بلدهم أشد عليهم من القتل.

{ **إِلَّا قَلِيلاً** } الاستثناء لتأكيد نفي المجاورة وأنّه ليس على طريقة المبالغة، أي: لا يبقون معك في المدينة إلّا مدة قليلة، وهي ما بين نزول الآية والإيقاع بهم.

{ **مَلْعُونِينَ** } حال ممّا تضمَّنه { قَلِيلاً } من معنى الجوار. والتقدير: إلّا جوارهم ملعونين.

اللعن: الإبعاد والطرد. وتقدّم قوله تعالى { وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ } [الحجر:35]، وهو مستعمل هنا كناية عن الإهانة والتجنّب، فتضمَّن أن يكونوا متوارين مختفين خوفا من بطش المؤمنين بهم حيث

أغراهم النبيّ صلى الله عليه وسلم، ففي قوله تعالى { مَلْعُونِينَ } إيجاز بديع.

{ **أَيْنَمَا ثُقِفُوا** } ظرف مضاف أفاد عموم أمكنة المدينة. و{ أَيْنَمَا } اسم زمان متضمّن معنى الشرط.

الثقف: الظفر والعثور على العدو بدون قصد.

{ **أُخِذُوا** } أمسكوا. والأخذ: الإمساك والقبض، أي: أسروا.

التقتيل: قوّة القتل. والقوّة هنا بمعنى الكثرة، لأنّ الشيء الكثير قوي في أصناف نوعه، وأيضا هو شديد في كونه سريعا لا إمهال لهم فيه.

{ **تَقْتِيلاً** } مصدر مؤكِّد لعامله، أي: قتلوا قتلا شديدا شاملا. فالتأكيد هنا تأكيد لتسلّط القتل على جميع الأفراد لرفع احتمال المجاز في عموم القتل، فالمعنى: قتلوا قتلا شديدا لا يفلت منه أحد.

وبهذا الوعيد انكف المنافقون عن أذاة المسلمين وعن الإرجاف فلم يقع التقتيل فيهم إذ لم يحفظ أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قتل منهم أحدا ولا أنّهم خرج منهم أحد.

وهذه الآية ترشد إلى تقديم إصلاح الفاسد من الأمة على قطعه منها لأنّ إصلاح الفاسد يُكسب الأمّة فردا صالحا أو طائفة صالحة تنتفع الأمة منها، كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" لعلّ الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده "**.

{ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً } [62].

{ **سُنَّةَ اللَّهِ** } انتصب على أنّه مفعول مطلق نائب عن فعله. والتقدير: سنّ الله إغراءك بهم سنّته في أعداء الأنبياء السالفين، وفي الكفّار المشركين الذين قُتلوا وأُخذوا في غزوة بدر وغيرها.

{ **فِي** } للظرفية المجازية، شُبِّهت السنّة التي عوملوا بها بشيء في وسطهم كناية عن تغلغلها فيهم وتناولها جميعهم، ولو جاء الكلام على غير المجاز لقيل: سنة الله مع الذين خلوا.

{ **الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ** } الذين مضوا وتقدّموا. الأظهر أنّ المراد بهم من سبقوا من أعداء النبيّ صلى الله عليه وسلم الذين أذنه الله بقتلهم، مثل الذين قُتلوا من يهود قريظة. وهذا أظهر، لأنّه أوقع في الموعظة.

ويحتمل أيضا أن يشمل الأمم السالفة الذين غضب الله عليهم لأذاهم رسلهم فاستأصلهم الله تعالى.

{ **وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً** } تذييل، لزيادة تحقيق أنّ العذاب حائق بالمنافقين وأتباعهم إن لم ينتهوا عمّا هم فيه، وأنّ الله لا يخالف سننه لأنّها مقتضى حكمته وعلمه.

{ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً } [63].

لمّا كان تهديد المنافقين بعذاب الدنيا يُذكِّر بالخوض في عذاب الآخرة: خوض المكذِّبين الساخرين، وخوض المؤمنين الخائفين، وخوض أهل الكتاب، اتبع ذلك بهذا.

فالجملة معترضة بين جملة { ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً } [60] وبين جملة { إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً } [64]، لتكون تمهيدا لجملة { إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ }.

{ **يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ** } تكرّر في القرآن ذكر سؤال الناس عن الساعة، **والسائلون أصناف:**

منهم المكذِّبون بها وهم أكثر السائلين، وسؤالهم تهكّم واستدلال بإبطائها على عدم وجودها في أنظارهم السقيمة، قال تعالى { يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا } [الشورى:18]، وهؤلاء هم الذين كثر في القرآن إسناد السؤال إليهم مُعبَّرا عنهم بضمير الغيبة كقوله تعالى { يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ } [الأعراف:187].

وصنف مؤمنون مصدِّقون بأنّها واقعة لكنّهم يسألون عن أحوالها وأهوالها، وهؤلاء هم الذين في قوله تعالى { والذين آمنوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقّ } [الشورى:18].

وصنف مؤمنون يسألون عنها محبة لمعرفة المغيَّبات، وهؤلاء نُهوا عن الاشتغال بذلك كما في الحديث: " أنّ رجلا سأل رسول الله: متى الساعة ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **ماذا أعددت لها ؟** فقال الرجل: والله يا رسول الله ما أعددت لها كبير صلاة ولا صوم سوى أنّي أحبُّ الله ورسوله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **أنت مع من أحببت** ".

وصنف يسأل اختبارا للنبيّ صلى الله عليه وسلم لعلّه يجيب بما يخالف ما في علمهم فيجعلونه حجّه بينهم على انتفاء نبوّته. وهؤلاء اليهود نظير سؤالهم عن أهل الكهف وعن الروح.

وأهل هذه الأصناف الأربعة موجودون بالمدينة حين نزول هذه الآية.

وتقدّم الكلام على نظير هذه الآية في قوله تعالى { يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا } [الأعراف:187].

{ **وَمَا يُدْرِيكَ** } الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم. و{ مَا } استفهام، ما صدقها شيء.

{ **يُدْرِيكَ** } من أدراه، إذا أعلمه.

{ **لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً** } مستأنفة لإنشاء رجاء.

{ **إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً** [64] **خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً** [65] }

هذا حظ الكافرين من وعيد الساعة، وهذه لعنة الآخرة قُفِّيت بها لعنة الدنيا في قوله تعالى { مَلْعُونِينَ } [61]، ولذلك عُطف عليها { وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً } فكانت لعنة الدنيا مقترنة بالأخذ والتقتيل ولعنة الآخرة مقترنة بالسعير. والجملة مستأنفة استئنافا بيانيا، لأنّ جملة { ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً - إلى قوله - وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً } [60-62] تثير في نفوس السامعين السؤل: هل ذلك منتهى ما عوقبوا به أو لهم من ورائه عذاب؟ فكان قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ ...} جوابا عن ذلك.

{ **إِنَّ** } حرف التوكيد للاهتمام بالخبر، أو منظور به إلى السامعين من الكافرين.

{ **الْكَافِرِينَ** } التعريف يحتمل أن يكون للعهد، أي: الكافرين الذين كانوا شاقُّوا النبيّ صلى الله عليه وسلم

وآذوه وأرجفوا في المدينة، وهم المنافقون ومن ناصرهم من المشركين ومن اليهود في وقعة الأحزاب.
ويحتمل أن يكون التعريف للاستغراق، أي: كلّ كافر.
وعلى الوجهين فصيغة الماضي في فعل { لَعَنَ } مستعملة في تحقيق الوقوع.
السعير: النار شديدة الإيقاد. وهو فعيل بمعنى مفعول، أي: مسعورة.
{ **لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً** } حال من ضمير { خَالِدِينَ }، أي: خالدين في حالة انتفاء الولي والنصير عنهم، فلا يُخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون.

{ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ } [66].

التقليب: شدّة القلب. و**القلب**: تغيير وضع الشيء على غير الجهة التي كان عليها.
وتخصيص الوجوه بالذكر من بين سائر الأعضاء لأنّ حرّ النار يؤذي الوجه أشد ممّا يؤذي بقيّة الجلد، لأنّه مقر الحواس الرقيقة: العيون والأفواه والآذان والمنافس، كقوله تعالى { أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } [الزمر:24].
{ **يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا** } حرف الـ { يَا } للتنبيه لقصد إسماع من يرثي لحالهم، مثل { يَا حَسْرَتَنَا } [الأنعام:31]. **التمنّي**: هنا كناية عن التندّم على ما فات، وكذلك نحو { يَا حَسْرَتَنَا } أي: أنّ الحسرة غير مجدية. فتمنّوا يومئذ أن لا يكونوا عصوا الرسول المبلّغ عن الله تعالى.
{ **الرَّسُولَا** } الألف في الآخر لرعاية الفواصل التي بنيت عليها السورة، فإنّها بنيت على فاصلة الألف.

{ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا [67] رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً [68] }.

عطف على جملة { يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ } [66] فهي حال. وجيء بها في صيغة الماضي لأنّ هذا القول كان متقدّما على قولهم { يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا } [66]، فذلك التمني نشأ لهم وقت أن مسّهم العذاب، وهذا التنصّل والدعاء اعتذروا به حين مشاهدة العذاب وحشرهم مع رؤسائهم إلى جهنّم، قال تعالى { حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ } [الأعراف:38]. فدلّ على أنّ ذلك قبل أن يمسّهم العذاب.
{ **رَبَّنَا** } الابتداء بالنداء ووصف الربوبية إظهار للتضرّع والابتهال.
{ **إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا** } خبر مستعمل في الشكاية والتذمّر، وهو تمهيد لطلب الانتصاف من سادتهم وكبرائهم. فالمقصود الإفضاء إلى جملة { رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ }.
والمقصود الخبر أيضا الاعتذار والتنصّل من تبعة ضلالهم بأنّهم مخدوعون، وهو اعتذار مردود عليهم.

وحرف التوكيد لمجرّد الاهتمام لا لرد إنكار.

السادة: جمع سيد. والسادة: عظماء القوم والقبائل مثل الملوك.

الكُبراء: جمع كبير وهو عظيم العشيرة، وهم دون السادة، فإنّ كبيرا يطلق على رأس العائلة.

{ **السَّبِيلَا** } القول في ألفها كالقول في ألف { الرَّسُولَا } [66].

{ **رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ** } إعادة النداء تأكيد للضراعة والابتهال وتمهيدا لقبول سؤلهم حتّى إذا قُبل سؤلهم طمعوا في التخلّص من العذاب الذي ألقوه على كاهل كبرائهم.

الضِعف: (بكسر الضاد) العدد المماثل للمعدود، فالأربعة ضعف الاثنين. ولمّا كان العذاب معنى من المعاني لا ذاتا كان معنى تكرير العدد فيه مجازا في القوّة والشدّة. والتثنية { **ضِعْفَيْنِ** } مستعملة في مطلق التكرير

كناية عن شدّة العذاب، ولذلك كان مساويا لقوله تعالى { فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ } [الأعراف:38].

وهذا تعريض بإلقاء تبعة الضلال عليهم، وأنّ العذاب الذي أعدّ لهم يسلّط على أولئك الذين أضلُّوهم.

{ **وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيرًا** } وصف اللعن بـ { كَثِيرًا } (في قراءة نافع) و{ كَبِيرًا } (في قراءة عاصم)، كما وصف العذاب بالضعفين إشارة إلى أنّ الكبراء استحقّوا عذابًا لكفرهم وعذابًا لتسبُّبهم في كفر أتباعهم.

وقد ذُكر في الأعراف جوابهم من قبل الجلالة بقوله تعالى { قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ } [الأعراف:38]، يعني أنّ الكبراء استحقُّوا مضاعفة العذاب لضلالهم وإضلالهم، وأنّ أتباعهم أيضا استحقوا العذاب لضلالهم وطاعتهم العمياء إيّاهم.

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً**} [69].

لمّا تقضَّى وعيد الذين يؤذون الرسول عليه الصلاة والسلام بالتكذيب ونحوه من الأذى المنبعث عن كفرهم، من المشركين والمنافقين، من قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ } [57] حذّر المؤمنين ممّا يؤذي الرسول صلى الله عليه وسلم بتنزيههم عن أن يكونوا مثل قوم نسبوا إلى رسولهم ما هو أذى له. فالتشبيه تنبيه وتحذير للمؤمنين كي لا يقعوا في مثل تلك العنجهية.

وفائدة التشبيه تشويه الحالة المشبّهة لأنّ المؤمنين قد تقرّر في نفوسهم قبح ما أوذي به موسى عليه السلام بما سبق من القرآن كقوله تعالى { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ } [الصف:5].

والذين آذوا موسى هم طوائف من قومه، ولم يكن قصدهم أذاه ولكنّهم أهملوا واجب كمال الأدب والرعاية مع أعظم الناس بينهم. وقد حكى الله عنهم ذلك إجمالا وتفصيلا بقوله { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ } [الصف:5]، فلم يكن هذا الأذى من قبيل التكذيب لأجل قوله تعالى { وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ }.

فالذين آذوا موسى قالوا مرة { فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ } [المائدة:24] فآذوه بالعصيان وبضرب من التهكّم. وقالوا مرة { أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً } [البقرة:67] فنسبوه إلى الطيش والسخرية، ولذلك قال لهم { أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ } [البقرة:67].

وفي التوراة: " وقالوا لموسى فإذا بنا حتّى أخرجتنا من مصر، فإنّه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت في البرية ". [سفر الخروج، الإصحاح:14]، وفيها أيضا: " وقالوا لموسى وهارون إنّكما أخرجتمانا إلى هذا القفر لكي تميتا كلّ هذا الجمهور بالجوع ". [سفر الخروج، الإصحاح:16]

{ **فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا** } إدماج وانتهاز للمقام بذكر براءة موسى ممّا قالوا، ولا اتصال له بوجه التشبيه، لأنّ محل التشبيه هو قوله تعالى { كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى }.

{ **فَبَرَّأَهُ** } أظهر براءته عيانا لأنّ موسى كان بريئا ممّا قالوه من قبل أن يؤذوه بأقوالهم فليس وجود البراءة منه متفرّعة على أقوالهم ولكن الله أظهرها عقب أقوالهم.

{ **وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً** } معترضة في آخر الكلام ومفيدة سبب عناية الله بتبرئته.

الوجيه: صفة، أي: ذو الوجاهة. وهي الجاه وحسن القبول عند الناس. يقال: وَجُه الرجل (بضم الجيم) وجاهة فهو وجيه. وهذا الفعل مشتق من الاسم الجامد وهو الوجه الذي للإنسان.

المعنى: أنّه مرضي عنه مقبول له مستجاب الدعوة. وتقدّم قوله تعالى { وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ } [آل عمران:45].

{ **كَانَ** } دال على تمكن وجاهته عند الله تعالى.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً [70] يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً [71] }.

بعد أن نهى الله المسلمين عمّا يؤذي النبيّ صلى الله عليه وسلم، ورَبَأ بهم عن أن يكونوا مثل الذين آذوا رسولهم وجَّه إليهم بعد ذلك نداء بأن يتَّسموا بالتقوى وسداد القول، لأنّ فائدة النهي عن المناكر التلبّس بالمحامد، والتقوى جماع الخير في العمل والقول. والقول السديد مبث الفضائل.

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** } ابتداء الكلام بنداء الذين آمنوا للاهتمام به واستجلاب الإصغاء إليه. ونداؤهم بالذين آمنوا لما فيه من الإيماء إلى أنّ الإيمان يقتضي ما سيؤمرون به. ففيه تعريض بأنّ الذين يصدر منهم ما يؤذي النبيّ صلى الله عليه وسلم قصدا ليسوا من المؤمنين في باطن الأمر ولكنهم منّافقون.

{ **اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً** } تقديم الأمر بالتقوى مشعر بأنّ ما سيؤمرون به من سديد القول هو من شُعَب التقوى كما هو من شعب الإيمان.

السديد: الذي يوافق السداد. والسداد: الصواب والحقّ، ومنه تسديد السهم نحو الرميَّة. فشمل القول السديد الأقوال الواجبة والأقوال الصالحة النافعة مثل ابتداء السلام.

والقول يكون بابا عظيما من أبواب الخير ويكون كذلك من أبواب الشر. وفي الحديث الشريف: **" وهل يكبّ الناس في النار على وجوههم إلّا حصائد ألسنتهم "**، وفي الحديث الآخر: **" رحم الله امرأ قال خيرا فغنِم أو سكت فسلِم "**، وفي الحديث الآخر: **" من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت "**.

*/ ومن القول السديد، قراءة القرآن على الناس، ورواية حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن قوله صلى الله عليه وسلم: **" نضّر الله أمرأ سمع مقالتي فوعاها فأدّاها كما سمعها "**.

*/ ومن القول السديد ما هو تعبير عن إرشاد من أقوال الأنبياء والعلماء والحكماء.

*/ ومن القول السديد تمجيد الله والثناء عليه مثل التسبيح.

*/ ومن القول السديد الأذان والإقامة، قال تعالى { إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ } [فاطر:10].

*/ ومن القول السديد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فبالقول السديد تشيع الفضائل والحقائق بين الناس فيرغبون في التخلّق بها، وبالقول السيّئ تشيع الضلالات والتمويهات فيغترّ الناس بها ويحسبون أنّهم يحسنون صنعا.

{ **يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ** } لما في التقوى والقول السديد من وسائل الصلاح جُعل للآتي بهما جزاء بإصلاح الأعمال ومغفرة الذنوب. وهو نشر على عكس اللفّ؛ فإصلاح الأعمال جزاء على القول السديد لأنّ أكثر ما يفيده القول السديد إرشاد الناس إلى الصلاح، أو اقتداء الناس بصاحب القول السديد.

وغفران الذنوب جزاء على التقوى لأنّ عمود التقوى اجتناب الكبائر، وقد غفر الله للناس الصغائر باجتناب الكبائر، وغفر لهم الكبائر بالتوبة، والتحوّل عن المعاصي بعد الهمّ بها ضرب من مغفرتها.

{ **وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً** } عطف على الجملة السابقة، أي: وتفوزوا فوزا عظيما إذا أطعتم الله بامتثال أمره. وإنّما صيغت الجملة في صيغة الشرط وجوابه لإفادة العموم في المطيعين وأنواع الطاعات فصارت الجملة بهذين العمومين في قوة التذييل. وهذا نسج من نظم الكلام وهو إفادة غرضين بجملة واحدة.

{ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً } [72].

استئناف ابتدائي أفاد الإنباء على سنّة عظيمة من سنن الله تعالى في تكوين العالم وما فيه وبخاصة الإنسان، ليرقب الناس في تصرفاتهم ومعاملاتهم مع ربّهم ومعاملات بعضهم مع بعض بمقدار جريهم على هذه السنّة ورعيهم تطبيقها.

والافتتاح بحرف التوكيد للاهتمام بالخبر أو تنزيله، لغرابة شأنه، منزلة ما قد ينكره السامع.

وافتتاح الآية بمادة العرض، وصوغها في صيغة الماضي، وجعل متعلّقها السماوات والأرض والجبال

والإنسان فيقتضي أنّه عرض أزلي في مبدأ التكوين عند تعلّق القدرة الربانية بإيجاد الموجودات الأرضية وإيداعها فصولها المقوّمة لمواهبها وخصائصها ومميّزاتها الملائمة لوفائها بما خُلقت لأجله كما حُمل قوله تعالى { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ } [الأعراف:172].

واختتام الآية بالعلة من قوله تعالى { لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ } [73] إلى نهاية السورة يقتضي أن للأمانة المذكورة في هذه الآية مزيد اختصاص بالعبرة في أحوال المنافقين والمشركين من بين نوع الإنسان في رعي الأمانة وإضاعتها.

العرض: حقيقته إحضار شيء لآخر ليختاره أو يقبله، ومنه عرض الحوض على الناقة، أي: عرضه عليها أن تشرب منه، وعرض المجندين على الأمير لقبول من تأهّل منهم. وفي حديث ابن عمر: " عُرضتُ على رسول الله وأنا ابن أربع عشرة فردّني وعُرضتُ عليه وأنا ابن خمس عشرة فأجازني". وتقدّم عند قوله تعالى { أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ } [هود:18]، وقوله تعالى { وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً } [الكهف:48].

{ **إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ ...**} هنا استعارة تمثيلية لوضع شيء في شيء لأنّه أهل له دون بقية الأشياء، وعدم وضعه في بقية الأشياء لعدم تأهّلها لذلك الشيء. فهو تمثيل لتعلّق علم الله تعالى بعدم صلاحية السماوات والأرض والجبال لإناطة ما عُبّر عنه بالأمانة بها وصلاحية الإنسان لذلك.

وفائدة هذا التمثيل تعظيم أمر هذه الأمانة إذ بلغت ألّا يطيق تحمّلها ما هو أعظم ما يبصره الناس من أجناس الموجودات. فتخصيص { **السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } بالذكر من بين الموجودات لأنّهما أعظم المعروف للناس من الموجودات، وعطف { **الْجِبَالِ** } على { الْأَرْضِ } وهي منها، لأنّ الجبال أعظم الأجزاء المعروفة من ظاهر الأرض وهي التي تشاهد الأبصار عظمتها، كقوله تعالى { لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ } [الحشر:21].

وقرينة الاستعارة حالية، وهي عدم صحّة تعلّق العرض والإباء بالسماوات والأرض والجبال لانتفاء إدراكها فأنَّى لها أن تختار وترفض وكذلك الإنسان باعتبار كون المراد منه جنسه وماهيته، لأنّ الماهية لا تفاوض ولا تختار كما يقال : الطبيعة عمياء، أي: لا اختيار لها وإنّما تصدر منها آثارها قسرا.

{**عَرَضْنَا / أَبَيْنَ / يَحْمِلْنَهَا / وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا / وَحَمَلَهَا** } أجزاء للمركب التمثيلي. وهذه الأجزاء صالحة لأن يكون كل منها استعارة مفردة:

بأن يُشبَّه إيداع الأمانة في الإنسان وصرفها عن غيره بالعرض.

ويُشبَّه عدم قابليّة مواهي السماوات والأرض والجبال لإيداع الأمانة فيها بالإباء.

ويُشبَّه الإيداع بالتحميل والحمل.

ويُشبَّه عدم التلاؤم بين مواهي السماوات والأرض والجبال بالعجز عن قبول تلك الكائنات إيّاها وهو المعبر عنه بالإشفاق.

ويُشبَّه التلاؤم والقبول لإيداع وصف الأمانة في الإنسان بالحمل للثقل.
ومثل هذه الاستعارات كثير في الكلام البليغ. وصلوحية المركَّب التمثيلي للانحلال بأجزائه إلى استعارات معدود من كمال بلاغة ذلك التمثيل.

الأمانة: فهي ما يؤتمن عليه ويطالب بحفظه والوفاء دون إضاعة ولا إجحاف، وقد اختلف فيها المفسّرون على عشرين قولا، فقيل: (الطاعة / الصلاة / مجموع الصلاة والصوم والاغتسال / جميع الفرائض / الانقياد إلى الدين / حفظ الفرج / أمانة التوحيد أو دلائل الوحدانية أو تجلّيَّات الله بأسمائه / ما يؤتمن عليه ومنه الوفاء بالعهد، ومنه انتفاء الغش بالعمل / العقل / الخلافة، أي: خلافة الله في الأرض التي أودعها الإنسان كما قال تعالى { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً } [البقرة:30]).

وهذه الأقوال ترجع إلى أصناف: (صنف الطاعات والشرائع / صنف العقائد / صنف ضدّ الخيانة / صنف العقل / صنف خلافة الأرض).

ويجب أن يطرح منها صنف الشرائع لأنّها ليست لازمة لفطرة الإنسان فطالما خلت أمم عن التكليف بالشرائع وهم أهل الفتر فتسقط ستة أقوال وهي ما في الصنف الأول. ويبقى سائر الأصناف لأنّها مرتكزة في طبع الإنسان وفطرته.

فيجوز أن تكون الأمانة أمانة **الإيمان**، أي: توحيد الله، وهي العهد الذي أخذه الله على جنس بني آدم، وهو الذي في قوله تعالى { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا } [الأعراف:172]. فالمعنى: أنّ الله أودع في نفوس الناس دلائل الوحدانية، فهي ملازمة للفكر البشري فكأنّها عهد الله لهم به، وكأنّه أمانة ائتمنهم عليها لأنّه أودعها في الجبلّة ملازمة لها.

ويجوز أن تكون الأمانة هي **العقل** وتسميته أمانة تعظيم لشأنه لأنّ الأشياء النفسية تودع عند من يحتفظ بها. والمعنى: أنّ الحكمة اقتضت أن يكون الإنسان مستودع العقل من بين الموجودات العظيمة لأنّ خلقته ملائمة لأن يكون عاقلا.

ويجوز أن تكون الأمانة **ما يؤتمن عليه**، وذلك أنّ الإنسان مدنيّ بالطبع مخالط لبني جنسه فهو لا يخلو عن ائتمان أو أمانة فكان الإنسان متحمّلا لصفة الأمانة بفطرته والناس متفاوتون في الوفاء لما ائتمنوا عليه كما في الحديث: **" إذا ضُيّعت الأمانة فانتظر الساعة "**، أي: إذا انقرضت الأمانة كان انقراضها علامة على اختلال الفطرة، فكان في جملة الاختلالات المنذرة بدنو الساعة؛ مثل تكوير الشمس وانكدار النجوم.

والذي بيَّن هذا المعنى قول حذيفة: " حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين رأيت أحدهما وأنا أنتظر الأخر، حدثنا: **" أنّ الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم عَلِموا من القرآن ثم عَلِموا من السنة "**، وحدثنا عن رفعها فقال: **" ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر الوَكْت** [الوكت: أثر في الشيء من غير لونه]، **ثم ينام النومة فتقبض فيبقى أثرها مثل المَجْل** [نفاخة في الجلد مرتفعة

يكون ما تحتها فارغاً مثل ما يقع في أكف العملة بالفؤوس] **كجمر دَحْرَجْتَه على رِجلك فنفط فتراه مُنْتَبِرًا وليس فيه شيء فيصبح الناس يتبايعون ولا يكاد أحد يؤدي الأمانة فيقال : إن في بني فلان رجلا أمينا ويقال للرجل: ما أعقله وما أظرفه وما أجلده، وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان"** أي: من أمانة، لأنّ الإيمان من الأمانة لأنه عهد الله.

والقول في حمل معنى الأمانة **على خلافة الله تعالى في الأرض** مثل القول في العقل، لأنّ تلك الخلافة ما هيأ الإنسان لها إلّا العقل كما أشار إليه قوله تعالى { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} [البقرة:30]، ثم قوله تعالى { وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا } [البقرة:31]، فالخلافة في الأرض هي القيام بحفظ عمرانها ووضع الموجودات فيها في مواضعها واستعمالها فيما استعدت إليه غرائزها.

والمتبادر من هذه المحامل أن يكون المراد بالأمانة حقيقتها المعلومة وهي الحفاظ على ما عهد به ورعيه والحذار من الإخلال به سهوا أو تقصيرا فيُسمَّى تفريطا وإضاعة، أو عمدا فيُسمَّى خيانة وخيسا، لأنّ هذا المحمل هو المناسب لورود هذه الآية في ختام السورة التي ابتدئت بوصف خيانة المنافقين واليهود وإخلالهم بالعهود وتلوّنهم مع النبيّ صلى الله عليه وسلم، قال تعالى { وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ } [15]، وقال تعالى { مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ } [23]. وهذا المحمل يتضمّن أيضا أقرب المحامل بعده وهو العقل، لأنّ قبول الأخلاق فرع منه.

{ **إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً** } محلّها الاعتراض بين جملة { وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ } والمتعلّق بفعلها وهو { لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ } [73]. ومعناها استئناف بياني، لأنّ السامع خبر أنّ الإنسان تحمّل الأمانة يترقّب معرفة ما كان من حسن قيام الإنسان بما حمله وتحمّله. وليست الجملة تعليلية لأنّ تحمّل الأمانة لم يكن باختيار الإنسان فكيف يعلّل بأنّ حمله الأمانة من أجل ظلمه وجهله.

فالمعنى: أنّه قصّر في الوفاء بحق ما تحمّله تقصيرا، بعضه عن عمد، وهو المعبّر عنه بوصف ظلوم، وبعضه عن تفريط في الأخذ بأسباب الوفاء وهو المعبّر عنه بكونه جهولا.

ظلوم: مبالغة في الظلم، **جهول**: مبالغة في الجهل.

الظلم: الاعتداء على حق الغير وأريد به هنا الاعتداء على حق الله الملتزم له بتحمل الأمانة.

الجهل: انتفاء العلم بما يتعيّن علمه، والمراد به هنا انتفاء علم الإنسان بمواقع الصواب فيما تحمّل به.

فالقول مؤذن بكلام محذوف يدل هو عليه إذ التقدير: وحملها الإنسان فلم يفِ بها، إنّه كان ظلوما جهولا.

ويجوز أن يراد { ظَلُوماً جَهُولاً } في فطرته، أي: فيه طبع الظلم والجهل، فهو معرّض لهما ما لم يعصمه وازع الدين، فكان من ظلمه وجهله أن أضاع كثير من الناس الأمانة.

ولذلك أثنى الله على الذين وفوا بالعهود والأمانات فقال في هذه السورة { وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولاً } [15]، وقال فيها { مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ } [23]، وقال جلّ شأنه { وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ } [مريم:54] وقال في ضدّ ذلك { وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ

يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ - إلى قوله - أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } [البقرة:27/26].

{ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً } [73].

متعلق بقوله تعالى { وَحَمَلَهَا الْأِنْسَانُ } [72]، لأنّ المنافقين والمشركين والمؤمنين من أصناف الإنسان. { **لِيُعَذِّبَ اللَّهُ** } اللام للتعليل المجازي المسمّاة لام العاقبة. وقد تقدّم القول فيها غير مرة إحداها قوله تعالى { إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً } [آل عمران:178]. وهي تفيد بيانا لما أجمل في قوله تعالى { إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جهولاً } [72] كما قدمناه آنفا، أي: فكان الإنسان فريقين: فريقا ظالما جاهلا، وفريقا راشد عالما. { **الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ** } ذكر النساء في الآية إشارة إلى أنّ لهنّ شأنا، من ذلك ما كان في حوادث غزوة الخندق من إعانة لرجالهنّ على كيد المسلمين وبعكس ذلك حال نساء المسلمين. { **وَيَتُوبُ اللَّهُ** } إظهار اسم الجلالة، وكان الظاهر إضماره، لزيادة العناية بتلك التوبة لما في الإظهار في مقام الإضمار من العناية.

{ **وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً** } بشارة للمؤمنين والمؤمنات بأن الله عاملهم بالغفران وما تقتضيه صفة الرحمة.

والمعنى: فعذّب الله المنافقين والمشركين على عدم الوفاء بالأمانة التي تحمّلوها في أصل الفطرة وبحسب الشريعة، وتاب على المؤمنين فغفر لهم من ذنوبهم لأنهم وفوا بالأمانة التي تحمّلوها. وهذا مثل قوله تعالى فيما مرّ { لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ } [24].

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة سبأ

هذا اسمها الذي اشتُّهرت به في كتب السنّة وكتب التفسير وبين القرّاء، ولم أقف على تسميتها في عصر النبوّة. ووجه تسميتها به أنّها ذُكرت فيها قصة أهل سبأ.

وهي **مكية** وحكي اتفاق أهل التفسير عليه. وعن مقاتل أن آية { وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ - إلى قوله - الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ } [6] نزلت بالمدينة. ولعلّه بناء على تأويلهم بأنّ { الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ } إنّما يراد بهم أهل الكتاب الذين أسلموا مثل عبد الله بن سلام.

وهي السورة **الثامنة والخمسون** في عداد السور، نزلت بعد سورة لقمان وقبل سورة الزمر.

وعدد آيها **أربع وخمسون** في عدّ الجمهور، وخمس وخمسون في عدّ أهل الشام.

أغراض السورة

*/ إبطال قواعد الشرك وأعظمها إشراكهم آلهة مع الله وإنكار البعث فابتدئ بدليل على انفراده تعالى بالإلهية ونفي أن تكون الأصنام شفعاء لعُبّادها.

*/ موضوع البعث. ومن ذلك إثبات البعث والجزاء.

*/ اثبات إحاطة علم الله بما في السماوات وما في الأرض.

*/ إثبات صدق النبيّ صلى الله عليه وسلم فيما أخبر به، وصدق ما جاء به القرآن، وأنّ القرآن شهدت به علماء أهل الكتاب.

*/ تخلّل ذلك بضروب من تهديد المشركين وموعظتهم بما حلّ ببعض الأمم المشركين من قبل.

*/ عُرّض بأنّ جَعْلهم لله شركاء كفران لنعمة الخالق، فضُرب لهم المثل بمن شكروا نعمة الله واتقوه فأوتوا خير الدنيا والآخرة وسُخِّرت لهم الخيرات مثل داود وسليمان، وبمن كفروا بالله فسُلِّطت عليه الأرزاء في الدنيا وأُعِدَّ لهم العذاب في الآخرة مثل سبأ.

*/ حُذِّروا من الشيطان، وذُكِّروا بأنّ ما هم فيه من قرّة العين يقرّبهم إلى الله.

*/ أنذِروا بما سيلقون يوم الجزاء من خزي وتكذيب وندامة وعدم النصير وخلود في العذاب.

*/ بُشِّر المؤمنون بالنعيم المقيم.

{ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} [1].

{ الْحَمْدُ لِلَّهِ } افتُتحت السورة بـالحمد للتنبيه على أنّ السورة تتضمّن من دلائل تفرّده بالإلهية واتصافه بصفات العظمة ما يقتضي إنشاء الحمد له والإخبار باختصاصه به.

فيجوز كونها إخبارا بأنّ جنس الحمد مستحقّ لله تعالى فتكون (اللام) في { لِلَّهِ } لام الملك.

ويجوز أن تكون إنشاء ثناء على الله على وجه تعليم الناس أن يخصّوه بالحمد فتكون (اللام) للتبيين.

وتقدّم الكلام حولها في الفاتحة، وتقدّم الكلام على تعقيبه باسم الموصول في أوّل الأنعام وأوّل الكهف.

{ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } اقتضاء صلة الموصول أنّ ما في السماوات والأرض ملك لله تعالى يجعل هذه الصلة صالحة لتكون علّة لإنشاء الثناء عليه لأنّ ملكه لما في السماوات وما في الأرض ملك حقيقي لأنّ سببه إيجادُ تلك المملوكات، وذلك الإيجاد عمل جميل يستحقّ صاحبه الحمد.

وفي الصلة تعريض بكفران المشركين الذين حمدوا أشياء ليس لها في هذه العوالم أدنى تأثير، ونسوا حمد مالكها وسائر ما في السماوات والأرض.

{ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ } عطف على الصلة، أي: والذي له الحمد في الآخرة، وهذا إنباء بأنّه مالك الأمر كلّه في الآخرة. وفي هذا التحميد براعة استهلال الغرض من السورة.

وتقديم المجرور لإفادة الحصر، أي: لا حمد في الآخرة إلّا له، فلا تتوجّه النفوس إلى حمد غيره، لأنّ الناس يومئذ في عالم الحق فلا تلتبس عليهم الصور.

واعلم أنّ { الْحَمْدُ لِلَّهِ } وإن اقتضت قصر الحمد عليه تعالى قصرا مجازيا للمبالغة كما تقدّم في الفاتحة، بناء على أنّ حمد غير الله للاعتداد بأنّ نعمة الله جرت على يديه، فلما شاع ذلك في جملة { الْحَمْدُ لِلَّهِ } وأريد إفادة أنّ الحمد لله مقصور عليه تعالى في الآخرة حقيقة غُيّرت صيغة الحمد المألوفة إلى صيغة { لَهُ الْحَمْدُ }.

{ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ } لما نيط حمده في الدنيا والآخرة بما اقتضى مرجع التصرّفات إليه في الدارين أعقب ذلك بصفتي { الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ }، لأنّ الذي أوجد أحوال النشأتين هو عظيم الحكمة الخبير بدقائق الأشياء.

الحكمة: إتقان التصرف بالإيجاد وضدّه، و**الخبرة** تقتضي العلم بأوائل الأمور وعواقبها.

والقرن بين الصفتين هنا لأن كل واحدة تدل على معنى أصلي ومعنى لزومي، وهما مختلفان:

الحكيم: متقن التصرّف والصنع، مشتق من الإحكام وهو الإتقان، وهو يستلزم العلم بحقائق الأشياء.

الخبير: العليم بدقائق الأشياء وظواهرها بحيث لا يفوته شيء منها، وهو يستلزم التمكّن من تصريفها.

فالجمع بينهما إيماء إلى أنّ المقصود من الجملة قبله استحماق الذين اقبلوا في شؤونهم على آلهة باطلة.

{ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ } [2].

بيان لجملة { وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ } لأنّ العلم بما ذكر هنا هو العلم بذواتها وخصائصها وأسبابها وعللها وذلك عين الحكمة والخبرة، فإنّ العلم يقتضي العمل، وإتقان العمل بالعلم.

الولوج: الدخول والسلوك مثل ولوج المطر في أعماق الأرض.

الذي يخرج من الأرض: النبات والمعادن ...، و**الذي ينزل من السماء**: المطر والثلج والرياح...،

الذي يعرج فيها: ما يتصاعد في طبقات الجو من الرطوبات والعناصر التي تتبخّر في الطبقات الجوية، وما يسبح في الفضاء وما يطير في الهواء، وعروج الأرواح عند مفارقة الأجساد، قال تعالى { تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ } [المعارج:4].

{ **يَلِجُ / يَخْرُجُ** } أوضح ما يُعبَّر به عن أحوال جميع الموجودات الأرضية بالنسبة إلى اتصالها بالأرض.

{ **يَنْزِلُ / يَعْرُجُ** } أوضح ما يُعبَّر به عن أحوال الموجودات السماوية بالنسبة إلى اتصالها بالسماء.

ولذلك لم يعطف السماء على الأرض في الآية، فلم يقل: يعلم ما يلج في الأرض والسماء، وما يخرج منهما، ولم يكتفي بإحدى الجملتين عن الأخرى.

{ **وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ** } لمّا كان من جملة أحوال ما في الأرض أعمال الناس وأحوالهم من عقائد وسير، وممّا يعرج في السماء العمل الصالح والكلم الطيب أُتبع ذلك بهذا القول، أي: مع علمه فهو واسع الرحمة وواسع المغفرة. وهذا إجمال قُصد منه حثّ الناس على طلب أسباب الرحمة والمغفرة المرغوب فيهما، فإنّ من رغب في تحصيل شيء بحث عن وسائل تحصيله وسعى إليها.

وفيه تعريض بالمشركين أن يتوبوا عن الشرك فيغفر لهم ما قدموه.

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } [3].

{ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ** } كان ذكر ما يلج في الأرض وما يخرج منها مشعرا بحال الموتى عند ولوجهم القبور وعند نشرهم منها، وكان ذكر ما ينزل من السماء وما يعرج فيها موميًا إلى عروج الأرواح عند مفاقرة الأجساد، فكان ذكر ذلك مناسبة للتخلُّص إلى ذكر إنكار المشركين الحشر لأنّ إبطال زعمهم من أهم مقاصد هذه السورة.

{ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا** } تعريف المسند إليه بالموصولية لأنّ هذا الموصول صار كالعَلَم بالغلبة على المشركين في اصطلاح القرآن وتعارف المسلمين.

{ **السَّاعَةُ** } علَم بالغلبة في القرآن على يوم القيامة وساعة الحشر.

{ **قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ** } لقَّن الله نبيّه صلى الله عليه وسلم الجواب عن قول الكافرين بالإبطال المؤكَّد على عادة إرشاد القرآن في انتهاز الفرص لتبليغ العقائد.

{ **بَلَى** } حرف جواب مختصّ بإبطال النفي، فهو حرف إيجاب لما نفاه كلام قبله، وتقدّم حوله الكلام عند قوله تعالى { بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً } [البقرة:81].

{ **وَرَبِّي** } أكَّد ما اقتضاه { بَلَى } من إثبات إتيان الساعة بالقسم على ذلك للدلالة على ثقة المتكلِّم بأنّها آتية.

{ **لَتَأْتِيَنَّكُمْ** } عُدِّي إتيانها إلى ضمير المخاطبين من بين جميع الناس لأنّ المراد إتيان الساعة الذي يكون عنده عقابهم، كما يقال: أتاكم العدو، فتعلّقه بضمير المخاطبين قرينة على أنّه كناية عن إتيان مكروه.

{ **أَتَى** } يرد كثيرا في معنى حلول المكروه مثل قوله تعالى { أَتَى أَمْرُ اللَّهِ } [النحل:1]، وقوله تعالى { فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ } [الزمر:25]، وقوله تعالى { يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ } [الأنعام:158].

{ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ }

{ **عَالِمِ الْغَيْبِ** } خبر ثان عن ضمير الجلالة في قوله تعالى { وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ } [1] في قراءة من قرأه بالرفع (نافع وابن عامر وأبو جعفر ورويس عن يعقوب)، وصفة لـ { رَبِّي } المقسم به، في قراءة من قرأه بالجرّ (ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وخلف وروح عن يعقوب)، وقد اقتضت ذكره مناسبة تحقيق إتيان الساعة، فإنّ وقتها وأحوالها من الأمور المغيَّبة في علم الناس.

وفي هذه الصفة إتمام لتبيين سعة علمه تعالى، فبعد أن ذُكرت إحاطة علمه بالكائنات ظاهرها وخفيها جليلها ودقيقها أتبع بإحاطة علمه بما سيكون أنّه يكون ومتى يكون.

الغيب: تقدّم في قوله تعالى { الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ } [البقرة:3] على معان ذكرت هنالك.

وقد تكرّر في القرآن إتباع ذكر الساعة بذكر انفراده تعالى بعلمها لأنّ الكافرين بها جعلوا من عدم العلم بها دليلا سفسطائيا على أنّها ليست بواقعة، ولذلك سمَّاها القرآن الواقعة في قوله تعالى { إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ } [الواقعة:2/1].

العزوب: الخفاء. ومادته تحوم حول معاني البعد عن النظر، وفي مضارعه ضمُّ العين وكسرها.

{ **مِثْقَالُ ذَرَّةٍ** } تقدّم في قوله { وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ } [يونس:61]، إشارة إلى تقريب إمكان الحشر لأن الكافرين أحالوه بعلة أنّ الأجساد تصير رفاتا وترابا فلا تمكن إعادتها.

{ **وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ** } إشارة إلى ما لا يعلمه إلّا الله من العناصر والقوى الدقيقة أجزاؤها الجليلة آثارها، وتسييرها بما يشمل الأرواح التي تحلّ في الأجسام، والقوى التي تودع

فيها.

{ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ [4] وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ [5] }.

{ **لِيَجْزِيَ** } لام التعليل تتعلق بفعل { لَتَأْتِيَنَّكُمْ } [3] دون تقييد الإتيان بخصوص المخاطبين، بل المراد ما شملهم وغيرهم. والمعنى: أنّ الحكمة في إيجاد الساعة للبعث والحشر هي جزاء الصالحين على صلاح اعتقادهم وأعمالهم، وجزاء المفسدين جزاء سيّئا.

{ **أُولَئِكَ** } الإتيان باسم الإشارة لكلّ فريق للتنبيه على أنّ المشار إلية جدير بما سيرد بعد اسم الإشارة من الحكم لأجل ما قبل أسم الإشارة من الأوصاف.

{ **أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** } جُعل جزاء الذين آمنوا مغفرة، أي: تجاوزوا عن آثامهم، ورزقا كريما، وهو ما يرزقون من النعيم على اختلاف درجاتهم.

{ **كَرِيمٌ** } النفيس في نوعه، كما تقدّم عند قوله تعالى { كِتَابٌ كَرِيمٌ } [النمل:29].

{ **وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ** } مقابلة لأولئك { الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } لأنّ السعي في آيات الله يساوي معنى كفروا بها، وبذلك يشمل عمل السيئات، وهو سيّئة من السيئات.

{ **سَعَوْا فِي آيَاتِنَا** } اجتهدوا بالصدّ عنها ومحاولة إبطالها، فالسعي مستعار للجدّ في فعل ما، وقد تقدّم بيانه عند قوله تعالى { وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ } [الحج:51].

آيات الله: هنا القرآن، كما يدلّ عليه قوله تعالى بعد { الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ } [6].

{ **مُعَاجِزِينَ** } مبالغة في مُعْجزين، وهو تمثيل، شُبّهت حالهم في مكرهم بالنبيّ صلى الله عليه وسلم بحال من يمشي مشيا سريعا ليسبق غيه ويُعْجزه.

{ **أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ** } عذاب جهنم. و**الرجز**: أسوأ العذاب، وتقدّم في قوله تعالى { فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ } [البقرة [59].

{ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ } [6].

عطف على { لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } [4]، تمهيد لإبطال قول المشركين في الرسول صلى الله عليه وسلم { أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ } [8]، لأنّ قولهم ذلك كناية عن بطلان ما جاءهم به من القرآن في زعمهم فكان جديرا بأن يمهّد لإبطاله بشهادة أهل العلم بأنّ ما جاء به الرسول هو الحقّ دون غيره من باطل أهل الشرك الجاهلين، فعطفُ هذه الجملة من عطفِ الأغراض.

وهذه طريقة في إبطال شُبَهِ أهل الضلالة والملاحدة بأن يُقدَّم قبل ذكر الشبه ما يقابلها من إبطالها، وربما سلك أهل الجدل طريقه أخرى هي تقديم الشبه ثم الكُرور عليها بالإبطال وهي طريقة عضد الدين في كتاب (المواقف)، وقد كان بعض أشياخنا يحكي انتقاد كثير من أهل العلم طريقته فلذلك خالفها التفتازاني في كتاب (المقاصد). والحقّ أنّ الطريقتين جادَّتان وقد سُلكتا في القرآن.

{ **وَيَرَى** } الرؤية علمية. واختير فعل الرؤية هنا دون (ويَعْلَمُ) للتنبيه على أنّه علم يقيني بمنزلة العلم بالمرئيات التي علمها ضروري.

{ **الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ** } فسَّره بعض المفسّرين بأنّهم علماء أهل الكتاب من اليهود والنصارى فيكون هذا إخبارا عمّا في قلوبهم، كما في قوله تعالى في شأن الرهبان { وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ } [المائدة:83]، فهذا تحدٍّ للمشركين وتسلية للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، وليس احتجاجًا بأهل الكتاب لأنّهم لم يعلنوا به، ولا آمن أكثرهم، أو هو احتجاج بسكوتهم على إبطاله في أوائل الإسلام قبل أن يدعوهم النبيّ صلى الله عليه وسلم ويحتجّ عليهم ببشائر رسلهم وأنبيائهم به.

وبهذا تتبين أنّ إرادة علماء أهل الكتاب من هذه الآية لا يقتضي أن تكون نازلة بالمدينة حتّى يتوهّم الذين توهّموا أنّ هذه الآية مستثناة من مكيات السورة كما تقدم.

والأظهر أنّ المراد من { الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ } مَن آمنوا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم من أهل مكّة لأنّهم أوتوا القرآن وفيه علم عظيم هم عالموه، على تفاضلهم في فهمه والاستنباط منه، فقد كان الواحد من أهل مكة يكون فضا غليظا حتّى إذا أسلم رقّ قلبه وامتلأ صدره بالحكمة وانشرح لشرائع الإسلام واهتدى إلى الحقّ وإلى الطريق المستقيم. وأوّل مثال لهؤلاء وأشهره وأفضله هو عمر بن الخطاب للبون البعيد بين حالتيه في الجاهلية والإسلام. فإنّهم كانوا إذا لقوا النبيّ صلى الله عليه وسلم أشرقت عليهم أنوار النبوّة فملأتهم حكمة وتقوى. وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لأحد أصحابه: **" لو كنتم في بيوتكم كما تكونون عندي لصافحتكم الملائكة بأجنحتها "**. وبفضل ذلك ساسوا الأمّة وافتتحوا الممالك وأقاموا العدل بين الناس مسلمهم وذمِّيِّهم ومعاهَدهم، وملأوا أعين ملوك الأرض مهابة. وعلى هذا المحمل حُمل { الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ } [الحج:54]، ويؤيّده قوله تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ } [الروم:56].

{ **الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ** } مفعول { يَرَى }. و{ **هُوَ** } ضمير فصل يفيد حصر الحقّ في القرآن حصرا إضافيا، ويجوز أيضا أن يفيد قصرا حقيقيا ادعائيا، أي: قصر الحقّية المحض عليه، لأنّ غيره من الكتب خلط حقّها بباطل.

{ **وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** } العدول عن الوصف إلى صيغة المضارع للإشعار بتجدّد الهداية.

{ **الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** } لأنّه صراط يُبلِّغ إلى العزّة، قال تعالى { وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ } [المنافقون:8]، ويُبلِّغ إلى الحمد، أي: الخصال الموجبة للحمد، وهي الكمالات من الفضائل والفواضل.

{ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ** [7] **أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ** [8]}.

انتقال إلى قولة أخرى من شناعة أهل الشرك معطوفة على { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ } [3].

وهذا القول قائم مقام الاستدلال على القول الأوّل، لأنّ قولهم { لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ } دعوى، وقولهم { هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ } مستند تلك الدعوى.

أدمجوا في الاستدلال التعجيب من الذي يأتي بنقيض دليلهم، ثمّ إرداف ذلك التعجيب بالطعن في المتعجّب به.

{ **هَلْ نَدُلُّكُمْ** } الاستفهام مستعمل في العرض مثل قوله تعالى { فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى } [النازعات:18]، وهو عرض مُكنًّى به عن التعجيب، أي: هل ندلكم على أعجوبة من رجل ينبّئكم بهذا النبأ المحال. والمخاطب غير مذكور لأنّ المقصود في الآية الاعتبار بشناعة القول ولا غرض يتعلّق بالمقول لهم.

فيجوز أن يكون قولهم هذا تقاولا بينهم، أو يقوله بعضهم لبعض، أو يقوله كبراؤهم لعامتهم ودهمائهم.

ويجوز أن يكون قول كفار مكّة للواردين عليهم في الموسم. وهذا الذي يؤذن به فعل { نَدُلُّكُمْ }.

وقد كان المشركون هيّأوا ما يكون جوابا للذين يردون عليهم في الموسم من قبائل العرب يتساءلون عن خبر هذا الذي ظهر فيهم يدَّعى أنّه رسول من الله إلى الناس، وعن الوحي الذي يبلِّغه عن الله، كما ورد في خبر الوليد بن المغيرة إذ قال لقريش: إنّه قد حضر هذا الموسم وأنّ وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيا واحدا ولا تختلفوا فيُكذِّب بعضكم بعضا ويرد قولُكم بعضه بعضا، فقالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأيا نقول به. قال: بل أنتم قولوا أسمع، قالوا: نقول كاهن؟ قال لا والله ما هو بكاهن لقد رأينا الكهّان فما هو بزمزمة الكاهن ولا بسجعه.

قالوا: فنقول مجنون؟ قال ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخلُّجه ولا وسوسته، قالوا: فنقول شاعر؟ قال: لقد عرفنا الشعر كلّه فما هو بالشعر، فقلوا: فنقول ساحر؟ قال: ما هو بنفثه ولا عقده، قالوا: فما نقول يا أبا شمس؟ قال: إنّ أقرب القول فيه أن تقولوا: ساحر، جاء بقول هو سحر يفرّق بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته.

فلعلّ المشركين كانوا يستقبلون الواردين على مكة بهاته المقالة { هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ } طمعا منهم بأنّها تصرف الناس عن النظر في الدعوة.

{ **نَدُلُّكُمْ** } نعرّفكم ونرشدكم. وأصل الدلالة الإرشاد إلى الطريق الموصل إلى مكان مطلوب. وغالب استعمال هذا الفعل أن يكون إرشاد من يطلب معرفة، وبذلك فالآية تقتضي أنّ هذا القول يقولونه للذين يسألونهم.

الإنباء: الإخبار عن أمر عظيم، وعظمة هذا القول عندهم عظمة إقدام قائله على ادعاء وقوع ما يرونه محال الوقوع.

{ **إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ** } شبه جملة، ليس ممّا نَبَّأ به الرجل وإنّما هو اعتراض في كلام الحاكين تنبيها على استحالة ما يقوله. وتقديم هذا الاعتراض للاهتمام به ليتقرّر في أذهان السامعين لأنّه مناط الإحالة في زعمهم.

التمزيق: تفكيك الأجزاء المتلاصقة بعضها عن بعض بحيث تصير قطعا متباعدة.

الممزَّق: مصدر ميمي لمزَّقه مثل المسرَّح للتسريح.

{ **كُلَّ** } مستعملة في معنى الكثرة.

{ **إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ** } هي المنبَّأ به. ولمّا كان الإنباء في معنى القول لأنّه إخبار صح أن يقع بعده ما هو من قول المنبّأ، ولذلك اجتُلبت (إنّ) المكسورة الهمزة لمراعاة حكاية القول.

الخلق الجديد: الحديث العهد بالوجود، أي: في خلق غير الخلق الأوّل الذي أبلاه الزمان، فجديد فعيل من **جَدَّ** بمعنى قطع. فأصل معنى جديد مقطوع، وأصله وصف للثوب الذي ينسجه الناسج فإذا أتمّه قطعه من المنوال. أريد به أنّه بحدثان قطعه، فصار كناية عن عدم لبسه، ثم شاع ذلك فصار الجديد وصفا بمعنى الحديث العهد، وتنوسي معنى المفعولية منه فصار وصفا بمعنى الفاعلية، فيقال: جَدَّ الثوب بالرقع، بمعنى كان حديث عهد بنسج.

{ **أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ** } في موضع صفة ثانية لـ { رَجُلٍ } أتوا بها استفهامية لتشريك المخاطبين معهم في ترديد الرجل بين هذين الحالين. وحذفت همزة فعل { أَفْتَرَى } لأنها همزة وصل فسقطت لأنّ همزة الاستفهام وصلت بالفعل. وجعلوا حال الرسول صلى الله عليه وسلم دائرا بين الكذب والجنون.

الافتراء: الاختلاق وإيجاد خبر لا مخبر له. وتقدّم عند قوله تعالى { وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ } [المائدة:103].

{ **بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ** } ردّ الله عليهم استدلالهم بما أشار إلى أنّهم ضالون أو مضلِّون، وواهمون أو موهِمون فأبطل قولهم بحذافره بحرف الإضراب (بل)، ثم بالجملة.

فقابل ما وصفوا به الرسول صلى الله عليه وسلم بوصفين:

<u>أنّهم في العذاب</u>، وذلك مقابل قولهم { أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا }، لأنّ الذي يكذب على الله يسلط الله عليه عذابه.

<u>وأنّهم في الضلال البعيد</u>، وذلك مقابل قولهم { بِهِ جِنَّةٌ }.

{ **الضَّلَالِ** } خطأ الطريق الموصل إلى المقصود.

{ **الْبَعِيد** } وصف به الضلال باعتبار كونه وصفا لطريق الضال، لأنّ الضال كلّما توغّل مسافة في طريق الضلال ازداد بعدا عن المقصود، فاشتد ضلاله وعسر خلاصه.

{ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ } [9].

{ **أَفَلَمْ يَرَوْا** } الفاء للتفريع على قوله تعالى { بَلْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ } [8]، لأنّ رؤية مخلوقات الله في السماء والأرض من شأنها أن تهديهم لو تأمّلوا حقّ التأمُّل.

والاستفهام للتعجب الذي يخالطه إنكار على انتفاء تأمّلهم فيما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض. والرؤية بصرية بقرينة { إِلَى }. والمقصود: حثّهم على التأمّل والتدبّر ليتداركوا علمهم بما أهملوه. وهذا كقوله تعالى { أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمّىً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ } [الروم:8].

{ **إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ** } ما يستقبله كلّ أحد منهم من الكائنات السماوية والأرضية، وما هو وراءه منها. والسماء والأرض أطلقتا على مَحْوِيَّاتهما.

{ **إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ** } اعتراض بالتهديد، فمناسبة التعجيب الإنكاري بما يذكّرهم بقدرة صانع تلك المصنوعات العظيمة على عقاب الذين أشركوا معه غيره والذين ضيَّقوا واسع قدرته وكذَّبوا رسوله صلى الله عليه وسلم، وما يخطر في عقولهم ذكر الأمم التي أصابها عقاب بشيء من الكائنات الأرضية، كالخسف الذي أصاب قارون، أو السماوية، كإسقاط كسف من الأجرام السماوية كالذي أصاب أهل الأيكة.

الكِسْف: (بكسر الكاف وسكون السين) في قراءة الجمهور، وهو القطعة من الشيء. وقد تقدّم في قوله تعالى { أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً } [الإسراء:92].

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ** } تعليل للتعجيب الإنكاري باعتبار ما يتضمّنه من الحثّ على التأمّل والتدبّر كما تقدم آنفا، فموقع حرف التوكيد هنا لمجرد التعليل.

ولك أن تجعل الجملة تذييلا والمشار إليه هو ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض.

الآية: الدليل. والتعريف للجنس، فالمفرد المعرف مساو للجمع، أي: لآيات كثيرة.

المنيب: الراجع بفكره إلى البحث عمّا فيه كماله النفساني وحسن مصيره في الآخرة فهو يُقدِّر المواعظ حقّ قدرها ويتلقاها بالشك في الحالة التي وُعِظ من أجلها، فيعاود النظر حتّى يهتدي ولا يرفض نصح الناصحين وإرشاد المرشدين.

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ [10] أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ [11] }.

مناسبة الانتقال من الكلام السابق إلى ذكر داود خفيّة. والذي تميل إليه النفس ما قاله الطيبي: " لأنّ [داود] من المنيبين المتفكّرين في آيات الله، قال تعالى { وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ} [ص:17]".

يريد الطيبي أنّ داود من أشهر المُثل في المنيبين بما أشتهر به من انقلاب حاله بعد أن كان راعيا غليظا إلى أن اصطفاه الله نبيّا وملكا صالحا مصلحا لأمّة عظيمة، فهو مَثَلُ المنيبين كما قال تعالى { وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ }، وقال تعالى { فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ } [ص:24]، فلإنابته وتأويبه أنعم الله عليه بنعم الدنيا والآخرة وبارك نسله.

وفي ذكر فضله عبرة للناس بحسن عناية الله بالمنيبين تعريضا بضدّ ذلك للذين لم يعتبروا بآيات الله، وفي هذا إيماء إلى بشارة النبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّه بعد تكذيب قومه وضيق حاله منهم سيؤول شأنه إلى عزّة عظيمة وتأسيس ملك أمّة عظيمة كما آلت حال داود، وذلك الإيماء أوضح في قوله تعالى { اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ } [ص:17].

وسمَّى الطيبي هذا الانتقال إلى ذكر داود وسليمان تخلُّصا، والوجه أن يسميه استطرادا أو اعتراضا وإن كان طويلا، فإنّ الرجوع إلى ذكر أحوال المشركين بعد ما ذكر من قصة داود وسليمان وسبأ يرشد إلى أنّ إبطال أحوال أهل الشرك هي المقصود من هذه السورة، كما سننبه عليه عند قوله تعالى { وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ } [20].

داود: تقدّم التعريف بداود عليه السلام عند قوله تعالى { وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً } [النساء:163] وعند قوله تعالى { وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ } [الأنعام:84].

{ **مِنَّا** } أي: من لدنَّا، ومن عندنا، وذلك تشريف للفضل الذي أوتيه داود، كقوله تعالى { رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا } [القصص:57].

{ **فَضْلًا** } التنكير لتعظيمه، وهو فضل النبوّة وفضل الملك، وفضل العناية بإصلاح الأمّة، وفضل القضاء بالعدل، وفضل الشجاعة في الحرب، وفضل سعة النعمة عليه، وفضل إغنائه عن الناس بما ألهمه من صنع دروع الحديد، وفضل إيتائه الزبور، وإيتائه حسن الصوت، وطول العمر في الصلاح وغير ذلك.

{ **يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ** } مقول قول محذوف. والأمر أمر تكوين وتسخير.

التأويب: الترجيع، أي: ترجيع الصوت، وقيل التأويب بمعنى التسبيح لغة حبشية فهو من المعرّب، وتقدّم ذكر تسبيح الجبال مع داود في [الأنبياء:79].

{ **الطَّيْرَ** } منصوب بالعطف على المنادى لأنّ المعطوف المعرّف على المنادى يجوز نصبه ورفعة، والنصب أرجح، ويجوز أن يكون { وَالطَّيْرَ } مفعولا معه لِـ { أَوِّبِي }، والتقدير: أوّبى معه ومع الطير.

إلانة الحديد: تسخيره، أي: أشعرناه بتسخير الحديد ليقدم على صنعه، فكان في { **أَلَنَّا** } معنى: وأوحينا إليه.

{ **الْحَدِيد** } تراب معدني إذا صُهر بالنار امتزج بعضه ببعض ولان وأمكن تطريقه وتشكيله فإذا برد تصلّب. وتقدّم عند قوله تعالى { قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً } [الإسراء:50].

{ **سَابِغَاتٍ** } صفة لموصوف محذوف لظهوره من المقام، إذ شاع وصف الدروع بالسابغات والسوابغ حتّى استغنوا عند ذكر هذا الوصف عن ذكر الموصوف.

{ **قَدِّرْ** } اجعله على تقدير، وهو جعل الشيء على مقدار مخصوص.

{ **السَّرْد** } صنع درع الحديد، أي: تركيب حلقها ومساميرها التي تشُدّ شقق الدرع بعضها ببعض كالخياطة للثوب، والدرع توصف بالمسرودة كما توصف بالسابغة. يقال لناسج الدروع: سرَّاد وزرَّاد.

{ **وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** } فلمّا سخَّر الله له ما أستصعب على غيره أتبعه بأمره بالشكر بأن يعمل صالحا، لأنّ الشكر يكون بالعمل الذي يرضي المشكور والمنعم.

{ **اعْمَلُوا** } الضمير لداود وآله، كقوله تعالى { وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا } [طه:132]، أو له وحده على وجه التعظيم.

{ **إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** } تقدّم غير مرة. وهو هنا كناية عن الجزاء عن العمل الصالح.

البصير: المطّلع العليم.

{ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ } [12].

عطف فضيلة سليمان على فضيلة داود لاعتبار ما أوتيه سليمان من فضل كرامةً لأبيه على إنابته، ولسليمان على نشأته الصالحة عند أبيه، فالعطف على { لَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً } [10]، والمناسبة مثل مناسبة ذكر داود، فإنّ سليمان كان موصوفا بالإنابة، قال تعالى { ثُمَّ أَنَابَ } [ص:34].

{ **الرِّيحَ** } مقابلة للـ { الْحَدِيد } في قوله { وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ } [10].

{ **لِسُلَيْمَانَ** } لام التقوية، لأنّه لمّا حُذف الفعل لدلالة ما تقدّم عليه (التقدير: و**سخّرنا** لسليمان الريح)، قرن المفعول الأول بلام التقوية، لأنّ الاحتياج إلى لام التقوية عند حذف الفعل أشد من الاحتياج إليها عند تأخير الفعل عن المفعول. و{ الرِّيحَ } مفعول ثان.

تسخير الريح: خلق ريح تلائم سير سفنه للغزو أو التجارة، فجعل الله لمراسيه في شطوط فلسطين رياحا موسمية تهبّ شهرا مشرقة لتذهب في ذلك الموسم، وتهب شهرا مغربة لترجع سفنه إلى شواطئ فلسطين، قال تعالى { وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا } [الأنبياء:81]. فأطلق الغدو على الانصراف والانطلاق من المكان، وأطلق الرواح على الرجوع.

الإسالة: جعل الشيء سائلا.

{ **عَيْنَ الْقِطْرِ** } الْقِطْر (بكسر القاف وسكون الطاء) النحاس المذاب. وتقدّم في قوله تعالى { قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً } [الكهف:96]. استعارة لمصب ما يُصهر في مصانعه من النحاس حتّى يكون النحاس المذاب سائلاً خارجاً كما يخرج الماء من العين لشدّة إصهار النحاس وتوالي إصهاره فلا يزال يسيل.

ويجوز أن يكون السيلان مستعاراً لكثرة القطر كثرة تشبه كثرة ماء العيون والأنهار. ويكون { أَسَلْنَا } أيضا ترشيحا لاستعارة اسم العين لمعنى مذاب القطر، ووجه الشبه الكثرة.

{ **وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ** } يخدمه ويطيعه. يقال: أنا بين يديك، أي: مطيع، ولا يقضي هذا أن يكون عملته الجنّ وحدهم بل يقتضي أنّ من الجنّ عَمَلَة، وفي [النمل:17] {مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ }.

{ **وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ** } و**الزيغ**: تجاوز الحد والطريق. والمعنى: ومن يعص أمرنا الجاري على لسان سليمان. وذكر الجنّ في جند سليمان عليه السلام تقدّم في [النمل:17].

{ **عَذَابِ السَّعِيرِ** } تشبيه، أي: عذابا كعذاب جهنّم، وأمّا عذاب جهنم فإنّما يكون حقيقة يوم الحساب.

{ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ } [13].

{ **يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ** } جملة مبيّنة لجملة { يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ }. و{ **مِنْ مَحَارِيبَ** } بيان لـ { مَا يَشَاءُ }.

المحاريب: جمع محراب، وهو الحصن الذي يحارب منه العدو والمهاجم للمدينة، أو لأنّه يُرمى من شرفاته بالحراب، ثم أطلق على القصر الحصين. وهذا المعنى هو المراد في هذه الآية.

ثم أطلق المحراب على الذي يُختلى فيه للعبادة، فهوا بمنزلة المسجد الخاص، قال تعالى { فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ } [آل عمران 39]. وكان لداود محراب يجلس فيه للعبادة، قال تعالى { وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ } [ص:21].

وأمّا إطلاق المحراب على الموضع من المسجد الذي يقف فيه الإمام الذي يؤمّ الناس، يُجعل مثل كوة غير نافذة في حائط القبلة يقف الأمام تحته، فتسمية ذلك محرابا تسمية حديثة ولم أقف على تعيين الزمن الذي ابتدئ فيه إطلاق اسم المحراب على هذا الموقف. واتخاذ المحاريب في المساجد حدث في المائة الثانية.

وإنّما كانوا يسمّون بالمحراب موضع ذبح القربان في الكنيسة. والمذبح والمحراب مقتبسة من اليهود لما لا يخفى من تفرّع النصرانية عن دين اليهودية.

ورأيت إطلاق المحراب على الطاقة التي في المسجد في كلام الفراء، أي: في منتصف القرن الثاني، نقل الجوهري عنه أنّه قال: المحاريب صدور المجالس ومنه سمّي محراب المسجد.

والذي يظهر أنّ المسلمين ابتدأوا فجعلوا طاقات صغيرة دلالة على القبلة لئلّا يضل الداخل إلى المسجد يريد الصلاة، ثم وسّعوها شيئا فشيئا حتى صيروها في صوره نصف دهليز صغير في جدار القبلة يسع موقف الإمام، وأحسب أنّ أول وضعه كان عند بناء المسجد الأموي في دمشق، ثم إنّ الخليفة الوليد ابن عبد الملك أمر في جعله في المسجد النبوي حين وسّعه وأعاد بناءه وذلك في مدّة إمارة عمر بن عبد العزيز على المدينة حسبما ذكر السمهودي في كتاب (خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى).

التماثيل: جمع تِمثال (بكسر التاء)، وهو الصورة الممثَّلة، أي: المجسَّمة مثل شيء من الأجسام، فكان النحّاتون يعملون لسليمان صورا مختلفة كصور موهومة للملائكة وللحيوان. ولم تكن التماثيل المجسَّمة محرَّمة الاستعمال في الشرائع السابقة، وقد حرّمها الإسلام لقطع دابر الإشراك من نفوس العرب وغيرهم. وكان معظم الأصنام تماثيل فحرّم الإسلام اتخاذها لذلك، ولم يكن تحريمها لأجل اشتمالها على مفسدة في ذاتها ولكن لكونها كانت ذريعة للإشراك.

الجفان: جمع جفنة، وهي القصعة العظيمة التي يُجفن فيها الماء. وشُبِّهت بـالجوابي في عظمتها وسعتها.

{ **كَالْجَوَابِ** } جمع جابية وهي الحوض العظيم الواسع العميق الذي يُجمع فيه الماء للسقي.

القدور: جمع قِدر، وهي إناء يوضع فيه الطعام ليُطبخ. وهذه القدور هي التي يُطبخ فيها لجند سليمان ولسدنة الهيكل ولخدمه وأتباعه، وقد ورد ذكر القدور إجمالا في [سفر الأيام الثاني، الإصحاح:4، الفقرة:16].

الراسيات: الثابتات في الأرض التي لا تنزل من فوق أثافيها لتداول الطبخ فيها.

{ **اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً** } مقول قول محذوف، أي قلنا: اعملوا يا آل داود، ومفعول { اعْمَلُوا } محذوف دلّ عليه قوله { شُكْراً }. وتقديره: اعملوا عملًا صالحًا لشكر الله تعالى، فانتصب { شُكْرًا } على المفعول لأجله.

{ **وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** } تذييل، فهو من تمام المقول، وفيه حثّ على الاهتمام بالعمل الصالح.

ويجوز أن يكون هذا التذييل كلاما جديدا جاء في القرآن، أي: قلنا ذلك لآل داود فعمل منهم قليل ولم يعمل كثير وكان سليمان من الفئة القليلة.

{ **الشَّكُورُ** } كثير الشكر. وإذ كان العمل شكرا أفاد أنّ العاملين قليل.

{ **فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ** } [14].

تفريع على قوله تعالى { وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ - إلى قوله - وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ } [13/12].

{ **مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ** } لا شك أنّ ذلك لم يطل وقته لأنّ مثله في عظمة ملكه لا بد أن يفتقده أتباعه.

وضمير { دَلَّهُمْ } يعود إلى معلوم من المقام، أي: أهل بلاطه.
الدلالة: الإشعار بأمر خفي. وتقدّم ذلك عند قوله تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ } [7].
{ **دَابَّةُ الْأَرْضِ** } هي الأَرَضَة (بفتحات ثلاث) وهي السُّرْفة (بضم السين وسكون الراء): سوس ينخر الخشب. وقد سخر الله لمنساة سليمان كثيرا من السُرف فتعجَّل لها النخر.
المِنْسَأَة: (بكسر الميم وفتحها وبهمزة بعد السين، وتُخفَّفُ الهمزة فتصير ألفا) هي العصا العظيمة، قيل هي كلمة من لغة الحبشة.
{ **فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ** } مفرَّعة على جملة { مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ }. وجملة { تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ } جواب { لمّا خَرّ }، و{ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } بدل اشتمال من الجنّ. أي: تبيّن أمر الجنّ أنّهم لا يعلمون الغيب. وهذا إبطال لاعتقاد العامة يومئذ وما يعتقده المشركون أنّ الجنّ يعلمون الغيب، فلذلك كان المشركون يستعلمون المغيَّبات من الكهّان، ويزعمون أنّ لكلّ كاهن جنّيّا يأتيه بأخبار الغيب، ويسمونه رئيًّا.
{ **الْعَذَابِ الْمُهِينِ** } المذلّ، أي: المؤلم المتعب.

{ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ } [15].

جرّ خبرُ سليمان عليه السلام إلى ذكر سبأ لما بين مُلك سليمان وبين مملكة سبأ من الاتصال بسبب قصة بلقيس، ولأنّ في حال أهل سبأ مضادة لأحوال داود وسليمان، إذ كان هذان مثلا في إسباغ النعمة على الشاكرين، وكان أولئك مثلا لسلب النعمة عن الكافرين، وفيهم موعظة للمشركين إذ كانوا في بحبوحة من النعمة فلمّا جاءهم رسول من المنعِم عليهم يذكِّرهم بربّهم ويوقظهم بأنّهم خاطئون إذ عبدوا غيره كذَّبوه وأعرضوا عن النظر في دلالة تلك النعمة على المنعِم المتفرّد بالإلهية.
فهذه القصة تمثيل أمّة بأمّة، وبلاد بأخرى، وفيها عبرة وتعريض.
{ **لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ** } أي: لقد كان لسبأ في حال مساكنهم ونظام بلادهم آية.
الآية: هنا الأمارة والدلالة بتبدّل الأحوال وتقلّب الأزمان، فهي آية على تصرّف الله ونعمته عليهم فلم يهتدوا بتلك الآية فأشركوا به، وقد كان في إنعامه عليهم ما هو دليل على وجوده ثمّ على وحدانيّته.
{ **لَقَدْ** } التأكيد بلام القسم وحرف التحقيق لتنزيل المخاطَبين بالتعريض بهذه القصة منزلة من يتردّد في ذلك لعدم اتعاظهم بحال قوم من أهل بلادهم.
{ **كَانَ** } تجريدها من تأنيث الفعل لأنّ اسمها غير حقيقي للتأنيث ولوقوع الفصل المجرور.
المساكن: البلاد التي يسكنونها بقرينة قوله تعالى { جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ } والمساكن: حقيقة ديار

السكنى. وتقدّم الكلام على سبأ عند قوله تعالى { وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ } [النمل:22].
واسم سبأ يطلق على الأمّة كما هنا، وعلى بلادهم كما في آية النمل.
{ **جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ** } تشبيه بليغ، قيل: كان لكلّ رجل في مسكنه جنتان، جنّة عن يمين المسكن وجنة عن شماله، فكانوا يتفيَّؤون ظلالهما في الصباح والمساء ويجتنون ثمارها، فيكون معنى التركيب على التوزيع، أي: لكل مسكن جنتان، وهذا مناسب لقوله تعالى { مَسْكَنِهِمْ } دون أن يقول في بلادهم.
ويجوز أن يكون المراد أنّ مدينتهم، وهي **مأْرب** (بهمزة ساكنة بعد الميم) وهي بين صنعاء وحضرموت، كانت محفوفة على يمينها وشمالها بغابة من الجنّات يصطافون فيها ويستثمرونها مثل غوطة دمشق، وهذا يناسب قوله تعالى بعد { وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ } [16]، لأنّ ظاهره أنّ المبدل به جنتان اثنتان.
والمعنى: أنّهم كانوا أهل جنّات مغروسة أشجارا مثمرة وأعنابا. وكان ذلك بسبب تدبير ألهمهم الله إيّاه في اختزان المياه النازلة في مواسم المطر بما بنوا من السدّ العظيم في مأرب. قيل: كانوا يزرعون ثلاث مرات في كل عام.
{ **كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ** } مقول قول؛ إمّا من دلالة لسان الحال، وإما أُبْلِغوه على ألسنة أنبياء بعثوا منهم، قيل: بُعث فيهم اثنا عشر نبيّا، مثل تُبَّع أسعد، فقد نُقل أنّه كان نبيّا كما أشار إليه قوله تعالى { وَقَوْمُ تُبَّعٍ } [ق:14] أو غيره، قال تعالى { مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ} [غافر:78]، أو ممّا قاله سليمان لبلقيس، أو ممّا قاله الصالحون من رسل سليمان.
{ **بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ** } من تمام القول وهي مستأنفة في الكلام المقول، أي: بلدة لكم طيّبة، وتنكير { بَلْدَة } للتعظيم.
الطيبة: الحسنة في جنسها الملائمة لمزاولها ومستثمرها، قال تعالى { وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ } [يونس:22]، وقال تعالى { فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً } [النحل: 97].
وفي حديث أبي طلحة في صدقته بحائط (بئر حاء): " وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماءٍ فيها طيّب ". والطيب ضدّ الخبيث، واشتقاقه من الطِيب (بكسر الطاء) بوزن فِعْل وهو الشيء الذي تعبق منه رائحة لذيذة. قال تعالى { وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ } [النساء:2].
{ **وَرَبٌّ غَفُورٌ** } عطف على جملة { بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ }. وتنكير { رَبّ } للتعظيم. وهو مبتدأ محذوف الخبر على وزان { بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ }، والتقدير: وربّكم غفور.
{ **غَفُور** } متجاوز عنكم، أي: عن كفرهم الذي كانوا عليه قبل إيمان بلقيس بدين سليمان عليه السلام، ولا يعلم مقدار مدة بقائهم على الإيمان.

{ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ } [16].

تفريع على قوله تعالى { وَاشْكُرُوا لَهُ } [15] وقع اعتراضا بين أجزاء القصة التي بقيتها قوله تعالى { وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى ...} [18]. وهو اعتراض بالفاء.

{ **فَأَعْرَضُوا** } الإعراض يقتضي سبق دعوة رسول أو نبيّ، والمعنى: أعرضوا عن الاستجابة لدعوة التوحيد بالعودة إلى عبادة الشمس بعد أن اقلعوا في زمن سليمان وبلقيس، وقد قيل إنّ بلقيس لم تعمَّر بعد زيارة سليمان إلّا بضع سنين.

الإرسال: الإطلاق وهو ضدّ الحبس، وتعديّته بحرف (على) مُوذِنة بأنّه إرسال نقمة، فإنّ سيل العرم كان محبوسا بالسد في مأرب فكانوا يرسلون منه بمقدار ما يسقون جنّاتهم.

فلمّا كفروا بالله بعد الدعوة للتوحيد قدّر الله لهم عقابا بأن قدّر أسباب انهدام السد فاندفع ما فيه من الماء فكان لهم خطرا وإتلافا للأنعام والأشجار، ثم أعقبه جفاف باختلاف نظام تساقط الأمطار وانعدام الماء وقت الحاجة إليه، وهذا جزاء على إعراضهم وشركهم.

{ **الْعَرِم** } يجوز أن يكون وصفا من العرامة وهي الشدّة والكثرة. ويجوز أن يكون اسما للسيل الذين كان ينصبّ في السدّ، فتكون الإضافة من إضافة المُسمّى إلى الاسم، أي: السيل العرم. وكانت للسيول والأدوية في بلاد العرب أسماء كقولهم: سيل مهزور ومذينيب الذي كانت تسقى به حدائق المدينة، ويدلّ على هذا المعنى قول الأعشى: ومأرب عفى عليها العرم

وقيل: { الْعَرِم } اسم جمع **عَرَمة**، وهو ما بُني ليمسك الماء، لغة يمنية وحبشية. وهي المسناة بلغة أهل الحجاز، والمسناة، التي هي أسم الآلة، مشتق من سَنَيْتُ بمعنى سقيت، ومنه سُمّيت الساقية سانية، وهي الدلو المستقى به. والمعنى: أرسلنا السيل الذي كان مخزونا بالسدّ.

وكان سدّ مأرب أعظم السداد في بلاد اليمن التي كانت فيها سداد كثيرة متفرّقة، وكانوا جعلوا هذه السداد لخزن الماء الذي تأتى به السيول في وقت نزول الأمطار في الشتاء والربيع، ليسقوا منها المزارع والجنّات في وقت انحباس الأمطار في الصيف والخريف.

وكان شرع في بنائه **سبأ** أوّل ملوك هذه الأمّة ولم يتمّه فأتمّه ابنه **حِمْيَر**. وأمّا ما يقال من أن بلقيس بنته فذلك اشتباه إذ لعلّ بلقيس بنت حوله خزانات أخرى فرعيّه أو رمّمت بناءه، فقد كانوا يتعهّدون تلك السداد بالإصلاح والترميم كلّ سنّة.

ولا يُعرف وقت انهدام هذا السدّ ولا أسباب ذلك. والظاهر أنّ سبب انهدامه اشتغال ملوكهم بحروب داخلية بينهم ألهتهم عن تفقّد ترميمه حتّى تخرّب، أو يكون قد خرّبه بعض من حاربهم من أعدائهم.

وأمّا ما يذكر في القصص من أنّ السدّ خرّبته الجرذان فذلك من الخرافات.

التبديل: تعويض شيء بآخر وهو يتعدّى إلى المأخوذ بنفسه وإلى المبذول بالباء وهي باء العوض، كما

تقدّم في قوله تعالى { وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ } [النساء:2].

فالمعنى: أعطيناهم أشجار خَمْط وأثل وسدر عوض عن جنّتيهم، أي: صارت بلادهم قاحلة ليس فيها إلا شجر العِضاة والبادية. وفيما بين هذين الحالين أحوال عظيمة انتابتهم فقاسوا العطش وفقدان الثمار حتّى اضطروا إلى مفارقة تلك الديار، فلمّا كانت هذه النهاية دالة على تلك الأحوال طُوِيَ ذكر ما قبلها واقتصر على { وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ ...}.

{ **وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ** } إطلاق اسم الجنتين على هذه المنابت مشاكلة للتهكّم.

{ **أُكُلٍ** } (قرأ نافع وابن كثير بضم الهمزة وسكون الكاف. وقرأه باقي العشرة بضم الكاف): المأكول.

الخَمْط: شجر الأراك. ويطلق الخمط على الشيء المُر.

الأثل: شجر عظيم من شجر العِضاة يشبه الطرفاء.

السدر: شجر من العِضاة أيضا له شوك يشبه شجر العناب. وكلها تنبت في الفيافي، والسدر أكثرها ظلًّا وأنفعها لأنّه يُغسل بورقه مع الماء فينظِّف وفيه رائحة حسنة، ولذلك وصف هنا بالقليل لإفادة أن معظم شجرهم لا فائدة منه.

{ **وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ** } زيد تقليله قلّة بذكر كلمة { شَيْءٍ } المؤذنة في ذاتها بالقلة، يقال: شيء من كذا، إذا كان قليلا. وفي القرآن { وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ } [يوسف:67].

{ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ } [17].

استئناف بياني ناشئ عن قوله تعالى { فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ } [16] فهو من تمام الاعتراض.

{ **ذَلِكَ** } اسم الإشارة يجوز أن يكون في محل نصب نائبا عن المفعول المطلق المبيّن لنوع الجزاء، وهو من البيان بطريق الإشارة، أي: جزيناهم الجزاء المشار إليه، وهو ما تقدّم من التبديل بجنتيهم جنتين أخريين. وتقديمه على عامله للاهتمام بشدّة ذلك الجزاء. واستحضاره باسم الإشارة لما فيه من عظمة هوله.

ويجوز أن يكون اسم الإشارة في محل رفع بالابتداء وتكون الإشارة إلى ما تقدّم من قوله تعالى{ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ - إلى قوله - مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ }، وجملة { جَزَيْنَاهُمْ } خبر المبتدأ.

{ **بِمَا كَفَرُوا** } الباء للسببية و(مَا) مصدرية، أي: بسبب كفرهم، وهو الكفر بالله.

{ **وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ** } الاستفهام إنكاري في معنى النفي كما دلّ عليه الاستثناء.

{ **الْكَفُورُ** } شديد الكفر، لأنّهم كانوا لا يعرفون الله و يعبدون الشمس، فهم أسوأ حالا من أهل الشرك.

والمعنى: ما يجازى ذلك الجزاء إلّا الكفور لأن ذلك الجزاء عظيم في نوعه.

{ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرىً ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ } [18].

تكملة القصة بذكر نعمة بعد نعمة، فإنّ ما تقدّم لنعمة الرخاء والبهجة وطيب الإقامة، وما هنا لنعمة الأمن وتيسير الأسفار وعمران بلادهم.

{ **وَجَعَلْنَا** } إسناد جعل تلك القرى إلى الله تعالى لأنّه الملهم الناس والملوك، أو لأنّه الذي خلق لهم تربة طيّبة تتوفّر محاصيلها على حاجة السكان فتسمح لهم بتطلّب ترويجها في بلاد أخرى.

{ **الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا** } قرى بلاد الشام، فكانوا إذا خرجوا من مأرب إلى البلاد الشامية، قوافل للتجارة وبيع الطعام، سلكوا طريق تهامة ثم الحجاز ثم مشارف الشام ثم بلاد الشام، فكانوا كلّما ساروا مرحلة وجدوا قرية أو بلدا أو دارا للاستراحة، فاستراحوا وتزوّدوا. فكانوا من أجل ذلك لا يحملون معهم أزوادا إذا خرجوا من مأرب.

{ **قُرىً ظَاهِرَةً** } يحتمل أنها تكونت من عمل الناس القاطنين حفافي الطريق السابلة قصد استجلاب الانتفاع بنزول القوافل بينهم وابتياع الأزواد منهم وإيصال ما تحتاجه تلك القرى من السلع والثمار.

ويحتمل أنّ سبأ أقاموا مباني يأوون إليها عند كلّ مرحلة من مراحل أسفارهم واستنبطوا فيها الآبار والمصانع وأوكلوا بها من يحفظها ويكون لائذا بهم عند نزولهم. فيكون ذلك من جملة ما وطّد لهم ملوكهم من أسباب الحضارة والأمن على القوافل.

{ **ظَاهِرَةً** } متقاربة، بحيث يظهر بعضها لبعض ويتراءى بعضها من بعض. وقيل: الظاهرة التي تظهر للسائر من بعد، بأن كانت القرى مبنيّة على الآكام والظراب يشاهدها المسافر فلا يضلّ طريقها.

قال ابن عطية: " الذي يظهر لي أنّ معنى { ظَاهِرَةً } أنّها خارجة عن المدن، فهي في ظواهر المدن، ومنه قولهم: نزلنا بظاهر المدينة الفلانية، أي خارجا عنها. فقوله تعالى { ظَاهِرَةً } كتسمية الناس إياها بالبادية وبالضاحية وفي حديث الاستسقاء: " وجاء أهل الظواهر يشتكون الغرق ". وهو تفسير جميل.

{ **وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ** } أي: أنّ أبعادها على تقدير وتعادل بحيث لا يتجاوز مقدار مرحلة. فكان الغادي يقيل في قرية والرائح يبيت في قرية.

{ **سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ** } مقول قول محذوف. والجملة بيان لجملة { قَدَّرْنَا } أو بدل اشتمال منها.

وكانوا يسيرون غدوًّا وعشيا فيسيرون الصباح ثم تعترضهم قرية فيريحون فيها ويقيلون، ويسيرون المساء فتعرضهم قرية يبيتون بها. فالمعنى: سيروا كيف شئتم.

وتقديم الليالي على الأيام بها في مقام الامتنان، لأنّ المسافرين أحوج إلى الأمن في الليل منهم إليه في النهار.

{ **فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ** } [19].

{ **فَقَالُوا رَبَّنَا** } الفاء لتعقيب قولهم هذا إثر إتمام النعمة عليهم باقتراب المدن وتيسير الأسفار، والتعقيب في كل شيء بحسبه، فلمّا تمّت النعمة بطروها فحلّت بهم أسباب سلبها عنهم.

ومن أكبر أسباب زوال النعمة كفرانها. قال الشيخ ابن عطاء الله الإسكندري: " من لم يشكر النِّعم فقد تعرض لزوالها ومن شكرها فقد قيدها بعقالها ".

والأظهر عندي أن يكون هذا القول قالوه جوابا عن مواعظ أنبيائهم والصالحين منهم حين ينهونهم عن الشرك، فهم يعظونهم بأنّ الله أنعم عليهم بتلك الرفاهية فهم يجيبون بهذا القول إفحاما لدعاة الخير منهم، على نحو قول كفّار قريش { اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [الأنفال:32]. فقوله تعالى قبل هذا { فَأَعْرَضُوا } [16] يقتضي دعوة لشيء، ويزيد هذا المعنى قوّة قوله تعالى { وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ } عقب حكاية قولهم.

{ **بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا** } المباعدة بصيغة المفاعلة القائمة مقام همزة التعدية والتضعيف. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: " **اللّهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب** ".

فالمعنى: ربنا ابعد بين أسفارنا. والتركيب يعطي معنى: اجعل البعد بين أسفارنا. ولمّا كانت { بَيْنَ } تقتضي أشياء تعيّن أنّ المعنى: باعد بين مراحل أسفارنا.

{ **وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ** } إمّا معطوف على جملة { فَقَالُوا }، أي: فأعقبوا ذلك بكفران النعمة وبالإشراك، فإنّ ظلم النفس أطلق كثيرا على الإشراك في القرآن. ويجوز أن تكون الجملة في موضع الحال، أي: قالوا ذلك وقد ظلموا أنفسهم بالشرك.

وعلى الاعتبارين فإن العقاب إنّما كان مسبَّبا بسببين:

فالمسبَّب على الكفر هو **استئصالهم**، وهو مدلول قوله تعالى { فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ }.

والمسبَّب على كفران نعمة تقارب البلاد هو **تمزيقهم كل ممزّق**، أي: تفريقهم.

فنظم الكلام جاء على طريقة اللف والنشر المشوّش، على غير ترتيب.

{ **فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ** } جعلنا أولئك الذين كانوا في الجنّات وفي بحبوحة العيش أحاديث، أي: لم يبق منهم أحد، والمعنى: أنّهم هلكوا وتحدّث الناس بهم.

أو أريد: فجعلناهم أحاديث اعتبار وموعظة، أي: فأصبناهم بأمر غريب من شأنه أن يتحدّث به الناس.

{ **وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ** } التمزيق: تقطيع الثوب قطعا، استعير هنا للتفريق، تشبيها لتفريق جامعة القوم شذر مذر بتمزيق الثوب قطعا.

وأشارت الآية إلى التفرّق الشهير الذي أصيبت به قبيلة سبأ إذ حملهم خراب السدّ وقحولة الأرض إلى مفارقة تلك الأوطان مفارقة وتفريقا ضربت به العرب المثل في قولهم: ذهبوا، أو تفرقوا أيدي سبا.

وكانت سبأ قبيلة عظيمة تنقسم إلى عشرة أفخاذ وهم: (الأزد - كِندة - مذحج - الأشعريون - أنمار - بجيلة - عاملة [وهم خُزاعة] - غسان - لخم - جُذام.)

فلمّا فارقوا مواطنهم فالستة الأوّلون تفرّقوا في اليمن، ولأربعة الأخيرون خرجوا إلى جهات قاصية فلحقت الأزد بعمان، ولحقت خزاعة بتهامة في مكة، ولحقت الأوس والخزرج [لعلهم معدودون في لخم] بيثرب، ولحقت غسان ببُصرى والغوير من بلاد الشام، ولحقت لخم بالعراق.

وعندي أنّ ذلك لا يخلو من خذلان من الله تعالى سلبهم التفكير في العواقب فاستخف الشيطان أحلامهم فجزعوا من انقلاب حالهم ولم يتدرَّعوا بالصبر حين سُلبت عنهم النعمة ولم يجأروا إلى الله بالتوبة فبعثهم الجزع والطغيان والعناد وسوء التدبير من رؤسائهم على أن فارقوا أوطانهم عوضا من أن يلموا شعثهم ويرقعوا خرقهم فتشتتوا في الأرض، ولا يخفى ما يلاقون من ذلك من نصب وجوع ونقص من الأنفس والحمولة والأزواد، والحلول في ديار أقوام لا يرثون لحالهم ولا يسمحون لهم بمقاسمة أموالهم فيكونون بينهم عافين.

{ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ** } تذييل فلذلك قطعت، وافتتاحها بأداة التوكيد للاهتمام بالخبر.

والمشار إليه بذلك هو ما تقدّم من قوله تعالى { لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسَاكِنِهِمْ آيَةٌ } [15].

ويظهر أنّ هذا التذييل تنهية للقصة وأنّ ما بعده متعلّق بالغرض الأول للسورة المتعلق بأقوال المشركين.

{ **الآيَات** } جُمع لأنّ في تلك القصة عدّة آيات وعبر:

*/ فحالة مساكنهم آية على قدرة الله ورحمته وإنعامه.

*/ وفي إرسال سير العرم عليهم آية على انفراده وحده بالتصرّف، وعلى أنّه المنتقم، وعل أنّه واحد.

*/ وفي انعكاس حالهم من الرفاهة إلى الشظف آية على تقلّب الأحوال وتغيّر العالم. وآية على صفات الأفعال لله تعالى من خلق ورزق وإحياء وإماتة.

*/ وفي ذلك آية من عدم الاطمئنان لدوام حال في الخير والشر.

*/ وفيما كان من عمران إقليمهم واتساع قراهم إلى بلاد الشام آية على مبلغ العمران وعظم السلطان.

*/ وآية على أنّ الأمن أساس العمران. وفي تمنّيهم زوال ذلك آية على ما قد تبلغه العقول من الانحطاط المفضي إلى اختلال أمور الأمّة وذهاب عظمتها.

*/ وفيما صاروا إليه من النزوح عن الأوطان والتشتُّت في الأرض آية على ما يلجئ الاضطرار إليه الناس من ارتكاب الأخطار والمكاره.

{ **صَبَّارٍ شَكُورٍ** } الجمع بينهما في الوصف لإفادة أنّ واجب المؤمن التخلّق بالخلقين وهما: الصبر على المكاره، والشكر على النعم، وهؤلاء المتحدَّث عنهم لم يشكروا النعمة فبطروها، ولم يصبروا على ما أصابهم من زوالها فاضطربت نفوسهم وعمّهم الجزع فخرجوا من ديارهم وتفرَّقوا في الأرض.

{ **وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [20] وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ [21]** }.

الأظهر أنّه عطف على قوله تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ } [7]، وأنّ ما بينهما من الأخبار المسوقة للاعتبار، كما تقدم، واقع موقع الاستطراد والاعتراض، فيكون ضمير { عَلَيْهِمْ } عائدا إلى { الَّذِينَ كَفَرُوا } [7].

والذي درج عليه المفسّرون أنّ ضمير { عَلَيْهِمْ } عائد إلى سبأ المتحدّث عنهم. ولكن لا مفر من أنّ قوله تعالى بعد ذلك { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ...} [22] هو عود إلى محاجّة المشركين.

وصلوحية الآية للمحملين ناشئة من موقعها، وهذا من بلاغة القرآن.

فالمقصود تنبيه المؤمنين إلى مكائد الشيطان وسوء عاقبة أتباعه ليحذروه ويستيقظوا لكيده فلا يقعوا في شرك وسوسته.

{ **وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ** } إيجاز حذف لأنّ صدق الظنّ المفرَّع عنه اتِّباعهم يقتضي أنّه دعاهم إلى شيء ظانا استجابة دعوته إيّاهم.

قرأ الجمهور { صَدَقَ } بتخفيف الدال، فـ { إِبْلِيسُ } فاعل و{ ظَنَّهُ } منصوب على نزع الخافض، أي: في ظنّه. و{ عَلَيْهِمْ } متعلّق بـ { **صَدَقَ** } لتضمينه معنى أوقع أو ألقى، أي: أوقع عليهم ظنّه فصدق فيه.

والصِدْقُ بمعنى الإصابة في الظنّ، لأنّ الإصابة مطابقة للواقع، فهي من قبيل الصدق.

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف { **صَدَّقَ** } بتشديد الدال، بمعنى حقَّق ظنَّه عليهم حين انخدعوا لوسوسته فهو لمّا وسوس لهم ظنّ أنّهم يطيعونه فجَدَّ في الوسوسة حتّى استهواهم فحقَّق ظنَّه عليهم.

{ **عَلَيْهِمْ** } إيماء إلى أنّ عمل إبليس كان من جنس التغلّب والاستعلاء عليهم.

{ **فَاتَّبَعُوهُ** } تفريع وتعقيب، أي: تحقَّق ظنّه حين انفعلوا لفعل وسوسته فبادروا إلى العمل بما دعاهم إليه من الإشراك والكفران.

{ **إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** } استثناء، وهو متّصل إن كان ضمير { اتّبَعُوه } عائدا على المشركين، وأمّا إن كان عائدا على أهل سبا فيحتمل الاتصال إن كان فيهم مؤمنين وإلّا فهو استثناء منقطع.

أي: لم يعصه في ذلك إلّا فريق من المؤمنين، وهم الذين آمنوا من أهل مكة، أو الذين آمنوا من أهل سبأ.

الفريق: الطائفة مطلقا، واستثناؤها من ضمير الجماعة يؤذن بأنّهم قليل بالنسبة للبقية، وإلّا فإنّ الفريق يصدق بالجماعة الكثيرة كما في قوله تعالى { فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ } [الأعراف:30].

{ **وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ** } أي: ما كان للشيطان من سلطان على الذين اتّبعوه. أي: ليست له قدرة ذاتية هو مستقل بها يتصرّف بها في العالم كيف يشاء، لأنّ تلك القدرة خاصة بالله تعالى.

{ **إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ** } استثناء من علل. فيفيد أنّ تأثير وسوسته فيهم كان

بتمكين من الله، فيتأثّر منها فريق وينجو منها فريق بما أودع الله في هؤلاء وهؤلاء من قوّة الانفعال والممانعة على حسب السنن التي أودعها الله في المخلوقات.

ويجوز أن يكون الاستثناء من عموم سلطان، فيدلّ على أنّه سلطان مجعول له بجعل الله، بقرينة أنّ تعليله مسند إلى ضمير الجلالة.

وانظر ما قلناه عند قوله تعالى { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ } [الحجر:42].

فالمعنى: ليظهر من يؤمن بالآخرة ويتميّز عمّن هو منها في شك، فيعلمه من يعلمه، ويتعلّق علمنا به تعلّقا جزئيا عند حصوله يترتب عليه الجزاء. فقد ذكرنا فيما تقدّم أن لا محيص من اعتبار تعلّق تنجيزي لعلم الله.

{ **مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ** } جملة فعلية، لأنّ الإيمان بالآخرة طارئ على كفرهم السابق ومتجدّد ومتزايد آنا فآنا.

{ **مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ** } جاءت الجملة اسمية لأنّ شكّهم في الآخرة أمر متأصّل فيهم.

{ **فِي** } جيء بحرف الظرفية للدلالة على إحاطة الشك بنفوسهم.

{ **وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ** } تذييل. و**الحفيظ:** الذي لا يخرج عن مقدرته ما هو في حفظه، وصيغة فعيل تدلّ على قوّة الفعل. وهو يقتضي العلم والقدرة، إذ بمجموعهما تتقوّم ماهية الحفظ، ولذلك يُتبع الحفظ بالعلم كثيرا كقوله تعالى { إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ } [يوسف:55].

{ **كُلِّ شَيْءٍ** } أفاد العموم أنّه لا يخرج عن علمه شيء من الكائنات.

{ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ [22] وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ [23] }.

عود إلى إبطال أقوال المشركين، وسيق لهم من الكلام ما فيه توقيف على أخطائهم.

{ **قُلْ** } افتُتح الكلام بأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ما هو متتابع في بقية هذه الآيات، فأُمر بالقول تجديدا لمعنى التبليغ الذي هو مهمّة كلّ القرآن.

{ **ادْعُوا** } الأمر مستعمل في التخطئة والتوبيخ، أي: استمروا على دعائكم.

{ **الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ** } أي: زعمتموهم أربابا، فحذف مفعولا الزعم: أمّا الأوّل فحذف لتخفيف الصلة بمتعلّقاتها لأنّه ضمير متصل، وأمّا الثاني فحذفه لدلالة صفته عليه وهي { مِنْ دُونِ اللَّهِ }.

{ **لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ** } نُفي عنهم مِلك أحقر الأشياء. أي: لا يملكون شيئا

في السماوات ولا في الأرض. وإعادة حرف النفي تأكيد له للاهتمام به.

المثقال: إمّا آلة الثقل، فهو اسم للصنوج التي يوزن بها، فأطلق على العديل مجازا مرسلا، وإمّا مصدر ميمي سُمِّي به الشيء الذي به التثقيل، ثم أطلق على العديل مجازا، وتقدّم عند قوله { وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ } [الأنبياء 47].

الذرّة: بيضة النمل التي تبدوا حبيبة صغيرة بيضاء، وتقدّم عند قوله تعالى { وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ } [يونس:61].

{ **وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ** } أتبع بنفي أن يكون لهم الشرك في شيء من السماء والأرض، أي: شرك مع الله كما هو السياق، فلم يُذكر متعلّق الشرك إيجازا لأنّه محل الوفاق.

{ **وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ** } ثم نفى أن يكون منهم ظهير، أي: معين لله تعالى. وتقدّم **الظهير** في قوله تعالى { وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً } [الإسراء:88]. وهنا تعيّن التصريح بالمتعلّق ردا على المشركين إذ زعموا أنّ آلهتهم تقرّب إليه وتبعد عنه.

{ **وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ** } ثم أتبع ذلك بنفي أن يكون شفيع عند الله يضطرّه إلى قبول الشفاعة فيمن يشفع له لتعظيم أو حياء. وقد صُرّح بالمتعلّق هنا أيضا ردًّا على قول المشركين { هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ } [يونس:18]، فنفيت شفاعتهم في عموم نفي كل شفاعة نافعة عند الله إلّا شفاعة من أذن الله أن يشفع. وفي هذا إبطال شفاعة أصنامهم.

{ **تَنْفَعُ** } النفع يجيء بمعنى حصول المقصود من العمل ونجاحه، كقوله تعالى { لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ } [الأنعام: 158]، ويجيء بمعنى المساعد الملائم وهو ضد الضار، وهو أكثر إطلاقه.

فالنفع بالمعنى الأوّل في الآية يفيد القبول من الشافع لشفاعته، وبالمعنى الثاني يفيد انتفاع المشفوع له بالشفاعة.

{ **إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ** } استثناء من جنس الشفاعة المنفي بقرينة وجود اللام، وليس استثناء متعلق { تَنْفَعُ }، أي: لا تقبل شفاعة إلّا شفاعة كائنة لمن أذن الله له.

وإنّما جيء بنظم هذه الآية على غير ما نظمت عليه غيرها لأنّ المقصود هنا إبطال رجاؤهم أن تشفع لهم آلهتهم عند الله فينتفعوا بشفاعتها، لأنّ أوّل الآية توبيخ وتعجيز لهم في دعوتهم الآلهة المزعومة فاقتضت إبطال الدعوة والمدعو.

{ **حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ** } أفادت { حَتَّى } الغاية بأصل وضعها، وهي هنا غاية لما أفهمه قوله تعالى { إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ } من أنّ هنالك إذنا يصدر من جانب المولى عزّ وجلّ، يأذن الله به ناسا من الأخيار بأن يشفعوا، كما جاء تفصيل بعض هذه الشفاعة في الأحاديث الصحيحة.

التقدير: إلّا لمن أذن له، ويومئذ يبقى الناس مرتقبين الأذن لمن يشفع، فزعين من أن لا يُؤذن لأحد زمنا ينتهي بوقت زوال الفزع عن قلوبهم حين يؤذن للشافعين بأن يشفعوا، وهو إيجاز حذف.

{ **فُزِّعَ** } بُني للمجهول لتعظيم ذلك التفزيع بأنّه صادر من جانب عظيم. والتفزيع يحصل لهم بانكشاف إجمالي يلهمونه فيعلمون بأنّ الله أذن بالشفاعة ثم يتطلبون التفصيل بقولهم:

{ **مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ** } ليعلموا من أذن له ممّن لم يؤذن له، وهذا كما يُكرِّر النظر ويعاود المطالعة من ينتظر القبول، أو هم تساءلون عن ذلك من شدّة الخشية، فإنّهم إذا فُزِّع عن قلوبهم تساءلوا لمزيد التحقيق بما استبشروا به فيجابون أنّه قال الحقّ.

{ **قَالُوا الْحَقَّ** } الضمير عائد إلى المسؤولين وهم الملائكة.

{ **الْحَقَّ** } يظهر أنّها وقعت حكاية لمقول الله بوصف يجمع متنوّع أقوال الله تعالى حينئذ من قبول شفاعة في بعض المشفوع فيهم ومن حرمان لغيرهم، كما يقال: ماذا قال القاضي للخصم؟ فيقال: قال الفصل.

{ **وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ** } تتمة جواب المجيبين، عطفوا تعظيم الله بذكر صفتين من صفات جلاله.

العلوّ: علوّ الشأن الشامل لمنتهى الكمال في العلم.

الكبر: العظمة المعنوية، وهي منتهى القدرة والعدل والحكمة.

وتخصيص هاتين الصفتين لمناسبة مقام الجواب، أي: قد قضى بالحق لكل أحد بما يستحقّه، فإنّه لا يخفي عليه حال أحد ولا يعوقه عن إيصاله إلى حقّه عائق. وتقدم ذكر هاتين الصفتين في قوله تعالى { وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ } [الحج:62].

{ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ} [24].

انتقال من دمغ المشركين بضعف آلهتهم وانتفاء جدواها عليهم في الدنيا والآخرة إلى إلزامهم بطلان عبادتها بأنّها لا تستحق العبادة لأنّ مستحق العبادة هو الذي يرزق عباده، فإنّ العبادة شكر.

{ **قُلْ** } أُعيد الأمر بالقول لزيادة الاهتمام بالمقول.

{ **مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ** } استفهام للتنبيه على الخطأ ولذلك أعقب بالجواب من طرف السائل بقوله { قُلِ اللَّهُ }، لتحقّق أنّهم لا ينكرون ذلك الجواب، كما في قوله تعالى { قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ - إلى قوله - فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ } [يونس:31].

وتقدّم نظير في [الرعد:16].

{ **وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ** } عُطف على الاستفهام إبراز المقصد بطريقة خفيّة توقع الخصم في شرك المغلوبية وذلك بترديد حالتي الفريقين بين حالة هدى وحالة ضلال، لأنّ حالة كل فريق لمّا كانت على الضدّ من حال الفريق الآخر، بين موافقة الحق وعدمها، تعيّن أن أمر الضلال والهدى

دائر بين الحالتين لا يعدونهما ولذلك جيء بحرف (أَوْ) المفيد للترديد المنتزع من الشك.

وهذا اللون من الكلام يُسمَّى الكلام المنصف، وهو أن لا يترك المجادل لخصمه موجب تغيّظ واحتداد في الجدال، ويُسمَّى في علم المناظرة إرخاء العنان للمناظر، ومع ذلك فقرينة إلزامهم الحجّة قرينة واضحة.

{ **لَعَلَى** } جيء في جانب أصحاب الهدى بحرف الاستعلاء المستعار للتمكّن.

{ **فِي** } جيء في جانب الضالين بحرف الظرفية المستعار لشدة التلبّس بالوصف تمثيلا لحالهم في إحاطة الضلال بهم بحال الشيء في ظرف محيط به لا يتركه يفارقه ولا يتطلّع منه على خلاف ما هو فيه.

فحصل في الآية أربع استعارات وثلاثة مُحسّنات من البديع وأسلوب بياني، وحجّة قائمة، وهذا إعجاز بديع.

{ **قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ** } [25].

لمّا كان هذا القول يتضمّن بيانا للقول الذي قبله فُصلت الجملة عن أختها إذ لا يُعطف البيان على المبين بحرف النسق. وفصلت أيضا لتكون مستقلة بنفسها ليخُصَّها السامع بالتأمّل في مدلولها، فيجوز أن تعتبر استئنافا ابتدائيا، وهي مع ذلك اعتراض بيّن أثناء الاحتجاج.

وهذا ضرب من المشاركة والموادعة ليخلوا بأنفسهم فينظروا في أمرهم ولا يلهيهم جدال المؤمنين عن استعراض ومحاسبة أنفسهم، وأسندوا العمل على إطلاقه في جانب المخاطبين لأنّ النظر والتدبّر بعد ذلك يكشف عن كنه كلا العملين.

السؤال: كناية عن أثره وهو الثواب على العمل الصالح والجزاء على الإجرام بمثله.

{ **قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ** } [26].

{ **قُلْ** } إعادة لزيادة الاهتمام بهذه المحاجّات لتكون كّل مجادلة مستقلّة غير معطوفة، فتكون استئنافا ابتدائيا. وأيضا هي بمنزلة البيان للتي قبلها لأنّ نفي سؤال كلّ فريق عن عمل غيره يقتضي أنّ هنالك سائلا ويوما للسؤال. فبيّن بأنّ الذي يسأل الناس عن أعمالهم هو الله تعالى وأنّه الذي يفصل بين الفريقين بالحق حين يجمعهم يوم القيامة الذي هم منكروه.

وهنا تدرّج الجدل من الإيماء إلى الإشارة القريبة من التصريح لما في إثبات يوم الحساب والسؤال من المصارحة بأنّهم الضالون. ويُسمّى هذا التدرج عند أهل الجدل بالترقِّي.

الفتح: الحكم والفصل بالحق، كقوله تعالى { رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ } [الأعراف:89]، وهو مأخوذ من فتح الكوّة لإظهار ما خلفها.

{ **وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ** } تذييل بوصفه تعالى بكثرة الحكم وقوّته وإحاطة العلم.

وإنما أتبع { الْفَتَّاحُ } بـ { الْعَلِيمُ } للدلالة على أنّ حكمه عدل محض لأنّه عليم لا تحفّ بحكمه أسباب الخطأ والجور الناشئة عن الجهل والعجز واتّباع الضعف النفساني الناشئ عن الجهل بالأحوال والعواقب.

{ **قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } [27].

أعيد الأمر بالقول رابع مرة لمزيد الاهتمام، وهو رجوع إلى مهيع الاحتجاج على بطلان الشرك، فهو كالنتيجة لجملة { قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [24].

{ **أَرُونِي** } الأمر مستعمل في التعجيز وهو تعجيز للمشركين عن إبداء حجّة لإشراكهم وهو انتقال من الاحتجاج على بطلان إلهية الأصنام بدليل النظير في قوله { قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ } إلى إبطال ذلك بدليل البداهة.

وقد سُلك من طرق الجدل أن يكون الاستفسار مؤخّرا، والمصطلح عليه عند أهل الجل أن يكون الاستفسار مقدّما على طرائق المناظرة، وإنما أخِّر هنا لأنّه كان مفضيا إلى إبطال دعوى الخصم بحذافرها، فأريد تأخيره لئلّا يفوت افتضاح الخصم بالأدلة السابقة تبسيطا لبساط المجادلة حتّى يكون كلّ دليل مناديا على غلط الخصوم وباطلهم. وافتضاح الخطأ من مقاصد المناظر الذي قامت حجّته.

الإراءة: هنا من الرؤية البصرية فيتعدّى إلى مفعولين: أحدهما بالأصالة والثاني بهمزة التعدية.

والمقصود: أروني شخوصهم لنبصر هل عليها ما يناسب صفة الإلهية، أي: أنّ كلّ من يشاهد الأصنام يتبيّن له أنّها خلية عن صفات الإلهية إذ يرى حجارة لا تسمع ولا تبصر ولا تفقه، فانتفاء الإلهية عن الأصنام بديهي ولا يحتاج إلى أكثر من رؤية حالها.

{ **الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ** } التعبير عن المرئي بطريق الموصلية لتنبيه المخاطبين على خطئهم في جعلهم إيّاهم شركاء لله تعالى في الربوبية.

{ **أَلْحَقْتُمْ** } إيماء إلى أنّ تلك الأصنام لم تكن موصوفة بالإلهية وصفا ذاتيا حقًّا ولكنّ المشركين ألحقوها بالله تعالى، فتلك خلعة خلعها عليهم أصحاب الأهواء.

{ **كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } لمّا أعرض عن الخوض في آثار هذه الإراءة عُلم أنّهم مفتضَحون عند تلك الإراءة فَقُدِّرت حاصلة، وأعقب طلب تحصيلها بإثبات أثرها وهو الردع عن اعتقاد إلهيتها، وإبطالها عنهم بإثباتها لله تعالى وحده، فلذلك جُمع بين حرفي الردع والإبطال { كَلَّا بَلْ }، ثم الانتقال إلى تعيين الإله الحق على طريقة قوله تعالى { كَلَّا بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ } [الفجر:17].

{ **هُوَ اللَّهُ** } ضمير الشأن والجملة بعده تفسير لمعنى الشأن.

{ **الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } خبران، أي: بل الشأن المهم الله العزيز الحكيم لا آلهتكم، ففي الجملة قصر العزّة والحكم على الله تعالى كناية عن قصر الإلهية عليه تعالى قصر إفراد.

وللجملة وجوه أخرى من الإعراب.

العزّة: الاستغناء عن الغير.

{ **الْحَكِيمُ** } وصف من الحكمة وهي منتهى العلم، أو من الإحكام وهو إتقان الصنع، شاع في الأمرين. وهذا إثبات لافتقار أصنامهم وانتفاء العلم عنها. وهذا مضمون قول إبراهيم عليه السلام { يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً } [مريم: 42].

{ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } [28].

انتقال من إبطال ضلال المشركين في أمر الربوبيّة إلى إبطال ضلالهم في شأن صدق الرسول صلى الله عليه وسلم. وغُيِّر أسلوب الكلام من الأمر بمحاجة المشركين إلى الإخبار برسالة النبيّ صلى الله عليه وسلم تشريفا له بتوجيه هذا الإخبار بالنعمة العظيمة إليه، ويحصل إبطال مزاعم المشركين بطريق التعريض.

{ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ** } أفاد التركيب قصر حالة عموم الرسالة على كاف الخطاب { أَرْسَلْنَاكَ }، وهو قصر إضافي، أي: دون تخصيص إرسالك بأهل مكة أو بالعرب أو بمن يجيئك يطلب الإيمان والإرشاد. ويقتضي ذلك إثبات رسالته بدلالة الاقتضاء، إذ لا يصدق ذلك القصر إلّا إذا ثبت أصل رسالته، فاقتضى ذلك الردّ على المنكرين كلّهم سواء من أنكر رسالته من أصلها ومن أنكر عمومها وزعم تخصيصها.

{ **كَافَّةً** } من ألفاظ العموم ووقعت هنا حالا من { النَّاسِ }، مستثنى من عموم الأحوال، وهي حال مقدّمة على صاحبها المجرور بالحرف، وقد مضى الكلام عليها عند قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً } [البقرة:208]، وعند قوله تعالى { وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً } [التوبة:36].

{ **بَشِيراً وَنَذِيراً** } تقدّم في قوله تعالى { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً } [البقرة:119].

{ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** } موقع الاستدراك رفع ما يُتوهّم من اغترار المغترّين بكثرة عدد المنكرين رسالته بأن كثرتهم لا تغرّ المتأمّل لأنّهم لا يعلمون.

{ **لا يَعْلَمُونَ** } المفعول محذوف لدلالة ما قبله عليه، أي: لا يعلمون ما بشّرت به المؤمنين وما أنذرت به الكافرين، أي: يحسبون البشارة والنذارة غير صادقتين.

{ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [29] قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ } [30].

كان من أعظم ما أنكروه ممّا جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم القيامة والبعث ولذلك عُقّب إبطال

قولهم في إنكار الرسالة بإبطال قولهم في إنكار البعث. والتقدير: ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون حقّ البشارة والنذارة ويتهكّمون فيسألون عن وقت هذا الوعد. ويجوز أن تكون الجملة مستأنفة.

{ **وَيَقُولُونَ** } الضمير عائد إلى المحاجِّين من المشركين الذين صدرت عنهم هذه المقالة. وصيغة المضارع تفيد التعجيب من مقالتهم، مع إفادتها تكرّر ذلك القول منهم وتجدّده.

{ **هَذَا الْوَعْدُ** } اسم الإشارة للاستخفاف والتحقير.

{ **إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } ضمير جمع المخاطب إمّا للرسول صلى الله عليه وسلم باعتبار أنّ معه جماعة يخبرون بهذا الوعد، وإمّا الخطاب موجه للمسلمين.

أي: إن كنتم صادقين فعيّنوا لنا ميقات هذا الوعد. وهذا كلام صادر عن جهالة لأنّه لا يلزم من الصدق في الإخبار بشيء أن يكون المخبر عالما بوقت حصوله.

{ **قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ** } مسوقة مساق الجواب عن مقالتهم ولذلك فصلت ولم تعطف، على طريقة حكاية المحاورات في القرآن، وهذا الجواب جرى على طريقة الأسلوب الحكيم، أي: أنّ الأهم للعقلاء أن تتوجّه هممهم إلى تحقّق وقوع الوعد في الوقت الذي عيّنه الله له وأنّه لا يؤخّره شيء ولا يقدّمه، وحسَّن هذا الأسلوب أنّ سؤالهم إنّما أرادوا به الكناية عن انتفاء وقوعه.

وفي هذا الجواب تعريض بالتهديد، فكان مطابقا للمقصود من الاستفهام.

{ **لَكُمْ** } زيادة في الجواب إشارة إلى أنّ هذا الميعاد منصرف إليهم ابتداء.

الميعاد: مصدر ميمي للوعد فإضافته إلى ظرفه بيانية.

الاستئخار والاستقدام: مبالغة في التأخّر والتقدّم، فالسين والتاء للمبالغة.

وقُدّم الاستئخار على الاستقدام إيماء إلى أنّه ميعاد بأس وعذاب عليهم من شأنه أن يتمنّوا تأخّره.

الساعة: حصة من الزمن، وتنكيرها للتقليل بمعونة المقام.

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ } [31].

{ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ** } انتقال إلى ذكر طعن المشركين في القرآن، وهي معطوفة على { وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ } [29]. والاقتصار على حكاية مقالتهم دون تعقيب بما يبطلها إيماء إلى أنّ بطلانها باد لكلّ من يسمعها حيث جمعت التكذيب بجميع الكتب والشرائع، وهذا بهتان واضح.

{ **لَنْ نُؤْمِنَ** } جيء بحرف (لَنْ) لتأكيد نفي إيمانهم بالكتب المنزلة على التأبيد تأييسا للنبيّ والمسلمين من الطمع في إيمانهم.

{ **بِهَذَا الْقُرْآنِ** } اسم الإشارة مشار به إلى حاضر في الأذهان، لأنّ الخوض في القرآن شائع بين الناس من مؤيد ومنكر فكأنّه مشاهد. وليس في اسم الإشارة معنى التحقير لأنّهم ما كانوا ينبزون القرآن بالنقصان، ألا ترى قول الوليد ابن المغيرة: " إن أعلاه لمُثْمِر وإن أسفله لمُغْدِق " ، وقول عبد الله بن أبي بعد ذلك: " لا أحسن مما تقول أيّها المرء "، وأنّ عتبة بن ربيعة لما قرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن وقال له: " **هل ترى بما أقول بأسا ؟** " فقال: " لا والدماء ". وكيف وقد تحدّاهم الإتيان بسورة مثله فلم يفعلوا، ولو كانوا ينبزونه بنقص أو سخف لقالوا: نحن نترفع عن معالجة الإتيان بمثله.

{ **وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ** } كان المشركون لمّا فاجأتهم دعوة الإسلام وأخذ أمره في الظهور قد سلكوا طرائق مختلفة لقمع تلك الدعوة، وقد كانوا قبل ظهور الإسلام لاهين عن الخوض فيما سلف من الشرائع فلمّا قرعت أسماعهم دعوة الإسلام اضطربت أقوالهم: فقالوا { مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ } [الأنعام:91]، وقالوا غير ذلك، فمن ذلك أنّهم لجأوا إلى أهل الكتاب وهم على مقربة منهم بالمدينة وخيبر وقريظة، ليتلقّوا منهم ملقَّنات يفحمون بها النبيّ صلى الله عليه وسلم، فكان أهل الكتاب يُملون عليهم ما عساهم أن يموّهوا به على الناس عدم صحة الرسالة المحمدية، فمرة يقولون { لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى } [القصص:48]، ومرة يقولون { لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَأُهُ } [الإسراء:93]، وهم لا يُحاجُّون بذلك عن اعتقاد بصحة رسالة موسى عليه السلام ولكنهم يجعلونه وسيلة لإبطال رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، فلمّا دمغتهم حجج القرآن العديدة الناطقة بأنّ محمدا ما هو بدع من الرسل وأنّه جاء بمثل ما جاءت به الرسل، ولمّا لم يجدوا سبيلا للمكابرة في مساواة حاله بحالة الرسل الأوّلين لجأوا إلى إنكار رسالة الرسل كلّهم حتى لا تنهض عليهم الحجّة بمساواة أحوال الرسول وأحوال الرسل الأقدمين، فكان من مستقرّ أمرهم ذلك الإنكار.

{ **بَيْنَ يَدَيْهِ** } القريب منه، سواء كان سابقا كقوله تعالى { إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ } [46]، وقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **بعثت بين يدي الساعة** " [أحمد في مسنده وأبو يعلى والطبراني]، أم كان جائيا بعده، كما حكى الله عن عيسى عليه السلام { وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ } [آل عمران:50]. وليس مرادا هنا.

{ **وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ** } أُردفت حكايات أقوالهم وكفرانهم بعد استيفاء أصنافها بذكر جزائهم وتصوير فظاعته.

{ **وَلَوْ تَرَى** } الخطاب لكلّ من يصلح لتلقّي الخطاب ممّن تبلغه هذه الآية، أي: ولو يرى الرائي.

وجواب { لَوْ } محذوف للتهويل وهو حذف شائع. وتقديره: لرأيت أمرا عجبا.

الظالمون: المشركون، قال تعالى { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان:13].

وتقدّم قريب منه قوله تعالى { وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ } [الأنعام:27].

وقع التصريح بأنّه إيقاف جمع بين المشركين والذين دعوهم إلى الإشراك في قوله تعالى { وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ } [يونس:28].

{ **مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ** } الإتيان بالجملة التي أضيف إليها الظرف اسمية هنا لإفادة طول وقوفهم بين يدي الله طولا يستوجب الضجر ويملأ القلوب رعبا، وهو ما أشار له حديث أنس وحديث أبي هريرة في شفاعة النبيّ صلى الله عليه وسلم لأهل المحشر: " **تدنو الشمس من رؤوس الخلائق فيشتد عليهم حرّها فيقولون: لو استشفعنا إلى ربّنا حتّى يريحنا من مكاننا** ".

{ **يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ** } في موضع الحال من { الظَّالِمُونَ } أو من ضمير { مَوْقُوفُونَ }. وجيء بالمضارع لاستحضار الحالة.

رجْع القول: الجواب.

رجع البعض إلى البعض: المجاوبة والمحاورة. وهي أن يقول بعضهم كلاما ويجيبه الآخر عنه وهكذا.

{ **يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ** } هذه الجملة وما ذكر بعدها من الجمل المحكية بأفعال القول بيان لجملة { يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ }. وجيء بالمضارع فيها على نحو ما جيء في قوله تعالى { يَرْجِعُ } ليكون البيان كالمبيَّن بها لاستحضار حالة القول، لأنّها حالة غريبة لما فيها من جرأة المستضعفين على المستكبرين ومِن تنبُّه هؤلاء من غفلتهم عمّا كان المستكبرون يغرونهم به.

{ **اسْتُضْعِفُوا** } السين والتاء للعدّ والحسبان، أي: الذين يعدّهم الناس ضعفاء لا يؤبه بهم، وإنّما يعدّهم الناس كذلك لأنّهم كذلك. والضعف هنا الضعف المجازي، وهو حالة الاحتياج في المهام إلى من يضطلع بشؤونهم. ومن مشمولاته الضعة والضراعة.

{ **اسْتَكْبَرُوا** } أي: عدّوا أنفسهم كبراء وهم ما عدّوا أنفسهم كبراء إلّا لما يقتضي استكبارهم لأنّهم لو لم يكونوا كذلك لوصفوا بالغرور والإعجاب الكاذب. ولهذا عُبّر في جانب الذين استضعفوا بالفعل المبني للمجهول وفي جانب الذين استكبروا بالفعل المبني للمعلوم.

{ **لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ** } (لَوْلاَ) حرف امتناع لوجود، أي: حرف يدل على امتناع جوابه لأجل وجود شرطه. فكان قولهم هنا { لَوْلا أَنْتُمْ } للمبالغة في شدّة حرص المستكبرين على كفرهم.

{ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ } [32].

{ **قَالَ** } جُرِّد عن العاطف لأنّه جاء على طريقة المجاوبة، والشأن فيه حكاية القول بدون عطف.

{ **أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ** } همزة الاستفهام مستعملة في الإنكار على قول المستضعفين تبرّؤا منهم. وهذا الإنكار بهتان وإنكار للواقع بعثه فيهم خوف إلقاء التبعة عليهم وفرط الغضب والحسرة من انتقاض اتباعهم عليهم وزوال حرمتهم بينهم، فلم يتمالكوا ألّا يُكذِّبوهم ويذيّلوا بتوريطهم.

{ **بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ** } معطوف بـ { بَلْ } التي للإبطال، أي: ثبت لكم الإجرام من قبل، وإجرامكم هو الذي صدّكم إذ لم تكونوا على مقاربة الإيمان فنصدّكم عنه ولكنكم صددتم وأعرضتم بإجرامكم.

الإجرام: الشرك، وهو مؤذن بتعمّدهم إيّاه وتصميمهم عليه على بصيرة من أنفسهم دون تسويل مسوِّل.

{ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [33].

{ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً}

جيء بحرف العطف مع أنّ المستضعفين جاوبوا بها قول الذين استكبروا { أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ } [32] لنكتة دقيقة، وهي التنبيه على أنّ مقالة المستضعفين هذه هي في المعنى تكملة لمقالتهم المحكية بقوله تعالى { يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ } [31] تنبيها على أنّ مقالتهم تلقّفها الذين استكبروا فابتدروها بالجواب وقاطعوا كلامهم من فرط الجزع أن يؤاخذوا بما يقوله المستضعفون.

وحكي قولهم هذا بالفعل الماضي { وَقَالَ } لمزاوجة كلام الذين استكبروا، لأنّ قول الذين استضعفوا هذا بعد أن كان تكملة لقولهم الذي قاطعه المستكبرون انقلب جوابا عن تبرّؤ المستكبرين من أن يكونوا صدّوا المستضعفين عن الهدى، فصار لقول المستضعفين موقعان يقتضي أحد الموقعين عطفه بالواو، ويقتضي الموقع الآخر قرنه بحرف { بَلْ } وبزيادة { مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ } .

وأصل الكلام: يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنّا مؤمنين إذ تؤمروننا بالليل والنهار أن نكفر بالله...، فلما قاطعه المستكبرون بكلامهم أُقحم في كلام المستضعفين حرف { بَلْ } إبطالا لقول المستكبرين {بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ } [32]. وبذلك أفاد تكملة الكلام السابق والجواب عن تبرّؤ المستكبرين ولو لم يعطف بالواو لما أفاد إلّا أنّه جواب عن كلام المستكبرين فقط، وهذا من أبدع الإيجاز.

{ **بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ** } (بل) للإضراب الإبطالي، إبطالا لمقتضى القصر في قولهم { أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى } [32]، فإنّه واقع في حيز النفي لأنّ الاستفهام الإنكاري له معنى النفي.

فالتقدير: بل مكركم صدَّنا، فيفيد القصر، أي: ما صدّنا إلّا مكركم.

المكر: الاحتيال بإظهار الماكر فعل ما ليس بفاعله، وتقدّم في قوله تعالى { وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ }

[آل عمران:54].

وإطلاق المكر على تسويلهم لهم البقاء على الشرك باعتبار أنّهم يموِّهون عليهم ويوهمونهم أشياء كقولهم: إنّه دين آبائكم، وكيف تأمنون غضب الآلهة عليكم إذا تركتم دينكم، ونحو ذلك.

وهو كناية عن دوام الإلحاح عليهم في التمسّك بالشرك.

{ **إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً** } ظرف لما في { مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ } من معنى (صدّنا)، أي: حين تأمروننا أن نكفر بالله.

الأنداد: جمع ندّ، وهو المماثل، أي: نجعل لله أمثالا في الإلهية.

وهذا تطاول من المستضعفين على مستكبريهم لمّا رأوا قلّة غنائهم عنهم واحتقروهم حين علموا كذبهم.

وقد حكي نظير ذلك في قوله تعالى { إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا } [البقرة:166].

{ **وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ** } يجوز أن يكون عطفا على جملة { يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ } [31] فتكون حالاً. ويجوز أن تعطف على جملة { إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ } [31].

وضمير الجمع عائد إلى جميع المذكورين قبل، وهم الذين استضعفوا والذين استكبروا.

والمعنى: أنّهم كُشف لهم عن العذاب المُعدّ لهم، وذلك عقب المحاورة التي جرت بينهم، فعلموا أنّ ذلك الترامي الواقع بينهم لم يُغن عن أحد من الفريقين شيئا فحينئذ أيقنوا بالخيبة وندموا على ما فات منهم.

{ **وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ** } استبقاء للطمع في صرف ذلك عنهم أو اتقاء للفضيحة بين أهل الموقف، وقد أعلنوا بها من بعد كما في قوله تعالى { قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا } [الأنعام:31]، وقوله تعالى { لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ } [الزمر:58].

وذكر الزمخشري وابن عطية: أنّ من المفسّرين من فسر { أَسَرُّوا } هنا بمعنى أظهروا. وقد عدّ هذه الكلمة في الأضداد كثير من أهل اللغة. والذي جرّ على تفسير { أَسَرُّوا } بمعنى أظهروا هنا هو ما يقتضي إعلانهم بالندامة من قولهم { لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ } [31]. وفي آيات أخرى مثل قوله تعالى { وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً } [الفرقان:27].

الندامة: التحسّر من عمل فات تداركه. وقد تقدّمت عند قوله تعالى { فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ } [المائدة:31].

{ **وَجَعَلْنَا الْأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } عطف على جملة { إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ } [31]. والتقدير: ولو ترى إذ جعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا.

{ **الأَغْلاَلَ** } جمع غُلّ (بضم الغين)، وهو دائرة من حديد أو جلد على سعة الرقبة توضع في رقبة المأسور ونحوه ويشدّ إليها بسلسلة أو سير من جلد أو حبل.

وجعل الأغلال في الأعناق شعار على أنّهم يساقون إلى ما يحاولون الفرار والانفلات منه.

وتقدّم في قوله تعالى { وَأُولَئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ } [الرعد:5].

{ **الَّذِينَ كَفَرُوا** } هم هؤلاء الذين جرت عليهم الضمائر المتقدّمة. فالإتيان بالاسم الظاهر وكونه موصولا

للإيماء إلى أنّ ذلك جزاء الكفر ولذلك عُقّب بجملة { **هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } مستأنفة استئنافا بيانيا كأنّ سائلا استعظم هذا العذاب، وهو تعريض بهم.

{ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ } [34].

اعتراض للانتقال إلى تسلية النبيّ صلى الله عليه وسلم بتذكيره أنّ تلك سنّة الرسل من قبله فليس في ذلك غضاضة عليه، نظير قوله تعالى { وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ } [الزخرف:23]، أي: وكذلك التكذيب الذي كذّبك أهل هذه القرية.

وفي الكلام التعريض بقومه الذي عادوه بتذكيرهم عاقبة أمثالهم من أهل القرى التي كذّب أهلها وأغراهم بذلك زعماؤهم.

المترَفون: الذين أُعطوا الترف، و**الترف**: النعيم وسعة العيش، وهو مبني للمفعول بتقدير: إنّ الله أترفهم، كما في قوله { وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } [الأنبياء:33].

وفي بنائه للمفعول تعريض بالتذكير بنعمة الله عليهم لعلّهم يشكرونها ويقلعون عن الإشراك به.

<u>وبعض أهل اللغة يقول</u> تقديره: أترفتهم النعمة، أي: أبطرتهم.

{ **إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ** } حكاية للقول بالمعنى: أي: قال مترفو كلّ قرية لرسولهم: إنّا بما أرسلت به كافرون. وقولهم تهكّم بقرينة قولهم { كَافِرُونَ }، وهو كقوله تعالى { وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ} [الحجر:6]. أو المعنى: إنّا بما ادّعيتم أنّكم أرسلتم به كافرون.

{ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ [35] قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ [36] }.

{ **وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً** } عطف على جملة { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ } [31]. قَفَّوْا على صريح كفرهم بالقرآن وغيره من الشرائع بكلام كنُّوا به عن إبطال حقيقة الإسلام بدليل سفسطائي، فجعلوا كثرة أموالهم وأولادهم حجّة على أنّهم أهل حظّ عند الله تعالى.

وهذا تعريض منهم بعكس حال المسلمين، بأنّ حال ضعف المسلمين، وقلّة عددهم، وشظف عيشهم حجّة على أنّهم غير محظوظين عند الله، ولم يتفطّنوا إلى أنّ أحوال الدنيا مسبَّبة على أسباب دنيوية لا علاقة لها بأحوال الآخرة.

{ **وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ** } كالنتيجة لقولهم. وكأنّهم استدلوا بانتفاء التعذيب على أنّهم مقرّبون عند الله، فكأنّهم حصروا وسائل القرب عند الله في وفرة الأموال والأولاد.

{ **قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ** } أي: قل لهم: إنّ بسط الرزق وتقتيره شأن آخر من تصرفات الله المنوطة بما قدَّره في نظام هذا العالم، أي: فلا ملازمة بينه وبين الرشد والغي، والهدى والضلال.

بسط الرزق: تيسيره وتكثيره، استعير له البسط وهو نشر الثوب ونحوه لأنّ المبسوط تكثر مساحة انتشاره.

قدْر الرزق: عسر التحصيل عليه وقلّة حاصله، استعير له القدْر، أي: التقدير وهو التحديد، لأنّ الشيء القليل يسهل عدّه وحسابه. وتقدّم نظيره في [الرعد:26].

{**وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**} فأكثر الناس تلتبس عليهم الأمور فيخلطون بينها ولا يضعون في مواضعها زَيْنها وشَيْنها. ومفعول { **لَا يَعْلَمُونَ** } محذوف دل عليه الكلام، أي: لا يعلمون تلك الحقائق والنواميس.

{ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ } [37].

<u>يجوز</u> أن تكون الجملة عطفا على جملة { قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ } [36]، فيكون كلاما موجَّها من جانب الله تعالى إلى الذين قالوا { نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً } [35] فتكون ضمائر الخطاب موجّهة إليهم. <u>ويجوز</u> أن يكون الكلام ممّا أُمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقوله لهم ويبلّغه عن الله تعالى ويكون في ضمير { عِنْدَنَا } التفات، وضمائر الخطاب نفسها.

وهو ارتقاء من إبطال الملازمة إلى الاستدلال على أنّهم ليسوا بمحل الرضى من الله تعالى على طريقة النقض التفصيلي المُسمّى بالمناقضة، فقد أبطلت الآية أن تكون أموالهم وأولادهم مقرِّبة عند الله تعالى وأنَّه لا يقرّب إلى الله إلّا الإيمان والعمل الصالح.

{ **وَمَا أَمْوَالُكُمْ** } جيء بالجملة المنفية في صيغة حصر بتعريف المسند إليه والمسند لأنّ هذه الجملة أريد منها نفي قولهم { نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ }، فكان كلامهم في قوّة حصر التقريب إلى الله في كثرة الأموال والأولاد فنفي ذلك بأسره.

{ **وَلاَ أَوْلادُكُمْ** } تكرير { لاَ } النافية بعد العاطف لتأكيد تسلّط النفي على كلا المذكورين ليكون كلّ واحدٍ مقصودا بنفي كونه ممّا يقرِّب إلى الله ومتلفَتا إليه.

{ **بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى** } لما كانت الأموال والأولاد جمعي تكسير عوملا معاملة المفرد المؤنث فجيء بخبرهما اسم موصول المفرد المؤنث على تأويل جماعة الأموال وجماعة الأولاد.

{ **تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا** } عدل عن أن يقال: بالتي تقربكم إلينا لأن التقريب هنا مجاز في التشريف والكرامة لا تقريب مكان.

الزلفى: اسم للقرب مثل الرُّجعى وهو مفعول مطلق نائب عن المصدر، أي: تقرّبكم تقريبا، ونظيره قوله تعالى { وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً } [نوح:17].

{ **إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً** } استثناء منقطع. و{ إِلَّا } بمعنى (لكنْ) المخففة النون، التي هي للاستدراك وما بعدها كلام مستأنف، وذلك من استعمالات الاستثناء المنقطع. والتقدير: لكن من آمن وعمل صالحا فأولئك...

{ **فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا** } ثناء على الذين آمنوا وعملوا الصالحات. وجيء باسم الإشارة للتنويه بشأنهم والتنبيه على أنّهم جديرون بما يرد بعد اسم الإشارة من أجل تلك الأوصاف التي تقدّمته.

{ **الضِّعْف** } المضاعف المكرّر، فيصدق بالمكرّر مرة واكثر. وفي الحديث " **والحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة** "، وقد أشار إليه قوله تعالى { كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ } [البقرة:261].

كُنِّي عن التقريب بمضاعفة الجزاء، أي: أولئك يقرَّبون زلفى فيجزون جزاء الضعف على أعمالهم لا على وفرة أموالهم وأولادهم، فالاستدراك ورد على جميع ما أفاده كلام المشركين من الدعوى الباطلة والفخر الكاذب، وفيه مع ذلك رفع توهّم أنّ الأموال والأولاد لا تقرّب إلى الله بحال، فإنّ من أموال المؤمنين صدقات ونفقات، ومن أولادهم أعوانا على البر ومجاهدين وداعين لآبائهم بالمغفرة والرحمة.

{ **وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ** } و{ الْغُرُفَاتِ } جمع غرفة. وتقدّم في [الفرقان:75]، وهي البيت المعتلي وهو أجمل منظرا وأشمل مرأى. و{ **آمِنُونَ** } خبر ثاني، يعني يُلقى في نفوسهم الأمن من انقطاع ذلك النعيم.

{ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ } [38].

جرى الكلام عل عادة القرآن في تعقيب الترغيب بالترهيب وعكسه، فكان هذا بمنزلة الاعتراض بين الثناء على المؤمنين الصالحين وبين إرشادهم إلى الانتفاع بأموالهم للقرب عند الله بقوله تعالى { وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ } [39].

{ **وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ** } هم المشركون بصدّهم عن سماع القرآن، وبالطعن فيه بالباطل، واللغو عند سماعه.

السعي: مستعار للاجتهاد في العمل، كقوله تعالى { ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى } [النازعات:22]. وإذا عُدّي بـ (فِي) كان في الغالب مرادا منه الاجتهاد في المضرّة. فالمعنى هنا: يجتهدون في إبطالها.

{ **مُعَاجِزِينَ** } مغالبين مطالبين العجز. وتقدّم نظيره في قوله تعالى { وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ } [الحج:51].

{ **أُولَئِكَ** } اسم الإشارة للتنبيه على أنّهم استحقّوا الجحيم لأجل ما ذُكر قبل اسم الإشارة من الصفات.

{ **فِي الْعَذَابِ** } خبر عن اسم الإشارة. و{ **مُحْضَرُونَ** } هنا كناية عن الملازمة، فهو ارتقاء في المعنى الذي دلّت عليه أداة الظرفية من إحاطة العذاب بهم، وهو خبر ثان عن اسم الإشارة، ومتعلّقه محذوف دل

عليه الظرف، وتقدّم نظيره في قوله تعالى { فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ } [الروم:6].

{ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ } [39].

أتبع إبطال أن تكون الأموال والأولاد بذاتهما وسيلة قرب لدى الله تعالى ردًّا على مزاعم المشركين بما يشبه معنى الاستدراك على ذلك الإبطال من إثبات لنوع من الانتفاع.

فالانتفاع بالمال إن استُعمل في طلب مرضاة الله قد يكون فيه قربى إلى الله. وهذا تفصيل لما أشير إليه إجمالا بقوله تعالى { إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً } [37] كما تقدّم.

{ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ } تقدّم نظيره قريبا [36] تأكيدا لذلك وليُبنى عليه قوله تعالى { وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ }. فالذي تقدّم ردّ على المشركين والمذكور هنا ترغيب للمؤمنين والعبارات واحدة والمقاصد مختلفة. وهذا من وجوه الإعجاز أن يكون الكلام الواحد صالحا لغرضين وقاصدا طائفتين.

{ مِنْ عِبَادِهِ } أي: المؤمنين، لأنّه لمّا كان هذا الثاني موجَّها إلى المؤمنين أشير إلى تشريفهم. وكان ما تقدّم [36] أن يُبسط الرزق لغير المؤمنين فلم ينعموا بوصف { مِنْ عِبَادِهِ }.

{ وَيَقْدِرُ لَهُ } أي: ويقدر لمن يشاء من عباده. ومفعول { يَقْدِرُ } محذوف دلّ عليه مفعول { يَبْسُطُ }.

وفي تعليق { لَهُ } بـ { يَقْدِرُ } إيماء إلى أنّ ذلك القدر لا يخلو من فائدة للمقدور عليه رزقه، وهي فائدة الثواب على الرضى بما قُسِّم له والسلامة من الحساب عليه يوم القيامة. وفي الحديث: **" ما من مصيبة تصيب المؤمن إلّا كُفِّر بها عنه حتّى الشوكة يُشاكُها "**.

ولولا هذا الإيماء لقيل: ويقدر عليه، كما قال { وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ } [الطلاق:7].

وأمّا حال الكافرين فإنّهم يُنعم على بعضهم برزق يحاسبون عليه أشد الحساب يوم القيامة إذ لم يشكروا رازقهم، ويُقدَّر على بعضهم فلا يناله إلّا الشقاء.

وفي هذا امتنان على الذين يُبسط عليهم الرزق بأن جمع الله لهم فضل الإيمان وفضل سعة الرزق، وتسلية للذين قُدّر عليهم رزقهم بأنّهم نالوا فضل الإيمان وفضل الصبر على ضيق الحياة.

وهذا تعليم للمسلمين بأنّ نعيم الآخرة لا ينافي نعيم الدنيا، قال تعالى { وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا } [البقرة:202/201]، فأمّا نعيم الدنيا فهو مسبَّب عن أحوال دنيوية رتَّبها الله تعالى ويسَّرها، وأمّا نعيم الآخرة فهو مسبَّب عن أعمال مبيَّنة في الشريعة. وكثير من الصالحين يحصل لهم النعيم في الدنيا مع العلم بأنّهم منعَّمون في الآخرة، كما أُنعِم على داود وسليمان وعلى كثير من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم.

{ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ } حثٌّ على الإنفاق بترغيب الأغنياء في الإنفاق في سبيل الله، فجُعل

الوعد بإخلاف ما ينفقه المرء كناية عن الترغيب في الإنفاق لأنّ وعد الله بإخلافه، مع تأكيد الوعد، يقتضي أنّه يُحب ذلك من المنفقين.

وأكِّد ذلك الوعد بصيغة الشرط وبجعل جملة الجواب اسمية وبتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي بقوله تعالى { فَهُوَ يُخْلِفُهُ }، ففي هذا الوعد ثلاثة مؤكِّدات دالة على مزيد العناية بتحقيقه.

{ **مِنْ شَيْءٍ** } بيان لما في { مَا } من العموم.

{ **وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ** } تذييل للترغيب والوعد بالزيادة، لبيان أنّ ما يخلفه أفضل مما أنفقه المنفق.

وظاهر الآية أن إخلاف الرزق يقع في الدنيا وفي الآخرة.

روى مالك عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّه قال: **يقول الله تعالى: " يا بن آدم أنْفِقَ أُنْفِقْ عليك "**.

قال ابن العربي: " قد يُعوَّض مثله أو أزيد، وقد يُعوَّض ثوابا، وقد يُدَّخر له، وهو كالدعاء في وعد الإجابة ". **قلت**: وقد يُعوَّض صحة وقد يُعوَّض تعميرا. ولله في خلقه أسرار.

{ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ [40] قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ [41] }.

عطف على جملة { وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ } [31]، استكمالاً لتصوير فظاعة حالهم يوم الوعد الذي أنكروه تبعا لما وُصِف من حال مراجعة المستكبرين منهم والمستضعفين، فوصف هنا افتضاحهم بتبرُّؤ الملائكة منهم وشهادتهم عليهم بأنّهم يعبدون الجنّ.

{ **وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً** } ضمير الغيبة عائد إلى ما عاد عليه ضمير { وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً } [35] الذي هو عائد إلى { الَّذِينَ كَفَرُوا } [31]. والكلام كلّه منتظم في أحوال المشركين.

جميع: فعيل بمعنى مفعول، أي: مجموع، وكثر استعماله وصفا لإفادة شمول أفراد ما أجرى هو عليه من ذوات وأحوال. وتقدّم عند قوله تعالى { فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ } [هود:55].

فاللفظ يعمّ أصناف المشركين على اختلاف نحلهم واعتقادهم في شركهم، فقد كان مشركو العرب نحلا شتَّى يأخذ بعضهم من بعض، وما كانوا يُحقِّقون مذهبا منتظم العقائد والأقوال غير مخلوط بما ينافي بعضه بعضا.

والمقصد من هذه الآية إبطال قولهم في الملائكة إنّهم بنات الله، وقولهم { لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ } [الزخرف:20]. وكانوا يخلطون بين الملائكة والجنّ ويجعلون بينهم نسبا، فكانوا يقولون: الملائكة بنات الله من سَروات الجنّ. وقد كان حيّ من خزاعة يقال لهم: بنو مُلَيْح يعبدون الجنّ والملائكة.

والاقتصار على تقرير الملائكة واستشهادهم على المشركين لأنّ إبطال إلهية الملائكة يفيد إبطال إلهية ما هو دونه ممّن عُبد من دون الله بدلالة الفحوى، أي: بطريق الأولى.

{ **ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ** } توجيه الخطاب إلى الملائكة بهذا الاستفهام مستعمل في

التعريض بالمشركين.

{ **هَؤُلاَءِ** } الإشارة إلى فريق كانوا عبدوا الملائكة والجنّ ومن شايعهم على أقوالهم من بقية المشركين.

{ **إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ** } تقديم المفعول للاهتمام والرعاية على الفاصلة.

{ **قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ** } حُكي قول الملائكة بدون عاطف لوقوعه في المحاورة، ولذلك جيء فيه بصيغة الماضي لأنّ ذلك هو الغالب في الحكاية.

{ **سُبْحَانَكَ** } جواب الملائكة يتضمّن إقرارًا مع التنزُّه عن لفظ كونهم معبودين.

الوليّ: الناصر والحليف والصديق، مشتقّ من **الوَلْيِ** مصدر وَلِيَ بوزن عَلِم.

{ **أَنْتَ وَلِيُّنَا** } لا نوالي غيرك، أي: لا نرضى به وليا، والعبادة ولاية بين العابد والمعبود. وتقدّم الكلام على لفظ (ولي) عند قوله تعالى { قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً } [الأنعام:14]، وفي [الرعد:37].

{ **مِنْ دُونِهِمْ** } تأكيد لما أفادته جملة { أَنْتَ وَلِيُّنَا } من الحصر لتعريف الجزءين.

{ **بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ** } للإضراب الانتقالي، انتقالا من التبرُّؤ منهم إلى الشهادة عليهم وعلى الذين سوَّلوا لهم عبادة غير الله تعالى، وليس إضراب إبطال لأنّ المشركين المتحدَّث عنهم كانوا يعبدون الملائكة.

المعنى: بل كان أكثر هؤلاء يعبدون الجنّ، وكان الجنّ راضين بعبادتهم إيَّاهم.

{ **أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ** } الجملة للمشركين، وضمير{ بِهِمْ } للجنّ.

{ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ } [42].

{ **فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً** } الفاء فصيحة ناشئة عن المقاولة السابقة. وهي كلام موجّه من جانب الله تعالى إلى الملائكة والمقصود به: التعريض بضلال الذين عبدوا الملائكة والجنّ، لأنّ الملائكة يعلمون مضمون هذا الخبر فلا يُقصد إفادتهم به.

<u>ويجوز</u> أن يكون من خطاب الملائكة للفريقين بعد أداء الشهادة عليهم توبيخا لهم وإظهارا للغضب عليهم تحقيقا للتبرّؤ منهم.

{ **لَا يَمْلِكُ** } المِلك هنا بمعنى: القدرة، أي: لا يقدر بعضكم على نصر أو نفع بعض. وتقدّم عند قوله تعالى { قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ } [المائدة:17].

{ **نَفْعاً وَلا ضَرّاً** } قُدّم النفع في حيّز النفي تأييسا لهم لأنّهم يرجون أن يشفعوا لهم يومئذ { وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ }. وعطف نفي الضرّ على نفي النفع للدلالة على سلب مقدرتهم على أيّ شيء.

{ **وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ** } عطف على قوله تعالى { ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا } [40]. وقد وقع الإخبار عن هذا القول بعد الإخبار عن الحوار الذي يجري بين الملائكة وبين

المشركين يومئذ إظهارا لاستحقاقهم هذا الحكم الشديد.

الذوق: مجاز لمطلق الإحساس، واختياره دون الحقيقة لشهرة استعماله.

{ **الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ** } وصف النار بالتي كانوا يكذّبون بها لِما في صلة الموصول من إيذان بغلطهم وتنديمهم. وقد عُلِّق التكذيب هنا بنفس النار فجيء باسم الموصول المناسب لها { الَّتِي }، ولم يعلّق بالعذاب كما في قوله تعالى { وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ } [السجدة:20] لأنّ القول المخبر عنه هنا هو قو ل الله تعالى وحكمه وقد أُذن بهم إلى جهنّم وشاهدوها كما قال تعالى آنفا { وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ } [33]، وأمّا القول المحكي في [السجدة:20] فهو قول ملائكة العذاب.

{ **بِهَا تُكَذِّبُونَ** } تقديم المجرور للاهتمام والرعاية على الفاصلة.

{ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرىً وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ } [43].

انتقال من حكاية كفرهم وغرورهم وتكذيبهم بأصول الديانة إلى حكاية تكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم، وأتبع ذلك بحكاية تكذيبهم الكتاب والدين الذي جاء به، فكان كالفذلكة لِما تقدّم من كفرهم.

{ **وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ** } معطوفة على جملة { يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً } [40]عطف القصة على القصة. وضمير { عَلَيْهِمْ } عائد إلى { الَّذِينَ كَفَرُوا } [31]، وهم المشركون من أهل مكة.

{ **وَإِذَا** } إيراد حكاية تكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم مقيّدة بالزمن الذي تتلى عليهم فيه آيات الله البيّنات تعجيب من وقاحتهم حيث كذّبوه في أجدر الأوقات بأن يصدِّقوه عندها لأنّه وقت ظهور حجّة صدقه لكلّ عاقل متبصّر.

{ **تُتْلَى** } حُذف فاعل التلاوة لظهور أنّه الرسول صلى الله عليه وسلم إذ هو تالي آيات الله، فالإشارة بـ { مَا هَذَا } إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، واستحضروه بطريقة الإشارة دون الاسم إفادة لحضور مجلس التلاوة وذلك من تمام وقاحتهم، فقد كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يقرأ عليهم القرآن في مجالسهم كما ورد في حديث قراءته على عتبة بن ربيعة سورة فصلت.

{ **عَلَيْهِمْ** } قُدِّم الظرف على عامله للاهتمام به والتعجيب من متعلّقه، وللتشوّف إلى الخبر الآتي بعده، وأنّه من قبل البهتان والكفر البواح.

الآيات البيّنات: آيات القرآن، ووصفها بالبيّنات لأجل ظهور أنّها من عند الله لإعجازها إيّاهم عن معارضتها، ولما اشتملت عليه معانيها من الدلائل الواضحة على صدق ما تدعوا إليه، فهي محفوفة بالبيان بألفاظها ومعانيها.

{ **قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ** } ابتدأوا بالطعن في التالي لأنّه الغرض

الذي يرمون إليه، وأثبتوا له إرادة صدّهم عن دين آبائهم قصد أن يثير بعضهم حميّة بعض، لأنّهم يجعلون آباءهم أهل الرأي فيما ارتأوا والتسديد فيما فعلوا، فلا جرم أن يكون مريد الصدّ عنها كاذبا في قوله.

{ **كَانَ** } إشارة إلى أنّهم عنوا أنّ تلك عبادة قديمة ثابتة.

{ **وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى** } أتبعوا وصف التالي بوصف المتلو بأنّه كذب مفترى.

وإعادة فعل القول للاهتمام بكل قول من القولين الغريبين تشنيعا لهما في نفس السامعين فالجملة عطف على جملة { قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ }، فالفعلان مشتركان بالظرف.

{ **مَا هَذَا** } الإشارة الثانية إلى القرآن الذي تضمّنه قوله تعالى { تُتْلَى }.

الإفك: الكذب، ووصفه بـ { **مُفْتَرًى** } إمّا بنسبته إلى الله تعالى، أو أريد أنّه في ذاته إفك وزادوا فجعلوه مخترعا من النبيّ صلى الله عليه وسلم. فكونه { إِفْكٌ } يرجع إلى جميع ما في القرآن، وكونه { مُفْتَرًى } يرجعونه إلى ما فيه من قصص الأوّلين. وهذا القول من بهتانهم لأنّهم كثيرا ما يقولون {أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [الأنعام: 25]، فليس { مُفْتَرًى } تأكيد لـ { إِفْكٌ }.

{ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ** } ثم حُكِي تكذيبهم الذي يعمّ جميع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من وحي يُتلى أو دعوة إلى التوحيد وغيره، أو استدلال عليه، أو معجزة. فهذا المقال الثالث يشمل ما تقدّم وغيره، فحكاية مقالهم هذا تقوم مقام التذييل.

{ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا** } أظهر القائلين دون إضمار، فلم يقل: وقالوا للحق لما جاءهم، للدلالة على أنّ الكفر هو باعث قولهم هذا.

{ **لِلْحَقِّ** } ما هو أعم من آيات القرآن، فيشمل ما يُتلى، وكلّ دعوة إلى التوحيد وغيره، أو معجزة.

{ **مُبِينٌ** } أنّه يظهر منه أنّه سحر، يعنون أنّ من سمعه يعلم أنّه سحر.

{ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ } [44].

الواو للحال، والجملة في موضع الحال من الضمير في قوله تعالى { قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ } [43] تحميقا لجهالتهم وتعجيبا من حالهم في أمرين:

أحدهما: أنّهم لم يدركوا ما ينالهم من المزيّة بمجيء الحق إليهم إذ هيّأهم الله به لأن يكونوا في عداد الأمم ذوي الكتاب، وفي بدء حال يبلغ بهم مبلغ العلم، إذ هم لم يسبق لهم أن أتاهم كتاب من عند الله أو رسول منه، فيكون معنى الآية: فكيف رفضوا اتّباع الرسول وتلقي القرآن وكان الأجدر بهم الاغتباط بذلك. وهذا المعنى هو المناسب لقوله { يَدْرُسُونَهَا } أي: لم يكونوا أهل دراسة فكان الشأن أن يسرّهم ما جاءهم.

ثانيهما: أنّهم لم يكونوا على هدى ولا دين منسوب إلى الله تعالى حتّى يكون تمسُّكهم به وخشية الوقوع

في الضلالة إن فرَّطوا فيه فيكون لهم في الصدّ عنهما بعض العذر. فيكون المعنى: التعجيب من رفضهم الحق حين لا مانع يصدّهم.

فليس معنى الجملة على العطف ولا على الإخبار لأنّ مضمون ذلك معلوم لا يتعلق الغرض بالإخبار به ولكن على إفادة التعجيب والتحميق، كما أسلفنا. وعلى هذا المعنى جرى المفسّرون.

الدراسة: القراءة بتمهّل وتفهّم، وتقدّم عند قوله تعالى { وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ } [آل عمران:79].

ولا علاقة للآية بأهل الكتاب، لأنّه لم يكن في مدة نزول الوحي بمكة علاقة للدعوة الإسلامية بأهل الكتاب وإنّما دعاهم النبيّ صلى الله عليه وسلم بالمدينة.

{ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ } [45].

هذا تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وتهديد للذين كذَّبوه، فموقع التسلية منه قوله تعالى { وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } ، وموقع التهديد بقية الآية، فالتسلية في أنّ له أسوة بالرسل السابقين، والتهديد بتذكيرهم بالأمم السالفة التي كذّبت رسلها وكيف عاقبهم الله على ذلك وكانوا أشد قوة من قريش، وهذا كقوله تعالى { فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً } [الزخرف:8].

{ **كَذَّبَ** } المفعول محذوف دلّ عليه ما بعده، أي: كذَّبوا بالرسل.

{ **بَلَغُوا** } الضمير عائد إلى { الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ }.

{ **آتَيْنَاهُمُ** } من الآيات البيّنات والحقّ، فالضمير على الراجح عائد إلى { الَّذِينَ كَفَرُوا } في قوله { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ} [43].

وذُكر احتمالان آخران في معاد الضميرين يجيزهما المعنى ولا يستقيم معهما السياق.

المعشار: العُشر، وهو الجزء العاشر، مثل المرباع الذي كان يُجعل لقائد الكتيبة من الغنائم في الجاهلية.

{ **فَكَذَّبُوا رُسُلِي** } الفاء للتفريع على قوله تعالى { وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ }، والتفريع للتأكيد، ونظيره قوله تعالى { كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا } [القمر:9].

{ **فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ** } مفرّعة أيضا على قوله تعالى { وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ }. و(كيف) استفهام عن الحالة وهو مستعمل في التقرير والتفريع.

{ **فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ** } الجملتان في قوّة جملة واحدة مفرّعة على جملة { وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } والتقدير: وكذب الذين من قبلهم فكيف كان نكيري على تكذيبهم الرسل. ولكن لمّا كانت جملة { وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } مقصودا منها تسلية الرسول ابتداءً جُعلت مقصورة على ذلك اهتماما بذلك الغرض وانتصارا من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم، ثمّ خُصَّت عبرة تسبّب التكذيب بالعقاب بجملة تخصها تهويلا للتكذيب، وهو من مقامات الإطناب، فصادف أن كان مضمون الجملتين متّحدا، اتحاد السبب لمسبّبين أو العلة لمعلولين كعلة السرقة للقطع والغرم. وبُني النظم على هذا الأسلوب الشيّق تجنّبا

لثقل إعادة الجملة إعادة ساذجة، ففُرّعت الثانية على الأولى واظهر فيها مفعول { كَذَّبَ } وبُني عليه الاستفهام التقريري التفظيعي، أو فرّع التكذيب الخاص على التكذيب العام الذي هو سجيتهم.
التنكير: اسم للإنكار وهو عدُّ الشيء منكرا، أي: مكروها، واستُعمل هنا كناية عن الغضب وتسليط العقاب على الآتي بذلك المنكر، فهي كناية رمزية.

{ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ } [46].
{ **قُلْ** } افتُتح بالأمر بالقول هنا وفي الجمل الأربع بعده للاهتمام بما احتوت عليه.
استئناف للانتقال من حكاية أحوال كفر المشركين وما تخلّل ذلك من النقض والاستدلال والتسلية والتهديد ووصف صدودهم ومكابرتهم، إلى دعوتهم للإنصاف في النظر والتأمّل في الحقائق ليتّضح لهم خطؤهم فيما ارتكبوه من العسُّف في تلقّي دعوة الإسلام، وما ألصقوا به وبالداعي إليه، وأُرشِدوا إلى كيفية النظر في شأنهم والاختلاء بأنفسهم لمحاسبتها على سلوكها استقصاء لهم في الحجّة وإعذارا لهم في المجادلة { لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ } [الأنفال:42].
{ **إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ** } اجتُلبت صيغة القصر، وهو قصر إضافي، أي: لا بغيرها من المواعظ المفصّلة، أي: إن استكثرتم الحجج وضجرتم من الردود والمطاعن فأنا أختصر المجادلة في كلمة واحدة. وهذا كما يقول المناظر والجدلي بعد بسط الأدلة: والخلاصة أو الفذلكة كذا.
أي: ما أعظكم إلّا بواحدة، فالكلام طيّ لبساط المناظرة وإرساء على الخلاصة من المجادلات الماضية، وتقريب لشقة الخلاف.
والكلام على لسان النبيّ صلى الله عليه وسلم أمره الله أن يخاطبهم به.
الوعظ: كلام فيه تحذير من مكروه وترغيب في ضدّه. وتقدّم عند قوله تعالى { وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ } [الأعراف [145]، وقوله تعالى { يَعِظُكُمُ اللَّهُ } [النور:17].
{ **بِوَاحِدَةٍ** } صفة لمحذوف يدلّ عليه المقام ويفرضه السامع نحو: بخصلة، أو بقضيّة، أو بكلمة.
والمقصود من هذا الوصف تقليلها تقريبا للأفهام واختصارا في الاستدلال وإيجاز في نظم الكلام واستنزالا لطائر نفورهم وإعراضهم.
{ **أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ** } تبيين لـ { أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ }، فالمصدر المنسبك من { أَنْ } والفعل { تَقُومُوا } في موضع البدل من { بِوَاحِدَةٍ }، أو قل عطف بيان، فإنّ عطف البيان هو البدل المطابق وإنّما أختلف التعبير عنه عند المتقدّمين.
{ **أَنْ تَقُومُوا** } مجاز، وهو التأهّب للعمل والاجتهاد فيه، كقوله { وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ} [النساء:127].

{ **لِلَّهِ** } اللام للتعليل، أي: لأجل الله ولذاته، أي: جاعلين عملكم لله، لا لمرضاة صاحب ولا عشيرة. أو لأجل معرفة الله والتدبّر في صفاته.

{ **مَثْنَى** } معدول بها عن قولهم: اثنين اثنين، بتكرير كلمة اثنين تكريرا يفيد معنى الترصيف.

{ **فُرَادَى** } معدول بها عن قولهم: فردا فردا تكريرا يفيد معنى الترصيف كذلك.

{ **مَثْنَى وَفُرَادَى** } انتصبا على الحال من ضمير { تَقُومُوا } أي: أن تكونوا في القيام على هذين الحالين، فيجوز أن يكون المعنى: أن تقوموا لحق الله وإظهاره على أيّ حال من اجتماع وانفراد، فيكون { مَثْنَى } كناية عن التعدّد، ويجوز أن يكون المعنى أن تقوموا لحق الله مستعينا أحدكم بصاحب له او منفردا بنفسه.

وقُدّم { مَثْنَى } لأنّ الاستعانة أعون على الفهم، فيكون المراد دفع عوائق الوصول إلى الحقّ بالنظر الصحيح الذي لا يغالط فيه صاحب هوى ولا شبهة، ولا يخشى فيه الناظر تشنيعا ولا سمعة.

فإنّ المرء إذا خلا بنفسه عند التأمّل لم يرض لها بغير النصح، وإذا خلى ثاني أثنين فهو إنّما يختار ثانيه أعلق أصحابه به وأقربهم منه رأيا فسَلِم كلاهما من غش صاحبه.

{ **ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا** } حرف { ثُمَّ } للتراخي في الرتبة لأنّ التفكّر في أحوال النبيّ صلى الله عليه وسلم أهمّ في إصلاح حال المخاطبين المعرضين عن دعوته.

التفكّر: تكلّف الفكر وهو العلم، وتقدّم عند قوله تعالى { أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ } [الأنعام:50].

{ **مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ** } نفي يُعلِّق فعل { تَتَفَكَّرُوا } عن العمل لأجل حرف النفي.

والمعنى: ثم تعلموا نفي الجنون عن صاحبكم. فالجملة معمولة لـ { تَتَفَكَّرُوا }. وهو كناية عن التبصر في خُلُقه، وتقدم في قوله تعالى { أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ } [الأعراف:184].

الصاحب: المخالط مطلقا بالموافقة والمخاصمة.

{ **بِصَاحِبِكُمْ** } إظهار في مقام الإضمار لأنّ مقتضى الظاهر أن يقال: ما بي من جنّة، إذ الكلام جار على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم، كما تقدّم آنفا.

وفائدته التنبيه على أنّ حاله معلوم لديهم لا يلتبس عليهم لشدّة مخالطته بهم. فهذا كقوله تعالى { فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ } [يونس:16].

والاقتصار في التفكّر المطلوب على انتفاء الجنّة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم هو أنّ أصل الكفر هو الطعن في نبوّته، وهم إنّما ابتدأوا اختلاقهم بأنّه مجنون، كما جاء في السورة الثانية نزولا { مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ } [القلم:2]، وجاء في السورة السابعة { وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ } [التكوير:22].

وذلك هو الذي استمروا عليه، قال تعالى { ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ } [الدخان:14]، إذ دعوى الجنون أروج بين أهل مكة، لأنّ الجنون يطرأ على الإنسان دفعة. كما قالت عاد لهود { إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ } [هود:54]، وقالت ثمود لصالح { قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا } [هود:62].

{ **إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ** } قصر موصوف على صفة قصرا إضافيا، أي: هو مقصور على صفة النذارة لا تحوم حوله الأوصاف التي لمزتموه بها.

{ **بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ** } القرب، أي: قرب الحصول، فيقتضي القبلية، وتقدّم آنفا [31]، أي: عذاب الآخرة.

{ **قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** } [47].

هذا استقصاء لبقايا شُبه التكذيب لدحضها، سواء منها ما تعلّقوا به من نحو قولهم: كاهن وشاعر ومجنون، وما لم يدّعوه ولكنّه قد يخطر ببالهم أن يزعموا أنّه يريد بهذه الدعوى نفعا لنفسه، يكون كالأجر له.

فلمّا نفيت عنه تلك الخلال لم يبق لهم في الكنانة سهمُ طعنٍ إلّا أن يزعموا أنّه يطلب أجرا على الإرشاد، فقيل لهم { مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ } أي: إن كان بكم ظنّ انتفاعي منكم بما دعوتكم إليه، فما كان لي من أجر عليه فخذوه.

وهذه طريقة بديعة في الكناية التهكّمية عن عدم انتفاعه بما يدعوهم إليه، بأن يُفرض كالواقع ثم يُرتّب عليه الانكفاف عنه وردّ ما فات منه، ليفضي بذلك إلى البراءة منه ومن التعرّض له. فهي كناية رمزية.

وهم يعلمون أنّه لم يسألهم أجرا { قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ } [ص:86/87].

الأجر: عوض نافع عن عمل، سواء كان مالا أو غيره. وتقدّم عند قوله تعالى { لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ } [القصص:25].

{ **إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ** } مستأنفة استئنافا بيانيا جوابا لسؤال مقدّر أن يسأل السامع: كيف لا يكون له على ما قام به أجر، فأجيب بأنّ أجره مضمون وَعَدَه الله به، لأنّه إنّما يقوم بعمل لمرضاته وامتثال أمره فعليه أجره.

{ **وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** } ثمّ ذيّل ذلك باستشهاد الله تعالى على باطنه ونّيته التي هي من جملة الكائنات التي الله شهيد عليها وعليم بخفاياها، فهو من باب { قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ } [الرعد:43].

{ **قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ** } [48].

لا جَرَمَ إذ انتهى الاستدلال والمجادلة أن يُنتقل إلى النداء بين ظهرانيهم بظهور الحقّ فيُستغنى عن مجادلتهم.

{ **قُلْ** } أعيد الفعل للاهتمام بالمقول كما أشرنا إليه آنفا.

{ **إِنَّ** } التأكيد لتحقيق هذا الخبر.

{ **رَبِّي** } التعبير عن اسم الله بلفظ الربّ وإضافته إلى ضمير المتكلم للإشارة أنّ الحقّ في جانبه وأنه مؤيّد من ربّه، فإنّ الربّ ينصر مربوبيه ويؤيِّدهم. فالمراد بالربوبية هنا ربوبية الولاء والاختصاص لا مطلق الربوبية لأنّها تعمّ الناس كلّهم.

{ **إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ** } تقديم المسند إليه على المسند الفعلي للدلالة على الاختصاص دون التقوّي لأنّ تقوّي الجملة حصل بحرف التأكيد. وهذا الاختصاص باعتبار ما في { يَقْذِفُ بِالْحَقِّ } من معنى: الناصر لي دونكم، فماذا ينفعكم اعتزازكم بأموالكم وأولادكم وقوّتكم.

القذف: إلقاء الشيء من اليد، وأطلق على إظهار الحق قذف على سبيل الاستعارة، شُبّه إعلان الحق بإلقاء الحجر ونحوه. وهو تعريض بالتهديد والتخويف من نصر الله المؤمنين على المشركين.

ويجوز أن يكون معنى { يَقْذِفُ بِالْحَقِّ } يرسل الوحي، أي: على من يشاء من عباده، كقوله تعالى { يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ } [غافر:15]، ويكون قوله تعالى { عَلَّامُ الْغُيُوبِ } إشارة إلى أنّه أعلم حيث يجعل رسالاته، لأنّ المشركين كانوا يقولون: لولا أنزلت علينا الملائكة دون محمد.

{ **عَلَّامُ الْغُيُوبِ** } تخصيص هذا الوصف من بين الأوصاف الإلهية للإشارة إلى أنّه عالم بالنوايا، وأنّ القائل يعلم ذلك، فالذي يعلم هذا لا يجترئ على الله بادعائه باطلا أنّه أرسله إليكم، فالإعلام بهذه الصفة هنا يشبه استعمال الخبر في لازم فائدته وهو العلم بالحكم الخبري.

{ **قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ** } [49].

{ **قُلْ** } أعيد الفعل للاهتمام بالمقول كما تقدّم أنفا.

{ **قُلْ جَاءَ الْحَقُّ** } تأكيد لجملة { قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ } [48]، فإنّ الحق قد جاء بنزول القرآن ودعوة الإسلام.

{ **وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ** } عطف على { جَاءَ الْحَقُّ } لأنّه إذا جاء الحق انقشع الباطل من الموضع الذي حلّ فيه الحق. كناية عن اضمحلاله وزواله، وهو ما عُبّر عنه بالزهوق في قوله تعالى { إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً } [الإسراء:81].

{ **يُبْدِئُ** } مضارع أبدأ بهمزة في أوّله وهمزة في أخره، والهمزة التي في أوّله للزيادة مثل همزة: أجاء. وأكثر ما يستعمل فعل (أبدأ) المهموز أوّله مع فعل (أعاد) مزدوجين في إثبات أو نفي، وتقدّم قوله تعالى { أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ } [العنكبوت:19].

وإسناد الإبداء والإعادة إلى الباطل مجاز عقلي أو استعارة.

{ **قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ** } [50].

لمّا جرى ذكر الحقّ والباطل وكانوا يزعمون من مجموع أقوالهم أنّ النبيّ عليه الصلاة والسلام غير صادق في دعوى الرسالة من الله، كانت أقوالهم تقتضي زعمهم إيّاه على ضلال، وكان الردّ عليهم قاطعا بأنّه على هدى بقوله { قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ } [49].

لذلك انتقل هنا إلى متاركة جدالهم وتركهم وشأنهم لقلّة جدوى مراجعتهم. وهذا محضر خاص وطي بساط مجلس واحد، فلا يقتضي أنّه يستمر على ترك مجادلتهم لأنّ الواقع ينافي ذلك فقد نزل القرآن بعد ذلك طويلا مشتملا على دعوتهم وتحذيرهم وإنذارهم.

{ **إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي** } صيغة القصر لقصر الضلال المتخيّل، وقد استُفيد من إسناد الفعل إلى ضمير المتكلّم ثم ممّا عقبه من قصر الضلال على الحصول من المتكلم، وهو أغرق في التعلّق به، أنّ الضلال المفترض، إن حصل، فسببه من قبل نفسه.

وتعدية { أَضِلُّ } بحرف (عَلَى) تتضمّن استعارة مكنية إذ شبّه الضلال بجريرة عليه فعدّاه بالحرف الشائع استعماله في الأشياء المكره عليها غير الملائمة، عكس (اللام).

{ **وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي** } اختير في جانب الهدى فعل { اهْتَدَيْتُ } الذي هو مطاوع (هدى) لما فيه من الإيماء إلى أنّ له هاديا، وبيّنه بقوله { فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي } ليحصل شكره لله إجمالا ثم تفصيلا.

والقول كالاحتراس من أن يكون حاله مقتصرا على فرض كونه مظنّة الضلال، مع ما فيه من الاعتراف لله بنعمته بأنّ ما يناله من خير فهو بإرشاد الله لا من نفسه، لأنّه ما كان يصل لذلك وهو مغمور بأمّة جاهلية لولا إرشاد الله إيّاه، كما قال تعالى { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الْإِيمَانُ } [الشورى:52].

{ **إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ** } تذييل لما أفادته الجملتان المقولتان قبله من الترديد في نسبة الاهتداء والضلال، أي: أن الله يعلم حالي وهو كذلك مطّلع على حالكم. وهذا تعريض بالتهديد.

القريب: هنا كناية عن العلم والإحاطة، فهو قرب مجازي.

{ **وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ** [51] **وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ** [52] **وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ** [53] }.

لمّا جاءهم التعريض بالتهديد من لازم المتاركة المدلول عليها بقوله تعالى { فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي } [50]، للعلم بأنّ الضّال يستحق العقاب، أتبع حالهم حين يحلّ بهم الفزع

من مشاهدة ما هُدِّدوا به.

والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم تسلية له، أو لكلّ مخاطب.

{ **لَوْ** } حذف جوابها للتهويل. والتقدير: لرأيت أمرا فظيعا.

{ **تَرَى** } المفعول يجوز أن يكون محذوفا، أي: لو تراهم، أو ترى عذابهم، ويجوز أن يكون { إِذْ } هو المفعول به وهو مجرّد عن الظرفية، أي: لو ترى ذلك الزمان، أي: ترى ما يشمل عليه.

الفزع: الخوف المفاجئ، وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم للأنصار: **" إنّكم لتَكْثُرون عند الفزع وتقلُّون عند الطمع "**. وهذا الفزع عند البعث يُشعر بأنّهم كانوا غير مهيّئين لهذا الوقت أسباب النجاة من هوله.

الأخذ: حقيقته التناول، هنا مجاز في الغلب والتمكّن بهم، كقوله تعالى { فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً } [الحاقة:10].

{ **فَلا فَوْتَ** } معترضة بين المتعاطفات. و**الفوت**: التفلُّت والخلاص من العقاب.

المكان القريب: المحشر، أي: أخذوا منه إلى النار، فاستغنى بذكر { مِن } الابتدائية عن ذكر الغاية، لأنّ كلّ مبدأ له غاية. ومعنى قرب المكان أنّه قريب إلى جهنم بحيث لا يجدون مهلة لتأخير العذاب.

{ **وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ** } أي: يقولون حينئذ: آمنا به.

{ **بِهِ** } إذا كان الضمير محكيًّا من كلامهم، فهو للوعيد أو ليوم البعث أو للنبيّ صلى الله عليه وسلم أو للقرآن، لأنّ جميع ما يصحّ معادا للضمير مشاهد لهم، فأجمعوا فيما يراد الإيمان به، لأنّهم ضاق عليهم الوقت فاستعجلوه بما يحسبونه منجيا لهم من العذاب.

وإن كان الضمير من الحكاية فهو عائد إلى الحقّ من قوله تعالى { قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ } [48]، لأنّ الحق يتضمّن ذلك كلّه.

{ **وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ** } استطراد على قولهم { آمَنَّا بِهِ }، بأنّهم قد فوّتوا وقت الإيمان.

{ **أَنَّى** } استفهام عن المكان، وهو مستعمل في الإنكار.

{ **التَّنَاوُشُ** } (قرأه الجمهور بواو مضمومة بعد الألف) وهو التناول السهل أو الخفيف، وأكثر وروده في شرب الإبل شربا خفيفا من الحوض ونحوه. وقال الفراء والزجاج: هو من **نأش** (بالهمز) إذ تأخّر في عمل.

وعلى كلا التفسيرين فالمراد بالتناوش وصف قولهم { آمَنَّا بِهِ } بأنّه إيمان تأخّر وقته أو فات أوانه.

{ **مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ** } وفي الجمع بينها وبين { مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ } مُحسِّن الطباق.

{ **وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ** } في موضع الحال، أي: كيف يقولون آمنا به في وقت الفوات والحال أنّهم كفروا به من قبل في وقت التمكّن، فهو كقوله تعالى { وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ } [القلم:43].

{ **وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ** } عطف على { كَفَرُوا } فهي حال ثانية. والتقدير: وكانوا يقذفون

بالغيب. واختيار صيغة المضارع لحكاية الحالة.

القذف: الرمي باليد من بعد. وهو هنا مستعار للقول بدون تروّ ولا دليل، أي: يتكلّمون في أمور الآخرة بما لا علم لهم به، إذ أحالوا البعث والجزاء وقالوا عن شركائهم: هم شفعاؤنا عند الله.

الغيب: المغيَّب. والباء للملابسة، والمجرور بها في موضع الحال من ضمير { يَقْذِفُونَ }.

{ **مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ** } هنا مستعمل في حقيقته، أي: من الدنيا، وهي مكان بعيد عن الآخرة.

{ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ } [54].

عطف على الجمل الفعلية نظائر هذه، وهي جُمل { فَزِعُوا }، { وَأُخِذُوا }، { وَقَالُوا } [52/51]، أي: وحال زجّهم في النار بينهم وبين ما يأملونه من النجاة بقولهم { آمَنَّا بِهِ } [52].

{ **مَا يَشْتَهُونَ** } هو النجاة من العذاب، أو عودتهم إلى الدنيا، فقد حكي عنهم في آيات أخرى أنّهم تمنّوه، قال تعالى { فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } [الأنعام:27].

{ **كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ** } تشبيه للحيلولة بحيلولة أخرى وهي الحيلولة بين بعض الأمم وبين الإمهال حين حلّ بهم عذاب الدنيا، مثل فرعون وقومه إذ قال { آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرائيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ } [يونس:90]، وكذلك قوم نوح حين رأوا الطوفان، وما من أمّة حلّ بها عذاب إلّا وتمنّت الإيمان حينئذ فلم ينفعهم إلّا قوم يونس.

الأشياع: المشابهون في النِّحلة وإن كانوا سالفين. وأصل المشايعة المتابعة في العمل والحلف ونحوه، ثمّ أطلقت هنا على مطلق المماثلة على سبيل المجاز المرسل بقرينة قوله { مِنْ قَبْلُ }، أي: كما فُعل بأمثالهم في الدنيا من قبل، وأمّا يوم الحشر فإنّما يحال بينهم وبين ما يشتهون وكذلك أشياعهم في وقت واحد.

وفائدة هذا التشبيه تذكير الأحياء منهم وهم مشركو أهل مكة بما حلّ بالأمم من قبلهم.

{ **إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ** } مسوقة لتعليل الجمل التي قبلها. أي: فُعل بهم جميع ما سمعت لأنّهم كانوا في حياتهم في شكّ من ذلك اليوم وما وصف لهم من أهواله.

وإذا كان الشكّ مفضيا إلى تلك العقوبة فاليقين أولى بذلك، ومآل الشك واليقين بالانتفاء واحد إذ ترتّب عليهما عدم الإيمان به وعدم النظر في دليله.

المريب: المُوقع في الريب. و**الريب**: الشك، فوصف الشك به وصف له بما هو مشتق من مادته لإفادة المبالغة، كقولهم: شعر شاعر، وليل أليل، أو ليلٌ داج.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة فاطر

سُمِّيت **(سورة فاطر)** في كثير من المصاحف في المشرق والمغرب، وفي كثير من التفاسير. وسُمِّيت في صحيح البخاري وفي سنن الترمذي وفي كثير من المصاحف والتفاسير **(سورة الملائكة)**، لا غير.

وقد ذكر لها كلا الاسمين صاحب (لإتقان).

فوجه تسميتها سورة فاطر أنّ هذا الوصف وقع في طالعة السورة ولم يقع في أوّل سورة أخرى.

ووجه تسميتها سورة الملائكة أنّه ذكر في أوّلها صفة الملائكة ولم يقع في سورة أخرى.

وهي **مكّيّة** بالاتفاق، وحكى الآلوسي عن الطبرسي أنّ الحسن استثنى آيتين { إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ } [29]، وآية { ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا } [32]، ولم أر هذا لغيره.

وهي **الثالثة والأربعون في ترتيب النزول**. نزلت بعد سورة الفرقان وقبل سورة مريم.

وقد عُدَّت آيها في عدّ أهل المدينة والشام **ستا وأربعين**، وفي عدّ أهل مكّة والكوفة **خمسا وأربعين**.

أغراض السورة

*/ إثبات تفرّد الله تعالى بالإلهية، فافتتحت بما يدلّ على أنّه مستحقّ الحمد على ما أبدع من الكائنات.

*/ إثبات صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء به وأنّه جاء به الرسل من قبله.

*/ إثبات البعث والدار الآخرة.

*/ تذكير الناس بإنعام الله عليهم بنعمة الإيجاد ونعمة الإمداد، وما يعبد المشركون من دونه لا يغنون عنهم شيئا، وقد عبدهم الذين من قبلهم فلم يغنوا عنهم.

*/ تثبيت النبيّ صلى الله عليه وسلم على ما يلاقيه من قومه.

*/ كشف نواياهم في الإعراض عن إتباع الإسلام.

*/ إنذارهم أن يحلّ بهم ما حلّ بالأمم المكذِّبة قبلهم.

*/ الثناء على الذين تلقّوا الإسلام بالتصديق.

*/ تذكير المكذّبين بأنّهم كانوا يودُّون أن يُرسَل إليهم رسول فلما جاءهم رسول تكبّروا واستنكفوا. وأنّهم لا مفرّ لهم من حلول العذاب عليهم، فقد شاهدوا آثار المكذِّبين من قبلهم، وأنّ لا يغتروا بإمهال الله إيّاهم.

*/ التحذير من غرور الشيطان والتذكير بعداوته لنوع الإنسان.

{ **الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } [1].

{ **الْحَمْدُ لِلَّهِ** } افتتاحٌ مؤذن بأنّ صفات من عظمة الله ستُذكر فيها، وإجراء صفات الأفعال على اسم الجلالة، من خلقه السماوات والأرض وأفضل ما فيها من الملائكة والمرسلين مؤذن بأنّ السورة جاءت لإثبات التوحيد وتصديق الرسول صلى الله عليه وسلم.

وإيذان { الْحَمْدُ لِلَّهِ } باستحقاق الله الحمد دون غيره تقدّم في أوّل سورة الفاتحة.

الفاطر: الخالق، وفيه معنى التكوّن سريعا لأنّه مشتق من الفطر وهو الشق. منه قوله تعالى { تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ } [الشورى:5]، وقوله تعالى { إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ } [الانفطار:1].

وعن ابن عباس: " كنت لا أدري ما فاطر السماوات والأرض [أي: لعدم جريان هذا اللفظ بينهم في زمانه] حتّى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، أي: أنا ابتدأتها ".

وأحسب أن وصف الله بـ { فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } ممّا سبق به القرآن، وتقدّم عند قوله تعالى { فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [الأنعام [14]، وقوله تعالى { وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [يوسف:101].

{ **جَاعِلِ** } يطلق بمعنى مكوِّن، وبمعنى مُصَيِّر.

{ **الْمَلائِكَةِ رُسُلاً** } على المعنى الأوّل لـ { جَاعِلِ } يكون { رُسُلاً } مفعولا ثانيا لـ {جَاعِلِ} أي: جعل الله من الملائكة رسلا، أي: ليكونوا رسلا منه تعالى لما يريد أن يفعلوه بقوّتهم الذاتية.

وعلى المعنى الثاني لـ { جَاعِلِ } يكون { رُسُلاً } حالا من { الْمَلائِكَةِ }، أي: يجعل من أحوالهم أن يرسلوا.

ولصلاحية المعنيين أوثرت مادة الجعل دون أن يعطف على معمول { فَاطِرِ }.

وتخصيص ذكر الملائكة من بين مخلوقات السماوات والأرض لشرفهم بأنّهم سكان السماوات، وعظيم خلقهم. وأجري عليهم صفة أنّهم رسل لمناسبة المقصود من إثبات الرسالة، أي: جاعلهم رسلا منه إلى المرسلين من البشر للوحي بما يراد تبليغهم إيّاه للناس.

{ **أُولِي أَجْنِحَةٍ** } يجوز أن يكون حالا من { الْمَلائِكَةِ }، فتكون الأجنحة ذاتية لهم من مقوّمات خلقهم.

ويجوز أن يكون حالا من الضمير في { رُسُلاً } فيكون خاصة بحالة مرسوليَّتهم.

{ **أَجْنِحَةٍ** } جمع جَناح وهو ما يكون للطائر في موضع اليد للإنسان، فيحتمل أنّ إثبات الأجنحة للملائكة في هذه الآية وفي بعض الأحاديث المروية عن النبيّ صلى الله عليه وسلم **حقيقة**.

ويحتمل أنّه **استعارة للقوّة** التي يخترقون بها الآفاق السماوية صعودا ونزولا، لا يعلم كنهها إلّا الله تعالى.

{ **مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ** } كلمات دالة على معنى التكرير لاسم العدد التي تشتق منه ابتداء من الاثنين بصيغة مثنى، ثم الثلاثة والأربعة بصيغة ثلاث ورُباع. والأكثر أنّهم لا يتجاوزون بهذه الصيغة مادة الأربعة، وقيل يجوز إلى العشرة. والمعنى: اثنين اثنين الخ. وتقدّم قوله تعالى { أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى } [سبأ:46].

ويجوز أن تكون أعداد الأجنحة متغيّرة لكلّ ملك في أوقات متغيّرة على حسب المسافات التي يؤمرون باختراقها من السماوات والأرضين. والأظهر أنّ الأجنحة للملائكة من أحوال التشكل الذي يتشكّلون به.

الملائكة: تتحصّل ماهية الملائكة فيما ذكره سعد الدين في كتاب (المقاصد): " إنّهم أجسام لطيفة نورانية قادرة على التشكّلات بأشكال مختلفة، شأنهم الخير والطاعة، والعلم، والقدرة على الأعمال الشاقة، ومسكنهم السماوات، وهذا ظاهر الكتاب والسنة، وهو قول أكثر الأمّة ".

والوجه عندي في ترتيب التعريف أنّ يقال: أجسام لطيفة نورانية أخيار ذوو قوة عظيمة، ومن خصائصهم القدرة على التشكّل بأشكال مختلفة، والعلم بما تتوقف عليه أعمالهم، ومقرّهم السماوات ما لم يرسلوا إلى جهة من الأرض.

وثبت تشكّل جبريل عليه السلام للنبيّ صلى الله عليه وسلم في صورة دحية الكلبي، وتشكّله له ولعمر بن الخطاب في حديث السؤال عن الإيمان والإسلام والإحسان والساعة في صورة "... رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منّا أحد [أي: من أهل المدينة] حتّى جلس إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه إلى فخذيه ..." ، وقول النبيّ صلى الله عليه وسلم بعد أن فارقهم الرجل: " **هل تدرون من السائل؟** " قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: **فإنّه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم** ". كما في الصحيحين عن عمر بن الخطاب.

وثبت حلول جبريل في غار حراء في بدء الوحي، وظهوره للنبيّ صلى الله عليه وسلم على كرسي بين السماء والأرض بصورته التي رآه فيها في غار حراء في حديث نزول سورة المدثر.

ورأى كثير من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ناسا لا يعرفونهم على خيل يقاتلون معهم.

{ **يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ** } مستأنفة استئنافا بيانيا لأنّ ما ذُكر من صفات الملائكة يثير تعجّب السامع أن يتساءل عن هذه الصفة العجيبة فأجيب بهذا الاستئناف بأنّ مشيئة الله تعالى لا تنحصر ولا توقَّت.

ولكلّ جنس من أجناس المخلوقات مقوماته وخواصه.

{ **فِي الْخَلْقِ** } في المخلوقات كلّها، أي: يزيد الله في بعضها ما ليس في خلق آخر. فيشمل زيادة قوّة بعض الملائكة على بعض.

ويجوز أن تكون جملة { يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ } صفة ثانية للملائكة، أي: أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في خلقهم ما يشاء كأنّه قيل: مثنى وثلاث ورباع وأكثر. يبيّنه ما في الأحاديث من كثرة

أجنحة جبريل.

{ **إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } تعليل للجملة السابقة، وفي هذا تعريض بتسفيه عقول الذين أنكروا الرسالة وقالوا { إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا } [إبراهيم:10]، فأجيبوا بقول الرسل { إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ } [إبراهيم:11].

{ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [2].

هذا من بقية تصدير السورة بـ { الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }، والتقدير: وفاتح الرحمة للناس وممسكها عنهم فلا يقدر أحد على إمساك ما فتحه ولا على فتح ما أمسكه.

{ **مَا** } شرطية، أي: اسم فيه معنى الشرط. وأصلها اسم موصول ضُمّن معنى الشرط فانقلبت صلته إلى جملة شرطية وانقلبت جملة الخبر جوابا واقترنت بالفاء لذلك.

{ **مِنْ رَحْمَةٍ** } بيان لإبهام { مَا } والرابط محذوف لأنّه ضمير منصوب.

الفتح: تمثيلية لإعطاء الرحمة، إذ هي من النفائس التي تشبه المدّخرات المتنافس فيها فكانت حالة إعطاء الله الرحمة شبيهة بحالة فتح الخزائن للعطاء، فأشير إلى هذا التمثيل بفعل الفتح.

الإمساك: حقيقته أخذ الشيء باليد مع الشدّ عليه بها لئلّا يسقط أو ينفلت، وهو يتعدّى بنفسه. أو هو هنا مجاز عن الحبس والمنع ولذلك قوبل به الفتح.

{ **فَلا مُمْسِكَ لَهَا** } تأنيث الضمير لمراعاة بيان { مَا } في قوله { مِنْ رَحْمَةٍ } لقربه.

الإرسال: ضد الإمساك، وتعدية الإرسال بـ (اللام) للتقوية لأنّ العامل هنا فرع في العمل.

{ **فَلا مُرْسِلَ لَهُ** } تذكير الضمير مراعاة للفظ { مَا } لأنّها لا بيان لها.

{ **مِنْ بَعْدِهِ** } بمعنى: من دونه، كقوله تعالى { فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ } [الجاثية:23]، أي: فلا مرسل له دون الله، أي: لا يقدر أحد على إبطال ما أراد الله من إعطاء أو منع، والله يحكم لا معقب لحكمه.

{ **وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } تذييل رجح فيه جانب الإخبار فعطف، وكان مقتضى الظاهر أن يكون مفصولا لإفادة أنّه يفتح ويمسك لحكمة يعلمها، وأنّه لا يستطيع أحد نقض ما أبرمه في فتح الرحمة وغيره من تصرفاته لأنّ الله عزيز لا يمكن لغيره أن يغلبه.

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ } [3].

لمّا جرى ذكر رحمة الله التي تعمّ الناس كلّهم أقبل على خطابهم بأن يتذكّروا نعمة الرزق، وهي النعمة

التي تخصّ كل واحد بخاصته فيأتلف منها مجموع الرحمة العامة للناس كلّهم وما هي إلّا بعض رحمة الله بمخلوقاته. والمقصود من تذكّر النعمة شكرها.

{ **هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ** } دعوة إلى النظر في دليل الوحدانية والقدرة والفضل.

والاستفهام إنكاري في معنى النفي ولذلك اقترن ما بعده بـ { مِنْ } التي تزاد لتأكيد النفي.

{ **مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ** } تذكير بتعدّد مصادر الأرزاق، فإنّ منها سماوية كالمطر الذي منه الشراب...، ومن الأرض أرزاق كثيرة من حبوب وثمار...

{ **لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ** } هذا نتيجة عقب ذكر الدليل، إذ رتّب على انفراده بالخالقية والرازقية انفراده بالإلهية لأنّ هذين الوصفين هما أظهر دلائل الإلهية عند الناس.

{ **فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ** } فرّع على النتيجة التعجيب من انصرافهم عن النظر في دلائل الوحدانية.

{ **أَنَّى** } اسم استفهام يجيء بمعنى استفهام عن الحالة أو عن المكان أو عن الزمان. والاستفهام عن حالة انصرافهم هو المتعيّن هنا، وهو استفهام مستعمل في التعجيب من انصرافهم عن الاعتراف بالوحدانية.

{ **تُؤْفَكُونَ** } مبني للمجهول من أَفَكَه من باب ضربه إذا صرفه وعدل به، فالمصروف مأفوك. وحذف الفاعل هنا لأنّ آفكيهم أصناف كثيرون، وتقدم في قوله تعالى { قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ } [التوبة:30].

{ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ } [4].

عطف على جملة { اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ } [3]، أي: وإن استمروا على انصرافهم عن قبول دعوتك ولم يشكروا النعمة ببعثك فلا عجب فقد كذّب أقوام من قبلهم رسلهم. وهو انتقال من خطاب الناس إلى خطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم لمناسبة جريان خطاب الناس على لسانه، فهو مشاهد لخطابهم.

وإذ قد أبان لهم الحجّة على انفراد الله تعالى بالإلهية حين خاطبهم بذلك نقل الإخبار عن صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أنكروا قبوله منه، فلمّا استبان صدقه في ذلك بالحجّة ناسب أن يُعرَّض إلى الذين كذّبوه بمثل عاقبة الذين كذّبوا الرسل من قبله.

وقد أدمج في خلال ذلك تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم على تكذيب قومه إيّاه بأنّه لم يكن مقامه في ذلك دون مقام الرسل السابقين.

{ **رُسُلٌ** } التنكير للدلالة على تعظيم أولئك الرسل، زيادة على جانب صفة الرسالة من جانب كثرتهم وتنوع آيات صدقهم ومع ذلك كذَّبهم أقوامهم.

{ **وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ** } عطف على التسلية والتعريض ما هو كالتأكيد لهما والتذكير بعاقبة مضمونهما، بأنّ أمر المكذِّبين قد آل إلى لقائهم جزاء تكذيبهم من لدن الذي ترجع إليه الأمور كلّها.

إذ كان أمر أولئك المكذّبين وأمر أولئك الرسل في جملة عموم الأمور التي أرجِعت إلى الله تعالى.

وقد اكتسبت هذه الجملة معنى التذييل بما فيها من العموم.

{ **الْأُمُورُ** } جمع أمر وهو الشأن والحال.
أي: إلى الله ترجع الأحوال كلّها يتصرف فيها كيف شاء، فتكون الآية تهديدا للمكذبين وإنذارا.

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ } [5].

أعيد خطاب الناس إعذارا لهم وإنذارا بتحقيق أنّ وعد الله الذي وعده من عقابه المكذِّبين في يوم البعث هو وعد واقع لا يتخلّف، وذلك بعد أن قدّم لهم التذكير بدلائل الوحدانية المشتملة عليها، مع الدلالة على نعم الله عليهم ليعلموا أنّه لا يستحق العبادة غيره، وأنّه لا يتّصف بالإلهية الحقّ غيره.
وبعد أن أشار إليهم بأنّ ما أنتجته تلك الدلائل هو ما أنبأهم به الرسول صلى الله عليه وسلم فيعلمون صدقه فيما أنبأهم من توحيد الله.
والخطاب للمشركين، أو لهم وللمؤمنين، لأنّ ما تلاه صالح لموعظة الفريقين كلّ على حسب حاله.
{ **إِنَّ** } التأكيد إمّا لأن الخطاب للمنكرين، وإمّا لتغليب فريق المنكرين على المؤمنين لأنّهم أحوج إلى تقوية الموعظة.
الوعد: مصدر، وهو الإخبار عن فعل المخبِر شيئا في المستقبل، والأكثر أن يكون فيما عدا الشرّ، ويخصّ الشرّ منه باسم الوعيد، والوعد يعمُّهما، وهو <u>هنا مستعمل في القدر المشترك</u>.
وتقدم عند قوله { الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ } [البقرة:286].
{ **وَعْدَ اللَّهِ** } الإضافة إلى الاسم الأعظم توطئة لكونه حقًّا لأنّ الله لا يأتي منه الباطل.
{ **حَقٌّ** } هنا مقابل الكذب. والمعنى: أنّ وعد الله صادق. ووصفه بالمصدر مبالغة في حقِّيَّته.
والمراد به: الوعد بحلول يوم جزاء بعد انقضاء هذه الحياة كما دلّ عليه تفريع قوله اللاحق.
{ **فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا** } تفريع، والغُرور (بضم الغين) ويقال التغرير: إيهام النفع والصلاح فيما هو ضرّ وفساد. وتقدم عند قوله تعالى { لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا } [آل عمران:196]، وعند قوله تعالى { زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً } [الأنعام:112].
الحياة: ما تشتمل عليه أحوال الحياة الدنيا من لهو وترف.
وإسناد التغرير إلى الحياة، ولو مع تقدير المضاف، إسناد مجازي لأنّ الغارّ للمرء هو نفسه المنخدعة بأحوال الحياة الدنيا، فهو من إسناد الفعل إلى سببه والباعث عليه. وتقدّم نظيره في قوله تعالى { لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ } [آل عمران:196].
{ **وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ** }، و**الغَرور**: (بفتح الغين) هو شديد التغرير. والمراد به الشيطان، قال تعالى { فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ } [الأعراف:22]. وهو يغرُّ الناس بتزيين القبائح لهم تمويها بما يلوح عليها من محاسن.
{ **بِاللَّهِ** } الباء للملابسة وهي داخلة على مضاف مقدّر، أي: بشأن الله، أي: يتطرّق إلى نقض هدى الله.

وقد تضمَّنت الآية غرورين: غرورا يغترّه المرء من تلقاء نفسه ويزيِّن لنفسه من المظاهر الفاتنة التي تلوح له في هذه الدنيا ما يتوهَّمه خيرا ولا ينظر في عواقبه بحيث تخفى مضاره في بادئ الرأي.
وغرورا يتلقاه من الشيطان.

{ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ } [6].

لمّا كان في قوله { وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ } إبهام ما في المراد بالغَرور عقَّب ذلك بيانه بأنّ { الْغَرُورُ} هو الشيطان ليتقرَّر المسند إليه بالبيان بعد الإبهام.

{ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً } أظهر اسم الشيطان في مقام الإضمار للإفصاح والبيان، وإثارة العداوة بين الناس والشيطان، وهو هنا صريح كما في قوله { وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ } [البقرة:36]

وتلك عداوة مودعة في جبلَّته، لأنّ جبلّة الشيطان موكولة بإيقاع الناس في الفساد وأسوأ العواقب في قوالب محسَّنة مزيَّنة، وشواهد ذلك تظهر للإنسان في نفسه وفي الحوادث حيثما عثر عليها، قال تعالى { يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ } [الأعراف:27].

{ إِنَّ } تأكيد الخبر لقصد تحقيقه، لأنّهم بغفلتهم عن عداوة الشيطان يقعون في حبائله.

{ لَكُمْ } تقديمه على متعلّقه للاهتمام بهذا المتعلّق.

{ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً } أُمِروا باتخاذه عدوا لأنّهم إذا علموا أنّه عدو لهم حقّ عليهم اتخاذه عدوا.

عدوّ: تقدّم عند قوله تعالى { فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ } [النساء:92].

{ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ } أُعقِب الأمر باتخاذ الشيطان عدوًّا بتحذيرٍ من قَبول دعوته، وحثّ على وجوب اليقظة لتغريره، وتجنّب تولّيه لأنّه يدعو حزبه إلى ما يوقعهم في السعير.

والجملة تعليل لجملة { فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً }. وجيء بها في صيغة حصر لانحصار دعوته في الغاية المذكورة عقبها بلام العلّة. وبهذا العموم الذي يقتضيه الحصر صارت الجملة أيضا في معنى التذييل لما قبله كلّه.

{ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ } مقتضى القصر أنّ المفعول هو المقصود من القصر، أي: أنّه يدعو حزبه ولا يدعو غير حزبه، والشيطان يدعو الناس كلّهم سواء في ذلك حزبه ومن لم يكن إلى دعوته، إلّا أنّ أثر دعوته لا يظهر إلّا في الذين يركنون له فيصيرون حزبه، قال تعالى { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ } [الحجر:42]. وحكى الله عن الشيطان بقوله { وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ } [الحجر:40/39]، فتعيّن أنّ في الكلام إيجاز حذف.

التقدير: إنّما يدعوا حزبه دعوة بالغة مقصده. والقرينة هي ما تقدّم من التحذير، ولو كان لا يدعو إلّا حزبه لما كان لتحذير غيرهم فائدة.

{ **لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ** } يجوز أن تكون (اللام) لام العلّة فإنّ الشيطان قد يكون ساعيا لغاية إيقاع الآدميين في العذاب نكاية بهم، وهي علّة للدعوة مخفيّة في خاطره الشيطاني.

ويجوز أن تكون لام العاقبة والصيرورة مثل ما في قوله تعالى { فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً } [القصص:8].

قال ابن عطية: " لأنّه لم يدعهم إلى السعير إنّما اتفق أن صار أمرهم من دعائه إلى ذلك ".

{ **السَّعِيرِ** } النار الشديدة، وغلب في لسان الشرع على جهنم.

{ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ } [7].

استئناف ابتدائي يفيد مفاد الفذلكة والاستنتاج ممّا تقدّم. وهذا الاستئناف يومي إلى أنّ الذين كفروا هم حزب الشيطان، لأنّه لمّا ذكر أنّ حزبه من أصحاب السعير وحكم هنا بأنّ الذين كفروا لهم عذاب شديد عُلم أن الذين كفروا من أصحاب السعير إذ هو { عَذَابٌ شَدِيدٌ }، فعُلم أنّهم حزب الشيطان بطريقة قياس مطوي.

فالذين كفروا هم حزب الشيطان لعكوفهم على متابعته وإن لم يعلنوا ذلك، للملازمة ما يمليه عليهم.

وأمّا المؤمنون العصاة فليسوا من حزبه لأنّهم يعلمون كيده ولكنهم يتّبعون بعض وسوسته بدافع الشهوات، وهم مع ذلك يلعنونه ويتبرأون منه.

وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم في حجّة الوداع: " **إنَّ الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرضكم هذه ولكنّه قد رضي منكم بما دون ذلك مما تحقِّرون من أعمالكم** ".

وقد أشارت الآية إلى طرفين في الضلال والاهتداء وطوت ما بين ذينك من المراتب ليُعلم أنّ ما بين ذلك ينالهم نصيبهم من أشبه أحوالهم بأحوال أحد الفريقين، على عادة القرآن في وضع المسلم بين الخوف والرجاء، والأمل والرهبة.

{ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ } [8].

لمّا جرى تحذير الناس من غرور الشيطان وإيقاظهم إلى عداوته للنوع الإنساني، وتقسيم الناس إلى فريقين: فريق انطلت عليه مكائد الشيطان واغترّوا بغروره ولم يناصبوه العداء، وفريق أخذوا حذرهم منه واحترسوا من كيده وتجنّبوا السير في مسالكه، ثم تقسيمهم إلى كافر مُعذّب ومؤمن صالح مُنعّم عليه، أعقب ذلك بالإيماء إلى استحقاق حزب الشيطان عذاب السعير، وبتسلية النبيّ صلى الله عليه وسلم على

من لم يَخْلُصوا من حبائل الشيطان من أمّة دعوته بأسلوب الملاطفة في التسلية.

{ **أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً** } التفريع على قوله تعالى { إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ } لربط الجملة بما تقدّم ليعود الذهن إلى ما حكي من أحوالهم، ثم بإبراز الكلام المفرّع في صورة الاستفهام الإنكاري. وهذا الخبر ممّا دلت عليه المقابلة في قوله تعالى { الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} [7]، فقد دلّ ذلك عل أنّ الكفر سوء وأنّ الإيمان حسن، فيكون { أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ } هو الكافر، ويكون ضدّه هو المؤمن، ونظير هذا التركيب قوله تعالى { أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ } [الزمر:19]، وتقدّم عند قوله تعالى { أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ } [الرعد:33].

{ **زُيِّنَ لَهُ** } المزيّن للأعمال السيئة هو الشيطان، قال تعالى { وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ } [النمل: 24].

التزيين: تحسين ما ليس بحسن، بعضه أو كلّه. وقد صُرّح هنا بضدّه في قوله تعالى { سُوءُ عَمَلِهِ }، أي: صُوّرت لهم أعمالهم السيّئة بصورة حسنة ليُقْدِموا عليها بشَرَه، وتقدّم في [النمل:24].

{ **فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ** } مفرّعة، وهي تقرير للتسلية وتأييس من اهتداء من لم يخلق الله فيه أسباب الاهتداء إلى الحقّ من صحيح النظر وإنصاف المجادلة.

وإسناد الإضلال والهداية إلى الله بواسطة أنّه خالق أسباب الضلال والاهتداء، وذلك من تصرّفه تعالى بالخلق وهو سرّ من الحكمة عظيم لا يُدرَك غوره، وله أصول وضوابط سأبيّنها في (رسالة القضاء والقدر) إن شاء الله تعالى.

{ **فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ** } أي: فلا تذهب نفسك عليهم حسرات وإنّما حسرتهم على أنفسهم إذ رضوا لها باتباع الشيطان ونبذوا اتباع إرشاد الله، كما دلّ عل ذلك قوله { إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ } تسجيلا عليهم أنّهم ورَّطوا أنفسهم فيما أوقعوها فيه بصنعهم.

الحسرة: تقدمت في قوله تعالى { وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ } [مريم:39].

{ **حَسَرَاتٍ** } انتصب على المفعول لأجله، أي: لا تتلف نفسك لأجل الحسرة عليهم، وهو كقوله تعالى { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ } [الشعراء:3]، وقوله تعالى { وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ } [يوسف:84].

{ **إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ** } تصلح لإفادة التصبُّر والتحلُّم، أي: أنّ الله عليم بصنعهم في المخالفة عن أمره فكما أنّه لحلمه لم يعجّل بمؤاخذتهم فكن أنت مؤتسِّيا بالله ومتخلِّقا بما تستطيعه من صفاته.

وفي الكلام كناية عن عدم إفلاتهم من العذاب على سوء عملهم.

وليس في هذه الجملة معنى التعليل لجملة { فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ } لآنّ كمد نفس الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن لأجل تأخير عقابهم ولكن لأجل عدم اهتدائهم.

{ **إِنَّ** } تأكيد الخبر، إمّا تمثيل لحال الرسول صلى الله عليه وسلم بحال من أغفله التحسّر عليهم عن التأمّل في إمهال الله إيّاهم فأكّد له الخبر، وإمّا لجعل التأكيد لمجرد الاهتمام بالخبر، لتكون { إِنَّ } مغنية غناء (فاء) التفريغ، فتتمحّض الجملة لتقرير التسلية والتعريض بالجزاء عن ذلك.

{ **يَصْنَعُونَ** } دون: يعملون، للإشارة إلى أنّهم يدبّرون مكائد للنبيّ صلى الله عليه وسلم وللمسلمين، فيكون هذا الكلام إيذانا بوجود باعث آخر على النزع عن الحسرة عليهم.

وعن ابن عباس: أنّ المراد به أبو جهل وحزبه.

{ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ } [9].

لمّا قُدّم في أوّل السورة الاستدلال بأنّ الله فطر السماوات والأرض وما في السماوات من أهلها، وذلك أعظم دليل على تفرّده بالإلهية، ثُنِّي هنا بالاستدلال بتصريف الأحوال بين السماء والأرض، وذلك بإرسال الرياح وتكوين السحاب وإنزال المطر، فهذا عطف على قوله { فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [1].

{ **وَاللَّهُ** } إظهار في مقام الإضمار، دون أن يقول: وهو الذي أرسل الرياح.

{ **الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ** } اختير من دلائل الوحدانية دلالة تجمّع أسباب المطر ليفضي من ذلك إلى تنظير إحياء الأموات بعد أحوال الفناء بآثار ذلك الصنع العجيب، وأنّ الذي خلق وسائل إحياء الأرض قادر على خلق وسائل لإحياء الذين ضمَّتهم الأرض على سبيل الإدماج.

{ **أَرْسَلَ** } إذ قد كان القصد من الاستدلال هو وقوع الإحياء وتقرُّر وقوعه جيء بالفعل الماضي.

ولم يؤت بفعل الإرسال في هذه الآية بصيغة المضارع بخلاف قوله { اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ } [الروم:48] لأنّ القصد هنا استدلال بما هو واقع إظهارا لإمكان نظيره (البعث)، وأمّا آية سورة الروم فالمقصود منها الاستدلال على تجديد صنع الله ونعمه.

{ **فَتُثِيرُ سَحَاباً** } جيء بالمضارع لحكاية الحال العجيبة التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب، وهي طريقة للبلغاء في الفعل الذي فيه خصوصية بحال تُستغرب وتهم السامع.

{ **الرِّيَاحَ / سَحَاباً** } القول فيهما تقدّم غير مرّة أوّلها في [البقرة:164].

{ **فَسُقْنَاهُ** } بعد قوله تعالى { وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ } التفات من الغيبة إلى التكلّم.

{ **كَذَلِكَ النُّشُورُ** } سبيله سبيل قوله تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ } [5]، من إثبات البعث مع تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أخبر به عنه. والأظهر أن تكون الإشارة إلى مجموع الحالة المصوّرة، أي: مثل ذلك الصنع المحكم المتقن نصنع صنعا يكون به النشور، بأن يُهيِّئ الله حوادث سماوية أو أرضية أو مجموعة منهما حتّى إذا استقامت آثارها وتهيّأت أجسام لقبول أرواحها أمر الله بالنفخة الأولى والثانية فإذا الأجساد قائمة ماثلة أمر الله.

{ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ } [10].

كان ما سبق من الآيات [6-9] تفصيل الغرور الثاني الذي في قوله تعالى { وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ } [5]، وما استتبعه من التنبيه على أحجار كيده وانبعاث سموم مكره، والحذر من مصارع متابعته، وإبداء الفرق بين الواقعين في حبائله والمعافين من أدوائه، وأبقى تفصيل الغرور الأوّل إلى هنا.

{ **مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً** } وإذ قد كان أعظم دواعي القادة إلى تضليل دهمائهم وصنائعهم هو ما يجدونه من العزّة والافتنان بحب الرئاسة فلذلك نادى عليهم القرآن بأنّ من كان ذلك صارفه عن الدين الحقّ فليعلم بأنّ العزّة الحقّ في اتباع الإسلام وأنّ ما هم فيه من العزّة كالعدم.

{ **جَمِيعاً** } انتصب على الحال من { الْعِزَّةُ }، وكأنّه فعيل بمعنى مفعول، أي: العزّة كلّها لله لا يشذ شيء منها فيثبت لغيره، لأنّ العزة المتعارفة بين الناس كالعدم، إذ لا يخلو صاحبها من احتياج ووهن، والعزّة الحقّ لله. ففيها معنى الإحاطة، فكانت بمنزلة التأكيد للقصر الادعائي. وهذا قريب من قوله تعالى { أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً } [النساء:139].

العزّة: الشرف والحصانة.

{ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** } كما أتبع تفصيل غرور الشيطان بعواقبه في الآخرة بقوله { إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ } [6]، وبذكر مقابل عواقبه من حال المؤمنين [7]، كذلك أتبع تفصيل غرور الأنفس أهلها بعواقبه وبذكر مقابله أيضا ليلتقي مآل الغرورين ومقابلهما في ملتقى واحد. ولكن قُدّم في الأول عاقبة أهل الغرور بالشيطان ثم ذُكرت عاقبة أضدادهم، وعكس في ما هنا، لجريان ذكر عزة الله، فقدّم ما هو المناسب لآثار عزة الله في حزبه وجنده.

{ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ** } مستأنفة استئنافا ابتدائيا بمناسبة تفصيل غرور الأنفس أهلها.

والمقصود أنّ أعمال المؤمنين هي التي تنفع ليعلم الناس أنّ أعمال المشركين سعي باطل.

والقربات كلّها ترجع إلى أقوال وأعمال: فالأقوال ما كان ثناء على الله تعالى واستغفار ودعاء، ودعاء الناس إلى الأعمال الصالحة. وتقدم عند قوله { وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً } [الأحزاب:70]. والأعمال فيها قربات كثيرة.

وكان المشركون يتقرّبون إلى أصنامهم بالثناء والتمجيد، كما قال أبو سفيان يوم أحد: اعْلُ هُبل.

وكانوا يتحنّثون بأعمال من طواف وحجّ وإغاثة ملهوف، وكان ذلك كلّه مشوبا بالإشراك.

{ **وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** } ضمير الرفع عائد لاسم الجلالة من قوله تعالى { فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً }. والضمير المنصوب من { يَرْفَعُهُ } عائد إلى { الْعَمَلُ الصَّالِحُ } أي: الله يرفع العمل الصالح.

الصعود: الإذهاب في مكان عال. فالصعود هنا مستعار للبلوغ إلى عظيم القدر، وهو كناية عن القبول لديه.

الرفع: حقيقته نقل الجسم من مقرّه إلى أعلى منه، وهو هنا كناية للقبول عند عظيم.
إذ لا يُتوهَّم أن يُقصر صعود الكلم الطيب على الجانب الإلهي ثم يُجعل لغيره شركة معه في رفعه.
فصار المعنى: الله الذي يقبل من المؤمنين أقوالهم وأعمالهم الصالحة.
وإنّما جيء في جانب العمل الصالح بجملة { يَرْفَعُهُ } ولم يعطف على { الْكَلِمُ الطَّيِّبُ } في حكم الصعود إلى الله مع تساوي الخبرين لفائدتين:
أولاهما: الإيماء إلى أنّ نوع العمل الصالح أهم من نوع الكلم الطيب لأنّ معظم العمل الصالح أوسع نفعا من معظم الكلم الطيب، عدا كلمة الشهادتين وما ورد تفضيله من الأقوال في السنّة مثل دعاء يوم عرفة.
ثانيهما: أنّ الكلم الطيب يتكيّف في الهواء فإسناد الصعود إليه مناسب لماهيته، وأمّا العمل الصالح فهو كيفيات عارضة لذوات فلا يناسبه إسناد الصعود إليه وإنّما يحسن أن يُجعل متعلقا لرفعٍ يقع عليه.
{ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ }.
هذا فريق من الذين يريدون العزّة من المشركين، وهم الذين ذكرهم الله تعالى في قوله { وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ } [الأنفال:30]، قاله أبو العالية، فعطفهم على { مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ } تخصيص لهم بالذكر لِما اختصّوا به من تدبير المكر. وهو من عطف الخاص على العام للاهتمام بذكره.
{ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ } جيء باسم الموصول للإيماء إلى أنّ مضمون الصلة علّة فيما يرد بعدها من الحكم، أي: لهم عذاب شديد جزاء مكرهم. وعبّر بالمضارع في الصلة للدلالة على تجدّد مكرهم وأنّه دأبهم.
المكر: تدبير إلحاق الضر بالغير في خفية لئلّا يأخذ حذره، وفعله قاصر. وهو يتعلّق بالمضرور بواسطة الباء التي للملابسة، يقال: مكر بفلان. ويتعلّق بوسيلة المكر بباء السببية يقال: مكر بفلان بقتله.
{ السَّيِّئَاتِ } وصف لمصدر المكر نائبا مناب المفعول المطلق المبيّن لنوع الفعل، فكأنّه قيل: والذين يمكرون المكر السيّئ. وكان حقّه أن يكون مفردا كقوله تعالى { وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ } [فاطر:43] فلما أريد هنا التنبيه على أنّ أولياء الشيطان لهم أنواع من المكر عدل عن الإفراد إلى الجمع، وأوتي به جمع مؤنث للدلالة على معنى الفَعَلات من المكر، فكلّ واحدة من مكرهم هي سيّئة.
وأنواع مكراتهم هي ما جاء في قوله تعالى { وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ } [الأنفال:30].
{ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ } لمّا توعَّدهم الله بالعذاب الشديد على مكرهم أنبأهم أنّ مكرهم لا يروج ولا ينفق وأن الله سيبطله فلا ينتفعون منه في الدنيا ويعذَّبون بسببه في الآخرة.
{ أُولَئِكَ } عُبّر عنهم باسم الإشارة دون الضمير، الذي هو مقتضى الظاهر، لتمييزهم أكمل تمييز.
{ هُوَ } ضمير فصل إذ لا يحتمل غيره. ومثله قوله تعالى { أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ } [التوبة:104]. والفصل هنا يفيد القصر، أي: مكرهم يبور دون غيره.

البوار: حقيقته كساد التجارة وعدم نفاق السلعة، واستعير هنا لخيبة العمل بوجه الشبه بين ما دبّروه من المكر مع حرصهم على إصابة النبيّ صلى الله عليه وسلم بضر وبين ما يحرص عليه التاجر لاجتلاب المشترين، ثم لا يُقبل عليه أحد.

{ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } [11].

{ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً } هذا عود إلى سوق دلائل الوحدانية بدلالة عليها من أنفس الناس، بعد أن قُدّم لهم ما هو من دلالة الآفاق بقوله تعالى { وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ } [9]. فهذا كقوله تعالى { سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ } [فصلت:53]، وقوله تعالى { وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ } [الذريات:21]. فابتدأهم بتذكيرهم بأصل التكوين الأوّل من تراب، وهو ما تقرّر علمه لدى جميع البشر من أنّ أصلهم، وهو البشر الأول، خُلق من طين فصار ذلك حقيقة مقرّرة في علم البشر، ثم استدرجهم إلى التكوين الثاني بدلالة خلق النسل من نطفة، وذلك علم مستقرّ في النفوس.

النطفة: تقدّمت عند قوله تعالى { أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ } [الكهف:37].

{ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً } يشير إلى حالة في التكوين الثاني وهو شرطه. والمعنى: ثم من نطفة، وقد جعلكم أزواجا لتركيب تلك النطفة. فالاستدلال بدقة صنع النوع الإنساني من أعظم الدلائل على وحدانية الصانع. وفيها غُنية عن النظر في تأمّل صنع بقية الحيوان.

الأزواج: جمع زوج وهو الذي يصير بانضمام الفرد إليه زوجا، وقد شاع إطلاقه على صنف الذكور مع صنف الإناث لاحتياج الفرد الذكر من كل صنف إلى أنثاه والعكس.

{ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ } بعد الاستدلال بما في بدء التكوين الثاني من التلاقح بين النطفتين استدلال بما ينشأ عن ذلك من الأطوار العارضة للنطفة في الرحم وهو أطوار الحمل من أوّله إلى الوضع.

وأدمج في ذلك دليل التنبيه على إحاطة علم الله بالكائنات الخفيّة والظاهرة.

ولكون العلم بالخفيَّات أعلى قُدِّم ذكر الحمل على ذكر الوضع.

{ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } لا جرم أنّ الحديث عن التكوين يستتبع ذكر الموت المكتوب على كلّ بشر فجاء بذكر علمه الآجال للتنبيه على سعة العلم الإلهي.

التعمير: جعل الإنسان عامرا، أي: باقيا في الحياة، فإنّ العمر هو مدة الحياة. يقال: عَمِر فلان كفرح، إذا بقي زمانا، فمعنى (**عمَّره**) بالتضعيف: جعله باقيا مدّة زائدة على المدة المتعارفة في أعمار الأجيال، ولذلك قوبل بالنقص من العمر، ولذلك لا يوصف بالتعمير صاحبه إلا بالمبني للمجهول، فيقال: عُمِّر

فلان فهو مُعَمَّر.
{ **إِلَّا فِي كِتَابٍ** } كناية عن علم الله تعالى الذي لا يغيب عنه معلوم، كما أنّ الشي المكتوب لا يُزاد فيه ولا يُنقص، ويجوز أن يجعل الله موجودات هي كالكتب تسطَّر فيها الآجال مفصّلة.
{ **إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** } أي: لا يلحقه من هذا الضبط عسر ولا كد.

الإشكال العام هنا التعارض بين أدلة جريان كلّ شيء على ما هو سابق في علم الله في الأزل، وبين إضافة الأشياء إلى أسباب، وطلب اكتساب المرغوب من تلك الأسباب واجتناب المكروه منها.
فكيف يثبت في هذه الآية للأعمار زيادة ونقص مع كونها في كتاب وعلم لا يقبل التغيير؟
وكيف يُرغَّب بالصدقة مثلا أنّها تزيد في العمر؟ وأنّ صلة الرحم تطيل في العمر؟
المَخْلَص من هذا ونحوه هو القاعدة الأصلية الفارقة بين كون الشيء معلومًا لله تعالى وبين كونه مرادا.
فإنّ **العلم** يتعلّق بالأشياء الموجودة والمعدومة. و**الإرادة** تتعلّق بإيجاد الأشياء على وفق العلم بأنّها توجد.
فالناس مخاطبون بالسعي لما تتعلّق به الإرادة، فإذا تعلَّقت الإرادة بالشيء علمنا أنّ الله علم وقوعه.
وما تصرّفات الناس ومساعيهم إلّا أمارات على ما علمه الله لهم.

{ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [12].
انتقال من الاستدلال بالأحوال في الأجواء بين السماء والأرض على تفرّد الله تعالى بالإلهية إلى الاستدلال بما على الأرض من بحار وأنهار وما في صفاتها من دلالة على عظم مخلوقات الله تعالى.
{ **وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ ...**} صيغ هذا الاستدلال على أسلوب بديع إذ اقتصر فيه على التنبيه على الحكمة الربانية في المخلوقات، وهي ناموس تمايزها بخصائص مختلفة واتحاد أنواعها في خصائص متماثلة استدلالا على دقيق صنع الله تعالى كقوله تعالى { تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ} [الرعد:4].
التقدير: وخلق البحرين العذب والأجاج على صورة واحدة وخالف بين أعراضها. ففي الكلام إيجاز حذف.
البحر: في كلام العرب اسم للماء الكثير القار في سعة، فالفرات والدجلة بحران عذبان، وبحر خليج العجم ملح. وتقدّم ذكر البحر في قوله تعالى { وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ } [الأنعام:59].
{ **الْبَحْرَانِ** } تقدم ذكر البحرين عند قوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ } [الفرقان:53].

العذب: الحلو حلاوة مقبولة في الذوق.

{ **سَائِغٌ شَرَابُهُ** } مشتق من الإساغة: وهي ابتلاع المشروب دون غصّة ولا كره.

المِلح: (بكسر الميم) الشيء الموصوف بالملوحة بذاته لا بإلقاء ملح فيه، فأمّا الشيء الذي يلقى فيه الملح حتّى يكتسب ملوحة فإنّما يقال له: مالح، ولا يقال: ملح.

الأجاج: شديد الملوحة.

{ **وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** } تقدم نظيره في [النحل:14].

{ **فِيهِ مَوَاخِرَ** } تقديم الظرف على عكس آية سورة النحل، لأنّ هذه الآية مسوقة مساق الاستدلال على دقيق صنع الله تعالى في المخلوقات وأدمج فيه الامتنان بقوله { تَأْكُلُونَ - وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً - لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ } فكان المقصد الأوّل من سياقها الاستدلال على عظيم الصنع فهو الأهم هنا. ولمّا كان طفو الفلك على الماء حتى لا يغرق فيه أظْهر في الاستدلال على عظيم الصنع من الذي ذكر من النعمة والامتنان قُدّم ما يدل عليه وهو الظرفية في البحر.

{ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمّىً ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ [13] إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ [14] }.

{ **يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمّىً** } استدلال عليهم بما في مظاهر السماوات من الدلائل على بديع صنع الله في أعظم المخلوقات ليتذكّروا بذلك أنّه الإله الواحد. وتقدّم الكلام على نظير هذه الآية في [لقمان:29]، سوى أنّ هذه الآية جاء فيها { كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ } فعدّي فعل { يَجْرِي } بالـ (لام) وجيء في آية سورة لقمان تعدية فعل { يَجْرِي } بحرف (إِلَى)، فقيل: اللام تكون بمعنى { إِلَى } في الدلالة على الانتهاء، فالمخالفة بين الآيتين تفنّن في النظم، وإن أباه الزمخشري.

وفي الكلام إدماج للتذكير في خلال الاستدلال، ذكَّرهم بأنّ لأعمارهم نهاية تذكيرا مرادا به الإنذار والوعيد على نحو قوله تعالى { ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمّىً } [الأنعام:60]، واقتلاع الطغيان والكبرياء من نفوسهم. ويؤيّد ذلك أنّ معظم الخطاب في هذه الآية موجّه إلى المشركين، ألا ترى إلى قوله بعدها { وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ }.

وفي سورة لقمان الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أو عام لكلّ مخاطب من مؤمن وكافر فكان

إدماج التذكير فيه بأنّ لهذا العالم انتهاء أنسب بالجميع ليستعدّ له الذين آمنوا وليُرْغِم الذين كفروا على العلم بوجود البعث لأنّ نهاية هذا العالم ابتداء لعالم آخر.

{ **ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ...**} استئناف موقعه موقع النتيجة من الأدلة بعد تفصيلها.

واسم الإشارة موجّه إلى من جرت عليه الصفات والأخبار السابقة من قوله { وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ } [9]، فكان اسمه حريّا بالإشارة إليه بعد إجراء تلك الصفات إذ بذكرها يتميّز عند السامعين أكمل تمييز حتّى كأنّه مشاهد لأبصارهم، مع ما في اسم الإشارة من البعد المستعمل كناية عن تعظيم المشار إليه، ومع ما يقتضيه اسم الإشارة عقب أوصاف كثيرة من التنبيه على أنّه حقيق بما سيرد بعد الإشارة من أجل تلك الصفات، فأخبر عنه بأنّه صاحب الاسم المختص به الذي لا يجهلونه، وأخبر عنه بأنّه ربّ الخلائق، وذلك بعد أن سجّل عليهم ما لا قبل لهم بإنكاره من أنّه الذي خلقهم خلقا من بعد خلق، وأنّ خلقهم من تراب، وأنّه قدّر آجالهم، وأوجد ما هو أعظم منهم من الأحوال السماوية والأرضية، مما يدلّ على أنّه لا يعجزه شيء فهو الربّ دون غيره وهو الذي المُلك والسلطان له لا لغيره.

{ **وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ** } التصريح بأنّ أصنامهم لا يملكون من الملك شيئا ولو حقيرا وهو الممثل بالقطمير. و**القطمير**: القشرة التي في شق النواة كالخيط الدقيق.

أي: لا يملكون شيئا ولو حقيرا، وذلك حاصل بالمشاهدة فإنّ أصنامهم حجارة جاثمة، فإذا انتفى أنّها تملك شيئا انتفى عنها وصف الإلهية بطريق الأولى، فنُفي ما كانوا يزعمونه من أنّها تشفع لهم.

{ **إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ** } خبر ثان عن { الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ } [13]، والمقصد منها تنبيه المشركين إلى عجز أصنامهم بأنّها لا تسمع، وليس ذلك استدلالا، فإنّهم كانوا يزعمون أنّ الأصنام تسمع منهم فلذلك كانوا يكلّمونها ويوجّهون إليها محامدهم ومدائحهم، ولكنّه تمهيد للجملة المعطوفة على الخبر وهي جملة { وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ }، وليست الواو اعتراضية، أي: ولو سمعوا، على سبيل الفرض والتقدير ومجاراة مزاعمكم، حين تدعونها فإنّها لا تستجيب لدعوتكم.

{ **وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ** } لما كشف حال الأصنام في الدنيا بما فيه تأييس من انتفاعهم بها فيها كُمِّل كشف أمرها في الآخرة بأنّ تلك الأصنام يُنطقها الله فتتبرّأ من شركهم.

الكفر: جحد في كراهة.

{ **بِشِرْكِكُمْ** } أضيف إلى فاعله، أي: بشرككم إيّاهم في الإلهية مع الله تعالى.

وأجرى على الأصنام موصول العاقل وضمائر العقلاء { وَالَّذِينَ تَدْعُونَ - يَكْفُرُونَ } على تنزيل الأصنام منزلة العقلاء مجاراة للمردود عليهم، على طريقة التهكّم.

{ **وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ** } تذييل لتحقيق هذه الأخبار بأنّ المخبِر بها هو الخبير بها وبغيرها، أي: ولا يخبرك أحد مثل ما يخبرك هو. والخطاب لكلّ من يصحّ منه سماع هذا الكلام لأنّ هذه الجملة أرسِلت مرسَل الأمثال فلا ينبغي تخصيص مضمونه بمخاطب معين.

{ **يُنَبِّئُكَ** } عُبّر بفعل الإنباء لأنّ النبأ هو الخبر عن حدث خطير مهم.

{ **مِثْلُ** } (بكسر الميم وسكون المثلثية): المساوي، إمّا في قدر فيكون بمعنى ضِعف، وإمّا المساوي في صفة فيكون بمعنى شبيه.

{ **خَبِيرٍ** } صفة مشبّهة مشتقة من **خبُر** (بضم الباء) فلان الأمر، إذا علمه علما لا شك فيه. وجُعل نكرة، مع أنّ المراد خبير معيّن وهو المتكلّم فكان حقه التعريف، لقصد التعميم في سياق النفي. ولعل التركيب: ولا يوجد أحد ينبئك بهذا الخبر يماثل هذا الخبير الذي أنبأك به.

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ } [15].

لمّا أُشْبِع المقامُ أدلة، ومواعظَ، وتذكيراتٍ، ممّا فيه مقنع لمن نصب نفسه منصب الانتفاع والاقتناع، ولم يظهر مع ذلك كلّه من أحوال القوم ما يُتوسّم منه نزعهم عن ضلالهم، بل ربّما أحدث ذلك في نفوس أهل العزّة منهم إعجابا بأنفسهم واغترارا بأنّهم مرغوب في انضمامهم إلى جماعة المسلمين فيزيدهم ذلك الغرور قبولا لتسويل مكائد الشيطان لهم أن يعتصموا بشركهم، ناسب أن ينبِّئهم الله بأنّه غني عنهم، وأنّ دينه لا يعتزّ بأمثالهم وأنّه مُصيّرهم إلى الفناء وآت بناس يعتزّ بهم الإسلام.

{ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ** } هم المشركون، كما هو غالب اصطلاح القرآن، وهم المخاطبون بقوله تعالى آنفا { ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ } [13].

{ **أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ** } قبل أن يوجّه إليهم الإعلام بأنّ الله غنيّ عنهم وُجِّه إليهم إعلام بأنّهم الفقراء إلى الله لأنّ ذلك أدخل للذلّة على عظمتهم من الشعور بأنّ الله غني عنهم، فإنّهم يوقنون بأنّهم الفقراء إلى الله ولكنّهم لا يوقنون بالمقصد الذي يفضي إليه علمهم بذلك، فأريد إبلاغ ذلك إليهم لا على وجه الاستدلال ولكن على وجه قرع أسماعهم بما لم تكن تُقرع به من قبل عسى أن يستفيقوا من غفلتهم.

والجملة تفيد القصر لتعريف جزأيها، أي: قصر صفة الفقر على الناس المخاطبين قصرا إضافيا بالنسبة إلى الله، أي: أنتم المفتقرون إليه وليس هو، وهذا في معنى قوله { إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ } [الزمر:7] المشعر بأنّهم يحسبون أنّهم يغيظون النبيّ صلى الله عليه وسلم بعدم قبول دعوته.

{ **وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** } إتباع صفة { الْغَنِيُّ } بـ { الْحَمِيدُ } تكميل، فهو احتراس لدفع توهّمهم أنّه لمّا كان غنيا عن استجابتهم وعبادتهم فهم معذورون في أن لا يعبدوه، فنبّه على أنّه موصوف بالحمد لمن عبده واستجاب لدعوته، كما أتبع الآية الأخرى { إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ } [الزمر:7] بقوله تعالى { وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ } [الزمر:7].

ومن المُحسّنات وقوع { الْحَمِيدُ } في مقابلة قوله تعالى { إِلَى اللَّهِ }، كما وقع { الْغَنِيُّ } في مقابلة قوله تعالى { الْفُقَرَاءُ }، لأنّه لمّا قيّد فقرهم بالكون إلى الله قيّد غنى الله تعالى بوصف { الْحَمِيدُ } لإفادة أنّ غناه تعالى مقترن بجوده، فهو يحمد من يتوجه إليه.

{ **إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ** [16] **وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ** [17] }.

واقع موقع البيان لما تضمّنته جملة { هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ } [15] من معنى قلّة الاكتراث بإعراضهم عن الإسلام، ومن معنى رضاه على من يعبده، فهو تعالى لغناه عنهم وغضبه عليهم لو شاء لأبادهم وأتى بخلق آخرين يعبدونه، وذلك في قدرته، ولكنّه أمهلهم إعمالا لصفة الحلم.

{ **إِنْ يَشَأْ** } المشيئة هنا المشيئة الناشئة عن الاستحقاق، أي: أنّهم استحقُّوا أن يشاء الله إهلاكهم ولكنّه أمهلهم. لا أصل المشيئة التي هي كونه مختارا في فعله لا مُكرِه له لأنّها لا يحتاج إلى الإعلام بها.

الإذهاب: مستعمل في الإهلاك، أي: إن يشأ يسلّط عليهم موتا يعمّهم، فكأنّه أذهبهم من مكان إلى مكان.

{ **وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ** } مستعمل في إحداث ناس لم يكونوا موجودين ولا مترقّبا وجودهم، أي: يُوجِد خلقا من الناس يؤمنون بالله. وهذا في معنى قوله { وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ } [محمد:38].

{ **وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ** } الإعلام بأن ذلك لو شاء لكان هيّنا عليه. و**العزيز**: الممتنع الغالب، وهذا زيادة في الإرهاب والتهديد ليكونوا متوقِّعين حلول هذا بهم.

{ **وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ** } [18].

{ **وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى** } لمّا كان ما قبل هذه الآية مسوقا في غرض التهديد وكان الخطاب للناس أريد طمأنة المسلمين من عواقب التهديد. فالظاهر أنّ هذا تأمين للمسلمين من الاستئصال في الدنيا، وهو تأمين من تعميم العقاب في الآخرة بطريق الأولى.

الوِزر: (بكسر الواو) أصله الوِقر بوزنه ومعناه. وهو **الحِمل** بكسر الحاء، أي: ما يحمل، ويقال: وزَرَ إذا حمل. وجرى وصف { **وَازِرَةٌ** } على التأنيث لأنّه أريد به النفس.

{ **وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى** } نبّه على أنّ هذا الحكم العادل مطّرد مستمر، حتّى لو استغاثت نفس مثقلة في الأوزار من ينتدب لحمل أوزارها أو بعضها لم تجد من يحمل عنها شيئاً، لئلّا يقيس الناس الذين في الدنيا أحوال الآخرة على ما تعارفوه، فإنّ العرب تعارفوا النجدة إذا استُنجدوا ولو كان لأمر يضرّ بالمنجِد. ومن أمثالهم: " لو دعي الكريم إلى حتفه لأجاب ".

ولذلك سُمّي طلب الحمل هنا دعاء لأنّ في الدعاء معنى الاستغاثة. وهذا إشارة إلى ما سيكون في الآخرة.

أي: لو استصرخت نفس من يحمل عنها شيئا من أوزارها لا تجد من يجيبها لذلك.

{ **وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى** } في موضع الحال من { مُثْقَلَةٌ }. أي: ولو كان المدعو ذا قربى.
وهذا لا ينافي الشفاعة الواردة في الحديث، كما تقدّم في سورة سبأ، فإنّها إنّما تكون بإذن الله تعالى إظهاراً لكرامة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، ولا ينافي ما جعله الله للمؤمنين من مكفِّرات الذنوب.

{ **إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ**}.

استئناف كلامي بأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم يخطر في نفسه التعجّب من عدم تأثّر أكثر المشركين بإنذاره فأجيب بأنّ إنذاره ينتفع به المؤمنون ومن تهيَّأوا للإيمان. وهو أيضا يؤكّد ما في الآية الأولى من التعريض بتأمين المسلمين بما اقتضاه عموم الإنذار والوعيد.
وإيراد هذه الآية عقب التي قبلها يؤكِّد أنّ المقصد الأوّل من التي قبلها موعظة المشركين وتخويفهم، وإبلاغ الحقيقة إليهم لاقتلاع مزاعمهم وأوهامهم في أمر البعث والحساب والجزاء.
{ **إِنَّمَا تُنْذِرُ** } أطلق الإنذار هنا على حصول أثره وهو الانكفاف أو التصديق به، وليس المراد حقيقة الإنذار، فإنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أنذر المشركين طول مدّة دعوته، فتعيّن أنّ تعلّق الفعل المقصور عليه بـ { الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ } تعلّق على معنى حصول أثر الفعل.
الغيب: ما غاب عنك، أي: الذين آمنوا حقا غير مرائين أحدا.
{ **وَأَقَامُوا الصَّلاةَ** } أي: لم يفرّطوا في الصلاة، كما يؤذن به فعل الإقامة، وتقدم في [البقرة:3].
ولمّا كانت هاتان الصفتان من خصائص المسلمين صار المعنى: إنّما تنذر المؤمنين، فعدل عن استحضارهم بأشهر ألقابهم، مع ما فيه من الإيجاز، إلى استحضارهم بصلتين، مع ما فيهما من الإطناب، تذرُّعا بذكر هاتين الصِّلتين إلى الثناء عليهم بإخلاص الإيمان في الاعتقاد والعمل.
{ **وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ** } تذييل جار مجرى المثل. فالمعنى: أنّ الذين خشوا ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة هم ممّن تزكى فانتفعوا بتزكيتهم.
{ **فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ** } المقصود من القصر أنّ قبولهم النذارة كان لفائدة أنفسهم، ففيه تعريض بأنّ الذين لم يعبأوا بنذارته تركوا تزكية أنفسهم بها فكان تركهم ضرّا على أنفسهم.
{ **وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ** } تكميل للتذييل، والتعريف في { الْمَصِيرُ } للجنس، أي: المصير كلّه إلى الله سواء فيه مصير المتزكِّي ومصير غير المتزكِّي، أي: وكلٌّ يُجازى بما يناسبه.
وتقديم المجرور للاهتمام، للتنبيه على أنّه مصير إلى من اقتضى اسمه الجليل الصفات المناسبة لإقامة العدل وإفاضة الفضل، مع الرعاية على الفاصلة.

{ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ [19] وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ [20] وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ [21] وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ [22] إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ [23] }.

بعد أن بيّن قلّة نفع النذارة للكافرين وأنّها لا ينتفع بها غير المؤمنين ضرب للفريقين أمثالا كاشفة عن اختلاف حاليهما، وروعي في هذه الأشباه توزيعها على صفة الكافر والمؤمن، وعلى حالة الكفر والإيمان، وعلى أثر الإيمان وأثر الكفر.

{ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى } قدّم تشبيه حال الكافر وكفره على تشبيه حال المؤمن وإيمانه ابتداء لأنّ الغرض الأهم من هذا التشبيه هو تفظيع حال الكافر ثمّ الانتقال إلى حسن حال ضدّه لأنّ هذا التشبيه جاء لإيضاح ما أفاده القصر في قوله تعالى { إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ } [18]، كما تقدّم آنفا من أنّه قصر إضافي قصر قلب، فالكافر شبيه بالأعمى في اختلاط أمره بين عقل وجهالة، كاختلاط أمر الأعمى بين إدراك وعدمه. والمقصود: أنّ الكافر وإن كان ذا عقل يدرك به الأمور فإنّ عقله تمحَّض لإدراك أحوال الحياة الدنيا وكان كالعدم في أحوال الآخرة، كقوله تعالى { يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ } [الروم:7].

العمى : يُعبَّر به عن الضلال، قال ابن رواحة:

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقنات أنّ ما قال واقع

{ وَلَا الظُّلُمَاتُ } ثم شُبِّه الكفر بالظلمات في أنّه يجعل الذي أحاط هو به غير متبيّن للأشياء، فليس ينتفع بالنصح، كما لو وصفت الطريق للسائر في الظلام. وجيء بلفظ الجمع لأنّه الغالب في الاستعمال، فهم لا يذكرون الظلمة إلّا بصيغة الجمع. وتقدّم في قوله تعالى { وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ } [الأنعام:1].

{ وَلا الظِّلُّ } ضُرب الظل مثلا لأثر الإيمان، وضده وهو **{ الْحَرُورُ }** مثلا لأثر الكفر. فالظل مكان نعيم في عرف السامعين الأوّلين، وهم العرب أهل البلاد الحارة، وقوبل بالحرور لأنه مؤلم ومعذِّب في عرفهم.

{ الْحَرُورُ } حرّ الشمس، ويطلق أيضا على الريح الحارة، وهي السموم.

فحال المؤمن يشبه حال الظل تطمئن فيه المشاعر وتصدر فيه الأعمال عن تبصُّر وتريُّث وإتقان. وحال الكافر يشبه الحرور تضطرب فيه النفوس ولا تتمكّن معه العقول من التأمل والتبصّر

وقُدِّم في هذه الفقرة ما هو من حال المؤمنين على عكس التي قبلها لأجل الرعاية على الفاصلة.

وفواصل القرآن من متمّمات فصاحته فلها حظ من الإعجاز.

{ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ } أظهر في هذه الجملة الفعل الذي قُدِّر في الجملتين اللتين قبلها وهو فعل { يَسْتَوِي } لأنّ التمثيل هنا عاد إلى تشبيه حال المسلمين والكافرين، إذ شُبِّه حال المسلم بحال

الأحياء وحال الكافرين بحال الأموات، فهذا ارتقاء في التشبيه. ونظيره في إعادة فعل الاستواء قوله تعالى { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ } [الرعد:16]

فلما كانت الحياة هي مبعث المدارك والمساعي كلّها وكان الموت قاطعا للمدارك والمساعي، شُبِّه الإيمان بالحياة في انبعاث خير الدنيا والآخرة منه وفي تلقي ذلك وفهمه، وشُبِّه الكفر بالموت في الانقطاع عن الأعمال والمدركات النافعة كلّها وفي عدم تلقّي ما يلقى إلى صاحبه.

{ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ } أعقب تمثيل حال المؤمنين والكافرين بحال الأحياء والأموات بتوجيه الخطاب إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم معذرة له في التبليغ للفريقين، وفي عدم قبول تبليغه لدى أحد الفريقين، وتسلية له عن ضياع وابل نصحه في سباخ قلوب الكافرين، فقيل له: إنّ قبول الذين قبلوا الهدى واستمعوا إليه كان بتهيئة الله تعالى نفوسهم لقبول الذكر والعلم، وإنّ عدم انتفاع المعرضين بذلك هو بسبب موت قلوبهم، فكأنّهم الأموات في القبور، وأنت لا تستطيع أن تسمع الأموات. فجاء القول على مقابلة قوله تعالى { وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلا الْأَمْوَاتُ }، مقابلة اللف بالنشر المرتَّب.

{ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ } تعليل لجملة { إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ } [18] لأنّ معنى القصر ينحلّ إلى إثبات ونفي، فكان مفيدا فريقين: فريقا انتفع بالإنذار وفريقا لم ينتفع.

{ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ } إشارة إلى الذين لم يشأ الله أن يُسمعهم إنذارك. وعُبّر عن الأموات بـ { مَنْ فِي الْقُبُورِ } لأن من في القبور أعرق في الابتعاد عن بلوغ الأصوات. فهذا إطناب أفاد معنى لا يفيده الإيجاز بأن يقال: وما أنت بمسمع الموتى.

{ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ } أفادت قصرا إضافيا بالنسبة إلى محاولة تسميعهم الحق، وهذا مسوق مساق المعذرة للنبيّ صلى الله عليه وسلم وتسليته إذا كان مغتمًّا من عدم إيمانهم. والاقتصار على وصفه بالنذير لأن مساق الكلام على المصمِّمين على الكفر.

النذير: المنبئ عن توقّع حدوث مكروه أو مؤلم.

{ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ } [24].

استئناف ثناء على النبيّ صلى الله عليه وسلم وتنويه به وبالإسلام. وفيه دفع توهّم أن يكون قصره على النذارة قصرا حقيقيا، لتبيّن أنّ قصره على النذارة بالنسبة للمشركين الذين شابه حالهم حال أصحاب القبور. أي: أنّ رسالتك تجمع بشارة ونذارة؛ فالبشارة لمن قبل الهدى والنذارة لمن أعرض عنه.

{ بِالْحَقِّ } إمّا حال من ضمير المتكلّم في { أَرْسَلْنَاكَ } أي: محقِّين غير لاعبين، أو من كاف الخطاب، أي: محقًّا أنت غير كاذب، أو صفة لمصدر محذوف، أي: إرسالا ملابسا بالحق لا يشوبه شيء من الباطل.

وتقدّم نظير هذه الجملة في [البقرة:119].

{ **وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ** } إبطال لاستبعاد المشركين أن يرسل الله إلى الناس بشرا منهم، فإنّ تلك الشبهة كانت من أعظم ما صدّهم عن التصديق به، فلذلك أتبعت دلائل الرسالة بإبطال الشبهة الحاجبة على حد قوله تعالى { قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ } [الاحقاف:9].

وأيضا في ذلك تسفيه لأحلامهم إذ رضوا أن يكونوا دون غيرهم من الأمم التي شُرِّفت بالرسالة.

{ **نَذِيرٌ** } وجه الاقتصار على وصف النذير هنا دون الجمع بينه وبين وصف البشير هو مراعاة العموم الذي في قوله تعالى { وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ }، فإنّ من الأمم من لم تحصل لها بشارة لأنّها لم يؤمن منها أحد، ففي الحديث: **" عُرضت عليّ الأمم فجعل النبيّ يمر معه الرهط، والنبيّ يمر معه الرجل الواحد، والنبيّ يمر وحده ".** فإنّ الأنبياء الذين مرّوا وحدهم هم الأنبياء الذين لم يستجب لهم أحد من قومهم.

وقد يكون عدم ذكر وصف البشارة للاكتفاء بذكر قرينه اكتفاء بدلالة ما قبله عليه، وأوثر وصف النذير بالذكر لأنّه أشد مناسبة لمقام خطاب المكذِّبين.

الأمّة: هنا الجذم العظيم من أهل نسب ينتهي إلى جدّ واحد جامع لقبائل كثيرة لها مواطن متجاورة مثل أمّة الفرس وأمّة الروم وأمة الصين وأمّة الهند وأمّة يونان وأمة إسرائيل وأمّة العرب وأمة البربر.

فما من أمّة من هؤلاء إلّا وقد سبق فيها نذير، أي: رسول أو نبيّ ينذرهم بالمهلكات وعذاب الآخرة.

فمن المنذرين من علمناهم، ومنهم من أنذروا وانقرضوا ولم يبق خبرهم، قال تعالى { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ } [غافر:78].

وإنّما لم يسم القرآن إلّا الأنبياء والرسل الذين كانوا في الأمم الساميَّة القاطنة في بلاد العرب وما جاورها لأنّ القرآن حين نزوله ابتدأ بخطاب العرب ولهم علم بهؤلاء الأقوام، فقد علموا أخبارهم وشهدوا آثارهم فكان الاعتبار بهم أوقع، ولو ذُكرت لهم رسل أمم لا يعرفونهم لكان إخبارهم عنهم مجرّد حكاية ولم يكن فيه استدلال واعتبار.

{ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ [25] ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ [26] }.

أعقِب الثناء على النبيّ صلى الله عليه وسلم بتسليته على تكذيب قومه وتأنيسه بأنّ تلك سنّة الرسل مع أممهم.

وإذ قد كان سياق الحديث في شأن الأمم جُعلت التسلية في هذه الآية بحال الأمم مع رسلهم عكس ما في آية [آل عمران:184] { فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ} لأنّ سياق آية آل عمران كان في رد محاولة أهل الكتاب إفحام الرسول لأنّ قبلها { الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ } [آل عمران:183].

{ **وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ** } الجواب محذوف دلّت عليه علته وهي قوله تعالى { فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ }. والتقدير: إن يكذِّبوك فلا تحزن ولا تحسبهم مُفْلِتين من العقاب على ذلك إذ قد كذّب { الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } وقد عاقبناهم على تكذيبهم.

{ **وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ** } خولف أيضا في هذه الآية أسلوب آية [آل عمران:184] إذ قرن كل من (الزبر والكتاب المنير) بـ (الباء)، وجرّدا منها في آية آل عمران وذلك لأنّ آية آل عمران جرت في سياق زعم اليهود أن لا تقبل معجزة رسول إلّا معجزة قربان تأكله النار، فقيل في التفرّد ببهتانهم: قد كُذِّبت الرسل الذين جاء الواحد منهم بأصناف المعجزات مثل عيسى عليه السلام ومن معجزاتهم قرابين تأكلها النار فكذبتموهم، فترك إعادة الباء هنالك إشارة إلى أنّ الرسل جاؤوا بالأنواع الثلاثة.

ولما كان المقام هنا لتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم ناسب أن يذكر ابتلاء الرسل بتكذيب أممهم على اختلاف أحوال الرسل، فمنهم الذين آتوا بآيات، أي: خوارق عادات فقط، مثل صالح وهود ولوط، ومنهم من أتوا بالزبر، وهي المواعظ التي يؤمر بكتابتها وزبرها، أي: تخطيطها لتكون محفوظة وتردد على الألسن، كزبور داود وكتب أصحاب الكتب من أنبياء بني إسرائيل مثل أرمياء وإيلياء، ومنهم من جاؤوا بالكتاب المنير، يعني كتاب الشرائع مثل إبراهيم وموسى وعيسى، فذكر الباء مشير إلى توزيع أصناف المعجزات على أصناف الرسل.

{ **ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ** } عطف على جملة { جَاءَتْهُمْ }، أي: ثم أخذتهم، و{الَّذِينَ كَفَرُوا} إظهار في موضع ضمير الغيبة للإيماء إلى أنّ أخذهم لأجل ما تضمنته صلة الموصول من أنّهم كفروا.

الأخذ: مستعار للاستئصال والإفناء، شُبِّه إهلاكهم جزاء على تكذيبهم بإتلاف المغيرين على عدوهم يقتلونهم ويغنمون أموالهم فتبقى ديارهم بلقعا كأنّهم أخذوا منها.

{ **فَكَيْفَ** } استفهام مستعمل في التعجيب من حالهم، وهو مفرَّع بالفاء على { أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا }.

المعنى: أخذتهم أخذا عجيبا كيف ترون أعجوبته. وأصل (كيف) أن يُستفهم به عن الحال فلما استعمل في التعجيب من حال أخذهم لزم أن يكون حالهم معروفا، أي: يعرفه النبيّ صلى الله عليه وسلم وكلّ من بلغته أخبارهم، فعلى تلك المعرفة المشهورة بُني التعجيب.

النكير: اسم لشدة الإنكار، وهو هنا كناية عن شدّة العقاب، لأنّ الإنكار يستلزم الجزاء على الفعل المنكر. وحذفت ياء المتكلم تخفيفا ولرعاية الفواصل في الوقف، لأن الفواصل يعتبر فيها الوقف.

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ } [27].

{ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا** } استئناف بياني فيه إيضاح ما سبقه من اختلاف أحوال الناس في قبول الهدى ورفضه بسبب ما تهيّأت خلقة النفوس إليه ليظهر به أنّ

الاختلاف بين أفراد الأصناف والأنواع ناموس جبلّي فطر الله عليه مخلوقات هذا العالم الأرضي.

والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم ليدفع عنه اغتمامه من مشاهدة عدم انتفاع المشركين بالقرآن.

وضرب اختلاف الظواهر في أفراد الصنف الواحد مثلا لاختلاف البواطن تقريبا للأفهام.

{ **أَلَمْ تَرَ** } الرؤية بصرية، والاستفهام تقريري.

{ **أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** } ذكر إنزال الماء من السماء إدماج في الغرض للاعتبار بقدرة الله مع ما فيه من اتحاد أصل نشأة الأصناف والأنواع، كقوله تعالى { تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ } [الرعد: 4] وذلك أرعى للاعتبار.

{ **فَأَخْرَجْنَا** } التفات من الغيبة إلى التكلّم.

الألوان: جمع لون وهو عرض، أي: كيفية تعرض لسطوح الأجسام. وتقدّم عند قوله تعالى { قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا } [البقرة:69].

والمقصود من الاعتبار هو اختلاف ألوان الأصناف من النوع الواحد كاختلاف ألوان التفاح مع ألوان السفرجل، وألوان العنب مع ألوان التين، واختلاف ألوان الأفراد من الصنف الواحد كاختلاف ألوان التمور والزيتون والأعناب والتفاح والرمان.

وقُدّم الاعتبار باختلاف أحوال الثمرات لأنّ في اختلافها سعة تشبه سعة اختلاف الناس في المنافع والمدارك والعقائد.

وفي الحديث: " **مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأُتْرُجَّة ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها** ".

{ **وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ** } عطف على الجملة السابقة فهي مثلها مستأنفة وعطفها عليها للمناسبة الظاهرة.

{ **جُدَدٌ** } جمع جُدَّة (بضم الجيم)، وهي الطريقة والخطة في الشيء تكون واضحة فيه. يقال للخطة السوداء التي على ظهر الحمار جُدَّة.

الجدد البيض التي في الجبال هي ما كانت صخورا بيضاء، مثل المروة. و**الجدد الحمر** هي ذات الحجارة الحمراء في الجبال. ففي الجبل الواحد توجد جدد مختلفة الألوان.

{ **غَرَابِيبُ** } جمع غربيب، والغربيب: اسم الشيء الأسود الحالك سواده، ولا تعرف له مادة مشتق هو منها، وأحسب أنّه مأخوذ من الجامد، وهو الغراب لشهرة الغراب بالسواد.

{ **سُودٌ** } : جمع أسود وهو الذي لونه السواد.

فالغربيب يدل على أشد من معنى أسود، فكان مقتضى الظاهر أن يكون { غَرَابِيبُ } متأخرا عن { سُودٌ }

لأنّ الغالب أنهم يقولون: أسود غربيب، كما يقولون: أبيض يقق وأصفر فاقع وأحمر قان، ولا يقولون: غربيب أسود، وإنّما خولف ذلك للرعاية على الفواصل المبنية على الواو والياء الساكنتين ابتداء من قوله تعالى { وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ } [15].

{ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ } [28].

{ **وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ** } موقعه كموقع قوله تعالى { وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ }.

واختلاف ألوان الناس منه اختلاف عام وهو ألوان أصناف البشر وهي الأبيض والأسود والأصفر والأحمر حسب الاصطلاح الجغرافي. وللعرب في كلامهم تقسيم آخر لألوان أصناف البشر، وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ } [الروم 22].

وجيء بالجملة الاسمية دون الفعلية، كما في الجملة السابقة، لأنّ اختلاف ألوان الجبال والحيوان الدال على اختلاف أحوال الإيجاد اختلافا دائما لا يتغيّر وإنّما يحصل مرة واحدة عند الخلق وعند تولّد النسل.

{ **كَذَلِكَ** } خبر لمبتدأ محذوف دلّ عليه المقام. والتقدير: كذلك الاختلاف، أو كذلك الأمر، على نحو قوله تعالى { كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً } [الكهف:91]، وهو من فصل الخطاب كما علمت هنالك ولذلك يحسن الوقف على ما قبله ويستأنف ما بعده. وأمّا جعل { كَذَلِكَ } من توابع الكلام السابق فلا يناسب نظم القرآن لضعفه.

{ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** } أي: إنّما يخشى الله من البشر المختلفة ألوانهم العلماء منهم.

وأوثر هذا الأسلوب في الدلالة تخلّصا للتنويه بأهل العلم والإيمان لينتقل إلى تفصيل ذلك بقوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ } [29].

{ **إِنَّمَا** } قصر إضافي، أي: لا يخشاه الجهال، وهم أهل الشرك، فإنّ من أخصّ أوصافهم أنّهم أهل الجاهلية، أي: عدم العلم، فالمؤمنون يومئذ هم العلماء والمشركون جاهلون نفيت عنهم خشيت الله.

ثم إن العلماء في مراتب الخشية متفاوتون في الدرجات تفاوتا كثيرا.

{ **إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ** } تكميل للدلالة على استغناء الله تعالى عن إيمان المشركين ولكنّه يريد لهم الخير. أي: فهو يقبل التوبة منهم إن تابوا إلى ما دعاهم الله إليه.

{ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ [29] **لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ** [30] }.

استئناف لبيان جملة { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ }، فالذين يتلون كتاب الله هم المراد بالعلماء، وقد

تخلّص إلى بيان فوز المؤمنين الذين اتبعوا الذكر وخشوا الرحمان بالغيب، فإنّ حالهم مضاد لحال الذين لم يسمعوا القرآن وكانوا عند تذكيرهم به كحال أهل القبور لا يسمعون شيئا.

فبعد أن أثنى عليهم ثناء إجماليا بقوله تعالى { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ }، وأجمل حسن جزائهم بذكر صفة { غَفُورٌ } [28]، فصّل ذلك الثناء وذُكرت آثاره ومنافعه ولذلك ختمت هذه الآية بقوله تعالى { إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ }.

{ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ } المؤمنون به، لأنّهم اشتهروا بذلك وعُرفوا به وهم المراد بالعلماء.

قال تعالى { بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ } [العنكبوت:49].

وهو أيضا كناية عن إيمانهم لأنّه لا يتلو الكتاب إلّا من صدّق به وتلقّاه باعتناء.

{ يَتْلُونَ } أشعر الفعل المضارع بتجدّد تلاوتهم، فكلما نزل منه مقدار تلقوه وتدارسوه.

{ كِتَابَ اللَّهِ } القرآن، وعدل عن اسمه العلم إلى اسم الجنس المضاف لاسم الجلالة لما في إضافته من تعظيم.

{ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ } اتبع ما هو علامة قبول الإيمان والعلم به بعلامة أخرى وهي إقامة الصلاة، كما تقدّم في قوله تعالى { الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ } [البقرة:2]، فإنّها أعظم الأعمال البدنية.

{ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً } الإنفاق حيثما أطلق في القرآن هو الصدقات واجبها ومستحبّها، وما ورد الإنفاق في السور المكية إلّا والمراد به الصدقات المستحبّة، إذ لم تكن الزكاة قد فرضت أيامئذ.

على أنّه قد تكون الصدقة مفروضة دون نصب ولا تحديد ثم حدِّدت بالنصب والمقادير.

{ وَأَقَامُوا / وَأَنْفَقُوا } جيء في جانب إقامة الصلاة والإنفاق بالفعل الماضي لأنّ فرض الصلاة والصدقة قد تقرّر وعملوا به فلا تجدّد فيه، وامتثال الذي كلِّفوا يقتضي أنّهم مداومون عليه.

{ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ } إدماج للامتنان وإيماء إلى أنّه إنفاق شكر على نعمة الله عليهم بالرزق.

{ سِرّاً وَعَلانِيَةً } انتصب على الصفة لمصدر { أَنْفَقُوا } المحذوف، أي: إنفاق سرٍّ وإنفاق علانيةٍ.

وفي تقديم السر إشارة إلى أنّه أفضل لانقطاع شائبة الرياء منه، وذكر العلانية للإشارة إلى أنّهم لا يصدُّهم مرأى المشركين عن الإنفاق فهم قد أعلنوا بالإيمان وشرائعه حب من حب و كره من كره.

{ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ } هو خبر { إِنَّ } مستعمل في إنشاء التبشير، كأنّه قيل: ليرجوا تجارة، وزاده التعليل بقوله تعالى { لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ } قرينة على إرادة التبشير.

التجارة: مستعارة لأعمالهم من تلاوة وصلاة وإنفاق. ووجه الشبه مشابهة ترتّب الثواب على أعمالهم بترتب الربح على التجارة.

البوار: الهلاك. وهلاك التجارة: خسارة التاجر. فمعنى { لَنْ تَبُورَ } أنّها رابحة.

{ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ } متعلّق بـ { يَرْجُونَ }، أي: بشّرناهم بذلك وقدّرناه لهم لنوفيهم أجورهم. ووقع الالتفات من التكلّم إلى الغيبة رجوعا إلى سياق الغيبة.

التوفية: جعل الشيء وافيا، أي: تاما لا نقيصة فيه ولا غبن.
وسجل عليهم الفضل بأنّه يزيدهم على ما تستحقه أعمالهم ثوابا من فضله، أي: كرمه، وهو مضاعفة الحسنات الواردة في قوله تعالى { كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ } [البقرة:261].
{ **إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ** } ذيّل هذا الوعد بما يحقّقه، وهو أنّ الغفران والشكران من شأنه، فإنّ من صفاته الغفور الشكور، أي: كثير المغفرة وشديد الشكر.
فالمغفرة تأتي على تقصير العباد المطيعين، فإنّ طاعة الله الحق التي هي بالقلب والعمل والخواطر لا يبلغ حق الوفاء بها إلّا المعصوم، ولكن الله تجاوز عن الأمة فيما حدّثت به أنفسها، وفيما همّت به ولم تفعله، وفي اللمم، وفي محو الذنوب الماضية بالتوبة.
والشكر كناية عن مضاعفة الحسنات على أعمالهم.

{ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ } [31].
لمّا كان المُبدأ به من أسباب ثواب المؤمنين هو تلاوتهم كتاب الله أعقب التنويه بهم بالتنويه بالقرآن للتذكير بذلك، ولأنّ في التذكير بجلال القرآن وشرفه إيماء إلى علّة استحقاق الذين يتلونه ما استحقّوا.
{ **وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ** } ابتدئ التنويه به بأنّه وحي من الله إلى رسوله، وناهيك بهذه الصلة تنويها بالكتاب، وهو يتضمّن تنويها بشأن الذي أنزل عليه، ففي هذه مسرّة للنبيّ صلى الله عليه وسلم.
وهذه نكتة تعريف المسند إليه باسم الموصول لما في الصلة من الإيماء إلى وجه كونه الحقّ الكامل، دون الإضمار الذي هو مقتضى الظاهر بأن يقال: وهو الكتاب الحقّ.
{ **مِنَ الْكِتَابِ** } { مِنَ } بيانية لما في الموصول من الإبهام، والتعريف في { الْكِتَابِ } تعريف العهد.
والتقدير: والكتاب الذي أوحينا إليك هو الحقّ. فقُدّم الموصول الذي حقه أن يقع صفة للكتاب للتشويق بالإبهام ليقع بعده التفصيل فيتمكّن من الذهن أفضل تمكن.
{ **هُوَ** } ضمير فصل، وهو تأكيد لما أفاده تعريف المسند من القصر.
{ **الْحَقُّ** } تعريف الجنس. وأفاد تعريف الجزأين قصر المسند على المسند إليه، أي: قصر جنس الحق على { الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ }، وهو قصر ادعائي للمبالغة، لعدم الاعتداد بحقِّيَّة ما عداه من الكتب.
فأمّا الكتب غير الإلهية مثل (الزند فستا) كتاب (زراد شت)، ومثل كتب الصابئة، فلأنّ ما فيها من قليل الحق قد غُمِر بالباطل والأوهام.
وأمّا الكتب الإلهية كالتوراة والإنجيل وما تضمّنته كتب الأنبياء، كالزبور وكتاب أرميا من الوحي الإلهي، فما شهد القرآن بحقِّيَّته فقد دخل في شهادة قوله تعالى { مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ }، وما جاء نسخه بالقرآن فقد بيّن النسخ تحديد صلاحيته في القرآن. وذلك أيضا تصديق لها لأنّه يدفع موهم بطلانها عند

من يجد خلافها في القرآن، وما عسى أن يكون قد نُقل على تحريفٍ أو تأويلٍ فقد دخل فيما أخرجه القصر.

{ **مُصَدِّقاً** } انتصب على الحال من { الْكِتَابِ } والعامل في الحال فعل { أَوْحَيْنَا } ليفيد أنّه مع كونه حقا فهو مصدّق للكتب الحقّة ومقرّر لما اشتملت عليه من الحقّ.

{ **لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ** } ما سبقه، لأنّ السابق يجيء متقدّما على المسبوق، فكأنّه يمشي بين يديه كقوله تعالى { إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ } [سبأ:46]. أي: ما قبله من الشرائع، وأهمها شريعة موسى وشريعة عيسى عليهما السلام.

{ **إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ** } تذييل جامع لما تضمّنته الآيات قبله من تفضيل بعض عباد الله على بعض، ومن انطواء ضمائرهم على الخشية وعدمها، وإقبال بعضهم على الطاعات وإعراض بعض، ومن تفضيل بعض كتب الله على بعض، المقتضى أيضا تفضيل بعض المرسلين بها على بعض.

فموقعها موقع إقناع السامعين بأنّ الله عليم بعباده وهو يعاملهم بحسب ما يعلم منهم، ويصطفي منهم من علم أنّه خلقه كِفئا لاصطفائه، فأَلْقَمَ بهذا التذييل الذين قالوا { أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا } [ص: 8] وأيضا أولئك الذين ينكرون القرآن من أهل الكتاب بعلة أنّه جاء مبطلا لكتابهم ألقمهم جميعا حجرا.

الخبير: العالم بدقائق الأمور المعقولة والمحسوسة والظاهرة والخفيّة.

البصير: العالم بالأمور المبصرة.

وتقديم الخبير على البصير لأنّه أشمل، وذكر البصير عقبه للعناية بالأعمال التي هي من المبصرات وهي غالب شرائع الإسلام. وقد تكرّر إرداف الخبير بالبصير في مواضع كثيرة من القرآن.

{ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ } [32].

{ **ثُمَّ** } للتراخي الرتبي كما هو شأنها في عطفها الجمل، فالمتعاطفات بها بمنزلة المستأنفات، وهي للترقي في الاستئناف. وهذا ارتقاء في التنويه بالقرآن المتضمّن التنويه بالرسول صلى الله عليه وسلم، وعروج في مسرَّته وتبشيره، فبعد أن ذُكِّر بفضيلة كتابه، وهو أمر قد تقرّر لديه، زيد تبشيرا بدوام كتابه، وإيتائه أمّة هم المصطفون من عباد الله تعالى، وتبشيره بأنّهم يعملون به ولا يتركونه كما ترك أمم من قبله كتبهم ورسلهم.

{ **الْكِتَاب** } الكتاب المعهود، وهو الذي سبق ذكره في قوله { وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ } أي: القرآن.

{ **أَوْرَثْنَا** } جعلنا وارثين. يقال: وَرِثَ، إذا صار إليه مال ميت قريب. ويُستعمل بمعنى الكسب عن غير اكتساب ولا عوض، فيكون معناه: جعلناهم آخذين الكتاب منّا، أو نجعل الإيراث مستعملاً في الأمر بالتلقي، أي: أمرنا المسلمين بأن يرثوا القرآن، أي: يتلقوه من الرسول صلى الله عليه وسلم.

{ **الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا** } المؤمنون، كما قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا - إلى قوله - هُوَ اجْتَبَاكُمْ } [الحج:78/77].

{ **فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ** } تفصيل لمراتب المُصْطَفَيْن لتشمل البشارة جميع أصنافهم، ولا يُظنّ أنّ الظالم لنفسه محروم منها، فمناط الاصطفاء هو الإيمان والإسلام وهو الانقياد بالقول والاستسلام.

{ **فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ** } الفاء تفصيل لأحوال الذين أورثوا الكتاب، أي: أعطوا القرآن. وقُدِّم في التفصيل ذكر الظالم لنفسه لدفع توهّم حرمانه من الجنّة وتعجيلا لمسرّته. فالضمير عائد إلى { الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا }، وعليه فالظالم لنفسه من المصطفين. وذلك قول الحسن، وهو مروي عن عائشة وهو الراجح.

الظالمون لأنفسهم: هم الذين يجرُّون أنفسهم إلى ارتكاب المعصية، فإنّ معصية المرء ربّه ظلم لنفسه لأنّه اعتداء عليها إذ قصر بها عن شيء من الخيرات قليل أو كثير، وورَّطها فيما تجد جزاء ذميما عليه. قال تعالى حكاية عن آدم وحواء حين خالفا ما نهيا عنه { قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا } [الأعراف:23]، وقال تعالى { وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً } [النساء:110]، وقال تعالى { إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ } [النمل:11]، وقال تعالى { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً } [الزمر:53].

{ **وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ** } هو غير الظالم نفسه كما تقتضيه المقابلة، فهم الذين اتقوا الكبائر ولم يحرموا أنفسهم من الخيرات المأمور بها، وقد يلمُّون باللمم المعفو عنه من الله، ولم يأتوا بمنتهى القربات الرافعة للدرجات، **الاقتصاد**: افتعال من القصد، وهو الوسط بين طرفين يبيّنه المقام. فلمّا ذُكر هنا في مقابلة الظالم والسابق عُلم أنّه مرتكب حالة بين تينك الحالتين، فهو ليس بظالم لنفسه وليس بسابق.

{ **وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ** } و**السابق** أصله الواصل إلى غاية معيّنة قبل غيره من الماشين إليها. وهو هنا مجاز لإحراز الفضل، أو مجاز في بذل العناية لنوال رضى الله، وعلى الاعتبارين في المجاز فهو مُكنًّى عن الإكثار من الخير لأنّ السبق يستلزم إسراع الخطوات، والإسراع إكثار.

الخيرات: جمع خير: النافع. والمراد بها هنا الطاعات لأنّها أعمال صالحة نافعة لعاملها وللناس بآثارها. والباء للظرفية، أي: في الخيرات.

وفي ذكر الخيرات في القسم الآخر دلالة على أنّها مرادة في القسمين الأولين فيؤول إلى معنى: ظالم لنفسه في الخيرات، ومقتصد في الخيرات أيضا.

{ **بِإِذْنِ اللَّهِ** } الإذن هنا مستعمل في التيسير على سبيل المجاز، والباء للسببية متعلقة بـ { سَابِقٌ }، وليس المراد به الأمر لأنّ الله أمر الناس كلّهم بفعل الخير سواء منهم من أتى به ومن قصّر فيه. وعلى هذا الوجه هو تنويه بالسابقين بأنّ سبقهم كان بعون من الله وتيسير منه.

ولك أن تجعل الباء للملابسة وتجعلها ظرفا مستقرا في موضع الحال من { سَابِقٌ }، أي: متلبسا بإذن الله،

ويكون الإذن مصدرا بمعنى المفعول، أي: سابق ملابس لما أذن الله به، أي: لم يخالفه.

{ **ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ** } الإشارة إلى الاصطفاء المفهوم من { اصْطَفَيْنَا }.

{ **الْفَضْلُ** } الزيادة في الخير.

{ **الْكَبِيرُ** } مراد به ذو العظم المعنوي، وهو الشرف، وهو فضل الخروج من الكفر إلى الإيمان والإسلام.

وهذا الفضل مراتب في الشرف كما أشار إليه تقسيم أصحابه إلى: ظالم، ومقتصد، وسابق.

{ **هُوَ** } ضمير الفصل لتأكيد القصر الحاصل من تعريف الجزأين، وهو حقيقي لأنّ الفضل الكبير منحصر في المشار إليه بذلك لأن كلّ فضل هو غير كبير إلّا ذلك الفضل.

ووجه هذا الانحصار أنّ هذا الاصطفاء وإيراث الكتاب جمع فضيلة الدنيا وفضل الآخرة، قال تعالى { مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [النحل:97]، وقال تعالى { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً } [النور:55].

{ **جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ** } [33].

الأظهر أنّه بدل اشتمال من قوله تعالى { ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ } [32]، فإنّ ممّا يشتمل عليه الفضل دخولهم الجنة كما علمت، وتخصيص هذا الفضل من بين أصنافه لأنّه أعظم الفضل، ولأنّه أمارة على رضوان الله عنهم حين إدخالهم الجنة، قال تعالى { وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ } [التوبة:72].

ويجوز أن يكون استئنافا بيانيا لبيان الفضل الكبير وقد بُيّن بأعظم أصنافه. والمعنى واحد.

{ **يَدْخُلُونَهَا** } ضمير الجماعة راجع إلى { الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا } [32] المقسّم إلى ثلاثة أقسام: ظالم، ومقتصد، وسابق، أي: هؤلاء كلّهم يدخلون الجنة لأنّ المؤمنين كلّهم مآلهم الجنّة كما دلّت عليه الأخبار التي تكاثرت.

{ **وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ [34] الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ [35]** }.

الأظهر أنّ الجملة في موضع الحال من ضمير { يُحَلَّوْنَ } [33]. وتلك المقالة مقارنة للتحلية واللباس، وهو كلام يجري بينهم ساعتئذ لإنشاء الثناء على الله على ما خوّلهم من دخول الجنة، ولما هم فيه من الكرامة.

{ **أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ** } الأسف، مجاز في الإنجاء منه، فيصدق بإزالته بعد حصوله، ويصدق بعدم حصوله. والمراد: أنّهم لمّا أعطوا ما أعطوه زال عنهم ما كانوا فيه قبلُ من هول الموقف ومن خشية العقاب بالنسبة للسابقين والمقتصدين، وممّا كانوا فيه من عقاب بالنسبة لظالمي أنفسهم.

{ **إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ** } استئناف ثناء على الله، شكروا به نعمة السلامة وأثنوا عليه بالمغفرة لِما تجاوز عمّا اقترفوه من اللمم وحديث الأنفس ونحو ذلك ممّا تجاوز الله عنه بالنسبة للمقتصدين والسابقين، ولِما تجاوز عنه من تطويل العذاب وقبول الشفاعة بالنسبة لمختلف أحوال الظالمين أنفسهم.

وأثنوا على الله بأنّه شكور لِما رأوا من إفاضته الخيرات عليهم ومضاعفة الحسنات ممّا هو أكثر من صالحات أعمالهم. وهذا على نحو ما تقدم آنفا في قوله تعالى { لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ} [30].

{ **الْمُقَامَةِ** } مصدر ميمي من أقام بالمكان إذا قطنه. والمراد: دار الخلود. وانتصب على المفعول الثاني لـ { أَحَلَّنَا } أي: أسكننا.

الفضل: العطاء، وهو أخو التفضّل في أنّه عطاء منه وكرم.

{ **لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ** } حال ثانية. و**المسّ**: الإصابة في ابتداء أمرها.

النصب: التعب من نحو شدّة حر وشدّة برد.

{ **وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ** } إعادة الفعل المنفي لتأكيد انتفاء المسّ. و**اللغوب**: الإعياء.

{ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ } [36].

مقابلة الأقسام الثلاثة للذين أورثوا الكتاب بذكر الكافرين يزيدنا يقينا بأنّ تلك الأقسام أقسام المؤمنين، ومقابلة جزاء الكافرين بنار جهنّم يوضّح أنّ الجنة دار للأقسام الثلاثة، على تفاوت في الزمان والمكان.

{ **لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ** } لام الاستحقاق للدلالة على أنّها أعدّت لجزاء أعمالهم، كقوله تعالى { فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ } [البقرة [24]، وقوله تعالى { وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} [آل عمران:31].

{ **لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا** } بدل اشتمال من جملة { لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ }.

القضاء: حقيقته الحكم، ومنه قضاء الله: حكمه وما أوجده في مخلوقاته. وقد يستعمل بمعنى أماته، كقوله تعالى { فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ } [القصص:15]. وهو هنا محتمل للحقيقة، أي: لا يقدّر الله موتهم. والمعنى: لا يُقضى عليهم بالموت فيموتوا.

{ **كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ** } تذييل. و**الكفور**: شديد الكفر، وهو المشرك.

{ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ } [37].

{ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ } عطف على جملة { لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ } [36]. ولا تُجعل حالا لأن التذييل آذن بانتهاء الكلام وباستقبال كلام جديد.

{ يَصْطَرِخُونَ } مبالغة في (يصرخون)، أي: يصيحون من شدة ما نابهم.

{ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا } بيان لجملة { يَصْطَرِخُونَ }، يحسبون أن رفع الأصوات أقرب إلى علم الله بندائهم، ولإظهار عدم إطاقة ما هم فيه.

{ نَعْمَلْ صَالِحاً } وعد بالتدارك لما فاتهم من الأعمال الصالحة. وجزم في جواب الدعاء لإرادة الوعد.

{ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ } نعت لـ { صَالِحاً }، أي: عملا مغايرا لما كنا نعمله في الدنيا، وهذا ندامة على ما كانوا يعملونه لأنّهم أيقنوا بفساد عملهم وضرّه، فإنّ ذلك العالم عالم الحقائق.

{ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ }.

{ أَوَلَمْ } الواو عاطفة فعل قول محذوفا لعلمه من السياق. والتقدير: يقولون: ربنا أخرجنا ونقول: ألم نعمّركم. والاستفهام تفريع للتوبيخ.

التعمير: تطويل العمر. تقدّم آنفا { وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ } [11]، وعند قوله تعالى { يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ } [البقرة:96].

{ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ } أي: زمانا كافيا بامتداده للتذكّر والتبصير.

{ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ } الرسول محمد صلى الله عليه وسلم. ووصف الرسول بالنذير لأنّ الأهم من شأنه بالنسبة إليهم هو النذارة.

{ فَذُوقُوا } الفاء للتفريع، وحذف المفعول لدلالة المقام عليه، أي: ذوقوا العذاب. والأمر مستعمل في معنى الدوام، وهو كناية عن عدم الخلاص من العذاب.

{ فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ } تفريع على ما سبق من الحكاية.

<u>فيجوز</u> أن يكون من جملة الكلام الذي وبَّخهم الله به، فهو تذييل له وتفريع عليه لتأييسهم من الخلاص.

<u>ويجوز</u> أن يكون كلاما مستقلّا مفرَّعا على القصة ذيلت بها للسامعين، والمقصود إفادة شمول هذا الحكم لكلّ ظالم، فيدخل الذين كفروا المتحدث عنهم في العموم.

الظلم: هو الاعتداء على حق صاحب حق، وأعظمه الشرك لأنّه اعتداء على الله بإنكار صفته النفسية وهو الوحدانية، واعتداء المشرك على نفسه إذ أقحمها في العذاب، قال تعالى { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان: 13].

{ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ [38] هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَاراً [39] }.

{ **إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } استئناف واصل بين جملة { إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ } [31] وبين جملة { قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا } [40].

وفي هذا إيماء إلى أنّ الله يجازي كل ذي نيّة على حسب ما أضمره.

{ **إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** } مستأنفة هي كالنتيجة للجملة السابقة، لأنّ ما في الصدور من الأمور المغيَّبة فيلزم من علم الله بغيب السماوات والأرض علمه بما في صدور الناس.

{ **بِذَاتِ الصُّدُورِ** } ضمائر الناس ونيّاتهم، وتقدّم عند قوله تعالى { إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } [الأنفال:43].

{ **عَالِمُ / عَلِيمٌ** } جيء في الإخبار بعلم الله بالغيب بصيغة اسم الفاعل، وفي الإخبار بعلمه بذات الصدور بصيغة المبالغة لأنّ المقصود من إخبار المخاطبين تنبيههم على أنّه كناية عن انتفاء أن يفوت علمه تعالى شيء. وكذلك كناية عن الجزاء عليه.

{ **هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ** } معترضة بين جملة { إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } وبين جملة { فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ }.

الخلائف: جمع خليفة، وهو الذي يخلف غيره في أمر كان لذلك الغير، كما تقدّم عند قوله تعالى { إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً } [البقرة:30].

<u>فيجوز أن يكون</u> بعد أمم مضت كما في قوله تعالى { ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ } [يونس:14] فيكون هذا بيانا لقوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، أي: هو الذي أوجدكم في الأرض فكيف لا يعلم ما غاب في قلوبكم، كما قال تعالى { أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ } [الملك:14].

<u>ويجوز أن يكون</u> المعنى: هو الذي جعلكم متصرّفين في الأرض، كقوله تعالى { وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ } [الأعراف:129]، فيكون الكلام بشارة للنبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّ الله قدّر أن يكون المسلمون أهل سلطان في الأرض بعد أمم تداولت سيادة العالم، ويظهر بذلك دين الإسلام على الدين كلّه.

{ **فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ** } تفريع، وهو شرط مستعمل كناية عن عدم الاهتمام بأمر دوامهم على الكفر.

{ **وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً** } بيان لجملة { فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ }، وكان مقتضى ظاهر هذا المعنى ألّا تعطف عليها لأن البيان لا يعطف على المبين، وإنّما خولف ذلك للدلالة على الاهتمام بهذا البيان فجعل مستقلاً بالقصد إلى الإخبار به.

المقت: البغض مع خزي وصغار، وتقدّم عند قوله تعالى { إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً } [النساء:22]. **مقت الله:** مجاز عن لازمه وهو إمساك لطفه عنهم وجزاؤهم بأشد العقاب.

{ **وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَاراً** } كسابقتها في المعنى.

الخسار: مصدر خسر مثل الخسارة، وهو: نقصان التجارة. واستعير لخيبة العمل.

{ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَتٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً** } [40].

لمّا جرى ذكر المشركين وتعنّتهم وحسبان أنّهم مقتوا المسلمين عاد إلى الاحتجاج عليهم في بطلان إلهية آلهتهم بحجّة أنّها لا يوجد في الأرض شيء يُدَّعى أنّها خلقته، ولا في السماوات شيء لها فيه شرك مع الله فأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يحاجّهم ويوجِّه الخطاب إليهم بانتفاء صفة الإلهية عن أصنامهم.

{ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ** } تمهيد لأن يطلب منهم الإخبار عن شيء خلقه شركاؤهم، فصار المراد: انظروا ما تخبرونني به من أحوال خلقهم شيئا من الأرض.

{ **شُرَكَاءَكُمُ** } من زعموهم شركاء الله في الإلهية فلذلك أضيف الشركاء إلى ضمير المخاطبين.

{ **الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ** } الموصول والصلة للتنبيه على الخطأ في تلك الدعوة.

{ **أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ** } قرينة التخطئة، فإنّه أمر للتعجيز، فيكون الأمر التعجيزي في قوة النفي. وفعل الرؤية قلبي بمعنى الأعلام والإنباء، أي: أنبئوني شيئا مخلوقا للذين تدعونهم شركاء.

{ **أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ** } و{ أَمْ } منقطعة للإضراب الانتقالي وهي تؤذن باستفهام بعدها. والمعنى: بل ألهم شرك في السماوات.

الشِرك: اسم للنصيب المشترك به في ملك شيء.

<u>المعنى</u>: ألهم شرك مع الله في ملك السماوات وتصريف أحوالهما كسير الكواكب وتعاقب الليل والنهار وتسخير الرياح وإنزال المطر.

{ **أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَاتٍ مِنْهُ** } أي: أآتيانهم كتابا ناطقا مثل ما آتينا المسلمين القرآن.

{ **بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً** } ثم كرّ على كلّه بالإبطال بواسطة { بَلْ }، بأن ذلك كله منتف وأنّهم لا باعث لهم على مزاعمهم الباطلة إلّا وعد بعضهم بعضا مواعيد كاذبة يغرّ بعضهم بها بعضاً.

الغرور: تقدّم معناه عند قوله تعالى { لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ } [آل عمران [196].

{ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً } [41].

انتقال من نفي أن يكون لشركائهم خلق أو شركة تصرّف في الكائنات التي في السماء والأرض إلى إثبات أنّه تعالى هو القيُّوم على السماوات والأرض لتبقيا موجودتين، فهو الحافظ بقدرته نظام بقائها.

{ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا } أكّد هذا الخبر بحرف التوكيد لتحقيق معناه وأنّه لا تسامح فيه ولا مبالغة. وعُبّر عن ذلك الحفظ بالإمساك على طريقة التمثيل.

الإمساك: حقيقته القبض باليد على الشيء بحيث لا ينفلت. وتقدّم عند قوله تعالى { وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ } [الحج:65].

الزوال: يطلق على العدم، ويطلق على التحوّل من مكان إلى مكان، ومنه زوال الشمس عن كبد السماء، وتقدم في [إبراهيم:48]. وقد اختير هذا الفعل دون غيره لأنّ المقصود معناه المشترك فإن الله يمسكهما من أن يعدما، ويمسكهما من أن يتحوّل نظام حركتهما، كما قال تعالى { لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ } [يس:40].

{ وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ } ثم أشير إلى أنّ شأن الممكنات المصير إلى الزوال والتحوّل ولو بعد أدهار، فالزوال المفروض أيضا مراد به اختلال نظامهما الذي يؤدي إلى تطاحنهما. وأسند الزوال أليهما للعلم بأنّ الله هو الذي يزيلهما لقوله { إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا }. وفي ذكر إمساك السماوات عن الزوال بعد الإطناب في محاجّة المشركين وتفظيع غرورهم تعريض بأنّ ما يدعون إليه من الفظاعة من شأنه أن يزلزل الأرضين ويسقط السماء كسفا لولا أنّ الله أراد بقاءهما لحكمة، كما في قوله تعالى { لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً يَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً } [مريم: 90/89]، وهذه دلالة من مستتبعات التراكيب، وهو أيضا تعريض بالتهديد.

{ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً } تذييل بوصف الله تعالى بالحلم والمغفرة، بما تشمله صفة الحليم من حلمه على المؤمنين أن لا يزعجهم بفجائع عظيمة، وعلى المشركين بتأخير مؤاخذتهم، فإنّ التأخير من أثر الحلم. وما تقتضيه صفة الغفور من أنّ في الإمهال إعذارا للظالمين لعلّهم يرجعون، كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" لعلّ الله أن يُخرج من أصلابهم من يعبده "**.

{ **وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً [42] اسْتِكْبَاراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً** [43] }.

هذا شيء حكاه القرآن عن المشركين فهو حكاية قول صدر عنهم لا محالة، ولم يرو خبر عن السلف يعيّن صدور مقالتهم هذه. وقال كثير من المفسّرين إنّ هذه المقالة صدرت عنهم قبل بعثة النبيّ صلى الله عليه وسلم لمّا بلغهم أنّ اليهود والنصارى كذَّبوا الرسل.

والذي يلوح لي: أنّ هذه المقالة صدرت عنهم في مجاري المحاورة أو المفاخرة بينهم وبين بعض أهل الكتاب ممّن يقدم عليهم بمكة، أو يقدمون هم عليهم في أسفارهم إلى يثرب أو إلى بلاد الشام، فربما كان أهل تلك البلدان يدعون المشركين إلى أتباع اليهودية أو النصرانية ويصغِّرون الشرك في نفوسهم، فكان المشركون لا يجرؤون على تكذيبهم لأنّهم كانوا مرموقين عندهم بعين الوقار إذ كانوا يفْضُلونهم بمعرفة الديانة وبأنّهم ليسوا أمّيين، وهم يأبون أن يتركوا دين الشرك، فكانوا يعتذرون بأنّ رسول القوم الذين يدعونهم إلى دينهم لم يكن مرسلا إلى العرب، فكانوا يقولون: لو جاءنا رسول لكنا أهدى منكم، كما قال تعالى { أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ } [الأنعام:157].

<u>والأظهر</u> أن يكون الداعون لهم هم النصارى، لأنّ الدعاء إلى النصرانية من شعار أصحاب عيسى عليه السلام فإنهم يقولون: إن عيسى أوصاهم أن يرشدوا بني الإنسان إلى الحق وكانت الدعوة إلى النصرانية منتشرة في بلاد العرب أيام الجاهلية وتنصّرت قبائل كثيرة مثل تغلب، ولخم، وكلب، ونجران.

أمّا اليهود فلم يكونوا يدعون الناس إلى اليهودية ولكنهم يقبلون من يتهوّد، كما تهوّد عرب اليمن.

فيتضح بهذا أنّ هذه الآية معطوفة على ما قبلها من أخبار ضلال المشركين في شأن الربوبية وفي شأن الرسالة والتديّن، وأنّ ما حُكي فيها هو من ضلالاتهم ومجازفتهم.

{ **وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ** } القَسَم بين أهل الجاهلية أكثره بالله، وقد يقسمون بالأصنام وبآبائهم وعمرهم. والغالب في ذلك أن يقولوا: واللات والعزى، ولذلك جاء في الحديث: " **من حلف باللات والعزى فليقل لا إله إلا الله** " ، أي: من جرى على لسانه ذلك جريَ الكلام الغالب، وذلك في صدر انتشار الإسلام.

جهد اليمين: أبلغها وأقواها. وأصله من الجَهد وهو التعب. فجهد الأيمان هنا كناية عن تأكيدها، وتقدّم نظيره في قوله تعالى { أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ } [المائدة:53]، وتقدم في [الأنعام:109]، وفي [النحل:38] وفي [النور:53].

{ **لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ** } بيان لجملة { أَقْسَمُوا }.

{ **نَذِيرٌ** } عُبِّر عن الرسول بالنذير لأنّ مجادلة أهل الكتاب إيّاهم كانت مشتملة على تخويف وإنذار.
وهذا يرجّح أن تكون المجادلة جرت بينهم وبين بعض النصارى لأنّ الإنجيل معظمه نذارة.
{ **إِحْدَى الْأُمَمِ** } أمّة من الأمم ذات الدين، فإن عنوا بها أمّة معروفة: إمّا الأمّة النصرانية، وإمّا الأمّة اليهودية، ويحتمل أن يكون إبهاما من كلام القرآن على عادة القرآن في الترفّع عمّا لا فائدة في تعيينه، إذ المقصود أنّهم أشهدوا الله على أنّهم إن جاءهم رسول يكونوا أسبق من غيرهم اهتداء.
وهذه الآية وغيرها، وما يؤثر من تنصّر بعض العرب ومن اتساع بعضهم في التحنُّف، يدل على أنّهم كانوا يعلمون رسالة الرسل.
{ **فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً** }
النذير: المنذر بكلامه. فالمعنى: فلمّا جاءهم رسول، وهو محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يكن جاءهم رسول قبله، كما قال تعالى { لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ } [القصص:46].
الزيادة: أصلها النماء. وقد يراد بها القوّة في الصفات على وجه الاستعارة، كقوله تعالى { فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ } [التوبة:125]. ومن ثمّة تطلق الزيادة أيضا على طرو حال على حال، أو تغيير حال إلى غيره كقوله تعالى { فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً } [النبأ:30]، وتطلق على ما يطرأ من الخير على الإنسان وإن لم يكن نوعه عنده من قبل، كقوله تعالى {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} [يونس:26]، أي: وعطاء آخر.
{ **مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً** } لمّا كان مجيء الرسول يقتضي تغيير أحوال المرسل إليهم إلى ما هو أحسن كان الظن بهم لمّا أقسموا قسمهم ذلك أنّهم إذا جاءهم النذير اهتدوا وازدادوا من الخير فإذا بهم صاروا نافرين من الدين الذي جاءهم.
{ **إِلَّا** } الاستثناء مفرّغ من مفعول { زَادَهُمْ } المحذوف، أي: ما أفادهم صلاحاً وحالاً أو نحو ذلك إلّا نفورا.
ويحتمل أن يكون المراد أنّهم لما أقسموا { لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى } كان حالهم حال النفور من قبل دعوة النصارى إياهم إلى دينهم، أو من الاتعاظ بمواعظ اليهود، فلمّا جاءهم الرسول ما زادهم شيئاً وإنما زادهم نفورا على نفورهم السابق.
{ **اسْتِكْبَاراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ** } التقدير: نفروا لأجل الاستكبار في الأرض.
{ **اسْتِكْبَاراً** } بدل اشتمال من { نُفُوراً } أو مفعول لأجله، و**الاستكبار**: شدّة التكبّر، فالسين والتاء فيه للمبالغة.
الأرض: موطن القوم، فالتعريف للعهد. والمعنى: أنّهم استكبروا في قومهم أن يتّبعوا واحدا منهم.
{ **مَكْرَ السَّيِّئِ** } عطف على { اسْتِكْبَاراً }، وإضافة { مَكْرَ } إلى { السَّيِّئِ } من إضافة الموصوف إلى الصفة. وأصله: أن يمكروا المكر السيّء.
{ **وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ** } تذييل أو موعظة. أي: لا يقع أثره إلّا على أهله.

{ **يَحِيقُ** } يقال للذي نزل به شيء مكروه: حاق به.

{ **الْمَكْرُ** } إخفاء الأذى، وهو سيّئ لأنّه من الغدر وهو مناف للخلق الكريم، فوصفه بالسيّئ وصف كاشف، ولعلّ التنبيه إلى أنّه وصف كاشف هو مقتضى إضافة الموصوف إلى الوصف لإظهار ملازمة الوصف للموصوف، فلم يقل: ومكروا سيّئا. ولم يرخّص في المكر إلّا في الحرب.

فيكون موقع قوله تعالى { وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ } موقع الوعيد بأنّ الله يدفع عن رسوله صلى الله عليه وسلم مكرهم ويحيق ضرّ مكرهم بهم.

{ **فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً** }

تفريع على جملة { فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً } [42]، ويجوز أن يكون تفريعا على جملة { وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ }، أي: كما مكر الذين من قبلهم فحاق بهم مكرهم كذلك هؤلاء.

{ **يَنْظُرُونَ** } هنا من النظر بمعنى الانتظار. شُبِّه لزوم حلول العذاب بهم بالشيء المعلوم لهم المنتظر منهم على وجه الاستعارة.

السُّنَّة: العادة: و**الأوَّلون**: هم السابقون من الأمم الذين كذبوا رسلهم بقرينة سياق الكلام.

{ **فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً** } الفاء فاء فصيحة لأنّ ما قبلها لمّا ذكّر الناس بسنة الله في المكذِّبين أفصح عن اطراد سنن الله تعالى في خلقه.

والخطاب لغير معيَّن فيعمُّ كلّ مخاطب، وبذلك يتسنى أن يسير هذا الخبر مسير الأمثال. وفي هذا تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم وتهديد للمشركين.

التبديل: تغيير شيء، وتقدّم عند قوله تعالى { وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ } [النساء:2].

التحويل: نقل الشيء من مكان إلى غيره، وكأنّه مشتقّ من الحول وهو الجانب.

{ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً [44] }.

{ **أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً** } عطف على جملة { فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ } [43] استدلالا على أنّ مساواتهم للأولين تنذر بأن سيحلّ بهم ما حلّ بأولئك من نوع من يشاهدونه من آثار استئصالهم في ديارهم.

{ **وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً** } في موضع الحال، أي: كانت عاقبتهم الاضمحلال، مع انّهم اشد قوة من هؤلاء. وجيء بهذا الحال في هذه الآية لما يفيد موقع الحال من استحضار صورة تلك القوة إيثارا للإيجاز لاقتراب ختم السورة.

{ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً** }.

لمّا عرض وصف الأمم السابقة بأنّهم أشدّ قوة من قريش في معرض التمثيل بالأولين تهديدا واستعدادا

لتلقي مثل عذابهم، أتبع ذلك بالاحتراس عن الطماعية في النجاة من مثل عذابهم بعلة انّ لهم من المنجيات ما لم يكن للأمم الخالية، كزعمهم: أنّ لهم آلهة تمنعهم من عذاب الله بشفاعتها أو دفاعها.

{ **وَمَا كَانَ** } جيء بلام الجحود مع { كَانَ } المنفية لإفادة تأكيد نفي كل شيء يحول دون قدرة الله وإرادته.

{ **إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً** } تعليل لانتفاء شيء يغالب مراد الله بأنّ الله شديد العلم واسعه لا يخفى عليه شيء وبأنّه شديد القدرة.

{ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً } [45].

تذكير لهم عن أن يغرَّهم تأخير المؤاخذة فيحسبوه عجزا أو رضى من الله بما هم فيه، فعلَّمهم أنّ لعذاب الله آجالا اقتضتها حِكمه، فيها رعي مصالح أمم آخرين، أو استبقاء أجيال آتين.

ونظير هذه الآية تقدم في [النحل:61] إلى قوله تعالى { فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ }، إلّا أن هذه الآية جاء فيها { بِمَا كَسَبُوا } وهنالك جاء فيها { بِظُلْمِهِمْ } لأنّ ما كسبوا يعم الظلم وغيره. وأوثر في سورة النحل { بِظُلْمِهِمْ } لأنّها جاءت عقب تشنيع ظلم عظيم من ظلمهم وهو ظلم بناتهم الموؤدات.

وهنالك قال { مَا تَرَكَ عَلَيْهَا } وهنا { مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا } وهو تفنّن.

{ **عَلَى ظَهْرِهَا** } ظهر الأرض مستعار لبسطها الذي تستقر عليه مخلوقات الأرض تشبيها للأرض بالدابة المركوبة على طريقة المكنية. ثم شاع ذلك فصار من الحقيقة.

{ **فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً** }، وقال في النحل { لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ }، فما هنا إيماء إلى الحكمة في تأخيرهم إلى أجل مسمى. والتقدير: فإذا جاء أجلهم أخذهم بما كسبوا فإن الله كان بعباده بصيرا، أي: عليما في حالي التأخير ومجيء الأجل، وأمّا ما في سورة النحل فهو الجواب وهو تهديد بأنّه إذا جاء أجلهم وقع بهم العذاب دون إمهال.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة يس

سُمِّيت هذه السورة (**يس**) بمسمَّى الحرفين الواقعين في أوّلها في رسم المصحف لأنّها انفردت بها فكانا مميزين لها عن بقية السور، فصار منطوقهما عَلَما عليها. وكذلك ورد اسمها عن النبيّ صلى الله عليه وسلم. روى أبو داود عن معقل بن يسار قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" اقرأوا يس على موتاكم "**. وبهذا الاسم عنونها البخاري والترمذي.

ودعاها بعض السلف (**قلب القرآن**) لوصفها في قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" إنّ لكل شيء قلبا وقلب القرآن يس "** ، رواه الترمذي عن أنس، وهي تسمية غير مشهورة.

وهي **مكّية**، وحكى ابن عطية الاتفاق على ذلك.

وهي السورة **الحادية والأربعون في ترتيب النزول** في قول جابر بن زيد الذي اعتمده الجعبري، نزلت بعد سورة الجن وقبل سورة الفرقان.

وعدَّت آياتها عند جمهور الأمصار اثنتين وثمانين. وعدت عند الكوفيين ثلاثا وثمانين.

أغراض السورة

*/ التحدِّي بإعجاز القرآن بالحروف المقطّعة، وبالقسم بالقرآن تنويها به، وأدمج وصفه بالحكيم إشارة إلى بلوغه أعلى درجات الإحكام. والمقصود من ذلك تحقيق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وتفضيل الدين الذي جاء به في كتاب منزل من الله.

*/ أنّ القرآن داعٍ لإنقاذ العرب الذين لم يسبق مجيء رسول إليهم، لأنّ عدم سبق الإرسال إليهم تهيئة لنفوسهم لقبول الدين إذ ليس فيها شاغل سبق يعزّ عليهم فراقه أو يكتفون بما فيه من هدى.

*/ وصف إعراض أكثرهم عن تلقّي الإسلام، وتمثيل حالهم الشنيعة، وحرمانهم من الانتفاع بهدي الإسلام وأنّ الذين اتبعوا دين الإسلام هم أهل الخشية، وهو الدين الموصوف بالصراط المستقيم.

*/ ضرب المثل لفريقي المتبعين والمعرضين من أهل القرى بما سبق من حال أهل القرية الذين شابه تكذيبهم الرسل تكذيب قريش.

*/ كيف كان جزاء المعرضين من أهلها في الدنيا وجزاء المتبعين في درجات الآخرة.

*/ ضرب المثل بالأعم وهم القرون الذين كذبوا فأُهلِكوا.

*/ الرثاء لحال الناس في إضاعة أسباب الفوز كيف يسرعون إلى تكذيب الرسل.

*/ تخلّص إلى الاستدلال على تقريب البعث وإثباته بالاستقلال تارة وبالاستطراد أخرى.

*/ الامتنان بالنعمة التي تتضمّنها تلك الآيات.

*/ دلالة تلك الآيات والنعم على تفرّد خالقها ومنعمها بالوحدانية، إيقاظا لهم.

*/ تذكيرهم بأعظم حادثة حدثت على المكذبين للرسل والمتمسكين بالأصنام من الذين أرسل إليهم نوح نذيرا، فهلك من كذّب، ونجا من آمن.

*/ سيقت دلائل التوحيد المشوبة بالامتنان للتذكير بواجب الشكر على النعم بالتقوى والإحسان وترقّب الجزاء

*/ الإقلاع عن الشرك والاستهزاء بالرسول واستعجال وعيد العذاب.

*/ حُذِّروا من حلول العذاب بغتة حين يفوت التدارك.

*/ ذُكِّروا بما عهد الله إليهم ممّا أودعه في الفطرة من الفطنة.

*/ الاستدلال على عداوة الشيطان للإنسان.

*/ ردّ العجز على الصدر فعاد إلى تنزيه القرآن عن أن يكون مفترى صادرا من شاعر بتخيّلات الشعراء.

*/ تسلية الله رسوله صلى الله عليه وسلم ألّا يحزنه قولهم وأنّ له بالله أسوة إذ خلقهم فعطّلوا قدرته عن إيجادهم مرة ثانية.

*/ قامت السورة على تقرير أمهات أصول الدين على أبلغ وجه وأتمّه من إثبات الرسالة، ومعجزة القرآن، وما يُعتبر في صفات الأنبياء وإثبات القدر، وعلم الله، والحشر، والتوحيد، وشكر المنعم، وهذه أصول الطاعة بالاعتقاد والعمل، ومنها تتفرّع الشريعة.

*/ إثبات الجزاء على الخير والشر مع إدماج الأدلة من الآفاق والأنفس بتفنّن عجيب.

فكانت هذه السورة جديرة بأن تسمَّى **قلب القرآن** لأنّ من تقاسيمها تتشعّب شرايين القرآن كله.

{ **يس** } [1].
القول فيه كالقول في الحروف المقطّعة الواقعة في أوائل السور.
ومن الناس من يدّعي أنّ **يس** اسم من أسماء النبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ **وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ** [2] **إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ** [3] **عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** [4] }.
القَسَم بالقرآن كناية عن شرف قدره وتعظيمه عند الله تعالى، وذلك هو المقصود من الآيات الأُوَل من هذه السورة. والمقصود من هذا القَسَم تأكيد الخبر مع ذلك التنويه.
{ **الْقُرْآنِ** } عَلَم بالغلبة على الكتاب الموحى به إلى محمد صلى الله عليه وسلم من وقت مبعثه إلى وفاته للإعجاز والتشريع، وتقدّم في قوله تعالى { وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ } [يونس:61].
{ **الْحَكِيمِ** } يجوز أن يكون بمعنى المُحكَم، أي: المجعول ذا إحكام. والإحكام: الإتقان بماهية الشيء فيما يراد منه. ويجوز أن يكون بمعنى صاحب الحكمة، ووصفه بذلك مجاز عقلي لأنّه محتو عليها.
{ **إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ** } جواب القَسَم، وتأكيد هذا الخبر بالقسم وحرف التأكيد ولام الابتداء باعتبار كونه مرادا به التعريض بالمشركين الذين كذَّبوا بالرسالة، فهو تأنيس للنبيّ صلى الله عليه وسلم وتعريض بالمشركين، فالتأكيد بالنسبة إليه زيادة تقرير وبالنسبة للمعنى الكنائي لردّ إنكارهم.
{ **عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** } خبر ثان لـ (إنَّ)، أو حال من اسمها. والمقصود منه: الإيقاظ إلى عظمة شريعته بعد إثبات أنّه مرسل كغيره من الرسل.
{ **عَلَى** } للاستعلاء المجازي الذي هو بمعنى التمكّن، كما في قوله { أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ } [البقرة:5]. وليس الغرض من الإخبار إفادة كونه على صراط مستقيم لأنّ ذلك معلوم حصوله من الإخبار من كونه أحد المرسلين، ولكن الغرض الجمع بين حال الرسول عليه الصلاة والسلام وبين حال دينه ليكون العلم بأنّ دينه صراط مستقيم علما مستقلا لا ضمنيا.
الصراط المستقيم: الهدى الموصل إلى الفوز في الآخرة، وهو الدين الذي بُعث به النبيّ صلى الله عليه وسلم، والخُلُق الذي لقّنه الله. فالإسلام فيه الهدى في الحياتين فمتَّبعه كالسائر في صراط مستقيم لا حيرة في سيره تعتريه حتّى يبلغ المكان المراد. والقرآن حاوي الدين فكان القرآن من الصراط المستقيم.

{ **تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ** [5] **لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ** [6] }.
راجع إلى { الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ } [2] إذ هو المنزَّل من عند الله، فبعد أن استوفى القسم جوابه رجع الكلام إلى بعض المقصود من القسم وهو تشريف المُقسَم به فوُسِم بأنّه { تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ }.
{ **تَنْزِيلَ** } قرأه الجمهور بالرفع { تَنْزِيلُ } على أنّه خبر مبتدأ محذوف للعلم به.

وذلك أنّهم إذا أجروا حديثا على شيء ثم أخبروا عنه التزموا حذف ضميره الذي هو مسند إليه إشارة إلى التنويه به كأنّه لا يخفى.

وقرأه ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف بنصب { تَنْزِيلَ } على تقدير: أعني.

والمعنى: أعني من قسمي قرآنا نزَّلته، وتلك العناية زيادة في التنويه بشأنه وهي تعادل حذف المسند إليه.

التنزيل: مصدر بمعنى المفعول أخبر عنه بالمصدر للمبالغة في تحقيق كونه منزلا.

{ **الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ** } أضيف التنزيل إلى الله بعنوان هذين الصفتين لأنّ ما أشتمل عليه القرآن لا يعدو أن يكون من آثار عزّة الله تعالى، وهو ما فيه من حمل الناس على الحق وسلوك طريق الهدى دون مصانعة ولا ضعف مع ما فيه من الإنذار والوعيد على العصيان والكفران.

وأن يكون من آثار رحمته، وهو ما في القرآن من نصب الأدلة وتقريب البعيد وكشف الحقائق للناظرين، مع ما فيه من البشارة للذين يكونون عند مرضاة الله تعالى.

{ **لِتُنْذِرَ** } اللام متعلقة بـ { تَنْزِيلَ } وهي لام التعليل، تعليلا لإنزال القرآن.

واقتصر على الإنذار لأنّ أول ما ابتدئ به القوم من التبليغ إنذارهم جميعا بما تضمنته أوّل سورة نزلت (العلق)، وما تضمّنته سورة (المدثر)، لأنّ القوم جميعا كانوا على حالة لا ترضي الله تعالى.

{ **قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ** } إمّا العرب العدنانيون، فإنّهم مضت قرون لم يأتهم فيها نذير، وإنّما يُبتدأ عدُّ آبائهم من جدّهم الأعلى في عمود نسبهم الذين تميَّزوا به وهو **عدنان** (العرب المستعربة).

أو أريد أهل مكة، وإنّما باشر النبيّ صلى الله عليه وسلم في ابتداء بعثته دعوة أهل مكة وما حولها فكانوا هم الذين أراد الله أن يتلقّوا الدين وأن تتأصّل منهم جامعة الإسلام، ثم كانوا هم حملة الشريعة وأعون الرسول صلى الله عليه وسلم في تبليغ دعوته وتأييده. فانضم إليهم أهل يثرب، وهم قحطانيون، فكانوا أنصارا ثم تتابع إيمان قبائل العرب.

{ **فَهُمْ غَافِلُونَ** } تفريع، أي: فتسبّب على عدم إنذار آبائهم أنّهم متّصفون بالغفلة وصفا ثابتا، أي: فهم غافلون عمّا تأتي به الرسل والشرائع فهم في جهالة وغواية.

الغفلة: صريحها الذهول عن شيء وعدم تذكّره، وهنا كناية عن الإهمال والإعراض عما يحق التنبّه إليه.

{ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ } [7].

هذا تفصيل لحال القوم الذين أُرسل محمد صلى الله عليه وسلم لينذرهم، فهم قسمان: قسم لم تنفع فيه النذارة، وقسم اتّبعوا الذكر وخافوا الله فانتفعوا بالنذارة. وبيَّن أن أكثر القوم حقّت عليهم كلمة العذاب، أي: عَلِم الله أنّهم لا يؤمنون، فحقَّق في علمه وكتب أنّهم لا يؤمنون.

{ **حَقَّ** } بمعنى ثبت ووقع فلا يقبل نقضا.

{ **الْقَوْلُ** } مصدر، ما أراده الله تعالى بهم، فهو من قبيل الكلام النفسي، أو ممّا أوحى الله به إلى رسله.

{ **إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ** } [8]

بدل اشتمال من الجملة السابقة [7]، فإن انتفاء إيمانهم يشتمل على ما تضمّنته هذه الآية من جعل أغلال في أعناقهم، حقيقة أو تمثيلا.

الجعل: تكوين الشيء، أي: جعلنا حالهم كحال من في أعناقهم أغلالا.

فيجوز أن يكون تمثيلا بأن شُبِّهت حالة إعراضهم عن التدبّر في القرآن ودعوة الإسلام والتأمّل في حججه الواضحة بحال قوم جُعلت في أعناقهم أغلال غليظة ترتفع إلى أذقانهم فيكونون كالمقمحين، أي: الرافعين رؤوسهم الغاضين أبصارهم لا يلتفتون يمينا ولا شمالا فلا ينظرون إلى شيء مما حولهم، فتكون تمثيلية.

ويجوز أن يكون وعيدا حقيقيًّا بما سيحلّ بهم يوم القيامة حين يساقون إلى جهنم في الأغلال كما أشار إليه قوله { إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ } [غافر:71/ 72]، فيكون فعل { جَعَلْنَا } مستقبلا وعُبّر عنه بصيغة الماضي لتحقيق وقوعه. أي: سنجعل في أعناقهم أغلالا.

{ **فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ** } لتحقيق كون الأغلال ملزوزة إلى عظام الأذقان بحيث إذا أراد المغلول منهم الالتفات أو أن يطأطئ رأسه وجعه ذقنه فلازم السكون.

الأغلال: جمع غُلّ، وهو حلقة عريضة من حديد كالقلادة. وتقدّم عند قوله تعالى { وَأُولَئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ } [الرعد:5].

المُقْمَحُ: بصيغة اسم المفعول المجعول قامحًا، أي: رافعًا رأسه ناظرًا إلى فوقه يقال: قمحه الغل، إذ جعل رأسه مرفوعا وغض بصره، فمدلوله مركّب من شيئين.

الأذقان: جمع ذقن بالتحريك، وهو مجتمع اللحين.

{ **وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ** } [9].

{ **وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا** } هذا ارتقاء في حرمانهم من الاهتداء، بأنّ فظاظة قلوبهم لا تقبل الاستنتاج من الأدلة والحجج بحيث لا يتحوّلون عمّا هم فيه، فمُثِّلت حالهم بحالة من جُعِلوا بين سدَّين، أي: جدارين.

{ **سَدًّا** } تقدّم في [الكهف:94].

{ **فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ** } تفريع على كلا المفعولين { جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ - وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ }، لأنّ في كلا الفعلين مانعا من أحوال النظر.

الإغشاء: وضع الغشاء. وهو ما يغطي الشيء. والمراد: أغشينا أبصارهم، ففي الكلام حذف مضاف دلّ عليه السياق وأكّده التفريع بقوله { فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ } .

{ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ } [10].

عطف على جملة { لا يُبْصِرُونَ } [9]، أي: إنذارك وعدمه سواء بالنسبة إليهم.

{ **عَلَيْهِمْ** } حرف (عَلَى) معناه الاستعلاء المجازي وهو هنا للملابسة، متعلّق بـ { سَوَاءٌ } الدال على معنى (استوى)، وتقدّم نظيرها في [البقرة:6].

{ **أَأَنْذَرْتَهُمْ** } همزة التسوية أصلها الاستفهام ثم استُعمِلت في التسوية على سبيل المجاز المرسل، وشاع ذلك حتّى عُدَّت التسوية من معاني الهمزة لكثرة استعمالها في ذلك مع كلمة (سواء) وهي تفيد المصدرية. ولما استعملت الهمزة في معنى التسوية استعملت (أَمْ) في معنى الواو.

{ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ } [11].

لمّا تضمَّن قوله تعالى { وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ } [10] أنّ الإنذار في جانب الذين حقّ عليهم القول أنّهم لا يؤمنون، هو وعدمه سواء، وكان ذلك قد يوهم انتفاء الجدوى من الإنذار والدعوة، أعقِب ببيان جدوى الإنذار بالنسبة لمن اتَّبع الذكر وخشي الرحمان بالغيب.

{ **الذِّكْر** } القرآن.

الاتباع: حقيقته الاقتفاء والسير وراء سائر، وهو هنا مستعار للإقبال على الشيء والعناية به، فاتباع الذكر تصديقه والإيمان بما فيه، لأنّ التدبّر فيه يفضي إلى العمل به.

وكان المشركون يعرضون عن سماع القرآن ويصدُّون الناس عن سماعه، ويبيّن ذلك ما في قصة عبد الله بن أبي بن سلول في مبدأ حلول رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة: " أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ بمجلس عبد الله بن أبي فنزل فسلم وتلا عليهم القرآن حتّى إذا فرغ قال عبد الله بن أبي: " يا هذا إنّه لا أحسن من حديثك إن كان حقا، فأجلس في بيتك فمن جاءك فحدِّثه ومن لم يأتك فلا تَغُتَّه به ".

{ **وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ** } لمّا كان الإقبال على سماع القرآن مفضيا إلى الإيمان بما فيه أتبِعت صلة { اتَّبَعَ الذِّكْرَ } بهذه الجملة، فكان المراد من اتباع الذكر أكمل أنواعه الذي لا يعقبه إعراض.

خشية الرحمان: تقواه في خويصة أنفسهم، وهؤلاء هم المؤمنون، تنويها بشأنهم وبشأن الإنذار، فهذا قسيم قوله تعالى { لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ } [7]، وهو بقية تفصيل قوله تعالى { لِتُنْذِرَ قَوْمًا } [6]. والغرض تقوية دعاية الرسول صلى الله عليه وسلم في الإنذار، والثناء على الذين قبلوا نذارته فآمنوا.

{ **الرَّحْمَنَ** } التعبير بهذا الوصف دون اسم الجلالة لوجهين:

الأوّل: أنّ المشركين كانوا ينكرون اسم الرحمان، كما قال تعالى { قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ } [الفرقان:60].

الثاني: الإشارة إلى رحمته لا تقتضي عدم خشيته، فالمؤمن يخشى الله مع علمه برحمته فهو يرجو الرحمة.
{ **فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ** } ثمّ فُرِّع على هذا التنويه الأمر بتبشير هؤلاء بمغفرة ما كان منهم في زمن الجاهلية، وما يقترفون من اللمم.
{ **تُنْذِرُ / فَبَشِّرْهُ** } فيه محسِّن الطباق، مع بيان أنّ أوّل أمرهم الإنذار وعاقبته التبشير.
الأجر: الثواب على الإيمان والطاعات، ووصفه بـ { **كَرِيمٍ** } لأنّه الأفضل في نوعه، كما تقدّم عند قوله تعالى { إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ } [النمل:29].

{ **إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ** } [12].
لمّا اقتضى القصر في قوله تعالى { إِنَّمَا تُنْذِرُ...} [11] نفي أن يتعلّق الإنذار بالذين لم يتّبعوا الذكر ولم يخشوا الرحمان، وكان في ذلك كناية تعريضية بأنّ الذين لم ينتفعوا بالإنذار بمنزلة الأموات لعدم انتفاعهم بما ينفع كلّ عاقل، استُطرد عقب ذلك بالتخلّص إلى إثبات البعث، فإنّ التوفيق الذي حفّ بمن اتّبع الذكر وخشي الرحمان هو كإحياء الميّت، لأنّ حالة الشرك حالة ضلال يشبه الموت، والإخراج منه كإحياء الميّت.
فيكون موقع الجملة استئنافا ابتدائيا لقصد إنذار الذين لم يتّبعوا الذكر، ولم يخشوا الرحمان، وهم الذين اقتضاهم جانب النفي في صيغة القصر.
وفي الجملة امتنان على المؤمنين بتيسير الإيمان لهم، فإحياء الموتى توفيق من آمن من الناس إلى الإيمان، كقوله { أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ } [الأنعام: 122].
{ **وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ** } الكناية عن الوعد بالثواب على أعمالهم الصالحة والثواب على آثارهم.
وعطف ذلك إدماج للإنذار والتهديد بأنّهم محاسبون على أعمالهم ومجازون عليها. وهذا الاعتبار يناسب الاستئناف الابتدائي ليكون الانتقال بابتداء كلام منبِّها السامع إلى ما اعتبره المتكلّم في مطاوي كلامه.
الكتابة: كناية عن الإحصاء وعدم إفلات شيء من أعمالهم أو إغفاله. وهي ما يُعبَّر عنه بصحائف الأعمال التي يسجّلها الكرام الكاتبون.
{ **مَا قَدَّمُوا** } ما عملوا من الأعمال قبل الموت، شُبِّهت أعمالهم في الحياة الدنيا بأشياء يقدّمونها إلى الدار الآخرة، كما يقدّم المسافر ثقله وأحماله.
{ **وَآثَارَهُمْ** } هي آثار الأعمال وليست عين الأعمال بقرينة مقابلته بـ { مَا قَدَّمُوا }، مثل ما يتركون من خير أو يثيرونه بين الناس وفي النفوس. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" من سنّ سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ومن سنّ سنّة سيّئة فعليه وزرُها ووزر من عمل بها إلى**

يوم القيامة لا ينقص ذلك من أعمالهم شيئا ".

وقد ورد عن جابر أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم بلغه أنّ بني سلمة أرادوا أن يتحوّلوا من منازلهم في أقصى المدينة إلى قرب المسجد وقالوا: البقاع خالية، فقال لهم النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم** (مرتين) ". [رواه مسلم]. يعني: آثار أرجلهم في المشي إلى صلاة الجماعة.

وفي رواية الترمذي عن أبي سعيد زاد: أنّه قرأ عليهم { وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ }، وتوهّم راوي الحديث عن الترمذي أنّ هذه الآية نزلت في ذلك، وسياق الآية يخالفه، ومكّيّتها تنافيه.

{ **وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ** } لإفادة الإحاطة والعموم لما قدّموا وآثارهم. فكلمة { كُلّ } نص على العموم، فتكون الجملة مؤكِّد لجملة { وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ }، ومبيّنة لمجملها، ويكون عطفها دون فصلها مراعى فيه ما اشتملت عليه من زيادة الفائدة.

<u>ويجوز</u> أن يكون المراد بـ { كُلَّ شَيْءٍ } كلّ ما يوجد من الذوات والأعمال، ويكون الإحصاء <u>إحصاء علم</u>، كقوله تعالى { وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا } [الجن:28].

الإحصاء: حقيقته العدّ والحساب، وهو هنا كناية عن الإحاطة والضبط وعدم تخلّف شيء عن الذكر والتعيين لأنّ الإحصاء والحساب يستلزم أن لا يفوت واحد من المحسوبات.

الإمام: ما يؤتم به في الاقتداء ويُعمل على حسب ما يدل عليه. أطلق الإمام على الكتاب لأنّ الكتاب يُتبع ما فيه من الأخبار والشروط.

{ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ [13] إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ [14] }.

أُعقب وصف إعراضهم وغفلتهم عن الانتفاع بهدى القرآن بتهديدهم بعذاب الدنيا، إذ قد جاء في آخر هذه القصة قوله تعالى { إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ } [29].

{ **وَاضْرِبْ** } مجاز مشهور في معنى الوضع والجعل، ومنه: ضرب ختمه. وضربت بيتا، وهو هنا في الجعل وتقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا } [البقرة:26].

{ **لَهُمْ** } <u>يجوز</u> أن يتعلّق بـ { اضْرِبْ } أي: اضرب مثلا لأجل أن يعتبروا، كقوله تعالى { ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ } [الروم:28]. <u>ويجوز</u> أن يكون { لَهُمْ } صفة لـ { مثَل }، أي: اضرب شبيها لهم، كقوله تعالى { فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ } [النحل:74].

المثل: الشبيه، أي: شُبِّه حالهم في تكذيبهم بك بشبيه من السابقين.

{ **أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ** } انتصب على البيان لـ { مَثَلًا }، أو بدل، <u>ويجوز</u> أن يكون مفعولا أوّل لـ { اضْرِبْ } و{ مَثَلًا } مفعولا ثانيا، كقوله تعالى { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً } [النحل: 112].

{ **الْقَرْيَةِ** } قال المفسّرون عن ابن عباس هي (أنطاكية)، وهي مدينة بالشام متاخمة لبلاد اليونان.

{ **الْمُرْسَلُونَ** } قال قتادة: هم من الحواريين. وكان ذلك في حدود سنة أربعين من مولد عيسى عليه السلام.

وتحقيق القصة:

أنّ عيسى عليه السلام لم يدعُ بني إسرائيل ولم يكن الدين الذي أرسل به إلّا تكملة لما اقتضت الحكمة الإلهية إكماله من شريعة التوراة، ولكن عيسى أوصى الحواريين ألّا يغفلوا عن نهي الناس عن عبادة الأصنام فكانوا إذا رأوا رؤيا أو خطر لهم خاطر بالتوجّه إلى بلد من بلاد إسرائيل أو ممّا جاورها، أو خطر في نفوسهم إلهام بالتوجّه إلى بلد علموا أنّ ذلك وحي من الله لتحقيق وصية عيسى عليه السلام.

ووقع اختلاف للمفسرين في تعيين الرسل الثلاثة الذين أرسلوا إلى أهل إنطاكية، والذي ينطبق على ما في [أعمال الرسل 1-9، الإصحاح:13] أنّ (برنابا) و(شاول/ بولس) من تلاميذ الحواريين، كانا في إنطاكية مرسلين للتعليم، وأنّهما عُززا بالتلميذ (سيلا) [أعمال الرسل 35/34، الإصحاح:15].

{ **فَكَذَّبُوهُمَا** } والمكذِّبون هم من كانوا سكانا بإنطاكية من اليهود واليونان. وليس في (أعمال الرسل) سوى كلمات مجملة عن التكذيب والمحاورة التي جرت بين المرسلين والمرسل إليهم، فذُكر أنّه كان هنالك نفر من اليهود يطعنون في صدق دعوة بولس وبرنابا ويثيرون عليهما نساء الذين يؤمنون بعيسى من وجوه المدينة من اليونان وغيرهم، حتى اضطر (بولس وبرنابا) إلى أن خرجا من إنطاكية وقصدا ايقونية وما جاورها وقاومهما يهود بعض تلك المدن، وأنّ أحبار النصارى في تلك المدائن رأوا أن يعيدونهما إلى إنطاكية.

وبعد عودتهما حصل لهما ما حصل لهما في الأولى وبالخصوص في قضية وجوب الختان على من يدخل في الدين، فذهب بولس وبرنابا إلى أورشليم لمراجعة الحواريين فرأى أحبار أورشليم أن يؤيدوهما برجلين من الأنبياء هما (برسابا) و(سيلا).

فأمّا (برسابا) فلم يمكث، وأمّا (سيلا) فبقي مع بولس وبرنابا يعظون الناس. ولعلّ ذلك كان بوحي من الله إليهم وإلى أصحابهم من الحواريين. فهذا معنى قوله تعالى { **إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ** } إذ أسند الإرسال والتعزيز إلى الله.

التعزيز: التقوية، وفي هذه المادة معنى جعل المقوّى عزيزا، فالأحسن أنّ التعزيز هو النصر.

{ **فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ** } التأكيد لأجل تكذيبهم إيّاهم، فأكّدوا الخبر تأكيدا وسطا، ويُسمَّى هذا ضربا طلبيا. وتقديم المجرور للاهتمام بأمر المرسل إليهم، والمقصود إيمانهم بعيسى.

{ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ } [15].

{ **مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا** } كان أهل (أنطاكية) والمدن المجاورة لها خليطا من اليهود وعبدة الأصنام من اليونان، فالقول صالح لأن يصدر من عبدة الأوثان وهو ظاهر لظنّهم أنّ الآلهة لا تبعث الرسل ولا

توحي إلى أحد، وهو أيضا صالح لأن يصدر من اليهود الذين لم يتنصّروا، لأنّ ذلك القول يقتضي أنّهما (بولس وبرنابا) وبقية اليهود سواء، وألّا فضل لهما بما يزعمون من النبوّة. وقولهم يقتضي إنكار أن يكون الله أنزل شيئا بعد التوراة. فمن إعجاز القرآن جمع مقالة الفريقين في هاتين الجملتين.

{ **الرَّحْمَنُ** } اختيار هذا الوصف في حكاية قول الكفرة لكونه صالحا لعقيدة الفريقين، لأنّ اليونان لا يعرفون اسم الله، ورب الأرباب عندهم هو (زفس) وهو مصدر الرحمة في اعتقادهم، واليهود كانوا يتجنّبون النطق باسم الله الذي هو في لغتهم (يهوه) فيعوّضونه بالصفات.

{ **إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ** } الاستثناء استفهام مفرَّغ من أخبار محذوفة.

{ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ [16] وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ [17] }.

حكيت هذه المحاورة على سنن حكاية المحاورات بحكاية أقوال المتحاورين دون عطف.

{ **رَبُّنَا يَعْلَمُ** } قَسَم، لأنّه استشهاد بالله على صدق مقالتهم، واضطرّهم إلى شدّة التوكيد بالقسم ما رأوا من تصميم كثير من أهل القرية على تكذيبهم. ويُسمَّى هذا المقدار من التأكيد ضربا إنكاريا.

وهو يمين قديمة انتقلها العرب في الجاهلية. ويظهر أنّه كان مغلّظا عندهم لقلّة وروده في كلامهم ولا يكاد يقع إلّا في مقام مهم. وهو عند علماء المسلمين يمين كسائر الأيمان فيها كفارة عند الحنث.

{ **وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ** } فذلك وعظ وعظوا به القوم ليعلموا أنّهم لا منفعة تنجرّ لهم من إيمان القوم، وإعلان لهم بالتبرّؤ من عهدة بقاء القوم على الشرك، وذلك من شأنه أن يثير النظر الفكري في نفوس القوم.

{ **الْبَلاغُ** } اسم مصدر من أبلغ إذا أوصل خبرا، قال تعالى { إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ } [الشورى:48]، وقال تعالى { هَذَا بَلاغٌ لِلنَّاسِ } [إبراهيم:52]. ولا يستعمل البلاغ في إيصال الذوات.

{ **الْمُبِينُ** } وصف للبلاغ، أي: البلاغ الواضح دلالةً، وهو الذي لا إبهام فيه ولا مواربة.

{ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ } [18].

لمّا غلبتهم الحجّة من كل جانب وبلغ قول الرسل { وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ } من نفوس أصحاب القرية مبلغ الخجل والاستكانة من إخفاق الحجّة والاتسام بميسم المكابرة والمنابذة للذين يبتغون نفعهم، زعموا أنّهم تطيّروا بهم ولحقهم منهم شؤم.

{ **إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ** } التطيّر في الأصل تكلّف معرفة دلالة الطير على خير أو شر من تعرّف نوع الطير ومن صفة اندفاعه أو مجيئه، ثم أطلق على كلّ حدث يتوهّم منه أحد أنّه كان سببا في لحاق شرّ به، فصار مرادفا للتشاؤم. وفي الحديث: **" لا عدوى ولا طِيرَة وإنّما الطيرة على من تطيّر "** وبهذا المعنى أطلق في هذه الآية، أي: قالوا إنّا تشاءمنا بكم.

{ **بِكُمْ** } بدعوتكم، وليسوا يريدون أنّ القرية حلّ بها حادث سوء يعمّ النّاس كلّهم من قحط أو وباء أو نحو ذلك من الضر العام، وقد جوّزه بعض المفسّرين. وهذا نظير ما حكاه الله تعالى عن قوم فرعون { فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ } [الأعراف:131]، وحكى عن مشركي مكّة { وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ } [النساء:78].

ويجوز أن يكونوا أرادوا بالشؤم أنّ دعوتهم أحدثت مشاجرات واختلافا بين أهل القرية.

{ **لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ** } انتقلوا إلى المطالبة بالانتهاء عن هذه الدعوة.

وبذلك ألجأوا (بولس) و(برنابا) إلى الخروج من إنطاكية فخرجا إلى أيقونية.

ولم يزل اليهود في كل مدينة من هذه المدن يشاقون الرسل ويضطهدونهم ويثيرون الناس عليهم، فمسّهم من ذلك عذاب وضرّ، ورُجم (بولس) في مدينة (لسترة) حتّى حسبوا أن قد مات.

{ **قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ** } [19].

حُكي قول الرسل بما يرادفه ويؤدي معناه بأسلوب عربي تعريضا بأهل الشرك من قريش الذين ضُربت القرية مثلا لهم، فالرسل لم يذكروا مادة الطيرة والطير وإنّما أتوا بما دلّ على أنّ شؤم القوم متّصل بذواتهم لا جاءٍ من المرسلين إليهم.

وهذا بمنزلة التجريد لضرب المثل لهم بأن لوحظ في حكاية القصة من شؤون المشبَّهين بأصحاب القصة.

ولما كانت الطيرة بمعنى الشؤم مشتقة من اسم الطير لوحظ فيها مادة الاشتقاق. وقد جاء إطلاق الطائر على معنى الشؤم في قوله تعالى { أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ } [الأعراف:131]، على طريقة المشاكلة.

{ **طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ** } الطائر الذي تنسبون إليه الشؤم هو معكم، أي: في نفوسكم، أرادوا: أنّكم لو تدبّرتم لوجدتم أنّ سبب ما سمّيتموه شؤما هو كفركم وسوء سمعكم للمواعظ، فإنّ الذين استمعوا أحسن القول اتبعوه ولم يعتدوا عليكم، وأنتم الذين آثرتم الفتنة وأسعرتم البغضاء والإحن في المدينة.

{ **أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ** } استفهام إنكاري على محذوف دلّ عليه الكلام السابق، وقيّد ذلك المحذوف بالشرط الذي حذف جوابه أيضا استغناء عنه بالاستفهام عنه. والتقدير: أتتشاءمون بالتذكير إن ذُكِّرتم.

{ **بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ** } أبطلوا أن يكون الشؤم من تذكيرهم. أي: لا طيرة فيما زعمتم ولكنّكم قوم كافرون غشيت عقولكم الأوهام فظننتم ما فيه نفعكم ضرًّا لكم. ومن إسرافكم اعتقادكم بالشؤم والبخت.

{ **قَوْمٌ** } إيذان بأنّ الإسراف متمكّن منهم وبه قوام قوميّتهم.

{ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ [20] اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ [21] وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [22] أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنْقِذُونِ [23] إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ [24] إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ [25] }.

عطف على قصة التحاور الجاري بين أصحاب القرية والرسل الثلاثة لبيان البون بين حال المعاندين من أهل القرية وحال الرجل المؤمن منهم الذي وعظهم بموعظة بالغة.

{ **مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ** } هي نفس القرية المذكورة سابقا عُبّر عنها هنا بالمدينة تفنُّنا.

{ **أَقْصَى** } طرف المدينة، إشارة إلى أنّ الإيمان بالله ظهر في أهل ربض المدينة قبل ظهوره في قلب المدينة، لأنّ قلب المدينة هو مسكن حكّامها وأحبار اليهود، وهم أبعد من الإنصاف والنظر في صحّة ما يدعوهم إليهم الرسل، وعامة سكّانها تبع لعظمائها لتعلّقهم بهم وخشيتهم بأسهم بخلاف سكّان أطراف المدينة فهم أقرب إلى الاستقلال بالنظر وقلة اكتراث بالآخرين.

وفي القول ثناء على أهل أقصى المدينة، وإشارة إلى أنّ الإيمان يسبق إليه الضعفاء لأنّهم لا يصدّهم عن الحق ما فيه أهل السيادة من ترفّع وعظمة.

وأمّا قوله تعالى في [القصص:20] { وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى }، فجاء النظم على الترتيب الأصلي إذ لا داعي إلى التقديم إذ كان ذلك الرجل ناصحا ولم يكن داعيا للإيمان.

{ **رَجُلٌ** } وهذا الرجل غير مذكور في سفر (أعمال الرسل) وهو ممّا امتاز القرآن بالإعلام به. وعن ابن عباس وأصحابه وجد أن اسمه **حبيب بن مرّة**، قيل: كان نجارا وقيل غير ذلك، فلما أشرف الرسل على المدينة آمن بدعوتهم. وقيل: كان مؤمنا من قبل.

ولا يبعد أن يكون هذا الرجل الذي وصفه المفسرون بالنجّار أنّه هو (سمعان) الذي يُدعى بـ (النيجر) المذكور في [سفر أعمال الرسل، الإصحاح:11] وأنّ وصف النجّار محرّف عن (نيجر).

{ **يَسْعَى** } يفيد أنّه جاء مسرعا وأنّه بلغه هَمُّ أهل المدينة برجم الرسل أو تعذيبهم، فأراد أن ينصحهم خشية عليهم وعلى الرسل. وهذا ثناء على هذا الرجل يفيد أنّه ممّن يُقتدى به في الإسراع إلى تغيير المنكر.

{ **قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ** } بدل اشتمال من الجملة السابقة، لأنّ قوله ممّا اشتمل عليه المجيء المذكور. وافتتاح خطابه إيّاهم بندائهم بوصف القومية له قصد منه أنّ كلامه محض نصيحة.

الاتباع: الامتثال، استعير له الاتباع تشبيها للآخذ برأي غيره بالمتّبع له في سيره.

{ **اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا** } مؤكِّدة لجملة { اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ } مع زيادة الإيماء إلى علّة اتباعهم بلوائح علامات الصدق والنصح على رسالتهم، إذ هم يدعون إلى هدى ولا نفع ينجرّ لهم من ذلك، فتمحَّضت

دعوتهم لقصد هداية المرسَل إليهم، وهذه كلمة حكمة جامعة، أي: اتبعوا من لا تخسرون معهم شيئا من دنياكم وتربحون آخرتكم.

{ **وَهُمْ مُهْتَدُونَ** } قدّم في الصلة عدم سؤال الأجر على الاهتداء لأنّ القوم كانوا في شك من صدق المرسلين وكان من دواعي تكذيبهم اتهامهم بأنّهم يجرُّون لأنفسهم نفعا من ذلك، لأنّ القوم لمّا غلب عليهم التعلّق بحب المال كانوا يعدّون كل سعي يلوح على امرئ إنّما يسعى به إلى نفعه. فقُدّم ما يزيل عنهم هذه الاسترابة. أي: وهم مع ترفّعهم عن المطامع الدنيوية متّصفون بالاهتداء إلى ما يأتي بالسعادة الأبدية.

فتضمّنت هذه الجملة بموقعها بعد التي قبلها ثناء على المرسلين وعلى ما يدعون إليه وترغيبا في متابعتهم.

{ **وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** } عطف على جملة { اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ } قصد إشعارهم بأنّه اتبع المرسلين وخلع عبادة الأوثان.

{ **وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ** } استفهام إنكاري بصيغة: (ما لي لا أفعل)، التي شأنها أن يوردها المتكلّم في الردّ على من أنكر عليه فعلًا، أو مَلَكه العجب من فعله، أو يوردها من يقدّر ذلك في قلبه، ففيه إشعار بأنّهم كانوا منكرين عليه الدعوة إلى تصديق الرسل الذين جاؤوا بتوحيد الله، وذلك يقتضي أنّه سبقهم بما أمرهم به.

{ **الَّذِي فَطَرَنِي** } أي: لا شيء يمنعني من عبادة الذي خلقني، وهذا الخبر مستعمل في التعريض بهم، كأنّه يقول: وما لي لا أعبد وما لكم لا تعبدون الذي فطركم.

{ **وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** } جعل الإسناد إلى ضميرهم تقوية لمعنى التعريض. وإنّما ابتدأه بإسناد الخبر إلى نفسه لإبرازه في معرض المناصحة لنفسه، وهو مريد مناصحتهم، ليتلطّف بهم ويدارهم فيُسمعهم الحق على وجه لا يثير غضبهم ويكون أعون على قبولهم إيّاه حين يرون أنّه لا يريد لهم إلّا ما يريد لنفسه.

{ **أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً** } جملة مستأنفة استئنافا بيانيا لاستشعار سؤال عن وقوع الانتفاع بشفاعة تلك الآلهة عند الذي فطره، والاستفهام إنكاري، أي: أنكر على نفسي أن أتخذ من دونه آلهة، أي: لا أتخذ آلهة. إبطال لعبادة الأصنام من خلال التعريض.

الاتخاذ: افتعال من الأخذ وهو التناول، والتناول يُشعر بتحصيل ما لم يكن قبل، فالاتخاذ مشعر بأنّه صُنع وذلك من تمام التعريض بالمخاطبين أنّهم جعلوا الأوثان آلهة وليست بآلهة، لأنّ الإله الحقّ لا يُجعل جعلا ولكنه مستحقٌّ الإلهيّة بالذات.

{ **إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنْقِذُونِ** } التعريض بالمخاطبين في اتخاذهم تلك الآلهة بعلّة أنّها تشفع لهم عند الله وتقرّبهم إليه زلفى.

{ **الرَّحْمَنُ** } جيء به دون اسم الجلالة للوجه المتقدّم عند قوله { وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ } [15].

الإنقاذ: التخليص من غلب أو كرب أو حيرة، أي: لا تنفعني شفاعتهم عند الله إن أرادني بضر، ولا

ينقذونني من الضرّ إذا أصابني.

{ **إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ** } جواب للاستفهام الإنكاري. فحرف { إِذًا } جزاء للمنفي لا للنفي، أي: إن اتخذت من دون الله آلهة أكن في ضلال مبين.

{ **إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ** } واقعة موقع الغاية من الخطاب والنتيجة من الدليل. وهذا إعلان لإيمانه وتسجيل عليهم بأنّ الله هو ربهم لا تلك الأصنام.

{ **فَاسْمَعُونِ** } تفريع، استدعاء لتحقيق أسماعهم إن كانوا في غفلة.

{ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ [26] بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ [27] }.

استئناف بياني لما ينتظره سامع القصة من معرفة ما لقيه من قومه بعد أن واجههم بذلك الخطاب الجزل. وهل اهتدوا بهديه أو أعرضوا عنه وتاركوه أو آذوه كما يؤذى أمثاله من الداعين إلى الحق المخالفين هوى الدهماء، فيُجاب بما دل عليه قوله { قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ }، وهو الأهم عند المسلمين، وهم من المقصودين بمعرفة مثل هذا ليزدادوا يقينا وثباتا في إيمانهم، وأمّا المشركون فحظّهم من المثل ما تقدم وما يأتي من قوله تعالى { إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ } [29].

{ **قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ** } كناية عن قتله شهيدا في إعلاء كلمة الله، لأنّ تعقيب موعظته بأمره بدخول الجنة دفعة بلا انتقال يفيد بدلالة الاقتضاء أنّه مات وأنّهم قتلوه لمخالفته دينهم، قال بعض المفسرين: قتلوه رجما بالحجارة، وقال بعضهم: أحرقوه، وقال بعضهم: حفروا له حفرة وردموه فيها حيا.

وإنّما سُلك في هذا المعنى طريق الكناية ولم يصرّح بأنّهم قتلوه إغماضا لهذا المعنى عن المشركين كيلا يسرّهم أنّ قومه قتلوه فيجعلوه من جملة ما ضرب به المثل لهم وللرسول صلى الله عليه وسلم فيطمعوا فيه أنّهم يقتلون الرسول صلى الله عليه وسلم. فهذه الكناية لا يفهمها إلّا أهل الإسلام الذين تقرّر عندهم التلازم بين الشهادة في سبيل الله ودخول الجنة، أمّا المشركون فيحسبون أنّ ذلك في الآخرة.

وقد تكون في الكلام البليغ خصائص يختصّ بنفعها بعض السامعين.

{ **قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ** } لم يلهه دخول الجنة عن حال قومه، فتمنّى أن يعلموا ماذا لقي من ربّه ليعلموا فضيلة الإيمان فيؤمنوا، وما تمنّى هلاكهم ولا الشماتة بهم فكان متّسما بكظم الغيظ وبالحلم على أهل الجهل، وذلك لأنّ عالم الحقائق لا تتوجّه فيه النفس إلّا إلى الصلاح المحض.

{ **يَعْلَمُونَ** } تضمّن معنى: يُخبَرون، ولذلك أدخلت الباء على مفعوله { بِمَا ...} لأنّه لا مطمع في أن يحصل لهم علم ذلك بالنظر والاستدلال.

{ **بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ** } أي: يُخبَرون بغفران ربي وجعله إيّاي من المكرمين.

المكرمين: الذين تلحقهم كرامة الله تعالى وهم الملائكة والأنبياء وأفضل الصالحين، قال تعالى { بَلْ عِبَادٌ

مُكْرَمُونَ } [الأنبياء:26].

{ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ [28] إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ [29] }.

عطف على جملة { قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ } [26]، فهي مستأنفة أيضا استئنافا بيانيا، فبعد أن بيّن للسامع ما كان من أمر الرجل المؤمن عطف عليه بيان ما كان من أمر القوم بعده.

أي: لم نُنزل جنودا من السماء مخلوقة لقتال قومه، أو لم نُنزل جنودا من الملائكة من السماء لإهلاكهم، وما كانت عقوبتهم إلّا صيحة واحدة من ملك واحد أهلكتهم جميعا.

{ مِنْ بَعْدِهِ / مِنْ جُنْدٍ / مِنَ السَّمَاءِ } { مِنْ } الأولى مزيدة في الظرف لتأكيد الاتصال. أي: بعد موته، والثانية مؤكِّدة لعموم { جُنْدٍ } في سياق النفي، والثالثة ابتدائية.

وفي الإتيان بحرف { مِنْ } ثلاث مرات مع اختلاف المعنى محسِّن الجناس.

{ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ } معترضة بين نوعي العقاب المنفي والمثبت، لقصد الردّ على المشركين بأنّ سنة الله تعالى لم تجر بإنزال الجنود على المكذبين، وشأن العاصين أَدْوَنُ من هذا الاهتمام.

الصيحة: المرّة من الصياح، بوزن فَعْلَة، فوصفها بواحدة تأكيد لمعنى الوحدة لئلّا يُتوهّم أنّ المراد الجنس المفرد من بين الأجناس. أي: لم تكن العقوبة أو الصيحة إلّا صيحة من صفتها أنّها واحدة.

وهذه الصيحة صاعقة كما قال تعالى حكاية عن ثمود { فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ } [الحجر:73].

{ فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ } مجيء (إذا) الفجائية في الجملة المفرّعة لإفادة سرعة الخمود إليهم بتلك الصيحة.

الخمود: انطفاء النار، استعير للموت بعد الحياة المليئة بالقوة والطغيان، ليتضمّن الكلام تشبيه حال حياتهم بشبوب النار وحال موتهم بخمودها. وتقدّم قوله تعالى { حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ } [الإسراء:15].

وهذا يشير إلى حدث عظيم حدث بأهل إنطاكية عقب دعوة المرسلين وهو كرامة لشهداء أتباع عيسى عليه السلام، فإن كانت الصيحة صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود كان الذين خمدوا بها جميع أهل القرية، فلعلّهم كانوا كفارا كلّهم بعد موت الرجل الذي وعظهم وبعد مغادرة الرسل القرية. ولكن مثل هذا الحادث لم يذكر التاريخ حدوثه في إنطاكية، فيجوز أن يهمل التاريخ بعض الحوادث وخاصة في أزمنة الاضطراب والفتنة.

{ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } [30].

تذييل وهو من كلام الله تعالى واقع موقع الرثاء للأمم المكذِّبة الرسل شامل للأمّة المقصودة بسَوق القصّة.

{ يَا } حرف النداء هنا لمجرّد التنبيه على خطر ما بعده ليصغي إليه السامع، وكثر دخوله في الجمل المقصود منها إنشاء معنى في نفس المتكلّم دون الإخبار، فيكون اقتران ذلك الإنشاء بحرف التنبيه إعلانا بما في نفس المتكلِّم من مدلول الإنشاء، كقولهم: يا ويلي، ويا فرحي، ويا ليتني، ونحو ذلك. وتقدّم ذلك عند قوله تعالى { يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ } [النساء:73]، وقوله تعالى { يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلًا } [الفرقان:28].

الحسرة: شدّة الندم مشوبا بتلهّف على نفع فائت.

{ الْعِبَادِ } التعريف للجنس المستعمل في الاستغراق وهو استغراق ادعائي روعي فيه حال الأغلب على الأمم التي يأتيها رسول لعدم الاعتداء في هذا المقام بقلّة الذين صدَّقوا الرسل ونصروهم، فكأنّهم كلّهم قد كذّبوا.

الْعِبَادِ: اسم للبشر وهو جمع عبد. والعبد: المملوك، وجميع الناس عبيد الله تعالى لأنّه خالقهم والمتصرّف فيهم، قال تعالى { رِزْقًا لِلْعِبَادِ } [ق:11]. ويُجمع على عبيد وعباد، وغلب الجمع الأوّل على عبد بمعنى مملوك، والجمع الثاني على عبد بمعنى آدمي، وهو تخصيص حسن من الاستعمال العربي.

{ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } بيان لوجه التحسّر عليهم، فعُلم وجه الحسرة عليهم إجمالا من هذه الآية ثم تفصيلا من قوله بعد { أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا } [31].

{ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } تقديم المجرور للاهتمام بالرسول المشعر باستفظاع الاستهزاء به، مع تأتِّي الفاصلة بهذا التقديم، فحصل منه غرضان من المعاني ومن البديع.

{ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ } [31].

هذه الجملة بيان لجمل { مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } [30] لما فيها من تفصيل الإجمال المستفاد من تلك. فإنّ عاقبة ذلك الاستهزاء بالرسول كانت هلاك المستهزئين، فعدم اعتبار كلّ أمّة كذَّبت رسولها بعاقبة المكذِّبين قبلها يثير الحسرة عليها وعلى نظرائها كما أثارها استهزاؤهم بالرسول وقلّة التبصّر في دعوته ونذارته ودلائل صدقة.

{ أَلَمْ يَرَوْا } الضمير عائد إلى العباد كما يقتضيه تناسق الضمائر. <u>والاستفهام يجوز أن يكون إنكاريا</u>، نزلت غفلتهم عن إهلاك القرون منزل عدم العلم فأُنكر عليهم ذلك وهو أمر معلوم مشهور.

<u>ويجوز كون الاستفهام تقريرا</u>، بُني التقرير على نفي العلم بإهلاك القرون استقصاء لمعذرتهم حتّى لا يسعهم إلّا الإقرار بأنّهم عالمون، فيكون إقرارهم أشد لزوما لهم، لأنّهم استُفهِموا على النفي فكان يسعهم

أن ينفوا ذلك.

الرؤية: على التقديرين علمية وليست بصرية، لأنّ الأمّة اللاحقة لا تشهد هلاك السابقة.

{ **كَمْ** } في موضع نصب بـ { أَهْلَكْنَا }: ومفادها كثرة مبهمة فُسِّرت بقوله { مِنَ الْقُرُونِ }.

{ **أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ** } بدل اشتمال من جملة { أَهْلَكْنَا } لأنّ الإهلاك يشتمل على عدم الرجوع. وفائدة هذا البدل تقرير تصوير الإهلاك لزيادة التخويف، ولاستحضار تلك السورة في الإهلاك، أي: إهلاكا لا طماعية معه للرجوع إلى الدنيا، فإنّ عدم الرجوع إلى الأهل والأحباب ممّا يزيد الحسرة اتضاحا.

وتقديم { إِلَيْهِمْ } على متعلّقه { يَرْجِعُونَ } للرعاية على الفاصلة.

{ وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ } [32].

أرى أنّ عطفه على جملة { أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ } [31] واقع موقع الاحتراس من توهّم المخاطبين بالقرآن أنّ قوله تعالى { أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ } مؤيِّد اعتقادهم انتفاء البعث.

{ **إِنْ** } يجوز أن تكون مخفّفة من الثقيلة، والأفصح إهمالها عن العمل فيما بعدها.

{ **كُلٌّ** } مبتدأ وتنوينه تنوين العوض عمّا أضيف إليه (كلّ)، أي: كلّ القرون، أو كلّ المذكورين من القرون والمخاطبين.

{ **لَمَّا** } بتشديد الميم على أنّها حرف استثناء بمعنى (إلّا) تقع بعد النفي ونحوه كالقَسَم. والتقدير: وما كلّهم إلّا محضرون لدينا.

{ **جَمِيعٌ** } اسم على وزن فعيل، أي: مجموع، وهو ضد المتفرّق. يقال: جمع أشياء كذا، إذا جعلها متقاربة متصلة بعد أن كانت مشتّتة ومتباعدة.

<u>المعنى</u>: أنّ كلّ القرون محضرون لدينا مجتمعين، أي: ليس إحضارهم في أوقات مختلفة ولا في أمكنة متعددة، فكلمة { كُلٌّ } أفادت أنّ الإحضار محيط بهم بحيث لا ينفلت فريق منهم، وكلمة { جَمِيعٌ } أفادت أنّهم محضرون مجتمعين، فليست إحدى الكلمتين بمغنية عن ذكر الأخرى.

{ **مُحْضَرُونَ** } نعت لـ { جَمِيعٌ }، وروعي في النعت معنى المنعوت فألحقت به علامة الجماعة.

الإحضار: الإحضار للحساب والجزاء والعقاب.

{ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ } [33].

عطف على قصة { وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ } [13]، تقريب للبعث لمناسبة قوله تعالى { وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ } [32]، على أنّ هذه لا تخلو من دلالتها على الانفراد بالتصرّف وإثبات الوحدانية.

موت الأرض: جفافها وخلوّها من حياة النبات فيها.

إحياؤها: خروج النبات منها من العشب والكلأ والزرع.

وقرأ نافع وأبو جعفر { الْمَيِّتَةُ } بتشديد الياء. وقرأ الباقون بتخفيف الياء { الْمَيْتَةُ }، والمعنى واحد.

الحَبّ: اسم جمع حَبّة، وهو بزرة النبت مثل البُرَّة والشعيرة. وقد تقدّم عند قوله تعالى { كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ } [البقرة:261].

إخراج الحب من الأرض: هو إخراجه من نباتها، فهو جاء منها بواسطة. وهذا إدماج للامتنان في ضمن الاستدلال.

{ **فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ** } تفريع. وتقديم { فَمِنْهُ } للاهتمام تنبيها على النعمة، ولرعاية الفاصلة.

{ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ [34] لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ [35] }.

هذا من إحياء الأرض بإنبات الأشجار ذات الثمار، وهو إحياء أعجب وأبقى، وإن كان الإحياء بإنبات الزرع والكلأ أوضح دلالة لأنّه سريع الحصول.

{ **جَنَّاتٍ** } تقدم ذكرها في [الرعد:4]. و**النخيل**: اسم جمع نخل. و**الأعناب**: جمع عنب، وهو يطلق على شجرة الكرم وعلى ثمرها. وجمع النخيل والأعناب باعتبار تعدّد أصناف شجره.

تفجير العيون: تقدّم عند قوله تعالى { وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ } [البقرة:74].

{ **ثَمَرِهِ** } الثمر (بفتحتين وبضمّتين) ما يغلُّه النخل والأعناب من أصناف الثمر وأصناف العنب.

{ **وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ** } <u>يجوز أن تكون { مَا } موصولة</u> معطوفة على { ثَمَرِهِ }، أي: ليأكلوا من ثمر ما عملته أيديهم، فيكون إدماجا للإرشاد إلى إقامة الجنّات بالخدمة والسقي والتعهّد.

<u>ويجوز أن تكون { مَا } نافية</u> والضمير عائد إلى ما ذُكر من الحَبّ والنخيل والأعناب. والمعنى: أنّ ذلك لم يخلقوه. وهذا أوفر في الامتنان وأنسب بسياق الآية مساق الاستدلال.

وقرأ الجمهور { وَمَا عَمِلَتْهُ } بإثبات هاء الضمير عائدا إلى المذكور من الحب والنخيل والأعناب. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وخلف { وَمَا عَمِلَتْ } بدون هاء، وكذلك هو مرسوم في المصحف الكوفي وهو جار على حذف المفعول إن كان معلوما. ويجوز أن يكون من حذف المفعول لإرادة العموم. والتقدير: وما عملت أيديهم شيئا من ذلك. وكلا الحذفين شائع.

{ **أَفَلَا يَشْكُرُونَ** } استفهام الإنكار لعدم شكرهم بأن اتخذوا للذي أوجد هذا الصنع العجيب أندادا.

وجيء بالمضارع مبالغة في كفرهم بأنّ الله حقيق بأن يكرّروا شكره فكيف يستمرّون على الإشراك به.

{ **سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ** } [36].

اعتراض بين جملة { وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ } [33] وجملة { وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ } [37]، أثاره ذكر إحياء الأرض وإخراج الحبّ والشجر منها، فإنّ ذلك أحوالا وإبداعا عجيبا يُذكِّر بتعظيم مودع تلك الصنائع بحكمته، وذلك على طريقة الإدماج ضمن الاستدلال بخلق الأزواج.

{ **سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا** } تنزيه الله تعالى عن أحوال المشركين تنزيها عن كلّ ما لا يليق بإلهيته وأعظمه الإشراك به، وهو المقصود هنا. وإجراء الموصول على الذات العليّة للإيماء إلى وجه إنشاء التنزيه والتعظيم. وقد مضى الكلام على { سُبْحَانَ } في [البقرة:32].

{ **الْأَزْوَاجَ** } جمع زوج وهو يطلق على كل من الذكر والأنثى من الحيوان، ويطلق الزوج على معنى الصنف المتميّز بخواصه من الموجودات تشبيها له بصنف الذكر وصنف الأنثى كما في قوله { فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى } [طه:53].

وجيء بضمير جماعة العقلاء تغليبا لنوع الإنسان نظرا لكونه المقصود بالعبرة بهذه الآية، وللتخلّص إلى تخصيصه بالعبرة في قوله تعالى { وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ }.

{ **مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ** } خصّ بالذكر أصناف النبات لأنّ بها قوام معاش الناس ومعاش أنعامهم ودوابهم.

{ **وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ** } ذُكرت لأنّ بها الاستدلال أقوى، قال تعالى { وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ } [الذريات:21]. والضمير عائد إلى { الْعِبَادِ } في قوله { يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ } [30]. والمراد بهم: المكذِّبون للرسول صلى الله عليه وسلم.

{ **وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ** } إشارة إلى أسرار مودعة في خلق أنواع الحيوان وأصنافه هي التي ميّزت أنواعه عن بعض وميّزت أصنافه، وذكوره عن إناثه، وأودعت فيه الروح الذي امتاز به عن النبات بتدبير شؤونه على حسب استعداد كل نوع وكل صنف حتّى يبلغ في الارتقاء إلى أشراف الأنواع وهو نوع الإنسان. أي: ممّا لا يعلمونه تفصيلا وإن كانوا قد يشعرون به إجمالا، فإنّ المتأمّل يعلم أنّ في المخلوقات أسرارا خفيَّة لم تصل إفهامهم إلى إدراك كنهها، ومن ذلك الروح، قال تعالى { قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا } [الإسراء:85].

{ **وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ** } [37].

انتقال إلى دلالة مظاهر العوالم على دقيق نظام الخلق فيها ممّا تؤذن به المشاهدة مع التبصّر. وابتدئ منها بنظام الليل والنهار لتكرّر وقوعه أمام المشاهدة لكلّ راء.

السلخ: إزالة الجلد عن حيوانه، وفعله يتعدّى إلى الجلد المزال بنفسه على المفعولية، ولذلك يقال للجلد المزال من جسم الحيوان: سِلْخ، بمعنى مسلوخ، ويتعدّى بحرف (عن) أيضا لما في السلخ من معنى المباعدة والمجاوزة بعد الاتصال.

فمفعول { نَسْلَخُ } هنا هو { النَّهَارَ } بلا ريب، فصار المعنى: الليل آية لهم في حال إزالة غشاء نور النهار عنه فيبقى عليهم الليل، فشُبِّه النهار بجلد الشاة ونحوها، وشُبِّه كشف النهار وإزالته بسلخ الجلد، فصار الليل بمنزلة جسم الحيوان المسلوخ، وليس الليل بمقصود بالتشبيه وإنّما المقصود تشبيه زوال النهار عنه.

ووجه ذلك أنّ الظلمة هي الحالة السابقة للعوالم قبل خلق النور في الأجسام النيّرة، لأنّ الظلمة عدم والنور وجود، وكانت الموجودات في ظلمة قبل أن يخلق الله الكواكب النيّرة ويوصل نورها إلى الأجسام التي تستقبلها كالأرض والقمر.

وإذا كانت الظلمة هي الحالة الأصلية للموجودات فليس في الآية دليل على أنّ أصل أحوال العالم الأرضي هو الظلمة ولكنّها سيقت للناس اعتبارا ودلالة بحالة مشاهدة لديهم ففُرِّع عليه:

{ **فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ** } لأن المقصود بالتشبيه هو حالة زوال نور النهار عن الأفق فتخلفها ظلمة الليل.

وإسناد { مُظْلِمُونَ } إلى الناس من إسناد (إفعال) الذي الهمزة فيه للدخول في الشيء مثل أصبح وأمسى.

{ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } [38].

دليل آخر على عظيم صنع الله تعالى وهو نظام الفصول.

{ **الشَّمْسُ** } يجوز أن يكون معطوفا على { اللَّيْلُ } عطف مفرد على مفرد ويقدّر له خبر مماثل لخبر الليل، والتقدير: والشمس آية لهم، وتكون جملة { تَجْرِي } حالا من { الشَّمْسُ }.

ويجوز أن يكون عطف جملة على جملة ويكون قوله { تَجْرِي } خبرا عن { الشَّمْسُ }.

{ **تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا** } يحتمل الوجوه التي ذكرناها في جملة { أَحْيَيْنَاهَا } [33] من كونها حالا أو بيانا لجملة { وَآيَةٌ لَهُمُ } [33] أو بدل اشتمال منها.

الجري: حقيقته السير السريع لذوات الأرجل، وأطلق مجازا على تنقّل الجسم من مكان إلى مكان تنقّلا سريعا بالنسبة لتنقّل أمثال ذلك الجسم، وغلب هذا الإطلاق فساوى الحقيقة وأريد به السير في مسافات متباعدة في مدّة قصيرة. وهذا استدلال بآثار ذلك السير المعروفة للناس كلٌّ بحسب علمه وتدبّره. وكل أولئك مخاطبون بالاعتبار بما بلغه علمهم.

المستقر: مكان الاستقرار، أي: القرار أو زمانه، فالسين والتاء فيه للتأكيد.

{ **لِمُسْتَقَرٍّ** } يجوز أن تكون لام التعليل على ظاهرها، أي: تجري لأجل أن تستقر، أي: لأجل أن ينتهي جريها كما ينتهي سير المسافر إذا بلغ إلى مكانه فاستقر فيه، وهو متعلّق بـ { تَجْرِي } على أنّه نهاية له.

ويجوز أن تكون اللام بمعنى (إلى)، أي: تجري إلى مكان استقرارها وهو مكان الغروب، شُبِّه غروبها عن الأبصار بالمستقر والمأوى الذي يأوي إليه المرء في آخر النهار بعد الأعمال.

{ **لَهَا** } لام الاختصاص وهو صفة { لِمُسْتَقَرٍّ } . وعدل عن إضافة مستقر لضمير الشمس المغنية عن

إظهار اللام إلى الإتيان باللام ليتأتَّى تنكير (مستقر) تنكيرا مشعرا بتعظيم ذلك المستقر.

{ **ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** } الإشارة إمّا إلى قوله تعالى { وَالشَّمْسُ تَجْرِي} أي: ذلك الجري، وإمّا إليه وإلى قوله تعالى { وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ } [37]، أي: ذلك المذكور من تعاقب الليل والنهار.

{ **الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** } لمناسبة معناهما للتعلّق بنظام سير الكواكب، فالعزّة تناسب تسخير هذا الكوكب العظيم، والعلم يناسب النظام البديع الدقيق. وتقدّم ذكر ذلك عند قوله تعالى { تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا} [الفرقان:61].

{ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ } [39].

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وروح عن يعقوب برفع { وَالْقَمَرُ } فهو إمّا معطوف على { وَالشَّمْسُ تَجْرِي} عطف المفردات، وإما مبتدأ والعطف من عطف الجمل، وجملة { قَدَّرْنَاهُ } إمّا حال وإمّا خبر.

وقرأه ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر ورويس عن يعقوب وخلف بنصب { وَالْقَمَرَ } على الاشتغال، فهو إذن من عطف الجمل.

{ **قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ** } تقدّم تفسير منازل القمر عند قوله تعالى { وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ } [يونس:5].

التقدير: يطلق على جعل الأشياء بقدر ونظام محكم، ويطلق على تحديد المقدار من شي تُطلب معرفة مقداره مثل تقدير الأوقات وتقدير الكمِّيَّات، وكلا الإطلاقين مراد هنا. فإنّ الله قدّر للشمس والقمر نظام سيرهما وقدَّر بذلك حساب الفصول السنوية والأشهر والأيام والليالي.

{ **مَنَازِلَ** } انتصب على الظرفية المكانية، مثل: سرت أميالا، أي: قدّرنا سيره في منازل ينتقل فيها.

{ **حَتَّى** } ابتدائية، أي: ليست حرف جر فإنّ ما بعدها جملة. ومعنى الغاية لا يفارق { حَتَّى } فآذن ما فيها من معنى الغاية بمُغَيَّا محذوف، فالغاية تستلزم ابتداء شيء. والتقدير: فابتدأ ضوؤه وأخذ في الازدياد ليلة فليلة ثمّ أخذ في التناقص حتى صار كالعرجون التقديم، أي: شبيها به. وعُبِّر عنه بهذا التشبيه إذ ليس لضوء القمر في أواخر لياليه اسم يعرف به بخلاف أوّل أجزاء ضوئه المسمَّى هلالا.

{ **عَادَ** } بمعنى صار شكله للرائي كالعرجون.

العرجون: العود الذي تخرجه النخلة فيكون الثمر في منتهاه، وهو الذي يبقى متصلا بالنخلة بعد قطع الكَبَاسة منه، وهي مجتمع أعواد التمر.

{ **الْقَدِيمِ** } البالي، لأنّه إذا انقطع الثمر تقوَّس واصفرّ وتضاءل فأشبه صورة ما يواجه الأرض من ضوء القمر في آخر ليالي الشهر وفي أوّل ليلة منه.

وقد بُسط لهم بيان سير القمر ومنازله لأنّهم كانوا يتقنون علمه بخلاف سير الشمس.

{ **لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** } [40].

لمّا جرى ذكر الشمس والقمر في معرض الآيات الدالة على انفراده تعالى بالخلق والتدبير وعلى صفات إلهيّته التي من متعلّقاتها تعلّق صفة القدرة بآية الشمس وسيرها، والقمر وسيره، وقد سمّاها بعض المتكلمين صفات الأفعال، وكان الناس يعرفون تقارب الشمس والقمر فيما يراه الراؤون، وكانوا يقدّرون سيرهما بأسماتٍ معلَّمة بعلامات نجومية تُسمَّى بروجا بالنسبة لسير الشمس، وتسمَّى منازل بالنسبة لسير القمر، زادهم الله عبرة وتعليما بأنّ للشمس سيرا لا يلاقي سير القمر، وللقمر سيرا لا يلاقي سير الشمس، ولا يمرّ أحدهما بطرائق مسير الأخر، وأنّ ما يتراءى للناس من مشاهدة الشمس والقمر في جو واحد وفي حجمين متقاربين، وما يتراءى لهم من تقارب نجوم بروج الشمس ونجوم منازل القمر، إن هو إلّا من تخيّلات الأبصار وتفاوت المقادير بين الأجرام والأبعاد. فبيّن الله أنّه نظَّم سير الشمس والقمر على نظام يستحيل معه اتصال إحدى الكرتين بالأخرى لشدّة الأبعاد بين مداريهما.

{ **لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ** } نفي انبغاء ذلك، أي: نفي تأتّيه، لأنّ انبغى مطاوع بَغَى الذي هو بمعنى طلب، فانبغى يفيد أنّ الشيء طُلب فحصل للذي طلبه. فإثبات الانبغاء يفيد التمكّن من الشيء فلا يقتضي وجوبا، ونفي الانبغاء يفيد نفي إمكانه ولذلك يُكنَّى به عن الشيء المحظور. يقال: لا ينبغي لك كذا. ففرق ما بين قولك: ينبغي أن لا تفعل كذا، وبين قولك: لا ينبغي لك أن تفعل كذا، قال تعالى { قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ } [الفرقان:18] وتقدّم قوله تعالى { وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً } [مريم:92]، ومنه قوله تعالى { وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ } [يس: 69].

الإدراك: اللحاق والوصول إلى البغية فقوله تعالى { أَنْ تُدْرِكَ } فاعل { يَنْبَغِي }، فأفاد الكلام نفي انبغاء إدراك الشمس القمر. والمعنى: نفي أن تصطدم الشمس بالقمر.

وافتتاح الجملة بحرف النفي قبل ذكر الفعل المنفي ليكون النفي متقرّرا في ذهن السامع أقوى ممّا لو قيل: الشمس لا ينبغي لها أن تدرك القمر.

{ **وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ** } أي: أنّ الليل ليس بمفلت للنهار، فالسبق بمعنى التخلّص والنجاة. كقوله تعالى { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا } [العنكبوت:4]، والمعنى: أنّ انسلاخ النهار على الليل أمر مسخَّر لا قبل لليل أن يتخلّف عنه.

ولا يستقيم تفسير السبق هنا بمعناه المشهور، وهو الأوّليّة بالسير، لأنّ ذلك لا يُتصور في تداول الليل والنهار ولا أن يكون المراد بالسبق ابتداء التكوين، إذ لا يتعلّق بذلك غرض مهم في الآية، على أنّ الشأن أن تكون الظلمة أسبق في التكوين.

والغرض التذكير بنعمة الليل ونعمة النهار فإنّ لكليهما فوائد للناس، فلو تخلّص أحدهما من الآخر فاستقر في الأفق لتعطلت منافع جمّة من حياة الناس والحيوان.

{ **وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** } عطف على جملة { لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ }. والواو عاطفة ترجيحا لجانب الإخبار بهذه الحقيقة على جانب التذييل، وإلّا فحق التذييل الفصل.

{ **كُلٌّ** } التنوين تنوين عوض عن المضاف إليه المحذوف، فالتقدير: وكلّ الكواكب.

الفَلَك: الدائرة المفروضة في الخلاء الجوّي لسير أحد الكواكب سيرا مطّردا لا يحيد عنه، فإنّ أهل الأرصاد الأقدمين لمّا رصدوا تلك المدارات وجدوها لا تتغير ووجدوا نهايتها تتصل بمبتداها فتوهّموها طرائق مستديرة تسير فيها الكواكب.

وسمَّى العرب تلك الطرائق أفلاكا وأحدها فلك، اشتقوا له اسما من اسم فَلْكة المِغزل، وهي عود في أعلاه خشبة مستديرة متبطحة مثل التفاحة الكبيرة تلف المرأة عليها خيوط غزلها التي تفتلها لتديرها بكفيها.

ولذلك قدّروا الزمان بأنّه حركة الفلك. وسمُّوا ما بين مبدأ المدتين حتّى ينتهي إلى حيث ابتدأ دورة الفلك.

والقرآن جاراهم في الاسم اللغوي، لأنّ ذلك مبلغ اللغة، واصلح لهم ما توهّموا بقوله تعالى { يَسْبَحُونَ }، فبطل أن تكون أجرام الكواكب ملتصقة بأفلاكها، ولزم من كونها سابحة أنّ طرائق سيرها دوائر وهمية لأنّ السبح هنا سبح في الهواء لا في الماء.

{ **يَسْبَحُونَ** } جيء بضمير جمع مع أنّ المتقدّم ذكره شيئان (الشمس والقمر) لأنّ المراد إفادة تعميم هذا الحكم للشمس والقمر وجميع الكواكب وهي حقيقة علمية سبق بها القرآن.

{ **كُلٌّ فِي فَلَكٍ** } فيها محسِّن الطرد والعكس، فإنّها تقرأ من آخرها كما تقرأ من أوّلها.

{ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ [41] وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ [42] وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ [43] إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ [44] }.

انتقال من عدّ آيات في الأرض وفي السماء إلى عدّ آية في البحر تجمع بين العبرة والمنّة وهي آية تسخير الفُلك أن تسير على الماء، وتسخير الماء لتطفو عليه دون أن يغرقها.

{ **وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ** } ذكَّر الله الناس بآية عظيمة اشتهرت حتى كانت كالمشاهدة عندهم وهي آية إلهام نوح صنع السفينة لينجي الأنواع من الهلاك والاضمحلال بالغرق في حادث الطوفان. ولمّا كانت هذه الآية حاصلة لفائدة حمل أزواج من أنواع الحيوان جَعلت الآية نفس الحمل إدماجا للمنّة في ضمن العبرة.

{ **حَمَلْنَا** } أطلق على الإنجاء من الغرق على وجه المجاز المرسل للعلاقة السببية، أي: أنجينا ذرياتهم من الغرق بحملهم في الفلك حين الطوفان.

{ **ذُرِّيَّتَهُمْ** } والجمع ذرِّيَّات: نسل الإنسان.

{ **الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ** } هو المعهود بين البشر في قصة الطوفان، وهو فلك نوح فقد اشتهر بهذا الوصف في القرآن كما في قوله تعالى { فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ } [الشعراء:119]، ولم يوصف غير

فلك نوح بهذا الوصف.

{ **وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ** } معترضة في خلال آية البحر اقتضتها مراعاة النظير تذكيرا بنعمة خلق الإبل صالحة للأسفار.

{ **مِنْ مِثْلِهِ** } {مِنَ} هنا بيانية بتقديم البيان على المبين وهو جائز على الأصح. والمراد المماثلة في العظمة وقوّة الحمل ومداومة السير وفي الشكل.

{ **مَا يَرْكَبُونَ** } هنا الرواحل خاصة لأنّها التي تشبه الفلك في جعلها قادرة على قطع الرمال كما جعل الفلك صالحا لمخر البحار، وقد سمَّت العرب الرواحل سفائن البرّ.

{ **وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ** } عطف على جملة { أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ } باعتبار دلالتها الكنائية على استمرار هذه الآية وهذه المنّة تذكيرًا بأنّ الله تعالى الذي امتنّ عليهم إذا شاء جعل فيما هو نعمة على الناس نقمة لهم لحكمة يعلمها. وهذا جري على عادة القرآن في تعقيب الترغيب بالترهيب وعكسه لئلّا يبطر الناس بالنعمة ولا ييأسوا من الرحمة.

الصريخ: الصارخ وهو المستغيث المستنجد. تقول العرب: جاءهم الصريخ، أي: المنكوب المستنجد لينقذوه، وهو فعيل بمعنى فاعل. ويطلق الصريخ على المغيث فعيل بمعنى مفعول، وذلك أن المنجد إذا صرخ به المستنجد صرخ هو مجيبا بما يطمئن له من النصر.

{ **وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ** } تقديم المسند إليه على المسند الفعلي لإفادة تقوّي نفي الحكم وهو نفي إنقاذ أحد إيّاهم.

الإنقاذ: الانتشال من الماء.

المعنى: لا يجدون من يستصرخون به وهم في لجج البحر، ولا ينقذهم أحد من الغرق.

{ **إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ** } الاستثناء منقطع، فإنّ الرحمة ليست من الصريخ ولا من المنقذ وإنّما هي إسعاف الله تعالى إيّاهم.

{ **وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ** } أي: إلّا رحمة هي تمتيع إلى أجل معلوم.

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ [45] وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ [46] }.

تخلَّص الكلام من عدم انتفاعهم بالآيات الدالة على وحدانية الله إلى عدم انتفاعهم بالأقوال المبلَّغة إليهم في القرآن؛ من المواعظ، والتذكير بما حلّ بالأمم المكذِّبة أن يصيبهم مثل ما أصابهم، وبعدم انتفاعهم بتذكير القرآن إيّاهم بالأدلة على وحدانية الله وعلى البعث.

{ **وَإِذَا قِيلَ** } بناء الفعل للمجهول لظهور أنّ القائل هو الرسول صلى الله عليه وسلم في تبليغه عن الله تعالى، أي: قيل لهم في القرآن.

{ **مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ** } فُسّرت هذه الآية بالوجهين:

فقيل: ما بين أيديكم من أمر الآخرة وما خلفكم من أحوال الأمم في الدنيا، وهو عن مجاهد عن ابن عباس.

وقيل: ما بين أيديكم أحوال الأمم في الدنيا وما خلفكم من أحوال الآخرة وهو عن قتادة وسفيان.

وتقدّم قوله تعالى { فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا } [البقرة:66].

{ **لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** } للرجاء، أي: تُرجى لكم رحمة الله، لأنّهم إذا اتقوا حذروا واجتنبوا وبادروا بالتوبة فيما فرط فرضي ربّهم عنهم فرحمهم بالثواب وجنّبهم العقاب. والكلام في (لعلّ) الواردة في كلام الله تعالى تقدّم عند قوله تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [البقرة:21].

{ **وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ** } واقعة موقع التذييل لما قبلها، ففيها تعميم أحوالهم وأحوال ما يبلَّغونه من القرآن، فكأنّه قيل: وإذا قيل لهم اتقوا أعرضوا، والإعراض دأبهم.

{ **وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ** } آيات القرآن التي تنزل فيقرؤها النبيّ صلى الله عليه وسلم عليهم.

{ **مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ** } للتنويه بالآيات والتشنيع عليهم بالإعراض عن كلام ربّهم كفرا بنعمة خلقه إيّاهم.

{ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ** } [47].

كانوا مع ما هم عليه من الكرم يشحُّون على فقراء المسلمين فيمنعونهم البذل تشفِّيا منهم، فإذا سمعوا من القرآن ما فيه الأمر بالإنفاق، أو سألهم فقراء المسلمين من فضول أموالهم أو أن يعطوهم ما كانوا يجعلونه لله من أموالهم الذي حكاه الله عنهم بقوله { وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا } [الأنعام:136]. يتعلّلون لمنعهم بالاستهزاء فيقولون: لا نطعم من لو يشاء الله لأطعمه. وقد يقول بعضهم ذلك جهلا، فإنّهم كانوا يجهلون وضع صفات الله في مواضعها، كما حكى الله عنهم { وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ } [الزخرف: 20].

{ **قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا** } إظهار الموصول في مقام الإضمار، مع أن مقتضى الظاهر أن يقال: قالوا: أنطعم..، لنكتة الإيماء إلى أنّ صدور هذا القول منهم إنّما هو لأجل كفرهم ولأجل إيمان الذين سُئل الإنفاق عليهم.

{ **لِلَّذِينَ آمَنُوا** } اللام يجوز أن تكون لتعدية فعل القول إلى المخاطب به، أي: خاطبوا المؤمنين بقولهم، ويجوز أن تكون اللام للعلّة، أي: قال الذين كفروا لأجل الذين آمنوا، أي: قالوا في شأن الذين آمنوا، كقوله تعالى { الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا } [آل عمران:168]، أي: قالوا ذلك تعلّة لعدم الإنفاق على فقراء المؤمنين.

{ **أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ** } الاستفهام إنكاري، أي: لا نطعم من لو يشاء الله لأطعمهم، بحسب اعتقادكم أن الله هو المطعم.

{ **أَنُطْعِمُ** } التعبير في جوابهم بالإطعام مع أن المطلوب هو الإنفاق، إمّا لمجرّد التفنّن تجنبا لإعادة اللفظ، فإنّ الإنفاق يراد منه الإطعام، وإمّا لأنّهم سئلوا الإنفاق وهو أعم من الإطعام لأنّه يشمل الإكساء والإسكان فأجابوا بإمساك الطعام وهو أيسر أنواع الإنفاق، وإذا منعوا المؤمنين الطعام كان منعهم ما هو فوقه أحرى.

{ **إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ** } الجملة تعليل للإنكار المستفاد من الاستفهام. وهي من قول المشركين يخاطبون المؤمنين، أي: ما أنتم في قولكم { أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ } وما في معناه من اعتقاد أنّ الله متصرف في أحوالنا، إلّا في الضلال الواضح.

وجعلوه ضلالا لجهلهم بصفات الله، وجعلوه مبيّنا لأنّهم يُحكِّمون الظواهر من أسباب اكتساب المال وعدمه.

{ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [48] مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ [49] فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ [50] }.

ذُكر عقب استهزائهم بالمؤمنين لمّا منعوهم الإنفاق بعلّة أنّ الله لو شاء لأطعمهم، استهزاء آخر بالمؤمنين في تهديدهم المشركين بعذاب يحلّ بهم فكانوا يسألونهم: متى هذا الوعد؟

فالاستفهام مستعمل كناية عن التهكّم والتكذيب.

{ **هَذَا** } اسم الإشارة مستعمل في الاستخفاف بوعد العذاب.

{ **الْوَعْدُ** } أطلق على الإنذار والتهديد بالشرّ لأنّ الوعد أعمّ، ويتعيّن للخير والشر بالقرينة.

{ **مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً** } وإذا قد كان استهزاؤهم هذا يسوء المسلمين أعلم الله رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بأنّ الوعد واقع لا محالة وأنّهم ما ينتظرون إلّا صيحة تأخذهم فلا يفلتون من أخذتها.

{ **يَنْظُرُونَ** } مشتقّ من النّظِرة وهو الترقّب، وتقدّم في قوله تعالى { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ } [الأنعام:158].

الصيحة: الصوت الشديد الخارج من حلق الإنسان لزجر أو استغاثة. وأطلقت الصيحة في مواضع في القرآن على صوت الصاعقة، كما في قوله تعالى في شأن ثمود { فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ } [الحجر:73].

فالصيحة هنا تحتمل المجاز، أي: ما ينظرون إلّا صعقة أو نفخة عظيمة. والمراد النفخة الأولى التي ينقضي بها نظام الحياة في هذا العالم، والأخرى تنشأ عنها النشأة الثانية وهي الحياة الأبدية.

فيكون أسلوب الكلام خارجا على الأسلوب الحكيم إعراضا عن جوابهم لأنّهم لم يقصدوا حقيقة الاستفهام فأجيبوا بأنّ ما أُعِدّ لهم من العذاب هو الأجدر بأن ينتظروه.

{ **تَأْخُذُهُمْ** } تهلكهم فجأة، كقوله تعالى { فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً } [الحاقة:10].

وإسناد الأخذ إلى الصيحة حقيقة عقلية لأنّهم يهلكون بصعقتها.

{ **وَهُمْ يَخِصِّمُونَ** } من الخصومة والخصام وهو الجدال، أي: تحلّ بهم وهم يختصمون. وتقدم في قوله تعالى { وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا } [النساء:105]، وقوله تعالى { هَذَانِ خَصْمَانِ } [الحج:19].

وأصله: يختصمون فوقع إبدال التاء صادا لقرب مخرجيهما طلبا للتخفيف بالإدغام.

{ **فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً** } تفريع على { تَأْخُذُهُمْ }، أي: لا يتمكّنون من توصية على أهلهم وأموالهم من بعدهم كما هو شأن المحتضر.

التوصية: مصدر وصَّى المضاعف، وتنكيرها للتقليل، أي: لا يستطيعون توصية ما.

{ **وَلا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ** } أي: فلا يرجعون إلى أهلهم.

{ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ } [51].

يجوز أن تكون الواو للحال والجملة موضع الحال، أي: ما ينظرون إلّا صيحة واحدة وقد نفخ في الصور. ويجوز أن تكون الواو اعتراضية، وهذا الاعتراض واقع بين جملة { مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً } [49] وجملة { وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا } [66].

والمقصود: وعظهم بالبعث الذي أنكروه وبما وراءه.

{ **وَنُفِخَ** } الماضي مستعمل في تحقّق الوقوع، مثل { أَتَى أَمْرُ اللَّهِ } [النحل:1]. والمعنى: وينفخ في الصور، أي: وينفخ نافخ في الصور، وهو الملك الموكّل به، وأسمه إسرافيل. وهذه النفخة الثانية التي في قوله تعالى { ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ } [الزمر:68].

{ **فَإِذَا** } للمفاجأة، وهي حصول مضمون الجملة التي بعدها سريعا وبدون تهيّؤ.

{ **هُمْ** } الضمير عائد إلى ما عادت إليه الضمائر السابقة. ويجوز أن يعود إلى معلوم من المقام، أي: فإذا الناس كلّهم ومنهم المتحدّث عنهم.

{ **الْأَجْدَاثِ** } جمع جَدَث (بالتحريك)، وهو القبر.

{ **إِلَى رَبِّهِمْ** } إلى حكم ربّهم وحسابه، وهو متعلّق بـ { يَنْسِلُونَ }.

{ **يَنْسِلُونَ** } يمشون مشيا سريعا. وفعله من باب ضرب. والمصدر: النَّسَلان، على وزن الغليان، لما في معنى الفعل من التقليب والاضطراب، وتقدّم في [الأنبياء:96].

{ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ } [52].

استئناف بياني عن سؤال مقدّر عن مقالهم حينما يرون حقيقة البعث.

{ **قَالُوا** } حُكي قولهم بصيغة الماضي اتباعا لحكاية ما قبله بصيغة الماضي لتحقيق الوقوع.

{ **يَا وَيْلَنَا** } كلمة يقولها الواقع في مصيبة أو المتحسّر. وحرف النداء { **يَا** } للتنبيه وتنزيل الويل منزلة من يسمع فينادى ليحضر، وتقدّم عند قوله تعالى { قَالَتْ يَا وَيْلَتَى } [هود:72]. و**الويل**: سوء الحال.

وإنّما قالوا ذلك لأنّهم رأوا ما أُعِدَّ لهم من العذاب عندما بُعثوا. وتقدّم عند قوله تعالى { فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ } [البقرة:79].

{ **مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا** } استفهام عن فاعل البعث مستعمل في التعجّب والتحسّر من حصول البعث. ولمّا كان البعث عندهم محالا كنُّوا عن التعجّب من حصوله بالتعجب من فاعله، لأنّ الأفعال الغريبة تتوجه العقول إلى معرفة فاعلها.

المَرْقَد: مكان الرقاد. وحقيقة الرقاد: النوم. أطلقوا الرقاد على الموت والاضطجاع في القبور.

{ **هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ** } يجوز أن يكونوا يقولون ذلك كما يتكلّم المتحسّر بينه وبين نفسه، وأن يقوله بعضهم لبعض، كلٌّ يظنّ أنّ صاحبه لم يتفطن للسبب فيريد أن يعلمه به.

ومن المفسّرين من جعله من كلام الملائكة يجيبون به قول الكفار { مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا }، فهذا جواب يتضمّن بيان من بعثهم مع تنديمهم على تكذيبهم به في الحياة الدنيا حين أبلغهم الرسل ذلك عن الله تعالى. واسم { الرَّحْمَنُ } حينئذ من كلام الملائكة لزيادة توبيخ الكفار على تجاهلهم به في الدنيا.

{ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ } [53].

فذلكة لقوله تعالى { مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً - إلى قوله - وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ } [49-52] لأنّ النفخ مرادف للصيحة في إطلاقها المجازي.

{ **وَاحِدَةً** } لأنّ ذلك الوصف هو المقصود من الاستثناء، أي: ما كان ذلك النفخ إلّا صيحة واحدة لا يكرّر استدعاؤهم للحضور، بل النفخ الواحد يخرجهم من القبور ويسير بهم ويحضرهم للحساب.

وأمّا قول تعالى { وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ } [الزمر:68] فتلك نفخة سابقة تقع على الناس في الدنيا فيفنى بها الناس.

{ **فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ** } بمنزلة العطف على قوله { فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ } [51] { **فَإِذَا** } إعادة حرف المفاجأة إيماء إلى حصول مضمون الجملتين المقترنتين بحرف المفاجأة في مثل لمح البصر حتّى كأنّ كليهما مفاجأ في وقت واحد. وتقدّم الكلام على نظير هذا التركيب آنفا.

{ **جَمِيعٌ** } نعت للمبتدأ، أي: هم جميعهم، فالتنوين عوض المضاف إليه الرابط للنعت بالمنعوت، أي: مجتمعون لا يحضرون أفواجا وزرافات، وتقدّم قوله تعالى { وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ } [32].

{ فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [54].

إن كان قوله تعالى { هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ } [52] حكاية لكلام الكفار يوم البعث كان هذا كلاما من قِبل الله تعالى بواسطة الملائكة وكانت الفاء في قوله { فَالْيَوْمَ } فاء فصيحة وهي التي تفصح وتنبئ عن كلام مقدّر نشأ عن قوله تعالى { فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ } [53].

والمعنى: فقد أيقنتم أنّ وعد الله حق وأنّ الرسل صدقوا فاليوم يوم الجزاء كما كان الرسل ينذرونكم.
وإن كان قوله تعالى { هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ } [52] من كلام الملائكة كانت الفاء تفريعا عليه وكانت جملة { إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ...} [29] معترضة بين المفرّع والمفرّع عليه.
{ **فَالْيَوْمَ** } ظرف وتعريفه للعهد، وهو عهد حضور، يعني يوم الجزاء. وفائدة ذكره التنويه بذلك اليوم بأنّه يوم العدل.
{ **لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا** } أشعر بالتعريض بأنّهم سيلقون جزاء قاسيًا لكنّه عادل لا ظلم فيه، لأنّ نفي الظلم يشعر بأنّ الجزاء ممّا يُخال أنّه متجاوز معادلة الجريمة.
{ **شَيْئًا** } انتصب على المفعول المطلق، أي: شيئا من الظلم.
{ **وَلا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } أي: إلّا على وفاق ما كنتم تعملون وعلى مقداره.

{ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ [55] هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ [56] لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ [57] }.

هذا من الكلام الذي يُلقى من الملائكة، والجملة مستأنفة، وهذا ممّا يُقال لمن حقّ عليهم العذاب إعلاما لهم بنزول مرتبتهم عن مراتب أهل الجنة، إعلانا بالحقائق، وإدخالا للندامة عليهم على ما فرّطوا فيه من طلب الفوز في الآخرة. وهذا يؤذن بأنّ أهل الجنّة عُجّل بهم إلى النعيم قبل أن يُبعث إلى النار أهلها، وأنّ أهل الجنّة غير حاضرين ذلك المحضر.
{ **الْيَوْمَ** } التعريف للعهد كما تقدّم. وفائدة ذكره التنويه به بأنّه يوم الفضل على المؤمنين المتّقين.
الشغل: مصدر شغله، إذا ألهاه. يقال: شغله بكذا عن كذا فاشتغل به. والظرفية مجازية، أي: أحاط بهم شغل عن مشاهدة موقف أهل العذاب، فقد صرفهم الله عن منظر المزعجات، لأنّ مشاهدتها لا تخلو من انقباض النفوس، ولكون هذا هو المقصود عدل عن ذكر ما يشغلهم إذ لا غرض في ذكره.
الفاكه: ذو الفُكاهة، وهي المزاح بالكلام المسرّ والمضحك، وهي اسم مصدر: فكِه، إذا مزح وسرّ. قال تعالى { فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ } [الواقعة:65].
{ **هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ** } واقعة موقع البيان لجملة { إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ...} .
{ **وَأَزْوَاجُهُمْ** } الأزواج اللاتي أعدت لهم في الجنة. ومنهنّ من كنّ أزواجا لهم في الدنيا، إن كنّ غير ممنوعات من الجنة، { جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ } [الرعد:23].
{ **فِي ظِلالٍ** } قرأه الجمهور بوزن فِعال على جمع ظل، أي: ظل الجنات.
{ **عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ** } جمع أريكة. و**الاتكاء**: هيئة بين الاضطجاع والجلوس، وهو اضطجاع على جنب دون وضع الرأس والكتف على الفراش. وهو جلسة أهل الرفاهية، وقد تقدم عند قوله تعالى { وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً } [يوسف:31].

وكان المترفِّهون من الأمم المتحضّرة يأكلون متكئين، كان ذلك عادة سادة الفرس والروم ومن يتشبّه بهم من العرب، ولذا قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" أمّا أنا فلا آكل متكئا "**. وأمّا الاتكاء في غير حال الأكل فقد اتكأ النبيّ صلى الله عليه وسلم في مجلسه كما في حديث ضِمام بن ثعلبة وافد بني سعد بن بكر: أنّه دخل المسجد فسأل عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فقيل له: " هو ذلك الأزهر المتكئ ".

{ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ }

الفاكهة: ما يؤكل للتلذّذ لا للشبع، كالثمار، وإنّما خُصَّت بالذكر لأنّها عزيزة النوال للناس في الدنيا، ولأنّ شأن المتكئين أن يشتغلوا بتناول الفواكه.

{ **وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ** } تعميم ما أعِدَّ لهم. و{ يَدَّعُونَ } يجوز أن تجعله من **(دعاء)** والافتعال هنا يجعل فعل (دعاء) قاصرا فينبغي تعليق مجرور به. والتقدير: ما يدعون لأنفسهم.

وإن جعلته من **(الادّعاء)** فمعناه: تتحدّث أنفسهم بذلك، فيؤول إلى معنى: ويتمنّون في أنفسهم دون احتياج إلى أن يسألوا بالقول، فلذلك قيل: معنى { يَدَّعُونَ } يتمنّون. يقال: ادع عليّ ما شئت، أي: تمنّ عليّ، ومنه قوله تعالى { وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ } [فصلت:31].

{ سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ } [58].

استئناف قُطع عن أن يعطف على ما قبله للاهتمام بمضمونه، وهو الدلالة على الكرامة والعناية بأهل الجنة من جانب القدس إذ يوجَّه إليهم سلام الله بكلام يعرفون أنّه من الله، إمّا بواسطة الملائكة، وإمّا بخلق أصوات يوقنون بأنّها مجعولة لأجل إسماعهم، كما سمع موسى كلام الله حين ناداه من جانب الطور من الشجرة.

فبعد أن أخبر بما حباهم به من النعيم مشيرا إلى أصول أصنافه، أخبر بأنّ لهم ما هو أسمَى وأعلى وهو التكريم بالتسليم عليهم، قال تعالى { وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ } [التوبة:72].

{ **سَلامٌ** } مرفوع في جمع القراءات المشهورة. وهو مبتدأ وتنكيره للتعظيم. ورفعه للدلالة على الدوام والتحقيق، فإنّ أصله النصب على المفعولية المطلقة نيابة عن الفعل، مثل قوله { قَالُوا سَلامًا } [هود:69]. فلمّا أريدت الدلالة على الدوام جيء به مرفوعا مثل قوله تعالى { قَالَ سَلامٌ } [هود: 69].

وحذف خبر { سَلامٌ } لنيابة المفعول المطلق { **قَوْلًا** } عن الخبر، لأنّ تقديره: سلام يقال لهم قولا من الله.

{ **مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ** } تنوين { رَبٍّ } للتعظيم، ولأجل ذلك عُدل عن إضافة { رَبٍّ } إلى ضميرهم، واختير في التعبير عن الذات العليّة بوصف الربّ لشدة مناسبته للإكرام والرضى عنهم بذكر أنّهم عبدوه في الدنيا فاعترفوا بربوبيّته.

{ **وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ** } [59].

يجوز أن يكون عطفا على جملة { إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ } [55]، ويجوز أن يعطف على { سَلامٌ قَوْلًا } [58]، أي: ويقال: امتازوا اليوم أيّها المجرمون، على الضدّ ممّا يقال لأصحاب الجنّة. والتقدير: سلام يقال لأهل الجنة قولا، ويقال للمجرمين: امتازوا، فتكون من توزيع الخطاب في مقام واحد، كقوله تعالى { يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ } [يوسف:29].

امتاز: مطاوع مازه، إذا أفرده عمّا كان مختلطا معه، وُجّه الأمر إليهم بأن يمتازوا مبالغة في الإسراع بحصول الميز. والمراد: امتيازهم بالابتعاد عن الجنة، فيؤول إلى معنى: ادخلوا النار.

وهذا يقتضي أنّهم كانوا في المحشر ينتظرون ماذا يُفعل بهم.

{ **الْيَوْمَ** } تكرير الكلمة ثلاث مرات في هذه الحكاية للتعريض بالمخاطبين فيه، وهم الكفّار الذين كانوا يجحدون وقوع ذلك اليوم مع تأكيد ذكره على أسماعهم بقوله تعالى { فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ } [54]، وقوله تعالى { إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ } [55]، وقوله هنا { وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ}.

{ **أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ** } نداؤهم بذلك للإيماء إلى علّة ميزهم عن أهل الجنة، فـ (اللام) في { الْمُجْرِمُونَ } موصولة، أي: أيّها الذين أجرموا.

{ **أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ** [60] **وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ** [61] **وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ** [62] }.

إقبال على جميع البشر الذي جمعهم المحشر غير أهل الجنة الذين عُجّلوا إلى الجنّة، فيشمل هذا جميع أهل الضلالة من مشركين وغيرهم، ولعلّه شامل لأهل الأعراف، وهو إشهاد على المشركين وتوبيخ لهم.

{ **أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ** } الاستفهام تقريري، وخُوطبوا بعنوان { بَنِي آدَمَ } لأنّ مقام التوبيخ على عبادتهم الشيطان يقتضي تذكيرهم بأنّهم أبناء الذي جعله الشيطان عدوًّا له.

العهد: الوصاية، ووصاية الله بني آدم بألّا يعبدوا الشيطان هي ما تقرّر واشتهر في الأمم بما جاء به الرسل في العصور الماضية فلا يسع إنكاره. وبهذا الاعتبار صح الإنكار عليهم لأنّ حالهم شبيه بحال من يجحد ذلك.

{ **أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ** } { أَنْ } تفسيرية، فسَّرت إجمال العهد، لأنّ العهد فيه معنى القول دون حروفه.

عبادة الشيطان: عبادة ما يأمر بعبادته من الأصنام ونحوها.

{ **إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ** } تعليل لجملة { لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ } وقد أغنت (أَنْ) عن فاء السببية كما تقدّم غير مرة.

{ **مُبِينٌ** } أسم فاعل من أبان بمعنى بان للمبالغة، أي: عدواته واضحة، ووجه وضوحها أنّ المرء إذ

راقب عواقب الأعمال التي توسوسها له نفسه واتهمها وعرضها على وصايا الأنبياء والحكماء وجدها وخيمة.

{ **وَأَنِ اعْبُدُونِي** } عطف على { أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ } بإعادة (أَنْ) التفسيرية، فهما جملتان مفسِّرتان للعهد.

{ **هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ** } الإشارة للعهد المفهوم من فعل { أَعْهَدْ } أو للمذكور في تفسيره من جملتي { لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ } و{ وَأَنِ اعْبُدُونِي }، أي: هذا المذكور صراطٌ مستقيم. والتنوين للتعظيم.

{ **وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا** } عطف على { إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ } فعداوته واضحة بدليل التجربة فكانت علّة للنهي عن عبادة ما يأمرهم بعبادتهم. والمعنى: إنّ عداوته واضحة وضوح الصراط المستقيم لأنّها تقرَّرت بين الناس وشهدت بها العصور والأجيال، فإنّه لم يزل يُضلُّ الناس إضلالا تواتر أمره وتعذَّر إنكاره.

الجِبِلّ: (بكسر الجيم وكسر الموحدة وتشديد اللام) كما قرأه نافع وعاصم وأبو جعفر. هو الجمع العظيم، وهو مشتق من **الجَبْل** (بسكون الباء) بمعنى الخلق.

{ **أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ** } تفريع فيه توبيخ بقلّة العقل، فالاستفهام إنكاري عن عدم كونهم يعقلون، أي: يدركون، إذ لو كانوا يعقلون لتفطنوا إلى إيقاع الشيطان بهم في مهاوي الهلاك.

{ **تَكُونُوا** } زيادة فعل (الكون) للإيماء إلى أنّ العقل لم يتكوّن فيهم ولا هم كائنون به.

{ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ [63] اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ [64] }.

إقبال على خطاب الذين عبدوا معبودات يسوِّلها لهم الشيطان، إذ تبدو لهم جهنّم بحيث يشار إليها ويعرفون أنّها هي التي كانوا في الدنيا يُنذرون بها وتُذكر لهم في الوعيد مدّة الحياة.

{ **اصْلَوْهَا** } الأمر مستعمل في الإهانة والتنكير. من صَلِي يَصْلَى، إذا استدفأ بحر النّار، وإطلاق الصَلْي على الإحراق تهكّم.

{ **الْيَوْمَ** } تعريف العهد، أي: هذا اليوم الحاضر. وأريد به جواب ما كانوا يقولون في الحياة الدنيا من استبطاء الوعد والتكذيب، إذ يقولون { مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [48].

{ **بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ** } الباء سببية، أي: بسبب كفركم في الدنيا.

{ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } [65].

الجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا.

{ **الْيَوْمَ** } ظرف متعلق بـ { نَخْتِمُ }، والقول فيه كالقول في نظائره الثلاثة المتقدّمة، وهو تنويه بذكره بحصول هذا الحال العجيب فيه، وهو انتقال النطق من موضعه المعتاد إلى الأيدي والأرجل.

{ **أَفْوَاهِهِمْ ، أَيْدِيهِمْ ، أَرْجُلُهُمْ ، يَكْسِبُونَ** } ضمائر الغيبة عائدة على الذين خوطبوا بقوله تعالى { هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ } [63] على طريقة الالتفات.

ومواجهتهم بهذا الإعلام تأييس لهم بأنّهم لا ينفعهم إنكار ما أطلعوا عليه من صحائف إعمالهم، كما قال تعالى { اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا } [الإسراء:14].

وقد طوي في هذه الآية ما ورد تفصيله في آي أُخَر فقد قال تعالى { وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ } [الأنعام: 23/22]، وقال تعالى { وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ } [يونس:29/28].

وفي صحيح مسلم عن أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **يُخاطب العبد ربّه يقول: يا رب ألم تُجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: إنّي لا أجيز على نفسي إلّا شاهدا مني، فيقول الله: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا، فيُختم على فيه. فيقال لأركانه: انطقي، فتنطق بأعماله ثم يُخلَّى بينه وبين الكلام، فيقول: بُعدا لكنّ وسُحقا فعنكنّ كنت أناضل** ".

وقد يُخيّل تعارض بين هذه الآية وبين قوله تعالى { يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [النور:24] ولا تعارض، لأن آية سورة يس في أحوال المشركين وآية سورة النور في أحوال المنافقين.

{ **بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** } هو الشرك وفروعه. وتكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم وما ألحقوا به من الأذى.

{ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ [66] وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلا يَرْجِعُونَ [67] }.

عطف على جملة { وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ } [48]. والمعنى: أنّا ألجأناهم إلى الإقرار في الآخرة بأنّ ما كانوا عليه في الدنيا شرك وباطل ولو نشاء لأريناهم آياتنا في الدنيا ليرتدعوا ويرجعوا عن كفرهم وانكارهم.

{ **وَلَوْ نَشَاءُ** } لمّا كانت { لَوْ } تقتضي امتناعا لامتناع فهي تقتضي معنى: لكنّا لم نشأ ذلك فتركناهم على شأنهم استدراجا وتمييزا بين الخبيث والطيب. فهذا كلام موجّه إلى المسلمين ومراد منه تبصرتهم وإرشادهم إلى الصبر على ما يلاقونه من المشركين حتّى يأتي نصر الله.

فالطمس والمسخ المتعلّقان على الشرط الامتناعي طمس ومسخ في الدنيا لا في الآخرة.

الطمس: مسخ شواهد العين بإزالة سوادها وبياضها أو اختلاطهما، وهو العمى أو العور، ويقال: طريق مطموسة، إذا لم تكن فيها آثار السائرين ليَقْفُوَها السائر.

{ **عَلَى أَعْيُنِهِمْ** } حرف الاستعلاء للدلالة على تمكّن الطمس وإلّا فإنّ (طمس) يتعدّى بنفسه.

الاستباق: افتعال من السبق، والافتعال دال على التكلّف والاجتهاد في الفعل أي: فبادروا.

{ **الصِّرَاطَ** } الطريق الذي يُمشى فيه، وتعدية فعل الاستباق إليه على حذف (إلى) بطريقة الحذف والإيصال.

أو على تضمين { **فَاسْتَبَقُوا** } معنى ابتدروا، أي: ابتدروا الصراط متسابقين. وتقدّم قوله تعالى { إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ } [يوسف:17].

{ **فَأَنَّى يُبْصِرُونَ** } استفهام بمعنى (كيف) وهو مستعمل في الإنكار، أي: لا يبصرون وقد طمست أعينهم.

والمعنى: لو شئنا لعجّلنا لهم عقوبة في الدنيا يرتدعون بها فيقلعوا عن إشراكهم.

المسخ: تصيير جسم الإنسان في صورة جسم من غير نوعه، وتقدّم عند قوله تعالى { فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ } [البقرة:65]. وعن ابن عباس أنّ الممسوخ لا يعيش أكثر من ثلاثة أيام وعليه فلا شيء من الأشياء الموجودة الآن ببقية مسخ.

المكانة: تأنيث المكان على تأويله بالبقعة كما قالوا: مقام ومقامة، ودار ودارة، أي: لو نشاء لمسخنا الكافرين في الدنيا في مكانهم الذي أظهروا فيه التكذيب بالرسل فما استطاعوا انصرافا إلى ما خرجوا إليه ولا رجوعا إلى ما أتوا منه بل لزموا مكانهم لزوال العقل الإنساني منهم بسبب المسخ.

{ **وَلا يَرْجِعُونَ** } كان مقتضى المقابلة أن يقال: ولا رجوعا، ولكن عدل عن ذلك لرعاية الفاصلة فجُعل قوله تعالى { وَلا يَرْجِعُونَ } عطفا على جملة { فَمَا اسْتَطَاعُوا } وليس عطفا على { مُضِيًّا } لأنّ فعل استطاع لا ينصب الجمل. والتقدير: فما مضوا ولا رجعوا فجعلنا لهم العذاب في الدنيا قبل الآخرة وأرحنا منهم المؤمنين وتركناهم عبرة وموعظة لمن بعدهم.

{ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ } [68].

جعل كثير من المفسرين موقعها موقع الاستدلال على أنّ قدرة الله تعالى لا يستصعب عليها طمس أعينهم ولا مسخهم كما غيّر خلقة المعمّرين من قوّة إلى ضعف، فيكون قياس تقريب من قبيل ما يُسمَّى في أصول الفقه بالقياس الخفي وبالأدْوَن.

وكل هذه التفسيرات بعيدة عن نظم الكلام، فالذي يظهر أنّ الذي دفع المفسّرين إلى ذلك هو ما ألفه الناس من إطلاق التعمير على طول عمر المعمَّر، فلمّا تأوَّلوه بهذا المعنى ألحقوا تأويل { نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ } على ما يناسب ذلك.

والوجه عندي أنّ لكون جملة { وَمَنْ نُعَمِّرْهُ } عطفا على جملة { وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ } [67] فهي جملة شرطية عطفت على جملة شرطية، فالمعطوف عليها جملة شرط امتناعي والمعطوفة جملة شرط تعليقي، والجملة الأولى أفادت إمهالهم والإملاء لهم، والجملة المعطوفة أفادت إنذارهم بعاقبة

غير محمودة ووعيدهم بحلولها بهم، أي: إن كنّا لم نمسخهم ولم نطمس على عيونهم فقد أبقيناهم ليكونوا مغلوبين أذلّة.

فمعنى { **وَمَنْ نُعَمِّرْهُ** }، أي: من نبقيه منهم ولا نستأصله، فالتعمير بمعنى **الإبقاء**.

وهذا كالتعمير الذي في قوله تعالى { أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ } [فاطر:37]، أي: ألم نبقكم مدّة من الحياة تكفي المتأمّل، وهو المقدَّر بقوله تعالى { مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ }.

وليس المراد من التعمير فيها طول الحياة وإدراك الهرم كالذي في قولهم: فلان من المعمَّرين، فإنّ ذلك لم يقع بجميع أهل النار الذين خوطبوا بقوله { أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ } . وقد طويت في الكلام جملة تقديرها: ولو نشاء لأهلكناهم، يدلّ عليها قوله { وَمَنْ نُعَمِّرْهُ }، أي: نبقه حيا.

النكس: حقيقة قلب الأعلى أسفل أو ما يقرب من الأسفل، قال تعالى { نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ } [السجدة:12]. ويطلق مجازا على الرجوع من حال حسنة إلى سيئة، ولذلك يقال: فلان نكِس، إذا كان ضعيفا لا يُرجى لنجدة

{ **نُنَكِّسْهُ** } مجاز في الإذلال بعد العزّة وسوء الحالة بعد زهرتها.

{ **فِي الْخَلْقِ** } أي: نجعله ذليلا في الناس، وهو أليق بهذا المعنى دون في خلقته، لأنّ الإنكاس لا يكون في أصل الخلقة إنّما يكون في أطوارها، وقد فُسِّر بذلك قوله تعالى { وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً } [الأعراف:69] أي زادكم قوة وسعة في الأمم.

فالآية وعيد لهم ووعد للمؤمنين بالنصر على المشركين ووقوعهم تحت نفوذ المسلمين، فإنّ أولئك الذين كانوا رؤوسا للمشركين في الجاهلية صاروا في أسر المسلمين يوم بدر، وفي حكمهم يوم الفتح.

{ **أَفَلا يَعْقِلُونَ** } تفريع على الجمل الشرطية الثلاث وما تفرّع عليها، استئناف إنكاري لعدم تأمّلهم في عظيم قدرة الله تعالى الدالة على أنّه لو شاء لطمس على أعينهم، ولو شاء لمسخهم على مكانتهم، وأنّه إن لم يفعل ذلك فإنّهم لا يسلمون من نصره المسلمين عليهم.

{ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ [69] لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ [70] }.

هذه الآية ترجع إلى ما تضمّنه قوله تعالى { وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ } [46] فقد بيَّنَّا أنّ المراد بالآيات آيات القرآن، فإعراضهم عن القرآن له أحوال شتى: بعضها بعدم الامتثال لما يأمرهم به من الخير مع الاستهزاء بالمسلمين وهو قوله تعالى { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ } [47]، وبعضها بالتكذيب لما ينذرهم به من الجزاء، وهو قوله { وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [48]. ومن إعراضهم عنه طعنهم في آيات القرآن بأقوال شتى منها قولهم: هو قول شاعر.

فلمّا تصدّى القرآن لإبطال تكذيبهم بوعيد بالجزاء يوم الحشر، بما تعاقب من الكلام على ذلك، عاد هنا إلى طعنهم في ألفاظ القرآن.

فالجملة معطوفة على جملة { وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [48]، عطف القصة على القصة والغرض على الغرض.

ويجوز أن تكون مستأنفة استئنافا ابتدائيا ويكون (الواو) للاستئناف، ولذلك اقتصر هنا على تنزيه القرآن عن أن يكون شعرا والنبيّ صلى الله عليه وسلم عن أن يكون شاعرا دون التعرّض للتنزيه عن أن يكون ساحرا، أو أن يكون مجنونا لأنّ الغرض الرد على إعراضهم عن القرآن.

{ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ } ما أوحينا إليه شعرا علَّمناه إيّاه.

التعليم: هنا بمعنى الوحي، أي: وما أوحينا إليه الشعر. أطلق التعليم على الوحي في قوله تعالى { إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى } [النجم:5/4]، وقوله تعالى { وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ } [النساء:113].

وما بني عليه أسلوب القرآن من تساوي الفواصل لا يجعلها موازية للقوافي، كما يعلمه أهل الصناعة منهم، ولا أحسبهم دعوه شعرا إلّا تعجُّلا في الإبطال، أو تمويها على الإغفال، فأشاعوا في العرب أنّ محمدا صلى الله عليه وسلم شاعر، وأنّ كلامه شعر.

روى البخاري عن ابن عباس، ومسلم عن عبد الله ابن الصامت، يزيد أحدهما على الآخر، قالا: " قال أبو ذر لأخيه (أُنَيْس بن جُنادة الغفاري) : اركب إلى هذا الوادي فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنّه نبيّ يأتيه الخبر من السماء واستمع من قوله ثم ائتني، فانطلق الأخ حتّى قدم وسمع من قوله، ثم رجع إلى أبي ذر فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق وكلاما ما هو بالشعر. قال أبو ذر: فما يقول الناس؟ قال: يقولون شاعر، كاهن، ساحر. وكان أنيس أحد الشعراء، قال أنيس: لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على إقراء الشعر فما يلتئم على لسان أحد بعدي أنّه شعر، والله إنّه لصادق وإنّهم لكاذبون ".

ومثله خبر الوليد بن المغيرة الذي رواه البيهقي وابن إسحاق: " أنّه جمع قريشا عند حضور الموسم ليتشاوروا في أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال لهم: إنّ وفود العرب ترد عليكم فأجمعوا فيه رأيا لا يكذِّب بعضكم بعضا، فقالوا: نقول كاهن؟ فقال: والله ما هو بكاهن، وما هو بزمزمته ولا بسجعه، قالوا: نقول مجنون؟ فقال: والله ما هو بمجنون ولا بخنقه ولا وسوسته، [فذكر تردّدهم في وصفه إلى أن قالوا] نقول: شاعر؟ قال: ما هو بشاعر، قد عرفت الشعر كلّه رجزَه وهزجَه وقريضه ومبسوطه ومقبوضه، وما هو بشاعر...".

واعلم **أنّ الحكمة** في ألّا يكون القرآن من الشعر، مع أن المتحدَّين به بلغاء العرب وجلّهم شعراء، **هي الجمع بين الإعجاز وبين سدّ باب الشبهة** التي تعرض لهم لو جاء القرآن على موازين الشعر، وهي شبهة الغلط أو المغالطة بعدِّهم النبيّ صلى الله عليه وسلم في زمرة الشعراء، فيحسب جمهور الناس الذين

لا تغوص مدركاتهم على الحقائق أنّ ما جاء به الرسول ليس بالعجيب، وأنّ هذا الجائي به ليس بنبيّ ولكنّه شاعر، فكان القرآن معجزا لبلغاء العرب بكونه من نوع كلامهم لا يستطيعون جحودا لذلك، ولكنّه ليس من الصنف المسمَّى بالشعر بل هو فائق على شعرهم في محاسنه البلاغية، وليس هو في أسلوب الشعر بالأوزان التي ألفوها بل هو في أسلوب الكتب السماوية والذكر.

ولقد ظهرت حكمة علّام الغيوب في ذلك فإنّ المشركين لما سمعوا القرآن ابتدروا إلى الطعن في كونه منزَّلا من عند الله بقولهم في الرسول: هو شاعر، أي أنّ كلامه شعر حتى أفاقهم من غفلتهم عقلاؤهم مثل الوليد بن المغيرة، وأُنَيس بن جُنادة الغفاري، وحتّى قرعهم القرآن بهذه الآية { وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ }.

{ **وَمَا يَنْبَغِي لَهُ** } جملة معترضة بين الجملتين المتعاطفتين قُصد منها اتباع نفي أن يكون القرآن الموحى به للنبيّ صلى الله عليه وسلم شعرا بنفي أن يكون النبيّ صلى الله عليه وسلم شاعرا فيما يقوله من غير ما أوحى به إليه. أي: لم يجعل له ملكة أصحاب قرض الشعر، لأنّه أراد أن يقطع من نفوس المكذِّبين دابر أن يكون النبيّ صلى الله عليه وسلم شاعرا وأن يكون قرآنه شعرا ليتضح بهتانهم عند من له أدنى مسكة من تمييز للكلام. فتنزيه النبيّ صلى الله عليه وسلم عن قول الشعر من قبيل حياطة معجزة القرآن وحياطة مقام الرسالة، مثل تنزيهه عن معرفة الكتابة.

قال أبو بكر بن العربي: هذه الآية ليست من عيب الشعر كما لم يكن قوله تعالى { وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ } [العنكبوت:48] من عيب الخط. فلمّا لم تكن الأميّة من عيب الخط كذلك لا يكون نفي النظم عن النبي صلى الله عليه وسلم من عيب الشعر.

ومن أجل ما للشعر من الفائدة والتأثير في شيوع دعوة الإسلام أن أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم حسانا وعبد الله بن رواحة بقوله، وأظهر استحسانه لكعب بن زهير حين أنشده القصيد المشهور: بانت سعاد.

{ **إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ** } استئناف بياني عن سؤال مقدّر عن طبيعة هذا الذي أوحي به إلى محمد صلى الله عليه وسلم . أي: ليس الذي عُلِّمه الرسول إلّا ذكرا وقرآنا.

الذكر: مصدر وصف به الكتاب المنزَّل على محمد صلى الله عليه وسلم وصفا للمبالغة، أي: إن هو إلّا مُذَكِّر للناس بما نسوه أو جهلوه. وتقدّم عند قوله { وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ } [الحجر:6].

القرآن: مصدر قرأ، أطلق على اسم المفعول، أي: الكلام المقروء، وتقدّم بيانه عند قوله تعالى { وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ } [يونس:61].

المبين: هو الذي أبان المراد بفصاحة وبلاغة.

{ **لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ** } متعلّق بقوله { عَلَّمْنَاهُ } باعتبار ما اتصل به من نفي كونه شعرا ثم إثبات كونه ذكرا وقرآنا، أي: وما علَّمناه إلّا ذكرا وقرآنا مبينا لينذر أو لتنذر.

الإنذار: الإعلام بأمر يجب التوقِّي منه.

الحيّ: مستعار لكامل العقل وصائب الإدراك، وهذا تشبيه بليغ، أي: من كان مثل الحيّ في الفهم.

والمقصود منه: التعريض بالمعرضين عن دلائل القرآن بأنّهم كالأموات لا انتفاع لهم بعقولهم كقوله تعالى { إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ } [النمل:80].

{ **وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ** } عطف على { لِيُنْذِرَ } عطف المجاز على الحقيقة، لأنّ الـ (لام) النائب عنه (واو) العطف ليس (لام تعليل) ولكنه (لام عاقبة)، كاللام في قوله تعالى { فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً } [القصص:8]. ففي (الواو) استعارة تبعية، وهذا قريب من استعمال المشترك في معنييه.

وفي هذه العاقبة احتباك إذ التقدير: لتنذر من كان حيا فيزداد حياة بامتثال الذكر فيفوز، ومن كان ميّتا فلا ينتفع بالإنذار فيحق عليه القول، كما قال تعالى في أوّل السورة { إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ } [11]، فجمع له بين الإنذار ابتداء والبشارة آخرا.

{ **الْقَوْلُ** } هو الكلام الذي جاء بوعيد من لم ينتفعوا بإنذار الرسول صلى الله عليه وسلم.

{ **الْكَافِرِينَ** } المستمرُّون على كفرهم.

وفي ذكر الإنذار عود إلى ما ابتدئت به السورة من قوله تعالى { لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ } [6]، فهو كردّ العجز على الصدر، وبذلك تمّ مجال الاستدلال عليهم وإبطال شبههم وتخلّص إلى الامتنان الآتي.

{ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ [71] وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ [72] وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ [73] }.

بعد أن انقضى إبطال معاقد شرك المشركين أخذ الكلام يتطرّق غرض تذكيرهم بنعم الله تعالى عليهم وكيف قابلوها بكفران النعمة وأعرضوا عن شكر المنعم وعبادته واتخذوا لعبادتهم آلهة زعما بأنّها تنفعهم وتدفع عنهم، وأدمج في التذكير بأنّ الأنعام مخلوقة بقدرة الله. فالجملة معطوفة عطف الغرض على الغرض.

{ **أَوَلَمْ** } الاستفهام إنكار وتعجيب من عدم رؤيتهم شواهد النعمة، فإن كانت الرؤية قلبية كان الإنكار جاريا على مقتضى الظاهر، وإن كانت الرؤية بصرية فالإنكار على خلاف مقتضى الظاهر بتنزيل مشاهدتهم تلك المذكورات منزلة عدم الرؤية لعدم جريهم على مقتضى العلم بتلك المشاهدات الذي ينشأ عن رؤيتها ورؤية أحوالها.

{ **أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ / وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ** } إدماج شيء من دلائل الانفراد بالتصرّف في الخلق المبطلة لإشراكهم إيّاه غيره في العبادة في خلال هذا الامتنان.

{ **لَهُمْ** } محلّ الامتنان، أي: لأجلهم، فإنّ جميع المنافع التي على الأرض خلقها الله لأجل الإنسان، كما

تقدّم في قوله تعالى { هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا } [البقرة:29].

{ **مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا** } عبَّر عن ذلك الخلق بأنّه بيد الله استعارة تمثيلية لتقريب شأن الخلق الخفي البديع مثل قوله تعالى { لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ } [صّ:75]. وقرينة هذه الاستعارة ما تقرَّر من أن ليس كمثله شيء، وأنّه لا يشبه المخلوقات، فذلك من العقائد القطعية في الإسلام.

الأنعام: الإبل والبقر والغنم والمعز.

{ **فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ** } فُرّع على خلقها للناس أنَّهم لها مالكون قادرون على استعمالها فيما يشاؤون لأنّ الملك هو أنواع التصرّف. وهذا إدماج للامتنان في أثناء التذكير. وجيء بالجملة الاسمية لإفادة ثبات هذا الملك ودوامه.

{ **وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ [72] وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ** }

التذليل: جعل الشيء ذليلا، والذليل ضدّ العزيز وهو الذي لا يدفع عن نفسه ما يكرهه. ومعنى تذليل الأنعام خلق مهانتها للإنسان في جبلّتها، فإذا زجرها الإنسان أو أمرها ذلّت له وطاعت.

الرَكوب : (بفتح الراء) المركوب مثل الحلوب وهو فعول بمعنى مفعول، فلذلك يطابق موصوفه يقال: بعير ركوب وناقة حلوبة.

المشارب: جمع مشرب، وهو مصدر ميمي بمعنى: الشرب، أريد به المفعول، أي: مشروبات.

{ **أَفَلا يَشْكُرُونَ** } فُرّع على التذكير والامتنان استفهام تعجيبيٌّ لتركهم تكرير الشكر على هذه النعم العدّة فلذلك جيء بالمضارع المفيد للتجديد والاستمرار، لأنّ تلك النعم متتالية متعاقبة في كل حين.

{ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ [74] لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ [75] }.

عطف على جملة { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا } [71]، أي: ألم يروا دلائل الوحدانية ولم يتأمّلوا جلائل النعمة، واتخذوا آلهة من دون الله المنعم والمنفرد بالخلق. ولك أن تجعله عطفا على الجملتين المفرَّعتين، والمقصود من الإخبار باتخاذهم آلهة من دون الله التعجيب من جريانهم على خلاف حقّ النعمة، ثم مخالفة مقتضى دليل الوحدانية المدمج في ذكر النعم.

{ **اللَّهِ** } الإتيان باسم الجلالة العلم دون الضمير إظهار في مقام الإضمار لما يُشعر به اسمه العلم من عظمة الإلهية إيماء إلى أنّ اتخاذهم آلهة من دونه جراءة عظيمة، ليكون ذلك توطئة لقوله بعده { فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ } [76]، أي: فإنّهم قالوا ما هو أشد نكرا.

{ **لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ** } وقعت (لعلّ) فيه موقعا غير مألوف لأنّ شأنها أن تفيد إنشاء رجاء المتكلّم بها وذلك غير مستقيم هنا. فإمّا أن يكون الكلام جرى على معنى الاستفهام وهو إنكاري أو تهكّمي والجملة معترضة.

وإمّا أن يُجعل الرجاء منصرفا إلى رجاء المخبر عنهم، أي: راجين أن تنصرهم تلك الآلهة. وتكون جملة { لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ } استئنافا للردّ عليهم.

المقصود: الإشارة إلى أنّ الكفّار يزعمون أنّ الأصنام تشفع لهم عند الله في أمور الدنيا ويقولون { هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ} [يونس:18] وهم سالكون في هذا الزعم مسلك ما يألفونه من الاعتزاز بالموالاة والحلف.

{ **لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ** } ضمير { وَهُمْ } يجوز أن يعود إلى { آلِهَةً } تبعا لضمير { لا يَسْتَطِيعُونَ }. وضمير { لَهُمْ } للمشركين، أي: والأصنام للمشركين جند محضرون.

الجند: العدد الكثير. و**المحضر**: الذي جيء به ليحضر مشهدا.

والمعنى: أنّهم لا يستطيعون النصر مع حضورهم في موقف المشركين لمشاهدة تعذيبهم ومع كونهم عددا كثيرا، وهذا تأييس للمشركين من نفع أصنامهم.

ويجوز العكس، أي: والمشركين جند لأصنامهم محضرون لخدمتها.

ويجوز أن يكون هذا إخبارا عن حالهم مع أصنامهم في الدنيا وفي الآخرة.

{ **وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ** } ينبغي أن تكون الجملة في موضع الحال من ضمير { يَسْتَطِيعُونَ }، أي: ليس عدم استطاعتهم نصرهم لبعد مكانتهم وتأخّر الصريخ لهم ولكنّهم لا يستطيعون وهم حاضرون.

{ فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ } [76].

{ **فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ** } فُرّع على قوله تعالى { وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً } [74]، أي: تحذيره من أن يحزن لأقوالهم فيه، فإنّهم قالوا في شأن الله ما هو أفظع .والنهي عن الحزن نهي عن سببه، وهو اشتغال بال الرسول بإعراضهم عن قبول الدين الحق.

{ **قَوْلُهُمْ** } من إضافة اسم الجنس فيعم، أي: فلا تحزنك أقوالهم في الإشراك وإنكار البعث والتكذيب والأذى لشخصك وللمؤمنين، ولذلك حُذف المقول.

{ **إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ** } تعليل للنهي عن الحزن لقولهم.

والخبر كناية عن مؤاخذتهم بما يقولون، أي: إنّا محصون عليهم أقوالهم وما تسرُّه أنفسهم ممّا لا يجهرون به فنؤاخذهم بذلك كله.

{ **مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ** } والتعميم لجعل التعليل تذييلا أيضا. وقُدّم الإسرار للاهتمام به لأنّه أشدُّ دلالة على إحاطة علم الله بأحوالهم، وذكر بعده الإعلان لأنّه محل الخبر، وللدلالة على استيعاب علم الله تعالى بجزئيات الأمور وكليّاتها.

{ **أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ [77] وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ [78] قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ [79]** }.

لما أبطِلت شبه المشركين في إشراكهم بعبادة الله وإحالتهم قدرته على البعث وتكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم في إنبائه بذلك إبطالا كلِّيًا، عُطف الكلام إلى جانب تسفيه أقوال جزئية لزعماء المكذبين بالبعث توبيخا لهم على وقاحتهم وكفرهم بنعمة ربّهم، وهم رجال من أهل مكّة أحسب أنّهم كانوا يموِّهون الدلائل ويزيِّنون الجدل للناس ويأتون لهم بأقوال إقناعية جارية على وفق أفهام العامة.

{ **الْإِنْسَانُ** } التعريف للعهد وهو الإنسان المعيّن المعروف بهذه المقالة يومئذ. قيل أريد بـه أُبَي بن خلف. وقيل أريد به العاصي بن وائل، وقيل أبو جهل، وفي ذلك روايات بأسانيد، ولعل ذلك تكرَّر مرات.

قالوا في الروايات: جاء أحد هؤلاء الثلاثة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في يده عظم إنسان رميم ففتَّه وذراه في الريح وقال: يا محمد أتزعم أنّ الله يحيي هذا بعد ما أرم (أي: بَلِيَ) فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **نعم يميتك الله ثم يحييك ثم يدخلك جهنم** ".

وقد تقدّم أنّ قوله تعالى { وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا } [مريم:66] نزل في أحد هؤلاء، وذُكر معهم الوليد بن المغيرة. ونظيره قوله تعالى { أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ } [القيامة:3].

ووجه حمل التعريف هنا على التعريف العهدي أنّه لا يستقيم حملها على غير ذلك لأنّ جعله للجنس يقتضي أنّ جنس الإنسان ينكرون البعث، كيف وفيهم المؤمنون وأهل الملل، وحملها على الاستغراق أبعد إلّا أن يراد الاستغراق العرفي وليس مثل هذا المقام من مواقعه.

{ **مِنْ نُطْفَةٍ** } ذكر النطفة هنا تمهيد للمفاجأة بكونه خصيما مبينا عقب خلقه، أي: ذلك الهيّن المنشأ قد أصبح خصيما عنيدا، وليبني عليه قوله بعد { وَنَسِيَ خَلْقَهُ } أي: نسي خلقه الضعيف فتطاول وجاوز، ولأنّ خلقه من النطفة أعجب من إحيائه وهو عَظْمٌ، مجاراة لزعمه في مقدار الإمكان.

{ **فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ** } الجملة معطوفة على جملة { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ } [71]. والاستفهام كسابقه.

{ **فَإِذَا** } للمفاجأة. ووجه المفاجأة أنّ ذلك الإنسان خُلق ليعبد الله ويعلم ما يليق به فإذا لم يجر على ذلك فكأنّه فاجأ بما لم يكن مترقَّبا منه، مع إفادة أنّ الخصومة في شؤون الإلهية كانت بما بادر به حين عقل.

الخصيم: فعيل، مبالغة في معنى مفاعل، أي: مخاصم شديد الخصام.

المبين: من أبان بمعنى بان، أي: ظاهر في ذلك. أي: أنّه شديد الشكيمة بعد أن كان أصله نطفة.

{ **وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ** } أي: أظهر للناس وأتى لهم بتشبيه حال قدرتنا بحال عجز الناس، إذ أحال إحياءنا العظام بعد أن أرمَّت، فهو كقوله تعالى {َلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ } [النحل:74].

أي: لا تشبّهوه بخلقه فتجعلوا له شركاء.

ضرب المثل: إيجاده، كما يقال: ضرب خيمة، وضرب دينارا، وتقدّم بيانه عند قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا } [البقرة:26].

المثل: تمثيل الحالة.

النسيان: هنا مستعار لانتفاء العلم من أصله، أي: لعدم الاهتداء إلى كيفية الخلق الأوّل، أي: نسي أننا خلقناه من نطفة، أي: لم يهتد إلى أنّ ذلك أعجب من إعادة عظمه، كقوله تعالى { أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ } [ق:15].

{ **قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ** } الاستفهام إنكاري. أي: لا أحد يحيي العظام وهي رميم. والجملة بيان لجملة { وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا }.

الرميم: البالي، رَمَّ العظم وأَرَمَّ، إذا بَلِيَ، فهو فعيل بمعنى المصدر، يقال: رَمَّ العظم رميما.

{ **قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ** } أُمِر النبيّ صلى الله عليه وسلم بأن يقول له ذلك. أمر بجواب على طريقة الأسلوب الحكيم بحمل استفهام القائل على خلاف مراده، لأنّه لمّا قال { يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ } لم يكن قاصدا تطلب تعيين المحيي وإنّما أراد الاستحالة، فأجيب جواب من هو متطلّبٌ علمًا. فلذلك بني الجواب على فعل الإحياء مسندا للمُحيي.

على أنّ الجواب صالح لأن يكون إبطالا للنفي المراد من الاستفهام الإنكاري، كأنه قيل: بل يحييها الذي أنشأها أوّل مرة. أي: يحييها لأنّه أنشأها أوّل مرّة، فهو قادر على إنشائها ثاني مرّة. قال تعالى { وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ } [الواقعة:62]، وقال تعالى { وَهُوَ الَّذِي يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ } [الروم:27].

{ **وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ** } تذييل لهذا الاستدلال، أي: واسع العلم محيط بكل وسائل الخلق التي لا نعلمها.

{ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ } [80].

بدل من { الَّذِي أَنْشَأَهَا } [79] بدلا مطابقا. ولم تعطف الصلة على الصلة فيُكتفى بالعطف عن إعادة اسم الموصول لأنّ في إعادة الموصول تأكيدا للأوّل واهتماما بالثاني حتّى تستشرف نفس السامع لتلقّي ما يرد بعده فيفطن بما في هذا الخلق من الغرابة، إذ هو إيجاد الضدّ، وهو نهاية الحرارة، من ضدّه وهو الرطوبة.

{ **مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً** } ليس المراد من الأخضر اللون وإنّما المراد لازمه وهو الرطوبة، لأنّ الشجر أخضر اللون ما دام حيًّا فإذا جف وزالت منه الحياة استحال لونه إلى الغبرة، فصارت الخضرة كناية عن رطوبة النبت وحياته.

المراد بالشجر هنا شجر المَرْخ وشجر العَفَار فهما شجران يُقتدح بأغصانهما يؤخذ غصن من هذا

وغصن من الآخر بمقدار المسواك وهما خضراوان يقطر منهما الماء فيسحق المرخ على العفار فتتقدح النار.

{ **فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ** } المفاجأة دالة على عجيب إلهام الله البشر لاستعمال الاقتداح بالشجر الأخضر واهتدائهم إلى خاصيته.

الإيقاد: إشعال النار، يقال: أوقد، ويقال: وَقَدَ. وجيء بالمسند فعلا مضارعا لإفادة تكرّر ذلك واستمراره.

{ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ} [81].

عُطف هذا التقرير على الاحتجاجات المتقدِّمة على الإنسان المعني من قوله تعالى { أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ } [77]، وذلك أنّه لما تبيّن الاستدلال بخلق أشياء على إمكان خلق أمثالها ارتقي في هذه الآية إلى الاستدلال بخلق مخلوقات عظيمة على إمكان خلق ما دونها. فإنّ البديهة قاضية بأنّ من خلق السماوات والأرض هو على خلق ناس بعد الموت أقدر.

{ **مِثْلَهُمْ** } الضمير عائد إلى { الْإِنْسَانُ } في قوله تعالى { أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ } [77] على تأويله بالناس، سواء كان المراد شخصا معيَّنا أم غير معيّن. فالمقصود: هو وأمثاله من المشايعين له على اعتقاده.

{ **وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ** } معترضة في آخر الكلام، أي: هو يخلق خلائق كثيرة وواسع العلم بأحوالها ودقائق ترتيبها.

{ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } [82].

هذه فذلكة الاستدلال، وفصل المقال، فلذلك فُصلت عمّا قبلها كما تُفصل جملة النتيجة عن جملتي القياس، فقد نتج ممّا تقدّم أنّه تعالى إذا أراد شيئا تعلّقت قدرته بإجاده بالأمر التكويني المعبّر عن تقريبه بـ **{كُنْ}**، وهو أخصر كلمة تعبّر عن الأمر بالكون، أي: الاتصاف بالوجود.

{ **إِنَّمَا أَمْرُهُ** } الأمر هنا بمعنى الشأن، لأنّه المناسب لإنكارهم قدرته على إحياء الرميم، أي: لا شأن لله في وقت إرادته تكوين كائن إلّا تقديره بأن يوجده. فالقصر إضافي لقلب اعتقادهم أنّه يحتاج إلى جمع مادة وتكييفها ومُضيّ مدّة لإتمامها.

{ **إِذَا** } ظرف زمان في موضع نصب على المفعول فيه، أي: حين إرادته شيئًا.

{ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [83].

الفاء فصيحة، أي: إذا ظهر كل ما سمعتم من الدلائل على عظيم قدرة الله وتفرّده بالإلهية، وأنّه يعيدكم

بعد الموت ينشأ تنزيهه عن أقوالهم في شأنه.

الملكوت: مبالغة في المِلك (بكسر الميم)، وتقدّم عند قوله تعالى { وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [الأنعام:75].

{ **وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** } عطف على جملة التسبيح، عطف الخبر على الإنشاء فهو ممّا شملته الفصيحة.

وتقديم { إِلَيْهِ } على { تُرْجَعُونَ } للاهتمام ورعاية الفاصلة، لأنّهم لم يكونوا يزعمون أنّ ثمة رجعة إلى غيره ولكنّهم ينكرون المعاد من أصله.

والمعنى: قد اتضح أنّكم صائرون إليه غير خارجين من قبضة ملكه وذلك بإعادة خلقكم بعد الموت.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الصّافّات

اسمها المشهور المتّفق عليه (**الصّافّات**)، وبذلك سُمِّيت في كتب التفسير وكتب السنّة وفي المصاحف كلّها، ولم يثبت شيء عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في تسميتها. قال في الإتقان: " رأيت في كلام الجعبري أنّ سورة (الصافات) تسمَّى (سورة الذبيح) وذلك يحتاج إلى مستند من الأثر ".

ووجه تسميتها وقوع هذا اللفظ فيها بالمعنى الذي أريد به أنّه وصف الملائكة وإن كان قد وقع في (سورة الملك) لكن بمعنى آخر إذ أريد هنالك صفة الطير، على أنّ الأشهر أنّ (سورة الملك) نزلت بعد (سورة الصافات).

وهي **مكية بالاتفاق**.

وهي **السادسة والخمسون** في تعداد نزول السور، نزلت بعد سورة الأنعام وقبل سورة لقمان.

وعُدَّت آيها مائة واثنتين وثمانين عند أكثر أهل العدد. وعدَّها البصريون مائة وإحدى وثمانين.

أغراض السورة

*/ كانت فاتحتها مناسبة لأغراضها بأنّ القَسَم بالملائكة مناسب لإثبات الوحدانية لأنّ الأصنام لم يدعوا لها ملائكة، والذي تخدمه الملائكة هو الإله الحق، ولأنّ الملائكة من جملة المخلوقات الدال خلقها على عظم الخالق، ويؤذن القسم بأنّها أشرف المخلوقات العلوية.

*/ وفي الافتتاح بالقسم تشويق إلى معرفة المقسَم عليه ليُقبل عليه السامع بشراشره. فقد استكملت فاتحة السورة أحسن وجوه البيان وأكملها.

*/ إثبات وحدانية الله تعالى، وسوق دلائل كثيرة على ذلك، دلّت على انفراده بصنع المخلوقات العظيمة التي لا قبل لغيره بصنعها وهي العوالم السماوية بأجزائها وسكَّانها.

*/ إثبات أنّ البعث يعقبه الحشر والجزاء.

*/ وصف حال المشركين يوم الجزاء ووقوع بعضهم في بعض.

*/ وصف حسن أحوال المؤمنين ونعيمهم. ومذاكرتهم فيما كان يجري بينهم وبين بعض المشركين من أصحابهم في الجاهلية ومحاولتهم صرفهم عن الإسلام.

*/ انتقل إلى تنظير دعوة محمد صلى الله عليه وسلم قومه بدعوة الرسل من قبله، وكيف نصر الله رسله ورفع شأنهم وبارك عليهم.

*/ أُدمِج في خلال ذلك شيء من مناقبهم وفضائلهم وقوّتهم في دين الله وما نجّاهم الله من الكروب التي حفّت بهم. وخاصة منقبة الذبيح، والإشارة إلى أنّه إسماعيل.

*/ وصف ما حل بالأمم الذين كذَّبوهم.

*/ الإنحاء على المشركين فساد معتقداتهم في الله ونسبتهم إليه الشركاء. وقولهم: الملائكة بنات الله، وتكذيب الملائكة إيّاهم على رؤوس الأشهاد. وقولهم في النبيّ صلى الله عليه وسلم والقرآن، وكيف كانوا يودُّون أن يكون لهم كتاب.

*/ وعد الله رسوله بالنصر كدأب المرسلين ودأب المؤمنين السابقين، وأنّ عذاب الله نازل بالمشركين، وتخلُص العاقبة الحسنى للمؤمنين.

{ **وَالصَّافَّاتِ صَفًّا** [1] **فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا** [2] **فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا** [3] **إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ** [4] }.

القسَم لتأكيد الخبر مزيد تأكيد لأنّه مقتضى إنكارهم الوحدانية، وهو قسَم واحد والمقسَم به نوع واحد مختلف الأصناف، وهو طوائف من الملائكة.

{ **وَالصَّافَّاتِ / فَالزَّاجِرَاتِ / فَالتَّالِيَاتِ** } عطف الصفات بالفاء يقتضي أنّ تلك الصفات ثابتة لموصوف واحد، لأنّ الأصل في العطف بالفاء اتصال المتعاطفات بها، لما في الفاء من معنى التعقيب. وتأنيث هذه الصفات باعتبار إجرائها على معنى الطائفة والجماعة ليدلّ على أنّ المراد أصناف من الملائكة لا آحاد منهم.

فعن جماعة من السلف: " أنّ هذه الصفات للملائكة ".

وقَسَمُ الله بمخلوقاته يُومئ إلى التنويه بشأن المقسَم به من حيث هو دال على عظيم قدرة الخالق أو كونه مشرَّفًا عند الله تعالى.

{ **وَالصَّافَّاتِ** } جمع صافَّة، وهي الطائفة المصطف بعضها مع بعض. يقال: صفَّ الأمير الجيش إذا جعله صفا واحدا أو صفوفا، فاصطفّوا. ويقال: فصفُّوا، أي: صاروا مُصْطَفِّين. وتقدّم قوله تعالى { فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ } [الحج:36]، وقوله تعالى { وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ } [النور:41].

ووصف الملائكة بهذا الوصف يجوز أن يكون على حقيقته، فتكون الملائكة في العالم العلوي مصطفَّة صفوفا، وهي صفوف متقدِّم بعضها على بعض باعتبار مراتب الملائكة في الفضل والقرب.

ويجوز أن يكون كناية عن الاستعداد لامتثال ما يلقى إليهم من أمر الله تعالى، قال تعالى حكاية عنهم في هذه السورة { وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ } [165/166].

الزجر: الحثّ في نهي أو أمر بحيث لا يُترك للمأمور تباطؤ في الإتيان بالمطلوب، والمراد به: تسخير الملائكة المخلوقات التي أمرهم الله بتسخيرها خلقا أو فعلا، كتكوين العناصر، وتصريف الرياح، وإزجاء السحاب إلى الآفاق.

{ **فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا** } المردِّدون لكلام الله تعالى الذي يتلقَّوْنه من جانب القدس لتبليغ بعضهم بعضا أو لتبليغه إلى الرسل، كما أشار إليه قوله تعالى { حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ } [سبأ:23]. وبيَّنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " **إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنّه سلسلة على صفوان، فإذا فُزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم؟ قالوا: الذي قال الحق** ".

ومنه أيضا ما يتلونه من تسبيح وتقديس لله تعالى، لأنّ ذلك التسبيح لمّا كان ملقَّنا من لدن الله تعالى كان كلامهم به تلاوة.

التلاوة: القراءة، وتقدّمت في قوله تعالى { وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ } [البقرة:102]، وقوله تعالى { وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ } [الأنفال:2].

الذكر: ما يُتذكَّر به من القرآن ونحوه، وتقدّم في قوله تعالى {وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ} [الحجر:6].

وما تفيده الفاء من ترتيب معطوفها يجوز أن يكون ترتيبها في الفضل بأن يراد أنّ الزجر وتلاوة الذكر أفضل من الصفّ، لأنّ الاصطفاف مقدّمة لها ووسيلة، والوسيلة دون المتوسَّل إليه، وأنّ تلاوة الذكر أفضل من الزجر باعتبار ما فيها من إصلاح المخلوقات المزجورة بتبليغ الشرائع، إن كانت التلاوة تلاوة الوحي الموحى به للرسل، أو بما تشتمل علية التلاوة من تمجيد الله تعالى، فإنّ الأعمال تتفاضل تارة بتفاضل متعلّقاتها.

{ **إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ** } جواب القسم ومناط التأكيد صفة { لَوَاحِدٌ }، لأنّ المخاطبين كانوا قد علموا أنّ لهم إلاها ولكنّهم جعلوا عدّة آلهة فأبطل اعتقادهم بإثبات أنّه واحد غير متعدّد.

{ **رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ** } [5].

استئناف بياني لبيان الإله الواحد مع إدماج الاستدلال على تعيينه بذكر ما هو من خصائصه المقتضي تفرّده بالإلهية.

{ **رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } خبر لمبتدأ محذوف. والتقدير: هو رب السماوات، أي: إلهكم الواحد هو الذي تعرفونه بأنّه رب السماوات والأرض. فإنّ المشركين مع غلوّهم في الشرك لم يتجرَّؤوا على ادعاء الخالقية لأصنامهم ولا التصرّف في العوالم العلوية، فكان تفرّد الله بالخالقية أفحم حجّة في بطلان إلهية الأصنام.

{ **وَرَبُّ الْمَشَارِقِ** } تخصيصها بالذكر، من بين ما بين السماوات والأرض، لأنّها أحوال مشهودة كل يوم.

المشرق: اسم لمكان شروق الشمس وهو ظهورها، فإذا راعوا الجهة دون الفصل قالوا: المشرق، بالإفراد، وإذا روعي الفصلان الشتاء والصيف قيل: رب المشرقين، والجمع باعتبار اختلاف مطلع الشمس، وهي مطالع متقاربة ليست متّحدة.

{ **إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ [6] وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ [7]** }.

هذه الجملة تتنزَّل من الجملة السابقة منزلة الدليل على أنّه ربّ السماوات. واقتصر على ربوبية السماوات لأنّ ثبوتها يقتضي ربوبية الأرض بطريق الأولى. وأدمج فيها منّة على الناس بأن جعل لهم في السماء زينة الكواكب تروق أنظارهم، فإنّ محاسن المناظر لذّة للناظرين، قال تعالى { وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ } [النحل:6]. كما أنّ فيها منفعة دنيوية وهي الاهتداء بها في ظلمات البرّ والبحر.

ومنَّة على المسلمين بأن جعل في تلك الكواكب حفظا من تلقِّي الشياطين للسمع فيما قضى الله أمره في العالم العلوي، لقطع سبيل اطلاع الكُهّان على بعض ما سيحدث في الأرض فلا يفتنوا الناس في الإسلام كما فتنوهم في الجاهلية، وليكون ذلك تشريفا للنبيّ صلى الله عليه وسلم بأن قُطعت الكهانة عند إرساله.

وللإشارة إلى أنّ فيها منفعة عظيمة دينية وهي قطع دابر الشك في الوحي.

{ **السَّمَاءَ الدُّنْيَا** } إمّا لأنّها أدنى إلى الأرض من بقية السماوات، والسماء الدنيا على هذا هي الكرة التي تحيط بكرة الهواء الأرضية وهي ذات أبعاد عظيمة. ومعنى تزيينها بالكواكب والشهب على هذا أنّ الله جعل الكواكب والشهب سابحة في مقعَّر تلك الكرة على أبعاد مختلفة ووراء تلك الكرة السماوات السبع محيط بعضها ببعض في أبعاد لا يعلم مقدار سعتها إلّا الله تعالى.

ونظام الكواكب المُعبَّر عنه بالنظام الشمسي على هذا من أحوال السماء الدنيا، ولا مانع من هذا، لأنّ هذه اصطلاحات، والقرآن صالح لها، ولم يأت لتدقيقها ولكنّه لا ينافيها. والسماء الدنيا على هذا هي التي وصفت في حديث الإسراء بالأولى.

وإمّا لأنّ المراد بالسماء الدنيا الكرة الهوائية المحيطة بالأرض وليس فيها شيء من الكواكب ولا من الشهب وأنّ الكواكب والشهب في أفلاكها وهي السماوات الست والعرش، فعلى هذا يكون النظام الشمسي كلّه ليس من أحوال السماء الدنيا. ومعنى تزيين السماء الدنيا بالكواكب والشهب، على هذا الاحتمال، أنّ الله تعالى جعل أديم السماء الدنيا قابلا لاختراق أنوار الكواكب في نصف الكرة السماوية الذي يغشاه الظلام من تباعد نور الشمس عنه فتلوح أنوار الكواكب متلألئة في الليل فتكون تلك الأضواء زينة للسماء الدنيا تزدان بها.

والآية صالحة للاحتمالين لأنّها لم يثبت فيها إلّا أنّ السماء الدنيا تزدان بزينة الكواكب، وذلك لا يقتضي كون الكواكب سابحة في السماء الدنيا.

{ **بِزِينَةٍ** } مصدر بوزن فِعله، من إضافة المصدر إلى فاعله، أي: زانتها الكواكب، أو إلى المفعول، أي: بزينة الله الكواكب. تأكيد والباء للسببية.

{ **الْكَوَاكِبِ** } الكريات السماوية التي تلمع في الليل عدا الشمس والقمر. وتُسمَّى النجوم. وتقدّم ذكر الكواكب في قوله تعالى { رَأى كَوْكَبًا } [الأنعام:76].

وتقدّم الكلام على زينة السماء بالكواكب وكونها حفظا من الشياطين عند قوله تعالى { وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ } [الحجر:17/16].

{ **وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ** } الحفظ من الشياطين حكمة من حكم خلق الكواكب في علم الله تعالى لأنّ الكواكب خُلقت قبل استحقاق الشياطين الرجم، فإنّ ذلك لم يحصل إلّا بعد أن أُطْرِد إبليس من عالم الملائكة.

ولك أن تجعل { حِفْظًا } منصوبا على المفعول المطلق الآتي بدلا من فعله فيكون في تقدير: وحفظنا، عطفا على { زَيَّنَّا }، أي: حفظنا بالكواكب من كل شيطان مارد.

وليس الذي به الحفظ هو جميع الذي به التزيين بل العلّة موزعة، فالذي هو زينة مشاهد الأبصار، والذي هو حفظ هو المبيّن بقوله تعالى { فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ } [10].

ومعنى كون الكواكب حفظا من الشياطين أنّ من جملة الكواكب الشهب التي تُرجم بها الشياطين عند محاولتها استراق السمع فتفرّ الشياطين خشية أن تصيبها.

وممّا علمتَ من تدحرج هذه الشهب من فلك الشمس إلى فلك الأرض تبيَّن لك سبب كونها من السماء الدنيا وسبب اتصالها بالأجرام الشيطانية الصاعدة من الأرض تتطلّب الاتصال بالسماوات. وقد سُمِّيت شهبا على التشبيه بقبس النار وهو الجمر، وتقدّم في قوله تعالى { أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ } [النمل:7].

المارد: الخارج عن الطاعة، قال تعالى { وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ } [التوبة:101].

وفي وصف الشيطان بالمارد إشارة إلى أنّ ما يصيب إخوانه من الضر بالشهب لا يعظه عن تجديد محاولة الاستراق لما جُبل عليه طبعه الشيطاني من المداومة على تلك السجايا الخبيثة.

{ لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ [8] دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ [9] إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ [10] }.

اعتراض بين جملة { إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا } [6] وجملة { فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا } [11]، قُصد منه وصف قصة طرد الشياطين. ويجوز جعل الجملة بيانا لكيفية الحفظ، أي: انتفى بذلك الحفظ سمع الشياطين.

{ لا يَسَّمَّعُونَ } قرأه حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف بتشديد السين وتشديد الميم مفتوحتين على أن أصله: لا يتسمَّعون، فقلبت التاء سينا توصلا إلى الإدغام، والتسمَّع: تطلب السمع وتكلّفه.

وقرأ الجمهور { لا يَسْمَعُونَ } بسكون السين وتخفيف الميم. والقراءتان في معنى واحد.

وحاصل معنى القراءتين أنّ الشهب تحول بين الشياطين وبين أن يسمعوا شيئا من الملأ الأعلى، وقد كانوا قبل البعثة المحمدية ربّما اختطفوا الخطفة فألقوها إلى الكهّان، فلمّا بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم قدَّر زيادة حراسة السماء بإرداف الكواكب بعضها ببعض حتّى لا يرجع من خطف الخطفة سالما، كما دلّ عليه قوله تعالى { إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ }.

فالشهب كانت موجودة من قبل وكانت لا تحول بين الشياطين وبين تلقّف أخبار مقطّعة من الملأ الأعلى فلمّا بُعث محمد صلى الله عليه وسلم حُرمت الشياطين من ذلك.

{ إِلَى } يشير إلى تضمين فعل { يَسَّمَّعُونَ } معنى: ينتهون فيسمعون، أي: لا يتركهم الرمي بالشهب منتهين إلى الملأ الأعلى بل تدحرهم قبل وصولهم، فلا يتلقّفون من علم ما يجري في الملأ الأعلى إلّا

على أشياء مخطوفة غير متبيَّنة.

{ **الْمَلَإِ** } الجماعة أهل الشأن والقدر. والمراد بهم هنا الملائكة.

{ **الْأَعْلَى** } لتشريف الموصوف.

القذف: الرجم. وإسناد الفعل للمجهول لأنّ القاذف معلوم وهم الملائكة الموكلون بالحفظ المشار إليه في قوله تعالى { وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا } [الجن:8].

الجانب: الجهة.

{ **دُحُورًا** } الدحور: الطرد. وانتصب على أنّه مفعول مطلق لـ { يُقْذَفُونَ } .

العذاب الواصب: الدائم، يقال: وصب يصب وصوبا، إذا دام. والمعنى: أنّهم يُطردون في الدنيا ويُحقَّرون ولهم عذاب دائم في الآخرة. ويجوز أن يكون المراد عذاب القذف وأنّه واصب، أي: لا ينفكّ عنهم كلّما حاولوا الاستراق. لأنّهم مجبولون على محاولتهم.

{ **إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ** } مستثنى من ضمير { لا يَسَّمَّعُونَ } فهو في محل رفع على البدلية منه.

الخطف: ابتدار تناول شيء بسرعة، و**الخطفة** المرّة منه. فهو مفعول مطلق لـ { خَطِفَ } لبيان عدد مرّات المصدر، أي: خطفة واحدة، وهو هنا مستعار للإسراع بسمع ما يستطيعون سمعه من كلام غير تام، كقوله تعالى { يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ } [البقرة:20].

{ **فَأَتْبَعَهُ** } بمعنى تبعه، فهمزته لا تفيده تعدية، وهي كهمزة أبان بمعنى بان.

الشهاب: القبس والجمر من النار. والمراد به هنا ما يُسمَّى بالنيزك في اصطلاح علم الهيئة، وتقدّم في قوله تعالى { فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ } [الحجر:18].

الثاقب: الخارق، أي: الذي يترك ثقبا في الجسم الذي يصيبه، أي: ثاقب له.

وتقدّم الكلام على استراق السمع عند قوله تعالى { وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ } [الشعراء:211/210].

{ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ } [11].

الفاء تفريع على قوله تعالى { إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ } [6]، باعتبار ما يقتضيه من عظيم القدرة على الإنشاء، أي: فسلهم عن إنكارهم البعث وإحالتهم إعادة خلقهم بعد أن يصيروا عظاما ورفاتا، أخلقهم حينئذ أشدّ علينا أم خلق تلك المخلوقات العظيمة؟

{ **فَاسْتَفْتِهِمْ** } ضمير الغيبة عائد إلى غير مذكور للعلم به من دلالة المقام وهم الذين أحالوا إعادة الخلق بعد الممات. وكذلك ضمائر الغيبة الآتية بعده.

وضمير الخطاب منه موجّه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم، أي: فسلهم يا محمد، وهو سؤال محاجّة وتغليط.

الاستفتاء: طلب الفَتْوَى، ويقال: الفُتْيَا. وهي إخبار عن أمر يخفى عن غير الخواص في غرض ما.
وهي: إمّا إخبار عن علمٍ مختصٍّ به المخبِر، قال تعالى { يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ } [يوسف:46]، وقال تعالى { يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ } [النساء:176].
وإمّا إخبار عن رأيٍ يُطلب من ذي رأي موثوق به، ومنه قوله تعالى { قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي } [النمل:32].
{ **أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا** } الهمزة للاستفهام المستعمل للتقرير بضعف خلق البشر بالنسبة للمخلوقات السماويّة، لأنّ الاستفهام يؤول إلى الإقرار.
أشدّ: أصعب وأعسر.
{ **خَلْقًا** } تمييز، أي: أخلقهم أشدّ أم خلق من خلقنا الذي سمعتم وصفه.
{ **أَمْ مَنْ خَلَقْنَا** } ما خلقه الله من السماوات والأرض وما بينهما الشامل للملائكة والشياطين والكواكب المذكورة آنفا. وهذا كقوله تعالى { أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ } [النازعات:27].
{ **إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ** } في موضع العلّة لما يتولّد من معنى الاستفهام السابق من الإقرار بأنّهم أضعف خلقا من خلق السماوات وعوالمها. والضمير عائد إلى المشركين وهو على حذف مضاف، أي: خلقنا أصلهم وهو آدم، فإنّه الذي خُلق من طين لازب، فإذا كان أصلهم قد أنشئ من تراب فكيف يحيلون البعث بمقالاتهم التي منها قولهم { أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ } [الصافات:16].
الطين: التراب المخلوط بالماء.
اللازب: اللاصق بغيره، ومنه أطلق على الأمر الواجب: أمر لازب.
وقد قيل: إنّ باء لازب بدل من ميم لازم، والمعنى: أنّه طين عتيق صار حمأة.

{ **بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ [12] وَإِذَا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ [13] وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ [14]** }.
{ **بَلْ** } للإضراب الانتقالي من التقرير التوبيخي إلى التعجيب من حالهم.
{ **عَجِبْتَ** } قرأ الجمهور بفتح التاء للخطاب. والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم. والفعل الماضي مستعمل في معنى الأمر، وهو من استعمال الخبر في معنى الطلب للمبالغة.
ويجوز أن يكون العجب قد حصل من النبيّ صلى الله عليه وسلم لمّا رأى إعراضهم وقلّة إنصافهم، فيكون الخبر مستعملا في حقيقته. ويجوز أن يكون الكلام على تقدير همزة الاستفهام، أي: بل أعجبت؟ والمعنى على جميع الوجوه: أنّ حالهم حَرِيَّة بالتعجّب، كقوله تعالى { وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ } [الرعد:5].

وقرأ حمزة والكسائي وخلف { بَلْ عَجِبْتُ } (بضم التاء) للمتكلم فيجوز أن يكون المراد: أنّ الله أسند العجب إلى نفسه. ويُعرف أنه ليس المراد حقيقة العجب المستلزمة الروعة والمفاجأة بأمر غير مترقَّب بل المراد التعجيب أو الكناية عن لازمه، وهو استعظام الأمر المتعجَّب منه. وإنّما عدل عن الصريح وهو الاستعظام لأنّ الكناية أبلغ من التصريح، والصارف عن معنى اللفظ الصريح في هذا الوجه ما هو معلوم من مخالفته تعالى للحوادث.

وليس لهذا الاستعمال نظير في القرآن ولكنّه تكرّر في كلام النبوّة، منه قوله صلى الله عليه وسلم: " **إنّ الله ليعجب من رجلين يقتُل أحدهما الآخر يدخلان الجنّة يقاتل هذا في سبيل الله فيُقتل ثم يتوب الله على القاتل فيستشهد** " [رواه النسائي بهذا اللفظ]. يعني ثم يُسلم القاتل الذي كان كافرا فيقاتل فيستشهد في سبيل الله.

وقوله في حديث الأنصاري وزوجه إذ أضافا رجلا فأطعماه عشاءهما وتركا صبيانهما: " **عجِب الله من فعالكما** ". ونزل فيهم قوله تعالى { وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ } [الحشر:9]. [رواه البخاري].

وقوله صلى الله عليه وسلم: " **عجِب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل** " [رواه البخاري في الجهاد].

{ **وَيَسْخَرُونَ** } واو الحال، والجملة في موضع الحال من ضمير { عَجِبْتَ }، أي: كان أمرهم عجبا في حال استسخارهم بك في استفتائهم. وجيء بالمضارع لإفادة تجدّد السخرية، وأنّهم لا يرعَوون عنها.

السخرية: الاستهزاء، وتقدّمت في قوله تعالى { فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ } [الأنعام:10].

{ **وَإِذَا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ** } التذكير بأن يذكروا ما يغفلون عنه من قدرة الله تعالى عليهم، ومن تنظير حالهم بحال الأمم التي استأصلها الله تعالى، فلا يتّعظوا بذلك عنادا. أي: لا يحصل فيهم أثر التذكير.

ويجوز أن يراد لا يذكرون ما ذُكِّروا به، أي: لشدّة إعراضهم عن التأمّل فيما ذُكِّروا به، على حد قوله تعالى { أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ } [الفرقان:44].

{ **وَإِذَا رَأَوْا آيَةً** } أي: خارق عادة أظهره الرسول صلى الله عليه وسلم دالا على صدقه، لأنّ الله تعالى لا يُغيِّر نظام خلقته في العالم إلّا إذا أراد تصديق الرسول، لأنّ خرق العادة من خالق العادات وناظم سُنن الأكوان قائم مقام قوله: صدق هذا الرسول فيما أخبر به عني.

{ **يَسْتَسْخِرُونَ** } مبالغة في السخرية، فالسين والتاء للمبالغة كقوله { فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ } [آل عمران:195].

فالسخرية المذكورة سخرية من محاجّة النبيّ صلى الله عليه وسلم إيّاهم بالأدلة.

{ **وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ** [15] **أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ** [16] **أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ** [17] **قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ** [18] **فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ** [19] }.

عطف على جملة { فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا } [11].

{ **وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ** } الإشارة إلى مضمون قوله تعالى { فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا }، وهو إعادة الخلق عند البعث. أي: أجابوا بأنّ ادعاء إعادة الحياة بعد البلى كلام سحر مبين، أي: كلامٌ لا يُفهم قُصد به سحر السامع.

{ **أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ** } الاستفهام إنكاري، فلذلك كان قوله تعالى { قُلْ نَعَمْ } جوابا لقولهم { أَإِذَا مِتْنَا } على طريقة الأسلوب الحكيم بصرف قصدهم من الاستفهام إلى ظاهر الاستفهام، فجُعلوا كالسائلين: أيبعثون؟ فقيل لهم: نعم، تقريرا للبعث المُسْتفهم عنه، أي: نعم تبعثون.

{ **أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ** } قرأه قالون عن نافع وابن عامر وأبو جعفر بسكون واو {أَوْ} على أنّ الهمزة مع الواو حرف واحد هو (أو العاطفة) المفيدة للتقسيم هنا، ووجه العطف بـ {أو} هو جعلهم الآباء الأوّلين قِسْما آخر فكان عطفه ارتقاء في إظهار استحالة إعادة هذا القِسْم، لأنّ آباءهم طالت عصور فنائهم فكانت إعادة حياتهم أوغل في الاستحالة.

وقرأ الباقون بفتح الواو { أَوَ} على أنّ الواو واو العطف والهمزة همزة استفهام، فهما حرفان. وقُدِّمت همزة الاستفهام على حرف العطف حسب الاستعمال الكثير. والتقدير: وأآباؤنا الأولون مثلنا.

{ **قُلْ نَعَمْ** } جيء بـ { قُلْ } غير معطوف لأنّه جار على طريقة الاستعمال في حكاية المحاورات.

{ **وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ** } جملة في موضع الحال. و**الداخر**: الصاغر الذليل، أي: تبعثون بعث إهانة مؤذنة بتقريب العقاب، لا بعث كرامة.

{ **فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ** } فُرِّع على إثبات البعث الحاصل بقوله { نَعَمْ }، أنّ بعثهم وشيك الحصول لا يقتضي معالجة ولا زمنا إن هي إلّا إعادة تنتظر زجرة واحدة.

{ **هِيَ** } ضمير القصة والشأن، وهو لا معاد له إنّما تفسِّره الجملة التي بعده.

الزجرة: الصيحة، وتقدّم آنفا قوله تعالى { فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا } [2].

{ **وَاحِدَةٌ** } تأكيد لما تفيده صيغة الفَعلة من معنى المّرة لدفع توهُّم أن يكون المراد من الصيحة الجنس دون الوجود، لأنّ وزن الفعلة يجيء لمعنى المصدر دون المرّة.

{ **فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ** } تفريع، ودلَّ فاء التفريع على تعقيب المفاجأة، ودل حرف المفاجأة (إذا) على سرعة حصول ذلك. وتقدّم في قوله تعالى { إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ } [يس:25].

والقول كناية عن الحياة الكاملة التي لا دهش يخالطها، لأنّ النظر لا يكون إلّا مع تمام الحياة. وأوثر

النظر من بين بقية الحواس لمزيد اختصاصه بالمقام وهو التعريض بما اعتراهم من البهت لمشاهدة الحشر.

{ **وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ** } [20].

يجوز أن تكون الواو للحال، أي: يقول جميعهم: يا ويلنا، يقوله كل أحد عنه وعن أصحابه.

ويجوز أن يكون عطفا على جملة { يَنْظُرُونَ } [19]. والمعنى: ونظروا وقالوا.

الويل: سوء الحال. وحرف النداء للاهتمام. وتقدّم نظيرة في قوله تعالى { يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ } [يس:30].

{ **هَذَا** } الإشارة إلى اليوم المشاهد.

الدين: الجزاء، وتقدّم في سورة الفاتحة.

{ **هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ** } [21].

يجوز أن يكون هذا كلاما موجَّهًا إليهم من جانب الله تعالى جوابا عن قولهم { يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ } [20]، والخبر مستعمل في التعريض بالوعيد.

ويجوز أن يكون من تمام قولهم، أي: يقول بعضهم لبعض { هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ }.

{ **الْفَصْلِ** } تمييز الحق من الباطل، والمراد به الحكم والقضاء.

{ **احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ** [22] **مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ** [23] **وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ** [24] **مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ** [25] **بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ** [26] }.

تخلّص من الإنذار بحصول البعث إلى الإخبار عمّا يحلّ بهم عقبه إذا ثبتوا على شركهم وإنكارهم البعث.

{ **احْشُرُوا** } أمر، وهو يقتضي آمرا، أي: ناطقا به. وظاهر أنّه أمر من قبل الله تعالى للملائكة.

الحشر: جمع المتفرّقين إلى مكان واحد.

{ **الَّذِينَ ظَلَمُوا** } المشركون { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان:13].

{ **وَأَزْوَاجَهُمْ** } ظاهرة أنّ المراد به حلائلهم وهو تفسير مجاهد والحسن. وتأويله: أنهنّ الأزواج الموافقات لهم في الإشراك، أما من آمن فهنّ ناجيات من تبعات أزواجهنّ، وهذا كذكر أزواج المؤمنين في قوله { هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ } [يس:56]. وذكر الأزواج إبلاغ في الوعيد والإنذار لئلّا يحسبوا أنّ النساء المشركات لا تبعة عليهن.

وقيل: الأزواج: الأصناف، أي: أشياعهم في الشرك وفروعه. قاله قتادة وهو رواية عن عمر بن الخطاب وابن عباس. وعن الضحّاك: " الأزواج: المقارنون لهم من الشياطين ".

{ **وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ** } ضمير { يَعْبُدُونَ } عائد إلى { الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ }. وما صدق (ما) غير العقلاء، فأمّا العقلاء فلا تزر وازرة وزر أخرى. إلّا من رضي بأن يكون معبودا من دون الله.

{ **فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ** } الضمير المنصوب عائد إلى { الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ }. والعطف بفاء التعقيب إشارة إلى سرعة الأمر بهم إلى النار عقب ذلك الحشر.

الهِداية و**الهَدْيُ**: الدلالة على الطريق لمن لا يعرفه، فهي إرشاد إلى مرغوب وقد غلبت في ذلك، لأنّ كون المهدي راغبا في معرفة الطريق من لوازم فعل الهداية ولذلك تُقابل بالضلالة وهي الحيرة في الطريق. فاللفظة هنا تهكّم بالمشركين.

الصراط: الطريق، أي: طريق جهنم.

{ **وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ** } أمر بإيقافهم في ابتداء السير بهم، أي: أحبسوهم عن السير قليلا ليُسألوا.

{ **مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ** } الجملة مبيّنة لإبهام { مَسْؤُولُونَ }. والاستفهام مستعمل في التعجيز والتعجيب، أي: أنّ هذه الحالة تستوجب التعجّب من عدم تناصركم. وفيه تنبيه على الخطأ الذي كانوا فيه في الحياة الدنيا. أي: ما لكم لا ينصر بعضكم بعضا فيدفع عنه الشقاء الذي هو فيه؟ وأين تناصركم الذي كنتم تتناصرون في الدنيا وتتألبون على الرسول وعلى المؤمنين؟

{ **بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ** } الإضراب المستفاد من { **بَلْ** } إضراب لإبطال إمكانية التناصر بينهم، وليس ذلك مما يتوهَّمه السامع، فلذلك كان الإضراب تأكيدا لما دلّ عليه الاستفهام من التعجيز.

الاستسلام: الإسلام القويّ، أي: إسلام النفس وترك المدافعة فهو مبالغة في أسلم.

{ **الْيَوْمَ** } ذكره لإظهار النكاية بهم، أي: زال عنهم ما كان لهم من تناصر وتطاول على المسلمين في الدنيا.

{ **وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ [27] قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ [28] قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ [29] وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ [30] فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ [31] فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ [32]** }.

عطف على { مُسْتَسْلِمُونَ }، أي: استسلموا وعاد بعضهم على بعض باللائمة.

المتسائلون: المتقاولون، وهم زعماء أهل الشرك ودهماؤهم كما تبيّنه حكاية تحاورهم.

{ **وَأَقْبَلَ** } عُبّر عن إقبالهم بصيغة الماضي ممّا سيقع في القيامة، تنبيها على تحقيق وقوعه لأنّ لذلك مزيد تأثير في تحذير زعمائهم من التغرير بهم، وتحذير دهمائهم من الاعتزاز بتغريرهم.

الإقبال: المجيء من جهة قُبُل الشيء، أي: من جهة وجهه، وهو مجيء المتجاهر بمجيئه غير المُتختِّل الخائف. واستعير هنا للقصد بالكلام والاهتمام به كأنّه جاءه من مكان آخر.

{ **قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ** } حاصل المعنى حكاية عتاب ولوم توجَّه به الذين اتبعوا على قادتهم. ودلالة التركيب أن يكون الإتيان أطلق على الدعاية والخطابة فيهم، لأنّ الإتيان يتضمّن القصد دون إرادة مجيء. وقد تقدّم استعماله واستعمال مرادفه وهو المجيء معا في قوله تعالى { قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ } [الحجر:64/63].

أو أن يكون اليمين مرادا به جهة الخير لأنّ العرب تضيف الخير إلى جهة اليمين. وقد اشتقت من **اليُمْن** وهو البركة، وهي مؤذنة بالفوز بالمطلوب عندهم. وعلى ذلك جرت عقائدهم في زجر الطير والوحش من التيمُّن بالسانح، وهو الوارد من جهة يمين السائر، والتشاؤم، أي ترقُّب ورود الشر من جهة الشمال.

وكان حق فعل { تَأْتُونَنَا } أن يُعدَّى إلى جهة اليمين بحرف (من) فلمّا عُدِّي بحرف { عَنِ } الذي هو للمجازة تعين تضمين { تَأْتُونَنَا } معنى (تصدّوننا) ليلائم معنى المجاوزة، أي: تأتوننا صادّيننا عن اليمين، أي: عن الخير.

{ **بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** } جواب الزعماء إضراب إبطال لزعم الأتباع أنّهم الذين صدّوهم عن طريق الخير. أي: بل كنتم أنتم الآبين قبول الإيمان.

{ **وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ** } أي: من قهر وغلبة حتّى نكرهكم على رفض الإيمان.

{ **بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ** } تأكيد لقولهم السابق، أي: كان الطغيان، وهو التكبّر عن قَبول دعوة رجل منكم، شأنكم وسجيّتكم.

{ **كُنْتُمْ قَوْمًا** } أقحموا لفظ { قَوْمًا } بين (كان) وخبرها لأنّ استحضارهم بعنوان القومية في الطغيان يؤذن بأنّ الطغيان من مقوّمات قوميتهم، كما قدّمنا عند قوله تعالى { لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [البقرة:164].

{ **فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ** } فرّعوا على كلامهم اعترافهم بأنّهم جميعا استحقّوا العذاب.

{ **فَحَقَّ** } هنا بمعنى ثبت.

{ **إِنَّا لَذَائِقُونَ** } بيان لـ { قَوْلُ رَبِّنَا }. وحُكِي القول بالمعنى على طريقة الالتفات ولولا الالتفات لقال: إنّكم لذائقون، أو لقيل: إنّهم لذائقون. ونكتة الالتفات زيادة التنصيص على المعني بذوق العذاب.

والمفعول محذوف لدلالة المقام عليه وهو الأمر بقوله تعالى { فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ } [23].

{ **فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ** } فرَّعوا على مضمون ردِّهم عليهم من قولهم { بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ - إلى قولهم - قَوْماً طَاغِينَ }، أي: ما أكرهناكم على الشرك ولكنّا وجدناكم متمسّكين به وراغبين فيه فأغويناكم.

{ **إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ** } موقع هذه الجملة موقع العلّة. و(إن) مغنية غناء لام التعليل وفاء التفريع.

{ **كُنَّا** } زيادة للدلالة على تمكين الغواية من نفوسهم، وقد استبان لهم أنّ ما كانوا عليه غواية فأقروا بها.

{ **فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ** [33] **إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ** [34] }.

هذا الكلام من الله تعالى موجَّه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، ويُشبه أن يكون اعتراضا بين حكاية حوار الله أهل الشرك في القيامة وبين توبيخ الله إيّاهم بقوله { إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ } [38].

{ **فَإِنَّهُمْ** } الفاء للفصيحة، لأنّها وردت بعد تقرير أحوال، وكان ما بعد الفاء نتيجة لتلك الأحوال، فكانت الفاء مفصحة عن شرط مقدَّر، أي: إذ كان حالهم كما سمعتم فإنّهم يوم القيامة في العذاب مشتركون، لاشتراكهم في الشرك وتمالئهم، أي: لا عذر للكلام للفريقين؛ لا للزعماء بتسويلهم ولا للدهماء بنصرهم. وقد يكون عذاب الدعاة المغوين أشدّ من عذاب الآخرين وذلك لا ينافي الإشراك في جنس العذاب كما دلّت عليه أدلة أخرى، لأنّ المقصود هنا بيان عدم إجداء معذرة كلا الفريقين وتنصّله.

{ **إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ** } تعليل لما اقتضته الجملة السابقة، أي: فإنّ جزاء المجرمين يكون مثل ذلك الجزاء في مؤاخذة التابع والمتبوع.

{ **بِالْمُجْرِمِينَ** } المشركون، أي: المجرمين مثل جرمهم، وقد بيَّنته الآية اللاحقة.

{ **إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ** [35] **وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ** [36] }.

استئناف بياني أفاد تعليل جزائهم وبيان إجرامهم بذكر ما كانوا عليه من التكبّر عن الاعتراف بالوحدانية لله ومن وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بما هو منزّه عنه، وصفا يرمون به إلى تكذيبه فيما جاء به.

{ **إِنَّهُمْ** } حرف (إن) هنا ليس للتأكيد، لأنّ كونهم كذلك ممّا لا منازع فيه وإنّما هو للاهتمام بالخبر، فلذلك يفيد التعليل والربط ويغني غناء فاء التفريع.

{ **كَانُوا** } ذكر فعل الكون ليدل على أنّ ما تضمّنه الخبر وصف متمكّن منهم.

{ **إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ** } يقال لهم على سبيل الدعوة والتعليم. وفاعل القول النبيّ صلى الله عليه وسلم، حُذف للعلم به.

الاستكبار: شدّة الكبر، فالسين والتاء للمبالغة، أي: يتعاظمون عن أن يقبلوا ذلك من رجل مثلهم.

ولك أن تجعل السين والتاء للطلب، أي: إظهار التكبّر، أي: يبدو عليهم التكبّر من هذا القول.

{ **وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ** } يقوله بعضهم لبعض ويقارن استكبارهم. أي: لا نترك آلهتنا لشاعر مجنون.

{ **لِشَاعِرٍ** } لام العلة والأجل، أي: لأجل شاعر، أي: لأجل دعوته.

{ **لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ** } قول موزع، أي: يقول بعضهم: هو شاعر، وبعضهم: هو مجنون، أو يقولون مرة: شاعر، ومرة: مجنون، كما في الآية الأخرى { كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ

مَجْنُونٌ } [الذريات:52].

{ **بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ** } [37].

اعتراض في آخر الاعتراض قُصدت منه المبادرة بتنزيه النبيّ صلى الله عليه وسلم عمّا قالوه.

{ **بَلْ** } إضراب إبطال لقولهم { لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ } [36] وبإثبات صفته الحق لبيان حقيقة ما جاء به.

{ **جَاءَ بِالْحَقِّ** } هذا الوصف يكفي لنفي أن يكون شاعرا ومجنونا، فإنّ المشركين ما أرادوا بوصفه بشاعر أو مجنون إلّا التنفير من اتِّباعه فمثَّلوه بالشاعر يهجو أعداء قبيلته، أو بالمجنون يقول ما لا يقوله العقلاء.

{ **وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ** } تذكيرهم بأنّه ما جاء إلّا بمثل ما جاءت به الرسل من قبله، فكان الإنصاف أن يُلحقوه بالفريق الذي شابههم. أي: أنّ ما دعاكم إليه من التوحيد قد دعت إليه الرسل من قبله. وهذا احتجاج بالنقل عقب الاحتجاج بأدلة النظر.

{ **إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ** [38] **وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** [39] }.

هذا من كلام الله يوم القيامة الموجّه إلى المشركين عقب تساؤلهم وتحاورهم، فيكون ما بين هذا وبين محاورتهم المنتهية بقولهم { إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ } [32]اعتراضا، أي: فلمّا انتهوا من تحاورهم خُوطبوا بما يقطع طمعهم في قبول تنصّل كِلَا الفريقين من تبعات الفريق الآخر ليزدادوا تحقُّقا من العذاب الذي علموه من قولهم { فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ } [31].

{ **لَذَائِقُو** } اسم الفاعل حقيقة في الحال، أي: حال التلبّس، فإنّه لمّا قيل لهم هذا كانوا مشرفين على الوقوع في العذاب. وذلك زمن حال في العرف العربي.

{ **وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } لمّا وُصف عذابهم بأنّه أليم عطف عليه إخبارهم بأنّ ذلك المقدار لا حيف عليهم فيه لأنّه على وفاق أعمالهم التي كانوا يعملونها في الدنيا من آثار الشرك، والحظ الأكبر من ذلك الجزاء هو حظ الشرك، ولكن كُنِّي عن الشرك بأعماله، وأمّا هو فهو أمر اعتقادي.

وفي هذا دليل على أنّ الكفّار مجازَوْن على أعمالهم السيئة من الأقوال والأفعال. وهو يؤيّد قول الذين ذهبوا إلى أنّ الكفّار مخاطبون بفروع الشريعة.

{ **إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ [40] أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ [41] فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ [42] فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ [43] عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ [44] يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ [45] بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ [46] لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ [47] وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ [48] كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ [49]** }.

{ **إِلَّا** } استثناء منقطع في معنى الاستدراك، والاستدراك تعقيب الكلام بما يضاده، وهذا الاستدراك تعقيب على قوله تعالى { فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ } [33]، فإنّ حال عباد الله المخلصين تام الضدّيَّة لحال الذين ظلموا، وليس يلزم في الاستدراك أن يكون رفع توهّم وإنّما ذلك غالب.

{ **عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ** } ذكر المؤمنين بوصف العبودية المضافة لله تعالى تنويه بهم وتقريب، وذلك اصطلاح غالب في القرآن في إطلاق العبد والعباد مضافا إلى ضميره تعالى كقوله تعالى { وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ } [صّ:17]، وقوله تعالى { وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ } [صّ:45]، وقوله تعالى { يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ } [الزخرف:68].

وربما أطلق العبد غير مضاف مرادًا به التقريب أيضا كقوله { وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ } [صّ:30]. والمراد هنا الذين آمنوا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم فإنّهم الذين يخطرون بالبال عند ذكر أحوال المشركين.

{ **الْمُخْلَصِينَ** } صفة عباد الله وهو (بفتح اللام) إذا أريد الذين أخلصهم الله لولايته، (وبكسرها) الذين أخلصوا دينهم لله. فقرأه نافع وعاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف بفتح اللام. وقرأه ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب بكسر اللام.

{ **أولئك** } إشارة إلى { عِبَادَ اللَّهِ }، قُصد منه التنبيه على أنّهم استحقّوا ما بعد اسم الإشارة لأجل مما أُثْبِت لهم من صفة الإخلاص.

الرزق: الطعام، قال تعالى { وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا } [آل عمران:37].

المعلوم: الذي لا يتخلّف عن ميعاده ولا ينتظره أهله.

{ **فَوَاكِهُ** } عطف بيان من { رِزْقٌ }. والمعنى: أنّ طعامهم كلّه من الأطعمة التي يُتفكَّه بها لا ممّا يؤكل لأجل الشبع. و**الفواكه**: الثمار والبقول اللذيذة.

{ **وَهُمْ مُكْرَمُونَ** } عطف على { لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ }، أي: يعاملون بالحفاوة والبهجة. فإنّه وسط في أثناء وصف ما أُعِدَّ لهم من النعيم الجسماني، لأنّ به انتعاش النفس، مع ما في ذلك من خلوص النعمة ممّن يكدِّرها، وذلك لأنّ الإحسان قد يكون مقترنا بأذى وذلك يكدّر من صفوه، قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى } [البقرة:264]، فإذا كان الإحسان مع عبارات الكرامة فذلك الثواب.

{ **سُرُرٍ** } جمع سرير وهو ككرسي واسع يمكن الاضطجاع عليه، وكان الجلوس على السرير من شعار

الملوك وأضرابهم، وذلك جلوس أهل النعيم، لأنّ الجالس على السرير لا يجد مللا لأنّه يغير جلسته.
{ **مُتَقَابِلِينَ** } كلّ واحد قبالة الآخر. وهذا أتم للأنس لأنّ فيه أنس الاجتماع وأنس نظر بعضهم إلى بعض.
{ **يُطَافُ** } يدار عليهم وهم في مجالسهم.
الكأس: تكون من فضة ومن ذهب ومن خزف ومن زجاج، وتُسمَّى قدحا وهو مذكر. وجمعها: كاسات وكؤوس وأكؤس. وكانت خاصة بسقي الخمر حتّى كانت الكأس من أسماء الخمر تسمية باسم المحل.
وقد قيل: لا يسمى ذلك الإناء كأسا إلَا إذا كانت فيه الخمر وإلّا فهو قدح.
والمعني بها في الآية الخمر لأنّه أفراد الكأس مع أنّ المطوف عليهم كثيرون، ولأنّها وصفت بأنّها { مِنْ مَعِينٍ }. وروى ابن أبي شيبة والطبري عن الضحاك أنّه قال: " كلّ كأس في القرآن إنّما عني بها الخمر". وروي مثله عن ابن عباس وقال به الأخفش.
{ **مِنْ مَعِينٍ** } بفتح الميم، قيل أصله: مَعْيُون. فقيل: ميمه أصلية، وهو مشتق من مَعَنَ يقال: ماء مَعَنٌ، مثال مبالغة من (المَعْن) وهو الإبعاد في الفعل، شُبِّه جريه بالإبعاد في المشي، وهذا أظهر في الاشتقاق.
{ **بَيْضَاءَ** } صفة لـ { بِكَأْسٍ }. وإذ قد أريد بالكأس الخمر الذي فيها كان وصف { بَيْضَاءَ } للخمر.
اللذة: ما تجده النفس من راحة وسرور. يقال: لذَّه ولذَّ به، والمصدر: اللذة واللذاذة.
{ **لا فِيهَا غَوْلٌ** } صفة رابعة لكأس باعتبار إطلاقه على الخمر. و**الغَوْل**: (بفتح الغيْن) ما يعتري شارب الخمر من الصداع والألم، اشتُق من الغول مصدر غاله، إذا أهلكه. وهذا في معنى قوله تعالى { لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا } [الواقعة:19].
{ **وَلا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ** } معطوفة على جملة { لا فِيهَا غَوْلٌ }. مبني للمجهول عند الجمهور. يقال: نزف الشارب، شَبَّهوا عقل الشارب بالدم يقال: نزف دم الجريح، أي: أفرغ. وأصله من: نَزَفَ الرجُلُ ماء البئر: إذا نزحه ولم يبق منه شيئا.
وقرأه حمزة والكسائي وخلف { يُنْزِفُونَ } (بضم الياء وكسر الزاي) من أُنزف الشاربُ، إذا ذهب عقله، أي: صار ذا نزف، فالهمزة للصيرورة لا للتعدية.
{ **قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ** } أي: حابسات أنظارهن حياء وغَنجا. و**الطرف**: العين، وهو مفرد لا جمع له من لفظه لأنّ أصل الطرف مصدر: طرف بعينه من باب ضرب، إذا حرّك جفنيه، فسُمِّيت العين طرفا، فالطرف هنا الأعين، أي: قاصرات الأعين، وتقدّم عند قوله تعالى { لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ } [إبراهيم:43]، وقوله تعالى
{ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ } [النمل:40].
{ **عِينٌ** } جمع: عيناء، وهي المرأة واسعة العين.
{ **كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ** } هو بيض النعام، والنعام يُكِنُّ بيضه في حفر في الرمل ويفرش لها من دقيق ريشه، وتُسمَّى تلك الحفر: الأداحِيَّ، واحدتها أدْحِيَةٌ. فيكون البيض شديد لمعان اللون، وهو أبيض مشوب

بياضه بصفرة، وذلك اللون أحسن ألوان النساء، وقديما شبهوا الحسان ببيض النعام.

{ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ [50] قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ [51] يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ [52] أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ [53] قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ [54] فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ [55] قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ [56] وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ [57] }.

الفاء للتفريع، لأنّ شأن المتجالسين في مسرَّة أن يشرعوا في الحديث. فإذا استشعروا أنّ ما صاروا إليه من النعيم كان جزاء على ما سبق من إيمانهم وإخلاصهم تذكَّر بعضهم من كان يجادله في ثبوت البعث والجزاء فحمد الله على أن هداه لعدم الإصغاء إلى ذلك الصادِّ فحدَّث بذلك جلساءه وأراهم إيّاه في النار.

وهذا يدلّ على أنّ الناس في الآخرة تعود إليهم تذكراتهم التي كانت لهم في الدنيا مصفَّاة من الخواطر السيِّئة والأكدار النفسانية، مدركة الحقائق على ما هي عليه.

وجيء في حكاية هذه الحالة بصيغ الفعل الماضي مع أنّها مستقبلة لإفادة تحقيق وقوع ذلك حتّى كأنّه قد وقع، على نحو قوله تعالى { أَتَى أَمْرُ اللَّهِ } [النحل:1]، والقرينة هي التفريع على الأخبار المتعلّقة بأحوال الآخرة.

{ يَتَسَاءَلُونَ } أي: يسأل بعضهم بعضا، وحُذف المتساءل عنه لدلالة ما بعده عليه، وقد بيّن نحوًا منه قولُه تعالى { فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ } [المدثر:40-42].

{ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ } بدل اشتمال من جملة { يَتَسَاءَلُونَ }، أي: قال أحدهم في جواب سؤال بعضهم، فإن معنى التساؤل يشتمل على معنى الجواب فلذلك جعلناه بدل اشتمال لا بدل بعض ولا عطف بيان.

القرين: المصاحب الملازم، شُبِّهت الملازمة الغالبة بالقرن بين شيئين بحيث لا ينفصلان.

وقد فسّر بعض المفسرين القرين هنا بالشيطان الذي يلازم الإنسان لإضلاله وإغوائه. وطريق حكاية تصدِّي القائل من أهل الجنة لإخبار أهل مجلسه بحاله يبطل هذا التفسير لأنّه لو كان المراد الشيطان لكان إخباره به غير مفيد فما من أحد منهم إلّا كان له قرين من الشياطين، وما منهم إلّا عالم بأنّ مصير الشياطين إلى النار.

{ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ } أي: يقول له صاحبه لمّا أسلم وبقي صاحبه على الكفر، يجادله في الإسلام ويحاول تشكيكه في صحّته رجاء أن يرجع به إلى الكفر. والاستفهام مستعمل في الإنكار، أي: ما كان يحقّ لك أن تصدِّق بهذا.

المصدِّق: الموقن بالخبر.

{ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ } بيان لجملة { أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ } بيَّنت الإنكار المجمل

بإنكار مفصّل، وهو إنكار أن يُبعث الناس بعد تفرّق أجزائهم وتحوّلها ترابا بعد الموت ثم يجازوا.

المَدِين: المُجَازَى. يقال: دانه يدينه، إذا جازاه، والأكثر استعماله في الجزاء على السوء، والدين: الجزاء.

{ **قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ** } بدل اشتمال من جملة { قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ } لأنّ هذا القول ممّا اشتمل عليه قوله الأول إذ هو تكملة. والاستفهام مستعمل في العرض، عرض على رفقائه رؤية قرينه وما صار إليه، وذلك: إمّا لأنّه علم أنّ قرينه مات على الكفر بأن يكون قد سبقه بالموت، وإمّا لأنّه ألقي في روعه أنّ قرينه صار إلى النار.

وحذف متعلّق { مُطَّلِعُونَ } لدلالة آخر الكلام عليه { فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ } . فالتقدير: هل أنتم مطلعون على أهل النار لننظره فيهم.

{ **فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ** } في الكلام اكتفاء، أي: فاطلع واطّلعوا فرآه ورأوه في سواء الجحيم.

{ **سَوَاءِ الْجَحِيمِ** } وسطها.

{ **قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ** } مستأنفة استئنافا بيانيا عن سؤال مقدّر عن قوله عندما رأى قرينه، ماذا قال؟ والقول توبيخ يتضمّن تنديمه على محاولة إرجاعه عن الإسلام.

{ **تَاللَّهِ** } القسم بالتاء من شأنه أن يقع فيما جواب قسمه غريب، كما في قوله تعالى { قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ} [يوسف:73]، وقوله تعالى { وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ } [الأنبياء:57]. ومحل الغرابة هو اختلاف حال عاقبتيهما مع ما كانا عليه من شدّة الملازمة والصحبة.

{ **لَتُرْدِينِ** } توقعني في الردى وهو الهلاك، واصل الردى: الموت ثم شاعت استعارته لسوء الحال تشبيها بالموت لِمَا شاع من اعتبار الموت أعظم ما يصاب به المرء.

{ **وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ** } أي: لولا نعمة هداية الله وتثبيته لكنت من المحضرين معك في العذاب. وقد كثر إطلاق المحضر ونحوه على الذي يحضر لأجل العقاب.

{ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ [58] إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ [59] إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [60] }.

الاستفهام موجَّه من هذا القائل إلى بعض المتسائلين. وهو مستعمل في التقرير المراد به التذكير بنعمة الخلود، فإنّه بعد أن اطلعهم على مصير قرينه السوء أقبل على رفاقه بإكمال حديثه تحدُّثا بالنعمة واغتباطا وابتهاجا بها.

{ **إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى** } الاستثناء منقطع لأنّ الموت المنفي هو الموت في الحال.

{ **وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ** } ليتمحّض الاستفهام للتحدُّث بالنعمة، لأنّ المشركين أيضا ما هم بميّتين ولكنّهم معذّبون فحالهم شرّ من الموت.

{ **إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** } الظاهر أنّ الجملة حكاية لبقية كلام القائل لرفاقه، فهي بمنزلة التذييل

والفذلكة.

{ **الفوز** } الظفر بالمطلوب، أي: حالنا هو النجاح والظفر العظيم. فالحصر للمبالغة لعدم الاعتداد بغيره، ثم ألحقوا ذلك الحصر بوصفه بـ { العظيم }.

{ **لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ** } [61].

هذا تذييل لحكاية حال عباد الله المخلَصين فهو كلام من جانب الله تعالى للتنويه بما هم فيه، وللتحريض على العمل بمثل ما عملوه ممّا أوجب لهم إخلاص الله تعالى إيّاهم.

{ **لِمِثْلِ هَذَا** } الإشارة إلى ما تضمَّنه قوله تعالى { أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ } [41]، أي: لمثل نعيمهم وأنسهم ومسرّتهم ولذّاتهم وبهجتهم وخلود ذلك كلّه.

{ **فَلْيَعْمَلِ** } الأمر للإرشاد الصادق بالواجبات والمندوبات.

{ **الْعَامِلُونَ** } الذين يعملون الخير ويسيرون على ما خطت لهم شريعة الإسلام.

{ **أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ** [62] **إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ** [63] **إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ** [64] **طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ** [65] **فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ** [66] **ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ** [67] **ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ** [68] }.

استئناف بعد تمام قصة المؤمن ورفاقه قُصد منه التنبيه إلى البون بين حال المؤمن والكافر جرى على عادة القرآن في تعقيب القصص والأمثال بالتنبيه إلى مغازيها ومواعظها.

<u>فالمقصود بالخبر</u> هو قوله تعالى { إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ...}. وإنّما صيغ الكلام على هذا الأسلوب للتشويق إلى ما يرد فيه.

{ **أَذَلِكَ خَيْرٌ** } الاستفهام مُكنًّى به عن التنبيه على فضل حال المؤمن وفوزه وخسار الكافر. والخطاب لكلّ سامع. والاشارة بـ (ذلك) إلى ما تقدّم من حال المؤمنين في النعيم والخلود.

النُزُل: (بضمّتين)، ويقال: نُزْل (بضم وسكون)، في أصل اللغة: المكان الذي ينزل فيه النازل. وأطلق إطلاقا شائعا كثيرا على الطعام المهيّأ للضيف لأنّه أعدَّ له لنزوله، تسمية باسم مكانه.

<u>ويجوز</u> أن يكون المراد من النزل هنا طعام الضيافة في الجنّة.

{ **أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ** } شجرة الزقوم ذُكرت هنا ذكر ما هو معهود من قبل لورودها معرفة بالإضافة لوقوعها في مقام التفاوت بين حالي خير وشر فيناسب أن تكون الحوالة على مثلين معروفين.

<u>فإمّا أن يكون اسما جعله القرآن لشجرة في جهنم</u> ويكون سبق ذكرها في { ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ } [الواقعة:52/51]، وكان نزولها قبل سورة الصافات.

ويبين هذا ما رواه الكلبي: " أنّه لما نزلت هذه الآية (آية سورة الواقعة) قال ابن الزِّبَعْرَى: " أكثر الله في بيوتكم الزقوم، فإنّ أهل اليمن يسمُّون التمر والزبد بالزقوم. فقال أبو جهل لجاريته: " زقمينا " فأتته بزبد وتمر فقال: " تزقموا ".

وإمّا أن يكون اسما لشجر معروف هو مذموم، قيل: " هو شجر من أخبث الشجر يكون بتهامة وبالبلاد المجدبة المجاورة للصحراء، كريهة الرائحة صغيرة الورق مسمومة ذات لبن إذا أصاب جلد الإنسان تورم ومات منه في الغالب ". قاله قطرب وأبو حنيفة.

وتصدِّي القرآن لوصفها المفصّل هنا يقتضي أنّها ليست معروفة عندهم فذَكَرَها مجملة في سورة الواقعة فلمّا قالوا ما قالوا فصَّل أوصافها هنا بهذه الآية وفي سورة الدخان بقوله { إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ كَالْمُهْلِ تَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ } [الدخان:43-46].

وقد سمّاها القرآن بهذه الإضافة كأنّها مشتقة من **الزُقْمة** (بضم الزاء وسكون القاف) وهم اسم الطاعون.

{ **إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ** } أي: عذابا، مثل ما في قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ } [البروج:10]، أي: عذَّبوهم بأخدود النار.

وفُسِّرت الفتنة أيضا بأنّ خبر شجرة الزقوم كان فتنة للمشركين. أي: جعلنا ذكرها مثيرا لفتنتهم بالتكذيب والتهكّم دون تفهّم، وذلك مثل قوله تعالى { وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا } [المدثر:31]، فإنّه لمّا نزل قوله تعالى في وصف جهنم {عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ } [المدثر:30] قال أبو جهل لقريش: " ثكلتكم أمهاتكم إنّ ابن أبي كبشة يخبركم أنّ خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدُّهم، أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم، فقال أبو الاشد الجمحمي: " أنا أكفيكم سبعة عشر فاكفوني أنتم اثنين "، فأنزل الله تعالى { وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا} [المدثر:31].

{ **إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ** } استأنف لوصفها استئنافا ثانيا مكرّرا فيه كلمة { إِنَّهَا } للتهويل.

{ **تَخْرُجُ** } تنبت، كما قال تعالى { وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ } [الأعراف:58]. ومن عجيب قدرة الله تعالى أن جعل من النار شجرة وهي نارية لا محالة. قال ابن عطية: "عن السدي ومجاهد قال الكفاّر: " كيف يُخبر محمد عن النار أنّها تُنبت الأشجار، وهي تأكلها وتذهبها، فقولهم هذا ونحوه من الفتنة، لأنّه يزيدهم كفرا وتكذيبا ".

{ **طَلْعُهَا** } أي: ثمرها، وأطلق عليه اسم الطلع على وجه الاستعارة تشبيها له بطلع النخلة لأنّ اسم الطلع خاص بالنخيل.

{ **كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ** } يجوز أن يكون مرادا بها رؤوس شياطين الجنّ، جمع شيطان بالمعنى المشهور ورؤوس هذه الشياطين غير معروفة لهم، فالتشبيه بالمجهول لتذهب المخيّلة كلّ مذهب، وذلك أوقع للخوف.

وقيل: أريد برؤوس الشياطين ثمر **الأَسْتَن** (بفتح الهمزة وسكون السين وفتح التاء) شجرة في بادية اليمن يشبه شخوص الناس ويُسمَّى ثمرة رؤوس الشياطين، وإنّما سَمَّوه كذلك لبشاعة مرآه ثم صار معروفا.

وقيل: جمع شيطان وهو من الحيّات ما لرؤوسها أعراف.

وهذه الصفات التي وُصفت بها شجرة الزقوم بالغة حدا عظيما من الذم وذلك الذم هو الذي عُبِّر عنه بالملعونة في قوله تعالى { وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ } [الإسراء:60].

{ **فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ** } أنذروا بأنّهم آكلون منها إنذارا مؤكَّدا. والمعنى: أنّهم آكلون منها كرها وذلك من العذاب، وإذا كان المأكول كريها يزيده كراهة سوء منظره.

{ **فَمَالِئُونَ** } فاء التفريع، وفيها معنى التعقيب، أي: لا يلبثون أن تمتلئ بطونهم من سرعة الالتقام.

ومَلءُ البطون كناية عن كثرة ما يكلون منها على كراهتها. وإسناد الأكل وملء البطون إليهم إسناد حقيقي وإن كانوا مكرهين على ذلك الأكل والملء.

{ **ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ** } { ثُمَّ } هنا للتراخي الرتبي لأنّها عطفت جملة، وليس للتراخي في الإخبار معنى إلّا إفادة أن ما بعد حرف التراخي أهمّ أو أعجب مما قبله، وهنا باعتبار أنّه زيادة في العذاب على الذي سبقه فوقعه أشدّ منه.

{ **عَلَيْهَا** } بعد أكلهم منها.

الشَّوب: أصله مصدر شاب الشيءَ بالشيء إذا خلطه به، ويطلق على الشيء المشوب به إطلاقا للمصدر على المفعول، كالخلق على المخلوق. وكلا المعنيين محتمل هنا.

الحميم: القيح السائل من الدمل، وتقدّم عند قوله تعالى { لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ } [الأنعام:70].

{ **ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ** } فعل { ثُمَّ } هنا نفسه في الجملة السابقة، للتراخي الرتبي.

المرجع: مكان الرجوع، أي: المكان الذي يعود إليه الخارج منه بعد أن يفارقه. وقد يستعار للانتقال من حالة طارئة إلى حالة أصلية تشبيها بمغادرة المكان ثم العود إليه. وكذلك ينبغي أن يُفسَّر الرجوع في الآية لأن المشركين حين يطعمون من شجرة الزقوم ويشربون الحميم لم يفارقوا الجحيم، فأريد التنبيه على أنّ عذاب الأكل من الزقوم والشراب من الحميم زيادة على عذاب الجحيم، فليس الرجوع حقيقة.

{ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ [69] فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ [70] }.

تعليل لما جازاهم الله به من العذاب، وإبداء للمناسبة بينه وبين جرمهم، فإنّ جرمهم كان تلقِّيا لما وجدوا عليه آبائهم من الشرك وشُعَبَه بدون نظر ولا اختيار، فكان من جزائهم على ذلك أنّهم يُطعمون طعاما مؤلما ويُسقون شرابا قذرا بدون اختيار كما تلقوا دين آبائهم تقليدا واعتباطا.

{ **إِنَّهُمْ** } موقع (إن) موقع فاء السببية، ومعناها معنى لام التعليل، وهي لذلك مفيدة ربط الجملة بالتي قبلها كما تربطها الفاء ولام التعليل. والمراد: المشركون من أهل مكة.

{ **أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ** } إيماء إلى أنّ ضلال آبائهم لا يخفى عن الناظر فيه لو تُركوا على الفطرة العقلية ولم يغشَوها بغشاوة العناد.

{ **فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ** } فاء العطف للتفريع والتسبُّب، أي: ضلالهم نتيجة أنّهم اقتفوا آثار آبائهم تقليدا بلا تأمّل، وهذا ذمّ لهم.

الآثار: ما تتركه خطى الماشين من موطئ الأقدام.

{ **عَلَى** } الاستعلاء التقريبي، وهو معنى المعيّة، لأنّهم يسيرون معها ولا يلزم أن يكونوا معتلين عليها.

{ **يُهْرَعُونَ** } (بفتح الراء) مبنيا للمجهول، مضارع: أَهْرَعَهُ، إذا جعله هَارِعًا، أي: حمله على الهَرَع وهو الإسراع المفرط في السير، عُبِّر به عن المتابعة والاعتقاد دون تأمّل.

{ **وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ [71] وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ [72] فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ [73] إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ [74]** }.

عُقِّب وصف حال المشركين في الآخرة وما عُلِّل به من أنّهم ألفوا آباءهم ضالين فاتّبعوهم، بتنظيرهم بمن سلفوا من الضالين، وتذكيرا للرسول صلى الله عليه وسلم بذلك مسلاة له على ما يلاقيه من تكذيبهم، واستقصاءً لهم في العبرة والموعظة بما حلّ بالأمم قبلهم.

فالجملة معطوفة على مضمون الجملة التي قبلها إكمالا للتعليل، أي: اتبعوا آثار آبائهم واقتدوا بالأمم الضالة.

{ **أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ** } وصف الذين ضلُّوا قبلهم بذلك لئلّا يغترّ ضعفاء العقول بكثرة المشركين ولا يعتزّوا بهم، ليعلموا أنّ كثرة العدد لا تبرّر ضلال الضالين ولا خطأ المخطئين. قال تعالى { قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ } [المائدة:100].

{ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ** } إكمال للعلّة والتسلية والعبرة، أي: رسلا ينذرونهم، أي: يُحذِّرنهم ما سيحلّ بهم { **مُنْذِرِينَ** } خصّ المرسلين بهذا الوصف لمناسبة حال المتحدَّث عنهم وأمثالهم.

المعنى: أرسلنا في الأوّل منذِرين فاهتدى قليل وضلّ أكثرهم.

{ **فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ** } فُرّع على هذا التوجيه الخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ترشيحا لما في الكلام السابق من جانب التسلية والتثبيت، مع التعريض بالكلام لتهديد المشركين بذلك، ويجوز أن يكون الخطاب لكلّ من يسمع القرآن فشمل النبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ **فَانْظُرْ** } الأمر بالنظر مستعمل في التعجيب والتهويل، فإن أريد بالعاقبة عاقبتهم في الدنيا فالنظر بصري، وإن أريد عاقبتهم في الآخرة، كما يقتضيه السياق، فالنظر قلبي، ولا مانع من إرادة الأمرين واستعمال المشترك في المعنيين.

{ **كَيْفَ كَانَ** } الاستفهام تعجيبي للتفظيع.

{ **الْمُنْذَرِينَ** } تعريف العهد، وهم المنذَرون الذين أُرسل إليهم المنذِرون، أي: فهم الضالون المعبّر عنهم بأنّهم { أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ }.

{ **عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ** } استثناء من { الْأَوَّلِينَ }، استثناء متصلا، فإنّ عباد الله المخلصين كانوا من جملة المنذَرين فصدّقوا المنذِرين فلم يشاركوا المنذَرين في عاقبتهم المنظور فيها، وهي عاقبة السوء.

{ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ [75] وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ [76] وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ [77] وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ [78] سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ [79] إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ [80] إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ [81] ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ [82] }.

اتبع التذكير والتسلية من جانب النظر في آثار ما حلّ بالأمم المرسل إليهم، وما أخبر عنه من عاقبتهم في الآخرة، بتذكير وتسلية من جانب الإخبار عن الرسل الذين كذَّبهم قومهم وآذوهم وكيف انتصر الله لهم، ليزيد رسوله صلى الله عليه وسلم تثبيتا ويُلْقِم المشركين تبكيتًا.

وذُكر في هذه السورة ست قصص من قصص الرسل مع أقوامهم، لأنّ في كلّ قصة منها خاصية لها شبه بحال الرسول صلى الله عليه وسلم مع قومه وبحاله الأكمل في دعوته. ويجمعها كلّها مقاومة الشرك ومقاومة أهلها. واختير هؤلاء الرسل الستة:

لأنّ نوحا القدوة الأولى.

وإبراهيم هو رسول الملة الحنيفية التي هي نواة الشجرة الطيبة، شجرة الإسلام.

وموسى لشبه شريعته بالشريعة الإسلامية في التفصيل والجمع بين الدين والسلطان.

فهؤلاء الرسل الثلاثة أصول. ثم ذُكر ثلاثة رسل تفرّعوا عنهم. فأما لوط فهو على ملة إبراهيم، وأمّا إلياس ويونس فعلى ملّة موسى.

{ **وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ** } ابتدئ بقصة نوح مع قومه فإنّه أوّل رسول بعثه الله إلى الناس، وهو الأسوة الأولى والقدوة المثلى.

{ **نَادَانَا** } ابتداء القصة بذكر نداء نوح ربّه موعظة للمشركين ليحذروا دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم ربه تعالى بالنصر عليهم كما دعا نوح على قومه، وهذا النداء هو المحكي في قوله تعالى { قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ } [المؤمنون:26]، وقوله تعالى { قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا } [نوح:21].

{ **فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ** } الفاء تفريع على { نَادَانَا }، أي: نادانا فأجبناه، والمخصوص بالمدح محذوف، أي: فلنعم المجيبون نحن. وضمير المتكلّم المشارك مستعمل في التعظيم كما هو معلوم.

{ **فَلَنِعْمَ** } تأكيد الخبر وتأكيد ما فرّع عليه بـ (لام القسم) لتحقيق الأمرين، تحذيرا للمشركين بعد تنزيلهم منزلة من ينكر أنّ نوحا دعا فاستجيب له.

التنجية: الإنجاء، وهو جعل الغير ناجيا. والنجاة: الخلاص من ضرّ واقع. وأطلقت هنا على السلامة من ذلك قبل الوقوع فيه، لأنّه لمّا حصلت سلامته في حين إحاطة الضرّ بقومه نزلت سلامته بمنزلة الخلاص منه بعد الوقوع فيه، تنزيلا لمقاربة وقوع الفعل منزلة وقوعه، وهذا إطلاق كثير للفظ النجاة بحيث يصحّ أن يقال: النجاة خلاص من ضرّ واقع أو متوقع.

{ **وَأَهْلَهُ** } عائلته، إلّا من حق عليه القول منهم، وكذلك المؤمنون من قومه، قال تعالى { قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ } [هود:40].

فالاقتصار على أهله هنا لقلّة من آمن به من غيرهم، أو أريد بالأهل أهل دينه، كقوله تعالى { إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ } [آل عمران:68].

{ **الْكَرْبِ** } الحزن الشديد والغم. ووصفه بـ { **العظيم** } لإفادة أنّه عظيم في نوعه. والمعنيّ به الطوفان.

{ **وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ** } ضمير الفصل للحصر، أي: لم يبق أحد من الناس إلّا من نجّاه الله مع نوح في السفينة من ذرّيّته، ثم من تناسل منهم فلم يبق من أبناء آدم غير ذرّيّة نوح.

وعموم الطوفان هو مقتضى ظواهر الكتاب والسنّة، ومن قالوا إنّ الطوفان لم يعم الأرض فإنّما أقدموا على إنكاره من جهة قصر المدة التي حُددت بها في كتب الإسرائيليين، وليس يلزم الاطمئنان لها في ضبط عمر الأرض وأحداثها، وذلك ليس من القواطع.

{ **وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ** } زيادة في عداد كرامة نوح عليه السلام.

الترك: حقيقة تخليف شيء والتخلّي عنه. وهو هنا مراد به الدوام على وجه المجاز المرسل أو الاستعارة، لأنّ شأن النعم في الدنيا أنّها متاع زائل، طال مكثها أو قصر، فكأنّ زوالها استرجاع من معطيها، كما جاء في الحديث: **" لله ما أخذ وله ما أعطى "**.

فشرَّف الله نوحا بأن أبقى نعمه عليه في أمم بعده.

{ **عَلَيْهِ** } يتعلق بفعل { تَرَكْنَا } بتضمين هذا الفعل معنى (أنعمنا)، فكان مقتضى الظاهر أن يُعدَّى هذا الفعل بالـ (لام)، فلمّا ضُمِّن معنى (أنعمنا) أفاد بمادته معنى الإبقاء له. فكان التقدير: وتركنا له ثناء وأنعمنا عليه.

{ **فِي الْآخِرِينَ** } الظاهر أنّها باقية في جميع الأمم إلى انقضاء العالم، وقرينة المجاز تعليق {عَلَيْهِ} بـ {تَرَكْنَا} لأنّه يناسب الإبقاء، يقال: أبقى على كذا، أي: حافظ عليه ليبقى ولا يندثر.

فيجوز أن يراد بهذا الإبقاء تعميره ألف سنة، ويجوز أن يراد بقاء حسن ذكره بين الأمم كما قال إبراهيم عليه السلام { وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ } [الشعراء:84]، فكان نوح مذكورا بمحامد الخصال

حتّى قيل: لا تجهل أمّة من أمم الأرض نوحا وفضله وتمجيده وإن اختلفت الأسماء التي يسمّونه بها باختلاف لغاتهم.

{ **سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ** } إنشاء ثناء على نوح وتحيّة له، ومعناه لازم التحية وهو الرضى والتقريب.

{ **فِي الْعَالَمِينَ** } في الأمم والقرون، وهو كناية عن دوام السلام عليه، كقوله تعالى { وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا } [مريم:15] في حق عيسى عليه السلام، وكقوله تعالى { سَلامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ } [130]، وقوله تعالى { سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ } [109].

وزيد في سلام نوح في هذه السورة وصفه بأنّه { فِي الْعَالَمِينَ } دون السلام على غيره في قصة إبراهيم وموسى وهارون وإلياس للإشارة إلى أنّ التنويه بنوح كان سائرا في جميع الأمم لأنّهم كلّهم ينتمون إليه ويذكرونه ذكر صدق.

{ **إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ** } تذييل لما سبق من كرامة الله نوحا. و(إن) تفيد تعليلا لمجازاة الله نوحا بما عدّه من النعم بانّ ذلك لأنّه كان محسنا، أي: متخلّقا بالإحسان، وهو الإيمان الخالص المفسَّر في قوله النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **الإحسان أن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك** ".

والمعنى: إنَّا مثل ذلك الجزاء نجزي المحسنين.

وفي هذا تنويه بنوح عليه السلام بأنّ جزاءه كان هو المثال والإمام لجزاء المحسنين على مراتب إحسانهم وتفاوت تقاربها من إحسانه وقوّته في تبليغ الدعوة. فهو أوّل من أوذي في الله فسنّ الجزاء لمن أوذي في الله، وكان على قالب جزائه، فلعلّه أن يكون له كفل من كل جزاء يُجْزاه أحد على صبره إذا أوذي في الله.

{ **إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ** } تعليل لاستحقاقه المجازة الموصوفة بقوله تعالى { كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ } فاختلف معلول هذه العلّة ومعلول العلّة التي قبلها.

{ **إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا** } أفاد أنّه ممّن استحق هذا الوصف، وقد علمتَ غير مرة أنّ وصف (عبد) إذا أضيف إلى ضمير الجلالة أشعر بالتقريب ورفع الدرجة.

{ **الْمُؤْمِنِينَ** } اقتصر على هذا الوصف تنويها بشأن الإيمان ليزداد الذين آمنوا إيمانا ويقلع المشركون.

{ **ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ** } (ثمّ) كمعهودها للترتيب والتراخي الرتبيين، لأنّ بعض ما ذُكر قبلها في الكلام هو ممّا حصل بعد مضمون جملتها في نفس الأمر كما هو بيّن، ومعنى التراخي الرتبي هنا أن إغراق الذين كذَّبوه، مع نجاته ونجاة أهله، أعظم رتبة في الانتصار له والدلالة على وجاهته عند الله تعالى وعلى عظيم قدرة الله تعالى ولطفه.

{ **الْآخَرِينَ** } بقية قومه، وفي التعبير عنهم بالآخرين ضرب من الاحتقار.

وفي هذه القصة عبرة للمشركين بما حلّ بقوم نوح وتسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم، وجعل نوح قدوة

له، وإيماء إلى أنّ الله ينصره كما نصر نوحا على قومه وينجيه من أذاهم، وفيها تنويه بشأن المؤمنين.
وتقدّم ذكر نوح وقصته عند قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا } [آل عمران:33]، وفي [الأعراف:59-64]، وفي [هود:25-49]، وذكر سفينته في [العنكبوت:15/14].

{ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ [83] إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ [84] إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ [85] أَإِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ [86] فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ [87] }.

تخلُّص إلى حكاية موقف إبراهيم عليه السلام من قومه في دعوتهم إلى التوحيد، وما لاقاه منهم، وكيف أيَّده الله ونجَّاه منهم، وقع هذا التخلُّص إليه بوصفه من شيعة نوح، ليفيد بهذا الأسلوب الواحد تأكيد الثناء على نوح وابتداء الثناء على إبراهيم وتخليد منقبة لنوح أن كان إبراهيم الرسول العظيم من شيعته وناهيك به. وهذا كقوله تعالى { ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ } [الإسراء:3].
الشيعة: اسم لمن يناصر الرجل وأتباعه، فيقع لفظ شيعة على الواحد والجمع. وقد يجمع على شيع وأشياع إذا أريد: جماعات كلّ جماعة هي شيعة لأحد. وتقدّم عند قوله تعالى { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ } [الحجر:10]، وعند قوله تعالى { وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا } [القصص:4].
وكان إبراهيم من ذرّيّة نوح وكان دينه موافقا لدين نوح في أصله وهو نبذ الشرك.
وجعل إبراهيم من شيعة نوح لأنّ نوحا قد جاءت رسل على دينه قبل إبراهيم منهم هود وصالح، فقد كانا قبل إبراهيم لأنّ القرآن ذكرهما غير مرّة عقب ذكر نوح وقبل ذكر لوط معاصر إبراهيم. ولقول هود لقومه { وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ } [الأعراف:69]، ولقول صالح لقومه { وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ } [الأعراف:74]، وقول شعيب لقومه { وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ} [هود :89].فجعل قوم لوط أقرب زمنا لقومه دون قوم هود وقوم صالح. ولوط معاصر إبراهيم.
فهؤلاء كلهم شيعة لنوح وإبراهيم من تلك الشيعة.
وتوكيد الخبر بـ { **إِنَّ** } ولام الابتداء { **لَإِبْرَاهِيمَ** } للردّ على المشركين لأنّهم يزعمون أنّهم على ملة إبراهيم وهذا كقوله تعالى { وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [البقرة:135].
{ **إِذْ** } ظرف للماضي متعلّق بلفظ شيعة لما فيه من معنى المشايعة والمتابعة، أي: كان من شيعته حين جاء ربه بقلب سليم كما جاء نوح. وفيها معنى التعليل لكونه من شيعته، فإنّ معنى التعليل كثير العروض لـ (إذ) كقوله تعالى { وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ } [الزخرف:39].
{ **جَاءَ رَبَّهُ** } أطلق المجيء على معاملته نفسه بما يرضي ربّه، على وجه التمثيل بحال من يجيء أحدا ملقيا إليه ما طلبه، فإنّ الله أمره بتزكية نفسه فامتثل، فأشبه حال من دعاه فجاءه. وهذا نظير قوله تعالى { أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ } [الاحقاف:31].

{ **بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** } الباء للمصاحبة، أي: جاء معه قلب صفته السلامة، والمعنى: إذ جاء ربه بسلامة قلب.

{ **سَلِيمٍ** } صفة مشبّهة مشتقّة من السلامة وهي الخلاص من العلل والأدواء النفسية والخُلُقيّة، لأنّه لمّا ذكر القلب ظهر أنّ السلامة سلامته ممّا تصاب به القلوب من أدوائها فلا جائز أن تعني الأدواء الجسدية لأنّهم ما كانوا يريدون بالقلب إلّا مقرّ الإدراك والأخلاق.

وقد جمع قوله { **بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** } جوامع كمال النفس وهي مصدر محامد الأعمال. وفي الحديث : " **ألا وإنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كلّه ألا وهي القلب** ".

وقد حكي عن إبراهيم قوله { يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ } [الشعراء:89/88]، فكان عماد ملّة إبراهيم هو المتفرّع عن قوله تعالى { بِقَلْبٍ سَلِيمٍ } وذلك جماع مكارم الأخلاق، ولذلك وُصف إبراهيم بقوله تعالى { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ } [هود:75]، فكان منزَّها عن كلّ خلق ذميم واعتقاد باطل.

{ **إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ** } بدل من { إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ } بدل اشتمال، فإنّ قوله هذا لمَّا نشأ عن امتلاء قلبه بالتوحيد والغضب لله على المشركين كان كالشيء المشتمل عليه قلبه السليم فصدر عنه.

{ **مَاذَا تَعْبُدُونَ** } استفهام إنكاري، ولذلك اتبعه باستفهام آخر إنكاري وهو { أَإِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ }. وهذا الذي اقتضى الإتيان باسم الإشارة (ذا) بعد (ما) الاستفهامية الذي هو مشرَّب معنى الموصول المشار إليه، فاقتضى أنّ ما يعبدونه مشاهد لإبراهيم، فانصرف الاستفهام بذلك إلى معنى الإنكار، بخلاف قوله تعالى { إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ } [الشعراء:70] فإنّه استفهام على معبوداتهم ولذلك أجابوا عنه { قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ } [الشعراء:71].

وإنّما أراد بالاستفهام هنالك التمهيد إلى المحاجة فصوره في صورة الاستفهام لسماع جوابهم فينتقل إلى إبطاله، كما هو ظاهر من ترتيب حجاجه هنالك، فذلك حكاية لقول إبراهيم في ابتداء دعوته قومه، وأمّا ما هنا فحكاية لبعض أقواله في إعادة الدعوة وتأكيدها.

{ **أَإِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ** } بيان لجملة { مَاذَا تَعْبُدُونَ } بيّن به مصبّ الإنكار في قوله {مَاذَا تَعْبُدُونَ} وإيضاحه، أي: كيف تريدون آلهة إفكا.

إرادة الشيء: ابتغاؤه والعزم على حصوله، وحقّ فعلها أن يتعدَّى إلى المعاني، فإذا عُدِّي إلى الذوات كان على معنى يتعلّق بتلك الذوات. فلذلك كانت التعدية على معنى: تريدونها بالعبادة أو بالتأليه.

{ **إِفْكًا** } انتصب على الحال من ضمير { تُرِيدُونَ } أي: آفكين. و**الإفك**: الكذب.

ويجوز أن يكون حالا من آلهة، أي: آلهة مكذوبة.

{ **دُونِ اللَّهِ** } أي: خلاف الله وغيره، وهذا صالح لاعتبار قومه عبدة أوثان غير معترفين بإله غير أصنامهم، ولاعتبارهم مشركين مع الله آلهة أخرى مثل المشركين من العرب، لأنّ العرب بقيت فيهم

أثارة من الحنيفية فلم ينسوا وصف الله بالإلهية، وكان قوم إبراهيم يعبدون الكواكب نظير ما كان عليه اليونان والقبط.

{ **فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ** } فُرِّع على استفهام الإنكار استفهام آخر، وهو استفهام أريد به الإنكار والتوقيف على الخطأ.

{ **ظَنُّكُمْ** } أريد بالظن الاعتقاد الخطأ. وسُمِّي ظنّا لأنّه غير مطابق للواقع ولم يسمّه علما لأنّ العلم لا يطلق إلّا على الاعتقاد المطابق للواقع ولذلك عرَّفوه بأنّه: " صفة توجب تمييزا لا يحتمل النقيض"، ولا ينتفي احتمال النقيض إلّا متى كان موافقا للواقع.

وكثر إطلاق الظنّ على التصديق المخطئ والجهل المركّب، كما في قوله تعالى { إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ } [الأنعام:116]، وقوله تعالى { إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا } [يونس:36].

وقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **إيّاكم والظنّ فإنّ الظنّ أكذب الحديث** ".

والمعنى: أنّ اعتقادكم في جانب ربّ العالمين جهل منكَر.

وفعل ظنّ إذا عدِّي بـ (الباء) أشعر غالبا بظنّ غير صادق، كقوله { وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا } [الأحزاب:10] وقوله تعالى { وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ } [فصلت:23].

{ **فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ** [88] **فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ** [89] **فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ** [90] **فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ** [91] **مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ** [92] **فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ** [93] **فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ** [94] **قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ** [95] **وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ** [96] }.

مُفرَّع على جملة { إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ } [85]، تفريع قصص بعطف بعضها على بعض.

والمقصود من هذه الجمل المتعاطفة بالفاءات هو الإفضاء إلى قوله تعالى { فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ }، وأمّا ما قبلها فتمهيد لها وبيان كيفية تمكّنه من أصنامهم وكسرها ليظهر لعبدتها عجزها.

{ **فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ** } قال ابن كثير في تفسيره: " قال قتادة: والعرب تقول لمن تفكَّر: نظر في النجوم، يعني قتادة: أنّه نظر إلى السماء متفكرا فيما يلهيهم به ".

وفي تفسير القرطبي عن الخليل والمبرّد يقال: " للرجل إذا فكر في شيء يدبّره: نظر في النجوم، أي: أنّه نظر في النجوم، ممّا جرى مجرى المثل في التعبير عن التفكير، لأنّ المتفكّر يرفع بصره إلى السماء لئلا يشتغل بالمرئيات فيخلو بفكره للتدبر، فلا يكون النجوم وذكر النجوم جري على المعروف من كلامهم.

والوجه: أنّ التعقيب الذي أفادته (الفاء) من قوله تعالى { فَنَظَرَ } تعقيب عرفي، أي: لكلّ شيء نحسبه فيفيد كلاما مطويا يشير إلى قصة إبراهيم التي قال فيها { إِنِّي سَقِيمٌ }.

وتقييد النظرة بصيغة المرة في قوله { نَظْرَةً } إيماء إلى أنّ الله ألهمه المكيدة وأرشده إلى الحجّة.

كما قال تعالى { وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ } [الأنبياء:51].

{ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ } السقيم: صفة مشبّهة، وهو المريض. يقال: سَقِمَ بوزن مرِض، ومصدره السَّقَم بالتحريك.

عذر انتحله ليتركوه فيخلو ببيت الأصنام ليخلص إليها عن كثب فلا يجد من يدفعه عن الإيقاع بها. ولم ينطق إبراهيم بأنّ النجوم دلّته على أنّه سقيم ولكنّه لمّا جعل قوله { إِنِّي سَقِيمٌ } مقارنا لنظره في النجوم أوهم قومه أنّه عرف ذلك من دلالة النجوم حسب أوهامهم.

وقد ظهر من نظم الآية أنّ قوله { إِنِّي سَقِيمٌ } لم يكن مرضا، ولذلك جاء الحديث الصحيح عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" لم يكذب إبراهيم إلّا ثلاث كذبات اثنتين منهن في ذات الله عز وجل، قوله: { إِنِّي سَقِيمٌ }، وقوله: { قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا}** [الأنبياء:63]، **وبينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبّار من الجبابرة فسأله عن سارة فقال: "هي أختي "**.

فورد على الحديث إشكال من نسبة الكذب إلى نبيّ.

وجوابه عندي: أنّه لم يكن في لغة قوم إبراهيم التشبيه البليغ، ولا المجازُ، ولا التهكّم، فكان ذلك عند قومه كذبا وأنّ الله أذن له فعل ذلك وأعلمه بتأويله، كما أذن لأيوب أن يأخذ ضغثاً من عِصيّ فيضرب به ضربة واحدة ليبرّ قسمه، إذ لم تكن الكفارة مشروعة في دين أيوب عليه السلام.

{ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ } التولّي: الإعراض والمفارقة. و{ **مُدْبِرِينَ** } حال، أي: ولَّوه أدبارهم، أي: ظهورهم. والمعنى: ذهبوا وخلَّفوه وراء ظهورهم بحيث لا ينظرونه. وقد قيل: إنّ { مُدْبِرِينَ } حال مؤكّدة وهو من التوكيد الملازم لفعل التولّي غالبا لدفع توهم أنّه تولّي مخالفة وكراهة دون انتقال.

{ فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ } راغ: معناه حاد عن الشيء، ومصدره الروغ والروغان، وقد أطلق هنا على الذهاب إلى أصنامهم مخاتلة لهم، ولأجل الإشارة إلى تضمينه معنى الذهاب عدي بـ (إلى).

وإطلاق الآلهة على الأصنام مراعى فيه اعتقاد عبدتها بقرينة إضافتها إلى ضميرهم.

{ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ } مخاطبة إبراهيم تلك الأصنام وهو في حال خلوة بها قصد به أن يثير في نفسه غضبا عليها إذ زعموا لها الإلهية ليزداد قوّة عزم على كسرها. فليس خطاب إبراهيم للأصنام مستعملا في حقيقته ولكنه مستعمل في لازمه وهو تذكّر كذب الذين ألّهوها والذين سدنوا لها وزعموا أنّها تأكل الطعام الذي يضعونه بين يديها ويزعمون أنّها تكلّمهم وتخبرهم.

{ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ } استعمل فعل (راغ) هنا مضمَّنا معنى (أقبل) من جهة مائلة عن الأصنام لأنّه كان مستقبلها ثم أخذ يضربها ذات اليمين وذات الشمال نظير قوله { فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ } [النساء:102].

{ ضَرْباً بِالْيَمِينِ } انتصب على الحال من ضمير { فَرَاغَ } أي: ضاربا. وتقييد الضرب باليمين للتأكيد، أي: ضربا قويّا، ونظيره قوله تعالى { لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ } [الحاقة:45].

{ **فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ** } فلمّا علموا بما فعل إبراهيم بأصنامهم أرسلوا إليه من يحضره في ملئهم حول أصنامهم كما هو مفصّل في [الأنبياء:59-70] وأُجمِل هنا.

الزفّ: الإسراع في الجري، ومنه زفيف النعامة: عدوها الأوّل حين تنطلق.

أي: جاءه المرسلون إليه مسرعين، أي: يعدون.

{ **قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ** } استئناف بياني عن سؤال مقدّر عن حال إبراهيم عندما جاءه المرسلون على تلك الهيئة وهو فاقد للنصير معرض للنكال فتكون الآية جوابا وبيانا لما يسأل عنه. وذلك منبئ عن رباطة جأش إبراهيم إذ لم يتلق القوم بالاعتذار ولا بالاختفاء، ولكنه لقيهم بالتهكّم بهم. كما في قوله تعالى { بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا } [الأنبياء:63].

{ **قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ** } ثم أنحى عليهم باللائمة والتوبيخ وتسفيه أحلامهم إذ بلغوا من السخافة أن يعبدوا صورا نحتوها بأيديهم أو نحتها أسلافهم، فإسناد النحت إلى المخاطبين من قبيل إسناد الفعل إلى القبيلة إذا فعله بعضها.

النحت: بري العود ليصير في شكل يراد، فإن كانت الأصنام من الخشب فإطلاق النحت حقيقة، وإن كانت من حجارة كما قيل، فإطلاق النحت على نقشها وتصويرها مجاز.

والاستفهام إنكاري والإتيان بالموصول والصلة لما تشتمل عليه الصلة من تسلّط فعلهم على معبوداتهم، أي: أنّ شأن المعبود أن يكون فاعلا لا منفعلا، فمن المنكر أن تعبدوا أصناما أنتم نحتموها.

{ **وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ** } واو الحال، والحال مستعملة في التعجيب لأنّ في الكلام حذفا بعد واو الحال، إذ التقدير: ولا تعبدون الله وهو خلقكم وخلق ما نحتموه، أو وأنتم مشركون معه في العبادة مخلوقات دونكم.

{ **تَعْمَلُونَ** } تنحتون. وإنّما عدل عن إعادة فعل { تَنْحِتُونَ } لكراهية تكرير الكلمة.

يقال: عملت قميصا وعملت خاتما. وفي حديث صنع المنبر: " أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم لامرأة من الأنصار: **أن مُري غلامك النجّار يعمل لي أعوادا أكلّم عليها الناس** ".

<u>وخلق الله إيّاها ظاهر</u>، هو خلق المادة التي تُصنع منها من حجر أو خشب، ولذلك جمع بين إسناد الخلق إلى الله بواو العطف، وإسناد العمل إليهم بإسناد فعل { تَعْمَلُونَ }.

وقد احتج الأشاعرة على أنّ أفعال العباد مخلوقة لله تعالى بهذه الآية. وهو تمسّك ضعيف لما في الآية من الاحتمالين ولأن المقام مقام المحاجّة بأن الأصنام أنفسها مخلوقة لله، فالأولى المصير إلى أدلة أخرى.

{ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ [97] فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ [98] }.

الجحيم: النار شديدة الوقود، وكلّ نار على نار وجمر فوق جمر فهو جحيم.

وتقدّم نظير هذه الآية في [الأنبياء:68-70]، وعُبِّر هنا بـ { الْأَسْفَلِينَ } وهنالك بـ { الْأَخْسَرِينَ }،

والأسفل هو المغلوب، لأنّ الغالب يُتخيَّل مُعْتَلِيًا عليه، فهو استعارة للمغلوب، والأخسر هنالك استعارة لمن لا يحصل من سعيه على بُغيته.

{ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ [99] رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ [100] }.

لمّا نجا إبراهيم من نارهم صمّم على الخروج من بلده (أور الكلدانيين).

وهذه أوّل هجرة في سبيل الله للبعد عن عبادة غير الله. والتوراة بعد أن طوت سبب أمر الله إيّاه بالخروج ذُكر فيها أنّه خرج قاصدا بلاد حَران في أرض كنعان (بلاد الفينيقيين).

والظاهر أنّ هذا القول قاله علنا في قومه ليكفّوا عن أذاه، ويحتمل أن يكون قال ذلك في أهله الذين يريد أن يخرج بهم معه.

{ **ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي** } مهاجر إلى حيث أعبد ربي وحده ولا أعبد آلهة غيره ولا أفتن في عبادته.

ومراد الله أن يفضي إلى بلوغ مكة ليقيم هنالك أوّل مسجد لإعلان توحيد الله فسلك به المسالك التي سلكها حتّى بلغ به مكّة وأودع بها أهلا ونسلا، وأقام بها قبيلة دينها التوحيد، وبنى لله معبدا، وجعل نسله حفظة بيت الله، ولعل الله أطلعه على تلك الغاية بالوحي أو سترها عنه حتّى وجد نفسه عندها فلذلك أنطقه بأن ذهابه إلى الله نطقا عن علم أو عن توفيق.

{ **سَيَهْدِينِ** } يجوز أن تكون حالا وهو الأظهر، لأنّه أراد إعلام قومه بأنّه واثق بربّه وأنّه لا تردّد له في مفارقتهم، وهي حال من اسم الجلالة، ولا يمنع من جعل الجملة حالا اقترانها بحرف الاستقبال فإنّ حرف الاستقبال يدل على أنّها حال مقدّرة، والتقدير: أني ذاهب إلى ربي مقدِّرا...، كما لم يمتنع مجيء الحال معمولا لعامل مستقبل كما في قوله تعالى { سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ } [غافر:60]، وقوله تعالى { إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ } [الشعراء:62].

ويجوز أن تكون جملة { سَيَهْدِينِ } مستأنفة وبذلك أجاب نحاة البصرة عن تمسك نحاة الكوفة بالآية في جواز اقتران الحال بعلم الاستقبال، فالاستئناف بياني، بيانا لسبب هجرته.

{ **رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ** } بقية قوله، فإنّه بعد أن أخبر أنّه مهاجر استشعر قلّة أهله وعقم امرأته وثار ذلك الخاطر في نفسه عند إزماع الرحيل لأنّ الشعور بقلة الأهل عند مفارقة الأوطان يكون أقوى لأنّ المرء إذا كان بين قومه كان له بعض السلوّ بوجود قرابته وأصدقائه.

وممّا يدلّ على أنّه سأل النسل ما جاء في [سفر التكوين، الإصحاح:15] وقال أبرام: " إنّك لم تعطني نسلا وهذا ابن بيتي (بمعنى مولاه) وارث لي (لأنّهم كانوا إذا مات عن غير نسل ورثه مواليه) ".

فحُذف مفعول الفعل لدلالة الفعل عليه. ووصفه بأنّه من الصالحين لأنّ نعمة الولد تكون أكمل إذا كان صالحا فإنّ صلاح الأبناء قرّة عين للآباء، ومن صلاحهم برّهم بوالديهم.

{ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ [101] فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ [102] }.

{ **فَبَشَّرْنَاهُ** } الفاء للتعقيب، و**البشارة**: الإخبار بخير وارد عن قرب أو على بعد.

فإن كان الله بشّر إبراهيم بأنّه يولد له ولد أو يوجد له نسل عقب دعائه، كما هو الظاهر وهو صريح في [سفر التكوين، الإصحاح:15] فقد أُخبره بأنّه استجاب له وأنّه يهبه ولدا بعد زمان، فالتعقيب على ظاهره.

وإن كان الله بشَّره بغلام بعد ذلك حين حملت منه هاجر جاريته بعد خروجه بمدة طويلة، فالتعقيب نسبي.

وعلى الاحتمالين فالغلام الذي بُشِّر به هو الولد الأوّل الذي ولد له، وهو إسماعيل لا محالة.

الحليم: الموصوف بالحلم، وهو اسم يجمع أصالة الرأي ومكارم الأخلاق والرحمة.

وهذا الغلام الذي بُشِّر به إبراهيم هو إسماعيل ابنه البكر وهذا غير الغلام الذي بشَّره به الملائكة الذين أرسلوا إلى قوم لوط في قوله تعالى { قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ } [الذريات:28]، فذلك وصف بأنّه { عَلِيمٍ } وهذا وصف بـ { حَلِيمٍ }.

وإسحاق كانت البشارة به بمحضر سارة أمّه، وقد جعلت هي المبشَّرة في قوله تعالى { فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا } [هود:72/71]، فتلك بشارة كرامة والأولى بشارة استجابة دعائه.

فالبشارة بإسماعيل لما كانت عقب دعاء إبراهيم أن يهب الله له من الصالحين عطف هنا بفاء التعقيب، وبشارته بإسحاق ذكرت في هذه السورة معطوفا بالواو عطف القصة على القصة.

{ **فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ** } الفاء فصيحة لأنّها مفصحة عن كلام مقدّر، تقديره: فولد له ويفع وبلغ السعي، فلما بلغ السعي قال...، أي: بلغ سن من يمشي مع إبراهيم في شؤونه. وكان عمر إسماعيل يومئذ ثلاث عشرة سنة، وحينئذ حدَّث إبراهيم ابنه بما رآه في المنام.

ورؤيا الأنبياء وحي. وكان أوّل ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصادقة، ولكن الشريعة لم يوح بها إليه إلّا في اليقظة مع رؤية جبريل دون رؤيا المنام.

{ **أَنِّي أَذْبَحُكَ** } أمر ابتلاء، وليس المقصود به التشريع إذ لو كان تشريعا لما نسخ قبل العمل به، لأنّ ذلك يبطل الحكمة من التشريع بخلاف أمر الابتلاء.

والمقصود من هذا الابتلاء إظهار عزمه وإثبات علو مرتبته في طاعة ربّه، فإنّ الولد عزيز على نفس الوالد، والولد الوحيد، الذي هو أمل الوالد في مستقبله، أشدّ عزّة على نفسه لا محالة.

فقابل أمر ربّه بالامتثال وحصلت حكمة الله، وهذا معنى قوله تعالى { إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ } [106].

{ **فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى** } فاء تفريع، أو هي فاء الفصيحة، أي: إذا علمت هذا فانظر ماذا ترى. وذلك لأنّ الأمر لمّا تعلّق بذات الغلام كان للغلام حظ في الامتثال، وكان عرض إبراهيم هذا على ابنه عرض

اختيار لمقدار طواعيته بإجابة أمر الله في ذاته لتحصل له بالرضى والامتثال مرتبة بذل نفسه في إرضاء الله، وهو لا يرجو من ابنه إلّا القبول لأنّه أعلم بصلاح ابنه.

النظر: هنا نظر العقل لا نظر البصر فحقّه أن يتعدى إلى مفعولين ولكن علّقه الاستفهام عن العمل.

{ **قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ** } حُكي جوابه دون عطف، جريا على حكاية المقاولات. وابتداء الجواب بالنداء واستحضار المنادى بوصف الأبوّة وإضافة الأب إلى ياء المتكلم المعوض عنها التاء المشعر تعويضها بصيغة ترقيق وتحنّن.

{ **افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ** } صيغة الأمر مستعملة في الإذن. والتعبير عن الذبح بالموصول دون أن يقول: اذبحني، للجمع بين الإذن وتعليله، أي: أذنت لك أن تذبحني لأنّ الله أمرك بذلك، ففيه تصديق أبيه وامتثال أمر الله فيه.

{ **سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ** } الجملة هي الجواب، لأنّ الجمل التي قبلها تمهيد للجواب كما علمت، فإنّه بعد أن حثّه على فعل ما أُمِر به وَعَدَه بالامتثال له. وهو الوعد الذي شكره الله عليه في قوله { وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ } [مريم:54].

{ **إِنْ شَاءَ اللَّهُ** } سأل الله العون والثبات على تحقيق وعده.

{ **مِنَ الصَّابِرِينَ** } في هذا التركيب من المبالغة في اتصافه بالصبر ما ليس في الوصف: بصابر، لأنّه يفيد أنّه سيجده في عداد الذين اشتهروا بالصبر وعرفوا به.

{ **فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ [103] وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ [104] قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ [105] إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ [106] وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ [107]** }.

{ **أَسْلَمَا** } استسلما. يقال: سلَّم واستسلم وأسلم بمعنى: انقاد وخضع، وحذف المتعلق لظهوره من السياق، أي: أسلما لأمر الله، فاستسلام إبراهيم بالتهيُّؤ لذبح ابنه، واستسلام الغلام بطاعة أبيه فيما بلغه عن ربه.

{ **تَلَّهُ** } صرعه على الأرض، وهو فعل مشتق من اسم التلّ، وهو الصبرة من التراب كالكُدْية.

{ **لِلْجَبِينِ** } اللام بمعنى (على)، كقوله تعالى { يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا } [الإسراء:107].

الجبين: أحد جانبي الجهة، وللجهة جبينان، وليس الجبين هو الجبهة. والمعنى: أنّه ألقاه على الأرض على جانب بحيث يباشر جبينه الأرض من شدة الاتصال.

{ **وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ** } بطريق الوحي بإرسال الملك، أسندت المناداة إلى الله تعالى لأنّه الآمر بها.

{ **قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا** } تصديق الرؤيا: تحقيقها في الخارج بأن يعمل صورة العمل الذي رآه. يقال: رؤيا صادقة، إذا حصل بعدها في الواقع ما يماثل صورة ما رآه الرائي. قال الله تعالى { لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ } [الفتح:27]. وفي حديث عائشة: " أوّل ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلّا جاءت مثل فلق الصبح ". وبضدّ ذلك يقال: كذبت الرؤيا،

إذا حصل خلاف ما رأى. وفي الحديث: " **إذا اقترب الزمان لم تكد تكذب رؤيا المؤمن** ".

وهذا ثناء من الله تعالى على إبراهيم بمبادرته لامتثال الأمر ولم يتأخّر ولا سأل من الله نسخ ذلك.

فإبراهيم صدَّق الرؤيا إلى أن نهاه الله عن إكمال مثالها، فأطلق على تصديقه أكثرها أنّه صدَّقها، وجعل ذبح الكبش تأويلا لذبح الولد الواقع في الرؤيا.

{ **إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ** } تعليل لجملة { وَنَادَيْنَاهُ } لأنّ نداء الله إيّاه ترفيع لشأنه فكان ذلك النداء جزاء على إحسانه. وهذه الجملة يجوز أن تكون من خطاب الله تعالى إبراهيمَ، ويجوز أن تكون معترضة بين جمل خطاب إبراهيم.

{ **كَذَلِكَ** } الإشارة إلى المصدر المأخوذ من فعل { صَدَّقْتَ } وهو التصديق، أي: إنّا نجزي المحسنين كذلك التصديق، أي: مثل عظمة ذلك التصديق نجزي جزاء عظيما للمحسنين.

فهذا وعد بمراتب عظيمة من الفضل الرباني، وتضمّن وعد ابنه بإحسان مثله من جهة نوط الجزاء بالإحسان، وقد كان إحسان الابن عظيما ببذل نفسه.

{ **إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ** } تأكيد للمعنى السابق. أي: هذا التكليف الذي كلفناك هو الاختبار البيّن، أي: الظاهر دلالة على مرتبة عظيمة من امتثال أمر الله. والجملة في محلّ العلة للجملة السابقة.

{ **وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ** } يظهر أنّها من الكلام الذي خاطب الله به إبراهيم. المعنى: وقد فدينا ابنك بذبح عظيم، ولولا هذا التقدير تكون حكاية نداء الله إبراهيم غير مشتملة على المقصود من النداء وهو إبطال الأمر بالذبح

الفِدَى - الفداء: إعطاء شيء بدلًا عن حقّ للمعطى، ويطلق على الشيء المفدى به، من إطلاق المصدر على المفعول. وأسند الفداء إلى الله لأنّه الآذن به، فهو مجاز عقلي، فإن الله أوحى إلى إبراهيم أن يذبح الكبش فداء عن ذبح ابنه، وإبراهيم هو الفادي بإذن الله، وابن إبراهيم مُفْدًى.

الذِبح (بكسر الذال): المذبوح.

{ **عَظِيمٍ** } بمعنى شرف قدر هذا الذِّبح، وهو أنّ الله فدى به ابن رسول، وأبقى به من سيكون رسولا فعظّمه بعظم أثره، ولأنّه سخّره الله لإبراهيم في ذلك الوقت وذلك المكان.

الحكمة من عدم تسمية الذبيح

وقد أشارت هذه الآيات إلى قصة الذبيح ولم يسمّه القرآن لعلّه لئلّا يثير خلافا بين المسلمين وأهل الكتاب في تعيين الذبيح من ولدي إبراهيم، وكان المقصد تألّف أهل الكتاب لإقامة الحجّة عليهم في الاعتراف برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وتصديق القرآن، ولم يكن ثمّة مقصد مهم يتعلّق بتعيين الذبيح ولا في تخطئة أهل الكتاب في تعيينه.

وأمارة ذلك أنّ القرآن سمَّى إسماعيل في مواضع غير قصة الذبح وسمَّى إسحاق في مواضع، ومنها بشارة أمّه على لسان الملائكة الذين أرسلوا إلى قوم لوط، وذكر اسمَي إسماعيل وإسحاق أنّهما وهبا له

على الكبر، ولم يسم أحدا في قصة الذبح قصدا للإبهام مع عدم فوات المقصود من الفضل، لأنّ المقصود من القصة التنويه بشأن إبراهيم، فأي ولديه كان الذبيح كان في ابتلائه بذبحه وعزمه عليه، وما ظهر في ذلك من المعجزة تنويه عظيم بشأن إبراهيم.

مع ما في ذلك من تجنّب المجادلة غير المجدية مع بني إسرائيل، قال الله تعالى { وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } [العنكبوت:46]، وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: " لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذّبوهم".

إلّا أنّه شاع من أخبار أهل الكتاب أن الذبيح هو إسحاق بن إبراهيم بناء على ما جاء في [سفر التكوين، الإصحاح:22] وعلى ما كان يقصّه اليهود عليهم، ولم يكن فيما علموه من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم ما يخالفه ولا كانوا يسألونه.

<u>والتأمّل في هذه الآية يقوّي الظنَّ بأنّ الذبيح إسماعيل</u>، فإنّه ظاهر قوي في أنّ المأمور بذبحه هو الغلام الحليم في قوله { فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ } [101]، وأنّه هو الذي سأل إبراهيم ربّه أن يهب له، فساقت الآية قصة الابتلاء بذبح هذا الغلام الحليم الموهوب لإبراهيم، ثم أعقبت قصته بقوله تعالى { وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ } [112]، وهذا قريب من دلالة النص على أنّ إسحاق هو غير الغلام الحليم الذي مضى الكلام على قصته، لأنّ الظاهر أن قوله { وَبَشَّرْنَاهُ } [112] بشارة ثانية، وأنّ ذكر اسم إسحاق يدلّ على أنّه غير الغلام الحليم الذي أجريت عليه الضمائر المتقدّمة. <u>فهذا دليل أول</u>.

<u>الدليل الثاني</u>: أنّ الله لما ابتلى إبراهيم بذبح ولده كان الظاهر أن الابتلاء وقع حين لم يكن لإبراهيم ابن غيره لأنّ ذلك أكمل في الابتلاء كما تقدّم.

<u>الدليل الثالث</u>: أنّ الله تعالى ذكر { فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ } [101] عقب ما ذكر من قول إبراهيم { رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ } [100]، فدل على هذا الغلام الحليم الذي أمر بذبحه هو المبشَّر به استجابة لدعوته، وقد ظهر أنّ المقصود من الدعوة أن لا يكون عقيما يرثه عبيد بيته كما جاء في (سفر التكوين) وتقدّم.

<u>الدليل الرابع</u>: أنّ إبراهيم بنى بيتا الله بمكة قبل أن يبني بيتا آخر بنحو أربعين سنة، كما في حديث أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم، ومن شأن بيوت العبادة في ذلك الزمان أن تقرَّب فيها القرابين فقربان أعز شيء على إبراهيم هو المناسب لكونه قربانا لأشرف هيكل. وقد بقيت في العرب سنة الهدايا في الحج كلّ عام، وما تلك إلّا تذكرة لأول عام أمر فيه إبراهيم بذبح ولده وأنّه الولد الذي بمكة.

<u>الدليل الخامس</u>: أن أعرابيا قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم: " يا ابن الذبيحين "، فعلم مراده وتبسّم، وليس في آباء النبيّ صلى الله عليه وسلم ذبيح غير عبد الله وإسماعيل.

<u>الدليل السادس</u>: ما وقع في [سفر التكوين، الإصحاح22] أنّ الله امتحن إبراهيم فقال له:

" خذ ابنك وحيدك الذي تحبّه إسحاق واذهب إلى أرض المُرَيَّا وأصعد هنالك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك ".

ولم يكن إسحاق ابنا وحيدا لإبراهيم فإنّ إسماعيل ولد قبله بثلاث عشرة سنة. ولم يزل إبراهيم وإسماعيل متواصلين وقد ذكر في [سفرالتكوين،الإصحاح:25] عند ذكر موت إبراهيم عليه السلام: " ودفنه إسحاق وإسماعيل ابناه "، فإقحام اسم (إسحاق) بعد قوله: " ابنك وحيدك "، من زيادة كاتب التوراة.

واختلف علماء السلف في تعيين الذبيح:

فقال جماعة: **إسماعيل** وممن قاله أبو هريرة، وأبو الطفيل عامر بن واثلة، وعبد الله بن عمر، وابن عباس، ومعاوية بن أبي سفيان. وقاله من التابعين سعيد بن المسيب، والشعبي، ومجاهد، وعلقمة، والكلبي، والربيع بن أنس، ومحمد بن كعب القرظي، وأحمد بن حنبل.

وقال جماعة: **إسحاق** ونقل عن ابن مسعود، والعباس بن عبد المطلب، وجابر بن عبد الله، وعمر، وعلي من الصحابة، وقاله جمع من التابعين منهم: عطاء وعكرمة والزهري والسدي. وفي جامع العتبية أنّه قول مالك بن أنس.

{ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ [108] سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ [109] كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ [110] إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ [111] }.

القول في هذه الآيات كالقول في نظيرها في ذكر نوح عليه السلام [78-81]، وإعادته هنا تأكيد لما سبق لزيادة التنويه بإبراهيم عليه السلام.

ولم يذكر هنا { فِي الْعَالَمِينَ } [79]، لأنّ إبراهيم لا يعرفه جميع الأمم من البشر بخلاف نوح عليه السلام.

{ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ [112] وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ [113] }.

هذه بشارة أخرى لإبراهيم ومكرمة له، وهي غير البشارة بالغلام الحليم، فإسحاق غير الغلام الحليم.

وهذه البشارة هي التي ذُكرت في القرآن في قوله تعالى { فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ} [هود:71].

{ **إِسْحَاقَ** } وتسمية المبشَّر به إسحاق تحتمل أنّ الله عيَّن له اسما يسمِّيه به، وهو مقتضى ما في [سفر التكوين، الإصحاح:17]: " سارة امرأتك تلد ابنا وتدعو اسمه إسحاق ".

وتحتمل أنّ المراد: بشَّرناه بولد الذي سُمِّي إسحاق. وهو على الاحتمالين إشارة إلى أنّ الغلام المبشَّر به في الآية قبل هذه ليس هو الذي اسمه إسحاق، فتعيّن أنه الذي سُمِّي إسماعيل.

{ **نَبِيًّا** } انتصب على الحال من { إِسْحَاقَ }، فيجوز أن يكون حكاية للبشارة فيكون الحال حالا مقدَّرا لأنّ اتصاف إسحاق بالنبوّة بعد زمن البشارة بمدة طويلة، بل هو لم يكن موجودا. وطول زمان الاستقبال لا يتحدّد، ومنه ما تقدّم في قوله تعالى { وَيَأْتِينَا فَرْدًا } [مريم:80].

واعلم أنّ معنى الحال المقدّرة أنّها مقدَّر حصولها غير حاصلة الآن والمقدِّر هو الناطق بها، وهي وصف لصاحبها في المستقبل وقيد لعاملها كيفما كان.

{ **مِنَ الصَّالِحِينَ** } حال ثانية، وذكرها للتنويه بشأن الصلاح، فإنّ الأنبياء معدودون في زمرة أهله وإلّا فإن كلّ نبيّ لا بد أن يكون صالحا، والنبوّة أعظم أحوال الصلاح لما معها من العظمة.

{ **وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ** } **بارك**: جعله ذا بركة، والبركة زيادة الخير في مختلف وجوهه.

وتقدّم تفسيرها عند قوله تعالى { إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا } [آل عمران:96]، وقوله تعالى { وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ } [هود:48].

{ **عَلَيْهِ وَعَلَى** } للاستعلاء المجازي، أي: تمكّن البركة من الإحاطة بهما.

{ **وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ** } لمّا ذكر ما أعطاهما نقل الكلام إلى ذرّيّتهما.

فمنهم { **مُحْسِنٌ** } أي: عامل بالعمل الحسن. ومنهم { **ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ** } أي: مشرك غير مستقيم.

إشارة إلى أنّ ذرّيّتهما ليس جميعها كحالهما بل هم مختلفون. ونظيره قوله تعالى { قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ } [البقرة:124].

وفيه تنبيه على أنّ الخبيث والطيب لا يجري أمرهما على العرق والعنصر، فقد يلد البر الفاجر والفاجر البر، وعلى أنّ فساد الأعقاب لا يعد غضاضة على الآباء، وأنّ مناط الفضل هو خصال الذات وما اكتسب المرء من الصالحات، وأمّا كرامة الآباء فتكملة للكمال وباعث على الاتساع بفضائل الخلال.

فكان في هذه التكملة إبطال غرور المشركين بأنّهم من ذرية إبراهيم. قال تعالى { وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ } [الأنفال:34] وقال تعالى { إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا } [آل عمران:68].

وفي الآية مثل لحال النبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه من أهل مكة ولحال المشركين.

{ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ [114] وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ [115] وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ [116] }.

عطف على قوله تعالى { وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ } [75]، والمناسبة هي ما ذكر هنالك.

{ **وَلَقَدْ مَنَنَّا** } ذُكر هنا ما كان منّة على موسى وهارون وهو النبوّة، فإنّها أعظم درجة يُرفع إليها الإنسان، ولذلك أكتفي عن تعيين الممنون به لحمل الفعل على أكمل معناه. وجُعلت منّة من الله عليهما لأنّ موسى لم يسأل النبوّة، إذ ليست النبوة بمكتسبة، وكانت منّة على هارون أيضا لأنّه إنّما سأل له

موسى ذلك، فهي منّة عليه وإرضاء لموسى، والمنّة عليهما من قبيل إيصال المنافع، فإنّ الله أرسل موسى لإنقاذ بني إسرائيل من استعباد القبط لبني إسرائيل.

وفي اختلاف مبادئ القصص الثلاث إشارة إلى أنّ الله يغضب لأوليائه، إمّا باستجابة دعوة، وإمّا بجزاء على سلامة طوية وقلب سليم، وإمّا برحمة منه ومنّة على عباده المستضعفين.

{ **وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ** } كرامة أخرى لهما ولقومهما بسببهما، وهذه نعمة إزالة الضرّ، فحصل لموسى وهارون نوعا الإنعام وهما: إعطاء المنافع، ودفع المضار.

{ **الْكَرْبِ الْعَظِيمِ** } هو ما كانوا فيه من المذلّة تحت سلطة الفراعنة، ومن اتّباع فرعون إيّاهم في خروجهم.

{ **وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ** } ضمير فصل يفيد القصر، أي: هم الغالبين لغيرهم، أي لم يُغلبوا ولو مرة واحدة. فكان بنو إسرائيل منتصرين في كل موقعة قاتلوا فيها عن أمر موسى وما انهزموا إلّا حين أقدموا على قتال العمالقة والكنعانيين في سهول وادي (شكول) لأنّ موسى نهاهم عن قتالهم هنالك كما هو مسطور في تاريخهم.

{ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ [117] وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ [118] وَتَرَكْنَا عَلَيهِمَا فِي الْآخِرِينَ [119] سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ [220] إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ [121] إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ [122] }.

{ **وَآتَيْنَاهُمَا** } تعدية فعل الإيتاء إلى ضمير موسى وهارون مع أنّ الذي أوتي التوراة هو موسى، كما قال تعالى { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ } [المؤمنون:49] من حيث إنّ هارون كان معاضدا لموسى في رسالته فكان له حظ من إيتاء التوراة، كما في قوله تعالى { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً } [الأنبياء: 48]، وهذا من استعمال الإيتاء في معنييه الحقيقي والمجازي.

{ **الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ** } هو التوراة، و**المستبين**: قوي الوضوح، فالسين والتاء للمبالغة يقال: استبان الشيء إذا ظهر ظهورا شديدا.

{ **الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** } الدين الحق، كما تقدّم في [الفاتحة:6]، وقد كانت شريعة التوراة يوم أوتيها موسى عليه السلام هي الصراط المستقيم فلمّا نُسخت بالقرآن صار القرآن هو الصراط المستقيم للأبد.

ويجوز أن يراد أصول الديانة التي لا تختلف فيها الشرائع، وهي التوحيد وكلّيّات الشرائع التي أشار إليها قوله تعالى { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً - إلى قوله - وَمُوسَى وَعِيسَى } [الشورى:13].

{ **وَتَرَكْنَا عَلَيهِمَا فِي الْآخِرِينَ** } القول فيها إلى آخر الآيات الأربع، كالقول في نظائرها عند ذكر نوح.

وفي ذكر قصة موسى وهارون عبرة مَثَل كامل للنبيّ صلى الله عليه وسلم في رسالته وإنزال القرآن عليه وهدايته وانتشار دينه وسلطانه بعد خروجه من ديار المشركين.

{ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ [123] إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ [124] أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ [125] اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ [126] فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ [127] إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ [128] وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ [129] سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ [130] إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ [131] إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ [132] }.

أُتْبِع الكلام على رسل ثلاثة أصحاب الشرائع: نوح، وإبراهيم، وموسى بالخبر عن ثلاثة أنبياء وما لقوه من قومهم، وذلك كلّه شواهد لتسلية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وقوارع من الموعظة لكفّار قريش.

{ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ } هو (**إيلياء**) من أنبياء بني إسرائيل التابعين لشريعة التوراة، وأطلق عليه وصف الرسول لأنّه أُمِر من جانب الله تعالى بتبليغ ملوك إسرائيل أنّ الله غضب عليهم من أجل عبادة الأصنام، فإطلاق وصف الرسول عليه مثل إطلاقه على الرسل إلى أهل أنطاكية المذكورين في سورة يس.

{ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ } { إذ } ظرف متعلّق بـ { الْمُرْسَلِينَ }، أي: أنّه من حين ذلك القول كان مبلِّغا رسالة عن الله تعالى إلى قومه. وتقدّم ذكر إلياس في [الأنعام:85].

قومه: بنو إسرائيل، وكانوا قد عبدوا بعلا معبود الكنعانيين بسبب مصاهرة بعض ملوك يهودا للكنعانيين، ولذلك قام إلياس داعيا قومه إلى نبذ عبادة بعل الصنم وإفراد الله بالعبادة.

{ **أَلَا** } كلمتان: همزة الاستفهام للإنكار، و{ لا } النافية ،إنكار لعدم تقواهم، وحذف مفعول { تَتَّقُونَ } لدلالة ما بعده عليه.

{ **بَعْلًا** } اسم صنم الكنعانيين، وهو أعظم أصنامهم، لأنّ كلمة بعل في لغتهم تدل على معنى الذكورة. ثم دلّت على معنى السيادة، فلفظ البعل يطلق على الذكر، وهو عندهم رمز على الشمس ويقابله كلمة **تانيت**، أي: الأنثى، وكانت لهم صنمة تُسمَّى عند الفينيقيين بقرطاجنة (تانيت) وهي عندهم رمز القمر، وعند فينيقيي أرض فينيقية [الوطن الأصلي للكنعانيين] تُسمَّى هذه الصنمة (العشتاروث).

وقد أطلق على بعل في زمن موسى عليه السلام اسم (مُولك) أيضا، وقد مثَّلوه بصورة إنسان له رأس عجل وله قرنان وعليه إكليل وهو جالس على كرسي مادا يديه كمن يتناول شيئا وكانت صورته من نحاس وداخلها مجوّف وقد وضعوها على قاعدة من بناء كالتنور فكانوا يوقدون النار في ذلك التنور حتّى يحمى النحاس ويأتون بالقرابين فيضعونها على ذراعيه فتحترق بالحرارة فيحسبون لجهلهم الصنم

تقبلها وأكلها من يديه، وكانوا يقربون له أطفالا من أطفال ملوكهم وعظماء ملّتهم، وقد عبده بنو إسرائيل غير مرّة تبعا للكنعانيين، والعمونيين، والمؤبيين.

{ **وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ** } جيء بذكر صفة الله دون اسمه العلم تعريضا بتسفيه عقول الذين عبدوا بعلا بأنّهم تركوا عبادة الرب المتّصف بأحسن الصفات وأكملها وعبدوا صنما ذاته وحش، فكأنّه قال: أَتَدْعون صنما بشعا جمع عنصري الضعف؛ وهما المخلوقية وقبح الصورة وتتركون من له صفة الخالقية والصفات الحسنى.

{ **اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ** } قرأ الأكثر برفع اسم الجلالة وما عطف عليه فهو مبتدأ والجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا والخبر مستعمل في التنبيه على الخطأ بأن عبدوا { بعلًا }. وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ويعقوب وخلف بنصب اسم الجلالة على عطف البيان لـ { أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ }، والمقصود من البيان زيادة التصريح لأنّ المقام مقام إيضاح لأصل الديانة.

وعلى كلتا القراءتين فالكلام مسوق لتذكيرهم بأنّ من أصول دينهم أنّهم لا ربّ لهم إلّا الله.

{ **وَرَبَّ آبَائِكُمُ** } إشارة إلى إبراهيم، فإنّ أباءهم لم يعبدوا غير الله من عهد إبراهيم عليه السلام، وهو الأب الأوّل من حين تميزت أمتهم عن غيرهم، أو إشارة إلى يعقوب، قال تعالى { وَأَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } [البقرة:132].

{ **الْأَوَّلِينَ** } احتراز عن آبائهم الذين كانوا في زمان ملوكهم بعد سليمان.

وجمع هذا الخبرُ تحريضًا على إبطال عبادة (بعل) لأنّ في الطبع محبة الاقتداء بالسلف في الخير.

{ **فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ** } أي: أنّهم لم يطيعوه تملُّقا لملوكهم الذين أجابوا رغبة نسائهم المشركات لإقامة هياكل للأصنام، فإنّ (إيزابل) ابنة ملك (الصيدونيين) زوجة (أخاب) ملك إسرائيل، لمّا بلغها ما صنع إلياس بسدنة بَعْل ثأرًا لمن قتلته هي من صالحي إسرائيل أرسلت إلى إلياس تتوعده بالقتل فخرج إلى موضع اسمه (بئر سبع) ثم ساح في الأرض وسأل الله أن يقبضه إليه فأمره بأن يعهد إلى صاحبه (**اليسع**) بالنبوّة من بعده، ثمّ قبضه الله إليه فلم يعرف أحد مكانه.

{ **فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ** } أي: أنّ الله يحضرهم للعقاب، وتقدّم عند قوله تعالى { وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ } [57].

{ **إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ** } استُثْنيَ من ذلك عبادُ الله المخلَصون وهم الذين اتّبعوا إلياس وأعانوه على قتل سدنة (بعل). وتقدّم القول فيه فيما سبق من هذه السورة [74].

{ **وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ** } إلى آخر الآية تقدّم نظيره.

{ **إِلْ يَاسِينَ** } قرأ نافع وابن عامر { ءَالِ يَاسِينَ } بهمزة بعدها ألف على أنّهما كلمتان (ءال – ياسين).

وقرأه الباقون بهمزة مكسورة دون ألف بعدها وبإسكان اللام { إِلْ يَاسِينَ } على أنّها كلمة واحدة هي اسم إلياس، ولا منافاة بينها وبين القراءتين لأنّ (آل) قد ترسم مفصولة عن مدخولها.

قيل: أريد به إلياس خاصة وعبّر عنه بـ { ياسين } لأنّه يُدعى به.
وقيل: إن ياسين هو أبو إلياس. فالمراد: سلام على إلياس وذويه من آل أبيه.
والأظهر أنّ المراد بـ { إِلْ يَاسِينَ } أنصاره الذين اتبعوه وأعانوه. وهؤلاء هم أهل (جبل الكرمل) الذين استنجدهم إلياس على سدنة بعل فأطاعوه وأنجدوه وذبحوا سدنة بعل كما هو موصوف بإسهاب في [سفر الملوك الأول، الإصحاح:18].

{ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ [133] إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ [134] إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ [135] ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ [136] }.
هذا ثاني الأنبياء الذين جمعهم التنظير في هذه الآية، ولوط كان رسولا للقرى التي كان ساكنا في إحداها فهو رسول لا شريعة له سوى أنّه جاء ينهى الأقوام الذين كان نازلا بينهم عن الفاحشة وتلك لم يسبق النهي عنها في شريعة إبراهيم.
{ **إِذْ** } ظرف متعلق بـ { الْمُرْسَلِينَ }، والمعنى: أنّه في حين إنجاء الله إيّاه وإهلاك الله قومه كان قائما بالرسالة عن الله تعالى ناطقا بما أمره الله. وتقدّمت قصة لوط في [الأعراف:80-84].
العجوز: امرأة لوط، وتقدّم خبرها، وتقدم نظير الآية في [الشعراء:171].

{ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ [137] وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ [138] }.
الخطاب لقريش الذين سيقت هذه القصص لعِظتهم.
المرور: مجاوزة السائر بسيره شيئا يتركه، والمراد هنا: في السفر، وكان أهل مكة إذا سافروا في تجارتهم إلى الشام يمرون ببلاد فلسطين فيمرّون بأرض لوط على شاطئ البحر الميت المسمَّى بحيرة لوط.
{ **عَلَيْهِمْ** } بتقدير مضاف: على أرضهم، كما قال الله تعالى { أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ } [البقرة:259].
يقال: مرّ عليه ومرّ به، وتعديته بحرف (على) تفيد تمكّن المرور أشد من تعديته بـ (الباء).
وكانوا يمرّون بجانبها، لأنّ قراهم غمرها البحر الميت و آثارها باقية تحت الماء.
{ **مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ** } يمرون على منازلهم في الصباح تارة وفي الليل تارة. بحسب تقدير السير في أوّل النهار وآخره، لأنّ رحلة قريش إلى الشام تكون في زمن الصيف ويكون السير بكرة وعشيا وسُرًى.
{ **أَفَلَا تَعْقِلُونَ** } استفهام إنكاري من عدم فطنتهم لدلالة تلك الآثار على ما حلّ بهم من سخط الله وعلى سبب ذلك، وهو تكذيب رسول الله لوط.

وقد أشرنا إلى وجه تخصيص قصة لوط مع القصص الخمس في أوّل الكلام على قصة نوح، من كونه على ملّة إبراهيم، مثل ما تدّعيه قريش، وتزيد على تلك القصص بأنّ فيها مشاهدة آثار قومه الذين كذّبوا وأصرّوا على الكفر.

{ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ [139] إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ [140] فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ [141] فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ [142] فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ [143] لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ [144] }.

يونس: هو ابن متَّى، واسمه بالعبرانية (يونان بن آمتاي)، وهو من أهل فلسطين، وهو من أنبياء إسرائيل أرسله الله إلى أهل (**نينوى**)، وكانت نينوى مدينة عظيمة من بلاد الآشوريين وكان بها أسرى بني إسرائيل الذين بأيدي الآشوريين وكانوا زهاء مائة ألف بقوا بعد (دانيال). وكان يونس في أوّل القرن الثامن قبل المسيح، وتقدّم ذكره وذكر قومه في [الأنعام:86]، وفي [يونس:98].

{ **إذْ** } ظرف متعلّق بـ { الْمُرْسَلِينَ } وإنّما وُقِّتت رسالته بالزمن الذي أبق فيه إلى الفلك لأنّ فعلته تلك كانت عندما أمره الله بالذهاب إلى نينوى لإبلاغ بني إسرائيل أنّ الله غضب عليهم لأنّهم انحرفوا عن شريعتهم.

فحينما أوحى الله إليه بذلك عظم عليه هذا الأمر فخرج من بلده وقصد مرسى (يافا) ليذهب إلى مدينة (ترشيش) وهي (طرطوسية) على شاطئ بلاد الشام، فهال البحر حتّى اضطر أهل السفينة إلى تخفيف عدد ركّابها فاستهموا على من يطرحونه من سفينتهم في البحر فكان يونس ممّن خرج سهم إلقائه في البحر فالتقمه حوت عظيم وجرت قصته المذكورة في [الأنبياء:88/87]، فلمّا كان هروبه من كلفة الرسالة مقارنا لإرساله وُقِّت بكونه من المرسلين.

{ **أَبَقَ** } مصدره إبَاق (بكسر الهمزة وتخفيف الباء) وهو فرار العبد من مالكه.

والمراد هنا: أنّ يونس هرب من البلد الذي أوحي إليه فيه قاصدا بلدا آخر تخلُّصا من إبلاغ رسالة الله إلى أهل (نينوى) ولعلّه خاف بأسهم واتهم صبر نفسه على أذاهم المتوقّع.

ففعل { أَبَقَ } هنا استعارة تمثيلية، شُبِّهت حالة خروجه من البلد الذي كلّفه ربه فيه بالرسالة، تباعدا من كلفة ربه، بإباق العبد من سيده الذي كلّفه عملا.

{ **الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ** } المملوء بالراكبين، وتقدّم معناه في قصة نوح [75].

ساهم: قارع. وأصله مشتق من اسم السهم لأنّهم كانوا يقترعون بالسهام وهي أعواد النبال، وتُسمَّى الأزلام. وكانت القرعة طريقا من طرق القضاء عند التباس الحق أو عند استواء عدد في استحقاق شيء. وتقدّم عند قوله تعالى { وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ } [آل عمران:44].

وهي طريقة إقناعية كان البشر يصيرون إليها لفصل التنازع، يزعمون أنّها دالة على إرادة الله تعالى عند الأمم المتدينة، أو إرادة الأصنام عند الأمم التي تعبد الأصنام، تمييزَ صاحب الحق عند التنازع.
ولعلّها من مخترعات الكهنة وسدنة الأصنام. فلمّا شاعت في البشر أقرّتها الشرائع لما فيها من قطع الخصام والقتال، ولكن الشرائع الحق لمّا أقرتها اقتصدت في استعمالها بحيث لا يصار إليها إلّا عند التساوي في الحق وفقدان المرجِّح، الذي هو مؤثِّر في نوع ما يختلفون فيه.
وقد اقتصرت الشريعة الإسلامية في اعتبارها على أقل ما تعتبر فيه. مثل تعيين أحد الأقسام المتساوية لأحد المتقاسمين إذ تشاحوا في أحدها، قال ابن رشد في المقدّمات: " والقرعة إنّما جعلت تطييبا لأنفس المتقاسمين وأصلها قائم في كتاب الله لقوله تعالى في قصة يونس { فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ } ".
وعندي: أنّ ليس في الآية دليل على مشروعية القرعة في الفصل بين المتساويين لأنّها لم تحك شرعا صحيحا كان قبل الإسلام، إذ لا يعرف دين أهل السفينة الذين أجرَوْا الاستهام على يونس.
وقال القرافي في (الفرق): " متّى تعينت المصلحة أو الحق في جهة لا يجوز الاقتراع لأنّ في القرعة ضياع الحق، ومتى تساوت الحقوق أو المصالح فهذا موضع القرعة دفعا للضغائن، فهي مشروعة بين الخلفاء إذا استوت فيهم الأهلية للولاية، والأئمة، والمؤذنين، إذا استووا، والتقدّم للصف الأول عند الازدحام، وتغسيل الأموات عند تزاحم الأولياء وتساويهم، وبين الحاضنات والزوجات في السفر والقسمة، والخصوم عند الحكّام [...] والحق عندي أنّها تجري في كل مشكل ".
الإدحاض: جعل المرء داحضا، أي: زالقا غير ثابت الرجلين، وهو هنا استعارة للخسران والمغلوبية.
الالتقام: البلع. والحوت الذي التقمه: حوت عظيم يبتلع الأشياء ولا يعض بأسنانه.
المُليم: اسم فاعل من ألام، إذا فعل ما يلومه عليه الناس، لأنّه جعلهم لائمين، فهو ألامهم على نفسه.
وكان غرقه في البحر المُسمَّى بحر الروم وهو الذي نسمّيه البحر البيض المتوسط.
{ **فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ** } كما في قوله تعالى { لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ } [الأنبياء:87]، فأنجاه الله بسبب تسبيحه وتوبته فقذفه الحوت إلى البر بعد أن مكث في جوف الحوت ثلاث ليال، وقيل: يوما وليلة، وقيل: بضع ساعات.
{ **لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ** } التأبيد.

{ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ [145] وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ [146] }.

الفاء فصيحة لأنّها تفصح عن كلام مقدّر دل عليه قوله { فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ...}. فالتقدير: يسبح ربه في بطن الحوت { لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ } فاستجاب الله له ونجّاه.
النبذ: الإلقاء، وأسند نبذه إلى الله لأنّ الله هو الذي سخّر الحوت لقذفه من بطنه إلى شاطئ لا شجر فيه.
العراء: الأرض التي لا شجر فيها ولا ما يغطّيها.

{ **وَهُوَ سَقِيمٌ** } وكان يونس قد خرج من بطن الحوت سقيما لأنّ أمعاء الحوت أضرّت بجلده.

{ **وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ** } أنبت الله شجرة من يقطين لتظلله وتستره. و**اليقطين**: الدُّبَّاء، وهي كثيرة الورق تتسلق أغصانها في الشيء المرتفع. واختير له اليقطين ليمكن له أن يقتات من غلّته فيصلح جسده لطفا من ربه به بعد أن أجرى له حادثا لتأديبه، شأن الرب مع عبيده أن يُعقب الشدّة باليسر.

وهذا حَدَث لم يعهد مثيله من الرسل ولأجله قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" ما ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى"**، يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه إذ لا يحتمل أن يكون أراد أحدا آخر إذ لا يخطر بالبال أن يقوله أحد غير الأنبياء. والمعنى نفي الأخيرية في وصف النبوّة، أي: لا يظننّ أحد أن فعلة يونس تسلب عنه النبوّة.

واعلم أنّ الغرض من ذكر يونس هنا تسلية النبيّ صلى الله عليه وسلم فيما يلقاه من ثقل الرسالة بأنّ ذلك قد أثقل الرسل من قبله، فظهرت مرتبة النبيّ صلى الله عليه وسلم في صبره على ذلك وعدم تذمّره، وإعلام جميع الناس بأنّه مأمور من الله تعالى بمداومة الدعوة للدين، لأنّ المشركين كانوا يلومونه على إلحاحه عليهم ودعوته إيّاهم في مختلف الأزمان والأحوال.

فلذكر قصة يونس أثر من موعظة التحذير من الوقوع فيما وقع فيه من غضب ربه، ألا ترى إلى قوله تعالى { فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ } [القلم:49/48].

وليعلم الناس أنّ الله إذا اصطفى أحدا للرسالة لا يُرخَّص له في الفتور عنها ولا ينسخ أمره بذلك لأنّ الله أعلم حيث يجعل رسالاته.

{ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ [147] فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ [148] }.

ظاهر ترتيب ذكر الإرسال بعد الإنجاء من الحوت أنّه إعادة لإرساله. وهذا هو مقتضى ما في كتاب يونس من كتب اليهود إذ وقع في الإصحاح الثالث: " ثم صار قول الربّ إلى يونس ثانية: قم اذهب إلى نينوى وناد لها المناداة التي أنا مكلمك بها ".

المرسل إليهم :اليهود القاطنون في نينوى في أسر الآشوريين كما تقدّم. والظاهر أنّ الرسول إذا بعث إلى قوم مختلطين بغيرهم أن تعمّ رسالته الجميع، لأنّ في تمييز البعض بالدعوة تقريرا لكفر غيرهم. ولهذا لمّا بعث الله موسى عليه السلام لتخليص بني إسرائيل دعا فرعون وقومه إلى نبذ عبادة الأصنام.

{ **مِائَةِ أَلْفٍ** } يحتمل أنّهم اليهود وأن المعطوفين بقوله { **أَوْ يَزِيدُونَ** } هم بقية سكان نينَوى. فحرف (أو) بمعنى (بل).

وذُكر في كتاب يونس أن دعوة يونس لما بلغت ملك نينوى قام عن كرسيه وخلع رداءه ولبس مسحا وأمر أهل مدينته بالتوبة والإيمان. ولم يُذكر أن يونس دعا غير أهل نينوى من بلاد أشور مع سعتها.

{ **فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ** } الفاء للتعقيب العرفي لأنّ يونس لمّا أرسل إليهم ودعاهم امتنعوا في أوّل الأمر فتوعّدهم بهلاكهم بعد أربعين يوما ثم خافوا فآمنوا، كما في قوله تعالى { فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ } [يونس:98].

{ **فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ** } [149]

تفريع على ما تقدّم من الإنكار على المشركين وإبطال دعاويهم، وضرب الأمثال لهم بنظرائهم من الأمم ففُرّع عليه أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بإبطال ما نسبه المشركون إلى الله من الولد.

{ **فَاسْتَفْتِهِمْ** } ضمير الغيبة عائد على غير مذكور يُعلم من المقام. مثل نظيره السابق في قوله { فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا } [11]. والمراد: التهكّم عليهم بصورة الاستفتاء إذ يقولون: ولد الله، على أنّهم قسموا قسمة ضيزى حيث جعلوا لله البنات وهم يرغبون في الأبناء الذكور ويكرهون الإناث، فجعلوا لله ما يكرهون وقد جاءوا في مقالهم هذا بثلاثة أنواع من الكفر:

<u>أحدها</u>: أنّهم أثبتوا التجسيم لله لأنّ الولادة من أحوال الأجسام.

<u>الثاني</u>: إيثار أنفسهم بالأفضل وجعلهم لله الأقل. قال تعالى { وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ } [الزخرف:17].

<u>الثالث</u>: أنّهم جعلوا للملائكة المقربين وصف الأنوثة.

{ **أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ** } بيان لجملة { فَاسْتَفْتِهِمْ }. وضمير { لِرَبِّكَ } مخاطب به النبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ **أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ** } [150]

{ **أَمْ** } منقطعة بمعنى (بل)، وهي لا يفارقها معنى الاستفهام، فالكلام بعدها مقدّر بهمزة الاستفهام، أي: بل أخلقنا الملائكة إناثا. والاستفهام إنكاري وتعجيبي من جرأتهم وقولهم بلا علم.

{ **خَلَقْنَا** } التفات من الغيبة إلى التكلّم.

{ **وَهُمْ شَاهِدُونَ** } في موضع الحال وهي قيد للإنكار، أي: كانوا حاضرين حين خلقنا الملائكة، لأنّ هذا لا يثبت لأمثالهم إلّا بالمشاهدة. وبقي أن يكون ذلك بالخبر القاطع فذلك ما سينفيه بقوله تعالى { أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ } [156]، وذلك لأنّ أنوثة الملائكة ليست من المستحيل ولكنه قول بلا دليل.

{ **أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ** [151] **وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ** [152] }.

ارتقاء في تجهيلهم بأنّهم يقولون المستحيل فضلا على القول بلا دليل فلذلك سمّاه **إفكا**.

والجملة معترضة بين جمل الاستفتاء.

{ **أَلَا** } حرف تنبيه للاهتمام بالخبر.

الإفك: الكذب، أي: قولهم هذا بعض من أكذوباتهم.

{ **وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ** } مؤكَّدا بـ (إن) واللام، أي: شأنهم الكذب في هذا وفي غيره من باطلهم.

{ **أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ** [153] **مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ** [154] **أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** [155] **أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ** [156] **فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** [157] }.

{ **أَصْطَفَى** } قرأه الجمهور بهمزة قطع مفتوحة على أنّها همزة الاستفهام وأمّا همزة الوصل التي في الفعل فمحذوفة لأجل الوصل. وقرأه أبو جعفر بهمزة وصل على أنّ همزة الاستفهام محذوفة.

والكلام ارتقاء في التجهيل، أي: لو سلّمنا أنَّ الله اتخذ ولدا فلماذا اصطفى البنات دون الذكور؟

{ **مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ** } بدل اشتمال من جملة { أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ } فإنّ إنكار اصطفاء البنات يقتضي عدم الدليل في حكمهم ذلك، فأُبدل { مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ } من إنكار ادعائهم اصطفاء الله البنات.

{ **مَا لَكُمْ** } { ما } استفهام عن ذات وهي مبتدأ و{ لكم } خبر. والمعنى: أي شيء حصل لكم؟

وهذا إبهام، فلذلك كانت كلمة (ما لك) ونحوها في الاستفهام يجب أن يتلى بجملة حال تبيّن الفعل المستفهم عنه نحو { مَا لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ } [92]، ونحو قوله تعالى { مَا لَكَ لا تَأْمَنَنَا عَلَى يُوسُفَ } [يوسف:11].

{ **كيف** } اسم استفهام عن الحال، وهي في موضع الحال من ضمير { تَحْكُمُونَ } قُدمت لأجل صدارة الاستفهام.

{ **تَحْكُمُونَ** } حال من ضمير { لكم } فحصل استفهامان:

<u>أحدهما</u>: عن الشيء الذي حصل لهم فحكموا هذا الحكم.

<u>ثانيهما</u>: عن الحالة التي اتصفوا بها لمّا حكي هذا الحكم الباطل.

وهذا إيجاز حذف، إذ التقدير: ما لكم تحكمون هذا الحكم؟ كيف تحكمونه؟

وحُذف متعلق { تَحْكُمُونَ } لما دلّ عليه الاستفهامان من كون ما حكموا به منكرا يحقّ العجب منه، فكلا الاستفهامين إنكار وتعجيب.

{ **أَفَلا تَذَكَّرُونَ** } فُرّع عليه الاستفهام الإنكاري عن تذكّرهم، أي: استعمال ذُكرهم، وهو العقل. أي: فمنكر عدم تفهّمكم فيما يصدر من حكمكم.

{ **أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ** } إضراب انتقالي فـ { أم } منقطعة بمعنى (بل) التي معناها الإضراب الصالح للإضراب الإبطالي والإضراب الانتقالي. والاستفهام الذي تقتضيه { أم } بعدها إنكاري أيضا.

السلطان: الحجّة. و**المبين**: الموضّح للحق. أي: ما لكم حجّة ودليل على قولكم إنّ الملائكة بنات الله.
{ **فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } تفرّع على إنكار أن تكون لهم حجّة بما قالوا أن خوطبوا بالإتيان بكتاب على ذلك إن كانوا صادقين فيما زعموا، أي: فإن لم تأتوا بكتاب على ذلك فأنتم غير صادقين.
{ **فَأْتُوا** } الأمر تعجيز مثل قوله تعالى { وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ } [البقرة:23].
{ **بِكِتَابِكُمْ** } إضافة الكتاب إليهم على معنى المفعولية، أي: كتاب مرسل إليكم.

{ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ } [158] .

ذلك أنّ المشركين زعموا أنّ الملائكة بنات الله من سَروات الجنّ، أي: من فريق نساء من الجن، من أشراف الجنّ، وتقدّم في قوله تعالى { أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ } [الأعراف:184].
{ **الْجِنَّةُ** } الجماعة من الجن، فتأنيث اللفظ بتأويل الجماعة مثل تأنيث رَجْلة، الطائفة من الرجال.
النسب: القرابة العمودية أو الأفقية. أي: ذوي نسب لله تعالى، وهو نسب البنوّة، لزعمهم أنّ الملائكة بنات الله تعالى. أي: نسله سبحانه ناشئ من بينه وبين الجن.
{ **وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ** } معترضة بين السابقة واللاحقة.
{ **إِنَّهُمْ** } الضمير عائد إلى المشركين أو إلى الجنّة، والوجهان مرادان فإنّ الفريقين معاقبان.
المحضرون: المجلوبون للحضور، والمراد: محضرون للعقاب، بقرينه مقام التوبيخ، فإنّ التوبيخ يتبعه التهديد، والغالب في فعل الإحضار أن يراد به إحضار سوء، قال تعالى { وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ } [57]، فأمّا الإتيان بأحد لإكرامه فيطلق عليه المجيء.
<u>والمعنى</u>: أنّ الجنّ تعلم كذب المشركين في ذلك كذبا فاحشا يجازون عليه بالإحضار للعذاب.

{ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ } [159].

أُتبعت حكاية قولهم الباطل والوعيد عليه باعتراض بين المستثنى منه والمستثنى يتضمّن إنشاء تنزيه الله تعالى عمّا نسبوه إليه، فهو إنشاء من جانب الله تعالى لتنزيهه، وتلقين للمؤمنين بأن يقتدوا بالله في ذلك التنزيه، وتعجيب من فظيع ما نسبوه إليه.

{ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ } [160].

اعتراض بين جملة { سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ } [159] وجملة { فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ } [161]، والاستثناء منقطع، <u>قيل</u>: نشأ عن قوله تعالى { إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ } [158].

والمعنى: لكن عباد الله المخلصين لا يحضرون. وقيل: عن قوله تعالى { عَمَّا يَصِفُونَ } [159].
أي: لكن عباد الله المخلصين لا يصفونه بذلك.
وقيل: من ضمير { وَجَعَلُوا } [158]، أي: لكن عباد الله المخلصين لا يجعلون ذلك.
والوجه عندي: أن يكون استثناء منقطعا نشأ عن قوله تعالى { سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ } [159].
والمعنى: لكن الملائكة عباد الله المخلصين، فالمراد من { عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ } الملائكة، فهذه الآية في معنى قوله تعالى { وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ } [الأنبياء:26].

{ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ [161] مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ [162] إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ [163] }.

عُقِّب قولهم في الملائكة والجنّ بهذا، لأنّ قولهم ذلك دعاهم إلى عبادة الجن وعبادة الأصنام التي سوَّلها لهم الشيطان، وحرَّضهم عليها الكهَّانُ خَدَمةُ الجن، فعُقِّب ذلك بتأييس المشركين من إدخال الفتنة على المؤمنين في إيمانهم بما يحاولون منهم من الرجوع إلى الشر.
أو هي فاء فصيحة، والتقدير: إذا علمتم أنّ عباد الله المخلصين منزهون عن مثل قولكم، فإنّكم لا تفتنون إلّا من هو صالي الجحيم.

{ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ [164] وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ [165] وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ [166]}.

يجوز أن يكون من كلام الملائكة، عطفا على قوله تعالى { إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ } [40]، فيكون عطفا على معنى الاستثناء المنقطع، لأنّ معناه أنّهم ليسوا أولاد الله تعالى، وعطف عليه أنّهم يتبرّؤون من ذلك.
والتقدير: ويقولون ما منا إلّا له مقام معلوم وإنّا لنحن الصافون وإنّا لنحن المسبّحون.
وهذا الوجه أوفق بالصفات المذكورة { إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ - الصَّافُّونَ - الْمُسَبِّحُونَ }، الشائع وصف الملائكة بأمثالها في القرآن، كما تقدّم في أول السورة وصفهم بالصافات.
ووصفهم بالتسبيح كثير، كقوله تعالى { وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ } [الشورى:5].
وذكر مقاماتهم، في قوله تعالى { ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ } [التكوير:21/20]، وقوله تعالى { وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى } [النجم:14/13].
ويجوز أن يكون هذا ممّا أُمِر النبيّ صلى الله عليه وسلم بأن يقوله للمشركين عطفا على التفريع الذي في قوله تعالى { فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ } [161] إلى آخره. والمعنى: ما أنتم بفاتنينا فتنةَ جَرَاءة على ربّنا فنقول مثل قولكم: الملائكة بنات الله والجن أصهار الله، فما منَّا إلّا له مقام معلوم لا يتجاوزه، وهو مقام المخلوقية لله والعبودية له.
المقام: أصله مكان القيام. ولمّا كان القيام يكون في الغالب لأجل العمل كثر إطلاق المقام على العمل

الذي يقوم به المرء، كما حكي في قول نوح { إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي } [يونس:71]، أي: عملي.
المعلوم: المعيَّن المضبوط، وأطلق عليه وصف { مَعْلُومٌ }، لأنّ الشيء المعيّن المضبوط لا يشتبه على المتبصّر فيه، فمن تأمَّله علِمَه.
والمعنى: ما من أحد منّا معشر المؤمنين إلّا له صفة وعمل نحو خالقه لا يستزلّه عنه شيء ولا تروج عليه فيه الوساوس، فلا تطمعوا أن تزلُّونا عن عبادة ربّنا.
فالمقام هو صفة العبودية لله بقرينة وقوع هذه الجملة عقب قوله تعالى { فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ} [162/161]، أي: ما أنتم بفاتنين لنا فلا يلتبس علينا فضل الملائكة فنرفعه إلى مقام البنوّة لله تعالى.
{ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ } أي: وإنّا معشر المسلمين:
الصّافون: أي: الواقفون لعبادة الله صفوفا بالصلاة. ووصف وقوفهم في الصلاة بالصف تشبُّها بنظام الملائكة قال النبيّ صلى الله عليه وسلم في حديث مسلم: **" جُعلت صفوفنا كصفوف الملائكة "**.
المسبّحون: المنزّهون لله تعالى عن أن يتّخذ ولدا أو يكون خلق صهرا له أو صاحبة.
وحذف متعلق { الصَّافُّونَ / الْمُسَبِّحُونَ } لدلالة قوله تعالى { مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ } [162]عليه، أي: الصافون لعبادته المسبّحون له.

{ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ [167] لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ [168] لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ [169] فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ [170] }.
انتقال من ذكر كفر المشركين بتعدّد الإله، وبإنكار البعث، وما وصفوا به الرسول صلى الله عليه وسلم من السحر والجنون، ثمّ بما نسبوا لله ممّا لا يليق بإلهيته، وما تخلَّل ذلك من المواعظ والوعيد لهم والوعد للمؤمنين، والعبرة بمصارع المكذِّبين السابقين وما لقيه رسل الله من أقوامهم.
فانتقل الكلام إلى ذكر ما كفر به المشركون من تكذيب القرآن الذي أنزله الله هدى لهم، فالمقصود من هذا هو قوله { فَكَفَرُوا بِهِ } أي: الذكر، وإنّما قُدِّم له في نظم الكلام ما فيه تسجيل عليهم تهافتهم في القول إذ كانوا قبل أن يأتيهم محمد صلى الله عليه وسلم بالكتاب المبين يودُّون أن يشرّفهم الله بكتاب لهم كما شرَّف الأولين، ويرجون لو كان ذلك أن يكونوا عبادا لله مخلصين له، فلمّا جاءهم ما رغبوا فيه كفروا به، وذلك أفظع الكفر، لأنّه كفر بما كانوا على بصيرة من أمره، إذ كانوا يتمنَّونه لأنفسهم ويغبطون الأمم التي أنزل عليهم مثله، فلم يكن كفرهم عن مباغتة ولا عن قلة تمكّن من النظر.
{ وَإِنْ } تأكيد الخبر بـ (إن) المخففة من الثقيلة وبـ (لام الابتداء) الفارقة بين المخفّفة والنافية، للتسجيل عليهم بتحقيق وقوع ذلك منهم ليُسدَّ عليهم باب الإنكار.
{ كَانُوا } للدلالة على أن خبر (كان) ثابت لهم في الماضي.

{ **لَيَقُولُونَ** } التعبير بالمضارع لإفادة أنّ ذلك تكرّر منهم.

{ **لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ** } {لو} شرطية، وسدَّت {أن} وصلتها مسد فعل الشرط، وهو كثير في الكلام.

الذكر: الكتاب المقروء، سُمِّي ذكرا لأنّه يذكّر الناس بما يجب عليهم. وتقدّم عند قوله تعالى { وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ } [الحجر:6].

{ **مِنَ الْأَوَّلِينَ** } صفة لـ { ذِكْرًا }، والمراد: الرسل السابقون، أي: مثل موسى وعيسى.

ومرادهم بهذا أنّ الرسل الأوّلين لم يكونوا مرسلين إليهم ولا بلَّغوا إليهم كتابهم ولو كانوا مرسلين إليهم لآمنوا بهم، فكانوا عباد الله المخلصين.

{ **لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ** } صيغة قصر من أجل كون المسند إليه معرفة بالإضمار والمسند بالإضافة، أي: لكنّا نحن عباد الله دون غيرنا. وهو يؤول إلى معنى تفضيل أنفسهم في الإخلاص لله حينئذ، كما صرّح به في قوله تعالى { أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ } [الأنعام:157].

{ **فَكَفَرُوا بِهِ** } الفاء للتعقيب على { لَيَقُولُونَ }، أي: استمر قولهم حتّى كان آخره أن جاءهم الكتاب فكفروا به. أو هي فاء الفصيحة، والتقدير: فكان عندهم ذكر فكفروا به، فالضمير عائد إلى الذكر وهو القرآن، قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ } [فصلت:41]. وهذا معنى قوله تعالى { وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا } [فاطر:42]

{ **فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** } وعيد، وهوَّله بما ضمّنه من الإبهام. و(سوف) أخت السين في إفادة مطلق الاستقبال.

{ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ [171] إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ [172] وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ [173] }.

تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم على ما تضمّنه قوله { فَكَفَرُوا بِهِ } [170]، وبيان لبعض الوعيد الذي في قوله تعالى { فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ }، بمنزلة بدل البعض من الكل، ولكنّه غلب عليه جانب التسلية فعُطف بالواو عطف القصة على القصة.

{ **كَلِمَتُنَا** } مراد بها الكلام، عُبِّر عن الكلام بكلمة إشارة إلى أنّه منتظم في معنى واحد دال على المقصود دلالة سريعة، فشُبِّه بالكلمة الواحدة في سرعة الدلالة وإيجاز اللفظ، كقوله تعالى {كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا} [المؤمنون:100]، وقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل ".**

{ **إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ** } بيان للكلمة، أي: الكلام المتضمّن وعدهم بأن ينصرهم الله على الذين كذَّبوهم وعادَوهم، وهذه بشارة للنبيّ صلى الله عليه وسلم عقب تسليته، لأنّه داخل في عموم المرسلين.

{ **وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ** } عطف بشارة للمؤمنين، فإنّ المؤمنين جند الله، أي: أنصاره، لأنّهم نصروا دينه وتلقوا كلامه، كما سُمُّوا (حزب الله) في قوله تعالى { أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [المجادلة:22].

{ **لَهُمُ الْغَالِبُونَ** } يشمل علوّهم على عدوّهم في مقام الحجاج وملاحم القتال في الدنيا، وعلوّهم عليهم في الآخرة، كما قال تعالى { وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } [البقرة:212]، فهو من استعمال الحقيقة والمجاز.

{ **الْمَنْصُورُونَ / الْغَالِبُونَ** } في أكثر الأحوال وباعتبار العاقبة، فلا ينافي أنّهم يُغلبون في بعض المواقع ثم تكون لهم العاقبة، أو المراد النصر والغلبة الموعود بهما قريبا، وهما ما كان يوم بدر.

{ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ [174] وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ [175] }.

هذا مفرَّع على التسلية التي تضمّنها قوله تعالى { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا } [171].

التولّي :حقيقته المفارقة كما تقدّم في قصة إبراهيم { فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ } [90]، واستعمل هنا مجازا في عدم الاهتمام بما يقولونه وترك النكد من إعراضهم.

الحين: الوقت. وأُجمِل هنا إيماء إلى تقليله، أي: تقريبه، فالتنكير للتحقير المعنوي، وهو التقليل.

{ **أَبْصِرْهُمْ** } أنظر إليهم، أي: من الآن، وعُدِّي الفعل إلى ضميرهم الدال على ذواتهم، وليس المراد النظر إلى ذواتهم لكن إلى أحوالهم، أي: تأمّل أحوالهم تر كيف نصرك عليهم، وهذا وعيد بما حلّ بهم يوم بدر. وصيغة الأمر مستعملة في الإرشاد.

وعُبِّر عن ترتيب نزول الوعيد بهم بفعل الإبصار للدلالة على أنّ ما تُوعِّدوا به واقع لا محالة وأنّه قريب حتّى أنّ الموعود بالنصر يتشوّف إلى حلوله، فكان ذلك كناية عن تحقّقه وقربه لأنّ تحديق البصر لا يكون إلّا إلى شيء أشرف على الحلول.

{ **فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ** } تفريع على { وَأَبْصِرْهُمْ } تفريع لإنذارهم بوعيد قريب على بشارة النبيّ صلى الله عليه وسلم بقربه، فإنّ ذلك المُبْصَر يَسرّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ويُحزن أعداءه، ففي الكلام اكتفاء، كأنّه قيل: أبصرهم وما ينزل بهم فسوف تُبصر ما وعدناك وليُبصروا ما ينزل بهم.

{ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ [146] فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ [177] }.

هذا تفريع على التأجيل المذكور في قوله تعالى { حَتَّى حِينٍ } [174]، فإنّه لمّا أنذرهم بعذاب يحلّ بهم توقّع أنّهم سيقولون على سبيل الاستهزاء أرنا العذاب الذي تخوّفنا به وعجّله لنا. وبعض المفسرين ذكر أنّهم قالوه.

والتفريع استفهام تعجيبي من استعجالهم ما في تأخيره والنظرة به رأفة بهم واستبقاء لهم حينا.

{ **فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ** } الفاء الفصيحة، أي: كانوا يستعجلون بالعذاب فإذا نزل بهم فبئس وقت نزوله.
وإسناد النزول إلى العذاب وجعله في ساحتهم استعارة تمثيلية مكنية، شُبِّهت هيئة حصول العذاب لهم، بعد ما أنذِروا به فلم يعبأوا، بهيئة نزول جيش عدو في ساحتهم بعد أن أنذرهم به النذير العريان فلم يأخذوا أهبتهم.
{ **فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ** } ذُكر الصباح لأنّه من علائق الهيئة المشبّهة بها، فالغارة تكون في الصباح.
{ **الْمُنْذَرِينَ** } وصفهم بـذلك ترشيح للتمثيل وتورية في اللفظ، لأنّ المشبَّهين منذرون من الله بالعذاب.
والذين يسوء صباحهم عند الغارة هم المهزومون فكأنّه قيل: فإذا نزل بساحتهم كانوا مغلوبين.

{ **وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ** [178] **وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ** [179] }.
عطف على جملة { فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ } [177]، لأنّ معنى المعطوف عليها الوعد بأنّ الله سينتقم منهم، فعطف عليه أمره رسوله صلى الله عليه وسلم بألَّا يهتم بعنادهم. وهذه نظير التي سبقتها المفرّعة بـ (الفاء) فلذلك يحصل منها تأكيدا نظيرتها. ويحتمل أن يكون إلى حين من أحيان الآخرة.

{ **سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ** [180] **وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ** [181] **وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِين** [152] }.
خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم تذييلا لخطابه المبتدأ بقوله تعالى { فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ } [149].
فإنّه خلاصة جامعة لما حوته من تنزيه الله وتأييده رسله.
وهذه الآية فذلكة لما احتوت عليه السورة من الأغراض، جمعت تنزيه الله والثناء على الرسل والملائكة، وحمد الله على ما سبق ذكره من نعمة على المسلمين؛ من هدى ونصر وفوز بالنعيم المقيم.
وهذه المقاصد الثلاثة هي أصول كمال النفوس في العاجل والآجل، لأنّ معرفة الله تعالى بما يليق به تنقذ النفس من الوقوع في مهاوي الجهالة المفضية إلى الضلالة فسوء الحالة. وإنّما يتم ذلك بتنزيهه عمّا لا يليق.
{ **سُبْحَانَ رَبِّكَ** } إشارة إلى تنزيهه.
{ **رَبِّ الْعِزَّةِ** } أشار إلى التوصيف بصفات الكمال، فإنّ العزّة تجمع الصفات النفسية وصفات المعاني والمعنوية، لأنّ الربوبية هي كمال الاستغناء عن الغير.
ولما كانت النفوس وإن تفاوتت في مراتب الكمال لا تسلم من نقص أو حيرة كانت في حاجة إلى مرشدين يبلّغونها مراتب الكمال بإرشاد الله تعالى وذلك بواسطة الرسل إلى الناس، وبواسطة المبلّغين من الملائكة إلى الرسل، وكانت غاية ذلك هي بلوغ الكمال في الدنيا والفوز بالنعيم الدائم في الآخرة.

وتلك نعمة تستوجب على الناس حمد الله تعالى على ذلك لأنّ الحمد يقتضي اتصاف المحمود بالفضائل وإنعامه بالفواضل وأعظمها نعمة الهداية بواسطة الرسل، فهم المبلِّغون إرشاد الله إلى الخلق.

{ **رَبِّ** } هنا بمعنى: مالك. ومعنى كونه تعالى مالك العزّة: أنّه منفرد بالعزة الحقيقية، وهي العزّة التي لا يشوبها افتقار.

{ **الْعِزَّةِ - الْحَمْدُ** } تعريف الجنس، فيقتضي انفراده تعالى به لأنّ ما يثبت لغيره من ذلك الجنس كالعدم.

{ **سَلامٌ** } التنكير للتعظيم.

{ **الْمُرْسَلِينَ** } وصف يشمل الأنبياء والملائكة، فإنّ الملائكة مرسلون فيما يقومون به من تنفيذ أمر الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة ص

سُمِّيت في المصاحف وكتب التفسير وكتب السنّة والآثار عن السلف (**سورة صاد**) كما ينطق باسم حرف الصاد، تسمية لها بأوّل كلمة منها.

وفي (الإتقان) عن كتاب (جمال القرّاء) للسخاوي: " أنّ سورة ص تُسمَّى أيضا سورة داود ".

وكُتب اسمها في المصاحف بصورة حرف صاد (**ص**) مثل سائر الحروف المقطعة في أوائل السور اتباعا لما كتب في الصحف.

وهي **مكّية** في قول الجميع، وذكر في (الإتقان) أنّ الجعبري حكى قولا بأنّها مدنية.

وهي السورة **الثامنة والثلاثون** في عداد نزول السورة، نزلت بعد سورة القمر وقبل سورة الأعراف.

وعُدّت آيها ستا وثمانين عند أهل الحجاز والشام والبصرة، وعدّها أيوب بن المتوكل البصري خمسا وثمانين. وعُدَّت عند أهل الكوفة ثمانا وثمانين.

روى الترمذي عن ابن عباس قال: " مرض أبو طالب فجاءته قريش وجاءه النبيّ صلى الله عليه وسلم وعند أبي طالب مجلس رجل، فقام أبو جهل يمنع النبيّ صلى الله عليه وسلم من أن يجلس وشكوه إلى أبي طالب، فقال: " يا بن أخي ما تريد من قومك؟ قال: " **إنّي أريد منهم كلمة واحدة تدين لهم بها العرب وتؤدي إليهم العجم الجزية** ". قال: " كلمة واحدة ". قال: " **يا عم يقولوا لا إله إلا الله** "، فقالوا: " أإلها واحدا ما سمعنا بهذا في الملّة الآخرة إن هذا إلّا اختلاق، قال: فنزل فيهم القرآن { ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ - إلى قوله - مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلاقٌ } [1-7] ". [حديث حسن].

فهذا نص في أنّ نزولها في آخر حياة أبي طالب، وهذا المرض مرض موته، كما في أبن عطية، فتكون هذه السورة قد نزلت في سنة ثلاث قبل الهجرة.

أغراض السورة

*/ أصلها ما علمت من حديث الترمذي في سبب نزولها.

*/ توبيخ المشركين على تكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم وتكبّرهم عن قبول ما أرسل به.

*/ تهديدهم بمثل ما حلّ بالأمم المكذِّبة قبلهم، وأنّهم إنّما كذَّبوه لأنّه جاء بتوحيد الله تعالى ولأنّه اختص بالرسالة من دونهم.

*/ تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عن تكذيبهم وأنّ يقتدي بالرسل من قبله، داود وأيوب وغيرهم، وما جُوزوا عن صبرهم.

*/ استطراد الثناء على داود وسليمان وأيوب، وأتبع ذكر أنبياء آخرين لمناسبة سنذكرها.

*/ إثبات البعث لحكمة جزاء العاملين بأعمالهم من خير وشر. ووصف أحوالهم يوم القيامة.

*/ ذكر أوّل غواية حصلت وأصل كلّ ضلالة وهي غواية الشيطان في قصّة السجود لآدم.

وقد جاءت فاتحتها مناسبة لجميع أغراضها إذ ابتدئت بالقسم بالقرآن الذي كذَّب به المشركون، وجاء المقسَم عليه أن الذين كفروا في عزّة وشقاق، وكلّ ما ذكر فيها من أحوال المكذبين سببه اعتزازهم وشقاقهم، ومن أحوال المؤمنين سببه ضدّ ذلك، مع ما في الافتتاح بالقسم من التشويق إلى ما بعده، فكانت فاتحتها مستكملة خصائص حسن الابتداء.

{ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ } [1].

{ ص } القول في هذا الحرف كالقول في نظائره من الحروف المقطّعة الواقعة في أوائل بعض السور، بدون فرق، أنّها مقصودة للتهجّي تحدّيا لبلغاء العرب أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وتورُّكا عليهم إذ عجزوا عنه. واتفق أهل العد على أنّ { ص } ليس بآية مستقلة بل هي في مبدأ آية، لأنّها حرف واحد، كما لم يعد { ق } [ق] و{ ن } [القلم] آية.

{ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ } الواو للقَسَم، أُقسم بالقرآن قسم تنويه به. ووصف بـ { ذِي الذِّكْرِ } لأنّ { ذي } تضاف إلى الأشياء الرفيعة فتجري على متّصف مقصود التنويه به.

{ الذكر } التذكير، أي: تذكير الناس بما هم عنه غافلون. ويجوز أن يراد بالذكر ذكر اللسان، وهو على معنى: الذي يُذكر، بالبناء للنائب، أي: والقرآن المذكور، أي: الممدوح المستحق الثناء.

وقد تردّد المفسرون في تعيين جواب القسم على أقوال سبعة أو ثمانية.

والذي أرى أنّ الجواب محذوف أيضا دلّ عليه الإضراب الذي في قوله تعالى { بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ } [2]، بعد أن وُصِف القرآن بـ { ذِي الذِّكْرِ }، لأنّ ذلك الوصف يشعر بأنّه ذِكر ومُوقظ للعقول، فكأنه قيل: إنّه لذكر ولكنّ الذين كفروا في عزّة وشقاق يجحدون أنّه ذكر ويقولون: سحر مفترى، وهم يعلمون أنّه حق، كقوله تعالى { فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ } [الأنعام:33].

فجواب القسم محذوف يدل عليه السياق. والغرض من حذف جواب القسم هنا الإعراض عنه إلى ما هو أجدر بالذكر وهو صفة الذين كفروا وكذّبوا القرآن عنادا أو شقاقا منهم.

{ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ } [2].

{ بَلِ } للإضراب الإبطالي، وهو ليس إبطالا محضا للكلام السابق بحيث يكون حرف { بَلِ } فيه بمنزلة حرف النفي كما هو غلاب الإضراب الإبطالي، ولا هو إضراب انتقالي، ولكن هذا إبطال لتوهّم ينشأ عن الكلام الذي قبله إذ دل وصف القرآن بـ { ذِي الذِّكْرِ } [1] أنّ القرآن مُذَكِّر سامعيه تذكيرا ناجعا، فعقّب بإزالة توهم من يتوهم أنّ عدم تذكر الكفار ليس لضعف في تذكير القرآن ولكن لأنّهم متعزّزون مشاقُّون. فحرف { بَلِ } في مثل هذا بمنزلة حرف الاستدراك، والمقصود منه تحقيق أنّه ذو ذكر، وإزالة الشبهة التي قد تعرض في ذلك. ومثله قوله تعالى { ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ } [قّ:2/1].

ولك أن تجعل { بَلِ } إضراب انتقال من الشروع في التنويه بالقرآن إلى بيان سبب إعراض المعرضين عنه، لأنّ في بيان ذلك السبب تحقيقا للتنويه بالقرآن. ومعنى ذلك أنّ الكلام أخذ في الثناء على القرآن ثم انقطع عن ذلك إلى ما هو أهم وهو بيان سبب إعراض المعرضين عنه لاعتزازهم بأنفسهم وشقاقهم، فوقع العدول عن جواب القسم استغناء بما يفيد مفاد ذلك الجواب.

العزّة: تحوم إطلاقاتها في الكلام حول معاني المنعة والغلبة والتكبّر، فإن كان ذلك جاريا على أسباب واقعة فهي العزة الحقيقية، وإن كان عن غرور وإعجاب بالنفس فهي عزة مزوّرة، قال تعالى { وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ } [البقرة:206]، أي: أخذته الكبرياء وشدّة العصيان.

وهي هنا عزة باطلة أيضا لأنّها إباء من الحق وإعجاب بالنفس. وضدّ العزة الذلة، قال تعالى { أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ } [المائدة:54].

الشقاق: العناد والخصام. والمراد: وشقاق لله بالشرك ولرسوله صلى الله عليه وسلم بالتكذيب.

والمعنى: أنّ الحائل بينهم وبين التذكير بالقرآن هو ما في قرارة نفوسهم من العزة والشقاق.

{ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ } [3].

استئناف بياني، لأنّ العزّة عن الحقّ والشقاق لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ممّا يثير في خاطر السامع أن يسأل عن جزاء ذلك فوقع هذا بيانا له، وهذه الجملة معترضة بين السابقة واللاحقة.

وكان هذا البيان إخبارا مرفقا بحجّة من قبيل قياس تمثيل، ومتضمّنا تحذيرا من التريث عن إجابة دعوة الحق، أي: ينزل بهم العذاب فلا ينفعهم ندم ولا متاب، كما لم ينفع القرون من قبلهم.

{ **مِنْ قَبْلِهِمْ** } يجوز أن يكون ظرفا مستقرّا جُعل صفة لـ { قَرْنٍ } مقدّمة عليه فوقعت حالا، وإنّما قُدّم للاهتمام بمضمونه ليفيد الاهتمام، إيماء إلى أنّهم أسوة لهم في العزة والشقاق وأنّ ذلك سبب إهلاكهم.

ويجوز أن يكون متعلّقا بـ { أَهْلَكْنَا } على أنّه ظرف لغو، وقدّم على مفعول فعله اهتماما به.

{ **كَمْ** } اسم دال على عدد كثير.

{ **مِنْ قَرْنٍ** } تمييز لإبهام العدد، أي: عددا كثيرا من القرون، وهي في موضع نصب بالمفعولية لـ { أَهْلَكْنَا }.

القرن: الأمّة، كما في قوله تعالى { ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِين } [المؤمنون:42].

فالتقدير: سيجازون على عزّتهم وشقاقهم بالهلاك كما جوزيت أمم كثيرة من قبلهم في ذلك، فليحذروا، فإنّهم إن حقّت عليهم كلمة العذاب لم ينفعهم متاب كما لم ينفع الذين من قبلهم متاب عند رؤية العذاب.

{ **فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ** } فُرّع على الإهلاك أنّهم نادوا فلم ينفعهم نداؤهم، تحذيرا من أن يقع هؤلاء في مثل ما وقعت فيه القرون من قبلهم إذ أضاعوا الفرصة فنادوا بعد فواتها فلم يفدهم نداؤهم ولا دعاؤهم.

{ **فَنَادَوْا** } نداؤهم الله تعالى تضرّعا، وهو الدعاء، كما حُكي عنهم في قوله تعالى { رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ } [الدخان:12]، وقوله { حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ } [المؤمنون:64].

{ **وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ** } في موضع الحال، أي: نادوا في حال لا مناص لهم فيه.

{ **لاتَ** } حرف مختص بنفيّ أسماء الأزمان وما يتضمّن معنى الزمان من إشارة ونحوها. وهي مركّبة من (لا) النافية وصلت بها تاء زائدة لا تفيد تأنيثا. والنفي بها لغير الزمان ونحوه خطأ في اللغة.
المناص: النجاء والفوت، وهو مصدر ميمي، يقال: ناصه، إذا فاته.
والمعنى: فنادوا مبتهلين في حال ليس وقت نجاء وفوت، أي: قد حق عليهم الهلاك، كما قال تعالى { فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ } [غافر:85].

{ **وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ** [4] **أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ** [5] }.

{ **وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ** } عطف على جملة { بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ } [2]، فهو من الكلام الواقع الإضراب للانتقال إليه.
المعنى: أنّه استقر في نفوسهم استحالة بعثة رسول منهم فذلك سبب آخر لانصرافهم عن التذكّر بالقرآن.
العجب: حقيقته انفعال في النفس ينشأ عن علم بأمر غير مترقّب وقوعه، ويطلق عن إنكار شيء نادر على سبيل المجاز بعلاقة اللزوم، كما في قوله تعالى { قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ } [هود:73]، فإنّ محل العتاب هو كون امرأة إبراهيم أحالت أن تلد وهي عجوز.
المنذر: الرسول، أي: منذر لهم بعذاب على أفعال متلبّسون بها.
{ **مُنْذِرٌ مِنْهُمْ** } عُبّر عن الرسول صلى الله عليه وسلم بوصف المنذر، ووُصف بأنه منهم للإشارة إلى حمقهم في عجبهم، لأنّ شأن النذير أن يكون من القوم ممّن ينصح لهم، فكونه منهم أولى من أن يكون من غيرهم. وإن كان مرادا به أنّه بعض البشر، وهو الظاهر، فتجهيلهم بيّن، لأنّ من كان من جنسهم أجدر بأن ينصح لهم من رسول من جنس آخر كالملائكة.
وهذا العجب تكرّر تصريحهم به غير مرة، فهو مستقر في قرارة نفوسهم، وهو الأصل الداعي لهم إلى الإعراض عن تصديقه، فلذلك ابتدئت به حكاية أقوالهم التي قالوها في مجلس أبي طالب.
{ **وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ** } بعد أن كُشف ما انطوت عليه نفوسهم من العزّة والشقاق وإحالة بعثة رسول للبشر من جنسهم، حُوسبوا بما صرَّحوا به من القول في مجلسهم ذلك، إشارة بهذا الترتيب إلى أنّ مقالتهم هذه نتيجة لعقيدتهم تلك.
{ **الْكَافِرُونَ** } وضعُ الظاهر موقع المضمر، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: وقالوا هذا ساحر، وهذا لقصد وصفهم بأنّهم كافرون بربّهم، مقابلة لما وصموا به النبيّ صلى الله عليه وسلم، فوصِفوا بما هو شتم لهم، يجمع ضروبا من الشتم تأصيلا وتفريعا، وهو الكفر الذي هو جماع فساد التفكير وفاسد الأعمال.
{ **هذا** } أشاروا به إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم، استعملوا اسم الإشارة للتحقير. وإنّما قالوا مقالتهم هذه حين انصرافهم من مجلس أبي طالب المذكور في سبب نزول السورة.

{ **سَاحِرٌ كَذَّابٌ** } لأنّهم لمّا لم تقبل عقولهم ما كلّمهم به، زعموا ما لا يفهمون منه، مثل كون الإله واحدا أو كونه يعيد الموتى أحياء، سحرا، إذ كانوا يألفون من السحر أقوالا غير مفهومة.

وزعموا ما يفهمونه ويحيلونه، مثل ادعاء الرسالة عن الله، كذبا.

{ **أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا** } بيان لجملة { هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ }، أي: حيث عدّوه مباهتا لهم بقلب الحقائق والإخبار بخلاف الواقع. والهمزة للاستفهام الإنكاري التعجّبي ولذلك أتبعوه بما هو كالعلة لقولهم: { سَاحِرٌ }.

{ **إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ** } أي: يُتعجَّب منه كما يُتعجَّب من شعوذة الساحر.

{ **عُجَابٌ** } وصف الشيء الذي يُتعجَّب منه كثيرا، لأنّ وزن فُعال يدل على تمكّن الوصف.

وقد ابتدأوا الإنكار بأوّل أصل من أصول كفرهم، فإنّ أصول كفرهم ثلاثة: الإشراك، وتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم، وإنكار البعث والجزاء في الآخرة.

{ وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ [6] مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ [7] }.

الانطلاق: حقيقته الانصراف والمشي، ويُستعمل استعمال أفعال الشروع، لأنّ الشارع ينطلق إليه، ونظيره في ذلك (ذهب) بفعل كذا. وكذلك (قام)، كما في قوله تعالى { إِذْ قَامُوا فَقَالُوا } [الكهف:14].

وقيل: إنّ الانطلاق هنا على حقيقته، أي: وانصرف الملأ منهم عن مجلس أبي طالب.

{ **الْمَلَأُ** } سادة القوم. قال ابن عطية: " قائل ذلك عقبة بن أبي معيط ". وقال غيره: " إنّ من القائلين أبا جهل، والعاصي بن وائل، والأسود بن عبد يغوث ".

{ **أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ** } لمّا أسند الانطلاق إلى الملأ منهم، ما كانوا لينطلقوا إلّا لتدبير في ماذا يصنعون، فكان ذلك مقتضيا تحاورا وتقاولا احتيج إلى تفسير فكانت هذه الجملة.

{ **امْشُوا** } يحتمل أن يكون الأمر حقيقة، أي: انصرفوا عن هذا المكان، مكان المجادلة، واشتغلوا بالثبات على آلهتكم. ويجوز أن يكون مجازا في الاستمرار على دينهم كما يقال: كما سار الكرام، أي: اعمل كما عملوا، ومنه سُمِّيت الأخلاق والأعمال المعتادة سيرة.

الصبر: الثبات والملازمة، يقال: صبر الدابة إذا ربطها، ومنه سُمِّي الثبات عند حلول الضرّ صبرا لأنّه ملازمة للحلم والأناة بحيث لا يضطرب بالجزع، ونظير هذه الآية قوله تعالى { إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا } [الفرقان:42].

{ **عَلَى** } يدل على تضمين { اصبروا } معنى: اعكفوا وأثبتوا، فحرف (على) هنا للاستعلاء المجازي وهو التمكّن، مثل { أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ } [البقرة:5]. ولذلكم يخلفه (اللام) في مثل ذلك الموقع نحو قوله تعالى { فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ } [القلم:48]. ولا بد هنا من تقدير مضاف، أي: على عبادة آلهتكم.

وليس هو حرف (على) المتعارف تعدية فعل الصبر به، في نحو قوله تعالى { اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ } [المزمل:10]، فإنّ ذلك بمعنى (مع).

{ **إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ** } تعليل للأمر بالصبر على آلهتهم لقصد تقوية شكّهم في صحة دعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّها شيء أراده لغرض، كما يقال: هذا أمر دبّر بليل.

{ **هَذَا** } إشارة إلى ما كانوا يسمعونه في المجلس من دعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم إيّاهم أن يقولوا: لا إله إلا الله.

{ **مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ** } من كلام الملأ.

{ **مَا سَمِعْنَا** } نفي السماع هنا خبر مستعمل كناية عن الاستبعاد والاتهام بالكذب.

{ **بِهَذَا** } الإشارة إلى ما أشير إليه بقولهم { إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ } أي: هذا القول وهو { أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا } [5]. وإعادة اسم الإشارة من وضع الظاهر موضع المضمر لقصد زيادة تمييزه.

{ **الْمِلَّةِ** } الدين، قال تعالى { وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ } [البقرة:120].

{ **الْآخِرَةِ** } تأنيث الآخر، وهو الذي يكون بعد مضي مدة تقرّرت فيها أمثاله، كقوله تعالى { ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ } [العنكبوت:20]. والمعنى: ما سمعنا بهذا قبل اليوم فلا نعتدُّ به.

ويجوز على هذا التقدير أن يكون المراد بـ { الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ } دين النصارى، وهو عن ابن عباس وأصحابه.

ويجوز أن يريدوا { الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ } الملّة التي هم عليها، ويكون إشارة إلى قول ملأ قريش لأبي طالب في حين احتضاره حين قال له النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاجّ لك بها عند الله "**، فقالوا له جميعا: " أترغب عن ملة عبد المطلب ".

{ **إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلاقٌ** } مبيّنة لجملة { مَا سَمِعْنَا بِهَذَا } وهذا هو المتحصّل من كلامهم المبدوء بـ { امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ } فهذه الجملة كالفذلكة لكلامهم.

الاختلاق: الكذب المخترع الذي لا شبهة لقائله.

{ أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ } [8].

{ **أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا** } يجوز أن يكون من كلام عموم الكافرين، بيانا لجملة { وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ } [4]، فيكون متصلا بقوله { أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا } [5]، ولكونه بيانا للذي قبله لم يعطف عليه، ويكون ما بينهما من قوله { وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ - إلى قوله - إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلاقٌ } [7/6] اعتراضا بين جملتي البيان. ويجوز أن يكون تمام كلام الملأ.

والاستفهام إنكاري، ومناط الإنكار هو الظرف { مِنْ بَيْنِنَا } وهو في موضع حال من ضمير { عَلَيْهِ }، أنكروا أن يُخصَّ محمد صلى الله عليه وسلم بالإرسال وإنزال القرآن دون غيره منهم، وهذا هو المحكي

في قوله تعالى { وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } [الزخرف:31]، أي: من مكة أو الطائف، ولم يريدوا بهذا الإنكار تجويز أصل الرسالة عن الله وإنّما مرادهم استقصاء الاستبعاد، فإنّهم أنكروا أصل الرسالة كما اقتضاه قوله تعالى { وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ } [4] وغيره من الآيات. وهذا الأصل الثاني من أصول كفرهم وهو أصل إنكار بعثة رسول منهم.

{ **بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي** } يجوز أن يكون هذا جوابا عن قولهم { أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا }، أي: ليس قصدهم الطعن في اختصاصك بالرسالة ولكنّهم شاكون في أصل إنزاله، فتكون { بل } إضرابا إبطاليا، تكذيبا لما يظهر من إنكارهم إنزال الذكر عليه من بينهم.

ويجوز أن يكون انتقالا من خبر عنهم إلى خبر آخر، فيكون استئنافا وتكون { بل } للإضراب الانتقالي، والمعنى: وهم في شك من ذكري، أي: في شك من كنه القرآن، فمرة يقولون: افتراه، ومرة يقولون: شعر، ومرة: سحر، ومرة: أساطير الأولين، ومرة: قول كاهن.

{ **مِنْ ذِكْرِي** } إضافة الذكر إلى ضمير المتكلم، وهو الله تعالى، إضافة تشريف ولتحقيق كونه من عند الله. والذكر على هذا الوجه هو عين المراد من قوله تعالى { أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ }، وإنّما وقع التعبير عنه بالظاهر دون الضمير توصّلا إلى التنويه به بأنّه من عند الله.

{ **بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ** } أُتبِع ذلك الإضراب بإضراب آخر يبيّن أن الذي جرَّأهم على هذا الشقاق أنّهم لمّا تأخّر حلول العذاب بهم ظنّوا وعيده كاذبا فأخذوا في البذاءة والاستهزاء ولو ذاقوا العذاب لألقمت أفواههم بالحجر.

{ **لَمَّا** } حرف نفي بمعنى (لم) إلّا أنّ فيها خصوصية، وهي أنّها تدلّ على أنّ المنفي بها متصل الانتفاء إلى وقت التكلم بخلاف (لم)، فلذلك كان النفي بـ { لَمَّا } قد يفهم منه ترقّب حصول المنفي بعد ذلك.

{ **عَذَابِ** } إضافة إلى ياء المتكلم لاختصاصه بالله لأنّه مقدِّره. وحذفت ياء المتكلّم تخفيفا للفاصلة، وأبقيت الكسرة دليلا عليها، وهو حذف كثير في الفواصل والشعر على نحو حذفها من المنادى.

{ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ } [9].

{ أَمْ } منقطعة وهي للإضراب أيضا وهو إضراب انتقالي، فإنّ { أَمْ } مشعرة باستفهام بعدها هو للإنكار والتوبيخ، إنكارا لقولهم { أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا } [8]، أي: ليست خزائن فضل الله تعالى عندهم فيتصدُّوا لحرمان من يشاؤون حرمانه من مواهب الخير فإنّ المواهب من الله يصيب بها من يشاء، فهو يختار للنبوّة من يصطفيه وليس الاختيار لهم.

{ **عِنْدَهُمْ** } تقديم الظرف للاهتمام لأنّه مناط الإنكار، كقوله { أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ } [الزخرف:32].

الخزائن: جمع خِزانة. وهي البيت الذي يُخزن فيه المال أو الطعام، ويطلق أيضا على صندوق من خشب

أو حديد يخزن فيه المال. و**الخَزْن**: الحِفْظ والحِرْز.

الرحمة: ما به رفق بالغير وإحسان إليه. شُبِّهت رحمة الله بالشيء النفيس المخزون الذي تطمح إله النفوس في أنّه لا يُعطى إلّا بمشيئة خازنه، تشبيه على طريقة الاستعارة المكنية.

{ **خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ** } الإضافة على معنى لام الاختصاص. والعدول عن اسم الجلالة إلى وصف الربّ، لأنّ له مزيد مناسبة للغرض الذي الكلام فيه، إيماء إلى أنّ تشريفه إيّاه بالنبوّة من آثار صفة ربوبيّته له، لأنّ وصف الربّ مؤذن بالعناية والإبلاغ إلى الكمال.

{ **الْعَزِيزِ** } الذي لا يغلبه شيء، وأجري على الربّ صفة { الْعَزِيزِ } لإبطال تدخلهم في تصرفاته.

{ **الْوَهَّابِ** } كثير المواهب، فإنّ النبوّة رحمة عظيمة فلا يُخوَّل إعطاؤها إلّا لشديد العزّة وافر الموهبة. وأجري على الربّ صفة { الْوَهَّابِ } لإبطال جعلهم الحرمان من الخير تابعا لرغباتهم دون موادة الله تعالى.

{ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ } [10].

إضراب انتقالي إلى ردٍّ يأتي على جميع مزاعمهم بكلمة جامعة كالحوصلة فيشبه التذييل لما يتضمّنه من عموم الملك وعموم الأماكن المقتضي عموم العلم وعموم التصرّف.

والاستفهام، المقدّر بعد { أَمْ } المنقطعة، تهكّمي وليس إنكاري، لأنّ تفريع أمر التعجيز عليه يعيّن أنّه تهكّمي.

{ **فَلْيَرْتَقُوا** } الأمر للتعجيز، مثل قوله تعالى { فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ } [الحج:15].

{ **الْأَسْبَابِ** } التعريف لعهد الجنس، لأنّ المعروف أنّ لكل محل مرتفع أسبابا يُصعد بها إليه.

السبب: الحبل الذي يتعلّق به الصاعد إلى النخلة للجذاذ، فإن جُعل من حبلين ووُصِل بين الحبلين بحبال معترضة مشدودة أو بأعواد فهو السلم.

{ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ } [11].

<u>يجوز أن يكون استئنافا يتصل</u> بقوله تعالى { كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ } [3]، أريد به وصل الكلام السابق، فإنّه تقدّم قوله تعالى { بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ } [2]. فلمّا تقضَّى الكلام على تفصيل ما للذين كفروا من عزة وشقاق وما لذلك من الآثار ثُنِي العنان إلى تفصيل ما أهلك من القرون أمثالهم من قبلهم في الكفر ليفضي به إلى قوله تعالى { كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ } [12].

<u>ويجوز أن يكون استئنافا ابتدائيا مستقلًّا</u> خارجا مخرج البشارة للنبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّ هؤلاء جند من الأحزاب مهزوم، أي: مقدّر انهزامه في القريب، وهذه البشارة من الإخبار بالغيب خُتم بها وصف أحوالهم.

قال قتادة: " وعد الله أنّه سيهزمهم وهم بمكة فجاء تأويلها يوم بدر". وقال الفخر: " إشارة إلى فتح مكة ". وقال بعض المفسّرين: " إشارة إلى نصر يوم الخندق ".

الجند: الجماعة الكثيرة، قال تعالى { هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ } [البروج:18/17].

{ **مَا** } حرف زائد يؤكِّد معنى ما قبله، فهي توكيد لما دلّ عليه { جُنْدٌ } بمعناه وتنكيره للتعظيم، أي: جند عظيم، لأنّ التنوين وإن دلّ على التعظيم فليس نصًّا فصار بالتوكيد نصا.

{ **مَهْزُومٌ** } وصف على معنى الاستقبال، أي: سيهزم، واسم المفعول كاسم الفاعل مجاز في الاستقبال.

{ **الْأَحْزَابِ** } الذين على رأي واحد يتحزَّب بعضهم لبعض، وتقدّم في [الأحزاب:20]. و{ **مِن** } للتبعيض.

{ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ [12] وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ [13] إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ [14] }.

لمّا كان قوله تعالى { جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ } [11] تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم ووعدا له بالنصر وتعريضا بوعيد مكذِّبيه، جيء بما هو كالبيان لهذا التعريض.

{ **وَفِرْعَوْنُ** } خُصّ فرعون بإسناد التكذيب إليه دون قومه لأنّ الله أرسل موسى عليه السلام إلى فرعون ليطلق بني إسرائيل فكذَّب موسى، ثم كان عقب ذلك مُضمِرا أذى موسى ومُعلِنا بتكذيبه.

{ **ذُو الْأَوْتَادِ** } ووصف فرعون بذلك لعظمة ملكه وقوته، فلم يكن ذلك ليحول بينه وبين عذاب الله.

{ **الْأَوْتَادِ** } جمع وتِد (بكسر التاء) عود غليظ له رأس مفلطح يُدَق في الأرض تُشد به شقة البيت والخيمة.

وتقديم ذكر فرعون على ثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة مع أنّ قصّته حدثت بعد قصصهم لأنّ حاله مع موسى أشبه بحال زعماء أهل الشرك بمكة من أحوال الأمم الأخرى، فإنّه قاوم موسى بجيش كما قاوم المشركون المسلمين بجيوش.

{ **وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ** } تقدّم الكلام عليهم غير مرة.

{ **وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ** } تقدم خبرهم وتحقيق أنّهم من قوم شعيب وأنّهم مختلطون مع مدين، [الشعراء:176].

{ **أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ** } معترضة بين جملة { كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ } وجملة { إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ }. واسم الإشارة مستعمل في التعظيم، أي: تعظيم القوّة. وتعريف { الْأَحْزَابُ } استغراق ادعائي وهو المسمّى بالدلالة على معنى الكمال، مثل: هم القوم وأنت الرجل. والحصر المستفاد من تعريف المسند والمسند إليه حصر ادعائي، قُصرت صفة الأحزاب على المشار إليهم بـ { أُولَئِكَ } وأنّ غيرهم لمّا يبلغون مبلغ أن يعدّوا من الأحزاب. فظاهر القصر ولام الكمال لتأكيد معنى الكمال. أي: أولئك المذكورون هم الأمم لا تضاهيهم أمم في القوة.

وهذا تعريض بتخويف مشركي العرب من أن ينزل بهم ما نزل بأولئك على حد قوله تعالى { أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ } [غافر:22/21].

{ **إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ** } مؤكِّد لجملة { كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ - إلى قوله - وَأَصْحَابُ لْأَيْكَةِ }، أخبر أولا عنهم بأنّهم كذَّبوا وأكّد ذلك بالإخبار عنهم بأنّهم ليسوا إلّا مكذبين على وجه الحصر، كأنّهم لا صفة لهم إلّا التكذيب.

{ **كَذَّبَ الرُّسُلَ** } مع أنّ كلّ أمّة إنّما كذّبت رسولها، المقصود تفظيع التكذيب، لأنّ الأمّة إنما كذبت رسولها مستندة لحجة سفسطائية هي استحالة أن يكون واحد من البشر رسولا من الله، فهذه السفسطة تقتضي أنّهم يكذِّبون جميع الرسل.

{ **فَحَقَّ عِقَابِ** } أي: عقابي، فحذفت ياء المتكلم للرعاية على الفاصلة وأبقيت الكسرة في حالة الوصل.

حقَّ: تحقَّق، أي: كان حقا، لأنّه اقتضاه عظيم جرمهم.

العقاب: هو ما حلّ بكل أمّة منهم من العذاب وهو الغرق والتمزيق بالريح، والغرق أيضا، والصيحة، والخسف، وعذاب يوم الظلة.

وفي هذا تعريض بالتهديد لمشركي قريش بعذاب مثل عذاب أولئك لاتِّحادهم في موجِبِه.

{ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ } [15].

لمّا أشعر قوله تعالى { فَحَقَّ عِقَابِ } [14] بتهديد مشركي قريش بعذاب ينتظرهم، جريا على سنّة الله في جزاء المكذِّبين رسله، عطف على جملة الإخبار عن حلول العذاب بالأحزاب السابقين جملة توعّد بعذاب الذين ماثلوهم في التكذيب.

{ **هَؤُلاءِ** } إشارة إلى كفّار قريش، لأنّ تجدّد دعوتهم ووعيدهم وتكذيبهم يوما فيوما جعلهم كالحاضرين. وقد تتبّعتُ اصطلاح القرآن فوجدته إذا استعمل { **هَؤُلاءِ** } ولم يكن معه مشار إليه مذكور، أنّه يريد به <u>المشركين من أهل مكة</u>، كما نبهت عليه فيما مضى غير مرّة.

{ **يَنْظُرُ** } مشتق من النظر بمعنى الانتظار، قال تعالى { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ } [الأنعام:158]، أي: ما ينتظر المشركون إلّا صيحة واحدة، وهذا كقوله تعالى { فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ } [يونس:102].

والمتبادر من الآية أنّها تهديد بصيحة صاعقة ونحوها كصيحة ثمود، أو صيحة النفخ في الصور التي يقع عندها البعث للجزاء.

{ **وَاحِدَةً** } إشارة إلى أنّ الصاعقة عظيمة مهلكة، أو أن النفخة واحدة وهي نفخة الصعق.

الفواق: (بفتح الفاء وضمها) اسم لما بين حلبتي حالب الناقة ورضعتي فصيلها. فهم قبل ابتداء الحلب يتركون الفصيل يرضعها لتدرّ باللبن، ثمّ إنّ الحالب يحلب الناقة ثم يتركها ساعة ليرضعها فصيلها ثانية ليدر اللبن في الضرع ثم يعودون فيحلبونها، فالمدة التي بين الحلبتين تسمّى فَواقا.

{ **مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ** } أي: ليس بعدها إمهال بقدر الفواق، وهذا كقوله تعالى { مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً } [يّس:50/49].

{ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ } [16]

لمّا هدّدهم القرآن بعذاب الله قالوا: ربنا عجل لنا نصيبنا من العذاب في الدنيا قبل يوم الحساب، إظهارا لعدم اكتراثهم بالوعيد وتكذيبه، لئلّا يظنّ المسلمون أنّ استخفافهم بالوعيد لأنّهم لا يؤمنون بالبعث فأبانوا لهم أنّهم لا يصدّقون النبيّ صلى الله عليه وسلم في كّل وعيد حتّى الوعيد بعذاب الدنيا.

فالقول هذا قالوه على وجه الاستهزاء، وحُكي عنهم هنا إظهارا لرقاعتهم وتصلّبهم في الكفر.

وهذا الأصل الثالث من أصول كفرهم المتقدّم ذكرها، وهو إنكار البعث والجزاء.

قيل: قائل ذلك النضر ابن الحارث، وقيل: أبو جهل والقوم حاضرون راضون فأسند القول إلى الجميع.

القط: هو القسط من الشيء، ويطلق على قطعة من الورق أو الرق أو الثوب التي يكتب فيها العطاء لأحد ولذلك يفسّر بالصك. فالقط يطلق على ما يكتب فيه عطاء أو عقاب، والأكثر أنّه ورقة العطاء.

{ **يَوْمِ الْحِسَابِ** } من التهكّم لأنّهم لا يؤمنون بالحساب.

{ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ [17] إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ [18] وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ [19] وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ [20] }.

أُعقِبت حكاية أقوالهم من التكذيب، بأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالصبر على قولهم، إذ كان جميعها أذى، إمّا صريحا، كما قالوا {سَاحِرٌ كَذَّاب }، وإمّا ضمنا وذلك ما في سائر أقوالهم من إنكار ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم والاستهزاء بقولهم { رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا } [16].

{ **وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ** } إلى آخره، يجوز أن يكون عطفا على قوله { اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ } بأن أتبع أمره بالصبر وبالائتساء ببعض الأنبياء السابقين فيما لقوه من الناس ثم كانت لهم عاقبة النصر وكشف الكرب.

ويجوز أن يكون عطفا على مجموع ما تقدّم، عطف القصة والغرض نفسه.

وابتُدئ بذكر داود لأنّ الله أعطاه ملكا وسلطانا لم يكن لآبائه، ففي ذكره إيماء إلى أنّ شأن محمد صلى الله عليه وسلم سيصير إلى العزة والسلطان، فقد أشبه حاله صلى الله عليه وسلم حال داود عليه السلام.

{ **وَاذْكُرْ** } المصدر هو الذُكر (بضم الذال) وهو التذكُّر، وليس هو ذِكر اللسان، لأنّه إنّما أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بذلك لتسليته وحفظ كماله لا ليُعْلِمه المشركين ولا لِيُعْلِمه المسلمين، على أنّ كلا الأمرين حاصل.

{ **عَبْدَنَا** } وصف تشريف بالإضافة، بقرينة المقام، كما في قوله { إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ } [الصافات:40].

الأيد: القوّة والشدة، مصدر: آد يئيد، إذا اشتد وقوي، ومنه التأييد التقوية، قال تعالى { فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ } [الأنفال:26].

وكان داود قد أعطى قوّة نادرة وشجاعة وإقداما عجيبين، وكان يرمي الحجر بالمقلاع فلا يخطئ الرمية.

{ **إِنَّهُ أَوَّابٌ** } تعليل للأمر بذكره، إيماء إلى أنّ الأمر لقصد الاقتداء به، كما قال تعالى { فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ } [الأنعام:90]. فالجملة معترضة بين جملة { وَاذْكُرْ } وجملة بيانها وهي { إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ }.

الأوّاب: كثير الأوب، أي: الرجوع. والمراد: الرجوع إلى ما أمر الله به والوقوف عنده حدوده وتدارك ما فرط فيه. والتائب يطلق عليه الأوّاب، وهو غالب استعمال القرآن، وهو مجاز، ولا تسمَّى التوبة أوبًا.

(زبور) كتاب داود المسمَّى عند اليهود بـ (المزامير) مشتمل على كثير من الاستغفار وما في معناه.

{ **إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ** } بيان لجملة { وَاذْكُرْ عَبْدَنَا }، أي: اذكر فضائله وما أنعمنا عليه من تسخير الجبال. { **مَعَهُ** } ظرف لـ { يُسَبِّحْنَ }، وقُدِّم على متعلقه للاهتمام بمعيَّته المذكورة، وليس ظرفا لـ { سَخَّرْنَا }. وتقدّم تسخير الجبال والطير لداود في [الأنبياء:79].

{ **يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ** } حال. واختير الفعل المضارع دون الوصف الذي هو الشأن في الحال لأنّه أريد الدلالة على تجدّد تسبيح الجبال معه كلّما حضر فيها، ولمّا في المضارع من استحضاره تلك الحالة الخارقة للعادة.

التسبيح: أصله قول: سبحان الله، ثم أطلق على الذكر وعلى الصلاة، وليس هذا المعنى مرادا هنا.

العشيّ: ما بعد العصر. يقال: عشيٌّ وعشيَّة.

{ **الْإِشْرَاقِ** } وقت ظهور ضوء الشمس واضحا على الأرض وهو وقت الضحى، يقال: أشرقت الأرض ولا يقال: أشرقت الشمس، وإنّما يقال: شَرَقَت الشمس وهو من باب قعد، ولذلك كان قياس المكان منه المَشْرَق (بفتح الراء) ولكنه لم يجيء إلّا بكسر الراء. ووقت طلوع الشمس هو المشرق ووقت الإشراق الضحى.

{ **وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ** } هذه معجزة له لأنّ شأن الطير النفور من الإنس.

المحشورة: المجتمعة حوله عند قراءته الزبور. وانتصب على الحال من { وَالطَّيْرَ }.

ولم يؤت بالمضارع كما جيء به في { يُسَبِّحْنَ }، إذ الحشر يكون دفعة فلا يقتضي المقام دلالة على تجدّد.

{ **كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ** } التنوين عوض عن المضاف إليه. والتقدير: كلّ المحشورة له أوّاب، أي: كثير الرجوع إليه، أي: يأتيه من مكان بعيد.

{ **وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ** }

الشدّ: الإمساك وتمكّن اليد ممّا تمسكه، فيكون لقصد النفع كما هنا، ويكون لقصد الضرّ كقوله تعالى { وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ } [يونس:88].

فشدّ ملكه هو تقويته وسلامته من أضرار الثورات ومن غلبة أعدائه عليه في حروبه. وقد ملك داود أربعين سنة ومات وعمره سبعون سنة في ظل ملك ثابت.

{ **الْحِكْمَةَ** } النبوّة. والحكمة في الأعم: العلم بالأشياء كما هي والعمل بالأمور على ما ينبغي، وقد اشتمل كتاب (الزبور) على حكم جمّة.

{ **فَصْلَ الْخِطَابِ** } بلاغة الكلام وجمعه للمعنى المقصود بحيث لا يحتاج سامعه إلى زيادة تبيان.

ووصف القول بـ { فَصْلَ } وصف المصدر، أي: فاصل. والفاصل: الفارق بين شيئين، وهو ضد الواصل، ويطلق مجازا على ما يميّز شيئا عن الاشتباه بضدّه.

وعطفه هنا على الحكمة قرينة على أنّه استُعمل في معناه المجازي، كما في قوله تعالى { إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا } [النبأ:17].

المعنى: أن داود أوتي من أصالة الرأي وفصاحة القول ما إذا تكلّم جاء بكلام فاصل بين الحق والباطل شأن كلام الأنبياء والحكماء، وحسبك بكتابه (الزبور / المزامير) فهو مثل في بلاغة القول في لغتهم.

{ **وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ [21] إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ [22] إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ [23] قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ [24] فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ** [25]}.

{ **وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ** } إلى آخرها، معطوفة على جملة { إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ } [18]. والإنشاء هنا في معنى الخبر، فإنّ هذه الجملة قصّت شأنا من شأن داود مع ربه تعالى، فهي نظير ما قبلها.

والاستفهام مستعمل في التعجيب أو في الحثّ على العلم، فإن كانت القصة معلومة للنبيّ صلى الله عليه وسلم كان الاستفهام مستعملا في التعجيب، وإن كان هذا أوّل عهده بعلمها كان الاستفهام للحثّ مثل ما

في قوله تعالى { هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ } [الغاشية:1].

والخطاب يجوز أن يكون لكل سامع، والوجهان الأوّلان قائمان.

النبأ: الخبر.

{ **الْخَصْمِ** } التعريف للعهد الذهني، أي: نبأ خصم معيّن هذا خبره، والخصام والاختصام: المجادلة والتداعي، وتقدّم في قوله تعالى { هَذَانِ خَصْمَانِ } [الحج:19]. والْخَصْم اسم يطلق على الواحد واكثر، وأريد به هنا خصمان، لقوله بعده { خَصْمَانِ } .

{ **إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ** } ضمير الجميع مراد به المثنّى، والمعنى: إذ تسورا المحراب، والعرب يعدلون عن صيغة التثنية إلى صيغة الجمع إذا كانت هناك قرينة، لأنّ في صيغة التثنية ثقلا لندرة استعمالها، قال تعالى { فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا } [التحريم:4]، أي: قلباكما.

التسوُّر: تفعُّل مشتق من السُّور، وهو الجدار المحيط بمكان أو بلد. يقال: تسوَّر، إذا اعتلى على السور، ونظيره قولهم: تسنَّم جَمَلَه، إذا علا سَنامه.

المعنى: أن بيت عبادة داود عليه السلام كان محوطا بسور لئلّا يدخله أحد إلّا بأذن.

{ **الْمِحْرَابَ** } البيت المتّخذ للعبادة، وتقدّم عند قوله تعالى { يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ } [سبأ:13].

{ **إِذْ دَخَلُوا** } بدل من { إِذْ تَسَوَّرُوا } لأنّهم تسورا المحراب للدخول على داود.

داود: ترجمته تقدّمت عند قوله تعالى { وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا } [النساء:163]، وقوله تعالى { وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ } [الأنعام:84].

الفزع: الذُّعر، وهو انفعال يظهر منه اضطراب على صاحبه من توقّع شدّة أو مفاجأة، وتقدّم في قوله تعالى { لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ } [الأنبياء:103].

وللإجابة عن إشكال فزع داود عليه السلام وقد قويت نفسه بالنبوّة نقول:

أولا: بأنّ الخوف انفعال جبلّي وضعه الله في أحوال النفوس عند رؤية المكروه فلا تخلو من بوادره نفوس البشر، فيعرض لها ذلك الانفعال بادئ ذي بدء ثم يطرأ عليها الثبات، ونفوس الناس متفاوتة في ذلك.

ثانيا: بأنّ الذي حصل لداود عليه السلام فزع وليس بخوف. والفزع أعمّ من الخوف إذ هو اضطراب يحصل من الإحساس بشيء شأنه أن يُتخلص منه، وقد جاء في حديث خسوف الشمس: " أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج فَزِعًا ". أي: مسرعا مبادرا للصلاة توقّعا أن يكون ذلك الخسوف نذير عذاب. ولذلك قال القرآن { فَفَزِعَ مِنْهُمْ } ولم يقل: خاف.

وأمّا قول الخصم لداود { لا تَخَفْ } فهو قول يقوله القادم بهيئة غير مألوفة من شأنها أن تريب الناظر.

ثالثا: أنّ الأنبياء مأمورون بحفظ حياتهم لأنّ حياتهم خير للأمة، فقد يفزع النبيّ من توقّع خطر خشية أن يكون سببا في هلاكه فينقطع الانتفاع به لأمّته.

وقد جاء في حديث عائشة: " أنّ النبيّ صلى الله عليه والسلم أرق ذات ليلة فقال: " **ليت رجلا صالحا من أصحابي يحرسني الليلة** "، إذ سمعنا صوت السلاح فقال: " **من هذا؟** " قال: سعد بن أبي وقاص جئت لأحرسك. قالت: " فنام النبيّ صلى الله عليه والسلم حتّى سمعنا غطيطه ".

وروى الترمذي: " أنّ العباس كان يحرس النبيّ صلى الله عليه والسلم حتّى نزل قوله تعالى { وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ } فتُركت الحراسة.

{ **بَغَى بَعْضُنَا** } اعتدى وظلم. و**البغي**: الظلم. ولم يبيّنا الباغي منهما.

{ **فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ** } الفاء تفريغ على قوله { خَصْمَانِ }، لأنّ داود عليه السلام لمّا كان ملكا وكان اللذان حضرا عنده خصمين كان طلب الحكم بينهما مفرّع على ذلك.

{ **بِالْحَقِّ** } الباء للملابسة، وهي متعلّقة بـ { احْكُمْ }. وهذا مجرّد طلب منهما للحق كقول الرجل للنبيّ صلى الله عليه والسلم الذي افتدى ابنه ممّن زنى بامرأته: " فاحكم بيننا بكتاب الله ".

{ **وَلَا تُشْطِطْ** } النهي مستعمل في التذكير والإرشاد.

{ **تُشْطِطْ** } :مضارع أشطّ، يقال: أشطّ عليه، إذا جار عليه، وهو مشتق من الشطط وهو مجاوزة الحد والقدر المتعارف. ومخاطبة الخصم داود بهذا خارجة مخرج الحرص على إظهار الحقّ، وهو من قبيل: اتق الله في أمري. وصدوره قبل الحكم أقرب إلى معنى التذكير وأبعد عن الجفاء، فإن وقع بعد الحكم كان أقرب إلى الجفاء، كالذي قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم في قسمة قسمها: " اعدل، فقال له الرسول: " **ويلك فمن يعدل إن لم أعدل** ".

{ **وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ** } يصرف عن إرادة الجفاء من قولهما { وَلا تُشْطِطْ }، لأنّهما عرفا أنّه لا يقول إلّا حقًّا، وأنّهما تطلّبا منه الهدى.

الهدى: هنا مستعار للبيان وإيضاح الصواب.

{ **سَوَاءِ الصِّرَاطِ** } مستعار للحق الذي لا يشوبه باطل، لأنّ الصراط الطريق الواسع، والسواء منه هو الذي لا التواء فيه ولا شُعب تتشعّب منه فهو أسرع إيصالا إلى المقصود باستوائه وأبعد عن الالتباس.

{ **إِنَّ هَذَا أَخِي** } الظاهر أنّهما أرادا أخوّة النسب.

{ **أَكْفِلْنِيهَا** } اجعلها في كفالتي، كناية عن الإعطاء والهبة، أي: هبها لي.

{ **عَزَّنِي** } غلبني في مخاطبته، أي: أظهر في الكلام عزّة عليَّ وتطاولا. فجعل الخطاب ظرفا للعزّة مجازا.

<u>المعنى</u>: أنّه سأله أن يعطيه نعجته، ولمّا رأى منه تمنُّعا اشتد عليه بالكلام وهدّده. وبهذا يتبيَّن أن موضع هذا التحاكم طلب الإنصاف في معاملة القرابة لئلّا يُفضي الخلاف بينهم إلى التواثب فتنقطع أواصر المبرّة بينهم.

وقد علم داود من تساوقهما للخصومة، ومن سكوت أحد الخصمين أنّهما متقاربان على ما وصفه الحاكي

منهما، أو كان المدَّعَى عليه قد اعترف. فحكم داود بأنّ سؤال الأخ أخاه نعجته ظلم، وتطاوله عليه في الخطاب ظلم أيضا.

{ **وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** } ذِكْر غالب أحوال الخلطاء أراد به الموعظة لهما بعد القضاء بينهما على عادة أهل الخير من انتهاز فرص الهداية، فأراد داود عليه السلام أن يرغِّبهما في إيثار عادة الخلطاء الصالحين وأن يُكرِّه إليهما الظلم والاعتداء. ويستفاد من المقام أنّه أراد تسلية المظلوم عمّا جرى عليه من خليطه، وأنّ له أسوة في اكثر الخلطاء.

{ **وَقَلِيلٌ مَا هُمْ** } التذييل حثٌّ لهما أن يكونا من الصالحين لما هو متقرِّر في النفوس من نفاسة كلّ شيء قليل، قال تعالى { قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ } [المائدة:100].

والسبب في ذلك من جانب الحكمة أنّ الدواعي إلى لذات الدنيا كثيرة والمشي مع الهوى محبوب ومجاهدة النفس عزيزة الوقوع، فالإنسان محفوف بجواذب السيِّئات، وأمّا دواعي الحق والكمال فهو الدين والحكمة، وفي أسباب الكمال إعراض عن محرِّكات الشهوات، وهو إعراض عسير لا يسلكه إلّا من سما بدينه وهمّته إلى الشرف النفساني وأعرض عن الداعي الشهواني، فذلك هو العلّة في هذا الحكم بالقلة.

{ **مَا** } زيادة لقصد الإبهام كما تقدّم آنفا في قوله تعالى { جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ } [11]، وفي هذا الإبهام إيذان بالتعجب من ذلك بمعونة السياق والمقام.

وقد اختلف المفسرون في ماهية هذين الخصمين: فقال السدي والحسن ووهب بن منبّه: " كانا ملكين أرسلهما الله في صورة رجلين لداود عليه السلام لإبلاغ هذا المثل إليه عتابا له ". ورواه الطبري عن أنس مرفوعا. وقيل: كانا أخوين شقيقين من بني إسرائيل، أي: ألهمهما الله إيقاع هذا الوعظ.

واعلم أن سوق هذا النبأ عقب التنويه بداود عليه السلام ليس إلّا تتميما للتنويه به لدفع ما قد يُتوهّم أنّه ينقض ما ذُكر من فضائله ممّا جاء في كتاب (صمويل الثاني) من كتب اليهود في ذكر هذه القصة من أغلاط باطلة تنافي مقام النبوّة، فأريد بيان المقدار الصادق منها وتذييله بأنّ ما صدر عن داود عليه السلام يستوجب العتاب ولا يقتضي العقاب، ولذلك خُتمت بقوله تعالى {وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ} [40].

وهذا النبأ الذي تضمَّنته الآية يشير به إلى قصة تزوّج داود عليه السلام زوجة (أوريا الحثّي) من رجال جيشه، وكان داود رآها فمال إليها ورام تزوّجها فسأله أن يتنازل له عنها، وكان في شريعتهم مباحا أن الرجل يتنازل عن زوجه إلى غيره لصداقة بينهما فيطلقها ويتزوجها الآخر، كما كان ذلك في صدر الإسلام. وخرج أوريا في غزو مدينة فقُتل في الحرب. وكان اسم المرأة (بثشبع بنت اليعام) وهي أم سليمان.

وحكى القرآن القصة اكتفاء بأنّ نبأ الخصمين يُشعر بها، لأنّ العبرة بما أعقبه نبأ الخصمين في نفس داود فعتب الله على داود أن استعمل لنفسه هذا المباح، فعاتبه بهذا المثل المشخّص.

وليس في قول الخصمين { هَذَا أَخِي } ولا في فرضهما الخصومة التي هي غير واقعة ارتكاب الكذب لأنّ ما يجري من خلالها من الأوصاف والنسب غير الواقع إنّما هو على سبيل الفرض والتقدير وعلى نية المشابهة.

وفي هذا دليل شرعي على جواز وضع القصص التمثيلية التي يُقصد منها التربية والموعظة.

وفيها دليل شرعي لجواز تمثيل تلك القصص بالأجسام إذا لم تخالف الشريعة، ومنه تمثيل الروايات والقصص في ديار التمثيل، فإنّ ما يجري في شرع من قبلنا يصلح دليلا لنا في شرعنا إذا حكاه القرآن أو سنة النبيّ صلى الله عليه وسلم ولم يرد في شرعنا ما ينسخه.

وأخذ من الآية مشروعية القضاء في المسجد، قالوا: وليس في القرآن ما يدلّ على ذلك سوى هذه الآية بناء على أنّ من قبلنا شرع لنا إذا حكاه الكتاب أو السنة.

وقد حكيت هذه القصة في [سفر صمويل الثاني، الإصحاح:11] على خلاف ما في القرآن وعلى خلاف ما تقتضيه العصمة لنبوّة داود عليه السلام، فاحذروه. والذي في القرآن هو الحق، ولو حكي ذلك بخبر آحاد في المسلمين لوجب ردُّه والجزم بوضعه لمعارضته المقطوع به من عصمة الأنبياء من الكبائر عند جميع أهل السنّة، ومن الصغائر عند المحققين منهم، وهو المختار.

{ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ }

أي: علم داود بعد انتهاء الخصومة أنّ الله جعلها له فتنة ليُشعره بحال فعلته مع (أوريا)، وقد أشعره بذلك ما دله عليه انصراف الخصمين بصورة غير معتادة، فعلم أنّهما ملكان وأن الخصومة صورية، فعلم أنّ الله بعثهما إليه عَتْبًا له على متابعة نفسه زوجة (أوريا) وطلبه التنازل عنها.

{ **وَظَنَّ دَاوُدُ** } عبر عن علمه ذلك بالظنّ لأنّه علم نظري اكتسبه بالتوسُّم في حال الحادثة، وكثيرا ما يُعبَّر عن العلم النظري بالظنّ لمشابهته الظنّ من حيث إنّه لا يخلو من تردّد في أوّل النظر.

{ **أَنَّمَا** } مفتوحة الهمزة أخت (إنّما) تفيد الحصر، أي: ظنّ أنّ الخصومة ليست إلّا فتنة له، أو ظنّ أنّ ما صدر منه في تزوج امرأة (أوريا) ليس إلا فتنة.

ويجوز أن يكون الفتن بمعنى الابتلاء والاختبار، كقوله تعالى لموسى { وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا } [طه:40].

{ **فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ** } تفريع على ذلك الظنّ، أي: لمّا علم ذلك طلب الغفران من ربّه لما صنع.

{ **وَخَرَّ** } خرورا: سقط، وتقدّم في قوله تعالى { فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ } [النحل:26].

الركوع: الانحناء بقصد التعظيم دون وصول إلى الأرض، قال تعالى { تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا } [الفتح:29]، قالوا: لم يكن لبني إسرائيل سجود على الأرض وكان لهم الركوع، وعليه فتقييد فعل {خَرَّ} بحال {رَاكِعًا} تنبيها على شدّة الانحناء حتى قارب الخرور.

ويحتمل أن يكون السجود عبادة الأنبياء كشأن كثير من شرائع الإسلام كانت خاصة بالأنبياء من قبل، كما في قوله تعالى { فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } [البقرة:132]، وقوله تعالى { وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا } [يوسف:100]. وكان ركوع داود عليه السلام تضرُّعا لله تعالى ليقبل استغفاره.

الإنابة: التوبة: يقال: أناب، ويقال: ناب. وتقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ } [هود:75]. وعند قوله تعالى { مُنِيبِينَ إِلَيْهِ } [الروم:31].

وهنا موضع سجدة من سجود القرآن من العزائم عند مالك لثبوت سجود النبيّ صلى الله عليه والسلم عندها. ففي صحيح البخاري عن مجاهد: " سألت ابن عباس عن السجدة في (ص) فقال: " أوما تقرأ { وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ - إلى قوله - أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ } [الأنعام:84-90]، فكان داود ممّن أُمر نبيّكم أن يقتدي به، فسجدها داود فسجدها رسول الله ".

وقول أبي حنيفة فيها مثل قول مالك. ولم يرَ الشافعي سجودا في هذه الآية لأنّه لا يرى شرع من قبلنا دليلا.

{ **فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ** } اسم الإشارة إلى ما دلّت عليه خصومة الخصمين من تمثيل ما فعله داود بصورة قضية الخصمين، وهذا من لطائف القرآن إذ طوى القصّة ثم أشار إلى المطوي باسم الإشارة.

{ **وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ** } أتبع الله الخبر عن الغفران له بما هو أرفع درجة وهو أنّه من المقرّبين عند الله المرضي عنهم، وأنّه لم يوقف به عند الغفران.

الزلفى: القربي، وهو مصدر أو اسم مصدر.

المآب: مصدر ميمي بمعنى الأوب، وهو الرجوع. والمراد به الرجوع إلى الآخرة. وسُمِّي رجوعا لأنّه رجوع إلى الله، أي: إلى حكمه البحت ظاهرا وباطنا قال تعالى { إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ } [الرعد:36].

حسن المآب: حسن المرجع، وهو أن يرجع رجوعا حسنا عند نفسه وفي مرأى الناس، أي: له حسن رجوع عندنا وهو كرامة عند الله يوم الجزاء، أي: الجنة يؤوب إليها.

{ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ } [26].

مقول قول محذوف معطوف على { فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ } [25]، أي: صفحنا عنه وذكَّرناه بنعمة الملك ووعظناه. فجمع له بهذا تنويها بشأنه وإرشادا للواجب. وافتتاح الخطاب بالنداء لاسترعاء وعيه واهتمامه بما سيقال له.

الخلفية: الذي يخلف غيره في عمل، أي: يقوم مقامه فيه، فإن كان مع وجود المخلوف عنه قيل: هو خليفة فلان، وإن كان بعدما مضى المخلوف قيل: هو خليفة من فلان. والمراد هنا: المعنى الأول.

فالمعنى: أنّه خليفة الله في إنفاذ شرائعه للأمّة المجعول لها خليفة ممّا يوحي به إليه، وممّا سبق من

الشريعة التي أوحي إليه العمل بها. وخليفة عن موسى عليه السلام وعن أحبار بني إسرائيل الأوّلين المدعوّين بالقضاة، أو خليفة عمّن تقدمه في الملك وهو شاول.

{ **الْأَرْضِ** } أرض مملكته المعهودة، أي: جعلناك خليفة في أرض إسرائيل. ويجوز أن يجعل الأرض مرادا به جميع الأرض، فإنّ داود كان في زمنه أعظم ملوك الأرض فهو متصرّف في مملكته ويخاف بأسه ملوك الأرض، فهو خليفة الله في الأرض إذ لا ينفلت شيء من قبضته، وهذا قريب من الخلافة في قوله تعالى { ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ } [يونس:14]، وقوله تعالى { وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ } [النمل:62].

وهذا المعنى خلاف معنى قوله تعالى { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً } [البقرة:30]، فإن الأرض هنالك هي هذه الكرة الرضية.

{ **فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ** } فُرّع على جعله خليفة أمره بأن يحكم بين الناس بالحق للدلالة على أنّ ذلك واجبه وأنّه أحق الناس بالحكم بالعدل.

{ **النَّاسِ** } ناس مملكته، فالتعريف للعهد أو هو للاستغراق العرفي.

الحقّ: هو ما يقتضيه العدل الشرعي من معاملة الناس بعضهم بعضا وتصرّفاتهم في خاصّتهم وعامتهم، ويتعيّن الحق بتعيين الشريعة. والباء في { بِالْحَقِّ } باء المجازية، جُعل الحق كالآلة التي يعمل بها العامل.

{ **وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى** } المقصود من التفريع. وإنّما تقدّم عليه أمره بالحكم بالحق ليكون توطئة للنهي عن اتباع الهوى سدا لذريعة الوقوع في خطأ الحق، فإنّ داود ممّن حكم بالحق فأمره به باعتبار المستقبل.

{ **الْهَوَى** } تعريف الجنس المفيد للاستغراق، فالنهي يعمّ كلّ ما هو هوى، سواء كان هوى المخاطب أو هوى غيره مثل هوى زوجه وولده ...، أو هوى الجمهور، كما في قوله تعالى { قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ } [الأعراف:138].

الهوى: المحبة، وأطلق على الشيء المحبوب مبالغة، أي: ولو كان هوى شديدا تَعْلَق النفس به.

وهو هنا كناية عن الباطل والجور والظلم، لما هو متعارف من الملازمة بين هذه الأمور وبين هوى النفوس، فإنّ العدل والأنصاف ثقيل على النفوس فلا تهواه غالبا.

{ **سَبِيلِ اللَّهِ** } الأعمال التي تحصل منها مرضاته، وهي الأعمال التي أمر الله بها ووعد بالجزاء عليها، شُبِّهت بالطريق الموصل إلى الله، أي: إلى مرضاته.

{ **إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ** } يظهر أنّها ممّا خاطب الله به داود، وهي عند أصحاب العدد آية واحدة، فهي في موقع العلّة للنهي، فكانت { إنّ } مغنية عن فاء التسبّب والترتّب، فالشيء الذي يفضي إلى العذاب الشديد خليق بأن يُنهى عنه.

وإن كانت الجملة كلاما منفصلا عن خطاب داود كانت معترضة ومستأنفة استئنافا بيانيا لبيان خطر الضلال عن سبيل الله.

والعموم الذي في الجملة يُكسبها وصف تذييل أيضا وكلا الاعتبارين موجب لعدم عطفها.

{ **الَّذِينَ يَضِلُّونَ** } جيء بالوصول للإيماء إلى أنّ الصلة علّة لاستحقاق العذاب.

{ **بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ** } الباء سببية. والـ (مَا) مصدرية، أي، بسبب نسيانهم يوم الحساب.

النسيان: مستعار للإعراض الشديد، لأنّه يشبه نسيان المعرض عنه، كما في قوله تعالى { نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ } [التوبة:67]، وهو مراتب أشدّها إنكار البعث والجزاء، قال تعالى { فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ } [السجدة:14]. ودونه مراتب العذاب لأنّه إذا كان السبب ذا مراتب كانت المسبّبات تبعا لذلك.

{ **يَوْمَ الْحِسَابِ** } المراد ما يقع فيه من الجزاء على الخير والشر، فهو في المعنى على تقدير مضاف، أي: جزاء يوم الحساب، على حد قوله تعالى { وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ } [الكهف:57]، أي: لم يفكر في عاقبة ما يُقدِّمه من الأعمال.

وفي جعل الضلال عن سبيل الله ونسيان يوم الحساب سببين لاستحقاق العذاب الشديد تنبيه على تلازمهما فإنّ الضلال عن سبيل الله يفضي إلى الإعراض عن مراقبة الجزاء.

{ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ** } [27].

لمّا جرى في خطاب داود ذكر نسيان يوم الحساب وكان أقصى آيات ذلك النسيان جحود وقعه لأنّه يفضي إلى عدم مراعاته ومراقبته أبدا، أعتُرِض بين القصتين بثلاث آيات لبيان حكمة الله تعالى في جعل الجزاء ويومه احتجاجا على منكريه من المشركين.

الباطل: ضدّ الحقّ، فكلّ ما كان غير حق فهو الباطل، ولذلك قال تعالى في الآية الأخرى { مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ } [الدخان:39].

والمراد بالحقّ، المأخوذ من نفي الباطل هنا، هو أنّ تلك المخلوقات خلقت على حالة لا تخرج عن الحق، إمّا حالا كخلق الملائكة والرسل والصالحين، وإمّا في المآل كخلق الشياطين والمفسدين، لأنّ إقامة الجزاء عليهم من بعد استدراك لمقتضى الحقّ.

{ **ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا** } أي: خلق المذكورات باطلا هو ظنّ الذين كفروا، أي: اعتقادهم.

وأطلق الظنّ على العلم لأنّ ظنّهم علم مخالف للواقع، فهو باسم الظن أجدر، لأنّ إطلاق الظنّ يقع عليه أنواع من العلم المشبّه والباطل. وفي هذه الآية دليل على أن لازم القول يعتبر قولا، وأنّ لازم المذهب مذهب.

{ **فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ** } تفريع على هذا الاستدلال وعدم جري المشركين على مقتضاه، أي: نار جهنم. وعُبِّر عنهم بالوصول لما تشير إليه الصلة من أنّهم استحقوا العقاب على سوء اعتقادهم وسوء أعمالهم، وأنّ ذلك أيضا من آثار انتفاء الباطل عن خلق السماوات والأرض وما بينهما، لأنّهم كانوا على باطل في إعراضهم عن الاستدلال بنظام السماوات والأرض، وفي ارتكابهم مفاسد عوائد الشرك وملّته، وقد تمتعوا بالحياة الدنيا أكثر ممّا تمتع بها الصالحون فلا جرم استحقوا جزاء أعمالهم.

{ **فَوَيْلٌ** } لفظ يدل على أشد السوء. وكلمة: ويل له، تقال للتعجيب من شدة سوء حالة المتحدَّث عنه، وهي هنا كناية عن شدّة عذابهم في النار، كما في قوله تعالى { فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ } [البقرة:79].

{ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ} [28].

{ **أَمْ** } منقطعة أفادت إضرابا انتقاليًّا وهو ارتقاء في الاستدلال على ثبوت البعث، وبيان لما هو من مقتضى خلق السماء والأرض بالحق، بعد أن سيق ذلك بوجه الاستدلال الجملي، وقد كان هذا الانتقال بناء على ما اقتضاه قوله تعالى { ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا } [27]، فلأجل ذلك بني على استفهام مقدَّر بعد { أَمْ }، وهو من لوازم استعمالها، وهو استفهام إنكاري. والمعنى: لو انتفى البعث والجزاء كما تزعمون لاستوت عند الله أحوال الصالحين وأحوال المفسدين.

{ **كَالْمُفْسِدِينَ** } التشبيه للتسوية. والمعنى: إنكار أن يكونوا سواء في جعل الله، أي: إذا لم يجاز كلّ فريق بما يستحقّه على عمله، فالمشاهَد في هذه الحياة الدنيا خلاف ذلك، فتعيَّن أن يكون الجزاء في عالم آخر وهو الذي يسلك له الناس بعد البعث.

{ **أَمْ** } الثانية منقطعة أيضا ومفادها إضراب انتقال ثان للارتقاء في الاستدلال على أن الحكمة الربَّانية بمراعاة الحق وانتفاء الباطل في الخلق تقتضي الجزاء والبعث لأجله.

ومعنى الاستفهام الذي تقتضيه { أم } الثانية إنكاري. وهذا الارتقاء في الاستدلال لقصد زيادة التشنيع على منكري البعث والجزاء بأنّ ظنّهم ذلك يقتضي أن جعل الله المتقين مساوين للفجار في أحوال وجود الفريقين.

المتّقون: هم الذين كانت التقوى شعارهم. و**التقوى**: ملازمة اتباع المأمورات واجتناب المنهيات في الظاهر والباطن، وقد تقدّم في أوّل سورة البقرة.

الفجّار: الذين شعارهم الفجور، وهو أشد المعصية. والمراد به: الكفر وأعماله التي لا يراقب أصحابها التقوى، كما في قوله تعالى { أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ } [عبس:42].

والمقصود من هذا الإطناب زيادة التهويل والفظيع على الذين ظنّوا ظنّا يفضي إلى أنّ الله خلق شيئا من السماء والأرض وما بينهما باطلا، فإنّ في الانتقال من دلالة الأضعف إلى دلالة الأقوى وفي تكرير أداة

الإنكار شأنا عظيما من فضح أمر الضالين.

{ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ } [29].

بعد الإمعان في تهديد المشركين وتجهيلهم على إعراضهم عن التدبُّر بحكمة الجزاء يوم الحساب والاحتجاج عليهم، أعرض الله عن خطابهم ووجّه الخطاب إلى النبيّ صلى الله عليه والسلم بالثناء على الكتاب المنزَّل عليه، وأنّه إن حَرَمَ المشركون أنفسهم من الانتفاع به فقد انتفع به أولو الألباب وهم المؤمنون. وفي ذلك إدماج الاعتزاز بهذا الكتاب لمن أنزل عليه ولمن تمسّك به واهتدى بهديه من المؤمنين.

والجملة استئناف معترض وفي هذا الاستئناف نظر إلى قوله في أوّل السورة { وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ } [1]، إعادة للتنويه بشأن القرآن كما سيعاد ذلك في قوله تعالى { هَذَا ذِكْرٌ } [49].

{ **كِتَابٌ** } التنكير للتعظيم، لأنّ الكتاب معلوم فما كان تنكيره إلّا لتعظيم شأنه، وهو مبتدأ سوَّغ الابتداء به وصفه بجملة { أَنْزَلْنَاهُ } و{ مُبَارَكٌ } هو الخبر. ولك أن تجعل ما في التنكير من معنى التعظيم مسوِّغا للابتداء وتجعل جملة { أَنْزَلْنَاهُ } خبرا أوّل و{ مُبَارَكٌ } خبرا ثانيا، و{ لِيَدَّبَّرُوا } متعلق بـ { أَنْزَلْنَاهُ }.

المبارك: المُنْبَثَّة فيه البركة، وهي الخير الكثير، وكلّ آيات القرآن مبارك فيها، لأنّها: إمّا مرشدة إلى خير، وإمّا صارفة عن شر وفساد، وذلك سبب الخير في العاجل والآجل ولا بركة أعظم من ذلك.

التدبّر: التفكّر والتأمّل الذي يبلغ به صاحبه معرفة المراد من المعاني، وإنّما يكون ذلك في كلام قليل اللفظ كثير المعاني التي أودعت فيه بحيث كلّما ازداد المتدبّر تدبرا انكشف له معان لم تكن بادية له بادئ النظر. وتقدّم عند قوله تعالى { أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ } [النساء:82].

التذكّر: استحضار الذهن ما كان يعلمه، وهو صادق باستحضار ما هو منسي، وباستحضار ما الشأن أن لا يُغفل عنه، وهو ما يهم العلم به.

فجُعل القرآن للناس ليتدبَّروا معانيه ويكشفوا عن غوامضه بقدر الطاقة.

{ **أُولُو الْأَلْبَابِ** } أهل العقول، وفيه تعريض بأن الذين لم يتذكّروا بالقرآن ليسوا من أهل العقول، وأنّ التذكّر من شأن المسلمين الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه، فهم ممّن تدبّروا آياته فاستنبطوا من المعاني ما لم يعلموا، والكافرون أعرضوا عن التدبّر فلا جرم فاتهم التذكّر.

{ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ } [30].

جُعل التخلُّصُ إلى مناقب سليمان عليه السلام من جهة أنّه من مِنَنِ الله على داود عليه السلام، فكانت قصة سليمان كالتكملة لقصة داود. ولم يكن لحال سليمان عليه السلام شبه بحال محمد صلى الله عليه وسلم، فلذلك جزمنا بأن لم يكن ذكر قصته هنا مثالا لحال محمد صلى الله عليه وسلم، وبأنّها إتمام لما

أنعم الله به على داود إذ أعطاه سليمان ابنا بهجة له في حياته وورث ملكه بعد مماته.

ولهذه النكتة لم تفتتح قصة سليمان بعبارة (واذكر)، كما افتتحت قصة داود ثم قصة أيوب، والقصص بعدها مفصَّلها ومجملها، غير أنّها لم تخل من مواضع أسوة وعبرة وتحذير على عادة القرآن من افتراض الإرشاد.

ومن حسن المناسبة لذكر موهبة سليمان أنّه ولد لداود من المرأة التي عوتب لأجل استنزال زوجها عنها، فكانت موهبة سليمان لداود منها مكرمة عظيمة هي أثر مغفرة الله لداود تلك المخالفة.

{ **وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ** } عطف على جملة { إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ } [18]وما بعدها من الجمل.

{ **نِعْمَ الْعَبْدُ** } في موضع الحال من { سُلَيْمَانَ } وهي ثناء عليه ومدح له من جملة من استحقوا عنوان العبد لله، وهو العنوان المقصود منه التقريب بالقرينة، كما تقدّم في قوله تعالى { إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ } [الصافات:41/40].

والمخصوص بالمدح محذوف لدلالة ما تقدم عليه وهو قوله { سُلَيْمَانَ }، والتقدير: نعم العبد سليمان.

{ **إِنَّهُ أَوَّابٌ** } تعليل للثناء عليه، و**الأوّاب**: مبالغة في الآيب أي كثير الأوب، أي: الرجوع إلى الله بقرينة أنّه مادحه. والمراد من الأوب إلى الله: الأوب إلى أمره ونهيه. وتقدّم ذلك آنفا في ذكر داود.

{ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ [31] فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ [32] رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ [33] }.

{ **إِذْ عُرِضَ** } يتعلق بـ { أَوَّابٌ }. وتعليق هذا الظرف بـ { أَوَّابٌ } تعليق تعليل، وصيغة أوّاب تقتضي المبالغة، كما تقدّم، والأصل منها الكثرة، فتعين أنّ القصة مثال من حوادث أوبته.

العرض: الإمرار والإحضار أمام الرائي، أي: عرض سُوّاس خيله إيّاها عليه.

العشيّ: من العصر إلى الغروب. وتقدّم في قوله تعالى { بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ } [الأنعام:52]. وذلك وقت افتقاد الخيل والماشية بعد روحها من مراعيها ومراتعها. وذكر العشيّ ليُبنى عليه قوله { حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ }.

{ **الصَّافِنَاتُ** } وصف لموصوف محذوف استغنى عن ذكره لدلالة الصفة عليه لأنّ الصافن لا يكون إلّا من الخيل والأفراس وهو الذي يقف على ثلاث قوائم وطرف حافر القائمة الرابعة لا يمكِّن القائمة الرابعة من الأرض، وتلك من علامات خفّته الدالة على كرم أصل الفرس وحسن خلاله، يقال: صفن الفرس صُفونا.

{ **الْجِيَادُ** } جمع جوَاد، وهو الفرس ذو الجودة، أي: النفاسة.

{ **أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ** } أصل التركيب: أحببت الخير حبًّا، فحُوّل التركيب فصار { حُبَّ الْخَيْرِ } تمييزا لإسناد نسبة المحبة إلى نفسه لغرض الإجمال ثم التفصيل، كقوله { وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا }[القمر:12].

{ **أَحْبَبْتُ** } ضُمِّن معنى عوَّضت، فعدِّي بـ { عن } في قوله { **عَنْ ذِكْرِ رَبِّي** } فصار المعنى: أحببت الخير حبا فجاوزت ذكر ربي.

{ **عَنْ ذِكْرِ رَبِّي** } الصلاة، فلعلّها صلاة كان رتّبها لنفسه، لأنّ وقت العشي ليست فيه صلاة مفروضة في شريعة موسى إلّا المغرب.

{ **الْخَيْرِ** } المال النفيس كما في قوله تعالى { إِنْ تَرَكَ خَيْرًا } [البقرة:180]. والخيل من المال النفيس.

وقال الفراء: " الخير بالراء من أسماء الخيل ". وقلتُ: إن العرب من عادتهم التفاؤل ولهم بالخيل عناية عظيمة، فلعلّهم سمُّوها الخير تفاؤلا لتتمحّض للسعد والبخت.

{ **حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ** } الضمير للشمس بقرينة ذكر العشيّ وحرف الغاية ولفظ الحجاب.

التواري: الاختفاء، و**الحجاب**: الستر في البيت الذي تحتجب وراءه المرأة وغيرها.

والكلام تمثيل لحالة غروب الشمس بتواري المرأة وراء الحجاب.

المعنى: عرضت عليه خيله فاشتغل بأحوالها حبا فيها، حتى غربت الشمس ففاتته صلاة كان يصليها في المساء قبل الغروب.

{ **رُدُّوهَا عَلَيَّ** } الخطاب لسوّاس خيله. والضمير المنصوب عائد إلى الخيل بالقرينة، أي: أرجعوا الخيل إليّ.

{ **فَطَفِقَ** } الفاء تعقيبيّة، وطفق من أفعال الشروع، أي: فشرع.

{ **مَسْحًا** } مصدر أقيم مقام الفعل، أي: طفق يمسح مسحا. و**المسح**: حقيقته إمرار اليد على الشيء لإزالة ما عليه من ماء أو غبار وغير ذلك ممّا لا يراد بقاؤه على الشيء ويكون باليد وبخرقة أو ثوب، وقد يطلق المسح مجازا على معان منها: الضرب بالسيف يقال: مسحه بالسيف. ويقال: مسحَ السيفَ به. ولعلّ أصله كناية عن القتل بالسيف، لأنّ السيف يمسح عنه الدم بعد الضرب به.

{ **بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ** } حرف التعريف عوض عن المضاف إليه، أي: بسوقها وأعناقها، كقوله تعالى { فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى } [النازعات:41].

{ **بِالسُّوقِ** } جمع ساق. وقرأه الجمهور بواو ساكنة وبوزن فُعْل مثل: دار ودُور. والباء مزيدة للتأكيد، أي: تأكيد اتصال الفعل بمفعوله، كالتي في قوله تعالى { وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ } [المائدة:6].

{ **الْأَعْنَاقِ** } جمع عنق وهو الرقبة.

وقد تردّد المفسّرون في المعنى الذي عني بقوله تعالى { فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ }:

فعن ابن عباس والزهري وابن كيسان وقطرب: " طفق يمسح أعراف الخيل وسوقها بيده حبا لها ".

وهذا هو الجاري على المناسب لمقام نبيّ والأوفق بحقيقة المسح ولكنّه يقتضي إجراء ترتيب الجمل على خلاف مقتضى الظاهر بأن يكون قوله { رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ } متصلا بقوله { إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ }، أي: بعد أن استعرضها وانصرفوا بها لتأوي إلى مذاودها قال:

{ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ } إكراما لها ولحبها. ويُجعل قوله { فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ } معترضا بينهما، وإنّما قدّم للتعجيل بذكر ندمه على تفريطه.

وعن الحسن وقتادة ومالك بن أنس في رواية ابن وهب والفراء وثعلب: " أنّ سليمان لمّا ندم على اشتغاله بالخيل حتّى أضاع ذكر الله في وقت كان يذكر الله فيه أمر أن تردّ عليه الخيل التي شغلته فجعل يعرقب سوقها ويقطع أعناقها لحرمان نفسه منها مع محبته إيّاها توبة منه وتربية لنفسه ".

وتجنّب بعضهم هذا الوجه وجعل المسح مستعارا للتوسيم بسمة الخيل الموقوفة في سبيل الله بكي نار أو كشط جلد، فشُبّهت تلك الإزالة بإزالة المسح ما على ظهر الممسوح من ملتصق به، وهذا أسلم عن الاعتراض من القول الأول وهو معزو لبعض المفسرين في (أحكام القرآن) لابن العربي.

{ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ [34] قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ [35] }.

قلتُ آنفا عند قوله تعالى { وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ } [30]: إنّ ما ذكر من مناقب سليمان لم يخل من مقاصد ائتساء وعبرة وتحذير، على عادة القرآن في ابتدار وسائل الإرشاد بالترغيب والترهيب، فكذلك كانت الآيات المتعلقة بندمه على الاشتغال بالخيل عن ذكر الله موقع إسوة به في مبادرة التوبة والتحذير من الغفلة.

وكذلك جاءت هذه الآيات مشيرة إلى فتنة عرضت لسليمان أعقبتها إنابة ثم أعقبتها إفاضة نعم عظيمة.

{ **فَتَنَّا** } الفتن والفتون والفتنة: اضطراب الحال الشديد الذي يظهر به مقدار صبر وثبات من يحل به، وتقدّم ذلك عند قوله تعالى { إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ } [البقرة:102].

وقد أشارت الآية إلى حدث عظيم حلّ بسليمان، واختلفت أقوال المفسرين في تعيين هذه الفتنة فذكروا قصصا هي بالخرافات أشبه، ومقام سليمان عن أمثالها أنزه.

وأظهر أقوالهم أن تكون الآية إشارة إلى ما في صحيح البخاري عن أبي هريرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " قال سليمان لأطوفنّ الليلة على تسعين امرأة كلّهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله. فقال له صاحبه: " قل إن شاء الله ". فلم يقل: إن شاء الله. فطاف عليهن جميعا فلم تحمل منهم إلّا امرأة واحدة جاءت بشق رجل، وأيم الذي نفس محمد بيده لو قال: إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرسانا أجمعون" .

وليس في كلام النبي صلى الله عليه وسلم أنّ ذلك تأويل هذه الآية ولا وضع البخاري ولا الترمذي الحديث في التفسير من كتابيهما. وهذا تفسير بعيد لأنّ الخبر لم يقتض أنّ الشق الذي ولدته المرأة كان حيا ولا أنّه جلس على كرسي سليمان. وتركيب هذه الآية على ذلك الخبر تكلّف.

وقال وهب بن منبه وشهر بن حوشب: " تزوّج سليمان ابنة ملك صيدون بعد أن غزا أباها وقتله فكانت

حزينة على أبيها، وكان سليمان قد شغف بحبها فسألته لترضى أن يأمر المصورين ليصنعوا صورة لأبيها فصنعت لها فكانت تغدو وتروح مع ولائدها يسجدن لتلك الصورة فلمّا علم سليمان بذلك أمر بكسر التمثال.

وهذا القول مختزل ممّا وقع في [سفر الملوك الأول، الإصحاح:11]، ويؤخذ من ذلك كلّه أنّ سليمان اجتهد وسمح لنسائه المشركات أن يعبدن أصنامهن في بيوتهن.

وعلى هذا التأويل يكون المراد بالجسد الصنم لأنّه صورة بلا روح، كما سمَّى الله العجل الذي عبده بنو إسرائيل جسدا في قوله { فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ } [طه:88]. ويكون معنى إلقائه على كرسيه نصبه في بيوت زوجاته المشركات بقرب من مواضع جلوسه.

{ **ثُمَّ أَنَابَ** } عطف بحرف { ثم } المفيد للتراخي الرتبي. و**الإنابة**: التوبة.

{ **قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي** } بدل اشتمال من جملة { أَنَابَ } لأنّ الإنابة تشتمل على ترقّب العفو عمّا عسى أن يكون قد صدر منه ممّا لا يرضى الله تعالى صدوره من أمثاله.

{ **وَهَبْ لِي مُلْكًا** } كان سليمان يومئذ في ملك عظيم فسؤال موهبة الملك مراد به استدامة ذلك الملك، وصيغة الطلب ترد لطلب الدوام مثل { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ } [النساء:136].

{ **مُلْكًا** } التنكير للتعظيم.

{ **لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي** } ارتقاء وتدرّج في السؤال. أي: لا يعطيه الله أحدا يبتغيه من بعده.

فكنَّى بـ { لا يَنْبَغِي } عن معنى لا يُعطى لأحد، أي: لا تعطيه من بعدي.

{ **مِنْ بَعْدِي** } في معنى: <u>من دوني</u>، كقوله تعالى { فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ } [الجاثية:23].

أي: أنّه لا ينبغي لأحد غيري، أي: في وقت حياتي، فهذا دعاء بأن لا يُسلَّط أحد على ملكه مدّة حياته.

<u>ويجوز أن يبقى { مِنْ بَعْدِي } على ظاهره</u>، أي: بعد حياتي. أي: لا ينبغي مثله لأحد بعد وفاتي.

وقد تضمّنت دعوته شيئين: هما أن يعطى ملكا عظيما، وأن لا يعطى غيره مثله في عظمته.

وقد حكى الله دعاء سليمان وهو سرّ بينه وبين ربه إشعارا بأنّه ألهمه إيّاه، وأنّه استجاب له دعوته تعريفا برضاه عنه وبأنّه جعل استجابته مكرمة توبته. ومعنى ذلك أنّه لا يأتي ملك بعده له من السلطان جميع ما لسليمان، فإنّ ملك سليمان عمّ التصرّف في الجن وتسخير الريح والطير، ومجموع ذلك لم يحصل لأحد بعده.

وفي الصحيح عن أبي هريرة أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: **" إنّ عفريتا من الجن تفلّتَ البارحة ليقطع عليّ صلاتي فأمكنني الله منه فأخذته فأردت أن أربطه بسارية من سواري المسجد حتّى تنظروا إليه كلّكم فذكرت دعوة أخي سليمان: رب هب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي فرددته خاسئا ".**

{ **إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ** } علّة للسؤال كله وتمهيد الإجابة، فقامت (إن) مقام حرف التفريع، ودلت صيغة المبالغة في { الْوَهَّابُ } على أنّه تعالى يهب الكثير والعظيم، لأنّ المبالغة تفيد شدّة الكميّة أو شدّة الكيفية

أو كلتيهما بقرينة مقام الدعاء، فمغفرة الذنب من المواهب العظيمة لما يُرتَّب عليه من درجات الآخرة، وإعطاء مثل هذا الملك هو هبة عظيمة.
{ **أَنْتَ** } ضمير فصل أفاد به قصرا، فصار المعنى: أنت قوي الموهبة لا غيرك.

{ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ [36] وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ [37] وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ [38] }.

اقتضت الفاء وترتيب الجمل أنّ تسخير الريح وتسخير الشياطين كانا بعد أن سأل الله مُلكا لا ينبغي لأحد من بعده، فأعطاه الله هاتين الموهبتين زيادة في قوّة ملكه وتحقيقا لاستجابة دعوته.
التسخير: الإلجاء إلى عمل بدون اختيار، وهو مستعار هنا لتكوين أسباب تصرّف الريح إلى الجهات التي يريد سليمان توجيه سفنه إليها. تقدّم في قوله تعالى { وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ} [سبأ:12] وفي قوله تعالى { تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا } [الأنبياء:81].
{ **له** } لام العلّة، أي: لأجله، أي: ذلك التسخير كرامة من الله له بأن جعل تصريف الرياح على نحو رغبته.
{ **بِأَمْرِهِ** } الأمر مستعار للرغبة أو للدعاء، بأن يدعو الله أن تكون الريح متجهة إلى صوب كذا حسب خطة أسفار سفائنه، أو يرغب ذلك في نفسه، فيصرف الله الريح إلى ما يلائم رغبته، وهو العليم بالخفيَّات.
الرُّخاء: الليّنة التي لا زعزعة في هبوبها. وانتصب { رُخَاءً } على الحال من ضمير { تَجْرِي }، أي: تجري بأمره ليّنة مساعدة لسير السفن، وهذا من التسخير لأنّ شأن الريح أن تهب شديدة عاصفة. وقد قال تعالى في [الأنبياء:81] { وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً } ومعناه: سخرنا لسليمان الريح التي شأنها العصوف، فانتصب { عَاصِفَةً } في آية سورة الأنبياء على الحال من { الرِّيحَ } وهي حال منتقلة.
ولما أعقبه هنا بقوله { تَجْرِي بِأَمْرِهِ } عُلم أنّ عصفها يصير إلى لين بأمر سليمان، أي: بعزمه، أو برغبته، لأنّه لا تصلح له أن تكون عاصفة بحال من الأحوال، فهذا وجه دفع التنافي بين الحالين في الآيتين.
{ **حَيْثُ أَصَابَ** } معناه قصد، وهو مشتقّ من الصوب، أي: الجهة، أي: تجري إلى حيث قصد السير.
{ **الشَّيَاطِينَ** } جمع شيطان، وحقيقته الجنّي، ويُستعمل مجازا للبالغ غاية المقدرة والحذق في العمل الذي يعمله. ومنه قوله تعالى { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ } [الأنعام:112]، فسخَّر الله النوع الأول لسليمان تسخيرا خارقا للعادة على وجه المعجزة، فهو مسخَّر له في الأمور الروحانية والتصرّفات الخفية، وسخر النوع الثاني له تسخير إذلال ومغلوبيّة لعظم سلطانه وإلقاء مهابته في قلوب الأمم، فكانوا يأتون طوعا للانضواء تحت سلطانه كما فعلت بلقيس، وقد تقدّم في سورة سبا.

فيجوز أن يكون { الشَّيَاطِينَ } مستعملا في حقيقته ومجازه.

{ **كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ** } بدل من { الشَّيَاطِينَ } بدل بعض من كل، أي: كل بناء وغواص منهم.

{ **كُلَّ** } هنا مستعملة في معنى الكثير، وهو استعمال وارد في القرآن والكلام الفصيح، قال تعالى { وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ } [يونس:97]، وقال تعالى { ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ } [النحل:69].

البنَّاء: الذي يبني، وهو اسم فاعل مصوغ على زنة المبالغة للدلالة على معنى الصناعة مثل نجّار وحدّاد.

الغوّاص: الذي يغوص في البحر لاستخراج محار اللؤلؤ، وهو أيضا ممّا صيغ على وزن المبالغة للدلالة على الصناعة. قال تعالى { وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ } [الأنبياء:82].

{ **وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ** } عطف على { كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ } فهو من جملة بدل البعض.

{ **آخَرِينَ** } جمع آخر بمعنى مغاير. فيجوز أن تكون المغايرة في النوع، أي: من غير نوع الجنّ.

ويجوز أن تكون المغايرة في الصفة، أي: غير بنّائين وغوّاصين.

المقرَّن: اسم مفعول من قَرَنَه مبالغة في قرنه، أي: جَعَله قرينا لغيره لا ينفك أحدهما عن الآخر.

{ **الْأَصْفَادِ** } جمع صَفَد، وهو القيد. يقال: صفده، إذا قيَّده.

وهذا صنف ممن عُبِّر عنهم بالشياطين شديد الشكيمة يُخشى تفلّته ويرام أن يستمر يعمل أعمالا لا يجيدها غيره فيُصفد في القيود ليعمل تحت حراسة الحراس، فيكون معنى {مُقَرَّنِينَ} على حقيقته.

ويجوز أن يكون تمثيلا لمنع الشياطين من التفلّت.

{ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [39].

الإشارة إلى التسخير المستفاد من قوله تعالى { فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ - إلى قوله - وَالشَّيَاطِينَ } [37/36]، أي: هذا التسخير عطاؤنا.

{ **عَطَاؤُنَا** } الإضافة لتعظيم شأن المضاف لانتسابه إلى المضاف إليه، فكأنّه قيل: هذا عطاء عظيم أعطيناكه. **العطاء**: مصدر بمعنى المعطى مثل الخلق بمعنى المخلوق.

{ **فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ** } أمر مستعمل في الإذن والإباحة، أي: فأنعم على من شئت بالإطلاق، أو أمسك في الخدمة من شئت. وتقديم { فَامْنُنْ } لتعجيل المسرّة بالنعمة. ويكون { **بِغَيْرِ حِسَابٍ** } حالا من ضمير { فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ }، ويكون **الحساب**: بمعنى المحاسبة المُكنَّى بها عن المؤاخذة. والمعنى: امنن أو أمسك لا مؤاخذة عليك فيمن مننت عليه بالإطلاق، ولا فيمن أمسكته في الخدمة.

ويجوز أن يكون { **بِغَيْرِ حِسَابٍ** } مجاز وكناية في التحديد والتقدير، أي: هذا عطاؤنا غير محدّد ولا مقتر فيه، أي: عطاؤنا واسعا وافيا لا تضييق فيه عليك.

المنّ: كناية عن الإطلاق بلازم اللازم، كقوله تعالى { فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً } [محمد:4].

{ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ } [40].

تقدم نظيره آنفا في قصة داود [25].

{ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ [41] **ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ** [42] **}**.

هذا مَثَل ثان ذُكِّر به النبيّ صلى الله عليه وسلم إسوة به في الصبر على أذى قومه والالتجاء إلى الله في كشف الضرّ، وهو معطوف على { وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ } [17]، ولكونه مقصودا بالمثل أعيد معه فعل { اذْكُرْ } كما نبَّهنا عليه في قوله تعالى { وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ } [17]، وقد تقدّم الكلام على نظير صدر هذه الآية في [الأنبياء:83].

{ **أَيُّوبَ** } ترجمته عليه السلام تقدّمت في [الأنعام:84].

{ **إِذْ نَادَى رَبَّهُ** } بدل اشتمال من أيوب، لأنّ زمن ندائه ربّه ممّا تشتمل عليه أحوال أيوب. وخُصّ هذا الحال بالذكر من بين أحواله لأنّه مظهر توكّله على الله واستجابة الله دعاءه بكشف الضرّ عنه.

النداء: نداء دعاء، لأنّ الدعاء يفتتح بـ: يا رب، ونحوه.

{ **أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ** } متعلّق بـ { نَادَى } بحذف الباء، أي: نادى: بأنّي مسّني الشيطان. والخبر مستعمل في الدعاء والشكاية، كقوله تعالى { رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا } [آل عمران:36]، وقد قال تعالى في سورة الأنبياء { أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } [الأنبياء:83]

النُصْب: المشقّة والتعب، وهي لغة في نَصَب (بفتحتين)، وتقدّم النصب في [الكهف:62].

العذاب: الألم. والمراد به المرض. كما في الآية الأخرى { أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ } [الأنبياء:83].

وظاهر إسناد المس بالنصب والعذاب إلى الشيطان أنّ الشيطان مسّ أيوب بهما. أي: أصابه بهما حقيقة مع أنّ النصب والعذاب هما الماسان أيوب، ففي [الأنبياء:83] { أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ } فأسند المس إلى الضرّ، والضرّ هو النصب والعذاب.

وترددت أفهام المفسرين في معنى إسناد المس بالنصب والعذاب إلى الشيطان، فإنّ الشيطان لا تأثير له في بني آدم بغير الوسوسة كما هو مقرّر من مكرر آيات القرآن، وليس النصب والعذاب من الوسوسة ولا من آثارها. وتأوّلوا ذلك على أقوال تتجاوز العشرة وفي أكثرها سماجة، وكلّها مبني على حملهم الباء في قوله تعالى { بِنُصْبٍ } على أنّها باء التعدية، لتعدية فعل { مَسَّنِيَ } ،أو باء الآلة مثل: ضربه بالعصا، أو يؤول النصب والعذاب إلى معنى المفعول الثاني من باب أعطى.

والوجه عندي: <u>أن تُحمل الباء على معنى السببية</u> بجعل النصب والعذاب مُسبَبين لمس الشيطان إيّاه، أي: <u>مسني بوسواس سببه نصب وعذاب</u>، فجعل الشيطان يوسوس إلى أيوب بتعظيم النصب والعذاب

عنده ويلقي إليه أنّه لم يكن مستحقا لذلك العذاب ليُلقي في نفس أيوب سوء الظن بالله أو السخط من ذلك. أو نحمل الباء على المصاحبة، أي مسني بوسوسة مصاحبة لضر وعذاب، ففي قول أيوب { أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ } كناية لطيفة عن طلب لطف الله به ورفع النصب والعذاب عنه بأنّهما صارا مدخلا للشيطان إلى نفسه فطلب العصمة من ذلك على نحو قول يوسف عليه السلام { وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ } [يوسف:33].

{ **ارْكُضْ بِرِجْلِكَ** } مقولة لقول محذوف، أي: قلنا له اركض برجلك، وذلك إيذان بأن هذا استجابة لدعائه.

الركض: الضرب في الأرض بالرجل، فقوله { بِرِجْلِكَ } زيادة في بيان معنى الفعل مثل { وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ } [الأنعام:38]، وقد سَمَّى الله ذلك استجابة في [الأنبياء:84] { فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ }.

{ **هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ** } جملة مقولة لقول محذوف دلّ عليه المقول الأوّل، وفي الكلام حذف دلت عليه الإشارة. فالتقدير: فركض الأرض فنبع ماء فقلنا له: هذا مغتسل بارد وشراب.

{ **هَذَا** } إشارة إلى ماء، لأنّه الذي يغتسل به ويشرب.

{ **بَارِدٌ وَشَرَابٌ** } وصْف الماء بذلك في سياق الثناء عليه، مشير إلى أنّ ذلك الماء فيه شفاؤه إذا اغتسل به وشرب منه، ليتناسب قول الله له مع ندائه ربه، لظهور أنّ القول عقب النداء هو قول استجابة الدعاء.

{ **مُغْتَسَلٌ** } اسم مفعول من فعل اغتسل، أي: مغتسل به، فهو على حذف حرف الجر.

{ **بَارِدٌ** } إيماء إلى أنّ به زوال ما بأيوب من الحمى من القروح. قال النبي صلى الله عليه وسلم: " **الحمى من فيح جهنم فأطفئوها بالماء** ".

{ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ } [43].

اقتصار أيوب في دعائه على التعريض بإزالة النُّصب والعذاب يُشعر بأنّه لم يصب بغير الضر في بدنه. ويحتمل أن يكون قد أصابه تلف المال وهلاك العيال كما جاء في كتاب أيوب من كتب اليهود، فيكون اقتصاره على النصب والعذاب في دعائه لأنّ في هلاك الأهل والمال نصبا وعذابا للنفس.

ولم يتقدّم في هذه الآية ولا في آية سورة الأنبياء أنّ أيوب رُزِئ أهله فيجوز أن يكون معنى { وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ } أنّ الله أبقى له أهله فلم يصب فيهم بما يكره وزاده بنين وحفدة.

ويكون فعل { وَهَبْنَا } مستعملا في حقيقته ومجازه. ويؤيد هذا المحمل وقوع كلمة { مَعَهُمْ } عقب كلمة {وَمِثْلَهُمْ }، فإنّ (مع) تشعر بأنّ الموهوب لاحق بأهله ومزيد فيهم.

وليس في الأخبار الصحيحة ما يخالف هذا إلّا أقوالا عن المفسرين ناشئة عن أفهام مختلفة.

وتقدّم نظير هذه الآية في قوله { وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ } [الأنبياء:84]. وما بين الآيتين من تغيير يسير هو مجرّد تفنّن في التعبير لا يقتضي تفاوتا في البلاغة.

وأمّا ما بينهما من مخالفة في قوله هنا { وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ } وقوله في الأنبياء { وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ }، فأمّا قوله هنا { وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ } فإنّ الذكرى هي التذكير بما خفي أو بما يخفى، وأولوا الألباب هم أهل العقول، أي: تذكرة لأهل النظر والاستدلال. فإنّ في قصّة أيوب ما إذا سمعه العقلاء المعتبرون بالحوادث والقائسون على النظائر استدلّوا على أنّ صبره قدوة لكل من هو في حرج و ينتظر الفرج.
فلمّا كانت قصص الأنبياء في هذه السورة مسوقة للاعتبار بعواقب الصابرين وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمون مأمورين بالاعتبار بها حُقَّ أن يشار إليهم بـ { لِأُولِي الْأَلْبَابِ }.
وأمّا الذي في سورة الأنبياء فإنّه جيء بأيوب عليه السلام شاهدا على أنّ النبوّة لا تنافي البشرية وأنّ الأنبياء تعتريهم من الأحداث ما يعتري البشر ممّا لا يُنقص منهم في نظر العقل والحكمة، وأنّهم إنّما يقومون بأمر الله، وأنّهم معرّضون لأذى الناس ممّا لا يخلّ بحرمتهم الحقيقية، وذُكر من الأنبياء من ابتلي من قومه فصبر، وكيف كانت عاقبة صبرهم واحدة مع اختلاف الأسباب الداعية إليه. فكانت في ذلك آيات للعابدين، أي: الممتثلين أمر الله المجتنبين نهيه، فإنّ ممّا أمر به الله الصبر على ما يلحق المرء من ضرّ لا يستطيع دفعه، لكون دفعه خارجا عن طاقته، فختم بخاتمة { وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ }.

{ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ } [44].
{ **وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ** } مقول لقول محذوف دلّت عليه صيغة الكلام، والتقدير: وقلنا خذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث، وهو قول غير القول المحذوف في قوله { ارْكُضْ بِرِجْلِكَ } [42]، لأنّ ذلك استجابة دعوة وهذا إفتاء برخصة، وذلك له قصته، وهذا له قصة أخرى أشارت إليها الآية إجمالا ولم يرد في تعيينها أثر صحيح ومجملها:
أنّ زوج أيوب حاولت عملا ففسد عليه صبره من استعانة ببعض الناس على مواساته، فلمّا علم بذلك غضب وأقسم ليضربنّها عددا من الضرب، ثم ندّم، وكان محبًّا لها، وكانت لائذة به في مدّة مرضه، فلما سرّي عنه أشفق على امرأته من ذلك، ولم يكن في دينهم كفارة اليمين، فأوحى الله إليه أن يضربها بحزمة فيها عدد من الأعواد بعدد الضربات التي أقسم عليها، رفقا بزوجه لأجله، وحفظا ليمينه من حنثه، إذ لا يليق الحنث بمقام النبوّة. وليست هذه القضية ذات أثر في الغرض وإنما ذكرت هنا تكملة لمظهر لطف الله بأيوب.
ومعاني الآية ظاهرة في أنّ هذا الترخيص رفق بأيوب، وأنّه لم يكن مثله معلوما في الدين الذي يدين به أيوب، فهو رخصة لا محالة في حكم الحنث في اليمين.
فجاء علماؤنا ونظروا في الأصل المقرّر في المسألة المفروضة في أصول الفقه وهي: أن شرع من قبلنا هل هو شرع لنا إذا حكاه القرآن أو السنة الصحيحة، ولم يكن في شرعنا ما ينسخه من نص أو أصل من أصول الشريعة الإسلامية.

فأمّا الذين لم يروا أن شرع من قبلنا شرع لنا وهم أبو بكر الباقلاني من المالكية وجمهور الشافعية وجميع الظاهرية فشأنهم في هذا ظاهر.

وأمّا الذين أثبتوا أصل الاقتداء بشرع من قبلنا بقيوده المذكورة وهم مالك وأبو حنيفة والشافعي فتخطّوا للبحث في أنّ هذا الحكم الذي في هذه الآية هل يُقرَّر مثله في فقه الإسلام في الإفتاء في الأيمان وهل يُتعدَّى به إلى جعله أصلا للقياس في كل ضرب يتعيّن في الشرع له عدد، إذا قام في المضروب عذر يقتضي الترخيص بعد البناء على إثبات القياس على الرخص؟

فأمّا في الأيمان فقد كفانا الله التكلّف بأن شرع لنا كفارات الأيمان. وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **إنّي والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلّا كفرت عن يميني وفعلت الذي هو خير**" ، فصار ما في شرعنا ناسخا لما شُرع لأيوب فلا حاجة إلى الخوض فيها.

وأمّا القياس على فتوى أيوب في كل ضرب معين بعدد، أي: في باب الحدود والتعزيرات فهو تطوّح في القياس لاختلاف الجنس بين الأصل والفرع، ولاختلاف مقصد الشريعة من الكفارات ومقصدها من الحدود والتعزيرات، ولترتّب المفسدة على إهمال الحدود والتعزيرات دون الكفارات. ولا شك أنّ مثل هذا التسامح في الحدود يفضي إلى إهمالها ومصيرها عبثا.

{ **إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ** } علة لجملة { ارْكُضْ بِرِجْلِكَ } وجملة { وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ }، أي: أنعمنا عليه بجبر حاله لأنّا وجدناه صابرا على ما أصابه. فكانت (إنْ) مغنية عن فاء التفريع.

{ **وَجَدْنَاهُ** } أنّه ظهر في صبره ما كان في علم الله منه.

{ **نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ** } مثل قوله في سليمان { نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ } [30]، فكان سليمان أوَّابا لله من فتنة الغنى والنعيم، وأيوب أوَّابا لله من فتنة الضر والاحتياج، وكان الثناء عليهما متماثلا لاستوائهما في الأوبة وإن اختلفت الدواعي. قال سفيان: " أثنى الله على عبدين ابتليا: أحدهما صابر، والآخر شاكر، ثناء واحدا. فقال لأيوب ولسليمان { نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ } ".

{ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ [45] إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ [46] وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ [47] }.

القول فيه كالقول في نظائره لغة ومعنى. وذِكْر هؤلاء الثلاثة ذكر اقتداء وائتساء بهم:

فأمّا إبراهيم عليه السلام فيما عرف من صبره على أذى قومه، وإلقائه في النار، وابتلائه بتكليف ذبح ابنه. وأمّا ذكر إسحاق ويعقوب فاستطراد بمناسبة ذكر إبراهيم، ولما اشتركا به من الفضائل مع أبيهما التي يجمعها اشتراكهم في معنى قوله تعالى { أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ } ليقتدي النبيّ صلى الله عليه وسلم بثلاثتهم في القوّة في إقامة الدين والبصيرة في حقائق الأمور.

وابتدئ بإبراهيم لتفضيله بمقام الرسالة والشريعة، وعطف عليه ذكر ابنه وعطف على ابنه ابنه يعقوب.

الأيدي: جمع يد بمعنى القوّة في الدين. كقوله تعالى { وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ } [الذاريات:47].

الأبصار: جمع بصر بالمعنى المجازي، وهو النظر الفكري المعروف بالبصيرة، أي: التبصُّر في مراعاة أحكام الله تعالى وتوخِّي مرضاته.

{ **إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ** } علّة للأمر بذكرهم لأنّ ذكرهم يكسب الذاكر الاقتداء بهم في إخلاصهم ورجاء الفوز بما فازوا به من الاصطفاء والأفضلية في الخير.

{ **أَخْلَصْنَاهُمْ** } جعلناهم خالصين، فالهمزة للتعدية، أي: طهَّرناهم من درن النفوس فصارت نفوسهم نقيّة من العيوب العارضة للبشر، وهذا الإخلاص هو معنى العصمة اللازمة للنبوّة.

العصمة

قوّة يجعلها الله في نفس النبيّ تصرفه عن فعل ما هو في دينه معصية لله تعالى عمدا أو سهوا، وعمّا هو موجب للنفرة والاستصغار عند أهل العقول الراجحة من أمّة عصره.

ومبدأ العصمة هو الوحي الإلهي بالتحذير ممّا لا يرضي الله وتخويف عذاب الآخرة وتحبيب نعيمها، فتحدث في نفس النبيّ شدّة الحذر من المعصية وحب الطاعة، ثم لا يزال الوحي يتعهّده ويوقظه ويجنّبِه الوقوع فيما نُهي عنه فلا يلبث أن تصير العصمة ملكة للنبيّ يكره بها المعاصي، فأصل العصمة هي منتهى التقوى التي هي ثمرة التكليف، وبهذا يمكن الجمع بين:

قول أصحابنا: " العصمة عدم خلق المعصية مع بقاء القدرة على المعصية ".

وقول المعتزلة: " إنّها ملكة تمنع عن إرادة المعاصي ".

فأصحابنا نظروا إلى المبدأ والمعتزلة نظروا إلى الغاية، وبه يظهر أيضا أنّ العصمة لا تنافي التكليف وترتّب المدح على الطاعات.

وأركان العصمة أربعة:

الأول: خاصية للنفس يخلقها الله تعالى تقتضي ملكة مانعة من العصيان.

الثاني: حصول العلم بمثالب المعاصي ومناقب الطاعات.

الثالث: تأكيد ذلك العلم بتتابع الوحي والبيان من الله تعالى.

الرابع: العتاب من الله على ترك الأولى وعلى النسيان.

{ **أَخْلَصْنَاهُمْ** } وإسناد الإخلاص إلى الله تعالى لأنّه أمر لا يحصل للنفس البشرية إلّا بجعل خاص من الله تعالى وعناية لدنية بحيث تُنزع من النفس غلبة الهوى في كل حال، وتُصرف النفس إلى الخير المحض فلا تبقى في النفس إلّا نزعات خفيفة تقلع النفس عنها سريعا بمجرد خطورها، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **إنّي ليُغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة** ".

{ **بِخَالِصَةٍ** } الباء للسببية تنبيها على سبب عصمتهم. وعُبِّر عن هذا السبب تعبيرا مجملا تنبيها على أنّه

أمر عظيم دقيق لا يُتصور بالكنه ولكن يُعرف بالوجه، ولذلك استُحضر هذا السبب بوصف مشتق من فعل { أَخْلَصْنَاهُمْ }.

الذكرى: اسم مصدر يدلّ على قوة معنى المصدر.

الدار: هي المعهودة لأمثالهم: الدار الآخرة، أي: بحيث لا ينسون الآخرة ولا يقبلون على الدنيا، فالدار التي هي محل عنايتهم هي الدار الآخرة، قال النبي صلى الله عليه وسلم: " **فأقول ما لي وللدنيا** ".

{ **بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ** } إشارة إلى أنّ مبدأ العصمة هو الوحي الإلهي بالتحذير ممّا لا يرضي الله وتخويف عذاب الآخرة وتحبيب نعيمها.

ويجوز أن يكون { ذِكْرَى } مرادف الذِكر (بكسر الذال)، أي: الذكر الحسن، كقوله تعالى { وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا } [مريم:50]، وتكون { الدَّارِ } هي الدار الدنيا.

{ **وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ** } لأنّه ممّا يبعث على ذكرهم بأنّهم اصطفاهم الله من بين خلقه فقرَّبهم إليه وجعلهم أخيارا.

{ **الْأَخْيَارِ** } جمع خيِّر (بتشديد الياء)، أو جمع خير (بتخفيفها) مثل الأموات جمعا لميِّت ومَيْت، وكلتا الصيغتين تدل على شدة الوصف في الموصوف.

{ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ } [48].

فُصل ذكر إسماعيل عن أبيه إبراهيم وأخيه إسحاق لأنّه كان جدّ الأمة العربية، أي: معظمها، فإنّه أبو العدنانيين. وجدّ للأمّ لمعظم القحطانيين، لأنّ زوج إسماعيل جُرْهُميّة.

وأمّا قرن ذكره بذكر أليسع وذي الكفل بعطف اسميهما على اسمه فوجهه دقيق في البلاغة وليس يكفي في توجيهه ما تضمّنه قوله { وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ }، لأن التماثل في الخيرية ثابت لجمع الأنبياء والمرسلين. فإنّ شرط قبول العطف بالواو أن يكون بين المعطوف والمعطوف عليه جامع عقلي أو وهمي أو خيالي. فبنا أن نطلب الدقيقة التي حسَّنت في هذه الآية عطف اليسع وذي الكفل على إسماعيل.

فأمّا عطف **الْيَسَع** على إسماعيل فلأن اليسع كان مقامه في بني إسرائيل كمقام إسماعيل في بني إبراهيم، لأنّ اليسع كان بمنزلة الابن للرسول إلياس (إيليا)، وكان إلياس يدافع ملوك يهودا وملوك إسرائيل عن عبادة الأصنام، وكان اليسع في إعانته كما كان إسماعيل في إعانة إبراهيم. وتقدّم ذكره في [الأنعام:86].

وأمّا عطف **ذي الكفل** على إسماعيل فلأنّه مماثل لإسماعيل في صفة الصبر، قال الله تعالى { وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ } [الأنبياء:85]. وتقدّمت ترجمة ذي الكفل في آية الأنبياء.

{ **وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ** } تنوين { كُلٌّ } عوض عن المضاف إليه، أي: وكل أولئك الثلاثة من الأخيار.

{ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ [49] جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ [50] مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ [51] وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ [52] }.

{ **هَذَا ذِكْرٌ** } جملة فصلت الكلام السابق عن الكلام الآتي بعدها قصدا لانتقال الكلام من غرض إلى غرض. وهذا الأسلوب من الانتقال هو المسمَّى في عرف علماء الأدب بالاقتضاب.

والمقصود التذكّر والاقتداء، مع إرادة التوجيه بلفظ { ذِكْرٌ } بتحميله معنى حسن السمعة.

{ **هَذَا** } يجوز أن تكون الإشارة إلى القرآن، أي: القرآن ذكر، فتكون الجملة استئنافا للتنويه بشأن القرآن.

{ **وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ** } يجوز أن تكون الواو للعطف الذكري، أي: انتهى الكلام السابق بقولنا {هَذَا} ونعطف عليه. ويجوز أن تكون واو الحال. واللام لام الاختصاص، أي: لهم حسن مآب يوم الجزاء.

{ **وَحُسْنَ مَآبٍ** } تقدّم سابقا.

{ **جَنَّاتِ عَدْنٍ** } انتصب على البيان من { وَحُسْنَ مَآبٍ }. و**العدن**: الخلود.

{ **مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ** } حال من { جَنَّاتِ عَدْنٍ }. والتقدير: أبوابها. وتفتيح الأبواب كناية عن التمكين من الانتفاع بنعيمها، لأنّ تفتيح الأبواب يستلزم الإذن بالدخول وهو يستلزم التخلية بين الداخل وبين الانتفاع.

{ **مُتَّكِئِينَ فِيهَا** } انتصب على الحال من { لِلْمُتَّقِينَ } وهي حال مقدّرة. وتقدّم قريب منه في [يس:56].

{ **يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ** } يأمرون بأن يُجلب لهم، يقال: دعا بكذا، أي: سأل ان ُيحضر له. قال تعالى { لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ } [يس:57].

الشراب: اسم للمشروب، وغلب إطلاقه على الخمر إذا لم يكن في الكلام ذكر للماء، كقوله آنفا { هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ } [42]. وتنوين { شَرَابٍ } للتعظيم، أي: شراب نفيس في جنسه.

{ **وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ** } أي: نساء قاصرات النظر. وقصر الطرف توجيهه إلى منظور غير متعدّد. فيجوز أن يكون المعنى: أنّهنّ قاصرات أطرافهن على أزواجهن. أي: لا يوجهن أنظارهنّ إلى غيرهم، وذلك كناية عن المحبّة.

ويجوز أن يكون المعنى: أنّهن يقصرن أطراف أزواجهن عليهن فلا تتوجّه أنظار أزواجهن إلى غيرهن اكتفاء منهم بحسنهنّ، وذلك كناية عن تمام الحسن. وإسناد { قَاصِرَاتُ } إليهن مجاز عقلي، لأنّ الأطراف المقصورة أطراف أزواجهن.

{ **أَتْرَابٌ** } جمع تِرْب (بكسر التاء وسكون الراء)، وهو اسم لمن كان عمره مساويا عمر من يضاف إليه، تقول: هو ترب فلان، وهي ترب فلانة، ولا تلحق لفظ ترب علامة تأنيث. والمراد: أنّهنّ أتراب بعضهن لبعض، وأنّهنّ أتراب لأزواجهن. وتقدّم قوله تعالى { وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ } [الصافات:48].

{ **هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ** } [53].

استئناف ابتدائي، فيجوز أن يكون كلاما قيل للمتقين وقت نزول الآية، فهو مؤكّد لمضمون جملة { وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ } [49].

{ **هَذَا** } الإشارة إلى ما سبق ذكره من قوله { لَحُسْنَ مَآبٍ }، وجيء باسم الإشارة القريب تنزيلا للمشار إليه منزلة الحاضر إيماء إلى أنّه محقَّق وقوعه، تبشيرا للمتقين. فالإشارة إذن إلى ما هو مشاهد عندهم من النعيم.

ويجوز أن يكون كلاما يقال للمتقين في الجنة، فتكون الجملة مقول قول محذوف هو في محل حال ثانية من (المتقين). والتقدير: مقولا لهم: هذا ما توعدون ليوم الحساب.

والقول: إمّا من الملائكة مثل قوله تعالى { ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [النحل:32]، وإمّا من جانب الله تعالى نظير قوله لضدّهم { وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ } [آل عمران:181].

{ **لِيَوْمِ الْحِسَابِ** } اللام لام العلّة، أي: وعدتموه لأجل يوم الحساب. فلمّا كان الحساب مؤذنا بالجزاء جُعل اليوم هو العلة. وهذه اللام تفيد معنى التوقيت تبعا كقوله تعالى { أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ } [الإسراء:78] تنزيلا للوقت منزلة العلّة. ولذلك قال الفقهاء: أوقات الصلوات أسباب.

{ **إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ** } [54]

يجري محمل اسم الإشارة هذا على الاحتمالين المذكورين في الكلام السابق. والتوكيد بـ { إنّ } للاهتمام. والعدول عن الضمير إلى اسم الإشارة لكمال العناية بتمييزه وتوجيه ذهن السامع إليه.

{ **لَرِزْقُنَا** } أطلق على النعمة كما في قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" لو أنّ أحدهم قال حين يضاجع أهله: اللهم جنّبنا الشيطان وجنّب الشيطان ما رزقتنا ثم ولد لهما ولد لم يمسّه شيطان أبدا "** فسمّى الولد رزقا.

النفاد: الانقطاع والزوال.

{ **هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ** [55] **جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ** [56] }.

{ **هَذَا** } اسم الإشارة مستعمل في الانتقال من غرض إلى غرض تنهية للغرض الذي قبله. والتقدير: هذا شأن المتقين، أو هذا الشأن، أو هذا كما ذكر.

الطاغي: الموصوف بالطغيان، وهو مجاوزة الحد في الكبر والتعاظم. والمراد بهم عظماء أهل الشرك لأنّهم تكبّروا بعظمتهم على قبول الإسلام، وأعرضوا عن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم بكبر واستهزاء، وحكموا على عامة قومهم بالابتعاد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وعن المسلمين وعن سماع القرآن، وهم: أبو جهل، وأمية بن خلف، وعتبة ابن ربيعة، والوليد بن عتبة، والعاصي بن وائل،

وأضرابهم.

{ **يَصْلَوْنَهَا** } حال من { جَهَنَّمَ }، وهي حال مؤكّد لمعنى اللام الذي هو عامل في { لِلطَّاغِينَ }، فإنّ معنى اللام أنّ جهنّم تختصّ بهم، واختصاصها بهم هو ذوق عذابها لأنّ العذاب ذاتي لجهنّم.

{ **فَبِئْسَ الْمِهَادُ** } الفاء لترتيب الإخبار وتسبّبه على قبله، نظير عطف الجمل بـ (ثمّ)، وهذا استعمال بديع كثير في القرآن وهو يندرج في استعمالات الفاء العاطفة.

وعُبّر عن جهنّم بـ { الْمِهَادُ } على وجه الاستعارة، شُبّه ما هم فيه من النار من تحتهم بالمهاد وهو فراش النائم، كقوله تعالى { لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ } [الأعراف:41].

{ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ [57] وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ [58] }.

اسم الإشارة هنا جار على غالب مواقعه، وهو نظير قوله { هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ } [53].

وإشارة القريب لتقريب الإنذار، والمشار إليه ما تضمّنه قوله تعالى { جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا } [56]، من الصلي ومن معنى العذاب، أو الإشارة إلى شرّ من قوله تعالى { لَشَرَّ مَآبٍ } [55].

{ **فَلْيَذُوقُوهُ** } جملة معترضة بين اسم الإشارة والخبر عنه، وهذا من الاعتراض المقترن بالفاء دون الواو.

{ **حَمِيمٌ** } خبر عن اسم الإشارة. ومعنى الجملة في معنى بدل الاشتمال، لأنّ شر المآب أو العذاب مشتمل على الحميم والغساق وغيره من شكله، والمعنى: أن ذلك لهم لقوله تعالى { وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ } [صّ:55].

الحميم: الماء شديد الحرارة.

الغساق: قرأه الجمهور بتخفيف السين. وقرأه حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف بتشديدها. قيل هما لغتان وقيل: غسَّاق (بالتشديد) مبالغة في غسَاق بمعنى سائل، فهو على هذا وصف لموصوف محذوف.

الغسَّاق: سائل يسيل في جهنم، يقال: غَسَق الجرح، إذا سال منه ماء أصفر. واحسب أنّ هذا الاسم بهذا الوزن أطلقه القرآن على سائل كريه يُسْقَونه، كقوله تعالى { بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ } [الكهف:29]. وأحسب أنّه لم تكن هذه الزنة من هذه المادة معروفة عند العرب، وهذا سبب اختلاف المفسرين في المراد منه. والأظهر: أنّه صيغ له هذا الوزن ليكون اسما لشيء يشبه ما يغسِق به الجرح، ولذلك سُمّي بالمُهْل والصديد في آيات أخرى.

{ **وَآخَرُ** } صفة لموصوف محذوف دلّت عليه الإشارة بقوله { هَذَا }، وهو يدلّ على مغاير.

{ **مِنْ شَكْلِهِ** } يدلّ على أنّه مغاير له بالذات وموافق في النوع، فحصل أنّه عذاب آخر أو مذوق آخر.

الشَّكل: (بفتح الشين) المِثل، أي: المماثل في النوع، أي: وعذاب آخر غير ذلك الذي ذاقوه من الحميم

والغساق، هو مثل ذلك المشار إليه أو مثل ذلك الذوق في التعذيب والألم.

الأزواج: جمع زوج بمعنى النوع والجنس، وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ } [الرعد:3]. أي: وعذاب آخر هو أزواج، أي: أصناف كثيرة.

{ هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ } [59].

ابتداء كلام حُكي به تخاصم المشركين في النار فيما بينهم إذا دخلوها، كما دلّ عليه قوله تعالى في آخره { إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ }، وبه فسّر قتادة وابن زيد، وجريانه بينهم ليزدادوا مقتا بأن يضاف إلى عذابهم الجسماني عذاب أنفسهم برجوع بعضهم على بعض بالتنديم وسوء المعاملة.

وأسلوب المقاولة يقتضي أن المتكلِّم به هم الطاغون الذين لهم شرّ المآب، لأنّهم أساس هذه القضية.

فالتقدير: يقول الطاغون بعضهم لبعض: هذا فوج مقتحم معكم، أي: يقولون مشيرين إلى فوج من أهل النار أقحم فيهم ليسوا من أكفائهم ولا من طبقتهم، وهم فوج الأتباع من المشركين الذين اتبعوا الطاغين في الحياة الدنيا، وذلك ما دل عليه قولهُ { أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا } [60]، أي: أنتم سبب إحضار هذا العذاب لنا.

وهو الموافق لمعنى نظائره في القرآن، كقوله تعالى { كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا - إلى قوله - بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ } [الأعراف:39/38]، وقوله تعالى { إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا } [البقرة:166]، وقوله تعالى { وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ } [الصافات:27]. وأوضح من ذلك كلّه قوله تعالى في آخر هذه الآية { إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ } [64].

{ **هَذَا فَوْجٌ** } إلى آخرها مقول القول المحذوف.

الفوج: الجماعة العظيمة من الناس، وتقدّم في قوله تعالى { وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا } [النمل:83].

الاقتحام: الدخول في الناس، و(مع) مؤذنة بأنّ المتكلّمين متبوعون، وأنّ الفوج المقتحم أتباع لهم، فأدخلوا فيهم مدخل التابع مع المتبوع بعلامات تشعر بذلك.

{ **لا مَرْحَبًا بِهِمْ** } معترضة مستأنفة لإنشاء ذم الفوج. نفي لكلمة يقولها المزور لزائره وهي إنشاء دعاء للوافد. أي: أتيت رحبا، أي: مكانا ذا رحب، فإذا أرادوا كراهية الوافد والدعاء عليه قالوا: لا مرحبا به.

وإنّما قالوا ذلك لأنّهم كرهوا أن يكونوا هم وأتباعهم في مكان واحد، جريا على خلق جاهليتهم من الكبرياء واحتقار الضعفاء.

{ **إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ** } خبر ثان عن اسم الإشارة، والخبر مستعمل في التضجّر منهم، أي: أنّهم مضايقوننا في مضيق النار، كما أومأ إليه قوله تعالى { مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ }.

{ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ } [60].

فسَمِعَهم الأتباع، فيقولون { بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ } إضرابا عن كلامهم. وجيء بحكاية قولهم على طريقة

المحاورات فلذلك جُرّد من حرف العطف، أي: أنتم أولى بالشتم والكراهية، لأنّكم الذين تسبّبتم لأنفسكم ولنا في هذا العذاب بإغرائكم إيّانا على التكذيب والدوام على الكفر.

{ **بَلْ** } للإضراب الإبطالي لردّ الشتم عليهم وأنّهم أولى به منهم.

{ **أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا** } علّة لقلب الشتم إليهم، أي: لأنّكم قدمتم العذاب لنا.

{ **قَدَّمْتُمُوهُ** } ضمير النصب عائد إلى العذاب المشاهد، وهو حاضر في الذهن غير مذكور في اللفظ، ووقوع { أَنْتُمْ } قبل { قَدَّمْتُمُوهُ } المسند الفعلي يفيد الحصر، أي: لم يضلّنا غيركم، فأنتم أحقّاء بالعذاب.

التقديم: جعل الشيء قُدّام غيره، كما في قوله تعالى { ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ } [آل عمران:182/181]. وإسناد تقديم العذاب إلى المخاطبين مجاز عقلي لأنّ الرؤساء كانوا سببا في تقديم العذاب لأتباعهم بإغوائهم وكان العذاب جزاء عن الغواية. وجعل العذاب مقدّما وإنّما المقدّم العمل الذي استحق العذاب، وهذا مجاز عقلي في المفعول، فاجتمع في قوله تعالى { قَدَّمْتُمُوهُ } مجازان عقليان.

{ **فَبِئْسَ الْقَرَارُ** } موقعه كموقع قوله آنفا { فَبِئْسَ الْمِهَادُ } [56]. وهو ذم لإقامتهم في جهنم، تشنيعا عليهم فيما تسبَّبوا لأنفسهم فيه. والمعنى: فبئس القرار ما قدمتموه لنا، أي: العذاب.

القرار: المكث.

{ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ } [61].

{ **قَالُوا** } أي: الفوج المقتحم، وهو فوج الأتباع. أعيد فعل القول تأكيدا للفعل الأوّل لقصد تأكيد فاعل القول تبعا لأنّه محتمل لضمير القائلين. وأمّا تجريد فعل { قَالُوا } عن العاطف فلأنّه قصد به التوكيد اللفظي والتوكيد اللفظي على مثال المؤكَّد.

{ **مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا** } تحذير كبراء المشركين من عواقب رئاستهم وزعامتهم التي يجرُّون بها الويلات على أتباعهم فيوقعونهم في هاوية السوء حتّى لا يجد الأتباع لهم جزاء بعد الفوت إلّا طلب مضاعفة العذاب لهم.

{ **فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ** } خبر عن { مَنْ }، واقتران الخبر بالفاء جرى على معاملة الموصول معاملة الشرط في قرن خبره بالفاء وهو كثير، وتقدّم عند قوله تعالى { وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [التوبة:34].

الضِعف: (بكسر الضاد) تستعمل اسم مصدر ضعّف وضاعف، فهم اسم التضعيف والمضاعفة، أي: تكرير المقدار وتكرير القوّة. ويستعمل اسما بمعنى الشيء المضاعف.

{ وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ [62] أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ [63] }.

عطف على { هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ } [59]، فهذا من قول الطاغين فإنّهم كانوا يحقِّرون المسلمين.

{ **مَا لَنَا لا نَرَى رِجَالًا** } استفهام يلقيه بعضهم لبعض تلهُّفا على عدم رؤيتهم من عرفوهم من المسلمين، مُكنًّى به عن ملام بعضهم لبعض على تحقيرهم المسلمين واعترافهم بالخطأ في حسبانهم. فليس الاستفهام حقيقيا ناشئا عن ضنّ أنّهم يجدون رجال المسلمين معهم، إذ لا يخطر ببال الطاغين أن يكون رجال المسلمين معهم.

ويجوز أن يكون حقيقيا، استفهموا عن مصير المسلمين لأنّهم لا يرونهم يومئذ.

{ **الْأَشْرَارِ** } جمع شرّ الذي هو بمعنى الأشرّ، مثل الأخيار جمع خير بمعنى الأَخْيَر، أو هو: جمع شرير ضد الخيِّر، أي: الموصوفين بشر الحالة، أي: كنا نحسبهم أشقياء قد خسروا لذة الحياة بإتباعهم الإسلام .

{ **أَتَّخَذْنَاهُمْ** } قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وعاصم بهمزة قطع هي همزة الاستفهام، وحذفت همزة الوصل من فعل (اتخذنا) لأنّها لا تثبت مع همزة الاستفهام لعدم صحة الوقف على همزة الاستفهام.

والجملة بدل من جملة { مَا لَنَا لا نَرَى رِجَالًا }.

{ **أم** } حرف إضراب، والتقدير: بل زاغت عنهم أبصارنا.

الزيغ: الميل عن الجهة، أي: مالت أبصارنا عن جهتهم فلم تنظرهم.

{ **الْأَبْصَارُ** } التعريف عوض عن المضاف إليه، أي: أبصارنا.

السخريّ: اسم مصدر سَخِر منه، إذا استهزأ به، فالسخريّ الاستهزاء، وهو دال على شدّة الاستهزاء لأنّ ياءه في الأصل ياء نسب وياء النسب تأتي للمبالغة في الوصف.

{ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ } [64].

تذييل وتنهية لوصف حال الطاغين وأتباعهم، وعذابهم، وجدالهم.

{ **إِنَّ** } تأكيد الخبر منظور فيه لما يلزم الخبر من التعريض بوعيد المشركين وإثبات حشرهم وجزائهم بأنّه حق، أي: ثابت، كقوله تعالى { وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ } [الذريات:6].

{ **ذَلِكَ** } الإشارة إلى ما حُكي عنهم من المقاولة. وسُمِّيت المقاولة تخاصما، أي: تجادلا، وإن لم تقع بينهم مجادلة، فإنّ الطاغين لم يجيبوا الفوج على قوله { بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ } [60]، ولكن لمّا اشتملت المقاولة على ما هو أشد من الجدال وهو قول كل فريق للآخر {لا مَرْحَبًا بِكُمْ } كان الذمّ أشد من المخاصمة، فأطلق عليه اسم التخاصم حقيقة.

{ **تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ** } أضيف هذا التخاصم إلى أهل النار كلّهم اعتبارا لغالب أهلها، لآنّ غالب أهل النار

أهل الضلالات الاعتقادية وهم لا يعدون أن يكونوا دعاة للضلال أو أتباعا للدعاة إليه، فكلّهم يجري بينهم هذا التخاصم. وتقدّم ذكر الخصام عند قوله تعالى { هَذَانِ خَصْمَانِ } [الحج:19].
{ **أَهْلِ النَّارِ** } هم الخالدون فيها، كقولهم: أهل قرية كذا.

{ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ [65] رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ [66] }.

هذا راجع إلى قوله تعالى { وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ - إلى قوله - أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا } [4-8] فلما ابتدرهم الجواب على ذلك التكذيب بأن نظَّر حالهم بحال الأمم المكذِّبة من قبلهم، وتنظّير حال الرسول صلى الله عليه وسلم بحال الأنبياء الذين صبروا، واستوعب ذلك بما فيه مقنع، عاد الكلام إلى تحقيق مقام الرسول صلى الله عليه وسلم من قومه فأمره الله أن يقول:
{ **إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ** } مقابل قولهم { هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ } [4].
{ **وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ** } مقابل إنكارهم التوحيد كقولهم { أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا } [5].
{ **الْوَاحِدُ** } ذكر هذه الصفة تأكيد لمدلول { مَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ }، إيماء إلى ردّ إنكارهم.
{ **الْقَهَّارُ** } ذكر هذه الصفة تعريض بتهديد المشركين بأن الله قادر على قهرهم، أي: غلبهم.
وتقدّم الكلام على **القهر** عند قوله تعالى { وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ } [الأنعام:18].
{ **رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا** } تصريح بعموم ربوبيّته وأنّه لا شريك له في شيء منها.
{ **الْعَزِيزُ** } تمهيد للوصف بـ { **الْغَفَّارُ** } ،أي: الغفّار عن عزّة ومقدرة لا عن عجز وملق أو مراعاة جانب. والمقصود استدعاء المشركين إلى التوحيد بعد تهديدهم بمفاد وصف { الْقَهَّارُ } لكي لا ييأسوا من قبول التوبة بسبب كثرة ما سيق إليهم من الوعيد، جريا على عادة القرآن في تعقيب الترهيب بالترغيب والعكس.

{ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ [67] أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ [68] مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ [69] إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ [70] }.

يجوز أن تكون الجملة في موقع الاستئناف الابتدائي انتقالا من غرض وصف أحوال أهل المحشر إلى غرض قصة خلق آدم وشقاء الشيطان، فيكون ضمير { **هُوَ** } ضمير شأن يفسّره ما بعده.
جعل هذا كالمقدمة للقصة تشويقا لتلقيها فيكون المراد { **نَبَأٌ عَظِيمٌ** } نبأ خلق آدم وما جرى بعده، ويكون ضمير { يَخْتَصِمُونَ } عائدا إلى الملأ الأعلى لأنّ الملأ جماعة. ويراد بـ { **يَخْتَصِمُونَ** } الاختلاف الذي جرى بين الشيطان وبين من بلّغ إليه من الملائكة أمر الله بالسجود لآدم، فالملائكة هم الملأ الأعلى، وكان

الشيطان بينهم فعُدّ منهم قبل أن يُطرد من السماء.

ويجوز أن تكون الجملة تذييلا للذي سبق من قوله { وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ } [49] إلى هنا، تذييلا يشعر بالتنويه به وبطلب الإقبال على التدبّر فيه والاعتبار به. وعليه يكون ضمير { **هُوَ** } ضميرا عائدا إلى الكلام السابق على تأويله بالمذكور، فلذلك أتي لتعريفه بضمير المفرد.

فيكون { **النبأ** } على هذا الوجه، خبر الحشر وما أعِدَّ فيه للمتقين من حسن مآب، وللطاغين من شرّ مئاب، ومن سوء صحبة بعضهم لبعض، وتراشقهم بالتأنيب والخصام بينهم. ويكون الوصف { **عَظِيمٌ** } تهويلا، على نحو قوله تعالى { عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ } [النبأ:1-3].

وتكون جملة { **مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى** - إلى قوله - **نَذِيرٌ مُبِينٌ** } استئنافا للاستدلال على صدق النبأ بأنّه وحي من الله ولولا أنّه وحي لما كان للرسول صلى الله عليه وسلم قِبَلٌ بمعرفة هذه الأحوال على حدّ قوله { وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ } [آل عمران:44]، ونظائر هذا الاستدلال كثيرة في القرآن.

وعلى هذا فضمير { **يَخْتَصِمُونَ** } عائد إلى أهل النار من قوله تعالى { تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ } [صّ:64]، إذ لا تخاصم بين أهل الملأ الأعلى.

والمعنى: ما كان لي من علم بعالم الغيب وما يجري فيه من الإخبار، وبما سيكون من تخاصم أهل النار.

{ **أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ** } على كلا التفسيرين، أنّهم غافلون عن العلم به، فقد أُعلِموا بالنبأ بمعناه الأوّل وسيعلمون قريبا بالنبأ بمعناه الثاني. وجيء بالجملة الاسمية لإفادة ثبات إعراضهم وتمكّنه منهم. والقول توبيخ لهم وتحميق.

ولعل هذه الآية من هذه السورة هي أوّل ما نزل على النبيّ صلى الله عليه وسلم من ذكر قصّة خلق آدم وسجود الملائكة وإباء إبليس من السجود، فإنّ هذه السورة في ترتيب نزول سور القرآن لا يوجد ذكر قصة آدم في سورة نزلت قبلها. فذلك وجه التوطئة للقصّة بأساليب العناية والاهتمام ممّا خلا غيرها عن مثله وبأنّها نبأ كانوا معرضين عنه.

{ **مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ** } اعتراض إبلاغ في التوبيخ على الإعراض عن النبأ العظيم، وحجّة على تحقّق النبأ بسبب أنّه موحى به من الله وليس للرسول صلى الله عليه وسلم سبيل إلى علمه لولا وحي الله إليه به.

{ **بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى** } الباء، على كل المعنيين للنبأ، لتعدية { عِلم } لتضمينه معنى الإحاطة، وهو استعمال شائع في تعدية العلم. ومنه ما في حديث سؤال الملكين في الصحيح فيقال له: " **ما علمك بهذا الرجل** ".

الملأ: الجماعة ذات الشأن، ووصفه بـ { الْأَعْلَى } لأنّ المراد ملأ السماوات وهم الملائكة ولهم علوّ حقيقي وعلوّ مجازي بمعنى الشرف.

{ **إِذْ يَخْتَصِمُونَ** } ظرف متعلّق بفعل { مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ }، أي: حين يختصم أهل الملأ الأعلى على

أحد التأويلين، أي: في حين تنازع الملائكة وإبليس في السماء. والتعبير بالمضارع لقصد استحضار الحالة.

أو حين يختصم الطاغون وأتباعهم في النار بين يدي الملأ الأعلى، أي: ملائكة النار أو ملائكة المحشر.

الاختصام: افتعال من خَصَمَه، إذا نازعه وخالفه فهو مبالغة في خَصَم.

{ **إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ** } مبيّنة للجملة السابقة، أي: ما علمت بذلك النبأ إلّا بوحي من الله، وإنّما أوحى الله إليّ ذلك لأكون نذيرا مبينا.

{ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ [71] فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ [72] فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ [73] إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ [74] }.

{ **إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ** } موقع الجملة صالح لأن يكون استئنافا، فإذا جعلنا النبأ بمعنى نبأ أهل المحشر الموعود به يكون { إِذْ قَالَ } متعلقا بفعل محذوف تقديره: اذكر. وأمّا على جعل النبأ بمعنى نبأ خلق آدم فإنّ الجملة بدل من { إِذْ يَخْتَصِمُونَ } [69] بدل بعض من كل، لأنّ مجادلة الملأ الأعلى، على كلا التفسيرين المتقدمين، غير مقتصرة على قضية قصة إبليس.

{ **إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ** } قصة خلق آدم تقدّم ذكرها في سور كثيرة أشبهها بما هنا ما في [الحجر:28-40]، وأبينها ما في [البقرة:30-39].

{ **إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ** } يبيّن الباعث على الإباية التي في [الحجر:31] { إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى }.

{ **وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ** }، زيادة هنا وهو بيان لكون المراد من قوله تعالى { أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ } [الحجر:31] الإباية من الكون من الساجدين لله، أي: المنزّهي الله عن الظلم والجهل. ومعناه أنّه كان كافرا ساعتئذ، أي: ساعة إبائه من السجود ولم يكن قبلُ كافرا.

ووجه كونه من الكافرين أنّه امتنع من طاعة الله امتناع طعن في حكمة الله وعلمه، وذلك كفر لا محالة، وليس كامتناع أحد من أداء الفرائض إن لم يجحد أنّها حقّ خلافا للخوارج وكذلك المعتزلة.

وقد بدت من إبليس نزعة كانت كامنة في جبلَّته وهي نزعة الكبر والعصيان، ولم تكن تظهر منه قبل ذلك، لأنّ الملأ الذي كان معهم كانوا على أكمل حسن الخلطة فلم يكن منهم مثير لما سكن في نفسه من طبع الكبر والعصيان. فلمّا طرأ على ذلك الملأ مخلوق جديد وأُمِر أهل الملأ الأعلى بتعظيمه كان ذلك موريا زناد الكبر في نفس إبليس فنشأ عنه الكفر بالله وعصيان أمره.

وهذا ناموس خُلُقي جعله الله مبدأ لهذا العالم قبل تعميره، وهو أن تكون الحوادث والمضائق معيار الأخلاق والفضيلة فلا يُحكم على نفس بتزكية أو ضدّها إلّا بعد التجربة وملاحظة تصرّفاتها عند حلولها.

{ **قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ** [75] **قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ** [76] }.

لا شك أنّ هذا الخطاب حينئذ كان بواسطة ملك من الملائكة، لأنّ إبليس لمّا أستكبر قد انسلخ عن صفة الملكية فلم يعد أهلا لتلقّي الخطاب من الله، ولم يكن أرفع رتبة من الرسل الذين قال الله فيهم { وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ } [الشورى:51].

وتقدّم قريب من هذه الآية في [الحجر:33/32] إلّا قوله هنا:

{ **مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ** } في إلقاء هذا السؤال إلى إبليس قطع بمعذرته. أي: ما منعك من السجود.

ووقع في [الأعراف:12] { أَلَّا تَسْجُدَ } على أن (لا) زائدة.

{ **لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ** } آي: خلقته بقدرتي، أي: خلقا خاصا دفعة ومباشرة لأمر التكوين، فكان تعلّق هذا التكوين أقرب من تعلّقه بإيجاد الموجودات المرتَّبة لها أسباب تباشرها، من حمل وولادة، كما هو المعروف في تخلّق الموجودات عن أصولها. فلا شك في أنّ خلق آدم فيه عناية زائدة وتشريف اتصال أقرب.

{ **بِيَدَيَّ** } تمثيل لتكوّن آدم من مجرد أمر التكوين للطين. وكان السلف يقرّون أنّ اليدين صفة خاصة لله تعالى لورودهما في القرآن مع جزمهم بتنزيه الله عن مشابهة المخلوقات وعن الجسمية، وقصدهم الحذر من تحكيم الآراء في صفات الله. وقد تقدّم القول في الآيات المشابهة في [آل عمران:7].

{ **أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ** } أي: أمن أجل أنّك تتعاظم بغير حق أم لأنّك من أصحاب العلو؟ والمراد بالعلو الشرف، أي: من العالين على آدم فلا يستحق أن تعظّمه.

{ **قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ** } تبيّن أنّ إبليس يعدّ نفسه أفضل من آدم لأنّه مخلوق من النار وآدم مخلوق من الطين، يعني: والنار أفضل من الطين في رأيه.

ولم يرد في القرآن أنّ الله ردّ عليه هذا التأصيل لأنّه أحقر من ذلك فلعنه وأطرده لأنه ادَّعى باطلا وعصى. وطَرْدُه أجمع لإبطال علمه ودحض دليله.

ومعنى كون الشيطان مخلوقا من النار أنّ ابتداء تكون الذرّة الأصلية لقوام ماهيته من عنصر النار، ثم تمتزج تلك الذرة بعناصر أخرى مثل الهواء وما الله أعلم به.

ومعنى كون آدم مخلوقا من الطين أن ابتداء تكوّن ذرّات جثمانه من عنصر التراب وأُدخِل على تلك الذرات ما امتزجت به عناصر الهواء والماء والنار وما يتولّد على ذلك التركيب من عناصر كيماوية وقوة كهربائية تتقوّم بمجموعها ماهية الإنسان.

{ **قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ [77] وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ [78]** }.
تقدّم تفسير نظير هذه الآية في [الحجر:35/34].
اللعنة: الإبعاد من رحمة الله، وأضيفت إلى الله لتشنيع متعلّقها وهو الملعون لأنّ الملعون من جانب الله هو أشنع ملعون.
{ **يَوْمِ الدِّينِ** } غاية اللعنة، للدلالة على دوامها مدة هذه الحياة كلّها، وليس المراد حصول ضدّ اللعنة له يوم الدين، أعني الرحمة، لأنّ يوم الدين يوم الجزاء على الأعمال فجزاء الملعون العذاب الأليم.

{ **قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ [79] قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ [80] إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ [81]** }.
تقدّم نظير هذه الآية في [الحجر:36-38]، وتفسيرها هناك مستوفى.

{ **قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ [82] إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ [83]** }.
أقسم الشيطان بعزة الله تحقيقا لقيامه بالإغواء دون تخلّف، وإنّما أقسم على ذلك وهو يعلم عظمة هذا القسم لأنّه وجد في نفسه أنّ الله أقدره على القيام بالإغواء والوسوسة، وقد قال في [الحجر:39] { رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ }.
العزّة: القهر والسلطان، وعزّة الله هي العزة الكاملة التي لا تختل حقيقتها ولا يتخلّف سلطانها.
وتقدم تفسير نظيره في [الحجر:40/39].

{ **قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ [84] لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ [85]** }.
أي: قال الله تعالى تفريعا، وهذا التفريع نظير التفريع في قوله { فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } [82].
قوبل تأكيد عزم الشيطان الذي دلّ عليه قوله { فَبِعِزَّتِكَ } بتأكيد مثله، وهو لفظ { الْحَقَّ } الدال على أنّ ما بعده حق ثابت لا يتخلّف.
{ **فَالْحَقُّ** } قرأه عاصم وحمزة بالرفع على أنّه لمّا تعرّف باللام غلبت عليه الاسمية فتنوسي كونه نائبا عن الفعل. وهذا الرفع إمّا على الابتداء، أي: فالحقُّ قولي، وإمّا على الخبرية، أي: فقولي الحقَّ.
وقرأ الجمهور { فَالْحَقَّ } بالنصب وانتصابه على المفعولية المطلقة بدلا عن فعل من لفظه محذوف تقديره: أحق، أي: أوجب وأحقق.
{ **وَالْحَقَّ أَقُولُ** } تقديم المفعول للاختصاص، أي: ولا أقول إلّا الحق .
{ **لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ** } مبيّنة لجملة { فَالْحَقُّ } وهي مؤكد بلام القسم والنون.

{ **مِنْكَ** } (مِن) بيانية وهي التي تدخل على التمييز وينتصب التمييز بتقديمه معناها. ولمّا كان شأن مدخول (من) البيانية أن يكون نكرة تعيّن اعتبار كاف الخطاب في معنى اسم الجنس، أي: من جنسك الشياطين.

{ **وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ** } أي: من تبعك من الذين أغويتهم من بني آدم.

{ **أَجْمَعِينَ** } توكيد لـ { مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ }.

{ **قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ [86] إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ [87] وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ [88]** }.

لما أمر الله رسوله بإبلاغ المواعظ والعبر التي تضمّنتها هذه السورة أمره عند انتهائها أن يقرع أسماعهم بهذا الكلام الذي هو كالفذلكة للسورة تنهية لها، تسجيلا عليهم أنّه ما جاءهم إلّا بما ينفعهم وليس طالبا من ذلك جزاء.

{ **عَلَيْهِ** } الضمير عائد إلى القرآن المعلوم من المقام، فإن مبدأ السورة قوله تعالى {وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ} [1]، فهذا من رد العجز على المصدر.

{ **وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ** } أفاد انتفاء جميع التكلّف عن النبيّ صلى الله عليه وسلم. والتركيب أشدّ في نفي التكلّف من أن يقول: ما أنا بمتكلّف، كما تقدّم بيانه عند قوله تعالى {قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [البقرة:67].

التكلّف: معالجة الكلفة، وهي ما يشق على المرء عمله والتزامه لكونه يحرجه أو يشق عليه. فالمتكلِّف هو الذي يتطلّب ما ليس له أو يدَّعي علم ما لا يعلمه.

أي: ما أنا بمدّع النبوّة باطلا من غير أن يوحى إليّ، وهو رد لقولهم { كَذَّابٌ } [4].

ومنه حديث الدارقطني عن ابن عمر قال: " خرج رسول الله في بعض أسفاره فمر على رجل جالس عند مقراة له [حوض ماء]، فقال عمر: " يا صاحب المَقراة أَوَلَغَتْ السباع الليلة في مقراتك؟ فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" يا صاحب المَقراة لا تخبره، هذا متكلّف، لها ما حملت في بطونها ولنا ما بقي شراب وطهور"**.

وفي الصحيحين عن ابن مسعود أنّه قال: " يأيها الناس من علم منكم علما فليقل به ومن لم يعلم فليقل: الله علم، قال الله لرسوله: { قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ } ".

{ **إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ** } بدل اشتمال من جملة { وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ } اشتمال نفي الشيء على ثبوت ضدّه، فلما نفى بقوله { وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ } أن يكون تقوَّل القرآن على الله، ثبت من ذلك أنّ القرآن ذكر للناس ذكَّرهم الله به.

ولك أن تجعلها تذييلا، إذ لا منافاة بينهما هنا.

والقصر الذي اشتملت عليه الجملة قصر قلب إضافي، أي: هو ذكر لا أساطير ولا سحر ولا شعر ولا غير ذلك، للردّ على المشركين ما وسموا به القرآن من غير صفاته الحقيقية.

{ **وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ** } عطف على الجملة السابقة، باعتبار ما يشتمل عليه القصر من جانب الإثبات.

أي: وستعلمون خبر هذا القرآن بعد زمان علما جزما فيزول شككم فيه.

النبأ: الخبر، وأصل الخبر: الصدق، أي: الموافقة للواقع. أي: ستعلمون صدق وصف هذا القرآن أنّه الحق، وهذا كما قال تعالى { سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ } [فصلت:53].

وفُسِّر النبأ بمعنى المفعول، أي: ما أنبأ به القرآن من إنذاركم بالعذاب، فهو تهديد.

وكلا الاحتمالين واقع فإنّ من المخاطَبين من عُجِّل له عذاب السيف يوم بدر، وبقيّتهم رأوا ذلك رأي العين، منهم من علموا دخول الناس في الإسلام فماتوا بغيضهم، ومنهم من شاهدوا فتح مكة وآمنوا، أو رأوا قبائل العرب تدخل في الدين أفواجا فعلموا نبأ صدق القرآن وما وعد به بعد حين فازدادوا إيمانا.

الحين: الزمن من ساعة إلى أربعين سنة.

خُتم الكلام بتسجيل التبليغ وأنّ فائدة ما أبلغهم لهم لا للنبيّ صلى الله عليه وسلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الزمر

سُمِّيت (**سورة الزمر**) من عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقد روى الترمذي عن عائشة قالت: " كان النبيّ صلى الله عليه وسلم لا ينام حتّى يقرأ الزمر وبني إسرائيل " (الإسراء). وإنّما سُمِّيت كذلك لوقوع هذا اللفظ فيها دون غيرها من سور القرآن.

وفي تفسير القرطبي عن وهب بن منبه أنّه سمَّاها (**سورة الغُرف**) وتناقله المفسّرون. ووجهه أنّها ذُكر فيها لفظ الغرف، أي: بهذه الصيغة دون الغرفات، في قوله تعالى { لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ } [20].

وهي مكّية كلّها عند الجمهور.

وهي السورة **التاسعة والخمسون** في ترتيب النزول على المختار، نزلت بعد سورة سبأ وقبل سورة غافر. **وعُدَّت آيتها** عند المدنيين والمكّيين والبصريين **اثنتين وسبعين**، وعند أهل الشام ثلاثا وسبعين، وعند أهل الكوفة خمسا وسبعين.

أغراض السورة

ابتدئت هذه السورة بما هو كالمقدّمة للمقصود، وذلك بالتنويه بشأن القرآن تنويها تكرّر في ستة مواضع، لأنّ القرآن جامع لأغراضها.

*/ إثبات تفرّد الله بالإلهية وإبطال الشرك فيها.

*/ إبطال تعلّلات المشركين لإشراكهم وأكاذيبهم.

*/ نفي ضرب من ضروب الإشراك وهو زعمهم أنّ لله ولدا.

*/ الاستدلال على وحدانية الله في الإلهية بدلائل تفرّده بإيجاد العوالم العلوية والسفلية، وبتدبير نظامها وما تحتوي عليه ممّا لا ينكر المشركون انفراده به. والخلق العجيب في أطوار تكوين الإنسان والحيوان.

*/ الاستدلال عليهم بدليل من فعلهم وهو التجاؤهم إلى الله عندما يصيبهم الضرّ.

*/ الدعوة إلى التدبّر فيما يُلقى إليهم من القرآن الذي هو أحسن القول.

*/ تنبيههم على كفرانهم شكر النعمة.

*/ المقابلة بين حالهم وبين حال المؤمنين المخلصين لله.

*/ أنّ دين التوحيد هو الذي جاءت به الرسل من قبل.

*/ التحذير من أن يحلّ بالمشركين ما حلّ بأهل الشرك من الأمم الماضية.

*/ إعلام المشركين بأنّهم وشركاءهم لا يُعبأ بهم عند الله وعند رسوله صلى الله عليه وسلم، فالله غنيّ عن عبادتهم، ورسوله لا يخشاهم ولا يخاف أصنامهم لأنّ الله كفاه إيّاهم جميعا.

*/ إثبات البعث والجزاء لتجزى كل نفس بما كسبت. وتمثيل البعث بإحياء الأرض بعد موتها. وضرب لهم مثله والإفاقة بعده، وأنّه يوم الفصل بين المؤمنين والمشركين.

*/ تمثيل حال المؤمنين وحال المشركين في الحياتين؛ الحياة الدنيا والحياة الآخرة.

*/ دعاء المشركين للإقلاع عن الإسراف على أنفسهم.

*/ دعاء المؤمنين للثبات على التقوى ومفارقة دار الكفر.

*/ خُتمت بوصف حال يوم الحساب.

وتخلّل ذلك كله وعيد ووعد، وأمثال، وترهيب وترغيب، ووعظ وإيماء بقوله تعالى { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ } [9]، إشارة إلى أنّ شأن المؤمنين أنّهم أهل علم وأنّ المشركين أهل جهالة، وذلك تنويه برفعة العلم ومذمّة الجهل.

{ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ [1] إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ [2] }.

فاتحة أنيقة في التنويه بالقرآن جُعلت مقدّمة لهذه السورة لأنّ القرآن جامع لما حوته وغيره من أصول الدين.

{ **تَنْزِيلُ** } مصدر نزَّل (المضاعف) وهو مشعر بأنّه أنزله منجّما. واختيار هذه الصيغة هنا للردّ على الطاعنين لأنّهم من جملة ما تعلّلوا به قولهم { لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً } [الفرقان:32].

{ **الْكِتَابِ** } التعريف للعهد، وهو القرآن المعهود بينهم عند كلّ تذكير وكلّ مجادلة.

{ **مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ** } للإيماء إلى أنّ ما ينزل منه سبحانه يأتي على ما يناسب الصفتين:

العزيز: قال تعالى { وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ } [فصلت:41]، أي: القرآن عزيز غالب بالحجّة لمن كذّب به، وغالب بالفضل لما سواه من الكتب من حيث إنّ الغلبة تستلزم التفضل والتفوق، وغالب لبلغاء العرب إذ أعجزهم عن معارضة سورة منه.

الحكيم: إمّا بمعنى الحاكم، فالقرآن أيضا حاكم على معارضيه بالحجّة، وحاكم على غيره من الكتب السماوية بما فيه من التفصيل والبيان، قال تعالى { مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ } [المائدة:48].

وإمّا بمعنى المُحكم المتقن، فالقرآن مشتمل على البيان الذي لا يحتمل الخطأ.

وإمّا بمعنى الموصوف بالحكمة، فالقرآن مشتمل على الحكمة كاتصاف منزّله بها.

وفي وصف { الْحَكِيمِ } إيماء كذلك إلى أنّه أنزله بالحكمة وهي الشريعة قال تعالى { يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ } [البقرة:269]. وفي هذا إرشاد إلى وجوب التدبّر في معاني هذا الكتاب ليُتوصَّل بذلك التدبّر إلى العلم بأنّه حقّ من عند الله.

ومعنى { الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } في صفات الله تقدّم في تفسير قوله تعالى { فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [البقرة:269].

{ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ } تتنزَّل الجملة منزلة البيان لجملة { تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ }، وافتتاحها بحرف (إن) مراعى فيه ما استعمل فيه الخبر من الامتنان. فيُحمل حرف (إن) على الاهتمام بالخبر. وما أريد به من التعريض بالذين أنكروا أن يكون منزَّلا من الله فيُحمل الحرف على التأكيد، استعمالا للمشترك في معنييه.

ولما في هذه الآية من زيادة الإعلان بصدق النبيّ المنزَّل عليه الكتاب جدير بالتأكيد لأنّ دليل صدقه ليس في ذاته بل هو قائم بالإعجاز الذي في القرآن وبغيره من المعجزات، فكان مقتضى التأكيد موجودا بخلاف مقتضى الحال في قوله { تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ }.

{ **الْكِتَابَ** } إعادة اللفظ للتنويه بشأنه جريا على خلاف مقتضى الظاهر بالإظهار في مقام الإضمار.

{ **بِالْحَقِّ** } الباء للملابسة، وهي ظرف مستقر حالا من { الْكِتَابَ }، أي: أنزلنا إليك القرآن ملابسا للحق في جميع معانيه { لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ } [فصلت:42].

{ **فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ** } فُرِّع على المعنى الصريح من قوله { إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ } أن أمر بأن يعبد الله مخلصا له العبادة. وهذا إيماء إلى أنّ إنزال الكتاب عليه نعمة كبرى تقتضي أن يقابلها الرسول صلى الله عليه وسلم بالشكر بإفراده بالعبادة، وفي القول إيماء إلى أنّ إشراك المشركين بالله غيره في العبادة كفر لنعمه التي أنعم بها، فإنّ الشكر صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه فيما خُلق لأجله، وفي العبادة تحقيق هذا المعنى، قال تعالى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } [الذاريات:56].

فالمقصود من الأمر بالعبادة التوطئة إلى تقييد العبادة بحالة الإخلاص من قوله { مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ }.

فالمأمور به عبادة خاصة، ولذلك لم يكن الأمر بالعبادة مستعملا في معنى الأمر بالدوام عليها.

الإخلاص: الإمْحَاض وعدم الشَّوب بمغاير، وهو يشمل الإفراد. وسُمِّيت السورة التي فيها توحيد الله سورة الإخلاص، أي: إفراد الله بالإلهية. وأوثر الإخلاص هنا لإفادة التوحيد وأخصَّ منه وهو أن تكون عبادة النبيّ صلى الله عليه وسلم ربه غير مشوبة بحظ دنيوي، كما في قوله تعالى { قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ } [الفرقان:57].

الدين: المعاملة. والمراد به هنا معاملة المخلوق ربَّه وهي عبادته. فالمعنى: مخلِصا له العبادة.

{ **مُخْلِصًا** } انتصب على الحال من الضمير المستتر في { أَعْبُدَ }.

{ **أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ** } [3]

{ **أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ** } استئناف للتخلّص إلى استحقاقه تعالى الإفراد بالعبادة، وهو غرض السورة.

{ **أَلَا** } افتتحت الجملة بأداة التنبيه تنويها بمضمونها لتتلقّاه النفس بشراشِرها، وذلك هو ما رجَّح اعتبار الاستئناف فيها، وجعل معنى التعليل حاصلا تبعا من ذكر إخلاص عام بعد إخلاص خاص وموردهما واحد.

{ **لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ** } اللام لام الملك الذي هو بمعنى الاستحقاق، أي: لا تحقّ الطاعة غير المشوبة إلّا له، على نحو قوله تعالى { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [الفاتحة:2]. وتقديم المسند لإفادة الاختصاص، فأفاد القول أنّه سبحانه مستحقّه وأنّه مختصّ به.

الدين: الطاعة كما تقدّم.

الخالص: السالم من أن يشوبه تشريك غيره في عبادته، فهذا هو المقصود من الآية.

وعرّف الغزالي الإخلاص: " بأنّه تجريد قصد التقرّب إلى الله عن جميع الشوائب ".

والإخلاص في العبادة أن يكون الداعي إلى الإتيان بالمأمور وإلى ترك المنهي إرضاء الله تعالى، وهو معنى قولهم: لوجه الله، أي: لقصد الامتثال، بحيث لا يكون الحظ الدنيوي هو الباعث على العبادة. ولذا قيل: الرياء الشرك الأصغر، أي: إذا كان هو الباعث على العمل.

فأمّا إن كان للنفس حظ عاجل وكان حاصلا تبعا للعبادة وليس هو المقصود فهو مغتفر وخاصة إذا كان ذلك لا تخلو عنه النفوس، أو كان ممّا يعين على الاستزادة من العبادة.

وأقول: إن قصد إلى العبادة ليتقرّب إلى الله فسأله ما فيه صلاحا في الدنيا أيضا لا ضير فيه، لأنّ تلك العبادة جُعلت وسيلة للدعاء ونحوه، وكلّ ذلك تقرّب إلى الله تعالى، وقد شُرعت صلوات لكشف الضرّ وقضاء الحوائج مثل صلاة الاستخارة وصلاة الضر والحاجة، ومن المغتفر أيضا أن يقصد العامل من عمله أن يدعو له المسلمون ويذكروه بخير.

وقد علمتَ من تقييدنا الحظ بأنّه حظ دنيوي أنّ رجاء الثوب واتقاء العقاب هو داخل في معنى الإخلاص لأنّه راجع إلى التقرّب لرضى الله تعالى.

وينبغي أن تعلم أن فضيلة الإخلاص في العبادة هي قضية أخصّ من قضية صحة العبادة وأجزائها في ذاتها إذ قد تعرو العبادة عن فضيلة الإخلاص وهي مع ذلك صحيحة مجزئة، فللإخلاص أثر في تحصيل ثواب العمل وزيادته ولا علاقة له بصحة العمل.

{ **وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** } عطف على الجملة السابقة لزيادة تحقيق معنى الإخلاص لله في العبادة وأنّه خلوص كامل لا يشوبه شيء من الإشراك، ولا إشراك الذين زعموا أنّهم اتخذوا أولياء وعبدوهم حرصا على القرب من

الله يزعمونه عذرا لهم، فقولهم من فساد الوضع وقلب حقيقة العبادة بأن جعلوا عبادة غير الله وسيلة إلى القرب من الله، فنقضوا بهذه الوسيلة مقصدها وتطلّبوا القربة بما أبعدها، والوسيلة إذا أفضت إلى إبطال المقصد كان التوسّل بها ضربا من العبث.

{ **وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ** } اسم الموصول مراد به المشركون، وهو في محل رفع على الابتداء وخبره جملة { إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ }.

{ **مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى** } مقول لقول محذوف لأنّ نظمها يقتضي ذلك، إذ ليس في الكلام ما يصلح لأن يعود عليه نون المتكلم ومعه غيره، فتعيّن أنّه ضمير عائد إلى المبتدأ. وفعل القول محذوف.

<u>فيجوز أن يُقدَّر بصيغة اسم الفاعل</u>، فيكون حالا من { الَّذِينَ اتَّخَذُوا } أي: قائلين: ما نعبدهم.

<u>ويجوز أن يُقدَّر بصيغة الفعل</u>. والتقدير: قالوا ما نعبدهم، وتكون الجملة حينئذ بدل اشتمال من {اتَّخَذُوا}، فإنّ اتخاذهم الأولياء اشتمل على هذه المقالة.

{ **إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى** } استثناء من علل محذوفة، أي: ما نعبدهم لشيء إلّا لعلّة أن يقربونا إلى الله، فيفيد قصرا على هذه العلة قصر قلب إضافي، أي: دون ما شنّعتم علينا من أنّنا كفرنا نعمة خالقنا إذ عبدنا غيره. وقد قدّمنا آنفا من أنّهم أرادوا به المعذرة.

الزُلفى: منزلة القرب، أي: ليقرّبونا إلى الله، والمراد به منزلة الكرامة والعناية في الدنيا لأنّهم لا يؤمنون بمنازل الآخرة، ويكون منصوبا بدل اشتمال من ضمير { لِيُقَرِّبُونَا }، أي: ليقربوا منزلتنا إلى الله.

<u>ويجوز</u> أن يكون { زُلْفَى } اسم مصدر فيكون مفعولا مطلقا، أي: قربا شديدا.

{ **إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ** } وعيد لهم على قولهم ذلك، القصد منه إبطال تعلّلهم في قولهم { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ }، لأن الواقع يشهد أنّهم عبدوا الأصنام أكثر من عبادتهم الله.

{ **فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** } اختلاف طرائقهم في عبادة الأصنام وفي أنواعها من الأنصاب والملائكة والجن على اختلاف المشركين في بلاد العرب.

وأفاد النظم أمرين: أنّ الاختلاف ثابت لهم، وأنّه متكرّر متجدّد، فالأوّل من تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي، والثاني من كون المسند فعلا مضارعا.

ومعنى الحكم بينهم أنّه يبيّن لهم ضلالهم جميعا يوم القيامة إذ ليس معنى الحكم بينهم مقتضيا الحكم لفريق منهم على فريق آخر بل قد يكون الحكم بين المتخاصمين بإبطال دعوى جميعهم.

<u>ويجوز</u> أن يكون على تقدير معطوف على { بَيْنَهُمْ } مماثل له دلّت عليه الجملة المعطوف عليها وهي { أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ }، لاقتضائها أنّ الذين أخلصوا الدين لله قد وافقوا الحق، فالتقدير: يحكم بينهم وبين المخلصين.

{ **إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ** } <u>يجوز أن يكون خبرا ثانيا</u> عن قوله تعالى { وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ

دُونِهِ أَوْلِيَاءَ } وهو كناية عن كونهم كاذبين في قولهم { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ } وعن كونهم كافرين بسبب ذلك، وكناية عن كونهم ضالين.

ويجوز أن يكون استئنافا بيانيا، لأنّ قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } يثير في نفوس السامعين سؤالا عن مصير حالهم في الدنيا من جرّاء اتخاذهم أولياء من دونه، فيُجاب بأنّ الله لا يهدي من هو كاذب كفّار، أي: يذرهم في ضلالهم ويمهلهم إلى يوم الجزاء بعد أن بيَّن لهم الدين فخالفوه.

{ **مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ** } المراد بـهم الذين اتخذوا من دونه أولياء، أي: المشركين، فكان مقتضى الظاهر الإتيان بضميرهم، وعدل عنه إلى الإضمار لما في الصلة من وصفهم بالكذب وقوّة الكفر.

وهداية الله المنفية عنهم هي: أن يتداركهم الله بلطفه بخلق الهداية في نفوسهم، فالهداية المنفية هي الهداية التكوينية لا الهداية بمعنى الإرشاد والتبليغ، وهو ظاهر.

والتعبير عنهم بطريق الموصولية لما في الموصول من الصلاحية لإفادة الإيماء إلى علّة الفعل ليفيد أن سبب حرمانهم التوفيق هو كذبهم وشدّة كفرهم.

الكاذب: كذبهم هو ما اختلقوه من الكفر بتأليه الأصنام، وما ينشأ عن ذلك من اختلاق صفات وهمية للأصنام وشرائع يدينون بها لهم.

الكَفَّار: شديد الكفر بليغُه، وذلك كفرهم بالله وبالرسول صلى الله عليه وسلم وبالقرآن بإعراضهم عن تلقيه، والتجرد عن الموانع للتدبّر فيه.

{ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } [4].

موقع هذه الآية موقع الاحتجاج على أنّ المشركين كاذبون وكافرون في اتخاذهم أولياء من دون الله، وفي قولهم { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى } [3]، وأنّ الله حرمهم الهدى .

فقصد إبطال شركهم بإبطال أقواه، وهو عدّهم في جملة شركائهم شركاء زعموا لهم بنوّة الله تعالى، حيث قالوا { اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا } [البقرة:116]، فإن المشركين يزعمون اللات والعزى ومناة بنات الله، قال تعالى { أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى } [النجم:19-21].

والمعنى: لو كان الله متخذا ولدا لأختار من مخلوقاته ما يشاء اختياره، أي: لاختار ما هو أجدر بالاختيار ولا يختار لبنوّته حجارة كما زعمتم.

فكان هذا إبطالا لما تضمّنه قوله تعالى { وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ - إلى قوله - كَفَّارٌ } [3].

وليس هو إبطالا لمقالة بعض العرب: إن الملائكة بنات الله، لأنّ ذلك لم يكن من عقيدة المشركين بمكة الذين وُجِّه الخطاب إليهم، ولا إبطالا لبنوّة المسيح عند النصارى، لأنّ ذلك غير معتقد عند المشركين

المخاطبين، وليس المقصود محاجة النصارى، ولم يتعرض القرآن المكي إلى محاجّة النصارى.
{ **أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا** } بني القياس الشرطي على فرض اتخاذ الولد لا على فرض التولّد، فاقتضى أنّ المراد باتخاذ الولد التبنّي، لأنّ إبطال التبنّي بهذا الاستدلال يستلزم إبطال تولّد الابن بالأولى.
{ **سُبْحَانَهُ** } تنزيه له عمّا نسبوه إليه من الشركاء بعد أن أبطله بالدليل الامتناعي، عودا إلى خطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين الذي فارقه من قوله { فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ } [2].
{ **هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ** } دليل للتنزيه المستفاد من { سُبْحَانَهُ }.
{ **هُوَ اللَّهُ** } تمهيد للوصفين، وذكر اسمه العَلَم لإحضاره في الأذهان بالاسم المختصّ به.
{ **الْوَاحِدُ** } إثبات الوحدانية له يبطل الشريك في الإلهية على تفاوت مراتبه.
{ **الْقَهَّارُ** } إثبات القهر والغلبة يبطل ما زعموه من أنّ أولياءهم تقرّبهم إلى الله زلفى وتشفع لهم.
القهر: الغلبة، أي: هو شديد الغلبة لكل شيء لا يغلبه شيء ولا يصرفه عن إرادته.

{ **خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ** } [5].

بيان لجملة { هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } [4]، فإنّ خلق هذه العوالم والتصرّف فيها، على شدّتها وعظمتها، يبيّن معنى الوحدانية ومعنى القهّارية، فتكون جملة { هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } ذات اتصالين:
اتصال بجملة { لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا } [4] اتصال التذييل، واتصال بجملة { خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ } اتصال التمهيد.
وقد انتقل من الاستدلال باقتضاء حقيقة الإلهية نفي الشريك إلى الاستدلال بخلق السماوات والأرض على أنّه المنفرد بالخلق، إذ لا يستطيع شركاؤهم خلق العوالم.
{ **بِالْحَقِّ** } الباء للملابسة، أي: خلقها خلقا ملابسا للحق، وهو هنا ضدّ العبث، أي: خلقهما خلقا ملابسا للحكمة والصواب والنفع لا يشوب خلقهما عبث ولا اختلال، قال تعالى { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ } [الدخان:39/38]
{ **يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ** } بيان ثان وهو كتعداد الجمل في مقام الاستدلال أو الامتنان. وأوثر المضارع في هذه الجملة للدلالة على تجدّد ذلك وتكرّره، أو لاستحضار حالة التكوير تبعا لاستحضار آثارها، فإنّ حالة تكوير الله الليل على النهار غير مشاهدة وإنّما المشاهد أثرها، وتجدّد الأثر يدل على تجدّد التأثير.
التكوير: حقيقته اللف واللَّيُّ، يقال: كوّر العمامة على رأسه إذا لواها ولفّها، ومُثِّلت به هنا هيئة غشيان الليل على النهار في جزء من سطح الأرض وعكس ذلك على التعاقب.
وممّا يزيد التمثيل إبداعا إيثار مادة التكوير الذي هو معجزة علمية من معجزات القرآن المشار إليها في

المقدمة الرابعة والموضّحة في المقدمة العاشرة، فإنّ مادة التكوير جائية من اسم الكرة، والأرض كروية الشكل في الواقع، وذلك كان يجهله العرب وجمهور البشر يومئذ فأومأ القرآن إليه بوصف العرضين اللذين يعتريان الأرض على التعاقب وهما النور والظلمة، أو الليل والنهار، إذ جعل تعاورهما تكويرا، لأنّ عرض الكرة يكون كرويا تبعا لذاتها، فلمّا كان سياق هذه الآية للاستدلال على الإلهية الحق بإنشاء السماوات والأرض اختير للاستدلال على ما يتبع ذلك الإنشاء من خلق العرضين العظيمين للأرض مادة التكوير.

{ **وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ** } تسخير الشمس والقمر هو تذليلهما للعمل على ما جعل الله لهما من نظام السير، سير المتبوع والتابع، وقد تقدّم في [الأعراف:54] وغيرها.

وعطفت الجملة على سابقتها، لأنّ ذلك التسخير مناسب لتكوير الليل على النهار وعكسه، فإن ذلك التكوير من آثار ذلك التسخير.

{ **كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى** } بدل اشتمال من جملة { سَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ } وذلك أوضح أحوال التسخير.

{ **كُلٌّ** } التنوين للعوض، أي: كلّ واحد.

الجري: السير السريع.

{ **لِأَجَلٍ** } لام العلّة. وهو أجل فنائهما، فإنّ جريهما لمّا كان فيه تقريب فنائهما جعل جريهما كأنّه لأجْل الأجَل، أي: لأجل ما يطلبه ويقتضيه أجل البقاء، كقوله تعالى { وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا } [يس:38].

<u>ويجوز</u> أن يكون المراد بالأجل أجل حياة الناس الذي ينتهي بانتهاء الأعمار المختلفة.

المسمَّى: المجعول له وَسْم، أي: ما به يُعيَّن، وهو ما عيَّنه الله لأن يبلغ إليه.

وقد جاء في آيات أخرى { كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ } [لقمان:29]، بحرف انتهاء الغاية، ولام العلة وحرف الغاية متقاربان في المعنى الأصلي وأحسب أنّ اختلاف التعبير بهما مجرد تفنّن في الكلام.

{ **أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ** } استئناف ابتدائي في معنى الوعيد والوعد.

{ **الْعَزِيزُ** } كناية عن أنّه يفعل ما يشاء لا غالب له، فلا تجدي المشركين عبادة أوليائهم.

{ **الْغَفَّارُ** } مؤذن باستدعائهم إلى التوبة باتباع الإسلام. وفي هذا الوصف مناسبة لذكر الأجل، لأنّ المغفرة يظهر أثرها بعد البعث الذي يكون بعد الموت وانتهاء الأجل، تحريضا على البدار بالتوبة قبل الموت.

{ **خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ** } [6].

{ **خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا** } انتقال إلى الاستدلال بخلق الناس وهو الخلق العجيب. وأدمج فيه الاستدلال بخلق أصلهم وبخلق زوجه ليتقوّم ناموس التناسل.

يجوز أن تكون الجملة في موضع الحال من ضمير الجلالة، ويجوز أن تكون استئنافا ابتدائيا تكريرا للاستدلال. والخطاب للمشركين بدليل قوله بعده { فَأَنَّى تُصْرَفُونَ }، وهو التفات من الغيبة إلى الخطاب. وتقدّم نظير هذه الجملة في [الأعراف:189]، إلّا أنّ في هذه الجملة عطف قوله { جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا } بحرف { ثُمَّ } الدال على التراخي الرتبي، لأنّ مساقها الاستدلال على الوحدانية وإبطال الشريك بمراتبه، فكان خلق آدم دليلا على عظيم قدرته تعالى وخلق زوجه من نفسه دليلا آخر مستقل الدلالة على عظيم قدرته. فعطف بحرف (ثم) إشارة إلى استقلال الجملة المعطوفة بها بالدلالة مثل الجملة المعطوفة هي عليها، فكان خلق زوج آدم منه أدلّ على عظيم القدرة، لأنّه خلق لم تجر به عادة فكان ذلك الخلق أجلب لعجب السامع من خلق الناس، فجيء له بحرف التراخي المستعمل في تراخي المنزلة لا في تراخي الزمن، لأن زمن خلق زوج آدم سابق على خلق الناس.

فأمّا آية الأعراف فمساقها مساق الامتنان على الناس بنعمة الإيجاد، فذكر الأصلان للناس معطوفا أحدهما على الآخر بحرف التشريك في الحكم الذي هو الكون أصلا لخلق الناس.

{ **وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ** } استدلال بما خلقه الله تعالى من الأنعام عطف على الاستدلال بخلق الإنسان، لأنّ المخاطبين بالقرآن يومئذ قوام حياتهم بالأنعام، ولا تخلو الأمم يومئذ من الحاجة إلى الأنعام ولم تزل الحاجة إلى الأنعام حافّة بالبشر في قوام حياتهم.

والجملة اعتراض بين { خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ } وبين { يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ } لمناسبة أزواج الأنعام لزوج النفس الواحدة.

وأدمج في هذا الاستدلال امتنان بما فيها من المنافع للناس لما دلّ عليه قوله { لَكُمْ }، لأنّ في الأنعام مواد عظيمة لبقاء الإنسان، وهي التي في قوله تعالى { وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ - إلى قوله - إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ} [النحل:5-7]، وقوله تعالى { وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا } [النحل:80].

الإنزال: نقل الجسم من علو إلى سُفل، ويطلق على تذليل الأمر الصعب، لأنّ الأمر الصعب يُتخيل صعب المنال. كما يقال: نزلوا على حكم فلان.

فإطلاق الإنزال هنا بمعنى التذليل والتمكين على نحو قوله تعالى { وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ } [الحديد:25]. أي سخرناه للناس فألهمناهم إلى معرفة تدبيره.

الأزواج: الأنواع، كما في قوله تعالى { وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ } [الرعد:3]، والمراد أنواع الإبل والغنم والبقر والمعز.

وأطلق على النوع اسم الزوج الذي هو المثنّى لغيره لأنّ كل نوع يتقوّم كيانه من الذكر والأنثى.

{ **يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ** } بدل من جملة {خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ}. وضمير المخاطبين هنا راجع إلى الناس لا غير، وهو استدلال بتطوّر خلق الإنسان على عظيم قدرة الله. والتعبير بصيغة المضارع لإفادة تجدّد الخلق وتكرّره مع استحضار صورة هذا التطوّر العجيب.

{ **خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ** } أي: طورا من الخلق بعد طور آخر يخالفه.

{ **فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ** } ظلمة بطن الأم، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة. وفي ذكر هذه الظلمات تنبيه على إحاطة علم الله تعالى بالأشياء ونفوذ قدرته إليها في أشدّ ما تكون فيه من الخفاء.

{ **ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ** } بعد أن أجري على اسم الله تعالى من الأخبار والصفات القاضية بأنّه المتصرّف في الأكوان كلّها: جواهرها وأعراضها، ظاهرها وخفيّها، ابتداء من قوله تعالى { خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ } [5]، ما يرشد العاقل إلى أنّه المنفرد بالتصرف المستحق العبادة، أعقب ذلك باسم الإشارة للتنبيه على أنّه حقيق بما يرد بعده من أجل تلك التصرّفات والصفات. والجملة فذلكة ونتيجة أنتجتها الأدلة السابقة ولذلك فصلت.

{ **ذَلِكُمُ** } اسم الإشارة لتمييز صاحب تلك الصفات عن غيره تمييزا يفضي إلى ما يرد بعد اسم الإشارة.

والمعنى: ذلكم الذي خلق وسخر وأنشأ الناس والأنعام وخلق الإنسان أطوارا هو الله، فلا تشركوا معه غيره إذ لم تبق شبهة تعذر أهل الشرك بشركهم.

{ **اللَّهُ** } الإتيان باسم العَلَم لإحضار المسمَّى في الأذهان باسم مختص زيادة في البيان لأنّ حال المخاطبين نزل منزلة حال من لم يعلم أنّ فاعل تلك الأفعال العظيمة هو الله تعالى. واسم الجلالة خبر عن اسم الإشارة. { **رَبُّكُمْ** } صفة لاسم الجلالة. ووصفه بالربوبية تذكير لهم بنعمة الإيجاد والإمداد وهو معنى الربوبية، وتوطئة للتسجيل عليهم بكفران نعمته الآتي في قوله تعالى { إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ } [7].

{ **لَهُ الْمُلْكُ** } خبر ثان عن اسم الإشارة.

الملك: أصله مصدر ملك، (مثلث الميم) إلّا أن مضمون الميم خصّه الاستعمال بملك البلاد ورعاية الناس، وصاحبه: مَلِك، (بفتح الميم وكسر اللام)، وجمعه: ملوك. منه قوله تعالى { تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ } [آل عمران:26].

وتقديم المجرور لإفادة الحصر الادعائي، لإبطال ادعاء المشركين.أي: الملك لله لا لغيره.

{ **لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ** } بيان لجملة الحصر { لَهُ الْمُلْكُ } .

{ **فَأَنَّى تُصْرَفُونَ** } استفهام إنكاري تفريع عن انصرافهم عن توحيد الله تعالى. ولمّا كان الانصراف حالة استُفهم عنها بكلمة { أَنَّى } التي هي بمعنى (كيف)، كقوله تعالى { أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ } [الأنعام:101].

الصرف: الإبعاد عن شيء، والمصروف عنه هنا محذوف، تقديره: عن توحيده، بقرينة قوله { لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ } وجعلهم مصروفين عن التوحيد ولم يذكر لهم صارفا، فجاء في ذلك بالفعل المبني للمجهول ولم يقل لهم: فأنى تنصرفون، نعيا عليهم بأنّهم كالمقودين إلى الكفر غير المستقلّين بأمورهم، يصرفهم الصَّارفون، يعني أئمة الكفر أو الشياطين الموسوسين لهم. وذلك إلهاب لأنفسهم ليكفّوا عن الخضوع، عسى أن ينظروا بأنفسهم في دلائل الوحدانية المذكورة لهم.

{ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } [7].

{ **إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ** } أتبع إنكار انصرافهم عن توحيد الله بعد ما ظهر على ثبوته من الأدلة، بأن أُعلِموا بأنّ كفرهم إن أصرّوا عليه لا يضرّ إلّا أنفسهم. وهذا شروع في الإنذار والتهديد للكافرين ومقابلته بالترغيب والبشارة للمؤمنين، فالجملة مستأنفة واقعة موقع النتيجة لما سبق من إثبات توحيد الله بالإلهية.

{ **إِنْ تَكْفُرُوا** } مبيّنة لإنكار انصرافهم عن التوحيد، أي: إن كفرتم بعد هذا الزمن فاعلموا أنّ الله غنيّ عنكم. وهذا كناية عن كون طلب التوحيد منهم لنفعهم ودفع الضرّ عنهم لا لنفع الله، وتذكيرهم بهذا ليُقْبِلوا على النظر من أدلة التوحيد. والخبر مستعمل كناية في تنبيه المخاطب على الخطأ من فعله.

{ **وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ** } اعتراض بين الشرطين لقصد الاحتراس من أن يتوهّم السامعون أنّ الله لا يكترث بكفرهم ولا يعبأ به، فيتوهّموا أنّه والشكر سواء عنده، ليتأكّد بذلك معنى استعمال الخبر في تنبيه المخاطب على الخطأ.

{ **لِعِبَادِهِ** } تعيّن أن يكون المراد العباد الذين وُجّه الخطاب إليهم في قوله تعالى { إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ }، وذلك جري على أصل استعمال اللغة لفظ العباد، كقوله { وَيَوْمَ نحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ } [الفرقان:17]. وإن كان الغالب في القرآن في لفظ العباد المضاف إلى اسم الله تعالى أو ضميره أن يطلق على خصوص المؤمنين والمقربين، وقرينة السياق ظاهرة هنا.

الرضى: حقيقته حالة نفسانية تعقب حصول ملائم مع ابتهاج به، وهو، على التحقيق، فيه معنى ليس في معنى الإرادة، لما فيه من الاستحسان والابتهاج، ويُعبَّر عنه بترك الاعتراض، ولهذا يقابل الرضى

بالسخط، وتقابل الإرادة بالإكراه، والرضى آئل إلى معنى المحبّة.

فإذا أسند الرضى إلى الله تعالى تعيَّن أن يكون المقصود لازم معناه الحقيقي لأنّ الله منزه عن الانفعالات، كشأن إسناد الأفعال والصفات الدالة في اللغة على الانفعالات مثل: الرحمن والرؤوف، وإسناد الغضب والفرح والمحبة، فيؤول الرضى بلازمه من الكرامة والعناية والإثابة إن عُدِّي إلى الناس، ومن النفاسة والفضل إن عدِّي إلى أسماء المعاني.

وفعل الرضى يُعدَّى في الغالب بحرف (عن). وقد يعدّى بـ (الباء) نحو: رضيت بحكم فلان.

وقد يعدَّى إلى مفعول ثان بواسطة (لام الجر) نحو { وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِينًا } [المائدة:3]،

أي: رضيته لأجلكم وأحببته لكم، أي: لمنفعتكم وفائدتكم. وفي هذا التركيب مبالغة في التنويه بالشيء المرضي لدى السامع حتّى كأنّ المتكلّم يرضاه لأجل السامع.

وقد ثار إشكال بين المتكلّمين عند اعتبار العموم في قوله { لِعِبَادِهِ }، وذلك في تعلّق إرادة الله تعالى بأفعال العباد، إذ من الضروري أنّ من عباد الله كثيرا كافرين، وقد أخبر الله تعالى أنّه لا يرضى لعباده الكفر، وثبت بالدليل أنّ كلّ واقع هو مراد الله تعالى، إذ لا يقع في ملكه إلّا ما يريد، فتعين أن تكون الإرادة والرضى حقيقتين مختلفتين، وأن يكون لفظاهما غير مترادفين.

الشيخ أبو الحسن الأشعري تخلّص من الإشكال عندما قال: " إنّ الإرادة غير الرضى، والرضى غير الإرادة والمشيئة، فالإرادة والمشيئة بمعنى واحد والرضى والمحبة والاختيار بمعنى واحد ". وهذا حمل لهذه الألفاظ القرآنية على معان يمكن معها الجمع بين الآيات:

فيكون قوله تعالى { وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ } راجعا إلى خطاب التكاليف الشرعية.

وقوله { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ } [الأنعام:112] راجعا إلى تعلق الإرادة بالإيجاد والخلق.

ويتركّب من مجموعهما ومجموع نظائر كل منهما الاعتقاد بأنّ للعباد كسبا في أفعالهم الاختيارية وأنّ الله تتعلق أرادته بخلق تلك الأفعال الاختيارية عند توجّه كسب العبد نحوها، فالله خالق لأفعال العبد غير مكتسب لها. والعبد مكتسب غير خالق.

فالكسب عند الأشعري هو الاستطاعة المفسَّرة عنده بسلامة أسباب الفعل وآلاته، وهي واسطة بين القدرة والجبر، أي: هي دون تعلّق القدرة وفوق تسخير الجبر، جمعا بين الأدلة الدينية الناطقة بمعنى: أنّ الله على كل شيء قدير، وأنّه خالق كلّ شيء، وبين دلالة الضرورة على الفرق بين حركة المرتعش وحركة الماشي، وجمعا بين أدلة عموم القدرة وبين توجيه الشريعة خطابها للعباد بالأمر بالإيمان والأعمال الصالحة، والنهي عن الكفر والسيّئات وترتيب الثواب والعقاب.

وأمّا المعتزلة فهم بمعزل عن ذلك كلّه لأنّهم يثبتون القدرة للعباد على أفعالهم وأنّ أفعال العباد غير مقدورة لله تعالى ويحملون ما ورد في الكتاب من نسبة أفعال العباد إلى الله أو إلى قدرته أنّه على معنى أنّه خالق أصولها وأسبابها، ويحملون ما ورد من نفي ذلك، كما في قوله { وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ }،

على حقيقته ولذلك أوردوا هذه الآية للاحتجاج بها.

{ **وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ** } عطف على جملة { إِنْ تَكْفُرُوا }، والمعنى: وإن تشكروا بعد هذه الموعظة فتَقْلِعُوا عن الكفر وتشكروا الله بالاعتراف له بالوحدانية والتنزيه يرضى لكم الشكر، أي: يجازيكم.

{ **وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى** } كأنّ موقع هذه الآية أنّه لمّا ذُكر قبلها أنّ في المخاطبين كافرا وشاكرا، وهم في بلد واحد بينهم وشائج القرابة والولاء، فربما تحرّج المؤمنون من أن يمسَّهم إثم من جرّاء كفر أقربائهم وأوليائهم، أو أنّهم خشوا أن يصيب الله الكافرين بعذاب في الدنيا فيلحق منه القاطنين معهم بمكة، فأنبأهم الله بأنّ كفر أولئك لا يُنقص إيمان هؤلاء، فالآية تطمين وتعليم.

الوِزر: (بجر الواو) أصله الثقل، وأطلق على الإثم لأنّه يلحق صاحبه تعب كتعب حامل الثقل. ويقال: وَزَرَ بمعنى حمل الوِزر، أي: كسب الإثم.

{ **وَازِرَةٌ** } التأنيث باعتبار إرادة معنى النفس.

وفي الآية تعريض بالمتاركة وقطع اللجاج مع المشركين وأنّ قصارى المؤمنين أن يرشدوا الضُلَّال لا أن يلجئوهم إلى الإيمان.

{ **ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } { ثُمَّ } للترتيبين الرتبي والتراخي، أي: وأعظم من كون الله غنيّا عنكم أنّه أعدَّ لكم الجزاء على كفركم وسترجعون إليه.

وتقدم نظيرها في [الأنعام:164]. وإنّما جاء في الأنعام { بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ }، لأنّها وقعت إثر آيات كثيرة تضمّنت الاختلاف بين أحوال المؤمنين وأحوال المشركين ولم يجيء مثل ذلك هنا، فلذلك قيل هنا { بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ }، أي: مِن كُفْر من كَفَر وشُكْر من شَكَر.

الإنباء: مستعمل مجازا في الإظهار الحاصل به العلم، ويجوز أن يكون مستعملا في حقيقة الإخبار، بأن يُعلن لهم بواسطة الملائكة أعمالهم. وفيه تعريض بالوعد والوعيد.

{ **إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** } تعليل لجملة { يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } لأنّ العليم بذات الصدور لا يغادر شيئا إلّا علمه فإذا أنبأ بأعمالهم كان إنباؤه كاملا.

الصدور: مراد بها القلوب المعبّر بها عمّا به الإدراك والعزم، وتقدّم في قوله تعالى { وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } [الأنفال:43].

{ **وَإِذَا مَسَّ الْأِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ** } [8]

{ **وَإِذَا مَسَّ الْأِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ** } الجملة معطوفة على جملة { ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ } [6]، لاشتراك الجملتين في الدلالة على أنّ الله منفرد بالتصرّف مستوجب للشكر، وعلى أنّ الكفر به قبيح، وتتضمّن

الاستدلال على وحدانية إلهية بدليل من أحوال المشركين به، فإنّهم إذا مسهم الضرّ لجأوا إليه وحده، وإذا أصابتهم نعمة أعرضوا عن شكره وجعلوا له شركاء.

{ **الْإِنْسَانَ** } تعريف الجنس ولكن عمومه هنا عموم عرفي لفريق من الإنسان وهم أهل الشرك خاصة، لأنّ قوله تعالى { وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا } لا يتفق مع حال المؤمنين. والقول بأن المراد انسان معين (عتبة بن ربيعة، أو أبو جهل) خروج عن مهيع الكلام، وإنّما هذان وأمثالهما من جملة هذا الجنس.

وذكر الإنسان إظهار في مقام الإضمار لأنّ المقصود به المخاطبون بقوله تعالى { خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ - إلى قوله - فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [7/6]، فعدل إلى الإظهار لما في معنى الإنسان من مراعاة ما في الإنسانية من التقلّب والاضطراب، إلا من عصمة الله بالتوفيق، ولأنّ في اسم الإنسان مناسبة مع النسيان الآتي في قوله { نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ }.

وتقدّم نظير لهذه الآية في قوله تعالى { وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ } [الروم:33].

التخويل: الإعطاء والتمليك دون قصد عوض. وهو مشتق من **الخَوَل** (بفتحتين) وهو اسم للعبيد والخدم.

النسيان: ذهول الحافظة عن الأمر المعلوم سابقا.

{ **مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ** } ما صدق { مَا } هو الضرّ، أي: نسي الضرّ الذي كان يدعو الله إلى كشفه. ويجوز أن يكون { مَا } صادقا على الدعاء، وضُمِّن الدعاء معنى الابتهال والتضرع فعدّي بحرف (إلى). والمعنى: نسي عبادة الله والابتهال إليه.

الأنداد: جمع نِدّ (بكسر النون)، وهو الكُفء. أي: وزاد على نسيان ربّه فجعل له شركاء.

{ **لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ** } اللام لام العاقبة، أي: لام التعليل المجازي، لأنّ الإضلال لمّا كان نتيجة الجعل جاز تعليل الجعل به كأنّه هو العلة للجاعل. والمعنى: وجعل لله أندادا فضل عن سبيل الله.

{ **قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ** } استئناف بياني لأنّ ذكر حالة الإنسان الكافر المُعْرِض عن شكر ربّه يثير وصفها سؤال السامع عن عاقبة هذا الكافر. أي: قل يا محمد للإنسان الذي جعل لله أندادا، أي: قل لكل واحد من ذلك الجنس. والتقدير: قل تمتعوا بكفركم قليلا إنّكم من أصحاب النار.

{ **تَمَتَّعْ** } الانتفاع الموّقت، وتقدّم عند قوله تعالى { وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} [الأعراف:24]. وصيغة الأمر مستعملة في الإمهال المراد منه الإنذار والوعيد.

{ **بِكُفْرِكَ** } الباء ظرفية أو للملابسة وليست لتعدية فعل التمتّع. ومتعلق التمتّع محذوف دل عليه سياق التهديد. والتقدير: تمتعّ بالسلامة من العذاب في زمن كفرك.

{ **قَلِيلًا** } وصف التمتع بالقليل لأنّ مدة الحياة الدنيا قليل بالنسبة إلى العذاب في الآخرة. وهذا كقوله تعالى { فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ } [التوبة:38].

{ **إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ** } بيان للمقصود من جملة { تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا } وهو الإنذار بالمصير إلى النار بعد مدة الحياة. و{ مِنْ } للتبعيض لأنّ المشركين بعض الأمم والطوائف المحكوم عليها بالخلود في النار.

أصحاب النّار: هم الذين لا يفارقونها، فإنّ الصحبة تشعر بالملازمة، فأصحاب النار: المخلَّدون فيها.

{ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ } [9]

{ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ }

قرأ نافع وابن كثير وحمزة وحدهم { **أَمَنْ** } بتخفيف الميم على أنّ الهمزة دخلت على (من) الموصولة فيجوز أن تكون الهمزة همزة استفهام، والاستفهام إنكاري. تقديره: أمن هو قانت أفضل أم من هو كافر؟

وقرأ الجمهور { **أَمَّنْ** } بتشديد الميم على أنّه لفظ مركب من كلمتين (أم) و(من)، وفي معناه وجهان:

الوجه الأوّل: أن تكون (أم) معادلة لهمزة استفهام محذوفة مع جملتها دلت عليها (أم) لاقتضائها معادلا. ودلّ عليها تعقيبه بـ { هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ } لأنّ التسوية لا تكون إلّا بين شيئين. فالتقدير: أهذا الجاعل لله أندادا الكافر خير أمن هو قانت، والاستفهام حقيقي والمقصود لازمه، وهو التنبيه على الخطأ.

الوجه الثاني: أن تكون (أم) منقطعة لمجرد الإضراب الانتقالي. وهي تقتضي استفهاما مقدَّرا بعدها. ومعنى الكلام: دع تهديدهم بعذاب النار وانتقل بهم إلى هذا السؤال: أذلك الإنسان الذي جعل لله أندادا هو قانت، وقائم، ويحذر الله ويرجو رحمته؟ والاستفهام مستعمل في التهكّم لظهور أنّه لا تتلاقى تلك الصفات الأربع مع صفة جعله لله أندادا.

القانت: العابد. وتقدّم عند قوله تعالى { وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ } [البقرة:283].

الآناء: جمع أَنًى، والأنى: الساعة، ويقال أيضا: إِنَى (بكسر الهمزة)، كما تقدّم في قوله تعالى { غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ } [الأحزاب:53]. وانتصب { آنَاءَ } على الظرف لـ { قَانِتٌ }.

{ **اللَّيْلِ** } تخصيص الليل بقنوتهم لأنّ العبادة بالليل أعون على تمحّض القلب لذكر الله، وأبعد على مداخلة الرياء وأدلّ على إيثار عبادة الله على حظ النفس من الراحة والنوم، فإنّ الليل أدعى إلى طلب الراحة، فإذا آثر المرء العبادة فيه استنار قلبه بحب التقرّب إلى الله تعالى { إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا } [المزمل:6]، فلا جرم كان تخصيص الليل بالذكر دالا على أنّ هذا القانت لا يخلو من السجود والقيام آناء النهار بدلالة فحوى الخطاب، قال تعالى { إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا } [المزمل:7]، وبذلك يتم انطباق هذه الصلة على حال النبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ **سَاجِدًا وَقَائِمًا** } حالان مبيّنان لـ { قَانِتٌ } ومؤكدان لمعناه. لوصف عمله الظاهر.

{ **يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ** } حالان، لوصف عمل قلبه، وهو أنّه بين الخوف من سيّئاته وفلتاته وبين الرجاء لرحمة ربّه أن يثيبه على حسناته.

وفي هذا تمام المقابلة بين حال المؤمنين الجارية على وفق حال نبيّهم صلى الله عليه وسلم وحال أهل

الشرك الذين لا يدعون الله إلّا في نادر الأوقات، وهي أوقات الاضطرار، ثم يشركون به بعد ذلك، فلا اهتمام لهم إلّا بعاجل الدنيا لا يحذرون الآخرة ولا يرجون ثوابها.

{ **يَحْذَرُ الْآخِرَةَ** } أي: يحذر عقاب الآخرة، فتعيّن أن الرجاء المأمول في الآخرة.

الرجاء: انتظار ما فيه نعيم وملاءمة للنفس. والمراد هنا: الملاءمة الأخروية.

وللخوف مزيّته من زجر النفس عمّا لا يرضي الله، وللرجاء مزيّته من حثّها على ما يرضي الله وكلاهما أنيس السالكين. وإنّما يكون الرجاء أو الخوف ظنًّا مع تردّد في المظنون، أمّا المقطوع به فهو اليقين واليأس وكلاهما مذموم، قال تعالى { فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ } [الأعراف:99]، وقال تعالى { إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ } [يوسف:87].

{ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ** } استئناف بياني أثاره وصف المؤمن الطائع.

المعنى: أعلمهم يا محمد بأنّ هذا المؤمن العالم بحق ربه ليس سواء للكافر الجاهل بربه.

{ **قُلْ** } الإعادة هنا للاهتمام بهذا المقول ولاسترعاء الأسماع إليه.

{ **هَلْ يَسْتَوِي** } الاستفهام هنا مستعمل في الإنكار. والمقصود: إثبات عدم المساواة بين الفريقين، وعدم المساواة يُكنَّى به عن التفضيل. والمراد: تفضيل الذين يعلمون على الذين لا يعلمون.

{ **الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** } الفعل في الموضعين منزَّل منزلة اللازم فلم يذكر له مفعول.

أي: لا يستوي الذين لهم علم فهم يدركون حقائق الأشياء على ما هي عليه وتجري أعمالهم على حسب علمهم، مع الذين لا يعلمون فلا يدركون الأشياء على ما هي عليه بل تختلط عليهم الحقائق وتجري أعمالهم على غير انتظام، كحال الذين توهموا الحجارة آلهة ووضعوا الكفر موضع الشكر.

<u>فالذين يعلمون هم أهل الإيمان</u>، قال تعالى { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ } [فاطر:28]، <u>والذين لا يعلمون هم أهل الشرك الجاهلون</u>، قال تعالى { قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ } [الزمر:64].

وفي ذلك إشارة إلى أنّ الإيمان أخو العلم لأنّ كليهما نور ومعرفة حق، وأنّ الكفر أخو الضلال لأنّه والضلال ظلمة وأوهام باطلة.

{ **إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ** } واقع موقع التعليل لنفي الاستواء بين العالم وغيره، المقصود منه تفضيل.

الألباب: العقول، وأولو الألباب: هم أهل العقول الصحيحة، وهم أهل العلم.

{ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [10].

<u>لمّا أجري الثناء</u> على المؤمنين بإقبالهم على عبادة الله في أشد الآناء، وبشدّة مراقبتهم إيّاه بالخوف والرجاء، وبتمييزهم بصفة العلم والعقل والتذكّر، بخلاف حال المشركين في ذلك كله، <u>أتبع ذلك</u> بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإقبال على خطابهم للاستزادة من ثباتهم ورباطة جأشهم.

والتقدير: قل للمؤمنين.

{ **قُلْ يَا عِبَادِ** } ابتداء الكلام بالأمر بالقول للوجه الذي تقدم في نظيره آنفا، وابتداء المقول بالنداء وبوصف العبودية المضاف إلى ضمير الله تعالى، كل ذلك يؤذن بالاهتمام بما سيقال وبأنّه عن ربّهم، وهذا وضع لهم في مقام المخاطبة من الله، وهي درجة عظيمة.

{ **اتَّقُوا رَبَّكُمْ** } الأمر بالتقوى مراد به الدوام على المأمور به لأنّهم متّقون من قبل، وهو يشعر بأنّهم قد نزل بهم من الأذى في الدين ما يُخشى عليهم معه أن يقصّروا في تقواهم. وهذا الأمر تمهيد لما سيوجَّه إليهم من أمرهم بالهجرة للسلامة من الأذى في دينهم، وهو ما عرَّض به في قوله تعالى { وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ }

{ **لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ** } استئناف بياني، تمهيد وإشارة إلى موافقتهم الحسنى في هجرتهم. ويجوز أن تكون الجملة مسوقة مساق التعليل للأمر بالتقوى الواقع بعدها.

الذين أحسنوا: الذين اتقوا الله، وهو المؤمنون الموصوفون بما تقدّم من قوله تعالى { أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ } [9]، لأنّ تلك الخصال تدلّ على الإحسان المفسَّر بقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **أن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك** "، فعدل عن التعبير بضمير الخطاب بأن يقال: لكم في الدنيا حسنة، إلى الإتيان باسم الموصول الظاهر { لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا } ليشمل المخاطبين وغيرهم ممّن ثبتت له هذه الصلة. وذلك في معنى: اتقوا ربكم لتكونوا محسنين، فإنّ للذين أحسنوا حسنة عظيمة فكونوا منهم.

{ **فِي هَذِهِ الدُّنْيَا** } التوسّط بين { لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا } وبين { حَسَنَةٌ }، نظم ممّا اختصّ به القرآن في مواقع الكلم لإكثار المعاني التي يسمح بها النظم، وهذا من طرق إعجاز القرآن.

فيجوز أن يكون قوله { فِي هَذِهِ الدُّنْيَا } حالا من { حَسَنَةٌ } قُدِّم على صاحب الحال للتنبيه من أوّل الكلام على أنّها جزاؤهم في الدنيا. قال السدي: " الحسنة في الدنيا الصحة والعافية ".

ويجوز أن يكون في قوله { فِي هَذِهِ الدُّنْيَا } متعلّقا بفعل {أَحْسَنُوا} على أنّه ظرف لغوي، أي: فعلوا الحسنات في الدنيا، فيكون المقصود التنبيه على المبادرة بالحسنات في الحياة الدنيا قبل الفوات.

{ **حَسَنَةٌ** } التنوين للتعظيم، وهو بالنسبة لحسنة الآخرة للتعظيم الذاتي، وبالنسبة لحسنة الدنيا تعظيم وصفي، أي: حسنة أعظم من المتعارف، وأيًّا ما كان فاسم الإشارة { هَذِهِ } لتمييز المشار إليه وإحضاره في الأذهان.

وتقدّم نظير هذه الآية عند قوله تعالى { وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ } [النحل:30].

{ **وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ** } عطف المقصود على التوطئة. وهو خبر مستعمل في التعريض بالحثّ على الهجرة في الأرض فرارا بدينهم من الفتن بقرينة أنّ كون الأرض واسعة أمر معلوم لا يتعلّق الغرض بإفادته وإنّما كنّي به عن لازم معناه.

المعنى: إنّ الله وعدهم أن يلاقوا حسنة إذا هم هاجروا من ديار الشرك.

قال ابن عباس في قوله تعالى { قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ } : " يريد جعفر بن أبي طالب والذين خرجوا معه إلى الحبشة ".

ونكتة الكناية هنا إلقاء الإشارة إليهم بلطف وتأنيس دون صريح الأمر لما في مفارقة الأوطان من الغم على النفس.

{ **إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ** } تذييل لجملة { لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا } وما عطف عليها، لأنّ مفارقة الوطن والتغرّب والسفر مشاق لا يستطيعها إلّا صابر، فذيّل الأمر به بتعظيم أجر الصابرين ليكون إعلاما للمخاطبين بأنّ أجرهم على ذلك عظيم، إذ هو بغير حساب.

{ **إِنَّمَا** } الحصر منصبٌّ على القيد وهو { بِغَيْرِ حِسَابٍ }، والمعنى: ما يوفّى الصابرون أجرهم إلّا بغير حساب، وهو قصر قلب مبني على قلب ظنّ الصابرين أنّ أجر صبرهم بمقدار صبرهم.

التوفية: إعطاء الشيء وافيا، أي: تاما.

الصبر: سكون النفس عند حلول الآلام والمصائب بأن لا تضجر ولا تضطرب لذلك.

{ **الصَّابِرِينَ** } صيغة العموم تشمل كلّ من صبر على مشقة في القيام بواجبات الدين وامتثال المأمورات واجتناب المنهيات، ومراتب هذا الصبر متفاوتة وبقدرها يتفاوت الأجر.

الأجر: الثواب في الآخرة كما هو مصطلح القرآن.

{ **بِغَيْرِ حِسَابٍ** } كناية عن الوفرة والتعظيم، لأنّ الشيء الكثير لا يُتصدى لعدّه، ولا يُحاط بمقداره.

وفي ذكر التوفية وإضافة الأجر إلى ضميرهم تأنيس لهم بأنّهم استحقوا ذلك لا منّة عليهم فيه، وإن كانت المنّة لله على كل حال.

الهجرة إلى الحبشة كانت سنة خمس قبل الهجرة. وكان سببها أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا رأى ما يصيب أصحابه من البلاء وأنّ عمه أبا طالب لا يقدر أن يمنع أصحابه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" **لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإنّ بها ملكا لا يظلم عنده أحد حتّى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه** "، فخرج معظم المسلمين مخافة الفتنة فخرج ثلاثة وثمانون رجلا وتسع عشرة امرأة سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم صغارا. وقد كان أبو بكر الصديق استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة فأذن له فخرج قاصدا بلاد الحبشة فلقيه (ابن الدغِنَة) فَصدَّه وجعله في جواره.

ولمّا تعلقت إرادة الله تعالى بنشر الإسلام في مكة بين العرب لحكمة اقتضت ذلك، لم يأذن لرسوله صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى موطن آخر، حتّى إذا تمّ مراد الله في تلك الأرض التي نشأ فيها رسوله صلى الله عليه وسلم، وأصبح انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بلد آخر أسعد بانتشار الإسلام في الأرض أذن الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى المدينة بعد أن هيأ له بلطفه دخول أهلها في الإسلام، وكل ذلك جرى بقدرة وحكمة ولطف.

{ **قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ [11] وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ [12]** }.

بعد أن أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بخطاب المسلمين بقوله { قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا } [10]، أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول قولا يتعيّن أنّه مقول لغير المسلمين.

نقل الفخر عن مقاتل: " أنّ كفار قريش قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم: " ما يحملك على هذا الدين الذي أتيتنا به، ألا تنظر إلى ملة أبيك وجدك وسادات قومك يعبدون اللات والعزى، فأنزل الله { قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ } ".

ويجوز أن يكون موجَّها إلى المسلمين الذين أذن الله لهم بالهجرة إلى الحبشة على أنّه توجيه لبقائه بمكة لا يهاجر معهم. فآذنهم الرسول صلى الله عليه وسلم بأن الله أمره أن يعبد الله مخلصا له الدين، أي: أن يوحده في مكة، فتكون الآية ناظرة إلى قوله تعالى { فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ } [الحجر:95/94]. أي: أنّ الله أمره بأن يقيم على التبليغ بمكة، فإنّه لو هاجر إلى الحبشة لانقطعت الدعوة، وإنّما كانت هجرتهم إلى الحبشة رخصة لهم ولم يُرخّص ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ **قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** } [13].

هذا القول متعيّن لأن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم مأمورا بأن يواجه به المشركين الذين كانوا يحاولون النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يترك الدعوة وأن يتابع دينهم.

{ **قُلْ** } إعادة الأمر بالقول على هذا للتأكيد اهتماما بهذا المقول.

{ **قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي [14] فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ [15]** }.

{ **قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي** } أمر بأن يعيد التصريح بأنّه يعبد الله وحده تأكيدا لقوله تعالى { قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ } [11]، لأهمّيته، وإن كان مفاد الجملتين واحدا.

{ **فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ** } الفاء لتفريع الكلام الذي بعدها على الكلام قبلها فهو تفريع ذكري. والأمر مستعمل في معنى التخلية، ويعبّر عنه بالتسوية. كناية عن قلة الاكتراث بفعل المخاطب. كقوله تعالى { فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ } [الكهف:29]. أي: اعبدوا أي شيء شئتم عبادته من دون الله.

{ **مَا شِئْتُمْ** } جُعلت الصلة هنا فعل المشيئة إيماء إلى أنّ رائدهم في تعيين معبوداتهم هو مجرد المشيئة والهوى بلا دليل.

{ **قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** } أُعقب أمر التسوية في شأنهم بشيء من

الموعظة حرصا على إصلاحهم على عادة القرآن، ولوحظ في إبلاغهم هذه الموعظة مقام ما سبق من التخلية بينهم وبين شأنهم، جمعا بين الإرشاد وبين التوبيخ، فجيء بالموعظة على طريق التعريض والحديث عن الغائب والمراد المخاطبون.

{ **قُلْ إِنَّ** } افتتح المقول بحرف التوكيد تنبيها على أنّه واقع حتما.

{ **الْخَاسِرِينَ** } تعريف الجنس، أي: أنّ الجنس الذين عرفوا بالخسران هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم.

ومعنى خسرانهم أنفسهم: أنّهم تسبَّبوا لأنفسهم في العذاب في حين حسبوا أنّهم سعوا لها في النعيم والنجاح.

وأمّا خسرانهم أهليهم: فهو مثل خسرانهم أنفسهم وذلك أنّهم أغروا أهليهم، من أزواجهم وأولادهم، بالكفر كما أوقعوا أنفسهم فيه، فلم ينتفعوا بأهليهم في الآخرة ولم ينفعوهم { لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ } [عبس:37]، وهذا قريب من قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا } [التحريم:6].

{ **أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ** } استئناف هو بمنزلة الفذلكة والنتيجة من الكلام السابق لأنّ وصف { الَّذِينَ خَسِرُوا } بأنّهم خسروا أحبّ ما عندهم، وبأنّهم الذين انحصر فيهم جنس الخاسرين، يُستخلص منه أنّ خسارتهم أعظم خسارة وأوضحها للعيان، ولذلك أوثرت خسارتهم باسم { الْخُسْرَانُ } الذي هو اسم مصدر الخسارة دال على قوّة المصدر والمبالغة فيه.

وأشير إلى العناية والاهتمام بوصف خسارتهم، بأن افتتح الكلام بحرف التنبيه { أَلا } داخلا على اسم الإشارة { ذَلِكَ } المفيد تمييز المشار إليه أكمل تمييز، وبتوسط ضمير الفصل { هُوَ } المفيد للقصر وهو قصر ادعائي، والقول فيه كالقول في الحصر في قوله { إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ }.

{ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُون } [16].

{ **لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ** } بدل اشتمال من { أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ } [15]، وخُصّ بالإبدال لأنّه أشدّ خسرانهم عليهم لتسلّطه على إهلاك أجسامهم. والخسران يشتمل على غير ذلك من الخزي وغضب الله واليأس من النجاة.

{ **لَهُمْ** } الضمير عائد إلى مجموع { أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ } [15].

الظلل: اسم جمع ظُلّة، وهي شيء مرتفع من بناء أو أعواد مثل الصُّفَّة يستظل به الجالس تحته، مشتقّة من الظِل، لأنّها يكون لها ظل في الشمس، وتقدّم عند قوله تعالى { إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ } [البقرة:210]، وقوله تعالى { وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ } [لقمان:32]. وهي هنا استعارة للطبقة التي تعلو أهل النار في نار جهنم بقرينة قوله { مِنَ النَّارِ}، شُبّهت بالظلة في العلو والغشيان مع التهكّم، لأنّهم يتمنّون ما يحجب عنهم حر النار فعبّر عن طبقات النار بالظلل إشارة إلى أنّهم لا واقي لهم من حرّها.

{ **وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ** } من باب المشاكلة، ولأنّ الطبقات التي تحتهم من النار تكون ظللا لكفار آخرين لأنّ جهنم دركات كثيرة.

{ **ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ** } تذييل للتهديد بالوعيد من قوله تعالى { قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ }، أو استئناف بياني لعلّة ذكر العذاب. وتخويف الله به معناه أنّه يخوّفهم بالإخبار به وبوصفه. ويُعلم من هذا بطريق المقابلة جعل الجنّة لترغيب عباده في التقوى، إلّا أنّه طوى ذكرها لأنّ السياق موعظة أهل الشرك، فالله جعل الجنة وجهنم إتماما لحكمته ومراده من نظام الحياة الدنيا ليكون الناس فيها على أكمل ما ترتقي إليه النفس الزكيّة.

{ **ذَلِكَ** } إشارة إلى ما وُصف من الخسران والعذاب بتأويل المذكور.

التخويف: مصدر خوّفه، إذا جعله خائفا إذا أراه ووصف له شيئا يثير في نفسه الخوف، وهو الشعور بما يؤلم النفس بواسطة إحدى الحواس الخمس.

{ **عِبَادَهُ** } العباد المضاف إلى ضمير الجلالة في الموضعين هنا يعمّ كل عبد من الناس من مؤمن وكافر إذ الجميع يخافون العذاب على العصيان، والعذاب متفاوت وأقصاه الخلود لأهل الشرك، وليس العباد هنا مرادا به أهل القرب لأنّه لا يناسب مقام التخويف. ففرق بينه وبين نحو قوله { يَا عِبَادِي لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ } [الزخرف:68].

{ **يَا عِبَادِ فَاتَّقُون** } تفريع وتعقيب للجملة السابقة، لأنّ التخويف مؤذن بأنّ العذاب أُعِدَّ لأهل العصيان فناسب أن يُعقّب بأمر الناس بالتقوى للتفادي من العذاب.

وقُدِّم النداء مع أن مقتضى الظاهر تأخيره، كقوله تعالى { وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ } [البقرة:197]، لأنّ المقام هنا مقام تحذير وترهيب، فهو جدير باسترعاء ألباب المخاطبين إلى ما سيرد من بعد من التفريع على التخويف، بخلاف آية البقرة فإنّها في سياق الترغيب في إكمال أعمال الحجّ والتزوّد للآخرة فلذلك جاء الأمر بالتقوى فيها معطوفا بالواو.

{ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ [17] الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ [18] }.

لمّا انتهى تهديد المشركين وموعظة الخلائق أجمعين ثُنِّي عنان الخطاب إلى جانب المؤمنين فيما يختصّ بهم من البشارة مقابلة لنذارة المشركين. والجملة معطوفة على جملة { قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ }.

{ **وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ** } التعبير عن المؤمنين بـذلك لما في الصلة من الإيماء إلى وجه بناء الخبر.

الطاغوت: مصدر أو اسم مصدر طَغا على وزن فَعَلُوت بتحريك العين بوزن رحموت وملكوت. ومن العلماء من جعل الطاغوت اسما أعجميا على وزن فاعول مثل جالوت وطالوت وهارون.

وذكره في (الإتقان) فيما وقع في القرآن من المعرّب وقال: " إنّه الكاهن بالحبشية ".

وأطلق الطاغوت في القرآن والسنة على القوي في الكفر أو الظلم، فأطلق على الصنم، وعلى جماعة الأصنام، وعلى رئيس أهل الكفر مثل كعب بن الأشرف.

وأمّا جمعه على **طواغيت** فذلك على تغليب الاسمية علما بالغلبة.

وهو هنا مراد به جماعة الأصنام وقد أجري عليه ضمير المؤنث في قوله { أَنْ يَعْبُدُوهَا } باعتبار أنّه جمع لغير العاقل، وأجري عليه ضمير جماعة الذكور في قوله تعالى { وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ } [البقرة:257] باعتبار أنّه وقع خبرا عن الأولياء وهو جمع مذكّر، وباعتبار تنزيلها منزلة العقلاء في زعم عُبّادها.

{ **أَنْ يَعْبُدُوهَا** } بدل من { الطَّاغُوتُ } بدل اشتمال.

الإنابة: التوبة، وتقدّمت في قوله تعالى { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ } [هود:75].والمراد بها هنا التوبة من كل ذنب ومعصية، وأعلاها التوبة من الشرك الذي كانوا عليه في الجاهلية.

{ **لَهُمُ الْبُشْرَى** } في تقديم المسند إفادة القصر. والمراد بها هنا: البشرى بالجنة.

البشرى: البشارة، وهي الإخبار بحصول نفع، وتقدّمت في قوله تعالى { لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ } [يونس:64].

{ **فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ** } تفريع على قوله تعالى { لَهُمُ الْبُشْرَى }. وهم الذين اجتنبوا الطاغوت، فعدل عن الإتيان بضميرهم بأن يقال: فبشّرهم، إلى الإظهار باسم العباد مضاف إلى ضمير الله تعالى، وبالصلة لزيادة مدحهم بصفتين أخريين وهما: صفة العبودية لله، وصفة استماع القول واتباع أحسنه.

{ **الْقَوْلَ** } تعريف الجنس، أي: يستمعون الأقوال ممّا يدعو إلى الهدى مثل القرآن وإرشاد الرسول صلى الله عليه وسلم، ويستمعون الأقوال التي يريد أهلها صرفهم عن الإيمان من ترّهات أئمة الكفر، فإذا استمعوا ذلك اتّبعوا أحسنه وهو ما يدعو إلى الحق.

أثنى الله عليهم بأنّهم أهل نقد يميّزون بين الهدى والضلال، والحكمة والأوهام، نُظّار في الأدلة الحقيقية، نُقّاد للأدلة السفسطائية. وفي الموصول إيماء إلى أنّ اتّباع أحسن القول سبب في حصول هداية الله إيّاهم.

{ **أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ** } مستأنفة لاسترعاء الذهن لتلقي هذا الخبر. وأكِّد هذا الاسترعاء بجعل المسند إليه اسم إشارة ليتميّز المشار إليهم أكمل تميّزه، مع التنبيه على أنّهم كانوا أحرياء بهذه العناية الربّانية لأجل ما اتصفوا به من الصفات المذكورة قبل اسم الإشارة، وهي صفات اجتنابهم عبادة الأصنام مع الإنابة إلى الله واستماعهم كلام الله واتباعهم إيّاه نابذين ما يلقي به المشركون من أقوال التضليل.

وقد أفاد تعريف الجزأين قصر الهداية عليهم، أي: دون الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم.

{ **هَدَاهُمُ اللَّهُ** } أنّهم نالوا هذه الفضيلة بأن تهيّأت نفوسهم لذلك وأقبلوا على سماع الهدى بشراشِرهم

وسعوا إلى ما يبلّغهم إلى رضاه وطلبوا النجاة من غضبه. وليس المراد بهدي الله إيّاهم أنه وجَّه إليهم أوامر إرشاده لأنّ ذلك حاصل للذين خوطبوا بالقرآن فأعرضوا عنه ولم يتطلبوا البحث عما يرضي الله تعالى.

{ **وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ** } دلّ ثناء الله على عباده المؤمنين الكُمَّل بأنّهم أحرزوا صفة اتّباع أحسن القول الذي يسمعونه، على شرف النظر والاستدلال للتفرقة بين الحق والباطل وللتفرقة بين الصواب والخطأ.

{ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ } [19].

لمّا أفاد الحصر في قوله تعالى { لَهُمُ الْبُشْرَى } [17] والحصران اللذان في قوله تعالى { أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ } [18] أنّ من سواهم، وهم المشركون، لا بشرى لهم، ولم يهدهم الله، ولا ألباب لهم لعدم انتفاعهم بعقولهم، وكان حاصل ذلك أنّ المشركين محرومون من حسن العاقبة بالنعيم الخالد، فُرّع على ذلك استفهام إنكاري مفيد التنبيه على انتفاء الطماعية في هداية الفريق الذي حقّت عليه كلمة العذاب.

{ **أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ** } تحققت في الواقع، أي: كانت كلمة العذاب المتوعّد بها حقًّا غير كذب، فمعنى { حَقَّ } هنا تحقّق، وحقّ كلمة العذاب عليهم ضد هدي الله الآخرين، وكونهم في النار ضد كون الآخرين لهم البشرى، وترتيب المتضادين جرى على طريقة شبه اللف والنشر المعكوس.

{ **حَقَّ** } تجريد الفعل من تاء التأنيث مع أنّ فاعله مؤنث { كَلِمَةُ }، لأنّ الفاعل اكتسب التذكير ممّا أضيف هو إليه نظرا لإمكان الاستغناء عن المضاف بالمضاف إليه، فكأنّه قيل: أفمن حق عليه العذاب.

{ **كَلِمَةُ الْعَذَابِ** } هي كلام الله المقتضي أنّ الكافر في العذاب، أي: تقدير الله ذلك للكافر في وعيده.

{ **أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ** } تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي مفيد لتقوّي الحكم، وهو إنكار أن يكون النبيّ صلى الله عليه وسلم بتكرير دعوته يخلّصهم من تحقيق الوعيد أو يحصل لهم الهداية إذا لم يقدّرها الله لهم.

{ **مَنْ فِي النَّارِ** } هم من حقّت عليهم كلمة العذاب، فوقع إظهار في مقام الإضمار، والأصل: أفأنت تنقذه من النار. وفائدة هذا الإظهار تهويل حالتهم لما في الصلة من حرف الظرفية المصوّر لحالة إحاطة النار بهم. فشبّه تحقّق الوقوع في المستقبل بتحقّقه في الحال.

والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم تهوينا عليه بعض حرصه على تكرير دعوتهم إلى الإسلام، وحزنه على إعراضهم وضلالهم، وإلّا فلم يكن النبيّ صلى الله عليه وسلم بالذي يظنّ أنّه ينقذهم من وعيد الله.

وحاصل نظم هذا التركيب: أفمن حق عليه كلمة العذاب فهو في النار أفأنت تنقذه وتنقذ من في النار.

وقد أشار إلى هذه الحالة الممثّلة في الآية حديث أبي هريرة أنّه سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول:

" إنّما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله جعل الفَراش وهذه الدوابُ التي

تقع في النار يقعن فيها فجعل ينزعهن ويغلبنه فيقتحمن فيها، فأنا آخذ بحُجزكم عن النار وأنتم تقتحمون فيها ".

ولا متمسك للمعتزلة في الاستدلال بالآية على نفي الشفاعة المحمّدية لأهل الكبائر، على أننا لو سلمنا أن الآية مسوقة في غرض الشفاعة فإنّما نفت الشفاعة لأهل الشرك. ولا خلاف في أنّ المشركين لا شفاعة فيهم، قال تعالى { فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ } [المدثر:48]، على أنّ المنفي هو أن يكون النبيّ صلى الله عليه وسلم منقذا لمن أراد الله عدم إنقاذه، فأمّا الشفاعة فهو سؤال الله أن ينقذه.

{ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ } [20].

أعيدت بشارة الذين اجتنبوا الطاغوت تفصيلا للإجمال الواقع من قبل.

{ **لَكِنِ** } الافتتاح بحرف الاستدراك لزيادة تقرير الفارق بين حال المؤمنين وحال المشركين والمضادة بينهما، فحرف الاستدراك هنا لمجرّد الإشعار بتضاد الحالين ليعلم السامع أنّه سيتلقى حكما مخالفا لما سبق.

{ **الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ** } هم الذين اجتنبوا عبادة الطاغوت وأنابوا إلى الله واتبعوا أحسن القول واهتدوا بهدي الله وكانوا أولي ألباب، فعدل عن الإتيان بضميرهم هنا إلى الموصول لقصد مدحهم بمدلول الصلة، وللإيماء إلى أنّ الصلة سبب للحكم المحكوم به على الموصول، وهو نوالهم الغرف.

{ **رَبَّهُمْ** } عدل عن اسم الجلالة إلى وصف الربّ المضاف إلى ضمير المتّقين لما في تلك الإضافة من تشريفهم برضى ربّهم عنهم.

{ **لَهُمْ غُرَفٌ** } اللام للاختصاص. والمعنى: أنّها لهم في الجنة.

الغُرف: جمع غُرْفة، وهي البيت المرتكز على بيت آخر، ويقال لها العُلِّيَّة (بضم العين وكسرها وبكسر اللام مشددة والتحتية كذلك) وتقدّمت **الغرفة** في [الفرقان:57].

{ **مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ** } أنّها موصوفة باعتلاء غرف عليها وكل ذلك داخل في حيز لام الاختصاص، فالغرف التي فوق الغرف هي لهم أيضا لأنّ ما فوق البناء تابع له، وهو المسمَّى بالهواء في اصطلاح الفقهاء. فالمعنى: لهم أطباق من الغرف، وذلك مقابل ما جُعل لأهل النار في قوله { لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ } [16].

{ **مَبْنِيَّةٌ** } الممسوكة الجدران بحجر وجِصّ، أو حجر وتراب، أو بطوب مشمّس ثم يوضع عليها السقف. وقد تردّد المفسرون في وجه وصف الغرف بكونها مبنية مع أن الغرفة لا تكون إلّا من بناء.

<u>فقيل</u> :ذكر المبنية للدلالة على أنّها غرف حقيقية لا أشياء مشابهة الغرف، فرقا بينها وبين الظلل التي جعلت للذين خسروا يوم القيامة فإنّ ظللهم كانت من نار فلا يظنّ السامع أن غرف المتقين مجاز عن

سحابات من الظل أو نحو ذلك لعدم الداعي إلى المجاز هنا بخلافه هنالك، لأنّه اقتضاه مقام التهكّم.

وقيل: أريد أنّها مهيّأة لهم من الآن. فهي موجودة، لأنّ اسم المفعول كاسم الفاعل في اقتضائه الاتصاف بالوصف في زمن الحال، فيكون إيماء إلى أنّ الجنّة مخلوقة من الآن.

ويجوز عندي أن يكون الوصف احترازا عن نوع من الغرف تكون نحتا في الجبال مثل غرف ثمود.

ويجوز أن يكون وصفا للغرف باعتبار ما دل عليه لفظها من معنى المبني المعتلي، فيكون الوصف دالا على تمكّن المعنى الموصوف، أي: مبنية بناء بالغا الغاية في نوعه.

{ **تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ** } جريُ الأنهار من تحتها من كمال حسن منظرها. أي: أنّ الأنهار تمرّ على ما يجاور تحتها، كما تقدّم في قوله تعالى { جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ } [آل عمران:15]، فأطلق اسم (تحت) على المجاورة.

ويجوز أن يكون المعنى: تجري من تحت أسسها الأنهار، أي: تخترق أسسها وتمر فيها وفي ساحاتها، وذلك من أحسن ما يرى في الديار، كديار دمشق وقصر الحمراء بالأندلس وديار أهل الترف في مدينة فاس فيكون إطلاق (تحت) حقيقة.

{ **وَعْدَ اللَّهِ** } مصدر منصوب على أنّه مفعول مطلق مؤكّد لنفسه، لأنّ قوله تعالى { لَهُمْ غُرَفٌ } في معنى: وعدهم الله غرفا وعدا منه. ويجوز انتصابه على الحال من { غُرَفٌ }.

وإضافة { وَعْدَ } إلى اسم الجلالة مؤذنة بأنّه وعد موفى به.

{ **لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ** } بيانا لمعنى { وَعْدَ اللَّهِ }. و**الميعاد**: مصدر ميمي بمعنى الوعد.

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ } [21].

استئناف ابتدائي انتقل به إلى غرض التنويه بالقرآن وما أحتوى عليه من هدى الإسلام، وهو الغرض الذي ابتدئت به السورة وانثنى الكلام منه إلى الاستطراد بقوله تعالى { فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ } [2] إلى هنا، فهذا تمهيد لقوله { أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ - إلى قوله - ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ } [23/22] فمُثِّلت حالة إنزال القرآن واهتداء المؤمنين به والوعد بنماء ذلك الاهتداء، بحالة إنزال المطر ونبات الزرع به واكتماله.

وقريب من تمثيل هذه الآية ما في الصحيحين عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّه قال :" **مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقيَّةٌ قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقُه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعَلِم وعَلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هُدى الله الذي أرسلت به** ".

{ **أَلَمْ تَرَ** } استفهام تقريري، والخطاب لكلّ من يصلح للخطاب فليس المراد به معيّنا. والرؤية بصرية.

{ **أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** } تقدّم نظيره في قوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً } [الأنعام:99].

{ **سَلَكَهُ** } أدخله، أي: داخلا، ففعل سلك هنا متعدّ، وتقدّم عند قوله تعالى { وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا } [طه:53]، وذكرنا هنالك أنّ فعل سلك يكون قاصرا ومتعدّيا.

{ **يَنَابِيعَ** } جمع ينبوع وهو العين من الماء، وتقدّم في قوله تعالى { حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا } [الإسراء:90]. وانتصب { يَنَابِيعَ } على الحال من ضمير { مَاءً }.

{ **ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا** } عُطف بـ { ثُمَّ } لإفادة التراخي الرتبي لأنّ إخراج الزرع من الأرض بعد إقْحالها أوقع في نفوس الناس، لأنّه أقرب لأبصارهم وأنفع لعيشهم، وإذ هو المقصود من المطر.

الألوان: جمع لون، واللون: كيفية لائحة على ظاهر الجسم في الضوء، وتقدّم في [فاطر:28/27].

واختلاف ألوان الزرع بالمعنى الأول أنّ لكل نوع من الزرع لونا ولنَوْرها ألوانا، ولكلّ صنف من الزرع ألوان مختلفة في أطوار نباته وبلوغه أشدّه، وهذا الاختلاف مع اتحاد الأرض التي تنبت فيها واتحاد الماء الذي نبت به.

{ **يَهِيجُ** } يغلظ ويرتفع. وحقيقة الهياج: ثورة الإنسان أو الحيوان، ويستعار الهياج لشدّة الشيء من غير الحيوان يقال: هاجت ريح، ومنه هياج الزرع في الآية، لأنّ الزرع تطول سوقه وسنابله فيتم جفافه فإذا تحرك بمرور الريح عليه صار له حفيف وخشخشة.

الحطام: المحطوم، أي: المكسور المفتوت، ووزن فُعال يدلّ على المفعول كالفُتات والدُقاق، ومثله الفُعالة كالقمامة. والمعنى: أنّه يبلغ من اليبس إلى حد أن يتحطّم ويتكسر بحك بعضه بعضا وكسر الريح إيّاه.

وجميع الأطوار السابقة آيات على دقّة صنعه سبحانه وكيف أودع الأطوار الكثيرة في الشيء الواحد يخلف بعضها بعضا، من طور وجوده إلى طور إضمحلاله.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ** } مبيّنة للاستفهام التقريري، وفذلكة للأطوار المستفهم عنها، فالإشارة بذلك إلى المذكور من الإنزال إلى آخر الأطوار.

{ **أُولِي الْأَلْبَابِ** } هم الذين ينتفعون بألبابهم فيهتدون بما نُصب لهم من الأدلة، كما تقدّم آنفا في قوله تعالى { إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ } [9]، وهم الذين استدلوا فآمنوا. وفي هذا التعريض بأنّ الذين لم يستفيدوا من الأدلة بمنزلة من عدموا العقول.

{ **أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ** } [23].

{ **أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ** } استفهام تقريري، وشرحُ الصدر للإسلام استعارة لقبول العقل هدي الإسلام ومحبته.

الشرح: حقيقته شق اللحم، ومنه سُمِّي علم مشاهدة باطن الإنسان وتركيبه علم التشريح.

ولمّا كان الإنسان إذا تحيّر وتردّد في أمر يظهر تأثّره في انضغاط نفسه حتّى يصير تنفّسه عسيرا ويكثر تنهده، وكان عضو التنفس في الصدر، شُبِّه ذلك الانضغاط بالضيق والانطباق، فقالوا: ضاق صدره. قال تعالى عن موسى عليه السلام { وَيَضِيقُ صَدْرِي } [الشعراء:13]، وقالوا: انطبق صدره وانطبقت أضلاعه، وقالوا في ضد ذلك: شرح الله صدره. وجمع بينهما قوله تعالى { فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ } [الأنعام:125].

ومن رشاقة ألفاظ القرآن إيثار كلمة { شَرَحَ } للدلالة على قبول الإسلام، لأن تعاليم الإسلام وأخلاقه وآدابه تُكسب المسلم فرحا بحاله ومسرّة برضى ربه واستخفافا بالمصائب والكوارث لجزمه بأنّه على حق في أمره وأنّه مثاب على ضرّه، وأنّه راج رحمة ربه في الدنيا والآخرة، ولعدم مخالطة الشك والحيرة ضميره.

{ **لِلْإِسْلامِ** } لام العلة، أي: شرحه لأجل الإسلام، أي: لأجل قبوله.

{ **فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ** } تفريع على أن شرح الله صدره للإسلام، فالضمير عائد إلى { أَفَمَنْ } .

{ **عَلَى** } استعارة تبعية أو تمثيلية للتمكّن من النور، كما استعيرت في قوله تعالى { أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ } [البقرة:5].

النور: مستعار للهدى ووضوح الحق، لأنّ النور به تنجلي الأشياء ويخرج المبصر من غياهب الضلالة.

{ **مِنْ رَبِّهِ** } نعت لنور و{ مِنْ } ابتدائية، أي: نور موصوف بأنّه جاء به من عند الله، فهو نور كامل لا تخالطه ظلمة، وهو النور الذي أضيف إلى اسم الله في قوله تعالى { يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ } [النور:35].

{ **فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ** } أُجمل سوء حالهم بما تدلّ عليه كلمة { وَيْلٌ } من بلوغهم أقصى غايات الشقاوة والتعاسة، وتقدّم تفصيل معانيه عند قوله تعالى { فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ } [البقرة:79].

القاسي: المتّصف بالقساوة في الحال، وحقيقة القساوة: الغلظ والصلابة في الأجسام، وقد تقدّمت عند قوله تعالى { فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً } [البقرة:74].

قسوة القلب: مستعارة لقلة تأثر العقل بما يُسدى إلى صاحبه من المواعظ ونحوها، ويقابل هذه الاستعارة استعارة اللين لسرعة التأثّر بالنصائح ونحوها، كما سيأتي في قوله { ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ } [23].

{ **مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ** } يجوز أن تكون { مِنْ } بمعنى (عن) بتضمين { الْقَاسِيَةِ } معنى المعرضة والنافرة.
ذكر الله: القرآن، وإضافته إلى الله زيادة تشريف له.
وحاصل المعنى: أنّ كفرهم يحملهم على كراهية ما يسمعونه من الدعوة إلى الإسلام بالقرآن فكلّما سمعوه أعرضوا وعاندوا وتجدّدت كراهية الإسلام في قلوبهم حتّى ترسخ تلك الكراهية في قلوبهم فتصير قلوبهم قاسية. فكان القرآن سبب اطمئنان قلوب المؤمنين، قال تعالى { الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ } [الرعد:28]. وكان سببا في قساوة قلوب الكافرين.
فذكر الله سبب في لين القلوب وإشراقها إذا كانت القلوب سليمة من مرض العناد والمكابرة والكبر، فإذا حل فيها هذا المرض صارت، إذا ذكر الله عندها، أشد ّمرضا ممّا كانت عليه.
{ **أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ** } علّة لقسوة قلوبهم، حسبما اقتضاه وقوع جملته استئنافا بيانيا. ومضمونها مفعولا لقسوة قلوبهم حسبما اقتضاه تصدير جملتها باسم الإشارة وعقب وصف المشار إليهم بأوصاف.
وكذلك شأن الأعراض النفسية أن تكون فاعلة ومنفعلة باختلاف المثار وما تتركه من الآثار، لأنّها علل ومعلولات.
المبين: الشديد الذي لا يخفى لشدّته، فالمبين كناية عن القوّة والرسوخ فهو يبين للمتأمّل أنّه ضلال.

{ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ } [23].

{ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ** } جملة مبيّنة أنّ قساوة قلوب الضالين من سماع القرآن إنّما هي لرَيْن في قلوبهم وعقولهم لا لنقص في هدايته. وهي تكميل للتنويه بالقرآن المفتتح به غرض السورة.
{ **اللَّهُ نَزَّلَ** } افتتاح الجملة باسم الجلالة يؤذن بتفخيم أحسن الحديث المنزّل، بأنّ منزّله هو أعظم عظيم.
ثم الإخبار عن اسم الجلالة بالخبر الفعلي يدلّ على تقوية الحكم وتحقيقه على نحو قولهم: هو يعطي الجزيل، ويفيد مع التقوية دلالة على الاختصاص، أي: اختصاص تنزيل الكتاب بالله تعالى، والمعنى: الله نزل الكتاب لا غيره، ففيه إثبات أنّه منزل من عالم القدس، وذلك أيضا كناية عن كونه وحيا من عند الله لا من وضع البشر. ردا لقول المشركين: هو أساطير الأوّلين.
{ **أَحْسَنَ الْحَدِيثِ** } الوصف الأول: أي: أحسن الخبر.
الحديث: التعريف للجنس، الخبر، سُمِّي حديثا لأنّ شأن الإخبار أن يكون عن أمر حدث وجدّ.
وسُمِّي القرآن حديثا باسم بعض ما أشتمل عليه من أخبار الأمم والوعد والوعيد. وأمّا ما فيه من الإنشاء

من أمر ونهي ونحوهما فإنّه لمّا كان النبيّ صلى الله عليه وسلم مبلّغه للناس آل إلى أنّه إخبار عن أمر الله ونهيه.

وقد سُمِّي القرآن حديثا في مواضع كثيرة، كقوله تعالى { فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ } [الأعراف:185]، وقوله تعالى { فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا } [الكهف:6].

ومعنى كون القرآن أحسن الحديث أنّه أفضل الأخبار لأنّه أشتمل على أفضل ما أشتملت عليه الأخبار من المعاني النافعة والجامعة لأصول الإيمان، والتشريع، والاستدلال الحق، ومن فصاحة ألفاظه وبلاغة معانيه البالغين حدّ الإعجاز، ومن كونه مصدّقا لما تقدَّمه من كتب الله ومهيمنا عليها.

وفي إسناد إنزاله إلى الله استشهاد على حسنه، حيث نزّله العليم بنهاية محاسن الأخبار والذكر.

{ **كِتَابًا** } الوصف الثاني : أنّه كتاب. أي: مجموع كلام مراد قراءته وتلاوته والاستفادة منه، مأمور بكتابته ليبقى حجّة على مرّ الزمان، فإنّ جعل الكلام كتابا يقتضي أهمية ذلك الكلام والعناية بتنسيقه والاهتمام بحفظه على حالته.

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر كتّاب الوحي من أصحابه أن يكتبوا كلّ آية تنزل من الوحي في الموضع المعيّن لها بين أخواتها استنادا إلى أمر من الله، لأنّ الله أشار إلى الأمر بكتابته في مواضع كثيرة من أوّلها قوله تعالى { بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ } [البروج:23/22]، وقوله تعالى { إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ } [الواقعة:78/77].

{ **مُتَشَابِهًا** } الوصف الثالثة : متشابهة أجزاؤه متماثلة في فصاحة ألفاظها وشرف معانيها.

فهي متكافئة في الشرف والحسن. فمعانيه متشابهة في صحّتها وأحكامها وابتنائها على الحقّ والصدق، ومصادفة المقنع من الحجّة وتبكيت الخصوم، وكونها صلاحا للناس وهدى. وفي هذا إشارة إلى أنّ جميع آيات القرآن بالغ الطرف الأعلى من البلاغة، وأنّها متساوية في ذلك بحسب ما يقتضيه حال كلّ آية منها. وأمّا تفاوتها في كثرة الخصوصيات وقلتها فذلك تابع لاختلاف المقامات ومقتضيات الأحوال، فإنّ بلاغة الكلام مطابقته لمقتضى الحال، والطرف الأعلى من البلاغة هو مطابقة الكلام لجميع ما يقتضيه الحال.

وهذا المعنى ممّا يدخل في قوله تعالى { أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا } [النساء:82].

وبما قرَّرنا تعلم أنّ المتشابه هنا مراد به معنى غير المراد في قوله تعالى { وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ } [آل عمران:7].

{ **مَثَانِيَ** } الوصف الرابع : مُكرّر الأغراض. جمع مُثَنَّى، جمعا على غير قياس، أو اسم جمع. ويجوز كونه جمع مَثْنَى، وهو اسم لجعل المعدود أزواجا اثنين، اثنين، وكلا الاحتمالين يطلق على معنى التكرير. كُنِّي عن معنى التكرير بمادة التثنية لأن التثنية أوّل مراتب التكرير.

وقد تقدّم بيان معنى { مَثَانِيَ } في قوله تعالى { وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي } [الحجر:87]، فالقرآن

مثاني لأنّه مكرّر الأغراض. وهذا يتضمّن امتنانا على الأمّة بأنّ أغراض كتابها مكرّرة فيه لتكون مقاصده أرسخ في نفوسها، وليسمعها من فاته سماع أمثالها من قبل.

ويتضمّن أيضا تنبيها على ناحية من نواحي إعجازه، وهي عدم الملل من سماعه وأنّه كلّما تكرّر غرض من أغراضه زاده تكرّره قبولا وحلاوة في نفوس السامعين. ولذا وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن : " **بأنّه لا يخلق على كثرة الردّ** ". [رواه الترمذي عن علي بن أبي طالب مرفوعا].

{ **تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ** } الوصف الخامس، وهذا الوصف مرتّب على الوصف السابق، وهو مشتمل على ثلاث جهات:

الجهة الأولى: وصف القرآن بالجلالة والروعة في قلوب سامعيه، وذلك لِما في آياته الكثيرة من الموعظة التي تَوْجَل منها القلوب، وهو وصف كمال، لأنّه من آثار قوّة تأثير كلامه في النفوس.

وقد اقتضى قوله تعالى { تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ } أنّ القرآن يشتمل على معان تقشعر منها الجلود، وهي المعان الموسومة بالجزالة التي تثير في النفوس روعة وجلالة ورهبة تبعث على امتثال السامعين له وعملهم بما يتلقّونه من قوارع القرآن وزواجره، وكُنِّي عن ذلك بحالة تقارن انفعال الخشية والرهبة في النفس، لأنّ الإنسان إذا ارتاع وخشي اقشعر جلده من أثر الانفعال والرهبة.

قال تعالى { لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } [الحشر:21].

حُكي في الحديث الصحيح عن جبير بن مطعم قال: " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ قوله تعالى { أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ - إلى قوله - الْمُصَيْطِرُونَ} [الطور:35-37] كاد قلبي أن يطير، وذلك أوّل ما وقر الإسلام في قلبي ".

الجهة الثانية: لين قلوب المؤمنين عند سماعه أيضا عقب وجلها العارض من سماعه.

اللين: مستعار للقبول والسرور، وهو ضدّ للقساوة التي في قوله { فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ } [22]، فإنّ المؤمن إذا سمع آيات الوعيد والتهديد يخشى ربّه ويتجنّب ما حُذّر منه، فيقشعر جلده فإذا عُقّب ذلك بآيات البشارة والوعد استبشر وفرح وعرض أعماله على تلك الآيات فرأى نفسه متحلّية بالعمل الذي وعد الله عليه بالثواب فاطمأنت نفسه وأنقلب الوجل والخوف رجاء وترقُّبا، فذلك معنى لين القلوب.

وإنّما يبعث هذا اللين في القلوب ما في القرآن من معاني الرحمة وذلك في الآيات الموصوفة معانيها بالسهولة نحو قوله تعالى { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } [الزمر:53]، والموصوفة معانيها بالرقّة نحو قوله تعالى { يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ } [الزخرف:68-69].

وقد عُلم في فن الخطابة أنّ للجزالة مقاماتها وللسهولة والرقة مقاماتها.

الجهة الثالثة: أعجوبة جمعه بين التأثيرين المتضادين: مرة بتأثير الرهبة، ومرة بتأثير الرغبة، ليكون المسلمون في معاملة ربّهم جارين على ما يقتضيه جلاله وما يقتضيه حلمه ورحمته. وهذه الجهة اقتضاها الجمع بين الجهتين المصرّح بهما وهما جهة القشعريرة وجهة اللين، مع كون الموصوف بالأمرين فريقا واحدا وهم الذين يخشون ربهم، والمقصود وصفهم بالتأثرين عند تعاقب آيات الرحمة بعد آيات الرهبة.

فالآية هنا ذكرت لهم الحالتين لوقوعها بعد قوله تعالى { مَثَانِيَ }، وإلّا فقد اقتصر على وصف حال المؤمنين بالوجل في قوله تعالى { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ } [الأنفال:5]، فالمقام هنا لبيان تأثّر المؤمنين بالقرآن، والمقام هنالك للثناء على المؤمنين بالخشية من الله في غير حالة قراءة القرآن.

{ **ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ** } جُمع بين الجلود والقلوب ولم يُكتف بأحد الأمرين عن الآخر كما اكتفي في قوله تعالى { تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ } لأنّ اقشعرار الجلود حالة طارئة عليها لا يكون إلّا من وجل القلوب وروعتها فكُنِّي به عن تلك الروعة. وأمّا لين الجلود عقب تلك القشعريرة فهو رجوع الجلود إلى حالتها السابقة قبل اقشعرارها، وذلك قد يحصل عن تناس أو تشاغل بعد تلك الروعة، فعطف عليه لين القلوب ليُعلم أنّه لين خاص ناشئ عن اطمئنان القلوب بالذكر، كما قال تعالى { أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ } [الرعد:28]، وليس مجرّد رجوع الجلود إلى حالتها التي كانت قبل القشعريرة.

{ **ذِكْرِ اللَّهِ** } هو أحسن الحديث، وعدل عن ضميره لبعد المعاد، وعدل عن إعادة اسمه السابق لمدحه بأنّه ذكر من الله بعد أن مدح بأنّه أحسن الحديث.

{ **ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ** } استئناف بياني. ومعنى إسناد الهدى والإضلال إلى الله راجع إلى مراتب تأثّر المخاطبين بالقرآن وعدم تأثّرهم، بحيث كان القرآن مستوفيا لأسباب اهتداء الناس به، فكان منهم من اهتدى به ومنهم من ضلّ عنه.

ويجوز أن تكون الإشارة إلى { أَحْسَنَ الْحَدِيثِ }، وهو الكتاب، أي: ذلك القرآن هدى الله، أي: دليل لذلك.

{ **وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ** } تذييل للاستئناف البياني.

{ أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ } [24].

{ **أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** } جعلها المفسّرون تفريعا على جملة { ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ } [23]، بدلالة مجموع الجملتين على فريقين: فريق مهتد، وفريق ضال، ففُرِّع على ذلك هذا الاستفهام المستعمل في معنى مجازي. وجعل المفسّرون في الكلام

حذفا، وتقدير المحذوف: كمن أمن العذاب أو كمن هو في النعيم. وجعلوا الاستفهام تقريريا أو إنكاريا، والمقصود: عدم التسوية بين من هو في العذاب وهو الضال، ومن هو في النعيم وهو الذي هداه الله.

الاتقاء: تكلّف الوقاية وهي الصون والدفع، وفعلها يتعدّى إلى مفعولين، يقال: وقى نفسه ضرب السيف، ويتعدّى بـ (الباء) إلى سبب الوقاية، يقال: وقى بترسه.

{ **بِوَجْهِهِ** } وإذا كان وجه الإنسان ليس من شأنه أن يوقى به شيء من الجسد، إذ الوجه أعز ما في الجسد وهو يوقى ولا يُتَّقى به، فإنّ من جبلّة الإنسان إذا توقّع ما يصيب جسده ستر وجهه خوفا عليه، فتعيّن أن يكون الاتقاء بالوجه مستعملا كناية عن عدم الوقاية على طريقة التهكّم أو التمليح، فكأنّه قيل: من يطلب وقاية وجهه فلا يجد ما يقيه به إلّا وجهه، وهذا من إثبات الشيء بما يشبه نفيه، وقريب منه قوله تعالى { وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ } [الكهف:29].

{ **سُوءَ الْعَذَابِ** } منصوب على المفعولية لفعل { يَتَّقِي }. وأصله مفعول ثان إذ أصله: وقى نفسه سوء العذاب، فلمّا صيغ منه الافتعال صار الفعل متعدّيا إلى مفعول واحد هو الذي كان مفعولا ثانيا.

{ **وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ** } يجوز أن يكون عطفا على الصلة. والتقدير: أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب، وقيل لهم...، وجاء فعل { وَقِيلَ } بصيغة الماضي لأنّه لتحقّق وقوعه نزل منزلة فعل مضى.

{ **الظَّالِمِينَ** } إظهار في مقام الإضمار للإيماء إلى أنّ ما يلاقونه من العذاب مسبَّب على ظلمهم، أي: شركهم

والمعنى: أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب فلا يجد وقاية تنجيه من ذوق العذاب فيقال لهم: ذوقوا العذاب.

ويجوز أن يكون المراد بـ { الظَّالِمِينَ } جميع الذين أشركوا بالله من الأمم، غير خاص بالمشركين المتحدَّث عنهم، فيكون { الظَّالِمِينَ } إظهارا على أصله لقصد التعميم، فتكون الجملة في معنى التذييل، أي: ويقال لهؤلاء وأشباههم. ويظهر بذلك وجه تعقيبه بقوله تعالى { كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } [25].

ويجوز أن تكون الجملة في موضع الحال بتقدير: (وقد)، ولذلك لا يُحتاج إلى تأويل صيغة الماضي.

الذوق: مستعار لإحساس ظاهر الجسد، لأنّ إحساس الذوق باللسان أشدّ من إحساس ظاهر الجلد فوجه الشبه قوّة الحسّ.

المذوق: هو العذاب، فهو جزاء ما اكتسبوه في الدنيا من الشرك وشرائعه، فجعل المذوق نفس ما كانوا يكسبون، مبالغة مشيرة إلى أنّ الجزاء وفق أعمالهم وأنّ الله عادل في تعذيبهم.

{ **تَكْسِبُونَ** } أوثر على تعملون لأنّ خطابهم كان في حال اتقائهم سوء العذاب ولا يخلو حال المعذَّب من التبرم الذي هو كالإنكار على معذِّبه. فجيء بالصلة الدالة على أنّ ما ذاقوه جزاء ما اكتسبوه، قطعا لتبرّمهم.

{ **كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ** [25] **فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** [26] }.

استئناف بياني لأنّ ما ذُكر قبله من مصير المشركين إلى سوء العذاب يوم القيامة ويوم يقال للظالمين هم وأمثالهم: ذوقوا ما كنتم تكسبون، يثير في نفوس المؤمنين سؤالا عن تمتّع المشركين بالنعمة في الدنيا، ويتمنون أن يُعجَّل لهم العذاب، فكان جوابا عن ذلك. أي: هم مظنّة أن يأتيهم العذاب كما أتي العذاب الذين من قبلهم، إذ أتاهم العذاب في الدنيا بدون إنذار غير مترقّبين مجيئه، على نحو قوله تعالى { فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ } [يونس:102]، فكان عذاب الدنيا خزيا يجزي به الله من يشاء من الظالمين، وأمّا عذاب الآخرة فجزاء يجزي به الله الظالمين على ظلمهم.

{ **فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ** } حرف (الفاء) عائد على { مَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ } [24]، باعتبار أن (مَنْ) تفيد الجمع. وفي هذا تعريض بإنذار المشركين بعذاب في الدنيا، وهو عذاب السيف الذي أخزاهم الله به يوم بدر. فالمراد بالعذاب الذي أتى الذين من قبلهم: هو عذاب الدنيا، لأنّه الذي يوصف بالإتيان من حيث لا يشعرون.

{ **مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ** } { حَيْثُ } ظرف مكان، أي: جاء العذاب الذين من قبلهم من مكان لا يشعرون به، فقوم أتاهم من جهة السماء بالصواعق، وقوم أتاهم من الجو مثل ريح عاد، قال تعالى { فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ } [الاحقاف:24]، وقوم أتاهم من تحتهم بالزلازل والخسف مثل قوم لوط، وقوم أتاهم من نبع الماء من الأرض مثل قوم نوح، وقوم عم ّعليهم البحر مثل قوم فرعون.

وكان العذاب الذي أصاب كفار قريش لم يخطر لهم ببال، وهو قطع السيوف رقابهم وهم في عزّة من قومهم وحرمة عند قبائل العرب ما كانوا يحسبون ايديًا تقطع رقابهم، كحال أبي جهل وهو في الغرغرة يوم بدر حين قال له ابن مسعود: " أنت أبا جهل؟ " فقال: " وهل أعمد من رجل قتله قومُه ".

{ **فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ** } استعارة الإذاقة لإهانة الخزي تخييليّة، وهي من تشبيه المعقول بالمحسوس.

{ **وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ** } للاحتراس، أي: أنّ عذاب الآخرة هو الجزاء، وأمّا عذاب الدنيا فقد يصيب الله به بعض الظلمة زيادة خزي لهم.

{ **أَكْبَرُ** } أشدّ، فهو أشّد كيفية من عذاب الدنيا، وأشدّ كمّية لأنّه أبديّ.

{ **لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** } جملة معترضة في آخر الكلام. و{ لَوْ } جوابها محذوف دلّ عليه التعريض بالوعيد في قوله { كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ }، تقديره: لو كانوا يعلمون أن ما حّل بهم سببه تكذيبهم رسلهم، كما كذب هؤلاء محمدا صلى الله عليه وسلم.

{ **يَعْلَمُونَ** } المفعول دل عليه الكلام المتقدّم، أي: لو كان هؤلاء يعلمون أنّ الله أذاق الآخرين الخزي في الدنيا بسبب تكذيبهم الرسل، وأنّ الله أعدّ لهم عذابا في الآخرة هو أشد.

وضمير { يَعْلَمُونَ } عائد إلى ما عاد إليه ضمير { قَبْلِهِمْ }.

{ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ [27] قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ [28] }.

عطف على جملة { اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ - إلى قوله - فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ } [23]، تتمّة للتنويه بالقرآن وإرشاده وللتعريض بتسفيه أحلام الذين كذّبوا به وأعرضوا عن الاهتداء بهديه.

{ **وَلَقَدْ** } تأكيد الخبر بلام القسم وحرف التحقيق منظور فيه إلى حال الفريق الذين لم يتدبَّروا القرآن وطعنوا فيه وأنكروا أنّه من عند الله.

{ **النَّاسِ** } التعريف للاستغراق، أي: لجميع الناس، فإنّ الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم للناس كافة.

ضَرْب المثل: ذِكره ووصفُه، وقد تقدّم في قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا } [البقرة:26].

{ **مَثَلٍ** } التنوين للتعظيم والشرف، أي: من كل أشرف الأمثال.

فالمعنى: ذكرنا للناس في القرآن أمثالا هي بعض من كلّ أنفع الأمثال وأشرفها. والمراد: شرف نفعها.

وخُصَّت أمثال القرآن بالذكر من بين مزايا القرآن لأجل لفت بصائرهم للتدبّر في ناحية عظيمة من نواحي إعجازه وهي بلاغة أمثاله، فإنّ بلغاءهم كانوا يتنافسون في جودة الأمثال وإصابتها المحزّ من تشبيه الحالة بالحالة. وتقدّم عند قوله تعالى { وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا } [الإسراء:89]، وعند قوله تعالى { وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ } [الروم:58].

{ **لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** } معنى الرجاء منصرف إلى أنّ حالهم عند ضرب الأمثال القرآنية كحال من يرجو الناس منه أن يتذكّر، وهذا مثل نظائر هذا الترجي الواقع في القرآن.

التذكّر: التأمّل والتدبّر لينكشف لهم ما هم غافلون عنه، سواء ما سبق لهم به علم فنسوه وشغلوا عنه بسفساف الأمور، وما لم يسبق لهم علم به ممّا شأنه أن يستبصره الرأي الأصيل، حتّى إذا انكشف له كان كالشيء الذي سبق له علمه وذهل عنه، فمعنى التذكّر معنى بديع شامل لهذه الخصائص.

{ **قُرْآنًا** } انتصب على الحال من اسم الإشارة المبيَّن بالقرآن، فالحال موطِّئة لأنّها توطئة للنعت {**عَرَبِيًّا**}.

والمقصود من هذه الحال التورّك على المشركين حيث تلقّوا القرآن تلقّي من سمع كلاما لم يفهمه كأنّه بلغة غير لغته لا يعيره بالا، كقوله تعالى { فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } [الدخان:58].

مع ما فيه من التحدّي لهم بأنّهم عجزوا عن معارضته وهو من لغتهم، وهو أيضا ثناء على القرآن من حيث استقامة ألفاظه، لأنّ اللغة العربية أفصح لغات البشر.

العِوَج: (بكسر العين) أريد به اختلال المعاني دون الأعيان، وأمّا **العَوج** (بفتح العين) فيشملها، وهذا مختار أئمة اللغة. وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا } [الكهف:1]، وقوله تعالى { لا تَرَى

فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا } [طه:107]. وهذا ثناء على القرآن بكمال معانيه بعد أن أثني عليه باستقامة ألفاظه. ووجه العدول عن وصفه بالاستقامة إلى وصفه بانتفاء العوج عنه التوسّل إلى إيقاع { عِوَجٍ }، وهو نكرة في سياق ما هو بمعنى النفي وهو كلمة {غَير} فيفيد انتفاء جنس العوج على وجه عموم النفي، أي: ليس فيه عوج قط، ولأنّ لفظ { عِوَجٍ } مختص باختلال المعاني، فيكون الكلام نصًّا في استقامة معاني القرآن، لأنّ الدلالة على استقامة ألفاظه ونظمه قد استفيدت من وصفه بكونه عربيا كما علمته آنفا.

{ **لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** } مثل قوله { لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ }، وذُكر هنا { يَتَّقُونَ } لأنّهم إذا تذكّروا يسرت عليهم التقوى، ولأنّ التذكّر أنسب بضرب الأمثال، لأنّ في الأمثال عبرة بأحوال الممثَّل به، فهي مفضية إلى التذكّر، والاتقاء أنسب بانتفاء العوج، لأنّه إذا استقامت معانيه كان العمل بما يدعو إليه أيسر، وذلك هو التقوى.

{ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ } [29].

استئناف وهو من قبيل التعرُّض إلى المقصود بعد المقدّمة فإنّ قوله تعالى { وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ } [27] توطئة لهذا المثل المضروب لحال أهل الشرك وحال أهل التوحيد. فهذا المثل متّصل بقوله تعالى { أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ - إلى قوله - أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ } [22]، فهو مثل لحال من شرح الله صدرهم للإسلام وحال من قست قلوبهم.

{ **ضَرَبَ اللَّهُ** } مجيء الفعل بصيغة الماضي لتقريب زمن الحال من زمن الماضي لقصد التشويق إلى علم هذا المثل. وفيه التنبيه على أنّه أمر محقّق الوقوع، كما في قوله { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً } [النحل:112].

أمّا صاحب الكشاف فجعل فعل { ضَرَبَ } مستعملا في معنى الأمر إذ فسَّره بقوله: اضرب لهم مثلا.

{ **رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ** } وما بعده في موضع البيان لـ { مَثَلًا }. وجُعل الممثَّل به حالة رجل ليس للاحتراز عن امرأة أو طفل ولكن لأنّ الرجل هو الذي يسبق إلى أذهان الناس في المخاطبات والحكايات، ولأنّ ما يراد من الرجال من الأعمال أكثر ممّا يراد من المرأة والصبي.

{ **فِيهِ شُرَكَاءُ** } نعت لـ { رَجُلًا }، وتقديم المجرور على { شُرَكَاءُ } لأنّ خبر النكرة يحسن تقديمه عليها إذا وصفت، فإذا لم توصف وجب تقديم الخبر لكراهة الابتداء بالنكرة. أي: في ملكه شركاء.

التشاكس: شدّة الاختلاف، وشدّة الاختلاف في الرجل الاختلاف في استخدامه وتوجيهه.

{ **سَلَمًا** } قرأه الجمهور (بفتح السين وفتح اللام بعدها ميم) وهو اسم مصدر: سلم له، إذا خلص. وقرأه ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب { سالمًا } بصيغة اسم الفاعل من: سلم. والمعنى: أنّه لا شركة فيه للرجل. وهذا تمثيل لحال المشرك في تقسّم عقله بين آلهة كثيرين فهو في حيرة وشك من رضى بعضهم عنه

وغضب بعض. ويقابله تمثيل حال المسلم الموحّد يقوم بما كلّفه ربّه عارفا بمرضاته مؤمِّلا رضاه وجزاءه.

{ **هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا** } الاستفهام يجوز أن يكون تقريريا، ويجوز أن يكون إنكاريا، وجيء فيه بـ { هَلْ } لتحقيق التقرير أو الإنكار.

المثل: الحال. والتقدير: هل يستوي حالاهما، والاستواء يقتضي شيئين فأكثر، وإنّما أفرد التمييز المراد به الجنس، وقد عُرف التعدد من فاعل { يَسْتَوِيَانِ }.

{ **الْحَمْدُ لِلَّهِ** } يجوز أن تكون جوابا للاستفهام التقريري بناء على أنّ أحد الظرفين المقرّر عليهما محقّق الوقوع لا يسع المقرّر عليه إلّا الإقرار به، فيقدَّرون أنّهم أقرّوا بعدم استوائهما في الحالة، أي: بأنّ أحدهما أفضل من الآخر، فإنّ مثل هذا الاستفهام لا ينتظر السائل جوابا عنه، فلذلك يصح أن يتولى الجواب عنه قبل أن يجيب المسؤول، كقوله تعالى {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ} [النبأ:2/1]، وقد يُبنى على أنّ المسؤول اعترف فيؤتى بما يناسب اعترافه كما هنا، فتكون الجملة استئنافا، فموقعها كموقع النتيجة بعد الدليل، وتكون جملة { **بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ** } قرينة على أنّهم نزلوا منزلة من علم فأقرّ وأنّهم ليسوا كذلك في نفس الأمر.

ويجوز أن تكون معترضة إذا جُعل الاستفهام إنكاريا، فتكون معترضة بين الإنكار وبين الإضراب الانتقالي في قوله { **بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ** }، أي: لا يعلمون عدم استواء الحالتين ولو علموا لاختاروا لأنفسهم الحسنى منهما، ولما أصرُّوا على الإشراك. وأفاد هذا أن ما انتحلوه من الشرك وتكاذيبه لا يمت إلى العلم بصلة فهو جهالة واختلاق. وأسند عدم العلم لأكثرهم لأنّ أكثرهم عامة أتباع لزعمائهم الذين سنُّوا لهم الإشراك.

{ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ [30] ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ [31] }.

لمّا جرى الكلام من أوّل السورة في مَهْيع إبطال الشرك وإثبات الوحدانية للإله، وتوضيح الاختلاف بين حال المشركين وحال الموحِّدين المؤمنين بما ينبئ بتفضيل حال المؤمنين، وفي مَهْيع إقامة الحجّة على بطلان الشرك وعلى أحقية الإيمان، وإرشاد المشركين إلى التبصّر في هذا القرآن، وتخلَّل في ذلك ما يقتضي أنّهم غير مقلعين عن باطلهم، وخُتم بتسجيل جهلهم وعدم علمهم، خُتم هذا الغرض بإحالتهم على حكم الله بينهم وبين المؤمنين يوم القيامة حين لا يستطيعون إنكارا، وحين يلتفتون فلا يرون إلّا نارا.

{ **إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ** } قدّم لذلك تذكيرهم بأنّ الناس كلّهم صائرون إلى الموت، فإنّ الموت آخر ما يُذكَّر به السادر في غلوائه إذا كان قد اغتر بعظمة الحياة ولم يتفكّر في اختيار طريق السلامة والنجاة، وهذا من انتهاز القرآن فرص الإرشاد والموعظة. فالمقصود قوله { ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ } فاغتنم هذا الغرض ليجتلب معه موعظة بما يتقدّمه من الحوادث عسى أن يكون لهم بها

معتبر، فحصلت بهذا فوائد:

*/ تمهيد ذكر يوم القيامة.

*/ التذكير بزوال هذه الحياة.

*/ حثّ المؤمنين على المبادرة للعمل الصالح.

*/ إشعارهم بأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم يموت كما مات النبيّون من قبله، ليغتنموا الانتفاع به في حياته ويحرصوا على ملازمة مجلسه.

*/ ألّا يختلفوا في موته كما اختلفت الأمم في غيره.

*/ تعليم المسلمين أنّ الله سوَّى في الموت بين الخلق دون رعي لتفاضلهم في الحياة.

والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم وهو خبر مستعمل في التعريض بالمشركين إذ كانوا يقولون { نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ } [الطور:30].

{ **وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ** } ضمير الغيبة للمشركين المتحدّث عنهم، وأمّا المؤمنون فلا غرض هنا للإخبار بأنّهم ميّتون كما هو بين من تفسير الآية. وتأكيد الخبرين بـ (إن) لتحقيق المعنى التعريضي المقصود منها.

الميّت: الصائر إلى الموت فهو من استعمال الوصف فيمن سيتصف به في المستقبل تنبيها على تحقيق وقوعه، مثل استعمال اسم الفاعل في المستقبل كقوله تعالى {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} [البقرة:30]. ومثله **الميْت** (بتخفيف السكون على الياء)، والتحقيق أنّه لا فرق بينهما.

{ **ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ** } عطف بحرف { ثمّ } الدال على التراخي الرتبي، لأنّ الإنباء بالفصل بينهم يوم القيامة أهمّ في هذا المقام من الإنباء بأنّهم صائرون إلى الموت. وتأكيد الجملة لردّ إنكار المشركين البعث. وتقديم { عِنْدَ رَبِّكُمْ } على { تَخْتَصِمُونَ } للاهتمام ورعاية الفاصلة.

الاختصام: كناية عن الحكم بينهم، أي: يحكم بينكم فيما اختصمتم فيه في الدنيا، فهو كقوله تعالى { وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } [النحل:124].

{ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ } [32].

أفادت الفاء تفريع ما بعدها على ما قبلها تفريع القضاء عن الخصومة التي في قوله تعالى { ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ } [31]، إذ قد علمتَ أنّ الاختصام كُنِّي به عن الحكم بينهم فيما خالفوا فيه وأنكروه، والمعنى: يقضي بينكم يوم القيامة فيكون القضاء على من كذب على الله وكذّب بالصدق إذ جاءه، إذ هو الذي لا أظلم منه.

وعُدل عن صَوْغ الحكم عليهم بصيغة الإخبار إلى صوغه في صورة الاستفهام للإيماء إلى أنّ السامع لا يسعه إلّا الجواب بأنّهم أظلم. فالاستفهام مستعمل مجازا مرسلا أو كناية مراد به أنّهم أظلم الظالمين.

فإنّهم أتوا أصنافا من الظلم العظيم:
*/ ظلم الاعتداء على حرمة الرب بالكذب في صفاته إذ زعموا أنّ له شركاء في الربوبية، والكذب عليه بادعاء أنّه أمرهم بما هم عليه من الباطل.
*/ ظلم الرسول صلى الله عليه وسلم بتكذيبه.
*/ ظلم القرآن بنسبته إلى الباطل.
*/ ظلم المؤمنين بالأذى.
*/ ظلم حقائق العالم بقلبها وإفسادها.
*/ ظلم أنفسهم بإقحامها في العذاب الخالد.
{ **بِالصِّدْقِ** } القرآن الذي جاء به النبيّ صلى الله عليه وسلم.
{ **إِذْ جَاءَهُ** } بلوغه إيّاهم، أي: سماعهم إيّاه وفهمهم، فإنّه بلسانهم وجاء بأفصح بيان بحيث لا يُعرِض عنه إلّا مكابر مؤثر حظوظ الشهوة والباطل على حظوظ الإنصاف والنجاة.
{ **إِذْ** } ظرف زمن ماض وهو مشعر بالمقارنة بين الزمن الذي تدلّ عليه الجملة المضاف إليها وحصول متعلّقه. ويدل هنا على أنّه كذَّب بالقرآن بمجرد بلوغه، أي: بادر بالتكذيب من غير تدبّر ولا إعمال بصيرة.
{ **أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ** } مبيّنة لمضمون جملة { فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ } أي: أنّ ظلمهم أوجب أن يكون مثواهم في جهنم. والاستفهام تقريري، ويجوز أن يكون الاستفهام إنكاريا ردًّا لاعتقادهم أنّهم ناجون من النار الدال عليه تصميمهم على الإعراض عن التدبّر في دعوة القرآن.
الكافرون: هم الذين كفروا بالله فأثبتوا له الشركاء أو كذّبوا الرسل بعد ظهور دلالة صدقهم، والتعريف للجنس المفيد للاستغراق، فشمل الكافرين المتحدَّث عنهم شمولا أوّليا.
وتكون الجملة مفيدة للتذييل أيضا، ويكون اقتضاء مصير الكافرين المتحدَّث عنهم إلى النار ثابتا بشبه الدليل الذي يعمّ مصير جميع الجنس الذي هم منه.
المثوى: اسم مكان الثواء، وهو القرار، فالمثوى المَقرّ.

{ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ [33] لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ [34] لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ [35] }.

الذي جاء بالصدق: هو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.
الصدق: القرآن، كما تقدّم آنفا في قوله تعالى { وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ } [32].

{ **وَصَدَّقَ بِهِ** } صلة موصول محذوف تقديره: والذي صدَّق به، لأنّ المصدِّق غير الذي جاء بالصدق.
{ **بِهِ** } الضمير يجوز أن يعود على (الصدق) ويجوز أن يعود على الذي { جَاءَ بِالصِّدْقِ }، والتصديق بكليهما متلازم، وإذ قد كان المصدّقون بالقرآن أو بالنبيّ صلى الله عليه وسلم من ثبت له هذا الوصف كان مرادا به أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم.
{ **أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** } خبر عن اسم الموصول. وجيء باسم الإشارة للعناية بتمييزهم أكمل تمييز.
وضمير الفصل { هُمُ } يفيد قصر جنس المتقين على { الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ } لأنّه لا متقِّي يومئذ غير الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه. قال تعالى { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ } [آل عمران:110]. المعنى: أولئك هم الذين تحقّق فيهم ما أريد من إنزال القرآن الذي أشير إليه في قوله تعالى { لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } [28].
{ **لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ** } مستأنفة استئنافا بيانيا، لأنّهم لمّا قصر عليهم جنس المتقين كان ذلك مشعرا بمزية عظيمة، فكان يقتضي أن يسأل السامع عن جزاء هذه المزيّة فبُيِّن له أنّ لهم ما يشاءون عند الله.
{ **مَا يَشَاءُونَ** } ما يريدون ويتمنّون، أي: يعطيهم الله ما يطلبون في الجنّة. ويجوز أنّه كناية عن سعة ما يعطونه، كما ورد في الحديث: **" ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر"**.
وفي الحديث: **" إنّ الله يقول لأحدهم: تمنَّه، فلا يزال يتمنّى حتّى تنقطع به الأمني فيقول الله: لك ذلك وعشرة أمثاله معه "**.
{ **عِنْدَ رَبِّهِمْ** } أنّ الله ادّخر لهم ما يبتغونه، وهذا من صيغ الالتزام ووعد الإيجاب، يقال: لك عندي كذا، أي: ألتزم لك بكذا. وعدل عن اسم الجلالة إلى وصف { رَبِّهِمْ } إيماء إلى أنّه يعطيهم عطاء الربوبية.
{ **ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ** } تنويه بهذا الوعد، والمشار إليه هو ما يشاءون لِما تضمّنه من أنّه جزاء لهم على التصديق. وأشير إليه باسم الإشارة لتضمّنه تعظيما لشأن المشار إليه.
{ **الْمُحْسِنِينَ** } أولئك الموصوفون بأنّهم المتقون، وكان مقتضى الظاهر أن يؤتى بضميرهم فيقال: ذلك جزاؤهم، فوقع الإظهار في مقام الإضمار لإفادة الثناء عليهم بأنّهم محسنون.
الإحسان: هو كمال التقوى لأنّه فسَّره النبيّ صلى الله عليه وسلم بأنه : **" أن تعبد الله كأنك تراه "**.
وأيّ إحسان وأيّ تقوى أعظم من نبذهم ما نشأوا عليه من عبادة الأصنام، ومن تحمُّلهم مخالفة أهليهم وذويهم وعداوتهم وأذاهم، ومن صبرهم على مصادرة أموالهم ومفارقة نسائهم، تصديقا للذي جاء بالصدق وإيثارا لرضى الله على شهوة النفس ورضي العشيرة.
{ **لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا** } اللام للتعليل وهي تتعلّق بفعل محذوف دلّ عليه قوله تعالى { لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ }، والتقدير: وعدهم الله بذلك والتزم لهم ذلك ليكفِّر عنهم أسوأ الذي عملوا.
والمقصود من هذا الخبر إعلامهم به ليطمئنوا من عدم مؤاخذتهم على ما فرط منهم من الشرك وأحواله.

{ **أَسْوَأَ** } يجوز أن يكون باقيا على ظاهر اسم التفضيل من اقتضاء مفضّل عليه، فالمراد بأسوأ عملهم هو أعظمه سوءا وهو الشرك، سئل النبيّ صلى الله عليه وسلم: " أي الذنب أعظم؟ فقال: " **أن تدعوا لله ندا وهو خلقك** ".

{ **أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا** } إضافة حقيقية، باعتبار أنّ الشرك عمل قلبي أو باعتبار ما يستتبعه من السجود للصنم.

وإذا كفّر عنهم أسوأ الذي عملوا كفّر عنهم ما دونه من سيّئ أعمالهم بدلالة الفحوى، فأفاد أنّه يكفر عنهم جميع ما عملوا من سيّئات.

فإن أريد بذلك ما سبق قبل الإسلام فالآية تعمّ كلّ من صدّق بالرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن بعد أن كان كافرا، فإنّ الإسلام يجُبّ ما قبله، وأن أريد بذلك ما عسى أن يعمله أحد منهم من الكبائر في الإسلام كان هذا التكفير خصوصية لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنّ فضل الصحبة عظيم. روي عن رسول الله أنه قال: " **لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنّ أحدكم أنفق مثل أُحد ذهبا ما أدرك مُدّ أحدهم ولا نصيفه** ".

وقد أوصى أئمة سلفنا الصالح ألّا يُذكر من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم إلّا بأحسن ذكر، وبالإمساك عمّا شجر بينهم، وأنّهم أحق الناس بأن يُلتمس لهم أحسن المخارج فيما جرى بين بعضهم، ويُظنّ بهم أحسن المذاهب، ولذلك اتفق السلف على تفسيق ابن الأشتر النخعي ومن لف لفّه من الثوار الذين جاءوا من مصر إلى المدينة لخلع عثمان بن عفان، واتفقوا على أنّ أصحاب الجمل وأصحاب صفّين كانوا متنازعين عن اجتهاد وما دفعهم عليه إلّا السعي لصلاح الإسلام والذبّ عن جامعته من أن تتسرّب إليها الفرقة والاختلال، فإنّهم جميعا قدوتنا وواسطة تبليغ الشريعة إلينا، والطعن في بعضهم يفضي إلى مخاوف في الدين، ولذلك أثبت علماؤنا عدالة جميع أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ **وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ** } علّة ثانية، وهو المقصود من التعليل للوعد الذي تضمّنه قوله تعالى { لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ }.

{ **بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ** } الباء للسببية وهي ظرف مستقر صفة لـ { أَجْرَهُمْ } وليست متعلّقة بفعل { يَجْزِيَهُمْ }، أي: يجزيهم أجرا على أحسن أعمالهم.

وفي الجمع بين كلمة { أَسْوَأَ } وكلمة { بِأَحْسَنِ } مُحسِّن الطبق.

{ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ [36] وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ [37] }.

{ **أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ** } استفهام إنكاري، أنكر عليهم ظنّهم ألّا حامي للرسول صلى الله عليه وسلم من ضرّ الأصنام. وفي الكشاف و تفسير القرطبي: " أنّ قريشا قالوا لرسول

الله صلى الله عليه وسلم: " إنّا نخاف أن تُخْبِلَكَ آلهتنا، وإنّا نخشى عليك معرَّتها لعيبك إيّاها ".

فلمّا حكى تكذيبَهم النبيّ عطف الكلام إلى ما هدَّدوه به وخوَّفوه من شر أصنامهم. فهذا الكلام معطوف على قوله { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ } [29].

والمعنى: أن الله الذي أفردته بالعبادة هو كافيك شرّ المشركين وباطل آلهتهم التي عبدوها من دونه.

{ **أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ** } تمهيد لقوله تعالى { وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ } قُدِّم عليه لتعجيل مساءة المشركين بذلك، ويستتبع ذلك تعجيل مسرّة الرسول صلى الله عليه وسلم بأنّ الله ضامن له الوقاية، كقوله تعالى { فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ } [البقرة:137]. وأصل النظم: ويخوّفونك بالذين من دون الله والله كافيك.

ولك أن تجعل نظم الكلام على ترتيبه في اللفظ فتجعل جملة { أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ } استئنافا وتصير جملة {وَيُخَوِّفُونَكَ} حالا.

{ **عَبْدَهُ** } وقع التعبير عن النبيّ صلى الله عليه وسلم بالاسم الظاهر دون ضمير الخطاب لأنّ المقصود توجيه الكلام إلى المشركين. وفي استحضار الرسول صلى الله عليه وسلم بوصف العبودية وإضافته إلى ضمير الجلالة معنى عظيم من تشريفه بهذه الإضافة وتحقيق أنّه غير مُسْلِمِه إلى أعدائه.

{ **وَيُخَوِّفُونَكَ** } الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم وهو التفات من ضمير الغيبة، ونكتة هذا الالتفات هو تمحيض قصد النبيّ بمضمون هذه الجملة.

{ **بِالَّذِينَ** } هم الأصنام. عُبِّر عنهم، وهم حجارة، بموصول العقلاء لكثرة استعمال التعبير عنهم في الكلام بصيغ العقلاء.

{ **مِنْ دُونِهِ** } صلة الموصول على تقدير محذوف يتعلّق به المجرور دل عليه السياق، تقديره: اتخذوهم من دونه أو عبدوهم من دونه.

وقرأ حمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف { عِبَادَهُ } بصيغة الجمع، أي: النبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فإنّهم لمّا خوّفوا النبي صلى الله عليه وسلم فقد أرادوا تخويفه وتخويف أتباعه، وأنّ الله كفاهم شرهم.

{ **وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ** } اعتراض بين جملة { أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ} وجملة { أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ }، قُصد من هذا الاعتراض أنّ ضلالهم قد ثبَّتته الأيام، ورسَّخه تعاقب الأجيال، فران بغشاوته على ألبابهم، فلمّا صار ضلالهم كالمجبول المطبوع أُسند إيجاده إلى الله كناية عن تعسّر أو تعذر اقتلاعه من نفوسهم.

{ **فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ** } أريد نفي حصول الاهتداء، فكنِّي عن عدم حصول الهدى بانتفاء الهادي، لأنّ عدم الاهتداء يجعل هاديهم كالمنفي. وقد تقدّم قوله تعالى { مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ } [الأعراف:186]. والآيتان متساويتان في إفادة نفي جنس الهادي. والاختلاف بين الأسلوبين تفنّن في الكلام.

{ **وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ** } اقتضاها أنّ الكلام الذي اعترضت بعده الجملتان اقتضى فريقين: فريقا

متمسِّكًا بالله القادر على النفع والضرّ، وهو النبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنون، وآخر متمسِّكًا بالأصنام العاجزة عن الأمرين. فلمَّا بُيِّن أنّ ضلال الفريق الثاني ضلال مكين ببيان أنّ هدى الفريق الآخر راسخ متين فلا مطمع للفريق الضال بأن يجرُّوا المهتدين إلى ضلالهم.

{ **أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ** } استفهام تقريري لأنّ العلم بعزة الله متقرّر في النفوس لاعتراف الكلّ بإلهيّته، والإلهية تقتضي العزة، ولأنّ العلم بأنّه منتقم متقرّر من مشاهدة آثار أخذه لبعض الأمم مثل عاد وثمود.

فإذا كانوا يقرّون لله بالوصفين المذكورين فما عليهم إلّا أن يعلموا أنّه كاف عبده بعزّته فلا يقدر أحد على إصابة عبده بسوء، وبانتقامه من الذين يبتغون لعبده الأذى.

العزيز: صفة مشبّهة مشتقّة من العزّ، وهو منعة الجانب، وألّا يناله المتسلط، وهو ضدّ الذلّ. وتقدّم عند قوله تعالى { فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [البقرة:209].

الانتقام: المكافأة على الشرّ بشرّ، وهو مشتق من النقم وهو الغضب، كأنه مطاوعه لأنّه مسبَّب عن النقم، وقد تقدّم عند قوله تعالى { فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ } [الأعراف:136]. وانظر قوله تعالى { وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ } [المائدة:95].

{ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ } [38].

{ **وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** } اعتراض بين جملة { أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ } [37] وجملة { قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ }. ويجوز أن يكون معطوفا على جملة {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ} [36]، وهو تمهيد لما يأتي بعده، لأنّه قُصد به التوطئة إليه بما لا نزاع فيه، لأنّهم يعترفون بأنّ الله هو المتصرّف في عظائم الأمور، أي: خلقهما وما تحويانه، وتقدّم نظيره في [العنكبوت61].

{ **قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ** } جاءت الجملة على أسلوب حكاية المقاولة والمجاوبة لكلامهم المحكي بجملة { لَيَقُولُنَّ اللَّهُ } ولذلك لم تعطف الثانية بالواو ولا بالفاء، والمعنى: ليقولن: الله، فقل: أفرأيتم ما تدعون من دون الله.

{ **أَفَرَأَيْتُمْ** } الفاء لتفريع الاستفهام الإنكاري على جوابهم تفريعا يفيد محاجّتهم على لازم اعترافهم بأنّ الله هو خالق السماوات والأرض. وهذا تفريع الإلزام على الإقرار، والنتيجة على الدليل، فإنّهم لمّا أقروا بأنّه الخالق لهما يلزمهم أن يقرُّوا بأنّه المتصرّف فيما تحويه السماوات والأرض. والرؤية قلبية، أي: أفظننتم.

{ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ } مفعول { أَفَرَأَيْتُمْ } الأوّل والمفعول الثاني محذوف سدّ مسدَّة جواب الشرط المعترض بعد المفعول الأول.

{ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ } جواب { إِنْ }. وجواب الشرط دليل على المفعول الثاني لفعل الرؤية.

الكاشفات: المزيلات، فالكشف مستعار للإزالة بتشبيه المعقول، وهو الضرّ، بشيء مستتر، وتشبيه إزالته بكشفه، أي إخراجه، وهي مكنية، والكشف استعارة تخييلية.

الإمساك: أيضا مكنية بتشبيه الرحمة بما يُسعَف به، وتشبيه التعرّض لحصولها بإمساك صاحب المتاع متاعه عن طالبيه.

{ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ } لمّا ألقمهم الله بهذه الحجّة الحجر وقطعهم فلا يحيروا ببنت شَفَة أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول هذا القول.

{ قُلْ } أعيد الأمر بالقول ولم ينتظم { حَسْبِيَ اللَّهُ } في جملة الأمر الأول، لأنّ هذا المأمور بأن يقوله ليس المقصود توجيهه إلى المشركين، فإنّ فيما سبقه مقنعا من قلة الاكتراث بأصنامهم، وإنّما المقصود أن يكون هذا القول شعار النبيّ صلى الله عليه وسلم في جميع شؤونه، وفيه حظ للمؤمنين معه. فإعادة الفعل للتنبيه على استقلال هذا الغرض عن الغرض الذي قبله.

الحسب: الكافي، وتقدّم في قوله تعالى { وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ } [آل عمران:173].

وحُذف المتعلّق في هذه الجملة لعموم المتعلّقات، أي: حسبي الله من كلّ شيء وفي كلّ حال.

والمراد بقوله اعتقاده ثم تذكّره ثم الإعلان به لتعليم المسلمين وإغاظة المشركين.

التوكّل: تفويض أمور المفوِّض إلى من يكفيه إيّاه، وتقدّم في قوله { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ } [آل عمران:159].

{ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ } يجوز أن تكون ممّا أُمر بأن يقوله تذكّرا من النبيّ صلى الله عليه وسلم وتعليما للمسلمين، فتكون الجملة تذييلا للتي قبلها لأنّها أعم منها باعتبار القائلين، لأن {حَسْبِيَ اللَّهُ } يؤول إلى معنى: توكلت على الله.

ويجوز أن تكون من كلام الله تعالى خاطب به رسوله صلى الله عليه وسلم ولم يأمره بأن يقوله، فتكون الجملة تعليلا للأمر بقول { حَسْبِيَ اللَّهُ }، أي: اجعل الله حسبك، لأنّ أهل التوكّل يتوكّلون على الله دون غيره وهم الرسل والصالحون، وإذ قد كنت من رفيقهم فكن مثلهم في ذلك، على نحو قوله تعالى { أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ } [بالأنعام:90].

{ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ } تقديم المجرور لإفادة الاختصاص، لأنّ أهل التوكّل الحقيقيين لا يتوكّلون إلّا على الله تعالى، وذلك تعريض بالمشركين إذ اعتمدوا في أمورهم على أصنامهم.

{ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ [39] مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ [40] }.

لمّا أبلغهم الله من الموعظة لأقصى مبلغ، ونصب لهم من الحجج أسطع حجّة، وثبَّت رسوله صلى الله عليه وسلم أرسخ تثبيت، لا جرم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يوادعهم موادعة مستقرب النصر، ويواعدهم ما أُعِدّ لهم من خسر.

{ **قُلْ** } لم تعطف الجملة على السابقة لدفع توهّم أن يكون أمره { قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ } لقصد إبلاغه إلى المشركين. ولأنّها انتقال من غرض الدعوة والمحاجّة إلى غرض التهديد.

{ **يَا قَوْمِ** } ابتدأ المقول بالنداء بوصف القوم لما يشعر به من الترقيق لحالهم والأسف على ضلالهم، لأنّ كونهم قومه يقتضي ألّا يدَّخرهم نصحا.

المكانة: المكان، وتأنيثه روعي فيه معنى البقعة، استعير للحالة المحيطة بصاحبها إحاطة المكان بالكائن فيه. المعنى: اعملوا على طريقتكم وحالكم من عداوتي، وتقدّم نظيره في [الأنعام:135].

{ **إِنِّي عَامِلٌ** } حُذف المتعلّق ليعمّ كل متعلّق يصلح أن يتعلق بـ {عَامِلٌ } مع الاختصار، فإنّ مقابلته بقوله: { اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ } يدلّ على أنّه أراد من { إِنِّي عَامِلٌ } أنّه ثابت على عمله في نصحهم ودعوتهم إلى ما ينجيهم. وأنّ حذف ذلك مشعر بأنّه لا يقتصر على مقدار مكانته وحالته بل حاله تزداد كل حين قوّة وشدّة لا يعتريها تقصير ولا يثبطها إعراضهم، وهذا من مستتبعات الحذف.

العذاب المخزي: هو عذاب الدنيا. والمراد به هنا عذاب السيف يوم بدر.

العذاب المقيم: هو عذاب الآخرة، وإقامته خلوده.

{ **عَذَابٌ** } التنوين في الموضعين للتعظيم المراد به التهويل.

{ **يَأْتِيهِ** } أسند الفعل إلى العذاب المخزي لأنّ الإتيان مشعر بأنّه يفاجئهم.

{ **وَيَحِلُّ** } وكذلك إسناد الفعل إلى العذاب المقيم لأنّ الحلول مشعر بالملازمة والإقامة معهم، وهو عذاب الخلود، ولذلك يُسمَّى منزل القوم حِلّة، ويقال للقوم القاطنين غير المسافرين: هم حِلال، فكان الفعل مناسبا لوصفه بالمقيم. وتعدية فعل { يَحِلُّ } بحرف (على) للدلالة على تمكّنه.

{ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ } [41].

تعليل للأمر بأن يقول لهم اعملوا على مكانتكم، المفيد موادعتهم وتهوين تصميم كفرهم عليه، وتثبيته على دعوته. والمعنى: لأنّا نزّلنا عليك الكتاب بالحق لفائدة الناس وكفاك ذلك شرفا وهداية، وكفاك تبليغه إليهم، فمن اهتدى من الناس فهدايته لنفسه بواسطتك، ومن ضلّ فضلاله على نفسه، وما عليك من

ضلالهم تبعة، لأنّك بلّغت ما أُمرت به. ولذلك خولف بين هذه وبين قوله في صدرها { إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ } [2]، لأنّ تلك في غرض التنويه بشأن النبيّ صلى الله عليه وسلم فناسب أن يكون إنزال الكتاب إليه.

{ **لِلنَّاسِ** } متعلق بـ { أَنْزَلْنَا }. واللام للعلّة، أي: لأجل الناس. وفي الكلام مضاف مفهوم ممّا تؤذن به اللام من معنى الفائدة والنفع، أي: لنفع الناس، أو ممّا يؤذن به التفريع في قوله تعالى { فَمَنِ اهْتَدَى }.

{ **بِالْحَقِّ** } حال من { الْكِتَابَ }، والباء للملابسة.

{ **فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ** } الفاء للتفريع وهو تفريع ناشئ من معنى اللام. و(من) شرطية، أي: من حصل منه الاهتداء في المستقبل فإن اهتداءه لفائدة نفسه لا غير، أي: ليست لك من اهتدائه فائدة لذاتك.

وتقدم نظيرها في قوله تعالى { قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ } [يونس:108]، وفي قوله تعالى { وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ } [النمل:92/91]، ولكن جيء في تينك الآيتين بصيغة قصر الاهتداء على نفس المهتدي {فَإِنَّمَا}، وترك ذلك في هذه السورة، ووجه ذلك أنّ تينك الآيتين واردتان بالأمر بمخاطبة المشركين فكان المقام فيهما مناسبا لإفادة أنّ فائدة اهتدائهم لا تعود إلّا لأنفسهم، أي: ليست لك منفعة من اهتدائهم، خلافا لهذه الآية فإنّها خطاب موجّه من الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم ليس فيها حال من ينزل منزلة المُدل باهتدائه.

{ **وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا** } صيغة القصر فيه لتنزيل الرسول صلى الله عليه وسلم في أسفه على ضلالهم المفضي بهم إلى العذاب منزلة من يعود عليه من ضلالهم ضرّ فخوطب بصيغة القصر، وهو قصر قلب.

{ **وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ** } القول فيه كالقول في { وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ } [يونس:108]. والجملة عطف على جملة { فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ }، أي: لست مأمورا بإرغامهم على الاهتداء، فصيغ هذا الخبر في جملة اسمية للدلالة على ثبات حكم هذا النفي.

{ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [42].

يصلح هذا أن يكون مثلا لحال ضلال الضالين وهدى المهتدين نشأ عن قوله تعالى { فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ - إلى قوله - وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ } [41]. والمعنى: أنّ استمرار الضال على ضلاله قد يحصل بعده اهتداء وقد يوافيه أجله وهو في ضلاله، فضرب المثل لذلك بنوم النائم قد تعقبه إفاقة وقد يموت النائم في نومه.

وهذا تهوين على نفس النبيّ صلى الله عليه وسلم برجاء إيمان كثير ممّن هم يومئذ في ضلال وشرك كما تحقّق ذلك. فتكون الجملة تعليلا للجملة قبلها ولها اتصال بقوله { أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ - إلى قوله - أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ } [22].

ويجوز أن يكون انتقالا إلى استدلال على تفرّد الله تعالى بالتصرّف في الأحوال، فإنّه ذكر دليل التصرّف بخلق الذوات ابتداء من قوله تعالى { خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ - إلى قوله - فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ } [6/5]، ثمّ دليل التصرّف بخلق أحوال ذوات وإنشاء ذوات من تلك الأحوال وذلك من قوله تعالى { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ - إلى قوله - لِأُولِي الْأَلْبَابِ } [21]، وأعقب كلّ دليل بما يظهر فيه أثره من الموعظة والعبرة والزجر عن مخالفة مقتضاه، فانتقل هنا إلى الاستدلال بحالة عجيبة من أحوال أنفس المخلوقات وهي حالة الموت وحالة النوم. وقد أنبأ عن الاستدلال قوله تعالى { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ }. فهذا دليل للناس من أنفسهم، فتكون الجملة استئنافا ابتدائيا للتدرّج في الاستدلال.

وعلى كلا الوجهين أفادت الآية إبراز حقيقتين عظميتين من نواميس الحياتين النفسية والجسدية.

{ **اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ** } تقديم اسم الجلالة على الخبر الفعلي لإفادة تخصيصه بمضمون الخبر، أي: الله يتوفّى لا غيره، فهو قصر حقيقي.

التوفّي: الإماتة، وسُمِّيت توفّيا لأنّ الله إذا أمات أحدا فقد توفّاه أجله، فالله المتوفِّي وملك الموت متوفٍّ أيضا لأنه مباشر التوفِّي. والميّت: متوفًّى، بصيغة المفعول. وتقدّم في قوله { وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ } [البقرة:234]، وقوله تعالى { قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ } [السجدة:11].

الأنفس: جمع نفس، وهي الشخص والذات، قال تعالى { وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ } [الذريات:21]، وتطلق على الروح الذي به الحياة والإدراك.

{ **وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ** } عطف على الأنفس باعتبار قيد { حِينَ مَوْتِهَا } لأنّه في معنى الوصف، فكأنه قيل: يتوفّى الأنفس التي تموت في حالة نومها، والأنفس التي لم تمت في نومها أفاقت.

وهو تشبيه نُحي به منحى التنبيه إلى حقيقة علمية فإنّ حالة النوم حالة انقطاع أهم فوائد الحياة عن الجسد وهي الإدراك سوى أن أعضاءه الرئيسية لم تفقد صلاحيتها للعودة إلى أعمالها حين الهبوب من النوم، ولذلك قال تعالى { وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ } [الأنعام:60].

الإمساك: الشدّ باليد وعدم تسليم المشدود. والمعنى: فيبقي ولا يردّ النفس التي قضى عليها بالموت، أي: يمنعها أن ترجع إلى الحياة، فإطلاق الإمساك على بقاء حالة الموت تمثيل لدوام تلك الحالة.

الإرسال: الإطلاق والتمكين من مبارحة المكان للرجوع إلى ما كان عليه.

{ **الأخرى** } المراد بها { الَّتِي لَمْ تَمُتْ } ولكن الله جعلها بمنزلة الميّتة. والمعنى: يرد إليها الحياة كاملة.

{ **إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى** } يتعلق بفعل { يُرْسِلُ } لما فيه من معنى يردّ الحياة إليها، أي: فلا يسلبها الحياة كلّها

إلّا في أجلها المسمَّى، أي: المعيَّن لها في تقدير الله تعالى.

التسمية: التعيين، وتقدّمت في قوله تعالى { إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ } [البقرة:282].

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** } مستأنفة، كما تُذكر النتيجة عقب الدليل، أي: أنّ في حالة الإماتة والإنامة دلائل على انفراد الله تعالى بالتصرّف، وأنّه المستحقّ للعبادة دون غيره، وأنّ ليس المقصود من هذا الخبر الإخبار باختلاف حالتي الموت والنوم بل المقصود التفكّر والنظر في مضرب المثل، وفي دقائق صنع الله والتذكير بما تنطوي عليه من دقائق الحكمة التي تمر على كل إنسان كل يوم في نفسه، وتمر على كثير من الناس في آلِهم وفي عشائرهم وهم معرضون عمّا في ذلك من الحكم وبديع الصنع.

{ **لَآياتٍ** } جُعل ما تدل عليه آيات كثيرة لأنّهما حالتان عجيبتان، ثمّ في كل حالة تصرّف يغاير التصرّف الذي في الأخرى.

التفكير: تكلّف الفكرة، وهو معالجة الفكر ومعاودة التدبّر في دلالة الأدلة على الحقائق.

{ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ [43] قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [44] }.

{ **أَمِ** } منقطعة وهي للإضراب الانتقالي، انتقالا من تشنيع إشراكهم إلى إبطال معاذيرهم في شركهم، ذلك أنّهم لمّا دمغتهم حجج القرآن باستحالة أن يكون لله شركاء تمحَّلوا تأويلا لشركهم فقالوا { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى } [3]، كما حُكي عنهم في أوّل السورة. والاستفهام الذي تشعر به { أم } للإنكار.

{ **قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ** } أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم مقالة تقطع بهتانهم.

{ **شَيْئًا** } أفاد التنكير في سياق النفي عموم كل ما يُملك، فيدخل في عمومه جميع أنواعه الشفاعة. ولمّا كانت الشفاعة أمرا معنويا كان معنى ملكها: تحصيل إجابتها. والكلام تهكّم إذ كيف يشفع من لا يعقل.

{ **قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا** } لمَّا نُفي أن يكون لأصنامهم شيء من الشفاعة في عموم نفي مِلك شيء من الموجودات عن الأصنام، أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقابل قولهم بقوله { لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا }، أي: الشفاعة كلّها لله. ليعلموا أنّه لا يملك الشفاعة إلّا الله، أي: هو مالك إجابة شفاعة الشفعاء الحقّ.

{ **جَمِيعًا** } حال من الشفاعة مفيدة للاستغراق، وقد تأكّد بلازم هذه الحال ما دلّ عليه الحصر من انتفاء أن يكون شيء من الشفاعة لغير الله.

{ **لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } لتعميم انفراد الله بالتصرّف في السماوات والأرض الشامل للتصرّف في مؤاخذة المخلوقات وتسيير أمورهم، فموقعها موقع التذييل المفيد لتقرير الجملة التي قبله وزيادة.

وهذا إبطال لأن تكون لآلهتهم شفاعة.

{ **ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** } عطف على الجملة السابقة للإشارة إلى إثبات البعث وإلى أنّه لا يشفع أحد عند الله بعد الحشر إلّا من أذنه الله بذلك.

{ **ثُمَّ** } للتراخي الرتبي كشأنها في عطف الجمل، ذلك لأنّ مضمون { إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } أنّ لله مُلك الآخرة كما كان له مُلك الدنيا، ومُلك الآخرة أعظم.

{ **إِلَيْهِ** } تقديمه على { تُرْجَعُونَ } للاهتمام والتقوّي، وللرعاية على الفاصلة.

{ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } [45].

عطف على جملة { اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ } [43]، لإظهار تناقضهم في أقوالهم المشعر بأنّ ما يقولونه أقضية سفسطائية، يقولونها للتنصّل من دمغات الحجج التي جبههم بها القرآن، فإنّهم يعتذرون تارة على إشراكهم بأنّ شركاءهم شفعاء لهم عند الله. وهذا يقتضي أنّهم معترفون بأنّ الله هو إلههم وإله شركائهم، ثمّ إذا ذكر النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّ الله واحد أو ذكر المسلمون كلمة لا إله إلا الله اشمأزت قلوبهم من الاقتصار على ذكر الله، وذلك مؤذن بأنّهم يسوُّونها بالله تعالى.

{ **وَحْدَهُ** } لك أن تجعله حالا من اسم الجلالة ومعناه منفردا. ويقدّر في قوله تعالى { ذُكِرَ اللَّهُ } معنى: بوصف الإلهية، ويكون معنى قوله تعالى { ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ }: ذكر تفرَّده بالإلهية.

ولك أن تجعله مصدرا، أي: مفعول مطلق لفعل {ذُكِرَ} لبيان نوعه، أي: لم يُذكر مع اسم الله أسماء أصنامهم. وهذا الذكر هو الذي يجري في دعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم وفي الصلوات وتلاوة القرآن وفي مجامع المسلمين.

{ **إِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ** } أي: إذا ذكرت أصنامهم بوصف الإلهية، وذلك حين يسمعون أقوال جماعة المشركين في أحاديثهم وأيمانهم باللات والعزى، أي: ولم يذكر اسم الله معها.

فاستبشارهم بالاقتصار على ذكر أصنامهم مؤذن بأنّهم يرجّحون جانب الأصنام على جانب الله تعالى.

الذكر: هو النطق بالاسم. والمراد إذا ذكر المسلمون اسم الله اشمأزّ المشركون لأنّهم لم يسمعوا ذكر آلهتهم وإذا ذكر المشركون أسماء أصنامهم استبشر الذين يسمعونهم من قومهم.

والاقتصار على التعرض لهذين الذكرين لأنّهما أظهر في سوء نوايا المشركين نحو الله تعالى، وفي بطلان اعتذارهم بأنّهم ما يعبدون الأصنام إلّا ليقربوهم إلى الله ويشفعوا لهم عنده.

الاشمئزاز: شدّة الكراهية والنفور، أي: كرهت ذلك قلوبهم ومداركهم.

الاستبشار: شدّة الفرح حتّى يظهر أثر ذلك على بشرة الوجه، وتقدّم في قوله تعالى { وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ } [الحجر:67].

ومقابلة الاشمئزاز بالاستبشار مطابقة كاملة لأنّ الاشمئزاز غاية الكراهية والاستبشار غاية الفرح.

{ **الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ** } التعبير عن المشركين بـذلك لأنّهم عُرفوا بهذه الصلة بين الناس مع قصد إعادة تذكيرهم بوقوع القيامة.

{ **إذا** } الأولى والثانية ظرفان مضمّنان معنى الشرط كما هو الغالب. والثالثة للمفاجأة، للدلالة على أنّهم يعاجلهم الاستبشار حينئذ من فرط حبّهم آلهتهم.

{ **يَسْتَبْشِرُونَ** } جيء بالمضارع لإفادة تجدّد استبشارهم و تأكيدا لسرعته.

{ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } [46].

لمّا كان أكثر ما تقدّم من السورة مشعرا بالاختلاف بين المشركين والمؤمنين، وبأنّ المشركين مصمِّمون على باطلهم، على ما غمرهم من حجج الحق، أُمر الرسول صلى الله عليه وسلم عقب ذلك بأن يقول هذا القول تنفيسا عنه من كدر الأسى على قومه، وأعذارا لهم بالنذارة، وإشعارا لهم بأنّ الحقّ في جانبهم مضاع، وأنّ الأجدر بالرسول صلى الله عليه وسلم متاركتهم وأن يفوّض الحكم في خلافهم إلى الله. وفي هذا التفويض إشارة إلى أنّ الذي فوَّض أمره إلى الله هو الواثق بحقِّيَّة دينه المطمئن بأن التحكيم يظهر حقّه وباطل خصمه.

{ **قُلِ اللَّهُمَّ** } ابتدئ خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم ربّه بالنداء، لأنّ المقام مقام توجيه وتحاكم.

{ **فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ** } إجراء الوصفين على اسم الجلالة لما فيهما من المناسبة بخضوع الخلق كلّهم لحكمه وشمول علمه لدخائلهم من مُحِقّ ومُبطل.

الفاطر: الخالق، وفاطر السماوات والأرض: فاطر لما تحتوي عليه. والوصف مشعر بصفة القدرة، وتقديمه قبل وصف العلم لأنّ شعور الناس بقدرته سابق على شعورهم بعلمه، ولأنّ القدرة أشد مناسبة لطلب الحكم، لأنّ الحكم إلزام وقهر فهو من آثار القدرة مباشرة.

الغيب: ما خفي وغاب عن علم الناس.

الشهادة: ما يعلمه الناس ممّا يدخل تحت الإحساس الذي هو أصل العلوم.

{ **بَيْنَ عِبَادِكَ** } العدول عن الإضمار إلى الاسم الظاهر، دون أن يقول: بيننا، لما في { عِبَادِكَ } من العموم لأنّه جمع مضاف فيشمل الحكم بينهم في قضيّتهم هذه والحكم بين كلّ مختلفين، لأن التعميم أنسب بالدعاء والمباهلة.

{ **أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ** } خبر مستعمل في الدعاء. والمعنى: احكم بيننا. وفي تلقين هذا الدعاء للنبيّ صلى الله عليه وسلم إيماء إلى أنّه الفاعل الحق. وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله تعالى { أَنْتَ تَحْكُمُ } لإفادة الاختصاص، أي: أنت لا غيرك.

وهذا يؤمئ إلى العذر للرسول صلى الله عليه وسلم في قيامه بأقصى ما كُلِّف به، لأنّ هذا القول إنّما يصدر عمّن بذل وسعه فيما وجب عليه، فلما لقّنه ربه أن يقوله كان ذلك في معنى: أنّك أبلغت وأديت الرسالة فلم يبق إلّا ما يدخل تحت قدرة الله تعالى، وفيه تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم، ووعيد للمعاندين.

{ **تَحْكُمُ** } يصدق بحكم الآخرة وهو المحقَّق الذي لا يُخلف، ويشمل حكم الدنيا بنصر المحقّ على المبطل، إذا شاء الله أن يُعجِّل بعض حكمه، بأن يُعجل لهم العذاب في الدنيا.

{ **فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** } الإتيان بفعل الكون صلة لـ { ما } الموصولة ليدل على تحقُّق الاختلاف، وكون خبر (كان) مضارعا { يَخْتَلِفُونَ } تعريض بأنّه اختلاف متجدّد، إذ لا طماعية في ارعواء المشركين.

وتقديم { **فِيهِ** } للرعاية على الفاصلة مع الاهتمام بالأمر المختلف فيه.

{ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ [47] وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ [48] }.

عطف على جملة { قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [46]، لأنّها تشير إلى أنّ الحقّ في جانب النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو الذي دعا ربّه للمحاكمة، وأنّ الحكم سيكون على المشركين، فأعقب ذلك بتهويل ما سيكون به الحكم، بأنّه لو وجد المشركون فدية منه بالغة ما بلغت لافتدوا بها.

{ **مَا فِي الْأَرْضِ** } يشمل كلّ عزيز من أهليهم وأموالهم بل وأنّفسهم، فهو أهون من سوء العذاب يوم القيامة.

فالكلام تمثيل لحالهم في شدّة الدرك والشقاء بحال من لو كان له ما ذكر لبذله فدية من ذلك العذاب.

وتقدّم نظير هذا في [المائدة:36].

{ **وَلَوْ** } تضمّن حرف الشرط أن كون ما في الأرض لهم منتف، فأفاد ألّا فداء لهم، وهو تأييس لهم.

{ **مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ** } { مِنْ } هنا بمعنى لام التعليل، أي: لافتدوا به لأجل العذاب السيّئ الذي شاهدوه.

ويجوز أن تكون للبدل، أي: بدلا عن { سُوءِ الْعَذَابِ }.

{ **وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ** } عطف على ذلك التأييس تهويل آخر في عظم ما ينالهم من العذاب، لما في الموصول من الإيهام الذي تذهب فيه نفس السامع إلى كلّ تصوير من الشدّة.

ويجوز جعل الواو للحال، أي: لافتدوا به في حال ظهور ما لم يكونوا يحتسبون.

{ **مِنَ اللَّهِ** } متعلّق بـ { بَدَا }. و{ مِنَ } ابتدائية، أي: ظهر لهم ممّا أعدَّ الله لهم الذي لم يكونوا يظنُّونه.

الاحتساب: مبالغة في الحساب، وهنا بمعنى الظنّ. أي: ما لم يكونوا يظنّونه، وذلك كناية عن كونه متجاوزا أقصى ما يتخيّله المتخيّل حين يسمع أوصافه. ومقابل هذا في الوعد بالخير قوله تعالى { فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ } [السجدة:17].

{ **سَيِّئَاتُ** } جمع سيّئة، وهو وصف أضيف إلى موصوفه وهو {مَا كَسَبُوا}، أي: مكسوباتهم السيّئات. وتأنيثها باعتبار شهرة إطلاق السيّئة على الفعلة وإن كان فيما كسبوه ما هو من فاسد الاعتقاد، فجرى تأنيث الوصف على تغليب السيّئات العملية، مثل الغضب والقتل والفواحش، تغليبا لفظيا لكثرة الاستعمال.

{ **كَسَبُوا** } أوثر على فعل: عملوا، لقطع تبرّمهم من العذاب بتسجيل أنّهم اكتسبوا أسبابه بأنفسهم.

الحَوْق: الإحاطة، أي: أحاط بهم فلم ينفلتوا منه، وتقدّم في قوله تعالى { وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ } [الأنعام:10].

{ **مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** } هو عذاب الآخرة، أي: يستهزئون بذكره، تنزيلا للعقاب منزلة مستهزأ به، فيكون الضمير المجرور استعارة مكنية. ولك أن تجعل الباء للسببية، وتجعل متعلّق { يَسْتَهْزِئُونَ } محذوفا، أي: يستهزئون بالنبيّ صلى الله عليه وسلم بسبب ذكره العذاب.

وتقديم { **بِهِ** } للاهتمام به وللرعاية على الفاصلة.

{ فَإِذَا مَسَّ الْأِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ } [49].

الفاء لتفريع هذا الكلام على قوله تعالى { وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ } [45] وما بينهما اعتراض مسلسل بعضه مع بعض للمناسبات. والمقصود بالتفريع هو قوله تعالى { فَإِذَا مَسَّ الْأِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا }.

والتفريع تفريع وصف بعض من غرائب أحوالهم على بعض، وهل أغرب من فزعهم إلى الله وحده بالدعاء إذا مسّهم الضرّ وقد كانوا يشمئزّون من ذكر اسمه وحده، فهذا تناقض من أفعالهم وتعكيس، فإنّه تسبُّب حديث على حديث وليس تسببا على الوجود. وهذه النكتة هي الفارقة بين العطف بالفاء هنا وعطف نظيرها بالواو في أوّل السورة { وَإِذَا مَسَّ الْأِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ } [8].

وقد تقدّم القول في نظير صدر هذه الآية في قوله تعالى { وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ } [8]. وأنّ المراد بالإنسان كلّ مشرك. والمخالفة بين الآيتين تفنن ولئلّا تخلو إعادة الآية من فائدة زائدة، كما هو عادة القرآن في القصص المكرّرة.

{ **قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ** } أي: ما أوتيت الذي أوتيته من نعمة إلّا لعلم مني بطرق اكتسابه. وتركيز ضمير الغائب في قوله { أُوتِيتُهُ } عائد إلى { نِعْمَةً } على تأويل حكاية مقالتهم بأنّها صادرة منهم في حال

حضور ما بين أيديهم من أنواع النعم، فهو من عود الضمير إلى ذات مشاهدة، فالضمير بمنزلة اسم الإشارة.

{ **عَلَى عِلْمٍ** } للتعليل، أي: بسبب علم. وخولف بين هذه الآية وبين قوله تعالى { عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي } [القصص:78]، فلم يذكر هنا { عِنْدِي }، لأنّ المراد بالعلم هنا مجرد الفطنة والتدبير، وأريد هنالك علم صوغ الذهب والفضة والكيمياء التي اكتسب بها قارون من معرفة تدابيرها مالا عظيما.

{ **بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ** } للإضراب الإبطالي، وهو إبطال لزعمهم أنّهم أوتوا ذلك بسبب علمهم وتدبيرهم، أي: بل إنّ الرحمة التي أوتوها إنّما آتاهم الله إيّاها ليظهر للأمم مقدار شكرهم.

{ **هِيَ** } الضمير عائد إلى القول المستفاد من { قال } على طريقة إعادة الضمير على المصدر المأخوذ من فعل، وإنّما أُنّث ضميره باعتبار الإخبار عنه بلفظ { فِتْنَةٌ }، أو على تأويل القول بالكلمة.

أي: أنّ ذلك القول سبب فتنة أو مسبَّب عن فتنة في نفوسهم. ويجوز أن يكون الضمير عائدا إلى {نِعْمَةً}.

{ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** } الاستدراك ناشئ عن مضمون جملة { إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ }، أي: لكن لا يعلم أكثر الناس، ومنهم القائلون، أنّهم في فتنة بما أتوا من نعمة إذا كانوا مثل هؤلاء القائلين الزاعمين أنّ ما هم فيه من خير نتيجة مساعيهم وحيلهم.

{ **أَكْثَرُهُمْ** } الضمير عائد إلى معلوم من المقام غير مذكور في الكلام إذ لم يتقدّم ما يناسب أن يكون له معادا، والمراد به الناس، فدخل في هذا الأكثر جميع المشركين.

{ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [50] فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ [51] }.

{ **قَدْ قَالَهَا** } مبيّنة لمضمون { هِيَ فِتْنَةٌ } [49]، لأنّ بيان مغبة الذين قالوا هذا القول في شأن النعمة التي تنالهم يبيّن أنّ نعمة هؤلاء كانت فتنة لهم.

{ **قَالَهَا** } الضمير عائد إلى قول القائل { إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ } [49]، على تأويل القول بالكلمة.

{ **الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** } منهم قارون [القصص:78].

{ **فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** } الفاء لتفريع عدم إغناء ما كسبوه على مقالتهم تلك، فإنّ عدم الإغناء مشعر بأنّهم حلّ بهم من السوء ما شأن مثله أن يتطلّب صاحبه الافتداء منه، فإذا كان ذلك السوء عظيما لم يكن له فداء، ففي الكلام إيجاز حذف يبيّنه قوله بعده { فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا }.

وكان مقتضى الظاهر في ترتيب الجمل أن تكون جملة { فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا } مقدّمة على جملة { فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ }، لأنّ الإغناء إنّما يُترقَّب عند حلول الضير بهم، فإذا تقرّر عدم الإغناء يذكر بعده حلول المصيبة، فعُكس الترتيب على خلاف مقتضى الظاهر لقصد التعجيل بإبطال مقالة قائلهم { إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ } [49]، أي: لو كان لعلمهم أثر في جلب النعمة لهم لكان له أثر في

دفع الضرّ عنهم.

{ **هؤلاء** } الإشارة إلى المشركين من أهل مكة.

إصابة السيّئات: مراد بها في الموضعين إصابة جزاء السيّئات، وهو عقاب الدنيا وعقاب الآخرة.

المعجز: الغالب، وتقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ } [الأنعام:134]، أي: ما هم بمعجزينا، فحُذف مفعول اسم الفاعل لدلالة القرينة عليه.

{ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [52].

عطف على جملة { وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ } [49]، فبعد أن وصف أكثرهم بانتفاء علمهم بذلك وإهمالهم النظر في الأدلة المفيدة للعلم، وصمّهم آذانهم عن الآيات التي تذكِّرهم بذلك حتّى بقوا في جهالة مركّبة، وكان الشأن أن يعلموا أنّ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، أي: يعطي الخير من يشاء، ويمنع من يشاء.

{ **أَوَلَمْ يَعْلَمُوا** } الاستفهام إنكار عليهم في انتفاء علمهم بذلك لأنّهم تسبَّبوا في انتفائه، فالإنكار يتضمّن توبيخا.

{ **أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ** } اقتصر في الإنكار على إنكار انتفاء العلم بأنّ بسط الرزق وقدره من فعل الله تعالى لأنّه أدنى لمشاهدتهم أحوال قومهم، فكم من كادٍ غير مرزوق وكم من آخر يجيئه الرزق من حيث لا يحتسب.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** } لأنّ اختلاف أحوال الرزق دالة على أنّ التصرّف بيد الله تعالى. وجُعلت الآيات لقوم يؤمنون لأنّ المؤمنين قد علموا ذلك وتخلّقوا به ولم تكن فيه آيات للمشركين الغافلين.

{ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } [53].

أُطنبت آيات الوعيد بأفنانها السابقة إطنابا يبلغ من نفوس سامعيها أيّ مبلغ من الرعب والخوف، على رغم تظاهرهم بقلّة الاهتمام بها. وقد يبلغ بهم وقعها مبلغ اليأس من سعي ينجيهم من وعيدها.

وقد تثير في نفس النبيّ صلى الله عليه وسلم خشية أن يحيط غضب الله بالذين دعاهم إليه فأعرضوا، أو حبّبهم في الحق فأبغضوا، فلعلّه لا يُفتح لهم باب التوبة، ولا تُقبل منهم بعد إعراضهم أوبة، ولا سيما بعد أن أمره بتفويض الأمر إلى حكمه، فكان أمره لرسوله صلى الله عليه وسلم بأن يناديهم بهذه الدعوة تنفيسا عليه، وتفتيحا لباب الأوبة إليه، فهذا كلام ينحل إلى استئنافين:

{ **قُلْ** } استئناف لبيان ما ترقّبه أفضل النبيين صلى الله عليه وسلم، أي: بلغ عني هذا القول.

{ **يَا عِبَادِيَ** } استئناف ابتدائي من خطاب الله لهم. وابتداء الخطاب بالنداء وعنوان العباد مؤذن بأنّ ما بعده إعداد للقبول وإطماع في النجاة. والخطاب مراد به المشركون ابتداء بدليل قوله تعالى { وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ } [54]، وقوله تعالى { وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ } [56]، وقوله تعالى { بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ } [59].

فهذا الخطاب جرى على غير الغالب في مثله في عادة القرآن عند ذكر { عِبَادِيَ } بالإضافة إلى ضمير المتكلم تعالى.

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس: " أنّ ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا، وزنوا وأكثروا، فأتوا محمداً صلى الله عليه وسلم فقالوا: " إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أنّ لما عملنا كفارة فنزل { وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ - إلى قوله - إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا } [الفرقان:68-70]، ونزل { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ } ".

وعموم { يَا عِبَادِيَ } وعموم صلة { الَّذِينَ أَسْرَفُوا } يشمل أهل المعاصي من المسلمين.

الإسراف: الإكثار. والمراد به هنا الإسراف في الذنوب والمعاصي، وتقدّم ذكره في قوله تعالى { وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا } [النساء:6]، وقوله تعالى { فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ } [الإسراء:33]. والأكثر أن يُعدَّى إلى متعلّقة بحرف (مِن)، وتعديته هنا بـ (على) لأنّ الإكثار هنا من أعمال تتحمّلها النفس وتثقل بها وذلك متعارف في التبعات والعدوان، تقول: أكثرت على فلان.

فالمعنى: أنّهم جلبوا لأنفسهم ما تثقلهم تبعته، ليشمل ما اقترفوه من شرك وسيّئات.

القنوط: اليأس، وتقدّم في قوله تعالى { فَلا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ } [الحجر:55].

{ **إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا** } تعليل للنهي عن اليأس من رحمة الله.

{ **يَغْفِرُ** } مادة الغفر ترجع إلى الستر، وهو يقتضي وجود المستور واحتياجه للستر فدل { يَغْفِرُ الذُّنُوبَ } على أنّ الذنوب ثابتة، أي: المؤاخذة بها ثابتة والله يغفرها، أي: يزيل المؤاخذة بها.

وهذه المغفرة تقتضي أسبابا أُجملت هنا وفُصّلت في دلائل أخرى من الكتاب والسنّة منها قوله تعالى { وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى } [طه:82]، وتلك الدلائل يجمعها أنّ للغفران أسبابا تطرأ على المذنب، فكان قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ } دعوة إلى تطلّب أسباب هذه المغفرة.

{ **جَمِيعاً** } حال من { الذُّنُوبَ }، أي: عمومها، فيغفر كلّ ذنب منها إن حصلت من المذنب أسباب ذلك.

{ **إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** } تعليل للجملة السابقة، أي: لا يعجزه أن يغفر جميع الذنوب، لأنّه شديد الغفران شديد الرحمة.

{ **وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ** } [54].

لمَّا فتح لهم باب الرجاء أعقبه بالإرشاد إلى وسيلة المغفرة معطوفا بالواو، وللدلالة على الجمع بين النهي عن القنوط من الرحمة وبين الإنابة، جمعا يقتضي المبادرة، وهي أيضا مقتضى صيغة الأمر.

الإنابة: التوبة، ولما فيها وفي التوبة من معنى الرجوع عُدِّي الفعلان بحرف { إلى }.

{ **وَأَسْلِمُوا لَهُ** } أي: التصديق بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم والقرآن واتباع شرائع الإسلام.

{ **مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ** } إيذان بوعيد قريب إنّ لم ينيبوا ويسلموا كما يلمِّح إليه فعل {يَأْتِيَكُمُ }.

{ **الْعَذَابُ** } تعريف الجنس، وهو يقتضي أنّهم إن لم ينيبوا ويسلموا يأتهم العذاب. والعذاب منه ما يحصل في الدنيا إن شاءه الله، وهذا خاص بالمشركين، وأمّا المسلمون فقد استعاذ لهم منه الرسول صلى الله عليه وسلم حين نزل { قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ } [الأنعام:65]. ومن العذاب عذاب الآخرة وهو جزاء الكفر والكبائر.

وهذا الخطاب يأخذ كل فريق منه بنصيب، فنصيب المشركين الإنابة إلى التوحيد واتباع دين الإسلام، ونصيب المؤمنين منه التوبة، إذا أسرفوا على أنفسهم، والإكثار من الحسنات، وأمّا الإسلام فحاصل لهم.

النصر: الإعانة على الغلبة، ولا نصير لأحد على الله.

وهذه الفقرة أكثر حظ فيها هو حظ المشركين.

{ **وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ**} [55].

{ **أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ** } هو القرآن، وهو معنى قوله تعالى { الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ } [18].

والحظ للمشركين في هذه الآية لأنّ المسلمين قد اتبعوا القرآن كما قال تعالى { فَبَشِّرْ عِبَادِي الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ } [18/17].

{ **أَحْسَنَ** } اسم تفضيل مستعمل في معنى كامل الحسن، وليس في معنى تفضيل بعضه على بعض لأنّ جميع ما في القرآن حسن، فهو من باب قوله تعالى { قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ } [يوسف:33].

{ **الْعَذَابُ** } هو العذاب المذكور قبل بنوعيه، وكلّه بغتة إذ لا يتقدّمه إشعار، فعذاب الدنيا يحلّ بغتة وعذاب الآخرة كذلك لأنّه تظهر بوارقة عند البعث.

{ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ [56] أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ [57] أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ [58] }.

{ **أَنْ تَقُولَ** } تعليل للأوامر في قوله تعالى { وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ } [54]، وفي قوله تعالى { وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ } [55]، على حذف لام التعليل مع (أنْ) وهو كثير. وفيه حذف (لا) النافية بعد (أن). والمعنى: لئلّا تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله.

وظاهر القول أنّه القول جهرة وهو شأن الذي ضاق صبره عن إخفاء ندامته في نفسه فيصرخ بما حدَّث به نفسه، فتكون هذه الندامة المصرَّح بها زائدة على التي أسرّها، ويجوز أن يكون قولا باطنا في النفس.

{ **نَفْسٌ** } تنكير للنوعية، أي: أن يقول صنف من النفوس، وهي نفوس المشركين، فهو كقوله تعالى { عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ } [التكوير:14].

{ **يَا حَسْرَتَى** } حرف (يا) استعارة مكنية بتشبيه الحسرة بالعاقل الذي ينادى ليُقبل، أي: يا حسرتى احضري فأنا محتاج إليك، وشاع ذلك في كلامهم حتّى صارت هذه الكلمة كالمثل لشدّة التحسّر.

الحسرة: الندامة الشديدة. والألف عوض عن ياء المتكلم.

وتعدية الحسرة بحرف الاستعلاء كما هو غالبها للدلالة على تمكّن التحسُّر من مدخول { **عَلَى** }.

{ **مَا فَرَّطْتُ** } والـ { مَا } مصدرية، أي: على تفريطي في جنب الله.

التفريط: التضييع والتقصير، يقال: فرَّطه. والأكثر أن يقال: فرّط فيه.

الجنب والجانب: مترادفان، وهو ناحية الشيء ومكانه، ومنه { وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ } [النساء:36].

{ **فِي جَنْبِ اللَّهِ** } حرف { في } هنا الراجح أن يكون لتعدية فعل { فَرَّطْتُ } فلا يكون للفعل مفعول، ويكون المفرّط فيه هو جنب الله، أي: جهته، ويكون الجنب مستعار للشأن والحق، أي: شأن الله وصفاته ووصاياه.

{ **وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ** } خبر مستعمل في إنشاء الندامة على ما فاتها من قبول ما جاءها به الرسول من الهدى فكانت تسخر منه، والجملة حال من فاعل فرّطت، أي: فرّطت في جنب الله تفريط الساخر.

{ **مِنَ السَّاخِرِينَ** } أشدّ مبالغة في الدلالة على اتصافهم بالسخرية من أن يقال: وإن كنتُ لساخرة.

{ **أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ** } يقولونه لقصد الاعتذار والتنصّل، تعيد أذهانهم ما اعتادوا الاعتذار به للنبيّ صلى الله عليه وسلم كما حُكِي عنهم { وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ } [الزخرف:20]، وهم كانوا يقولونه لقصد إفحام النبيّ حين يدعوهم.

{ **مِنَ الْمُتَّقِينَ** } الكلام فيه كالقول في قوله تعالى { مِنَ السَّاخِرِينَ }.

{ **أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ** } هو تمنّ محض. و{ لو } فيه للتمنّي،

وانتصب { فَأَكُونَ } على جواب التمنّي.

الكَرَّة: الرَّجْعة. وتقدّم في قوله تعالى { فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } [الشعراء:102]، أي: كَرَّة إلى الدنيا فأُحْسِن.

وقد حُكي كلام النفس في ذلك الموقف على ترتيبه الطبيعي في جولانه في الخاطر بالابتداء بالتحسُّر على ما أوقعت فيه نفسها، ثمَّ الاعتذار والتنصُّل طمعا أن ينجيها ذلك، ثمَّ بتمنِّي أن تعود إلى الدنيا لتعمل الإحسان، كقوله تعالى { قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ } [المؤمنون:100/99]. فهذا الترتيب في النظم هو أحكم ترتيب ولو رُتِّب الكلام على خلافه لفاتت الإشارة إلى تولُّد هذه المعاني في الخاطر حينما يأتيهم العذاب.

{ بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ } [59].

{ **بَلَى** } حرف لإبطال منفي أو فيه رائحة النفي، لقصد إثبات ما نفي قبله، فتعيَّن أن تكون هنا جوابا لقول النفس { لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ } [57]، لما تقتضيه { لو } التي استعملت للتمنِّي من انتفاء ما تمنّاه، وهو أن يكون الله هداه ليكون من المتقين، أي: لم يهدني الله فلم أتق.

{ **قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي** } تفصيل للإبطال وبيان له، وهو مثل الجواب بالتسليم بعد المنع، أي: هداك الله.

وقد قوبل كلام النفس بجواب يقابله على عدد قرائنه الثلاث:

{ **قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا** } وهذا مقابل { لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي } [57].

{ **وَاسْتَكْبَرْتَ** } وهو مقابل { عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ } [الزمر:56]، أي ليست نهاية أمرك التفريط بل أعظم منه وهو الاستكبار.

{ **وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ** } وهذا مقابل { لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ } [57].

المعنى: أنّ الله هداك في الدنيا بالإرشاد بآيات القرآن فقابلتَ الإرشاد بالتكذيب والاستكبار والكفر بها فلا عذر لك.

{ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ } [60].

عطف على إحدى الجمل المتقدّمة المتعلّقة بعذاب المشركين في الدنيا والآخرة، والأحسن أن يكون عطفا على جملة { وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا } [51]، أي: في الدنيا كما أصاب الذين من قبلهم، ويوم القيامة تسودُّ وجوههم.

{ **تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ** } الخطاب في قوله { تَرَى } لغير معيَّن. والَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ هم الذين

نسبوا إليه ما هو منزّه عنه من الشريك وغير ذلك من تكاذيب الشرك، وهم الذين ظلموا في قوله تعالى { وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا } [51]، وصفوا أوّلا بالظلم ثم وصفوا بالكذب على الله هنا.

ويدخل فيهم كلّ من نسب إلى الله صفة لا دليل له فيها، ومن شرع شيئا فزعم أنّ الله شرعه متعمّدا قاصدا ترويجه للقبول بدون دليل، فيدخل أهل الضلال الذين اختلقوا صفات لله أو نسبوا إليه تشريعا.

ولا يدخل أهل الاجتهاد المخطئون في الأدلة، إذا استفرغوا الجهود. ونسبة شيء إلى الله أمرها خطير، ولذلك قال أئمتنا: إنّ الحكم المقيس غير المنصوص يجوز أن يقال هو دين الله ولا يجوز أن يقال: قاله الله.

{ **وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ** } مبتدأ وخبر، وموقع الجملة موقع الحال من { الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ }، لأنّ الرؤية هنا بصرية لا ينصب فعلها مفعولين. ولا يلزم اقتران جملة الحال الاسمية بالواو.

يجوز أنّ يكون اسوداد الوجوه حقيقة، جعله الله علامة لهم وجعل بقية الناس بخلافهم. وقد جعل الله اسوداد الوجوه يوم القيامة علامة على سوء المصير، كما جعل بياضها علامة على حسن المصير، قال تعالى { يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [آل عمران:107/106].

ويجوز أن يكون ابيضاض الوجوه مستعملا في النضرة والبهجة، قال تعالى { وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ } [القيامة:22].

{ **أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ** } واقعة موقع الاستئناف البياني للجملة السابقة، على كلا المعنيين، لأنّ السامع يسأل عن سبب اسوداد الوجوه فيجاب بأنّ في جهنم مثواهم، يعني لأنّ السواد يناسب ما سيفلح وجوههم من مسّ النار، فأجيب بطريقة الاستفهام التقريري بتنزيل السائل المقدَّر منزلة من يعلم أن مثواهم جهنم فلا يليق به أن يغفل عن مناسبة سواد وجوههم لمصيرهم إلى النار.

التكبّر: شدّة الكبر، ومن أوصاف الله تعالى المتكبِّر، و**الكِبر**: إظهار المرء التعاظم على غيره لأنّه يعدّ نفسه عظيما. والتعريف هنا للاستغراق.

وفي وصفهم بالمتكبّرين إيماء إلى أنّ عقابهم بتسويد وجوههم كان مناسبا لكبريائهم.

{ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } [61].

عطف على الجملة السابقة، أي: وينجي الله الذين اتقوا من جهنم لأنّهم ليسوا بمتكبِّرين. وهذا إيذان بأنّ التقوى تنافي التكبّر، لأنّ التقوى كمال الخلق الشرعي وتقتضي اجتناب المنهيّات وامتثال الأمر في الظاهر والباطن، والكبر مرض قلبي باطني فإذا كان الكبر ملقيا صاحبه في النار فضدّ أولئك ناجون منها، وهم المتّقون.

المفازة: يجوز أن تكون مصدرا ميميا للفوز وهو الفلاح، مثل المتاب، كما في قوله تعالى { فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ } [آل عمران:188]، والباء للملابسة، أي: متلبِّسين بالفوز، أو الباء للسببية، أي: بسبب ما حصلوا عليه من الفوز.

ويجوز أن تكون المفازة اسم للفلاة، سُمِّيت مفازة باسم مكان الفوز، أيّ النجاة، وتأنيثها بتأويل البقعة، وسمُّوها مفازة باعتبار أنّ من حلّ بها سلم من أن يلحقه عدوه. وعلى هذا المعنى فالباء بمعنى (في).

وتكون المفازة هنا الجنّة. قال تعالى { إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا } [النبأ:31-33].

{ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ } مبيّنة للجملة السابقة، لأنّ نفي مسّ السوء هو إنجاؤهم، ونفي الحزن عنهم نفي لأثره. وجيء في جانب نفي السوء عنهم بالجملة الفعلية، لأنّ ذلك لنفي حالة أهل النار عنهم، وأهل النار في مسّ من السوء متجدّد. وجيء في نفي الحزن عنهم بالجملة الاسمية، لأنّ أهل النار أيضا في حزن وغم ثابت لازم لهم. ومن لطيف التعبير هذا التفنّن، فإنّ شأن الأسواء الجسدية تجدّد آلامها، وشأن الأكدار القلبية دوام الإحساس بها.

{ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ [62] لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ [63] }

هذا استئناف ابتدائي تمهيد لقوله تعالى { قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ } [64] في ذكر تمسُّك الرسول صلى الله عليه وسلم والرسل من قبله بالتوحيد ونبذ الشرك والبراءة منه والتصلّب في مقاومته وقطع دابره. وقد اشتمل هذا الاستئناف ومعطوفاته على ثلاث جمل وجملة رابعة:

الجملة الأولى: **{ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ }** هذه الجملة أدخلت كلّ موجود في أنّه مخلوق لله تعالى، فهو وليّ التصرّف فيه لا يخرج من ذلك إلّا ذات الله تعالى وصفاته، والمقصود من هذا إثبات حقيقة، وإلزام الناس بتوحيده لأنّه خالقهم، وليس في هذا قصد ثناء ولا تعاظم.

والمقصود من هذه المقدّمة تذكير الناس بأنّهم جميعا عبيد لله وحده ليس لغيره منّة عليهم بالإيجاد.

الجملة الثانية: **{ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ }** جيء بها معطوفة لأنّ مدلولها مغاير لمدلول التي قبلها.

الوكيل: المتصرّف في شيء بدون تعقّب. ولمَّا لم يعلّق بذلك الوصف شيء عُلم أنّه موكول إليه جنس التصرّف وحقيقته، فعمّ تصرُّفه أحوال جميع الموجودات، من تقدير الأعمال والآجال والحركات.

وهذه المقدّمة تقتضي الاحتياج إليه بالإمداد، فهم بعد أن أوجدهم لم يستغنوا عنه لمحة ما.

الجملة الثالثة: **{ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }** جيء بها مفصولة لأنّها تفيد بيان الجملة التي قبلها، فإنّ الوكيل على شيء يكون هو المتصرّف في العطاء والمنع.

المقاليد: جمع إقليد (بكسر الهمزة وسكون القاف) وهذا جمع على غير قياس، وإقليد قيل معرّب عن الفارسية، وأصله (كليد) قيل: من الرومية، وقيل: كلمة يمانية. وهي كناية عن حفظ ذخائر السماوات

والأرض، فذخائر الأرض عناصرها ومعادنها وكيفيّات أجوائها وبحارها، وذخائر السماوات سير كواكبها وتصرّفات أرواحها في عوالمها وعوالمنا، وما لا يعلمه إلّا الله تعالى.

ولمّا كانت تلك العناصر والقوى شديدة النفع للناس وكان الناس في حاجة إليها شُبِّهت بنفائس المخزونات، فصحّ أيضا أن تكون المقاليد استعارة مكنية.

وهذه المقدّمة تشير إلى أنّ الله هو معطي ما يشاء لمن يشاء من خلقه، ومن أعظم ذلك النبوّة وهدي الشريعة، فإن جهل المشركين بذلك هو الذي جرّأهم على أن أنكروا اختصاص محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة دونهم، واختصاص أتباعه بالهدى فقالوا { أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا } [الأنعام:53].

فهذه الجمل اشتملت على مقدِّمات ثلاث تقتضي كل واحدة منها دلالة على وحدانية الله بالخلق، ثم بالتصرّف المطلق في مخلوقاته، ثمّ بوضع النظم والنواميس الفطرية والعقلية والتهذيبية في نظام العالم وفي نظام البشر. وكلّ ذلك موجب توحيده وتصديق رسوله صلى الله عليه وسلم والاستمساك بعروته.

<u>الجملة الرابعة</u>: { **وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** } تحتمل الاعتراض ولكن اقترانها بالواو بعد نظائرها يرجّح أن تكون (الواو) فيها عاطفة وأنّها مقصودة بالعطف على ما قبلها لأنّ فيها زيادة على مفاد الجملة قبلها، وتكون مقدِّمة رابعة للمقصود، تجهيلا للذين هم ضدّ المقصود من المقدّمات، فإنّ الاستدلال على الحق بإبطال ضده ضرب من ضروب الاستدلال. لأنّ الاستدلال يعود إلى ترغيب وتنفير، فإذا كان الذين كفروا بآيات الله خاسرين لا جرم كان الذين آمنوا بآيات الله هم الفائزين.

فهذه الجملة تقابل جملة { وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ } [61] المنتقل منها إلى هؤلاء الآيات، وهي مع ذلك مفيدة إنذارهم وتأفين آرائهم، لأنّ موقعها بعد دلائل الوحدانية يقتضي التنديد عليهم في عدم الاهتداء بها.

آيات الله: هي دلائل وجوده ووحدانيّته التي أشارت إليها الجمل الثلاث السابقة.

{ **أُولَئِكَ** } الإخبار عن الذين كفروا باسم الإشارة للتنبيه على أنّ المشار إليهم خسروا لأجل ما وُصفوا به قبل اسم الإشارة، وهو الكفر بآيات الله.

{ **هُمُ** } توسّط ضمير الفصل لإفادة حصر الخسارة فيهم، وهو قصر ادعائي بناء على عدم الاعتداد بخسارة غيرهم بالنسبة إلى خسارتهم، فخسارتهم أعظم خسارة.

{ **الْخَاسِرُونَ** } لأنّهم كفروا بآيات من له مقاليد خزائن الخير فعرَّضوا أنفسهم للحرمان ممَّا في خزائنه وأعظمها خزائن خير الآخرة.

{ **قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ** } [64].

هذا نتيجة المقدّمات وهو المقصود بالإثبات.

{ **قُلْ** } هو الواسطة في جعل المقام لخطاب المشركين خاصة بعد أن كان مقام الكلام قبله مقام البيان لكلّ

سامع من المؤمنين وغيرهم.

{ **أَفَغَيْرَ اللَّهِ** } الفاء لتفريع الكلام المأمور الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقوله على الكلام الموحى به إليه ليقرع به أسماعهم، فإنّ الحقائق المتقدّمة موجهة إلى المشركين. فبعد تقرُّرها عندهم وإنذارهم على مخالفة حالهم لما تقتضيه تلك الحقائق، أُمِر الرسول صلى الله عليه وسلم بان يوجّه إليهم هذا الاستفهام الإنكاري.

{ **أَعْبُدُ** } قيل متعلّق بـ { تَأْمُرُونِّي } على حذف حرف الجر مع (أن). والجمهور يجعلون { أَعْبُدُ } هو المستفهم عنه، وفعل { تَأْمُرُونِّي } اعتراضا أو حالا، والتقدير: أأعبد غير الله حال كونكم تأمرونني بذلك.

{ **أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ** } نداؤهم بوصف الجاهلين تقريع لهم بعد أن وُصفوا بالخسران ليجمع لهم بين نقص الآخرة ونقص الدنيا. والجهل هنا ضد العلم، لأنّهم جهلوا دلالة الدلائل المتقدّمة فلم تفدهم شيئا فعمُوا عن دلائل الوحدانية التي هي بمرأى منهم ومسمع، فجهلوا دلالتها على الصانع الواحد ولم يكفهم هذا الحظ من الجهل حتّى تدلُّوا إلى حضيض عبادة أجسام من الصخر الأصم.

وحُذف مفعول { الْجَاهِلُونَ } لتنزيل الفعل منزلة اللازم، كأنّ الجهل صار لهم سجيّة فلا يفقهون شيئا، فهم جاهلون بما أفادته الدلائل من الوحدانية التي لو علموها لما أشركوا ولما دعوا النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى إتباع شركهم.

{ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ [65] بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ [66] }.

تأييد لأمره بأن يقول للمشركين تلك المقالة، مقالة إنكار أن يطمعوا منه في عبادة غير الله. وأعقب بأنّهم جاهلون بأنّ التوحيد هو سنة الأنبياء، وأنّهم لا يتطرّق الإشراك حوالي قلوبهم، فالمقصود الأهم من هذا الخبر التعريض بالمشركين إذ حاولوا النبيّ صلى الله عليه وسلم على الاعتراف بإلهية أصنامهم.

{ **وَلَقَدْ** } الواو عاطفة على جملة { قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي } [64]. وتأكيد الخبر بلام القسم وبحرف (قد) تأكيدا لما فيه من التعريض للمشركين.

{ **الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ** } هم الأنبياء والمرسلون.

{ **لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ** } مبيّنة لمعنى { أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ }.

والتاء في { أَشْرَكْتَ } تاء الخطاب لكلّ من أوحي إليه بمضمون هذه الجملة من الأنبياء. ويجوز أن يكون الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم. وأيًّا ما كان فالمقصود بالخطاب تعريض بقوم الذي أوحي إليه، لأنّ فرض إشراك النبيّ صلى الله عليه وسلم غير متوقّع.

{ **لَئِنْ أَشْرَكْتَ** } اللام موطِّئة للقسم المحذوف دالة عليه، واللام في { لَيَحْبَطَنَّ } لام جواب القسم.

الحَبط: البطلان والدحض، حبط عمله: ذهب باطلا. والمراد بالعمل هنا: العمل الصالح الذي يُرجى منه

الجزاء الحسن الأبدي. وتقدّم عند قوله تعالى { وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ } [البقرة:217].

{ **وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** } ثمّ عُطف عليه أنّ صاحب الإشراك من الخاسرين، شُبِّه حاله حينئذ بحال التاجر لذي أخرج مالا ليربح فيه زيادة فعاد وقد ذهب ماله أو أكثره.

وفي تقدير فرض وقوع الإشراك من الرسول والذين من قبله، مع تحقّق عصمتهم، التنبيه على عظم أمر التوحيد وخطر الإشراك، ليعلم الناس أنّ أعلى الدرجات في الفضل لو فُرض أن يأتي عليها الإشراك لما أبقى منها أثرا ولدحضها دحضا.

{ **بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ** } لإبطال مضمون جملة { لَئِنْ أَشْرَكْتَ }، أي: بل لا تشرك، أو لإبطال مضمون جملة { أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ }.

{ **فَاعْبُدْ** } الفاء يظهر أنّها تفريع على التحذير من حبط العمل ومن الخسران.

فحصل باجتماع (بَل) و(الفاء)، في صدر الجملة، أن جمعت غرضين: غرض إبطال كلامهم، وغرض التحذير من أحوالهم، وهذا وجه رشيق.

{ **اللَّهَ فَاعْبُدْ** } تقديم المعمول على { فاعبد } لإفادة القصر، أي: أعبد الله لا غيره، وهذا في مقام الردّ على المشركين كما تضمّنه قوله تعالى { قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ } [64].

الشكر: هنا العمل الصالح، لأنّه عطف على إفراد الله تعالى بالعبادة. والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم ولمن قبله، أو خاص به ويقاس عليه الأنبياء. نظير ما في القول السابق { لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ }.

{ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } [67].

<u>لمّا جرى الكلام</u> على أنّ الله تعالى خلق كلّ شيء وأنّ له مقاليد السماوات والأرض وهو ملك عوالم الدنيا، <u>وذُيِّل</u> ذلك بأنّ الذين كفروا بدليل الوحدانية هم الخاسرون، <u>انتقل الكلام هنا</u> إلى عظمة ملك الله تعالى في العالم الأخروي الأبدي، وأنّ الذين كفروا بآيات الله الدالة على ملكوت الدنيا قد خسروا بترك النظر، فلو اطّلعوا على عظيم ملك الله في الآخرة لقدَّروه حقّ قدره.

{ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ** } اعتراض بين جملة { وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } وجملة { لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [63]، أي: ما عرفوا عظمته حيث لم ينزّهوه عمّا لا يليق بجلاله من الشريك.

{ **حَقَّ قَدْرِهِ** } من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: ما قدَّروا الله قدره الحقّ، فانتصب { حَقَّ } على النيابة عن المفعول المطلق المبيّن للنوع، وتقدّم نظير هذا في [الأنعام:91].

{ **وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ** } يجوز أن تكون الجملة عطف غرض على غرض، انتقل به إلى وصف يوم القيامة وأحوال الفريقين فيه.

{ **جَمِيعًا** } أصله اسم مفعول. وبذلك استُعمل توكيدا مثل (كلّ) و (أجمع)، قال تعالى { يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا } [المجادلة :6]. وقد وقع { جَمِيعًا } هنا حالا من { الْأَرْضُ }، وتجريده من علامة التأنيث جريا على الوجه الغالب. وتقدّم نظيره آنفا في قوله تعالى { قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا } [44].

القَبضة: (بفتح القاف) المرّة من القبض، وتقدّم في قوله تعالى { فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ } [طه:96].

والإخبار عن الأرض بهذا المصدر الذي هو بمعنى المفعول كالخلق بمعنى المخلوق للمبالغة في الاتصاف بالمعنى المصدري، وإنّما صيغ لها وزن المرّة تحقيرا لها في جانب عظمة ملك الله تعالى.

والقبضة تدلّ على تمام التمكّن من المقبوض، وأنّ المقبوض لا تصرّف له ولا تحرّك.

{ **وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ** } استعارة مكنية لتشويش تنسيقها واختلال أبعاد أجرامها، فإنّ الطي ردّ ولف بعض شقق الثوب أو الورق على بعض بعد أن كانت مبسوطة منتشرة، قال تعالى { يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ } [الأنبياء:104]. وإثبات الطي تخييل.

{ **بِيَمِينِهِ** } الباء للآلة والسببية. و**اليمين**: وصف لليد، ولا يد هنا وإنّما هي كناية عن القدرة لأنّ العمل يكون باليد اليمين. أي: بقدرة.

{ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ** } إنشاء تنزيه لله تعالى عن إشراك المشركين له آلهة، وهو يؤكد جملة { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ }.

{ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ } [68].

انتقال من إجمال عظمة القدرة يوم القيامة إلى تفصيلها، لما فيه تهويل وتمثيل لمجموع الأحوال يومئذ، ممّا ينذر الكافر ويبشّر المؤمن، ويذكِّر بإقامة العدل والحقّ. ثم تمثيل إزجاء المشركين إلى جهنم وسَوق المؤمنين إلى الجنة. والجملة من عطف القصة على القصة، ومناسبة العطف ظاهرة.

{ **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ** } عُبّر بالماضي مجازا لأنّه محقَّق الوقوع، كقوله تعالى { أَتَى أَمْرُ اللَّهِ } [النحل:1]، <u>ويجوز</u> أن تكون (الواو) للحال بتقدير (قد)، أي: والحال قد نفخ في الصور، فتكون صيغة الماضي مستعملة في حقيقتها.

الصور: بوق ينادى به البعيد المتفرّق مثل الجيش، وقد كان اليهود ينادون به للصلاة، كما جاء في حديث بدء الأذان في الإسلام. والمراد به هنا نداء الخلق لحضور الحشر أحيائهم وأمواتهم، وتقدّم عند قوله تعالى { يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ} [الأنعام:73].

وهو علامة لأمر التكوين، فالأحياء يصعقون فيموتون، كما يموت المفزوع، بالنفخة الأولى، والأموات يُصعقون اضطرابا تدُبّ بسببه فيهم الحياة، فيكونون مستعدّين لقبول الحياة، فإذا نُفخت النفخة الثانية حلّت الأرواح في الأجساد المخلوقة لهم.

{ **إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ** } الاستثناء من اسم الموصول الأوّل، أي: إلّا من أراد الله عدم صعقة وهم الملائكة والأرواح، وتقدّم في قوله { وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ } [النمل:87].

{ **ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى** } { ثمّ } تؤذن بتراخي الرتبة لأنّها عاطفة جملة، ويجوز أن تفيد مع ذلك المهلة.

{ **أُخْرَى** } صفة لمحذوف، أي: نفخة أخرى، وهي نفخة مخالف تأثيرها لتأثير النفخة الأولى، لأنّ الأولى نفخة إهلاك وصعق، والثانية نفخة إحياء وبعث، وذلك باختلاف الصوتين أو باختلاف أمري التكوين.

وإنّما ذكرت النفخة الثانية في هذه الآية ولم تذكر في [النمل:87]، لأنّ تلك في غرض الموعظة بفناء الدنيا وهذه الآية في غرض عظمة شأن الله يوم القيامة، وكذلك وصف النفخة بالواحدة في قوله تعالى { فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ } [الحاقة:13-15].

{ **فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ** } { إذا } للمفاجأة، للتنبيه على سرعة حلول الحياة فيهم وقيامهم إثره.

وضمير { هم } عائد على { مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ }. و{ **قِيَامٌ** } جمع قائم.

{ **يَنْظُرُونَ** } الإبصار، أي: لا غشاوة على أبصارهم، كما في قوله { فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ} [الصافات:19]، أو أريد أنّهم ينظرون نظر المقلّب بصره. ويجوز أن يكون من النظرة، أي: الانتظار.

{ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ [69] وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ [70] }.

صوَّرت هذه الآيات جلال ذلك الموقف وجماله أبدع تصوير.

{ **الْأَرْضُ** } تعريف العهد الذكري الضمني، فقد تضمن قوله تعالى { فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ } [68]، أنّهم قيام، فإنّ القيام يستدعي مكانا تقوم فيه تلك الخلائق، وهو أرض الحشر، وهي الساهرة في قوله تعالى { فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ } [النازعات:14/13]. وفُسّرت بأنها الأرض البيضاء النقية، وليس المراد التي كانوا عليها في الدنيا، فإنّها قد اضمحلت لقوله تعالى { يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ} [إبراهيم: 48].

{ **وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ** } انتشار الضوء عليها، يقال: أشرقت الأرض، ولا يقال: أشرقت الشمس.

{ **بِنُورِ رَبِّهَا** } إضافة النور إلى الربّ إضافة تعظيم لأنّه منبعث منه، وهو الذي في قوله تعالى { اللَّهُ نُورُ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ } [النور:35]. فإضافة نور إلى الرب إضافة تشريف للمضاف، كقوله تعالى { هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً } [الأعراف:73].

أي: بنور خاص خلقه الله فيها، لا بسطوع مصباح ولا بنور كوكب شمس أو غيرها، وإذ قد كان النور نورا ذاتيا لتلك الأرض كان إشارة إلى خلوصها من ظلمات الأعمال، فدلّ على أنّ ما يجري على تلك الأرض من الأعمال والأحداث حقّ وكمال في بابه، لأنّ عالم الأنوار لا يشوبه شيء من ظلمات الأعمال.

وهذا يغني عن جعل النور مستعارا للعدل، فإنّ ذلك المعنى حاصل بدلالة الالتزام كناية.

الوضع: الحط، والمراد به هنا الإحضار.

{ **الْكِتَابُ** } تعريفه تعريف الجنس، أي: وضعت الكتب، وهي صحائف أعمال العباد أحضرت للحساب.

ويجوز أن يكون المراد بالكتاب كتب الشرائع التي شرعها الله للعباد على ألسنة الرسل ويكون إحضارها شاهدة على الأمم بتفاصيل ما بلَّغه الرسل إليهم، لئلا يزعموا أنّهم لم تبلغهم الأحكام.

{ **وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ** } للشهادة على أممهم، كما تقدّم في قوله تعالى { فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا } [النساء:41].

{ **وَالشُّهَدَاءِ** } من الملائكة الحفظة الموكلين بإحصاء أعمال العباد.

{ **وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ** } أي: صدر القضاء فيهم بما يستحقّون وهو مسمَّى الحق.

فمن القضاء ما هو فصل بين الناس في معاملات بعضهم مع بعض من كل ظالم ومظلوم ومعتدٍ ومعتدًى عليه، قال تعالى { وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } [النحل:124].

ومنه أيضا القضاء على كل نفس بما هي به حقيقة من مرتبة الثواب أو العقاب، وهو قوله تعالى { وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ }.

فقضاء الله هو القضاء العام الذي لا يقتصر على إنصاف المتداعين كقضاء القاضي، ولا على سلوك الداعرين كقضاء والي الشرطة، ولا على مراقبة المغيرين كقضاء والي الحسبة، ولكنه قضاء على كل نفس بما اختلت به من عمل وبما أضمرته من ضمائر إن خيرًا فخيرٌ وإنّ شرًّا فشرٌّ.

وإلى ذلك تشير المراتب الثلاث في الآية:

مرتبة { وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ }.

مرتبة { وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ }.

مرتبة { وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ }.

التوفية: إعطاء الشيء وافيا لا نقص فيه عن الحق، ولا عن عطاء أمثاله.

{ **مَا عَمِلَتْ** } مضاف محذوف، أي: جزاء ما عملت، لظهور أنّ ما عمله المرء لا يوفَّاه بعد أن عمله وإنّما يوفَّى جزاءه.

{ **وَأَشْرَقَتِ / وَجِيءَ / قُضِيَ / وُفِّيَتْ** } عُبِّر بالماضي مجازا لأنّه محقَّق الوقوع.

{ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ [71] قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ [72] }.

هذا تنفيذ القضاء الذي جاء في قوله تعالى { وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ } [69]، وقوله تعالى { وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ } [70]، فإنّ عاقبة ذلك ونتيجته إيداع المجرمين في العقاب وإيداع الصالحين في دار الثواب. وابتدئ في الخبر بذكر مستحقّي العقاب لأنّه الأهم في هذا المقام، إذ هو مقام إعادة الموعظة والترهيب للذين لم يتّعظوا بما تكرّر في القرآن من العظات مثل هذه.

السَّوق: أن يجعل الماشي ماشيا آخر يسير أمامه ويلازمه، وضدّه القَود، والسَّوق مشعر بالإزعاج والإهانة، قال تعالى { كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ } [لأنفال:6].

الزُّمَر: جمع زُمْرَة، وهي الفوج من الناس المتبوع بفوج آخر، فلا يقال: مرّت زمرة من الناس، إلّا إذا كانت متبوعة بأخرى. وإنّما جعلوا زمرا لاختلاف درجات كفرهم.

{ **حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا** } التقدير: فلمّا جاءوها فتحت أبوابها، أي: وكانت مغلقة لتفتح في وجوههم حين مجيئهم فجأة، تهويلا ورعبا. وقرأ الجمهور { فُتِّحَتْ } بتشديد التاء للمبالغة في الفتح. وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وخلف بتخفيف التاء على أصل الفعل.

الخزَنة: جمع خازن وهو الوكيل والبوّاب، غلب عليه اسم الخازن لأنّه يقصد لخزن المال.

{ **أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ** } استفهام تقريري مستعمل في التوبيخ والزجر.

{ **مِنْكُمْ** } صفة لـ { رُسُلٌ } والمقصود التورّك عليهم لأنّهم كانوا يقولون { أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ } [القمر:24].

التلاوة: قراءة الرسالة والكتاب، لأنّ القارئ يتلو بعض الكلام ببعض.

الآيات: أصلها العلامات، مثل آيات الطريق. وأطلقت على الأقوال الدالة على الحقّ. والمراد بها هنا القوال الموحى بها إلى الرسل، مثل صحف إبراهيم وموسى والقرآن، ولأنّ في معاني كثير من القرآن والكتب السماوية ما فيه دلائل نظرية على الوحدانية والبعث ونحوها من الاستدلال.

وأسندت التلاوة إلى جميع الرسل وإن كان فيهم من ليس له كتاب على طريقة التغليب.

{ **قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ** } لم يعطف فعل { قالوا } على ما قبله لأنّه جاء في معرض المقاولة. وجوابهم بحرف { بلى } إقرار بإبطال المنفي، وهو إتيان الرسل وتبليغهم، فمعناه إثبات

إتيان الرسل وتبليغهم.

{ **كَلِمَةُ الْعَذَابِ** } هي الوعيد به على ألسنة الرسل، كما في قول بعضهم {فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ} [الصافات:31]، أي: تحقَّقت فينا.

{ **وَلَكِنْ** } محل الاستدراك هو ما طوي في الكلام ممّا اقتضى أن تحقّ عليهم كلمات الوعيد، وذلك بإعراضهم عن الإصغاء لأمر الرسل، فالتقدير: ولكن تكبَّرْنَا وعانَدْنَا فحقت كلمة العذاب على الكافرين. وهذا الجواب من قبيل جواب المتندّم المكروب فإنّه يوجز جوابه ويقول لسائله أو لائمه: الأمر كما ترى.

{ **قِيلَ** } مبني للنائب للعلم بالفاعل إذ القائل: ادخلوا أبواب جهنم، هم خزنتها.

دخول الباب: ولوجه لوصول ما وراءه، قال تعالى { ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ } [المائدة:23].

المَثْوَى: محلّ الثواء وهو الإقامة، والمخصوص بالذمّ محذوف دلّ عليه ما قبله والتقدير: بئس مثوى المتكبرين جهنّم.

{ **المُتَكَبِّرِينَ** } لأنّهم أعرضوا عن قبول الإسلام تكبّرا عن أن يتّبعوا واحدا منهم.

{ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ } [73].

أطلق على تقدمة المتقين إلى الجنة فعل السَّوق على طريقة المشاكلة، والمشاكلة من المحسّنات، وهي عند التحقيق من قبيل الاستعارة التي لا علاقة لها إلّا المشابهة الجُملية التي تُحمل عليها مجانسة اللفظ.

{ **زُمَرًا** } بحسب مراتب التقوى.

{ **وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا** } واو الحال، أي: حين جاءوها وقد فتحت أبوابها، فوجدوا الأبواب مفتوحة، على ما هو الشأن في اقتبال أهل الكرامة.

{ **طِبْتُمْ** } دعاء بالطيب لهم، أي: التزكية وطيب الحالة، والجملة إنشاء تكريم ودعاء.

{ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ } [74].

عطف هذا الكلام يؤذن بأن قولهم ذلك غير جواب لقول الملائكة بل حمدوا الله على ما منحهم من النعيم الذي وعدهم به، وإنّما وعدهم به بعنوان الأعمال الصالحة، فلمّا كانوا أصحاب الأعمال الصالحة جعلوا وعد العاملين للصالحات وعدا لهم، لتحقّق المعلَّق عليه الوعد فيهم.

{ **صَدَقَنَا** } حقَّق لنا وعده.

{ **وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ** } كلام جرى مجرى المثل لمن ورث الملك، قال تعالى { أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ

الصَّالِحُونَ } [الأنبياء:105]. ويجوز أن يكون لفظ { الْأَرْضَ } مستعارا للجنة، لأنّها قرارهم كما أنّ الأرض قرار الناس في الحياة الأولى.

{ **وَأَوْرَثَنَا** } وإطلاق الإيراث استعارة، تشبيها للإعطاء بالتوريث في سلامته من تعب الاكتساب.

التبوُّؤ: السكنى والحلول، والمعنى: أنّهم ينتقلون في الغرف والبساتين تفنّنا في النعيم.

{ **العَاملين** } أرادوا أنفسهم، أي: عاملي الخير، وهذا من التصريح بالحقائق فليس فيه عيب تزكية النفس.

{ وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [75]

عطف على ما قبله من ذكر أحوال يوم القيامة التي عطف بعضها على بعض ابتداء من قوله تعالى { وَنُفِخَ فِي الصُّورِ } [68]، أنّ من جملة تلك الأحوال حفّ الملائكة حول العرش.

والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم فيكون إيذانا بأنّها رؤية دنوّ من العرش وملائكته، وذلك تكريم له بأن يكون قد حواه موكب الملائكة الذين حول العرش.

الحَفُّ: الإحداق بالشيء، والكون بجوانبه.

{ **يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ** } حال، أي: يقولون أقوالا تدل على تنزيه الله تعالى وتعظيمه ملابسة لحمدهم إيّاه. فالباء للملابسة تتعلق بـ { يُسَبِّحُونَ } .

{ **رَبِّهِمْ** } في استحضار الله تعالى بوصف ربّهم إيماء إلى أنّ قربهم من العرش ترفيع في مقام العبودية الملازمة للخلائق.

{ **وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ** } تأكيد لجملة { وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ } [69].

{ **وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** } يجوز أن يكون توكيدا لجملة { وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ } [74]. ويجوز أن يكون حكاية قول آخر لقائلين من الملائكة والرسل وأهل الجنة، فهو أعمّ من القول المتقدّم الذي هو قول المسوقين إلى الجنة من المتقين، فهذا قولهم يحمدون الله على عدل قضائه وجميع صفات كماله.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة غافر

وردت تسمية هذه السورة في السنّة (**حم المؤمن**). روى الترمذي عن أبي هريرة قال: " قال رسول الله صلى الله وسلم: **" من قرأ حم المؤمن إلى { إِلَيْهِ الْمَصِيرُ } [1-3]، وآية الكرسي حين يصبح حُفِظ بهما "**. وبذلك اشتهرت في مصاحف المشرق، وبذلك ترجمها البخاري في صحيحه والترمذي في الجامع.

ووجه التسمية أنّها ذكرت فيها قصّة مؤمن آل فرعون ولم تذكر في سورة أخرى بوجه صريح.

وتُسمّى أيضا (**سورة الطَّوْل**) لقوله تعالى في أوّلها { ذِي الطَّوْلِ } [3]، وقد تنوسي هذا الاسم.

وتسمَّى (**سورة غافر**) لذكر وصفه تعالى { غَافِرِ الذَّنْبِ } [3] وبهذا الاسم اشتهرت في مصاحف المغرب.

وهي **مكّية بالاتفاق**، وعن الحسن استثناء قوله تعالى { وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ } [55]، لأنّه كان يرى أنّها نزلت في فرض الصلوات الخمس وأوقاتها. وهو ضعيف.

وهذه السورة **جُعلت الستين في عداد ترتيب نزول السور** نزلت بعد سورة الزمر وقبل سورة فصلت، وهي أول سور (آل حم) نزولا.

وقد كانت هذه السورة مقروءة عقب وفاة أبي طالب، أي: سنة ثلاث قبل الهجرة، لما سيأتي أنّ أبا بكر قرأ آية { أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ } [28] حين آذى نفر من قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم حول الكعبة، وإنّما اشتد أذى قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وفاة أبي طالب.

وقد **عُدَّت آيها أربعا وثمانين** في عد أهل المدينة وأهل مكّة، وخمسا وثمانين في عد أهل الشام والكوفة، واثنتين وثمانين في عد أهل البصرة.

أغراض السورة

*/ تضمّنت هذه السورة أغراضا من أصول الدعوة إلى الإيمان.

*/ ابتدئت بما يقتضي تحدِّي المعاندين في صدق القرآن، كما اقتضاه الحرفان المقطّعان في فاتحتها.

*/ التعريض بدعوتهم إلى الإقلاع عمّا هم فيه، فكانت فاتحة السور مثل ديباجة الخطبة مشيرة إلى الغرض من تنزيل هذه السورة.

*/ عقَّب ذلك بأنّ دلائل تنزيل هذا الكتاب من الله بيّنة لا يجحدها إلّا الكافرون من الاعتراف بها حسدا، وأنّ جدالهم تشغيب. وقد تكرَّر ذكر (المجادلين في آيات الله) خمس مرات في هذه السورة.

*/ تمثيل حالهم بحال الأمم التي كذّبت رسل الله بذكرهم إجمالا.

*/ التنبيه على آثار استئصالهم وضرب المثل بقوم فرعون.

*/ موعظة مؤمن آل فرعون قومه بمواعظ تشبه دعوة محمد صلى الله عليه وسلم قومه.

*/ التنبيه على دلائل تفرّد الله تعالى بالإلهية إجمالا.

*/ إبطال عبادة ما يعبدون من دون الله.

*/ التذكير بنعم الله على الناس ليشكره الذين أعرضوا عن شكره.

*/ الاستدلال على إمكان البعث.

*/ إنذارهم بما يلقون من هوله وما يترقّبهم من العذاب.

*/ توعّدهم بأن لا نصير لهم يومئذ، وبأنّ كبراءهم يتبرّؤون منهم.

*/ تثبيت الله رسوله صلى الله عليه وسلم بتحقيق نصر هذا الدين في حياته وبعد وفاته.

*/ تخلّل ذلك الثناء على المؤمنين ووصف كرامتهم، وثناء الملائكة عليهم.

{ **حم** } [1].

القول فيه كالقول في نظائره من الحروف المقطّعة في أوائل السور، وأنّ معظمهما وقع بعده ذكر القرآن وما يشير إليه لتحدي المنكرين بالعجز عن معارضته. وقد مضى ذلك في أوّل سورة البقرة.

وذكرنا أنّ الحروف التي أسماؤها ممدودة الآخر ينطق بها في هذه الفواتح مقصورة بحذف الهمزة تخفيفا.

{ **تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** } [2].

القول فيه كالقول في فاتحة سورة الزمر. ويزاد هنا أنّ المقصود بتوجيه هذا الخبر هم المشركين المنكرون أنّ القرآن منزَّل من عند الله. فتجريد الخبر عن المؤكِّد إخراج له على خلاف مقتضى الظاهر بجعل المنكر كغير المنكر، لأنّه يحفّ به من الأدلة ما إن تأمَّله المُنكر ارتدع عن إنكاره، فما كان من حقِّه أن ينكر ذلك.

{ **الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** } تعريض بأنّ منكري تنزيل الكتاب منه مغلوبون مقهورون، وبأنّ الله يعلم ما تكنّه نفوسهم فهو محاسبهم على ذلك، ورمز إلى أنّ القرآن كلام العزيز العليم فلا يقدر غير الله على مثله ولا يعلم غير الله أن يأتي بمثله. وهذا وجه المخالفة بين هذه الآية ونظيرتها من الزمر التي جاء فيها وصف { الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } [الزمر:1]، على أنه يتأتَّى في الوصف بالعلم ما تأتَّى في بعض احتمالات وصف { الْحَكِيمِ }.

{ **غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ** } [3].

أجريت على اسم الله ستة نعوت معارف، بعضها بحرف التعريف وبعضها بالإضافة إلى معرَّف بالحرف.

وفي إتباع الوصفين العظيمين { الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } بهذه الأوصاف ترشيح لذلك التعريض، كأنّه يقول: إن كنتم أذنبتم بالكفر بالقرآن فإنّ تدارك ذنبكم في مَكْنتكم لأنّ الله مقرّر اتصافه بقبول التوبة وبغفران الذنب، فكما غفر لمن تابوا من الأمم فقبل إيمانهم يغفر لمن يتوب منكم.

{ **غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ** } تقديم { غَافِرِ } على { قَابِلِ التَّوْبِ } مع أنّه مرتَّب عليه في الحصول للاهتمام بتعجيل الإعلام به لمن استعدّ لتدارك أمره، فالوصف تعريض بالترغيب.

التوب: مصدر تاب، والتوب والثوب والأَوْب كلها بمعنى الرجوع، أي: الرجوع إلى أمر الله وامتثاله بعد الابتعاد عنه. وإنّما عطفت صفة { وَقَابِلِ التَّوْبِ } بالواو على صفة { غَافِرِ الذَّنْبِ } إشارة إلى نكتة جليلة وهي إفادة أن يُجمع للمذنب التائب بين رحمتين: بين أن يقبل توبته فيجعلها له طاعة، وبين أن يمحو عنه

بها الذنوب التي تاب منها وندم على فعلها، فيصبح كأنّه لم يفعلها. وهذا فضل من الله.

{ **غَافِرِ / قَابِلِ** } أي: أنّه موصوف بمدلوليهما فيما مضى، إذ ليس المراد أنّه سيغفر وسيقبل، فاسم الفاعل فيهما مقطوع عن مشابهة الفعل، فلذلك يكتسب التعريف بالإضافة التي تزيد تقريبه من الأسماء.

{ **شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ** } تعريض بالترهيب. لأنّ مجيئه بعد قوله { تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ } [2] يفيد أنّه المقصود من هذا الكلام بواسطة دلالة مستتبعات التراكيب.

{ **ذِي الطَّوْلِ** } الطوْل يطلق على سعة الفضل وسعة المال، ويطلق على القدرة، ووقوعه مع { شَدِيدِ الْعِقَابِ } ومزاوجتها بوصفي { غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ } ليشير إلى التخويف بعذاب الآخرة من وصف { شَدِيدِ الْعِقَابِ }، وبعذاب الدنيا من وصف { ذِي الطَّوْلِ }.

{ **لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ** } أعقب ذلك بما يدلّ على الوحدانية وبأنّ المرجع إليه، تسجيلا لبطلان الشرك وإفسادا لإحالتهم البعث. فالجملة في موضع الصفة.

{ **إِلَيْهِ الْمَصِيرُ** } إنذارا بالبعث والجزاء، لأنّه لمّا أجريت صفات {غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ} أثير في الكلام الإطماع والتخويف، فكان حقيقيا بأن يشعروا بأنّ المصير إمّا إلى ثوابه وإمّا إلى عقابه، فليزنوا أنفسهم ليضعوها حيث يلوح من حالهم. وتقديم المجرور للاهتمام وللرعاية على الفاصلة.

وقد اشتملت فاتحة هذه السورة على ما يشير إلى جوامع أغراضها ويناسب الخوض في تكذيب المشركين بالقرآن، ويشير إلى أنّهم قد اعتزُّوا بقوّتهم ومكانتهم، وأنَّ ذلك زائل عنهم كما زال عن أمم أشدّ منهم. فاستوفت هذه الفاتحة كمال ما يُطلب في فواتح الأغراض ممّا يسمى براعة المطلع أو براعة الاستهلال.

{ **مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ** } [4].

استئناف بياني نشأ من قوله تعالى { تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } [2]. وإذ قد كان كُفْر المكذِّبين بالقرآن أمرا معلوما كان الإخبار عنهم بأنّهم كافرون غير مقصود منه إفادة اتصافهم بالكفر، فتعيّن أن يكون الخبر غير مستعمل في فائدة الخبر لا بمنطوقه ولا بمفهومه، لإنّ مفهوم الحصر: أنّ الذين آمنوا لا يجادلون في آيات الله، وهو كذلك أمر معلوم مقرّر.

<u>يجوز</u> أن يُجعل المراد بالذين كفروا نفس المجادلين في آيات الله وأنّ المراد بكفرهم كفرهم بوحدانية الله بسبب إشراكهم، فالمعنى: لا عجب في جدالهم بآيات الله فإنّهم أتوا بما هو أعظم وهو الإشراك، على طريقة قوله تعالى { يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً } [النساء:153].

<u>ويجوز</u> أن يُجعل المراد بالذين كفروا جميع الكافرين بالله من السابقين والحاضرين، أي: ما الجدل في آيات الله إلّا من شأن أهل الكفر والإشراك، ومجادلة مشركي مكة شعبة من شعب مجادلة كلّ الكافرين، فيكون استدلالا بالأعم على الخاص.

{ **يُجَادِلُ** } المراد هنا المجادلة بالباطل بقرينة السياق. فصيغة المفاعلة للمبالغة في الفعل من جانب واحد لإفادة التكرّر، وهم يتلوَّنون في الاختلاق ويعاودون التكذيب من نحو قولهم {أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } [الأنعام:25]، وقولهم { سِحْرٌ مُبِينٌ } [المائدة:110]، وقولهم { قَوْلِ كَاهِنٍ } [الحاقة:42]، و{ بِقَوْلِ شَاعِرٍ } [الحاقة:41].

ومن المجادلة تورّكهم على الرسول صلى الله عليه وسلم بسؤاله أن يأتيهم بآيات، نحو قولهم { لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا } [الإسراء:90]، وقولهم { لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا } [الفرقان:7].

{ **فِي آيَاتِ اللَّهِ** } في صدق آيات الله، فتعيّن تقدير مضاف دلّ عليه المقام.

{ **في** } لتعلق الظرفية بالجدال موقع عظيم من البلاغة لأنّ الظرفية تحوي جميع أصناف الجدال، وجعل مجرور الحرف نفس الآيات دون تعيين نحو صدقها أو وقوعها أو صنفها، فكان قوله تعالى { فِي آيَاتِ اللَّهِ } جامعا للجدل بأنواعه، ولمتعلّق الجدل باختلاف أحواله.

{ **آيَاتِ اللَّهِ** } إظهار اسم الجلالة دون أن يقول: في آياته، لتفظيع أمرها بالصريح، لأنّ ذكر اسم الجلالة مؤذن بتفظيع جدالهم وكفرهم، وللتصريح بزيادة التنويه بالقرآن.

{ **فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ** } تفريع على مضمون الجملة السابقة، أي: إنّما هو استدراج ومقدار من حلم الله ورحمته بهم وقتا ما، أو أنّ معناه نحن نعلم أنّهم يجادلون في آياتنا إصرارا على الكفر فلا يوهمك تقلّبهم في البلاد أنّا لا نؤاخذهم بذلك.

الغرور: ظنّ أحد شيئا حسنا وهو بضدّه، يقال: غرَّك، إذا جعلك تظن السيّئ حسنا. ويكون التغرير بالقول أو بتحسين صورة القبيح.

التقلّب: اختلاف الأحوال، وهو كناية عن تناول محبوب ومرغوب.

{ **الْبِلادِ** } الأرض، وأريد بها هنا الدنيا كناية عن الحياة.

{ **فَلا يَغْرُرْكَ** } المخاطب بالنهي يجوز أن يكون غير معيّن فيعمّ كلّ من شأنه أن يغرَّه تقلّب الذين كفروا في البلاد، وعلى هذا يكون النهي جاريا على حقيقة بابه.

ويجوز أن يكون الخطاب موجَّها للنبيّ صلى الله عليه وسلم، على أن تكون صيغة النهي تمثيلية، بتمثيل حال النبيّ صلى الله عليه وسلم في استبطائه عقاب الكافرين بحال من غرّه تقلّبهم في البلاد سالمين. كقوله تعالى { وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ } [إبراهيم:42].

وفي معنى هذه قوله تعالى { لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ } [آل عمران:196/197].

{ **كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ** } [5].

بيان لجملة { فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ } [4]. المعنى: سبقتهم أمم بتكذيب الرسل كما كذّبوك وجادلوا بالباطل رسلهم كما جادلك هؤلاء إلى أن أخذهم.

الأحزاب: جمع حِزْب، وهو اسم للجماعة الذين هم سواء في شأن من اعتقاد أو عمل أو عادة. والمراد بهم هنا الأمم الذين كانت كلّ أمّة منهم متفقة في الدين، فكلّ أمّة منهم حزب.

{ **مِنْ بَعْدِهِمْ** } إشارة إلى أنّ قوم نوح كانوا حزبا أيضا فكانوا يدينون بعبادة الأصنام: يغوث، ويعوق، ونسر، وودّ، وسواع، وكذلك كانت كل أمّة من الأمم التي كذبت الرسل حزبا متفقين في الدين، فعاد حزب، وثمود حزب، وأصحاب الأيكة حزب. والمعنى: أنّهم جميعا اشتركوا في تكذيب الرسل وإن تخالفوا في الأديان.

{ **قَبْلَهُمْ - بَعْدِهِمْ** } في الجمع بينهما محسّن الطباق في الكلام.

الهمّ: العزم. وحقّه أن يّعدّى بـ (الباء) إلى المعاني، لأنّ العزم فعل نفساني لا يتعلّق إلّا بالمعاني. كقوله تعالى { وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا } [التوبة:74]، ولا يتعدّى إلى الذوات، فإذا عُدّي إلى اسم ذات تعيَّن تقدير معنى من المعاني التي تلابس الذات يدلّ عليها المقام. وقد يذكر بعد اسم الذات ما يدلّ على المعنى الذي يهم به كما في قوله هنا { لِيَأْخُذُوهُ }، أي: الهم بأخذه، واختيار هذا الأسلوب لقصد الإجمال الذي يعقبه التفصيل.

{ **كُلُّ أُمَّةٍ** } كلّ أمّة من الأحزاب المذكورين.

{ **لِيَأْخُذُوهُ** } يستعمل الأخذ مجازا بمعنى التصرّف في الشيء بالعقاب والتعذيب والقتل ونحو ذلك من التنكيل، قال تعالى { فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً } [الحاقة:10]، ويقال للأسير: أخيذ، وللقتيل: أخيذ.

واختير هذا الفعل هنا ليشمل مختلف ما همّت به كلّ أمة برسولها من قتل أو غيره، كما قال تعالى { وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ } [الأنفال:30].

المعنى: أنّ الأمم السابقة من الكفرة لم يقتصروا على تكذيب الرسول بل تجاوزوا ذلك إلى الأذى من الهمّ بالقتل، كما حكى الله عن ثمود { قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ } [النمل:49]. وقد تآمر كفّار قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة دار الندوة ليقتلوه. فأخذ الله الأمم عقوبة لهم على همّهم برسلهم فأهلكهم واستأصلهم.

{ **وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ** } الضمير عائد على { كُلُّ أُمَّةٍ }. والمقصود: من تعداد جرائم الأمم السابقة من تكذيب الرسل، والهمّ بقتلهم، والجدال بالباطل، تنظير حال المشركين بمكة بحال الأمم السابقين سواء، لينطبق الوعيد على حالهم أكمل انطباق في قوله { فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ }.

{ **بِالْبَاطِلِ** } الباء للملابسة، أي: جادلوا ملابسين للباطل، فالمجرور في موضع الحال من الضمير، أو

الباء للآلة، بتنزيل الباطل منزلة الآلة لجدالهم.

الإدحاض: إبطال الحجّة، قال تعالى { حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ } [الشورى:16]. والمعنى: أنّهم زوّروا الباطل في صورة الحق وروّجوه بالسفسطة في صورة الحجّة ليبطلوا حجج الحق وكفى بذلك تشنيعا لكفرهم.

{ **فَأَخَذْتُهُمْ** } تفريع على قوله { وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ }، يفهم منه إنذار المشركين أنّ همّهم بقتل الرسول صلى الله عليه وسلم هو منتهى أمد الإمهال لهم، فإذا صمّموا العزم على ذلك أخذهم الله كما أخذ الأمم المكذّبة قبلهم حين همّت كلّ أمة برسولهم ليأخذوه، فإنّ قريشا لمّا همُّوا بقتل الرسول صلى الله عليه وسلم أنجاه الله منهم بالهجرة ثم أمكنه من نواصيهم يوم بدر.

الأخذ: هنا الغلب.

{ **فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ** } الاستفهام مستعمل في التعجيب من حالة العقاب، وذلك يقتضي أنّ المخاطب بالاستفهام قد شاهد ذلك الأخذ والعقاب، وإنّما بني ذلك على مشاهدة آثار ذلك الأخذ في مرور الكثير على ديارهم في الأسفار، وفي سماع الأخبار عن نزول العقاب بهم، فنزل جميع المخاطبين منزلة من شاهد نزول العذاب بهم، ففي هذا الاستفهام تحقيق وتثبيت لمضمون جملة { فَأَخَذْتُهُمْ }.

{ **عِقَابِ** } حذفت ياء المتكلم تخفيفا مع دلالة الكسرة عليها.

{ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ } [6].

عطف على جملة { فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ } [5]، أي: ومثل ذلك الحقّ حقّت كلمات ربك، فالمشار إليه المصدر المأخوذ من قوله { حَقَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ }، وهو يفيد أنّ المشبّه بلغ الغاية في وجه الشبه حتّى لو أراد أحد أن يشبّهه لم يشبهه إلّا بنفسه.

ولك أن تجعل المشار إليه الأخذ المأخوذ من قوله { فَأَخَذْتُهُمْ } [5]، أي: ومثل ذلك الأخذ الذي أخذ الله به قوم نوح والأحزاب من بعدهم حقّت كلمات الله على الذين كفروا، لأنّ ذلك الأخذ كان تحقيقا لكلمات الله.

{ **الَّذِينَ كَفَرُوا** } جميع الكافرين، فالكلام تعميم بعد تخصيص، فهو تذييل، لأنّ المراد بالأحزاب الأمم المعهودة التي ذُكرت قصصها. ويجوز أن يكون المراد كفّار قومك، أي: حقت عليهم كلمات الوعيد إذا لم يقلعوا عن كفرهم.

{ **كَلِمَتُ رَبِّكَ** } هي أقواله التي أوحى بها إلى الرسل بوعيد المكذِّبين. وقرأ الجمهور { كَلِمَتُ رَبِّكَ } بالإفراد. وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بصيغة الجمع، والإفراد هنا مساو للجمع لأنّ المراد به الجنس.

{ **أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ** } يجوز أن يكون بدلا من { كَلِمَتُ رَبِّكَ } بدلا مطابقا، فيكون ضمير { أَنَّهُمْ } عائد إلى { الَّذِينَ كَفَرُوا }، أي: حقّ عليهم أن يكونوا أصحاب النار. ويجوز أن يكون على تقدير لام التعليل

محذوفة. والمعنى: لأنّهم أصحاب النار، فيكون ضمير { أَنَّهُم } عائدا إلى جميع ما ذكر قبله من قوم نوح والأحزاب من بعدهم ومن الذين كفروا.

{ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ } [7]

استئناف ابتدائي اقتضاه الانتقال من ذكر الوعيد المؤذن بذمّ الذين كفروا إلى الثناء على المؤمنين، والمناسبة المضادة بين الحالين والمقالين. ويجوز أن يكون استئنافا بيانيّا ناشئا عن وعيد المجادلين في آيات الله أن يسأل سائل عن حال الذين لا يجادلون في آيات الله فآمنوا بها.

وخصَّ في هذه الآية طائفة من الملائكة موصوفة بأوصاف تقتضي رفعة شأنهم تذرّعا من ذلك إلى التنويه بشأن المؤمنين الذين تستغفر لهم هذه الطائفة الشريفة من الملائكة، وإلّا فإنّ الله قد أسند مثل هذا الاستغفار لعموم الملائكة في قوله تعالى { وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ } [الشورى:5].

{ **الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ** } هم الموكلون برفع العرش المحيط بالسماوات، وهو أعظم السماوات، ولذلك أضيف إلى الله في قوله تعالى { وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ } [الحاقة:17].

{ **مَنْ حَوْلَهُ** } طائفة من الملائكة تحفّ بالعرش تحقيقا لعظمته، قال تعالى { وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ } [الزمر:75].

{ **يُسَبِّحُونَ - يُؤْمِنُونَ - يَسْتَغْفِرُونَ** } صيغة المضارع مفيدة لتجدّد ذلك وتكرّره، وذلك مشعر بأنّ المراد أنّهم يفعلون ذلك في الدنيا كما هو الملائم لقوله تعالى { فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا }.

ومعنى تجدّد الإيمان المستفاد من { وَيُؤْمِنُونَ } تجدّد ملاحظته في نفوس الملائكة، وإلّا فإنّ الإيمان عقد ثابت في النفوس وإنّما تجدّده بتجدد دلائله وآثاره. وفائدة الإخبار عنهم بأنّهم يؤمنون، مع كونه معلوما في جانب الملائكة، التنويه بشأن الإيمان بأنّه حال الملائكة، والتعريض بالمشركين.

{ **بِحَمْدِ رَبِّهِمْ** } الباء للملابسة، أي: يسبّحون الله تسبيحا مصاحبا للحمد، فحذف مفعول { يُسَبِّحُونَ } للدلالة على المتعلّق به.

{ **وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا** } المراد بالذين آمنوا المؤمنون المعهودون، وهم المؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم لأنّهم المقصود في هذا المقام، وإن كان صالحا لكلّ المؤمنين.

{ **رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا** } مبيّنة لـ { يَسْتَغْفِرُونَ }، وفيها قول محذوف دلّت عليه طريقة التكلّم.

{ **رَبَّنَا** } افتتح دعاء الملائكة للمؤمنين بالنداء لأنّه أدخل في التضرّع وأرجى للإجابة. وتوجّهوا إلى الله بالثناء بسعة رحمته وعلمه لأنّ سعة الرحمة مما يُطمِع باستجابة الغفران، وسعة العلم تتعلّق بثبوت إيمان الذين آمنوا.

{ **وَسِعْتَ** } ومعنى السعة في الصفتين كثرة تعلّقهما، وذكر سعة العلم كناية عن يقينهم بصدق إيمان المؤمنين فهو بمنزلة قول القائل: أنت تعلم أنّهم آمنوا بك ووحّدوك.

وجيء في وصفه بالرحمة الواسعة والعلم الواسع بأسلوب التمييز لما في تركيبه من المبالغة بإسناد السعة إلى الذات ظاهرًا حتّى كأنّه ذاته هي التي وَسِعَتْ. والمراد أنّ الرحمة والعلم وسعا كل موجود الآن، أي: في الدنيا، وذلك هو سياق الدعاء كما تقدم آنفًا، فما من موجود في الدنيا إلّا وقد نالته قسمة من رحمة الله سواء في ذلك المؤمن والكافر والإنسان والحيوان.

{ **كُلَّ شَيْءٍ** } كل موجود، وهو عام مخصوص بالادراك بالنسبة للرحمة، أي: كل شيء محتاج إلى الرحمة، وتلك هي المجودات التي لها إدراك تدرك به الملائم والمنافر والنافع والضار، من الإنسان والحيوان، إذ لا فائدة في تعلّق الرحمة بالحجر والشجر ونحوهما. وأمّا بالنسبة إلى العلم فالعموم على بابه، قال تعالي { أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ } [الملك:14].

{ **فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ** } تفريع على التوطئة بمناجاة الله تعالى ما هو المتوسَّل إليه منها وهو طلب المغفرة للذين تابوا، لأنّه إذا كان قد علم صدق توبة من تاب منهم وكانت رحمته وسعت كلّ شيء فقد استحقّوا أن تشملهم رحمته لأنّهم أحرياء بها.

{ **فَاغْفِرْ** } المفعول محذوف للعلم، أي: اغفر لهم ما تابوا منه، أي: ذنوب الذين تابوا.

التوبة: المراد بها الإقلاع عن المعاصي وأعظمها الإشراك بالله.

{ **وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ** } هو العمل بما أمرهم واجتناب ما نهاهم عنه، فالإرشاد يشبه الطريق الذي رسمه الله لهم ودلّهم عليه فإذا عملوا به فكأنّهم اتبعوا السبيل فمشوا فيه فوصلوا إلى المقصود.

{ **وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ** } عطف على { فَاغْفِرْ }، فإنّ الغفران يقتضي هذه الوقاية، لأنّ غفران الذنب هو عدم المؤاخذة به. وعذاب الجحيم جعله الله لجزاء المذنبين.

الجحيم: شدّة الالتهاب، وسمّيت جهنم دار الجزاء على الذنوب.

{ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [8] وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [9] }.

{ **رَبَّنَا** } إعادة النداء في خلال جمل الدعاء اعتراض للتأكيد بزيادة التضرّع، وهذا ارتقاء من طلب

وقايتهم العذاب إلى طلب إدخالهم مكان النعيم.

العَدْن: الإقامة، أي: الخلود. والدعاء لهم بذلك مع تحققهم أنّهم موعودون به تأدب مع الله تعالى، لأنّه لا يُسأل عما يفعل، كما تقدّم في قوله تعالى { رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ } [آل عمران:194].

ويجوز أن يكون المراد بقولهم { وَأَدْخِلْهُمْ } عجّل لهم بالدخول. ويجوز أن يكون ذلك تمهيدا لقولهم: { **وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ** } فإنّ أولئك لم يكونوا موعودين به صريحا. والمعنى: دعاء بأن يجعلهم الله معهم في مساكن متقاربة، كما تقدّم في قوله تعالى { هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ } [يس:56]، وقوله تعالى { أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ } [الطور:21].

ورتبت القرابات في هذه الآية على ترتيبها الطبيعي فإنّ الآباء أسبق علاقة بالأبناء ثم الأزواج ثم الذرّيّات.

{ **إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } اعتراض بين الدعوات استقصاء للرغبة في الإجابة بداعي محبة الملائكة لأهل الصلاح، لما بين نفوسهم والنفوس الملكية من التناسب. واقتران هذه الجملة بحرف التأكيد للاهتمام بها.

{ **وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ** } أعقبوا بسؤال النجاة من العذاب والنعيم بدار الثواب بدعاء بالسلامة من عموم كلّ ما يسوؤهم يوم القيامة، وهو دعاء جامع إذ السيّئات جمع سيّئة وهي الحالة أو الفعلة التي تسوء من تعلّقت به.

{ **السَّيِّئَاتِ** } التعريف للجنس وهو صالح لإفادة الاستغراق، فوقوعه في سياق ما هو كالنفي، وهو فعل الوقاية، يفيد عموم الجنس، على أن بساط الدعاء يقتضي العموم. وفي الحديث: " **اللهم أعط منفقا خلفا، وممسكا تلفا** "، أي: كلّ منفق وممسك.

والمراد إبلاغ هؤلاء المؤمنين أعلى درجات الرضى والقبول يوم الجزاء بحيث لا ينالهم العذاب ولا يعتريهم ما يكدّرهم. وقد جاء هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله تعالى { فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ } [الانسان:11].

{ **وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ** } تذييل، أي: وكلّ من وُقي السيّئات يوم القيامة فقد نالته رحمة الله، أي: نالته الرحمة كاملة، ففعل { رَحِمْتَهُ } مراد به تعظيم مصدره. وتنوين { يَوْمَئِذٍ } عوض عن المضاف إليه، أي: يوم إذ تدخلهم جنّات عدن.

{ **وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** } إشارة للتنويه والتعظيم. ووصف الفوز بالعظيم لأنّه فوز بالنعيم خالصا من الكدرات التي تنقص حلاوة النعمة.

{ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْأِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ**} [10].

مقابلة سؤال الملائكة للمؤمنين بالنعيم الخالص يوم القيامة بما يُخاطب به المشركون يومئذ من التوبيخ والتنديم، والانتقال منه إلى بيان ما سيحل بالمشركين يومئذ، فالجملة استئناف بياني كأنّ سائلا سأل عن تقبّل دعاء الملائكة للمؤمنين فأجيب بأنّ الأهم أن يسأل عن ضدّ ذلك، وفي هذا الأسلوب إيماء ورمز إلى أنّ المهمّ من هذه الآيات كلّها هو موعظة أهل الشرك، رجوعا إلى قوله تعالى { وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ } [6].

{ **الَّذِينَ كَفَرُوا** } مشركو أهل مكة، فإنّهم المقصود بهذه الأخبار.

{ **يُنَادَوْنَ** } يدل على كلام محذوف تقديره: أنّ الذين كفروا يمقتهم الله وينادون لمقت الله.

مقت الله: بغضه إيّاهم، وهو مجاز مرسل أطلق على المعاملة بآثار البغض من التحقير والعقاب، فهو أقرب إلى حقيقة البغض لأنّ المراد به أثره وهو المعاملة بالنكال، وهذا الخبر مستعمل في التوبيخ والتنديم.

{ **أَكْبَرُ** } بمعنى أشدّ وأخطر أثرا، فإطلاق الكبر عليه مجاز، لأنّ الكبر من أوصاف الأجسام لكنه شاع إطلاقه على القوّة في المعاني.

{ **مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ** } أنّهم فعلوا لأنفسهم ما يشبه المقت إذ حرموها من فضيلة الإيمان ومحاسن شرائعه ورضوا لأنفسهم دين الكفر بعد أن أوقظوا على ما فيه من ضلال ومغبَّة سوء، فكان فعلهم ذلك شبيها بفعل المرء لبغيضه من الضرّ والكيد، وهذا كما يقال: فلان عدو نفسه.

فالمقت مستعار لقلة التدبّر فيما يضرّ. وقد أشار إلى وجه هذه الاستعارة قوله تعالى { إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْأِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ }، فمناط الكلام هو { فَتَكْفُرُونَ }. فالمقت الأوّل قريب من قوله تعالى { أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ } [البقرة:16]، والمقت الثاني قريب من قوله تعالى { وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا } [فاطر:39]، وهو مقت العذاب.

{ **إِذْ تُدْعَوْنَ** } ظرف لـ { مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ }، و{ إِذْ } ظرف للزمن الماضي، أي: حين كنتم تدعون إلى الإيمان على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم. وبُني الفعل إلى النائب لظهور أنّ الداعي هو الرسول صلى الله عليه وسلم أو الرسل عليهم السلام.

{ **فَتَكْفُرُونَ** } تفريع بالفاء على { تُدْعَوْنَ } يفيد أنّهم أعقبوا الدعوة بالكفر، أي: بتجديد كفرهم السابق وبإعلانه، أي: دون أن يتمهّلوا مهلة النظر والتدبّر فيما دعوا إليه.

{ **تُدْعَوْنَ - تَكْفُرُونَ** } جيء بالمضارع للدلالة على تكرّر دعوتهم إلى الإيمان وتكرّر كفرهم، أي: تجدّده.

{ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ } [11].
جواب عن النداء الذي نودوا به من قبل الله تعالى فحكى مقالهم على طريقة حكاية المحاورات بحذف حرف العطف، طمعوا أن يكون اعترافهم بذنوبهم وسيلة إلى منحهم خروجا من العذاب ليستريحوا منه ولو بعض الزمن، وذلك لأنّ النداء الموجّه إليهم من قبل الله أوهمهم أنّ فيه إقبالا عليهم.
{ أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ } أي: أيقنّا أنّ الحياة الثانية حق، وذلك تعريض بأنّ إقرارهم صدق لا مواربة فيه ولا تصنّع لأنّه حاصل عن دليل، ولذلك جُعل مسبَّبا على هذا الكلام بعطفه بفاء السببية {فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا}

<u>الموتة الأولى</u>: الحالة التي يكون بها الجنين لحما لا حياة فيه في أوّل تكوينه قبل أن ينفخ فيه الروح، وإطلاق الموت على تلك الحالة مجاز، بناء على أنّ حقيقة الموت انعدام الحياة من الحي بعد أن اتصف بالحياة، فإطلاقه على انعدام الحياة قبل حصولها فيه استعارة، إلّا أنّها شائعة في القرآن حتّى ساوت الحقيقة، فلا إشكال في استعمال { أَمَتَّنَا } في حقيقته ومجازه. وتقدّم قوله تعالى { وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ } [البقرة:28]. على أن إطلاق الموت على الحالة التي قبل نفخ الروح في هذه الآية أسوغ لأنّ فيه تغليبا للموتة الثانية.

<u>الموتة الثانية</u>: هي الموتة المتعارفة عند انتهاء حياة الإنسان والحيوان.

<u>الإحياءة الأولى</u>: عند نفخ الروح في الجسد بعد مبدأ تكوينه.

<u>الإحياءة الثانية</u>: التي تحصل عند البعث.

وهو في معنى قوله تعالى { وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [البقرة:28].
{ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا } تفريع على قولهم { وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ } اعتبار أن إحدى الإحياءتين كانت السبب في تحقّق ذنوبهم التي من أصولها إنكارهم البعث، فلمّا رأوا البعث رأي العين أيقنوا بأنّهم مذنبون إذ أنكروه ومذنبون بما استكثروه من الذنوب لاغترارهم بالأمن من المؤاخذة عليهم بعد الحياة العاجلة.
فالجملة إنشاء إقرار بالذنوب ولذلك جيء فيها بالفعل الماضي كما هو غالب صيغ الخبر المستعمل في الإنشاء، مثل صيغ العقود نحو: بعت. والمعنى: نعترف بذنوبنا.
{ فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ } جعلوا اعترافهم ضربا من التوبة توهّما منهم أنّ التوبة تنفع يومئذ.
فالاستفهام مستعمل في العرض والاستعطاف لرفع العذاب. وقد تكرّر في القرآن حكاية سؤال أهل النار الخروج أو التخفيف ولو يوما.
{ خُرُوجٍ } التنكير للنوعية تلطفا في السؤال، أي: إلى شيء من الخروج قليل أو كثير، لأنّ كل خروج ينتفعون به راحةٌ من العذاب، كقولهم { ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ } [غافر:49].
السبيل: الطريق، واستعير إلى الوسيلة التي يحصل بها الأمر المرغوب، وكثر تصرّف الاستعمال في إطلاقات السبيل والطريق والمسلك والبلوغ على الوسيلة وبحصول المقصود. والتنكير كسابقه.

{ **ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ** } [12].

عدل عن جوابهم بالحرمان من الخروج إلى ذكر سبب وقوعهم في العذاب، وإذا قد كانوا عالمين به حين قالوا { فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا } [11]، كانت إعادة التوقيف عليه بعد سؤال الصفح عنه كناية عن استدامته وعدم استجابة سؤالهم الخروج منه، على وجه يشعر بتحقيرهم. وزيد ذلك تحقيقا بقوله { فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ }. { **ذَلِكُمْ** } الإشارة إلى ما هم فيه من العذاب الذي أنبأ به قوله تعالى { يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ} [10]، وما عُقّب به من قولهم { فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ } [11].

{ **بِأَنَّهُ** } الباء للسببية، أي: بسبب كفركم إذا دُعي الله وحده.

{ **إِذَا** } مستعملة هنا في الزمن الماضي، لأنّ دعاء الله واقع في الحياة الدنيا وكذلك كفرهم بوحدانية الله، فالدعاء الذي مضى مع كفرهم به كان سبب وقوعهم في العذاب.

الدعاء: النداء، والتوجّه بالخطاب. وكلا المعنيين يُستعمل فيه الدعاء، ويطلق الدعاء على العبادة، كما سيأتي عند قوله تعالى { وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ } [60].

فالدعاء هنا الإعلان والذكر، ولذلك قوبل بقوله تعالى { كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا }، والدعاء بهذا المعنى أعم من الدعاء بمعنى سؤال الحاجات ولكنّه يشمله. فالمعنى: إذا نودي الله بمسمعكم نداء دالا على أنّه إله واحد، مثل آيات القرآن الدالة على نداء الله بالوحدانية.

{ **كَفَرْتُمْ** } جدّدتم الكفر، وذلك إمّا بصدور أقوال منهم ينكرون فيها انفراد الله بالإلهية، وإمّا بتذكّر آلهتهم.

{ **وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا** } صيغة المضارع في الفعلين مؤوَّل بالماضي بقرينه ما قبله، وإيثار صيغة المضارع في الفعلين لدلالتهما على تكرّر ذلك منهم في الحياة الدنيا، فإنّ لتكرّره أثرا في مضاعفة العذاب. والمتعلقان محذوفان لدلالة ما قبلهما. والتقدير: كفرتم بتوحيده وتؤمنوا بالشركاء.

المعنى: إن يصدر ما يدلّ على الإشراك بالله من أقوال زعمائهم ورفاقهم الدالة على تعدّد الآلهة، أو إذا أشرك به في العبادة تؤمنوا، أي: تجدِّدوا الإيمان بتعدّد الآلهة في قلوبكم أو تؤيّدوا ذلك بأقوال التأييد والزيادة.

{ **إِذَا دُعِيَ / وَإِنْ يُشْرَكْ** } جيء في الشرط الأول بـ { **إِذَا** } التي الغالب في شرطها تحقّق وقوعه إشارة إلى أنّ دعاء الله وحده أمر محقّق بين المؤمنين لا تخلو عنه أيّامهم ولا مجامعهم، مع ما تفيد { إذا } من الرغبة في الحصول مضمون شرطها. وجيء في الشرط الثاني بحرف { **إِنْ** } التي أصلها عدم الجزم بوقوع شرطها، أو أنّ شرطها أمر مفروض، مع أنّ الإشراك محقَّق، تنزيلا للمحقَّق منزلة المشكوك المفروض للتنبيه على أنّ دلائل بطلان الشرك واضحة بأدنى تأمّل وتدبر.

{ **فَالْحُكْمُ لِلَّهِ** } الألف واللام للجنس، واللام في { لله } للملك، أي: جنس الحكم ملك لله، كما تقدّم في قوله تعالى { الْحَمْدُ لِلَّهِ } [الفاتحة:2]، وهو قصر حقيقي إذ لا حكم يوم القيامة لغير الله تعالى.

{ **الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ** } إيثار هذين صفتين بالذكر هنا لأنّ معناهما مناسب لحرمانهم من الخروج من النار،

أي: لعدم نقض حكم الله عليهم بالخلود في النار، لأنّ (العلوّ) في وصفه تعالى مجازي اعتباري بمعنى شرف القدر وكماله، ومن جملة ما يقتضيه ذلك تمام العلوّ وتمام العدل، فلا يحكم إلّا بما تقتضيه الحكمة والعدل.

ووصف { الْكَبِيرِ } كذلك هو كبر مجازي، وهو قوّة صفات كماله، فإنّ الكبير قويّ، وهو الغنيّ المطلق. وكلا الوصفين صيغ على مثال الصفة المشبّهة للدلالة على الاتصاف الذاتي المكين.

{ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ } [13].

استئناف ابتدائي إقبال على خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بعد أن انقضى وصف ما يلاقي المشركون من العذاب، وما يدعون من دعاء لا يُستجاب، وقرينة ذلك قوله { وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ } [14].

ومناسبة الانتقال هي وَصْفا { الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ } [12]، لأنّ جملة { يُرِيكُمْ آيَاتِهِ } تناسب وصف العلو، وجملة { وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا } تناسب وصف { الْكَبِيرِ }، بمعنى الغنيّ المطلق.

{ **آيَاتِهِ** } دلائل وجوده ووحدانيّته. وهي المظاهر العظيمة التي تبدو للناس في هذا العالم كقوله تعالى { هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا } [الرعد:12]، وقوله تعالى { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ } [آل عمران:190].

{ **وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا** } هو نزول المطر، لأنّ المطر سبب الرزق، وهو في نفسه آية أدمِج معها امتنان، ولذلك عُقِّب الأمران بقوله تعالى { وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ }.

{ **يُرِيكُمُ - وَيُنَزِّلُ** } صيغة المضارع تدلّ على أنّ المراد إراءة متجدّدة وتنزيل متجدّد، وإنّما يكون ذلك في خطاب المشركين في جهنّم، ويزيد ذلك تأييدا قوله تعالى { فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ } [14]، وعُدِّي الفعلان إلى ضمير المخاطبين، وهم المؤمنون، لأنّهم الذين انتفعوا بالآيات فآمنوا وانتفعوا بالرزق فشكروا بالعمل بالطاعات، فجُعل غيرهم بمنزلة غير المقصودين بالآيات لأنّهم لم ينتفعوا بها، كما قال تعالى { وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ } [العنكبوت:43]، فجُعل غير العالمين كمن لا يعقل.

{ **وَيُنَزِّلُ لَكُمْ** } تقديم { لَكُمْ } على مفعول { يُنَزِّلُ } وهو { رِزْقًا } لكمال الامتنان، وجُعل تنزيل الرزق لأجل المخاطبين، وهم المؤمنين، إشارة إلى أنّ الله أراد كرامتهم ابتداء وأنّ انتفاع غيرهم بالرزق انتفاع بالتبع لهم لأنّهم الذين بمحل الرضى من الله تعالى.

{ **وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ** } تذييل، أي: من آمن ونبذ الشرك، لأنّ الشرك يصدّ أهله عن الإنصاف وإعمال النظر في الأدلة.

الإنابة: التوبة، وفي صيغة المضارع إشارة إلى أنّ الإنابة المحصِّلة للمطلوب هي الإنابة المتجدّدة

المتكرّرة، وإذا قد كان المخاطبون منيبين إلى الله كان القول دالا بدلالة الاقتضاء على أنّهم رأوا الآيات واطمأنّوا بها، وأنّهم عرفوا قدر النعمة وشكروها، فكان بين الإنابة وبين التذكّر تلازم عادي.

{ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ } [14].

تفريع على ما شاهدوا من الآيات وما أفيض عليهم من الرزق، وعلى أنّهم المُرْجَون للتذكير، أي: إذ كنتم بهذه الدرجة فادعوا الله مخلصين، ففي الفاء معنى الفصيحة.

{ **فَادْعُوا اللَّهَ** } الأمر مستعمل في طلب الدوام لأِن المؤمنين قد دعوا الله مخلصين له، فالمقصود: دوموا على ذلك ولو كره الكافرون، لأنّ كراهية الكافرين ذلك من المؤمنين تكون سببا لمحاولتهم صرفهم عن ذلك بكل وسيلة، فيُخشى أن يفتن ذلك فريقا من المؤمنين، فالكراهية كناية عن المقاومة والصدّ، لأنّهما لازمان للكراهية، لأنّ شأن الكاره ألّا يصبر على دوام ما يكرهه.

{ **مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** } تقدّم تفسيرها عند قوله تعالى { فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ } [الزمر:2].

{ **وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** } في موضع الحال من فاعل { ادْعُوا }. و(لو) وصلية تفيد أنّ شرطها أقصى ما يكون من الأحوال التي يراد تقييد عامل الحال بها، أي: اعبدوه في كلّ حال حتّى في حال كراهية الكافرين ذلك. وهذا في معنى قوله تعالى { فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ } [الحجر:94].

{ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ [15] يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ [16] }.

{ **رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ** } خبر عن مبتدأ محذوف هو ضمير اسم الجلالة في قوله { فَادْعُوا اللَّهَ } [14].

{ **رَفِيعُ** } <u>يجوز أن يكون صفة مشبّهة</u>. والتعريف في { الدَّرَجَاتِ } عوض عن المضاف إليه.

والتقدير: رفيعةٌ درجاته. يقال: فلان حسنٌ فعله، ويقال: حسنُ الفعل، فيؤول قوله تعالى { رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ} إلى صفة ذاته.

{ **الدَّرَجَاتِ** } مستعارة للمجد والعظمة، والمعنى: أنّه حقيق بإخلاص الدعاء إليه.

<u>ويجوز أن يكون { رَفِيعُ } من أمثلة المبالغة</u>، أي: كثير رفع الدرجات لمن يشاء، كقوله تعالى { نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ } [يوسف:76]. والمقصود: تثبيتهم على عبادة الله بالترغيب بالتعرّض إلى رفع الله درجاتهم، كقوله تعالى { يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ } [المجادلة:6].

{ **ذُو الْعَرْشِ** } خبر ثان، وفيه إشارة إلى أنّ رفع الدرجات منه متفاوت، كما أنّ مخلوقاته العليا متفاوتة في العظم والشرف إلى أن تنتهي إلى العرش، وهو أعلى المخلوقات.

{ **يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ** } خبر ثالث، أو بدل بعض من جملة { رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ }، فإنّ مِن رفع الدرجات أن يرفع بعض عباده إلى درجة النبوّة، وذلك أعظم رفعٍ بالنسبة لعباده.

الإلقاء: حقيقته رمي الشيء من اليد إلى الأرض، ويستعار للإعطاء إذا كان غير مترقّب، وكثر هذا في القرآن، قال تعالى { فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ } [النحل:87/86].

واستعير هنا للوحي، لأنّه يجيء فجأة على غير ترقّب.

الروح: هنا الشريعة، وحقيقة الروح: ما به حياة الحي من المخلوقات، ويستعار للنفيس من الأمور، وللوحي لأنّه به حياة الناس المعنوية، وهي كمالهم وانتظام أمورهم. ويطلق الروح على الملك، قال تعالى { فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا } [مريم:17].

{ **مِنْ أَمْرِهِ** } ابتدائية، أي: بأمره، فالأمر على ظاهره. ويجوز أن تكون { مِنْ } تبعيضية، أي: بعض شؤونه التي لا يطلع عليها غيره إلّا من ارتضى، فيكون الأمر بمعنى الشأن.

وهذا الآية تشير إلى أنّ النبوّة غير مكتسبة لأنّها ابتدئت بقوله تعالى { فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } [14]، ثم أعقب بقوله تعالى { رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ }، فأشار إلى أنّ عبادة الله بإخلاص سبب لرفع الدرجات، ثم أعقب بقوله تعالى { يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ } فجيء بفعل الإلقاء وبكون الروح من أمره وبصلة {مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} فآذن بأنّ ذلك بمحض اختياره وعلمه، كما قال تعالى { اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهُ } [الأنعام: 124].

وفي الكلام تعريض بتسفيه المشركين بقولهم { لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ } [الأنعام:124].

{ **لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ** } تُخلِّص من ذكر النبوّة إلى النذارة بيوم الجزاء. ليعود وصف يوم الجزاء الذي انقطع الكلام عليه من قوله تعالى { ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ } [12].

الإنذار: إخبار فيه تحذير ممّا يسوء وهو ضدّ التبشير إذ هو إخبار بما فيه مسرّة. والضمير المستتر عائد إلى اسم الجلالة من قوله تعالى { فَادْعُوا اللَّهَ } [14]، والأحسن أن يعود على { مَنْ } الموصولة، لِيُنْذِرَ من ألقى عليه الروحَ قومَه، ولأنّ فيه تخلّصا إلى ذكر الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم الذي هو بصدد الإنذار دون الرسل الذين سبقوا، إذ لا تلائمهم صيغة المضارع.

{ **يَوْمَ التَّلَاقِ** } يوم الحشر، وسُمِّي يوم التلاقي لأنّ النّاس كلّهم يلتقون فيه، أو لأنّهم يلقون ربّهم لقاء مجازيًّا، أي: يقفون في حضرته وأمام أمره مباشرة، كما قال تعالى { الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا } [يونس:7]، أي: لا يرجون يوم الحشر.

{ **يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ** } بدل من { يَوْمَ التَّلَاقِ }. وضمير الغيبة عائد إلى { الكافرون } من قوله تعالى { وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ } [14].

{ **لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ** } بيان لجملة { هُمْ بَارِزُونَ }، والمعنى: أنّهم واضحة ظواهرهم

وبواطنهم فإنّ ذلك مقتضى قوله تعالى { مِنْهُمْ شَيْءٌ }.
{ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ } مقول لقول محذوف. والتقدير: يقول الله: لمن الملك اليوم.
والاستفهام إمّا تقريري ليشهد الطغاة من أهل المحشر على أنفسهم أنّهم كانوا في الدنيا مخطئين فيما يزعمونه لأنفسهم من ملك لأصنامهم حين يضيفون إليها التصرّف في ممالك من الأرض والسماء، مثل قول اليونان بإله البحر وإله الحرب وإله الحكمة، وقول أقباط مصر بإله الشمس وإله الموت وإله الحكمة، وقول العرب باختصاص بعض الأصنام ببعض القبائل مثل اللات لثقيف، وذي الخَلَصة لدوْس، ومناة للأوس والخزرج. وكذلك ما يزعمونه لأنفسهم من سلطان على الناس.
ويفسر هذا المعنى ما في الحديث في صفة يوم الحشر: **" ثم يقول الله أنا الملك أين ملوك الأرض "**.
ويجوز أيضا أن يكون الاستفهام كناية عن التشويق إلى ما يرد بعده من الجواب، لأنّ الشأن أنّ الذي يسمع استفهاما يترقّب جوابه، فيتمكّن من نفسه الجواب عند سماعه أفضل تمكّن، على أنّ حصول التشويق لا يفوت على اعتبار الاستفهام للتقرير.
{ الْيَوْمَ } هو اليوم الحاضر، أي: اليوم الذي وقع فيه هذا القول كما هو شأن أسماء الزمان الظروف إذا عُرِّفت باللام.
{ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ } يجوز أن تكون من بقيّة القول المقدّر الصادر من جانب الله تعالى، بأن يصدر من ذلك الجانب استفهام ويصدر منه جوابه، لأنّه لمّا كان الاستفهام مستعملا في التقرير أو التشويق كان من الشأن أن يتولّى الناطق به الجواب عنه، ونظيره قوله تعالى { عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ } [النبأ:2/1].
ويجوز أن تكون مقول قول آخر محذوف، أي: فيقول المسؤولون ذلك إقرارا منهم، فتكون معترضة.
وذكر الصفتين دون غيرهما من الصفات العلى لأنّ لمعنييهما مزيد مناسبة بقوله تعالى {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ} حيث شوهدت دلائل الوحدانية لله وقهره جميع الطغاة والجبّارين.

{ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ } [17].
لا ريب في أنّ هذه الجمل الثلاث متّصلة بالمقول الصادر من جانب الله تعالى، سواء كان مجموع الجملتين السابقتين مقولا واحدا أم كانت الثانية منهما من مقول أهل المحشر.
وترتيب هذه الجمل الخمس هو أنّه لمّا تقرّر أنّ الملك لله وحده في ذلك اليوم بمجموع الجملتين السابقتين، عُدّدت آثار التصرّف بذلك الملك وهي: الحكم على العباد بنتائج أعمالهم، وأنّه حكم عادل لا يشوبه ظلم، وأنّه عاجل لا يبطئ، لأنّ الله لا يشغله عن إقامة الحق شاغل، ولا هو بحاجة إلى التدبّر والتأمّل في طرق قضائه. وعلى هذه النتائج جاء ترتيب الجمل، وأمّا مواقعها؛
{ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ } في موقع البيان لما في جملة {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ} وجوابها من إجمال.

{ **لا ظُلْمَ الْيَوْمَ** } واقعة موقع بدل الاشتمال من جملة { الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ }، أي: جزاء عادلا لا ظلم فيه، أي: ليس فيه أقل شوب من الظلم.

{ **إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** } واقعة موقع التعليل لوقوع الجزاء في ذلك اليوم ولانتفاء الظلم عن ذلك الجزاء. وتأخيرها عن تينك الجملتين مشير إلى أنّها علّة لهما، فحرف التوكيد واقع موقع فاء السببية، كما هو شأن (إن) إذا جاءت في غير مقام ردّ الإنكار، فسرعة الحساب تقتضي سرعة الحكم. وسرعة الحكم تقتضي تملُّؤ الحاكم من العلم بالحقّ. والمعنى: أنّ الله محاسبهم حسابا سريعا لأنّه سريع الحساب.

الحساب: مصدر حاسب غيره إذا حَسِب له ما هو مطلوب بإعداده، وفائدة ذلك تختلف؛ فتارة يكون الحساب لقصد استحضار أشياء كيلا يضيع منها شيء، وتارة يكون لقصد توقيف من يتعيّن توقيفه عليها، وتارة يكون لقصد مجازاة كلّ شيء منها بعدله، وهذا الأخير هو المراد هنا، ولأجله سُمِّي يوم الجزاء يوم الحساب.

{ **بِمَا كَسَبَتْ** } الباء للسببية، أي: تجزى بسبب ما كسبت، أي: مناسبا لما كسبت، أي: عملت.

وفي الآية إيماء إلى أنّ تأخير القضاء بالحق بعد تبيّنه للقاضي، بدون عذر، ضرب من ضروب الجور، لأنّ الحقّ إن كان حقّ العباد فتأخير الحكم لصاحب الحقّ إبقاء لحقه بيد غيره، ففيه تعطيل انتفاعه بحقه برهة من الزمان وذلك ظلم، ولعلّ صاحب الحق في حاجة إلى التعجيل حقه لنفع معطل أو لدفع ضر جاثم، ولعلّه أن يهلك في مدة تأخير حقّه فلا ينتفع به، أو لعلّ الشيء المحكوم به يتلف بعارض أو عن قصد.

وإن كان الحقّ حقَّ الله كان تأخير القضاء فيه إقرار للمنكر.

{ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ } [18].

الأظهر أن تكون معترضة بين جملة { إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ } [17] وجملة { يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ } [19] على الوجهين الآتيين في موقع جملة { يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ }، والمناسبة أنّ ذكر الحساب به يقتضي التذكير بالاستعداد له، وهو يوم الآزفة.

{ **يَوْمَ الْآزِفَةِ** } يوم القيامة. وأصل الآزفة اسم فاعل مؤنث مشتق من فعل أزف الأمر، إذا قرب، فالآزفة صفة لموصوف محذوف تقديره: الساعة الآزفة، أو القيامة الآزفة، مثل الصاخة، فتكون إضافة { يَوْمَ } إلي { الْآزِفَةِ } حقيقية.

{ **إِذْ** } بدل من { يَوْمَ } فهو اسم زمان منصوب على المفعول به، مضاف إلى جملة { الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ }. { **الْقُلُوبُ - الْحَنَاجِرِ** } تعريف العهد عوض عن المضاف إليه. وأصله: إذ قلوبهم لدى حناجرهم.

المعنى: إذ قلوب الذين تنذرهم، يعني المشركين، فأمّا قلوب الصالحين يومئذ فمطمئنة.

القلوب لدى الحناجر: أنّ القلوب يشتدّ اضطراب حركتها من فرط الجزع ممّا يشاهد أهلها من بوارق الأهوال حتّى تتجاوز القلوب موضعها صاعدة الى الحناجر، كما قال تعالى في ذكر يوم الأحزاب { وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ } [الأحزاب:10].

كاظم: اسم فاعل من كَظَم كُظُومًا، إذا احتبس نفَسه (بفتح الفاء).

{ **كَاظِمِينَ** } ساكنين لا يستطيعون كلاما. فعلى هذا التأويل لا يقدّر لـ { كَاظِمِينَ } مفعول لأنّه عومل معاملة الفعل اللازم. ويقال: كظم كظما، إذا سدّ شيئا؛ مجرى ماء أو بابا أو طريقا فهو كاظم، فعلى هذا يكون المفعول مقدّرا، أي: كاظمين حناجرهم إشفاقا من أن تخرج منها قلوبهم من شدّة الاضطراب.

{ **مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ** } في موضع بدل اشتمال من جملة { الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ }، لأنّ تلك الحالة تقتضي أن يستشرفوا إلى شفاعة من اتخذوهم ليشفعوا لهم عند الله فلا يلفون صديقا ولا شفيعا.

{ **الظَّالِمِينَ** } التعريف للاستغراق ليعمّ كلّ ظالم، أي: مشرك، فيشمل الظالمين المنذَرين، ومن مضى من أمثالهم، فيكون بمنزلة التذييل، ولذلك فليس ذكر الظالمين من الإظهار في مقام الإضمار.

الحميم: المحب المشفق.

{ **شَفِيعٍ** } وصف بجملة { يُطَاعُ } وصف كاشف، إذ ليس المراد أنّ لهم شفعاء لا تطاع شفاعتهم، لظهور قلة جدوى ذلك، ولكن لمّا كان شأن من يتعرّض للشفاعة أن يثق بطاعة المشفوع عنده له.

والمعنى: إنّ الشفيع إذا لم يُطَع فليس بشفيع. والله لا يجترئ أحد على الشفاعة عنده إلّا إذا أذن له، فلا يشفع عنده إلّا من يطاع.

{ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ } [19].

يجوز أن تكون الجملة خبرا عن مبتدأ محذوف هو ضمير عائد إلى أسم الجلالة من قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ } [17]، على نحو ما قُرِّر قبله في قوله تعالى { رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ } [15]. ومجموع الظاهر والمقدّر استئناف للمبالغة في الإنذار، لأنّهم إذا ذكّروا بأنّ الله يعلم الخفايا كان إنذارا بالغا يقتضي الحذر من كل اعتقاد أو عمل نهاهم الرسول صلى الله عليه وسلم عنه.

فبعد أن أيأسهم من شفيع يسعى لهم في عدم المؤاخذة بذنوبهم، أيأسهم من أن يتوهّموا أنّهم يستطيعون إخفاء شيء من نواياهم أو أدني حركات أعمالهم على ربّهم.

{ **خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ** } مصدر مضاف إلى فاعله، فالخائنة مصدر على وزن اسم الفاعل مثل العافية للمعافاة، والكاذبة في قوله تعالى { لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ } [الواقعة:2]، ويجوز إبقاء { خَائِنَةَ } على ظاهر اسم الفاعل فيكون صفة لموصف محذوف دل عليه { الْأَعْيُنِ }، أي: يعلم نظرة الأعين الخائنة.

الخيانة: حقيقتها عمل من أؤتمن على شيء بضدّ ما أؤتمن لأجله بدون علم صاحب الأمانة، ومن ذلك نقض العهد بدون إعلان بنبذه. و{ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ } خيانة النظر، أي مسارقة النظر لشيء بحضرة من لا يحب النظر إليه.

{ **وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ** } النوايا والعزائم التي يضمرها صاحبها في نفسه.

{ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [20].

كان مقتضى الظاهر أن يُؤتى بجملة { يَقْضِي بِالْحَقِّ } معطوفة بالواو على جملة { يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ } [19] فيقال: ويقضي بالحق، ولكن عدل عن ذلك لما في الاسم العَلَم لله تعالى من الإشعار بما يقتضيه المسمَّى به من صفات الكمال التي منها العدل في القضاء. وليحصل من تقديم المسند إليه تقوّي المعنى.

{ **وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ** } ناظرة إلى جملة { مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ } [18]، فبعد أن نُفي عن أصنامهم الشفاعة، نُفي عنها القضاء بشيء ما بالحق أو بالباطل، إظهارا لعجزها.

ولا تحسِبنَّ الجملة مسوقة ضميمة إلى جملة { وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ } ليفيد مجموع الجملتين قصر القضاء بالحق على الله تعالى قصر قلب، أي: دون الأصنام، لأنّ المنفى عن آلهتهم أعمّ من المثبت لله تعالى.

فالمراد: التذكير بعجز الذين يدعونهم وأنّهم غير أهل للإلهية، وهذه طريقة في إثبات صفة لموصوف ثم تعقيب ذلك بإظهار نقيضه فيما يعدُّ مساويا له.

الدعاء: يجوز أن يكون بمعنى النداء وأن يكون بمعنى العبادة، كما تقدّم آنفا.

{ **إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** } مقرِّرة لجمل { يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ - إلى قوله - لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ } [20/19]. فتوسّط ضمير الفصل { هُوَ } مفيد للقصر، وهو تعريض بأنّ آلهتهم لا تسمع ولا تبصر فكيف ينسبون إليها الإلهية. وتأكيد الجملة بحرف التأكيد تحقيق للقصر.

{ **السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** } اثبات المبالغة في السمع والبصر لله تعالى يقرِّر معنى { يَقْضِي بِالْحَقِّ }.

{ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ [21] ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ [22] }.

انتقال من إنذارهم بعذاب الآخرة على كفرهم إلى موعظتهم وتحذيرهم من أن يحلّ بهم عذاب الدنيا كما حلّ بأمم أمثالهم.

{ **أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ** } الواو عاطفة على جملة { وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ } [18]. والاستفهام تقريري على ما هو الشائع في مثله من الاستفهام الداخل على نفي في الماضي بحرف (لم). والتقرير موجَّه للذين ساروا من قريش ونظروا آثار الأمم الذين أبادهم الله جزاء تكذيبهم رسلهم، فهم شاهدوا ذلك في رحلتيهم، رحلة الشتاء ورحلة الصيف، وإنّهم حَدَّثوا بما شاهدوه مَن تضمُّهم نواديهم ومجالسهم، فقد صار معلوما للجميع.

{ **كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً** } مستأنفة استئنافا بيانيا لتفصيل الإجمال الذي في قوله تعالى { كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ }، لأنّ العبرة بالتفريع بعدها بقوله { فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ }.

{ **كَانُوا هُمْ** } الضمير المنفصل ضمير فصل عائد إلى { الظَّالِمِينَ } [18]، وهم كفار قريش الذين أريدوا بقوله { وَأَنْذِرْهُمْ } [18]، وهو لمجرَّد توكيد الحكم وتقويته وليس مرادا به قصر المسند على المسند إليه، أي: قصر الأشدية على ضمير { كانوا }، إذ ليس للقصر معنى هنا.

{ **قُوَّةً** } المراد بها القوّة المعنوية، وهي كثرة الأمّة ووفرة وسائل الاستغناء عن الغير، كما قال تعالى { فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً } [فصلت:15].

الآثار: جمع أثر، مثل أثر الماشي في الرمل، قال تعالى { فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ } [طه: 96]، ويستعار الأثر لما يقع بعد شيء، كقوله تعالى { فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ } [الكهف:6].

{ **فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ** } الفاء لتفريع الأخذ على كونهم أشدّ قوة من قريش، لأنّ القوة أريد بها هنا الكناية عن الإباء من الحق والنفور من الدعوة، فالتقدير: فأعرضوا، أو كفروا فأخذهم الله.

الأخذ: الاستئصال والإهلاك، كني عن العقاب بالأخذ، أو استعمل الأخذ، مجازا في العقاب.

الذنوب: جمع ذنب وهو المعصية، والمراد بها الإشراك وتكذيب الرسل، وذلك يستتبع ذنوبا جمّة، وسيأتي تفسيرها بقوله تعالى { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ } [22].

{ **بِذُنُوبِهِمْ** } الباء للسببية، أي: ذلك الأخذ بسبب أنّهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا بهم.

فالتقدير: ذلك بسبب تحقق مجيء الرسل إليهم فكفرهم به.

{ **وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ** } ما كان لهم من يدفع عنهم العقاب، **فالواقي**: هو المدافع الناصر.

{ **مِنَ** } <u>الأولى</u> متعلّقة بـ { وَاقٍ }، وقُدِّم الجار والمجرور للاهتمام بالمجرور.

{ **مِنَ** } <u>الثانية</u> زائدة لتأكيد النفي بحرف (ما)، وذلك إشارة إلى المذكور وهو أخذ الله إيّاهم بذنوبهم.

{ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا** } أفاد المضارع في قوله { تَأْتِيهِمْ } تجدّد الإتيان مرة بعد مرة لمجموع تلك الأمم، أي: يأتي لكلّ أمّة منهم رسول، فجمع الضمير في { تَأْتِيهِمْ - رُسُلُهُمْ } وجمع الرسل في قوله { رُسُلُهُمْ } من مقابلة الجمع بالجمع. <u>فالمعنى</u>: أنّ كلّ أمّة منهم أتاها رسول فكفروا به.

{ **فكفروا** } لم يؤت بالمضارع لأنّ كفر أولئك الأمم واحد، وهو الإشراك وتكذيب الرّسل.

{ **فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ** } تكرّر بعد أن تقدّم نظيره في قوله { فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ }، إطنابا لتقرير أخذ الله إيّاهم بكفرهم برسلهم، وتهويلا على المنذرين بهم أن يساووهم في عاقبتهم كما ساووهم في أسبابها.

{ **إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ** } تعليل وتبيين لأخذ الله إيّاهم وكيفيّته وسرعة أخذه المستفاد من فاء التعقيب، فالقويّ لا يعجزه شيء، فلا يُعطّل مراده ولا يتريث. على حد قوله تعالى { فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ } [القمر:42].

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ [23] إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ [24] }.

هذا ذكر فريق آخر من الأمم لم يشهد العرب آثارهم وهم قوم فرعون، وتقدّم النظير في [هود:97/96].

هامان: لقب وزير فرعون، وتقدّم ذكره في [القصص:38].

قارون: هو من بني إسرائيل، وتقدّم ذكره في [القصص:76].

وفي هذه القصة أنّها تزيد على ما أجمل من قصص أمم أخرى أنّ فيها عبرتين: عبرة بكيد المكذّبين وعنادهم ثم هلاكهم، وعبرة بصبر المؤمنين وثباتهم ثم نصرهم، وفي كلتا العبرتين وعيد ووعد.

{ **فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ** } معترضة بين جملة { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى } وجملة { فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ } [25].

أي: فاشترك أولئك في رمي رسولهم بالكذب والسحر كما فعلت قريش.

{ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ } [25].

{ **فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ** } أي: أظهر لهم الآيات الحقّ، أي: الواضحة، فأُطلق { جَاءَهُمْ } على ظهور الحقّ كقوله تعالى { جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ } [الإسراء:81].

ووجه وقوع { فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ } بعد قوله { أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا } [23]، مع اتحاد مفاد الجملتين، أنّ الأول للتنويه برسالة موسى وعظمة موقفه أمام أعظم ملوك الأرض يومئذ، وأمّا قوله { فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ } فهو بيان لدعوته إيّاهم وما نشأ عنها. وتقدير الكلام: رسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون فلمّا جاءهم بالحق... فسُلكت في هذا النظم طريقة الإطناب للتنويه والتشريف.

{ **جَاءَهُمْ** } الضمير يُحمل على أنّه عائد إلى غير مذكور في اللفظ، لأنّه ضمير جمع يدلّ عليه المقام، وهم أهل مجلس فرعون الذين لا يخلو عنهم مجلس الملك في مثل هذه الحوادث العظيمة، كما في قوله تعالى { وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ } [القصص:38].

وليس عائدا إلى فرعون وهامان وقارون لأنّ قارون لم يكن مع فرعون حين دعاه موسى، ولم يكن من المكذّبين لموسى في وقت حضوره لدى فرعون ولكنه طغى بعد خروج بني إسرائيل من مصر وبلغ به طغيانه إلى الكفر، كما تقدّم في قصته في [القصص:76].

{ **مِنْ عِنْدِنَا** } وصف للحق لإفادة أنّه حق خارق للعادة لا يكون إلّا من تسخير الله وتأييده.

{ **قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ** } أرادوا بقولهم هذا أن يُرهبوا أتباعه حتّى ينفضّوا عنه فلا يجد أنصارا ويبقى بنو إسرائيل في خدمة المصريين.

{ **قَالُوا** } أُبهِم القائلون لعدم تعلّق الغرض بعلمه، فالفعل بمنزلة المبني للنائب أو بمنزلة: قال قائل، لأنّ المقصود قوله بعده { وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ }.

{ **اقتلوا** } الضمير مُخاطَب به فرعون خطاب تعظيم.

وهذا القتل غير القتل الذي فعله فرعون الذي ولد موسى وفي زمنه.

{ **وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ** } سُمِّي هذا الرأي كيدا لأنّهم تشاوروا فيه فيما بينهم دون أن يعلم بذلك موسى والذين آمنوا معه، وأنّهم أضمروه ولم يعلنوه ثم شغلهم عن إنفاذه ما حلّ بهم من المصائب التي ذكرت في قوله تعالى { وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ } [الأعراف:130]، ثم بقوله تعالى { فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ } [لأعراف:133].

الضلال: الضياع والاضمحلال كقوله { وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ } [السجدة: 10]. أي: هذا الكيد الذي دبّروه قد أخذ الله على أيديهم فلم يجدوا لإنفاذه سبيلا.

{ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ } [26]

{ **وَقَالَ** } العطف بالواو يدلّ على أنّه قال هذا القول في موطن آخر ولم يكن جوابا لقولهم { اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ } [25]، وفي هذا الأسلوب إيماء إلى أنّ فرعون لم يعمل بإشارتهم وأنّه سكت ولم يراجعهم بتأييد ولا إعراض، ثم رأى أنّ الأجدر قتل موسى دون أن يقتل الذين آمنوا معه لأنّ قتله أقطع لفتنتهم.

{ **ذَرُونِي** } إعلامهم بعزمه بضرب من إظهار ميله لذلك وانتظاره الموافقة عليه، لأنّ ذلك التركيب ممّا يُخاطَب به الممانع واللائم ونحوهما. ثم استعمل هذا التعبير عن الرغبة وإن لم يكن ثمّة معارض أو ممانع، وهو استعمال شائع في هذا وما يرادفه مثل: دعني وخلّني، كما في قوله تعالى { ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا } [المدثر:11]، وقوله تعالى { وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ } [المزمل:11].

وذلك يستتبع كناية عن خطر ذلك العمل وصعوبة تحصيله لأنّ مثله ممّا يمنع المستشار مستشيره من

الإقدام عليه، ولذلك عطف عليه { وَلْيَدْعُ رَبَّهُ } لأنّ موسى خوَّفهم عذاب الله وتحدَّاهم بالآيات التسع.
{ **وَلْيَدْعُ رَبَّهُ** } لام الأمر مستعملة في التسوية وعدم الاكتراث.
{ **إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ** } تعليل للعزم على قتل موسى. والخوف مستعمل في الإشفاق، أي: أظنّ ظنًّا قويًّا أن يبدّل دينكم.
التبديل: تعويض الشيء بغيره. وتوسَّم فرعون ذلك من إنكار موسى على فرعون زعمه أنّه إله لقومه، فإنّ تبديل الأصول يقتضي تبديل فروع الشريعة كلّها.
{ **دِينَكُمْ** } الإضافة تعريض بأنّهم أولى بالذبّ عن الدين وإن كان هو دينه أيضا، وذلك كلّه إلهاب وتحضيض
{ **أَوْ أَنْ** } للترديد، أي: لا يخلو سعي موسى عن حصول أحد هاذين. وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمر وأبو جعفر { وأَنْ } بواو العطف.
الأرض: هي المعهودة عندهم وهي مملكة فرعون.

{ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ } [27].

هذا حكاية كلام صدر من موسى في غير حضرة فرعون لا محالة، لأنّ موسى لم يكن ممّن يضمّه ملأ استشارة فرعون حين قال لقومه { ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى } [26]، لكن موسى لمّا بلغه ما قاله فرعون في ملائه قال ذلك، ولذلك حُكي فعل قوله معطوفا بالواو لأنّ ذلك القول لم يقع في محاورة مع مقال فرعون.
{ **إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ** } خطاب لقومه من بني إسرائيل تطمينا لهم وتسكينا لإشفاقهم عليه.
العَوذ: الالتجاء إلى المحلّ الذي يستعصم به العائذ فيدفع عنه من يروم ضرّه، يقال: عاذ بالجبل، وعاذ بالجيش، وقال تعالى { فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } [النحل:98].
{ **بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ** } عبّر عن الجلالة بصفة الربّ مضافا إلى ضمير المتكلّم لأنّ في صفة الرب إيماء إلى توجيه العوذ به لأن العبد يعوذ بمولاه. وزيادة وصفه برب المخاطبين للإيماء إلى أنّ عليهم ألّا يجزعوا من مناواة فرعون لهم، وأنّ عليهم أن يعوذوا بالله من كل ما يفظعهم.
{ **لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ** } جُعلت هذه الصفة مغنية عن صفة الكفر أو الإشراك لأنّها تتضمّن الإشراك وزيادة، لأنّه إذا اجتمع في المرء التجبّر والتكذيب بالجزاء قلت مبالاته بعواقب أعماله فكملت فيه أسباب القسوة والجرأة على الناس.

{ **وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ** } [28].

عطف قول هذا الرجل يقتضي أنّه قال قوله هذا في غير مجلس فرعون، لأنّه لو كان قوله جاريا مجرى المحاورة مع فرعون في مجلس استشارته، أو كان أجاب به عن قول فرعون { ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى } [26] لكانت حكاية قوله بدون عطف على طريقة المحاورات.

والذي يظهر أنّ الله ألهم هذا الرجل بأن يقول مقالته إلهاما كان أوّل مظهر من تحقيق الله لاستعاذة موسى بالله، فلمّا شاع توعّد فرعون بقتل موسى عليه السلام جاء هذا الرجل إلى فرعون ناصحا، ولم يكن يتّهمه فرعون لأنّه من آله.

{ **وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ** } وهو غير الرجل المذكور في قوله تعالى { وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى } [القصص:20] فإنّ تلك القصة كانت قبيل خروج موسى من مصر، وهذه القصة في مبدأ دخوله مصر. ولم يوصف هنالك بأنّه مؤمن ولا بأنه من آل فرعون بل كان من بني إسرائيل كما هو صريح سفر الخروج. والظاهر أنّ الرجل المذكور هنا كان رجلا صالحا نظَّارًا في أدلة التوحيد ولم يستقر الإيمان في قلبه على وجهه إلّا بعد أن سمع دعوة موسى، وإنّ الله يقيض لعباده الصالحين حماة عند الشدائد.

<u>قيل: اسم هذا الرجل حبيب النجّار وقيل سمعان</u>، وقد تقدّم في سورة يس أنّ حبيبا النجّار من رسل عيسى عليه السلام. وقصّة هذا الرجل غير مذكورة في التوراة بالصريح ولكنّها مذكورة إجمالا: " فقال عبيد فرعون إلى متى يكون لنا هذا (أي: موسى) فخًا، أطْلِق الرجال ليعبدوا الرب إلههم " [الإصحاح العاشر].

{ **مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ** } صريح في أنّه من القبط ولم يكن من بني إسرائيل. والأظهر أنّه كان من قرابة فرعون وخاصته لما يقتضيه لفظ { **آل** } حقيقة أو مجازا.

{ **يَكْتُمُ إِيمَانَهُ** } وكان كتمه الإيمان تقيةً من فرعون وقومه، إذ علم أنّ إظهاره الإيمان يضرّه ولا ينفع غيره.

{ **أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ** } استفهام إنكار، والخطاب موجَّه إلى فرعون لأنّه الآمر به، ولحكاية كلام فرعون عقب كلام مؤمن آل فرعون بدون عطف بالواو في قوله تعالى { قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى } [29]. أي: يقبح بكم أن تقتلوا رجلا لأنه يقول: ربي الله، أي: ولم يجبركم على أن تؤمنوا به ولكنه قال لكم قولا فاقبلوه أو ارفضوه. فهذا محمل قوله { أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ }، وهو الذي يمكن الجمع بينه وبين كون هذا الرجل يكتم إيمانه. وذكر اسم الله لأنّه الذي ذكره موسى ولم يكن من أسماء آلهة القبط.

أراد أن يسعى لحفظ موسى من القتل بفتح باب المجادلة في شأنه لتشكيك فرعون في تكذيبه بموسى.

{ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ } ارتقاء في الحجاج بعد أن استأنس في خطاب قومه بالكلام الموجَّه فارتقى إلى التصريح بتصديق موسى بعلّة أنّه قد جاء بالبينات، أي: الحجج الواضحة بصدقه.

{ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ } رجوع إلى ضرب من إيهام الشك في صدق موسى ليكون كلامه مشتملا عل احتمالي تصديق وتكذيب يتداولهما في كلامه، فلا يؤخذ عليه أنّه مصدّق لموسى بل يُخيَّل إليهم أنّه في حالة نظر وتأمّل ليسوق فرعون وملأه إلى أدلّة صدق موسى بوجه لا يثير نفورهم.

وقدم احتمال كذبه على احتمال صدقه زيادة في التباعد عن ظنّهم به الانتصار لموسى فأراد أن يظهر في مظهر المهتم بأمر قومه ابتداء.

{ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ } المراد بالوعد هنا الوعد بالسوء وهو المسمَّى بالوعيد.

أي: فإن استمررتم على العناد يصبكم جميع ما توعّدكم به.

{ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ } يجوز أنّها من قول مؤمن آل فرعون، فالمقصود منها تعليل لقوله السابق، أي: لأنّ الله لا يقرّه على كذبه، فإن كان كاذبا على الله فلا يلبث أن يفتضح أمره أو يهلكه.

المسرف: متجاوز المعروف في شيء، فالمراد هنا مسرف في الكذب، لأنّ أعظم الكذب أن يكون على الله، قال تعالى { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ } [الأنعام:93]. وفي هذا اعتراف من هذا المؤمن بالله الذي أنكره فرعون.

ويجوز أن تكون الجملة معترضة بين كلامي مؤمن آل فرعون ليست من حكاية كلامه وإنّما هي قول من جانب الله قُصد منها تزكية هذا الرجل المؤمن إذ هداه الله للحق، وأنّه تقي صادق، فيكون نفي الهداية عن المسرف الكذّاب كناية عن تقوى هذا الرجل وصدقه لأنّه نطق عن هدى، والله لا يعطي الهدى من هو مسرف كذّاب.

{ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ } [29].

لمّا توسَّم نهوض حجّته بينهم وأنّها داخلت نفوسهم، أمِن بأسهم، وانتهز فرصة انكسار قلوبهم، فصارحهم بمقصوده من الإيمان بموسى، على سَنَن الخطباء وأهل الجدل بعد تقرير المقدِّمات والحجج أن يهجموا على الغرض المقصود، فوعظهم بهذه الموعظة.

{ يَا قَوْمِ } أدخل قومه في الخطاب فناداهم ليستهويهم إلى تعضيده أمام فرعون فلا يجد فرعون بُدًا من الانصياع إلى اتفاقهم وتظاهرهم، وأيضا فإنّ تشريك قومه في الموعظة أدخل في باب النصيحة، فابتدأ بنصح فرعون لأنّه الذي بيده الأمر والنهي، وثنّى بنصيحة الحاضرين من قومه تحذيرا لهم من مصائب تصيبهم من جرّاء امتثالهم أمر فرعون بقتل موسى.

وهذا الترتيب في إسداء النصيحة نظير الترتيب في قول النبي صلى الله عليه وسلم: **" ولأئمة المسلمين وعامتهم "**.

ولا يخفى ما في ندائهم بعنوان أنّهم قومه من الاستصغاء لنصحه وترقيق قلوبهم لقوله.

{ **لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ** } ابتداء الموعظة بتذكيرهم بنعمة الله عليهم، تمهيدا لتخويفهم من غضب الله. يعني: لا تغرّنّكم عظمتكم وملككم فإنّهما معرَّضان للزوال إن غضب الله عليكم. والمقصود تخويف فرعون من زوال ملكه، ولكنَّه جعل الملك لقومه لتجنّب مواجهة فرعون بفرض زوال ملكه.

{ **ظَاهِرِينَ** } غالبين، وتقدّم آنفا.

الأرض: أرض مصر، أي: نافذا حكمكم في هذا الصقع.

{ **فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا** } تفريع على التمهيد، و{ مَنْ } للاستفهام الإنكاري عن كل ناصر.

فالمعنى: فلا نصر لنا من بأس الله. أي: إن كنتم قادرين على قتل موسى فالله قادر على هلاككم.

وأدمج نفسه مع قومه في { يَنْصُرُنَا - جَاءَنَا } ، ليريهم أنّه يأبى لقومه ما يأباه لنفسه، وأنّ المصيبة إن حلّت لا تصيب بعضهم دون بعض.

البأس: القوّة على العدو والمعاند، فهو القوّة على الضرّ.

{ **قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ** } تفطّن فرعون إلى أنّه المعرَّض به في خطاب الرجل فقاطعه كلامه وبيَّن أنّه ما عرض عليهم قتل موسى إلّا لأنّه لا يرى نفعا إلّا في ذلك ويرى ذلك هو سبيل الرشاد، وكأنّه أراد ألّا يترك لنصيحة مؤمنهم مدخلا إلى نفوس ملئه، خيفة أن يتأثّروا بنصحه.

{ **مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى** } الرؤية علمية، أي: لا أشير إلّا بما هو معتقدي.

السبيل: مستعار للعمل، وإضافته إلى الرشاد قرينة، أي: ما أهديكم وأشير عليكم إلّا بعمل فيه رشاد.

وكأنّه يعرّض بأنّ كلام مؤمنهم سفاهة رأي.

{ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ [30] مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ [31] }.

{ **وَقَالَ** } لمّا كان هذا تكملة لكلام الذي آمن ولم يكن فيه تعريج على محاورة فرعون على قوله { مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى } [29]، وكان الذي آمن قد جعل كلام فرعون في البين واسترسل يكمل مقالته عطف فعل قوله بالواو ليتّصل كلامه بالكلام الذي قبله، ولئلا يُتوهّم أنّه قصد به مراجعة فرعون ولكنه قصد إكمال خطابه.

{ **الَّذِي آمَنَ** } عُبِّر عنه بذلك لأنّه قد عرّف بمضمون الصلة بعد ما تقدّم.

{ **يَا قَوْمِ** } إعادته نداء قومه تأكيد لما قصده من النداء الأوّل حسبما تقدّم.

{ **إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ** } مراد به الجنس لا يومٌ معيّن بقرينة إضافته إلى جمع أزمانهم المتباعدة. فالتقدير: أخاف عليكم مثل أيام الأحزاب، فإفراد (يوم) للإيجاز. والمراد: أيّام إهلاكهم، والعرب يطلقون اليوم على يوم الغالب ويوم المغلوب.

الأحزاب: الأمم، لأنّ كلّ أمّة حزبٌ تجمعهم أحوال واحدة وتناصر بينهم، فلذلك تسمَّى الأمّة حزبا، وتقدّم عند قوله تعالى { كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } [المؤمنون:53].

{ **مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ** } عطف بيان من { مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ }.

الدأب: العادة والعمل الذي يدأب عليه عامله، أي: يلازمه ويكرّره، وتقدّم في قوله تعالى { كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ } [آل عمران:11].

ودأبهم الذي اشتركوا فيه هو الإشراك بالله. فالتقدير: مثل يوم جزاء عملهم.

وهذا يقتضي أنّ القبط كانوا على علم بما حلّ بقوم نوح وعاد وثمود، فأمّا قوم نوح فكان طوفانهم مشهورا، وأمّا عاد وثمود فلقرب بلادهم من البلاد المصرية، وكان ملكهم عظيما لا يخفى على مجاوريهم.

{ **وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ** } معترضة، وهي اعتراض بين كلاميه المتعاطفين، أي: أخاف عليكم جزاء عادلا من الله، وهو جزاء الإشراك.

{ **وَمَا اللَّهُ** } تقديم اسم { اللَّهُ } على الخبر الفعلي لإفادة قصر مدلول المسند على المسند إليه.

{ **يُرِيدُ** } يطلق بمعنى المشيئة، كقوله تعالى { مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ } [المائدة:6]، ويطلق بمعنى المحبّة، كقوله تعالى { مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ } [الذاريات:57]، فلمّا وقع فعل الإرادة في حيّز النفي اقتضى عموم نفي الإرادة بمعنييها، على طريقة استعمال المشترك في معنييه.

الظلم: يطلق على الشرك { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان:13]، ويطلق على المعاملة بغير الحق.

وقد جمع قوله { وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ } نفي الظلم بمعنييه، على طريقة استعمال المشترك في معنييه.

فالله تعالى لا يحب صدور ظلم من عباده ولا يشاء أن يظلم عباده. وأوّل المعنيين في الإرادة وفي الظلم أعلق بمقام الإنذار، والمعنى الثاني تابع للأوّل لأنّه يدلّ على أنّ الله تعالى لا يترك عقاب أهل الشرك لأنّه عدل، لأنّ التوعّد بالعقاب على الشرك والظلم أقوى الأسباب في إقلاع الناس عنه، وصدق الوعيد من متمّمات ذلك مع كونه مقتضى الحكمة لإقامة العدل.

{ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ [32] يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ [33] }.

أعقب تخويفهم بعقاب الدنيا الذي حلّ مثله بقوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم بأن خوَّفهم وأنذرهم عذاب الآخرة.

{ **وَيَا قَوْمِ** } أقحم بين حرف العطف والمعطوف نداء قومه للغرض الذي تقدّم آنفا.

{ **يَوْمَ التَّنَادِ** } يوم الحساب والحشر، لأنّ الخلق يتنادون يومئذ: فمِن مستشفع، ومِن متضرع، ومن موبَّخ، ومن معتذر، قال تعالى { وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ } [فصلت: 47]، وقوله تعالى { أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ } [فصلت:44] وقوله تعالى { وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ } [الأعراف:44]، وقوله تعالى { دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً } [الفرقان:13]، وقوله { وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ } [الأعراف:50]، وقوله تعالى { يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ } [الإسراء:71]، وقوله تعالى { يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ } [القمر:6].

ومن بديع البلاغة ذكر هذا الوصف لليوم في هذا المقام ليذكّرهم أنّه في موقفه بينهم يناديهم بـ { وَيَا قَوْمِ } ناصحا ومريدا خلاصهم من كلّ نداء مفزع يوم القيامة، وتأهيلَهم لكلِّ نداء سارٍّ فيه.

{ **يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ** } بدل من { يَوْمَ التَّنَادِ }، و**التوالي**: الرجوع، و**الإدبار**: أن يرجع من الطريق التي وراءه، أي: من حيث أتى، هربا من الجهة التي ورد إليها لأنّه وجد فيها ما يكره.

أي: يوم تفرُّون من هول ما تجدونه.

{ **مُدْبِرِينَ** } حال مؤكدة لعاملها وهو { تُوَلُّونَ }.

{ **مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ** } في موضع الحال. والمعنى: حالة لا ينفعكم فيها التولّي.

{ **مِنَ اللَّهِ** } من عذابه وعقابه، لأنّ المنع إنّما تتعلق به المعاني لا الذوات.

العاصم: المانع والحافظ. وضُمِّن فعل عصم معنى: أنقذ وانتزع.

{ **مِنْ عَاصِمٍ** } { مِنْ } مزيدة لتأكيد النفي.

{ **وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ** } عطف على جملة { إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ } لتضمّنها معنى: إنّي أرشدكم إلى الحذر من يوم التنادي. وفي الكلام إيجاز بحذف جمل تدلّ عليها الجملة المعطوفة. والتقدير: هذا إرشاد لكم فإن هداكم الله عملتم به وإن أعرضتم عنه فمالكم من هاد، وفي هذه الجملة معنى التذليل.

{ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ [34] الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ [35] }.

{ **وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا** } توسَّم فيهم قلّة جدوى النصح لهم وأنّهم مصمِّمون على تكذيب موسى فارتقى في موعظتهم إلى اللوم على ما مضى، ولتذكيرهم بأنّهم من ذرّيّة قوم كذّبوا يوسف لمّا جاءهم بالبينات.

{ **وَلَقَدْ** } تأكيد الخبر بـ (قد) و(لام القسم) لتحقيقه، لأنّهم مظنّة أن ينكروه لبعد عهدهم به.

{ **جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ** } المجيء مستعار للحصول والظهور، والباء للملابسة، أي: ولقد ظهر لكم يوسف ببيّنات. ولا يلزم أن يكون إظهار البيّنات مقارنا دعوة إلى شرع، لأنّه لمّا أظهر البيّنات وتحقَّقوا مكانته كان عليهم بحكم العقل السليم أن يتبيَّنوا آياته ويستهدوا طريق الهدى، فإنّ الله لم يأمر يوسف بأن يدعو فرعون وقومه، لحكمة لعلَّها هي انتظار الوقت المناسب الذي ادّخره الله لموسى عليه السلام.

البيّنات: الدلائل البيّنة المُظهرة أنّه مصطفى من الله للإرشاد إلى الخير.

وبيّنات يوسف: إخباره بما هو مغيّب عنهم من أحوالهم بطريق الوحي في تعبير الرؤى، وكذلك آية العصمة التي انفرد بها من بينهم وشهدت له بها امرأة العزيز وشاهد أهلها، حتّى قال الملك { ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي } [يوسف:54]، فكانت دلائل نبوّة يوسف واضحة ولكنّهم لم يستخلصوا منها استدلالا يقتفون به أثره في صلاح آخرتهم، وحرصوا على الانتفاع به في تدبير أمور دنياهم فأودعوه خزائن أموالهم وتدبير مملكتهم، فقال له الملك { إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ } [يوسف:54].

<u>فإن قلتَ</u>: لماذا لم يدعهم يوسف إلى الاعتقاد بالحقّ واقتصر على أن سأل من الملك { اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ } [يوسف:55].

<u>قلتُ</u>: لأنّ الله لم يأمره بالدعوة للإرشاد إلّا إذا سئل منه ذلك، لحكمة كما علمت آنفا، فأقامه الله مقام المفتي والمرشد لمن استرشد لا مقام المحتسب المغيّر للمنكر، و{ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهُ } [الأنعام:124]، فلمّا أقامه الله كذلك وعلم يوسف من قول الملك { إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ } [يوسف:54] أنّ الملك لا يريد إلّا تدبير مملكته وأمواله، لم يسأله أكثر ممَّا يفي له بذلك. وأمّا وجوب طلبهم المعرفة والاسترشاد منه فذلك حقّ عليهم.

{ **فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ** } الإنحاء على أسلافهم في قلّة الاهتمام بالبحث عن الكمال الأعلى، وهو الكمال النفساني باتباع الدين القويم، أي: فما زال أسلافكم يشعرون بأنّ يوسف على أمر عظيم من الهدى غير مألوف لهم، ويهرعون إليه في مهمّاتهم، ثم لا تعزم نفوسهم على أن يطلبوا منه الإرشاد في أمور الدين. فهم من أمره في حالة شك. فالملام متوجّه عليهم لتقصيرهم في طلب ما ينجيهم بعد الموت.

{ **حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا** } أي: قال أسلافكم لا يبعث الله في المستقبل أبدا رسولا بعد يوسف. وهذا قول جرى منهم على عادة المعاندين والمقاومين لأهل الإصلاح والفضل أن يعترفوا بفضلهم بعد الموت تندّما على ما فاتهم من خير كانوا يدعونهم إليه.

ومقالتهم هذه لا تقتضي أنّهم كانوا يؤمنون بأنّه رسول وإنّما أرادوا بها قطع هذا الاحتمال في المستقبل. وظاهر هذه الآية أن يوسف كان رسولا. والوجه أن يكون { رَسُولًا } مفعول { يَبْعَثَ }، وأنّه لا يقتضي وصف يوسف به، فإنّه لم يرد في الأخبار عدّه في الرسل ولا أنّه دعا إلى دين في مصر، ولا شك في أنّه

نبيّ إذا وجد مساغا للإرشاد أظهر، كقوله { يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ } [يوسف:40/39]، وقوله { إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ } [يوسف:38/37].

{ **كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ [34] الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ** } جرى أكثر المفسّرين على أنّ هذه الجمل حكاية لبقية كلام المؤمن، وبعضهم جعل بعضها من حكاية كلام المؤمن وبعضها كلاما من الله تعالى، وسكت بعضهم عن ذلك مقتصرا على بيان المعنى دون تصدٍّ لبيان اتصالها بما قبلها.

والذي يظهر أنّ هذه الجمل كلّها من كلام الله تعالى معترض بين كلام المؤمن وكلام فرعون، فإنّ هذا من المعاني الإسلامية قُصد منه العبرة بحال المكذّبين بموسى، تعريضا بمشركي قريش، أي: كضلال قوم فرعون يضلّ الله من هو مسرف مرتاب أمثالكم، فكذلك يكون جزاؤكم.

ويؤيّد هذا الوجه قوله في آخرها { وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا }. ومما يزيد يقينا بهذا أن وصف { الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ } تكرّر أربع مرّات من أول السورة، ثم كان هنا وسطا في قوله { إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ } [56]، ثم كان خاتمة في قوله تعالى { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ } [69].

{ **كَذَلِكَ** } الإشارة إلى الضلال المأخوذ من قوله { يُضِلُّ اللَّهُ }، أي: مثل ذلك الضلال يُضلّ الله المسرفين المرتابين، أي: أنّ ضلال المشركين في تكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم مثل ضلال قوم فرعون في تكذيبهم موسى عليه السلام. والخطاب بالكاف المقترنة باسم الإشارة خطاب للمسلمين.

المسرف: المُفْرِط في فعل لا خير فيه.

المرتاب: شديد الريب، أي: الشك.

{ **الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ** } يجوز أن يكون مبتدأ خبره { كَبُرَ مَقْتًا }.

ويجوز أن يكون بدلا مِن { مَنْ } في قوله تعالى { مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ }.

{ **يُجَادِلُونَ** } اختيار المضارع لإفادة تجدّد مجادلتهم وتكرّرها. وهذا صريح في ذمّهم، وكناية عن ذمّ جدالهم الذي أوجب ضلالهم.

المجادلة: تكرير الاحتجاج لإثبات مطلوب المجادل وإبطال مطلوب من يخالفه، قال تعالى { وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } [النحل:125]، فمن المجادلة في آيات الله: المحاجّة لإبطال دلالتها، ومنها المكابرة فيها كما قالوا { قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ } [فصلت:5]، ومنها قطع الاستماع لها.

{ **بِغَيْرِ سُلْطَانٍ** } متعلّق بـ { يُجَادِلُونَ }، والباء للاستعانة، و**السلطان**: الحجّة. والمعنى: أنّهم يجادلون بما ليس بحجّة ولكن باللجاج والاستهزاء.

{ **أَتَاهُمْ** } صفة لـ { سُلْطَانٍ }. والإتيان مستعار للظهور والحصول. وحصول الحجّة هو اعتقادها ولَوْحُهَا في العقل، أي: يجادلون جدلا ليس ممّا تثيره العقول والنظر الفكري ولكنّه تمويه وإسكات.

{ **كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ** } خبر { إنَّ } من باب الإخبار بالإنشاء، وهي إنشاء ذمّ جدالهم المقصود منه الصدّ عن اتباع الحقّ.

{ **مَقْتًا** } تمييز للكُبْر، وهو تمييز نسبة محوَّل عن الفاعل، والتقدير: كبر مقت جدالهم.

{ **كَبُرَ** } هنا ملحق بأفعال الذمّ مثل: ساء.

تفظيعٌ بالصراحة بعد أن استفيد من صلة الموصول أنّ جدالهم هو سبب إضلالهم ذلك الإضلال المكين، فحصل بهذا الاستئناف تقرير فظاعة جدالهم بطريقي الكناية والتصريح.

الكِبَر: مستعار للشدّة، أيّ مُقِت جدالهم مقتا شديدا.

المقت: شدّة البغض، وهو كناية عن شدّة العقاب على ذلك من الله.

{ **عِنْدَ اللَّهِ** } وكونه مقتا عند الله تشنيع له وتفظيع.

{ **وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا** } لم أر في التفاسير الكثيرة التي بين يديّ من عرّج على فائدة هذا العطف ما عدا المهائمي في (تبصرة الرحمن) إذ قال: " عند الذين آمنوا [لأنّهم] المظاهر التي يظهر فيها ظهور الحق". يعني أنّ كونه مقتا عند الله لا يحصل في علم الناس إلّا بالخبر فزيد الخبر تأييدا بالمشاهدة، فإنّ الذين آمنوا على قلّتهم يومئذ يظهر بينهم بغض مجادلة المشركين.

وعندي: أنّ الله أراد التنويه بالمؤمنين ولم يرد إقناع المشركين، فإنّهم لا يعبأون ببغض المؤمنين ولا يصدِّقون ببغض الله إيّاهم، فالمقصود الثناء على المؤمنين بأنّهم يكرهون الباطل، مع الإشارة إلى تبجيل مكانتهم بأن ضُمَّت عنديّتهم إلى عنديّة الله تعالى، كقوله تعالى { شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ } [آل عمران:18]، وقوله تعالى { هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ } [الأنفال: 62].

وفي إسناد كراهية الجدال في آيات الله بغير سلطان للمؤمنين تلقين للمؤمنين بالإعراض عن مجادلة المشركين، على نحو قوله تعالى { وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ } [القصص:55]، وقوله تعالى { وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا } [الفرقان:63]، وقوله تعالى { وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا } [الفرقان:72].

{ **كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ** } كالقول في { كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ }.

الطبع: الختم، وتقدّم في قوله تعالى { خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ } [البقرة:7].

المتكبّر: ذو الكبر المبالغ فيه، ولذلك استعيرت صيغة التكلّف.

الجبّار: مثال مبالغة من الجبر، وهو الإكراه، فالجبّار: الذي يُكره الناس على ما لا يحبّون عمله لظلمه.

{ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ [36] أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ [37] }.

هذه مقالة أخرى لفرعون في مجلس آخر غير المجلس الذي حاجَّه فيه موسى ولذلك عُطف قوله بالواو كما أشرنا إليه فيما عطف من الأقوال السابقة آنفا، وكما أشرنا إليه في [القصص:38]، وتقدّم الكلام هنالك مستوفى على نظير معنى هذه الآية على حسب ظاهرها. وتقدم ذكر **هامان** و**الصرح** هنالك.

الأسباب: جمع سبب، والسبب ما يوصل إلى مكان بعيد، فيطلق السبب على الطريق، ويطلق على الحبل لأنّهم كانوا يتوصّلون به إلى أعلى النخيل، والمراد هنا: طرق السماوات، كما في قول زهير:

ومن هاب أسباب المنايا يَنَلْنَه ... وإن يَرْقَ أسباب السماء بسُلَّم

{ **أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ** } انتصب على البدل المطابق لقوله { الْأَسْبَابَ }. وجيء بهذا الأسلوب من الإجمال ثم التفصيل للتشويق إلى المراد بالأسباب تفخيما لشأنها وشأن عمله لأنّه أمر عجيب.

الاطّلاع: (بتشديد الطاء) مبالغة في الطلوع، والطلوع: الظهور. والأكثر أن يكون ظهورا من ارتفاع، ويُعرف ذلك أو عدمه بتعدية الفعل، فإن عُدِّي بحرف (على) فهو الظهور من ارتفاع، وأن عُدِّي بحرف (إلى) فهو ظهور مطلق.

{ **فَأَطَّلِعَ** } قرأه حفص عن عاصم بالنصب على جواب الترجِّي لمعاملة الترجي معاملة التمنِّي وإن كان ذلك غير مشهور، وقد تكون له ههنا نكتة وهي استعارة حرف الرجاء إلى معنى التمنِّي على وجه الاستعارة التبعية، إشارة إلى بعد ما ترجاّه، وجعل نصب الفعل بعده قرينه على الاستعارة. وقرأ الجمهور { فَأَطَّلِعُ } بالرفع تفريعا على { أَبْلُغُ } كأنّه قيل: أبلغُ ثمّ اطلعُ.

{ **وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً** } معترضة للاحتراس من أن يظنّ هامان وقومه أنّ دعوة موسى أوهنت منه يقينه بدينه وآلهته وأنّه يروم أن يبحث بحث متأمّل ناظر في أدلة المعرفة، فحقَّق لهم أنّه ما أراد بذلك إلّا نفي ما ادعاه موسى بدليل الحسّ. وجيء بحرف التوكيد المعزّز بلام الابتداء لينفي عن نفسه الاتهام.

{ **لَأَظُنُّهُ** } الظنّ هنا مستعمل في معنى اليقين والقطع، ولذلك سَمَّى الله عزمه هذا كيدا.

{ **وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ** } عطف على { وَقَالَ فِرْعَوْنُ } لبيان حال اعتقاده وعمله بعد أن بيَّن حال أقواله، والمعنى: أنّه قال قولا منبعثا عن ضلال اعتقاد ومغريا فساد الأعمال. ولهذا الاعتبار لم تفصل هذه الجملة عن التي قبلها إذ لم يقصد بها ابتداء قصة أخرى.

{ **وَكَذَلِكَ** } كافتتاح قوله تعالى { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا } [البقرة:143]، أي: مثل ذلك التزيين زُيِّن له سوء عمله، مبالغة في أنّ تزيين عمله له بلغ من القوّة في نوعه ما لا يوجد له شبه يُشبَّه به غير نفسه.

{ **زُيِّنَ** } بني الفعل إلى المجهول لأنّ المقصود معرفة مفعول التزيين لا معرفة فاعله، أي: حصل له تزيين سوء عمله في نفسه فحسب الباطل حقًّا والضلال اهتداء.

{ **وَصُدَّ** } قرأ الجمهور { وَصَدَّ } بفتح الصاد وهو يجوز اعتباره قاصرا الذي مضارعه **يَصِدّ** بكسر الصاد، ويجوز اعتباره متعديا الذي مضارعه **يصُدّ** بضم الصاد، أي: أعرض عن السبيل ومنع قومه اتباع السبيل. وقرأه حمزة الكسائي وعاصم بضم الصاد. والقول فيه كالقول في { زُيِّنَ }.

{ **السَّبِيلِ** } التعريف للعهد، أي: سبيل الله، أو سبيل الخير، أو سبيل الهدى، ويجوز أن يكون التعريف للدلالة على الكمال في النوع، أي: صدّ عن السبيل الكامل الصالح.

{ **وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ** } عطف على جملة { وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ }.

{ **كَيْدُ فِرْعَوْنَ** } ما أمر به من بناء الصرح والغاية منه، وسُمّي كيدا لأنّه عمل ليس المراد به ظاهره بل أريد به الإفضاء إلى إيهام قومه كذب موسى عليه السلام.

{ **إِلَّا فِي** } حرف الظرفية استعارة تبعية لمعنى شدّة الملابسة، كأنه قيل: وما كيد فرعون إلّا في تباب شديد. والاستثناء من أحوال مقدرة.

التباب: الخسران والهلاك، ومنه { تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ } [المسد:1].

{ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ [38] يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ [39] مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ [40] }.

هذا مقال في مقام آخر قاله مؤمن آل فرعون، فهذه المقالات المعطوفة بالواو مقالات متفرّقة.

{ **يَا قَوْمِ** } ابتدأ موعظته بندائهم بعنوان أنّهم قومه ليلفت إليه أذهانهم، ولتصغى إليه أفئدتهم.

{ **اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ** } رتّب خطبته على أسلوب تقديم الإجمال ثم تعقيبه بالتفصيل.

سبيل الرشاد: مجمل وهو على إجماله ممّا تتوق إليه النفوس، فربط حصوله باتباعهم إيّاه ممّا يُقبل بهم على تلقّي ما يُفسّر هذا السبيل. وتقدّم ذكر { سَبِيلَ الرَّشَادِ } [29].

{ **يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ** } أعاد النداء تأكيدا لإقبالهم إذ لاحت بوارقه فأكمل مقدمته بتفصيل ما أجمله، يُذكّرهم بأنّ الحياة الدنيا محدودة بأجل غير طويل، وأنّ وراءها حياة أبدية.

وقد بنى هذه المقدّمة على ما كانوا عليه من معرفة أنّ وراء هذه الحياة حياة أبدية فيها حقيقة السعادة والشقاء، وفيها الجزاء على الحسنات والسيّئات بالنعيم أو العذاب، إذ كانت ديانتهم تثبت حياة أخرى بعد الحياة الدنيا ولكنها حرَّفت معظم وسائل السعادة والشقاوة، فهذه حقائق مسلَّمة عندهم على إجمالها.

{ **إِنَّمَا** } قصر موصوف على صفة، أي: لا صفة للدنيا إلّا أنّها نفعٌ مؤقّت، وهو قصر قلب، لتنزيل قومه في تهالكهم على منافع الدنيا منزلة من يحسبها منافع خالدة.

المتاع: ما ينتفع به انتفاعا معجَّلا. و**القرار**: الدوام في المكان.

{ **وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ** } القصر المستفاد من ضمير الفصل قصر قلب نظير القصر السابق، وهو مؤكّد له، من تأكيد إثبات ضدّ الحكم لضد المحكوم عليه، أي: لا الدنيا.

{ **مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ** } أي: لا يُجزى عن عمل السوء بجزاء الخير، أي: لا يطمعوا أن يعملوا السيئات وأنهم يجازَون عليها جزاء خير.

و{ مَنْ } شرطية، وجوابها { فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ } .

{ **مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى** } بيان لما في { مَنْ } من الإبهام، مراد به عموم الناس بذكر صنفيهم تنصيصا على إرادة العموم. وليس المقصود به إفادة مساواة الأنثى للذكر في الجزاء على الأعمال إذ لا مناسبة له في هذا المقام.

{ **وَهُوَ مُؤْمِنٌ** } لم يهمل ذكر الإيمان بعد أن اهتم بتقديم الأعمال، فالإيمان هو أس هيكل النجاة، ولذلك كان الكفر أس الشقاء الأبدي.

{ **فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ** } جملة جواب الشرط ، وجيء باسم الإشارة للتنبيه على أنّ المشار إليه يستحقّ ما سيذكر بعد اسم الإشارة من أجل ما ذكر قبله من الأوصاف، وهي عمل الصالحات مع الإيمان. وتقديم المسند إليه في جملة لإفادة الحصر. والمعنى: أنكم إن مِتُّم على الشرك والعمل السيّئ لا تدخلونها.

{ **يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ** } كناية على سعة الرزق ووفرته، كما تقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [آل عمران:37].

{ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ [41] تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ [42] لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ [43]}.

أعاد نداءهم وعطفت حكايته بواو العطف للإشارة إلى أنّ نداءه اشتمل على ما يقتضي في لغتهم أنّ الكلام قد تخطى من غرض إلى غرض. حيث انتقل هنا إلى أن أنكر عليهم شيئا جرى منهم نحوه وهو أنّهم أعقبوا موعظته إيّاهم بدعوته للإقلاع عن ذلك وأن يتمسَّك بدينهم، وهذا شيء مطوي في خلال القصة دلَّت عليه حكاية إنكاره عليهم، وهو كلام آيس من استجابتهم لقوله { فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ } [44]، ومتوقِّع أذاهم لقوله { وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ } [44]، ولقوله تعالى آخر القصة { فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ

مَا مَكَرُوا } [45].

فصرَّح هنا وبيّن بأنّه لم يزل يدعوهم إلى اتباع ما جاء به موسى، وفي اتباعه النجاة من عذاب الآخرة، فهو يدعوهم إلى النجاة حقيقة.

{ **مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ** } استفهام تعجّبي باعتبار تقييده بجملة الحال { وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ }، وليست بعطف. وتركيب: ما لي ونحوه، هو كتركيب: هل لك ونحوه في قوله تعالى { فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى } [النازعات:18]. فإذا قامت القرينة على انتفاء إرادة الاستفهام الحقيقي انصرف ذلك إلى التعجّب من الحالة، أو إلى الإنكار أو نحو ذلك.

المعنى: أنّه يعجب من دعوتهم إيّاه لدينهم مع ما رأوا من حرصه على نصحهم ودعوتهم إلى النجاة وما أتاهم به من الدلائل على صحة دعوته وبطلان دعوتهم.

{ **تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ** } بيان لجملة { وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ } لأنّ الدعوة إلى النار أمر مجمل مستغرب فبيَّنه ببيان أنّهم يدعونه إلى التلبّس بالأسباب الموجبة عذاب النار.

{ **وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ** } ما ليس لي بصحته أو بوجوده علم، والكلام كناية عن كونه يعلم أنّها ليست آلهة.

{ **وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ** } عطف، فكان بيانا لمجمل جملة { أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ }.

وإبراز ضمير المتكلّم لإفادة تقوّي الخبر بتقديم المسند إليه على خبره الفعلي.

{ **الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ** } استعارة مكنية، وعدل عن اسم الجلالة إلى الصفتين لإدماج الاستدلال على استحقاقه الإفراد بالإلهية والعبادة، ولإدماج ترغيبهم في الإقلاع عن الشرك بأن المستحقّ للإلهية يغفر لهم ما سلف من شركهم، حتّى لا ييأسوا من عفوه بعد أن أساءوا إليه.

{ **لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ** } بيان لجملة { تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّه } .

{ **لا جَرَمَ** } بفتحتين في الأفصح من لغات ثلاث فيها، كلمة يراد بها معنى: لا يثبت أو لا بد، فالمعنى: ثبوته، لأنّ الشيء الذي لا ينقطع هو باق وكل ذلك يؤول إلى معنى حقّ. والأظهر أن (جَرم) اسم لا فعل. والأكثر أن يقع بعدها (أنَّ) المفتوحة المشدّدة، فيقدر معها حرف (في) ملتزما حذفه غالبا. والتقدير: لا شك في أنّ ما تدعونني إليه ليس له دعوة. وتقدّم عند قوله تعالى { لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ } [هود:23].

{ **لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الْآخِرَةِ** } انتفاء أن يكون الدعاء إليه بالعبادة أو الالتجاء نافعا، لا نفي وقوع الدعوة، لأن وقوعها مشاهد. أي: لا يملك إجابتهم.

{ **وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ** } لأنّه إذ تبيّن أنّ ربّ موسى المُسمَّى (الله) هو الذي له الدعوة، تبين أن المَرَدّ، أي: المصير إليه في الدنيا بالالتجاء والاستنصار، وفي الآخرة بالحكم والجزاء.

وعطفت الجملة بالواو اهتماما بشأنها لتكون مستقلّة الدلالة بنفسها غير باحث سامعها على ما ترتبط به.

{ **وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ** } لأنّه إذا كان المصير إليه كان الحكم والجزاء بين الصائرين إليه من مثاب ومعاقب، فيتعيّن أنّ المعاقب هم الكافرون بالله.

{ **الْمُسْرِفِينَ** } الإسراف هنا إفراط الكفر، ويشمل ما قيل: إنّه أريد هنا سفك الدم بغير حق، ليصرف فرعون عن قتل موسى عليه السلام. والوجه أن يعمّ أصحاب الجرائم والآثام. والتعريف فيه تعريف الجنس المفيد للاستغراق، وهو تعريض بالذين يخاطبهم.

{ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ } [44].

هذا الكلام متاركة لقومه وتنهية لخطابه إيّاهم، ولعلّه استشعر من ملامحهم أو من مقاطعتهم كلامه بعبارات الإنكار ما أيأسه من تأثّرهم بكلامه، فتحدَّاهم بأنّهم إن أعرضوا عن الانتصاح لنصحه سيندمون حين يرون العذاب، إمّا في الدنيا كما اقتضاه تهديده لهم بقوله { إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ } [30]. أو في الآخرة كما اقتضاه قوله { إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ } [32].

{ **فَسَتَذْكُرُونَ** } الفاء للتفريع على جملة { مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ } [41]. والفعل مشتق من الذُّكر (بضم الذال) وهو ضد النسيان. المعنى: سيحل بكم من العذاب ما يذكّركم ما أقوله لكم الآن.

{ **وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ** } عطف على جملة { مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ }، ومساق هذه الجملة مساق الانتصاف منهم لما أظهروه له من الشرّ، يعني: أنّي أَكِل شأني وشأنكم معي إلى الله فهو يجزي كلّ فاعل بما فعل.

{ **إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ** } تعليل لتفويض أمره معهم إلى الله بأنّ الله عليم بأحوال جميع العباد، فعموم العباد شمله وشمل خصومه.

البصير: المطّلع الذي لا يخفى عليه الأمر. والباء للتعدية كما في قوله تعالى { فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ } [القصص:11]، فإذا أرادو تعدية فعل البصر بنفسه قالوا: أبصره.

{ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ [45] النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ [46] }.

{ **فَوَقَاهُ اللَّهُ** } تفريع مؤذن بأنّهم أضمروا مكرا به. وتسميته مكرا مؤذن بأنّهم لم يشعروه به، وأن يكون فرّ من فرعون ولم يعثروا عليه.

{ **سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا** } إضافة { سَيِّئَاتِ } إلى { مَكَرُوا } إضافة بيانية، وهي هنا في قوّة إضافة الصفة إلى الموصوف لأنّ المكر سيّء. و{ مَا } مصدرية. والمعنى: سيّئات مكرهم. وإنّما جمع السيّئات باعتبار

تعدّد أنواع مكرهم التي بيّتوها.

حاق: أحاط. و**العذاب**: الغرق. والتعريف للعهد لأنّه مشهور معلوم.

{ **النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا** } يجوز أن يكون بدلا من جملة { وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ}، لأنّ سوء العذاب إذا أريد به الغرق كان مشتملا على موتهم وموتهم يشتمل على عرضهم على النار غدوا وعشيا، فالمذكور عذابان: عذاب الدنيا، عذاب الغرق وما يلحق به من عذاب قبل عذاب يوم القيامة.

ويجوز أن يكون { النَّارُ } بدلا مفردا من { سُوءُ الْعَذَابِ } بدلا مطابقا، وجملة { يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا } حالا من {النار}، فيكون المذكور في الآية عذابا واحدا ولم يذكر عذاب الغرق.

وعلى كلا الوجهين فالمذكور في الآية عذاب قبل عذاب يوم القيامة المذكور بعده { وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ }.

{ **يُعْرَضُونَ** } والعرض حقيقته إظهار شيء لمن يراه لترغيب أو تحذير، وهو يتعدّى إلى الشيء المُظْهَر بنفسه وإلى من يُظهَر لأجله بحرف (على)، وهذا يقتضي أنّ المعروض عليه لا يكون إلّا من يعقل أو منزَّلا منزلة من يعقل. وقد يقلب هذا الاستعمال لقصد المبالغة، كقول العرب: "عرضت الناقة على الحوض"، وحقّه: عرضت الحوض على الناقة، وهو الاستعمال الذي في هذه الآية وفي قوله تعالى { وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ } [الأحقاف:20].

ومعنى عرضهم على النار: أنّ أرواحهم تشاهد المواضع التي أعِدَّت لها في جهنّم، وهو ما يبيّنه حديث عبد الله بن عمر في الصحيح قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **إنّ أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعدُه بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال: هذا مقعدك حتّى يبعثك الله يوم القيامة** ".

{ **غُدُوًّا وَعَشِيًّا** } كناية عن الدوام، لأنّ الزمان لا يخلو من هاذين الوقتين.

{ **وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ** } هذا ذكر عذاب الآخرة الخالد.

{ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ [47] قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ [48] }.

{ **إِذْ** } يجوز أن يكون معمولا لـ (اذكر) محذوف، فيكون عطفا على جملة { وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ } [18]، والضمير عائدا إلى { الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ } [35]، وما بين هذا وذاك اعتراض واستطراد لأنّها قُصد منها عظة المشركين بمن سبقهم من الأمم المكذِّبين، فلمّا استوفي ذلك عاد الكلام إليهم.

ويجوز أن تكون { وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ } عطفا على { وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ } [46]، لأنّ (إذ) و(يوم) كليهما ظرف بمعنى (حين).

التحاجّ: الاحتجاج من جانبين فأكثر، أي: إقامة كل فريق حجّته، وهو يقتضي وقوع خلاف بين المتحاجّين، إذ الحجّة تأييد لدعوى لدفع الشك في صحّتها.

{ **فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا** } الفاء لإفادة كون هذا القول ناشئا عن تحاجّهم في النار مع كون ذلك دالا على أنّه في معنى متعلق { إذ }. وهذا استعمال من استعمالات الفاء التي يسميها النحاة زائدة.

الضعفاء: عامة النّاس الذين لا تصرّف لهم في أمور الأمّة.

الذين استكبروا: سادة القوم، أي: الذين تكبّروا كبرا شديدا، فالسين والتاء فيه للمبالغة.

{ **إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا** } وقول الضعفاء للكبراء هذا الكلام يحتمل أنّه على حقيقته فهو ناشئ عمّا اعتادوه من اللجإ إليهم في مهمّهم حين كانوا في الدنيا، فخالوا أنّهم يتولّون تدبير أمورهم في ذلك المكان، ولهذا أجاب الذين استكبروا بما يفيد أنّهم اليوم سواء في العجز وعدم الحيلة فقالوا { إِنَّا كُلٌّ فِيهَا }.

ويحتمل أنّه مستعمل في التوبيخ، أي: كنتم تدعوننا إلى دين الشرك فكانت عاقبة ذلك أن صرنا في هذا العذاب فهل تستطيعون الدفع عنّا.

التبع: اسم لمن يتبع غيره، يستوي فيه الواحد والجمع، وهو مثل خدم وحشم لأنّ أصله مصدر.

وقيل: جمع لا يجري على الواحد، فهو إذن من الجموع النادرة.

{ **فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ** } الاستفهام مستعمل في الحثّ واللوم على خذلانهم وتركهم.

{ **مُغْنُونَ** } اسم فاعل من أغنى غَناء (بفتح الغين والمد)، أي: فائدة وإجزاء. وقد ضُمِّن معنى دافعون ورادُّون، فلذلك عُدّي إلى مفعول وهو { نَصِيبًا }.

النصيب: الحظ والحصّة من الشيء، قال تعالى { لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ } [النساء:7]. أي: جُزءا من حرّ النار.

{ **مِنَ النَّارِ** } بيان لـ { نَصِيبًا }، كقوله تعالى { فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ } [إبراهيم:21] فهم قانعون بكل ما يُخفِّف عنهم من شدّة حرّ النار، وغير طامعين في الخروج منها.

ويجوز أن يكون { مُغْنُونَ } على معناه دون تضمين ويكون { نَصِيبًا } منصوبا على المفعول المطلق لمغنون والتقدير غناء نصيبا، أي: غناء ما ولو قليلا.

ويجوز أن يكون النصيب الجزء من أزمنة العذاب، فيكون على حذف مضاف تقديره: من مدّة النّار.

{ **قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ** } لمّا كان جواب الذين استكبروا للذين استضعفوا جاريا في مجرى المحاورة جُرِّد فعل { قال } من حرف العطف على طريقة المحاورة.

{ **إِنَّا كُلٌّ فِيهَا** } أي: نحن وأنتم مستوون في الكون في النار فكيف تطمعون أن ندفع عنكم شيئا من العذاب. وعلى وجه أن يكون قول الضعفاء توبيخا ولوما لزعمائهم يكون قول الزعماء { إِنَّا كُلٌّ فِيهَا } اعترافا بالغلط أي: دعوا لومنا وتوبيخنا فقد كفانا أنّا معكم في النّار.

{ **إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ** } تتنزّل منزلة بدل الاشتمال من جملة { إِنَّا كُلٌّ فِيهَا }، فكلتا الجملتين جواب

لهم مؤيّس من حصول التخفيف عنهم. وما في هذه الجملة الثانية من عموم تعلّق فعل الحكم بين العباد ما يجعل هذا البدل بمنزلة التذييل، أي: أنّ الله حكم بين العباد كلّهم بجزاء أعمالهم فكان قسطنا من الحكم هذا العذاب.

وفي هذه الآية عبرة لزعماء الأمم وقادتهم أن يحذروا الارتماء بأنفسهم في مهاوي الخسران فيوقعوا المقتدين بهم في تلك المهاوي.

{ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ [49] قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ [50] }.

لمّا لم يجدوا مساغا للتخفيف من العذاب في جانب كبرائهم، وتنصَّل كبراؤهم من ذلك أو اعترفوا بغلطهم وتوريطهم قومَهم وأنفسَهم تمالأ الجميع على محاولة طلب تخفيف العذاب بدعوة من خزنة جهنم.

{ **الَّذِينَ فِي النَّارِ** } أي: جميعهم، من الضعفاء والذين استكبروا.

خزنة: جمع خازن، وهو الحافظ لما في المكان من مال أو عروض.

{ **خَزَنَةِ جَهَنَّمَ** } هم الملائكة الموكَّلون بما تحويه جهنّم من النار ووقودها والمعذبين فيها، ولذلك يقال لهم: خزنة النّار.

{ **ادْعُوا رَبَّكُمْ** } في إضافة (ربّ) إلى ضمير المخاطبين ضرب من الإغراء بالدعاء، أي: لأنّكم أقرب إلى استجابته لكم.

{ **يُخَفِّفْ** } جُزم بعد الأمر بالدعاء، ولعله بتقدير (لام الأمر) لكثرة الاستعمال. وهذا الجزم شائع بعد الأمر بالقول وما في معناه، وحقّه الرفع أو إظهار لام الأمر. وضُمِّن معنى يُنقص فنصب { يَوْمًا } على المفعول، أو هو على تقدير مضاف، أي: عذاب يوم، أي: مقدار يوم.

{ **يَوْمًا** } كناية عن القلة، أي: يخفف عنّا ولو زمنا قليلا.

{ **مِنَ الْعَذَابِ** } بيان لـ { يَوْمًا } لأنّه أريد به المقدار، فاحتاج إلى البيان على نحو التمييز.

{ **قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ** } جَوابُ خزنة جهنم لهم بطريق الاستفهام التقريري المراد به إظهار سوء صنيعهم بأنفسهم إذ لم يتّبعوا الرسل حتّى وقعوا في هذا العذاب، وتنديمهم على ما أضاعوه في حياتهم الدنيا من وسائل النجاة من العقاب. وهو كلام جامع يتضمّن التوبيخ، والتنديم، والتحسير، وبيان سبب تجنب الدعاء لهم، وتذكيرهم بأنّ الرسل كانت تحذّرهم من الخلود في العذاب.

{ **أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ** } زيادة فعل الكون للدلالة على أنّ مجيء الرسل إلى الأمم أمر متقرّر محقَّق، لما يدل عليه فعل الكون من الوجود بمعنى التحقّق، وأمّا الدلالة على أنّ فعل الإتيان كان في الزمن الماضي فهو مستفاد من (لم) النافية في الماضي.

البيّنات: الحجج الواضحة والدعوات الصريحة إلى اتباع الهدى.

{ **قَالُوا بَلَى** } لم يسعهم إلّا الاعتراف بمجيء الرسل إليهم بالبينات.

{ **قَالُوا فَادْعُوا** } ردَّ عليهم خزنة جهنم بالتنصّل من أن يدعوا الله بذلك، إلى إيكال أمرهم إلى أنفسهم.

أي: كما تولّيتم الإعراض عن الرسل استبدادًا بآرائكم فتولّوا اليوم أمر أنفسكم فادعوا أنتم.

{ **فَادْعُوا** } مستعمل في الإباحة أو في التسوية، وفيه تنبيه على خطأ السائلين في سؤالهم.

{ **وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ** } يجوز أن تكون من كلام خزنة جهنم تذييلا لكلامهم يبيّن أنّ قولهم { فَادْعُوا } مستعمل في التنبيه على الخطأ، أي: دعاؤكم لم ينفعكم لأنّ دعاء الكافرين في ضلال.

ويجوز أن تكون من كلام الله تعالى تذييلا واعتراضا.

الضلال: الضياع، وأصله: خطأ الطريق، كما في قوله تعالى { أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ} [السجدة:10].

المعنى: أنّ دعاءهم لا ينفعهم ولا يُقبل منهم.

{ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ [51] يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ [52] }.

كلام مستأنف وهو استخلاص للعبرة من القصص الماضية مسوق لتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم ووعده بحسن العاقبة، وتسلية المؤمنين ووعدهم بالنصر وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة.

وذلك أنّ الكلام من ابتداء السورة كان بذكر مجادلة المشركين في القرآن بقوله تعالى { مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا } [4]، وأومأ إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بأنّ شيعهم آيلة إلى خسار بقوله تعالى { فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ } [4]، وامتد الكلام في الرد على المجادلين وتمثيل حالهم بحال أمثالهم من الأمم التي آل أمرها إلى خيبة واضمحلال في الدنيا وإلى عذاب دائم في الآخرة، ولمّا استوفى الغرض مقتضاه من إطناب البيان بيّن الله لرسوله صلى الله عليه وسلم عقبه أنّه ينصر رسله والذين آمنوا في الدنيا.

{ **إِنَّا لَنَنْصُرُ** } التعبير بالمضارع لما فيه من استحضار حالات النصر العجيبة التي وصف بعضها في السورة ووُصف بعضٌ آخر في سور أخرى تقدّم نزولها، وإلّا فإنّ نصر الرسل الذين سبقوا محمدا صلى الله عليه وسلم قد مضى ونصر محمد صلى الله عليه وسلم مترقَّب غير حاصل حين نزول الآية.

وهو وعد للمؤمنين بأنّ الله ناصرهم على من ظلمهم في الحياة الدنيا.

{ **وَيَوْمَ يَقُومُ** } الوقوف في الموقف. وذلك اليوم هو يوم الحشر.

الأشهاد: جمع شاهد. وهم الرسل، والملائكة الحفظة والمؤمنون من هذه الأمّة، كما أشار إليه قوله تعالى { لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ } [البقرة:143]، وشهادة الرسل على الذين كفروا بهم من جملة نصرهم عليهم، وكذلك شهادة المؤمنين.

{ **يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ** } بدل من { يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ } وهو منصوب على البدلية من الظرف.
الظالمين: المشركون.

المعذرة: اسم مصدر اعتذر، وتقدّم عند قوله تعالى { قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ } [الأعراف:164].

وظاهر إضافة المعذرة إلى ضميرهم أنّهم تصدر منهم يومئذ معذرة يعتذرون بها عن الأسباب التي أوجبت لهم العذاب، مثل قولهم { رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا } [الأعراف:38].

وهذا لا ينافي قوله تعالى { وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ } [المرسلات: 36] الذي هو في انتفاء الاعتذار من أصله، لأنّ ذلك الاعتذار هو الاعتذار المأذون فيه، وقد تقدّم ذلك عند قوله تعالى { فَيَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ } [الروم:57].

{ **وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ** } البعد والطرد من رحمة الله.

{ **وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ** } هي جهنم.

{ **وَلَهُمْ** } التقديم في هاتين الجملتين للاهتمام بالانتقام منهم.

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرائيلَ الْكِتَابَ [53] هُدىً وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ [54] }.

هذا من أوضح مُثُل نصر الله رسله والذين آمنوا بهم، وهو أشبه الأمثال بالنصر الذي قدّره الله تعالى للنبيّ صلى الله عليه وسلم، فإنّ نصر موسى على قوم فرعون كانت نتيجته أمّة عظيمة لم تكن يؤبه بها، وأوتيت شريعة عظيمة وملكا عظيما. وأي نصر أعظم من الخلاص من العبودية والقلّة والتبع لأمّة أخرى، إلى مصير الأمّة المالكة أمر نفسها.

وهو إيماء إلى الوعد بأنّ القرآن الذي كذّب به المشركون باق موروث في الأمّة الإسلامية.

{ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى** } أي: الرسالة وما أنزل إليه من الشريعة وهي المراد بـ { **الْكِتَابَ** }، أي: التوراة.

{ **وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرائيلَ الْكِتَابَ** } أي: أخذوه منه في حياته وأبقاه الله لهم بعد وفاته، فإطلاق الإيراث استعارة. وذلك إيذان بأنّ الكتاب من جملة الهدى الذي أوتيه موسى، قال تعالى { إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ } [المائدة:44]، ففي الكلام إيجاز حذف تقديره: ولقد آتينا موسى الهدى والكتاب وأورثنا بني إسرائيل الكتاب، فإنّ موسى أتي من الهدى ما لم يرثه بنو إسرائيل وهو الرسالة، وأوتي من الهدى ما أورثه بنو إسرائيل وهو الشريعة التي في التوراة.

أولو الألباب: أولو العقول الراجحة القادرة على الاستنباط.

{ **فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ** } [55].

تفريع على قوله تعالى { إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا } [51]، أي: فاعلم أنّا ناصروك والذين آمنوا، فاصبر على ما تلاقيه من قومك ولا تهن.

{ **إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ** } تعليل للأمر بالصبر. و{ **إِنَّ** } للاهتمام بالخبر، وهي في مثل هذا المقام تغني غناء فاء التعليل، فكأنّه قيل: فوعد الله حقّ.

وعد الله: هو وعد رسوله بالنصر في الآية السابقة وفي غير ما آية. والمعنى: لا تستبطئ النصر فإنّه واقع.

{ **وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ** } عُطف على الأمر بالصبر الأمر بالاستغفار والتسبيح، فكانا داخلين في سياق التفريع على الوعد بالنصر رمز إلى تحقيق الوعد، لأنّه أمرَ عَقِبَه بما هو من آثار الشكر، كناية عن كون نعمة النصر حاصلة لا محالة، وهذه كناية رمزية.

{ **وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ** } أمر بأن يطلب من الله تعالى المغفرة التي اقتضتها النبوّة، أي: اسأل الله دوام العصمة لتدوم المغفرة، وهذا مقام التخلية عن الأكدار النفسية، وفيه تعريض بأنّ أمّته مطلوبون بذلك بالأحرى، كقوله تعالى { وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ } [الزمر:65]. وأيضا فالنبيّ صلى الله عليه وسلم مأمور بالاستغفار تعبّدا وتأدّبا.

وقد أخبر الله نبيّه صلى الله عليه وسلم بأنّه قد غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر كما في أول سورة الفتح، فتعيّن أن أمره بالاستغفار، هنا، قبل أن يخبره بذلك، لطلب دوام المغفرة، وكان أمره به في سورة النصر بعد أن أخبره بغفران ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، للإرشاد إلى شكر نعمة النصر.

وقد قال بعض الصحابة للنبيّ صلى الله عليه وسلم في شأن عبادته: " إنّ الله قد غفر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر "، فقال: " **أفلا أكون عبدا شكوا** ". وكان يكثر أن يقول في سجوده: " **سبحانك اللّهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي** " بعد نزول سورة { إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ } [النصر:1]، قالت عائشة رضي الله عنها: " يتأوّل القرآن ".

{ **وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ** } أمر بتسبيح الله تعالى وتنزيهه بالعشي والإبكار، أي: الأوقات كلّها، فاقتصر على طرفي أوقات العمل. وهذا مقام التحلِّي بالكمالات النفسية وبذلك يتم الشكر ظاهرا وباطنا.

العشيّ: آخر النهار إلى ابتداء ظلمة الليل، ولذلك سُمِّي طعام الليل عشاء، وسمِّيت الصلاة الأخير بالليل عشاء. وتقدّمت في قوله تعالى { وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ } [الأنعام:52].

الإبكار: اسم لبكرة النهار، كالإصباح اسم للصباح، وتقدّمت في قوله { أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا } [مريم:11].

وجُعل الأمران معطوفين على الأمر بالصبر لأنّ الصبر هنا لانتظار النصر الموعود، ولذلك لم يؤمر بالصبر لمّا حصل النصر في قوله تعالى { إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ } [النصر:1-3]، فإنّ ذلك مقام محض الشكر دون الصبر.
وبحكم السياق تعلم أنّ الآية لا علاقة لها بفرض الصلاة ولا بأوقاتها وإنّما هي على نحو قوله تعالى { فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ } [النصر:3].

{ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } [56].

{ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ } جرى الكلام من أوّل السورة إلى هنا في ميدان الردّ على مجادلة المشركين في آيات الله ودحض شبههم وتوعّدهم على كفرهم، وضرب الأمثال لهم بأمثالهم من أهل العناد ابتداء من قوله تعالى { مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا } [4]، وقوله تعالى { أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ } [21]، كما ذُكرت أمثال أضدادهم من أهل الإيمان، من حضر منهم ومن غبر، من قوله تعالى { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ } [23]، ثمّ قوله تعالى { وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ } [28]، وخُتم ذلك بوعد النبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالنصر كما نُصر النبيّون من قبله والذين آمنوا بهم، وأُمر بالصبر على عناد قومه والتوجه إلى عبادة ربه.
وبهذه المناسبة انتُقل هنا إلى كشف ما تكنّه صدور المجادلين من أسباب جدالهم بغير حق، ليعلم الرسول صلى الله عليه وسلم أنّ الذي يدفعهم إلى التكذيب هو التكبّر عن أن يكونوا تبعا للرسول صلى الله عليه وسلم ووراء الذين سبقوهم بالإيمان ممّن كانوا لا يعبأون بهم. وهذا نحو قوله تعالى { قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ } [الأنعام: 33].
{ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ } استئناف ابتدائي وهو كالتكرير لجملة { الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ } [35]، تكرير تعداد للتوبيخ عند تنهية غرض الاستدلال.
{ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ } هم مشركو أهل مكة، وهم المخبر عنهم في قوله تعالى { مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ } [4]. ومعنى **المجادلة في آيات الله** تقدّم هناك.
ومن المفسّرين من جعل ما صدق { الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ } هنا اليهود، وارتقى بذلك إلى القول بأنّ هذه الآية مدنية ألحقت بالسورة المكية، وأيدوا تفسيرهم هذا بآثارهم لو صحّت لم تكن فيها دلالة على أكثر من صلوحية الآية لأن تُضرب مثلا لكلّ فريق يجادلون في آيات الله بغير سلطان، جدالا يدفعهم إليه الكبر.
{ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ } يتعلّق بـ { يجادلون }. والباء للمصاحبة، أي: أنّهم يجادلون مجادلة عناد وغصب.

وفائدة هذا القيد تشنيع مجادلتهم وإلّا فإن المجادلة في آيات الله لا تكون إلّا بغير سلطان، فهذا القيد نظير القيد في قوله تعالى { وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ } [القصص:50].

{ **سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ** } لزيادة تفظيع مجادلتهم بأنّها عريّة عن حجّة لديهم، فهم يجادلون بما ليس لهم به علم.

{ **إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ** } { إنْ } هنا نافية، والجار والمجرور خبر مقدّم، والاستثناء مفرّغ، و{ كِبْرٌ } مبتدأ مؤخر، والجملة كلّها خبر عن { الَّذِينَ يُجَادِلُونَ }.

{ **فِي صُدُورِهِمْ** } أطلق الصدور على القلوب مجازا بعلاقة الحلول، والمراد ضمائر أنفسهم، والعرب يطلقون القلب على العقل، لأنّ القلب هو الذي يحسّ الإنسان بحركته عند الانفعالات النفسية من الفرح وضدّه، والكبر من الانفعالات النفسية، وهو: إدراك الإنسان خواطر تشعره بأنّه أعظم من غيره فلا يرضى بمساواته بله متابعته، وتقدّم في قوله تعالى { إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ } [البقرة:34].

{ **إِلَّا كِبْرٌ** } أثبت لهم الكبر الباعث على المجادلة بطريق القصر لينفي أن يكون داعيهم إلى المجادلة شيء آخر غير الكبر على وجه مؤكّد، فإنّ القصر تأكيد على تأكيد لما يتضمّنه من إثبات الشيء بوجه مخصوص مؤكّد، ومن نفي ما عداه، فتضمّن جملتين.

والتنكير للتعظيم، أي: كبر شديد بتعدّد أنواعه، وتمكّنه من نفوسهم.

{ **مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ** } يجوز أن تكون معترضة، ويجوز أن تكون في موضع الصفة لـ { كِبْرٌ }.

البلوغ: حقيقته الوصول، قال تعالى { إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ } [النحل:7]، ويطلق على نوال الشيء وتحصيله مجازا مرسلا كما في قوله تعالى { وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ } [سبأ:45]، وهو هنا محمول على المعنى المجازي لا محالة، أي: ما هم ببالغي الكبر.

وإذ قد كان الكبر مثبتا حصوله في نفوسهم إثباتا مؤكّدا بقوله تعالى { إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ }، تعيَّن أنّ نَفْيَ بلوغهم الكبر منصرف إلى حالات الكبر:

فإمّا أن يراد نفي أهليتهم للكبر إذ هم أقل من أن يكون لهم الكبر، كقوله تعالى { لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ } [المنافقون:8]، أي: لا عزّة حقًّا لهم. فالمعنى هنا: كبر زيف.

وإمّا أن يراد نفي نوالهم شيئا من آثار كِبْرهم مثل تحقير الذين يتكبّرون عليهم. فالمعنى: ما هم ببالغين مرادهم الذي يأملونه منك في نفوسهم الدالة عليه أقوالهم، مثل قولهم {نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ} [الطور:30]، وقولهم { لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ } [فصلت:26].

{ **فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** } لمَّا ضمِن الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أنّ الذين يجادلونه فيما جاءهم به يحدوهم إلى الجدال كبرهم المنطوي على كيدهم، وأنّهم لا يبلغون ما أضمروه وما يُضمرونه، فُرّع على ذلك أن أَمَرَه بأن يجعل الله معاذه منهم. وحُذف المتعلَّق لقصد تعميم الاستعاذة من كلّ ما يُخاف منه.

{ **إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** } تعليل للأمر بالدوام على الاستعاذة، أي: لأنّه المطّلع على أقوالهم وأعمالهم

وأنت لا تحيط علما بتصاريف مكرهم وكيدهم.

والتوكيد بحرف (إن)، والحصر بضمير الفصل (هو) مراعى فيه التعريض بالمتحدّث عنهم، وهم الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان.

{ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } [57].

مناسبة اتصال هذا الكلام بما قبله أنّ أهمّ ما جادلوا فيه من آيات الله هي الآيات المثبتة للبعث، وجدالهم في إثبات البعث هو أكبر شبهة لهم ضلّلت أنفسهم وروّجوها في عامتهم فقالوا { أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ} [الرعد:5]. فكانوا يسخرون من النبيّ صلى الله عليه وسلم لأجل ذلك { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ } [سبأ:8/7].

ولمّا كانوا مقرّين بأنّ الله هو خالق السماوات والأرض، أقيمت عليهم الحجّة على إثبات البعث بأنّ بعث الأموات لا يبلغ أمره خلق السماوات والأرض بالنسبة إلى قدرة الله تعالى.

والكلام مؤذن بقَسَم مقدّر لأنّ اللام لام جواب القَسَم، والمقصود: تأكيد الخبر.

{ **أَكْبَرُ** } أي: أنّه أعظم وأهم وأكثر متعلّقات القدرة، فالقادر عليه لا يعجز عن خلق ناس يبعثهم للحساب.

{ **مِنْ خَلْقِ النَّاسِ** } المراد بالناس هنا الذين يعيد الله خلقتهم كما بدأهم أوّل مرة ويودع فيهم أرواحهم كما أودعها فيهم أوّل مرة.

والخبر مستعمل في غير معناه لأنّ كون خلقها أكبر هو أمر معلوم وإنّما أريد التذكير والتنبيه عليه لعدم جريهم على موجب علمهم به.

{ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** } موقع الاستدراك ما اقتضاه التوكيد بالقسَم من اتضاح أنّ خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس. والمراد بـ { أَكْثَرَ النَّاسِ } الذين يجادلون في آيات البعث وهم المشركون.

<u>فالمعنى</u>: أنّ حجّة إمكان البعث واضحة ولكن الذين ينكرونها لا يعلمون الدليل لأنّهم متلاهون عن النظر في الأدلة مقتنعون ببادئ الخواطر التي تبدو لهم فيتّخذونها عقيدة دون بحث عن معارضها، فلمّا جروا على حالة انتقاء العلم نزلوا منزلة من لا علم لهم، فلذلك نزل فعل { يَعْلَمُونَ } منزلة اللازم ولم يذكر له مفعول.

{ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ} [58].

لمّا نزّلهم منزلة من لا يعلم ضرب مثلًا لهم وللمؤمنين، فمثل الذين يجادلون في أمر البعث مع وضوح

إمكانه مثل الأعمى، ومثل المؤمنين الذين آمنوا به حال البصير. والمعنى: لا يستوي الذين اهتدوا والذين هم في ضلال، فإطلاق الأعمى والبصير استعارة للفريقين اللذين تضمّنهما قوله { وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ }

{ **وَمَا يَسْتَوِي** } نفيُ الاستواء بينهما يقتضي تفضيل أحدهما على الآخر كما قدّمنا في قوله تعالى { لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } [النساء:95]، ونفي الاستواء بدون متعلّق يقتضي العموم في متعلّقاته، لكنّه يخص بالمتعلّقات التي يدل عليها سياق الكلام وهي آيات الله ودلائل صفاته، ويُسمَّى مثل هذا العموم العموم العرفي. وتقدم نظيرها في [فاطر:19].

{ **الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ** } قدّم ذكر الأعمى على ذكر البصير مع أنّ البصر أشرف من العمى، والمشبَّه بالبصير أشرف من المشبَّه بالأعمى، إذ المشبه بالبصير المؤمنون، وذلك مراعاة لكون الأهم في المقام بيان حال الذين يجادلون في الآيات، إذ هم المقصود بالموعظة.

{ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلا الْمُسِيءُ** } زيادة بيان لفضيلة أهل الإيمان بذكر فضيلتهم في أعمالهم بعد ذكر فضلهم في إدراك أدلة إمكان البعث ونحوه من أدلة الإيمان.

ورُتِّب هنا ذكر الفريقين على عكس ترتيبه في التشبيه بالأعمى والبصير اهتماما بشرف المؤمنين.

{ **قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ** } حال من { أَكْثَرَ النَّاسِ }، و{ مَا } مصدرية، وهي في محل رفع على الفاعلية. وهذا مؤكِّد لمعنى قوله تعالى { وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } لأنّ قلة التذكّر تؤول إلى عدم العلم، والقلّة هنا كناية عن العدم وهو استعمال كثير، كقوله تعالى { فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ } [البقرة:88]، ويجوز أن تكون على صريح معناها ويكون المراد بالقلة عدم التمام، أي: لا يعلمون فإذا تذكّروا تذكَّروا تذكُّرا لا يتمِّمونه فينقطعون في أثنائه، فهو كالعدم في عدم ترتُّب أثره عليه.

{ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ } [59].

لمّا أُعطي إثبات البعث ما يحقّ من الحجاج والاستدلال، تهيّأ المقام لاستخلاص تحقيقه كما تُستخلص النتيجة من القياس، فأعلن بتحقيق مجيء { السَّاعَةَ } وهي ساعة البعث، إذ { **السَّاعَةَ** } في اصطلاح الإسلام عَلَم بالغلبة على ساعة البعث، فالساعة والبعث مترادفان في المآل. فكأنّه قيل: إن الذي جادل فيه المجادلون سيقع لا محالة إذ انكشفت عنه شبه الضالين وتمويهاتهم فصار بيّنا لا ريب فيه.

{ **إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ** } تأكيد الخبر بـ (إنّ) و(لام الابتداء) لزيادة التحقيق، وللإشارة إلى أنّ الخبر تحقَّق بالأدلة السابقة. وذلك أنّ الكلام موجَّه للذين أنكروا البعث، ولهذا لم يؤت بـ (لام الابتداء) في قوله تعالى { إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ } [طه:15]، لأنّ الخطاب لموسى عليه السلام.

{ **لَآتِيَةٌ** } جيء باسم الفاعل، الذي هو حقيقة في الحال، للإيماء إلى أنّها لمَّا تحقَّقت فقد صارت كالشيء الحاضر المشاهد. والمراد تحقيق وقوعها لا الإخبار عن وقوعها.

{ **لا رَيْبَ فِيهَا** } مؤكِّدة للجملة السابقة، ونُفي الريب عن نفس الساعة. ومعنى نفي الريب في وقوعها: أنّ دلائلها واضحة بحيث لا يعتدّ بريب المرتابين فيها لأنّهم ارتابوا فيها لعدم الرويَّة والتفكُّر، وهذا قريب من قوله تعالى { ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ } [البقرة:2].

{ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ** } موقع الاستدراك هو ما يثيره نفي الريب عن وقوعها من أن يتساءل متسائل كيف يُنفى الريب عنها والريب حاصل لكثير من الناس، فكان الاستدراك جوابا لذلك السؤال.

والمعنى: ولكن أكثر الناس يمرون بالأدلة والآيات وهم معرضون عن دلالتها فيبقون غير مؤمنين بمدلولاتها ولو تأمَّلوا واستنبطوا بعقولهم لظهر لهم من الأدلة ما يؤمنون بعده، فلذلك نُفي عنهم هنا وصف الإيمان.

{ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**} [60].

لمّا كانت المجادلة في آيات الله تشمل مجادلتهم في وحدانية الإلهية، وتشمل المجادلة في وقوع البعث، أعقب ذكر المجادلة أوّلا بقوله تعالى { لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ } [57]، وذلك استدلال على إمكان البعث، ثمّ عُطف عليه قوله تعالى { وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ } تحذيرا من الإشراك به.

وأيضا لما ذُكر أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بدعاء الله وحده أمرا مفرَّعا على توبيخ المشركين بقوله تعالى { وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ } [18]، وتتابعت الأغراض حتّى استوفت مقتضاها، عاد الكلام الآن إلى ما يشمل عبادة المؤمنين الخالصة لله تعالى.

فلمّا تقدّم ذكر الدعاء بمعنييه: معنى العبادة، ومعنى سؤال المطلوب، أردف بهذا الأمر الجامع لكلا المعنيين.

الدعاء: يطلق بمعنى النداء المستلزم للاعتراف بالمنادى، ويطلق على الطلب.

وقد جاء من كلام النبيّ صلى الله عليه وسلم ما فيه صلاحية معنى الدعاء الذي في هذه الآية بما يلائم المعنيين، في حديث النعمان بن بشير قال: " سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول: " **الدعاء هو العبادة** "، ثم قرأ: { وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ } [رواه الترمذي وقال: حسن صحيح].

فالدعاء يطلق على سؤال العبد من الله حاجته وهو معناه في اللغة، ويطلق على عبادة الله على طريق الكناية، لأنّ العبادة لا تخلو من دعاء المعبود بنداء تعظيمه والتضرّع إليه.

الاستجابة: تطلق على إعطاء المسؤول لمن سأله، وهو أشهر إطلاقها. وتطلق على أثر قبول العبادة بمغفرة الشرك السابق وبحصول الثواب على أعمال الإيمان.

فلمّا جمعت الآية بين الفعلين علمنا أنّ في المعنى المراد ما يشبه الاحتباك بأن صرّح بالمعنى المشهور في كلا الفعلين ثمّ أعقب بقوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي }، فعلمنا أنّ المراد الدعاء والعبادة، وأنّ الاستجابة أريد بها قبول الدعاء وحصول أثر العبادة، والقرينة ما علمت، وذلك من الإيجاز والكلام الجامع.

{ **رَبُّكُمُ** } تعريف الله بوصف الربّ مضافا إلى ضمير المخاطبين لما في هذا الوصف وإضافته من الإيماء إلى وجوب امتثال أمره، لأنّ من حق الربوبية امتثال ما يأمر به موصوفها، لأنّ المربوب محقوق بالطاعة لربِّه، ولهذا لم يعرّج مع هذا الوصف على تذكير بنعمته ولا إشارة إلى كمالات ذاته.

{ **إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ** } تعليل للأمر بالدعاء تعليلا يفيد التحذير من إباية دعاء الله. ومعنى التعليل للأمر بالدعاء بهذا التحذير: أنّ الله لا يحب لعباده ما يفضي بهم إلى العذاب، قال تعالى {وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ } [الزمر:7]، ففي الآية دليل على طلب الله من عباده أن يدعوه في حاجاتهم. ومشروعية الدعاء لا خلاف فيها بين المسلمين.

{ **داخرين** } حال من ضمير { سَيَدْخُلُونَ }، أي: أذلة. **دَخَر**: صغر وذلّ، وتقدّم قوله تعالى { سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ } [النحل:48].

{ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ } [61].

يجوز أن يكون اسم الجلالة بدلا من { رَبُّكُمُ } [60]، ليُقضى بذلك حقّان: حقّ استحقاقه أن يُطاع بمقتضى الربوبية والعبودية، وحقّ استحقاقه الطاعة لصفات كماله التي يجمعها اسم الذات. ولذلك لم يؤت مع وصف الربّ المتقدّم بشيء من ذكر نعمه وإفضاله، ثم وُصف الاسم بالموصول وصلته إشارة إلى بعض صفاته، وإيماء إلى وجه الأمر بعبادته، وتكون الجملة استئنافا بيانيا ناشئا عن تقوية الأمر بدعائه.

ويجوز أن يكون اسم الجلالة مبتدأ والموصول صفة له ويكون الخبر قوله { ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ } [62]، وتكون جملة { إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ } معترضة. أو أن يكون اسم الجلالة مبتدأ والموصول خبرا.

واعتبار الجملة مستأنفة أحسن من اعتبار اسم الجلالة بدلا لأنّه انسب بالتوقيف على سوء شكرهم.

وعلى هذه الاعتبارات كلّها فقد سجلت هذه الآية على الناس تقسيمهم إلى: شاكر نعمة، وكفورها، كما سجلت عليهم الآية السابقة تقسيمهم إلى: مؤمن بوحدانية الله، وكافر بها.

وهذه الآية للتذكير بنعمة الله تعالى على الخلق كما اقتضاه لام التعليل في قوله { لَكُمُ }، واقتضاه التذييل بقوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ }. وأدمج في التذكير بالنعمة استدلال على انفراده تعالى بالتصرّف بالخلق، والتدبير الذي هو ملازم حقيقة الإلهية.

{ **اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا** } ابتُدئ الاستدلال بدلائل الأكوان العلوية وآثارها الواصلة إلى الأكوان السفلية، وهي مظهر النعمة بالليل والنهار، فهما تكوينان عظيمان دالّان على عظيم قدرة مكوّنهما ومنظّمهما وجاعلهما متعاقبين.

{ **اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا** } للتنويه بشأن إبصار الناس في الضياء وكثرة الفوائد الحاصلة لهم، لذلك أسند الإبصار إلى النهار، على طريقة المجاز العقلي، لقوّة الملابسة بين الأفعال وزمانها. وأمّا نعمة السكون في الليل فهي نعمة واحدة هي رجوع النشاط. فهذا من بديع الإيجاز مع ما فيه من تفنن أسلوبي الحقيقة والمجاز العقلي.

وتقدّم الكلام على الليل والنهار عند قوله تعالى { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} [البقرة:164]، وفي مواضع أخرى.

{ **إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ** } اعتراض هو كالتذييل للجملة السابقة، لأنّ الفضل يشمل جعل الليل والنهار وغير ذلك من النعم، ولأنّ { النَّاسِ } يعمّ المخاطبين بقوله تعالى { جَعَلَ لَكُمُ } وغيرهم من النّاس.

{ **فَضْلٍ** } التنكير للتعظيم، لأنّ نعم الله تعالى عظيمة جليلة.

{ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ** } الاستدراك ناشئ عن لازم { ذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ }، لأنّ الشأن أن يشكر الناس ربّهم على فضله، فكان أكثرهم كافرا بنعمه، وأيّ كفر للنعمة أعظم من أن يتركوا عبادة خالقهم المتفضّل عليهم ويعبدوا ما لا يملك لهم نفعا ولا ضرا.

{ **ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ** } [62].

اتصل الكلام على دلائل التفرّد بالإلهية من قوله تعالى { ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ - إلى قوله - مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } [62-65]، اتصال الأدلة بالمستدلّ عليه.

{ **ذَلِكُمُ** } الإشارة إلى اسم الجلالة في قوله تعالى { اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ } [61]. وعدل عن الضمير إلى اسم الإشارة لإفادة أنّه تعالى معلوم متميّز بأفعاله المنفرد بها، بحيث إذا ذُكرت أفعاله تميّز عمّا سواه فصار كالمشاهد المشار إليه، أي: ذلكم ربكم لا غيره. وفي اسم الإشارة تعريض بغباوة المخاطبين الذين التبست عليهم حقيقة إلهيته.

{ **اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ** } أخبار أربعة عن اسم الإشارة، ابتُدئ فيها بالاسم الجامع لصفات الإلهية إجمالا، وأردف بـ { رَبُّكُمْ }، أي: الذي دبّر خلق الناس وهيّأ لهم وخلق ما به قوام حياتهم، وأردف بنفي الإلهية عن غيره، فجاءت مضامين هذه الأخبار الأربعة مترتبة بطريقة الترقِّي، وكان رابعها نتيجة لها. { **فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ** } استفهام تعجيبي من انصرافهم عن عبادته إلى جانب عبادة غيره مع وضوح فساد إعراضهم عن عبادته.

{ **أَنَّى** } اسم استفهام عن كيفية، وأصله استفهام عن المكان.

{ **تُؤْفَكُونَ** } تصرفون، وتقدّم في قوله تعالى { قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ } [التوبة:30]، وبناؤه للمجهول لإجمال سبب إعراضهم، الذي سيبين بحاصل الجملة بعده.

{ **كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ** } [63].

هذه الجملة معترضة بمنزلة التعليل لمضمون الجملة التي قبلها، وهو التعجيب من انصرافهم عن عبادة ربّهم خالقهم وخالق كل شيء، فإنّ في تعليل ذلك ما يبيّن سبب التعجيب.

{ **كَذَلِكَ يُؤْفَكُ** } الإشارة إلى الإفك المأخوذ من فعل { فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ } [62]، أي: مثل إفككم ذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون.

{ **الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ** } يجوز أن يكون المراد بهم المخاطبين بقوله { ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ } [62]، ويكون الموصول وصلته إظهارا في مقام الإضمار، والمعنى: كذلك تؤفكون، أي: مثل أفككم تؤفكون. ويكون التشبيه مبالغة في أنّ إفكهم بلغ في كنه الإفك النهاية، وبذلك تكون صلة الموصول إيماء إلى علّة إفكهم تعليلا صريحا.

ويجوز أن يكون المراد بهم كلّ من جحد بآيات الله من مشركي العرب ومن غيرهم من المشركين والمكذّبين فيصير التعليل المومئ إليه بالصلة تعليلا تعريضيا، لأنّه إذا كان الإفك شأن الذين يجحدون بآيات الله كلّهم فقد شمل ذلك هؤلاء بحكم المماثلة.

{ **كَانُوا** } ذكر فعل الكون للدلالة على أنّ الجحد بآيات الله شأنهم وديدنهم.

{ **يَجْحَدُونَ** } صيغة المضارع لاستحضار الحالة.

وهذا أصل عظيم في الأخلاق العلمية، فإنّ العقول التي تتخلّق بالإنكار والمكابرة قبل التأمّل في المعلومات، ولا تميّز بين الصحيح والفاسد تُصرف عن انكشاف الحقائق العلمية، فتختلط عليها المعلومات.

{ **اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** } [64].

الجملة استئناف ثان لم تعطف على التي قبلها لأنّ المقام مقام تعداد دلائل انفراده تعالى بالتصرّف وبالإنعام عليهم حتّى يفتضح خطلهم في الإشراك به وكفران نعمه، فذكّرهم في الآية السابقة بآثار قدرته في إيجاد الأعراض القائمة بجواهر هذا العالم، وهما عرضا الظلمة والنور، وذكّرهم في هذه الآية بآثار خلق الجواهر في هذا العالم على كيفيات هي نعمة لهم، وفي خلق أنفسهم على صور صالحة بهم.

{ **اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً** } لمّا كان المقصود الأوّل من هذه الآية الامتنان، كما دلّ عليه قوله { لَكُمُ }، قُدِّمت الأرض على السماء لأنّ الانتفاع بها محسوس، وذُكرت السماء بعدها كما يستحضر الشيء بضدّه، مع قصد إيداع دلائل علم الهيئة لمن فيهم استعداد للنظر فيها.

القرار: أصله مصدر **قرَّ**: إذا سكن. وهو هنا من صفات الأرض لأنّه في حكم الخبر عن الأرض.

فالمعنى يحتمل: أنّه جعلها قارة غير مائدة ولا مضطربة. وهذا في معنى قوله تعالى { وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ } [الأنبياء:31].

ويحتمل أنّ المعنى: جعل الأرض ذات قرار لكم، أي: جعلها مستقرًّا لكم، كقوله تعالى { وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ } [المؤمنون: 50]. أي: خلق الأرض على كيفية تلائم الاستقرار عليها بأن جعلها يابسة.

البناء: ما يُرفع على الأرض للاتقاء من الحر والبرد والمطر والدواب. ووصف السماء بالبناء جار على طريقة التشبيه البليغ، وتقدّم عند قوله تعالى { الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً } [البقرة:22].

{ **وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ** } أعقب تذكير الإنسان بما مهَّد له من خلق الأرض والسماء، بالتذكير بأنّه خلقه مستوفيا مصلحته وراحته.

{ **وَصَوَّرَكُمْ** } عُبّر عن هذا الخلق بهذا الفعل لأنّ التصوير خلق على صورة تُشعر بالعناية. فلذلك عدل في جانب خلق الإنسان عن فعل (الجعل) إلى فعل التصوير، فهو كقوله تعالى { الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ } [الانفطار:8/7].

{ **فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ** } ثم صرّح بما اقتضاه فعل التصوير من الإتقان والتحسين.

{ **وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ** } منَّة أخرى فيها عبرة، أي: خلقكم في أحسن صورة ثم أمدّكم بأحسن رزق، فجمع لكم بين الإيجاد والإمداد.

{ **ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ** } موقعه كموقع نظيره المتقدّم آنفا. وإعادة هذا تكريرٌ للتوقيف على خطل رأيهم في عبادة غيره على طريقة التعريض، بقرينة ما تقدّم في نظيره من قوله تعالى { لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ } [62]، وقرينة قوله هنا { لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } [65].

{ **فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** } فُرِّع على ما ذُكر من بدائع صنعه وجزيل مَنِّه، أن أنشئ الثناء عليه بما يفيد اتصافه بعظيم صفات الكمال.

{ **تَبَارَكَ** } صيغة مفاعلة مستعملة مجازا في قوّة ما اشتق منه الفعل. وهو مشتقّ من اسم جامد وهو البركة. **البركة**: اسم يدلّ على تزايد الخير.

{ **اللَّهُ** } إظهار اسم الجلالة دون الإتيان بضمير مع تقدّم اسمه، لتكون الجملة كلمة ثناء مستقلّة.

{ **رَبُّ الْعَالَمِينَ** } خالق أجناس العقلاء من الناس والملائكة والجن. وهذا الوصف من تمام الإنشاء، لأنّ في ذكر ربوبيته للعالمين، وهم أشرف أجناس الموجودات، استحضار لما أفاضه عليهم من خيرات

الإيجاد والإمداد.

{ **هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** } [65].

استئناف ثالث للارتقاء في إثبات إلهيته الحقّ بإثبات ما يناسبها، وهو الحياة الكاملة.

{ **هُوَ الْحَيُّ** } هذه الجملة مقدِّمة لجملة { لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ } فهي إثبات الحياة الواجبة لذاته، فإنّ الذي هو ربّ العالمين وأوجدهم على أكمل الأحوال وأمدَّهم بما به قوامهم على ممر الأزمان، لا جرم أنّه موصوف بالحياة الحقّ، لأنّ مدبِّر المخلوقات على طول العصور يجب أن يكون موصوفا بالحياة.

إذ الحياة (مع ما عرض من عسر في تعريفها عند الحكماء والمتكلمين) هي صفة وجودية تصحِّح لمن قامت به الإدراك والإرادة والفعل، وتقدّم الكلام عليها عند قوله تعالى { وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ } [البقرة:28].

فإن كان اتصاف موصوفها بها مسبوقا بعدم فهي **حياة ممكنة عارضة** مثل حياة الملائكة وحياة الأرواح وحياة الإنسان وحياة الحيوان، فتكون متفاوتة في موصوفاتها بتفاوت قوّتها فيها، ومتفاوتة في موصوفها الواحد بتفاوت أزمانها، مثل تفاوت حياة الشخص الواحد في وقت شبابه، وحياته في وقت هرمه، ومثل حياة الشخص وقت نشاطه وحياته وقت نومه، وبذلك التفاوت تصير إلى الخفوت ثم الزوال، ويظهر أثر تفاوتها في تفاوت آثارها من الإدراك والإرادة والفعل.

وإن كان اتصاف موصوفها بها أزليا غير مسبوق بعدم فهي **حياة واجب الوجود سبحانه** وهي حياة واجبة ذاتية. وهي الحياة الحقيقة لأنّها غير معرّضة للنقص ولا للزوال، فلذلك كان الحيّ حقيقة هو الله تعالى كما أنبأت عنه صيغة الحصر في قوله { هُوَ الْحَيُّ }، وهو قصر ادعائي لعدم الاعتداد بحياة ما سواه من الأحياء لأنّها عارضة ومعرضة للفناء والزوال.

{ **لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ** } موقع النتيجة من الدليل، لأنّ كل من سواه لا حياة له واجبة، فهو معرّض للزوال، فكيف يكون إلها مدبّرا للعالم؟

وجميع ما عُبد من دون الله هو بين ما لم يتصف بالحياة تماما كالأصنام من الحجارة أو الخشب أو المعادن، ومثل الكواكب الشمس والقمر والشجر، وبين ما اتصف بحياة عارضة كالملائكة وبعض البشر والحيوانات. قال تعالى { وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ } [النحل:21/20].

{ **فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** } بعد اتضاح الدلالة على انفراده تعالى بالإلهية فُرِّع عليه الأمر بعبادته وحده غير مشركين غيره في العبادة لنهوض انفراده باستحقاق أن يُعبد.

الدعاء: العبادة، لأنّها يلازمها السؤال والنداء، ولأنّ الدعاء عنوان انكسار النفس وخضوعها، كما تقدّم آنفا عند قوله تعالى { وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ } [60]، وكما في قوله الآتي { بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا

مِنْ قَبْلُ شَيْئًا } [74].

الإخلاص: الإفراد وتصفية الشيء ممّا ينافيه أو يفسده.

الدين: المعاملة. وأطلق على الطاعة، وهو المراد هنا، لأنّها أشد أنواع المعاملة بين المطيع والمطاع.

والمعنى: فإذ كان هو الحيّ دون الأصنام، وكان لا إله غيره، فاعبدوه غير مشركين معه غيره.

ويدخل في ماهية الإخلاص دخولا أوّليّا ترك الرياء في العبادة، لأنّ الرياء، وهو أن يقصد المتعبِّد من عبادته أن يراه الناس سواء كان قصدا مجرّدا أو مخلوطا مع قصد التقرّب إلى الله، كلّ ذلك لا يخلو من حصول حظ في تلك العبادة لغير الله، وإن لم يكن ذلك الحظ في جوهرها. روى الطبراني عن شدّاد بن أوس قال: " كنا نعدُّ الرياء على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرك الأصغر ".

{ **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** } إنشاء للثناء على الله كما هو شأن أمثالها في غالب مواقع استعمالها.

فيجوز أن تكون متصلة بفعل { فَادْعُوهُ } على تقدير قول محذوف، أي: قائلين: الحمد لله رب العالمين، أو قولوا: الحمد لله رب العالمين، وقرينة المحذوف هو أنّ مثل هذه الجملة ممَّا يجري على ألسنة الناس كثيرا فصارت كالمثل في إنشاء الثناء على الله. والمعنى: فاعبدوه بالعمل وبالثناء عليه وشكره.

ويجوز أن تكون كلاما مستأنفا أريد به إنشاء الثناء على الله من نفسه، تعليما للناس كيف يحمدونه، كما تقدّم في وجوه نظيرها في سورة الفاتحة. أو جاريا على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم على نحو قوله تعالى { فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [الأنعام:45].

وعندي: أنّه يجوز أن يكون { الْحَمْدُ } مصدرا جيء به بدلا من فعله على معنى الأمر، أي: أحمدوا الله رب العالمين. وعدل به عن النصب إلى الرفع لقصد الدلالة على الدوام والثبات، كما تقدّم في الفاتحة.

وفصل الجملة عن الكلام الذي قبلها أسعد بالاحتمالين الأول والرابع.

{ **قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** } [66].

جملة معترضة بين أدلّة الوحدانية بدلالة الآيات الكونية والنفسية ليجروا على مقتضاها في أنفسهم. حيث انتقل هنا إلى تقرير دليل الوحدانية بخبر الوحي الإلهي بإبطال عبادة غير الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، ليعمل بذلك في نفسه ويبلّغ ذلك إليهم فيعلموا أنّه حُكْم الله فيهم، وأنّهم لا عذر لهم في الغفلة عنها، بعد أن جاءهم رسول من الله يُبيّن لهم أنواعا من الأدلة بمختلف البيان، من أدلة برهانية وتقريبية إقناعية. وأنّ هذا الرسول صلى الله عليه وسلم إنّما يدعوهم إلى ما يريده لنفسه، فهو ممحِّض لهم النصيحة، وهاديهم إلى الحجّة، لتتظاهر الأدلة النظرية بأدلة الأمر الإلهي، بحيث يقوى إبطال مذهبهم في الشرك.

فالآية إبطال لعبادة غير الله بالقول الدال على التحذير والتخويف بعد أن أبطل ذلك بدلالة الحجّة على

المقصود. وهذه دلالة كنائية، لأنّ النهي يستلزم التحذير.
{ **إِنِّي نُهِيتُ** } تقديم المسند إليه وهو ضمير { إني } على الخبر الفعلي لتقوية الحكم. وتخصيص ذاته بهذا النهي تعريض بنهي المشركين، فإنّ الأمر بأن يقول ذلك لم يقصد منه إلّا التبليغ لهم، وإلّا فلا فائدة لهم في الإخبار بأنّ الرسول عليه الصلاة والسلام منهي عن أن يعبد الذين يدعونه من دون الله.
فالرسول صلى اله عليه وسلم من حين نشأته لم يسجد لصنم قط وكان ذلك مصرفة من الله تعالى إيّاه عن ذلك إلهاما إلهيا إرهاصا لنبوّته.
{ **الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ** } يجوز أن يكون على ظاهر الدعاء، وهو القول الذي تُسأل به حاجة، ويجوز أن يكون بمعنى تعبدون، كما تقدّم في قوله تعالى { وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُم } [60].
فيكون العدول عن أن يقول: أن اعبد الذين تعبدون، تفنّنا.
والمعني: فإذا كنت أنا منهيًّا عن ذلك فتأمّلوا في شأنكم واستعملوا أنظاركم فيه، ليسوقهم إلى النظر في الأدلة سوقا ليّنا خفيّا لاتّباعه فيما نهى عنه، كما جاء ذلك صريحا لا تعريضا في قول إبراهيم عليه السلام لأبيه { يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا } [مريم:44/43].
{ **لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي** } ذكر مجيء البينات في أثناء هذا الخبر إشارة إلى طرق أخرى من الأدلة على تفرّد الله بالإلهية تكرَّرت قبل نزول هذه الآية.
{ **لمّا** } حرف أو ظرف على خلاف بينهم، توقيت لنهيه عن عبادة غير الله بوقت مجيء البيّنات، أي: بيّنات الوحي، وهو يقتضي أنّ النهي لم يكن قبل وقت مجيء الوحي.
{ **مِنْ رَبِّي** } ابتدائية، وجعل المجرور (ربّ) مضافا إلى ضمير المتكلم دون أن يجعله ضميرا يعود على اسم الجلالة إظهارا في مقام الإضمار لتربية المهابة في نفوس المعرَّض بهم ليعلموا أنّ هذا النهي ومجيء البينات هو من جانب ربّه وربّهم فما يسعهم إلّا أن يطيعوه، ولذلك عزّزه بإضافة الرب إلى الجميع في قوله تعالى { **وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** }.
الإسلام: الانقياد بالقول والعمل، وفعله متعدٍّ، وكثر حذف مفعوله فنزل منزلة اللازم، فأصله: أسلم نفسه أو وجهه، كما صرّح به في نحو قوله تعالى { فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ } [آل عمران:20]، ومن استعماله كاللازم قوله تعالى { إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ } [البقرة:131]، وكذلك هو هنا.

{ **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمّىً وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** } [67].
استئناف رابع بعد استئناف جملة { هُوَ الْحَيُّ } [65]، وما تفرَّع عليها، وكلّها ناشئ بعضه عن بعض.

وهذا امتنان بنعمة الإيجاد، وهو نعمة لأنّ الموجود شرف والمعدوم لا عناية به. وأدمج فيه الاستدلال على الإبداع. وتقدّم الكلام على أطوار خلق الإنسان في [الحج:5]، وعلى بعضه في [فاطر:11].

الطفل: اسم يصدق على الواحد والاثنين والجمع، للمذكّر والمؤنّث، قال تعالى { أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ } [النور:31]، وقد يطابق فيقال: طفل وطفلان وأطفال.

{ **ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا** } اللّامات وما عطف عليه بـ (ثمّ) متعلّقات بمحذوف تقديره: ثمّ يبقيكم، أو ثمّ ينشئكم لتبلغوا أشدّكم، وهي (لامات التعليل) مستعملة في معنى (إلى)، لأنّ الغاية المقدّرة من الله تشبه العلّة فيما يفضي إليها، وتقدّم نظيره في [الحج:5].

الأشُد: القوّة في البدن، وهو ما بين ثمان عشرة إلى الثلاثين، وتقدّم في [يوسف:22].

{ **شُيُوخًا** } جمع شيخ، وهو من بلغ سن الخمسين إلى الثمانين، وتقدّم عند قوله تعالى { وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا} [هود:72]. ويجوز في (شُيوخ) ضم الشين، وبه قرأ نافع وأبو عمر وحفص عن عاصم وأبو جعفر ويعقوب وخلف، ويجوز كسر الشين، وبه قرأ ابن كثير وحمزة، والكسائي.

{ **وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ** } للذين يهلكون قبل أن يبلغوا تلك الأطوار، أي: يتوفّى قبل أن يخرج طفلا، وهو السقط، أو قبل أن يبلغ الأشد، أو يتوفّى قبل أن يكون شيخا.

ولتعلّقه بما يليه خاصة عُطف عليه بالواو ولم يعطف بـ { ثمّ } كما عطفت المجرورات الأخرى.

{ **قَبْلُ** } بُني على الضم على نية معنى المضاف إليه، أي: من قبل ما ذكر.

{ **وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمّى** } عطف على { لِتَكُونُوا شُيُوخًا }، أي: للشيخوخة غاية، وهي الموت، فلا طور بعد الشيخوخة.

{ **وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** } أي: أنّ من جملة ما أراده الله من خلق الإنسان على الحالة المبيَّنة، أن تكون في تلك الخلقة دلالة لآحاده على وجود هذا الخالق، وعلى انفراده بالإلهية، وعلى أنّ ما عداه لا يستحق وصف الإلهية، فمن عقل ذلك من الناس فقد اهتدى إلى ما أريد منه، ومن لم يعقل ذلك فهو بمنزلة عديم العقل. ولأجل هذه النكتة لم يؤت لفعل { تَعْقِلُونَ } بمفعول ولا بمجرور لأنّه نزل منزلة اللازم، أي: رجاء أن يكون لكم عقول.

{ **هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** } [68].

استئناف خامس، ومناسبة موقعه من قوله { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ - إلى قوله - وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } [67]، أنّ من أوّل ما يُرجى أن يعقلوه هو ذلك التصرّف البديع بخلق الحياة في الإنسان عند تكوينه بعد أن كان جثّة لا حياة فيها، وخلق الموت فيه عند انتهاء أجله بعد أن كان حيًّا متصرّفا بقوته وتدبيره.

{ **يُحْيِي وَيُمِيتُ** } طباق، وهو من المحسِّن البديعي. و{ يُحْيِي } يوجد المخلوق حيا، و{ يُمِيتُ } أنّه يعدم الحياة عن الذي كان حيا، وهذا هو محلّ العبرة.

والمقصود: الامتنان بالحياة تبعا لقوله { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ - إلى قوله - ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا } [67].

{ **فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** } تفريع. إخبار بأنّه إذا أراد أمرا من أمور التكوين من إحياء أو إماتة أو غيرهما فإنّه يقدر على فعله دون تردّد ولا معالجة، بل بمجرد تعلّق قدرته بالمقدور، وذلك التعلّق هو توجيه قدرته للإيجاد أو الإعدام.

{ **كُنْ** } تمثيل لتعلّق القدرة بالمقدور بلا تأخير ولا معاناة وعلاج بحال من يريد إذن غيره بعمل فلا يزيد على أن يوجِّه إليه أمرا، فإنّ صدور القول عن القائل أسرع أعمال الإنسان وأيسر، وقد اختير لتقريب ذلك أخصر فعل وهو { كُنْ } المركَّب من حرفين متحرك وساكن.

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ [69] الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ [70] إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ [71] فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ [72] }.

بُنيت هذه السورة على إبطال جدل الذين يجادلون في آيات الله جدال التكذيب والتورّك، كما تقدّم في أوّل السورة، وتكرّر ذلك أربع مرات فيها، فنبّه على إبطال جدالهم في مناسبات الإبطال كلّها، إذ ابتدئ بإبطاله على الإجمال عقب الآيات الثلاث من أوّلها:

بقوله تعالى { مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا } [4].

ثم بقوله تعالى { الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ} [35].

ثم بقوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ } [56].

ثم بقوله تعالى { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ } [69].

وذلك كلّه إيماء إلى أنّ الباعث لهم على المجادلة في آيات الله هو ما اشتمل عليه القرآن من إبطال الشرك فلذلك أعقب كل طريقة من طرائق إبطال شركهم بالإنحاء على جدالهم في آيات الله.

{ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ** } مستأنفة للتعجيب من حال انصرافهم عن التصديق بعد تلك الدلائل البيّنة. والاستفهام مستعمل في التقرير وهو منفي لفظا، والمراد به: التقرير على الإثبات، كما تقدّم غير مرة، منها عند قوله تعالى { قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ } [البقرة:260].

الرؤية: علمية، وفعلها معلّق عن العمل بالاستفهام بـ { أَنَّى يُصْرَفُونَ }.

{ **أَنَّى** } بمعنى (كيف)، وهي مستعملة في التعجيب مثل قوله تعالى {أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ} [آل عمران:47]. أي: أرأيت عجيب انصرافهم عن التصديق بالقرآن بصارف غير بيّن منشؤه، ولذلك بُني فعل { يُصْرَفُونَ } للنائب لأنّ سبب صرفهم عن الآيات ليس غير أنفسهم.

{ **الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ** } بدل من { الَّذِينَ يُجَادِلُونَ }، لأنّ صلتي الموصولين صادقتان على شيء واحد، فالتكذيب هو ما صدق للجدال. و**الكتاب**: القرآن.

{ **وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا** } يجوز أن يكون العطف مقتضيا المغايرة، فيكون المراد: وبما أرسلنا به رسلنا من الكتب قبل نزول القرآن، فيكون تكذيبهم ما أرسلت به الرسل مرادا به تكذيبهم جميع الأديان. ويحتمل أنّه أريد به التكذيب بالبعث، فلعلّهم لمّا جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم بإثبات البعث سألوا عنه أهل الكتاب فأثبتوه فأنكر المشركون جميع الشرائع لذلك.

ويجوز أن يكون عطف مرادف فائدته التوكيد، والمراد بـ { رُسُلَنَا } محمد صلى الله عليه وسلم. على أنّ في العطف فائدة زائدة على ما في المعطوف عليه وهي أنّ ممّا جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم مواعظ وإرشاد كثيرا ليس في القرآن.

{ **فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** } تفرّع على تكذيبهم وعيدهم بما سيلقونه يوم القيامة. أي: سوف يجدون العذاب الذي كانوا يجادلون فيه فيعلمونه. وعُبِّر عن وجدانهم العذاب بالعلم به بمناسبة استمرارهم على جهلهم بالبعث وتظاهرهم بعدم فهم ما يقوله الرسول صلى الله عليه وسلم، فأنذروا بأنّ ما جهلوه سيتحقّقونه يومئذ.

وحُذف مفعول { يَعْلَمُونَ } لدلالة { كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ } عليه، أي: يتحقّقون ما كذّبوا به.

{ **إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ** } الظرف متعلّق بـ { يَعْلَمُونَ }، أي: يعلمون في ذلك الزمن.

وشأن (إذ) أن تكون اسما للزمن الماضي واستعملت هنا للزمن المستقبل بقرينة (سوف)، فهو إمّا استعمال المجاز بعلاقة الإطلاق، وإمّا استعارة تبعية للزمن المستقبل المحقَّق الوقوع تشبيها بالزمن الماضي.

وأوّل ما يعلمونه حين تكون الأغلال في أعناقهم وقوع البعث.

الأغلال: جمع **غُلٌّ** (بضم العين)، وهو حلقة من قِدٍّ أو حديد تحيط بالعنق تناط بها سلسلة من حديد، أو سير من قِدٍّ يُمسَك بها المجرم والأسير.

السلاسل: جمع سِلسِلة (بكسر السينين) وهي مجموع حلق غليظة من حديد متصل بعضها ببعض.

سئل الشيخ ابن عرفة: هل يمكن أن تكون هذه الآية سندا لما يفعله أمراء المغرب من وضع الجناة بالأغلال والسلاسل جريا على حكم القياس على فعل الله في العقوبات؟ فأجاب بالمنع لأنّ وضع الغل في العنق ضرب من التمثيل وإنّما يوثق الجاني من يده، قال: " ولا يقاس على تصرّفه في الآخرة لنهي النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الإحراق بالنار، وقوله: " **إنّما يعذّب بها ربّ العزة** ".

{ **يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ** } حال من ضمير { أعناقهم } أو من ضمير { يَعْلَمُونَ } .

السحب: الجرُّ، وهو يجمع بين الإيلام والإهانة.

الحميم: أشدّ الحر.

{ **ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ** } وشأن (ثمّ) إذا عطفت الجمل أن تكون للتراخي الرتبي وذلك أنّ احتراقهم

بالنار أشدّ في تعذيبهم من سحبهم على النار، فهو ارتقاء في وصف التعذيب الذي أجمل بقوله تعالى { فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ }.

السجر: ملء التنور بالوقود لتقوية النار فيه، فإسناد الفعل إلى ضميرهم إسناد مجازي لأنّ الذي يسجر هو مكانهم من جهنم، فأريد بإسناد المسجور إليهم المبالغة في تعلّق السجر بهم، أو هو استعارة تبعية بتشبيههم بالتنور في استقرار النار بباطنهم، كما في قوله تعالى { يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ } [الحج:20].

{ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ [73] مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ [74] ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ [75] ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ [76] }.

{ **ثُمَّ** } للتراخي الرتبي، لأنّ هذا القول يقال لهم قبل دخول النار، بدليل أنّ ممّا وقع في آخر القول { ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ }، ودخول أبواب جهنم قبل السحب في حميمها والسجر في نارها.

وهذا القيل ارتقاء في تقريعهم وإعلان خطل آرائهم بين أهل المحشر، وهو أشدّ على النفس من ألم الجسم، ولأنّ هذا القول مقدّمة لتسليط العذاب عليهم لاشتماله على بيان سبب العذاب من عبادة الأصنام وازدهائهم في الأرض بكفرهم ومرحهم، وهو أيضا ارتقاء في وصف أحوالهم الدالة على نكالهم، إذ ارتقى من صفة جزائهم على إشراكهم، وهو شيء غير مستغرب ترتُّبه على الشرك، إلى وصف تحقيرهم آلهتهم التي كانوا يعبدونها، وذلك غريب من أحوالهم وأشدّ دلالة على بطلان إلهية أصنامهم، وهو المقصد المهمّ من القوارع التي سلطت عليهم في هذه السورة.

{ **قِيلَ لَهُمْ** } صيغة الماضي لأنّه محقّق الوقوع فكأنّه وقع ومضى. والقائل لهم: ناطق بإذن الله.

{ **أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ** } (أين) للاستفهام عن مكان الشيء مجهول المكان، والاستفهام هنا مستعمل في التنبيه على الغلط والفضيحة في الموقف، فإنّهم كانوا يزعمون أنّهم يعبدون الأصنام ليكونوا شفعاء لهم من غضب الله فلمّا حقّ عليهم العذاب فلم يجدوا شفعاء ذكّروا بما كانوا يزعمونه.

{ **قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا** } ابتدروا بالجواب قبل انتهاء المقالة طمعا في أن ينفعهم الاعتذار. فالجملة معترضة في أثناء القول الذي قيل لهم.

{ **ضَلُّوا** } هنا بمعنى غابوا، كقوله تعالى { أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ } [السجدة: 10]، أي: غُيِّبنا في التراب.

{ **بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا** } ثمّ علموا أنّ الأصنام لا تفيدهم. فأضربوا عن قولهم { ضَلُّوا عَنَّا }، أي: لم نكن في الدنيا ندعو شيئا يُغني عنا. فنفي دعاء شيء هنا راجع إلى نفي دعاء شيء يُعتدّ به، كما

تقول: حسبت أنّ فلانا شيء فإذا هو ليس بشيء، وفي الحديث: " سئل النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الكهّان فقال: " **ليسوا بشيء** "، أي ليسوا بشيء مُعتدّ به فيما يقصدهم الناس لأجله.

وذهب كثير من المفسّرين إلى أنّ قولهم إنكار لعبادة الأصنام بعد الاعتراف بها لاضطرابهم من الرعب، فيكون من نحو قوله تعالى { ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ } [الأنعام:23].

{ **كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ** } تذييل معترض بين أجزاء القول الذي يقال لهم. ومعنى الإشارة تعجيب من ضلالهم، أي: مثل ضلالهم ذلك يُضلّ الله الكافرين.

{ **الْكَافِرِينَ** } عموم الكافرين، فليس هذا من الإظهار في مقام الإضمار.

{ **ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُون** } تكملة القيل الذي يقال لهم.

{ **ذَلِكُمْ** } الإشارة إلى ما هم فيه من العذاب.

{ **بِمَا - بِمَا** } و(ما) في الموضعين مصدرية، أي: ذلكم مسبب على فرحكم ومرحكم اللذين كانا لكم في الدنيا.

الأرض: مطلقة على الدنيا.

الفرح: المسرّة ورضى الإنسان على أحواله، فهو انفعال نفساني.

المرح: ما يظهر على الفارح من الحركات في مشيه ونظره، فهو هيئة ظاهرية.

{ **بِغَيْرِ الْحَقِّ** } يتنازعه كل من { تَفْرَحُونَ } و{ تَمْرَحُونَ }، أي: تفرحون بما يسرُّكم من الباطل وتزدهون بالباطل. فمن آثار فرحهم بالباطل تطاولهم على الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن المرح بالباطل استهزاؤهم بالرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، قال تعالى { وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ } [المطففين31/30]. فالفرح كلّما جاء منهيا عنه في القرآن فالمراد به هذا الصنف منه، كقوله تعالى { إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ } [القصص:76]. لا كلّ فرح، فإنّ الله امتنّ على المؤمنين بالفرح في قوله { وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ } [الروم:5/4].

{ **تَفْرَحُونَ - تَمْرَحُونَ** } جناس محرَّف.

{ **ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا** } يجوز أن تكون استئنافا بيانيا لأنّهم لمّا سمعوا التقريع والتوبيخ وأيقنوا بانتفاء الشفيع ترقَّبوا ماذا سيؤمر به في حقهم فقيل لهم ذلك. ويجوز أن تكون بدل اشتمال من قوله تعالى { ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ }، فإنّ مدلول اسم الإشارة العذاب المشاهد لهم وهو يشتمل على إدخالهم جهنم والخلود فيها.

دخول الأبواب: كناية عن الكون في جهنّم، لأنّ الأبواب إنّما جُعلت ليُسلك منها إلى البيت ونحوه.

{ **فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ** } تفريع، والمخصوص بالذمّ محذوف لأنّه يدل عليه ذكر جهنم، أي: فبئس مثوى المتكبرين جهنم.

المثوى: محل الثواء، والثواء: الإقامة الدائمة، وأوثر هذا اللفظ لأنّه أدلّ على الخلود فهو أولى

بمساءتهم.

{ **الْمُتَكَبِّرِينَ** } المخاطبون ابتداء، لأنّهم جادلوا في آيات الله عن كبر في صدورهم كما قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ } [56]. ولأنّ تكبّرهم من فرحهم. وإنّما عدل عن ضميرهم إلى الاسم الظاهر وهو { الْمُتَكَبِّرِينَ } للإشارة إلى أنّ من أسباب وقوعهم في النار تكبّرهم على الرسل. وليكون لكل موصوف بالكبر حظ من استحقاق العقاب إذا لم يتب ولم تغلب حسناته على سيّئاته إن كان من أهل الإيمان.

{ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ } [77].

قد كان فيما سبق من السورة ما فيه تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم على ما تلقّاه به المشركون من الإساءة والتصميم على الإعراض، ابتداء من قوله تعالى { فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ } [4]، ثم قوله تعالى { أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ } [21]، ثم قوله { إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَ } [51]، ففُرِّع هنا على جميع ما سبق وما تخلّله، من تصريح وتعريض، أنّ أمر الله النبيّ صلى الله عليه وسلم بالصبر على ما يلاقيه منهم، وهذا كالتكرير لقوله تعالى فيما تقدّم { فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ } [55]. فإن مناسبة الأمر بالصبر عقب ذلك أن يكون تعريضا بالانتصار له، ولذلك فُرّع على الأمر بالصبر الشرط المردَّد بين أن يريه بعض ما توعّدهم الله به وبين أن لا يراه، فإنّ جواب الشرط حاصل على كلتا الحالتين وهو مضمون { فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ }، أي: أنّهم غير مفلَتين من العقاب.

وتقدّم نظير هذين الشرطين في [يونس:46] إلّا أنّ في يونس { فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ } وهنا { فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ }، والمخالفة بين الآيتين تفنّن، ولأنّ ما في يونس اقتضى تهديدهم بأنّ الله شهيد على ما يفعلون.

والمعنى: أنّهم واقعون في قبضة قدرتنا في الدنيا سواء كان ذلك في حياتك مثل عذاب يوم بدر، أو بعد وفاتك مثل قتلهم يوم اليمامة، وأمّا عذاب الآخرة فذلك مقرّر لهم بطريق الأولى، وهذا كقوله تعالى { أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ} [الزخرف:42].

{ **فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ** } تقديم المجرور للرعاية على الفاصلة وللاهتمام.

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ } [78].

ذكرنا عند قوله تعالى { مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا } [4]، أنّ من صور مجادلتهم في الآيات

إظهارهم عدم الاقتناع بمعجزة القرآن، فكانوا يقترحون آيات كما يريدون، لقصدهم إفحام الرسول صلى الله عليه وسلم، فلمّا انقضى تفصيل الإبطال لضلالهم بالأدلة البيّنة والتذكير بالنعمة والإنذار بالترهيب والترغيب وضرب الأمثال بأحوال الأمم الكذبة، ثم بوعد الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالنصر وتحقيق الوعد، أعقب ذلك بتثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم بأنّه ما كان شأنه إلّا شأن الرسل من قبله أن لا يأتوا بالآيات من تلقاء أنفسهم، ولا استجابة لرغائب معانديهم، ولكنّ الآيات عند الله يُظهر ما شاء منها بمقتضى إرادته الجارية على وفق علمه وحكمته، وفي ذلك تعريض بالردّ على المجادلين في آيات الله، وتنبيه لهم على خطأ ظنّهم أنّ الرسل تنتصب لمناقشة المعاندين.

فالمقصود الأهم من هذه الآية هو قوله تعالى { وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ } وأمّا قوله تعالى { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ } فهو كمقدّمة للمقصود. وهو مع ذلك يفيد بتقديمه معنى مستقلا من ردّ مجادلتهم، فإنّهم كانوا يقولون { مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ } [الأنعام:91]، ويقولون { لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ } [الأنعام:8]، فدمغت مزاعمهم بما هو معلوم بالتواتر من تكرّر بعثة الرسل في العصور والأمم.

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ } وقد بعث الله رسلا وأنبياء لا يعلم عددهم إلّا هو سبحانه، لأنّ منهم من أعلم الله بهم نبيَّه صلى الله عليه وسلم ومنهم من لم يعلمه بهم، والذين أعلمه بهم منهم من قصّه في القرآن، ومنهم من أعلمه بهم بوحي غير القرآن، فورد ذكر بعضهم في الآثار الصحيحة بتعيين أو بدون تعيين، من ذلك ذكر حَنظلة بن صفوان نَبيّ أهل الرسّ، وذكر خالد بن سنان نبيّ بني عَبس.

وقد جاء في القرآن تسمية **خمسة عشر رسولا** وهم: (نوح، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وهود، وصالح، وشعيب، وموسى، وهارون، وعيسى، ويونس، ومحمد صلى الله عليه وسلم). **واثنا عشر نبيّا** وهم: (داود، وسليمان، وأيوب، وزكريا، ويحيى، وإلياس، واليسع، وإدريس، وآدم، وذو الكفل، وذو القرنين، ولقمان، و**نبيّة** هي مريم). وورد بالإجمال دون تسمية صاحب موسى المسمّى في السنّة خضر، ونبيّ بني إسرائيل وهو صمويل، وتبّع.

وفي كون يوسف رسولا تردّدا بيّنته عند قوله تعالى { وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ }[34]، وأنّ في نبوّة الخضر ولقمان وذي القرنين ومريم تردّدا. واخترت إثبات نبوّتهم لأنّ الله ذكر في بعضهم أنّه خاطبهم، وذكر في بعضهم أنّه أوتى الحكمة، وقد اشتهرت في معنى النبوّة، وفي بعضهم أنّه كلّمته الملائكة.

ولا يجب الإيمان بنبوّة رسالة معيّن إلّا محمد صلى الله عليه وسلم، أو من بلغ العلم بنبوّته بين المسلمين مبلغ اليقين لتواتره مثل موسى وعيسى وإبراهيم ونوح. وما ثبت بأخبار الآحاد غير واجب الإيمان به.

{ **رُسُلًا** } تنكير مفيد للتعظيم والتكثير، أي: أرسلنا رسلا عددهم كثير وشأنهم عظيم.

{ **وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ** } العطف بـ (الواو) دون (الفاء) يفيد استقلال هذه الجملة بنفسها لما فيها من معنى عظيم حقيق بأن لا يكون تابعا لغيره.

{ **أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ** } هو تحدّيه قومه بأن الله سيؤيّده بآية يعيّنها، أي: بمعجزة.

مثل قول صالح عليه السلام { هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً } [الأعراف:73].

وقول موسى عليه السلام لفرعون { قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ } [الشعراء:30].

وقول عيسى عليه السلام { أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَائِرًا بِإِذْنِ اللَّهِ } [آل عمران:49].

وقول محمد صلى الله عليه وسلم { فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ } [البقرة:23].

{ **بِإِذْنِ اللَّهِ** } باء السببية دخلت على مستثنى من أسباب محذوفة في الاستثناء، أي: ما كان له أن يأتي بآية بسبب من الأسباب إلّا بسبب إذن الله تعالى. وهذا إبطال لما يتورّكون به من المقترحات والتعلّات.

وإذن الله هو أمر التكوين الذي يخلق الله به خارق العادة ليجعله علامة على صدق الرسول.

{ **فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ** } تفريع، أي: فإذا جاء أمر الله بإظهار الرسول آية ظهر صدق الرسول، وكان ذلك قضاء من الله تعالى لرسوله بالحق على مكذّبيه.

{ **أَمْرُ اللَّهِ** } القضاء والتقدير، كقوله تعالى { أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ } [النحل:1]، وقوله تعالى { أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ } [المائدة:52]، وهو الحدث القاهر للناس. وفي اختيار هذا المضاف تعريض بأنّ ما سيُظهره الله من الإذن لمحمد صلى الله عليه وسلم هي آيات عقاب لمعانديه.

{ **قُضِيَ بِالْحَقِّ** } وفي إيثاره بالذكر دون غيره من نحو: ظهر الحق، أو تبيّن الصدق، ترشيح لما في قوله تعالى { أَمْرُ اللَّهِ } من التعريض بأنّه أمر انتصاف من المكذّبين. ولذلك عطف عليه:

{ **وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ** } أي: خسر الذين جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق.

الخسران: مستعار لحصول الضرّ لمن أراد النافع، كخسارة التاجر الذي أراد الربح فذهب رأس ماله، وقد تقدّم معناه غير مرة، منها قول تعالى { فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ } [البقرة:16].

{ **هُنَالِكَ** } أصله اسم إشارة إلى المكان، واستعير هنا للإشارة إلي الزمان المعبّر عنه بـ (إذا) في قوله تعالى { فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ }.

{ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ [79] وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ [80] }.

انتقال من الامتنان على الناس بما سخّر لأجلهم من نظام العوالم العليا والسفلى، وبما منحهم من الإيجاد وتطوّره، وما في ذلك من الألطاف بهم، وما أدمج فيه من الاستدلال على انفراده تعالى بالتصرّف، فكيف

ينصرف عن عبادته الذين أشركوا به آلهة أخرى! انتقال من كلّ ذلك إلى الامتنان بما سخّر لهم من الإبل لمنافعهم الجمّة. فالجملة استئناف سادس. والقول في افتتاحها كالقول في افتتاح نظائرها السابقة باسم الجلالة أو بضميره.

الجَعْل: الوضع والتمكين والتهيئة، فيُحمل في كلّ مقام على ما يناسبه. وفائدة الامتنان استدلال على دقيق الصنع وبليغ الحكمة، كما دلّ عليه قوله تعالى { وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ } [81]، أي: في ذلك كلّه.

{ **لَكُمُ** } لام التعليل، أي: لأجلكم، وهو امتنان مجمل يشمل بالتأمّل كلّ ما في الإبل لهم من منافع، وهم يعلمونها إذا تذكَّروها وعدّوها.

الأنعام: الإبل، والغنم، والمعز، والبقر. والمراد هنا: الإبل خاصة لقوله تعالى { وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً } وقوله تعالى { وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ }، وكانت الإبل غالب مكاسبهم.

ثم فصل ذلك الإجمال بعض التفصيل بذكر المهم من النعم التي في الإبل.

{ **لِتَرْكَبُوا مِنْهَا** } لام كي، وهي متعلّقة بـ { جَعَلَ }، أي: لركوبكم. وأريد بالركوب هنا الركوب للراحة من تعب الرجلين في الحاجة القريبة بقرينة مقابلته بقوله تعالى { وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ }.

{ **وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ** } في موضع الحال من { الأنعام }، أو عطف. وعلى الاعتبارين فهي في حيّز ما دخلت عليه (لام كي)، فمعناها: ولتأكلوا منها.

{ **وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ** } عطف على الجمل السابقة، والمعنى أيضا على اعتبار التعليل، كأنّه قيل: ولتجتنوا منافعها المجعولة لكم. وإنّما غيّر أسلوب التعليل تفنّنا في الكلام وتنشيطا للسامع لئلّا يتكرّر حرف التعليل.

المنافع: جمع منفعة، وهي مَفْعلة من النفع، وهي: الشيء الذي يُنتفع به، أي: يُستصلح به.

فالمنافع في هذه الآية أريد بها ما قابل منافع أكل لحومها في قوله تعالى { وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ }، مثل الانتفاع بأوبارها وألبانها وأثمانها وأعواضها في الديّات والمهور، والمنافع شاملة للركوب الذي في قوله تعالى { لِتَرْكَبُوا مِنْهَا }.

فذكر المنافع بعد { لِتَرْكَبُوا مِنْهَا } تعميم بعد تخصيص، كقوله تعالى { وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى } [طه:18] بعد قوله تعالى { هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا }.

{ **وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ** } ثمّ خُصّ من المنافع الأسفار، فإنّ اشتداد الحاجة إلى الأنعام فيها تجعل الانتفاع بركوبها للسفر في محل الاهتمام.

{ **لِتَبْلُغُوا** } أنبأ الفعل أنّ الحاجة التي في الصدور حاجة في مكان بعيد يطلبها صاحبها.

الحاجة: النيّة والعزيمة.

الصدور: أطلق على العقول اتباعا للمتعارف الشائع، كما يطلق القلوب على العقول.

{ **وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ** } انتقال من الامتنان بجعل الأنعام، إلى الامتنان بنعمة الركوب في الفلك

في البحار والأنهار، فالمقصود هو قوله تعالى { وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ }، وأمّا قوله { وَعَلَيْهَا } فهو تمهيد له وهو اعتراض تكريرا للمنّة.

ووجه الامتنان بالفلك أنه امتنان بما ركَّب الله في الإنسان من التدبير والذكاء الذي توصّل به إلى المخترعات النافعة بحسب مختلف العصور والأجيال، كما تقدّم عند قوله تعالى { وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ } [البقرة:164]، وبيَّنَّا هنالك أنّ العرب كانوا يركبون البحر الأحمر في التجارة ويركبون الأنهار.

والجمع بين السفر بالإبل والسفر بالفلك جمع لطيف، فإنّ الإبل سفائن البر، وقديما سمُّوها بذلك.

وإنّما قال { وَعَلَى الْفُلْكِ } ولم يقل: وفي الفلك، كما في قوله تعالى { فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ } [العنكبوت:65] للمزاوجة والمشاكلة مع { وَعَلَيْهَا }.

{ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ } [81].

عطف على جملة { اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ } [79]،أي: الله الذي يريكم آياته. وهذا انتقال من متعدّد الامتنان بما تقدّم من قوله تعالى:

{ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ } [61].

{ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً } [64].

{ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ } [67].

{ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ } [79].

فإنّ تلك ذُكرت في معرض الامتنان، تذكيرا بالشكر، فنبَّه هنا على أنّ في تلك المنن آيات دالة على ما يجب لله من الوحدانية والقدرة والحكمة. ولذلك كان القول مفيدا مفاد التذييل لما في قوله تعالى { آياته} من العموم، لأنّ الجمع المعرّف بالإضافة من صيغ العموم، أي: يريكم آياته في النعم المذكورات وغيرها ما يدلّ على وجوب توحيده وتصديق رسله ونبذ المكابرة.

{ وَيُرِيكُمْ } جيء بالفعل المضارع لدلالته على التجدّد، لأنّ الإنسان كلّما انتفع بشيء من النعم علم ما في ذلك من دلالة على وحدانية خالقها وقدرته وحكمته.

الإراءة هنا بصرية، عُبّر بها عن العلم بصفات الله إذ كان طريق ذلك العلم هو مشاهدة تلك الأحوال المختلفة، فمن تلك المشاهدة ينتقل العقل إلى الاستدلال، وفيه إشارة إلى أنّ دلالة وجود الخالق ووحدانيّته وقدرته برهانية تنتهي إلى اليقين والضرورة.

{ آيَاتِهِ } إضافة الآيات إلى ضمير الجلالة لزيادة التنويه بها، والإرشاد إلى إجادة النظر العقلي في دلائلها.

{ **فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ** } فُرّع على إراءة الآيات استفهام إنكاري من أجل إنكارهم ما دلّت عليه تلك الآيات.

{ **فَأَيَّ** } اسم استفهام يُطلب به تمييز شيء عن مشاركة فيما يضاف إليه (أي)، وهو هنا مستعمل في إنكار أن يكون شيء من آيات الله يمكن أن يُنكر دون غيره من الآيات، فيفيد أنّ جميع الآيات صالح للدالة على وحدانية الله وقدرته، لا مساغ لادعاء خفائه، وأنّهم لا عذر لهم في عدم الاستفادة من إحدى الآيات.

{ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [82] فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ [83] }.

تفريع هذا الاستفهام عقب قوله { وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ } [81]، يقتضي أنّه مساوق للتفريع الذي قبله وهو { فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ } [81]، فيقتضي أنّ السير المستفهم عنه بالإنكار على تركه هو سير تحصل فيه آيات ودلائل على وجود الله ووحدانيته. وكلا التفريعين متصل بقوله تعالى { وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ } [80]، فذلك هو مناسبة الانتقال إلى التذكير بعبرة آثار الأمم التي استأصلها الله تعالى لمّا كذبت رسله وجحدت آياته ونعمه.

وحصل بذلك تكرير الإنكار الذي في قوله تعالى { أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً } [21]، فكان ما تقدّم انتقالا عقب آيات الإنذار والتهديد، وكان هذا انتقالا عقب آيات الامتنان والاستدلال، وفي كلا الانتقالين تذكير وتهديد ووعيد.

وهو يشير إلى أنّهم إن لم يكونوا ممَّن تزعهم النعم عن كفران مسديها كشأن أهل النفوس الكريمة، فليكونوا ممّن يردعهم الخوف من البطش، كشأن أهل النفوس اللئيمة.

{ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ** - إلى قوله - **وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ** } القول فيه مثل القول في نظيره السابق [21]، غير أنّ هذه عُطفت بـ (الفاء) للتفريع، لوقوعها بعدما يصلح لأنّ يُفرّع عنه إنكار عدم النظر في عاقبة الذين من قبلهم، بخلاف نظيرها الذي قبلها فقد وقع بعد إنذارهم بيوم الآزفة.

{ **فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** } معترضة و(الفاء) للتفريع على قوله تعالى { كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ }، وهو كقوله تعالى { هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ } [ص:57].

وفائدة هذا الاعتراض التعجيل بإفادة أنّ كثرتهم وقوّتهم وحصونهم وجنّاتهم لم تغن عنهم من بأس الله شيئا.

{ **فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ** } مفرّعة على جملة { كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ }،

أي: كانوا كذلك إلى أن جاءتهم رسل الله إليهم بالبيّنات فلم يصدّقوهم فرأوا بأسنا.

{ **فَلَمَّا** } لِما في (لمّا) من معنى التوقيت أفادت معنى أنّ الله لم يغيّر ما بهم من النعم العظمى حتّى كذّبوا رسله. وجواب (لمّا) جملة { فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ } وما عطف عليها.

الفرح: هنا مكنًّى به آثاره وهي الازدهاء، كما في قوله تعالى { إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ} [القصص:76].

<u>فالمعنى</u>: أنّهم جادلوا الرسل وكابروا الأدلة وأعرضوا عن النظر.

{ **بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ** } هو معتقداتهم الموروثة عن أهل الضلالة من أسلافهم. وإطلاق العلم على اعتقادهم تهكّم وجري على حسب معتقدهم، وإلّا فهو جهل.

{ **وَحَاقَ بِهِمْ** } أحاط، يقال: حاق يحيق حيقا، إذا أحاط، وهو هنا مستعار للشدّة التي لا تنفيس بها، لأنّ المحيط بشيء لا يدع له مَفرجا.

{ **مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** } هو الاستئصال والعذاب. والمعنى: أن رسلهم أوعدوهم بالعذاب فاستهزؤوا بالعذاب، أي: بوقوعه. وفي الإتيان بالمضارع إفادة لتكرّر استهزائهم.

{ **كَانُوا** } في ذكر فعل الكون تنبيه على أنّ الاستهزاء بوعيد الرسل كان شنشنة لهم.

{ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ [84] فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ [85] }.

{ **فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا** } موقعها من قوله تعالى { فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ } [83]، كموقع تلك من قوله تعالى { كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ } [82]، لأنّ إفادة (لمَّا) معنى التوقيت يثير معنى توقيت انتهاء ما قبلها، أي: دام دعاء الرسل إيّاهم ودام تكذيبهم واستهزاؤهم إلى رأوا بأسنا فقالوا حينها { آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ }.

البأس: الشدّة في المكروه، وهو جامع لأصناف العذاب، كقوله تعالى { فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا } [الأنعام:43/42].

{ **فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا** } تفريع، أي: حين شاهدوا العذاب لم ينفعهم الإيمان، لأنّ الله لا يقبل الإيمان عند نزول عذابه.

{ **فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ** } عُدل عن أن يقال: فلم ينفعهم، لدلالة فعل الكون على أنّ خبره مقرّر الثبوت لاسمه، فلمّا أريد نفي ثبوت النفع إيّاهم بعد فوات وقته اجتُلب لذلك نفي فعل الكون. والمعنى: أنّ الإيمان بعد رؤية بوارق العذاب لا يفيد صاحبه، مثل الإيمان عند الغرغرة ومثل الإيمان عند طلوع الشمس من مغربها.

{ **سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ** } انتصب { سُنَّتَ اللَّهِ } على النيابة عن المفعول المطلق لأنّ { سُنَّتَ } اسم مصدر السنّ، وهو آت بدلالة من فعله، والتقدير: سن الله ذلك سنة.

فالجملة مستأنفة استئنافا بيانيا جوابا لسؤال من يسأل لماذا لم ينفعهم الإيمان وقد آمنوا؟ فالجواب أنّ ذلك تقدير قدَّره الله للأمم السالفة أعلمهم به وشرطه عليهم، فهي قديمة في عباده، لا ينفع الكافر الإيمان إلّا قبل ظهور البأس. ولم يستثن من ذلك إلّا قوم يونس قال تعالى { فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } [يونس:98].

وهذا حكم الله في البأس بمعنى العقاب الخارق للعادة والذي هو آية بيّنة، فأمَّا البأس الذي هو معتاد والذي هو آية خفيّة مثل عذاب بأس السيف الذي نصر الله به رسوله يوم بدر ويوم فتح مكة، فإنّ من يؤمن عند رؤيته مثل أبي سفيان بن حرب حين رأى جيش الفتح، أو بعد أن ينجو منه مثل إيمان قريش يوم الفتح بعد رفع السيف عنهم، فإيمانه كامل.

{ **وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ** } كالفذلكة لقوله تعالى { فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا }، وبذلك آذنت بانتهاء الغرض من السورة.

{ **هُنَالِكَ** } اسم إشارة إلى مكان، استعير للإشارة إلى الزمان، أي: خسروا وقت رؤيتهم بأسنا، إذ انقضت حياتهم وسلطانهم وصاروا إلى ترقّب عذاب خالد مستقبل.

{ **الْكَافِرُونَ** } العدول عن الضمير إلى الاسم الظاهر إيماء إلى أنّ سبب خسرانهم هو الكفر بالله، وذلك إعذار للمشركين من قريش.

أسلوب سورة غافر

*/ أسلوبها أسلوب المحاجّة والاستدلال على صدق القرآن وأنّه منزّل من عند الله، وإبطال ضلالة المكذِّبين وضرب مثلهم بالأمم المكذبة، وترهيبهم من التمادي في ضلالهم وترغيبهم في التبصّر ليهتدوا.

*/ افتتحت بالحرفين المقطعين من حروف الهجاء لأنّ أوّل أغراضها أنّ القرآن من عند الله، ففي حرفي الهجاء رمز إلى عجزهم عن معارضته. وفي ذلك الافتتاح تشويق إلى تطلع ما يأتي بعده للاهتمام به.

*/ وكان في الصفات التي أجريت على اسم منزِّل القرآن إيماء إلى أنّه لا يشبه كلام البشر، لأنّه كلام العزيز العليم، وإيماء إلى تيسير إقلاعهم عن الكفر، وترهيب من العقاب على الإصرار، وذلك كلّه من براعة الاستهلال.

*/ ثم تخلّص من الإماء والرمز إلى صريح وصف ضلال المعاندين وتنظيرهم بسابقيهم من الأمم التي استأصلها الله.

*/ وخُصَّ بالذكر أعظم الرسل السالفين وهو موسى مع أمّة من أعظم الأمم السالفة وهم أهل مصر، وأطيل ذلك لشدّة مماثلة حالهم لحال المشركين من العرب في الاعتزاز بأنفسهم، وفي قلة المؤمنين منهم.

*/ وتخلّل ذلك ثبات موسى وثبات مؤمن آل فرعون، إيماء إلى التنظير بثبات محمد صلى الله عليه وسلم وأبي بكر.

*/ ثم انتقل إلى الاستدلال على الوحدانية وسعة القدرة على إعادة الأموات.

*/ خُتمت بذكر أهل الضلال من الأمم السالفة الذين أوبقهم الإعجاب برأيهم وثقتهم بجهلهم فصمَّت آذانهم عن سماع حجج الحق، وأعمالهم عن النظر في دلائل الكون، فحسبوا أنّهم على كمال لا ينقصهم ما به حاجة إلى الكمال، فحاق بهم العذاب، وفي هذا رد العجز على الصدر.

*/ وخوَّف الله المشركين من الانزلاق في مهواة الأوّلين بأنّ سنة الله في عباده الإمهال ثم المؤاخذة.

*/ فكان ذلك كلمة جامعة للغرض أذنت بانتهاء الكلام فكانت محسِّن الختام.

*/ وتخلّل في ذلك كلّه من المستطردات والانتقالات بذكر ثناء الملأ الأعلى عل المؤمنين وردّهم على الكافرين، وذكر ما هم صائرون إليه من العذاب والندامة، وتمثيل الفارق بين المؤمنين والكافرين، وتشويه حال الكافرين في الآخرة، وتثبيت المؤمنين على إيمانهم وأنّ الله ناصر رسوله والمؤمنين في الدنيا والآخرة، وأمرهم بالصبر والتوكّل، وأنّ شأن الرسول صلى الله عليه وسلم كشأن الرسل من قبله في لقيان التكذيب، وفي أنّه يأتي بالآيات التي أجراها الله على يديه دون مقترحات المعاندين.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة فصّلت

تسمّى (**حم السجدة**)، وبذلك تُرجمت في صحيح البخاري وفي جامع الترمذي، لأنّها تميَّزت عن السور المفتتحة بحروف حم بأنّ فيها سجدة من سجود القرآن.

وسُمِّيت في معظم مصاحف المشرق والتفاسير (**سورة السجدة**)، وهو اختصار قولهم (حم السجدة).

وسُمِّيت في كثير من التفاسير (**سورة فُصِّلت**)، وبذلك اشتهرت في تونس والمغرب لوقوع كلمة { فُصِّلَتْ آيَاتُهُ } في أوّلها فعُرِّفت بها.

وهي **مكية بالاتفاق**، نزلت بعد سورة غافر وقبل سورة الزخرف.

وعُدَّت الحادية والستين في ترتيب نزول السور.

و**عُدَّت آيها ثلاثا وخمسين** عند أهل المدينة وأهل مكة ، وعند أهل الشام والبصرة اثنتين وخمسين، وعند أهل الكوفة أربع وخمسين.

أغراض السورة

*/ التنويه بالقرآن والإشارة إلى عجزهم عن معارضته. وذكر هديه، وأنّه معصوم من أن يتطرّقه الباطل.

*/ إبطال مطاعن المشركين فيه وتذكيرهم بأنّ القرآن نزل بلغتهم فلا عذر لهم في عدم انتفاعهم بهديه.

*/ زجر المشركين وتوبيخهم على كفرهم بخالق السماوات والأرض، مع بيان ما في خلقها من الدلائل على تفرّده بالإلهية.

*/ إنذارهم بما حلّ بالأمم المكذّبة من عذاب الدنيا ووعيدهم بعذاب الآخرة، وشهادة سمعهم وأبصارهم وأجسادهم عليهم، وتحذيرهم من القرناء المزيّنين لهم الكفر، من الشياطين والناس، وأنّهم سيندمون يوم القيامة على اتباعهم، وقوبل ذلك بما للموحِّدين من الكرامة عند الله.

*/ أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بدفعهم بالتي هي أحسن وبالصبر عليهم، وأن يستعيذ بالله من الشيطان.

*/ ذُكرت دلائل تفرّد الله بخلق المخلوقات العظيمة كالشمس والقمر. ودلائل إمكان البعث وأنّه واقع لا محالة ولا يعلم وقته إلّا الله تعالى.

*/ تثبيت النبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بتأييد الله إيَّاهم بتنزّل الملائكة بالوحي، وبالبشارة للمؤمنين.

*/ تخلل ذلك أمثال مختلفة في ابتداء خلق العوالم وعِبَر في تقلّبات أهل الشرك.

*/ التنويه بإيتاء الزكاة.

{ **حم** } [1].

القول في الحروف الواقعة فاتحة هذه السورة كالقول في مثيلاتها.

{ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ [2] كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ [3] بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ [4] }.

{ **تَنْزِيلٌ** } مبتدأ سوَّغ الابتداء به ما في التنكير من معنى التعظيم، فكانت بذلك كالموصوفة. و{ **مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** } خبر عنه. وقوله { **كِتَابٌ** } بدل من { تَنْزِيلٌ }، فحصل من المعنى: أنّ التنزيل من الله كتاب، وأنّ صفته فصّلت آياته، موسوما بكونه قرآنا عربيا، فحصل من هذا الأسلوب: أنّ القرآن منزَّل من الرحمان الرحيم مفصَّلا عربيا.

ولك أن تجعل قوله { مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } في موضع الصفة للمبتدأ وتجعل قوله { كِتَابٌ } خبر المبتدأ. وعلى كلا التقديرين هو أسلوب فخم، وقد مضى مثله في قوله { المص كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ } [الأعراف:2/1].

الكتاب: اسم لمجموع حروف دالة على ألفاظ مفيدة، وسُمِّي القرآن كتابا لأنّ الله أوحى بألفاظه وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يكتب ما أحي إليه، ولذلك اتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم كُتَّابا يكتبون له كلّ ما ينزل عليه من القرآن.

{ **الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** } إيثار هذين الصفتين على غيرهما من الصفات العليَّة للإيماء إلى أنّ هذا التنزيل رحمة من الله بعباده ليخرجهم من الظلمات إلى النور، كقوله تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ } [الانبياء:107]. وقوله تعالى { أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [العنكبوت:51].

والجمع بين الصفتين للإيماء إلى أنّ الرحمة صفة ذاتية لله تعالى، وأنّ متعلّقها منتشر في المخلوقات، كما تقدّم في أوّل سورة الفاتحة والبسملة. وفي ذلك إيماء إلى استحماق الذين أعرضوا عن الاهتداء بهذا الكتاب بأنّهم أعرضوا عن رحمة، وأنّ الذين اهتدوا به هم أهل المرحمة لقوله بعد ذلك { قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى } [44].

{ **فُصِّلَتْ آيَاتُهُ** } بُيِّنت، و**التفصيل**: التبيين والإخلاء من الالتباس. والمراد: أنّ آيات القرآن واضحة الأغراض لا تلتبس إلّا على مكابر في دلالة كلّ آية على المقصود منها، وفي مواقعها، وتمييز بعضها عن بعض في المعنى باختلاف فنون المعاني التي تشتمل عليها، وقد تقدّم شيء من هذا في [هود:1].

{ **قُرْآنًا عَرَبِيًّا** } ومن كمال تفصيله أنّه كان بلغة كثيرة المعاني، واسعة الأفنان، فصيحة الألفاظ، فكانت سالمة من التباس الدلالة، وانغلاق الألفاظ، مع وفرة المعاني غير المتنافية في قلة التراكيب، فكان وصفه

بأنّه عربي من مكمّلات الإخبار عنه بالتفصيل.

وقد تكرّر التنويه بالقرآن من هذه الجهة كقوله تعالى { بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ } [الشعراء:195]، ولهذا فُرّع عليه ذمّ الذين أعرضوا عنه بقوله هنا { فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ } وقوله هنالك { كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ } [الشعراء:201].

القرآن: الكلام المقروء المتلو. وكونه قرآنا من صفات كماله، وهو أنّه سهل الحفظ، سهل التلاوة، كما قال تعالى { وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ } [القمر:22]. ولذلك كان شأن الرسول صلى الله عليه وسلم حفظ القرآن عن ظهر قلب، وكان شأن المسلمين اقتداء به في ذلك على حسب الهمم والمَكْنَات، وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يشير إلى تفضيل المؤمنين بما عندهم من القرآن. وكان يوم أُحُد يقدّم في لحد شهدائه من كان أكثرهم أخذا للقرآن، تنبيها على فضل حفظ القرآن زيادة على فضل تلك الشهادة.

{ **قُرْآنًا** } انتصب على النعت المقطوع للاختصاص بالمدح وإلّا لكان مرفوعا على أنّه خبر ثالث أو صفة للخبر الثاني.

{ **لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** } صفة لـ { قُرْآنًا } ظرف مستقر، أي: كائنا لقوم يعلمون، باعتبار ما أفاده قوله تعالى { قُرْآنًا عَرَبِيًّا } من معنى وضوح الدلالة وسطوع الحجّة. أو يتعلق بقوله { تَنْزِيلٌ } أو بقوله {فُصِّلَتْ آيَاتُهُ} على معنى أنّ فوائد تنزيله وتفصيله لقوم يعلمون دون غيرهم، أي: فلا بدع إذا أعرض عن فهمه المعاندون فإنّهم قوم لا يعلمون، وهذا كقوله تعالى { بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ } [العنكبوت: 49].

البشير: اسم للمبشّر، وهو المخبِر بخبر يسر المخبَر. و**النذير**: المخبِر بأمر مَخُوف.

شُبِّه القرآن بالبشير فيما اشتمل عليه من الآيات المبشّرة للمؤمنين الصالحين، وبالنذير فيما فيه من الوعيد للكافرين وأهل المعاصي، فالكلام تشبيه بليغ.

{ **وَنَذِيرًا** } جيء به معطوفا بـ (الواو) للتنبيه على اختلاف موقع كل من الحالين، فهو بشير لقوم وهم الذين اتبعوه ونذير لآخرين، وهم المعرضون عنه، وليس هو جامعا بين البشارة والنذارة لطائفة واحدة.

{ **فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ** } تفريع على ما ذُكر من صفات القرآن. وضمير { أَكْثَرُهُمْ } عائد إلى معلوم من المقام وهم المشركون، كما هي عادة القرآن في غير موضع. والمعنى: فأعرض أكثر هؤلاء عمّا في القرآن من الهدى فلم يهتدوا، ومن البشارة فلم يعنوا بها، ومن النذارة فلم يحذروها.

وليس عائدا { لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } لأنّ الذين يعلمون لا يعرض أحد منهم.

{ **فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ** } الفاء للتفريع على الإعراض، أي: فهم لا يلقون أسماعهم للقرآن فضلا عن تدبّره، وهذا إجمال لإعراضهم. وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي، لإفادة تقوّي الحكم وتأكيده.

{ **وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ** } [5].

الآية عطف على { فَأَعْرِضْ } أو حال من { أَكْثَرُهُمْ }، والمعنى: أنّهم أعرضوا مصرّحين بقلة الاكتراث وبالانتصاب للجفاء والعداء. وهذا تفصيل للإعراض عمّا وُصِف به القرآن من الصفات التي شأنها أن تقرّبهم إلى تلقّيه لا أن يعرضوا.

{ **وَقَالُوا** } وهذا القول المحكي عنهم يحتمل أن يكون القرآن حكاه عنهم بالمعنى، فجمع القرآن بإيجازه وبلاغته ما أطالوا به الجدال وأطنبوا في اللجاج، ويحتمل أنّه حكاه بلفظهم فيكون ممّا قاله أحد بلغائهم، ويحتمل أن يكونوا تلقفوه ممّا سمعوه في القرآن من وصف قلوبهم وسمعهم وتباعدهم، كقوله تعالى { وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا } [الإسراء:25]، فإنّ سورة الإسراء معدودة في النزول قبل سورة فصّلت، وكذلك قوله تعالى { وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا } [الاسراء:45]، فجمعوا ذلك وجادلوا به الرسول. فيكون ما في هذه الآية من البلاغة قد اقتبسوه من آيات أخرى. وقيل: إنّ قائله أبو جهل في مجمع من قريش.

{ **قُلُوبُنَا** } العقول، حكي بمصطلح كلامهم، إذ يطلقون القلب على العقل.

الأكنّة: جمع كنان مثل: غطاء وأغطية وزنًا ومعنًى. شُبِّهت القلوب بالأشياء المغطّاة على طريقة الاستعارة المكنية. ووجه الشبه حيلولة وصول الدعوة إلى عقولهم كما يحول الغطاء والغلاف دون تناول ما تحته.

{ **مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ** } يعمّ كلّ ما دعاهم إليه من المدلولات وأدلّتها. و(من) هنا بمعنى (عن) مثل قوله تعالى { فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ } [الزمر:22]، وقوله تعالى { قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا } [الانبياء:97].

{ **وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ** } جُعل الوقر في الآذان لإفادة قوّة المعنى. وكذلك جُعلت القلوب في أكنة لإفادة حرف (في) معنى إحاطة الظرف بالمظروف

الوَقر: (بفتح الواو) ثقل السمع وهو الصَّمَمُ، وكأنّ اللغة أخذته من **الوِقر** (بكسر الواو)، وهو الحمل، لأنّه يثقل الدابة عن التحرّك، فأطلقوه على عدم تحرك السمع عند قرع الصوت المسموع، وشاع ذلك حتى ساوى الحقيقة ففتحوا له الواو تفرقة بين الحقيقة والمجاز. وتقدّم ذكر الأكنة والوقر في قوله تعالى { وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا } [الأنعام:25] وفي [الإسراء:46].

{ **وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ** } اجتلاب حرف { مِنْ } لتقوية معنى الحجب بين الطرفين وتمكّن لازمه الذي هو بعد المسافة التي بين الطرفين.

الحجاب: الساتر للمرئي من حائط أو ثوب. أطلقوا اسم الحجاب على ما يمنع نفوسهم أن يأخذوا بالدين الذي جاء به النبيّ صلى الله عليه وسلم من كراهية دينه وتجافي تقلده.

{ **أَكِنَّةٍ - وَقْرٌ - حِجَابٌ** } جمعوا بين الحالات الثلاث في التمثيل للمبالغة في أنّهم لا يقبلون ما يدعوهم إليه.

{ **فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ** } تفريع على تأييسهم الرسول من قبولهم دعوته. وحذف مفعولا (اعمل / عاملون) ليعمّ كلّ ما يمكن عمله. والأمر مستعمل في التسوية. كقوله تعالى {اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [40]. والخبر مستعمل في التهديد.

{ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ [6] الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ [7] }.

{ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ** } استئناف ابتدائي هو تلقين الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجيب قولهم { فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ } [5] المفرَّع على قولهم { قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ }، جوابَ المتبرئ من أن يكون له حول وقوّة ليعمل في إلجائهم إلى الإيمان لمّا أَبَوْه، إذ ما هو إلّا بشر مثلهم، وما عليه إلّا أن يبلّغهم ما أوحى الله إليه.

{ **إِنَّمَا أَنَا** } صيغة القصر تفيد قصرا إضافيا، أي: أنا مقصور على البشرية دون التصرّف في قلوب الناس.

{ **يُوحَى إِلَيَّ** } بيَّن ما تميّز به عنهم على وجه الاحتراس من أن يتلقّفوا قوله { إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ } تلقف من حصل على اعتراف خصمه بنهوض حجّته. والاحتراس لإبطال زعمهم المشهور المكرّر أنّ كونه بشرا مانع من إرساله عن الله تعالى، كقولهم { مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا } [الفرقان:7]، ونحوه ممّا تكرّر في القرآن.

ونظير هذا الاحتراس ما حكاه الله عن قول الكفّار لرسلهم { إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ } [ابراهيم:11/10].

{ **أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ** } وحرصا على إبلاغ الإرشاد إليهم بيَّن لهم ما يوحى إليه، إعادة لما أبلغهم إيّاه غير مرة. إدماج للدعوة إلى الحقّ في خلال الجواب.

{ **فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ** } إتمام لذلك الإدماج بتفريع فائدته عليه، لأنّ إثبات أنّ الله إله واحد إنّما يُقصد منه إفراده بالعبادة ونبذ الشرك.

الاستقامة: كون الشيء قويما، أي: غير ذي عوج. وتطلق مجازا على كون الشيء حقًّا خالصا، ليست فيه شائبة تمويه ولا باطل. وعلى كون الشخص صادقا في معاملته أو عهده غير خالط به شيئا من الحيلة أو الخيانة، فيقال: فلان رجل مستقيم، أي: صادق الخلق، وإن أريد صدقة مع غيره يقال: استقام له، أي: استقام لأجله، أي: لأجل معاملته منه. ومنه قوله تعالى { فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ } [التوبة:7].

أو ضمّن { **فَاسْتَقِيمُوا** } معنى: أنيبوا، أي: توبوا من الشرك، كما دلّ عليه عطف { واستغفروه }.

الاستغفار: طلب العفو عمّا فرط من ذنب أو عصيان، وهو مشتق من الغفر وهو الستر.

المعنى: فاخلصوا إلى الله في عبادته ولا تشركوا به غيره واسألوا منه الصفح عمّا فرط منكم من الشرك.

{ **وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ** } وعيد للمشركين بسوء الحال والشقاء في الآخرة. يجوز أن يكون من جملة القول الذي أُمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقوله، فهو معطوف على جملة { إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ }، ويجوز أن يكون كلاما معترضا من جانب الله تعالى، بين جملة { قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ } وجملة { قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ } [9]، أي: أجبهم بقولك: أنا بشر مثلكم يوحي إلي، ونحن أعتدنا لهم الويل والشقاء إن لم يقبلوا ما تدعوهم إليه، فيكون هذا إخبارا من الله تعالى.

{ **الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ** } فأمّا كون الشرك وإنكار البعث موجبين للويل فظاهر، وأمّا كون عدم إيتاء الزكاة موجبا للويل فذلك لأنّه حمَّل عليهم ما قارن الإشراك وإنكار البعث من عدم الانتفاع بالأعمال التي جاء بها الإسلام. وذكر ذلك هنا لتشويه كفرهم وتفظيع شركهم وكفرانهم بالبعث بأنّهما يدعوانهم إلى منع الزكاة، أي: إلى القسوة على الفقراء الضعفاء وإلى الشحّ بالمال، وكفى بذلك تشويها في حكم الأخلاق وحكم العرف فيهم، لأنّهم يتعيَّرون بالبخل.

ويُعلم من هذا أنّ مانع الزكاة من المسلمين له حظّ من الويل الذي استحقّه المشركون لمنعهم الزكاة في ضمن شركهم، ولذلك رأي أبو بكر قتال مانعي الزكاة ممّن لم يرتدوا عن الإسلام، ووافقه جميع أصحاب رسول صلى الله عليه وسلم.

الزَّكَاةَ في الآية هي الصدقة، إذ لم تكن يومئذ زكاة مفروضة في الإسلام غير الصدقة دون تعيين نُصُب ولا أصناف، وكانت الصدقة مفروضة على الجملة، ولبعض الصدقة ميقات، وهي الصدقة قبل مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم، قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً } [المجادلة:12].

{ **وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ** } إمّا حال من ضمير { يؤتون } وإمّا معطوفة على الصلة.

وضمير الفصل لا يفيد هنا إلّا توكيد الحكم، ويشبه أن يكون هنا توكيدا لفظيا لا ضمير فصل، ومثله قوله تعالى { وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ } [يوسف:37]، وقوله تعالى { إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ } [طه:14].

{ **بِالْآخِرَةِ** } تقديمه على متعلقه لإفادة الاهتمام.

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ } [8].

استئناف بياني نشأ عن الوعيد الذي توعّد به المشركون بعد أن أمروا بالاستقامة إلى الله واستغفاره عمّا فرط منهم، كأنّ سائلا يقول: فإن اتعظوا وارتدعوا فماذا يكون جزاؤهم، فأفيد ذلك وهو أنّهم حينئذ

يكونون من زمرة المؤمنين، وفي هذا تنويه بشأن المؤمنين.

الأجر: الجزاء النافع، عن العمل الصالح، أو هو ما يُعطَوْنه من نعيم الجنّة. وتقديم { **لَهُمْ** } للاهتمام بهم.

الممنون: مفعول من المنّ، وهو ذكر النعمة للمنعَم عليه بها. وذلك كناية عن كونهم أُعْطُوه شكرا لهم على ما أسلفوه من عمل صالح، فإنّ الله غفور شكور، يعني: أنّ الإنعام عليهم في الجنة ترافقه الكرامة، والثناء فلا يحسّون بخجل العطاء، فأجرهم بمنزلة الشيء المملوك لهم الذي لم يعطيه إيّاهم أحد، وذلك تفضل من الله.

{ **قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ** } [9].

استئناف ابتدائي ثان هو جواب ثان عن مضمون قولهم { إِنَّنَا عَامِلُونَ } [5]. فبعد أن أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيب المشركين بأنّه بشر يوحى إليه فما يملك إلجاءهم إلى الإيمان أمره عقب ذلك بمعاودة إرشادهم إلى الحقّ على طريقة الاستفهام عن كفرهم بالله، مُدْمِجا في ذلك تذكيرهم بالأدلة الدالة على أنّ الله واحد، بطريقة التوبيخ على إشراكهم به في حين وضوح الدلائل على انفراده بالخلق واتصافه بتمام القدرة.

{ **أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ** } همزة الاستفهام المفتتح بها الكلام مستعملة في التوبيخ، كقوله تعالى { كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ } [البقرة:28]. وفي الافتتاح بالاستفهام وحرفي التوكيد تشويق لتلقّي ما بعد ذلك، لدلالة ذلك على أنّ أمرا مهما سيلقى إليهم، وليكون الإنكار لأمر محقّق، وهو هنا مبني على أنّهم يحسبون أنّهم مهتدون.

وصيغة المضارع لإفادة تجدّد كفرهم وإصرارهم مع سطوع الأدلة التي تقتضي الإقلاع عنه.

{ **بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ** } أدمج في هذا الاستدلال بيان خلق هذه العوالم، فمحلّ الاستدلال هو صلة الموصول، وأمّا ما تعلّق بها فهو إدماج.

{ **الْأَرْضَ** } هي الكرة الأرضية بما فيها من يابس وبحار، أي: خلق جرمها.

{ **فِي يَوْمَيْنِ** } تثنية يوم، وهو الحصة التي بين طلوع الشمس من المشرق وطلوعها ثانية.

والمراد: في مدّة تساوي يومين ممّا عرفه الناس بعد خلق الأرض، لأنّ النور والظلمة اللذان يقدّر اليوم بظهورهما على الأرض لم يظهرا إلّا بعد خلق الأرض، وتقدّم ذلك في [الأعراف:54].

وابتدئ بذكر خلق الأرض لأن آثاره أظهر للعيان وهي في متناول الإنسان، فلا جرم أن كانت الحجّة عليهم بخلقها أسبق نهوضا. ولأنّ النعمة بما تحتوي عليه الأرض أقوى وأعمّ، فيظهر قبح الكفر أوضح وأشنع.

{ **وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا** } عطف على { **لَتَكْفُرُونَ** } تفسيرٌ لكفرهم بالله.

الأنداد: جمع نِدّ (بكسر النون) وهو المثل. والمراد: أنداد في الإلهية.

{ **ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ** } إشارة إلى { بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ } وفيه إيماء إلى بلادة رأيهم إذ لم يتفطّنوا إلى أنّ الذي خلق الأرض هو رب العالمين، ولا إلى أنّ ربوبيته تقتضي انتفاء الند والشريك. والجملة معترضة بين المعطوفات على الصلة.

{ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ } [10].

صلة ثانية في المعنى، ولذلك جيء بفعل آخر غير فعل { خَلَقَ } لأنّ هذا الجعل تكوين آخر حصل بعد خلق الأرض، وهو خلق أجزاء تتصل بها إمّا من جنسها كالجبال، وإمّا من غير جنسها كالأقوات، ولذلك أعقب بقوله { فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ } بعد قوله { فِي يَوْمَيْنِ }.

الرواسي: الثوابت، وهو صفة للجبال. وحذف الموصوف لدلالة الصفة عليه، كقوله تعالى { وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ } [الشورى:32] أي: السفن الجواري. وتقدّم عند قوله تعالى { وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ } [الانبياء:31].

{ **مِنْ فَوْقِهَا** } لاستحضار الصورة الرائعة لمناظر الجبال، فمنها المجلّل بالخضرة أو المكسو بالثلوج، ومنها رهيب المرأى، مثل البراكين ، ومنها السود، وهي الغنية بالمعادن.

{ **وَبَارَكَ فِيهَا** } جعل فيها البركة. و**البركة**: الخير النافع، وفي الأرض خيرات كثيرة فيها رزق الإنسان وماشيته، وفيها التراب والحجارة والمعادن، وكلّها بركات.

{ **وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ** } جعل قدرا، أي مقدارا، قال تعالى { قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا } [الطلاق:3]. والمقدار: النصاب المحدود بالنوع أو الكمية. أي: أنّه خلق في الأرض القوى التي تنشأ منها الأقوات وخلق أصول أجناس الأقوات وأنواعها من الحب للحبوب، والكلأ والكمأة، والنوى للثمار، والحرارة التي يتأثّر بها تولّد الحيوان. ومن التقدير: تقدير كل نوع بما يصلح له من الأوقات من حر أو برد أو اعتدال.

{ **أَقْوَاتَهَا** } جمع الأقوات مضافا إلى ضمير الأرض يفيد العموم، أي: جميع أقواتها وعمومه باعتبار تعدّد المقتاتين، فللدواب أقوات، وللطير أقوات، وللزواحف أقوات، وللحشرات أقوات، وجعل للإنسان جميع تلك الأقوات ممّا استطاب منها، كما في قوله تعالى { هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا } [البقرة:29].

{ **فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ** } فذلكة لمجموع مدّة خلق الأرض جرمها، وما عليها من رواسي، وما فيها من القوى، فدخل في هذه الأربعة الأيام اليومان اللذان في قوله { فِي يَوْمَيْنِ }، فكأنه قيل: في يومين آخرين فتلك أربعة أيام. واعتمادا على ما يأتي بعده من قوله { فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ} [12]، فلو كان

اليومان اللذان قضى فيهما خلق السماوات زائدين على ستة أيام انقضت في خلق الأرض وما عليها لصار مجموع الأيام ثمانية.

{ **سَوَاءً** } قرأه الجمهور بالنصب على الحال من { أَيَّامٍ }، أي: كاملة لا نقص فيها ولا زيادة. وقرأه أبو جعفر مرفوعا على الابتداء بتقدير: هي سواء. وقرأه يعقوب مجرورا على الوصف لـ { أَيَّامٍ }.

{ **لِلسَّائِلِينَ** } يتنازعه كل من أفعال {جَعَلَ - بَارَكَ - قَدَّرَ } فيكون جمع سائل بمعنى الطالب للمعرفة، ويجوز أن يتعلّق بمحذوف، أي: بيَّنَّا ذلك للسائلين، ويجوز أن يكون متعلّقا بفعل { قَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا } فيكون المراد بالسائلين الطالبين للقوت.

{ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ } [11].

{ **ثُمَّ** } للترتيب الرتبي، وهي تدلّ على أنّ مضمون الجملة المعطوفة أهم مرتبة من مضمون الجملة المعطوف عليها، فإنّ خلق السماوات أعظم من خلق الأرض، وعوالمها أكثر وأعظم.

وليس هذا بمقتض أنّ الإرادة تعلّقت بخلق السماء بعد تمام خلق الأرض، ولا مقتضيا أنّ خلق السماء وقع بعد خلق الأرض كما سيأتي.

الاستواء: القصد إلى الشيء توًّا لا يعترضه شيء آخر. وهو تمثيل لتعلّق إرادة الله تعالى بإيجاد السماوات. وتقدّم في قوله تعالى { هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ } [البقرة:29].

الدخان: ما يتصاعد من الوَقود عند التهاب النار فيه.

{ **وَهِيَ دُخَانٌ** } تشبيه بليغ، أي: وهي مثل الدخان، وقد ورد في الحديث: **" أنّها كانت عماء "**. والعماء سحاب رقيق، أي: رطوبة دقيقة، وهو تقريب للعنصر الأصلي الذي خلق الله منه الموجودات.

أي: أن السماء كُوِّنت من ذلك الدخان، فتكون مادة السماء موجودة قبل وجود الأرض.

{ **فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ** } تفريع على فعل { اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ }، فيكون القول موجّها إلى السماء والأرض حينئذ، أي: قبل خلق السماء لا محالة وقبل خلق الأرض، لأنّه جعل القول لها مقارنا القول للسماء، وهو قول تكوين. أي: تعلّق القدرة بمادة تكوينهما.

{ **ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا** } الإتيان أصله المجيء والإقبال، ولمّا كان معناه الحقيقي غير مراد، لأنّ السماء والأرض لا يُتصوّر أن يأتيا، ولا يُتصوّر منهما طواعية أو كراهية، إذ ليستا من أهل العقول والادراكات، ولا يُتصوّر أنّ الله يُكرههما على ذلك، تعيّن الصرف عن المعنى الحقيقي وذلك بأحد وجهين:

الوجه الأوّل: أن يكون الإتيان مستعارا لقبول التكوين كما استعير للعصيان الإدبار في قوله تعالى { ثُمَّ

أَدْبَرَ يَسْعَى } [النازعات:22]، وقول النبيّ صلى الله عليه وسلم لمسيلمة حين امتنع من الإيمان والطاعة في وفد قومه بني حنيفة: **" لئن أدبرت ليعقرنّك الله "**، وكما يستعار النفور والفرار للعصيان.

أي: امتثلا أمر التكوين. وهذا الامتثال مستعار للقبول وهو من بناء المجاز على المجاز.

{ **طَوْعًا أَوْ كَرْهًا** } كناية عن عدم البُدِّ من قبول الأمر، وهو تمثيل لتمكّن القدرة من إيجادهما على وفق إرادة الله تعالى. فالكلمة جارية مجرى الأمثال.

الوجه الثاني: أن تكون الجملة مستعملة تمثيلا لهيئة تعلّق قدرة الله تعالى لتكوين السماء والأرض لعظمة خالقهما بهيئة صدور الأمر من آمر مطاع للعبد المأذون بالحضور لعمل شاق. فلا قول ولا مقول، وإنّما هو تمثيل، ويكون { طَوْعًا أَوْ كَرْهًا } على هذا من تمام الهيئة المشبّهة.

والمقصود على كلا الاعتبارين تصوير عظمة القدرة الإلهية ونفوذها في المقدورات دقَّت أو جلَّت.

{ **قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ** } يجوز أن يكون القول مستعارا للدلالة على سرعة تكوّنهما. ويجوز أن يكون تمثيلا لهيئة تكوّن السماء والأرض عند تعلّق قدرة الله تعالى بتكوينهما بهيئة المأمور بعمل تقبلّه عن طواعية.

{ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } [12].

{ **فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ** } تفريع على قوله تعالى { فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا }.

القضاء: الإيجاد الإبداعي لأنّ فيه معنى الإتمام والحكم، فهو يقتضي الابتكار والإسراع.

{ **سَبْعَ سَمَاوَاتٍ** } انتصب على أنّه حال من ضمير { فَقَضَاهُنَّ } أو عطف بيان له، ويجوز أن يكون مفعولا ثانيا لتضمين { فَقَضَاهُنَّ } معنى صيّرهنّ، وهذا كقوله تعالى { فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ } [البقرة:29].

وكان خلق السماوات في يومين قبل أربعة الأيام التي خلقت فيها الأرض وما فيها. وقد بيَّنَّا في سورة البقرة أنّ الأظهر أن خلق السماء كان قبل خلق الأرض. وليس في هذه الآية ما يقتضي ذلك.

{ **وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا** } الوحي: الكلام الخفي.

ويطلق على حصول المعرفة في نفس من يراد حصولها عنده دون قول، ومنه قوله تعالى حكاية عن زكريا { فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ } [مريم:11]، أي: أومأ إليهم بما دل على معنى: سبحوا بكرة وعشيا.

ويطلق على إلهام الله تعالى المخلوقات لما تتطلّبه ممّا فيه صلاحها، كقوله تعالى { وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا } [النحل:68]، أي: جبلها على إدراك ذلك وتطلّبه.

ويطلق على تسخير الله تعالى بعض مخلوقاته لقبول أثر قدرته، كقوله تعالى { إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا - إلى قوله - بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا } [الزلزلة:1-5].

{ **وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ** } يقع على جميع تلك المعاني من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازاته، فهو أوحى

في السماوات بتقدير نظم جاذبيتها، وتقادير سير كواكبها، وأوحى فيها بخلق الملائكة فيها، وأوحى إلى الملائكة بما يتلقّونه من الأمر بما يعملون، قال تعالى { وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ } [الانبياء:27].

{ **أَمْرَهَا** } بمعنى شأنها، وهو يصدق بكل ما هو من ملابساتها من سكّانها وكواكبها وتماسك جرمها.

وذلك مقابل قوله في خلق الأرض { وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا } [10].

{ **وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا** } التفات من طريق الغيبة إلى طريق التكلّم تجديدا لنشاط السامعين لطول استعمال طريق الغيبة ابتداء من قوله تعالى { بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ } [9]، مع إظهار العناية بتخصيص هذا الصنع الذي ينفع الناس دينا ودنيا، وهو خلق النجوم الدقيقة والشهب.

المصابيح: جمع مصباح، وهو ما يوقد بالنار في الزيت للإضاءة، وهو مشتق من الصباح لأنّهم يحاولون أن يجعلوه خلفا عن الصباح. والمراد بالمصابيح: النجوم، استعير لها المصابيح لما يبدو من نورها.

{ **وَحِفْظًا** } انتصب على أنّه مفعول لأجله لفعل محذوف دلّ عليه فعل { زيَّنَّا }. والتقدير: وجعلناها حفظا. والمراد: حفظا للسماء من الشياطين المسترقة للسمع. وتقدّم الكلام على نظيره في [الصافات:7].

{ **ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** } الإشارة إلى المذكور من قوله { وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا } [10] إلى هنا. **التقدير**: وضع الشيء على مقدار معيّن، وتقدّم نظيره في [يس:38].

{ **فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ** [13] **إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ** [14] }.

{ **فَإِنْ أَعْرَضُوا** } أي: إن استمروا على إعراضهم بعد ما هديتهم بالدلائل البيّنة وكابروا فيها. فالفعل مستعمل في معنى الاستمرار.

الإنذار: التخويف، وهو هنا تخويف بتوقّع عقاب مثل عقاب الذين شابهوهم في الإعراض خشية أن يحلّ بهم ما حل بأولئك، بناء على أن المعروف أن تجري أفعال الله على سَنن واحد.

وليس هو وعيدا، لأنّ قريشا لم تصبهم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، وإن كانوا قد ساوَوْهما في التكذيب والإعراض، وفي التعلُّلات التي تعلَّلوا بها، مثل قولهم { لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً } [المؤمنون:24].

الصاعقة: حقيقتها نار تخرج مع البرق تحرق ما تصيبه، وتقدّم ذكرها في قوله تعالى { يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ } [البقرة:19]. وتطلق على الحادثة الكبيرة سريعة الإهلاك.

{ **مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ** } لمّا أضيفت صاعقة هنا إلى عاد وثمود، وعاد لم تهلكهم الصاعقة وإنّما أهلكهم الريح وثمود هم الذين أهلكوا بالصاعقة، فقد استعمل الصاعقة هنا في حقيقته ومجازه، أو هو من

عموم المجاور، والمقتضي لذلك، على الاعتبارين، قصد الإيجاز، وليقع الإجمال ثم التفصيل بعد بقوله تعالى { فَأَمَّا عَادٌ - إلى قوله - بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [17].

{ **إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ** } و(إِذْ) ظرف للماضي، أي: مثل صاعقتهم حين جاءتهم الرسل. روى ابن إسحاق في سيرته أنّ عتبة بن ربيعة كلّم النبيّ صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من خلاف قومه فتلا عليهم النبيّ صلى الله عليه وسلم { حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } حتّى بلغ قوله تعالى { فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً } [13]، فأمسك عتبة على فم النبيّ صلى الله عليه وسلم وقال له: ناشدتك الله والرحم.

{ **جَاءَتْهُمُ** } الضمير عائد إلى عاد وثمود باعتبار عدد كل قبيلة منهما.

{ **الرُّسُلُ** } الجمع هنا من باب إطلاق صيغة الجمع على الاثنين، مثل قوله تعالى { فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا } [التحريم:4]، والقرينة واضحة، وهو استعمال غير عزيز، وإنّما جاءهم رسولان هود وصالح.

{ **مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ** } تمثيل لحرص رسول كلّ منهم على هداهم بحيث لا يترك وسيلة يتوسّل بها إلى إبلاغهم الدين إلّا توسّل بها. فمثّل ذلك بالمجيء إلى كل منهم تارة من أمامه وتارة من خلفه لا يترك له جهة، كما يفعل الحريص. وهذا التمثيل نظير الذي في قوله تعالى حكاية عن الشيطان { ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ } [الأعراف:17].

وإنّما اقتصر في هذه الآية على جهتين ولم تستوعب الجهات الأربع كما مثّل حال الشيطان في وسوسته لأنّ المقصود هنا تمثيل الحرص فقط وقد حصل، والمقصود في الحكاية عن الشيطان تمثيل الحرص مع التلهّف، تحذيرا منه وإثارة لبغضه في نفوس الناس.

{ **أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ** } تفسير لجملة { جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ } لتضمّن المجيء معنى الإبلاغ بقرينة كون فاعل المجيء متّصفا بأنّهم رسل.

{ **قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ** } حكاية جواب عاد وثمود لرسوليهم فقد كان جوابا متماثلا لأنّه ناشئ عن تفكير متماثل، كما قال تعالى { كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ } [الذريات:53/52].

{ **فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ** } أي: جاحدون رسالتكم، وهو أيضا كناية عن التكذيب.

{ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ [15] فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ [16] }.

بعد أن حُكي عن عاد وثمود ما اشترك فيه الأُمَّتان من المكابرة والإصرار على الكفر فصل هنا بعض ما اختصّت به عاد من صورة الكفر، وذكر من ذلك ما له مناسبة لما حلّ بهم من العذاب.

{ **فَأَمَّا** } الفاء تفريع على جملة { قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً } [14] المقتضية أنّهم رفضوا دعوة رسوليهم ولم يقبلوا إرشادهما واستدلالهما. و(أمّا) حرف شرط وتفصيل.

<u>المعنى</u>: فأمّا عاد فمنعهم قبول الهدى استكبارهم.

{ **فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ** } الاستكبار المبالغة في الكبر، أي: التعاظم واحتقار الناس، فالسين والتاء فيه للمبالغة. والتعريف في { الأرض } للعهد، أي: أرضهم المعهودة.

وإنّما ذُكر من مساويهم الاستكبار لأنّ تكبّرهم هو الذي صرفهم عن اتباع رسولهم وعن توقّع عقاب الله.

{ **بِغَيْرِ الْحَقِّ** } زيادة تشنيع لاستكبارهم، فإنّ الاستكبار لا يكون بحق، إذ لا مبرّر للكبر بوجه من الوجوه. وهم قد اغترّوا بقوّة أجسامهم وعزّة أمّتهم وادعوا أنّهم لا يغلبهم أحد، وهو معنى:

{ **وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً** } فقولهم ذلك هو سبب استكبارهم لأنّه أورثهم الاستخفاف بمن عداهم، فلمّا جاءهم هود بإنكار ما هم عليه من الشرك والطغيان عظم عليهم ذلك لأنّهم اعتادوا العجب بأنفسهم، فكذّبوه.

{ **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً** } جملة معترضة. والرؤية علمية، والاستفهام إنكاري.

<u>المعنى</u>: إنكار عدم علمهم بأنّ الله أشدّ منهم قوّة حيث أعرضوا عن رسول ربّهم وعن إنذاره إيّاهم، إعراض من لا يكترث بعظمة الله تعالى، لأنّهم لو حسبوا لذلك حسابه لتوقّعوا عذابه فلأقبلوا على دلائل صدق رسوله. { **الَّذِي خَلَقَهُمْ** } إيماء إلى وجه الإنكار عليهم، لجهلهم بأنّ الله أقوى منهم، فإنّ كونهم مخلوقين معلوم لهم بالضرورة، فكان العلم به كافيا في الدلالة على أنّه أشدّ منهم قوّة.

{ **هُوَ أَشَدُّ** } ضمير الفصل مفيد تقوية الحكم بمعنى وضوحه، وإذا كان ذلك الحكم محقَّقا كان عدم علمهم بمقتضاه أشنع وعذرهم في جهله منتفيا.

القوّة: حقيقتها حالة في الجسم يتأتّى بها أن يعمل الأعمال الشاقة، وتطلق على لازم ذلك من القدرة ووسائل الأعمال، وقد تقدّم بيان إطلاقها في قوله تعالى { فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ } [الأعراف:145].

والمراد بها هنا معناها الحقيقي والكنائي والمجازي، فهو مستعمل في حقيقته تصريحا وكناية، ومجازه لما عندهم من وسائل تذليل صعاب الأمور لقوة أجسامهم وقوة عقولهم. والعرب تضرب المثل بعاد في

أصالة آرائهم، فيقولون أحلام عاد. ويقولون في وصف الأشياء التي يقل صنع أمثالها عادية يقولون: بناء عادي.

وإطلاق القوّة على قدرة الله تعالى بمعنى كمال القدرة، أي: عموم تأثيرها وتعلّقها بالممكنات على وفق الإرادة لا يستعصي على تعلّق قدرته شيء ممكن، وكمال غناه عن التأثير للغير.

{ **وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ** } يحتمل أنّ المراد معجزات رسولهم هود فلم يؤمنوا بها وأصروا على العناد، ولم يذكر القرآن لهود آيات سوى أنّه أنذرهم عذابا يأتيهم من السماء، قال تعالى { فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ } [الاحقاف:24]. ويحتمل أنّ المراد بالآيات دلائل الوحدانية التي في دعوة رسولهم وتذكيرهم بنعم الله عليهم، كقوله تعالى { وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً } [لأعراف:69]، وقوله تعالى { وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ } [الشعراء:132-134].

{ **وَكَانُوا** } دلّ على أنّ التكذيب بالآيات متأصّل فيهم.

{ **يَجْحَدُونَ** } دلّت صيغة المضارع أنّ الجحد متكرّر فيهم متجدّد.

{ **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** } أشارت الفاء إلى أنّ عقابهم كان مسبَّبا على حالة كفرهم بصفتها، فإنّ باعث كفرهم كان اغترارهم بقوّتهم، فأهلكهم الله بما لا يترقّب الناس الهلاك به، فإنّ الناس يقولون للشيء الذي لا يؤبه به: هو ريح، ليريهم أنّ الله شديد القوة وأنّه يضع القوّة في الشيء الهين مثل الريح ليكون عذابا وخزيا، أي: تحقيرا، كما قال تعالى { لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا }، وأي خزي أشدّ من أن تتراماهم الريح في الجو كالريش، وأن تلقيهم هلكى على التراب عن بكرة أبيهم فيشاهدهم المارون بديارهم جثثا صرعى كأنّهم أعجاز نخل خاوية.

الريح: تموّج في الهواء يحدث من تعاكس الحرارة والبرودة. والريح الذي أصاب عادا هو الريح الدَّبور، وهو الذي يهبّ من جهة مغرب الشمس، سُمِّيت دَبُورا لأنّها تهبّ من جهة دُبر الكعبة. قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" نُصرت بالصبا وأُهلِكت عاد بالدّبور "**.

الصرصر: الريح العاصفة التي يكون لها صرصرة، أي: دوي في هبوبها من شدة سرعة تنقّلها.

{ **نَحِسَاتٍ** } جمع نحس بدون تأنيث لأنه مصدر لفعل نحِس كعلم، كقوله تعالى { فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ } [القمر:19]. وقرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بسكون الحاء. ويجوز كسر الحاء وبه قرأ البقية على أنّه صفة مشبهة من (نحِس) إذا أصابه النحس إصابة سوء أو ضرّ شديد.

فمعنى وصف الأيام بالنحسات: أنّها أيام سوء شديد أصابهم وهو عذاب الريح، وهي ثمانية أيام كما جاء في قوله تعالى { سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا } [الحاقة:7]، فالمراد: أنّ تلك الأيام بخصوصها كانت نحسا وأنّ نحسها عليهم دون غيرهم من أهل الأرض، لأنّ عادا هم المقصودون

بالعذاب. وليس المراد أنّ تلك الأيام من كل عام هي أيام نحس على البشر، لأنّ ذلك لا يستقيم لاقتضائه أن تكون جميع الأمم حل بها سوء في تلك الأيام.

وقد اخترع أهل القصص تسمية أيام ثمانية نصفُها آخر شهر شباط ونصفها شهر آذار تكثر فيها الرياح غالبا دعوها أيام الحسوم ثم ركّبوا على ذلك أنّها الموصوفة بحسوم في قوله تعالى { سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا } [الحاقة:7]، فزعموا أنّها الأيام الموافقة لأيام الريح التي أصابت عادا، ثم ركّبوا على ذلك أنّها أيّام نحس من كل عام، وكذبوا على بعض السلف مثل ابن عباس أكاذيب في ذلك.

{ **لِنُذِيقَهُمْ** } اللام للتعليل، وهي متعلّقة بـ { فَأَرْسَلْنَا }. والإذاقة تخييل لمكنية، شُبه العذاب بطعام هُيّئ لهم على وجه التهكّم.

{ **عَذَابَ الْخِزْيِ** } أنه سبب خزي، أي: ذلّ. فوصف العذاب بأنّه خزي، بمعنى مخز من باب المجاز العقلي، ويقدّر قبل الإضافة: لنذيقهم عذابا مخزيا. فحصلت مبالغتان، مبالغة الوصف بالمصدر، ومبالغة إضافة الموصوف إلى الصفة.

{ **وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى** } احتراس لئلّا يحسب السامعون أنّ حظ أولئك من العقاب هو عذاب الإهلاك بالريح فعُطِف عليه الإخبار بأنّ عذاب الآخرة أخزى.

أخزى: اسم تفضيل جرى على غير قياس، وقياسه أن يقال: أشد إخزاء، لأنّه لا يقال: خزاه، بمعنى أخزاه، أي: أهانه، ومثل هذا في صوغ اسم التفضيل كثير في الاستعمال.

{ **وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ** } تذييل، أي: لا ينصرهم من يدافع العذاب عنهم، ولا من يشفع لهم، ولا من يخرجهم منه بعد مهلة.

{ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } [17]

بقية التفصيل الذي في قوله { فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا } [15]. ولمّا كان حال الأمتين واحدا في عدم قبول الإرشاد من جانب الله تعالى كما أشار إليه قوله تعالى { قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً} [14]، كان الإخبار عن ثمود بأنّ الله هداهم مقتضيا أنّه هدى عادا مثل ما هدى ثمود وأنّ عادا استحبّوا العمى على الهدى مثل ما استحبت ثمود.

المعنى: وأمّا ثمود فهديناهم هداية إرشاد برسولنا إليهم وتأييده بآية الناقة التي أخرجها لهم من الأرض.

{ **فَهَدَيْنَاهُمْ** } الإرشاد التكليفي، وهي غير ما في قوله تعالى { وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ } [الزمر:37]، فإنّ تلك الهداية التكوينية لمقابلته بقوله تعالى { وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ } [غافر:33].

{ **فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى** } أحبّوا، فالسين والتاء للمبالغة. والعمى هنا مستعار للضلال في الرأي،

أي: اختاروا الضلال بكسبهم. وضُمِّن (استحبّوا) معنى: فضَّلوا، فلذلك عُدّي بحرف (على).

{ **فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ** } تفريع، وكان العقاب مناسبا للجرم، لأنّهم استحبّوا الضلال الذي هو مثل العمى، فكان جزاؤهم بالصاعقة لأنّها تُعمي أبصارهم في حين تهلكهم، قال تعالى { يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ } [البقرة:20].

الأخذ: مستعار للإصابة المهلكة لأنّها اتصال بالمهلك.

الصاعقة: الصيحة التي تنشأ في كهربائية السحاب الحامل للماء فتنقدح منها نار تهلك ما تصيبه.

{ **صَاعِقَةُ الْعَذَابِ** } الإضافة للدلالة على أنّها صاعقة تُعرّف بطريق الإضافة، أي: صاعقة خارقة لمعتاد الصواعق، فهي صاعقة مسخّرة من الله لعذاب ثمود.

{ **الْعَذَابِ الْهُونِ** } كما وصف العذاب بالخزي في قوله تعالى { لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ } [16].

الهوان: الذلّ، ووجه كونه هونا أنّه إهلاك فيه مذلّة بيّناه في مهلك عاد. أي: العذاب الذي هو سبب الهون.

{ **بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** } أي: أخذتهم الصاعقة بسبب كسبهم في اختيارهم البقاء على الضلال بإعراضهم عن دعوة رسولهم وعن دلالة آياته.

ويعلم من قوله في شأن عاد { وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى } [16] أنّ لثمود عذابا في الآخرة، لأنّ الأمّتين تماثلتا في الكفر، فلم يذكر ذلك هنا اكتفاء بذكره فيما تقدّم. وهذا مُحسِّن الاكتفاء، وهو مُحسِّن يرجع إلى الإيجاز.

{ **وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ** } [18].

الأظهر أنّه عطف على التفصيل في قوله { فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا } [15] وما عطف عليه من قوله { وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ } [17]، لأنّ موقع هاته الجملة، المتضمّنة إنجاء المؤمنين من العذاب بعد أن ذُكر عذاب عاد وعذاب ثمود، يشير إلى أنّ المعنى إنجاء الذين آمنوا من قوم عاد وقوم ثمود، فمضمون هذه الجملة فيه معنى الاستثناء. قال تعالى { وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا } [هود:58]، وقال تعالى { فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا } [هود:66].

وقد بيَّنَّا في سورة [الأعراف:72 و78] كيف أنجى الله هودا والذين آمنوا معه، وصالحا والذين آمنوا معه.

{ **وَكَانُوا يَتَّقُونَ** } أي: كانت سنتهم اتقاء الله والنظر فيما ينجي من غضبه وعقابه، وهو أبلغ في الوصف من أن يقال: المتقين.

{ **وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ [19] حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [20] وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [21]** }.

لمَّا فُرِغ من موعظة المشركين بحال الأمم المكذبة من قبلهم وإنذارهم بعذاب يحلّ بهم في الدنيا كما حلّ بأولئك ليكون لهم ذلك عبرة، انتُقل إلى إنذارهم بما سيحلّ بهم في الآخرة.

{ **وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ** } معطوفة على جملة { فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً } [13].

والتقدير: وأنذرهم يوم نحشر أعداء الله إلى النار. أي: وأنذرهم يوم عقاب الآخرة.

أعداء الله: هم مشركو قريش لأنّهم أعداء رسوله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ } [الممتحنة:1]، يعني المشركين لقوله بعده { يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ } ولأنّها نزلت في قضية كتاب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش يعلمهم بتهيّؤ النبيّ صلى الله عليه وسلم لغزو مكة. ولا يجوز أن يكون المراد جميع الكفار من الأمم بحيث يدخل المشركون من قريش دخول البعض في العموم، لأنّ ذلك المحمل لا يكون له موقع رشيق في المقام، لأنّ الغرض من ذكر ما أصاب عادا وثمود هو تهديد مشركي مكة بحلول عذاب مثله في الدنيا لأنّهم قد علموه ورأوا آثاره، فللتهديد بمثله موقع لا يسعهم التغافل عنه.

الحشر: جمع الناس في مكان لمقصد.

{ **إِلَى النَّارِ** } يتعلق بـ { يُحْشَرُ } لتضمينه معنى: نرسل، أي: نرسلهم إلى النار.

{ **فَهُمْ يُوزَعُونَ** } الفاء عطف وتفريع على { يُحْشَرُ }، لأنّ الحشر يقتضي الوزع إذ هو من لوازمه عرفا، إذ الحشر يستلزم كثرة عدد المحشورين وكثرة العدد تستلزم الاختلاط وتداخل بعضهم في بعض فلا غنى لهم عن الوزع لتصفيفهم وردّ بعضهم عن بعض.

الوزع: كف بعضهم عن بعض ومنعهم من الفوضى، وتقدّم في [النمل:17]، وهو كناية عن كثرة المحشورين.

{ **حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا** } { حَتَّى } ابتدائيّة تفيد معنى الغاية، أي: إذا وصلوا إلى جهنم.

{ **شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } جملة معترضة بين الشرط وجوابه.

وشهادة جوارحهم وجلودهم عليهم شهادة تكذيب وافتضاح، لأنّ كون ذلك شهادة يقتضي أنّهم لمّا رأوا النار اعتذروا بإنكار بعض ذنوبهم طمعا في تخفيف العذاب، وإلّا فقد علم الله ما كانوا يصنعون وشهدت به الحفظة وقرئ عليهم كتابهم، وما أحضروا للنّار إلّا وقد تحقّقت إدانتهم، فما كانت شهادة جوارحهم إلّا زيادة خزي لهم وتحسيرا وتنديما على سوء اعتقادهم في سعة علم الله.

وتخصيص السمع والأبصار والجلود بالشهادة على هؤلاء دون بقية الجوارح؛

لأن للسمع اختصاصا بتلقي دعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم وتلقي آيات القرآن، فسمعهم يشهد عليهم بأنّهم كانوا يصرفونه عن سماع ذلك، كما حكى الله عنهم بقوله تعالى { وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ } [5].

ولأنّ للأبصار اختصاصا بمشاهدة دلائل المصنوعات الدالة على انفراد الله تعالى بالخلق والتدبير فذلك دليل وحدانيته في إلهيته.

وشهادة الجلود لأنّ الجلد يحوي جميع الجسد، لتكون شهادة الجلود عليهم شهادة على أنفسها فيظهر استحقاقها للحرق بالنار لبقية الأجساد دون اقتصار على حرق موضع السمع والبصر.

بخلاف آية سورة النور { يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [النور:24]، لأنّ آية النور تصف الذين يرمون المحصنات، وهم الذين اختلقوا تهمة الإفك ومشوا في المجامع يشيعونها بين الناس ويشيرون بأيديهم إلى من اتهموه إفكا.

{ **وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا** } وإنّما قالوا لجلودهم دون أن يقولوه لسمعهم وأبصارهم لأنّ الجلود مواجهة لهم يتوجَّهون إليها بالملامة. والاستفهام مستعمل في الملامة، وهم يحسبون أنّ جلودهم لكونها جزءا منهم لا يحق لهم شهادتها عليهم لأنّها تجر العذاب إليها.

{ **قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ** } اعتذار بأن الشهادة جرت منها بغير اختيار. وهذا النطق من خوارق العادات كما هو شأن العالم الأخروي.

{ **الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ** } تمجيد لله تعالى ولا علاقة له بالاعتذار.

{ **وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** } يجوز أن تكون هذه الجملة والتي عطفت عليها من تمام ما أنطق الله به جلودهم، تشهيرا بخطئهم في إنكارهم البعث والمصير إلى الله، لزيادة التنديم والتحسير، فيكون التعبير بالفعل المضارع { تُرْجَعُونَ } لاستحضار حالتهم، فإنّهم ساعتئذ في قبضة تصرف الله مباشرة.

وأمّا رجوعهم بمعنى البعث فإنّه قد مضى بالنسبة لوقت إحضارهم عند جهنم، أو يكون المراد بالرجوع الرجوع إلى ما ينتظرهم من العذاب.

ويجوز أن تكون هذه الجملة وما بعدها اعتراضا بين جملة { وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ } وجملة { فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ } [24]، موجَّها من جانب الله تعالى إلى المشركين الأحياء لتذكيرهم بالبعث عقب ذكر حالهم في القيامة انتهازا لفرصة الموعظة السابقة عند تأثرهم بسماعها.

ويكون فعل { تُرْجَعُونَ } مستعملا في الاستقبال على أصله، والكلام استدلال على إمكان البعث.

{ **وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** } تقديم المتعلّق للاهتمام ورعاية الفاصلة.

{ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ [22] **وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ** [23] }.

يجوز أن تكون الجملة بتمامها معطوفة على جملة { وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ } [21]، فتكون مشمولة للاعتراض متصلة بالتي قبلها على كلا التأويلين السابقين في التي قبلها. ويجوز أن تكون مستقلّة عنها: إمّا معطوفة على جملة { وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ }، وإمّا معترضة بين تلك الجملة وجملة { فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ } [24]، ومناسبة الاعتراض ما جرى من ذكر شهادة سمعهم وأبصارهم وجلودهم عليهم. فيكون الخطاب لجميع المشركين الأحياء في الدنيا، أو للمشركين في يوم القيامة.

وعلى هذه الوجوه فالمعنى: ما كنتم في الدنيا تخفون شرككم وتستترون منه بل كنتم تجهرون به وتفخرون باتباعه فماذا لومكم على جوارحكم وأجسادكم أن شهدت عليكم بذلك، فإنّه كان أمرا مشهورا. فالاستتار مستعمل في الإخبار مجازا، لأنّ حقيقة الاستتار إخفاء الذوات، والذي شهدت به جوارحهم هو اعتقاد الشرك والأقوال الداعية إليه.

وعلى بعض احتمالات يكون فعل { تَسْتَتِرُونَ } مستعملا في حقيقته أي تستترون بأعمالكم عن سمعكم وأبصاركم وجلودكم، وذلك توبيخ، كناية عن أنّهم ما كانوا يرون ما هم عليه قبيحا حتّى يستتروا منه.

وعلى بعض الاحتمالات يكون فعل { تَسْتَتِرُونَ } مستعملا في حقيقته ومجازه.

وحاصل معنى الآية على جميع الاحتمالات: أنّ الله عليم بأعمالكم ونيَّاتكم لا يخفى عليه شيء منها إن جهرتم أو سترتم وليس الله بحاجة إلى شهادة جوارحكم عليكم، وما أوقعكم في هذا الضرّ إلّا سوء ظنّكم بجلال الله.

{ **وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ** } الإشارة إلى الظنّ المأخوذ من فعل { ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ }، يُستفاد من الإشارة إليه تمييزه أكمل تمييز وتشهير شناعته للنداء على ضلالهم.

وأتبع اسم الإشارة بالبدل بقوله { ظَنُّكُمُ } لزيادة بيانه ليتمكّن ما يعقبه من الخبر { أَرْدَاكُمْ } وما تفرّع عليه.

{ **بِرَبِّكُمْ** } العدول عن اسم الله العلم للتنبيه على ضلال ظنّهم، إذ ظنّوا خفاء بعض أعمالهم عن علمه مع أنّه ربّهم وخالقهم، فكيف يخلقهم وتخفى عنه أعمالهم ! وهو يشير إلى قوله تعالى { أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ } [الملك:14].

الإرادء: الإهلاك، يقال: ردي كرضي، إذا هلك، أي: مات، وهو هنا مستعار للإيقاع في سوء الحالة.

وفي الإتيان بالمسند فعلا إفادة قصر، أي: ما أرداكم إلّا ظنّكم ذلك، وهو قصر إضافي، أي: لم تُرْدِكُم شهادة جوارحكم حتّى تلوموها بل أرداكم ظنّكم أنّ الله لا يعلم أعمالكم فلم تحذروا عقابه.

{ **فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ** } تمثيل لحالهم إذ يحسبون أنّهم وصلوا إلى معرفة ما يحق أن يعرفوه من شؤون الله ووثقوا من تحصيل سعادتهم، وهم ما عرفوا الله حقّ معرفته فعاملوا الله بما لا يرضاه فاستحقوا العذاب من حيث ظنّوا النجاة، فشُبِّه حالهم بحال التاجر الذي استعد للربح فوقع في الخسارة.

{ **فَأَصْبَحْتُمْ** } صرتم، لأنّ أصبح يكثر أن تأتي بمعنى: صار.

المعنى: أنّه نُعي عليهم سوء استدلالهم وفساد قياسهم في الأمور الإلهية، وقياسهم الغائب على الشاهد، تلك الأصول التي استدرجتهم في الضلالة فأحالوا رسالة البشر عن الله ونفوا البعث، ثم أثبتوا شركاء لله في الإلهية، وتفرّع لهم من ذلك كلّه قطع نظرهم عمّا وراء الحياة الدنيا وأمنهم من التبعات في الحياة الدنيا، فذلك جماع قوله تعالى { وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ }.

وأعلم أنّ أسباب الضلال في العقائد كلّها إنّما تأتي على الناس من فساد التأمّل وسرعة الإيقان وعدم التمييز بين الدلائل الصائبة والدلائل المشابهة، وكلّ ذلك يفضي إلى الوهم المعبّر عنه بالظن السيّئ، أو الباطل.

وقد ذكر الله مثله في المنافقين، قال تعالى { يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ } [آل عمران:154].

فليحذر المؤمنون من الوقوع في مثل هذه الأوهام فيبوؤوا ببعض ما نعي على عبدة الأصنام.

وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **إيّاكم والظنّ فإنّ الظنّ أكذب الحديث** "، يريد الظنّ الذي لا دليل عليه.

{ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ } [24].

تفريع على جواب {إذا}، أو تفريع على جملة { وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا } [21]، أو هو جواب {إذا} . والمعنى على جميع الوجوه: أنّ حاصل أمرهم أنّهم قد زُجَّ بهم في النار فإن صبروا واستسلموا فهم باقون في النار، وإن اعتذروا لم ينفعهم العذر ولم يُقبل منهم تنصّل.

{ **فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ** } دليل جواب الشرط لأنّ كون النار مثوى لهم ليس مسبَّبا على حصول صبرهم وإنّما هو من باب قولهم: إن قبل ذلك فذاك، أي: فهو على ذلك الحال، فالتقدير: فإن يصبروا فلا يسعهم إلّا الصبر لأنّ النّار مثوى لهم.

{ **وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا** } إن يسألوا العُتْبَى. اسم مصدر **الإعتاب** وهي رجوع المعتوب عليه إلى ما يُرضي العاتب. وفي المثل: ما مسيء من أعتب، أي: من رجع عما أساء به.

والسين والتاء فيه للطلب، لأنّ المرء لا يسأل أحدا أن يعاتبه وإنّما يسأله ترك المعاتبة، أي يسأله الصفح عنه. أي: أنّ الله لا يعتبهم، أي: لا يقبل منهم.

{ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ } [25].

عطف على جملة { وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ } [19]، وذلك أنّه حُكي قولهم المقتضي إعراضهم عن التدبّر في دعوة الإيمان، ثم ذُكر كفرهم بخالق الأكوان بقوله تعالى { قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ } [9]، ثم ذُكر مصيرهم في الآخرة بقوله تعالى { وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ }، ثم عُقِّب ذلك بذكر سبب ضلالهم الذي نشأت عنه أحوالهم بقوله تعالى { وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ }، وتخلّل بين ما هنالك وما هنا أفانين من المواعظ والدلائل والمنن والتعاليم والقوارع والإيقاظ.

قيّض: أتاح وهيّأ شيئا للعمل في شيء.

القرناء: جمع قرين، وهو الصاحب الملازم، والقرناء هنا: هم الملازمون لهم في الضلالة، إمّا في الظاهر مثل دعاة الكفر وأئمّته، وإمّا في باطن النفوس مثل شياطين الوسواس الذين قال الله فيهم { وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ } [الزخرف:36].

فالتقييض بمعنى التقدير، عبارة جامعة لمختلف المؤثّرات والتجمّعات التي توجب التآلف والتحاب بين الجماعات، ولمختلف الطبائع المكوّنة في نفوس بعض الناس، فيقتضي بعضها جاذبية الشياطين إليها وحدوث الخواطر السيّئة فيها. وللإحاطة بهذا المقصود أوثر هذا التعبير دون غيره من نحوه: بعثنا، وأرسلنا.

{ **فَزَيَّنُوا لَهُمْ** } التزيين التحسين، وهو يُشعر بأنّ المزيَّن غير حسن في ذاته.

{ **مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ** } يُستعار للأمور المشاهدة، والمراد هنا: أمور الدنيا، أي: زيّنوا لهم ما يعملونه في الدنيا من الفساد مثل عبادة الأصنام، وقتل النفس بلا حق، وأكل الأموال، والعدول على الناس باليد واللسان، والميسر، وارتكاب الفواحش، والوأد. فعوّدوهم باستحسان ذلك كلّه لما فيه من موافقة الشهوات والرغبات العارضة قصيرة المدى، وصرفوهم عن النظر فيما يحيط بأفعالهم تلك من المفاسد الذاتيّة الدائمة.

{ **وَمَا خَلْفَهُمْ** } يستعار للأمور المغيَّبة. والمراد هنا: الأمور المغيّبة عن الحس من صفات الله، وأمور الآخرة من البعث والجزاء، ومثل الشرك بالله ونسبة الولد إليه، وظنّهم أنّه يخفى عليه مستور أعمالهم.

{ **وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ** } أي: تحقّق فيهم القول، وهو وعيد الله إيّاهم بالنار على الكفر، فالتعريف للعهد.

{ **فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ** } حال من ضمير { عليهم }، أي: حقّ عليهم حالة كونهم في أمم أمثالهم قد سبقوهم. و{ فِي } ظرفية مجازية، بمعنى التبعيض، أي: هم من أمم قد خلت من قبلهم حق عليهم القول.

{ **مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ** } و{ مَنِ } بيانية، فيجوز أن يكون بيانا لـ { أُمَمٍ }، أي: من أمم من البشر ومن الشياطين فيكون مثل قوله تعالى { قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ } [الأعراف:38].

ويجوز أن يكون بيانا لـ { قُرَنَاءَ }، أي: ملازمين لهم ملازمة خفية، وهي ملازمة الشياطين لهم بالوسوسة، وملازمة أئمة الكفر لهم بالتشريع لهم ما لم يأذن به الله.

{ **إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ** } يجوز أن تكون بيانا لـ { الْقَوْلُ } مثل نظيرتها {فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ} [الصافات:31]، ويجوز أن تكون مستأنفة استئنافا بيانيا ناشئا عن جملة { وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ }.

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ } [26].

عطف على الجملة { وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ } [5]، عطف القصة على القصة، ومناسبة التخلّص إليه أنّ هذا القول مما ينشأ عن تزيين قرنائهم من الإنس، أو هو عطف على { فَزَيَّنُوا لَهُمْ } [25].

وهذا حكاية لحال أخرى من أحوال إعراضهم عن الدعوة المحمدية، بعد أن وصف إعراضهم في أنفسهم انتقل إلى وصف تلقينهم الناس أساليب الإعراض، فالذين كفروا هنا هم أئمة الكفر يقولون لعامتهم: لا تسمعوا لهذا القرآن، فإنّهم علموا أنّ القرآن كلام هو أكمل الكلام؛ شريف معان وبلاغة تراكيب وفصاحة ألفاظ، وأيقنوا أنّ كلّ من يسمعه، وتُداخل نفسه جزالةُ ألفاظه وسُمُوّ أغراضه قضى له فهمُه أنّه حقّ إتباعه. وقد أدركوا ذلك بأنفسهم ولكنّهم غالبتهم محبّة الدوام على سيادة قومهم فتمالؤوا ودبَّروا لمنع الناس من استماعه، وذلك خشية من أن ترقّ قلوبهم عند سماعه.

وهذا من شأن دعاة الضلال والباطل أن يكمّوا أفواه الناطقين بالحق والحجّة، بما يستطيعون من تخويف وتسويل، وترهيب وترغيب، ولا يدعوا الناس يتجادلون بالحجّة ويتراجعون بالأدلة، لأنّهم يوقنون أنّ حجّة خصومهم أنهض، فهم يسترونها ويدافعونها لا بمثلها ولكن بأساليب من البهتان والتضليل، فإذا أعيتهم الحيل ورأوا بوارق الحق تخفق خشوا أن يعمّ نورها الناس الذين فيهم بقية من خير ورشد عدلوا إلى لغو الكلام ونفخوا في أبواق اللغو والجعجعة لعلّهم يغلبون بذلك على حجج الحقّ ويغمرون القول الصالح باللغو.

{ **لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ** } تحذيرا واستهزاء بالقرآن، فاسم الإشارة مستعمل في التحقير. وتسميتهم إيّاه بالقرآن حكاية لما يجري على ألسنة المسلمين من تسمية بذلك. وتعدية فعل { تَسْمَعُوا } باللام لتضمينه معنى: تطمئنّوا أو تركنوا.

اللغو: القول الذي لا فائدة فيه. أي: قولوا أقوالا لا معنى لها، أو تكلّموا كلاما غير مراد منه إفادة، أو المقصود إحداث أصوات تغمر صوت النبيّ صلى الله عليه وسلم بالقرآن.

{ **فِيهِ** } ولما كان المقصود بتخلل أصواتهم صوت القارئ حتّى لا يفقهه السامعون عدي اللغو بحرف (في) الظرفية لإفادة إيقاع لغوهم في خلال صوت القارئ وقوع المظروف في الظرف على وجه المجاز.

قال ابن عباس: " كان النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو بمكة إذا قرأ القرآن يرفع صوته فكان أبو جهل وغيره يطردون الناس عنه ويقولون لهم: لا تسمعوا له والغوا فيه، فكانوا يأتون بالمكاء والصفير والصياح وإنشاد الشعر والأراجيز وما يحضرهم من الأقوال ". وقد ورد في الصحيح أنّهم قالوا لما استمعوا إلى قراءة أبي بكر، وكان رقيق القراءة: " إنّا نخاف أن يفتن أبناءنا ونساءنا ".

{ **لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ** } رجاء أن تغلبوا محمدا بصرف من يتوقّع أن يتبعه إذا سمع قراءته. وهذا مشعر بأنّهم كانوا يجدون القرآن غالبهم، إذ كان الذين يسمعونه يداخل قلوبهم فيؤمنون. أي: فإن لم تفعلوا فهو غالبكم.

{ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ [27] ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ [28] }.

دلّت الفاء على أنّ ما بعدها مفرّع عما قبلها؛ فإمّا أن يكون تفريعا على آخر ما تقدّم، وهو قوله تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ } [26]، وإمّا على جميع ما تقدّم ابتداء من قوله تعالى { وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ } [5].

{ **الَّذِينَ كَفَرُوا** } على كلا الوجهين، يتعيّن أن يكون المراد بـهم المشركين الذين الكلام عنهم. إظهار في مقام الإضمار لقصد ما في الموصول من الإيماء إلى علّة إذاقة العذاب، أي: لكفرهم المحكي بعضه فيما تقدّم. **إذاقة العذاب**: تعذيبهم، استعير له الإذاقة على طريق المكنية والتخيلية.

{ **عَذَابًا شَدِيدًا** } عن ابن عباس: أنّه عذاب يوم بدر، فهو عذاب الدنيا.

{ **وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ** } عن ابن عباس: لنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون في الآخرة.

أسوأ: اسم تفضيل مسلوب المفاضلة، وإنّما أريد به السيّئ، فصيغ بصيغة التفضيل للمبالغة في سوءِه.

وإضافته إلى { الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ } من إضافة البعض إلى الكلّ.

{ **ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ** } الإشارة إلى ما تقدّم وهو الجزاء والعذاب الشديد على أسوا أعمالهم.

أعداء الله: هم المشركون الذين تقدّم ذكرهم بقوله تعالى { وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ } [19].

{ **النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً** } النار عطف بيان من { جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ } و{ دَارُ الْخُلْدِ } النار. جيء بالظرفية بتنزيل النار منزلة ظرف لدار الخلد، وما دار الخلد إلّا عين النار. وهذا من أسلوب التجريد ليفيد مبالغة معنى الخلد في النار. وهو معدود من المُحسّنات البديعية، ومنه قوله تعالى { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ } [الأحزاب:21].

{ **الْخُلْدِ** } طول البقاء، وأطلق في اصطلاح القرآن على البقاء المؤبد الذي لا نهاية له.

{ **جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ** } انتصب { جَزَاءً } على الحال من { دَارُ الْخُلْدِ } والباء للسببية، و(ما) مصدرية، أي: جزء بسبب كونهم يجحدون بآياتنا. وصيغة المضارع دالة على تجدّد الجحود حينا فحينا وتكرّره، وعُدّي الفعل بالباء لتضمينه معنى: يُكذّبون. وتقديم { بِآيَاتِنَا } للاهتمام وللرعاية على الفاصلة.

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ } [29].

عطف على جملة { لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ } [28]. وصيغة الماضي للدلالة على تحقيق وقوع هذا القول، وهو في معنى قوله تعالى { حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ } [الأعراف:38]. فالقائلون هم عامة المشركين.

{ **أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ** } عيّن لنا، وهو كناية عن إرادة انتقامهم منهم. وإنّما طلبوا أن يروهما لأنّ المضلِّين كانوا في دركات من النار أسفل من دركات أتباعهم.

{ **نَجْعَلْهُمَا** } جواب الطلب مجزوم على تقدير: إن تُرِناهما نجعلهما تحت أقدامنا.

الجعل تحت الأقدام: الوطء بالأقدام والرفس. وكان الوطء بالأرجل من كيفيات الانتقام والامتهان.

{ **لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ** } تعليل، توطئة لاستجابة الله تعالى لهم، لأنّهم علموا من غضب الله عليهم أنّه أشدّ غضبا على المضلِّين فتوسلوا بعزمهم على الانتقام منهم إلى تيسير تمكينهم من ذلك.

{ **الْأَسْفَلِينَ** } أي: ليكونوا أحقر منّا جزاء لهم، فالسفالة مستعارة للإهانة والحقارة.

{ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ [30] نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ [31] نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ [32] }.

بعد استيفاء الكلام على ما أصاب الأمم الماضية، المشركين المكذِّبين، من عذاب الدنيا وما أُعِد لهم من عذاب الآخرة ممّا فيه عبرة للمشركين الذين كذّبوا محمدا صلى الله عليه وسلم بطريق التعريض، ثم أنذروا بالتصريح بما سيحلّ بهم في الآخرة، ووصف بعض أهواله، تشوَّف السامع إلى معرفة حظ المؤمنين ووصف حالهم فجاء قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ }، بيانا للمترقِّب وبشرى للمتطلِّب. فالجملة استئناف بياني ناشئ عما تقدّم من قوله تعالى { وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ - إلى قوله - مِنَ الْأَسْفَلِينَ }[19-29].

{ **إِنَّ** } افتتاح الجملة بحرف التوكيد منظور فيه إلى إنكار المشركين ذلك، ففي توكيد الخبر زيادة قمع لهم.

{ **قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ** } أي: أنّهم صدعوا بذلك ولم يخشوا أحدا بإعلانهم التوحيد، فقولهم تصريح بما في اعتقادهم، فإن الأصل في الكلام الصدق، وهو مطابقة الخبر وما في الوجود الخارجي.

{ **رَبُّنَا اللَّهُ** } يفيد الحصر بتعريف المسند إليه والمسند، أي: لا رب لنا إلّا الله، وذلك جامع لأصل الاعتقاد الحق، لأنّ الإقرار بالتوحيد يزيل المانع من تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء به.

الاستقامة: حقيقتها عدم الاعوجاج والميل، والسين والتاء فيها للمبالغة في التقويم، فحقيقة استقام: استقل غير مائل ولا مُنْحَنٍ. وتطلق الاستقامة بوجه الاستعارة على ما يجمع معنى حُسن العمل والسيرة على الحق والصدق، قال تعالى { فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ } [هود: 112]. ويقال: استقامت البلاد للملك، أي: أطاعت، ومنه قوله تعالى { فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ } [التوبة:7].

{ **ثُمَّ اسْتَقَامُوا** } يشمل هنا معنى الوفاء بما كلِّفوا به، وأوّل ما يشمل من ذلك أن يثبتوا على أصل التوحيد.

ومن معنى هذه الآية ما روي في صحيح مسلم عن سفيان الثقفي قال قلت: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك. قال: **" قل آمنت بالله ثم استقم "**.

{ **ثُمَّ** } للتراخي الرتبي لأنّ الاستقامة زائدة في المرتبة على الإقرار بالتوحيد لأنّها تشمله وتشمل الثبات عليه والعمل بما يستدعيه، ولأنّ الاستقامة دليل على أنّ قولهم { رَبُّنَا اللَّهُ } منبعث عن اعتقاد ومعرفة.

{ **تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ** } يحتمل أن يكون ذلك في وقت الحشر كما دلّ عليه قولهم { الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ}، وكما يقتضيه كلامهم لهم، لأنّ ظاهر الخطاب أنّه حقيقة، فذلك مقابل قوله تعالى { وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ } [19]، فأولئك تلاقيهم الملائكة بالوزع، والمؤمنون تتنزّل عليهم الملائكة بالأمن.

{ **تَتَنَزَّلُ** } للتنويه بشأن المؤمنين أنّ الملائكة ينزلون من علويّاتهم لأجلهم، فأمّا أعداء الله فهم يجدون الملائكة حُضَّرًا في المحشر يَزَعُونهم.

ويجوز أن يكون تنزل الملائكة عليهم في الدنيا، وهو تنزّل خفي يعرف بحصول آثاره في نفوس المؤمنين، ويكون الخطاب بـ { أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا } بمعنى إلقائهم في روعهم عكس وسوسة الشياطين القرناء بالتزيين، أي: يلقون في أنفس المؤمنين ما يصرفهم عن الخوف والحزن ويذكِّرهم بالجنة فتحلّ فيهم السكينة. فذلك مقابل قوله { وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ } [25]، فإنّه تقييض في الدنيا. وعلى هذا المعنى فقوله { الَّتِي كُنْتُمْ } تعتبر (كان) فيه مزيدة للتأكيد، ويكون المضارع في { تُوعَدُونَ }، على أصل استعماله للحال والاستقبال، ويكون قولهم { نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ } تأييدا لهم في الدنيا ووعدا بنفعهم في الآخرة.

{ **أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا** } المقصود من النهي عن الخوف النهي عن سببه، وهو توقّع الضرّ، أي: لا تحسبوا أنّ الله معاقبكم، فالنهي كناية عن التأمين من جانب الله تعالى، لأنّهم إذا تحقَّقوا الأمن زال خوفهم، وهذا تطمين من الملائكة لأنفس المؤمنين.

الخوف: غم في النفس ينشأ عن ظنّ حصول مكروه شديد.

الحزن: غم في النفس ينشأ عن وقوع مكروه بفوات نفع أو حصول ضرّ.

{ **وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ** } ألحقوا بتأمينهم بشارتهم، لأنّ وقع النعيم في النفس موقع المسرّة

إذا لم يخالطه توقّع المكروه.

{ **الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ** } وصف الجنّة بذلك تذكير لهم بأعمالهم التي وعِدوا عليها بالجنة، وتعجيل لهم بمسرّة الفوز برضى الله، وتحقيق وعده، أي: التي كنتم توعدونها في الدنيا.

{ **نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ** } وقول الملائكة تعريف بأنفسهم للمؤمنين تأنيسا لهم. فإنّ العلم بأنّ المتلقي صاحب قديم يزيد نفس القادم انشراحا وأنسا ويزيل عنه دهشة القدوم. أي: نحن الذي كنا في صحبتكم في الدنيا، إذ كانوا يكتبون حسناتهم ويشهدون عند الله بصلاتهم، كما في حديث: **" يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فيسألهم ربّهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلّون وتركناه وهم يصلّون ".**

واعلم أنّ قوله تعالى { فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } إشارة إلى مقابلة قوله في المشركين { وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ } [25]، فكما قيّض للكفّار قرناء في الدنيا قيّض للمؤمنين ملائكة يكونون قرناءهم في الدنيا، وكما أنطق أتباعهم باللائمة عليهم أنطق الملائكة بالثناء على المؤمنين.

وهذه الآية تقتضي أنّ هذا الصنف من الملائكة خاص برفقة المؤمنين وولائهم ولا حظ للكافرين فيهم، فإنّ كان الحفظة من خصائص المؤمنين فمعنى ولايتهم ظاهر، وإن كان الحفظة موكَّلين على المؤمنين والكافرين كما مشى عليه الجمهور، وهو ظاهر قوله تعالى { كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ } [الانفطار: 9-12]، فهذا صنف من الملائكة موكَّل بحفظ المؤمنين في الدنيا، وهم غير الحفظة، وقد يكون هذا الصنف من الملائكة هو المُسمَّى بالمعقِّبات في قوله تعالى { لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ } [الرعد:11].

{ **وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ** } عطف على { الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ } وما بينهما جملة معترضة كما بيّنته آنفا.

{ **مَا تَدَّعُونَ** } ما تتمنون. يقال: ادَّعى، أي: تمنّى، وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ } [يس:57]. المعنى: لكم فيها ما تشتهونه ممّا يقع تحت الحس وما تتمنونه في نفوسكم من كلّ ما يخطر بالبال ممَّا يجول في الخيال، فما يدعون غير ما تشتهيه أنفسهم. ولهذه المغايرة أعيد { لَكُمْ } ليؤذن باستقلال هذا الوعد عن سابقه، فلا يُتوهم أنّ العطف عطف تفسير أو عطف عام على خاص.

النُّزُل: ما يُهيّأ للضيف من القِرى، وهو مشتق من النزول لأنّه كرامة النزيل، وهو هنا مستعار لما يُعطَوْنَه من الرغائب سواء كانت رزقا أم غيره. ووجه الشبه سرعة إحضاره كأنّه مهيّأ من قبل أن يشتهوه أو يتمنّوه.

{ **مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ** } إشارة إلى أنّ الله غفر لهم أو لأكثرهم اللمم وما تابوا منه، وأنّه رحيم بهم لأنّهم كانوا يحبونه ويخافونه ويناصرون دينه.

{ **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ** } [33].

ليس هذا من حكاية خطاب الملائكة للمؤمنين في الآخرة وإنّما هو موجَّه من الله، فالأظهر أنّه تكملة للثناء على { الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا } [30]، وتوجيه لاستحقاقهم تلك المعاملة الشريفة، وقمع للمشركين إذ تقرع أسماعهم، أي: كيف لا يكونون بتلك المثابة وقد قالوا أحسن القول وعملوا أحسن العمل. وذُكر هذا الثناء عليهم بحسن قولهم عقب ذكر مذمّة المشركين ووعيدهم على سوء قولهم { لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ } [26]، أي: فلا يستوي الذين قالوا أحسن القول وعملوا أصلح العمل مع الذين قالوا أسوأ القول وعملوا أسوأ العمل، ولهذا عُقّب بقوله تعالى { وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ } [34].

{ **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا** } استفهام مستعمل في النفي، أي: لا أحد أحسن قولا من هذا الفريق، كقوله تعالى { وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ } [النساء:125].

{ **مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ** } كلّ أحد ثبت له مضمون هذه الصلة. والدعاء إلى الله: تمثيل لحال الآمر بإفراد الله بالعبادة ونبذ الشرك بحال من يدعو أحدا بالإقبال إلى شخص، وهذا حال المؤمنين حين أعلنوا التوحيد وهو ما وُصفوا به آنفا في قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ }، وقد كان المؤمنون يدعون المشركين إلى توحيد الله، وسيد الداعين إلى الله هو محمد صلى الله عليه وسلم.

العمل الصالح: هو العمل الذي يصلُح عاملُه في دينه ودنياه صلاحا لا يشوبه فساد، وذلك العمل الجاري على وفق ما جاء به الدين، فالعمل الصالح هو ما وُصف به المؤمنون آنفا في قوله تعالى { ثُمَّ اسْتَقَامُوا } [30].

{ **وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ** } ثناء على المسلمين بأنّهم افتخروا بالإسلام واعتزّوا به بين المشركين ولم يتستّروا بالإسلام. والاعتزاز بالدين عمل صالح ولكنّه خُصَّ بالذكر هنا لأنّه أريد به غيظ الكافرين.

ومثال هذا ما وقع يوم أحد حين صاح أبو سفيان: اعل هبل، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **قولوا** : **الله أعلى وأجل** " فقال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **قولوا**: **الله مولانا ولا مولى لكم** ".

وفي هذه الآية منزع عظيم لفضيلة علماء الدين الذين بيّنوا السنن ووضّحوا أحكام الشريعة واجتهدوا في التوصّل إلى مراد الله تعالى من دينه ومن خَلقه. وفيها أيضا منزع لطيف لتأييد قول الماتريدي وطائفة من علماء القيروان وعلى رأسهم محمد بن سحنون: أنّ المسلم يقول: أنا مؤمن ولا يقول إن شاء الله، خلافا لقول الأشعري وطائفة من علماء القيروان وعلى رأسهم محمد بن عبدوس، فنقل أنّه كان يقول: أنا مؤمن إن شاء الله. وقد تطاير شرر هذا الخلاف بين علماء القيروان مدّة قرن. والحقّ أنّه خلاف لفظي كما بيّنه الشيخ أبو محمد بن أبي زيد ونقله عياض في المدارك ووافقه.

{ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } [34].

<u>يجوز أن يكون عطفا على جملة</u> { وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ } [33] تكملة لها، فإنّ المعطوف عليها تضمّنت الثناء على المؤمنين إثر وعيد المشركين وذمّهم، وهذه الجملة فيها بيان التفاوت بين مرتبة المؤمنين وحال المشركين، فالحسنة حالة المؤمنين والسيّئة حالة المشركين، فيكون المعنى كمعنى آيات كثيرة من هذا القبيل مثل قوله { وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلا الْمُسِيءُ } [غافر:58].

فالعطف على هذا الاعتبار يكون من عطف الجمل التي يجمعها غرض واحد.

<u>ويجوز أن تكون عطفا على جملة</u> { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ } [26]

الواقعة بعد جملة { وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ - إلى قوله - فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ } [5]، فإنّ ذلك مثير في نفس النبيّ صلى الله عليه وسلم الضجر من إصرار الكافرين على كفرهم وعدم التأثّر بدعوته إلى الحق، فهو بحال من تضيق طاقة صبره على سفاهة أولئك الكافرين، فأردف الله ما تقدّم بما يدفع هذا الضيق عن نفسه بقوله { وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ }. وهي تمهيد وتوطئة لقوله عقبها { ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ }.

فالحسنة تعم جميع أفراد جنسها وأولاها تبادرا إلى الأذهان حسنة الدعوة إلى الإسلام لما فيها من جم المنافع في الآخرة والدنيا، وتشمل صفة الصفح عن الجفاء الذي يلقى به المشركون دعوة الإسلام، لأنّ الصفح من الإحسان، وفيه ترك ما يثير حميّتهم لدينهم ويقرّب لين نفوس ذوي النفوس الليّنة.

فالعطف على هذا <u>من عطف غرض على غرض</u>، وهو الذي يعبَّر عنه بعطف القصة على القصة.

{ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ } وقد علمتَ غير مرة أنّ نفي الاستواء ونحوه بين شيئين يراد به غالبا تفضيل أحدهما على مقابله بحسب دلالة السياق، كقوله تعالى { أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لا يَسْتَوُونَ } [السجدة:18]. فكان مقتضى الظاهر أن يقال: ولا تستوي الحسنة والسيئة، دون إعادة (لا) النافية بعد الواو الثانية، كما قال تعالى { وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ } [غافر:58]، فإعادة (لا) النافية تأكيد لأختها السابقة. وأحسن من اعتبار التأكيد أن يكون في الكلام إيجاز حذف مؤذن باحتباك في الكلام، تقديره: وما تستوي الحسنة والسيئة ولا السيئة والحسنة.

وفي التعبير بالحسنة والسيئة دون المحسن والمسيء إشارة إلى أنّ كل فريق قد بلغ الغاية في جنس وصفه من إحسان وإساءة على طريقة الوصف بالمصدر، وليتأتّى الانتقال إلى الموعظة في قوله تعالى: **{ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ }** يجري موقعها على الوجهين المتقدّمين في عطف جملة { وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ }.

فعلى الوجه الأوّل من وجهي موقع جملة { وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ } [عطف على جملة { وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ }]، تخلّص من غرض تفضيل الحسنة على السيّئة إلى الأمر بخُلق الدفع بالتي هي أحسن لمناسبة أنّ ذلك الدفع من آثار تفضيل الحسنة على السيّئة إرشادا من الله لرسوله وأمّته بالتخلّق بخُلق الدفع بالحسنى.

وعلى الوجه الثاني من وجهي موقع جملة { وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ } [عطف على جملة { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ }]، واقعة موقع النتيجة من الدليل والمقصد من المقدّمة، فمضمونها ناشئ عن مضمون التي قبلها.

وإنّما أُمِر الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك لأنّ منتهى الكمال البشري خُلُقه، كما قال صلى الله عليه وسلم: " **إنّما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق** "، وقالت عائشة لمّا سئلت عن خلقه: " كان خلقه القرآن ".

والإحسان كمال ذاتي ولكن قد يكون تركه محمودا في بعض المواضع كالحدود ونحوها. والكمال مطلوب لذاته فلا يُعدل عنه ما استطاع، ما لم يخش فوات كمال أعظم، ولذلك قالت عائشة ما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه قط إلّا أن تنتهك حرمات الله فيغضب لله. وتخلُّق الأمة بهذا الخلق مرغوب فيه، قال تعالى { وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ } [الشورى:40].

{ **ادْفَعْ** } المفعول محذوف دلّ عليه انحصار المعنى بين السيّئة والحسنة، فلمّا أمر بأن تكون الحسنة مدفوعا بها تعين أنّ المدفوع هو السيئة، فالتقدير: ادفع السيئة بالتي هي أحسن كقوله تعالى { وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ } [الرعد:22]، وقوله تعالى { ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ } [غافر:96].

{ **بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** } هي الحسنة، وإنّما صيغت بصيغة التفضيل ترغيبا في دفع السيّئة بها لأنّ ذلك يشق على النفس، فإن الغضب من سوء المعاملة من طباع النفس وهو يبعث على حب الانتقام من المسيء، فلمّا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يجازي السيئة بالتي هي بالحسنة أشير إلى فضل ذلك.

{ **فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** } تفريع لبيان ما في ذلك الأمر من الصلاح ترويضا على التخلُّق بذلك الخلق الكريم، وهو أن تكون النفس مصدرا للإحسان.

فبعد أن أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالدفع بالتي هي أحسن أردفه بذكر بعض محاسنه وهو أن يصير العدو كالصديق، وحُسن ذلك ظاهر مقبول فلا جرم أن يدلّ حُسنه على حُسن سببه.

ولذكر المُثُل والنتائج عَقِب الإرشاد شأن ظاهر في تقرير الحقائق وخاصة التي قد لا تقبلها النفوس لأنّها شاقة عليها، والعداوة مكروهة والصداقة والولاية مرغوبة، فلمَّا كان الإحسان لمن أساء يُدْنيه من الصداقة أو يُكسبه إيَّاها كان ذلك من شواهد مصلحة الأمر بالدفع بالتي هي أحسن.

{ **إِذَا** } للمفاجأة، وهي كناية عن سرعة ظهور أثر الدفع بالتي هي أحسن في انقلاب العدو صديقا.

{ **الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ** } عدل عن ذكر العدو معرّفا بلام الجنس إلى ذكره باسم الموصول ليتأتّى تنكير عداوة للنوعية، وهو أصل التنكير، فيصدق بالعداوة القويّة ودونها، كما أنّ ظرف { بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ }

يصدق بالبَيْن القريب والبَيْن البعيد.
وهذا تركيب من أعلى طرف البلاغة لأنّه يجمع أحوال العداوات فيُعلم أنّ الإحسان ناجح في اقتلاع عداوة المُحْسَن إليه للمُحْسِن على تفاوت مراتب العداوة قوّة وضعفا، وتمكّنا وبعدا، ويُعلم أنّه ينبغي أن يكون الإحسان للعدوّ قويا بقدر تمكّن عداوته ليكون أنجع في اقتلاعها.
ومن الأقوال المشهورة: النفوس مجبولة على حبّ من أحسن إليها.
{ **كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** } التشبيه تشبيه في زوال العداوة ومخالطة شوائب المحبة، فوجه الشبه هو المصافاة والمقاربة وهو معنى متفاوت الأحوال. ولا يبلغ مبلغ المشبّه به إذ من النادر أن يصير العدو وليا حميما، فإن صاره فهو لعوارض غير داخلة تحت معنى الإسراع الذي آذنت به (إذا) الفجائية.
والعداوة التي بين المشركين وبين النبيّ صلى الله عليه وسلم عداوة في الدين.
الوليّ: اسم مشتق من الوَلاية (بفتح الواو)، والوَلاء، وهو: الحليف والناصر، وهو ضدّ العدو.
الحميم: القريب والصديق.

{ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ } [35].

عطف على جملة { ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } [34]، أو حال من { الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } وضمير { يُلَقَّاهَا } عائد إلى { الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } باعتبار تعلّقها بفعل { ادْفَعْ }، أي: بالمعاملة والمدافعة التي هي أحسن، فأمّا مطلق الحسنة فقد يحصل لغير الذين صبروا.
وهذا تحريض على الارتياض بهذه الخصلة بإظهار احتياجها إلى قوّة عزم وشدّة مراس للصبر على ترك هوى النفس في حبّ الانتقام، وفي ذلك تنويه بفضلها بأنّها تلازمها خصلة الصبر، وهي في ذاتها خصلة حميدة وثوابها جزيل، كما عُلم من عدة آيات في القرآن، وحسبك قوله تعالى { إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ } [العصر:3/2].
فالصابر مرتاض بتحمُّل المكاره وتجرُّع الشدائد وكظم الغيظ فيهون عليه ترك الانتقام.
{ **وَمَا يُلَقَّاهَا** } يُجعل لاقيا لها، كقوله تعالى { وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا } [الانسان:11]. وهو مستعار للسعي لتحصيلها، لأنّ التحصيل على الشيء بعد المعالجة والتخلُّق يشبه السعي لملاقاة أحد فيلقاه. وجي بالمضارع في الموضعين باعتبار أنّ المأمور بالدفع بالتي هي أحسن مأمور بتحصيل هذا الخُلق في المستقبل.
{ **إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا** } جيء في الصلة بالماضي للدلالة على أنّ الصبر خلق سابق فيهم صار كالسجية، وهو العون على معاملة المسيء بالحسنى، ولهذه النكتة عُدل عن أن يقال: إلّا الصابرون.
{ **إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ** } زيد في التنويه بها بأنّها ما تحصل إلّا لذي حظ عظيم.
الحظّ: النصيب من الشيء مطلقا، وقيل: خاص بالنصيب من خير.

والمراد هنا: نصيب الخير، بالقرينة أو بدلالة الوضع. أي: ما يحصل دفع السيئة بالحسنة إلّا لصاحب نصيب عظيم من الفضائل، أي: من الخلق الحسن والاهتداء والتقوى.

فتحصل من هذين أن التخلّق بالصبر شرط في الاضطلاع بفضيلة دفع السيئة بالتي هي أحسن، وأنّه ليس وحده شرطا فيها بل وراءه شروط أخر يجمعها قوله { حَظٍّ عَظِيمٍ }، أي: من الأخلاق الفاضلة.

والصبر من جملة الحظ العظيم، وإنّما خُصَّ بالذكر لأنّه أصلها ورأس أمرها وعمودها.

{ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [36].

عطف على جملة { وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا } [35]، فبعد أن أرشد إلى ما هو عون على تحصيل هذا الخلق المأمور به، وهو دفع السيّئة بالتي هي أحسن، وبعد أن شُرحت فائدة العمل بها بقوله تعالى { فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } [34]، صُرف العنان هنا إلى التحذير من عوائقها التي تجتمع كثرتها في حقيقة نزغ الشيطان، فأُمر بأنّه إن وجد في نفسه خواطر تصرفه عن ذلك وتدعوه إلى دفع السيئة بمثلها فإنّ ذلك نزغ من الشيطان دواؤه أن تستعيذ بالله منه، والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم.

وفائدة هذه الاستعاذة تجديد داعية العصمة المركوزة في نفس النبيّ صلى الله عليه وسلم، وصقل لزكاء النفس ممّا قد يقترب منها من الكدرات. وقد أشار إليه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" إنّه ليُغان على قلبي وإنّي لأستغفر الله في اليوم مائة مرة "** [مسلم]، فبذلك تسلم نفسه من أن يغشاها شيء من الكدرات.

ويلحق به في ذلك صالحو المؤمنين. ففي الحديث القدسي عند الترمذي: **" ولا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتّى أحبَّه فإذا أحببت كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لأعطينَّه ولئن استعاذني لأعيذنَّه "**.

ثم يلتحق بذلك بقية المؤمنين على تفاوتهم كما دلّ عليه حديث ابن مسعود عند الترمذي، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" إنّ للشيطان لمّة بابن آدم وللمَلَك لمة، فأمّا لمّة الشيطان فإيعادٌ بالشرّ وتكذيب بالحقّ، وأمّا لمّة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحقّ، فمن وجد ذلك فليعلم أنّه من الله فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليستعذ بالله من الشيطان "**.

النزغ: النخس، وحقيقته مس شديد للجلد بطرف عود أو إصبع، فهو مصدر، وهو هنا مستعار لاتصال القوّة الشيطانية بخواطر الإنسان، تأمره بالشر وتصرفه عن الخير، وتقدّم في قوله تعالى { وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [الأعراف:200]، وإسناد { يَنْزَغَنَّكَ } إلى { نَزْغٌ } مجاز عقلي.

ويجوز أن يكون المراد بالنزغ هنا: النازغ، وهو الشيطان، وصف بالمصدر للمبالغة، و{ من } بيانية. أي: ينزغنّك النازغ الذي هو الشيطان. والمبالغة حاصلة على التقديرين مع اختلاف جهتها.

{ وَإِمَّا } مركبة من (إن) حرف شرط و(ما) زائدة بعده لتوكيد الربط بين الشرط وجوابه وليست

لتحقيق حصول الشرط فإنّها تزداد كثيرا بعد (إن) دون أن تكون دالة على الجزم بوقوع فعل الشرط. وجيء في هذا الشرط بـ (إن) التي الأصل فيها عدم الجزم بوقوع الشرط ترفيعا لقدر النبيّ صلى الله عليه وسلم، فإنّ نزغ الشيطان له إنّما يُفرض كما يفرض المحال، ألا ترى إلى قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ } [الأعراف:201] فجاء في ذلك الشرط بحرف (إذا) التي الأصل فيها الجزم بوقوع الشرط أو بغلبة وقوعه.

{ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } ضمير الفصل لتقوية الحكم وهو هنا حكم كنائي لأنّ المقصود لازم وصف السميع العليم وهو مؤاخذة من تصدر منهم أقوال وأعمال في أذى النبيّ صلى الله عليه وسلم والكيد له ممّن أُمر بأن يدفع سيئاتهم بالتي هي أحسن.

{ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ } [37].

عطف على جملة { قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ } [9]، عطف القصة على القصة، فإنّ المقصود من ذكر خلق العوالم أنّها دلائل على انفراد الله بالإلهية، فلذلك أُخبر هنا عن المذكورات في هذه الجملة بأنّها من آيات الله انتقالا في أفانين الاستدلال.

{ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ } انتقال من الاستدلال بذوات من مخلوقاته إلى الاستدلال بأحوال من أحوال تلك المخلوقات، فابتدئ ببعض الأحوال السماوية وهي حال الليل والنهار، وحال طلوع الشمس وطلوع القمر، ثم ذكر بعده بعض الأحوال الأرضية {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً} [39].

ويدلّ لهذا الانتقال أنّه انتقل من أسلوب الغيبة الذي في قوله تعالى { فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً - إلى قوله - وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ } إلى أسلوب خطابهم الذي في قوله تعالى { أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ } [9].

الآيات: الدلائل، وإضافتها إلى ضمير الله لأنّها دليل على وحدانيته وعلى وجوده. وتقدّم الكلام على الليل والنهار عند قوله تعالى { إِنَّ فِي خَلْقِ السَمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَيْلِ والنَّهَارِ } [البقرة:164].

{ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ } المراد هنا حركتهما المنتظمة، وأمّا خلقهما فقد عُلم من خلق السماوات والأرض.

{ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ } ولم أقف على أنّ العرب في زمن نزول القرآن كان منهم من يعبد الشمس والقمر. ولكن وجود عبادة الشمس في اليمن أيام سبأ قبل أن يتهوّدوا يقتضي بقاء آثاره في بعض بلاد العرب. وقد ذُكر من أصنام العرب صنم اسمه (شمس) وبه سمُّوا (عبد شمس)، وكان يعبده بنو تميم وضبة وعُكل وأُد. وكنت وقفت على أنّ بعض كِنانة عبدوا القمر.

على أنّ هدي القرآن لا يختصّ بالعرب بل شيوع دين الصابئة في البلاد المجاورة لهم كاف في التحذير من السجود للشمس والقمر. فالنهي نهي تحذير لمن لم يسجد لهما أن لا يتّبعوا من يعبدونهما.

{ **وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ** } وقوع هذا القول بعد النهي عن السجود للشمس والقمر يفيد مفاد الحصر، لأنّ النهي بمنزلة النفي، ووقوع الإثبات بعده بمنزلة مقابلة النفي بالإيجاب، فإنّه بمنزلة النفي والاستثناء في إفادة الحصر. فكأنّه قيل: لا تسجدوا إلّا لله، أي: دون الشمس والقمر.

فجملة { لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ - إلى قوله – تعبدون } معترضة بين جملة { وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ } وبين جملة { فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا } [38].

وفي هذه الآية موضع سجود من سجود التلاوة، فقال مالك وأصحابه عدا ابن وهب: السجود عند قوله تعالى { إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ } وهو قول علي بن أبي طالب وابن مسعود، وروي عن الشافعي. وقال أبو حنيفة والشافعي في المشهور عنه وابن وهب: هي عند قوله تعالى { وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ } [38]، وهو عن ابن عمر وابن عباس وسعيد بن المسيب.

{ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ } [38].

الفاء للتفريع على نهيهم عن السجود للشمس والقمر وأمرهم بالسجود لله وحده، أي: فإن استكبروا أن يتبعوك وصمّموا على السجود للشمس والقمر، أو فإن استكبروا عن الاعتراف بدلالة الليل والنهار والشمس والقمر على تفرّد الله بالإلهية فالله غني عن عبادتهم.

الاستكبار: قوّة التكبّر، فالسين والتاء للمبالغة.

{ **فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ** } دليل جواب الشرط. والتقدير: فإن تكّبروا عن السجود لله فهو غني عن سجودهم، لأنّ له عبيدا أفضل منهم لا يفترون عن التسبيح له بإقبال دون سآمة.

{ **عِنْدَ رَبِّكَ** } عندية تشريف وكرامة، كقوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ } [لأعراف:206]، وهؤلاء الملائكة، وهم العامرون للعوالم العليا التي جعلها الله مشرَّفة.

{ **يُسَبِّحُونَ لَهُ** } كلّ ما يدلّ على تنزيه الله تعالى عمّا لا يليق به وإثبات أضدادها، وذلك بالأقوال، قال تعالى { وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ } [الشورى:5]، أو بالأعمال قال تعالى { وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [النحل:50/49] وذلك ما يقتضيه قوله تعالى { وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ } من كون ذلك التسبيح قولا وعملا وليس مجرد اعتقاد.

{ **بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ** } لقصد استيعاب الزمان، أي: يسبحون له الزمان كلّه.

{ **وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ** } في موضع الحال وهو أوقع من محمل العطف، لأنّ كون الإخبار عنهم مقيدا بهذه الحال أشد في إظهار عجيب حالهم، إذ شأن العمل الدائم أن يسأم منه عامله.

السآمة: الضجر والملل من الإعياء.

{ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [39].

{ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ** } عطف على جملة { وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ } [37]، وهذا استدلال بهذا الصنع العظيم على أنّه تعالى منفرد بفعله فهو دليل إلهيته دون غيره، لأنّ من يفعل ما لا يفعله غيره هو الإله الحق، كقوله تعالى { أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ } [النحل:17].

{ **أَنَّكَ** } الخطاب لغير معيّن ليصلح لكلّ سامع.

الخشوع: التذلّل، وهو مستعار لحال الأرض إذا كانت مقحطة لا نبات عليها، لأنّ حالها حينها كحال المتذلّل، وهذا من تشبيه المحسوس بالمعقول.

الاهتزاز: حقيقته مطاوعة هزَّه، إذا حركه بعد سكونه فتحرّك. وهو هنا مستعار لرُبوِّ وجه الأرض بالنبات، شُبِّه حال إنباتها وارتفاعها بالماء والنبات بعد أن كانت منخفضة خامدة بالاهتزاز.

{ **وَرَبَتْ** } عطف على { اهْتَزَّتْ } لأنّ المقصود من الاهتزاز هو ظهور النبات عليها وتحرّكه.

الربو: انتفاخها بالماء واعتلاؤها. وقرأ أبو جعفر { وَرَبَأَتْ } من (ربأ) بالهمز، إذا ارتفع.

{ **إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } إدماج لإثبات البعث في أثناء الاستدلال على تفرّده تعالى بالخلق والتدبير، ووقوعه على عادة القرآن في التفنّن وانتهاز فرص الهدى إلى الحق. والجملة استئناف ابتدائي والمناسبة مشابهة الإحياءين.

{ **إِنَّ** } التوكيد لمراعاة إنكار المخاطبين إحياء الموتى.

{ **الَّذِي أَحْيَاهَا** } تعريف المسند إليه بالموصولية لمّا في الموصول من تعليل الخبر. شُبِّه إمداد الأرض بماء المطر الذي هو سبب انبثاق البزور التي في باطنها التي تصير نباتا بإحياء الميت، على طريق الاستعارة التبعية.

{ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمَّنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } [40].

{ **إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا** } استئناف ابتدائي قُصد به التهديد.

الإلحاد: حقيقته الميل عن الاستقامة.

{ **فِي** } للظرفية المجازية لإفادة تمكّن إلحادهم حتّى كأنَّه مظروف في آيات الله حيثما كانت أو كلّما سمعوها.

{ **آيَاتِنَا** } تشمل الدلائل الكونية المتقدّمة في قوله { قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ } [9]، وقوله تعالى { وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ } [37]. وتشمل الآيات القولية المتقدّمة في قوله تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ } [26].

فالإلحاد في الآيات مستعار للعدول والانصراف عن دلالة الآيات الكونية على ما دلّت عليه. والإلحاد في الآيات القولية مستعار للعدول عن سماعها وللطعن في صحتها وصرف الناس عن سماعها.

{ **لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا** } مراد به الكناية عن الوعيد تذكيرا لهم بإحاطة علم الله بكل كائن، وهو متصل المعنى بقوله آنفا { وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ } [22].

ومعنى نفي خفائهم: نفي خفاء إلحادهم لا خفاء ذواتهم إذ لا غرض في العلم بذواتهم.

{ **أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمَّنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ** } تفريع على الوعيد في قوله تعالى { لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا } لبيان أنّ الوعيد بنار جهنم، تعريض بالمشركين بأنّهم صائرون إلى النار، وبالمؤمنين بأنّهم آمنون من ذلك.

{ **أَفَمَنْ** } الاستفهام تفريع مستعمل في التنبيه على تفاوت المرتبتين.

{ **يَأْتِي آمِنًا** } كناية أنّ ذلك الفريق مصيره الجنّة إذ لا غاية للآمن إلّا أنّه في نعيم.

وفي الآية مُحسّن الاحتباك، إذ حُذف مقابل { أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ }، وهو: من يدخل الجنة، وحُذف مقابل { أَمَّنْ يَأْتِي آمِناً }، وهو: من يأتي خائفا، وهم أهل النار.

{ **اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** } تذييل لجملة { إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا }، كما دلّ عليه قوله تعالى عقبه { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ } [41]، أي: لا يخفى علينا إلحادهم ولا غيره من سيّئ أعمالهم. وإنّما خُصَّ الإلحاد بالذكر ابتداء لأنّه أشنع أعمالهم ومصدر أسوئها.

{ **اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ** } الأمر مستعمل في التهديد، أو في الإغراء المكنّى به عن التهديد.

{ **إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** } وعيد بالعقاب على أعمالهم على وجه الكناية. وتوكيده بـ (إنّ) لتحقيق معنييه الكنائي والصريح، وهو تحقيق إحاطة علم الله بأعمالهم لأنّهم كانوا شاكين.

{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ [41] لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ [42] }.

أُعقِب تهديدهم على الإلحاد في آيات الله على وجه العموم بالتعرّض إلى إلحادهم في آيات القرآن، وهو من ذكر الخاص بعد العام للتنويه بخصال القرآن وأنّه ليس بعرضة لأن يُكفر به بل هو جدير بأن يُتقبَّل

بالاقتداء والاهتداء بهديه. فلهذه الجملة اتصال في المعنى بجملة { إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا } واتصال في الموقع بجملة { اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ }.

{ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ** } الأظهر أن تكون الجملة واقعة موقع التعليل للتهديد بالوعيد في قوله تعالى { لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا } [40]. والمعنى: لأنّهم جديرون بالعقوبة إذ كفروا بالآيات.

والكفر بالقرآن يشمل: إنكار كل ما يوصف به القرآن من دلائل كونه من عند الله، وما اشتمل عليه ممّا خالف معتقدهم ودين شركهم، وذلك بالاختلاقات التي يختلقونها كقولهم: سحر، وشعر، وقول كاهن، وقول جنون.

{ **إنّ** } موقعها موقع فاء التعليل، وخبرها محذوف دلّ عليه سياق الكلام، والأحسن أن يكون تقديره بما تدلّ عليه جملة الحال من جلالة الذكر ونفاسته، فيكون التقدير: خسروا الدنيا والآخرة، أو سفَّهوا أنفسهم، أو نحو ذلك ممّا تذهب إليه نفس السامع البليغ. ففي هذا الحذف توفير للمعاني وإيجاز في اللفظ يقوم مقام عدّة جمل.

{ **وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** } في موضع الحال من الذكر، أي: كفروا به في حاله هذا، ويجوز أن تكون عطفا على جملة { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ } على تقدير خبر { إِنَّ } المحذوف. وقد أجري على القرآن ستة أوصاف ما منها واحد إلّا وهو كمال عظيم:

الوصف الأول: { **بِالذِّكْرِ** } أي: يُذكِّر الناس كلّهم بما يغفلون عنه ممّا في الغفلة عنه فوات فوزهم.

الوصف الثاني: من معنى الذكر: أنّه ذِكرٌ للعرب وسمعة حسنة لهم بين الأمم يُخلِّد لهم مفخرة عظيمة، وهو كونه بلغتهم ونزل بينهم، كما قال تعالى { وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ } [الزخرف: 44]. وفي قوله تعالى { لَمَّا جَاءَهُمْ } إشارة إلى هذا المعنى الثاني.

الوصف الثالث: { **عَزِيزٌ** } والعزيز النفيس، وأصله من العزّة وهي المنعة، لأنّ الشيء النفيس يدافع عنه ويُحمى عن النبذ، فإنّه بيّن الإتقان وعلوّ المعاني ووضوح الحجّة، ومثل ذلك يكون عزيزا.

والعزيز أيضا: الذي يغلب ولا يُغلب، وكذلك حُجج القرآن.

الوصف الرابع: { **لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ** } أي: لا يشتمل على الباطل بحال. فمثَّل ذلك بـ { مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ } والمقصود استيعاب الجهات تمثيلا لحال انتفاء الباطل عنه في ظاهره وفي تأويله.

الوصف الخامس: { **تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ** } ولا يصدر عن الحكيم إلا الحكمة. أي: أنّه مشتمل على الحكمة وهي المعرفة الحقيقية.

الوصف السادس: { **تَنْزِيلٌ** مِنْ حَكِيمٍ **حَمِيدٍ** }، والحميد هو المحمود حمدا كثيرا، أي: مستحق الحمد الكثير، فالكلام المنزَّل منه يستحق الحمد، وإنّما يحمد الكلام إذ يكون دليلا للخيرات وسائقا إليها.

وفي إجراء هذه الوصاف إيماء إلى حماقة الذين كفروا بهذا القرآن وسفاهة آرائهم إذ فرَّطوا فيه ففرَّطوا في أسباب فوزهم في الدنيا وفي الآخرة.

{ **مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ** } [43].

{ **مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ** } استئناف بياني جواب لسؤال يثيره قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا } [40]، وقوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ } [41]، وما تخلّل ذلك من الأوصاف، فيقول سائل: فما بال هؤلاء طعنوا فيه؟ فأجيب بأنّ هذه سنة الأنبياء مع أممهم لا يعدمون معاندين جاحدين يكفرون بما جاءوا به.

وهذا تسلية لنبي صلى الله عليه وسلم بطريق الكناية وأمر له بالصبر على ذلك كما صبر مَن قبله من الرسل.

ولهذا الكلام تفسيران:

التفسير الأوّل: أنّ ما يقوله المشركون في القرآن والنبيّ صلى الله عليه وسلم هو دأب أمثالهم المعاندين من قبلهم، فما صدق { مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ } هو مقالات الذين كذَّبوهم، أي: تشابهت قلوب المكذِّبين فكانت مقالاتهم متماثلة، قال تعالى { أَتَوَاصَوْا بِهِ } [الذاريات:53].

التفسير الثاني: ما قلنا لك إلّا ما قلناه للرسل من قبلك، فأنت لم تكن بدعا من الرسل فيكون لقومك بعض العذر في التكذيب ولكنّهم كذبوا كما كذب الذين من قبلهم، فما صدق { مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ} هو الدين والوحي، فيكون من طريقة قوله تعالى { إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى } [الأعلى:18].

وكلا المعنيين وارد في القرآن فيُحمل الكلام على كليهما.

{ **مَا يُقَالُ** } اجتلاب المضارع لإفادة تجدّد هذا القول منهم وعدم ارعوائهم عنه مع ظهور ما شأنه أن يصدّهم عن ذلك.

{ **قَدْ قِيلَ** } اقتران الفعل بـ (قد) لتحقيق أنّه قد قيل للرسل مثل ما قالت المشركون للرسول صلى الله عليه وسلم، فهو تأكيد للازم الخبر وهو لزوم الصبر على قولهم. وهذا على حد قوله تعالى { كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ } [الذريات:53/52].

{ **إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ** } تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم ووعد بأنّ الله يغفر له.

ووقوع هذا الخبر عقب قوله تعالى { مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ } يومئ إلى أنّ هذا الوعد جزاء على ما لقيه من الأذى في ذات الله وأنّ الوعيد للذين آذوه، فالخبر مستعمل في لازمه.

ومعنى المغفرة له: التجاوز عمّا يلحقه من الحزن بما يسمع من المشركين من أذى كثير.

{ **إِنَّ** } لإفادة التعليل والتسبّب لا للتأكد.

{ **لَذُو / وَذُو** } مؤذنة بأنّ المغفرة والعقاب كليهما من شأنه تعالى وهو يضعهما بحكمته في المواضع المستحقة لكلّ منهما.

وفي الجملة محسِّن الجمع ثم التقسيم، فقوله { مَا يُقَالُ لَكَ } يجمع قائلا ومقولا له، فكان الإيماء بوصف

{ لَذُو مَغْفِرَةٍ } إلى المقول له، ووصف { ذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ } إلى القائلين، وهو جار على طرقة اللف والنشر المعكوس وقرينة المقام ترد كلًّا إلى مناسبه.

{ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ } [44].

اتصال نظم الكلام من أوّل السورة إلى هنا وتناسب تنقّلاته بالتفريع والبيان والاعتراض والاستطراد يقتضي أنّ قوله تعالى { وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا ...} تنقّل في درج إثبات أنّ قصدهم العناد فيما يتعلّلون به ليوجّهوا إعراضهم عن القرآن والانتفاع بهديه، بما يختلقونه عليه من الطعن فيه والتكذيب به، وتكلّف الأعذار الباطلة، ليتستَّروا بذلك من الظهور في مظهر المنهزم المحجوج، فأخذ ينقض دعاويهم عروة عروة.

إذ ابتدئت السورة بتحدّيهم بمعجزة القرآن بقوله تعالى { حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا - إلى قوله - فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ } [1-4]، فهذا تحد لهم ووصف للقرآن بصفة الإعجاز.

ثم أخذ في إبطال معاذيرهم ومطاعنهم بقوله تعالى { وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ } [5]، فإنّ قولهم ذلك قصدوا به أنّ حجّة القرآن غير مقنعة لهم، إغاظة منهم للنبيّ صلى الله عليه وسلم.

ثم تمالئهم على الإعراض بقوله تعالى {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ} [26]، وهو عجز مكشوف بقوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا } [40] وبقوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ } [41].

فأعقبها بأوصاف كمال القرآن التي لا يجدون مطعنا فيها بقوله تعالى { وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ } [41].

وإذ قد كانت هذه المجادلات من أوّل السورة إلى هنا إبطالا لتعلّلاتهم، وكان عماده على أنّ القرآن عربي مفصّل الدلالة المعروفة في لغتهم حسبما ابتدئ الكلام بقوله تعالى { كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } [3]،وانتهي هنا بقوله تعالى { وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ } [42/41]،

فقد نهضت الحجّة عليهم بدلالته على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم من هذه الجهة، فانتقل إلى حجّة أخرى عمادها الفرض والتقدير أن يكون قد جاءهم الرسول صلى الله عليه وسلم بقرآن من غير لغة العرب.

{ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ } معطوفة على جملة { وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ } [41] على الاعتبارين المتقدّمين آنفا في موقع تلك الجملة.

ومعنى الآية متفرّع على ما يتضمّنه قوله تعالى { كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } [3]، وقوله تعالى { قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ } [6] من التحدّي بصفة الأمّية كما علمت آنفا. أي: لو جئناهم بلون آخر من معجزة الأمية، فأنزلنا على الرسول قرآنا أعجميا، وليس للرسول صلى الله عليه وسلم علم بتلك اللغة من قبل، لقلبوا معاذيرهم فقالوا: لولا بُيّنت آياته بلغة نفهمها، وكيف يخاطبنا بكلام أعجمي.

فالكلام جار على طريقة الفرض كما هو مقتضى حرف { لو } الامتناعية. وهذا إبانة على أنّ هؤلاء القوم لا تجدي معهم الحجّة ولا ينقطعون عن المعاذير لأنّ جدالهم لا يريدون به تطلّب الحق وما هو إلّا تعنّت.

وفي الآية إشارة إلى عموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم للعرب والعجم، فلم يكن عجبا أن يكون الكتاب المنزّل عليه بلغة غير العرب لولا أنّ في إنزاله بالعربية حكمة علمها الله.

{ **جَعَلْنَاهُ** } الضمير عائد إلى (الذكر) في قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ } [41].

الأعجمي: المنسوب إلى أعجم، والأعجم مشتق من العجمة وهي عدم الإفصاح، فالأعجم: الذي لا يفصح باللغة العربية. فالأعجمي من صفات الكلام.

{ **لَوْلَا** } حرف تحضيض.

{ **فُصِّلَتْ** } بُيّنت ووضِّحت. أي: لولا جُعلت آياته عربية نفهمها.

{ **أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ** } بقية ما يقولونه على فرض أن يُجعل القرآن أعجميا. أي: أنّهم لا يخلون من الطعن في القرآن على كل تقدير. و(الواو) للعطف بمعنى المعية. أي: كيف يكون اللفظ أعجميا والمخاطب به عربيا كأنهم يقولون: أيلقى لفظ أعجمي إلى مخاطب عربي.

وحاصل معنى الآية تؤذن بكلام مقدّر داخل في صفات الذكر، وهو أنّه بلسان عربي بلغتكم إتماما لهديكم فلم تؤمنوا به وكفرتم وتعلّلتم بالتعلّلات الباطلة، فلو جعلناه أعجميا لقلتم: هلا بيَّنت لنا حتّى نفهمه.

{ **قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ** } هذا جواب تضمّنه قوله تعالى { مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ } [43]، أي: ما يقال من الطعن في القرآن، فجوابه: أنّ ذلك الذكر أو الكتاب للذين آمنوا هدى وشفاء، أي: أنّ تلك الخصال العظيمة للقرآن حرمهم كفرهم الانتفاع بها وانتفع بها المؤمنون، فكان لهم هديا وشفاء.

الشفاء: حقيقته زوال المرض وهو مستعار هنا للبصارة بالحقائق وانكشاف الالتباس من النفس، كما يزول المرض عند حصول الشفاء، يقال: شُفيت نفسه، إذا زال حرجه. ونظيره قولهم: شُفي غليله.

{ **وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى** } معطوفة على الجملة السابقة، فهي مستأنفة استئنافا ابتدائيا، أي: وأمّا الذين لا يؤمنون فلا تتخلّل آياته نفوسهم لأنّهم كمن في آذانهم وقر دون سماعه،

وهو ما تقدّم في حكاية قولهم { وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ } [5]، ولهذا الاعتبار كان معنى الجملة متعلّقا بأحوال القرآن مع الفريق غير المؤمن.

الوقر: داء فمقابلته بالشفاء من مُحسِّن الطباق.

العمى: عدم البصر، وهو مستعار هنا لضد الاهتداء فمقابلته بالهدى فيها محسّن الطباق.

والإسناد إلى القرآن على هذا الوجه في معاد الضمير بأنّه عليهم عمى من الإسناد المجازي لأنّ عنادهم في قبوله كان سببا لضلالهم، فكان القرآن سَبَبَ سَبَبٍ، كقوله تعالى { وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ } [التوبة: 125].

ويجوز أن يكون ضمير { هُوَ } ضمير شأن تنبيها على فظاعة ضلالهم. وجملة { عَلَيْهِمْ عَمًى } خبر ضمير الشأن، أي: وأعظم من الوقر أنّ عليهم عمى، أي: على أبصارهم عمى، كقوله تعالى { وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ } [البقرة:7]. وإنّما علق العمى بالكون على ذواتهم لأنّه لمّا كان عمًى مجازيا تعيّن أنّ مصيبته عمّة أنفسهم كلّها لا على أبصارهم خاصة، فإنّ عمى البصائر أشدّ ضرًّا من عمى الأبصار، كقوله تعالى { فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ } [الحج: 46].

{ **أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ** } خبر ثالث عن { الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ } والكلام تمثيل لحال إعراضهم عن الدعوة عند سماعها بحال من يُنادَى من مكان بعيد، على نحو قوله تعالى { وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ } [البقرة:171]. وتقول العرب لمن لا يفهم: أنت تنادى من مكان بعيد.

{ **أُولَئِكَ** } الإشارة إلى { الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ } لقصد التنبيه على أنّ المشار إليهم بعد تلك الوصاف أحرياء بما سيذكر بعدها من الحكم من أجلها.

{ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ** } [45].

{ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ** } اعتراض بتسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم على تكذيب المشركين وكفرهم بالقرآن بأنّه ليس بأوحد في ذلك فقد أوتي موسى التوراة فاختلف الذين دعاهم.

والاختلاف في التوراة كان على نوعين:

اختلاف فيها بين مؤمن بها وكافر، فقد كفر بدعوة موسى فرعون وقومه، وبعض بني إسرائيل مثل قارون، ومثل الذين عبدوا العجل في مغيب موسى للمناجاة.

واختلاف بين المؤمنين بها اختلافا عطّلوا به بعض أحكامها، كما قال تعالى { وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ } [البقرة:253].

وكلا الاختلافين موضع عبرة وأسوة لاختلاف المشركين في القرآن.

{ **وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ** } هذا متعلّق بالذين كذّبوا بالقرآن من العرب، لأنّ قوله تعالى

{ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ } يقتضي أنّ الله أخَّر القضاء بينهم وبين المؤمنين إلى أجل اقتضته حكمته. أمّا قوم موسى فقد قُضى بينهم باستئصال قوم فرعون، وبتمثيل الآشوريين باليهود بعد موسى، وبخراب بيت المقدس، وزوال ملكهم.

وهذا الكلام داخل في إتمام التسلية للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين في استبطاء النصر.

{ **كَلِمَةٌ** } هي كلمة الإمهال إلى يوم القيامة بالنسبة لبعض المكذّبين، والإمهال إلى يوم بدر بالنسبة لمن صُرعوا ببدر.

{ **سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ** } أي: تقدّمت في علمه على مقتضى حكمته وإرادته. والتعبير عن الجلالة بلفظ { رَبِّكَ} لما في معنى الربّ من الرأفة به والانتصار له، ولما في الإضافة إلى ضمير الرسول صلى الله عليه وسلم من التشريف. وكلا الأمرين تعزيز للتسلية.

الأجل المسمّى: جنس يصدق بكل ما أجّل به عقابهم في علم الله.

{ **وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ** } الضمير خاص بالمشركين الشاكين في البعث والشاكين في أنّ الله ينصر رسوله والمؤمنين.

الريب: الشك، فوصف { شَكٍّ } بـ { مُرِيبٍ } من قبيل الإسناد المجازي لقصد المبالغة بأن اشتق له من اسمه وصف، كقولهم: ليل أليل، وشعر شاعر.

{ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ } [46].

هذا من مكمِّلات التسلية ومن مناسبات ذكر الأجل المسمّى. وفيه معنى التذييل لأنّ { **مَنْ** } في الموضعين مفيدة للعموم سواء اعتبرت شرطية أو موصولة. ووجود (الفاء) في الموضعين؛ إمّا لأنّهما جوابان للشرط، وإمّا لمعاملة الموصول معاملة الشرط وهو استعمال كثير. والمعنى: أنّ الإمهال إعذار لهم ليتداركوا أمرهم.

{ **وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ** } تقدّم نظيرها في [غافر:31]. والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم، وفيه ما تقدّم من تعزيز تسليته.

{ **بِظَلَّامٍ** } صيغة مبالغة. من تمام عدل الله تعالى أن جعل كل درجّات الظلم في رتبة الظلم الشديد.

{ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ [47] وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ [48] }.

كانوا إذا أُنذروا بالبعث وساعته استهزأوا فسألوا عن وقتها، وكان ذلك ممَّا يتكرّر منهم، قال تعالى

{ يَسْأَلونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا } [الأعراف:187]، فلمّا جرى ذكر دليل إحياء الموتى وذكر إلحاد المشركين في

دلالته، بسؤالهم عنها استهزاء، انتقل الكلام إلى حكاية سؤالهم تمهيدا للجواب عن ظاهره.

{ **إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ** } تقديم المجرور على متعلقه لإفادة الحصر، أي: إلى الله يفوّض علم الساعة لا إليَّ، فهو قصر قلب. وردّ عليهم بطريق الأسلوب الحكيم، أي: الأجدر أن تعلموا أن لا يعلم أحد متى الساعة، وأن تؤمنوا بها وتستعدّوا لها. ومثله قول النبيّ صلى الله عليه وسلم حين سأله رجل من المسلمين: متى الساعة؟ فقال له: **"ماذا أعددت لها ؟ "**، أي: استعدادك لها أولى بالاعتناء من أن تسأل عن وقتها.

الردُّ: الإرجاع، وهو مستعمل لتفويض علم ذلك إلى الله والتبرّؤ من أن يكون للمسؤول علم به.

قال تعالى { وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ } [النساء:83].

{ **وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ** } توجيه لصرف العلم بوقت الساعة إلى الله بذكر نظائر لا يعلم تفصيل حالها إلّا الله، أي: فليس في عدم العلم بوقت الساعة حجّة على تكذيب من أنذر بها. فهذا وجه ذكر تلك النظائر، وهي ثلاثة أشياء:

أوّلها: علم ما تُخرجه أكمام النخيل من الثمر بقدره، وجودته، وثباته أو سقوطه.

الأكمام: جمع كِمّ (بكسر الكاف وتشديد الميم) وهو وعاء الثمر وهو الجُف الذي يخرج من النخلة محتويا على طلع الثمر. وضمير { أَكْمَامِهَا } راجع إلى الثمرات.

ثانيها: حمل الأنثى من الناس والحيوان، ولا يعلم التي تلقح من التي لا تلقح إلّا الله.

ثالثها: وقت وضع الأجنة، فإن الإناث تكون حوامل مثقلة ولا يعلم وقت وضعها باليوم والساعة إلّا الله.

{ **وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ** }

عطف على التي قبلها، فإنه لمّا تضمّن قوله تعالى { إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ } إبطال شبهتهم بأنّ عدم بيان وقتها يدل على انتفاء حصولها، وأتبع ذلك بنظائر لوقت الساعة ممّا هو جار في الدنيا، عاد الكلام إلى شأن الساعة على وجه الإنذار مقتضيا إثبات وقوع الساعة بذكر بعض ما يلقونه في يومها.

{ **وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ** } متعلّق بمحذوف شائع حذفه في القرآن، تقديره: واذكر يوم يناديهم. والضمير عائد إلى { رَبِّكَ } في قوله تعالى { وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ }، والنداء كناية عن الخطاب العلني. وتقدّم عند قوله تعالى { رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ } [آل عمران:193]، وقوله تعالى { وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا } [الأعراف:43].

{ **أَيْنَ شُرَكَائِي** } يصحّ أن يكون مقول قول محذوف، كما صرّح به في قوله تعالى { وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ

أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ } [القصص:62]، وقوله تعالى { وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ } [القصص:65] وحذف القول ليس بعزيز. ويصح أن تكون مبيّنة لما تضمنه { يُنَادِيهِمْ } من معنى الكلام.

{ **قَالُوا آذَنَّاكَ** } جاءت الجملة غير معطوفة لأنّها جارية على طريقة حكاية المحاورات. و{ آذناك } أخبرناك وأعلمناك. وأصل هذا الفعل مشتق من الاسم الجامد **الأُذْن** (بضم الهمزة وسكون الذال)، قال تعالى { فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ } [الانبياء:109]. وصيغة الماضي في { آذناك } إنشاء، فهو بمعنى الحال مثل: بعت، أي: نأذنك ونقرّ بأنّه ما منا من شهيد.

الشهيد: يجوز أن يكون هنا بمعنى المشاهد، أي: المبصر، أي: ما أحد منّا يرى الآن الذين كنّا ندعوهم شركاءك، فتكون جملة { وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ } في موضع الحال. ويجوز أن يكون الشهيد بمعنى الشاهد، أي: ما منّا أحد يشهد أنّهم شركاؤك، فيكون ذلك اعترافا بكذبهم فيما مضى، وتكون جملة { وَضَلَّ عَنْهُمْ } معطوفة على جملة { قَالُوا آذَنَّاكَ }، أي: قالوا ذلك ولم يجدوا واحدا من أصنامهم.

{ **وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ** } أي: غاب عنهم، أي: لم يجدوا ما كانوا يدعونهم من قبل في الدنيا، قال تعالى { بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ } [الأحقاف:28]. فالمراد هنا: غيبة أصنامهم عنهم وعدم وجودها.

{ **وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ** } وإذ لم يجدوا ما كانوا يزعمونه فقد علموا أنّهم لا محيص لهم، أي: لا ملجأ لهم من العذاب الذي شاهدوا إعداده، فالظنّ هنا بمعنى اليقين.

المحيص: مصدر ميمي أو اسم مكان من: حاص يحيص، إذا هرب، أي: ما لهم مفرّ من النار.

{ لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ [49] وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ [50] }.

اعتراض بين أجزاء الوعيد. والمعنى: وعلموا ما لهم من محيص، وقد كانوا إذا أصابتهم نعماء...

{ **لا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ** } أي: أنّه لا يكتفي، فأطلق على الاكتفاء والاقتناع السآمة. وهي الملل على وجه الاستعارة، بتشبيه استرسال الإنسان في طلب الخير بالعمل الدائم الذي شأنه أن يسأم منه عامله فنفي السآمة عنه رمز للاستعارة. قال تعالى { وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ } [العاديات:8].

الدعاء: أصله الطلب بالقول، وهو هنا مجاز في الطلب مطلقا، فتكون إضافته إلى الخير من إضافة المصدر إلى ما في معنى المفعول، أي: الدعاء بالخير أو طلب الخير.

{ **وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ** } من خُلق قلّة صبر الإنسان على ما يُتعبه ويشقّ عليه فيضجر إن لحقه شرّ ولا يوازي بين ما كان فيه من خير، فيقول: لئن مسّني الشر زمنا لقد حلّ بي الخير أزمانا، فمن

الحقّ أن أتحمّل ما أصابني كما نعمت بما كان لي من خير، ثم لا ينتظر إلى حين انفراج الشر عنه وينسى الإقبال على سؤال الله أن يكشف عنه الضرّ بل ييأس ويقنط، غضبا وكبرا.

اليأس :فعل قلبي هو اعتقاد عدم حصوله المأيوس منه.

القنوط: انفعال بدني من أثر اليأس، وهو انكسار وتضاؤل.

وقد جاءت تربية الشريعة للأمّة على ذمّ القنوط، قال تعالى حكاية عن إبراهيم { قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ } [الحجر:56]، وفي الحديث: " **انتظار الفرج بعد الشدّة عبادة** ".

فالآية وصفت خُلقين ذميمين: أحدهما خلق البطر بالنعمة والغفلة عن شكر الله عليها. وثانيهما اليأس من رجوع النعمة عند فقدها.

وفي نظم الآية لطائف من البلاغة.

الأولى: التعبير عن دوام طلب النعمة بعدم السآمة كما علمته.

الثانية: التعبير عن محبة الخير بدعاء الخير.

الثالثة: التعبير عن إضافة الضرّ بالمس الذي هو أضعف إحساس الإصابة.

الرابعة: اقتران شرط مس الشر بـ (إن) التي من شأنها أن تدخل على النادر وقوعه، فإنّ إصابة الشر الإنسان نادرة بالنسبة لما هو مغمور به من النعم.

الخامسة: صيغة المبالغة في { يَؤُوسٌ }.

السادسة: إتباع { يَؤُوسٌ } بـ { قَنُوطٌ } الذي هو تجاوز إحساس اليأس إلى ظاهر البدن بالانكسار، وهو من شدّة يأسه، فحصلت مبالغتان في التعبير عن يأسه بأنّه اعتقاد في ضميره وانفعال في سحناته.

فالمشرك يتأصل فيه هذا الخُلق ويتزايد باستمرار الزمان: والمؤمن لا تزال تربية الإيمان تكفّه عن هذا الخُلق حتّى يزول منه أو يكاد.

{ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى }

ثم بينت الآية خُلُقا آخر في الإنسان وهو أنّه إذا زال عنه كربه وعادت إليه النعمة نسي ما كان فيه من الشدّة ولم يتفكّر في لطف الله به فبطر النعمة، وقال: قد استرجعت خيراتي بحيلتي وتدبيري، وهذا الخير حق لي حصلت عليه، ثم إذا كان من أهل الشرك، وهم المتحدّث عنهم، تراه إذا سمع إنذار النبيّ صلى الله عليه وسلم بقيام الساعة أو هجس في نفسه هاجس عاقبة هذه الحياة قال لمن يدعوه إلى العمل ليوم الحساب، أو قال في نفسه { مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً }، ولئن فُرض قيام الساعة على احتمال ضعيف فإني سأجد عند الله المعاملة بالحسنى لأنّي من أهل الثراء والرفاهية في الدنيا، فكذلك سأكون يوم القيامة.

كما حكى الله تعالى عن العاصي بن وائل حين اقتضاه خبَّاب بن الأرت مالا له عنده من أجر صناعة سيف فقال له: حتّى تكفر بمحمد. فقال خباب: لا أكفر بمحمد حتّى يميتك الله ويبعثك، فقال: أو إنّي لميت فمبعوث؟ قال: نعم. فقال: لئن بعثني الله فسيكون لي مالي فأقضيك، فأنزل الله تعالى { أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآياتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا } [مريم:77].

{ **مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً** } ذكر إنكار البعث هنا إدماج بذكر أحوال الإنسان المشرك في عموم أحوال الإنسان. والإخبار عن الإنسان بأنّه يقول: ما أظن الساعة قائمة، صريح أن المخبر عنه من المشركين معيَّنا كان أو عاما عموما عرفيا. فقيل المراد بالإنسان: المشركون كلّهم، وقيل أريد به مشرك معيّن، قيل هو الوليد بن المغيرة، وقيل عتبة بن ربيعة. وأيا ما كان فالإخبار عن إنسان كافر.

{ **وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى** } لعل قوله إنما هو على سبيل الاستهزاء كما في مقاله العاصي بن وائل. وجيء في حكاية قوله { وَلَئِنْ رُجِعْتُ } بحرف (إن) الشرطية التي يغلب وقوعها في الشرط المشكوك وقوعه لأنّه جعل رجوعه إلى الله أمرا مفروضا ضعيف الاحتمال.

الحُسنى: صفة لموصوف محذوف، أي: الحالة الحسنة، أو المعاملة الحسنة.

{ **فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ** } تفريع على قوله تعالى { وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي } [47]، أي: فلنُعلمنَّهم بما عملوا عَلَنًا يعلمون به أنّا لا يخفى علينا شيء ممّا عملوه وتقريعا لهم.

الغليظ: حقيقته الصلب، قال تعالى { فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ } [الفتح:29]، وهو هنا للقويّ في نوعه، أي: عذاب شديد الإيلام. كما استعير للقساوة في المعاملة، كما في قوله تعالى { وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ } [التوبة:73].

الإذاقة: مجاز في مطلق الإصابة في الحس، لإطماعهم أنّها إصابة خفيفة كإصابة الذوق باللسان. وهذا تجريد للمجاز، كما أنّ وصفه بالغليظ تجريد ثان، فحصل من ذلك ابتداء مُطْمِع وانتهاء مُؤَيِّس.

{ **وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ** } [51].

هذا وصف وتذكير بضرب آخر من طغيان النفس الإنسانية غير خاص بأهل الشرك، بل هو منبثّ في جميع الناس على تفاوت، إلّا من عصم الله. وهو توصيف لنزق النفس الإنساني وقلّة ثباته، فإذا أصابته السرّاء طغا وتكبّر ونسي شكر ربّه، نسيانا قليلا أو كثيرا، وشُغل بلذاته، وإذا أصابته الضرّاء لم يصبر وجزع ولجأ إلى ربّه يلحّ بسؤال كشف الضرّ عنه سريعا.

فهذا التفنُّن في وصف أحوال الإنسان مع ربّه هو الذي دعا إلى ما اشتمل عليه قوله تعالى { وَإِذَا أَنْعَمْنَا } من بعض التكرير لما ذكر في الضرب المتقدّم لزيادة تقريره، وللإشارة إلى اختلاف الحالتين باعتبار الشرك وعدمه.

الإعراض: الانصراف عن شيء، وهو مستعار هنا للغفلة عن شكر المنعم، أو التعمّد لترك الشكر.
والمتعلّق محذوف لدلالة السياق عليه، والتقدير: أعرض عن دعائنا.
النأي: البعد، وهو هنا مستعار لعدم التفكّر في المنعم عليه، فشُبِّه عدم اشتغاله بذلك بالبعد.
{ **وَنَأَى بِجَانِبِهِ** } الجانب للإنسان منتهى جسمه من إحدى الجهتين اللتين ليستا قبالة وجهه وظهره، ويسمَّى الشِّقّ والعِطف (بكسر العين)، والباء للتعدية. والمعنى: أبعد جانبه، كناية عن إبعاد نفسه، أي: ولَّى معرضا.
{ **مَسَّهُ الشَّرُّ** } أصابه شر بسبب عادي. وعدل عن إسناد إصابة الشر إلى الله تعليما للأدب مع الله كما قال إبراهيم عليه السلام { وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ } [الشعراء:80].
{ **فَذُو دُعَاءٍ** } عدل عن أن يقال: فداع، لما تشعر به كلمة (ذو) من ملازمة الدعاء له وتملّكه منه.
الدعاء: الدعاء لله بكشف الشرّ عنه. وتوجّه المشركين إلى الله بالدعاء هو أقوال تجري على ألسنتهم توارثوها من عادات سالفة من أزمان تديّنهم بالحنيفيّة قبل أن تدخل عليهم عبادة الأصنام.
{ **عَرِيضٍ** } استعارة، لأنّ العَرض (بفتح العين) ضد الطول، والشيء العريض هو المتسع مساحة العرض، فشُبِّه الدعاء المتكرّر المُلَّحُ فيه بالثوب أو المكان العريض.

{ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ** } [52].
استئناف ابتدائي متصل بقوله { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ - إلى قوله - لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ } [45]. انتقال إلى المجادلة في شأن القرآن رجع به إلى الغرض الأصلي من هذه السورة وهو بيان حقِّيَّة القرآن وصدقه وصدق من جاء به. وهذا استدعاء ليُعمِلوا النظر في دلائل صدق القرآن؛ مثل إعجازه واتّساقه وتأييد بعضه بعضا، وكونه مؤيِّدا للكتب قبله، وكون تلك الكتب مؤيّدة له.
والمعنى: ما أنتم عليه من إنكار صدق القرآن ليس صادرا عن نظر وتمحيص يُحصِّل اليقين وإنّما جازفتم به قبل النظر، وهذا من الكلام المنصف، فهم لمّا أنكروا أن يكون من عند الله وصدُّوا أنفسهم وعامتهم عن الاستماع إليه والتدبّر فيه فقد أعملوا شهوات أنفسهم وأهملوا الأخذ بالحيطة لهم بأن يتدبّروه حتّى يكونوا على بيّنة من أمرهم في شأنه، فاستدعاهم الله إلى النظر بطريق تجويز أن يكون من عند الله، فإنّه إذا جاز ذلك وكانوا قد كفروا به دون تأمّل كانوا قد قضوا على أنفسهم بالضلال الشديد.
{ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ** } الفعل معلّق عن العمل لوجود الاستفهام بعده، والرؤية علمية.
{ **ثُمَّ كَفَرْتُمْ** } للتراخي الرتبي لأنّ الكفر بما هو من عند الله أمره أخطر من كون القرآن من عند الله.
{ **مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ** } { مَنْ } الأولى للاستفهام وهو مستعمل في معنى النفي، أي: لا أضلّ ممّن هو في شقاق بعيد إذا تحقق الشرط. و{ مَنْ } الثانية موصولة وما صدقها المخاطبون بقوله { كَفَرْتُمْ بِهِ } فعدل عن الإضمار إلى طريق الموصول لما تأذن به الصلة من تعليل أنّهم أضلّ الضالين بكونهم شديدي

الشقاق، وذلك كناية عن كونهم أشدّ الخلق عقوبة، لما هو معلوم من أنّ الضلال سبب للخسران.

الشقاق: العصيان. والمراد: عصيان أمر الله لظهور أنّ القرآن من عنده على هذا الفرض بيننا.

البعيد: واسع المسافة، واستعير هنا للتشديد في جنسه، ومناسبة هذه الاستعارة للضلال لأنّ الضلال أصله عدم الاهتداء إلى الطريق، وتقدّم في قوله { وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ } [البقرة:176].

{ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } [53].

{ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ } أعقب الله أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين ما فيه تخويفهم من عواقب الشقاق، على تقدير أن يكون القرآن من عند الله وهم قد كفروا به إلى آخر ما قُرِّر آنفا، بأن وعد رسوله صلى الله عليه وسلم، على سبيل التسلية والبشارة، بأنّ الله سيغمر المشركين بطائفة من آياته ما يتبيَّنون به أنّ القرآن من عند الله حقا فلا يسعهم إلّا الإيمان به، وستظهر دلائل حقِّيَّته في الآفاق البعيدة عنهم وفي قبيلتهم وأنفسهم فتتظاهر الدلائل على أنّه الحق فلا يجدوا إلى إنكارها سبيلا. وفي هذا الوعد للرسول صلى الله عليه وسلم تعريض بهم.

فموقع هذه الجملة، بصريحها وتعريضها، من الجملة التي قبلها موقع التعليل لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ما أمر به، والتعليل راجع إلى إحالتهم على تشكيكهم في موقفهم للطعن في القرآن.

وفي هذه الآية طرف من الإعجاز بالإخبار عن الغيب إذ أخبرت بالوعد بحصول النصر له ولدينه وذلك بما يسَّر الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ولخلفائه من بعده في آفاق الدنيا.

الآفاق: جمع أُفُق وأُفْق، هو الناحية من الأرض المتميّزة عن غيرها، والناحية من السماء.

{ فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ } يجوز أن يكون من عطف الخاص على العام، أي: وفي أفق أنفسهم، أي: مكّة وما حولها. والأحسن أن يكون { فِي الْآفَاقِ } على عمومه الشامل لأفقهم، ويكون معنى { وَفِي أَنْفُسِهِمْ } أنّهم يرون آيات صدقه في أحوال تصيب أنفسهم، أي: ذواتهم مثل الجوع الذي دعا عليهم به النبي صلى الله عليه وسلم ونزل فيه قوله تعالى { فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ } [الدخان:10]، ومثل ما شاهدوه من مصارع كبرائهم يوم بدر.

{ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } عطف على إعلام الرسول بما سيظهر من دلائل صدق القرآن وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم زيادة لتثبيت الرسول وشرح صدره بأنّ الله تكفّل له بظهور دينه ووضوح صدقه في أرض قومه وفي سائر أقطار الأرض ، على طريقة الاستفهام التقريري تحقيقا لتيقّن النبيّ صلى الله عليه وسلم بكفالة ربّه.

المعنى: تكفيك شهادة ربّك بصدقك فلا تلتفت لتكذيبهم، وهذا على حد قوله تعالى { لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ

إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا } [النساء:166]، وقوله تعالى { وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا } [النساء:79].

وهنالك وجه آخر أن يكون مساقها مساق تلقين النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يستشهد بالله على أنّ القرآن من عند الله، فيكون موقعها موقع القَسَم بإشهاد الله، فيكون الاستفهام إنكاريا، إنكارا لعدم الاكتفاء بالقَسَم بالله، فيكون معنى الآية قريبا من معنى قوله تعالى { قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ } [الرعد:43]، وقوله تعالى { قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا } [العنكبوت:52].

{ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ } [54].

تذييلان للسورة وفذلكتان افتُتحا بحرف التنبيه اهتماما بما تضمَّناه.

فأمّا الأول فهو جماع ما تضمّنته السورة من أحوال المشركين المعاندين، إذ كانت أحوالهم المذكورة فيها ناشئة عن إنكارهم البعث، فانحصرت مساعيهم في تدبير الحياة الدنيا وانكبوا على ما يعود عليهم بالنفع فيها.

وأمّا الثاني فهو جامع لكلّ ما تضمَّنته السورة من إبطال لأقوالهم وتقويم لاعوجاجهم، لأنّ ذلك كلّه من آثار علم الله تعالى بالغيب والشهادة.

{ أَلا إِنَّهُمْ / أَلا إِنَّهُ } تأكيد الجملتين بحرف التأكيد مع أنّ المخاطب بهما لا يشك في ذلك لقصد الاهتمام بهما واستدعاء النظر لاستخراج ما تحويانه من المعاني والجزئيّات.

المِرية: (بكسر الميم وهو الأشهر فيها) الشك.

{ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ } أي: في مرية من وقوع لقاء ربهم وعدم وقوعه، كقوله تعالى { وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا } [البقرة: 23] أي: في ريب من كونه منزلا.

وأطلق الشك على جزمهم بعدم وقوع البعث لأنّ جزمهم خلي عن الدليل الذي يقتضيه، فكان إطلاق الشك عليه تعريضا بهم بأنّ الأولى بهم أن يكونوا في شك على الأقل.

{ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ } ووصف الله بالمحيط مجاز عقلي لأنّ المحيط بكل شيء هو علمه.

وبهاتين الفذلكتين آذن بانتهاء الكلام فكان من براعة الختام.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الشورى

اشتهرت تسميتها عند السلف (**حم عسق**)، وكذلك ترجمها البخاري في كتاب التفسير والترمذي في جامعه، وكذلك سُمِّيت في عدّة من كتب التفسير وكثير من المصاحف. وتُسمَّى (**سورة الشورى**)، وبذلك سُمِّيت في كثير من المصاحف والتفاسير. ولم يعدّها في الإتقان في عداد السور ذات الاسمين فأكثر. ولم يثبت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم شيء في تسميتها.

وهي مكّية كلّها عند الجمهور، عن ابن عباس وقتادة استثناء أربع آيات أولاها قوله تعالى { قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى } [23]، وعن مقاتل استثناء قوله تعالى { ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا - إلى قوله - إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } [24]. قيل نزلت في الأنصار وهي داخلة في الآيات التي ذكرها ابن عباس.

وفي أحكام القرآن لابن الفرس عن مقاتل: أن قوله تعالى { وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ } [27] نزل في أهل الصُفّة فتكون مدنية، وفيه عنه أنّ قوله تعالى { وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ - إلى قوله - مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ } [39-41] نزل بالمدينة.

وعُدَّت التاسعة والستين في ترتيب نزول السور عند الجعبري. نزلت بعد سورة الكهف وقبل سورة إبراهيم.

وإذا صحّ أنّ آية { وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا } [28] نزلت في انحباس المطر عن أهل مكّة، كما قال مقاتل، تكون السورة نزلت في حدود سنة ثمان بعد البعثة، ولعلّ نزولها استمر إلى سنة تسع بعد أن آمن نقباء الأنصار ليلة العقبة، فقد قيل: إنّ قوله تعالى { وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ } [38] أريد به الأنصار قبل الهجرة النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى المدينة.

وعُدَّت آيها عند أهل المدينة ومكة والشام والبصرة **خمسين**، وعند أهل الكوفة ثلاثا وخمسين.

أغراض السورة

*/ أوّل أغراضها الإشارة إلى تحدِّي الطاعنين في أنّ القرآن وحي من الله بأن يأتوا بكلام مثله، فهذا التحدّي لا تخلو عنه السور المفتتحة بالحروف الهجائية المقطّعة، كما تقدّم في سورة البقرة.

*/ استدل الله على المعاندين بأنّ الوحي إلى محمد صلى الله عليه وسلم ما هو إلّا كالوحي إلى الرسل من قبله لينذر أهل مكة ومن حولها بيوم الحساب.

*/ أنّ الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض لا تُعارض قدرته ولا يُشك في حكمته، وقد خضعت له العوالم العليا ومن فيها، وهو فاطر المخلوقات، فهو يجتبي من يشاء لرسالته فلا بدع أن يشرع للأمّة المحمدية من الدين مثل ما شرع لمن قبله من الرسل.

*/ ما أرسل الله الرسل إلّا من البشر يوحي إليهم، فلم يسبق أن أرسل ملائكة لمخاطبة عموم الناس مباشرة.

*/ أنّ المشركين بالله لا حجّة لهم إلّا تقليد أئمة الكفر الذين شرعوا لهم الإشراك وألقوا إليهم الشبهات.

*/ حذّرهم يوم الجزاء واقتراب الساعة وما سيلقى المشركون يوم الحساب من العذاب، مع إدماج التعريض بالترغيب فيما سيلقاه المؤمنون من الكرامة.

*/ أنّهم لو تدبّروا لعلموا أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لا يأتي عن الله من تلقاء نفسه لأنّ الله لا يقرّه على أن يقول عليه ما لم يقله.

*/ ذكرت دلائل الوحدانية وما هو من تلك الآيات نعمة على الناس، مثل دليل السير في البحر وما أوتيه الناس من نعم الدنيا.

*/ تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم بأنّ الله هو متولّي جزاء المكذّبين وما على الرسول صلى الله عليه وسلم من حسابهم من شيء فما عليه إلّا الاستمرار على دعوتهم إلى الحق القويم.

*/ نبّههم إلى أنّه لا يبتغي منهم جزاء على نصحه لهم وإنّما يبتغي أن يراعوا أواصر القرابة بينه وبينهم.

*/ <u>ذكَّرهم</u> نعم الله عليهم، <u>وحذَّرهم</u> من التسبّب في قطعها بسوء أعمالهم، <u>وحرّضهم</u> على السعي في أسباب الفوز في الآخرة والمبادرة إلى ذلك قبل الفوات، فقد فاز المؤمنون المتوكّلون، <u>ونوّه</u> بجلائل أعمالهم وتجنبهم التعرّض لغضب الله عليهم.

*/ تخلل ذلك تنبيه على آيات كثيرة من آيات انفراده تعالى بالخلق والتصرّف المقتضي انفراده بالإلهية.

*/ ختمها بتذكيرهم بمعجزة أمّيّته صلى الله عليه وسلم، وأنّه جاءهم بهدى عظيم من الدين وقد علموا أنّه لم يكن ممّن تصدى لذلك في سابق عمره وذلك أكبر دليل على أنّ ما جاء به أمر قد أوحي إليه به.

*/ ختم بكلمة جامعة تتضمن التفويض إلى الله وانتظار حكمه { أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ } [53].

{ **حم [1] عسق [2]** }.

ابتدئت بالحروف المقطّعة على نحو ما ابتدئت به أمثالها، لأنّ ابتداءها مشير إلى التحدّي بعجزهم عن معارضة القرآن، وأنّ عجزهم عن معارضته دليل على أنّه كلام مُنزَّل من الله تعالى.

{ **كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } [3].

موقع الإشارة هنا كموقع قوله تعالى { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا } [البقرة: 143]. والمعنى: مثل هذا الوحي يوحي الله إليك، فالمشار إليه: الإيحاء المأخوذ من فعل { يُوحِي }. وصيغة المضارع لإفادة التجدّد.

{ **وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ** } إدماج. والغرض من التشبيه إثبات التسوية، أي: ليس وحي الله إليك إلّا على سنّة وحيه إلى الرسل من قبلك. وهذا كقوله تعالى { إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ} [النساء:163]، أي: ما جاء به من الوحي إن هو إلا مثل ما جاءت به الرسل السابقون، فما إعراض قومه عنه إلّا كإعراض الأمم السالفة عما جاءت به رسلهم.

{ **اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } إجراء هذين الوصفين على اسم الجلالة دون غيرهما لأنّ لهاتين الصفتين مزيد من اختصاص بالغرض المقصود من أنّ الله يصطفي من يشاء لرسالته.

{ **الْعَزِيزُ** } المتصرّف بما يريد لا يصدُّه أحد. و{ **الْحَكِيمُ** } يُحمِّل كلامه معاني لا يبلغ إلى مثلها غيره. وهذا من متمِّمات الغرض الذي افتتحت به السورة، وهو الإشارة إلى تحدّي المعاندين بأن يأتوا بمثله.

{ **لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ** } [4].

الجملة مقرّرة لوصفه { الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }، لأنّ من كان ما في السماوات وما في الأرض ملكا له تتحقّق له العزّة لقوة ملكوته، وتتحقق له الحكمة، لأنّ الحكمة تقتضي خلق ما في السماوات والأرض وإتقان ذلك النظام الذي تسير به المخلوقات. ولكون هذه الجملة مقرّرة معنى التي قبلها كانت بمنزلة التأكيد فلم تعطف عليها.

{ **وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ** } معطوفة مقرّرة لما قرَّرته السابقة، فإنّ من اتصف بالعلاء والعظمة لو لم يكن عزيزا لتخلّف علاؤه وعظمته، ولا يكون إلّا حكيما لأنّ علاءه يقتضي سموَّه عن سفاسف الصفات والأفعال.

{ **الْعَلِيُّ** } هنا علو مجازي، وهو السموّ في الكمال بحيث كان أكمل من كلّ موجود كامل.

{ **الْعَظِيمُ** } العظمة مجازية، وهي جلالة الصفات والأفعال.

وأفادت صيغة الجملة معنى القصر، أي: لا عليّ ولا عظيم غيره. وهذا قصر قلب، أي: دون آلهتكم فلا

علو لها كما تزعمون. وتقدّم معنى هاتين الجملتين في خلال آية الكرسي [البقرة:255].

{ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } [5].

{ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ } مستأنفة مقرّرة لمعنى جملة { وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ }، ولذلك لم تعطف عليها. أي: يكاد السماوات يتفطرن من كثرة ما فيهن من الملائكة والكواكب وتصاريف الأقدار، فيكون في معنى قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" أطَّت السماء وبحقِّها أن تئط. والذي نفس محمد بيده ما فيها موضع شبر إلّا فيه جبهة مَلَك ساجد يسبح الله بحمده "** [أخرجه ابن مردويه عن أنس وهو حديث حسن]، ويرجِّح هذا المعنى تعقيبه بقوله تعالى { وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ }.

{ **مِنْ فَوْقِهِنَّ** } يجوز أن يكون الضمير عائدا على { السَّمَاوَاتُ }، فيكون المجرور متعلّقا بفعل {يَتَفَطَّرْنَ} بمعنى: أنّ انشقاقهن يحصل من أعلاهن.

ويجوز أن يكون الضمير عائدا إلى { الأرض } من قوله تعالى { وَمَا فِي الْأَرْضِ } [53]، وتكون {مِنْ} زائدة زيادتها مع الظروف لتأكيد الفوقية، فيفيد الظرف استحضار حالة التفطّر وحالة موقعه.

أي: يوشك إن هنّ تفطَّرن أن يخررن على الأرض، أي: يكاد يقع ذلك لِما فشا في الأرض من إشراك وفساد على معنى قوله تعالى { وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا } [مريم:90]، ويرجّحه قوله تعالى الآتي { وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ } [6]، وعن ابن عباس: { تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ } من قول المشركين {اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا} [البقرة:116].

{ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } تقرير لمعنى عظمة الله تعالى وجلاله المدلول عليهما بقوله { وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ } [4]. وأيضا كالبيان لما في جملة { تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ }، لأن من أسباب مقاربة تفطّرهن كثرة ما فيهن من الملائكة.

ولولا أنّها أريد منها زيادة تقرير معنى جملة { وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ } [4] لكانت جديرة بأن تفصل ولكن رُجِّح العطف لأجل الاهتمام بتقرير العلو والعظمة لله تعالى. وأمّا التبيين فيحصل بمجرد تعقيب جملة { تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ } بها كما علمته آنفا.

وقد أشارت الآية إلى مراتب الموجودات، وهي:

مرتبة واجب الوجود سبحانه وهو أهل التنزيه والحمد.

مرتبة الروحانيات وهي الملائكة وهي واسطة المتصرّف القدير ومُفيض الخير في تنفيذ أمره.

{ **يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ** } حين تتلقّى من الله أوامره. وتسبيح الملائكة بحمد الله خضوع لعظمته وعلوّه.

التسبيح: التنزيه عن النقائص.

{ **وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ** } حين تُفيض خيرات ربّها على عباده الذين يتقبّلونها تقبل العبيد المؤمنين. وقد أثبت القرآن أنّ الملائكة يلعنون من تحقّ عليه اللعنة بقوله تعالى { أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ } [البقرة:161]. وهذا تعريض بالمشركين إذ أعرضوا عن تسبيح ربهم وحمده وشغلوا بتحميد الأصنام التي لا نعمة لها عليهم ولا تنفعهم ولا تضرّهم.

{ **أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** } تذييل لجملة { وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ } لإبطال وهم المشركين أنّ شركاءهم يشفعون لهم، ولذلك جيء في هذه الجملة بصيغة القصر بضمير الفصل، أي: أنّ غير الله لا يغفر لأحد. وصدرت بأداة التنبيه للاهتمام بمفادها.

{ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ } [6].

معطوفة على جملة { لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } [4]. والمعنى: قد نهضت حجّة انفراده تعالى بالعزّة والحكمة والعلو والعظمة وعلمها المؤمنون فاستغفرت لهم الملائكة. وأمّا الذين لم يبصروا تلك الحجّة وعميت عليهم الأدلة فلا تهتم بشأنهم فإنّ الله حسبهم وما أنت عليهم بوكيل.

فهذا تسكين لحزن الرسول صلى الله عليه وسلم من أجل عدم إيمانهم بوحدانية الله تعالى.

وهي كالمقدّمة لما سيؤمر به الرسول صلى الله عليه وسلم من الدعوة:

من قوله تعالى { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى } [7].

وقوله تعالى { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا } [13].

وقوله تعالى { فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ } [15].

وقوله تعالى { قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا } [23].

الحفيظ: فعيل بمعنى فاعل، أي: حافظ، وتختلف معانيه ومرجعها إلى رعاية الشيء والعناية به، ويكثر أن يُستعمل كناية عن مراقبة أحوال المرقوب وأعماله، وباختلاف معانيه تختلف تعديته بنفسه أو بحرف جر يناسب المعنى، وقد عُدِّي هنا بحرف (على) كما يُعدَّى الوكيل لأنّه بمعناه.

الوكيل: فعيل بمعنى مفعول وهو الموكول إليه عمل في شيء أو اقتضاء حق. يقال: وكَّله على كذا، ومنه الوكالة في التصرفات المالية والمخاصمة، ويكثر أن يستعمل كناية عن مراقبة أحوال الموكل عليه وأعماله. وقد استعمل { حَفِيظٌ / وَكِيلٍ } هنا في استعمالهما الكنائي عن متقارب المعنى فلذلك قد يفسر أهل اللغة أحد هذين اللفظين بما يقرب من تفسير اللفظ الآخر كتفسير المرادف بمرادفه وذلك تسامح.

والمعنى: الله رقيب عليهم لا أنت، وما أنت بموكل من الله على جبرهم على الإيمان. وسيجيء هذا المعنى عند قوله تعالى { فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ } [48].

والمقصود رفع التبعية عن النبيّ صلى الله عليه وسلم من عدم استجابتهم للتوحيد، أي: لا تخش أن نسألك على عدم اهتدائهم إذ ما عليك إلّا البلاغ، وتقدّم في قوله تعالى { وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ } [الأنعام:107].

{ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ } [7].

عطف على جملة { كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ } [3] باعتبار المغايرة بين المعطوفة والمعطوف عليها بما في المعطوفة من كون الموحى به قرآنا عربيا، وما في المعطوف عليها من كونه من نوع ما أوحي به إلى الذين من قبله.

{ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا } كالقول في سابقه { كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ } [3]، وإنّما أعيد ليبنى عليه { قُرْآنًا عَرَبِيًّا } لما حجز بينهما من الفصل، مع ما حصل بتلك الإعادة من التأكيد لتقرير ذلك المعنى أفضل تقرير.

وفي هذا إشارة إلى أنّه لا فرق بين ما أوحي إليك وما أوحي إلى من قبلك إلّا اختلاف اللغات، كما قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ } [ابراهيم:4].

{ أَوْحَيْنَا } العدول عن ضمير الغائب إلى ضمير العظمة التفات.

القرآن: مصدر قرأ، مثل: غفران، وأطلق هنا على المقروء مبالغة في الاتصاف بالمقروئية لكثرة ما يقرأه القارئون، وذلك لحسنه وفائدته، فقد تضمّن هذا الاسم معنى الكمال بين المقروءات.

{ عَرَبِيًّا } نسبة إلى العربية، أي: لغة العرب.

{ لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا } تعليل لـ { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا } لأنّ كونه عربيا يليق بحال المنذرين به وهم أهل مكّة ومن حولها، فأولئك هم المخاطبون بالدين ابتداء لما اقتضته الحكمة الإلهية من اختيار الأمّة العربية لتكون أوّل من يتلقّى الإسلام وينشره بين الأمم، ولو روعي فيه جميع الأمم المخاطبين بدعوة الإسلام لاقتضى أن ينزل بلغات لا تحصى.

{ أُمَّ الْقُرَى } مكّة، وكُنيت: أم القرى لأنّها أقدم المدن العربية فدعاها العرب: أمّ القرى، لأنّ الأم تطلق على أصل الشيء، مثل: أمّ الطريق، للطريق العظيم الذي حوله طرق صغار. وتقدّم في قوله تعالى { وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى } [الأنعام:92]. والمراد: لتنذر أهل أمّ القرى، فأطلق اسم البلد على سكّانه، وأهل مكة هم قريش.

{ وَمَنْ حَوْلَهَا } هم النازلون حولها من القبائل مثل خزاعة وكنانة، ومن الذين حولها الظواهر، وهم الساكنون خارج مكة في جبالها.

ثم إنّ إنذار أمّ القرى يقتضي إنذار بقية القرى بالأحرى، قال تعالى { وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا } [القصص:59].

والاقتصار على إنذار أم القرى ومن حولها لا يقتضي تخصيص إنذار الرسول صلى الله عليه وسلم بأهل مكة ومن حولها، ولا تخصيصه بالإنذار دون التبشير للمؤمنين، لأنّ تعليل الفعل بعلّة باعثة لا يقتضي أن الفعل المعلّل مخصَّص بتلك العلة ولا بمتعلّقاتها، إذ قد يكون للفعل الواحد علل باعثة، فإنّ الرسول صلى الله عليه وسلم بُعث للناس كافة، كما قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا }

[سبأ:28]. والاقتصار هنا على إنذار أهل مكّة ومن حولها لأنّهم المقصود بالردّ عليهم لإنكارهم الرسالة.
{ **وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ** } أعيد الفعل لزيادة تهويل أمر يوم الجمع، لأنّ تخصيصه بالذكر بعد عموم الإنذار يقتضي تهويله. أي: وتنذر الناس يوم الجمع.

يوم الجمع: يوم القيامة، سُمِّي بذلك لأنّ الخلائق تُجمع فيه للحساب، قال تعالى {يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ} [التغابن:9].

{ **لا رَيْبَ فِيهِ** } معترضة بين البيان والمبين. أي: أنّ دلائله تنفي الشك في أنّه سيقع، فنزل ريب المرتابين فيه منزلة العدم لأنّ موجبات اليقين بوقوعه بيّنة، كقوله تعالى { ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ } [البقرة:2].

{ **فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ** } الجملتان جواب لسؤال مقدّر عن شأن هذا الجمع. فقيل: فريق في الجنة وفريق في السعير، أي: فريق من المجموعين بهذا الجمع في الجنة وفريق في السعير.

{ **السَّعِيرِ** } تقدّم عند قوله تعالى { كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا } [الاسراء:97].

{ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ } [8].

عطف على الجملة السابقة، والغرض من هذا العطف إفادة أنّ كونهم فريقين أمر شاء الله تقديره، أي: أوجد أسبابه بحكمته ولو شاء لقدّر أسباب اتحادهم على عقيدة واحدة من الهدى فكانوا سواء في المصير. وهذا مسوق لتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على تمنّيهم أن يكون الناس كلّهم مهتدين.

فتأويل هذه الآية بما جاء في قوله تعالى { وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } [السجدة:13]، وقوله تعالى { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ } [يونس:99].

وقد دلّ على ذلك الاستدراك الذي في قوله تعالى { وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ }، أي: ولكن شاء مشيئة أخرى جرت على وفق حكمته، وهي أنّ خلقهم قابلين للهدى والضلال بتصاريف عقولهم وأميالهم، ومكّنهم من كسب أفعالهم وأوضح لهم طريق الخير وطريق الشر بالتكليف، فكان منهم المهتدون وهم الذين شاء الله إدخالهم في رحمته، ومنهم الظالمون الذين ما لهم من ولي ولا نصير.

{ **وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ** } أحد دليلين على المعنى المستدرك إذ التقدير: ولكنه جعلهم فريقين فريقا في الجنة وفريقا في السعير ليدخل من يشاء منهم في رحمته وهي الجنّة. وأفْهَم ذلك أنّه يُدخل منهم الفريق الآخر في عقابه، فدل عليه أيضا بقوله { **وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ** }، لأنّ نفي النصير كناية عن كونهم في بؤس وضرّ ومغلوبية بحيث يحتاجون إلى نصير. فيدخل في الظالمين مشركو أهل مكّة دخولا أوّليا لأنّهم سبب ورود هذا العموم.

{ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [9].

{ أَمِ } للإضراب الانتقالي. وتقدّر بعدها همزة استفهام إنكاري. أي: أتوا منكرا لمّا اتخذوا من دونه أولياء.

{ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ } الفاء فاء جواب لشرط مقدّر دلّ عليه مقام إنكار اتخاذهم أولياء من دون الله. على تقدير: إن أرادوا وليّا بحق فالله هو الوليّ بالحق لا وليّ سواه. وأفاد ضمير الفصل تأكيد القصر وتحقيقه، تذكيرا بأنّ الولاية الحق في هذا الشأن مختصّة بالله تعالى. وهذا كلّه مسوق إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين تسلية وتثبيتا وتعريضا بالمشركين فإنّهم لا يخلون من أن يسمعوه.

{ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى } معطوفة على جملة { فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ } إدماج لإعادة إثبات البعث ترسيخا لعلم المسلمين، وإبلاغا لمسامع المنكرين، لأنّهم أنكروا ذلك في ضمن اتخاذهم أولياء من دون الله، فلمّا أبطل معتقدهم إلهية غير الله أردف بإبطال ما هو من علائق شركهم وهو نفي البعث.

{ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } لإثبات هذه الصفة لله تعالى تذكيرا بانفراده بتمام القدرة، وي<u>فيد الاستدلال</u> على إمكان البعث، قال تعالى { وَهُوَ الَّذِي يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ } [الروم:27]، <u>ويفيد الاستدلال</u> على نفي الإلهية عن أصنامهم، لأنّ من لا يقدر على كلّ شيء لا يصلح للإلهية، قال تعالى { أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ } [النحل:17]. والغرض من هذا تعريض بإبلاغه إلى مسامع المشركين. ولما كان المقصود إثبات القدرة لله تعالى عطفت الجملة على التي قبلها لأنّها مثلها في إفادة الحكم، وكانت إفادة التعليل بها حاصلة من موقعها عقبها، ولو أريد التعليل ابتداء لفصلت الجملة ولم تعطف.

{ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } [10].

مجموع هذا الكلام لمتكلّم واحد، لأنّ ضمائر { رَبِّي / تَوَكَّلْتُ / أُنِيبُ } ضمائره، وتلك الضمائر لا تصلح أن تعود إلى الله تعالى، ولا حظّ في سياق الوحي إلى أحد سوى النبيّ صلى الله عليه وسلم، فتعيّن تقدير فعل أمر بقول يقوله النبيّ صلى الله عليه وسلم. وحذف القول شائع في القرآن بدلالة القرائن.

{ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ } الواو عاطفة فعل أمر بالقول، لأنّ مادة الاختلاف مشعرة بأنّه بين فريقين، وحالة الفريقين مشعرة بأنّه اختلاف في أمور الاعتقاد التي أنكرها الكافرون، من التوحيد والبعث والنفع والإضرار.

{ مِنْ شَيْءٍ } بيان لإبهام { ما }، أي: أيَّ شيء اختلفتم فيه. والمراد: من أشياء الدين وشؤون الله تعالى.

{ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ } الضمير عائد إلى { مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ }. <u>والمعني</u>: أنّه يتضح لهم يوم القيامة المحقّ من المبطل فيما اختلفوا فيه حين يرون الثواب للمؤمنين والعقاب للمشركين، فيعلم المشركون أنّهم مبطلون فيما كانوا يزعمون. و{ إلى الله } للانتهاء، وهو انتهاء مجازي تمثيلي.

{ **ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** } الراجح كما أسلفنا أن تكون الجملة مقول قول محذوف يدلّ عليه قوله { لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى } [7]، فتكون كلاما مستأنفا لأنّ الإنذار يقتضي كلاما منذرا به.
{ **ذَلِكُمُ** } الإشارة لتمييز المشار إليه وهو المفهوم من { فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ }، وهذا التمييز لإبطال التباس ماهية الإلهية والربوبية على المشركين إذ سَمُّوا الأصنام آلهة وأربابا، وأوثر اسم الإشارة الذي يُستعمل للبعيد لقصد التعظيم بالبعد الاعتباري اللازم للسموّ وشرف القدر، أي: ذلكم الله العظيم. ويُتوصَّل من ذلك إلى تعظيم حكمه، فالمعنى: الله العظيم في حكمه هو ربي الذي توكلت عليه فهو كافيني منكم.
التوكّل: تفعّل من الوَكْل، وهو التفويض في العمل، وتقدّم عند قوله تعالى { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } [آل عمران:159]. وجيء في فعل { **تَوَكَّلْتُ** } بصيغة الماضي للإشارة إلى أنّ توكّله على الله كان سابقا من قبل أن يظهر له تنكّر قومه له، فقد صادف تنكرهم منه عبدا متوكِّلا على ربّه، وإذا كان توكّله قد سبق تنكّر قومه فاستمراره بعد أن كشّروا له عن أنياب العدوان محقَّق.
الإنابة: الرجوع، والمراد بها هنا الكناية عن ترك الاعتماد على الغير لأنّ الرجوع إلى الشيء يستلزم عدم وجود المطلوب عند غيره، وتقدّمت الإنابة عند قوله تعالى { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ } [هود:75].
وجيء في فعل { **أُنِيبُ** } بصيغة المضارع للإشارة إلى تجدّد الإنابة وطلب المغفرة.
وتقديم المتعلِّقين في { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } لإفادة الاختصاص، أي: لا أتوكل إلّا عليه ولا أنيب إلّا إليه.

{ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } [11].

{ **فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } خبر ثان عن الضمير في قوله تعالى { وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [9]، وما بينهما اعتراض، أعقب به أنّه على كل شيء قدير، فإنّ خلق السماوات والأرض من أبرز آثار صفة القدرة.
الفاطر: الخالق، وتقدّم في [فاطر:1].
{ **جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ** } في موضع الحال من ضمير { فَاطِرُ }، لأنّ مضمونها حال من أحوال فطر السماوات والأرض، فإنّ خلق الإنسان والأنعام من أعجب أحوال خلق الأرض. ويجوز كونها خبرا ثالثا عن ضمير { وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [9].
المعنى: قدَّر في تكوين نوع الإنسان أزواجا لأفراده، ولمّا كان ذلك التقدير مقارنا لأصل تكوين النوع جيء فيه بالفعل الماضي.
{ **لَكُمْ** } الخطاب للناس كلّهم. والخطاب التفات من الغيبة. واللام للتعليل. وتقديم { لَكُمْ } على غيره من

معمولات { جَعَلَ } ليُعرف أنّه معمول لذلك الفعل فلا يُتوهّم أنّه صفة لـ { أَزْوَاجًا }، وليكون التعليل به ملاحظا في المعطوف بقوله تعالى { وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا }.

{ **مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا** } الأزواج: جمع زوج وهو الذي ينضم إلى فرد فيصير كلاهما زوجا للآخر، والمراد هنا: الذكور والإناث من الناس. و{ مِنْ أَنْفُسِكُمْ } من نوعكم، ومن بعضكم، كقوله تعالى { فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ } [النور:61]. وكون الأزواج من أنفسهم كمال في النعمة لأنّه لو جعل أحد الزوجين من نوع آخر لفات نعيم الأنس.

وأمّا زعم العرب في الجاهلية أن الرجل قد يتزوّج جنية أو غولا فذلك من التكاذيب وتخيّلات بعضهم، وربما عرض لبعض الناس خبال في العقل خاص بذلك فتخيّل ذلك وتحدَّث به فراج على كلّ أبله.

{ **وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا** } عطف على { أَزْوَاجًا } الأول، والتقدير: وجعل من الأنعام أزواجا. وفائدة ذكر أزواج الأنعام دون أزواج الوحش: أنّ في أنواع الأنعام فائدة لحياة الإنسان لأنّها تعيش معه ولا تنفر منه، وينتفع بها، فبجعلها أزواجا حصل معظم نفعها للإنسان.

{ **يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ** } الذرء: بث الخلق وتكثيره. وضمير الخطاب للمخاطبين بقوله { جَعَلَ لَكُمُ } ومراد شموله لجعل أزواج من الأنعام المتقدّم ذكره، لأنّ ذكر أزواج الأنعام لم يكن هملا بل مرادا منه زيادة المنّة، فإنّ ذرء نسل الإنسان نعمة للنّاس وذرء نسل الأنعام نعمة أخرى للناس.

وجيء بالمضارع لإفادة التجدّد، والتجدّد أنسب بالامتنان.

{ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** } خبر ثالث أو رابع عن الضمير في قوله تعالى { وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [9]. وموقع هذه الجملة كالنتيجة للدليل، فإنّه لما قُدِّم ما هو نِعَمٌ عظيمة تبيَّن أنَّ الله لا يماثله شيء من الأشياء في تدبيره وإنعامه.

وبذلك كانت هذه الآية أصلا في تنزيه الله تعالى عن الجوارح والحواس والأعضاء عند أهل التأويل، والذين أثبتوا لله تعالى ما ورد في القرآن ممّا نسمّيه بالمتشابه فإنّما أثبتوه مع التنزيه عن ظاهره، إذ لا خلاف في إعمال قوله { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } وأنّه لا شبيه له ولا نظير له.

وإذ قد اتفقنا على هذا الأصل لم يبق خلاف في تأويل النصوص الموهمة التشبيه، إلّا أن تأويل سلفنا كان تأويلا جُمْليا، وتأويل خلفهم كان تأويلا تفصيليا كتأويلهم اليد بالقدرة، والعين بالعلم، وبسط اليدين بالجود، والوجه بالذات. ولهذا قالوا: طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم.

{ **وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** } لمّا أفاد قوله تعالى { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } صفات السلوب أعقب بإثبات صفة العلم لله تعالى وهي من الصفات المعنوية، وذلك بوصفه بـ { السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } الدالين على تعلّق علمه بالموجودات من المسموعات والمبصرات، تنبيها على أنّ نفي مماثلة الأشياء لله تعالى لا يُتوهَّم منه أنّ الله منزَّه عن الاتصاف بما اتصفت به المخلوقات من أوصاف الكمال المعنوية كالحياة والعلم، ولكن صفات المخلوقات لا تشبه صفاته تعالى في كمالها لأنّها في المخلوقات عارضة، وهي واجبة لله تعالى

في منتهى الكمال. فكونه تعالى سميعا وبصيرا من جملة الصفات الداخلة تحت ظلال التأويل بالحمل على عموم قوله تعالى { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ }، فلم يقتضيا جارحتين.

{ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [12].

خبر رابع أو خامس عن الضمير في قوله تعالى { وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [9]، وموقع هذه الجملة كموقع التي قبلها، تتنزَّل منزلة النتيجة لما تقدّمها، لأنّه إذا ثبت أنّ الله هو الوليّ، وما تضمَّنته الجمل بعدها إلى قوله تعالى { يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ } من انفراده بالخلق، ثبت أنّه المنفرد بالرزق.

المقاليد: جمع إقليد على غير قياس، أو جمع مِقلاد: المفتاح، وتقدّم عند قوله تعالى { لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [الزمر:63]. وتقديم المجرور لإفادة الاختصاص، أي: هي ملكه لا ملك غيره.

والمقاليد هنا استعارة بالكناية لخيرات السماوات والأرض، شُبِّهت الخيرات بالكنوز، وأثبت لها ما هو من مرادفات المُشبَّه به وهو المفاتيح.

المعنى: أنّه وحده المتصرّف على الحقيقة بما ينفع الناس من الخيرات.

{ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ } مبيّنة لمضمون الجملة السابقة. وبسط الرزق: توسعته، وقدره كناية عن قلّته، وتقدّم عند قوله تعالى { اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ } [الرعد:26].

{ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } استئناف بياني هو كالعلة لقوله تعالى { لِمَنْ يَشَاءُ }، أي: أنّ مشيئته جارية على حسب علمه بما يناسب أحوال المرزوقين من بسط أو قدر. وبيان هذا في قوله الآتي { وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ } [27].

{ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ } [13].

جملة ابتدائية، انتقال من الامتنان بالنعم الجثمانية إلى الامتنان بالنعمة الروحية بطريق الإقبال على خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين للتنويه بدين الإسلام وللتعريض بالكفّار الذين أعرضوا عنه.

{ شَرَعَ } أصلها جعل طريقا واسعة، وكثر إطلاقه على سنّ القوانين والأديان فسُمِّي الدين شريعة. فشرع هنا مستعار للتبيين، أي: أوضح وبيَّن لكم مسالك ما كلَّفكم به، كما في قوله تعالى { أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ } [21]، وتقدّم في قوله تعالى { لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا } [المائدة:48].

{ مِنَ الدِّينِ } تعريف الجنس، وهو يعم الأديان الإلهية السابقة. و(مِنْ) للتبعيض.

التوصية: الأمر بشيء مع تحريض على إيقاعه والعمل به.

{ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى } المراد: المماثلة في أصول الدين ممَّا يجب لله تعالى من الصفات، وفي أصول الشريعة من كلّيّات التشريع، وأعظمها توحيد الله، ثمّ ما بعده من الكليات الخمس الضروريات، ثم الحاجيات التي لا يستقيم نظام البشر بدونها، فإنّ كلّ ما اشتملت عليه الأديان المذكورة من هذا النوع قد أودِع مثله في دين الإسلام. فالأديان السابقة كانت تأمر بالتوحيد، والإيمان بالبعث والحياة الآخرة، وتقوى الله بامتثال أمره واجتناب منهيه على العموم، وبمكارم الأخلاق بحسب المعروف، قال تعالى { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى } [الأعلى:14-19]، وتختلف في تفاصيل ذلك وتفاريعه. ودين الإسلام لم يخل عن تلك الأصول وإن خالفها في التفاريع تضييقا وتوسيعا، وامتازت هذه الشريعة بتعليل الأحكام، وسدّ الذرائع، والأمر بالنظر في الأدلة، وبرفع الحرج، وبالسماحة، وبشدة الاتصال بالفطرة، وقد بيّنتُ ذلك في كتابي (**مقاصد الشريعة الإسلامية**).

فالمقصود أنّ الإسلام لا يخالف هذه الشرائع المسمّاة وأنّ اتّباعه يأتي بما أتت به من خير الدنيا والآخرة.

والاقتصار على ذكر دين نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، لأنّ نوحا أوّل رسول أرسله الله إلى الناس، فدينه هو أساس الديانات، ولأنّ دين إبراهيم أصل الحنيفية وانتشر بين العرب بدعوة إسماعيل إليه، فهو أشهر الأديان بين العرب، وكانوا على أثارة منه في الحج والختان والقرى والفتوّة.

ودين موسى هو أوسع الأديان السابقة في تشريع الأحكام، وأمّا دين عيسى فلأنّه الدين الذي سبق دين الإسلام ولم يكن بينهما دين آخر، وليتضمّن التهيئة إلى دعوة اليهود والنصارى إلى دين الإسلام.

{ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ } تعقيب ذكر دين نوح بما أوحي إلى محمد عليهما السلام للإشارة إلى أنّ دين الإسلام هو الخاتم للأديان، فعُطف على أوّل الأديان جمعا بين طرفي الأديان، ثم ذكر بعدهما الأديان الثلاثة الأخر لأنّها متوسطة بين الدينين المذكورين قبلها. وهذا نسج بديع من نظم الكلام، ولولا هذا الاعتبار لكان ذكر الإسلام مبتدأ به كما في قوله { إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ } [النساء: 163] وقوله تعالى { وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ } [الأحزاب:7].

وفي قوله تعالى { مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا } وقوله تعالى { وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى } جيء بالموصول **{ مَا }**، وفي قوله { وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ } جيء بالموصول **{ الَّذِي }**، وليس يبعد عندي أن يكون هذا الاختلاف لغرض معنوي، وليس مجرّد تفنّن. وأنّه فرق في استعمال الكلام البليغ وهو أنّ **(الذي)** وأخوته هي الأصل في الموصولات فهي موضوعة من أصل الوضع للدلالة على من يعيّن بحالة معروفة هي مضمون الصلة، فـ (الذي) يدلّ على معروف عند المخاطب بصلته.

وأمّا (**ما**) الموصولة فأصلها اسم عام نكرة مبهمة محتاجة إلى صفة.

فيكون إيثار { **مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً** وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ **وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى** } بحرف { **مَا** }، لمناسبة أنّها شرائع بَعُدَ العهد بها فلم تكن معهودة عند المخاطبين إلّا إجمالا فكانت نكرات لا تتميز إلا بصفاتها، وأمّا إيثار الموحى به إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم باسم { **الّذِي** } فلأنّه شرع متداول فيهم معروف عندهم. فالتقدير: شرع لكم شيئا وصى به نوحا وشيئا وصى به إبراهيم وموسى وعيسى، والشيء الموحى به إليك. ولعل هذا من نكت الإعجاز المغفول عنها.

{ **أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ** } الضمير مراد به: أمم أولئك الرسل، ولم يسبق لهم ذكر في اللفظ لكن دلّ على تقديرهم ما في فعل { وَصَّى } من معنى التبليغ. وأعقب الأمر بإقامة الدين بالنهي عن التفرّق فيه.

إقامة الشيء: جعله قائما، استعارة للحرص على العمل به، كقوله تعالى { وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ } [البقرة:3].

التفرّق: ضد التجمّع، وأصله: تباعد الذوات، أي: اتساع المسافة بينها، ويستعار كثيرا لقوّة الاختلاف في الأحوال والآراء كما هنا. أي: لا تختلفوا على أنبيائكم. ويشمل التفرّق بين الذين آمنوا بأن يكونوا نحلا وأحزابا، وذلك اختلاف الأمة في أمور دينها، أي: في أصوله وقواعده ومقاصده. فإنّ الاختلاف في الأصول يفضي إلى تعطيل بعضها فينخرم بعض أساس الدين.

وأمّا الاختلاف في فروعه بحسب استنباط أهل العلم بالدين فذلك من التفقّه الوارد فيه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" من يّرد الله به خيرا يفقهه في الدين "**.

{ **كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ** } اعتراض بين جملة { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ } وجملة { وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ } [14]، ولك أن تجعله استئنافا بيانيا جوابا عن سؤال من يتعجّب من إعراض المشركين عن الإسلام مع أنّه دين مؤيَّد بما سبق من الشرائع الإلهية، فأجيب إجمالا بأنّه كبُر عليهم.

{ **كَبُرَ** } بمعنى صعب، وقريب منه إطلاق **ثَقُلَ**، أي: عجزوا عن قبول ما تدعوهم إليه، فالكبر مجاز استعير للشيء الذي لا تطمئن النفس لقبوله، والكِبر في الأصل الدال على ضخامة الذات، لأنّ شأن الشيء الضخم أن يعسر حمله. ولما فيه من تضمين معنى ثقل عدّي بـ { عَلَى }.

وقد كبر عليهم ذلك من ثلاث جهات:

جهة الداعي لأنّه بشر مثلهم قالوا { أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا } [الاسراء:94]، ولأنّه لم يكن قبل الدعوة من عظماء القريتين { وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } [الزخرف:31].

جهة ما به الدعوة فإنّهم حسبوا أنّ الله لا يخاطب الرسل إلّا بكتاب ينزّله إليه دفعة من السماء فقد { قالوا لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَأُهُ } [الإسراء:93]، { وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا] [الفرقان:21]، { وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ } [البقرة:118]،

والقائلون هم المشركون.

جهة ما تضمَّنته الدعوة ممَّا لم تساعد أهواءهم عليه، قالوا { أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا } [صّ:5]، وقالوا { هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ } [سبأ:7].

{ **تَدْعُوهُمْ** } جيء بالفعل المضارع للدلالة على تجدّد الدعوة واستمرارها.

{ **اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ** } استئناف بياني جواب عن سؤال من يسأل: كيف كبرت على المشركين دعوة الإسلام؟ فأجيب بأنّ الله يجتبي من يشاء. فالمشركون الذين لم يقتربوا من هدى الله غير مجتبين إلى الله. ويجوز أن يكون ردًّا على إحدى شبههم الباعثة على إنكارهم رسالته صلى الله عليه وسلّم بأن الله يجتبي من يشاء، ولا يلزمه مراعاة عوائدكم في الزعامة والاصطفاء.

الاجتباء: التقريب والاختيار، قال تعالى { قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا } [لأعراف:203].

{ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ } [14].

عطف على جملة { وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ } وما بينهما اعتراض كما علمت، وفي الكلام حذف يدلّ عليه قوله تعالى { وَمَا تَفَرَّقُوا } تقديره: فتفرّقوا.

{ **وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ** } الضمير عائد إلى ما عاد إليه الضمير في قوله تعالى { أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا } [13]، وهم أمم الرسل المذكورين.

العلم: إدراك العقل جزما أو ظنا. ومجيء العلم إليهم يؤذن بأنّ رسلهم بيّنوا لهم مضار التفرّق من عهد نوح كما حكى الله عنه في قوله تعالى { ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا - إلى قوله - سُبُلًا فِجَاجًا } [نوح:8-20]. وإنّما تلقّى ذلك العلم علماؤهم.

والمعنى: وما تفرقت أممهم في أديانهم إلّا من بعد ما جاءهم العلم على لسان رسلهم من النهي عن التفرّق في الدين مع بيانهم لهم مفاسد التفرّق وأضراره، أي: أنّهم تفرّقوا عالمين بمفاسده غير معذورين بالجهل.

{ **بَغْيًا بَيْنَهُمْ** } سبب تفرّقهم، أي: تفرّقوا لأجل العداوة بينهم أي: لم يحافظوا على وصايا الرسل.

وهذا تعريض بالمشركين في إعراضهم عن دعوة الإسلام لعداوتهم للمؤمنين.

{ **وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ** } تحذير للمؤمنين من مثل ذلك الاختلاف.

{ **كَلِمَةٌ** } التنكير للتنويع، لأنّ لكلّ فريق من المتفرّقين في الدين كلمة من الله في تأجيلهم.

{ **أَجَلٍ** } التنكير أيضا للتنويع، لأنّ لكلّ أمّة من المتفرّقين أجلا مسمّى، فهي آجال متفاوتة في الطول والقصر ومختلفة بالأزمنة والأمكنة.

والمراد بالكلمة ما أراده الله من إمهالهم وتأخير مؤاخذتهم إلى أجل لهم اقتضته حكمته في نظام هذا العالم، فربّما أخّرهم ثم عذبهم في الدنيا، وربما أخّرهم إلى عذاب الآخرة، وكل ذلك يدخل في الأجل

المسمَّى، ولكلّ ذلك كلمته. فالكلمة هنا مستعارة للإرادة والتقدير. وتقدّم نظير هذه الكلمة في [هود:3]، وفي [طه:129].

{ **وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ** } عطف على جملة { وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ - إلى قوله - لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ } وهذه الجملة هي المقصود من جملة { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ } [13]، لأنّ المقصود أهل الكتاب الموجودون في زمن نزول الآية.

فالمعنى: أنّه كما تفرّق أسلافهم في الدين قبل بعثة النبيّ الموعود به تفرّق خلفهم مثلهم وزادوا تفرّقا في تطبيق صفات النبيّ الموعود به تفرّقا ناشئا عن التردّد والشك.

{ **أُورِثُوا الْكِتَابَ** } صار إليهم علم الكتاب الذي اختلف فيه سلفهم، فاستعير الإرث للخَلَفيَّة في علم الكتاب.

{ **الكِتَابَ** } التعريف للجنس ليشمل كتاب اليهود وكتاب النصارى.

{ **مِنْ بَعْدِهِمْ** } الضمير عائد إلى الذين خوطبوا بقوله تعالى { وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ } [13].

{ **لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ** } ظرفية مجازية وهي استعارة تبعية، شُبِّه تمكّن الشك من نفوسهم بإحاطة الظرف بالمظروف.

المريب: الموجب الريب وهو الاتهام. فالمعنى: لفي شك يفضي إلى الظنَّة والتهمة، أي: شك مشوب بتكذيب.

{ **فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ** } [15].

{ **فَلِذَلِكَ** } الفاء للتفريع على قوله تعالى { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّين ...} [13].

واللام يجوز أن تكون للتعليل وتكون الإشارة بذلك إلى المذكور، أي: جميع ما تقدّم من الأمر؛ بإقامة الدين والنهي عن التفرّق فيه، وتلقّي المشركين للدعوة بالتجهّم، وتلقّي المؤمنين لها بالقبول والإنابة، وتلقّي أهل الكتاب لها بالشك، أي: فلأجل جميع ما ذُكر فادع واستقم. وتقديم (لذلك) على متعلّقه وهو فعل (ادع) للاهتمام بما احتوى عليه اسم الإشارة، إذ هو مجموع أسباب للأمر بالدوام على الدعوة.

ويجوز أن تكون اللام في قوله { فلذلك } لام التقوية وتكون مع مجرورها مفعول (ادع). والإشارة إلى (الدين) من قوله { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ } [13]، أي فادع لذلك الدين. وتقديم المجرور على متعلقه للاهتمام.

{ **فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ** } وفعل الأمر في قوله تعالى { فَادْعُ } مستعمل في الدوام على الدعوة، بقرينة قوله تعالى { كَمَا أُمِرْتَ } وفي هذا إبطال لشبهتهم في الجهة الثالثة المتقدّمة عند قوله تعالى { كَبُرَ عَلَى

الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ } [13]. (جهة ما تضمَّنته الدعوة ممَّا لم تساعد أهواءهم عليه) .
ولم يُذكر مفعول { فَادْعُ } لدلالة ما تقدّم عليه، أي: ادع المشركين والذين أوتوا الكتاب والذين اهتدوا وأنابوا. { **فَادْعُ** } فالفاء يجوز أن تكون مؤكدة لفاء التفريع التي قبلها، ويجوز أن تكون مضمَّنة معنى الجزاء لما في تقديم المجرور من مشابهة معنى الشرط، كما في قوله تعالى { فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا } [يونس:58].
الاستقامة: الاعتدال، والسين والتاء فيها للمبالغة. والمراد هنا الاعتدال المجازي وهو اعتدال الأمور النفسانية من التقوى ومكارم الأخلاق. وإنّما أمر بالاستقامة، أي: الدوام عليها، للإشارة إلى أنّ كمال الدعوة إلى الحقّ لا يحصل إلّا إذا كان الداعي مستقيما في نفسه.
{ **كَمَا أُمِرْتَ** } الكاف لتشبيه معنى المماثلة، أي: دعوة واستقامة مثل الذي أمرت به، أي: على وفاقه.
{ **وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ** } يطلق الاتباع مجازا على المجاراة والموافقة، وعلى المحاكاة والمماثلة في العمل، والمراد هنا كلا الإطلاقين ليرجع النهي إلى النهي عن مخالفة الأمرين المأمور بهما { فَادْعُ وَاسْتَقِمْ }.
{ **أَهْوَاءَهُمْ** } الضمير للذين ذُكروا من قبل؛ من المشركين والذين أوتوا الكتاب.
الأهواء: جمع هوى وهو المحبّة، وغلب على محبة ما لا نفع فيه.
أي: ادعهم إلى الحق وإن كرهوه، واستقم أنت ومن معك وإن عاداكم أهل الكتاب، فهم يحبّون أن تتبعوا ملّتهم، وهذا من معنى قوله تعالى { وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ } [البقرة:120].
والمقصود: نهي المسلمين عن ذلك من باب { لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ } [الزمر:65]، ألا ترى إلى قوله تعالى { فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ } [هود:112].
ويجوز أن يكون المعنى لاتُّجارهم في معاملتهم، أي: لا يحملك طعنهم في دعوتك على عدم ذكر فضائل رسلهم وهدي كتبهم عدا ما بدّلوه منها، فأعلن بأنّك مؤمن بكتبهم، ولذلك عُطف على قوله تعالى { وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ } قولُه تعالى { وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ }، فموقع واو العطف فيه بمنزلة موقع فاء التفريع. ويكون المعنى كقوله تعالى { وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى } [المائدة:8].
{ **وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ** } أمر بمخالفة اليهود إذ قالوا { نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ } [النساء:150] يعنون التوراة، { وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ } يعنون الإنجيل والقرآن، فأُمِر الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون بالإيمان بالكتب الثلاثة الموحى بها من الله، كما قال تعالى { وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ } [آل عمران: 119].
وإنّما أمر بأن يقول ذلك إعلانا به وإبلاغا لأسماع اليهود، فلا يقابل إنكارهم حقِّية كتابه بإنكاره حقِّية كتابهم، وفي هذا إظهار لما تشتمل عليه دعوته من الإنصاف.

{ **مِنْ كِتَابٍ** } بيان لما أنزل الله، فالتنكير للنوعية، أي: بأي كتاب أنزله الله، وليس يومئذ كتاب معروف غير التوراة والإنجيل والقرآن.

{ **وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ** } ضمير { بَيْنَكُمُ } خطاب للذين أُمِر بأن يوجّه هذا القول إليهم وهم اليهود، أي: أمرت أن أقيم بينكم العدل بأن أدعوكم إلى الحق ولا أظلمكم لأجل عداواتكم، ولكنِّي أنفذ أمر الله فيكم ولا أنتمي إلى اليهود ولا إلى النصارى.

{ **بَيْنَكُمُ** } أي: أنَّني أقيم العدل بينكم فلا ترون بينكم جورا مني. وليس المعنى: لأعدل بين فرقكم، إذ لا يقتضيه السياق.

وفي هذه الآية مع كونها نازلة في مكة في زمن ضعف المسلمين إعجاز بالغيب يدلّ على أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم سيكون له الحكم على يهود بلاد العرب مثل أهل خيبر وتيماء وقريظة والنضير وبني قينقاع.

{ **اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ** } من المأمور بأن يقوله. فهي كلّها جملة مستأنفة عن جملة { آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ } مقرّرة لمضمونها لأنّ المقصود من الجملة بحذافرها هو قوله { لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ }.

{ **اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ** } أي: أنَّنا متّفقون على توحيد الله تعالى كقوله { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً } [آل عمران: 64]، فالخبر مستعمل في التسجيل والإلزام.

{ **لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ** } دعوة إنصاف، أي: أنّ الله يجازي كلًّا بعمله. وهذا خبر مستعمل في التهديد والتنبيه على الخطأ.

{ **لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ** } هي الغرض المقصود بعد قوله { وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ } أي: أعدل بينكم ولا أخاصمكم على إنكاركم صدقي.

الحجّة: الدليل على صدق الدعوى، وإنّما تكون الحجّة بين مختلفين في دعوى.

ونفي الحجّة نفي جنس، <u>يجوز أن يكون كناية عن نفي المجادلة التي من شأنها وقوع الاحتجاج</u>، كناية عن عدم التصدّي لخصومتهم، فيكون المعنى الإمساك عن مجادلتهم لأنّ الحق ظهر وهم مكابرون فيه، وهذا تعريض بأن الجدال معهم ليس بذي جدوى. <u>ويجوز</u> أن يكون المنفي جنس الحجّة المفيدة. والمعنى: أنّ الاستمرار على الاحتجاج عليهم بعد ما أُظهِر لهم من الأدلة يكون من العبث، وهذا تعريض بأنّهم مكابرون.

وأيًّا ما كان فليس هذا النفي مستعملا في النهي عن التصدي للاحتجاج عليهم، فقد حاجّهم القرآن في آيات كثيرة نزلت بعد هذه، وحاجّهم النبيّ صلى الله عليه وسلم في قضية الرجم، وقد قال الله تعالى { وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } [العنكبوت:46]، فالاستثناء صريح في مشروعية مجادلتهم.

{ **اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا** } المراد: الحشر لفصل القضاء، فيومئذ يتبيَّن المُحقّ من المُبطل، وهذا كلام منصف.

ولمّا كان مثل هذا الكلام لا يصدر إلّا من الواثق بحقّه كان خطابهم به مستعملا في المتاركة والمحاجزة، أي: سأترك جدالكم ومحاجّتكم لقلة جدواها فيكم وأفوّض أمري إلى الله يقضي بيننا يوم يجمعنا، فهذا تعريض بأنّ القضاء سيكون له عليهم.

وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي للتقوي، أي: تحقيق وقوع هذا الجمع، وإلّا فإن المخاطبين وهم اليهود يثبتون البعث.

{ **وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ** } عطف على جملة { يَجْمَعُ بَيْنَنَا }، والتعريف للاستغراق، أي: مصير الناس كلّهم، فبذلك كانت الجملة تذييلا بما فيها من العموم، أي: مصيرنا ومصيركم ومصير الخلق كلهم.

{ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ } [16].

عطف على جملة { وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ } [15]، وهو يقتضي انتقال الكلام، فلمّا استوفى حظ أهل الكتاب في شأن المحاجّة معهم، رجع إلى المشركين في هذا الشأن، لأنّهم يحاجّون في شأن الله وهو الوحدانية دون اليهود من أهل الكتاب، فإنّهم لا يحاجّون في تفرّد الله بالإلهية.

{ **يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ** } محاجّتهم في دين الله. ومحاجّتهم هي ما يلبِّسوه به على المسلمين لإدخال الشك عليهم في اتباع الإسلام، كقول المشركين { وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا } [الفرقان:7]، وقولهم في الأصنام { هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ } [يونس:18]، وقولهم في إنكار البعث { أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ } [قّ:3]، وقولهم { إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا } [القصص:57].

وإطلاق اسم الحجّة على شبهاتهم مجاراة لهم بطريق التهكّم، والقرينة قوله تعالى { دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ } والمفعول محذوف دلّ عليه قوله { مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ } والتقدير: يحاجون المستجيبين لله.

{ **مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ** } حذف فاعل { اسْتُجِيبَ } إيجازا، لأنّ المقصود من بعد حصول الاستجابة.

{ **حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ** } الداحضة: التي دَحَضت (بفتح الحاء)، يقال: دَحَضت رجلُه تدحَض دحوضا، أي: **زلَّت**. استعير الدحض للبطلان بجامع عدم الثبوت، كما لا تثبت القدم في المكان الدحض.

ولم يُبيَّن وجه دحضها اكتفاء بما بُيِّن في تضاعيف ما نزل من القرآن من الأدلة على فساد تعدّد الآلهة، وعلى صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، وعلى إمكان البعث، وبما ظهر للعيان من تزايد المسلمين يوما فيوما، وأمنهم من أن يُعتدى عليهم.

الغضب: غضب الله، وإنما نُكِّر للدلالة على شدّته. ولم يحتج إلى إضافته إلى اسم الجلالة أو ضميره لظهور المقصود من قوله { حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ }، فالتقدير: وعليهم غضب الله. وإنّما قُدِّم المسند على المسند إليه للاهتمام بوقوع الغضب عليهم كما هو مقتضي حرف الاستعلاء المجازي.

{ **وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ** } نفس الاعتبار في تقديم المسند، ولعلّ المراد به عذاب السيف في الدنيا بالقتل يوم بدر.

{ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ } [17].

من جملة محاجّة المشركين في الله، ومن أشدّها تشغيبا في زعمهم محاجّتهم بإنكار البعث كما في قولهم { هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ } [سبأ:8/7].

وقد دحض الله حجّتهم في مواضع من كتابه بنفي استحالته، وبدليل إمكانه، وأومأ هنا إلى مقتضى إيجابه، فبيَّن أنّ البعث والجزاء حقّ وعدل فكيف لا يقدِّره مدبِّر الكون ومنزِّل الكتاب والميزان. وقد أشارت إلى هذا المعنى آيات كثيرة منها قوله تعالى { إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى } [طه:15]، وقوله تعالى { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ } [الدخان:38-40]. وأكثرها جاء نظمها على نحو الترتيب الذي في نظم هذه الآية من الابتداء بما يُذكِّر بحكمة الإيجاد وأنّ تمام الحكمة بالجزاء على الأعمال.

والجملة موقعها موقع الدليل من جملة { وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ } [16]، والدليل من ضروب البيان، ولذلك فُصلت عن التي قبلها لشدّة اتصال معناها بمعنى الأخرى.

{ **اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ** } تمهيد للقول اللاحق، لأنّ قوله تعالى { وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ } يؤذن بمقدّر يقتضيه المعنى، تقديره: فجعل الجزاء للسائرين على الحق والناكبين عنه في يوم الساعة، فلا محيص للعباد عن لقاء الجزاء، وما يدريك لعلّ ساعة الجزاء تكون قريبة، فهو ناظر إلى قوله تعالى { إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى } [طه:15].

{ **اللَّهُ الَّذِي** } الإخبار عن اسم الجلالة باسم الموصول، الذي مضمون صلته إنزاله الكتاب والميزان، لأجل ما في الموصولية من الإيماء إلى وجه بناء الخبر الآتي، وأنّه من جنس الحقّ والعدل.

{ **الْكِتَابَ** } تعريف الجنس، أي: إنزال الكتب، لقوله أنفا { وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ } [15].

{ **بِالْحَقِّ** } الباء للملابسة، أي: أنزل الكتب مقترنة بالحق بعيدة عن الباطل.

{ **وَالْمِيزَانَ** } حقيقته آلة الوزن، والوزن: تقدير ثقل جسم. والميزان هنا مستعار للعدل والهدي بقرينة قوله تعالى { أَنْزَلَ }، فإنّ الدين هو المُنزَّل، وهو يدعو إلى العدل والإنصاف وإعطاء الحقوق، فشُبِّه بالميزان في تساوي رجحان كفتية، قال تعالى { وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ } [الحديد:25].

{ **وَمَا يُدْرِيكَ** } جارية مجرى المثل، و{مَا} استفهاميّة والاستفهام مستعمل في التنبيه والتهيئة.

يُدْرِيكَ: من الدراية بمعنى العلم وقد عُلِّق الفعل عن العمل بحرف الترجِّي. و(الكاف) خطاب لغير معيَّن. وفي معناه قوله تعالى { وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ } [الأنعام:109].

{ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ } [18].

يجوز أن تكون الجملة حالًا من { السَّاعَةَ } [17]، ويجوز أن تكون بيانا لجملة { وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ } [17]، لما تضمَّنته من التنبيه والتهيئة بالنسبة إلى فريقي المؤمنين بالساعة والذين لا يؤمنون به.

الاستعجال: طلب التعجيل، وتقدّم في قوله تعالى { اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ } [يونس:11].

{ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا } تهكّما واستهزاء، وكناية عن اتخاذهم تأخّرها دليلا على عدم وقوعها.

{ وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا } مشفقون من أهوالها، وتقدّم في قوله تعالى { وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ } [الأنبياء:28].

{ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ } معطوفة على { مُشْفِقُونَ مِنْهَا } لإفادة أنّ إشفاقهم منها إشفاق عن يقين وجزم لا إشفاق عن تردّد. وتعريف { الْحَقُّ } تعريف الجنس وهو يفيد قصر المسند على المسند إليه قصر مبالغة لكمال الجنس في المسند إليه، أي: يوقنون بأنّها الحق كلّ الحق.

{ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ } تذييل لما قبلها بصريحها وكنايتها، لأنّ صريحها إثبات الضلال للذين يكذّبون بالساعة، وكنايتها إثبات الهدى للذين يؤمنون بالساعة. وهذا التذييل فذلكة للتي قبلها. وافتتاح الجملة بحرف التنبيه { أَلَا } لقصد العناية بالكلام.

الممارة: مفاعلة من المِرْيَة (بكسر الميم) وهي الشك. والممارة الملاحة لإدخال الشك على المجادل، وقد تقدّم في قوله تعالى { فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ } [الكهف:22].

{ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ } وصف الضلال بالبعيد وصف مجازي، شُبِّه الكفر بضلال السائر في طريق وهو يكون أشدّ إذا كان الطريق بعيدا، وذلك كناية عن عسر إرجاعه إلى المقصود. والمعنى: لفي ضلال شديد. وتقدّم في قوله تعالى { فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيدًا } [النساء:116].

{ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ } [19].

مستأنفة استئنافا ابتدائيا توطئة لجملة { مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ } [20]، لأنّ ما سيذكر في الجملة الآتية هو أثر من آثار لطف الله بعباده ورفقه بهم، وما يسَّر من الرزق للمؤمنين منهم والكفار في الدنيا، ثمّ ما خصَّ به المؤمنين من رزق الآخرة.

اللطيف: البَرُّ قوي البِرِّ. ويدخل في هذا كثير من النعم. وفعل **لَطَفَ** من باب نصر يتعدّى بالباء كما هنا وباللام كما في قوله { إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ } [يوسف:100].

{ **بِعِبَادِهِ** } عام لجميع العباد، وهم نوع الإنسان لأنّه جمع مضاف.

{ **يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ** } في موضع الحال من اسم الجلالة، أو خبر عنه.

الرزق: إعطاء ما ينفع. وهو عندنا لا يختصّ بالحلال وعند المعتزلة يختص به، والخلاف اصطلاح. والظاهر أنّ المراد هنا رزق الدنيا لأنّ الكلام توطئة لقوله تعالى { مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ } [20].

المشيئة: مشيئة تقدير الرزق لكلّ أحد من العباد ليكون عموم اللطف للعباد باقيا.

<u>والمعنى</u>: أنّه للطفه بجميع عباده لا يترك أحدا منهم بلا رزق، وأنّه فضّل بعضهم على بعض في الرزق جريا على مشيئته، وهذا المعنى يثير مسألة <u>الخلاف بين أئمة أصول الدين في نعمة الكافر</u>:

الشيخ أبي الحسن الأشعري يرى أنّ الكافر غير منعَّم عليه نعمة دنيوية، لأنّ ملاذ الكافر استدراج، فلمّا كانت مفضية إلى العذاب في الآخرة كانت غير نعمة، ومرادهم بالدنيوية مقابل الدينية.

وكأنّ مراد الشيخ بهذا تحقيق معنى غضب الله على الكافرين، كما جاء في آيات كثيرة، فالكافر غير منعَّم عليه نعمة رضى وكرامة ولكنّها نعمة رحمة لما له من انتساب المخلوقية لله تعالى.

أبو بكر الباقلاني قال: الكافر مُنعَّم عليه نعمة دنيوية. وقالت **المعتزلة**: هو منعَّم عليه نعمة دنيوية ودينية؛ فالدنيوية ظاهرة، والدينية كالقدرة على النظر المؤدي إلى معرفة الله.

وهذه مسألة أرجع المحققون الخلاف فيها إلى اللفظ والبناء على المصطلحات والاعتبارات الموافقة لدقائق المذاهب، إذ لا ينازع أحد في نعمة المنعَّمين منهم، قال تعالى {وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ} [المزمل:11].

{ **وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ** } تمجيد لله تعالى بهاتين الصفتين. ويفيد الاحتراس من توهّم أنّ لطفه عن عجز أو مصانعة، فإنّه قويّ عزيز لا يعجز ولا يصانع، أو عن توهّم أنّ رزقه لمن يشاء عن شح أو قلّة، فإنّه القويّ، والقويّ تنتفي عنه أسباب الشحّ، والعزيز ينتفي عنه سبب الفقر، فرزقه لمن يشاء بما يشاء منوط لحكمة علمها في أحوال خلقه عامة وخاصة، قال تعالى { وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ } [27].

{ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ } [20].

هذه الآية متّصلة بقوله تعالى { يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا } [18]، لِمَا تضمَّنته من وجود فريقين: فريق المؤمنين أكبر همهم حياة الآخرة، وفريق الذين لا يؤمنون همهم قاصرة على حياة الدنيا، فجاء في هذه الآية تفصيل معاملة الله الفريقين معاملة متفاوتة مع استوائهم في كونهم

عبيده وكونهم بمحل لطف منه، فكانت جملة { اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ } [19] تمهيدا لهذه الجملة.

الحرث: أصله مصدر حَرَث، إذا شق الأرض ليزرع فيها حبا أو ليغرس فيها شجرا، وأطلق على الأرض التي فيها زرع أو شجر وهو إطلاق كثير كما في قوله تعالى { أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ } [القلم:22]، أي: جنّتكم، لقوله قبله { كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ } [القلم:17]، وقال تعالى { زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ - إلى قوله - وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ } [آل عمران:14].

والحرث في هذه الآية تمثيل للإقبال على كسب ما يعده الكاسب نفعا له يرجو منه فائدة وافرة بإقبال الفلاح على شقّ الأرض.

{ **يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ** } يبتغي عملا لأجل الآخرة. وذلك المريد: هو المؤمن بالآخرة لأن المؤمن بالآخرة لا يخلو عن أن يريد الآخرة ببعض أعماله كثيرا كان أو قليلا.

{ **نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ** } يحتمل معنيين: أن تكون الزيادة في ثواب العمل، كقوله تعالى { وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ } [البقرة:276]، وقوله تعالى { مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ } [البقرة: 261] وسيأتي قريبا قوله تعالى { وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً } [23]. وعلى هذا فتعليق الزيادة بالحرث مجاز عقلي علقت الزيادة بالحرث وحقها أن تعلق بسببه وهو الثواب، فالمعنى على حذف مضاف.

أن تكون الزيادة في العمل، أي: نقدّر له العون على الازدياد من الأعمال الصالحة ونيسّر له ذلك فيزداد من الصالحات. وعلى هذا فتعليق الزيادة بالحرث حقيقة.

فيكون من استعمال المركّب في حقيقته ومجازه العقليين.

{ **وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا** } من لا يسعى إلّا لعمل الدنيا، بقرينة المقابلة بمن يريد حرث الآخرة، فتعيَّن أنّ مريد حرث الدنيا في هذه الآية هو الذي لا يؤمن بالآخرة.

{ **نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ** } نقدّر له من متاع الدنيا من: مدة حياة، وعافية ورزق، لأنّ الله قدَّر لمخلوقاته أرزاقهم وأمدادهم في الدنيا، وجعل حظ الآخرة خاصا بالمؤمنين.

فلا يتوهَّمنَّ مُتوهِّم أنّ هذه الآية ونحوها تحجّر تناول المسلم حظوظ الدنيا إذا أدى حق الإيمان والتكليف، ولا أنّها تصدّ عن خلط الحظوظ الدنيوية مع حظوظ الآخرة إذا وقع الإيفاء بكليهما، ولا أنّ الخلط بين الحظّين ينافي الإخلاص، كطلب التبرّد مع الوضوء وطلب الصحة مع التطوع بالصوم، إذا كان المقصد الأصلي الإيفاء بالحق الديني. وقد تعرض لهذه المسألة أبو إسحاق الشاطبي في (الموافقات).

النصيب: ما يعيَّن لأحد من الشيء المقسوم، وهو فعيل من نصيب، وتقدم عند قوله تعالى { أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا } [البقرة:202].

ونظير هذه الآية قوله تعالى { مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }

[هود:16/15]، وقوله تعالى { مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا } [الإسراء:19/18].

{ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [21].

{ **أَمْ** } للإضراب الانتقالي وهو انتقال من الكلام على تفرّق أهل الشرائع السالفة في شرائعهم، من انقرض منهم ومن بقي، كأهل الكتابين، إلى الكلام عن مخالفة المشركين للشرائع كلّها وتلقيهم دين الإشراك من أئمة الكفر وقادة الضلال.

ومعنى الاستفهام الذي تقتضيه { أم } هو هنا للتقريع والتهكّم، فالتقريع راجع إلى أنّهم شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله، والتهكّم راجع إلى من شرعوا لهم الشرك، فسئلوا عمّن شرع لهم دين الشرك.

والمقصود: فضح فظاعة شركهم، أي: إن لم يكن مشروعا من الإله الحق فهو مشروع من الآلهة الباطلة وهي الشركاء. وظاهر أن تلك الآلهة لا تصلح لتشريع دين لأنّها لا تعقل ولا تتكلّم، فتعيّن أنّ دين الشرك دين لا مستند له.

وقيل المراد بالشركاء: أئمة دين الشرك أطلق عليهم اسم الشركاء مجازا بعلاقة السببية.

{ **لَهُمْ** } الضمير في الموضعين عائد إلى { الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا } [18] أو { الَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ } [16].

{ **مِنَ الدِّينِ** } التعريف للجنس، أي: شرعوا لهم دينا لم يأذن به الله، أي: لم يرسل به رسولا منه ولا أوحى به بواسطة ملائكته.

{ **وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ** } هو كقوله فيما تقدّم { وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ } [14]. وكلمة الفصل هي: ما قدّره الله وأراده من إمهالهم. و**الفصل**: الفاصل، أي: الذي لا تردّد فيه.

{ **وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** } عطف على جملة { وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ }. وتوكيد الخبر بحرف التوكيد لأنّه موجَّه إليهم لأنّهم يسمعون هذا الكلام ويعلمون أنّهم المقصودون به.

والمقصود: تحقيق أنّ إمهالهم إلى أجل مسمًّى لا يفلتهم من المؤاخذة بما ظلموا.

{ **الظَّالِمِينَ** } المشركون، لقوله تعالى { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان: 13].

العذاب الأليم: عذاب الآخرة لجميعهم، وعذاب الدنيا بالسيف والذلّ للذين أُخِّروا إلى إبَّان حلوله.

{ **تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ** } [22].

بيان لجملة { وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [21]، بيَّن حال هذا العذاب ببيان حال أصحابه، وكفى بذلك منبئا عن هوله.

{ **تَرَى** } الخطاب لغير معيّن، والمقصود استحضار صورة حال الظالمين يوم القيامة في ذهن المخاطب.

الإشفاق: توقّع الشيء المضرّ وهو ضدّ التمنّي.

{ **مِمَّا كَسَبُوا** } أعمالهم السيّئة. والمراد: جزاؤها بقرينة المقام.

{ **وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ** } في موضع الحال، أي: مشفقين إشفاقا يقارب اليأس وهو أشد الإشفاق حين يعلمون أنّ المشفق منه لا ينجي منه حذر. والمعنى: مشفقين من عقاب أعمالهم في حال نزول العقاب بهم. وليس المعنى أنّهم مشفقون في الدنيا من أعمالهم السيئة لأنّهم لا يدينون بذلك.

{ **وَهُوَ** } الضمير عائد على { مَا كَسَبُوا } باعتبار تقدير مضاف، أي: جزاء ما كسبوا.

{ **بِهِمْ** } الباء للاستعلاء، وهذا الاستعمال قريب من معنى الإلصاق المجازي.

{ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ** } حال من الظالمين، أي: ترى الظالمين في إشفاق في حال أنّ الذين آمنوا يطمئنون في روضات الجنات، وفي هذه الحال دلالة على أنّ الذين آمنوا قد استقرُّوا في الروضات من قبل عرض الظالمين على الحساب وإشفاقهم من تبعاته.

وهذا من تضاد شأني الفريقين في الآخرة على عكسه بما كانوا عليه في الدنيا المقدّم في قوله تعالى { يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا } [18]، أي: فاليوم انقلب إشفاق المؤمنين اطمئنانا، واطمئنان المشركين إشفاقا، وشتان بين الاطمئنانين والإشفاقين.

الروضات: جمع روضة، وهي اسم لمجموع ماء وشجر حاف به، وخضرة حوله.

{ **لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ** } خبر ثان عن { الَّذِينَ آمَنُوا }. والعندية تشريف لمعنى الاختصاص الذي أفادته الـ (لام) في قوله { لَهُمْ } وعناية بما يُعطَوْنه من رغبة. والمعنى: ما يشاؤونه حقّ لهم محفوظ عند ربهم. ولك أن تجعل { عِنْدَ رَبِّهِمْ } خبرا ثالثا عن الذين آمنوا، أي: هم عند ربهم، أي: في ضيافته وقِراه، كما قال تعالى { إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ } [القمر:55/54].

ويكون ترتيب الأخبار الثلاثة جاريا على نمط الارتقاء من الحسن إلى الأحسن بأن: أخبر عنهم بأنّهم نزلوا في أحسن منزل، ثم احضر لهم ما يشتهون، ثم ارتقى إلى ما هو أعظم وهو كونهم عند ربّهم، على حد قوله تعالى { وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ } [التوبة:72].

{ **ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ** } تذييل. والإشارة إلى مضمون قوله تعالى { فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ }، وجيء باسم إشارة البعيد استعارة لكون المشار إليه بعيد المكانة، بُعد ارتفاع مجازي وهو الشرف.

{ **هُوَ** } ضمير الفصل يفيد قصرا ادعائيا للمبالغة في أعظمية الفضل.

{ **الفَضْلُ** } يجوز أن يكون مصدرا بمعنى الشرف والتفوّق على الغير، فيكون في معنى: فضلهم. ويجوز أن يكون اسما لما يتفضّل به من عطاء، فيكون في معنى: ذلك فضلنا عليهم.

{ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ } [23].

{ **ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** } اسم الإشارة مؤكد لنظيره الذي قبله، أي: ذلك المذكور الذي هو فضل يحصل لهم في الجنّة، هو أيضا بشرى لهم من الحياة الدنيا.

{ **يُبَشِّرُ** } من بشَّره، إذا أخبره بحادث يسرّه.

{ **عِبَادَهُ** } جمع العباد المضاف إلى اسم الجلالة أو ضميره غلب إطلاقه في القرآن في معرض التقريب وترفيع الشأن، ولذلك يكون موقع { الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } هنا موقع عطف البيان.

{ **قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى** } استئناف ابتدائي بمناسبة ذكر ما أُعدَّ للمشركين من عذاب وما أُعدَّ للمؤمنين من خير، وضمير جماعة المخاطبين مراد به المشركون لا محالة.

{ **قُلْ** } ابتدئت بذلك إمّا لأنّها جواب عن كلام صدر منهم، وإمّا لأنّها ممّا يُهتمّ بإبلاغه إليهم، كما أنّ نظائرها افتتحت بمثل ذلك، كقوله تعالى { قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ } [سبأ:47]، وقوله تعالى { قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ } [صّ:86]، وقوله تعالى { قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا } [الأنعام:90].

{ **عَلَيْهِ** } الضمير عائد إلى القرآن المفهوم من المقام.

الأجر: الجزاء الذي يُعطاه أحد على عمل يعمله.

المودّة: المحبّة والمعاملة الحسنة المشبهة معاملة المتحابين، وتقدّمت عند قوله تعالى { مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } [العنكبوت:25]. والكلام على تقدير مضاف، أي: معاملة المودّة، أي: المجاملة بقرينة أنّ المحبة لا تُسأل لأنّها انبعاث وانفعال نفساني.

{ **الْقُرْبَى** } اسم مصدر كالرُجعى، وهي قرابة النسب، وتقدّم عند قوله تعالى { وَلِذِي الْقُرْبَى } [الأنفال:41].

ومعنى الآية على ما يقتضيه نظمها: لا أسألكم على القرآن جزاء إلّا أن تودّوني، أي: أن تعاملوني معاملة الودّ، أي: غير معاملة العداوة، لأجل القرابة التي بيننا في النسب القرشي.

وذكر القرطبي عن الشعبي أنّه قال: " أكثرَ الناسُ علينا في هذه الآية فكتبنا إلى ابن عباس نسأله عنها فكتب أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أوسط الناس في قريش فليس بطن من بطونهم إلّا وقد ولَدَه، فقال الله له { قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى}، إلّا أن تودّوني في قرابتي منكم، أي: تراعوا ما بيني وبينكم فتصدِّقوني، فالقربى هاهنا قرابة الرحم، كأنّه قال: اتبعوني للقرابة إن لم تتبعوني للنبوّة ".

{ **إِلَّا الْمَوَدَّةَ** } الاستثناء منقطع، لأنّ المودّة لأجل القرابة ليست من الجزاء على تبليغ الدعوة بالقرآن ولكنّها مما تقتضيه المروءة، فليس استثناؤها من عموم الأجر المنفي استثناء حقيقيا.

المعنى: لا أسألكم على التبليغ أجرا وأسألكم المودة لأجل القربى.

وإنّما سألهم المودة لأنّ معاملتهم إيّاه معاملة المودّة معينة على نشر دعوة الاسلام، إذ تلين بتلك المعاملة شكيمتهم فيتركون مقاومته فيتمكّن من تبليغ دعوة الإسلام على وجه أكمل. فصارت هذه المودة غرضا دينيا لا نفع فيه لنفس النبيّ صلى الله عليه وسلم.

وتضمَّنت الآية أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم منزّه عن أن يتطلّب من الناس جزاء على تبليغ الهدى إليهم فإنّ النبوّة أعظم مرتبة في تعليم الحق. ولذلك أمر الله رسله بالتنزّه عن طلب جزاء على التبليغ، فقال حكاية عن نوح { وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ } [الشعراء:109]، وكذلك حكى عن هود وصالح ولوط وشعيب.

{ **وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ** } تذييل لجملة { ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ }، والمعنى: كلّما عمل مؤمن حسنة زدناه حُسنا من ذلك الفضل الكبير. وهذا في معنى قوله تعالى { وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ } [البقرة:261].

الاقتراف: افتعال من القرف، وهو الاكتساب، فالاقتراف مبالغة في الكسب نظير الاكتساب، وليس خاصا باكتساب السوء وان كان قد غلب فيه، وأصله من قرف الشجرة، إذا قشر قِرْفَها، وهو لحاؤها، وتقدّم عند قوله تعالى { وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ } [الأنعام:113]، وقوله تعالى {وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا} [التوبة:24].

الحسنة: الفعلة ذات الحُسْن، صفة مشبّهة غلبت في استعمال القرآن والسنّة على الطاعة والقربة فصارت بمنزلة الجوامد عَلَما بالغلبة، وهي مشتقّة من الحُسن وهو جمال الصورة.

ولمَّا كانت الحسنة مأخوذة من الحُسن جُعلت الزيادة فيها من الزيادة في الحُسن مراعاة لأصل الاشتقاق فكان ذكر الحسن من الجناس المعبر عنه بجناس الاشتقاق نحو قوله تعالى { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ } [الروم:43] وصار المعنى: نزد له فيها مماثلا لها، ويتعيَّن أنَّ الزيادة فيها زيادة من غير عمله، فتعيّن أنّ المراد الزيادة في جزاء أمثالها عند الله. وهذا معنى قوله تعالى { مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا } [الأنعام:160]، وقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" من همّ بحسنة فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف "**.

{ **إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ** } تذييل وتعليل للزيادة لقصد تحقيقها، بأنّ الله كثيرة مغفرته لمن يستحقّها، كثير شكره للمتقربين إليه.

{ **غَفُورٌ** } إشارة إلى ترغيب المقترفين للسيّئات في الاستغفار والتوبة ليغفر لهم فلا يقنطوا من رحمة الله.

{ **شَكُورٌ** } المقصود بالتعليل.

{ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } [24].

إضراب انتقالي عطفا على قوله تعالى { أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ } [21]، والمراد الانتقال إلى توبيخ آخر، فالهمزة المقدَّرة بعد { **أَمْ** } للاستفهام التوبيخي، فإنّهم قالوا ذلك فاستحقّوا التوبيخ عليه.

{ **يَقُولُونَ** } صيغة المضارع ليتوجَّه التوبيخ لاستمرارهم على هذا القول الشنيع مع ظهور دلائل بطلانه. فإذا كان قولهم هذا شنعا من القول فاستمرارهم عليه أشنع.

{ **فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ** } تفريع على توبيخهم على ذلك، وهو تفريع فيه خفاء ودقّة لأنّ المتبادر من التفريع أنّ ما بعد (الفاء) إبطال لما نسبوه إليه من الافتراء على الله وتوكيد للتوبيخ فكيف يُستفاد هذا الإبطال من الشرط وجوابه المفرعين على التوبيخ.

الوجه عندي في بيانه: أنّ هذا الشرط وجوابه المفرّعين في ظاهر اللفظ على التوبيخ والإبطال هما دليل على المقصود بالتفريع المناسب لتوبيخهم وإبطال قولهم، وتقدير المفرّع هكذا: فكيف يكون الافتراء منك على الله والله لا يُقرُّ أحدا أن يكذب عليه، فلو شاء لختم على قلبك، أي: سلبك العقل الذي يفكّر في الكذب فتُفحم عن الكلام فلا تستطيع أن تتقوّل عليه، فيكون الشرط كناية عن انتفاء الافتراء، فحصل بهذا النظم إيجاز بديع، وتكون الآية قريبا من قوله تعالى { وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ } [الحاقة:44-46].

{ **وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ** } معطوفة على التفريع، وهي كلام مستأنف.

جرى جمع من أهل التفسير، مثل الكسائي وابن الأنباري والزجاج والزمخشري، أنَّ المراد أنَّ الله يمحو باطل المشركين وبهتانهم ويحقّق ما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم. والمراد بالمحو على هذا: الإزالة. والمراد بالباطل: الباطل المعهود وهو دين الشرك. وبالحقّ: الحقّ المعهود، وهو الإسلام.

أو يكون المعنى أنّ من شأن الله تعالى أن يزيل الباطل ويفضحه بإيجاد أسباب زواله وأن يوضِّح الحق بإيجاد أسباب ظهوره، حتّى يكون ظهوره فاضحا لبطلان الباطل، فلو كان القرآن مفترى على الله لفضح الله بطلانه وأظهر الحق، فالمراد بالباطل: جنس الباطل، وبالحق: جنس الحق، وتكون الجملة كالتذييل للتفريع.

والمعنى الأوّل أنسب بالاستئناف ولإفادته الوعيد بإزالة ما هم عليه ونصر المسلمين عليهم.

{ **وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ** } إظهار اسم الجلالة دون أن يقول: ويمح الباطل، لتقوية تمكّن المسند إليه من الذهن ولإظهار عناية الله بمحو الباطل. وإنّما عدل على الجملة الاسمية، فلم يقل: والله يمحو الباطل، لأنّه أريد أن ما في إفادة المضارع من التجدّد والتكرير إيماء إلى أنّ هذا شأن الله وعادته لا تتخلّف ولم يقصد تحقيق ذلك وتثبيته لأنّ إفادة التكرير تقتضي ذلك بطريق الكناية فحصل الغرضان.

{ **بِكَلِمَاتِهِ** } الباء للسببية، والكلمات هي: كلمات القرآن والوحي، كقوله تعالى { يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ

اللَّهِ} [الفتح: 15]، أو المراد: كلمات التكوين المتعلقة بالإيجاد كقوله تعالى { لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ } [الكهف:27].

{ **إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** } تعليل لمجموع جملتي { فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ - إلى قوله - بِكَلِمَاتِهِ }. أي: لأنّه لا يخفى عليه افتراء مفتر ولا صدق محقّ.

ذات الصدور: النوايا والمقاصد التي يضمرها الناس في عقولهم. والصدور: العقول، أطلق عليها الصدور على الاستعمال العربي، وقد تقدّم عند قوله تعالى { إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } [الأنفال:43].

وإنّما جاء هذا الرد عليهم بأسلوب الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّ ذلك أقوى في الاعتناء بتلقينه جواب تكذيبهم لأنّ المقام مقام تفظيع لبهتانهم، وهذا وجه التخالف بين أسلوب هذه الآية وأسلوب قوله تعالى { قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ } [يونس:16] لأنّ ذلك لم يكن مسوقا لإبطال كلام صدر منهم.

{ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ [25] وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ [26] }.

لمَّا جرى وعيد الذين يحاجّون في الله لتأييد باطلهم من قوله تعالى { وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ } [16]، ثمّ اتبع بوصف سوء حالهم يوم الجزاء بقوله تعالى { تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا } [22]، وقوبل بوصف نعيم الذين آمنوا بقوله تعالى { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ } [22]، وكان ذلك مظنّة أن يكسر نفوس أهل العناد والضلالة، أعقب بإعلامهم أنّ الله من شأنه قبول توبة من يتوب من عباده، وعفوه بذلك عن سيّئاتهم.

وهذا الإخبار تعريض بالتحريض على مبادرة التوبة، ولذلك جيء فيه بالفعل المضارع الصالح للاستقبال. وهو أيضا بشارة للمؤمنين، بأنّه قبل توبتهم ممّا كانوا فيه من الشرك والجاهلية.

وكل ذلك جري على عادة القرآن في تعقيب الترهيب بالترغيب وعكسه.

{ **وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوبَةَ عَنْ عِبَادِهِ** } معطوفة على { وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [21] وما اتصل بها ممّا تقدّم ذكره وخاصة جملة { وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ } [24]. والجملة الاسمية لإفادتها ثبات حكمها ودوامه.

{ **الَّذِي يَقْبَلُ** } مجيء المسند اسم موصول لإفادة اتصاف الله تعالى بمضمون صلته، وأنّها شأن من شؤون الله تعالى عُرف به، ثابت له لا يتخلّف، لأنّه المناسب لحكمته وعظمة شأنه وغناه عن خلقه.

وإيثار جملة الصلة بصيغة المضارع لإفادة تجدّد مضمونه وتكرّره، ليعلموا أنّ ذلك وعد لا يتخلّف ولا يختلف.

{ **عَنْ عِبَادِهِ** } وفعل (قبل) يتعدّى بـ (من) الابتدائية تارة، كما في قوله تعالى { وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ

نَفَقَاتُهُمْ } [التوبة:54]، فيفيد معنى الأخذ للشيء المقبول صادرا من المأخوذ منه، ويُعدَّى بـ (عن) فيفيد معنى مجاوزة الشيء المقبول أو انفصاله عن معطيه وباذله، وهو أشدّ مبالغة في معنى الفعل، لأنّ فيه كناية عن احتباس الشيء المبذول عند المبذول إليه بحيث لا يردّ على باذله.

فحصلت في جملة { وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوبَةَ عَنْ عِبَادِهِ } أربع مبالغات: بناء الجملة على الاسمية، وعلى الموصولية، وعلى المضارعية، وعلى تعدية فعل الصلة بـ (عن).

{ **التَّوْبَةَ** } الإقلاع عن فعل المعصية امتثالا لطاعة الله، وتقدّم الكلام عليها عند قوله تعالى { فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ } [البقرة:37]، وقبول التوبة منّة من الله تعالى لأنّه لو شاء لما رضي عن الذي اقترف الجريمة ولكنّه جعلها مقبولة لحكمته وفضله.

{ **عِبَادِهِ** } في ذكر اسم العباد دون نحو: الناس أو التائبين أو غير ذلك، إيماء إلى أنّ الله رفيق بعباده لمقام العبودية، فإنّ الخالق يحبّ صلاح مخلوقه.

{ **وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ** } العفو عن السيّئات يكون بسبب التوبة بأن يعفو عن السيّئات التي اقترفها العاصي قبل توبته، ويكون بدون ذلك مثل العفو عن السيّئات عقب الحجّ المبرور، ومثل العفو عن السيّئات لأجل الشهادة في سبيل الله، ومثل العفو عن السيّئات لكثرة الحسنات بأن يُمحى عن العاصي من سيّئاته ما يقابل مقدارا من حسناته على وجه يعلمه الله تعالى، ومثل العفو عن الصغائر باجتناب الكبائر.

العفو: عدم مؤاخذة الجاني بجنايته.

{ **السَّيِّئَاتِ** } الجرائم لأنّها سيّئة عند الشرع. والتعريف للجنس المراد به الاستغراق وهو عام مخصوص بغير الشرك، قال تعالى { إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ } [النساء:48]، ولك أن تجعله عوضا عن المضاف إليه، أي: عن سيئات عباده.

{ **وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ** } معترضة بين المتعاطفات أو في موضع الحال، والمقصود: أنّه لا يخفى عليه شيء من أعمال عباده خيرها وشرّها.

{ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ }.

الاستجابة: مبالغة في الإجابة، وخُصت الاستجابة في الاستعمال بامتثال الدعوة أو الأمر.

<u>ظاهر النظم أنّ فاعل { وَيَسْتَجِيبُ } ضمير</u> يعود إلى ما عاد إليه ضمير { وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوبَةَ } وأنّ { الَّذِينَ آمَنُوا } المفعول، وأنّ الجملة معطوفة على جملة { يَقْبَلُ التَّوبَةَ }.

والغالب في الاستعمال أن يقال: استجاب له، كقوله تعالى { ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ } [غافر:60]، وقد يحذفون اللام فيعدُّونه بنفسه. والمعنى: أنّ الله يستجيب لهم ما يرجونه منه من ثواب، وما يدعونه.

<u>ويجوز أن يكون { الَّذِينَ آمَنُوا } فاعل { وَيَسْتَجِيبُ }</u> أي: يستجيبون لله فيطيعونه، وتكون جملة { وَيَسْتَجِيبُ } عطفا على مجموع جملة { وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوبَةَ }، أي: ذلك شأنه وهذا شأن عباده المؤمنين.

{ **وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ** } على الوجهين أنّه يعطيهم ما أمَّلوا من دعائهم وعملهم، وأعظم ممَّا أمَّلوا حين استجابوا له ولرسوله، وأنّه يعطيهم من الثواب أكثر ممّا عملوا من الصالحات إذ جعل لهم الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، كما في الحديث، وأنّه يعطيهم من خير الدنيا ما لم يسألوه إيّاه كلّ ذلك لأنّه لطيف بهم ومدبّر لمصالحهم.

{ **الَّذِينَ آمَنُوا** } لمّا كانت الاستجابة والزيادة كرامة للمؤمنين، أظهر اسم { الَّذِينَ آمَنُوا } وجيء به موصولا للدلالة على أنّ الإيمان هو وجه الاستجابة لهم والزيادة لهم.

{ **وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ** } اعتراض عائد إلى ما سبق من قوله تعالى { تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ } [22] توكيدا للوعيد وتحذيرا من الدوام على الكفر بعد فتح باب التوبة لهم.

{ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ} [27].

عطف على جملة { وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ } [26]، أو على مجموع الآية. وموقع معناها موقع الاستدراك والاحتراس، فإنّها تشير إلى جواب عن سؤال مقدّر في نفس السامع إذا سمع أنّ الله يستجيب للذين أمنوا وأنّه يزيدهم من فضله أن يتساءل عن الحكمة في التوسعة على البعض وفي التضييق على البعض الآخر. فيجاب بأنّ الله لو بسط الرزق للناس كلّهم لكان بسطه مفسدا لهم لأنّ الذي يستغني يتطرّقه نسيان الالتجاء إلى الله، ويحمله على الاعتداء على الناس، وكان ذلك مَنُوطا بحكمة أرادها الله من تدبير هذا العالم تطَّرد في الناس مؤمنهم وكافرهم، لأنّ قوله تعالى { لِعِبَادِهِ } يعم جميع العباد.

البغيّ: العدوان والظلم، أي: لبغى بعضهم على بعض، لأنّ الغنى مظنّة البطر والأشر إذا صادف نفسا خبيثة.

فأمّا الفقر فقلَّما كان سببا للبغي إلّا بغيا مشوبا بمخافة، كبغي الجائع بالافتكاك بالعنف فذلك لندرته لا يلتفت إليه، على أنّ السياق لبيان حكمة كون الرزق بقدر لا لبيان حكمة في الفقر.

وعن خبّاب بن الأرت: فينا نزلت هذه الآية، وذلك أنّا نظرنا إلى أموال بني النضير وبني قريظة وبني قينقاع فتمنيناها فنزلت. وهذا ممّا حمل قوما على ظنّ هذه الآية مدنية. وهذا إن صحّ عن خباب فهو تأويل منه لأنّ الآية مكية وخباب أنصاري فلعلّه سمع تمثيل بعضهم لبعض بهذه الآية ولم يكن سمعها من قبل.

{ **وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ** } إطلاق فعل (التنزيل) على إعطاء الرزق استعارة لأنّه عطاء من رفيع الشأن، فشُبّه بالنازل من علو، وتكرَّر مثل هذا الإطلاق في القرآن.

القَدَر: (بفتحتين) المقدار والتعيين.

{ **مَا يَشَاءُ** } أنّ مشيئته تعالى جارية على وفق علمه وعلى ما ييسِّره من ترتيب الأسباب على حسب

مختلف مصالح مخلوقاته وتعارض بعضها ببعض، وكذلك تصرّفاته وتقديراته لا يحيط بها إلّا علمه تعالى.

{ **إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ** } تعليل للتي قبلها. و(إنّ) لمجرّد الاهتمام بالخبر والإيذان بالتعليل، لأنّها في مثل هذا المقام تقوم مقام فاء التفريع وتفيد التعليل والربط، فالجملة في تقدير المعطوفة بـ (الفاء).

{ **خَبِيرٌ** } دال على العلم بمصالح العباد وأحوالهم قبل تقديرها وتقدير أسبابها، أي: العلم بما سيكون.

{ **بَصِيرٌ** } دال على العلم المتعلّق بأحوالهم التي حصلت.

{ **وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ** } [28].

عطف على جملة { وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ } [27]، تذكير بهذه النعمة العظيمة على الناس التي منها معظم رزقهم الحقيقي لهم ولأنعامهم. وخصّها بالذكر دون غيرها من النعم الدنيوية لأنّها نعمة لا يختلف الناس فيها لأنّها أصل دوام الحياة بإيجاد الغذاء الصالح للناس والدواب.

{ **وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ** } قصر القلب لأنّ في السامعين مشركين يظنّون نزول الغيث من تصرّف الكواكب وفيهم المسلمون الغافلون، يظنّون ظنّهم، لأنّهم كانوا حديثي عهد بالجاهلية. وهذا القصر بالنسبة للمشركين قصر قلب أصلي وهو بالنسبة للمسلمين قصر قلب تنزيلي.

وفي حديث زيد بن خالد الجهني قال خطبنا رسول الله على إثر سماء كانت من الليل فقال: **" أتدرون ماذا قال ربكم؟ قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي، فأمّا من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأمّا من قال: مُطرنا بنَوء كذا ونوء كذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب "**.

{ **يُنَزِّلُ** } اختيار المضارع لإفادة تكرّر التنزيل وتجديده.

الغيث: المطر الآتي بعد الجفاف، سُمِّي غيثا بالمصدر لأنّ به غيث الناس المضطرّين، وتقدّم عند قوله { فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ } [يوسف:49].

القنوط: اليأس، وتقدّم عند قوله تعالى { فَلا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ } [الحجر:55].

<u>والمراد:</u> من بعدما قنطوا من الغيث بانقطاع أمارات الغيث المعتادة وضيق الوقت عن الزرع.

النشر: ضدّ الطي، وتقدّم عند قوله تعالى { يَلْقَاهُ مَنْشُورًا } [الإسراء:13]، واستعير هنا للتوسيع والامتداد.

{ **رَحْمَتَهُ** } هنا رحمته بالماء، وقيل: بالشمس بعد المطر.

{ **وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ** } ذكر هذين الصفتين دون غيرهما لمناسبتهما للإغاثة لأنّ الوليّ يحسن إلى مواليه والحميد يعطي ما يحمد عليه.

{ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ} [29].

لمَّا كان إنزال الغيث جامعا بين كونه نعمة وكونه آية دالة على بديع صنع الله تعالى وعظيم قدرته المقتضية انفراده بالإلهية، انتقل من ذكره إلى ذكر آيات دالة على انفراد الله تعالى بالإلهية وهي آية خلق العوالم العظيمة وما فيها ممّا هو مشاهد للناس دون قصد الامتنان. وهذا الانتقال استطراد واعتراض.

الآيات: جمع آية، وهي العلامة والدليل على شيء.

السماوات: العوالم العليا غير المشاهدة لنا والكواكب وما تجاوز الأرض من الجو.

الأرض: الكرة التي عليها الحيوان والنبات.

البثّ: وضع الأشياء في أمكنة كثيرة.

الدابة: ما يدبّ على الأرض، أي: يمشي، فيشمل الطير لأنّ الطير يمشي إذا نزل وهو ممّا أريد في قوله هنا { فِيهِمَا }، أي: في الأرض وفي السماء. وأمّا الموجودات التي في السماوات العلى من الملائكة والأرواح فلا يطلق عليها اسم دابة. ويجوز أن تكون في بعض السماوات موجودات تدبّ فيها، فإنّ الكواكب من السماوات

{ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ } معترضة في جملة الاعتراض لإدماج إمكان البعث في عرض الاستدلال على عظيم قدرة الله وعلى تفرده بالإلهية. والمعنى: أنّ القادر على خلق السماوات والأرض وما فيهما عن عدم قادر على إعادة خلق بعض ما فيهما للبعث والجزاء.

{ جَمْعِهِمْ } الضمير عائد إلى ما بثّ فيهما من دابة باعتبار أنّ الذي تتعلّق الإرادة بجمعه في الحشر للجزاء هم العقلاء من الدواب. وقد ورد في أحاديث في الصحيح أنّ بعض الدواب تحشر للانتصاف ممّن ظلمها.

{ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ } [30].

عطف على جملة { وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا } [28]. لمّا تضمَّنت المنّة بإنزال الغيث بعد القنوط أنّ القوم أصابهم جهد من القحط بلغ بهم مبلغ القنوط من الغيث أعقبت ذلك بتنبيههم إلى أنّ ما أصابهم من ذلك البؤس هو جزاء على ما اقترفوه من الشرك تنبيهًا يبعثهم ويبعث الأمّة على أن يلاحظوا أحوالهم نحو امتثال رضى خالقهم ومحاسبة أنفسهم حتّى لا يحسبوا أنّ الجزاء الذي أوعدوا به مقصور على الجزاء في الآخرة، بل يعلموا أنّه قد يصيبهم الله بما هو جزاء لهم في الدنيا.

والخطاب للمشركين ابتداء لأنّهم المقصود من سياق الآيات كلّها وهم أولى بهذه الموعظة لأنّهم كانوا غير مؤمنين بوعيد الآخرة، ويشمل المؤمنين بطريق القياس.

المصيبة: اسم للحادثة التي تصيب بضرّ ومكروه، وقد لزمتها هاء التأنيث للدلالة على الحادثة فلذلك تنوسيت منها الوصفية وصارت اسما للحادثة المكروهة.

{ **كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ** } أطلق على الأفعال والأقوال المنكرة على وجه المجاز بعلاقة الإطلاق، أي: بما صدر منكم من أقوال الشرك، والأذى للنبيّ صلى الله عليه وسلم، وفِعل المنكرات الناشئة عن دين الشرك.

{ **وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ** } عطف على جملة { وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ }. وهذا يشير إلى ما يتراءى لنا من تخلّف إصابة المصيبة عن بعض الذين كسبت أيديهم جرائم، ومن ضدّ ذلك ممّا تصيب المصائب بعض الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهو إجمال يبيّنه على الجملة أنّ ما يعلمه الله من أحوال عباده وما تغلّب من حسناتهم على سيئاتهم، وما تقتضيه حكمة الله من إمهال بعض عباده أو من ابتلاء بعض المقربين. والمعنى: أنّه تعالى يعفو، أي: يصفح فلا يصيب كثيرا من عباده الذين استحقّوا جزاء السوء بعقوبات دنيوية، لأنّه يعلم أن ذلك أليق بهم. فالمراد هنا: العفو عن المؤاخذة في الدنيا ولا علاقة لها بجزاء الآخرة، فإنّ فيه أدلة أخرى من الكتاب والسنة.

{ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ } [31].

عطف على جملة { وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ } [30] وهو احتراس، أي: يعفو عن قدرة وتفضّل، فإنّكم لا تعجزونه.

المُعْجِزُ: الغالب غيره بانفلاته من قبضته. والمعنى: ما أنتم بفالتين من قدرة الله. والخطاب للمشركين.

{ **وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ** } جيء بالخبر جملة اسمية للدلالة على ثبات الخبر ودوامه، أي: نفي إعجازهم ثابت لا يتخلّف، فهم في مكنة خالقهم.

{ **فِي الْأَرْضِ** } لإرادة التعميم، أي: في أيّ مكان من الأرض، لئلّا يحسبوا أنّهم في منعة بحلولهم في مكة التي أمّنها الله تعالى.

{ **وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ** } أي: ليس لكم وليّ يتولاكم فيمنعكم من سلطان الله ولا نصير ينصركم على الله إن أراد إصابتكم، فجمعت الآية نفي ما هو معتاد بينهم من وجوه الوقاية.

{ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ [32] إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ [33] أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ [34] }.

لمّا جرى تذكيرهم بأنّ ما أصابهم من مصيبة هو مسبّب عن اقتراف أعمالهم، وتذكيرهم بحلول المصائب تارة وكشفها تارة أخرى بقوله تعالى { وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ } [30]، وأعقب بأنّهم في الحالتين غير خارجين عن قبضة القدرة الإلهية، سيق لهم ذكر هذه الآية جامعة **مثالا** لإصابة المصائب وظهور مخائلها المخيفة

المذكِّرة بما يغفلون عنه من قدرة الله، والتي قد تأتي بما أُنذِروا به وقد تنكشف عن غير ضر، **ودليلا** على عظيم قدرة الله تعالى، وأنّه لا محيص عن إصابة ما أراده، **وإدماجا** للتذكير بنعمة السير في البحر وتسخير البحر للناس، فإن ذلك نعمة، قال تعالى { وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ } [البقرة:164].

فكانت هذه الجملة اعتراضا مثل جملة { وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [29].

الآيات: الأدلة الدالة على الحق.

الجواري: جمع جارية، صفة لمحذوف دلّ عليه ذكر البحر، أي: السفن الجواري في البحر، كقوله تعالى { إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ } [الحاقة:11] وعدل عن: الفلك إيماء إلى محلّ العبرة لأنّ العبرة في تسخير البحر لجريها، وتفكير الإنسان في صنعها.

{ **كَالْأَعْلَامِ** } جمع علم وهو الجبل، والتشبيه للإشارة أنّها السفن العظيمة التي تسع ناسا كثيرين، والعبرة بها أظهر والنعمة بها أكثر.

إسكان الرياح: قطع هبوبها، فإنّ الريح حركة وتموّج في الهواء فإذا سكن ذلك التموج فلا ريح.

الرواكد: جمع راكدة، والركود: الاستقرار والثبوت.

الظهر: الصلب للإنسان والحيوان، ويطلق على أعلى الشيء إطلاقا شائعا. يقال: ظهر البيت، أي: سطحه، وتقدّم في قوله تعالى { وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا } [البقرة: 189].

وأصله: استعارة فشاعت حتّى قاربت الحقيقة. فظهر البحر سطح مائه البادي للناظر، كما أطلق ظهر الأرض على ما يبدو منها، قال تعالى { مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ } [فاطر:45].

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ** } جُعل ذلك آية لكلّ صبّار شكور لأنّ في الحالتين خوفا ونجاة، والخوف يدعو إلى الصبر، والنجاة تدعو إلى الشكر. والمراد: أنّ في ذلك آيات لكلّ مؤمن متخلّق بخلق الصبر على الضرّاء والشكر للسراء.

{ **أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ** } عطف على جزاء الشرط.

{ **يُوبِقْهُنَّ** } يهلكهن. والإيباق: الإهلاك، وفعله (**وبق**) كوعد. والمراد به هنا الغرق.

<u>فيجوز</u> أن يكون ضمير جماعة الإناث عائدا إلى { الْجَوَارِ } على أن يستعار الإيباق للإغراق.

<u>ويجوز</u> أن يكون الضمير عائدا إلى الراكبين على تأويل معاد الضمير بالجماعات، فهو كقوله تعالى { وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ } [الحج:28/27].

{ **بِمَا كَسَبُوا** } الباء للسببية وهو في معنى قوله تعالى { وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ } [30].

{ **وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ** } عطف على { يُوبِقْهُنَّ } فهو في معنى جزاء للشرط المقدّر، أي: وإن يشأ يعف عن كثير فلا يوبقهم مع استحقاقهم ذلك. وهذا العطف اعتراض.

{ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ } [35].

{ وَيَعْلَمَ } قرأ نافع وابن عامر ويعقوب برفع { وَيَعْلَمُ } على أنّه كلام مستأنف. وقرأه الباقون بالنصب.

فأمّا الاستئناف، على قراءة نافع وابن عامر ويعقوب، فمعناه أنّه كلام أُنُف لا ارتباط له بما قبله، وذلك تهديد للمشركين بأنّهم لا محيص لهم من عذاب الله، لأنّه لما قال { وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ } [32]، صار المعنى: ومن آيات انفراده بالإلهية الجواري في البحر. والمشركون يجادلون في دلائل الوحدانية بالإعراض والانصراف عن سماعها فهدَّدهم الله بأن أعلمهم أنّهم لا محيص لهم، أي: من عذابه، فحُذف متعلّق المحيص تهويلا للتهديد، لتذهب النفس كل مذهب ممكن، فيكون قوله تعالى {وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ} خبرا مرادا به الإنشاء والطلب، فهو في قوة: وليعلم الذين يجادلون، أو اعلموا يا من يجادلون. وليس خبرا عنهم لأنّهم لا يؤمنون بذلك حتّى يعلموه.

وأمّا قراءة النصب فهي عند سيبويه وجمهور النحاة على العطف على فعل مدخول لـ (لام التعليل) وتضمّن (أن) بعده. والتقدير: لينتقم منهم ويعلم الذين يجادلون الخ.

ويجوز أن يُجعل الخبر مستعملا في مقاربة المخبر به، كقولهم: قد قامت الصلاة، فلمّا كان علمهم بذلك يوشك أن يحصل نزل منزلة الحاصل فأخبر عنهم به، وعلى هذا الوجه يكون إنذارا بعقاب يحصل لهم قريبا وهو عذاب السيف والأسر يوم بدر.

{ وَيَعْلَمَ } وذكر فعل (يعلم) للتنويه والاعتناء بالخبر، كقوله تعالى { وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ } [البقرة:223]، وقوله تعالى { وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ } [الأنفال:41]، وقول النبيّ صلى الله عليه وسلم حين رأى أبا مسعود الأنصاري يضرب غلاما له فناداه: **" اعلم أبا مسعود اعلم أبا مسعود"** ، قال أبو مسعود: فالتفت فإذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو يقول: **" اعلم أبا مسعود "** فألقيت السوط من يدي، فقال لي: **" أنّ الله أقدر عليك منك على هذا الغلام "** [مسلم].

{ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا } تقدّم معناها في هذه السورة [16].

المحيص: مصدر ميمي من حاص، إذا أخذ في الفرار ومال في سيره. وفي حديث أبي سفيان في وصف مجلس هرقل: فحاصوا حيصة حُمُر الوحش وأغلقت الأبواب ".

المعنى: ما لهم من فرار ومهرب من لقاء الله. قال تعالى { وَلا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا } [النساء:121].

{ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } [36].

تفريع على جملة { وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا } [27] إلى آخرها، فإنّها اقتضت وجود مُنعَم عليه ومحروم، فذُكِّروا بأنّ ما أوتوه من رزق هو عرض زائل، وأنّ الخير في الثواب الذي ادّخره الله

للمؤمنين، مع المناسبة لما سبقه من قوله تعالى { وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ } [34]، فإنّ تلك السلامة نعمة من نعم الدنيا.

فالنعم الدنيوية نعم قصيرة الزمان صائرة إلى الزوال فلا يجعلها الموفَّق غاية سعيه وليسع لعمل الآخرة الذي يأتي بالنعيم العظيم الدائم وهو النعيم الذي ادّخره الله عنده لعباده المؤمنين الصالحين.

والخطاب للمشركين جريا على نسق الخطاب السابق، وينسحب الحكم على المؤمنين بلحن الخطاب، ويجوز أن يكون الخطاب لجميع الأمّة.

{ **وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** } دليل على عملهم بإيمانهم في اعتقادهم، فهم يتوكّلون على ربهم دون غيره. وهذا التوكّل إفراد لله بالتوجُّه إليه في كلّ ما تعجز عنه قدرة العبد، فإن التوجُّه إلى غيره في ذلك ينافي التوحيد، لأنّ المشركين يتوكّلون على آلهتهم أكثر من توكُّلهم على الله.

{ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ } [37]

أُتبع الموصول السابق بموصولات معطوف بعضُها على بعض كما تُعطف الصفات للموصوف الواحد، فكذلك عطف هذه الصلات وموصولاتها لأنّ أصحابها متّحدون وهم الذين آمنوا بالله وحده، نظير قوله تعالى { الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ } [البقرة:3]، ثمّ قوله تعالى { وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ } [4].

<u>فالمقصود</u>: ما عند الله خير وأبقى للمؤمنين الذين هذه صفاتهم.

كبائر الإثم: الآثام العظيمة التي نهى الشرع عنها نهيا جازما، وتوعَّد فاعلها بعقاب الآخرة، مثل القذف والاعتداء والبغي. وقرأه حمزة والكسائي وخلف { كبيرة الإثم } بالإفراد، والمعنى واحد، لأنّ المفرد لما أضيف إلى معرف بلام الجنس كان له حكم ما أضيف هو إليه.

{ **وَالْفَوَاحِشَ** } جمع فاحشة، وهي: الفعلة الموصوفة بالشناعة والتي شدَّد الدين في النهي عنها وتوعّد عليها بالعذاب، أو وضع لها عقوبات في الدنيا. وهذه مثل قتل النفس، والزنى، والسرقة، والحرابة. وتقدّم عند قوله تعالى { وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا } [الأعراف:28].

{ **وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ** } ولمّا كان كثير من كبائر الإثم والفواحش متسبَّبا على القوة الغضبية، مثل القتل والجراح والشتم والضرب أعقب الثناء على الذين يجتنبونها، فذكر أنّ من شيمتهم المغفرة عند الغضب، أي: إمساك أنفسهم عن الاندفاع مع داعية الغضب.

{ **وَإِذَا مَا غَضِبُوا** } جيء بكلمة (إذا) المضمَّنة معنى الشرط والدالة على تحقق الشرط، لأنّ الغضب طبيعة نفسية لا تكاد تخلو عنه نفس أحد على تفاوت.

{ **هُمْ يَغْفِرُونَ** } قُدِّم المسند إليه على الخبر الفعلي لإفادة التقوّي.

والمقصود من هذا معاملة المسلمين بعضهم مع بعض، فلا يعارضه قوله الآتي { وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ } [39]، لأنّ ذلك في معاملتهم مع أعداء دينهم.

{ **وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ** } [38].

هذا موصول آخر وصلة أخرى. ومدلولهما من أعمال الذين آمنوا التي يدعوهم إليها إيمانهم، والمقصود منها ابتداء هم الأنصار، كما روي عن عبد الرحمان ابن زيد. ومعنى ذلك أنّهم من المؤمنين الذين تأصّل فيهم خلق الشورى.

{ **وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ** } هذه ثابتة لجميع من آمن بالله، لأنّ الاستجابة لله هي الاستجابة لدعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم. والسين والتاء للمبالغة، أي: هي إجابة لا يخالطها كراهية ولا تردّد.

{ **لِرَبِّهِمْ** } لام التقوية يقال: استجاب له كما يقال: استجابه، فالظاهر أنّه أريد منه استجابة خاصة، وهي إجابة المبادرة مثل أبي بكر وخديجة وعبد الله بن مسعود وسعد بن أبي وقاص ونقباء الأنصار أصحاب ليلة العقبة.

{ **وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ** } أثنى الله عليهم بإقامة الصلاة، فيجوز أن يكون ذلك تنويها بمكانة الصلاة بأعمال الإيمان، ويجوز أن يكون المراد إقامة خاصة، فإذا كانت الآية نازلة في الأنصار أو كان الأنصار المقصود الأوّل منها فلعلّ المراد مبادرة الأنصار بعد إسلامهم بإقامة الجماعة إذ سألوا النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يرسل إليهم من يقرأهم القرآن ويؤمُّهم في الصلاة، فأرسل إليهم مصعب بن عمير وذلك قبل الهجرة.

{ **وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ** } عطف على الصلة. وقد عُرف الأنصار بذلك إذ كان التشاور في الأمور عادتهم، فإذا نزل بهم مهمّ اجتمعوا وتشاوروا، وكان من تشاورهم الذي أثنى الله عليهم به هو تشاورهم حين ورد إليهم نقباؤهم وأخبروهم بدعوة محمد صلى الله عليه وسلم بعد أن آمنوا هم به ليلة العقبة، فلمّا أبلغوهم ذلك اجتمعوا في دار أبي أيوب الأنصاري فأجمع رأيهم على الإيمان به والنصر له.

وإذ قد كانت الشورى مفضية إلى الرشد والصواب وكان من أفضل آثارها أن اهتدى بسببها الأنصار إلى الإسلام أثنى الله بها على الإطلاق دون تقييد بالشورى الخاصة التي تشاور بها الأنصار في الإيمان.

الأمر: اسم من أسماء الأجناس العامة مثل: شيء وحادث. وإضافة اسم الجنس قد تفيد العموم بمعونة المقام، أي: جميع أمورهم مُتَشاور فيها بينهم.

الشورى: مصدر، وهي أنّ قاصد عمل يطلب ممّن يظن فيه صواب الرأي والتدبير أن يشير عليه بما يراه في حصول الفائدة المرجوة من عمله، وتقدّم قوله تعالى { وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ } [آل عمران:159].

{ **بينهم** } ظرف مستقرّ هو صفة لـ { شُورَى }، والتشاور لا يكون إلّا بين المتشاورين، وهذا الظرف إيماء إلى أنّ الشورى لا ينبغي أن تتجاوز من يهمّهم الأمر من أهل الرأي، وإلى أنّها سر بين المتشاورين.

{ **وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ** } أثنى عليهم بأنّهم ينفقون ممّا رزقهم الله، وللأنصار الحظ الأوفر من هذا

الثناء، وهو كقوله تعالى فيهم { وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ } [الحشر:9]. وذلك أنّ الأنصار كانوا أصحاب أموال وعمل فلمّا آمنوا كانوا أوّل جماعة من المؤمنين لهم أموال يعينون بها ضعفاء المؤمنين منهم ومن المهاجرين الأوّلين قبل هجرة النبيّ صلى الله عليه وسلم.

والقول إدماج للامتنان في خلال المدح، وإلّا فليس الإنفاق من غير ما يرزَقه المنفق.

{ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ } [39].

هذا موصول رابع وصلته خُلُق أراده الله للمسلمين، والحظّ الأوّل منه للمؤمنين الذين كانوا بمكّة قبل أن يهاجروا فإنّهم أصابهم بغي المشركين بأصناف الأذى من شتم ومصادرة الأموال وتعذيب فصبروا عليه.

{ الْبَغْيُ } الاعتداء على الحق، فمعنى أصابته إيَّاهم أنّه سُلط عليهم، أي: بَغى غيرهم عليهم.

وهذه الآية مقدّمة لقوله في سورة الحج { أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ } [40/39]، فإنّ سورة الحج نزلت بالمدينة.

أثنى الله عليهم بأنّهم ينتصرون لأنفسهم تنبيها على أنّ ذلك الانتصار ناشئ على ما أصابهم من البغي، فكان كلّ من السبب والمسبّب موجب الثناء، لأنّ الانتصار محمدة دينية إذ هو لدفع البغي اللاحق بهم لأجل أنّهم مؤمنون، فالانتصار لأنفسهم رادع للباغين عن التوغّل في البغي على أمثالهم، وذلك الردع عون على انتشار الإسلام، إذ يقطع ما شأنه أن يخالج نفوس الراغبين في الإسلام من هواجس خوفهم من أن يُبغى عليهم.

وبهذا تعلم أن ليس بين هذا القول وبين قوله آنفا { وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ } [37] تعارض لاختلاف المقامين كما علمت آنفا.

{ هُمْ يَنْتَصِرُونَ } أُدخل ضمير الفصل، الذي فصل بين الموصول وبين خبره، لإفادة تقوّي الخبر، أي: لا ينبغي أن يتردّدوا في الانتصار لأنفسهم. وأوثر الخبر الفعلي هنا دون أن يقال: منتصرون، لإفادة معنى تجدّد الانتصار كلّما أصابهم البغي.

{ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ } [40].

هذه جمل ثلاث معترضة الواحدة تلو الأخرى بين جملة { وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ } [39] وجملة { وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ } [41]. وفائدة هذا الاعتراض تحديد الانتصار والترغيب في العفو ثم ذمّ الظلم والاعتداء، وهذا انتقال من الإذن في الانتصار من أعداء الدين إلى تحديد إجرائه بين الأمّة بقرينة تفريع { فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ } على جملة { وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا } إذ سُمِّي ترك الانتصار عفوا وإصلاحا ولا عفو ولا إصلاح مع أهل الشرك. وبقرينة الوعد بأجر من الله على ذلك العفو ولا يكون على الإصلاح

مع أهل الشرك أجر.

{ **سَيِّئَةٍ** } صفة لمحذوف، أي: فعلة تسوء من عومل بها. ووزنها (فَيْعِلة) مبالغة في الوصف مثل: هيّنة.

المعنى: أن المجازي يجازي من فعل معه فعلة تسوؤه بفعلة سيّئة مثل فعلته في السوء، وليس المراد بالسيّئة هنا المعصية التي لا يرضاها الله، فلا إشكال في إطلاق السيّئة على الأذى الذي يُلحق بالظالم.

{ **مِثْلُهَا** } أنّها تكون بمقدارها في متعارف الناس، فقد تكون المماثلة في الغرض والصورة وهي المماثلة التامة، وتلك حقيقة المماثلة، مثل القصاص من القاتل ظلما بمثل ما قتل به، ومن المعتدي بجراح عمد، وقد تتعذّر المماثلة التامة فيصار إلى المشابهة في الغرض، أي: مقدار الضرّ، وتلك هي المقاربة، من ذلك إتلاف بعض الحواس بسبب ضرب على الرأس أو على العين فيصار إلى الديّة إذ لا تضبط إصابة حاسة الباغي بمثل ما أصاب به حاسة المعتدَى عليه. وكذلك إعطاء قيم المتلفات من المقوّمات.

{ **إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ** } في موضع العلّة لكلام محذوف دلّ عليه السياق فيقدّر: أنّه يحب العافين، كما قال تعالى { وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } [آل عمران:134]. ويجوز أيضا أن يكون التعليل منصرفا لمفهوم جملة { وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا }، أي: دون تجاوز المماثلة في الجزاء كقوله تعالى { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ } [النحل:126]. فيكون ما صدق { الظَّالِمِينَ } الذين يتجاوزون الحدّ في العقوبة من المؤمنين، على أن يكون تحذيرا من مجاوزة الحدّ، كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه "**.

وقد شملت هذه الآية بموقعها الاعتراضي أصول الإرشاد إلى ما في الانتصار من الظالم وما في العفو عنه من صلاح الأمة، ففي تخويل حقّ انتصار المظلوم من ظالمه ردع للظالمين عن الإقدام على الظلم خوفا من أن يأخذ المظلوم بحقه. وفي الترغيب في عفو المظلوم عن ظالمه حفظ آصرة الأخوة الإسلامية بين المظلوم وظالمه كيلا تنثلم في آحاد جزئياتها بل تزداد بالعفو متانة، كما قال تعالى { ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } [فصلت:34].

{ **وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ** } [41].

الجملة إمّا مرتبطة بغرض انتصار المسلم على ظالمه من المسلمين تكملة لجملة { فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ } [40]، فيكون عذرا للذين لم يعفوا.

وإمّا مرتبطة بغرض انتصار المؤمنين من بغي المشركين عليهم، وهو الانتصار بالدفاع، سواء كان دفاع جماعات، وهو الحرب فيكون هذا تمهيدا للإذن بالقتال الذي شُرع من بعد، أم دفاعَ الآحاد إن تمكّنوا منه، فقد صار المسلمون بمكة يومئذ ذوي قوّة يستطيعون بها الدفاع عن أنفسهم آحادا.

{ **وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ** } اللام موطِّئة للقسم، التنبيه على أنّ هذا الانتصار بعد أن تحقَّق أنّهم ظُلموا، فأمّا في غير الحروب فمن يتوقّع أنّ أحدا سيعتدي عليه ليس له أن يبادره بأذى قبل أن يشرع في

الاعتداء عليه.

وأمّا حال المسلمين بعضهم مع بعض فليس من غرض الآية، غير أن في بيانه بعض الفائدة فنقول: لو أنّ أحدا ساوره أحد ببادئ عمل من البغي فهو مرخَّص له أن يدافعه عن إيصال بغيه إليه قبل أن يتمكّن منه ولا يمهله حتّى يوقع به ما عسى أن لا يتداركه فاعله من بعد، وذلك ممَّا يرجع إلى قاعدة أنّ ما قارب الشيء يُعطى حكم حصوله، أي: مع غلبة ظنّه بسبب ظهور بوادره، وهو ما قال فيه الفقهاء: " يجوز دفع صائل بما أمكن "، ومحلّ هذه الرخصة هو الحالات التي يتوقّع فيها حصول الضرّ حصولا يتعذّر أو يعسر رفعه وتداركه. ومعلوم أنّ محلها هو الحالة التي لم يفت فيها فعل البغي فأمّا إن فات فإنّ حق الجزاء عليه يكون بالرفع للحاكم ولا يتولّى المظلوم الانتصاف بنفسه.

{ **فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ** } فاء جواب الشرط، فإن جعلت لام { لَمَنِ انْتَصَرَ } (لام الابتداء) فهو ظاهر، وإن جعلت اللام (موطِّئة للقسم) كان اقتران ما بعدها بفاء الجواب ترجيحا للشرط على القسم عند اجتماعهما.

{ **فَأُولَئِكَ** } جيء باسم الإشارة في صدر جواب الشرط لتمييز الفريق المذكور أتمّ تمييز، وللتنبيه على أنّ سبب عدم مؤاخذتهم هو أنّهم انتصروا بعد أن ظلموا ولم يبدأوا الناس بالبغي.

{ **إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** } [42].

استئناف بياني، فإنّه لمّا جرى الكلام السابق كلّه على الإذن للذين بُغي عليهم أن ينتصروا ممَّن بغوا عليهم، ثمّ عُقِّب بأنّ أولئك ما عليهم من سبيل، كان ذلك مثار سؤال سائل عن الجانب الذي يقع عليه السبيل.

{ **إِنَّمَا السَّبِيلُ** } القصر تأكيد لمضمون جملة { فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ } [41]، لأنّ أداة القصر نفت السبيل عن غيرهم مرة أخرى فتأكّد حصوله الأوّل الذي حصل بالنفي، ونظيره قوله تعالى { مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ - إلى قوله - إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ } [التوبة:93].

{ **السَّبِيلُ** } عين المراد به في قوله تعالى { فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ } [41] بقرينة أنّه أعيد معرَّفا بـ (اللام) بعد أن ذُكر مَنكَّرا، فإنّ إعادة اللفظ النكرة معرَّفا بـ (لام التعريف) يفيد أنّ المراد به ما ذُكر أوّلا. وهذا السبيل الجزاء والتبعة في الدنيا والآخرة.

{ **الَّذِينَ يَظْلِمُونَ** } يشمل العموم كلّ ظالم، ويدخل ابتداء فيه الظالمون المتحدَّث عنهم وهم مشركو أهل مكة.

{ **النَّاسَ** } يشمل العموم كلّ مظلوم، ويدخل ابتداء فيه الناس المتحدَّث عنهم وهم المسلمون يومئذ.

البغي في الأرض: الاعتداء على ما وضعه الله في الأرض من الحق الشامل لمنافع الأرض التي خُلقت

للناس، والشامل لمخالفة ما سنّه الله في فطرة البشر من الأحوال القويمة مثل العدل وحسن المعاشرة، فالبغي عليها بمثل الكبرياء والصلف وتحقير الناس المؤمنين.

{ **فِي الْأَرْضِ** } أرض مكة، أو جميع الكرة الأرضية وهو الأليق بعموم الآية، كما قال تعالى { وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا } [البقرة:205]، وقال تعالى { وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا } [الأعراف:85]، فكل فساد وظلم يقع في جزء من الأرض هو بغي في الأرض.

{ **بِغَيْرِ الْحَقِّ** } متعلق بـ { **يَبْغُونَ** } وهو لكشف حالة البغي لإفادة مذمّته، إذ لا يكون البغي إلّا بغير الحق، فإنّ مُسمَّى البغي هو الاعتداء على الحقّ، وأمّا الاعتداء على المبطل لأجل باطله فلا يُسمَّى بغيا ويُسمَّى اعتداء، قال تعالى { فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ } [البقرة:194]، ويقال: استعدى فلان الحاكم على خصمه، أي: طلب منه الحكم عليه.

{ **أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** } بيان لجملة { إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ } إن أريد بـ { السَّبِيلُ } في قوله تعالى { مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ } [41] سبيل العقاب في الآخرة، أو بدل اشتمال منها إن أريد بـ { السَّبِيلُ } هنالك ما يشمل الملام في الدنيا، أي: السبيل الذي عليهم هو أنّ لهم عذابا أليما جزاء ظلمهم وبغيهم.

وحكم هذه الآية يشمل ظلم المشركين للمسلمين ويشمل ظلم المسلمين بعضهم بعضا ليتناسب مضمونها مع جميع ما سبق.

{ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } [43].

عطف على جملة { وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ } [41]، وموقع هذه الجملة موقع الاعتراض بين جملة { إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ } [42] وجملة { وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ } [44].

وهذه الجملة تفيد بيان مزيّة المؤمنين الذين تحمَّلوا الأذى من المشركين وصبروا عليه ولم يؤاخذوا به من آمن ممّن آذوهم، مثل أخت عمر بن الخطاب، وصهره سعيد بن زيد، فكان في صبرهما خيرٌ دخل به عمر في الإسلام، ومزيّة المؤمنين الذين يصبرون على ظلم إخوانهم ويغفرون لهم فلا ينتصفون منهم ولا يستعدون عليهم، على نحو ما تقدّم عند قوله تعالى { فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ } [40].

{ **إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ** } خبر عن (من) الموصولة، والـ (لام) لام الابتداء التي تدخل على خبر (إنّ). وقد اشتمل هذا الخبر على أربعة مؤكّدات هي: (اللام، وإنّ، ولام الابتداء، والوصف بالمصدر في قوله تعالى { عَزْمِ الْأُمُورِ } تنويها بمضمونه) وزيد تنويها باسم الإشارة في قوله تعالى { ذَلِكَ } فصار فيه خمسة اهتمامات.

العزم: عقد النيّة على العمل والثبات على ذلك. والوصف بالعزم مُشعر بمدح الموصوف لأنّ شأن الفضائل أن يكون عملها عسيرا على النفوس لأنّها تعاكس الشهوات. ومن ثمّ وصف أفضل الرسل بأولي العزم.

{ **الْأُمُورِ** } جمع أمر. والمراد به هنا: الخِلال والصفات.
والآية ترغيب في العفو والصبر على الأذى، وذلك بين الأمّة الإسلامية ظاهر، وأمّا مع الكافرين فتعتريه أحوال تختلف بها أحكام الغفران، وملاكها أن تترجّح المصلحة في العفو أو في المؤاخذة.

{ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ } [44].

{ **وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ** } بعد أن حكى أصنافا من كفر المشركين وعنادهم وتكذيبهم، ثمّ ذكّرهم بالآيات الدالة على انفراد الله تعالى بالإلهية وما في مطاويها من النعم، وحذّرهم من الغرور بمتاع الدنيا الزائل، أعقبه بهذا القول وهو معطوف على قوله تعالى { إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ } [42].

المعنى: أنّ فيما سمعتم هداية لمن أراد الله له أن يهتدي، وأمّا من قدَّر الله عليه بالضلال فما له من وليّ غير الله يهديه أو ينقذه. فالمراد نفي الوليّ الذي يصلحه ويرشده، كقوله تعالى { مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا } [الكهف: 17] فالمراد هنا ابتداء معنى خاص من الولاية.
ونفي الوليّ كناية، لأنّه يدلّ بالالتزام على احتياج إلى نفعه مولاه، وذلك يستلزم أنّ مولاه في عناء وعذاب كما دلّ عليه قوله تعالى عقبه { وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ }. فهذه كناية تلويحية.
{ **مِنْ بَعْدِهِ** } الضمير راجع إلى اسم الجلالة، أي: من بعد الله، كقوله تعالى { فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } [الجاثية:23]. استعير لفظ (بعد) لمعنى (دون)، و(من) زائدة للتوكيد.
{ **وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ** } عطف على الجملة السابقة، وهذا تفصيل وبيان لما أُجمل في الآيتين المعطوف عليهما وهما قوله تعالى { وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ } [35]، وقوله تعالى { وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ }. والمعنى: أنّهم لا يجدون محيصا ولا وليًّا، فلا يجدون إلّا الندامة على ما فات فيقولوا { هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ }.
{ **وَتَرَى الظَّالِمِينَ** } للاعتبار بحالهم. فالمقصود: الإخبار بحالهم أوّلا، والتعجيب منه ثانيا، لذلك لم يقل: والظالمون لما رأوا العذاب يقولون.
والخطاب لغير معيّن، أي تناهت حالهم في الظهور فلا يختصّ به مخاطب، أو الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم تسلية له على ما لاقاه منهم من التكذيب.
{ **رَأَوُا الْعَذَابَ** } مجيء الفعل بصيغة الماضي للتنبيه على تحقيق وقوعه، فالماضي مستعار للاستقبال تشبيها للمستقبل بالماضي في التحقّق، والقرينة أنّ الرؤية المذكورة ليست بحاصلة في الحال.
{ **يَقُولُونَ** } حال من { الظَّالِمِينَ } أي: تراهم قائلين، فالرؤية مقيّدة بكونها في حال قولهم ذلك.
{ **هَلْ** } الاستفهام إنكاري في معنى النفي، فلذلك أدخلت (من) الزائدة على { سَبِيلٍ } لأنّه نكرة في سياق

النفي.

المَرَدّ: مصدر ميمي للردّ: **الرجوع**، يقال: ردَّه إذا أرجعه. ويجوز أن يكون بمعنى **الدفع**، أي: هل إلى ردّ العذاب عنّا، فهو في معنى قوله تعالى { إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ } [الطور:8].

{ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ } [45].

{ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ } أعيد فعل (ترى) للاهتمام بهذه الرؤية وتهويلها.

العرض: أصله إظهار الشيء وإراءته للغير، ومن إطلاقاته قولهم: عرض الأسرى على الأمير، وهو امرارهم ليرى رأيه في حالهم، وهو إطلاقه هنا على طريق الاستعارة، استعير لفظ { يُعْرَضُونَ } لمعنى: يُمَرُّ بهم مَرًّا عاقبته التمكُّن منهم والحكم فيهم. ويفسّره قوله تعالى { وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا } [الأحقاف:20].

وبُني الفعل للمجهول لأنّ المقصود حصول الفعل لا تعيين فاعله. والذين يعرِضون الكافرين على النار هم الملائكة كما دلت عليه آيات أخرى.

{ **خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ** } انتصب على الحال من ضمير الغيبة في { تَرَاهُمْ } لأنّها رؤية بصرية.

الخشوع: التطامن وأثر انكسار النفس من استسلام واستكانة فيكون للمخافة، وللمهابة، وللطاعة، وللعجز عن المقاومة. والخشوع مثل الخضوع إلّا أنّ الخضوع لا يسند إلّا إلى البدن فيقال: خضع فلان، ولا يقال: خضع بصره إلّا على وجه الاستعارة، كما في قوله تعالى { فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ } [الأحزاب:32]، وأمّا الخشوع فيسند إلى البدن كقوله تعالى { خَاشِعِينَ لِلَّهِ } [آل عمران:199]. ويسند إلى بعض أعضاء البدن كقوله تعالى { خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ } [القمر:7]، وقوله تعالى { وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا } [طه:108]

والمراد من الخشوع في هذه الآية ما يبدو عليهم من أثر المذلّة والمخافة.

{ **مِنَ الذُّلِّ** } متعلّق بـ { خَاشِعِينَ }، و{ مِنَ } للتعليل، أي: خاشعين خشوعا ناشئا عن الذلّ، أي: ليس خشوعهم لتعظيم الله والاعتراف له بالعبودية، لأنّ ذلك الاعتقاد لم يكن من شأنهم في الدنيا.

{ **يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ** } في موضع الحال من ضمير { خَاشِعِينَ } لأنّ النظر من طرف خفي حالة للخاشع الذليل، والمقصود من ذكرها تصوير حالتهم الفظيعة.

الطرف: أصله مصدر، وهو تحريك جفن العين، يقال: **طَرَفَ** من باب ضرب، أي: حرّك جفنه. ووصفه في هذه الآية بـ { خَفِيٍّ } يقتضي أنّه أريد به حركة العين، أي: ينظرون نظرا خفيّا، فهو كمسارقة النظر،

وذلك من هول ما يرونه من العذاب.

{ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } يترجّح أنّ (الواو) للحال لا للعطف، والجملة حال من ضمير الغيبة في { تَرَاهُمْ }. وهذا قول المؤمنين يوم القيامة إذ كانوا يومئذ مطمئنين من الأهوال شاكرين ما سبق من إيمانهم في الدنيا عارفين بربح تجارتهم، ومقابلين بالضدّ حالة الذين كانوا يسخرون بهم في الدنيا إذ كانوا سببا في خسارتهم يوم القيامة.

والظاهر أنّ المؤمنين يقولون هذا بمسمع من الظالمين فيزيد الظالمين تلهيبا لندامتهم ومهانتهم وخزيهم. فهذا الخبر مستعمل في إظهار المسرّة والبهجة بالسلامة ممّا لحق الظالمين.

{ الْخَاسِرِينَ } تعريف الجنس، أي: لا غيرهم. فالمعنى: لا خسران يشبه خسرانهم، وتقدّم نظيره في قوله تعالى { قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } [الزمر:15].

{ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ } تذييل للجمل التي قبلها. لأنّ حالة كونهم في عذاب مقيم أعم من حالة تلهّفهم على أن يُرَدُّوا إلى الدنيا، وذلّهم وسماعهم الذمّ.

{ الظَّالِمِينَ } إظهار في مقام الإضمار اقتضاه أنّ شأن التذييل أن يكون مستقلّ الدلالة على معناه لأنّه كالمثل.

وليست هذه الجملة من قول المؤمنين إذ لا قبل للمؤمنين بأن يحكموا هذا الحكم، على أنّ أسلوب افتتاحه يقتضي أنّه كلام من بيده الحكم يوم القيامة وهو ملك يوم الدين، فهو كلام من جانب الله.

المقيم: الذي لا يرتحل. ووصف به العذاب على وجه الاستعارة.

{ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ } [46].

{ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ } عطف على جملة { أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ } [45]، أي: هم في عذاب دائم لا يجدون منه نصيرا. وهو ردّ لمزاعمهم أنّ آلهتهم تنفعهم عند الله.

{ يَنْصُرُونَهُمْ } صفة لـ { أَوْلِيَاءَ } للدلالة على أنّ المراد هنا ولاية خاصة، وهي ولاية النصر، كما كان قوله تعالى سابقا { وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ } [44] مرادا به ولاية الإرشاد.

{ مِنْ دُونِ اللَّهِ } صفة ثانية لـ { أَوْلِيَاءَ } وهي صفة كاشفة. و(من) زائدة لتأكيد تعلق الظرف بالفعل.

{ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ } تذييل للجملة السابقة، وتقدّم آنفا الكلام على نظيره وهو { وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ } [44].

{ سَبِيلٍ } نكرة في سياق النفي فيعم كلّ سبيل مُخلِّص من الضلال ومن آثاره، والمقصود هنا ابتداء هو سبيل الفرار من العذاب المقيم كما يقتضيه السياق. وبذلك لم يكن ما هنا تأكيدا لما تقدّم من قوله تعالى { وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ }.

{ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ } [47].

بعد أن قُطع خطابهم عقب قوله تعالى { فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ } [36] بما تُخلّص به إلى الثناء على فرق المؤمنين، وما استتبع ذلك من التسجيل على المشركين بالضلالة والعذاب، ووُصف حالهم الفظيع، عاد الكلام إلى خطابهم بالدعوة الجامعة لما تقدّم طلبا لتدارك أمرهم قبل الفوات، فاستؤنف الكلام استئنافا فيه معنى النتيجة للمواعظ المتقدّمة، لأنّ ما تقدّم من الزواجر يهيّئ بعض النفوس لقبول دعوة الإسلام.

الاستجابة: إجابة الداعي، والسين والتاء للتوكيد. وأطلقت الاستجابة على امتثال ما يطالبهم به النبيّ صلى الله عليه وسلم تبليغا عن الله تعالى على طريقة المجاز، لأنّ استجابة النداء تستلزم الامتثال للمنادي.

المعنى: أطيعوا ربّكم وامتثلوا أمره من قبل أن يأتي يوم العذاب، وهو يوم القيامة، لأنّ الحديث عليه.

{ **لِرَبِّكُمْ** } اللام لتأكيد تعدية الفعل إلى المفعول، مثل: حمدت له وشكرت له. وتسمَّى لام التبليغ ولام التبيين. وأصله استجابهُ. وتقدّم في قوله تعالى { فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي } [البقرة:186].

المَرَدّ: مصدر بمعنى الردّ، وتقدّم آنفا في قوله { هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ } [44].

{ **لا مَرَدَّ لَهُ** } صفة { **يَوْمٌ** }. والمعنى: لا مرد لإثباته بل هو واقع.

{ **مِنَ اللَّهِ** } ابتدائية، وهو ابتداء مجازي، ومعناه: حكم الله به، فكأنّ اليوم جاء من لدنه.

{ **مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ** } مستأنفة.

الملجأ: اللجأ: المصير والانحياز إلى الشيء، فالملجأ: المكان الذي يصير إليه المرء للتوقّي فيه، ويطلق مجازا على الناصر، وهو المراد هنا، أي: ما لكم من شيء يقيكم من العذاب.

النكير: اسم مصدر أنكر، أي: ما لكم إنكار لما جوزيتم به، أي: لا يسعكم إلّا الاعتراف دون تنصّل.

{ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ } [48].

{ **فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ** } الفاء للتفريع على قوله تعالى { اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ } [47]، وهو جامع لما تقدّم كما علمت، وهو إعلام الرسول صلى الله عليه وسلم بمقامه وعمله إن أعرض معرضون من الذين يدعوهم، وبمعذرته فيما قام به وأنّه غير مقصّر، وهو تعريض بتسليته على ما لاقاه منهم. والمعنى: فإن أعرضوا بعد هذا كلّه فما أرسلناك حفيظا عليهم ومتكفلا بهم إذ ما عليك إلّا البلاغ.

الحفيظ: تقدّم في صدر السورة [6].

{ **إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ** } بيان للجملة السابقة باعتبار أنّها دالة على جواب الشرط المقدّر.

{ **إِنْ** } الثانية نافية، والجمع بينها وبين (إن) الشرطية في هذه الجملة جناس تام.

{ **الْبَلاغُ** } التبليغ، وهو اسم مصدر، وقد فُهم من الكلام أنّه قد أدّى ما عليه من البلاغ لأنّ قوله تعالى { فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا } دلّ على نفي التبعة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم من إعراضهم، فاستفيد أنّه قد بلّغ الدعوة ولولا ذلك ما أثبت لهم الإعراض.

{ **وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ** }

تتصل هذه الجملة بسابقتها لما تضمَّنته هذه من التعريض بتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم على ما لاقاه من قومه كما علمت، ويؤذن بهذا الاتصال أنّ هاتين الجملتين جعلتا آية واحدة.

<u>فالمعنى</u>: لا يحزنك إعراضهم عن دعوتك فقد أعرضوا عن نعمتي وعن إنذاري بزيادة الكفر.

ولكن نظم هذه الآية جاء صالحا لإفادة هذا المعنى ولإفادة معنى آخر مقارب له وهو أن يكون هذا حكاية خُلُق للناس كلّهم مرتكز في الجبلّة لكن مظاهره متفاوتة بتفاوت أفراده في التخلق بالآداب الدينية، ولهذا اختلفت محامل المفسّرين للآية: فمنهم من حملها على <u>خصوص الإنسان الكافر</u> بالله مثل الزمخشري والقرطبي والطيبي، ومنهم من حملها على <u>ما يعمّ أصناف الناس</u> مثل الطبري والبغوي والنسفي وابن كثير. ومنهم من حملها <u>على إرادة المعنيين</u>.

وعلى الوجهين فالمراد بـ { الْإِنْسَانَ } في الموضع الأول والموضع الثاني معنى واحد وهو تعريف الجنس المراد به الاستغراق، أي: إذا أذقنا الناس، وأنّ الناس كفورون، ويكون استغراقا عرفيا أريد به أكثر جنس الإنسان في ذلك الزمان والمكان، لأنّ أكثر نوع الإنسان يومئذ مشركون، وهذ هو المناسب لقوله { فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ } أي: شديد الكفر قويّه.

وإنّما عدل عن التعبير بالناس إلى التعبير بالإنسان للإيماء إلى أنّ هذا الخُلُق المخبَر به عنهم هو من أخلاق النوع لا يزيله إلّا التخلّق بأخلاق الإسلام فالذين لم يسلموا باقون عليه، وذلك أدخل في التسلية.

الإذاقة: مجاز في الإصابة.

{ **مِنَّا رَحْمَةً** } المراد بالرحمة أثرها، وهو النعمة، فالتقدير: وإنّا إذا رحمنا الإنسان فأصبناه بنعمة، بقرينة مقابلة الرحمة بالسيّئة، كما قوبلت بالضرّاء في قوله تعالى { وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ } [فصلت:50].

{ **فَرِحَ بِهَا** } المراد بالفرح ما يشمل الفرح المجاوز حدّ المسرّة إلى حد البطر والتجبّر، على نحو ما استعمل في آيات كثيرة، مثل قوله تعالى { إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ } [القصص:76]، لا الفرح الذي في مثل قوله تعالى { فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ } [آل عمران:170].

{ **وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ** } تقدّم بسطه آنفا عند قوله تعالى { وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا

كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ } [30].

{ **فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ** } هذا الحكم الذي تضمَّنته الجملة هو المقصود من جملة الشرط كلّها، ولذلك أعيد حرف التأكيد فيها بعد أن صُدِّرت به الجملة المشتملة على الشرط ليحيط التأكيد بكلتا الجملتين.

وقد أفاد ذلك أنّ من عوارض صفة الإنسانية عروض الكفر بالله لها، لأنّ في طبع الإنسان تطلب مسالك النفع وسد منافذ الضرّ ممّا ينجرّ إليه من أحوال لا تدخل بعض أسبابها في مقدوره، فإذا أملى عليه خياله وجود قوى متصرّفة في النواميس الخارجة عن مقدوره خالها ضالته المنشودة، فركن إليها وآمن بها وغاب عنه دليل الحق، إمّا لقصور تفكيره عن دركه وانعدام المرشد إليه، أو لغلبة هواه الذي يملي عليه عصيان المرشدين من الأنبياء والرسل والحكماء الصالحين إذ لا يتبعهم إلّا القليل من الناس ولا يهتدي بالعقل من تلقاء نفسه إلّا الأقل مثل الحكماء، فغلب على نوع الإنسان الكفر بالله على الإيمان به.

{ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ [49] أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ [50] }.

{ **لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ** } استئناف بياني لأنّ ما سبقه من عجيب خلق الإنسان الذي لم يهذِّبه الهدي الإلهي يثير في نفس السامع سؤالا:

عن فَطْر الإنسان على هاذين الخُلُقين اللذين يتلقى بهما نعمة ربه وبلاءه، وكيف لم يُفطر على الخُلق الأكمل ليتلقّى النعمة بالشكر، والضرّ بالصبر والضراعة، وسؤالا أيضا عن سبب إذاقة الإنسان النعمة مرّة والبؤس مرة فيبطر ويكفر، وكيف لم يُجعل حاله كفافا لا لذّات له ولا بلايَا كحال العجماوات؟

فكان جوابه: أنّ الله المتصرّف في السماوات والأرض يخلق فيهما ما يشاء من الذوات وأحوالها. وهو جواب إجمالي إقناعي يناسب حضرة الترفّع عن الدخول في المجادلة عن الشؤون الإلهية.

{ **يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ** } قول فيه من الإجمال ما يبعث المتأمّل المنصف على تطلّب الحكمة في ذلك، فإن تطلّبها انقادت له كما أومأ إلى ذلك تذييل هذه الجملة بقوله { إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ }، فكأنّه يقول: عليكم بالنظر في الحكمة في مراتب الكائنات وتصرّف مبدعها، فكما خلق الملائكة على أكمل الأخلاق في جميع الأحوال، وفَطَر الدواب على حدٍّ لا يقبل كمال الخلق، كذلك خلق الإنسان على أساس الخير والشر وجعله قابلا للزيادة منهما على اختلاف مراتب عقول أفراده وما يحيط بها من الاقتداء والتقليد، وخَلَقه كاملَ التمييز بين النعمة وضدّها ليرتفع درجات وينحط دركات ممّا يختاره لنفسه، ولا يلائم فَطْر الإنسان على فطرة الملائكة حالة عالمه المادي إذ لا تأهّل لهذا العالم لأن يكون سكانه كالملائكة لعدم الملاءمة بين عالم المادة وعالم الروح.

ولذلك لمّا تمّ خلق الفرد الأوّل من الإنسان وآن أوان تصرّفه مع قرينته بحسب ما بزغ فيهما من القوى،

لم يلبث أن نُقل عالم المادة كما أشار إليه قوله تعالى { قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا } [طه:123].
ولكن الله لم يَسُدَّ على النوع منافذ الكمال فخلقه خلقا وسطا بين الملكية والبهيمية إذ ركبه من المادة وأودع فيه الروح ولم يخلِّه عن الإرشاد بواسطة وسطاء وتعاقبهم في العصور وتناقل إرشادهم بين الأجيال، فإن اتبع إرشادهم التحق بأخلاق الملائكة حتى يبلغ المقامات التي أقامته في مقام الموازنة بين بعض أفراده وبين الملائكة في التفاضل.

{ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا }

بدل من جملة { يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ }، بدل اشتمال لأنّ خلقه ما يشاء يشتمل على هبته لمن يشاء ما يشاء.
من دقائق هذه الآية تقديم الإناث على الذكور في ابتداء تعداد النعم الموهوبة على عكس العادة في تقديم الذكور على الإناث حيثما ذكرا في القرآن، كقوله تعالى { إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى } [الحجرات: 13]، وقوله تعالى { فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى } [القيامة:39]، وفي ذلك تعريض بالمشركين في تطيّرهم بولادة البنات لهم.
المراد: يهب لمن يشاء إناثا فقط ويهب لمن يشاء الذكور فقط بقرينة قوله تعالى { أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا }.
{ **إِنَاثًا** } جيء به مُنكَّرا لأنّ التنكير هو الأصل في أسماء الأجناس.
{ **الذُّكُورَ** } التعريف بـ (اللام) لأنّهم الصنف المعهود للمخاطبين، أي: يهب ذلك الصنف الذي تعهدونه وتتحدّثون به وترغبون فيه.
{ **أَوْ** } هنا للتقسيم.
التزويج: قرن الشيء بشيء آخر فيصيران زوجا. ومن مجازه إطلاقه على إنكاح الرجل امرأة لأنّهما يصيران كالزوج. والمراد هنا: جعلهم زوجا في الهبة، أي: يجمع لمن يشاء، فيهب له ذكرانا مشفَّعين بإناث، فالمراد التزويج بصنف آخر لا مقابلة كلّ فرد من الصنف بفرد من الصنف الآخر.
العقيم: الذي لا يولد له من رجل أو امرأة.
{ **إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ** } في موضع العلّة للمبدل منه وهو قوله تعالى { يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ }، أي: أن خلقه للأشياء يجري على وفق علمه وحكمته.

{ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ } [51].

عطف على ما سبق، عطف القصّة على القصّة، وهو عودٌ إلى إبطال شُبه المشركين. وهذه الآية تبطل الشبهة الثانية وهي أنّ محمدا لو كان مرسلا من الله لكانت معه ملائكة تصدّق قوله، أو لأنزل عليه كتاب جاهز من السماء يشاهدون نزوله، قال تعالى { وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ

لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا } [الفرقان:7]، وقال تعالى { وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا - إلى أن قال - وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَأُهُ } [الإسراء:30-93].

وإذ قد كان أهم غرض هذه السورة إثبات كون القرآن وحيا من الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم كما أوحي من قبله للرسل كان العود إلى ذلك من قبيل رد العجز على الصدر.

{ **وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ** } جيء بصيغة حصر مفتتحة بصيغة الجحود المفيدة مبالغة النفي.

أي: أنّ سنّة الله في خطاب رسله لا تعدو ثلاثة أنحاء من الخطاب، منها ما جاء به القرآن، وما كان الله ليخاطب رسله على الأنحاء التي اقترحها المشركون على النبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ **أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ** } والمراد بالتكلّم بلوغ مراد الله إلى النبيّ سواء كان ذلك البلوغ بكلام يسمعه ولا يرى مصدره أو بكلام يبلِّغه إليه الملك عن الله تعالى، أو بعلم يُلقى في نفس النبيّ يوقن بأنّه مراد الله، بعلم ضروري يجعله الله في نفسه.

وإطلاق الكلام على هذه الأنواع الثلاثة: بعضه حقيقة مثل ما يسمعه النبيّ كما سمع موسى، وبعضه مجاز قريب من الحقيقة وهو ما يبلّغه إلى النبيّ فإنّه رسالة بكلام، وبعضه مجاز محض وهو ما يلقى في قلب النبيّ مع العلم، فإطلاق فعل { يُكَلِّمَهُ } على جميعها من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه على طريقة استعمال المشترك في معانيه.

{ **يُكَلِّمَهُ اللَّهُ** } إسناد فعل يكلمه إلى الله إسناد مجازي عقلي. وبهذا الاعتبار صار استثناء الكلام الموصوف بأنّه وحي استثناء متصلا.

الوحي: أصله الإشارة الخفية، ومنه { فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا } [مريم11]، ويطلق على ما يجده المرء في نفسه دفعة كحصول معنى الكلام في نفس السامع. ومن هنا أطلق الوحي على ما فطر الله عليه الحيوان من الإلهام المتقن الدقيق، كقوله تعالى { وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ } [النحل:68].

النوع الأول: { **إِلَّا وَحْيًا** }

الكلام الذي يسمعه النبيّ بكيفية غير معتادة، فالوحي بهذا المعنى نوع من أنواع إلقاء كلام الله إلى الأنبياء، وإطلاق الوحي على هذا النوع من مصطلح القرآن، وهو الغالب في إطلاقات الكتاب والسنّة، ومنه قول زيد بن ثابت: " فعلمت أنّه يوحى إليه ثم سُرِّي عنه فقرأ { غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ } [النساء:95] ".

والوحي بهذا المعنى غير الوحي الذي سيجيء في قوله تعالى { أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ } والمراد بالوحي هنا: إيقاع مراد الله في نفس النبيّ يحصل له به العلم بأنّه من عند الله، فهو حجة للنبيّ لمكان العلم الضروري، وحجّة للأمّة لمكان العصمة من وسوسة الشيطان.

وقد يحصل لغير الأنبياء ولكنّه غير مطّرد ولا منضبط، مع أنّه واقع، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدَّثون فإن يكن في أمّتي منهم أحدٌ فعمر بن الخطاب** ". قال ابن وهب محدَّثون: ملهمون

ومن هذا الوحي مرائي الأنبياء فإنّها وحي، وهي ليست بكلام يُلقى إليهم، ففي الحديث: " **إنّي أريت دار هجرتكم وهي في حرّة ذاتِ نخل فوقع في وَهْلي أنّها اليمامة أو هجر فإذا هي طابة** ".

وقد تشتمل الرؤيا على إلهام وكلام مثل حديث: " **رأيت بقرا تُذبح ورأيت والله خير**". وقد أوَّل النبيّ صلى الله عليه وسلم رؤياه البقر التي تذبح بما أصاب المسلمين يوم أحد، وأمّا " **والله خير** "، فهو ما أتى الله به بعد ذلك من الخير.

ومن الإلهام مرائي الصالحين فإنّها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوّة. وليس الإلهام بحجّة في الدين لأنّ غير المعصوم لا يوثق بصحّة خواطره إذ ليس معصوما من وسوسة الشيطان.

النوع الثاني: { **أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ** }

أن يكون الكلام من وراء حجاب يسمعه سامعه ولا يرى مصدره، بأن يخلق الله كلاما في شيء محجوب عن سامعه وهو ما وصف الله هنا بقوله تعالى { أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ }. وهذا مثل تكليم الله تعالى موسى في البقعة المباركة من الشجرة، ويحصل علم المخاطب بأنّ ذلك الكلام من عند الله أوّل مرة بآية يريه الله إيّاها يعلم أنها لا تكون إلّا بتسخير الله، كما عَلِم موسى ذلك بانقلاب عصاه حيّة ثم عودها إلى حالتها الأولى، وبخروج يده من جيبه بيضاء. ثم يصير بعد ذلك عادة يعرف بها كلام الله.

واختص بهذا النوع من الكلام في الرسل السابقين موسى عليه السلام، وهو المراد من قوله تعالى { قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي } [الأعراف:144]. وليس الوحي إلى موسى منحصرا في هذا النوع فإنّه كان يوحى إليه الوحي الغالب لجميع الأنبياء والرسل.

النوع الثالث: { **أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ** }

أن يرسل الله الملك إلى النبيّ فيبلّغ إليه كلاما يسمعه النبيّ ويعيه، وهذا هو غالب ما يوجَّه إلى الأنبياء من كلام الله، قال تعالى في ذكر زكريا { فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى } [آل عمران:39]، وفي إبراهيم { وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا } [الصافات:105/104].

وهذا الكلام يأتي بكيفية وصفها النبيّ صلى الله عليه وسلم للحارث ابن هشام وقد سأل رسول الله: كيف يأتيك الوحي؟ فقال: " **أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشدّه عليّ فيفصِمُ عني وقد وعيت عنه ما قال** [أي: عن جبريل] **وأحيانا يتمثّل لي الملك رجلا فيكلّمني فأعي ما يقول** ."

فالرسول في قوله تعالى { أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا } هو الملك جبريل أو غيره.

{ **فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ** } سُمّي هذا الكلام وحيا على مراعاة الإطلاق القرآني الغالب كما تقدّم نحو قوله تعالى { وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى } [النجم:3-5]. وهو غير المراد من قوله تعالى السابق { إِلَّا وَحْيًا } بقرينة التقسيم والمقابلة.

{ **إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ** } القول في موقعها كالقول في جملة { إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ } [50].

{ **عَلِيٌّ** } لأنّ العلوّ في صفة العليّ علو عظمة فائقة لا تناسبها النفوس البشرية فما كان لها أن تتلقّى من الله مراده مباشرة فاقتضى علوّه أن يكون توجيه خطابه إلى البشر بوسائط يفضي بعضها إلى بعض.

{ **حَكِيمٌ** } لأنّ معناه المتقِن لصنع العالم بدقائقه، وما خطابه البشر إلّا لحكمة إصلاحهم ونظام عالمهم، وما وقوعه على تلك الكيفيّات الثلاث إلّا من أثر الحكمة لتيسير تلقّي خطابه، ووعيه دون اختلال فيه ولا خروج عن طاقة المتلقين.

{ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْأِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [52] صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ [53] }.

{ **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْأِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا** } عطف على الآية السابقة، وهذا دليل عليهم أنّ القرآن أُنزل من عند الله، أعقب به إبطال شبهتهم. أي: كان وحينا إليك مثل كلامنا الذي كلّمنا به من قبلك. والمقصود من هذا هو قوله تعالى { مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الْأِيمَانُ }.

{ **وَكَذَلِكَ** } إشارة إلى سابق في الكلام وهو المذكور آنفا { وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا } [51]. ويجوز أن تكون الإشارة إلى ما يأتي من بعد وهو الإيحاء المأخوذ من { أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ }، والمعنى: إنّ ما أوحينا إليك هو أعز وأشرف وحي بحيث لا يماثله غيره.

وكلا المعنيين صالح هنا فينبغي أن يكون كلاهما محملا للآية، على نحو ما ابتكرناه في المقدّمة التاسعة من هذا التفسير. ويؤخذ من هذه الآية أنّ النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم قد أعطي أنواع الوحي الثلاثة، وهو أيضا مقتضى الغرض من مساق هذه الآيات.

الروح: ما به حياة الإنسان، وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الرُّوحِ } [الإسراء:85]، وأطلق الروح هنا مجازا على الشريعة التي بها اهتداء النفوس إلى ما يعود عليهم بالخير في حياتهم الأولى وحياتهم الثانية. شُبِّهت هداية عقولهم بعد الضلالة بحلول الروح في الجسد فيصير حيا بعد أن كان جثّة.

{ **مِنْ أَمْرِنَا** } ممّا استأثرنا بخلقه وحجبناه عن الناس، فالأمر المضاف إلى الله بمعنى الشأن العظيم، كقوله تعالى { بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ } [القدر:4].

اختتام هذه السورة بهذه الآية مع افتتاحها بقوله { كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ } [7] فيه محسِّن رد العجز على الصدر.

{ **مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الْأِيمَانُ** } في موضع الحال من ضمير { أَوْحَيْنَا }، أي: أوحينا إليك في حال انتفاء علمك بالكتاب والإيمان، أي: أفضنا عليك موهبة الوحي في حال خلوك عن علم الكتاب وعلم

الإيمان. وهذا تحدٍّ للمعاندين ليتأمّلوا في حال الرسول صلى الله عليه وسلم فيعلموا أنّ ما أوتيه من الشريعة والآداب الخُلقية هو من مواهب الله تعالى التي لم تسبق له مزاولتها، ويتضمّن امتنانا عليه وعلى أمّته.

وهذا لا يقتضي أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن مؤمنا بوجود الله ووحدانية إلهيته قبل نزول الوحي عليه، إذ الأنبياء والرسل معصومون من الشرك قبل النبوّة، فهم موحّدون لله ونابذون لعبادة الأصنام، ولكنّهم لا يعلمون تفاصيل الإيمان، وكان نبيّنا صلى الله عليه وسلم في عهد جاهلية قومه يعلم بطلان عبادة الأصنام.

وقد أخبر بذلك عن نفسه فيما رواه أبو نعيم في دلائل النبوّة عن شدّاد بن أوس وذكره عياض في الشفاء غير معزو: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال **" لمّا نشأت** [أي: عقلت] **بُغِّضت إليَّ الأوثان وبُغِّض إليَّ الشعر، ولم أهِمَّ بشيء ممّا كانت الجاهلية تفعله إلّا مرتين فعصمني الله منهما ثم لم أعد ".**

وعلى شدّة منازعة قريش إيّاه في أمر التوحيد فإنّهم لم يحاجّوه بأنّه كان يعبد الأصنام معهم. وفي هذه الآية حجّة للقائلين بأنّ رسول صلى الله عليه وسلم لم يكن متعبّدا قبل نبوّته بشرع.

{ **وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا** } عطف على جملة { مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ }.

{ **جَعَلْنَاهُ** } الضمير عائد إلى الكتاب في قوله تعالى { مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ }. والتقدير: وجعلنا الكتاب نورا. والتقدير: ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ثم هديناك بالكتاب ابتداء وعرَّفناك به الإيمان وهديت به الناس ثانيا، فاهتدى به من شئنا هدايته، أي: وبقي على الضلال من لم نشأ له الاهتداء، كقوله تعالى { يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا } [البقرة:26].

{ **وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ** } أي: نهدي به من نشاء بدعوتك وواسطتك. فلمّا أثبت الهدي إلى الله وجعل الكتاب سببا لتحصيل الهداية عطف وساطة الرسول في إيصال ذلك الهدي تنويها بشأن الرسول صلى الله عليه وسلم.

{ **وَإِنَّكَ لَتَهْدِي** } عطف على جملة { نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا }، وفي الكلام تعريض بالمشركين إذ لم يهتدوا به، وإذ كبر عليهم ما يدعوهم إليه مع أنّه يهديهم إلى صراط مستقيم.

الهداية هنا هداية عامة، وهي: إرشاد الناس إلى طريق الخير فهي تخالف الهداية في قوله تعالى { نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ }. وحذف مفعول { لَتَهْدِي } للعموم، أي: لتهدي جميع الناس، أي: ترشدهم إلى صراط مستقيم.

{ **وَإِنَّكَ** } تأكيد الخبر بـ (إن) للاهتمام به لأنّ الخبر مستعمل في تثبيت قلب النبيّ صلى الله عليه وسلم بالشهادة له بهذا المقام العظيم، فالخبر مستعمل في لازم معناه، على أنّه مستعمل أيضا للتعريض بالمنكرين لهديه، فيكون في التأكيد ملاحظة تحقيقه وإبطال إنكارهم.

{ **صِرَاطٍ** } التنكير للتعظيم، لأنّ التنكير أنسب بمقام التعريض بالذين لم يأبهوا بهدايته.

{ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } إجراء وصف اسم الجلالة باسم الموصول وصلته للإيماء إلى أنّ سبب استقامة الصراط الذي يهدي إليه النبيّ بأنّه صراط الذي يملك ما في السماوات وما في الأرض فلا يعزب عنه شيء ممّا يليق بعباده، فلمّا أرسل إليهم رسولا بكتاب لا يُرتاب في أنّ ما أرسل لهم فيه صلاحهم.

{ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ } تذييل وتنهية للسورة بختام ما احتوت عليه من المجادلة والاحتجاج بكلام قاطع جامع منذر بوعيد للمعرضين فاجع، ومبشّر بالوعد لكل خاشع.

{ **أَلَا** } افتتحت الجملة بحرف التنبيه لاسترعاء أسماع الناس، وتقديم المجرور لإفادة الاختصاص، أي: إلى الله لا إلى غيره.

المصير: الرجوع والانتهاء، واستعير هنا لظهور الحقائق كما هي يوم القيامة فيذهب تلبيس الملبِّسين، ويهن جبروت المتجبرين، ويقرّ بالحق من كان فيه من المعاندين، وهذا كقوله تعالى { وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ } [لقمان:22]، وقوله تعالى { وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ } [هود:123].

الأمور: الشؤون والأحوال والحقائق وكلّ موجود من الذوات والمعاني.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الزخرف

سُمِّيت في المصاحف العتيقة والحديثة (**سورة الزخرف**)، وكذلك وجدتها في جزء عتيق من مصحف كوفي الخط ممَّا كُتب في أواخر القرن الخامس، وبذلك ترجم لها الترمذي في كتاب التفسير من جامعه، وسُمِّيت كذلك في كتب التفسير. وسمّاها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه (**سورة حم الزخرف**).

ووجه التسمية أنّ كلمة { وَزُخْرُفًا } [35] وقعت فيها ولم تقع في غيرها من سور القرآن.

وهي مكية، وحكى ابن عطية الاتفاق على ذلك.

وهي معدودة السور الثانية والستين في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة فصّلت وقبل سورة الدخان. **وعُدّت آيها** عند العادِّين من معظم الأمصار **تسعا وثمانين**، وعدَّها أهل الشام ثمانيا وثمانين.

أغراض السورة

*/ التحدِّي بإعجاز القرآن لأنّه آية صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء به.

*/ التنويه به عدّة مرات وأنّه أوحى الله به لتذكيرهم وتكرير تذكيرهم وإن أعرضوا كما أعرض من قبلهم.

*/ التعجيب من حالهم إذ جمعوا بين الاعتراف بأنّ الله خالقهم والمُنعم عليهم وخالق المخلوقات كلّها، وبين اتخاذهم آلهة يعبدونها شركاء لله، وجعلهم بنات لله، مع اعتقادهم أنّ البنات أحط قدرا من الذكور، فجمعوا بذلك بين الإشراك والتنقيص.

*/ إبطال عبادة كل ما دون الله على تفاوت درجات المعبودين في الشرف فإنهم سواء في عدم الإلهية للألوهية ولبنوّة الله تعالى.

*/ عرّج على إبطال حججهم ومعاذيرهم، وسفّه تخييلاتهم وتُرَّهاتهم.

*/ ذكَّرهم بأحوال الأمم السابقين مع رسلهم، وأنذرهم بمثل عواقبهم، وحذّرهم من الاغترار بإمهال الله.

*/ خص بالذكر رسالة إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام.

*/ توعَّد المشركين وأنذرهم بعذاب الآخرة بعد البعث لاعتقادهم أنّهم في مأمن بعد الموت.

*/ تخلّل في خلال كلّ ذلك من الحجج والأمثال والمُثل والقوارع والترغيب والترهيب شيء عجيب، مع دحض شبه المعاندين بأفانين الإقناع بانحطاط ملّة كفرهم وعسف معوجّ سلوكهم.

*/ أدمج في خلال ذلك ما في دلائل الوحدانية من النعم على الناس والإنذار والتبشير.

{ **حم** } [1].

تقدّم القول في نظائره ومواقعها قبل ذكر القرآن وتنزيله.

{ **وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ** [2] **إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** [3] }.

أقسم بالكتاب المبين، وهو القرآن، على أنّ القرآن جعله الله عربيا واضح الدلالة فهو حقيق بأن يصدِّقوا به لو كانوا غير مكابرين، ولكنَّهم بمكابرتهم كانوا كمن لا يعقلون.

وفي جعل المقسَم به (القرآن بوصف كونه مبينا)، وجعل جواب القسَم (أنّ الله جعله مبينا)، تنويه خاص بالقرآن إذ جعل المقسَم به هو المقسَم عليه، وهذا ضرب عزيز بديع لأنّه يومئ إلى أنّ المُقسم على شأنه بلغ غاية الشرف فإذا أراد المُقسِم أن يقسم على ثبوت شرف له لم يجد ما هو أولى بالقسم به للتناسب بين القسم والمقسم عليه.

{ **الْكِتَابِ** } إطلاق اسم الكتاب على القرآن باعتبار أن الله أنزله ليُكتَب، وأنّ الأمّة مأمورون بكتابته، وإن كان نزوله على الرسول صلى الله عليه وسلم لفظا غير مكتوب. وفي هذا إشارة إلى أنّه سيكتب في المصاحف. والمراد بـ { الْكِتَابِ } على وجه التحديد ما نزل من القرآن قبل هذه السورة، وقد كتبه كتّاب الوحي.

{ **إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا** } ضمير { جَعَلْنَاهُ } عائد إلى { الْكِتَابِ }، أي: إنّا جعلنا الكتاب المبين قرآنا.

الجعل: الإيجاد والتكوين، وهو يتعدّى إلى مفعول واحد.

المعنى: أنّه مقروء دون حضور كتاب، فيقتضي أنّه محفوظ في الصدور ولولا ذلك لما كانت فائدة للإخبار بأنّه مقروء لأنّ كل كتاب صالح لأن يقرأ. والإخبار عن الكتاب بأنّه قرآن مبالغة في كون هذا الكتاب مقروءا، أي: مُيسَّرا لأن يقرأ، لقوله تعالى { وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ } [القمر:17]، وقوله تعالى { إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ } [القيامة:17]، وقوله تعالى { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [الحجر:9].

فحصل بهذا الوصف أنّ الكتاب المنزّل على محمد صلى الله عليه وسلم جامع لوصفين: كونه كتابا، وكونه مقروءا على أَلْسِنة الأمّة. وهذا ممّا اختص به كتاب الإسلام.

{ **عَرَبِيًّا** } نسبة إلى العرب، أي: هو ممّا ينطق العرب بمثل ألفاظه، وبأنواع تراكيبه.

والمقصود بوصف الكتاب بأنّه عربي غرضان:

أحدهما التنويه بالقرآن، ومدحه بأنّه منسوج على منوال أفصح لغة.

ثانيهما التورّك على المعاندين من العرب حين لم يتأثّروا بمعانيه بأنّهم كمن يسمع كلاما بلغة غير لغته. وهذا تأكيد لما تضمّنه الحرفان المقطّعان المفتتحة بهما السورة من معنى التحدّي بأن هذا كتاب بلغتكم وقد عجزتم عن الإتيان بمثله.

{ **لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** } حرف (لعلّ) مستعار لمعنى الإرادة، وتقدّم نظيره في قوله تعالى { لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } [البقرة:73]. و**العقل**: الفهم. والغرض: التعريض بأنّهم أهملوا التدبّر في هذا الكتاب، وأنّ كماله في البيان والإفصاح يستأهل العناية به لا الإعراض عنه. فهذا الخبر مستعمل في التعريض على طريقة الكناية.

{ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ } [4].

عطف على الجملة السابقة، فهو زيادة في الثناء على هذا الكتاب للتنويه بشأنه رفعة وإرشادا.

{ **وَإِنَّهُ** } تأكيد الكلام بـ (إنّ) لرد إنكار المخاطبين إذ كذَّبوا أن يكون القرآن موحى به من الله.

{ **أُمِّ الْكِتَابِ** } أصل الكتاب. والمراد هنا علم الله تعالى، كما في قوله تعالى { وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ } [الرعد:39]، أي: المحقَّق الموثَّق، وهذا كناية عن الحقّ الذي لا يقبل التغيير، لأنّهم كانوا إذا أرادوا أن يحقِّقوا عهدا على طول مدّة كتبوه في صحيفة.

{ **لَعَلِيٌّ** } أصله المرتفع، وهو هنا مستعار لشرف الصفة، وهي استعارة شائعة.

{ **حَكِيمٌ** } أصله الذي الحكمة من صفات رأيه، فهو هنا مجاز لما يحوي الحكمة بما فيه من صلاح أحوال النفوس والقوانين المقيمة لنظام الأمة.

ومعنى كون ذلك في علم الله: أنّ الله علمه كذلك وما علمه الله لا يقبل الشك. ومعناه: أن ما اشتمل عليه القرآن من المعاني هو من مراد الله وصدر عن علمه. ويجوز أيضا أن يفيد هذا شهادة بعلو القرآن وحكمته.

{ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ } [5].

الفاء لتفريع الاستفهام الإنكاري على جملة { إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } [3].

أي: أتحسبون أنّ إعراضكم عمّا نزل من هذا الكتاب يبعثنا على أن نقطع عنكم تجدّد التذكير بإنزال شيء آخر من القرآن. أي: لا يجوز أن نضرب عنكم الذكر صفحا من جرّاء إسرافكم.

الضرب: حقيقته قرع جسم بآخر، وله إطلاقات كثيرة، وهو هنا مستعار لمعنى القطع والصرف، أخذا من قولهم: ضرب الغرائب عن الحوض، أي: أطردها وصرفها لأنها ليست لأهل الماء، فاستعاروا الضرب للصرف والطرد.

الذكر: التذكير، والمراد به القرآن.

الصفح: الإعراض بصفح الوجه وهو جانبه، وهو أشدّ الإعراض عن الكلام لأنّه يجمع ترك استماعه وترك النظر إلى المتكلم. وانتصب { صَفْحًا } على النيابة عن الظرف، أي: في مكان صفح، ويجوز أن يكو مصدر صفح عن كذا، إذا أعرض، فينتصب على المفعول المطلق لبيان نوع الضرب بمعنى الصرف والإعراض.

{ **أَنْ كُنْتُمْ** } قرأه ابن كثير وابن عامر وعاصم وأبو عمرو ويعقوب بفتح الهمزة على جعل { **أَنْ** } مصدرية وتقدير لام التعليل محذوفا، أي: لأجل إسرافكم، أي: لا نترك تذكيركم بسبب كونكم مسرفين بل لا نزال نعيد التذكير رحمة بكم. وقرأ نافع وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف بكسر الهمزة فتكون {**إنْ**} شرطية، لقصد تنزيل المخاطبين المعلوم إسرافهم منزلة من يُشك في إسرافه، لأنّ توفّر الأدلة على صدق القرآن من شأنه أن يزيل إسرافهم، وفي هذا ثقة بحقّية القرآن، وضرب من التوبيخ على إمعانهم في الإعراض عنه.

{ **قَوْمًا مُسْرِفِينَ** } إقحام { قَوْمًا } للدلالة على أنّ هذا الإسراف صار طبعا لهم وبه قوام قوميّتهم.

الإسراف: الإفراط والإكثار، وأغلب إطلاقه على الإكثار من الفعل الضائر. ولذلك قيل لا سرف في الخير. والمقام دال على أنّهم أسرفوا في الإعراض عن القرآن.

{ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ [6] وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ [7] فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ [8] }.

لمّا ذكر إسرافهم في الإعراض عن الإصغاء لدعوة القرآن، أعقبه بكلام موجّه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم تسلية عما يلاقيه منهم بتذكيره بأنّ حاله في ذلك حال الرسل من قبله، ووعد رسوله صلى الله عليه وسلم بالنصر على قومه بتذكيره بسنّة الله في الأمم المكذِّبة رسلهم.

{ **وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ** } معطوفة على جملة { إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا } [3] وما بعدها إلى هنا، عطف القصة على القصة.

{ **كَمْ** } اسم دال على عدد كثير مبهم، وهو ملتزم تقديمه لأنّ أصله اسم استفهام فنقل من الاستفهام إلى الإخبار على سبيل الكناية. وشاع استعماله في ذلك حتّى صار الإخبار بالكثرة معنى من معاني (كم). والداعي إلى اجتلاب اسم العدد الكثير أنّ كثرة وقوع هذا الحكم أدخل في زجرهم عن مثله وأدخل في تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم وتحصيل صبره، لأنّ كثرة وقوعه تؤذن بأنّه سنة لا تتخلّف.

{ **فِي الْأَوَّلِينَ** } جمع الأوّل، وهو هنا مستعمل في معنى الماضين السابقين كقوله تعالى { وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ } [الصافات:71]، فإنّ الذين أُهلكوا قد انقرضوا.

{ **وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** } في موضع الحال من { الْأَوَّلِينَ }، وهذا الحال هو المقصود من الإخبار.

{ **فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا** } تفريع وتسبّب عن { وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ } وضمير { أَشَدَّ مِنْهُمْ } عائد إلى قوم مسرفين الذين تقدّم خطابهم، فعدل عن استرسال خطابهم إلى توجيهه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لأنّ الغرض الأهم من هذا الكلام هو تسلية الرسول صلى الله عليه وسلن ووعده بالنصر. ويستتبع ذلك التعريض بالذين كذّبوه، فإنّهم يبلغهم هذا الكلام.

وهذا تركيب بديع في الإيجاز، لأنّ قوله { فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا } يقتضي كلاما مطويا تقديره: فلا نعجز عن إهلاك المسرفين وهم أقلّ بطشا. وهذا في معنى قوله تعالى { وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ } [محمد:13].

البطش: الإضرار القوي. وانتصب { بَطْشًا } على التمييز لنسبة الأشدية.

{ **وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ** } حالهم العجيبة. ومعنى { مَضَى } انقرض، أي: ذهبوا عن بكرة أبيهم، فمُضيُّ المثل كناية عن استئصالهم لأنّ مُضيّ الأحوال يكون بمُضيّ أصحابها، فهو في معنى قوله تعالى { فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا } [الأنعام:45].

{ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ } [9].

لمّا كان قوله تعالى { وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ } [6] موجَّها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم للتسلية والوعد بالنصر، عُطف عليه خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم صريح في التعجيب من حال الذين كذّبوه، فإنّهم كذّبوه مع أنّهم يقرُّون لله تعالى بأنَّه خالق العوالم وما فيها. فلو سألهم الرسول صلى الله عليه وسلم في محاجّته إيّاهم عن خالق الخلق لما استطاعوا غير الإقرار بأنّه الله تعالى. وهذا انتقال إلى الاحتجاج على بطلان الإشراك بإقرارهم الضمني أنّ أصنامهم خالية عن صفة استحقاق أن تعبد.

{ **وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ** } جاء الكشف عن عقيدتهم في صورة سؤالهم عن خالقهم للإشارة إلى أنّهم غافلون عن ذلك في مجرى أحوالهم وأعمالهم ودعائهم حتّى إذا سألهم السائل عن خالقهم لم يتريّثوا أن يجيبوا بأنّه الله، ثمّ يرجعون إلى شركهم.

وتاء الخطاب في { سَأَلْتَهُمْ } للنبيّ صلى الله عليه وسلم وهو ظاهر سياق التسلية، أو يكون الخطاب لغير معيّن ليعم كّل مخاطب يُتصور منه أن يسألهم.

{ **لَيَقُولُنَّ** } تأكيد الكلام بـ (اللام الموطئة للقسم ولام الجواب) و(نون التوكيد) لتحقيق أنّهم يجيبون بذلك، تنزيلا لغير المتردّد في الخبر منزلة المتردّد، وهذا التنزيل كناية عن جدارة حالتهم بالتعجيب من اختلال تفكيرهم وتناقض عقائدهم.

{ **الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** } هو الله تعالى. وليس ذكر الصفتين العليَّتين من مقول جوابهم وإنّما حُكي قولهم بالمعنى، وإنّما هم يقولون: خلقهنّ الله، كما حُكي عنهم في قوله تعالى { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ } [لقمان:25]. وذلك هو المستقرَى من كلامهم نثرا وشعرا في الجاهلية.

وإنّما عدل عن الاسم العليّ إلى الصفتين زيادة في إفحاهم بأنّ الذي انصرفوا عن توحيده بالعبادة عزيز عليم، فهو الذي يجب أن يرجوه الناس للشدائد لعزّته، وأن يُخلصوا له باطنهم لأنّه لا يخفى عليه سرّهم، بخلاف شركائهم فإنّها أذلة لا تعلم.

{ **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** } [10].

استئناف حذف منها المبتدأ، والتقدير: هو الذي جعل لكم الأرض مهادا. اعتراض بين الجملة السابقة وجملة { وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا } [15]. والكلام موجّه من الله تعالى، تخلُّصٌ من الاستدلال على تفرّده بالإلهية بأنّه المنفرد بخلق السماوات والأرض إلى الاستدلال بأنّه المنفرد بإسداء النعم التي بها قوام أود حياة الناس.

{ **الَّذِي** } خبر لمبتدأ محذوف، واجتلاب الموصول للاشتهار بمضمون الصلة فساوى الاسم العَلَم في الدلالة.

{ **لَكُمُ** } أقحم في الموضعين، ولم يقل: الذي جعل الأرض مهادا وجعل فيها سبلا، كما في قوله تعالى { أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا } [النبأ:7/6]، لأن ذلك مقام الاستدلال على منكري البعث، فسيق لهم الاستدلال بإنشاء المخلوقات العظيمة التي لا تعدّ إعادة خلق الإنسان بالنسبة إليها شيئا عجيبا، أمّا هنا فالإعادة للدلالة عل الانفراد بالقدرة العظيمة، وعلى النعمة عليهم.

المهاد: اسم لشيء يُمهَّد، أيّ يوطَّأ ويسهَّل لما يحلّ فيه، وتقدّم في قوله تعالى { لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ } [الأعراف:41]. ووجه الامتنان أنّه جعل ظاهر الأرض منبسطا لنفع البشر الساكنين عليها.

{ **سُبُلًا** } جمع سبيل، وهو الطريق، ويطلق السبيل على وسيلة الشيء كقوله تعالى { يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ } [الشورى:44]. وتقدّم نظير هذه الآية في [طه:53].

الاهتداء: مطاوع هداه فاهتدى. والهداية حقيقتها: الدلالة على المكان المقصود، ومنه سُمِّي الدال على الطرائق هاديا، وتطلق على تعريف الحقائق المطلوبة، ومنه قوله تعالى { إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ } [المائدة: 44]. والمقصود هنا المعنى الثاني، أي: رجاء حصول علمكم بوحدانية الله وبما يجب له. وتقدّم المعنى في قوله تعالى { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } [الفاتحة:6].

{ **وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ** } [11].

انتقل من الاستدلال والامتنان بخلق الأرض إلى الاستدلال والامتنان بخلق وسائل العيش فيها، وهو ماء المطر الذي به تُنبت الأرض ما يصلح لاقتيات الناس.

{ **وَالَّذِي** } أعيد اسم الموصول للاهتمام بهذه الصلة اهتماما يجعلها مستقلّة.

{ **فَأَنْشَرْنَا** } هنا مجاز في الإحياء، كما في قوله تعالى { ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ } [عبس:22]. وأصل النشر بسط ما كان مطويّا، وتفرّعت من ذلك معاني الإعادة والانتشار. والضمير التفات من الغيبة إلى التكلّم.

{ **بَلْدَةً مَيْتًا** } وصف البلدة به مجاز شائع قال تعالى { وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا } [يس:33]. وإنّما وصفت البلدة وهي مؤنث بالميت وهو مذكر لكونه على زنة الوصف الذي أصله مصدر، فحسُن تجريده من علامة التأنيث على أنّ الموصوف مجازي التأنيث.

{ **كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ** } معترضة بين المتعاطفين وهو استطراد بالاستدلال على ما جاء به النبيّ صلى الله عليه وسلم من إثبات البعث، بمناسبة الاستدلال على تفرّد الله بالإلهية.
{ **كَذَلِكَ** } إشارة إلى الانتشار المأخوذ من { فَأَنْشَرْنَا }، أي: مثل ذلك الانتشار تخرجون من الأرض بعد فنائكم، ووجه الشبه هو إحداث الحي بعد موته.

{ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ [12] لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ [13] وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ [14] }.

هذا انتقال من الاستدلال والامتنان بخلق وسائل الحياة إلى الاستدلال بخلق وسائل الاكتساب لصلاح المعاش، وذكر منها وسائل الإنتاج وأتبعها بوسائل الاكتساب بالأسفار للتجارة.
{ **وَالَّذِي** } إعادة اسم الموصول لما تقدّم في نظيره آنفا.
الأزواج: جمع زوج، وهو كل ما يصير به الواحد ثانيا، فيطلق على كل منهما زوج. وغلب الزوج على الذكر وأنثاه من الحيوان، ومنه { ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ } [الأنعام:143]، وتُوسّع فيه فأطلق الزوج على الصنف كقوله تعالى { وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ } [الرعد:3]، وكلا الإطلاقين يصحّ أن يراد هنا.
{ **وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ** } ولمّا كان المتبادر من الأزواج بادئ النظر أزواج الأنعام وكان من أهمها عندهم الرواحل عطف عليها ما هو منها وسائل للتنقل برًّا وأدمج معها وسائل السفر بحرا.
{ **مَا تَرْكَبُونَ** } بالنسبة إلى الأنعام هو الإبل لأنّها وسيلة الأسفار، قال تعالى { وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ } [يس:42/41]، وقد قالوا: الإبل سفائن البر.
{ **جَعَلَ** } مراعاة لأنّ الفلك مصنوعة وليست مخلوقة.
والمقصود: أنّه خلق في الإنسان قوّة التفكير التي ينساق بها إلى استعمال الموجودات في نفعه، فاحتال كيف يصنع الفلك ويركب فيها، واحتال كيف يروّض الأنعام ويركبها.
وقُدِّم الفلك على الأنعام لأنّها لا يشملها لفظ الأزواج فذِكْرُها ذكرُ نعمة أخرى ولو ذكر الأنعام لكان ذكرها عقب الأزواج بمنزلة الإعادة. فلما ذكر الفلك بعنوان كونها مركوبا عطف عليها الأنعام فصار ذكر الأنعام مترقَّبا للنفس لمناسبة جديدة.
الركوب: حقيقته اعتلاء الدابة للسير، وأطلق على الحصول في الفلك لتشبيههم الفلك بالدابة بجامع السير فركوب الدابة يتعدّى بنفسه وركوب الفلك يتعدَّى بـ (في) للفرق بين الأصيل واللاحق، وتقدّم عند قوله تعالى { وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا } [هود:41]. فاستعمال الفعل هنا من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه.

{ **لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ** } توطئة وتمهيدا للإشارة إلى ذكر نعمة الله.

الاستواء: الاعتلاء.

الظهور: جمع ظهر، والظهر من علائق الأنعام لا من علائق الفلك، فهذا أيضا من التغليب.

{ **ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ** } أي: حينئذ، فإنّ ذكر النعمة في حال التلبّس بمنافعها أوقع في النفس وأدعى للشكر عليها. وأجدر بعدم الذهول عنها، أي: جعل لكم ذلك نعمة لتشعروا بها فتشكروه عليها، فالذكر هنا هو التذكّر بالفكر لا الذكر باللسان. وهذا تعريض بالمشركين إذ تقلّبوا في نعم الله وشكروا غيره.

{ **وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا** } معطوفة على السابقة. أي: لتشكروا الله في نفوسكم وتعلنوا بالشكر بألسنتكم، فلقّنهم صيغة شكر عناية بهم، كما لقّنهم صيغة الحمد في سورة الفاتحة وصيغة الدعاء في آخر سورة البقرة.

التسخير: التذليل والتطويع. وتسخير الله الدواب هو خلقه إيّاها قابلة للترويض فاهمة لمراد الراكب، وتسخير الفلك حاصل بمجموع خلق البحر صالحا لسبح السفن على مائه، وخلق الرياح تهب فتدفع السفن على الماء، وخلق حيلة الإنسان لصنع الفلك، ورصد مهاب الرياح، ولولا ذلك لكانت قوّة الإنسان دون أن تبلغ استخدام هذه الأشياء القوية.

{ **وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ** } تعقيب، أي: ما كنّا مطيقين لذلك، قادرين عليه لولا التسخير المذكور.

المقرن: المطيق، يقال: أقرن، إذا أطاق.

{ **وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ** } خُتم هذا الشكر والثناء بالاعتراف بأنّ المرجع إلى الله بالبعث للحساب والجزاء، وهذا إدماج لتلقينهم الإقرار بالبعث. و**الانقلاب**: الرجوع إلى المكان الذي يفارقه.

وفي هذا تعريض بتوبيخ المشركين على كفران نعمة الله بالإشراك وبنسبة العجز عن الإحياء بعد الموت. وفيه إشارة إلى أنّ حق المؤمن أن يكون في أحواله كلّها ملاحظا للحقائق العالية ناظرا لتقلّبات الحياة نظر الحكماء الذين يستدلّون ببسائط الأمور على عظيمها.

{ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ } [15].

هذا متصل بقوله تعالى { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ } [9]، أي: ولئن سألتهم عن خالق الأشياء ليعترفُنّ به وقد جعلوا له مع ذلك الاعتراف جزءا.

{ **وَجَعَلُوا** } فـ (الواو) للعطف على جملة { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ } ويجوز كونها للحال على معنى: وقد جعلوا له من عباده جزءا، ومعنى الحال تفيد تعجيبا منهم في تناقض آرائهم وأقوالهم وقلبهم الحقائق، وهي غباوة في الرأي. فالمشركون مقرُّون بأنّ الله خالق الأشياء كلّها ومع ذلك جعلوا له شركاء في الإلهية، وكيف يستقيم أن يكون المخلوق إلها، وجعلوا لله بنات، والبنوّة تقتضي المماثلة في الماهية.

{ **مِنْ عِبَادِهِ** } من مخلوقاته.

{ **جُزْءًا** } الجزء في الحقيقة بعض من كلّ، والقطعة منه. والولد جزء من الوالد لأنه منفصل منه، ولذلك يقال للولد: بضعة. ولما كانت عقيدة المشركين معروفة لهم ومعروفة للمسلمين كان المراد من الجزء **البنات**، لقول المشركين: إنّ الملائكة بنات الله من سروات الجن، أي: أمهاتهم سروات الجن، أي: شريفات الجن.

وحكى القرطبي أنّ المبرد قال: الجزء هاهنا البنات، يقال: أجزأت المرأة، إذا ولدت أنثى.

{ **إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ** } تذييل يدلّ على استنكار ما زعموه، بأنّه كفر صريح تفضحه الأقوال والأفعال.

{ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ [16] وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ [17] }.

{ **أَمْ** } للإضراب الانتقالي، لانتقال الكلام من إبطال معتقدهم بنوّة الملائكة لله تعالى بما لزمه من انتقاص حقيقة الإلهية، إلى إبطاله بما يقتضيه من انتقاص ينافي الكمال الذي تقتضيه الإلهية. والكلام بعد { أم } استفهام، وهو استفهام إنكاري كما اقتضاه قوله تعالى { وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ }.

ومحل الاستدلال أنّ الإناث مكروهة عندهم فكيف يجعلون لله أبناء إناثا.

{ **مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ** } وتنكير { بَنَاتٍ } لأنّه الأصل في أسماء الأجناس. وأمّا تعريف { البَنِينَ } بـ (اللام) فهو تعريف الجنس. والمقصود منه هنا الإشارة إلى المعروف عندهم المتنافس في وجوده لديهم وتقدّم عند قوله تعالى { يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ } [الشورى:49].

وتقديم ذكر البنات لأنّ ذكرهنّ أهم هنا إذ هو الغرض المسوق له الكلام بخلاف مقام قوله تعالى { أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثًا } [الإسراء:40]، ولما في التقديم من الردّ على المشركين في تحقيرهم البنات وتطيّرهم منهن، مثل ما تقدّم في سورة الشورى.

{ **وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ** } في موضع الحال. والخطاب موجَّه إلى الذين جعلوا له من عباده جزءا، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ليكون الإنكار والتوبيخ أوقع عليهم لمواجهتهم به.

الإصفاء: إعطاء الصفوة، وهي الخيار من شيء.

{ **وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ** } يجوز أن تكون في موضع الحال من ضمير النصب في { أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ }.

{ **أَحَدُهُمْ** } عدل عن ضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة على طريق الالتفات ليكونوا محكِيًّا حالهم إلى غيرهم تعجيبا من فساد مقالتهم وتشنيعا بها إذ نسبوا لله بنات، وكانوا ممّن يكره البنات ويحقّرهنّ.

{ **بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا** } موصولة، أي: بُشِّر بالجنس الذي ضربه، أي: جعله مثلا وشبها لله في

الإلهية، وإذ جعلوا جنس الأنثى جزءا لله، أي: منفصلا منه، فالمبشَّر به جنس الأنثى.

الضرب: الجعل والصنع، ومنه ضرب الدينار.

{ **ظَلَّ** } هنا: صار.

{ **وَجْهُهُ مُسْوَدًّا** } من شدة الغضب والغيظ، إذ يصعد الدم إلى الوجه فتصير حمرته إلى سواد.

الكظيم: الممسك عن الكلام كربا وحزنا.

{ أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ } [18].

عطف إنكار على إنكار، و(الواو) عاطفة الجملة على الجملة، وهي مؤخّرة عن همزة الاستفهام، لأنّ للاستفهام الصدر، وأصل الترتيب: وأمن ينشأ. وجملة الاستفهام معطوفة على الإنكار المقدّر بعد { أَمْ } في قوله { أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ } [16]، ولذلك يكون { مَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ } في محل نصب بفعل محذوف دلّ عليه فعل { اتَّخَذَ }، والتقدير: أاتخذ من ينشأ في الحلية.

ولك أن تجعل { مَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ } **بدلا** من قوله { بَنَاتٍ }، بدلا مطابقا.

{ **الْحِلْيَةِ** } اسم لما يُتَحَلَّى به، أي: يُتزيَّن به، قال تعالى { وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا } [فاطر: 12].

{ **أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ** } من تُجعل له الحلية من أوّل أوقات نشأته ولا تفارقه، فإنّ البنت تُتخذ لها الحلية من أول عمرها وتُستصحب في سائر أطوارها. وهو هنا كناية عن الضعف عن مزاولة الصعاب بحسب الملازمة العرفية فيه.

{ **وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ** } ظاهر الخصام هنا المجادلة والمنازعة بالكلام والمحاجّة، فيكون المعنى: أنّ المرأة لا تبلغ المقدرة على إبانة حجّتها. وتذكير الضمير مراعاة للفظ { مَنْ } الموصولة.

ويجوز عندي: أن يُحمل الخصام على التقاتل والدفاع باليد، فإنّ الخصم يطلق على المحارب، كقوله تعالى {هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ } [الحج:19] فُسِّر بأنّهم نفر من المسلمين مع نفر من المشركين تقاتلوا يوم بدر.

{ **غَيْرُ مُبِينٍ** } غير محقّق النصر.

والمقصود من هذا فضح معتقدهم الباطل وأنّهم لا يحسنون إعمال الفكر في معتقداتهم.

{ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ } [19].

عطف على { وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا } [15]، أعيد ذلك مع تقدّم ما يُغني عنه من قوله تعالى { أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ } [16] ليُبنى عليه الإنكار عليهم بقوله تعالى { أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ } استقراء لإبطال مقالهم، إذ أُبطل ابتداء بمخالفته لدليل العقل وبمخالفته لما يجب لله من الكمال، فَكَمُل هنا إبطاله بأنّه غير

مستند لدليل الحس.

{ **الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ** } صفة الملائكة. قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب { **عِنْدَ** } والعندية عندية تشريف، فكأنّهم في حضرة الله، وهذا كقوله تعالى { وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ } [الانبياء: 19]، وقوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ } [الأعراف:206].

وقرأ الباقون { **عِبَادُ الرَّحْمَنِ** }، على معنى: الذين هم عباد مكرّمون، فالإضافة إلى اسم الرحمان تفيد تشريفهم، قال تعالى { بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ } [الانبياء:26]، والعبودية عبودية خاصة وهي عبودية القرب، كقوله تعالى { فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا } [القمر:9].

{ **أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ** } معترضة بين { وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ } وجملة { وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ } [20]. قرأ نافع وأبو جعفر بهمزتين أولاهما مفتوحة والأخرى مضمومة وسكون شين { أَأُشْهِدُوا } مبنيا للنائب، وعلى هذه القراءة فالهمزة للاستفهام، وهو للإنكار والتوبيخ. وجيء بصيغة النائب عن الفاعل دون صيغة الفاعل لأنّ الفاعل معلوم أنّه الله تعالى. والمعنى: أأشهدهم الله خلق الملائكة، كقوله تعالى { مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [الكهف:51].

وقرأه الباقون بهمزة مفتوحة فشين مفتوحة بصيغة الفعل، فالهمزة لاستفهام الإنكار دخلت على فعل شهد، أي: ما حضروا خلق الملائكة، على نحو قوله { أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ } [الصافات:150].

{ **سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ** } بدل اشتمال من جملة { أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ } لأنّ ذلك الإنكار يشتمل على الوعيد. وهذا خبر مستعمل في التوعُّد. وكتابة الشهادة كناية عن تحقّق العذاب على كذبهم، كما تقدّم آنفا في قوله تعالى { وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ } [4]. ومنه قوله تعالى { سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا } [آل عمران:181].

{ **شَهَادَتُهُمْ** } ادعاؤهم أنّ الملائكة إناثا، وأطلق عليها شهادة تهكّما بهم.

{ **وَيُسْأَلُونَ** } سؤال تهديد وإنذار بالعقاب وليس ممّا يُتطلب عنه جواب، كقوله تعالى { ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ } [التكاثر:8].

{ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ } [20].

عطف على جملة { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ } [9]، فإنّها استدلال على وحدانية الله تعالى وعلى أنّ معبوداتهم غير أهل لأن تعبد. فحُكي هنا ما استظهروه من معاذيرهم عند نهوض الحجّة عليهم يرومون بها إفحام النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين، فيقولون: لو شاء الله ما عبدنا الأصنام، أي: لو أنّ الله لا يحبّ أن نعبدها لكان الله صرفنا عن عبادتها، وتوهَّموا أنّ هذا قاطع لجدال النبيّ صلى الله عليه وسلم لهم.

{ **مَا عَبَدْنَاهُمْ** } ضمير الغيبة عائد إلى معلوم من المقام ومن ذكر فعل العبادة لأنّهم كانوا يعبدون الأصنام وهم الغالب، وأقوام منهم يعبدون الجنّ، قال تعالى { بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ } [سبأ:41]، وأقوام يعبدون الملائكة، مثل بني مُلَيح (بضم الميم وفتح اللام وبحاء مهملة) وهم حي من خُزاعة.

فضمير جمع المذكّر تغليب وليس عائدا إلى الملائكة لأنّهم كانوا يزعمون الملائكة إناثا فلو أرادوا الملائكة لقالوا ما عبدناها أو ما عبدناهنّ.

وهذه المقالة مثارها تخليط العامة والدهماء من عهد الجاهلية بين المشيئة والإرادة، وبين الرضى والمحبة.

فبنوا على ذلك تخليطا بين مشيئة الله بمعنى تعلّق إرادته بوقوع شيء، وبين مشيئته التي قدّرها في نظام العالم من إناطة المسببات بأسبابها. فمشيئة الله بالمعنى الأوّل يدل عليها ما أقامه من نظام أحوال العالم وأهله، ومشيئته بالمعنى الثاني تدلّ عليها شرائعه المبعوثة بها رسله. وقد بيَّنَّا ذلك عند قوله تعالى { سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا } [الأنعام:148].

{ **مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ** } جواب عن قولهم. أي: ليس لهم مستند ولا حجّة على قياسهم لأنّ مقدّم القياس الاستثنائي وهو { لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ } مبني على التباس المشيئة التكوينية بالمشيئة التكليفية، فكان قياسهم خلِيًّا عن العلم وهو اليقين، فلذلك قال الله { مَا لَهُمْ بِذَلِكَ }، أي: بقولهم ذلك من علم، بل هو من جهالة السفسطة واللبس. والإشارة { بِذَلِكَ } إلى الكلام المحكي بقوله تعالى { وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ } مَا عَبَدْنَاهُمْ.

{ **إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ** } بيان لجملة {مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ }.

الخرص: التوهّم والظنّ الذي لا حجّة فيه، قال تعالى { قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ } [الذريات:10].

{ **أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ** } [21].

إضراب انتقالي، عطف على جملة { مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ }، فبعد أن نفى أن يكون قولهم { لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ } [20] مستندا إلى حجّة العقل، انتقل إلى نفي أن يكون مستندا إلى حجّة النقل.

{ أَمْ } اجتُلبت للإضراب دون (بل) لما تؤذن به من استفهام بعدها، وهو إنكاري هنا.

{ **مِنْ قَبْلِهِ** } الضمير عائد إلى القرآن المذكور في أوّل السورة، وفي قوله { وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ } [4].

{ **مُسْتَمْسِكُونَ** } مبالغة في (ممسكون)، يقال: أمسك بالشيء، إذا شدّ عليه يده، وهو مستعمل مجازا في معنى الثبات على الشيء كقوله تعالى { فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ } [43].

وفي الآية ثناء ثالث على القرآن ضمني لاقتضائه أنّ القرآن لا يأتي إلّا بالحق الذي يُستمسك به. وهو تمهيد للتخلّص إلى المعنى الذي تتضمّنه الآية اللاحقة.

{ **بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُهْتَدُونَ** } [22].

هذا إضراب إبطال عن الكلام الوارد في الآية السابقة، فهو إبطال للمنفي لا للنفي، أي: ليس لهم علم فيما قالوه ولا نقل. فكان هذا الكلام مسوقا مساق الذمّ لهم إذ لم يقارنوا بين ما جاءهم به الرسول وبين ما تلقّوه من آبائهم، فإنّ شأن العاقل أن يميّز ما يُلقى إليه من الاختلاف ويعرضه على معيار الحق.

{ **أُمَّةٍ** } هنا بمعنى الملّة والدين، كما في قوله تعالى { إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً } [الأنبياء:92].

{ **عَلَى آثَارِهِم مُهْتَدُونَ** } أي: سائرون، أي: لا حجّة لهم في عبادتهم الأصنام إلّا تقليد آبائهم.

{ **وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ** } [23].

معترضة لتسلية النبيّ صلى الله عليه وسلم على تمسُّك المشركين بدين آبائهم. أي: ومثل قولهم ذلك قال المترفون من أهل القُرى المرسل إليهم الرسل من قبلك. والمقصود أنّ هذه شنشنة أهل الضلال من السابقين واللاحقين.

{ **مُتْرَفُوهَا** } جمع المُترف وهو الذي أُعطي الترف، أي: النَّعمة. وتقدّم في قوله تعالى { وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ } [الأنبياء:13].

<u>المعنى</u>: أنّهم مثل قريش في الازدهاء بالنَّعمة التي هم فيها، أي: في بطر نعمة الله عليهم. فالتشبيه يقتضي أنّهم مثل الأمم السالفة في سبب الازدهاء، قال تعالى { وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا } [المزمل:11].

جاء في حكاية قول المشركين الحاضرين وصفهم أنفسهم بأنّهم مهتدون بآثار آبائهم { عَلَى آثَارِهِم مُهْتَدُونَ }، وجاء في حكاية أقوال السابقين وصفهم أنفسهم بأنّهم بآبائهم مقتدون { عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ }، لأنّ أقوال السابقين كثيرة مختلفة يجمع مختلفها أنّها اقتداء بآبائهم، فحكاية أقوالهم من قبيل حكاية القول بالمعنى، وحكاية القول بالمعنى طريقة في حكاية الأقوال كثر ورودها في القرآن وكلام العرب.

{ **قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ** } [24].

قرأ الجمهور { **قُلْ** } بصيغة فعل الأمر المفرد فيكون أمر للرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقوله جوابا عن قول المشركين { إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ } [22].

وقرأ ابن عامر وحفص { **قَالَ** } بصيغة الفعل الماضي المسند إلى المفرد الغائب فيكون الضمير عائدا إلى نذير الذين قالوا { إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ } [23].

فحصل من القراءتين أنّ جميع الرسل أجابوا أقوامهم بهذا الجواب، وعلى كلتا القراءتين جاء فعل (قل/ قال) مفصولا غير معطوف لأنّه واقع في مجال المحاورة.

{ **أَوَلَوْ** } الواو عاطفة الكلام المأمور به على كلامهم، وهذا العطف ممّا يُسمَّى عطف التلقين، ومنه قوله تعالى عن إبراهيم { قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي } [البقرة:124]. والهمزة للاستفهام التقريري المشوب بالإنكار، وقُدِّمت على الواو لأجل التصدير. و(لو) وصلية تقتضي المبالغة بنهاية مدلول شرطها، كما في قوله تعالى { وَلَوِ افْتَدَى بِهِ } [آل عمران:91]. أي: لو جئتكم بأهدى من دين آبائكم تبقون على دينهم وتتركون ما هو أهدى؟ !

{ **بِأَهْدَى** } صوغ اسم التفضيل من الهدي إرخاء للعنان لهم ليتدبّروا، نُزّل ما كان عليهم آباؤهم منزلة ما فيه شيء من الهدى، استنزالا لطائر المخاطبين ليتصدّوا للنظر، كقوله تعالى { وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ } [سبأ:24].

{ **قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ** } بدل من جملة { إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ } [23]، لأنّ ذلك يشتمل على معنى: لا نتبعكم ونترك ما وجدنا عليه آباءنا.

{ **قَالُوا** } الضمير راجع إلى { مُتْرَفُوهَا } [23] لأنّ موقع جملة { فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ } [25] يُعيّن أنّ هؤلاء القائلين وقع الانتقام منهم، فلا يكون منهم المشركون الذين وقع تهديدهم بأولئك.

{ **بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ** } <u>يجوز</u> أن يكون حكاية لقولهم، فإطلاقهم اسم الإرسال على دعوة رسلهم تهكّم، مثل قوله تعالى { وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ } [الفرقان:7]، <u>ويجوز</u> أن يكون حكاية بالمعنى وإنّما قالوا: إنَّا بما زعمتم أنّكم مرسلون به.

{ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ } [25].

تفريع على جملة { قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ } [24]، أي: انتقمنا منهم عقب تصريحهم بتكذيب الرسل. وهذا تهديد بالانتقام من الذين شابهوهم في مقالهم، وهم كفّار قريش.

الانتقام: افتعال من النقم وهو المكافأة بالسوء، وصيغة الافتعال لمجرّد المبالغة، يقال: نَقَمَ كعلم وضرب، إذا كافأ على السوء بسوء. <u>والمراد بالانتقام استئصالهم وانقراضهم</u>. وتقدّم في قوله تعالى { فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ } [الأعراف:136].

{ **فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** } النظر هنا نظر التفكّر والتأمّل فيما قصّ الله على رسوله من أخبارهم كقوله تعالى { قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ } [النمل:27]، وليس نظر البصر إذ لم ير النبيّ صلى الله عليه وسلم حالة الانتقام فيهم. <u>ويجوز أن يكون الخطاب لغير معين</u>، أي: لكل من يتأتّى منه التأمل.

{ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ**[26] **إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ** [27] }.

لمَّا ذكَّرهم الله بالأمم الماضية وشبَّه حالهم بحالهم ساق لهم أمثالا في ذلك من مواقف الرسل مع أممهم. وابتدأ بذكر إبراهيم وقومه إبطالا لقول المشركين { إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ} [22] بأنّ أولى آبائهم بأن يقتدوا به هو أبوهم إبراهيم الذي يفتخرون بنسبته.

{ **إِذْ** } ظرف متعلّق بمحذوف، تقديره: واذكر إذ قال إبراهيم، ونظائر هذا كثيرة في القرآن.

{ **لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ** } خُصَّ أبو إبراهيم بالذكر قبل ذكر قومه، وما هو إلّا واحد منهم، اهتماما بذكره، لأنّ براءة إبراهيم ممَّا يعبد أبوه أدلّ على تجنّب عبادة الأصنام بحيث لا يتسامح فيها ولو كان الذي يعبدها أقرب الناس إليه، ولتكون حكاية كلام إبراهيم قدوة لإبطال قول المشركين { وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ } [22]. قال تعالى { قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ } [الممتحنة:4]، أي: فما كان لكم أن تقتدوا بآبائكم المشركين وهلّا اقتديتم بأفضل آبائكم وهو إبراهيم.

{ **بَرَاءٌ** } مصدر للوصف والإخبار، بوزن الفَعال مثل: السَّماع. لغة أهل العالية [وهي ما فوق نجد إلى أرض تهامة ممّا وراء مكة] وأمّا أهل نجد فيقولون: بريء.

{ **مِمَّا تَعْبُدُونَ** } أي: من الذين تعبدونهم، فإنّ قوم إبراهيم كانوا مشركين مثل مشركي العرب. وقد بسطنا ذلك فيما تقدّم عند قوله تعالى { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً } [الأنعام:74].

{ **إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي** } استثناء من { مِمَّا تَعْبُدُونَ }.

{ **فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ** } تفريع، لأنّ قوله { إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ } يتضمّن معنى: إنّني اهتديت إلى بطلان عبادتكم الأصنام بهدي من الله. وسين الاستقبال مؤذنة بأنّه أخبرهم بأنّ هداية الله إيّاه قد تمكّنت وتستمر في المستقبل.

{ **وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** } [28].

عطف على { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ } [27]، أي: أعلن تلك المقالة في قومه معاصريه وجعلها كلمة باقية في عقبه ينقلونها إلى أممهم. إذ أوصى بها بنيه وأوصاهم أن يوصوا بنيهم بها، قال تعالى { إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } [البقرة:132]، فبتلك الوصيّة أبقى إبراهيم توحيد الله بالإلهية والعبادة في عقبه يبثّونه في الناس. ولذلك قال يوسف عليه السلام لصاحبيه في السجن { إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ - إلى قوله - وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } [يوسف:37-40].

{ **وَجَعَلَهَا** } ضمير الرفع عائد إلى إبراهيم وهو الظاهر من السياق والمناسب لقوله { لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } ولأنّه لم يتقدّم اسم الجلالة ليعود عليه الضمير. وحكى في الكشّاف أنّه قيل: الضمير عائد إلى الله وجزم به القرطبي وهو ظاهر كلام أبي بكر بن العربي.

{ **وَجَعَلَهَا كَلِمَةً** } الضمير المنصوب عائد إلى الكلام المتقدّم. وأنّث الضمير لتأويل الكلام بالكلمة نظرا لوقوع مفعوله الثاني لفظ { كَلِمَةً }، لأنّ الكلام يطلق عليه كلمة، كقوله تعالى { كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ } [الكهف:5]، وهي قولهم { اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا }.

واعلم أنّه إنّما يقال للكلام كلمة إذا كان كلاما سائرا على الألسنة متمثّلا به، كما في قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل "**، أو كان الكلام مجعولا شعارا كقولهم: لا إله إلا الله كلمة الإسلام، قال تعالى { وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ } [التوبة:74].

المعنى: جعل إبراهيم قوله { إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي } شعارا لعقبه، أي: جعلها هي وما يرادفها قولا باقيا في عقبه على مر الزمان، فلا يخلو عقب إبراهيم من موحّدين لله نابذين للأصنام.

العقِب: الذرية الذين لا ينفصلون من أصلهم بأنثى.

{ **لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** } أي: جعل إبراهيم كلمة التوحيد باقية في عقبه بالوصاية عليها راجيا أنّهم يرجعون، أي: يتذكَّرون بها التوحيد إذا ران رين على قلوبهم. وهذا شأن الكلام الذي يُجعل شعارا لشيء فإنّه يكون أصلا موضوعا قد تبيَّن صدقه وإصابته، فاستحضاره يغني عن إعادة بسط الحجّة له.

{ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ } [29].

إضراب عن قوله تعالى { لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } [72]، وهو إضراب إبطال، أي: لم يحصل ما رجاه إبراهيم من رجوع بعض عقبه إلى الكلمة التي أوصاهم برعيها. وفي القول كلام محذوف دلّ عليه الإبطال وما بعد الإبطال، تقديره: بل لم يرجع هؤلاء وآباؤهم الأوّلون إلى التوحيد ولم يتبرَّأوا من عبادة الأصنام ولا أخذوا بوصاية إبراهيم.

{ **مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ** } مستأنفة استئنافا بيانيًّا لسائل يسأل عمّا عاملهم الله به جزاء على تفريطهم في وصاية إبراهيم وهلا استأصلهم؟ فأجيب بأنّ الله متَّعهم بالبقاء إلى أن يجيئهم رسول بالحقّ وذلك لحكمة علمها الله يرتبط بها وجود العرب زمنا طويلا بدون رسول.

{ **هَؤُلَاءِ** } إشارة إلى غير مذكور، وقد استقريت أنّ مصطلح القرآن أن يريد بمثله مشركي العرب.

{ **وَآبَاءَهُمْ** } آباؤهم الذين سنُّوا عبادة الأصنام مثل (عمرو بن لُحَي) والذين عبدوها من بعده. وتمتيع آبائهم تمهيد لتمتيع هؤلاء، ولذلك كانت غاية التمتيع مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم.

{ **حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ** } ثناء راجع إلى القرآن متصل بالثناء عليه الذي افتتحت به السورة. فإنّه لمّا جاء القرآن على لسان محمد صلى الله عليه وسلم انتهى التمتيع وأُخِذوا بالعذاب تدريجا إلى أن

كان عذاب يوم بدر ويوم حنين، وهدى الله للإسلام من بقي يوم فتح مكة وأيام الوفود.

وهذا في معنى قوله تعالى { وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ } [هود:48].

{ **الْحَقُّ** } المراد بـه القرآن كما يدلّ عليه قوله تعالى { وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ } [30] وقوله تعالى { وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } [31].

الرسول المبين: محمد صلى الله عليه وسلم. ووصفه بـ { مُبِينٌ } لأنّه أوضح الهدى ونصب الأدلّة وجاء بأفصح كلام. فالإبانة راجعة إلى معاني دينه وألفاظ كتابه.

والحكمة في ذلك أنّ الله أراد أن يشرّف هذا الفريق من عقب إبراهيم بالانتشال من أوحال الشرك والضلال إلى مناهج الإيمان والإسلام واتباع أفضل الرسل وأفضل الشرائع، فيجبر لأمّة من عقب إبراهيم ما فرَّطوا فيه من الاقتداء بأبيهم حتّى يكمُل لدعوته شرف الاستجابة.

{ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ } [30].

تعجيب من حال تغافلهم، أي: قد كان لهم بعض العذر قبل مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن، لأنّ للغفلات المتقادمة غشاوة تُصيِّر الغفلة جهالة، فكان الشأن أن يستيقظوا لمّا جاءهم الحقُّ ورسول مبين فيتذكَّروا كلمة أبيهم إبراهيم، ولكنّهم لمّا جاءهم الحقّ قالوا: هذا سحر، أي: قالوا للرسول: هذا ساحر.

وفي تعقيب الغاية بهذا الكلام إيذان بأنّ تمتيعهم أصبح على وشك الانتهاء لأنّهم كانوا قبل مجيء الحقّ مشركين عن غفلة وتساهل، فلمّا جاءهم الحقُّ صاروا مشركين عن عناد ومكابرة.

{ **وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ** } مقول ثان، أي: وقالوا إنا به، أي بالقرآن، كافرون، أي، فرضوا أنه سحر ثم ارتقوا فقالوا إنا كافرون بأنّه من عند الله سواء كان سحرا، أم شعرا، أم أساطير الأوّلين. ولهذا المعنى أكّدوا الخبر بحرف التأكيد ليؤيّسوا الرسول صلى الله عليه وسلم من إيمانهم به.

{ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } [31].

عطف على قولهم السابق، فهو في حيّز جواب { لَمَّا } التوقيتية واقع موقع التعجيب أيضا، أي: بعد أن أخذوا يتعلّلون بالعلل لإنكار الحق، إذ قالوا للقرآن: { هَذَا سِحْرٌ }، وإذ كان قولهم ذلك يقتضي أنّ الذي جاء بالقرآن ساحر، انتُقل إلى ذكر طعن آخر منهم في الرسول صلى الله عليه وسلم بأنّه لم يكن من عظماء أهل القريتين.

{ **الْقَرْيَتَيْنِ** } مكة والطائف، لأنّهما أكبر قرى تهامة بلد القائلين، وأمّا يثرب وتيماء ونحوهما فهي من بلد الحجاز. جعلوا عماد التأهّل لسيادة الأقوام أمرين: عظمة المسوَّد، وعظمة قريته، فهم لا يدينون إلّا من هو من أشهر القبائل في أشهر القرى.

{ **عَظِيمٍ** } مستعار لصاحب السؤود في قومه، فكأنّه عظيم الذات. روي عن ابن عباس أنّهم عنوا بعظيم مكة الوليد بن المغيرة المخزومي، وبعظيم الطائف حبيب بن عمرو الثقفي.

ثم يحتمل أنّهم قالوا هذا اللفظ المحكي عنهم في القرآن ولم يسمُّوا شخصين معينين، ويحتمل أنّهم سمُّوا شخصين ووصفوهما بهذين الوصفين، فاقتصر القرآن على ذكر الوصفين إيجازا مع التنبيه على ما كانوا يؤهِّلون به الاختيار للرسالة تحميقا لرأيهم. كما حكي عن بني إسرائيل قولهم { وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ } [البقرة: 247].

{ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ } [32].

إنكار عليهم قولهم السابق، وتخطئة لهم في تحكّمهم. فإنّهم لمّا نصبوا أنفسهم منصب من يتخيّر أصناف الناس للرسالة عن الله، فقد جعلوا لأنفسهم ذلك لا لله.

{ **رَحْمَتَ رَبِّكَ** } ولما كان الاصطفاء للرسالة رحمة لمن يُصطفى لها ورحمة للناس المرسل إليهم، سُمِّيت الرسالة رحمة، ووُجِّه الخطاب إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم وأضيف لفظ (الربّ) إلى ضميره إيماء إلى أنّ الله مؤيّده تأنيسا له، لأنّ قولهم { عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ }، قصدوا منه الاستخفاف به، فرفع الله شأنه بإبلاغ الإنكار عليهم بالإقبال عليه بالخطاب وبإظهار أنّ الله ربّه، أي: متولِّي أمره وتدبيره.

{ **نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا** } تعليل للإنكار والنفي المستفاد منه، واستدلال عليه، أي: لمّا قسمنا بين الناس معيشتهم فكانوا مسيّرين في أمورهم على نحو ما هيَّأنا لهم من نظام الحياة، وكان تدبير ذلك لله تعالى ببالغ حكمته، فجعل منهم أقوياء وضعفاء، وأغنياء ومحاويج، فسخَّر بعضهم لبعض في أشغالهم على حساب دواعي حاجة الحياة، ورفع بذلك بعضهم فوق بعض، وجعل بعضهم محتاجا إلى بعض ومسخّرا له.

السُّخري: (بضم السين وبكسرها) وهما لغتان، اسم للشيء المسخَّر، أي: <u>المجبور على عمل بدون اختياره</u>، واسم لمن يُسْخَر به، أي: <u>يستهزأ به</u>، كما في مفردات الراغب والأساس والقاموس.

قال ابن عطية: هما لغتان في معنى التسخير ولا تدخُّل لمعنى الهزء في هذه الآية. ولم يقل ذلك غيره وكلام الراغب محتمل. واقتصر الطبري على معنى التسخير. والوجه عندي: أنّ المعنيين معتبران في هذه الآية.

{ **وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ** } تذييل للرد عليهم، وفي هذا التذييل رد ثان عليهم بأنّ المال الذي جعلوه عماد الاصطفاء للرسالة هو أقل من رحمة الله فهي خير ممّا يجمعون من المال.

{ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ [33] وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ [34] وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ [35] }.

{ **وَلَوْلَا** } حرف امتناع لوجود، أي: حرف شرط دلّ امتناع وقوع جوابها لأجل وقوع شرطها.

لمّا تقرّر أنّ من خُلُقهم تعظيم المال وأهل الثراء وحسبانهم ذلك أصل الفضائل ولم يهتموا بزكاء النفوس، وكان الله قد أبطل جعلهم المال سبب الفضل بإبطالين، أعقب ذلك بتعريفهم أنّ المال والغنى لا حظّ لهما عند الله تعالى، فإنّ الله أعطى كلّ شيء خلقه وجعل للأشياء حقائقها ومقاديرها، فكثيرا ما يكون المال للكافرين ومن لا خلاق لهم من الخير، فتعيّن أنّ المال قسمة من الله على الناس جعل له أسبابا نظمها في سلك النظم الاجتماعية وجعل لها آثارا مناسبة لها، وشتاّن بينها وبين مواهب النفوس الزكيّة والسرائر الطيبة.

{ **أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً** } يحتمل أن يراد به جميع الناس، فيكون التعريف للاستغراق.

ويحتمل وهو **الأولى عندي**: أن يكون التعريف للعهد مرادا به بعض طوائف البشر وهم أهل مكة وجمهورهم على طريقة الاستغراق العرفي، وعلى وِزَان قوله تعالى { إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ } [آل عمران:173]، ويكون المراد بكونهم أمّة واحدة: اتحادهم في الثراء.

فيكون المعنى: لولا أن تصير أمّة من الأمم أهل ثروة كلّهم، وذلك مخالف لما قدّره الله من اشتمال كلّ بلد وكل قبيلة وكلّ أمّة على أغنياء ومحاويج لإقامة نظام العمران واحتياج بعضهم لبعض، لجعلنا من يكفر بالرحمن، وهم أهل مكة، سواء في الثراء والرفاهية. ويرجّح هذا جعل متعلّق فعل { يَكْفُرُ } خصوص وصف الرحمان، فإنّ مشركي مكة أنكروا وصف الرحمان { قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ } [الفرقان:60]، وقد تكرّر التورك عليهم بذلك في آي كثيرة.

الأمّة: الجماعة من البشر المتميّزة عن غيرها باتحاد في نسب أو دين أو حالة معرف بها.

والمعنى عند ابن عباس والحسن وقتادة والسدي: لولا تجنّب ما يفضي إلى عموم الكفر وانقراض الإيمان، لجعلنا المال لأهل الكفر خاصة، وتركنا المسلمين لما ادّخرنا لهم من خيرات الآخرة.

أي: أنّ الله لطف بالعباد فعطّل ما يفضي بهم إلى اضمحلال الهدى من بينهم.

{ **لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ** } لقدَّرنا في نظام المجتمع البشري أسباب الثراء متصلة بالكفر بالله بحيث يكون الكفر سببا ومجلبة للغنى، ولو أراد الله ذلك لهيَّأ له أسبابه في عقول الناس وأساليب معاملاتهم المالية، فدلّ هذا على أنَّ الله منع أسباب تعميم الكفر في الأرض لطفا منه بالإيمان وأهله، وإن كان لم يمنع وقوع كفر جزئي قليل أو كثير حفظا منه تعالى لناموس ترتيب المسبّبات على أسبابها. وهذا من تفاريع التفرقة بين الرضى والإرادة، فلا يرضى لعباده الكفر ولو شاء ربك ما فعلوه.

{ **لِبُيُوتِهِمْ** } اللام مثل اللام في قوله تعالى { لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ } أي: لجعلنا لبيوت من يكفر بالرحمن، بدل اشتمال ممّن يكفر بالرحمن.

{ **سُقُفًا** } جمع سَقْف وهو: البناء الممتد على جدران البيت المغطِّي فضاء البيت، وتقدّم عند قوله تعالى { فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ } [النحل:26].

{ **مِنْ فِضَّةٍ** } ابتدئ بالفضة لأنّها أكثر في التحليات وأجمل في اللون، وأخر الذهب { زُخْرُفًا }، لأنّه أندر في الحلي، ولأن لفظه أسعد بالوقف لكون آخره تنوينا ينقلب في الوقف ألفا فيناسب امتداد الصوت.

{ **وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ** } والمعارج بالفضّة. اسم جمع مِعراج، وهو الدرج الذي يُعرج به إلى العلالي.

{ **يَظْهَرُونَ** } يعلون، كما في قوله تعالى { فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ } [الكهف:97]، أي: أن يتسوَّروه.

سُرُر: جمع سرير، وتقدّم عند قوله تعالى { عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ } [الصافات:44].

{ **عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ** } إشارة إلى أنّهم يُعطَون هذه البهرجة مع استعمالها في دعة العيش والخلو عن التعب.

<u>المراد</u>: أنّ المعارج والأبواب والسرر من فضة، فحذف الوصف من المعطوفات لدلالة ما وصف المعطوف عليه.

الزخرف: الزينة، قال تعالى { زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا } [الأنعام :112]، فيكون هنا عطفا على { سُقُفًا } جمعا لعديد المحاسن، <u>ويطلق على الذهب</u> لأنّ الذهب يُتزين به، كقوله تعالى { أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ } [الاسراء:93]. أي: لجعلنا لهم ذهبا، أي: لكانت سقفهم ومعارجهم وأبوابهم من فضة وذهب منوّعة، لأنّ ذلك أبهج في تلوينها. <u>ويجوز</u> أن يكون اللفظ مستعملا في معنييه استعمال المشترك.

{ **وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ** } تذييل، أي: كلّ ما ذُكر من السقف والمعارج والأبواب والسرر من الفضة والذهب متاع الدنيا لا يعود على من أعطيه بالسعادة الأبدية، فهي مدّخرة للمتقين. كقوله تعالى { زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ } [آل عمران:14].

{ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ } [36].

ابتدئت السورة بالتنويه بالقرآن ووصفه بأنّه ذكر وبيان للناس، <u>وُوصف</u> عناد المشركين في الصدّ عنه والإعراض، <u>وأُعلموا</u> بأنّ الله لا يترك تذكيرهم ومحاجّتهم لأنّ الله يدعو بالحق ويعد به. <u>وأطنب في وصف تناقض عقائدهم</u> لعلهم يستيقظون من غشاوتهم، <u>وفي تنبيههم</u> إلى دلائل حقّية ما يدعوهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا القرآن، <u>وفُضحت</u> شبهاتهم بأنّهم لا تعويل لهم إلّا على ما كان عليه آباؤهم الأوّلون الضالون، <u>وأُنذروا</u> باقتراب انتهاء تمتيعهم وإمهالهم، وتقضَّى ذلك بمزيد البيان، <u>وأفضى</u>

الكلام إلى ما قالوه في القرآن ومن جاء به بقوله تعالى { وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ - إلى قوله – عَظِيمٍ } [31/30].

بعد ذلك كلّه عاد الكلام هنا إلى عواقب صرفهم عقولهم عن التدبّر في الدعوة القرآنية فكان انصرافهم سببا لأن يسخِّر الله شياطين لهم تلازمهم فلا تزال تصرفهم عن النظر في الحقّ وأدلة الرشد. وهو تسخير اقتضاه نظام تولّد الفروع من أصولها، فلا يُتعجّب من عمى بصائرهم عن إدراك الحقّ البيّن، وهذا من سنّة الوجود في تولّد الأشياء من عناصرها، فالضلال يتولّد في النفوس ويتمكّن منها مرة بعد مرة حتّى يصير طبعا على القلب، وأكنّة فيه، وختما عليه، ولا يضعف عمل الشيطان إلّا بتكرّر الدعوة إلى الحق وبالزجر والإنذار.

فمن زناد التذكير تنقدح شرارات النور. ولولا ذلك لما ارعوى ضال عن ضلاله ولما نفع إرشاد المرشدين في نفوس المخاطبين.

{ **وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ** } عطف على جملة { وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ } [30].

وهو تمثيل لحالهم في إظهارهم عدم فهم القرآن، كقوله تعالى { وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ } [فصلت:5]، بحال من يعشو عن الشيء الظاهر للبصر.

{ **يَعْشُ** } مضارع عَشَا عَشْوًا، إذا نظر إلى الشيء نظرا غير ثابت يشبه نظر الأعشى، وأمّا **العَشَا** فهو اسم ضعف العين عن رؤية الأشياء. وعُدِّي الفعل بـ (عن) المفيدة للمجاوزة لأنّه ضُمِّن معنى الإعراض.

{ **ذِكْرِ الرَّحْمَنِ** } هو القرآن المعبَّر عنه بالذكر في قوله تعالى { أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا } [5].

وإضافته إلى { الرَّحْمَنِ } إضافة تشريف، وهذا ثناء خامس على القرآن.

التقييض: الإتاحة وتهيئة شيء لملازمة شيء لعمل حتّى يتمّه. وتقدّم في قوله تعالى {وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ} [فصلت:25].

{ **نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا** } أتى الضمير في { لَهُ } مفردا لأنّ لكلّ واحد ممَّن تحقّق فيهم الشرط شيطانا، ولذلك سيجيء في قوله تعالى { قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ } [38] بالإفراد، أي: قال كل من له قرين لقرينه.

ولم يذكر متعلّق فعل { نقيّض } اكتفاء بدلالة مفعوله وهو { شيطانا }، فعلم منه أنّه مقيّض لإضلاله.

أي: هم أعرضوا عن القرآن لوسوسة الشيطان لهم.

{ **فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ** } تفريع على { نُقَيِّضْ} لأنّ التقييض كان لأجل مقارنته. وجيء بالجملة المفرّعة جملة اسمية للدلالة على الدوام، أي: فكان قرينا مقارنة ثابتة دائمة.

{ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ } [37].

في موضع الحال من الضمير في قوله تعالى { فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ } [36] أي: مقارنة صدّ عن السبيل.

وضميرا (إنّهم - يصدون) عائدان إلى { شَيْطَانًا } [36].

وضمير النصب في (لَيَصُدُّونَهُمْ) عائد إلى { وَمَنْ يَعْشُ }، لأنّ (من) الشرطية عامة، فكأنّه قيل: كلّ من يعشو عن ذكر الرحمان نقيض لهم شياطين يصدّونهم عن السبيل، لكل واحد شيطان.

{ **السَّبِيلِ** } تعريف الجنس. والسبيل: الطريق السابلة الممتدة الموصلة إلى المطلوب.

وقد مُثِّلت حالة الذين يعشون عن ذكر الرحمان وحال مقارنة الشياطين لهم بحال من استهدى قوما ليدلّوه على طريق موصل لبغيته فضلّلوه وصرفوه عن السبيل وأسلكوه في فيافي التيه غشًّا وخديعة، وهو يحسب أنّه سائر إلى حيث يبلغ طلبته.

{ **وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ** } معطوفة على جملة { وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ } فهي في معنى الحال من الضمير في قوله تعالى { فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ }، والتقدير: ويحسب المصدودون أنّهم مهتدون بهم إلى السبيل.

الاهتداء: العلم بالطريق الموصل إلى المقصود.

{ **حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ** } [38].

{ **حَتَّى** } ابتدائية، وهي تفيد التسبّب الذي هو غاية مجازية. فاستعمال { حَتَّى } فيه استعارة تبعية.

وليست في الآية دلالة على دوام الصدّ عن السبيل إلى فناء القرينين، إذ قد يؤمن الكافر فينقطع الصدّ والحسبان، فلا تغتر بتوهّم من يزعمون أنّ الغاية الحقيقية لا تفارق (حتّى) في جميع استعمالاتها.

{ **يَا لَيْتَ** } حرف (يا) أصله للنداء، ويُستعمل للتلهُّف والتندم كثيرا، كما هنا.

{ **بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ** } المشرق والمغرب، غُلِّب اسم المشرق لأنّه أكثر خطورا بالأذهان لتشوّف النفوس إلى إشراق الشمس بعد الإظلام. والمراد: إمّا مكان شروق الشمس وغروبها في الأفق، وإمّا الجهة من الأرض التي تبدو الشمس منها عند شروقها وتغيب منها عند غروبها فيما يلوح لطائفة من سكان الأرض. وعلى الاحتمالين فهو مثل لشدّة البعد.

{ **فَبِئْسَ الْقَرِينُ** } بعد أن تمنَّى مفارقته فرَّع عليه ذمًّا، فالكافر يذمّ شيطانه الذي كان قرينا، ويعرّض بذلك للتفصّي من المؤاخذة، وإلقاء التبعة على الشيطان الذي أضلَّه.

والمقصود من الحكاية تفظيع عواقب هذه المقارنة التي كانت شغف المتقارنين، وكذلك شأن كل مقارنة على عمل سيّء العاقبة، كقوله تعالى { الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ } [67].

والمقصود تحذير الناس من قرين السوء وذمّ الشياطين ليعافهم الناس، كقوله تعالى { إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا } [فاطر:6].

{ **وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ** } [39].

الظاهر أنّ هذه الجملة معطوفة على جملة { قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ } [38]، وأنّ قولا محذوفا دلّ عليه فعل { جَاءَانَا } الدال على أنّ الفريقين حضرا للحساب وتلك الحضرة تؤذن

بالمقاولة، فإنّ الفريقين لمّا حضرا وتبرَّأ أحدهما من الآخر قصدا للتفصّي من المؤاخذة، فيقول الله: لن ينفعكم اليوم أنّكم في العذاب مشتركون. والخطاب موجَّه للذين عشوا عن ذكر الرحمان ولشياطينهم. وهذا كقوله تعالى { رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ } [لأعراف:38].

{ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ } [40].

تفريع على جملة { وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا } [36]، لأنّ ذلك أفاد توغُّلهم في الضلالة وعسر انفكاكهم عنها، لأنّ مقارنة الشياطين لهم تقتضي ذلك، فانتقل منه إلى التهوين على النبيّ صلى الله عليه وسلم ما يلاقيه من الكدّ والتحرّق عليهم في تصميمهم على الكفر والغيّ، وفيه إيماء إلى تأييس من اهتداء أكثرهم.

{ **أَفَأَنْتَ** } الاستفهام لإنكار أن يكون حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على هداهم ناجعا فيهم إذا كان الله قدّر ضلالهم فأوجد أسبابه، قال تعالى { إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ } [النحل:37]. ولمّا كان حال الرسول صلى الله عليه وسلم في معاودة دعوتهم كحال من يظنّ أنّه قادر على إيصال التذكير إلى قلوبهم نزل منزلة من يظنّ ذلك فخوطب بالاستفهام المساق ضمن تركيب يفيد القصر وهو قصر قلب. أي: أنّت لا تسمعهم ولا تهديهم بل الله يسمعهم ويهديهم إن شاء، وهو نظير قوله تعالى { أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ } [يونس:99].

{ **تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ** } من بديع معنى الآية أنّ الله وصف حال إعراضهم عن الذكر بالعَشَا وهو النظر الذي لا يتبين شبح الشيء المنظور إليه ثم وصفهم هنا بالصُّم العُمي إشارة إلى أنّ التمحّل للضلال ومحاولة تأييده ينقلب بصاحبه إلى أشد الضلال، والأحوال تنقلب ملكات. وهو معنى قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" لا يزال العبد يكذب ويتحرّى الكذب حتّى يُكتب عند الله كذَّابا "**، أي: حتّى يصبح الكذب ملكة له، فظهرت بذلك المناسبة بين وصفهم بالعشا وبين ما في هذا الانتقال لوصفهم بالصُّم العُمي.

{ **وَمَنْ كَانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ** } فيه معنى التذييل لأنّه أعمّ من كل من الصُّم والعُمي، وباعتبار أنّ الصمم والعمى لمّا كانا مجازين قد يكون تعلقهما بالمسموع والمبصر جزئيا في حالة خاصة، فكان الوصف بالكون في الضلال المبين تنبيها على عموم الأحوال، وهو مع ذلك ترشيح للاستعارة.

{ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ [41] أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ [42] }.

تفريع على الآية السابقة المتضمّنة إيماء إلى التأييس من اهتدائهم، والصريحة في تسلية النبيّ صلى الله عليه وسلم من شدّة الحرص في دعوتهم، فجاء هنا تحقيق وعد بالانتقام منهم، ومعناه: الوعد بإظهار

الدين إنّ كان في حياة النبيّ صلى الله عليه وسلم أو بعد وفاته، ووعيدهم بالعقاب في الدنيا قبل عقاب الآخرة.

فلأجل الوفاء بهذين الغرضين ذُكر في هذه الجملة أمران: الانتقام منهم لا محالة، وكون ذلك واقعا في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم أو بعد وفاته.

{ **فَإِمَّا** } الفاء للتفريع و(إمَّا) كلمتان متصلتان أصلهما (إن) الشرطية و(ما) زائدة.

{ **نَذْهَبَنَّ بِكَ** } الذهاب به هنا مستعمل للتوفّي بقرينة قوله تعالى { أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ }، لأنّ الموت مفارقة للأحياء، فالإماتة كالانتقال به.

{ **فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ** } جواب الشرط، واقترن بالفاء لأنّه جملة اسمية، وإنّما صيغ كذلك للدلالة على ثبات الانتقام ودوامه. وقد استُعمل { مُنْتَقِمُونَ } للزمان المستقبل استعمال اسم الفاعل في الاستقبال، وهو مجاز شائع مساو للحقيقة، والقرينة قوله تعالى { فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ }.

{ **الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ** } الوعد هنا بمعنى الوعيد بقرينة قوله تعالى قبله { فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ }، فإنّ الوعد إذا ذكر مفعوله صحّ إطلاقه على الخير والشر، وإذا لم يذكر مفعوله انصرف للخير، وأمّا الوعيد فهو للشر دائما. وقد أراه الله تعالى الانتقام منهم بقتل صناديدهم يوم بدر.

{ **فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ** } دليل جواب جملة { أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ } المعطوفة على جملة الشرط، لأنّ اقتدار الله عليهم لا يناسب أن يكون معلّقا على إراءته الرسول صلى الله عليه وسلم الانتقام منهم، فالجواب محذوف لا محالة لقصد التهويل. وتقديره: أو إمّا نرينك الذي وعدناهم، وهو الانتقام، تر انتقاما لا يفلتون منه فإنَّا عليهم مقتدرون، أي: مقتدرون الآن، فاسم الفاعل مستعمل في زمان الحال وهو حقيقته.

{ **مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ / عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ** } تقديم المجرورين على متعلّقيهما للاهتمام بهما في التمكّن بالانتقام والاقتدار عليهم.

الاقتدار: شدّة القدرة، واقتدر أبلغ من قدر.

المعنى: أنَّنا منتقمون منهم في الدنيا سواء كنت حيا أو بعد موتك، أي: فالانتقام منهم من شأننا وليس من شأنك لأنّه من أجل إعراضهم عن أمرنا وديننا. ولعلّ القول لدفع استبطاء النبيّ صلى الله عليه وسلم أو المسلمين تأخير الانتقام من المشركين، ولأن المشركين كانوا يتربّصون بالنبيّ الموت فيستريحوا من دعوته فأعلمه الله أنّه لا يفلتهم من الانتقام على تقدير موته وقد حكى الله عنهم قولهم { نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ } [الطور:30]. ففي هذا الوعيد إلقاء الرعب في قلوبهم لمّا يسمعونه.

{ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } [43].

لمّا هوَّن الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ما يلاقيه من شدّة الحرص على إيمانهم، ووعده النصر

عليهم، فرَّع على ذلك أن أمره بالثبات على دينه وكتابه، وأن لا يخور عزمه في الدعوة ضجرا من تصلّبهم في كفرهم ونفورهم من الحقّ.

الاستمساك: شدّة المسك، فالسين والتاء فيه للتأكيد. والأمر به مستعمل في طلب الدوام، لأنّ الأمر بفعل لمن هو متلبّس به لا يكون لطلب الفعل بل لمعنى آخر، وهو هنا طلب الثبات على التمسّك بما أوحي إليه، كما دلّ عليه قوله تعالى { إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }.

{ **بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ** } هو القرآن.

{ **إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** } تأييد لطلب الاستمساك بالذي أوحي إليه وتعليل له.

الصراط المستقيم: هو العمل بالذي أوحي إليه، فكأنّه قيل: إنّه صراط مستقيم، ولكن عدل عن ذلك ليفيد أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم راسخ في الاهتداء إلى مراد الله تعالى. ومثله قوله تعالى { إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ } [النمل:79].

{ **عَلَى** } للاستعلاء المجازي المراد به التمكّن. وهذا تثبيت للرسول صلى الله عليه وسلم وثناء عليه بأنّه ما زاغ قيد أنملة عما بعثه الله به، ويتبعه تثبيت المؤمنين على إيمانهم.

<u>وهذا أيضا ثناء سادس على القرآن</u>.

{ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ } [44].

ذُكر حظّ الرسول صلى الله عليه وسلم من الثناء والتأييد في قوله تعالى { عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } المجعول علّة للأمر بالثبات عليه، ثم عُطف عليه تعليل آخر اشتمل على ذكر حظّ القرآن من المدح والنفع بقوله تعالى { وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ } وتشريفه صلى الله عليه وسلم به بقوله تعالى { لَكَ }، وأُتبع بحظ التابعين له ولكتابه من الاهتداء والانتفاع، بقوله تعالى { وَلِقَومِكَ }. ثمّ عرّض بالمعرضين عنه والمجازفين له بقوله تعالى { وَسَوْفَ تُسْأَلونَ }، مع التوجيه في معنى كلمة { لَذِكْرٌ } من إرادة أنّ هذا الدين يُكسبه ويُكسب قومه حسن السمعة في الأمم، فمن اتَّبعه نال حظّه من ذلك ومن أعرض عنه عُدَّ عِداد الحمقى كما سيأتي، مع الإشارة إلى انتفاع المتبعين به في الآخرة، واستضرار المعرضين عنه فيها، وتحقيق ذلك بحرف الاستقبال.

فهذه الآية اشتملت على عشرة معان.

{ **لَذِكْرٌ** } <u>يحتمل ذكر العقل</u>، أي: اهتداءه لما كان غير عالم به، فشُبِّه بتذكّر الشيء المنسي.

<u>ويحتمل ذكر اللسان</u>، أي: أنّه يكسبك وقومك ذكرا في العالمين. أي: أن يكسب قومه شرفا يُذكرون بسببه.

وقد روي هذا التفسير عن علي وابن عباس في رواية ابن عدي وابن مردويه.

<u>وهذا ثناء سابع على القرآن</u>.

{ **وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ** } سؤال تقرير. فسؤال المؤمنين عن مقدار العمل بما كلّفوا به، وسؤال المشركين

سؤال توبيخ وتهديد، قال تعالى { سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ } [19]، وقال تعالى { أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ- إلى قوله - فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ } [الملك:8-11].

{ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ } [45].

الأمر بالسؤال هنا تمثيل لشهرة الخبر وتحقّقه، كما في قوله تعالى { فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ } [يونس:94]، إذ لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم في شك حتّى يسأل.

{ **أَجَعَلْنَا** } بدل من جملة { واسْأَلْ }، والهمزة للاستفهام الإنكاري وهو المقصود من الخبر، وهو ردّ عليهم في قولهم { إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ } [22]، أي: ليس آباؤكم بأهدى من الرسل الأوّلين إن كنتم تزعمون تكذيب رسولنا لأنّه أمركم بإفراد الله بالعبادة. <u>ويجوز</u> أن يكون المعنى: وإنَّا ما أمرنا بعبادة آلهة دوننا على لسان أحد من رسلنا. وهذا رد لقول المشركين { لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ } [20].

{ **آلِهَةً يُعْبَدُونَ** } أجري { آلهة } مجرى العقلاء فوصفوا بصيغة جمع العقلاء { يُعْبَدُونَ }، ومثله كثير في القرآن جريا على ما غلب في لسان العرب إذ اعتقدوهم عقلاء عالمين.

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ [46] فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ [47] }.

ذكر الله في أوّل السورة قوله تعالى { وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ } [6-8]، وساق بعد ذلك تذكرة بإبراهيم عليه السلام مع قومه، وما تفرَّع على ذلك من أحوال أهل الشرك فلما تقضَّى أُتبع بتنظير حال الرسول صلى الله عليه وسلم مع طغاة قومه واستهزائهم بحال موسى مع فرعون وملئه، فإنّ للمُثل والنظائر شأنا في إبراز الحقائق وتصوير الحالين تصويرا يفضي إلى ترقُّب ما كان لإحدى الحالتين من عواقب أن تلحق أهل الحالة الأخرى.

وكانت مناسبة قوله { وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا } [45] قد هيَّأت المقام.

والمقصود من هذه القصة هو قوله تعالى فيها { فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ } [56/55]، فإن المراد بالآخرين: المكذِّبون صناديد قريش.

<u>وجاءت المقابلة والمشابهة بين الحالتين من خلال:</u>

*/ قوله تعال { وملئه }، أي: عظماء قومه، فإنّ ذلك شبيه بحال أبي جهل وأضرابه.

*/ قوله تعالى { فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ }، لأنّ حالهم في ذلك مشابه لحال قريش الذي

أشار إليه قوله تعالى { وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } [7/6].

*/ قوله تعالى { أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ } [52]، لأنّهم أشبهوا بذلك حال أبي جهل ونحوه في قولهم { لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } [31]، إلا أنّ كلمة سادة قريش كانت أقرب إلى الأدب من كلمة فرعون، لأنّ هؤلاء كان رسولهم من قومهم فلم يتركوا جانب الحياء بالمرة وفرعون كان رسوله غريبا عنهم.

*/ قوله تعالى { فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ } [53]، لأنّه مشابه لما تضمّنه قول صناديد قريش { عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } [31]، فإنّ عظمة ذينك الرجلين كانت بوفرة المال، ولذلك لم يذكر مثله في غير هذه القصة من قصص بعثة موسى عليه السلام،

*/ قوله تعالى على لسانهم { يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ } [49]، وهو مضاه لقوله في قريش { هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ } [30].

*/ قوله تعالى { فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ } [55]، الدال على أنّ الله أهلكهم كلّهم، وذلك إنذار بما حصل من استئصال صناديد قريش يوم بدر.

<u>فحصل من العبرة بهذه القصة أمران:</u>

أحدهما: أنّ الكفار والجهلة يتمسَّكون بمثل هذه الشبهة في رد فضل الفضلاء فيتمسّكون بالأمور العرضية التي لا أثر لها في قيمة النفوس الزكية.

ثانيهما: أنّ فرعون صاحب العظمة الدنيوية المحضة صار مقهورا مغلوبا انتصر عليه الذي استضعفه.

{ **إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ** } حرف المفاجأة (إذا)، يدلّ على أنّ ما بعده حصل من غير ترقّب، فتفتتح به الجملة التي يفاد منها حصول حادث على وجه المفاجأة.

الضحك: كناية عن الاستخفاف بالآيات والتكذيب، فلا يتعيَّن أن يكون كلّ الحاضرين صدر منهم ضحك، ولا أنّ ذلك وقع عند رؤية آية، إذ لعلّ بعضها لا يقتضي الضحك.

{ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } [48].

الأظهر أنّ الجملة في موضع الحال. والمعنى: أنّهم يستخفّون بالآيات التي جاء بها موسى في حال أنّها آيات كبيرة وعظيمة، فإنّما يستخفّون بها لمكابرتهم وعنادهم.

{ **وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ** } صيغة المضارع لاستحضار الحالة.

{ **إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا** } الراجح أن يراد به أنّ كلّ آية تأتي تكون أعظم من التي قبلها، فيكون هنالك صفة محذوفة لدلالة المقام، أي: من أختها السابقة. وهذا يستلزم أن تكون الآيات مترتّبة في العظم بحسب تأخّر أوقات ظهورها، لأنّ الإتيان بآية بعد أخرى ناشئ عن عدم الارتداع من الآية السابقة.

{ **وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** } عطف على جملة { وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ } لأنّ العذاب كان من الآيات.

الأخذ: الإصابة.

العذاب: عذاب الدنيا، وهو ما يؤلم ويشق، وذلك القحط، والقمل، والطوفان، والضفادع، والدم في الماء.

أي: ابتدأناهم بالعذاب قبل الاستئصال لعل ذلك يُفيقهم من غفلتهم، وفي هذا تعريض بأهل مكّة.

الرجوع: مستعار للإذعان والاعتراف.

{ **نُرِيهِمْ / أَخَذْنَاهُمْ / لَعَلَّهُمْ** } ضمائر الغيبة عائدة إلى فرعون وملئه.

{ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ } [49].

عطف على { وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ }، والمعنى: ولمّا أخذناهم بالعذاب سألوه أن يدعو الله بكشف العذاب عنهم.

{ **يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ** } مخاطبة تعظيم تزلّفا إليه، لأنّ الساحر عندهم كان هو العالم، ألا ترى إلى قول ملأ فرعون له { وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ } [الشعراء:37/36]. وكان السحر بأيدي الكهنة، ومن مظاهره تحنيط الموتى. وفي [الأعراف:134] { قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ } ولا تنافي ما هنا لأنّ الخطاب خطاب إلحاح فهو يتكرّر ويعاد بطرق مختلفة.

{ **رَبَّكَ** } عنوا به الذي دعاهم موسى إلى عبادته. والقبط كانوا يحسبون أنّ لكلّ أمّة ربًّا، ولا يحيلون تعدّد الآلهة، وكانت لهم أرباب كثيرون مختلفة أعمالهم وقدرهم. ومثل ذلك كانت عقائد اليونان.

{ **بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ** } ما خصّك بعلمه دون غيرك ممّا استطعت به أن تأتي بخوارق العادة. وكانوا يحسبون أنّ تلك الآيات معلولة لعلل خفية قياسا على معارفهم بخصائص بعض الأشياء التي لا تعرفها العامة، وكان الكهنة يعهدون بها إلى تلامذتهم ويوصونهم بالكتمان.

العهد: هو الائتمان على أمر مهم، وليس مرادهم به النبوّة لأنّهم لم يؤمنوا به.

{ **إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ** } جواب لكلام مقدّر دلّ عليه { ادْعُ لَنَا رَبَّكَ }، أي: فإن دعوت لنا وكشفت عنا العذاب لنؤمننّ لك، كما في قوله تعالى { لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ } [الأعراف:134].

{ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ } [50].

أي تفرَّع على تضرّعهم ووعدهم بالاهتداء إذا كُشف عنهم العذاب أنّهم نكثوا الوعد.

النكث: نقض الحبل المبرم، وتقدّم في قوله تعالى { فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ} [الأعراف:135]، وهو مجاز في الخيس بالعهد.

{ **وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ** } [51].

لمّا كُشف عنهم العذاب بدعوة موسى، وأضمر فرعون وملؤه نكث الوعد الذي وعدوه موسى بأنّهم يهتدون، خشي فرعون أن يتبع قومه دعوة موسى ويؤمنوا برسالته فأعلن في قومه تذكيرهم بعظمة نفسه ليثبّتهم على طاعته، ولئلا يُنقل إليهم ما سأله من موسى وما حصل من دعوته بكشف العذاب، وليحسبوا أنّ ارتفاع العذاب أمر اتفاقي، إذ قومه لم يطّلعوا على ما دار بينه وبين موسى من سؤال كشف العذاب.

النداء: رفع الصوت، وإسناده إلى فرعون مجاز عقلي، لأنّه الذي أمر بالنداء في قومه.

{ **فِرْعَوْنُ** } هو منفتاح الثاني.

الأنهار: فروع النيل وتُرعه، لأنّها لعظمها جُعل كلّ واحد منها مثل نهر، وإنّما هي لنهر واحد هو النيل.

{ **تَجْرِي مِنْ تَحْتِي** } يحتمل أن يكون ادعى أن النيل يجري بأمره، فيكون { مِنْ تَحْتِي } كناية عن التسخير. يقول الناس: دخلت البلدة الفلانية تحت الملك فلان، ويحتمل أنّه أراد أنّ النيل يجري في مملكته.

{ **أَفَلا تُبْصِرُونَ** } استفهام تقريري، جاء التقرير على النفي تحقيقا لإقرارهم.

{ **أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ** } [52].

انتقل من تعظيم شأن نفسه إلى تصغير شأن موسى في نفوسهم. واسم الإشارة لغاية التحقير.

المَهين: الذليل الضعيف، أراد أنّه غريب ليس من أهل بيوت الشرف، وليس له أهل يعتزّ بهم.

{ **وَلا يَكَادُ يُبِينُ** } أشار إلى ما كان في منطق موسى من الحبُسة، كما أشار إليه قوله تعالى { وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي } [طه:28/27]. وقد أزال الله عنه ذلك حين تفرّغ لدعوة بني إسرائيل، كما دلّ عليه قوله تعالى { قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى } [طه:36].

ولعلّ فرعون قال ذلك لِما علم من حال موسى قبل أن يرسله الله حين كان في بيت فرعون، فذكر ذلك ليذكّر الناس بأمر قديم، فإنّ فرعون الذي بُعث موسى في زمنه هو منفتاح الثاني وهو ابن رمسيس الثاني الذي ولد موسى في أيامه وربّي عنده، وهذا يقتضي أنّ منفتاح كان يعرف موسى، ولذلك قال له { قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ } [الشعراء:18].

{ **فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ** } [53].

لمّا تضمّن وصفُه موسى بمَهين ولا يكاد يبين أنّه مكذِّب له دعواه الرسالة عن الله فرَّع عليه هذا القول ترقّيا في إحالة كونه رسولا من الله، وفرعون لجهله أو تجاهله يُخيّل لقومه أنّ للرسالة شعارا كشعار

الملوك.

{ **فَلَوْلا** } الفاء للتفريع و(لولا) حرف تحضيض مستعمل في التعجيز مثل ما في قوله تعالى { وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } [31].

الإلقاء: الرمي، وهو مستعمل هنا في الإنزال، أي: هلا ألقي عليه من السماء أساورة من ذهب.

أي: سوَّره الرب بها ليجعله ملكا على الأمة.

{ **أَسْوِرَةٌ** } جمع أسوار لغة في سوار: حلقة عريضة من ذهب أو فضة تحيط بالرسغ، وهو عند معظم الأمم من حلية النساء. وقرأ الجمهور { أَسَاوِرَةٌ } ، وقرأ حفص عن عاصم ويعقوب { أَسْوِرَةٌ } وكان السوار من شعار الملوك بفارس ومصر يلبس الملك سوارين. وقد كان من شعار الفراعنة لبس سوارين أو أسورة من ذهب وربما جعلوا سوارين على الرسغين وآخرين على العضدين. فلمّا تخيَّل فرعون أنّ رتبة الرسالة مثل الملك حسب افتقادها أمارة على انتفاء الرسالة.

{ **أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ** } (أو) هنا للترديد، أي: إن لم تلق عليه أساورة من ذهب فلتجئ معه طوائف من الملائكة شاهدين له بالرسالة. ولعلّ فرعون ذكر الملائكة مجاراة لموسى، إذ لعله سمع منه أنّ لله ملائكة أو نحو ذلك، فأراد إفحامه بأن يأتي معه بالملائكة الذين يظهرون له.

{ **مُقْتَرِنِينَ** } حال من { الملائكة } مؤكِّدة لمعنى { مَعَهُ }.

{ **فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ** } [54].

أي: فتفرَّع عن نداء فرعون قومه أن أثَّر بتمويهه في نفوس ملئه فعجَّلوا بطاعته بعد أن كانوا متهيئين لاتباع موسى لمَّا رأوا الآيات. فالخفَّة مستعارة للانتقال من حالة التأمّل في خلع طاعة فرعون والتثاقل في اتباعه إلى التعجيل بالامتثال له. والمعنى يرجع إلى أنَّه استخفّ عقولهم فأسرعوا إلى التصديق بما قاله بعد أن صدَّقوا موسى في نفوسهم لمَّا رأوا آياته نزولا ورفعا.

{ **فَاسْتَخَفَّ** } السين والتاء للمبالغة في أخفّ مثل قوله تعالى { إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ} [آل عمران:155].

{ **قَوْمَهُ** } هنا بعض القوم، وهم الذين حضروا مجلس دعوة موسى، وهم ملأ فرعون.

{ **إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ** } في موضع العلّة لجملة { فَأَطَاعُوهُ }، كما هو شأن (إنَّ) إذا جاءت في غير مقام التأكيد، فإنّ كونهم قد كانوا فاسقين أمر بَيِّنٌ.

فاسقين: كافرين، كما قال في شأنهم في قوله تعالى { سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ } [الأعراف:145].

{ **فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ** [55] **فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ** [56] }.

عُقِّب ما مضى من القصة بالمقصود منها وهو هذه الأمور الثلاثة المترتِّبة المتفرِّع بعضها على بعض وهي: الانتقام، فالإغراق، فالاعتبار بهم في الأمم بعدهم.

الأسف: الغضب المشوب بحزن وكدر، وأطلق على صنيع فرعون وقومه فعل { آسَفُونَا } لأنّه فعل يترتّب عليه انتقام الله منهم انتقاما كانتقام الآسف، لأنّهم عصوا رسوله وصمّموا على شركهم بعد ظهور الآيات. والله يستحيل عليه أن يتّصف بالآسف كما يستحيل عليه أن يتصف بالغضب على الحقيقة، فاستعير { آسَفُونَا } لمعنى عصونا للمشابهة.

الانتقام: تقدّم معناه قريبا عند قوله تعالى { فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ } [41].

{ **فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ** } عطف بالفاء على { انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ } مع أنّ إغراقهم هو عين الانتقام منهم؛

إمّا لانّ فعل { انْتَقَمْنَا } مؤوّل بقدّرنا الانتقام منهم، فيكون عطف { فَأَغْرَقْنَاهُمْ } بالفاء كالعطف في قوله تعالى { أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس:82].

وإمّا أن تكون جملة { فَأَغْرَقْنَاهُمْ } مبيّنة لجملة { انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ }، فزيدت الفاء لتأكيد معنى التبيين.

{ **فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ** } فُرّع على إغراقهم أنّ الله جعلهم سلفا لقوم آخرين، أي: يأتون بعدهم.

السَلَف: (بفتح السين وفتح اللام) في قراءة الجمهور: جمع سالف وهو الذي يسبق غيره في الوجود أو في عمل أو مكان.

ولما ذُكر الانتقام كان المراد بالسلف هنا السالف في الانتقام، أي: أنّ من بعدهم سيلقون مثل ما لقوا.

المَثَل: النظير والمشابه، يقال: مَثَل (بفتحتين) كما يقال شَبَه، أي: مُمَاثل. أي: جعلناهم عبرة للآخرين، يعلمون أنّهم إن عملوا مثل عملهم أصابهم مثل ما أصابهم. ويجوز أن يكون المثل هنا بمعنى الحديث عجيب الشأن الذي يسير بين الناس مسير الأمثال، أي: جعلناهم للآخرين حديثا يتحدَّثون به ويعظهم به محدّثهم.

{ **لِلْآخِرِينَ** } الناس الذين هم آخر مماثل لهم في حين هذا الكلام، فتعيَّن أنّهم المشركون المكذِّبون للرسول صلى الله عليه وسلم، فإنَّ هؤلاء هم آخر الأمم المشابهة لقوم فرعون في عبادة الأصنام وتكذيب الرسول.

والمقصد: فجعلناهم سلفا لكم ومثلا لكم فاتعظوا بذلك.

{ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ [57] وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ [58] }.

عطف قصة من أقاصيص كفرهم وعنادهم على ما مضى من حكاية أقاويلهم، جرت في مجادلة منهم مع النبيّ صلى الله عليه وسلم. وهذا تصدير وتمهيد بين يدي قوله تعالى { وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ } [63]، الذي هو المقصود من عطف هذا الكلام على ذكر رسالة موسى عليه السلام.

ففي هذه الآية إجمال يُبيّنه ما يعرفه النبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنون من جدل جرى مع المشركين، ويزيده بيانا قوله تعالى { إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرائيلَ } [59].

وهذه الآية من أخفى آي القرآن معنى مرادا.

والذي جرى عليه أكثر المفسّرين أنّ سبب نزولها الإشارة إلى ما تقدّم عند قوله تعالى { إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ } [الأنبياء:98]، إذ قال عبد الله بن الزِبَعْرَى قبل إسلامه للنبيّ صلى الله عليه وسلم: أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم "**، قال: خصمتك وربّ الكعبة، ألست تزعم أن عيسى بن مريم نبيّ وقد عبدته النصارى فإن كان عيسى في النار فقد رضينا أن نكون نحن وألهتنا معه، ففرح بكلامه من حضر من المشركين وضجّ أهل مكة بذلك فأنزل الله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ } [الأنبياء:101]، ونزلت هذه الآية تشير إلى لجاجهم.

وهذا يتلاءم مع بناء فعل { ضُرِبَ } للمجهول، لأنّ الذي جعل عيسى مثلا لمجادلته هو عبد الله بن الزبعرى، وليس من عادة القرآن تسمية أمثاله، ولو كان المثل مضروبا في القرآن لقال: ولمّا ضربنا ابن مريم مثلا، ويتلاءم مع تعدية فعل { يَصِدُّونَ } بحرف (من) الابتدائية دون حرف (عن)، ومع قوله { مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ }، لأنّ الظاهر أنّ ضمير النصب في { ضَرَبُوهُ } عائد إلى ابن مريم.

والمراد بـ { مَثَلًا } على هذا المُمَثَّل به والمشبَّه به، لأنّ ابن الزبعرى نظَّر آلهتهم بعيسى في أنّها عُبدت من دون الله مِثْله، فإذا كانوا في النار كان عيسى كذلك.

ولا يُناكد هذا الوجهَ إلّا ما جرى عليه عَدُّ السور في ترتيب النزول من عدّ سورة الأنبياء التي كانت آيتها سبب المجادلة متأخرة في النزول عن سورة الزخرف. فيجب أن تكون سابقة حتّى تكون هذه الآية مُذكِّرة بالقصة التي كانت سبب نزول سورة الأنبياء.

وليس ترتيب النزول بمتّفق عليه ولا بمحقّق السند فهو يقبل منه ما لا معارض له. <u>على أنّه قد تنزل الآية ثم تلحق بسورة نزلت قبلها</u>.

فإذا رجح أن تكون سورة الأنبياء نزلت قبل سورة الزخرف كان الجواب القاطع، ويكون الجواب المذكور هنا بقوله تعالى { مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا } جوابا إجماليا، أي: ما أرادوا به إلّا التمويه.

والمقام هنا مقام إجمال لأن هذه الآية إشارة وتذكير إلى ما سبق من الحادثة حين نزول آية سورة الأنبياء.

{ **يَصِدُّونَ** } قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وحفص عن عاصم ويعقوب { يَصِدُّونَ } (بكسر الصاد) وهو **الصّدّ** بمعنى الضجيج والصخب. وقرأ نافع وابن عامر والكسائي وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر وخلف {يَصُدُّونَ } (بضم الصاد) من **الصدود**؛ <u>إمّا</u> بمعنى الإعراض، والمعرض عنه محذوف لظهوره من المقام، أي: يعرضون عن القرآن لأنّهم أوهموا بجدلهم أنّ في القرآن تناقضا، <u>وإمّا</u> على أنّ الضم لغة في مضارع صَدَّ بمعنى ضجّ.

والمعنى: إذا قريش قومك يصخبون ويضجّون من احتجاج ابن الزبعرى بالمثل بعيسى في قوله، معجَبين بفلجه وظهور حجّته، لضعف إدراكهم لمراتب الاحتجاج.

{ **قَوْمِكَ** } التعبير عن قريش بذلك للتعجيب منهم كيف فرحوا من تغلّب ابن الزبعرى على النبيّ صلى الله عليه وسلم بزعمهم في أمر عيسى عليه السلام، أي: مع أنّهم قومك وليسوا قوم عيسى ولا أتباع دينه فكان فرحهم ظلما من ذوي القربى.

{ **وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ** } تلقّفوها من فم ابن الزبعرى حين قالها للنبيّ صلى الله عليه وسلم فأعادوها. فهذا حكاية لقول ابن الزبعرى: إنّك تزعم أنّ عيسى نبيّ وقد عبدته النصارى فإن كان عيسى في النار قد رضينا أن نكون وآلهتنا في النار. والاستفهام تقريري للعلم بأنّ النبيّ يفضل عيسى على آلهتهم.

{ **مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا** } ضمير الرفع في {مَا ضَرَبُوهُ } عائد إلى ابن الزبعرى وقومه الذين أعجبوا بكلامه وقالوا بموجبه. وضمير النصب الغائب يجوز أن يكون عائدا إلى { مَثَلًا }، أي: ما ضربوا لك ذلك المثل إلّا جدلا منهم، أي: محاجّة وإفحاما لك، وليسوا بمعتقدين هون أمر آلهتهم عندهم، ولا بطالبين الميز بين الحقّ والباطل، فإنّهم لا يعتقدون أنّ عيسى خير من آلهتهم ولكنّهم أرادوا مجاراة النبيّ في قوله ليفضوا إلى إلزامه بما أرادوه من المناقضة.

{ **إِلَّا جَدَلًا** } الاستثناء مفرَّغ للمفعول لأجله أو للحال، فيجوز أن ينصب على المفعول لأجله، أي: ما ضربوه لشيء إلّا للجدل، ويجوز أن ينصب على الحال بتأويله: بمجادلين، أي: ما ضربوه في حال من أحوالهم إلّا في حال أنَّهم مجادلون لا مؤمنون بذلك.

{ **بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ** } إضراب انتقالي إلى وصفهم بحب الخصام وإظهارهم من الحجج ما لا يعتقدونه تمويها على عامتهم.

الخَصِم (بكسر الصاد): شديد التمسّك بالخصومة واللجاج مع ظهور الحق عنده.

{ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرائيلَ } [59].

لما ذُكر ما يشير إلى قصّة جدال ابن الزِّبَعْرَى في قوله تعالى { إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ } [الانبياء:98]، وكان سبب جداله هو أنّ عيسى قد عُبد من دون الله، لم يُترك الكلام ينقضي دون أن يُردف بتقرير عبودية عيسى لهذه المناسبة، إظهارا لخطل رأي الذين ادّعوا إلهيته وعبدوه، وهم النصارى، حرصا على الاستدلال للحق.

{ **إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ** } قصر القلب للردّ على الذين زعموه إلها، أي: ما هو إلّا عبد، أي: مخلوق خاضع لله.

{ **أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ** } إشارة إلى أنّه قد فُضِّل بنعمة الرسالة، أي: فليست له خصوصية مزيّة على بقية الرسل، وليس تكوينه بدون أب إلّا معجزة كبقية معجزاته وكمعجزات الأنبياء.

{ **وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرائيلَ** } إبطال لشبهة الذين ألّهوه بتوهُّمهم أنّ كونه خُلق بكلمة من الله يفيد أنّه

جزء من الله، فهو حقيق بالإلهية. أي: كان خلقه في بطن أمّه دون أن يقربها ذكر عبرة عجيبة في بني إسرائيل، لأنّهم كانوا قد ضعف إيمانهم بالغيب وبعد عهدهم بإرسال الرسل فبعث الله عيسى مجدّدا للإيمان بينهم، ومُبرهنا بمعجزاته على عظم قدرة الله، ومعيدا لتشريف الله بني إسرائيل، إذ جعل فيهم أنبياء ليكون ذلك سببا لقوة الإيمان فيهم، ومُظْهِرًا لفضيلة أهل الفضل الذين آمنوا به، ولعناد الذين منعهم الحرص عن منافعهم من الاعتراف بمعجزاته فناصبوه العداء وسعوا للتنكيل به وقتله فعصمه الله منهم ورفعه من بينهم، فاهتدى به أقوام وافتتن به آخرون.

{ **مَثَلًا** } هنا بمعنى العبرة، كالذي في قوله تعالى آنفا { فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ } [56].

{ **لِبَنِي إِسْرَائِيلَ** } إشارة إلى أنّ عيسى لم يُبعث إلّا إلى بني إسرائيل وأنّه لم يدعُ غير بني إسرائيل إلى اتباع دينه، ومن اتبعوه من غير بني إسرائيل في العصور اللاحقة فإنّما تقلّدوا دعوته لأنّها تنقذهم من ظلمات الشرك والوثنيّة.

{ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ } [60].

لمَّا أشارت الآية السابقة إلى إبطال ضلالة الذين زعموا عيسى عليه السلام ابنا لله تعالى، من قصره على كونه عبدا لله أنعم الله عليه بالرسالة وأنّه عبرة لبني إسرائيل عُقِّب ذلك بإبطال ما يماثل تلك الضلالة، وهي ضلالة بعض المشركين في ادعاء بنوّة الملائكة لله تعالى، المتقدّم حكايتها في قوله تعالى { وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا } [15]، فأشير إلى أنّ الملائكة عباد لله تعالى جُعل مكانهم العوالم العليا، وأنّه لو شاء لجعلهم من سكان الأرض بدلا عن الناس. فليس تشريف الله إيّاهم بسكنى العوالم العليا بموجب بنوّتهم لله ولا بمقتض لهم إلهية، كما لم يكن تشريف عيسى بنعمة الرسالة ولا تمييزه بالتكوّن من دون أب مقتضيا له إلهية، وإنّما هو بجعل الله وخلقه.

{ **مِنْكُمْ** } أفادت (من) هنا البدلية والعِوَض كالتي في قوله { أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ } [التوبة:38].

والمجرور متعلق بـ { لَجَعَلْنَا }، وقُدِّم على مفعول الفعل للاهتمام بمعنى هذه البدلية.

{ **فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ** } بيان لمضمون شبه الجملة إلى قوله { مِنْكُمْ }، وحُذف المفعول لدلالة { مِنْكُمْ } عليه.

{ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ } [61].

الأظهر أنّ هذا عطف على جملة { وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ } [44]، ويكون ما بينهما مستطردات واعتراضا اقتضته المناسبة. لمّا أُشبع مقام إبطال إلهية غير الله بدلائل الوحدانية ثُني العِنان إلى إثبات أنّ القرآن حقّ، عودا على بدء. وهذا كلام موجه من جانب الله تعالى إلى المنكرين يوم البعث، ويجوز أن

يكون من كلام النبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ **وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ** } ضمير المذكّر الغائب مراد به **القرآن**، وبذلك فسّره الحسن وقتادة وسعيد بن جبير فيكون هذا ثناء ثامنا على القرآن.

فالثناء على القرآن استمر متّصلا من أوّل السورة، آخذا بعضه بحُجز بعض، متخلّلا بالمعترضات والمستطردات، ومتخلّصا إلى هذا الثناء الأخير بأنّ القرآن أعلم الناس بوقوع الساعة.

ويفسّره ما تقدّم من قوله تعالى { بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ } [43]، ويبيّنه قوله تعالى هنا {هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ}.

على أنّ ورود مثل هذا الضمير في القرآن مرادا به القرآن كثير معلوم من غير معاد فضلا على وجود معاد.

والمعنى: أنّ القرآن جاء بالدين الخاتم للشرائع فلم يبق بعد مجيء القرآن إلّا انتظار انتهاء العالم. وهذا معنى ما روي من قول الرسول صلى الله عليه وسلم: " **بُعثت أنا والساعة كهاتين** "، وقرن بين السبابة والوسطى مشيرا إليهما، والمشابهة في عدم الفصل بينهما.

وإسناد { لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ } إلى ضمير القرآن إسناد مجازي لأنّ القرآن سبب العلم بوقوع الساعة إذ فيه الدلائل المتنوّعة على إمكان البعث ووقوعه. ويجوز أن يكون إطلاق { لَعِلْمٌ } بمعنى المُعْلِم للمبالغة في الفعل.

{ **فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا** } تفريع ناسب هذا المجاز أو المبالغة، لأنّ القرآن لم يُبق لأحد مرية في أنّ البعث واقع.

وعدي فعل { فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا } بالباء لتضمينه معنى: لا تُكذّبنّ بها، أو الباء بمعنى (في) الظرفية.

وعن ابن عباس ومجاهد وقتادة أنّ الضمير لعيسى، وتأوّلوه بأنّ نزول عيسى علامة الساعة، أي: سبب علم بالساعة، أي: بقربها، وهو تأويل بعيد، فإنّ تقدير مضاف وهو (نزول) لا دليل عليه ويناكده إظهار اسم عيسى في قوله { وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى }.

{ **وَاتَّبِعُونِ** } يجوز أن يكون ضمير المتكلّم عائدا إلى الله تعالى، أي: اتبعوا ما أرسلت إليكم من كلامي ورسولي، جريا على غالب الضمائر من أوّل السورة كما تقدّم. فالمراد باتباع الله: اتباع أمره ونهيه وإرشاده الوارد على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم. ويكون هذا كقوله تعالى { وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } [الشورى:53/52].

ويجوز أن يكون عائدا إلى النبي صلى الله عليه وسلم بتقدير: وقل اتبعون، ومثله في القرآن كثير.

{ **هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ** } الإشارة للقرآن المتقدّم ذكره في قوله تعالى { وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ }، أو الإشارة إلى ما هو حاضر في الأذهان ممّا نزل من القرآن، أو الإشارة إلى دين الإسلام المعلوم من المقام، كقوله تعالى { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ } [الأنعام: 153].

{ وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ } [62].

لمّا أُبلغت أسماعهم أفانين المواعظ والأوامر والنواهي، وجرى في خلال ذلك تحذيرهم من الإصرار على الإعراض عن القرآن، وإعلامهم بأنّ ذلك يُفضي بهم إلى مقارنة الشيطان، وأخذ ذلك حظه من البيان، انتقل الكلام إلى نهيهم عن أن يحصل صدّ الشيطان إيّاهم عن هذا الدين والقرآن الذي دُعوا إلى اتباعه بقوله تعالى { وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ } [61]، تنبيها على أنّ الصُدود عن هذا الدين من وسوسة الشيطان، وتذكيرا بعداوة الشيطان للإنسان عداوة قوية لا يفارقها الدفع بالناس إلى مساوي الأعمال ليوقعهم في العذاب تشفِّيا.

{ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ } تعليل للنهي عن أن يصدّهم الشيطان، فإنّ شأن العاقل أن يحذر من مكائد عدوّه وعداوة الشيطان للبشر ناشئة من خبث كينونته مع ما أنضم إلى ذلك الخبث من تنافي العنصرين.

وحرف (إنّ) هنا موقعة موقع فاء التسبب في إفادة التعليل.

{ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ [63] إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ [64] }.

قد علمت آنفا أنّ هذا هو المقصود من ذكر عيسى عليه السلام فهو عطف على قصة إرسال موسى.

{ وَلَمَّا } جوابه محذوف لدلالة بقية الكلام عليه، وموقعه هنا أنّ مجيء عيسى بالبيّنات صار معلوما للسامع ممّا تقدم في قوله تعالى { إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرائيلَ } [59].

أي: لمّا جاءهم عيسى اختلف الأحزاب فيما جاء به. وهذا يفيد أنّ سنن الأمم المبعوث إليهم الرسل لم تختلف فإنّه لم يخل رسول عن قوم آمنوا به وقوم كذّبوه، ثم كانوا سواء في نسبة الشركاء في الإلهية. فتمّ التشابه بين الرسل السابقين وبين محمد صلى الله عليهم. فحصل في الكلام إيجاز تدلّ عليه فاء التفريع.

وفي قصة عيسى مع قومه تنبيه على أنّ الإشراك من عوارض أهل الضلالة لا يلبث أن يخامر نفوسهم وإن لم يكن عالقا بها من قبل، فإنّ عيسى بُعث إلى قوم لم يكونوا يدينون بالشرك، إذ هو قد بُعث لبني إسرائيل وكلّهم موحّدون فلمّا اختلف أتباعه بينهم وكذّبت به فرق وصدّقه فريق، ثمّ لم يتّبعوا ما أمرهم به، لم يلبثوا أن حدثت فيهم نحلة الإشراك.

{ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ } مبيّنة لجملة { جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ } وليست جوابا لشرط (لمّا). وفي البيان إيماء إلى أنّه بادأهم بهذا القول، أي: لم يدعُهم عيسى إلى أكثر من اتباع الحكمة وبيان المختلف فيه، ولم يدعُهم إلى ما ينافي أصول شريعة التوراة، ومع ذلك لم يخل حاله من صدود مريع عنه وتكذيب. ولم يُذكر في هذه الآية قوله المحكي في آية [آل عمران:50] { وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ } لأنّ ذلك

قد قاله في مقام آخر.

وابتداؤه بإعلامهم أنّه جاءهم بالحكمة والبيان، وهو إجمال حال رسالته، ترغيب لهم في تأمّل ما سيلقيه إليهم من تفاصيل الدعوة.

الحكمة: هي معرفة ما يؤدي إلى الحسن ويكف عن القبيح، وهي هنا النبوّة، وتقدّم قوله تعالى { يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ } [البقرة: 269]. وقد جاء عيسى بتعليمهم حقائق من الأخلاق الفاضلة والمواعظ.

{ **وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ** } تعليل، عطف على { بِالْحِكْمَةِ } لأنّ كليهما متعلّق بـ { جِئْتُكُمْ }.

التبيين: تجلية المعاني الخفيّة لغموض أو سوء تأويل.

{ **بعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ** } إمّا لأنّ الله أعلمه بأنّ المصلحة لم تتعلّق ببيان كلّ ما اختلفوا فيه بل يقتصر على البعض ثم يكمِّل بيان الباقي على لسان رسول يأتي من بعده يُبيِّن جميع ما يحتاج إلى البيان.

وإمّا لأنّ ما أوحي إليه من البيان غير شامل لجميع ما هم مختلفون في حكمه وهو ينتظر بيانه من بعد تدريجا في التشريع، كما وقع في تدريج تحريم الخمر في الإسلام.

وقيل: ما كان الاختلاف فيه راجعا إلى أحكام الدين دون ما كان من الاختلاف في أمور الدنيا.

والمقصود حكاية ما قاله لهم ممّا ليس شأنه أن يثير عليه قومه بالتكذيب، فهم كذّبوه في وقت لم يذكر لهم فيه أنّه جاء بنسخ بعض الأحكام من التوراة، أي: كذّبوه في حال ظهور آيات صدقه بالمعجزات وفي حال انتفاء ما من شأنه أن يثير عليه شكا.

والآية دليل على جواز تأخير البيان فيما له ظاهر وفي ما يرجع إلى البيان بالنسخ، والمسألة من أصول الفقه

{ **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ** } تفريع، كلام جامع لتفاصيل الحكمة وبيان ما يختلفون فيه، فإنّ التقوى مخافة الله.

{ **إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ** } تعليل للجملة السابقة، لأنّه إذا ثبت تفرّده بالربوبية توجّه الأمر بعبادته، إذ لا يخاف الله إلّا من اعترف بربوبيته وانفراده بها.

{ **إنّ** } حرف التأكيد لمزيد الاهتمام بالخبر، فإنّ المخاطبين غير منكرين ذلك.

{ **هُوَ رَبِّي** } ضمير الفصل أفاد القصر، أي: الله ربي لا غيره. وهذا إعلان بالوحدانية، وإن كان القوم الذين أرسل إليهم عيسى موحّدين، لكن قد ظهرت بدعة في بعض فرقهم الذين قالوا: عزير ابن الله.

{ **رَبِّي وَرَبُّكُمْ** } تقديم نفسه بذلك لقصد سد ذرائع الغلو في تقديسه، وذلك من معجزاته، لأنّ الله علم أنّه ستغلو فيه فرق فيزعمون بنوّته على الحقيقة، ويضِلون بكلمات الإنجيل التي منها قوله: أبي، مريدا به الله تعالى.

{ **فَاعْبُدُوهُ** } فرّع على إثبات التوحيد لله الأمر بعبادته، فإنّ المنفرد بالإلهية حقيق بأن يعبد.

{ **هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ** } إشارة إلى مضمون قوله تعالى { فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ }، أي: هذا طريق الوصول

إلى الفوز عن بصيرة ودون تردّد.

{ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ } [65].

هذا التفريع هو المقصود من سوق القصة مساق التنظير بين أحوال الرسل، أي: عقب دعوته اختلاف الأحزاب من بين الأمّة الذين بُعث إليهم، والذين تقلّدوا ملته طلبا للاهتداء.

وهذا التفريع دليل على جواب { وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى } [63] المحذوف.

{ **فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ** } الفاء هنا مستعملة في حقيقة التعقيب ومجازه، فالمجاز لتشبيه مفاجأة طروّ الاختلاف بين أتباعه مع وجود الشريعة المانعة من مثله كأنّه حدث عقب بعثة عيسى وإن كان بينه وبينها زمان طويل.

{ **مِنْ بَيْنِهِمْ** } الضمير مراد به الذين جاءهم عيسى، لأنّهم معلومون من سياق القصة، وهم اليهود.

أي: فمنهم من صدّق عيسى وهم: يحيى بن زكريا ومريم أم عيسى والحواريون الاثنا عشر وبعض نساء مثل مريم المجدلية ونفر قليل، وكفر به جمهور اليهود وأحبارهم، وكان ما كان من تألّب اليهود عليه حتّى رفعه الله. ثم انتشر الحواريون يدعون إلى شريعة عيسى فاتّبعهم أقوام في بلاد رومية وبلاد اليونان، ولم يلبثوا أن اختلفوا من بينهم في أصول الديانة فتفرّقوا ثلاث فرق: (**نسطورية – يعاقبة - مَلْكانية**).

قالت النسطورية: عيسى ابن الله.

قالت اليعاقبة: عيسى هو الله، أي: بطريق الحلول.

قالت الملكانية (الكاثوليك): عيسى ثالث ثلاثة مجموعها هو الإله، وتلك هي: الأب: الله ، والابن: عيسى، وروح القدس: جبريل، فالإله عندهم أقانيم ثلاثة.

وهذا الاختلاف أجمل هنا ووقع تفصيله في آيات كثيرة تتعلّق بما تلقّى به اليهود دعوة عيسى، وآيات تتعلق بما أحدثه النصارى في دين عيسى من زعم بنوّته من الله وإلهيّته.

{ **فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ** } فُرّع على ذكر الاختلاف تهديد بوعيد للذين ظلموا بالعذاب يوم القيامة، تفريع التذييل على المذيّل، فالذين ظلموا يشمل جميع الذين أشركوا مع الله غيره في الإلهية.

فيشمل عموم هذا التذييل مشركي العرب المقصودين من هذه الأمثال والعبر.

{ **ظَلَمُوا** } أشركوا، لقوله تعالى { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان:13]، وهذا الإطلاق غالب في القرآن.

{ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } [66].

استئناف بياني بتنزيل سامع قوله تعالى { فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ } [65] منزلة من يطلب البيان فيسأل: متى يحلّ هذا اليوم الأليم؟ وما هو هذا الويل؟ فوردت هذه الجملة جوابا عن الشق الأوّل

من السؤال، وسيجيء الجواب عن الشق الثاني في قوله تعالى { الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ } [67]، وفي قوله تعالى { إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ } [74].

وقد جرى الجواب على طريقة الأسلوب الحكيم، والمعنى: أنّ هذا العذاب واقع لا محالة سواء قرب زمان وقوعه أم بعد، فلا يريبكم عدم تعجيله. وقد أشعر بهذا المعنى تقييد إتيان الساعة بقيد { بَغْتَةً } فإنّ الشيء الذي لا تسبقه أمارة لا يُدرى وقت حلوله.

{ **هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ** } بمعنى ينتظرون، والاستفهام إنكاري، أي: لا ينتظرون بعد أن أشركوا لحصول العذاب إلّا حلول الساعة. وعُبّر عن اليوم بالساعة تلميحا لسرعة ما يحصل فيه.

البغتة: الفجأة، وهي: حصول الشيء عن غير ترقّب.

{ **وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ** } في موضع الحال من ضمير النصب في { تَأْتِيَهُمْ }.

الشعور: العلم بحصول الشيء الحاصل.

{ **الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ** } [67].

استئناف يفيد أمرين: أحدهما: بيان بعض الأهوال التي أشار إليها إجمال التهديد في قوله تعالى { فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ } [65]. وثانيهما: موعظة المشركين بما يحصل يوم القيامة من الأهوال لأمثالهم.

وقد أوثر بالذكر هنا من الأهوال ما له مزيد تناسب لحال المشركين في تألبهم على مناواة الرسول صلى الله عليه وسلم ودين الإسلام، فإنّهم ما ألّبهم إلّا تناصرهم وتوادّهم في الكفر والتباهي بذلك بينهم في نواديهم وأسمارهم، قال تعالى حكاية عن إبراهيم { وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا } [العنكبوت:25]، وتلك شنشنة أهل الشرك من قبل.

وفي معنى هذه الآية قوله آنفا { حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ } [38].

الأخلّاء: جمع خليل، وهو الصاحب الملازم، قيل: إنّه مشتق من التخلّل لأنّه كالمتخلّل لصاحبه والممتزج به. وتقدّم في قوله تعالى { وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا } [النساء:125]. والتعريف للجنس وهو مفيد استغراقا عرفيا، أي: الأخلّاء من المشركين أو الأخلّاء من قريش المتحدّث عنهم، وإلّا فإنّ من الأخلّاء غير المؤمنين من لا عداوة بينهم يوم القيامة وهم الذين لم يستخدموا خلّتهم في إغراء بعضهم بعضا على الشرك والكفر.

العدوّ: المبغض، ووزنه فعول بمعنى فاعل، أي: عاد، ولذلك استوى جريانه على الواحد وغيره، والمذكّر وغيره، وتقدّم عند قوله تعالى { فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ } [النساء:92].

{ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ [68] الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ [69] ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ [70] يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [71] وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [72] لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ [73] }.

{ **يَا عِبَادِ** } مقولة لقول محذوف دلّت عليه صيغة الخطاب، أي: نقول لهم، أو يقول الله لهم.

{ **لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ** } مفاتحة خطابهم بنفي الخوف عنهم تأنيس لهم، ومنّة بإنجائهم من مثله، وتذكير لهم بسبب مخالفة حالهم لحال أهل الضلالة، فإنّهم يشاهدون ما يعامل به أهل الضلالة والفساد.

{ **وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ** } جيء بالمسند إليه مخبرا عنه بالمسند الفعلي لإفادة التقوّي في نفي الحزن عنهم، تطمينا لأنفسهم بانتفاء الحزن عنهم في أزمنة المستقبل، إذ قد يهجس بخواطرهم هل يدوم لهم الأمن الذي هم فيه.

{ **الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنَا** } نعت للمنادى من قوله تعالى { يَا عِبَادِ }، جيء فيها بالموصول لدلالة الصلة على علة انتفاء الخوف والحزن عنهم، وعطف على الصلة قوله تعالى { **وَكَانُوا مُسْلِمِينَ** }.

والمخالفة بين الصلتين إذ كانت أولاهما فعلا ماضيا { آمَنُوا }، والثانية فعل كون مخبرا عنه باسم فاعل، لأنّ الإيمان عقد القلب يحصل دفعة واحدة، وأمّا الإسلام فهو الإتيان بقواعد الإسلام الخمس.

{ **ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ** } من تمام نعمة التمتّع بالخلّة التي كانت بينهم وبين أزواجهم في الدنيا.

{ **تُحْبَرُونَ** } مبني للمجهول مضارع حُبِرَ بالبناء للمجهول، وفعله حَبَره، إذا سَرَّه، ومصدره الحَبْر، والاسم الحُبور والحَبْرة، وتقدّم في قوله تعالى { فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ } [الروم:15].

{ **يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ** } معترضة بين أجزاء القول، فليس في ضمير { عَلَيْهِمْ } التفات بل المقام لضمير الغيبة.

الصحاف: جمع صحفة: إناء لوضع الطعام أو الفاكهة.

الأكواب: جمع كُوب وهو إناء للشراب. وحُذف الوصف لدلالة وصف صحاف عليه، أي: وأكواب من ذهب.

{ **وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ** } كلّ ما تتعلّق الشهوات النفسية بنواله وتحصيله، والله يخلق في أهل الجنة الشهوات اللائقة بعالم الخلود والسموّ.

لذة الأعين: في رؤية الأشكال الحسنة والألوان التي تنشرح لها النفس.

{ **وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** } بشارة لهم بعدم انقطاع ما هم فيه من سعة الرزق ونيل الشهوات، وجيء فيه بالجملة الاسمية الدالة على الدوام والثبات تأكيدا لحقيقة الخلود لدفع توهّم أن يراد به طول المدّة فحسب.

{ **وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } تذييل للقول، عطف على بعض ما يقال لهم مقول آخر قُصد منه التنويه بالجنّة وبالمؤمنين إذ أعطوها بسبب أعمالهم الصالحة.

أشير إلى الجنّة باسم إشارة البعيد تعظيما لشأنها وإلّا فإنّها حاضرة نصب أعينهم. أي: تلك التي ترونها هي الجنة التي سمعتم بها ووعدتم بها.

{ **أُورِثْتُمُوهَا** } استعارة بمعنى: أعطيتموها دون غيركم.

{ **بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } الباء للسببية، وهي سببية بجعل الله ووعده.

{ **لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ** } صفة ثانية للجنّة. و**الفاكهة**: الثمار رطبها ويابسها.

{ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ [74] لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ [75] }.

لهذه الجملة موقعان: الموقع الأوّل: إتمام التفصيل لما أجمله الوعيد الذي في قوله تعالى { فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ } [65] عقب تفصيل بعضه بقوله تعالى { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ } [66]، وبقوله تعالى { الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ } [67]، حيث قُطع إتمام تفصيله بالاعتناء بذكر وعد المؤمنين المتّقين، فهي في هذا الموقع بيان لجملة الوعيد وتفصيل لإجمالها.

الموقع الثاني: أنّها كالاستئناف البياني يثيره ما يُسمع من وصف أحوال المؤمنين المتّقين من التساؤل: كيف يكون حال أضدادهم المشركين الظالمين؟

{ **إِنَّ الْمُجْرِمِينَ** } افتتاح الخبر بـ (إنّ) للاهتمام به، **أو** لتنزيل السائل المتلهّف للخبر منزلة المتردّد في مضمونه لشدة شوقه إليه، **أو** نظرا إلى ما في الخبر من التعريض بإسماعه المشركين وهم ينكرون مضمونه فكأنّه قيل: إنّكم أيّها المجرمون في عذاب جهنم خالدون.

المجرمون: الذين يفعلون الإجرام، وهو الذنب العظيم. والمراد بهم هنا: المشركون المكذّبون للنبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّ السياق لهم، ولأنّ الجملة بيان لإجمال وعيدهم في قوله تعالى { فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ } [65]، فذِكر المجرمين إظهار في مقام الإضمار للتنبيه على أنّ شركهم إجرام.

{ **لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ** } في موضع الحال من { عَذَابِ جَهَنَّمَ }.

{ **يُفَتَّرُ** } مضاعف فَتَرَ، إذا سكن، وهو بالتضعيف يتعدّى إلى مفعول. والمعنى: لا يُفَتِّره أحد.

{ **وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ** } عطف على جملة { إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ }.

الإبلاس: اليأس والذلّ، وتقدّم في [الأنعام:44].

{ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ } [76].

جملة معترضة في حكاية أحوال المجرمين قُصد منها نفي استعظام ما جُوزوا به من الخلود في العذاب، ونفي الرقّة لحالهم المحكية بقوله تعالى { وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ }.

{ **وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ** } الظلم هنا الاعتداء، وهو الإصابة بضرّ بغير موجب مشروع أو معقول، فنفيه عن الله في معاملته إيّاهم بتلك المعاملة لأنّها كانت جزاء على ظلمهم، فلذلك عُقّب بقوله { وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ }، أي: المعتدين، إذ اعتدوا على ما أمر الله من الاعتراف له بالإلهية، وعلى رسوا الله صلى الله عليه وسلم إذ كذَّبوه ولمزوه.

{ **هُمُ** } ضمير الفصل مجتلب لإفادة قصر صفة الظلم على اسم (كان)، وإذ قد كان حرف الاستدراك بعد النفي كافيا في إفادة القصر كان اجتلاب ضمير الفصل تأكيدا للقصر بإعادة صيغة أخرى من صيغ القصر.

{ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ [77] لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ [78] }.

{ **وَنَادَوْا** } حكي نداؤهم بصيغة الماضي مع أنّه ممّا سيقع يوم القيامة، إمّا لأنّ إبلاسهم في عذاب جهنم، وهو اليأس، يكون بعد أن نادوا يا مالك وأجابهم بما أجاب به، وذلك إذا جعلت جملة { ونادوا } حالية. وإمّا لتنزيل الفعل المستقبل منزلة الماضي في تحقيق وقوعه، تخريجا للكلام على خلاف مقتضى الظاهر، وهذا إن كانت جملة { ونادوا } معطوفة.

{ **مَالِكُ** } اسم الملك الموكّل بجهنم خاطبوه ليرفع دعوتهم إلى الله تعالى شفاعة.

{ **لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ** } لام الأمر بمعنى الدعاء، وتوجيه الأمر إلى الغائب لا يكون إلّا على معنى التبليغ كما هنا، أو تنزيل الحاضر منزلة الغائب لاعتبار ما، مثل التعظيم في نحو قول الوزير للخليفة: لير الخليفة رأيه.

القضاء: هنا الإماتة، كقوله تعالى { فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ } [القصص:15]. سألوا الله أن يزيل عنهم الحياة ليستريحوا من إحساس العذاب.

{ **قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ** } وهم إنّما سألوا الله أن يميتهم فأجيبوا بأنّهم ماكثون، جوابا جامعا لنفي الإماتة ونفي الخروج، فهو جواب قاطع لِما قد يسألونه من بعد.

{ **لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ** } في موضع العلّة لجملة { إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ }.

{ **جِئْنَاكُمْ** } الضمير للملائكة، و{ **بِالْحَقِّ** } الوحي الذي نزل به جبريل. فنسب مالك المجيء بالحق إلى جمع الملائكة على طريقة اعتزاز الفريق والقبيلة بمزايا بعضها، وهي طريقة معروفة في كلام العرب.

{ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ** } نُسبت كراهة الحق إلى أكثرهم دون جميعهم لأنّ المشركين فريقان:

أحدهما: سادة كبراء لملّة الكفر وهم الذين يصدّون الناس عن الإيمان بالإرهاب والترغيب، مثل أبي جهل حين صدّ أبا طالب عند احتضاره عن قول لا إله إلا الله، وقال: أترغب عن ملة عبد المطلب.

وأولئك إنّما كرهوا الحقّ لأنّه يرمي إلى زوال سلطانهم وتعطيل منافعهم.
ثانيهما: دهماء وعامة وهم تبع لأئمة الكفر.

{ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ } [79].

{ أَمْ } منقطعة للإضراب الانتقالي من حديث إلى حديث مع اتحاد الغرض، انتقل من حديث ما أعدّ لهم من العذاب يوم القيامة إلى ما أعدّ لهم من الخزي في الدنيا. والكلام بعد (أم) استفهام حُذفت منه أداة الاستفهام، وهو استفهام تقريري وتهديد، أي: أأبرموا أمرا؟

{ أَبْرَمُوا } الضمير مراد به المشركون. وضمير **{ فَإِنَّا }** ضمير الجلالة.

{ فَإِنَّا مُبْرِمُونَ } الفاء للتفريع على ما اقتضاه الاستفهام من تقدير حصول المستفهم عنه، فيؤول الكلام إلى معنى الشرط، أي: إن أبرموا أمرا من الكيد فإنّ الله مبرم لهم أمرا من نقض الكيد وإلحاق الأذى بهم.

ونظيره وفي معناه قوله تعالى { أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ } [الطور:42].

وعن مقاتل نزلت هذه الآية في تدبير قريش بالمكر بالنبيّ صلى الله عليه وسلم في دار الندوة حين استقرّ أمرهم على ما أشار به أبو جهل عليهم أن يبرز من كل قبيلة رجل ليشتركوا في قتل النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى لا يستطيع بنو هاشم المطالبة بدمه، وقتل الله جميعهم في بدر.

الإبرام: حقيقته القتل المحكم، وهو هنا مستعار لإحكام التدبير والعزم على ما دبَّروه.

الأمر: العمل العظيم الخطير، وحذف مفعول { مُبْرِمُونَ } لدلالة ما قبله عليه.

{ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ } [80].

{ أَمْ } هي واستفهامها المقدّر بعدها مثل ما تقدّم في قوله تعالى { أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا } [79].

{ سِرَّهُمْ َ} ما يُسرُّونه في أنفسهم من وسائل المكر للنبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ نَجْوَاهُمْ } ما يتناجون به بينهم في ذلك بحديث خفي.

{ بَلَى } جواب للنفي من قوله تعالى { أَنَّا لَا نَسْمَعُ }، أي: بلى نحن نسمع سرّهم ونجواهم.

{ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ } ليعلموا أنّ علم الله بما يُسرُّون علم يترتب عليه أثر فيهم وهو مؤاخذتهم، لأنّ كتابة الأعمال تؤذن بأنّها ستحسب لهم يوم الجزاء.

الرسل: هم الحفظة من الملائكة لأنّهم مرسلون لتقصِّي أعمال الناس، كقوله تعالى { مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ } [قّ:18]، أي: رقيب يرقب قوله.

الكتابة: يجوز أن تكون حقيقة، وأن تكون مجازا، أو كناية عن الإحصاء والاحتفاظ.

{ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ [81] سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ [82] }.

لمّا جرى ذكر الذين ظلموا بادّعاء بنوّة الملائكة في قوله { فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ } [65]، عَقِب قوله تعالى { وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا } [57]، وعَقِب قوله قبله { وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا } [19]. وأعقب بما ينتظرهم من أهوال القيامة وما أُعدّ للذين انخلعوا عن الإشراك بالإيمان، أمر الله رسوله أن ينتقل من مقام التحذير والتهديد إلى مقام الاحتجاج على انتفاء أن يكون لله ولد، جمعا بين الردّ على بعض المشركين الذين عبدوا الملائكة، والذين زعموا أنّ بعض أصنامهم بنات الله مثل اللات والعزى، فأمره بهذا القول. أي: قل لهم جدلا وإفحاما.

والذين يقول لهم هذا القول هم المشركون الزاعمون ذلك فهذا غرض الآية على الإجمال، مع علم السامعين أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لا يروج عنده ذلك.

{ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ } تذييل، لأنّها نزّهت الله عن جميع ما يصفونه به من نسبة الولد وغير ذلك. يجوز أن تكون تكملة لِما أُمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقوله.

ويجوز أن تكون كلاما مستأنفا من جانب الله تعالى لإنشاء تنزيهه عمّا يقولون، فتكون معترضة بين جملة { قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ } وجملة { وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ } [84].

ووصفُه بربوبية أقوى الموجودات وأعمّها وأعظمها، لأنّه يفيد انتفاء أن يكون له ولد لانتفاء فائدة الولادة، فقد تم خلق العوالم ونظام نمائها ودوامها، وعُلم من كونه خالقها أنّه غير مسبوق بعدم وإلّا لاحتاج إلى خالق يخلقه، واقتضى عدم السبق بعدم أنّه لا يلحقه فناء، فوجود الولد له يكون عبثا.

{ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ } [83].

اعتراض بتفريع عن تنزيه الله عما ينسبونه إليه من الولد والشركاء، وهذا تأييس من إجداء الحجّة فيهم وأنّ الأولى به متاركتهم في ضلالهم إلى أن يحين يوم يلقون فيه العذاب الموعود. وهذا متحقّق في أئمة الكفر الذين ماتوا عليه، وهم الذين كانوا متصدّين لمحاجة النبيّ صلى الله عليه وسلم ومجادلته والتشغيب عليه مثل أبي جهل، وأمية بن خلف، وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، والوليد بن المغيرة، والنضر بن عبد الدار، ممّن قتلوا يوم بدر.

{ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا } الأمر هنا مستعمل في التهديد من قبيل قوله {اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ } [فصلت:40].

الخوض: حقيقته الدخول في لجّة الماء ماشيا، ويطلق مجازا على كثرة الحديث والأخبار والاقتصار على الاشتغال بها، وتقدّم في قوله تعالى { وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ } [الأنعام:86].
المعنى: فأعرض عنهم في حال خوضهم في الأحاديث ولعبهم في مواقع الجد، حين يهزأون بالإسلام.
{ **يَوْمَهُمُ** } هنا محتمل ليوم بدر وليوم القيامة وكلاهما قد وُعدوه.
{ **يُوعَدُونَ** } هنا بمعنى الوعيد كما دل عليه السياق.

{ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ } [84].

{ **وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ** } عطف على جملة { إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ } [81]، والجملتان اللتان بينهما اعتراضان، قُصد من العطف إفادة نفي الشريك في الإلهية مطلقا بعد نفي الشريك فيها بالبنوّة، وقُصد بذكر السماء والأرض الإحاطة بعوالم التدبير والخلق لأنّ المشركين جعلوا لله شركاء في الأرض وهم أصنامهم المنصوبة، وجعلوا له شركاء في السماء وهم الملائكة، إذ جعلوهم بنات الله تعالى، فكان هذا القول إبطالا للفريقين ممّا زُعمت إلهيّتهم.
وكان مقتضى الظاهر بهذه الجملة أن يكون أوّلها { فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ } على أنّه وصف للرحمن من قوله تعالى { إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ }، فعدل عن مقتضى الظاهر بإيراد الجملة معطوفة لتكون مستقلة غير صفة، وبإيراد مبتدأ فيها لإفادة قصر صفة الإلهية في السماء وفي الأرض على الله تعالى لا يشاركه في ذلك غيره، لأنّ إيراد المسند إليه معرفة، والمسند معرفة طريق من طرق القصر.
فالمعنى: وهو لا غيره الذي في السماء إله وفي الأرض إله.
{ **وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ** } بعد أن وُصف الله بالتفرّد بالإلهية أُتبع بوصفه بـ { الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ } تدقيقا للدليل الذي في قوله السابق، حيث دلّ على نفي إلهية غيره في السماء والأرض واختصاصه بالإلهية فيهما، لأنّ الموصوف بتمام الحكمة وكمال العلم مستغن عمّا سواه فلا يحتاج إلى ولد ولا إلى بنت ولا إلى شريك.
فكان هذا القول تتميما للدليل واستدلالا عليه، ولذلك سمّيناه تدقيقا، إذ التدقيق في الاصطلاح هو ذكر الشيء بدليل دليله، وأمّا التحقيق فذكر الشيء بدليله.

{ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [85].

عطف على { سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [82]، قُصد منه إتباع إنشاء التنزيه بإنشاء الثناء والتمجيد.
{ **تَبَارَكَ** } خبر مستعمل في إنشاء المدح، لأنّ معناها: كان متّصفا بالبركة اتصافا قويّا، لما تدل عليه

صيغة تفاعل من قوّة حصول المشتق منه لأنّ أصلها أن تدلّ على صدور فعل من فاعلين مثل: تقاتل وتمارى، فاستعملت في مجرّد تكرّر الفعل، وذلك مثل: تسامى وتعالى.

البركة: الزيادة في الخير.

{ **الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا** } ذكر سابقا مع التنزيه أنّه رب السماوات والأرض لاقتضاء الربوبية التنزيه عن الولد المسوق الكلام لنفيه، وعن الشريك المشمول لقوله تعالى { عَمَّا يَصِفُونَ }، وذكر هنا مع التبريك والتعظيم أنّ له ملك السماوات والأرض لمناسبة الملك للعظمة وفيض الخير.

فلا يريبك أنّ { رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [82] مغن عن { الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } لأنّ غرض القرآن التذكير وأغراض التذكير تخالف أغراض الاستدلال والجدل، فإنّ التذكير يلائم التنبيه على مختلف الصفات باختلاف الاعتبارات والتعرّض للاستمداد من الفضل.

ثم إن صيغة { تَبَارَكَ } تدّل على أنّ البركة ذاتية لله تعالى فيقتضي استغناءه عن الزيادة باتخاذ الولد واتخاذ الشريك، فبهذا الاعتبار كانت هذه الجملة استدلالا آخر تابعا لدليل قوله تعالى { سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ } [82].

{ **وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** } لمّا كان قوله السابق مفيدا التصرّف في هذه العوالم مدّة وجودها ووجود ما بينها أردفه بهذا القول للدلالة على أنّ له مع ملك العوالم الفانية ملك العوالم الباقية، وأنّه المتصرّف في تلك العوالم بما فيها بالتنعيم والتعذيب.

{ **وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** } تقديم المجرور لقصد التقوّي، إذ ليس المخاطبون بمثبتين رُجعى إلى غيره فإنّهم لا يؤمنون بالبعث أصلا. وأمّا قولهم للأصنام { هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ } [يونس:18] فمرادهم أنّهم شفعاء لهم في الدنيا، أو هو على سبيل الجدل ولذلك أتبع بقوله تعالى { وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ} [86].

{ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } [86].

لمّا أنبأهم أنّ لله ملك السماوات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة أعلمهم أنّ ما يعبدونه من دون الله لا يقدر على أن يشفع لهم في الدنيا، إبطالا لزعمهم أنّهم شفعاؤهم عند الله.

{ **إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** } لمّا كان من جملة من عبدوا دون الله الملائكة استثناهم، أي: فهم يشفعون، وهذا في معنى قوله تعالى { وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ } [الانبياء:26]، ثمّ قال { وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى } [الأنبياء:28].

{ **وَهُمْ يَعْلَمُونَ** } أي: وهم يعلمون حال من يستحق الشفاعة.

{ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ } [87].

بعد أن أمعن في إبطال أن يكون إله غير الله بما سيق من التفصيلات، جاء هنا بكلمة جامعة لإبطال زعمهم إلهية غير الله. أي: إن سألتهم سؤال تقرير عمّن خلقهم فإنّهم يقرّون بأنّ الله خلقهم، وهذا معلوم من حال المشركين، كقول ضِمام بن ثعلبة للنبيّ صلى الله عليه وسلم: أسألك بربّك وربّ من قبلك آلله أرسلك؟

والخطاب في قوله تعالى { سَأَلْتَهُمْ } للنبيّ صلى الله عليه وسلم. ويجوز أن يكون لغير معيّن.

{ **لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** } تأكيد بأنّهم يقرّون لله بأنّه الخالق، وذلك كاف في سفاهة رأيهم إذ كيف يكون إلها من لم يخلق، قال تعالى { أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ } [النحل:17].

{ **فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ** } فُرِّع على التقرير والإقرار الانكارُ والتعجيبُ من انصرافهم من عبادة الله.

أنّى: اسم استفهام عن المكان فمحله نصب على الظرفية، أي: إلى أيّ مكان يصرفون.

{ **يُؤْفَكُونَ** } يُصرفون: يقال: أفكه عن كذا، يأفكه، إذا صرفه عنه. وبني للمجهول، إذ لم يصرفهم صارف ولكن صرفوا أنفسهم عن عبادة خالقهم. فهو كقولهم: أين يُذهب بك، أي أين تذهب بنفسك.

{ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ } [88]

{ **وَقِيلِهِ** } القيل مصدر قال، والأظهر أنّه اسم مراد به المفعول، أي: المقول.

قرأ عاصم وحمزة بجر الـ (لام)، وقرأ الجمهور بنصب الـ (لام) على اعتبار أنّه مصدر نصب على أنّه مفعول مطلق بدل من فعله. ويجوز أن يكون النصب على المفعول به.

والضمير المضاف إليه (قيل) ضمير الرسول صلى الله عليه وسلم بقرينة سياق الاستدلال والحجاج.

وضمير الغائب التفات عن الخطاب في قوله { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ } [87]، فإنّه بعد ما مضى من المحاجّة ومن حكاية إقرارهم بأن الله الذي خلقهم، ثم إنّهم لم يتزحزحوا عن الكفر قيد أنملة، حصل اليأس للرسول من إيمانهم فقال { يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ } التجاء إلى الله فيهم وتفويضا إليه ليجري حكمه عليهم. فمقتضى الظاهر: وقولك: يا رب. ويُحسِّن هذا الالتفات أنّه حكاية لشيء في نفس الرسول فجُعل الرسول بمنزلة الغائب لإظهار أنّ الله لا يهمل نداءه وشكواه.

حذف بعد النداء ما نودي لأجله ممّا دلّ عليه مقام من أعيته الحيلة فيهم ففوّض أمره إلى ربّه، فأقسم الله بتلك الكلمة على أنّهم لا يؤمنون.

{ **هَؤُلاءِ** } الإشارة إلى المشركين من أهل مكّة كما هي عادة القرآن غالبا.

{ **قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ** } أدلّ على تمكّن عدم الإيمان منهم من أن يقول: هؤلاء لا يؤمنون.

{ **فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** } [89].

الفاء فصيحة لأنّها أفصحت عن مقدّر، أي: إذ قلت ذلك القيل، وفوّضت الأمر إلينا فسأتولى الانتصاف منهم فاصفح عنهم، أي: أعرض عنهم ولا تحزن لهم وقل لهم إن جادلوك: { سَلَامٌ } ، أي: تركنا المجادلة.

{ **فَاصْفَحْ** } يقال: صَفَح يَصْفَح من باب منع، بمعنى: أعرض وترك، وتقدّم في قوله تعالى { أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا } [5]، ولكن الصفح المأمور به هنا غير الصفح المنكر وقوعه هناك.

{ **سَلَامٌ** } مصدر جاء بدلا من فعله. فأصله النصب، وعدل إلى رفعه لقصد الدلالة على الثبات، كما تقدّم في قوله تعالى { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [الفاتحة].

{ **فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** } تفريع، تهديدا لهم ووعيدا. وحُذف المفعول للتهويل لتذهب نفوسهم كلّ مذهب ممكن. وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر وروح عن يعقوب { تَعْلَمُونَ } على أنّ { فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } ممّا أُمر الرسول بأن يقوله لهم. وقرأه الجمهور بياء تحتية على أنّه وعد من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بأنّه منتقم منهم.

والأمر بالإعراض والتسليم في الجدال والوعيد يؤذن بانتهاء الكلام في هذه السورة، وهو من براعة المقطع.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الدخان

سُمِّيت هذه السورة (**حم الدخان**). روى الترمذي بسندين ضعيفين يعضد بعضهما بعضا: عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" من قرأ حم الدخان في ليلة أو في ليلة الجمعة "**.

وسُمِّيت في المصاحف وفي كتب السنّة (**سورة الدخان**). ووجه تسميتها وقوع لفظ الدخان في قوله تعالى

{ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ } [10]، والمراد به آية من آيات الله أيَّد الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم. وإن كان لفظ (الدخان) بمعنى آخر قد وقع في [فصلت:11] عند قوله تعالى { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ }. وهي نزلت قبل هذه السورة على المعروف من ترتيب تنزيل سور.

وهي مكّيّة كلّها في قول الجمهور. قال ابن عطية: هي مكّية، لا أحفظ خلافا في شيء منها.

وهي السورة الثالثة والستون في عَدِّ نزول السور في قول جابر بن زيد، نزلت بعد سورة الزخرف وقبل سورة الجاثية، في مكانها هذا.

وعُدَّت آيها ستا وخمسين عند أهل المدينة ومكة والشام، وعدّت عند أهل البصرة سبعا وخمسين، وعند أهل الكوفة تسعا وخمسين.

أغراض السورة

*/ أشبه افتتاح هذه السورة فاتحة سورة الزخرف من التنويه بشأن القرآن وشرفه وشرف وقت ابتداء نزوله ليكون ذلك مؤذنا أنّه من عند الله ودالا على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم.

*/ أنّ المعرضين عن تدبّر القرآن ألهاهم الاستهزاء واللمز عن التدبر فحق عليهم دعاء الرسول بعذاب الجوع، إيقاظا لبصائرهم بالأدلة الحسية حين لم تنجع فيهم الدلائل العقلية، ليعلموا أنّ إجابة الله دعاء رسوله صلى الله عليه وسلم دليل على أنّه أرسله ليبلّغ عنه مراده.

*/ أنذرهم بعذاب يحلّ بهم علاوة على ما دعا به الرسول صلى الله عليه وسلم، تأييدا من الله له بما هو زائد على مطلبه.

*/ ضرب لهم مثلا بأمم أمثالهم عصوا رسل الله إليهم فحل بهم من العقاب من شأنه أن يكون عظة لهؤلاء، تفصيلا بقوم فرعون مع موسى ومؤمني قومه، ودون التفصيل بقوم تُبّع، وإجمالا وتعميما بالذين من قبل هؤلاء.

*/ وإذ كان إنكار البعث وإحالته من أكبر الأسباب التي أغرتهم على إهمال التدبّر في مراد الله تعالى انتقل الكلام إلى إثباته والتعريف بما يعقبه من عقوبة المعاندين ومثوبة المؤمنين، ترهيبا وترغيبا.

*/ أدمج فيها فضل الليلة التي أنزل فيها القرآن، أي: ابتدئ إنزاله وهي ليلة القدر.

*/ أدمج في خلال ذلك ما جرت إليه المناسبات من دلائل الوحدانية وتأييد الله من آمنوا بالرسل، ومن إثبات البعث.

*/ ختمت بالشدّ على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم بانتظار النصر وانتظار الكافرين القهر.

{ **حم** } [1].
القول في نظائره تقدّم.

{ **وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ [2] إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ [3] فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ [4] أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ [5] رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [6]** }.
القول في نظير هذا القسم وجوابه تقدّم في أوّل سورة الزخرف.
ونُوِّه بشأن القرآن بطريقة الكناية عنه بذكر فضل الوقت الذي ابتدئ إنزاله فيه.
يجوز أن يكون كلاما موجَّها إلى المشركين ابتداء لفتح بصائرهم إلى شرف القرآن وما فيه من النفع للناس ليكفّوا عن الصدّ عنه، ولهذا وردت الحروف المقطعة في أوّلها المقصود منها التحدي بالإعجاز، واشتملت تلك الجمل الثلاث على حرف التأكيد، ويكون إعلام الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه المزايا حاصلا تبعا إن كان لم يسبق إعلامه بذلك بما سبق من آي القرآن أو بوحي غير القرآن.
ويجوز أن يكون كلاما موجّها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أصالة ويكون علم المشركين بما يحتوي عليه حاصلا تبعا بطريق التعريض، ويكون التوكيد منظورا فيه إلى الغرض التعريضي.
{ **الكِتَابَ** } تعريف العهد، والمراد به: القرآن.
{ **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ** } معنى الفعل ابتداء إنزاله، فإنّ كلّ آية أو آيات تنزل من القرآن فهي منضمّة إليه انضمام الجزء للكلّ، ومجموع ما يبلغ إليه الإنزال في كلّ ساعة هو مُسمَّى القرآن إلى أن تمّ نزول آخر آية منه.
{ **فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ** } تنكير ليلة للتعظيم، ووصفها بـ { مُبَارَكَةٍ } تنويه بها وتشويق لمعرفتها. فهذه الليلة هي الليلة التي ابتدئ فيها نزول القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم في الغار من جبل حراء في رمضان، قال تعالى { شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ } [البقرة:185].
والليلة التي ابتدئ نزول القرآن فيها هي **ليلة القدر** قال تعالى { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} [القدر:1].
والأصحّ أنّها في العشر الأواخر من رمضان وأنّها في ليلة الوتر. وثبت أنّ الله جعل لنظيرتها من كلّ سنة فضلا عظيما لكثرة ثواب العبادة فيها في كل رمضان كرامة لذكرى نزول القرآن وابتداء رسالة أفضل الرسل صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة. قال تعالى { تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ } [القدر:5/4]، وذلك من معاني بركتها.
واختُلف في الليلة التي ابتدئ فيها نزول القرآن على النبيّ صلى الله عليه وسلم من ليالي رمضان، والذي يجب الجزم به أنّ ليلة نزول القرآن كانت في شهر رمضان وأنّه كان في ليلة القدر.
ولمّا تضافرت الأخبار أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال في ليلة القدر: " **اطلبوها في العشر الأواخر من رمضان في ثالثة تبقى، في خامسة تبقى، في سابعة تبقى، في تاسعة تبقى** "، فالذي نعتمده أنّ القرآن

ابتدئ نزوله في العشر الأواخر من رمضان.

وقد اشتهر عند كثير من المسلمين أنّ ليلة القدر ليلة سبع وعشرين باستمرار وهو مناف لحديث اطلبوها في العشر الأواخر.

{ **إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ** } حرف (إن) يجوز أن يكون للتأكيد ردا لإنكارهم أن يكون الله أرسل رسلا للناس، لأنّ المشركين أنكروا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بزعمهم أنّ الله لا يرسل رسولا من البشر، قال تعالى { إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ } [الأنعام:91]، فكان رد إنكارهم ذلك ردا لإنكارهم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، فتكون الجملة مستأنفة.

ويجوز أن تكون (إن) لمجرد الاهتمام بالخبر فتكون مغنية غناء فاء التسبّب فتفيد تعليلا، فتكون الجملة تعليلا لجملة { أَنْزَلْنَاهُ }، أي: أنزلناه للإنذار، لأنّ الإنذار شأننا، فمضمون الجملة علّة العلة وهو إيجاز.

{ **مُنْذِرِينَ** } وإنّما اقتصر على هذا الوصف مع أنّ القرآن منذر ومبشّر اهتماما بالإنذار لأنّه مقتضى حال جمهور الناس يومئذ، والإنذار يقتضي التبشير لمن انتذر. وحذف المفعول لدلالة قوله تعالى { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ } عليه، أي: منذرين المخاطبين بالقرآن.

{ **فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ** } مستأنفة استئنافا بيانيا ناشئا عن تنكير { لَيْلَةٍ } . ووصفها بـ { مُبَارَكَةٍ } كما علمت آنفا، فدلّ على عظم شأن هاته الليلة عند الله تعالى فإنّها ظهر فيها إنزال القرآن، وفيها يفرق عند الله كل أمر حكيم.

المنذر: الذي يُنذر، أي: يخبر بأمر فيه ضرّ لقصد أن يتّقيه المخبَر به، وتقدّم في قوله تعالى { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا } [البقرة:119].

الفرق: الفصل والقضاء، أي: فيها يُفصل كلّ ما يراد قضاؤه في الناس، ولهذا يُسمَّى القرآن فرقانا، وتقدّم قوله تعالى { فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ } [المائدة:25].

أي: جعل الله الليلة التي أنزل فيها القرآن وقتا لإنفاذ وقوع أمور هامة مثل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، تشريفا لتلك المقضيّات، وتشريفا لتلك الليلة.

{ **كُلُّ** } يجوز أن تكون مستعملة في حقيقة معناها من الشمول، وقد علم الله ما هي الأمور الحكيمة فجمعها للقضاء بها في تلك الليلة، وأعظمها ابتداء نزول الكتاب الذي فيه صلاح الناس كافة، ويجوز أن تكون مستعملة في معنى الكثرة، وهو استعمال في كلام الله تعالى وكلام العرب. وتقدّم في قوله تعالى { وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ } [النمل:23].

الأمر الحكيم: المشتمل على حكمة من حكمة الله تعالى، **أو** الأمر الذي أحكمه الله تعالى وأتقنه بما ينطوي عليه من النُّظُم المدبّرة الدالة على سعة العلم وعمومه.

وبعض تلك الأمور الحكيمة يُنْفِذ الأمرَ به إلى الملائكة الموكلين بأنواع الشؤون، وبعضها ينفذ الأمر به على لسان الرسول مدة حياته الدنيوية، وبعضا يُلهم إليه من ألهمه الله أفعالا حكيمة، والله هو العالم

بتفاصيل ذلك.

{ **أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا** } إعادة كلمة { أَمْرًا } لتفخيم شأنه، وإلّا فإن المقصود الأصلي هو قوله { مِنْ عِنْدِنَا }، فكان مقتضى الظاهر أن يقع { مِنْ عِنْدِنَا } صفة لـ { أَمْرٍ حَكِيمٍ } فخولف ذلك لهذه النكتة.

أي: أمرا عظيما فخما إذا وصف بـ { حَكِيمٍ }، ثم بكونه من عند الله تشريفا له بهذه العندية، وينصرف هذا التشريف والتعظيم ابتداء وبالتعيين إلى القرآن إذ كان بنزوله في تلك الليلة تشريفها وجعلها وقتا لقضاء الأمور الشريفة الحكيمة.

{ **إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ** } معترضة وحرف (إن) فيها مثل ما وقع في قوله تعالى { إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ }.

والمفعول محذوف دلّ عليه مادة اسم الفاعل، أي: مرسلين الرسل.

{ **رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ** } مفعول لأجله من { إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ }، أي: كنّا مرسلين لأجل رحمتنا، أي: بالعباد المرسل إليهم، لأنّ الإرسال بالإنذار رحمة بالناس ليتجنّبوا مهاوي العذاب ويكتسبوا مكاسب الثواب، قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ } [الأنبياء:107].

ويجوز أن يكون { رَحْمَةً } حالا من الضمير المنصوب في { أنزلناه } [3].

{ **مِنْ رَبِّكَ** } إظهار في مقام الإضمار لأنّ مقتضى الظاهر أن يقول: رحمة منا، وفائدته الإشعار بأنّ معنى الربوبية يستدعي الرحمة بالمربوبين.

وإضافة لفظة الرب إلى ضمير الرسول صلى الله عليه وسلم صرف للكلام عن مواجهة المشركين إلى مواجهة النبيّ صلى الله عليه وسلم بالخطاب لأنّه الذي جرى خطابهم هذا بواسطته فهو كحاضر معهم عند توجيه الخطاب إليهم فيُصرف وجه الكلام تارة إليه، وهذا لقصد التنويه بشأنه بعد التنويه بشأن القرآن.

{ **إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** } تعليلان بطريق الكناية الرمزية لأنّ علّة الأرسال في الحقيقة هي إرادة الصلاح ورحمة الخلق. وأمّا العلم فهو الصفة التي تجري الإرادة على وفقه، فالتعليل بصفة العلم بناء على مقدّمة أخرى وهي أنّ الله تعالى حكيم لا يحب الفساد، فإذا كان لا يحب ذلك وكان عليما بتصرّفات الخلق كان علمه وحكمته مقتضيين أن يرسل للناس رسلا رحمة بهم.

وفي الوصف بـ { السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } تعريض بالتهديد.

{ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ } [7].

هذا عَود إلى مواجهة المشركين بالتذكير على نحو ما ابتدئت به السورة. وهو تخلّص للاستدلال على تفرّد الله بالإلهية إلزاما لهم بما يقرُّون به من أنّه ربّ السماوات والأرض وما بينهما، ويقرّون بأنّ الأصنام لا تخلق شيئا.

{ **إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ** } إثارة التيقّظ لعقولهم إذ نزّلهم منزلة المشكوك إيقانهم لعدم جريهم على موجب

الإيقان لله بالخالقية حين عبدوا غيره. وحذف متعلّق { مُوقِنِينَ } للعلم به من قوله تعالى { رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا }. وجواب الشرط محذوف دلّ عليه المقام. والتقدير: إن كنتم موقنين فلا تعبدوا غيره، ولذلك أعقبه بجملة { لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ } [8].

{ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ } [8].

نتيجة للدليل المتقدّم، لأنّ انفراده بربوبية السماوات والأرض وما بينهما دليل على انفراده بالإلهية، أي: على بطلان إلهية أصنامهم، فكانت هذه الجملة نتيجة لذلك، فلذلك فصلت لشدة اقتضاء الجملة التي قبلها إيّاها.

{ **يُحْيِي وَيُمِيتُ** } مستأنفة للاستدلال على أنّه لا إله إلا هو بتفرّده بالإحياء والإماتة. والمشركون لا ينازعون في أنّ الله هو المحيي والمميت. فكما استدلّ عليهم بتفرّده بإيجاد العوالم وما فيها استدل عليهم هنا بخلق أعظم أحوال الموجودات وهي حالة الحياة التي شُرِّف بها الإنسان عن موجودات العالم الأرضي، وكُرِّم أيضا بإعطائها للحيوان لانتفاع الإنسان به بسببها. وبتفرّده بالإماتة وهي سلب الحياة عن الحي، للدلالة على أنّ الحياة ليست ذاتية للحي.

{ **وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ** } تعقيب بإثبات ربوبيّته للمخاطبين تسجيلا عليهم بجحد الأدلة وبكفران النعمة بقولهم { وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ } [22].

{ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ } [9].

{ **بَلْ** } للإضراب الإبطالي ردًّ به أن يكونوا موقنين ومقرّين بأنَّه ربّ السماوات والأرض وما بينهما فإنّ إقرارهم غير صادر عن علم ويقين ثابت بل هو كالعدم لأنّهم خلطوه بالشك واللعب فارتفعت عنه خاصية اليقين والإقرار التي هي الجري على موجب العلم، فإنّ العلم إذا لم يجر صاحبه على العمل به وتجديد ملاحظته تطرّق إليه الذهول ثم النسيان فضعف حتّى صار شكا لانحجاب الأدلة التي يرسخ بها في النفس. أي: هم شاكون في وحدانية الله تعالى.

{ **فِي شَكٍّ** } حرف الظرفية للدلالة على شدّة تمكّن الشك من نفوسهم حتّى كأنّه ظرف محيط بهم لا يجدون عنه مخرجا، أي: لا يفارقهم الشك.

{ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ [10] يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ [11] }.

تفريع على الجملة السابقة قُصد منه وعد الرسول صلى الله عليه وسلم بانتقام الله من مكذِّبيه، ووعيد المشركين على جحودهم بدلائل الوحدانية وصدق الرسول وعكوفهم على اللعب، أي: الاستهزاء بالقرآن

والرسول.

{ **فَارْتَقِبْ** } الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والأمر مستعمل في التثبيت.

الارتقاب: افتعال من رقبه، إذا انتظره، وإنّما يكون الانتظار عند قرب حصول الشيء المنتظر.

والفعل يقتضي بصريحه أنّ إتيان السماء بدخان لم يكن حاصلا في نزول هذه الآية، ويقتضي كناية عن اقتراب وقوعه.

{ **يَوْمَ** } اسم زمان منصوب على أنّه مفعول به لـ { فَارْتَقِبْ }، وهو مضاف إلى الجملة بعده لتمييز اليوم المراد عن بقية الأيام بأنّه الذي تأتي فيه السماء بدخان مبين.

وأطلق اليوم على الزمان، فإنّ ظهور الدخان كان في أيّام وشهور كثيرة.

{ **تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ** } إسناد الإتيان به إلى السماء مجاز عقلي لأنّ السماء مكانه حين يتصاعد في جو السماء أو حين يلوح للأنظار منها.

الدخان: ما يتصاعد عند إيقاد الحطب، وهو تشبيه بليغ، أي: بمثل دخان.

المبين: البيّن الظاهر، وهو اسم فاعل من أبان الذي هو بمعنى بان. والمعنى: أنّه ظاهر لكل أحد.

قال أبو عبيدة وابن قتيبة: الدخان في الآية هو: الغبار الذي يتصاعد من الأرض من جراء الجفاف، وأنّ الغبار يسميه العرب دخانا.

وعن الأعرج: أنّه الغبار الذي أثارته سنابك الخيل يوم فتح مكّة، فقد حجبت الغبرة السماء.

والأصحّ أنّ هذا الدخان عُني به ما أصاب المشركين من سني القحط بمكة بعد هجرة النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، لحديث عبد الله بن مسعود في صحيح البخاري عن مسلم وأبي الضحى عن مسروق قال: دخلت على عبد الله بن مسعود فقال: إنّ قريشا لمّا غلبوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم واستعصوا عليه قال: **" اللّهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف "**، فأخذتم سنة أكلوا فيها العظام والميتة من الجهد حتّى جعل أحدهم يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجوع، فأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل له: استسق لمضر أن يكشف عنهم العذاب، فدعا فكُشف عنهم.

قال المفسِّرون: إنّ أبا سفيان أتاه في ناس من أهل مكة، يعني أتوا المدينة، لمّا علموا أنّ النبيّ كان دعا عليهم بالقحط، فقالوا: إن قومك قد هلكوا فادع الله أن يسقيهم فدعا.

وعلى هذه الرواية يكون قوله تعالى { يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ } تمثيلا لهيئة ما يراه الجائعون من شبه الغشاوة على أبصارهم حين ينظرون في الجو بهيئة الدخان النازل من الأفق، فالمجاز في التركيب.

{ **يَغْشَى النَّاسَ** } أنّه يحيط بهم ويعمُّهم كما تحيط الغاشية بالجسد، أي: لا ينجو منه أحد من أولئك الناس وهم المشركون. فإن كان المراد من الدخان ما أصاب أبصارهم من رؤية مثل الغبرة من الجوع فالغشيان مجاز، وإن كان المراد منه غبار الحرب يوم الفتح فالغشيان حقيقة أو مجاز مشهور. ويجوز أن يكون غبارا متصاعدا في الجو من شدّة الجفاف.

{ **هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ** } قال ابن عطية يجوز أن يكون إخبارا من جانب الله تعالى تعجيبا منه، كما في قوله تعالى في قصة الذبيح { إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ } [الصافات:106]، ويحتمل أن يكون ذلك من قول الناس الذين يغشاهم العذاب بتقدير: يقولون: هذا عذاب أليم.
{ **هَذَا** } الإشارة إلى الدخان المذكور آنفا، عدل عن استحضاره بالإضمار وأن يقال: هو عذاب أليم، إلى استحضاره بالإشارة، لتنزيله منزلة الحاضر المشاهد، تهويلا لأمره.

{ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ } [12].

معترضة بين جملة { هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ } [11] وجملة { أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى } [13]، فهي مقول قول محذوف. وحملها جميع المفسِّرين على أنّها حكاية قول الذين يغشاهم العذاب بتقدير يقولون: ربنا اكشف عنا العذاب، أي: هو وعد صادر من الناس الذين يغشاهم العذاب بأنّهم يؤمنون إن كُشف عنهم العذاب.
وممّا تسمح به تراكيب الآية وسياقها أن يكون القول المحذوف مقدّرا بفعل أمر (أي: قولوا)، لتلقين المسلمين أن يستعيذوا بالله من أن يصيبهم ذلك العذاب، إذ كانوا والمشركين في بلد واحد، كما استعاذ موسى عليه السلام بقوله { أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا } [الأعراف:155]. فهذا التلقين كالذي في قوله تعالى { رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا } [البقرة:286].
وعليه فجملة { **إِنَّا مُؤْمِنُونَ** } تعليل لطلب دفع العذاب عنهم، أي: إنّا متلبّسون بما يدفع عنا عذاب الكافرين. وفي تلقينهم بذلك تنويه بشرف الإيمان. وأسلوب الكلام جار على أنّ جملة { إِنَّا مُؤْمِنُونَ } تعليل لطلب كشف العذاب عنهم لما يقتضيه ظاهر استعمال حرف (إن) من معنى الإخبار دون الوعد، ومن التعليل دون التأكيد، ولما يقتضيه اسم الفاعل من زمن الحال دون الاستقبال، ولأنّ سياقه خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم بترقّب إعانة الله إيّاه على المشركين، كما كان يدعو (**أعني عليهم بسبع كسني يوسف**)، فمقتضى المقام تأمينه من أن يصيب العذاب المسلمين وفيهم النبيّ صلى الله عليه وسلم.
وظاهر مادة (**الكشف**) تقتضي إزالة شيء كان حاصلا في شيء إلّا أنّ الكشف هنا لما لم يكن مستعملا في معناه الحقيقي كان مجازه محتملا أن يكون مستعملا في منع حصول شيء يُخشى حصوله.
ولم يذكر أحد من رواة السير والآثار أنّ المشركين وعدوا النبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّهم يسلمون إن أزال الله عنهم القحط.

{ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ [13] ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ [14] }.

هذه الجملة جعلها جميع المفسرين جوابا عن قول القائلين { رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ } [12] تكذيبا لوعدهم، أي: هم لا يتذكّرون، وكيف يتذكّرون وقد جاءهم ما هو أقوى دلالة من العذاب وهي دلائل صدق الرسول صلى الله عليه وسلم.

وأمّا على التأويل الذي انتزعناه من تركيب الآية فهي جملة مستأنفة ناشئة عن قوله تعالى { بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ } [9]، وهي كالنتيجة لها، لأنّهم إذا كانوا في شك يلعبون فقد صاروا بعداء عن الذكرى.

{ **أَنَّى** } اسم استفهام أصله استفهام عن أمكنة حصول الشيء، ويتوسّعون فيها فيجعلونها استفهاما عن الأحوال بمعنى (كيف) بتنزيل الأحوال منزلة ظروف في مكان، كما هنا، بقرينة قوله تعالى { وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ }. والمعنى: من أين تحصل لهم الذكرى والمخافة عند ظهور الدخان المبين وقد سُدَّت عليهم طرقها بطعنهم في الرسول صلى الله عليه وسلم الذي أتاهم بالتذكير.

والاستفهام مستعمل في الإنكار والإحالة، أي: كيف يتذكَّرون وهم في شك يلعبون وقد جاءهم رسول مبين فتولوا عنه وطعنوا فيه. فجملة { **وَقَدْ جَاءَهُمْ** } في موضع الحال.

{ **مُبِينٌ** } اسم فاعل إمّا من أبان المتعدي، وحذف مفعوله لدلالة { الذِّكْرَى } عليه، أي: مُبيِّن لهم ما به يتذكَّرون، ويجوز أن يكون من أبان القاصر الذي هو بمعنى بان، أي: رسول ظاهر، أي: ظاهرة رسالته عن الله بما توفّر معها من دلائل صدقه.

وإيثار { مُبِينٌ } بالتخفيف على (مبيّن) بالتشديد من نكت الإعجاز ليفيد المعنيين.

{ **ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ** } للتراخي الرتبي وهو ترقّ من مفاد قوله { بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ } [9] أي: وقد جاءهم رسول فشكّوا في رسالته ثم تولّوا عنه وطعنوا فيه. ومعنى التراخي الرتبي هنا أنّ التولّي والبهتان أفظع من الشك واللعب.

{ **مُعَلَّمٌ** } الذي يُعلِّمه غيره، وتقدّم عند قوله تعالى { وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ } [النحل:103].

أي: أنّهم وصفوه مرة بأنه يعلّمه غيره، ووصفوه مرّة بالجنون، تنقّلا في البهتان، أو وصفه فريق بهذا وفريق بذلك، فالقول موزّع بين أصحاب ضمير { قَالُوا }، أو بين أوقات القائلين. ولا يصح أن يكون قولا واحدا في وقت واحد لأنّ المجنون لا يكون مُعلَّما.

{ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ } [15].

يجيء على ما فسَّر به جميع المفسرين قوله تعالى { رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ } [12]، أنّ هذه الجملة جواب لسؤالهم، ويجيء على ما درجنا عليه أن تكون هذه الجملة إعلاما للنبيّ صلى الله عليه وسلم بأن يُكشف العذاب المتوعَّد به المشركون مدّة، فيعودون إلى ما كانوا فيه، وعليه فضمير { إِنَّكُمْ عَائِدُونَ } التفات إلى خطاب المشركين.

{ **إِنَّكُمْ عَائِدُونَ** } مستأنفة استئنافا بيانيا لأنّهم إذا سمعوا { إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا } تطلعوا إلى ما سيكون بعد كشفه، وتطلع المؤمنون إلى ما تصير إليه حال المشركين بعد كشف العذاب هل يقلعون عن الطعن؟ فكان هذا القول مّبيّنا لما يتساءلون عنه. أي: يمسكون عن ذلك مدّة وهي المدّة التي أرسلوا فيها وفدهم

إلى المدينة ليسأل الرسول صلى الله عليه وسلم أن يدعو الله بكشف القحط عنهم فإنّهم أيامئذ يمسكون عن الطعن والذمّ رجاء أن يدعو لهم ثم يعودون لما كانوا فيه.

{ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ } [16].

هذا هو الانتقام الذي وُعد به الرسول صلى الله عليه وسلم، وتُوعِّد به أئمة الكفر. والجملة مستأنفة استئنافا بيانيا ناشئا عن قوله تعالى { إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ } فإنّ السامع يثار في نفسه سؤال عن جزائهم حيث يعودون إلى التولِّي والطعن فأجيب بأن الانتقام منهم هو البطشة الكبرى، وهي الانتقام التام. والتأكيد دفعا للتردّد.

{ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى } هي بطشة يوم بدر، فإنّ ما أصاب صناديد المشركين يومئذ كان بطشة بالشرك وأهله لأنّهم فقدوا سادتهم وذوي الرأي منهم الذين كانوا يسيّرون أهل مكة كما يريدون.

البطشة: واحدة البطش: الأخذ الشديد بعنف، وتقدّم في قوله { أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا } [الأعراف:195].

{ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ [17] أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ [18] وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ [19] وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ [20] وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ [21] }.

جعل الله قصة قوم فرعون مع موسى عليه السلام وبني إسرائيل مثلا لحال المشركين مع النبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به، وجعل ما حلّ بهم إنذارا بما سيحلّ بالمشركين من القحط والبطشة، مع تقريب حصول ذلك وإمكانه ويسره، وإن كانوا في حالة قوة فإنّ الله قادر عليهم. فذكْر القصة هنا تأييد للنبيّ صلى الله عليه وسلم ووعد له بالنصر وحسن العاقبة، وتهديد للمشركين.

{ وَلَقَدْ فَتَنَّا } <u>يجوز</u> أن تكون حال من ضمير { إِنَّا مُنْتَقِمُونَ } [16]. <u>ويجوز</u> أن تكون معطوفة عليها، أي: منتقمون منهم في المستقبل كما انتقمنا من قوم فرعون فيما مضى.

{ قَبْلَهُمْ } أشعر أنّ أهل مكة سيفتنون كما فُتن قوم فرعون.

والمقصود تشبيه الحالة بالحالة ولكن عدل عن صوغ الكلام بصيغة التشبيه والتمثيل إلى صوغه بصيغة الإخبار اهتماما بالقصة وإظهارا بأنّها في ذاتها ممّا يهمّ العلم به، وأنّها تذكير مستقل وأنّها غير تابعة غيرها.

{ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ } عطف على الجملة السابقة، أي: ولقد جاءهم رسول كريم، عطف مفصَّل على مجمل، تفصيل لقصة بعثة موسى عليه السلام.

الفتن: الإيقاع في اختلال الأحوال، وتقدّم في قوله تعالى { وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ } [البقرة:191].

الرسول الكريم: موسى، و**الكريم**: النفيس الفائق في صنفه، وتقدّم عند قوله تعالى { إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ} [النمل:29]. أي: رسول من خيرة الرسل، أو من خيرة الناس.

{ **أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ** } تفسير لما تضمّنه وصف { رَسُولٌ } وفعل { جَاءَهُمْ } من معنى الرسالة والتبليغ. أي: أرجعوا إليّ وأعطوا، قال تعالى {وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ} [آل عمران:75]. يقال: أدَّى الشيء: أوصله وأبلغه. جعل بني إسرائيل كالأمانة عند فرعون على طريقة الاستعارة المكنية. والمخاطب فرعون ومن حضر من ملئه، ولعلّه إنّما خاطب مجموع الملإ لمّا رأى من فرعون صلفا وتكبّرا من الامتثال لعلّ فيهم من يتبصّر الحق.

{ **عِبَادَ اللَّهِ** } يجوز أن يكون مفعول { أَدُّوا } مرادا به بنو إسرائيل، أجري وصفهم { عِبَادَ اللَّهِ } تذكيرا لفرعون بموجب رفع الاستعباد عنهم، وجاء أيضا { أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرائيلَ } [الشعراء:17].

ويجوز أن يكون مفعول فعل { أَدُّوا } محذوفا يدل عليه المقام، أي: أدُّوا إليَّ الطاعة، ويكون { عِبَادَ اللَّهِ } منادى بحذف حرف النداء. قال ابن عطية: الظاهر من شرع موسى أنّه بُعث إلى دعاء فرعون للإيمان وأن يرسل بني إسرائيل، فلمّا أبى فرعون أن يؤمن ثبتت المكافحة في أن يرسل بني إسرائيل، قال: ويدلّ عليه قوله بعد { وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ }.

{ **إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ** } علّة للأمر بتسليم بني إسرائيل إليه، أي: لأنّي مرسل إليكم بهذا، ومؤتمن على ذلك. { **وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ** } أي: لا تعلوا على أمره أو على رسوله، فلمّا كان الاعتلاء على أمر الله وأمر رسوله ترفيعا لأنفسهم على واجب امتثال ربهم جُعلوا في ذلك كأنّهم يتعالون على الله.

{ **إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ** } علّة جديرة بالعود إلى الجمل الثلاثة المتقدّمة: { أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ } و{ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ } و{ وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ }، لأنّ المعجزة تدلّ على تحقق مضامين تلك الجمل معلولها وعلّتها.

السلطان: من أسماء الحجّة، قال تعالى { إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا } [يونس:68]، فالحجّة تلجئ المحجوج على الإقرار لمن يحاجّه، فهي كالمتسلّط على نفسه. وهي هنا: المعجزة لأنّها حجّة عظيمة، ولذلك وصف السلطان بـ { مُبِينٍ }، أي: واضح الدلالة لا ريب فيه. وهذه المعجزة هي انقلاب عصاه ثعبانا مبينا.

{ **وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ** } عطف على جملة { أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ }، فإنّ مضمون هذه الجملة ممّا شمله كلامه حين تبليغ رسالته. ومعناه: جعلت ربي عوذا، أي: ملجأ. ومثل هذا التركيب ممّا جرى مجرى المثل، ومنه قوله تعالى { قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا } [مريم:18].

{ **رَبِّي وَرَبُّكُمْ** } تعبير أدخل في ارعوائهم من رجمه حين يتذكّرون أنّه استعصم بالله الذي يشتركون في مربوبيّته، وأنّهم لا يخرجون عن قدرته.

الرجم: الرمي بالحجارة تباعا حتّى يموت المرمي أو يثخنه الجراح. والقصد منه تحقير المقتول لأنّهم

كانوا يرمون بالحجارة من يطردونه، قال تعالى { قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ } [الحجر:34].
وإنّما استعاذ موسى منه لأنه علم أنّ عادتهم عقاب من يخالف دينهم بالقتل رميا بالحجارة. كما جاء في قوله تعالى { فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ } [القصص:33].

{ **وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ** } التقدير: فاعتزلوني وأعتزلكم لأنّ الاعتزال لا يتحقّق إلّا من جانبين.
وقد جاء ترتيب فواصل هذا الخطاب على مراعاة ما يبدو من فرعون وقومه عند إلقاء موسى دعوته عليهم؛ إذ ابتدأ بإبلاغ ما أرسل به إليهم فآنس منهم التعجّب والتردّد، **فقال**: { إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ }.
فرأى منهم الصلف والأنفة، **فقال**: { وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ }.
فلم يرعوا، **فقال**: { إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ }.
فلاحت عليهم علامات إضمار السوء له، **فقال**: { وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ }.
فكان هذا الترتيب بين الجمل مغنيا عن ذكر ما أجابوا به على أبدع إيجاز.

{ **فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ** } [22].

ليس في المذكور قبل الفاء ما يناسبه التعقيب بهذا الدعاء، إذ المذكور قبله كلام من موسى إليهم، فالتقدير: فأصرّوا على أذاه وعدم متاركته فدعا ربه، وهذا التقدير أليق بقوله { أَنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ }.
{ **أَنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ** } التركيب يستوجب تقدير (باء) يتعدّى بها فعل { فَدَعَا }، أي: دعا ربه بأنّهم استوجبوا تسليط العقاب. فالإخبار عن كونهم قوما مجرمين مستعمل في طلب المجازاة على الإجرام، **أو** في الشكاية من اعتدائهم، **أو** في التخوّف من شرّهم إذا استمروا على عدم تسريح بني إسرائيل، وكل ذلك يقتضي الدعاء لكف شرّهم، فلذلك أطلق على هذا الخبر فعل (دعا).

{ **فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ** } [23].

تفريع على الجملة السابقة، والمفرّع قول محذوف دلّت عليه صيغة الكلام، أي: فدعا فقلنا: اسر بعبادي.
يقال: سرى وأسرى. وتقدّم عند قوله تعالى { سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ } [الاسراء:1]، فتقييده بزمان الليل هنا نظير تقييده هناك، والمقصود تأكيد معنى الإسراء بأنّه حقيقة وليس مستعملا مجازا في التبكير بناء على أنّ المتعارف في الرحيل أن يكون فجرا.
وفائدة التأكيد أن يكون له من سعة الوقت ما يبلغون به إلى شاطئ البحر الأحمر قبل أن يدركهم فرعون.
{ **إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ** } تعليل للأمر بالإسراء ليلا لأنّه ممّا يُستغرب، أي: أنّكم متّبعون فأردنا أن تقطعوا مسافة يتعذّر على فرعون لحاقكم.

{ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ } [24].

عطف على السابقة، فيجوز أن تكون الجملتان صدرتا متّصلتين بأن أعلم الله موسى حين أمره بالإسراء بأنّه يضرب البحر بعصاه فينفلق عن قعره اليابس حتّى يمر منه بنو إسرائيل كما ورد في [الشعراء:63].

ففي الكلام إيجاز تقديره: فإذا سريت بعبادي فسنفتح لكم البحر فتسلكونه فإذا سلكته فلا تخش أن يلحقكم فرعون وجنده واتركه فإنّهم مغرقون فيه.

ويجوز أن تكون الجملة الثانية صدرت وقت دخول موسى ومن معه في طرائق البحر، فيقدّر قول محذوف، أي: وقلنا له: اترك البحر رهوا.

{ وَاتْرُكِ } على الوجهين مجاز في عدم المبالاة بالشيء، كما يقال: دعه يفعل كذا، وذره، كقوله تعالى { ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ } [الأنعام:91].

البحر: هو بحر القلزم المسمَّى اليوم البحر الأحمر.

{ رَهْوًا } حال من البحر على التشبيه البليغ، أي: مثل رهو. و**الرهو**: الفجوة الواسعة. وأصله مصدر رها، إذا فتح بين رجليه، فسُمِّيت الفجوة رهوا تسمية بالمصدر.

{ إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ } استئناف بياني جوابا عن سؤال ناشئ عن الأمر بترك البحر مفتوحا.

الجند: القوم والأمّة وعسكر الملك.

{ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ [25] وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ [26] وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ [27] كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ [28] }.

استئناف ابتدائي مسوق للعبرة بعواقب الظالمين المغرورين بما هم فيه من النعمة والقوّة، غرورا أنساهم مراقبة الله فيما يرضيه، فموقع هذا الاستئناف موقع النتيجة من الدليل أو البيان من الإجمال لما في قوله تعالى { وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ } [17] من التنظير الإجمالي.

الترك: حقيقته إبقاء شيء في مكان متنقَّل عنه إبقاء اختياريا، ويطلق مجازا على المفارقة غلبة دون اختيار، وهو مجاز مشهور يقال: ترك الميت مالا، ومنه سُمِّي مُخلَّف الميت تركة، وهو هنا من هذا القبيل.

وفعل { تَرَكُوا } مؤذن بأنّهم أُغرقوا، وفي ذلك إشارة إلى أنّ ما أمر الله به موسى ووعده به قد تمّ، ففي الكلام إيجاز حذف جمل كثيرة يدلّ عليها قوله تعالى { كَمْ تَرَكُوا }.

المَقام (بفتح الميم): مكان القيام، والقيام هنا مجاز في معنى التمكّن من المكان.

الكريم: من كل نوع أنفسه وخيره، والمراد به: المساكن والديار والأسواق ونحوها ممّا كان لهم.

النَّعمة (بفتح النون): اسم للتنعّم مصوغ على وزنة المرّة. وليس المراد به المرّة بل مطلق المصدر باعتبار أنّ مجموع أحوال النعيم صار كالشيء الواحد، وهو أبلغ وأجمع في تصوير معنى المصدر.

{ **فَاكِهِينَ** } متصفين بالفُكاهة (بضم الفاء): وهي اللعب والمزح، أي: كانوا مغمورين في النعمة لاعبين فيها.

{ **كذلك** } راجع لفعل { تَرَكُوا }. والتقدير: تركا مثل ذلك الترك. والإشارة إلى مقدّر دلّ عليه الكلام.

{ **وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ** } عطف على { تَرَكُوا } أي: تركوها وأورثناها غيرهم، أي: لفرعون الذي ولي بعد موت هذا الفرعون، ولكونه من غير نسل فرعون وُصف هو وجنده بقوم آخرين، وليس المراد قوما من بني إسرائيل.

ووقع في آية الشعراء { فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرائيلَ} [الشعراء:59/57]، والمراد هنالك أنّ أنواعا ممّا أخرجنا منه قوم فرعون أورثناها بني إسرائيل، ولم يقصد أرض فرعون. ومناسبة ذلك هنالك أنّ القومين أخرجا ممّا كانا فيه، فسلب أحد الفريقين ما كان له دون إعادة لأنّهم هلكوا، وأعطي الفريق الآخر أمثال ذلك في أرض فلسطين.

{ **فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ** } [29].

تفريع على قوله تعالى { كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ - إلى قوله - قَوْمًا آخَرِينَ } [28/25]، فإنّ ذلك كلّه يتضمّن أنّهم هلكوا وانقرضوا، أي: فما كان مهلكهم إلّا كمهلك غيرهم ولم يكن حدثا عظيما كما كانوا يحسبون.

وكان من كلام العرب إذا هلك عظيم أن يهوّلوا أمر موته بنحو: بكت عليه السماء، وبكته الريح، وتزلزلت الجبال. والكلام مسوق مساق التحقير لهم.

{ **وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرائيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ** [30] **مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ** [31] }.

معطوف على الكلام المحذوف الذي دلّ عليه قوله تعالى { إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ } [24].

والتقدير: فأغرقناهم ونجّينا بني إسرائيل، كما قال في قوله تعالى { وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ } [الشعراء:66/64]. أي: فكانت آية البحر هلاكا لقوم وإنجاء لآخرين.

والمقصود: الإشارة إلى أنّ الله تعالى ينجي الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم من عذاب أهل الشرك بمكة، كما نجّى الذين اتبعوا موسى من عذاب فرعون.

{ **الْعَذَابِ الْمُهِينِ** } هو ما كان يعاملهم به فرعون وقومه من الاستعباد والإشقاق عليهم في السُّخرة، فذلك العذاب المهين، لأنّه عذاب فيه إذلال.

{ **مِنْ فِرْعَوْنَ** } الأظهر أن يكون بدلا مطابقا لـ { **الْعَذَابِ الْمُهِينِ** } فتكون { مِنْ } مؤكدة لـ { مِنَ } الأولى المعدّية لـ { نَجَّيْنَا }، لأنّ الحرف الداخل على المبدل منه يجوز أن يدخل على البدل للتأكيد.

فأظهرت { مِنْ } لخفاء كون اسم فرعون بدلا من العذاب تنبيها على قصد التهويل لأمر فرعون في جعل اسمه نفس العذاب المهين، أي: في حال كونه صادرا من فرعون.

{ **إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا** } مستأنفة استئنافا بيانيا لبيان التهويل الذي أفاده جعل اسم فرعون بدلا من العذاب المهين. **العالي**: المتكبّر العظيم في الناس، قال تعالى { إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ } [القصص:4].

{ **مِنَ الْمُسْرِفِينَ** } خبر ثان عن فرعون، و**الإسراف**: الإفراط والإكثار. والمراد هنا: الإكثار في التعالي، يراد الإكثار في أعمال الشر بقرينة مقام الذمّ. والتركيب أشد مبالغة من قول: مسرفا.

{ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ } [32].

إشارة إلى أنّ الله تعالى قد اختار الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم على أمم عصرهم كما اختار الذين آمنوا بموسى عليه السلام على أمم عصرهم، وأنّه عالم بأنّ أمثالهم أهل لأنّ يختارهم الله.

والمقصود: التنويه بالمؤمنين بالرسل، وأنّ ذلك يقتضي أن ينصرهم الله على أعدائهم.

{ **وَلَقَدِ** } التأكيد لأجل الإشارة السابقة، كما أُكِّد في قوله تعالى آنفا { وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرائيلَ } [30].

{ **عَلَى عِلْمٍ** } (على) هنا بمعنى (مع)، وموضع المجرور بها موضع الحال.

{ **العَالَمِينَ** } الأمم المعاصرة لهم. ثم بدّلوا بعد ذلك فضُربت عليهم الذلّة.

{ وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ } [33].

إيتاء الآيات من آثار الاختيار لأنّه من عناية الله بالأمّة لأنّه يزيدهم يقينا بإيمانهم.

{ **الْآيَاتِ** } المعجزات التي ظهرت على يد موسى عليه السلام أيّد الله بها بني إسرائيل في مواقع حروبهم بنصر الفئة القليلة منهم على الجيوش الكثيرة من عدوّهم.

وهذا تعريض بالإنذار للمشركين بأنّ المسلمين سيغلبون جمعهم مع قلّتهم.

البلاء: الاختبار يكون بالخير والشر. فالأوّل اختبار لمقابلة النعمة بالشكر أو غيره، والثاني اختبار لمقدار الصبر، قال تعالى { وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً } [الانبياء: 35]. أي: ما فيه اختبار لهم في نظر الناس ليعلم بعضهم أنّهم قابلوا نعمة إيتاء الآيات بالشكر، ويحذِّروا قومهم من مقابلة النعمة بالكفران.

{ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ [34] إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ [35] فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [36] }.

اعتراض بين جملة { يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ } [16] وجملة { أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ } [37]، فإنّه لمّا هدّدهم بعذاب الدخان ثم بالبطشة الكبرى وضرب لهم المثل بقوم فرعون، أعقب ذلك بالإشارة إلى أنّ إنكار البعث هو الذي صرفهم عن توقّع جزاء السوء على إعراضهم.

{ **إِنَّ** } ليس هنا للتأكيد لأنّ هذا القول لا تردّد فيه حتّى يحتاج إلى التأكيد فتعيّن كونه لمجرّد الاهتمام بالخبر، وهو إذا وقع مثل هذا الموقع أفاد التسبُّب وأغنى عن الفاء. فالمعنى: إنّا منتقمون منهم بالبطشة الكبرى لأنّهم لا يرتدعون بوعيد الآخرة لإنكارهم الحياة الآخرة.

{ **هَؤُلَاءِ** } حيثما ذكر في القرآن غير مسبوق بما يصلح أن يشار إليه مراد به المشركون من أهل مكة.

{ **هِيَ** } ضمير الشأن ويقال له: ضمير القصة، لأنّه يستعمل بصيغة المؤنث بتأويل القصة، أي: لا قصة في هذا الغرض إلّا الموتة المعروفة فهي موتة دائمة لا نشور لنا بعدها.

وهذا كلام من كلماتهم في إنكار البعث فإنّ لهم كلمات في ذلك، فتارة ينفون أن تكون بعد الموت حياة كما حكى عنهم في آيات أخرى مثل قوله تعالى { وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا } [الأنعام:29]، وتارة ينفون أن يطرأ عليهم بعد الموتة المعروفة شيء غيرها، يعنون بذلك شيئا ضدّ الموتة وهو الحياة بعد الموتة. فلهم في نفي الحياة بعد الموت أفانين من أقوال الجحود.

{ **إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى** } السابقة، ونظيرها قوله تعالى {أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} [الصافات:71].

{ **وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ** } تصريح بمفهوم القصر. وجيء به معطوفا للاهتمام به لأنّه غرض مقصود مع إفادته تأكيد القصر.

{ **فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } حجّة على نفي البعث بأنّ الأموات السابقين لم يرجع أحد منهم إلى الحياة. وضمير جمع المخاطبين أرادوا به النبيّ صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين الذين كانوا يقولون لهم { إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ } [هود:7].

{ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ } [37].

استئناف ناشئ عن قوله تعالى { وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ} [17]، فضمير (هم) راجع إلى اسم الإشارة في قوله تعالى { إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى } [35]، فبعد أن ضرب لهم المثل بمهلك قوم فرعون زادهم مثلا آخر هو أقرب إلى اعتبارهم به وهو مهلك قوم أقرب إلى بلادهم وهم قوم تُبّع، فإنّ العرب يتسامعون بعظمة ملكه، وقومه أهل اليمن، وكثير من العرب شاهدوا آثار قوّتهم وعظمتهم في

مراحل أسفارهم وتحادثوا بما أصابهم من الهلك بسيل العرم.
{ **أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ** } افتتح الكلام بالاستفهام التقريري لاسترعاء الأسماع لمضمونه، لأنّ كلّ أحد يعلم أن تُبّعا ومن قبله من الملوك خير من هؤلاء المشركين. لأنّهم كانوا يضربون بهم الأمثال في القوّة والمنعة. والمعنى: أنّهم ليسوا خيرا من قوم تبّع ومن قبلهم من الأمم الذين استأصلهم الله لأجل إجرامهم، فلمّا ماثلوهم في الإجرام فلا مزيّة لهم تدفع عنهم الاستئصال.
{ **قَوْمُ تُبَّعٍ** } هم حِمْير وهم سكان اليمن وحضرموت من حِمْير وسبأ وقد ذُكروا في [ق:14].
تُبَّع: لقب لمن يملك جميع بلاد اليمن (حِمِيرًا وسبأ وحضرموت)، فلا يطلق على الملك لقب (تبّع) إلّا إذا ملك هذه المواطن الثلاثة. قيل سَمَّوْه تُبَّعا باسم الظل لأنه يتبع الشمس كما يتبع الظل الشمس، ومعنى ذلك: أنّه يسير بغزواته إلى كلّ مكان تطلع عليه الشمس، وقيل لأنّه تتبعه ملوك مخاليف اليمن، وتخضع له جميع الأقيال والأذواء من ملوك مخاليف اليمن وأذوائه، فلذلك لُقِّب تبّعا لأنّه تتبعه الملوك
وتبّع المراد هنا المسمَّى (أسعد والمُكنّى أبا كَرِب)، كان قد عظم سلطانه وغزا بلاد العرب ودخل مكة ويثرب وبلغ العراق. ويقال: إنّه الذي بنى مدينة الحيرة في العراق، وكانت دولة تبّع في سنة ألف قبل البعثة المحمدية، وقيل كان في حدود السبعمائة قبل بعثة النبيّ صلى الله عليه وسلم.
{ **أَهْلَكْنَاهُمْ** } تعليق الإهلاك بقوم تبّع دونه يقتضي أنّ تبّعا نجا من هذا الإهلاك وأنّ الإهلاك سُلّط على قومه. قالت عائشة: ألا ترى أنّ الله ذمّ قومه ولم يذمّه. والمروي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في مسند أحمد وغيره أنّه قال: **" لا تسبوا تُبَّعا فإنّه كان قد أسلم "**، وفي رواية **" كان مؤمنا "**. وفسّره بعض العلماء بأنّه كان على دين إبراهيم عليه السلام وأنّه اهتدى إلى ذلك بصحبة حبرين من أحبار اليهود لقيهما بيثرب حين غزاها، وذلك يقتضي نجاته من الإهلاك. ولعلّ الله أهلك قومه بعد موته أو في مغيبه.
{ **إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ** } تعليل لمضمون جملة { أَهْلَكْنَاهُمْ }، أي: أهلكناهم بسبب إجرامهم، أي: شركهم.

{ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ [38] مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ [39] }.

عطف على جملة { إِنَّ هَؤُلاءِ لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى } [35/34]، ردًّا عليهم كما علمته آنفا.
المعنى: أنّه لو لم يكن بعث وجزاء لكان خلق السماوات والأرض وما بينهما عبثا، ونحن خلقنا ذلك كله بالحق، أي: بالحكمة، كما دلّ عليه إتقان نظام الموجودات، فلا جرم اقتضى خلق ذلك أن يجازى كلّ فاعل على فعله وأن لا يضاع ذلك، ولمّا كان المشاهد أنّ كثيرا من الناس يقضي حياته ولا يرى لنفسه جزاء على أعماله تعيّن أنّ الله أخَّر جزاءهم إلى حياة أخرى وإلّا لكان خلقهم في بعض أحواله من قبيل اللعب.
{ **لاعِبِينَ** } توبيخ للذين أحالوا البعث والجزاء بأنّهم اعتقدوا ما يفضي بهم إلى جعل أفعال الحكيم لعبا،

وقد تقدّم وجه الملازمة عند تفسير قوله تعالى { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ } [المؤمنون:115]، وعند قوله تعالى { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا} [ص:27].

{ **مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ** } بدل اشتمال من السابقة. والباء للملابسة، أي: خلقنا ذلك ملابسا ومقارنا للحق، أو للسببية، أي: بسبب الحق، أي: لإيجاد الحق من خلقهما.

الحقّ: ما يحق وقوعه من عمل أو قول، أي: يجب ويتعيّن لسببيّة أو تفرّع أو مجازاة.

فمن الحق الذي خُلقت السماوات والأرض وما بينهما لأجله مكافأة كلّ عامل بما يناسب عمله ويجازيه، وتقدّم عند قوله تعالى { أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ } [الروم:8].

{ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** } الاستدراك ناشئ عمّا أفاده نفي أن يكون خلق المخلوقات لعبا، وإثبات أنّه للحقّ لا غير، من كون شأن ذلك أن لا يخفى ولكن جهل المشركين هو الذي سوّل لهم أن يقولوا { مَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ } [5]. وجملة الاستدراك تذييل.

وقريب من معنى الآية قوله تعالى {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ} [الحجر:85].

{ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ [40] يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ [41] إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ [42] }.

هذه الجملة تتنزّل من التي قبلها منزلة النتيجة من الاستدلال ولذلك لم تعطف، والمعنى: فيوم الفصل ميقاتهم، إعلاما لهم بأنّ يوم القضاء هو أجل الجزاء، فهذا وعيد لهم.

{ **إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ** } هو يوم الحكم، لأنّه يُفصل فيه الحق من الباطل، وهو من أسماء يوم القيامة، قال تعالى { لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ لِيَوْمِ الْفَصْلِ } [المرسلات:13/12]. والتأكيد لردّ إنكارهم.

الميقات: اسم زمان التوقيت، قال تعالى { إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا } [النبأ:17]، وتقدّم عند قوله تعالى { قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ } [البقرة:189]. وحذف المتعلّق لظهوره من المقام، أي: ميقات جزائهم.

{ **مِيقَاتُهُمْ** } أضيف الميقات إلى ضمير المخبر عنهم لأنّهم المقصود من هذا الوعيد وإلّا فإنّ يوم الفصل ميقات جميع الخلق مؤمنيهم وكفّارهم.

{ **أَجْمَعِينَ** } التأكيد للتنصيص على الإحاطة والشمول، أي: ميقات لجزائهم كلّهم لا يفلت منه أحد منهم، تقوية في الوعيد وتأييسا من الاستثناء.

{ **يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلىً عَنْ مَوْلىً شَيْئًا** } بدل من { يَوْمُ الْفَصْلِ }، أو عطف بيان.

الإغناء: الإفادة والنفع بالكثير أو القليل.

المولى: القريب والحليف، وتقدّم عند قوله تعالى { وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائي } [مريم:5].
وتنكير { مَوْلًى } في سياق النفي لإفادة العموم، أي: لا يغني أحد من الموالي كائنا من كان.
{ **شَيْئًا** } مفعول مطلق. والتنكير للتقليل، وهو الغالب في تنكير لفظ شيء، كما قال تعالى { وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ } [سبأ: 16] ووقوعه في سياق النفي للعموم أيضا، يعني: أيّ إغناء كان.
{ **وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ** } الضميران راجعان إلى ما رجع إليه اسم الإشارة من قوله { إِنَّ هَؤُلاءِ لَيَقُولُونَ } [34]. المعنى: أنّهم لا يغني عنهم أولياؤهم المظنون بهم ذلك ولا ينصرهم آخرون ليسوا من مواليهم.
النصر: الإعانة على العدو وعلى الغالب، وهو أشد الإغناء. وبُني الفعل إلى المجهول ليعمّ نفي كلّ ناصر.
{ **إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ** } استثناء متّصل، أي: إلّا من رحمه الله من الموالي، أي: فإنّه يأذن أن يشفع فيه.
وقيل: هو استثناء منقطع لأنّ من رحمه الله ليس داخلا في شيء قبله ممّا يدل على أهل المحشر.
المعنى: لكن من رحمه الله لا يحتاج إلى من يغني عنه أو ينصره، وهذا قول الكسائي والفراء.
{ **إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** } استئناف بياني هو جواب مجمل عن سؤال سائل عن تعيين من رحمه الله؟
{ **الْعَزِيزُ** } لا يُكرهه أحد على العدول عن مراده، فهو يرحم من يرحمه بمحض مشيئته.
{ **الرَّحِيمُ** } واسع الرحمة لمن يشاء من عباده على وفق ما جرى به علمه وحكمته ووعده.

{ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ [43] طَعَامُ الْأَثِيمِ [44] كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ [45] كَغَلْيِ الْحَمِيمِ [46] خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ [47] ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ [48] ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ [49] إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ [50] }.

لمّا ذكر الله فريقًا مرحومين على وجه الأجمال قابله هنا بفريق معذّبون وهم المشركون، ووصف بعض أصناف عذابهم وهو مأكلهم وإهانتهم وتحريقهم، فكان مقتضى الظاهر أن يبتدأ الكلام بالإخبار عنهم بأنّهم يأكلون شجرة الزقوم كما قال في [الواقعة:52/51] { ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ }، فعدل عن ذلك إلى الإخبار عن شجرة الزقوم بأنّها طعام الأثيم اهتماما بالإعلام بحال هذه الشجرة.
وقد جُعلت شجرة الزقوم شيئا معلوما للسامعين فأخبر عنها بطريق تعريف الإضافة لأنّها سبق ذكرها في سورة الواقعة التي نزلت قبل سورة الدخان.
{ **شَجَرَتَ** } كتبت في المصاحف بتاء مفتوحة مراعاة لحالة الوصل وكان الشائع في رسم أواخر الكلم أن تراعى فيه حالة الوقف، فهذا ممّا جاء على خلاف الأصل.
{ **طَعَامُ** } معنى كون الشجرة طعاما أنّ ثمرها طعام، كما قال تعالى { طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ فَإِنَّهُمْ

لَآكِلُونَ مِنْهَا } [الصافات66/65].

{ **الْأَثِيمِ** } كثير الآثام، كما دلّت عليه زنة فعيل. والمراد به المشركون المذكورون في قوله تعالى { إِنَّ هَؤُلاءِ لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى } [35/34]، فهذا من الإظهار في مقام الإضمار لقصد الإيماء إلى سبب تلك المعاملة.

المُهل: دُرْدِيُّ الزيت. والتشبيه به في سواد لونه وقيل في ذوبانه.

{ **الْحَمِيمِ** } الماء شديد الحرارة، وتقدّم عند قوله تعالى { لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ } [الأنعام:70].

{ **خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ** } مقول لقول محذوف دلّ عليه السياق، أي: يقال لملائكة العذاب: خذوه، والضمير المفرد عائد إلى الأثيم باعتبار آحاد جنسه.

العتل: القود بعنف، وهو أن يُؤخذ بتلبيب أحد فيقاد إلى سجن أو عذاب، وماضيه جاء بضم العين وكسرها.

سواء الشيء: وسطه، و{ سَوَاءِ الْجَحِيمِ } أشد المكان حرارة.

{ **ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ** } للتراخي الرتبي لأنّ صب الحميم على رأسه أشدّ عليه من أخذه وعتله.

الصبّ: إفراغ الشيء المظروف من الظرف. هنا مستعار للتقوية والإسراع، لأنّ العذاب أمر معنوي لا يصب. فهو تمثيلية اقتضاها ترويع الأثيم حين سمعها. فلمَّا كان المحكي هنا القول الذي يسمعه الأثيم صيغ بطريقة التمثيلية تهويلا، بخلاف قوله تعالى { يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ } [الحج:19] الذي هو إخبار عنهم في زمن هم غير سامعيه فلم يؤت بمثل هذه الاستعارة إذ لا مقتضى لها.

{ **ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ** } مقول قول آخر محذوف تقديره: قولوا له أو يقال له.

الذوق: مستعار للإحساس، وصيغة الأمر مستعملة في الإهانة.

{ **إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ** } خبر مستعمل في التهكّم بعلاقة الضدية. والمقصود عكس مدلوله، أي: أنت الذليل المهان، والتأكيد للمعنى التهكّمي.

{ **إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ** } بقية القول المحذوف، أي: ويقال للآثمين جميعا: إنّ هذا ما كنتم به تمترون في الدنيا. والخبر مستعمل في التنديم والتوبيخ. واسم الإشارة مشار به إلى الحالة الحاضرة لديهم، أي: هذا العذاب والجزاء هو ما كنتم تكذّبون به في الدنيا.

الامتراء: الشك، لأنّ يقينهم لمّا كان خليا عن دلائل العلم كان بمنزلة الشك.

{ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ [51] فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ [52] يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ [53]** }.

استئناف ابتدائي انتقل به الكلام من وصف عذاب الأثيم إلى وصف نعيم المتّقين لمناسبة التضاد على

عادة القرآن في تعقيب الوعيد بالوعد والعكس.

{ **مَقَامٍ** } (بفتح الميم): مكان القيام ويتناول المسكن وما يتبعه. و(بضم الميم): مكان الإقامة. والمراد هنا المكان، فهو مجاز بعلاقة الخصوص والعموم.

الأمين: هنا بمعنى الآمن. والمراد: الآمن ساكنه.

{ **فِي مَقَامٍ أَمِينٍ** } مجاز عقلي، كما قال تعالى { وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ } [التين:3]. والأمن أكبر شروط حسن المكان، لأنّ الساكن أوّل ما يتطلب الأمن، وهو السلامة من المكاره والمخاوف فإذا كان آمنا في منزلة كان مطمئن البال شاعرا بالنعيم الذي يناله.

{ **فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ** } بدل، وذلك من وسائل النزهة والطيب. وأعيد حرف (في) مع البدل للتأكيد.

الجنَّات: جمع جنّة، وتقدّم في [البقرة:25].

العيون: جمع عين، وتقدّم في قوله تعالى { فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا } [البقرة:60]، فهذا نعيم مكانهم.

{ **يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ** } وصف نعيم أجسادهم بذكر لباسهم، وهو لباس الترف والنعيم، وفيه كناية عن توفّر أسباب نعيم الأجساد، لأنّه لا يلبس هذا اللباس إلّا من استكمل ما قبله من ملائمات الجسد.

السندس: الديباج الرقيق النفيس، والأكثر على أنّه معرَّب من الفارسية، وقيل عربي أصله: سِندي، منسوب إلى السند على غير قياس. والسندس يُلبس ممّا يلي الجسد.

الإستبرق: الديباج القوي يُلبس فوق الثياب، وهو معرَّب (استبره) فارسية، وهو الغليظ مطلقا ثم خص بغليظ الديباج. وتقدما في قوله تعالى { وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ } [الكهف:31].

{ **مُتَقَابِلِينَ** } ثمّ وُصف نعيم نفوسهم بعضهم مع بعض في مجالسهم ومحادثاتهم، لأنّ الحديث مع الأصحاب والأحبة نعيم للنفس فأغنى القول عن ذكر اجتماعهم وتحابهم وحديث بعضهم مع بعض وأنّ ذلك شأنهم أجمعين بأنّ ذكر ما يستلزم ذلك وهو صيغة متقابلين ومادته على وجه الإيجاز البديع.

{ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ [54] يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ [55] لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ [56] فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [57] }.

{ **كَذَلِكَ** } اعتراض وقد تقدّم بيان معناه عند قوله تعالى { كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا } [الكهف:91].

{ **وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ** } جعلناهم أزواجا، جمع زوج ضد الفرد، والزوج هنا كناية عن القرين، أي: قرنا بكل واحد نساء حورا عينا، وليس الفعل هنا مشتقا من الزوج الشائع إطلاقه على امرأة الرجل وعلى رجل المرأة لأنّ ذلك الفعل يتعدّى بنفسه يقال: زوّجه ابنته وتزوج بنت فلان، قال تعالى { زَوَّجْنَاكَهَا } [الأحزاب:37] وليس ذلك بمراد هنا إذ لا طائل تحته، إذ ليس في الجنة عقود نكاح،

وإنّما المراد أنهم مأنوسون بصحبة حبائب من النساء كما أنسوا بصحبة الأصحاب والأحبة من الرجال، استكمالا لمتعارف الأنس بين الناس.

الحور: جمع الحَوْراء، وهي البيضاء.

العين: جمع العيناء، وهي واسعة العين، وتقدّم في [الصافات:48].

وشمل الحور العين النساء اللائي كنّ أزواجهم في الدنيا، ونساء يخلقهنّ الله لأجل الجنة، قال تعالى { إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً } [الواقعة:35]، وقال تعالى { هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ } [يس:56].

{ **يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ** } أي: يأمرون بأن تُحضر لهم الفاكهة، أي: فيُجابون. والجملة حال من { الْمُتَّقِينَ }.

الفاكهة: ما يُتفكّه به، أي: يُتلذّذ بطعمه من الثمار ونحوها.

{ **آمِنِينَ** } حال من ضمير { يَدْعُونَ }. والمراد هنا أمن خاص غير الذي في قوله { فِي مَقَامٍ أَمِينٍ } [51]. وهو الأمن من الغوائل والآلام من تلك الفواكه، على خلاف حال الإكثار من الطعام في الدنيا، كقوله تعالى في خمر الجنّة { لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ } [الصافات:47]. **أو** آمنين من نفاد ذلك وانقطاعه.

{ **لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى** } حال أخرى. وهذه بشارة بخلود النعمة، لأنّ الموت يقطع ما كان في الحياة من النعيم لأصحاب النعيم. كما كان الإعلام بأنّ أهل الشرك لا يموتون نذارة بدوام العذاب.

{ **إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى** } الاستثناء لتأكيد الشيء بما يشبه ضدّه لزيادة تحقيق انتفاء ذوق الموت عن أهل الجنة، فكأنه قيل: لا يذوقون الموت البتّة، وقرينة ذلك وصفها بـ { الأولى }، أي: السالفة، كما تقدّم آنفا في قوله تعالى { إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى } [35].

{ **وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ** } عطف على { وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ }، تذكير بنعمة السلامة ممّا ارتبك فيه غيرهم. وذلك ممّا يُحمد الله عليه، كما ورد أنّ من آداب من يرى غيره في شدّة أو بأس أن يقول: الحمد لله الذي عافاني ممّا هو فيه.

{ **وَوَقَاهُمْ** } الضمير عائد إلى ضمير المتكلّم في { وَزَوَّجْنَاهُمْ } على طريقة الالتفات.

{ **فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ** } حال من المذكورات. والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم. وذكر الرب إظهار في مقام الإضمار ومقتضى الظاهر أن يقال: فضلا منه أو منّا. ونكتة هذا الإظهار تشريف مقام النبيّ صلى الله عليه وسلم، والإيماء إلى أنّ ذلك إكرام له لإيمانهم به.

{ **ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** } تذييل، والإشارة لتعظيم الفضل ببعد المرتبة.

{ **هُوَ** } ضمير الفصل لتخصيص الفوز بالفضل، وهو قصر لإفادة معنى الكمال كأنّه لا فوز غيره.

{ **فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** [58] **فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ** [59] }.

الفاء للتفريع، إشارة إلى أنّ ما بعدها متفرّع عمّا قبلها، والمذكور بعدها فذلكة للسورة، أي: إجمال لأغراضها بعد تفصيلها فيما مضى، إحضارا لتلك الأغراض وضبطا لترتّب علّتها.

{ **فَإِنَّمَا** } قصر قلب وهو رد على المشركين إذ قد سهّل لهم طريق فهمه بفصاحته وبلاغته فقابلوه بالشك والهزء، كما قصّه الله في أوّل السورة بقوله تعالى { بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ } [9]، أي: أنَّا جعلنا فهمه يسيرا بسبب اللغة العربية الفصحى وهي لغتهم ليتذكّروا، فلم يتذكّروا.

{ **يَسَّرْنَاهُ** } الضمير عائد إلى الكتاب المفهوم من المقام والمذكور في قوله تعالى { وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ } [3]، والذي كان جلّ غرض السورة في إثبات إنزاله من الله، كما أشارت إليه الحروف المقطّعة وقوله تعالى { وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ }، فهذا التفريع مرتبط بذلك الافتتاح وهو من رد العجز على الصدر.

<u>ويجوز</u> أن يكون المفرّع قوله تعالى { لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } وقُدِّم عليه ما هو توطئة له اهتماما بالمقدّم، وتقدير النظم: فلعلهم يتذكرون بهذا لما يسّرناه لهم بلسانهم.

ومفعول { يَسَّرْنَاهُ } مضاف مقدّر دل عليه السياق، تقديره: فهمه. فالتيسير هنا تسهيل الفهم، وتقدّم عند قوله تعالى { فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ } [مريم:97].

{ **بِلِسَانِكَ** } والباء للسببية، أي: بسبب لغتك، أي: العربية. وفي إضافة اللسان إلى ضمير النبيّ صلى الله عليه وسلم عناية بجانبه وتعظيم له. وإطلاق اللسان، وهو اسم الجارحة، على اللغة مجاز شائع، قال تعالى { بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ } [الشعراء:195].

{ **لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** } أفصح عن الأمر بالتذكير بالقرآن. والتقدير: فذكّرهم به ولا تسأم لعنادهم فيه ودُم على ذلك حتّى يحصل التذكُّر. و{ لَعَلَّهُمْ } مستعملة في التعليل، أي: لأجل أن يتذكّروا به، وهذا كقوله تعالى { وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ } [الاحقاف:12].

وفي هذا الكلام الموجز إخبار بتيسير القرآن للفهم، لأنّ الغرض منه التذكّر، قال تعالى { وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ } [القمر:17]، وبأنّ سبب ذلك التيسير كونه بأفصح اللغات، وكونه على لسان أفضل الرسل صلى الله عليه وسلم، فلذلك كان تسبّبه في حصول تذكرهم تسبّبا قريبا لو لم يكونوا في شك يلعبون. وباعتبار هذه المعاني المتوافرة حسن أن يفرّع على هذه الجملة بقوله تعالى:

{ **فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ** } تأييد النبيّ صلى الله عليه وسلم وتهديد معانديه. أي: فارتقب النصر الذي سألته بأن تعان عليهم بسنين كسنين يوسف، فإنّهم مرتقبون ذلك وأشد منه وهو البطشة الكبرى.

{ **إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ** } استعارة تهكّمية، لأنّ المعنى أنّهم لاقون ذلك لا محالة، وقد حسَّنها اعتبار المشاكلة بين { فَارْتَقِبْ } و{ مُرْتَقِبُونَ }.

وفي هذه الخاتمة ردّ العجز على الصدر إذ كان صدر السورة فيه ذكر إنزال الكتاب المبين، وأنّه رحمة من الله بواسطة رسالة محمد صلى اله عليه وسلم، وكان في صدرها الإنذار بارتقاب يوم تأتي السماء بدخان مبين وذكر البطشة الكبرى.

فكانت خاتمة هذه السورة خاتمة عزيزة المنال اشتملت على حسن براعة المقطع وبديع الإيجاز.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الجاثية

سُمِّيت هذه السورة في كثير من المصاحف العتيقة بتونس وكتب التفسير وفي صحيح البخاري (**سورة الجاثية**) لوقوع لفظ { جَاثِيَةً } [28] فيها ولم يقع في موضع آخر من القرآن.

وتُسمَّى (**حم الجاثية**). وتُسمَّى (**سورة شريعة**) لوقوع لفظ { شريعة } [18] فيها، ولم يقع في موضع آخر من القرآن. وتُسمَّى (**سورة الدهر**) لوقوع { وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ } [24] فيها، ولم يقع اللفظ في ذوات { حم } الأُخر.

وهي مكية، قال ابن عطيّة: بلا خلاف.

وهي **الرابعة والستون في ترتيب نزول السور** عند جابر بن زيد، نزلت بعد سورة الدخان وقبل الأحقاف.

وعدد آيها، في عدّ المدينة ومكّة والشام والبصرة، **ست وثلاثون.** وفي عدّ الكوفة سبع وثلاثون.

أغراض السورة

*/ الابتداء بالتحدّي بإعجاز القرآن، وأنّه جاء بالحقّ توطئة لما سيذكر بأنّه حقّ.

*/ إثبات انفراد الله تعالى بالإلهية بدلائل ما في السماوات والأرض من آثار خلقه وقدرته في جواهر الموجودات وأعراضها، وإدماج ما فيها من نعم، يحقّ على الناس شكرها لا كفرها.

*/ وعيد الذين كذبوا على الله والتزموا الآثام بالإصرار على الكفر والإعراض عن النظر في آيات القرآن والاستهزاء بها.

*/ التنديد على المشركين إذ اتخذوا آلهة على حسب أهوائهم، وإذ جحدوا البعث، وتهديدهم بالخسران يوم البعث، ووصف أهوال ذلك، وما أُعد فيه من العذاب للمشركين ومن رحمة للمؤمنين.

*/ دعاء المسلمين للإعراض عن إساءة الكفّار لهم، والوعد بأنّ الله سيُخزي المشركين.

*/ وصف بعض أحوال يوم الجزاء.

*/ نُظِّر الذين أهملوا النظر في آيات الله مع تبيانها بحال بني إسرائيل في اختلافهم في كتابهم بعد أن جاءهم العلم وبعد أن اتّبعوه، فما ظنّك بمن خالف آيات الله من أوّل وهلة، تحذيرا لهم من أن يقعوا فيما وقع فيه بنو إسرائيل من تسليط الأمم عليهم، وذلك تحذير بليغ.

{ **حم** } [1].

تقدّم القول في نظائره، وهذه جملة مستقلّة.

{ **تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ** } [2].

استئناف ابتدائي وهو جملة مركّبة من مبتدأ وخبر. والمقصود: إثبات أنّ القرآن موحى به من الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم فكان مقتضى الظاهر أن يُجعل القرآن مسندا إليه ويُخبر عنه فيقال: القرآن منزل من الله العزيز الحكيم، لأنّ كونه منزّلا من الله هو محل الجدال فيقتضي أن يكون هو الخبر، ولو أذعنوا لكونه تنزيلا لما كان منهم نزاع في أن تنزيله من الله، ولكن خولف مقتضى الظاهر لغرضين:

الغرض الأوّل: التشويق إلى تلقّي الخبر، لأنّهم إذا سمعوا الابتداء بتنزيل الكتاب استشرفوا إلى ما سيخبر عنه؛ فأمّا الكافرون فيترقّبون أنّه سيُلقى إليهم وصف جديد لأحوال تنزيل الكتاب فيتهيّأون لخوض جديد من جدالهم وعنادهم، وأمّا المؤمنون فيترقّبون لِما يزيدهم يقينا بهذا التنزيل.

الغرض الثاني: أنّه فُرض أنّ كون القرآن تنزيلا أمر لا يُختلف فيه، فالذين خالفوا فيه كأنّهم خالفوا في كونه منزلا من عند الله، وهل يكون التنزيل إلّا من عند الله، فيؤول إلى تأكيد الإخبار بأنّه منزل من عند الله.

{ **الْكِتَابِ** } هو المعهود، وهو ما نزل من القرآن إلى تلك الساعة.

{ **الْعَزِيزُ** } للإشعار بأنّ ما نزل منه مناسب لعزّته فهو كتاب عزيز كما وصفه تعالى بقوله { وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ } [فصلت:41]، أي: هو غالب لمعانديه، وذلك لأنّه أعجزهم عن معارضته.

{ **الْحَكِيمُ** } للإشعار بأنّ ما نزل من عنده مناسب لحكمته، فهو مشتمل على دلائل اليقين والحقيقة، ففي ذلك إيماء إلى أنّ إعجازه من جانب بلاغته، إذ غلبت بلاغة بلغائهم، ومن جانب معانيه، إذ أعجزت حكمته حكمة الحكماء. وقد تقدّم مثيل هذا في [الزمر:1]، وقريب منه في [غافر:2].

{ **إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ** [3] **وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ** [4] **وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** [5] }.

موقع هذا الكلام موقع تفصيل المجمل لما جمعته الآية السابقة، باعتبار أنّ آيات السماوات والأرض وما عطف عليها إنّما كانت آيات للمؤمنين الموقنين، وللذين حصل لهم العلم بسبب ما ذكّرهم به القرآن، وممّا يؤيّد ذلك قوله تعالى { تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ } [6].

{ **إِنَّ** } تأكيد وإن كان المخاطبون غير منكريه، لتنزيلهم منزلة المنكر لذلك بسبب عدم انتفاعهم بما في

هذه الكائنات من دلالة على وحدانية الله تعالى، وإلّا فقد قال الله تعالى { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ } [الزخرف:9].

والخطاب موجه إلى المشركين ولذلك قال { لَآياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ / آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ } دون أن يقال: لآيات لكم أو آيات لكم، أي: هي آيات لمن يعلمون دلالتها من المؤمنين، ومن الذين يوقنون.

{ **وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ** } معطوفة على السابقة، عطف خاص على عام، لما في هذا الخاص من التذكير بنعمة إيجاد النوع استدعاء للشكر عليه.

البثّ: التوزيع والإكثار وهو يقتضي الخلق والإيجاد. كما في قوله { وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ } [البقرة:164].

وعُبّر بالمضارع ليفيد تجدّد البث وتكرّره باعتبار اختلاف أجناس الدواب وأنواعها وأصنافها.

الدابة: تطلق على كلّ ما يدبّ على الأرض غير الإنسان، وهذا أصل إطلاقها.

الرزق: القوت. أطلق هنا على المطر على طريقة المجاز المرسل، لأنّ المطر سبب وجود الأقوات. وقد ذُكر في قوله تعالى { وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ } [البقرة:164].

وتقدّمت نظائر هذه الآية في مواضع عدّة.

فالمعنى: أنّ الذين انتفعوا بالآيات هم المؤمنون العاقلون، فوزّعت هذه الأوصاف على فواصل هذه الآية، لأنّ ذلك أوقع في نفس السامع. وقُدِّم المتّصفون بالإيمان لشرفه، وجُعل خلق الناس والدواب آية للموصوفين بالإيقان لأنّ دلالة الخلق كائنة في نفس الإنسان وما يحيط به من الدواب، وجُعل اختلاف الليل والنهار وحوادث الجو آية للذين اتصفوا بالعقل، لأنّ دلالتها على الوحدانية بواسطة لوازم مترتّبة بإدراك العقل.

{ **تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ** } [6].

{ **تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ** } يجوز أن تكون إشارة إلى الآيات المذكورة سابقا { لَآياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ / آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ / آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ }.

ويجوز أن تكون الإشارة إلى آيات الله المنزّلة في القرآن، فيكون استعمال فعل { نَتْلُوهَا } في حقيقته.

{ **نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ** } في موضع الحال من { آيَاتُ اللَّهِ }. وإسناد التلاوة إلى الله مجاز عقلي، لأنّ الله موجِد القرآن المتلو الدال على تلك الآيات.

التلاوة: القراءة. وهنا مجاز عقلي، لأنّ المتلو هو ما يدلّ عليها.

{ **فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ** } الاستفهام مستعمل في التأييس والتعجيب.

{ **حَدِيثٍ** } المراد: القرآن، كقوله تعالى { اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ } [الزمر:23]، وكما وقع إضافة حديث إلى ضمير القرآن في قوله تعالى { فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ } [الأعراف:185].

{ **بَعْدَ** } هنا بمعنى (دون). فالمعنى: فبأي حديث دون الله وآياته. وتقدّم قوله تعالى { وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ } [الشورى:44]، وقوله تعالى { فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ } [الأعراف:185].

{ **وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ** } عطف على { حَدِيثٍ }، لأنّ المراد بها الآيات غير القرآن، من دلائل السماوات والأرض ممّا تقدّم في قوله تعالى { إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ } [3].

{ وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ [7] يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ [8] وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ [9] مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ [10] }.

أُعقِب ذكر المؤمنين الموقنين العاقلين المنتفعين بدلالة آيات الله وما يفيده مفهوم تلك الصفات التي أجريت عليهم من تعريض بالذين لم ينتفعوا بها، بصريح ذكر أولئك الذين لم يؤمنوا بها ولم يعقلوها.

{ **وَيْلٌ** } كلمة دعاء بالشر، وأصل الويل الشرّ وحلوله. والافتتاح بها تعجيل بالإنذار وتهديد.

{ **أَفَّاكٍ** } قوي الكذب.

الأثيم: مبالغة أو صفة مشبهة، وهو يدلّ على المبالغ في اقتراف الآثام، أي: الخطايا.

{ **كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ** } المراد بهم جميع المشركين الذين كذّبوا دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم وعاندوا في معجزة القرآن وقالوا { لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ } [سبأ:31]، وبخاصة زعماء أهل الشرك وأيمّة الكفر مثل النضر بن الحارث، وأبي جهل وقرنائهم.

{ **يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا** } حالة تكرّر سماعه آيات الله وتكرّر إصراره مستكبرا عنها تحمله على تكرير تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم وتكرير الإثم، فلا جرم أن يكون أفّاكا أثيما.

{ **آيَاتِ اللَّهِ** } القرآن، فإنّها المتلوّة.

{ **ثُمَّ** } للتراخي الرتبي، لأنّ ذلك الإصرار عند سماع مثل تلك الآيات أعظم وأعجب.

الإصرار: ملازمة الشيء وعدم الانفكاك عنه، وحُذف المتعلّق لدلالة المقام عليه، أي: يصرُّون على كفرهم، كما دلّ على ذلك قوله تعالى { فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ } [6].

{ **كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا** } شُبِّه حالهم في عدم انتفاعهم بالآيات بحالهم في انتفاء سماع الآيات، وهذا التشبيه كناية عن وضوح دلالة آيات القرآن بحيث أنّ من يسمعها يُصدِّق بما دلّت عليه، فلولا إصرارهم واستكبارهم لانتفعوا بها.

{ **فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** } فُرِّع على حالتهم هذه إنذارهم بالعذاب الأليم، وأطلق على الإنذار اسم البشارة التي هي الإخبار بما يُسر، على طريقة التهكّم.

{ **وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا** } المراد بالعلم السمع، أي: إذا سمع شيئا من القرآن اتخذه هزؤا. أي: أنّهم يلوكونها بأفواههم لوك المستهزئ بالكلام. ومن الاستهزاء تحريفها على مواضعها وتحميلها غير المراد منها عمدا للاستهزاء، كقول أبي جهل لمّا سمع { إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ } [الدخان44/43] تجاهل بإظهار أنّ الزقوم اسم لمجموع الزبد والتمر فقال: زقّمونا، وقوله: لمّا سمع قوله تعالى { عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ } [المدثر:30]: أنا ألقاهم وحدي.

{ **أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ** } الإشارة للتنبيه على أنّ المشار إليهم أحرياء بالعذاب المهين لأجل ما قبل اسم الإشارة من الأوصاف، من قوله تعالى { لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ - إلى قوله - هُزُوًا }.

{ **مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ** } بيان لجملة { لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ } وفيه تحقيق لحصول العذاب. ففي { وَرَائِهِمْ } استعارة تمثيلية للاقتراب والغفلة، كغفلة المرء عن عدو يتبعه من ورائه ليأخذه. ومنه قوله تعالى { وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا } [الكهف: 79].

{ **وَلا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا** } عطف على السابقة، لأنّ ذلك من جملة العذاب المهين فإنّ فقدان الفداء وفقدان الولي ممّا يزيد العذاب شدّة ويُكسب المعاقب إهانة.

الإغناء: هنا الكفاية والنفع، أي: لا ينفعهم. وعُدِّي بحرف (عن) لتضمينه معنى يدفع، فكأنه عُبِّر بفعلين: (لا ينفعهم ولا يدفع عنهم)، وتقدّم في قوله تعالى { لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا } [آل عمران:10]

{ **مَا كَسَبُوا** } أموالهم.

{ **شَيْئًا** } منصوب على المفعولية، أي: شيئا من الإغناء، لأنّ { شَيْئًا } من أسماء الأجناس العالية فهو مفسَّر بما وقع قبله أو بعده، وتنكيره للتقليل، أي: لا يدفع عنهم ولو قليلا من عذاب جهنم.

{ **وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ** } عطف على { مَا كَسَبُوا } وأعيد حرف النفي للتأكيد.

{ **أَوْلِيَاءَ** } مفعول ثان لـ { اتخذوا }. وحذف مفعوله الأول وهو ضميرهم لوقوعه في حيّز الصلة.

{ **وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** } عطف على { عَذَابٌ مُهِينٌ } لإفادة أنّ لهم عذابا غير ذلك وهو عذاب الدنيا بالقتل والأسر.

{ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ } [11].

استئناف ابتدائي انتقل به من وصف القرآن في ذاته بأنّه منزّل من الله وأنّه من آياته، إلى وصفه بأفضل صفاته بأنّه هدى.

{ **هَذَا** } الإشارة إلى القرآن الذي هو في حال النزول والتلاوة، فهو كالشيء المشاهد، ولأنّه قد سبق من أوصافه من قوله { تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } [2]، وقوله { تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ } [6] ما صيَّره متميّزا. { **هُدًى** } من الوصف بالمصدر للمبالغة، أي: هادٍ للناس، فمن آمن فقد اهتدى ومن كفر فقد ضلّ.

{ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ** } عطف على جملة { هَذَا هُدًى } والمناسبة أنّ القرآن من جملة آيات الله

وأنّه مذكّر بها، فالذين كفروا بآيات الله كفروا بالقرآن في عموم الآيات.

وهذا واقع موقع التذييل لما تقدّمه ابتداء من قوله تعالى { وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ } [7]. وجيء بالموصول وصلته لما تشعر به الصلة من أنّهم حقيقون بالعقاب.

واستُحضروا في هذا المقام بعنوان الكفر دون عنواني الإصرار والاستكبار اللذين استُحضروا بهما في قوله تعالى { ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا } [8]، لأنّ الغرض هنا النعي عليهم إهمالهم الانتفاع بالقرآن وهو النعمة العظمى التي جاءتهم من الله فقابلوها بالكفران عوضا عن الشكر.

الرجز: أشد العذاب، قال تعالى { فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ } [البقرة:59].

{ **مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ** } يجوز أن يكون حرف (من) للبيان، فالعذاب هو الرجز، ويجوز أن يكون للتبعيض، أي: عذاب ممّا يُسمَّى بالرجز وهو أشدّه.

{ **أَلِيمٌ** } قرئ بالرفع وصفا لـ { عَذَابٌ }، وبالجرّ وصفا لـ { رِجْزٍ }.

{ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [12].

استئناف ابتدائي للانتقال من التذكير بما خلق الله من العوالم وتصاريف أحوالها من حيث إنّها دلالات على الوحدانية، إلى التذكير بما سخّر الله للناس من المخلوقات وتصاريفها من حيث كانت منافع الناس تقتضي أن يشكروا مُقدِّرها فجحدوا بها إذ توجّهوا بالعبادة إلى غير المنعِم عليهم، ولذلك عُلّق بفعلي { **سَخَّرَ** } في الموضعين (هنا وفي الآية اللاحقة)، مجرور بلام العلّة { لَكُمُ }.

على أنّ هذه التصاريف آيات أيضا مثل اختلاف الليل والنهار، وما انزل الله من السماء من ماء، وتصريف الرياح، ولكن لوحظ هنا ما فيها من النعم كما لوحظ هنالك ما فيها من الدلالة.

والفَطِن يستخلص من المقامين كلا الأمرين على ما يشبه الاحتباك. ومناسبة هذا الانتقال واضحة.

{ **اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ** } اسم الجلالة مسند إليه والموصول مسند، وتعريف الجزأين مفيد الحصر، وهو قصر قلب بتنزيل المشركين منزلة من يحسب أنّ تسخير البحر وتسخير ما في السماوات والأرض إنعام من شركائهم، فكان هذا القصر إبطالا لهذا الزعم الذي اقتضاه هذا التنزيل.

{ **لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ** } بدل اشتمال من { لكم } لأنّ فيها إجمالا أريد تفصيله.

{ **وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ** } عطف على { لِتَجْرِيَ } باعتبار ما فيه من عموم الاشتمال، فحصل من مجموع ذلك أنّ تسخير البحر لجري الفلك فيه للسفر لقضاء مختلف الحاجات.

{ **وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** } عطف على قوله { لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ } لا باعتبار ما اشتمل عليه إجمالا، بل باعتبار لفظه في التعليق بفعله. أي: لعلّكم تشكرون فكفرتم.

{ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [13]

{ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ } تعميم بعد تخصيص اقتضاه الاهتمام أوّلا ثم التعميم ثانيا. و{ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } عام مخصوص بما تحصل للناس فائدة من وجوده: كالشمس للضياء، والمطر للشراب، أو من بعض أحواله: كالكواكب للاهتداء بها في ظلمات البر والبحر، والشجر للاستظلال، والأنعام للركوب والحرث ونحو ذلك.

{ **جَمِيعًا** } انتصب على الحال من { مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} وتنوينه تنوين عوض عن المضاف إليه، أي: جميع ذلك، مثل تنوين (كلّ) في قوله تعالى { كُلًّا هَدَيْنَا } [الأنعام:84].

{ **مِنْهُ** } ابتدائية، أي: جميع ذلك من عند الله ليس لغيره فيه أدنى شركة. وموقعها موقع الحال من المضاف إليه المحذوف المعوَّض عنه التنوين، أو من ضمير { جَمِيعًا } لأنّه في معنى مجموعا.

{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } أي: في ذلك المذكور من تسخير البحر وتسخير ما في السماوات والأرض دلائل على تفرّد الله بالإلهية، فهي وإن كانت مِنَنًا يحقّ أن يشكرها الناس فإنّها أيضا دلائل إذا تفكّر فيها المُنْعَم عليهم اهتدوا بها، فحصلت لهم منها ملائمات جسمانية ومعارف نفسانية، وبهذا الاعتبار كانت في عداد الآيات المذكورة قبلها من قوله { إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ } [3]، وإنّما أخِّرت عنها لأنها ذُكرت في معرض الامتنان بأنّها نعم، ثم عُقِّبت بالتنبيه على أنّها أيضا دلائل على تفرّد الله بالخلق.

وأوثر التفكّر بالذكر في آخر صفات المستدلين بالآيات، لأنّ الفكر هو منبع الإيمان والإيقان والعلم، المتقدّمة في قوله تعالى { لَآياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ } [3]، وقوله تعالى { آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ } [4]، وقوله تعالى { آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [5].

{ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [14] مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ [15] }.

إن كانت هذه متصلة بالآي التي قبلها في النزول ولم يصح ما روي عن ابن عباس في سبب نزولها فمناسبة وقعها هنا أنّ قوله تعالى { وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ - إلى قوله - لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ } [7-11] يثير غضب المسلمين على المستهزئين بالقرآن، وقد أخذ المسلمون يعتزّون بكثرتهم فكان ما ذكر من استهزاء المشركين بالقرآن واستكبارهم عن سماعه يُتوقّع منه أن يبطش بعض المسلمين ببعض المشركين، ويُحتمل أن يكون بدر من بعض المسلمين غضب أو توعّد وأنّ الله علم ذلك من بعضهم.

وقد تكرّر في القرآن مثل هذا من الأمر بالصفح عن المشركين والعفو عنهم والإعراض عن أذاهم، ولكن

كان أكثر الآيات أمرا للنبيّ صلى الله عليه وسلم في نفسه وكانت هذه أمرا له بأن يُبلّغ للمؤمنين ذلك. فأُمروا بالعفو وأن يكلوا أمر نصرهم إلى الله تعالى.

وإن كانت نزلت على سبب خاص عرض في أثناء نزول السورة فمناسبتها لأغراض السورة واضحة لأنّها تعليم لما يصلح به مقام المسلمين بمكة بين المضادين لهم واحتمال ما يلاقونه من صلفهم وتجبرهم إلى أن يقضي الله بينهم.

{ **يَغْفِرُوا** } جزم على تقدير لام الأمر محذوفا، أي: قل لهم ليغفروا، أو هو مجزوم في جواب { **قُلْ** }. وهذا ثقة بالمؤمنين أنّهم إذا قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم امتثلوا.

{ **لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ** } يراد بهم المشركون من أهل مكة.

الرجاء: ترقّب وتطلّب الأمر المحبوب، وهذا أشهر اطلاقاته وهو الظاهر في الآية.

الأيام: جمع يوم، وهذا الجمع أو مفرده إذا أضيف إلى اسم أحد أو قوم أو قبيلة كان المراد به اليوم الذي حصل فيه لمن أضيف هو إليه نصر وغلب، ومنه أطلق على أيام القتال المشهورة بين قبائل العرب، كما يقال: أيام عبس، وأيام داحس والغبراء، وأيام البسوس. فإذا قالوا: أيام بني فلان، أرادوا أيام انتصارهم.

{ **أَيَّامَ اللَّهِ** } أيّام نصر الله، أي: نصر الله لهم.

وأوثر تعريفهم بهذه الصلة ليكون في ذلك تعريض بأنّ الله ينصر الذين يرجون أيام نصره، وهم المؤمنون. والغرض من هذا التعريض الإيماء بالموصول إلى وجه أمر المؤمنين أن يغفروا للمشركين ويصفحوا عن أذاهم ولا يتكلّفوا الانتصار لأنفسهم لأنّ الله ضمن لهم النصر.

<u>وقد يطلق</u> { أَيَّامَ اللَّهِ } في القرآن على الأيام التي حصل فيها فضله ونعمته على قوم، وهو أحد تفسيرين لقوله تعالى { وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ } [ابراهيم:5]. <u>ومعنى {لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ } على هذا التأويل</u> أنّهم في شغل عن ترقّب نعم الله بما هم فيه من إسناد فعل الخير إلى أصنامهم بانكبابهم على عبادتها دون عبادة الله.

{ **لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** } تعليل للأمر المستفاد من قوله تعالى { يَغْفِرُوا }، أي: ليغفروا ويصفحوا عن أذى المشركين فلا ينتصروا لأنفسهم ليجزيهم الله على إيمانهم وعلى ما أوذوا في سبيله، فإنّ الانتصار للنفس توفية للحقّ. وهذا من معنى قوله تعالى { وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ } [الحجر:85].

{ **قَوْمًا** } الأظهر أنّ المراد الإبهام وتنوينه للتنكير فقط. <u>والمعنى</u>: ليجزي الله كلَّ قوم بما كانوا يكسبون من خير أو شر بما يناسب كسبهم، فيكون وعيدا للمشركين المعتدين على المؤمنين، ووعدا للمؤمنين المأمورين بالصفح والتجاوز عن أذى المشركين.

{ **ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ** } أي: بعد الأعمال في الدنيا تصيرون إلى حكم الله تعالى فيجازيكم على أعمالكم الصالحة والسيئة بما يناسب.

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ [16] وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ [17] }.

الوجه أن يكون سوق خبر بني إسرائيل هنا توطئة وتمهيدا لقوله بعده { ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا } [18]. ومقتضى ظاهر النظم أن يقع هذا القول بعد ذلك، فيكون دليلا وحجّة له، فأُخرج النظم على خلاف مقتضى الظاهر فجُعلت الحجّة تمهيدا قصدا للتشويق لما بعده، وليقع ما بعده معطوفا بـ {ثُمَّ} الدالة على الأهميّة.

{ **الكِتَابَ** } التوراة.

{ **الحُكْمَ** } يصح أن يكون بمعنى الحكمة، أي: الفهم في الدين وعلم محاسن الأخلاق، كقوله تعالى { وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا } [مريم: 12] يعني يحيى. ويصح أن يكون بمعنى السيادة، أي: أنّهم يحكمون أنفسهم بأنفسهم ولا تحكمهم أمة أخرى، كقوله تعالى { وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا } [المائدة:20].

{ **وَالنُّبُوَّةَ** } أن يقوم فيهم أنبياء.

ومعنى إيتائهم هذه الأمور الثلاثة: إيجادها في الأمّة وإيجاد القائمين بها، لأنّ نفع ذلك عائد على الأمّة جمعاء فكان كلّ فرد من الأمّة كمن أوتي تلك الأمور.

{ **وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ** } بأن يسّر لهم امتلاك بلاد الشام التي تفيض لبنا وعسلا كما في التوراة في وعد إبراهيم، والتي تجبى إليها ثمرات الأرضين المجاورة لها، وذلك بحسن موقعها.

{ **الطَّيِّبَاتِ** } هي التي تطيب عند الناس وتحسن طعما ومنظرا ونفعا وزينة.

{ **وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ** } بأن جمع الله لهم بين استقامة الدين والخلق، وبين حكم أنفسهم بأنفسهم، وبثّ أصول العدل فيهم، وبين حسن العيش والأمن والرخاء، فإنّ أُمَمًا أخرى كانوا في بحبوحة من العيش ولكن ينقص بعضها استقامة الدين والخُلق، وبعضها عزّة حكم النفس، وبعضها الأمن بسبب كثرة الفتن.

{ **الْعَالَمِينَ** } أُمَم زمانهم.

وكلّ ذلك إخبار عمّا مضى من شأن بني إسرائيل في عنفوان أمرهم لا عمَّا آل إليه أمرهم بعد أن اختلفوا واضمحلّ ملكهم ونُسخت شريعتهم.

{ **وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ** } علّمناهم حججا وعلوما في أمر دينهم ونظامهم بحيث يكونون على بصيرة في تدبير مجتمعهم، وعلى سلامة من مخاطر الخطأ والخطل.

البيّنة: الحجّة الظاهرة، أي: علّمناهم بواسطة كتبهم وبواسطة علمائهم حجج الحق والهدى التي من شأنها أن لا تترك للشك والخطأ إلى نفوسهم سبلا إلّا سدّتها.

{ **الْأَمْرِ** } الشأن كما في قوله تعالى { وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ } [هود:97] والتعريف للتعظيم.

أي: شأن الأمّة وما به قوام نظامها، إذ لم يترك موسى والأنبياء من بعده شيئا مهمًّا من مصالحهم إلّا وقد وضّحوه وبيّنوه وحذّروا من الالتباس فيه.

{ **فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ** } تفريع إدماج لمناسبته للحالة التي أريد تنظيرها.

وتقدير الكلام: فاختلفوا وما اختلفوا إلّا من بعد ما جاءهم العلم، فحذف المفرّع لدلالة ما بعده عليه على طريقة الإيجاز، إذ المقصود هو التعجيب من حالهم كيف اختلفوا حين لا مظنّة للاختلاف.

وهذا الكلام كناية عن عدم التعجيب من اختلاف المشركين مع المؤمنين حيث أن المشركين ليسوا على علم ولا هدى، ليعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه ملطوف به في رسالته.

البغي: الظلم. والمراد: أن اختلافهم عن عمد ومكابرة بعضهم لبعض وليس عن غفلة أو تأويل، وهذا الظلم هو ظلم الحسد. أي: فكذلك حال نظرائهم من المشركين ما اختلفوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم إلّا بغيا منهم عليه مع علمهم بصدقه بدلالة إعجاز القرآن لفظا ومعاني.

{ **إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** } مستأنفة استئنافا بيانيا، لأنّ خبرهم العجيب يثير سؤالا في نفس سامعه عن جزاء الله إيّاهم على فعلهم، وهذا جواب فيه إجمال لتهويل ما سيقضى به بينهم في الخير والشر، لأنّ الخلاف يقتضي محقًّا ومبطلا.

ونظير هذه الآية قوله تعالى { وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرائيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } [يونس:93].

{ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ [18] إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ [19] }.

{ **ثُمَّ** } للتراخي الرتبي كما هو شأنها في عطف الجمل، وفيه تنويه بهذا الجعل وإشارة إلى أنّه الأفضل.

{ **عَلَى شَرِيعَةٍ** } للاستعلاء المجازي، أي: التمكّن والثبات، والتنوين للتعظيم بقرينة حرف التراخي الرتبي.

الشريعة: الدين والملّة المتّبعة، مشتقة من الشرع وهو: جعل طريق للسير، وسُمّي النهج شرعا تسمية بالمصدر. وسُمّي الماء الذي يرده الناس شريعة لذلك.

{ **الْأَمْرِ** } الشأن، وهو شأن الدين، وهو شأن من شؤون الله تعالى، فتكون { مِنَ } تبعيضية وليست كالتي في قوله آنفا { وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ } [17].

وقد بلغت هذه الجملة من الإيجاز مبلغا عظيما إذ أفادت أنّ شريعة الإسلام شريعة عظيمة، وأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم متمكّن منها لا يزعزعه شيء عن الدأب في بيانها والدعوة إليها. ولذلك فُرّع عليه أمره:

{ **فَاتَّبِعْهَا** } الأمر لطلب الدوام. وبينه وبين قوله تعالى { **وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** } محسّن المطابقة بين الأمر بالاتباع والنهي عن اتباع آخر.

الأهواء: جمع هوى، وهو المحبة والميل. والمعنى: أنّ دينهم أعمال أحبوها لم يأمر الله بها.

{ **الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** } هم المشركون، وأهواؤهم دين الشرك، قال تعالى { أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ } [23].

والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم. والمقصود منه: إسماع المشركين لئلّا يطمعوا بمصانعة الرسول صلى الله عليه وسلم إيّاهم حين يرون منه الإغضاء عن هفواتهم وأذاهم وحين يسمعون في القرآن بالصفح عنهم كما في الآية السالفة { قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ } [14]، وفيه أيضا تعريض للمسلمين بأن يحذروا من أهواء الذين لا يعلمون.

{ **إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً** } تعليل للنهي عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون، ويتضمّن تعليل الأمر باتباع شريعة الله، فإنّ كونهم لا يغنون عنه من الله شيئا يستلزم أنّ في مخالفة ما أمر الله من اتباع شريعته ما يوقع في غضب الله وعقابه.

الإغناء: جعل الغير غنيًّا. وضُمِّن فعل الإغناء معنى (الدفع) فعدّي بـ (عن). وتقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا } [آل عمران:10].

{ **وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** } تعليل آخر، أي: إنّهم ظالمون وأنت لست منهم في شيء فلا يجوز أن تتبعهم في شيء، وإنّما يتّبعهم من هم أولياؤهم.

{ **وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ** } تذييل، المقصود النبيّ صلى الله عليه وسلم، لأنّه أوّل المتقين.

{ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ } [20].

إن كانت الإشارة إلى الكلام المتقدّم وما فيه من ضرب المثل بموسى وقومه ومن تفضيل شريعة محمد على شريعة موسى عليهما الصلاة والسلام والأمر بملازمة اتّباعها والتحذير من اتّباع رغائب الذين لا يعلمون، فهذه الجملة بمنزلة التذييل لما قبلها والتهيئة لأغراضها، تنبيها لما في طيّها من عواصم عن الشك والباطل.

وإن كانت الإشارة إلى القرآن، إذ هو حاضر في الأذهان، كانت الجملة استئنافا أعيد بها التنويه بشأن القرآن ومتّبعيه، والتعريض بتحميق الذين أعرضوا عنه، وتكون مفيدة تأكيد قوله آنفا { هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ } [11]، وتكون الجملة المتقدّمة صريحة في وعيد الذين كفروا بآياته، وهذه تعريضا بأنّهم لم يحظوا بهذه البصائر. وكلا الاحتمالين رشيق.

{ **بَصَائِرُ** } جمع بصيرة وهي إدراك العقل الأمور على حقائقها. شُبّهت ببصر العين.

ووصف الآيات السابقة أو القرآن بـ { بَصَائِرُ } مجاز عقلي لأنّه سبب البصائر، فهو يُبيّن للناس الخير

والشر ويحرّضهم على الخير ويحذِّرهم من الشر، ويعدهم على الخير ويوعدهم على الشرور، فعمله عمل البصيرة.

{ **لِلنَّاسِ** } لأنّ القرآن بيان للناس عامة.

{ **وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ** } لأنّه لا يهتدي ببيانه إلّا الموقن بحقيقته، ولا يُرحم به إلّا من اتبعه مؤمنا به.

{ **لِقَوْمٍ** } للإيماء إلى أنّ الإيقان متمكّن من نفوسهم كأنّه من مقومات قوميّتهم التي تميزهم عن أقوام آخرين.

الإيقان: العلم الذي لا يتردد فيه صاحبه. وحذف متعلقه لأنّه معلوم: بما جاءت به آيات الله.

{ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** } [21].

انتقال من وصف تكذيبهم بالآيات واستهزائهم بها، ثُمَّ من أمر المؤمنين بالصفح عنهم وإيكال جزاء صنائعهم إلى الله، ثُمَّ من التثبيت على ملازمة الشريعة الإسلامية، إلى وصف صنف آخر من ضلالهم واستهزائهم بالوعد والوعيد وإحالتهم الحياة بعد الموت والجزاء على الأعمال، وتخييلهم للناس أنّهم يصيرون في الآخرة على الحال التي كانوا عليها في الدنيا؛ عظيمهم في الدنيا عظيمهم في الاخرة، وضعيفهم في الدنيا ضعيفهم في الآخرة، وهذا الانتقال رجوع إلى بيان قوله تعالى { مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ } [15].

{ **أَمْ** } للإضراب الانتقالي، والاستفهام الذي يلزم تقديره بعد { أَمْ } استفهام إنكاري، والتقدير: لا يحسب الذين اجترحوا السيئات أنهم كالذين آمنوا، لا في الحياة ولا في الممات.

{ **الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ** } في نقل عن ابن عباس: أنّهم المشركون، كما يؤذن به الانتقال من الغرض السابق إلى هذا الغرض، وإنّما عُبِّر عنهم بهذا العنوان لما في الصلة من تعليل إنكار المشابهة والمساواة بينهم وبين الذين آمنوا وعملوا الصالحات عند الله في عالم الخلد، ولأنّ اكتساب السيّئات من شعار أهل الشرك إذ ليس لهم دين وازع يزعهم عن السيّئات، فيكون إيمانهم به مُرَغِّبًا في الجزاء، ولذلك كثر في القرآن الكناية عن المشركين بالتلبس بالسيئات، كقوله تعالى { وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ - إلى قوله - أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ } [المطففين:1-5]، وكقوله تعالى { مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ } [المدثر:42-46]، وقوله تعالى { أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ } [الماعون:1-3]. ونظير الآية قوله تعالى { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ } [العنكبوت:4]. فإنّ ذلك حال الكفّار، وأمّا المؤمن العاصي فلا تبلغ به حاله أن يحسب أنه مفلت من قدرة الله.

قال البغوي: نزلت في نفر من مشركي مكة قالوا للمؤمنين: لئن كان ما تقولون حقا لنفضلنّ عليكم في الآخرة كما فضلنا عليكم في الدنيا.

وعن الكلبي: أن عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة قالوا لعلي وحمزة وبعض المسلمين: والله ما أنتم على شيء ولئن كان ما تقولون حقا (أي: إن كان البعث حقا) لحالنا أفضل من حالكم في الآخرة كما أنَّا أفضل حالا منكم في الدنيا.

وتأويل نزول هذه الآية على هذا السبب أنّ حدوث قول هؤلاء النفر صادف وقت نزول هذه الآيات من السورة، أو أن قولهم هذا متكرّر فناسب تعرّض الآية له.

الاجتراح: الاكتساب، وصيغة الافتعال فيه للمبالغة، وهو مشتق من الجرح، فأطلق على اكتساب السباع ونحوها، ولذلك سُمِّيت كلاب الصيد جوارح. وسُمِّي به اكتساب الناس، لأن غالب كسبهم في الجاهلية كان من الإغارة على إبل القوم، وهي بالرماح، ولذلك غلب إطلاق الاجتراح على اكتساب الإثم والخبيث.

{ **سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ** } وظاهر تركيب الآية أنّ هذا القول داخل في الحسبان المنكور، فيكون المعنى: إنكار أن يستوي المشركون مع المؤمنين لا في الحياة ولا بعد الممات؛ فيموت المشركون على اليأس من رحمة الله، إذ لا يوقنون بالبعث ويلاقون بعد الممات هول ما توعّدهم الله به، ويموت المؤمنون رجاء رحمة الله والبشرى بما وُعدوا به، ويلاقون بعد الممات ثواب الله ورضوانه.

{ **سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** } تذييل لما قبلها من إنكار حسبانهم وما اتصل بذلك الإنكار من المعاني.

واعلم أن هذه الآية وإن كان موردها في تخالف حالي المشركين والمؤمنين فإنّ نوط الحكم فيها بصلة { الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ } يجعل منها إيماء إلى تفاوت حالي المسيئين والمحسنين من أهل الإيمان.

وعن تميم الداري أنّه بات ليلة يقرأ هذه الآية ويركع ويسجد ويبكي إلى الصباح. وروي مثل ذلك عن الربيع بن خيثم وعن الفضيل بن عياض: أنّه كان كثيرا ما يردّد من أوّل الليل هذه الآية ثم يقول: ليت شعري من أي الفريقين أنت. يخاطب نفسه، فكانت هذه الآية تسمَّى **مبكاة العابدين**.

المحيا والممات: مصدران ميميان أو اسما زمان، أي: حياتهم وموتهم، وهو على كلا الاعتبارين بتقدير مضاف، أي: حالة محياهم وحالات مماتهم.

{ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } [22].

اعتراض بين الكلام المتقدّم وبين ما فُرِّع عليه من قوله تعالى { أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ } [23]، هو كالدليل على انتفاء أن يكون الذين اجترحوا السيئات، الذين هم في بحبوحة عيش مدّة حياتهم، أن يكونوا في نعيم بعد مماتهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات مدّة حياتهم فكان جزاؤهم النعيم بعد مماتهم.

ووجه الاستدلال أنّ خلق السماوات والأرض تُبيّن كونه في تمام الإتقان والنظام، بحيث إنّ دلائل إرادة العدل في تصاريفها قائمة، وما أودعه الخالق في المخلوقات من القوى مناسب لتحصيل ذلك النظام الذي فيه صلاحهم فإذا استعملوها في الإفساد والإساءة كان من إتمام إقامة النظام أن يُعاقبوا على تلك الإساءة. والمشاهَد أنّ المسيء كثير ما عكف على إساءته حتّى الممات، فلو لم يكن الجزاء بعد الموت حصل اختلال في نظام خلق المخلوقات وخلق القوى الصادر عنها الإحسان والإساءة.

وهذا المعنى تكرّر في آيات كثيرة، وكلّما ذكر شيء منه أُتبع بذكر الجزاء: مثل قوله تعالى { وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } [آل عمران:191]، وقوله تعالى { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ } [الدخان:38-40]

{ **بِالْحَقِّ** } الباء للسببية أو للملابسة، أي: خلقًا للسبب الحقّ، أو ملابسا للحقّ لا يتخلّف الحق عن حاله.

الحقّ: اسم جامع لما شأنه أن يحقِّ ويثبت، ومن شأن الحكمة والحكيم أن يقيمه.

{ **وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ** } عطف على { بِالْحَقِّ } لأنّ المعطوف عليه المجرور بالياء فيه معنى التعليل، وهذا تفصيل بعد إجمال، فإنّ الجزاء على الفعل بما يناسبه هو من الحقّ، ولأنّ تعليل الخلق بعلّة الجزاء من تفصيل معنى الحقّ وآثار كون الحق سببا لخلق السماوات والأرض أو ملابسا لأحوال خلقهما، فظهرت المناسبة بين (الباء) في المعطوف عليه و(اللام) في المعطوف.

{ **بِمَا كَسَبَتْ** } الباء للتعويض. وما كسبته النفس لا تجزى به بل تجازى بمثله وما يناسبه، فالكلام على حذف مضاف، أي: بمثل ما كسبته. وهذه المماثلة مماثلة في النوع، وأمّا تقدير تلك المماثلة فذلك موكول إلى الله تعالى ومراعى فيه عظمة عالم الجزاء في الخير والشر، ومقدار تمرّد المسيء وامتثال المحسن، بخلاف الحدود والزواجر فإنّها مُقدَّرة بما يناسب عالم الدنيا من الضعف.

{ **وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** } تعقيب، فضمير { وَهُمْ } عائد إلى { كُلُّ نَفْسٍ } فإنّ ذلك الجزاء ممّا اقتضاه العدل الذي جُعل سببا أو ملابسا لخلق السماوات والأرض وما فيهما، فهو عدل ليس من الظلم في شيء، فالمُجازَى غير مظلوم. وبالجزاء أيضا ينتفي أثر ظلم الظالم عن المظلوم.

{ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } [23].

لمّا كان الذين حسبوا أن يكونوا في الآخرة في نعمة وعزّة كما كانوا في الدنيا قالوا ذلك عن غير دليل ولا نظر ولكن عن اتباع ما يشتهون لأنفسهم من دوام الحال الحسن، تفرّع على حسبانهم التعجيب من حالهم، فعُطف بـ (الفاء) الاستفهام المستعمل في التعجيب، وجُعل استفهاما عن رؤية حالهم، للإشارة إلى بلوغ حالهم من الظهور إلى حد أن تكون مرئية. والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم، والمقصود من

معه من المسلمين، أو الخطاب لغير معيّن، أي: تناهت حالهم في الظهور فلا يختصّ بها مخاطب.
المعنى: أنّ حجاجهم المسلمين مرتكز على اتباع الهوى والمغالطة، فلا نهوض لحجّتهم لا في نفس الأمر ولا فيما أرادوه، على فرض وقوع البعث من أن يكونوا آمنين من أهوال البعث، وأنّهم لا يُرجى لهم اهتداء.
{ **إِلَٰهَهُ هَوَاهُ** } الراجح أن يكون أُطلق على ما يلازم طاعته، حتّى كأنّه معبود، فيكون هذا الإطلاق بطريقة التشبيه البليغ، أي: اتخذ هواه كإله له لا يخالف له أمرا.
{ **وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ** } أي: أنّهم أحاطت بهم أسباب الضلالة مع أنّهم أهل علم، أي: عقول سليمة، أو مع أنّهم بلغهم العلم بما يهديهم، وذلك بالقرآن ودعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم.
فحرف { عَلَى } هنا للمصاحبة بمعنى (مع). للاستعلاء المجازي وهو التمكّن بين الوصف والموصوف.
{ **وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً** } تقدم معنى الختم والغشاوة في [البقرة:7].
{ **فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ** } فُرّع على هذه الصلة استفهام إنكاري أن يكون غير الله يستطيع أن يهديهم، والمراد به تسلية النبيّ صلى الله عليه وسلم لشدّة أسفه لإعراضهم وبقائهم في الضلالة.
{ **مِنْ بَعْدِ اللَّهِ** } من دون الله، وتقدّم عند قوله تعالى { فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ } [الأعراف:185].
{ **أَفَلا تَذَكَّرُونَ** } فُرّع على ذلك استفهام إنكاري عن عدم تذكّر المخاطبين لهذه الحقيقة، أي: كيف نسوها حتّى ألحوا في الطمع بهداية أولئك الضالين، وأسفوا لعدم جدوى الحجّة لديهم.
وفي هذه الآية قُدِّم السمع على القلب بخلاف آية سورة البقرة { خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ } [البقرة:7]، لأنّ المخبر عنهم هنا لمّا أخبر عنهم بأنّهم اتخذوا إلههم هواهم، فقد تقرّر أنّهم عقدوا قلوبهم على الهوى فكان ذلك العقد صارفا السمع عن تلقي الآيات، فقُدّم لإفادة أنّهم كالمختوم على سمعهم، ثم عُطف عليه و{ قَلْبِهِ } تكميلا وتذكيرا بذلك العقد الصارف للسمع، ثم ذُكر ما { عَلَى بَصَرِهِ } من شبه الغشاوة لأنّ ما عقد عليه قلبه كان كالمانع لبصره عن النظر في أدلة الكائنات.
وأمّا آية سورة البقرة فإنّ المتحدَّث عنهم هم هؤلاء أنفسهم ولكن الحديث عنهم ابتدئ بتساوي الإنذار وعدمه في جانبهم بقوله تعالى { سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } [البقرة:6] فلمّا أريد تفصيله قُدِّم الختم على قلوبهم لأنّه الأصل كما كان اتخاذ الهوى كالإله أصلا في وصف حالهم في آية سورة الجاثية. فحالة القلوب هي الأصل في الانصراف عن التلقّي.

{ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ } [24].

عطف على جملة { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ } [21]، أي: بعد أن جادلوا المسلمين بأنّه إن كان بعث بعد الموت فستكون عُقباهم خيرا من عُقبى المسلمين، يقولون ذلك لقصد التورّك وهم لا يوقنون

بالبعث والجزاء بل ضربوه جدلا وإنّما يقينهم قولهم هنا { مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا }.
وتقدم المعنى في قوله تعالى { وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ } [الأنعام:29].
{ **هِيَ** } ضمير القصة والشأن، أي: قصّة الخوض في البعث تنحصر في أن لا حياة بعد الممات.
ويجوز أن يكون ضمير الحياة، باعتبار دلالة الاستثناء على تقدير لفظ (الحياة)، فيكون حصرا لجنس الحياة في الحياة الدنيا.
{ **نَمُوتُ وَنَحْيَا** } مبيّنة لجملة { مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا }، أي: ليس بعد هذا العالم عالم آخر، فالحياة هي حياة هذا العالم لا غير فإذا مات من كان حيا خلفه من يوجد بعده. فالمعنى: يموت بعضنا ويحيا بعض.
وللدلالة على هذا التطور عُبّر بالفعل المضارع.
ولا يخطر بالبال أنّ حكاية قولهم { نَمُوتُ وَنَحْيَا } تقتضي إرادة نحيا بعد أن نموت لأنّ قولهم { مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا } يصرف عن خطور هذا بالبال. والعطف بالواو لا يقتضي ترتيبا بين المتعاطفين في الحصول.
قيل: قُدِّم { نَمُوتُ } في الذكر لتتأتّى الفاصلة بلفظ { نحيا } مع لفظ { الدنيا }. **وعندي** أنّ التقديم للاهتمام بالموت في هذا المقام لأنّهم بصدد تقرير أنّ الموت لا حياة بعده، ويتبع ذلك الاهتمام تأتِّي طباقين بين حياتنا الدنيا ونموت ثم بين نموت ونحيا. وحصلت الفاصلة تبعا، وذلك أدخل في بلاغة الإعجاز.
{ **وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ** } زيادة لقصد تأكيد معنى انحصار الحياة والموت في هذا العالم المعبَّر عنه عندهم بالدهر. فالحياة بتكوين الخلقة والممات بفعل الدهر. فكيف يُرجى لمن أهلكه الدهر أن يعود حيًّا.
{ **وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ** } الإشارة بـ { ذَلِكَ } إلى قولهم { وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ }، أي: لا علم لهم بأنّ الدهر هو المميت، إذ لا دليل على ذلك فإنّ الدليل النظري بيّن أنّ الدهر، وهو الزمان، ليس بمميت مباشرة وهو ظاهر، ولا بواسطة في الإماتة، إذ الزمان أمر اعتباري لا يفعل ولا يؤثر وإنّما هو مقادير يقدّر بها الناس الأبعاد بين الحوادث، مرجعه إلى تقدير حصة النهار والليل وحصص الفصول الأربعة.
وإنّما توهم عامة الناس أنّ الزمان متصرّف، وهي توهُّمات شاعت حتّى استقرت في الأذهان الساذجة.
{ **إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ** } والمراد بالظنّ هنا ما ليس بعلم فهو هنا التخيّل والتوهّم. والجملة مُبيَّنة بجملة { وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ }، أو استئناف بياني، كأنّ سائلا حين سمع قوله تعالى { وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ } سأل عن مستندهم في قولهم ذلك فأجيب بأنّه الظنّ المبني على التخيل. وجيء بالمضارع لأنّ ظنّهم متجدّد متوارث.

{ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [25].
عطف على { وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ } [24]، أي: عقدوا على عقيدة أن لا حياة بعد

الممات استنادا للأوهام والأقيسة الخيالية. وإذا تليت عليهم آيات القرآن الواضحة الدلالة على إمكان البعث وعلى لزومه لم يعارضوها بما يبطلها بل يهرعون إلى المباهتة فيقولون: إن كان البعث حقا فأتوا بآبائنا إن صدقتم. { **آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ** } آيات القرآن المتعلّقة بالبعث بدليل ما قبل الكلام وما بعده.

{ **مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } تسجيل عليهم بالتلجلج عن الحجّة البيّنة، والمصير إلى سلاح العاجز من المكابرة والخروج عن دائرة البحث.

{ **ائْتُوا** } الخطاب موجّه للمؤمنين بدخول الرسول صلى الله عليه وسلم.

{ **إِلَّا أَنْ قَالُوا** } استثناء من حجّتهم وهو يقتضي تسمية كلامهم هذا حجّة وهو ليس بحجّة إذ هو بالبهتان أشبه؛ فإمّا أن يكون إطلاق اسم الحجة عليه على سبيل التهكّم بهم.

وإمّا أن يكون إطلاق اسم الحجّة على كلامهم جرى على اعتقادهم وتقديرهم دون قصد تهكّم بهم.

وإمّا أن يكون الإطلاق استعارة بعلاقة الضدية فيكون مجازا مرسلا بتنزيل التضاد منزلة التناسب، على قصد التهكّم، فيكون المعنى: لا حجة لهم إلّا هذه، وهذه ليست بحجة بل هي عناد، فيحصل أن لا حجة لهم بطريق التمليح والكناية.

{ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [26].

تلقين لإبطال قولهم { وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ } يتضمّن إبطال قولهم { مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا } والمقصود منه قوله { ثُمَّ يُمِيتُكُمْ } وإنّما قُدّم عليه { يُحْيِيكُمْ } توطئة له، أي: كما هو أوجدكم هو يميتكم.

{ **قُلِ اللَّهُ** } تقديم اسم الله على المسند الفعلي وهو { يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ } يفيد تخصيص الإحياء والإماتة به لإبطال قولهم، إن الدهر هو الذي يميتهم.

{ **ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ** } إبطال لقولهم { مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا }، وليس هو إبطالا بطريق الاستدلال لأنّ أدلة هذا تكرّرت فيما نزل من القرآن فاستغني عن تفصيلها ولكنه إبطال بطريق الإجمال والمعارضة.

{ **لا رَيْبَ فِيهِ** } حال من { يَوْمِ الْقِيَامَةِ }، أي: لا ريب في وجوده بما يقتضيه من إحياء الأموات.

{ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** } عطف على قوله { لا رَيْبَ فِيهِ } أي: ولكن ارتياب كثير من الناس فيه لأنّهم لا يعلمون دلائل وقوعه.

{ **وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ [27] وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [28] هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [29]** }.

{ **وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } اعتراض تذييل لقوله تعالى { قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ } [26]، أي: لله لا لغيره ملك السماوات والارض، فهو المتصرّف في أحوال ما حوته السماوات والأرض من إحياء وإماتة، وغير ذلك. وتقديم المجرور على المسند إليه لإفادة التخصيص.

{ **وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ** } لمّا جرى ذكر يوم القيامة أعقب بإنذار الذين أنكروه من سوء عاقبتهم فيه.

{ **الْمُبْطِلُونَ** } الآتون بالباطل في معتقداتهم وأقوالهم وأعمالهم إذ الباطل ما ضاد الحقّ. والمقصود منه ابتداء هنا هو الشرك بالله فإنّه أعظم الباطل، ثمّ تجيء درجات الباطل متنازلة وما من درجة منها إلّا وهي خسارة.

{ **وَتَرَى** } الخطاب لكلّ من يصلح له الخطاب بالقرآن فلا يُقصد مخاطب معين، ويجوز أن يكون خطابا للرسول صلى الله عليه وسلم. والمضارع مراد به الاستقبال، فالمعنى: وترى يومئذ.

الأمّة: الجماعة العظيمة من الناس، وهنا المقصود الذين يجمعهم دين جاء به رسول إليهم.

{ **جَاثِيَةً** } اسم فاعل من مصدر **الجُثُوّ** (بضمتين) وهو البروك على الركبتين بغير مباشرة المقعدة للأرض، فالجاثي هو البارك في هيئة الخضوع.

{ **كِتَابِهَا** } الظاهر من كونه مفردا غير معرّف باللام أنّه كتاب واحد لكلّ أمّة، فيقتضي أن يراد كتاب الشريعة، مثل القرآن، والتوراة، والإنجيل، وصحف إبراهيم، وغير ذلك، لا صحائف الأعمال. فعلى هذا الوجه يكون قوله تعالى { **تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا** }، تدعى لتُعرض أعمالها على ما أُمرت به في كتابها.

وقيل: أريد بقوله { كِتَابِهَا } كتاب تسجيل الأعمال لكلّ واحد، أو مراد به الجنس وتكون إضافته إلى ضمير الأمة على إرادة التوزيع على الأفراد لأنّ لكلّ واحد من كلّ أمة صحيفة عمله خاصة به، كما في قوله تعالى { اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا } [الاسراء:14].

{ **كُلُّ أُمَّةٍ** } أعيدت دون اكتفاء بقوله { تُدْعَى } أو يدعون، لإبراز التعاقب في الأحداث، فكلّ أمّة تدعى بالكتاب الذي تنتسب إليه، فتبقى جاثية، ثمّ تدعى كل أمّة إلى كتابها فتذهب إليه للحساب، أي: يذهب أفرادها للحساب. ولو قيل: وترى كل أمّة جاثية تدعى إلى كتابها لأوهم أنّ الجثو والدعاء إلى الكتاب يحصلان معا. وفي التفصيل تهويل.

{ **الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } بدل اشتمال من جملة { تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا } بتقدير قول محذوف، أي: يقال لهم اليوم تجزون على وفق كتاب دينكم. وهذا البدل وقع اعتراضا بين جملة {وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً}

وجملة { فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } [30].

{ **هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ** } من مقول القول المقدّر، وهي مستأنفة استئنافا بيانيا لتوقّع سؤال من يقول منهم: ما هو طريق ثبوت أعمالها؟ والإشارة إمّا إلى كتاب شريعة الأمة المدعوة، وإمّا إلى كتب أفرادها.

{ **كِتَابُنَا** } وإضافة (كتاب) إلى ضمير الله تعالى بعد أن أضيف إلى { كُلَّ أُمَّةٍ } لاختلاف الملابسة، فالكتاب يلابس الأمّة لأنّه جُعل لإحصاء أعمالهم أو لأنّ ما كُلِّفوا به مثبت فيه، وإضافته إلى ضمير الله لأنّه الآمر به.

{ **يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ** } مجاز عقلي، وإنّما تنطق بما في الكتاب ملائكة الحساب، أو استعير النطق للدلالة نحو قولهم: نطقت الحال. والمعنى: أنّ فيه شهادة عليهم بأنّ أعمالهم مخالفة لوصايا الكتاب، أو بأنّها مكتوبة في صحائف أعمالهم. ولتضمّن { يَنْطِقُ } معنى (يشهد) عدّي بحرف (على). وفي الكلام تهديد.

{ **إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } استئناف بياني لأنّهم إذا سمعوا { هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ } خطر ببالهم السؤال: كيف شهد عليهم الكتاب اليوم وهم قد عملوا الأعمال في الدنيا؟ فأجيبوا بأنّ الله كان يأمر بنسخ ما يعملونه في الصحف في وقت عمله. وإن حُمل الكتاب على كتب الشريعة كانت الجملة تعليلا للجملة قبلها باعتبار تقييد النطق بأنّه الحقّ، أي: لأنّ أعمالكم كانت محصاة، مُبيَّن ما هو منها مخالف لما أمر به كتابكم.

الاستنساخ: استفعال من النسخ. و**النسخ**: يطلق على كتابة ما يُكتب على مثال مكتوب آخر قبله. ويُسمَّى بالمعارضة أيضا. وظاهر (كتاب الأساس) أنّ هذا حقيقة معنى النسخ وأنّ قولهم: نسخت الشمس الظل مجاز. وكلام جمهور العلماء بخلافه كما يقوله علماء أصول الفقه في باب النسخ.

فإذا درجت على كلام الجمهور فقد جُعلت كتابة مكتوب على مثال مكتوب قبله كإزالة للمكتوب الأول، لأنّ ذلك في الغالب يكون لقصد التعويض عن المكتوب الأول. فيكون النسخ حقيقة في الإزالة.

وهذا اختلاف معضل، والأظهر ما ذهب إليه صاحب اللسان وصاحب القاموس، فيجوز أن يكون السين والتاء في { نستنسخ } للمبالغة في الفعل مثل استجاب. ويجوز أن يكون السين والتاء للطلب والتكليف، أي: نكلف الملائكة نسخ أعمالكم، وعلى هذا المحمل حمل المفسرون السين والتاء هنا، أي: للطلب.

والنسخ هنا: **الكتابة**، وإسناد فعل الاستنساخ إلى ضمير الله على هذا إسناد مجازي لأنّ الله أمر الحفظة بكتابة الأعمال.

{ **فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ** [30] **وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ** [31] **وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ** [32] }.

الفاء لعطف المفصّل على المجمل، وهو تفصيل لما أُجمل في قوله تعالى { وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً } وما بينهما اعتراض. وابتدئ في التفصيل بوصف حال المؤمنين مع أنّ المقام للحديث عن المبطلين في قوله تعالى { يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ } [27] تنويها بالمؤمنين وتعجيلا لمسرّتهم، وتعجيلا لمساءة المبطلين، لأنّ وصف حال المؤمنين يؤذن بمخالفة حال الآخرين لحالهم.

{ **فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ** } تعبير شامل لما تتصوّره النفس من أنواع الكرامة والنعيم، إذ جُعلت رحمة الله بمنزلة المكان يدخلونه.

{ **وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا** } افتتح بيان حال الذين كفروا بما يقال لهم من التوبيخ والتقرير من قبل الله تعالى.

{ **أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ** } مقول قول محذوف لظهور أنّ ذلك خطاب صادر من متكلّم من جانب الله تعالى، فيقدّر: فيقال لهم. والاستفهام توبيخ وتقرير.

{ **آيَاتِي** } القرآن.

{ **فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ** } أي: فاستكبرتم على الأخذ بها ولم تقتصروا على الاستكبار بل كنتم قوما مجرمين، أي: لم تفدكم مواعظ القرآن صلاحا لأنفسكم.

{ **قَوْمًا مُجْرِمِينَ** } دون الاقتصار على: وكنتم مجرمين، للدلالة على أنّ الإجرام صار خُلقا لهم وخالط نفوسهم، حتّى صار من مقومات قوميّتهم.

{ **وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا** } عطف على جملة { فَاسْتَكْبَرْتُمْ }. تخصيص لبعض آيات القرآن بالذكر بعد التعميم في قوله تعالى { أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ }.

وهذان القولان ممّا تكرر في القرآن بلفظه وبمعناه.

{ **السَّاعَةُ** } للعهد وهي ساعة البعث، أي: زمان البعث كما عُبّر عنه باليوم.

{ **قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ** } ما نعلم حقيقة الساعة. ونفي العلم بحقيقتها كناية عن جحد وقوعها.

{ **إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا** } ظاهر في أنّه متّصل بما قبله من قولهم { مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ } ومبيَّن بما بعده من قوله تعالى { وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ }. وموقعه ومعناه مشكل، وفي نظمه إشكال أيضا.

<u>فأمّا الإشكال من جهة موقعه ومعناه؛</u> فلأن القائلين موقنون بانتفاء وقوع الساعة لما حكي عنهم آنفا من قولهم { مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ } [24]، فلا يحق عليهم أنّهم يظنون وقوع الساعة بوجه من الوجوه، ولو احتمالا. ولا يستقيم أن يطلق الظنّ هنا على الإيقان بعدم حصوله، فيعضل معنى قولهم.

والوجه عندي في تأويله: إمّا يكون هذا حكاية لاستهزائهم بخبر البعث، فإذا قيل لهم { السَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا } قالوا استهزاء { إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا }، ويدلّ عليه قوله عقبه { وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } [33].

وأمّا إشكاله من جهة النظم؛ فمرجع الإشكال إلى استثناء الظنّ من نفسه في قوله تعالى {إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا} فإن الاستثناء المفرّغ لا يصح أن يكون مفرغًا للمفعول المطلق لانتفاء فائدة التفريغ.

وللخلاص من هذا نقول، كما قال ابن هشام في مغني اللبيب: إنّ المستثنى هو الظن الموصوف بما دلّ عليه تنكيره من التحقير المشعر به التنوين، أي: إلّا ظنا ضعيفا.

{ **وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ** } يفيد تأكيد قولهم { مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا } وعطفه عطف مرادف، أي: للتشريك في اللفظ. والسين والتاء للمبالغة في حصول الفعل.

{ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } [33].

عطف على جملة { أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ } [31]، باعتبار تقدير: فيقال لهم. أي: جُمع لهم بين التوبيخ والإزعاج، فوبِّخوا بقوله تعالى { أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ } إلى آخره، وأزعجوا بظهور سيّئات أعمالهم، أي: ظهور جزاء سيّئاتهم حين رأوا دار العذاب.

{ **حَاقَ** } أحاط.

{ **مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** } يعمُّ كلّ ما كان طريق استهزاء بالإسلام؛ من أقوال وأفعال. والباء يجوز حملها على السببية وعلى تعدية الفعل إلى ما لا يتعدّى إليه، أي: العذاب.

{ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ [34] ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ [35] }.

لمّا أودعوا جهنم وأحاطت بهم نودوا { الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ } إلى آخره، تأييسا لهم من العفو عنهم.

{ **وَقِيلَ** } بني الفعل للنائب حطًّا لهم عن رتبة أن يُصرّح باسم الله في حكاية الكلام الذي واجههم به، بناء على أن ضمير { نَنْسَاكُمْ } ضمير الجلالة وليس من قول الملائكة.

{ **الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ** } أطلق النسيان هنا على الترك المؤبّد على سبيل المجاز المرسل، لأن النسيان يستلزم ترك الشيء المنسي في محلّه أو تركه على حالته، ويجوز أن يكون النسيان مستعارا للإهمال وعدم المبالاة.

{ **كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا** } الكاف للتعليل، أي: جزاء إعراضكم عن الإيمان بهذا اليوم.

اللقاء: وجدان شيئا في مكان، وهو المصادفة. يقال: لقي زيد عمرا.

{ **يَوْمِكُمْ** } أطلق اليوم على ما فيه من الأحداث على سبيل المجاز المرسل، لأنّه أوجز من تعداد الأهوال الحاصلة منذ البعث إلى قضاء الجزاء على الأعمال.

{ **هَذَا** } وصف اليوم باسم الإشارة لتمييزه أكمل تمييز تكميلا لتعريفه بالإضافة لئلا يلتبس عليهم بيوم آخر.

{ **وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ** } عطف على { الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ } ليعلموا أنّ تركهم في النار ترك مؤبّد، فإنّ المأوى هو مسكن الشخص الذي يأوي إليه بعد أعماله، فالمعنى أنّكم قد أويتم إلى النار فأنتم باقون فيها.

{ **وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ** } تقدّم نظيره قريبا، والمقصود تخطئة زعمهم السابق أنّ الأصنام تنفعهم في الشدائد.

{ **ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا** } أي: ذلكم المأوى بسبب اتخاذكم آيات القرآن هزؤا.

{ **وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا** } وتغرير الحياة الدنيا إيّاهم سبب أيضا لجعل النار مأواهم.

التغرير: الإطماع الباطل.

<u>معنى تغرير الحياة الدنيا إيّاهم</u>: أنّهم قاسوا أحوال الآخرة على أحوال الدنيا فظنّوا أنّ الله لا يحيي الموتى وتطرّقوا من ذلك إلى إنكار الجزاء في الآخرة على ما يُعمل في الدنيا، وغرّهم أيضا ما كانوا عليه من العزّة والمنعة فخالوه منتهى الكمال فلم يصيخوا إلى داعي الرشد وعظة النصح وأعرضوا عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن القرآن المرشد.

{ **فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ** } تفريع بالفاء وهذا من تمام الكلام الذي قيل لهم، لأنّ وقوع كلمة (اليوم) في أثنائه يعين أنّه من القيل الذي يقال لهم يومئذ.

{ **لا يُخْرَجُونَ** } كان مقتضى الظاهر أن يقال: لا تخرجون، بأسلوب الخطاب مثل سابقه ولكن عُدل عنه إلى الغيبة على وجه الالتفات. ويُحسّنه هنا أنّه تخييل للإعراض عنهم بعد توبيخهم وتأييسهم، وصرف بقية الإخبار عنهم إلى مخاطب آخر ينبأ ببقية أمرهم تحقيرا لهم.

الاستعتاب: الإعتاب، فالسين والتاء للمبالغة. ومعنى الإعتاب: إعطاء العتبى وهي الرضا. وهو هنا مبني للمجهول. أي: لا يستعتبهم أحد، أي: ولا يُرضون بما يسألون، وتقدّم نظيره في قوله تعالى { فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ } [الروم:57].

{ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [36] وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [37] }.

الفاء لتفريع التحميد والثناء على الله، تفريعا على ما احتوت عليه السورة من ألطاف الله فيما خلق وأرشد وسخّر وأقام من نظم العدالة، والإنعام على المسلمين في الدنيا والآخرة، ومن وعيد للمعرضين واحتجاج

عليهم، فلمّا كان ذلك كلّه من الله كان دالا على اتصافه بصفات العظمة والجلال وعلى إفضاله على الناس بدين الإسلام، كان حقيقا بإنشاء قصر الحمد عليه.

فيجوز أن يكون هذا الكلام مرادا منه ظاهر **الإخبار**.

ويجوز أن يكون مع ذلك مستعملا في معناه **الكنائي**، وهو أمر الناس بأن يقصروا الحمد عليه.

ويجوز أن يكون **إنشاء** حمد لله تعالى وثناء عليه.

وكل ما سبقه من آيات هذه السورة مقتض للوجوه الثلاثة، ونظيره قوله تعالى { فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }[الأنعام:45].

وتقديم { **فَلِلَّهِ** } لإفادة الاختصاص، أي: الحمد مختصّ به الله تعالى، يعني الحمد الحق الكامل.

{ **رَبُّ السَّمَاوَاتِ** } إيماء إلى علة قصر الحمد على الله إخبارا وإنشاءً، تأكيدا لما اقتضته الفاء.

{ **وَرَبِّ الْأَرْضِ** } عُطف بتكرير لفظ { رَبُّ } للتنويه بشأن الربوبية، لأنّ رَبُّ السماوات والأرض يحقّ حمده على أهل السماء والأرض.

{ **رَبِّ الْعَالَمِينَ** } وهم سكّان السماوات والأرض، تأكيدا لكونهم محقوقين بأن يحمدوه لأنّه خالق العوالم التي هم منتفعون بها وخالق ذواتهم فيها كذلك.

{ **وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } تعقيب للإشارة إلى أنّ استدعاءه خلقه لحمده إنّما هو لنفعهم وتزكية نفوسهم، فإنّه غني عنهم، كما قال تعالى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ } .[الذاريات:57/56].

الكبرياء: الكبر الحقّ الذي هو كمال الصفات وكمال الوجود.

{ **الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ** } لأنّ **العزّة** تشمل معاني القدرة والاختيار، و**الحكمة** تجمع معاني تمام العلم وعمومه.

وبهذه الخاتمة آذن الكلام بانتهاء السورة فهو من براعة خواتم السور.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأحقاف

سُمِّيت هذه السورة (**سورة الأحقاف**) في جميع المصاحف وكتب السنّة. ووردت تسميتها بهذا الاسم في كلام عبد الله بن عباس، وكذلك وردت في كلام عبد الله بن مسعود، أخرج الحاكم بسند صحّحه عن ابن مسعود قال: " أقرأني رسول الله سورة الأحقاف ".

ووجه تسميتها (**الأحقاف**) ورود لفظ الأحقاف فيها ولم يرد في غيرها من سور القرآن.

ولم يذكرها في (الإتقان) في عداد السور ذات أكثر من اسم.

وهي مكية قال القرطبي: باتفاق جميعهم، وفي إطلاق كثير من المفسّرين. وبعض المفسّرين نسبوا استثناء آيات منها الى بعض القائلين. وسيأتي ما يقتضي أنّها نزلت بعد مضي عامين من البعثة.

وهذه السورة **معدودة الخامسة والستين** في عداد نزول السور، نزلت بعد الجاثية وقبل الذّاريات.

وعُدّت آيها عند جمهور أهل الأمصار **أربعا وثلاثين**، وعدّها أهل الكوفة خمسا وثلاثين والاختلاف في ذلك مبني على أنّ { حم } تعتبر آية مستقلة أو لا.

أغراض السورة

*/ الإشارة إلى إعجاز القرآن للاستدلال على أنّه منزّل من عند الله.

*/ الاستدلال بإتقان خلق السماوات والأرض على التفرّد بالإلهية، وعلى إثبات جزاء الأعمال.

*/ الإشارة إلى وقوع الجزاء بعد البعث وأنّ هذا العالم صائر إلى فناء.

*/ إبطال الشركاء في الإلهية. والتدليل على خلوّهم عن صفات الإلهية.

*/ إبطال أن يكون القرآن من صنع غير الله.

*/ إثبات رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، واستشهاد الله تعالى على صدق رسالته واستشهاد شاهد بني إسرائيل وهو عبد الله بن سلام.

*/ الثناء على الذين آمنوا بالقرآن وذكر بعض خصالهم الحميدة وما يضادها من خصال أهل الكفر.

*/ ذُكرت معجزة إيمان الجنّ بالقرآن.

*/ أقحم في ذلك معاملة الوالدين والذرية ممّا هو من خُلق المؤمنين، وما هو من خلق أهل الضلالة، والعبرة بضلالهم مع ما كانوا عليه من القوّة.

*/ ختمت السورة بتثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد أشبهت كثيرا أغراض سورة الجاثية مع تفنّن.

{ **حم** } [1].

تقدّم القول في نظيره في أوّل سورة غافر. وهذه جملة مستقلّة مثل نظائرها من الحروف المقطعة.

{ **تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ** } [2].

تقدّم القول في نظيره في أوّل الجاثية.

{ **مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ** } [3].

لمّا كان من أهم ما جاء به القرآن إثبات وحدانية الله تعالى، وإثبات البعث والجزاء، لتوقّف حصول فائدة الإنذار على إثباتهما، جُعل قوله { تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } [2] تمهيدا للاستدلال على إثبات الوحدانية والبعث والجزاء، فجُعل خلق السماوات والأرض محل اتفاق، ورُتِّب عليه أنّه ما كان ذلك الخلق إلّا ملابسا للحق، وتقتضي ملابسته للحقّ أنّه لا يكون خلقا عبثا بل هو دال على أنّه يعقبه جزاء على ما يفعله المخلوقون.

{ **إِلَّا بِالْحَقِّ** } استثناء من أحوال عامة، أي: ما خلقناهما إلّا في حالة المصاحبة للحقّ.

{ **وَأَجَلٍ مُسَمًّى** } عطف على { بِالْحَقِّ }، عطف الخاص على العام للاهتمام به، لأنّ دلالة الحدوث على قبول الفناء دلالة عقلية فهي ممّا يقتضيه الحق، وأن تعرض السماوات والأرض للفناء دليل على وقوع البعث لأنّ انعدام هذا العالم يقتضي بمقتضى الحكمة أن يخلفه عالم آخر أعظم منه، على سنّة تدرّج المخلوقات في الكمال. وقد كان ظنّ الدهريين قدم هذا العالم وبقاءه أكبر شبهة لهم في إنكارهم البعث، { وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ } [الجاثية:24]. فالدهر عندهم متصرّف وهو باق غير فان، فلو جوّزوا فناء هذا العالم لأمكن نزولهم إلى النظر في الأدلة التي تقتضي حياة ثانية.

{ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ** } في موضع الحال من الضمير المقدّر في متعلّق الجار والمجرور من قوله { بِالْحَقِّ } ، فيكون المقصود من الحال التعجيب منهم وليس ذلك عطفا، لأنّ الإخبار عن الذين كفروا بالإعراض مستغنى عنه إذ هو معلوم. أي: هم معرضون عمّا أنذروا به من وعيد يوم البعث.

وحذف العائد من الصلة لأنّه ضمير منصوب بـ { أُنْذِرُوا }. والتقدير: عما أنذروه معرضون.

{ **عَمَّا أُنْذِرُوا** } تقديمه على متعلّقه وهو { مُعْرِضُونَ } للاهتمام بما أنذروا، ويتبع ذلك رعاية الفاصلة.

{ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } [4].

انتقل إلى الاستدلال على بطلان صفة الإلهية عن أصنامهم.

{ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ** } أمر بإلقاء الدليل على إبطال الإشراك وهو أصل ضلالهم. وجاء هذا الاستدلال بأسلوب المناظرة فجُعل النبيّ صلى الله عليه وسلم مواجها لهم بالاحتجاج ليكون إلجاء لهم إلى الاعتراف بالعجز عن معارضة حجّته، وكذلك جرى الاحتجاج بعده ثلاث مرات بطريقة أمر التعجيز.

{ **أَرَأَيْتُمْ** } استفهام تقريري فهو كناية عن معنى: أخبروني، وقد تقدّم في قوله تعالى { قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ } [الأنعام:40].

{ **أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ** } الأمر مستعمل في التسخير والتعجيز كناية عن النفي، وهذا من رؤوس مسائل المناظرة، وهو مطالبة المدّعي بالدليل على إثبات دعواه.

{ **مَاذَا** } بمعنى ما الذي خلقوه، فـ (ما) استفهامية و(ذا) بمعنى: الذي. وأصله اسم إشارة ناب عن الموصول. وأصل التركيب: ما ذا الذي خلقوا، فاقتصر على اسم الإشارة وحذف اسم الموصول غالبا في الكلام، وقد يظهر كما في قوله تعالى { مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ } [البقرة:255].

{ **مَاذَا خَلَقُوا** } استفهام إنكاري. والجملة بدل من جملة { أَرُونِي } وفعل الرؤية معلّق عن العمل بورود (ما) الاستفهامية بعده.

وإذا لم يكن شيء من الأرض مخلوقا لهم بطل أن يكونوا آلهة، لخروج المخلوقات عن خلقهم. وإذا بطل أن يكون لها خلق بطل أن يكون لها تصرّف في المخلوقات، كما قال تعالى { أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ } [الأعراف:192/191].

{ **أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ** } و (أم) حرف إضراب انتقالي. والاستفهام المقدّر إنكاري، أي: ليس لهم شرك مع الله في السماوات. وإنّما أوثر انتفاء الشركة في السماوات دون انتفاء الخلق، كما أوثر انتفاء الخلق بالنسبة إلى الأرض، لأن مخلوقات الأرض مشاهدة للناس ظاهر تطورها وحدوثها، وأمّا الموجودات السماوية فهي محجوبة عن العيون لا عهد للناس بظهور وجودها ولا تطوّرها فلا يحسن الاستدلال بعدم تأثير الأصنام في إيجاد شيء منها. ولكن لمّا لم يدع المشركون تصرفا للأصنام إلّا في أحوال الناس في الأرض من جلب نفع أو دفع ضر اقتصر في نفي تصرفهم في السماوات على الاستدلال بنفي أن يكون للأصنام شركة في أمور السماوات، لأن انتفاء ذلك لا ينازعون فيه.

وتقدم نظيرها في قوله تعالى { قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ } [فاطر:40].

{ **ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } انتقل من الاستدلال بالمشاهدة وبالإقرار إلى الاستدلال بالأخبار الصادقة. ومناط الاستدلال أنّه استدلال على إبطال دعوى المدّعي بانعدام الحجّة

على دعواه ويُسمَّى الإفحام كما تقدّم. والمعنى: نفي أن يكون لهم حجّة على إلهية الأصنام لا بتأثيرها في المخلوقات، ولا بأقوال الكتب، فهذا قريب من قوله تعالى { أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَتٍ مِنْهُ } [فاطر:40].

الإتيان : مستعار للإحضار ولو كان في مجلسهم، كما تقدّم في قوله { فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ } [البقرة:23].

{ **بِكِتَابٍ** } أي: كتاب من الكتب المقروءة. وهذا قاطع لهم، فإنّهم لا يستطيعون ادعاء أنّ لأصنامهم في الكتب السابقة ذكرا غير الإبطال والتحذير من عبادتها، أو عدم ذكرها البتة، ويدلّ على ذلك قوله تعالى { أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ }.

{ **مِنْ قَبْلِ هَذَا** } الإشارة إلى القرآن لأنّه حاضر في أذهان أصحاب المحاجّة فإنّه يقرأ عليهم معاودة.

{ **أَثَارَةٍ** } بفتح الهمزة: البقية من الشيء. والمعنى: أو بقية بقيت عندكم تروونها عن أهل العلم السابقين غير مسطورة في الكتب. وهذا توسيع عليهم في أنواع الحجّة ليكون عجزهم عن الإتيان بشيء من ذلك أقطع لدعواهم.

{ **إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } إلهاب وإفحام لهم بأنّهم غير آتين بحجّة لا من جانب العقل ولا من جانب النقل المسطور أو المأثور، قال تعالى { فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ } [القصص:50].

{ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ [5] وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ [6] }.

اعتراض في أثناء تلقين الاحتجاج، لمّا أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يحاجّهم بالدليل وجّه الخطاب إليه تعجيبا من حالهم وضلالهم، لأنّ قوله تعالى { وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً } لا يناسب إلّا أن يكون من جانب الله.

{ **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ** } استفهام إنكار وتعجيب. والمعنى: لا أحد أشدّ ضلالا وأعجب حالا ممن يدعون من دون الله من لا يستجيب له دعاءه، فهو أقصى حد من الضلالة، ووجه ذلك أنّهم ضلّوا عن دلائل الوحدانية وادعوا لله شركاء بلا دليل واختاروا الشركاء من حجارة، وهي أبعد الموجودات عن قبول صفات الخلق والتكوين والتصرّف، ثم يدعونها في نوائبهم وهم يشاهدون أنّها لا تسمع ولا تبصر ولا تجيب، ثم سمعوا آيات القرآن توضّح لهم الذكرى بنقائص آلهتهم، فلم يعتبروا بها وزعموا أنّها سحر ظاهر، فكان ضلالهم أقصى حدّ في الضلال.

{ **مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ** } الأصنام، عُبّر عنها باسم الموصول المختصّ بالعقلاء لأنّه شاع في كلام العرب إجراؤها مجرى العقلاء فكثرت في القرآن مجاراة استعمالهم في ذلك.

{ **إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ** } جُعل يوم القيامة غاية لانتفاء الاستجابة، كناية عن استغراق مدّة بقاء الدنيا.

وعُبِّر عن نهاية الحياة الدنيا بذلك لأنّ المواجه بالخبر هو الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون كما علمت، وهم يثبتون يوم القيامة.

{ **وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ** } عطفت على ما قبلها لمناسبة ذكر يوم القيامة.

{ **كَانُوا / وَكَانُوا** } في الموضعين يجوز أن يعودا إلى { مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ } فإنّ المشركين يعادون أصنامهم يوم القيامة إذ يجدونها من أسباب شقائهم. ويجوز أن يعودا إلى { مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ } فإنّ الأصنام يجوز أن تُعطى حياة يومئذ فتنطق بالتبرّي من عُبَّادها ومن عبادتهم إيّاها، قال تعالى { وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ } [فاطر:14]، وقال تعالى { وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْماً بُوراً فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ } [الفرقان:17-19].

ويجوز أن يكون قوله { كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ } جاريا على التشبيه البليغ.

ومن بديع تفنّن القرآن توزيع معاد الضمائر في هذه الآية مع تماثلها في اللفظ وهذا يندرج في محسّن الجمع مع التفريق وأدق.

{ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ } [7].

عطف على جملة { وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ } [5]، انتقال إلى إبطال ضلال آخر من ضلالهم وهو ضلال التكذيب بالقرآن بالادّعاء أنّه سحر، ولم يكتفوا بذلك بل زادوا بهتانا فزعموا أنّه مبين، أيّ واضح كونه سحرا. فالكلام مرتبط بقوله { حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ } [2/1].

{ **الَّذِينَ كَفَرُوا** } إظهار في مقام الإضمار للتسجيل عليهم بالكفر وبأنّه سبب قولهم ذلك.

{ **لِلْحَقِّ** } لام العلّة، وليست لام تعدية فعل. أي: قال بعض الكافرين لبعض في شأن الذين آمنوا ومن أجل إيمانهم.

الحقّ: هو الآيات، فعدل عن ضمير الآيات إلى إظهار لفظ (الحقّ) للتنبيه على أنّها حقّ وأنّ رميها بالسحر بهتان عظيم.

{ **ولَمَّا جَاءَهُمْ** } توقيت لمقالتهم، أي: يقولون ذلك بفور سماع الآيات وكلما جاءتهم، أي: دون تدبّر ولا إجالة فكر.

{ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** } [8].

إضراب انتقال إلى نوع آخر من ضلال أقوالهم. وسلك في الانتقال مسلك الإضراب دون أن يكون بالعطف بـ (الواو) لأنّ الإضراب يفيد أن الغرض الذي سينتقل إليه له مزيد اتصال بما قبله.

والمعنى: دع قولهم: { هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ } [7] واستمع لما هو أعجب وهو قولهم: { افْتَرَاهُ }، أي: افترى نسبته إلى الله.

والاستفهام المقدّر بعد (أم) للإنكار على مقالتهم، والنفي الذي يقتضيه الاستفهام الإنكاري يتسلّط على سبب الإنكار، أي: كون القرآن مفترى.

{ **قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً** } أُمِر الرسول صلى الله عليه وسلم بجواب مقالتهم بما يقلعها من جذرها. والتقدير: إن افتريته عاقبني الله معاقبة لا تملكون ردّها.

واعلم أنّ الشائع في استعمال (لا أملك له شيئا) ونحوه أن يُسند فعل الملك إلى الذي هو مظنّة للدفع عن مدخول اللام المتعلّقة بفعل الملك، كقوله تعالى { قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً } [الأعراف:188]، وقوله تعالى { وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ } [الممتحنة:4]، أو أن يسند الى عام، نحو قوله تعالى { قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ }، فإسناد فعل الملك في هذه الآية إلى المخاطبين، وهم أعداء النبيّ صلى الله عليه وسلم وليسوا بمظنّة أن يدفعوا عنه، لأنّهم نصبوا أنفسهم في منصب الحكم على النبيّ صلى الله عليه وسلم فجزموا بأنّه افترى القرآن فحالهم حال من يزعم أنّه يستطيع أن يردّ مراد الله تعالى على طريقة التهكّم.

واعلم أن وجه الملازمة بين الشرط وجوابه في الآية أنّ الله لا يقرّ أحدا على أن يبلّغ إلى الناس شيئا عنه لم يأمره بتبليغه، وقد دلّ القرآن على هذا في قوله تعالى { وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ } [الحاقة:44-47]. ولعلّ حكمة ذلك أنّ التقوّل على الله يفضي إلى فساد عظيم يختلّ به نظام الخلق، لأنّه يوقع الناس في حيرة بماذا يتلقونه فلذلك لا يقرّه الله ويزيله.

{ **هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ** } بدل اشتمال من جملة { فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً } لأنّ جملة { فَلا تَمْلِكُونَ لِي } تشتمل على معنى أنّ الله لا يرضى أن يفتري عليه أحد، وذلك يقتضي أنّه أعلم منهم بحال من يخبر عن الله بأنه أرسله وما يبلغه عن الله. ومتعلق اسم التفضيل محذوف، أي: هو أعلم منكم.

الإفاضة: في الحديث الخوض فيه والإكثار منه، وهي منقولة من: فاض الماء؛ إذا سال. ومنه حديث مستفيض مشتهر شائع. والمعنى: هو أعلم بحال ما تفيضون فيه.

{ **كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ** } بدل اشتمال من جملة { هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ } لأنّ الإخبار بكونه أعلم منهم بكنه ما يفيضون فيه يشتمل على معنى تفويض الحكم بينه وبينهم إلى الله تعالى. وهذا تهديد

لهم وتحذير من الخوض في الباطل ووعيد.
الشهيد: الشاهد، أي: المخبر بالواقع. والمراد به هنا الحاكم بما يعلمه من حالنا، كما دلّ عليه قوله تعالى { بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ }، لأنّ الحكم يكون بين خصمين ولا تكون الشهادة بينهما بل لأحدهما، قال تعالى { وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً } [النساء:41].
{ **وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** } اقتضاه ما تضمّنه قوله تعالى { كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ } من التهديد والوعيد، وهو تعريض بطلب الإقلاع عمّا هم فيه من الخوض بالباطل.

{ **قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ** } [9].
أعيد الأمر بأن يقول ما هو حجّة عليهم، كما هو في قوله آنفا { قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ } [4]. وهذا الجواب ارتقاء في الردّ عليهم، من ردٍّ إلى أقوى منه، عمّا تضمّنه قولهم { افْتَرَاهُ } [8] من إحالتهم صدقه فيما جاء به من الرسالة عن الله، إحالة دعتهم إلى نسبة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الافتراء على الله، لذلك لم يُعطف هذا الجواب على جملة { قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ } [8]، لأنّه كالتعدّد والتكرير، وسيأتي بعده قوله { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ } [10]. ونظير ذلك ما في قوله تعالى { بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ – إلى قوله - قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [المؤمنون:81-84]، وقوله تعالى { قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ } [المؤمنون:86]، وقوله تعالى { قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ } [المؤمنون:88].
البِدْع: معناه البديع. ومنه: الخِلْ بمعنى الخليل. فالبدع: صفة مشبّهة بمعنى البادع. ومن أسمائه تعالى **(البديع)** خالق الأشياء ومخترعها.
أي: ما كنت آتيا منهم بديعا غير مماثل لهم، فكما سمعتم بالرسل الأوّلين أخبروا عن رسالة الله إيّاهم فكذلك أنا، فلماذا يعجبون من دعوتي !
وهذه الآية صالحة للرد على نصارى زماننا الذين طعنوا في نبوّته بمطاعن لا منشأ لها إلا تضليل وتمويه على عامتهم لأنّ الطاعنين ليسوا من الغباوة بالذين يخفى عليهم بهتانهم كقولهم إنّه تزوّج النساء، أو إنّه قاتل الذين كفروا، أو إنّه أحب زينب بنت جحش.
{ **وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ** } تتميم لقوله تعالى { قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ } وهو بمنزلة الاعتراض، فإنّ المشركين كانوا يسألون النبيّ صلى الله عليه وسلم عن مغيَّبات استهزاءً، فيقول أحدهم إذا ضلّت ناقته: أين ناقتي؟ ويقول أحدهم: من أبي؟ أو نحو ذلك، فأمر الله الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعلمهم بأنّه لا يدري ما يفعل به ولا بهم، أي: في الدنيا، وهذا معنى قوله تعالى { قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي

نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ } [الأعراف:188].

{ **إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ** } استئناف بياني وإتمام لما في قوله تعالى { وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ }، بأنّ قصارى ما يدريه هو اتباع ما يُعْلمه الله به.

{ **وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ** } عطف على جملة { مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ } لأنّه الغرض المسوق له الكلام بخلاف قوله { وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ }، والمعنى: وما أنا إلّا نذير مبين لا مفتر، فالقصر قصر إضافي، وهو قصر قلب لردّ قولهم { افْتَرَاهُ }.

{ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [10].

أعيد الأمر بأن يقول لهم حجّة أخرى لعلّها تردّهم إلى الحق بعد ما تقدّم من قوله تعالى { قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ } [4]، وقوله تعالى { قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً } [8]، وقوله تعالى { قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ } [9]. وهذا استدراج لهم للوصول إلى الحق في درجات النظر، فقد بادأهم بأنّ ما أحالوه من أن يكون رسولا من عند الله ليس بمحال إذ لم يكن أوّل الناس جاء برسالة من الله. ثم أعقبه بأنّ القرآن إذا فرضنا أنّه من عند الله وقد كفرتم بذلك كيف يكون حالكم عند الله تعالى؟

وأقحم هنا أنّه لو شهد شاهد من أهل الكتاب بوقوع الرسالات ونزول الكتب على الرسل، وآمن برسالتي كيف يكون انحطاطكم عن درجته، وقد جاءكم كتاب فأعرضتم عنه، فهذا كقوله تعالى { أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ } [الأنعام:157]. وهذا تحريك للهمم.

ونظير هذه قوله تعالى { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ } [فصلت:52]، سوى أنّ هذه أُقحم فيها قوله تعالى { وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ }، فإنّ المشركين كانت لهم مخالطة مع بعض اليهود في مكّة ولهم صلة بكثير منهم في التجارة بالمدينة وخيبر، فلمّا ظهرت دعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم كانوا يسألون من لقوه من اليهود عن أمر الأديان والرسل فكان اليهود لا محالة يخبرون المشركين ببعض الأخبار عن رسالة موسى وكتابه وكيف أظهره الله على فرعون.

فاليهود وإن كانوا لا يقرُّون برسالة محمد صلى الله عليه وسلم فهم يتحدّثون عن رسالة موسى عليه السلام بما هو مماثل لحال النبيّ صلى الله عليه وسلم مع قومه، وفيه ما يكفي لدفع إنكارهم رسالته.

{ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ** } الاستفهام تقريري للتوبيخ والمفعولان محذوفان. والتقدير: أرأيتم أنفسكم ظالمين.

{ **إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ** } الضمير المستتر عائد إلى القرآن المعلوم من السياق، أو إلى { مَا يُوحَى إِلَيَّ }.

{ **كَفَرْتُمْ بِهِ** } في موضع الحال من ضمير { أَرَأَيْتُمْ }، ويجوز أن يكون عطفا على فعل الشرط.

{ **وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ** } المراد شاهد غير معيّن، أي: أيُّ شاهد،

لأنّ الكلام إنباء لهم بما كانوا يتساءلون به مع اليهود. وبهذا فسّر الشعبي ومسروق واختاره ابن عبد البر في الاستيعاب في ترجمة عبد الله بن سلام. فالخطاب في قوله { أَرَأَيْتُمْ } موجّه إلى المشركين من أهل مكة.

وقال ابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد وعكرمة: المراد عبد الله بن سلام.

فيجوز أن تكون الآية نزلت بالمدينة وأُمِر بوضعها في سورة الأحقاف، وعلى هذا يكون الخطاب لأهل الكتاب بالمدينة وما حولها.

وعندي أنّه يجوز أن يكون هذا إخبارا من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بما سيقع من إيمان عبد الله بن سلام فيكون هو المراد بـ { شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ } وإن كانت الآية مكية.

والظاهر أن مثل هذه الآية هو الذي جرَّأ المشركين على إنكار نزول الوحي على موسى وغيره من الرسل فقالوا { لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ } [سبأ:31] حين علموا أن قد لزمتهم الحجّة بنزول ما سلف من الكتب قبل القرآن.

{ **مِثْلِهِ** } الضمير عائد إلى القرآن الذي سبق ذكره مرات، من قوله تعالى { تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ } [2]، وقوله تعالى { ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا } [4]. و**المثل**: المماثل والمشابه في صفة أو فعل.

{ **إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** } تذييل لجملة جواب الشرط المقدّرة وهي تعليل للكلام المحذوف الدال عليه ما قبله كما علمته آنفا، أي: ضللتم ضلالا لا يُرجى له زوال لأنّكم ظالمون والله لا يهدي القوم الظالمين. وهذا تسجيل عليهم بظلمهم أنفسهم. وجيء في الشرط بحرف (إنّ) الذي شأنه أن يكون في الشرط غير المجزوم بوقوعه مجاراة لحال المخاطبين، استنزالا لطائر جماحهم لينزلوا للتأمّل والمحاورة.

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ } [11].

{ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ** } هذا حكاية خطأ آخر من أخطاء حجج المشركين الباطلة وهو خطأ منشؤه الإعجاب بأنفسهم وغرورهم بدينهم، فاستدلوا على أن لا خير في الإسلام بأنّ الذين ابتدروا الأخذ به ضعفاء القوم، فهم الذين قالوا { أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا } [الأنعام:53]. ومناسبته لما قبله أنّه من آثار استكبارهم فناسب قوله تعالى { وَاسْتَكْبَرْتُمْ }. وهو نظير قول قوم نوح { وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ } [هود: 27].

{ **لِلَّذِينَ آمَنُوا** } لام التعليل متعلّقة بمحذوف، هو حال من الذين كفروا تقديره: مخصّصين أو مريدين.

{ **لَوْ كَانَ خَيْراً** } الضمير المستتر في { كَانَ } عائد إلى ما عاد إليه ضمير { إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ }، وهو القرآن المفهوم من السياق، **أو** إلى { مَا يُوحَى إِلَيَّ }.

{ **مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ** } والسبق أطلق هنا على تحصيل شيء قبل أن يحصّله آخر، والمراد: الأخذ بما جاء به القرآن من العقائد والأعمال. وضمير الغيبة عائد إلى غير مذكور في الآية ولكنّه مذكور في كلام الذين كفروا الذي حكته الآية، أرادوا به المؤمنين الأولين من المستضعفين مثل بلال، وعمار بن ياسر، وعبد الله بن مسعود، وسميَّة، وزِنّيرة (أمّة رومية كانت من السابقات إلى الإسلام وممَّن عذّبهنّ المشركون ومن أعتقهن أبو بكر الصديق).

وعن عروة بن الزبير: قال عظماء قريش: لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقتنا إليه زِنّيرة.

{ **وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ** } عطف على الجملة السابقة. أي: فقد استوفوا بمزاعمهم وجوه الطعن في القرآن، فقالوا { سِحْرٌ مُبِينٌ } [7]، وقالوا { افْتَرَاهُ } [8] وقالوا { لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ }، وبقي أن يقولوا هو { إِفْكٌ قَدِيمٌ }.

وقد نبّه الله على أن مزاعمهم كلّها ناشئة عن كفرهم واستكبارهم بقوله تعالى { قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا }، وقوله تعالى { وَكَفَرْتُمْ بِهِ }، وقوله تعالى { واسْتَكْبَرْتُمْ } وقوله تعالى { وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ }.

وإذ قد كانت مقالاتهم رامية إلى غرض واحد وهو تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم كان توزيع أسبابها على مختلف المقالات مشعرا بأنّ جميعها أسباب لجميعها.

والمعنى: وإذ لم تحصل هدايتهم بالقرآن فيما مضى فسيستمرّون على أن يقولوا هو { إِفْكٌ قَدِيمٌ } إذ لا مطمع في إقلاعهم عن ضلالهم في المستقبل.

{ **فَسَيَقُولُونَ** } أي: سيدومون على مقالتهم هذه في المستقبل. فالاستقبال زمن للدوام على هذه المقالة وتكريرها، مثله في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم { وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ } [الصافات:99]، فإنّه قد هداه من قبل وإنّما أراد سيديم هدايته إيّاي.

فليس المقصود إخبار الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأنّهم { سَيَقُولُونَ هَذَا } ولم يقولوه في الماضي، إذ ليس لهذا الإخبار طائل. وإذ قد حُكي أنّهم قالوا ما يرادف هذا في آيات كثيرة سابقة على هذه الآية وأنّهم لا يقلعون عنه. ولا حاجة إلى تقدير فعل محذوف تتعلق به { إذ }.

{ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَاناً عَرَبِيّاً لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ } [12].

اتبع إبطال ترّهاتهم الطاعنة في القرآن بهذا الكلام المفيد زيادة الإبطال لمزاعمهم بالتذكير بنظير القرآن ومثيل له من كتب الله تعالى هو مشهور عندهم، وهو التوراة، مع التنويه بالقرآن ومزيّته، والنعي عليهم إذ حرموا أنفسهم الانتفاع به، فعُطفت هذه الآية على التي قبلها لارتباطها بها في إبطال مزاعمهم، وفي أنّها ناظرة إلى قوله تعالى { وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ عَلَى مِثْلِهِ } [10].

{ **وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى** } إبطال لإحالتهم أن يوحي الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم بأنّ الوحي سنّة

إلهية سابقة معلومة أشهره كتاب موسى، وهم قد بلغتهم نبوّته من اليهود.

{ **مِنْ قَبْلِهِ** } الضمير عائد إلى القرآن. والتقديم للاهتمام بهذا الخبر لأنّه محلّ المقصد من الجملة.

{ **كِتَابُ مُوسَى** } عُبِّر عن التوراة بطريق الإضافة دون الاسم العلم (التوراة) لما تؤذن به الإضافة إلى اسم موسى عليه السلام من التذكير بأنّه كتاب أنزل على بشر كما أنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم.

{ **إِمَاماً وَرَحْمَةً** } حالان من { كِتَابُ مُوسَى }، ويجوز كونهما حالين من { مُوسَى }، والمعنيان متلازمان.

الإمام: حقيقته الشيء الذي يجعله العامل مقياسا لعمل شيء آخر، ويطلق إطلاقا شائعا على القدوة، قال تعالى { وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً } [الفرقان:74]. وأصل هذا الإطلاق استعارة صارت بمنزلة الحقيقة، واستعير الإمام لكتاب موسى لأنّه يرشد إلى ما يجب عمله، فهو كمن يرشد ويعظ. وموسى إمام أيضا بمعنى القدوة.

الرحمة: اسم مصدر لصفة الراحم وهي من صفات الإنسان، فهي رقّة في النفس تبعث على سوق الخير لمن تتعدّى إليه. ووصف الكتاب بها استعارة لكونه سببا في نفع المتبعين لما تضمّنه من أسباب الخير في الدنيا والآخرة. والوصف بالمصدر مبالغة في الاستعارة. وموسى أيضا رحمة برسالته كما وُصِف محمد صلى الله عليه وسلم بذلك في قوله تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ } [الانبياء:107].

{ **وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَاناً عَرَبِيّاً لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ** } هو المقيس على { كِتَابُ مُوسَى }. والإشارة إلى القرآن لأنّه حاضر بالذكر فهو كالحاضر بالذات.

المُصدِّق: المخبر بصدق غيره. وحُذف المفعول ليشمل جميع الكتب السماوية. ثناء عظيم على القرآن بأنّه احتوى على كلّ ما في الكتب السماوية وجاء مغنيا عنها ومبيّنا لما فيها.

والتصديق يشعر بأنّه حاكم على ما اختلف فيه منها، وما حُرّف فهمه بها، قال تعالى { مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ } [المائدة:48].

{ **لِسَاناً عَرَبِيّاً** } زيادة ثناء، أي: لغة عربية. وغلب إطلاق اللسان على اللغة، لأنّ أشرف ما يُستعمل فيه اللسان هو الكلام، قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ } [إبراهيم:4].

{ **لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا** } يجوز أن يتعلّق بـ { مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ } لأنّ ما سبقه مشتمل على الإنذار والبشارة والأحسن أن يتعلّق بـ { وَهَذَا كِتَابٌ } من معنى الإرشاد المشتمل على الإنذار والبشارة. وليكون { لِيُنْذِرَ } علة للكتاب باعتبار صفته وحاله.

الذين ظلموا: هم المشركون، قال تعالى { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان:13]، ويلحق بهم الذين ظلموا أنفسهم من المؤمنين، ولذلك قوبل بـ { لِلْمُحْسِنِينَ }، وهم المؤمنون الأتقياء، لأنّ المراد ظلم النفس ويقابله الإحسان. والنذارة مراتب والبشارة مثلها.

{ **وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ** } عطف على { مُصَدِّقٌ }، والتقدير: وهو بشرى للمحسنين، أي: الكتاب. وهذا النظم يجعل الجملة بمنزلة الاحتراس والتتميم.

وقرأ نافع وابن عامر والبزي عن ابن كثير ويعقوب { لِتُنْذِرَ } بالمثناة الفوقية خطابا للرسول صلى الله عليه وسلم فيحصل وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بأنّه منذر ووصف كتابه بأنه { بُشْرَى }، وفيه احتباك. وقرأه الجمهور بالمثناة التحتية على أنّه خبر عن الكتاب، فإسناد الإنذار إلى كتاب مجاز عقلي.

{ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ [13] أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [14] }.

استئناف بياني أوثر بصريحه جانب المؤمنين من المستمعين للقرآن، لأنّهم لمّا سمعوا البشرى تطلّعوا إلى صفة البشرى وتعيين المحسنين ليضعوا أنفسهم في حقّ مواضعها، فأجيبوا بأنّ البشرى هي نفي الخوف والحزن عنهم، وأنّهم أصحاب الجنّة، وأنّ المحسنين هم الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا في أعمالهم.

وأشير بمفهومه إلى التعريض بالذين ظلموا، فإنّ فيه مفهوم القصر من قوله { أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ }.

{ **إِنَّ الَّذِينَ** } تعريفهم بطريق الموصولية لما تؤذن به الصلة من تعليل كرامتهم عند الله لأنّهم جمعوا حسن معاملتهم لربّهم بتوحيده وخوفه وعبادته، وهو ما دلّ عليه قوله تعالى { قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ } إلى حسن معاملتهم أنفسهم وهو معنى قوله تعالى { ثُمَّ اسْتَقَامُوا }.

{ **قَالُوا** } جيء في صلة الموصول بهذا الفعل لإيجاز المقول وغنيته عن أن يقال: اعترفوا بالله وحده وأطاعوه. والمراد: أنّهم قالوا ذلك واعتقدوا معناه، إذ الشأن في الكلام الصدق، وعملوا به لأنّ الشأن مطابقة العمل للاعتقاد.

{ **ثُمَّ اسْتَقَامُوا** } للتراخي الرتبي، وهو الارتقاء والتدرّج، فإنّ مراعاة الاستقامة أشقّ من حصول الإيمان لاحتياجها إلى تكرّر مراقبة النفس، فأمّا الإيمان فالنظر يقتضيه واعتقاده يحصل دفعة لا يحتاج إلى تجديد ملاحظة. فهذا وجه التراخي الرتبي من جهة، وإن كان الإيمان أرقى درجة من العمل من حيث إنّه شرط في الاعتداد بالعمل.

{ **فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** } دخول (الفاء) على خبر الموصول لمعاملة الموصول معاملة الشرط، كأنّه قيل: إن قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم، ومثله كثير في القرآن، فأفاد تسبّب ذلك في أمنهم من الخوف والحزن. و{ عَلَيْهِمْ } خبر عن خوف، أي: لا خوف يتمكّن منهم ويصيبهم ويلحقهم.

{ **أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا** } استحضارهم بطريق اسم الإشارة للتنبيه على أنّهم أحرياء بما يرد من الإخبار عنهم بما بعد الإشارة لأجل الأوصاف المذكورة قبله.

{ **أَصْحَابُ الْجَنَّةِ** } أدلّ على الاختصاص بالجنّة من أن يقال: أولئك في الجنّة، أو أولئك لهم الجنة، لما في كلمة { أَصْحَابُ } من معنى الاختصاص، وما في الإضافة أيضا.

{ **جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } تصريح بما استفيد من تعليل الصلة في الخبر، ومن اقتضاء اسم الإشارة جدارتهم بما بعده، وما أفاده وصف أصحاب، وما أفادته الإضافة، وهذا من تمام العناية بالتنويه بهم.

{ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ } [15].

{ **وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً** } تطلّب بعض المفسّرين وجه مناسبة وقوع هذه الآية عقب التي قبلها، وذكر القرطبي عن القشيري أنّ المقصود بيان أنّه لا يبعد أن يستجيب بعض الناس للنبيّ صلى الله عليه وسلم ويكفر به بعضهم كما اختلف حال الناس مع الوالدين. وقال ابن عساكر : لمّا ذكر الله التوحيد والاستقامة عطف الوصية بالوالدين كما هو مقرون في غير ما أية من القرآن. وكلا هذين القولين غير مقنع في وجه الاتصال.

ووجه الاتصال عندي: أنّ هذا انتقال إلى قول آخر من أقوال المشركين، وهو كلامهم في إنكار البعث وجدالهم فيه، فإنّ ذلك من أصول كفرهم، فمحلّ القصد من هذه الآيات قوله تعالى { وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا - إلى قوله - خاسرين } [18/17]. وصيغ هذا في أسلوب قصّة جدال بين والدين مؤمنين وولد كافر، وقصة جدال بين ولد مؤمن ووالدين كافرين، لأنّ لذلك الأسلوب وقعا في أنفس السامعين، مع ما روي أنّ ذلك إشارة إلى جدال جرى بين عبد الرحمان بن أبي بكر الصديق قبل إسلامه وبين والديه كما سيأتي. ولذلك تعيّن أن يكون ما قبله توطئة وتمهيدا لذكر هذا الجدال.

وقد روى الواحدي عن ابن عباس أن قوله { وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً - إلى قوله – يُوعَدُونَ } [16/15] نزل في أبي بكر الصديق. وقال ابن عطية وغير واحد: نزلت في أبي بكر وأبيه (أبي قحافة) وأمه (أم الخير) أسلم أبواه جميعا.

{ **وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً** } تكرّرت الوصاية ببرّ الوالدين في القرآن، وحرّض عليها النبيّ صلى الله عليه وسلم في مواطن عديدة، فكان البرّ بالوالدين أجلى مظهرا في هذه الآمّة منه في غيرها. وتقدّم نظيره في [العنكبوت:8].

{ **الْإِنْسَانَ** } المراد بالإنسان الجنس، أي: وصينا الناس، وهو مراد به خصوص الناس الذين جاءتهم الرسل بوصايا الله والذين آمنوا وعملوا الصالحات وذلك هو المناسب لقوله في آخرها { أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا } [16].

الحُسن: مصدر حسن، أيّ وصيناه بحسن المعاملة. وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وخلف { إِحْسَانًا }.

الكره: (بفتح الكاف وبضمّها) مصدر **كَرِه**، إذا امتعض من شيء، أي: أنّها حملته في بطنها متعبة من حمله تعبا يجعلها كارهة لأحوال ذلك الحمل، ووضعته بأوجاع وآلام جعلتها كارهة لوضعه.

{ **وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً** } ذُكرت مدّة الحمل والإرضاع لأنّها لطولها تستدعي صبر الأم على تحمّل كلفة الجنين والرضيع.

الفِصال: الفطام، والمعنى: وحمله وفصاله بينهما ثلاثون شهرا.

ومن بديع معنى الآية جمع مدة الحمل إلى الفصال في ثلاثين شهرا لتطابق مختلف مدد الحمل، إذ قد يكون الحمل ستة أشهر وسبعة أشهر وثمانية أشهر وتسعة وهو الغالب.

ومن بديع هذا الطي في الآية أنّها صالحة للدلالة على أنّ مدة الحمل قد تكون دون تسعة أشهر ولولا أنّها تكون دون تسعة أشهر لحددته بتسعة أشهر لأنّ الغرض إظهار حق الأم في البرّ بما تحملته من مشقة الحمل فإنّ مشقة مدة الحمل أشد من مشقة الإرضاع فلولا قصد الإيماء إلى هذه الدلالة لكان التحديد بتسعة أشهر أجدر بالمقام.

وقد جعل علي بن أبي طالب رضي الله عنه هذه الآية مع آية سورة البقرة { وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ } [البقرة:233] دليلا على أنّ الوضع قد يكون لستة أشهر، ونسب مثله إلى ابن عباس. وتقدّم الكلام على أحكام الحمل في آية البقرة.

{ **حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ** }

{ **حَتَّى** } ابتدائية ومعناها معنى (فاء) التفريع على الكلام المتقدّم، وإذ كانت (حتّى) لا يفارقها معنى الغاية كانت مؤذنة هنا بأنّ الإنسان تدرّج في أطواره من وقت فصاله إلى أن بلغ أشدّه، أي: هو مُوصَى بوالديه حسنا في الأطوار الموالية لفصاله، أي: يوصيه وليُّه في أطوار طفولته، ثم عليه مراعاة وصيّة الله في وقت تكليفه.

{ **حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً** } لمّا كان (إذا) ظرفا لزمن مستقبل كان الفعل الماضي بعدها منقلبا إلى الاستقبال، وإنّما صيغ بصيغة الماضي تشبيها للمؤكَّد تحصيله بالواقع، فهو استعارة.، والمعنى: حتّى يبلغ أشدّه، أي: يستمر على الإحسان إليهما إلى أن يبلغ أشدّه، فإذا بلغه قال ذلك.

وإنّما خُصّ زمان بلوغه الأشد لأنّه زمن يكثر فيه الكلف بالسعي للرزق، إذ يكون له فيه زوجة وأبناء، وتكثر تكاليف المرأة فيكون لها فيه زوج وبيت وأبناء، فيكونان مظنّة أن تشغلهما التكاليف عن تعهد والديهما والإحسان إليهما فنُبِّها بأن لا يفترا عن الإحسان إلى الوالدين.

الأشدّ: حالة اشتداد القوى العقلية والجسدية وهو جمع لم يُسمع له بمفرد. وقيل مفرده: شِدَّة (بكسر الشين وها التأنيث) مثل نعمة جمعها أنعم، وليس الأشُد اسما لعدد من سني العمر. ووقته ما بعد الثلاثين سنة

وتمامه عند الأربعين سنة، ولذلك عطف على { بَلَغَ أَشُدَّهُ } قوله تعالى { وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً }، أي: بلغ الأشد ووصل إلى أكمله، فهو كقوله تعالى { وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى } [القصص:14].

{ **وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً** } ليس تأكيدا لقوله { بَلَغَ أَشُدَّهُ } لأنّ إعادة فعل بلغ تُبعد احتمال التأكيد وحرف العطف أيضا يبعد ذلك الاحتمال.

{ **قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ** } أي: طلب العون من الله على زيادة الإحسان إليهما بأن يلهمه الشكر على نعمه عليه وعلى والديه. ومن جملة النعم عليه أن ألهمه الإحسان لوالديه. ومن جملة نعمه على والديه أن سخّر لهما هذا الولد ليحسن إليهما، فهاتان النعمتان أوّل ما يتبادر عن عموم نعمة الله عليه وعلى والديه، لأنّ المقام للحديث عنهما.

ومعناه: أنّه مأمور بالدعاء إليهما بأن لا يشغله الدعاء لنفسه عن الدعاء لهما وبأنه يحسن إليهما بظهر الغيب.

وحاصل المعنى: أنّ الله أمر بالإحسان إلى الوالدين في المشاهدة والغيبة وبجميع وسائل الإحسان الذي غايته حصول النفع لهما، وهو معنى قوله تعالى {وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً} [الاسراء:24]، وأنّ الله لمّا أمر بالدعاء للأبوين وعد بإجابته على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم لقوله: **" إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلّا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم بثه في صدور الرجال، وولد صالح يدعو له بخير "**.

{ **أَوْزِعْنِي** } ألهمني. وأصل فعل أوزع الدلالة على إزالة الوزع، أي: الانكفاف عن عمل ما، فالهمزة فيه للإزالة، وتقدم في [النمل:19].

{ **وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي** } استطراد في أثناء الوصاية بالدعاء للوالدين بأن لا يغفل الإنسان عن التفكّر في مستقبله بأن يصرف عنايته إلى ذرّيّته كما صرفها إلى أبويه ليكون له من إحسان ذرّيّته إليه مثل ما كان منه لأبويه، وإصلاح الذرية يشمل إلهامهم الدعاء إلى الوالد.

وفي ذلك إيماء إلى أنّ المرء يلقى من إحسان أبنائه إليه مثل ما لقي أبواه من إحسانه إليهما، ولأنّ دعوة الأب لابنه مرجوّة الإجابة. وفي حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: **" ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة الوالد على ولده، ودعوة المسافر، ودعوة المظلوم "**، وفي رواية **(لولده)** وهو حديث حسن متعددة طرقه.

{ **وَأَصْلِحْ لِي** } لام العلّة، أي: أصلح في ذريتي لأجلي ومنفعتي، ونكتة زيادة هذا في الدعاء أنّه بعد أن أشار إلى نعم الله عليه وعلى والديه تعرّض إلى نفحات الله فسأله إصلاح ذريته وعرَّض بأنّ إصلاحهم لفائدته، وهذا تمهيد لبساط الإجابة، كأنّه يقول: كما ابتدأتني بنعمتك وابتدأت والديّ بنعمتك ومتعتهما بتوفيقي إلى برّهما، كمِّل إنعامك بإصلاح ذرّيّتي، فإنّ إصلاحهم لي. وهذه ترقيات بديعة في درجات القرب.

{ **فِي ذُرِّيَّتِي** } معنى الظرفية هنا يفيد تمكّن الإصلاح من الذرية وتغلغله فيهم. ونظيره في الظرفية قوله

تعالى { وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ } [الزخرف:28].

{ **إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ** } كالتعليل للمطلوب بالدعاء، تعليل توسّل بصلة الإيمان والإقرار بالنعمة والعبودية. وحرف (إن) للاهتمام بالخبر، وبذلك يستعمل في مقام التعليل ويغني غناء (الفاء).

التوبة: هنا الإيمان، لأنّه توبة من الشرك.

{ **مِنَ الْمُسْلِمِينَ** } أنّه تبع شرائع الإسلام وهي الأعمال. ولم يقل: وأسلمت، كما قال { تُبْتُ إِلَيْكَ } لما يؤذن به اسم الفاعل من التلبّس بمعنى الفعل في الحال وهو التجدّد، لأنّ الأعمال متجدّدة متكررة، وأمّا الإيمان فإنّما يحصل دفعة فيستقر لأنّه اعتقاد، وفيه الرعي على الفاصلة.

{ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ } [16].

الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا، لأنّ ما قبلها من الوصف والحث يُحدث ترقّب السامع لمعرفة فائدة ذلك فكانت جوابا لترقّبه.

{ **أُولَئِكَ** } جيء باسم الإشارة للغرض الذي ذكرناه آنفا عند قوله تعالى { أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا } [14].

وكونه إشارة جمع، ومخبرة عنه بألفاظ الجمع ظاهر في أنّ المراد بالإنسان من قوله تعالى { وَوَصَّيْنَا الْأِنْسَانَ } [15] غير معيّن بل المراد الجنس المستعمل في الاستغراق.

{ **أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا** } العموم يُكسب الجملة فائدة التذييل، أي: الإحسان بالوالدين والدعاء لهما وللذرية من أفضل الأعمال، فهو من أحسن ما عملوا. وقد تُقبّل منهم كلّ ذلك.

التقبّل: ترتّب آثار العمل من ثواب على العمل واستجابة للدعاء. وفي هذا إيماء إلى أنّ هذا الدعاء مرجو الإجابة لأنّ الله تولّى تلقينه، مثل الدعاء الذي في سورة الفاتحة ودعاء آخر سورة البقرة.

وعدّي الفعل بحرف (عن)، وحقّه أن يعدّى بحرف (من) تغليبا لجانب المدعو لهم وهم الوالدان والذرّيّة، لأنّ دعاء الولد والوالد لأولئك بمنزلة النيابة عنهم في عبادة الدعاء.

وإذا كان العمل بالنيابة متقبَّلا عُلم أنّ عمل المرء لنفسه متقبّل أيضا، ففي الكلام اختصار، كأنّه قيل: أولئك يُتقبّل منهم ويُتقبّل عن والديهم وذرّيّتهم أحسن ما عملوا.

وقرأ الجمهور { يُتَقَبَّلُ / يُتَجَاوَزُ } بالياء التحتية مضمومة مَبْنيين للنائب، و{ أَحْسَنُ } مرفوع على النيابة عن الفاعل ولم يذكر الفاعل لظهور أنّ المتقبِّل هو الله. وقرأهما حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف بنونين مفتوحتين { نَتَقَبَّلُ / نَتَجَاوَزُ }، ونصب { أَحْسَنَ }.

{ **فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ** } في موضع الحال من اسم الإشارة، أي: كائنين في أصحاب الجنّة حين يُتقبّل أحسن ما عملوا ويُتجاوز عن سيئاتهم، لأنّ ذلك شأن أصحاب الجنّة.

{ **وَعْدَ الصِّدْقِ** } انتصب على الحال من التقبّل والتجاوز، فجاء الحال من المصدر المفهوم من الفعل.

الوعد: مصدر بمعنى المفعول، أي: ذلك موعدهم الذي كانوا يوعدونه.

وإضافة { وَعْدَ } إلى { الصِّدْقِ } إضافة على معنى (من)، أي: وعد من الصدق إذ لا يتخلّف.

{ **الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ** } صفة وعد الصدق، أي: ذلك هو الذي كانوا يوعدونه في الدنيا بالقرآن في الآيات الحاثّة على برّ الوالدين وعلى الشكر وعلى إصلاح الذرية.

{ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } [17].

هذا الفريق هو المقصود من الآيات المبدوءة بقوله تعالى { وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ } [15]، كما أسلفنا عند الحديث عن مناسبتها، وهو الفريق الذي كفر بربّه وأساء إلى والديه وأنكر البعث وجادل فيه. وقد عُلم أن والديه كانا مؤمنين من قوله تعالى { أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي }.

{ **وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا** } وصف لفئة من الأبناء المشركين، أسلم آباؤهم ودعوهم إلى الإسلام فلم يستجيبوا لهم وأغلظوا لهم القول فضمّوا إلى الكفر شنيع عقوق الوالدين، وهو قبيح لمنافاته الفطرة التي فطر الله الناس عليها، لأنّ حال الوالدين مع أبنائهما يقتضي معاملتهما بالحسنى.

والذي عليه جمهور المفسّرين: أنّ الآية لا تعني شخصا معيّنا وأنّ المراد منها فريق أسلم آباؤهم ولم يسلموا حينئذ. وعن ابن عباس ومروان بن الحكم ومجاهد والسدي وابن جريج أنّها نزلت في ابن لأبي بكر الصديق واسمه عبد الكعبة الذي سمّاه النبيّ صلى الله عليه وسلم بعد أن أسلم (عبد الرحمان)، قالوا: كان قبل الهجرة مشركا وكان يدعوه أبوه أبو بكر وأمّه (أم رومان) إلى الإسلام ويذكّرانه بالبعث، فيرد عليهما بكلام مثل ما ذُكر في هذه الآية.

لكن ليست الآية خاصة به حتّى تكون نازلة فيه، وبهذا يؤوّل قول عائشة رضي الله عنها. ففي صحيح البخاري في كتاب التفسير عن يوسف بن ماهك أنّه قال: كان مروان بن الحكم على الحجاز استعمله معاوية فخطب فجعل يذكر يزيد ابن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه (أي: بولاية العهد) فقال له عبد الرحمان بن أبي بكر: أَهِرَقْلية (أي: أجعلتموها وراثة مثل سلطنة هرقل) فقال: خذوه، فدخل بيت عائشة فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إنّ هذا الذي أنزل الله فيه { وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي }، فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئا من القرآن إلّا أنّ الله أنزل عذري (أي: براءتي).

ولم أقف على من كان مشركا وكان أبواه مؤمنين. وأيًّا ما كان فقد أسلم عبد الرحمان قبل الفتح، فلمّا أسلم جبّ إسلامه ما قبله وخرج من الوعيد الذي في قوله تعالى { أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ }.

{ **أُفٍّ** } اسم فعل بمعنى: أتضجّر، وتقدّم الكلام عليه في [الإسراء:23] وفي [الأنبياء:67]. وهو هنا

مستعمل كناية عن أقل الأذى، فيكون الذين يؤذون والديهم بأكثر من هذا أوغل في العقوق الشنيع وأحرى بالحكم بدلالة فحوى الخطاب.

وقرأ نافع وحفص عن عاصم { أفٍّ } بكسر الفاء منونا. وقرأه ابن كثير وابن عامر ويعقوب { أفَّ } بفتح الفاء غير منون. وقرأه الباقون { أفِّ } بكسر الفاء غير منون، وهي لغات ثلاث فيه.

{ **أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ** } الاستفهام إنكار وتعجّب. و**الإخراج**: البعث بعد الموت.

{ **وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي** } حال، وهي قيدا لمنتهى الإنكار، أي: كيف يكون ذلك في حال مضي القرون.

القرون: جمع قرن وهو الأمّة، وفي الحديث: " **خير القرون قرني ثم الذين يلونهم** ". وقال تعالى { أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً } [القصص:78].

<u>المعنى:</u> أنّه أحال أن يخرج هو من الأرض بعد الموت، وقد مضت أمم كثيرة وطال عليها الزمن فلم يخرج منهم أحد. وهذا من سوء فهمه في معنى البعث أو من المغالطة في الاحتجاج لأنّ وعد البعث لم يوقّت بزمن معين ولا أنّه يقع في هذا العالم.

{ **وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ** } أي: يطلبان من الله الغوث بأن يهديه، فالمعنى: يستغيثان الله له.

{ **وَيْلَكَ آمِنْ** } ليست بيانا لمعنى استغاثتهما ولكنّها مقول قول محذوف يدلّ عليه معنى الجملة.

{ **وَيْلَكَ** } كلمة تهديد وتخويف. و**الويل**: الشرّ. وأصلها: ويل لك، كما في قوله تعالى { فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ } [البقرة:79]، فلمّا كثر استعماله وأرادوا اختصاره حذفوا اللام.

{ **إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ** } تعليل للأمر بالإيمان وتعريض له بالتهديد من أن يحقّ عليه وعد الله.

الأساطير: جمع أسطورة وهي القصّة وغلب إطلاقها على القصة الباطلة أو المكذوبة، كما يقال: خرافة، وتقدّم في قوله تعالى { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } [النحل [24].

{ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْأِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ } [18].

{ **أُولَئِكَ** } الراجح أن يكون اسم الإشارة مشيرا إلى الذي قال لوالديه هذه المقالة لما علمت أنّ المراد به فريق، فجاءت الإشارة إليه باسم إشارة الجماعة بتأويل الفريق .

{ **الْقَوْلُ** } تعريف العهد، وهو قول معهود عند المسلمين لِما تكرَّر في القرآن من التعبير عنه بالقول في نحو قوله تعالى { قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ } [ص:85/84]، ونحو قوله تعالى { أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ } [الزمر:19]، فإنّ الكلمة قول، ونحو قوله تعالى { لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ } [يس:7].

{ **إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ** } دون أن يقال: إنّهم خاسرون، للإشارة إلى أنّ خسرانهم محقّق فكني عن ذلك

بجعلهم كائنين فيه. وتأكيد الكلام بحرف (إن) لأنّهم يظنّون أنّ ما حصل لهم في الدنيا من التمتّع بالطيبات فوزا ليس بعده نكد لأنّهم لا يؤمنون بالبعث والجزاء، فشُبِّهت حالة ظنّهم هذا بحال التاجر الذي قلّ ربحه من تجارته فكان أمره خسرًا، وقد تقدّم غير مرّة منها قوله تعالى { فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ } [البقرة:16].

{ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ } [19].

عطف على الكلام السابق من قوله تعالى { أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ } [16]، ثم قوله تعالى { أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ }.

{ **وَلِكُلٍّ** } تنوين عوض عمّا تضاف إليه (كل) وهو مقدّر يُعلم من السياق، أي: ولكلّ الفريقين؛ المؤمن البار بوالديه، والكافر الجامع بين الكفر والعقوق.

{ **دَرَجَاتٌ** } التعبير عن تلك المراتب بالدرجات تغليب، لأنّ الدرجة مرتبة في العلو وهو علو اعتباري إنّما يناسب مراتب الخير وأمّا المرتبة السفلى فهي الدركة، قال تعالى { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ } [النساء:145]. ووجه التغليظ التنويه بشأن أهل الخير.

{ **مِمَّا عَمِلُوا** } و(من) هنا تبعيضية. والمراد: جزاء ما عملوا، فيقدّر مضاف. ويجوز كونها ابتدائية، وما عملوا نفس العمل، فلا يقدّر مضاف.

{ **وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ** } علّة لمحذوف دلّ عليه الكلام، أي: قدّرنا جزاءهم على مقادير درجاتهم لنوفينّهم جزاء أعمالهم، أي: نجازيهم جزاءً تامًا وافيًا لا غُبن فيه.

{ **وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ** } احتراس منظور فيه إلى توفية أحد الفريقين، وهو الفريق المستحق للعقوبة، لئلّا يحسب أنّ التوفية بالنسبة إليهم أن يكون الجزاء أشدّ مما تقتضيه أعمالهم.

{ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ} [20].

انتقال إلى وعيد الكافرين على الكفر بحذافره، وذلك زائد على الوعيد المتقدّم المتعلّق بإنكارهم البعث مع عقوقهم الوالدين المسلمين. فالجملة معطوفة على جملة { وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا } [17].

والكلام مقول قول محذوف تقديره: ويقال للذين كفروا يوم يعرضون على النار: { أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ }.

ومناسبة ذكره هنا أنه تقرير لمعنى { لا يُظْلَمُونَ } [19]، أي: لا يظلمون في جزاء الآخرة مع أنّنا أنعمنا عليهم في الدنيا، ولو شئنا لعجّلنا لهم الجزاء على كفرهم من الحياة الدنيا.

{ **وَيَوْمَ يُعْرَضُ** } انتصب على الظرفية لفعل القول المحذوف.

العرض: تقدّم في قوله تعالى { أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ } [هود:18]، وفي قوله تعالى { النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا } [غافر:46]، وفي قوله تعالى { وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا } [الشورى:45].

{ **أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا** } مستعار لمفارقتها، كما أنّ إذهاب المرء إبعاد له عن مكانة له. و**الذهاب**: المبارحة. والمعنى: استوفيتم ما لكم من الطيّبات بما حصل لكم من نعيم الدنيا ومتعتها فلم تبق لكم طيّبات بعدها لأنّكم لم تعملوا لنوال طيّبات الآخرة. وهو إعذار لهم وتقرير لكونهم لا يُظلمون.

{ **فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ** } (الفاء) فصيحة. والتقدير: إن كان كذلك فاليوم لم يبق لكم إلّا جزاء سيّئ أعمالكم. وليست الفاء للتفريع ولا للتسبّب.

وليس في الآية ما يقتضي منع المسلم من تناول الطيّبات في الدنيا إذا توخّى حلالها وعمل بواجبه الديني فيما عدا ذلك، وإن كان الزهد أرفع درجة.

الهُون: الهوان وهو الذلّ.

{ **بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ** } الباء للسببية وهي متعلّقة بفعل { تُجْزَوْنَ }. والمراد بالاستكبار هنا الاستكبار على الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى قبول التوحيد.

الفسوق: هنا الشرك، وهو الخروج عن الدين وعن الحق.

{ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } [21].

سيقت قصة هود وقومه مساق الموعظة للمشركين الذين كذّبوا بالقرآن، كما أخبر الله عنهم من أوّل هذه السورة في قوله تعالى { وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ } [3]. وسيقت أيضا مساق الحجّة على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وعلى عناد قومه، بذكر مثال لحالهم مع رسولهم بحال عاد مع رسولهم.

ولها أيضا موقع التسلية للرسول صلى الله عليه وسلم على ما تلقّاه به قومه من العناد والبهتان.

{ **وَاذْكُرْ** } أجمع للمعنيين (الموعظة والتسلية)، لأنّها تصلح لمعنى الذكر اللساني، بأن يراد أن يذكر ذلك لقومه، ولمعنى الذُّكر (بالضم)، لأنّ في التذكّر مسلاة وإسوة، كقوله تعالى { اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ } [ص:17].

وكلا المعنيين ناظر إلى قوله آنفا { قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ } [9]، فإنّه إذا قال لهم ذلك تذكّروا ما يعرفون من قصص الرسل ممّا قصّه عليهم القرآن من قبل، وتذكّر هو لا محالة أحوال رسل كثيرين. ومشركو مكة إذا تذكّروا في حالهم وحال عاد وجدوا الحالين متماثلين فيجدر بهم أن يخافوا العاقبة.

{ **أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ** } الاقتصار على ذكر عاد لأنّهم أوّل الأمم العربية الذين جاءهم رسول بعد رسالة نوح العامة، وقد كانت رسالة هود ورسالة صالح قبل رسالة إبراهيم عليهم السلام.

وتأتي بعد ذكر قصتهم إشارة إجمالية إلى أمم أخرى من العرب كذّبوا الرسل، في قوله تعالى { وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى } [27].

{ **أَخَا عَادٍ** } هو **هود** وتقدّمت ترجمته في [الأعراف:65]. وعُبِّر عنه هنا بوصفه دون اسمه العلم لأنّ المراد بالذكر هنا ذكر التمثيل والموعظة لقريش بأنّهم أمثال عاد في الإعراض عن دعوة رسول من أمّتهم.

الأخ: يراد به هنا المشارك في نسب القبيلة، يقولون: يا أخا بني فلان، ويا أخا العرب، وقد يراد بها الملازم والمصاحب، يقال: أخو الحرب. وقال النبي صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة: " **أنت أخونا ومولانا** "، وهو المراد في قوله { كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ } [الشعراء:161/160]، إذ لم يكن لوط من نسب أهل سدوم.

{ **إِذْ أَنْذَرَ** } اسم للزمن الماضي، وهي هنا نصب على البدل من أخا عاد، أي: اذكر زمن إنذاره قومه، فهي بدل اشتمال. وذكر الإنذار هنا دون الدعوة أو الإرسال لمناسبة تمثيل حال قوم هود بحال قوم محمد صلى الله عليه وسلم، فهو ناظر إلى قوله تعالى { وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ } [3].

الأحقاف: جمع **حِقْف** وهو الرمل العظيم المستطيل، وكانت هذه البلاد المسمّاة بـ (الأحقاف) منازل عاد، وكانت مشرفة على البحر بين عمان وعدن. وفي منتهى الأحقاف أرض حضرموت، وتقدّم ذكر عاد عند قوله تعالى { وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً } [الأعراف:65].

{ **وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ** } معترضة بين جملة { إِذْ أَنْذَرَ } وجملة { أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ} المفسَّرة بها.

{ **خَلَتِ النُّذُرُ** } سبقت، أي: نُذر رسل آخرين. والنُّذُر: جمع نِذارة (بكسر النون).

{ **مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ** } بمعنى قريبا من زمانه وبعيدا عنه؛

{ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ } معناه القرب، كقوله تعالى { إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ } [سبأ:46].

وأمّا الذي من خلفه فنوح، فقد قال هود لقومه { وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ } [الأعراف:69]، وهذا مراعاة للحالة المقصود تمثيلها، فهو ناظر إلى قوله تعالى { قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ } [9]، أي: قد خلت من قبل محمد صلى الله عليه وسلم رسل مثل ما خلت بهود عليه السلام.

{ **إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** } تعليل للنهي في قول تعالى { أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ }، أي: إنِّي أخاف عليكم عذاب يوم عظيم بسبب شرككم.

عذاب اليوم العظيم: يحتمل الوعيد بعذاب يوم القيامة، وبعذاب يوم الاستئصال في الدنيا وهو الذي عُجّل لهم.

{ **قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** } [22].

جواب عن قوله { أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ } ولذلك جاء فعل { قَالُوا } مفصولا على طريق المحاورة.

{ **أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا** } الاستفهام إنكار. والمجيء مستعار للقصد بطلب أمر عظيم، شُبِّه طرو الدعوة بعد أن لم يكن يدعو بها بمجيء جاء لم يكن في ذلك المكان.

الأَفْك (بفتح الهمزة): الصرف، وأرادوا به معنى الترك، أي: لنترك عبادة آلهتنا. وهذا الإنكار تعريض بالتكذيب فلذلك فُرِّع عليه :

{ **فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** } صرّحوا بتكذيبه بطريق المفهوم. وإسناد الإتيان بالعذاب إليه مجاز لأنّه الواسطة في إتيان العذاب بأن يدعو الله أن يعجّله، أو جعلوا العذاب في مكنته يأتي به متى أراد. أي: فلا تتأخر عن الإتيان به.

المعنى: ائتنا بالعذاب الذي تعدنا به، أي: عذاب اليوم العظيم، وإنّما صرفوا مراد هود عليه السلام بالعذاب إلى خصوص عذاب الدنيا لأنّهم لا يؤمنون بالبعث.

{ **مِنَ الصَّادِقِينَ** } أبلغ في الوصف بالصدق من أن يقال: إن كنت صادقا، أي: إن كنت في قولك هذا من الذين صدقوا.

{ **قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ** } [23].

لمّا جعلوا قولهم { فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } [22] فصلا بينهم وبينه فيما أنذرهم من كون عبادة غير الله توجب عذاب يوم عظيم، وكان الأمر في قولهم { فأتنا } مقتضيا الفور، أي: طلب تعجيله ليدلّ على صدقه. فلذلك كان جوابه:

{ **إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ** } أي: علم وقت إتيان العذاب محفوظ عند الله لا يطّلع عليه أحد. والحصر هنا حقيقي كقوله تعالى { لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ } [الأعراف:187].

{ **الْعِلْمُ** } التعريف للاستغراق العرفي، أي: علم المغيّبات، **أو** التعريف عوض عن المضاف إليه، أي: وقت العذاب.

{ **عِنْدَ اللَّهِ** } هنا مجاز في الانفراد بالعلم، أي: فالله هو العالم بالوقت الذي يرسل فيه العذاب.

{ **وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ** } معترضة بين جملة { إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ } وجملة { وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ}. أي: أنّه بُعث مبلِّغا أمر الله وإنذاره ولم يُبعث للإعلام بوقت حلول العذاب، كقوله { يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا } [النازعات:42-45].

{ **وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ** } استدراك، أي: ولكنّكم تجهلون صفات الله وحكمة إرساله الرسل.

وإدخال حرف الاستدراك على ضمير المتكلّم عدول عن الظاهر لئلّا يبادرهم بالتجهيل استنزالا لطائرهم، فجعل جهلهم مظنونا له لينظروا في صحة ما ظنّه من عدمها.

{ **فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ** [24] **تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ** [25] }.

الفاء لتفريع بقية القصة على ما ذُكر منها، أي: فلمّا أراد الله إصابتهم بالعذاب ورأوه عارض قالوا.

ففي الكلام تقدير يدل عليه السياق، ويُسمَّى التفريع فيه فصيحة.

وقد طوي ذكر ما حدث بين تكذيبهم هودا عليه السلام وبين نزول العذاب بهم، وذُكر في كتب تاريخ العرب أنّهم أصابهم قحط شديد سنين، وأنّ هودًا فارقهم فخرج إلى مكة ومات بها.

{ **فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً** } السحاب الذي يعترض جو السماء، أي: رأوه كالعارض.

{ **مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ** } نعت لـ { عَارِضاً }. و**الاستقبال**: التوجّه قبالة الشيء، أي: سائرا نحو أوديتهم.

أودية: جمع وادٍ، مثل نادٍ وأندية. ويطلق الواد على محلّة القوم ونزلهم إطلاقا أغلبيا، لأنّ غالب منازلهم في السهول ومقار المياه. وجمع الأودية باعتبار كثرة منازلهم وانتشارها.

وفي حديث سعد بن معاذ بمكة بعد الهجرة وما جرى بينه وبين أبي جهل من تحاور ورفع صوته على أبي جهل، فقال له أمية: لا ترفع صوتك على أبي الحكم سيد أهل الوادي.

{ **هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا** } يشير إلى أنّهم كانوا في حاجة إلى المطر. وورد في [هود:52] قول هود لهم { وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً }، وقصّتهم مبسوطة في تفسيرنا لسورة هود.

العارض: السحاب العظيم الذي يعرض في الأفق كالجبل، و{ مُمْطِرُنَا } نعت لـ { عَارِضٌ }

{ **بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ** } مقول لقول محذوف، يجوز أن يكون من قول هود، إن كان هود بين ظهرانيهم ولم يكن خرج قبل ذلك، ويجوز أن يكون من قول بعض رجالهم رأى مخائل الشر في ذلك السحاب.

{ **رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ** } جُعل العذاب مظروفا في الريح مبالغة في التسبّب.

التدمير: الإهلاك، وقد تقدّم.

{ **كُلِّ شَيْءٍ** } مستعمل في كثرة الأشياء فإن (كُلًّا) تأتي كثيرا في كلامهم بمعنى الكثرة. وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ } [يونس:97].

{ **بِأَمْرِ رَبِّهَا** } حال من ضمير { تُدَمِّرُ }. وفائدة هذه الحال تقريب كيفية تدميرها كلّ شيء، أي: تدميرا عجيبا بسبب أمر ربّها.

{ **رَبِّهَا** } أضيف الربّ إلى ضمير الريح لأنّها مسخرة لأمر التكوين الإلهي.

{ **فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ** } أي: صاروا، وأصبح هنا من أخوات صار. وليس المراد: أن تدميرهم

كان ليلا، فإنّهم دُمِّروا أياما وليالي.

{ **إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ** } آثارها وبقاياها وأنقاضها بعد قلع الريح معظمها. والمعنى: أنّ الريح أتت على جميعهم.

{ **كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ** } أي: مثل جزاء عاد نجزي القوم المجرمين، وهو تهديد لمشركي قريش وإنذار لهم، وتوطئة لقوله { وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ } [26].

{ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } [26].

هذا استخلاص لموعظة المشركين بمثل عاد، ليعلموا أنّ الذي قدر على إهلاك عاد قادر على إهلاك من هم دونهم في القوّة والعدد، وليعلموا أنّ القوم كانوا مثلهم مستجمعين قوى العقل والحس، وأنّهم أهملوا الانتفاع بقواهم فجحدوا بآيات الله واستهزؤوا بها وبوعيده فحاق بهم ما كانوا يستهزئون به، وقريش يعلمون أنّ حالهم مثل الحال المحكية عن أولئك فليتهيّأوا لما سيحلّ بهم.

ولإفادة هذا الاستخلاص غُيِّر أسلوب الكلام إلى خطاب المشركين من أهل مكة، فالجملة في موضع الحال من واو الجماعة في { قَالُوا أَجِئْتَنَا } [22]، والخبر مستعمل في التعجيب من عدم انتفاعهم بمواهب عقولهم. { **وَلَقَدْ** } تأكيد هذا الخبر بلام القسم مع أنّ مفاده لا شك فيه مصروف إلى المبالغة في التعجيب.

التمكين: إعطاء المَكِنة (بفتح الميم وكسر الكاف) وهي القدرة والقوّة. يقال: مَكُن من كذا وتمكّن منه، إذا قدر عليه. ويقال: مكّنه في كذا، إذا جعل له القدرة، قال تعالى { مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ } [الأنعام:6].

{ **وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً** } أي: أنّهم لم ينقصهم شيء من شأنه أن يُخلّ بإدراكهم الحق لولا العناد، وهذا تعريض بمشركي قريش، أي: أنّكم حرمتم أنفسكم الانتفاع بسمعكم وأبصاركم وعقولكم كما حُرموه، والحالة متّحدة والسبب متّحد فيوشك أن يكون الجزاء كذلك.

وأفرد { سَمْعاً } لأنّه مصدر فهو دال على الجنس الموجود في جميع حواس النّاس. وأمّا { أَبْصَاراً } فجي به جمعا لأنّه اسم، فهو ليس نصّا في إفادة العموم لاحتمال توهّم بصر مخصوص، فكان الجمع أدلّ على قصد العموم وأنفى لاحتمال العهد، وكذلك القول في { أَفْئِدَةً }. وتقدّم في قوله تعالى { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ } [الأنعام:46]، وفي قوله تعالى {أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ} [يونس:31].

{ **مِنْ شَيْءٍ** } و(من) زائدة للتنصيص على انتفاء الجنس.

{ **إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ** } وآيات الله دلائل إرادته من معجزات رسولهم، ومن البراهين الدّالة على صدق ما دعاهم إليه.

وقد انطبق مثالهم على حال المشركين فإنّهم جحدوا بآيات الله، وهي آيات القرآن، لأنّها جمعت حقيقة الآيات بالمعنيين.

{ **وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** } أي: أحاط بهم العذاب. عدل عن اسمه الصريح إلى الموصول للتنبيه على ضلالهم وسوء نظرهم.

{ **وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** } [27].

أتبع ضرب المثل بحال عاد مع رسولهم بأنّ ذلك المثل ليس وحيدا في بابه فقد أهلك الله أقواما آخرين من مجاوريهم تماثل أحوالهم أحوال المشركين، وذكَّرهم بأنّ قراهم قريبة منهم يعرفها من يعرفونها، ويسمع عنها الذين لم يروها، وهي قرى ثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة وسبأ وقوم تُبّع.

والجملة معطوفة على جملة { وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ } [21].

{ **مِنَ الْقُرَى** } كُنِّي عن إهلاك الأقوام بإهلاك قراهم مبالغة في استئصالهم، لأنّه إذا أهلكت القرية لم يبق أحد من أهلها.

{ **وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ** } تنويعها باعتبار ما تدلّ عليه من الغرض المقصود منها وهو الإقلاع عن الشرك وتكذيب الرسل، وأصل معنى **التصريف**: التغيير والتبديل، لأنّه مشتق من الصرف وهو الإبعاد.

وكنِّي به هنا عن التبيين والتوضيح، لأنّ تعدّد أنواع الأدلة يزيد المقصود وضوحا.

ومعنى تنويع الآيات أنّها تارة تكون بالحجة والمجادلة النظرية، وتارة بالتهديد على الفعل، وأخرى بالوعيد، ومرة بالتذكير بالنعم وشكرها.

{ **لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** } مستأنفة لإنشاء الترجّي، وموقعها موقع المفعول لأجله، أي: رجاء رجوعهم.

والرجوع هنا مجاز عن الإقلاع عما هم فيه من الشرك والعناد، والرجاء من الله تعالى يستعمل مجازا في الطلب. أي: توسعة لهم وإمهالا ليتدبّروا ويتعظوا. وهذا تعريض بمشركي أهل مكة.

والكلام على (لعلّ) في كلام الله تقدّم في أوائل البقرة.

{ **فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَاناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ** } [28].

تفريع على ما تقدّم من الموعظة بعذاب عاد المفصّل، وبعذاب أهل القرى المجمل، فُرِّع عليه توبيخ موجّه إلى آلهتهم إذ قعدوا عن نصرهم وتخليصهم من قدرة الله عليهم. والمقصود توجيه التوبيخ إلى الأمم المهلَكة.

والمراد بهذا التوبيخ تخطئة الأمم الذين اتخذوا الأصنام للنصر والدفع، استتماما للموعظة والتوبيخ

بطريق التنظير وقياس التمثيل، ولذلك عُقِّب بقوله تعالى { بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ }، لأنّ التوبيخ آل الى معنى نفي النصر.

{ **فَلَوْلا** } أصله الدلالة على التحضيض، أي: تحضيض فاعل الفعل الذي بعد (لولا) على تحصيل ذلك الفعل، فإذا كان الفاعل غير المخاطب بالكلام كانت (لولا) دالة على التوبيخ ونحوه، إذ لا طائل في تحضيض المخاطب على فعل غيره.

{ **مِنْ دُونِ اللَّهِ** } يتعلق بـ { اتَّخَذُوا }. بمعنى المباعدة، أي: متجاوزين الله في اتخاذ الأصنام آلهة، وهو حكاية لحالهم لزيادة تشويهها وتشنيعها.

{ **قُرْبَاناً** } مصدر بوزن غفران، منصوب على المفعول لأجله حكاية لزعمهم المعروف المحكي في قوله تعالى { وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى } [الزمر:3]. وهذا المصدر معترض بين { اتخذوا } ومفعوله.

{ **بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ** } و(بل) بمعنى (لكن) إضرابا واستدراكا بعد التوبيخ لأنّه في معنى النفي، أي: ما نصرهم الذين اتّخذوهم آلهة ولا قرّبوهم إلى الله ليُدفع عنهم العذاب، بل غابوا عنهم وقت حلول العذاب.

الضلال: أصله عدم الاهتداء للطريق، واستعير هنا لعدم النفع بالحضور استعارة تهكّمية، أي: غابوا عنهم ولو حضروا لنصروهم، وهذا نظير التهكّم في قوله تعالى { وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ } [القصص: 64].

{ **وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ** } فذلكة لجملة { فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ } وقرينة على الاستعارة التهكمية في قوله { ضَلُّوا عَنْهُمْ }.

{ **وَذَلِكَ** } إشارة إلى ما تضمّنه قوله تعالى { الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَاناً آلِهَةً } من زعم الأصنام آلهة وأنّها تقربهم إلى الله.

الافتراء: نوع من الكذب، وهو ابتكار الأخبار الكاذبة ويرادف الاختلاق، لأنّه مشتقّ من فَرِي الجلد.

فعطف { مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } على { إِفْكُهُمْ } عطف الأخصّ على الأعمّ، فإنّ زعمهم الأصنام شركاء لله كذب مروي من قبل فهو إفك. وأمّا زعمهم أنّها تقرّبهم إلى الله فذلك افتراء اخترعوه.

{ **كَانُوا** } للدلالة على أنّ افتراءهم راسخ فيهم. ومجيء بصيغة المضارع { يَفْتَرُونَ } للدلالة على أنّ افتراءهم متكرّر.

{ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ [29] قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ [30] يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ [31] وَمَنْ لا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ [32] }.

هذا تأييد للنبيّ صلى الله عليه وسلم بأن سخّر الله الجنّ للإيمان به وبالقرآن، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مصدَّقا عند الثقلين ومعظَّمًا في العالَمَيْن، وذلك ما لم يحصل لرسول قبله.

والمقصود من نزول القرآن بخبر الجنّ توبيخ المشركين بأنّ الجنّ وهم من عالم آخر علموا القرآن وأيقنوا بأنّه من عند الله، والمشركون وهم من عالم الإنس ومن جنس الرسول صلى الله عليه وسلم المبعوث بالقرآن وممّن يتكلم بلغة القرآن لم يزالوا في ريب منه وتكذيب وإصرار. فهذا موعظة للمشركين بطريق المضادة لأحوالهم بعد أن جرت موعظتهم بحال مماثليهم في الكفر من جنسهم.

ومناسبة ذكر إيمان الجنّ ما تقدّم من قوله تعالى { أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ } [18].

فالجملة معطوفة على جملة { وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ } [21]، عطف القصة على القصة.

{ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ } يتعلّق بفعل يدلّ عليه قوله تعالى { وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ }، والتقدير: واذكر إذ صرفنا إليك نفرا من الجنّ.

وأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بذكر هذا للمشركين، وإن كانوا لا يصدّقونه، لتسجيل بلوغ ذلك إليهم لينتفع به من يهتدي ولتُكتب تبعته على الذين لا يهتدون.

وليس في هذه الآية ما يقتضي أنّ الله أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم إلى الجنّ.

واختلف المفسرون في أنّ الجن حضروا بعلم من النبيّ صلى الله عليه وسلم أو بدون علمه.

ففي جامع الترمذي عن ابن عباس قال: " ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجن ولا رآهم، انطلق رسول الله في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ فلمّا كانوا بنخلة (اسم موضع) وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، وكان نفر من الجن فيه، فلمّا سمعوا القرآن رجعوا إلى قومهم، فقالوا: إنّا سمعنا قرآنا عجبا ".

وفي الصحيح عن ابن مسعود: افتقدنا النبيّ صلى الله عليه وسلم ذات ليلة وهو بمكة فقلنا ما فُعل به [...]، فبتنا بشر ليلة حتّى إذا أصبحنا إذا نحن به من قِبَل حراء فقال: **" أتاني داعي الجن فأتيتهم فقرأت عليهم القرآن ".**

وأيًّا ما كان فهذا الحادث خارق عادة، وهو معجزة للنبيّ صلى الله عليه وسلم. وقد تقدّم قوله تعالى { يا

مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي } [الأنعام:130].

الصرف: البعث.

النفر: عدد من الناس دون العشرين. وإطلاقه على الجنّ لتنزيلهم منزلة الإنس.

{ **يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ** } في موضع الحال من الجنّ، وحيث كانت الحال قيدا لعاملها وهو { صَرَفْنَا }، كان التقدير: يستمعون منك إذا حضروا، فصار ذلك مؤدّيا مؤدَّى المفعول لأجله. فالمعنى: صرفناهم إليك ليستمعوا القرآن.

{ **حَضَرُوهُ** } الضمير عائد إلى القرآن، وتعدية فعل حضروا إلى ضمير القرآن تعدية مجازية لأنّهم إنّما حضروا قارئ القرآن، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم.

{ **قَالُوا أَنْصِتُوا** } أمر بتوجيه الأسماع إلى الكلام اهتماما به لئلّا يفوت منه شيء. وفي حديث جابر بن عبد الله في حجّة الوداع أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال له: " **استنصت الناس** "، أي: قبل أن يبدأ في خطبته. وفي الحديث " **إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة أنصت والإمام يخطب فقد لغوت** ".

أي: قالوا كلّهم: أنصتوا، كلّ واحد يقولها للبقية، حرصا على الوعي، فنطق بها جميعهم.

{ **فَلَمَّا قُضِيَ** } مبني للنائب. والضمير للقرآن بتقدير مضاف، أي: قضيت قراءته، أي: انتهى النبيّ صلى الله عليه وسلم من القراءة حين حضروا، وبانتهائه من القراءة تمّ مراد الله من صرف الجنّ ليستمعوا القرآن.

{ **وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ** } رجعوا إلى بني جنسهم فأبلغوهم ما سمعوا من القرآن ممّا فيه التخويف من بأس الله تعالى لمن لا يؤمن بالقرآن، والتبشير لمن عمل بما جاء به القرآن. ولا شك أنّ الله يسّر لهم حضورهم لقراءة سورة جامعة لما جاء به القرآن كفاتحة الكتاب وسورة الإخلاص.

{ **قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا** } إلى آخرها، مبيّنة لقوله { مُنْذِرِينَ }.

وحكاية تخاطب الجنّ بهذا الكلام الذي هو من كلام عربي، حكاية بالمعنى، إذ لا يُعرف أنّ للجنّ معرفة بكلام الإنس، وكذلك فعل { قَالُوا } مجاز عن الإفادة، أي: أفادوا جنسهم بما فهموا.

كما في قوله تعالى { قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ } [النمل:18].

{ **أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى** } ووصف الكتاب بذلك دون: أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم لأنّ التوراة آخر كتاب من كتب الشرائع نزل قبل القرآن، وأمّا ما جاء بعده فكُتب مكمّلة للتوراة ومبيّنة لها مثل زبور داود وإنجيل عيسى، فكأنّه لم ينزل شيء جديد بعد التوراة، فلما نزل القرآن جاء بهدي مستقل غير مقصود منه بيان التوراة ولكنه مصدق للتوراة وهاد إلى أزيد مما هدت إليه.

{ **مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ** } : ما سبقه من الأديان الحقّ.

{ **يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ** } يهدي إلى الاعتقاد الحقّ، وما يُسلك من الأعمال الصالحة والمعاملة المستقيمة. وما يترتّب على ذلك من الجزاء.

{ **يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ** } إعادتهم نداء قومهم للاهتمام بما بعد النداء وهو { أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ } الى آخره، لأنّه المقصود من توجيه الخطاب إلى قومهم وليس المقصود إعلام قومهم بما لقوا من عجيب الحوادث.

{ **أَجِيبُوا** } استعير لمعنى: اعملوا وتقلّدوا، تشبيها للعمل بما في كلام المتكلّم بإجابة نداء المنادي، كما في قوله تعالى { إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي } [ابراهيم:22]، أي: إلّا أن أمرتكم فأطعتموني.

داعي الله: يجوز أن يكون القرآن، لأنّه سبق في قولهم { إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى }، وأطلق على القرآن ذلك مجازا لأنّه يشتمل على طلب الاهتداء بهدي الله، فشُبِّه ذلك بدعاء إلى الله واشتق منه وصف للقرآن بأنه { دَاعِيَ اللَّهِ } على طريقة التبعية، وهي تابعة لاستعارة الإجابة لمعنى العمل.

ويجوز أن يكون { دَاعِيَ اللَّهِ } محمدا صلى الله عليه وسلم لأنّه يدعو إلى الله بالقرآن.

{ **وَآمِنُوا بِهِ** } عطف على { أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ } عطف خاص على عام.

{ **به** } عائد إلى { الله }، أي: وآمنوا بالله، وهو المناسب لتناسق الضمائر مع { يَغْفِرْ لَكُمْ } و{ يُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ }، **أو** عائد إلى { دَاعِيَ اللَّهِ }، أي: آمنوا بما فيه أو آمنوا بما جاء به. وعلى الاحتمالين الأخيرين يقتضي أنّ هؤلاء الجن مأمورون بالإسلام.

{ **يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ** } (مِنْ) هنا الأظهر أنّها للتعليل فتتعلّق بفعل { أجيبوا } باعتبار أنّه مجاب بفعل {يَغْفِرْ}. ويجوز أن تكون زائدة للتوكيد، على رأي من يرون زيادتها في الإثبات كما تزاد في النفي.

{ **وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** } وأمّا (مِنْ) هنا فهي لتعدية فعل { يُجِرْكُمْ }، لأنّه يقال: أجاره من ظلم فلان، بمعنى منعه وأبعده.

وحكاية الله هذا عن الجن تقرير لما قالوه، فيدلّ على أنّ للجنّ إدراكا للمعاني، وعلى أنّ ما تدلّ عليه أدلة العقل من الإلهيات واجب على الجنّ اعتقاده، لأنّ مناط التكليف بالإلهيات العقلية هو الإدراك، وأنّه يجب اعتقاد المدركات إذا توجهت مداركهم إليها أو إذا نُبِّهوا إليها، كما دلّت عليه قصّة إبليس. وهؤلاء قد نُبِّهوا إليها بصرفهم إلى استماع القرآن، وهم قد نَبَّهوا قومهم إليها بإبلاغ ما سمعوه من القرآن. وعلى حسب هذا المعنى يترتّب الجزاء بالعقاب، كما قال تعالى { لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } [السجدة:13]، وقال في خطاب الشيطان { لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ } [ص:85]. فأمّا فروع الشريعة فغير لائقة بجنس الجن. وظاهر الآية أن هؤلاء الذين بلغتهم دعوة القرآن مؤاخذون إذا لم يعملوا بها وأنّهم يُعذّبون.

واختلفوا في جزاء الجنّ على الإحسان، فقال أبو حنيفة: ليس للجن ثواب إلا أن يجاروا من عذاب النار ثم يقال لهم كونوا ترابا مثل البهائم، وقال مالك والشافعي وابن أبي ليلى والضحاك: كما يجازون على الإساءة يجازون على الإحسان فيدخلون الجنّة.

والمسألة لا جدوى لها ولا يجب على المسلم اعتقاد شيء منها.

{ **وَمَنْ لا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ** } أنّه لا ينجو من عقاب الله على عدم إجابته داعيه، أي: فليس بمعجز الله، وهذا نظير قوله تعالى { وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً } [الجن:12]. والكلام كناية عن المؤاخذة بالعقاب.

{ **فِي الْأَرْضِ** } تعميم الجهات فجرى على أسلوب استعمال الكلام العربي، وإلّا فإنّ مكان الجنّ غير معيّن.

{ **وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ** } أي: لا نصير ينصره على الله ويحميه منه. وذكر هذا تعريض للمشركين.

{ **أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ** } اسم الإشارة للتنبيه على أنّ من هذه حالهم جديرون بما يرد بعده من الحكم، لتسبّب ما قبل اسم الإشارة فيه. والظرفية مجازية لإفادة قوّة تلبّسهم بالضلال حتّى كأنّهم في وعاء هو الضلال.

المبين: الواضح، لأنّه ضلال قامت الحجج والأدلة على أنّه باطل.

{ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [33].

عود إلى الاستدلال على إمكان البعث، فهو متّصل بقوله تعالى { وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي - إلى قوله - أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ } [18/17]، فهو انتقال من الموعظة بمصير أمثالهم من الأمم إلى الاستدلال على إبطال ضلالهم في شركهم، وهو الضلال الذي جرَّأهم على إحالة البعث، بعد أن أطيل في إبطال تعدّد الآلهة، وفي إبطال تكذيبهم بالقرآن وتكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم.

وهذا عود على بدء فقد ابتدئت السورة بالاحتجاج على البعث بقوله تعالى { مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ } [3].

{ **أَوَلَمْ يَرَوْا** } الواو عاطفة جملة الاستفهام، وهو استفهام إنكاري، والرؤية علمية. واختير هذا الفعل من بين أفعال العلم هنا لأنّ هذا العلم عليه حجّة بيّنة مشاهدة، وهي دلالة خلق السماوات والأرض من عدم، وذلك من شأنه أن يفرض بالعقل إلى أنّ الله كامل القدرة.

{ **وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ** } عطف على جملة { الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ }.

{ **وَلَمْ يَعْيَ** } مضارع عَيِيَ، من باب رضي، ومصدره **العِيّ** (بكسر العين)، وهو العجز عن العمل أو عن الكلام، ومنه العِيّ في الكلام، أي: عسر الإبانة. وتعديته بـ (الباء) هنا، بلاغة ليفيد انتفاء عجزه عن صنعها وانتفاء عجزه في تدبير مقاديرها ومناسباتها، فكانت (باء الملابسة) صالحة لتعليق الخلق بالعي بمعنييه.

وعن الكسائي والأصمعي: العِيّ خاص بالعجز في الحيلة والرأي. وأمّا الإعياء فهو التعب من المشي ونحوه، وفعله أعيا.

{ **بَلَى** } لمّا كان جوابا كان قائما مقام جملة تقديرها: هو قادر على أن يحيي الموتى. وهو جواب لمحذوف دلّ عليه التعجيب من ظنّهم أنّ الله غير قادر على أن يحيي الموتى، فإنّ ذلك يتضمّن حكاية عنهم أنّ الله لا يحيي الموتى، فأجيب بقوله { بَلَى }، تعليما للمسلمين وتلقينا لما يجيبونهم به.

{ **إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } تذييل لجملة { بَلَى } لأنّ هذه تفيد القدرة على خلق السماوات والأرض وإحياء الموتى وغير ذلك من الموجودات الخارجة عن السماوات والأرض.

والتأكيد لرد إنكارهم، لأنّهم لمّا أحالوا ذلك فقد أنكروا عموم قدرته تعالى على كل شيء.

ولتأكيد عموم القدرة جيء في القدرة على إحياء الموتى بوصف { **بِقَادِرٍ** }، وفي القدرة على كل شيء بوصف { **قَدِيرٌ** } الذي هو أكثر دلالة على القدرة من وصف (قادر).

{ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ } [34].

موقع هذا الكلام أنّ عرض المشركين على النار من آثار الجزاء الواقع بعد البعث، فلمّا ذُكر في الآية التي قبلها الاستدلال على إمكان البعث أُعقب بما يحصل لهم يوم البعث، جمعا بين الاستدلال والإنذار، وذُكر من ذلك ما يقال لهم ممّا لا ممدوحة لهم عن الاعتراف بخطئهم، جمعا بين ما رُدَّ به في الدنيا من قوله { بَلَى } [33]، وما يردُّون في علم أنفسهم يوم الجزاء بقولهم { بَلَى وَرَبِّنَا }.

والجملة عطف على جملة { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ } [33]. وأوّل الجملة المعطوفة قوله { أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ }، لأنّه مقول قول محذوف تقديره: ويقال للذين كفروا يوم يعرضون على النار.

{ **وَيَوْمَ يُعْرَضُ** } تقديم الظرف على عامله للاهتمام بذكر ذلك اليوم لزيادة تقريره في الأذهان.

{ **الَّذِينَ كَفَرُوا** } إظهار في مقام الإضمار للإيماء بالموصول إلى علّة بناء الخبر، أي: يقال لهم ذلك لأنّهم كفروا.

{ **أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ** } الإشارة إلى عذاب النار بدليل قوله بعد { قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ }. و**الحقّ**: الثابت.

والاستفهام تقريري وتنديم على ما كانوا يزعمون أنّ الجزاء باطل وكذب، من ذلك { وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ } [الصافات:59].

{ **قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا** } أقسموا على كلامهم بقسم { وَرَبِّنَا } قسما مستعملا في الندامة والتغليط لأنفسهم، وجعلوا المقسم به بعنوان الربّ تحنّنا وتخضّعا.

{ **فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ** } تفريع على إقرارهم. و**الذوق** مجاز في الإحساس. والأمر مستعمل في الإهانة.

{ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ** } [35].

تفريع على ما سبق في هذه السورة من تكذيب المشركين رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بجعلهم القرآن مفترى، واستهزائهم به وبما جاء به من البعث، ابتداء من قوله تعالى { وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ } [7]، وما اتصل به من ضرب المثل لهم بعاد. فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالصبر على ما لقيه منهم من أذى، وضرب له المثل بالرسل أولي العزم. <u>ويجوز</u> أن تكون الفاء فصيحة. والتقدير : فإذا علمت ما كان من الأمم السابقة وعلمت كيف انتقمنا منهم وانتصرنا برسلنا فاصبر كما صبروا.

أولوا العزم: أصحاب العزم، أي: المتّصفون به.

العزم: نيّة محقّقة على عمل أو قول دون تردّد. قال تعالى { وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ } [البقرة: 235]، وقال تعالى { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } [آل عمران:159]

<u>والعزم المحمود في الدين</u>: العزم على ما فيه تزكية النفس وصلاح الأمّة، وقوامه الصبر على المكروه وباعث التقوى، وقوّته شدّة المراقبة بأن لا يتهاون المؤمن عن محاسبته نفسه قال تعالى { وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } [آل عمران:186].

{ **مِنَ الرُّسُلِ** } عن ابن عباس أنّه قال: كلّ الرسل أولو عزم، وعليه تكون { مِنَ } بيانية.

وهذه الآية اقتضت أنّ محمدا صلى الله عليه وسلم من أولي العزم لأن تشبيه الصبر الذي أُمر به بصبر أولي العزم من الرسل يقتضي أنّه مثلهم.

{ **وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ** } أعقب أمره بالصبر بنهيه عن الاستعجال للمشركين، أي: الاستعجال لهم بالعذاب، أي: لا تطلب منا تعجيله لهم، وذلك لأنّ الاستعجال ينافي العزم، ولأنّ في تأخير العذاب تطويلا لمدة صبر الرسول صلى الله عليه وسلم بكسب عزمه قوة.

{ **لَهُمْ** } لام تعدية فعل الاستعجال إلى المفعول لأجله، أي: لا تستعجل لأجلهم، والكلام على حذف مضاف إذ التقدير: لا تستعجل لهلاكهم.

{ **كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ** } تعليل للنهي عن الاستعجال لهم بالعذاب بأن العذاب واقع بهم فلا يؤثّر في وقوعه تطويل أجله ولا تعجيل.

{ **إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ** } والساعة: جزء من الزمن. والتنكير للتقليل، ولأن ساعة النهار تبدو للناس قصيرة لما للناس في النهار من الشواغل بخلاف ساعة الليل تطول إذ لا يجد الساهر شيئا يشغله.

{ **بَلاغٌ** } فذلكة لما تقدّم بأنّه بلاغ للناس مؤمنهم وكافرهم ليعلم كلّ حظّه من ذلك، فقوله { بلاغ } خبر مبتدإ محذوف تقديره: هذا بلاغ. وقد يظهر اسم الإشارة، كما في قوله تعالى { هَذَا بَلاغٌ لِلنَّاسِ } [ابراهيم:52].

وقوله تعالى { إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عَابِدِينَ } [الانبياء:106].

{ **فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ** } تفريع على جملة {كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ - إلى قوله - مِنْ نَهَارٍ}، ومعنى التفريع أنّه قد اتضح ممّا سمعت أنّه لا يهلك إلّا القوم الفاسقون.

والاستفهام مستعمل في النفي، ولذلك صح الاستثناء.

الإهلاك: مستعمل في معنييه الحقيقي والمجازي، فإنّ ما حكي فيما مضى بعضه إهلاك حقيقي، مثل ما في قصّة عاد، وما في قوله تعالى { وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى }، وبعضه مجازي وهو سوء الحال، أي: عذاب الآخرة، وذلك فيما حكي من عذاب الفاسقين.

{ **الْقَوْمُ** } تعريف الجنس، وهو مفيد العموم، أي: كل القوم الفاسقين، فيعمّ مشركي مكّة الذين عناهم القرآن، فكان لهذا التفريع معنى التذييل.

{ **الْفَاسِقُونَ** } المراد بالفسق هنا الفسق عن الإيمان، وهو فسق الإشراك.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة محمّد

سُمِّيت هذه السورة في كتب السنّة (**سورة محمّد**). وكذلك تُرجمت في صحيح البخاري من رواية أبي ذر. وقالوا في التفاسير: وتسمَّى (**سورة القتال**)، لأنّها ذُكرت فيها مشروعية القتال، ولأنّ فيها لفظه في قوله تعالى { وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ } مع ما سيأتي أنّ قوله تعالى { وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا - إلى قوله - وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ } [20]، أن المعني بها هذه السورة، فتكون تسميتها (سورة القتال) تسمية قرآنية.

ووقع في أكثر روايات البخاري (**سورة الذين كفروا**).

وأشهر الاسماء الأوّل، ووجهه أنّها ذكر فيها اسم النبيّ صلى الله عليه وسلم في الآية الثانية منها فعُرفت به قبل سورة آل عمران التي فيها { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ } [144].

وهي مدنيّة بالاتفاق، حكاه ابن عطية وصاحب الإتقان. قيل نزلت بعد يوم بدر، وقيل نزلت في غزوة أحد.

وعُدَّت السادسة والتسعين في عداد نزول سور القرآن، نزلت بعد سورة الحديد وقبل سورة الرعد.

وآيها عُدَّت في أكثر الأمصار **تسعا وثلاثين،** وعدّها أهل البصرة أربعين.

أغراض السورة

*/ معظم ما في هذه السورة التحريض على قتال المشركين، وترغيب المسلمين في ثواب الجهاد.

*/ افتتحت بما يثير حنق المؤمنين على المشركين لأنّهم كفروا بالله وصدّوا عن سبيله، أي: دينه.

*/ أعلم الله المؤمنين بأنّه لا يُسدّد المشركين في أعمالهم وأنّه مصلح المؤمنين، فكان ذلك كفالة للمؤمنين بالنصر على أعدائهم.

*/ انتقل من ذلك الى الأمر بقتالهم وعدم الإبقاء عليهم.

*/ فيها وعد المجاهدين بالجنّة، وأمر المسلمين بمجاهدة الكفار وأن لا يدعوهم إلى السَّلم.

*/ إنذار المشركين بأن يصيبهم ما أصاب الأمم المكذّبين من قبلهم.

*/ وصف الجنّة ونعيمها، ووصف جهنّم وعذابها.

*/ وصف المنافقين وحال اندهاشهم إذا نزلت سورة فيها الحض على القتال، وموالاتهم المشركين.

*/ تهديد المنافقين بأنّ الله ينبئ رسوله صلى الله عليه وسلم بسيماهم.

*/ تحذير المسلمين من أن يروج عليهم نفاق المنافقين.

*/ ختمت بالإشارة إلى وعد المسلمين بنوال السلطان وحذّرهم إن صار إليهم الأمر من الفساد والقطيعة.

{ **الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ** } [1].

صُدِّر التحريض على القتال بتوطئة لبيان غضب الله على الكافرين لكفرهم وصدّهم الناس عن دين الله، وتحقير أمرهم عند الله ليكون ذلك مثيرا في نفوس المسلمين حنقا عليهم وكراهية، فتثور فيهم همّة الإقدام على قتالهم وعدم الاكتراث بما هم فيه من قوّة حين يعلمون أنّ الله يخذل المشركين وينصر المؤمنين.

فهذا تمهيد لقوله تعالى { فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا } [4].

{ **الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا** } في الابتداء بالموصول والصلة المتضمّنة كفر الذين كفروا ومناواتهم لدين الله تشويق لما يرد بعده من الحكم المناسب للصلّة، وإيماء بالموصول وصلته إلى علة الحكم عليه بالخبر، أي: لأجل كفرهم وصدّهم، وبراعة استهلال للغرض المقصود.

الكفر: الإشراك بالله كما هو مصطلح القرآن حيثما أطلق الكفر مجردا عن قرينة إرادة غير المشركين.

وقد اشتملت هذه الجملة على ثلاثة أوصاف للمشركين. وهي: الكفر، والصدّ عن سبيل الله، وضلال الأعمال الناشئ عن إضلال الله إيّاهم.

{ **وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ** } هو صرف الناس عن متابعة دين الإسلام، وصرفهم أنفسهم عن سماع دعوة الإسلام بطريق الأولى.

ومن الصدّ عن سبيل الله: صدّهم المسلمين عن المسجد الحرام، قال تعالى { وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } [الحج:25].

ومن الصدّ عن المسجد الحرام: إخراجهم الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من مكّة، وصدّهم عن العمرة عام الحديبية.

ومن الصدّ عن سبيل الله: إطعامهم الناس يوم بدر ليثبتوا معهم ويكثروا حولهم، فلذلك قيل: إنّ الآية نزلت في المطعمين يوم بدر، وكانوا اثني عشر رجلا من سادة المشركين من قريش.

ومن الصدّ عن سبيل الله: صدّهم الناس عن سماع القرآن، قال تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ } [فصلت:26].

{ **سَبِيلِ اللَّهِ** } لأنّه الدين الذي ارتضاه الله لعباده، قال تعالى { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ } [آل عمران:19]. واستعير اسم السبيل للدين لأنّ الدين يوصل إلى رضى الله كما يوصل السبيل السائر فيه إلى بغيته.

الإضلال: الإبطال والإضاعة، وهو يرجع إلى الضلال. وأصله الخطأ للطريق المسلوك.

وهذا اللفظ رشيق الموقع هنا لأنّ الله أبطل أعمالهم التي تبدو حسنة، فلم يثبهم عليها، ولأنّ من إضلال أعمالهم أنّ الله خيّب سعيهم فلم يحصلوا منه على طائل فانهزموا يوم بدر وذهب إطعامهم الجيش باطلا، وأفسد تدبيرهم وكيدهم للرسول صلى الله عليه وسلم فلم يشفوا غليلهم يوم أحد، ثمّ توالت انهزاماتهم في

المواقع كلها، قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ } [الأنفال:36].

{ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ } [2].

هذا مقابل فريق الذين كفروا وهو فريق الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وإيراد الموصول وصلته للإيماء إلى وجه بناء الخبر وعلّته، أي: لأجل إيمانهم وما عطف عليه كفَّر عنهم سيّئاتهم.

وقد جاء في مقابلة الأوصاف الثلاثة التي أُثبتت للذين كفروا بثلاثة أوصاف ضدّها للمسلمين وهي:

*/ الإيمان مقابل الكفر.

*/ الإيمان بما نُزّل على محمد صلى الله عليه وسلم مقابل الصدّ عن سبيل الله.

*/ وعمل الصالحات مقابل بعض ما تضمّنه قوله تعالى { أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ }.

{ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ } جملة معترضة، زيادة في جانب المؤمنين للتنويه بشأن القرآن، وهو نظير لوصفه بسبيل الله في قوله تعالى { وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ }.

{ رَبِّهِمْ } عُبِّر عن الجلالة هنا بوصف الربّ زيادة في التنويه بشأن المسلمين.

{ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ } مقابل بعض ما تضمّنه قوله في حق الذين كفروا { أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ }.

تكفير السيئات: غفرانها لهم، فإنّهم لمّا عملوا الصالحات كفّر الله عنهم سيّئاتهم التي اقترفوها قبل الإيمان، وكفّر لهم الصغائر، وكفّر عنهم بعض الكبائر بمقدار يعلمه إذا كانت قليلة في جانب أعمالهم الصالحات، كما قال تعالى { خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ } [التوبة: 102].

البال: يطلق على القلب، أي: العقل وما يخطر للمرء من التفكير، وهو أكثر إطلاقه ولعله حقيقة فيه. ومنه قولهم: ما بالك؟ أي: ماذا ظننت حين فعلت كذا، وقولهم: لا يبالي، كأنّه مشتق منه، أي: لا يخطر بباله. ويطلق البال على الحال والقدر. وفي الحديث **" كلّ أمر ذي بال لا يُبدأ فيه بحمد الله فهو أبتر "**.

<u>وإصلاح البال يجمع إصلاح الأمور كلّها</u>، لأنّ تصرّفات الإنسان تأتي على حسب رأيه، فالتوحيد أصل صلاح بال المؤمن، ومنه تنبعث القوى المقاومة للأخطاء والأوهام التي تلبّس بها أهل الشرك.

<u>والمعنى</u>: أقام أنظارهم وعقولهم فلا يفكّرون إلّا صالحا، ولا يتدبّرون إلّا ناجحا.

{ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ } [3].

هذا تبيين للسبب الأصيل في إضلال أعمال الكافرين وإصلاح بال المؤمنين.

{ **ذَلِكَ** } الإشارة إلى ما تقدّم من الخبرين المتقدمين: { أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ } [1]، و{ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ } [2]. واسم الإشارة مبتدأ.

{ **بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ** } الباء للسببية ومجرورها في موضع الخبر عن اسم الإشارة، أي: ذلك كائن بسبب اتباع الكافرين الباطل واتباع المؤمنين الحقّ.

وفي هذا مُحسِّن الجمع بعد التفريق، ويسمُّونه كعكسه التفسيرَ، لأنّ في الجمع تفسيرا للمعنى الذي تشترك فيه الأشياء المتفرّقة، تقدَّمَ أو تأخَّرَ.

وفيها أيضا مُحسِّن الطباق مرّتين بين { الَّذِينَ كَفَرُوا } و{ الَّذِينَ آمَنُوا } وبين { الْحَقَّ } و{ الْبَاطِلَ }.

{ **الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ** } تنويه بالحقّ وتشريف لهم.

{ **كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ** } تذييل لما قبله، أي: مثل ذلك التبيين للحالين يُبيّن الله الأحوال للنّاس.

المعنى: قد بيّنّا لكلّ فريق من الكافرين والمؤمنين حاله تفصيلا وإجمالا، وما تفضي إليه من استحقاق المعاملة بحيث لم يبق خفاء في كنه الحالين، ومثل ذلك البيان يمثّل الله للناس كيلا تلتبس عليهم الأسباب والمسبّبات.

{ **يَضْرِبُ** } يلقي. وهذا إلقاء تبيين بقرينة السياق، وتقدّم عند قوله تعالى { أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا } [البقرة:26].

{ **لِلنَّاسِ** } جميع الناس، و(اللام) للأجل.

الأمثال: جمع **مَثَل** (بالتحريك) وهو الحال التي تمثِّل صاحبها، أي: تشتهره للناس وتعرّفهم به.

المعنى: كهذا التبيين يُبيّن الله للناس أحوالهم فلا يبقوا في غفلة عن شؤون أنفسهم محجوبين عن تحقّق كنههم بحجاب التعوّد، لئلا يختلط الخبيث بالطيب، ولكي يكونوا على بصيرة في شؤونهم.

{ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ [4] سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ [5] وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ [6] }

لا شك أنّ هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر لأنّ فيها قوله تعالى { حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ } وهو الحكم الذي نزل فيه العقاب على ما وقع يوم بدر من فداء الأسرى التي في قوله تعالى { مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ } [الأنفال:67]، إذ لم يكن حكم ذلك مقرّرا يومئذ.

{ **فَإِذَا** } الفاء لتفريع هذا الكلام على ما قبله من إثارة نفوس المسلمين بتشنيع حال المشركين وظهور خيبة أعمالهم وتنويه حال المسلمين وتوفيق آرائهم.

والمقصود: تهوين شأنهم في قلوب المسلمين وإغراؤهم بقطع دابرهم ليكون الدين كلّه لله، لأنّ ذلك أعظم من منافع فداء أسراهم بالمال، ليعبد المسلمون ربهم آمنين. وذلك ناظر إلى آية الأنفال، وإلى ما يفيده التعليل من قوله { حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا }.

{ **لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا** } اللقاء هنا المقابلة، وهو إطلاق شهير. يقال: يوم اللقاء، فلا يُفهم منه إلّا لقاء الحرب. والمعنى: فإذا قاتلتم المشركين في المستقبل فأمعنوا في قتلهم حتّى إذا رأيتم أن قد خضدتم شوكتهم، فأسروا منهم أسرى.

الذين كفروا: هم المشركون لأنّ اصطلاح القرآن من تصاريف مادة الكفر، نحو: الكافرين، والكفار، والذين كفروا، هو الشرك.

ضرب الرقاب: كناية مشهورة يُعبَّر بها عن القتل، وأوثرت على كلمة القتل لأنّ في استعمال الكناية بلاغة، ولأنّ في خصوص هذا اللفظ غلظة وشدّة تناسبان مقام التحريض.

{ **حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ** } (حتّى) هنا ابتدائية. ومعنى الغاية معها يؤول إلى معنى التفريع.

الإثخان: الغلبة، لأنّها تترك المغلوب كالشيء المثخن، وهو الثقيل الصلب الذي لا يخفّ للحركة، ويوصف به المائع الذي جمد أو قارب الجمود بحيث لا يسيل بسهولة، ووصف به الثوب والحبل إذا كثرت طاقاتهما بحيث يعسر تفكّكها. وغلب إطلاقه على التوهين بالقتل. وتقدّم في [الأنفال:7] { حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ }.

وكلا المعنيين في هذه الآية؛ فإذا فُسّر بالغلبة، كان المعنى: حتّى إذا غلبتم منهم من وقعوا في قبضتكم أسرى فشدّوا وثاقهم، وعليه فجواز المن والفداء غير مقيّد. وإذا فُسّر الإثخان بكثرة القتل فيهم، كان المعنى حتّى إذا لم يبق من الجيش إلّا القليل فاسروا حينئذ، أي: أبقوا الأسرى، فالمنّ والفداء مقيّد. والاحتمال الأوّل أظهر.

الشدّ: قوّة الربط، وقوّة الإمساك.

الوَثاق (بفتح الواو): الشيء الذي يوثق به. وهو هنا كناية عن الأسر، لأنّ الأسر يستلزم الوضع في القيد.

المعنى: فاقتلوهم، فإن أثخنتم منهم فأسروا منهم.

{ **فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً** } قُدِّم المن على الفداء ترجيحا له لأنّه أعون على امتلاك ضمير الممنون عليه.

المنّ: الإنعام. والمراد به إطلاق الأسير.

الفِداء: (بكسر الفاء) تخليص الأسير بعوض من مال أو مبادلة بأسرى من المسلمين في يدي العدو.

{ **بَعْدُ** } أي: بعد الإثخان، وهذا تقييد لإباحة المنّ والفداء. وذلك موكول إلى نظر أمير الجيش بحسب ما يراه من المصلحة في أحد الأمرين، كما فعل النبيّ صلى الله عليه وسلم بعد غزوة هوازن. وهذا هو ظاهر الآية والأصل عدم النسخ، وهذا رأي جمهور أئمة الفقه.

{ **حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا** } الغاية المستفادة من { حَتَّى } للتعليل لا للتقييد، أي: لأجل أن تضع الحرب أوزارها، أي: ليكفّ المشركون عنها فتأمنوا من الحرب عليكم، وليست غاية لحكم القتال.

الأوزار: الأثقال. ووضع الأوزار تمثيل لانتهاء العمل، فشُبِّهت حالة انتهاء القتال بحالة وضع الأحمال أو المسافر أثقاله، وهذا من مبتكرات القرآن.

{ **ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ** } أعيد اسم الإشارة بعد قوله آنفا { ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ } [3] للنكتة التي تقدّمت هنالك (لتمييز المشار إليه أكملَ تمييز تنويها به).

والمشار إليه ما تقدّم من قوله تعالى { فَضَرْبَ الرِّقَابِ } إلى هنا، ويفيد اسم الإشارة تقرير الحكم ورسوخه في النفوس. أي: أمرتم بضرب رقابهم، والحال أنّ الله لو يشاء لاستأصلهم ولم يكلّفكم بقتالهم، ولكنّ الله ناط المسبّبات بأسبابها المعتادة، وهي أن يبلو بعضكم ببعض.

{ **لانْتَصَرَ مِنْهُمْ** } تعدية فعل انتصر بحرف (من) مع أنّ حقّه أن يُعدّى بحرف (على) لتضمينه معنى: انتقم.

{ **وَلَكِنْ** } الاستدراك راجع إلى ما في معنى المشيئة من احتمال أن يكون الله ترك الانتقام منهم لسبب غير ما بعد الاستدراك.

البلو: حقيقته الاختبار والتجربة، وهو هنا مجاز في لازمه وهو ظهور ما أراده الله من رفع درجات المؤمنين ووقع بأسهم في قلوب أعدائهم، ومن إهانة الكفّار.

{ **وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ** }.

هذا من مظاهر بلوى بعضهم ببعض، وهو مقابل ما في قوله { فَضَرْبَ الرِّقَابِ - إلى قوله - وَإِمَّا فِدَاءً } فإنّ ذلك من مظاهر إهانة الذين كفروا، فذُكر هنا ما هو من رفعة الذين قاتلوا في سبيل الله من المؤمنين بعناية الله بهم.

والجملة عطف على جملة { فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ }، فإنّه لمّا أمرهم بقتال المشركين أعقب الأمر بوعد الجزاء على فعله.

{ **الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ** } إظهار في مقام الإضمار إذ كان مقتضى الظاهر أن يقال: فلن يُضلّ الله أعمالكم، وهكذا بأسلوب الخطاب، فعدل عن ذلك ليكون في تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي إفادة تقوّي الخبر، وليكون ذريعة إلى الإتيان بالموصول للتنويه بصلته، وللإيماء إلى وجه بناء الخبر على الصلّة، بأنّ تلك الصلة هي علة ما ورد بعدها من الخبر.

{ **فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ** } خبر عن الموصول، وقرنت بـ (الفاء) لإفادة السببية في ترتّب ما بعد الفاء على صلة الموصول، لأنّ الموصول كثيرا ما يُضمّن معنى الشرط فيقرن خبره بالفاء، وبذلك تكون صيغة الماضي في فعل { قُتِلُوا } منصرفة إلى الاستقبال لأنّ ذلك مقتضى الشرط.

{ **سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ** } بيان لجملة { فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ } وتقدّم الكلام آنفا على معنى إضلال الأعمال وإصلاح البال.

{ **عَرَّفَهَا لَهُمْ** } أي: أنّه وصفها لهم في الدنيا فهم يعرفونها بصفاتها، فالجملة حال من الجنّة، أو المعنى هداهم إلى طريقها في الآخرة فلا يتردّدون في أنّهم داخلونها، وذلك من تعجيل الفرح بها.

وقيل: جعل فيها عَرْفًا، أي: ريحا طيّبا، والتطييب من تمام حسن الضيافة.

وقرأ الجمهور { قَاتَلُوا } بصيغة المفاعلة، فهو وعد للمجاهدين أحيائهم وأمواتهم. وقرأه أبو عمرو وحفص عن عاصم { قُتِلُوا } بالبناء للنائب، فعلى هذه القراءة يكون مضمون الآية جزاء الشهداء فهدايتهم وإصلاح بالهم كائنان في الآخرة.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ } [7].

لمّا ذُكر أنّه لو شاء الله لانتصر منهم عُلم منه أنّ ما أمر به المسلمين من قتال الكفار إنّما أراد منه نصرَ الدين بخضد شوكة أعدائه الذين يصدّون الناس عنه، أتبعه بالترغيب في نصر الله والوعد بتكفّل الله لهم بالنصر إن نصروه، وبأنّه خاذل الذين كفروا بسبب كراهيتهم ما شرعه من الدين. فالجملة استئناف ابتدائي للمناسبة.

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** } افتُتح الترغيب بندائهم بصلة الإيمان اهتمامًا بالكلام وإيماء إلى أنّ الإيمان يقتضي منهم ذلك، والمقصود تحريضهم على الجهاد في المستقبل بعد أن اجتنوا فائدته يوم بدر.

{ **إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ** } نصر دينه ورسوله صلى الله عليه وسلم، لأنّ الله غني عن النصر في تنفيذ إرادته، كما في قوله تعالى { وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ } [4].

ولا حاجة إلى تقدير مضاف، تقديره: تنصروا دين الله، لأنّه يقال: نصر فلان فلانا، إذا نصر ذويه وهو غير حاضر.

تثبيت الأقدام: تمثيل لليقين وعدم الوهن بحالة من ثبتت قدمه في الأرض فلم يزل، فإنّ الزلل وَهَنٌ يُسقط صاحبه، ولذلك يُمثّل الانهزام والخيبة والخطأ بزلل القدم، قال تعالى { فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا } [النحل:94].

{ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ [8] ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ [9] }.

هذا مقابل قوله تعالى { وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ } [4]، فإنّ المقاتلين في سبيل الله هم المؤمنون، فهذا عطف على جملة { وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ }.

التعس: الشقاء، ويُطلق على عدّة معان: الهلاك، والخيبة، والانحطاط، والسقوط، وهي معان تحوم حول

الشقاء، وقد كُثر أن يقال: تعسا له، للعاثر البغيض، أي: سقوطا وخرورا لا نهوض منه. ويقابله قولهم للعاثر القريب: لعًا له، أي ارتفاعا.

وفي حديث الإفك: " فعثرت أم مسطح في مِرطها فقالت: تعس مسطح ".

ومن بدائع القرآن وقوع { فَتَعْساً لَهُمْ } في جانب الكفّار في مقابلة قوله للمؤمنين { وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ } [7].

{ **فَتَعْساً لَهُمْ** } انتصب (تعسًا) على المفعول المطلق بدلا من فعله. والتقدير: فتعسوا تعسهم، ويجوز أن يكون مستعملا في الدعاء عليهم لقصد التحقير والتفظيع، وذلك من استعمالات هذا المركب مثل سقيا له، وتبا له، وويحا له، وحينئذ يتعيّن في الآية فعل قول محذوف تقديره: فقال الله: تعسا لهم، أو فيقال: تعسا لهم.

{ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ** } القول في معناه وفي موقعه من الجملة التي قبله وفي نكتة تكريره كما تقدّم في قوله تعالى { ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ } [3]. والإشارة إلى التعس وإضلال الأعمال المتقدّم ذكرهما.

{ **بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا** } الباء للسببية. و**الكراهية**: البغض والعداوة.

{ **مَا أَنْزَلَ اللَّهُ** } هو القرآن وما فيه من التوحيد والرسالة والبعث.

{ **فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ** } وإحباط الأعمال إبطالها. والمراد بأعمالهم: الأعمال التي يرجون منها النفع في الدنيا، لأنّهم لم يكونوا يرجون نفعها في الآخرة إذ هم لا يؤمنون بالبعث. وإنّما كانوا يرجون من الأعمال الصالحة رضى الله ورضى الأصنام ليعيشوا في سعة رزق وسلامة وعافية وتسلم، فالأعمال المحبَطة بعض الأعمال المضلّلة. وإحباطها هو عدم تحقّق ما رجوه منها.

فهو أخصّ من إضلال أعمالهم كما علمته عند قوله تعالى { الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ } [1].

والمقصود من ذكر هذا الخاص بعد العام التنبيه على أنّهم لم ينتفعوا بها، لئلا يظنّ المؤمنون أنّها قد تخفّف عنهم من العذاب، فقد كانوا يتساءلون عن ذلك، كما في حديث عُدي بن حاتم أنّه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أعمال كان يتحنّث بها في الجاهلية من عتاقة ونحوها فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **أسلمت على ما سلف من خير**"، أي: ولو لم يُسلم لما كان له فيها خير.

والمعنى: أنهم لو آمنوا بما أنزل الله لانتفعوا بأعمالهم الصالحة في الآخرة. وقد حصل من ذكر هذا الخاص بعد العام تأكيد الخبر المذكور.

{ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا** } [10].

تفريع على جملة { وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ } [8].

{ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** } تقدّم القول في نظائرها في [الروم:9] وفي [غافر:21]. والاستفهام تقريري.

{ **دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ** } استئناف بياني، وهذا تعريض بالتهديد.

التدمير: الإهلاك والدمار وهو الهلك. وفعل { دَمَّرَ } متعدّ إلى المدمَّر بنفسه، فيقال: دمَّرهم الله، وإنّما عُدِّي في الآية بحرف الاستعلاء للمبالغة في قوة التدمير، فحُذف المفعول لقصد العموم، ثم جُعل التدمير واقعا عليهم فأفاد معنى { دَمَّر } كلّ ما يختصّ بهم.

{ **وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا** } اعتراض بين { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ } وبين { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا } [11]. والمراد بالكافرين: كفّار مكّة. وهذا تصريح بما وقع به التعريض للتأكيد بالتعميم ثمّ الخصوص.

أمثال: جمع مِثْل (بكسر الميم وسكون الثاء)، والجمع هنا لأنّ الله استأصل الكافرين مرّات حتّى استقر الإسلام؛ فاستأصل صناديدهم يوم بدر بالسيف، ويوم حنين بالسيف أيضا، وسلّط عليهم الريح يوم الخندق فهزمهم، وسلّط عليهم الرعب والمذلّة يوم فتح مكة، وكلّ ذلك مماثل لما سلّطه على الأمم في الغاية منه، وهو نصر الرسول صلى الله عليه وسلم ودينه.

{ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ** } [11].

أعيد اسم الإشارة للوجه الذي تقدّم في قوله تعالى { ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ } [3] وقوله تعالى { ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ } [4]. وهو منصرف إلى مضمون قوله تعالى { وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا } [10] بتأويل: ذلك المذكور، لأنّه يتضمّن وعيدا للمشركين بالتدمير، وفي تدميرهم انتصار للمؤمنين على ما لقوا منهم من الأضرار، فأفيد أنّ ما توعَّدهم الله به مسبَّب على أنّ الله نصير الذين آمنوا، وهو المقصود من التعليل وما بعده تتميم.

المولى: هنا الوليّ والناصر. أي: أنّ الله ينصر الذين ينصرون دينه، وهم الذين آمنوا ولا ينصر الذين كفروا به، فأشركوا معه في إلهيته، وإذا كان لا ينصرهم فلا يجدون نصيرا لأنّه لا يستطيع أحد أن ينصرهم على الله، فنفي جنس المولى لهم بهذا المعنى من معاني المولى.

وأمّا إثبات المولى للمشركين في قوله تعالى { ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ - إلى قوله - وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ } [يونس:28-30]، فذلك المولى بمعنى آخر، وهو معنى: المالك والربّ، فلا تعارض بينهم.

{ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ } [12].

استئناف بياني جواب سؤال يخطر ببال سامع قوله تعالى { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ } [11] عن حال المؤمنين في الآخرة وعن رزق الكافرين في الدنيا؟ فبيّن الله أنّ من ولايته المؤمنين أن يعطيهم النعيم الخالد بعد النصر في الدنيا، وأنّ ما أعطاه الكافرين في الدنيا لا عبرة به لأنّهم مسلوبون من فهم الإيمان، فحظّهم من الدنيا أكل وتمتع كحظ الأنعام، وعاقبتهم في عالم الخلود العذاب.

وهذا الاستئناف وقع اعتراضا بين جملة { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ } [10] وجملة { وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ } [13].

التمتّع: الانتفاع القليل بالمتاع، وتقدّم في قوله تعالى { مَتَاعٌ قَلِيلٌ } [آل عمران:197].

{ **وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ** } في معنى قوله تعالى { لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ } [آل عمران:196/197]

المثوى: مكان الثواء، والثواء: الاستقرار، وتقدّم في قوله تعالى { قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ } [الأنعام:128].

{ **مَثْوىً لَهُمْ** } عدل عن الإضافة إلى التنوين لإفادة معنى التمكّن من القرار في النار، أي: مثوًى قويًّا لهم لأنّ الإخبار عن النار في هذه الآية حصل قبل مشاهدتها، في حين أضيفت في قوله { قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ } لأنّه إخبار عنها وهم يشاهدونها في المحشر.

{ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ } [13].

عطف على جملة { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ } [10] وما بينهما استطراد اتصل بعضه ببعض.

{ **كَأَيِّنْ** } تدل على كثرة العدد، وتقدّم في [آل عمران:146] وفي [الحج:45].

{ **قَرْيَةٍ** } المراد أهلها، بقرينة قوله تعالى { أَهْلَكْنَاهُمْ }، لإفادة الإحاطة بجميع أهلها وجميع أحوالهم، وليكون لإسناد التبعة في إخراج الرسول صلى الله عليه وسلم، على جميع أهلها، سواء منهم من تولّى أسباب ذلك، ومن كان ينظر ولا ينهى، قال تعالى { وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ } [الممتحنة:9].

وهذا إطناب في الوعيد لأنّ مقام التهديد والتوبيخ يقتضي ذلك، فمفاد هذه الآية مؤكّد لمفاد قوله { فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا } [10]، فحصل توكيد ذلك بما هو مقارب له من إهلاك الأمم ذوات القرى والمدن بعد أن شمل قوله { الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } من كان من أهل القرى، وزاد هنا التصريح بأنّ الذين من قبلهم كانوا أشدّ قوة منهم ليفهموا أنّ إهلاك هؤلاء هيّن على الله. فإنّه لمّا كان التهديد السابق تهديدا بعذاب السيف من قوله { فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ } [4]،

قد يلقى في نفوسهم غرورا لتعذّر استئصالهم بالسيف وهم ما هم من المنعة وأنّهم تمنعهم قريتهم مكة، فأعلمهم الله أن قرى كثيرة كانت أشدّ قوّة من قريتهم أهلكهم الله فلم يجدوا نصيرا.

{ **قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ** } لما تفيده إضافة القرية إلى ضمير الرسول صلى الله عليه وسلم من تعيير أهلها بمذمّة القطيعة، ولما تؤذن به الصلة من تعليل إهلاكهم بسبب إخراجهم الرسول صلى الله عليه وسلم من قريته، قال تعالى { وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ } [البقرة:191].

{ **أَخْرَجَتْكَ** } إطلاق الإخراج على ما عامل به المشركون النبيّ صلى الله عليه وسلم من الجفاء والأذى ومقاومة نشر الدين إطلاق من قبيل الاستعارة، لأنّ سوء معاملتهم إيّاه كان سببا في خروجه من مكة. وليس ذلك بإخراج وإنّما هو خروج، فإنّ المشركين لم يلجئوا النبيّ صلى الله عليه وسلم بالإخراج بل كانوا على العكس يرصدون أن يمنعوه من الخروج خشية اعتصامه بقبائل تنصره فلذلك أخفى على الناس أمر هجرته إلّا عن أبي بكر رضي الله عنه.

{ **أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ** } فُرّع على الإخبار بإهلاك الله إيّاهم الإخبار بانتفاء جنس الناصر لهم، أي: المنقذ لهم من الإهلاك. والمقصود: التذكير بأنّ أمثال هؤلاء المشركين لم يجدوا دافعا يدفع عنهم الإهلاك، وذلك تعريض بتأييس المشركين من إلفاء ناصر ينصرهم في حربهم للمسلمين.

{ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ } [14].

تفريع على جملة { أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ } [13] لتحقيق أنّهم لا ناصر لهم. ويجوز أن يكون مفرَّعا على ما سبق من قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } [12]، فيكون له حكم الاعتراض.

{ **أَفَمَنْ كَانَ** } المقصود من إنكار المشابهة هو تفضيل الفريق الأوّل، وإنكار زعم المشركين أنّهم خير من المؤمنين.

البيّنة: البرهان والحجّة، أي: حجّة على أنّه محقّ.

{ **بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ** } أي: أنّ الله أرشدهم إليها. فالحجّة حجّة في نفسها وكونها من عند الله تزكية لها. وهذا الفريق هم المؤمنون وهم ثابتون على الدين واثقون بأنّهم على الحق. فلا جرم يكون لهم الفوز في الدنيا لأنّ الله يسّر لهم أسبابه، فإن قاتلوا كانوا على ثقة بأنّهم على الحقّ وأنّهم صائرون إلى إحدى الحسنيين فقويت شجاعتهم، وإن سالموا عنوا بتدبير شأنهم وما فيه نفع الآمّة والدين فلم يألوا جهدا في حسن أعمالهم، وذلك من آثار أنّ الله أصلح بالهم وهداهم.

{ **كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ** } هم المشركون، فإنّهم كانوا في أسوء حال من عبادة الأصنام والظلم والعدوان وارتكاب الفواحش، فلمّا نبّههم الله لفساد أعمالهم بأن أرسل إليهم رسولا بيّن لهم صالح الأعمال وسيّئاتها لم يدركوا ذلك ورأوا فسادهم صلاحا فتزيَّنت أعمالهم في أنظارهم ولم يستطيعوا الإقلاع عنها.

{ زُيِّنَ } بني للمجهول ليشمل المزيِّنين لهم من أئمة كفرهم، وما سوَّلته لهم أيضا عقولهم الآفنة من أفعالهم السيّئة اغترارا بالإلف أو اتباعا للذّات عاجلة أو لجلب الرئاسة. وفي هذا البناء إلى المجهول تنبيه لهم أيضا ليرجعوا إلى أنفسهم فيتأمّلوا فيمن زيَّن لهم سوء أعمالهم.

{ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ } [15].

استئناف بياني لأنّ ما جرى من ذكر الجنّة في قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ } [12] مما يستشرف السامع إلى تفصيل بعض صفاتها.

فلما فُرغ من توصيف حال فريقي الإيمان والكفر، وممّا أُعدّ لكليهما، ومن إعلان تباين حاليهما، ثُني العنان إلى بيان ما في الجنّة التي وُعد المتّقون، وخُصّ من ذلك بيان أنواع الأنهار.

المثَل: الحال العجيب.

الأنهار: جمع نهر، وهو الماء المستبحر الجاري في أخدود عظيم من الأرض، وتقدّم في قوله تعالى { قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ } [البقرة:249].

{ أَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ / أَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ / أَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ } فأمّا إطلاق الأنهار على أنهار الماء فهو حقيقة، وأمّا إطلاق الأنهار على ما هو من لبن وخمر وعسل فذلك على طريقة التشبيه البليغ، أي: مماثلة للأنهار.

فيجوز أن تكون المماثلة تامة في أنّها كالأنهار مستبحرة في أخاديد من أرض الجنة، فإنّ أحوال الآخرة خارقة للعادة المعروفة في الدنيا، فإنّ مرأى أنهار من هذه الأصناف مرأى مبهج.

ويجوز أن تكون مماثلة هذه الأصناف للأنهار في بعض صفات الأنهار وهي الاستبحار.

وهذه الأصناف الخمسة المذكورة في الآية كانت من أفضل ما يتنافسون فيه ومن أعزّ ما يتيسّر الحصول عليه، فكيف إذا كان منها أنهار في الجنّة. وقد ذكر هنا أربعة أشربة هي أجناس أشربتهم:

الماء الصافي، كان مرغوبا، لأنّ غالب مياههم من الغدران والأحواض بالبادية تمتلئ من ماء المطر أو من مرور السيول فإذا استقرت أياما أخذت تتغير بالطحلب وبما يدخل فيها من الأيدي والدلاء، وشرب الوحوش وقليل البلاد التي تكون مجاورة الأنهار الجارية.

وكذلك اللبن كانوا إذا حلبوا وشربوا أبقوا ما استفضلوه إلى وقت آخر لأنّهم لا يحلبون إلّا حلبة واحدة أو حلبتين في اليوم فيقع في طعم اللبن تغيير.

فأمّا الخمر فكانت قليلة عزيزة عندهم لقلة الأعناب في الحجاز إلّا قليلا في الطائف، فكانت الخمر تُجتلب من بلاد الشام ومن بلاد اليمن، وكانت غالية الثمن وقد ينقطع جلبها زمانا في فصل الشتاء لعسر السير بها في الطرق وفي أوقات الحروب أيضا خوف انتهابها.

والعسل هو أيضا من أشربتهم، والعرب يقولون: سقاه عسلا، وأطعمه عسلا. وكان العسل مرغوبا فيه يُجتلب من بلاد الجبال ذات النبات المستمرّ.

فأمّا الثمرات فبعضها كثير عندهم كالتمر وبعضها قليل كالرمّان.

الآسن: وصف، من أسِن الماء، إذا تغيّر لونه.

{ **لَذَّةٍ** } وصف وليس باسم، وهو تأنيث اللذّ، أي: اللذيذ.

العسل المصفّى: الذي خلص ممّا يخالطه من بقايا الشمع وبقايا أعضاء النحل التي قد تموت فيه.

{ **مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ** } أصناف من جميع أجناس الثمرات، فالتعريف للجنس، و{ كُلِّ } مستعملة في حقيقتها وهو الإحاطة، أي: جميع ما خلق الله من الثمرات ممَّا علموه في الدنيا، وما لم يعلموه ممّا خلقه الله للجنّة. و{ مِنْ } تبعيضية، وهذا كقوله تعالى { فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ } [الرحمن:52].

{ **وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ** } عطف على { أَنْهَارٌ } وما بعده، أي: وفيها مغفرة لهم، أي: تجاوز عنهم، أي: إطلاق في أعمالهم لا تكليف عليهم. وقد تكون المغفرة كناية عن الرضوان عليهم، كما قال تعالى { وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ } [التوبة:72].

{ **كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ** } كلام مستأنف مقدّر فيه استفهام إنكاري دلّ عليه ما سبق من قوله { أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ } [14]. والتقدير: أكمن هو خالد في النار؟ والإنكار متسلّط على التشبيه الذي هو بمعنى التسوية.

{ **وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً** } جيء به لمقابلة ما وصف من حال أهل الجنّة، أي: أنّ أهل النار محرومون من جميع ما ذكر من المشروبات. وليسوا بذائقين إلّا الماء الحميم الذي يقطع أمعاءهم بفور سقيه.

{ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ } [16].

{ **وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ** } الضمير عائد إلى { الَّذِينَ كَفَرُوا } [12] الذين جرى ذكرهم غير مرة. أي: ومن الكافرين قوم يستمعون إليك. صنف آخر من الكافرين الذين أسرّوا الكفر وتظاهروا بالإيمان، وقد كان المنافقون بعد الهجرة مقصودين من لفظ الكفّار. وهذه السورة نازلة بقرب عهد من الهجرة فلذلك ذكر فيها الفريقان من الكفار. وليس المراد مجرد المستمعين مثل ما في قوله تعالى { وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً } [الأنعام:25]، وقوله تعالى {وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ} [يونس:42]، للفرق الواضح بين الأسلوبين.

أي: يحضرون مجلسك ويسمعون كلامك وما تقرأ عليهم من القرآن. وهذه صفة من يتظاهر بالإسلام فلا يعرضون عن سماع القرآن إعراض المشركين بمكة.

الاستماع: أشدّ السمع وأقواه، أي: يستمعون باهتمام يُظهرون أنّهم حريصون على وعي ما يقوله الرسول صلى الله عليه وسلم وأنّهم يلقون إليه بالهم، وهذا من استعمال الفعل في معنى إظهاره لا في معنى حصوله. وحقّ فعل استمع أن يُعدَّى إلى المفعول بنفسه كما في قوله { يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ } [الاحقاف:29]، فإذا أريد تعلّقه بالشخص المسموع منه يقال: استمع إلى فلان كما هنا، وكذا جاء في مواقعه كلّها من القرآن.

{ **حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ** } و{ حَتَّى } هنا ابتدائية، و{ إِذَا } اسم زمان متعلّق بـ { **قَالُوا** }.

والمعنى: فإذا خرجوا من عندك قالوا.

{ **لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ** } هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الملازمون لمجلسه. وسُمِّي منهم عبد الله بن مسعود وأبو الدرداء وابن عباس. وروي عنه أنّه قال: أنا منهم وسئلت فيمن سئل.

{ **آنِفاً** } وقتا قريبا من زمن التكلّم ، ولم ترد هذه الكلمة إلّا منصوبة على الظرفية.

وسياق الكلام يدلّ على ذمّ هذا السؤال لقوله عقبه { أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ } فهو سؤال ينبئ عن مذمّة سائليه، فإن كان سؤالهم حقيقة أنبأ عن قلّة وعيهم لما يسمعونه من النبيّ صلى الله عليه وسلم. ويجوز أن يكون السؤال على غير حقيقته ناوين به الاستهزاء يظهرون للمؤمنين اهتمامهم باستعادة ما سمعوه، ويقولون لإخوانهم: إنما نحن مستهزؤون، أو أن يكون سؤالهم تعريضا بأنّهم سمعوا كلاما لا يستبين المراد منه لإدخال الشك في نفوس من يحسّون منهم الرغبة في حضور مجالس النبيّ صلى الله عليه وسلم تعريضا لقلّة جدوى حضورها.

{ **أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ** } استئناف بياني لأنّ قولهم { مَاذَا قَالَ آنِفاً } سؤال غريب من شأنه إثارة سؤال من يسأل عن مرادهم منه.

وجيء باسم الإشارة بعد ذكر صفاتهم تشهيرا بهم، وجيء بالموصول وصلته خبرا عن اسم الإشارة لإفادة أنّ هؤلاء المتميّزين بهذه الصفات هم أشخاص الفريق المتقرّر بين الناس أنّهم فريق مطبوع على قلوبهم، لأنّه قد تقرّر عند المسلمين أنّ الذين صمّموا على الكفر هم قد طبع الله على قلوبهم وأنّهم متَّبعون لأهوائهم.

الطبع على القلب: تمثيل لعدم مخالطة الهدى والرشد لعقولهم بحال الكتاب المطبوع عليه، أو الإناء المختوم.

{ **وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدىً وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ** } [17].

جملة معترضة بين جملة { وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ } [16] وجملة { فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ } [18].

والمقصود من هذا الاعتراض: مقابلة فريق الضلالة بفريق الهداية على الأسلوب الذي أقيمت عليه هذه السورة كما تقدّم في أوّلها (تحريض وترغيب). فهذا أسلوب مستمر وإن اختلفت مواقع جمله.

المعنى: والذين شرح الله صدرهم للإيمان فاهتدوا لطف الله بهم فزادهم هدى وأرسخ الإيمان في قلوبهم ووفّقهم للتقوى، فاتقوا وغالبوا أهواءهم.

{ **وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ** } مستعار لتيسير أسبابها، إذ التقوى معنى نفساني، والإيتاء يتعدّى حقيقة للذوات.

وإضافة التقوى إلى ضمير { الَّذِينَ اهْتَدَوْا } إيماء إلى أنّهم عرفوا بها واختصت بهم.

{ **فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ** } [18].

تفريع على ما مضى من وصف أحوال الكافرين من قوله تعالى { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ - إلى قوله - وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ } الشاملة لأحوال الفريقين، ففُرّع عليها أنّ كلا الفريقين ينتظرون حلول الساعة لينالوا جزاءهم على سوء كفرهم.

{ **فَهَلْ يَنْظُرُونَ** } الضمير مراد به الكافرون لأنّ الكلام تهديد ووعيد، ولأنّ المؤمنين ينتظرون أمورا أخر مثل النصر والشهادة، قال تعالى { قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ } [التوبة:52]. والنظر هنا بمعنى الانتظار، كما في قوله تعالى { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ } [الأنعام:158].

والاستفهام إنكار مشوب بتهكّم، وهو إنكار وتهكّم على غائبين، موجّه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، أي: لا تحسب تأخير مؤاخذتهم إفلاتا من العقاب، فإنّهم مرجون إلى الساعة.

وهذا الاستفهام الإنكاري ناظر إلى قوله تعالى آنفا { وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ } [12].

{ **إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً** } والقصر الذي أفاده الاستثناء قصر ادعائي، نزل انتظارهم ما يأملونه من المرغوبات في الدنيا منزلة العدم لضآلة أمره بعد أن نُزِّلوا منزلة من ينتظرون فيمن ينتظرون الساعة، لأنّهم لتحقّق حلولها عليهم جديرون بأن يكونوا من منتظريها.

{ **أَنْ تَأْتِيَهُمْ** } بدل اشتمال من الساعة.

{ **بَغْتَةً** } حال من الساعة، والبغتة: الفجأة، وهو مصدر بمعنى: المرّة، والمراد به الوصف، أي: مباغتة لهم.

{ **فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا** } فاء الفصيحة، وهذه الفصيحة تفيد معنى تعليل قرب مؤاخذتهم.

الأشراط: جمع شَرَط (بفتحتين)، وهو: العلامة والأمارة على وجود شيء أو على وصفه.

وعلامات الساعة هي علامات كونها قريبة. وهذا القرب يتصور بصورتين:
الأولى: أنّ وقت الساعة قريب قربا نسبيا بالنسبة إلى طول مدّة هذا العالم ومن عليه من الخلق.
الثانية: أنّ ابتداء مشاهدة أحوال الساعة يحصل لكلّ أحد بموته فإنّ روحه إذا خلصت عن جسده شاهدت مصيرها مشاهدة إجمالية. وبه فُسِّر حديث أبي هريرة مرفوعا: **" القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار "**. [رواه الترمذي]. وهو ضعيف ويفسّره حديث ابن عمر مرفوعا: { **إذا مات الميت عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي فإن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، ثم يقال: هذا مقعدك حتّى يبعثك الله يوم القيامة "**.
والأشراط بالنسبة للصورة الأولى: الحوادث التي أخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّها تقع بين يديّ الساعة، وأوّلها بعثته لأنّه آخر الرسل وشريعته آخر الشرائع. وبالنسبة للصورة الثانية أشراطها الأمراض والكبر.
{ **فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ** } تفريع على { فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا }. و(أنّى) اسم يدل على الحالة، ويُضمَّن معنى الاستفهام كثيرا، وهو هنا استفهام إنكاري، أي: كيف يحصل لهم الذكرى إذا جاءتهم الساعة.
والمقصود: إنكار الانتفاع بالذكرى حينئذ. وهذا التركيب مثل قوله تعالى { أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى } [الدخان:13].

{ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ} [19].

فُرِّع على جميع ما ذُكر من حال المؤمنين وحال الكافرين ومن عواقب ذلك ووعده أو وعيده أن أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالثبات على ما له من العلم بوحدانية الله، وعلى ما هو دأبه من التواضع لله بالاستغفار لذنبه، ومن الحرص على نجاة المؤمنين بالاستغفار لهم، لأنّ في ذلك العلم وذلك الدأب استمطار الخيرات له ولأمّته.
وهذا التفريع مزيد مناسبة لقوله آنفا { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ } [11].
{ **فَاعْلَمْ** } الأمر كناية عن طلب العمل، وهو العمل بالمعلوم، وذلك مستعمل في طلب الدوام عليه، لأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قد علم ذلك وعلمه المؤمنون، وإذا حصل العلم بذلك مرّة واحدة تقرّر في النفس، لأنّ العلم لا يحتمل النقيض، فليس الأمر به بعد حصوله لطلب تحصيله بل لطلب الثبات، فهو على نحو قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ } [النساء:136].
ومن اللطائف القرآنية أن أمر هنا بالعلم قبل الأمر بالعمل في قوله { وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ }. قال ابن عيينة لمّا سئل عن فضل العلم: ألم تسمع قوله تعالى حين بدأ به { فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ }.

وترجم البخاري في كتاب العلم (باب العلم قبل القول والعمل) لقول الله تعالى { فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ } فبدأ بالعلم.

{ **وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ** } وأمّا الأمر هنا فهو لطلب تجديد ذلك إن كان قد علمه النبيّ صلى الله عليه وسلم من قبل وعمله، أو هو لطلب تحصيله إن لم يكن فعله من قبل.

{ **لِذَنْبِكَ** } وما يستغفر منه النبيّ صلى الله عليه وسلم ليس من السيّئات لعصمته منها، وإنّما هو استغفار من الغفلات ونحوها، وتسميته بالذنب في الآية؛ إمّا محاكاة لما كان يكثر النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يقوله: " **اللّهم اغفر لي خطيئتي** "، وإنّما كان يقوله في مقام التواضع.

وإمّا إطلاق لاسم الذنب على ما يفوت من الازدياد في العبادة مثل أوقات النوم والأكل، وإطلاقه على ما عناه النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله: " **أنه ليُغانُ على قلبي وإنّي أستغفر الله في اليوم مائة مرة** " [مسلم].

{ **وَالْمُؤْمِنَاتِ** } وذكرهنّ بعد { لِلْمُؤْمِنِينَ } اهتمام بهنّ في هذا المقام وإلّا فإن الغالب اكتفاء القرآن بذكر المؤمنين وشموله للمؤمنات على طريقة التغليب، للعلم بعموم تكاليف الشريعة للرجال والنساء إلّا ما استثني.

{ **وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ** } تذييل جامع لأحوال ما تقدّم.

المتقلَّب: مصدر بمعنى التقلّب: العمل المختلف ظاهرا وباطنا كالصلاة وكالإيمان.

المثوى: المرجع والمئال، أي: يعلم الله أحوالكم جميعا من مؤمنين وكافرين، وقدَّر لها جزاءها على حسب علمه بمراتبها، ويعلم مصائركم، وإنّما أمركم ونهاكم، وأمركم بالاستغفار خاصة لإجراء أحكام الأسباب على مسبّباتها، فلا تيأسوا ولا تهملوا.

{ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ [20] طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ [21] }.

قد ذكرنا أنّ هذه السورة أنزلت بالمدينة وقد بدت قرون المنافقين، فلمّا جرى فيها وصف حال المنافقين أعقب ذلك بوصف أجلى مظاهر نفاقهم، وذلك حين يُدعى المسلمون إلى الجهاد فقد يضيق الأمر بالمنافقين إذ كان تظاهرهم بالإسلام سيلجئهم إلى الخروج للقتال مع المسلمين، وذلك أمر ليس بالهين لأنّه تعرض لإتلافهم النفوس دون أن يرجوا منه نفعا في الحياة الأبدية، إذ هم لا يصدّقون بها فيصبحوا في حيرة.

وكان حالهم هذا مخالفا لحال الذين آمنوا الذي تمنّوا أن ينزل القرآن بالدعوة إلى القتال ليلاقوا المشركين

فيشفوا منهم غليلهم، فبهذه المناسبة حُكي تمنّي المؤمنين نزول حكم القتال لأنّه يلوح به تمييز حال المنافقين، وقد بُيّن كره القتال لديهم في سورة التوبة.

فالمقصود من هذه الآية قوله {فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ}، وما قبله توطئة له بذكر سببه، وأفاد تقديمه أيضا تنويها بشأن الذين آمنوا، وأفاد ذكره مقابلة بين حالي الفريقين جريا على سنن هذه السورة. ومقال الذين آمنوا هذا كان سببا في نزول قوله تعالى { فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ } [4]، ولذلك فالمقصود من السورة التي ذُكر فيها القتال سورة محمد.

{ **وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا** } معلوم أنّ قول المؤمنين هذا واقع قبل نزول هذه الآية فالتعبير عنه بالمضارع: إمّا لقصد استحضار الحالة مثل قوله تعالى { وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ } [هود:38]، وإمّا للدلالة على أنّهم مستمرّون عليه.

{ **لَوْلَا** } حرف مستعمل هنا في التمنّي، وأصل معناه التحضيض، فأطلق وأريد به التمنّي لأنّ التمنّي يستلزم الحرص والحرص يدعو إلى التحضيض.

{ **نُزِّلَتْ سُورَةٌ** } حذف وصف { سُورَةٌ } لدلالة ما بعده عليه من قوله { وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ } لأنّ قوله تعالى { فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ }، أي: كما تمنّوا، اقتضى أنّ المسؤول سورة يُشرَّع فيها قتال المشركين.

فالمعنى: لولا نُزّلت سورة يذكر فيها القتال وفرضه، فحذف الوصف إيجازا.

{ **سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ** } باعتبار وصف آياتها بالإحكام، أي: عدم التشابه وانتفاء الاحتمال، كما دلّت عليه مقابلة المحكمات بالمتشابهات في قوله تعالى { مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ } [آل عمران:7]. أي: لا تحتمل آيات تلك السورة المتعلّقة بالقتال إلّا وجوب القتال وعدم الهوادة فيه، مثل قوله { فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ} [4]، فلا جرم أنّ هذه السورة هي التي نزلت إجابة عن تمنّي الذين آمنوا.

{ **وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ** } لأنّ السورة ليست كلّها متمحّضة لذكر القتال فإنّ سور القرآن ذوات أغراض شتّى.

{ **رَأَيْتَ** } الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّه لاحق لقوله تعالى { وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ } [16].

{ **الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ** } هم المبطنون للكفر، فجُعل الكفر الخفيّ كالمرض الذي مقرّه القلب لا يبدو منه شيء على ظاهر الجسد. وقد غلب إطلاق هذه الصلة على المنافقين، وأنّ النفاق مرض نفساني معضل لأنّه تتفرع منه فروع بيّنّاها في قوله تعالى { فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ } [البقرة:10].

{ **نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ** } انتصب على المفعولية المطلقة لبيان صفة النظر في {**يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ**}، فهو على معنى التشبيه البليغ. ووجه الشبه ثبات الحدقة وعدم التحريك. وكانوا يتظاهرون بالإقبال على تلقّي ما ينطق به من الوحي فلمّا سمعوا ذكر القتال بهتوا. فالمقصود المشابهة في هذه الصورة.

وفي معنى هذه الآية قوله تعالى { فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ } [الأحزاب:19].

{ **مِنَ الْمَوْتِ** } و{ مِنَ } هنا تعليلية، أي: المغشي عليه لأجل حضور الموت.

{ **فَأَوْلَى لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ** } تفريع، وهو اعتراض بين جملة { يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ } وبين جملة { فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ }. وهو يرتبط بقوله بعده { فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ }.

{ **فَأَوْلَى لَهُمْ** } يجوز أن يكون مستعملا في ظاهره استعمال التفضيل على شيء غير مذكور يدل عليه ما قبله، أي: أولى لهم من ذلك الخوف الذي دل عليه نظرهم، أن يطيعوا أمر الله ويقولوا قولا معروفا، وهو قول { سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا } [البقرة:285]، فذلك القول المعروف بين المؤمنين إذا دُعوا أو أُمِروا. قال تعالى { إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا } [النور:51].

وعلى هذا الوجه فتعدية { فَأَوْلَى } بـ (اللام) دون (الباء) للدلالة على أنّ ذلك أولى وأنفع. فكان اجتلاب (اللام) للدلالة على معنى النفع. فهو مثل قوله تعالى { هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ } [هود:78].

ويجوز أن يكون { فَأَوْلَى لَهُمْ } مستعملا في التهديد والوعيد، كما في قوله تعالى { أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى } [القيامة:35/34]. ومعناه: أنّ الله أخبر عن توعّده إيّاهم. واللام على هذا الوجه إمّا مزيدة، أي: أولاهم الله ما يكرهون، وإمّا متعلقة بـ (أولى) على أنّه فعل ماضي.

{ **طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ** } على الاستعمال الثاني، كلام مستأنف وهو مبتدأ خبره محذوف، أي: طاعة وقول معروف خير لهم، أو خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: الأمر طاعة وقول معروف، أي: أمر الله أن يطيعوا.

{ **فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ** } تفريع على وصف حال المنافقين من الهلع عند سماع ذكر القتال. أي: حين يُندب المسلمون إلى القتال سيضطرب أمر المنافقين ويتسلّلون لواذا، وأنّ الأولى لهم حينئذ أن يخلصوا الإيمان ويجاهدوا كما يجاهد المسلمون الخلَّص وإلّا فإنّهم لا محيص لهم من أحد أمرين: إمّا حضور القتال بدون نيّة فتكون عليهم الهزيمة ويخسروا أنفسهم باطلا، وإمّا أن ينخذلوا عن القتال كما فعل ابن سلول وأتباعه يوم أحد.

{ **إِذَا** } ظرف للزمان المستقبل، وهو الغالب، فيكون ما بعدها مقدَّرا وجوده، أي: فإذا جدّ أمر القتال وحدث. ويكون قوله تعالى { فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ } دليل جواب { إذا } لأنّها ضُمِّنت هنا معنى الشرط، و(الفاء) في جملة الجواب للدلالة على ذلك التضمين. أي: كذبوا الله وأخلفوا، فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم.

العزم: القطع وتحقّق الأمر، أي: كونه لا محيص منه. واستعير العزم للتّعيين واللزوم. ونظيره قوله { إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } [لقمان:17].

{ **الْأَمْرُ** } تعريف العهد، أو (اللام) نيابة عن المضاف إليه، أي: أمر القتال المتقدّم ذكره آنفا { وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ }.

{ **فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ** } أي: لو صدقوا في قولهم: نحن مؤمنون. وهم إنّما كذبوا رسول الله

صلى الله عليه وسلم إذ أظهروا له خلاف ما في نفوسهم، فجُعل الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم كذبا على الله تفظيعا له وتهويلا لمغبّته، أي: لو أخلصوا الإيمان وقاتلوا بنيّة الجهاد لكان خيرا لهم في الدارين.

فهذه الآية إنباء ممّا سيكون منهم حين يجيء أوان القتال، وهي من معجزات القرآن في الإخبار بالغيب، فقد عزم أمر القتال **يوم أُحد** وخرج المنافقون مع جيش المسلمين فلمّا بلغ الجيش إلى الشوط بين المدينة وأُحد قال عبد الله بن أُبي بن سلول رأس المنافقين: ما ندري علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس؟ ورجع هو وأتباعه، وكانوا ثلث الجيش، وذلك سنة ثلاث من الهجرة، أي: بعد نزول هذه الآية بنحو ثلاث سنين.

{ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ } [22].

مقتضى تناسق النظم أنّ هذا مفرّع على قوله تعالى { فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ } [21]، لأنُّه يفهم منه أنّه إذا عزم الأمر تولّوا عن القتال وانكشف نفاقهم، فتكون إتماما لما في الآية السابقة من الإنباء بما سيكون من المنافقين يوم أحد. والخطاب موجّه إلى الذين في قلوبهم مرض على الالتفات.

{ **فَهَلْ عَسَيْتُمْ** } الاستفهام مستعمل في التكذيب لما سيعتذرون به لانخذالهم، ولذلك جيء فيه بـ (هل) الدالة على التحقيق، لأنّها في الاستفهام بمنزلة (قد) في الخبر.

<u>المعنى</u>: أنّكم تقعون فيما زعمتم التفادي منه وذلك بتأييد الكفر وإحداث العداوة بينكم وبين قومكم من الأنصار وهذا توبيخ كقوله تعالى { ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ } [البقرة:85].

{ **تَوَلَّيْتُمْ** } التولّي هنا هو الرجوع عن الوجهة التي خرجوا لها، كما في قوله تعالى { فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ } [البقرة:246]، وقوله تعالى { أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى } [النجم:33].

{ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ } [23].

الإشارة إلى الذين في قلوبهم مرض على أسلوب قوله آنفا { أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ } [16]، ولا يصح أن تكون الإشارة إلى ما يؤخذ من قوله { إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ } [22]، لأنّ ذلك لا يستوجب اللعنة ولا أنّ مرتكبيه بمنزلة الصمّ، كما أنّ في صيغة الماضي في أفعال (لعنهم، وأصمَّهم، وأعمى) ما لا يلاقي قوله { فَهَلْ عَسَيْتُمْ } [22]، ولا ما في حرف (إنْ) من زمان الاستقبال.

{ **فَأَصَمَّهُمْ** } استعير الصمم لعدم الانتفاع بالمسموعات من آيات القرآن ومواعظ النبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ **وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ** } استعير العمى هنا لعدم الفهم على طريقة التمثيل، لأنّ حال الأعمى أن يكون مضطربا فيما يحيط به لا يدري نافعه من ضاره إلّا بمعونة من يرشده، وكثر أن يقال: أعمى الله بصره، مرادا به أنّه لم يهده، وهذه هي النكتة في مجيء تركيب { وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ } مخالفا لتركيب {فَأَصَمَّهُمْ}. وفي الآية إشعار بأنّ الفساد في الأرض وقطيعة الأرحام من شعار أهل الكفر، فهما جرمان كبيران يجب على المؤمنين اجتنابهما.

{ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا } [24].

تفريع على قوله تعالى { فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ } [23]، أي: هلّا تدبّروا القرآن عوض شغل بالهم في مجلسك بتتبّع أحوال المؤمنين. والاستفهام تعجيب من سوء علمهم بالقرآن ومن إعراضهم عن سماعه.

{ **أَمْ** } للإضراب الانتقالي. والمعنى: بل على قلوبهم أقفال.

التدبّر: التفهّم في دُبر الأمر، أي: ما يخفى منه، وهو مشتق من دُبر الشيء، أي: خلفه.

{ **قُلُوبٍ** } التنكير للتنويع أو التبعيض، أي: على نوع من القلوب أقفال.

الأقفال: جمع قُفل، وهو استعارة مكنية إذ شُبّهت القلوب، أي: العقول، في عدم إدراكها المعاني بالأبواب أو الصناديق المغلقة.

{ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ } [25].

لم يزل الكلام على المنافقين، فالذين ارتدوا على أدبارهم منافقون.

فيجوز أن يكون مرادا به قوم من أهل النفاق كانوا قد آمنوا حقّا ثم رجعوا إلى الكفر لأنّهم كانوا ضعفاء الإيمان قليلي الاطمئنان، وهم الذين مثّلهم الله بقوله { مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ } [البقرة:17]. والإتيان بالموصول والصلة، على هذا الوجه، ليس إظهارا في مقام الإضمار لأنّ أصحاب هذه الصلة بعض الذين كان الحديث عنهم فيما تقدّم.

الارتداد على الأدبار: على هذا الوجه، تمثيل للراجع إلى الكفر بعد الإيمان بحال من سار ليصل إلى مكان ثمّ ارتد في طريقه. أي: إلى جهة الأدبار.

الهدى: الإيمان.

تبين الهدى لهم: على هذا الوجه، حقيقي لأنّهم ما آمنوا إلّا بعد أن تبيّن لهم هدى الإيمان.

ويجوز أن يكون مرادا به جميع المنافقين، عُبّر عن تصميمهم على الكفر بعد مشاركتهم المسلمين في أحوالهم في مجلس النبيّ صلى الله عليه وسلم والصلاة معه وسماع القرآن والمواعظ بالارتداد لأنّه

مفارقة لتلك الأحوال الطيّبة، أي: رجعوا إلى أقوال الكفر وأعماله، وذلك إذا خلوا إلى شياطينهم.

وتبين الهدى: على هذا الوجه، كونه بيّنا في نفسه، وهو بيّن لهم لوضوح أدلته ولا غبار عليه، فهذا التبين من قبيل قوله تعالى { ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ } [البقرة:2]، أي: ليس معه ما يوجب ريب المرتابين.

والأظهر عندي والأليق بقوله بعد { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ - إلى قوله – وَأَدْبَارَهُمْ } [27/26]. أن يكون المراد به قوما من المنافقين لم يقاتلوا مع المسلمين بعد أن علموا أنّ القتال حقّ. وهذا قول ابن عباس والضحاك والسدي. وعليه فلعلّ المراد: الجماعة الذين انخذلوا يوم أحد مع عبد الله بن أبي بن سلول.

الارتداد على الأدبار على هذا الوجه، حقيقة لأنّهم رجعوا عن موقع القتال بعد أن نزلوا به فرجعوا إلى المدينة وكانت المدينة خلفهم.

الْهُدَى: على هذا الوجه هو الحقّ، أي: من بعد ما علموا أنّ الحقّ في قتال المشركين.

التسويل: تسهيل الأمر الذي يُستشعر منه صعوبة أو ضرّ، وتزيين ما ليس بحسن.

الإملاء: المدّ والتمديد في الزمان، ويطلق على الإبقاء على الشيء كثيرا، أي: أراهم الارتداد حسنا، كما حُكي عنه في قوله تعالى { قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى } [طه:120].

أي: أنّ ارتدادهم من عمل الشيطان.

{ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ } [26].

استئناف بياني، إذ التقدير أن يسأل سائل عن مظهر تسويل الشيطان لهم الارتداد بعد أن تبيّن لهم الهدى. فأجيب بأنّ الشيطان استدرجهم إلى الضلال عندما تبين لهم الهدى، فسوّل لهم أن يوافقوا أهل الشرك والكفر في بعض الأمور مسوّلا أنّ تلك الموافقة في بعض الأمر لا تنقض اهتداءهم فلمّا وافقوهم وأقاموا على ذلك وألفوه ارتدّوا على أدبارهم.

{ **قَالُوا** } قولا عن اعتقاد ورأي.

{ **لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ** } هم الذين كرهوا القرآن وكفروا، وهم: إمّا المشركون من أهل مكة، قال تعالى فيهم { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ } [9]، وقد كانت لهم صلة بأهل يثرب، فلمّا هاجر النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى المدينة اشتدّ تعهّد أهل مكة لأصحابهم من أهل يثرب ليتطلّعوا أحوال المسلمين، ولعلّهم بعد يوم بدر كانوا يكيدون للمسلمين ويتأهّبون للثأر منهم، وهو الذي أنجزوه يوم أحد.

وإمّا اليهود من قريظة والنضير، فقد حكى الله عنهم في قوله تعالى { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ

لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ } [الحشر:11].

{ **بَعْضِ الْأَمْرِ** } على الوجه الأول في محمل قوله { إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ } [25]، إفشاء بعض أحوال المسلمين إليهم وإشعارهم بوفرة عدد المنافقين، وإن كانوا لا يقاتلون لكراهتهم القتال.

وعلى الوجه الثاني بعض أمر القتال، يعنون تلك المكيدة التي دبّروها للانخذال عن جيش المسلمين.

أي: نطيعكم في بعض الكفر ولا نطيعكم في جميع الشؤون، لأنّ ذلك يفضح نفاقهم، أو المراد: في بعض ما تأمروننا به.

{ **وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ** } إشارة إلى أنّ الله أطلع نبيّه صلى الله عليه وسلم على ما كان بينهم من تآمر.

وقرأ الجمهور { أَسْرَارَهُمْ } بفتح الهمزة جمع سِر. وقرأه حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف بكسر الهمزة { إِسْرَارَهُمْ } مصدر أَسَرَّ.

{ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ } [27].

يجوز أن تكون (الفاء) للتفريع على جملة { إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ } [25] وما بينهما متصل بقوله تعالى { الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ } [25] بناء على المحمل الأوّل للارتداد (تمثيل للراجع إلى الكفر بعد الإيمان)، فيكون التفريع لبيان ما سيلحقهم من العذاب عند الموت، وهو استهلال لما يتواصل من عذابهم من مبدأ الموت إلى استقرارهم في العذاب الخالد.

ويجوز أن تكون الفاء فصيحة، على المحمل الثاني، وهو أنّ المراد: الارتداد عن القتال، فيفيد: إذا كانوا فرّوا من القتال هلعا وخوفا فكيف إذا توفتهم الملائكة، أي: كيف هلعهم ووجلهم يومئذ.

وهذا يقتضي شيئين:

أوّلهما: أنّهم ميّتون لا محالة، وهو مأخوذ بدلالة الالتزام، وهو في معنى قوله تعالى { الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [آل عمران:168]، وقوله تعالى { وَقَالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ } [التوبة:81].

ثانيهما: أن موتتهم يصحبها تعذيب. وهو صريح الكلام، وهو وعيد لتعذيب في الدنيا عند الموت.

والمقصود: وعيدهم بأنّهم سيُعجّل لهم العذاب من أوّل منازل الآخرة، وهو حالة الموت.

{ **فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ** } ولمّا جُعل هذا العذاب محقّقًا وقوعه رُتِّب عليه الاستفهام عن حالهم استفهاما مستعملا في معنى تعجيب المخاطب من حالهم عند الوفاة، وهذا التعجيب مؤذن بأنّها حالة فظيعة غير معتادة إذ لا يُتعجّب إلّا من أمر غير معهود، والسياق يدلّ على الفظاعة.

{ **إِذَا** } متعلّق بمحذوف دلّ عليه اسم الاستفهام، تقديره: كيف حالهم أو عملهم حين تتوفّاهم الملائكة؟

{ **يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ** } حال من { المَلَائِكَةُ }. والمقصود من هذه الحال: وعيدهم بهذه الميتة

الفظيعة التي قدَّرها الله لهم. أي: يضربون وجوههم التي وَقَوْها من ضرب السيف حين فرَّوا من الجهاد، ويضربون أدبارهم التي كانت محلَّ الضرب لو قاتلوا، وهذا تعريض بأنّهم لو قاتلوا لفرُّوا فلا يقع الضرب إلّا في أدبارهم.

{ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ } [28].

الإشارة بـ { ذَلِكَ } إلى الموت الفظيع الذي دلّ عليه قوله تعالى { فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ } [27].

{ **اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ** } هو اتباعهم الشرك. و**السخط** مستعار لعدم الرضى بالفعل.

كراهتهم رضوان الله: كراهتهم أسباب رضوانه، وهو الإسلام.

وفي الآية مُحسِّن الطباق مرتين للمضادة بين (السخط / الرضوان)، و(الاتباع / الكراهية).

{ **فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ** } تفريع على اتّباعهم ما أسخط الله وكراهتهم رضوانه.

الإحباط: إبطال العمل، أي: أبطل انتفاعهم بأعمالهم التي عملوها مع المؤمنين من قول كلمة التوحيد ومن الصلاة والزكاة وغير ذلك. وتقدّم ما هو بمعناه في أوّل السورة [9].

{ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ } [29].

انتقال من التهديد والوعيد إلى الإنذار بأنّ الله مُطْلِع رسوله صلى الله عليه وسلم على ما يضمره المنافقون من الكفر والمكر والكيد ليعلموا أنّ أسرارهم غير خافية، فيوقنوا أنّهم يكدُّون عقولهم في ترتيب المكائد بلا طائل، وذلك خيبة لآمالهم.

{ **أَمْ** } منقطعة في معنى (بل) للإضراب الانتقالي، والاستفهام المقدَّر بعدها للإنكار.

{ **فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ** } استعير المرض إلى الكفر بجامع الإضرار بصاحبه، ولكون الكفر مقرّه العقل، المعبَّر عنه بالقلب، كان ذكر القلوب مع المرض ترشيحا للاستعارة، لأنّ القلب مما يناسب المرض الخفي.

{ **لَنْ** } لتأييد النفي، أي: لا يحسبون انتفاء إظهار أضغانهم في المستقبل، كما انتفى ذلك فيما مضى، فلعلّ الله أن يفضح نفاقهم.

الإخراج: أطلق على الإظهار والإبراز على وجه الاستعارة، لأنّ الإخراج استلال شيء من مكمنه.

الأضغان: جمع ضِغْن (بكسر الضاد المعجمة وسكون الغين المعجمة) وهو الحقد والعداوة.

المعنى: أنّه يخرجها من قلوبهم، وكان العرب يجعلون القلوب مقرّ الأضغان.

{ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ } [30].

{ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ } كان مرض قلوبهم خفيًّا لأنّهم يبالغون في كتمانه وتمويهه بالتظاهر بالإيمان، فذكر الله لنبيه صلى الله عليه وسلم أنّه لو شاء لأطلعه عليهم واحدا واحدا.

السِّيمَى (بالقصر): العلامة الملازمة، أصله: **وِسْمَى** بوزن فِعْلى، من **الوَسْم** وهو جعل سِمة للشيء.

وتقدّم عند قوله تعالى { تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ } [البقرة:273].

المعنى: لأريناك أشخاصهم فعرفتهم، أو لذكرنا لك أوصافهم فعرفتهم بها.

ثمّ يحتمل أنّ الله شاء ذلك وأراهم للرسول صلى الله عليه وسلم. فعن أنس: " ما خفي على النبيّ بعد هذه الآية شيء من المنافقين، كان يعرفهم بسيماهم ". [ذكره البغوي والثعلبي بدون سند].

وممّا يُروى عن حذيفة ما يقتضي أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم عرّفه بالمنافقين أو ببعضهم.

ولكن إذا صح هذا فإنّ الله لم يأمر بإجرائهم على غير حالة الإسلام.

ويحتمل أنّ الله قال هذا إكراما لرسوله صلى الله عليه وسلم ولم يطلعه عليهم.

{ فَلَعَرَفْتَهُمْ } اللام تأكيد للام { لَأَرَيْنَاكَهُمْ } لزيادة تحقيق تفرّع المعرفة على الإراءة.

{ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ } هذا في معنى الاحتراس مما يقتضيه مفهوم { لَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ } من عدم وقوع المشيئة لإراءته إيّاهم بنعوتهم. والمعنى: ترك الله تعريفه إياهم بسيماهم ووكّله إلى معرفتهم بلحن قولهم إبقاء على سنة الله تعالى في نظام الخلق بقدر الإمكان لأنّها سنة ناشئة عن الحكمة.

{ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ } الـ (لام) هنا لام القسم المحذوف.

لحن القول: الكلام المحال به إلى غير ظاهره ليفطن له من يُراد أن يفهمه دون أن يفهمه غيره، بأن يكون في الكلام تعريض أو تورية أو ألفاظ مصطلح عليها بين شخصين أو فرقة، كالألفاظ العلمية.

كان المنافقون يخاطبون النبيّ صلى الله عليه وسلم بكلام تواضعوه فيما بينهم، وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يأخذهم بظاهر كلامهم فنبّهه الله إليه، فكان بعد هذا يعرف المنافقين إذا سمع كلامهم.

{ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ } تذييل، فهو لعمومه خطاب لجميع الأمّة المقصود منه التعليم، وهو مع ذلك كناية عن لازمه وهو الوعيد لأهل الأعمال السيّئة على أعمالهم، والوعد لأهل الأعمال الصالحة على أعمالهم، وتنبيه لأهل النفاق بأنّ الله يوشك أن يفضح نفاقهم كما قال آنفا { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ } [29].

{ يَعْلَمُ } اجتلاب المضارع للدلالة على أنّ علمه تعالى بذلك مستمر.

{ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ } [31].

عطف على قوله تعالى { وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ } [30]. ومعناه معنى الاحتراس ممّا قد يتوهّم السامعون من

الاستغناء عن التكليف. ووجه هذا الاحتراس أنّ علم الله يتعلّق بأعمال الناس بعد أن تقع ويتعلّق بها قبل وقوعها، بأنّها ستقع، ويتعلّق بعزم الناس على الاستجابة لدعوة التكاليف قوّة وضعفا، ومن عدم الاستجابة كفرا وعنادا. فبيَّن بهذه الآية أنّ من حكمة التكاليف أن يظهر أثر علم الله بأحوال الناس وتقدّم الحجّة عليهم.

ولمّا قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" إنّ الله كتب لكل عبد مقعده من الجنّة أو من النّار "**. فقالوا: أفلا نتكل على ما كتب لنا؟ قال: **" اعملوا فكلّ مُيسَّر لما خلق له "**، وقرأ { فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى } [الليل:5-10].

البلو: الاختبار وتعرّف حال الشيء.

{ **وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ** } مجاز مرسل واستعارة. فالمراد بالابتلاء هنا الأمر والنهي في التكليف، فإنّه يظهر به المطيع والعاصي والكافر، وسُمِّي ذلك ابتلاء على وجه المجاز المرسل لأنّه يلزمه الابتلاء وإن كان المقصود منه إقامة مصالح الناس ودفع الفساد عنهم لتنظيم أحوال حياتهم ثم ليترتّب عليه مئال الحياة الأبدية في الآخرة. ولكن لمّا كان التكليف مُبيّنا لأحوال نفوس الناس في الامتثال، وممحِّصًا لدعاويهم وكاشفًا عن دخائلهم كان مشتملا على ما يشبه الابتلاء، وإلّا فإنّ الله تعالى يعلم تفاصيل أحوالهم، ولكنّها لا تظهر للعيان للناس إلّا عند تلقّي التكاليف فأشبهت الاختبار. فإطلاق اسم الابتلاء على التكليف مجاز مرسل وتسمية ما يلزم التكليف من إظهار أحوال النفوس ابتلاء استعارة.

{ **حَتَّى** } حرف انتهاء، فما بعدها غاية للفعل الذي قبلها، وهي هنا مستعملة في معنى (لام التعليل) تشبيها لعلّة الفعل بغايته، فإنّ غاية الفعل باعث لفاعل الفعل في الغالب، كقوله تعالى { هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا } [المنافقون:7].

فالمعنى: ولنبلونكم لنعلم المجاهدين منكم والصابرين، وليس المراد انتهاء البلوى عند ظهور المجاهدين منهم والصابرين.

وعلة الفعل لا يلزم انعكاسها، أي: لا يلزم أن لا يكون للفعل علة غيرها فللتكليف علل وأغراض عديدة منها أن تظهر حال الناس في قبول التكليف ظهورا في الدنيا تترتب عليه معاملات دنيوية.

وعلمُ الله الذي جُعل علّة للبلو هو العلم بالأشياء بعد وقوعها المُسمَّى علم الشهادة، لأنّ الله يعلم من سيجاهد ومن يصبر من قبل أن يبلوهم ولكن ذلك علم غيب، لأنّه قبل حصول المعلوم في عالم الشهادة.

والأحسن أن يكون { حَتَّى نَعْلَمَ } مستعملا في معنى حتّى نُظهر للناس الدعاوي الحق من الباطلة، فالعلم كناية عن إظهار الشيء المعلوم بقطع النظر عن كون إظهاره للغير، كما هنا، أو للمتكلّم.

فالله شرع الجهاد لنصر الدين ومن شرعه يتبيَّن من يجاهد ومن يقعد، ويتبيَّن من يصبر على لأواء الحرب ومن ينخذل ويفر.

{ **وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ** } ظهور الأحدوثة من حسن السمعة وضدّه. وهو كناية أيضا عن أحوال أعمالهم من خير وشرّ، لأنّ الأخبار إنّما هي أخبار عنها، وهذه علّة ثانية عطفت على قوله { حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ }.

وإنّما أعيد عطف فعل { نَبْلُوَ } على فعل { نَعْلَمَ } وكان مقتضى الظاهر أن يُعطف { أخباركم } بـ (الواو) على ضمير المخاطبين في { وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ } ولا يعاد { نَبْلُوَ }، فالعدول عن مقتضى ظاهر النظم إلى هذا التركيب للمبالغة في بلو الأخبار لأنّه كناية عن بلو أعمالهم، وهي المقصود من بلو ذواتهم، فذكره كذكر العام بعد الخاص، إذ تعلّق البلو الأول بالجهاد والصبر، وتعلّق البلو الثاني بالأعمال كلّها، وحصل مع ذلك تأكيد البلو تأكيدا لفظيا.

{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ } [32].

الظاهر أن المعني بـ { الَّذِينَ كَفَرُوا } هنا الذين كفروا المذكورون في أوّل هذه السورة وفيما بعد من الآيات التي جرى فيها ذكر الكافرين، أي: الكفّار الصرحاء، عاد الكلام إليهم بعد الفراغ من ذكر المنافقين الذين يُخفون الكفر، عودا على بدء لتهوين حالهم في نفوس المسلمين.

فبعد أن أخبر الله أنّه أضلّ أعمالهم، وأنّهم اتّبعوا الباطل، وأمر بضرب رقابهم، وأنّ التعس لهم، وحقَّرهم بأنّهم يتمتّعون ويأكلون كما تأكل الأنعام، وأنّ الله أهلك قرى هي أشدّ منهم قوّة، ثم جرى ذكر المنافقين بعد ذلك، ثُني عنان الكلام إلى الذين كفروا أيضا **ليُعرّف** الله المسلمين بأنّهم في هذه المآزق التي بينهم وبين المشركين لا يلحقهم منهم أدنى ضرّ، **وليزيد** وصف الذين كفروا بأنّهم شاقوا الرسول صلى الله عليه وسلم. فالجملة استئناف ابتدائي وهي توطئة لقوله تعالى { فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ } [35].

{ **وَشَاقُّوا الرَّسُولَ** } مشتق من كلمة **شِقٌّ** (بكسر الشين) وهو الجانب، والمشاقّة المخالفة، كُنّي بالمشاقة عن المخالفة لأنّ المستقرّ بشقّ مخالف للمستقرّ بشقّ آخر، فكلاهما مخالف، فلذلك صيغت منه صيغة المفاعلة.

{ **مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى** } ظهور ما في دعوة الإسلام من الحق الذي تدركه العقول إذا نُبّهت إليه، وظهور أنّ أمر الإسلام في ازدياد ونماء، وأنّ أمور الآخرين في إدبار، فلم يردعهم ذلك عن محاولة الإضرار بالرسول صلى الله عليه وسلم وبالمسلمين.

{ **شَيْئًا** } انتصب على المفعول المطلق لـ { يَضُرُّوا } والتنوين للتقليل، أي: لا يضرّون الله أقل ضرّ.

وإضرار الله أريد به إضرار دينه، لقصد التنويه والتشريف لهذا الدين، والإحالة أن ينالوا منه شيئا.

الإحباط: الإبطال كما تقدّم آنفا. ومعنى إبطال أعمالهم بالنسبة لأعمالهم في معاملة المسلمين، أنّ الله يلطف برسوله صلى الله عليه وسلم والمسلمين بتيسير أسباب نصرهم وانتشار دينه، فلا يحصل الذين

كفروا من أعمالهم للصدّ والمشاقة على طائل. وهذا كما تقدّم في تفسير قوله { أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ } [1].

{ **وَسَيُحْبِطُ** } حرف الاستقبال هنا لتحقيق حصول الإحباط في المستقبل، وهو يدلّ على أنّ الله محبط أعمالهم من الآن، إذ لا يعجزه ذلك حتّى يترصّد به المستقبل.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ } [33].

اعتراض بين جملة { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ } [32] وبين جملة { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ } [34] وُجِّه به الخطاب إلى المؤمنين بالأمر بطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وتجنّب ما يبطل الأعمال الصالحة اعتبارا بما حُكي من حال المشركين في الصدّ عن سبيل الله ومشاقّة الرسول صلى الله عليه وسلم.

وصف الإيمان في قوله { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } مقابل وصف الكفر في قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا } [32].

وطاعة الله مقابل الصدّ عن سبيل الله.

وطاعة الرسول ضدّ مشاقّة الرسول صلى الله عليه وسلم.

والنهي عن إبطال الأعمال ضدّ بطلان أعمال الذين كفروا.

{ **وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ** } امتثال ما أمر به ونهى عنه من أحكام الدين. وأمّا ما ليس داخلا تحت التشريع فطاعة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم فيه طاعة انتصاح وأدب، ألّا ترى أنّ (بريرة) لم تطع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مراجعة زوجها (مغيث) لمَّا علمت أنّ أمره إيّاها ليس بعزم.

الإبطال: جعل الشيء باطلا، أي: لا فائدة منه.

{ **وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ** } النهي عن أسباب إبطالها. وتسمح محامله بأن يشمل النهي والتحذير عن كلّ ما بيَّن الدين أنّه مبطل للعمل كُلًّا أو بعضًا؛ مثل الردّة، ومثل الرياء في العمل الصالح فإنّه يبطل ثوابه.

وكان بعض السلف يخشى أن يكون ارتكاب الفواحش مبطلا لثواب الأعمال الصالحة ويحمل هذه الآية على ذلك. وعن الحسن البصري والزهري: " لا تبطلوا أعمالكم بالمعاصي الكبائر ".

وأحسن أقوال السلف في ذلك ما روي عن ابن عمر قال: " كنَّا نرى أنّه ليس شيء من حسناتنا إلّا مقبولا حتّى نزل { وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ }. فقلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟ فقلنا: الكبائر الموجبات والفواحش، حتّى نزل { إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ } [النساء: 48] فكففنا عن القول في ذلك، وكنَّا نخاف على من أصاب الكبائر ونرجو لمن لم يصبها ".

والذي جاء به القرآن وبيَّنته السنة الصحيحة أنّ الحسنات يذهبن السيئات ولم يجيء أن السيئات يذهبن الحسنات، قال تعالى { إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً } [النساء:40].

وحمل بعض علمائنا قوله تعالى { وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ } على معنى النهي عن قطع العمل المتقرّب به إلى الله تعالى. وإطلاق الإبطال على القطع وعدم الإتمام يشبه أنّه مجاز، أي: لا تتركوا العمل الصالح بعد الشروع فيه، فأخذوا منه أنّ النفل يجب بالشروع لأنّه من الأعمال، وهو قول أبي حنيفة في النوافل مطلقا. ونسب ابن العربي في الأحكام مثله إلى مالك. ولم ير الشافعي وجوبا بالشروع في شيء من النوافل **وهو الظاهر**.

{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ } [34].

هذه الآية تكملة لآية { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ } [32]، لأنّ تلك مسوقة لعدم الاكتراث بمشاقهم ولبيان أنّ الله مبطل صنائعهم، وهذه مسوقة لبيان عدم انتفاعهم بمغفرة الله إذ ماتوا على ما هم عليه من الكفر، فهي مستأنفة استئنافا ابتدائيا.

{ **فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ** } اقتران خبر الموصول بـ (الفاء) إيماء إلى أنّه في معنى الشرط، فلا يراد به ذو صلة معيّن بل المراد كلّ من تحقّقت فيه ماهية الصلة، وهي الكفر والموت على الكفر.

{ فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ } [35].

الفاء للتفريع على ما تقرَّر في نفوس المؤمنين من خذل الله تعالى المشركين، بما أخبر به من أنّه أضلّ أعمالهم وقدَّر لهم التعس، وبما ضرب لهم من مصائر أمثالهم من الذين من قبلهم، دمَّرهم الله وأهلكم ولم يجدوا ناصرا، وما وعد به المؤمنين من النصر عليهم، وما أمرهم به من قتالهم، وبتكفّله للمؤمنين بالولاية، وما وعدهم من الجزاء في دار الخلد، وبما أتبع ذلك من وصف كيد فريق المنافقين للمؤمنين وتعهّدهم بإعانة المشركين، وذلك ممّا يوجس منه المؤمنون خيفة إذ يعلمون أنّ أعداءً لهم منبثُّون بين ظهرانيهم.

فعلى ذلك كلّه فُرّع نهيهم عن الوهن وعن الميل الى الدعة، ووعدهم بأنّهم المنتصرون وأنّ الله مؤيّدهم.

ويجوز أن يُجعل التفريع على أقرب الأخبار المتقدمة وهو قوله تعالى { وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ } [31].

{ **فَلا تَهِنُوا** } تحذير للإقدام على الحرب عند الأمر بها، وليس نهيا عن وهن حصل لهم ولا عن دعائهم إلى السَّلم، لأنّ هذه السورة نزلت بعد غزوة بدر وقبل غزوة أحد في مدة لم يكن فيها قتال بين المسلمين والمشركين، ولكن التحذير من أن يستوهنهم المنافقون عند توجّه أمر القتال. إذ كان من المتوقّع أن يكيد للمسلمين أعداؤهم من أهل يثرب فيظاهروا عليهم المشركين، متستّرين بعلة طلب السلم، فحذَّرهم الله من أن يقعوا في هذه الحبالة.

الوَهن: الضعف والعجز، وهو هنا مجاز في طلب الدعة. ومعناه: النهيّ عن إسلام أنفسهم لخواطر الضعف، وأوّلها الدعاء إلى السلم وهو المقصود بالنهي. والنهي عن الوهن يقتضي أنّهم لم يكونوا يومئذ في حال وهن.

{ **وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ** } عطف على { فَلا تَهِنُوا } فهو معمول لحرف النهي، والمعنى: ولا تدعوا إلى السلم، وهو عطف خاص على عام من وجه، لأنّ الدعاء إلى السَّلم مع المقدرة من طلب الدعة لغير مصلحة. وإنّما خُصَّ بالذكر لئلَّا يُظنَّ أنّ فيه مصلحة استبقاء النفوس والعُدّة. فربّما ظنّ المسلمون أنّهم إن تداعوا معهم للسلم أمنوا منهم، وجعلوا ذلك فرصة لينشروا الدعوة، فعرَّفهم الله أنّ ذلك يعود عليهم بالمضرّة لأنّه يحطّ من شوكتهم في نظر المشركين فيحسبونهم طلبوا السلم عن ضعف فيزيدهم ذلك ضراوة عليهم، وتستخفّ بهم قبائل العرب بعد أن أخذوا من قلوبهم مكان الحرمة وتوقّع البأس.

ولهذا المقصد الدقيق جمع بين النهي عن الوهن والدعاء إلى السلم وأتبع بقوله { وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ }.

فتحصل ممّا تقرر أن الدعاء إلى السَّلم المنهي عنه هو طلب المسالمة من العدو في حال قدرة المسلمين وخوف العدو منهم، فهو سلم مقيّد بكون المسلمين داعين له وبكونه عن وهن في حال قوّة.

فهذا لا ينافي السلم المأذون فيه بقوله تعالى { وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا } [الأنفال:61]، فإنّه سلم طلبه العدو، فليست هذه الآية ناسخة لآية الأنفال ولا العكس ولكل حالة خاصة، ومقيّد بكون المسلمين في حالة قوّة ومنعة وعدّة بحيث يدعون إلى السلم رغبة في الدعة. فإذا كان للمسلمين مصلحة في السلم أو كان أخفّ ضرّا عليهم فلهم أن يبتدئوا إذا احتاجوا إليه وأن يجيبوا إليه إذا دعوا إليه.

وقد صالح النبيّ صلى الله عليه وسلم المشركين يوم الحديبية لمصلحة ظهرت فيما بعد، وصالح المسلمون في غزوهم أفريقية أهلها وانكفأوا راجعين إلى مصر. وقال عمر ابن الخطاب في كلام له مع بعض أمراء الجيش: فقد آثرت سلامة المسلمين.

{ **وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ** } عطف على النهي، عطف الخبر على الإنشاء، والخبر مستعمل في الوعد.

الأعلون: مبالغة في العلو. وهو هنا بمعنى الغلبة والنصر، أي: والله جاعلكم غالبين. كقوله تعالى لموسى عليه السلام { إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى } [طه:68].

{ **وَاللَّهُ مَعَكُمْ** } عطف على الوعد. والمعيّة معية الرعاية والكلاءة، أي: والله حافظكم وراعيكم فلا يجعل للكافرين عليكم سبيلا.

{ **وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ** } جملتان اسميّتان للدلالة على ثبات الغلب لهم وثبات عناية الله بهم.

{ **وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ** } وعد بتسديد الأعمال ونجاحها، عكس قوله تعالى { الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ } [1]، فكُنِّي عن توفيق الأعمال ونجاحها بعدم وترها، أي: نقصها، للعلم بأنّه إذا كان لا يُنقصها فبالحري ألّا يُبطلها، كقوله تعالى { وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ } [5/4].

{ **يَتِرَكُمْ** } يقال: وتره يتره وَتْرًا وترة كوعد، إذا نقصه، وفي حديث الموطأ: **" من فاتته صلاة العصر فكأنّما وُتر أهله وماله "**.

ويجوز أيضا أن يراد منه صريحه، أي: ينقصكم ثوابكم على أعمالكم، أي: الجهاد المستفاد من قوله تعالى { فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ }، فيفيد التحريض على الجهاد بالوعد بأجره كاملا.

{ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ [36] إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ [37] }.

{ **إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ** } تعليل لمضمون قوله تعالى { فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ } [35].

اللعب: الفعل الذي يريد به فاعله الهزل دون اجتناء فائدة، كأفعال الصبيان في مرحهم.

اللهو: العمل الذي يُعمل لصرف العقل عن تعب الجدّ في الأمور.

وهذا تحذير من أن يحملهم حبّ لذائذ العيش على الزهادة في مقابلة العدو.

وحبّ الفتى طول الحياة يذلّه ... وإن كان فيه نخوة وعِزَام

{ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ}

الأشبه أنّ هذا عطف على قوله تعالى { فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ } [35]، تذكيرا بأّن امتثال هذا النهي هو التقوى المحمودة، ولأّن الدعاء إلى السلم قد يكون الباعث عليه حبّ إبقاء المال الذي ينفق في الغزو، فذُكِّروا هنا بالإيمان والتقوى ليخلعوا عن أنفسهم الوهن، لأنّهم نهوا عنه وعن الدعاء إلى السَّلم.

على أنّ موقع هذه الجملة تعليل النهي المتقدّم بقوله تعالى { إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ } مشيرا إلى أنّ الحياة الدنيا إذا عمرت بالإيمان والتقوى كانت سببا في الخير الدائم.

الأجور: هنا أجور الآخرة، وهي ثواب الإيمان والتقوى.

{ **وَإِنْ تُؤْمِنُوا** } وقوعها في حيّز الشرط مع كون إيمانهم حاصلا لإرادة الدوام على الإيمان، إذ لا تتقوّم حقيقة التقوى إلّا مع سبق الإيمان.

والمقصود من الجملة: قوله { وَتَتَّقُوا } وأمّا ذكر {وَإِنْ تُؤْمِنُوا } فللاهتمام بأمر الإيمان.

{ **يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ** } إدماج، والمقصود من جواب الشرط هو جملة { وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ }.

{ **وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ** } لمناسبة قوله تعالى { يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ }. أي: أنّ الله يتفضّل عليكم بالخيرات ولا يحتاج إلى أموالكم. فالقول يفيد بعمومه وسياقه معنى لا يسألكم جميع أموالكم، أي: إنّما يسألكم ما لا يُجحف بكم. فالمنفي سؤال إنفاق جميع الأموال، فالكلام من نفي العموم لا من عموم النفي بقرينة السياق.

ويجوز أن يفيد أيضا معنى: أنّه لا يطالبكم بإعطاء مال لذاته، فإنّه غني عنكم، وإنّما يأمركم بإنفاق المال لصالحكم، كما قال تعالى { وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ } [38].

وكانت هذه المناسبات أحسن روابط لنظم المقصود من هذه المواعظ لأنّ البخل بالمال من بواعث الدعاء إلى السلم كما علمت آنفا.

{ **إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ** } تعليل لنفي سؤاله إيّاهم أموالهم، أي: حتّى لا يكون تكليفكم بذلك سببا لإظهار ضغنكم على الذين لا يعطون، فيكثر الارتداد والنفاق، وذلك يخالف مراد الله من تزكية نفوس الداخلين في الإيمان.

وهذا أيضا مراعاة لحال كثير يومئذ بالمدينة، كانوا حديثي عهد بالإسلام وكانوا قد بذلوا من أموالهم للمهاجرين، فيسّر الله عليهم بأن لم يسألهم زيادة على ذلك، وكان بينهم كثير من أهل النفاق يترصّدون الفرص لفتنتهم، قال تعالى { هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا} [المنافقون:7]، وهذا يشير إليه عطف قوله تعالى { وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ }، أي: تحدث فيكم أضغان فيكون سؤاله أموالكم سببا في ظهورها فكأنّه أظهرها. <u>وهذه الآية أصل في سد ذريعة الفساد</u>.

الإحفاء: الإكثار وبلوغ النهاية في الفعل. يقال: أحفاه في المسألة إذا لم يترك شيئا من الإلحاح.

الضغن: العداوة، وتقدم آنفا عند قوله تعالى { أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ } [29].

{ **وَيُخْرِجْ** } الضمير المستتر عائد إلى اسم الجلالة، <u>ويجوز</u> أن يعود الى البخل المأخوذ من قوله تعالى { تَبْخَلُوا }.

{ هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ } [38].

{ **هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ** } نظم الكلام يقتضي: أنّ هذه دعوة للإنفاق في الحال وليس إعلاما لهم بأنّهم سيدعون للإنفاق، فهو طلب حاصل.

فكيف موقعه بعد قوله تعالى {وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ }، فإنّ الدعوة للإنفاق عين سؤال الأموال؟

وكيف يُجمع بين ما هنا وبين قوله آنفا { وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ }؟

<u>يجوز أن يحمل { تُدْعَوْنَ } على الترغيب</u>، فتكون الآية تمهيدا للآيات المقتضية إيجاب الإنفاق في المستقبل مثل آية { وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } [التوبة:41] ونحوها.

<u>ويجوز أن يكون إعلاما بأنّهم سيدعون</u> الى الإنفاق في سبيل الله فيما بعد هذا الوقت، فيكون المضارع مستعملا في زمن الاستقبال، والمضارع يحتمله في أصل وضعه.

{ **فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ** } على الاحتمالين الكلام إمّا مسوق مساق التوبيخ أو مساق التنبيه على الخطإ في الشح ببذل المال في الجهاد.

{ **فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ** } <u>على الاحتمال الأول</u> فإنّما يبخل عن نفسه إذ يتمكّن عدّوه من التسلط عليه فعاد

بخله بالضر عليه، وعلى الاحتمال الثاني فإنّما يبخل عن نفسه بحرمانها من ثواب الإنفاق.

{ **إِنَّمَا** } قصر قلب باعتبار لازم بخله، لأنّ الباخل اعتقد أنّه منع من دعاه إلى الإنفاق ولكن لازم بخله عاد عليه بحرمان نفسه من منافع ذلك الإنفاق، فالقصر مجاز مرسل مركّب.

{ **يَبْخَلُ** } عُدِّي هنا بـ (عن) لما فيه من معنى الإمساك، ويتعدّى بـ (على) لما فيه من معنى التضييق على المبخول عليه.

{ **وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ** } تذييل، فالله الغني المطلق، والغنيّ المطلق لا يسأل الناس مالا في شيء.

{ **وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ** } عطف على قوله تعالى { وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ } [36].

التولّي: الرجوع، واستعير هنا لاستبدال الإيمان بالكفر، ولذلك جُعل جزاؤه استبدال قوم غيرهم، كما استبدلوا دين الله بدين الشرك.

الاستبدال: التبديل، فالسين والتاء للمبالغة، ومفعوله { قَوْمًا }. والمستبدَل به محذوف دلّ على تقديره قوله تعالى { غَيْرَكُمْ }.

والمعنى: يتّخذ قوما غيركم للإيمان والتقوى. وهذا لا يقتضي أنّ الله لا يوجد قوما آخرين إلّا عند ارتداد المخاطبين، بل المراد: أنكم إن ارتددتم عن الدين كان لله قوم من المؤمنين لا يرتدّون، وكان لله قوم يدخلون في الإيمان ولا يرتدّون.

روى الترمذي عن أبي هريرة قال: تلا رسول الله هذه الآية { وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ } قالوا: ومن يُستبدل بنا؟ قال: فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على منكب سلمان الفارسي ثم قال: " **هذا وقومه، هذا وقومه** ". قال الترمذي حديث غريب، وفي إسناده مقال.

وروى الطبراني في الأوسط هذا الحديث على شرط مسلم وزاد فيه: " **والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطا بالثريا لتناوله رجال من فارس** ".

وأقول: هو يدل على أنّ فارس إذا آمنوا لا يرتدّون، وهو من دلائل نبوّة النبيّ صلى الله عليه وسلم، فإنّ العرب ارتدّ منهم بعض القبائل بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وسلم وارتد البربر بعد فتح بلادهم وإيمانهم اثنتي عشرة مرّة، فيما حكاه الشيخ أبو محمد ابن أبي زيد، ولم يرتد أهل فارس بعد إيمانهم.

{ **ثُمَّ** } للترتيب الرتبي لإفادة الاهتمام بصفة الثبات على الإيمان وعلوّها على مجرد الإيمان، أي: ولا يكونوا أمثالكم في التولّي.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفتح

سُمِّيت في كلام الصحابة (**سورة الفتح**). ووقع في صحيح البخاري عن عبد الله بن مغَفَّل قال: قرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكةّ سورة الفتح فرجَّع فيها. ولا يُعرف لها اسم آخر.

وهي مدنية، على المصطلح المشهور في أنّ المدني ما نزل بعد الهجرة ولو كان نزوله في مكان غير المدينة من أرضها أو من غيرها. وهذه السورة نزلت بموضع يقال له (**كُراع الغَمِيم**) موضع بين مكة والمدينة، وهو واد على مرحلتين من مكة وعلى ثلاثة أميال من عُسفان، وهو من أرض مكة.

وقيل نزلت (بضَجْنان) وهو جبل قرب مكة، ونزلت ليلا فهي من القرآن الليلي.

ونزولها سنة ست بعد الهجرة مُنصرَف النبيّ صلى الله عليه وسلم من الحديبية وقبل غزوة خيبر.

وفي الموطإ عن عمر: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسير في بعض أسفاره (أي: مُنصرَفه من الحديبية) ليلا وعمر بن الخطاب يسير معه فسأله عمر بن الخطاب عن شيء فلم يجبه، ثمّ سأله فلم يجبه، ثمّ سأله فلم يجبه، فقال: عمر ثكلت أم عمر نزرتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات كلّ ذلك لا يجيبك. قال عمر: فحرَّكت بعيري وتقدّمت أمام الناس وخشيت أن ينزل فيَّ القرآن فما نشبت أن سمعت صارخا يصرخ بي، فقلت: لقد خشيت أن يكون نزل فيَّ قرآن، فجئت رسول الله فسلمت عليه، فقال: **" لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحبّ إليّ ممّا طلعت عليه الشمس"**، ثم قرأ { إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً }. لما اشتملت عليه من قوله تعالى { لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ } [2].

وهي السورة الثالثة عشرة بعد المائة في ترتيب نزول السور في قول جابر بن زيد. نزلت بعد سورة الصف وقبل سورة التوبة.

وعدّت آيها تسع وعشرون.

أغراض السورة

*/ بشارة المؤمنين بحسن عاقبة صلح الحديبية، وأنّه نصر وفتح فنزلت به السكينة في قلوب المسلمين وأزال حزنهم من صدِّهم عن الاعتمار بالبيت، وكان المسلمون عُدَّةً لا تُغلب من قلّة فرأوا أنّهم عادوا كالخائبين فأعلمهم الله بأن العاقبة لهم، وأنّ دائرة السوء على المشركين والمنافقين.

*/ التنويه بكرامة النبيّ صلى الله عليه وسلم عند ربّه ووعده بنصر متعاقب.

*/ الثناء على المؤمنين الذين عزّروه وبايعوه، وأنّ الله قدم مَثَلهم في التوراة وفي الإنجيل.

*/ ذكر بيعة الحديبية والتنويه بشأن من حضرها.

*/ فضح الذين تخلّفوا عنها من الأعراب ولمزهم بالجبن والطمع وسوء الظن بالله، وبالكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنعهم من المشاركة في غزوة خيبر، وإنبائهم بأنّهم سيدعون إلى جهاد آخر فإن استجابوا غُفر لهم تخلّفهم عن الحديبية.

*/ وعد النبيّ صلى الله عليه وسلم بفتح آخر يعقبه فتح أعظم منه وبفتح مكة.

{ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً [1] لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً [2] وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً [3] }.

{ **إِنَّا فَتَحْنَا** } التأكيد مصروف للسامعين على طريقة التعريض، لما حلّ بالمسلمين من الكآبة بسبب الصلح، وأمّا النبيّ صلى الله عليه وسلم فقد كان واثقا بذلك، وسيأتي تبيين هذا التأكيد قريبا.

الفتح: إزالة غلق الباب أو الخزانة، قال تعالى { لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ } [الأعراف:40]، ويطلق على النصر، وعلى دخول الغازي بلاد عدوّه، ولم يطلق على انتصار كانت نهايته غنيمة وأسر دون اقتحام أرض فيقال: فتح خيبر وفتح مكة ولا يقال: فتح بدر.

ولمراعاة هذا المعنى قال جمع من المفسّرين: المراد بالفتح هنا: **فتح مكّة**، وأنّ محمله على الوعد بالفتح. أي: سنفتح. وإنّما جيء في الأخبار بلفظ الماضي لتحقّقه وتيقّنه. أو بمعنى: قدَّرنا لك الفتح، ويكون هذا الاستعمال من مصطلحات القرآن لأنّه كلام من له التصرّف في الأشياء لا يحجزه عن التصرف فيها مانع. وقد جرى على عادة إخبار الله تعالى، لأنّه لا خلاف في إخباره، وذلك أيضا كناية عن علو شأن المخبر. مثله قوله تعالى { أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ } [النحل:1].

وقيل: المراد بالفتح **صلح الحديبية** تشبيها له بفتح مكّة لأنّه توطئة له، فعن جابر بن عبدالله: " ما كنَّا نعدُّ فتح مكّة إلّا يوم الحديبية "، يريد أنّهم أيقنوا بوقوع فتح مكة بهذا الوعد. وعن البراء بن عازب: " تعدّون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحا، ونحن نعدُّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية ". **والجمهور على ذلك**. وجعلوا إطلاق اسم الفتح عليه مجازا مرسلا باعتبار أنّه آل إلى فتح خيبر وفتح مكة، أو كان سببا فيهما.

فعن الزهري: " لقد كان يوم الحديبية أعظم الفتوح، ذلك أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم جاء إليها في ألف وأربعمائة فلمّا وقع صلح مشى الناس بعضهم في بعض، (أي: تفرقوا في البلاد) فدخل بعضهم أرض بعض من أجل الأمن بينهم، وعلموا وسمعوا عن الله فما أراد أحد الإسلام إلّا تمكّن منه، فما مضت تلك السنتان إلّا والمسلمون قد جاؤوا إلى مكة في عشرة آلاف ". وفي رواية: " فلمّا كانت الهدنة أمن الناس بعضهم بعضا فالتقوا وتفاوضوا الحديث والمناظرة فلم يُكلَّم أحد يعقل بالإسلام إلّا دخل فيه ".

وقيل: هو **فتح خيبر** الواقع عند الرجوع من الحديبية كما في قوله { إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا } [15].

وعلى هذه المحامل فتأكيد الكلام بـ (إن) لمّا في حصول ذلك من تردّد بعض المسلمين أو تساؤلهم.

فعن عمر أنّه لما نزلت { إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً } قال: أو فتح هو يا رسول الله؟ قال: " **نعم والذي نفسي بيده إنه لفتح** ".

وروى البيهقي عن عروة بن الزبير قال: أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية راجعا فقال رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: والله ما هذا بفتح صُددنا عن البيت وصُدَّ هدينا.

فبلغ رسول الله فقال: **" بئس الكلام هذا، بل هو أعظم الفتح لقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ويسألوكم القضية ويرغبون إليكم الأمان وقد كرهوا منكم ما كرهوا ولقد أظفركم الله عليهم وردَّكم سالمين غانمين مأجورين، فهذا أعظم الفتح، أنسيتم يوم أحد إذ تُصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم في أُخراكم، أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنون "**. فقال المسلمون: صدق الله ورسوله وهو أعظم الفتوح والله يا رسول الله ما فكّرنا فيما ذكرت، ولأنت أعلم بالله وبالأمور منّا.

{ **فَتَحْنَا لَكَ** } واللام هنا لام العلّة، أي: فتحنا لأجلك فتحا عظيما. وتقديم المجرور قبل المفعول المطلق خلافا للأصل في ترتيب متعلّقات الفعل، لقصد الاهتمام والاعتناء بهذه العلّة.

{ **لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ** } بدل اشتمال من ضمير { لَكَ }. وجُعلت مغفرة الله للنبيّ صلى الله عليه وسلم علة للفتح لأنّها من جملة ما أراد الله حصوله بسبب الفتح، وليست لام التعليل مقتضية حصر الغرض من الفعل المعلّل في تلك العلة، فإنّ كثيرا من الأشياء تكون لها أسباب كثيرة فيُذكر بعضها ممّا يقتضيه المقام، وإذ قد كان الفتح لكرامة النبيّ صلى الله عليه وسلم على ربّه تعالى كان من علّته أن يغفر الله لنبيّه صلى الله عليه وسلم مغفرة عامة إتماما للكرامة، فهذه مغفرة خاصة بالنبيّ صلى الله عليه وسلم هي غير المغفرة الحاصلة للمجاهدين بسبب الجهاد والفتح.

{ لِيَغْفِرَ لَكَ **اللَّهُ** } أسند الفعل إلى اسم الجلالة العلم وكان مقتضى الظاهر أن يسند إلى الضمير المستتر قصدا <u>للتنويه بهذه المغفرة</u> لأنّ الاسم الظاهر أنفذ في السمع وأجلب للتنبيه، وذلك للاهتمام بالمسند وبمتعلّقه، لأنّ هذا الخبر أنف لم يكن للرسول صلى الله عليه وسلم علم به ولذلك لم يبرز الفاعل في { وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ }، لأنّ إنعام الله عليه معلوم وهدايته معلومة وإنّما أخبر بازديادهما.

<u>فالمعنى</u>: أنّ الله جعل عند حصول هذا الفتح غفران جميع ما قد يؤاخذ الله على مثله رسله حتّى لا يبقى لرسوله صلى الله عليه وسلم ما يقصر به عن بلوغ نهاية الفضل بين المخلوقات. فجعل هذه المغفرة جزاء له على إتمام أعماله التي أرسل لأجلها من التبليغ والجهاد والنصب والرغبة إلى الله.

فلما كان الفتح حاصلا بسعيه وتسبّبه بتيسير الله له ذلك جعل الله جزاءه غفران ذنوبه بعظم أثر ذلك الفتح بإزاحة الشرك وعلوّ كلمة الله تعالى وتكميل النفوس وتزكيتها بالإيمان وصالح الأعمال حتّى ينتشر الخير بانتشار الدين ويصير الصلاح خُلُقا للناس يقتدي فيه بعضهم ببعض، وكلّ هذا إنّما يناسب فتح مكّة.

وهذا هو ما تضمَّنته سورة النصر { إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً} [النصر]. ولهذا المعنى اللطيف الجليل كانت سورة النصر مؤذنة باقتراب أجل النبيّ صلى الله عليه وسلم، فيما فهم عمر بن الخطاب وابن عباس.

{ **مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ** } تعميم المغفرة للذنب كقوله { يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ } [البقرة:255]. فلا يقتضي ذلك أنّه فرط منه ذنب أو أنّه سيقع منه ذنب وإنّما المقصود أنّه تعالى رفع

قدره رفعة عدم المؤاخذة بذنب لو قُدِّر صدوره منه. وقد مضى شيء من بيان معنى الذنب عند قوله تعالى { وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ} [محمد:19].

{ **وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ** } إعطاء ما لم يكن أعطاه إيّاه من أنواع النعمة، مثل إسلام قريش وخلاص بلاد الحجاز كلّها للدخول تحت حكمه، وخضوع من عانده وحاربه، وهذا ينظر إلى قوله تعالى { الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي } [المائدة:3]، فذلك ما وُعد به الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه الآية وحصل بعد سنين.

{ **وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً** } يزيدك هديا لم يُسبق، وذلك بالتوسيع في بيان الشريعة والتعريف بما لم يسبق تعريفه، فالهداية إلى الصراط المستقيم ثابتة للنبيّ صلى الله عليه وسلم من وقت بعثته ولكنها تزداد بزيادة بيان الشريعة، وبسعة بلاد الإسلام وكثرة المسلمين ممّا يدعو إلى سلوك طرائق كثيرة في إرشادهم وسياستهم وحماية أوطانهم ودفع أعدائهم.

الصراط المستقيم: مستعار للدين الحقّ كما تقدّم في سورة الفاتحة.

{ **صِرَاطاً** } التنوين للتعظيم، وانتصب على أنّه مفعول ثان لـ (يهدي)، بتضمين معنى العطاء.

{ **وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً** } هو غير نصر الفتح المذكور لأنّه جُعل علّة الفتح، فهو ما كان من فتح مكة وما عقبه من دخول قبائل العرب في الإسلام بدون قتال. وبعثهم الوفود إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ليتلقّوا أحكام الإسلام ويعلّموا أقوامهم إذا رجعوا إليهم.

{ وَيَنْصُرَكَ **اللَّهُ** } أظهر اسم الجلالة ولم يكتف بالضمير اهتماما بهذا النصر وتشريعا له بإسناده إلى الاسم الظاهر لصراحة الظاهر، والكلام الظاهر أعلق بالذهن، كما تقدم في قوله تعالى { لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ }.

{ **نَصْراً عَزِيزاً** } مجاز عقلي، وإنّما العزيز هو النبيّ صلى الله عليه وسلم المنصور، **أو** أريد بالعزيز المُعِزُّ.

العزّة: المنعة.

{ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً } [4]

{ **هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ** } بدل اشتمال من مضمون جملة { وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً }، وحصل منها الانتقال إلى ذكر حظ المسلمين من هذا الفتح، فإنّ المؤمنين هم جنود الله الذين قد نُصر النبيّ صلى الله عليه وسلم بهم، كما قال تعالى { هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ } [الأنفال:62]، فكان في ذكر عناية الله بإصلاح نفوسهم وإذهاب خواطر الشيطان عنهم وإلهامهم إلى الحقّ في ثبات عزمهم، وقرارة إيمانهم تكوين لأسباب نصر النبيّ صلى الله عليه وسلم والفتح الموعود به، ليندفعوا حين يستنفرهم إلى العدو بقلوب ثابتة.

ألا ترى أنّ المؤمنين تبلبلت نفوسهم من صلح الحديبية إذ انصرفوا عقبه عن دخول مكة بعد أن جاؤوا للعمرة بعدد عديد حسبوه لا يُغلب. وقد تعجّبوا من تسمية ما حلّ بهم يومئذ فتحا، كما تقدّم، فلمّا بيَّن لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ما فيه من الخير اطمأنت نفوسهم بعد الاضطراب ورسخ يقينهم بعد خواطر الشك، فلولا ذلك الاطمئنان والرسوخ لبقوا كاسفي البال، فذلك الاطمئنان هو الذي سماه الله بـ {السَّكِينَةَ}.

{ **أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ** } إيقاعها في العقل والنفس وخلق أسبابها الجوهرية والعارضة، وأُطلق على ذلك الإيقاع فعل الإنزال تشريفا لذلك الوجدان بأنّه كالشيء الذي هو في مكان مرتفع فوق الناس فألقي إلى قلوبهم، وتلك رفعة تخييلية مراد بها شرف ما أثبتت له.

{ **لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ** } لمّا أنزل الله عليهم السكينة اطمأنت نفوسهم، فزال ما خامرها وأيقنوا أنّه وعد الله وأنّه واقع فانقشع عنهم ما يوشك أن يشكّك بعضهم فيلتحق بالمنافقين الظانّين بالله ظنّ السوء.

وجُعل ذلك الازدياد كالعلّة لإنزال السكينة في قلوبهم، لأنّ الله علم أنّ السكينة إذا حصلت في قلوبهم رسخ إيمانهم، فعومل المعلوم حصوله من الفعل معاملة العلّة وأُدخل عليه حرف التعليل وهو (لام كي).

وجُعلت قوة الإيمان بمنزلة إيمان آخر دخل على الإيمان الأسبق.

فكان في ذلك الحادث خير عظيم لهم كما كان فيه خير للنبيّ صلى الله عليه وسلم بأن كان سببا لتشريفه بالمغفرة العامة ولإتمام النعمة عليه ولهدايته صراطا مستقيما ولنصره نصرا عزيزا، فأعظم به حدثا أعقب هذا الخير للرسول صلى الله عليه وسلم ولأصحابه.

{ **وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً** } تذييل للكلام السابق لأنّه أفاد ألّا عجب في أن يفتح الله لك فتحا عظيما وينصرك على أقوام كثيرين أشدّاء نصرا صحبه إنزال السكينة في قلوب المؤمنين بعد أن خامرهم الفشل وانكسار الخواطر، فالله من يملك جميع وسائل النصر وله القوة القاهرة في السماوات والأرض، وما هذا نصر إلّا بعض ممّا لله من القوّة والقهر.

وجملة التذييل معترضة بين جملة { لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ } وبين متعلّقها وهو { لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ } [5]. وفيها إشارة إلى أنّ المؤمنين من جنود الله، وأنّ إنزال السكينة في قلوبهم تشديد لعزائمهم، فتخصيصهم بالذكر قبل هذا العموم وبعده تنويه بشأنهم.

{ **وَلِلَّهِ جُنُودُ** } أطلق على أسباب النصر الجنود تشبيها لأسباب النصر بالجنود التي تقاتل وتنتصر.

وتقديم المسند على المسند إليه لإفادة الحصر، وهو حصر ادعائي، إذ لا اعتداد بما يجمعه الملوك والفاتحون من الجنود لغلبة العدو بالنسبة لما لله من الغلبة لأعدائه والنصر لأوليائه.

فمن جنود السماوات: الملائكة الذين أُنزلوا يوم بدر، والريح التي أُرسلت على العدو يوم الأحزاب، والمطر الذي أُنزل يوم بدر فثبَّت الله به أقدام المسلمين.

ومن جنود الأرض: جيوش المؤمنين، وعديد القبائل الذين جاؤوا مؤمنين مقاتلين مع النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة مثل بني سليم، ووفود القبائل الذين جاؤوا مؤمنين طائعين دون قتال في سنة الوفود.

{ **وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً** } تذييل لما قبله من الفتح والنصر وإنزال السكينة في قلوب المؤمنين.
المعنى: أنّه عليم بأسباب الفتح والنصر، وعليم بما تطمئن به قلوب المؤمنين بعد البلبلة، وأنّه حكيم يضع مقتضيات علمه في مواضعها المناسبة وأوقاتها الملائمة.

{ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً } [5].

اللام للتعليل، متعلّقة بفعل { لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ } [4]، فتكون علّة لإنزال السكينة أيضا.
{ **وَالْمُؤْمِنَاتِ** } ذكر المؤمنات مع المؤمنين هنا لدفع توهّم أن يكون الوعد بهذا الإدخال مختصا بالرجال، توهّم قد يطرأ بكلّ تلك الملابسات (الفتح / النصر / الجنود). فقد كان للمؤمنات حظّ في ذلك لأنّهنّ لا يخلون من مشاركة في تلك الشدائد ممّن يقمنّ منهنّ على المرضى والجرحى وسقي الجيش وقت القتال، ومن صبر بعضهنّ على الثُّكل أو التأيُّم، ومن صبرهنّ على غيبة الأزواج والأبناء وذوي القرابة.
{ **وَكَانَ ذَلِكَ** } الإشارة إلى المذكور من إدخال الله إيّاهم الجنّة. والمراد إدخال خاص وهو إدخالهم منازل المجاهدين، وليس هو الإدخال الذي استحقّوه بالإيمان وصالح الأعمال الأخر. ولذلك عطف عليه قوله تعالى { وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ }.
الفوز: مصدر، وهو الظفر بالخير والنجاح.
{ **عِنْدَ اللَّهِ** } متعلّق بـ { فَوْزًا }، أي: فازوا عند الله. بمعنى: لقوا النجاح والظفر في معاملة الله لهم بالكرامة. وتقديمه على متعلّقه للاهتمام بهذه المعاملة.

{ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً } [6].

الحديث عن جنود الله في معرض ذكر نصر الله يقتضي لا محالة فريقا مهزوما بتلك الجنود وهم العدو، فإذا كان النصر الذي قدَّره الله معلولا بما بشّر به المؤمنين، فلا جرم اقتضى أنّه معلول بما يسوء العدو وحزبه، فذكر الله من علّة ذلك النصر أنّه يعذِّب بسببه المنافقين حزبَ العدو، والمشركين صميمَ العدو.
{ **وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ** } عطف على { لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ }.
والمراد: تعذيب خاص زائد على تعذيبهم الذي استحقّوه بسبب الكفر والنفاق، وقد أومأ إلى ذلك قوله بعده { عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ }. والابتداء بذكر المنافقين في التعذيب قبل المشركين لتنبيه المسلمين بأنّ كفر المنافقين خفيّ، فربما غفل المسلمون عن هذا الفريق أو نسوه.

التعذيب: إيصال العذاب إليهم، وذلك صادق بعذاب الدنيا بالسيف، كما في قوله تعالى {يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ} [التوبة:14]، وبالوجل، وحذر الافتضاح، وبالكمد من رؤية المؤمنين منصورين سالمين، كما في قوله تعالى { قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ } [آل عمران:119]، وقوله تعالى { إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ } [التوبة:50]، وصادق بعذاب الآخرة، وهو ما خُصَّ بالذكر في آخر الآية بقوله تعالى { وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ }.

{ **وَالْمُنَافِقَاتِ** } نظير عطف { وَالْمُؤْمِنَاتِ } [5]، لأنّهن مشاركات في المكر والتدبير.

{ **الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ** } صفة للمذكورين، فإنّ حق الصفة الواردة بعد متعدِّد أن تعود إلى جميعه ما لم يكن مانع لفظي أو معنوي.

{ **ظَنَّ السَّوْءِ** } (بفتح السين) في قراءة الجميع. والمفتوح والمضموم مترادفان في أصل اللغة ومعناهما: المكروه. فهما لغتان مثل: الكَره والكُره، والضَّعف والضُّعف، والضَّرّ والضُّرّ، والبَأس والبُؤس.

المراد: ظنّهم بالله أنّه لم يعدِ الرسول صلى الله عليه وسلم بالفتح ولا أَمَره بالخروج إلى العمرة ولا يَقْدر له النصر، لقلّة أتباعه وعزّة أعدائه.

{ **عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ** } دعاء أو وعيد، ولذلك جاءت بالاسمية لصلوحيَّتها لذلك.

{ **وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً** } إخبار عمَّا جَنَوْه من سوء فعلهم، فالتعبير بالماضي أظهر.

{ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً } [7].

هذا نظير ما تقدّم آنفا إلّا أن هذا أوثِر بصفة عزيز دون عليم لأنّ المقصود من ذكر الجنود هنا الإنذار والوعيد بهزائم تحلّ بالمنافقين والمشركين. فناسب صفة عزيز، أي: لا يغلبه غالب.

{ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً [8] لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً [9] }.

لمّا أريد الانتقال من الوعد بالفتح والنصر، وما اقتضاه ذلك ممّا اتصل به ذكره، إلى تبيين ما جرى في حادثة الحديبية وإبلاغ كلّ ذي حظ من تلك القضية نصيبه المستحقّ؛ ثناء أو غيره، صُدِّر ذلك بذكر مراد الله من إرسال رسوله صلى الله عليه وسلم، ليكون كالمقدمة للقصّة، وذُكرت حكمة الله تعالى في إرساله ما له مزيد اختصاص بالواقعة المتحدَّث عنها، فذُكرت أوصاف ثلاثة: { شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً }.

الشاهد: المُخبر بتصديق أحد أو تكذيبه فيما ادّعاه أو أدّعي به عليه، وتقدّم في قوله تعالى { فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً } [النساء:41]، وقوله تعالى { وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً } [البقرة:143]. وقدِّم وصف الشاهد لأنّه يتفرّع عنه الوصفان.

فالمعنى: أرسلناك في حال أنّك تشهد على الأمّة بالتبليغ بحيث لا يُعذر المخالفون عن شريعتك فيما خالفوا فيه، وتشهد على الأمم. وهذه الشهادة حاصلة في الدنيا وفي يوم القيامة.

{ **وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً** } ويترتّب على التبليغ الذي سيشهد به أنّه مُبشِّر للمطيعين، ونذير للعاصين.

{ **لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً** } يجوز أن تكون اللام في {لِتُؤْمِنُوا} لام كي مفيدة للتعليل ومتعلقة بفعل { أَرْسَلْنَاكَ }.

والخطاب يجوز أن يكون للنبيّ صلى الله عليه وسلم مع أمّة الدعوة، أي: لتؤمن أنت والذين أُرسلت إليهم شاهدا ومبشرا ونذيرا، والمقصود الإيمان بالله. وأُقحم { وَرَسُولِهِ } لأنّ الخطاب شامل للأمّة وهم مأمورون بالإيمان به، ولأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم مأمور بأن يؤمن بأنّه رسول الله، ولذلك قال يوم حنين:

" **أشهد أنّي عبد الله ورسوله** "، وصحّ أنّه كان يتابع قول المؤذن: أشهد أنّ محمدا رسول الله. وكان يقول في تشهّده: " وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ". ويجوز أن يكون الخطاب للناس خاصة.

ويجوز أن تكون الجملة معترضة، ويكون اللام في قوله تعالى { لِتُؤْمِنُوا } لام الأمر، وتكون الجملة استئنافا للأمر، كما في قوله تعالى { آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ } [الحديد:7].

التعزير: النصر والتأييد، وتعزيرهم الله كقوله تعالى { إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ } [محمد:7].

التوقير: التعظيم.

التسبيح: الكلام الذي يدلّ على تنزيه الله تعالى عن كلّ النقائص. وقيل: كناية عن الصلوات الواجبة.

{ **وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ** } ضمائر الغيبة المنصوبة الثلاثة عائدة إلى اسم الجلالة، لأنّ إفراد الضمائر مع كون المذكور قبلها اسمين دليل على أنّ المراد أحدهما. والقرينة على تعيين المراد ذكر { وَتُسَبِّحُوهُ }. وقال ابن عباس في بعض الروايات عنه: إن ضمير { وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ } عائد إلى { رَسُولِهِ }.

البُكرة: أول النهار. و**الأصيل**: آخره، وهما كناية عن استيعاب الأوقات بالتسبيح والإكثار منه.

وقد وقع في [الأحزاب: 46/45] نظير هذه الآية وهو قوله تعالى { يَا أَيُّهَا النبيّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً } فزيد في صفات النبيّ صلى الله عليه وسلم هنالك { وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً }، ووجه ذلك:

أنّ آية الفتح وردت في سياق إبطال شك الذين شكّوا في أمر الصلح والذين كذَّبوا بوعد الفتح والنصر، والثناء على الذين اطمأنّوا لذلك، فاقتصر من أوصاف النبيّ صلى الله عليه وسلم على الوصف الأصلي وهو أنّه شاهد على الفريقين، وكونه مبشّرا لأحد الفريقين ونذيرا للآخر.

وآية الأحزاب وردت في سياق تنزيه النبيّ صلى الله عليه وسلم عن مطاعن المنافقين والكافرين في تزوّجه زينب بنت جحش بعد أن طلّقها زيد بن حارثة، بزعمهم أنّها زوجة ابنه، فناسب أن يُزاد في

صفاته ما فيه إشارة إلى التمحيص بين ما هو من صفات الكمال وما هو من الأوهام الناشئة عن مزاعم كاذبة مثل التبنّي، فزيد كونه { دَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ }، أي: لا يتّبع مزاعم الناس ورغباتهم، وأنّه { سِرَاجاً مُنِيراً } يهتدي به من همّته في الاهتداء دون التقعير.

{ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً } [10].

شروع في الغرض الأصلي من هذه السورة، وهذه الجملة مستأنفة، والتأكيد للاهتمام، وصيغة المضارع في قوله { يُبَايِعُونَكَ } لاستحضار حالة المبايعة الجليلة لتكون كأنّها حاصلة في زمن نزول هذه الآية.

{ **إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ** } قصر ادعائي، أنّ غاية البيعة وغرضها هو النصر لدين الله ورسوله، فنزل الغرض منزلة الوسيلة، فهم بايعوا الله لا الرسول. أي: لا يبايعون إلّا الله.

{ **يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ** } هيَّأت صيغة المبايعة لأن تُذكر بعدها الأيدي لأنّ المبايعة يقارنها وضع المبايع يده في يد المبايَع، وممّا زاد هذا التخييل حسنا ما فيه من المشاكلة بين يد الله وأيديهم. والله منزّه عن اليد.

فالجملة مقرِّرة ومؤكِّدة لمضمون جملة { إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ } المفيدة أنّ بيعتهم النبيّ صلى الله عليه وسلم في الظاهر هي بيعة منهم لله في الواقع، ولذلك جُرِّدت الجملة عن حرف العطف.

المبايعة: أصلها مشتقّة من البيع، فهي مفاعلة لأنّ كلا المتعاقدين بائع، ونُقلت إلى معنى العهد على الطاعة والنصرة، قال تعالى { يَا أَيُّهَا النبيّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً } [الممتحنة:12] وهي هنا بمعنى العهد على النصرة والطاعة. وهي البيعة التي بايعها المسلمون النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية تحت شجرة من السَّمُر، وكانوا ألفا وأربعمائة على أكثر الروايات.

وأوّل من بايع النبيّ صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة (أبو سنان الأسدي). وتُسمّى (**بيعة الرضوان**) لقول الله تعالى { لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ } [18].

وسبب البيعة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل عثمان بن عفان من الحديبية إلى أهل مكة ليفاوضهم في شأن التخلية بين المسلمين وبين الاعتمار بالبيت فأُرجف بأن عثمان قتل فعزم النبيّ صلى الله عليه وسلم على قتالهم لذلك ودعا من معه إلى البيعة على أن لا يرجعوا حتّى يناجزوا القوم، فكان جابر بن عبد الله يقول: بايعوه على ألّا يفرّوا، وقال سلمة بن الأكوع وعبد الله بن زيد: بايعناه على الموت. ولا خلاف بين هذين لأنّ عدم الفرار يقتضي الثبات إلى الموت.

ولم يتخلّف أحد ممّن خرج مع النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية عن البيعة إلّا عثمان إذ كان غائبا بمكة للتفاوض في شأن العمرة، ووضع النبيّ صلى الله عليه وسلم يده اليمنى على يده اليسرى وقال: هذه يد عثمان، وإلّا الجدّ بن قيس السلمى اختفى وراء جَمَله حتّى بايع الناس، ولم يكن منافقا ولكنه كان ضعيف العزم. وقال لهم النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **أنتم خير أهل الأرض** ".

{ **فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ** } تفريع على جملة { إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ }، فإنّه لمّا كُشف كنه هذه البيعة بأنّها مبايعة لله صار أمرها عظيما خطيرا في الوفاء بما وقع عليه التبايع وفي نكث ذلك.

النكث: كالنقض للحبل. قال تعالى { وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً } [النحل:92].

وغلب النكث في معنى النقض المعنوي، كإبطال العهد.

المعنى: أنّ نكثه عائد عليه بالضرّ، كما دلّ عليه حرف (على).

{ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً } [11].

{ **سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ** } لمّا حذَّر من النكث ورغَّب في الوفاء أتبع ذلك بذكر التخلّف عن الانضمام إلى جيش النبيّ صلى الله عليه وسلم حين الخروج إلى عمرة الحديبية وهو ما فعله الأعراب الذين كانوا نازلين حول المدينة وهم ست قبائل: (غفار / مزينة / جُهينة / أشجع / أسلم / الدِّيل) بعد أن بايعوه على الخروج معه. فإنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لمَّا أراد المسير إلى العمرة استنفر من حول المدينة من القبائل ليخرجوا معه، فتثاقل أكثرهم. ولم يخرج معه من تلك القبائل إلّا القليل:

خرج من جهينة، زيد بن خالد الجهني .

وخرج من أسلم، مائة رجل، منهم مرداس بن مالك الأسلمي، والد عباس الشاعر، وعبد الله بن أبي أوفى، وزاهر ابن الأسود، وأُهبان (بضم الهمزة) بن أوس، وسلمة بن الأكوع الأسلمي.

ومن غفار خُفاف بن أَيْماء.

ومن مزينة عائذ بن عمرو.

وكان تخلّفهم عن ضعف إيمان لا عن نفاق. وأعدوا للمعذرة بعد رجوع النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّهم شغلتهم أموالهم وأهلوهم، فأخبر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بما بيَّتوه في قلوبهم، وفضح أمرهم من قبل أن يعتذروا. وهذه من معجزات القرآن بالإخبار عن أحداث قبل وقوعها.

والمعنى: أنّهم يقولون ذلك عند مرجع النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى المدينة معتذرين كاذبين في اعتذارهم.

{ **الْمُخَلَّفُونَ** } (بفتح اللام) هم الذين تخلَّفوا. وأطلق عليهم المخلَّفون، أي: غيرهم خلَّفهم وراءه، وليس ذلك بمقتض أنّهم مأذون لهم، بل المخلَّف هو المتروك مطلقا. يقال: خلَّفنا فلانا، إذا مروا به وتركوه.

لأنّهم اعتذروا من قبل خروج النبيّ صلى الله عليه وسلم فعذرهم، بخلاف الأعراب فإنّهم تخلّف أكثرهم بعد أن استُنفِروا ولم يعتذروا حينئذ.

الأموال: هنا الإبل.

أهلون: جمع أهل على غير قياس.

{ **فَاسْتَغْفِرْ لَنَا** } اسأل لنا المغفرة من الله، فهو طلب حقيقي لأنّهم كانوا مؤمنين ولكنّهم ظنوا أن استغفار النبيّ صلى الله عليه وسلم لهم يمحو ما أضمروه من النكث وذهلوا عن علم الله بما أضمروه، كدأب أهل الجهالة.

{ **يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ** } في موضع الحال. ويجوز أن تكون بدل اشتمال من جملة { سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ }. والمعنى: أنّهم كاذبون فيما زعموه من الاعتذار، وإنَّما كان تخلّفهم لظنّهم أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم يقصد قتال أهل مكة، أو أنّ أهل مكة مقاتلوه لا محالة، وأنّ الجيش الذين كانوا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم لا يستطيعون أن يغلبوا أهل مكة، فقد روي أنّهم قالوا: يذهب إلى قوم غزوه في عُقر داره [العُقر (بضم العين وفتحها): الأصل والمكان]، بالمدينة (يعنون غزوة الأحزاب) وقتلوا أصحابه فيقاتلهم.

{ **قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً** }.

أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ما فيه ردّ أمرهم إلى الله ليعلمهم أنّ استغفارهُ الله لهم لا يُوجب لهم المغفرة بل الله يفعل ما يشاء إذا أراده، فإن كان أراد بهم نفعا نفعهم وإن كان أراد بهم ضرًّا ضرّهم. وهذا الجواب لا وعد فيه من الله بأن يغفر لهم، إذ المقصود تركهم في حالة وجل ليستكثروا من فعل الحسنات. ثم سيتبعه بقوله { وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ } [14]، الذي هو أقرب إلى الإطماع. وتقدّم نظير هذا التركيب في قوله تعالى { قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ } [المائدة:17].

{ **بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً** } إضراب لإبطال قولهم { شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا }، وبه يزداد مضمون قوله تعالى { يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ } تقريرا لأنّه يتضمَّن إبطالا لعذرهم، ومن معنى الإبطال يحصل بيان الإجمال الذي في قوله تعالى { كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً } إذ يفيد أنّه خبير بكذبهم في الاعتذار، فلذلك أبطل اعتذارهم بحرف الإبطال. وفي القول تهديد ووعيد.

{ **بِمَا تَعْمَلُونَ** } تقديمه على متعلّقه لقصد الاهتمام بذكر عملهم هذا. والمقصود: ما اعتقدوه وما اعتذروا به من أسباب تخلّفهم عن نفير الرسول صلى الله عليه وسلم. وكثيرا ما سمَّى القرآن الاعتقاد عملا.

{ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً } [12].

بدل اشتمال من جملة { بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً } [11]، أي: خبيرا بما عملتم، ومنه ظنّكم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون. وأعيد حرف الإبطال زيادةً لتحقيق معنى البدلية. كما يُكرَّر العامل في المبدل منه. **الانقلاب**: الرجوع إلى المأوى.

{ **لَنْ** } مفيد استمرار النفي، وأُكِّد بقوله { أَبَدًا } لأنّ ظنّهم كان قويًّا.

التزيين: التحسين، وهو كناية عن قبول ذلك، وإنَّما جُعل ذلك الظنّ مزيَّنا في اعتقادهم لأنّهم لم يفرضوا غيره من الاحتمال، وهو أن يرجع الرسول صلى الله عليه وسلم سالما.

كانوا يقولون بين أقوالهم: " إنّ محمدا (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه أَكَلَة رأس، لا يرجعون ".

(أي: يُشبعهم رأس بعير، كناية عن القلّة). أي: هم قليل بالنسبة لقريش والأحابيش وكنانة، ومن في حلفهم.

{ **ظَنَّ السَّوْءِ** } أعمّ من ظنّهم أن لا يرجع الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون، أي: ظننتم ظنّ السوء بالدين وبمن بقي من الموقنين، لأنّهم جزموا باستئصال أهل الحديبية وأنّ المشركين ينتصرون ثم يغزون المدينة بمن ينضمّ إليهم من القبائل فيسقط في أيدي المؤمنين ويرتدّون عن الدين، فذلك ظنّ السوء.

السَّوء: تقدّم آنفا في قوله تعالى { الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ } [6].

البُور: مصدر كـ (الهُلْك)، بناءً ومعنًى، ومثله **البَوار** (بالفتح) كالهَلاك. والمراد: الهلاك المعنوي، وهو عدم الخير والنفع في الدنيا والآخرة، نظير قوله تعالى { يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ } [التوبة:42].

{ **وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً** } أفاد التركيب أنّ البوار صار من مقوِّمات قوميَّتهم لشدّة تلبّسه بجميع أفرادهم.

{ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً } [13].

معترضة بين أجزاء القول المأمور به في قوله تعالى { فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً } [11]، وقوله تعالى { وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [14]، للتحذير أن يفضي بهم تخاذلهم في الاستجابة للرسول صلى الله عليه وسلم والالتزام بنهجه، إلى دركات الكفر بعد الإيمان، إذ كان تخلُّفهم عن الخروج معه، وما علُّلوا به تثاقلهم، وإظهار عذر مكذوب أضمروا خلافه، كلّ ذلك حوما حول حمى الشك يوشكون أن يقعوا فيه.

{ **أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ** } إظهار في مقام الإضمار، لزيادة تقرير معنى { مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ }.

السعير: النار المُسَّعرة، وهو من أسماء جهنم.

{ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً } [14].

عطف على جملة { فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً } [11]، فهو من أجزاء القول، وهذا انتقال من التخويف الذي تضمَّنه { فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً } [11] إلى إطماعهم بالمغفرة التي سألوها، ولذلك قُدِّم الضرّ على النفع في الآية الأولى فقيل { إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً } ليكون احتمال إرادة الضرّ بهم أسبق في نفوسهم.

وقُدِّمت المغفرة هنا ليتقرَّر معنى الإطماع في نفوسهم فيبتدروا إلى استدراك ما فاتهم.

وهذا تمهيد لوعدهم الآتي في قوله { قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ } [16].

{ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً } تأكيد رجاء المغفرة. أي: الرحمة والمغفرة أقرب من العقاب.

{ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً } [15].

هذا استئناف ثان بعد قوله تعالى { سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا } [11]، وهو أيضا إعلام للنبيّ صلى الله عليه وسلم بما سيقوله المخلَّفون عن الحديبية، يتعلق بتخلّفهم وعذرهم الكاذب، وأنّهم سيندمون على تخلُّفهم حين يرون اجتناء أهل الحديبية ثمرة غزوهم. ويتضمّن قولهم { إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ } تأكيد تكذيبهم في اعتذارهم عن التخلّف، بأنّهم حين يعلمون أنّ هنالك مغانم من قتال غير شديد يحرصون على الخروج ولا تشغلهم أموالهم ولا أهاليهم.

{ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ } ولكون هذه المقالة صدرت منهم عن قريحة ورغبة لم يؤت معها بمجرور (لك) كما أتي به في قوله آنفا { سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ } [11]، لأنّ قولهم هنا قول رغبة صادقة غير التي كانت سابقا من أجل الترويج على النبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا } متعلق بـ { سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ }، وليس هو مقول القول. و{ إِذَا } ظرف للمستقبل، ووقوع فعل { انْطَلَقْتُمْ } في الماضي بعده، دون المضارع، مستعار لمعنى التحقيق.

{ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا } المراد الخروج إلى غزوة خيبر، فأطلق عليها اسم مغانم مجازا. وفي هذا المجاز إيماء إلى أنّهم منصورون في غزوتهم. و{ لِتَأْخُذُوهَا } ترشيح للمجاز.

ذلك أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لمّا رجع من الحديبية إلى المدينة أقام شهر ذي الحجة (6هـ) وأيَّامًا من محرّم (7هـ)، ثم خرج إلى غزوة خيبر ورام المخلَّفون عن الحديبية أن يخرجوا معه فمنعهم لأنّ

الله جعل غزوة خيبر غنيمة لأهل بيعة الرضوان خاصة، جبرا لخواطرهم.

{ **مَغَانِمَ** } جمع مغنم وهو اسم مشتّق من **غَنِمَ** إذا أصاب ما فيه نفع له. كأنَّهم سمُّوه مغنما باعتبار تشبيه الشيء المَغْنُوم بمكان فيه غَنَمٌ فصيغ له وزن المَفْعَل.

{ **ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ** } أشعر القول بأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم منعهم من الخروج معه، لأنّ الله أمره ألّا يخرج معه إلى خيبر إلّا من حضر الحديبية. وتقدّم اللفظ في قوله { وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى } [غافر:26].

{ **نَتَّبِعْكُمْ** } حكاية لمقالتهم أظهروا بها أنّهم راضون بأن يكونوا في مؤخّرة الجيش كالأتباع، فيكون حظهم في مغانمه ضعيفا.

{ **يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ** } المراد بكلام الله ما أوحاه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم من وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر خاصة لهم. وليس المراد بكلام الله هنا القرآن إذ لم ينزل في ذلك قرآن يومئذ. وقد أشرك مع أهل الحديبية من أُلحِق بهم من أهل هجرة الحبشة الذين أعطاهم النبيّ صلى الله عليه وسلم بوحي.

{ **قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ** } وجيء بـ (لن)، المفيدة تأكيد النفي، لقطع أطماعهم في الإذن لهم باتباع الجيش الخارج إلى خيبر، ولذلك حذف متعلق { تَتَّبِعُونَا } للعلم به.

{ **مِنْ قَبْلُ** } تقديره: من قبل طلبكم الذي تطلبونه، وقد أخبر الله عنهم بما سيقولونه بقوله { فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا } وقد قالوا ذلك بعد نحو شهر ونصف، فلمّا سمع المسلمون المتأهِّبون للخروج إلى خيبر مقالتهم قالوا: قد أخبرنا الله في الحديبية بأنّهم سيقولون هذا.

{ **فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا** } و(بل) هنا للإضراب عن قول الرسول صلى الله عليه وسلم { لَنْ تَتَّبِعُونَا }، وهو إضراب إبطال نشأ عن فورة الغضب المخلوط بالجهالة وسوء النظر. أي: ليس بكم الحفاظ على أمر الله، ولكنّكم لا تريدوننا أن نقاسمكم المغانم حسدا لنا.

{ **تَحْسُدُونَنَا** } ضمير الرفع مراد به أهل الحديبية، نسبوهم إلى الحسد لأنهم ظنوا أنّ منعهم من المشاركة في الخروج إلى خيبر كان لعدم رضى أهل الحديبية بمشاركتهم في المغانم. ولا يُظنّ بهم أن يريدوا بذلك الضمير شمول النبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّ المخلفين كانوا مؤمنين لا يتّهمون النبيّ صلى الله عليه وسلم بالحسد، ولذلك أبطل الله كلامهم بالإضراب الإبطالي { بَلْ كَانُوا }.

الحسد: كراهية أن ينال غيرك خيرا معيّنا أو مطلقا سواء كان مع تمنّي انتقاله إليك أو بدون ذلك. أريد به هنا الحرص على الانفراد بالمغانم وكراهية المشاركة فيها. وتقدّم عند قوله تعالى {حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ} [البقرة: 109].

{ **بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً** } أي: ليس قولك لهم ذلك لقصد الاستبشار بالمغانم لأهل الحديبية ولكنّه أمر الله وعده لأهل الحديبية، وتأديب للمخلّفين ليكونوا عبرة لغيرهم فيما يأتي.

وإنّما نفى الله عنهم الفهم دون الإيمان لأنّهم كانوا مؤمنين ولكنهم كانوا جاهلين بشرائع الإسلام وأخلاقه.
{ **إِلَّا قَلِيلاً** } أي: إلّا فهما قليلا، وإنّما قلّله لكون فهمهم مقتصرا على الأمور الواضحة من العاديات لا ينفذ إلى المهمّات ودقائق المعاني.

{ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً } [16].

انتقال إلى طمأنة المخلَّفين بأنّهم سينالون مغانم في غزوات آتية ليعلموا أنّ حرمانهم من الخروج إلى خيبر مع جيش الإسلام ليس لانسلاخ الإسلام عنهم ولكنّه لحكمة وموعظة، فهو حرمان خاص بوقعة معيّنة، وأنّهم سيُدعون بعد ذلك إلى قتال قوم كافرين، كما تُدعى طوائف المسلمين. فذكْر هذا في هذا المقام إدخال للمسرّة بعد الحزن ليُزيل عنهم انكسار خواطرهم من جرّاء الحرمان.
وكلّ ذلك دال على أنّهم لم ينسلخوا عن الإيمان، ألا ترى أنّ الله لم يعامل المنافقين المبطنين للكفر بمثل هذه المعاملة في قوله تعالى { فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ } [التوبة:83].
{ **مِنَ الْأَعْرَابِ** } كُرّر الوصف هنا ليظهر أنّ هذه المقالة قُصد بها الذين نزل فيهم قوله تعالى { سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا } [11]، فلا يتوهّم السامعون أنّ المعني بالمخلّفين كل من يقع منه التخلّف.
{ **سَتُدْعَوْنَ** } أُسند إلى المجهول لأنّ الغرض الأمر بامتثال الداعي، وهو وليّ أمر المسلمين، بقرينة قوله بعد في تذييله { وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ } [17]، ودعوة وليّ الأمر ترجع إلى دعوة الله ورسوله، لقوله صلى الله عليه وسلم: **" ومن أطاع أميري فقد أطاعني "**.
وعُدّي الفعل بحرف (إلى) لإفادة أنّها مضمَّنة معنى المشي، وهذا فرق دقيق بين تعديته بذلك وبين تعديته بـ (اللام) نحو قولك: دعوت فلانا لما نابني. وقد يتعاقب الاستعمالان بضرب من المجاز والتسامح.
{ **إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ** } يتعيَّن أنَّهم قوم من العرب، لأنّ قوله تعالى { تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ } يُشعر بأنّ القتال لا يُرفع عنهم إلّا إذا أسلموا، وإنّما يكون هذا حكما في قتال مشركي العرب إذ لا تُقبل منهم الجزية.
فيجوز أن يكون المراد هوازن وثقيف، وهذا مروي عن سعيد بن جبير، وعكرمة وقتادة، وتلك **غزوة حنين** وهي بعد غزوة خيبر، وأمّا فتح مكة فلم يكن فيه قتال.
{ **تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ** } إمّا حال من ضمير { سَتُدْعَوْنَ }، وإمّا بدل اشتمال من مضمون { سَتُدْعَوْنَ }.
{ **أَوْ** } للترديد والتنويع، أي: تدعون إلى قتالهم وإسلامهم، وذلك يستلزم الإمعان في مقاتلتهم حتّى يسلموا.

{ **وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً** } تحذير من المعاودة، والتنبيه بأنّ هذا التولّي يوقع في الإثم لأنّه عن دعوة إلى واجب وهو القتال للجهاد. فالتشبيه في قوله تعالى { كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ } تشبيه في مطلق التولّي لقصد التشويه وليس تشبيها فيما يترتب على ذلك التولي.

{ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً } [17].

جملة معترضة لنفي الوعيد عن أصحاب الضرارة تنصيصا على العذر للعناية بحكم التولِّي والتحذير منه.

وهي تذييل لجملة { فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً } [16]، لما تضمّنته من إيتاء الأجر لكل مطيع من المخاطبين وغيرهم، والتعذيب لكل متولّ كذلك، مع ما في الجملة من بيان أنّ الأجر هو إدخال الجنات، وهو يفيد بطريق المقابلة أنّ التعذيب الأليم بإدخالهم جهنم.

وقرأ نافع وابن عامر { نُدْخِلْهُ / نُعَذِّبْهُ } على الالتفات من الغيبة إلى التكلم. وقرأ الجمهور { يُدْخِلْهُ / يُعَذِّبْهُ } بالياء التحتية جريا على أسلوب الغيبة بعود الضمير إلى اسم الجلالة.

{ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً [18] وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً [19] }.

عود إلى تفصيل ما جازى الله به أصحاب بيعة الرضوان المتقدّم إجماله، فإنّ كون بيعتهم الرسول صلى الله عليه وسلم تعتبر بيعة لله تعالى أومأ إلى أنّ لهم بتلك المبايعة مكانة رفيعة من خير الدنيا والآخرة، فلمّا قطع الاسترسال في ذلك بما كان تحذيرا من النكث وترغيبا في الوفاء، بمناسبة التضاد وذكر ما هو وسط بين الحالين وهو حال المخلَّفين، وإبطال اعتذارهم وكشف طويّتهم، وإقصائهم عن الخير الذي أعدَّه الله للمبايعين، وأرجائهم إلى خير يسنح من بعد إن هم صدقوا التوبة وأخلصوا النية.

فقد أنال الله المبايعين رضوانه وهو أعظم خير في الدنيا والآخرة، قال تعالى { وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ } [التوبة:72]، والشهادة لهم بإخلاص النيّة، وإنزاله السكينة قلوبهم ووعدهم بثواب فتح قريب ومغانم كثيرة.

وهذه الآية هي سبب تسمية هذه البيعة **بيعة الرضوان**.

{ **يُبَايِعُونَكَ** } المضارع مستعمل في الزمان الماضي لاستحضار حالة المبايعة الجليلة، وكون الرضى حصل عند المبايعة ولم ينتظر به تمامها. فقد علمت أنّ السورة نزلت بعد الانصراف من الحديبية.

{ **تَحْتَ الشَّجَرَةِ** } تعريف العهد وهي الشجرة التي عهدها أهل البيعة حين كان النبيّ صلى الله عليه وسلم

جالسا في ظلّها، وهي شجرة من شجر السَّمُر وهو شجر الطلح.
وقد تقدَّم أنّ البيعة كانت لمّا أُرْجف بقتل عثمان بن عفان بمكة. فعن سلمة بن الأكوع وعبد الله بن عمر، يزيد أحدهما على الآخر، بينما نحن قائلون يوم الحديبية وقد تفرّق الناس في ضلال الشجر إذ نادى عمر بن الخطاب: أيّها الناس البيعة البيعة، فثار الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو تحت الشجرة فبايعوه كلهم إلّا الجدّ بن قيس.
فهذه الشجرة كانت معروفة للمسلمين وكانوا إذا مروا بها يصلُّون عندها تيمّنا بها إلى أن كانت خلافة عمر فأمر بقطعها خشية أن تكون كذات أنواط التي كانت في الجاهلية.
والمروي أنّ الذي بنى مسجدا على مكان الشجرة أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي ولكن في المسجد المذكور حجر مكتوب فيه: أمر عبد الله أمير المؤمنين أكرمه الله ببناء هذا المسجد (مسجد البيعة) وأنّه بُني سنة (244 هـ)، وهي توافق مدّة المتوكّل جعفر بن المعتصم. وقد تخرّب فجدَّده المستنصر العباسي سنة (629 هـ) ثم جدَّده السلطان محمود خان العثماني سنة (1254هـ) وهو قائم إلى اليوم.
{ **فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ** } الفاء ليست للتعقيب لأنّ علم الله بما في قلوبهم ليس عقب رضاه عنهم ولا عقب وقوع بيعتهم فتعيّن أن تكون فاء فصيحة تفصح عن كلام مقدّر بعدها. والتقدير: فلمّا بايعوك عُلِم ما في قلوبهم من الكآبة، ويجوز أن تكون الفاء لتفريع الأخبار بأنّ الله علم ما في قلوبهم بعد الإخبار برضى الله عنهم لما في الإخبار بعلمه ما في قلوبهم من إظهار عنايته بهم. ويجوز أن يكون المقصود من التفريع قوله تعالى { فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ } ويكون قوله تعالى { فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ } توطئة له على وجه الاعتراض.
والمقصود بإخبارهم بأنَّ الله علم ما حصل في قلوبهم من الكآبة أنّه قدَّر ذلك لهم، وشكرهم على حبّهم نصر النبيّ صلى الله علي وسلم بالفعل، ولذلك رتَّب عليه قوله تعالى { فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً }.
السكينة: هنا الطمأنينة والثقة بتحقّق ما وعدهم الله من الفتح، والارتياض على ترقُّبه دون حسرة، فترتَّب على علمه ما في قلوبهم إنزاله السكينة عليهم، أي: على قلوبهم.
{ **وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً** } عطف على فعل { رَضِيَ اللَّهُ }. والمراد: أنّه وعدهم بثواب هو فتح قريب ومغانم كثيرة. وهذا الفتح هو فتح خيبر، فإنّه كان خاصا بأهل الحديبية وكان قريبا من يوم البيعة بنحو شهر ونصف.
{ **وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا** } مغانم أرض خيبر والأنعام والمتاع والحوائط، فوصفت بـ { كَثِيرَةً } لتعدّد أنواعها، وهي أوّل المغانم التي كانت فيها الحوائط.
{ **وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً** } معترضة وهي مفيدة تذييل لجملة {وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا} لأنّ تيسير الفتح لهم وما حصل لهم فيه من المغانم الكثيرة من أثر عزّة الله التي لا يتعاصى عليها شيء

صعب، ومن أثر حكمته في ترتيب المسببات على أسبابها.

{ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً } [20].

{ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ } هذه الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا نشأ عن قوله تعالى { وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا } [19/18] إذ عُلم أنّه فتح خيبر، فحُقّ لهم ولغيرهم أن يخطر ببالهم أن يترقَّبوا مغانم أخرى فكان هذا الكلام جوابا لهم، أي: لكم مغانم أخرى لا يُحرم منها من تخلَّفوا عن الحديبية وهي المغانم التي حصلت في الفتوح المستقبلة.

فالخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم وللمسلمين، وليس خاصا بالذين بايعوا. والوعد بالمغانم الكثيرة واقع في ما سبق نزوله من القرآن، وعلى لسان الرسول صلى الله عليه وسلم ممَّا بلَّغه إلى المسلمين.

{ تَأْخُذُونَهَا } لتحقيق الوعد.

{ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ } بناء على ما اخترناه من أنّ هذه السورة نزلت دفعة واحدة، يكون فعل { فَعَجَّلَ } مستعملا في الزمن المستقبل مجازا تنبيها على تحقيق وقوعه، أي: سيعجِّل لكم هذه. وإنّما جعل نوالهم غنائم خيبر تعجيلا، لقرب حصوله من وقت الوعد به. ويحتمل أن يكون تأخّر نزول هذه الآية إلى ما بعد فتح خيبر على أنّها تكملة لآية الوعد التي قبلها، وأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أمر بوضعها عقبها.

{ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ } امتنان عليهم بنعمة غفلوا عنها حين حزنوا لوقوع صلح الحديبية وهي نعمة السلم. أي: كف أيدي المشركين عنهم، فإنّهم لو واجهوهم يوم الحديبية بالقتال لرجع المسلمون متعبين، ولما تهيَّأ لهم فتح خيبر، وأنّهم لو اقتتلوا مع أهل مكة لدُحِض في ذلك مؤمنون ومؤمنات كانوا في مكة، كما أشار إليه قوله تعالى { وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ } [25].

{ أَيْدِيَ النَّاسِ } أهل مكة، جريا على مصطلح القرآن في إطلاق هذا اللفظ غالبا.

وقيل: الإعراب من بني أسد وغطفان، كانوا أحلافا ليهود خيبر وجاءوا لنصرتهم لمَّا حاصر المسلمون خيبر فألقى الله في قلوبهم الرعب فنكصوا.

وقيل: إنّ المشركين بعثوا أربعين رجلا ليصيبوا من المسلمين في الحديبية فأسرهم المسلمون، وهو ما سيجيء في قوله { وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ } [24].

الكفّ: منع الفاعل من فعل أراده أو شرع فيه، وهو مشتقّ من اسم الكفّ التي هي اليد، لأنّ أصل المنع أن يكون دفعا باليد، ويقال: كفَّ يده عن كذا، إذا منعه من تناوله بيده. وأطلق الكف هنا مجازا على الصرف.

{ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً } الظاهر أنّ (الواو) عاطفة وأنّ ما بعدها علّة كما تقتضي (لام كي). والمعنى: أنّ الله أنزل السكينة في قلوب المؤمنين لمصالح لهم، منها ازدياد إيمانهم

واستحقاقهم الجنّة وتكفير سيّئاتهم واستحقاق المنافقين والمشركين العذاب، ولتكون السكينة آية للمؤمنين، ومعنى كونها آية أنّها سبب، لأنّهم لمّا نزلت السكينة في قلوبهم اطمأنت نفوسهم فخلصت إلى التدبّر والاستدلال فبانت لها آيات الله.

{ **وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً** } أي: ليزول بذلك ما خامركم من الكآبة والحزن فتتجرّد نفوسكم لإدراك الخير المحض الذي في أمر الصلح وإحالتكم على الوعد فتوقنوا أنّ ذلك هو الحقّ فتزدادوا يقينا.

ويجوز أن يكون فعل { وَيَهْدِيَكُمْ } مستعملا في معنى الإدامة على الهدى.

{ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً } [21]

هذا من عطف الجمل، فقوله { أُخْرَى } مبتدأ موصوف بجملة { لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا } والخبر قوله تعالى { قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا }، مجموع الجملة عطف على جملة { وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً } [20].

{ **وَأُخْرَى** } صفة لموصوف محذوف دلّ عليه { مَغَانِمَ } الذي في الجملة قبلها، أي: غير التي وعدهم الله بها.

{ **لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا** } أنّها موصوفة بعدم قدرتكم عليها. وليس يقتضي المعنى أنّهم حاولوا الحصول عليها فلم يقدروا، وإنّما المعنى: أنّ صفتها عدم قدرتكم عليها فلم تتعلّق أطماعكم بأخذها.

الإحاطة: بالهمز جعل الشيء حائطا، أي: حافظا، فأصل همزته للجعل وصار بالاستعمال قاصرا، ومعناه: احتوى عليه ولم يترك له منصرفا، فدلَّ على شدَّة القدرة عليه. أي: أحاط الله بها لأجلكم، وفي معنى الإحاطة إيماء إلى أنّها كالشيء المخبوء لهم. قال تعالى { لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ } [يوسف:66]، أي: إلّا أن تُغلبوا غلبا لا تستطيعون معه الإتيان به.

{ **وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً** } تذييل، إذ هو أمر مقرَّر في علمهم. فعُلم أنّ الآية أشارت إلى ثلاثة أنواع من المغانم:

*/ نوع من مغانم موعودة لهم قريبة الحصول، وهي مغانم خيبر.

*/ نوع هو مغانم مرجوّة كثيرة غير معيّن وقت حصولها، ومنها مغانم يوم حنين وما بعده من الغزوات.

*/ نوع هو مغانم عظيمة لا يخطر ببالهم نوالها قد أعدّها الله للمسلمين، ولعلها مغانم بلاد الروم وبلاد الفرس وبلاد البربر.

وفي الآية إيماء إلى أنّ هذا النوع الأخير لا يناله جميع المخاطبين لأنّه لم يأت في ذكره بضميرهم، وهو الذي تأوّله عمر في عدم قسمة سواد العراق، وقرأ قوله تعالى { وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ } [الحشر:10].

{ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً [22] سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً [23] }.

عطف على قوله تعالى { وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ } [20]، على أنّ بعضه متعلّق بالمعطوف عليه، وبعضه معطوف على المعطوف عليه فما بينهما ليس من الاعتراض.

والمقصود من هذا العطف التنبيه على أنّ كفّ أيدي الناس عنهم نعمة على المسلمين باستبقاء قوّتهم وعدّتهم ونشاطهم. وليس الكفّ لدفع غلبة المشركين إيّاهم لأنّ الله قدَّر للمسلمين عاقبة النصر فلو قاتلهم الذين كفروا لهزمهم المسلمون ولم يجدوا نصيرا، أي: لم ينتصروا بجمعهم ولا بمن يعينهم.

{ **الَّذِينَ كَفَرُوا** } عَيْن ما أريد بالنّاس في قوله تعالى { وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ } [20]. وكان مقتضى الظاهر الإتيان بضمير الناس بأن يقال: ولو قاتلوكم، فعدل عنه إلى الاسم الظاهر لما في الصلة من الإيماء إلى وجه بناء الخبر وهو أنّ الكفر هو سبب تولية الإدبار في قتالهم للمسلمين، تمهيدا لقوله { سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ }.

التولية: جعل الشيء واليًا، أي: لجعلوا ظهورهم تليكم.

{ **الْأَدْبَارَ** } منصوب على أنّه مفعول ثان لـ { وَلَّوُا } ومفعوله الأوّل محذوف لدلالة ضمير { قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا } عليه. والتقدير: لولوكم الأدبار.

{ **ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً** } للتراخي الرتبي، لأنّ المنهزم قد يكون له أمل بأن يستنصر من ينجده فإذا لم يجد وليًّا ولا نصيرا تحقَّق أنّه غير منتصر. وأصل الكلام: لولّوا الأدبار وما وجدوا وليا ولا نصيرا.

الوليّ: الموالي والصديق، وهو أعم من النصير إذ قد يكون الولي غير قادر على إيواء وليّه وإسعافه.

{ **سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ** } سنّ الله ذلك سنّة، أي: جعله عادة له ينصر المؤمنين على الكافرين إذا كانت نيّة المؤمنين نصر دين الله، كقوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ } [محمد:7]، وقوله تعالى { وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ } [الحج:40]. وإن كانوا قد يُغلبون في بعض المواقع كما وقع يوم أُحد، لذا جاء قوله تعالى { وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } [القصص:83]، وقوله تعالى { وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى } [طه:132].

السنّة: الطريقة والعادة.

{ **خَلَتْ** } مضت وسبقت من أقدم عصور، والمضاف إليه { قَبْلُ } محذوف يدلّ عليه معنى الكلام.

{ **وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً** } لمّا وُصفت تلك السنّة بأنّها راسخة فيما مضى أُعقب ذلك بوصفها بالتحقّق في المستقبل تعميما للأزمنة، لأنّ اطراد ذلك النصر في مختلف الأمم والعصور وإخبار الله تعالى به على لسان رسله وأنبيائه يدلّ على أنّ الله أراد تأييد أحزابه، فيُعلم أنّه لا يستطيع كائن أن يحول دون إرادة الله تعالى.

{ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً } [24].

عطف على جملة { وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ } [20]، وهذا كفّ غير الكفّ المذكور هناك.

{ وَهُوَ الَّذِي } تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي لإفادة التخصيص، أي: القصر، أي: لم يكفّهم عنكم ولا كفّكم عنهم إلّا الله تعالى، لا أنتم ولا هم، فإنّهم كانوا يريدون الشرّ بكم، وأنتم حين أحطتم بهم كنتم تريدون قتلهم أو أسرهم.

واتفق المفسِّرون الأوّلون على أنّ هذا الكف وقع في الحديبية. وهذا يشير إلى ما روي من طرق مختلفة وبعضها في سنن الترمذي: أنّ جمعا من المشركين يقدَّر بستة أو باثني عشر أو بثلاثين أو سبعين أو ثمانين، مسلّحين نزلوا إلى الحديبية يريدون أن يأخذوا المسلمين على غرّة ففطن لهم المسلمون فأخذوهم دون حرب، فأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بإطلاقهم، وكان ذلك أيّام كان السفراء يمشون بين النبيّ صلى الله عليه وسلم وبين أهل مكة، ولعلّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أطلقهم تجنُّبا لمّا يعكّر صفو الصلح.

{ بِبَطْنِ مَكَّةَ } المعروف من إطلاق لفظ البطن إذا أضيف إلى المكان أن يراد به وسط المكان، كما في قول كعب بن زهير:

في فتية من قريش قال قائلهم ... ببطن مكة لما أسلموا زولوا

غير أن محمل ذلك في هذه الآية غير بيّن لأنّه لا يعرف وقوع اختلاط بين المسلمين والمشركين في وسط مكّة يفضي إلى القتال حتّى يمتنّ عليهم بكف أيدي بعضهم عن بعض، وكلّ ما وقع ممّا يفضي إلى القتال فإنما وقع في الحديبية. فجمهور المفسرين حملوا بطن مكة في الآية على الحديبية من إطلاق البطن على أسفل المكان، والحديبية قريبة من مكة وهي من الحلّ وبعض أرضها من الحرم وهي على الطريق بين مكة وجدّة وهي إلى مكة أقرب وتعرف اليوم باسم الشميسي، وجعلوا الآية تشير إلى القصة المذكورة في جامع الترمذي وغيره بروايات مختلفة وهي ما قدّمناه آنفا.

هذا كله بناء على أنّ الباء في قوله { بِبَطْنِ مَكَّةَ } متعلّقة بفعل { كَفَّ }، أي: كان الكفّ في بطن مكة.

ويجوز عندي أن يكون { بِبَطْنِ مَكَّةَ } ظرفا مستقرّا هو حال من ضميري { عَنْكُمْ } و{ عَنْهُمْ } وهو حال مقدَّرة، أي: لو كنتم ببطن مكة، أي: لو لم يقع الصلح فدخلتم محاربين كما رغب المسلمون الذين كرهوا الصلح كما تقدّم، فيكون إطلاق { بِبَطْنِ مَكَّةَ } جاريا على الاستعمال الشائع، أي: في وسط مدينة مكة.

ولهذا أوثرت مادة الظفر في قوله تعالى { مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ } دون أن يقال: من بعد أن نصركم عليهم، لأنّ الظفر هو الفوز بالمطلوب فلا يقتضي وجود قتال، فالظفر أعم من النصر، أي: من بعد أن أنالكم ما فيه نفعكم، وهو هدنة الصلح، وأن تعودوا إلى العمرة في العام القابل.

{ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ } يتعلّق بفعل { كَفَّ }. إشارة إلى أنّ كفّ أيدي بعضهم عن بعض كان للمسلمين إذ منُّوا على العدو بعد التمكّن منه. فعدي الفعل بـ (على) لتضمينه معنى أيّدكم، وإلّا فحقّه أن

يعدّى بـ (الباء).

{ **وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً** } تذييل للتي قبلها، والبصير بمعنى العليم بالمرئيّات، أي: عليما بعملكم حين أحطتم بهم وسقتموهم إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم تظنون أنكم قاتلوهم أو آسروهم.

{ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَأُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً } [25].

{ **هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ** } استئناف، انتقل به من مقام الثناء على المؤمنين الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما اكتسبوا بتلك البيعة من رضى الله تعالى وجزائه ثواب الآخرة، وخير الدنيا عاجله وآجله، وضمان النصر لهم في قتال المشركين، وما هيَّأ لهم من أسباب النصر، إلى تعيير المشركين بالمذّمة التي أتوا بها، وهي صدّ المسلمين عن المسجد الحرام، وصدّ الهدي عن أن يبلغ به إلى أهله، فإنّها سبّة لهم بين العرب، لأنّهم أولى الناس بالحفاوة بمن يعتمرون، وقد كان من عادتهم قبول كل زائر للكعبة من جميع أهل الأديان، فلا عذر لهم في منع المسلمين.

{ **هُمُ الَّذِينَ** } ضمير الغيبة عائد إلى الذين كفروا من قوله { وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ } [22]. والافتتاح بضميرهم هنا لاسترعاء السمع لما يرد بعده من الخبر.

والمقصود من الصلة هو جملة { صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } وذكر { الَّذِينَ كَفَرُوا } إدماج للنداء عليهم بوصف الكفر.

الهدي: ما يهدى إلى الكعبة من الأنعام، وهو من التسمية باسم المصدر ولذلك يستوي فيه الواحد والجمع. قال تعالى { وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ } [المائدة:97]، أي: الأنعام المهدية وقلائدها، وهو هنا الجمع.

المعكوف: اسم مفعول عكفه، إذ ألزمه المكث في مكان، يقال: عكفه فعكف فيستعمل قاصرا ومتعدّيا. كما يقال: رجعه فرجع وجبره فجبر.

وفائدة ذكر هذا الحال التشنيع على الذين كفروا في صدّهم المسلمين عن البيت بأنّهم صدّوا الهدايا أن تبلغ محلّها حيث اضطرّ المسلمون أن ينحروا هداياهم في الحديبية فقد عطلوا بفعلهم ذلك شعيرة من شعائر الله. ففي ذكر الحال تصوير لهيئة الهدايا وهي محبوسة.

{ **أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ** } يجوز أن يكون بدل اشتمال من { الْهَدْيَ }، ويجوز أن يكون معمولا لحرف جرّ محذوف وهو (عن)، أي: عن أن يبلغ محله.

المحِل (بكسر الحاء): محلُّ الحِل، مشتقّ من فعل حَلَّ ضدّ حَرُم، أي: المكان الذي يحِل فيه نحر الهدي،

وهو الذي لا يجزئ غيره، وذلك بمكّة بالمروة بالنسبة للمعتمر، ولذلك لمّا أحصِروا أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينحروا هديهم في مكانهم إذ تعذّر إبلاغه إلى مكة، لأنّ المشركين منعوهم من ذلك.

ولم يثبت في السنّة أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أمرهم بتوخّي جهة معينة للنحر من أرض الحديبية، وذلك من سماحة الدين فلا طائل من وراء الخوض في اشتراط النحر في أرض الحرم للمحصر.

{ وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَأُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً }.

أتبع النعي على المشركين سوء فعلهم من الكفر والصدّ عن المسجد الحرام وتعطيل شعائر الله وَعْدَه المسلمين بفتح قريب ومغانم كثيرة، بما يدفع غرور المشركين بقوّتهم، ويُسْكن تطلّع المسلمين لتعجيل الفتح، فبيّن أنّ الله كف أيدي المسلمين عن المشركين، مع ما قرَّره آنفا من قوله { وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً } [22]، أنّه إنّما لم يأمر المسلمين بقتال عدوّهم لمّا صدّوهم عن البيت لأنّه أراد رحمة جمع من المؤمنين والمؤمنات كانوا في خلال أهل الشرك لا يعلمونهم، وعصم المسلمين من الوقوع في مصائب من جرّاء إتلاف إخوانهم.

{ **لَوْلا** } حرف امتناع لوجود، أي: امتنع تعذيبنا الكافرين لأجل وجود رجال مؤمنين ونساء مؤمنات بينهم.

{ **لَمْ تَعْلَمُوهُمْ** } ليس هو خبرا بل وصفا ثانيا، إذ ليس محط الفائدة. أي: لم تعلموا إيمانهم، إذ كانوا قد آمنوا بعد خروج النبيّ صلى الله عليه وسلم مهاجرا.

قيل: هم سبعة رجال سُمِّي منهم الوليد بن الوليد بن المغيرة، وسلمة بن هشام، وعيّاش بن أبي ربيعة، وأبو جندل ابن سهيل، وأبو بصير القرشي، (ولم أقف على اسم السابع)، وعُدَّت أم الفضل زوج العباس بن عبد المطلب، وأحسب أنّ ثانيتهما أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط التي لحقت بالنبيّ صلى الله عليه وسلم بعد أن رجع إلى المدينة.

وعن حجر بن خلف: ثلاثة رجال وتسع نسوة، ولفظ الآية يقتضي أنّ النساء أكثر من اثنتين.

{ **أَنْ تَطَأُوهُمْ** } أي: لولا أن تطؤوهم.

الوطء: الدوس بالرجل، ويستعار للإبادة والإهلاك.

{ **فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ** } أي: فتلحقكم من جرّائهم ومن أجلهم معرّة كنتم تتقون لحاقها لو كنتم تعلمونهم.

المعرَّة: مصدر ميمي من عَرَّه، إذا دهاه، أي: أصابه بما يكرهه ويشقّ عليه من ضرّ أو غرم أو سوء قالة، فهي هنا تجمع ما يلحقهم إذا ألحقوا أضرارا بالمسلمين من ديّات قتلى، وغرم أضرار، ومن إثم

يلحق القاتلين إذا لم يتثبّتوا فيمن يقتلونه، ومن سوء قالة يقولها المشركون ويشيعونها في القبائل أنّ محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه لم ينج أهل دينهم من ضرّهم، ليُكرهوا العرب في الإسلام وأهله.

{ **بِغَيْرِ عِلْمٍ** } الباء للملابسة، أي: ملابسين لانتفاء العلم. والعلم المنفي هنا هو العلم بلحاق المعرّة من وطأتهم.

{ **لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ** } اللام للتعليل والمعلَّل واقع لا مفروض. أي: لولا وجود رجال مؤمنين ونساء مؤمنات لعذَّبنا الذين كفروا.

وقد رحم الله بهذا الامتناع جيش المسلمين، بأن سلّمهم من معرّة تلحقهم، وأن أبقى لهم قوّتهم في النفوس والعدّة إلى أمد معلوم، ورحم المؤمنين والمؤمنات بنجاتهم من الإهلاك، ورحم المشركين بأن استبقاهم لعلّهم يسلمون أو يسلم أكثرهم، كما حصل بعد فتح مكة، ورحم من أسلموا منهم بعد ذلك بثواب الآخرة، فالرحمة هنا شاملة لرحمة الدنيا ورحمة الآخرة.

{ **مَنْ يَشَاءُ** } يعمّ كلّ من أراد الله من هذه الحالة رحمته في الدنيا والآخرة أو فيهما معا.

{ **لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً** } (لو) حرف امتناع لامتناع، أي تدل على امتناع جوابها لامتناع شرطها. وضمير { تَزَيَّلُوا } عائد إلى ما دل عليه قوله { وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ } من جمع مختلط فيه المؤمنون والمؤمنات مع المشركين، كما دلّ عليه قوله { لَمْ تَعْلَمُوهُمْ }.

التزيّل: مطاوع زيَّله إذا أبعده عن مكان، وزيَّلهم، أي: أبعد بعضهم عن بعض، أي فرّقهم، قال تعالى { فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ } [يونس:28]، وهو هنا بمعنى التفرّق والتميّز.

{ **لَعَذَّبْنَا** } إسناد التعذيب إلى الله تعالى لأنّه يأمر به ويقدّر النصر للمسلمين، كما قال تعالى { قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ } [التوبة:14]. وعدل عن ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلّم على طريقة الالتفات.

المعنى: لو تفرّق المؤمنون والمؤمنات عن أهل الشرك لسلّطنا المسلمين على المشركين.

{ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً } [26].

{ **إِذْ** } ظرف متعلّق بفعل { صَدُّوكُمْ } [25]، أي: صدّوكم صدًّا لا عذر لهم فيه ولا داعي إليه إلّا حميّة الجاهلية، وإلّا فإنّ المؤمنين جاؤوا مسالمين معظّمين حرمة الكعبة سائقين الهدايا لنفع أهل الحرم، فليس من الرشد أن يُمنعوا عن العمرة، ولكن حميّة الجاهلية غطَّت على عقولهم فصمَّموا على منع المسلمين، ثم آل النزاع بين الطائفتين إلى المصالحة على أن يرجع المسلمون هذا العام وعلى أنّ المشركين يمكّنوهم من العمرة في القابل، أرادوا فقط التشفّي لما في قلوبهم من الإحن على المسلمين.

{ **جَعَلَ** } بمعنى وضع، والراجح أن يكون الضمير عائدا إلى اسم الجلالة في قوله تعالى { لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي

رَحْمَتِهِ } [25]، والعدول عن ضمير المتكلّم إلى ضمير الغيبة التفات.

{ **الَّذِينَ كَفَرُوا** } مفعول أوّل لـ { جَعَلَ }، و{ فِي قُلُوبِهِمْ } في محل المفعول الثاني، و{ الْحَمِيَّةَ } بدل اشتمال من { الَّذِينَ كَفَرُوا }، أي: تخلّقوا بالحميّة فهي دافعة بهم إلى أفعالهم لا يراعون مصلحة ولا مفسدة، فكذلك حين صدوكم عن المسجد الحرام.

{ **فِي قُلُوبِهِمْ** } متعلّق بـ { جَعَلَ }، أي: وضع الحمية في قلوبهم.

الحميَّة: الأنفة، أي: الاستنكاف من أمر لأنّه يراه غضاضة عليه، وأكثر إطلاق ذلك على استكبار لا موجب له، فإن كان لموجب فهو إباء الضيم.

{ **حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ** } عطف بيان للحميّة قصد من إجماله ثم تفصيله تقرير مدلوله وتأكيده. وإضافة الحميّة إلى الجاهلية لقصد تحقيرها وتشنيعها، فإنّها من خلق أهل الجاهلية، فإنّ ذلك انتساب ذمّ في اصطلاح القرآن، كقوله تعالى { يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ } [آل عمران:154]، وقوله تعالى { أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ } [المائدة:50].

{ **فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ** } تفريع على { إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا }، يؤذن بأنّ المؤمنين ودُّوا أن يقاتلوا المشركين وأن يدخلوا مكة للعمرة عنوة غضبا من صدِّهم، ولكنّ الله أنزل عليهم السكينة.

السكينة: الثبات والأناة، أي: جعل في قلوبهم التأنّي وصرف عنهم العجلة، فعصمهم من مقابلة الحمية بالغضب والانتقام، فقابلوا الحميّة بالتعقّل والتثبّت، فكان في ذلك خير كثير.

وإضافة السكينة إلى ضمير الله تعالى إضافة تشريف لأنّ السكينة من الأخلاق الفاضلة فهي موهبة إلهية.

{ **إِذْ جَعَلَ / فَأَنْزَلَ - حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ / سَكِينَتَهُ** } من النكت المعنوية في هذه الآية مقابلة الجعل بالإنزال، فدل على تكريم المؤمنين، لأن الإنزال تخييل للرفعة، وإضافة السكينة إلى اسم ذاته زيادة تشريف وتكريم.

{ **وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى** } عطف على إنزال الله سكينته، أي: جعل كلمة التقوى لازمة لهم لا يفارقونها، ليكون إنزال السكينة في قلوبهم، مؤثرا فيهم عملا ظاهريا وهو ملازمتهم كلمة التقوى، كما كانت حميّة الجاهلية هي التي دفعت الذين كفروا إلى صدّ المسلمين عن المسجد الحرام.

{ **كَلِمَةَ التَّقْوَى** } إن حُملت على ظاهر معنى { كَلِمَةَ } كانت من قبيل الألفاظ، وإطلاق الكلمة على الكلام شائع، قال تعالى { إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا } [المؤمنون:100] ففسِّرت الكلمة هنا بأنها قول: لا إله إلا الله. وروي تفسيرها بذلك عند عدد كثير من الصحابة.

فيكون المعنى: أنّه قدّر لهم الثبات عليها، قولا بلفظها وعملا بمدلولها، إذ فائدة الكلام حصول معناه، كما في قوله تعالى { وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ } [الزخرف:28] يعني بها قول إبراهيم لأبيه وقومه { إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ } [الزخرف:27/26].

وعن الحسن: أنّ { كَلِمَةَ التَّقْوَى } الوفاء بالعهد، فيكون الإلزام على هذا بمعنى الإيجاب، أي: أمرهم بأن يفوا بما عاهدوا عليه للمشركين ولا ينقضوا عهدهم، فلذلك لم ينقض المسلمون العهد حتّى كان المشركون هم الذين ابتدأوا بنقضه.

{ **وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا** } واو الحال، أي: ألزمهم تلك الكلمة في حال كانوا فيه أحقّ بها وأهلها ممّن لم يلزموها وهم الذين لم يقبلوا التوحيد على نحو قوله تعالى { وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ } [البقرة:143]. وجيء بفعل كانوا لدلالتها على أنّ هذه الأحقية راسخة فيهم حاصلة في الزمن الماضي.

{ **وَأَهْلَهَا** } أهل الشيء مستحقِّه، أي: أنّهم كانوا أهل كلمة التقوى لأنّها تناسب ضمائرهم وما انطوت عليه قلوبهم. وهذه الأهلية مثل الأحقية متفاوتة في الناس وكلّما اهتدى أحد من المشركين إلى الإسلام دلّ اهتداؤه على أنّه حصلت له هذه الأهلية للإسلام.

{ **وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً** } تذييل، أي: وسبق في علم الله ذلك في عموم ما أحاط به علمه.

{ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً } [27].

استئناف بياني ناشئ عن قوله تعالى { فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ } [26]، دحض به ما خامر نفوس فريق من الفشل أو الشك أو التحيّر، وذلك بتبيين ما أنعم الله به على أهل بيعة الرضوان من ثواب الدنيا والآخرة، وكشْف شبهة عرضت للقوم في رؤيا رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ذلك أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رؤيا قبل خروجه إلى الحديبية، أو وهو في الحديبية: كأنّه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين وحلقوا وقصّروا. هكذا كانت الرؤيا مجملة ليس فيها وقوع حجّ ولا عمرة، فالحلق والتقصير مناسب لكليهما. وقصّ رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤياه على أصحابه فاستبشروا بها وعبّروها أنّهم داخلون إلى مكة بعمرتهم التي خرجوا لأجلها، فلمّا جرى الصلح وتأهّب الناس إلى القفول أثار بعض المنافقين ذكر الرؤيا، فقالوا: فأين الرؤيا؟ فوالله ما دخلنا المسجد الحرام ولا حلقنا وقصّرنا. فقال لهم أبو بكر رضي الله عنه: إنّ المنام لم يكن موقّتا بوقت وأنّه سيدخل، وأنزل الله تعالى هذه الآية.

<u>المعنى</u>: أن رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم حقّ، وأن الله أوحى إليه بها وأنّها وإن لم تقع في ذلك الحين فستُحقّق بعد ذلك. وكأنّ الحكمة في إراءة الله رسوله صلى الله عليه وسلم تلك الرؤيا أيامئذ وفي إخبار الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه بها: أن الله أدخل بذلك على قلوبهم الثقة بقوّتهم لتربية الجراءة على المشركين في ديارهم، فتسلم قلوبهم من ماء الجبن.

{ **لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ** } التوكيد لإبطال شبهة المنافقين الذين قالوا: فأين الرؤيا؟

المعنى: أنّه أراه رؤيا صادقة، لأنّ رؤيا الأنبياء وحي، فآلت إلى معنى الخبر فوصفت بالصدق لذلك.
وهذا تطمين لهم بأنّ ذلك سيكون لا محالة وهو في حين نزول الآية لمّا يحصل بقرينة قوله تعالى { إِنْ شَاءَ اللَّهُ }.

الحقّ: الغرض الصحيح والحكمة، أي: كانت رؤيا صادقة وكانت مجعولة محكمة.

{ **لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ** } إلى آخرها، بيان لجملة { لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ }، لأنّ معنى { لَتَدْخُلُنَّ } تحقيق دخول المسجد الحرام في المستقبل، فيُعلم منه أنّ الرؤيا إخبار بدخول لم يُعيّن زمنه، فهي صادقة فيما يتحقّق في المستقبل. وقد فهم ذلك أبو بكر إذ قال لهم: إنّ المنام لم يكن موقّتا بوقت وأنه سيدخل. وقد جاء في سورة يوسف { وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيايَ مِنْ قَبْلُ } [يوسف:100].

{ **إِنْ شَاءَ اللَّهُ** } من شأنه أن يُذيَّل به الخبر المستقبل إذا كان حصوله متراخيا، ألا ترى أنّ الذي يقال له: افعل كذا، فيقول: أفعل إن شاء الله، لا يُفهم من كلامه أنّه يفعل في الحال أو في المستقبل القريب بل يفعله بعد زمن ولكن مع تحقيق أنّه يفعله.

ولذلك تأوّلوا قوله تعالى { وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ } [يوسف:99]، أن { إِنْ شَاءَ اللَّهُ } للدخول مع تقدير الأمن، لأنّه قال ذلك حين دخلوا مصر. أمّا ما هنا فهو من كلام الله فلا يناسبه هذا المحمل.

والموعود به صادق بدخولهم مكة بالعمرة سنة سبع وهي عمرة القضية، فإنّهم دخلوا المسجد الحرام آمنين وحلق بعضهم وقصّر بعضهم غير خائفين، إذ كان بينهم وبين المشركين عهد، وذلك أقرب دخول بعد هذا الوعد، وصادق بدخولهم المسجد الحرام عام حجّة الوداع، وعدم الخوف فيه أظهر.

وأمّا دخولهم مكة يوم الفتح فلم يكونوا فيه محرمين.

{ **مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ** } حال من ضمير { آمِنِينَ }، كناية عن التمكّن من إتمام الحجّ والعمرة.

{ **لا تَخَافُونَ** } الجملة في موضع الحال مؤكِّدة لـ { آمِنِينَ } تأكيدا بالمرادف للدلالة على أنّ الأمن كامل محقَّق، وذلك إيماء إلى أنّهم يكونون أشدّ قوّة من عدوّهم الذي أمّنهم، وهذا يومئ إلى حكمة تأخير دخولهم مكة إلى عام قابل حيث يزدادون قوّة واستعدادا. وهو أظهر في دخولهم عام حجّة الوداع.

{ **فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا** } الفاء لتفريع الأخبار لا لتفريع المُخبَر به، لأنّ علم الله سابق على دخولهم وعلى الرؤيا المؤذنة بدخولهم، كما تقدّم في قوله تعالى { فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ } [18].

{ **فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً** } في إيثار فعل (جعل) في هذا التركيب دون أن يقول: فتح لكم، أو نحوه، إفادة أنّ هذا الفتح أمره عجيب ما كان ليحصل مثله لولا تقدير الله. وصيغة الماضي لتنزيل المستقبل المحقَّق منزلة الماضي، أو لأن (جعل) بمعنى قدَّر.

المعنى: فجعل فتحا قريبا لكم زيادة على ما وعدكم من دخول مكة آمنين. وهذا الفتح أوّله هو فتح خيبر الذي وقع قبل عمرة القضية وهذا القريب من وقت الصلح.

{ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً } [28].

زيادة تحقيق لصدق الرؤيا بأنّ الذي أرسل رسوله صلى الله عليه وسلم بهذا الدين ما كان ليريه رؤيا غير صادقة. وبهذا يظهر لك حسن موقع الضمير والموصول، لأنّ الموصول يفيد العلم بمضمون الصلة غالبا.

{ **هُوَ** } الضمير عائد إلى اسم الجلالة في قوله تعالى { لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا }. وهم يعلمون أنّ رؤيا الرسول صلى الله عليه وسلم وحي من الله. وفي هذا تذكير ولوم للمؤمنين الذين غفلوا عن هذا حين لم يجروا على موجب العلم بهما فخامرتهم ظنون لا تليق بمن يعلم أن رؤيا الرسول وحي. وفيه تعريض بالمنافقين الذين أدخلوا التردّد في قلوب المؤمنين.

{ **بِالْهُدَى** } الباء للمصاحبة وهو متعلق بـ { أَرْسَلَ }. <u>أطلق هنا على ما به الهدي</u>، كقوله تعالى { شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ } [البقرة:185].

{ **وَدِينَ الْحَقِّ** } عطف على الهدى ليشمل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من الأحكام، أصولها وفروعها، ممّا أوحي به إلى الرسول صلى الله عليه وسلم سوى القرآن من كلّ وحي بكلام لم يُقصد به الإعجاز، أو كان من سنّة الرسول صلى الله عليه وسلم.

<u>ويجوز </u>أن يكون المراد { بِالْهُدَى } أصول الدين، من اعتقاد الإيمان وفضائل الأخلاق التي بها تزكية النفس، وبـ { دِينَ الْحَقِّ } شرائع الإسلام وفروعه.

{ **لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ** } اللام لتعليل فعل { أَرْسَلَ } ومتعلّقاته، أي: أرسله بذلك ليظهر هذا الدين على جميع الأديان الإلهية السالفة، ولذلك أكِّد بـ { كُلِّهِ } لأنّه في معنى الجمع.

الإظهار: أصله مشتقّ من ظَهَر بمعنى بدا، فاستُعمل كناية عن الارتفاع الحقيقي ثم أطلق مجازا عن الشرف، فصار { لِيُظْهِرَهُ } بمعنى أعلاه، أي: ليشرّفه على الأديان كلّها، وهذا كقوله تعالى في حقّ القرآن { مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ } [المائدة:48].

{ **وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً** } لمّا كان المقصود من قوله تعالى { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى } الشهادة بأنّ الرؤيا صدق، وقع التذييل بهذه الجملة، أي: أجزأتكم شهادة الله بصدق الرؤيا إلى أن تروا تأويلها في الإبّان.

{ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً } [29].

{ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ }

لمّا بيَّن صدق الرسول صلى الله عليه وسلم في رؤياه واطمأنّت نفوس المؤمنين أعقب ذلك بتنويه شأن الرسول صلى الله عليه وسلم والثناء على المؤمنين الذين معه.

{ **مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ** } خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هو محمد. والمقصود بيان رسول الله من هو بعد أن أجرى عليه من الأخبار من قوله تعالى { لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ - إلى قوله - لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ } [28/27] فيُعتبر السامع كالمشتاق إلى بيان من هذا المتحدَّث عنه بهذه الأخبار؟ فيقال له: محمد رسول الله، أي: هو محمد رسول الله. وهذا من العناية والاهتمام بذكر مناقبه صلى الله عليه وسلم. وفي هذا نداء على إبطال جحود المشركين رسالته حين امتنعوا من أن يُكتب في صحيفة الصلح هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله. وقالوا: لو كنّا نعلم أنّك رسول الله ما صددناك عن البيت.

{ **وَالَّذِينَ مَعَهُ** } يجوز أن يكون مبتدأ و{ أَشِدَّاءُ } خبرا عنه وما بعده إخبار، والمقصود: الثناء على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

{ **مَعَهُ** } أي: المصاحبة الكاملة بالطاعة والتأييد، كقوله تعالى { وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ } [المائدة:12].

والمراد: أصحابه كلّهم لا خصوص أهل الحديبية. وإن كانوا هم المقصود ابتداء فقد عُرفوا بصدق ما عاهدوا عليه الله، ولذلك لما انهزم المسلمون يوم حنين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس: **" ناد يا أهل السَّمُرة "**.

{ **أَشِدَّاءُ** } جمع شديد، وهو الموصوف بالشدّة المعنوية، وهي صلابة المعاملة وقساوتها، قال تعالى في وصف النار { عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ } [التحريم:6].

الشدة على الكفار: هي الشدّة في قتالهم وإظهار العداوة لهم، وهذا وصف مدح لأنّ المؤمنين الذين مع النبيّ صلى الله عليه وسلم كانوا هم فئة الحقّ ونشر الإسلام فلا يليق بهم إلّا إظهار الغضب لله، والحبّ في الله والبغض في الله من الإيمان.

وتكون أحكام الشدّة على الكفار من وجوب وندب وإباحة، وأحكام صحبتهم ومعاملتهم جارية على مختلف الأحوال، ولعلماء الإسلام فيها مقال، وقد تقدّم كثير من ذلك في [آل عمران:28] وفي [التوبة:9].

{ **رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ** } وأمّا كونهم رحماء بينهم فذلك من رسوخ أخوّة الإيمان بينهم في نفوسهم. وقد وردت أخبار أخوّتهم وتراحمهم في مواضع كثيرة من القرآن وكلام الرسول صلى الله عليه وسلم.

وفي الجمع لهم بين هاتين الخلّتين المتضادتين، الشدّة والرحمة، إيماء إلى أصالة آرائهم وحكمة عقولهم، وأنّهم يتصرّفون في أخلاقهم وأعمالهم تصرّف الحكمة والرشد فلا تغلب على نفوسهم محمدة دون أخرى ولا يندفعون إلى العمل بالجبلّة وعدم الرويّة. وفي هذا المعنى قوله تعالى { فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ } [المائدة:54].

{ **تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً** } الخطاب لغير معيّن بل لكلّ من تتأتّى رؤيته إياهم، أي: يراهم الرائي.

وإيثار صيغة المضارع للدلالة على تكرر ذلك منهم، أي: تراهم دائما ركّعا سجّدا. وهذا ثناء عليهم بشدّة إقبالهم على أفضل الأعمال المُزكّية للنفس، وهي الصلوات مفروضها ونافلتها، وأنّهم يتطلّبون بذلك رضى الله ورضوانه. وفي سوق هذا، في مساق الثناء، إيماء إلى أنّ الله حقّق لهم ما يبتغونه.

{ **سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ** } السّيما: العلامة، وتقدّم عند قوله تعالى { تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ } [البقرة:273]، وهذه سيما خاصة هي من أثر السجود، واختُلف في المراد على ثلاثة أنحاء:

<u>الأوّل: أنّها أثر محسوس للسجود</u>. قال مالك: السّيما هي ما يتعلّق بجباههم من الأرض عند السجود.

وقال السعيد وعكرمة: الأثر يكون في جبهة الرجل. وليس المراد أنّهم يتكلفون حدوث ذلك في وجوههم ولكنه يحصل من غير قصد بسبب تكرّر مباشرة الجبهة للأرض، فلا حرج على من حصل له ذلك إذا لم يتكلّفه، ولم يقصد به رياء.

<u>الثاني: أنّها من الأثر النفسي للسجود</u>. قال الأعمش: من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار. وعن ابن عباس: هو حسن السمت. وعن مجاهد: هو نور من الخشوع والتواضع

<u>الثالث: أنّها أثر يظهر في وجوههم يوم القيامة</u>. أخرج الطبراني وابن مردويه عن أُبي بن كعب قال: قال رسول الله في قوله تعالى { سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ } [29] **النور يوم القيامة "**، [سنده حسن]. وهو لا يقتضي تعطيل بقية الاحتمالات إذ كلّها محمودة، ولكن النبيّ صلى الله عليه وسلم ذكر أعلاها.

وبذلك فسّر سعيد بن جبير والزهري، وعن ابن عباس في رواية: أنّها سيما تكون لهم يوم القيامة.

وقالوا: هي بياض يكون في الوجه يوم القيامة كالقمر ليلة البدر يجعله الله كرامة لهم.

{ **ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ** } الإشارة إلى المذكور من صفات الذين مع النبيّ صلى الله عليه وسلم.

المثل: يطلق على الحالة العجيبة، ويطلق على النظير، أي: المشابه. فإن كان هنا محمولا على الحالة العجيبة <u>فالمعنى</u>: أنّ الصفات المذكورة هي حالهم الموصوف في التوراة. فيحتمل أن في التوراة وصف قوم سيأتون ووصفوا بهذه الصفات، فبين الله بهذه الآية أنّ الذين مع النبيّ صلى الله عليه وسلم هم المقصود بتلك الصفة العجيبة التي في التوراة.

{ **وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ** } ابتداء كلام جديد، ويكون الوقف على قوله { فِي التَّوْرَاةِ }.

وظاهر السياق يشير إلى تشبيه آخر جاء في الإنجيل، لعلّه ما في [إنجيل متّى، الإصحاح:13، الفقرة:3]: " هو ذا الزارع قد خرج ليزرع (يعني عيسى عليه السلام) وفيما هو يزرع سقط بعض على الطريق فجاءت الطيور وأكلته [...] وسقط الآخر على الأرض الجيدة، فأعطى ثمرة بعضٌ مائة وآخر ستين وآخر ثلاثين [...] وأمَّا المزروع على الأرض الجيدة فهو الذي يسمع الكلمة ويفهم، وهو الذي يأتي بثمر فيصنع بعضٌ مائة وبعضٌ ستين وآخر ثلاثين ".

والتشبيه يتضمّن نماء الإيمان في قلوبهم وبأنّهم يدعون الناس الى الدين حتّى يكثر المؤمنون، كما تُنبت الحبّة مائة سنبلة، وكما تنبت من النواة الشجرة العظيمة.

{ **أَخْرَجَ شَطْأَهُ** } استعارة، و**الشطء** (بهمزة في آخره وسكون الطاء): فراخ الزرع وفروع الحبة.

يقال: أشطأ الزرع، إذا أخرج فروعا.

{ **فَآزَرَهُ** } قوّاه، وهو من المؤازرة (بالهمز)، وهي المعاونة، وهو مشتق من اسم (الإزار) لأنّه يشدّ ظهر المتّزر به ويعينه شدّه على العمل والحمل، كذا قيل. والأظهر عندي عكس ذلك وهو أن يكون الإزار مشتقا اسمه من: آزر، لأنّ الاشتقاق من الأسماء الجامدة نادر لا يصار إلى دعائه إلّا إذا تعين.

وصيغة المفاعلة مستعارة لقوّة الفعل كما في قوله تعالى { وَبَارَكَ فِيهَا } .[فصلت:10].

{ **فَاسْتَغْلَظَ** } غلظ غلظا شديدا في نوعه، فالسين والتاء للمبالغة.

السوق: جمع ساق على غير قياس. وساق الزرع والشجرة: الأصل الذي تتفرّع منه الأغصان.

ومعنى هذا التمثيل: تشبيه حال بدء المسلمين ونمائهم حتّى كثروا.

{ **لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ** } تعليل لما تضمّنه تمثيلهم بالزرع الموصوف من نمائهم وترقّيهم في الزيادة والقوّة، لأنّ كونهم بتلك الحالة من تقدير الله لهم، فمثَّل بأنّه تعالى فعل ذلك ليغيظ بهم الكفار.

قال القرطبي: قال أبو عروة الزبيري (لعلّه سعيد بن عمر الزبيري المدني من أصحاب مالك ترجمه في المدارك ولم يذكر كنيته): كنّا عند مالك بن أنس فذكروا عنده رجلا ينتقص أصحاب رسول الله فقرأ مالك هذه الآية { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ } إلى أن بلغ قوله { لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ }، فقال مالك: " من أصبح من الناس في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أصابته هذه الآية ".

قلتُ: رحم الله مالك بن أنس ورضي عنه ما أدق استنباطه.

{ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً** } أعقب تنويه شأنهم والثناء عليهم بوعدهم بالجزاء على ما اتصفوا به من الصفات التي لها الأثر المتين في نشر ونصر هذا الدين.

{ **مِنْهُمْ** } يجوز أن تكون (من) للبيان كقوله { فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ } [الحج:30]، وهو استعمال كثير، ويجوز إبقاؤه على ظاهر المعنى من التبعيض، لأنّه وعد لكلّ من يكون مع النبيّ صلى الله عليه

وسلم في الحاضر والمستقبل فيكون ذكر (من) تحذيرا، وهو لا ينافي المغفرة لجميعهم لأنّ جميعهم آمنوا وعملوا الصالحات، وأصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم هم خيرة المؤمنين.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحُجُرات

سُمِّيت في جميع المصاحف وكتب السنّة والتفسير (**سورة الحُجُرات**) وليس لها اسم غيره، ووجه تسميتها أنّها ذكر فيها لفظ الحُجُرات. ونزلت في قصّة نداء بني تميم رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء حجراته، فعُرفت بهذه الإضافة.

وهي مدنية باتفاق أهل التأويل، أي: ممّا نزل بعد الهجرة.

وهي السورة الثامنة بعد المائة في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة المجادلة وقبل سورة التحريم، وكان نزولها سنة تسع.

وعدّ جميع العادِّين آيها **ثمان عشرة** آية.

أغراض السورة

*/ تعليم المسلمين بعض ما يجب عليهم من الأدب مع النبيّ صلى الله عليه وسلم في معاملته وخطابه ونداءه.

*/ وجوب صدق المسلمين فيما يخبرون به، والتثبّت في نقل الخبر مطلقا، وأنّ ذلك من خلق المؤمنين.

*/ مجانبة أخلاق الكافرين والفاسقين.

*/ تطرّقت إلى ما يحدث من التقاتل بين المسلمين، والإصلاح بينهم لأنّهم إخوة.

*/ ما أمر الله به من آداب حسن المعاملة بين المسلمين في أحوالهم في السر والعلانية.

*/ التحذير من بقايا خُلُق الكفر في بعض جفاة الأعراب تقويما لأود نفوسهم.

وهذه السورة هي أوّل سور المفصَّل، ويُسمَّى المُحْكم على أحد أقوال في المذهب، وهو الذي ارتضاه المتأخرون من الفقهاء. والمفصَّل هو السور التي تُستحب القراءة ببعضها في بعض الصلوات الخمس على ما هو مبيّن في كتب الفقه.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [1].

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } الافتتاح بنداء المؤمنين للتنبيه على أهمية ما يرد بعد ذلك النداء لتترقّبه أسماعهم بشوق. ووصفهم بـ { الَّذِينَ آمَنُوا } جار مجرى اللقب لهم مع ما يؤذن به أصله من أهليتهم لتلقي هذا النهي بالامتثال.

ذكر فخر الدين الرازي في تفسيره أنّ الله أرشد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق، وهي: (**إمّا** في جانب الله، **أو** جانب رسوله صلى الله عليه وسلم، **أو** بجانب الفسّاق، **أو** بجانب المؤمن الحاضر، **أو** بجانب المؤمن الغائب). فهذه خمسة أقسام، فذكر الله في هذه السورة خمس مرات { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } فأرشد في كل مرّة إلى مكرمة مع قسم من الأقسام الخمسة.

فهذا الآية هي النداء الأوّل اندرج فيه واجب الأدب مع الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، تعرض الغفلة عنه.

التقدّم: حقيقته المشي قبل الغير، وفعله المجرد: **قَدُمَ**. قال تعالى { يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } [هود:98].

ويقال: قدَّم بمعنى تقدَّم كأنَّه قدَّم نفسه، فهو مضاعف صار غير متعدّ.

{ لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ } أي: لا تتقدّموا. والتركيب تمثيل بتشبيه حال من يفعل فعلا دون إذن من الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بحال من يتقدّم من يمشي معه ويتركه خلفه. ووجه الشبه الانفراد عنه في الطريق. والنهي هنا للتحذير إذ لم يسبق صدور فعل من أحد افتياتًا على الشرع.

وهذه الآية تؤيّد قول الفقهاء: إنّ المكلَّف لا يُقْدِم على فعل حتّى يعلم حكم الله فيه.

والمقصود من الآية النهي عن إبرام شيء دون إذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكر قبله اسم الله للتنبيه على أنّ مراد الله إنّما يّعرف من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم.

وقد حصل من القول معنى اتبعوا الله ورسوله.

وأرجح الروايات في سبب نزول الآية ما رواه البخاري في صحيحه في قصّة وفد بني تميم بسنده إلى ابن الزبير قال: " قدم ركب من بني تميم على النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر: أمِّر عليهم القعقاع بن معبد بن زُرارة. وقال عمر: بل أمِّر الأقرع بن حابس. قال أبو بكر: ما أردت إلّا خلافي (أو إلى خلافي)، قال عمر: ما أردت خلافك (أو إلى خلافك)، فتماريا حتّى ارتفعت أصواتهما في ذلك، فنزل { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ } [2/1] ".

وجُعلت هذه الآية في صدر السورة مقدَّمة على توبيخ وفد بني تميم حين نادوا النبيّ صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات لأنّ ما صدر من بني تميم هو من قبيل رفع الصوت عند النبيّ صلى الله عليه وسلم، ولأنّ مماراة أبي بكر وعمر وارتفاع أصواتهما كانت في قضية بني تميم.

فهي توطئة للنهي عن رفع الأصوات عند رسول الله صلى الله عليه وسلم والجهر له بالقول وندائه من وراء الحجرات. وكان هذا التقديم أيضا للاعتناء بتأديب من هو أولى بالتهذيب.

{ **وَاتَّقُوا اللَّهَ** } تكملة للنهي عن التقدّم بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم ليدلّ على أنّ ترك إبرام شيء دون إذن الرسول صلى الله عليه وسلم من تقوى الله وحده.

{ **إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** } في موضع العلّة للنهي عن التقدّم بين يدي الله ورسوله وللأمر بتقوى الله.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ } [2].

إعادة النداء ثانيا للاهتمام بهذا الغرض والإشعار بأنّه غرض جدير بالتنبيه عليه بخصوصه حتّى لا ينغمر في الغرض الأول، فإنّ هذا من آداب سلوك المؤمنين في معاملة النبيّ صلى الله عليه وسلم، ومقتضى التأدّب بما هو آكد من المعاملات بدلالة الفحوى.

وهذا أيضا توطئة لقوله { إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ } [4]، وإلقاء لتربية ألقيت إليهم لمناسبة طرف من أطراف خبر وفد بني تميم.

الرفع: مستعار لجهر الصوت جهرا متجاوزا لمعتاد الكلام، شُبِّه جهر الصوت بإعلاء الجسم، على طريقة الاستعارة المكنية، أو شُبِّه إلقاء الكلام بجهر قوي بإلقائه من مكان مرتفع على طريقة الاستعارة التبعية.

{ **فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ** } ترشيح لاستعارة { لَا تَرْفَعُوا }، وهو فوق مجازي أيضا. وموقعها موقع الحال من { أَصْوَاتَكُمْ }، أي: متجاوزة صوت النبيّ صلى الله عليه وسلم، أي: متجاوزة المعتاد في جهر الأصوات.

<u>المعنى</u>: لا ترفعوا أصواتكم في مجلسه وبحضرته إذا كلّم بعضكم بعضا كما وقع في سبب النزول.

وفي صحيح البخاري قال ابن أبي مليكة: " كاد الخيّران أن يهلكا أبو بكر وعمر رفعا أصواتهما عند النبيّ صلى الله عليه وسلم ".

وهذا النهي مخصوص بغير المواضع التي يؤمر بالجهر فيها كالأذان وتكبير يوم العيد.

{ **وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ** } نهي عن جهر آخر وهو الجهر بالصوت عند خطابهم الرسول صلى الله عليه وسلم لوجوب التغاير بين مقتضى قوله { لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ } ومقتضى هذا القول.

{ **لَهُ** } اللام لتعدية الفعل لأنّه في معنى: تقولوا، فدلّت اللام على أنَّ هذا الجهر يتعلّق بمخاطبته.

وفي هذا النهي ما يشمل صنيع الذين نادوا النبيّ صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات، فيكون تخلُّصا من المقدِّمة إلى الغرض المقصود.

{ **أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ** } في محل نصب على نزع الخافض وهو (لام التعليل) وهذا تعليل للمنهي عنه لا

للنهي، أي: أنّ الجهر له بالقول يُفضي بكم، إن لم تكفُّوا عنه، أن تحبط أعمالكم. فالتقدير: خشية أن تحبط أعمالكم.

الحبط: تمثيل لعدم الانتفاع بالأعمال الصالحة بسبب ما يطرأ عليها من الكفر، مأخوذ من حَبِطَت الإبل إذا أكلت الخضر فنفخ بطونها وتعتلّ وربما هلكت. وتقدّم قوله تعالى { وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْأِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ } [المائدة:5].

فمعنى الآية: أنّ عدم الاحتراز من سوء الأدب مع النبيّ صلى الله عليه وسلم، بعد هذا النهي، قد يُفضي بفاعله إلى إثم عظيم يأتي على عظيم من صالحاته، و قد يفضي به إلى الكفر، لأنّ عدم الانتهاء عن سوء الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم يعوّد النفس بالاسترسال فيه فلا تزال تزداد منه وينقص توقير الرسول صلى الله عليه وسلم من النفس وتتولّى من سيّء إلى أشد منه حتى يؤول إلى عدم الاكتراث بالتأدب معه وذلك كفر.

{ **وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ** } لأنّ المنتقل من سيّء إلى أسوأ لا يشعر بأنّه آخذ في التملِّي من السوء بحكم التعوّد بالشيء قليلا حتّى تغمره المعاصي وربما كان آخرها الكفر.

ففي القول تنبيه إلى مزيد الحذر من هذه المهلكات.

وليس عدم الشعور كائنا في إتيان الفعل المنهي عنه لأنّه لو كان كذلك لكان صاحبه غير مكلّف، لامتناع تكليف الغافل ونحوه.

{ **إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ** } [3].

استئناف بياني لأنّ التحذير السابق { أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ } [2] يثير في النفس سؤالا عن ضدّ حال الذي يرفع صوته. والتأكيد للاهتمام بمضمونه من الثناء عليهم وجزاء عملهم. وتفيد الجملة تعليل النهيين بذكر الجزاء عن ضد المنهي عنهما.

عن ابن عباس لمّا نزل قوله تعالى { لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ } [2] كان أبو بكر لا يكلّم رسول الله إلا كأخي السرار (أي: صاحب السر)، فأنزل الله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ }.

الغضّ: حقيقته خفض العين، أي: ألّا يحدّق بها إلى الشخص، وهو هنا مستعار لخفض الصوت والميل به إلى الإسرار.

{ **أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى** } اسم الإشارة لتأكد الاهتمام بالمراد، مع ما فيه من التنبيه على أنّ المشار إليهم جديرون بالخبر المذكور بعده لأجل ما ذُكر من الوصف قبله.

الامتحان: الاختبار والتجربة، وهو افتعال من مَحَنَه، إذا اختبره، وصيغة الافتعال فيه للمبالغة.

{ **لِلتَّقْوَى** } لام العلّة، والتقدير: امتحن قلوبهم لأجل التقوى، أي: ليكونوا أتقياء، يقال: امتُحن فلان للشيء الفلاني. فيجوز أن يُجعل الامتحان كناية على تمكّن التقوى من قلوبهم وثباتهم عليها.

ويجوز أن يُجعل فعل { امْتَحَنَ } مجازا مرسلا عن العلم، أي: علم الله أنّهم متّقون، وعليه فتكون اللام من قوله { لِلتَّقْوَى } متعلّقة بمحذوف هو حال من قلوب، أي: كائنة للتقوى، فاللام للاختصاص.

{ **لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ** } خبر { إِنَّ } وهو المقصود من الجملة المستأنفة وما بينهما اعتراض للتنويه بشأنه. وهذا الوعد والثناء يشملان ابتداء أبا بكر وعمر إذ كان كلاهما يكلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم كأخي السرار.

{ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ [4] وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ [5] }.

بيان لجملة { وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ } [2]، بيانا بالمثال وهو سبب النزول.

فهذا شروع في الغرض، وما سبقه كالمقدّمة والتوطئة، وإن كان في ترتيب الحصول لاحقا عن هذا.

وقد صادف هذا الترتيب المِحَزَّ، إذ كان نداؤهم من وراء الحجرات من قبيل الجهر للرسول صلى الله عليه وسلم بالقول كجهر بعضهم لبعض فكان النهي عن الجهر له بالقول تخلُّصا لذكر ندائه من وراء الحجرات.

{ **إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ** } المراد بهم جماعة من وفد (بني تميم) جاءوا المدينة في (سنة 9هـ) وهي سنة الوفود، وكانوا سبعين رجلا أو أكثر. وكان سبب وفود هذا الوفد إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّ (بني العنبر) منهم كانوا قد شهروا السلاح على خُزاعة، وقيل كانوا منعوا إخوانهم بني كعب بن العنبر بن عمرو بن تميم من إعطاء الزكاة، وكان بنو كعب قد أسلموا من قبل. والظاهر أنّهم أسلموا في سنة الوفود فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بشر بن سفيان ساعيا لقبض صدقات بني كعب، فمنعهم بنو العنبر فبعث النبيّ صلى الله عليه وسلم عيينة بن حصن في خمسين من العرب ليس فيهم أنصاري ولا مهاجري فأسر منهم أحد عشر رجلا وإحدى عشرة امرأة وثلاثين صبيّا. فجاء في أثرهم جماعة من رؤسائهم لفدائهم فجاؤوا المدينة. وكان خطيبهم (عطارد بن حاجب بن زُراره)، وفيهم سادتهم:

(الزبرقان بن بدر - عمرو بن الأهتم - الأقرع بن حابس - عيينة بن حصن الفزاري الغطفاني) وكان هذان الأخيران أسلما من قبل وشهدا مع النبي صلى الله عليه وسلم غزوة الفتح، ثم جاء معهم الوفد، فلمّا دخل الوفد المسجد وكان وقت القائلة ورسول الله صلى الله عليه وسلم نائم في حجرته، نادوا جميعا وراء الحجرات: " يا محمد اخرج إلينا (ثلاثا) فإنّ مدحنا زَين، وإنّ ذمّنا شَين، نحن أكرم العرب ".

(قولهم: إنّ مدحنا زَين، طريقة كانوا يستدرُّون بها العظماء للعطاء، سلكوا في عملهم هذا مسلك وفود

العرب على الملوك والسادة، كانوا يأتون بيت الملك أو السيد فيطيفون به ينادون ليؤذن لهم، كما ورد في قصّة ورود النابغة على النعمان بن الحارث الغساني).

فلمّا خرج إليهم رسول الله قالوا: " جئناك نفاخرك فأْذن لشاعرنا وخطيبنا ". إلى آخر القصة.

وقولهم: نفاخرك، جروا فيه على عادة الوفود من العرب أن يذكروا مفاخرهم وأيّامهم، ويذكر الموفود عليهم مفاخرهم، وذلك معنى صيغة المفاعلة في قولهم: نفاخرك، وكان جمهورهم لم يزالوا كفَّارا حينئذ وإنَّما أسلموا بعد أن تفاخروا وتناشدوا الأشعار.

{ **الَّذِينَ يُنَادُونَكَ** } رجال هذا الوفد. قال ابن عطية: جميعهم نادوه، ووقع في حديث البراء بن عازب أنّ الذي نادى النداء هو الأقرع بن حابس، وعليه فإسناد فعل { يُنَادُونَكَ } إلى ضمير الجماعة مجاز عقلي عن نسبة فعل المتبوع إلى أتباعه، إذ كان الأقرع بن حابس مقدَّم الوفد. كما يقال: بنو فلان قتلوا فلانا، وإنّما قتله واحد منهم، كما في قوله تعالى { وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً } [البقرة:72].

وهذا النداء وقع قبل نزول الآية فالتعبير بصيغة المضارع لاستحضار حالة ندائهم.

{ **مِنْ وَرَاءِ** } من الخلف، وهو جهة اعتبارية بحسب موقع ما يضاف إليه. مجاز في الجهة المحجوبة عن الرؤية. والمعنى: أنّ الحجرات حاجزة بينهم وبين النبيّ صلى الله عليه وسلم فهم لا يرونه.

الحُجُرات: (بضمتين ويجوز فتح الجيم) جمع **حُجْرة** وهي البقعة المحجورة، أي: التي مُنعت من أن يستعملها غير حاجِرها، فهي فعلة بمعنى مفعولة. وفي الحديث: " **أيقظوا صواحب الحُجر** "، يعني أزواجه.

وكانت الحجرات تفتح إلى المسجد، وكانت تسعا وهي من جريد النخل، أي: الحواجز التي بين كل واحدة والأخرى، وعلى أبوابها مسوح من شعر أسود. قال الحسن البصري: " كنت أدخل بيوت أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم في خلافة عثمان بن عفان فأتناول سقفها بيدي ".

{ **أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ** } نفي العقل عنهم مراد به عقل التأدّب الواجب في معاملة النبيّ صلى الله عليه وسلم، وليس فيها تحريم ولا ترتّب ذنب. وإنّما قال الله تعالى { أَكْثَرُهُمْ } لأنّ منهم من لم يناد النبيّ صلى الله عليه وسلم مثل ندائهم، ولعلّ المقصود استثناء اللذين كانا أسلما من قبل.

{ **وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ** } أي: أنّه يكسبهم وقارا بين أهل المدينة ويستدعي لهم الإقبال من الرسول صلى الله عليه وسلم إذ يخرج إليهم غير كاره لندائهم إيّاه، ورفع أصواتهم في مسجده، فكان فيما فعلوه جلافة.

{ **خَيْرًا** } يجوز أن يكون اسم تفضيل، ويكون المعنى: لكان صبرهم أفضل من العجلة. ويجوز أن يكون اسما ضدّ الشرّ، أي: لكان صبرهم خيرا لما فيه من محاسن الخُلق، بخلاف ما فعلوه فليس فيه خير.

وعلى الوجهين فالآية تأديب لهم وتعليمهم محاسن الأخلاق وإزالة العوائد الجاهلية الذميمة.

{ **وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } إشارة إلى أنّه تعالى لم يُحْصِ عليهم ذنبا فيما فعلوا ولا عرَّض لهم بتوبة.

أي: والله شأنه التجاوز عن مثل ذلك رحمة بالناس، لأنّ القوم كانوا جاهلين.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ } [6].

هذا نداء ثالث ابتدئ به غرض آخر وهو آداب جماعات المؤمنين بعضهم مع بعض، وقد تضافرت الروايات عند المفسّرين عن أم سلمة وابن عباس والحارث بن ضرارة الخزاعي أنّ هذه الآية نزلت عن سبب قضية حدثت. ذلك أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم بعث الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى بني المصطلق من خُزاعة ليأتي بصدقاتهم فلمّا بلغهم مجيئه، أو لما استبطأوا مجيئه، فإنّهم خرجوا لتلقّيه، أو خرجوا ليبلّغوا صدقاتهم بأنفسهم وعليهم السلاح، وأنّ الوليد بلغه أنّهم خرجوا إليه بتلك الحالة، وهي حالة غير مألوفة في تلقِّي المصدِّقين، وحدَّثته نفسه أنّهم يريدون قتله، أو لمّا رآهم مقبلين كذلك (على اختلاف الروايات) خاف أن يكونوا أرادوا قتله، إذ كانت بينه وبينهم شحناء من زمن الجاهلية، فولى راجعا إلى المدينة.

(هذا ما جاء في روايات أربع متفقة في صفة خروجهم إليه مع اختلافها في بيان الباعث لهم على ذلك الخروج، وفي أنّ الوليد أُعلم بخروجهم إليه أو رآهم أو استشعرت نفسه خوفا)، وأنّ الوليد جاء إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: إنّ بني المصطلق أرادوا قتلي وأنّهم منعوا الزكاة فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهَمَّ أن يبعث إليهم خالد بن الوليد لينظر في أمرهم، وفي رواية أنّه بعث خالدا وأمره بأن لا يغزوهم حتّى يستثبت أمرهم، وأنّ خالدا لمّا بلغ ديار القوم بعث عينا له ينظر حالهم فأخبره أنّهم يقيمون الأذان والصلاة، فأخبرهم بما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم وقبض زكاتهم وقفل راجعا.

<u>وفي رواية</u> أخرى أنّهم خافوا من رجوع الوليد بن عقبة أن يُظنّ بهم منع الصدقات فجاؤوا النبيّ صلى الله عليه وسلم قبل أن يخرج خالد بن الوليد إليهم، متبرِّئين من منع الزكاة ونيّة الفتك بالوليد بن عقبة.

<u>وفي رواية</u> أنّهم لمّا وصلوا إلى المدينة وجدوا الجيش خالد بن الوليد خارجا إلى غزوهم.

فهذا تلخيص هذه الروايات وهي بأسانيد ليس منها شيء في الصحيح.

<u>ووجه المناسبة</u> أنّ هذه القصة مشابهة لقصة وفد بني تميم، إذ كان وفد بني تميم النازلة فيهم الآية السابقة جاؤوا معتذرين عن ردّهم ساعي رسول الله صلى الله عليه وسلم لقبض صدقات بني كعب بن العنبر من تميم كما تقدّم، وبنو المصطلق تبرّؤوا من أنّهم يمنعون الزكاة، إلّا أنّ هذا يناكده بُعْد ما بين الوقتين، إلّا أن يكون في تعيين سنة وفد بني تميم وهم.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } إعادة الخطاب وفصله بدون عاطف لتخصيص هذا الغرض بالاهتمام. فالجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا. ولا تعلّق لهذه الآية بتشريع في قضية بني المصطلق مع الوليد بن عقبة.

والخطاب مراد به النبيّ صلى الله عليه وسلم ومن معه، ويشمل الوليد بن عقبة إذ صدق من أخبره بأنّ بني المصطلق يريدون له سوءا، ومن يأتي من حكّام المؤمنين وأمرائهم، لأنّ المقصود منه تشريع تعديل من لا يُعرف بالصدق والعدالة.

{ **إِنْ جَاءَكُمْ** } وأوثر في الشرط حرف (إن)، الذي الأصل فيه أن يكون للشرط المشكوك في وقوعه، للتنبيه على أنّ شأن فعل الشرط أن يكون نادر الوقوع لا يُقدم عليه المسلمون.

الفاسق: المتّصف بالفسوق، وهو فعل ما يحرّمه الشرع من الكبائر. وفسِّر هنا بالكاذب.

واعلم أنّ ليس في الآية ما يقتضي وصف الوليد بالفاسق تصريحا ولا تلويحا. وقد اتفق المفسِّرون على أنّ الوليد ظنّ ذلك، كما في الإصابة عن ابن عبد البرّ، وليس في الروايات ما يقتضي أنّه تعمّد الكذب.

قلتُ: ولو كان الوليد فاسقا لما ترك النبيّ صلى الله عليه وسلم تعنيفه واستتابته، فإنّه روي أنّه لم يزد على قوله له: **" التبيين من الله والعجلة من الشيطان "**، إذ كان تعجيل الوليد الرجوع عجلة. وقد كان خروج القوم للتعرّض إلى الوليد بتلك الهيئة مثار ظنّه حقًّا، إذ لم يكن المعروف خروج القبائل لتلقِّي السعاة.

وأنا أحسب أنّ عملهم كان حيلة من كبرائهم على انصراف الوليد عن الدخول في حيِّهم تَعيُّرًا منهم في نظر عامتهم من أن يدخل عدُّو لهم إلى ديارهم ويتولَّى قبض صدقاتهم فتُعيّرهم أعداؤهم بذلك، ويمتعض منهم دهماؤهم، ولذلك ذهبوا بصدقاتهم بأنفسهم. ويؤيِّد هذا ما جاء في بعض روايات هذا الخبر أنّ الوليد بن عقبة أُعلِم بخروج القوم إليه، فلعلّ ذلك الإعلام موعز به إليه ليخاف فيرجع.

وقد اتفق من ترجموا للوليد بن عقبة على أنّه كان شجاعا جوادا وكان ذا خلق ومروءة. وإنّما تلقّف هذه الأخبار الناقمون على عثمان إذ كان من عداد مناقمهم الباطلة أنّه ولَّى الوليد بن عقبة إمارة الكوفة، فحملوا الآية على غير وجهها وألصقوا بالوليد وصف الفاسق، وحاشاه منه، لتكون ولايته الإمارة باطلا.

وهذه الآية أصل في الشهادة والرواية من وجوب البحث عن دخيلة من جُهل حال تقواه. وهي أيضا أصل عظيم في تصرّفات ولّاة الأمور، وفي تعامل الناس بعضهم مع بعض من عدم الإصغاء إلى كل ما يروى.

{ **فَتَبَيَّنُوا** } التبيين قوّة الإبانة وهو متعدّ إلى مفعول بمعنى أبان، أي: تأمّلوا وتثبّتوا. والمفعول محذوف دلّ عليه قوله { **بِنَبَإٍ** }، أي: تبيّنوا ما جاء به.

والأمر بالتبيُّن أصل عظيم في وجوب التثبّت في القضاء، وأنّ لا يتتبّع الحاكم القيل والقال ولا ينصاع إلى الجولان في الخواطر من الظنون والأوهام.

{ **فَاسِقٌ بِنَبَإٍ** } التنكير في سياق الشرط يفيد العموم في الفسّاق بأيّ فسق اتصفوا، وفي الأنباء كيف كانت، كأنّه قيل: أيّ فاسق جاءكم بأيّ نبإ فتوقّفوا فيه وتطلّبوا بيان الأمر وانكشافه.

{ **أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ** } تقدّم نظير هذا التعليل في قوله تعالى { أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ } [2]. وهذا التحذير من جرّاء قبول خبر الكاذب يدلّ على تحذير من يخطر له اختلاق

خبر ممّا يترتّب على خبره الكاذب من إصابة الناس. وهذا بدلالة فحوى الخطاب.

الجهالة: تطلق بمعنى ضد العلم، وتطلق بمعنى ضد الحلم، مثل قولهم: جهل كجهل السيف.

فإن كان الأوّل (ضد العلم)، فالباء للملابسة وهو ظرف مستقر في موضع الحال، أي: متلبّسين بعدم العلم.

وعلى الإطلاق الثاني (ضد الحلم)، الباء للتعدية، أي: أن تصيبوا قوما بفعل من أثر الجهالة.

{ **فَتُصْبِحُوا** } أي: فتصيروا، لأنّ بعض أخوات (كان) تستعمل بمعنى الصيرورة.

الندم: الأسف على فعل صدر. والمراد به هنا الندم الديني، أي: الندم على التورّط في الذنب للتساهل وترك تطلب وجوه الحق.

وهذا الخطاب لا يترك المخبِرين (بكسر الباء) بمعزل عن المطالبة بهذا التبيّن فيما يتحمّلونه من الأخبار، وبتوخي سوء العاقبة فيما يختلقونه من المختلقَات، بالتمحيص لما يتلقّاه من حكاية أو يطرق سمعه من الكلام.

واعلم أنّ هذه الآية تتخرَّج منها أربع **مسائل من الفقه وأصوله**:

المسألة الأولى: وجوب البحث عن عدالة من كان مجهول الحال في قبول الشهادة أو الرواية عند القاضي وعند الروّاة. وهذا صريح الآية وقد أشرنا إليه آنفا.

المسألة الثانية: أنّها دالة على قبول الواحد الذي انتفت عنه تهمة الكذب في شهادته أو روايته وهو الموسوم بالعدالة، وهذا من مدلول مفهوم الشرط في قوله { إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا }، وهي مسألة أصولية في العمل بخبر الواحد.

المسألة الثالثة: قيل إنّ الآية تدلّ على أنّ الأصل في المجهول عدم العدالة، أيّ عدم ظنّ عدالته فيجب الكشف عن مجهول الحال فلا يعمل بشهادته ولا بروايته حتّى يُبحث عنه وتثبت عدالته. وهذا قول جمهور الفقهاء والمحدِّثين وهو قول مالك. وقال بعضهم: الأصل في الناس العدالة، وينسب إلى أبي حنيفة، فيُقبل عنده مجهول الباطن، ويُعبَّر عنه بمستور الحال.

أمّا المجهول باطنه وظاهره معا فحكي الاتفاق على عدم قبول خبره.

المسألة الرابعة: دلّ قوله { فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ } أنّه تحذير من الوقوع فيما يوجب الندم شرعا، أي: ما يوجب التوبة من تلك الإصابة، فكان هذا كناية عن الإثم في تلك الإصابة فحذَّر ولّاة الأمور من أن يصيبوا أحدا بضرّ أو عقاب أو حدّ أو غرم دون تبيّن.

{ **عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ** } تقديم المجرور على متعلّقه للاهتمام بذلك الفعل، وهو الإصابة بدون تثبّت.

{ **وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ [7] فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ [8]** }.

{ **وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ** } عطف على الجملة السابقة، عطف تشريع على تشريع، وليس مضمون هذه تكملة لمضمون تلك، بل هي جملة مستقلّة.

{ **وَاعْلَمُوا** } للاهتمام، وقد تقدّم في قوله تعالى { وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ } [البقرة:235]. وقوله تعالى { وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ } [الأنفال:41].

{ **أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ** } خبر مستعمل في الإيقاظ والتحذير على وجه الكناية. فإنّ كون رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيهم أمر معلوم لا يُخبر عنه. فالمقصود تعليم المسلمين باتباع ما شرع لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأحكام ولو كانت غير موافقة لرغباتهم.

وتقديم خبر (أنّ) على اسمها للاهتمام بهذا الكون فيهم، وتنبيها على أنّ واجبهم الاغتباط به والإخلاص له، لأنّ كونّه فيهم شرف عظيم لجماعتهم وصلاح لهم.

{ **لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ** } يجوز أن تكون الجملة استئنافا ابتدائيا، فضميرا الجمع في { يُطِيعُكُمْ / لَعَنِتُّمْ } عائدان إلى الذين آمنوا على توزيع الفعل على الأفراد، **فالمطاع** بعض الذين آمنوا، وهم الذين يبتغون أن يعمل الرسول صلى الله عليه وسلم بما يطلبون منه، **والعانت** بعض آخر، وهم جمهور المؤمنين الذين يجري عليهم قضاء النبيّ صلى الله عليه وسلم بحسب رغبة غيرهم.

ويجوز أن تكون الجملة في موضع الحال من ضمير { فِيكُمْ } لأنّ مضمون الجملة يتعلّق بأحوال المخاطبين، من جهة أنّ مضمون جواب { لو } عنت يحصل للمخاطبين.

الطاعة: عملُ أحدٍ ما يؤمر به وما يُنهى عنه وما يُشار به عليه. والمعنى هنا: لو أطاعكم فيما ترغبون.

{ **لَوْ يُطِيعُكُمْ** } صيغة المضارع مستعملة في الماضي لأنّ حرف (لو) يفيد تعليق الشرط في الماضي، وإنّما عدل إلى صيغة المضارع لأنّ المضارع صالح للدلالة على الاستمرار، أي: لو أطاعكم في قضيّة معيّنة ولو أطاعكم كلّما رغبتم منه أو أشرتم عليه لعنتم، لأنّ بعض ما يطلبونه مضرّ بالغير أو بالراغب نفسه.

{ **الْأَمْرِ** } هنا بمعنى الحادث والقضية النازلة. والتعريف في الأمر تعريف الجنس شامل لجميع الأمور، ولذلك جيء معه بلفظ { كَثِيرٍ مِنَ }، أي: في أحداث كثيرة ممَّا لكم رغبة في تحصيل شيء منها فيه مخالفة لما شرعه. وهذا احتراز عن طاعته إيّاهم في بعض الأمر ممَّا هو من غير شؤون التشريع، كما أطاعهم في نزول الجيش يوم بدر على جهة يستأثرون فيها بماء بدر.

العنت: المشقة واختلال الأمر في الحاضر أو في العاقبة.

{ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }

الاستدراك المستفاد من (لكن) ناشئ عن قوله تعالى { لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ }، لأنّه اقتضى: أنّ لبعضكم رغبة في أن يطيعهم الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يرغبون أن يفعله ممّا يبتغون ممّا يخالونه صالحا بهم في أشياء كثيرة تعرض لهم. والمعنى: ولكنّ الله لا يأمر رسوله إلّا بما فيه صلاح العاقبة، وإن لم يصادف رغباتكم العاجلة، وذلك فيما شرعه الله من الأحكام.

{ **وَلَكِنَّ اللَّهَ** } ذكر اسم الله في صدر جملة الاستدراك دون ضمير المتكلّم لما يُشعر به اسم الجلالة من المهابة والروعة. وما يقتضيه من واجب اقتبال ما حبَّب إليه ونبذ ما كرَّه إليه.

{ **حَبَّبَ إِلَيْكُمُ / وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ** } عُدِّي الفعلان بحرف (إلى) لتضمينها معنى بلَّغ، أي: بلَّغ إليكم حبّ الإيمان وكره الكفر.

{ **وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ** } لم يعد الفعل بحرف (إلى)، للإيماء إلى أنّه لمّا رغَّبهم في الإيمان وكرّههم الكفر امتثلوا فأحبوا الإيمان وزان في قلوبهم.

التزيين: جعل الشيء زَيْنًا، أي: حَسَنًا.

{ **الْإِيمَانَ** } هنا مراد منه أحكام الإسلام وليس الاعتقاد، فإنّ اسم الإيمان واسم الإسلام يتواردان.

أي: حبَّب إليكم الإيمان الذي هو الدين الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم. وهذا تحريض على التسليم لما يأمر به الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو في معنى قوله تعالى { حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً } [النساء:65]، ولذا فكونه حبَّب إليهم الإيمان إدماج وإيجاز. والتقدير: ولكنّ الله شرع لكم الإسلام وحبَّبه إليكم، أي: دعاكم إلى حبّه والرضى به فامتثلتم.

{ **وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ** } تعريض بأنّ الذين لا يطيعون الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم بقيّة من الكفر والفسوق، قال تعالى { وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ - إلى قوله - هُمُ الظَّالِمُونَ } [النور:48-50]. و فيه تحذير لهم من الحياد عن مهيع الإيمان وتجنيب لهم ما هو من شأن أهل الكفر.

فالخبر في قوله { حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْأِيمَانَ - إلى قوله – وَالْعِصْيَانَ } مستعمل في الإلهاب وتحريك الهمم لمراعاة الإيمان وكراهة الكفر والفسوق والعصيان، أي: إن كنتم أحببتم الإيمان وكرهتم الكفر والفسوق والعصيان فلا ترغبوا في حصول ما ترغبونه إذا كان الدين يصدّ عنه، وكان الفسوق والعصيان يدعو إليه. وفي هذا إشارة إلى أن الاندفاع إلى تحصيل المرغوب من الهوى دون تمييز بين ما يرضي الله وما لا يرضيه أثر من آثار الجاهلية.

{ **أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ** } معترضة للمدح. والإشارة إلى ضمير المخاطبين في قوله تعالى { إِلَيْكُمْ } مرتين

وفي قوله تعالى { قُلُوبِكُمْ } أي: الذين أحبّوا الإيمان وتزيَّنت به قلوبهم، وكرهوا الكفر والفسوق والعصيان هم الراشدون، أي: هم المستقيمون على طريق الحق.

{ **هُمُ** } أفاد ضمير الفصل القصر، وهو قصر إفراد، إشارة الى أنّ بينهم فريقا ليسوا براشدين، وهم الذين تلبّسوا بالفسق، فإن أقلعوا عنه التحقوا بالراشدين.

{ **فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً** } انتصب على المفعول المطلق المبيّن للنوع من أفعال { حَبَّبَ / زَيَّنَهُ / كَرَّهَ } لأنّ ذلك التحبيب والتزيين والتكريه من نوع الفضل والنعمة.

{ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** } تذييل لجملة { وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ } إلى آخرها، إشارة إلى أنّ ما ذُكر فيها من آثار علم الله وحكمته. والواو اعتراضية.

{ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } [9].

لمّا جرى قوله تعالى { أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ } [6] كان ممّا يصدق عليه إصابة قوم أن تقع الإصابة بين طائفتين من المؤمنين، لأنّ من الأخبار الكاذبة أخبار النميمة بين القبائل وخطرها أكبر ممّا يجري بين الأفراد، والتبيين فيها أعسر، وقد لا يحصل التبيين إلّا بعد أن تستعر نار الفتنة ولا تجدي الندامة.

<u>الأظهر في سبب النزول</u>، والذي لا يناكده وقت نزول السورة (سنة تسع من الهجرة)، ما روي وعن قتادة والسدي: أنّها نزلت في فتنة بين الأوس والخزرج بسبب خصومة بين رجل وامرأته، أحدهما من الأوس والآخر من الخزرج، انتصر لكلّ منهما قومه حتّى تدافعوا وتناول بعضهم بعضا بالأيدي والنعال والعصي، فنزلت الآية فجاء النبيّ صلى الله عليه وسلم فأصلح بينهما. فكانت حكما عاما نزل في سبب خاص.

{ **إِنْ** } حرف شرط يُخلِّص الماضي للاستقبال فيكون في قوّة المضارع.

{ **طَائِفَتَانِ** } ارتفع بفعل مقدّر يفسّره قوله { اقْتَتَلُوا } للاهتمام بالفاعل.

الطائفة: الجماعة. وتقدّم عند قوله تعالى { فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ } [النساء:102].

{ **اقْتَتَلُوا** } يعود الضمير على { طَائِفَتَانِ } باعتبار المعنى، لأنّ الطائفة ذات جمع. وعدل عن المضارع، بعد كونه الأليق بالشرط، لأنّه لمّا أريد تقديم الفاعل على فعله للاهتمام جُعل الفعل ماضيا على طريقة الكلام الفصيح في مثله، نحو قوله تعالى { وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ} [التوبة:6].

{ **فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى** } تفريع على جملة { **اقْتَتَلُوا** } أي: فإن ابتدأت إحدى الطائفتين قتال الأخرى ولم تنصع إلى الإصلاح فقاتلوا الباغية.

البغي: الظلم والاعتداء على حقّ الغير، وهو هنا مستعمل في معناه اللغوي وهو غير معناه الفقهي.

{ **فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ** } الأمر للوجوب، لأنّ هذا حكم بين الخصمين، والقضاء بالحق واجب لأنّه لحفظ حقّ المُحِقّ، ولأنّ ترك قتال الباغية يجرُّ إلى استرسالها في البغي وإضاعة الحقوق، والله لا يحب الفساد، ولأنّ ذلك يُجرِّئ غيرها على أن تأتي مثل صنيعها، فمقاتلتها زجر لغيرها. وهو وجوب كفاية ويتعيّن بتعيين الإمام جيشا يوجّهه لقتالها إذ لا يجوز أن يلي قتال البغاة إلّا الأئمة والخلفاء. فهذا الوجوب مطلق في الأحوال تقيّده الأدلة الدالة على عدم المصير إليه إذا عُلم أنّ قتالها يجر إلى فتنة أشدّ.

{ **الَّتِي تَبْغِي** } هي الطائفة الظالمة الخارجة عن الحق، وإن لم تقاتل، لأنّ بغيها يحمل الطائفة المبغي عليها أن تدافع عن حقها. وإنّما جُعل حكم قتال الباغية أن تكون طائفة لأنّ الجماعة يعسر الأخذ على أيدي ظلمهم بأفراد من الناس وأعوان الشرطة فتعين أن يكون كفهم عن البغي بالجيش والسلاح.

وهذا في التقاتل بين الجماعات والقبائل، فأمّا خروج فئة عن جماعة المسلمين فهو أشدّ وليس هو مورد هذه الآية ولكنّها أصل له في التشريع.

ويتحقّق وصف البغي بإخبار أهل العلم أنّ الفئة بغت على الأخرى، أو بحكم الخليفة العالم العدل، وبالخروج عن طاعة الخليفة وعن الجماعة بالسيف إذا أمر بغير ظلم ولا جور ولم تخش من عصيانه فتنة.

{ **حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ** } جُعل الفيء إلى أمر الله غاية للمقاتلة، أي: يستمر قتال الطائفة الباغية إلى غاية رجوعها إلى أمر الله، وأمر الله هو ما في الشريعة من العدل والكف عن الظلم، أي: حتّى تقلع عن بغيها.

{ **فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** } هذا إصلاح ثان بعد الإصلاح المأمور به ابتداء. ومعناه: أنّ الفئة التي خضعت للقوّة وألقت السلاح تكون مكسورة الخاطر شاعرة بانتصار الفئة الأخرى عليها فأوجب على المسلمين أن يصلحوا بينهما بترغيبهما في إزالة الإحن والرجوع إلى أخوّة الإسلام لئلا يعود التنكّر بينهما.

العدل: هو ما يقع التصالح عليه بالتراضي والإنصاف وألّا يضرّ بإحدى الطائفتين، فإنّ المَتَالِفَ التي تلحق كلتا الطائفتين قد تتفاوت تفاوتا شديدا فتجب مراعاة التعديل. أي: يجب العدل في صورة الإصلاح فلا يضيّعوا بصورة الصلح منافع عن كلا الفريقين إلّا بقدر ما تقتضيه حقيقة الصلح من نزول عن بعض الحق بالمعروف. قال بن العربي: " ومن العدل في صلحهم أن لا يطالبوا بما جرى بينهم مدّة القتال من دم ولا مال فإنّه تلّف على تأويل وفي طلبهم به تنفير لهم عن الصلح واستشراء في البغي، وهذا أصل في المصلحة ".

{ **وَأَقْسِطُوا** } ثمّ أمر المسلمين بالعدل أمرا عاما تذييلا للأمر بالعدل الخاص في الصلح بين الفريقين،

فشمل ذلك هذا الأمر العام أن يعدلوا في صورة ما إذا قاتلوا التي تبغي.
وللفقهاء تفاصيل في أحوال جبر الأضرار اللاحقة بالفئة المعتدى عليها، والأضرار اللاحقة بالجماعة التي تتولى قتال البغاة فينبغي أن يؤخذ من مجموع أقوالهم ما يرى أولو الأمر المصلحة في الحمل عليها جريا على قوله تعالى { وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ }.

{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [10].

تعليل لإقامة الإصلاح بين المؤمنين إذا استشرى الحال بينهم، وقد بني هذا التعليل على اعتبار حال المسلمين بعضهم مع بعض كحال الإخوة.
{ **إِنَّمَا** } جيء بصيغة القصر المفيدة لحصر حالهم في حال الإخوة مبالغة في تقرير هذا الحكم بين المسلمين، فهو قصر ادعائي أو هو قصر إضافي للردّ على أصحاب الحالة المفروضة الذين يبغون على غيرهم.
{ **الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** } أخبر عنهم بأنّهم إخوة مجازا على وجه التشبيه البليغ زيادة لتقرير معنى الأخوَّة بينهم، حتّى لا يحقّ أن يُقرن بحرف التشبيه المشعر بضعف صفتهم عن حقيقة الأخوة.
وهذه الآية فيها دلالة قوية على تقرّر وجوب الأخوَّة بين المسلمين، لأن شأن (إنّما) أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحّته، أو لِمَا ينزل منزلة ذلك. وقد تقّرر ذلك في تضاعيف كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم، من ذلك قوله تعالى { يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ } [الحشر:10]، وهي سابقة في النزول على هذه السورة.
وآخى النبيّ صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار حين وروده المدينة، وذلك مبدأ الإخاء بين المسلمين. وفي الحديث: **" لو كنت متّخذا خليلا غيرَ ربي لاتخذت أبا بكر ولكن أخوة الإسلام أفضل "**.
وفي حديث صحيح مسلم: **" المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم "**، وفي الحديث: **" لا يؤمن أحدكم حتّى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه "**.
ولمّا كان المتعارف بين الناس أنّه إذا نشبت مشاقة بين الأخوين لزم بقية الإخوة أن يتناهضوا في إزاحتها مشيا بالصلح بينهما فكذلك شأن المسلمين إذا حدث شقاق بين طائفتين منهم.
{ **فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ** } تفريع على تحقيق كون المؤمنين إخوة تأكيد لمّا دلت عليه { إِنَّمَا } من التعليل، فصار الأمر بالإصلاح الواقع ابتداء دون تعليل في قوله تعالى { فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا }، وقوله تعالى { فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ } قد أُردِف بالتعليل فحصل تقريره، ثمَّ عُقِّب بالتفريع فزاده تقريرا.
{ **وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** } المخاطب جميع المؤمنين فيشمل الطائفتين الباغية والمبغيّ عليها، ويشمل غيرهما ممّن أمروا بالإصلاح بينهما ومقاتلة الباغية، فتقوى جميعهم بالوقوف عند ما أمر الله به كُلًّا ممّا يخّصه، وهذا يشبه التذييل.

{ **لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** } تُرْجَى لكم الرحمة من الله فتجري أحوالكم على استقامة وصلاح. وإنّما اختيرت الرحمة لأنّ الأمر بالتقوى واقع إثر تقرير حقيقة الأخوة بين المؤمنين، وشأن تعامل الإخوة الرحمة فيكون الجزاء عليها من جنسها.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } [11].

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ** } لمّا اقتضت الأخوَّة أن تحسُن المعاملة بين الأخوين كان ما تقرر من إيجاب معاملة الإخوة بين المسلمين يقتضي حُسن المعاملة بين آحادهم، فجاءت هذه الآيات منبّهة على أمور من حسن المعاملة قد تقع الغفلة عن مراعاتها لكثرة تفشيها في الجاهلية. وهذا نداء رابع.

ورويت في سبب نزول الآية روايات؛ عن الضحاك، وعن الواحدي، وعن عكرمة، وغيرهم، أقربها ما رواه الضحاك: أنّ المقصود بنو تميم إذ سخروا من بلال وعمّار وصهيب، فيكون لنزول الآية سبب متعلّق بالسبب الذي نزلت السورة لأجله، وهذا من السخرية المنهي عنها.

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** } افتتحت هذه الآيات بإعادة النداء للاهتمام بالغرض، فيكون مستقلًّا غير تابع حسبما تقدّم من كلام الفخر. وقد تعرضت الآيات الواقعة عقب هذا النداء لصنف مهم من معاملة المسلمين بعضهم لبعض ممّا فشا في الناس من عهد الجاهلية التساهل فيها. وهي من إساءة الأقوال، ويقتضي النهي عنها الأمر بأضدادها. وتلك المنهيات هي: { لا يَسْخَرْ / لا تَلْمِزُوا / لا تَنَابَزُوا }

السَّخْر: (ويقال: السخرية) الاستهزاء، وتقدّم في قوله تعالى { فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ } [التوبة:79].

{ **قَوْمٌ** } اسم جمع: جماعة الرجال خاصة دون النساء. والتنكير في الموضعين لإفادة الشياع، لئلّا يُتوهم نهي قوم معيّنين سخروا من قوم معينين. وهذا النهي صريح في التحريم.

{ **وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ** } خُصّ النساء بالذكر مع أنّ { قَوْمٌ } يشملهم بطريق التغليب العرفي في الكلام، دفعا لتوهّم تخصيص النهي بسخرية الرجال، ولأنّ الاستسخار متأصّل في النساء.

{ **عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ** } مستأنفة معترضة بين الجملتين المتعاطفتين تفيد المبالغة في النهي عن السخرية، ولأنّه يثير انفعال الحياء في نفس الساخر.

اللمز: ذكر ما يعُدّه الذاكر عيبا لأحد مواجهةً، فهو المباشرة بالمكروه. فإن كان بحق فهو وقاحة واعتداء، وإن كان باطلا فهو وقاحة وكذب، ويكون بحالة بين الإشارة والكلام بتحريك الشفتين بكلام خفي يَعرف منه المواجَه به أنّه يُذم أو يُتوعد، أو يُتنقص، وهو غير النبز وغير الغيبة.

وكان شائعا بين العرب في جاهليتهم، قال تعالى { وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ } [الهمزة:1] يعني نفرا من المشركين كان دأبهم لمز رسول الله صلى الله عليه وسلم.

{ **لا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ** } لا يلمز بعضكم بعضا، وقد تقدم نظيره عند قوله تعالى { وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ } [البقرة:48].

النبْز: ذكر اللقب السوء، كقولهم: أنف الناقة، وبطة. وكان غالب الألقاب في الجاهلية نبزا.

{ **بِالْأَلْقَابِ** } المراد الألقاب المكروهة بقرينة { وَلا تَنَابَزُوا }، واللقب ما أشعر بخسّة أو شرف، سواء كان ملقَّبا به صاحبه أم اخترعه له النابز.

{ **بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْأِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** } تذييل للمنهيات المتقدّمة وهو تعريض قويّ بأنّ ما نهوا عنه فسوق وظلم معاقب عليه. وفي الحديث: " **سباب المسلم فسوق** ".

{ **الِاسْمُ** } هنا مطلق على الذكر، أي: التسمية، كما يقال: طار اسمه في الناس بالجود أو باللؤم.

<u>والمعنى</u>: بئس الذكر أن يُذكر أحد بالفسوق بعد أن وصف بالإيمان.

وإيثار لفظ الاسم هنا من الرشاقة بمكان لأنّ السياق تحذير من ذكر الناس بالأسماء الذميمة، إذ الألقاب أسماء، فكان اختيار لفظ الاسم للفسوق مشاكلة معنوية.

{ **بَعْدَ الْأِيمَانِ** } أي: بعد الاتصاف بالإيمان، أي: أنّ الإيمان لا يناسبه الفسوق لأن المعاصي من شأن أهل الشرك الذين لا يزعهم عن الفسوق وازع، وهذا كقول جميلة بنت أُبَي حين شكت للنبيّ صلى الله عليه وسلم أنّها تكره زوجها ثابت بن قيس وجاءت تطلب فراقه: " لا أعيب على ثابت في دين ولا في خلق ولكنّي أكره الكفر بعد الإسلام (تريد التعريض بخشية الزنا) وإنّي لا أطيقه بغضا ".

{ **وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** } وإذ كان كل من السخرية واللمز والتنابز معاصي فقد وجبت التوبة منها فمن لم يتب فهو ظالم: لأنّه ظلم الناس بالاعتداء عليهم، وظلم نفسه بأن رضي لها عقاب الآخرة.

{ **فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** } جيء بصيغة قصر الظالمين عليهم، على سبيل المبالغة ليزدجروا.

والتوبة واجبة من كل ذنب، وهذه الذنوب المذكورة مراتب وإدمان الصغائر كبيرة.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ} [12].

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ** } أعيد النداء خامس مرة لاختلاف الغرض والاهتمام به. وذلك أنّ المنهيّات المذكورة بعد هذا النداء من جنس المعاملات السيّئة الخفيّة التي لا يُتفطن له.

{ **اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ** } تأديب عظيم يُبطل ما كان فاشيا في الجاهلية من الظنون السيّئة والتهم

الباطلة، لأنّ الظنون السيّئة تنشأ عنها الغيرة المفرطة والمكائد، والاغتيالات، والطعن في الأنساب، والمبادأة بالقتال حذرا من اعتداءٍ مظنونٍ ظنًّا باطلًا، كما قالوا: خذ اللص قبل أن يأخذك.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: " **إيّاكم والظنّ فإنّ الظنّ أكذب الحديث** ".

الاجتناب: افتعال من جنَّبه وأجنبه، إذا أبعده، أي: جعله جانبا آخر، وفعله يعدّى إلى مفعولين، يقال: جنّبه الشر، قال تعالى { وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ } [ابراهيم:35]. ومطاوعه اجتنب، أي: ابتعد.

ومعنى الأمر باجتناب كثير من الظنّ: الأمر بتعاطي وسائل اجتنابه. ولكن لمّا كان الظنّ يحصل في خاطر الإنسان اضطرارا عن غير اختيار، فلا يعقل التكليف باجتنابه وإنّما يراد الأمر بالتثبت فيه وتمحيصه والتشكّك في صدقه إلى أن يتبيّن موجبه بدون تردد أو برجحان، أو يتبيّن كذبه، فتكذِّب نفسك فيما حدثتك. وهذا التحذير يراد منه مقاومة الظنون السيّئة بما هو معيارها من الأمارات الصحيحة.

وفي الحديث: " **إذا ظننتم فلا تحقّقوا** ".

{ **الظَّنِّ** } المراد هنا: الظنّ المتعلّق بأحوال الناس، وحُذف المتعلّق لتذهب نفس السامع إلى كلّ ظنّ ممكن.

{ **كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ** } لأنّ منه ظنّ يجب اتباعه كالحذر من مكائد العدو في الحرب، وكالظنّ المستند إلى الدليل الحاصل من دلالة الأدلة الشرعية، فإن أكثر التفريعات الشرعية حاصلة من الظن المستند إلى الأدلة.

وقد فتح مفهوم هذه الآية باب العمل بالظن غير الإثم، إلّا أنّها لا تقوم حجّة إلّا عند الذين يرون العمل بمفهوم المخالفة، وهو أرجح الأقوال، فإنّ معظم دلالات اللغة العربية على المفاهيم كما تقرّر في أصول الفقه.

{ **إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ** } استئناف بياني، لأنّ القول السابق يستوقف السامع ليتطلّب البيان، فأُعْلِموا أنّ بعض الظن جُرم، وهذا كناية عن وجوب التأمّل في آثار الظنون ليعرضوا ما تفضي اليه الظنون على ما يعلمونه من أحكام الشريعة، أو ليسألوا أهل العلم. وهذا تخويف من الوقوع في الإثم، وليس توضيحا لأنواع الكثير من الظنّ المأمور باجتنابه، لأنّها أنواع كثيرة، فنبَّه على عاقبتها وترك التفصيل، لأنّ في إبهامه بعثا على مزيد الاحتياط.

{ **وَلا تَجَسَّسُوا** } التجسّس من آثار الظنّ، لأن الظنّ يبعث عليه حين تدعو الظانّ نفسُه إلى تحقيق ما ظنّه سرا فيسلك طريق التجسّس، فحذرهم الله من سلوك هذا الطريق.

التجسّس: البحث بوسيلة خفية، وهو مشتق من الجسّ، ومنه سمي الجاسوس.

ووجه النهي عنه أنّه ضرب من الكيد والتطلّع على العورات. وذلك ثلم للأخوة الإسلامية.

ولما كان النهي عن التجسّس من فروع النهي عن الظن فهو مقيّد بالتجسّس الذي هو إثم أو يفضي إلى الإثم، وإذا عُلم أنه يترتّب عليه مفسدة عامة صار التجسّس كبيرة، كالتجسّس على المسلمين لمن يبتغي

الضرّ بهم.

والمنهي عنه لا يشمل التجسّس على الأعداء، ولا تجسّس الشرط على الجناة واللصوص.

{ **وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً** } الاغتياب ذكر أحد غائب بما لا يحب أن يذكر به، والاسم منه الغِيبة.

وجيء بهذا التركيب، دون أن يقول: اجتنبوا الغيبة، لقصد التوطئة للتمثيل الوارد في قوله:

{ **أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً** } لأنه لما كان ذلك التمثيل مشتملا على جانب فاعل الاغتياب ومفعوله مُهِّد له بما يدل على ذاتين، لأنّ ذلك يزيد التمثيل وضوحا.

والاستفهام تقريري لتحقّق أنّ كلّ أحد يقر بأنّه لا يحب ذلك، ولذلك أجيب الاستفهام بقوله { فَكَرِهْتُمُوهُ }.

والتمثيل مقصود منه استفظاع الممثَّل وتشويهه لإفادة الإغلاظ على المغتابين، لأنّ الغيبة متفشية في الناس وخاصة في أيام الجاهلية.

الكراهة: هنا الاشمئزاز والتقذّر. والتقدير: إن وقع هذا أو إن عرض لكم هذا فقد كرهتموه.

والغيبة حرام بدلالة هذه الآية وآثار من السنة بعضها صحيح وبعضها دونه. وذلك أنّها تشتمل على مفسدة ضُعْفٍ في أخوَّة الإسلام. وقد تبلغ الذي اغتيب فتقدح في نفسه عداوة لمن اغتابه فينثلم بناء الأخوة، ولأنّ فيها الاشتغال بأحوال الناس وذلك يلهي الإنسان عن الاشتغال بالمهم النافع له.

<u>وهي عند المالكية من الكبائر</u> وقلَّ من صرَّح بذلك، ووجهه أنّ الله نهى عنها وشنعها.

<u>وجعلها الشافعية من الصغائر</u> لأنّ الكبيرة في اصطلاحهم: فعل يؤذن بقلة اكتراث فاعله بالدين ورقة الديانة.

<u>فإذا كان ذلك لوجه مصلحة</u> مثل تجريح الشهود ورواة الحديث وما يقال للمستشير في مخالطة أو مصاهرة فإن ذلك ليس بغيبة، بشرط أن لا يتجاوز الحدّ الذي يحصل به وصف الحالة المسؤول عنها.

وكذلك <u>لا غيبة في فاسق</u> بذكر فسقه دون مجاهرة له به.

{ **وَاتَّقُوا اللَّهَ** } عطف على جمل الطلب السابقة ابتداء من قوله { اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ } وهذا كالتذييل لها إذ أمر بالتقوى وهي جماع الاجتناب والامتثال، فمن كان سالما من التلبّس بتلك المنهيات فالأمر بالتقوى يُجنِّبه التلبس بشيء منها في المستقبل، ومن كان متلبّسا بها أو ببعضها فالأمر بالتقوى يجمع الأمر بالكف عما هو متلبّس به منها.

{ **إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ** } تذييل للتذييل لأنّ التقوى تكون بالتوبة بعد التلبّس بالإثم، فقيل { إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ }، وتكون التقوى ابتداء فيرحم الله المتّقي، فالرحيم شامل للجميع.

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } [13].

انتقال من واجبات المعاملات إلى ما يجب أن يراعيه المرء في نفسه، وأعيد النداء للاهتمام بهذا الغرض. فقد كان إعجاب كلّ قبيلة بفضائلها وتفضيل قومها على غيرهم فاشيا في الجاهلية، كما تراه في الشعر، وكانوا يحقِّرون بعض القبائل مثل باهلة، وضبيعة، وبني عُكل.

فكان ذلك يجرّ إلى الإحن والتقاتل، وتتفرّع عليه السخرية واللمز والنبز والظنّ والتجسّس والاغتياب، الواردة فيها الآيات السابقة، فجاءت هذه الآية لتأديب المؤمنين على اجتناب ما كان في الجاهلية، واقتلاع جذوره الباقية في النفوس بسبب اختلاط طبقات المؤمنين بعد سنة الوفود، إذ كثر الداخلون في الإسلام.

فعن أبي داود أنّه روى في كتابه (المراسيل عن الزهري) قال: أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بني بياضة (من الأنصار) أن يزوِّجوا أبا هند (مولى بني بياضة، قيل: اسمه يسار) امرأة منهم ،فقالوا: تزوّج بناتنا موالينا، فأنزل الله تعالى { إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً }. وروي في سببها غير ذلك.

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ } نودوا بعنوان { النَّاسُ } دون المؤمنين رعيا للمناسبة بين هذا العنوان وبين ما صدر به الغرض من التذكير بأنّ أصلهم واحد، أي: أنّهم في الخلقة سواء، ليُتوسَّل بذلك إلى أنّ التفاضل والتفاخر إنّما يكون بالفضائل، والى أنّ التفاضل في الإسلام بزيادة التقوى.

وليس النداء حجّة للذين قالوا إنّ الآية مكّية، بزعم أنّ غالب الخطاب بـ { يَا أَيُّهَا النَّاسُ } إنّما كان في المكي.

{ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى }المراد: آدم وحواء أبوا البشر، بقرينة قوله { وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا } ويؤيّده قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" أنتم بنو آدم وآدم من تراب "**.

<u>ويجوز أن يراد صنف الذكر والأنثى</u>، أي: كلّ واحد مكوّن من صنف الذكر والأنثى.

{ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا } معترضة بين الجملتين الأخريين. والمقصود من اعتراضها: إدماج تأديب آخر من واجب بثّ التعارف والتواصل بين القبائل والأمم وأن ذلك مراد الله منهم.

الشعوب: جمع شَعب، وهو مجمع القبائل التي ترجع إلى جد واحد من أمّة مخصوصة، وقد <u>يُسمَّى جِذْمًا</u>، فالأمة العربية تنقسم إلى شعوب كثيرة: فمضر شعب، وربيعة شعب، وأنمار شعب، وإياد شعب، وتجمعها الأمّة العربية المستعربة، وهي عدنان من ولد إسماعيل عليه السلام.

وحِمْير وسبأ، والأزد شعوب من أمّة قحطان.

وكنانة وقيس وتميم قبائل من شعب مضر. ومَذْحج، وكِنَدة قبيلتان من شعب سبأ. والأوس والخزرج قبيلتان من شعب الأزد. وتحت القبيلة العمارة مثل قريش من كنانة، وتحت العمارة البطن مثل قُصي من قريش، وتحت البطن الفخذ مثل هاشم وأمية من قصي، وتحت الفخذ الفصيلة مثل أبي طالب والعباس وأبي سفيان.

(الأمّة / شعب / قبيلة / العمارة / البطن / الفخذ / الفصيلة)
واقتصر هنا على ذكر الشعوب والقبائل لأنّ ما تحتها داخل بطريق لحن الخطاب. وتجاوز القرآن عن ذكر الأمم جريا على المتداول في كلام العرب في تقسيم طبقات الأنساب، إذ لا يدركون إلا أنّسابهم.
{ **لِتَعَارَفُوا** } جُعلت علّة جعل الله إيّاهم شعوبا وقبائل التعارف، أي: أن يعرف بعضهم بعضا.
والتعارف يحصل طبقة بعد طبقة متدرِّجا إلى الأعلى، فالعائلة الواحدة متعارفون، والعشيرة متعارفون من عائلات إذ لا يخلون عن انتساب ومصاهرة، وهكذا تتعارف العشائر مع البطون والبطون مع العمائر، والعمائر مع القبائل، والقبائل مع الشعوب لأن كل درجة تأتلف من مجموع الدرجات التي دونها.
{ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** } بمنزلة المقصد والنتيجة من جملة { إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى } لذلك فصلت فهي كالبيان.
<u>ومن معنى الآية</u> ما خطب به رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجّة الوداع إذ قال: **" يا أيّها الناس ألا إنّ ربّكم واحد وأنّ أباكم واحد، لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلّا بالتقوى ".**
الأكرم: الأنفس والأشرف، كما تقدّم بيانه في قوله تعالى { إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ } [النمل:29].
الأتقى: الأفضل في التقوى وهو اسم تفضيل صيغ من اتقى على غير قياس.
{ **إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** } تعليل لمضمون { إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ }، أي: إنّما كان أكرمكم أتقاكم لأنّ الله عليم بالكرامة الحق، خبير بمقدار حظوظ الناس من التقوى. وهذا كقوله تعالى { فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى } [النجم:32]، أي: هو أعلم بمراتبكم في التقوى.
وفي الجملة معنى التذييل، وهو كناية عن الأمر بتزكية نواياهم في معاملاتهم وما يريدون من التقوى، بأنّ الله يعلم ما في نفوسهم ويحاسبهم عليه.

{ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْأِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [14].

كان من بين الوفود التي وفدت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنة تسع المسمَّاة سنة الوفود، وفد بني أسد بن خزيمة، وكانوا ينزلون بقرب المدينة، وكان قدومهم المدينة عقب قدوم وفد بني تميم الذي ذُكر في أوّل السورة، ووفَد بنو أسد في عدد كثير وفيه ضرار بن الأزور، وطُليحة بن عبد الله (الذي ادّعى النبوّة بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وسلم، أيام الردّة)، وكانت هذه السنة سنة جدب ببلادهم فأسلموا وكانوا يقولون للنبيّ صلى الله عليه وسلم: أتتك العرب بأنفسها على ظهور رواحلها وجئناك بالأثقال والعيال والذراري ولم نقاتلك كما قاتلك محارب خصفة وهوازن وغطفان. يفدون على رسول الله

صلى الله عليه وسلم ويروحون بهذه المقالة ويمنُّون عليه، ويريدون أن يصرف إليهم الصدقات، فأنزل الله فيهم هذه الآيات الى آخر السورة.

الأعراب: سكَّان البادية من العرب. وأحسب أنّه لا يطلق على أهل البادية من غير العرب، وهو اسم جمع لا مفرد له، فيكون الواحد منه بياء النسبة أعرابي.

والتعريف للعهد لأعراب معينين وهم بنو أسد، فليس هذا الحكم الذي في الآية حاقًّا على جميع سكان البوادي ولا قال هذا القول غير بني أسد.

{ **قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا** } فهؤلاء الأعراب لمّا جاؤوا مظهرين الإسلام وكانت قلوبهم غير مطمئنة لعقائد الإيمان، لأنّهم حديثو عهد به، كذَّبهم الله في قولهم { آمَنَّا } ليعلموا أنّهم لم يخف باطنهم على الله، وأنّه لا يُعْتدّ بالإسلام إلّا إذا قارنه الإيمان، فلا يغني أحدهما بدون الآخر، فالإيمان بدون إسلام عناد، والإسلام بدون إيمان نفاق، ويجمعهما طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

{ **وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا** } الاستدراك بحرف (لكن) لرفع ما يُتوهَّم من قوله { لَمْ تُؤْمِنُوا } أنّهم جاؤوا مضمرين الغدر بالنبيّ صلى الله عليه وسلم. وإنّما قال لهم ذلك تعليما لهم بالفرق بين الإيمان والإسلام، فإنّ الإسلام مقرّه اللسان والأعمال البدنية، وهي قواعد الإسلام الواردة في حديث سؤال جبريل النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة: **"... الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحجّ البيت إن استطعت إليه سبيلا ..."**.

{ **وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ** } مبيّن لمعنى نفي الإيمان عنهم، بأنّه ليس انتفاء وجود تصديق باللسان ولكن انتفاء رسوخه وعقد القلب عليه، إذ كان فيهم بقية من ارتياب كما أشعر به مقابلته بقوله { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا }.

{ **وَلَمَّا يَدْخُلِ** } استعير (الدخول) للتمكّن وعدم التزلزل.

{ **لَمَّا** } أخت (لم) وتدل على أنّ النفي بها متصل بزمان التكلّم وذلك الفارق بينها وبين (لم). وهذه الدلالة على استمرار النفي إلى زمن المتكلّم تؤذن غالبا بأن المنفي بها متوقّع الحدوث. قال في الكشّاف: وما في {لمّا} من معنى التوقع دالٌّ على أنّ هؤلاء قد آمنوا فيما بعد.

{ **وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً** } إرشاد إلى دواء مرض الحال في قلوبهم من ضعف الإيمان بأنّهم إن يطيعوا الله ورسوله حصل إيمانهم، وذلك بأن يقبلوا على التعلّم من رسول الله صلى الله عليه وسلم مدّة إقامتهم بالمدينة عوضا عن الاشتغال بالمنّ والتعريض بطلب الصدقات.

{ **لا يَلِتْكُمْ** } لا يُنقصكم، يقال: لاتَه، وهذا في لغة أهل الحجاز وبني أسد، ويقال: أَلَته أَلْتًا، وهي لغة غطفان، قال تعالى { وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ } [الطور:21]. وضمير الرفع عائد إلى اسم الله.

والمعنى: إن أخلصتم الإيمان كما أمركم الله ورسوله تقبّل الله أعمالكم ولم ينقصكم من أجرها شيئا.

{ **إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } استئناف تعليم لهم بأنّ الله يتجاوز عن كذبهم إذا تابوا، وترغيب في إخلاص

الإيمان، لأنّ الغفور كثير المغفرة شديدها. ومن فرط مغفرته أنّ الأعمال الصالحة الواقعة في حالة الكفر غير معتد بها فإذا آمن عاملها جوزي عليها بمجّرد إيمانه، وذلك من فرط رحمته بعباده.
وترتيب { رَحِيمٌ } بعد { غَفُورٌ } لأنّ الرحمة أصل للمغفرة، وشأن العلة أن تورد بعد المعلّل بها.

{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } [15].

هذا تعليل لقوله تعالى { لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْأِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ }، وهو من جملة ما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقوله للأعراب، أي: ليس المؤمنون إلّا الذين آمنوا ولم يخالط إيمانهم ارتياب أو تشكّك.
{ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ** } القصر إضافي، أي: المؤمنون الذين هذه صفاتهم. وليس بمقتض أنّ حقيقة الإيمان لا تتقوّم إلّا بمجموع تلك الصفات لأنّ عد الجهاد مع صفتي الإيمان وانتفاء الريب فيه، يمنع من ذلك، لأنّ الذي يقعد عن الجهاد لا ينتفي عنه وصف الإيمان، إذ لا يكفر المسلم بارتكاب الكبائر عند أهل الحق.
{ **ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا** } للتراخي الرتبي. ففي { ثُمَّ } إشارة إلى أن انتفاء الارتياب في إيمانهم أهمّ رتبة من الإيمان إذ به قوام الإيمان، وهذا إيماء إلى بيان قوله تعالى { وَلَمَّا يَدْخُلِ الْأِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ } [14]، أي: من أجل ما يخالجكم من ارتياب في بعض ما آمنتم به ممّا اطلع الله عليه.
{ **وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** } والمقصود من إدماج ذكر الجهاد التنويه بفضل المؤمنين المجاهدين وتحريض الذين دخلوا في الإيمان على الاستعداد إلى الجهاد، كما في قوله تعالى { قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ } [الفتح:16].
{ **أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** } قصر، وهو قصر إضافي أيضا، أي: هم الصادقون لا أنتم في قولكم { آمَنَّا }.

{ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [16].

{ **قُلْ** } أعيد الفعل ليدلّ على أنّ المقول لهم هذا هم الأعراب الذين أُمِر أن يقول لهم { لَمْ تؤمنوا } إلى آخره، فأعيد لمّا طال الفصل بالجمل المتتابعة، فهذا القول متصل بقوله تعالى { وَلَمَّا يَدْخُلِ الْأِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ } اتصال البيان بالمبيّن، ولذلك لم تعطف جملة الاستفهام. فهذه ممّا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يقوله لهم.
{ **أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ** } التعليم مبالغة في إيصال العلم إلى المعلَّم لأنّ صيغة التفعيل تقتضي قوّة في حصول الفعل كالتفريق والتفسير، يقال: أعلمه وعلَّمه كما يقال: أنباه ونبّأه. وهذا يفيد أنّهم تكلّفوا وتعسّفوا

في الاستدلال على خلوص إيمانهم ليقنعوا به الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي أبلغهم أنّ الله نفى عنهم رسوخ الإيمان، بمحاولة إقناعه وإقناع الله بما يعلم خلافه.

{ **بِدِينِكُمْ** } الباء زائدة لتأكيد لصوق الفعل بمفعوله، كقوله تعالى { وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ } [المائدة:6].

والاستفهام مستعمل في التوبيخ وقد أيّد التوبيخ بجملة الحال في قوله تعالى { وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ }، وفيه تجهيل إذ حاولوا إخفاء باطنهم عن المطّلع على كل شيء.

{ **وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** } تذييل، لتأكيد معنى عموم علم الله، لأن { كُلِّ شَيْءٍ } أعم من { مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ }، فإنّ الله يعلم صفاته ويعلم الموجودات التي هي أعلى من السماوات كالعرش.

{ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [17].

استئناف ابتدائي أريد به إبطال ما أظهره بنو أسد من مزيّتهم إذ أسلموا من دون إكراه بغزو.

المنّ: ذكر النعمة والإحسان ليراعيه المحسن إليه للذاكر، وهو يكون صريحا، ويكون بالتعريض.

وكانت مقالة بني أسد مشتملة على النوعين من المنّ، لأنّهم قالوا: ولم نقاتلك كما قاتلك محاربو غطفان وهوازن، وقالوا: وجئناك بالأثقال والعيال.

{ **أَنْ أَسْلَمُوا** } منصوب بنزع الخافض وهو باء التعدية، يقال: منَّ عليه بكذا.

وهم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم { آمَنَّا } كما حكاه الله آنفا، وسمّاه هنا إسلاما، أي: أنّ الذي منُّوا به عليك إسلام لا إيمان.

{ **قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ** } وقد أضيف (إسلام) إلى ضميرهم لأنّهم أتوا بما يُسمَّى إسلاما، وأتي بالإيمان بعده { هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ } معرفا بلام الجنس لأنّه حقيقة في حد ذاته.

{ **بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ** } أثبت بحرف { بَلِ } أنّ ما منُّوا به إن كان إسلاما حقًّا موافقا للإيمان فالمنّة لله لأن هداهم إليه فأسلموا عن طواعية. وسمَّاه الآن إيمانا مجاراة لزعمهم لأنّ المقام مقام كون المنةّ لله، أي: لو فرض أنكم آمنتم كما تزعمون فإنّ إيمانكم نعمة أنعم الله بها عليكم.

{ **إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } تذييل، فنفى أوّلا أن يكون ما يمنُّون به حقا، ثم أفاد ثانيا أن يكون الفضل فيما ادّعوه لهم لو كانوا صادقين، بل هو فضل الله.

{ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } [18].

ذيّل تقويمهم على الحقّ بهذا التذييل ليعلموا أنّ الله لا يُكتم، وأنّه لا يُكذب، لأنّه يعلم كل غائبة في السماء والأرض. فإنّهم كانوا في الجاهلية لا تخطر ببال كثير منهم أصول الصفات الإلهية.

{ **إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ** } تأكيد الخبر لأنّهم بحال من ينكر أنّ الله يعلم الغيب فكذبوا على النبي صلى الله عليه وسلم مع علمهم أنّه مرسل من الله فكان كذبهم عليه مثل الكذب على الله.

وقد أفادت هذه الجملة تأكيد مضمون جملة { وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } وجملة { وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [16]، ولكن هذه زادت بالتصريح بأنّه يعلم الأمور الغائبة، لئلّا يتوهّم متوهِّم أن العمومين في الجملتين قبلها عمومان عرفيان قياسا على علم البشر.

{ **وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** } معطوف على جملة { إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } عطف الأخصّ على الأعمّ، لأنّه لمّا ذكر أنّه يعلم الغيب، وكان شأن الغائب أن لا يُرى، عطف عليه علمه بالمبصرات احتراسا من أن يتوهّموا أنّ الله يعلم خفايا النفوس وما يجول في الخواطر ولا يعلم المشاهدات، نظير قول كثير من الفلاسفة: إنّ الخالق يعلم الكلّيات ولا يعلم الجزئيات.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة ق

سُمِّيت في عصر الصحابة (**سورة ق**)، يُنطق بحروف قاف: بقاف، وألف، وفاء.

روى مسلم عن أمّ هشام بنت حارثة بن النعمان: ما أخذت { ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ } إلّا عن لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقرؤها كلّ يوم على المنبر إذ خطب الناس ".

وهي من السور التي سُمِّيت بأسماء الحروف الواقعة في ابتدائها مثل (طه ، ص، يس) لانفراد كل سورة منها بعدد الحروف الواقعة في أوائلها، بحيث إذا دعيت بها لا تلتبس بسورة أخرى.

وفي الإتقان أنّها تُسمَّى (**سورة الباسقات**). هكذا بلام التعريف، ولم يعزه لقائل، والوجه أن تكون تسميتها هذه على اعتبار وصف لموصوف محذوف، أي: النخل الباسقات، إشارة إلى قوله تعالى { وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ } [10].

والسورة مكية كلّها، قال ابن عطية: بإجماع من المتأوّلين.

وفي تفسير القرطبي والإتقان عن ابن عباس وقتادة والضحاك: استثناء آية { وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ } [38] أنّها نزلت في الرد على اليهود، إذ قالوا: إنّ الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع وهو يوم السبت، يعني أنّ مقالة اليهود سُمعت بالمدينة. وهذا المعنى وان كان معنى دقيقا في الآية فليس بالذي يقتضي أن يكون نزول الآية في المدينة، فإنّ الله علم ذلك فأوحى به الى رسوله صلى الله عليه وسلم، على أنّ بعض آراء اليهود كان ممّا يتحدّث به أهل مكة قبل الإسلام، يتلقّونه تلقّي القصص والأخبار. وكانوا بعد البعثة يسألون اليهود عن أمر النبوّة والأنبياء، كما أنّ إرادة الله إبطال أوهام اليهود لا تقتضي أن يؤخّر إبطالها الى سماعها بل قد يجيء ما يبطلها قبل فشوّها في الناس، كما في قوله تعالى { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ } [الزمر:67] فإنّها نزلت بمكة. فقد ورد أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أتاه بعض أحبار اليهود فقال: إن الله يضع السماوات على أصبع والأرضين على إصبع والبحار على أصبع والجبال على إصبع، ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض، فتلا النبيّ صلى الله عليه وسلم الآية.

وهي السورة الرابعة والثلاثون في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد نزلت بعد سورة المرسلات وقبل سورة البلد.

وقد أجمع العادُّون على **عدّ آيها خمسا وأربعين.**

أغراض السورة

*/ التنويه بشأن القرآن.

*/ أنّهم كذَّبوا الرسول صلى الله عليه وسلم لأنّه من البشر.

*/ الاستدلال على إثبات البعث وأنّه ليس بأعظم من ابتداء خلق السماوات وما فيها، وخلق الأرض وما عليها، ونشأة النبات والثمار من ماء السماء، وأنّ ذلك مثَلٌ للإحياء بعد الموت.

*/ تنظير المشركين في تكذيبهم بالرسالة والبعث ببعض الأمم الخالية المعلومة لديهم، ووعيد هؤلاء أن يحلّ بهم ما حلّ بأولئك.

*/ الوعيد بعذاب الآخرة ابتداء من وقت احتضار الواحد، وذكر هول يوم الحساب.

*/ وعد المؤمنين بنعيم الآخرة.

*/ تسلية النبيّ صلى الله عليه وسلم على تكذيبهم إيّاه وأمره بالإقبال على طاعة ربّه وإرجاء أمر المكذّبين إلى يوم القيامة، وأنّ الله لو شاء لأخذهم من الآن ولكن حكمة الله قضت بإرجائهم، وأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يُكلّف بأن يكرههم على الإسلام وإنّما أُمر بالتذكير بالقرآن.

*/ الثناء على المؤمنين بالبعث بأنّهم الذين يتذكّرون بالقرآن.

*/ إحاطة علم الله تعالى بخفيّات الأشياء وخواطر النفوس.

{ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ [1] بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ [2] أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ [3] }.

{ **ق** } القول فيه نظير القول في أمثاله من الحروف المقطّعة الواقعة في أوائل السور. فهو حرف من حروف التهجّي. وقد رسموه في المصحف بصورة حرف القاف، وأجمعوا على أنّ النطق بها باسم الحرف.

{ **وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ** } قسم بالقرآن، والقسم به كناية عن التنويه بشأنه لأنّ القسم لا يكون إلّا بعظيم عند المقسِم.

{ **الْمَجِيدِ** } المتّصف بقوّة المجد. والمجد، ويقال المجادة: الشرف الكامل وكرم النوع. تنويه صريح بعد التنويه الكنائي من خلال القسم.

<u>وشرف القرآن</u> من بين أنواع الكلام أنّه مشتمل على أعلى المعاني النافعة لصلاح الناس، فذلك مجده. <u>وأمّا كمال مجده</u> الذي دلّت عليه صيغة المبالغة فذلك بأنّه يفوق أفضل ما أبلغه الله للناس من أنواع الكلام الدال على مراد الله تعالى، إذ أوجد ألفاظه وتراكيبه وصورة نظمه بقدرته دون واسطة، فإنّ أكثر الكلام الدال على مراد الله تعالى أوجده الرسل والأنبياء المتكلّمون به، يُعبِّرون بكلامهم عمَّا يلقى إليهم من الوحي.

<u>ويدخل في كمال مجده</u> أنّه يفوق كلّ كلام أوجده الله تعالى بقدرته على سبيل خرق العادة مثل الكلام الذي كلم الله به موسى عليه السلام بدون واسطة الملائكة، ومثل ما أوحي به إلى محمد صلى الله عليه وسلم من أقوال الله تعالى المعبِّر عنه في اصطلاح علمائنا بالحديث القدسي، فإنّ القرآن يفوق ذلك كلّه لمّا جعله الله بأفصح اللغات وجعله معجزا لبلغاء أهل تلك اللغة. ويفوق كلّ كلام من ذلك القبيل بوفرة معانيه وعدم انحصارها، وتميَّز على سائر الكتب الدينية بأنّه لا ينسخه كتاب يجيء بعده، والقليل الذي نُسخ منه كان ببعضه.

<u>وجواب القسم محذوف</u> لتذهب نفس السامع في تقديره كل طريق ممكن. <u>والتقدير</u>: والقرآن المجيد إنك لرسول الله بالحق، كما صرّح به في قوله { يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } [يس:1-4] <u>أو يقدّر الجواب</u>: إنه لتنزيل من رب العالمين، أو نحو ذلك.

وهذا من إيجاز الحذف وحسَّنه أنّ الانتقال مشعر بأهمية المتنقَّل إليه. وتقدّم بيان نظيره عند قوله تعالى { بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ } [ص:2].

{ **بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ** } خبر مستعمل في الإنكار إنكارا لعجبهم البالغ حد الإحالة.

{ **عَجِبُوا** } حصل لهم العَجب، وهو الأمر غير المألوف للشخص، كقوله تعالى { قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ } [هود:72/73].

فالمعنى هنا: أنّهم نفوا جواز أن يرسل الله إليهم بشرا مثلهم، قال تعالى { وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً } [الاسراء:94].

وضمير { عَجِبُوا } عائد إلى غير مذكور، فمعاده معلوم من السياق، أعني افتتاح السورة بحرف التهجّي الذي قُصد منه تعجيزهم عن الإتيان بمثل القرآن، لأنّ عجزهم عن الإتيان بمثله في حال أنّه مركّب من حروف لغتهم يدلّهم على أنّه ليس بكلام بشر بل هو كلام أبدعته قدرة الله وأبلغه الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم على لسان الملك، فإنّ المتحدَّين بالإعجاز مشهورون يعلمهم المسلمون، وهم أيضا يعلمون أنّهم المعنيون بالتحدّي بالإعجاز. على أنّه سيأتي ما يفسر الضمير بقوله { فَقَالَ الْكَافِرُونَ }.

{ **مُنْذِرٌ مِنْهُمْ** } للإيماء إلى أنّ عجبهم كان ناشئا عن صفتين في الرسول صلى الله عليه وسلم:

إحداهما أنّه {مُنْذِرٌ}، أي: مخبر بعذاب يكون بعد الموت، أي: مخبر بما لا يصدِّقون بوقوعه، كما قال تعالى { إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ } [سبأ:46]، والثانية كونه { مِنْهُمْ }، أي: أنّه من نوعهم.

ثم إن ذلك يُتخلَّص منه إلى إبطال حجّتهم وإثبات البعث، وهو المقصود بقوله لاحقا { قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ - إلى قوله - كَذَلِكَ الْخُرُوجُ } [4-11].

{ **فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ** } فُرِّع على التكذيب الحاصل في نفوسهم ذكر مقالتهم التي تُفصح عنه وعن شبهتهم الباطلة. وعُبّر عنهم بالاسم الظاهر { فَقَالَ الْكَافِرُونَ }، دون: فقالوا، لتوسيمهم، فإنّ هذه المقالة من آثار الكفر، وليكون فيه تفسير للضميرين السابقين.

{ **هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ** } الإشارة إلى ما هو جار في مقام مقالتهم تلك من دعاء النبيّ صلى الله عليه وسلم إيّاهم للإيمان بالرجع، أي: البعث، وهو الذي بيّنته جملة { أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً }.

{ **أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ** } الاستفهام مستعمل في التعجيب والإبطال، والمستفهم عنه محذوف دلّ عليه ظرف { أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً }، والتقدير: أنرجع إلى الحياة في حين انعدام الحياة منا بالموت وحين تفتت الجسد وصيرورته ترابا، وذلك عندهم أقصى الاستبعاد.

{ **ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ** } مؤكِّدة لجملة { أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً } بطريق الحقيقة والذكر، بعد أن أفيد بطريق المجاز والحذف، لأنّ شأن التأكيد أن يكون أجلى دلالة.

الرجع: مصدر رجع، أي: الرجوع إلى الحياة.

{ **بَعِيدٌ** } أي: أنّه بعيد عن تصوّر العقل، أي: هو أمر مستحيل.

{ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ } [4].

ردّ لقولهم { ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ }، فإنّ إحالتهم البعث ناشئة عن عدّة شبه منها:

أنّ تفرّق أجزاء الأجساد في مناحي الأرض ومهاب الرياح لا تُبقي أملا في إمكان جمعها.

وأنّها لو عُلمت مواقعها لتعذّر التقاطها وجمعها.
ولو جُمعت كيف تعود إلى صورها التي كانت مشكلّة بها؟
وأنّها لو عادت كيف تعود إليها؟
فاقتصر في إقلاع شبههم على إقلاع أصلها: وهو عدم العلم بمواقع تلك الأجزاء وذرّاتها.
والجملة مفصولة بدون عطف لأنّها ابتداء كلام لردّ كلامهم، وهذا هو الأليق بنظم الكلام. وقيل: هي جواب القسم. وأيا ما كان فهي، كما أسلفنا، ردّ لقولهم { ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ }.
المعنى: إذا كان عالما بتلك الأجزاء، كما هو مقتضى عموم العلم الإلهي، وكان قد أراد إحياء أصحابها، كما أخبر به، فلا يعظم على قدرته جمعها وتركيبها أجساما كأجسام أصحابها حين فارقوا الحياة.
{ **قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ** } إيماء إلى دليل الإمكان، لأنّ مرجعه إلى عموم العلم كما قلنا.
واعلم أن هذا الكلام كاف لإبطال تكذيبهم ولاستدعائهم للنظر في الدعوة، ثم يبقى النظر في كيفية الإعادة، وهي أمر لم نكلّف بالبحث عنه.
وقد اختلف فيها النُظّار، فقال جمهور أهل السنة والمعتزلة: تعاد الأجسام بعد عدمها. ومعنى إعادتها، إعادة أمثالها بأن يخلق الله أجسادا مثل الأولى تودع فيها الأرواح التي كانت في الدنيا حالة في الأجساد المعدومة الآن فيصير ذلك الجسم لصاحب الروح في الدنيا. وأدلة الكتاب أكثرها ظاهر في تأييد هذا الرأي، كقوله تعالى { كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ } [الانبياء:104]، وفي معناه قوله تعالى { كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ } [النساء:56].
وورد في الآثار: " **أنّ كل ابن آدم يفنى إلّا عَجْبَ الذنب، منه خُلق ومنه يُركَّب** " [رواه مسلم]. وعلى هذا تكون نسبة الأجساد المعادة كنسبة النخلة من النواة. وهذا واسطة بين القول بأنّ الإعادة عن عدم والقول بأنها عن تفرق. ولا قائل من العقلاء بأنّ المعدوم يعاد بعينه وإنّما المراد ما ذكرناه وما عداه مجازفة في التعبير.
{ **وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ** } عطف على قوله تعالى { قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ }، عطف الأعم على الأخص، وهو بمعنى التذييل له، أي: وعندنا علم بكل شيء علما ثابتا.
{ **كِتَابٌ** } التنكير للتعظيم، وهو تعظيم التعميم، أي: عندنا كتاب كلّ شيء. ويطلق الكتاب على مجموع الصحائف. فيجوز أن يكون الكتاب حقيقة، بأن جعل الله كتبا وأودعها الى ملائكة يسجّلون فيها الناس حين وفياتهم ومواضع أجسادهم ومقار أرواحهم وانتساب كل روح إلى جسدها المعيّن الذي كانت حالة فيه حال الحياة الدنيا، صادقا بكتب عديدة لكل إنسان كتابه، وتكون مثل صحائف الأعمال الذي جاء فيه قوله تعالى { وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً } [الإسراء:14/13].
ويجوز أن يكون مجموع قوله تعالى { وَعِنْدَنَا كِتَابٌ } تمثيلا لعلم الله تعالى بحال علم من عنده كتاب

حفيظ يعلم به جميع أعمال الناس.
{ **حَفِيظٌ** } فعيل: إمّا بمعنى فاعل، أي: حافظ لما جُعل لإحصائه من أسماء الذوات ومصائرها. وإمّا بمعنى مفعول، أي: محفوظ ما فيه ممّا قد يعتري الكتب المألوفة من المحو والتغيير والزيادة والتشطيب ونحو ذلك.

{ **بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ** } [5].
إضراب ثانٍ تابع للإضراب الذي في قوله تعالى { بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ } [2] على طريقة تكرير الجملة في مقام التنديد والإبطال، أو بدل من تلك الجملة، لأنّ ذلك العجب مشتمل على التكذيب. وكلا الاعتبارين يقتضيان فصل هذه الجملة. أي: أنّهم أتوا بأفظع من إحالتهم البعث وذلك هو التكذيب بالحق.
{ **بِالْحَقِّ** } هنا القرآن، لأنّ فعل التكذيب إذا عدّي بالباء عدّي إلى الخبر وإذا عدّي بنفسه كان لتكذيب المخبر.
{ **لَمَّا** } حرف توقيت، فهي دالة على ربط حصول جوابها بوقت حصول شرطها فهي مؤذنة بمبادرة حصول الجواب عند حصول الشرط، كقوله تعالى { فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ } [البقرة:17].
{ **جَاءَهُمْ** } بلغهم وأُعلموا به.
المعنى: أنّهم بادروا بالتكذيب دون تأمّل ولا نظر فيما حواه من الحقّ بل كذّبوا به من أوّل وهلة. فالتكذيب بما جاء به القرآن يعمّ التكذيب بالبعث وغيره.
{ **فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ** } فُرّع على الخبر المنتقل إليه بالإضراب وصف حالهم الناشئة عن المبادرة بالتكذيب قبل التأمّل بأنّها أمر مريج أحاط بهم وتلجلجوا فيه، كما دلّ عليه حرف الظرفية.
{ **أَمْرٍ** } اسم مبهم مثل شيء، ولمّا وقع هنا بعد حرف { **فِي** } المستعمل في الظرفية المجازية تعيّن أن يكون المراد بالأمر الحال المتلبسون هم به.
المريج: المضطرب المختلط، أي: لا قرار في أنفسهم في هذا التكذيب، اضطربت فيه أحوالهم كلّها:
*/ من أقوالهم في وصف القرآن:
فقالوا { سِحْرٌ مُبِينٌ } [المائدة:110]، وقالوا { إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } [الأنعام:25]، وقالوا { قَوْلِ شَاعِرٍ } [الحاقة:41]، وقالوا { قَوْلِ كَاهِنٍ } [الحاقة:42]، وقالوا: "هذيان مجنون".
*/ وفي سلوكهم في طرق مقاومة دعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم وما يصفونه به إذا سألهم الواردون من قبائل العرب.
*/ ومن بهتهم في إعجاز القرآن، ودلالة غيره من المعجزات وما دمغهم به من الحجج على إبطال

الإشراك وإثبات الوحدانية لله.

وهذا تحميق لهم بأنّهم طاشت عقولهم فلم يتقنوا التكذيب ولم يرسوا على وصف الكلام الذي كذّبوا به.

{ **أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ** } [6].

تفريع على قوله تعالى { بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ - إلى قوله – مَرِيجٍ } [2-5]، لأنّ أهم ما ذُكر من تكذيبهم أنّهم كذّبوا بالبعث، وخَلْق السماوات والنجوم والأرض دالٌّ على أنّ إعادة الإنسان بعد العدم في حيّز الإمكان، فتلك العوالم وُجدت عن عدم، وهذا أدلُّ عليه قوله تعالى { أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ } [يس:81].

{ **أَفَلَمْ يَنْظُرُوا** } الاستفهام يجوز أن يكون إنكاريا. والنظر: نظر الفكر، على نحو قوله تعالى { قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [يونس:101]. ومحلّ الإنكار هو الحال التي دل عليها { كَيْفَ بَنَيْنَاهَا }، أي: ألم يتدبّروا في شواهد الخليقة، فتكون الآية في معنى قوله تعالى { أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ } [الروم:8].

ويجوز أنّ يكون الاستفهام تقريريا، والنظر المشاهدة، ومحلّ التقرير هو فعل { يَنْظُرُوا }، أو يكون { كَيْفَ } مراد به الحال المشاهدة.

والتقرير على نفي الشيء المراد الإقرار بإثباته طريقة قرآنية ذكرناها غير مرة، وبيَّنّا أن الغرض منه إفساح المجال للمقرَّر إن كان يروم إنكار ما قُرِّر عليه، ثقة من المقرِّر (بكسر الراء) بأنّ المقرَّر (بالفتح) لا يُقدم على الجحود بما قُرِّر عليه لظهوره، وتقدّم قوله تعالى {أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ} [الأعراف:148]، وقوله تعالى { أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ } [الأعراف:172].

{ **إِلَى السَّمَاءِ** } هنا ما تراه العين من كرة الهواء التي تبدو كالقبّة، وتسمَّى الجو.

{ **فَوْقَهُمْ** } حال من السماء. والتقييد بالحال تنديد عليهم لإهمالهم التأمّل مع المكنة منه، إذ السماء قريبة فوقهم لا يكلّفهم النظر فيها إلّا رفع رؤوسهم.

{ **كَيْفَ** } اسم جامد مبني معناه: حالة، وأكثر ما يرد في الكلام للسؤال عن الحالة، وهي هنا بدل من { فَوْقَهُمْ } فتكون حالا في المعنى.

{ **بَنَيْنَاهَا** } أطلق البناء على خلق العلويات بجامع الارتفاع.

{ **وَزَيَّنَّاهَا** } التزيين جعل الشيء زَيْنًا، أي: حَسَنا، أي: تحسين منظرها للرائي بما يبدو فيها من الشمس نهارا والقمر والنجوم ليلا. ويتفاوت الناس في إدراك ما في خلق الكواكب والشمس والقمر ونظامها من دلائل، على مقدار تفاوت علومهم وعقولهم.

{ **وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ** } عطف على جملتي { كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا }، فهي حال ثالثة في المعنى.

الفروج: جمع فرج، وهو الخرق، أي: يشاهدونها كأنّها كرة متّصلة الأجزاء ليس بين أجزائها تفاوت يبدو كالخرق، ولا تباعد يفصل بعضها عن بعض فيكون خرقا في قبّتها.
ونظير هذه الآية قوله تعالى { الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً – إلى قوله - هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ } [الملك:3].

{ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ } [7].
عطف على جملة { أَفَلَمْ يَنْظُرُوا } [6]، عطف الخبر على الاستفهام الإنكاري وهو في معنى الإخبار.
ولمّا كانت أحوال الأرض نصب أعين الناس وهي أقرب إليهم من أحوال السماء، لم يؤت في لفت أنظارهم إلى دلالتها باستفهام إنكاري تنزيلا لهم منزلة من نظر في أحوال الأرض فلم يكونوا بحاجة إلى إعادة الأخبار بأحوال الأرض تذكيرا لهم.
المدّ: البسط، أي: بسطنا الأرض حتّى لا يكون المشي عليها مرهقا. والمراد: بسط سطح الأرض وليس المراد وصف حجم الأرض لأنّ ذلك لا تدركه المشاهدة ولم ينظر فيه المخاطبون، فلا يُعتبر في سياق الاستدلال على القدرة على خلق الأمور العظيمة، ولا في سياق الامتنان بما في ذلك الدليل من نعمة، فلا علاقة لهذه الآية بقضية كروية الأرض.
الإلقاء: تمثيل لتكوين أجسام بارزة على الأرض متباعد بعضها عن بعض، لأنّ حقيقة الإلقاء: رمي شيء من اليد إلى الأرض، وهذا استدلال بخلقة الجبال، كقوله تعالى { وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ } [الغاشية:19].
رواسي: جمع راسٍ، على غير قياس. والرُسُوُّ: الثبات والقرار.
وفائدة هذا الوصف زيادة التنبيه إلى بديع خلق الله إذ جعل الجبال متداخلة مع الأرض ولم تكن موضوعة عليها وضعا كما توضع الخيمة لأنّها لو كانت كذلك لتزلزلت وسقطت، قال تعالى { وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ } [الأنبياء:31].
الزوج: النوع من الحيوان والثمار والنبات، وتقدّم في قوله تعالى { فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى } [طه:53]. <u>والمعنى</u>: وأنبتنا في الأرض أصناف النبات وأنواعه.
{ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ } يظهر أنّ حرف { مِنْ } مزيد للتوكيد. وكلمة { كُلِّ } مستعملة في معنى الكثرة. وهذا كقوله تعالى { فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى } [طه:53].
وفائدة التكثير هنا التعريض بهم لقلّة تدبّرهم، إذ عَمُوا عن دلائل كثيرة واضحة بين أيديهم.
البهيج: <u>يجوز أن يكون صفة مشبّهة</u>، يقال: بهُج، إذا حسُن في أعين الناظرين، فالبهيج بمعنى الفاعل كما دلّ عليه قوله تعالى { فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ } [النمل:60].
<u>ويجوز أن يكون فعيلا بمعنى مفعول</u>، أي: مُنْبَهَجٌ به على الحذف والإيصال، أي: يُسَرُّ به الناظر.

يقال: بَهَجَه إذا سَرَّه، ومنه الابتهاج المسرَّة.

وهذا الوصف يفيد ذكره تقوية الاستدلال على دقة صنع الله تعالى، وإدماج الامتنان عليهم بذلك ليشكروا النعمة ولا يكفروها بعبادة غيره.

{ **تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ** } [8].

مفعول لأجله للأفعال السابقة من قوله تعالى { بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا } [6] وقوله تعالى { مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا } [7]، على أنّه علة لها على نحو من طريقة التنازع، أي: ليكون ما سبق ذكره تبصرة وذكرى، أي: جعلناه لغرض أن نُبصّر به ونُذكّر كلّ عبد منيب.

{ **تَبْصِرَةً وَذِكْرَى** } حُذف المتعلّق ليعمّ كلّ ما يصلح أن يُتبصَّر في شأنه بدلائل خلق الأرض وما عليها، وأهم ذلك فيهم هو التوحيد والبعث، كما هو السياق تصريحا وتلويحا.

وإنّما كانت التبصرة والذكرى علّة للأفعال المذكورة لأنّ التبصرة والذكرى من جملة الحِكم التي أوجد الله تلك المخلوقات لأجلها. وليس ذلك بمقتض انحصار حكمة خلقها في التبصرة والذكرى، لأنّ أفعال الله تعالى لها حكم كثيرة علمنا بعضها وخفي علينا بعض.

التبصرة: مصدر بصَّره. وأصل مصدره التبصير. والتبصير: جعل المرء مُبصِرا وهو هنا مجاز للأمر الذي كان خفيّا عن النفس، فكأنّها لم تبصره ثم أبصرته.

الذكرى: اسم مصدر ذَكَّر، إذا جعله يذكر ما نسيه. وأطلقت هنا على مراجعة النفس ما علمته ثم غفلت عنه.

{ **عَبْدٍ** } بمعنى عبد الله، أي: مخلوق، ولا يطلق إلّا على الإنسان. وجمعه: عباد دون عبيد.

المنيب: الراجع، والمراد هنا الراجع إلى الحقّ بطاعة الله فإذا انحرف أو شغله شاغل ابتدر الرجوع إلى ما كان فيه من الاستقامة والامتثال فلا يفارقه حال الطاعة وإذا فارقه قليلا آب إليه وأناب. وإطلاق المنيب على التائب والإنابة على التوبة من تفاريع هذا المعنى، وتقدّم قوله تعالى { وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ } [ص:24].

وخُصّ العبد المنيب بالتبصرة والذكرى لأنّه هو الذي ينتفع بذلك، فكأنّه هو المقصود من حكمة تلك الأفعال. وهذا تشريف للمؤمنين وتعريض بإهمال الكافرين التبصّر والتذكّر.

{ **وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ** [9] **وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ** [10] }.

عطف على جملة { وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا } [7]. بعد التنظّر والتذكير والتبصير في صنع السماوات وصنع

الأرض وما فيهما من وقت نشأتهما، نُقل الكلام إلى التذكير بإيجاد آثار من آثار تلك المصنوعات تتجدّد على مرور الدهر حيّة ثم تموت ثم تحيا دأبا، وقد غُيّر أسلوب الكلام لهذا الانتقال من أسلوب الاستفهام في قوله تعالى { أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ } [6] إلى أسلوب الإخبار بقوله تعالى { وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً } إيذانا بتبديل المراد، ليكون منه تخلّص إلى الدلالة على إمكان البعث في قوله تعالى { كَذَلِكَ الْخُرُوجُ } [11].

المبارك: اسم مفعول للذي جُعلت فيه البركة، أي: جُعل فيه خير كثير. وأفعال هذه المادة كثيرة التصرّف ومتنوعة التعليق. وتقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً } [آل عمران:96].

وفي هذا استدلال بتفصيل الإنبات، الذي سبق إجماله في قوله تعالى { وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ } [7]، لما فيه من سوق العقول إلى التأمّل في دقيق الصنع لذلك الإنبات، وأنّ حصوله بهذا السبب وعلى ذلك التطوّر أعظم دلالة على حكمة الله وسعة علمه ممّا لو كان إنبات الأزواج بالطفرة [ما قاله بعض المعتزلة]، إذ تكون حينئذ أسباب تكوينها خفية.

الجنّات: جمع جنّة، وهي ما شُجر بالكرم وأشجار الفواكه والنخيل.

الحَبّ: هو ما ينبت في الزرع الذي يُخرج سنابل تحوي حبوبا مثل البُر والشعير والذرة والسلت والقطاني ممّا تحصد أصوله ليُدقَّ فيخرج ما فيه من الحبّ.

{ **حَبَّ الْحَصِيدِ** } مفعول { فَأَنْبَتْنَا }، لأنّ الحَبّ ممّا نبت تبعا لنبات سنبله.

الحصيد: الزرع المحصود، أي: المقطوع من جذوره لأكل حبّه.

{ **وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ** } خُصَّ النخل بالذكر، مع تناول جنات له، لأنّه أهم الأشجار عندهم وثمره أكثر أقواتهم، ولإتباعه بالأوصاف له ولطلعه، ممّا يثير تذكر بديع قوامه وأنيق جماله.

الباسقات: الطويلات في ارتفاع، أي: عاليات. فلا يقال: باسق للطويل الممتدّ على الأرض. والمقصود من ذلك الإيماء إلى بديع خلقته وجمال طلعته استدلالا وامتنانا.

الطلع: أوّل ما يظهر من ثمر التمر وهو في الكُفُرَى، أي: غلاف العنقود.

النضيد: المنضود، أي: المصفّف بعضه فوق بعض ما دام في الكُفُرَى، فإذا انشق عنه فليس بنضيد. قال تعالى { وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ } [الواقعة:29].

وزيادة هذه الحال للازدياد من الصفات الناشئة عن بديع الصنعة، ومن المنّة بمحاسن منظر ما أوتوه.

{ رِزْقاً لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ } [11].

{ **رِزْقاً لِلْعِبَادِ** } مفعول لأجله لقوله تعالى { فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ } [9] إلى آخره، فهو مصدر، أي: لنرزق العباد. والقول في التعليل به كالقول في التعليل بقوله تعالى { تَبْصِرَةً وَذِكْرَى } [8].

العباد: الناس، وهو جمع عبد بمعنى عبد الله. وهذا استدلال وامتنان.

{ **وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً** } عطف على السابق من القول، عطف الفعل على الاسم المشتقّ من الفعل، لأنّه في معنى: رزقنا العباد وأحيينا به بلدة ميتا. فهو كذلك استدلال وفيه امتنان.

البلدة: القطعة من الأرض.

المَيْت (بالتخفيف): مرادف المَيّت (بالتشديد). وتذكير { مَيْتاً } وهو وصف لـ { بَلْدَةً } وهي مؤنث، على تأويله بالبلد لأنّه مرادفه، وبالمكان لأنّه جنسه. شُبِّه الجدب بالموت في انعدام ظهور الآثار، ولذلك سُمِّي ضدّه، وهو إنبات الأرض، حياة. ويقال لخدمة الأرض اليابسة وسقيها: إحياء موات.

{ **كَذَلِكَ الْخُرُوجُ** } بعد ظهور الدلائل بصنع الله على إمكان البعث جيء بما يفيد تقريب البعث، لأنّ خلق تلك المخلوقات من عدم يدل على أنّ إعادة بعض الموجودات الضعيفة أمكن وأهون.

فالجملة فذلكة للاستدلال على إمكان البعث الذي تضمّنته الجمل السابقة فوجب انفصالها، فتكون استئنافا أو اعتراضا في آخر الكلام، على رأي من يجيزه، وهو الأصح.

{ **كَذَلِكَ** } الإشارة إلى ما ذُكر آنفا من إحياء الأرض بعد موتها، أي: كما أحيينا الأرض بعد موتها كذلك نحيي الناس بعد موتهم وبلاهم. مع إفادتها تعظيم شأن المشار إليه.

{ **الْخُرُوجُ** } التعريف للعهد، أي: خروج الناس من الأرض، كما قال تعالى { يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً } [المعارج:43]. فـ { الْخُرُوجُ } صار كالعلم بالغلبة على البعث.

{ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ [12] وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ [13] وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ [14] }.

استئناف ابتدائي ناشئ عن قوله { بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ } [5]، فعُقّب بأنّهم ليسوا ببدع في الضلال، فقد كذَّبت قبلهم أمم. وذكر منهم أشهرهم في العالم وأشهرهم بين العرب؛ فقوم نوح أوّل قوم كذّبوا رسولهم، وفرعون كذّب موسى، وقوم لوط كذّبوه، وهؤلاء معروفون عند أهل الكتاب، وأمّا أصحاب الرَسّ وعاد وثمود وأصحاب الأيكة وقوم تبّع فهم من العرب.

{ **وَأَصْحَابُ الرَّسِّ** } ذُكروا هنا عقب قوم نوح للجامع الخيالي بين القومين وهو جامع التّضاد، لأنّ عذابهم كان ضدّ عذاب قوم نوح، إذ كان عذابهم بالخسف وعذاب قوم نوح بالغرق.

الرسّ: يطلق اسما للبئر غير المطويّة ويطلق مصدرا للدفن والدسّ. واختلف المفسرون في المراد به هنا.

أصحاب الرسّ: قوم عرفوا بالإضافة إلى الرّسّ، فيُحتمل أن إضافتهم إلى الرسّ من إضافة الشيء إلى موطنه مثل { أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ }، و{ أَصْحَابُ الْحِجْرِ } [الحجر:80]، و{ أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ } [يس:13].
ويجوز أن تكون إضافة إلى حَدَثٍ حلّ بهم مثل { أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ } [البروج:4].

والأظهر أنّ إضافة { أَصْحَابُ } إلى { الرَّسِّ } من إضافة اسم إلى حَدَثٍ حلّ بهم، فقد قيل: إنّ أصحاب الرّسّ عوقبوا بخسف في الأرض فوقعوا في مثل البئر.

وقيل: هو بئر ألقى أصحابه فيه (**حنظلة بن صفوان**) رسول الله إليهم، حيًّا.

وتقدّم الكلام عليهم عند قوله تعالى { وَعَاداً وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ } [الفرقان:38].

{ **وَثَمُودُ** } ثُمّ ذُكر ثمود لشبه عذابهم بعذاب أصحاب الرَسّ إذ كان عذابهم برجفة الأرض وصواعق السماء، ولأنّ أصحاب الرّسّ من بقايا ثمود.

{ **وَعَادٌ** } ثُمّ ذُكرت عاد لأنّ عذابها كان بحادث في الجو وهو الريح.

{ **وَفِرْعَوْنُ** } ثم ذُكر فرعون لأنّه كذّب أشهر الرسل قبل الإسلام.

{ **وَإِخْوَانُ لُوطٍ** } عُبّر عن قوم لوط بـ { وَإِخْوَانُ لُوطٍ } ولم يكونوا من قبيله، فالمراد بـ { إِخْوَانُ } أنّهم ملازمون. وهم أهل سدوم وعمورة وقراهما، وكان لوط ساكنا في سدوم ولم يكن من أهل نسبهم لأنّ أهل سدوم كنعانيون ولوطا عبراني. وقد تقدّم قوله تعالى { إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ } [الشعراء:161].

{ **وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ** } وأصحاب الأيكة هم قوم شعيب وهم من خلطاء بني إسرائيل.

{ **وَقَوْمُ تُبَّعٍ** } وذُكر قوم تبّع وهم أهل اليمن ولم يكن العرب يعدّونهم عربا.

وهذه الأمم أصابها عذاب شديد في الدنيا عقابا على تكذيبهم الرسل. والمقصود تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتعريض بالتهديد لقومه المكذّبين أنّ يحلّ بهم ما حل بأولئك.

{ **كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ** } مؤكِّدة لجملة { كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ } الى آخرها، فلذلك فُصلت ولم تعطف، وليُبنى عليه قوله { **فَحَقَّ وَعِيدِ** } فيكون تهديد بأن يحقّ عليهم الوعيد كما حقّ على أولئك، مرتبا بالفاء، على تكذيبهم الرسل، فيكون في ذلك تشريف للنبيّ صلى الله عليه وسلم وللرسل السابقين.

{ **كُلٌّ** } التنوين عوض عن المضاف إليه، أي: كلّ أولئك.

{ **فَحَقَّ** } صدق وتحقق. أي: أنّ الله توعّدهم به فلم يعبأوا وكذّبوا وقوعه فحقّ وصدق.

{ **وَعِيدِ** } حُذفت ياء المتكلّم للرعي على الفاصلة وهو كثير. و **الوعيد**: الإنذار بالعقوبة.

{ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ } [15].

الراجح أن يُجعل تفريعا على قوله تعالى { كَذَلِكَ الْخُرُوجُ }. والاستفهام المفرّع بالفاء استفهام إنكار وتغليط لأنّهم لا يسعهم إلّا الاعتراف بأنّ الله لم يعي بالخلق الأوّل إذ لا ينكر عاقل كمال قدرة الخالق وعدم عجزه.

{ **أَفَعَيِينَا** } معناه عجزنا، وفعل **عَيَّ** (مدغما) إذا لم يتصل به ضمير وهو الأكثر، ويقال: **عَيِيَ** (بالفك) إذا اتصل به ضمير. ومعناه: عجز عن إتقان فعل ولم يهتد لحيلته. ويعدّى بـ (الباء) يقال: عيي بالأمر.

وأمّا (أعيا) بالهمزة في أوله قاصرا فهو للتعب بمشي أو حمل ثقل وهو فعل قاصر لا يعدّى بـ (الباء).

فالمعنى: ما عجزنا عن الخلق الأوّل للإنسان فكيف نعجز عن إعادة خلقه.

{ **بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ** } (بل) هنا للإضراب الإبطالي عن المستفهم عنه، أي: بل ما عيينا بالخلق الأوّل، أي: وهم يعلمون ذلك، ويعلمون أنّ الخلق الأوّل للأشياء أعظم من إعادة خلق الأموات ولكنّهم تمكّن منهم اللبس الشديد فأغشى إدراكهم عن دلائل الإمكان فأحالوه.

اللبس: الخلط للأشياء المختلفة بحيث يعسر أو يتعذّر معه تمييز بعضها عن بعض.

وجيء بالجملة الاسمية للدلالة على ثبات هذا الحكم لهم وأنّه متمكّن من نفوسهم لا يفارقهم البتّة، وليتأتّى اجتلاب حرف الظرفية في الخبر فيدلّ على انغماسهم في هذا اللبس وإحاطته بهم إحاطة الظرف بالمظروف.

{ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ } [16].

هذا تفصيل لبعض الخلق الأوّل بذكر خلق الإنسان، وهو أهم في هذا المقام، للتنبيه على أنّه المراد من الخلق الأوّل، وليُبنى عليه { وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ } الذي هو تتميم لإحاطة صفة العلم في قوله تعالى { قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ } [4]، وليُنتقل منه إلى الإنذار بإحصاء أعمال الناس، وهو ما استرسل في وصفه من قوله تعالى { إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ } [17]، ووصف البعث وصف الجزاء من قوله تعالى { وَنُفِخَ فِي الصُّورِ - الى قوله - وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ } [20-35].

{ **وَلَقَدْ** } تأكيد هذا الخبر بالـ (لام) و(قد) مراعى فيه المتعاطفات، وهي { وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ }، لأنّهم وإن كانوا يعلمون أنّ الله خلق الناس فإنّهم لا يعلمون أنّ الله عالم بأحوالهم.

{ **الْإِنْسَانَ** } يعمّ جميع النّاس ولكن المقصود منهم أوّلا المشركون لأنّهم المسوق إليهم هذا الخبر، وهو تعريض بالإنذار كما يدلّ عليه قوله بعده { ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ } [19] وقوله تعالى { لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا } [22]، وقوله تعالى { ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ } [20].

وفائدة الإخبار بأنّ الله يعلم ما توسوس به نفس كّل إنسان التنبيه على سعة علم الله تعالى بأحوالهم كلّها، فإذا كان يعلم حديث النفس فلا عجب أن يعلم ما تنقص الأرض منهم.

{ **خَلَقْنَا / وَنَعْلَمُ** } الإخبار عن فعل الخلق بصيغة الماضي ظاهر، وأمّا الإخبار عن علم ما توسوس به النفس بصيغة المضارع فللدلالة على أنّ تعلق علمه تعالى بالوسوسة متجدّد غير منقض ولا محدود، لإثبات عموم علم الله تعالى، والكناية عن التحذير من إضمار ما لا يرضي الله.

{ **تُوَسْوِسُ** } تتكلم كلاما خفيّا همسا. ومصدره الوسواس والوسوسة، أطلقت هنا مجازا على ما يجول في النفس من الخواطر والتقديرات والعزائم، لأنّ الوسوسة أقرب شيء تُشبَّه به تلك الخواطر وأحسن ما يستعار لها لأنّها تجمع مختلف أحوال ما يجول في العقل من التقادير، وما عداها من نحو ألفاظ (التوهّم والتفكّر) إنّما يدلّ على بعض أحوال الخواطر دون بعض.

{ **وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ** } في موضع الحال من ضمير { نَعْلَمُ }. والمقصود منها تأكيد عاملها وتحقيق استمرار العلم بباطن الإنسان.

{ **أَقْرَبُ** } كناية عن إحاطة العلم بالحال، لأنّ القرب يستلزم الاطلاع، وليس هو قربا بالمكان، فآل الكلام إلى التشبيه البليغ، تشبيه معقول بمحسوس، وهذا من بناء التشبيه على الكناية بمنزلة بناء المجاز على المجاز.

الحبل: هنا واحد حِبال الجسم. وهي العروق الغليظة المعروفة في الطب بالشرايين.

الوريد: واحد من الشرايين وهو ثاني شريانين يخرجان من التجويف الأيسر من القلب.

{ **حَبْلِ الْوَرِيدِ** } إضافة بيانية، أي: الحبل الذي هو الوريد، فإنّ إضافة الأعم إلى الأخص إذا وقعت في الكلام كانت إضافة بيانية، كقولهم: شجر الأراك.

ومن لطائف هذا التمثيل أنّ حبل الوريد مع قربه لا يشعر الإنسان بقربه لخفائه، وكذلك قرب الله من الإنسان بعلمه قربٌ لا يشعر به الإنسان، فلذلك اختير تمثيل هذا القرب بقرب حبل الوريد.

{ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ [17] مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ [18] }.

يتعلق { إِذْ } بقوله تعالى { أَقْرَبُ } [16]. والكلام تخلّص للموعظة والتهديد بالجزاء يوم البعث.

{ **الْمُتَلَقِّيَانِ** } تعريف العهد، إذا كانت الآية نزلت بعد آيات ذُكر فيها الحفظة، أو تعريف الجنس، والتثنية فيها للإشارة إلى أنّ هذا الجنس مقسم اثنين اثنين.

التلقّي: أخذ الشيء من يد معطيه. استعير لتسجيل الأقوال والأعمال حين صدورها من النّاس.

وحُذف مفعول { يَتَلَقَّى } لدلالة قوله { مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}، والتقدير: أقوالهم وأعمالهم. فيؤخذ من الآية أنّ لكل إنسان ملكين يحصيان أعماله، وأنّ أحدهما يكون من جهة يمينه والآخر من جهة شماله. وورد في السنة بأسانيد مقبولة: أنّ الذي يكون على اليمين يكتب الحسنات والذي عن الشمال يكتب السيّئات، وورد أنّهما يلازمان الإنسان من وقت تكليفه إلى أن يموت.

{ **عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ** } يجوز أن يكون { قَعِيدٌ } بدلا من { الْمُتَلَقِّيَانِ } بدل بعض، و{ عَنِ الْيَمِينِ } متعلّق بـ { قَعِيدٌ }، وقُدّم على متعلّقه للاهتمام بما دلّ عليه من الإحاطة بجانبيه، وللرعاية على الفاصلة. ويجوز أن يكون { عَنِ الْيَمِينِ } خبرا مقدّما، و{ قَعِيدٌ } مبتدأ، وتكون الجملة بيانا لجملة { يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ }.

{ **وَعَنِ الشِّمَالِ** } عطف على جملة { يَتَلَقَّى } وليس عطفا على قوله { عَنِ الْيَمِينِ }، لأنّه ليس المعنى على أنّ القعيد قعيد في الجهتين، بل لكلّ من الجهتين قعيد مستقلّ بها. والتقدير: عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد.

{ **الْيَمِينِ / الشِّمَالِ** } تعريف العهد أو اللام عوض عن المضاف إليه، أي: عن يمين الإنسان وعن شماله.

القعيد: المُقاعد مثل الجليس للمجالس، والأكيل للمؤاكل. والغالب في فعيل أن يكون إمّا بمعنى فاعل، وإمّا بمعنى مفعول. والقعيد مستعار للملازم الذي لا ينفك عنه، ولذلك قالوا لامرأة الرجل: قعيدته. كما أطلقوا القعيد على الحافظ لأنّه يلازم الشيء الموكل بحفظه.

{ **مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ** } مبيّنة لجملة { إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ } فلذلك فصلت.

{ **مَا يَلْفِظُ** } و(ما) نافية وضمير { يَلْفِظُ } عائد للإنسان.

{ **مِنْ قَوْلٍ** } خُصّ بالذكر لأنّ المقصود ابتداء من هذا التحذير المشركون. وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **وهل يُكبّ الناس في النار على وجوههم إلّا حصائد ألسنتهم** ". على أنّه من المعلوم بدلالة الاقتضاء أنّ المؤاخذة على الأعمال أولى من المؤاخذة على الأقوال، وتلك الدلالة كافية في تذكير المؤمنين.

اللفظ: النطق بكلمة دالة على معنى، ولو جزء معنى، بخلاف القول فهو الكلام المفيد معنى.

{ **عَتِيدٌ** } فعيل من عتد بمعنى هَيَّأ، والتاء مبدلة من الدال الأول إذ أصله عديد، أي: مُعَدّ. كما في قوله تعالى { وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً } [يوسف:31].

وعندي أن { عَتِيدٌ } هنا صفة مشبّهة من قولهم عتُد إذا جسُم وضخُم، كناية عن كونه شديدا، وبهذا يحصل اختلاف بينه وبين قوله تعالى { هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ } [23]، ويحصل محسّن الجناس التام بين الكلمتين.

{ **إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ** } استثناء من أحوال عامة، أي: ما يقول قولا إلّا في حالة وجود رقيب عتيد لديه. والأظهر أنّ هذا العموم مراد به الخصوص بقرينة قوله { إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ } لأنّ المراقبة هنا تتعلّق بما في الأقوال من خير أو شرّ، فلا يكتب الحفظة إلّا ما يترتّب عليه الجزاء، وكذلك قال ابن عباس وعكرمة.

وقال الحسن: يكتبان كلّ ما صدر من العبد. قال مجاهد وأبو الجوزاء: " حتّى أنينه في مرضه ". وروي مثله عن مالك بن أنس.

{ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ } [19].

عطف على جملة { وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ } [16] لاشتراكهما في التنبيه على الجزاء على الأعمال. فهذا تنقّل في مراحل الأمور العارضة للإنسان التي تُسلمه من حال إلى آخر حتّى يقع في الجزاء على أعماله التي قد أحصاها الحفيظان.

{ **وَجَاءَتْ** } خولف التعبير في المعطوف بصيغة الماضي دون صيغة المضارع التي صيغ بها المعطوف عليه، لأنّه لقربه صار بمنزلة ما حصل، قصدًا لإدخال الرَّوع في نفوس المشركين، كما استفيد من قوله

تعالى { ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ }، كقوله تعالى { قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ } [الجمعة:8].

والمجيء هنا مجاز في الحصول والاعتراء، وفي هذه الاستعارة تهويل لحالة احتضار الإنسان وشعوره بأنّه مفارق الحياة التي ألفها وتعلّق بها قلبه.

السكرة: اسم لما يعتري الإنسان من ألم أو اختلال في المزاج يحجب من إدراك العقل فيختلّ الإدراك ويعتري العقل غيبوبة. وهي مشتق من السَكْر وهو الغلق، لأنّه يغلق العقل.

{ **بِالْحَقِّ** } الباء للملابسة، وهي إمّا حال من { سَكْرَةُ الْمَوْتِ }، أي: متّصفة بأنّها حق، أي: السكرة التي لا طمع في امتداد الحياة بعدها، وإمّا حال من { الْمَوْتِ }، أي: المفروض المكتوب على الناس فهم محقوقون به

{ **ذَلِكَ** } إشارة إلى الموت، بتنزيل قرب حصوله منزلة الحاصل المشاهد.

{ **مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ** } تفرّ وتهرب، وهو مستعار للكراهية أو لتجنب أسباب الموت.

والمقصود الأوّل من الخطاب هم المشركون لأنّهم أشد كراهية للموت، لأنّ حياتهم مادية محضة فهم يريدون طول الحياة، قال تعالى { وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ } [البقرة:96]، إذ لا أمل لهم في حياة أخرى، ولا أمل لهم في تحصيل نعيمها.

أمّا المؤمنون فإنّ كراهتهم للموت المرتكزة في الجبلّة بمقدار الإلف، لا تبلغ بهم إلى حد الجزع منه. وفي الحديث: **" من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه "**. وقد بيّنه النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: **" إنّ المؤمن إذا حضرته الوفاة رأى ما أعدّ الله له من خير فأحبّ لقاء الله "**.

أي: والكافر بعكسه، وقد قال الله تعالى خطابا لليهود { قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ } [الجمعة:8].

{ **مِنْهُ تَحِيدُ** } التقديم للاهتمام بما منه الحياد، وللرعاية على الفاصلة.

{ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ [20] وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ [21] }.

عطف على { وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ } [19].

{ **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ** } صيغة الماضي مستعملة في معنى المضارع، لتحقّق وقوعه، مثل قوله تعالى { أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ } [النحل:1]. وتقدّم عند قوله تعالى { وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ} [الأنعام:73].

{ **ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ** } معترضة. والإشارة راجعة إلى النفخ، والإخبار عن النفخ بأنّه { يَوْمُ الْوَعِيدِ } بتقدير مضاف، أي: ذلك حلول يوم الوعيد.

{ **يَوْمُ الْوَعِيدِ** } من إضافة الشيء إلى ما يقع فيه، أي: يوم حصول الوعيد الذي كانوا تُوعِّدوا به.

والاقتصار على ذكر الوعيد لما علمت من أنّ المقصود الأول من هذه الآية هم المشركون.

{ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ } معطوفة على جملة { وَنُفِخَ فِي الصُّورِ }.

{ كُلُّ نَفْسٍ } هم المشركون، ويدل عليه أمور:

أحدهما: السياق.

الثاني: قوله تعالى { مَعَهَا سَائِقٌ }، لأنّ السائق يناسب إزجاء أهل الجرائم، وأمّا المهديُّون إلى الكرامة فإنّما يهديهم قائد يسير أمامهم، قال تعالى { كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ } [الأنفال:6].

الثالث: قوله تعالى بعده { لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا } [22].

الرابع: قوله تعالى بعده { وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ } [23].

{ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ } بدل اشتمال من جملة { جَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ }، ويجوز أن تكون حالا من {كُلُّ نَفْسٍ}.

{ سَائِقٌ وَشَهِيدٌ } يجوز أن يكون من عطف ذات على ذات فيكون المراد ملكان أحدهما يسوق النفس إلى المحشر والآخر يشهد عليها بما حوته صحائف أعمالها. ويجوز أن يكون من عطف الصفات.

السائق: الذي يجعل غيره أمامه يزجيه في السير ليكون بمرأى منه كيلا ينفلت، وذلك من شأن المشي به إلى ما يسوء، قال تعالى { وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً } [الزمر:71]، وأمّا قوله بعده { وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً } [الزمر:73] فمشاكلة.

وضد السوق: القَوْد.

{ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ } [22].

مقول قول محذوف دلّ على تعينه من الخطاب، أي: يقال هذا الكلام لكلّ نفس من نفوس المشركين، فهو خطاب التهكّم التوبيخي للنفس الكافرة، لأنّ المؤمن لم يكن في غفلة عن الحشر والجزاء.

وهذا الكلام صادر من جانب الله تعالى، وهو شروع في ذكر الحساب.

{ كُنْتَ / عَنْكَ / غِطَاءَكَ / فَبَصَرُكَ } علامات الخطاب مفتوحة لتأويل النفس بالشخص أو بالإنسان، ثم غُلّب فيه التذكير على التأنيث.

الغفلة: الذهول عما شأنه أن يُعلم، وأطلقت هنا على الإنكار والجَحد على سبيل التهكّم، ورشَّح ذلك قوله تعالى { فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ }، بمعنى: بيَّنّا لك الدليل بالحسّ، فهو أيضا تهكّم.

{ فِي غَفْلَةٍ } أوثر على أن يقال: غافلا، للدلالة على تمكّن الغفلة منه، ولذلك استتبع تمثيلها بالغطاء.

كشف الغطاء: تمثيل لحصول اليقين بالشيء بعد إنكار وقوعه، أي: كشفنا عنك الغطاء الذي كان يحجب عنك وقوع هذا اليوم بما فيه.

وأُسند الكشف إلى الله تعالى لأنّه الذي أظهر لها أسباب حصول اليقين بشواهد عين اليقين.

{ غِطَاءَكَ } أضيف (غطاء) إلى ضمير الإنسان المخاطب للدلالة على اختصاصه به وأنّه ممّا يعرف به.

{ **فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ** } حِدَّة البصر: قوّة نفاذه في المرئي، وحِدّة كل شيء قوّة مفعوله، ومنه حدّة الذهن. والكلام يتضمّن تشبيه حصول اليقين برؤية المرئي ببصر قوي.
{ **الْيَوْمَ** } التقييد تعريض بالتوبيخ، أي: ليس حالك اليوم كحالك قبل اليوم إذ كنت في الدنيا منكرا للبعث.

{ **وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ** } [23].

الجملة حال من تاء الخطاب في قوله { لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا } [22]، أي: يُوبَّخ عند مشاهدة العذاب.
{ **قَرِينُهُ** } هاء الغائب عائدة إلى { كُلُّ نَفْسٍ } [21]، أو إلى الإنسان.
قرين: فعيل بمعنى مفعول، أي: مقرون إلى غيره. وكأنّ فعل قَرَنَ مشتق من القَرَن (بالتحريك) وهو الحبل وكانوا يقرنون البعير بمثله لوضع الهودج، فاستعير القرين للملازم. وهذا ليس بالتفات.
واختلف المفسّرون في المراد بالقرين في هذه الآية على ثلاثة أقوال:
فقال قتادة والحسن والضحّاك وابن زيد، ومجاهد في أحد قوليه: هو الملك الموكّل بالإنسان الذي يسوقه إلى المحشر، أي: هو السائق الشهيد. وهذا يقتضي أن يكون القرين في قوله تعالى الآتي { قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ } [27] بمعنى غير معنى القرين في قوله { وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ }.
وعن مجاهد أيضا: أنّ القرين شيطان الكافر الذي كان يُزيِّن له الكفر في الدنيا، أي: الذي ورد في قوله تعالى { وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ } [فصلت:25]. **وهو الراجح**.
وقال ابن زيد أيضا: الصاحب والملازم من البشر.
{ **هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ** } على الراجح من معنى القرين، الإشارة محتملة لأن تعود إلى العذاب، أو أن تعود إلى معاد ضمير الغيبة في قوله { قَرِينُهُ }، أي: هذا الذي معي، فيكون { لَدَيَّ } بمعنى: معي، إذ لا يخلو أحد من صاحب يأنس بمحادثته، والمراد به قرين الشرك المماثل.
وقد ذكر الله من كان قرينا للمؤمن من المشركين واختلاف حاليهما يوم الجزاء بقوله تعالى { قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ } [الصافات:52/51]. وقول القرين { هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ } مستعمل في التلهّف والتحسر والإشفاق، لأنّه لمّا رأى ما به العذاب علم أنّه قد هيِّئ له، أولما رأى ما قدّم إليه قرينه علم أنّه لاحق على أثره.
{ **عَتِيدٌ** } تقدّم عند قوله تعالى { إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ } [18]، وهو هنا متعيّن للمعنى الذي فسّر عليه المفسّرون، أي: مُعَدٌّ ومهيّأ.

{ **أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ** [24] **مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ** [25] }.

انتقال من خطاب النفس إلى خطاب المَلَكين الموكَّلين: السائق والشهيد. والكلام مقول قول محذوف. والجملة استئناف ابتدائي.

{ **أَلْقِيَا** } صيغة المثنّى، تجوز أن تكون مستعملة في أصلها فيكون الخطاب للسائق والشهيد. ويجوز أن تكون مستعملة في خطاب الواحد وهو الملك الموكّل بجهنم وخوطب بصيغة المثنّى جريا على طريقة مستعملة في الخطاب جرت على ألسنتهم، لأنّهم يكثر فيهم أن يرافق السائر رفيقان، وهي طريقة مشهورة.

الكفَّار: قوي الكفر، أي: الشرك.

العنيد: قويّ العناد، أي: المكابر والمدافع للحقّ وهو يعلم أنّه مبطل.

المنَّاع: كثير المنع، أي: الذي يصدّ الناس عن الخير.

{ **لِلْخَيْرِ** } هنا هو الإيمان، كانوا يمنعون أبناءهم وذويهم من اتباع الإيمان، ومن هؤلاء الوليد بن المغيرة كان يقول لبني أخيه: من دخل منكم في الإسلام لا أنفعه بشيء ما عشت. ويحتمل أن يراد به أيضا منع الفقراء من المال، لأنّ الخير يطلق على المال وكان أهل الجاهلية يمنعون الفقراء ويعطون المال لأكابرهم تقرّبا.

المعتدي: الظالم الذي يعتدي على المسلمين بالأذى وعلى الرسول صلى الله عليه وسلم بالتكذيب والبهتان.

المريب: الذي أراب غيره، أي: جعله مرتابا، أي: شاكا، أي: بما يلقونه إلى الناس من صنوف المغالطة ليشكِّكوهم في صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وصحة الإيمان والتوحيد.

{ **الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَـهاً آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ** } [26].

يجوز أن يكون اسم الموصول بدلا من { كَفَّارٍ عَنِيدٍ }، فإنّ المعرفة تُبدل من النكرة، كقوله تعالى { وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ } [الشورى:53/52].

{ **فَأَلْقِيَاهُ** } تفريع على { أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ } [24]، ومصب التفريع المتعلّق، وهو { فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ }، أي: في أشدّ عذاب جهنم. وإعادة الفعل للتأكيد مع التفريع.

ويجوز أن يكون اسم الموصول مبتدأ على استئناف الكلام، ويُضمَّن الموصول معنى الشرط فيكون في وجود الفاء في خبره لأجل ما فيه من معنى الشرط وهذا كثير. والمقصود منه هنا تأكيد العموم الذي في قوله تعالى { كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ }.

{ **قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ** } [27].

حكاية قول القرين بالأسلوب المتّبع في حكاية المقاولات في القرآن، وهو أسلوب الفصل دون عطف فعل القول على شيء، تُشعر بأنّ في المقام كلاما مطويًّا، هو كلام صاحب القرين طوي للإيجاز، ودليله ما تضمّنه قول القرين من نفي أن يكون هو أطغى صاحبه.

وقد حكي ذلك صريحا بقوله تعالى { هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ } [ص:59-61].

وتقدير المطوي هنا: أنّ الكافر العنيد لمّا قُدِّم إلى النار أراد التنصّل من كفره وعناده وألقى تبعته على قرينه الذي كان يزيّن له الكفر، فقال: هذا القرين أطغاني، فقال قرينه { رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ }.

{ **قَالَ قَرِينُهُ** } هو القرين الذي تقدّم ذكره في قوله تعالى { وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ } [23].

الطغيان: تجاوز الحدّ في التعاظم والظلم والكفر، وفعله (يائي) و(واوي)، يقال: طَغِيَ يطغى كرَضِيَ، وطغا يطغو كدعا.

{ **مَا أَطْغَيْتُهُ** } ما جعلته طاغيا، أي: ما أمرته بالطغيان ولا زيّنته له.

{ **وَلَكِنْ** } الاستدراك ناشئ عن شدّة المقارنة بينه وبين قرينه لا سيما إذا كان المراد بالقرين شيطانه المقيَّض له، فإنّه قُرن به من وقت إدراكه. فالاستدراك لدفع توهّم أن المقارنة بينهما تقتضي أن يكون ما به من الطغيان بتلقين القرين فهو ينفي ذلك عن نفسه، ولذلك أتبع الاستدراك بجملة:

{ **كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ** } أي: أنّ صاحبه ضال من قبلُ، فلم يكن اقترانه معه في التقييض أو في الصحبة بزائد إيّاه إضلالا، وهذا نظير ما حكاه الله عن الفريقين في قوله تعالى { إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا } [البقرة:166].

{ **كَانَ** } لإفادة أنّ الضلال ثابت له بالأصالة ملازم لتكوينه.

البعيد: مستعار للبالغ في قوّة النوع حدًّا لا يبلغ إليه إدراك العاقل بسهولة، كما لا يبلغ سير السائر إلى المكان البعيد إلّا بمشقة أو بعيد الزمان، وتقدّم عند قوله { وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً } [النساء:116].

المعنى: أنّ تمكّن الضلال منه يدل على أنه ليس فيه بتابع لما يمليه غيره عليه، لأنّ شأن التابع في شيء أن لا يكون مكينا فيه، مثل علم المقلّد وعلم النّظار.

{ قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ [28] مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ [29] }.

هذا حكاية كلام يصدر يومئذ من جانب الله تعالى للفريقين الذي اتَّبعوا والذين اتُّبعوا، فالضمير عائد على غير مذكور في الكلام يدلّ عليه قوله تعالى { فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ } [22].

{ **قَالَ** } لم يعطف على ما قبله لوقوعه في معرض المقاولة، والتعبير بصيغة الماضي لتحقّق وقوعه.

الاختصام: المخاصمة، مصدر بصيغة الافتعال التي الأصل فيها أنّها لمطاوعة بعض الأفعال فاستعملت

للتفاعل.

{ **لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ** } النهي عن المخاصمة بينهم يقتضي أنّ النفوس الكافرة ادّعت أنّ قرناءها أطغوها، وأنّ القرناء تنصّلوا من ذلك وأنّ النفوس أعادت رمي قرنائها بذلك فصار خصاما. فالمعنى: كفّوا عن الخصام.

وذلك كناية عن أنّ حكم الله عليهم قد تقرّر فلا يفيدهم التخاصم لإلقاء التبعة على أحد الفريقين. كما قال تعالى { قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ } [الأعراف:38].

{ **وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ** } حال من ضمير { لَا تَخْتَصِمُوا }، وهي حال معلِّلة للنهي عن الاختصام. المعنى: لا تطمعوا في أنّ تدافعكم في إلقاء التبعة ينجيكم من العقاب بعد حال إنذاركم بالوعيد من وقت حياتكم. والكلام كناية عن عدم الانتفاع بالخصام كون العقاب عدلا من الله.

التقديم: جعل الشيء قدّام غيره. والمراد هنا: كونه سابقا على المؤاخذة بالشرك، لأنّ الله توعّدهم في الدنيا.

{ **بِالْوَعِيدِ** } الباء مزيدة للتأكيد كقوله تعالى { وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ } [المائدة:6].

{ **مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ** } تبيين للمعنى السابق، أي: لست مبطلا ذلك الوعيد، وهو { الْقَوْلُ }، أي: فما أوعدتكم واقع لا محالة، لأنّ الله تعهّد أن لا يغفر لمن يشرك به ويموت على ذلك.

{ **وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ** } تبيين للمعنى الثاني المكنَّى عنه. أي: فلذلك قدّمت إليكم الوعيد.

{ **بِظَلَّامٍ** } المبالغة راجعة إلى تأكيد النفي. والمراد: لا أظلم شيئا من الظلم، وليس المعنى: ما أنا بشديد الظلم.

{ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ } [30].

ظرف متعلّق بـ { قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ } [28]. والتقدير: قال لهم ذلك القول يوم يقول قولا آخر لجهنّم. ومناسبة تعليقه به أنّ هذا القول لجهنّم مقصود به ترويع المدفوعين إليها ألّا يطمع بعضهم أن يكون ممّن لا يوجد له مكان فيها، فحكاه الله في القرآن عبرة لمن يسمعه من المشركين، وتعليما لأهل القرآن المؤمنين. ولذلك استوت قراءة { **يَقُولُ** } بالياء، وهي لنافع وأبي بكر عن عاصم، جريا على مقتضى ظاهر ما سبقه من قوله { قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ } وقراءة الباقين { **نَقُولُ** } بالنون على الالتفات، بل هو التفات تابع لتبديل طريق الإخبار من الحديث عن غائب إلى خطاب حاضر. والقول الأوّل حقيقي، وهو كلام يصدر من جانب الله بمحض خلقه دون واسطة. فلذلك أسند إلى الله، كما يُقال: القرآن كلام الله.

{ **هَلِ امْتَلأْتِ** } الاستفهام مستعمل في تنبيه أهل العذاب إلى هذا السؤال على وجه التعريض.

{ **وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ** } يجوز أن يكون حقيقة، بأن يخلق الله في أصوات لهيبها أصواتا ذات حروف

يلتئم منها كلام، <u>ويجوز</u> أن يكون مجازا عن دلالة حالها على أنّها تسع ما يلقى فيها من أهل العذاب، بأن يكشف باطنها للمعروضين عليها حتّى يروا سعتها. والاستفهام مستعمل للتشويق والتمنّي.

المزيد: مصدر ميمي، وهو الزيادة. <u>ويجوز</u> أنّ يكون اسم مفعول من زاد، أي: هل من جماعة آخرين؟

{ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ [31] هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ [32] مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ [33] ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ [34] لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ [35] }.

{ **وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ** } عطف على { يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ }، فالتقدير: يوم أزلفت الجنة للمتقين، وهو رجوع إلى مقابل حالة الضالين يوم ينفخ في الصور، فهذه الجملة متّصلة في المعنى بجملة { وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ } [21].

الإزلاف: التقريب، مشتقّ من **الزَّلَف** (بالتحريك) وهو القربة، أي: جُعلت الجنة قريبا من المتقين.

والجنة موجودة من قبل ورود المتقين إليها، فإزلافها <u>قد يكون</u> بحشرهم للحساب بمقربة منها كرامة لهم عن كلفة المسير إليها، و<u>قد يكون</u> عبارة عن تيسير وصولهم إليها بوسائل غير معروفة في عادة أهل الدنيا.

{ **غَيْرَ بَعِيدٍ** } يُرجّح الاحتمال الأوّل، أي: غير بعيد منهم، وإلّا صار تأكيدا لفظيا لـ { وَأُزْلِفَتِ }، كقوله تعالى { وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى } [طه:79].

{ **هَذَا مَا تُوعَدُونَ** } معترضة، فلك أن تجعلها وحدها معترضة وما بعدها متصلا بما قبلها فتكون معترضة بين البدل والمبدل منه وهما { لِلْمُتَّقِينَ } و{ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ }، وتكرير الحرف الذي جُرّ به المبدل منه لقصد التأكيد، كقوله تعالى { وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ} [النساء:11].

{ **هَذَا** } اسم الإشارة المذكّر مراعى فيه مجموع ما هو مشاهد عندهم من الخيرات.

الأوّاب: كثير الأوب، أي: الرجوع إلى الله، أي: إلى امتثال أمره ونهيه.

الحفيظ: كثير الحفظ لوصايا الله وحدوده.

<u>المعنى</u>: أنّه محافظ على الطاعة فإذا صدرت منه فلتة أعقبها بالتوبة.

{ **مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ** } بدل من { لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ }.

الخَشية: الخوف. وأطلقت الخشية على أثرها وهو الطاعة.

{ **الرَّحْمَنَ** } إيثار هذا الاسم دون اسم الجلالة للإشارة إلى أنّ هذا المتقي يخشى الله وهو يعلم أنّه رحمان، ولقصد التعريض بالمشركين الذين أنكروا اسم الرحمان، قال تعالى { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ } [الفرقان:60].

{ **بِالْغَيْبِ** } الباء هنا بمعنى (في) الظرفية لتنزيل الحال منزلة المكان، أي: الحالة الغائبة، وهي حالة عدم اطلاع أحد عليه، فإنّ الخشية في تلك الحالة تدلّ على صدق الطاعة لله بحيث لا يرجو ثناء أحد ولا عقابه.

ولك أن تبقي (الباء) على بعض معانيها الغالبة وهي الملابسة ونحوها.

{ **وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ** } أي: مات موصوفا بالإنابة ولم يبطل عمله الصالح في آخر عمره، وهذا كقوله حكاية عن إبراهيم { يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ } [الشعراء:89/88].

{ **مُنِيبٍ** } وصف القلب بذلك مجاز العقلي، لأن القلب سبب الإنابة فهو الباعث عليها.

{ **ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ** } من تمام مقول القول المحذوف. وهذا الإذن من كمال إكرام الضيف أنّه إن دعي إلى الوليمة أو جيء به فإنّه إذا بلغ المنزل قيل له: ادخل بسلام. ومحلّها من التي قبلها الاستئناف البياني لأنّ ما قبلها يثير ترقب المخاطبين للإذن بإنجاز ما وعدوا به.

{ **بِسَلامٍ** } السلامة من كل أذى من تعب أو نصب، وهو دعاء. ويجوز أن يراد به أيضا تسليم الملائكة عليهم حين دخولهم الجنة مثل قوله تعالى { سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ } [يّس:58].

{ **ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ** } يجوز أن تكون ممّا يقال للمتقين على مثال قوله تعالى { فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ} [الزمر:73]. والإشارة إلى اليوم الذي هم فيه، وجيء به للبعيد للتعظيم.

ويجوز أن تكون هذه الجملة معترضة، فإنّه بعد أن ذُكر ما يلاقيه أهل جهنّم وأهل الجنّة أعقبه بهذه الجملة ترهيبا وترغيبا، وتكون الإشارة إلى اليوم المذكور في قوله تعالى { يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ } [30].

{ **لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ** } يجوز أن تكون من بقية ما يقال للمتقين ابتداء من قوله تعالى { هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ } فيكون ضمير الغيبة التفاتا، وأصله: لكم ما تشاؤون.

ويجوز أن تكون ممّا خوطب به الفريقان في الدنيا. وعلى الاحتمالين فهي مستأنفة استئنافا بيانيا.

{ **لَدَيْنَا مَزِيدٌ** } أي: زيادة على ما يشاؤون ممَّا لم يخطر ببالهم، وذلك زيادة في كرامتهم عند الله.

وجاء ترتيب الآيات في منتهى الدقة؛

فبدأت بذكر إكرامهم بقوله تعالى { وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ }، ثمّ بذكر أنّ الجنة جزاؤهم الذي وُعِدوا به فهي حق لهم، ثمّ أومأت إلى أنّ ذلك لأجل أعمالهم بقوله تعالى { لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ }، ثمّ ذكرت المبالغة في إكرامهم بعد ذلك كله بقوله تعالى { ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ }، ثمّ طمأنهم بأنّ ذلك نعيم خالد، وزيد في إكرامهم بأنّ لهم ما يشاؤون ما لم يروه حين الدخول، وبأنّ الله وعدهم بالمزيد من لدنه.

{ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ [36] إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ [37] }.

انتقال من الاستدلال إلى التهديد، وهو معطوف على ما قبله، وهذا العطف انتقال إلى الموعظة بما حلّ بالأمم المكذّبة بعد الاستدلال على إمكان البعث بقوله تعالى { قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ } [4] وما فُرّع عليه من قوله تعالى { أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ } [15]، وفي هذا العطف الوعيد الذي أُجمل في قوله تعالى { كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ - إلى قوله - فَحَقَّ وَعِيدِ } [12-14]. فالوعيد الذي حقّ عليهم هو الاستئصال في الدنيا وهو مضمون قوله تعالى {وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً}.

{ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ } تعريض بالتهديد وتسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ قَبْلَهُمْ / مِنْهُمْ } الضميران عائدان إلى معلوم من المقام غير مذكور في الكلام.

البطش: القوّة على الغير.

التنقيب: مشتق من النقْب بمعنى الثقب، <u>فيكون بمعنى</u>: خرقوا، واستعير لمعنى: ذلّلوا وأخضعوا.

أي: تصرّفوا في الأرض بالحفر والغرس والبناء، فيكون في معنى قوله تعالى { وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا } [الروم:9].

{ الْبِلادِ } التعريف للجنس، أي: في الأرض، كقوله تعالى { الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ } [الفجر:11].

{ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ } بدل اشتمال من { أَهْلَكْنَا }، أي: إهلاكا لا منجًى منه. <u>ويجوز</u> أنّ تكون الجملة مستأنفة. والاستفهام إنكاري بمعنى النفي، ولذلك دخلت { مِنْ } على الاسم الذي بعد الاستفهام، كما يقال: ما من محيص، وهذا قريب من قوله تعالى { كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ } [ص:3].

المحيص: مصدر ميمي من حاص إذا عدل وجاد، أي: لم يجدوا محيصا من الإهلاك، وهو قريب من قوله تعالى { وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ } [مريم:98].

{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ } <u>يجوز</u> أن تكون الإشارة بذلك إلى إهلاك القرون الأشد بطشا، <u>ويجوز</u> أن تكون إلى جميع ما تقدّم من استدلال وتهديد وتحذير من يوم الجزاء.

الذكرى: التذكرة العقلية، أي: تدبّر الأحوال التي قضت عليهم بالإهلاك ليقيسوا عليها أحوالهم فيعلموا أن سينالهم ما نال أولئك، وهذا قياس عقلي يدركه اللبيب من تلقاء نفسه دون احتياج إلى منبّه.

القلب: العقل وإدراك الأشياء على ما هي عليه.

إلقاء السمع: مستعار لشدّة الإصغاء للقرآن ومواعظ الرسول صلى الله عليه وسلم.

الشهيد: المشاهد، وصيغة المبالغة فيه للدلالة على قوّة المشاهدة للمذكِّر، أي: تحديق العين إليه للحرص على فهم مراده ممّا يقارن كلامه من إشارة أو سحنة فإنّ النظر يعين على الفهم.

وهذه حالة المؤمن، ففي الكلام تنويه بشأن المؤمنين وتعريض بالمشركين بأنّهم بعداء عن الانتفاع بالذكريات والعبر. وإلقاء السمع مع المشاهدة يوقظ العقل للذكرى والاعتبار إن كان للعقل غفلة.

{ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ** } [38].

مناسبة اتصال هذه الآية بما قبلها أنّه لما نزل قوله تعالى { أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا - إلى قوله - لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ } [6-10]، وكان ذلك قريبا ممّا وُصف في التوراة من ترتيب المخلوقات إجمالا، ثمّ نزل قوله بعد ذلك { أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ} [15]، كان بعض اليهود بمكّة يقولون: إن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام واستراح في اليوم السابع، وهذا مكتوب في سفر التكوين من التوراة، والاستراحة تؤذن بالنصب والإعياء، فلمّا فرغت الآية من تكذيب المشركين في أقوالهم عطفت إلى تكذيب اليهود.

فهذا تأويل موقع هذه الآية في هذا المحلّ، مع ما حكى ابن عطية من الإجماع على أنّ السورة كلّها مكية، وقد أشرنا إلى ذلك في الكلام على طليعة السورة، فقول من قال نزلت في يهود المدينة تكلّف، إذ لم يكن اليهود مقصورين على المدينة من بلاد العرب، بل كانوا يتردّدون إلى مكة.

{ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ** } معطوفة على الجملة التي قبلها، عطف القصة على القصة، وقعت معترضة بين الكلام السابق وبين ما فُرّع عنه من قوله تعالى { فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ } [39]، تكملة لما وُصف من خلق السماوات في قوله تعالى { أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا - إلى قوله - مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ } [7/6]، ليتوصّل به إلى قوله { وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ }، إبطالا لمقالة اليهود.

{ **وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ** } واو الحال، لأنّ لمعنى الحال هنا موقعا عظيما من تقييد ذلك الخلق العظيم في تلك المدّة القصيرة بأنّه لا ينصب خالقه، لأن الغرض من معظم هذه السورة بيان إمكان البعث، إذ أحاله المشركون بما يرجع إلى ضيق القدرة الإلهية عن إيقاعه، فكانت هذه الآيات كلّها مشتملة على إبراز معنى سعة القدرة الإلهية.

{ **مَسَّنَا** } حقيقة المسّ: اللمس، أي: وضع اليد على شيء وضعا غير شديد بخلاف الدفع واللطم. فعُبّر عن نفي أقل الإصابة بنفي المسّ لنفي أضعف أحوال الإصابة.

اللغوب: الإعياء من الجري والعمل الشديد.

{ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ [39] وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ [40] }.

تفريع على ما تقدّم كلّه من قوله تعالى { بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ } [2]، ومناسبة وقعه هذا الموقع ما تضمّنه قوله تعالى { وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ } [36] من التعريض بتسلية النبيّ صلى الله عليه وسلم،

أي: فاصبر على ما يقول المشركون من التكذيب بما أخبرتهم من البعث وبالرسالة، وقد جمع ذلك كلّه الموصول { مَا يَقُولُونَ }.

{ **عَلَى مَا يَقُولُونَ** } الضمير عائد إلى المشركين الذين هم المقصود من هذه المواعظ والنُذر، ابتداء من قوله تعالى { بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ } [2].

{ **وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ** } عطف على الجملة السابقة، فهو من تمام التفريع، أي: اصبر على أقوال أذاهم وسخريّتهم. ولعلّ وجه هذا العطف أنّ المشركين كانوا يستهزئون بالنبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إذا قاموا إلى الصلاة، مثل قصة إلقاء عقبة بن أبي معيط سَلا الجزور على ظهر النبيّ صلى الله عليه وسلم حين سجد في المسجد الحرام في حجر الكعبة.

{ **وَسَبِّحْ** } المراد بالتسبيح هنا: الصلاة وهو من أسماء الصلاة. قال ابن عطية: أجمع المتأمّلون على أنّ التسبيح هنا الصلاة. **قلتُ**: ولذلك صار فعل التسبيح منزّلا منزلة اللازم لأنّه في معنى: صل.

{ **بِحَمْدِ رَبِّكَ** } الباء للملابسة، لأنّ الصلاة تُقرأ في كل ركعة منها الفاتحة وهي حمد لله تعالى.

{ **قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ** } جاء في صحيح مسلم عن جرير بن عبد الله: كنّا جلوسا عند النبيّ صلى الله عليه وسلم إذ نظر إلى القمر فقال: " **إنّكم سترون ربّكم كما ترون هذا القمر لا تُضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تُغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها** "، يعني بذلك العصر والفجر. ثم قرأ جرير { وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ }.

وعن ابن عباس: قبل الغروب: الظهر والعصر. وعن قتادة: العصر.

{ **وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ** } الجمهور على أن التسبيح فيه هو الصلاة، وعن أبي الأحوض أنّه قول: سبحان الله. فعلى أنّ التسبيح الصلاة قال ابن زيد: صلاة المغرب وصلاة العشاء .

وقيل: هذه المذكورات كلّها نوافل، فالذي قبل طلوع الشمس ركعتا الفجر، والذي قبل الغروب ركعتان قبل غروب الشمس قاله أبو برزة وأنس بن مالك [يعني بعد المغرب]، والذي من الليل قيام الليل، قاله مجاهد.

ويأتي على هذا الوجه الاختلاف في محمل الأمر على الندب إن كان عاما، أو على الوجوب إن كان

خاصا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم، كما سيأتي في سورة المزّمل. وقريب من هذه الآية قوله تعالى { فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً } [الإنسان:24-26]، وقريب منها أيضا قوله تعالى { وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ } [الطور:49/48].

{ **وَأَدْبَارَ السُّجُودِ** } يجوز أن يكون معطوفا على قوله تعالى { قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ }، ويجوز أن يكون معطوفا على قوله تعالى { وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ }.

الإدبار: (بكسر الهمزة) حقيقته الانصراف، لأنّ المنصرف يستدبر من كان معه، واستعير هنا للانقضاء، أي: انقضاء السجود، و**السجود**: الصلاة، قال تعالى { وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ } [العلق:19].

أي: بعد الصلوات، قاله ابن زيد، فهو أمر بالرواتب التي بعد الصلوات. وهو عام خصّصته السنّة بأوقات النوافل، ومُجمل بيَّنت السنة مقاديره، وبيَّنت أنّ الأمر فيه أمر ندب وترغيب لا أمر إيجاب.

{ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ [41] يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ [42] إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ [43] }.

{ **وَاسْتَمِعْ** } عطف على جملة { سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ } [39]، فالأمر بالاستماع مُفرَّع بالفاء التي فُرّع بها الأمر بالصبر على ما يقولون. فهو لاحق بتسلية النبيّ صلى الله عليه وسلم، فلا يكون المسموع إلّا من نوع ما فيه عناية به وعقوبة لمكذبيه. والأمر حقيقته الأمر بالإنصات والإصغاء. والابتداء بالأمر فيه تشويق.

وللمفسرين ثلاث طرق في محمل { **وَاسْتَمِعْ** }:

فالذي نحاه الجمهور حمل الاستماع على حقيقته، وإذ كان المذكور عقب فعل السمع لا يصلح لأن يكون مسموعا، فيقدّر: استمع نداء المنادي، أو استمع خبرهم، أو استمع الصيحة يوم ينادي المنادي.

ونحاه ابن عطية على المجاز، أي: انتظر. قال: " الآية في معنى الوعيد للكفار، فقيل لمحمد صلى الله عليه وسلم تحسّس هذا اليوم وارتقبه فإنّ فيه تبيّن صحة ما قلته ". ولم أر من سبقه إلى هذا المعنى.

وللزمخشري طريقة أخرى، فقال يعني: واستمع لما أخبرك به من حال يوم القيامة. وفي ذلك تهويل وتعظيم لشأن المخبَر به. ولم أر من سبقه إلى هذا وهو محمل حسن دقيق.

{ **يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ** } لك أن تجعله مفعولا فيه لـ { وَاسْتَمِعْ }، وأن تجعله ظرفا في موقع الخبر المقدّم، وتجعل المبتدأ قوله تعالى { ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ }، ويكون تقدير النظم: واستمع ذلك يوم الخروج يوم ينادي المنادي، ويكون اسم الإشارة لمجرد التنبيه.

{ **الْمُنَادِ** } تعريف الجنس، أي: يوم ينادي منادٍ، أي: من الملائكة، وهو الملك الذي ينفخ النفخة الثانية فتتكون الأجساد وتحل فيها أرواح الناس للحشر، قال تعالى { ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ }

[الزمر:68].

كتب في المصحف بدون ياء. مراعاة لحال الوقف كما هو غالب أحوال الرسم، لأنّ الأسجاع مبنية على سكون الأعجاز.

{ **مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ** } التنوين للنوعية، إذ لا يتعلق الغرض بتعيينه.

{ **قَرِيبٍ** } للإشارة إلى سرعة حضور المنادين، وهو الذي فسّرته الجملة اللاحقة، لأنّ المعروف أنّ النداء من مكان قريب لا يخفى على السامعين بخلاف النداء من كان بعيدا.

{ **يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ** } بدل مطابق من { يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ } وقوله { ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ } خبر المبتدأ.

{ **بالحق** } بمعنى: بالصدق وهو هنا الحشر، وصف { بِالْحَقِّ } إبطالا لزعم المشركين أنّه اختلاق.

الخروج: مغادرة الدار أو البلد، وأطلق الخروج على التجمّع في المحشر لأن الحي إذا نزحوا عن أرضهم قيل: خرجوا، يقال: خرجوا بقضِّهم وقَضيضهم.

{ **ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ** } علم بالغلبة على يوم البعث، أي: الخروج من الأرض. واسم الإشارة جيء به لتهويل المشار إليه وهو { يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ }، فأريد كمال العناية بتمييزه لاختصاصه بهذا الخبر العظيم.

{ **إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ** } تذييل، أي: أنّ هذا الإحياء، بعد أن أمتناهم، هو من شؤوننا بأنّا نحييهم ونحيي غيرهم ونميتهم ونميت غيرهم.

والمقصود هو قوله تعالى { وَنُمِيتُ }، وأمّا قوله تعالى { نُحْيِي } فإنه لاستيفاء معنى تصرّف الله في الخلق.

{ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ } [44].

بيان لجملة { ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ } [42]، أو بدل اشتمال منها مع ما في المعاد منها من تأكيد لمرادفه.

ويجوز استئناف استدلال على إمكان الحشر ووصف حال من أحواله، وهو تشقّق الأرض عنهم، أي: عن أجساد مثيلة لأجسادهم وعن الأجساد التي لم يلحقها الفناء.

{ **سِرَاعاً** } حال من ضمير { عَنْهُمْ } وهو جمع سريع، أي: سراعا في الخروج، أو في المشي الذي يعقبه.

{ **عَلَيْنَا يَسِيرٌ** } تقديم المجرور للاختصاص، أي: هو يسير في جانب قدرتنا لا كما زعمه نفاة الحشر.

{ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ } [45].

استئناف بياني ناشئ عن قوله تعالى { فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ } [39]، فهو إيغال في تسلية النبيّ صلى

الله عليه وسلم، وتعريض بوعيدهم. فالخبر مستعمل مجازا في وعد الرسول صلى الله عليه وسلم بأنّ الله سيعاقب أعداءه.

{ **وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ** } تطمين للرسول صلى الله عليه وسلم بأنّه غير مسؤول عن عدم اهتدائهم، لأنّه إنّما بُعث داعيا وهاديا، وليس مبعوثا لإرغامهم على الإيمان.

الجبّار: مشتق من جَبَره على الأمر: بمعنى أكرهه.

{ **فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ** } تفريع، لأنّه ناشئ عن نفي كونه جبّارا عليهم، وهذا كقوله تعالى { فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ } [الغاشية:22/21].

خُصّ التذكير هنا بالمؤمنين لأنّه أراد التذكير الذي ينفع المذكَّر. فالمعنى: فذكر بالقرآن فيتذكّر من يخاف وعيد. وهذا كقوله تعالى { إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا } [النازعات:45].

{ **وَعِيدِ** } كتب في المصحف بدون ياء المتكلّم فقرأه الجمهور بدون ياء في الوصل والوقف على أنّه من حذف التخفيف. وقرأه ورش عن نافع بإثبات الياء في الوصل. وقرأه يعقوب بإثبات الياء في الوصل والوقف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم

سورة الذّاريات

تُسمَّى هذه السورة (**والذّاريات**) بإثبات الواو، تسميةً لها بحكاية الكلمتين الواقعتين في أوّلها. وبهذا عنونها البخاري في كتاب التفسير، وابن عطية في تفسيره، والقرطبي.

وتُسمَّى أيضا (**سورة الذّاريات**) بدون الواو اقتصارا على الكلمة التي لم تقع في غيرها من سور القرآن. وكذلك عنونها الترمذي في جامعه وجمهور المفسّرين. وكذلك هي في المصاحف التي وقفنا عليها من مشرقية ومغربية قديمة.

وهي **مكّية بالاتفاق**.

وقد **عُدَّت** السورة **السادسة والستين** في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد. نزلت بعد سورة الأحقاف وقبل سورة الغاشية.

واتفق أهل عَدِّ الآيات على أنّ **آيها ستون آية**.

أغراض السورة

*/ تحقيق وقوع البعث والجزاء.

*/ إبطال مزاعم المكذّبين بالبعث، وبرسالة محمد صلى الله عليه وسلم ورميهم بأنّهم يقولون بغير تثبّت، ووعيدهم بعذاب يفتنهم.

*/ وعد المؤمنين بنعيم الخلد، وذكر ما استحقّوا به تلك الدرجة من الإيمان والإحسان.

*/ الاستدلال على وحدانية الله، وعلى إمكان البعث، وعلى أنّه واقع لا محالة.

*/ التعريض بالإنذار بما حاق بالأمم التي كذّبت رسل الله، وبيان الشبه التام بينهم وبين أولئك.

*/ تلقين هؤلاء المكذِّبين الرجوع إلى الله وتصديق النبيّ صلى الله عليه وسلم ونبذ الشرك.

*/ معذرة الرسول صلى الله عليه وسلم من تبعة إعراضهم، والتسجيل عليهم بكفران نعمة الخلق والرزق.

ووعيدهم على ذلك بمثل ما حلّ بأمثالهم.

{ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً [1] فَالْحَامِلاتِ وِقْراً [2] فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً [3] فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً [4] إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ [5] وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ [6] }.

القسم المفتتح به مراد منه تحقيق المقسَم عليه وتأكيد وقوعه، وقد أقسم الله بعظيم من مخلوقاته، وهو في المعنى: قَسَمٌ بقدرته وحكمته، ومُتضمِّن تشريف تلك المخلوقات بما في أحوالها من نعم ودلالة على الهدى والصلاح، وفي ضِمْن ذلك تذكير بنعمة الله فيما أوجد فيها.

والمُقْسَم بها صفات تقتضي موصفاتها، فآل إلى القَسَم بالموصوفات لأجل تلك الصفات العظيمة. وفي ذلك إيجاز دقيق. كما أنّ في طي ذكر الموصوفات تكثيرا لما تؤذن به الصفات من موصوفات صالحة بها، لتذهب أفهام السامعين في تقديرها كلّ مذهب ممكن.

وعطف تلك الصفات بالفاء يقتضي تناسبها وتجانسها، فيجوز أن تكون صفات لجنس واحد وهو الغالب في عطف الصفات بـ (الفاء)، ويجوز أن تكون مختلفة الموصوفات، إلّا أنّ موصوفاتها متقاربة متجانسة، ويكثر ذلك في عطف البقاع المتجاورة، وقد تقدّم ذلك في سورة الصافات.

واختلف أئمة السلف في محمل هذه الأوصاف وموصوفاتها. وأشهر ما روي عنهم في ذلك ما روي عن علي بن أبي طالب وابن عباس ومجاهد: " { الذَّارِيَاتِ } الرياح لأنّها تذرو التراب، و{ الْحَامِلاتِ وِقْراً } السحاب، و{ الْجَارِيَاتِ } السفن، و{ الْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً } الملائكة "، وهو يقتضي اختلاف الأجناس المقسَم بها.

وتأويله أنّ كل معطوف عليه يسبِّب ذكر المعطوف لالتقائهما في الجامع الخيالي، فالرياح تذكِّر بالسحاب، وحمل السحاب وقر الماء يذكر بحمل السفن، والكل يذكِّر بالملائكة.

ومن المفسِّرين من جعل هذه الصفات الأربع وصفا للرياح، قاله في الكشاف، ونقل بعضه عن الحسن واستحسنه الفخر، وهو الأنسب لعطف الصفات بالفاء.

{ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً } الأحسن أن يُحمل (**الذرو**) على نشر قطع السحاب نشرا يشبه الذرو.

الذرو: حقيقته رمى أشياء مجتمعة ترمى في الهواء لتقع على الأرض، مثل الحبّ عند الزرع ومثل الصوف. وأصله ذرو الرياحُ التراب، فشُبِّه به دفع الريح قطع السحاب حتّى تجتمع فتصير سحابا كاملا. كما قال تعالى { اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ } [الروم: 48].

والذرو وإن كان من صفة الرياح فإنّ كون المذروّ سحابا يؤول إلى أنّه من أحوال السحاب.

وقيل: ذروها التراب، وذلك قبل نشرها السحب، وهو مقدمة لنشر السحاب.

{ ذَرْواً } نصب على المفعول المطلق لإرادة تفخيمه بالتنوين، ويجوز أن يكون مصدرا بمعنى المفعول، أي: المذرو، ويكون نصبه على المفعول به.

{ الْحَامِلاتِ وِقْراً } هي الرياح حين تجمع السحاب وقد ثَقُلَ بالماء، شُبِّه جمعها إيّاه بالحمل، لأنّ شأن الشيء الثقيل أن يحمله الحامل، وهذا في معنى قوله { وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ }

[الروم: 48]. وقوله تعالى { وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ } [الرعد:12]، وقوله تعالى { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ } [النور:43].

الوِقر: (بكسر الواو) الشيء الثقيل.

ويجوز أن تكون الحاملات الأسحبة التي ملئت ببخار الماء الذي يصير مطرا، عطفت بالفاء على الذاريات بمعنى الرياح لأنّها ناشئة عنها فكأنّها هي.

{ **الْجَارِيَاتِ يُسْراً** } الرياح تجري بالسحاب بعد تراكمه وقد صار ثقيلا بماء المطر، فالتقدير: فالجاري بذلك الوِقر يسرا. و{ يُسْراً } وصف لمصدر محذوف نصب على النيابة عن المفعول المطلق.

اليسر: اللين والهون، أي: الجاريات جريا ليّنا هيّنا شأن السير بالثقل.

{ **الْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً** } الرياح التي تنتهي بالسحاب إلى الموضع الذي يبلغ عنده نزول ما في السحاب من الماء، أو هي السحب التي تُنزل ما فيها من المطر على مواضع مختلفة. وإسناد التقسيم إليها على المعنيين مجاز.

وروي عن الحسن: " السحب يُقسّم الله بها أرزاق العباد" . يريد قوله تعالى { وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً - إلى قوله - رِزْقاً لِلْعِبَادِ } [ق:9-11].

ومن رشاقة هذا التفسير، (جعل هذه الصفات الأربع وصفا للرياح)، أنّ فيه مناسبة بين المقسَم به والمقسَم عليه، وهو قوله تعالى { إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ }، فإنّ أحوال الرياح المذكورة هنا مبدؤها: **نفخ**، **فتكوين**، **فإحياء**، وكذلك البعث مبدؤه: نفخ في الصور، فالتئام أجساد الناس التي كانت معدومة أو متفرقة، فبث الأرواح فيها فإذا هم قيام ينظرون.

{ **إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ** } أي: إنّ الذي توعدونه لصادق. والخطاب للمشركين كما هو مقتضى التأكيد بالقسم وكما يقتضيه تعقيبه بقوله تعالى { إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ } [8].

{ **إِنَّمَا** } كتب في المصاحف متصلة وهو على غير قياس الرسم المصطلح عليه من بعد، لأنّهما كلمتان لم تصيرا كلمة واحدة، بخلاف (إنّما) التي هي للقصر. ولم يكن الرسم في زمن كتابة المصاحف في أيام الخليفة عثمان قد بلغ تمام ضبطه.

{ **تُوعَدُونَ** } يجوز أن يكون من الوعيد الذي ماضيه أوعد، وهو مبنى للمجهول. والذي أوعِدوه عذاب الآخرة وعذاب الدنيا، مثل الجوع في سني القحط السبع الذي هو دعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم عليهم بقوله: " **اللهم اجعلها عليهم سنينا كسنين يوسف** "، وهو الذي أشار إليه قوله تعالى { فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِين يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ } [الدخان:11/10]. ومثل عذاب السيف والأسر يوم بدر الذي توعَّدهم الله به في قوله تعالى { يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ } [الدخان:16].

ويجوز أن يكون من الوعد، أي: الإخبار بشيء يقع في المستقبل مثل قوله { إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ } [يونس:55]. ويكون المراد: الوعد بالبعث.

{ **لَصَادِقٌ** } مجاز عقلي، إذ الصادق هو المُوعَدُ به على نحو { فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ } [الجاثية:21].
الدين: الجزاء. والمراد: إثبات البعث الذي أنكروه.
{ **لَوَاقِعٌ** } واقع في المستقبل، بقرينة جعله مرتَّبا في الذكر على ما يوعدون، وإنّما يكون حصول الموعود به في الزمن المستقبل، وفي ذكر الجزاء، زيادة على الكناية به عن إثبات البعث، تعريض بالوعيد على إنكار البعث.

{ **وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ** [7] **إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ** [8] **يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ** [9] }.
هذا قَسَم أيضا لتحقيق اضطراب أقوالهم في الطعن في الدين، وهو كالتذييل للذي قبله، لأنّ ما قبله خاص بإثبات الجزاء. وهذا يعمّ إبطال أقوالهم الضالة. فالقَسَم لتأكيد المقسَم عليه لأنّهم غير شاعرين بحالهم المقسَم على وقوعه، ومتهالكون على الاستزادة منه، فهم منكرون لما في أقوالهم من اختلاف واضطراب جاهلون به جهلا مركّبا.
ومناسبة هذا القسم في وصف السماء بأنها ذات حُبك، أي: طرائق، لأنّ المُقْسَم عليه: إنّ قولهم مختلف طرائق قددا، ولذلك وُصِف المُقْسَم به ليكون إيماء إلى نوع جواب القَسَم.
الحُبُك: (بضمتين) جمع حِباك، ككتاب وكتب ومثال ومثل، أو جمع حَبيكة مثل طريقة وطرق، وهي مشتقة من **الحَبْك**، وهو إجادة النسج وإتقان الصنع. فُسِّر الحُبك بإتقان الخلق. روي عن ابن عباس وعكرمة وقتادة.
فيجوز أن يكون المراد بحُبك السماء: نجومها، لأنّها تشبه الطرائق الموشّاة في الثوب المحبوك المتقن، روي عن الحسن وسعيد بن جبير. وقيل: طرائق المجرّة التي تبدو ليلا في قبّة الجو. وقيل: طرائق السحاب.
وإجراء هذا الوصف على السماء إدماج أُدْمِج به الاستدلال على قدرة الله تعالى مع الامتنان بحسن المرأى.
القول المختلف: المتناقض الذي يخالف بعضه بعضا فيقتضي بعضه إبطال بعض.
{ **إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ** } هو جميع أقوالهم في القرآن وفي الرسول صلى الله عليه وسلم، وكذلك أقوالهم في دين الإشراك، فإنّها مختلفة مضطربة متناقضة.
قالوا القرآن: سحر وشعر، وقالوا { أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا } [الفرقان:5]، وقالوا { إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ } [صّ:7]، وقالوا { لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا } [لأنفال:31]، وقالوا { وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ} [فصلت:5]، وقالوا: وحي الشياطين.
وقالوا في الرسول صلى الله عليه وسلم أقوالا: شاعر، ساحر، مجنون، كاهن، يعلّمه بشر، بعد أن كانوا يلقّبونه الأمين.

وقالوا في أصول شركهم: بتعدّد الآلهة مع اعترافهم بأنّ الله خالق كل شيء، وقالوا { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ } [الزمر:3]، وممّا حكاه القرآن عنهم { وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا } [لأعراف:28].

{ **يُؤْفَكُ** } يُصرف. والأَفْك (بفتح الهمزة وسكون الفاء): الصَرْفُ. وأكثر ما يُستعمل في الصرف عن أمر حسن، قاله مجاهد كما في اللسان، وهو ظاهر كلام أئمة اللغة. وذلك مدلوله في مواقعه من القرآن.

وإنّما حذف فاعل { يُؤْفَكُ } وأبهم مفعوله بالموصولية للاستيعاب مع الإيجاز.

{ **عَنْهُ** } قيل: الضمير عائد إلى { إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ }، وأنّ معنى { يُؤْفَكُ عَنْهُ } يصرف بسببه، أي: يُصرف المصروفون عن الإيمان بسبب قولهم المختلف، فتكون { عَنْ } للتعليل، كقوله تعالى { وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ } [هود:53]

وقيل: الضمير عائد إلى { مَا تُوعَدُونَ } [5]، أو عائد إلى { الدِّين } [6]، أي: الجزاء أن يؤفك عن الإيمان بالبعث، وحرف (عن) للمجاوزة.

{ **مَنْ أُفِكَ** } المراد المشركون المصروفون عن التصديق.

والمراد بالذي فعل الإفك المجهول: المشركون الصارفون لقومهم عن الإيمان، وهما الفريقان اللذان تضمّنهما قوله تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ } [فصلت:26].

وقد حمّلهم الله بهاتين الجملتين تبعة أنفسهم وتبعة المغرورين بأقوالهم، كما قال تعالى { وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ } [العنكبوت:13].

{ **قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ** [10] **الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ** [11] }.

دعاء بالهلاك على أصحاب ذلك القول المختلف، لأنّ المقصود بقتلهم أنّ الله يُهلكهم، ولذلك يكثر أن يقال: قاتله الله، ثم أجري مجرى اللعن والتحقير والتعجيب من سوء أحوال المدعو عليه بمثل هذا.

وجملة الدعاء لا تعطف لأنّها شديدة الاتصال بما قبلها، ممّا أوجب ذلك الوصف لدخولهم في هذا الدعاء، كما كان تعقيب الجمل التي قبلها بها إيماء إلى أنّ ما قبلها سبب للدعاء عليهم، وهذا من بديع الإيجاز.

الخرص: الظن الذي لا حجّة لصاحبه عليه، فهو معرّض للخطأ في ظنّه، وذلك كناية عن الضلال عمدا أو تساهلا. وقد تقدّم في قوله تعالى { إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ } [الأنعام:116].

{ **الْخَرَّاصُونَ** } هم أصحاب القول المختلف، فأفاد أنّ قولهم المختلف ناشئ عن خواطر لا دليل عليها.

فالمراد هنا: الخرص بالقول في ذات الله وصفاته.

والخرص في أصول الاعتقاد مذموم لأنّها لا تبنى إلّا على اليقين لخطر أمرها، وهو أصل محلّ الذمّ في هذه الآية. وأمّا الخرص في المعاملات بين الناس فلا يذم هذا الذم، وبعضه مذموم إذا أدى إلى المخاطرة والمقامرة. وقد أُذِن في بعض الخرص للحاجة. ففي الموطأ عن زيد بن ثابت : " أنّ النبيّ صلى الله

عليه وسلّم أذن في بيع العرايا بخرصها ". وتفصيل ذلك في كتب الفقه.

الغَمْرَة: المرة من الغَمْر، وهو الإحاطة، ويفسّرها ما تضاف إليه، كقوله تعالى { وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ } [الأنعام:93]، فإذا لم تقيّد بإضافة فإن تعيينها بحسب المقام، كقوله تعالى { فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ } [المؤمنين:54].

المعنى: في شغل، أي: ما يشغلهم من معاداة الإسلام شغلا لا يستطيعون معه أن يتدبّروا في دعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم.

السهو: الغفلة. والمراد أنّهم مُعرضون إعراضا كإعراض الغافل وما هم بغافلين، فإنّ دعوة القرآن تقرع أسماعهم كل حين. واستعمال مادة السهو في هذا المعنى نظير استعمالها في قوله تعالى { الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ } [الماعون:5].

{ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ [12] يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ [13] ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ [14] }.

هذه الجملة يجوز أن تكون حالا من ضمير { قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ } [10]، وأنّ تكون استئنافا بيانيا ناشئا عن جملة { قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ }، لأنّها أفادت تعجيبا من سوء عقولهم وأحوالهم، فهو مثار سؤال في نفس السامع يتطلّب البيان، فأجيب بأنّهم يسألون عن يوم الدين سؤال متهكّمين، يعنون أنّه لا وقوع ليوم الدين، كقوله تعالى {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنْ النَّبَأِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ } [النبأ:1-3].

{ **أَيَّانَ يَوْمُ الدِّين** } مقول قول محذوف دل عليه { يَسْأَلونَ }، لأنّ في فعل السؤال معنى القول. أي: يقولون: أيّان يوم الدين. ولك أن تجعلها بدلا من جملة { يَسْأَلون } لتفصيل إجماله، وهو من نوع البدل المطابق.

{ **أَيَّانَ** } اسم استفهام عن زمان فعل، أي: متى يوم الدين.

{ **يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنون** } جواب لسُؤْلهم جرى على الأسلوب الحكيم من تلقّي السائل بغير ما يتطلّب، إذ هم حين قالوا: أيان يوم الدين أرادوا التهكّم والإحالة، فتلقّى كلامهم بغير مرادهم، لأنّ في الجواب ما يشفي وقع تهكّمهم. والمعنى: يوم الدين يقع يوم تصلون النار ويقال لكم: ذوقوا فتنتكم.

الفتن: أصله الاختبار. وشاع إطلاقه على معان منها إذابة الذهب على النار في البوتقة لاختبار ما فيه من معدن غير الذهب، ولا يذاب إلّا بحرارة نار شديدة. فهو هنا كناية عن الإحراق الشديد.

{ **ذوقوا فِتْنَتَكُمْ** } مقول قول محذوف دلّ عليه الخطاب، أي: يقال لهم حينئذ ذوقوا فتنتكم، أي: عذابكم. والأمر مستعمل في التنكيل.

الذوق: مستعار للإحساس القوي، لأنّ اللسان أشدّ الأعضاء إحساسا.

{ **فِتْنَتَكُمْ** } إضافة فتنة إلى ضمير المخاطبين يومئذ من إضافة المصدر إلى مفعوله. وفي الإضافة دلالة

على اختصاصها لهم لأنّهم استحقوها بكفرهم، ويجوز أن تكون الإضافة من إضافة المصدر إلى فاعله. والمعني: ذوقوا جزاء فتنتكم. قال ابن عباس: أي: تكذيبكم. ويقوم من هذا الوجه أن يُجعل الكلام موجَّها بتذكير المخاطبين في ذلك اليوم ما كانوا يفتنون به المؤمنين من التعذيب، مثل ما فتنوا بلالا وخبابا وعمارا وشميسة وغيرهم، أي: هذا جزاء فتنتكم. نظير قوله تعالى { إنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيق } [البروج:10].

{ **هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ** } الجملة استئناف في مقام التوبيخ وتعديد المجارم.

والإشارة إلى الشيء الحاضر نصب أعينهم. أي: هذا هو العذاب الذي كنتم تطلبون تعجيله، فالسين والتاء للطلب. وأقوالهم في هذا كثيرة حكاها القرآن، كقوله تعالى { وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِين } [الملك:25].

{ إنَّ الَمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ [15] أَخِذيَن ما آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إنَّـهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ [16] كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ [17] وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ [18] وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ [19] }.

اعتراض قابل به حال المؤمنين يوم الدين، على عادة القرآن في اتباع النذارة بالبشارة، والترهيب بالترغيب.

{ **إنّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ** } كقوله تعالى { إنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ } [الدخان:52/51].

{ **جَنَّاتٍ** } الجمع باعتبار جمع المتّقين، وهي جنات كثيرة مختلفة. والتنكير للتعظيم.

وفي الحديث: " **إنّها لجنان كثيرة، وإنّه لفي الفردوس** ".

{ **آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ** } أنّهم قابلون ما أعطاهم، أي: راضون به، فالأخذ مستعمل في صريحه وكنايته، كناية رمزية عن كون ما يؤتونه أكمل في جنسه. وأيضا مستعمل في حقيقته ومجازه، لأنّ ما يؤتيهم الله بعضه ممّا يُتناول باليد كالفواكه والشراب والرياحين، وبعضه لا يتناول باليد كالمناظر الجميلة والأصوات الرقيقة والكرامة والرضوان وذلك أكثر من الأوّل.

روى أبو سعيد الخدري عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **أنّ الله تعالى يقول: يا أهل الجنة. فيقولون: لبيك ربّنا وسعديك والخير في يديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربّنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك فيقولون: وأيّ شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا** ".

{ **رَبُّهُمْ** } في إيثار التعبير عن الجلالة بوصف (ربّ) مضاف إلى ضمير المتّقين معنى من اختصاصهم

بالكرامة، والإيماء إلى أنّ سبب ما آتاهم هو إيمانهم بربوبيّته.

{ **إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ** } تعليل لجملة { إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ }، أي: كان ذلك جزاء لهم عن إحسانهم، كما قيل للمشركين { ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ } [14].

{ **قَبْلَ ذَلِكَ** } فائدة الظرف أن يؤتى بالإشارة إلى ما ذكر من الجنّات والعيون وما آتاهم ربهم ممّا لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فيحصل بسبب تلك الإشارة تعظيم شأن المشار إليه. أي: أنّهم كانوا في الدنيا مطيعين لله تعالى واثقين بوعده.

المحسنون: فاعلوا الحسنات وهي الطاعات.

{ **كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ** } بدل من جملة { كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ } بدل بعض من كلّ، لأنّ هذه الخصال الثلاث هي بعض من الإحسان في العمل. وهذا كالمثال لأعظم إحسانهم، فإنّ ما ذُكر من أعمالهم دال على شدّة طاعتهم لله ابتغاء مرضاته ببذل أشدّ ما يُبذل على النفس وهو شيئا:

أولهما: راحة النفس في وقت اشتداد حاجتها إلى الراحة، وهو الليل كلّه وخاصة آخره، إذ يكون فيه قائم الليل قد تعب واشتد طلبه للراحة.

ثانيهما: المال الذي تشحّ به النفوس غالبا.

وقد تضمَّنت هذه الأعمال الأربعة أصلي إصلاح النفس وإصلاح الناس. وذلك جماع ما يرمي إليه التكليف من الأعمال، فإنّ صلاح النفس تزكية الباطن والظاهر:

*/ ففي قيام الليل إشارة إلى تزكية النفس باستجلاب رضى الله تعالى.

*/ وفي الاستغفار تزكية الظاهر بالأقوال الطيّبة الجالبة لمرضاة الله عز وجل.

*/ وفي جعلهم الحق في أموالهم للسائلين نفع ظاهر للمحتاج المظهر لحاجته.

*/ وفي جعلهم الحق للمحروم نفع المحتاج المتعفّف عن إظهار حاجته، الصابر على شدّة الاحتياج.

{ **كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ** } أي: كانوا يهجعون قليلا من الليل. وليست { مَا } نافية.

الهجوع: النوم الخفيف وهو الغِرار.

ودلّت الآية على أنّهم كانوا يهجعون قليلا من الليل وذلك اقتداء بأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى { قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً أَوْ زِدْ عَلَيْهِ } [المزمل:2-4]. وقد كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يأمرهم بذلك، كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أنّ رسول الله قال له:

" ألم أُخْبَر أنّك تقوم الليل وتصوم النهار ". قال: نعم. قال: **" لا تفعل إنّك إن فعلت ذلك نفهت النفس وهجمت العين "**.

وقال له: **" قم ونم، فإنّ لنفسك عليك حقا ولأهلك عليك حقا "**.

{ **قَلِيلاً** } انتصب على الظرف لأنّه وُصِف بالزمان بقوله { مِنَ اللَّيْلِ }. والتقدير: زمنا قليلا من الليل.

{ **وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** } أي: فإذا آذن الليل بالانصرام سألوا الله أن يغفر لهم بعد أن قدّموا من التهجّد ما يرجون أن يقرّبهم إلى رضى الله تعالى. وهذا دلّ على أنّ هجوعهم الذي يكون في خلال الليل قبل السحر. فأمّا في السحر فهم يتهجّدون، ولذلك فسر ابن عمر ومجاهد الاستغفار بالصلاة في السحر. وهذا نظير قوله تعالى { وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ } [آل عمران:17]، وليس المقصود طلب الغفران بمجرد اللسان.

الأسحار: جمع سحر وهو آخر الليل. وخُصَّ هذا الوقت لكونه يكثر فيه أن يغلب النوم على الإنسان فيه. والجمع باعتبار تكرّر قيامهم في كل سحر.

{ **وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ** } هو النصيب الذي يعطونه إيّاهما، أطلق عليه لفظ الحق؛ إمّا لأنّ الله أوجب على المسلمين الصدقة بما تيسّر قبل أن يفرض عليهم الزكاة، فإن الزكاة فرضت بعد الهجرة. أو لأنّهم ألزموا ذلك أنفسهم حتّى صار كالحقّ للسائل والمحروم. ونظيرها في [المعارج:25/24].

السائل: الفقير المظهر فقره فهو يسأل الناس.

المحروم: الفقير الذي لا يُعطى الصدقة لظنّ الناس أنّه غير محتاج من تعفّفه عن إظهار الفقر، وهو الصنف الذي قال الله تعالى في شأنهم { يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ } [البقرة:273]، وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" ليس المسكين الذي تردّه اللقمة واللقمتان والأكلة والأكلتان ولكن المسكين الذي ليس له غنى ويستحيي ولا يسأل الناس إلحافا "**.

وإطلاق اسم المحروم ليس حقيقة لأنّه لم يسأل الناس ويحرموه، ولكن لمّا كان مآل أمره إلى ما يؤول إليه أمر المحروم لترفّعه وعدم السؤال. والمقصود من هذه الاستعارة ترقيق النفوس عليه وحثّ الناس على البحث عنه ليضعوا صدقاتهم في موضع يحب الله وضعها فيه.

{ **وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِين** } [20].

الجملة متصلة بالقَسَم وجوابه من قوله تعالى { وَالذَّارِيَاتِ – إلى قوله - وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ } [1-7]، وما بين هاتين الجملتين اعتراض. فبعد أن حقَّق وقوع البعث بتأكيده بالقسم، انتقل إلى تقريبه بالدليل لإبطال إحالتهم إيّاه، فيكون هذا الاستدلال كقوله تعالى { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى } [فصلت:39].

{ **وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ** } يجوز أن تكون معطوفة على جملة جواب القَسَم وهي { إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ } [5]، والمعنى: وفي ما يُشاهد من أحوال الأرض آيات للموقنين، وهي الأحوال الدالة على إيجاد موجودات بعد إعدام أمثالها وأصولها، مثل إنبات الزرع الجديد بعد أن باد الذي قبله وصار هشيما. وهذه دلائل واضحة متكرّرة لا تحتاج إلى غوص الفكر، فلذلك لم تقرن هذه الآيات بما يدعو إلى التفكّر كما قرن قوله تعالى { وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ } [21].

{ **وَفِي الْأَرْضِ** } تقديم الخبر للاهتمام والتشويق إلى ذكر المبتدأ.

{ **آيَاتٌ** } فالآيات المرموقة من أحوال الأرض صالحة للدلالة أيضا على تفرّده تعالى بالإلهية؛ في كيفية خلقها وتيسيرها للحيوان و الإنسان، وكيف قُسِّمت إلى سهل وجبال وبحر، ونظام إنباتها الزرع والشجر، وما يخرج من ذلك من منافع للناس، ولهذا حذف تقييد { آيَاتٌ } بمتعلّق ليعمّ كلّ ما تصلح الآيات أن تدلّ عليه.

{ **لِلْمُوقِنِينَ** } اللام معلّق بـ { آيَاتٍ }، وخصت الآيات بـ { الْمُوقِنِينَ } لأنّهم الذين انتفعوا بدلالتها فأكسبتهم الإيقان بوقوع البعث. وأوثر وصف الموقنين هنا دون الذين أيقنوا لإفادة أنّهم عُرفوا بالإيقان. وهذا الوصف يقتضي مدحهم بثقوب الفهم، لأنّ الإيقان لا يكون إلّا عن دليل، ودلائل هذا الأمر نظرية. ومدحهم أيضا بالإنصاف وترك المكابرة، لأنّ أكثر المنكرين للحق تحملهم المكابرة أو الحسد على إنكار حق.

{ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ } [21].

عطف على السابقة. والخطاب موجّه إلى المشركين. والاستفهام إنكاري، أنكر عليهم عدم الإبصار للآيات. فالتقدير: وفي أنفسكم آيات أفلا تبصرون؟ تفريعا على الجملة المعطوفة فيقدّر الوقف على { أَنْفُسَكُمْ } .

{ **فِي أَنْفُسِكُم** } تقديمه على متعلقه للاهتمام بالنظر في خلق أنفسهم وللرعاية على الفاصلة.

الإبصار: هنا مستعار للتدبّر والتفكّر، أي: كيف تتركون النظر في آيات كائنة في أنفسكم.

والمعنى: ألا تتفكّرون في خلق أنفسكم: كيف أنشأكم الله من ماء وكيف خلقكم أطوارا، أليس كل طور هو إيجاد خلق لم يكن موجودا قبل. فالموجود في الصبي لم يكن موجودا فيه حين كان جنينا، والموجود في الكهل لم يكن فيه حين كان غلاما، وما هي عند التأمّل إلّا مخلوقات مستجدّة كانت معدومة، فكذلك إنهاء الخلق بعد الموت.

وهذا التكوين العجيب كما يدل على إمكان الإيجاد بعد الموت يدلّ على تفرد مكوّنه تعالى بالإلهية، إذ لا يقدر على إيجاد مثل الإنسان غير الله تعالى، فإنّ بواطن أحوال الإنسان وظواهرها عجائب من الانتظام والتناسب، وأعجبها خلق العقل وحركاته واستخراج المعاني، وخلق النطق والإلهام إلى اللغة.

{ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُون } [22].

بعد أن ذُكر دلائل الأرض ودلائل الأنفس، التي هي من علائق الأرض، عُطف ذكر السماء للمناسبة وتمهيدا للقَسَم الذي بعده بقوله تعالى { فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ } [23]، ولما في السماء من آية المطر الذي به تنبت الأرض بعد الجفاف. فالمعنى: وفي السماء آية المطر، فعدل عن ذكر المطر إلى

الرزق إدماجا للامتنان في الاستدلال، فإنّ الدليل في كونه مطرا يحيي الأرض بعد موتها. وهذا قياس تمثيل للنبت. أي: في السماء المطر الذي تُرزقون بسببه.

الرزق: هنا هو المطر الذي تحمله السحب. و**السماء**: طبقات الجو.

وتقديم المجرور على متعلّقه للتشويق وللاهتمام بالمكان، وللردّ على الفاصلة.

{ **وَمَا تُوعَدُونَ** } إدماج بين أدلة إثبات البعث لقصد الموعظة الشاملة للوعيد على الإشراك والوعد على الإيمان إن آمنوا، تعجيلا بالموعظة عند سنوح فرصتها.

{ **تُوعَدُونَ** } في إيثار هذه الصيغة خصوصية من خصائص إعجاز القرآن، فإنّ هذه الصيغة صالحة لأن تكون مصوغة من الوعد، وصالحة لأن تكون من الإيعاد، فاحتملت للبشارة والإنذار.

وكون ذلك في السماء يجوز أن يكون معناه: أنّه محقّق في علم أهل السماء. ويجوز أن يكون المعنى: أنّ مكان حصوله في السماء.

{ **فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ** } [23].

بعد أن أُكِّد الكلام بالقسم بـ { الذَّارِيَاتِ } [1] وما عطف عليها، فُرِّع على ذلك، زيادة تأكيد، بالقَسَم بخالق السماء والأرض على أنّ ما يوعدون حقّ، فهو عطف على السابق ومناسبته قوله تعالى { وَمَا تُوعَدُونَ } [22]. وإظهار اسم السماء والأرض دون ذكر ضميرهما لإدخال المهابة في نفوس السامعين بعظمة الربّ سبحانه.

{ **إِنَّهُ لَحَقٌّ** } الضمير عائد إلى { مَا تُوعَدُونَ } [22]. وهذا من رد العَجُز على الصدر لأنّه ردّ على قوله تعالى أوّل السورة { إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ } [5]، وانتهى الغرض.

{ **مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ** } زيادة تقرير لوقوع ما أوعِدوه بأن شُبِّه بشيء معلوم كالضرورة لا امتراء في وقوعه، وهو كون المخاطبين ينطقون. وهو من التمثيل بالأمور المحسوسة.

{ **تَنْطِقُون** } جيء بالمضارع، دون أن يقال: نطقكم، ليفيد التشبيه بنطقهم المتجدّد، وهو أقوى في الوقوع.

{ **هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ** [24] **إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ** [25] **فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ** [26] **فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ** [27] **فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ** [28] **فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ** [29] **قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ** [30] }.

انتقال من الإنذار والموعظة والاستدلال إلى الاعتبار بأحوال الأمم الماضية المماثلة للمخاطبين في الكفر وتكذيب الرُّسل. والجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا، وغُيّر أسلوب الكلام من خطاب المنذرين، مواجهةً،

إلى أسلوب التعريض، تفنُّنًا، بذكر قصة إبراهيم لتكون توطئة للمقصود من ذكر ما حلّ بقوم لوط حين كذّبوا رسولهم، فالمقصود: هو ما بعد قوله تعالى { قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ } [31].

وكان في الابتداء بذكر قوم لوط في هذه الآية على خلاف الترتيب الذي جرى عليه اصطلاح القرآن في ترتيب قصص الأمم المكذّبة بابتدائها بقوم نوح ثم عاد ثم ثمود ثم قوم لوط، أنّ المناسبة للانتقال من وعيد المشركين إلى العبرة بالأمم الماضية:

أنّ المشركين وُصفوا آنفا بأنّهم { فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ } [11]، فكانوا في تلك الغمرة أشبه بقوم لوط، إذ قال الله فيهم { لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ } [الحجر:72].

ولأنّ العذاب الذي عُذّب به قوم لوط كان حجارة أُنزِلت عليهم من السماء مُشبَّهة بالمطر. وقد سُمِّيت مطرا في قوله تعالى { وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ } [الفرقان:40]، وقوله تعالى { وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ } [هود:82].

ولأنّ في قصة حضور الملائكة عند إبراهيم وزوجه عبرة بإمكان البعث، فقد تضمَّنت بشارتها بمولود يولد لها بعد اليأس من الولادة. وذلك مثل البعث بالحياة بعد الممات.

{ **هَلْ أَتَاكَ** } لمّا وُجِّه الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم بهذا القول عُرف أنّ المقصود الأصلي تسليته على ما لقيه من تكذيب قومه. ويتبع ذلك تعريض بالسامعين حين يُقرأ عليهم القرآن أو يبلغهم بأنّهم صائرون إلى مثل ذلك العذاب لاتحاد الأسباب.

وتقدّم القول في نظيره عند قوله تعالى { وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ } [ص:21] وأنّه افتتاح للأخبار المهمّة.

الضيف: اسم يقال للواحد وللجمع لأنّ أصله مصدر ضاف: إذا مال، فأطلق على الذي يميل إلى بيت أحد لينزل عنده. ثم صار اسما، فإذا لوحظ أصله أطلق على الواحد وغيره ولم يؤنّثوه ولا يجمعونه، وإذا لوحظ الاسم جمعوه للجماعة وأنثوه للأنثى فقالوا أضياف وضيوف وامرأة ضيفة. وهو هنا اسم جمع ولذلك وصف بـ { الْمُكْرَمِينَ }، وتقدّم في قوله تعالى { قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي } [الحجر:68].

والمعني به الملائكة الذي أظهرهم الله لإبراهيم عليه السلام فأخبروه بأنّهم مرسلون من الله لتنفيذ العذاب لقوم لوط، وسمّاهم الله ضيفا نظرا لصورة مجيئهم في هيئة الضيف، كما سمَّى المَلَكين الذين جاءا داود خصما في قوله تعالى { وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ } [صّ:21]، وذلك من الاستعارة الصورية.

{ **الْمُكْرَمِينَ** } لإكرام إبراهيم إيّاهم، كما جرت عادته مع الضيف، فهو الذي سنَّ القِرى، ففيه مدح له، وأيضا إشارة لمكانتهم، كقوله تعالى { بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ } [الأنبياء:26]، وقوله تعالى { كِرَاماً كَاتِبِينَ } [الانفطار:11].

{ **إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ** } الظرف يتعلق بـ { حَدِيثُ } لما فيه من معنى الفعل، أي: خبّرْهم حين دخلوا عليه.

{ **قَالَ سَلامٌا قَالَ سَلامٌ** } تقدم نظيره في [هود:69].

{ **قَوْمٌ مُنْكَرُونَ** } من كلام إبراهيم. والظاهر أنّه قاله خفتًا، إذ ليس من الإكرام أن يجاهر الزائر بذلك.

المنكر: الذي يُنكره غيره، أي: لا يعرفه. أطلق هنا على من يُنْكَر حاله ويُظنّ أنّه حالٌ غير معتاد، أي: يُخشى أنّه يُضمِر السوء، كما في قوله تعالى { فلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً } [هود:70]. وقصّة ضيف إبراهيم تقدّمت في [هود:69-76].

{ **فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ** } قال أبو عبيد القاسم بن سلام: إنّ الروغان ميلٌ في المشي عن الاستواء إلى الجانب مع إخفاء إرادته. فانتزع منه الزمخشري أنّ إخفاء إبراهيم ميله إلى أهله من حسن الضيافة كيلا يوهم الضيف أنّه يريد أن يحضر لهم شيئا فلعلّ الضيف أن يكُفَّه عن ذلك ويعذره، وهذا منزع لطيف.

وكان منزل إبراهيم الذي جرت عنده هذه القصة بموضع يُسمَّى (بلوطات مَمْرا) من أرض جبرون.

{ **سَمِينٍ** } ووصف في [هود:69] بـ { حَنِيذٍ }، أي: مشويّ، فهو عجل سمين شواه وقرّبه إليهم، وكان الشوا أسرع طبخ أهل البادية.

{ **فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ** } أي: وضعه قريبا منهم، أي: لم ينقلهم من مجلسهم إلى موضع آخر بل جعل الطعام بين أيديهم. وهذا من تمام الإكرام للضيف.

{ **فَرَاغَ / فَجَاءَ / فَقَرَّبَهُ** } مجيء (الفاء) لعطف الأفعال دلالة على أنّ هذه الأفعال وقعت في سرعة، والإسراع بالقِرى من تمام الكرم.

{ **قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ** } بدل اشتمال من جملة { قَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ }.

{ **أَلَا** } كلمة واحدة، وهي حرف عرض، أي: رغبة في حصول الفعل الذي تدخل عليه.

والعرض على الضيف عقب وضع الطعام بين يديه زيادة في الإكرام.

{ **فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً** } الفاء فصيحة، لإفصاحها عن جملة مقدَّرة يقتضيها ربط المعنى، أي: فلم يأكلوا فأوجس منهم خيفة، كقوله تعالى { أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ } [الشعراء: 63]، وقد صرّح بذلك في قوله تعالى { فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً } [هود:70].

{ **فَأَوْجَسَ** } أحسّ في نفسه ولم يُظهر.

{ **قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ** } قالوا ذلك لأنّهم علموا ما في نفسه ممّا ظهر على ملامحه من الخوف، وتقدم نظيره في [هود:70]. و**الغلام** الذي بشّروه به هو **إسحاق** لأنّه هو ابن سارة، وهو الذي وقعت البشارة به في هذه القصة في التوراة، ووصف هنا بـ { عَلِيمٌ }، وأمّا الذي ذُكرت البشارة به في [الصافات:101] فهو إسماعيل ووصف بـ { حَلِيمٌ }. ولذلك فامرأة إبراهيم الحادث عنها هنا هي سارة، وهي التي ولدت بعد أن أيست، أمّا هاجر فقد كانت فتاة ولدت في مقتبل عمرها.

{ **فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ** } أقبلت امرأته حين سمعت البشارة لها بغلام، أي: أقبلت على مجلس إبراهيم مع ضيفه. وفي [هود:71] { وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ }.

الصرَّة: الصياح، ومنه اشتق الصرير. و{ فِي } للظرفية المجازية، وهي الملابسة.
الصَّكّ: اللطم، وصكّ الوجه عند التعجّب يُرى عند النساء. نظيره وضع اليد على الفم في قوله تعالى { فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ } [إبراهيم:9].
العجوز: يستوي في المذكّر والمؤنّث، مشتقّ من العجز، ويطلق على كبر السنّ لملازمة العجز له غالبا.
العقيم: يستوي فيه المذكر والمؤنث إذا جرى على موصوف مؤنث، مشتق من عَقَمها الله، إذا خلقها لا تحمل بجنين، وكانت سارة لم تحمل قط.
{ **قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ** } قول الملائكة إشارة إلى الحادث، وهو التبشير بغلام. والكاف للتشبيه، أي: مثل قولنا قال ربك، فنحن بلَّغنا ما أُمِرنا بتبليغه.
{ **إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ** } تعليل للجملة السابقة المتقضية أنّ الملائكة ما أخبروا إبراهيم إلّا تبليغا من الله، وأنّ الله صادق وعده، وأنّه لا موقع لتعجّب امرأة إبراهيم لأنّ الله { الْحَكِيمُ } يدبِّر تكوين ما يريده، و{ الْعَلِيمُ } لا يخفى عليه حالها من العجز والعقم.
وهذه المحاورة بين الملائكة وسارة وقع مثلها بينهم وبين إبراهيم، كما قُصَّ في [الحجر:53-56]، فحُكي هنا ما دار بينهم وبين سارة، وحُكي هناك ما دار بينهم وبين إبراهيم، والمقام واحد والحالة واحدة، كما بُيِّن في [هود:72] { قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ }.

{ **قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُون [31] قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ [32] لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ [33] مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ [34]** }.
علم إبراهيم من محاورتهم، فيما ذُكر في هذه الآية وما ورد ذكره في آيات أخرى، أنّهم ملائكة مرسلون من عند الله فسألهم عن الشأن الذي أرسلوا لأجله. فهم وإن كانوا قد بشّروه بأمر عظيم إلّا أنّه لم يعلم هل ذلك هو قصارى ما جاءوا لأجله. وحُكي فعل القول بدون عاطف لأنّه في سياق المحاورة.
{ **فَمَا خَطْبُكُمْ** } الفاء، فيما حكي من كلام إبراهيم، فصيحة مؤذنة بكلام محذوف. وتقديره: إذ كنتم مرسلين من جانب الله تعالى فما الخطب الذي أرسلتم من أجله؟
وقد علم إبراهيم أن نزول الملائكة بتلك الصورة لا تكون بمجرد بشارته بابن يولد له ولزوجه، إذ كانت البشارة تحصل له بالوحي، فكان من علم النبوّة أنّ إرسال الملائكة إلى الأرض بتلك الصورة لا يكون إلّا لخطب، قال تعالى { مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ } [الحجر:8].
الخطب: الحدث العظيم والشأن المهم، وإضافته إلى ضميرهم لأدنى ملابسة.
{ **قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ** } المراد بالقوم المجرمين: أهل سدوم وعمورية، وهم قوم لوط.
وتقدّمت قصتهم في [الأعراف:80-84]، و[هود:69-83].
{ **لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ** } الإرسال هنا مجاز في الرمي، كما يقال: أرسل سهمه على الصيد.

الحجارة: اسم جمع للحجر، ومعنى كون الحجارة من طين: أنّ أصلها طين تحجّر بصهر النار، وهي حجارة بركانية من كبريت قذفتها الأرض من الجهة التي صارت بحيرة تدعى اليوم (بحيرة لوط) نزلت على قرى قوم لوط فأهلكتهم.

المسوَّمة: التي عليها السَّومة أي: العلامة.

المسرفون: المفرطون في العصيان، وذلك بكفرهم وشيوع الفاحشة فيهم، فالمسرفون هم نفسهم { قَوْمٍ مُجْرِمِينَ }، عدل عن ضميرهم إلى الوصف الظاهر، لتسجيل إفراطهم في الإجرام.

{ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [35] فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ [36] وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ [37] }.

ليست الجملة من حكاية كلام الملائكة بل هي تذييل لقصة محاورة الملائكة مع إبراهيم.

{ **فَأَخْرَجْنَا** } الفاء فصيحة، لأنّها تفصح عن كلام مقدّر هو ما ذُكر في سورة هود من مجيء الملائكة إلى لوط وما حدث بينه وبين قومه، فالتقدير: فحلُّوا بقرية لوط فأمرناهم بإخراج من كان فيها من المؤمنين فأخرجوهم. وضمير { فَأَخْرَجْنَا } ضمير عظمة الجلالة.

وإسناد الإخراج إلى الله لأنّه أمر به الملائكة أن يبلّغوه لوطا، ولأنّ الله يسَّر إخراج المؤمنين ونجاتهم إذ أخَّر نزول الحجارة إلى أن خرج المؤمنون، وهم لوط وأهله إلّا امرأته.

{ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** } للإشارة إلى أنّ إيمانهم هو سبب نجاتهم، أي: إيمانهم برسالة لوط.

{ **فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** } في الكلام تنويه بشأن الإيمان والإسلام، أي: أنّ الله نجّاهم من العذاب لأجل إيمانهم بما جاء به رسولهم لا لأجل أنّهم أهل لوط.

المؤمن: هو المصدِّق بما يجب التصديق به. و**المسلم**: المنقاد إلى مقتضى الإيمان، ولا نجاة إلّا بمجموع الأمرين، فحصل في الكلام، مع التفنّن في الألفاظ، الإشارة إلى التنويه بكليهما وإلى أنّ النجاة باجتماعهما.

والآية تشير إلى أنّ امرأة لوط كانت تظهر الانقياد إلى زوجها وتضمر الكفر وممالأة أهل القرية على فسادهم، قال تعالى { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا } [التحريم:10]. فبيت لوط كان كلّه من المسلمين ولم يكن كلّه من المؤمنين، فلذلك لم ينج منهم إلّا الذين اتصفوا بالإيمان والإسلام معا.

{ **وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ** } أي: أنّ القرية بقيت خرابا لم تعمر، فكان ما فيها من آثار الخراب آية للذين يخافون عذاب الله، قال تعالى { وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ } [الحجر:76].

أو يعود الضمير إلى ما يؤخذ من مجموع قوله { قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ } [32]، على تأويل الكلام بالقصة، أي: تركنا في قصّتهم آية.

الترك: حقيقته مفارقة شخص مكانا مبقيا على شيء له به تعلّق.

{ **لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ** } هم المؤمنون بالبعث والجزاء من أهل الإسلام وأهل الكتاب دون المشركين فإنّهم لما لم ينتفعوا بدلالة ذلك. كما قال تعالى { فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ } [ق:45].

المعنى: أنّ الذين يخافون اتعظوا بآية قوم لوط فاجتنبوا مثل أسباب هلاكهم، وأنّ الذين أشركوا لا يتّعظون فيوشك أن ينزل عليهم عذاب أليم.

{ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ [38] فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُون [39] فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ [40] }.

{ **وَفِي مُوسَى** } عطف على قوله تعالى { فِيهَا آيَةً } [37]. وهو من عطف الجملة على الجملة، لتقدير فعل: تركنا، بعد واو العطف، وحذف مضاف، فيكون التقدير: وتركنا في قصة موسى آية حين أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين.

وأعقب قصة قوم لوط بقصة موسى وفرعون لشهرة أمر موسى وشريعته، ولما بين القصّتين من تناسب في أنّ العذاب الذي عُذِّب به الأمّتان عذاب أرضي، إذ عُذِّب قوم لوط بالحجارة التي هي من طين، وعُذِّب قوم فرعون بالغرق في البحر. ثم ذكر عاد وثمود وكان عذابهما سماويا إذ عُذِّبت عاد بالريح وثمود بالصاعقة.

السلطان المبين: الحجّة الواضحة، وهي المعجزات التي أظهرها لفرعون من انقلاب العصا حية، وما تلاها من الآيات الثمان.

التولّي: حقيقته الانصراف عن المكان.

الركن: حقيقته ما يُعتمد عليه من بناء ونحوه، ويُسمَّى الجسد ركنا لأنّه عماد عمل الإنسان.

{ **فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ** } تمثيل لهيئة رفضه دعوة موسى بهيئة المنصرف عن شخص.

{ **مُلِيمٌ** } الذي يجعل غيره لائما عليه، أي: وهو مذنب ذنبا يلومه الله عليه، أي: يؤاخذه به. والمعنى: أنّه مستوجب العقاب، كما في قوله تعالى حكاية عن إبليس { فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ } [ابراهيم:22].

{ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ [41] مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ [42] }.

نظم هذه الآية مثل نظم قوله تعالى { وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ } [38]، انتقل إلى العبرة بأمّة من الأمم العربية وهم عاد، وهم أشهر العرب البائدة.

{ **الرِّيحَ الْعَقِيمَ** } الريح التي لا نفع فيها، تلك المنافع التي ترجى عادة؛ من إثارة السحاب وإلقاح الأشجار.

أي: هي ضارة. والعرب يكرهون العقم في مواشيهم، أي: ريح كالناقة العقيم لا تثمر نسلا ولا دَرًّا.
فوصف الريح بالعقيم تشبيه بليغ في الشؤم، قال تعالى { أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ } [الحج:55].
{ **مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ** } صفة ثانية، أوحال، فهو ارتقاء في مضرَّة هذه الريح.
أي: ما تذر من شيء أتت عليه في حال من أحوال تدميرها إلّا في حال قد جعلته كالرميم.
{ **تَذَرُ** } صيغة المضارع لاستحضار الحالة العجيبة.
الرميم: العظم الذي بَلِيَ. يقال: رمَّ العظم، إذا بلي، أي: جعلته مفتَّتًا.

{ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ [43] فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ [44] فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ [45] }.

أُتبعت قصة عاد بقصة ثمود لتقارنهما غالبا في القرآن من أجل أنّ ثمود عاصرت عادا وخلفتها في عظمة الأمم، قال تعالى { وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ } [الأعراف:74]، ولاشتهارهما بين العرب.
{ **وَفِي ثَمُودَ** } عطف على { وَفِي عَادٍ }، أو على { وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً }. والمعنى: وتركنا آية للمؤمنين في ثمود في حال قد أخذتهم الصاعقة، أي: في دلالة أخذ الصاعقة إيّاهم، على أنّ سببه هو إشراكهم وتكذيبهم وعتوّهم عن أمر ربهم. فالمؤمنون اعتبروا بتلك فسلكوا مسلك النجاة من عواقبها، وأمّا المشركون فإصرارهم على كفرهم سيوقعهم في عذاب من جنس ما وقعت فيه ثمود.
{ **إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ** } كلام جامع لما أنذرهم به صالح رسولهم وذكَّرهم فيه، من نحو قوله تعالى { وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً } [الأعراف:74]، وقوله تعالى { أتتركون فيما هنا آمنين فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ } [الشعراء:148]، وقوله تعالى { هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَ } [هود:61]. ونحو ذلك ممّا يدلّ على أنّهم أعطوا ما هو متاع، أي: نفع في الدنيا، فكانت الأقوال التي قالها رسولهم تذكيرا بنعمة الله عليهم يجمعها { تَمَتَّعُوا حَتَّى حين }.
على أنّه يجوز أن يكون رسولهم قال لهم هذه الكلمة الجامعة ولم تحك في القرآن إلّا في هذا الموضع.
فقد علمتَ من المقدمة السابعة من هذا التفسير، أنّ أخبار الأمم تأتي موزّعة على قصصهم في القرآن.
{ **تَمَتَّعُوا** } أمر مستعمل في إباحة المتاع. وقد جُعل المتاع بمعنى النعمة في مواضع كثيرة، كقوله تعالى { وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ } [الرعد:26]، وقوله { وإن أدري لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ } [الأنبياء:111].
{ **حِينٍ** } زمن مبهم، جُعل نهاية لما مُتِّعوا به من النعم. وذلك الأجل: إمّا أن يراد به أجل كلّ واحد منهم الذي تنتهي إليه حياته، وإمّا أن يراد به أجل الأمّة الذي ينتهي إليه بقاؤها. وهذا نحو قوله تعالى { يُمَتِّعْكُمْ

مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً } [هود:3]، فكما قال الله للناس على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ذلك فلعلّه قاله لثمود على لسان صالح عليه السلام.

وليس قوله تعالى { وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ } بمشير إلى قوله في الآية الأخرى { فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ } [هود:65] ونحوه، لأنّ ذلك الأمر مستعمل في الإنذار والتأييس من النجاة بعد ثلاثة أيام فلا يكون لقوله بعده { فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ } مناسبة لتعقيبه به بـ (الفاء)، لأنّ الذي تفيده (الفاء) يقتضي أنّ ما بعدها مرتّب في الوجود على ما قبلها.

العتو: الكبر والشدّة. وضُمِّن { فَعَتَوْا } معنى أعرضوا، فعدّي بـ { عَنْ }، أي: فأعرضوا عمّا أمرهم الله على لسان رسوله صالح عليه السلام.

{ **فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ** } إصابتها إيّاهم إصابة تشبه أخذ العدو عدوّه.

{ **وَهُمْ يَنْظُرُونَ** } حال من ضمير النصب في { أَخَذَتْهُمُ }، أي: أخذتهم في حال نظرهم إلى نزولها، لأنّهم لمّا رأوا بوارقها الشديدة علموا أنّها غير معتادة فاستشرفوا ينظرون إلى السحاب فنزلت عليهم الصاعقة وهم ينظرون. وذلك هول عظيم زيادة في العذاب، فإنّ النظر إلى النقمة يزيد صاحبها ألما، كما أنّ النظر إلى النعمة يزيد المُنعَم مسرَّة، قال تعالى { وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ } [البقرة: 50].

{ **فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ** } تفريع على { وَهُمْ يَنْظُرُونَ }، أي: فما استطاعوا أن يدفعوا ذلك حين رؤيتهم بوادره. فالقيام مجاز للدفاع، كما يقال: هذا أمر لا يقوم له أحد، أي: لا يدفعه أحد.

{ **وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ** } أي: ما نصرهم أحد فانتصروا.

{ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ } [46].

{ **وَقَوْمَ** } قرأ الجمهور بالنصب بتقدير (اذكر)، أو بفعل محذوف يدلّ عليه ما ذُكر من القصص قبله، تقديره: وأهلكنا قوم نوح، وهذا من عطف الجمل وليس من عطف المفردات. وقرأ أبو عمروا وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بالجر { وَقَوْمِ } عطفا على { ثَمُودَ } [43]. على تقدير: وفي قوم نوح.

{ **مِنْ قَبْلُ** } أي: أنّهم أُهلكوا قبل أولئك، فهم أوّل الأمم المكذِّبين رسولهم أهلكوا.

{ **إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ** } تعليل لما تضمّنه القول السابق من كونهم عوقبوا. فالمعنى: أنّهم أُهلكوا كذلك لأنّهم كانوا قوما فاسقين.

وأخِّر الكلام على قوم نوح لما عرض من تجاذب المناسبات بما علمته سابقا. ولذلك كان قوله تعالى { مِنْ قَبْلُ } تنبيها على وجه مخالفة عادة القرآن في ترتيب حكاية أحوال الأمم على حسب ترتيبهم في الوجود.

{ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ [47] وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ [48] وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ [49] }.

لمّا كانت شبهة نفاة البعث قائمة على توهُّم استحالة إعادة الأجسام بعد فنائها أُعقِب تهديدهم بما يقوِّض توهُّمهم، فوُجِّه إليهم الخطاب يذكِّرهم بأنّ الله خلق أعظم المخلوقات ولم تكن شيئا، فلا تعدّ إعادة الأشياء الفانية بالنسبة إليها إلّا شيئا يسيرا، كما قال تعالى { لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } [غافر:57].

وهذه الجمل إلى قوله تعالى { إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ } [51] معترضة بين جملة { وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ } [46] وجملة { كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ } [52].

وابتدئ بخلق السماء لأنّ السماء أعظم مخلوق يشاهده الناس، وعُطف عليه خلق الأرض، عطف الشيء على مخالفه لاقتران المتخالفين في الجامع الخيالي. وعُطف عليها خلق أجناس الحيوان لأنّها قريبة للأنظار لا يكلِّف النظر فيها والتدبّر في أحوالها ما يرهق الأذهان.

{ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ } استعير لخلق السماء فعل (البناء) لأنّ منظر السماء فيما يبدو للأنظار شبيه بالقبة، ونصب القبة يُدعى بناء.

وهذا استدلال بأثر الخلق الذي عاينوا أثره ولم يشهدوا كيفيته، لأنّ أثره ينبئ عن عظيم كيفيّته، وأنّها أعظم ممّا يُتصور في كيفية إعادة الأجسام البالية.

الأيْد: القوّة. وأصله جمع يد، ثم كثر إطلاقه حتّى صار اسما للقوّة، وتقدّم عند قوله تعالى { وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ } [ص:17]. والمعنى: بنيناها بقدرة لا يقدر أحد مثلها.

{ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ } التذييل زيادة في التأكيد. والواو اعتراضية. وتأكيد الخبر لتنزيل المخاطبين منزلة من ينكر سعة قدرة الله تعالى إذ أحالوا إعادة المخلوقات بعد بلاها.

المُوسِع: اسم فاعل من أوسع، إذا كان ذا وُسع، أي: قدرة. وتصاريفه من السعة، وهي امتداد مساحة المكان ضد الضيق، واستعير معناها للوفرة في أشياء، مثل عمومها في قوله تعالى { وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ } [الأعراف:156]، ووفرة المال مثل قوله تعالى { لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ } [الطلاق: 7].

وجاء في أسمائه تعالى الواسع، { إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } [البقرة:115]، وهو عند إجرائه على الذات يفيد كمال صفاته الذاتية: الوجود، والحياة، والعلم، والقدرة، والحكمة.

{ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ } القول فيه كالقول في { وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا } [47]. وكذلك القول في الاستدلال بذلك على إمكان البعث. واستغنى هنا عن إعادة { بِأَيْدٍ } [47]، لدلالة ما قبله عليه.

الفرش: بسط الثوب ونحوه للجلوس والاضطجاع.

{ فَرَشْنَاهَا } استعارة تبعية، شُبِّه تكوين الله الأرض على حالة البسط بفرش البساط ونحوه.

وفي ذلك دلالة على قدرة الله وحكمته إذ جعل الأرض مبسوطة لمّا أراد أن يجعل فوقها من يعمرها.

{ **فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ** } تفريع ثناء الله على نفسه، تذكيرا بعظمته ونعمته، أي: فنعم الماهدون نحن. وفيه تلقين الناس الثناء على الله فيما صنع لهم فيها من منّة ليشكروه بذلك الثناء، كما في قوله تعالى { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [الفاتحة:2].

{ **الْمَاهِدُونَ** } صيغة الجمع للتعظيم مثل ضمير الجمع في الله، وروعي في وصف خلق الأرض ما يبدو للناس من سطحها لأنّه الذي يهمّ الناس في الاستدلال على قدرة الله، دون تعرض إلى تكويرها، إذ لا يبلغون إلى إدراكه، كما روعي في ذكر السماء ما يبدو من قبّة أجواءها دون بحث عن ترامي أطرافها وتعدّد عوالمها لمثل ذلك.

{ **وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** } لما أشعر قوله تعالى { وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ } [48] بأنّ في ذلك نعمة على الموجودات التي على الأرض أُتبع ذلك بصفة خلق تلك الموجودات لما فيه من دلالة على تفرّد الله تعالى بالخلق المستلزم بتفرّده بالإلهية.

الزوج: الذكر والأنثى. والمراد بـ { **شَيْءٍ** } النوع من جنس الحيوان. وتثنية زوج هنا لأنّه أريد به ما يُزوّج من ذكر وأنثى.

وهذا استدلال عليهم بخلق يشاهدون كيفيّاته وأطواره كلّما لفتوا أبصارهم، وقدحوا أفكارهم، وهو خلق الذكر والأنثى ليكون منهما إنشاء خلق جديد يخلف ما سلفه، وذلك أقرب تمثيل لإنشاء الخلق بعد الفناء. وهو البعث الذي أنكروه.

{ **لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** } أي: تتفكَّرون في الفروق بين الممكنات والمستحيلات، وتتفكّرون في مراتب الإمكان فلا يختلط عليكم الاستبعاد وقلة الاعتياد بالاستحالة فتتوهَّموا الغريب محالا. فالجملة تعليل لجملة { خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ} أي: رجاء أن يكون في الزوجين تذكّر لكم، أي دلالة مغفول عنها.

فالتذكّر مستعمل في عادة التفكّر في الأشياء، ومراجعة أنفسهم فيما أحالوه، ليعلموا بعد إعادة النظر أنّ ما أحالوه ممكن ولكنّهم لم يألفوه فاشتبه عليهم الغريب بالمحال فأحالوه. فلما كان تجديد التفكّر، المغفول عنه، شبيها بتذكّر الشيء المنسي أطلق عليه { لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ }، وهذا في معنى قوله تعالى {وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ } [الواقعة:60-62]، فقد ذُيّل هنالك بالحث على التذكُّر، كما ذُيّل هنا برجاء التذكّر. فأفاد أنّ خلق الذكر والأنثى من نطفة هو النشأة الأولى وهي الدالة على النشأة الآخرة.

{ **فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ [50] وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ [51]** }.

بعد أن بيَّن ضلال هؤلاء في تكذيبهم بالبعث بيانا بالبرهان الساطع، ومثَّل حالهم بحال الأمم الذين سلفوهم

في التكذيب بالرسل وما جاءوا به، جمعا بين الموعظة للضالين وتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، وكانت فيما مضى من الاستدلال دلالة على أنّ الله متفرّد بخلق العالم، وفي ذلك إبطال إشراكهم مع الله آلهة أخرى، أقبل على تلقين الرسول صلى الله عليه وسلم ما يستخلصه لهم عقب ذلك، بأنّ يدعوهم إلى الرجوع إلى الحق بقوله { فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ }.

{ **فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ** } مقول قول محذوف والتقدير: فقل فرُّوا، دلّ عليه قوله تعالى {إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ}، فإنّه كلام لا يصدر إلّا من قائل ولا يستقيم أن يكون كلام مبلّغ. وحذف القول كثير الورود في القرآن وهو من ضرب إيجازه.

وقد غُيّر أسلوب الموعظة إلى توجيه الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم هذه الموعظة لأنّ لتعدّد الواعظين تأثيرًا على نفوس المخاطبين بالموعظة.

والأنسب بالسياق أنَّ الفرار إلى الله مستعار للإقلاع عن ما هم فيه من الإشراك وجحود البعث.

فالمواجه بـ { فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ } المشركون لأنّ المؤمنين قد فرّوا إلى الله من الشرك.

الفرار: الهروب، أي: سرعة مفارقة المكان تجنّبا لأذى يلحقه فيه، فيُعدّى بـ (من) الابتدائية للمكان الذي به الأذى، يقال: فر من بلد الوباء، وللشيء الذي يؤذي، يقال: فرّ من العدو.

{ **إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ** } تعليل للأمر بـ { فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ }، باعتبار أنّ الغاية من الإنذار قصد السلامة من العقاب، فصار الإنذار بهذا الاعتبار تعليلا للأمر بالفرار إلى الله، أي: التوجّه إليه وحده.

{ **وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً** } عطف على { فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ }، نهي عن نسبة الإلهية إلى أحد غير الله. جُمع بين الأمر والنهي مبالغة في التأكيد بنفي الضدّ لإثبات ضدّه، كقوله { وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى } [طه:79].

ومن لطائف فخر الدين أنّ قوله تعالى { إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ } جمع الرسول والمرسَل إليهم والمرسِل.

{ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ } [52].

{ **كَذَلِكَ** } فصل خطاب تدلّ على إنهاء حديث والشروع في غيره، أو الرجوع إلى حديث قبله أتى عليه الحديث الأخير. والتقدير: الأمر كذلك. والإشارة إلى ما مضى من الحديث، فيكون ما بعد اسم الإشارة متصلا بأخبار الأمم التي تقدّم ذكرها.

أعقب تهديد المشركين بأن يحلّ بهم ما حل بأمم المكذِّبين لرسل الله من قبلهم، بتنظيرهم بهم في مقالهم.

ولك أن تجعل الجملة بتمامها مبدأ استئناف، أو عودا إلى الإنحاء على المشركين في قولهم المختلف، واسم الإشارة راجع إلى قوله تعالى { إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ } [8]، أي: مثل قولهم المختلف قال الذين من قبلهم لمّا جاءتهم الرسل، فيكون قوله { كَذَلِكَ } في محل حال وصاحب الحال { الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ }.

وعلى كلا الوجهين فالمعنى: أنّ حال هؤلاء كحال الذين سبقوهم ممّن كانوا مشركين أن يصفوا الرسول

بأنّه ساحر أو مجنون، فكذلك سيجيب هؤلاء عن قولك { فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ } بمثل جواب قبلهم فلا مطمع في ارعوائهم عن عنادهم.

{ **مِنْ رَسُولٍ** } للتنصيص على إرادة العموم، أي: أنّ كل رسول قال فيه فريق من قومه: هو ساحر، أو مجنون، أي: قال بعضهم: ساحر، وقال بعضهم: مجنون، مثل قوم نوح، إذ لم يكن السحر معروفا في زمانهم قالوا { إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ } [المؤمنون:25]، وقد يجمعون القولين مثل قول فرعون في موسى عليه السلام.

{ **إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ** } القصر المستفاد من الاستثناء قصر ادعائي لأنّ للأمم أقوالا غير ذلك وأحوالا أخرى، وإنّما قُصروا على هذا اهتماما بذكر هذه الحالة العجيبة من البهتان، إذ يرمون أعقل الناس بالجنون وأقومهم بالسحر.

{ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ } [53].

الجملة استئناف بياني لأنّ تماثل هؤلاء الأمم في مقالة التكذيب يثير سؤال سائل عن منشأ هذا التشابه.

والاستفهام مستعمل في التعجّب من تواطئهم على هذا القول على طريقة التشبيه البليغ، أي: كأنّهم أوصى بعضهم بعضا بأن يقولوه.

{ **أَتَوَاصَوْا** } الضمير عائد إلى ما سبق من الموصول ومن الضمير الذي أضيف إليه { مِنْ قَبْلِهِمْ }، أي: أوصى بعضهم بعضا حتّى بلغت الوصية إلى القوم الحاضرين.

{ **بِهِ** } عائد على المصدر المأخوذ من فعل { إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ } [52]، أي: أتواصوا بهذا القول.

والفعل يتعدّى إلى المُوصَى عليه بـ (الباء) كقوله تعالى { وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ } [العصر:3].

{ **بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ** } إضراب عن مفاد الاستفهام من التشبيه أو عن التواصي به، ببيان سبب التواطؤ على هذا القول. أي: ما هو بتواصٍ ولكنّه تماثل في منشأ ذلك القول، أي: سبب التماثل تشابه التفكير والدواعي للمقالة، إذ جميعهم قوم طاغون.

{ **قَوْمٌ طَاغُونَ** } إيذان بأنّ الطغيان راسخ في نفوسهم بحيث يكون من مقوّمات قوميّتهم.

{ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ [54] وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ [55] }.

تفريع على قوله تعالى { كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ - إلى قوله - بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ } [53/52] المُشعر بأنّهم بُعَداء عن أن تقنعهم الآيات والنُّذر، فتولَّ عنهم، أي: اعرض عن الإلحاح في جدالهم.

فقد كان النبيّ صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على إيمانهم ويغتمّ من أجل عنادهم في كفرهم، فكان الله يعاود تسليته الفينة بعد الفينة، كما في قوله تعالى { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ } [الشعراء:3]، وقوله تعالى { فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً } [الكهف:6]، وقوله تعالى { وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ } [النحل:127].

فالتولِّي مراد به هذا المعنى، وإلّا فإن القرآن جاء بعد أمثال هذه الآية بدعوتهم وجدالهم غير مرّة.

{ **فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ** } فُرّع على أمره بالتولّي عنهم إخباره بأنّه لا لوم عليه في إعراضهم عنه.

وصيغ الكلام في صيغة الجملة الاسمية، دون: لا نلومك، للدلالة على ثبات مضمون الجملة في النفي.

{ **فَمَا أَنْتَ** } جيء بضمير المخاطب مسندا إليه دون أن يقول: فلا ملام عليك، أو نحوه، للاهتمام بالتنويه بشأن المخاطب وتعظيمه.

{ **بِمَلُومٍ** } زيدت الباء في الخبر المنفي لتوكيد نفي أن يكون ملوما.

{ **وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ** } عُطف على { فَتَوَلَّ عَنْهُمْ } احتراس، كي لا يتوهَّم أحد أنّ الإعراض إبطال للتذكير، بل التذكير باقٍ، فإنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ذكَّر الناس بعد أمثال هذه الآيات، وليكون الاستمرار على التذكير زيادة في إقامة الحجّة على المعرضين، ولئلا يزدادوا طغيانا، فيقولوا: ها نحن أولاء قد أفحمناه فكفّ عما يقوله.

{ **وَذَكِّرْ** } الأمر مراد به الدوام على التذكير وتجديده.

{ **تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ** } اقتصر في تعليل الأمر بالتذكير على علّة واحدة، وهي انتفاع المؤمنين بالتذكير، لأنّ فائدة ذلك محقّقة، ولإظهار العناية بالمؤمنين في المقام الذي أُظهرت فيه قلّة الاكتراث بالكافرين.

قال تعالى { فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى } [الأعلى:9-11].

والنفع الحاصل من الذكرى هو رسوخ العلم بإعادة التذكير لما سمعوه، واستفادة علم جديد فيما لم يسمعوه أو غفلوا عنه. وظهور حجّة المؤمنين على الكافرين، وتكرّر عجز المشركين عن المعارضة ووفرة الكلام المعجز.

{ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ [56] مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ[57]}

الأظهر أنّ هذا معطوف على جملة { كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ } [52]، التي هي ناشئة عن قوله تعالى { فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ - إلى قوله - وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ} [51/50]، عطف الغرض على الغرض لوجود المناسبة. فبعد أن نظَّر حالهم بحال الأمم التي صمَّمت على التكذيب من قبلهم أعقبه بذكر شنيع حالهم من الانحراف عمّا خُلقوا لأجله وغُرِز فيهم.

{ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** } خبر مستعمل في التعريض بالمشركين الذين انحرفوا عن

الفطرة التي خُلقوا عليها فخالفوا سنّتها اتباعا لتضليل المضلّين.

الجنّ: جنس من المخلوقات مستتر عن أعين الناس، وهو جنس شامل للشياطين، قال تعالى عن إبليس { كَانَ مِنَ الْجِنِّ } [الكهف:50]. وما ذكر الله الجنّ هنا إلّا لتنبيه المشركين بأنّ الجنّ غير خارجين عن العبودية لله تعالى. وقد حكى الله عن الجنّ قول قائلهم { وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً } [الجن:4].

وتقديم الجن في الذكر للاهتمام بهذا الخبر الغريب عند المشركين الذين كانوا يعبدونهم، ليعلموا أنّ الجنّ عباد الله تعالى، فهو نظير قوله تعالى { وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ } [الأنبياء:26].

الإنس: اسم جمع واحدُه إنسيّ بياء النسبة إلى جمعه.

العبادة: في اللغة العربية، قبل حدوث المصطلحات الشرعية، دقيق الدلالة، وكلمات أيمة اللغة فيه خفيّة والذي يستخلص منها: أنّها إظهار الخضوع للمعبود واعتقاد أنّه يملك نفع العابد وضره ملكا ذاتيا مستمرا، فالمعبود إله للعابد كما حكى الله قول فرعون { وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ } [المؤمنون:47].

{ **إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** } قصر علّة خلق الله الإنس والجن على إرادته أن يعبدوه، والظاهر أنّه قصر إضافي وأنّه من قبيل قصر الموصوف على الصفة، وأنّه قصر قلب باعتبار مفعول { يَعْبُدُونَ }، أي: إلّا ليعبدوني وحدي، فهو رد للإشراك، وليس هو قصرا حقيقيا، فإنّا وإن لم نطّلع على مقادير حكم الله تعالى من خلق الخلائق، لكنّا نعلم أنّ الحكمة من خلقهم ليست مجرّد أن يعبدوه، لأنّ حكم الله تعالى من أفعاله كثيرة لا نحيط بها، وذكر بعضها كما هنا لا يقتضي عدم وجود حكمة أخرى، ألا ترى أنّ الله ذكر حِكَما للخلق غير هذه، كقوله تعالى { وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ } [هود:119/118]، بله ما ذكره من حكمة خلق بعض الإنس والجنّ، كقوله في خلق عيسى عليه السلام { وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا } [مريم:21].

وعن مجاهد وزيد بن أسلم تفسير قوله { إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } بمعنى: إلّا لآمرهم وأنهاهم.

{ **مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ** } كناية عن عدم الاحتياج إليهم لأنّ أشد الحاجات في العرف حاجة الناس إلى الطعام واللباس والسكن وإنّما تحصل بالرزق وهو المال.

{ **مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ** } معنى الإرادة هنا الرضى والمحبّة، وليس معناها الصفة الإلهية التي تخصّص الممكن ببعض ما يجوز عليه على وفق العلم، التي اشتق منه اسمه تعالى (**المريد**)، لأنّ إطلاق الإرادة على ذلك إطلاق آخر، فليس المراد هنا تعليل تصرفات الخلق الناشئة عن اكتسابهم، على اصطلاح الأشاعرة، أو عن قدرتهم، على اصطلاح المعتزلة، على تقارب ما بين الاصطلاحين.

والكلام تقرير لمعنى { إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } بإبطال بعض العلل والغايات التي يقصدها الصانعون .

الرزق: هنا المال، كقوله تعالى { فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ } [العنكبوت:17]، وقوله تعالى { اللَّهُ يَبْسُطُ

الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ } [الرعد:26]، وقوله تعالى { وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ } [الطلاق:7].

ويطلق الرزق على الطعام كقوله تعالى { وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً } [مريم:62]، ويمنع من إرادته هنا عطف { وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ }.

{ إنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ } [58].

تعليل لجملتي { مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ } [57].

وإظهار اسم الجلالة إخراج للكلام على خلاف مقتضى الظاهر لأنّ مقتضاه: إنّي أنا الرّزّاق، فعدل عن الإضمار إلى الاسم الظاهر لتكون هذه الجملة مستقلة بالدلالة لأنّها سُيِّرت مسير الكلام الجامع والأمثال.

الرَّزَّاق: كثير الإرزاق.

ذو القوّة: صاحب القدرة. ومن خصائص (ذُو) أن تضاف إلى أمر مهم، فعُلم أنّ القوّة هنا قوّة مطلقة.

المتين: الشديد، وهو هنا وصف لذي القوّة، أي: شديد القوّة.

{ **الْمَتِينُ** } عُدّ في أسمائه تعالى. قال الغزالي: وذلك يرجع إلى معاني القدرة. وفي (معارج النور شرح الأسماء): " المتين: كمال في قوّته بحيث لا يُعارض ولا يُدانى ".

المعنى: أنّه المستغني غنًى مطلقا فلا يحتاج إلى شيء، فلا يكون خلقه الخلق لتحصيل نفع له ولكن لعمران الكون، وإجراء نظام العمران يكون باتباع الشريعة التي يجمعها معنى العبادة في قوله تعالى { إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } [56].

{ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ } [59].

تفريع على { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } [56]، باعتبار أنّ المقصود من سياقه إبطال عبادتهم غير الله، أي: فإذا لم يُفْردني المشركون بالعبادة فإنّ لهم ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم، تلميح إلى ما تقدّم من ذكر ما عوقبت به الأمم السالفة من قوله تعالى { قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ - إلى قوله - فَاسِقِينَ } [46-32]

الذين ظلموا: الذين أشركوا من العرب، و**الظلم**: هنا الشرك بالله.

الذَنوب (بفتح الذال): الدلو العظيمة يَستسقي بها السُّقاة على القليب، كما ورد في حديث الرؤيا: " ثم أخذها أبو بكر ففزع ذنوبا أو ذنوبين ". ولا تُسمّى ذنوبا إلّا إذا كانت ملأى.

والكلام تمثيل لهيئة تساوي حظ الذين ظلموا من العرب بحظوظ الذين ظلموا من الأمم السالفة بهيئة الذين يستقون من قليب واحد إذ يتساوون في أنصبائهم من الماء، وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس، وأطلق

على الأمم الماضية اسم وصف { أَصْحَابِهِمْ } باعتبار الهيئة المشبَّه بها، إذ هي هيئة جماعات الورد يكونون متصاحبين.

والكلام تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم. والمقصود: أن يسمعه المشركون، فهو تعريض. وبهذا الاعتبار أكِّد الخبر بـ (إنّ) لأنّهم كانوا مكذِّبين بالوعيد.

{ **فَلا يَسْتَعْجِلُونِ** } تفريع على التأكيد، لأنّهم كانوا يستعجلون بالعذاب استهزاء وإشعارا بأنّه وعد مكذوب. وعدي الاستعجال إلى ضمير الجلالة وهم إنّما استعجلوه النبيّ صلى الله عليه وسلم لإظهار أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم مُخْبر عن الله تعالى، توبيخا لهم وإنذارا بالوعيد.

والنهي مستعمل في التهكم إظهارا لغضب الله عليهم. وحُذفت ياء المتكلّم للتخفيف.

ومن لطائف الآية تمثيل ما سيصيب الذين كفروا بالذنوب، والذنوب يناسب القليب وقد كان مثواهم يوم بدر القليب الذي رميت فيه أشلاء سادتهم. ولعلّ هذا ممّا يشمل قول النبيّ صلى الله عليه وسلم حين وقف على القليب يوم بدر: { قد وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً } [الأعراف:44].

{ **فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ** } [60]

فُرّع على وعيدهم إنذار آخر بالويل، أو إنشاء زجر.

الويل: الشرّ وسوء الحال، وتقدّم في قوله تعالى { فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ } [البقرة:79]، وتنكيره للتعظيم.

والكلام يحتمل الإخبار بحصول ويل، أي: عذاب وسوء حال لهم يوم أوعدوا به.

ويحتمل إنشاء الزجر والتعجيب من سوء حالهم في يوم أوعدوه.

الذين كفروا: هم الذين ظلموا، عدل عن ضميرهم إلى الاسم الظاهر لما فيه من تأكيد الاسم السابق تأكيدا بالمرادف، مع ما في صفة الكفر من الإيماء إلى أنّهم لم يشكروا نعمة خالقهم.

{ **مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ** } هو زمن حلول العذاب فيحتمل أنّه يراد يوم القيامة، ويحتمل حلول العذاب في الدنيا، وأيًا ما كان فمضمون هذه الجملة مغاير لمضمون التي قبلها.

{ **يَوْمِهِمُ** } إضافته إلى ضميرهم للدلالة على اختصاصه بهم، أي: هو معين لجزائهم، كما أضيف يوم إلى ضمير المؤمنين في قوله تعالى { وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ } [الأنبياء:103].

ولمّا كان المضاف إليه ضمير الكفار المعيَّنين، وهم كفّار مكة، ترجّح أن يكون المراد من هذا اليوم يوما خاصا بهم وإنّما هو يوم بدر، لأنّ يوم القيامة لا يختصّ بهم بل هو عام لكفّار الأمم كلّهم، بخلاف (اليوم) الذي في [الأنبياء:103]. لأنّ ضمير الخطاب فيه عائدا إلى قوله تعالى { الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى } [الأنبياء:101].

{ **مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ** } مع قوله في أول السورة { إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ } [5]، رد العجز على الصدر، ففيه إيذان بانتهاء السورة وذلك من براعة المقطع.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الطور

سُمِّيت هذه السورة عند السلف (**سورة الطور**) دون واو قبل الطور. ففي جامع الطواف من الموطإ حديث مالك عن أمّ سلمة قالت: فطُفتُ ورسول الله يصلي إلى جنب البيت يقرأ بـ : " الطور وكتاب مسطور ". أي: يقرأ بسورة الطور ولم تُرد يقرأ بالآية، لأنّ الآية فيها { وَالطُّورِ } بالواو، وهي لم تذكر الواو.

وفي تفسير سورة الطور من صحيح البخاري عن جبير بن مطعم قال: " سمعت النبيّ يقرأ في المغرب بالطور فلمّا بلغ هذه الآية { أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ } [37/35]، كاد قلبي أن يطير ". وكان جبير بن مطعم مشركا قدم على النبيّ صلى الله عليه وسلم في فداء أسرى بدر، وأسلم يومئذ.

وكذلك وقعت تسميتها في ترجمتها من جامع الترمذي وفي المصاحف التي رأيناها، وكثير من التفاسير.

وهي **مكية جميعها بالاتفاق**.

وهي السورة **الخامسة والسبعون** في ترتيب نزول السور. نزلت بعد (سورة نوح) وقبل (سورة المؤمنون).

وعَدَّ أهل المدينة ومكة آيها **سبعا وأربعين**، وعدّها أهل الشام وأهل الكوفة تسعا وأربعين، وعدّها أهل البصرة ثمانيا وأربعين.

أغراض السورة

*/ التهديد بوقوع العذاب يوم القيامة للمشركين المكذِّبين بالنبيّ صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من إثبات البعث، وبالقرآن المتضمّن ذلك فقالوا: هو سحر.

*/ مقابلة وعيدهم بوعد المتّقين المؤمنين، وصفة نعيمهم ووصف تذكّرهم خشية، وثنائهم على الله.

*/ تسلية النبيّ صلى الله عليه وسلم وإبطال أقوالهم فيه وانتظارهم موته.

*/ تحدِّيهم بأنّهم عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن.

*/ إبطال خليط من تكاذيبهم بإعادة الخلق، وببعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ليس من كُبرائهم، وبكون الملائكة بنات الله، وإبطال تعدّد الآلهة، وذكر استهزائهم بالوعيد.

*/ أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بتركهم وأن لا يحزن لذلك، فإنّ الوعيد حال بهم في الدنيا ثم في الآخرة، وأمره بالصبر، ووعده بالتأييد، وأمره بشكر ربّه في جميع الأوقات.

{ **وَالطُّورِ [1] وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ [2] فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ [3] وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ [4] وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ [5] وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ [6] إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ [7] مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ [8]** }.

القسم للتأكيد وتحقيق الوعيد، ومناسبة الأمور المَقْسَم بها للمُقْسَم عليه أنّ هذه الأشياء المقسم بها من شؤون بعثة موسى عليه السلام إلى فرعون وكان هلاك فرعون ومن معه من جرّاء تكذيبهم موسى عليه السلام.

الطُّور: الجبل باللغة السريانية، قاله مجاهد. وأُدخل في العربية، وهو من الألفاظ المعرَّبة الواقعة في القرآن. وغلب عَلَما على طور سيناء الذي ناجى فيه موسى عليه السلام، وأنزل عليه فيه الألواح المشتملة على أصول شريعة التوراة.

{ **وَالطُّورِ** } القسم به باعتبار شرفه بنزول كلام الله فيه ونزول الألواح على موسى. وفي ذكر الطور إشارة إلى تلك الألواح لأنّها اشتهرت بذلك الجبل فسميت طور المعرَّب بتوراة.

وأمّا الجبل الذي خوطب فيه موسى من جانب الله فهو جبل (حوريب) واسمه في العربية (الزبير)، ولعلّه بجانب الطور، كما في قوله تعالى { آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً } [القصص:29].

وتقدّم عند قوله تعالى { وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ } [البقرة:63].

والقسم بالطور توطئة للقسم بالتوراة التي أنزل أوّلها على موسى في جبل الطور.

{ **وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ** } التوراة كلّها التي كتبها موسى عليه السلام بعد نزول الألواح، وضمَّنها كلّ ما أوحى الله إليه ممّا أمر بتبليغه في مدّة حياته.

<u>وهي الإسفار الأربعة</u> المعروفة عند اليهود: (سفر التكوين - سفر الخروج - سفر العدد - سفر التثنية).

وهي التي قال الله تعالى في شأنها { وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدىً وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ } [الأعراف:154].

{ **كِتَابٌ** } التنكير للتعظيم. وإجراء الوصفين عليه لتميزه بأنّه كتاب مشرَّف مراد بقاؤه، مأمور بقراءته.

المسطور: هو المكتوب. والسطر: كتابة طويلة لأنّها تُجعل سطورا، أي: صفوفا من الكتابة، قال تعالى { وَمَا يَسْطُرُونَ } [القلم:1]، أي: يكتبون.

الرَقّ: الصحيفة تُتّخذ من جلد مرقّق أبيض ليُكتب عليه.

المنشور: المبسوط غير المطوي. أي: أقسم بحال نشره لقراءته، وهي أشرف أحواله لأنّها حالة حصول الاهتداء به للقارئ والسامع. وكان اليهود يكتبون التوراة في ورق ملصق بعضها ببعض أو محيط بعضها ببعض، فتصير قطعة واحدة ويطوونها طيًّا أسطوانيا لتحفظ، فإذا أرادوا قراءتها نشروا مطويها، ومنه ما في حديث الرجم: " فنشروا التوراة ".

وليس مراد بكتاب مسطور القرآن لأنّ القرآن لم يكن يومئذ مكتوبا سطورا ولا هو مكتوبا في رقّ.

ومناسبة القسم بالتوراة أنّها الكتاب الموجود الذي فيه ذكر الجزاء وإبطال الشرك، وللإشارة إلى أنّ

القرآن، الذي أنكروا أنّه من عند الله، ليس بدعا فقد نزلت قبله التوراة.

والقسم بالتوراة يقتضي أنّ التوراة يومئذ لم يكن فيها تبديل لما كتبه موسى. لذلك قيل في تأويل قوله تعالى { يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ } [المائدة: 13]:

قال ابن عباس: تأويله أنّه تحريف بسوء فهم وليس تبديلا لألفاظ التوراة.

وقيل: تأويله أنّ التحريف وقع بعد نزول هذه السورة حين ظهرت الدعوة المحمدية وجَبَهت اليهود دلالةُ مواضع من التوراة على صفات النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم.

وقيل: تأويله بأنّ القسم بما فيه من الوحي الصحيح.

البيت المعمور: عن الحسن أنّه **الكعبة**، وهذا الأنسب بعطفه على الطور، ووصفه بـ { الْمَعْمُورِ } لأنّه لا يخلو من طائف به، وعمران الكعبة هو عمرانها بالطائفين، قال تعالى { إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ } [التوبة:18].

ومناسبة القَسَم سبق القَسَم بكتاب التوراة فعُقِّب ذلك بالقَسَم بمواطن نزول القرآن، فإنّ ما نزل من القرآن أُنزِل بمكة وما حولها مثل جبل حراء. فيكون توسيط القَسَم بالكعبة في أثناء ما أقسم به من شؤون شريعة موسى عليه السلام إدماجًا.

وفي الطبري: أنّ عليًّا سئل: ما البيت المعمور؟ فقال: بيت في السماء يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه أبدا، يقال له: الضُّرَاح. وأنّ مجاهدا والضحاك وابن زيد قالوا مثل ذلك. وعن قتادة أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: **" هل تدرون ما البيت المعمور**؟ قال: **فإنه مسجد في السماء تحته الكعبة ...".**

السقف المرفوع: فسَّروه بالسماء لقوله تعالى { وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً } [الأنبياء:32]، وقوله تعالى { وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا } [الرحمن:7]، فالرفع حقيقي. ومناسبة القسم بها أنّها مصدر الوحي كله التوراة والقرآن.

البحر: يجوز أن يراد به البحر المحيط بالكرة الأرضية. وعندي: أنّ المراد (بحر القلزم / البحر الأحمر). ومناسبة القَسَم به أنّه أُهلك به فرعون وقومه حين دخله موسى وبنو إسرائيل فلحق بهم فرعون.

{ الْمَسْجُورِ } قيل المملوء، مشتقًّا من السجر وهو الملء والإمداد. فهو صفة كاشفة قصد منها التذكير بحال خلق الله إيّاه مملوءا ماء دون أن تملأه أودية أو سيول، أو هي للاحتراز عن إرادة الوادي إذ الوادي ينقص فلا يبقى على ملئه وذلك دال على عظم القدرة.

والظاهر عندي: أنّ وصفه بالمسجور للإيماء إلى الحالة التي كان بها هلاك فرعون بعد أن فرق الله البحر لموسى وبني إسرائيل ثم أسجره، أي: أفاضه على فرعون وملئه.

و(الواوات) التي في هذه الآية (واوات) قسم لأنّ شأن القسم أن يعاد ويكرّر، ولذلك كثيرا ما يعيدون المقسم به، وإنّما يعطفون بالفاء إذا أرادوا صفات المقسم به. ويجوز صرف (الواو) الأولى للقسم واللاتي

بعدها عاطفات على القسم، و المعطوف على القسم قسم.

{ **إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ** } عذاب الله المقسم على وقوعه هو عذاب الآخرة، لقوله تعالى { يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً - إلى قوله – تُكَذِّبُونَ } [9-14]، وأمّا عذاب المكذِّبين في الدنيا فسيجيء في قوله تعالى { وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ } [47].

{ **لَوَاقِعٌ** } تحقيق وقوع عذاب الله يوم القيامة إثبات للبعث بطريقة الكناية القريبة، وتهديد للمشركين بطريقة الكناية التعريضية. وحُذف المتعلّق وتقديره: على المكذِّبين، أو بالمكذِّبين، كما دلّ عليه قوله بعد { فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ } [الطور:11] أي: المكذِّبين بك، بقرينة { رَبِّكَ }.

الوقوع: أصله النزول من علو، واستعمل مجازا للتحقُّق وشاع ذلك، فالمعنى: أنّ عذاب ربك لمتحقّق.

{ **مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ** } خبر ثان عن { عَذَابٌ }، أو حال منه، أي: ما للعذاب دافع يدفعه عنهم.

الدفع: إبعاد الشيء عن شيء باليد، وأطلق هنا على الوقاية مجازا بعلاقة الإطلاق، أي: لا يقيهم من عذاب الله أحد بشفاعة أو معارضة.

{ **مِنْ** } زيدت في النفي لتحقيق عمومه وشموله، أي: نفي جنس الدافع.

روى أحمد بن حنبل عن جبير بن مطعم قال: قدمت المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم لأكلّمه في أسارى بدر فدُفعت إليه وهو يصلّي بأصحابه صلاة المغرب فسمعته يقرأ { وَالطُّورِ } إلى { إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ } فكأنما صدع قلبي ". وفي رواية: " فأسلمت خوفا من نزول العذاب وما كنت أظنّ أن أقوم من مقامي حتّى يقع بي العذاب ".

{ **يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً** [9] **وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً** [10] **فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ** [11] **الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ** [12] }.

{ **يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً** } <u>يجوز</u> أن يتعلّق بقوله تعالى { لَوَاقِعٌ } [7]، على أنّه ظرف له، فيكون قوله تعالى { فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ } تفريعا على الجملة كلّها، ويكون العذاب عذاب الآخرة.

<u>ويجوز</u> أن يكون الكلام قد تمّ عند قوله تعالى { إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ } [7]، فيكون قوله تعالى { يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً } متعلقا بقوله تعالى { فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ } وقُدِّم الظرف على عامله للاهتمام.

والتقدير: إن حل ذلك اليوم فويل للمكذبين. وقوله { يَوْمَئِذٍ } على هذا الوجه، أريد به التأكيد للظرف.

المَوْر: التحرّك باضطراب، و<u>مور السماء</u>: هو اضطراب أجسامها من الكواكب واختلال نظامها، وذلك عند انقراض عالم الحياة الدنيا.

سير الجبال: انتقالها من مواضعها بالزلازل التي تحدث عند انقراض عالم الدنيا، قال تعالى { إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا - إلى قوله - يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ } [الزلزلة:1-6].

{ **مَوْراً / سَيْراً** } تأكيد الفعلين بالمصدر لرفع احتمال المجاز، أي: هو مور حقيقي وتنقّل حقيقي.

الويل: سوء الحال البالغ منتهى السوء. تقدّم قريبا في [الذاريات:60].

{ **لِلْمُكَذِّبِينَ** } حُذف المتعلّق لظهوره من المقام، أي: الذين يكذّبون بما جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم من توحيد الله والبعث والجزاء والقرآن.

الخوض: الاندفاع في الكلام الباطل والكذب. والمراد خوضهم في تكذيبهم بالقرآن، مثل ما حكى الله عنهم في قوله تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ} [فصلت:26]. وهو المراد بقوله تعالى {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ} [الأنعام:68].

{ **يَلْعَبُونَ** } حالية. واللعب: هنا الاستهزاء، قال تعالى { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ } [التوبة:65].

{ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا [13] هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ [14] أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ [15] اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [16] }.

{ **يَوْمَ يُدَعُّونَ** } بدل من { يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً } [9]، وهو بدل اشتمال.

الدعّ: الدفع العنيف، وذلك إهانة لهم وغلظة عليهم، أي: يوم يساقون إلى نار جهنم سوقا بدفع، وفيه تمثيل حالهم بأنّهم خائفون متقهقرون فتدفعهم الملائكة الموكّلون بإزجائهم إلى النار.

{ **دَعًّا** } التنكير للتعظيم، وهو لمعنى التأكيد.

{ **هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ** } مقول قول محذوف دلّ عليه السياق. وتقديره: يقال لهم، أو مقولا لهم. والقائل هم الملائكة الموكلون بإيصالهم إلى جهنم.

{ **هَذِهِ** } للمشار إليه القريب المؤنث تومئ إلى أنّهم بلغوها وهم على شفاها، والمقصود التوطئة لما سيرد.

{ **التي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ** } الموصول وصلته لتنبيه المخاطبين على فساد رأيهم إذ كذّبوا بالحشر والعقاب.

{ **أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ** } فُرّع على التنبيه السابق تنبيه آخر على ضلالتهم في الدنيا. إذ كانوا حين يسمعون الإنذار بيوم البعث والجزاء يقولون: هذا سحر، وإذا عُرض عليهم القرآن قالوا: قلوبنا في أكنّة ممّا تدعونا إليه وفي آذانهم وقر ومن بيننا وبينك حجاب، فللمناسبة بين ما في صلة الموصول من معنى التوقيف على خطئهم وبين التهكّم عليهم بما كانوا يقولونه دخلت فاء التفريع. وهو من جملة ما يقال لهم المحكي بالقول المقدّر.

{ **أَمْ** } منقطعة، والاستفهام الذي تقتضيه مستعمل في التوبيخ والتهكّم. والتقدير: بل أنتم لا تبصرون.

{ **لَا تُبْصِرُونَ** } تهكّم، أي: فلعلّكم تزعمون أنّكم لا ترون نارا كما كنتم تقولون { بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ } [فصلت:5]، أي: فلا نراك، وتقولون { إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا } [الحجر:15].

{ **اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } مستأنفة، هي بمنزلة النتيجة المترقّبة من التوبيخ والتغليظ السابقين، أي: ادخلوها فاصطلوا بنارها.

يقال: صَلِيَ النار يصلاها، إذ قاسى حرّها.

{ **اصْلَوْهَا** } الأمر إمّا مُكنًّى به عن الدخول، لأنّ الدخول لها يستلزم الاحتراق بنارها، وإمّا مستعمل مجازا في التنكيل.

{ **فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا** } الأمر للتسوية، ويفيد الجزع، لأنّ كليهما لا يخفّفان عنهم شيئا من العذاب، ألا ترى أنّهم يقولون { سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أم صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ } [إبراهيم:21] لأنّ جرمهم عظيم.

{ **سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ** } خبر مبتدأ محذوف، تقديره : ذلك سواء عليكم. والجملة مؤكِّدة لجملة { فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا } فلذلك فصلت عنها ولم تعطف.

{ **إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } تعليل لجملة { اصْلَوْهَا }، وعليه فجملتا { فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ } معترضتان بين جملة { اصْلَوْهَا } والجملة الواقعة تعليلا لها.

{ **إِنَّمَا** } الحصر المستفاد قصر قلب، بتنزيل المخاطبين منزلة من يعتقد أنّ ما لقوه من العذاب ظلم لم يستوجبوا مثل ذلك من شدّة ما ظهر عليهم من الفزع.

{ **تُجْزَوْنَ** } عُدّي إلى { مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } بدون (الباء) خلافا لقوله بعده { كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [19]، ليشمل القصر مفعول الفعل المقصور، أي: تجزون مثل عملكم لا أكثر منه.

{ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ [17] فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ [18] كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [19] }.

استئناف بياني، معترضة بين ما قبلها وجملة { أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ } [30]. بعد أن ذُكر حال المكذِّبين وما يقال لهم، فمن شأن السامع أن يتساءل عن حال أضدادهم، وهم الفريق الذين صدَّقوا الرسول صلى الله عليه وسلم، وخاصة إذ كانوا السامعون المؤمنين، وعادة القرآن تعقيب الإنذار بالتبشير وعكسه.

{ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ** } تأكيد الخبر للاهتمام به.

{ **جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ** } التنكير للتعظيم، أي: في أيّة جنّات وأيّ نعيم.

الفاكه: وصف من فكِه كفرح، إذا طابت نفسه وسُرّ.

{ **بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُم** } الباء للسببية، والمعنى: أنّ ربّهم أرضاهم بما يحبّون.

{ **رَبِّهِمْ** } استحضار الجلالة بهذا الوصف للإشارة إلى عظيم ما آتاهم، إذ العطاء يناسب حال المعطي، وفيه تقريب لهم وتعظيم.

{ **وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ** } حال، و(الواو) حالية أو عاطفة علي { فَاكِهِينَ } الذي هو حال من المتّقين. والمقصود من ذكر هذه الحالة: إظهار التباين بين حال المتّقين وحال المكذّبين زيادة في الامتنان، فإنّ النعمة تزداد حسن وقع في النفس عند ملاحظة ضدّها. وفيه أيضا أنّ وقايتهم عذاب الجحيم عدل، لأنّهم لم يقترفوا ما يوجب العقاب. وأمّا ما أعطوه من النعيم فذلك فضل من الله وإكرام منه لهم.

{ **كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } مقول قول محذوف في موضع الحال أيضا، تقديره: يقال لهم، أو مقولا لهم. وهذا القول مقابل ما يقال للمكذبين { اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [16].

وحُذف مفعول { كُلُوا وَاشْرَبُوا } لإفادة عموم النعيم، أي: كلوا كلّ ما يؤكل واشربوا كلّ ما يشرب، وهو عموم عرفي، أي: ممّا تشتهون.

{ **هَنِيئاً** } أي: أنّه سالم ممّا يكدّر. اسم على وزن فعيل بمعنى مفعول وقع وصفا للمصدرين (أكلا وشربا)

{ **بِمَا** } الـ (ما) موصولة، و(الباء) سببية، أي: بسبب العمل الصالح الذي يومئ إليه قوله { الْمُتَّقِينَ }.

وفي هذا القول زيادة كرامة لهم بإظهار أنّ ما أُوتُوه من الكرامة عوض عن أعمالهم.

{ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَه وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ } [20].

حال من ضمير { كُلُوا وَاشْرَبُوا } [19]، أي: يقال لهم كلوا وأشربوا حال كونهم متكئين، أي: وهم في حال أهل الترف المعهود في الدنيا، فقد كان أهل الرفاهية يأكلون متّكئين. كما في قوله تعالى { أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً } [يوسف:31]، وفي الحديث: " **أمّا أنا فلا آكل متّكئا** ".

وكان الأكاسرة ومرازبة الفرس يأكلون متكئين وكذلك كان أباطرة الرومان.

السرر: جمع سرير، وهو ما يضطجع عليه.

المصفوفة: المتقابلة، أي: مجتمعين للتأنّس، كقوله تعالى { عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ } [الصافات:44].

{ **وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ** } عطف على { مُتَّكِئِينَ }، في موضع الحال. أي: قرنّاهم بنساء حور عين. و(الباء) للمصاحبة وليس للتعدية، أي :جعلنا حورا عينا معهم، فإنّه لم يسمع في فصيح الكلام : تزوج بامرأة.

ولم يعد فعل { زَوَّجْنَاهُمْ } إلى { حُورٌ } بنفسه على المفعولية كما في قوله { زَوَّجْنَاكَهَا } [الأحزب:37]، لأنّ { وَزَوَّجْنَاهُمْ } في هذه الآية ليس بمعنى، أنكحناهم، إذ ليس المراد عقد النكاح. <u>فالتزويج هنا وارد بمعناه الحقيقي في اللغة وهو جعل الشيء المفرد زوجا.</u>

حور: صفة لنساء المؤمنين في الجنة، وهنّ النساء اللاتي كنّ أزواجا لهم في الدنيا إن كنّ مؤمنات، ومن يخلقهنّ الله في الجنّة.

{ **عِينٍ** } صفة ثانية، وحقّها أن تعطف ولكن كثر ترك العطف.

{ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ } [21].

{ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ** }.

اعتراض بين ذكر كرامات المؤمنين. والتعبير بالموصول إظهار في مقام الإضمار لتكون الصلة إيماء إلى أنّ سبب إلحاق ذرّيّاتهم بهم في نعيم الجنة هو إيمانهم، وكون الذرّيّات آمنوا بسبب إيمان آبائهم.

{ **بِإِيمَانٍ** } يحتمل أن يكون التنكير للتعظيم، أي: بإيمان عظيم، وعظمته بكثرة الأعمال الصالحة، فيكون ذلك شرطا في إلحاقهم بآبائهم، ويكون من النعمة جعلهم في مكان واحد.

ويحتمل أن يكون للنوعية، أي: ما يصدق عليه حقيقة الإيمان.

وعلى الاحتمالين هو نعمةٌ جمع الله بها للمؤمنين أنواع المسرّة؛ بسعادتهم بمزاوجة الحور وبمؤانسة الإخوان المؤمنين وباجتماع أولادهم ونسل بهم، وذلك أن في طبع الإنسان التأنّس بأولاده وحبّه اتصالهم به.

{ **وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ** } وما نقصناهم من أعمالهم، يقال: ألته حقّه، إذا نقصه إيّاه. وتقدّم عند قوله تعالى { لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً } [الحجرات:14]. و(الواو) للحال.

{ **كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ** } معترضة بين جملة { وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ } وبين جملة { وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ } [22]، قصد منها تعليل الجملة التي قبلها، وهي بما فيها من العموم صالحة للتذييل مع التعليل.

{ **كُلُّ امْرِئٍ** } يعمّ أهل الآخرة كلّهم، وليس المراد من المتّقين خاصة.

والمعنى: انتفى إنقاصُنا إيّاهم شيئا من عملهم لأنّ كل أحد مَقْرون بما كسب ومُرْتهن عنده.

بما كسبوا: جزاء ما كسبوا، لأنّه الذي يقترن بصاحب العمل، وأمّا نفس العمل فقد انقضى في أبّانه.

الكسب: يطلق على ما يحصّله المرء بعمله لإرادة نفع نفسه.

رهين: فعيل بمعنى مفعول من الرهن وهو الحبس.

{ وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُون [22] يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لا لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ [23] }.

عطف على { فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ } [17].

الإمداد: إعطاء المدد، وهو الزيادة. أي: زدناهم على ما ذُكر من النعيم فاكهة ولحما ممّا يشتهون.

{ **يَتَنَازَعُونَ** } حال من ضمير الغائب في { وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ }. والتنازع أطلق هنا على التداول والتعاطي. وأصله تفاعل من نزع الدلو من البئر عند الاستقاء، فإنّ الناس كانوا إذا وردوا للاستقاء نزع أحدهم دلوه من الماء ثم ناول الدلو لمن حوله، وربّما كان الرجل القوي الشديد ينزع من البئر للمستقين كلّهم يكفيهم تعب النزع، ويُسمَّى (الماتح). ثم استعير أو جُعل مجازا عن المداولة والمعاورة في مناولة كؤوس الشراب.

وقيل: تنازعهم الكأس مجاذبة بعضهم كأس بعض للمداعبة.

{ **لا لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ** } يجوز أن تكون صفة لـ { **كَأْساً** } إن فُهم الكأس بمعنى الإناء المعروف، فهو على تقدير: لا لغو ولا تأثيم لصاحبها. وإن فهم الكأس مرادا به الخمر كانت (في) مستعارة للسببية، أي: لا لغو يقع بسبب شربها. والمعنى على كلا الوجهين: أنّها لا يخالط شاربيها اللغو والإثم. أي: أنّ الخمر التي استُعملت الكأس لها ليست كخمور الدنيا.

اللغو: سقط الكلام والهذيان الذي يصدر عن خلل العقل.

التأثيم: ما يؤثم به فاعله شرعا أو عادة من فعل أو قول، ممّا لا يخلو عنه الندامى غالبا، فأهل الجنّة منزَّهون عن ذلك كلّه.

{ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ } [24].

عطف على جملة { يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً } [23]، فهو من تمامه وواقع موقع الحال مثله، وجيء به في صيغة المضارع للدلالة على التجدّد والتكرّر.

الطواف: مشي متكرّر ذهابا ورجوعا وأكثر ما يكون على استدارة، ومنه طواف الكعبة.

وسُمِّي مشي الغلمان بينهم طوافا لأنّ شأن مجالس الأحبة والأصدقاء أن تكون حلقة ودوائر ليستووا في مرآهم، كما أشار إليه قوله تعالى { عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ } [الصافات:44].

ومنه جُعلت مجالس الدروس حلقا، وكانت مجالس النبيّ صلى الله عليه وسلم حلقا.

الغلمان: جمع غلام، وحقيقته من كان في سن يقارب البلوغ أو يبلغه، ويطلق على الخادم، لأنّهم كانوا أكثر ما يتّخذون خدمهم من الصغار لعدم الكلفة في حركاتهم وعدم استثقال تكليفهم.

{ **غِلْمَانٌ لَهُمْ** } خدمة لهم. وليس هؤلاء الغلمان بمملوكين للمؤمنين وإنّما خُلقوا لأجلهم، كما في قوله تعالى

{ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ } [الإنسان:19].

{ **كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ** } شُبِّهوا بذلك في حسن المرأى. و**اللؤلؤ**: الدرّ. و**المكنون**: المخزون لنفاسته على أربابه فلا يُتحلَّى به إلّا في المحافل والمواكب، فلذلك يبقى على لمعانه وبياضه.

{ **وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ** [25] **قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ** [26] **فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ** [27] **إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ** [28] }.

عطف على جملة { يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا } [23]. والتقدير: وقد أقبل بعضهم على بعض يتساءلون.

ولمّا كان إلحاق ذرّيّاتهم بهم مقتضيا مشاركتهم إيّاهم في النعيم كما تقدّم آنفا عند قوله تعالى { أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ } [21]، كان هذا التساؤل جاريا بين الجميع من الأصول والذرّيّات سائلين و مسؤولين.

الإشفاق: توقّع المكروه وهو ضدّ الرجاء، وهذا التوقّع متفاوت عند المتسائلين بحسب تفاوت ما يوجبه من التقصير في أداء حق التكليف، أو من العصيان. ولذلك فهو أقوى في جانب ذريات المؤمنين الذين ألحقوا بأصولهم بدون استحقاق. ويجوز أن تكون المقالة صادرة من الذين آمنوا يخاطبون ذرّيّاتهم الذين ألحقوا بهم ولم يكونوا يحسبون أنهم سيلحقون بهم. أي: يقولون لهم: إنّا كنّا قبل مشفقين عليكم.

{ **فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ** } إغراق في الشكر عنهم وعن ذريّاتهم. أي: منَّ علينا بالعفو عنكم فأذهب عنا الحزن، ووقانا جميعا عذاب السموم.

السَمُوم: أصله اسم الريح التي تهبّ من جهة حارة جدًّا فتكون جافة شديدة الحرارة، وهي معروفة في بلاد العرب تهلك من يتنشّقها. وأطلق هنا على ريح جهنم على سبيل التقريب بالأمر المعروف. كما أطلقت على العنصر الناري في قوله تعالى { وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ } [الحجر:27].

{ **إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ** } تعليل لمنّة الله عليهم، وثناء على الله بأنّه استجاب لهم، أي: كنّا في الدنيا ندعوه. وحُذف متعلّق { نَدْعُوهُ } للتعميم، أي: كنا نبتهل إليه في أمورنا كلّها.

{ **إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ** } موقعها التعليل على الوجهين في القراءة { إِنَّهُ / أَنَّهُ }.

البَرُّ: المحسن في رفق. و**الرحيم**: شديد الرحمة.

{ **هُوَ** } ضمير الفصل لإفادة الحصر، وهو لقصر صفتي { الْبَرُّ } و{ الرَّحِيمُ } على الله تعالى، وهو قصر ادعائي للمبالغة باعتبار القوّة، فإنّ غير الله لا يبلغ بالمبرّة والرحمة مبلغ ما لله، وباعتبار عموم المتعلّق، وباعتبار الدوام لأنّ الله برّ في الدنيا والآخرة.

{ **فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ** } [29].

تفريع على ما تقدّم كلّه من قوله تعالى { إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ } [7]، لأنّه تضمّن تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم على تكذيب المكذِّبين والافتراء عليه، وعُقِّب بهذا لأنّ من الناس مؤمنين به متيقّنين أنّ الله أرسله. فكان ما تضمّنه يقتضي أنّ في استمرار التذكير حكمة أرادها الله، وهي ارعواء بعض المكذِّبين عن تكذيبهم وازدياد المصدِّقين توغّلا في إيمانهم. فالأمر مستعمل في طلب الدوام.

{ **بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ** } لمّا كان أثر التذكير أهم بالنسبة إلى فريق المكذِّبين ليهتدي من شرح قلبه للإيمان

روعي ما يزيد النبيّ صلى الله عليه وسلم ثباتا على التذكير من تبرئته ممّا يواجهونه به من قولهم: هو كاهن أو هو مجنون، فربط الله جأش رسوله صلى الله عليه وسلم وأعلمه بأنّ براءته من ذلك نعمة أنعم بها عليه.

قيل: الآية ردّ على مقالة شيبة بن ربيعة، قال في رسول الله صلى الله عليه وسلم: هو كاهن، وعلى عقبة بن أبي معيط إذ قال: هو مجنون، ويدلّ لكونه ردًّا على مقالة سبقت أنّه أتبعه بقوله { أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ } [30].

الكاهن: الذي ينتحل معرفة ما سيحدث من الأمور وما خفي ممّا هو كائن ويخبر به بكلام ذي أسجاع قصيرة. وكان أصل الكلمة موضوعة لهذا المعنى غير مشتقة، ونظيرها في العبرية (الكوهين) وهو حافظ الشريعة والمفتي بها، وهو من بني لاوي. وتقدّم ذكر الكهانة عند قوله تعالى { وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ } [الشعراء:210].

{ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ } [30].

عن الخليل: كلّ ما في سورة الطور من { أَمْ } فاستفهام وليس بعطف، يعني أنّ المعنى على الاستفهام لا على عطف المفردات. وهذا ضابط ظاهر. ومراده: أنّ الاستفهام مقدّر بعد { أَمْ } وهي منقطعة، وهي للإضراب عن مقالتهم المردودة بقوله تعالى { فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ } [29]، للانتقال إلى مقالة أخرى وهي قولهم هو شاعر، وعدل عن الإتيان بحرف (بل) مع أنّه أشهر في الإضراب الانتقالي، لقصد تضمُّن { أَمْ } للاستفهام. والمعنى: أم أيقولون شاعر. والاستفهام المقرّر إنكاري.

ومناسبة هذا الانتقال مقالاتهم التي يردُّون بها دعوته، فلمّا أشير إلى بعضها بقوله تعالى { فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ } [29] انتقل إلى إبطال صفة أخرى.

عن الضحّاك ومجاهد: أنّ قريشا اجتمعوا في دار الندوة فكثرت آراؤهم في محمد صلى الله عليه وسلم، فقال بنو عبد الدار: هو شاعر تربّصوا به ريب المنون، فسيهلك كما هلك زهير والنابغة والأعشى، فافترقوا على هذه المقالة، فنزلت هذه الآية فحكت مقالتهم كما قالوها.

التربّص: مبالغة في: الرَّبص، وهو الانتظار.

الريب: هنا الحدثان، وفُسِّر بصرف الدهر. وعن ابن عباس: " ريب في القرآن شك إلّا مكانا واحدا في الطور { رَيْبَ الْمَنُونِ } ".

المنون: من أسماء الموت ومن أسماء الدهر، ويُذكّر. وقد فُسِّر هنا بكلا المعنيين.

{ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ } [31].

وردت الجملة مفصولة بدون عطف لأنّها وقعت في مقام المحاورة لسبقها بجملة { أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ } [30].

{ تَرَبَّصُوا } الأمر مستعمل في التسوية، أي: سواء عندي تربّصكم بي وعدمه.

{ فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ } تفريع، أي: فإنّي متربِّص بكم كتربّصكم بي، إذا لا ندري أيُّنا يصيبه ريب المنون قبل.

وفي الكلام إشارة إلى وقعة بدر إذ أصابهم القتل والأسر، فتكون الآية مشيرة إلى صريح قوله تعالى { قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ } [التوبة:52]. وإنّما قال هنا { مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ } ليشير إلى أنّ النبيّ يتربّص بهم ريب المنون في جملة المتربّصين من المؤمنين.

{ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ } [32].

{ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهَذَا } إضراب انتقال دعا إليه ما في الاستفهام الإنكاري المقدّر بعد { أَمْ } من معنى التعجّب من حالهم كيف يقولون مثل ذلك القول السابق ويستقرّ ذلك في إدراكهم وهم يدَّعون أنّهم أهل عقول لا تلتبس عليهم أحوال الناس، فهم لا يجهلون أنّ محمدا صلى الله عليه وسلم ليس بحال الكُهّان ولا المجانين ولا الشعراء، وقد أبى عليهم الوليد بن المغيرة أن يقول مثل ذلك في قصة معروفة.

{ تَأْمُرُهُمْ } الأمر هنا مستعار للباعث. أي: تبعثهم أحلامهم على هذا القول.

الحلم: العقل، قال الراغب: المانع من هيجان الغضب. وفي القاموس: هو الأناة.

{ بِهَذَا } الإشارة إلى المذكور من القول المعرَّض به في قوله تعالى { فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ } [29]، والمصرّح به في قوله تعالى { أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ } [30].

<u>المعنى</u>: أن الأحلام الراجحة لا تأمر بمثله. وفيه تعريض بأنّهم أضاعوا أحلامهم حين قالوا ذلك.

{ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ } إضراب انتقالي أيضا متّصل بالذي قبله، انتقل به إلى استفهام عن اتصافهم بالطغيان. والاستفهام المقدّر مستعمل: <u>إمّا في التشكيك</u> باعثا على التأمّل في حالهم، لأنّ شأن المتأمّل أن يتأكد بأنّهم طاغون، و<u>إمّا مستعمل في التقرير</u> لكلّ سامع إذ يجدهم طاغين.

{ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ [33] فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ [34] }.

انتقال متصل بقوله تعالى { أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ } [30]. وهذا حكاية لإنكارهم أن يكون القرآن وحيا من الله، فزعموا أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم تقوَّله على الله. فالاستفهام إنكار لقولهم وهم قد أكثروا من

الطعن وتمالؤوا عليه ولذلك جيء في حكايته عنهم بصيغة المضارع { يَقُولُونَ } المفيدة للتجدّد.

التقوّل: نسبة كلام إلى أحد لم يقله، ويتعدَّى إلى الكلام بنفسه ويتعدّى إلى من ينسب إليه بحرف (على)، قال تعالى { وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِين } [الحاقة:45/44].

{ **تَقَوَّلَهُ** } ضمير النصب عائد إلى القرآن المفهوم من المقام.

{ **بَلْ لا يُؤْمِنُونَ** } التعجيل بتكذيبهم قبل الإدلاء بالحجّة عليهم، وليكون ورود الاستدلال المفرّع على هذا القول بمنزلة دليل ثان. والمعنى: أنّ دلائل تنزيه النبيّ صلى الله عليه وسلم عن تقوّل القرآن بيّنة لديهم ولكن الزاعمين ذلك يأبون الإيمان فهم يبادرون إلى الطعن دون نظر ويلقون المعاذير سترا لمكابرتهم.

{ **فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ** } لمّا كانت مقالتهم هذه طعنا في القرآن، وهو المعجزة القائمة على صدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وكانت دعواهم أنّه تقوّله على الله من تلقاء نفسه قد تروج على الدهماء، تصدّى القرآن لبيان إبطالها بأن تحدّاهم بأن يأتوا بمثل هذا القرآن إن كانوا صادقين في أنّ محمدا صلى الله عليه وسلم تقوله من تلقاء نفسه. أي: فعجزهم عن أن يأتوا بمثله دليل على أنّهم كاذبون. ولذلك قال تعالى { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ } [هود:14/13]، كما قال تعالى { فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ } [الأنعام: 33].

الإتيان بالشيء: إحضاره من مكان آخر. واختير هذا الفعل دون: فليقولوا مثله، ونحوه، لقصد الإعذار لهم بأن يُقبَل منهم كلام مثله ولو من أحد غيرهم، وتقدّم عند قوله تعالى { فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ } [البقرة:23].

الحديث: الإخبار بالحوادث، وأصل الحوادث أنّها الواقعات حديثا، ثم تُوسِّع فأطلقت على الواقعات، ولو كانت قديمة، كقولهم: حوادث سنة كذا، وتبع ذلك إطلاق الحديث على الخبر مطلقا، وتُوسِّع فيه أيضا فأُطلق على الكلام ولو لم يكن إخبارا، ومنه إطلاق الحديث على كلام النبيّ صلى الله عليه وسلم.

فيجوز أن يكون الحديث هنا قد أُطلق على الكلم مجازا بعلاقة الإطلاق. ويجوز أن يكون الحديث هنا أطلق على الأخبار. فإنّهم كانوا يقولون إنّ القرآن أساطير الأولين، أي: أخبار عن الأمم الماضين، فقيل لهم: فليأتوا بأخبار مثل أخباره.

{ **مِثْلِهِ** } أي: المثلية في فصاحته وبلاغته، وهي خصوصيات يدركونها إذا سمعوها ولا تحيط قرائحهم بإيداعها في كلامهم. وقد بيّنّا أصول الإعجاز في المقدمة العاشرة من مقدمات هذا التفسير.

{ **إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ** } في زعمهم أنّه تقوَّله، أي: فإن لم يأتوا بكلام مثله فهم كاذبون. وهذا إلهاب لعزيمتهم ليأتوا بكلام مثل القرآن حتّى لا يكون عجزهم حجّة على كذبهم.

{ **أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ** [35] **أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ** [36] }.

إضراب انتقالي إلى إبطال ضرب آخر من شبهتهم في إنكارهم البعث، وقد علمتَ، في أوّل السورة، أنّ من أغراضها إثبات البعث والجزاء، على أنّ ما جاء بعده من وصف يوم الجزاء وحال أهله قد اقتضته مناسبات نشأت عنها تلك التفاصيل، فإذ وُفِّي حقُّ ما اقتضته تلك المناسبات ثُني عِنان الكلام إلى الاستدلال على إمكان البعث وإبطال شبهتهم التي تعلّلوا بها من نحو قولهم { أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً } [الإسراء:49].

{ **أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ** } أي: أنّ ما خلقه الله من بدء الخلق أعظم من إعادة خلق الإنسان.

{ **مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ** } حرف (من) يجوز أن يكون للابتداء، فيكون معنى الاستفهام المقدّر بعد (أم) تقريريًّا. والمعنى: أيقرُّون أنّهم خُلقوا بعد أن كانوا عدما؟ فكما خُلقوا من عدم في نشأتهم الأولى يُنْشأون من عدم في النشأة الآخرة، وذلك إثبات لإمكان البعث فيكون في معنى قوله تعالى { كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ } [الأنبياء:104].

ومعنى { شَيْءٍ } على هذا الوجه: الموجود، فغير شيء: المعدوم، والمعنى: أخُلِقوا من عدم؟

ويجوز أن تكون (من) للتعليل، فيكون الاستفهام المقدّر بعد (أم) إنكاريًّا، ويكون اسم { شَيْءٍ } صادقا على ما يصلح لمعنى التعليل المستفاد من حرف (من) التعليلية، والمعنى: إنكار أن يكون خلقهم بغير حكمة، وهذا إثبات أنّ البعث واقع لأجل الجزاء على الأعمال. فيكون في معنى قوله تعالى { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ } [المؤمنون:115]، وقوله تعالى { مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ } [الحجر:85].

ولحرف { **مِنْ** } في هذا الكلام الوقع البديع إذ كانت على احتمال معنييها دليلا: على إمكان البعث، وعلى وقوعه، وعلى وجوب وقوعه وجوبا تقتضيه الحكمة الإلهية العليا.

ولعلّ العدول عن صوغ الكلام بالصيغة الغالبة في الاستفهام التقريري، والعدول عن تعيين ما أضيف إليه {غَيْرِ} إلى الإتيان بلفظ مبهم وهو لفظ { شَيْءٍ }، روعي فيه الصلاحية لاحتمال المعنيين، وذلك من منتهى البلاغة.

{ **أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ** } إضراب انتقال أيضا، والاستفهام المقدّر بعد { أَمْ } إنكاري، أي: أهم الخالقون؟ وإذ كانوا لم يدَّعوا ذلك فالإنكار مرتَّب على تنزيلهم منزلة من يزعمون أنّهم خالقون.

{ **الْخَالِقُونَ** } حُذف المفعول لقصد العموم، أي: الخالقون للمخلوقات، وعلى هذا جرى الطبري وقدّره المفسِّرون عدا الطبري: أم هم الخالقون أنفسهم؟

{ **أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ** } يظهر لي أنّها بدل من جملة { أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ }، بدل مفصّل من مجمل إن كان مفعول { الْخَالِقُونَ } المحذوف مرادا به العموم وكان المراد بالسماء والأرض ذاتيهما مع من

فيهما، أو بدل بعض من كلّ، إن كان المراد بالسماء والأرض ذاتيهما فقط، فيكون تخصيص السماوات والأرض بالذكر لعظم خلقهما.

والمعنى: أم هم الخالقون للسماوات والأرض؟ والاستفهام إنكاري، والكلام كناية عن إثبات أنّ الله خالق السماوات والأرض.

{ **بَلْ لا يُوقِنُونَ** } إضراب إبطال على مضمون الجملتين اللتين قبله، أي: لم يُخلقوا من غير شيء ولا خلقوا السماوات والأرض، فإنّ ذلك بيّن لهم، ولكنّهم لا يوقنون بالبعث فهم ينكرونه بدون حجّة ولا شبهة، بل رانت المكابرة على قلوبهم.

{ **أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ** } [37].

{ **أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ** } انتقال بالعودة إلى ردّ جحودهم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ولذلك غُيّر أسلوب الإخبار فيه إلى مخاطبة النبيّ صلى الله عليه وسلم { رَبِّكَ }، وكان الأصل الذي ركّزوا عليه جحودهم توهُّم أنّ الله لو أرسل رسولا من البشر لكان الأحقّ بالرسالة رجلا من عظماء قومهم، كما في قوله تعالى { وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } [الزخرف:31]، (مكة والطائف).

المعنى: إبطال أن يكون لهم تصرّف في شؤون الربوبية فيجعلوا الأمر على مشيئتهم، فالاستفهام إنكاري بتنزيلهم في إبطال النبوّة، عمّن لا يرضونه، منزلة من عندهم خزائن الله يخلعون الخلع منها على من يشاؤون ويمنعون من يشاؤون.

الخزائن: جمع خزينة وهي البيت، أو الصندوق الذي تخزن فيه الأقوات أو المال، وما هو نفيس عند خازنه. وتقدم عند قوله تعالى { قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ } [يوسف:55]. وهي هنا مستعارة لما في علم الله وإرادته من إعطاء الخير للمخلوقات، ومنها اصطفاء من هيّأه من الناس لتبليغ الرسالة عنه إلى البشر.

وقد تقدّم قوله تعالى { وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ } [الأنعام: 124].

وقد سلك معهم هنا مسلك الإيجاز في الاستدلال بإحالتهم على مجمل أجمله قوله تعالى { أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ } لأنّ المقام مقام غضب عليهم لجرأتهم على الرسول صلى الله عليه وسلم في نفي الرسالة عنه بوقاحة من قولهم: كاهن، ومجنون، وشاعر. بخلاف آية الأنعام فإنّها ردت عليهم تعريضهم أنفسهم لنوال الرسالة.

{ **أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ** } إنكار لأن يكون لهم تصرّف في عطاء الله تعالى ولو دون تصرّف المالك، مثل تصرّف الوكيل والخازن، وهو ما عُبّر عنه بالمصيطرون.

المصيطر: (يقال بالصاد والسين) اسم فاعل من (صيطر / سيطر)، إذا حفظ وتسلَّط، وهو فعل مشتق من سيطر إذا قطع، ومنه الساطور، وهو حديد يقطع به اللحم والعظم.
وفي معنى الآية قوله تعالى { أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ } [الزخرف:32].

{ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ } [38].

لمّا نُفي أن يكون لهم تصرّف قوي أو ضعيف في مواهب الله تعالى على عباده أعقبه بنفي أن يكون لهم اطلاع على ما قدّره الله لعباده، اطلاعا يخوّلهم إنكار أن يرسل الله بشرا أو يوحي إليه، وذلك لإبطال قولهم { تَقَوَّلَهُ } [33]، وقولهم { نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ } [30] المقتضي أنّهم واثقون بأنّهم يشهدون هلاكه.

{ **أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ** } سلك في نفي علمهم بالغيب طريق التهكّم بهم بإنكار أن يكون لهم سلم يرتقون به إلى السماء ليستمعوا ما يجري في العالم العلوي من أمر تتلقّاه الملائكة أو أهل الملأ الأعلى بعضهم مع بعض فيسترقوا بعض العلم ممّا هو محجوب عن الناس. إذ من المعلوم عند الجميع أنّه لا سلّم يصل أهل الأرض بالسماء.

{ **يَسْتَمِعُونَ فِيهِ** } أي: يرتقون به إلى السماء فيستمعون وهم فيه، أي: وهم كائنون فيه لا يفارقونه.
وإسناد الاستماع إلى ضمير جماعتهم على اعتبار أنّ المستمع سفير عنهم على عادة استعمال الكلام العربي من إسناد فعل بعض القبيلة إلى جميعها، ألا ترى أنّه قال بعد هذا { فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ }، أي: من استمع منهم لأجلهم، أي: أرسلوه للسمع. وحُذف المفعول ليعم كلاما من شأنه أن يُسمع من الأخبار المغيَّبة.

{ **فِيهِ** } ظرفية مجازية اشتهرت حتّى ساوت الحقيقة لأنّ الراقي في السلم يكون كلّه عليه، فالسلم له كالظرف للمظروف، وإن كان في الحقيقة استعلاء ثمّ شاع في الكلام فقالوا: صعد في السُّلَّم، ولم يقولوا: صعد على السلم ولذاك اعتبرت ظرفية حقيقية، أي: حقيقة عرفية. بخلاف الظرفية في قوله { وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ } [طه:71] لأنّه لم يشتهر أن يقال: صلبه في جذع، بل يقال: صلبه على جذع، فلذلك كانت استعارة.

{ **فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ** } الفاء لتفريع هذا الأمر التعجيزي على النفي المستفاد من استفهام الإنكار. و(لام الأمر) مستعمل في إرادة التعجيز بقرينة انتفاء أصل الاستماع.
<u>فالمعنى</u>: فما يأتي مستمع منهم بحجّة تدلّ على صدق دعواهم.
السلطان: الحجّة، أي: حجّة على صدقهم في نفي رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، أو في كونه على وشك الهلاك. كأن يقولوا: آية صدقنا فيما ندّعيه وسمعناه من حديث الملأ الأعلى، أننا سمعنا أنّه يقع غدا حادث كذا وكذا مثلا، مما لا قبل للناس بعلمه، فيقع كما قالوا. وهذا معنى وصف السلطان بالمبين.

أي: المظهر لصحّة الدعوى.

{ **أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ** } [39].

لمّا جرى نفي أن تكون لهم مطالعة الغيب من الملأ الأعلى إبطالا لمقالاتهم في شؤون الربوبية أعقب ذلك بإبطال نسبتهم لله بنات استقصاءً لإبطال أوهامهم في المغيَّبات من العالم العلوي.

فالجملة معترضة بين التي تسبقها والتي تلحقها، ويقدّر الاستفهام إنكارا لأن يكون لله البنات.

ودليل الإنكار لنفس الأمر (استحالة الولد على الله تعالى)، ولكن لمّا كانت عقول أكثر المخاطبين بهذا الردّ غير مستعدّة لإدراك دليل الاستحالة، وكان اعتقادهم البنات لله منكرا، تُصُدِّيَ لدليل الإبطال وسُلِك في إبطاله دليل إقناعي يتفطّنون به إلى خطل رأيهم، وهو قوله { وَلَكُمُ الْبَنُونَ }.

فهذا مبالغة في تشنيع قولهم، فليس المراد أنّهم لو نسبوا لله البنين لكان قولهم مقبولا لأنّهم لم يقولوا ذلك فلا طائل تحت إبطاله.

{ **وَلَكُمُ الْبَنُونَ** } تغيّر أسلوب الغيبة المتبع ابتداء من قوله تعالى { أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ } [30]، إلى أسلوب الخطاب التفات مكافحة لهم بالردّ بجملة الحال. وتقديم { لَكُمُ } لإفادة الاختصاص.

{ **أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ** } [40].

هذا مرتبط بقوله تعالى { أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ } [33]، وقوله تعالى { أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ } [37]، إذ كلّ ذلك إبطالٌ للأسباب التي تحملهم على زعم انتفاء النبوّة عن محمد صلى الله عليه وسلم.

فبعد أن أبطل وسائل اكتساب العلم، بما زعموه، عاد إلى إبطال الدواعي التي تحملهم على الإعراض عن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولأجل ذلك جاء هذا الكلام على أسلوب الكلام الذي اتصل به أسلوب خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم، فقال هنا { أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً } وقال هنالك { أم عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ }.

والاستفهام المقدّر بعد { أَمْ } مستعمل في التهكّم بهم بتنزيلهم منزلة من يتوجّس خيفة من أن يسألهم الرسول صلى الله عليه وسلم أجرا على إرشادهم، والتهكّم استعارة مبنية على التشبيه، والمقصود ما في التهكّم من معنى أنّ ما نشأ عنه الخوف أمر لا ينبغي أن يخطر بالبال.

{ **تَسْأَلُهُمْ** } جيء بالمضارع لإفادة التجدّد، أي: تسألهم سؤالا متكرّرا لأنّ الدعوة متكرّرة.

{ **فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ** } تفريع لما فيه من بيان الملازمة بين سؤال الأجر وبين تجهّم من يسأل والتحرّج منه. أي: ما سألتهم أجرا فيَثْقُل غُرمه عليهم، لأنّ الاستفهام في معنى النفي.

{ **مِنْ** } للتعليل، أي: مثقلون من أجل مغرم حُمل عليهم.

المَغْرم: مصدر ميمي، وهو الغُرم. وهو ما يُفرض على أحد من عوض يدفعه.

المُثقل: أصله المُحمَّل بشيء ثقيل، وهو هنا مستعار لمن يُطالب بما يعسر عليه أداؤه، شُبِّه طلبه أداء ما يعسُر عليه بحمل الشيء الثقيل.

{ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُون } [41].

هذا نظير الإضراب والاستفهام في قوله تعالى { أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ } [37]، أي: بل أعندهم الغيب فهم يكتبون ما يجيدونه فيه ويروونه للناس؟ أي: ما عندهم الغيب حتّى يكتبوه.

فبعد أن ردّ عليهم إنكارهم الإسلام بأنّهم كالذين سألهم النبيّ صلى الله عليه وسلم أجرا على تبليغها أعقبه بردٍّ آخر بأنّهم كالذين أطّلعوا على أنّ عند الله ما يخالف ما أدّعى الرسول صلى الله عليه وسلم إبلاغه عن الله، فهم يكتبون ما اطّلعوا عليه.

{ عِنْدَهُمُ } ا تؤذن بمعنى الاختصاص والاستئثار، أي: استأثروا بمعرفة الغيب فعلموا ما لم يعلمه غيرهم.

الغيب: هنا مصدر بمعنى الفاعل، أي: ما غاب عن علم الناس. والتعريف تعريف الجنس

{ فَهُمْ يَكْتُبُونَ } الكتابة هنا يجوز أنّها مستعارة للجزم الذي لا يقبل التخلّف، كقوله تعالى { كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ } [الأنعام:54]، لأن شأن الشيء الذي يراد تحقيقه والدوام عليه أن يُكتب ويُسجل. فيكون الخبر في قوله تعالى { فَهُمْ يَكْتُبُونَ } مستعملا في معناه من إفادة النسبة الخبرية.

ويجوز أن تكون الكتابة على حقيقتها، أي: فهم يسجّلون ما اطّلعوا عليه من الغيب ليبقى معلوما لديهم.

{ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ } [42].

انتقال من نقض أقوالهم وإبطال مزاعمهم إلى إبطال نواياهم وعزائمهم من التبييت للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ولدعوة الإسلام من الإضرار والإخفاق، وفي هذا كشف لسرائرهم وتنبيه للمؤمنين.

{ كَيْداً } حُذف المتعلّق ليعمّ كلّ ما يستطيعون أن يكيدوه، فكانت هذه الجملة بمنزلة التتميم لنقض غزلهم والتذييل بما يعمّ كلّ عزم يجري في الأغراض التي جرت فيها مقالاتهم.

الكيد: والمكر متقاربان وكلاهما إخفاء الضرّ بوجوه الإخفاء تغريرا بالمقصود له الضرّ.

{ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ } إظهار في مقام الإضمار، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: فهم المكيدون، لما تؤذن به الصلة من وجه حلول الكيد بهم، لأنّهم كفروا بالله.

{ هُمُ } ضمير الفصل أفاد القصر، أي: الذين كفروا المكيدون دون من أرادوا الكيد بهم. فالله يدافع عن رسوله صلى الله عليه وسلم وعن المؤمنين وعن دينه كيدهم ويوقعهم فيما نووا إيقاعهم فيه.

وإطلاق اسم الكيد على ما يجازيهم الله به عن كيدهم من نقض غزلهم إطلاق على وجه المشاكلة، بتشبيه

إمعان الله إيّاهم في نعمة إلى أن يقع بهم العذاب بفعل الكائد لغيره، وقد تقدم قوله تعالى { وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِين } [الأنفال:30].

وهذا تهديد صريح لهم، ومن مظاهر هذا التهديد ما حلّ بهم يوم بدر على غير ترقّب منهم.

{ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ } [43].

هذا آخر سهم في كنانة الردّ عليهم وأشدّ رمي لشبح كفرهم، وهو شبح الإشراك، وهو أجمع ضلال تنضوي تحته الضلالات. وظاهر أنّ الاستفهام المقدّر بعدْ { أَمْ } استفهام إنكاري.

لمّا كان ما نُعي عليهم من أوّل السورة ناقضا لأقوالهم ونواياهم، وكان ما هم فيه من الشرك أعظم لم يُترك عَدُّ ذلك عليهم، لاشتهاره، بعد استيفاء الغرض المسوق له الكلام لهذه المناسبة، ولذلك كان هذا المُنْتَقَلُ إليه بمنزلة التذييل لما قبله لأنّه ارتقاء إلى الأهم في نوعه، والأهمّ يُشبه الأعمّ فكان كالتذييل.

ونظيره في الارتقاء في كمال النوع قوله تعالى { فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ - إلى قوله - ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا} [البلد:13-17].

{ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ } إتمام للتذييل وتنهية المقصود من فضح حالهم.

{ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ [44] فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ [45] يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ [46] }.

عطف على جملة { أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ } [30] وما بعدها من الجمل الحالية لأقوالهم بمناسبة اشتراك معانيها مع ما في هذه الجملة في تصوير بهتانهم ومكابرتهم الدالة على أنّهم أهل البهتان، فلو رأوا كسفا ساقطا من السماء وقيل لهم: هذا كسف نازل كابروا وقالوا: هو سحاب مركوم.

{ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً } يجوز أن يكون تلويحا إلى ما حكاه الله عنهم في قوله تعالى { وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً - إلى قوله - أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً } [الإسراء:90-92].

والمعنى: إن يروا كسفا من السماء، ممّا سألوا أن يكون آية على صدقك، لا يذعنوا ولا يؤمنوا ولا يتركوا البهتان بل يقولوا: هذا سحاب، وهذا المعنى مروي عن قتادة. وهو من قبيل قوله تعالى { وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ } [الحجر:15/14].

الكِسف: القطعة، ويقال: كسفه. وقد تقدّم في [الإسراء:92].

{ مِنَ السَّمَاءِ } صفة لـ { كِسَفاً }، و{مِنَ} تبعيضية، أي: قطعة من السماء مثل القطع التي تسقط من

الشهب.

المركوم: المجموع بعضه فوق بعض، وهو السحاب الممطر، قال تعالى { ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً } [النور:43].

والمعنى: إن يقع ذلك في المستقبل يقولوا سحاب، وهذا لا يقتضي أنّه يقع.

{ **فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ** } المقصود من الكلام السابق أنّهم يقولون ذلك عنادا مع تحقّقهم أنّه ليس سحابا. ولكون المقصود أنّ العناد شيمتهم، فُرِّع عليه أن أَمَر الله رسولَه صلى الله عليه وسلم بأن يتركهم، أي: يترك عرض الآيات عليهم، أي: أن لا يسأل الله إظهار ما اقترحوه من الآيات، لأنّهم لا يقترحونها طلبا للحجّة ولكنهم يكابرون، قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ } [يونس:97/96].

وليس المراد ترك دعوتهم وعرض القرآن عليهم.

ويجوز أن يكون الأمر في قوله تعالى { فَذَرْهُمْ } مستعملا في تهديديهم لأنّهم يسمعونه حين يُقرأ عليهم القرآن، كما يقال للذي لا يرعوي عن غيّه: دعه فإنّه لا يُقلع.

{ **حَتَّى** } أفادت الغاية أنّه يتركهم إلى الأبد لأنّهم بعد أن يُصعقوا لا تعاد محاجّتهم بالأدلة والآيات.

{ **يُلاقُوا** } استعارة لوقوعه، شُبِّه اليوم وهو الزمان بشخص غائب على طريقة المكنية، وإثبات الملاقاة إليه تخييل. والملاقاة مستعارة أيضا للحلول فيه، والإتيان بالموصول للتنبيه على خطئهم في إنكاره.

اليوم الذي فيه يُصعقون: ذلك هو يوم الحشر، قال تعالى { وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ } [الزمر:68].

{ **يَوْمَهُمُ** } إضافة اليوم إلى ضميرهم لأنّهم اشتهروا بإنكاره وعُرفوا بالذين لا يؤمنون بالآخرة. ونظيره قوله تعالى { وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ } [الأنبياء:103].

الصعق: الإغماء من خوف أو هلع، قال تعلى { وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً } [الأعراف:143]، وأصله مشتقّ من الصاعقة، لأنّ المصاب بها يُغمى عليه أو يموت، يقال: صَعِق، (بفتح فكسر)، وصُعِق (بضم وكسر).

{ **يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً** } بدل من { يَوْمِهِمْ } وفتحته فتحة إعراب لأنّه أضيف إلى معرب.

الإغناء: جعل الغير غنيًّا، أي: غير محتاج إلى ما تقوم به حاجياته، وإذا قيل: أغنى عنه كان معناه: أنّه قام مقامه في دفع حاجة كان حقّه أن يقوم هو بها، ويُتوسَّع فيه بحذف مفعوله لظهوره من المقام.

المراد هنا: لا يغني عنهم شيئا من العذاب، المفهوم من إضافة { يَوْمَ } إلى ضميرهم، ومن الصلة في قوله تعالى { الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ }.

{ **كَيْدُهُمْ** } من إضافة المصدر إلى فاعله، أي: ما يكيدون به، وهو المشار إليه بقوله { أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً} [42] أي: لا يستطيعون كيدا يومئذ كما كانوا في الدنيا.

فالمعنى: لا كيد لهم اليوم يغني عنهم، وهذا ينفي عنهم التخلّص بوسائل من فعلهم.

{ **وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ** } عطف لنفي أن يتخلّصوا من العذاب بنصرة غيرهم.

{ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ } [47].

جملة معترضة، أي: وإنّ لهم عذابا في الدنيا قبل عذاب الآخرة، وهو عذاب الجوع في سني القحط، وعذاب السيف يوم بدر.

{ **إِنَّ** } ولكون هذا العذاب مستبعدا عندهم وهم يرون أنفسهم في نعمة مستمرة، أُكِّد الخبر.

{ **لِلَّذِينَ ظَلَمُوا** } إظهار في مقام الإضمار لأنّ مقتضى الظاهر أن يقال: وإنّ لهم عذابا، فخولف مقتضى الظاهر لإفادة علة استحقاقهم العذاب في الدنيا بأنّها الإشراك بالله. فالظلم هنا بمعنى الإشراك.

{ **دُونِ** } أصلها المكان المنفصل عن شيء انفصالا قريبا، وكثر إطلاقه على الأقل، يقال: هو في الشرف دون فلان، وعلى السابق لأنّه أقرب حلولا من المسبوق، وعلى معنى (غير)، وهي في هذه الآية صالحة للثلاثة الأخيرة، إذ المراد عذاب في الدنيا هو أقل من عذاب الآخرة، قال تعالى { وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ } [السجدة:21]، وهو مغاير له كما هو بيّن.

{ **وَلَكِنَّ** } الاستدراك راجع إلى مفاد التأكيد، أي: هو واقع لا محالة ولكن أكثرهم لا يعلمون ذلك، أي: لا يخطر ببالهم، وذلك من بطرهم وزهوهم. ومفعول { لا يَعْلَمُونَ } محذوف اختصارا للعلم به.

{ **أَكْثَرَهُمْ** } أسند عدم العلم إلى أكثرهم دون جميعهم لأنّ فيهم أهل رأي ونظر يتوقّعون حلول الشرّ.

{ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ [48] وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُوم [49] }.

{ **وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا** } عطف على جملة { فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ } [45]، وما بينهما اعتراض.

لمّا كان مفتتح السورة خطابا للنبيّ صلى الله عليه وسلم من قوله تعالى { إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ } [7]، المسوق مساق التسلية له، وكان ما في معظمها من الأخبار ما يخالطه في نفسه صلى الله عليه وسلم من الكدر والأسف على ضلال قومه وبعدهم عما جاءهم به من الهدى، خُتمت السورة بأمره بالصبر تسلية له، وبأمره بالتسبيح وحمد الله شكرا له على تفضيله بالرسالة.

{ **لِحُكْمِ رَبِّكَ** } ما حَكَم به وقدَّره من انتفاء إجابة بعضهم ومن إبطاء إجابة أكثرهم.

يجوز أن تكون(اللام) بمعنى (على)، فيكون لتعدية فعل { اصْبِرْ }، كقوله تعالى { وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُون } [المزمل:10].

ويجوز فيها معنى (إلى)، أي: اصبر إلى أن يحكم الله بينك وبينهم، فيكون في معنى قوله تعالى { وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ } [يونس:109].

ويجوز أن تكون للتعليل فيكون {لِحُكْمِ رَبِّكَ} هو ما حكم به من إرساله إلى الناس، أي: اصبر لأنّك تقوم

بما وجب عليك.

{ **فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا** } تفريع العلّة على المعلول، أي: { اصْبِرْ } لأنّك بأعيننا، أي: بمحل العناية والكلاءة منا. يقال: هو بمرأى مني ومسمع، أي لا يخفى علي شأنه. وذكر العين تمثيل لشدة الملاحظة، وهذا التمثيل كناية عن لازم الملاحظة من نصر والجزاء والحفظ.

{ **بِأَعْيُنِنَا** } الجمع إمّا مبالغة في التمثيل كأن الملاحظة بأعين عديدة، كقوله تعالى {وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا} [هود:37]، وهو من قبيل قوله تعالى { وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ } [الذريات:47].

ولك أن تجعل الجمع باعتبار تعدّد متعلقات الملاحظة؛ فملاحظة للذب عنه، وملاحظة لتوجيه الثواب ورفع الدرجة، وملاحظة لجزاء أعدائه بما يستحقونه، وملاحظة لنصره عليهم بعموم الإيمان به، وهذا الجمع على نحو قوله تعالى { وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا } [القمر:14/13] لأنّ عناية الله بأهل السفينة تتعلّق بإجرائها وتجنيب الغرق عنها وسلامة ركّابها واختيار الوقت لإرسائها وسلامة الركاب في هبوطهم.

{ **وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُوم** }.

التسبيح: التنزيه، والمراد ما يدل عليه من قول، وأشهر ذلك هو قول سبحان الله وما يرادفه من الألفاظ، ولذاك كثر إطلاق التسبيح وما يشتق منه على الصلوات في آيات كثيرة وآثار.

{ **بِحَمْدِ رَبِّكَ** } الباء للمصاحبة، جمعا بين تعظيم الله بالتنزيه عن النقائص وبين الثناء عليه بأوصاف الكمال.

{ **حِينَ تَقُومُ** } وقت الهبوب من النوم، وهو وقت استقبال أعمال اليوم، وعنده تتجدّد الأسباب التي من أجلها أمر بالصبر والتسبيح والحمد.

قيل: التسبيح : الصلاة، والقيام: القيام لها: إما للنوافل، وإمّا للصلاة الفريضة وهي الصبح.

وعن عوف بن مالك وابن مسعود وجماعة: أنّ المراد بالقيام القيام من المجلس لما روى الترمذي عن أبي هريرة أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: **" من جلس مجلسا فكثر فيه لَغَطُهُ فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أنّ لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، إلّا غُفر له ما كان في مجلسه ذلك"**.

{ **مِنَ اللَّيْلِ** } أي: زمنا هو بعض الليل.

{ **فَسَبِّحْهُ** } اكتفاء، أي: واحمده.

{ **وَإِدْبَارَ النُّجُوم** } انتصب على الظرفية لأنه على تقدير: ووقت إدبار النجوم.

الإدبار: رجوع الشيء من حيث جاء لأنه ينقلب إلى جهة الدبر، أي: الظهر.

إدبار النجوم: أي: عند احتجابها. ، فإطلاق الإدبار هنا مجاز في المفارقة والمزايلة. وقت السحر، وهو وقت يستوفي فيه الإنسان حظه من النوم ويبقى فيه ميل إلى استصحاب الدعة، فأمر بالتسبيح فيه ليفصل

بين النوم المحتاج إليه وبين التناوم الناشئ عن التكاسل، ثمّ إن وجد في نفسه بعد التسبيح حاجة إلى غفوة من النوم اضطجع قليلا إلى أن يحين وقت صلاة الصبح، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضطجع بعد صلاة الفجر حتّى يأتيه المؤذن بصلاة الصبح.

النجوم: جمع نجم وهو الكوكب الذي يضيء في الليل غير القمر، وتقدّم عند قوله تعالى { وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ } [النحل:12].

والآية تشير إلى أوقات الرغائب من النوافل وهي صلاة الفجر والأشفاع بعد العشاء وقيام آخر الليل.

وقيل: أشارت إلى الصلوات الخمس بوجه الإجمال وبيّنته السنة.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النجم

سُمِّيت (**سورة النجم**) بغير واو في عهد أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم.

ففي الصحيح عن ابن مسعود: أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ سورة النجم فسجد بها فما بقي أحد من القوم إلّا سجد، فأخذ رجل كفا من حصباء أو تراب فرفعه إلى وجهه. وقال: يكفني هذا. قال عبد الله: فلقد رأيته بعد قُتل كافرا. وهذا الرجل هو أمية بن خلف. وعن ابن عباس مثل ذلك. فهذه تسمية لأنّها ذُكر فيها النجم.

وسمُّوها (**سورة والنجم**) بواو، بحكاية لفظ القرآن الواقع في أوّلها، وكذلك ترجمها البخاري في التفسير والترمذي في جامعه. ووقعت في المصاحف بالوجهين.

وسمُّوها (**وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى**)، كما في حديث زيد بن ثابت في الصحيحين: " أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ { وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى } فلم يسجد ". أي: في زمن آخر غير الوقت الذي ذكره ابن مسعود وابن عباس.

وهذا كله اسم واحد متوسّع فيه، فلا تعدّ هذه السورة بين السور ذوات أكثر من اسم.

وهي مكية، قال ابن عطية: بإجماع المتأوّلين. وعن ابن عباس وقتادة: استثناء قوله تعالى { الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ } [32]، قالا: هي آية مدنية. وسنده ضعيف.

وعن ابن مسعود هي أوّل سورة أعلنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة.

وهي السورة الثالثة والعشرون في عدِّ ترتيب السور. نزلت بعد سورة الإخلاص وقبل سورة عبس.

وعدّ جمهور العادّين **آيها إحدى وستين،** وعدَّها أهل الكوفة اثنتين وستين.

قال ابن عطية: **سبب نزولها** أنّ المشركين قالوا: إنّ محمدا يتقوّل القرآن ويختلق أقواله، فنزلت السورة في ذلك.

أغراض السورة

*/ تحقيق أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم صادق فيما يبلّغه عن الله تعالى وأنّه منزّه عمَّا ادعوه.

*/ إثبات أنّ القرآن وحي من عند الله بواسطة جبريل.

*/ تقريب صفة نزول جبريل بالوحي في حالين، زيادة في تقرير أنّه وحي من الله واقع لا محالة.

*/ إبطال إلهية أصنام المشركين.

*/ إبطال قولهم في اللات والعزى ومناة بنات الله، وأنّها أوهام لا حقائق لها وتنظير قولهم فيها بقولهم في الملائكة أنهم إناث.

*/ ذكر جزاء المعرضين والمهتدين، وتحذيرهم من القول في هذه الأمور بالظنّ دون حجّة.

*/ إبطال قياسهم عالم الغيب على عالم الشهادة وأنّ ذلك ضلال في الرأي قد جاءهم بضدّه الهدى من الله، وذكر لذلك مثال من قصة الوليد بن المغيرة، أو قصة ابن أبي سرح.

*/ إثبات البعث والجزاء.

*/ تذكيرهم بما حلّ بالأمم ذات الشرك من قبلهم، وبمن جاء قبل محمد صلى الله عليه وسلم من الرسل أهل الشرائع. وأنّ القرآن حوى كتب الأنبياء السابقين.

*/ إنذارهم بحادثة تحلّ بهم قريبا.

*/ ما تخلّل ذلك من معترضات ومستطردات لمناسبات.

{ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى [1] مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى [2] وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى [3] }.

أقسم الله تعالى بعظيم من مخلوقاته دال على عظيم صفاته. والكلام موجّه من الله تعالى إلى المشركين الطاعنين في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم.

النجم: الكوكب، أي: الجرم الذي يبدو للناظرين لامعا في جو السماء ليلا.

والتعريف باللام، يجوز أن يكون للجنس كقوله تعالى { وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ } [النحل: 16]، ويحتمل تعريف العهد، وأشهر النجوم بإطلاق اسم النجم عليه (الثريا) لأنّهم كانوا يوقّتون بأزمان طلوعها مواقيت الفصول ونضج الثمار. وقيل: (الشِّعرى اليمانية) وهي العبور وكانت معظَّمة عند العرب وعبدتها خزاعة.

ويجوز أن يكون المراد الشهاب، وبهُويّه: سقوطه من مكانه إلى مكان آخر، قال تعالى { إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ } [الصافات:7/6].

{ وَالنَّجْمِ } القسم به لما في خلقه من الدلالة على عظيم قدرة الله تعالى.

{ إِذَا هَوَى } تقييد القسم بالنجم بوقت غروبه لإشعار غروب ذلك المخلوق العظيم بعد أوجِّه في شرف الارتفاع في الأفق على أنّه تسخير لقدرة الله تعالى.

الهُويّ: السقوط، أطلق هنا على غروب الكوكب، استعارة لاقتراب اختفائه. ويجوز أن يراد سقوط الشهاب حين يلوح للناظر أنّه يجري في أديم السماء، فهو هُوي حقيقي، فيكون الهويّ قد استعمل في حقيقته ومجازه.

وفي ذكر حالة غروب النجم احتراس من أن يتوهّم المشركون أنّ في القسم بالنجم إقرارا لعبادة نجم الشِّعرى، وأنّ القسم به اعتراف بأنّه إله، إذ كان بعض قبائل العرب يعبدونها. ومن مناسبات هذا يجيء قوله تعالى { وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى } [49].

فيكون قوله تعالى { إِذَا هَوَى } إشعارا بأن النجوم كلها مسخرة لقدرة الله ولا اختيار لها، فليست أهلا لأن تعبد، فحصل المقصود من القسم بما فيها من الدلالة على القدرة الإلهية مع الاحتراس عن اعتقاد عبادتها.

ومناسبة هذا القسم، أنّ الكلام مسوق لإثبات أنّ القرآن وحي من الله مُنزّل من السماء فشابه حال نزوله الاعتباري حال النجم في حالة هُويّه مشابهة تمثيلية حاصلة من نزول شيء منير إنارة معنوية نازل من محل رفعة معنوية، أو هو إشارة إلى مشابهة حالة نزول جبريل من السماوات بحالة نزول النجم.

{ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى } جواب القسم.

الضلال: عدم الاهتداء إلى الطريق الموصول إلى المقصود، وهو مجاز في سلوك ما ينافي الحق.

الغواية: فساد الرأي وتعلّقه بالباطل.

الصاحب: الملازم للذي يضاف إليه وصف صاحب، والمراد هنا محمد صلى الله عليه وسلم.

{ صَاحِبُكُمْ } تعريض بأنّهم أهل بهتان إذ نسبوا إليه ما ليس منه في شيء مع شدّة اطلاعهم على أحواله.

{ **وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى** } عطف على جواب القسم، وهذا وصف كمال لذاته. والكلام الذي ينطق به هو القرآن لأنّهم قالوا فيه { إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ } [الفرقان:4]، وقالوا { أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا } [الفرقان:5].

الهوى: ميل النفس إلى ما تحبه أو تحب أن تفعله دون أن يقتضيه العقل السليم الحكيم، ولذلك يختلف الناس في الهوى ولا يختلفون في الحق، وقد يحب المرء الحق والصواب. فالمراد بالهوى إذا أطلق أنّه الهوى المجرّد عن الدليل.

واعلم أن تنزيهه صلى الله عليه وسلم عن النطق عن هوى يقتضي التنزيه عن أن يفعل أو يحكم عن هوى لأنّ التنزّه عن النطق عن هوى أعظم مراتب الحكمة. ولذلك ورد في صفة النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّه يمزح ولا يقول إلّا حقا.

وهنا تم إبطال قولهم فحسُن الوقف على قوله تعالى { وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى }.

{ **هَوَى / الْهَوَى** } جناس شبه تام.

{ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى [4] عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى [5] ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى [6] وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى [7] ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى [8] فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى [9] فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى [10] }.

استئناف بياني لجملة { وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى } [3].

{ **إِنْ هُوَ** } يجوز أن يعود الضمير إلى معلوم من سياق الرد عليهم: القرآن، لأنهم زعموا في أقوالهم المردودة بقوله تعالى { مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى } [2] أنّ القرآن سحر، أو شعر، أو كهانة، أو أساطير الأولين، أو إفك افتراه.

وإن كان النبيّ صلى الله عليه وسلم ينطق بغير القرآن عن وحي، كما في حديث الحديبية في جوابه للذي سأله: وما يفعل المعتمر؟ وكقوله صلى الله عليه وسلم: " **إنّ روح القدس نفث في روعي إن نفسا لن تموت حتى تستكمل أجلها** ". ومثل جميع الأحاديث القدسية التي فيها قال الله تعالى ونحوه.

وفي سنن أبي داود و الترمذي من حديث المقدام بن معد يكرب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **إنّي أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلُّوه وما وجدتم فيه من حرام فحرّموه** ".

وقد ينطق صلى الله عليه وسلم عن اجتهاد.

الوحي: تقدّم عند قوله تعالى { إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ } [النساء:163].

{ **يُوحَى** } مؤكِّدة لجملة { إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ } مع دلالة المضارع على أنّ ما ينطق به متجدّد وحيه غير منقطع. والمتعلّق محذوف تقديره: إليه، أي: إلى صاحبكم.

وتُرك فاعل الوحي لضرب من الإجمال الذي يعقبه التفصيل، لأنّه سيرد بعده ما يبيّنه.

{ **عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى** } مستأنفة استئنافا بيانيا لبيان كيفية الوحي. وضمير الغائب عائد إلى الوحي، أو إلى ما عاد إليه ضمير { هُوَ }، أي: القرآن، وهو في محل المفعول الأوّل من (علّم)، والمفعول الثاني محذوف، والتقدير: علَّمه إيّاه.

ويجوز جعل ضمير الغائب عائدا إلى { صَاحِبُكُمْ } والمحذوف عائد إلى { وَحْيٌ }، إبطالا لقول المشركين { إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ } [النحل:103].

{ **شَدِيدُ الْقُوَى** } صفة لمحذوف يدلّ عليه ما يُذكر بعدُ ممّا هو من شؤون الملائكة، أي: مَلَك شديد القوى. واتفق المفسرون على أنّ المراد: **جبريل عليه السلام**.

المِرَّة: تطلق على قوّة الذات وتطلق على متانة العقل، وهو المراد هنا، لأنّه قد تقدّم قبله وصفه بشديد القوى. وتخصيص جبريل بهذا الوصف يشعر بأنّه المَلَك الذي ينزل بفيوضات الحكمة على الرسل والأنبياء.

{ **فَاسْتَوَى** } مفرّع على ما تقدّم من قوله تعالى { عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى }. والفاء للتفصيل، والمستوي هو جبريل. والمعنى: قيامه بعزيمة لتلقّي رسالة الله، كما يقال: استقلّ قائما، فاستواء جبريل هو مبدأ التهيّؤ لقبول الرسالة من عند الله، ولذلك قُيِّد هذا الاستواء بجملة الحال في قوله تعالى { **وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى** }، أي: قبل أن ينزل إلى العالم الأرضي.

الأفق: اسم للجوّ الذي يبدو للناظر ملتقى بين طرف منتهى النظر من الأرض وبين منتهى ما يلوح كالقبّة الزرقاء، وغلب إطلاقه على ناحية بعيدة عن موطن القوم. ومنه أفق المشرق وأفق المغرب.

{ **الْأَعْلَى** } يفيد أنّه ناحية من جو السماء. وذكر هذا ليرتب عليه قوله تعالى:

{ **ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى** } عطف على جملة { فَاسْتَوَى }، والتراخي الذي تفيده { ثُمَّ } تراخ رتبي، لأنّ الدنو ليبلّغ الوحي هو الأهم في هذا المقام.

الدنوّ: القرب، وإذ قد كان فعل الدنو قد عُطف على { فَاسْتَوَى وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى } عُلِم أنّه دنا إلى العالم الأرضي، أي: نزل إلى الأرض بعد أن تلقّى ما يبلّغه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.

{ **فَتَدَلَّى** } انخفض من علوٍّ قليلا، أي: ينزل من طبقات إلى ما تحتها كما يتدلّى الشيء المعلق في الهواء، بحيث لو رآه الرائي يحسبه متدلِّيًا، وهو ينزل من السماء غير مُنْقَضٍّ.

{ **فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى** } عن سعيد بن المسيب: القاب صدر القوس العربية حيث يُشدّ عليه السير الذي يتنكَّبه صاحبه، ولكلّ قوس قاب واحد. وقيل: يطلق القوس في لغة أهل الحجاز على ذراع يُذرع به (ولعله مصدر **قَاسَ** فسُمِّي به ما يقاس به).

القوس: آلة من عود نَبْع، مقوّسة يُشدّ بها وتر من جلد ويرمي عنها السهام والنشاب وهي في مقدار الذراع عند العرب.

وحاصل المعنى: أنّ جبريل كان على مسافة قوسين من النبيّ صلى الله عليه وسلم، ولعلّ الحكمة في هذا

البعد أنّ هذه الصفة حكاية لصورة الوحي الذي كان في أوائل عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم بالنبوّة، فكانت قواه البشرية يومئذ غير معتادة لتحمّل اتصال القوّة الملكية بها مباشرة.
ألا ترى أنّه لمّا اتصل به في غار حراء، وهو الذي عُبّر عنه في حديثه بالغط، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **فغطّني حتّى بلغ مني الجهد** ". ثم كانت تعتريه الحالة الموصوفة في حديث نزول أوّل الوحي المشار إليها في سورة المدثر وسورة المزمل، قال تعالى { إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً } [المزمل:5].
ولمراعاة حكمة الرفق بالنبيّ كان جبريل يتمثل للنبيّ صلى الله عليه وسلم في صورة إنسان، من ذلك حديث عمر الشهير في بيان الإيمان والإسلام والإحسان.
{ **أَوْ أَدْنَى** } و{أَوْ} هنا للتخيير في التقدير، وهو مستعمل في التقريب، أي: إن أراد أحد تقريب هذه المسافة فهو مخيّر بين أن يجعلها قاب قوسين أو أدنى.
{ **فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى** } تفريع على قوله تعالى { فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى }، وهذا التفريع هو المقصود من البيان وما قبله تمهيد له، وهو تمثيل لأحوال عجيبة بأقرب ما يفهمه الناس لقصد بيان إمكان تلقي الوحي عن الله تعالى، إذ كان المشركون يحيلونه، فبيَّن لهم إمكان الوحي بوصف طريق الوحي إجمالا.
وهذه كيفية من صور الوحي.
{ **أَوْحَى** } الضمير عائد إلى الله المعلوم من قوله تعالى { إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى } [4].
{ **عَبْدِهِ** } إيثار التعبير عن النبيّ صلى الله عليه وسلم بهذا العنوان إظهار في مقام الإضمار، والإضافة إلى ضمير الجلالة من التشريف.

{ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى [11] أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى [12] }.

الأظهر أنّ هذا ردٌّ لتكذيب من المشركين فيما بلغهم من الخبر عن رؤية النبيّ صلى الله عليه وسلم جبريل، وهو الذي يؤذن به قوله تعالى بعد { أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى }.
{ **الْفُؤَادُ** } اللام عوض عن المضاف إليه، أي: فؤاده، وعليه فيكون تفريع الاستفهام في قوله { أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى } استفهاما إنكاريا لأنّهم مارَوْه.
{ **مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى** } يجوز أن يكون تأكيدا لمضمون قوله تعالى { فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ } [9]، فإنه يؤذن بأنّه بمرأى من النبيّ صلى الله عليه وسلم برفع احتمال المجاز في تشبيه القرب، أي: هو قرب حسي وليس مجرد اتصال روحاني، فيكون الاستفهام في قوله تعالى { أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى } مستعملا في الفرض والتقدير، أي: أفستكذِّبونه فيما يرى بعينيه كما كذَّبتموه فيما بلّغكم عن الله.
الفؤاد: العقل في كلام العرب، قال تعالى { وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً } [القصص:10].
الكذب: أطلق هنا على التخييل والتلبيس من الحواس، كما يقال: كذبته عينه.

{ **أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى** } تفريع على جملة { مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى }. والاستفهام مستعمل، كما تقدّم، إمّا في الإنكار أو الفرض والتقدير.

{ **عَلَى** } تعدية الفعل فيهما بحرف الاستعلاء لتضمُّنه معنى الغلبة، أي: هَبْكُم غالبتموه على عبادتكم الآلهة، وعلى الإعراض عن سماع القرآن ونحو ذلك أتغلبونه على ما رأى ببصره.

{ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى [13] عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى [14] عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى [15] إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى [16] مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى [17] لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى [18] }.

أي: إن كنتم تجحدون رؤيته لجبريل في الأرض فلقد رآه رؤية أعظم منها إذ رآه في العالم العلوي، فهذا من الترقِّي في بيان مراتب الوحي، والعطف عطف قصة على قصة، أبتدئ بالأضعف وعُقِّب بالأقوى.

{ **وَلَقَدْ** } تأكيد الكلام بلام القسم وحرف التحقيق لأجل ما في هذا الخبر من الغرابة من حيث هو قد رأى جبريل ومن حيث أنّه عُرج به إلى السماء، ومن الأهمية من حيث هو دال على عظيم منزلة محمد صلى الله عليه وسلم.

{ **رَآهُ** } ضمير الرفع عائد إلى { صَاحِبُكُمْ } [2]، وضمير النصب عائد إلى جبريل.

{ **نَزْلَةً أُخْرَى** } فعل من النزول فهو مصدر دال على المرّة. والنزول هنا الحلول في المكان، ووصفها بـ {أُخْرَى} بالنسبة إلى ما في قوله تعالى { ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى } [8]، فإنّ التدلِّي نزول بالمكان الذي بلغ إليه.

{ **عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى** } متعلّق بـ { رَآهُ } وخُصَّت بالذكر رؤيته لجبريل عند سدرة المنتهى لعظيم شرف المكان، وبما حصل عنده من آيات ربه الكبرى، ولأنّها منتهى العروج في مراتب الكرامة.

{ **سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى** } اسم أطلقه القرآن على مكان علوي فوق السماء السابعة، وقد ورد التصريح بها في حديث المعراج من الصحاح عن جمع من الصحابة.

ولعلَّ ذلك المكان شُبِّه بالسدرة، التي هي واحدة شجر السدر، إمّا في صفة تفرّعه، وإمّا في كونه حدًّا انتهى إليه قرب النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى موضع لم يبلغه قبله ملك. فلعلَّه مبني على اصطلاح عندهم بأن يجعلوا في حدود البقاع سدرا.

السدرة: واحدة السدر وهو شجر النبق قالوا: ويختص بثلاث أوصاف: ظل مديد، وطعم لذيذ، ورائحة ذكية. فجُعلت السدرة مثلا لذلك المكان كما جُعلت النخلة مثلا للمؤمن.

جنّة المأوى: الجنّة المعروفة بأنّها مأوى المتّقين، فإنّ الجنّة منتهى مراتب ارتقاء الأرواح الزكية.

{ **إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى** } ظرف مستقرّ في موضع الحال من { سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى } أريد به التنويه بما حفّ بهذا المكان من الجلال والجمال. وفي حديث الإسراء: **" حتّى انتهى بي إلى سدرة المنتهى وغشيها ألوان لا أدري ما هي "**. وفي رواية: **" غشيها نور من الله ما يستطيع أحد أن ينظر إليها "**.

وما حصل فيه للنبيّ صلى الله عليه وسلم من التشريف بتلقّي الوحي مباشرة من الله دون واسطة الملك ففي حديث الإسراء: **" حتّى ظهرت بمستوًى أسمع فيه صريف الأقلام ففرض الله على أمتي خمسين صلاة ".**

{ مَا يَغْشَى } إبهام للتفخيم الإجمالي، وأنّه تضيق عنه عبارات الوصف في اللغة.

{ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى } معترضة وهي في معنى جملة { وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى } إلى آخرها، أي: رأى جبريل رؤية لا خطأ فيها ولا زيادة على ما وصف، أي: لا مبالغة.

الزيغ: الميل عن القصد، أي: ما مال بصره إلى مرئي آخر غير ما ذكر، و**الطغيان**: تجاوز الحد.

{ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى } تذييل، أي: رأى آيات أخرى كبرى غير سدرة المنتهى، وجنة المأوى، وما غشي السدرة من البهجة والجلال.

الآيات: دلائل عظمة الله تعالى التي تزيد الرسول ارتفاعا.

{ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى [19] وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى [20] أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى [21] تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى [22] إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَان إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى [23] }.

لمّا تضمّن الحديث عن صفة الوحي الإشارة إلى شرف الرسول صلى الله عليه وسلم الذي وُصف بالعروج في المنازل العليا، والإشارة إلى شرف جبريل عليه السلام إذ وصف بصفات الكمال ومنازل العزة، كان ذلك ممّا يثير موازنة هذه الأحوال الرفيعة بحال أعظم آلهتهم الثلاث في زعمهم (اللّات / العُزّى / مَناة)، التي هي أحجار مقرّها الأرض لا تملك تصرّفا ولا يُعرج بها إلى رفعة. فكان هذا التّضاد جامعا خياليا يقتضي تعقيب ذكر تلك الأحوال بذكر أحوال هاته.

فانتقل الكلام من غرض إثبات النبيّ صلى الله عليه وسلم موحًى إليه بالقرآن، إلى إبطال عبادة الأصنام، ومناط الإبطال قوله تعالى { إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ }.

{ أَفَرَأَيْتُمُ } الفاء لتفريع الاستفهام وما بعده على جملة { أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى } [12] المُفرَّعة على جملة { مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى } [11].

والروية يجوز أن تكون بصرية تتعدّى إلى مفعول واحد، ويكون الاستفهام تقريريًّا تهكّميا، أي: كيف ترون اللات والعزى ومناة بالنسبة لما وصف في عظمة الله تعالى وشرف ملائكته وشرف رسوله صلى الله عليه وسلم؟ وهذا تهكّم بهم وإبطال لإلهية تلك الأصنام بطريق الفحوى، ودليله العيان.

وعليه تكون جملة { أَلَكُمُ الذَّكَرُ } وما بعدها استئنافا وارتقاء في الردّ، أو بدل اشتمال من جملة {أَفَرَأَيْتُمُ}، لأنّ مضمونها ممّا تشتمل عليه مزاعمهم. كانوا يزعمون أنّ اللّات والعُزّى ومناة بنات الله.

ويجوز أن تكون الرؤية علمية، أي: أزعمتم اللّات والعُزّى ومناة؟ فحذف المفعول الثاني اختصارا لدلالة قوله: { أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى } عليه، والتقدير: أزعمتموهنّ بنات الله؟ أتجعلون له الأنثى وأنتم تبتغون الأبناء الذكور؟ وعليه تكون جملة { أَلَكُمُ الذَّكَرُ } وما بعدها، بيانا للإنكار وارتقاء في إبطال مزاعمهم.

اللّات: صنم كان لثقيف بالطائف، وكانت قريش وجمهور العرب يعبدونه، وله شهرة عند قريش، وهو صخرة مربعة بنوا عليها بناء. يقولون: أصل صخرته موضع كان يجلس عليه رجل في الجاهلية يلتّ السويق للحاج، فلمّا مات اتخذوا مكانه معبدا. والألف واللام في أوّل { اللَّاتَ } زائدتان، ولعلّ ذلك لأنّ أصله: **لات**، بمعنى معبود، فلما أرادوا جعله علما على معبود خاص أدخلوا عليه لام تعريف العهد.

{ **العُزّى** } فُعْلَى من العِزّ: اسم صنم حجر أبيض عليه بناء، وقال الفخر: كان على صورة نبات، ولعلّه يعني: أنّ الصخرة فيها صورة شجر، وكان ببطن (نخلة) فوق (ذات عرق) وكان الجمهور العرب يعبدونها وخاصة قريش. وقد قال أبو سفيان يوم أحد يخاطب المسلمين: لنا العُزّى ولا عُزّى لكم.

وذكر الزمخشري في تفسير الفاتحة أنّ العرب كانوا إذ شرعوا في عمل قالوا: باسم اللّات باسم العّزى.

{ **مَنَاةَ** } عَلَم مرتجل، وهو مؤنث، وكان صخرة، وقد عبده جمهور العرب، وكان موضعه في المشلّل حذو (قديد) بين مكّة والمدينة، وكان الأوس والخزرج يطوفون حوله في الحجّ عوضا عن الصفا والمروة، فلمّا حجّ المسلمون وسعَوا بين الصفا والمروة تحرّج الأنصار، فنزل فيهم قوله تعالى { إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا } [البقرة:158]. كما في حديث عائشة.

{ **وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى** } ووصفها بالثالثة لأنّها كذلك في الذكر، وهو صفة كاشفة، وبالأخرى صفة كاشفة أيضا. فالحاصل من الصفتين تأكيد ذكرها، لأنّ اللّات والعزّى عند قريش وعند جمهور العرب أشهر من مناة لبعد مكان مناة عن بلادهم، ولأن ترتيب مواقع بيوت هذه الأصنام كذلك، فاللات في أعلى تهامة بالطائف، والعُزّى في وسطها بـ (نخلة) بين مكة والطائف، ومناة بـ (المشلّل) بين مكة والمدينة.

وقال ابن عطية: كانت مناة أعظم هذه الأوثان قدرا وأكثرها عبادة.

والأحسن أنّ قوله تعالى { الثَّالِثَةَ الأُخْرَى } جرى على أسلوب العرب إذا أخبروا عن متعدّد، وكان فيه من يُظنّ أنّه غير داخل في الخبر لعظمة أو تباعد عن التلبّس بمثل ما تلبّس به نظراؤه، أن يختموا الخبر فيقولوا وفلان هو الآخر. ووجهه هنا أنّ عُبّاد مناة كثيرون في قبائل العرب فنبّه على أنّ كثرة عَبَدَتها لا يزيدها قوّة على بقية الأصنام، وكلّ ذلك جار مجرى التهكّم والتسفيه.

{ **أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى** } ارتقاء في الإبطال والتهكّم والتسفيه كما تقدّم، وهي مجاراة لاعتقادهم أنّ تلك الأصنام الثلاثة بنات الله، وأنّ الملائكة بنات الله. أي: أجعلتم لله بنات خاصة وأنتم تعلمون أنّ لكم أولادا ذكورا وإناثا، وأنّكم تفضّلون الذكور وتكرهون الإناث؟ فكان في هذا زيادة تشنيع لكفرهم.

{ **تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى** } تعليل للإنكار والتهكّم المفاد من الاستفهام في { أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى }، أي: قد جُرتم في القسمة وما عدلتم فأنتم أحقّاء بالإنكار.

{ **إِذاً** } حرف جواب أريد به جواب الاستفهام الإنكاري، أي: يترتّب على ما زعمتم أنّ ذلك قسمة ضيزى.

{ **ضِيزَى** } وزنه فُعْلَى بضم الفاء، من ضَازَه حقّه: إذا نقصه، وأصل عين ضاز همزة ثم كثر في كلامهم تخفيف الهمزة. قال الكسائي: يجوز ضاز يضيز، وضاز يضوز. لكن الأكثر في كلامهم اعتبار العين ياء فقالوا: ضازه حقّه ضيزا ولم يقولوا ضَوْزا، لأنّ الضَّوز لوك التمر في الفم.

{ **إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا** } استئناف يكرُّ بالإبطال على معتقدهم من أصله بعد إبطاله بما هو من لوازمه، وفي هذه الجملة احتراس لئلّا يتوهَّم متوهِّم إنكار نسبتهم البنات لله أنّ مصبَّ الإنكار على زعمهم أنّها بنات وليست بذكور.

{ **هِيَ** } الضمير عائد إلى اللّات والعُزّى ومناة. أي: ليست هذه الأصنام إلّا أسماء لا مسمَّيات لها ولا حقائق ثابتة، وهذا كقوله تعالى { مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا } [يوسف:40].

<u>والقصر إضافي</u>، أي: هي أسماء لا حقائق عاقلة متصرفة كما تزعمون، وليس القصر حقيقيا لأنّ لهاته الأصنام مسمّيات، وهي الحجارة أو البيوت التي يقصدونها بالعبادة ويجعلون لها سدنة.

{ **مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ** } تعليل لمعنى القصر بطريقة الاكتفاء، لأنّ كونها لا حقائق لها في عالم الشهادة أمر محسوس إذ ليست إلّا حجارة. وأمّا كونها لا حقائق لها من عالم الغيب فلأن عالم الغيب لا طريق إلى إثبات ما يحتويه إلّا بإعلام من عالم الغيب سبحانه، أو بدليل العقل، كدلالة العالم على وجود الصانع وبعض صفاته.

السلطان: الحجّة.

إنزالها من الله: الإخبار بها، وهذا كناية عن انتفاء أن تكون عليها حجّة، لأنّ وجود الحجّة يستلزم ظهورها.

<u>وعُبّر عن الإخبار</u> الموحى به بفعل (أنزل) لأنّه إخبار يرد من العالم العلوي فشُبّه بإدلاء جسم من أعلى إلى أسفل<u>. وكذلك عُبّر</u> عن إقامة دلائل الوجود بالإنزال لأنّ النظر الفكري من خلق الله. كما سُمِّي خلق السكينة في قلوب المؤمنين إنزالا في قوله تعالى { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ } [الفتح:4]. فاستعمال {مَا أَنْزَلَ } هنا من استعمال اللفظ في معنييه المجازيين.

وفي معنى الآية قوله تعالى { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ } [الحج:17]. وتقدّم قوله تعالى { مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ } [يوسف:40].

{ **إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى** } هذا تحويل عن خطاب المشركين الذي كان ابتداؤه من أوّل السورة، وهو من ضروب الالتفات، وهو استئناف بياني.

{ **يَتَّبِعُونَ** } الضمير عائد إلى الذين كان الخطاب موجّها إليهم. وجيء بالمضارع للدلالة على أنّهم مستمرّون على اتباع الظنّ وما تهواه نفوسهم، وذلك يدلّ على أنّهم اتبعوا ذلك من قبل بدلالة لحن الخطاب أو فحواه.

أعقب نفي أن تكون لهم حجّة على الخصائص التي يزعمونها لأصنامهم، أو على أنّ الله سماهم بتلك الأسماء، بإثبات أنّهم استندوا فيما يزعمونه إلى الأوهام وما تحبّه نفوسهم من عبادة الأصنام ومحبة سدنتها ومواكب زيارتها، وغرورهم بأنّها تسعى في الوساطة لهم عند الله تعالى بما يرغبونه في حياتهم، فتلك أوهام وأماني محبوبة لهم يعيشون في غرورها.

{ **الظَّنَّ** } أصله الاعتقاد غير الجازم، ويُطلق على العلم الجازم إذا كان متعلِّقا بالمغيَّبات، كما في قوله تعالى { الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ } [البقرة:46].

وكثر إطلاقه في القرآن على الاعتقاد الباطل، كقوله تعالى { إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ } [الأنعام:116]، ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" إيّاكم والظنّ فإنّ الظنّ أكذب الحديث "**. وهو المراد هنا بقرينة عطف { وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ } عليه كما عُطف { وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ } على نظيره في الأنعام. وهو كناية عن الخطأ باعتبار لزومه له غالبا، كما قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ } [الحجرات:12].

وهذا التفنن في معاني الظنّ في القرآن يشير إلى وجوب النظر في الأمر المظنون حتّى يُلحِقه المسلم بما يناسبه من حُسن أو ذمّ على حسب الأدلة، ولذلك استنبط علماؤنا: أنّ الظنّ لا يغني في إثبات أصول الاعتقاد وأنّ الصائب منه تناط به تفاريع الشريعة.

{ **وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ** } ما لا باعث عليه إلّا الميل الشهواني دون الأدلة، فإنّ كان الشيء المحبوب قد دلّت الأدلة على حقيقته فلا يزيده حبّه إلّا قَبولًا، كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" ورجلان تحابّا في الله اجتمعا عليه وافترقا عليه، ورجل قلبه معلق بالمساجد "**، وقال **" وجُعلت قرة عيني في الصلاة "**.

فمناط الذم في هذه الآية هو قصر اتباعهم على ما تهواه أنفسهم.

وللظنّ في المعاملات بين الناس والأخلاق النفسانية أحكام ومراتب غير ما له في الديانات، أصولها وفروعها، فمنه محمود ومنه مذموم.

{ **الْأَنْفُسُ** } التعريف عوض عن المضاف إليه، أي: وما تهواه أنفسهم.

وعطف { وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ } على { الظَّنَّ } عطف العلة على المعلول، أي: أنّ الذي يبعثهم على اتباع الظنّ أنّه موافق لهواهم وإلفهم.

{ **وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى** } حالية مقرّرة للتعجيب من حالهم، أي: يستمرّون على اتّباع الظنّ

والهوى في حال أنّ الله أرسل إليهم رسولا بالهدى.

ولام القسم لتأكيد الخبر للمبالغة فيما يتضمّنه من التعجيب من حالهم، كأنّ المخاطب يشك في أنّه جاءهم ما فيه هدى مقنع لهم، وذلك لاستمرارهم على ضلالهم استمرارا لا يُظنّ مثله بعاقل.

{ **رَبِّهِمْ** } التعبير عن الجلالة بهذا العنوان لزيادة التعجيب من تصاممهم عن سماع الهدى، مع أنّه ممّن تجب طاعته، فكان ضلالهم مخلوطا بالعصيان والتمرّد على خالقهم.

{ **الْهُدَى** } التعريف للدلالة على معنى الكمال، أي: الهدى الواضح.

{ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى [24] فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى [25] }.

إضراب انتقالي ناشئ عن قوله تعالى { وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ } [23]. والاستفهام المقدّر بعد { أَمْ } إنكاري قُصد به إبطال نوال الإنسان ما يتمنّاه، وأن يجعل ما يتمناه باعثا عن أعماله ومعتقداته، بل عليه أن يتطلّب الحق من دلائله وعلاماته وإن خالف ما يتمنّاه. وهذا ترويض للنفوس على تحمّل ما يخالف أهواءها.

{ **لِلْإِنْسَانِ** } تعريف الجنس ووقوعه في حيز الإنكار، المساوي للنفي، جعله عاما في كلّ إنسان.

{ **مَا تَمَنَّى** } الموصول بمنزلة المعرّف بلام الجنس، ووقوعه في حيّز الاستفهام الإنكاري، الذي بمنزلة النفي، يقتضي العموم، أي: ما للإنسان شيء ممّا تمنّى، أي: ليس الشيء جاريا على إرادته بل على إرادة الله وقد شمل ذلك كلّ هوى دعاهم إلى الإعراض عن كلام الرسول صلى الله عليه وسلم، فمن ذلك تمنّيهم شفاعة الأصنام، وهو الأهم من أحوال الأصنام عندهم، وذلك ما يؤذن به قوله بعد هذا { وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً } [26]. وتمنّيهم أن يكون الرسول ملكا وغير ذلك، نحو قوله تعالى { لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } [الزخرف:31]، وقولهم { ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ} [يونس:15].

{ **فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى** } فُرِّع على الإنكار أنّ الله مالك الآخرة والأولى، أي: فهو يتصرّف في أحوال أهلهما بحسب إرادته لا بحسب تمنّي الإنسان. وهذا إبطال لمعتقدات المشركين التي منها يقينهم بشفاعة أصنامهم.

والتفريع تصريح بمفهوم القصر الإضافي. وتقديم المجرور لإفادة الحصر، أي: لله لا للإنسان.

{ **الْآخِرَةُ** } العالم الأخروي، { **الْأُولَى**} العالم الدنيوي. والمراد بهما ما يحتويان عليه من الأمور، والمقصود من ذكرهما تعميم الأشياء، مثل قوله تعالى { رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ } [الرحمن:17].

وقُدِّمت { الْآخِرَةُ } للاهتمام بها والتنبيه إلى أنّها التي يجب أن يكون اعتناء المؤمنين بها، لأنّ الخطاب في هذه الآية للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين، مع ما في هذا التقديم من الرعاية للفاصلة.

{ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى } [26].

لمّا بيَّن الله أنّ أمور الدارين بيد الله تعالى وأن ليس للإنسان ما تمنّى، ضرب لذلك مثالا من الأماني التي هي أعظم أماني المشركين وهي قولهم في الأصنام { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى } [الزمر:3]، وقولهم فيهم { هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ } [يونس:18]، فبيَّن إبطال قولهم بطريق فحوى الخطاب، وهو أنّ الملائكة، الذين لهم شرف المنزلة، لا يملكون الشفاعة إلّا إذا أذن الله في ذلك. فكيف يكون للمشركين ما تمنّوا من شفاعة الأصنام وهي حجارة في الأرض.

فهذه مناسبة عطف هذه الجملة على جملة { أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى } [24] وليس هذا الانتقال اقتضابا لبيان عظم أمر الشفاعة.

{ **كَمْ** } اسم يدلّ على كثرة العدد، وهو مبتدأ والخبر {لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُم }.

{ **فِي السَّمَاوَاتِ** } صفة لـ { مَلَكٍ }، والمقصود منها بيان شرفهم بشرف العالم الذي هم أهله، وهو عالم الفضائل ومنازل الأسرار.

{ **لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً** } خبر عن { كَمْ }، أي: لا تغني شفاعة أحدهم، فهو عام بوقوع الفعل في سياق النفي، و{ **شَيْئاً** } مفعول مطلق للتعميم، أي: شيئا من الإغناء، لزيادة التنصيص على عموم النفي.

<u>والمراد</u>: أنّهم لا يجرأون على الشفاعة عند الله، فلذلك عُقّب بالاستثناء بقوله تعالى:

{ **إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى** } أي: إلّا من بعد أن يأذن الله لأحدهم في الشفاعة ويرضى بقبولها في المشفوع له.

{ **لِمَنْ يَشَاءُ** } من الملائكة، أي: فإذا أذن لأحدهم قُبلت شفاعته.

<u>المعنى</u>: أنّ الملائكة لا يزالون يتقرّبون بطلب إلحاق المؤمنين بالمراتب العليا، كما دلّ عليه قوله تعالى { وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا } [غافر:8]، وقوله تعالى { وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ } [الشورى:5].

{ **وَيَرْضَى** } عطف على { لِمَنْ يَشَاءُ } للإشارة إلى أنّ إذن الله بالشفاعة يجري على حسب إرادته إذا كان المشفوع له أهلا لن يُشفع له. وفي هذا الإبهام تحريض للمؤمنين أن يجتهدوا في التعرّض لرضى الله عنهم ليكونوا أهلا للعفو عمّا فرّطوا فيه من الأعمال.

{ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى [27] وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً [28] }.

{ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ }

اعتراض واستطراد لمناسبة ذكر الملائكة، وتبعا لما ذُكر آنفا من جعل المشركين اللات والعزى ومناة

بنات لله، ثُنّي إليهم عِنان الردّ والإبطال لزعمهم أنّ الملائكة بنات الله، جمعا بين ردِّ باطلين متشابهين.

{ **إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ** } كان مقتضى الظاهر أن يُعبِّر عن المردود عليهم بضمير الغيبة تبعا لقوله تعالى { إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ } [28]، فعدل عن الإضمار إلى الإظهار بالموصولية لما تُؤذن به الصلة من التوبيخ لهم والتحقير لعقائدهم، إذ كفروا بالآخرة وقد تواتر إثباتها على ألسنة الرسل وعند أهل الأديان المجاورين لهم من اليهود والنصارى والصابئة.

{ **تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى** } التسمية مطلقة هنا على التوصيف، لأنّ الاسم قد يطلق على اللفظ الدال على المعنى وقد يطلق على المدلول المسمّى ذاتا كان أو معنى. أي: أنّهم يزعمون الملائكة إناثا وذلك توصيف، قال تعالى { وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً } [الزخرف:19].

{ **وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ** } حال من ضمير { يسَمُّونَ }، أي يثبتون للملائكة صفات الأنثى في حال انتفاء علم منهم بذلك، وإنّما هو تخيّل وتوهّم، إذ العلم لا يكون إلّا عن دليل، فنفي العلم مراد به نفيه ونفي الدليل على طريقة الكناية.

{ **إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً** } موقع هذه الجملة ذو شعب:

فإنّ فيها بيانا لجملة { وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ }، وعودا إلى جملة { إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ } [23]، وتأكيدا لمضمونها، وتوطئة لتفريع { فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا } [29].

{ **إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ** } استعير الاتباع للأخذ بالشيء واعتقاد مقتضاه، أي: ما يأخذون في ذلك إلّا بدليل الظنّ المخطئ. وأطلق الظنّ على الاعتقاد المخطئ، كما هو غالب إطلاقه، وقرينته هنا بيّنة.

{ **وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً** } أُظهر لفظ { الظَّنَّ } دون ضميره لتكون الجملة مستقلّة بنفسها فتسير مسير الأمثال. ونفي الإغناء: نفي الإفادة، أي: لا يفيد شيئا من الحقّ.

{ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا [29] ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى [30] }.

{ **فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ** } بعد أن وصف مداركهم الباطلة وضلالهم فرَّع عليه أمر نبيّه صلى الله عليه وسلم بالإعراض عنهم، لأنّ ما تقدّم من وصف ضلالهم كان نتيجة إعراضهم عن ذكر الله، وهو التولّي عن الذكر، فحقَّ أن يكون جزاؤهم عن ذلك الإعراض إعراضا عنهم، فإنّ الإعراض والتولّي مترادفان أو متقاربان.

{ **مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا** } هم الفريق الذين أعرضوا عن القرآن، وهم المخاطبون آنفا بقوله تعالى { مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ } [2]، وقوله تعالى { أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى } [19]، والمُخبر عنهم بقوله تعالى { إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ } [28]، وقوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ } [27].

والإعراض والتولِّي كلاهما مستعمل هنا في مجازه؛ فأمّا الإعراض فهو مستعار لترك المجادلة أو لترك الاهتمام بسلامتهم من العذاب وغضب الله، وأمّا التولِّي فهو مستعار لعدم الاستماع أو لعدم الامتثال.

الإعراض: حقيقته لفت الوجه عن الشيء، لأنّه مشتق من (العارض) وهو صفحة الخد، لأنّ الكاره لشيء يصرف عنه وجهه.

التولّي: حقيقته الإدبار والانصراف.

وإعراض النبيّ صلى الله عليه وسلم عنهم، المأمور به هنا، مراد به عدم الاهتمام بنجاتهم لأنّهم لم يقبلوا الإرشاد، وإلّا فإنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم مأمور بإدامة دعوتهم للإيمان، فكما كان يدعوهم قبل نزول هذه الآية فقد دعاهم غير مرة بعد نزولها، على أنّ الدعوة لا تختصّ بهم فإنّها ينتفع بها المؤمنون، ومن لم يسبق منه إعراض من المشركين. وبهذا تعلم ألّا علاقة لهذه الآية وأمثالها بالمتاركة ولا هي منسوخة بآيات القتال. وقد تقدّم الكلام على ذلك في قوله تعالى { فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ } [النساء:63]، وقوله تعالى { وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ } [الأنعام:106]، فضمّ إليه ما هنا.

{ **عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا** } جيء بالاسم الظاهر في مقام الإضمار، دون أن يقال: فأعرض عنهم، لما تؤذن به صلة الموصول من علّة الأمر بالإعراض عنهم، ومن ترتّب تولّيهم عن ذكر الله على ما سبق وصفه من ضلالهم، إذ لم يتقدّم وصفهم بالتولِّي عن الذكر وإنّما تقدّم وصف أسبابه.

{ **ذِكْرِنَا** } هو القرآن.

{ **وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا** } كناية عن عدم الإيمان بالحياة الآخرة.

{ **ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ** } اعتراض، وهو استئناف بياني بُيِّن به سبب جهلهم بوجود الحياة الآخرة، لأنّه لغرابته ممّا يسأل عنه السائل، وفيه تحقير لهم وازدراء بهم بقصور معلوماتهم.

{ **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى** } تعليل لجملة { فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى }، وهو تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم، والخبر مستعمل في معنى أنّه متولِّي حسابهم وجزائهم، على طريقة الكناية، وفيه وعيد للضالين.

والتوكيد المفاد بـ { إِنَّ } وبضمير الفعل { هُوَ } راجع إلى المعنى الكنائي، وأمّا كونه تعالى أعلم بذلك فلا مقتضى لتأكيدها لمّا كان المخاطب به النبيّ صلى الله عليه وسلم. والمعنى: هو أعلم منك بحالهم.

{ **هُوَ** } ضمير الفصل مفيد القصر وهو قصر حقيقي. والمعنى: أنت لا تعلم دخائلهم فلا تتحسر عليهم.

{ **وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى** } تتميم، وفيه وعد للمؤمنين وبشارة للنبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى [31] الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى [32] }.

عطف على قوله تعالى { إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ } [30]، فبعد أن ذُكر أنّ لله أمور الدارين بقوله { فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى } [25]، انتُقل إلى أهم ما يُجزي في الدارين من أحوال الناس الذين هم أشرف ما على الأرض بمناسبة الآية السابقة [30] المشار بها إلى الجزاء، والمتضمّنة لإثبات البعث والجزاء.

{ **وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ** } المقصود الأصلي من هذا الكلام { وَمَا فِي الْأَرْضِ } إذ هم متعلّق الجزاء، وإنّما ذُكر معه { مَا فِي السَّمَاوَاتِ } على وجه التتميم للإعلام بإحاطة ملك الله لما احتوت عليه العوالم كلّها. ونكتة الابتداء بـ { السَّمَاوَاتِ } هي الاهتمام بالعالم العلوي لأنّه أوسع وأشرف، وليكون المقصود، وهو قوله تعالى { لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا } مقترنا بما يناسبه في بناء الجملة، لأنّ المجزيين هم أهل الأرض.

{ **لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى** } متعلّق بما في الخبر من معنى الكون المقدّر في الجار والمجرور المخبر به عن { مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ }، أي: علّة ذلك الملك أن يجزي الذين أساءوا والذين أحسنوا من أهل الأرض، وهم الذين تصدر منهم الإساءة والإحسان.

فـ (اللام) في { لِيَجْزِيَ } لام التعليل، جُعل الجزاء علّة لثبوت ملك الله لما في السماوات والأرض.

{ **بِمَا عَمِلُوا** } بمثل ما عملوا، أي: جزاء مماثلا لما عملوا.

الحسنى: صفة لموصوف محذوف يدلّ عليه { يَجْزِيَ } وهي المثوبة بمعنى الثواب.

{ **بِالْحُسْنَى** } أي: بالمثوبة الحسنى، أي: بأفضل ممّا عملوا، وفيه إشارة إلى مضاعفة الحسنات، كقوله تعالى { مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا } [النمل:89].

وجاء ترتيب التفصيل لجزاء المسيئين والمحسنين على وفق ترتيب إجماله الذي في قوله تعالى { إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى } [30]، على طريقة اللف والنشر المرتّب.

{ **الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ** } صفة { الَّذِينَ أَحْسَنُوا }، أي: الذين أحسنوا واجتنبوا كبائر الإثم والفواحش، أي: فعلوا الحسنات واجتنبوا المنهيات، وذلك جامع التقوى. وهذا تنبيه على أنّ اجتناب ما ذُكر يُعدّ من الإحسان، لأنّ فعل السيّئات ينافي وصفهم بالذين احسنوا.

{ **كَبَائِرَ الْإِثْمِ** } الآثام الكبيرة فيما شرع الله، وهي ما شدّد الدين التحذير منه، أو ذَكر وعيدا بالعذاب أو وَصف على فاعله حدًّا. وتقدّم عند قوله تعالى { إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ } [النساء:31].

{ **وَالْفَوَاحِشَ** } العطف يقتضي المغايرة، ولكنّها مغايرة بالعموم والخصوص الوجهي، فالفواحش أخصّ من الكبائر وهي أقوى إثما. وهي الفعلات التي يُعدّ فاعلها متجاوزا الكبائر، مثل الزنى والسرقة وقتل الغيلة، وقد تقدّم عند قوله تعالى { قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ } [الأعراف: 33].

اللَّمَمَ: لغة، اسم مصدر أَلَمَّ بالمكان إلماما إذا حلّ به ولم يُطل المكث. وفي الشريعة، الفعل الحرام الذي هو دون الكبائر والفواحش في تشديد التحريم. وهذا النوع يسميه علماء الشريعة الصغائر في مقابلة الكبائر.

ومن المفسرين من فسّر اللمم بالهمّ بالسيئة ولم يفعلها، فهو إلمام مجازي.

{ **إِلَّا اللَّمَمَ** } استثناء منقطع، لأنّ اللمم ليس من كبائر الإثم ولا من الفواحش. فالاستثناء بمعنى الاستدراك. ووجهه أنّ ما سُمِّي باللمم ضربٌ من المعاصي المُحذَّر منها في الدين، فقد يظنّ الناس أنّ النهي عنها يُلحقها بكبائر الإثم فلذلك حقّ الاستدراك، وفائدة هذا الاستدراك عامة وخاصة:

أمّا العامة فلكي لا يعامل المسلمون مرتكب شيء منها معاملة من يرتكب الكبائر.

وأمّا الخاصة فرحمة بالمسلمين الذين قد يرتكبونها فلا يفُل ارتكابها من نشاط طاعة المسلم. فهذا الاستدراك بشارة لهم. وليس المعنى أنّ الله رخص في إتيان اللمم.

{ **إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ** } تعليل لاستثناء اللّمم من اجتنابهم كبائر الإثم والفواحش.

{ **رَبَّكَ** } في بناء الخبر على جعل المسند إليه { رَبُّكَ } دون الاسم العلم إشعار بأنّ سعة المغفرة رفق بعباده الصالحين، شأن الرب مع مربوبه الحقّ. وفي إضافة (ربّ) إلى ضمير النبيّ صلى الله عليه وسلم دون ضمير الجماعة إيماء إلى أنّ هذه العناية بالمحسنين من أمّته قد حصلت لهم ببركته.

الواسع: كثير المغفرة، استعيرت السعة لكثرة الشمول لأنّ المكان الواسع يمكن أن يحتوي على العدد الكثير ممّن يحل فيه، قال تعالى { رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً } [غافر:7].

{ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى }.

الخطاب للمؤمنين، ووقوعه عقب قوله تعالى { لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى } ينبئ عن اتصال معناه بمعنى ذلك، فهو غير موجّه لليهود كما في أسباب النزول للواحدي وغيره.

والجملة استئناف بياني لجملة { إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ } لما تضمّنته الأخيرة من الامتنان، فكأنّ السامعين لمّا سمعوا ذلك الامتنان شكروا الله وهجس في نفوسهم خاطر البحث عن سبب هذه الرحمة بهم فأجيبوا بأنّ ربهم أعلم بحالهم من أنفسهم فهو يُدبِّر لهم ما لا يخطر ببالهم، ونظيره ما في الحديث القدسي: " **أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر** ".

{ **إِذْ أَنْشَأَكُمْ** } ظرف متعلّق بـ { أَعْلَمُ }، أي: هو أعلم بالناس من وقت إنشائه إيّاهم من الأرض.
{ **وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ** } يختص بسعة المغفرة والرفق بهذه الأمة، وهو مقتضى قوله تعالى { يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة:185].

الأجنّة: جمع جنين، وهو نسل الحيوان ما دام في الرحم، وهو فعيل بمعنى مفعول لأنّه مستور.

{ **فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ** } صفة كاشفة، إذ الجنين لا يقال إلّا على ما في بطن أمّه. وفائدة هذا الكشف أن فيه تذكيرا باختلاف أطوار الأجنة من وقت العلوق إلى الولادة، وإشارة إلى إحاطة علم الله تعالى بتلك الأطوار.

{ **فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ** } اعتراض بين جملة { هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ } وجملة { أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى } [33]، والفاء لتفريع الاعتراض، وهو تحذير للمؤمنين من العجب بأعمالهم الحسنة عجبا يحدثه المرء في نفسه أو يدخله أحد على غيره بالثناء عليه بعمله.

{ **تُزَكُّوا** } مضارع (زكّى) الذي هو من التضعيف المراد منه نسبة المفعول إلى أصل الفعل، أي: لا تنسبوا لأنفسكم الزكاة.

<u>المعنى</u>: لا تحسبوا أنفسكم أزكياء وابتغوا زيادة التقرب إلى الله، أو لا تثقوا بأنّكم أزكياء فيدخلكم العجب بأعمالكم، <u>ويشمل ذلك ذكر المرء أعماله الصالحة</u> للتفاخر بها، أو إظهارها للناس، ولا يجوز ذلك إلّا إذا كان فيه جلب مصلحة عامة، كما قال يوسف عليه السلام {اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ} [يوسف:55].

<u>ويشمل تزكية المرء غيره</u>، فيرجع { أَنْفُسَكُمْ } إلى معنى قومكم أو جماعتكم، مثل قوله تعالى { فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ } [النور:61]، أي: ليسلّم بعضكم على بعض.

<u>المعنى</u>: فلا يُثني بعضكم على بعض بالصلاح والطاعة لئلا يغيّره ذلك.

وقد ورد النهي في أحاديث عن تزكية الناس بأعمالهم. ومنه حديث أم عطيّة حين مات عثمان بن مظعون في بيتها ودخل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت أم عطية: رحمة الله عليك أبا السائب (كنية عثمان بن مظعون) فشهادتي عليك لقد أكرمك الله فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" وما يدريك أن الله أكرمه "**، فقالت: إذا لم يُكرمه الله فمن يكرمه الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" أمّا هو فقد جاءه اليقين وإنّي لأرجو له الخير وإنّي والله ما أدري وأنا رسول الله ما يُفعل بي "**.

قالت أم عطية: فلا أزكي أحدا بعد ما سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد شاع من آداب عصر النبوّة بين الصحابة التحرّز من التزكية وكانوا يقولون إذ أثنوا على أحد: لا أعلم عليه إلّا خيرا ولا أزكّي على الله أحدا.

<u>ولا يدخل في هذا النهي</u> الإخبار عن أحوال الناس بما يُعلم منهم وجُرّبوا فيه؛ من ثقة وعدالة في الشهادة والرواية، وقد يُعبَّر عن التعديل بالتزكية وهو لفظ لا يراد به معنى قوله تعالى { فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ }، بل

هو لفظ اصطلح عليه الناس بعد نزول القرآن ومرادهم منه واضح.

{ **هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى** } في موقع البيان لسبب النهي أو لأهم أسبابه، أي: فوّضوا ذلك إلى الله إذ هو أعلم بمن اتقى، أي: بحال من اتقى من كمال تقوى أو نقصها أو تزييفها.

{ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى [33] وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى [34] أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى [35] }.

الفاء لتفريع الاستفهام التعجيبي على قوله تعالى { لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى } [31]، إذ كان حال هذا الذي تولّى وأعطى قليلا وأكدا جهلًا بأنّ للإنسان ما سعى، وقد حصل في وقت نزول الآية المتقدّمة أو قبلها حادث أنبأ عن سوء الفهم لمراد الله من عباده مع أنّه واضح لمن صرف حقّ فهمه. ففُرِّع على ذلك كلّه تعجيب من انحراف أفهامهم.

{ **أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى** } اتفق المفسِّرون والرواة على أنّ المراد به هنا معيّن، ولعلّ ذلك وجه التعبير عنه بلفظ { الَّذِي } دون كلمة (مَنْ). واختلفوا في تعيينه.

*/ روى الطبري والقرطبي عن مجاهد وابن زيد أن المراد به <u>الوليد بن المغيرة</u>، قالوا: كان يجلس إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ويستمع إلى قراءته وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعظه فقارب أن يسلم فعاتبه رجل من المشركين (لم يُسمُّوه) وقال: لِمَ تركت دين الأشياخ وضلّلتهم وزعمت أنّهم في النار، كان ينبغي أن تنصرهم، فكيف يُفعل بآبائك؟ فقال : إني خشيت عذاب الله فقال: اعطني شيئا وأنا أحمل عنك كلّ عذاب كان عليك فأعطاه، ولما سأله الزيادة بخل عنه وتعاسر وأكدى. <u>وهو الراجح عندي</u>.

*/ وروى القرطبي عن السدي: أنها نزلت في العاصي بن وائل السهمي.

*/ وعن محمد بن كعب: نزلت في أبي جهل.

*/ وعن الضحاك: نزلت في النضر بن الحارث.

{ **وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى** } أشار إلى ما أعطاه للذي ادّعى تحمّل العذاب عنه. ووصف عطاؤه بأنّه قليل توطئة لذمّه بأنّه مع قلّة ما أعطاه قد شح به فقطعه. فحصل التعجيب من حال الوليد كلّه تحقيرا لعقله وأفن رأيه.

{ **وَأَكْدَى** } يقال: أكدى الذي يحفر، إذا اعترضته كُدية، أي: حجر لا يستطيع إزالته.

{ **أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ** } استئناف بياني من قوله تعالى { أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى }، والاستفهام للتعجيب والإنكاري على توهّمه أنّ استئجار أحد ليتحمّل عنه عذاب الله ينجيه، أي: ما عنده علم الغيب. كناية عن الخطأ. وتقديم المسند على المسند إليه للاهتمام بهذه العندية العجيب ادعاؤها، وللإشارة إلى بعده عن هذه المنزلة.

{ **فَهُوَ يَرَى** } تفريع على التعجيب، أي: فهو يشاهد أمور الغيب، والرؤية بصرية ومفعولها محذوف، والتقدير: فهو يرى الغيب. <u>والمعنى</u>: أنّه آمن نفسه من تبعة التولي عن الإسلام ببذل شيء لمن تحمّل عنه

التبعة، كأنّه يعلم الغيب ويشاهد أنّ ذلك يدفع عنه العقاب.
وتقديم الضمير المسند إليه على فعله المسند دون أن يقول: فيرى، لإفادة تقوّي الحكم. وهذا التقوّي بناء على ما أظهر من اليقين بالصفقة التي عاقد عليها، وهو أدخل في التعجيب من حاله.

{ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى [36] وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى [37] أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى [38] }.

{ **أَمْ** } لإضراب الانتقال إلى متعجَّبٍ منه وإنكارٍ عليه آخر، وهو جهله بما عليه أن يعلمه الذين يخشون الله تعالى من علم ما جاء على ألسنة الرسل الأوّلين، فإن كان هو لا يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم فهلّا تطلّب ما أخبرت به رسل من قبل، طالما ذكر هو وقومُه أسماءهم وشرائعهم في الجملة، وطالما سأل هو وقومُه أهل الكتاب عن أخبار موسى، فهلّا سأل عمَّا جاء عنهم في هذا الغرض الذي يسعى إليه، وهو طلب النجاة من عذاب الله، فينبّئه العالمون. فإنّ شريعة إبراهيم مأثور بعضها عند العرب، وشريعة موسى معلومة عند اليهود.
فالاستفهام المقدر بعد { أَمْ } إنكار مثل الاستفهام المذكور قبلها في قوله تعالى { أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ }.
{ **صُحُفِ مُوسَى** } هي التوراة. وهي مشتهرة عند أهل الكتاب، والعرب يخالطون اليهود في خيبر وقريظة والنضير وتيما، ويخالطون نصارى نجران، وقد قال الله تعالى { فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى } [القصص:48].
{ **وَإِبْرَاهِيمَ** } صحف إبراهيم ما سجّل فيها ما أوحى الله إليه، وهي المذكورة في قوله تعالى { إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى } [الأعلى:19/18]. وروى ابن حيان والحاكم عن أبي ذر أنّه سأل النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الكتب التي أنزلت على الأنبياء فذكر له منها عشرة صحائف أنزلت على إبراهيم، أي: أنزل عليه ما هو مكتوب فيها.
وإنّما خصّ هذه الصحف بالذكر لأنّ العرب يعرفون إبراهيم وشريعته ويسمّونها الحنيفية وربّما ادعى بعضهم أنّه على أثارة منها، مثل: زيد بن عمرو بن نفيل.
وتقديم { صُحُفِ مُوسَى } لأنّها اشتهرت بسعة ما فيها من الهدى والشريعة، وأمّا صحف إبراهيم فكان المأثور منها أشياء قليلة. وقُدِّرت بعشر صحف، أي: مقدار عشر ورقات بالخط القديم، تَسَع الورقة قرابة أربع آيات من آي القرآن بحيث يكون مجموع ما في صحف إبراهيم مقدار أربعين آية.
وإنّما قدّم في سورة الأعلى صحف إبراهيم على صحف موسى مراعاة لوقوعهما بدلا من الصحف الأولى فقُدّم في الذكر أقدمها.
{ **الَّذِي وَفَّى** } وصف إبراهيم بذلك تسجيل على المشركين بأنّ إبراهيم بلّغ ما أوحي إليه إلى قومه وذرّيّته ولكنّ العرب أهملوا ذلك واعتاضوا عن الحنفية بالإشراك. وحذف المتعلّق لإفادة الشمول، وفيه

معنى المدح.

{ **أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى** } يجوز أن يكون بدلا من { بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ } بدل مفصّل من مجمل. والتقدير: أم لم ينبأ بأنّه لا تزر وازرة وزر أخرى.

ويجوز أن تكون (أن) تفسيرية، فسَّرت ما في صحف موسى وإبراهيم، لأنّ ما من الصحف شيء مكتوب، والكتابة فيها بمعنى القول دون حروفه، فصلح ما في صحف موسى وإبراهيم لأن تفسّره (أن) التفسيرية.

{ **تَزِرُ** } من مضارع وَزر، إذا فعل وزرا.

{ **وَازِرَةٌ** } التأنيث بتأويل: نفس، وكذلك تأنيث { **أُخْرَى** }.

وهذا ممّا كان في صحف إبراهيم، ومنه ما حكى الله في قوله تعالى { وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ } [الشعراء:87-89].

وحُكي في التوراة عن إبراهيم أنّه قال في شأن قوم لوط: " أفتُهلك البار مع الآثم ".

وأمّا نظيره في صحف موسى ففي التوراة: " لا يُقتل الآباء عن الأولاد، لا يُقتل الأولاد عن الآباء، كل إنسان بخطيئته يقتل " [سفر التثنية، إصحاح: 24]. وحكى الله عن موسى قوله { أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا } [الأعراف:155].

{ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى } [39].

يصحّ أن تكون عطفا على المجرور بـ (الباء) { بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ }، فتكون { أَنْ } مخفَّفة من الثقيلة، ويصحّ أن تكون عطفا على { أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى }، فتكون { أَنْ } تفسيرية، وعلى كلا الاحتمالين، تكون { أَنْ } تأكيدا لنظيرتها في المعطوف عليها.

{ **لِلْإِنْسَانِ** } تعريف الجنس، ووقوعه في سياق النفي يفيد العموم.

السعي: العمل والاكتساب، وأصل السعي: المشي، فأُطلق على العمل مجازا مرسلا أو كناية. والمراد هنا عمل الخير بقرينة ذكر لام الاختصاص، وبأن جُعل مقابلا لقوله { أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } [38].

والمعنى: لا تحصل لأحد فائدة عمل إلّا ما عمله بنفسه، فلا يكون عمل غيره نافعا له.

وهذه الآية حكاية عن شرعي إبراهيم وموسى، وإذ قد تقرر أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ، تدل هذه الآية على أنّ عمل أحد لا يجزئ عن أحد فرضا أو نفلا على العين.

واختلف العلماء في تأويل هذه الآية ومحملها: فعن عكرمة أنّ قوله تعالى {وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى} حكاية عن شريعة سابقة فلا تلزم في شريعتنا، يريد أنّ شريعة الإسلام نسخت ذلك فيكون قبول عمل أحد عن غيره من خصائص هذه الأمّة.

واعلم أنّ أدلة لحاق ثواب بعض الأعمال إلى غير من عملها ثابتة على الجملة وإنّما تتردّد الأنظار في

التفصيل أو التعميم، وقد قال الله تعالى { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ } [الطور:21] وقد بيّنّا شيئا من المسألة هناك.

وفي حديث مسلم: " **إذا مات الإنسان انقطع عمله إلّا من ثلاثة: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعوا له** ".

وثبتت أخبار صحاح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم تدلّ على أنّ عمل أحد عن آخر يجزى عن المنوب عنه:

*/ ففي الموطأ حديث الفضل بن عباس أنّ امرأة من خثعم سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: إنّ فريضة الله على عباده في الحجّ أدركت أبي شيخا كبيرا لا يثبت على الراحلة أفيجزئ أنّ أحج عنه؟ قال: " **نعم حجّي عنه** ".

*/ وفي حديث ابن عباس أنّ رجلا قال: يا رسول الله إنّ أمّي توفيت أفينفعها إن تصدّقت عنها؟ قال: " **نعم** ".

*/ وفي حديث عمرو بن العاص وقد اعتق أخوه هشام عن أبيهم العاص بن وائل عبيدا فسأل عمرو رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن يفعل مثل فعل أخيه فقال له: " **لو كان أبوك مسلما فأعتقتم عنه أو تصدقتم عنه أو حججتم عنه بلغه ذلك** ".

*/ وروي أنّ عائشة أعتقت عن أخيها عبد الرحمن بعد موته رقابا واعتكفت عنه.

*/ وفي صحيح البخاري عن ابن عمر وابن عباس أنّهما أفتيا امرأة جعلت أمّها على نفسها صلاة بمسجد قباء ولم تف بنذرها، أن تصلّي عنها بمسجد قباء.

*/ وأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم سعد ابن عبادة أن يقضي نذرا نذرته أمّه، قيل كان عتقا، وقيل صدقة.

وممّا يجب تقديمه أن تعلم أنّ التكاليف الواجبة على العين، فرضا أو سنّة، لها مقاصد مترتبة عن فعلها، فإذا قام بها غيره عنه فات المقصود من مخاطبة أعيان المسلمين بها، وكذا اجتناب المنهيات لا تُتصور فيها النيابة.

فأمّا الإيمان فأمره بيّن لأنّ ماهية الإيمان لا يُتصور فيها التعدّد.

وأمّا ما عدا الإيمان من شرائع الإسلام الواجبة:

*/ فما كان من عمل الأبدان، فليس للإنسان إلّا ما سعى منه ولا يجزئ عنه سعي غيره لأن المقصود من الأمور العينية المطالب بها المرء بنفسه هو ما فيها من تزكية النفس وارتياضها على الخير كما تقدم آنفا. ومثل ذلك الرواتب من النوافل والقربات حتى يصلح الإنسان ويرتاض على مراقبة ربه بقلبه وعمله والخضوع له تعالى ليصلح بصلاح الأفراد صلاح مجموع الأمة والنيابة تُفِيت هذا المعنى.

*/ وما كان من أفعال الخير غير معيّن بالطلب؛ كالقرب النافلة فإنّ فيه مقصدين مقصد ملحق بالمقصد الذي في الأعمال المعيّنة بالطلب، ومقصد تكثير الخير في جماعة المسلمين بالأعمال والأقوال الصالحة،

وهذا الاعتبار الثاني لا تُفِيته النيابة.
وللمسألة تفاصيل وتفريعات تجدها في كتب الفقه.

{ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى [40] ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى [41] }.

يجوز أن تكون عطفا على جملة { أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } [38]، فهي من تمام تفسير قوله تعالى { بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ } [37/36]. وقد يكون مضمون هذه الجملة في شريعة إبراهيم ما حكاه الله عنه من قوله { وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ } [الشعراء:87].

ويجوز أن لا يكون مضمون هذا القول مشمولا لما في صحف موسى وإبراهيم، فعطفه على (ما) الموصولة من قوله تعالى { بماَفِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ} عطف المفرد على المفرد. وعليه فلا نتطلب ثبوت مضمون هذه الجملة في شريعة إبراهيم عليه السلام.

{ **سَوْفَ** } حرف استقبال، والأكثر أن يراد به المستقبل البعيد.

{ **يُرَى** } يشاهد عند الحساب، كما في قوله تعالى { وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً } [الكهف:49].

فيجوز أن تُجسَّم الأعمال فتصير مشاهَدة. وأمور الآخرة مخالفة لمعتاد أمور الدنيا.

ويجوز أن تُجعل علامات على الأعمال يُعلن بها عنها، كما في قوله تعالى { نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ } [التحريم:8]، وما في الحديث: **" يُنصَب لكل غادر لواء يوم القيامة فيقال: هذه غدرة فلان "**. فيقدّر مضاف، يكون الكلام باعتباره: وأنّ عنوان سعيه سوف يُرى.

ويجوز أن يكون ذلك بإشهار العمل والسعي، كما في قوله تعالى { أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ } [لأعراف:49]، وكما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" من سمَّع بأخيه فيما يكره سمَّع الله به سامع خلقه يوم القيامة "**، فتكون الرؤية مستعارة للعلم لقصد تحقّق العلم وإشهاره. وحكمة ذلك تشريف المحسنين بحسن السمعة، وانكسار المسيئين بسوء الأحدوثة.

{ **ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى** } وهو المقصود من الجملة.

{ **ثُمَّ** } للتراخي الرتبي لأنّ حصول الجزاء أهمّ من إظهاره أو إظهار المجزي عنه.

{ **يُجْزَاهُ** } ضمير النصب عائد إلى السعي، أي: يُجزى عليه، أو يجزى به.

الأوفى: اسم تفضيل من الوفاء وهو التمام والكمال، والتفضيل مستعمل هنا في القوّة، وهو منزوع المفاضلة.

والمعنى: أنّ الجزاء على الفعل من حسن أو سيّئ موافق للمجزيّ عليه، قال تعالى { فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ } [النساء: 173]، وقال تعالى { وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ } [هود:109]، وقال تعالى { وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ } [النور:39].

{ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى } [42].

القول في موقعها كالقول في موقع جملة { وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى } [40] سواء.

فيجوز أن تكون هذه الجملة معطوفة على جملة { وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى }، فتكون تتمّة لما في صحف موسى وإبراهيم، ويكون الخطاب في قوله { إِلَى رَبِّكَ } التفاتا من الغيبة إلى الخطاب، والمخاطب غير معيّن، فكأنّه قيل: وأنّ إلى ربه المنتهى، وقد يكون نظيرها من كلام إبراهيم ما حكاه الله عنه بقوله { وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ } [الصافات:99].

ويجوز أنّها ليست مما اشتملت عليه صحف موسى وإبراهيم، ويكون عطفها عطف مفرد على مفرد. والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم. وعليه فلا نتطلب لها نظيرا من كلام إبراهيم عليه السلام.

والرجوع إلى الله: الرجوع إلى حكمه المحض وسبيله. فالكلام على حذف مضاف دلّ عليه السياق.

{ **رَبِّكَ** } تشريف للنبيّ صلى الله عليه وسلم والتعريض بالتهديد لمكذّبيه، لأنّ شأن الربّ الدفاع عن مربوبه.

{ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى } [43].

موقع هذه الجملة في عطفها مثل موقع جملة { وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى } [40] في الاحتمالين، فإنّ كانت ممّا شملته صحف إبراهيم كانت حكاية لقوله { وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ } [الشعراء:80].

انتقال من الاعتبار بأحوال الآخرة إلى الاعتبار بأحوال الدنيا، وضمير { هُوَ } عائد إلى { رَبُّكَ } [42].

الضحك: أثر سرور النفس، و**البكاء**: أثر الحزن.

ولا يخلو الإنسان من حالي حزن وسرور، فذكر الضحك والبكاء يفيد الإحاطة بأحوال الإنسان بإيجاز، ويرمز إلى أسباب الفرح والحزن، ويُذكّر بالصانع الحكيم، ويُشير إلى أنّ الله هو المتصرّف في الإنسان لأنّه خلق أسباب فرحه ونكده وألهمه إلى اجتلاب ذلك بما في مقدوره وجعل حدا عظيما من ذلك خارجا على مقدور الإنسان، وذلك لا يمتري فيه أحد.

والمناسبة لذكره في هذا المقام أنّ الجزاء الأوفى لسعي الناس: بعضه سار لفريق وبعضه محزن لفريق آخر.

{ **هُوَ** } أفاد ضمير الفصل قصرا لصفة خلق أسباب الضحك والبكاء على الله تعالى لإبطال الشريك في التصرّف، فتبطل الشركة في الإلهية.

وإسناد الإضحاك والإبكاء إلى الله تعالى لأنّه خالق قوتي الضحك والبكاء في الإنسان، وذلك خلق عجيب، ولأنّه خالق طبائع الموجودات التي تجلب أسباب الضحك والبكاء من سرور وحزن.

{ **أَضْحَكَ وَأَبْكَى** } لم يذكر المفعول لأنّ القصد إلى الفعلين لا إلى مفعوليهما، فالفعلان منزلان منزلة اللازم. أي: أوجد الضحك والبكاء.

ولمّا كان هذا الغرض من إثبات انفراد الله تعالى بالتصرف في الإنسان بما يجده الناس في أحوال أنفسهم من خروج أسباب الضحك والبكاء على قدرتهم تعيّن أنّ المراد: أضحك وأبكى في الدنيا، ولا علاقة لهذا بالمسرّة والحزن الحاصلين في الآخرة.

وفي هذه الآية محسِّن الطباق بين الضحك والبكاء وهمّا ضدان.

وتقديم الضحك على البكاء لأن فيه امتنانا بزيادة التنبيه على القدرة، وحصل بذلك مراعاة الفاصلة.

{ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا } [44].

موقع الجملة كموقع جملة { وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى } [43]. فإن كان مضمونها ممّا شملته صحف إبراهيم كان المحكي بها من كلام إبراهيم ما حكاه الله عنه بقوله { وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ } [الشعراء:81].

انتقل من الاعتبار بانفراد الله بالقدرة على إيجاد أسباب المسرّة والحزن، إلى العبرة بانفراده تعالى بالقدرة على الإحياء والإماتة، وهما حالتان لا يخلو الإنسان عن إحداهما، فإن الإنسان أوّل وجوده نطفة ميّتة ثمّ يتدرّج في أطوار الخلق، ثم ينفخ فيه الروح، ثم يصير إلى حياة، وذلك بتدبير الله تعالى وقدرته.

ولعل المقصود هو العبرة بالإماتة لأنّها أوضح عبرة، وللردّ عليهم قولهم { وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ } [الجاثية:24]، وأنّ عطف { وَأَحْيَا } تتميم واحتراس، كما في قوله { الذِّي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ } [الملك:2].

{ **هُوَ** } ضمير الفصل للقصر، على نحو قوله تعالى { وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى }، ردا على أهل الجاهلية كما أسلفنا. فليس المراد الحياة الآخرة لأنّ المتحدث عنهم لا يؤمنون بها، ولأنّها مستقبلة والمتحدَّث عنه ماض.

{ **أَمَاتَ وَأَحْيَا** } منزّلان منزلة اللازم، كما تقدّم في قوله تعالى { أَضْحَكَ وَأَبْكَى } [43]، إظهارا لبديع القدرة على هذا الصنع الحكيم، مع التعريض بالاستدلال على كيفية البعث وإمكانه حيث أحاله المشركون.

وفي هذه الآية مُحسِّن الطباق أيضا لما بين الحياة والموت من التضاد.

{ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى [45] مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى [46] }.

هذه الآية وإن كانت مستقلّة بإفادة أنّ الله خالق الأزواج من الإنسان خلقا بديعا من نطفة فيصير إلى خصائص نوعه، وذلك ما لا يجهله المخاطبون، فما كان ذكرها إلّا تمهيدا وتوطئة لقوله تعالى لاحقا { وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى } [47].

وموقعها كموقع جملة { وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى } [40]. ومناسبة الانتقال إليها أنّ فيها كيفية ابتداء الحياة.

{ **الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى** } من خصوص الإنسان، لأنّ سياق الكلام للاعتبار ببديع صنع الله وذلك أشدّ

اتفاقا في خلقة الإنسان، ولأنّ اعتبار الناس بما في أحوال أنفسهم أقرب وأمكن، ولأنّ بعض الأزواج من الذكور والإناث لا يتخلّق من نطفة بل من بيض وغيره.

ووجه هذا التركيب، دون أن يقول: وأنّه خلق الإنسان من نطفة، كما في قوله تعالى { فَلْيَنْظُرِ الإنسان مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ } [الطارق:6/5] أمران:

الأوّل: إدماج الامتنان، في أثناء ذكر الانفراد بالخلق، بنعمة أن خلق لكلّ إنسان زوجة، كما قال تعالى { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا} [الروم:21].

الثاني: الإشارة إلى أنّ لكلا الزوجين حظّا من النطفة التي منها يُخلق الإنسان.

النطفة: فعلة مشتقة من: نطف الماء، إذا قطر، فالنطفة ماء قليل، وسُمِّي ما منه النسل نطفة بمعنى منطوف، أي: مصبوب؛ فماء الرجل مصبوب، وماء المرأة أيضا مصبوب.

{ **تُمْنَى** } تُدفق، وفسَّروه بمعنى تُقذف أيضا. وقيل: بمعنى تراق، وجعلوا تسمية الوادي الذي بقرب مكة مِنًى لأنّه تراق به دماء البدن من الهدايا. وبُني الفعل إلى المجهول لأنّ النطفة تدفعها قوة طبيعية في الجسم خفية.

وفي الجمع بين الذكر والأنثى مُحسِّن الطباق لما بين الذكر والأنثى من شبه التضاد.

ولم يؤت في هذه الجملة بضمير الفصل كما في اللتين قبلها لعدم الداعي إلى القصر إذ لا ينازع أحد في أن الله خالق الخلق.

{ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى } [47] .

كان مقتضى الظاهر من التنظير أن يُقدّم قوله تعالى { وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى } [48] على قوله تعالى { وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى } لما في قوله { وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى } من الامتنان وإظهار الاقتدار المناسبين لقوله تعالى { وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ } [45/43]. إذ ينتقل من نعمة الخلق إلى نعمة الرزق، كما في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم { الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ } [الشعراء:79/78]، وقوله تعالى { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ } [الروم:40]، ولكن عدل عن ذلك على طريقة تشبه الاعتراض ليقرن بين البيانين ذكر قدرته على النشأتين.

{ **وَأَنَّ عَلَيْهِ** } كأنّه حق واجب، لأنّ الله وعد بحصولها بما اقتضته الحكمة الإلهية، لظهور أنّ الله لا يكرهه شيء، فالمعنى: أنّ الله أراد النشأة الأخرى، وهذا كقوله تعالى { كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ } [الأنعام:12].

{ **النَّشْأَةَ** } المرّة من الإنشاء، أي: الإيجاد والخلق.

{ **الْأُخْرَى** } مؤنث الأخير، أي: النشأة التي لا نشأة بعدها، وهي مقابل النشأة الأولى التي تضمّنها قوله تعالى { وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى } [45]. وهذه المقابلة هي مناسبة ذكر هذه النشأة الأخرى.

{ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى } [48].

{ **أَغْنَى** } جعل غنيًّا، أي: أعطى ما به الغنى، والغنى التمكّن من الانتفاع بما يُحبّ الانتفاع به.

{ **أَقْنَى** } يظهر أنّ المعنى ضد معنى { أَغْنَى } رعيا لنظائره التي زاوجت بين الضدّين من قوله تعالى { أَضْحَكَ وَأَبْكَى } [43]، و{ أَمَاتَ وَأَحْيَا } [44]، و{ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى } [45].

عن ابن عباس: أقنى: أرضى، أيّ أغناه حتى أرضاه، فيكون زيادة في الامتنان.

وعن مجاهد وقتادة والحسن: أقنى: أخدم، فيكون مشتقًّا من القنّ وهو العبد، أو المولود في الرقّ.

{ **هُوَ** } والإتيان بضمير الفصل لقصر صفة الإغناء والإقناء عليه تعالى دون غيره، وهو قصر ادعائي لمقابلة ذهول الناس عن شكر نعمة الله تعالى بإسنادهم الأرزاق لوسائلها العادية.

{ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى } [49].

هذه الجملة لا يجوز اعتبارها معطوفة على جملة { أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } [38} إذ لا تصحّ لأن تكون ممّا في صحف موسى وإبراهيم، لأنّ الشّعرى لم تعبد في زمن إبراهيم ولا في زمن موسى عليهما السلام، فيتعيّن أن تكون معطوفة على (ما) الموصولة من قوله تعالى { بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى } [37/36].

الشِّعْرَى: اسم نجم من نجوم برج الجوزاء شديد الضياء ويسمَّى (كلب الجبّار)، لأنّ برج الجوزاء يُسمَّى (الجبّار) عند العرب، وهو من البروج الربيعية، أي: التي تكون مدة حلول الشمس فيها في فصل الربيع.

ولم أقف على وجه تسميتها (الشِّعْرَى)، وتوصف الشّعرى باليمانية لأنّها إلى جهة اليمن.

وكان كوكب الشّعرى عبدته خُزاعة والذي سنّ عبادته رجل من سادة خزاعة يكنى أبا كبشة.

واختلف في اسمه فقيل: **جزء** (بجيم وزاي وهمزة). وعن الدارقطني أنّه: **وجز** (بواو وجيم وزاي).

والذي عليه الجمهور أنّ الشّعرى لم يعبدها من العرب إلّا خزاعة. وفي تفسير القرطبي أنّ حِمْير عبدوه.

وكانت قريش تدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا كبشة لمخالفته إيّاهم في عبادة الأصنام. وكانوا يصفونه بابن أبي كبشة. وقيل: لأنّ أبا كبشة كان من أجداد النبيّ صلى الله عليه وسلم من قبل أمّه.

وتخصيص الشعرى بالذكر أنّه تقدّم ذكر اللات والعزى ومناة وهي معبودات وهمية لا مسمّيات لها، كما قال تعالى { إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا } [23]، وأعقبها بإبطال إلهية الملائكة، وهي من الموجودات المجردات الخفية، ثمّ أعقب ذلك بإبطال عبادة الكواكب، وخزاعة أجوار لأهل مكّة فلمّا عبدوا الشّعرى ظهرت عبادة الكواكب في الحجاز.

وإثبات أنّها مخلوقة لله تعالى دليل على إبطال إلهيتها لأنّ المخلوق لا يكون إلها، وذلك مثل قوله تعالى { لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ } [فصلت:37].

{ **هُوَ** } الإتيان بضمير الفصل يفيد قصر مربوبية الشعرى على الله تعالى.

{ **وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى [50] وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى [51] وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى [52]** }.

لمّا استُوفي ما يستحقّه مقام النداء على باطل أهل الشرك من تكذيبهم النبيّ صلى الله عليه وسلم وطعنهم في القرآن، ومن عبادة الأصنام، وقولهم في الملائكة، وفاسد معتقدهم في أمور الآخرة، وتنكّبهم عما ينفعهم في الدنيا، وكان معظم شأنهم في هذه الضلالات شبيها بشأن أمم الشرك البائدة، نُقل الكلام إلى تهديدهم بخوف أن يحلّ بهم ما حلّ بتلك الأمم البائدة، فذُكر من تلك الأمم أشهرها عند العرب وهم: عاد، وثمود، وقوم نوح، وقوم لوط. ولكون هلاك هؤلاء معلوما لم تقرن الجملة بضمير الفصل.

فموقع هذه الجملة كموقع الجمل التي قبلها في احتمال كونها زائدة على ما في صحف موسى وإبراهيم، واحتمال كونها ممّا شملته الصحف المذكورة، فإنّ إبراهيم كان بعد عاد وثمود وقوم نوح، وكان معاصرا للمؤتفكة عالما بهلاكها.

{ **عَاداً الْأُولَى** } لأنّها أوّل العرب ذكرًا، وهم أوّل العرب البائدة، وهم أوّل أمّة أهلكت بعد قوم نوح.

وأمّا القول بأنّ عادا هذه لما هلكت خلفتها أمّة أخرى تعرف بـ (عاد إرم) أو (عاد الثانية) كانت في زمن العماليق فليس بصحيح.

ويجوز أن يكون { الْأُولَى } وصفا كاشفا، أي: عادا السابقة. وقيل: { الْأُولَى } صفة عظمة، أي: الأولى في مراتب الأمم قوة وسعة. وتقدّم التعريف بعاد في [الأعراف:65].

{ **وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى** } تقدّم ذكر ثمود في [الأعراف:73].

{ **وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ** } تقدّم ذكر نوح وقومه في [آل عمران:33] وفي [الأعراف:59].

وإنّما قُدِّم في الآية ذكر عاد وثمود على ذكر قوم نوح، مع أنّ هؤلاء أسبق، لأنّ عادا وثمودا أشهر في العرب وأكثر ذكرا بينهم، وديارهم في بلاد العرب.

{ **إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى** } تعليل للكلام السابق.

{ **إِنَّهُمْ كَانُوا** } ضمير الجمع يجوز أن يعود إلى قوم نوح، أي: كانوا أظلم وأطغى من عاد وثمود. ويجوز أن يكون عائد إلى جميعهم، والمعنى: أنّ تلك الأقوام أظلم وأطغى من قومك الذين كذّبوك، فتكون تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّ الرسل من قبله لقوا من أممهم أشدّ ممّا لقيه هو، وفيه إيماء إلى أنّ الله مُبْقٍ على أمّة محمد صلى الله عليه وسلم فلا يهلكها لأنّه قدر دخول بقيتها في الإسلام.

{ **هُمْ أَظْلَمَ** } ضمير الفصل لتقوية الخبر.

{ **وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى** [53] **فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى** [54] }.

المؤتفكة: صفة لموصوف محذوف يدلّ عليه اشتقاق الوصف كما سيأتي، والتقدير: القرى المؤتفكة، وهي قرى قوم لوط الأربع وهي (سدوم - عمورة - آدمة – صبوييم). ووصفت في [التوبة:70] بالمؤتفكات، لأنّ وصف جمع المؤنث يجوز أن يُجمع وأن يكون بصيغة المفرد المؤنث.

ويجوز أن تكون المؤتفكة هنا وصفا للأمّة، أي: لأمّة لوط، ليكون نظيرا لذكر عاد وثمود وقوم نوح، كما في قوله تعالى { وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ } [الحاقة:9].

الائتفاك: الانقلاب، يقال: أفكها فائتفكت. والمعنى: التي خُسف بها فجُعل عاليها سافلها.

{ **أهْوَى** } أسقط، أي: جعلها هاوية. والإهواء: الإسقاط، يقال: أهواه فهوى، ومعنى ذلك: أنّه أسقطها في باطن الأرض، وذلك من أثر زلازل وانفجارات أرضية بركانية.

غشّاها: غطاها وأصابها من أعلى.

{ **مَا غَشَّى** } فاعل {غَشَّاهَا}، و(ما) موصولة، وجيء بصلتها من مادة وصيغة الفعل الذي أسند إليها، وذلك لا يفيد خبرا جديدا زائدا على مفاد الفعل. والمقصود منه التهويل، كأنّ المتكلّم أراد أن يبيّن بالموصول والصلة وصف فاعل الفعل فلم يجد لبيانه أكثر من إعادة الفعل، إذ لا يستطاع وصفه.

والذي غشّاها هو مطر من الحجارة المحمّاة، وهي حجارة بركانية قُذفت من فوهات كالآبار كانت في بلادهم ولم تكن ملتهبة من قبل، قال تعالى { وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ } [الفرقان:40]، وقال تعالى { وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ } [هود:82]. وفاضت عليها مياه غمرت بلادهم فأصبحت بحرا ميّتا.

{ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى** } [55].

تفريعُ فذلكةٍ لما ذكر من أوّل السورة:

ممّا يختص بالنبيّ صلى الله عليه وسلم من ذلك، كقوله تعالى { مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى - إلى قوله - لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى } [2-18].

وممّا يشمله ويشمل غيره من قوله تعالى { وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى - إلى قوله - هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى } [43-49]، فإنّ ذلك خليط من نعم وضدّها على نوع الإنسان، وفي مجموعها نعمة تعليم الرسول صلى الله عليه وسلم وأمّته بمنافع الاعتبار بصنع الله.

ثمّ من قوله تعالى { وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى } [50] إلى هنا، فتلك نقم من الضالين والظالمين لنصر رسل الله، وذلك نعمة على جميع الرسل، ونعمة خاصة بالرسول صلى الله عليه وسلم وهي بشارته بأنّ الله سينصره. فجميع ما عُدِّد من النعم على أقوام والنقم عن آخرين هو نعم محضة للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين.

{ **فَبِأَيِّ** } و(أي) اسم استفهام يُطلب به تمييز متشارك في أمر يعمُّ بما يميز البعض عن البقية. مستعمل هنا في التسوية كناية عن تساوي ما عُدِّد من الأمور في أنّها نِعَم على الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ ليس لواحد من هذه المعدودات نقص عن نظائره في النعمة. والمقصود من هذا الاستفهام تذكير النبيّ صلى الله عليه وسلم بهذه النِعم. أي: أنك لا تحصل لك مِرية في واحدة من آلاء ربّك، فإنّها سواء.

{ **رَبِّكَ** } الخطاب الأظهر أنّه للنبيّ صلى الله عليه وسلم وهو مناسب لذكر الآلاء، والموافق، في عرف القرآن، لإضافة (ربّ) إلى ضمير المفرد المخاطب. وجوَّزوا أن يكون الخطاب لغير معيّن من الناس، باعتبار أنّه لا يخلو شيء ممّا عُدِّد سابقا عن نعمة لبعض الناس.

الآلاء: النِعم، وهو جمع مفرده **إِلَى،** (بكسر الهمزة وبفتحها مع فتح اللام مقصورا)، ويقال: إِلْي، وأَلْي، (بسكون اللام فيهما وآخره ياء متحركة).

التماري: التشكّك، وهو تفاعل من المرية. ولا يعرف فعل مجرّد للمراء، وإنّما يقال: امترى، إذا شك.

فإنّ كان الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم، كان { تَتَمَارَى } مطاوع (ماراه)، والمعنى: فبأي آلاء ربك يشكّكونك، وهذا ينظر إلى قوله تعالى { أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى } [12] ، أي: لا يستطيعون أن يشكّكوك في حصول آلاء ربك التي هي نِعَم النبوّة، والتي منها رؤية جبريل عند سدرة المنتهى. فالكلام مسوق لتأييس المشركين من الطمع في الكفّ عنهم.

وإن كان الخطاب لغير معين، كان { تَتَمَارَى } تفاعلا مستعملا في المبالغة في حصول الفعل.

{ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى } [56].

استئناف ابتدائي أو فذلكة لما تقدّم على اختلاف الاعتبارين في مرجع اسم الإشارة؛

فإن جعلتَ اسم الإشارة راجعا إلى **القرآن** فإنّه لحضوره في الأذهان ينزل منزلة شيء محسوس حاضر بحيث يشار إليه، فالكلام انتقال اقتضابي تنهيةٌ لما قبله وابتداء لما بعد اسم الإشارة، على أسلوب قوله تعالى { هَذَا بَلاغٌ لِلنَّاسِ } [ابراهيم 52]. والكلام موجه إلى المخاطبين بمعظم ما في هذه السورة، فلذلك اقتصر على وصف الكلام بأنّه نذير، دون أن يقول: نذير وبشير، كما في قوله تعالى { إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [الأعراف:188]. والإنذار بعضه صريح، مثل قوله { لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا } [31]، وبعضه تعريض كقوله تعالى { وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى } [50] وقوله { وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى } [42].

وإن جعلتَ اسم الإشارة عائدا إلى ما تقدّم من أوّل السورة بتأويله بالمذكور، تكون الإشارة إلى الكلام المتقدّم تنزيلا لحضوره في السمع منزلة حضوره في المشاهدة بحيث يشار إليه.

النذير: حقيقته المخبر عن حدوث حدث مضر بالمخبَر، وجمعه: نُذُر. ويطلق النذير على الإنذار، وهو خبر المخبر على طريقة المجاز العقلي. ومنه قوله تعالى { كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ } [القمر:23].

أي: بالمنذرين.

وإطلاق نذير على ما هو كلام، (القرآن أو بعض آياته)، مجاز عقلي أو استعارة على رأي جمهور أهل اللغة.

{ **النُّذُرِ الْأُولَى** } السالفة، أي: أنّ معنى هذا الكلام من معاني الشرائع الأولى، كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" إنّ ممّا أدرك الناس من كلام النبوّة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت "**. أي: من كلام الأنبياء قبل الإسلام.

{ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ [57] لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ [58] }.

تتنزّل هذه الجملة من التي قبلها منزلة البيان للإنذار الذي تضمّنه قوله تعالى { هَذَا نَذِيرٌ } [56].

فالمعنى: هذا نذير بآزفة قرُبت، وفي ذكر فعل القُرب فائدة أخرى زائدة على البيان وهي أنّ المنذَر به دنا وقته، فإنّ أزفت معناه: قرُب، وحقيقته القرب المكاني، واستعير لقرب الزمان لكثرة ما يعاملون الزمان معاملة المكان. والتنبيه على قرب المنذَر به من كمال الإنذار للبدار بتجنّب الوقوع فيما ينذَر به.

{ **الْآزِفَةُ** } جيء لفعل { أَزِفَتِ } بفاعل من مادة الفعل للتهويل على السامع لتذهب النفس كل مذهب ممكن في تعيين هذه الحادثة التي أزفت. وتأنيثها بتأويل الوقعة، أو الحادثة، كما يقال: نزلت به نازلة. والعرب يستعملون التأنيث دلالة على المبالغة في النوع، ولعلّهم راعوا أنّ الأنثى مصدر كثرة النوع.

والتعريف تعريف الجنس، ومنه زيادة تهويل بتمييز هذا الجنس من بين الأجناس.

والكلام يحتمل آزفة في الدنيا من جنس ما أهلك به عاد وثمود وقوم نوح، فهي استئصالهم يوم بدر، ويحتمل آزفة في الآخرة وهي القيامة.

{ **لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ** } مستأنفة بيانية، أو صفة لـ { الْآزِفَة }.

{ **كَاشِفَةٌ** } يجوز أن يكون مصدر بوزن فاعلة كالعافية، ويجوز أن يكون اسم فاعل قرن بهاء التأنيث للمبالغة. أي: ليس لها كاشف.

الكشف: يجوز أن يكون بمعنى التعرية مراد به الإزالة مثل ويكشف الضرّ، وذلك ضدّ ما يقال: غشيه الضرّ.

فالمعنى: لا يستطيع أحد إزالة وعيدها غير الله. والإخبار كناية عن تحقيق وقوعها.

ويجوز أن يكون بمعنى إزالة الخفاء، أي: لا يُبيِّن وقتها أحد غير الله، كقوله تعالى { لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ } [الأعراف:187]. فالمعنى: أنّ الله هو العالم بوقتها لا يعلمه أحد إلّا إذا شاء أن يطلع عليه أحدا من خلقه.

{ **أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ** [59] **وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ** [60] **وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ** [61] }.

تفريع على { هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى } [56]، وما عطف عليه وبُيِّن به من بيان أو صفة، فُرِّع عليه استفهام إنكار وتوبيخ.

الحديث: الكلام والخبر.

{ **هَذَا** } الإشارة إلى ما ذُكر من الإنذار بأخبار الذين كذّبوا الرسل، فالمراد بالحديث بعض القرآن بما في قوله تعالى { أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ } [الواقعة:81].

{ **تَعْجَبُونَ** } هنا الاستبعاد والإحالة، كقوله تعالى { أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ } [هود:73]، أو كناية عن الإنكار.

الضحك: هنا ضحك الاستهزاء. و**البكاء**: مستعمل في لازمه من خشية الله، كقوله تعالى { وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً } [الإسراء:109].

{ **سَامِدُونَ** } من السَّمود، وهو ما في المرء من الإعجاب بالنفس، يقال: سَمد البعير، إذا رفع رأسه في سيره، مُثِّل به حال المتكبّر المعرض عن النصح المُعجَب بما هو فيه.

وقيل: السمود: الغناء بلغة حِمْير، والمعنى: فرحون بأنفسكم تتغنون بالأغاني لقلة الاكتراث بما تسمعون من القرآن.

{ **فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا** } [63].

تفريع على الإنكار والتوبيخ المُفرَّعين على الإنذار بالوعيد، فُرّع عليه أمرهم بالسجود لله، لأنّ ذلك التوبيخ من شأنه أن يعمق في قلوبهم فيكفّهم عمّا هم فيه من البطر والاستخفاف بالداعي إلى الله.

ومقتضى تناسق الضمائر أنّ الخطاب موجَّه إلى المشركين.

السجود: يجوز أن يراد به الخشية، كقوله تعالى { وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ } [الرحمن:6]. والمعنى: أمرهم بالخضوع إلى الله والكفّ عن تكذيب رسوله وعن إعراضهم عن القرآن، لأنّ ذلك كلّه استخفاف بحق الله، وكان عليهم لمَّا دعوا إلى الله أن يتدبَّروا وينظروا في دلائل صدق الرسول والقرآن.

ويجوز أن يكون المراد سجود الصلاة، والأمر به كناية عن الأمر بأن يسلموا، فإن الصلاة شعار الإسلام، ألا ترى إلى قوله تعالى { مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ } [المدثر:43/42]، أي: من الذين شأنهم الصلاة. وقد جاء نظيره الأمر بالركوع في قوله { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ } [المرسلات:48]. فيجوز فيه المحملان.

{ **وَاعْبُدُوا** } أمرهم بعبادة الله، لأنّهم إذا خضعوا له حقّ الخضوع عبدوه وتركوا عبادة الأصنام.

وقد ثبت في الأخبار الصحيحة أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ النجم فسجد فيها (أي: عند قوله { فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا }) وسجد من كان معه من المسلمين والمشركين. كما أوردناه في مطلع السورة.

وروي أنّ عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود كانا يسجدان عند هذه الآية في القراءة في الصلاة.

وفي أحكام ابن العربي أنّ ابن عمر سجد فيها، وفي الصحيحين والسنن عن زيد بن ثابت قال قرأت: النجم عند النبيّ صلى الله عليه وسلم فلم يسجد فيها.

وفي سنن ابن ماجه عن أبي الدرداء سجدتُ مع النبيّ صلى الله عليه وسلم إحدى عشرة سجدة ليس فيها من المفصّل شيء.

وعن أبي بن كعب: كان آخر فعل النبيّ صلى الله عليه وسلم ترك السجود في المفصّل.

وعن ابن عباس: أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يسجد في المفصل منذ تحول إلى المدينة، وسورة النجم من المفصل.

واختلف العلماء في السجود عند هذه الآية:

فقال مالك: سجدة النجم ليست من عزائم القرآن أي ليست ممّا يُسنّ السجود عندها.

وقال أبو حنيفة: هي من عزائم السجود. ونسب ابن العربي في أحكام القرآن مثله إلى الشافعي، وهو المعروف في كتب الشافعية والحنابلة.

وإنّما سجد النبيّ صلى الله عليه وسلم فيها، وإن كان الأمر في قوله { فَاسْجُدُوا } مُفرَّعا على خطاب المشركين بالتوبيخ، لأنّ المسلمين أولى بالسجود لله.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة القمر

اسمها بين السلف (**سورة اقتربت الساعة**). ففي حديث أبي واقد الليثي أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ بقاف واقتربت الساعة في الفطر والأضحى. وبهذا الاسم عنون لها البخاري في كتاب التفسير.

وتُسمَّى (**سورة القمر**)، وبذلك ترجمها الترمذي. وتُسمَّى (**سورة اقتربت**)، حكاية لأوّل كلمة فيها.

وهي مكية كلّها عند الجمهور.

وهي السورة **السابعة والثلاثون في ترتيب نزول السور** عند جابر بن زيد، نزلت بعد سورة الطارق وقبل سورة ص.

وعدد آيها خمس وخمسون باتفاق أهل العدد.

وسبب نزولها ما رواه الترمذي عن أنس بن مالك قال: سأل أهل مكة النبيّ صلى الله عليه وسلم آية فانشق القمر بمكة، فنزلت { اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ - إلى قوله - سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ } [2/1].

وفي أسباب النزول للواحدي بسنده إلى عبد الله بن مسعود قال: انشق القمر على عهد محمد صلى الله عليه وسلم فقالت قريش هذا سحر ابن أبي كبشة سَحَركم، فسألوا السُفَّار، فقالوا: نعم قد رأينا، فأنزل الله عز وجل { اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ } [1].

وكان **نزولها في حدود سنة خمس قبل الهجرة** ففي الصحيح أنّ عائشة قالت: " أُنزل على محمد بمكّة، وإنّي لجارية ألعب، { بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ } [46] ".

أغراض السورة

*/ تسجيل مكابرة المشركين في الآيات المبيّنة، وأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بالإعراض عن مكابرتهم.

*/ إنذارهم باقتراب القيامة وبما يلقونه حين البعث من الشدائد.

*/ تذكيرهم بما لقيته الأمم أمثالهم من عذاب الدنيا لتكذيبهم رسل الله، وأنّهم سيلقون مثل ما لقي أولئك.

*/ إنذارهم بقتال يُهزمون به، ثم لهم عذاب الآخرة وهو أشدّ.

*/ إعلامهم بإحاطة الله علما بأفعالهم وأنّه مجازيهم شرّ الجزاء ومجاز المتّقين خير الجزاء.

*/ إثبات البعث، ووصف بعض أحواله.

*/ في خلال ذلك، تكرير التنويه بهدي القرآن وحكمته.

{ **اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ** } [1].

من عادة القرآن أن ينتهز الفرصة لإعادة الموعظة والتفكير حين يتضاءل تعلّق النفوس بالدنيا، وتُفكّر فيما بعد الموت وتعير آذانها لداعي الهدى فتتهيأ لقبول الحقّ في مظان ذلك، وكم كان مثل هذا الانتهاز سببا في إيمان قلوب قاسية. فإذا أظهر الله الآيات على يد رسوله صلى الله عليه وسلم لتأييد صدقه، ألحق ذلك بإعادة التذكير، كما قال تعالى { وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً } [الإسراء:59].

وجمهور المفسِّرين على أن هذه الآية نزلت شاهدة على المشركين بظهور آية كبرى ومعجزة من معجزات النبيّ صلى الله عليه وسلم وهي معجزة انشقاق القمر.

*/ ففي صحيح البخاري وجامع الترمذي عن أنس بن مالك قال: " سأل أهل مكّة النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر، (زاد الترمذي عنه فانشق القمر بمكة فرقتين)، فنزلت { اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ - إلى قوله - سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ } [القمر:2] ".

وكثرة روّاة هذا الخبر تدلّ على أنّه كان خبرا مستفيضا.

*/ وظاهر بعض الروايات لحديث ابن مسعود عند الترمذي أنّ الآية نزلت قبل حصول انشقاق القمر الواقع بمكة لمّا سأل المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم آية، أو سألوه انشقاق القمر فأراهم انشقاق القمر.

*/ وعن الحسن وعطاء أن انشقاق القمر <u>يكون عند القيامة</u> واختاره القشيري، وروي عن البلخي. وقال الماوردي: هو قول الجمهور، ولا يُعرف ذلك للجمهور.

<u>وليس لفظ هذه الآية صريحا في وقوعه</u>، ولكن ظاهرها يقتضيه كما في الشفاء.

وخبر انشقاق القمر معدود من مباحث المعجزات من كتب السيرة ودلائل النبوّة.

<u>فإن كان نزول هذه الآية واقعا بعد حصول الانشقاق</u> كما اقتضاه حديث ابن مسعود في جامع الترمذي، فتصدير السورة بـ { اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ } للاهتمام بالموعظة كما قدّمناه آنفا، إذ قد تقرّر المقصود من تصديق المعجزة. فجُعلت تلك المعجزة وسيلة للتذكير باقتراب الساعة على طريقة الإدماج بمناسبة أنّ القمر كائن من الكائنات السماوية ذات النظام المساير لنظام الجو الأرضي فلمّا حدث تغيّر في نظامه لم يكن مألوفا ناسب تنبيه الناس للاعتبار بإمكان اضمحلال هذا العالم. وكان فعل الماضي { انْشَقَّ } مستعملا في حقيقته.

<u>وإن كان نزولها قبل حصول الانشقاق</u> كما اقتضاه حديث أنس بن مالك، فهو إنذار باقتراب الساعة وانشقاق القمر الذي هو من أشراط الساعة، ومع الإيماء إلى أنّ الانشقاق سيكون معجزة لما يسأله المشركون.

ويُرجّح هذا المحمل قوله تعالى عقبه { وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ } [2]، كما سيأتي.

{ **وَانْشَقَّ الْقَمَرُ** } <u>يجوز</u> أن يكون قد حدث خسف عظيم في كرة القمر أحدثت في وجهه هوّة لاحت

للناظرين في صورة شقّه إلى نصفين بينهما سواد حتّى يُخيّل أنّه منشق إلى قمرين، فالتعبير عنه بالانشقاق مطابق للواقع لأنّ الهوة انشقاق، وموافق لمرأى الناس لأنّهم رأوه كأنّه مشقوق.

ويجوز أن يكون قد حصل في الأفق بين سمت القمر وسمت الشمس مرور جسم سماوي من نحو بعض المذنّبات حجب ضوء الشمس عن وجه القمر بمقدار ضل ذلك الجسم على نحو ما يُسمَّى بالخسوف الجزئي، وليس في لفظ أحاديث أنس بن مالك عند مسلم والترمذي، وابن مسعود وابن عباس عند البخاري ما يناكده.

وبهذا الوجه يظهر اختصاص ظهور ذلك بمكة دون غيرها من العالم، وأمّا على الوجه الأول فإنّما لم يشعر به غير أهل مكة من الأرض لأنّهم لم يكونوا متأهّبين إليه إذ كان ذلك ليلا وهو وقت غفلة أو نوم، ولأنّ القمر ليس ظهوره في حد واحد لأهل الأرض فإنّ مواقيت طلوعه تختلف باختلاف البلدان.

{ **وَانْشَقَّ** } مطاوع شقّه، والشقّ: تفرّق بين أديم جسم ما، بحيث لا تنفصل قطع مجموع ذلك الجسم، ويُسمَّى أيضا تصدُّعا، كما يقع في عود أو جدار.

فإطلاق الانشقاق على حدوث هوّة في سطح القمر إطلاق حقيقي، وإطلاقه على انطماس بعض ضوئه استعارة، وإطلاقه على تفرقة نصفين مجاز مرسل.

الاقتراب: أصله صيغة مطاوعة، أي: قبول فعل الفاعل، وهو هنا للمبالغة في القرب، فإن حُمل على حقيقة القرب فهو قرب اعتباري، أي: قرب حلول الساعة فيما يأتي من الزمان، قُربا نسبيا بالنسبة لما مضى من الزمان ابتداء من خلق السماء والأرض، على نحو قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **بعثت أنا والساعة كهاتين** "، وأشار بسباته والوسطى.

فإنّ تحديد المدّة من وقت خلق العالم أو من وقت خلق الإنسان أمر لا قبل للناس به وما يوجد في كتب اليهود مبني على الحسد والتوهّمات، قال ابن عطية: " وكل ما يروى من التحديد في عمر الدنيا فضعيف واهن ".

وفائدة هذا الاعتبار أن يُقبل الناس على نبذ الشرك وعلى الاستكثار من الأعمال الصالحات واجتناب الآثام لقرب يوم الجزاء.

الساعة: عَلَم بالغلبة على وقت فناء هذا العالم. ويجوز أن يراد بالساعة ساعة معهودة أنذروا بها في آيات كثيرة، وهي ساعة استئصال المشركين بسيوف المسلمين.

{ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ } [2].

يجوز أن يكون تذييلا للإخبار بانشقاق القمر، فيكون المراد بـ { آيَةٍ }: القمر. فقد جاء في بعض الآثار: أنّ المشركين لمّا رأوا انشقاق القمر قالوا: هذا سحر محمد بن أبي كبشة. وفي رواية قالوا: قد سَحَر محمد القمر.

ويجوز أن يكون كلاما مستأنفا من ذكر أحوال تكذيبهم ومكابرتهم.

وعلى كلا الوجهين فإنّ وقوع { آيَةً }، وهو نكرة في سياق الشرط، يفيد العموم.

وجيء بهذا الخبر في صورة الشرط للدلالة على أنّ هذا ديدنهم ودأبهم.

{ **يَرَوْا** } الضمير عائد إلى ضمير غير مذكور في الكلام دال عليه المقام وهو المشركون.

{ **مُسْتَمِرٌّ** } يجوز أن يكون مشتقا من فعل (مَرَّ) الذي هو مجاز في الزوال، والسين والتاء للتقوية في الفعل، أي: لا يبقى القمر منشقا. ويجوز أن يكون مشتقا من (المِرَّة) بكسر الميم، أي: القوّة، والسين والتاء للطلب، أي: طلب لفعله قوة. والمعنى: هذا سحر معروف متكرّر، أي: معهودا منه مثله.

{ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ } [3].

{ **وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ** } هذا إخبار عن حالهم فيما مضى بعد أن أخبر عن حالهم في المستقبل. ومقابلة ذلك بهذا فيه شبه احتباك، كأنّه قيل: وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا: سحر، وقد رأوا الآيات وأعرضوا وقالوا: سحر مستمر، وكذبوا واتبعوا أهواءهم وسيكذبون ويتبعون أهواءهم.

{ **وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ** } عطف العلّة على المعلول، لأنّ تكذيبهم لا دافع لهم إليه إلّا اتباع ما تهواه أنفسهم من بقاء حالهم على ما ألفوه وعهدوه واشتهر دوامه.

{ **أَهْوَاءَهُمْ** } الهوى اسم جنس يصدق بالواحد والمتعدّد، فعدل عن الإفراد إلى الجمع لمزاوجة ضمير الجمع المضاف إليه، وللإشارة إلى أنّ لهم أصنافا متعدّدة من الأهواء: من حب الرئاسة، ومن حسد المؤمنين على ما آتاهم الله، ومن حبّ اتباع ملّة آبائهم، ومن محبّة أصنامهم، وإلف لعوائدهم.

{ **وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ** } تذييل للكلام السابق من قوله { وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا - إلى قوله - أَهْوَاءَهُمْ } [3/2]، فهو اعتراض بين جملة { وَكَذَّبُوا} وجملة { وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ } [4]، وهو جار مجرى المثل.

{ **كُلِّ** } من أسماء العموم.

أمر: اسم يدّل على جنس عال ومثله (شيء – موجود - كائن)، ويتخصَّص بالوصف، كقوله تعالى { وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ } [النساء: 83] وقد يتخصَّص بالعقل أو العادة كما تخصَّص (شيء) في قوله تعالى عن ريح عاد { تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ } [الأحقاف: 25] أي: من الأشياء القابلة للتدمير.

مستقِر: اسم فاعل من استقرّ، أي: قَرَّ، والسين والتاء للمبالغة، مثل السين والتاء في استجاب.

والمعني: أن إعراضهم عن الآيات وافتراءهم عليها بأنّها سحر ونحوه وتكذيبهم وتمالؤهم على ذلك لا يوهن وقعها في النفوس ولا يعوق إنتاجها. فأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم صائر إلى مصير أمثاله الحقّ، من الانتصار والتمام واقتناع الناس به وتزايد أتباعه، وأنّ اتّباعهم أهواءهم واختلاق معاذيرهم

صائر إلى مصير أمثاله الباطلة، من الانخذال والافتضاح وانتقاص الأتباع.
وتضمّن هذا التذييل بإجماله تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم، وتهديدا للمشركين، واستدعاء لنظر المتردِّدين.

{ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ [4] حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ [5] }.

عطف على جملة { وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ } [3]، أي: جاءهم في القرآن من أنباء الأمم، ومن الحجج البيّنة ما هو أشد في الحجّة من انشقاق القمر.

المزدجر: مصدر ميمي، وهو مصاغ بصيغة اسم المفعول الذي فعله زائد على ثلاثة أحرف. وازدجره بمعنى زجره، ومادة الافتعال فيه للمبالغة. أي: ما فيه مانع لهم من ارتكاب ما ارتكبوه. والمعنى: ما هو زاجر لهم. وهذا كقوله تعالى { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ } [الأحزاب:21] أي: هو أسوة.

{ **حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ** } بدل من { مَا }، أي: جاءتهم حكمة بالغة.

الحكمة: إتقان الفهم وإصابة العقل. والمراد هنا الكلام الذي يتضمّن الحكمة ويفيد سامعه حكمة، فوصف الكلام بالحكمة مجاز عقلي كثير الاستعمال، وتقدّم في قوله تعالى { وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً } [البقرة:269].

البالغة: الواصلة، أي: واصلة إلى المقصود، مفيدة لصاحبها.

{ **فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ** } تفريع، أي: جاءهم ما فيه مزدجر فلم يغن ذلك، أي: لم يحصل فيه الإقلاع عن ضلالهم.

والمضارع للحال والاستقبال، أي: ما هي مغنية، كما لم تغن عنهم فيما مضى.

<u>ويحتمل</u> أن تكون (مَا) استفهامية للإنكار، أي: ماذا تفيد النذر من أمثالهم المكابرين المصرّين، أي: لا غناء لهم في تلك الأنباء. فإنّ الأنباء تتضمّن إرسال الرسل من الله منذرين لقومهم فما أغنوهم ولم ينتفعوا بهم.

{ **النُّذُرُ** } آيات القرآن، جُعلت كلّ آية كالنذير: وجمعت على نُذُر، وتقدّم عند قوله تعالى { هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى } [النجم:56].

{ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ [6] خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ [7] مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ [8] }.

{ **فَتَوَلَّ عَنْهُمْ** } تفريع على { فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ } [5]، أي: أعرض عن مجادلتهم فإنّهم لا تفديهم النذر، كقوله تعالى { فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا } [النجم:29]، أي: أنّك قد بلّغت فما أنت بمسؤول عن

استجابتهم. كقوله تعالى { فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ } [الذاريات:54].
وهذه تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم وتطمين له بأنّه ما قصَّر في أداء الرسالة.
ولا تعلق لهذه الآية بأحكام قتالهم إذ لم يكن السياق له ولا حدثت دواعيه يومئذ، فلا وجه للقول بأنّها منسوخة.

{ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ }.

استئناف بياني وقع معترضا بين جملة { وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ } [4] وجملة { كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ } [9]. والبيان تطلّبه ما تضمّنه الأمر بالتولّي عنهم من إشارة إلى غضب ووعيد، من شأنه أن يثير في نفس السامع تساؤلا عن مجمل هذا الوعيد.

{ **يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ** } وإذ قد كان المتوعَّد به شيئا يحصل يوم القيامة قُدِّم الظرف على عامله، وهو { يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ }، ليحصل بتقديمه إجمال يفصّله بعض التفصيل ما يذكر بعده، فإذا سمع السامع هذا الظرف علم أنه ظرف لأهوال تذكر بعده. وقد عُدَّ سبعة من مظاهر الأهوال.

أوّلها : دعاء الداعي، فإنّه مؤذن بأنّهم محضَرون إلى الحساب، لأنّ مفعول { يَدْعُ } محذوف بتقدير: يدعوهم الداعي، بدلالة ضمير { عَنْهُمُ }.

ثانيها: أنّه يدعو إلى شيء عظيم، لأنّ ما في لفظ { شَيْءٍ } من الإبهام يُشعر بأنّه مهول، وما في تنكيره من التعظيم يُجسّم ذلك الهول.

ثالثها: وصف شيء بأنّه { نُكُرٍ }، أي: موصوف بأنّه تنكره النفوس وتكرهه. و**النُكُر** صفة، وهذا الوزن قليل في الصفات، ومنه قولهم: روضة أُنُف، أي: جديدة لم ترعها الماشية، ورجل سُجُح، أي: سمح.

رابعها: { خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ }، أي: ذليلة، ينظرون من طرف خفي لا تثبت أحداقهم في وجوه الناس، وهي نظرة الخائف المفتضح، وهو كناية، لأنّ ذلّة الذليل وعزّة العزيز تظهران في عيونهما.

خامسها: تشبيههم بالجراد المنتشر في الاكتظاظ واستتار بعضهم ببعض من شدّة الخوف، زيادة على ما يفيده التشبيه من الكثرة والتحرّك.

سادسها: وصفهم بمهطعين، و**المهطع**: الماشي سريعا مادا عنقه، وهي مشية مذعور غير ملتف إلى شيء.

سابعها : قولهم: { هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ }، وهو قول من أثر ما في نفوسهم من خوف. و{ **عَسِرٌ** } صفة مشبّهة من العسر وهو الشدّة والصعوبة. ووصف اليوم بـ { عَسِرٌ } وصف مجازي عقلي باعتبار كونه زمانا لأمور عَسِرة شديدة من شدّة الحساب وانتظار العذاب.

{ **شَيْءٍ نُكُرٍ** } أُبهم للتهويل، وذلك هو أهوال الحساب وإهانة الدفع ومشاهدة ما أُعدَّ لهم من العذاب.

{ **خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ** } انتصب على الحال من الضمير المقدّر في {يَدْعُ الدَّاعِ}، وإمّا من ضمير {يَخْرُجُونَ}.
{ **يَقُولُ الْكَافِرُونَ** } إظهار في مقام الإضمار لوصفهم بهذا الوصف الذميم، وفيه تفسير الضمائر السابقة.
الأجداث: جمع جدث وهو القبر، وقد جعل الله خروج الناس إلى الحشر من مواضع دفنهم في الأرض، كما قال تعالى { مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى } [طه:55].
الجراد: اسم جمع واحده جرادة، الحشرة المعروفة.
المنتشر: المنبثّ على وجه الأرض. والمراد هنا (الدَّبَى) وهو فراخ الجراد قبل أن تظهر له الأجنحة، فإذا تمّ خلقه خرج من الأرض يزحف بعضه فوق بعض. شبيه قوله تعالى { يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ } [القارعة:4]. وهذا التشبيه تمثيلي لأنّه تشبيه هيئة خروج الناس من القبور متراكمين بهيئة خروج الجراد.

{ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ } [9].

استئناف بياني ناشئ عن قوله تعالى { وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ } [4]، فإنّ من أشهرها تكذيب قوم نوح رسولهم، وسبق الإنباء به في القرآن في السور النازلة قبل هذه السورة. والخبر مستعمل في التذكير وليُفرَّع عليه ما بعده. فالمقصود النعي عليهم عدم ازدجارهم بما جاءهم من الأنباء بتعداد بعض المهمّ منها.
{ **قَبْلِهِمْ** } فائدة ذكر الظرف تقرير تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم، أي: أنّ هذه شنشنة أهل الضلال، كقوله تعالى { وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ } [فاطر:4].
{ **قَوْمِ نُوحٍ** } عُرِّفوا بالإضافة إلى اسمه إذ لم يكن لهم اسم يعرفون به.
وأسند التكذيب إلى جميع القوم لأنّ الذين صدّقوه عدد قليل، فإنّه ما آمن به إلّا قليل كما تقدّم في [هود:36].
{ **فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا** } الفاء لتفريع الإخبار بتفصيل تكذيبهم إيّاه بأنّهم قالوا { مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ }. فمحلّ التفريع هو وصف نوح بعبودية الله تكريما له، والإخبار عن قومه بأنّهم افتروا عليه بوصفه بالجنون، واعتدوا عليه بالأذى والازدجار.
فأصل تركيب الكلام: كذبت قبلهم قوم نوح فقالوا: مجنون وازدجر. ولمّا أريد الإيماء إلى تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم ابتداء جعل ما بعد التسلية مفرّعا بفاء التفريع ليظهر قصد استقلال ما قبله ولولا ذلك لكان الكلام غنيا عن الفاء إذ كان يقول: كذبت قوم نوح عبدنا.
<u>وأعيد فعل { كَذَّبُوا } لإفادة توكيد التكذيب</u>، أي: هو تكذيب قوي، كقوله تعالى { وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ } [الشعراء:130]، وقوله تعالى { رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا } [القصص:63].

ويجوز أن يكون فعل { **كَذَّبَتْ** } مستعملا في معنى: أنّهم اعتقدوا كذبه، فتفريع { فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا } عليه تفريع تصريحهم بتكذيبه على اعتقادهم كذبه. فيكون فعل { فَكَذَّبُوا } مستعملا في معنى غير الذي استعمل فيه فعل {كُذِّبَتْ}، والتفريع ظاهر على هذا الوجه. وهذا الوجه كما في قوله تعالى { وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي } [سبأ:45].

{ **وَازْدُجِرَ** } معطوف على { قَالُوا } وهو افتعل من **الزجر**. وصيغة الافتعال هنا للمبالغة مثلها: افتقر. ونكتة البناء للمجهول التوصّل إلى حذف ما يسند إليه فعل الازدجار، وهو ضمير { قَوْمِ نُوحٍ }، فعدل عن أن يقال: وازدجروه، محاشاة للدال على ذات نوح، وهو ضمير، من أن يقع مفعولا لضميرهم.

المعنى: أنّهم نهوه عن ادعاء الرسالة بغلظة. كما حكى الله عنهم ذلك في أكثر من موضع، قال تعالى { قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ } [لأعراف:66]، وقال تعالى { قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ } [الشعراء:116]، وقال تعالى { وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ } [هود:38].

{ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ [10] فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ [11] وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ [12] وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ [13] تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ [14] }.

تفريع على { كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ } [9] وما تفرّع عليه.

{ **مَغْلُوبٌ** } مجاز، شبَّه يأسه من أجابتهم لدعوته بحال الذي قاتل أو صارع فغلبه مقاتله، وقد حكى الله تعالى في [نوح:1-23] كيف سلك مع قومه وسائل الإقناع بقبول دعوته فأعيته الحيل.

{ **فَانْتَصِرْ** } حُذف المتعلّق للإيجاز وللرعي على الفاصلة، والتقدير: فانتصر لي، أي: انصرني.

{ **فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ** } مُفرَّعة على جملة { فَدَعَا رَبَّهُ }، ففُهم من التفريع أنّ الله استجاب دعوته، وأنّ إرسال هذه المياه عقاب لقوم نوح. وحاصل المعنى: فأرسلنا عليهم الطوفان.

والجملة مركّب تمثيلي لهيئة اندفاق الأمطار من الجو بهيئة خروج الجماعات من أبواب الدار.

المنهمر: المنصبّ، أي: المصبوب، يقال: همر الماء إذا صبّه. أي: نازل بقوة.

{ **وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ** } تعدية فعل { فَجَّرْنَا } إلى اسم الأرض تعدية مجازية إذ جُعلت الأرض من كثرة عيونها كأنّها عين تتفجّر. وهو إجمال جيء من أجله بالتمييز له بقوله { عُيُوناً } لبيان هذه النسبة. إذ المعنى: وفجرنا عيون الأرض، وهو مثل قوله تعالى { وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً } [مريم:4].

التفجير: إسالة الماء، يقال: تفجّر الماء، إذا سال، قال { حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً } [الإسراء:9].

التقاء الماء: تجمّع ماء الأمطار مع ماء عيون الأرض فالالتقاء مستعار للاجتماع، كما يلتقي الجيشان.

{ **عَلَى أَمْرٍ** } يجوز أن تكون { عَلَى } بمعنى (في)، كقوله تعالى { وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا } [القصص:15]، والظرفية مجازية. ويجوز أن تكون { عَلَى } للاستعلاء المجازي، أي: ملابسا لأمر قد قُدِّر ومُتمكّنا منه. ومعنى التمكّن: شدّة المطابقة لما قُدِّر، وأنّه لم يحد عنه قيد شعرة.

الأمر: الحال والشأن، وتنوينه للتعظيم.

{ **قَدْ قُدِرَ** } أي: أُتقن وأُحكم بمقدار، يقال: قَدَره (بالتخفيف) إذا ضبطه وعيَّنه، كما قال تعالى { إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ } [49].

{ **وَحَمَلْنَاهُ** } معطوفة على التفريع عطف احتراس. انتقال إلى وصف إنجاء نوح من ذلك الكرب العظيم. والمعنى: فأغرقناهم ونجيناه. وعدِّي فعل (حملنا) إلى ضمير نوح دون من معه من قومه لأنّ هذا الحمل كان إجابة لدعوته ولنصره، فهو المقصود الأوّل من هذا الحمل، وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى { فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا } [الأعراف:72]، وقوله تعالى { فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ } [المؤمنون:28]، ونحوه من الآيات الدالة على أنّه المقصود بالإنجاء وأنّ نجاة قومه بمعيّته.

{ **عَلَى** } للاستعلاء المجازي وهو التمكّن، كقوله { إِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ } [المؤمنون:28]، وإلّا فإنّ استقراره في السفينة كائن في جوفها، كما قال تعالى { إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ } [الحاقة:11]، وقوله تعالى { قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ } [هود:40].

{ **ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ** } صفة السفينة، أقيمت مقام الموصوف لأنّ في هذه الصفة بيان متانة هذه السفينة وإحكام صنعها. وفي ذلك إظهار لعناية الله بنجاة نوح ومن معه، فإنّ الله أمره بصنع السفينة وأوحى إليه كيفية صنعها ولم تكن تُعرف سفينة قبلها، قال تعالى { وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا } [هود:37].

وعادة البلغاء إذا احتاجوا لذكر صفة بشيء وكان ذكرها دالا على موصوفها أن يستغنوا عن ذكر الموصوف إيجازا، كما قال تعالى { أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ } [سبأ:11]، أي: دروعا سابغات.

الألواح: جمع لوح وهو القطعة المسوّاة من الخشب.

الدُّسر: جمع دِسار، وهو المسمار.

{ **تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ** } الباء للملابسة.

أعين: جمع عين بإطلاقه المجازي، وهو الاهتمام والعناية. والجمع لتقوية المعنى لأنّ الجمع أقوى من المفرد، أي: بحراسات منّا وعنايات. ويجوز أن يكون الجمع باعتبار أنواع العنايات بتنوع آثارها. وأصل استعمال لفظ العين في مثله تمثيل بحال الناظر إلى الشيء المحروس مثل الراعين، كما يقال للمسافر: عين الله عليك، ثم شاع ذلك حتّى ساوى الحقيقة فجُمع بذلك الاعتبار. كقوله تعالى { فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا } [الطور:48].

وقول النابغة: علمتك ترعاني بعين بصيرة.

{ **جَزَاءً** } مفعول لأجله لـ { فَتَحْنَا } وما عطف عليه، أي: فعلنا ذلك كله جزاء لنوح.

{ **مَنْ كَانَ كُفِرَ** } هو نوح، فإنّ قومه كفروا به، أي: لم يؤمنوا بأنّه رسول، وكان كفرهم به منذ جاءهم بالرسالة فلذلك أقحم هنا فعل { كَانَ }، أي: لمن كُفر منذ زمان مضى. وحُذف متعلّق لدلالة الكلام عليه. وتقديره: كُفر به، أو لأنّه نصح لهم ولقي في ذلك أشد العناء فلم يشكروا له بل كفروه، فهو مكفور. وذلك ما حكي في قوله تعالى { قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً - إلى قوله - ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً } [نوح:5-9].

{ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ } [15].

ضمير المؤنث عائد إلى { ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ }، أي: السفينة. والترك كناية عن الإبقاء وعدم الإزالة، قال تعالى { وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً } [الذاريات:37]. أي: أبقينا سفينة نوح محفوظة من البلى لتكون آية، تأييدا للرسل وتخويفا بأوّل عذاب عُذبت به أمّة كذبت رسولها. فكانت حجّة دائمة مثل ديار ثمود.

الآية: الحجّة. وأصل الآية الأمارة التي يصطلح عليها شخصان فأكثر، قال تعالى { قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ } [آل عمران:41].

{ **فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ** } فُرّع على إبقاء السفينة آية استفهام عمّن يتذكّر بتلك الآية وهو استفهام مستعمل في معنى التحضيض على التذكّر بهذه الآية واستقصاء خبرها. والتحضيض موجّه إلى جميع من تبلغه هذه الآيات.

{ **مُدَّكِرٍ** } أصله مذتكر مفتعل من الذُكر (بضم الذال)، وهو التفكّر في الدليل. قلبت تاء الافتعال دالا لتقارب مخرجيهما، وأدغم الذال في الدال لذلك، وقراءة هذه الآية مروية بخصوصها عن النبيّ صلى الله عليه وسلم. وتقدّم في قوله تعالى { وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ } [يوسف:45].

{ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ } [16].

تفريع على القصة بما تضمّنته من قوله تعالى { فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ } [11] إلى آخره.

{ **فَكَيْفَ** } الفاء للتفريع و(كيف) للاستفهام عن حالة العذاب، وهو مستعمل في التعجيب من شدّة هذا العذاب. والجملة في معنى التذييل، وهو تعريض بتهديد المشركين أن يصيبهم عذاب جزاء تكذيبهم وإعراضهم وأذاهم كما أصاب قوم نوح.

{ **نُذُرِ** } أصله: نُذُرِي. وحذف ياء المتكلّم في الكلام في الوقف فصيح، وكثر في القرآن عند الفواصل.

النُذُر: جمع نذير الذي هو اسم مصدر أنذر كالنذارة، وتقدّم آنفا [5]، وإنّما جمعت لتكرّر النذارة من الرسول لقومه طلبا لإيمانهم.

{ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ } [17].

لما كانت هذه النذارة بُلِّغت بالقرآن، والمشركون معرضون عن استماعه حارمين أنفسهم من فوائده، ذُيِّل خبرها بتنويه شأن القرآن بأنّه من عند الله وأنّ الله يسَّره وسهَّله لتذكّر الخلق بما يحتاجونه من التذكير ممّا هو هدى وإرشاد. وهذا التيسير ينبئ بعناية الله به مثل قوله { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [الحجر:9] تبصرةً للمسلمين ليزدادوا إقبالا على مدارسته، وتعريضا بالمشركين عسى أن يرعووا عن صدودهم عنه، كما أنبأ عنه قوله تعالى { فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ }.

{ وَلَقَدْ } تأكيد الخبر باللام وحرف التحقيق مراعى فيه حال المشركين الشاكين في أنّه من عند الله.

التيسير: إيجاد اليسر في شيء؛ من فعل، كقوله تعالى { يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ } [البقرة:185]، أو قول، كقوله تعالى { فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } [الدخان:58].

اليُسْر: السهولة، وعدم الكلفة في تحصيل المطلوب من شيء.

وإذ كان القرآن كلاما **فمعنى تيسيره** يرجع إلى تيسير ما يراد من الكلام وهو فهم السامع المعاني التي عناها المتكلّم به دون كلفة على السامع ولا إغلاق، وهذا اليسر يحصل من جانب الألفاظ وجانب المعاني:

فأمّا من جانب الألفاظ، فذلك بكونها في أعلى درجات فصاحة الكلمات وفصاحة التراكيب، أي: فصاحة الكلام، وانتظام مجموعها، بحيث يخفّ حفظها على الألسنة.

وأمّا من جانب المعاني، فبوضوح انتزاعها من التراكيب، ووفرة ما تحتوي عليه التراكيب منها من مغازي الغرض المسوقة هي له، وبتولّد معان من معان أخر كلّما كرَّر المتدبِّر تدبُّره في فهمها.

ووسائل ذلك لا يحيط بها الوصف وتقدّم بسطها في المقدمة العاشرة، من مقدّمات هذا التفسير، ومن أهمها: إيجاز اللفظ ليسرع تعلّقه بالحفظ، وإجمال المدلولات لتذهب نفوس السامعين في انتزاع المعاني منها كلّ مذهب يسمح به اللفظ والغرض والمقام، ومنها الإطناب بالبيان إذا كان في المعاني بعض الدقة والخفاء.

ويتأتى ذلك بتأليف نظم القرآن بلغة هي أفصح لغات البشر وأسمح ألفاظا، وتراكيب بوفرة المعاني، وبكون تراكيبه أقصى ما تسمح به تلك اللغة، فهو خيار من خيار من خيار. قال تعالى { بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ } [الشعراء:195].

وقد فرض الله على العلماء تبيينه تصريحا، كقوله تعالى { لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ } [النحل:44]، وتعريضا، كقوله تعالى { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ } [آل عمران: 187]، فإنّ هذه الأمّة أجدر بهذا الميثاق. وفي الحديث الشريف: **" ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلّا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده "** .

{ لِلذِّكْرِ } اللام متعلقة بـ { يَسَّرْنَا } وهي ظرف لغو غير مستقر، وهي (لام) تدلّ على أن الفعل الذي

تعلّقت به فُعِل لانتفاع مدخول هذه الـ (لام) به، فمدخولها لا يراد منه مجرّد تعليل فعل الفاعل، ولكن يراد أنّ مدخول هذه الـ (لام) علة خاصة مراعاة في تحصيل فعل الفاعل لفائدته.

الذكر: مصدر ذكر الذي هو التذكّر العقلي لا اللساني، والذي يرادفه الذُكر (بضم الذال) اسما للمصدر.

فالذكر هو تذكُّر ما في تذكّره نفع ودفع ضر، وهو الاتعاظ والاعتبار.

والمعنى: أن القرآن سُهّلت دلالته لأجل انتفاع الذكر بذلك التيسير، فجعلت سرعة ترتيب التذكّر على سماع القرآن بمنزلة منفعة للذكر لأنّه يشيع ويروج بها كما ينتفع طالب شيء إذا يُسِّرت له وسائل تحصيله، وقُرّبت له أباعدها. ويؤول المعنى إلى: يسَّرنا القرآن للمتذكِّرين.

{ **فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ** } تفريع، والقول فيه كالقول في نظيره المتقدم آنفا [15]، إلّا أنّ بين الادّكارين فرقا دقيقا؛ فالادِّكار السالف ادّكار اعتبار عن مشاهدة آثار الأمّة البائدة، والادّكار هنا ادّكار عن سماع مواعظ القرآن البالغة وفهم معانيه والاهتداء به.

{ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ [18] إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ [19] تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ [20] }.

موقعها كموقع جملة { كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ } [9]، فكان المقتضى أن تعطف عليها، وإنّما فصلت ليكون في الكلام تكرير التوبيخ والتهديد والنعي عليهم عقب قوله تعالى { وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَر حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ } [5/4]. ومقام التوبيخ والنعي يقتضي التكرير.

{ **كَذَّبَتْ عَادٌ** } الحكم على عاد بالتكذيب عموم عرفي بناء على أنّ معظمهم كذّبوه وما آمن به إلّا نفر قليل، قال تعالى { وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا } [هود:58].

{ **فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ** } تفريع على التذكير بتكذيب عاد، قبل أن يُذكر في الكلام ما يُشعر بأنّ الله عذَّبهم فضلا عن وصف عذابهم. فالاستفهام مستعمل في التشويق للخبر الوارد بعده، وهو مجاز مرسل لأنّ الاستفهام يستلزم طلب الجواب والجواب يتوقف على صفة العذاب وهي لمّا تذكر فيحصل الشوق إلى معرفتها، وهو أيضا مُكَنًّى به عن تهويل ذلك العذاب. وفي هذا الاستفهام إجمال لحال العذاب، وهو إجمال يزيد التشويق إلى ما يبيّنه بعده. ونظيره قوله تعالى { عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ - ثم قوله - عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ } [النبأ:2/1]

{ **وَنُذُرِ** } عطف على { عَذَابِي } بتقدير مضاف دلّ عليه المقام، والتقدير: وعاقبة نذري. أي: كيف كان تحقيق الوعيد الذي أنذرهم. أي: هي هنا موعظة من تحقّق وعيد الله إيّاهم.

نُذر: جمع نذير بالمعنى المصدري، كما تقدم في [5]، وقد علمت بما ذكرنا أنّ جملة { فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ } هذه ليست تكرير لنظيرها السابق في خبر قوم نوح [16]، ولا اللاحق في آخر قصة عاد [21]، للاختلاف الذي علمته بين مفادها ومفاد مماثلها وإن اتّحدت ألفاظهما.

والبليغ يتفطن للتغاير بينهما فيصرفه عن توهّم أن تكون هذه تكريرا، فإنّه لمّا لم يسبق وصف عذاب عاد لم يستقم أن تكون تعجيبا من حالة عذابهم.

{ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ }.

بيان للإجمال الذي في قوله تعالى { فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ }. وهو في صورة جواب الاستفهام الصوري. وكلتا الجملتين يفيد تعريضا بتهديد المشركين بعذاب على تكذيبهم.

وجملة البيان إنّما تصف حال العذاب دون حال الإنذار أو حال رسولهم، وهو اكتفاء، لأنّ التكذيب يتضمّن مجيء نذير إليهم، وفي مفعول { كَذَّبَتْ عَادٌ } المحذوف إشعار برسولهم الذي كذّبوه، وبَعْث الرسول وتكذيبهم إيّاه يتضمّن الإنذار، لأنّهم لمّا كذّبوه حقّ عليهم إنذارهم.

{ **عَلَيْهِمْ** } تعدية إرسال الريح إلى ضميرهم هي كإسناد التكذيب إليهم بناء على الغالب، وقد أنجى الله هودا والذين معه كما علمت آنفا، أو هو عائد إلى المكذِّبين بقرينة قوله تعالى { كَذَّبَتْ عَادٌ }.

الصرصر: الشديدة القوية يكون لها صوت، وتقدّم في [فصلت:16].

{ **يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ** } أوّل أيام الريح التي أرسلت على عاد، كما في قوله تعالى { فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ } [فصلت:16]، وقوله { سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً } [الحاقة:7].

النحس: سوء الحال.

{ **يَوْمِ نَحْسٍ** } من إضافة الزمان إلى ما يقع فيه، كقولهم: يوم فتح مكّة. وإنّما يضاف اليوم إلى النحس باعتبار المنحوس، فهو يوم نحس للمعذبين ويوم نصر للمؤمنين. وليس في الأيام يوم يوصف بنحس أو بسعد لأنّ كلّ يوم تحدث فيه نحوس لقوم وسعود لآخرين، وما يروى من أخبار في تعيين بعض أيّام السنة للنحس هو من أغلاط القصّاصين فلا يلقي المسلم الحقّ إليها سمعه.

{ **مُسْتَمِرٌّ** } صفة { نَحْسٍ }، أي: نحس دائم عليهم، فعُلم من الاستمرار أنّه أبادهم إذ لو نجوا لما كان النحس مستمرّا. وليس صفة لـ { يَوْمِ } إذ لا معنى لوصفه بالاستمرار. وتقدّم الكلام في اشتقاق مستمر عند قوله تعالى { وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ } [2]. ويجوز أن يكون من المرارة مستعارة للكراهية والنفرة فهو وصف كاشف لأنّ النحس مكروه.

النزع: الإزالة بعنف لئلّا يبقى اتصال بين المزال وبين ما كان متّصلا به، ومنه نزع الثياب.

الأعجاز: جمع عَجُز: وهو أسفل الشيء، وشاع إطلاق العجز على آخر الشيء، لأنّهم يعتبرون الأجسام منتصبة على الأرض فأوّلاها ما كان إلى السماء وآخرها ما يلي الأرض.

وأطلق الأعجاز هنا على أصول النخل، لأنّ أصل الشجرة هو في آخرها ممّا يلي الأرض.

{ **مُنْقَعِرٍ** } اسم فاعل انقعر مطاوع قعره، أي: بلغ قعره بالحفر، يقال: قعر البئر إذا انتهى إلى عمقها.

أي: كأنّهم أعجاز نخل قُعرت دواخله، وذلك يحصل لعود النخل إذا طال مكثه مطروحا.
منقعر: وصف روعي في إفراده وتذكيره صورة لفظ نخل دون عدد مدلوله خلافا لما في قوله تعالى { كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ } [الحاقة:7]، وقوله تعالى { وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ } [الرحمان:11].
وسئل المبرّد: ما الفرق بين قوله تعالى { وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً } [الأنبياء:81]، وقوله تعالى { جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ } [يونس:12]، وقوله تعالى { أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ } [الحاقة:7] وقوله تعالى { أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ }؟ فقال: كل ما ورد عليك من هذا الباب فإن شأت رددته إلى اللفظ تذكيرا أو إلى المعنى تأنيثا ".

{ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ } [21].
تكرير لنظيره السابق عقب قصة قوم نوح [16]، لأنّ مقام التهويل والتهديد يقتضي تكرير ما يفيدهما.
والاستفهام هنا على حالة العذاب، وهي الحالة الموصوفة في قوله تعالى { إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً - إلى قوله – مُنْقَعِرٍ } [20/19]، والاستفهام مستعمل في التعجيب.

{ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ } [22].
تكرير لنظيره السابق في خبر قوم نوح [17].

{ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ [23] **فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ** [24] **أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ** [25] }.
القول في موقعها كالقول في موقع جملة { كَذَّبَتْ عَادٌ } [18]. وكذلك القول في إسناد حكم التكذيب إلى ثمود، وهو اسم القبيلة، معتبر فيه الغالب الكثير. فإنّ صالحا قد آمن به نفر قليل، كما حكاه الله في [الأعراف:75].
ثمود: ممنوع من الصرف باعتبار العَلَمية والتأنيث المعنوي، أي: على تأويل الاسم بالقبيلة.
النُذُر: جمع نذير الذي هو اسم مصدر أنذر، أي: كذَّبوا بالإنذارات التي أنذرهم الله بها على لسان رسوله.
وإنّما فُصِّل تكذيب ثمود وأُجمِل تكذيب عاد لقصد بيان المشابهة بين تكذيب ثمود وتكذيب قريش، إذ تشابهت أقوالهم.
{ **فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ** } القول في انتظام هذه الجملة بعد جملة { كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ } كالقول في جملة { فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا } [9] بعد جملة { كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ } [9].
وهذا قول قالوه لرسولهم لمّا أنذرهم بالنُذر، لأنّ قوله تعالى { كَذَّبَتْ } يؤذن بمخبر، إذ التكذيب يقتضي وجود مُخبر. وهو كلام شافهوا به صالحا، وهو الذي عَنَوْه بقولهم { أَبَشَرًا مِنَّا }. وعدلوا عن الخطاب

إلى الغيبة.

{ **أَبَشَرًا** } انتصب على المفعولية لـ { نَتَّبِعُهُ } على طريقة الاشتغال، وقُدِّم لاتصاله بهمزة الاستفهام لأنّ حقَّها التصدير واتصلت به دون أن تدخل على { نَتَّبِعُهُ } لأنّ محل الاستفهام الإنكاري هو كون البشر متبوعا لا اتباعهم له، ومثله { أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا }، وهذا من دقائق مواقع أدوات الاستفهام كما بُيِّن في علم المعاني. أي: أنكروا أن يرسل الله إلى الناس بشرا مثلهم، أي: لو شاء الله لأرسل ملائكة.

{ **وَاحِداً** } وصف، إمّا بمعنى أنّه منفرد في دعوته لا أتباع له ولا نصراء، أي: ليس ممَّن يُخشى، أي: بعكس قول أهل مدين { وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ } [هود:91]. وإمّا بمعنى أنّه من جملة آحاد الناس، أي: ليس من أفضلنا. وإمّا بمعنى أنّه منفرد في ادعاء الرسالة لا سلف له فيها.

{ **إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ** } تعليل لإنكار أن يتّبعوا بشرا منهم، تقديره: أنتبعك وأنت بشر واحد منا.

{ **إِذاً** } حرف جواب هي رابطة الجملة بالتي قبلها.

{ **لَفِي** } للظرفية المجازية، جعلوا تلبّسهم بالضلال والجنون كتلبّس المظروف بالظرف.

الضلال: عدم الاهتداء إلى الطريق، أرادوا: إنّا إذن مخطئون في أمرنا.

{ **سُعُرٍ** } الجنون، يقال بضم العين وسكونها. وفسَّر أبن عباس السُّعر بالعذاب، على أنّه جمع سعير.

{ **أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا** } تعليل للاستفهام الإنكاري.

{ **أُلْقِيَ** } حقيقته رُمِيَ من اليد إلى الأرض، وهو هنا مستعار لإنزال الذكر من السماء، قال تعالى { إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً } [المزمل:5].

{ **مِنْ بَيْنِنَا** } حال من ضمير { عَلَيْهِ }، أي: كيف يُلقى عليه الذكر دونا، يريدون أنّ فيهم من هو أحقّ منه.

{ **بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ** } إضراب عن ما أنكروه بقولهم { أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا }، أي: لم ينزل الذكر عليه من بيننا بل هو كذّاب فيما ادعاه، بطِر متكبّر.

{ **أَشِرٌ** } (بكسر الشين وتخفيف الراء) أسم فاعل **أَشِر**، إذ فرح وبَطَر. المعنى: هو معجب بنفسه مدع.

{ سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ } [26].

مقول قول محذوف دلّ عليه السياق تقديره: قلنا لنذيرهم. وذلك مبني على أنّ قوله تعالى آنفا { فَقَالُوا أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ } [25]، كلام أجابوا به نذارة صالح إيّاهم المقدّرة من قوله { كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ } [23].

{ **سَيَعْلَمُونَ** } في قراءة الجمهور، وقرأ ابن عامر وحمزة { سَتَعْلَمُونَ } (بتاء الخطاب)، وهي تحتمل أن يكون هذا حكاية كلام من الله لصالح على تقدير: قلنا له: قل لهم، ففيه حذف قول. ويحتمل أن يكون خطابا من الله لهم بتقدير: قلنا لهم ستعلمون. ويحتمل أن يكون خطابا للمشركين على جعل الجملة

معترضة.

{ **غَداً** } للزمن المستقبل القريب. والمراد به في الآية يوم نزول عذابهم المستقرب. أي: حين يرون المعجزة وتلوح لهم بوارق العذاب يعلمون أنّهم الكذّابون الأشرون لا صالح.

{ إِنَّا مُرْسِلُواْ الْنَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ [27] وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ [28] فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ [29] }.

بيان لجملة { سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ } [26]، باعتبار ما تضمَّنته الجملة المبيَّنة من الوعيد وتقريب زمانه وأنّ فيه تصديق الرسول الذي كذَّبوه.

{ **إِنَّا مُرْسِلُواْ الْنَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ** } إشارة إلى قصّة معجزة صالح أنّه أخرج لهم ناقة من صخرة، وكانت تلك المعجزة مقدِّمة الأسباب التي عُجِّل لهم العذاب لأجلها، فذِكْر هذه القصة في جملة البيان توطئة وتمهيد.

الإرسال: مستعار لجعلها آية لصالح. وقد عُرف خلق خوارق العادات لتأييد الرسل باسم الإرسال في القرآن كما قال تعالى { وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً } [الإسراء:59]. شبهت الناقة بشاهد أرسله الله لتأييد رسوله. وهذا مؤذن بأنّ في هذه الناقة معجزة، وقد سمَّاها الله آية في قوله حكاية عنهم وعن صالح { فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ } [الشعراء:155/154].

{ **مُرْسِلُواْ الْنَّاقَةِ** } اسم الفاعل مستعمل في الاستقبال مجازا بقرينة قوله تعالى { فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ }، عدل على أن يقال: سنرسل، إلى صيغة اسم الفاعل الحقيقية في الحال لتقريب زمن الاستقبال من زمن الحال.

{ **فِتْنَةً لَهُمْ** } حال مقدّر، أي: تفتنهم. وتقدير معنى الكلام: إنّا مرسلو الناقة آية لك وفتنة لهم.

{ **فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ** } عُدّي الارتقاب إلى ضميرهم على تقدير مضاف يقتضيه الكلام لأنّه لا يرتقب ذواتهم وإنّما يرتقب أحوالا تحصل لهم. والمعنى: فأرتقب ما يحصل لهم من الفتنة عند ظهور الناقة.

الارتقاب: الانتظار، ارتقب مثل: رقب، وهو أبلغ دلالة من رقب، لزيادة المبنى فيه.

الاصطبار: الصبر القوي، وهو كالارتقاب أيضا أقوى دلالة من الصبر، أي: أصبر صبرا لا يعتريه ملل ولا ضجر، أي: أصبر على تكذيبهم ولا تيأس من النصر عليهم، وحُذف المتعلّق ليعمّ كلّ حال تستدعي الضجر. التقدير: وأصطبر على أذاهم وعلى ما تجده في نفسك من انتظار النصر.

{ **وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ** } معطوفة على جملة { إِنَّا مُرْسِلُواْ الْنَّاقَةِ } باعتبار أنّ الوعد بخلق آية الناقة يقتضي كلاما محذوفا، تقديره: فأرسلنا لهم الناقة وقلنا نبئهم أنّ الماء قسمة بينهم. على طريقة العطف والحذف، ومثل هذا الحذف كثير في إيجاز القرآن.

{ **الْمَاءُ** } التعريف للعهد، أي: ماء القرية الذي يستقون منه، فإنّ لكلّ محلة ينزلها قوم ماءً لسقياهم، قال تعالى { وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ } [القصص:23].

{ **قِسْمَةٌ** } أي: مقسوم، فهو من الإخبار بالمصدر للتأكيد والمبالغة.

{ **بَيْنَهُمْ** } الضمير عائد إلى المعلوم من المقام بعد ذكر الماء، إذ من المتعارف أنّ الماء يستقي منه أهل القرية لأنفسهم وماشيتهم، ولمّا ذُكرت الناقة عُلم أنّها لا تستغني عن الشرب فغُلِّب ضمير العقلاء على ضمير الناقة الواحدة، وإذ لم يكن للناقة مالك خاص أمر الله لها بنوبة في الماء. وقد جاء في قوله تعالى { قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ } [الشعراء:155].

وهذا مبدأ الفتنة، فقد روي أنّ الناقة كانت في يوم شربها تشرب ماء البئر كلّه فشحُّوا بذلك وأضمروا صدّها عن الماء، فأبلغهم صالح أنّ الله ينهاهم عن أن يمسُّوها بسوء.

الشِرب: (بكسر الشين) نوبة الاستقاء من الماء.

{ **مُحْتَضَرٌ** } (بفتح الضاد) اسم مفعول من الحضور وهو ضدّ الغيبة. وهذا من جملة ما أُمر رسولهم بأن ينبّئهم به. أي: لا يحضر القوم في يوم شرب الناقة، وهي بإلهام الله لا تحضر في أيام شرب القوم.

{ **فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ** } فنادوا صاحبهم الذي أغروه بقتلها وهو (قُدَار بن سالف)، ويعرف عند العرب بـ (أحمر). ولم أقف على سبب وصفه بأحمر وأحسب أنّه لبياض وجهه . ففي الحديث: **" بُعثت إلى الأحمر والأسود "**.

وكان (قُدَار) من سادتهم وأهل العزّة منهم، وشبَّهه النبيّ صلى الله عليه وسلم بأبي زمعة (يعني الأسود بن المطلب بن أسد) في قوله: فانتُدب لها رجل ذو منعة في قومه كأبي زَمعة.

{ **فَنَادَوْا** } نداؤهم إيّاه نداء الإغراء بالناقة، وإنّما نادوه لأنّه مشتهر بالإقدام وقلّة المبالاة لعزّته.

{ **صَاحِبَهُمْ** } للإشارة إلى أنّهم راضون بفعله، إذ هم مصاحبون له وممالئون.

{ **تَعَاطَى** } مطاوع عاطاه وهو مشتقّ من: عطا يعطو، إذا تناول. وصيغة تفاعل تقتضي تعداد الفاعل، شُبِّه تخوُّف القوم من قتلها لِمَا أنذرهم به رسولهم من الوعيد وتردُّدهم في الإقدام على قتلها بالمعاطاة، فكلّ واحد حين يُحجم عن مباشرة ذلك ويشير بغيره كأنّه يعطي ما بيده إلى يد غيره حتّى أخذه (قُدَار).

{ **فَعَقَرَ** } عطف بالفاء للدلالة على سرعة إتيانه ما دعوه لأجله.

العقر: أصله ضرب البعير بالسيف على عراقيبه ليسقط إلى الأرض جاثيا فيتمكن الناحر من نحره. وغلب إطلاقه على قتل البعير، كما هنا، إذ ليس المراد أنّه عقرها بل قتلها بنبله.

{ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ } [30].

القول فيه كالقول في نظيره الواقع في قصة قوم نوح [16]، فليس هو تكريرا ولكنّه خاص بهذه القصة.

{ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ } [31]

جواب قوله تعالى { فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ } [30]، فهو مثل موقع قوله تعالى { إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً

صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ } [19] في قصة عاد كما تقدّم.

الصيحة: الصاعقة، وهي المعبَّر عنها بـ (الطاغية) في [الحاقة:5]، وبـ (الرجفة) في [الأعراف:78] ، وهي صاعقة عظيمة خارقة للعادة أهلكتهم، ولذلك وُصفت بـ { **واحِدَةً** } للدلالة على أنّها خارقة للعادة إذ أتت على قبيلة كاملة وهم أصحاب الحجر.

{ **فَكَانُوا** } بمعنى: فصاروا، وتجيء (كان) بمعنى (صار) حين يراد بها كون متجدِّد لم يكن من قبل.

الهشيم: ما يبسَ وجفَّ من الكلأ ومن الشجر، وهو مشتق من (الهَشْم) وهو الكَسْر، لأنّ اليابس من ذلك يصير سريع الانكسار. والمراد هنا شي خاص منه وهو ما جفّ من أغصان العُضاه والشوك وعظيم الكلأ كانوا يتّخذون منه حظائر لحفظ أغنامهم من الريح والعادية، ولذلك أضيف الهشيم إلى المحتضر.

{ **الْمُحْتَظِرِ** } (بكسر الظاء المعجمة) الذي يعمل الحظيرة ويبنيها، وذلك بأنّه يجمع الهشيم ويلقيه على الأرض ليرصفه بعد ذلك سياجا لحظيرته، فالمشبَّه به هو الهشيم المجموع في الأرض قبل أن يُسيَّج، ولذلك قال { كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ } ولم يقل: كهشيم الحظيرة، لأنّ المقصود بالتشبيه حالته قبل أن يرصَّف ويصفَّف وقبل أن تُتَّخذ منه الحظيرة.

{ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ** } [32].

تكرير ثان بعد نظيريه السالفين في قصة قوم نوح [17]، وقصة عاد [22]، تذييلا لهذه القصة كما ذُيّلت بنظيريه القصتان السالفتان، اقتضى التكرير مقام الامتنان والحثّ على التدبّر بالقرآن لأنّ التدبّر فيه يأتي بتجنّب الضلال ويرشد إلى مسالك الاهتداء.

{ **كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ** [33] **إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ** [34] **نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ** [35] }.

القول في مفرداته كالقول في نظائره، وقصة قوم لوط تقدّمت في [الأعراف:80-84] وغيرها.

{ **قَوْمُ لُوط** } عُرف قوم لوط بالإضافة إليه، إذ لم يكن لتلك الأمّة اسم يعرفون به عند العرب.

ولم يُحْكَ هنا ما تلقّى به قوم لوط كما حُكي في القصص الثلاث قبل هذه، وقد حُكي ذلك في سورة الأعراف وفي [هود:77-83]، وفي [الحجر:57-79]، لأنّ سورة القمر بُنيت على تهديد المشركين عن إعراضهم عن الاتعاظ بآيات الله التي شاهدوها وآثار آياته على الأمم الماضية التي علموا أخبارها وشهدوا آثارها، فلم يكن ثمّة مقتض لتفصيل أقوال تلك الأمم إلّا ما كان منها مشابها لأقوال المشركين في تفصيله، ولم تكن أقوال قوم لوط بتلك المثابة، فلذلك أقتصر فيها على حكاية ما هو مشترك بينهم وبين المشركين؛ وهو تكذيب رسولهم وإعراضهم عن نذره.

{ **إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً** } استئناف بياني ناشئ عن الإخبار عن قوم لوط بأنّهم كذَّبوا بالنذر.

الحاصب: الريح التي تحصب، أي: ترمي بالحصباء ترفعها من الأرض لقوّتها، وتقدّم في قوله تعالى { فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً } [العنكبوت:40].

{ **إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ** } الاستثناء حقيقي لأنّ آل لوط من جملة قومه.

آل لوط: قرابته وهم بناتُه، ولوط داخل بدلالة الفحوى. وقد ذُكر في آيات أخرى أنّ زوجة لوط لم يُنجها الله ولم يذكر ذلك هنا اكتفاء بما وقع ذكره، وتنبيها على أنّ من لا يؤمن بالرسول لا يُعد من آله، كما قال تعالى { يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ} [هود:46].

{ **بِسَحَرٍ** } أي: في وقت السحر، للإشارة إلى إنجائهم قبيل حلول العذاب بقومهم، لقوله بعده { وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ }.

{ **نِعْمَةً** } انتصب على الحال من ضمير المتكلّم، أي: إنعاما منّا.

{ **مِنْ عِنْدِنَا** } تنويه بشأن هذه النعمة لأنّ ظرف { عِنْدَ } يدلّ على الادّخار والاستئثار مثل (لَدُنْ) في قوله تعالى { مِنْ لَدُنَّا }. فذلك أبلغ من أن يقال: نعمة منّا أو أنعمنا.

{ **كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ** } معترضة، وهي استئناف بياني عن جملة { نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ } باعتبار ما معها من الحال، أي: إنعاما لأجل أنّه شكر، ففيه إيماء بأنّ إهلاك غيرهم لأنّهم كفروا، وهذا تعريض بإنذار المشركين وبشارة للمؤمنين.

{ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ } [36].

عطف على جملة { إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً } [34].

{ **لَقَدْ** } تأكيد الكلام بلام القسم وحرف التحقيق يقصد منه تأكيد الغرض الذي سيقت القصة لأجله، وهو موعظة قريش الذين أنذرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتماروا بالنذر.

البطشة: المرّة من البطش، وهو أخذ بعنف لعقاب ونحوه، وتقدّم في قوله تعالى { أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا} [الأعراف:195]، وهي هنا تمثيل للإهلاك السريع مثل قوله { يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى } [الدخان:16].

التماري: تفاعل من المِراء وهو الشك. وصيغة المفاعلة للمبالغة. وضُمِّنت معنى: كذّبوا فعدي بـ (الباء)، وتقدّم عند قوله تعالى { فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى } [النجم:55].

{ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ } [37].

إجمال لما ذُكر في غير هذه السورة في قصة قوم لوط أنّه نزل به ضيف فرام قومه الفاحشة بهم وعجز لوط عن دفع قومه إذ اقتحموا بيته وأنّ الله أعمى أعينهم فلم يروا كيف يدخلون.

المراودة: محاولة رضى الكاره شيئا بقَبول ما كرهه، وهي مفاعلة من راد يرود رودا، إذا ذهب ورجع في أمر، مُثِّلت هيئة من يُكرِّر المراجعة والمحاولة بهيئة المنصرف ثم الراجع. وضمِّن الفعل معنى دفعوه وصرفوه فعدي بـ { عَنْ }.

وأسند المراودة إلى ضمير قوم لوط، وإن كان المراودون نفرًا منهم، لأنّ ما راودوا عليه هو مراد جميع القوم بقطع النظر عن تعيين من يفعله.

{ **عَنْ ضَيْفِهِ** } يتعلّق بفعل { رَاوَدُوهُ } بتقدير مضاف، أي: عن تمكينهم من ضيوفه.

{ **فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ** } مقول قول محذوف دلّ عليه سياق الكلام للنفر الذين طُمست أعينهم: وهو العمى. أي: ألقى الله في نفوسهم أنّ ذلك عقاب لهم.

{ **وَنُذُرِ** } عطف على العذاب باعتبار أنّ العذاب تصديق للنذر، أي: ذوقوا آثار نُذري، بتقدير مضاف.

{ **وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ** } [38].

القول في تأكيده بلام القسم تقدّم آنفا في نظيره.

التصبيح: الكون في زمن الصباح وهو أوّل النهار.

البكرة: أوّل النهار وهو وقت الصبح، ذُكر هنا للدلالة على تعجيل العذاب لهم. وقد جاء في الآية الأخرى قوله تعالى { إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ } [هود:81].

{ **عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ** } العذاب الثابت الدائم الذي يجري على قوّة واحدة، لم يقلع حتّى استأصلهم. وكان عذابهم الخسف ومطر الحجارة، وهو مذكور في سورة الأعراف وسورة هود.

{ **فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ** } [39].

تفريع قول محذوف خوطبوا به مراد به التوبيخ؛ إمّا بأن ألقي في روعهم عند حلول العذاب، وإمّا بأن ألقى الله في أسماعهم صوتا. والخطاب لجميع الذين أصابهم العذاب المستقرّ، وبذلك لم تكن هذه الجملة تكريرا.

{ **فَذُوقُوا** } استعمل الذوق في الإحساس بالعذاب مجازا مرسلا بعلاقة التقييد في الإحساس.

{ **نُذُرِ** } حذفت ياء المتكلّم تخفيفا.

وفائدة الإعلام بما قيل لهم في الموضعين أن يتجدّد عند استماع كلّ نبإ من ذلك إدّكار للمشركين واتعاظ.

{ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ** } [40].

تكرير ثالث تنويها بشأن القرآن للخصوصية التي تقدّمت في المواضع التي كُرِّر فيها نظيره وما يقاربه

وخاصة في نظيره الموالي هو له. ولم يُذكر هنا { فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ } [30]، اكتفاء بحكاية التنكيل بقوم لوط في التعريض بتهديد المشركين.

{ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ [41] كَذَّبُوا بِآياتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ [42] }.

لمّا كانت دعوة موسى عليه السلام غير موجّهة إلى أمّة القبط، وغير مراد منها التشريع لهم، ولكنّها موجَّهة إلى فرعون وأهل دولته، الذين بأيديهم تسيير أمور المملكة، ليسمحوا بإطلاق بني إسرائيل من الاستعباد ويمكِّنوهم من الخروج مع موسى، خُصّ بالنذر هنا آل فرعون، أي: فرعون وآله لأنّه يصدر عن رأيهم، ألا ترى أنّ فرعون لم يستأثر بردّ دعوة موسى بل قال لمن حوله { أَلا تَسْتَمِعُونَ } [الشعراء:25]، وقال { فَمَاذَا تَأْمُرُونَ } [الشعراء:35]، وقالوا { أَرْجِهْ وَأَخَاهُ } [الشعراء:36].

ولذلك لم يكن أسلوب الإخبار عن فرعون ومن معه مماثلا لأسلوب الإخبار عن قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط، إذ صدر الإخبار عن أولئك بجملة { **كَذَّبَتْ** } وخولف في الإخبار عن فرعون فصدر بجملة { **وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ** } وإن كان مآل هذه الأخبار الخمسة متماثلا.

{ **وَلَقَدْ جَاءَ** } القول في تأكيد الخبر بالقسم وحرف التحقيق كالقول في نظائره المتقدّمة.

الآل: القرابة، ويطلق مجازا على من له شدّة اتصال بالشخص، كما في قوله تعالى { أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ } [غافر:46]. وكان الملوك الأقدمون ينوطون وزارتهم ومشاورتهم بقرابتهم لأنّهم يأمنون كيدهم.

النُذر: جمع نذير: اسم مصدر بمعنى الإنذار. ووجه جمعه أنّ موسى كرَّر إنذارهم.

وإسناد التكذيب إليهم بناء على ظاهر حالهم وإلّا فقد آمن منهم رجل واحد كما في سورة غافر.

{ **كَذَّبُوا بِآياتِنَا كُلِّهَا** } بدل اشتمال من جملة { جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ }، لأن مجيء النذر إليهم ملابس للآيات، وظهور الآيات مقارن لتكذيبهم بها، فمجيء النذر مشتمل على التكذيب لأنّه مقارن مقارنه.

{ **بِآيَاتِنَا** } إشارة إلى آيات موسى المذكورة في قوله { فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ } [الأعراف:133]، وهي تسع آيات؛ منها الخمس المذكورة في آية الأعراف والأربع الأخر هي: (انقلاب العصا حية - ظهور يده بيضاء - سِنو القحط - انفلاق البحر).

{ **كُلِّهَا** } تأكيد لـ { بِآيَاتِنَا }، إشارة إلى كثرتها وأنّهم لم يؤمنوا بشيء منها.

الأخذ: مستعار للانتقام، وقد تقدّم عند قوله تعالى { أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ } [النحل:47/46].

وهذا الأخذ هو إغراق فرعون ورجال دولته وجنده الذين خرجوا لنصرته كما تقدّم في [الأعراف:136].

{ **أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ** } انتصب على المفعولية المطلقة مُبيّنا لنوع الأخذ بأفظع ما هو معروف للمخاطبين

من أخذ الملوك والجبابرة.

العزيز: الذي لا يُغلب. و**المقتدر**: الذي لا يَعْجِز. وأريد بذلك أنّه أخذ لم يبق على العدو.

{ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ } [43].

هذه الجملة كالنتيجة لحاصل القصص عن الأمم التي كذّبت الرسل، ولذلك فصلت ولم تعطف. وقد غُيِّر أسلوب الكلام من كونه موجَّها للرسول صلى الله عليه وسلم إلى توجيهه للمشركين لينتقل من التعريض إلى التصريح اعتناء بمقام الإنذار والإبلاغ.

والاستفهام يجوز أن يكون على حقيقته، ويكون من المحسِّن البديعي الذي سمَّاه أهل الأدب بـ (تجاهل العارف). وهو هنا للتوبيخ لعدم اعتبارهم بما حل بأمثالهم حتّى كأنّهم يحسبون كفّارهم خيرا من الكفار الماضين المتحدَّث عن قصصهم.

{ **كُفَّارُكُمْ** } الضمير لأهل مكة وهم أنفسهم الكفار، فإضافة لفظ كفّار إلى ضميرهم إضافة بيانية.

{ **أَمْ** } للإضراب الانتقالي. وما يقدر بعدها من استفهام مستعمل في الإنكار. والتقدير: بل ألكم براءة في الزبر حتّى تكونوا آمنين من العقاب.

البراءة: الخلاص والسلامة ممّا يضرّ أو يشقّ أو يُكلِّف كلفة. والمراد هنا: الخلاص من المؤاخذة والمعاقبة.

{ **الزُّبُرِ** } جمع زبور، وهو الكتاب، وزبور بمعنى مزبور. أي: براءة كُتبت في كتب الله السالفة.

المعنى: ألكم براءة في الزبر أنّ كفاركم لا ينالهم العقاب الذي نال أمثالهم من الأمم السابقة.

والآية تؤذن بارتقاب عذاب ينال المشركين في الدنيا دون العذاب الأكبر.

{ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ [44] سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ [45] }.

{ **أَمْ** } منقطعة لإضراب انتقالي، والاستفهام المقدّر بعدها مستعمل في التوبيخ، فإن كانوا قد صرَّحوا بذلك فظاهر، وإن كانوا لم يصرِّحوا به فهو إنباء بأنّهم سيقولونه.

وغُيِّر أسلوب الكلام من الخطاب الموجَّه إلى المشركين بقوله { أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ } [43]، إلى أسلوب الغيبة رجوعا إلى الأسلوب الجاري من أول السورة بعد أن قُضي حقّ الإنذار بتوجيه الخطاب إلى المشركين.

والكلام بشارة للنبيّ صلى الله عليه وسلم وتعريض بالنذارة للمشركين مبني على أنّهم تُحدِّثهم نفوسهم بذلك وأنّهم لا يحسبون حالهم وحال الأمم التي سيقت إليهم قصصها متساوية، أي: نحن منتصرون على محمد صلى الله عليه وسلم لأنّه ليس رسول الله فلا يؤيّده الله.

{ **جَمِيعٌ** } اسم للجماعة الذين أمرهم واحد، وليس هو بمعنى الإحاطة.

المعنى: بل أيدعون أنّهم يغالبون محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأنّهم غالبون لأنّهم جميع لا

يُغلبون.

منتصر: وصف { جَمِيعٌ } جاء بالإفراد مراعاة للفظ { جَمِيعٌ } وإنّ كان معناه متعدّدا.

{ **سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ** } جواب عن قولهم { نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ }، فلذلك لم تعطف الجملة على التي قبلها. وهذا بشارة لرسوله صلى الله عليه وسلم.

الهَزْم: الغلب، والسين لتقريب المستقبل، كقوله تعالى { قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ } [آل عمران:12]. وبني الفعل للمجهول لظهور أنّ الهازم المسلمون.

{ **الْجَمْعِ** } التعريف للعهد، أي: الجمع المعهود من قوله { نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ }، والمعنى: سيهزم جمعهم.

{ **يُوَلُّونَ** } يجعلون غيرهم يلي، فهو يتعدّى بالتضعيف إلى مفعولين، وقد حُذف مفعوله الأوّل هنا للاستغناء عنه إذ الغرض الإخبار عنهم بأنّهم إذا جاء الوغى يفرُّون ويولُّونكم الأدبار.

{ **الدُّبُرْ** } الظهر، وهو ما أدبر، أي: كان وراء، وعكسه القُبُل. وأُفرد الدبر، والمراد الجمع، لأنّه جنس يصدق بالمتعدّد، أي: يولّي كلّ أحد منهم دبره، وذلك لرعاية الفاصلة ومزاوجة القرائن.

وقد ثبت في الصحيح أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لمّا خرج لصفّ القتال يوم بدر تلا هذه الآية قبل القتال، إيماء إلى تحقيق وعد الله بعذابهم في الدنيا.

رُوي عن عكرمة أنّ عمر بن الخطاب قال: لمّا نزلت { سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ } جعلت أقول: أي جمع يُهزم؟ فلمّا كان يوم بدر رأيت النبيّ صلى الله عليه وسلم يثب في الدرع، ويقول: { سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ } ". أي: لم يتبيَّن له المراد بالجمع الذي سيُهزم ويولِّي الدبر، فإنّه لم يكن يومئذ قتال ولا كان يخطر لهم ببال.

{ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ } [46].

{ **بَلِ** } للإضراب الانتقالي، وهو انتقال من الوعيد بعذاب الدنيا، كما حلّ بالأمم قبلهم، إلى الوعيد بعذاب الآخرة. قال تعالى { وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } [السجدة:21]. وعذاب الآخرة أعظم فلذلك قال { وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ }، وقال في الآية الأخرى { وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى } [طه:127]، وفي الآية الأخرى { وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى } [فصلت:16].

الساعة: عَلَم بالغلبة في القرآن على يوم الجزاء.

الموعد: يوم الوعد، وهو هنا وعد سوء، أي: وعيد. وهذا إجمال.

{ **وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ** } تفصيل لما أُجمل من الوعيد. ووجه العطف أنّه أريد جعله خبرا مستقلًّا.

{ **أَدْهَى** } اسم تفضيل من (دهاه) إذا أصابه بداهية. أي: داهية الخلود في النار أشدّ من داهية عذاب الدنيا.

أَمَرّ: أي: أشد مرارة. واستعيرت المرارة للإحساس بالمكروه، على طريقة تشبيه المعقول الغائب

بالمحسوس المعروف.

{ **وَالسَّاعَةُ** } أعيدت دون أن يؤتى بضميرها لقصد التهويل، ولتكون الجملة مستقلة بنفسها فتسير كالمثل.

{ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ [47] يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ [48] }.

بيان لقوله { وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ } [46].

{ **إِنّ** } اقتران الكلام بها لفائدتين: إحداهما، الاهتمام بصريحه الإخباري، وثانيهما، تأكيد ما تضمّنه من التعريض بالمشركين، لأنّ الكلام وإن كان موجَّها للنبيّ صلى الله عليه وسلم، وهو لا يشك في ذلك، فإنّ المشركين يبلغهم ويشيع بينهم، وهم لا يؤمنون بعذاب الآخرة، فكانوا جديرين بتأكيد الخبر في جانب التعريض، فتكون { إنّ } مستعملة في غرضيها من التوكيد والاهتمام.

{ **الْمُجْرِمِينَ** } التعبير عنهم بذلك إظهار في مقام الإضمار لإلصاق وصف الإجرام بهم.

الضلال: يطلق على ضدّ الهدى ويطلق على الخسران، وأكثر المفسّرين على أنّ المراد به هنا المعنى الثاني. فعن ابن عباس: المراد: الخسران في الآخرة.

{ **سُعُرٍ** } جمع سعير، وهو النار، وجمع السعير لأنّه قويّ شديد.

السحب: الجرّ، وهو في النار أشدّ من ملازمة المكان، فهو أشد تعذيبا.

{ **عَلَى وُجُوهِهِمْ** } جُعل السحب على الوجوه إهانة لهم.

{ **ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ** } مقول قول محذوف، والجملة مستأنفة. والذوق مستعار للإحساس. وصيغة الأمر مستعملة في الإهانة والمجازاة.

المسّ: مستعمل في الإصابة على طريقة المجاز المرسل.

سقر: عَلَم على جهنم، ولذلك فهو ممنوع من الصرف للعَلَمية والتأنيث، لأنّ جهنم اسم مؤنث معنًى، اعتبروا فيه أنّ مسمَّاه نار والنار مؤنثة. وهو مشتقّ من السَّقْر (بسكون القاف) وهو التهاب في النار.

{ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ } [49].

استئناف وقع تذييلا لما قبله من الوعيد والإنذار والاعتبار بما حلّ بالمكذبين، وهو أيضا توطئة للقول اللاحق { وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ } [50]. والمعنى: إنّا خلقنا وفعلنا كلّ ما ذُكر من الأفعال وأسبابها وآلاتها، وسلَّطناه على مستحقّيه لأنّا خلقنا كلّ شيء بقدر، أي: فإذا علمتم هذا فانتبهوا إلى أنّ ما أنتم عليه من التكذيب والإصرار المماثل لما كانت عليه الأمم السالفة.

واقتران الخبر بحرف (إنّ) يقال فيه ما قلناه في قوله { إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ } [47].

الخلق: أصله إيجاد ذات بشكل مقصود، فهو حقيقة في إيجاد الذوات، ويطلق مجازا على إيجاد المعاني التي تشبه الذوات في التميّز والوضوح، كقوله تعالى { وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً } [العنكبوت:17].

فإطلاقه هنا من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه.

{ **شَيْءٍ** } معناه موجود من الجواهر والأعراض، أي: خلقنا كل الموجودات جواهرها وأعراضها بقدر.

وممّا يشمله عموم { كُلَّ شَيْءٍ } خلق جهنم للعذاب.

القدَر: (بتحريك الدال) مرادف القدْر (بسكونها)، وهو تحديد الأمور وضبطها.

{ **بِقَدَرٍ** } الباء للملابسة، والمجرور ظرف مستقر، فهو في حكم المفعول الثاني لفعل { خَلَقْنَاهُ } لأنّه مقصود بذاته، إذ ليس المقصود الإعلام بأنّ كل شيء مخلوق لله، فإنّ ذلك لا يحتاج إلى الإعلام به بله تأكيده، بل المقصود إظهار معنى العلم والحكمة في الجزاء، كما في قوله تعالى {وكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ} [الرعد:8].

وممّا يستلزمه معنى القدر أنّ كلّ شيء مخلوق هو جار على وفق علم الله وإرادته لأنّه خالق أصول الأشياء وجاعل القوى فيها لتنبعث عنها آثارها ومتولّداتها، فهو عالم بذلك ومريد لوقوعه.

أخرج مسلم والترمذي عن أبي هريرة: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم في القدر فنزلت { يوَم يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ } [49/48].

قال عياض في (الإكمال): " ظاهره أنّ المراد بالقدر هنا مراد الله ومشيئته وما سيق به قدره من ذلك، وهو دليل مساق القصة التي نزلت بسببها الآية ".

وقال الباجي في (المنتقى): يحتمل من جهة اللغة معاني: أحدها: أن يكون القدر ههنا بمعنى مُقدَّر لا يزاد عليه ولا يُنقص، كما قال تعالى { جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً } [الطلاق: 3].

والثاني: أنّ المراد أنّه بقدرته، كما قال تعالى { بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ } [القيامة:4].

والثالث: بقدر، أي: نخلقه في وقته، أي: نقدِّر له وقتا نخلقه فيه ".

قلتُ: وإذا كان لفظ { بِقَدَرٍ } جنسا، ووقع معلّقا بفعل متعلق بضمير { كُلِّ شَيْءٍ } الدال على العموم، كان ذلك اللفظ عاما للمعاني كلّها، فكلّ ما خلقه الله فخلْقه بقدر جاريا على حكمته.

{ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ } [50].

عطف على قوله تعالى { إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ } [49]، فهو داخل في التذييل، أي: خلقنا كل شيء بعلم، فالمقصود منه وما يصلح له معلوم لنا، فإذا جاء وقته الذي أعدّدناه حصل دفعة واحدة لا يسبقه اختبار ولا نظر ولا بداء. وسياتي تحقيق هذا الكلام في آخر تفسير هذه الآية.

والغرض من هذا تحذيرهم من أن يأخذهم العذاب بغتة في الدنيا عند وجود ميقاته وسبق إيجاد أسبابه

ومقوّماته التي لا يتفطّنون لوجودها، وفي الآخرة بحلول الموت ثم بقيام الساعة.
{ **وَمَا أَمْرُنَا** } الأمر هنا يجوز أن يكون بمعنى الشأن، فيكون المراد به الشأن المناسب لسياق الكلام، وهو شأن الخلق والتكوين، أي: وما شأن خلقنا الأشياء.
ويجوز أن يكون بمعنى الإذن، فيراد به أمر التكوين وهو المعبر عنه بكلمة { كُنْ }، والمآل واحد.
{ **إِلَّا وَاحِدَةٌ** } على الاحتمالين في معنى { **أَمْرُنَا** }، وصف لموصوف محذوف دلّ عليه الكلام، وهو خبر عن أمرنا. والتقدير: إلّا كلمة واحدة، وهي كلمة { **كُنْ** }، كما في قوله تعالى { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } [يس:82].
وصح الإخبار عن (أَمْرُنَا)، وهو مذكّر، بـ { وَاحِدَةٌ }، وهو مؤنّث، باعتبار معنى الأمر هنا (كلمة: كن).
والمقصود: الكناية عن أسرع ما يمكن من السرعة، أي: وما أمرنا إلّا كلمة واحدة.
ولا ينافي هذا قوله تعالى { وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ } [ق:38] ونحوه، فخلق ذلك قد انطوى على مخلوقات كثيرة لا يحصر عددها، كما قال تعالى { يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ } [الزمر:6]، فكلّ خلق منها يحصل بكلمة واحدة كلمح البصر على أن بعض المخلوقات تتولّد منه أشياء وآثار فيعتبر تكوينه عند إيجاد أوله.
{ **كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ** } في موضع الحال من { أَمْرِنَا }، باعتبار الإخبار عنه بأنّه كلمة واحدة، أي: حصول مرادنا بأمرنا كلمح بالبصر، وهو تشبيه في سرعة الحصول. وهذا تشبيه في تقريب الزمان.
وقد جاء في قوله تعالى { وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ } [النحل:77]، فزيد هنالك { أَوْ هُوَ أَقْرَبُ } لأنّ المقام للتحذير من مفاجأة الناس بها قبل أن يستعدّوا لها، فهو حقيق بالمبالغة في التقريب، بخلاف ما في هذه الآية فإنّه لتمثيل أمر الله وذلك يكفي فيه مجرد التنبيه إذ لا يتردّد السامع في التصديق به.
وقد أفادت هذه الآية إحاطة علم الله بكل موجود، وإيجاد الموجودات بحكمة، وصدورها عن إرادة وقدرة.
اللمح: النظر السريع واخلاس النظر، يقال: لمح البصر، ويقال: لمح البرق، كما يقال: لمع البرق.

{ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ } [51].

الْتُفت من طريق الغيبة إلى الخطاب، ومرجع الخطاب هم المشركون لظهور أنّهم المقصود بالتهديد، وهو تصريح بما تضمّنه قوله تعالى { أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ } [43]، فهو بمنزلة النتيجة لقوله تعالى { إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ - إلى قوله - كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ } [50/49].
{ **وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا** } الخبر مستعمل في التهديد بالإهلاك وبأنّه يفاجئهم قياسا على إهلاك الأمم السابقة، وهذا المقصد هو الذي لأجله أُكِّد الخبر بـ (لام القسم) وحرف التحقيق (قد)، أمّا إهلاك من قبلهم فهو معلوم لا يحتاج إلى تأكيد. ولك أن تجعل مناط التأكيد إثبات أنّ إهلاكهم كان لأجل شركهم وتكذيبهم الرسل.

فإنّ قوم نوح بقوا أزمانا فما أقلعوا عن إشراكهم حتّى أخذهم الطوفان بغتة. وكذلك عاد وثمود كانوا غير مصدِّقين بحلول العذاب بهم فلمّا حل بهم العذاب بغتة، وقوم فرعون خرجوا مقتفين موسى وبنى إسرائيل واثقين بأنّهم مدركوهم واقتربوا منهم وظنوا أنّهم تمكّنوا منهم فما راعهم إلّا أن أنجى الله بني إسرائيل وانطبق البحر على الآخرين.

المعنى: فكما أهلكنا أشياعكم نهلككم، وكذلك كان، فإن المشركين لمّا حلوا ببدر، وهم أوفر عَددا وعُددا، كانوا واثقين بأنّهم هازمون المسلمين، فقال أبو جهل وقد ضرب فرسه وتقدّم إلى الصف: اليوم ننتصر من محمد وأصحابه، فلم تجُل الخيل جولة حتّى شاهدوا صناديدهم صرعى ببدر : أبا جهل وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، وأميّة ين خلف وغيرهم، في سبعين رجلًا، ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة.

الأشياع : جمع شيعة: الجماعة الذين يؤيّدون من يضافون إليه، وتقدّم في قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً } [الأنعام:159].

وأطلق الأشياع هنا على الأمثال والأشباه في الكفر على طريق الاستعارة بتشبيههم، وهم منقرضون، بأشياع موجودين.

{ **فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ** } تفريع على الإنذار، وتقدّم نظيره [15].

{ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ } [52].

يجوز أن يكون الضمير المرفوع في قوله { فَعَلُوهُ } عائدا إلى { أَشْيَاعَكُمْ } [51]، والمعنى : أهلكناهم بعذاب الدنيا وهيَّأنا لهم عذاب الآخرة، فكُتب في صحائف الأعمال كلّ ما فعلوه من الكفر وفروعه. فالكتابة في الزبر وقعت هنا كناية عن لازمها وهو المحاسبة، وعن لازم لازمها وهو العقاب بعد المحاسبة. وهذا الخبر مستعمل في التعريض بالمخاطبين بأنّهم إذا تعرَّضوا لما يوقع عليهم الهلاك في الدنيا فليس ذلك قصارى عذابهم فإنّ بعده حسابا عليه في الآخرة يعذبون به، وهذا كقوله تعالى { وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ } [الطور:47].

ويجوز عندي أن يكون الضمير المرفوع في قوله { فَعَلُوهُ } عائدا إلى { الْجَمْعُ } من قوله تعالى { سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ } [45]، أو إلى { الْمُجْرِمِينَ } في قوله تعالى { إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُر } [47].

والمعنى: كل شيء فعله المشركون من شرك وأذى للنبيّ صلى الله عليه وسلم وللمسلمين معدود عليهم مهيّأ عقابهم عليه لأنّ الإخبار عن إحصاء أعمال الأمم الماضية قد أغنى عنه الإخبار عن إهلاكهم، فالأجدر تحذير الحاضرين من سوء أعمالهم.

{ **وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ** } العموم مراد به خصوص ما كان من الأفعال عليه مؤاخذة في الآخرة.

{ **الزُّبُرِ** } جمع زَبور وهو الكتاب، مشتق من الزَّبر، وهو الكتابة، والجمع هنا لأنّ لكل واحد كتاب أعماله، قال تعالى { وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً اقْرَأْ

كِتَابَكَ } [الإسراء:14/13].

{ **وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ** } [53].

كالتذييل للآية السابقة، فكلّ صغير وكبير أعمّ من كل شيء فعلوه، والمعنى: كلّ شيء حقير أو عظيم مستطر، أي: مكتوب مسطور، أي: كلّ ذلك يعلمه الله ويحاسب عليه. كناية عن العلم والجزاء.

مستطر: اسم مفعول من سطر إذا كتب سطورا، كقوله تعالى { وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ } [الطور:2].

وهذا المعنى كقوله تعالى { وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } [الأنعام: 59]، وقوله تعالى { لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } [سبأ:3].

الصغير: مستعار للشيء الذي لا يهتم به الناس ولا يؤاخذ عليه فاعله، أو لا يؤاخذ مؤاخذة عظيمة.

الكبير: مستعار لما له شأن من الصلاح وما له شأن من الفساد وما هو دون ذلك، وذلك أفضل الأعمال الصالحة وما دونه من الأعمال الصالحة، وكذلك كبائر الإثم والفواحش وما دونها من اللمم والصغائر.

{ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ** [54] **فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ** [55] }.

استئناف بياني، لأنّه لمّا ذُكر أنّ كلّ صغير وكبير مستطر، على إرادة أنّه معلوم ومجازا عليه، وقد عُلم جزاء المجرمين من قوله تعالى { إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ } [47]، كانت نفس السامع بحيث تتشوّف إلى مقابل ذلك من جزاء المتّقين، وجريا على عادة القرآن من تعقيب النذارة بالبشارة والعكس.

{ **إِنَّ** } افتتاح هذا الخبر بحرف التأكيد للاهتمام به.

{ **فِي جَنَّاتٍ** } للظرفية المجازية التي هي بمعنى التلبّس القويّ، كتلبس المظروف بالظرف.

نَهَر: (بفتحتين) لغة في نَهْر (بفتح فسكون). والمراد به اسم الجنس الصادق المتعدّد لقوله تعالى { مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ } [الأعراف:43].

{ **فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ** } إمّا في محل الحال من المتّقين، وإمّا في محل الخبر الثاني لـ { إنّ }.

المقعد: مكان القعود. والقعود هنا بمعنى الإقامة المطمئنّة، كما في قوله { اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ } [التوبة:46].

الصدق: أصله مطابقة الخبر للواقع ثم شاعت له استعمالات نشأت عن مجاز أو استعارة ترجع إلى معنى مصادفة أحد الشيء على ما يناسب كمال أحوال جنسه، فيقال: هو رجل صدق، أي: تمام رُجلة.

قال تعالى { وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرائيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ } [يونس:93]، وجاء في دعاء لإبراهيم عليه السلام { وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ } [الشعراء:84].

فمقعد صدق: مقعد كامل في جنسه مرضي للمستقرّ فيه فلا يكون فيه استفزاز ولا زوال.

{ **عِنْدَ** } عندية تشريف وكرامة، والظرف خبر بعد خبر.

المليك: فعيل بمعنى المالك مبالغة وهو أبلغ من ملك. **مقتدر**: أبلغ من قادر وتنكيره للتعظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الرَّحمان

وردت تسميتها بـ (**سورة الرحمان**) بأحاديث منها ما رواه الترمذي عن جابر بن عبد الله قال: **"** خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه فقرأ سورة الرحمان **"**.

وفي تفسير القرطبي أنّ قيس بن عاصم المنقري قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم: **"** اتل عليّ ما أُنزل عليك، فقرأ عليه سورة الرحمان، فقال : أعدها، فأعادها ثلاثا، فقال : إنّ له لحلاوة **..."**

وكذلك سُمِّيت في كتب السنة وفي المصاحف.

ووجه تسميه هذه السورة بسورة الرحمان أنّها ابتدئت باسمه تعالى ﴿ الرَّحْمَنُ ﴾ [1].

وذكر في الإتقان : أنّها تُسمَّى (عروس القرآن) لما رواه البيهقي في شعب الإيمان عن عليّ أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: **" لكلّ شيء عروس وعروس القرآن سورة الرحمان "**. وهذا لا يعدوا أن يكون ثناءً على هذه السورة وليس هو من التسمية في شيء، كما روي أنّ سورة البقرة (فسطاط القرآن).

[الظاهر أن معنى: **لكل شيء عروس،** أي: لكل جنس أو نوع واحد من جنسه يزيّنه، تقول العرب: عرائس الإبل أكرمها، فإنّ العروس تكون مكرّمة مزينة مرعية من جمع الأهل بالخدمة والكرامة].

وقد قيل: **إنّ سبب نزولها** قول المشركين المحكي في قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمِ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ﴾ [الفرقان:60].

وقيل: سبب نزولها قول المشركين ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ [النحل:103]. فردّ الله عليهم بأنّ الرحمان هو الذي علم النبيّ صلى الله عليه وسلم القرآن.

وهي مكية في قول جمهور الصحابة والتابعين، وروى جماعة عن ابن عباس أنّها مدنية، نزلت في صلح الحديبية عندما أبى سُهيل بن عمرو أن يكتب في رسم الصلح ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾.

ونُسب إلى ابن مسعود أيضا أنّها مدنية. وعن ابن عباس : أنّها مكية سوى آية منها هي قوله ﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كَلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [29].

والأصح أنّها مكية كلّها، وهي في مصحف ابن مسعود أوّل المفصل.

وإذا صح أنّ سبب نزولها قول المشركين ﴿ وَمَا الرَّحْمَنُ ﴾ تكون نزلت بعد سورة الفرقان.

وهي من أوّل السور نزولا فقد أخرج أحمد في مسنده بسند جيد عن أسماء بنت أبي بكر قالت: **"** سمعت الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يصلّي نحو الركن قبل أن يصدع بما يؤمر والمشركون يسمعون، يقرأ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [13] **"**. وهذا يقتضي أنّها نزلت قبل سورة الحجر.

وللاختلاف فيها لم تُحقّق رتبتها في عداد نزول سور القرآن.

وإذ كان الأصح إنّها مكية وأنّها نزلت قبل سورة الحج وقبل سورة النحل وبعد سورة الفرقان، فالوجه أن

تُعد ثالثة وأربعين بعد سورة الفرقان وقبل سورة فاطر.

وعَدَّ أهل المدينة ومكة آيها **سبعا وسبعين**، وأهل الشام والكوفة ثمانا وسبعين لأنّهم عدوا { الرَّحْمَنُ } آية، وأهل البصرة ستا وسبعين.

أغراض السورة

*/ ابتدئت بالتنويه بالقرآن.

*/ التنويه بالنبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّ الله هو الذي علّمه القرآن ردًّا على مزاعم المشركين الذين يقولون ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ [النحل:103]، وردًّا على مزاعمهم أنّ القرآن أساطير الأوّلين أو أنّه سحر أو كلام كاهن أو شعر.

*/ التذكير بدلائل قدرة الله تعالى في ما أتقن صنعه مُدمجًا في ذلك التذكير بما في ذلك كلّه من نعم.

*/ خلق الجنّ وإثبات جزائهم.

*/ الموعظة بالفناء، وتخلّص من ذلك إلى التذكير بيوم الحشر والجزاء.

*/ ختمت بتعظيم الله والثناء عليه.

*/ تخلّل ذلك إدماج التنويه بشأن العدل، والأمر بتوفية أصحاب الحقوق حقوقهم، وحاجة الناس إلى رحمة الله فيما خلق لهم، ومن أهمها نعمة العلم ونعمة البيان، وما أعدّ من الجزاء للمجرمين ومن الثواب والكرامة للمتّقين، ووصف نعيم المتّقين.

ومن بديع أسلوبها

- ✓ افتتاحها الباهر باسمه ﴿ الرَّحْمَنُ ﴾ وهي السورة الوحيدة المفتتحة باسم من أسماء الله لم يتقدّمه غيره.
- ✓ التعداد في مقام الامتنان والتعظيم بقوله ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ إذ تكرّر فيها إحدى وثلاثين مرة وذلك أسلوب عربي جليل كما سنبينه.

{ **الرَّحْمَنُ** [1] **عَلَّمَ الْقُرْآنَ** [2] }.

يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ { الرَّحْمَنُ } وَاقِعًا مَوْقِعَ الْكَلِمَاتِ الَّتِي يُرَادُ لَفْظُهَا لِلتَّنْبِيهِ عَلَى غَلَطِ الْمُشْرِكِينَ إِذْ أَنْكَرُوا هَذَا الِاسْمَ، قَالَ تَعَالَى { قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ } [الْفُرْقَانِ:60]، فَيَكُونُ مَوْقِعُهُ شَبِيهًا بِمَوْقِعِ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ. فَكَانَ فِيهِ تَشْوِيقُ جَمِيعِ السَّامِعِينَ إِلَى الْخَبَرِ الَّذِي يُخْبِرُ بِهِ عَنْهُ، إِذْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ لَا يَأْلَفُونَ هَذَا الِاسْمَ، فَهُمْ إِذَا سَمِعُوا هَذِهِ الْفَاتِحَةَ تَرَقَّبُوا مَا سَيَرِدُ مِنَ الْخَبَرِ عَنْهُ، وَالْمُؤْمِنُونَ إِذَا طَرَقَ أَسْمَاعَهُمْ هَذَا الِاسْمُ اسْتَشْرَفُوا لِمَا سَيَرِدُ مِنَ الْخَبَرِ الْمُنَاسِبِ لِوَصْفِهِ هَذَا مِمَّا هُمْ مُتَشَوِّقُونَ إِلَيْهِ مِنْ آثَارِ رَحْمَتِهِ.

وَأُوثِرَ اسْتِحْضَارُ الْجَلَالَةِ باسم الرحمان دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْأَسْمَاءِ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ يَأْبَوْنَ ذِكْرَهُ، فَجَمَعَ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ بَيْنَ رَدَّيْنِ عَلَيْهِمْ، مَعَ مَا لِلْجُمْلَةِ الِاسْمِيَّةِ مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى ثَبَاتِ الْخَبَرِ، وَلِأَنَّ مُعْظَمَ هَذِهِ السُّورَةِ تَعْدَادٌ لِلنِّعَمِ وَالْآلَاءِ فافتتاحها باسم الرحمان بَرَاعَةُ اسْتِهْلَالٍ.

وَقَدْ أُخْبِرَ عَنْ هَذَا الِاسْمِ بِأَرْبَعَةِ أَخْبَارٍ مُتَتَالِيَةٍ غَيْرِ مُتَعَاطِفَةٍ رَابِعُهَا هُوَ جُمْلَةُ { الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبانٍ } [5]، لِأَنَّهَا جِيءَ بهَا على نمط التعديد فِي مقَام الامتنان والتوقيف على الْحَقَائِق والتبكيت للخصم فِي إنكارهم صَرِيح بَعْضهَا، وإعراضهم عَن لَوَازِم بَعْضهَا كَمَا سَيَأْتِي، فَفَصَلَ جُمْلَتِي { خَلَقَ الْإِنْسانَ عَلَّمَهُ الْبَيانَ } [4/3] عَنْ جُمْلَةِ { عَلَّمَ الْقُرْآنَ } خِلَافَ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ لِنُكْتَةِ التَّعْدِيدِ لِلتَّبْكِيتِ.

وَعَطَفَ عَلَيْهَا أَرْبَعَةً أخر بِحرف الْعَطف مِنْ قَوْلِهِ تعالى { وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدانِ - إِلَى قَوْلِهِ - وَالْأَرْضَ وَضَعَها لِلْأَنامِ } [6-10]، وَكُلُّهَا دَالَّةٌ عَلَى تَصَرُّفَاتِ اللَّهِ لِيُعْلِمَهُمْ أَنَّ الِاسْمَ الَّذِي اسْتَنْكَرُوهُ هُوَ اسْمُ اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسَمَّى وَاحِدٌ.

{ **عَلَّمَ الْقُرْآنَ** } جِيءَ بِالْمُسَنَدِ فِعْلًا مُؤَخَّرًا عَنِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ لِإِفَادَةِ التَّخْصِيص، أَي: هُوَ عَلَّمَ الْقُرْآنَ لَا بَشَرٌ عَلَّمَهُ، وَحَذَفَ الْمَفْعُولَ الْأَوَّلَ لِفِعْلِ عَلَّمَ الْقُرْآنَ لِظُهُورِهِ، وَالتَّقْدِيرُ: عَلَّمَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِأَنَّهُمُ ادَّعَوْا أَنَّهُ مُعَلَّمٌ وَإِنَّمَا أَنْكَرُوا أَنْ يَكُونَ مُعَلِّمَهُ الْقُرْآنَ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى وَهَذَا تَبْكِيتٌ أَوَّلٌ.

{ **الْقُرْآنَ** } انْتَصَبَ عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ ثَانٍ لِفِعْلِ { عَلَّمَ }. اسْمٌ غَلَبَ عَلَى الْوَحْيِ اللَّفْظِيِّ الَّذِي أُوحِيَ بِهِ إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْإِعْجَازِ بِسُورَةٍ مِنْهُ والتعبُّد بألْفَاظه.

{ **خَلَقَ الْإِنْسانَ** } [3].

خَبَرٌ ثَانٍ، وَالْمُرَادُ بِالْإِنْسَانِ جِنْسُ الْإِنْسَانِ وَهَذَا تَمْهِيدٌ لِلْخَبَرِ الْآتِي وَهُوَ {عَلَّمَهُ الْبَيانَ } [4]. وَهَذِهِ قَضِيَّةٌ لَا يُنَازِعُونَ فِيهَا وَلَكِنَّهُمْ لَمَّا أَعْرَضُوا عَنْ مُوجِبِهَا، وَهُوَ إِفْرَادُ اللَّهِ تَعَالَى بِالْعِبَادَةِ، سِيقَ لَهُمُ الْخَبَرُ بِهَا عَلَى أُسْلُوبِ التَّعْدِيدِ بِدُونِ عَطْفٍ، كَالَّذِي يَعُدُّ لِلْمُخَاطَبِ مَوَاقِعَ أَخْطَائِهِ وغفلته، وَهَذَا تبكيث ثَانٍ.

فَفِي خَلْقِ الْإِنْسَانِ دَلَالَتَانِ:

أُولَاهُمَا: الدَّلَالَةُ عَلَى تَفَرُّدِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْإِلَهِيَّةِ.

وَثَانِيَتُهُمَا: الدَّلَالَةُ عَلَى نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى الْإِنْسَانِ.

الْخَلْقُ: نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ لِأَنَّ فِيهَا تَشْرِيفًا لِلْمَخْلُوقِ بِإِخْرَاجِهِ مِنْ غَيَاهِبِ الْعَدَمِ إِلَى مَبْرَزِ الْوُجُودِ فِي الْأَعْيَانِ، وَقَدَّمَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ عَلَى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لِمَا عَلِمْتَ آنِفًا مِنْ مُنَاسَبَةِ إِرْدَافِهِ بِتَعْلِيمِ الْقُرْآنِ.

وَمَجِيءُ الْمُسْنَدِ فِعْلًا بَعْدَ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ يُفِيدُ تَقَوِّي الْحُكْمِ. وَلَكَ أَنْ تَجْعَلَهُ لِلتَّخْصِيصِ بِتَنْزِيلِهِمْ مَنْزِلَةَ مَنْ يُنْكِرُ أَنَّ اللهَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ لِأَنَّهُمْ عبدُوا غيره.

{ عَلَّمَهُ الْبَيانَ } [4].

خَبَرٌ ثَالِثٌ تَضَمَّنَ الِاعْتِبَارَ بِنِعْمَةِ الْإِبَانَةِ عَنِ الْمُرَادِ، وَالِامْتِنَانِ بِهَا بَعْدَ الِامْتِنَانِ بِنِعْمَةِ الْإِيجَادِ، أَيْ: عَلَّمَ جِنْسَ الْإِنْسَانِ أَنْ يُبَيِّنَ عَمَّا فِي نَفْسِهِ لِيُفِيدَه غَيْرُهُ وَيَسْتَفِيدُ هُوَ.

الْبَيَانُ: الْإِعْرَابُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ مِنَ الْمَقَاصِدِ وَالْأَغْرَاضِ وَهُوَ النُّطْقُ وَبِهِ تَمَيُّزُ الْإِنْسَانِ عَنْ بَقِيَّةِ أَنْوَاعِ الْحَيَوَانِ، فَهُوَ مَنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ. وَأَمَّا الْبَيَان بِغَيْر النُّطْقِ مِنْ إِشَارَةٍ وَإِيمَاءٍ وَلَمْحِ النَّظَرِ فَهُوَ أَيْضًا مِنْ مُمَيِّزَاتِ الْإِنْسَانِ وَإِنْ كَانَ دُونَ بَيَانِ النُّطْقِ.

وَمَعْنَى تَعْلِيمِ اللهِ الْإِنْسَانَ الْبَيَانَ: أَنَّهُ خَلَقَ فِيهِ الِاسْتِعْدَادَ لِعِلْمِ ذَلِكَ وَأَلْهَمَهُ وَضْعَ اللُّغَةِ لِلتَّعَارُفِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى { وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها } [الْبَقَرَة:31]. وَفِيهِ الْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ نِعْمَةَ الْبَيَانِ أَجَلُّ النِّعَمِ عَلَى الْإِنْسَانِ. وَفِيهِ مِنَ التَّبْكِيتِ مَا عَلِمْتَهُ آنِفًا، وَوَجْهُهُ أَنَّهُمْ لَمْ يَشْكُرُوهُ عَلَى نِعْمَةِ الْبَيَانِ إِذْ صَرَفُوا جُزْءًا كَبِيرًا مِنْ بَيَانِهِمْ فِيمَا يُلْهِيهِمْ عَنْ إِفْرَادِ اللهِ بِالْعِبَادَةِ وَفِيمَا يُنَازِعُونَ بِهِ مَنْ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى.

{ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبانٍ } [5].

خَبَرٌ رَابِعٌ عَنِ الرحمان. وَهَذَا اسْتِدْلَالٌ عَلَى التَّفَرُّدِ بِخَلْقِ كَوْكَبِ الشَّمْسِ وَكُرَةِ الْقَمَرِ، وَامْتِنَانٌ بِمَا أَوْدَعَ فِيهِمَا مِنْ مَنَافِعَ لِلنَّاسِ، وَنِظَامِ سَيْرِهِمَا الَّذِي بِهِ تَدْقِيقُ نِظَامِ مُعَامَلَاتِ النَّاسِ وَاسْتِعْدَادِهِمْ لِمَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ عِنْدَ تَغَيُّرَاتِ أَجْوَائِهِمْ وَأَرْزَاقِهِمْ. وَيَتَضَمَّنُ الِامْتِنَان بِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ مَنَافِعِهِمْ.

وَفِي كَوْنِ هَذَا الْخَبَرِ جَارِيًا عَلَى أُسْلُوبِ التَّعْدِيدِ مَا قَدْ عَلِمْتَ آنِفًا مِنَ التَّبْكِيتِ، وَوَجْهُهُ أَنَّهُمْ غَفَلُوا عَمَّا فِي نِظَامِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ مِنَ الْحِكْمَةِ وَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ ذَلِكَ النِّظَامُ مِنْ تَفَرُّدِ اللهِ بِتَقْدِيرِهِ، فَاشْتَغَلَ بَعْضُهُمْ بِعِبَادَةِ الشَّمْسِ وَبَعْضُهُمْ بِعِبَادَةِ الْقَمَرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى { وَمِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ } [فصلت:37].

وَجِيءَ بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ اسْمِيَّةً لِلتَّهْوِيلِ بِالِابْتِدَاءِ بِاسْمِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَلِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ حُسْبَانَهُمَا ثَابِتٌ لَا يَتَغَيَّرُ مُنْذُ بَدْءِ الْخَلْقِ مُؤْذِنٌ بِحِكْمَةِ الْخَالِقِ. وَاسْتُغْنِيَ، بِجَعْلِ اسْمِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ مُسْنَدًا إِلَيْهِمَا، عَنْ تَفْكِيكِ الْمُسْنَدِ إِلَى مَسْنَدَيْنِ: أَحَدُهُمَا: يَدُلُّ عَلَى الِاسْتِدْلَالِ، وَالْآخَرُ يَدُلُّ عَلَى الِامْتِنَانِ، كَمَا وَقَعَ فِي قَوْلِهِ {خَلَقَ الْإِنْسانَ عَلَّمَهُ الْبَيانَ } [الرحمان:3/4].

الْحُسْبَانُ: مَصْدَرُ حَسَبَ بِمَعْنَى عَدَّ. وَالْبَاءُ لِلْمُلَابَسَةِ، وَالتَّقْدِيرُ: كَائِنَانِ بِحُسْبَانٍ، أَيْ: لِحِسَابِ النَّاسِ مَوَاقِعَ

سَيْرِهِمَا. وَالْحُسْبَانُ كِنَايَةٌ عَنِ انْتِظَامِ سَيْرِهِمَا انْتِظَامًا مُطَّرِدًا لَا يَخْتَلُّ حِسَابُ النَّاسِ لَهُ وَالتَّوْقِيتُ بِهِ. وَتَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْباناً } [الْأَنْعَامِ:96].

وَإِسْنَادُ هَذِهِ الْمُلَابَسَةِ إِلَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ مَجَازِيٌّ عَقْلِيٌّ لِأَنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ سَبَبٌ لِتَلَبُّسِ النَّاسِ بِحِسَابِهِمَا، وَاقْتَصَرَ عَلَى ذِكْرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ دُونَ بَقِيَّةِ الْكَوَاكِبِ وَإِنْ كَانَ فِيهَا حُسْبَانُ الْأَنْوَاءِ، وَالْحَرِّ وَالْبَرْدِ، مِثْلِ الْجَوْزَاءِ، وَالشِّعْرَى، وَمَنْزِلَةِ الْأَسَدِ، وَالثُّرَيَّا، لِأَنَّ هَذَيْنِ الْكَوْكَبَيْنِ هُمَا الْبَادِيَانِ لِجَمِيعِ النَّاسِ لَا يَحْتَاجُ تَعَقُّلُ أَحْوَالِهِمَا إِلَى تَعْلِيمِ تَوْقِيتٍ مِثْلَ الْكَوَاكِبِ الْأُخْرَى.

وَلِأَنَّ السُّورَةَ بُنِيَتْ عَلَى ذِكْرِ الْأُمُورِ الْمُزْدَوِجَةِ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ مُزْدَوِجَانِ فِي مَعَارِفِ عُمُومِ النَّاسِ، فَالشَّمْسُ كَوْكَبٌ سَمَاوِيٌّ لِأَنَّهُ أَعْلَى مِنَ الْأَرْضِ، وَالْقَمَرُ كَوْكَبٌ أَرْضِيٌّ لِأَنَّهُ دُونَ الْأَرْضِ وَتَابِعٌ لَهَا كَبَقِيَّةِ أَقْمَارِ الْكَوَاكِبِ، فَذِكْرُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ كَذِكْرِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالْمَشْرِقِ وَالْمغْرب، والبحرين.

{ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدانِ } [6].

عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةِ { الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبانٍ } [5]، عَطَفَ الْخَبَرَ عَلَى الْخَبَرِ لِلْوَجْهِ الَّذِي تَقَدَّمَ، لِأَنَّ سُجُودَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ انْتِقَالٌ مِنَ الِامْتِنَانِ بِمَا فِي السَّمَاءِ مِنَ الْمَنَافِعِ إِلَى الِامْتِنَانِ بِمَا فِي الْأَرْضِ، وَجَعَلَ لَفْظَ النَّجْمِ وَاسِطَةَ الِانْتِقَالِ لِصَلَاحِيَّتِهِ لِأَنَّهُ يُرَادُ مِنْهُ نُجُومُ السَّمَاءِ وَمَا يُسَمَّى نَجْمًا مِنْ نَبَاتِ الْأَرْضِ.

وَعُطِفَتْ الجُمْلَةُ وَلَمْ تُفْصَلْ فَخَرَجَتْ مِنْ أُسْلُوبِ تَعْدَادِ الْأَخْبَارِ إِلَى أُسْلُوبِ عَطْفِ بَعْضِ الْأَخْبَارِ عَلَى بَعْضٍ. فَالْإِخْبَارُ بِسُجُودِ النَّجْمِ وَالشَّجَرِ أُرِيدَ بِهِ الْإِيقَاظُ إِلَى مَا فِي هَذَا مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى عَظِيمِ الْقُدْرَةِ دَلَالَةٍ رَمْزِيَّةٍ.

وَجُعِلَتِ الْجُمْلَةُ مُفْتَتَحَةً بِالْمُسْنَدِ إِلَيْهِ لِتَكُونَ عَلَى صُورَةِ فَاتِحَةِ الْجُمْلَةِ الَّتِي عطفت هِيَ عَلَيْهَا. وَأُتِيَ بِالْمُسْنَدِ فِعْلًا مُضَارِعًا لِلدَّلَالَةِ عَلَى تَجَدُّدِ هَذَا السُّجُودِ وَتَكَرُّرِهِ، عَلَى مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى { وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ } [الرَّعْد:15].

النَّجْمُ: يُطْلَقُ اسْمَ جَمْعٍ عَلَى نُجُومِ السَّمَاءِ، قَالَ تَعَالَى { وَالنَّجْمِ إِذا هَوى } [النَّجْم:1]، وَيُطْلَقُ مُفْرَدًا فَيُجْمَعُ عَلَى نُجُومٍ، قَالَ تَعَالَى { وَإِدْبارَ النُّجُومِ } [الطّور:49]. وَاختاره مُجَاهِدٍ.

وَيُطْلَقُ النَّجْمُ عَلَى النَّبَاتِ وَالْحَشِيشِ الَّذِي لَا سُوقَ لَهُ فَهُوَ مُتَّصِلٌ بِالتُّرَابِ. وَبه قال ابْنِ عَبَّاسٍ.

الشَّجَرُ: النَّبَاتُ الَّذِي لَهُ سَاقٌ وَارْتِفَاعٌ عَنْ وَجْهِ الْأَرْضِ.

السُّجُودُ: يُطْلَقُ عَلَى وَضْعِ الْوَجْهِ عَلَى الْأَرْضِ بِقَصْدِ التَّعْظِيمِ، وَيُطلق على الْوُقُوعُ عَلَى الْأَرْضِ مَجَازًا مُرْسَلًا بِعَلَاقَةِ الْإِطْلَاقِ، أَوِ اسْتِعَارَةً وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: " نَخْلَةٌ سَاجِدَةٌ "، إِذَا أَمَالَهَا حِمْلُهَا.

فَسُجُودُ نُجُومِ السَّمَاءِ نُزُولُهَا إِلَى جِهَاتِ غُرُوبِهَا، وَسُجُودُ نَجْمِ الْأَرْضِ الْتِصَاقُهُ بِالتُّرَابِ كَالسَّاجِدِ، وَسُجُودُ الشَّجَرِ تَطَأْطُؤُهُ بِهُبُوبِ الرِّيَاحِ وَدُنُوُّ أَغْصَانِهِ لِلجَّانِينَ لِثِمَارِهِ وَالْخَابِطِينَ لِوَرَقِهِ، فَفِعْلُ يَسْجُدانِ مُسْتَعْمَلٌ فِي

مَعْنَيَيْنِ مَجَازِيَّيْنِ وَهُمَا الدُّنُوُّ لِلْمُتَنَاوِلِ وَالدَّلَالَةُ عَلَى عَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِأَنْ شُبِّهَ ارْتِسَامُ ظِلَالِهِمَا عَلَى الْأَرْضِ بِالسُّجُودِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى { وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ } [الرَّعْدِ:15].

{ وَالسَّماءَ رَفَعَها وَوَضَعَ الْمِيزانَ [7] أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ [8] وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ [9] }.

اطَّرَدَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أُسْلُوبُ الْمُقَابَلَةِ بَيْنَ مَا يُشْبِهُ الضِّدَّيْنِ، فَبَعْدَ مُقَابَلَةِ ذِكْرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ بِذِكْرِ النَّجْمِ وَالشَّجَرِ، جِيءَ بِذِكْرِ خَلْقِ السَّمَاءِ وَخَلْقِ الْأَرْضِ. وَعَادَ الْكَلَامُ إِلَى طَرِيقَةِ الْإِخْبَارِ عَنِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ بِالْمُسْنَدِ الْفِعْلِيِّ كَمَا فِي قَوْلِه تعالى { الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ } [2/1].

{ **وَالسَّماءَ رَفَعَها** } رَفْعُ السَّمَاءِ يَقْتَضِي خَلْقَهَا. وَذُكِرَ رَفْعُهَا لِأَنَّهُ مَحَلُّ الْعِبْرَةِ بِالْخَلْقِ الْعَجِيبِ.

{ **رَفَعَها** } خلقهَا مَرْفُوعَة إِذْ كَانَت مَرْفُوعَةً بِغَيْرِ أَعْمِدَةٍ. عَلَى أَنَّ فِي مُجَرَّدِ الرَّفْعِ إِيذَانًا بِسِمُوِّ الْمَنْزِلَةِ وَشَرَفِهَا لِأَنَّ فِيهَا مَنْشَأَ أَحْكَامِ اللَّهِ وَمَصْدَرَ قَضَائِهِ، وَلِأَنَّهَا مَكَانُ الْمُلَائِكَةِ، وَهَذَا مِنِ اسْتِعْمَالِ اللَّفْظِ فِي حَقِيقَتِهِ وَمَجَازِهِ.

وَتَقْدِيمُ { السَّمَاءَ } عَلَى الْفِعْلِ النَّاصِبِ لَهُ زِيَادَةٌ فِي الِاهْتِمَامِ بِالِاعْتِبَارِ بِخَلْقِهَا.

{ **الْمِيزانَ** } أَصْلُهُ اسْمُ آلَةِ الْوَزْنِ، وَالْوَزْنُ تَقْدِيرُ تَعَادُلِ الْأَشْيَاءِ وَضَبْطُ مَقَادِيرِ ثِقَلِهَا وَهُوَ مِفْعَالٌ مِنَ الْوَزْنِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ } [الْأَعْرَاف:8]، وَشَاعَ إِطْلَاقُ الْمِيزَانِ عَلَى الْعَدْلِ بِاسْتِعَارَةِ لَفْظِ الْمِيزَانِ لِلْعَدْلِ عَلَى وَجْهِ تَشْبِيهِ الْمَعْقُولِ بِالْمَحْسُوسِ.

وَالْمِيزَانُ هَنَا مُرَادٌ بِهِ الْعَدْلَ، مِثْلَ الَّذِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَالْمِيزانَ } [الْحَدِيد:25]، لِأَنَّهُ الَّذِي وَضَعَهُ اللَّهُ، أَيْ: عَيَّنَهُ لِإِقَامَةِ نِظَامِ الْخَلْقِ.

الْوَضْعُ: هُنَا مستعار للجعل فَهُوَ كَالْإِنْزَالِ فِي [الْحَدِيد:25]. وَمِنْهُ قَوْلُ أَبِي طَلْحَةَ الْأَنْصَارِيِّ: " وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بِئْرُ حَاءٍ وَأَنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ ". أَي: اجْعَلْهَا لِمَا يَدُلُّكَ اللَّهُ عَلَيْهِ. فَإِطْلَاقُ الْوَضْعِ فِي الْآيَةِ بَعْدَ ذِكْرِ رَفْعِ السَّمَاءِ مُشَاكَلَةٌ ضِدِّيَّةٌ وَإِيهَامُ طِبَاقٍ مَعَ قَوْلِهِ تعالى { رَفَعَها } فَفِيهِ مُحَسِّنَانِ بَدِيعِيَّانِ.

وَقُرِنَ ذَلِكَ مَعَ رَفْعِ السَّمَاءِ تَنْوِيهًا بِشَأْنِ الْعَدْلِ بِأَنْ نُسِبَ إِلَى الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَهُوَ عَالَمُ الْحَقِّ وَالْفَضَائِلِ، وَأَنَّهُ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ مِنَ السَّمَاءِ أَيْ: هُوَ مِمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ. وَلذَلِك تكَرّر ذَكْر الْعَدْلِ مَعَ ذِكْرِ خَلْقِ السَّمَاءِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ } [الْحِجْرِ:85]، وَقَوْلُهُ تعالى { وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ مَا خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِّ } [الدُّخَانِ:39/38].

{ **أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ** } يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ (أَنْ) هنا تَفْسِيرِيَّةً لِأَنَّ فِعْلَ وَضَعَ الْمِيزَانَ فِيهِ مَعْنَى أَمْرِ النَّاسِ بِالْعَدْلِ. وَفِي الْأَمْرِ مَعْنَى الْقَوْلِ دُونَ حُرُوفِهِ فَهُوَ حَقِيقٌ بِأَنْ يَأْتِي تَفْسِيرُهُ بِحَرْفِ (أَنْ) التَّفْسِيرِيَّةِ. فَتَكُونُ

(لَا) نَاهِيَةً. وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ (أَنْ) مَصْدَرِيَّةً بِتَقْدِيرِ (لَامِ الْجَرِّ) مَحْذُوفَةٍ قَبْلَهَا. وَالتَّقْدِيرُ: لِئَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ. وَعَلَى كِلَا الِاحْتِمَالَيْنِ يُرَادُ بِالْمِيزَانِ مَا يَشْمَلُ الْعَدْلَ وَيَشْمَلُ مَا بِهِ تَقْدِيرُ الْأَشْيَاءِ الْمَوْزُونَةِ وَنَحْوِهَا فِي الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ. وَلَفْظُ الْمِيزانِ يَسْمَحُ بِإِرَادَةِ الْمَعْنَيَيْنِ عَلَى طَرِيقَةِ اسْتِعْمَالِ الْمُشْتَرَكِ فِي مَعْنَيَيْهِ.

الطُّغْيَانُ: دَحْضُ الْحَقِّ عَمْدًا وَاحْتِقَارًا لِأَصْحَابِهِ.

فَمَعْنَى الطُّغْيَانِ فِي الْعَدْلِ الِاسْتِخْفَافُ بِإِضَاعَتِهِ وَضَعْفُ الْوَازِعِ عَنِ الظُّلْمِ.

وَمَعْنَى الطُّغْيَانِ فِي وَزْنِ الْمُقَدَّرَاتِ تَطْفِيفُهُ.

{ **فِي الْمِيزانِ** } ظَرْفِيَّةٌ مَجَازِيَّةٌ تُفِيدُ النَّهْيَ عَنْ أَقَلِّ طُغْيَانٍ عَلَى الْمِيزَانِ، أَي: لَيْسَ النَّهْيُ عَنْ إِضَاعَةِ الْمِيزَانِ كُلِّهِ بَلِ النَّهْيُ عَنْ كُلِّ طُغْيَانٍ يَتَعَلَّقُ بِهِ.

{ **وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ** } عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةِ { أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ } عَلَى احْتِمَالِ كَوْنِ الْمَعْطُوفِ عَلَيْهَا تَفْسِيرِيَّةً. وَعَلَى جُمْلَةِ { وَوَضَعَ الْمِيزانَ } على احْتِمَال كَون الْمَعْطُوف عَلَيْهَا تَعْلِيلًا.

الْإِقَامَةُ: جَعْلُ الشَّيْءِ قَائِمًا، وَهُوَ تَمْثِيلٌ لِلْإِتْيَانِ بِهِ عَلَى أكمل مَا يُرَاد لَهُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تعالى { وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ } [الْبَقَرَة:3].

الْقِسْطُ: الْعَدْلُ وَهُوَ مُعَرَّبٌ مِنَ الرُّومِيَّةِ وَأَصْلُهُ (قِسْطَاسٌ) ثُمَّ اخْتُصِرَ فِي الْعَرَبِيَّةِ فَقَالُوا مَرَّةً: قِسْطَاسٌ، وَمَرَّةً: قِسْطٌ، وَتَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ } [الْأَنْبِيَاءِ:47]. وَالْبَاءُ لِلْمُصَاحَبَةِ. وَالْمَعْنَى: اجْعَلُوا الْعَدْلَ مُلَازِمًا لِمَا تُقَوِّمُونَهُ مِنْ أُمُورِكُمْ.

وَقَدْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَعْمَدُونَ إِلَى التَّطْفِيفِ فِي الْوَزْنِ، كَمَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ } [المطففين:1-3]. فَلَمَّا كَانَ التَّطْفِيفُ سُنَّةً مِنْ سُنَنِ الْمُشْركين تصدت الْآيَةِ لِلتَّنْبِيهِ عَلَيْهِ.

الْإِخْسَارُ: جَعْلُ الْغَيْرِ خَاسِرًا، وَالْخَسَارَةُ النَّقْصُ.

فَعَلَى حَمْلِ الْمِيزَانِ عَلَى مَعْنَى الْعَدْلِ يَكُونُ الْإِخْسَارُ جَعْلَ صَاحِبِ الْحَقِّ خَاسِرًا مَغْبُونًا.

وعَلى حَمْلِ الْمِيزَانِ عَلَى مَعْنَى آلَةِ الْوَزْنِ يَكُونُ الْإِخْسَارُ بِمَعْنَى النَّقْصِ، أَي: لَا تَجْعَلُوا الْمِيزَانَ نَاقِصًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى { وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ } [هود:84].

{ وَالْأَرْضَ وَضَعَها لِلْأَنامِ [10] فِيها فاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذاتُ الْأَكْمامِ [11] وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحانُ [12] }.

عَطْفٌ عَلَى { وَالسَّماءَ رَفَعَهَا } [7]، وَهُوَ مُقَابِلُهُ فِي الْمُزَاوَجَةِ (الْوَضْعِ / الرَّفْع)، فَحَصَلَ مُحَسِّنُ الطِّبَاقِ مَرَّتَيْنِ.

{ **وَضَعَها لِلْأَنامِ** } خَفَضَهَا لَهُمْ، أَي: جَعَلَهَا تَحْتَ أَقْدَامِهِمْ وَجُنُوبِهِمْ لِتَمْكِينِهِمْ مِنَ الِانْتِفَاعِ بِهَا بِجَمِيعِ مَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ مَنَافِعَ وَمُعَالَجَاتٍ. وَاللَّامُ فِي { لِلْأَنامِ } لِلْأَجَلِ.

الْأَنَامُ: اخْتَلَفَتْ أَقْوَالُ أَهْلِ اللُّغَةِ وَالتَّفْسِيرِ فِيهِ، وَفَسَّرَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ بِقَوْلِهِ: " الْخَلْقُ، وَهُوَ كُلُّ مَا ظَهَرَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ فِيهَا رُوحٌ ". وَهَذَا مَرْوِيٌّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَجَمْعٍ مِنَ التَّابِعِينَ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا: أَنَّهُ الْإِنْسَانُ فَقَطْ. وَهُوَ اسْمُ جَمْعٍ لَا وَاحِدَ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ. وَسِيَاقُ الْآيَةِ يُرَجِّحُ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ **الْإِنْسَانُ**، لِأَنَّهُ فِي مَقَامِ الِامْتِنَانِ وَالِاعْتِنَاءِ بِالْبَشَرِ، كَقَوْلِهِ تعالى { هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً } [الْبَقَرَة:29].

{ **فِيها فاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذاتُ الْأَكْمامِ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحانُ** } مُبَيِّنَةٌ لِلْجُمْلَةِ السابقة، وَتَقْدِيمُ { فِيها } عَلَى الْمُبْتَدَأِ لِلِاهْتِمَامِ بِمَا تَحْتَوِي عَلَيْهِ الْأَرْضُ.

الْفَاكِهَةُ: اسْمٌ لِمَا يُؤْكَلُ تَفَكُّهًا لَا قُوتًا، مُشْتَقَّةٌ مِنْ فَكِهَ كَفَرِحَ، قَالَ تَعَالَى { فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ } [الْوَاقِعَة:65]. مثل الثِّمَار والمكسّرات مِنُ لَوْزٍ وَجَوْزٍ وَفُسْتُقٍ.

{ **وَالنَّخْلُ** } عَطَف عَلَى الْفَاكِهَةِ، وَهُوَ شَجَرُ التَّمْرِ، وَهُوَ أَهَمُّ شَجَرِ الْفَاكِهَةِ عِنْدَ الْعَرَبِ الَّذِينَ نَزَلَ الْقُرْآنُ فِيهِمْ، وَهُوَ يُثْمِرُ أَصْنَافًا مِنَ الْفَاكِهَةِ مِنْ رَطْبٍ وَبُسْرٍ وَمِنْ تَمْرٍ، وَهُوَ فَاكِهَةٌ وَقُوتٌ.

{ **ذاتُ الْأَكْمامِ** } وَصْفٌ لِلتَّحْسِينِ، فَهُوَ اعْتِبَارٌ بِأَطْوَارِ ثَمَرِ النَّخْلِ، وَامْتِنَانٌ بِجَمَالِهِ وَحُسْنِهِ، كَقَوْلِهِ { وَلَكُمْ فِيها جَمالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ } [النَّحْل:6]، فَامْتَنَّ بِمَنَافِعِهَا وَبِحُسْنِ مَنْظَرِهَا.

الْأَكْمام: جَمْعُ كِمٍّ (بِكَسْرِ الْكَافِ) وَهُوَ وِعَاءُ ثَمَرِ النَّخْلَةِ، وَيُقَالُ لَهُ: الْكُفُرَّى، فَلَيْسَتِ الْأَكْمَامُ مِمَّا يُنْتَفَعُ بِهِ فَتَعَيَّنَ أَنَّ ذِكْرَهَا مَعَ النّخل للتحسين.

وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ: هُوَ الْحُبُّ الَّذِي لِنَبَاتِهِ سَنَابِلُ وَلَهَا وَرَقٌ وَقَصَبٌ فَيَصِيرُ تِبْنًا، وَذَلِكَ الْوَرَقُ وَالْقَصَبُ هُوَ الْعَصْفُ، أَي: الَّذِي تَعْصِفُهُ الرِّيَاحُ. وَهَذَا وَصفٌ لِحَبِّ الشَّعِيرِ وَالْحِنْطَةِ، وَبِهِمَا قِوَامُ حَيَاةِ مُعْظَمِ النَّاسِ، وَكَذَلِكَ مَا أَشْبَهَهُمَا مِنْ نَحْوِ السُّلْتِ وَالْأُرْزِ.

وَسُمِّيَ الْعَصْفُ عَصْفًا لِأَنَّ الرِّيَاحَ تَعْصِفُهُ، أَيْ تُحَرِّكُهُ، وَوَصَفَ الْحَبَّ بِأَنَّهُ ذُو الْعَصْفِ لِلتَّحْسِينِ وَلِلتَّذْكِيرِ بِمِنَّةِ جَمَالِ الزَّرْعِ حِينَ ظُهُورِهِ فِي سُنْبُلِهِ فِي حُقُولِهِ، نَظِيرَ وَصْفِ النَّخْلِ بِذَاتِ الْأَكْمَامِ، وَلِأَنَّ فِي الْمَوْصُوفِ وَوَصْفِهِ أَقْوَاتَ الْبَشَرِ وَحَيَوَانِهِمْ.

الرَّيْحانُ: مَا لَهُ رَائِحَةٌ ذَكِيَّةٌ مِنَ الْأَزْهَارِ وَالْحَشَائِشِ وَهُوَ فَعْلَانُ مِنَ الرَّائِحَةِ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ بِهِ مَا لَهُ رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ. وَهَذَا اعْتِبَارٌ وَامْتِنَانٌ بِالنَّبَاتِ الْمُودَعَةِ فِيهِ الْأَطْيَابُ مِثْلَ الْوَرْدِ وَالْيَاسَمِينِ وَمَا يُسَمَّى بالريحان الْأَخْضَر.

{ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** } [13].

الْفَاءُ لِلتَّفْرِيعِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنَ المنن المدمجة مَعَ دَلَائِلِ صِدْقِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحَقِّيَّةِ وَحْيِ الْقُرْآنِ، وَدَلَائِلُ عَظَمَةِ اللهِ تَعَالَى وَحِكْمَتُهُ بِاسْتِفْهَامٍ عَنْ تَعْيِينِ نِعْمَةٍ مِنْ نعم الله يَتَأَتَّى لَهُمْ إِنْكَارُهَا، وَهُوَ تَذْيِيلٌ لِمَا قَبْلَهُ. أَي: لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنْكُمْ أَنْ يَجْحَدَ نِعَمَ اللهِ.

الْآلَاءُ: النِّعَمُ، جَمْعُ **إِلْيِ** (بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ وَسُكُونِ اللَّامِ)، وَ**أَلْيِ** (بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَسُكُونِ اللَّامِ وَيَاءٍ فِي آخِرِهِ) وَيُقَالُ **أَلْوُ** بِوَاوٍ عِوَضُ الْيَاءِ، وَهُوَ النِّعْمَةُ.

{ **رَبِّكُمَا** } ضَمِيرُ الْمُثَنَّى خِطَابٌ لِفَرِيقَيْنِ مِنَ الْمُخَاطَبِينَ بِالْقُرْآنِ. وَالْوَجْهُ عِنْدِي أَنَّهُ خِطَابٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ الَّذِينَ يَنْقَسِمُ إِلَيْهِمَا جِنْسُ الْإِنْسَانِ الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ تعالى { خَلَقَ الإنْسانَ } [3]، وَهُمُ الْمُخَاطَبُونَ بِقَوْلِهِ تعالى { أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ } [8]، وَالْمُنْقَسِمُ إِلَيْهِمَا { لِلْأَنامِ } الْمُتَقَدِّمُ ذِكْرُهُ. أَي: أَنَّ نِعَمَ اللَّهِ عَلَى النَّاسِ لَا يَجْحَدُهَا كَافِرٌ بَلْهَ الْمُؤْمِنُ. وَكُلُّ فَرِيقٍ يَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ الِاسْتِفْهَامُ بِالْمَعْنَى الَّذِي يُنَاسِبُ حَالَهُ.

وَالْمَقْصُودُ الْأَصْلِيُّ: التَّعْرِيضُ بِالْمُشْرِكِينَ وَتَوْبِيخِهِمْ عَلَى أَنْ أَشْرَكُوا فِي الْعِبَادَةِ مَعَ الْمُنْعِمِ غَيْرَ الْمُنْعِمِ، وَالشَّهَادَةُ عَلَيْهِمْ بِتَوْحِيدِ الْمُؤْمِنِينَ.

{ **تُكَذِّبانِ** } التَّكْذِيبُ مُسْتَعْمَلٌ فِي مَعْنَى الْجَحْدِ وَالْإِنْكَارِ مَجَازًا لِتَشْنِيعِ هَذَا الْجَحْدِ.

وَقَالَ جُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ: هُوَ خِطَابٌ لِلْإِنْسِ وَالْجِنِّ، وَهَذَا بَعِيدٌ لِأَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ لِخَطَابِ النَّاسِ وَوَعْظِهِمْ وَلَمْ يَأْتِ لِخِطَابِ الْجِنِّ، فَلَا يَتَعَرَّضُ الْقُرْآنُ لِخِطَابِهِمْ. وَمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ ذِكْرِ الْجِنِّ فَهُوَ فِي سِيَاقِ الْحِكَايَةِ عَنْ تَصَرُّفَاتِ اللَّهِ فِيهِمْ وَلَيْسَ لِتَوْجِيهِ الْعَمَلِ بِالشَّرِيعَةِ.

{ خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخَّارِ [14] وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ [15] }.

هَذَا انْتِقَالٌ إِلَى الِاعْتِبَارِ بِخَلْقِ اللَّهِ الْإِنْسَانَ وَخَلْقِهِ الْجِنَّ.

وَالْقَوْلُ فِي مَجِيءِ الْمسند فعلا كَالْقَوْلِ فِي قَوْلِهِ تعالى { عَلَّمَ الْقُرْآنَ } [2].

{ **الْإِنْسانَ** } الْمُرَادُ آدَمُ وَهُوَ أَصْلُ الْجِنْسِ.

{ **مِنْ صَلْصالٍ** } تَقَدَّمَ نَظِيرِهِ فِي [الْحِجْرِ:26]. وَالصَّلْصَالُ: الطِّينُ الْيَابِسُ.

الْفَخَّارُ: الطِّينُ الْمَطْبُوخُ بِالنَّارِ وَيُسَمَّى الْخَزَفَ. وَظَاهِرُ كَلَامِ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ قَوْلَهُ تعالى { كَالْفَخَّارِ } صِفَةٌ لـ {صَلْصالٍ }. أَي: خَلَقَهُ مِنْ صَلْصَالٍ فَصَارَ الْإِنْسَانُ كَالْفَخَّارِ فِي صُورَةٍ خَاصَّة وصلابة.

{ **الْجَانَّ** } الْجِنُّ، وَالْمُرَادُ بِهِ إِبْلِيسُ وَمَا خَرَجَ عَنْهُ مِنَ الشَّيَاطِينِ، وَقَدْ حَكَى اللَّهُ عَنْهُ قَوْلَهُ { خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ } [ص:76].

الْمَارِجُ: الْمُخْتَلِطُ ،وَهُوَ اسْمُ فَاعِلٍ بِمَعْنَى اسْمِ الْمَفْعُولِ مِثْلِ دَافِقٍ، أَي: خَلَقَ الْجَانَّ مِنْ خَلِيطٍ من النَّار، أَيْ: مُخْتَلِطٍ بِعَنَاصِرٍ أُخْرَى، إِلَّا أَنّ النَّار أَغْلَبُ عَلَيْهِ، كَمَا كَانَ التُّرَابُ أَغْلَبَ عَلَى تَكْوِينِ الْإِنْسَانِ.

وَالْمَقْصُودُ هُنَا: هُوَ خَلْقُ الْإِنْسَانِ بِقَرِينَةِ تَذْيِيلِهِ بِقَوْلِهِ تعالى { فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ } [16]، وَإِنَّمَا قُرِنَ بِخَلْقِ الْجَانِّ إِظْهَارًا لِكَمَالِ النِّعْمَةِ فِي خَلْقِ الْإِنْسَانِ مِنْ مَادَّةٍ لَيِّنَةٍ قَابِلًا لِلتَّهْذِيبِ وَالْكَمَالِ.

وَهُوَ أَيْضًا تَذْكِيرٌ وَمَوْعِظَةٌ بِمَظْهَرٍ مِنْ مَظَاهِرِ قُدْرَةِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ فِي خَلْقِ نَوْعِ الْإِنْسَانِ وَجِنْسِ الْجَانِّ.

وَفِيهِ إِيمَاءٌ إِلَى مَا سَبَقَ فِي الْقُرْآنِ النَّازِلِ قَبْلَ هَذِهِ السُّورَةِ مِنْ تَفْضِيلِ الْإِنْسَانِ عَلَى الْجَانِّ إِذْ أَمَرَ اللَّهُ الْجَانَّ

بِالسُّجُودِ لِلْإِنْسَانِ، وَمَا ينطوي فِي ذَلِكَ مِنْ وَفْرَةِ مَصَالِحِ الْإِنْسَانِ عَلَى مَصَالِحِ الْجَانِّ، وَمِنْ تَأَهُّلِهِ لِعُمْرَانِ الْعَالِمِ لِكَوْنِهِ مَخْلُوقًا مَنْ طِينَتِهِ إِذِ الْفَضِيلَةُ تَحْصُلُ مِنْ مَجْمُوعِ أَوْصَافٍ لَا مِنْ خصوصيات مُفْرَدَة.

{ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** } [16].

هَذَا تَوْبِيخٌ عَلَى عَدَمِ الْاِعْتِرَافِ بِنِعَمِ اللهِ تَعَالَى، جِيءَ فِيهِ بِمِثْلِ مَا جِيءَ بِهِ فِي نَظِيرِهِ الَّذِي سَبَقَهُ لِيَكُونَ التَّوْبِيخُ بِكَلَامٍ مِثْلَ سَابِقِهِ، وَذَلِكَ تَكْرِيرٌ مِنْ أُسْلُوبِ التَّوْبِيخِ، فَحَقُّ هَذَا أَنْ يُسَمَّى بِالتَّعْدَادِ لَا بِالتَّكْرَارِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ تكريرا لِمُجَرَّدِ التَّأْكِيد.

{ **فَبِأَيِّ** } الفاء هُنَا لِلتَّفْرِيعِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ، لِأَنَّ رُبُوبِيَّتَهُ تَقْتَضِي الْاِعْتِرَافَ لَهُ بِنِعْمَةِ الْإِيجَادِ وَالْإِمْدَادِ. وَفَائِدَةُ التَّكْرِيرِ تَوْكِيدُ التَّقْرِيرِ بِمَا لِلَّهِ تَعَالَى مِنْ نِعَمٍ عَلَى المخاطبين، وتعريض بتوبيخهم على إشراكهم بِاللَّهِ أَصْنَامًا لَا نِعْمَةَ لَهَا عَلَى أَحَدٍ، وَكُلُّهَا دَلَائِلُ عَلَى تَفَرُّدِ الْإِلَهِيَّةِ.

وَعَنِ ابْنِ قُتَيْبَةَ: " أَنَّ اللهَ عَدَّدَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ نَعْمَاءَهُ، وَذَكَّرَ خَلْقَهُ آلَاءَهُ ثُمَّ أَتْبَعَ كُلَّ خِلَّةٍ وَصَفَهَا، وَنِعْمَةٍ وَضَعَهَا بِهَذِهِ، وَجَعَلَهَا فَاصِلَةً بَيْنَ كُلِّ نِعْمَتَيْنِ لِيُنَبِّهَهُمْ عَلَى النِّعَمِ وَيُقَرِّرْهُمْ بِهَا ".

وَقَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ الْفَضْلِ [بن عُمَيْر البَجلِيّ الْكُوفِي النَّيْسَابُورِي توفّي (سنة ٢٨٢هـ) له تفْسِير للقُرْآن]: " التَّكْرِيرُ طَرْدٌ لِلْغَفْلَةِ وَتَأْكِيدٌ لِلْحُجَّةِ ".

{ **رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ** } [17].

استئناف ابْتِدَائِيٌّ فِيهِ بَيَانٌ لِجُمْلَةِ { الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبانٍ } [5]، وَعَطَفَ { وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ } لِأَجْلِ مَا ذَكَرْتُهُ آنِفًا مِنْ مُرَاعَاةِ الْمُزَاوَجَةِ.

الْمَشْرِقُ: جِهَةُ شُرُوقِ الشَّمْسِ، وَ**الْمَغْرِبُ**: جِهَةُ غُرُوبِهَا.

وَتَثْنِيَةُ الْمَشْرِقَيْنِ وَالْمَغْرِبَيْنِ بِاعْتِبَارِ أَنَّ الشَّمْسَ تَطْلُعُ فِي فَصْلَيِ الشِّتَاءِ وَالرَّبِيعِ مِنْ سَمْتٍ وَفِي فَصْلَيِ الصَّيْفِ وَالْخَرِيفِ مِنْ سَمْتٍ آخَرَ، وَبِمُرَاعَاةِ وَقْتِ الطُّولِ وَوَقْتِ الْقِصَرِ، وَكَذَلِكَ غُرُوبُهَا، وَهِيَ فِيمَا بَيْنَ هَذَيْنِ الْمَشْرِقَيْنِ وَالْمَغْرِبَيْنِ يَنْتَقِلُ طُلُوعُهَا وَغُرُوبُهَا فِي دَرَجَاتٍ مُتَقَارِبَةٍ فَقَدْ يُعْتَبَرُ ذَلِكَ فَيُقَالُ: الْمَشَارِقُ وَالْمَغَارِبُ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَالْمَغارِبِ إِنَّا لَقادِرُونَ } [الْمَعَارِج:40].

وَرُبُوبِيَّةُ الله تَعَالَى للمشرقين وَالْمَغْرِبَيْنِ بِمَعْنَى الْخلق وَالتَّصَرُّف.

{ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** } [18].

تَكْرِيرٌ كَمَا علمت آنِفا.

{ **مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ** [19] **بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ** [20] }.

خَبَرٌ آخَرُ عَن { الرَّحْمَنُ } [1]، قَصَدَ مِنْهُ الْعِبْرَةَ بِخَلْقِ الْبِحَارِ وَالْأَنْهَارِ، وَذَلِكَ خَلْقٌ عَجِيبٌ دَالٌّ عَلَى عَظَمَةِ قُدْرَةِ اللَّهِ وَعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ.

وَمُنَاسَبَةُ ذِكْرِهِ عَقِبَ مَا قَبْلَهُ أَنَّهُ لَمَّا ذُكِرَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ وَكَانَتِ الْأَبْحُرُ وَالْأَنْهَارُ فِي جِهَاتِ الْأَرْضِ نَاسَبَ الِانْتِقَالَ إِلَى الِاعْتِبَارِ بخلقهما والامتنان بِمَا أودعهما مِنْ مَنَافِعِ النَّاسِ.

الْمَرَجُ: لَهُ معَان كَثِيرَة، وأوْلاها فِي هَذَا الْكَلَامِ أَنَّهُ الْإِرْسَالُ، مِنْ قَوْلِهِمْ: مرج الدَّابَّة، إِذا أَرْسَلَهَا تَرْعَى فِي الْمَرَجِ، وَهُوَ الْأَرْضُ الْوَاسِعَةُ ذَاتُ الْكَلَأِ الَّذِي لَا مَالك لَهُ، أَيْ: تَرْكُهَا تَذْهَبُ حَيْثُ تَشَاءُ.

وَالْمَعْنَى: أَرْسَلَ الْبَحْرِينِ لَا يَحْبِسُ مَاءَهُمَا عَنِ الْجَرْيِ حَاجِزٌ.

يَلْتَقِيَانِ: يَتَّصِلَانِ بِحَيْثُ يَصُبُّ أَحَدُهُمَا فِي الْآخَرِ.

الْبَحْرُ: الْمَاءُ الْغَامِرُ جُزْءًا عَظِيمًا مِنَ الْأَرْضِ يُطْلَقُ عَلَى الْمَالِحِ وَالْعَذْبِ.

وَالْمُرَادُ تَثْنِيَةُ نَوْعَيِ الْبَحْرِ وَهُمَا الْبَحْرُ الْمِلْحُ وَالْبَحْرُ الْعَذْبُ. كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { وَما يَسْتَوِي الْبَحْرانِ هَذَا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ } [فاطر:12]. وَالتَّعْرِيفُ تَعْرِيفُ الْعَهْدِ الْجِنْسِيِّ.

فَالْمَقْصُودُ مَا يَعْرِفُهُ الْعَرَبُ مِنْ هَذَيْنِ النَّوْعَيْنِ وَهُمَا نَهْرُ الْفُرَاتِ وَبَحْرُ الْعَجَمِ الْمُسَمَّى الْيَوْمَ بِالْخَلِيجِ الْفَارِسِيِّ. وَالْتِقَاؤُهُمَا انْصِبَابُ مَاءِ الْفُرَاتِ فِي الْخَلِيجِ الْفَارِسِي. فِي شاطئ الْبَصْرَةِ، وَالْبِلَادِ الَّتِي عَلَى الشَّاطِئِ الْعَرَبِيِّ مِنَ الْخَلِيجِ الْفَارِسِيِّ تُعْرَفُ عِنْدَ الْعَرَبِ بِبِلَادِ الْبَحْرِينِ لِذَلِكَ.

{ **بَيْنَهُما بَرْزَخٌ** } الْفَاصِلُ بَيْنَ الْمَاءَيْنِ بِحَيْثُ لَا يُغَيِّرُ أَحَدُ الْبَحْرَيْنِ طَعْمَ الْآخَرِ بِجِوَارِهِ. وَذَلِكَ بِمَا فِي كُلِّ مَاءٍ مِنْهُمَا مِنْ خَصَائِصَ تَدْفَعُ عَنْهُ اخْتِلَاطَ الْآخَرِ بِهِ. وَهَذَا مِنْ مَسَائِلِ الثِّقَلِ النَّوْعِيِّ.

الْبَرْزَخُ: الْحَاجِزُ الْفَاصِلُ، وَالْبَرْزَخُ الَّذِي بَيْنَ هَذَيْنِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ مَضِيقُ (بَابِ الْمَنْدَبِ) حَيْثُ يَقَعُ مَرْسَى عَدَنَ وَمَرْسَى زَيْلَعَ. وَذِكْرُ الْبَرْزَخِ تَشْبِيهٌ بَلِيغٌ، أَيْ: بَيْنَهُمَا مِثْلُ الْبَرْزَخِ

{ **لا يَبْغِيانِ** }، أَيْ لَا يَبْغِي أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ، أَيْ: لَا يَغْلِبُ عَلَيْهِ فَيُفْسِدُ طَعْمَهُ، فَاسْتُعِيرَ لِهَذِهِ الْغَلَبَةِ لَفْظُ الْبَغْيِ الَّذِي حَقِيقَتُهُ الِاعْتِدَاءُ وَالتَّظَلُّمُ.

وَلَمَّا كَانَ فِي خَلْقِ الْبَحْرَيْنِ نِعَمٌ عَلَى النَّاسِ عَظِيمَةٌ؛ مِنْهَا مَعْرُوفَةٌ عِنْدَ جَمِيعِهِمْ، فَإِنَّهُمْ يَسِيرُونَ فِيهِمَا كَمَا قَالَ تَعَالَى { وَتَرَى الْفُلْكَ مَواخِرَ فِيهِ } [النَّحْل:14]، وَقَالَ { هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ } [يُونُس:22]. وَاسْتِخْرَاجُ سَمَكِهِ وَالتَّطَهُّرُ بِمَائِهِ. وَمِنْهَا مَعْرُوفَةٌ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ، وَهِيَ مَا لِأَمْلَاحِ الْبَحْرِ مِنْ تَأْثِيرٍ فِي تَنْقِيَةِ هَوَاءِ الْأَرْضِ وَاسْتِجْلَابِ الْأَمْطَارِ وَتَلَقِّي الْأَجْرَامِ الَّتِي تَنْزِلُ مِنَ الشُّهُبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

{ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** } [21].

تَكْرِيرٌ كَمَا عَلِمْتَهُ مِمَّا تَقَدَّمَ، وَوَقَعَ هُنَا اعْتِرَاضًا بَيْنَ أَحْوَال الْبَحْرين.

{ **يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ** } [22].

حَالٌ ثَالِثَةٌ. ثُمَّ إِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِالْبَحْرَيْنِ: بَحْرَيْنِ مَعْرُوفَيْنِ مِنَ الْبِحَارِ الْمِلْحَةِ تَكُونُ (مِنْ) فِي قَوْلِهِ { مِنْهُمَا } ابْتِدَائِيَّةً لِأَنَّ اللُّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ يَكُونَانِ فِي الْبَحْرِ الْمِلْحِ.

وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِالْبَحْرَيْنِ: الْبَحْرُ الْمِلْحُ، وَالْبَحْرُ الْعَذْبُ كَانَتْ (مِنْ) فِي قَوْلِه { مِنْهُمَا } لِلسَّبَبِيَّةِ، أَيْ: يَخْرُجُ اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ بِسَبَبِهِمَا، أَيْ بِسَبَبِ مَجْمُوعِهِمَا.

قَالَ الزجاجُ: قَدْ ذَكَرَهُمَا اللهُ فَإِذَا خَرَجَ مِنْ أَحَدِهِمَا شَيْءٌ فَقَدْ خَرَجَ مِنْهُمَا وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى { أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً } [نوح:16/15]، وَالْقَمَر فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا.

وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ الْفَارِسِيُّ: هُوَ مِنْ بَابِ حَذْفِ الْمُضَافِ، أَيْ: مِنْ أَحَدِهِمَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى { عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } [الزخرف:31]، أَيْ: مِنْ إِحْدَاهُمَا.

الْمَرْجانُ: حَيَوَانٌ بَحَرِيٌّ ذُو أَصَابِعَ دَقِيقَةٍ يَنْشَأُ لَيِّنًا ثُمَّ يَتَحَجَّرُ وَيَتَلَوَّنُ بِلَوْنِ الْحُمْرَةِ وَيَتَصَلَّبُ كُلَّمَا طَالَ مُكْثُهُ فِي الْبَحْرِ فَيُسْتَخْرَجُ مِنْهُ كَالْعُرُوقِ تُتَّخَذُ مِنْهُ حِلْيَةٌ وَيُسَمَّى بِالْفَارِسِيَّةِ (بِسَذْ). وَقَدْ تَتَفَاوَتُ الْبِحَارُ فِي الْجَيِّدِ مِنْ مَرْجَانِهَا. وَيُوجَدُ بِبَحْرِ طَبَرْقَةَ عَلَى الْبَحْرِ الْمُتَوَسِّطِ فِي شَمَالِ الْبِلَادِ التُّونسِيَّةِ.

وَبَيْنَ قَوْله تعالى { مَرَجَ } [19] وَقَوله تعالى { وَالْمَرْجانُ } الجناس المذيّل.

{ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** } [23].

تَكْرِيرٌ لِنَظِيرِهِ الْمُتَقَدّم أوّلا.

{ **وَلَهُ الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ** } [24].

عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةِ { يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ } [22]، لِأَنَّ هَذَا مِنْ أَحْوَالِ الْبَحْرِينِ وَقَدْ أَغْنَتْ إِعَادَةُ لَفْظِ الْبَحْرِ عَنْ ذِكْرِ ضَمِيرِ الْبَحْرِينِ الرَّابِطِ لِجُمْلَةِ الْحَالِ بِصَاحِبِهَا.

{ **وَلَهُ الْجَوارِ** } اللَّامُ لِلْمِلْكِ وَهُوَ مِلْكُ تَسْخِيرِ السَّيْرِ فِيهَا، قَالَ تَعَالَى { وَمِنْ آياتِهِ الْجَوارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيَاحَ فَيَظْلَلْنَ رَواكِدَ عَلى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِما كَسَبُوا } [الشورى:32-34].

فَالْمَعْنَى: أَنَّ الْجَوَارِيَ فِي الْبَحْرِ فِي تَصَرُّفِهِ تَعَالَى، قَالَ تَعَالَى { وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ } [الْحَج:65].

وَالْإِخْبَارُ عَنِ الْجَوَارِي بِأَنَّهَا لَهُ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ إِنْشَاءَ النّاس لِلسُّفُنِ لَا يُخْرِجُهَا عَنْ ملك الله.

الجوار: صِفَةٌ لِمَوْصُوفٍ مَحْذُوفٍ دَلَّ عَلَيْهِ مُتَعَلِّقُهُ { فِي الْبَحْرِ }. وَالتَّقْدِيرُ: السُّفُنُ الْجَوَارِي.

{ **الْجَوارِ** } كُتِبَ بِدُونَ يَاءٍ اعْتِدَادًا بِحَالَةِ النُّطْقِ بِهِ فِي الْوَصْلِ إِذْ لَا يَقِفُ الْقَارِئُ عَلَيْهِ وَلِذَلِكَ قُرَاهُ جَمِيعُ

الْعَشَرَةِ بِدُونَ يَاءٍ فِي حَالَةِ الْوَصْلِ وَالْوَقْفِ لِأَنَّ الْوَقْفَ عَلَيْهِ نَادِرٌ.

{ **الْمُنْشَآتُ** } (بِفَتْحِ الشِّينِ) عند الجمهور، فَهُوَ اسْمُ مَفْعُولٍ، إِذَا أُوجِدَ وَصُنِعَ، أَي: الَّتِي أَنْشَأَهَا النَّاسُ بِإِلْهَامٍ مِنَ اللَّهِ، فَحَصَلَ مِنَ الْكَلَامِ مِنَّتَانِ؛ مِنَّةُ تَسْخِيرِ السُّفُنِ لِلسَّيْرِ فِي الْبَحْرِ وَمِنَّةُ إِلْهَامِ النَّاس لإنشائها.

وقرأه حَمْزَةُ وَأَبُو بَكْرٍ عَنْ عَاصِمٍ (بِكَسْرِ الشِّينِ) فَهُوَ اسْمُ فَاعِلٍ. فَيَجُوزُ أَن يكون المنشِئات مُشْتَقًّا مَنْ أَنْشَأَ السَّيْرُ إِذَا أَسْرَعَ، أَي: الَّتِي يَسِيرُ بِهَا النَّاسُ سَيْرًا سَرِيعًا. قَالَ مُجَاهِد: المنشئات الَّتِي رُفِعَتْ قُلُوعُهَا.

وَالْآيَةُ تَحْتَمِلُ الْمَعْنَيَيْنِ عَلَى الْقِرَاءَتَيْنِ.

{ **كَالْأَعْلامِ** } أَي: الْجِبَالِ، تَعْظِيمًا لشَأْنِهَا فِي صُنْعِهَا الْمُقْتَضِي بَدَاعَةَ إِلْهَامِ عُقُولِ الْبَشَرِ لِصُنْعِهَا، وَالْمُقْتَضِي عِظَمَ الْمِنَّةِ بِهَا لِأَنّ السفن الْعَظِيمَة أَمْكَنُ لِحَمْلِ الْعَدَدِ الْكَثِيرِ مِنَ النَّاس وَالْمَتَاع.

{ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ } [25].

تَكْرِيرٌ لنظيره السَّابِق.

{ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ [26] وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ [27] }.

لَمَّا كَانَ قَوْله تعالى { وَلَهُ الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ } [24] مُؤْذِنًا بِنِعْمَةِ إِيجَادِ أَسْبَابِ النَّجَاةِ مِنَ الْهَلَاكِ وَأَسْبَابِ السَّعْيِ لِتَحْصِيلِ مَا بِهِ إِقَامَةُ الْعَيْشِ إِذْ يَسَّر لِلنَّاسِ السُّفُنَ عَوْنًا لهم عَلَى الْأَسْفَارِ وَقَضَاءَ الْأَوْطَارِ مَعَ السَّلَامَةِ مِنْ طُغْيَانِ مَاءِ الْبِحَارِ، وَكَانَ وَصْفُ السُّفُنِ بِأَنَّهَا كَالْأَعْلَامِ تَوْسِعَةً فِي هَذِهِ النِّعْمَةِ أَتْبَعُهُ بِالْمَوْعِظَةِ، بِأَنَّ هَذَا لَا يَحُولُ بَيْنَ النَّاسِ وَبَيْنَ مَا قَدَّرَهُ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْفَنَاءِ، عَلَى عَادَةِ الْقُرْآنِ فِي الْفُرَصِ لِلْمَوْعِظَةِ وَالتَّذْكِيرِ، كَقَوْلِهِ تعالى { أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ } [النِّسَاء:78]. وَفَائِدَةُ هَذَا أَنْ لَا يَنْسَوا الْإِسْتِعْدَادَ لِلْحَيَاةِ الْبَاقِيَةِ بِفِعْلِ الصَّالِحَاتِ، وَأَنْ يَتَفَكَّرُوا فِي عَظِيمِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَيُقْبِلُوا عَلَى تَوْحِيدِهِ وَطَلَبِ مَرْضَاتِهِ.

وَالْجُمْلَةُ اسْتِئْنَافٌ ابْتِدَائِيٌّ، وَوُقُوعُها عَقِبَ مَا عُدِّدَ مِنَ النِّعَمِ فِيهِ إِيمَاءٌ إِلَى أَنَّ مَصِيرَ نِعَمِ الدُّنْيَا إِلَى الْفَنَاءِ.

{ **مَنْ عَلَيْها** } النَّاس، لأنّهم الْمَقْصُود بِهَذِهِ الْعِبَرِ، وَلِذَلِكَ جِيءَ بـ (مَنْ) الْمَوْصُولَةِ الْخَاصَّةِ بِالْعُقَلَاءِ.

وضَمِيرُ {عَلَيْهَا } مُرَادٌ بِهِ الْأَرْضَ بِقَرِينَةِ الْمَقَامِ. وَمِثْلُهُ فِي الْقُرْآنِ كثير وَفِي كَلَامِ الْبُلَغَاءِ.

الْمَعْنَى: أَنَّ مَصِيرَ جَمِيعِ مَنْ عَلَى الْأَرْضِ إِلَى الفناء، وَهَذَا تذكير بِالْمَوْتِ وَمَا بَعْدَهُ مِنَ الْجَزَاءِ.

فَانٍ: صَائِرٌ إِلَى الْفَنَاءِ، فَهَذَا مِنِ اسْتِعْمَالِ اسْمِ الْفَاعِلِ لِزَمَانِ الْإِسْتِقْبَالِ بِالْقَرِينَةِ، مِثْلِ قوله تعالى { إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ } [الزمر:30].

{ **وَجْهُ رَبِّكَ** } ذَاتُهُ، فَذِكْرُ الْوَجْهِ هُنَا جَارٍ عَلَى عُرْفِ كَلَامِ الْعَرَبِ. قَالَ فِي الْكَشَّافِ: " وَالْوَجْهُ يُعَبَّرُ بِهِ عَنِ الْجُمْلَةِ وَالذَّاتِ ". وَأُضِيفَ إِلَى اسْمِهِ تَعَالَى لَفْظُ (الْوَجْهِ) بِمَعَانٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنْهَا مَا هُنَا، وَمِنْهَا قَوْلُهُ تعالى { فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ } [الْبَقَرَة:115]، وَقَوْلُهُ تعالى { إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ } [الْإِنْسَان:9].

وَقَدْ عَلِمَ السَّامِعُونَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَجْهٌ بِالْمَعْنَى الْحَقِيقِيِّ.

وَاصْطَلَحَ عُلَمَاءُ الْعَقَائِدِ عَلَى تَسْمِيَةِ مِثْلِ هَذَا بِالْمُتَشَابِهِ، وَكَانَ السّلف يحجمون عَن الْخَوْض فِي ذَلِكَ مَعَ الْيَقِينِ بِاسْتِحَالَةِ ظَاهِرِه عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، ثُمَّ تَنَاوَلَهُ عُلَمَاء التَّابِعين وَمَنْ بعدهمْ بالتأويل تدريجا إِلَى أَن اتَّضَحَ وَجْهُ التَّأْوِيلِ بِالْجَرْيِ عَلَى قَوَاعِدِ عِلْمِ الْمَعَانِي فَزَالَ الْخَفَاءُ، واندفع الْجفَاء، وكلا الْفَرِيقَيْنِ خِيرَةُ الْحُنَفَاءِ.

{ **رَبِّكَ** } ضَمِيرُ الْمُخَاطَبِ خِطَابٌ للنبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِيهِ تَعْظِيمٌ لِقَدْرِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَالْمَقْصُودُ تَبْلِيغُهُ إِلَى الَّذِينَ يُتْلَى عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لِيَذَّكَّرُوا وَيَعْتَبِرُوا.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ خِطَابًا لِغَيْرِ مُعَيَّنٍ لِيَعُمَّ كُلَّ مُخَاطَبٍ.

{ **ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ** } لَمَّا كَانَ الْوَجْهُ هُنَا بِمَعْنَى الذَّاتِ وُصِفَ بِالْعَظَمَةِ وَالْإِكْرَامِ، أَي: الْمُنْعِمِ عَلَى عِبَادِهِ.

ذو الْجَلَالِ: تضمّن الوصف جَمِيعَ الصِّفَاتِ الرَّاجِعَةِ إِلَى التَّنْزِيهِ عَنِ النَّقْصِ.

الْإِكْرَامِ: تضمّن الوصف جَمِيعَ صِفَاتِ الْكَمَالِ الْوُجُودِيَّةِ وَصِفَاتِ الْجَمَالِ كَالْإِحْسَانِ.

{ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ } [28].

تَكْرِيرٌ كَمَا تَقَدَّمَ، وَهَذَا الْمَوْقِعُ يُنَادِي عَلَى أَنَّ لَيْسَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ تَذْيِيلًا لِجُمْلَةِ { كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ } [26]، لأَنَّها لا تَتَضَمَّنُ نِعْمَةً، إِذْ لَيْسَ فِي الفناء نعْمَة. وإِنَّمَا هُوَ تَفْرِيعٌ عَلَى جُمْلَةِ { وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ } كَمَا عَلِمَتَ مِنْ أَنَّهُ يَتَضَمَّنُ مُعَامَلَةَ خَلْقِهِ مُعَامَلَةَ الْعَظِيمِ الَّذِي لَا تَصْدُرُ عَنْهُ السَّفَاسِفُ، الْكَرِيمُ الَّذِي لَا يَقْطَعُ إِنْعَامَهُ، وَذَلِكَ مِنَ الآلاء الْعَظِيمَة.

{ يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ } [29].

{ **يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ** } اسْتِئْنَافٌ، وَالْمَعْنَى أَنَّ النَّاسَ تَنْقَرِضُ مِنْهُمْ أَجْيَالٌ وَتَبْقَى أَجْيَالٌ وَكَلُّ بَاقٍ مُحْتَاجٌ إِلَى أَسْبَابِ بَقَائِهِ وَصَلَاحِ أَحْوَالِهِ. فَالْجَمِيعُ يَسْأَلُونَهُ؛ فَسُؤَالُ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ، وَهُمُ الْمَلَائِكَةُ، يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ وَيَسْأَلُونَ رِضَى اللَّهُ تَعَالَى. وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَهُمُ الْبَشَرُ، يَسْأَلُونَهُ نِعَمَ الْحَيَاةِ وَالنَّجَاةِ فِي الْآخِرَةِ وَرَفْعَ الدَّرَجَاتِ.

{ **يَسْئَلُهُ** } حُذِف المفعول لِإِفَادَةِ التَّعْمِيمِ، أَيْ: يَسْأَلُونَهُ حَوَائِجَهُمْ وَمَهَامِّهِمْ.

{ **كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ** } يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْجُمْلَةُ حَالًا مِنْ ضَمِيرِ النصب فِي { يَسْئَلُهُ } أَوْ تذييلا لجملة { يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ }، أَيْ: كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْن من الشؤون لِلسَّائِلِينَ وَغَيْرِهِمْ.

{ **يَوْمٍ** } مُسْتَعْمَلٌ مَجَازًا فِي الْوَقْتِ بِعَلَاقَةِ الْإِطْلَاقِ، إِذِ الْمَعْنَى: كُلُّ وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ وَلَوْ لَحْظَةً، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالْيَوْمِ الْوَقْتَ الْخَاصَّ الَّذِي يَمْتَدُّ مِنَ الْفَجْرِ إِلَى الْغُرُوبِ. وَإِطْلَاقُ الْيَوْمِ وَنَحْوِهُ عَلَى مُطْلَقِ الزَّمَانِ كَثِيرٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ كَقَوْلِهِمْ: الدَّهْرُ يَوْمَانِ؛ يَوْمٌ نُعْمٌ وَيَوْمٌ بُؤْسٌ.

الشَّأْنُ: الشَّيْءُ الْعَظِيمُ وَالْحَدَثُ الْمُهِمُّ مِنْ مَخْلُوقَاتٍ وَأَعْمَالٍ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. وَهُوَ تَعَالَى يَأْمُرُ وَيَنْهَى وَيُحْيِي وَيُمِيتُ وَيُعْطِي وَيَمْنَعُ وَنَحْوَ ذَلِكَ، وَإِذَا كَانَ فِي تَصَرُّفِهِ كُلُّ شَأْنٍ فَمَا هُوَ أَقَلُّ مِنَ الشَّأْنِ أَوْلَى بِكَوْنِهِ مِنْ تَصَرُّفِهِ.

{ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** } [30].

تَكْرِير لنظائره.

{ **سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ** } [31].

هَذَا تَخَلُّصٌ مِنَ الْاِعْتِبَارِ بِأَحْوَالِ الْحَيَاةِ الْعَاجِلَةِ إِلَى التَّذْكِيرِ بِأَحْوَالِ الْآخِرَةِ وَالْجَزَاءِ فِيهَا، انْتُقِلَ إِلَيْهِ بِمُنَاسَبَةِ اشْتِمَالِ مَا سَبَقَ مِنْ دَلَائِلَ سَعَةِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى تَعْرِيضٍ بِأَنَّ فَاعِلَ ذَلِكَ أَهْلٌ لِلتَّوْحِيدِ بِالْإِلَهِيَّةِ وَمُسْتَحَقٌّ الْإِفْرَادِ بِالْعِبَادَةِ، وَإِذْ قَدْ كَانَ الْمُخَاطَبُونَ بِذَلِكَ مُشْرِكِينَ مَعَ اللَّهِ فِي الْعِبَادَةِ انْتُقِلَ إِلَى تَهْدِيدِهِمْ بِأَنَّهُمْ وَأَوْلِيَاءَهُمْ مِنَ الْجِنِّ الْمُسَوِّلِينَ لَهُمْ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ سَيُعْرَضُونَ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ فِيهِمْ.

{ **سَنَفْرُغُ** } حَرْفُ التَّنْفِيسِ مُسْتَعْمَلٌ فِي مُطلق التَّقْرِيب الْمُكَنَّى بِهِ عَنِ التَّحْقِيقِ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { قالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي } [يُوسُف:98].

الْفَرَاغُ لِلشَّيْءِ: الْخُلُوُّ عَمَّا يُشْغِلُ عَنْهُ، وَهُوَ تَمْثِيلٌ لِلِاعْتِنَاءِ بِالشَّيْءِ، شُبِّهَ حَالُ الْمُقْبِلِ عَلَى عَمَلٍ دُونَ عَمَلٍ آخَرَ بِحَالِ الْوِعَاءِ الَّذِي أُفْرِغَ مِمَّا فِيهِ لِيُمْلَأَ بِشَيْءٍ آخَرَ.

وَالْمُنَاسِبُ لِسِيَاقِ الْآيَةِ، بِاعْتِبَارِ السَّابِقِ وَاللَّاحِقِ، أَنْ تُحْمَلَ عَلَى مَعْنَى الْإِقْبَالِ عَلَى أُمُورِ الثَّقَلَيْنِ فِي الْآخِرَةِ، لِأَنَّ بَعْدَهُ { يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ } [41].

الثَّقَلانِ: تَثْنِيَةُ ثَقَلٍ، وَهَذَا الْمُثَنَّى اسْمٌ مُفْرَدٌ لِمَجْمُوعِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ. وَأَحْسَبُ أَنَّ (الثَّقَلَ) هُوَ الْإِنْسَانُ لِأَنَّهُ مَحْمُولٌ عَلَى الْأَرْضِ، فَهُوَ كَالثِّقْلِ عَلَى الدَّابَّةِ، وَأَنَّ إِطْلَاقَ هَذَا الْمُثَنَّى عَلَى الْإِنْسِ وَالْجِنِّ مِنْ بَابِ التَّغْلِيبِ، وَقِيلَ غَيْرَ هَذَا مِمَّا لَا يَرْتَضِيهِ الْمُتَأَمِّلُ. وَقَدْ عُدَّ هَذَا اللَّفْظُ بِهَذَا الْمَعْنَى مِمَّا لا يُسْتَعْمَلُ إِلَّا بِصِيغَةِ التَّثْنِيَةِ، فَلَا يُطْلَقُ عَلَى نَوْعِ الْإِنْسَانِ بِانْفِرَادِهِ اسْمُ الثَّقَلِ. وَأَظُنُّ أَنَّ هَذَا اللَّفْظَ لَمْ يُطْلَقْ عَلَى مَجْمُوعِ النَّوْعَيْنِ قَبْلَ الْقُرْآنِ فَهُوَ مِنْ أَعْلَامِ الْأَجْنَاسِ بِالْغَلَبَةِ، ثُمَّ اسْتَعْمَلَهُ أَهْلُ الْإِسْلَامِ.

{ **أَيُّهَ** } كُتِبَ فِي الْمُصْحَفِ بِهَاءٍ لَيْسَ بَعْدَهَا أَلْفٌ وَهُوَ رَسْمٌ مُرَاعَى فِيهِ حَالَ النُّطْقِ بِالْكَلِمَةِ فِي الْوَصْلِ إِذْ لَا يُوقَفُ عَلَى مِثْلِهِ، فَقَرَأَهَا الْجُمْهُورُ بِفَتْحَةٍ عَلَى الْهَاءِ دُونَ أَلِفٍ فِي حَالَتَيِ الْوَصْلِ وَالْوَقْفِ. وَقَرَأَهَا أَبُو عَمْرٍو وَالْكِسَائِيُّ بِأَلِفٍ بَعْدَ الْهَاءِ فِي الْوَقْفِ. وَقَرَأَهُ ابْنُ عَامِرٍ بِضَمِّ الْهَاءِ تَبَعًا لِضَمِّ الْيَاءِ الَّتِي قَبْلَهَا وَهَذَا من الإتباع.

{ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** } [32].

تَكْرِيرٌ لِنَظَائِرِهِ وَلَيْسَ هُوَ خِطَابًا لِلثَّقَلَيْنِ وَلَا تَذْيِيلًا لِلْجُمْلَةِ الَّتِي قَبِلَهُ إِذْ لَيْسَ فِي الْجُمْلَةِ الَّتِي قَبْلَهُ ذِكْرُ نِعْمَةٍ عَلَى الثَّقَلَيْنِ بَلْ هِيَ تهديد لَهما.

{ **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطانٍ** } [33].

هَذَا مَقُولُ قَوْلٍ مَحْذُوفٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ سِيَاقُ الْكَلَامِ السَّابِقِ وَاللَّاحِقِ، وَلَيْسَ خِطَابًا لِلْإِنْسِ وَالْجِنَّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. التَّقْدِيرُ: فَنَقُولُ لَكُمْ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ } [الْأَنْعَام:128]، أَيْ فَنَقُولُ: يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ.

الْمَعْشَرُ: اسْمٌ لِلْجَمْعِ الْكَثِيرِ الَّذِي يُعَدُّ عَشَرَةً عَشَرَةً دُونَ آحَادٍ.

وَهَذَا إِعْلَانٌ لَهُمْ بِأَنَّهُمْ فِي قَبْضَةِ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَجِدُونَ مَنْجًى مِنْهَا، وَهُوَ تَرْوِيعٌ لِلضَّالِّينَ وَالْمُضِلِّينَ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ بِمَا يَتَرَقَّبُهُمْ من الْجَزَاء السيّئ، لِأَنَّ مِثْلَ هَذَا لَا يُقَالُ لِجَمْعٍ مُخْتَلِطٍ إِلَّا وَالْمَقْصُودُ أَهْلُ الْجِنَايَةِ مِنْهُمْ فَقَوْلُهُ { يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ } عَامٌ مُرَادٌ بِهِ الْخُصُوصَ بِقَرِينَةِ قَوْلِهِ بَعْدَهُ { يُرْسَلُ عَلَيْكُما شُواظٌ } [35].

النُّفُوذُ / النَّفَاذُ: جَوَازُ شَيْءٍ عَنْ شَيْءٍ وَخُرُوجُهُ مِنْهُ.

{ **إِنِ اسْتَطَعْتُمْ** } الشَّرْطُ مُسْتَعْمَلٌ فِي التَّعْجِيزِ، وَكَذَلِكَ الْأَمْرُ { **فَانْفُذُوا** }، الَّذِي هُوَ جَوَابُ هَذَا الشَّرْطِ.

الْمَعْنَى: إِنْ قَدَرْتُمْ عَلَى الِانْفِلَاتِ مِنْ هَذَا الْمَوْقِفِ فَافْلِتُوا. وَهَذَا مُؤْذِنٌ بِالتَّعْرِيضِ بِالتَّخْوِيفِ مِمَّا سَيَظْهَرُ فِي ذَلِكَ الْمَوْقِفِ مِنَ الْعِقَابِ لِأَهْلِ التَّضْلِيلِ.

الْأَقْطَارُ: جَمْعُ قُطْرٍ (بِضَمِّ الْقَافِ وَسُكُونِ الطَّاءِ) وَهُوَ النَّاحِيَةُ الْوَاسِعَةُ مِنَ الْمَكَانِ الْأَوْسَعِ، وَتَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها } [الْأَحْزَابِ:14].

{ **السَّماواتِ وَالْأَرْضِ** } ذِكْرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لِتَحْقِيقِ إِحَاطَةِ الْجِهَاتِ كُلِّهَا تَحْقِيقًا لِلتَّعْجِيزِ، أَيْ: فَهَذِهِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أَمَامَكُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ فَاخْرُجُوا مِنْ جِهَةٍ مِنْهَا فِرَارًا مِنْ مَوْقِفِكُمْ هَذَا.

{ **وَالْأَرْضِ** } هُنَا إِمَّا أَنْ تَكُونَ الْأَرْضَ الَّتِي فِي الدُّنْيَا وَذَلِكَ حِينَ الْبَعْثِ، وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ أَرْضَ الْحَشْرِ وَهِيَ الَّتِي سَمَّاهَا الْقُرْآن { بِالسَّاهِرَةِ } { النَّازِعَاتِ:14]، قَالَ تَعَالَى { يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ } [إِبْرَاهِيم:48]، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ جَارِيًا مَجْرَى الْمَثَلِ الْمُسْتَعْمَلِ لِلْمُبَالَغَةِ فِي إِحَاطَةِ الْجِهَاتِ.

وَهَذِهِ الْمَعَانِي لَا تَتَنَافَى، وَهِيَ مِنْ حَدِّ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ.

{ **لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطانٍ** } بَيَانٌ لِلتَّعْجِيزِ الَّذِي فِي الْجُمْلَةِ، فَإِنَّ السُّلْطَانَ: الْقُدْرَةُ، أَيْ: لَا تَنْفُذُونَ مِنْ هَذَا

الْمَأْزِقِ إِلَّا بِقُدْرَةٍ عَظِيمَةٍ تَفُوقُ قُدْرَةَ اللهِ الَّذِي حَشَرَكُمْ لِهَذَا الْمَوْقِفِ، وَأَنَّى لَكُمْ هَاتِهِ الْقُوَّةُ.

{ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** } [34].

الْقَوْلُ فِيهِ كَالْقَوْلِ فِي نَظِيرِهِ الْمَذْكُور قبله.

{ **يُرْسَلُ عَلَيْكُما شُواظٌ مِنْ نارٍ وَنُحاسٌ فَلا تَنْتَصِرانِ** } [35].

اسْتِئْنَافٌ بَيَانِيٌّ عَنْ جُمْلَةِ { إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا } [33]، لِأَنَّ ذَلِكَ الْإِشْعَارَ بِالتَّهْدِيدِ يُثِيرُ فِي نُفُوسِهِمْ تَسَاؤُلًا عَمَّا وَرَاءَهُ.

{ **عَلَيْكُما** } الضَمِيرُ رَاجِعٌ إِلَى الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، فَهُوَ عَامٌّ مُرَادٌ بِهِ الْخُصُوصَ بِالْقَرِينَةِ، وَهِيَ قَوْلُهُ بَعْدَهُ { وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ } [الرحمان:46]. وَهَذَا تَصْرِيحٌ بِأَنَّهُمْ مُعَاقَبُونَ بَعْدَ أَنْ عُرِّضَ لَهُمْ بِذَلِكَ تَعْرِيضًا بِقَوْلِهِ تعالى { إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا } [33].

{ **يُرْسَلُ عَلَيْكُما** } أي: أَنَّ ذَلِكَ يَعْتَرِضُهُمْ قَبْلَ أَنْ يَلِجُوا فِي جَهَنَّمَ، أَيْ: تُقْذَفُونَ بِشُوَاظٍ مِنْ نَارٍ تَعْجِيلًا لِلسُّوءِ.

الشُّوَاظُ: (بِضَمِّ الشِّينِ وَكَسْرِهَا) اللَّهَبُ الَّذِي لَا يُخَالِطُهُ دُخَانٌ لِأَنَّهُ قَدْ كَمُلَ اشْتِعَالُهُ، وَذَلِكَ أَشَدُّ إِحْرَاقًا.

النُّحَاسُ: يُطْلَقُ عَلَى الدُّخَانِ الَّذِي لَا لَهَبَ مَعَهُ. وَبِهِ فَسَّرَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَتَبِعَهُمَا الْخَلِيلُ.

<u>وَيُطْلَقُ النُّحَاسُ عَلَى الصُّفْرِ</u> وَهُوَ الْقِطْرُ. وَبِهِ فَسَّرَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ، وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا. فَالْمَعْنَى: أَنَّهُ يُصَبُّ عَلَيْهِمُ الصُّفْرُ الْمُذَابُ.

{ **فَلا تَنْتَصِرانِ** } فَلَا تَجِدَانِ مَخْلِصًا مِنْ ذَلِكَ وَلَا تَجِدَانِ نَاصِرًا. والنَّاصِرُ: هَنَا مُرَادٌ مِنْهُ حَقِيقَتُهُ وَمَجَازُهُ. أَيْ: لَا تَجِدَانِ مَنْ يَدْفَعُ عَنْكُمَا ذَلِكَ وَلَا مَلْجَأً تتّقيان بِهِ.

{ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** } [36].

تَكْرِيرٌ، وَالْقَوْلُ فِيهِ كَالْقَوْلِ فِي الَّذِي وَقَعَ قبله قَرِيبا.

{ **فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ** [37] **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** [38] **فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ** [39] **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** [40] }.

تَفْصِيلٌ لِلْخَبَرِ الْمُجْمَلِ فِي قَوْلِهِ تعالى { سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ } [31] إِلَى آخِرِهِ، بِتَعْيِينِ وَقْتِهِ وَشَيْءٍ مِنْ أَهْوَالِ مَا يَقَعُ فِيهِ لِلْمُجْرِمِينَ، وَبَشَائِرِ مَا يُعْطَاهُ الْمُتَّقُونَ مِنَ النَّعِيمِ وَالْحُبُورِ.

{ **فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ** } انْشِقَاقُ السَّمَاءِ مِنْ أَحْوَالِ الْحَشْرِ، أَيْ: فَإِذَا قَامَتِ الْقِيَامَةُ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ. كَمَا قَالَ تَعَالَى { فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ وَانْشَقَّتِ السَّماءُ } [الحاقة:16/15]، وَهَذَا هُوَ الِانْشِقَاقُ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ تعالى { وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلًا الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمنِ } [الْفُرْقَانِ:26/25].

{ **وَرْدَةً كَالدِّهانِ** } تَشْبِيهٌ بَلِيغٌ، أَيْ: كَانَتْ كَوَرْدَةٍ.

الْوَرْدَةُ: وَاحِدَةُ الْوَرْدِ، وَهُوَ زَهْرٌ أَحْمَرُ مِنْ شَجَرَةٍ دَقِيقَةٍ ذَاتِ أَغْصَانٍ شَائِكَةٍ.

وَوَجْهُ الشَّبَهِ، قِيلَ: هُوَ شِدَّةُ الْحُمْرَةِ، أَيْ يَتَغَيَّرُ لَوْنُ السَّمَاءِ الْمَعْرُوفُ فَيَصِيرُ لَوْنُهَا أَحْمَر، قَالَ تَعَالَى { يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ } [إِبْرَاهِيم:48].

وَيَجُوزُ عِنْدِي: أَنْ يَكُونَ وَجْهُ الشَّبَهِ كَثْرَةَ الشُّقُوقِ كَأَوْرَاقِ الْوَرْدَةِ.

الدِّهَانُ: دُرْدِيُّ الزَّيْتِ. وَهَذَا تَشْبِيهٌ ثَانٍ لِلسَّمَاءِ فِي التَّمَوُّجِ وَالِاضْطِرَابِ.

{ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** } مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ جُمْلَةِ الشَّرْطِ وَجُمْلَةِ الْجَوَابِ. تَكْرِيرٌ لِلتَّقْرِيرِ وَالتَّوْبِيخِ كَمَا هُوَ بيّن.

{ **فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ** } جَوَابُ شَرْطِ (إِذَا). وَاقْتَرَنَ بِالْفَاءِ لِأَنَّهَا صَدَرَتْ بِاسْمِ زَمَانٍ وَهُوَ (يَوْمَئِذٍ) وَذَلِكَ لَا يَصْلُحُ لِدُخُولِ (إِذَا) عَلَيْهِ.

وَالمعنى: نَفْيُ السُّؤَالِ الَّذِي يُرِيدُ بِهِ السَّائِلُ مَعْرِفَةَ حُصُولِ الْأَمْرِ الْمُتَرَدِّدِ فِيهِ، وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى { وَلا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ } [الْقَصَص:78]. وَلَيْسَ هُوَ الَّذِي فِي قَوْله تَعَالَى { فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ } [الْحجر:93/92]، وَقَوْلِهِ تعالى { وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ } [الصافات:24]، فَإِنَّ ذَلِكَ لِلتَّقْرِيرِ وَالتَّوْبِيخِ، فَإِنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُتَّسِعُ الزَّمَانِ، فَفِيهِ مَوَاطِنٌ لَا يُسْأَلُ أَهْلُ الذُّنُوبِ عَنْ ذُنُوبِهِمْ، وَفِيهِ مُوَاطِنٌ يُسْأَلُونَ فِيهَا سُؤَالَ تَقْرِيرٍ وَتَوْبِيخٍ.

{ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** } تَكْرِيرٌ للتقرير والتوبيخ.

{ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَالْأَقْدامِ } [41].

هَذَا اسْتِئْنَاف بياني ناشئ عَنْ قَوْلِهِ تعالى { فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ } [39]، أَيْ: يُسْتَغْنَى عَنْ سُؤَالِهِمْ بِظُهُورِ عَلَامَاتِهِمْ لِلْمَلَائِكَةِ وَيَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُونَ أَخْذَ عِقَابٍ وَيُسَاقُونَ إِلَى الْجَزَاءِ.

السِّيمَا: الْعَلَامَةُ. وَتَقَدَّمَتْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { تَعْرِفُهُمْ بِسِيماهُمْ } [الْبَقَرَةِ:273].

{ **فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَالْأَقْدامِ** } وَ(الْ) هنا عِوَضٌ عَنِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ، أَيْ: بِنَوَاصِيهِمْ وَأَقْدَامِهِمْ وَهُوَ اسْتِعْمَالٌ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ. وَالْأَخْذُ أَخذ تمكُّن لَا يُفْلَتُ مِنْهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى { لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ } [العلق:15].

النَّوَاصِي: جَمْعُ نَاصِيَةٍ وَهِي الشّعْر الَّذِي فِي مُقَدَّمِ الرَّأْسِ، وَتَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها } [هُودٍ:56].

الْأَقْدَامُ: جَمْعُ قَدَمٍ، وَهُوَ ظَاهِرُ السَّاقِ، إشارة إلى موضِعُ الْقَيْدِ.

{ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** } [42].

تَكْرِيرٌ كَمَا تَقَدَّمَ فِي نَظِيرِهَا الَّذِي قبلهَا.

{ **هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ** [43] **يَطُوفُونَ بَيْنَها وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ** [44] }.

هَذَا مِمَّا يُقَالُ يَوْمَ الْقِيَامَة على رُؤُوس الْمَلَأِ.

{ **الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ** } وَصْفُ جَهَنَّمَ بِذَلِكَ تَسْفِيهٌ لِلْمُجْرِمِينَ وَفَضْحٌ لَهُمْ.

{ **يَطُوفُونَ** } حَالٌ مِنَ { الْمُجْرِمُونَ }، أَيْ: قَدْ تَبَيَّنَ سَفَهُ تَكْذِيبِهِمْ بِجَهَنَّمَ اتِّضَاحًا بَيِّنًا بِظُهُورِهَا لِلنَّاسِ وَبِأَنَّهُمْ يَتَرَدَّدُونَ خِلَالَهَا.

الطَّوَافُ: تَرْدَادُ الْمَشْيِ وَالْإِكْثَارُ مِنْهُ، يُقَالُ: طَافَ بِهِ، وَطَافَ عَلَيْهِ، وَمِنْهُ الطَّوَافُ بِالْكَعْبَةِ، وَالطَّوَافُ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، قَالَ تَعَالَى { فَلا جُناحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما } [الْبَقَرَةِ:158].

الْحَمِيمُ: الْمَاءُ الْمَغْلِيّ شدِيدُ الْحَرَارَةِ.

وَالْمَعْنَى: يَمْشُونَ بَيْنَ مَكَانِ النَّارِ وَبَيْنَ الْحَمِيمِ، فَإِذَا أَصَابَهُمْ حَرُّ النَّارِ طَلَبُوا التَّبَرُّدَ فَلَاحَ لَهُمُ الْمَاء فَذَهَبُوا إِلَيْهِ فَأَصَابَهُمْ حَرُّهُ فَانْصَرَفُوا إِلَى النَّارِ دَوَالَيْكَ وَهَذَا كَقَوْلِهِ { وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ } [الْكَهْف:29].

آنٍ: اسْمُ فَاعِلٍ مِنْ أَنَى، إِذَا اشتدّت حرارته.

{ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** } [45].

مِثْلُ مَوْقِعِ الَّذِي قَبْلَهُ فِي التكرير.

{ **وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ** [46] **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** [47] **ذَواتا أَفْنانٍ** [48] **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** [49] **فِيهِما عَيْنانِ تَجْرِيانِ** [50] **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** [51] **فِيهِما مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ زَوْجانِ** [52] **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** [53] }.

عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةِ { يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ } [41] إِلَى آخِرِهَا، وَهُوَ أَظْهَرُ، لِأَنَّ قَوْلَهُ { يَطُوفُونَ بَيْنَها وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ } يُفِيدُ مَعْنَى أَنَّهُمْ فِيهَا. وهذا انْتِقَالٌ مِنْ وَصْفِ جَزَاءِ الْمُجْرِمِينَ إِلَى ثَوَابِ الْمُتَّقِينَ.

{ **لِمَنْ خافَ** } لَامُ الْمِلْكِ، أَيْ: يُعْطَى مَنْ خَافَ رَبَّهُ وَيُمَلَّكُ جَنَّتَيْنِ، وَلَا شُبْهَةَ فِي أَنَّ مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جِنْسَ الْخَائِفِينَ لَا خَائِفٌ مُعَيَّنٌ، فَهُوَ مِنْ صِيَغِ الْعُمُومِ الْبَدَلِيِّ، بِمَنْزِلَةِ قَوْلِكَ: وَلِلْخَائِفِ مَقَامَ رَبِّهِ.

{ **جَنَّتانِ** } ذُكِرَتِ الْجَنَّاتُ فِي الْقُرْآنِ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ غَيْرُ مَرَّةٍ وَسَيَجِيءُ بَعْدَ هَذَا قَوْلُهُ تعالى { وَمِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ } [62]. فَالْمُرَادُ جِنْسَانِ مِنَ الْجَنَّاتِ.

وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ التَّثْنِيَةُ مُسْتَعْمَلَةً كِنَايَةً عَنِ التَّعَدُّدِ، وَهُوَ اسْتِعْمَالٌ مَوْجُودٌ فِي الْكَلَامِ الْفَصِيحِ وَفِي الْقُرْآنِ، قَالَ تَعَالَى { ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ } [الْملك:4].

وَإِيثَارُ صِيغَةِ التَّثْنِيَةِ هُنَا لِمُرَاعَاةِ الْفَوَاصِلِ السَّابِقَةِ وَاللَّاحِقَةِ، فَقَدْ بُنِيَتْ قَرَائِنُ السُّورَةِ عَلَيْهَا وَالْقَرِينَةُ ظَاهِرَةٌ، وَإِلَيْهِ يَمِيلُ كَلَامُ الْفَرَّاءِ، وَعَلَى هَذَا فَجَمِيعُ مَا أُجْرِيَ بِصِيغَةِ التَّثْنِيَةِ فِي شَأْنِ الْجَنَّتَيْنِ فَمُرَادٌ بِهِ الْجَمْعُ.

وَقِيلَ: أُرِيدُ جَنَّتَانِ تَحُفَّانِ بِقصور الْجَنَّةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى { لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ فِي مساكنهم آيَةٌ جَنَّتانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمالٍ } [سبأ:15]. فَهُمَا جَنَّتَانِ بِاعْتِبَارِ يُمْنَةِ الْقَصْرِ وَيُسْرَتِهِ وَالْقَصْرُ فَاصِلٌ بَيْنَهُمَا.

الْمَقَامُ: أَصْلُهُ مَحَلُّ الْقِيَامِ، وَمَصْدَرٌ مِيمِيٌّ لِلْقِيَامِ، وَعَلَى الْوَجْهَيْنِ يُسْتَعْمَلُ مَجَازًا فِي الْحَالَةِ وَالتَّلَبُّسِ، كَقَوْلِكَ لِمَنْ تَسْتَجِيرُهُ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ، وَيُطْلَقُ عَلَى الشَّأْنِ وَالْعَظْمَةِ. إِنْ كَانَتْ عَلَى اعْتِبَارِ الْمَقَامِ لِلْخَائِفِ، فَهُوَ بِمَعْنَى الْحَالِ، وَإِضَافَتُهُ إِلَى رَبِّهِ تُشْبِهُ إِضَافَةَ الْمَصْدَرِ إِلَى الْمَفْعُولِ، أَيْ: بَيْنَ يَدَيْهِ.

وَإِنْ كَانَتْ عَلَى اعْتِبَارِ الْمَقَامِ لِلَّهِ تَعَالَى، فَهُوَ بِمَعْنَى الشَّأْنِ وَالْعَظْمَةِ. وَإِضَافَتُهُ كَالْإِضَافَةِ إِلَى الْفَاعِلِ.

{ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** } مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ الْمَوْصُوفِ وَالصِّفَةِ وَهِيَ تَكْرِيرٌ لِنَظَائِرِهَا.

ذَوَاتَا: تَثْنِيَةُ ذَاتٍ، وَ(الْوَاوُ) أَصْلِيَّةٌ لِأَنَّ أَصْلَ ذَاتٍ: ذَوَةٌ، وَالْأَلِفُ الَّتِي بَعْدَ (الْوَاوِ) إِشْبَاعٌ لِلْفَتْحَةِ لَازِمٌ لِلْكَلِمَةِ. وَقِيلَ: الْأَلْفُ أَصْلِيَّةٌ وَأَنَّ أَصْلَ (ذَاتٍ) : ذَوَاتٌ، فَخُفِّفَتْ فِي الْإِفْرَادِ وَرَدَّتْهَا التَّثْنِيَةُ إِلَى أَصْلِهَا، وَتَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { وَبَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَواتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ } [سَبَأٍ:16].

الْأَفْنَانُ: جَمْعُ **فَنَنٍ** (بِفَتْحَتَيْنِ)، وَهُوَ الْغُصْنُ. وَالْمَقْصُودُ هُنَا: أَفْنَانٌ عَظِيمَةٌ كَثِيرَةُ الْإِيرَاقِ وَالْإِثْمَارِ بِقَرِينَةِ أَنَّ الْأَفْنَانَ لَا تَخْلُو عَنْهَا الْجَنَّاتُ فَلَا يُحْتَاجُ إِلَى ذِكْرِ الْأَفْنَانِ لَوْلَا قَصْدُ مَا فِي التَّنْكِيرِ مِنَ التَّعْظِيمِ.

{ **فِيهِما عَيْنانِ تَجْرِيانِ** } تَثْنِيَةُ { عَيْنانِ } جَارٍ عَلَى نَحْوِ مَا تَقَدَّمَ فِي تَثْنِيَةِ { جَنَّتانِ }.

وَفُصِلَ بَيْنَ الْأَفْنَانِ وَبَيْنَ ذِكْرِ الْفَاكِهَةِ بِذِكْرِ الْعَيْنَيْنِ مَعَ أَنَّ الْفَاكِهَةَ بِالْأَفْنَانِ أَنْسَبُ، لِأَنَّهُ لَمَّا جَرَى ذِكْرُ الْأَفْنَانِ، وَهِيَ مِنْ جَمَالِ مَنْظَرِ الْجَنَّةِ أُعْقِبَ بِمَا هُوَ مِنْ مَحَاسِنِ الْجَنَّاتِ وَهُوَ عُيُونُ الْمَاءِ جَمْعًا لِلنَّظِيرِينَ، ثُمَّ أُعْقِبَ ذَلِكَ بِمَا هُوَ مِنْ جَمَالِ الْمَنْظَرِ، أَعْنِي: الْفَوَاكِهَ فِي أَفْنَانِهَا وَهي مِنْ مَلَذَّاتِ الذَّوْقِ.

{ **مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ زَوْجانِ** } وَأَنْوَاعُ فَوَاكِهِ الْجَنَّةِ كَثِيرَةٌ وَلَيْسَ لِكُلِّ فَاكِهَةٍ نَوْعَانِ، فَإِمَّا أَنْ نَجْعَلَ التَّثْنِيَةَ بِمَعْنَى الْجَمْعِ وَنَجْعَلَ إِيثَارَ صِيغَةِ التَّثْنِيَةِ لِمُرَاعَاةِ الْفَاصِلَةِ وَلِأَجْلِ الْمُزَاوَجَةِ مَعَ نَظَائِرِهَا مِنْ قَوْلِهِ تعالى { وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ } إِلَى هُنَا. وَإِمَّا أَنْ نَجْعَلَ تَثْنِيَةَ زَوْجانِ لِكَوْنِ الْفَوَاكِهِ بَعْضُهَا يُؤْكَلُ رَطْبًا وَبَعْضُهَا يُؤْكَلُ يَابِسًا مِثْلَ الرُّطَبِ وَالتَّمْرِ وَالْعِنَبِ وَالزَّبِيبِ.

{ **مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ** } بَيَانٌ لـ { زَوْجانِ } مُقَدَّمٌ عَلَى الْمُبَيَّنِ لِرَعْيِ الْفَاصِلَةِ.

وَتَخَلُّلُ هَذِهِ الْآيَاتُ الثَّلَاثُ بِآيَاتِ { **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** } جَارٍ عَلَى وَجْهِ الْاِعْتِرَاضِ وَعَلَى أَنَّهُ مُجَرَّدُ

تَكْرِيرٍ كَمَا تقدّم أولاها.

{ مُتَّكِئِينَ عَلى فُرُشٍ بَطائِنُها مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دانٍ } [54].

حَالٌ مِنْ { لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ } [46]، وَجِيءَ بِالْحَالِ صِيغَةَ جمع بِاعْتِبَار معنى صَاحِبِ الْحَالِ وَصَلَاحِيَةِ لَفْظِهِ لِلْوَاحِدِ وَالْمُتَعَدِّدِ. وَالْمَعْنَى: أُعْطُوا الْجِنَانَ وَاسْتَقَرُّوا بِهَا وَاتَّكَأُوا عَلَى فُرُشٍ.

الِاتِّكَاءُ: افْتِعَالٌ مِنَ الْوَكْءِ (مَهْمُوزُ اللَّامِ) وَهُوَ الِاعْتِمَادُ، فَصَارَ الِاتِّكَاءُ اسْمًا لِاعْتِمَادِ الْجَالِسِ وَمِرْفَقِهِ إِلَى الْأَرْضِ وَجَنْبِهِ إِلَى الْأَرْضِ، وَهِيَ هَيْئَةٌ بَيْنَ الِاضْطِجَاعِ عَلَى الْجَنْبِ وَالْقُعُودِ، وَالِاتِّكَاءُ جِلْسَةُ أَهْلِ التَّرَفِ الْمَخْدُومِينَ. وَتَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تعالى { وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً } [يُوسُفَ:31].

فُرُشٌ: جَمْعُ فِرَاشٍ كَكِتَابٍ وَكُتُبٍ. وَالْفِرَاشُ أَصْلُهُ مَا يُفْرَشُ، أَيْ: يُبْسَطُ عَلَى الْأَرْضِ لِلنَّوْمِ وَالِاضْطِجَاعِ. ثُمَّ أَطْلَقَ الْفِرَاشُ عَلَى السَّرِيرِ الْمُرْتَفِعِ عَلَى الْأَرْضِ بِسُوقٍ لِأَنَّهُ يُوضَعُ عَلَيْهِ مَا شَأْنُهُ أَنْ يُفْرَشَ عَلَى الْأَرْضِ، كما في قَوْلِهِ تعالى { عَلى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ مُتَّكِئِينَ عَلَيْها مُتَقابِلِينَ } [الْوَاقِعَةِ:16/15].

الْبَطَائِنُ: جَمْعُ بِطَانَةٍ (بِكَسْرِ الْبَاءِ) وَهِيَ مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْبَطْنِ ضِدِّ الظَّهْرِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ هُنَا مَجَازٌ عَنِ الْأَسْفَلِ. يُقَالُ لِلْجِهَةِ السُّفْلَى: بَطْنٌ، وَلِلْجِهَةِ الْعُلْيَا ظَهْرٌ، فَيُقَالُ: بَطَّنْتُ ثَوْبِي بِآخَرَ إِذَا جَعَلَ تَحْتَ ثَوْبِهِ آخَرَ، فَبِطَانَةُ الثَّوْبِ دَاخِلُهُ وَمَا لَا يَبْدُو مِنْهُ، وَضِدُّ الْبِطَانَةِ الظِّهَارَةُ (بِكَسْرِ الظَّاءِ)، وَمِنْ كَلَامِهِمْ: أَفْرَشَنِي ظَهْرَ أَمْرِهِ وَبَطْنَهُ، أَي: عَلَانِيَّتَهُ وَسِرَّهُ.

فَالْبِطَانَةُ هِيَ الثَّوْبُ الَّذِي يُجْعَلُ عَلَى الْفِرَاشِ، وَالظِّهَارَةُ الثَّوْبُ الَّذِي يُجْعَلُ فَوْقَ الْبِطَانَةِ لِيَظْهَرَ، فَتَكُونُ الظِّهَارَةُ أَحْسَنُ مِنَ الْبِطَانَةِ فِي الْفِرَاشِ الْوَاحِدِ.

الْإِسْتَبْرَقُ: صِنْفٌ رَفِيعٌ مِنَ الدِّيبَاجِ الْغَلِيظِ. وَالدِّيبَاجُ: نَسِيجٌ غَلِيظٌ مِنْ حَرِيرٍ.

قَالَ الْفَخْرُ: هُوَ مُعَرَّبٌ عَنِ الْفَارِسِيَّةِ عَنْ كَلِمَةِ (استبرك) بِكَافٍ فِي آخِرِهِ عَلَامَةَ تَصْغِير (ستبر) بِمَعْنَى ثَخِينٍ، فَأَبْدَلُوا الْكَافَ قَافًا خَشْيَةَ اشْتِبَاهِ الْكَافِ بِكَافِ الْخِطَابِ. وَتَقَدَّمَ فِي [الْكَهْفِ:31].

{ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دانٍ } مَا يُقْطَفُ مِنَ الثَّمَرِ. وَالْمَعْنَى: أَنَّ ثَمَرَ الْجَنَّةِ دَانٍ مِنْهُمْ وَهُمْ عَلَى فُرُشِهِمْ.

{ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ } [55].

هُوَ مثل نَظَائِره.

{ فِيهِنَّ قاصِراتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ [56] **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** [57] **كَأَنَّهُنَّ الْياقُوتُ وَالْمَرْجانُ** [58] }.

{ فِيهِنَّ } الضَمِيرُ عَائِدٌ إِلَى { فُرُشٍ }.

{ **قاصِراتُ الطَّرْفِ** } صِفَةٌ لِمَوْصُوفٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: نِسَاءٌ، وَشَاعَ الْمَدْحُ بِهَذَا الْوَصْفِ فِي الْكَلَامِ حَتَّى نَزَلَ مَنْزِلَةَ الِاسْمِ. أي: نِسَاءٌ فِي نَظَرِهِنَّ مِثْلُ الْقُصُورِ، وَالْغَضُّ خِلْقَةٌ فِيهِنَّ.

الْقُصُورُ: مِثْلُ الْغَضِّ، مِنْ صِفَاتِ عُيُونِ الْمَهَا وَالظِّبَاءِ.

الطَّمْثُ: (بِفَتْحِ الطَّاءِ وَسُكُونِ الْمِيمِ) مَسِيسُ الْأُنْثَى الْبِكْرِ، أَيْ: مِنْ أَبْكَارٍ. وَعُبِّرَ عَنِ الْبَكَارَةِ بِـذلك إِطْنَابًا فِي التَّحْسِينِ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى { فَجَعَلْناهُنَّ أَبْكاراً } [الْوَاقِعَة:36].

وَهَؤُلَاءِ هُنَّ نِسَاءُ الْجَنَّةِ لَا أَزْوَاجَ الْمُؤْمِنِينَ اللَّائِي كُنْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا.

{ **إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ** } أَيْ: لَمْ يطمثهنّ أحد قبل، وَ{ وَلا جَانٌّ } تَتْمِيمٌ وَاحْتِرَاسٌ، وَهُوَ إِطْنَابٌ دَعَا إِلَيْهِ أَنَّ الْجَنَّةَ دَار ثَوَاب لصالحي الْإِنْسِ وَالْجِنِّ.

{ **كَأَنَّهُنَّ الْياقُوتُ وَالْمَرْجانُ** } نَعْتٌ أَوْ حَالٌ مِنْ قاصِراتُ الطَّرْفِ. وَوَجْهُ الشَّبَهِ بِالْيَاقُوتِ وَالْمَرْجَانِ فِي لَوْنِ الْحُمْرَةِ الْمَحْمُودَةِ، أَيْ: حُمْرَةِ الْخُدُودِ، كَمَا يُشَبَّهُ الْخَدُّ بِالْوُرُدِ، وَيُطْلَقُ الْأَحْمَرُ عَلَى الْأَبْيَضِ فَمِنْهُ قوله صلى الله عليه وسلم: " **بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ** ".

{ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** } [59].

هُوَ مثل نَظَائِره.

{ **هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلاَّ الْإِحْسانُ** } [60].

تَذْيِيلٌ لِلْجُمَلِ الْمَبْدُوءَةِ بِقَوْلِهِ تعالى { وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ } [46]، أَيْ: لِأَنَّهُمْ أَحْسَنُوا فَجَازَاهُمْ رَبُّهُمْ بِالْإِحْسَانِ. وَالِاسْتِفْهَامُ مُسْتَعْمَلٌ فِي النَّفْيِ، وَلِذَلِكَ عُقِّبَ بِالِاسْتِثْنَاءِ فَأَفَادَ حَصْرَ مُجَازَاةِ الْإِحْسَانِ فِي أَنَّهَا إِحْسَانٌ، وَهَذَا الْحَصْرُ إِخْبَارٌ عَنْ كَوْنِهِ الْجَزَاءَ الْحَقَّ وَمُقْتَضَى الْحِكْمَةِ وَالْعَدْلِ.

وَعُلِمَ مِنْهُ أَنَّ جَزَاءَ الْإِسَاءَةِ السُّوءُ، قَالَ تَعَالَى { جَزاءً وِفاقاً } [النبأ:26].

{ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** } [61].

الْقَوْلُ فِيهِ مِثْلُ الْقَوْلِ فِي نَظَائِره.

{ **وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ** [62] **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** [63] **مُدْهَامَّتَانِ** [64] **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبَانِ** [65] **فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ** [66] **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** [67] **فِيهِما فاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ** [68] **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** [69] }.

عَطْفٌ عَلَى قَوْله تعالى { جَنَّتانِ } [46]، أَيْ: وَمِنْ دُونِ تِينِكَ الْجَنَّتَيْنِ جَنَّتَانِ، أَيْ: لِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ.

{ **وَمِنْ دُونِهِمَا** } يُحْتَمَلُ أَنَّ (دُونَ) بِمَعْنَى (غَيْرَ)، أَيْ: وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ وَجَنَّتَانِ أُخْرَيَانِ غَيْرُهُمَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى { لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَزِيادَةٌ } [يُونُس:26].

وَوُصِفَ مَا فِي هَاتَيْنِ الْجَنَّتَيْنِ بِمَا يُقَارِبُ مَا وُصِفَ بِهِ مَا فِي الْجَنَّتَيْنِ الْأَوَّلين وَصْفًا سَلَكَ فِيهِ مَسْلَكَ الْإِطْنَابِ أَيْضًا لِبَيَانِ حُسْنِهِمَا تَرْغِيبًا فِي السَّعْيِ لِنَيْلِهِمَا بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى، فَذَلِكَ مُوجِبُ تَكْرِيرِ بَعْضِ الْأَوْصَافِ أَو مَا يقرب مِنَ التَّكْرِيرِ بِالْمُتَرَادِفَاتِ. وَيَكُونُ لِكُلِّ الْجَنَّاتِ الْأَرْبَعِ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ لَا يَنْتَقِلْنَ مِنْ قُصُورِهِنَّ.

وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ (دُونَ) بِمَعْنَى (أَقَلّ)، أَيْ: لِنُزُولِ الْمَرْتَبَةِ، أَيْ: وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ أقلّ من الْأَوَّلين فَيَقْتَضِي ذَلِك أَن هَاتَيْنِ الْجَنَّتَيْنِ لِطَائِفَةٍ أُخْرَى مِمَّنْ خَافُوا مَقَامَ رَبِّهِمْ هُمْ أَقَلُّ مِنَ الْأَوَّلِينَ فِي دَرَجَةِ مَخَافَةِ اللَّهِ تَعَالَى. وَلَعَلَّ هَاتَيْنِ الْجَنَّتَيْنِ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ الَّذِينَ وَرَدَ ذِكْرُهُمْ فِي [الْوَاقِعَةِ:27]، والجنتين المذكورتين قبلهمَا فِي قَوْلِهِ تعالى { وَلِمَنْ خاف مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ - إلى قوله - كَأَنَّهُنَّ الْياقُوتُ وَالْمَرْجانُ } [46-58]، جَنَّتَا السَّابِقَيْنِ الْوَارِدِ ذِكْرَهُمْ في قوله تعالى { وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ } [الْوَاقِعَةِ:10].

{ **مُدْهامَّتانِ** } وَصْفٌ مُشْتَقٌّ مِنَ **الدُّهْمَةِ** (بِضَمِّ الدَّالِ) وَهِيَ لَوْنُ السَّوَادِ. وَوَصَفَ الْجَنَّتَيْنِ بِالسَّوَادِ مُبَالَغَةً فِي شِدَّةِ خُضْرَةِ أَشْجَارِهِمَا حَتَّى تَكُونَا بِالْتِفَافِ أَشْجَارِهَا وَقُوَّةِ خُضْرَتِهَا كَالسَّوْدَاوَيْنِ، لِأَنَّ الشَّجَرَ إذا كَانَ رِيّان اشْتَدَّتْ خُضْرَةُ أَوْرَاقِهِ حَتَّى تَقْرُبَ مِنَ السَّوَادِ.

نَضَّاخَتانِ: فَوَّارَتَانِ بِالْمَاءِ، وَالنَّضْخُ (بِخَاءٍ مُعْجَمَةٍ فِي آخِرِهِ) أَقْوَى مِنَ النَّضْحِ (بِالْحَاءِ الْمُهْمَلَةِ) الَّذِي هُوَ الرَّشُّ. وَقَدْ وُصِفَ الْعَيْنَانِ هُنَا بِغَيْرِ مَا وُصِفَ بِهِ الْعَيْنَانِ فِي الجنتين الْمَذْكُورَتَيْنِ؛

فَقِيلَ: هُمَا صِنْفَانِ مُخْتَلِفَانِ فِي أَوْصَافِ الْحُسْنِ يُشِيرُ اخْتِلَافُهُمَا إِلَى أَنَّ هَاتَيْنِ الْجَنَّتَيْنِ دُونَ الْأَوَّلَيْنِ فِي الْمَحَاسِنِ، وَلِذَلِكَ جَاءَ هُنَا { فِيهِما فاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ }، وَجَاء سابقا قوله تعالى { فِيهِما مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ زَوْجانِ } [52].

وَقِيلَ: الْوَصْفَانِ سَوَاءٌ، وَعَلَيْهِ فَالْمُخَالَفَةُ تَفَنُّنٌ.

{ **فِيهِما فاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ** } عَطْفٌ عَلَى { فاكِهَةٌ } مِنْ بَابِ عَطْفِ الْجُزْئِيِّ عَلَى الْكُلِّيِّ تَنْوِيهًا بِبَعْضِ أَفْرَادِ الْجَنَّتَيْنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى { وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكالَ } [الْبَقَرَةِ:98].

وَجَاءَتْ جُمَلُ { **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** } مُعْتَرِضَاتٌ بَيْنَ { جَنَّتانِ } وَصِفَاتِهَا اعْتِرَاضًا لِلْازْدِيَادِ مِنْ تَكْرِيرِ التَّقْرِيرِ وَالتَّوْبِيخِ لِمَنْ حُرِمُوا مِنْ تِلْكَ الجنات.

{ فِيهِنَّ خَيْراتٌ حِسانٌ [70] فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ [71] حُورٌ مَقْصُوراتٌ فِي الْخِيامِ [72] فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ [73] لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ [74] }.

{ **فِيهِنَّ** } الضَمِيرُ عَائِدٌ إِلَى الْجَنَّاتِ الْأَرْبَعِ؛ الْجَنَّتَيْنِ الْأُوْلَيَيْنِ وَالْجَنَّتَيْنِ اللَّتَيْنِ مِنْ دُونِهِمَا.

فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لصاحب الجنتين الْأَوَّلين جَنَّتَانِ أُخْرَيَانِ فَصَارَتْ لَهُ أَرْبَعُ جَنَّاتٍ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ تَوْزِيعًا عَلَى مَنْ خَافُوا رَبَّهُمْ كَمَا تَقَدَّمَ.

خَيْراتٌ: صِفَةٌ لِمَحْذُوفٍ يُنَاسِبُ صِيغَةَ الْوَصْفِ، أَيْ: نِسَاءٌ خَيْرَاتٌ، وَخَيْرَاتٌ مُخَفَّفٌ مِنْ خَيِّرَاتٍ (بِتَشْدِيدِ الْيَاءِ) مُؤَنَّثُ خَيِّرٍ، وَهُوَ الْمُخْتَصُّ بِأَنَّ صِفَتَهُ الْخَيْرُ ضِدُّ الشَّرِّ. وَخُفِّفَ فِي الْآيَةِ طَلَبًا لِخِفَّةِ اللَّفْظِ مَعَ السَّلَامَةِ من اللَّبْسِ بِمَا أُتْبِعَ بِهِ من وَصْفِ { **حِسانٌ** } الَّذِي هُوَ جَمْعُ حَسْنَاءَ.

حُورٌ: بَدَلٌ مِنْ { خَيْراتٌ }. والحور: جَمْعُ حَوْرَاءَ وَهِيَ ذَاتُ الْحَوَرِ (بِفَتْحِ الْوَاوِ)، وَهُوَ وَصْفٌ مُرَكَّبٌ مِنْ مَجْمُوعِ شِدَّةِ بَيَاضِ أَبْيَضِ الْعَيْنِ وَشِدَّةِ سَوَادِ أَسْوَدِهَا وَهُوَ مِنْ مَحَاسِنِ النِّسَاءِ، وَتَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى { وَزَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ } [الدُّخَانِ:54].

الْمَقْصُورَات: اللائي قُصِرْن عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ، وَهُوَ مِنْ صِفَاتِ التَّرَفِ فِي نِسَاءِ الدُّنْيَا، فهنّ اللائي لَا يَحْتَجْنَ إِلَى مُغَادَرَةِ بِيُوتِهِنَّ لِخِدْمَةٍ، أَيْ: هُنَّ مَخْدُومَاتٌ مُكَرَّمَاتٌ.

الْخِيَامُ: جَمْعُ خَيْمَةٍ وَهِيَ الْبَيْتُ، وَأَكْثَرُ مَا تُقَالُ عَلَى الْبَيْتِ مَنْ أَدَمٍ أَوْ شَعْرٍ تُقَامُ عَلَى الْعَمَدِ، وَقَدْ تُطْلَقُ عَلَى بَيْتِ الْبِنَاءِ.

{ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** } اعتراض بَيْنَ الْبَدَلِ وَالْمُبْدَلِ مِنْهُ وَبَيْنَ الصِّفَتَيْنِ لِقَصْدِ التَّكْرِيرِ فِي كُلِّ مَكَانٍ يَقْتَضِيهِ.

{ **لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ** } تَقَدَّمَ الْقَوْلُ فِيها آنِفا [56].

{ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ } [75].

تَكْرِيرٌ فِي آخِرِ الْأَوْصَافِ لِزِيَادَةِ التَّقْرِير والتوبيخ.

{ مُتَّكِئِينَ عَلى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسانٍ } [76].

مُتَّكِئِينَ: حَالٌ مِنْ { وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ } [46]، كُرِّرَتْ بِدُونَ عَطْفٍ لِأَنَّهَا فِي مَقَامِ تَعْدَادِ النِّعَمِ وَهُوَ مَقَامٌ يَقْتَضِي التَّكْرِيرَ اسْتِئْنَافًا.

الرَّفْرَفُ: ضَرْبٌ مِنَ الْبُسُطِ، وَهُوَ اسْمٌ جَمْعُ رفرفة، وَهِي مَا يُبْسَطُ عَلَى الْفِرَاشِ لِيُنَامَ عَلَيْهِ، وَهِيَ تُنْسَجُ عَلَى شِبْهِ الرِّيَاضِ وَيَغْلُبُ عَلَيْهَا اللَّوْنُ الْأَخْضَرُ.

{ **خُضْرٍ** } وَصْفٌ كَاشِفٌ لِاسْتِحْضَارِ اللَّوْنِ الْأَخْضَرِ لِأَنَّهُ يَسُرُّ النَّاظِرَ. وَكَانَتِ الثِّيَابُ الْخُضْرُ عَزِيزَةٌ وَهِيَ لِبَاسُ الْمُلُوكِ وَالْكُبَرَاءِ.

حِسانٍ: جَمْعُ حَسْنَاءُ وَهُوَ صِفَةٌ لِـ { رَفْرَفٍ } إِذْ هُوَ اسْمُ جَمْعٍ.

{ **عَبْقَرِيٍّ** } وَصْفٌ لِمَا كَانَ فَائِقًا فِي صِنْفِهِ عَزِيزَ الْوُجُودِ، وَهُوَ نِسْبَةٌ إِلَى **عَبْقَرٍ** (بِفَتْحٍ فَسُكُونٍ فَفَتَحَ) اسْمَ بِلَادِ الْجِنِّ فِي مُعْتَقَدِ الْعَرَبِ فَنَسَبُوا إِلَيْهِ كُلَّ مَا تَجَاوَزَ الْعَادَةَ فِي الْإِتْقَانِ وَالْحُسْنِ، حَتَّى كَأَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْأَصْنَافِ الْمَعْرُوفَةِ فِي أَرْضِ الْبَشَرِ. ثُمَّ شَاعَ ذَلِكَ فَصَارَ الْعَبْقَرِيُّ وَصْفًا لِلْفَائِقِ فِي صِنْفِهِ، كَمَا قَالَ النبيّ

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا حَكَاهُ مِنْ رُؤْيَا الْقَلِيبِ الَّذِي اسْتَسْقَى مِنْهُ : " **ثُمَّ أَخَذَهَا** (أَي: الذَّنُوبِ) **عُمَرُ فَاسْتَحَالَتْ غَرْبًا فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا يَفْرِي فَرِيَّهُ** ".

{ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** } [77].

هَذِهِ الْجُمْلَةُ آخِرُ الْجُمَلِ الْمُكَرَّرَةِ وَبِهَا انْتَهَى الْكَلَامُ الْمَسُوقُ لِلِاسْتِدْلَالِ عَلَى تَفَرُّدِ اللهِ بالإنعام وَالتَّصَرُّف.

{ **تَبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ** } [78].

إِيذَانٌ بِانْتِهَاءِ الْكَلَامِ وَفَذْلَكَةً لِمَا بُنِيَتْ عَلَيْهِ السُّورَةُ مِنَ التَّذْكِيرِ بِعَظَمَةِ اللهِ تَعَالَى وَنَعْمَائِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

{ **تَبارَكَ** } إِنْشَاءُ ثَنَاءٍ عَلَى اللهِ تَعَالَى مُبَالَغٍ فِيهِ بِصِيغَةِ التَّفَعُّلِ الَّتِي إِذَا كَانَ فِعْلُهَا غَيْرَ صَادِرٍ مِنِ اثْنَيْنِ فَالْمَقْصُودُ مِنْهَا الْمُبَالَغَةُ. وَالْمَعْنَى: وَصَفُهُ تَعَالَى بِكَمَالِ الْبَرَكَةِ.

الْبَرَكَةُ: الْخَيْرُ الْعَظِيمُ وَالنَّفْعُ، وَقَدْ تُطْلَقُ الْبَرَكَةُ عَلَى عُلُوِّ الشَّأْنِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذَلِكَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْفُرْقَانِ.

الِاسْمُ: مَا دَلَّ عَلَى ذَاتٍ سَوَاءَ كَانَ عَلَمًا مِثْلَ لَفْظِ (اللهِ)، أَوْ كَانَ صِفَةً مِثْلَ الصِّفَاتِ الْعُلَى وَهِيَ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى، فَأَيُّ اسْمٍ قَدَّرْتَ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ فَهُوَ دَالٌّ عَلَى ذَاتِ اللهِ تَعَالَى.

وَأُسْنِدَ { تَبارَكَ } إِلَى { اسْمُ } وَهُوَ مَا يُعْرَفُ بِهِ الْمُسَمَّى دُونَ أَنْ يَقُولَ: تَبَارَكَ رَبُّكَ، كَمَا في قوله تعالى { تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ } [الْفُرْقَانَ:1]، وَفي قوله تعالى { فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ } [الْمُؤْمِنُونَ:14]، لقصد الْمُبَالغَة فِي وَصفه تَعَالَى بِصِفَةِ الْبَرَكَةِ عَلَى طَرِيقَةِ الْكِنَايَةِ لِأَنَّهَا أَبْلَغُ مِنَ التَّصْرِيحِ.

فَذِكْرُ { اسْمُ } مُرَاعًى فِيهِ أَنَّ مَا عُدّد من شؤون اللهِ تَعَالَى وَنِعَمِهِ لَا تُحِيطُ بِهِ الْعِبَارَةُ، فَعُبِّرَ عَنْهُ بِهَذِهِ الْمُبَالَغَةِ، إِذْ هِيَ أَقْصَى مَا تَسْمَحُ بِهِ اللُّغَةُ فِي التَّعْبِيرِ، لِيَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّهُمْ مَحْقُوقُونَ لِلَّهِ تَعَالَى بِشُكْرٍ يُوَازِي عِظَمَ نِعَمِهِ.

{ **رَبِّكَ** } فِي اسْتِحْضَارِ الْجَلَالَةِ بِعُنْوَانِ (رَبِّ) مُضَافًا إِلَى ضَمِيرِ الْمُخَاطب، وَهُوَ النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِشَارَةٌ إِلَى مَا فِي مَعْنَى (الرَّبِّ) مِنَ السِّيَادَةِ الْمَشُوبَةِ بِالرَّأْفَةِ وَالتَّنْمِيَةِ، وَإِلَى مَا فِي الْإِضَافَةِ مِنَ التَّنْوِيهِ بِشَأْنِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ، وَإِلَى كَوْنِ النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الْوَاسِطَةُ فِي حُصُولِ تِلْكَ الْخَيْرَاتِ لِلَّذِينِ خَافُوا مَقَامَ رَبِّهِمْ بِمَا بَلَّغَهُمْ مِنَ الْهُدَى.

{ **ذِي الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ** } في قِرَاءَةِ الْجُمْهُورُ مَجْرُورًا صِفَةً لِـ { رَبِّكَ } وَهُوَ كَذَلِكَ مَرْسُومٌ فِي غَيْرِ الْمُصْحَفِ الشَّامِيِّ. وَقَرَأَهُ ابْنُ عَامِرٍ { ذُو الْجَلالِ } صِفَةً لِـ { اسْمُ } كَمَا فِي قَوْلِهِ تعالى { وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ } [27]. وَكَذَلِكَ هُوَ مَرْسُومٌ فِي غَيْرِ مُصْحَفِ أَهْلِ الشَّامِ. وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ عَلَى الِاعْتِبَارَيْنِ.

وَلَكِنَّ إِجْمَاعَ الْقُرَّاءِ عَلَى رَفْعِ ذُو الْجَلالِ في { وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ } وَاخْتِلَافُ الرِّوَايَةِ فِي جَرّ ذِي الْجَلالِ هُنَا يُشْعِرُ بِأَنَّ لَفْظَ (وَجْهُ) أَقْوَى دَلَالَةٍ عَلَى الذَّاتِ مَنْ لَفْظِ اسْمُ.

الْجَلَالُ: الْعَظَمَةُ، وَهُوَ جَامِعٌ لِصِفَاتِ الْكَمَالِ اللَّائِقَةِ بِهِ تَعَالَى.

الْإِكْرَامُ: إِسْدَاءُ النِّعْمَةِ وَالْخَيْرِ، فَهُوَ إِذْنٌ حَقِيقٌ بِالثَّنَاءِ وَالشُّكْرِ.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الواقعة

سُمِّيت هذه السورة (**سورة الواقعة**) بتسمية النبيّ صلى الله عليه وسلم. روى الترمذي عن ابن عباس قال : قال أبو بكر: يا رسول الله قد شِبْتَ، قال : **شيَّبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كوِّرت "،** [قال الترمذي: حديث حسن غريب].

وكذلك سّمِّيت في عصر الصحابة. روى أحمد عن جابر بن سمرة قال : " كان رسول الله يقرأ في الفجر الواقعة ونحوها من السور ". وهكذا سُمِّيت في المصاحف وكتب السنّة، فلا يُعرف لها اسم غير هذا.

وهي مكية، قال أبن عطية : باجتماع من يُعتدُّ به من المفسِّرين.

وَهِيَ السُّورَةُ **السَّادِسَةُ وَالْأَرْبَعُونَ** فِي تَرْتِيبِ نُزُولِ السُّوَرِ عِنْدَ جَابِرِ بْنِ زَيْدٍ، نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ طه وَقَبْلَ سُورَةِ الشُّعَرَاءِ.

وَقَدْ عَدَّ أَهْلُ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ وَالشَّامِ **آيها تِسْعًا وَتِسْعِينَ**، وَعَدَّهَا أَهَّلُ الْبَصْرَةِ سَبْعًا وَتِسْعِينَ وَأَهْلُ الْكُوفَةِ سِتًّا وَتِسْعِينَ.

وَهَذِهِ السُّورَةُ جَامِعَةٌ لِلتَّذْكِيرِ، قَالَ مَسْرُوق: " مَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْلَمَ نَبَأَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ وَنَبَأَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَنَبَأَ أَهْلِ النَّارِ وَنَبَأَ أَهْلِ الدُّنْيَا وَنَبَأَ أَهْلِ الْآخِرَةِ فَلْيَقْرَأْ سُورَةَ الْوَاقِعَةِ ".

أغراض السُّورَة

*/ التَّذْكِيرُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَتَحْقِيقُ وُقُوعِهِ.

*/ وَصْفُ مَا يُعْرَضُ لِهَذَا الْعَالَمِ الْأَرْضِيِّ عِنْدَ سَاعَةِ الْقِيَامَةِ.

*/ صِفَةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَبَعْضُ نَعِيمِهِم، وصِفَةُ أَهْلِ النَّارِ وَمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَأَنَّ ذَلِكَ لِتَكْذِيبِهِمْ بِالْبَعْثِ.

*/ إِثْبَاتُ الْحَشْرِ وَالْجَزَاءِ وَالِاسْتِدْلَالِ عَلَى إِمْكَانِ الْخَلْقِ الثَّانِي بِمَا أَبْدَعَهُ اللَّهُ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ.

*/ الِاسْتِدْلَالُ بِدَلَائِلِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى.

*/ الِاسْتِدْلَالُ بِنَزْعِ اللَّهِ الْأَرْوَاحَ مِنَ الْأَجْسَادِ وَالنَّاسُ كَارِهُونَ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مَنَعَهَا مِنَ الْخُرُوجِ، عَلَى أَنَّ الَّذِي قَدِرَ عَلَى نَزْعِهَا بِدُونِ مُدَافِعٍ قَادِرٌ عَلَى إِرْجَاعِهَا مَتى أَرَادَ.

*/ تَأْكِيدُ أَنَّ الْقُرْآنَ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَأَنَّهُ نعْمَة أنعم الله بِهَا عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَشْكُرُوهَا وَكَذَّبُوا بِمَا فِيهِ.

{ **إِذَا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ** [1] **لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ** [2] }.

افْتِتَاحُ السُّورَةِ بِالظَّرْفِ الْمُتَضَمِّنِ الشَّرْطَ، افْتِتَاحٌ بَدِيعٌ لِأَنَّهُ يَسْتَرْعِي الْأَلْبَابَ لِتَرَقُّبِ مَا بَعْدَ هَذَا الشَّرْطِ الزَّمَانِيِّ، مَعَ مَا فِي الْإِسْمِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ مِنَ التَّهْوِيلِ بِتَوَقُّعِ حَدَثٍ عَظِيمٍ يَحْدُثُ.

{ **إِذَا** } ظَرْفُ زَمَانٍ وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِالْكَوْنِ الْمُقَدَّرِ فِي قَوْلِهِ تعالى { فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ } [12]، وَقَوْلِهِ تعالى { فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ } [28]، وَقَوْلِهِ تعالى { فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ } [42]. وَضُمِّنَ { إذا } مَعْنَى الشَّرْطِ.

{ **لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ** } اسْتِئْنَاف بياني ناشئ عَنْ قَوْلِهِ تعالى { إذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ }، وَهُوَ اعْتِرَاض بَين جملة { إذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ } وَجُمْلَةِ { فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ } [8].

وَجَوَابُ الشَرْطِ قَوْلُهُ تعالى { فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ مَا أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ } [9/8]، فيُفيد جَوَابًا لِلشَّرْطِ وَيُفِيدُ تَفْصِيلَ جُمْلَةِ { وَكُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً } [7]، وَتَكُونُ (الْفَاءُ) مُسْتَعْمَلَةً فِي مَعْنَيَيْنِ: رَبَطِ الْجَوَابِ، وَالتَّفْرِيعِ، وَتَكُونُ جُمْلَةُ { لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ } وَمَا بَعْدَهُ اعْتِرَاضًا.

الْوَاقِعَةُ: أَصْلُهَا الْحَادِثَةُ الَّتِي وَقَعَتْ، أَيْ: حَصَلَتْ. وَمِنْ ذَلِكَ حَادِثَةُ الْحَرْبِ يُقَالُ: وَاقِعَةُ الْقَادِسِيَّةِ.

رَاعَوْا فِي تأنيثها معنى الْحَادِثِ أَوِ الْكَائِنَةِ أَوِ السَّاعَةِ، وَهُوَ تَأْنِيثٌ كَثِيرٌ فِي اللُّغَةِ جَارٍ عَلَى أَلْسِنَةِ الْعَرَبِ.

وَالْمُرَادُ بِالْوَاقِعَةِ هُنَا **الْقِيَامَةُ**، فَجُعِلَ هَذَا الْوَصْفُ عَلَمًا لَهَا بِالْغَلَبَةِ فِي اصْطِلَاحِ الْقُرْآنِ، قَالَ تَعَالَى { فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ } [الحاقة:15]، كَمَا سُمِّيَتِ (الصَّاخَّةُ) وَ(الطَّامَّةُ) وَ(الْآزِفَةُ).

{ **لِوَقْعَتِهَا** } لَامُ التَّوْقِيتِ، كما في قوله تعالى { أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ } [الْإِسْرَاء:78]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى { فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ } [الطَّلَاق:1]. وَهِيَ بِمَعْنَى (عِنْدَ)، وَأَصْلُهَا لَامُ الْإِخْتِصَاصِ شَاعَ اسْتِعْمَالُهَا فِي اخْتِصَاصِ الْمُوَقَّتِ بِوَقْتِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى { وَلَمَّا جاءَ مُوسى لِمِيقاتِنا } [الْأَعْرَاف:143].

وَفِي الْحَدِيثِ سُئِلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: " **الصَّلَاةُ لِوَقْتِهَا** ".

{ **كَاذِبَةٌ** } يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اسْمَ فَاعِلٍ مِنْ كَذَبَ الْمُجَرَّدُ، جَرَى عَلَى التَّأْنِيثِ لِلدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّهُ وَصْفٌ لِمَحْذُوفٍ مُؤَنَّثِ اللَّفْظِ. وَتَقْدِيرُهُ هُنَا: نَفْسٌ، أَيْ: تَنْتَفِي كُلُّ نَفْسٍ كَاذِبَةٍ.

فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ كَذَبَ اللَّازِمِ إِذَا قَالَ خِلَافَ مَا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَذَلِكَ أَنَّ مُنْكِرِي الْقِيَامَةِ يَقُولُونَ: لَا تَقَعُ الْقِيَامَةُ فَيَكْذِبُونَ فِي ذَلِكَ فَإِذَا وَقَعَتِ آمَنَتِ النُّفُوسُ كُلُّهَا بِوُقُوعِهَا فَلَمْ تَبْقَ نَفْسٌ تُكَذِّبُ. وَذَلِكَ التَّقْدِيرُ كُلُّهُ مِمَّا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْمَقَامُ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ كَذَبَ الْمُتَعَدِّي، مِثْلَ الَّذِي فِي قَوْلِهِمْ: كَذَبَتْ فَلَانَا نَفْسُهُ، أَيْ: حَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ بِحَدِيثِ كَذِبٍ، وَذَلِكَ أَنَّ اعْتِقَادَ الْمُنْكِرِ لِلْبَعْثِ اعْتِقَادٌ سَوَّلَهُ لَهُ عَقْلُهُ الْقَاصِرُ، فَكَأَنَّ نَفْسَهُ حَدَّثَتْهُ حَدِيثًا كَذَبَتْهُ بِهِ.

وَالْمَعْنَى: إِذَا وَقَعَتِ الْقِيَامَةُ تَحَقَّقَ مُنْكِرُوهَا ذَلِكَ فَأَقْلَعُوا عَنِ اعْتِقَادِهِمْ أَنَّهَا لَا تَقَعُ وَعَلِمُوا أَنَّهُمْ ضَلُّوا فِي اسْتِدْلَالِهِمْ، وَهَذَا وَعِيدٌ بِتَحْذِيرِ الْمُنْكِرِينَ لِلْقِيَامةِ مِنْ خِزْيِ الْخَيْبَةِ وَسَفَاهَةِ الرَّأْيِ بَيْنَ أَهْلِ الْحَشْرِ.

{ **خافِضَةٌ رافِعَةٌ** } [3].

خَبَرَانِ لِمُبْتَدَأٍ مَحْذُوفِ ضمير { الْواقِعَةُ } [1]، أَيْ: هِيَ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ، أَيْ: يَحْصُلُ عِنْدَهَا خَفْضُ أَقْوَامٍ كَانُوا مُرْتَفِعِينَ وَرَفْعُ أَقْوَامٍ كَانُوا مُنْخَفَضَيْنِ، وَذَلِكَ بِخَفْضِ الْجَبَابِرَةِ وَالْمُفْسِدِينَ، الَّذِينَ كَانُوا فِي الدُّنْيَا فِي رِفْعَةٍ وَسِيَادَةٍ، وَبِرَفْعِ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ كَانُوا فِي الدُّنْيَا لَا يَعْبَأون بِأَكْثَرِهِمْ، وَهِيَ أَيْضًا خَافِضَةٌ جِهَاتٍ كَانَتْ مُرْتَفِعَةً كَالْجِبَالِ، رَافِعَةٌ مَا كَانَ مُنْخَفِضًا بِسَبَبِ الِانْقِلَابِ بِالرَّجَّاتِ الْأَرْضِيَّةِ.

وَإِسْنَادُ الْخَفْضِ وَالرَّفْعِ إِلَى الْوَاقِعَةِ مَجَازٌ عَقْلِيٌّ إِذْ هِيَ وَقْتُ ظُهُورِ ذَلِكَ.

وَفِي الآية مُحَسِّنُ الطباق مَعَ الإغراب، بِثُبُوتِ الضِّدَّيْنِ لشَيْء وَاحِد.

{ **إِذا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا** [4] **وَبُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا** [5] **فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا** [6] **وَكُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً** [7] }.

{ **إِذا رُجَّتِ الْأَرْضُ** } بَدَلٌ مِنْ جُمْلَةِ { إِذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ } [1]، وَهُوَ بَدَلُ اشْتِمَالٍ. أي: رَجُّهَا رَاجٌّ، وَهُوَ مَا يَطْرَأُ فِيهَا مِنَ الزَّلَازِلِ وَالْخَسْفِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

الرَّجُّ: الِاضْطِرَابُ وَالتَّحَرُّكُ الشَّدِيدُ.

{ **رَجًّا** } تَأْكِيدُهُ بِالْمَصْدَرِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى تَحَقُّقِهِ وَلِيَتَأَتَّى التَّنْوِينُ الْمُشْعِرُ بِالتَّعْظِيمِ وَالتَّهْوِيلِ.

الْبَسُّ: يُطْلَقُ بِمَعْنَى الْتَّفَتُّتِ، وَهُوَ تَفَرُّقُ الْأَجْزَاءِ الْمَجْمُوعَةِ. أَيْ: فُتِّتَتِ الْجِبَالُ وَنُسِفَتْ، فَيَكُونُ كَقَوْلِه تَعَالَى { وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً } [طه:106/105].

وَيُطْلَقُ الْبَسُّ أَيْضًا عَلَى السَّوْقِ لِلْمَاشِيَةِ، يُقَالُ: بَسَّ الْغَنَمَ، إِذَا سَاقَهَا. وَفِي الْحَدِيثِ: " **فَيَأْتِي قَوْمٌ يَبِسُّونَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ". فَهُوَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى { وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبالَ } [الْكَهْف:47]، وَقَوْلِهِ تعالى { وَسُيِّرَتِ الْجِبالُ } [النبأ:20].

{ **بَسًّا** } كَالتَّأْكِيدِ فِي قَوْلِهِ تعالى { رَجًّا }، لِإِفَادَةِ التَّعْظِيمِ بِالتَّنْوِينِ.

{ **فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا** } تَفْرِيعٌ عَلَى { بُسَّتِ الْجِبالُ } لَائِق بمعنى الْبَسِّ، لِأَنَّ الْجِبَالَ إِذَا سُيِّرَتْ فَإِنَّمَا تَسَيَّرُ تَسْيِيرًا يُفَتِّتُهَا وَيُفَرِّقُهَا، أَيْ: تَسْيِيرَ بَعْثَرَةٍ وَارْتِطَامٍ. تَشْبِيهٌ بَلِيغٌ، أَيْ: فَكَانَتْ كَالْهَبَاءِ الْمُنْبَثِّ.

الْهَبَاءُ: مَا يَلُوحُ فِي خُيُوطِ شُعَاعِ الشَّمْسِ مِنْ دَقِيقِ الْغُبَارِ، كقَوْلِهِ تَعَالَى { فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً} [الْفُرْقَان:23].

الْمُنْبَثُّ: اسْمُ فَاعِلِ انْبَثَّ، مُطَاوِعُ بَثَّهُ، إِذَا فَرَّقَهُ. وَاخْتِيرَ هَذَا الْمُطَاوِعُ لِمُنَاسَبَتِهِ مَعَ قَوْلِهِ { وَبُسَّتِ الْجِبالُ }.

{ **وَكُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً** } الْخِطَابُ لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ، وَهَذَا تَخَلُّصٌ لِلْمَقْصُودِ مِنَ السُّورَةِ وَهُوَ الْمَوْعِظَةُ.

الْأَزْوَاجُ: الْأَصْنَافُ. وَالزَّوْجُ يُطْلَقُ عَلَى الصِّنْفِ وَالنَّوْعِ، كَقَوْلِه تَعَالَى { فِيهِما مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ زَوْجانِ } [الرَّحْمَن:52]، وَوَجْهُ ذَلِكَ أَنَّ الصِّنْفَ إِذَا ذُكِرَ يُذْكَرُ مَعَهُ نَظِيرُهُ غَالِبًا فَيكون زوجا.

{ **فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ [8] وَأَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ [9] وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ [10] أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ [11] فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ [12]** }.

{ **فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ** } الْفَاءَ لِرَبْطِ الْجَزَاءِ مَعَ التَّفْصِيلِ لِلْإِجْمَالِ، وَتَكُونُ الجُمْلَةُ جَوَابًا لِـ (إِذَا) الثَّانِيَةِ [4]، آيِلًا إِلَى كَوْنِهِ جَوَابًا لِـ (إِذَا) الْأُولَى [1]، لِأَنَّ الثَّانِيَةَ مُبْدَلَةٌ مِنْهَا.

وَقَدْ أَفَادَ التَّفْصِيلُ أَنَّ الْأَصْنَافَ ثَلَاثَةٌ:

صِنْفٌ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ، وَهُمُ الَّذِينَ يُجْعَلُونَ فِي الْجِهَةِ الْيُمْنَى فِي الْجَنَّةِ أَوْ فِي الْمَحْشَرِ. وَالْيَمِينُ جِهَةُ عِنَايَةٍ وَكَرَامَةٍ فِي الْعُرْفِ، وَاشْتُقَّتْ مِنَ الْيُمْنِ، أَي: الْبَرَكَةِ.

صِنْفٌ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ، وَهِيَ اسْمُ جِهَةٍ مُشْتَقَّةٌ مِنَ الشُّؤْمِ، وَهُوَ ضِدُّ الْيُمْنِ فَهُوَ الضُّرُّ وَعَدَمُ النَّفْعِ وَقد سُمِّيَا فِي الْآيَةِ الْآتِيَةِ { أَصْحابُ الْيَمِينِ } [27] و{ أَصْحابُ الشِّمالِ } [41]، فَجُعِلَ الشِّمَالُ ضِدَّ الْيَمِينِ، كَمَا جُعِلَ الْمَشْأَمَةُ هُنَا ضِدَّ الْمَيْمَنَةِ إِشْعَارًا بِأَنَّ حَالَهُمْ حَالُ شُؤْمٍ وَسُوءٍ.

وَكُلُّ ذَلِكَ مُسْتَعَارٌ لِمَا عُرِفَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ مِنْ إِطْلَاقِ هَذَيْنِ اللَّفْظَيْنِ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى الْكِنَائِيِّ الَّذِي شَاعَ حَتَّى سَاوَى الصَّرِيحَ، وَأَصْلُهُ جَاءَ مِنَ الزَّجْرِ وَالْعِيَافَةِ إِذْ كَانُوا يَتَوَقَّعُونَ حُصُولَ خَيْرٍ مِنْ أَغْرَاضِهِمْ مِنْ مُرُورِ الطَّيْرِ أَوِ الْوَحْشِ مِنْ يَمِينِ الزَّاجِرِ إِلَى يَسَارِهِ وَيَتَوَقَّعُونَ الشَّرَّ مِنْ مُرُورِهِ بِعَكْسِ ذَلِكَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْصِيلُهُ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى { قالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ } [الصَّافَّاتِ:28]، وَعِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى { يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَمَنْ مَعَهُ } [الْأَعْرَافِ:131]، وَعِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى { قالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ } [يس:18].

وَلِذَلِكَ اسْتُغْنِيَ هُنَا عَنِ الْإِخْبَارِ عَنْ كِلَا الْفَرِيقَيْنِ بِخَبَرٍ فِيهِ وَصْفُ بَعْضِ حَالَيْهِمَا بِذِكْرِ مَا هُوَ إِجْمَالٌ لِحَالَيْهِمَا مِمَّا يَشْعُرُ بِهِ مَا أُضِيفَ إِلَيْهِ أَصْحَابُهُ مِنْ لَفْظَيِ الْمَيْمَنَةِ وَالْمَشْأَمَةِ بِطَرِيقَةِ الِاسْتِفْهَامِ الْمُسْتَعْمَلِ فِي التَّعَجِيبِ مِنْ حَالِ الْفَرِيقَيْنِ، وَهُوَ تَعْجِيبٌ تُرِكَ عَلَى إِبْهَامِهِ هُنَا لِتَذْهَبَ نَفْسُ السَّامِعِ كُلَّ مَذْهَبٍ مُمْكِنٍ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ،

{ **مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ / مَا أَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ** } الـ (مَا) فِي الْمَوْضِعَيْنِ اسْمُ اسْتِفْهَامٍ، وَ(أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَاب الْمَشْأَمَةِ) خَبَرَانِ عَنْها، كَقَوْلِهِ تَعَالَى { الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ } [الْحَاقَّةُ:2/1]، وَقَوْلِهِ تعالى { الْقارِعَةُ مَا الْقارِعَةُ } [الْقَارِعَةُ:2/1].

{ **أَصْحَابُ** } فِي الْمَوْضِعَيْنِ إِظْهَارٌ، لِأَنّ مقَام التعجيب وَالتَّشْهِيرِ يَقْتَضِي الْإِظْهَار، بِخِلَاف مقَام قَوْلِهِ تَعَالَى { وَما أَدْراكَ مَا هِيَهْ } [القارعة:10].

الصِّنْفُ الثَّالِثُ فِي الْعَدِّ، { **وَالسَّابِقُونَ** } وَهُمُ الصِّنْفُ الْأَفْضَلُ مِنَ الْأَصْنَافِ الثَّلَاثَةِ، وَوَصْفُهُمْ بِالسَّبْقِ يَقْتَضِي أَنَّهُمْ سَابِقُونَ أَمْثَالَهُمْ مِنَ الْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ عُبِّرَ عَنْهُمْ بِأَصْحَابِ الْمَيْمَنَةِ، فَهُمْ سَابِقُونَ إِلَى الْخَيْرِ، فَالنَّاسُ لَا يَتَسَابَقُونَ إِلَّا لِنَوَالِ نَفِيسٍ مَرْغُوبٍ، وَأَمَّا الشَّرُّ والضرّ فهم يتكعكعون عَنْهُ.

السَّبْق: حَقِيقَتُهُ وُصُولُ أَحَدٍ مَكَانًا قَبْلَ وُصُولِ أَحَدٍ آخَرَ. وَهُوَ هُنَا مُسْتَعْمَلٌ عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِعَارَةِ.

فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَعْمَلًا فِي الْمُبَادَرَةِ وَالْإِسْرَاعِ إِلَى الْخَيْرِ فِي الدِّينِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى { وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ } [التوبة:100].

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَعْمَلًا فِي الْمُغَالَبَةِ فِي تَحْصِيلِ الْخَيْرِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى { أُولئِكَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَهُمْ لَها سابِقُونَ } [الْمُؤْمِنِينَ:61].

{ **السَّابِقُونَ** } الثَّانِية يَجُوزُ جَعْلُها خَبَرًا عَنِ الْأُولى كَمَا أَخْبَرَ عَنْ أَصْحَابِ الْمَيْمَنَةِ بِأَنَّهُمْ مَا أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ. وَيَجُوزُ جَعْلُها تَأْكِيدًا لِلْأولى.

وَالْمَعْنَى: أَنَّ حَالَهُمْ بَلَغَتْ مُنْتَهَى الْفَضْلِ وَالرِّفْعَةِ بِحَيْثُ لَا يَجِدُ الْمُتَكَلِّمُ خَبَرًا يُخْبِرُ بِهِ عَنْهُمْ أَدَلَّ عَلَى مَرْتَبَتِهِمْ مِنَ اسْمِ السَّابِقُونَ، فَهَذَا الْخَبَرُ أَبْلَغُ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى شَرَفِ قَدْرِهِمْ مِنَ الْإِخْبَارِ بِـ (مَا) الِاسْتِفْهَامِيَّةُ التَّعَجِيبِيَّةِ فِي قَوْلِهِ { مَا أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ }. مَعَ مَا فِي اشْتِقَاقِ لَقَبِهِمْ مِنَ (السَّبْقِ) مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى بُلُوغِهِمْ أَقْصَى مَا يَطْلُبُهُ الطَّالِبُونَ.

فَمَآلُ جُمْلَةِ { مَا أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ } وَنَظِيرَتُها وَجُمْلَةُ { وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ } هُوَ التعجيب مِنْ حَالِهِمْ وَطَرِيقُهُ هُوَ الْكِنَايَةُ وَلَكِنَّ بَيْنَ الْكِنَايَتَيْنِ فَرْقًا بِأَنَّ إِحْدَاهُمَا كَانَتْ مِنْ طَرِيقِ السُّؤَالِ عَنِ الْوَصْفِ، وَالْأُخْرَى مِنْ طَرِيقِ تَعَذُّرِ التَّعْبِيرِ بِغَيْرِ ذَلِكَ الْوَصْفِ.

وَحَذْفُ مُتَعَلِّقِ السَّابِقُونَ فِي الْآيَةِ لِقَصْدِ جَعْلِ وَصْفِ السَّابِقُونَ بِمَنْزِلَةِ اللَّقَبِ لَهُمْ، وَلِيُفِيدَ الْعُمُومَ، أَيْ أَنَّهُمْ سَابِقُونَ فِي كُلِّ مَيْدَانٍ تَتَسَابَقُ إِلَيْهِ النُّفُوسُ الزَّكِيَّةُ، كَقَوْلِهِ { وَفِي ذلِكَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ } [المطففين:26].

وَأُخِّرَ السَّابِقُونَ فِي الذِّكْرِ عَنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ لِتَشْوِيقِ السَّامِعِينَ إِلَى مَعْرِفَةِ صِنْفِهِمْ بَعْدَ أَنْ ذُكِرَ الصِّنْفَانِ الْآخَرَانِ مِنَ الْأَصْنَافِ الثَّلَاثَةِ، تَرْغِيبًا فِي الِاقْتِدَاءِ.

{ **أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ** } مُسْتَأْنَفَةٌ اسْتِئْنَافًا بَيَانِيًّا لِأَنَّهَا جَوَابٌ عَمَّا يُثِيرُهُ قَوْلُهُ تعالى { وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ } مِنْ تَسَاؤُلِ السَّامِعِ عَنْ أَثَرِ التَّنْوِيهِ بِهِمْ.

{ **أُولئِكَ** } فِي جَعْلِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ اسْمَ إِشَارَةٍ تَنْبِيه عَلَى أَنَّهُمْ أَحْرِيَاءُ بِمَا يُخْبَرُ عَنْهُ مِنْ أَجْلِ الْوَصْفِ الْوَارِدِ قَبْلَ اسْمِ الْإِشَارَةِ وَهُوَ أَنّهم السَّابِقُونَ، عَلَى نَحْوِ مَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ } [الْبَقَرَة:5].

وَبِذَلِكَ كَانَ هَذَا ابْتِدَاءَ تَفْصِيل لجزاء الْأَصْنَاف الثَّلَاثَةِ عَلَى طَرِيقَةِ النَّشْرِ بَعْدَ اللَّفِّ، نَشْرًا مُشَوَّشًا تَشْوِيشًا اقْتَضَتْهُ مُنَاسَبَةُ اتِّصَالِ الْمَعَانِي بِالنِّسْبَةِ إِلَى كُلِّ صِنْفٍ أَقْرَبَ ذِكْرًا، ثُمَّ مُرَاعَاةُ الْأَهَمِّ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الصِّنْفَيْنِ الْبَاقِيَيْنِ، فَكَانَ بَعْضُ الْكَلَامِ آخِذًا بِحُجُزِ بَعْضٍ.

الْمُقَرَّبُ: أَبْلَغُ من الْقَرِيب لِدَلَالَةِ صِيغَتِهِ عَلَى الِاصْطِفَاءِ وَالِاجْتِبَاءِ، وَذَلِكَ قُرْبٌ مَجَازِيٌّ، أَيْ: شُبِّهَ بِالْقُرْبِ فِي مُلَابَسَةِ الْقَرِيب والاهتمام بشؤونه، فَإِنّ الْمُطِيع بمجاهدته فِي الطَّاعَةِ يَكُونُ كَالْمُتَقَرِّبِ إِلَى اللَّهِ، أَيْ: طَالِبِ الْقُرْبِ مِنْهُ، فَإِذَا بَلَغَ مَرْتَبَةً عَالِيَةً مِنْ ذَلِكَ قَرَّبَهُ اللَّهُ، أَيْ: عَامَلَهُ مُعَامَلَةَ الْمُقَرَّبِ الْمَحْبُوبِ.

كَمَا جَاءَ:في الحديث القدسي: " **وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بهَا وَرِجله الَّذِي يَمْشِي بِهَا وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ** ". وَكُلُّ هَذِهِ الْأَوْصَافِ مَجَازِيَّةٌ تَقْرِيبًا لِمَعْنَى التَّقْرِيبِ.

وَلَمْ يُذْكَرْ مُتَعَلِّقُ { الْمُقَرَّبُونَ } لِظُهُورِ أَنَّهُ مُقَرَّبٌ مِنَ اللَّهِ، أَيْ: مِنْ عِنَايَتِهِ وَتَفْضِيلِهِ.

وَكَذَلِكَ لَمْ يُذْكَرْ زَمَانُ التَّقْرِيبِ وَلَا مَكَانُهُ لِقَصْدِ تَعْمِيمِ الْأَزْمَانِ وَالْبِقَاعِ الْإِعْتِبَارِيَّةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

{ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ [13] وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ [14] }.

اعْتِرَاضٌ بَيْنَ جُمْلَةِ { فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ } [12] وَجُمْلَةِ { عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ } [15]. وَهَذَا الْإِعْتِرَاضُ يُقْصَدُ مِنْهُ التَّنْوِيهُ بِصِنْفِ السَّابِقِين وتفضيلهم بطرِيق الْكِنَايَةِ عَنْ ذَلِكَ بِلَفْظَيْ { ثُلَّةٌ / قَلِيلٌ } الْمُشْعِرَيْنَ بِأَنَّهُمْ قُلٌّ مِنْ كُثْرٍ، فَيَسْتَلْزِمُ ذَلِكَ أَنَّهُمْ صِنْفٌ عَزِيزٌ لِمَا عُهِدَ فِي الْعُرْفِ مِنْ قِلَّةِ الْأَشْيَاءِ النَّفِيسَةِ.

مَعَ بِشَارَةِ الْمُسْلِمِينَ بِأَنَّ حَظَّهُمْ فِي هَذَا الصِّنْفِ كَحَظِّ الْمُؤْمِنِينَ السَّالِفِيِّنَ أَصْحَابِ الرُّسُلِ، لِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا قَدْ سَمِعُوا فِي الْقُرْآنِ وَفِي أَحَادِيثِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَنْوِيهًا بِثَبَاتِ الْمُؤْمِنَيْنِ السَّالِفِيّنَ مَعَ الرُّسُلِ وَمُجَاهَدَتِهِمْ فَرُبَّمَا خَامَرَ نُفُوسَهُمْ أَنَّ تِلْكَ صِفَةٌ لَا تُنَالُ بَعْدَهُمْ فَبَشَّرَهُمُ اللَّهُ بِأَنَّ لَهُمْ حَظًّا مِنْهَا.

وَلِمَا فِي هَذَا الْإِعْتِرَاضِ مِنَ الْإِشْعَارِ بِالْعِزَّةِ قُدِّمَ عَلَى ذِكْرِ مَا لَهُمْ مِنَ النَّعِيمِ لِلْإِشَارَةِ إِلَى عَظِيمِ كَيْفِيَّتِهِ الْمُنَاسِبَةِ لوصفهم بـ { السَّابِقُونَ } بِخِلَافِ مَا يَأْتِي فِي أَصْحَابِ الْيَمِينِ.

{ **ثُلَّةٌ** } خَبَرٌ عَنْ مُبْتَدَإٍ مَحْذُوفٍ، تَقْدِيرُهُ: هُمْ ثُلَّةٌ، وَمُعَادُ الضَّمِيرِ الْمُقَدَّرِ { السَّابِقُونَ }، أَيِ: السَّابِقُونَ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ.

الثُّلَّةُ: (بِضَمِّ الثَّاءِ) اسْمٌ لِلْجَمَاعَةِ مِنَ النَّاسِ مُطْلَقًا قَلِيلًا كَانُوا أَوْ كَثِيرًا.

{ **الْأَوَّلِينَ** } الْمُتَقَدِّمُونَ عَلَى غَيْرِهِمْ فِي الزَّمَانِ، لِأَنَّ الْأَوَّلَ هُوَ الَّذِي تَقَدَّمَ فِي صِفَةٍ مَا، كَالْوُجُودِ أَوِ الْأَحْوَالِ، عَلَى غَيْرِهِ الَّذِي هُوَ الْآخَرِ أَوِ الثَّانِي، فَالْأَوَّلِيَّةُ أَمْرٌ نِسْبِيٌّ يُبَيِّنُهُ سِيَاقُ الْكَلَامِ حَيْثُمَا وَقَعَ.

فَالظَّاهِرُ أَنَّ { الْأَوَّلِينَ } هَنَا مُرَادٌ بِهِمُ الْأُمَمَ السَّابِقَةَ قَبْلَ الْإِسْلَامِ بِنَاءً عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّ الْخِطَابَ فِي قَوْلِهِ تعالى { وَكُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً } [7]، خِطَابٌ لِجَمِيعِ النَّاسِ بِعُنْوَانِ أَنَّهُمْ نَاسٌ، لِأَنَّ الْمُنْقَرِضِينَ الَّذِينَ يَتَقَدَّمُونَ مِنْ أَمَةٍ أَوْ قَبِيلَةٍ أَوْ أَهْلِ نحلة يُدعونَ بالأوّليين، قَالَ تَعَالَى { أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ } [48].

{ **وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ** } وُصِفَ أَهْلُ الْإِسْلَامِ بِالْآخِرِينَ فِي حَدِيثِ فَضْلِ الْجُمْعَةِ: " **نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا** ".

وَإِذْ قَدْ وُصِفَ السَّابِقُونَ بِمَا دَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ أَهْلُ السَّبْقِ إِلَى الْخَيْرِ وَوُصِفَتْ حَالُهُمْ فِي الْقِيَامَةِ عَقِبَ ذَلِكَ فَقَدْ عُلِمَ أَنَّهُمْ أَفْضَلُ الصَّالِحِينَ مِنْ أَصْحَابِ الْأَدْيَانِ الْإِلَهِيَّةِ ابْتِدَاءً مِنْ عَصْرِ آدَمَ إِلَى بَعْثَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُمُ الَّذِينَ جَاءَ فِيهِمْ قَوْلُهُ تَعَالَى { مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النبيّين وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَداءِ وَالصَّالِحِينَ } [النِّسَاء:69]. فَلَا جَرَمَ أَنَّ الْمُرَادَ بـ { الْأَوَّلِينَ } الْأُمَمُ الْأُولَى كُلُّهَا، وَكَانَ مُعْظَمُ تِلْكَ الْأُمَمِ

أَهْلَ عِنَادٍ وَكُفْرٍ وَلَمْ يَكُنِ الْمُؤْمِنُونَ فِيهِمْ إِلَّا قَلِيلا كَمَا تنبئ بِهِ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ. وَلَا جَرَمَ أَنَّ الْمُرَادَ بـ { الْآخِرِينَ } الْأُمَّةُ الْأَخِيرَةُ وَهُمُ الْمُسْلِمُونَ.

فَالسَّابِقُونَ طَائِفَتَانِ طَائِفَةٌ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِينَ وَمَجْمُوعُ عَدَدِهَا فِي مَاضِي الْقُرُونِ كَثِيرٌ؛ مِثْلُ أَصْحَابِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِينَ رَافَقُوهُ فِي التِّيهِ، وَمِثْلُ أَصْحَابِ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَمِثْلُ الْحَوَارِيِّينَ، وَطَائِفَةٌ قَلِيلَةٌ مِنَ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَهُمُ الَّذِينَ أَسْرَعُوا لِلدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ وَصَحِبُوا النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى { وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ } [التَّوْبَة:100].

{ عَلى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ [15] مُتَّكِئِينَ عَلَيْها مُتَقَابِلِينَ [16] يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ [17] بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ [18] لَا يُصَدَّعُونَ عَنْها وَلا يُنْزِفُونَ [19] وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ [20] وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ [21] وَحُورٌ عِينٌ [22] كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ [23] جَزَاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ [24] لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا تَأْثِيماً [25] إِلاَّ قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً [26] }.

هَذَا تَبْشِيرٌ بِبَعْضِ مَا لَهُمْ مِنَ النَّعِيمِ مِمَّا تَشْتَاقُ إِلَيْهِ النُّفُوسُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِتَشْوِيقِهِمْ إِلَى هَذَا الْمَصِيرِ فَيَسْعَوْا لِنَوَالِهِ بِصَالِحِ الْأَعْمَالِ، وَلَيْسَ الِاقْتِصَارُ عَلَى الْمَذْكُورِ هُنَا بِمُقْتَضٍ حَصْرَ النَّعِيمِ فِيمَا ذُكِرَ، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى { وَفِيها مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ } [الزخرف:71].

السُّرُرُ: جَمْعُ سَرِيرٍ، وَهُوَ كُرْسِيٌّ طَوِيلٌ مُتَّسِعٌ يَجْلِسُ عَلَيْهِ الْمُتَّكِئُ وَالْمُضْطَجِعُ، يُتَّخَذُ مِنْ مُخْتَلِفِ الْأَعْوَادِ وَيَتَّخِذُهُ الْمُلُوكُ مِنْ ذهب وَمن فضَّة وَمِنْ عَاجٍ وَمِنْ نَفِيسِ الْعُودِ. وَتَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ } [الصَّافَّاتِ:44].

الْمَوْضُونَةُ: وَإِنَّمَا تُوضَنُ سُطُوحُهَا، وَهِيَ مَا بَيْنَ سُوقِهَا الْأَرْبَعِ، حَيْثُ تُلْقَى عَلَيْهَا الطَّنَافِسُ أَوِ الزَّرَابِيُّ لِلْجُلُوسِ وَالِاضْطِجَاعِ لِيَكُونَ ذَلِكَ الْمَفْرَشُ وَثِيرًا فَلَا يُؤْلِمُ الْمُضْطَجِعَ وَلَا الْجَالِسَ.

وَقال بَعْضُهُمْ: مَرْمُولَةٍ، أَيْ: مَنْسُوجَةٍ بِقُضْبَانِ الذَّهَبِ.

الِاتِّكَاءُ: اضْطِجَاعٌ مَعَ تَبَاعُدِ أَعْلَى الْجَنْبِ، وَالِاعْتِمَادِ عَلَى الْمِرْفَقِ، وَتَقَدَّمَ فِي [الرَّحْمَن:54].

التَّقَابُلُ: مِنْ تَمَامِ النَّعِيمِ لِمَا فِيهِ مِنَ الْأُنْسِ بِمُشَاهَدَةِ الْأَصْحَابِ وَالْحَدِيثِ مَعَهُمْ.

{ **يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ** } بَيَانٌ لِجُمْلَةِ { فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ } [12] وَقَرِيبٌ مِنْهُ ما فِي [الصَّافَّاتِ:45].

الطَّوَافُ: الْمَشْيُ الْمُكَرَّرُ حَوْلَ شَيْءٍ، وَهُوَ يَقْتَضِي الْمُلَازَمَةَ لِلشَّيْءِ.

{ **وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ** } أَيْ: دَائِمَيْنِ عَلَى الطَّوَافِ عَلَيْهِمْ وَمُنَاوَلَتِهِمْ لَا يَنْقَطِعُونَ عَنْ ذَلِكَ.

وَقِيلَ: بِأَنَّهُمْ مُخَلَّدُونَ فِي صِفَةِ الْوِلْدَانِ، أَيْ بِالشَّبَابِ وَالْغَضَاضَةِ.

الْأَكْوَابُ: جَمْعُ كُوبٍ، وَهُوَ إِنَاءُ لَا عُرْوَةَ لَهُ، كَالْقَدَحِ.

الْأَبَارِيقُ: جَمْعُ إِبْرِيقَ وَهُوَ إِنَاءٌ تُحْمَلُ فِيهِ الْخَمْرُ لِلشَّارِبِينَ فَتُصَبُّ فِي الْأَكْوَابِ، وَالْإِبْرِيقُ لَهُ خُرْطُومٌ وَعُرْوَةٌ.

الْكَأْسُ: إنَاءٌ لِلْخَمْرِ كَالْكُوبِ إِلَّا أَنَّهُ مُسْتَطِيلٌ ضَيِّقُ الْمَشْرَبِ، وَتَقَدَّمَ فِي [الصَّافَّاتِ:45]. وَالْكَأْسُ جِنْسٌ يَصْدُقُ بِالْوَاحِدِ وَالْمُتَعَدِّدِ فَلَيْسَ إِفْرَادُهُ هُنَا لِلْوَحْدَةِ، فَإِنّ المُرَاد كؤوس كَثِيرَةٌ، كَمَا اقْتَضَاهُ جَمْعُ أَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ، وَإِنَّمَا أُوثِرَتْ صِيغَةُ الْمُفْرَدِ لِأَنَّ فِي لفظ كؤوس ثِقَلًا بِوُجُودِ هَمْزَةٍ مَضْمُومَةٍ فِي وَسَطِهِ، مَعَ ثِقَلِ صِيغَةِ الْجَمْعِ.

{ **مَعِينٍ** } الْجَارِي، وَالْمُرَادُ بِهِ الْخَمْرُ الَّتِي لِكَثْرَتِهَا تَجْرِي فِي الْمَجَارِي كَمَا يَجْرِي الْمَاءُ، وَلَيْسَتْ قَلِيلَةٌ عَزِيزَةٌ كَمَا هِيَ فِي الدُّنْيَا، قَالَ تَعَالَى { وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ } [مُحَمَّد:15].

وَلَيْسَ الْمُرَادُ بـ { مَعِينٍ } الْمَاءَ لِأَنَّ الْكَأْسَ لَيْسَتْ مِنْ آنِيَةِ المَاء وَإِنَّمَا آنيتهما الْأَقْدَاحُ، كما فِي قوله { يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ بَيْضاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ لَا فِيها غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ } [الصَّافَّاتِ:45-47].

التَّصْدِيعُ: الْإِصَابَةُ بِالصُّدَاعِ، وَهُوَ وَجَعُ الرَّأْسِ مِنَ الْخُمَارِ النَّاشِئِ عَنِ السُّكْرِ، أَيْ: لَا تُصِيبُهُمُ الْخَمْرُ بِصُدَاعٍ.

{ **عَنْهَا** } أَيْ: لَا يَقَعُ لَهُم صداع ناشئ عَنْهَا. اسْتُعْمِلَتْ (عَنْ) هنا فِي مَعْنَى السَّبَبِيَّةِ.

{ **وَلا يُنْزِفُونَ** } أَيْ لَا يَعْتَرِيهِمْ نَزْفٌ بِسَبَبِهَا كَمَا يَحْصُلُ لِلشَّارِبِينَ فِي الدُّنْيَا. وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ { يُنْزَفُونَ } بِفَتْحِ الزَّايِ مَنْ أَنْزَفَ الَّذِي هَمْزَتُهُ لِلتَّعْدِيَةِ. وَقَرَأَهُ حفص وحَمْزَة وَالْكِسَائِيُّ وَخَلَفٌ بِكَسْرِ الزَّايِ مِنْ أَنْزَفَ الْمَهْمُوزِ الْقَاصِرِ إذا سكر وذهب عَقْلُهُ.

النَّزْفُ: اخْتِلَاطُ الْعَقْلِ، وَفِعْلُهُ مَبْنِيٌّ لِلْمَجْهُولِ يُقَالُ: نُزِفَ عَقْلُهُ.

الْفَاكِهَةُ: الثِّمَار والمكسّرات كَاللَّوْزِ وَالْفُسْتُقِ، وَتَقَدَّمَ فِي [الرَّحْمَن:11]. وَعَطْفُ فاكِهَةٍ على { بِأَكْوابٍ }، أَيْ: وَيَطُوفُونَ عَلَيْهِمْ بِفَاكِهَةٍ.

{ **مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ** } أَيْ: يَطُوفُونَ عَلَيْهِمْ بِفَاكِهَةٍ مِنَ الْأَنْوَاعِ الَّتِي يَخْتَارُونَهَا. فَالْفِعْلُ يُفِيدُ قُوَّة الِاخْتِيَارِ.

{ **وَلَحْمِ طَيْرٍ** } هُوَ أَرْفَعُ اللُّحُومِ وَأَشْهَاهَا وَأَعَزُّهَا. وَعَطْفُه عَلَى فاكِهَة كَعَطْفِ فاكِهَةٍ عَلَى { بِأَكْوابٍ }.

الْاِشْتِهَاءُ: مَصْدَرُ اشْتَهَى، وَهُوَ افْتِعَالٌ مِنَ الشَّهْوَةِ الَّتِي هِيَ: مَحَبَّةُ نَيْلِ شَيْءٍ مَرْغُوبٍ فِيهِ مِنْ مَحْسُوسَاتٍ وَمَعْنَوِيَّاتٍ، يُقَالُ: شَهِيٌّ كَرَضِيٌّ، وَشَهَا كَدَعَا. وَالْأَكْثَرُ أَنْ يُقَالَ: اشْتَهَى، وَالْإِفْتِعَالُ فِيهِ لِلْمُبَالَغَةِ.

وَتَقْدِيمُ ذِكْرِ الْفَاكِهَةِ عَلَى ذِكْرِ اللَّحْمِ قَدْ يَكُونُ لِأَنَّ الْفَوَاكِهَ أَعَزُّ. وَبِهَذَا يَظْهَرُ وَجْهُ الْمُخَالَفَةِ بَيْنَ الْفَاكِهَةِ وَلَحْمِ طَيْرٍ فَجُعِلَ التَّخَيُّرُ لِلْأَوَّلِ. وَالِاشْتِهَاءُ لِلثَّانِي، لِأَنَّ الِاشْتِهَاءَ أَعْلَقُ بِالطَّعَامِ مِنْهُ بِالْفَوَاكِهِ، فَلَذَّةُ كَسْرِ الشَّاهِيَةِ بِالطَّعَامِ لَذَّةٌ زَائِدَةٌ عَلَى لَذَّةِ حُسْنِ طَعْمِهِ، وَكَثْرَةُ التَّخَيُّرِ لِلْفَاكِهَةِ هِيَ لَذَّةُ تَلْوِينِ الْأَصْنَافِ.

{ **وَحُورٌ عِينٌ** } عَطْفٌ عَلَى { وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ }، أَيْ: وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ حُورٌ عِينٌ.

الْحُورُ الْعِينُ: النِّسَاءُ ذَوَاتُ الْحَوَرِ، وَتَقَدَّمَ فِي [الرَّحْمَنِ:72]. وَذَوَاتُ الْعَيْنِ: وَهُوَ سِعَةُ الْعَيْنِ، وَتَقَدَّمَ فِي [الصَّافَّاتِ:48].

الْأَمْثَالُ: الْأَشْبَاهُ. وَدُخُولُ كَافِ التَّشْبِيهِ عَلَى (أَمْثَالِ) لِلتَّأْكِيدِ، مِثْلُ قَوْلِهِ { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } [الشورى:11]. وَالْمَعْنَى: هُنَّ أَمْثَالُ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ.

اللُّؤْلُؤ: الدُّرُّ، وَتَقَدَّمَ تَبْيِينُهُ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى { يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً } [الْحَجّ:23].

الْمَكْنُونِ: الْمَخْزُونُ الْمُخَبَّأُ لِنَفَاسَتِهِ، وَتَقَدَّمَ فِي [الصَّافَّاتِ:49].

{ **جَزَاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ** } انْتَصَبَ { جَزاءً } عَلَى الْمَفْعُولِ لِأَجْلِهِ لِفِعْلٍ مُقَدَّرٍ دَلَّ عَلَيْهِ قَوْله { الْمُقَرَّبُونَ } [11]، أَيْ: أَعْطَيْنَاهُمْ ذَلِكَ جَزَاءً، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ جَزاءً مَصْدَرًا جَاءَ بَدَلًا عَنْ فِعْلِهِ، وَالتَّقْدِيرُ: جَازَيْنَاهُمْ جَزَاءً. وَالْجُمْلَةُ عَلَى التَّقْدِيرَيْنِ اعْتِرَاضٌ تُفِيدُ إِظْهَارَ كَرَامَتِهِمْ بِحَيْثُ جَعَلَتْ أَصْنَاف النَّعيم الَّذين حَظُوا بِهِ جَزَاءً عَلَى عَمَلٍ قَدَّمُوهُ، وَذَلِكَ إِتْمَامٌ لِكَوْنِهِمْ مُقَرَّبِينَ.

{ **لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا تَأْثِيماً** } ثُمَّ أَكْمَلَ وَصْفَ النَّعِيمِ، وَهِيَ نِعْمَةٌ رُوحِيَّةٌ، فَإِنَّ سَلَامَةَ النَّفْسِ مِنْ سَمَاعِ مَا يَكْرَهُ سَمَاعَهُ مِنَ الْأَذَى نِعْمَةٌ بِرَاحَةِ الْبَالِ وَشُغْلِهِ بِسَمَاعِ الْمَحْبُوبِ.

{ **فِيهَا** } الضَمِيرُ عَائِدٌ إِلَى { جَنَّاتِ النَّعِيمِ } [12].

اللَّغْوُ: الْكَلَامُ الَّذِي لَا يُعْتَدُّ بِهِ كَالْهَذَيَانِ، وَالْكَلَامُ الَّذِي لَا مُحَصِّلَ لَهُ.

التَّأْثِيمُ: اللَّوْمُ وَالْإِنْكَارُ، وَهُوَ مَصْدَرُ أَثَّمَ، إِذَا نَسَبَ غَيْرَهُ إِلَى الْإِثْمِ.

{ **إِلاَّ قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً** } نِعْمَةٌ أُخْرَى مِنَ الْإِنْعَامِ بِالْمَسْمُوعِ الَّذِي يُفِيدُ الْكَرَامَةَ. وَهُوَ اسْتِثْنَاءٌ مِنْ { لَغْواً وَلَا تَأْثِيماً } بِطَرِيقَةِ تَأْكِيدِ الشَّيْءِ بِمَا يُشْبِهُ ضِدَّهُ، الْمُشْتَهَرَ فِي الْبَدِيعِ بِاسْمِ تَأْكِيدِ الْمَدْحِ بمَا يُشْبِهُ الذَّمَّ، وَلَهُ مَوْقِعٌ عَظِيم من البلاغة. اِسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ بِحَسَبِ حَاصِلِ الْمَعْنَى، وَعَلَيْهِ فَإِنَّ انْتِصَابَ { قِيلًا } عَلَى الْإِسْتِثْنَاءِ لَا عَلَى الْبَدَلِيَّةِ مِنْ { لَغْواً }.

{ **سَلاماً** } الْأَوَّلُ مَقُولُ { قِيلًا }، أَيْ: هَذَا اللَّفْظُ الَّذِي تَقْدِيرُهُ: سَلَّمْنَا سَلَامًا، فَهُوَ جُمْلَةٌ مَحْكِيَّةٌ بِالْقَوْلِ.

{ **سَلَاماً** } الثَّانِي تَكْرِيرٌ لِـ { سَلاماً } الْأَوَّلِ تَكْرِيرًا لَيْسَ لِلتَّأْكِيدِ بَلْ لِإِفَادَةِ التَّعَاقُبِ، أَيْ: سَلَامًا إِثْرَ سَلَامٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى { كَلَّا إِذا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا } [الْفجْر:21].

أَوْ مُشَارًا بِهِ إِلَى كَثْرَةِ الْمُسَلِّمِينَ، فَهُوَ مُؤْذِنٌ مَعَ الْكَرَامَةِ بِأَنَّهُمْ مُعَظَّمُونَ مُبَجَّلُونَ.

وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْوَجْهَيْنِ أَنَّ الْأَوَّلَ يُفِيدُ التَّكْرِيرَ بِتَكْرِيرِ الْأَزْمِنَةِ، وَالثَّانِي يُفِيد التّكْرَار بتكرار الْمُسْلِمِينَ.

وَهَذَا الْقِيلُ يَتَلَقَّوْنَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْمُوَكَّلِينَ بِالْجَنَّةِ، قَالَ تَعَالَى { وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ } [الرَّعْد:24/23]، وَيَتَلَقَّاهُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى { وَتَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ } [يُونُس:10].

{ **سَلاماً** } جِيءَ بِهِ مَنْصُوبًا دُونَ الرَّفْعِ، مَعَ كَوْنِ الرَّفْعِ أَدَلَّ عَلَى الْمُبَالَغَةِ، كَمَا ذَكَرُوهُ فِي قَوْلِهِ تعالى { قالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ } [هُودٍ69]، وَفِي [الذَّارِيَاتِ:25]، لِأَنَّهُ أُرِيدَ جَعْلُهُ بَدَلًا من { قِيلًا }.

{ **وَأَصْحابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحابُ الْيَمِينِ** [27] **فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ** [28] **وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ** [29] **وَظِلٍّ مَمْدُودٍ** [30] **وَماءٍ مَسْكُوبٍ** [31] **وَفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ** [32] **لَا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ** [33] **وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ** [34] }.

عَوْدٌ إِلَى نَشْرِ مَا وَقَعَ لَفُّهُ فِي قَوْلِهِ تعالى { وَكُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً } [7]، كَمَا تَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ { فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ } [8]. وَعُبِّرَ عَنْهُمْ هُنَا بِـ { أَصْحابُ الْيَمِينِ }، وَهُنَالِكَ بِـ { أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ } لِلتَّفَنُّنِ.

{ **وَأَصْحابُ الْيَمِينِ** } عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةِ { أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ } [8] عطف الْقِصَّة عل الْقِصَّةِ.

{ **مَا أَصْحابُ الْيَمِينِ** } خَبَرٌ عَنْ أَصْحابُ الْيَمِينِ بِإِبْهَامٍ يُفِيدُ التَّنْوِيهَ بِهِمْ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تعالى { فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ } [8].

{ **فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ** } تبيين لما في الجملة السابقة من إبهام.

السِّدْرُ: شَجَرٌ مِنْ شَجَرِ الْعِضَاهِ ذُو وَرَقٍ عَرِيضٍ مُدَوَّرٍ وَهُوَ صِنْفَانِ:

الصنف الأوّل عُبْرِيٌّ (بِضَمِّ الْعَيْنِ وَسُكُونِ الْمُوَحَّدَةِ وَيَاءِ نَسَبٍ) نِسْبَةً إِلَى الْعِبْرِ (بِكَسْرِ الْعَيْنِ وَسُكُونِ الْمُوَحَّدَةِ) عَلَى غَيْرِ قِيَاسٍ، وَهُوَ عِبْرُ النَّهْيِ، أَيْ: ضَفَّتِهِ، لَهُ شَوْكٌ ضَعِيفٌ فِي غُصُونِهِ لَا يَضِيرُ. وَهو أَجْوَدُ السِّدْرِ، وَهُوَ يُشْبِهُ شَجَرَ الْعُنَّابِ، وَوَرَقُهُ كَوَرَقِ الْعُنَّابِ، يُجْعَلُ غَسُولًا يُنَظَّفُ بِهِ، يُخْرِجُ مَعَ الْمَاءِ رَغْوَةً كَالصَّابُونِ. وَثَمَرُ هَذَا الصِّنْفِ هُوَ النَّبِقُ (بِفَتْحِ النُّونِ وَكَسْرِ الْمُوَحَّدَةِ وَقَافٍ) يُشْبِهُ ثَمَرَ الْعُنَّابِ إِلَّا أَنَّهُ أَصْفَرُ مُزٌّ (بِالزَّايِ) يُفَوِّحُ الْفَمَ وَيُفَوِّحُ الثِّيَابَ وَيُتَفَكَّهُ بِهِ.

الصِّنْفُ الثَّانِي الضَّالُ (بِضَادٍ سَاقِطَةٍ وَلَامٍ مُخَفَّفَةٍ) وَهُوَ ذُو شَوْكٍ. وَهُوَ السِّدْرُ الْبَرِّيُّ الَّذِي لَا يَنْبُتُ عَلَى الْمَاءِ فَلَا يَصْلُحُ وَرَقُهُ لِلْغَسُولِ، وَثَمَرُهُ عَفِصٌ لَا يَسُوغُ فِي الْحَلْقِ وَلَا يُنْتَفَعُ بِهِ، وَيَخْبِطُ الرُّعَاةُ وَرَقَهُ لِلرَّاعِيَةِ.

وَلَمَّا كَانَ السِّدْرُ مِنْ شَجَرِ الْبَادِيَةِ وَكَانَ مَحْبُوبًا لِلْعَرَبِ وَلَمْ يَكُونُوا مُسْتَطِيعِينَ أَنْ يَجْعَلُوا مِنْهُ فِي جَنَّاتِهِمْ وَحَوَائِطِهِمْ، لِأَنَّهُ لَا يَعِيشُ إِلَّا فِي الْبَادِيَةِ، خُصَّ بِالذِّكْرِ مِنْ بَيْنِ شَجَرِ الْجَنَّةِ إِغْرَابًا بِهِ وَبِمَحَاسِنِهِ الَّتِي كَانَ مَحْرُومًا مِنْهَا مَنْ لَا يَسْكُنُ الْبَوَادِي، وَبِوَفْرَةِ ظِلِّهِ وَتَهَدُّلِ أَغْصَانِهِ وَنَكْهَةِ ثَمَرِهِ.

{ **مَخْضُودٍ** } أَيِ: الْمُزَالِ شَوْكُهُ، فَقَدْ كَمُلَتْ مَحَاسِنُهُ بِانْتِفَاءِ مَا فِيهِ مِنْ أَذًى.

الطَّلْحُ: شَجَرٌ مِنْ شَجَرِ الْعِضَاهِ وَاحِدُهُ طَلْحَةٌ، وَهُوَ مِنْ شَجَرِ الْحِجَازِ يَنْبُتُ فِي بُطُونِ الْأَوْدِيَةِ، شَدِيدُ الطُّولِ، غَلِيظُ السَّاقِ. مِنْ أَصْلَبِ شَجَرِ الْعِضَاهِ عُودًا، وَأَغْصَانُهُ طِوَالٌ عِظَامٌ شَدِيدَةُ الِارْتِفَاعِ فِي الْجَوِّ وَلَهَا شَوْكٌ كَثِيرٌ قَلِيلَةُ الْوَرَقِ شَدِيدَةُ الْخُضْرَةِ كَثِيرَةُ الظِّلِّ مِنَ الْتِفَافِ أَغْصَانِهَا، وَصَمْغُهَا جَيِّدٌ وَشَوْكُهَا أَقَلُّ الشَّوْكِ أَذًى، وَلَهَا نَوْرٌ طَيِّبُ الرَّائِحَةِ، وَتُسَمَّى هَذِهِ الشَّجَرَةُ (أُمَّ غَيْلَانَ).

الْمَنْضُودُ: الْمُتَرَاصُّ الْمُتَرَاكِبُ بِالْأَغْصَانِ لَيْسَتْ لَهُ سُوقٌ بَارِزَةٌ، أَوِ الْمُنَضَّدُ بِالْحِمْلِ، أَيِ: النَّوَّارِ فَتَكْثُرُ

رَائِحَتُهُ.

وَفُسِّرَ الطَّلْحُ بِشَجَرِ الْمَوْزِ، رُوِيَ ذَلِكَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ كَثِيرٍ، وَنُسِبَ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ. وَالْإِمْتِنَانُ بِهِ عَلَى هَذَا التَّفْسِيرِ امْتِنَانٌ بِثَمَرِهِ لِأَنَّهُ ثَمَر طيّب لذيد، وَلِشَجَرِهِ مِنْ حُسْنِ الْمَنْظَرِ، وَلَمْ يَكُنْ شَائِعًا فِي بِلَادِ الْعَرَبِ لِاحْتِيَاجِهِ إِلَى كَثْرَةِ الْمَاءِ.

{ **وَظِلٍّ مَمْدُودٍ** } الَّذِي لَا يَتَقَلَّصُ كَظِلِّ الدُّنْيَا، وَهُوَ ظِلٌّ حَاصِلٌ مِنَ الْتِفَافِ أَشْجَارِ الْجَنَّةِ وَكَثْرَةِ أَوْرَاقِهَا.

سَكْبُ الْمَاءِ: صَبُّهُ، وَأُطْلِقَ هُنَا عَلَى جَرْيِهِ بِقُوَّةٍ يُشْبِهُ السَّكْبَ، وَهُوَ مَاءُ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ.

{ **وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ** } تَقَدَّمَتْ آنِفًا.

{ **لَا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ** } وَصْفٌ بِانْتِفَاءِ ضِدِّ الْمَطْلُوبِ، إِذِ الْمَطْلُوبُ أَنَّهَا دَائِمَةٌ مَبْذُولَةٌ لَهُمْ. وَالنَّفْيُ هُنَا أَوْقَعُ مِنَ الْإِثْبَاتِ لِأَنَّهُ بِمَنْزِلَة وصف وتوكيد، وَهُمْ لَا يَصِفُونَ بِالنَّفْيِ إِلَّا مَعَ التَّكْرِيرِ بِالْعَطْفِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى { زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ } [النُّور:35].

وَجُمِعَ بَيْنَ الْوَصْفَيْنِ لِأَنَّ فَاكِهَةَ الدُّنْيَا لَا تَخْلُو مِنْ أَحَدِ ضِدِّي هَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ، فَإِنَّ أَصْحَابَهَا يَمْنَعُونَهَا فَإِنْ لَمْ يَمْنَعُوهَا فَإِنَّ لَهَا إِبَّانًا تَنْقَطِعُ فِيهِ.

الْفُرُشُ: جَمْعُ فِرَاشٍ (بِكَسْرِ الْفَاءِ) وَهُوَ مَا يُفْرَشُ، وَتَقَدَّمَ فِي [الرَّحْمَنِ:54].

مَرْفُوعَةٍ: وَصْفٌ لـ { فُرُشٍ }، أَيْ: مَرْفُوعَةٍ عَلَى الْأَسِرَّةِ، أَيْ: لَيْسَتْ مَفْرُوشَةً فِي الْأَرْضِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِالْفُرُشِ الْأَسِرَّةُ، مِنْ تَسْمِيَةِ الشَّيْءِ بِاسْمِ مَا يحل فِيهِ.

{ **إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشاءً** [35] **فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكارًا** [36] **عُرُبًا أَتْرابًا** [37] **لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ** [38] }.

لَمَّا جَرَى ذِكْرُ الْفُرُشِ وَهِيَ مِمَّا يُعَدُّ لِلِاتِّكَاءِ وَالِاضْطِجَاعِ وَقْتَ الرَّاحَةِ فِي الْمَنْزِلِ يخْطر بالبال بادئ ذِي بَدْءٍ مُصَاحَبَةُ الْحُورِ الْعِينِ مَعَهُمْ فِي تِلْكَ الْفُرُشِ فَيُتَشَوَّفُ إِلَى وَصْفِهِنَّ، فَكَانَتْ جُمْلَةُ {إِنَّا أَنْشَأْناهُنَّ إِنْشاءً} بَيَانًا، لِأَنَّ الْخَاطِرَ بِمَنْزِلَةِ السُّؤَالِ عَنْ صِفَاتِ الرَّفِيقَاتِ.

{ **أَنْشَأْناهُنَّ** }َضَمِيرُ الْمُؤَنَّثِ عَائِدٌ إِلَى غَيْرِ مَذْكُورٍ فِي الْكَلَامِ وَلَكِنَّهُ مَلْحُوظٌ فِي الْأَفْهَام.

الْإِنْشَاءُ: الْخَلْقُ وَالْإِيجَادُ، فَيَشْمَلُ إِعَادَةَ مَا كَانَ مَوْجُودًا وَعُدِمَ، فَقَدْ سَمَّى اللَّهُ الْإِعَادَةَ إِنْشَاءً فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ } [العنكبوت:20]. فَيَشْمَلُ نساء الْمُؤمنِينَ اللائي كُنَّ فِي الدُّنْيَا أَزْوَاجًا لِمَنْ صَارُوا إِلَى الْجَنَّةِ، وَيَشْمَلُ إِيجَادَ نِسَاءٍ أُنُفًا يُخْلَقْنَ فِي الْجَنَّةِ لِنَعِيمِ أَهْلِهَا.

{ **فَجَعَلْناهُنَّ أَبْكارًا** } شَامِلٌ لِلصِّنْفَيْنِ.

الْعُرُبُ: جَمْعُ عَرُوبٍ (بِفَتْحِ الْعَيْنِ)، وَيُقَالُ: عَرِبَةٌ (بِفَتْحٍ فَكَسْرٍ) فَيُجْمَعُ عَلَى عَرِبَاتٍ كَذَلِكَ، وَهُوَ اسْمٌ خَاصٌّ بِالْمَرْأَةِ. وَقَدِ اخْتَلَفَتْ أَقْوَالُ أَهْلِ اللُّغَةِ فِي تَفْسِيرِهِ. وَأحسن مَا يجمعها أَنّ العَرُوبَ: الْمَرْأَةُ الْمُتَحَبِّبَةُ إِلَى الرَّجُلِ، بِأَنْ تُكْثِرَ الضَّحِكَ وَاللَّهْو، والتي تحسن إظهار الخضوع. أي: اللعوب في غير فُحش.

الْأَتْرَابُ: جَمْعُ تِرْبٍ وَهِيَ الْمَرْأَةُ الَّتِي سَاوَى سَنُّهَا سَنَّ مَنْ تُضَافُ هِيَ إِلَيْهِ مِنَ النِّسَاءِ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ التِّرْبَ

خَاصٌّ بِالْمَرْأَةِ، وَأَمَّا الْمُسَاوِي فِي السِّنِّ مِنَ الرِّجَالِ فَيُقَالُ لَهُ: قَرْنُ وِلْدَةٍ.

فَالْمَعْنَى: أَنَّهُنَّ جُعِلْنَ فِي سِنٍّ مُتَسَاوِيَةٍ لَا تَفَاوُتَ بَيْنَهُنَّ، أَيْ: هُنَّ فِي سِنِّ الشَّبَابِ الْمُسْتَوِي، فَتَكُونُ مَحَاسِنُهُنَّ غَيْرَ مُتَفَاوِتَةٍ فِي جَمِيعِ جِهَاتِ الْحُسْنِ.

{ **لِأَصْحابِ الْيَمِينِ** } اللَّامُ يتنازعها { أَنْشَأْنَاهُنَّ } و{ فَجَعَلْنَاهُنَّ } لِإِفَادَةِ تَوْكِيدِ الِاعْتِنَاءِ بِأَصْحَابِ الْيَمِينِ الْمُسْتَفَادِ مِنَ الْمَقَامِ مِنْ قَوْلِهِ تعالى { وَأَصْحابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحابُ الْيَمِينِ } [27].

وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أُعْطِيَ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ لَيْسَ مُخَالِفًا لِأَنْوَاعِ مَا أُعْطِيَ لِلسَّابِقِينَ وَلَا أَنَّ مَا أُعْطِيَ لِلسَّابِقِينَ مُخَالِفٌ لِمَا أُعْطِيَ أَصْحَابُ الْيَمِينِ، فَإِنَّ الظِّلَّ وَالْمَاءَ الْمَسْكُوبَ وَكَوْنَ أَزْوَاجِهِمْ عُرُبًا أَتْرَابًا لَمْ يَذْكَرْ مِثْلُهُ لِلسَّابِقِينَ وَهُوَ ثَابِتٌ لَهُمْ لَا مَحَالَةَ إِذْ لَا يَقْصُرُونَ عَنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، وَكَذَلِكَ مَا ذُكِرَ لِلسَّابِقِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَكْوَابِهِمْ وَأَبَارِيقِهِمْ وَلَحْمِ الطَّيْرِ وَكَوْنِ أَزْوَاجِهِمْ حُورًا عِينًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْمَعُونَ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا، لَمْ يَذْكُرْ مَثَلَهُ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ مَعَ أَنَّ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ. وَقَدْ ذُكِرَ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ أَنَّهُمْ أُعْطُوا أَشْيَاءَ لَمْ يُذْكَرْ إِعْطَاؤُهَا لَهُمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِثْلَ قَوْلِهِ { وَتَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ } [يُونُس:10]، فَلَيْسَ الْمَقْصُودُ تَوْزِيعَ النَّعِيمِ وَلَا قَصْرَهُ وَلَكِنَّ الْمَقْصُودَ تَعْدَادُهُ وَالتَّشْوِيقُ إِلَيْهِ، مَعَ أَنَّهُ قَدْ عُلِمَ أَنَّ السَّابِقِينَ أَعْلَى مَقَامًا مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ بِمُقْتَضَى السِّيَاقِ. وَقَدْ أَشَارَ إِلَى تَفَاوُتِ الْمَقَامَيْنِ أَنَّهُ ذُكِرَ فِي نَعِيمِ السَّابِقِينَ أَنَّهُ جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لِلْوَجْهِ الَّذِي بَيَّنَّاهُ فِيهَا وَلَمْ يُذْكَرْ مِثْلُهُ فِي نَعِيمِ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، وَجُمَاعُ الْغَرَضِ مِنْ ذَلِكَ التَّنْوِيهُ بكلا الْفَرِيقَيْنِ.

{ **ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ** [39] **وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ** [40] }.

أَيْ: أَصْحَابُ الْيَمِينِ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ، وَالْكَلَامُ فِيهِ كَالْكَلَامِ فِي قَوْلِهِ تعالى { ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ } [14/13].

وَإِنَّمَا أُخِّرَ هَذَا عَنْ ذِكْرِ مَا لَهُمْ مِنَ النَّعِيمِ لِلْإِشْعَارِ بِأَنَّ عِزَّةَ هَذَا الصِّنْفِ وَقِلَّتِهِ دُونَ عِزَّةِ صِنْفِ السَّابِقِينَ، فَالسَّابِقُونَ أَعَزُّ. وَهَذِهِ الدَّلَالَةُ مِنْ مُسْتَتْبَعَاتِ التَّرَاكِيبِ الْمُسْتَفَادَةِ مِنْ تَرْتِيبِ نظم الْكَلَامِ.

{ **وَأَصْحَابُ الشِّمالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمالِ** [41] **فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ** [42] **وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ** [43] **لَا بارِدٍ وَلا كَرِيمٍ** [44] }.

إفضاء إِلَى الصِّنْف الثَّالِثِ مِنَ الْأَزْوَاجِ الثَّلَاثَةِ، وَهُمْ أَصْحَابُ الْمَشَاقَّةِ.

{ **مَا أَصْحَابُ الشِّمالِ** } الْقَوْلُ فِيها وَمَوْقِعُ جُمْلَةِ { **فِي سَمُومٍ** } بَعْدَهَا كَالْقَوْلِ فِي جُمْلَةِ { وَأَصْحابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحابُ الْيَمِينِ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ } [28/27].

السَّمُومُ: الرِّيحُ شَّدِيدُ الْحَرَارَةِ الَّذِي لَا بَلَلَ مَعَهُ وَكَأَنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنَ السُّمِّ، وَهُوَ مَا يُهْلك إِذْ لَاقَى الْبَدَنَ.

الْحَمِيمُ: الْمَاءُ شَدِيدُ الْحَرَارَةِ.

الْيَحْمُومُ: الدُّخَانُ الْأَسْوَدُ، عَلَى وَزْنِ يَفْعُولَ مُشْتَقٌّ مِنَ **الْحُمَمِ**: اسْمٌ لِلْفَحْمِ. وَالْحُمَمَةُ: الْفَحْمَةُ.

{ **وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ** } لِلْإِشْعَارِ بِأَنَّهُ ظِلُّ دُخَانِ لَهَبِ جَهَنَّمَ، وَالدُّخَانُ الْكَثِيفُ لَهُ ظِلٌّ لِأَنَّهُ بِكَثَافَتِهِ يَحْجُبُ ضَوْءَ الشَّمْسِ، وَإِنَّمَا ذُكِرَ مِنَ الدُّخَانِ ظِلُّهُ لِمُقَابَلَتِهِ بِـ { وَظِلٍّ مَمْدُودٍ } [30] الْمُعَدِّ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ، أَيْ: لَا ظِلَّ لِأَصْحَابِ الشِّمَالِ سِوَى ظِلِّ الْيَحْمُومِ. وَهَذَا مِنْ قَبِيلِ التَّهَكُّمِ.

{ **لَا بارِدٍ وَلا كَرِيمٍ** } لِتَحْقِيقِ مَعْنَى التَّهَكُّمِ وُصِفَ هَذَا الظِّلُّ بِمَا يُفِيدُ نَفْيَ الْبَرْدِ عَنْهُ وَنَفْيَ الْكَرَمِ، فَبَرْدُ الظِّلِّ مَا يَحْصُلُ فِي مَكَانِهِ مِنْ دَفْعِ حَرَارَةِ الشَّمْسِ، وَكَرَمُ الظِّلِّ مَا فِيهِ مِنَ الصِّفَاتِ الْحَسَنَةِ فِي الظِّلَالِ مِثْلَ سَلَامَتِهِ مِنْ هُبُوبِ السَّمُومِ عَلَيْهِ، وَسَلَامَةِ الْمَوْضِعِ الَّذِي يَظِلُّهُ مِنَ الْحَشَرَاتِ وَالْأَوْسَاخِ، وَسَلَامَةِ أَرْضِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، إِذِ الْكَرِيمُ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ هُوَ الْجَامِعُ لِأَكْثَرِ مَحَاسِنِ نَوْعِهِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ } [النمل:29]. فَوُصِفَ ظِلُّ الْيَحْمُومِ بِوَصْفٍ خَاصٍّ، وَهُوَ انْتِفَاءُ الْبُرُودَةِ عَنْهُ، وَاتْبِعَ بِوَصْفٍ عَامٍّ، وَهُوَ انْتِفَاءُ كَرَامَةِ الظِّلَالِ عَنْهُ، فَفِي الصِّفَةِ بِنَفْيِ مَحَاسِنِ الظِّلَالِ تَذْكِيرٌ لِلسَّامِعِينَ بِمَا حُرِمَ مِنْهُ أَصْحَابُ الشِّمَالِ عَسَى أَنْ يَحْذَرُوا أَسْبَابَ الْوُقُوعِ فِي الْحِرْمَانِ.

{ إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُتْرَفِينَ [45] وَكانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ [46] وَكانُوا يَقُولُونَ أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ [47] أَوَ آباؤُنَا الْأَوَّلُونَ [48] }.

تَعْلِيلٌ لِمَا يَلْقَاهُ أَصْحَابُ الشِّمَالِ مِنَ الْعَذَابِ، فَيَتَعَيَّنُ أَنَّ مَا تَضَمَّنَهُ هَذَا التَّعْلِيلُ كَانَ مِنْ أَحْوَالِ كُفْرِهِمْ وَأَنَّهُ مِمَّا لَهُ أَثَرٌ فِي إِلْحَاقِ الْعَذَابِ بِهِمْ، بِقَرِينَةِ قوله تعالى { وَكانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ ...}.

فَأَمَّا إِصْرَارُهُمْ عَلَى الْحِنْثِ وَإِنْكَارُهُمُ الْبَعْثَ فَلَا يَخْفَى تَسَبُّبُهُ فِي الْعَذَابِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَوَعَّدَهُمْ عَلَيْهِ فَلَمْ يُقْلِعُوا عَنْهُ، وَإِنَّمَا يَبْقَى النَّظَرُ فِي قَوْلِهِ:

{ **إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُتْرَفِينَ** } فَإِنَّ التَّرَفَ فِي الْعَيْشِ لَيْسَ جَرِيمَةً فِي ذَاتِهِ، وَكَمْ مِنْ مُؤْمِنٍ عَاشَ فِي تَرَفٍ، وَلَيْسَ كُلُّ كَافِرٍ مُتْرَفًا فِي عَيْشِهِ، فَلَا يَكُونُ التَّرَفُ سَبَبًا مُسْتَقِلًّا فِي تَسَبُّبِ الْجَزَاءِ الَّذِي عُومِلُوا بِهِ.

<u>فَتَأْوِيلُ هَذَا التَّعْلِيلِ</u>: **إِمَّا بِأَنْ يَكُونَ** الْإِتْرَافُ سَبَبًا بِاعْتِبَارِ ضَمِيمَةِ مَا ذُكِرَ بَعْدَهُ، بِأَنْ كَانَ إِصْرَارُهُمْ عَلَى الْحِنْثِ وَتَكْذِيبُهُمْ بِالْبَعْثِ جريمتين عظمتين لِأَنَّهُمَا مَحْفُوفَتَانِ بِكُفْرِ نِعْمَةِ التَّرَفِ الَّتِي خَوَّلَهُمُ اللَّهُ إِيَّاهَا، عَلَى نَحْوِ قَوْلِهِ تَعَالَى { وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ } [82]. فَيَكُونُ الْإِتْرَافُ جُزْءَ سَبَبٍ وَلَيْسَ سَبَبًا مُسْتَقِلًّا، وَفِي هَذَا مِنْ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى { وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا } [المزمل:11].

وَإِمَّا بِأَن يُرَاد أَنْ التَّرَفَ فِي الْعَيْشِ عَلَّقَ قُلُوبَهُمْ بِالدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا فَكَانَ ذَلِكَ مُمْلِيًا عَلَى خَوَاطِرِهِمْ إِنْكَارَ الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ، فَيَكُونُ الْمُرَادُ التَّرَفَ الَّذِي هَذَا الْإِنْكَارُ عَارِضٌ لَهُ وَشَدِيدُ الْمُلَازمَة لَهُ، فَوِزَانُهُ وِزَانَ قَوْلِهِ تَعَالَى { وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ } [مُحَمَّد:12].

ويكون تفسير { مُتْرَفِينَ }، على هذا التأويل، بِمَعْنَى: مُتَكَبِّرِينَ عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ.

الْمُتْرَفُ: اسْمُ مَفْعُولٍ مَنْ أَتْرَفَهُ، أَيْ جَعْلِهِ ذَا تُرْفَةٍ، أَي: نِعْمَةٍ وَاسِعَةٍ، وَبِنَاؤُهُ لِلْمَجْهُولِ لِعَدَمِ الْإِحَاطَةِ بِالْفَاعِلِ الْحَقِيقِيِّ لِلْإِتْرَافِ كَشَأْنِ الْأَفْعَالِ الَّتِي الْتُزِمَ فِيهَا الإِسْنَادُ الْمَجَازِيُّ الْعَقْلِيُّ الَّذِي لَيْسَ لِمِثْلِهِ حَقِيقَةٌ عَقْلِيَّةٌ، وَلَا يُقَدَّرُ بِنَحْوِ: أَتْرَفَهُ اللَّهُ، لِأَنَّ الْعَرَبَ لَمْ يَكُونُوا يُقَدِّرُونَ ذَلِكَ، فَهَذَا مِنْ بَابِ: قَالَ قَائِلٌ، وَسَأَلَ سَائِلٌ.

{ **قَبْلَ ذَلِكَ** } أَيْ: كَانُوا قَبْلَ الْيَوْمِ، وَهُوَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

{ **يُصِرُّونَ** } يَثْبُتُونَ عَلَيْهِ لَا يَقْبَلُونَ زَحْزَحَةً عَنْهُ، أَي: لَا يُصْغُونَ لِلدَّعْوَةِ إِلَى النَّظَرِ فِي بُطْلَانِ عَقِيدَةِ الشِّرْكِ.

{ **وَكانُوا يُصِرُّونَ / وَكانُوا يَقُولُونَ** } صِيغَةُ الْمُضَارِعِ تُفِيدُ تَكَرُّرَ الْإِصْرَارِ وَالْقَوْلِ مِنْهُم. وفعل { كَانُوا } لِإِفَادَةِ أَنَّ ذَلِكَ دَيْدَنُهُمْ.

الْحِنْثُ: الذَّنْبُ وَالْمَعْصِيَةِ وَمَا يتَخَرَّج مِنْهُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: حَنَثَ فِي يَمِينِهِ، أَيْ: أَهْمَلَ مَا حَلَفَ عَلَيْهِ.

<u>وَيَجُوزُ</u> أَنْ يَكُونَ حِنْثَ الْيَمِينِ، كقوله تعالى { وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِها } [الْأَنْعَام:109]، وَقَدْ جَاءَتْهُمْ آيَةُ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ فَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ.

الْعَظِيمُ: الْقَوِيُّ فِي نَوْعِهِ، أَي: الذَّنْبِ الشَّدِيدِ.

وَالْحِنْثُ الْعَظِيمِ هُوَ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ. قَالَ تَعَالَى { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لُقْمَان:13]. وَفِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ: " قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: **أَنْ تَدْعُوَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ** ".

{ **وَكانُوا يَقُولُونَ أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَ آباؤُنَا الْأَوَّلُونَ** } أي: أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ اسْتِحَالَةَ الْبَعْثِ بَعْدَ تِلْكَ الْحَالَةِ.

{ **أَإِذا مِتْنا** } الِاسْتِفْهَامُ إِنْكَارِيٌّ كِنَايَةٌ عَنِ الْإِحَالَةِ وَالِاسْتِبْعَادِ، نَظِيرُهُ { أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً } [الصَّافَّات:16].

{ **أَوَ آباؤُنَا** } قَرَأَ الْجُمْهُورُ (بِفَتْحِ الْوَاوِ) عَلَى أَنَّهَا وَاوَ عَطْفٍ عَطَفَت اسْتِفْهَامًا عَلَى اسْتِفْهَامٍ، وَقُدِّمَتْ هَمْزَةُ الْإِسْتِفْهَامِ على حرف الْعَطف لِصَدَارَةِ الْإِسْتِفْهَامِ، وَأُعِيدَ الْإِسْتِفْهَامُ تَوْكِيدًا لِلِاسْتِبْعَادِ.

{ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ [49] لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ [50] }.

<u>لمّا جَرَى تَعْلِيلُ</u> مَا يُلَاقِيهِ أَصْحَابُ الشِّمَالِ مِنَ الْعَذَابِ، بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ كُفْرَانِ النِّعْمَةِ، وَكَانَ الْمَقْصُودُ مِنْ ذَلِكَ وَعِيدَ الْمُشْرِكِينَ، وَكَانَ إِنْكَارُهُمُ الْبَعْثَ أَدْخَلَ فِي اسْتِمْرَارِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ، <u>أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ</u> صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنْ يُخَاطِبَهُمْ بِتَحْقِيقِ وُقُوعِ الْبَعْثِ وَشُمُولِهِ لَهُمْ وَلِآبَائِهِمْ وَلِجَمِيعِ النَّاسِ.

{ **قُلْ** } الافْتَتَاحَ بِالْأَمْرِ بِالْقَوْلِ لِلِاهْتِمَامِ بِهِ، ونَظَائِرُهُ كَثِيرَةٌ، لِيَكُونَ ذَلِكَ تَبْلِيغًا عَنِ اللهِ تَعَالَى.

الْأَوَّلِينَ: مَنْ يَصْدُقُ عَلَيْهِ وَصْفُ (أَوَّلٍ) بِالنِّسْبَةِ لِمَنْ بَعْدَهُمْ.

الْآخِرِينَ: مَنْ يَصْدُقُ عَلَيْهِ وَصْفٌ (آخَرُ) بِالنِّسْبَةِ لِمَنْ قبله.

{ **لَمَجْمُوعُونَ** } أي: أَنَّهُمْ يُبْعَثُونَ وَيُحْشَرُونَ جَمِيعًا، وَلَيْسَ الْبَعْثُ عَلَى أَفْوَاجٍ فِي أَزْمَانٍ مُخْتَلِفَةٍ كَمَا كَانَ مَوْتُ النَّاسِ بَلْ يُبْعَثُ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ.

وَهَذَا إِبْطَالٌ لِمَا اقْتَضَاهُ عَطْفُ { أَوَ آباؤُنَا الْأَوَّلُونَ } فِي كَلَامِهِمْ مِنِ اسْتِنْتَاجِ اسْتِبْعَادِ الْبَعْثِ، لِأَنَّهُمْ عَدُّوا سَبْقَ مَنْ سَبِقَ مَوْتُهُمْ أَدُلَّ عَلَى تَعَذُّرِ بَعْثِهِمْ بَعْدَ أَنْ مَضَتْ عَلَيْهِمُ الْقُرُونُ وَلَمْ يُبْعَثْ فَرِيقٌ مِنْهُمْ.

الْمِيقَاتُ: هُنَا لِمَعْنَى الْوَقْتِ وَالْأَجَلِ، وَأَصْلُهُ اسْمُ آلَةٍ لِلْوَقْتِ وَتَوَسَّعُوا فِيهِ فَأَطْلَقُوهُ عَلَى الْوَقْتِ نَفْسِهِ بِحَيْثُ تُعْتَبَرُ الْمِيمُ وَالْأَلِفُ غَيْرَ دَالَّتَيْنِ عَلَى مَعْنًى، وَتَوَسَّعُوا فِيهِ تَوَسُّعًا آخَرَ فَأَطْلَقُوهُ عَلَى مَكَانٍ لِعَمَلٍ مَا. وَلَعَلَّ ذَلِكَ مُتَفَرِّعٌ عَلَى اعْتِبَارِ مَا فِي التَّوْقِيت مِنَ التَّحْدِيدِ وَالضَّبْطِ، وَمِنْهُ مَوَاقِيتُ الْحَجِّ، وَهِيَ أَمَاكِنُ يُحْرِمُ الْحَاجُّ عِنْدَهَا لَا يَتَجَاوَزُهَا. وَمِنْهُ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ: " لَمْ يُوَقِّتْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْخَمْرِ حَدًّا مُعَيَّنًا ".

{ **إِلَى** } ضُمِّن { لَمَجْمُوعُونَ } مَعْنَى مَسُوقُونَ، فَتَعَلَّقَ بِهِ مَجْرُورُهُ بِحَرْفِ (إِلَى) لِلِانْتِهَاءِ، وَإِلَّا فَإِنَّ ظَاهِرَ مَجْمُوعُونَ أَنْ يُعَدَّى بِحَرْفِ (فِي).

{ **مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ** } إِضَافَةُ مِيقاتِ إِلَى يَوْمٍ مَعْلُومٍ لِأَنَّ التَّجَمُّعَ وَاقِعٌ فِي ذَلِك الْيَوْم. وَهَذَا تَعْرِيضٌ بِالْوَعِيدِ بِمَا يَلْقَوْنَهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي جحدوه.

{ **ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ** [51] **لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ** [52] **فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ** [53] **فَشارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ** [54] **فَشارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ** [55] }.

هَذَا مِنْ جُمْلَةِ مَا أُمِرَ النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَقُولَهُ لَهُمْ. وَالْخِطَابُ مُوَجَّهٌ لِلْمَقُولِ إِلَيْهِمْ. فَلَيْسَ فِي هَذَا الْخِطَابِ الْتِفَاتٌ كَمَا قَدْ يُتَوَهَّمُ.

{ **ثُمَّ** } لِلتَّرَاخِي الرُّتَبِيِّ، فَإِنّ فِي التَّصْرِيح بتفصيل جَزَائِهِمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مَا هُوَ أَعْظَمُ وَقْعًا فِي النُّفُوسِ مِنَ التَّعْرِيضِ الْإِجْمَالِيِّ بِالْوَعِيدِ الَّذِي اسْتُفِيدَ مِنْ قَوْلِهِ تعالى { إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ } [50/49].

وَهَذَا التَّرَاخِي الرُّتَبِيُّ مِثْلُ الَّذِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { قُلْ بَلى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِما عَمِلْتُمْ } [التغابن:7]. وهو بِمَنْزِلَةِ الِاعْتِرَاضِ بَيْنَ جُمْلَةِ { إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ } [49] وَجُمْلَةِ { خَلَقْناكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ } [57].

{ **أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ** } فِي نِدَائِهِمْ بِهَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ إِيمَاءً إِلَى أَنَّهُمَا سَبَبُ مَا لَحِقَهُمْ مِنَ الْجَزَاءِ السَّيِّئِ، وَوَصْفُهُمْ بِذَلِكَ نَاظِرٌ إِلَى قَوْلِهِم { أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً } [47].

وَقُدِّم وَصَفُ { الضَّالُّونَ } عَلَى وَصْفِ { الْمُكَذِّبُونَ } مُرَاعَاةً لِتَرْتِيبِ الْحُصُولِ، لِأَنَّهُمْ ضَلُّوا عَنِ الْحَقِّ فَكَذَّبُوا بِالْبَعْثِ، لِيَحْذَرُوا مِنَ الضَّلَالِ وَيَتَدَبَّرُوا فِي دَلَائِلِ الْبَعْثِ، وَذَلِكَ مُقْتَضَى خِطَابِهِمْ بِهَذَا الْإِنْذَارِ بِالْعَذَابِ الْمُتَوَقَّعِ.

{ **لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ** } (مِنْ) الأولى ابْتِدَائِيَّةٌ، أَي: آكِلُونَ أَكْلًا يُؤْخَذُ مِنْ شَجَرِ الزَّقُّومِ، و(مِنْ) الثَّانِيَة بَيَانِيَّةٌ لِأَنَّ الشَّجَرَ هُوَ الْمُسَمَّى بِالزَّقُّومِ.

شَجَرُ الزَّقُّومِ: مِنْ شَجَرِ الْعَذَابِ، تَقَدَّمَ فِي [الدُّخَان:43].

{ **فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ** } يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ (عَلَى) هنا لِلِاسْتِعْلَاءِ، أَيْ: شَارِبُونَ فَوْقَهُ الْحَمِيمَ، وَيَجُوزُ مَعَ ذَلِكَ اسْتِفَادَةُ مَعْنَى (مَعَ) تعجيبا من فظاعة حَالِهِمْ، أَي: يَشْرَبُونَ هَذَا الْمَاءَ الْمُحْرِقَ مَعَ مَا طَعِمُوهُ مِنْ شَجَرِ الزَّقُّومِ الْمَوْصُوفَةِ فِي آيَةٍ أُخْرَى بِأَنَّهَا { يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ } [الدُّخان:46/45]، فَيُفِيدُ أَنَّهُمْ يَتَجَرَّعُونَهُ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ امْتِنَاعًا.

الْحَمِيمُ: الْمَاءُ شَدِيدُ الْغَلَيَانِ، وَتَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ } [الْأَنْعَامِ:70]. وَتَقَدَّمَ قَرِيبًا [42].

{ **فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ** } تَفْظِيعُ حَالِهِمْ فِي جَزَائِهِمْ عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ من الترف فِي الدُّنْيَا بِمَلْءِ بُطُونِهِمْ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ مَلْئًا أَنْسَاهُمْ التَّفَكُّرَ فِي مَصِيرِهِمْ.

{ **مِنْهَا** } وَتَأْنِيثُ ضَمِيرِ الشَّجَرِ هنا لِأَنَّ ضَمَائِرَ الْجَمْعِ لِغَيْرِ الْعَاقِلِ تَأْتِي مُؤَنَّثَةً غَالِبًا. وَأَمَّا ضَمِيرُ {عَلَيْهِ} فَإِنَّمَا جَاءَ بِصِيغَةِ الْمُذَكَّرِ لِأَنَّهُ عَائِدٌ عَلَى الْأَكْلِ الْمُسْتَفَادِ مِنْ قَوْلِهِ تعالى { لَآكِلُونَ }، أَيْ: عَلَى ذَلِكَ الْأَكْلِ، بِتَأْوِيلِ الْمَصْدَرِ بِاسْمِ الْمَفْعُولِ، مِثْلِ الْخَلْقِ بِمَعْنَى الْمَخْلُوقِ.

{ **فَشارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ** } التشبيه لزيادة التفضيع.

{ **فَشَارِبُونَ** } الْفَاءُ عَطْفٌ عَلَى { لَآكِلُونَ } لِإِفَادَةِ تَعْقِيبِ أَكْلِ الزَّقُّومِ بِـ { شُرْبَ الْهِيمِ } دُونَ فَتْرَةٍ وَلَا اسْتِرَاحَةٍ. وَإِعَادَةُ الفعل تَوْكِيدٌ لَفْظِيٌّ لِنَظِيرِهِ، وَفَائِدَتُهُ زِيَادَةُ تَقْرِيرِ مَا فِي هَذَا الشُّرْبِ مِنَ الْأُعْجُوبَةِ وَهِيَ أَنَّهُ مَعَ كَرَاهَتِهِ يَزْدَادُونَ مِنْهُ كَمَا تَرَى الْأَهْيَمَ، فَيَزِيدُهُمْ تَفْظِيعًا لِأَمْعَائِهِمْ، لِإِفَادَةِ التَّعْجِيبِ مِنْ حَالِهِمْ.

الْهِيمُ: جَمْعُ أَهْيَمَ، وَهُوَ الْبَعِيرُ الَّذِي أَصَابَهُ الْهُيَامُ (بِضَمِّ الْهَاءِ)، وَهُوَ دَاءٌ يُصِيبُ الْإِبِلَ يُورِثُهَا حُمَّى فِي الْأَمْعَاءِ فَلَا تَزَالُ تَشْرَبُ وَلَا تُرْوَى. أَي: شَارِبُونَ مِنَ الْحَمِيمِ شُرْبًا لَا يَنْقَطِعُ، فَهُوَ مُسْتَمِرَّةٌ آلَامُهُ.

{ **هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ** } [56].

اعْتِرَاضٌ بَيْنَ جُمَلِ الْخِطَابِ مُوَجَّهٌ إِلَى السَّامِعِينَ غَيْرَهُمْ فَلَيْسَ فِي ضَمِيرِ الْغَيْبَةِ الْتِفَاتٌ.

{ **هَذَا** } إِشَارَةٌ إِلَى مَا ذُكِرَ مِنْ أَكْلِ الزَّقُّومِ وَشُرْبِ الْهِيمِ.

النُّزُلُ: (بِضَمِّ النُّونِ وَضَمِّ الزَّايِ وَسُكُونِهَا) مَا يُقَدَّمُ لِلضَّيْفِ مِنْ طَعَامٍ. وَهُوَ هُنَا تَشْبِيهٌ تَهَكُّمِيٌّ.

{ **يَوْمَ الدِّينِ** } يَوْمَ الْجَزَاءِ.

أَيْ: هَذَا جَزَاؤُهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، نَظِيرَ قَوْلِهِ آنِفًا { جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ } [24].

{ **نَحْنُ خَلَقْناكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ** } [57].

أُعْقِبَ إِبْطَالُ نفيهم الْبَعْث بِالِاسْتِدْلَالِ عَلَى إِمْكَانِهِ وَتَقْرِيبِ كَيْفِيَّةِ الْإِعَادَةِ الَّتِي أَحَالُوهَا، فَاسْتَدَلَّ عَلَى إِمْكَانِ إِعَادَةِ الْخَلْقِ بِأَنَّ اللَّهَ خَلَقَهُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَلَا يَبْعُدُ أَنْ يُعِيدَ خَلْقَهُمْ، قَالَ تَعَالَى { كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ } [الْأَنْبِيَاء:104]، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يُنْكِرُونَ ذَلِكَ، وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ إِثْبَاتَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَهُمْ.

يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْكَلَامُ مِنْ تَمَامِ مَا أُمِرَ النبيّ صلى الله عليه وسلّم بِأَنْ يَقُولَهُ لَهُمْ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اسْتِئْنَافًا مُسْتَقِلًّا. وَالْخِطَابُ عَلَى كِلَا الْوَجْهَيْنِ مُوَجَّهٌ لِلسَّامِعِينَ فَلَيْسَ فِي ضَمِيرِ خَلَقْناكُمْ الْتِفَات.

{ **نَحْنُ** } تقديم الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ عَلَى الْمُسْنَدِ الْفِعْلِيِّ لِإِفَادَةِ تَقَوِّي الْحُكْمَ رَدًّا عَلَى إِحَالَتِهِمْ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ قَادِرًا عَلَى إِعَادَةِ خَلْقِهِمْ بَعْدَ فَنَاءِ مُعْظَمِ أَجْسَادِهِمْ حِينَ يَكُونُونَ تُرَابًا وَعِظَامًا، فَهَذَا تَذْكِيرٌ لَهُمْ بِمَا ذُهِلُوا عَنْهُ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ خلقهمْ أوّل مرّة وَهُوَ الَّذِي يُعِيد خلقهمْ ثَانِي مرّة، فَإِنَّهُم، وَإِن كَانُوا يعلمُونَ أَنّ الله خَلَقَهُمْ، لَمَّا لَمْ يَجْرُوا عَلَى مُوجَبِ ذَلِكَ الْعلم، بإحالتهم إِعَادَة الْخَلْقِ، نُزِّلُوا مَنْزِلَةَ مَنْ يَشُكُّ فِي أَنَّ اللَّهَ خَلَقَهُمْ.

{ **فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ** } فُرِّع على هَذَا التَّذْكِيرِ تَحْضِيضُهُمْ عَلَى التَّصْدِيقِ، أَيْ: بِالْخَلْقِ الثَّانِي وَهُوَ الْبَعْثُ، فَإِنَّ ذَلِكَ هُوَ الَّذِي لَمْ يُصَدِّقُوا بِهِ.

{ **أَفَرَأَيْتُمْ ما تُمْنُونَ** [58] **أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخالِقُونَ** [59] }.

تَفْرِيعٌ عَلَى { نَحْنُ خَلَقْناكُمْ } [57]، أَيْ: تَدَبَّرُوا فِي خَلْقِ النَّسْلِ لِتَعْلَمُوا أَنَّ إِعَادَةَ الْخَلْقِ تُشْبِهُ ابْتِدَاءَهُ.

{ **أَفَرَأَيْتُمْ** } الِاسْتِفْهَامُ لِلتَّقْرِيرِ بِتَعْيِينِ خَالِقِ الْجَنِينِ مِنَ النُّطْفَةِ، إِذْ لَا يَسَعُهُمْ إِلَّا أَنْ يُقِرُّوا بِأَنَّ اللَّهَ خَالِقُ النَّسْلِ مِنَ النُّطْفَةِ وَذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ قُدْرَتَهُ عَلَى مَا هُوَ مِنْ نَوْعِ إِعَادَةِ الْخَلْقِ.

وَفِعْلُ الرُّؤْيَةِ مِنْ بَابِ (ظَنَّ) لِأَنَّهُ لَيْسَ رُؤْيَةَ عَيْنٍ. وَقَالَ الرَّضِيُّ: " لَا يُسْتَعْمَلُ إِلَّا فِي الِاسْتِخْبَارِ عَنْ حَالَةٍ عَجِيبَةٍ لِشَيْءٍ ".

{ **أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ** } ابْتُدِئَ الِاسْتِدْلَالُ بِتَقْدِيمِ هذه الجُمْلَةِ زِيَادَةً فِي إِبْطَالِ شُبْهَتِهِمْ، إِذْ قَاسُوا الْأَحْوَالَ الْمُغَيَّبَةَ عَلَى الْمُشَاهَدَةِ. والقول تَمْهِيدٌ لِلِاسْتِدْلَالِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ هُوَ خَالِقُ الْأَجِنَّةِ بِقُدْرَتِهِ، وَأَنَّ تِلْكَ الْقُدْرَة لَا تقصر عَنِ الْخَلْقِ الثَّانِي عِنْدَ الْبَعْثِ.

وَقَدْ حَصَلَ مِنْ نَفْيِ الْخَلْقِ عَنْهُمْ وَإِثْبَاتِهِ لِلَّهِ تَعَالَى مَعْنَى قَصْرِ الْخَلْقِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى.

{ **أَمْ نَحْنُ الْخالِقُونَ** } زِيَادَةً فِي تَقْرِيرِ إِسْنَادِ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ. وَيَجُوزُ أَنْ نَجْعَلَ { أَمْ } مُنْقَطِعَةً بِمَعْنَى (بَلْ) لِأَنَّ الِاسْتِفْهَامَ لَيْس بِحَقِيقِيٍّ، فَلَيْسَ مِنْ غَرَضِهِ طَلَبُ تَعْيِينِ الْفَاعِلِ، وَيَكُونُ الكَلَامُ قَدْ تَمَّ عِنْدَ قَوْلِهِ تعالى { تَخْلُقُونَهُ }. وَالْمَعْنَى: أَتَظُنُّونَ أَنْفُسَكُمْ خَالِقِينَ النَّسَمَةَ مِمَّا تَمْنُونَ.

{ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ [60] عَلى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ [61] }.

{ **نَحْنُ قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ** } اسْتِدْلَالٌ بِإِمَاتَةِ الْأَحْيَاءِ عَلَى أَنَّهَا مَقْدُورَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى، وهم مُوقِنُونَ بِهَا وَخاضعون لها، فَإِنَّ الَّذِي قَدِرَ عَلَى خَلْقِ الْمَوْتِ بَعْدَ الْحَيَاةِ قَادِرٌ عَلَى الْإِحْيَاءِ بَعْدَ الْمَوْتِ، إِذِ الْقُدْرَةُ عَلَى حُصُولِ شَيْءٍ تَقْتَضِي الْقُدْرَةَ عَلَى ضِدِّهِ، فَوَضَحَ دَلِيلُ إِمْكَانِ الْبَعْثِ، وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى { وَهُوَ الَّذِي أَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ } [الْحَج:66].

ثمَّ هُوَ مَعَ ذَلِك تَنْبِيه على أَنّ الْمَوْت جعله الله طورا من أطوار الْإِنْسَان لحكمة الِانْتِقَال بِهِ إِلَى الْحَيَاة الأبدية بعد إعداده لَهَا، لِتَتِمَّ الْمُنَاسبَةُ بَين ذَلِك الْعَالم وَبَين عامريه. وَقد مضى الْكَلَام على ذَلِك عِنْد تَفْسِير قَوْله تَعَالَى { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لَا تُرْجَعُونَ } [الْمُؤمنِينَ:115].

{ **قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ** } جِيءَ بِهذا التَّعْبِيرِ دُونَ: نَحْنُ نُمِيتُكُمْ، لإفادة أَنَّ الْمَوْتَ مَجْعُولٌ عَلَى تَقْدِيرٍ مَعْلُومٍ مُرَادٍ، مَعَ مَا فِي مَادَّةِ { قَدَّرْنَا } مِنَ التَّذْكِيرِ بِالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ لِتَتَوَجَّهَ أَنْظَارُ الْعُقُولِ إِلَى مَا فِي طَيِّ ذَلِكَ مِنْ دَقَائِقَ وَهِيَ كَثِيرَةٌ، وَخَاصَّةٌ فِي تَقْدِيرِ مَوْتِ الْإِنْسَانِ الَّذِي هُوَ سَبِيلٌ إِلَى الْحَيَاةِ الْكَامِلَةِ إِنْ أَخَذَ لَهَا أَسْبَابَهَا.

{ **بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ** } اسْتِعَارَةٌ مَكْنِيَّةٌ إِذْ شُبِّهَ الْمَوْتُ بِمَقْسُومٍ وَرُمِزَ إِلَى الْمُشَبَّهِ بِهِ بِكَلِمَةِ { بَيْنَكُمُ } الشَّائِعِ اسْتِعْمَالُهَا فِي الْقِسْمَةِ. وَفِي هَذِهِ الْإِسْتِعَارَةِ كِنَايَةٌ عَنْ كَوْنِ الْمَوْتِ فَائِدَةً وَمَصْلَحَةً لِلنَّاسِ؛ أَمَّا فِي الدُّنْيَا لِئَلَّا تَضِيقَ بِهِمُ الْأَرْضُ وَالْأَرْزَاقُ، وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَلِلْجَزَاءِ الْوِفَاقِ.

{ **وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ** } هَذَا نَتِيجَةٌ لِمَا سَبَقَ مِنَ الْإِسْتِدْلَالِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى الْإِحْيَاءِ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَكَانَ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ أَنْ يُعْطَفَ بِـ (فَاءِ التَّفْرِيعِ) وَيُتْرَكَ عَطْفُهُ فَعَدَلَ عَنِ الْأَمْرَيْنِ، وَعُطِفَ بِـ (الْوَاوِ) عَطْفَ الْجُمَلِ فَيَكُونُ جُمْلَةً مُسْتَقِلَّةً مَقْصُودًا لِذَاتِهِ لِأَنَّ مَضْمُونَهُ يُفِيدُ النَّتِيجَةَ، وَيُفِيدُ تَعْلِيمًا اعْتِقَادِيًّا، فَيَحْصُلُ الْإِعْلَامُ بِهِ تَصْرِيحًا وَتَعْرِيضًا؛

فَالصَّرِيحُ مِنْهُ التَّذْكِيرُ بِتَمَامِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَنَّهُ لَا يَغْلِبُهُ غَالِبٌ وَلَا تَضِيقُ قُدْرَتُهُ عَنْ شَيْءٍ، وَأَنَّهُ يُبَدِّلُهُمْ خَلْقًا آخَرَ فِي الْبَعْثِ مُمَاثِلًا لِخَلْقِهِمْ فِي الدُّنْيَا.

وَيُفِيدُ تَعْرِيضًا بِالتَّهْدِيدِ بِاسْتِئْصَالِهِمْ وَتَعْوِيضِهِمْ بِأُمَّةٍ أُخْرَى، كَقَوْلِهِ تَعَالَى { إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ } [إِبْرَاهِيم:20/19]. وَلَوْ جِيءَ بِالْفَاءِ لَضَاقَتْ دلَالَة الْكَلَام عَن الْمَعْنَيَيْنِ الْآخَرَيْنِ.

السَّبْقُ: مَجَازٌ مِنَ الْغَلَبَةِ وَالتَّعْجِيزِ لِأَنَّ السَّبْقَ يَسْتَلْزِمُ أَنَّ السَّابِقَ غَالِبٌ لِلْمَسْبُوقِ. فَالْمَعْنَى: وَمَا نَحْنُ بِمَغْلُوبِينَ.

{ **عَلى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ** } يَتَعَلَّقُ { بِمَسْبُوقِينَ }، لِأَنَّهُ يُقَالُ: غَلَبَهُ عَلَى كَذَا، إِذَا حَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَوَالِهِ. وَأَصْلُهُ: غَلَبَهُ عَلَى كَذَا، أَيْ: تَمَكَّنَ مِنْ كَذَا دُونَهُ. وَيَكُونُ الْوَقْفُ عَلَى قَوْلِهِ تعالى { أَمْثالَكُمْ }.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ { عَلى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ } فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنْ ضمير { قَدَّرْنا } [60]، أَيْ: قَدَّرْنَا الْمَوْتَ عَلَى أَنْ نُحْيِيَكُمْ فِيمَا بَعْدُ، إِدْمَاجًا لِإِبْطَالِ قَوْلِهِمْ { أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ } [47]، فَتَكُونُ {عَلَى} بِمَعْنَى (مَعَ) وَتَكُونُ حَالًا مُقَدَّرَةً. وَيَكُونُ مُتَعَلِّقُ (مَسْبُوقِينَ) مَحْذُوفًا دَالًّا عَلَيْهِ الْمَقَامُ، أَيْ: مَا نَحْنُ بِمَغْلُوبِينَ فِيمَا قَدَّرْنَاهُ مِنْ خَلْقِكُمْ وَإِمَاتَتِكُمْ، وَيُجْعَلُ الْوَقْفُ على قوله تعالى { بِمَسْبُوقِينَ }.

{ **أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ** } نُبَدِّلُ بِكُمْ أَمْثَالَكُمْ، أَيْ: نَجْعَلُ أَمْثَالَكُمْ بَدَلًا.

الْأَمْثَالُ: جَمْعُ (مِثْلٍ) وَهُوَ النَّظِيرُ، أَيْ: نَخْلُقُ ذَوَاتٍ مُمَاثِلَةٍ لِذَوَاتِكُمُ الَّتِي كَانَتْ فِي الدُّنْيَا وَنُودِعُ فِيهَا أَرْوَاحَكُمْ. وَهَذَا يُؤْذِنُ بِأَنَّ الْإِعَادَةَ عَنْ عَدَمٍ لَا عَنْ تَفْرِيقٍ. وَقَدْ تَرَدَّدَ فِي تَعْيِينِ ذَلِكَ عُلَمَاءُ السُّنَّةِ وَالْكَلَامِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُفِيدَ مَعْنَى التَّهْدِيدِ بِالِاسْتِئْصَالِ، أَيْ: لَوْ شِئْنَا اسْتِئْصَالَكُمْ لَمَا أَعْجَزْتُمُونَا، فَيَكُونُ إِدْمَاجًا لِلتَّهْدِيدِ فِي أَثْنَاءِ الِاسْتِدْلَالِ وَيَكُونُ مِنْ بَابِ قَوْلِهِ تَعَالَى { إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ } [إِبْرَاهِيم:19].

{ **وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ** } عَطْفٌ عَلَى نُبَدِّلَ، أَيْ مَا نَحْنُ بِمَغْلُوبِينَ عَلَى إِنْشَائِكُمْ.

وَهَذَا الْعَطْفُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَطْفَ مُغَايِرٍ بِالذَّاتِ فَيَكُونُ إِنْشَاؤُهُمْ شَيْئًا آخَرَ غَيْرَ تَبْدِيلِ أَمْثَالِهِمْ.

أَيْ: نَحْنُ قَادِرُونَ عَلَى الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا، فَتَبْدِيلُ أَمْثَالِهِمْ: خَلْقُ أَجْسَادٍ أُخْرَى تُودَعُ فِيهَا الْأَرْوَاحُ.

وَأَمَّا إِنْشَاؤُهُمْ: فَهُوَ نَفْخُ الْأَرْوَاحِ فِي الْأَجْسَادِ الْمَيِّتَةِ الْكَامِلَةِ وَفِي الْأَجْسَادِ الْبَالِيَةِ بَعْدَ إِعَادَتِهَا بِجَمْعِ مُتَفَرِّقِهَا أَوْ بِإِنْشَاءِ أَمْثَالِهَا مِنْ ذَوَاتِهَا مِثْلِ (عَجْبِ الذَّنَبِ).

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ عَطْفَ مُغَايِرٍ بِالْوَصْفِ بِأَنْ يُرَادَ الْإِشَارَةُ إِلَى كَيْفِيَّةِ التَّبْدِيلِ إِشَارَةٌ عَلَى وَجْهِ الْإِبْهَامِ.

وَعُطِفَ بِـ (الْوَاوِ) دُونَ (الْفَاءِ) لِأَنَّهُ بِمُفْرَدِهِ تَصْوِيرٌ لِقُدْرَةِ الله تَعَالَى وحكمته بعد مَا أَفَادَهُ قَوْلُهُ تعالى { أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ } مِنْ إِثْبَاتِ أَنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى الْبَعْثِ.

{ **فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ** } الـ (مَا) هنا صَادِقَةٌ عَلَى الْكَيْفِيَّةِ، أَوِ الْهَيْئَةِ الَّتِي يَتَكَيَّفُ بِهَا الْإِنْشَاءُ، أَيْ: فِي كَيْفِيَّةٍ لَا تَعْلَمُونَهَا، إِذْ لَمْ تُحِيطُوا عِلْمًا بِخَفَايَا الْخِلْقَةِ. وَهَذَا الْإِجْمَالُ جَامِعٌ لِجَمِيعِ الصُّوَرِ الَّتِي يَفْرِضُهَا الْإِمْكَانُ فِي بَعْثِ الْأَجْسَادِ لِإِيدَاعِ الْأَرْوَاحِ.

{ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ }. [62].

أُعْقِبَ دَلِيلُ إِمْكَانِ الْبَعْثِ، الذي جيء به لِلتَّنْبِيهِ عَلَى صَلَاحِيَّةِ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ لِذَلِكَ وَلِسَدِّ مَنَافِذِ الشُّبْهَةِ، بِدَلِيلٍ مِنْ قِيَاسِ التَّمْثِيلِ، وَهُوَ تَشْبِيهُ النَّشْأَةِ الثَّانِيَةِ بِالنَّشْأَةِ الْأُولَى، الْمَعْلُومَةِ عِنْدَهُمْ بِالضَّرُورَةِ، فَنُبِّهُوا لِيَقِيسُوا عَلَيْهَا النَّشْأَةَ الثَّانِيَةَ فِي أَنَّهَا إِنْشَاءٌ مِنْ أَثَرِ قُدْرَةِ اللهِ وَعِلْمِهِ، وَفِي أَنَّهُمْ لَا يُحِيطُونَ عِلْمًا بِدَقَائِقِ حُصُولِهَا.

{ **وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى** } الْعِلْمُ الْمُثْبَتُ هنا هُوَ الْعِلْمُ الْإِجْمَالِيُّ، وَالْإِجْمَالِيُّ كَافٍ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى التَّفْصِيلِيِّ إِذْ لَا أَثَرَ لِلتَّفْصِيلِ فِي الِاعْتِقَادِ. والْعِلْمُ الْمَنْفِيُّ فِي قَوْله تعالى { مَا لَا تَعْلَمُونَ } [61]، هُوَ الْعِلْمُ التَّفْصِيلِيُّ.

وَفِي الْمُقَابَلَةِ بين قَوْله تعالى { فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ } وَقَوْلِهِ تعالى { وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ } مُحَسِّنُ الطِّبَاقَ.

{ **فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ** } لَمَّا كَانَ عِلْمُهُمْ بِالنَّشْأَةِ الْأُولَى كَافِيًا لَهُمْ فِي إِبْطَالِ إِحَالَتِهِمُ النَّشْأَةَ الثَّانِيَةَ رَتَّبَ عَلَيْهِ مِنَ التَّوْبِيخِ مَا لَمْ يُرَتِّبْ مِثْلَهُ عَلَى قَوْلِهِ السابق { وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ } [61/60]. أَيْ هَلَّا تَذَكَّرْتُمْ بِذَلِكَ فَأَمْسَكْتُمْ عَنِ الْجَحْدِ، وَهَذَا تَجْهِيلٌ لَهُمْ فِي تَرْكِهِمْ قِيَاسَ الْأَشْبَاهِ عَلَى أَشْبَاهِهَا، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ آنِفًا { نَحْنُ خَلَقْناكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ } [57].

{ **تَذَكَّرُونَ** } جِيءَ بِالْمُضَارِعِ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ بَابَ التَّذَكُّرِ مَفْتُوحٌ فَإِنْ فَاتَهُمُ التَّذَكُّرُ فِيمَا مَضَى فَلْيَتَدَارَكُوهُ الْآنَ.

{ **أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ** [63] **أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ** [64] }.

انْتِقَالٌ إِلَى دَلِيلٍ آخَرَ عَلَى إِمْكَانِ الْبَعْثِ وَصَلَاحِيَةِ قُدْرَةِ اللَّهِ لَهُ بِضَرْبٍ آخَرَ مِنْ ضُرُوبِ الْإِنْشَاءِ بَعْدَ الْعَدَمِ.

{ **أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ** } يجوز أن تكون الْفَاءُ لِتَفْرِيعِ مَا بَعْدَهَا عَلَى جُمْلَةِ { نَحْنُ خَلَقْناكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ } [57]، كَمَا فُرِّعَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ تعالى { أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ }، لِيَكُونَ الْغَرَضُ مِنْ هَذِهِ الْجُمَلِ مُتَّحِدًا وَهُوَ الِاسْتِدْلَالُ عَلَى إِمْكَانِ الْبَعْثِ، وَإِنْ كَانَ مَفْعُولُ فِعْلِ الرُّؤْيَةِ مُخْتَلِفًا، وَسَيَجِيءُ نَظِيرُهُ فِي قَوْلِهِ بَعْدَهُ { أَفَرَأَيْتُمُ الْماءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ } [68]، وَقَوْلِهِ تعالى { أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ } [71].

وَإِنْ شِئْتَ جَعَلْتَ الْفَاءَ لِتَفْرِيعِ مُجَرَّدِ اسْتِدْلَالٍ على اسْتِدْلَالٍ. عَلَى أَنَّهُ لَمَّا آلَ الِاسْتِدْلَالُ السَّابِقُ إِلَى عُمُومِ صَلَاحِيَّةِ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ جَازَ أَيْضًا أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْجُمْلَةُ مُرَادًا بِهَا تَمْثِيلٌ بِنَوْعٍ عَجِيبٍ مِنْ أَنْوَاعِ تَعَلُّقَاتِ الْقُدْرَةِ بِالْإِيجَادِ دُونَ إِرَادَةِ الِاسْتِدْلَالِ عَلَى خُصُوصِ الْبَعْثِ، فَيَصِحُّ جَعْلُ الْفَاءِ تَفْرِيعًا عَلَى جُمْلَةِ { أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ } مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا اقْتَضَتْ سِعَةَ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ.

وَمُنَاسِبَةُ الِانْتِقَالِ مِنَ الِاسْتِدْلَالِ بِخَلْقِ النَّسْلِ إِلَى الِاسْتِدْلَالِ بِنَبَاتِ الزَّرْعِ هِيَ التَّشَابُهُ الْبَيِّنُ بَيْنَ تَكْوِينِ الْإِنْسَانِ وَتَكْوِينِ النَّبَاتِ، قَالَ تَعَالَى { وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتًا } [نوح:17].

الْحَرْثُ: شَقُّ الْأَرْضِ لِيُزْرَعَ فِيهَا أَوْ يُغْرَسَ.

{ **مَا تَحْرُثُونَ** } ظَاهِرُ القول أنّ المقصود الْأَرْض إِلَّا أَنَّ هَذَا لَا يُلَائِمُ ضَمِيرَ { تَزْرَعُونَهُ } فَتَعَيَّنَ تَأْوِيلُ مَا تَحْرُثُونَ بِأَنْ يُقَدَّرَ: مَا تَحْرُثُونَ لَهُ، أَيْ: لِأَجْلِهِ، عَلَى طَرِيقَةِ الْحَذْفِ وَالْإِيصَالِ، وَالَّذِي يَحْرُثُونَ لِأَجْلِهِ هُوَ النَّبَاتُ، وَقَدْ دَلَّ عَلَى هَذَا ضَمِيرُ النَّصْبِ فِي { أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ } لِأَنَّهُ اسْتِفْهَامٌ فِي مَعْنَى النَّفْيِ وَالَّذِي يُنْفَى هُوَ مَا يَنْبُتُ مِنَ الْحَبِّ لَا بَذْرُهُ.

{ **أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ** } بَيَانٌ لِلْجُمْلَةِ السابقة، كَمَا تَقَدَّمَ فِي { أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ } [59].

وَالِاسْتِفْهَامُ إِنْكَارِيٌّ كالذي تقدّم.

{ أَمْ } مُنْقَطِعَةٌ لِلْإِضْرَابِ، كَنَظِيرَتِهَا مِنْ قَوْلِهِ تعالى { أَمْ نَحْنُ الْخالِقُونَ } [59].

وَكَذَلِكَ الْقَوْلُ فِي تَقْدِيمِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ عَلَى الْخَبَرِ الْفِعْلِيِّ.

{ **نَحْنُ الزَّارِعُونَ** } كَذَلِكَ الْقَوْلُ فِي نَفْيِ الزَّرْعِ عَنْهُمْ وَإِثْبَاتِهِ لِلَّهِ تَعَالَى يُفِيدُ مَعْنَى قَصْرِ الْإِنْبَاتِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ قَصْرُ مُبَالَغَةٍ لِعَدَمِ الِاعْتِدَادِ بِزَرْعِ النَّاسِ.

{ **لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْناهُ حُطاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ [65] إِنَّا لَمُغْرَمُونَ [66] بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ [67]** }.

مَوْقِعُ هذه الجملة كَمَوْقِعِ جُمْلَةِ { نَحْنُ قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ } [60]، فِي أَنَّهَا اسْتِدْلَالٌ عَلَى انْفِرَادِهِ سبحانه بِالتَّصَرُّفِ إيجَادا وإعدامًا، تَكْمِلَةً لِدَلِيلِ إِمْكَانِ الْبَعْثِ.

{ **لَجَعَلْناهُ** } اللَّامُ مُفِيدَةٌ لِلتَّأْكِيدِ. وَيَكْثُرُ اقْتِرَانُ جَوَابِ (لَوْ) بِهَذِهِ اللَّامِ إِذَا كَانَ مَاضِيًا مُثْبَتًا، كَمَا يَكْثُرُ تَجَرُّدُهُ عَنْهَا كَمَا سَيَجِيءُ فِي الْآيَةِ الْمُوَالِيَةِ لِهَذِهِ.

الْحُطَامُ: الشَّيْءُ الَّذِي حَطَّمَهُ حَاطِمٌ، أَيْ: كَسَّرَهُ وَدَقَّهُ، فَهُوَ بِمَعْنَى الْمَحْطُومِ.

<u>الْمَعْنَى</u>: لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مَا يَنْبُتُ بَعْدَ خُرُوجِهِ مِنَ الْأَرْضِ حُطَامًا بِأَنْ نُسَلِّطَ عَلَيْهِ مَا يُحَطِّمُهُ مِنْ بَرَدٍ أَوْ رِيحٍ أَوْ حَشَرَاتٍ، فَالْمُرَادُ جَعْلُهُ حُطَامًا قَبْلَ الِانْتِفَاعِ بِهِ.

{ **فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ** } تَفْرِيعٌ عَلَى جُمْلَةِ { لَجَعَلْناهُ حُطاماً }.

{ **فَظَلْتُمْ** } هُنَا بِمَعْنَى: صِرْتُمْ، أي: صرتم تقولون. وَعَلَى هَذَا حَمَلَهُ جَمِيعُ الْمُفَسِّرِينَ.

{ **تَفَكَّهُونَ** } أَعْضَلَ وَقْعُ هذا الفِعْلِ، فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ وَابْنِ زَيْدٍ: تَفَكَّهُونَ تَعْجَبُونَ، وَعَنْ عِكْرِمَةَ: تَتَلَاوَمُونَ، وَعَنِ الْحَسَنِ وَقَتَادَةَ: تَنْدَمُونَ، وَقَالَ ابْنُ كَيْسَانَ: تَحْزَنُونَ، وَقَالَ الْكِسَائِيُّ: هُوَ تَلَهُّفٌ عَلَى مَا فَاتَ، وَالفِعْلُ مِنَ الْأَضْدَادِ، تَقُولُ الْعَرَبُ: تَفَكَّهْتُ، أَي: تَنَعَّمْتُ، وَتَفَكَّهْتُ، أَي: حَزِنْتُ.

ذَلِكَ أَنَّ فِعْلَ { تَفَكَّهُونَ } مِنْ مَادَّةِ فَكِهَ وَالْمَشْهُورُ أَنَّ هَذِهِ الْمَادَّةَ تَدُلُّ عَلَى الْمَسَرَّةِ وَالْفَرَحِ وَلَكِنَّ السِّيَاقَ سِيَاقُ ضِدِّ الْمَسَرَّةِ، وَبَيَانُهُ بِقَوْلِهِ تعالى { إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ }.

{ **إِنَّا لَمُغْرَمُونَ** } تَنَدُّمٌ وَتَحَسُّرٌ. أَيْ: تَعْلَمُونَ أَنَّ حَطْمَ زَرْعِكُم حرمَان مِنَ اللَّهِ جَزَاءً لكفركم.

مُغْرَمُونَ: مِنَ الْغَرَامِ وَهُوَ الْهَلَاكُ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { إِنَّ عَذابَها كانَ غَراماً } [65]. وَهَذَا شَبِيهٌ بِمَا فِي سُورَةِ الْقَلَمِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى { فَلَمَّا رَأَوْها قالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ - إِلَى قَوْلِهِ - إِنَّا كُنَّا طاغِينَ } [الْقَلَم:26-31].

<u>فَيَجُوزُ</u> أَنْ يَكُونَ المعنى جَارِيًا عَلَى ظَاهِرِ مَادَّةِ { تَفَكَّهُونَ } وَيَكُونُ ذَلِكَ تَهَكُّمًا بِهِمْ حَمْلًا لَهُمْ عَلَى مُعْتَادِ أَخْلَاقِهِمْ مِنَ الْهَزْلِ بِآيَاتِ اللهِ، وَقَرِينَةُ التَّهَكُّمِ مَا بَعْدَهُ مِنْ قَوْلِهِ عَنْهُمْ { إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ }.

<u>وَيَجُوزُ</u> أَنْ يَكُونَ مَحْمَلُ الْآيَةِ عَلَى جَعْلِ { تَفَكَّهُونَ } بِمَعْنَى تَنْدَمُونَ وَتَحْزَنُونَ.

{ **أَفَرَأَيْتُمُ الْماءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ [68] أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ [69]** }.

هَذَا عَلَى طَرِيقَةِ قَوْلِهِ تعالى { أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ } [63]، تَفْرِيعًا وَاسْتِفْهَامًا، وَفِعْلَ رُؤْيَةٍ.

<u>وَمُنَاسَبَةُ الِانْتِقَالِ</u> أَنَّ الْحَرْثَ إِنَّمَا يَنْبُتُ زَرْعُهُ وَشَجَرُهُ بِالْمَاءِ فَانْتَقَلَ مِنَ الِاسْتِدْلَال بتكوين النَّبَاتِ إِلَى الِاسْتِدْلَالِ بِتَكْوِينِ الْمَاءِ الَّذِي بِهِ حَيَاةُ الزَّرْعِ وَالشَّجَرِ.

{ **الَّذِي تَشْرَبُونَ** } وَصْفُ الْمَاءِ بِذَلِكَ إِدْمَاجٌ لِلْمِنَّةِ فِي الِاسْتِدْلَالِ، أَي: الْمَاءُ الْعَذْبُ الَّذِي تَشْرَبُونَهُ، فَإِنَّ شُرْبَ الْمَاءِ مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ عَلَى الْإِنْسَانِ، لِيُقَابَلَ بِقَوْلِهِ بَعْدَهُ { لَوْ نَشاءُ جَعَلْناهُ أُجاجاً فَلَوْلا تَشْكُرُونَ } [70].

{ **أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ** } أي: أَنْزَلْتُمُوهُ عَلَى بِلَادِكُمْ وَحُرُوثِكُمْ. وَمَاءُ الْمَطَرِ هُوَ مُعْظَمُ شَرَابِ الْعَرَبِ الْمُخَاطَبِينَ حِينَئِذٍ، وَلِذَلِكَ يُقَالُ لِلْعَرَبِ: بَنُو مَاءِ السَّمَاءِ.

المُزن: اسْم جَمْعُ مُزْنَةٍ وَهِيَ السَّحَابَةُ.

<u>وَوَجْهُ الِاسْتِدْلَالِ</u> إِنْشَاءُ مَا بِهِ الْحَيَاةُ بَعْدَ أَنْ كَانَ مَعْدُومًا. أَيْ: يَجُوزُ أَنْ يُمْطِرَ اللَّهُ مَطَرًا عَلَى ذَوَاتِ الْأَجْسَادِ الْإِنْسَانِيَّةِ يَكُونُ سَبَبًا فِي تَخَلُّقِهَا أَجْسَادًا كَامِلَةً كَمَا كَانَتْ أُصُولُهَا، كَمَا تَتَكَوَّنُ الشَّجَرَةُ مِنْ نَوَاةِ أَصْلِهَا.

{ لَوْ نَشاءُ جَعَلْناهُ أُجاجاً فَلَوْلا تَشْكُرُونَ } [70].

مَوْقِعُهَا كَمَوْقِعِ جُمْلَةِ { لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْناهُ حُطاماً } [65]، وَالْمَعْنَى: لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ غَيْرَ نَافِعٍ لَكُمْ.

فَهَذَا اسْتِدْلَالٌ بِأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى نَقْضِ مَا فِي الْمَاءِ مِنَ الصَّلَاحِيَّةِ لِلنَّفْعِ بَعْدَ وُجُودِه.

{ **جَعَلْناهُ** } حُذِفَتْ اللَّامُ الَّتِي شَأْنُهَا أَنْ تَدْخُلَ عَلَى جَوَابِ (لَوْ) الْمَاضِي الْمُثْبَتِ لِأَنَّهَا لَامٌ زَائِدَةٌ لَا تُفِيدُ إِلَّا التَّوْكِيدَ، فَكَانَ حَذْفُهَا إيجازا فِي الْكَلَام.

{ **فَلَوْلا تَشْكُرُونَ** } امْتِنَانٌ، تَحْضِيضًا لَهُمْ عَلَى الشُّكْرِ وَنَبْذِ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ.

{ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ [71] أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُنَ [72] }.

هُوَ مِثْلُ سَابِقِهِ فِي نَظْمِ الْكَلَامِ.

<u>وَمُنَاسَبَةُ الِانْتِقَالِ</u> مِنَ الِاسْتِدْلَالِ بِخَلْقِ الْمَاءِ إِلَى الِاسْتِدْلَالِ بِخَلْقِ النَّارِ هِيَ مَا تَقَدَّمَ فِي مُنَاسَبَةِ الِانْتِقَالِ إِلَى خَلْقِ الْمَاءِ مِنَ الِاسْتِدْلَالِ بِخَلْقِ الزَّرْعِ وَالشَّجَرِ، فَإِنَّ النَّارَ تَخْرُجُ مِنَ الشَّجَرِ بِالِاقْتِدَاحِ وَتُذَكَّى بِالشَّجَرِ.

وَهَذَا اسْتِدْلَال عَلَى تَقْرِيبِ كَيْفِيَّةِ الْإِحْيَاءِ لِلْبَعْثِ مِنْ حَيْثُ إِنَّ الِاقْتِدَاحَ إِخْرَاجٌ، وَالزَّنْدُ الَّذِي بِهِ إِيقَادُ النَّارِ يَخْرُجُ مِنْ أَعْوَادٍ مَيِّتَةٍ.

{ **الَّتِي تُورُونَ** } إِدْمَاجٌ لِلِامْتِنَانِ فِي الِاسْتِدْلَالِ بِمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تعالى { أَفَرَأَيْتُمُ الْماءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ } [68].

وَهُوَ أَيْضًا وَصْفٌ لِلْمَقْصُودِ مِنَ الدَّلِيلِ وَهُوَ النَّارُ الَّتِي تَقْتَدِحُ مِنَ الزَّنْدِ لَا النَّارُ الْمُلْتَهِبَةُ.

تُورُونَ: مُضَارِعُ أَوْرَى الزَّنْدَ إِذَا حَكَّهُ بِمِثْلِهِ لِيَسْتَخْرِجَ مِنْهُ النَّارَ، كَانُوا يَضَعُونَ عُودًا مِنْ (شَجَرِ النَّارِ) وَيَحُكُّونَهُ مِنْ أَعْلَاهُ بِعُودٍ مِثْلِهِ فَتَخْرُجُ النَّارُ مِنَ الْعُودِ الْأَسْفَلِ وَيُسَمَّى الْعُودُ الْأَعْلَى زَنْدًا (بِفَتْحِ الزَّايِ وَسُكُونِ النُّونِ) وَزِنَادًا (بِكَسْرِ الزَّايِ) وَيُسَمَّى الْأَسْفَلُ زَنْدَةً (بِهَاءِ تَأْنِيثٍ فِي آخِرِهِ)، شَبَّهُوا الْعُودَ الْأَعْلَى

بِالْفَحْلِ وَشَبَّهُوا الْعُودَ الْأَسْفَلَ بِالطَّرُوقَةِ.

وَتَعْدِيَةُ تُورُونَ إِلَى ضَمِيرِ النَّارَ تَعْدِيَةً عَلَى تَقْدِيرِ مُضَافٍ، أَيْ: تُورُونَ شَجَرَتَهَا، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تعالى { أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها }، وَقد شَاعَ هَذَا الْحَذْفُ فِي الْكَلَامِ، فَقَالُوا: أَوْرَى النَّارَ، كَمَا قَالُوا: أَوَرَى الزِّنَادَ.

{ **شَجَرَتَهَا** } الضمِيرُ عَائِدٌ إِلَى النَّارِ.

شَجَرَةُ النَّارِ: هِيَ جِنْسُ الشَّجَرِ الَّذِي فِيهِ حُرَّاقٌ، أَيْ: مَا يُقْتَدَحُ مِنْهُ النَّارَ، وَهُوَ شَجَرُ الزَّنْدِ أَوِ الزِّنَادِ، وَأَشْجَارُ النَّارِ كَثِيرَةٌ مِنْهَا الْمَرْخُ (بِفَتْحٍ فَسُكُونٍ) وَالْعَفَارُ (بِفَتْحِ الْعَيْنِ) وَالْعُشَرُ (بِضَمٍّ فَفَتْحٍ) وَالْكَلْخُ (بِفَتْحٍ فَسُكُونٍ).

{ **أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُنَ** } بَيَانٌ لِجُمْلَةِ { أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ }، كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تعالى { أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ } [59].

{ نَحْنُ جَعَلْناها تَذْكِرَةً وَمَتاعاً لِلْمُقْوِينَ } [73].

بَدَلُ اشْتِمَالٍ مِنْ جُمْلَةِ { أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُنَ } [72]، أَيْ: إِنَّ إِنْشَاءَ النَّارِ كَانَ لِفَوَائِدَ وَحِكَمًا مِنْهَا أَنْ تَكُونَ تَذْكِرَةً لِلنَّاسِ يَذْكُرُونَ بِهَا نَارَ جَهَنَّمَ.

الْمَتَاعُ: أَيْ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ زَمَانًا، وَتَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تعالى { قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ } [النِّسَاءِ:77].

الْمُقْوِي: الدَّاخِلُ فِي الْقَوَاءِ (بِفَتْحِ الْقَافِ وَالْمَدِّ) وَهِيَ الْقَفْرُ، وَيُطْلَقُ الْمُقْوِي عَلَى الْجَائِعِ، لِأَنَّ جَوْفَهُ أقوت، أَي: خلت مِنَ الطَّعَامِ إِذْ كِلَا الْفِعْلَيْنِ مُشْتَقٌّ مِنَ الْقَوَى وَهُوَ الْخَلَاءُ. فَإِيثَارُ هَذَا الْوَصْفِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لِيَجْمَعَ الْمَعْنَيَيْنِ، فَإِنَّ النَّارَ مَتَاعٌ لِلْمُسَافِرِينَ يَسْتَضِيئُونَ بِهَا فِي مَنَاخِهِمْ وَيَصْطَلُّونَ بِهَا فِي الْبَرْدِ وَيَرَاهَا السَّائِرُ لَيْلًا فِي الْقَفْرِ فَيَهْتَدِي إِلَى مَكَانِ النُّزُلِ فَيَأْوِي إِلَيْهِمْ، وَمَتَاعٌ لِلْجَائِعِينَ يَطْبُخُونَ بِهَا طَعَامَهُمْ فِي الْحَضَرِ وَالسَّفَرِ. وَهَذَا إدماج للامتنان فِي خِلَالِ الِاسْتِدْلَالِ.

{ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ } [74].

رُتِّبَ عَلَى مَا مَضَى مِنَ الْكَلَامِ الْمُشْتَمِلِ عَلَى دَلَائِلِ عَظَمَةِ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ، وَعَلَى أَمْثَالٍ لِتَقْرِيبِ الْبَعْثِ الَّذِي أَنْكَرُوا خَبَرَهُ، وَعَلَى جَلَائِلِ النِّعَمِ الْمُدْمَجَةِ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ، أَنْ أَمَرَ اللهُ رَسُولَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنْ يُنَزِّهَهُ تَنْزِيهًا خَاصًّا، فَإِنَّ لِلْعِبَادَاتِ مَوَاقِعَ تَكُونُ هِيَ فِيهَا أَكْمَلَ مِنْهَا فِي دُونِهَا، فَيَكُونُ لَهَا مِنَ الْفَضْلِ مَا يُجْزَلُ ثَوَابُهُ. فَالرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَخْلُو عَنْ تَسْبِيحِ رَبِّهِ وَالتَّفَكُّرِ فِي عَظَمَةِ شَأْنِهِ وَلَكِنْ لِاخْتِلَافِ التَّسْبِيحِ وَالتَّفَكُّرِ، مِنْ تَجَدُّدِ مُلَاحَظَةِ النَّفْسِ، مَا يَجْعَلُ لِكُلِّ حَالٍ مِنَ التَّفَكُّرِ مَزَايَا تُكْسِبُهُ خَصَائِصَ وَتَزِيدُهُ ثَوَابًا.

فَالْجُمْلَةُ تَذْيِيلٌ، وهي عَطْفٌ عَلَى قوله تعالى { قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ - إِلَى قَوْلِهِ - وَمَتاعاً لِلْمُقْوِين } [49-73].

التَّسْبِيحُ: التَّنْزِيهُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى { وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ } [الْبَقَرَةِ:30].

اسْمُ الرَّبِّ: هُوَ مَا يَدُلُّ عَلَى ذَاتِهِ وَجُمَاعِ صِفَاتِهِ، وَهُوَ اسْمُ الْجَلَالَةِ، أَيْ بِأَنْ يَقُولَ: سُبْحَانَ اللَّهِ.

وَلَمَّا كَانَ الْكَلَامُ مَوْضُوعًا لِلدَّلَالَةِ عَلَى مَا فِي النَّفْسِ كَانَ تَسْبِيحُ الِاسْمِ مُقْتَضِيًا تَنْزِيهَ مُسَمَّاهُ، وَكَانَ أَيْضًا مُقْتَضِيًا أَنْ يَكُونَ التَّسْبِيحُ بِاللَّفْظِ مَعَ الِاعْتِقَادِ لَا مُجَرَّدَ الِاعْتِقَادِ، لِأَنَّ التَّسْبِيحَ لَمَّا عُلِّقَ بِلَفْظِ اسْمٍ تَعَيَّنَ أَنَّهُ تَسْبِيحٌ لَفْظِيٌّ، أَيْ قُلْ كَلَامًا فِيهِ مَعْنَى التَّنْزِيهِ. وَيُؤَيِّدُ هَذَا مَا قَالَتْهُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: " إِنَّهُ لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تعالى { فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ } [النَّصْر:3]، كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: " **سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي** ". يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ، أَيْ: يَتَأَوَّلُهُ عَلَى إِرَادَةِ أَلْفَاظِهِ.

{ **بِاسْمِ رَبِّكَ** } الْبَاءُ الدَّاخِلَة على (اسْمِ) زَائِدَةٌ لِتَوْكِيدِ اللُّصُوقِ، أَي: اتِّصَالُ الْفِعْلِ بِمَفْعُولِهِ، وَذَلِكَ لِوُقُوعِ الْأَمْرِ بِالتَّسْبِيحِ عَقِبَ ذِكْرِ عِدَّةِ أُمُورٍ تَقْتَضِيهِ، حَسْبَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ فَاءُ التَّرْتِيبِ، فَكَانَ حَقِيقًا بِالتَّقْوِيَةِ وَالْحَثِّ عَلَيْهِ، وَهَذَا بِخِلَافِ قَوْلِهِ تعالى { سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى } [الْأَعْلَى:1]، لِوُقُوعِهِ فِي صَدْرِ جُمْلَتِهِ.

وَهَذَا الْأَمْرُ شَامِلٌ لِلْمُسْلِمِينَ بِقَرِينَةِ أَنَّ الْقُرْآنَ مَتْلُوٌّ لَهُمْ وَأَنَّ مَا تَفَرَّعَ الْأَمْرُ عَلَيْهِ لَا يَخْتَصُّ عِلْمُهُ بِالنبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا أُمِرَ بِالتَّسْبِيحِ لِأَجْلِهِ فَكَذَلِكَ مَنْ عَلِمَهُ مِنَ الْمُسلمين.

{ **الْعَظِيمِ** } صَالِحٌ لِأَنْ يُجْعَلَ وَصْفًا لِـ { رَبِّكَ }، وَهُوَ عَظِيمٌ بِمَعْنَى ثُبُوتِ جَمِيعِ الْكَمَالِ لَهُ، وَهَذَا مَجَازٌ شَائِعٌ مُلْحَقٌ بِالْحَقِيقَةِ وَصَالِحٌ لِأَنْ يكون وَصفا لاسم، وَالِاسْمُ عَظِيمٌ عَظَمَةً مَجَازِيَّةً لِيُمْنِهِ وَلِعَظَمَةِ المسمّى بِهِ.

{ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ [75] وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ [76] إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ [77] فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ [78] لَا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ [79] تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ [80] }.

تَفْرِيعٌ عَلَى جُمْلَةِ { قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ } [50/49] يُعْرِبُ عَنْ خِطَابٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى مُوَجَّهٍ إِلَى الْمُكَذِّبِينَ بِالْبَعْثِ الْقَائِلِين { أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ } [47]، انْتَقَلَ بِهِ إِلَى التَّنْوِيهِ بِالْقُرْآنِ لِأَنَّهُمْ لَمَّا كَذَّبُوا بِالْبَعْثِ، وَكَانَ إِثْبَاتُ الْبَعْثِ مِنْ أَهَمِّ مَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ، زِيَادَةً عَلَى تَكْذِيبِهِمْ بِهِ فِي غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ مِنْ إِبْطَالِ شِرْكِهِمْ وَأَكَاذِيبِهِمْ، فَلَمَّا قَامَتِ الْحُجَّةُ عَلَى خَطَئِهِمْ فِي تَكْذِيبِهِمْ، فَقَدْ تَهَيَّأَ الْمَقَامُ لِلتَّنْوِيهِ بِشَأْنِهِ.

{ **فَلا أُقْسِمُ** } بِمَعْنَى: أُقْسِمُ، وَ(لَا) مَزِيدَةٌ لِلتَّوْكِيدِ، بِمَعْنَى أَنَّهُ غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَى الْقَسَمِ لِأَنَّ الْأَمْرَ وَاضح الثُّبُوت، ثمَّ كَثُرَ هَذَا الِاسْتِعْمَالُ فَصَارَ مُرَادًا تَأْكِيدُ الْخَبَرِ فَسَاوَى الْقَسَمَ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ عَقِبَهُ { وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ } وَهَذَا الْمعنى هُوَ الْأَنْسَبُ بِمَا وَقَعَ مِنْ مِثْلِهِ فِي الْقُرْآنِ. أي: وَإِنَّ الْمَذْكُورَ لَشَيْءٌ عَظِيمٌ يُقْسِمُ بِهِ الْمُقْسِمُونَ.

{ **بِمَواقِعِ النُّجُومِ** } جَمْعُ مَوْقِعٍ، <u>يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَكَانَ الْوُقُوعِ</u>، أَيْ: مَحَالُّ وُقُوعِهَا مِنْ ثَوَابِتَ وَسَيَّارَةٍ. وَالْوُقُوعُ يُطْلَقُ عَلَى السُّقُوطِ، فَمَوَاقِعُ النُّجُومِ مَوَاضِعُ غُرُوبِهَا، فَيَكُونُ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ { وَالنَّجْمِ إِذا هَوَى }.

وَالْقَسَمُ بِذَلِكَ مِمَّا شَمِلَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى { فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَالْمَغارِبِ } [المعارج:40].
وَجُعِل { بِمَواقِعِ النُّجُومِ } بِهَذَا الْمَعْنَى، مُقْسَمًا بِهِ لِأَنَّ تِلْكَ الْمَسَاقِطَ فِي حَالِ سُقُوطِ النُّجُومِ عِنْدَهَا تُذَكِّرُ بِالنِّظَامِ الْبَدِيعِ الْمَجْعُولِ لِسَيْرِ الْكَوَاكِبِ كُلَّ لَيْلَةٍ لَا يَخْتَلُّ وَلَا يَتَخَلَّفُ، وَتُذَكِّرُ بِعَظَمَةِ الْكَوَاكِبِ وَبِتَدَاوُلِهَا خِلْفَةً بَعْدَ أُخْرَى، وَذَلِكَ أَمْرٌ عَظِيمٌ يَحِقُّ الْقَسَمُ بِهِ الرَّاجِعُ إِلَى الْقَسَمِ بِمُبْدِعِهِ.
وَيُطْلَقُ الْوُقُوعُ عَلَى الْحُلُولِ فِي الْمَكَانِ، يُقَالُ: وَقَعَتِ الْإِبِلُ، إِذَا بَرَكَتْ، وَوَقَعَتِ الْغَنَمُ فِي مَرَابِضِهَا، وَمِنْهُ جَاءَ اسْمُ (الْوَاقِعَةِ) لِلْحَادِثَةِ كَمَا تَقَدَّمَ، فَالْمَوَاقِعُ: مَحَالُّ وُقُوعِهَا وَخُطُوطُ سَيْرِهَا، فَيَكُونُ قَرِيبًا مِنْ قَوْلِهِ تعالى { وَالسَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ } [الْبُرُوجِ:1]. فتكون { الْمَوَاقِعُ }، على هذا الوجه، أَفْلَاكُ النُّجُومِ الْمَضْبُوطَةِ السَّيْرِ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ، وَكَذَلِكَ بُرُوجُهَا وَمَنَازِلُهَا.
وَذِكْرُ (مَوَاقِعِ النُّجُومِ) عَلَى كِلَا الْمَعْنَيَيْنِ تَنْوِيهٌ بِهَا وَتَعْظِيمٌ لِأَمْرِهَا لِدَلَالَةِ أَحْوَالِهَا عَلَى دَقَائِقِ حِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي نِظَامِ سَيْرِهَا وَبَدَائِعِ قُدْرَتِهِ عَلَى تَسْخِيرِهَا.
{ **لَوْ تَعْلَمُونَ** } مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ الْمَوْصُوفِ وَصِفَتِهِ، وَهِيَ اعْتِرَاضٌ فِي اعْتِرَاضٍ.
وَالْعِلْمُ الَّذِي اقْتَضَى شَرْطُ (لَوْ) الِامْتِنَاعِيَّةِ عَدَمَ حُصُولِهِ لَهُمْ، إِنْ جَعَلْتَ ضَمِيرَ { إِنَّهُ } عَائِدًا عَلَى الْقَسَمِ، هُوَ الْعِلْمُ التَّفْصِيلِيُّ بِأَحْوَالِ مَوَاقِعِ النُّجُومِ، أَوْ نُزِّلَ ذَلِكَ الْعِلْمُ الْإِجْمَالِيُّ مَنْزِلَةَ الْعَدَمِ لِأَنَّهُمْ بِكُفْرِهِمْ لَمْ يَجْرُوا عَلَى مُوجَبِ ذَلِكَ الْعِلْمِ مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ، فَلَوْ عَلِمُوا مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَحْوَالُ مَوَاقِعِ النُّجُومِ مِنْ مُتَعَلِّقَاتِ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى لَعَلِمُوا أَنَّهَا مَوَاقِعٌ قُدْسِيَّةٌ لَا يَحْلِفُ بِهَا إِلَّا بَارٌّ فِي يَمِينِهِ وَلَكِنَّهُمْ بِمَعْزِلٍ عَنْ هَذَا الْعِلْمِ.
فَأَمَّا إِنْ جَعَلْتَ ضَمِيرَ { وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ } عَائِدًا إِلَى الْمُقْسَمِ عَلَيْهِ، فَالْمَعْنَى: لَوْ تَعْلَمُونَ ذَلِكَ لَمَا احْتَجْتُمْ إِلَى الْقَسَمِ.
وَمَفْعُولُ تَعْلَمُونَ مَحْذُوفٌ دَلَّ عَلَيْهِ الْكَلَامُ، أَيْ: لَوْ تَعْلَمُونَ دَلَائِلَ عَظَمَتِهِ.
وَلَكَ أَنْ تَجْعَلَ فِعْلَ تَعْلَمُونَ مُنَزَّلًا مَنْزِلَةَ اللَّازِمِ، أَيْ لَوْ كَانَ لَكُمْ عِلْمٌ، لَكِنَّكُمْ لَا تَتَّصِفُونَ بِالْعِلْمِ.
{ **إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ** } الضَمِيرُ رَاجِعٌ إِلَى غَيْرِ مَذْكُورٍ فِي الْكَلَامِ لِكَوْنِهِ مَعْلُومًا مُسْتَحْضَرًا لَهُمْ.
الْقُرْآنُ: الْكَلَامُ الْمَقْرُوءُ، أَيِ: الْمَتْلُوُّ الْمُكَرَّرُ، أَيْ: هُوَ كَلَامٌ مُتَّعَظٌ بِهِ مَحَلُّ تَدَبُّرٍ وَتِلَاوَةٍ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذَلِكَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى { وَما تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ } [يُونُسَ:61].
الْكَرِيمُ: النَّفِيسُ الرَّفِيعُ فِي نَوْعِهِ، كَمَا تَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى { إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ } [النَّمْلِ:29].
وَهَذَا تَفْضِيلٌ لِلْقُرْآنِ عَلَى أَفْرَادِ نَوْعِهِ مِنَ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ، مِثْلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ وَمَجَلَّةِ لُقْمَانَ، وَفَضْلُهُ عَلَيْهَا بِأَنَّهُ فَاقَهَا فِي اسْتِيفَاءِ أَغْرَاضِ الدِّينِ وَأَحْوَالِ الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ وَإِثْبَاتِ الْمُعْتَقَدَاتِ بِدَلَائِلِ التَّكْوِينِ.
{ **فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ** } بَعْدَ أَنْ وُصِفَ الْقُرْآنُ بِـ { كَرِيمٌ }، وُصِفَ وَصْفًا ثَانِيًا، وَذَلِكَ وَصْفُ كَرَامَةٍ لَا مَحَالَةَ، فَلَيْسَ لَفْظُ { كِتابٍ } وَلَا وَصْفُ { مَكْنُونٍ } مُرَادًا بِهِمَا الْحَقِيقَةُ إِذْ لَيْسَ فِي حَمْلِ ذَلِكَ عَلَى الْحَقِيقَةِ تَكْرِيمٌ، فَحَرْفُ (فِي) لِلظَّرْفِيَّةِ الْمَجَازِيَّةِ.

الْكِتَابُ الْمَكْنُونُ: مُسْتَعَارٌ لِمُوَافَقَةِ أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ وَمَعَانِيهِ مَا فِي عِلْمِ اللهِ تَعَالَى وَإِرَادَتِهِ وَأَمْرِهِ الْمَلَكَ بِتَبْلِيغِهِ إِلَى الرَّسُول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتلك شؤون مَحْجُوبَةٌ عَنَّا فَلِذَلِكَ وُصِفَ الْكِتَابُ بِالْمَكْنُونِ اشْتِقَاقًا مِنَ الِاكْتِنَانِ وَهُوَ الِاسْتِتَارُ، أَيْ: مَحْجُوبٌ عَنْ أَنْظَارِ النَّاسِ، فَهُوَ أَمْرٌ مُغَيَّبٌ لَا يَعْلَمُ كُنْهَهُ إِلَّا اللَّهُ.

<u>وَحَاصِلُ المَعْنَى</u>: أَنَّ الْقُرْآنَ الَّذِي بَلَغَهُمْ وَسَمِعُوهُ مِنَ النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ مُوَافِقٌ لِمَا أَرَادَ اللَّهُ إِعْلَامَ النَّاسِ بِهِ، وَمَا تَعَلَّقَتْ قُدْرَتُهُ بِإِيجَادِ نَظْمِهِ الْمُعْجِزِ، لِيَكْمُلَ لَهُ وَصْفُ أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى وَأَنَّهُ لَمْ يَصْنَعْهُ بَشَرٌ.

{ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ } صِفَةٌ ثَانِيَةٌ لِـ { كِتابٍ }.

الْمُطَهَّرُونَ: الْمَلَائِكَةُ، وَالْمُرَادُ الطَّهَارَةُ النَّفْسَانِيَّةُ وَهِيَ الزَّكَاءُ. وَهَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ الْمُفَسِّرِينَ.

وَفِي الْمُوَطَّأِ قَالَ مَالِكٌ: " أَحْسَنُ مَا سَمِعْتُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ { لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ } إِنَّهَا بِمَنْزِلَةِ هَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي فِي { عَبَسَ وَتَوَلَّى } قَوْلِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى { كَلَّا إِنَّها تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرامٍ بَرَرَةٍ } [عبس:11-16] ". يُرِيدُ أَنَّ { الْمُطَهَّرُونَ } هُمُ السَّفَرَةُ الْكِرَامُ الْبَرَرَةُ وَلَيْسُوا النَّاسَ الَّذِينَ يَتَطَهَّرُونَ.

الْمَسّ: الْأَخْذ. وَيُطْلَقُ الْمَسُّ عَلَى الْمُخَالَطَةِ وَالْمُطَالَعَةِ. وَفِي الْحَدِيثِ: " مَسَّ مِنْ طِيبِهِ "، أَيْ: أَخَذَ.

<u>فَالْمَعْنَى</u>: أَنَّ الْكِتَابَ لَا يُبَاشِرُ نَقْلَ مَا يَحْتَوِي عَلَيْهِ لِتَبْلِيغِهِ إِلَّا الْمَلَائِكَةُ.

وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا أَنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ كَمَا يَزْعُمُ الْمُشْرِكُونَ قَوْلَ كَاهِنٍ، فَإِنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ الْكَاهِنَ يَتَلَقَّى مِنَ الْجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ مَا يَسْتَرِقُونَهُ مِنْ أَخْبَارِ السَّمَاءِ بِزَعْمِهِمْ، وَلَا هُوَ قَوْلُ شَاعِرٍ، إِذْ كَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّ لِكُلِّ شَاعِرٍ شَيْطَانًا يُمْلِي عَلَيْهِ الشِّعْرَ، وَلَا هُوَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ، لِأَنَّهُمْ يَعْنُونَ بِهَا الْحِكَايَاتِ الْمَكْذُوبَةِ الَّتِي يَتَلَهَّى بِهَا أَهْلُ الْأَسْمَارِ، فَقَالَ اللَّهُ: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مُطَابِقٌ لِمَا عِنْدَ اللَّهِ الَّذِي لَا يُشَاهِدُهُ إِلَّا الْمَلَائِكَةُ الْمُطَهَّرُونَ.

{ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ } مُبَيِّنَةٌ لِجُمْلَةِ { فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ } فَهِيَ تَابِعَةٌ لِصِفَةِ الْقُرْآنِ، أَيْ فَبُلُوغُهُ إِلَيْكُمْ كَانَ بِتَنْزِيلٍ مِنَ اللهِ، أَيْ: نَزَلَ بِهِ الْمَلَائِكَةُ.

وَفِي مَعْنَى نَظْمِ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى { وَما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ وَلا بِقَوْلِ كاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ } [الحاقة:41-43].

وَإِذْ قَدْ ثَبَتَتْ هَذِهِ الْمَرْتَبَةُ الشَّرِيفَةُ لِلْقُرْآنِ كَانَ حَقِيقًا بِأَنْ تُعَظَّمَ تِلَاوَتُهُ وَكِتَابَتُهُ، وَلِذَلِكَ كَانَ مِنَ الْمَأْمُورِ بِهِ <u>أَنْ لَا يَمَسَّ مَكْتُوبَ الْقُرْآنِ إِلَّا الْمُتَطَهِّرُ</u> تَشَبُّهًا بِحَالِ الْمَلَائِكَةِ فِي تَنَاوُلِ الْقُرْآنِ، بِحَيْثُ يَكُونُ مُمْسِكُ الْقُرْآنِ عَلَى حَالَةِ تَطَهُّرٍ دِينِيٍّ، وَهُوَ الْمَعْنى الَّذِي تومئ إِلَيْهِ مَشْرُوعِيَّةُ الطَّهَارَةِ لِمَنْ يُرِيدُ الصَّلَاةَ.

وروى الطَّبَرَانِيّ عَن عبد الله بن عمر قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **" لَا يمسّ الْقُرْآن إِلَّا طَاهِرٌ "**.

قَالَ الْمَنَاوِيُّ: وَسَنَدُهُ صَحِيحٌ وَجَعَلَهُ السُّيُوطِيُّ فِي مَرْتَبَةِ الْحَسَنِ.

فَهَذِهِ الْآيَةُ لَيْسَتْ دَلِيلًا لِحُكْمِ مَسِّ الْقُرْآنِ بِأَيْدِي النَّاسِ وَلَكِنْ ذِكْرُ اللهِ إِيَّاهَا لَا يَخْلُو مِنْ إِرَادَةِ أَنْ يُقَاسَ النَّاسُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فِي أَنَّهُمْ لَا يَمَسُّونَ الْقُرْآنَ إِلَّا إِذَا كَانُوا طَاهِرِيْنَ كَالْمَلَائِكَةِ، أَيْ: بِقَدْرِ الْإِمْكَانِ مِنْ طَهَارَةِ

الْآدَمِيِّينَ.

فَثَبَتَ بِهَذَا أَنَّ الْأَمْرَ بِالتَّطَهُّرِ لِمَنْ يُمْسِكُ مَكْتُوبًا مِنَ الْقُرْآنِ قَدْ تَقَرَّرَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ صَدْرِ الْإِسْلَامِ فِي مَكَّةَ.

وَإِنَّمَا اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي مُقْتَضَى هَذَا الْأَمْرِ مِنْ وُجُوبٍ أَوْ نَدْبٍ:

فَالْجُمْهُورُ رَأَوْا وُجُوبَ أَنْ يَكُونَ مُمْسِكُ مَكْتُوبِ الْقُرْآنِ عَلَى وُضُوءٍ وَهُوَ قَوْلُ عَلِيٍّ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَسَعْدٍ وَسَعِيدٍ وَعَطَاءٍ وَالزُّهْرِيِّ وَمَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ، وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ. قَالَ مَالِكٌ فِي الْمُوَطَّأِ: " وَلَا يَحْمِلُ أَحَدٌ الْمُصْحَفَ لَا بِعِلَاقَتِهِ وَلَا عَلَى وِسَادَةٍ إِلَّا وَهُوَ طَاهِرٌ إِكْرَامًا لِلْقُرْآنِ وَتَعْظِيمًا لَهُ ".

وَقَالَ فَرِيقٌ: إِنَّ هَذَا أَمْرُ نَدْبٍ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالشَّعْبِيِّ، وَرُوِيَ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ وَهُوَ قَوْلُ أَحْمَدَ وَدَاوُدَ الظَّاهِرِيِّ.

وَقَدِ اعْتَبَرُوا هَذَا حُكْمًا لِمَا كُتِبَ فِيهِ الْقُرْآنُ بِقَصْدِ كَوْنِهِ مُصْحَفًا أَوْ جُزْءًا مِنْ مُصْحَفٍ أَوْ لَوْحًا لِلْقُرْآنِ وَلَمْ يَعْتَبِرُوهُ لِمَا يُكْتَبُ مِنْ آيِ الْقُرْآنِ عَلَى وَجْهِ الِاقْتِبَاسِ أَوِ التَّضْمِين أَو الِاحْتِجَاج.

وَالْمُرَادُ بِالطَّهَارَةِ عِنْدَ الْقَائِلِينَ بِوُجُوبِهَا الطَّهَارَةُ الصُّغْرَى، أَيِ: الْوُضُوءُ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالشَّعْبِيِّ: يَجُوزُ مَسُّ الْقُرْآنِ بِالطَّهَارَةِ الْكُبْرَى وَإِنْ لَمْ تَكُنِ الصُّغْرَى.

وَإِجْمَاعُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ غَيْرَ الْمُتَوَضِّئِ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَعَ اخْتِلَافِهِمْ فِي مَسِّ الْمُصْحَفِ لِغَيْرِ الْمُتَوَضِّئِ يُشْعِرُ بِأَنَّ مَسَّ الْمُصْحَفِ فِي نَظَرِهِمْ أَشَدُّ مُلَابَسَةً مِنَ النُّطْقِ بِآيَاتِ الْقُرْآنِ.

قَالَ مَالِكٌ وَأَبُو حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيُّ: لَا يَجُوزُ لِلْجُنُبِ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ وَيَجُوزُ لِغَيْرِ الْمُتَوَضِّئِ.

قُلْتُ: شَاعَ بَيْنَ الْمُسلمين من عَهْدِ الصَّحَابَةِ الْعَمَلُ بِأَنْ لَا يَتْلُوَ الْقُرْآنَ مَنْ كَانَ جُنُبًا وَلَمْ يُؤْثَرْ عَنْهُمْ إِفْتَاءٌ بِذَلِكَ. وَقَالَ أَحْمَدُ وَدَاوُدُ: تَجُوزُ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ لِلْجُنُبِ. وَرَخَّصَ مَالِكٌ فِي قِرَاءَةِ الْيَسِيرِ مِنْهُ كَالْآيَةِ وَالْآيَتَيْنِ، وَلَمْ يَشْتَرِطْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ الْوُضُوءَ عَلَى قَارِئِ الْقُرْآنِ.

وَاخْتُلِفَ فِي قِرَاءَتِهِ لِلْحَائِضِ وَالنُّفَسَاءِ. وَعَنْ مَالِكٍ فِي ذَلِكَ رِوَايَتَانِ، وَأَحْسَبُ أَنَّ رِوَايَةَ الْجَوَازِ مُرَاعًى فِيهَا أَنَّ انْتِقَاضِ طَهَارَتِهِمَا تَطُولُ مُدَّتَهُ فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا فِي الترخيص.

{ **أَفَبِهذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ** } [81].

الْفَاءُ تَفْرِيعٌ عَلَى مَا سِيقَ لِأَجْلِهِ الْكَلَامُ الَّذِي قَبْلَهَا فِي غَرَضِهِ مِنَ التَّنْوِيهِ بِشَأْنِ الْقُرْآنِ.

{ **أَفَبِهذَا الْحَدِيثِ** } أَطْبَقَ الْمُفَسِّرُونَ، عَدَا الْفَخْرِ، عَلَى أَنَّ اسْمَ الْإِشَارَةِ وَبَيَانه مُشِيرٌ إِلَى الْقُرْآنِ لِمُنَاسَبَةِ الِانْتِقَالِ مِنَ التَّنْوِيهِ بِشَأْنِهِ إِلَى الْإِنْكَارِ عَلَى الْمُكَذِّبِينَ بِهِ. فَالتَّفْرِيعُ عَلَى قَوْلِهِ { إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ } [77].

وَيَكُونُ الْعُدُولُ عَنِ الْإِضْمَارِ إِلَى اسْمِ الْإِشَارَةِ زِيَادَةُ التَّنْوِيهِ بِالْقُرْآنِ.

{ **الْحَدِيثِ** } الْقُرْآنُ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تعالى { فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهذَا الْحَدِيثِ } [الْقَلَمِ:44]، وَقَوْلِهِ تعالى { أَفَمِنْ هذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ } [النَّجْمِ:59].

وَأَمَّا الْفَخْرُ فَجَعَلَ الْإِشَارَةَ إِلَى مَا تَحَدَّثُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { وَكانُوا يَقُولُونَ أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَ آباؤُنَا الْأَوَّلُونَ } [48/47].

وَإِنَّهُ لَكَلَامٌ جَيِّدٌ، وَلَوْ جَعَلَ الْمُرَادَ مِنْ { الْحَدِيثِ } جَمِيعَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ أَصْلًا وَتَفْرِيعًا، أَيْ: مِنْ هَذَا الْكَلَامِ الَّذِي قَرَعَ أَسْمَاعَكُمْ، لَكَانَ أَجْوَدَ. وَإِطْلَاقُ الْحَدِيثِ عَلَى خَبَرِ الْبَعْثِ أَوْضَحُ لِأَنَّ الْحَدِيثَ يُرَادُ بِهِ الْخَبَرُ الَّذِي صَارَ حَدِيثًا لِلْقَوْمِ.

الْمُدْهِنُ: الَّذِي يُظْهِرُ خِلَافَ مَا يُبْطِنُ، يُقَالُ: أَدْهَنَ، وَيُقَالُ: دَاهَنَ، وَفُسِّرَ أَيْضًا بِالتَّهَاوُنِ وَعَدَمِ الْأَخْذِ بِالْحَزْمِ، وَفُسِّرَ بِالتَّكْذِيبِ.

وَالِاسْتِفْهَامُ عَلَى كُلِّ التَّفَاسِيرِ مُسْتَعْمَلٌ فِي التَّوْبِيخِ، أَيْ: كَلَامُكُمْ لَا يَنْبَغِي إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُدَاهَنَةً. أَيْ: قَدْ نَهَضَ بُرْهَانُ صِدْقِ الْقُرْآنِ، فَلَيْسَ إِصْرَارُكُمْ عَلَى التَّكْذِيبِ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا مُدَاهَنَةً لِقَوْمِكُمْ تَخْشَوْنَ إِنْ صَدَّقْتُمْ بِهِ أَنْ تَزُولَ رِئَاسَتُكُمْ، فَيَكُونُ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تعالى {فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} [الْأَنْعَام:33].

{ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ } [82].

إِذَا جَرَيْنَا عَلَى مَا فَسَّرَ بِهِ الْمُفَسِّرُونَ تَكُونُ هَذِهِ الْجُمْلَةُ عَطْفًا عَلَى جُمْلَةِ { أَفَبِهذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ } [81] عَطَفَ الْجُمْلَةِ عَلَى الْجُمْلَةِ، فَتَكُونُ دَاخِلَةً فِي حَيِّزِ الِاسْتِفْهَامِ وَمُسْتَقِلَّةً بِمَعْنَاهَا. وَالِاسْتِفْهَامُ الْمُقَدَّرُ إِنْكَارِيٌّ.

وَإِذْ كَانَ التَّكْذِيبُ لَا يَصِحُّ أَنْ يُجْعَلَ رِزْقًا تَعَيَّنَ بِدَلَالَةِ الِاقْتِضَاءِ تَقْدِيرُ مَحْذُوفٍ يُفِيدُهُ الْكَلَامُ فَقَدَّرَهُ الْمُفَسِّرُونَ: شُكْرَ رِزْقِكُمْ، أَوْ نَحْوَهُ، أَيْ: تَجْعَلُونَ شُكْرَ اللَّهِ عَلَى رِزْقِهِ إِيَّاكُمْ أَنْ تُكَذِّبُوا بِقُدْرَتِهِ عَلَى إِعَادَةِ الْحَيَاةِ، لِأَنَّهُمْ عَدَلُوا عَنْ شُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى فِيمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ فَاسْتَنْقَصُوا قُدْرَتَهُ عَلَى إِعَادَةِ الْأَجْسَامِ، وَنَسَبُوا الزَّرْعَ لِأَنْفُسِهِمْ، وَزَعَمُوا أَنَّ الْمَطَرَ تُمْطِرُهُ النُّجُومُ الْمُسَمَّاةُ بِالْأَنْوَاءِ.

وهو تَفْرِيعٌ عَلَى مَا تَضَمَّنَهُ الِاسْتِدْلَالُ بِتَكْوِينِ نَسْلِ الْإِنْسَانِ وَخَلْقِ الْحَبِّ، وَالْمَاءِ فِي الْمُزْنِ، وَالنَّارِ مِنْ أَعْوَادِ الِاقْتِدَاحِ، فَإِنَّ فِي مَجْمُوعِ ذَلِكَ حُصُولَ مُقَوِّمَاتِ الْأَقْوَاتِ وَهِيَ رِزْقٌ، وَالنَّسْلُ كذلك رِزْقٌ.

وَالَّذِي نَحَاهُ الْفَخْرُ مَنْحًى آخَرَ فَجَعَلَ مَعْنَى { وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ } تَكْمِلَةً لِلْإِدْهَانِ الَّذِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { أَفَبِهذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ [81]، فَقَالَ: " أَيْ: تَخَافُونَ أَنَّكُمْ إِنْ صَدَّقْتُمْ بِالْقُرْآنِ ومنعتم ضعفاءكم عَنِ الْكُفْرِ يَفُوتُ عَلَيْكُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ مَا تَرْبَحُونَهُ بِسَبَبِهِمْ فَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ الرَّسُولَ ". أَيْ: فَيَكُونُ عَطْفًا على { مُدْهِنُونَ }، عَطْفُ فِعْلٍ عَلَى اسْمٍ شَبِيهٍ بِهِ، وَهُوَ مِنْ قَبِيلِ عَطْفِ الْمُفْرَدَاتِ، أَيْ: أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ صِدْقَ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَكِنَّهُمْ يُظْهِرُونَ تَكْذِيبَهُ إِبْقَاءً عَلَى مَنَافِعِهِمْ.

{ **فَلَوْلا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ [83] وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ [84] وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلكِنْ لَا تُبْصِرُونَ [85] فَلَوْلا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ [86] تَرْجِعُونَها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ [87]** }.

مُقْتَضَى فَاءِ التَّفْرِيعِ أَنَّ الْكَلَامَ الْوَاقِع بعْدهَا ناشئ عَمَّا قَبْلَهُ عَلَى حَسَبِ تَرْتِيبِهِ، وَإِذْ قَدْ كَانَ الْكَلَامُ السَّابِقُ إِقَامَةَ أَدِلَّةٍ عَلَى أَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى إِعَادَةِ الْحَيَاةِ لِلنَّاسِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَأَعْقَبَ ذَلِكَ بِأَنَّ تِلْكَ الْأَدِلَّةَ أَيَّدَتْ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ إِثْبَاتِ الْبَعْثِ، وَأَنْحَى عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ وَضَحَتْ لَهُمُ الْحُجَّةُ وَلَكِنَّهُمْ مُكَابِرُونَ فِيهَا وَمُظْهِرُونَ الْجُحُودَ، وَهُمْ مُوقِنُونَ بِهَا فِي الْبَاطِنِ، وَكُلُّ ذَلِكَ رَاجِعٌ إِلَى الِاسْتِدْلَالِ بِقُوَّةِ قُدْرَةِ اللَّهِ عَلَى إِيجَادِ مَوْجُودَاتٍ لَا تَصِلُ إِلَيْهَا مَدَارِكُ النَّاسِ، انْتَقَلَ الْكَلَامُ إِلَى الِاسْتِدْلَالِ عَلَى إِثْبَاتِ الْبَعْثِ بِدَلِيلٍ لَا مَحِيصَ لَهُمْ عَنِ الِاعْتِرَافِ بِدَلَالَتِهِ.

فَالتَّفْرِيعُ عَلَى جُمْلَةِ { وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ } [62]، وَهُوَ أَنَّ عَجْزَهُمْ عَنْ إِرْجَاعِ الرُّوحِ عِنْدَ مُفَارَقَتِهَا الْجَسَدَ يُنَبِّهُهُمْ عَلَى أَنَّ تِلْكَ الْمُفَارَقَةَ مُقَدَّرَةٌ فِي نِظَامِ الْخِلْقَةِ وَأَنَّهَا لِحِكْمَةٍ.

{ **فَلَوْلا** } الفَاءِ للتَّفْرِيعِ كما تقدّم، و(لَوْلَا) حَرْفُ تحضيض مُسْتَعْمَلٌ هُنَا فِي التَّعْجِيزِ، لِأَنَّ الْمَحْضُوضَ إِذَا لَمْ يَفْعَلْ مَا حُضَّ عَلَى فِعْلِهِ فَقَدْ أَظْهَرَ عَجْزَهُ، وَالْفِعْلُ الْمَحْضُوضُ عَلَيْهِ { تَرْجِعُونَها }، أَيْ: تُحَاوِلُونَ رُجُوعَهَا.

{ **إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ** } الظَّرْفُ مُتَعَلِّقٌ بِـ { تَرْجِعُونَها } مُقَدَّمٌ عَلَيْهِ لِتَهْوِيلِهِ وَالتَّشْوِيقِ إِلَى الْفِعْلِ الْمَحْضُوضِ عَلَيْهِ. وَالضَّمِيرُ الْمُسْتَتِرُ فِي { بَلَغَتِ } عَائِدٌ عَلَى مَفْهُومٍ مِنَ الْعِبَارَاتِ لِظُهُورِ أَنَّ الَّتِي تَبْلُغُ الْحُلْقُومَ هِيَ **الرُّوحُ** حُذِفَ إِيجَازًا، نَحْوَ قَوْلِهِ تَعَالَى { حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ } [ص:32]، أَي: الشَّمْسُ.

{ **وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ** } حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ { بَلَغَتِ }، وَمَفْعُولُ { تَنْظُرُونَ } مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: تَنْظُرُونَ صَاحِبَ الرُّوحِ، بِقَرِينَةِ قَوْلِهِ بَعْدَهُ { وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ }، وَفَائِدَةُ هَذِهِ الْحَالِ تَحْقِيقُ أَنَّ اللَّهَ صَرَفَهُمْ عَنْ مُحَاوَلَةِ إِرْجَاعِهَا مَعَ شِدَّةِ أَسَفِهِمْ لِمَوْتِ الْأَعِزَّةِ.

{ **وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ** } فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنْ مَفْعُولِ { تَنْظُرُونَ } الْمَحْذُوفِ، أَوْ مُعْتَرِضَةٌ. وَأَيًّا مَا كَانَتْ فَهِيَ احْتِرَاسٌ لِبَيَانِ أَنَّ ثَمَّةَ حُضُورًا أَقْرَبُ مِنْ حُضُورِهِمْ عِنْدَ الْمُحْتَضِرِ وَهُوَ حُضُورُ التَّصَرِيفِ لِأَحْوَالِهِ الْبَاطِنَةِ.

قُرْبُ اللَّهِ: قُرْبُ عِلْمٍ وَقُدْرَةٍ، عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ تعالى { وَجاءَ رَبُّكَ } [الْفجْر:22]، أَوْ قُرْبُ مَلَائِكَتِهِ الْمُرْسَلِينَ لِتَنْفِيذِ أَمْرِهِ فِي الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ، عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ تعالى { وَلَقَدْ جِئْناهُمْ بِكِتابٍ } [الْأَعْرَاف:52]، أَيْ: جَاءَهُمْ جِبْرِيلُ بِكِتَابٍ. قَالَ تَعَالَى { حَتَّى إِذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا يَتَوَفَّوْنَهُمْ } [الْأَعْرَاف:37].

{ **وَلكِنْ لَا تُبْصِرُونَ** } مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ جُمْلَةِ { وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ } وَجُمْلَةِ {فَلَوْلا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ}. وَمَفْعُولُ تُبْصِرُونَ مَحْذُوفٌ دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تعالى { وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ }. وَمَعْنَى الِاسْتِدْرَاكِ هنا رَاجِعٌ إِلَى قَوْلِهِ تعالى { وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ } لِرَفْعِ تَوَهُّمٍ قَائِلٍ: كَيْفَ يَكُونُ أَقْرَبَ إِلَى الْمُحْتَضِرِ مِنَ الْعُوَّادِ الْحَاقِّينَ حَوْلَهُ وَهُمْ لا يَرَوْنَ شَيْئًا غَيْرَهُمْ.

{ **فَلَوْلا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ** } كَلِمَةُ { فَلَوْلا } هنا تَأْكِيدٌ لَفْظِيٌّ لِنَظِيرِهَا السَّابِقِ أُعِيدَ لِتُبْنَى عَلَيْهِ جُمْلَةُ { تَرْجِعُونَها } لِطُولِ الْفَصْلِ. وَالجُمْلَةُ مُعْتَرِضَةٌ أَوْ حَالٌ مِنَ الْوَاوِ فِي { تَرْجِعُونَها }.

وَجَوَابُ شَرْطِ (إِنْ) مَحْذُوفٌ دَلَّ عَلَيْهِ فِعْلُ { تَرْجِعُونَها }. والكلام فَرْضٌ، وَتَقْدِيرٌ فَـ (إِنْ) فِيهِ بِمَنْزِلَةِ (لَوْ)، أَيْ: لَوْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ، أَيْ: غَيْرَ مَجْزِيِّينَ عَلَى الْأَعْمَالِ.

مَدِينِينَ: مُجَازَيْنَ عَلَى أَعْمَالِكُمْ. وَعَلَى هَذَا الْمَعْنَى حَمَلَهُ جُمْهُورُ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَجَابِرِ بْنِ زَيْدٍ وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ، وَجُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ عَلَى الْإِجْمَالِ.

وَفِي الْقَوْلِ إِيمَاءٌ إِلَى أَنَّ الْغَرَضَ مِنْ سَوْقِ هَذَا الدَّلِيلِ إِبْطَالُ إِنْكَارِهِمُ الْبَعْثَ الَّذِي هُوَ لِحِكْمَةِ الْجَزَاءِ.

{ **تَرْجِعُونَها** } ضَمِيرُ التَّأْنِيثِ عَائِدٌ إِلَى الرُّوحِ الدَّالِّ عَلَيْهِ التَّاءُ فِي قَوْلِه تعالى { إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ }.

{ **إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ** } بَيَانٌ لِجُمْلَةِ { إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ }، يَرْجِعُ إِلَى مَا أَفَادَهُ التَّحْضِيضُ، وَمَوْقِعُ فَاءِ التَّفْرِيعِ مِنْ إِرَادَةِ أَنَّ قَبْضَ الْأَرْوَاحِ لِتَأْخِيرِهَا إِلَى يَوْمِ الْجَزَاءِ، أَيْ: إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي نَفْيِ الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ.

{ **فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ [88] فَرَوْحٌ وَرَيْحانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ [89] وَأَمَّا إِنْ كانَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ [90] فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ [91] وَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ [92] فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ [93] وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ [94]** }.

لَمَّا اقْتَضَى الْكَلَامُ بِحَذَافِرِهِ أَنَّ الْإِنْسَانَ، صَاحِبُ الرُّوحِ، صَائِرٌ إِلَى الْجَزَاءِ فُرِّعَ عَلَيْهِ إِجْمَالُ أَحْوَالِ الْجَزَاءِ فِي مَرَاتِبِ النَّاسِ إِجْمَالًا لِمَا سَبَقَ تَفْصِيلُهُ بِقَوْلِهِ { وَكُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً - إِلَى قَوْلِهِ - لَا بارِدٍ وَلا كَرِيمٍ } [7-44]، لِيَكُونَ هَذَا فَذْلَكَةً لِلسُّورَةِ وَرَدًّا لِعَجُزِهَا عَلَى صَدْرِهَا.

{ **إِنْ كانَ** } الضمِيرُ عَائِدٌ إِلَى مَا عَادَ إِلَيْهِ ضَمِيرُ { إِلَيْهِ } مِنْ قَوْلِهِ تعالى { وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ } [85].

الْمُقَرَّبُونَ: هُمُ السَّابِقُونَ الَّذِينَ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ } [11/10].

وَقَدْ ذُكِرَ لِكُلِّ صِنْفٍ مِنْ هَؤُلَاءِ جَزَاءٌ لَمْ يُذْكَرْ لَهُ فِيمَا تَقَدَّمَ لِيُضَمَّ إِلَى مَا أُعِدَّ لَهُ فِيمَا تَقَدَّمَ عَلَى طَرِيقَةِ الْقُرْآنِ فِي تَوْزِيعِ الْقِصَّةِ.

الرَّوْحُ: (بِفَتْحِ الرَّاءِ) فِي قِرَاءَةِ الْجُمْهُورِ، وَهُوَ الرَّاحَةُ، أَيْ: هُوَ فِي رَاحَةٍ وَنَعِيمٍ، وَتَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تعالى { وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ } [يُوسُفَ:87]. وَقَرَأَهُ رُوَيْسٌ عَنْ يَعْقُوبَ بِضَمِّ الرَّاءِ.

الرَّيْحَانُ: شَجَرٌ لِوَرَقِهِ وَقُضْبَانِهِ رَائِحَةٌ ذَكِيَّةٌ شَدِيدُ الْخُضْرَةِ. وَتَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى { وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحانُ } [الرَّحْمَنِ:12]. فَتَخْصِيصُهُ بِالذِّكْرِ قَبْلَ ذِكْرِ الْجَنَّةِ الَّتِي تَحْتَوِي عَلَيْهِ إِيمَاء إِلَى كَرَامَتِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ، مِثْلُ قَوْلِهِ { وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ }

[الرَّعْد:24/23].

{ **فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ** } الْكَلَامُ إِجْمَالٌ لِلتَّنْوِيهِ بِهِمْ وَعُلُوِّ مَرْتَبَتِهِمْ وَخَلَاصِهِمْ مِنَ الْمُكَدِّرَاتِ لِتَذْهَبَ نَفْسُ السَّامِعِ كُلَّ مَذْهَبٍ. و**السَّلَامُ:** اسْمٌ لِلسَّلَامَةِ مِنَ الْمَكْرُوهِ، وَيُطْلَقُ عَلَى التَّحِيَّةِ.

{ **لَكَ** } اللَّامُ فِي { لَكَ } لِلِاخْتِصَاصِ، وَاخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الـ (كاف)، فَقِيلَ: كَافُ الْخِطَابِ مُوَجَّهَةٌ لِغَيْرِ مُعَيَّنٍ، أَيْ: لِكُلِّ مَنْ يَسْمَعُ هَذَا الْخَبَرَ. وَالْمَعْنَى: أَنَّ السَّلَامَةَ الْحَاصِلَةَ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ تَسُرُّ مَنْ يَبْلُغُهُ أَمْرُهَا. وَهَذَا كَمَا يُقَالُ: نَاهِيكَ بِهِ، وَحَسْبُكَ بِهِ، وَ{ مِنْ } ابْتِدَائِيَّةٌ، وَاللَّفْظُ جَرَى مَجْرَى الْمَثَلِ فَطُوِيَ مِنْهُ بَعْضُهُ، وَأَصْلُهُ: فَلَهُمُ السَّلَامَةُ سَلَامَةٌ تَسُرُّ مَنْ بَلَغَهُ حَدِيثُهَا.

وَقِيلَ: الْخِطَابُ لِلنَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَقْرِيرُ الْمَعْنَى كَمَا تَقَدَّمَ لِأَنَّ النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُسَرُّ بِمَا يَنَالُهُ أَهْلُ الْإِسْلَامِ مِنَ الْكَرَامَةِ عِنْدَ اللهِ وَهُمْ مِمَّنْ شَمَلَهُمْ لَفْظُ أَصْحَابِ الْيَمِينِ.

وَقِيلَ: الْكَلَامُ عَلَى تَقْدِيرِ الْقَوْلِ، أَيْ: فَيُقَالُ لَهُ: سَلَامٌ لَكَ، أَيْ: تَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ. فَهِيَ بِشَارَةٌ لِلْمُخَاطَبِ عِنْدَ الْبَعْثِ عَلَى نَحْوِ قَوْلِهِ تَعَالَى { وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ } [الرَّعْد:24/26].

فَهَذِهِ مَحَامِلُ لِهَذِهِ الْآيَةِ يُسْتَخْلَصُ مِنْ مَجْمُوعِهَا مَعْنَى الرِّفْعَةِ وَالْكَرَامَةِ.

الْمُكَذِّبُونَ الضَّالُّونَ: هُمْ أَصْحَابُ الشِّمَالِ. وَقُدِّمَ هُنَا وَصْفُ التَّكْذِيبِ عَلَى وَصْفِ الضَّلَالِ عَكْسَ مَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تعالى { ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ } [51]، لِمُرَاعَاةِ سَبَبِ مَا نَالَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ، وَهُوَ التَّكْذِيبُ، لِأَنَّ الْكَلَامَ هُنَا عَلَى عَذَابٍ قَدْ حَانَ حِينُهُ وَفَاتَ وَقْتُ الْحَذَرِ مِنْهُ فَبُيِّنَ سَبَبُ عَذَابِهِمْ وَذُكِّرُوا بِالَّذِي أَوْقَعَهُمْ فِي سَبَبِهِ لِيَحْصُلَ لَهُمْ أَلَمُ التَّنَدُّمِ.

النُّزُلُ: مَا يُقَدَّمُ لِلضَّيْفِ مِنَ الْقِرَى، وَإِطْلَاقُهُ هُنَا تَهَكُّمٌ، كَمَا تَقَدَّمَ قَرِيبًا { هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ } [56].

التَّصْلِيَةُ: مَصْدَرُ صَلَّاهُ المشدّد، إذا أَحْرَقَهُ وَشَوَاهُ، يُقَالُ: صَلَّى اللَّحْمَ تَصْلِيَةً، إِذَا شَوَاهُ، وَهُوَ هُنَا مِنَ الْكَلَامِ الموجَّه لإيهامه أنّه يُصَلَّى لَهُ الشِّوَاءُ فِي نُزُلِهِ عَلَى طَرِيقَةِ التَّهَكُّمِ. أَيْ: يُحَرَّقُ بِهَا.

الْجَحِيمُ: يُطْلَقُ عَلَى النَّارِ الْمُؤَجَّجَةِ، وَيُطْلَقُ عَلَمًا عَلَى جَهَنَّمَ دَارِ الْعَذَابِ الْآخِرَةِ.

{ **إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ** } [95].

تَذْيِيلٌ لِجَمِيعِ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ السُّورَةُ مِنَ الْمَعَانِي الْمُثْبَتَةِ. وَاشْتَمَلَ التَّذْيِيلُ عَلَى أَرْبَعَةِ مُؤَكِّدَاتٍ وَهِيَ: (إِنَّ)، وَلَامُ الِابْتِدَاءِ، وَضَمِيرُ الْفَصْلِ، وَإِضَافَةُ شبه المترادفين.

الْحَقُّ: الثَّابِتُ. و**الْيَقِينِ**: الْمَعْلُومُ جَزْمًا، وَالَّذِي لَا يَقْبَلُ التَّشْكِيكَ.

وَإِضَافَةُ حَقُّ إِلَى الْيَقِينِ مِنْ إِضَافَةِ الصِّفَةِ إِلَى الْمَوْصُوفِ، أَيْ: لَهُوَ الْيَقِينُ الْحَقُّ. وَذَلِكَ أَنَّ الشَّيْءَ إِذَا كَانَ كَامِلًا فِي نَوْعِهِ وُصِفَ بِأَنَّهُ حَقُّ ذَلِكَ الْجِنْسِ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ: " **لَأَبْعَثَنَّ مَعَكُمْ أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ** ".

فَالْمَعْنَى: أَنَّ الَّذِي قَصَصْنَا عَلَيْكَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ هُوَ الْيَقِينُ حَقُّ الْيَقِينِ.

{ **فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ** } [96].

تَفْرِيعٌ عَلَى تَحْقِيقِ أَنَّ مَا ذُكِرَ هُوَ الْيَقِينُ حَقًّا، فَإِنَّ مَا ذُكِرَ يَشْتَمِلُ عَلَى عَظِيمِ صِفَاتِ اللَّهِ وَبَدِيعِ صُنْعِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ، وَيُبَشِّرُ النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأُمَّتَهُ بِمَرَاتِبَ مِنَ الشَّرَفِ وَالسَّلَامَةِ عَلَى مَقَادِيرِ دَرَجَاتِهِمْ وَبِنِعْمَةِ النَّجَاةِ مِمَّا يَصِيرُ إِلَيْهِ الْمُشْرِكُونَ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ، فَلَا جَرَمَ كَانَ حَقِيقًا بِأَنْ يُؤْمَرَ بِتَسْبِيحِ اللَّهِ تَسْبِيحًا اسْتَحَقَّهُ لِعَظَمَتِهِ، وَالتَّسْبِيحُ ثَنَاءٌ، فَهُوَ يَتَضَمَّنُ حَمْدًا لِنِعْمَتِهِ وَمَا هَدَى إِلَيْهِ مِنْ طُرُقِ الْخَيْرِ.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحديد

تُسمَّى من عهد الصحابة ﴿ **سورة الحديد** ﴾، فقد وقع في حديث إسلام عمر بن الخطاب عند الطبراني والبزّار أنّ عمر دخل على أخته قبل أن يُسلم فإذا صحيفة فيها أوّل سورة الحديد، فقرأ حتّى بلغ قوله تعالى ﴿ آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [7]، فأسلم. وكذلك سُمِّيت في المصاحف وفي كتب السنّة، لوقوع لفظ ﴿ الحديد ﴾ فيها في قوله تعالى ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ [25].

وهذا اللفظ وإن ذكر في سورة الكهف في قوله تعالى ﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴾ [الكهف:96]، وهي سابقة في النزول على سورة الحديد على المختار، فلم تُسمَّ به لأنّها سمّيت باسم (الكهف) للاعتناء بقصة أهل الكهف، ولأنّ الحديد الذي ذُكر هنا مراد به حديد السلاح من سيوف ودروع وخوذ، تنويها به إذا هو أثر من آثار حكمة الله في خلق مادته وإلهام الناس صنعه لتحصل به منافع لتأييد الدين ودفاع المعتدين، كما قال تعالى ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ﴾ [25].

وفي كون هذه السورة **مدنية أو مكية اختلاف قويّ** لم يُختلف مثله في غيرها.

فقال الجمهور: مدنيّة. وحكى ابن عطية عن النقّاش: أنّ ذلك إجماع المفسّرين.

وقيل: إنّ صدرها مكيّ لما رواه مسلم في صحيحه والنسائي وابن ماجة عن عبد الله بن مسعود أنّه قال: " ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ - إلى قوله - وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [16]، إلّا أربع سنين. وعبد الله بن مسعود أوّل الناس إسلاما، فتكون هذه الآية مكية.

وهذا يعارضه ما رواه ابن مردويه عن أنس وابن عباس : أنّ نزول هذه الآية بعد ثلاث عشرة سنة أو أربع عشرة سنة من ابتداء نزول القرآن، فيصار إلى الجمع بين الروايتين أو الترجيح، ورواية مسلم وغيره عن ابن مسعود أصحّ سندا، وكلام ابن مسعود يَرجَح على ما روي عن أنس وابن عباس لأنّه أقدم إسلاما وأعلم بنزول القرآن، وقد علمتَ آنفا أنّ صدر هذه السورة كان مقروءا قبل إسلام عمر بن الخطاب.

قال ابن عطية: " يُشبه صدرها أن يكون مكيا والله أعلم، ولا خلاف أنّ فيها قرآنا مدنيًّا ".

أقول: الذي يظهر أنّ صدرها مكيّ، كما توسّمه ابن عطية، وأنّ ذلك ينتهي إلى قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [9] وأنّ ما بعد ذلك بعضه نزل بالمدينة كما تقتضيه معانيه مثل حكاية أقوال المنافقين، وبعضه نزل بمكة مثل آية ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [16] كما في حديث مسلم.

وفيها آية ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ قَبْلَ الفَتْحِ ﴾ [10]، وسواء كان المراد بالفتح في تلك الآية فتح مكة أو فتح الحديبية، فهي متعيّنة لأن تكون مدنيّة. فلا ينبغي الاختلاف في أنّ معظم السورة مدنيّ.

وقد عُدَّت السورة الخامسة والتسعين في ترتيب نزول السور جريا على قول الجمهور: إنّها مدنية، فقالوا: نزلت بعد سورة الزلزلة وقبل سورة محمد.

وإن روعي قول ابن مسعود: إنّها نزلت بعد البعثة بأربع سنين. وما روي من أنّ سبب إسلام عمر بن الخطاب أنّه قرأ صحيفة لأخته فاطمة فيها صدر سورة الحديد لم يستقم هذا العدّ لأنّ العبرة بمكان نزول السورة لا نزول آخرها، فيُشكل موضعها في عدّ نزول السورة.

وعلى قول ابن مسعود يكون ابتداء نزولها آخر سنة أربع من البعثة فتكون من أقدم السور نزولا، فتكون نزلت قبل سورة الحجر وبعد غافر.

فالوجه أنّ معظم آياتها نزل بعد سورة الزلزلة.

وعُدَّت آيها في عدّ أهل المدينة ومكة والشام ثمانا وعشرين، وفي عدّ أهل البصرة والكوفة تسعا وعشرين.

أغراض السورة

*/ التذكير بجلال الله تعالى، وصفاته العظيمة، وسعة قدرته وملكوته، وعموم تصرّفه، ووجوب وجوده، وسعة علمه، والأمر بالإيمان بوجوده، وبما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم، وما أنزل عليه من الآيات البيّنات.

*/ التنبيه لما في القرآن من الهدي وسبيل النجاة، والتذكير برحمة الله ورأفته بخلقه.

*/ التحريض على الإنفاق في سبيل الله، وأنّ المال عرض زائل لا يبقى منه لصاحبه إلّا ثواب ما انفق منه في مرضاة الله.

*/ التخلّص إلى ما أعدّ الله للمؤمنين والمؤمنات يوم القيامة من خير، وضدّ ذلك للمنافقين والمنافقات.

*/ تَحْذِيرُ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْوُقُوعِ فِي مِهْوَاةِ قَساوة الْقُلُوب الَّتِي وَقَعَ فِيهَا أَهْلُ الْكِتَابِ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ إِهْمَالِ مَا جَاءَهُمْ مِنَ الْهُدَى حَتَّى قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَجَرَّ ذَلِكَ إِلَى الْفُسُوقِ كَثِيرًا مِنْهُمْ.

*/ التَّذْكِيرُ بِالْبَعْثِ. وَالدَّعْوَةُ إِلَى قِلَّةِ الِاكْتِرَاثِ بِالْحَيَاةِ الْفَانِيَةِ.

*/ الْأَمْرُ بِالصَّبْرِ عَلَى النَّوَائِبِ وَالتَّنْوِيهُ بِحِكْمَةِ إِرْسَالِ الرُّسُلِ وَالْكُتُبِ لِإِقَامَةِ أُمُورِ النَّاسِ عَلَى الْعَدْلِ الْعَامِّ.

*/ الْإِيمَاءُ إِلَى فَضْلِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

*/ تَنْظِيرُ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرِسَالَةِ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، عَلَى أَنَّ فِي ذُرِّيَّتِهِمَا مُهْتَدِينَ وَفَاسِقِينَ.

*/ أَنَّ اللَّهَ أَتْبَعَهُمَا بِرُسُلٍ آخَرِينَ، مِنْهُمْ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي كَانَ آخِرَ رَسُولٍ أُرْسِلَ بِشَرْعٍ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، وَأَنَّ أَتْبَاعَهُ كَانُوا عَلَى سُنَّةِ مَنْ سَبَقَهُمْ؛ مِنْهُمْ مُؤْمِنٌ وَمِنْهُمْ كَافِرٌ.

*/ ثُمَّ أَهَابَ بِالْمُسْلِمِينَ أَنْ يُخْلِصُوا الْإِيمَانَ، تَعْرِيضًا بِالْمُنَافِقِينَ، وَوَعَدَهُمْ بِحُسْنِ الْعَاقِبَةِ وَأَنَّ اللَّهَ فَضَّلَهُمْ عَلَى الْأُمَمِ، لِأَنَّ الْفضل بِيَدِهِ يؤتيه من يَشَاء.

{ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [1].

افْتِتَاحُ السُّورَةِ بِذِكْرِ تَسْبِيحِ اللهِ وَتَنْزِيهِهِ مُؤْذِنٌ بِأَنَّ أَهَمَّ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ إِثْبَاتُ وَصْفِ اللهِ بِالصِّفَاتِ الْجَلِيلَةِ الْمُقْتَضِيَةِ أَنَّهُ مُنَزَّهٌ عَمَّا ضَلَّ فِي شَأْنِهِ أَهْلُ الضَّلَالِ مِنْ وَصْفِهِ بِمَا لَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ، وَأَوَّلُ التَّنْزِيهِ هُوَ نَفْيُ الشَّرِيكِ لَهُ فِي الْإِلَهِيَّةِ، فَإِنَّ الْوَحْدَانِيَّةَ هِيَ أَكْبَرُ صِفَةٍ ضَلَّ فِي كُنْهِهَا الْمُشْرِكُونَ وَالْمَانَوِيَّةُ وَنَحْوُهُمْ مِنْ أَهْلِ التَّثْنِيَةِ وَأَصْحَابِ التَّثْلِيثِ وَالْبَرَاهِمَةِ، وَهِيَ الصّفة الَّتِي ينبئ عَنْهَا اسْمُهُ الْعَلَمُ (اللَّه)، لِمَا عَلِمْتَ فِي تَفْسِيرِ الْفَاتِحَةِ مِنْ أَنَّ أَصْلَهُ الْإِلَهُ، أَيِ: الْمُنْفَرِدُ بِالْإِلَهِيَّةِ. فَفِي الْقَوْلِ تَعْرِيضٌ بِالْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ أَهْمَلُوا أَهَمَّ التَّسْبِيحِ وَهُوَ تَسْبِيحُهُ عَنِ الشَّرِيكِ وَالنِّدِّ.

وَأُتْبِعَ هَذَا الِاسْمَ بِصِفَاتٍ رَبَّانِيَّةٍ تَدُلُّ عَلَى كَمَالِ اللهِ تَعَالَى وَتَنَزُّهِهِ عَنِ النَّقْصِ، هِيَ جَامِعَةٌ لِصِفَاتِ الْكَمَالِ: **(الْعَزِيزُ/ الْحَكِيمُ / لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ / يُحْيِي / وَيُمِيتُ / وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ / هُوَ الْأَوَّلُ / وَالْآخِرُ / وَالظَّاهِرُ / وَالْبَاطِنُ / وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ).**

{ **سَبَّحَ لِلَّهِ** } صِيغَةِ الْمَاضِي لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ تَنْزِيهَهُ تَعَالَى أَمْرٌ مُقَرَّرٌ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ مِنْ قَبْلُ، وَأَلْهَمَهُ النَّاسَ وَأَوْدَعَ دَلَائِلَهُ فِي أَحْوَالِ مَا لَا اخْتِيَارَ لَهُ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى { وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ } [الرَّعْد:15]، وَقَوْلُهُ تعالى { وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ } [الْإِسْرَاء:44].

{ **لِلَّهِ** } لَامُ التَّبْيِينِ. وَفَائِدَتُهَا زِيَادَةَ بَيَانِ ارْتِبَاطِ الْمَعْمُولِ بِعَامِلِهِ لِأَنَّ فِعْلَ التَّسْبِيحِ مُتَعَدٍّ بِنَفْسِهِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى التَّعْدِيَةِ بِحَرْفٍ، قَالَ تَعَالَى { فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ } [الْإِنْسَان:26]، فَاللَّامُ هُنَا نَظِيرُهُ اللَّامُ فِي قَوْلِهِمْ: شَكَرْتُ لَكَ، وَنَصَحْتُ لَكَ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى { وَنُقَدِّسُ لَكَ } [الْبَقَرَة:30].

{ **مَا فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ** } يَعُمُّ الْمَوْجُودَاتِ كُلِّهَا، فَإِنَّ { مَا } اسْمُ مَوْصُولٍ يَعُمُّ الْعُقَلَاءَ وَغَيْرَهُمْ، أَوْ هُوَ خَاصٌّ بِغَيْرِ الْعُقَلَاءِ فَجَرَى هُنَا عَلَى التَّغْلِيبِ، وَكُلُّهَا دَالٌّ عَلَى تَنْزِيهِ اللهِ تَعَالَى عَنِ الشَّرِيكِ؛ فَمِنْهَا دَلَالَةٌ بِالْقَوْلِ كَتَسْبِيحِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَمِنْهَا دَلَالَةٌ بِالْفِعْلِ كَتَسْبِيحِ الْمَلَائِكَةِ، وَمِنْهَا دَلَالَةٌ بِشَهَادَةِ الْحَالِ كَمَا تنبئ بِهِ أَحْوَالُ الْمَوْجُودَاتِ مِنَ الِافْتِقَارِ إِلَى الصَّانِعِ الْمُنْفَرِدِ بِالتَّدْبِيرِ.

فَإِنْ جُعِلَ عُمُومُ مَا فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ مَخْصُوصًا بِمَنْ يَتَأَتَّى مِنْهُمُ النُّطْقُ بِالتَّسْبِيحِ وَهُمُ الْعُقَلَاءُ كَانَ إِطْلَاقُ التَّسْبِيحِ عَلَى تَسْبِيحِهِمْ حَقِيقَةً. وَإِنْ حُمِلَ الْعُمُومُ عَلَى ظَاهِرِهِ لَزِمَ تَأْوِيلُ فِعْلِ سَبَّحَ بِمَا يَشْمَلُ الْحَقِيقَةَ وَالْمَجَازَ.

الْعَزِيزُ: الَّذِي لَا يُغْلَبُ، وَهَذَا الْوَصْفُ يَنْفِي وُجُودَ الشَّرِيكِ فِي الْإِلَهِيَّةِ.

الْحَكِيمُ: الْمَوْصُوفُ بِالْحِكْمَةِ، وَهِيَ وَضْعُ الْأَفْعَالِ حَيْثُ يَلِيقُ بِهَا، وَهِيَ أَيْضًا الْعِلْمُ الَّذِي لَا يخطئ وَلَا يَتَخَلَّفُ وَلَا يَحُولُ دُونَ تَعَلُّقِهِ بِالْمَعْلُومَاتِ حَائِلٌ.

{ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [2].

استِئْنَافٌ ابْتِدَائِيٌّ بِذِكْرِ صِفَةٍ عَظِيمَةٍ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ الَّتِي مُتَعَلِّقُهَا أَحْوَالُ الْكَائِنَاتِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَاصَّةً أَهْلُ الْإِدْرَاكِ مِنْهُمْ. وَمَضْمُونُ هَذِهِ الْجُمْلَةِ يُؤْذِنُ بِتَعْلِيلِ تَسْبِيحِ اللَّهِ تَعَالَى، لِأَنَّ مَنْ لَهُ مُلْكُ الْعَوَالِمِ الْعُلْيَا وَالْعَالَمِ الدُّنْيَوِيِّ حَقِيقٌ بِأَنْ يَعْرِفَ النَّاسُ صِفَاتِ كَمَالِهِ.

وَأَفَادَ تَعْرِيفُ الْمُسْنَدِ قَصْرَ الْمُسْنَدِ عَلَى الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ، وَهُوَ قَصْرٌ ادعائي لعدم الِاعْتِدَاد بِمُلْكِ غَيْرِهِ فِي الْأَرْضِ إِذْ هُوَ مُلْكٌ نَاقِصٌ، أَوْ هُوَ قَصْرٌ حَقِيقِيٌّ، إِذَا اعْتُبِرَتْ إِضَافَةُ مُلْكُ إِلَى مَجْمُوعِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ فَإِنَّهُ لَا مُلْكَ لِمَالِكٍ عَلَى الْأَرْضِ كُلِّهَا بَلْهَ السَّمَاوَاتُ مَعَهَا. وَهَذَا مَعْنَى صِفَتِهِ تَعَالَى (الْمَلِكُ).

{ يُحْيِي وَيُمِيتُ } بَدَلُ اشْتِمَالٍ مِنْ مَضْمُونِ { لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ }، فَإِنَّ الْإِحْيَاءَ والإِمَاتَةَ ممّا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مَعْنَى مُلْكِ السَّمَاوَات وَالْأَرْض لِأَنَّهُمَا مِنْ أَحْوَالِ مَا عَلَيْهِمَا، وَتَخْصِيصُ هَذَيْنِ بِالذِّكْرِ لِلِاهْتِمَامِ بهمَا لِدَلَالَتِهِمَا عَلَى دَقِيقِ الْحِكْمَةِ فِي التَّصَرُّفِ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، ولظهور أَنّ هاذين الْفِعْلَيْنِ لَا يَسْتَطِيعُ الْمَخْلُوقُ ادِّعَاءَ أَنَّ لَهُ عَمَلًا فِيهِمَا، وللتذكير بِدَلِيل إِمْكَان الْبَعْثِ الَّذِي جَحَدَهُ الْمُشْرِكُونَ، وَلِلتَّعْرِيضِ بِإِبْطَالِ زَعْمِهِمْ إِلَهِيَّةَ أَصْنَامِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى { وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلا حَياةً وَلا نُشُوراً } [الْفرْقَان:3].

وَمِنْ هَذَيْنِ الْفِعْلَيْنِ جَاءَ وَصْفُهُ تَعَالَى بِصِفَةِ (الْمُحْيِي والمميت). وَتَقَدَّمَ ذِكْرُ الْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى { وَكُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ } [الْبَقَرَةِ:28].

{ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } تُفِيدُ مَفَادَ التَّذْيِيلِ لِجُمْلَةِ { يُحْيِي وَيُمِيتُ } لِتَعْمِيمِ مَا دَلَّت عَلَيْهِ مِنْ بَيَانِ جُمْلَةِ { لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ }، وَإِنَّمَا عُطِفَتْ بِـ (الْوَاوِ) وَكَانَ حَقُّ التَّذْيِيلِ أَنْ يَكُونَ مَفْصُولًا لِقَصْدِ إِيثَارِ الْإِخْبَارِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى بِعُمُومِ الْقُدْرَةِ عَلَى كُلِّ مَوْجُودٍ، وَذَلِكَ لَا يُفِيتُ قَصْدَ التَّذْيِيلِ، لِأَنَّ التَّذْيِيلَ يحصل بِالْمَعْنَى.

{ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْباطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [3]

{ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْباطِنُ } استِئْنَافٌ فِي سِيَاقِ تَبْيِينِ أَنَّ لَهُ مُلْكَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، بِأَنَّ مُلْكَهُ دَائِمٌ فِي عُمُومِ الْأَزْمَانِ وَتَصَرُّفٌ فِيهِمَا فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ، إِذْ هُوَ الْأَوَّلُ الْأَزَلِيُّ، وَأَنَّهُ مُسْتَمِرٌّ مِنْ قَبْلِ وُجُودِ كُلِّ مُحْدَثٍ وَمِنْ بَعْدِ فَنَائِهِ، إِذِ اللَّهُ هُوَ الْبَاقِي بَعْدَ فَنَاءِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَذَلِكَ يَظْهَرُ مِنْ دَلَالَةِ الْآثَارِ عَلَى الْمُؤَثِّرِ، فَإِنَّ دَلَائِلَ تَصَرُّفِهِ ظَاهِرَةٌ لِلْمُتَبَصِّرِ بِالْعَقْلِ وَهُوَ مَعْنَى الظَّاهِرُ كَمَا يَأْتِي، وَأَنَّ كَيْفِيَّاتِ تَصَرُّفَاتِهِ مَحْجُوبَةٌ عَنِ الْحِسِّ، وَذَلِكَ مَعْنَى الْباطِنُ تَعَالَى كَمَا سَيَأْتِي.

{ هُوَ } لَيْسَ ضَمِيرَ فَصْلٍ وَلَكِنَّهُ ضَمِيرٌ يُعَبِّرُ عَنِ اسْمِ الْجَلَالَةِ لِاعْتِبَارِنَا الْجُمْلَةَ مُسْتَأْنَفَةً، وَلَوْ جَعَلْتَهُ ضَمِيرَ فَصْلٍ لَكَانَتْ أَوْصَافُ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْباطِنُ أَخْبَارًا عَنْ ضَمِيرِ { هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [1].

وَقَدِ اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَخْبَارٍ هِيَ صِفَاتٌ لِلَّهِ تَعَالَى.
{ **الْأَوَّلُ** } أَصْلُ مَعْنَاهُ الَّذِي حَصُلَ قَبْلَ غَيْرِهِ فِي حَالَةٍ تُبَيِّنُهَا إِضَافَةُ هَذَا الْوَصْفِ إِلَى مَا يَدُلُّ عَلَى الْحَالَةِ مِنْ زَمَانٍ أَوْ مَكَانٍ، فَقَدْ يَقَعُ مَعَ وَصْفِ (أَوَّلُ) لَفْظٌ يَدُلُّ عَلَى الْحَالَةِ الَّتِي كَانَ فِيهَا السَّبْقُ، وَقَدْ يُسْتَدَلُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ مِنْ سِيَاقِ الْكَلَامِ، فَوَصْفُ { الْأَوَّلُ } لَا يَتَبَيَّنُ مَعْنَاهُ إِلَّا بِمَا يَتَّصِلُ بِهِ مِنَ الْكَلَامِ، وَلَا يُتَصَوَّرُ إِلَّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَوْصُوفٍ آخَرَ هُوَ مُتَأَخِّرٌ عَنْهُ فِي حَالَةٍ مَا. كَقَوْلِهِ تَعَالَى { قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ } [الْأَنْعَام:14]، أَيْ: أَوَّلَهُمْ فِي اتِّبَاعِ الْإِسْلَامِ.
<u>وَأَشْهَرُ مَعَانِي الْأَوَّلِيَّةِ هُوَ السَّبْقُ فِي الْوُجُودِ</u>، أَيْ: فِي ضِدِّ الْعَدَمِ، فَوَصْفُ اللهِ بِأَنَّهُ الْأَوَّلُ مَعْنَاهُ: أَنَّهُ السَّابِقُ وُجُودُهُ عَلَى كُلِّ مَوْجُودٍ وُجِدَ أَوْ سَيُوجَدُ، دُونَ تَخْصِيصِ جِنْسٍ وَلَا نَوْعٍ وَلَا صِنْفٍ.
وَلِهَذَا لَمْ يُذْكَرْ لِهَذَا الْوَصْفِ هُنَا مُتَعَلِّقٌ (بِكَسْرِ اللَّامِ)، وَلَا مَا يَدُلُّ عَلَى مُتَعَلِّقٍ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ أَنَّهُ الْأَوَّلُ بِدُونِ تَقْيِيدٍ. وَيُرَادِفُ هَذَا الْوَصْفَ فِي اصْطِلَاحِ الْمُتَكَلِّمِينَ **صِفَةُ الْقِدَمِ**.
وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْوَصْفَ يَسْتَلْزِمُ صِفَةَ الْغِنَى الْمُطْلَقِ، وَهِيَ عَدَمُ الِاحْتِيَاجِ إِلَى الْمُخَصِّصِ، أَيْ: مُخَصِّصٌ يُخَصِّصُهُ بالوجود بَدَلا عَن الْعَدَمِ، لِأَنَّ الْأَوَّلَ هُنَا مَعْنَاهُ الْمَوْجُودُ لِذَاتِهِ دُونَ سَبْقِ عَدَمٍ.
وَيَسْتَلْزِمُ ذَلِكَ انْفِرَادُهُ تَعَالَى بِصِفَةِ الْوُجُودِ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ غَيْرُ اللهِ وَاجِبًا وُجُودُهُ لَمَا كَانَ اللهُ مَوْصُوفًا بِالْأَوَّلِيَّةِ، فَالْمَوْجُودَاتُ غَيْرُ اللهِ مُمْكِنَةٌ، وَالْمُمْكِنُ لَا يَتَّصِفُ بِالْأَوَّلِيَّةِ الْمُطْلَقَةِ، <u>فَلِذَلِكَ تَثْبُتُ لَهُ الْوَحْدَانِيَّةُ</u>، ثُمَّ هَذِهِ الْأَوَّلِيَّةُ فِي الْوُجُودِ تَقْتَضِي أَنْ تَثْبُتَ لِلَّهِ جَمِيعُ صِفَاتِ الْكَمَالِ اقْتِضَاءً عَقْلِيًّا بِطَرِيقِ الِالْتِزَامِ الْبَيِّنِ بِالْمَعْنَى الْأَعَمِّ.
{ **الْآخِرُ** } وَوَصْفُ اللهِ تَعَالَى بِأَنَّهُ الْآخِرُ بَعْدَ وَصْفِهِ بِأَنَّهُ الْأَوَّلُ، مَعَ كَوْنِ الْوَصْفَيْنِ مُتَضَادَّيْنِ، يَقْتَضِي انفكاك جهتي الْأَوَّلِيَّةِ وَالْآخِرِيَّةِ، فَلَمَّا تَقَرَّرَ أَنَّ كَوْنَهُ { الْأَوَّلُ } مُتَعَلِّقٌ بِوُجُودِ الْمَوْجُودَاتِ اقْتَضَى أَنْ يَكُونَ وَصْفُهُ بِـ {الْآخِرُ} مُتَعَلِّقًا بِانْتِقَاضِ ذَلِكَ الْوُجُودِ، أَيْ: هُوَ الْآخِرُ بعد جَمِيع موجودات السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْله تعالى { نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْها } [مَرْيَم:40]، وَقَوْلِهِ تعالى {كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} [الْقَصَص:88].
<u>فَتَقْدِيرُ الْمَعْنَى</u>: الْآخِرُ فِي اسْتِمْرَارِ الْوُجُودِ الَّذِي تَقَرَّرَ بِوَصْفِهِ { الْأَوَّلُ }. وَلَيْسَ فِي هَذَا إِشْعَارٌ بِأَنَّهُ زَائِلٌ يَنْتَابُهُ الْعَدَمُ، إِذْ لَا يُشْعِرُ وَصْفُ الْآخِرُ بِالزَّوَالِ لَا مُطَابَقَةً وَلَا الْتِزَامًا، وَهَذَا هُوَ **صِفَةُ الْبَقَاءِ** فِي اصْطِلَاحِ الْمُتَكَلِّمِينَ.
فَآلَ مَعْنَى الْآخِرُ إِلَى مَعْنَى (**الْبَاقِي**)، وَإِنَّمَا أُوثِرَ وَصْفُ الْآخِرُ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُ مُقْتَضَى الْبَلَاغَةِ لِيَتِمَّ الطِّبَاقُ بَيْنَ الْوَصْفَيْنِ الْمُتَضَادَّيْنِ، وَقَدْ عُلِمَ عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِينَ <u>أَنَّ الْبَقَاءَ غَيْرُ مُخْتَصٍّ بِاللَّهِ تَعَالَى</u> وَأَنَّهُ لَا يُنَافِي الْحُدُوثَ عَلَى خِلَافٍ فِي تَعْيِينِ الْحَوَادِثِ الْبَاقِيَةِ، بِخِلَافِ <u>وصف الْقدَم فَإِنَّهُ مُخْتَصٌّ بِاللَّهِ تَعَالَى</u> وَمُتَنَافٍ مَعَ الْحُدُوثِ.
{ **هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ** } فِي الْقَوْلِ دَلَالَةُ قَصْرٍ مِنْ طَرِيقِ تَعْرِيفِ جُزْأَيِ الْجُمْلَةِ. فَأَمَّا قَصْرُ الْأَوَّلِيَّةِ عَلَى اللهِ تَعَالَى فِي صِفَةِ الْوُجُودِ فَظَاهِرٌ، وَأَمَّا قَصْرُ الْآخِرِيَّةِ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ، وَهُوَ مَعْنَى الْبَقَاءِ، فَإِنْ أُرِيدَ بِهِ الْبَقَاءُ

فِي الْعَالَمِ الدُّنْيَوِيِّ عَرَضَ إِشْكَالُ الْمُتَعَارِضِ بِمَا وَرَدَ مِنْ بَقَاءِ الْأَرْوَاحِ، وَحَدِيثُ: " **أَنَّ عَجْبَ الذَّنَبِ لَا يَفْنَى وَأَنَّ الْإِنْسَانَ مِنْهُ يُعَادُ** ". وَرَفْعُ هَذَا الْإِشْكَالِ أَنْ يُجْعَلَ الْقَصْرُ ادِّعَائِيًّا لِعَدَمِ الِاعْتِدَادِ بِبَقَاءِ غَيْرِهِ تَعَالَى لِأَنَّهُ بَقَاءٌ غَيْرُ وَاجِبٍ بَلْ هُوَ بِجَعْلِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَالْجَمْعُ بَيْنَ وَصْفَيِ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ فِيهِ مُحَسِّنُ الطِّبَاقِ.

{ **الظَّاهِرُ** } الْأَرْجَحُ أَنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنَ الظُّهُورِ الَّذِي هُوَ ضِدُّ الْخَفَاءِ فَيَكُونُ وَصْفُهُ تَعَالَى بِهِ مَجَازًا عَقْلِيًّا، فَإِنَّ إِسْنَادَ الظُّهُورِ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ ظُهُورُ أَدِلَّةِ صِفَاتِهِ الذَّاتِيَّةِ لِأَهْلِ النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ وَالتَّدَبُّرِ فِي آيَاتِ الْعَالَمِ، فَيَكُونُ الْوَصْفُ جَامِعًا لِصِفَتِهِ النَّفْسِيَّةِ، وَهِيَ الْوُجُودُ، إِذْ أَدِلَّةُ وُجُودِهِ بَيِّنَةٌ وَاضِحَةٌ، وَلِصِفَاتِهِ الْأُخْرَى مِمَّا دَلَّ عَلَيْهَا فِعْلُهُ مِنْ قُدْرَةٍ وَعِلْمٍ وَحَيَاةٍ وَإِرَادَةٍ، وَصِفَاتُ الْأَفْعَالِ مِنَ الْخَلْقِ وَالرِّزْقِ وَالْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ كَمَا عَلِمْتَ فِي قَوْلِهِ تعالى { هُوَ الْأَوَّلُ } عَنِ النَّقْصِ، أَوْ مَا دَلَّ عَلَيْهَا تَنْزِيهُهُ عَنِ النَّقْصِ كَصِفَةِ الْوَحْدَانِيَّةِ وَالْقِدَمِ وَالْبَقَاءِ وَالْغِنَى الْمُطْلَقِ وَمُخَالَفَةِ الْحَوَادِثِ، وَهَذَا الْمَعْنَى هُوَ الَّذِي يُنَاسِبُهُ الْمُقَابَلَةُ بِالْبَاطِنِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُشْتَقًّا مِنَ الظُّهُورِ الَّذِي هُوَ بمعنى الْغَلَبَةِ، كَالَّذِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ } [الْكَهْف:20]، فَمَعْنَى وَصْفِهِ تَعَالَى بِـ { الظَّاهِرُ } أَنَّهُ الْغَالِبُ.

وَهَذَا لَا يُنَاسِبُ مُقَابَلَتَهُ بِـ { الْباطِنُ } إِلَّا عَلَى اعْتِبَارِ مُحَسِّنِ الْإِيهَامِ، وَمَا وَقَعَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " **وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ** ". فَمَعْنَى فَاءِ التَّفْرِيعِ فِيهِ أَنَّ ظُهُورَهُ تَعَالَى سَبَبٌ فِي انْتِفَاءِ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ فَوْقَ اللَّهِ فِي الظُّهُورِ، أَيْ: فِي دَلَالَةِ الْأَدِلَّةِ عَلَى وُجُودِهِ وَاتِّصَافِهِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، فَدَلَالَةُ الْفَاءِ تَفْرِيعٌ لَا تَفْسِيرٌ.

{ **الْباطِنُ** } الْخَفِيُّ يُقَالُ: بَطَنَ، إِذَا خَفِيَ وَمَصْدَرُهُ بُطُونٌ.

وَمَعْنَى وَصْفِهِ تَعَالَى بِـ { الْباطِنُ } وَصْفُ ذَاتِهِ وَكُنْهِهِ لِأَنَّهُ مَحْجُوبٌ عَنْ إِدْرَاكِ الْحَوَاسِّ الظَّاهِرَةِ، قَالَ تَعَالَى { لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ } [الْأَنْعَام:103].

{ **وَالظَّاهِرُ وَالْباطِنُ** } قَصْرٌ ادِّعَائِيٌّ، لِأَنَّ ظُهُورَ اللَّهِ تَعَالَى بِالْمَعْنَيَيْنِ ظُهُورٌ لَا يُدَانِيهِ ظُهُورُ غَيْرِهِ، وَبُطُونَهُ تَعَالَى لَا يُشْبِهُهُ بُطُونُ الْأَشْيَاءِ الْخَفِيَّةِ إِذْ لَا مَطْمَعَ لِأَحَدٍ فِي إِدْرَاكِ ذَاتِهِ وَلَا فِي مَعْرِفَةِ تَفَاصِيلِ تَصَرُّفَاتِهِ.

وَفِي الْجَمْعِ بَيْنَهُمَا مُحَسِّنُ الْمُطَابَقَةِ. وَفَائِدَةُ إِجْرَاءِ الْوَصْفَيْنِ الْمُتَضَادَّيْنِ عَلَى اسْمِ اللَّهِ تَعَالَى هُنَا التَّنْبِيهُ عَلَى عِظَمِ شَأْنِ اللَّهِ تَعَالَى لِيَتَدَبَّرَ الْعَالِمُونَ فِي مَوَاقِعِهَا.

وَاعْلَمْ أَنَّ الْوَاوَاتِ الثَّلَاثَةَ الْوَاقِعَةَ بَيْنَ هَذِهِ الصِّفَاتِ الْأَرْبَعِ مُتَّحِدَةُ الْمَعْنَى تَقْتَضِي كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا عَطْفَ صِفَةٍ.

{ **وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** } عَطَفَ عَلَى الْجُمْلَةِ السابقة، عُطِفَتْ صِفَةُ عِلْمِهِ عَلَى صِفَةِ ذَاتِهِ، وَتَقَدَّمَ نَظِيرُ هَذِهِ فِي [الْبَقَرَة:29].

{ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَما يَخْرُجُ مِنْها وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَما يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } [4].

{ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } مَوْقِعُ هَذِهِ الْجُمْلَةِ اسْتِئْنَافٌ كَمَوْقِعِ جُمْلَةِ { هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ } [3]، فَهَذَا اسْتِئْنَافٌ ثَانٍ مُفِيدٌ الِاسْتِدْلَالَ عَلَى انْفِرَادِهِ تَعَالَى بِالْإِلَهِيَّةِ لِيُقْلِعُوا عَنِ الْإِشْرَاكِ بِهِ. وَيُفِيدُ أَيْضًا بَيَانًا لِمَضْمُونِ جُمْلَةِ { لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ } [2]، وَجُمْلَةِ { وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [2]، فَإِنَّ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى عَظِيمِ الْإِبْدَاعِ.

الِاسْتِوَاءُ عَلَى الْعَرْشِ: تَمْثِيلٌ لِلْمُلْكِ الَّذِي فِي قَوْلِهِ تعالى { لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ } [2]، وَهَذَا مَعْنَى اسْمِهِ تَعَالَى (الْخَالِقُ)، وَتَقَدَّمَ قَرِيبٌ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ فِي [الْأَعْرَاف:11].

{ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَما يَخْرُجُ مِنْها وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَما يَعْرُجُ فِيها } اسْتِئْنَافٌ لِتَقْرِيرِ عُمُومِ عِلْمِهِ تَعَالَى بِكُلِّ شَيْءٍ فَكَانَ بَيَانَ جُمْلَةِ { وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [2]، وَجُمْلَةِ { وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [3]، جَارِيًا عَلَى طَرِيقَةِ النَّشْرِ لِلَّفِّ عَلَى التَّرْتِيبِ، وَتَقَدَّمَ نَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ فِي [سَبَأ:2].

{ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } عَطْفُ مَعْنًى خَاصٍّ عَلَى مَعْنًى شَمِلَهُ وَغَيْرَهُ لِقَصْدِ الِاهْتِمَامِ بِالْمَعْطُوفِ.

{ مَعَكُمْ } الْمَعِيَّةُ هنا تَمْثِيلٌ كِنَائِيٌّ عَنِ الْعلم بِجَمِيعِ أَحْوَالهم.

{ أَيْنَ مَا } ظَرْفٌ مُرَكَّبٌ مِنْ (أَيْنَ) وَهِيَ اسْمٌ لِلْمَكَانِ، وَ(مَا) الزَّائِدَةُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى تَعْمِيمِ الْأَمْكِنَةِ.

{ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } تَكْمِلَةٌ لِمَضْمُونِ الجملة السابقة، وَكَانَ حَقُّهَا أَنْ لَا تُعْطَفَ وَإِنَّمَا عُطِفَتْ تَرْجِيحًا لِجَانِبِ مَا تَحْتَوِي عَلَيْهِ مِنَ الْخَبَرِ عَنْ هَذِهِ الصِّفَةِ.

{ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ } [5].

{ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ } هَذَا تَأْكِيدٌ لِنَظِيرِهِ الَّذِي فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ كُرِّرَ لِيُبْنَى عَلَيْهِ قَوْلُهُ تعالى { وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ }، فَكَانَ ذِكْرُهُ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ مَبْنِيًّا عَلَيْهِ التَّصَرُّفُ فِي الْمَوْجُودَاتِ الْقَابِلَةِ لِلْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ فِي الدُّنْيَا، وَكَانَ ذِكْرُهُ هُنَا مَبْنِيًّا عَلَيْهِ أَنَّ أُمُورَ الْمَوْجُودَاتِ كُلِّهَا تَرْجِعُ إِلَى تَصَرُّفِهِ.

{ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ } عطَفَ عَلَى السابق، عَطْفَ الْخَاصِّ مِنْ وَجْهٍ عَلَى الْعَامِّ مِنْهُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْأُمُورِ الْجَارِيَةِ فِي الدُّنْيَا، وَعَطْفَ الْمُغَايِرِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْأُمُورِ الَّتِي تَجْرِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، عَلَى مَا سَيَتَّضِحُ فِي تَفْسِيرِ مَعْنَى { الْأُمُورُ }.

{ وَإِلَى اللهِ } تَقْدِيمُ الْمَجْرُورِ عَلَى مُتَعَلِّقِهِ لِلِاهْتِمَامِ لَا لِلْقَصْرِ إِذْ لَا مُقْتَضَى لِلْقَصْرِ الْحَقِيقِيِّ وَلَا دَاعِيَ لِلْقَصْرِ الْإِضَافِيِّ إِذْ لَا يُوجَدُ مِنَ الْكُفَّارِ مَنْ يُثْبِتُ الْبَعْثَ وَلَا مَنْ زَعَمُوا أَنَّ النَّاسَ يَصِيرُونَ فِي تَصَرُّفِ

غَيْرِ اللَّهِ. وَإِظْهَارُ اسْمِ الْجَلَالَةِ دُونَ أَنْ يَقُولَ: وَإِلَيْهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ، لِتَكُونَ الْجُمْلَةُ مُسْتَقِلَّةً بِمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ فَتَكُونُ كَالْمَثَلِ صَالِحَةً لِلتَّسْيِيرِ.

{ **الْأُمُورُ** } جَمْعُ أَمْرٍ، وَاشْتُهِرَ فِي اللُّغَةِ أَنَّ الْأَمْرَ اسْمٌ لِلشَّأْنِ وَالْحَادِثِ فَيَعُمُّ الْأَفْعَالَ وَالْأَقْوَالَ.

وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: " الْأُمُورُ هُنَا: جَمِيعُ الْمَوْجُودَاتِ لِأَنَّ (الْأَمْرَ وَالشَّيْءَ وَالْمَوْجُودَ) أَسْمَاءٌ شَائِعَةٌ فِي جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ: أَعْرَاضِهَا وَجَوَاهِرِهَا ". وَلَمْ أَرَهُ لِغَيْرِهِ.

فَإِنْ أَخَذْنَا بِالْمَشْهُورِ فِي اللُّغَةِ، كَانَ الْمَعْنَى: تَرْجِعُ أَفْعَالُ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ، أَيْ: فِي الْحَشْرِ، وَالْمُرَادُ: رُجُوعُ أَهْلِهَا لِلْجَزَاءِ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، إِذْ لَا يَتَعَلَّقُ الرُّجُوعُ بِحَقَائِقِهَا، فَعَطْفُ قَوْلِهِ تعالى { وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ } تَتْمِيمٌ لِجُمْلَةِ { لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ }، أَيْ: لَهُ مُلْكُ الْعَوَالِمِ فِي الدُّنْيَا وَلَهُ التَّصَرُّفُ فِي أَعْمَالِ الْعُقَلَاءِ مِنْ أَهْلِهَا فِي الْآخِرَةِ.

وَإِنْ أَخَذْنَا بِشِمُولِ اسْمِ الْأُمُورِ لِلذَّوَاتِ، كَانَ مُفِيدًا لِإِثْبَاتِ الْبَعْثِ، أَي: الذَّوَاتُ الَّتِي كَانَتْ فِي الدُّنْيَا تَصِيرُ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُجَازِيهَا عَلَى أَعْمَالِهَا.

وَعَلَى كِلَا الِاحْتِمَالَيْنِ فَمَفَادُهُ مَفَادُ اسْمِهِ (**الْمُهَيْمِنُ**).

{ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ } [6].

{ **يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ** } مُنَاسَبَةُ ذِكْرِ هَذِهِ الْجُمْلَةَ أَنَّ تَقْدِيرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَتَعَاقُبَهُمَا مِنَ التَّصَرُّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ الْمُشَاهَدَةِ فِي أَحْوَالِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمُلَابَسَاتِ أَحْوَالِ الْإِنْسَانِ، فَهَذِهِ الْجُمْلَةُ بَدَلُ اشْتِمَالٍ مِنْ جُمْلَةِ { لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ } [5]، وَهُوَ أَيْضًا مُنَاسِبٌ لِمَضْمُونِ جُمْلَةِ { وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ } [5]، تَذْكِيرٌ لِلْمُشْرِكِينَ بِأَنَّ الْمُتَصَرِّفَ فِي سَبَبِ الْفَنَاءِ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى، فَإِنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ

هُمَا اللَّذَانِ يُفْنِيَانِ النَّاسَ، وَقَدْ حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ قَوْلَهُمْ { وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ } [الجاثية:24].

وَهَذَا مَعْنَى اسْمِهِ تَعَالَى (**الْمُدَبِّرُ**).

{ **وَهُوَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ** } لَمَّا ذُكِرَ تَصَرُّفُ اللَّهِ فِي اللَّيْلِ، وَكَانَ اللَّيْلُ وَقْتَ إِخْفَاءِ الْأَشْيَاءِ، أُعْقِبَ ذِكْرُهُ بِأَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِأَخْفَى الْخَفَايَا وَهِيَ النَّوَايَا، فَإِنَّهَا مَعَ كَوْنِهَا مَعَانِيَ غَائِبَةً عَنِ الْحَوَاسِّ كَانَتْ مَكْنُونَةً فِي ظُلْمَةِ بَاطِنِ الْإِنْسَانِ فَلَا يَطَّلِعُ عَلَيْهَا عَالِمٌ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى { وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُها وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الْأَرْضِ } [الْأَنْعَام:59]، وَقَوْلِهِ { أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ } [هود:5].

{ **بِذاتِ الصُّدُورِ** } مَا فِي خَوَاطِرِ النَّاسِ مِنَ النَّوَايَا، فـ (ذَاتِ) هُنَا مُؤَنَّثُ (ذُو) بِمَعْنَى صَاحِبَةٍ. وَالصُّحْبَةُ هُنَا بِمَعْنَى الْمُلَازَمَةِ. وَتَقَدَّمَ قوله تعالى { إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ } [الْأَنْفَال:43].

وَقَدِ اشْتَمَلَ هَذَا الْمِقْدَارُ مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ إِلَى هُنَا عَلَى مَعَانِي سِتَّ عَشْرَةَ صِفَةً مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى وَهِيَ: (اللَّهُ / الْعَزِيزُ / الْحَكِيمُ / الْمَلِكُ / الْمُحْيِي / الْمُمِيتُ / الْقَدِيرُ / الْأَوَّلُ / الْآخِرُ / الظَّاهِرُ / الْبَاطِنُ / الْعَلِيمُ / الْخَالِقُ / الْبَصِيرُ / الْوَاحِدُ / الْمُدَبِّرُ).

وَاعْلَمْ أَنَّ مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ إِلَى هُنَا يُرَجَّحُ أَنَّه مكّيّ.

{ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ } [7].

اسْتِئْنَافٌ وَقَعَ مَوْقِعَ النَّتِيجَةِ بَعْدَ الِاسْتِدْلَالِ، فَإِنَّ أَوَّلَ السُّورَةِ قَرَّرَ خُضُوعَ الْكَائِنَاتِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَأَنَّهُ تَعَالَى الْمُتَصَرِّفُ فِيهَا بِالْإِيجَادِ وَالْإِعْدَامِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَهُوَ الْقَدِيرُ عَلَيْهَا، وَأَنَّهُ عَلِيمٌ بِأَحْوَالِهِمْ مُطَّلِعٌ عَلَى مَا تُضْمِرُهُ ضَمَائِرُهُمْ وَأَنَّهُمْ صَائِرُونَ إِلَيْهِ فَمُحَاسِبُهُمْ، فَلَا جَرَمَ تَهَيَّأَ الْمَقَامُ لِإِبْلَاغِهِمُ التَّذْكِيرَ بِالْإِيمَانِ بِهِ، إِيمَانًا لَا يَشُوبُهُ إِشْرَاكٌ، وَالْإِيمَانِ بِرَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذْ قَدْ تَبَيَّنَ صِدْقُهُ بِالدَّلَائِلِ الْمَاضِيَةِ الَّتِي دَلَّتْ عَلَى صِحَّةِ مَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ مِمَّا كَانَ مَحَلَّ ارْتِيَابِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ، كَمَا سيأتي { وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ } [8].

فَذَلِكَ وَجْهُ عَطْفِ وَرَسُولِهِ عَلَى مُتَعَلِّقِ الْإِيمَانِ مَعَ أَنَّ الْآيَاتِ السَّابِقَةَ مَا ذَكَرَتْ إِلَّا دَلَائِلَ صِفَاتِ اللَّهِ دُونَ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

{ **آمِنُوا** } الْخِطَابُ لِلْمُشْرِكِينَ، وَالْآيَةُ مَكِّيَّةٌ حَسْبَ مَا رُوِيَ فِي إِسْلَامِ عُمَرَ، وَهُوَ الَّذِي يُلَائِمُ اتِّصَالَ قَوْلِهِ تعالى { وَما لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } [8] بِهَا.

{ **وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ** } الْمُرَادُ هنا: الْإِنْفَاقُ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ الْإِيمَانُ بَعْدَ حُصُولِهِ، وَهُوَ الْإِنْفَاقُ عَلَى الْفَقِيرِ. وَتَخْصِيصُ الْإِنْفَاقِ بِالذِّكْرِ تَنْوِيهٌ بِشَأْنِهِ، وَقَدْ كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يُنْفِقُونَ إِلَّا فِي اللَّذَّاتِ، وَالْمُفَاخَرَةِ وَالْمُقَامَرَةِ، وَمُعَاقَرَةِ الْخَمْرِ، وَقَدْ وَصَفَهُمُ الْقُرْآنُ بِذَلِكَ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ، كَقَوْلِهِ تعالى { إِنَّهُ كانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَلا يَحُضُّ على طَعامِ الْمِسْكِينِ } [الحاقة:34]، وَقَوْلِهِ تعالى { بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ وَلا تَحَاضُّونَ على طَعامِ الْمِسْكِينِ وَتَأْكُلُونَ التُّراثَ أَكْلًا لَمًّا وَتُحِبُّونَ الْمالَ حُبًّا جَمًّا } [الْفجر:17-20].

وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، أي: الْإِنْفَاق بتجهيز جَيش الْعسرَة. قَالَه ابْنُ عَطِيَّةَ عَنِ الضَّحَّاكِ، فَتَكُونُ الْآيَةُ مَدَنِيَّةً، وَيَكُونُ قَوْلُهُ تعالى { آمِنُوا } أَمْرًا بِالدَّوَامِ عَلَى الْإِيمَانِ، كَقَوْلِهِ تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ } [النِّسَاء:136].

{ **مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ** } جِيءَ بِالْمَوْصُولِ دُونَ أَنْ يَقُولَ: وَأَنْفِقُوا مِنْ أَمْوَالِكُمْ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ لِمَا فِي صِلَةِ الْمَوْصُولِ مِنَ التَّنْبِيهِ عَلَى غَفْلَةِ السَّامِعِينَ عَنْ كَوْنِ الْمَالِ لِلَّهِ جَعَلَ النَّاسَ كَالْخَلَائِفِ عَنْهُ فِي التَّصَرُّفِ فِيهِ مُدَّةً مَا، فَلَمَّا أَمَرَهُمْ بِالْإِنْفَاقِ مِنْهَا عَلَى عِبَادِهِ كَانَ حَقًّا عَلَيْهِمْ أَنْ يَمْتَثِلُوا لِذَلِكَ كَمَا يَمْتَثِلُ

الْخَازِنُ أَمْرَ صَاحِبِ الْمَالِ إِذَا أَمَرَهُ بِإِنْفَاذِ شَيْءٍ مِنْهُ إِلَى مَنْ يُعَيِّنُهُ.

{ **مُسْتَخْلَفِينَ** } السِّينُ وَالتَّاءُ لِلْمُبَالَغَةِ فِي حُصُولِ الْفِعْلِ لَا لِلطَّلَبِ، لِاسْتِفَادَةِ الطَّلَبِ مِنْ فِعْلِ جَعَلَكُمْ. وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ لِتَأْكِيدِ الطَّلَبِ.

{ **فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ** } الْفَاءُ تَفْرِيعٌ وَتَسَبُّبٌ عَلَى الْأَمْرِ بِالْإِيمَانِ وَالْإِنْفَاقِ لِإِفَادَةِ تَعْلِيلِهِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: لِأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنْفَقُوا أَعْدَدْنَا لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا.

وَالْمَعْنَى عَلَى وَجْهِ كَوْنِ الْآيَةِ مَكِّيَّةً: أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَيْنِكُمْ وَأَنْفَقُوا، أَيْ: سَبَقُوكُمْ بِالْإِيمَانِ وَالْإِنْفَاقِ، لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ، أَي: فَاغْتَنَمُوهُ وَتَدَارَكُوا مَا فَاتُوكُمْ بِهِ.

{ **مِنْكُمْ** } (مِنْ) لِلتَّبْعِيضِ، أَي: أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا هُمْ بَعْضُ قومكم. وَهَذَا إغراء لَهُم بِأَن يماثلوهم.

{ وَما لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } [8].

{ **وَما لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ** } ظَاهِرُ اسْتِعْمَالِ أَمْثَالِهِ أَنْ يَكُونَ اسْتِفْهَامًا مُسْتَعْمَلًا فِي التَّوْبِيخِ وَالتَّعْجِيبِ، وَهُوَ الَّذِي يُنَاسِبُ كَوْنَ الْأَمْرِ فِي قَوْلِهِ تعالى { آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ } مُسْتَعْمَلًا فِي الطَّلَبِ لَا فِي الدَّوَامِ.

وَتَكُونُ جُمْلَةُ { لَا تُؤْمِنُونَ } حَالًا مِنَ الضَّمِيرِ الْمُسْتَتِرِ فِي الْكَوْنِ الْمُتَعَلِّقِ بِهِ الْجَارُّ وَالْمَجْرُورُ.

وَالتَّقْدِيرُ: وَمَا لَكُمْ كَافِرِينَ بِاللَّه.

{ **وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ** } حَالٌ ثَانِيَةٌ، وَ(الْوَاوُ) وَاوُ الْحَالِ، فهما حالان متداخلان. وَالْمَعْنَى: مَاذَا يَمْنَعُكُمْ مِنَ الْإِيمَانِ وَقَدْ بَيَّنَ لَكُمُ الرَّسُولُ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ مَا فِيهِ بَلَاغٌ وَحُجَّةٌ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ حَقٌّ فَلَا عُذْرَ لَكُمْ فِي عَدَمِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ فَقَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَاتُ حَقِّيَّتِهِ، فَتَعَيَّنَ أَنَّ إِصْرَارَكُمْ عَلَى عَدَمِ الْإِيمَانِ مُكَابَرَةٌ وَعِنَادٌ.

{ **وَقَدْ أَخَذَ مِيثاقَكُمْ** } مِيثَاقٌ مِنَ اللَّهِ، أَيْ: مَا يُمَاثِلُ الْمِيثَاقَ مِنْ إِيدَاعِ الْإِيمَانِ بِوُجُودِ اللَّهِ وَبِوَحْدَانِيَّتِهِ فِي الْفِطْرَةِ الْبَشَرِيَّةِ، فَكَأَنَّهُ مِيثَاقٌ قَدْ أُخِذَ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ فِي الْأَزَلِ وَشَرْطِ التَّكْوِينِ. إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى } [الْأَعْرَافِ:172].

وَالْمَعْنَى: أَنَّ النُّفُوسَ لَو خلت من الْعِنَادِ وَعَنِ التَّمْوِيهِ والتضليل كَانَتْ مُنْسَاقَةً إِلَى إِدْرَاكِ وُجُودِ الصَّانِعِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ، وَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ دَعْوَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا يَكْشِفُ عَنْهُمْ مَا غَشَّى عَلَى إِدْرَاكِهِمْ من دُعَاء أئمة الْكُفْرِ.

{ **إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** } مُسْتَأْنَفَةٌ، وَجَوَابُ الشَّرْطِ مَحْذُوفٌ دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تعالى { وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثاقَكُمْ }. وَاسم الفَاعل هنا مُسْتَعْمَلٌ فِي الْمُسْتَقْبَلِ بِقَرِينَةِ وُقُوعِهِ فِي سِيَاقِ الشَّرْطِ، أَيْ: فَقَدْ حَصَلَ مَا يَقْتَضِي أَنْ تُؤْمِنُوا مِنَ السَّبَبِ الظَّاهِرِ وَالسَّبَبِ الْخَفِيِّ الْمُرْتَكِزِ فِي الْجِبِلَّةِ.

وَيُرَجِّحُ هَذَا الْمَعْنَى أَنَّ ظَاهِرَ الْأَمْرِ فِي قَوْلِهِ تعالى { آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ } [7] أَنَّهُ لِطَلَبِ إِيجَادِ الْإِيمَانِ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِهَا، وَأَنَّ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ.

{ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلى عَبْدِهِ آياتٍ بَيِّناتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ } [9].

اسْتِئْنَافٌ ثَالِثٌ انْتَقَلَ بِهِ الْخِطَابُ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ، فَهَذِهِ الْآيَةُ يَظْهَرُ أَنَّهَا مَبْدَأُ الْآيَاتِ الْمَدَنِيَّةِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَيَزِيدُ ذَلِكَ وُضُوحًا عَطْفُ قَوْلِهِ تعالى { وَما لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ } [10]، كَمَا سَيَأْتِي قَرِيبًا.

وأُسْلُوبُ نَّظْمِ الآية وَمَا عُطِفَ عَلَيها يَقْتَضِيَانِ أَنْ تَكُونَ اسْتِئْنَافًا انْتِقَالِيًّا هُوَ مِنْ حُسْنِ التَّخَلُّصِ إِلَى خِطَابِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَفُوتُهُ الدَّلَالَةُ عَلَى تَقْرِيرِ مَا قَبْلَهُ، لِأَنَّ التَّقْرِيرَ يَحْصُلُ مِنِ انْتِسَابِ الْمَعْنَيَيْنِ: مَعْنَى الْجُمْلَةِ السَّابِقَةِ، وَمَعْنَى هَذِهِ الْجُمْلَةِ الْمُوَالِيَةِ.

فَهَذِهِ الْجُمْلَةُ بِمَوْقِعِهَا وَمَعْنَاهَا وَعِلَّتِهَا وَمَا عُطِفَ عَلَيْهَا أَفَادَتْ بَيَانًا وَتَأْكِيدًا وَتَعْلِيلًا وَتَذْيِيلًا وَتَخَلُّصًا لِغَرَضٍ جَدِيدٍ، وَهِيَ أَغْرَاضٌ جَمَعَتْهَا جَمْعًا بَلَغَ حَدَّ الْإِعْجَازِ فِي الْإِيجَازِ، مَعَ أَنَّ كُلَّ جُمْلَةٍ مِنْهَا مُسْتَقِلَّةٌ بِمَعْنًى عَظِيمٍ مِنَ الِاسْتِدْلَالِ وَالتَّذْكِيرِ والإرشاد والامتنان.

الرَؤُوفُ: مِنْ أَمْثِلَةِ الْمُبَالغَة فِي الاتصاف بِالرَّأْفَةِ وَهِيَ كَرَاهِيَةُ إِصَابَةِ الْغَيْرِ بِضُرٍّ.

الرَّحِيمُ: مِنَ الرَّحْمَةِ وَهِيَ مَحَبَّةُ إِيصَالِ الْخَيْرِ إِلَى الْغَيْرِ.

{ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ } تَأْكِيدُ الْخَبَرِ بِـ (إِنَّ) وَ(اللَّامِ) لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ فِي إِعْرَاضِهِمْ عَنْ دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ قَدْ حَسِبُوهَا إِسَاءَةً لَهُمْ وَلِآبَائِهِمْ وَآلِهَتِهِمْ، فَقَدْ قَالُوا { أَهذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا إِنْ كادَ لَيُضِلُّنا عَنْ آلِهَتِنا لَوْلا أَنْ صَبَرْنا عَلَيْها } [الْفرْقَان:42/41]. وَهَذَا يُرَجِّحُ أَنَّ قَوْلَهُ { آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ } [7] إِلَى هُنَا مَكِّيٌّ. فَإِنْ كَانَتِ الْآيَةُ مَدَنِيَّةً فَلِأَنَّ الْمُنَافِقِينَ كَانُوا عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ.

{ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } [10].

{ وَما لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ } الْإِنْفَاقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِمَعْنَاهُ الْمَشْهُورُ، وَهُوَ الْإِنْفَاقُ فِي عَتَادِ الْجِهَادِ، لَمْ يَكُنْ إِلَّا بَعْدَ الْهِجْرَةِ، فَإِنَّ (سَبِيلَ اللَّهِ) غَلَبَ فِي الْقُرْآنِ إِطْلَاقُهُ عَلَى الْجِهَادِ وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ تعالى عَقِبَهُ { لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ }، لِأَنَّ الْأَصْلَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مُتَّصِلًا نُزُولُهُ مَعَ هَذَا، وَلَوْ حُمِلَ الْإِنْفَاقُ عَلَى مَعْنَى الصَّدَقَاتِ لَكَانَ مُقْتَضِيًا أَنَّهَا مَدَنِيَّةٌ لِأَنَّ الْإِنْفَاقَ بِهَذَا الْمَعْنَى لَا يُطْلَقُ إِلَّا عَلَى الصَّدَقَةِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فَلَا يُلَامُ الْمُشْرِكُونَ عَلَى تَرْكِهِ.

وَعَلَيْهِ فَالْخِطَابُ مُوَجَّهٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، فَقَدْ أُعِيدَ الْخِطَابُ بِلَوْنٍ غَيْرِ الَّذِي ابْتُدِئَ بِهِ. وَمِنْ لَطَائِفِهِ أَنَّهُ مُوَجَّهٌ إِلَى الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ ظَاهِرُهُمْ أَنَّهُمْ مُسْلِمُونَ وَهُمْ فِي الْبَاطِنِ مُشْرِكُونَ فَهُمُ الَّذِينَ شَحُّوا بِالْإِنْفَاقِ.

وَوَجْهُ إِلْحَاقِ هَذِهِ الْآيَةِ، وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ بِالْمَكِّيِّ، مِنَ السُّورَةِ مُنَاسَبَةُ اسْتِيعَابِ أَحْوَالِ الْمُمْسِكِينَ عَنِ الْإِنْفَاقِ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُؤْمِنِينَ تَعْرِيضًا بِالتَّحْذِيرِ مِنْ خِصَالِ أَهْلِ الْكُفْرِ، إِذْ قَدْ سَبَقَهَا قَوْلُهُ تعالى { وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ } [7].

{ **وما لَكُمْ** } الـ (مَا) اسْتِفْهَامِيَّةٌ مُسْتَعْمَلَةٌ فِي اللَّوْمِ وَالتَّوْبِيخِ عَلَى عَدَمِ إِنْفَاقِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

{ **وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ** } (الْوَاوُ) وَاوُ الْحَالِ وَهُوَ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ { تُنْفِقُوا } بِاعْتِبَارِ أَنَّ عُمُومَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَشْمَلُ مَا فِيهِمَا فَيَشْمَلُ الْمُخَاطَبِينَ، فَذَلِكَ الْعُمُومُ هُوَ الرَّابِطُ.

وَالتَّقْدِيرُ: لِلَّهِ مِيرَاثُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

وَالْمَعْنَى: إِنْكَارُ عَدَمِ إِنْفَاقِ أَمْوَالِهِمْ فِيمَا دَعَاهُمُ اللَّهُ إِلَى الْإِنْفَاقِ فِيهِ وَهُمْ سَيَهْلَكُونَ وَيَتْرُكُونَ أَمْوَالَهُمْ، فَلَوْ أَنْفَقُوا بَعْضَ أَمْوَالِهِمْ فِيمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ لَنَالُوا رِضَى اللَّهِ وَانْتَفَعُوا بِمَالٍ هُوَ صَائِرٌ إِلَى مَنْ يَرِثُهُمْ.

{ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ }

اسْتِئْنَاف بياني ناشئ عَمَّا يَجُولُ فِي خَوَاطِرِ كَثِيرٍ مِنَ السَّامِعِينَ مِنْ أَنَّهُمْ تَأَخَّرُوا عَنِ الْإِنْفَاقِ غَيْرَ نَاوِينَ تَرْكَهُ. وَأُدْمِجَ فِيهِ تَفْضِيلُ جِهَادِ بَعْضِ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى بَعْضٍ لِمُنَاسَبَةِ كَوْنِ الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَشْمَلُ إِنْفَاقَ الْمُجَاهِدِ عَلَى نَفْسِهِ فِي الْعُدَّةِ وَالزَّادِ وَإِنْفَاقَهُ عَلَى غَيْرِهِ مِمَّنْ لَمْ يَسْتَكْمِلْ عُدَّتَهُ وَلَا زَادَهُ، وَلِأَنَّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَسْتَطِيعُ الْجِهَادَ وَلَا يَسْتَطِيعُ الْإِنْفَاقَ، فَأُرِيدَ أَنْ لَا يُغْفَلَ ذِكْرُهُ فِي عِدَادِ هَذِهِ الْفَضِيلَةِ، إِذِ الْإِنْفَاقُ فِيهَا وَسِيلَةٌ لَهَا.

{ **لَا يَسْتَوِي** } نَفْيُ التَّسْوِيَةِ مُرَادٌ بِهِ نَفْيُهَا فِي الْفَضِيلَةِ وَالثَّوَابِ، فَإِنَّ نَفْيَ التَّسْوِيَةِ فِي وَصْفٍ يَقْتَضِي ثُبُوتَ أَصْلِ ذَلِكَ الْوَصْفِ لِجَمِيعِ مَنْ نُفِيَتْ عَنْهُمُ التَّسْوِيَةُ، فَنَفْيُ التَّسْوِيَةِ كِنَايَةٌ عَنْ تَفْضِيل أحد جانبين وَتَنْقِيصِ الْجَانِبِ الْآخَرِ نَقْصًا مُتَفَاوِتًا. وَيُعْرَفُ الْجَانِبُ الْفَاضِلُ وَالْجَانِبُ الْمَفْضُولُ بِالْقَرِينَةِ أَوِ التَّصْرِيحِ فِي الْكَلَامِ، وَلَيْسَ تَقْدِيمُ أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ فِي الذِّكْرِ بَعْدَ نَفْيِ التَّسْوِيَةِ بِمُقْتَضٍ أَنَّهُ هُوَ الْمُفَضَّلُ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى { لَا يَسْتَوِي الْقاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ } [النِّسَاء:95]، وَقُدِّمَ فِي هَذِهِ الْآيَةَ الْجَانِبُ الْمُفَضَّلُ.

{ **مَنْ أَنْفَقَ** } عَامٌّ يَشْمَلُ كُلَّ مَنْ أَنْفَقَ.

{ **مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ** } الظَاهِرُ أَنَّهُ فَتْحُ مَكَّةَ فَإِنَّ هَذَا الْجِنْسَ الْمُعَرَّفَ صَارَ عَلَمًا بِالْغَلَبَةِ عَلَى فَتْحِ مَكَّةَ، وَهَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ الْمُفَسِّرِينَ. وَإِنَّمَا كَانَ الْمُنْفِقُونَ قَبْلَ الْفَتْحِ وَالْمُجَاهِدُونَ قَبْلَهُ أَعْظَمَ دَرَجَةً فِي إِنْفَاقِهِمْ وَجِهَادِهِمْ لِأَنَّ الزَّمَانَ الَّذِي قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ كَانَ زَمَانَ ضَعْفِ الْمُسْلِمِينَ، لِأَنَّ أَهْلَ الْكُفْرِ كَانُوا أَكْثَرَ الْعَرَبِ، فَلَمَّا فُتِحَتْ

مَكَّةُ دَخَلَتْ سَائِرُ قُرَيْشٍ وَالْعَرَبِ فِي الْإِسْلَامِ أصبح الإنفاق والقتال أيسر لكثرة المسلمين وقلّة الكافرين.

وَقِيلَ الْمُرَادُ: صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ، وَهَذَا قَوْلُ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَالزُّهْرِيُّ، وَالشَّعْبِيُّ، وَعَامِرُ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، وَاخْتَارَهُ الطَّبَرِيّ. وَيُؤَيِّدهُ مَا رَوَاهُ الطَّبَرِيُّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ: " أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ ".

وَهُوَ الْمُلَائِمُ لِكَوْنِ هَذِهِ السُّورَةِ بَعْضُهَا مَكِّيٌّ وَبَعْضُهَا مَدَنِيٌّ فَيَقْتَضِي أَنَّ مَدَنِيَّهَا قَرِيبُ عَهْدٍ مِنْ مُدَّةِ إِقَامَتِهِمْ بِمَكَّةَ، وَإِطْلَاقُ الْفَتْحِ عَلَى صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ وَارِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً } [الْفَتْح:1].

{ **أُولئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقاتَلُوا** } تَأْكِيدٌ، أَيْ: أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ الْفَتْحِ وَقَاتَلُوا مِنْ بَعْدِهِ. وَالتَّقْدِيرُ: لَا يَسْتَوِي مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَمَنْ أَنْفَقَ بَعْدَهُ.

{ **أُولئِكَ** } جِيءَ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ دُونَ الضَّمِيرِ لِمَا تُؤْذِنُ بِهِ الْإِشَارَةُ مِنَ التَّنْوِيهِ وَالتَّعْظِيمِ، وَلِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ الْمُشَارَ إِلَيْهِمْ جَدِيرُونَ بِمَا يُذْكَرُ بَعْدَ اسْمِ الْإِشَارَةِ، لِأَجْلِ مَا ذُكِرَ قَبْلَهُ مِنَ الْإِخْبَارِ.

الدَّرَجَةُ: مُسْتَعَارَةٌ لِلْفَضْلِ، لِأَنَّ الدَّرَجَةَ تَسْتَلْزِمُ الِارْتِقَاءَ، فَوَصْفُ الِارْتِقَاءِ مُلَاحَظٌ فِيهَا، ثُمَّ يُشَبَّهُ الْفَضْلُ وَالشَّرَفُ بِالِارْتِقَاءِ فَعَبَّرَ عَنْهُ بِالدَّرَجَةِ.

{ **وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى** } احْتِرَاسٌ مِنْ أَنْ يَتَوَهَّمَ مُتَوَهِّمٌ أَنَّ اسْمَ التَّفْضِيلِ مَسْلُوبُ الْمُفَاضَلَةِ لِلْمُبَالَغَةِ. وَعَبَّرَ بِـ { الْحُسْنى } لِبَيَانِ أَنَّ الدَّرَجَةَ هِيَ دَرَجَةُ الْحُسْنَى لِيَكُونَ لِلِاحْتِرَاسِ مَعْنًى زَائِدٌ عَلَى التَّأْكِيدِ وَهُوَ مَا فِيهِ مِنَ الْبَيَانِ.

الْحُسْنَى: لَقَبٌ قُرْآنِيٌّ إِسْلَامِيٌّ يَدُلُّ عَلَى خَيْرَاتِ الْآخِرَةِ، قَالَ تَعَالى { لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَزِيادَةٌ } [يُونُس:26].

وَهَذِهِ الْآيَةُ أَصْلٌ فِي تَفَاضُلِ أَهْلِ الْفَضْلِ فِيمَا فُضِّلُوا فِيهِ، وَأَنَّ الْفَضْلَ ثَابِتٌ لِلَّذِينَ أَسْلَمُوا بَعْدَ الْفَتْحِ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ وَغَيْرِهِمْ. وَبِئْسَ مَا يَقُولُهُ بَعْضُ الْمُؤَرِّخِينَ مِنْ عِبَارَاتٍ تُؤْذِنُ بِتَنْقِيصِ مَنْ أَسْلَمُوا بَعْدَ الْفَتْحِ مِنْ قُرَيْشٍ مِثْلِ كَلِمَةِ (الطُّلَقَاءِ) وَإِنَّمَا ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ حَزَازَاتٍ فِي النُّفُوسِ قَبَلِيَّةٍ أَوْ حِزْبِيَّةٍ، وَاللَّهُ يَقُولُ { وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } [الحجرات:11].

{ **وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** } تَذْيِيلٌ، وَالْوَاوُ اعْتِرَاضِيَّةٌ، وَالْمَعْنَى: أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ أَسْبَابَ الْإِنْفَاقِ وَأَوْقَاتِهِ وَأَعْذَارِهِ، وَيَعْلَمُ أَحْوَالَ الْجِهَادِ وَنَوَايَا الْمُجَاهِدِينَ فَيُعْطِي كُلَّ عَامِلٍ عَلَى نِيَّةِ عَمَلِهِ.

{ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ } [11].

مَوْقِعُ هَذِهِ الْجُمْلَةِ مَوْقِعُ التَّعْلِيلِ وَالْبَيَانِ لِجُمْلَةِ { وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى } [الْحَدِيد:10]. وَمَا بَيْنَهُمَا اعْتِرَاضٌ. وَالْمَعْنَى: أَنَّ مَثَلَ الْمُنْفِقِ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ مَنْ يُقْرِضُ اللهَ، وَمَثَلُ اللهِ تَعَالَى فِي جَزَائِهِ كَمَثَلِ الْمُسْتَسْلِفِ مَعَ مَنْ أَحْسَنَ قَرْضَهُ وَأَحْسَنَ فِي دَفْعِهِ إِلَيْهِ.

وَالْاسْتِفْهَامُ مُسْتَعْمَلٌ فِي مَعْنَى التَّحْرِيضِ مَجَازًا، لِأَنَّ شَأْنَ الْمُحَرِّضِ عَلَى الْفِعْلِ أَنْ يَبْحَثَ عَمَّنْ يَفْعَلُهُ وَيَتَطَلَّبُ تَعْيِينَهُ لِيَنُوطَهُ بِهِ أَوْ يُجَازِيهِ عَلَيْهِ.

الْقَرْضُ الْحَسَنُ: هُوَ الْقَرْضُ الْمُسْتَكْمِلُ مَحَاسِنَ نَوْعِهِ مِنْ كَوْنِهِ عَنْ طِيبِ نَفْسٍ وَبَشَاشَةٍ فِي وَجْهِ الْمُسْتَقْرِضِ، وَخُلُوٍّ عَنْ كُلِّ مَا يُعَرِّضُ بِالْمِنَّةِ أَوْ بِتَضْيِيقِ أَجَلِ الْقَضَاءِ.

وَالْمُشَبَّهُ هُنَا بِالْقَرْضِ الْحَسَنِ هُوَ الْإِنْفَاقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الْمَنْهِيُّ عَنْ تَرْكِهِ فِي قَوْلِهِ تعالى { وَما لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ } [10].

{ **فَيُضاعِفَهُ لَهُ** } فَاءُ السَّبَبِيَّةِ، لِأَنَّ الْمُضَاعَفَةَ مُسَبَّبَةٌ عَلَى الْقَرْضِ. وَ<u>الْمَعْنَى</u>: التَّحْرِيضُ عَلَى الْإِقْرَاضِ وَتَحْصِيلُ الْمُضَاعَفَةِ، لِأَنَّ الْإِقْرَاضَ سَبَبُ الْمُضَاعَفَةِ.

المضاعفة: مماثلة الْمِقْدَار، فَالْمَعْنَى: يُعْطِيهِ مِثْلَيْ قَرْضِهِ. وَالْمُرَادُ هُنَا مُضَاعَفَتُهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً كَمَا في قَوله تعالى { مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ } [الْبَقَرَة:261]. وَقوله تعالى { مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِيرَةً } [الْبَقَرَة:245].

{ **فَيُضاعِفَهُ** } ضَمِيرُ النصب عَائِدٌ إِلَى الْقَرْضِ الْحَسَنِ، وَالْكَلَامُ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ تَقْدِيرُهُ: فَيُضَاعِفُ جَزَاءَهُ.

{ **وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ** } أي: أَنَّ لَهُ أَنْفَسَ جِنْسِ الْأُجُورِ، لِأَنَّ الْكَرِيمَ فِي كُلِّ شَيْءٍ هُوَ النَّفِيسُ.

وَجُعِلَ الْأَجْرُ الْكَرِيمُ مُقَابِلَ الْقَرْضِ الْحَسَنِ فَقُوبِلَ بِهَذَا مَوْصُوف وَصفته بمثلهما.

الْأَجْرُ: مَا زَادَ عَلَى قَضَاءِ الْقَرْضِ مِنْ عَطِيَّةٍ يُسْدِيهَا الْمُسْتَسْلِفُ إِلَى من سلفه عِنْد مَا يَجِدُ سَعَةً، وَهُوَ الَّذِي قَالَ فِيهِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " خَيْرُكُمْ أَحْسَنُكُمْ قَضَاءً "، وَقَالَ تَعَالَى { وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً } [النِّسَاء:40].

وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا الْأَجْرَ هُوَ الْمَغْفِرَةُ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ } فِي سُورَةِ [التَّغَابُنِ:17]. وَهَذَا يَشْمَلُ الْإِنْفَاقَ فِي الصَّدَقَاتِ، قَالَ تَعَالَى { إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ } [18].

وَهُوَ مَا فَسَّرَهُ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " **وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطَايَا كَمَا يطفئ الْمَاءُ النَّارَ** ".

أَيْ: زِيَادَةٌ عَلَى مُضَاعَفَتِهَا مِثْلُ الْحَسَنَات كلهَا.

{ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ بُشْراكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [12].

{ **يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ** } لَمَّا كَانَ مَعْلُومًا أَنَّ مُضَاعَفَةَ الثَّوَابِ وَإِعْطَاءَ الْأَجْرِ يَكُونُ فِي يَوْمِ الْجَزَاءِ، تَرَجَّحَ أَنْ يَكُونَ الـ { يَوْمَ } مَنْصُوبًا بِفِعْلٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: اذْكُرْ، تَنْوِيهًا بِمَا يَحْصُلُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنْ ثَوَابٍ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَمِنْ حِرْمَانٍ لِلْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ، وَلِذَلِكَ كُرِّرَ{ يَوْمَ } لِيَخْتَصَّ كُلُّ فَرِيقٍ بِذِكْرِ مَا هُوَ

من شؤونه.

وَعَلَى هَذَا فَالْجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ اسْتِئْنَافًا ابْتِدَائِيًّا لِمُنَاسَبَةِ ذِكْرِ أَجْرِ الْمُنْفِقِينَ فَعُقِّبَ بِبَيَانِ بَعْضِ مَزَايَا الْمُؤْمِنِينَ.

عَلَى أَنَّهُ فِي نَظْمِ الْكَلَامِ يَصِحُّ جَعْلُ { يَوْمَ } ظَرْفًا مُتَعَلقا بـ { فَيُضاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ } [11]، عَلَى طَرِيقَةِ التَّخَلُّصِ لِذِكْرِ مَا يَجْرِي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنَ الْخَيْرَاتِ لِأَهْلِهَا وَمِنَ الشَّرِّ لِأَهْلِهِ. وَعَلَيْهِ فَالْجُمْلَةُ مُتَّصِلَةٌ بِالَّتِي قَبْلَهَا بِسَبَبِ التَّعَلُّقِ.

{ **تَرَى** } الْخِطَابُ لِغَيْرِ مُعَيَّنٍ لِيَكُونَ عَلَى مِنْوَالِ الْمُخَاطَبَاتِ الَّتِي قَبْلَهُ، أَيْ: يَوْمُ يَرَى الرَّائِي، وَالرُّؤْيَةُ بَصَرِيَّةٌ.

{ **وَالْمُؤْمِناتِ** } وَجْهُ عَطْفِ الْمُؤْمِناتِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ هُنَا، وَفِي نَظَائِرِهِ مِنَ الْقُرْآنِ الْمَدَنِيِّ، التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّ حُظُوظَ النِّسَاءِ فِي هَذَا الدِّينِ مُسَاوِيَةٌ حُظُوظَ الرِّجَالِ إِلَّا فِيمَا خُصِّصْنَ بِهِ مِنْ أَحْكَامٍ قَلِيلَةٍ لَهَا أَدِلَّتُهَا الْخَاصَّةُ وَذَلِكَ لِإِبْطَالِ مَا عِنْدَ الْيَهُودِ مِنْ وَضْعِ النِّسَاءِ فِي حَالَةِ مَلْعُونَاتٍ وَمَحْرُومَاتٍ مِنْ مُعْظَمِ الطَّاعَاتِ. وَقَدْ بَيَّنَّا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى { وَالْأُنْثى بِالْأُنْثى } [الْبَقَرَة:178].

{ **يَسْعى نُورُهُمْ** } النُّورُ الْمَذْكُورُ هُنَا نُورٌ حَقِيقِيٌّ يجعله الله لِلْمُؤْمِنين فِي مَسِيرِهِمْ مِنْ مَكَانِ الْحَشْرِ إِكْرَامًا لَهُمْ وَتَنْوِيهًا بِهِمْ فِي ذَلِكَ الْمَحْشَرِ.

{ **وَبِأَيْمانِهِمْ** } الْبَاءُ بِمَعْنَى (عَنْ) وَاقْتَصَرَ عَلَى ذِكْرِ الْأَيْمَانِ تَشْرِيفًا لَهَا وَهُوَ مِنَ الِاكْتِفَاءِ، أَي: وَبِجَانِبَيْهِمْ. وَيجوز أَن تكون الْبَاءُ لِلْمُلَابَسَةِ، وَيَكُونُ النُّورُ الْمُلَابِسُ لِلْيَمِينِ نُورَ كِتَابِ الْحَسَنَاتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى { فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيرًا } [الانشقاق:8/7]، فَإِنَّ كِتَابَ الْحَسَنَاتِ هُدًى، فَيَكُونُ لَفْظُ (النُّورِ) قَدِ اسْتُعْمِلَ فِي مَعْنَيَيْهِ الْحَقِيقِيِّ وَالْمَجَازِيِّ وَهُوَ الْهُدَى وَالْبَرَكَةُ.

الْبُشْرَى: اسْمُ مَصْدَرِ بَشَّرَ وَهِيَ الْإِخْبَارُ بِخَبَرٍ يَسُرُّ الْمُخْبَرَ، وَأُطْلِقَ الْمَصْدَرُ عَلَى الْمَفْعُولِ وَهُوَ إِطْلَاقٌ كَثِيرٌ، مِثْلُ الْخَلْقِ بِمَعْنَى الْمَخْلُوقِ، أَي: الَّذِي تُبَشَّرُونَ بِهِ جَنَّاتٌ، وَالْكَلَامُ عَلَى حَذْفِ مُضَافَيْنِ تَقْدِيرُهُمَا: إِعْلَامٌ بِدُخُولِ جَنَّاتٍ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تعالى { خالِدِينَ فِيها }.

{ **بُشْراكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها** } مَقُولُ قَوْلٍ مَحْذُوفٍ، وَالتَّقْدِيرُ: يُقَالُ لَهُمْ، أَيْ: يُقَالُ مِنْ جَانِبِ الْقُدْسِ، تَقُولُهُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَسْمَعُونَ كَلَامًا يَخْلُقُهُ اللَّهُ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مِنْ جَانِبِ الْقُدْسِ.

{ **ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** } يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ بَقِيَّةِ الْكَلَامِ الْمَحْكِيِّ بِالْقَوْلِ الْمُبَشَّرِ بِهِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْحِكَايَةِ الَّتِي حُكِيَتْ فِي الْقُرْآنِ، وعَلَى الِاحْتِمَالَيْنِ فَالْجُمْلَةُ تَذْيِيلٌ تَدُلُّ عَلَى مَجْمُوعِ مَحَاسِنِ مَا وَقَعَتْ بِهِ الْبُشْرَى.

{ **ذلِكَ** } اسْمُ الْإِشَارَةِ لِلتَّعْظِيمِ وَالتَّنْبِيهِ.

{ **هُوَ** } ضَمِيرُ الْفَصْلِ لتقوية الْخَبَر.

{ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالْمُنافِقاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بابٌ باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ [13] يُنادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قالُوا بَلى وَلكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمانِيُّ حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ [14] }.

{ **يَوْمَ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ** } بَدَلٌ مِنْ { يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ } [12] بَدَلا مطابقا، إِذا الْيَوْمُ هُوَ عَيْنُ الْيَوْمِ المتحدَّث عنه سابقًا [12]. وَالْقَوْلُ فِي فَتْحَةِ { يَوْمَ } كسابقه.

{ **وَالْمُنافِقاتُ** } كَعَطْفِ الْمُؤْمِناتِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي الْآيَةِ [12].

{ **لِلَّذِينَ آمَنُوا** } تَغْلِيبٌ لِلذُّكُورِ لِأَنَّ الْمُخَاطَبِينَ هُمْ أَصْحَابُ النُّورِ وَهُوَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ.

{ **انْظُرُونَا** } بِهَمْزَةِ وَصْلٍ مَضْمُومًا، مِنْ نَظَرَهُ، إِذَا انْتَظَرَهُ مِثْلَ نَظَرَ، إِذَا أَبْصَرَ، إِلَّا أَنَّ نَظَرَ بِمَعْنَى الِانْتِظَارِ يَتَعَدَّى إِلَى الْمَفْعُولِ، وَنَظَرَ بِمَعْنَى أَبْصَرَ يَتَعَدَّى بِحَرْفِ (إِلَى) قَالَ تَعَالَى { وَانْظُرْ إِلَى الْعِظامِ كَيْفَ نُنْشِزُها } [الْبَقَرَة:259].

الانتظار: التَّرَيُّثُ بِفِعْلٍ مَا، أَيْ: تَرَيَّثُوا فِي سَيْرِكُمْ حَتَّى نَلْحَقَ بِكُمْ فَنَسْتَضِيءَ بِالنُّورِ الَّذِي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَبِجَانِبِكُمْ.

الْاقْتِبَاسُ: حَقِيقَتُهُ أَخْذُ الْقَبَسِ (بِفَتْحَتَيْنِ) وَهُوَ الجذوة من الْجمر. فَيَجُوزُ أَنْ يكون إِطْلَاق { نَقْتَبِسْ } هُنَا حَقِيقَةً بِأَنْ يَكُونُوا ظَنُّوا أَنَّ النُّورَ الَّذِي كَانَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ نُورُ شُعْلَةٍ، يُلْقَى ذَلِكَ فِي ظَنِّهِمْ لِتَكُونَ خَيْبَتُهُمْ أَشَدَّ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُسْتَعَارَ الِاقْتِبَاسُ لِانْتِفَاعِ أَحَدٍ بِضَوْءِ آخَرَ لِأَنَّهُ يُشْبِهُ الِاقْتِبَاسَ فِي الِانْتِفَاعِ بِالضَّوْءِ بِدُونِ عِلَاجٍ.

{ **قِيلَ ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً** } يَظْهَرُ مِنْ إِسْنَادِ { قِيلَ } بِصِيغَةِ الْمَجْهُولِ أَنَّ قَائِلَهُ غَيْرُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُخَاطَبِينَ وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ كَلَامِ الْمَلَائِكَةِ السَّائِقِينَ لِلْمُنَافِقِينَ.

وَتَكُونُ مَقَالَةُ الْمَلَائِكَةُ لِلْمُنَافِقِينَ تَهَكُّمًا إِذْ لَا نُورَ وَرَاءَهُمْ وَإِنَّمَا أَرَادُوا إِطْمَاعَهُمْ ثُمَّ تَخْيِيبَهُمْ بِضَرْبِ السُّورِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، لِأَنَّ الْخَيْبَةَ بَعْدَ الطَّمَعِ أَشَدُّ حَسْرَةً. وَهَذَا اسْتِهْزَاءٌ كَانَ جَزَاءً عَلَى اسْتِهْزَائِهِمْ بِالْمُؤْمِنِينَ وَاسْتِسْخَارِهِمْ بِهِمْ، فَهُوَ مِنْ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى { الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ } [التَّوْبَة:79].

وَراءَكُمْ: تَأْكِيدٌ لِمَعْنَى ارْجِعُوا إِذِ الرُّجُوعُ يَسْتَلْزِمُ الْوَرَاءَ، وَهَذَا كَمَا يُقَالُ: رَجَعَ الْقَهْقَرَى.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ظرفا لفعل { فَالْتَمِسُوا نُوراً }، أَيْ: فِي الْمَكَانِ الَّذِي خَلْفَكُمْ.

{ **فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ** } ضَمِيرُ { بَيْنَهُمْ } عَائِدٌ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ. وَضَرْبُ السُّورِ: وَضْعُهُ، يُقَالُ: ضَرَبَ خَيْمَةً. وَضُمِّن { فَضُرِبَ } مَعْنَى الْحَجْزِ فَعُدِّيَ بِـ (الْبَاءِ)، أَيْ: ضُرِبَ بَيْنَهُمْ سُورٌ لِلْحَجْزِ بِهِ بَيْنَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ، خَلَقَهُ اللَّهُ سَاعَتَئِذٍ قَطْعًا لِأَطْمَاعِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ.

{ **لَهُ بابٌ باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ** } وَلَعَلَّ جَعْلَ الْبَابِ فِي سُورٍ وَاحِدٍ لِيَمُرَّ مِنْهُ أَفْوَاجُ الْمُؤْمِنِينَ الْخَالِصِينَ بِمَرْأًى مِنَ الْمُنَافِقِينَ الْمَحْبُوسِينَ وَرَاءَ ذَلِكَ السُّورِ تَنْكِيلًا بِهِمْ وَحَسْرَةً حِينَ يُشَاهِدُونَ أَفْوَاجَ الْمُؤْمِنِينَ يُفْتَحُ لَهُمُ الْبَابُ الَّذِي فِي السُّورِ لِيَجْتَازُوا مِنْهُ إِلَى النَّعِيمِ الَّذِي بِبَاطِنِ السُّورِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا السُّورَ الْمَذْكُورَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ غَيْرُ الْحِجَابِ الَّذِي ذُكِرَ فِي [الْأَعْرَافِ:46].

{ **لَهُ بابٌ / باطِنُهُ / ظاهِرُهُ** } الضَمَائِرُ عَائِدَة إِلَى السُّورِ. وَالْبَاطِنُ: هُوَ دَاخِلُ الشَّيْءِ، وَالظَّاهِرُ: خَارِجُهُ.

{ **يُنادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ** } حَالٌ مِنْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالْمُنافِقاتُ. والاسْتِفْهَامٌ تَقْرِيرِيٌّ، اسْتُعْمِلَ كِنَايَةً عَنْ طَلَبِ اللَّحَاقِ بِهِمْ وَالْانْضِمَامِ إِلَيْهِمْ كَمَا كَانُوا مَعَهُمْ فِي الدُّنْيَا يَعْمَلُونَ أَعْمَالَ الْإِسْلَامِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

تَوَهَّمُوا أَنَّ الْمُعَامَلَةَ فِي الْآخِرَةِ تَجْرِي كَمَا تَجْرِي الْمُعَامَلَةُ فِي الدُّنْيَا عَلَى حَسَبِ صُوَرِ الْأَعْمَالِ، وَمَا دَرَوْا أَنَّ الصُّوَرَ مُكَمِّلَاتٌ وَأَنَّ قِوَامَهَا إِخْلَاصُ الْإِيمَانِ.

{ **قالُوا بَلى وَلكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمانِيُّ حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ** } بَيَّنُوا لَهُمْ أَسْبَابَ التَّبَاعُدِ بَيْنَهُمْ بِأَنَّ بَاطِنَهُمْ كَانَ مُخَالِفًا لِظَاهِرِهِمْ. وَذَكَرُوا لَهُمْ أَرْبَعَةَ أُصُولٍ هِيَ أَسْبَابُ الْخُسْرَانِ، وَهِيَ: (فِتْنَةُ أَنْفُسِهِمْ / التَّرَبُّصُ بِالْمُؤْمِنِينَ / الْارْتِيَابُ فِي صِدْقِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ / الاغْتِرَارُ بِمَا تُمَوِّهُ إِلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ). وَهَذِهِ الْأَرْبَعَةُ هِيَ <u>أُصُولُ الْخِصَالِ الْمُتَفَرِّعَةِ عَلَى النِّفَاقِ</u>.

<u>الْأَوَّلُ: فِتْنَتُهُمْ أَنْفُسَهُمْ</u>، { **وَلكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ** } أَيْ: عَدَمُ قَرَارِ ضَمَائِرِهِمْ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ، فَكَأَنَّ الِاضْطِرَابَ وَعَدَمَ الِاسْتِقْرَارِ خُلُقٌ لَهُمْ فَإِذَا خَطَرَتْ فِي أَنْفُسِهِمْ خَوَاطِرُ خَيْرٍ مِنْ إِيمَانٍ وَمَحَبَّةٍ لِلْمُؤْمِنِينَ نَقَضُوهَا بِخَوَاطِرِ الْكُفْرِ وَالْبَغْضَاءِ، وَهَذَا مِنْ صُنْعِ أَنْفُسِهِمْ فَإِسْنَادُ الْفِتَنِ إِلَيْهِمْ إِسْنَادٌ حَقِيقِيٌّ، وَكَذَلِكَ الْحَالُ فِي أَعْمَالِهِمْ مِنْ صَلَاةٍ وَصَدَقَةٍ. وَهَذَا ينشأ عَنهُ الْكَذِبُ، وَالْخِدَاعُ، وَالْاسْتِهْزَاءُ، وَالطَّعْنُ فِي الْمُسْلِمِينَ.

<u>الثَّانِي: التَّرَبُّصُ</u>،{ **وَتَرَبَّصْتُمْ** } التَّرَبُّصُ: انْتِظَارُ شَيْءٍ، وَتَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ } [الْبَقَرَة:228]. وَيَتَعَدَّى فِعْلُهُ إِلَى الْمَفْعُولِ بِنَفْسِهِ وَيَتَعَلَّقُ بِهِ مَا زَادَ عَلَى الْمَفْعُولِ بِالْبَاءِ. وَحُذِفَ هُنَا مَفْعُولُهُ وَمُتَعَلِّقُهُ لِيَشْمَلَ عِدَّةَ أُمُورٍ يَنْتَظِرُهَا الْمُنَافِقُونَ فِي شَأْنِ الْمُؤْمِنِينَ، وَهِيَ كَثِيرَةٌ، مَرْجِعُهَا إِلَى أَذَى الْمُسلمين وَالْإِضْرَارِ بِهِمْ؛ فَيَتَرَبَّصُونَ هَزِيمَةَ الْمُسْلِمِينَ، قَالَ تَعَالَى فِي بَعْضِهِمْ { وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ } [التَّوْبَة:98]، وَيَتَرَبَّصُونَ انْقِسَامَ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَدْ قَالُوا لِفَرِيقٍ مِنَ الْأَنْصَارِ يُنَدِّمُونَهُمْ عَلَى مَنْ قُتِلَ مِنْ قَوْمِهِمْ فِي بَعْضِ الْغَزَوَاتِ { لَوْ أَطاعُونا مَا قُتِلُوا } [آل عمران:168].

<u>الثَّالِثُ: الِارْتِيَابُ</u>، { **وَارْتَبْتُمْ** } فِي الدِّينِ وَهُوَ الشَّكُّ فِي الِاعْتِمَادِ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ أَوْ عَلَى الْكَافِرِينَ، وَيَنْشَأُ عَنْهُ الْقُعُودُ عَنِ الْجِهَادِ، قَالَ تَعَالَى { فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ } [التَّوْبَة:45].

<u>الرَّابِعُ: الْغُرُورُ بِالْأَمَانِيِّ</u>، { **وَغَرَّتْكُمُ الْأَمانِيُّ** } وَهِيَ جَمْعُ أُمْنِيَّةٍ وَهِيَ اسْمُ التَّمَنِّي. وَالْمُرَادُ بِهَا مَا كَانُوا يُمَنُّونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ مِنْ أَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ وَأَنَّ انْتِصَارَ الْمُؤْمِنِينَ عَرَضٌ زَائِلٌ، وَأَنَّ الْحَوَادِثَ تَجْرِي عَلَى رَغْبَتِهِمْ وَهَوَاهُمْ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ { لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ } [الْمُنَافِقُون:8]. وَقَوْلُهُمْ { لَوْ نَعْلَمُ قِتالًا

لَاتَّبَعْنَاكُمْ } [آل عمران:167]. وَلِذَلِكَ يَحْسَبُونَ أَنَّ الْعَاقِبَةَ لَهُمْ.

وَقَدْ بَيَّنْتُ الْخِصَالَ الَّتِي تَتَوَلَّدُ عَلَى النِّفَاقِ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فَطَبِّقْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْأُصُولَ الْأَرْبَعَةَ وَأَلْحِقْ فُرُوعَ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ.

{ **حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللَّهِ** } الْمَقْصُودُ مِنَ الْغَايَةِ التَّنْدِيدُ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ لَمْ يَرْعَوُوا عَنْ غَيِّهِمْ مَعَ طُولِ مُدَّةِ أَعْمَارِهِمْ وَتَعَاقُبِ السِّنِينَ عَلَيْهِمْ وَهُمْ لَمْ يَتَدَبَّرُوا فِي الْعَوَاقِبِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى { أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ } [فاطر:37]. وَإِسْنَاد التَّغْرِير إِلَى الْأَمَانِيِّ مَجَازٌ عَقْلِيٌّ لِأَنَّ الْأَمَانِيَّ وَالطَّمَعَ فِي حُصُولِهَا سَبَبُ غُرُورِهِمْ وَمَلَابِسُهُ.

مَجِيءُ أَمْرِ اللَّهِ: هُوَ الْمَوْتُ.

وَمِنْ حَقِّ الْمُؤْمِنِ أَنْ يَعْتَبِرَ بِمَا تَضَمَّنَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى { وَغَرَّتْكُمُ الْأَمانِيُّ حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللَّهِ }، فَلَا يُمَاطِلُ التَّوْبَةَ.

{ **وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ** } عَطَفَ عَلَى جُمْلَةِ { وَغَرَّتْكُمُ الْأَمانِيُّ } تَحْقِيرًا لِغُرُورِهِمْ وَأَمَانِيِّهِمْ بِأَنَّهَا مِنْ كَيْدِ الشَّيْطَانِ لِيَزْدَادُوا حَسْرَةً حِينَئِذٍ.

التَّغْرِيرُ: إِظْهَارُ الضَّارِّ فِي صُورَةِ النَّافِعِ بِتَمْوِيهٍ وَسَفْسَطَةٍ.

الْغَرُورُ: (بِفَتْحِ الْغَيْنِ) مُبَالَغَةٌ فِي الْمُتَّصِفِ بِالتَّغْرِيرِ، وَالْمُرَادُ بِهِ الشَّيْطَانُ، أَيْ: بِإِلْقَائِهِ خَوَاطِرَ النِّفَاقِ فِي نُفُوسهم بتلوينه فِي لون الْحَقِّ وَإِرْضَاءِ دِينِ الْكُفْرِ الَّذِي يَزْعُمُونَ أَنَّهُ مِنْ رِضَى اللَّهِ.

<u>وَيَجُوزُ</u> أَنْ يُرَادَ جِنْسُ الْغَارِّينَ، أَيْ: وَغَرَّكُمْ بِاللَّه أئمة الْكُفْرِ وَقَادَةُ النِّفَاقِ.

{ **بِاللَّهِ** }َ(الْبَاءُ) للسببيّة أَوْ لِلْآلَةِ الْمَجَازِيَّةِ، أَيْ: جَعَلَ الشَّيْطَانُ شَأْنَ اللَّهِ سَبَبًا لِغُرُورِكُمْ، بِأَنْ خَيَّلَ إِلَيْكُمْ أَنَّ الْحِفَاظَ عَلَى الْكُفْرِ مُرْضِيٌّ لِلَّهِ تَعَالَى وَأَنَّ النِّفَاقَ حَافَظْتُمْ بِهِ على دينكُمْ وحفظتم بِهِ نُفُوسَكُمْ وَكَرَامَةَ قَوْمِكُمْ وَاطَّلَعْتُمْ بِهِ عَلَى أَحْوَالِ عَدُوِّكُمْ. وَهَذَا كُلُّهُ مَعْلُومٌ عِنْدَهُمْ قَدْ شَاهَدُوا دَلَائِلَهُ فَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ فَرَّعُوا لَهُمْ عَلَيْهِ قَوْلَهُمْ { فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ } [15]، قَطْعًا لِطَمَعِهِمْ أَنْ يَكُونُوا مَعَ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَئِذٍ كَمَا كَانُوا مَعَهُمْ فِي الْحَيَاة.

{ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [15].

<u>يَجُوزُ</u> أَنْ يَكُونَ هَذَا الْكَلَامُ مِنْ تَتِمَّةِ خِطَابِ الْمُؤْمِنِينَ لِلْمُنَافِقِينَ اسْتِمْرَارًا فِي التَّوْبِيخِ وَالتَّنْدِيمِ. وَهَذَا مَا جَرَى عَلَيْهِ الْمُفَسِّرُونَ. <u>وَيَجُوزُ</u> أَنْ يَكُونَ كَلَامًا صَادِرًا مِنْ جَانِبِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُنَافِقِينَ تَأْيِيسًا لَهُمْ مِنَ الطَّمَعِ فِي نَوَالِ حَظٍّ مِنْ نُورِ الْمُؤْمِنِينَ.

{ **فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ** } تَذْكِيرُهُمْ بِمَا كَانُوا يُضْمِرُونَهُ فِي الدُّنْيَا حِينَ يُنْفِقُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ رِيَاءً وَتَقِيَّةً. وَهُوَ مَا حَكَاهُ اللَّهُ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ { وَمِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ }

[التَّوْبَة:98].

وَكُنِّي بِنَفْيِ أَخْذِ الْفِدْيَةِ عَنْ تَحَقُّقِ جَزَائِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ، وَإِلَّا فَإِنَّهُمْ لَمْ يَبْذُلُوا فِدْيَةً.

{ **وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا** } عَطْفٌ قُصِدَ مِنْهُ تَعْلِيلُ أَنْ لَا مَحِيصَ لَهُمْ مِنْ عَذَابِ الْكُفْرِ.

وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ الْمُنَافِقِينَ كَانُوا هُمْ وَالْكَافِرُونَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ عِنْدَ أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، فَفِيهِ احْتِرَاسٌ مِنْ أَنْ يَتَوَهَّمَ الْكَافِرُونَ الصُّرَحَاءُ مِنْ ضَمِيرِ { لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ } أَنَّ ذَلِكَ حُكْمٌ خَاصٌّ بِالْمُنَافِقِينَ تَعَلُّقًا بِأَقَلِّ طَمَعٍ، فَلَيْسَ ذِكْرُ { وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا } مُجَرَّدَ اسْتِطْرَادٍ.

الْمَأْوَى: الْمَكَانُ الَّذِي يُؤْوَى إِلَيْهِ، أَي: يُصَارُ إِلَيْهِ وَيُرْجَعُ، وَكُنِّيَ بِهِ عَنِ الِاسْتِمْرَارِ وَالْخُلُودِ.

{ **مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ** } تَأْكِيدٌ صَرِيحٌ، أَيْ: تَرْجِعُونَ إِلَيْهَا كَمَا يَرْجِعُ الْمُسْتَنْصِرُ إِلَى مَوْلَاهُ لِيَنْصُرَهُ أَوْ يُفَادِي عَنْهُ، فَاسْتُعِيرَ الْمَوْلَى لِلْمَقَرِّ عَلَى طَرِيقَةِ التَّهَكُّمِ.

وَيَجُوزُ مَعَ ذَلِكَ أَنْ يُجْعَلَ الْمَوْلَى اسْمَ مَكَانِ الْوَلْيِ، وَهُوَ الْقُرْبُ وَالدُّنُوُّ، أَيْ: مَقَرُّكُمْ.

{ **وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** } تَذْيِيلٌ يَشْمَلُ جَمِيعَ مَا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْعَذَابِ.

{ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ } [16].

قَدْ عُلِمَ مِنْ صَدْرِ تَفْسِيرِ هَذِهِ السُّورَةِ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ بِمَكَّةَ سَنَةَ أَرْبَعٍ أَوْ خَمْسٍ مِنَ الْبَعْثَةِ، رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ: " مَا كَانَ بَيْنَ إِسْلَامِنَا وَبَيْنَ أَنْ عَاتَبَنَا اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ { أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ – إِلَى قوله - وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ " إِلَّا أَرْبَعُ سِنِينَ ".

{ **لِلَّذِينَ آمَنُوا** } الْمَقْصُود إِمَّا بَعْضٌ مِنْهُمْ، رُبَّمَا كَانُوا مُقَصِّرِينَ عَنْ جُمْهُورِ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَئِذٍ بِمَكَّةَ فَأَرَادَ اللَّهُ إِيقَاظَ قُلُوبِهِمْ بِهَذَا الْكَلَامِ الْمُجْمَلِ عَلَى عَادَةِ الْقُرْآنِ وَأَقْوَالِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي التَّعْرِيضِ، مِثْلَ قَوْلِهِ صلى الله عليه وسلم: " **مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَفْعَلُونَ كَذَا** "، وَقَوْلِهِ تَعَالَى { وَطائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجاهِلِيَّةِ } [آل عمران:154]. وَلَيْسَ مَا قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ مُقْتَضِيًا أَنَّ مِثْلَهُ مِنْ أُولَئِكَ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَلكنّه يخْشَى أَن يكون مِنْهُمْ حَذَرًا وَحَيْطَةً.

فَالْمُرَادُ بِالَّذِينَ آمَنُوا الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَا مَنْ يُظْهِرُونَ الْإِيمَانَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ إِذْ لَمْ يَكُنْ فِي الْمُسْلِمِينَ بِمَكَّةَ مُنَافِقُونَ وَلَا كَانَ دَاعٍ إِلَى نِفَاقِ بَعْضِهِمْ. وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: " لَمَّا نَزَلَتْ جَعَلَ بَعْضُنَا يَنْظُرُ إِلَى بعض ونقول: مَا أَحْدَثْنَا؟

وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ تَحْرِيضًا لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى مُرَاقَبَةِ ذَلِكَ وَالْحَذَرِ مِنَ التَّقْصِيرِ.

{ **أَلَمْ يَأْنِ** } الْهَمْزَةُ لِلِاسْتِفْهَامِ وَهُوَ اسْتِفْهَامٌ مُسْتَعْمَلٌ فِي الْإِنْكَارِ، أَيْ: إِنْكَارُ نَفْيِ اقْتِرَابِ وَقْتِ فَاعِلِ الْفِعْلِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الِاسْتِفْهَامُ لِلتَّقْرِيرِ عَلَى النَّفْيِ.

{ **يَأْنِ** } مُشْتَقٌّ مِن اسْمٍ جَامِدٍ وَهُوَ **الْإِنَى** (بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَكَسْرِهَا)، أَي: الْوَقْتُ، قَالَ تَعَالَى { غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ } [الْأَحْزَاب:53]. وَقَرِيبٌ مِنْهُ قَوْلُهُمْ: أَمَا آنَ لَكَ أَنْ تَفْعَلَ، مِثْلَ مَا وَرَدَ فِي حَدِيثِ إِسْلَامِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُ: " أَمَا آنَ لَكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أَنْ تُسْلِمَ ".

إِلَّا أَنَّ فِعْلَ (**يَأْنِ**) مُشْتَقٌّ مِنَ الإِنَى وَهُوَ فِعْلٌ مَنْقُوصٌ آخِرَهُ أَلِفٌ، وَفِعْلُ: (**آنَ**) مُشْتَقٌّ مِنَ الْأَيْنِ وَهُوَ الْحِينُ وَهُوَ فِعْلٌ أَجْوَفُ آخِرَهُ نُونٌ.

{ **أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ** } فَاعِلُ يَأْنِ، وَ**الْخُشُوعُ**: الاستكانة والتذلّل.

{ **لِذِكْرِ اللَّهِ** } مَا يُذَكِّرُهُمْ بِهِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَوْ هُوَ الصَّلَاةُ. وَاللَّامُ لَامُ الْعِلَّةِ، أَي: لِأَجْلِ ذِكْرِ اللهِ. وَمَعْنَى الْخُشُوعِ لِأَجْلِهِ: الْخُشُوعُ الْمُسَبَّبُ عَلَى سَمَاعِهِ، وَهُوَ الطَّاعَةُ وَالْامْتِثَالُ .

{ **وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ** } الْقُرْآنُ، قَالَ تَعَالَى { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ } [الْأَنْفَال:2].

<u>وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْوَصْفَانِ لِلْقُرْآنِ</u> تَشْرِيفًا لَهُ بِأَنَّهُ ذِكْرُ اللهِ وَتَعْرِيفًا لِنَفْعِهِ بِأَنَّهُ نَزَلَ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَأَنَّهُ الْحَقُّ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ تعالى { وَما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ } عَطْفُ وَصْفٍ آخَرَ لِلْقُرْآنِ.

{ **وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ** } الـ (لَا) نَافِيَةٌ عَلَى قِرَاءَةِ الْجُمْهُورِ، وَالتَّقْدِيرُ: أَلَمْ يَأْنِ لَهُمْ أَنْ لَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ. وَالْمَقْصُود التحذير لَا أَنَّهُمْ تَلَبَّسُوا بِذَلِكَ وَلَمْ يَأْنِ لَهُمُ الْإِقْلَاعُ عَنْهُ.

وَالتَّحْذِيرُ مُنْصَبٌّ إِلَى مَا حَدَثَ لِأَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ قَسْوَةِ الْقُلُوبِ بَعْدَ طُولِ الْأَمَدِ عَلَيْهِمْ فِي مُزَاوَلَةِ دِينِهِمْ.

أَيْ: فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ أَنْ يَكُونُوا مِثْلَهُمْ عَلَى حَدَثَانِ عَهْدِهِمْ بِالدِّينِ. وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ عُذْرَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابِ بِطُولِ الْأَمَدِ عَلَيْهِمْ، لِأَنَّ طُولَ الْأَمَدِ لَا يَكُونُ سَبَبًا فِي التَّفْرِيط فِيمَا طَال فِيهِ الْأَمَدُ بَلِ الْأَمْرُ بِالْعَكْسِ.

<u>وَيَجُوزُ أَنْ تَجْعَلَ (لَا) حَرْفَ نَهْيٍ</u>، أي: أَبْلِغْهُمْ أَنْ لَا يَكُونُوا.

{ **فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ** } الـ (فَاءُ) لِتَفْرِيعِ طُولِ الْأَمَدِ عَلَى قَسْوَةِ الْقُلُوبِ مِنْ عَدَمِ الْخُشُوعِ، فَهَذَا التَّفْرِيعُ خَارِجٌ عَنِ التَّشْبِيهِ الَّذِي فِي قَوْلِهِ تعالى { كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ }، وَلَكِنَّهُ تَنْبِيهٌ عَلَى عَاقِبَةِ ذَلِكَ التَّشْبِيهِ تَحْذِيرًا مِنْ أَنْ يُصِيبَهُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ.

الْأَمَدُ: الْغَايَةُ مِنْ مَكَانٍ أَوْ زَمَانٍ، وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا: الْمُدَّةُ الَّتِي أوصاهم الله بِأَنْ يُحَافِظُوا عَلَى اتِّبَاعِ شَرَائِعِهِمْ فِيهَا، الْمُغَيَّاةُ بِمَجِيءِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُبَشَّرِ فِي الشَّرَائِعِ، قال تعالى { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ } [آل عمران:81].

<u>وَالْمَعْنَى</u>: أَنَّهُمْ نَسُوا مَا أُوصُوا بِهِ فَخَالَفُوا أَحْكَامَ شَرَائِعِهِمْ وَلَمْ يَخَافُوا عِقَابَ اللهِ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا، وَصَارَ دَيْدَنًا لَهُمْ رُوَيْدًا رُوَيْدًا، فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ، أَيْ: تَمَرَّدَتْ عَلَى الِاجْتِرَاءِ عَلَى تَغْيِيرِ أَحْكَامِ الدِّينِ.

{ **وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ** } اعْتِرَاضٌ فِي آخِرِ الْكَلَامِ. <u>وَالْمَعْنَى</u>: أَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ تَجَاوَزُوا ذَلِكَ الْحَدَّ مِنْ قَسْوَةِ

الْقُلُوبِ فَنَبَذُوا دِينَهُمْ وَبَدَّلُوا كِتَابَهُمْ وَحَرَّفُوهُ وَأَفْسَدُوا عَقَائِدَهُمْ فَبَلَغُوا حَدَّ الْكُفْرِ. فَالْفِسْقُ هَنَا مُرَادٌ بِهِ الْكُفْرُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فاسِقُونَ } [الْمَائِدَة:59].

{ **فَقَسَتْ / فاسِقُونَ** } بَيْنَهُمَا مُحَسِّنُ الْجِنَاسِ. وَهَذَا النَّوْعُ فِيهِ مُرَكَّبٌ مِمَّا يُسَمَّى جِنَاسُ الْقَلْبِ وَمَا يُسَمَّى الْجِنَاسُ النَّاقِصُ، وَقَدِ اجْتَمَعَا فِي هَذِه الْآيَة.

{ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } [17].

{ **اعْلَمُوا** } افْتِتَاحُ الْكَلَامِ بِـهذا الأمر وَنَحْوِهِ يُؤْذِنُ بِأَنَّ مَا سَيُلْقَى جَدِيرٌ بِتَوَجُّهِ الذِّهْنِ بِشَرَاشِرِهِ إِلَيْهِ، كَمَا تَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى { وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ } [الْبَقَرَة:235]، وَقَوْلِهِ تعالى { وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ } [الْأَنْفَالِ:41]. وَهُوَ هُنَا يُشِيرُ إِلَى أَنَّ الْكَلَامَ الَّذِي بَعْدَهُ مَغْزًى عَظِيمٌ غَيْرُ ظَاهِرٍ، وَذَلِكَ أَنَّهُ أُرِيدَ بِهِ تَمْثِيلُ حَالِ احْتِيَاجِ الْقُلُوبِ الْمُؤْمِنَةِ إِلَى ذِكْرِ اللهِ بِحَالِ الْأَرْضِ الْمَيِّتَةِ فِي الْحَاجَةِ إِلَى الْمَطَرِ، وَحَالِ الذِّكْرِ فِي تَزْكِيَةِ النُّفُوسِ وَاسْتِنَارَتِهَا بِحَالِ الْغَيْثِ فِي إِحْيَاءِ الْأَرْضِ الْجَدْبَةِ. وَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ بَعْدَهُ { قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ }، وَإِلَّا فَإِنَّ إِحْيَاءَ اللهِ الْأَرْضَ بِمَا يُصِيبُهَا مِنَ الْمَطَرِ لَا خَفَاءَ فِيهَا فَلَا يَقْتَضِي أَنْ يُفْتَتَحَ الْإِخْبَارُ عَنْهُ بِمِثْلِ { اعْلَمُوا }، وَنَظِيرُهُ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي مَسْعُودٍ الْبَدْرِيِّ، وَقَدْ رَآهُ لَطَمَ وَجْهَ عَبْدٍ لَهُ: " اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ اللهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا ".

فَالْجُمْلَةُ بِمَنْزِلَةِ التَّعْلِيلِ لِجُمْلَةِ { أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ - إِلَى قَوْلِهِ - فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ } [16]، لِمَا تَتَضَمَّنُهُ تِلْكَ مِنَ التَّحْرِيضِ عَلَى الْخُشُوعِ لِذِكْرِ اللَّهِ، وَلَكِنْ هَذِهِ بِمَنْزِلَةِ الْعِلَّةِ فُصِلَتْ وَلَمْ تُعْطَفْ، وَهَذَا يَقْتَضِي أَنْ تَكُونَ مِمَّا نَزَلَ مَعَ قَوْلِهِ تَعَالَى { أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ }.

وَالْخِطَابُ لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى طَرِيقَةِ الِالْتِفَاتِ إِقْبَالًا عَلَيْهِمْ لِلِاهْتِمَامِ.

{ **أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها** } اسْتِعَارَةٌ تَمْثِيلِيَّةٌ مُصَرَّحَةٌ وَيَتَضَمَّنُ تَمْثِيلِيَّةً مَكْنِيَّةً بِسَبَبِ تَضَمُّنِهِ تَشْبِيهَ حَالِ ذِكْرِ اللهِ وَالْقُرْآنِ فِي إِصْلَاحِ الْقُلُوبِ بِحَالِ الْمَطَرِ فِي إِصْلَاحِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ جَدْبِهَا. وَطُوِيَ ذِكْرُ الْحَالَةِ الْمُشَبَّهِ بِهَا وَرُمِزَ إِلَيْهَا بِلَازِمِهَا وَهُوَ إِسْنَادُ إِحْيَاءِ الْأَرْضِ إِلَى اللهِ، لِأَنَّ اللهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا بِسَبَبِ الْمَطَرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى { وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها } [النَّحْل:65].

وَالْمَقْصُودُ الْإِرْشَادُ إِلَى وَسِيلَةِ الْإِنَابَةِ إِلَى اللهِ وَالْحَثِّ عَلَى تَعَهُّدِ النَّفْسِ بِالْمَوْعِظَةِ، وَالتَّذْكِيرُ بِالْإِقْبَالِ عَلَى الْقُرْآنِ وَتَدَبُّرِهِ وَكَلَامِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَعْلِيمِهِ، وَأَنَّ فِي اللَّجَأِ إِلَى كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَجَاةً، وَفِي الْمَفْزَعِ إِلَيْهِمَا عِصْمَةً، وَقَدْ قَالَ النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " **تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتِي** ". وَقَالَ صلى الله عليه وسلّم: " **مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ، وَكَانَتْ**

مِنْهَا أَجَادِبَ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ لِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ ".

{ **قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** } اسْتِئْنَافٌ بَيَانِيٌّ لِجُمْلَةِ أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا لِأَنَّ السَّامِعَ قَوْلَهُ تعالى { اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا } يَتَطَلَّبُ مَعْرِفَةَ الْغَرَضِ مِنْ هَذَا الْإِعْلَامِ، فَيَكُونُ الْقَوْلُ جَوَابًا عَنْ تَطَلُّبِهِ، أَيْ: أَعْلَمْنَاكُمْ بِهَذَا تَبْيِينًا لِلْآيَاتِ.

وَيُفِيدُ بِعُمُومِهِ مُفَادَ التَّذْيِيلِ لِلْآيَاتِ السَّابِقَةِ مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ مَكِّيِّهَا وَمَدَنِيِّهَا.

الْآيَاتُ: الدَّلَائِلُ. وَالْمُرَادُ بِهَا: مَا يَشْمَلُ مَضْمُونَ قَوْلِهِ تعالى { وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ - إِلَى قَوْلِهِ - بَعْدَ مَوْتِها } [17/16]، وَهُوَ مَحَلُّ ضَرْبِ الْمَثَلِ لِأَنَّ التَّنْظِيرَ بِحَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ ضَرْبٌ مِنَ التَّمْثِيلِ.

وَبَيَانُ الْآيَاتِ يَحْصُلُ مِنْ فَصَاحَةِ الْكَلَامِ وَبَلَاغَتِهِ وَوَفْرَةِ مَعَانِيهِ وَتَوْضِيحِهَا، وَكُلُّ ذَلِكَ حَاصِلٌ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ كَمَا عَلِمْتَ آنِفًا. وَمِنْ أَوْضَحِ الْبَيَانِ التَّنْظِيرُ بِأَحْوَالِ الْمُشَابِهِينَ فِي حَالَةِ التَّحْذِيرِ أَوِ التَّحْضِيضِ.

{ **لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** } رَجَاءٌ وَتَعْلِيلٌ، أَيْ: بَيَّنَا لَكُمْ لِأَنَّ حَالَكُمْ كَحَالِ مَنْ يُرْجَى فَهْمُهُ، وَالْبَيَانُ عِلَّة لِفَهْمِهِ.

{ **إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ** } [18].

يُشْبِهُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْآيَةُ مِنَ الْمَدَنِيِّ وَأَنْ تَكُونَ مُتَّصِلَةَ الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ تَعَالَى { مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ } [11]، وَأَنَّ آيَةَ { أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا } [16] وَمَا بَعْدَهَا مُعْتَرِضٌ.

وَقَدْ تَخَلَّلَ الْمَكِّيُّ وَالْمَدَنِيُّ كُلٌّ مَعَ الْآخَرِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ، أَلَا تَرَى أَنَّ أَلْفَاظَ الْآيَتَيْنِ مُتَمَاثِلَةٌ إِذْ أُرِيدَ أَنْ يُعَادَ مَا سَبَقَ مِنَ التَّحْرِيضِ عَلَى الْإِنْفَاقِ فَيُؤْتَى بِهِ فِي صُورَةِ الصِّلَةِ الَّتِي عُرِفَ بِهَا الْمُمْتَثِلُونَ لِذَلِكَ التَّحْرِيضِ.

{ **وَالْمُصَّدِّقاتِ** } العَطْفُ كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تعالى { يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ } [12].

وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ بِتَشْدِيدِ الصَّادِ عَلَى أَنَّ أَصْلَهُ الْمُتَصَدِّقِينَ فَأُدْغِمَتِ التَّاءُ فِي الصَّادِ بَعْدَ قَلْبِهَا صَادًا لِقُرْبِ مَخْرَجَيْهِمَا تَطَلُّبًا لِخِفَّةِ الْإِدْغَامِ.

{ **وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً** } مِنْ عَطْفِ الْمُرَادِفِ فِي الْمَعْنَى لِمَا فِي الْمَعْطُوفِ مِنْ تَشْبِيهِ فِعْلِهِمْ بِقَرْضِ لِلَّهِ، تَنْوِيهًا بِالصَّدَقَاتِ.

{ **يُضاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ** } تَقَدَّمَ المَعْنَى فِي قَوْلِهِ تعالى { مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ } [11].

{ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنا أُولئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ } [19].

{ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ } لَمَّا ذُكِرَ فَضْلُ الْمُتَصَدِّقِينَ، وَكَانَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لَا مَالَ لَهُ لِيَتَصَدَّقَ مِنْهُ، أُعْقِبَ ذِكْرُ الْمُتَصَدِّقِينَ بِبَيَانِ فَضْلِ الْمُؤْمِنِينَ مُطْلَقًا، وَهُوَ شَامِلٌ لِمَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَصَدَّقَ وَمَنْ لَا يَسْتَطِيعُ، عَلَى نَحْوِ التَّذْكِيرِ الْمُتَقَدِّمِ آنِفًا فِي قَوْلِهِ تعالى { وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى } [10].

وَفِي الْحَدِيثِ: " إِنَّ قَوْمًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ وَلَا أَمْوَالَ لنا، فَقَالَ: **أَو لَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَدَّقُونَ بِهِ، إِنَّ لَكُمْ فِي كُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَأَمْرٍ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةً، وَنَهْيٍ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةً** ".

{ وَالَّذِينَ آمَنُوا } يَعُمُّ كُلَّ مَنْ ثَبَتَ لَهُ مَضْمُونُ هَذِهِ الصِّلَةِ وَمَا عُطِفَ عَلَيْهَا.

{ وَرُسُلِهِ } وَفِي الْجَمْعِ تَعْرِيضٌ بِأَهْلِ الْكِتَابِ. فَالْيَهُودُ آمَنُوا بِاللَّهِ وَبِمُوسَى، وَكَفَرُوا بِعِيسَى وَبِمُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَالنَّصَارَى آمَنُوا بِاللَّهِ وَكَفَرُوا بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالْمُؤْمِنُونَ آمَنُوا بِرُسُلِ اللَّهِ كُلِّهِمْ، وَلِذَلِكَ وُصِفُوا بِأَنَّهُمُ الصِّدِّيقُونَ.

{ أُولئِكَ } اسْمُ الْإِشَارَةِ لِلتَّنْوِيهِ بِشَأْنِهِمْ وَلِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ الْمُشَارَ إِلَيْهِمُ اسْتَحَقُّوا مَا يَرِدُ بَعْدَ اسْمِ الْإِشَارَةِ مِنْ أَجْلِ الصِّفَاتِ الَّتِي قَبْلَهُ.

الصِّدِّيقُ: (بِتَشْدِيدِ الدَّالِ) مُبَالَغَةٌ فِي الْمُصَدِّقِ مِثْلَ الْمِسِّيكِ لِلشَّحِيحِ، أَيْ كَثِيرُ الْإِمْسَاكِ لِمَالِهِ. وَإِنَّمَا وُصِفُوا بِأَنَّهُمْ صِدِّيقُونَ لِأَنَّهُمْ صَدَّقُوا جَمِيعَ الرُّسُلِ الْحَقِّ وَلَمْ تَمْنَعْهُمْ عَنْ ذَلِكَ عَصَبِيَّةٌ وَلَا عِنَادٌ، وَقَدْ تَقَدَّمَ وَصْفُ يُوسُفَ بِالصِّدِّيقِ في [يوسف:46]، وَوُصِفَتْ مَرْيَمُ بِالصِّدِّيقَةِ فِي [المائدة:75].

{ هُمُ الصِّدِّيقُونَ } ضَمِيرُ الْفَصْلِ لِلْقَصْرِ وَهُوَ قَصْرٌ إِضَافِيٌّ، أَيْ: هُمُ الصِّدِّيقُونَ لَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بَعْضَ الرُّسُلِ، وَهَذَا إِبْطَالٌ لِأَنْ يَكُونَ أَهْلُ الْكِتَابِ صِدِّيقِينَ لِأَنَّ تَصْدِيقَهُمْ رَسُولَهُمْ لَا جَدْوَى لَهُ إِذْ لَمْ يُصَدِّقُوا بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

{ وَالشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ } يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَطْفًا عَلَى { الصِّدِّيقُونَ } عَطْفَ الْمُفْرَدِ عَلَى الْمُفْرَدِ، فَهُوَ عَطْفٌ عَلَى الْخَبَرِ، أَيْ: وَهُمُ الشُّهَدَاءُ. وَحُكِيَ هَذَا التَّأْوِيلُ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَمُجَاهِدٍ وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَجَمَاعَةٍ. فَقِيلَ: مَعْنَى كَوْنِهِمْ شُهَدَاءَ: أَنَّهُمْ شُهَدَاءُ عَلَى الْأُمَمِ يَوْمَ الْجَزَاءِ، قَالَ تَعَالَى { وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ} [الْبَقَرَة: ١٤٣]، فَالشَّهَادَةُ تَكُونُ بِمَعْنَى الْخَبَرِ بِمَا يُثْبِتُ حَقًّا يُجَازَى عَلَيْهِ.

وَقِيلَ مَعْنَاهُ: أَنَّ مُؤْمِنِي هَذِهِ الْأُمَّةِ كَشُهَدَاءِ الْأُمَمِ، أَيْ: كَقَتْلَاهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَرُوِيَ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ يَرْفَعُهُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَتَكُونُ جُمْلَةُ { عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ } اسْتِئْنَافًا بَيَانِيًّا نَشَأَ عَنْ وَصْفِهِمْ بِتَيْنِكَ الصِّفَتَيْنِ، فَإِنَّ السَّامِعَ يَتَرَقَّبُ مَا هُوَ نَوَالُهُمْ مِنْ هَذَيْنِ الْفَضْلَيْنِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ { وَالشُّهَداءُ } مُبْتَدَأً وَجُمْلَةُ { عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ } خَبَرٌ عَنْهُ، وَيَكُونُ الْعَطْفُ مِنْ عَطْفِ الْجُمَلِ، فَيُوقَفُ عَلَى قَوْلِهِ تعالى { الصِّدِّيقُونَ }. وَحُكِيَ هَذَا التَّأْوِيلُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمَسْرُوقٍ وَالضَّحَّاكِ، فَيَكُونُ انْتِقَالًا مِنْ وَصْفِ مَزِيَّةِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى وَصْفِ مَزِيَّةِ فَرِيقٍ مِنْهُمُ اسْتَأْثَرُوا بِفَضِيلَةِ الشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. وَهَذَا مِنْ تَتِمَّةِ قَوْلِهِ { وَما لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ - إِلَى قَوْلِهِ - وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } [10]، فَإِنَّهُ لَمَّا نَوَّهَ بِوَعْدِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُصَدِّقِينَ الْمَغْفِرِيِّينَ مِنْ قَوْلِهِ تعالى { وَما لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ } [8]، فَأَوْفَاهُمْ حَقَّهُمْ بِقَوْلِهِ { وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ } أَقْبَلَ عَلَى وَعْدِ الشُّهَدَاءِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، الَّذِينَ تَضَمَّنَ ذِكْرَهُمْ قَوْلُهُ { وَما لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ } [10]، فَالشُّهَدَاءُ إِذَنْ هُمُ الْمَقْتُولُونَ فِي الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

وَالْمَعْنَيَانِ مِنَ الشُّهَدَاءِ مُمْكِنٌ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا فَتُحْمَلُ الْآيَةُ عَلَى إِرَادَتِهِمَا عَلَى طَرِيقَةِ اسْتِعْمَالِ الْمُشْتَرَكِ فِي مَعْنَيَيْهِ. وَقَدْ قَرَّرْنَا فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ أَنَّهُ جَرَى اسْتِعْمَالُ الْقُرْآنِ عَلَيْهِ.

{ **عِنْدَ رَبِّهِمْ** } الْعِنْدِيَّةُ مَجَازِيَّةٌ مُسْتَعْمَلَةٌ فِي الْعِنَايَةِ وَالْحُظْوَةِ.

{ **لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ** } الضميران يَعُودَانِ إِلَى الصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ أَوْ إِلَى الشُّهَدَاءِ فَقَطْ عَلَى اخْتِلَافِ الْوَجْهَيْنِ الْمُتَقَدِّمَيْنِ آنِفًا فِي الْعَطْفِ.

وَإِذْ قَدْ كَانَ مُقْتَضَى الْإِضَافَةِ أَنْ تُفِيدَ تَعْرِيفَ الْمُضَافِ بِنِسْبَتِهِ إِلَى الْمُضَافِ إِلَيْهِ وَكَانَ الْأَجْرُ وَالنُّورُ غَيْرَ مَعْلُومَيْنِ لِلسَّامِعِ كَانَ فِي الْكَلَامِ إِبْهَامٌ يُكَنَّى بِهِ عَنْ أَجْرٍ وَنُورٍ عَظِيمَيْنِ، فَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ التَّنْوِيهِ بِذَلِكَ الْأَجْرِ وَذَلِكَ النُّورِ، أَيْ: أَجْرًا وَنُورًا لَائِقَيْنِ بِمَقَامِ، مَعَ ضَمِيمَةِ مَا أَفَادَتْهُ الْعِنْدِيَّةُ مِنْ مَعْنَى الزُّلْفَى وَالْعِنَايَةِ.

{ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ** } تَتْمِيمٌ اقْتَضَاهُ ذِكْرُ أَهْلِ مَرَاتِبِ الْإِيمَانِ وَالتَّنْوِيهِ بِهِمْ، فَأَتْبَعَ ذَلِكَ بِوَصْفِ أَضْدَادِهِمْ، لِأَنَّ ذَلِكَ يَزِيدُ التَّنْوِيهَ بِهِمْ بِأَنَّ إِيمَانَهُمْ أَنْجَاهُمْ مِنَ الْجَحِيمِ.

وَالْمُرَادُ بِالَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَكَذَّبُوا بِالْقُرْآنِ مَا يَشْمَلُ الْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُودَ وَالنَّصَارَى عَلَى تَفَاوُتٍ بَيْنَهُمْ فِي دَرَكَاتِ الْجَحِيمِ؛ فَالْمُشْرِكُونَ اسْتَحَقُّوا الْجَحِيمَ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِ كُفْرِهِمْ، وَالْيَهُودُ اسْتَحَقُّوهُ مِنْ يَوْمِ كَذَّبُوا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالنَّصَارَى اسْتَحَقَّهُ بَعْضُهُمْ حِينَ أَثْبَتُوا لِلَّهِ ابْنًا وَبَعْضُهُمْ مِنْ حِينِ تَكْذِيبِهِمْ بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَلَمْ يُؤْتَ فِي خَبَرِهِمْ بِضَمِيرِ الْفَصْلِ إِذْ لَا يُظَنُّ أَنَّ غَيْرَهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ.

{ **أَصْحابُ الْجَحِيمِ** } هذا التَّعْبِيرُ للدَلَالَةِ عَلَى شِدَّةِ مُلَازَمَتِهِمْ لِلْجَحِيمِ.

{ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ } [20].

{ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ } أُعْقِبَ التَّحْرِيضُ عَلَى الصَّدَقَاتِ وَالْإِنْفَاقِ بِالْإِشَارَةِ إِلَى دَحْضِ سَبَبِ الشُّحِّ أَنَّهُ الْحِرْصُ عَلَى اسْتِبْقَاءِ الْمَالِ لِإِنْفَاقِهِ فِي لَذَائِذِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَضُرِبَ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِحَالٍ مُحَقَّرَةٍ عَلَى أَنَّهَا زَائِلَةٌ تَحْقِيرًا لِحَاصِلِهَا وَتَزْهِيدًا فِيهَا لِأَنَّ التَّعَلُّقَ بِهَا يَعُوقُ عَنِ الْفَلَاحِ، قَالَ تَعَالَى { وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [الْحَشْر:9]، وَقَالَ تعالى { وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } [النِّسَاء:128].

كُلُّ ذَلِكَ فِي سِيَاقِ الْحَثِّ عَلَى الْإِنْفَاقِ الْوَاجِبِ وَغَيْرِهِ، وَأُشِيرَ إِلَى أَنَّهَا يَنْبَغِي أَنْ تُتَّخَذَ الْحَيَاةُ وَسِيلَةً لِلنَّعِيمِ الدَّائِمِ فِي الْآخِرَةِ، وَوِقَايَةً مِنَ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ، وَمَا عَدَا ذَلِكَ مِنْ أَحْوَالِ الْحَيَاةِ فَهُوَ مَتَاعٌ قَلِيلٌ.

{ **اعْلَمُوا** } افْتِتَاحُ الكلام بهَذِهِ العبارة لِلْوَجْهِ الَّذِي بَيَّنَّاهُ آنِفًا فِي قَوْلِهِ { اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ } [17].

{ **أَنَّمَا** } أُخْتُ (إِنَّمَا) فِي إِفَادَةِ الْحَصْرِ، وَحَصْرُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْأَخْبَارِ الْجَارِيَةِ عَلَيْهَا هُوَ قَصْرُ أَحْوَالِ النَّاسِ فِي الْحَيَاةِ عَلَى هَذِهِ الْأُمُورِ بِاعْتِبَارِ غَالِبِ النَّاسِ، فَهُوَ قَصْرٌ ادِّعَائِيٌّ، وَإِلَّا فَإِنَّ الْحَيَاةَ قَدْ يَكُونُ فِيهَا أَعْمَالُ التُّقَى وَالْمَنَافِعِ وَالْإِحْسَانِ وَالتَّأْيِيدِ لِلْحَقِّ وَتَعْلِيمِ الْفَضَائِلِ.

<u>وَهِيَ أُصُولُ أَحْوَالِ الْمُجْتَمَعِ فِي الْحَيَاةِ، وَهِيَ أَيْضًا أُصُولُ أَطْوَارِ آحَادِ النَّاسِ فِي</u> تَطَوُّرِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ؛ فَإِنَّ اللَّعِبَ طَوْرُ سِنِّ الطُّفُولَةِ وَالصِّبَا، وَاللَّهْوَ طَوْرُ الشَّبَابِ، وَالزِّينَةَ طَوْرُ الْفُتُوَّةِ، وَالتَّفَاخُرَ طَوْرُ الْكُهُولَةِ، وَالتَّكَاثُرَ طَوْرُ الشَّيْخُوخَةِ.

اللَّعِبُ: اسْمٌ لِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ يُرَاد بِهِ المزح وَالْهَزْل لِتَمْضِيَةِ الْوَقْتِ أَوْ إِزَالَةِ وَحْشَةِ الْوَحْدَةِ، أَوْ لِجَلْبِ فَرَحٍ وَمَسَرَّةٍ لِلنَّفْسِ، أَوْ يَجْلِبُ مِثْلَ ذَلِكَ لِلْحَبِيبِ، أَوْ يَجْلِبُ ضِدَّهُ لِلْبَغِيضِ. وَاللَّعِبُ هُوَ الْغَالِبُ عَلَى أَعْمَالِ الْأَطْفَالِ وَالصِّبْيَانِ فَطَوْرُ الطُّفُولَةِ طَوْرُ اللَّعِبِ، وَيَتَفَاوَتُ غَيْرُهُمْ فِي الْإِتْيَانِ مِنْهُ فَيَقِلُّ وَيَكْثُرُ بِحَسْبِ تَفَاوُتِ النَّاسِ في رَجَاحَةِ الْعُقُولِ وَضَعْفِهَا. وَالْإِفْرَاطُ فِيهِ مِنْ غَيْرِ أَصْحَابِ طَوْرِهِ يُؤْذِنُ بِخِسَّةِ الْعَقْلِ.

اللَّهْوُ: اسْمٌ لِفِعْلٍ أَوْ قَوْلٍ يُقْصَدُ مِنْهُ الْتِذَاذُ النَّفْسِ بِهِ وَصَرْفُهَا عَنْ أَلَمٍ حَاصِلٍ مِنْ تَعَبِ الْجَسَدِ أَوِ الْحُزْنِ أَوِ الْكَمَدِ، يُقَالُ: لَهَا عَنِ الشَّيْءِ، أَيْ تَشَاغَلَ عَنْهُ. وَيَغْلِبُ اللَّهْوُ عَلَى أَحْوَالِ الشَّبَابِ فَطَوْرُ الشَّبَابِ طَوْرُهُ.

الزِّينَةُ: تَحْسِينُ الذَّاتِ أَوِ الْمَكَانِ بِمَا يَجْعَلُ وَقْعَهُ عِنْدَ نَاظِرِهِ مُسِرًّا لَهُ، وَفِي طِبَاعِ النَّاسِ الرَّغْبَةُ فِي أَنْ تَكُونَ مَنَاظِرُهُمْ حَسَنَةً فِي عَيْنِ نَاظِرِيهِمْ، وَذَلِكَ فِي طِبَاعِ النِّسَاءِ أَشَدُّ.

وَيَكْثُرُ التَّزَيُّنُ فِي طَوْرِ الْفُتُوَّةِ لِأَنَّ الرَّجُلَ يَشْعُرُ بِابْتِدَاءِ زَوَالِ مَحَاسِنِ شَبَابِهِ، وَالْمَرْأَةُ الَّتِي كَانَتْ غَانِيَةً تُحِبُّ أَنْ تَكُونَ حَالِيَةً، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَجْلِ تَعَرُّضِهَا لِلرِّجَالِ كَمَا يَتَوَهَّمُهُ الرِّجَالُ فِيهِنَّ، غُرُورًا بِأَنْفُسِهِمْ، بَلْ

ذَلِكَ لِتَكُونَ حَسَنَةً فِي النَّاسِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ.

وَيَغْلِبُ التَّزَيُّنُ عَلَى أَحْوَالِ الْحَيَاةِ فَإِنَّ مُعْظَمَ الْمَسَاكِنِ وَالْمَلَابِسِ يُرَادُ مِنْهُ الزِّينَةُ، وَهِيَ ذَاتِيَّةٌ وَمَعْنَوِيَّةٌ، وَمِنَ الْمَعْنَوِيَّةِ مَا يُسَمَّى فِي أُصُولِ الْفِقْهِ بِالتَّحْسِينِيّ.

التَّفَاخُرُ: الْكَلَامُ الَّذِي يُفْخَرُ بِهِ، وَالْفَخْرُ: حَدِيثُ الْمَرْءِ عَنْ مَحَامِدِهِ وَالصِّفَاتِ الْمَحْمُودَةِ مِنْهَا فِيهِ بِالْحَقِّ أَوِ الْبَاطِلِ. وَصِيغَ مِنْهُ زنة التفاعل لِأَنَّ شَأْنَ الْفَخْرِ أَنْ يَقَعَ بَيْنَ جَانِبَيْنِ كَمَا أَنْبَأَ بِهِ تَقْيِيدُهُ بِظَرْفِ { بَيْنَكُمْ }.

وَالنَّاسُ يَتَفَاخَرُونَ بِالصِّفَاتِ الْمَحْمُودَةِ فِي عُصُورِهِمْ وَأَجْيَالِهِمْ وَعَادَاتِهِمْ، فَمِنَ الصِّفَاتِ مَا الْفَخْرُ بِهِ غير بَاطِل. وَهُوَ الصِّفَاتُ الَّتِي حَقَائِقُهَا مَحْمُودَةٌ فِي الْعَقْلِ أَوِ الشَّرْعِ. وَمِنْهَا مَا الْفَخْرُ بِهِ بَاطِلٌ مِنَ الصِّفَاتِ وَالْأَعْمَالِ الَّتِي اصْطَلَحَ قَوْمٌ عَلَى التَّمَدُّحِ بِهَا وَلَيْسَتْ حَقِيقَةً بِالْمَدْحِ مِثْلَ التَّفَاخُرِ بِالْإِغْلَاءِ فِي ثَمَنِ الْخُمُورِ وَفِي الْمَيْسِرِ وَالزِّنَى وَالْفَخْرِ بِقَتْلِ النُّفُوسِ وَالْغَارَةِ عَلَى الْأَمْوَالِ فِي غَيْرِ حَقٍّ.

وَأَغْلَبُ التَّفَاخُرِ فِي طَوْرِ الْكُهُولَةِ وَاكْتِمَالِ الْأَشُدِّ لِأَنَّهُ زَمَنُ الْإِقْبَالِ عَلَى الْأَفْعَالِ الَّتِي يُقْصَدُ مِنْهَا الْفَخر.

التَّكَاثُرُ: تَفَاعُلٌ مِنَ الْكَثْرَةِ، وَصِيغَةُ التَّفَاعُلِ هُنَا لِلْمُبَالَغَةِ فِي الْفِعْلِ بِحَيْثُ يَنْزِلُ مَنْزِلَةَ مَنْ يُغَالِبُ غَيْرَهُ فِي كَثْرَةِ شَيْءٍ، ثُمَّ شَاعَ إِطْلَاقُ صِيغَةِ التَّكَاثُرِ فَصَارَتْ تُسْتَعْمَلُ فِي الْحِرْصِ عَلَى تَحْصِيلِ الْكَثِيرِ مِنْ غَيْرِ مُرَاعَاةِ مُغَالَبَةِ الْغَيْرِ مِمَّنْ حَصَلَ عَلَيْهِ، قَالَ تَعَالَى { أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ } [التَّكَاثُرُ:1].

{ **فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ** } (فِي) هنا، إِمَّا مُسْتَعْمَلَةٌ فِي التَّعْلِيلِ، وَإِمَّا هِيَ الظَّرْفِيَّةُ الْمَجَازِيَّةُ.

{ **كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً** } يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي مَوْضِعِ خَبَرٍ مِنْ مُبْتَدَإٍ مَحْذُوفٍ، أَيْ: هِيَ كَمَثَلِ غَيْثٍ، فَتَكُونُ الْجُمْلَةُ اسْتِئْنَافًا.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ (الْكَافُ) فِي مَوْضِعِ الْحَالِ و{ كَمَثَلِ } مَعْنَاهُ: كَحَالِ، أَيْ: حَالُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَحَالِ غَيْثٍ، فَشُبِّهَتْ هَيْئَةُ أَهْلِ الدُّنْيَا فِي أَحْوَالِهِمُ الْغَالِبَةِ عَلَيْهِمْ وَالْمُشَارِ إِلَى تَنْوِيعِهَا بِهَيْئَةِ غَيْثٍ أَنْبَتَ زَرْعًا فَأَيْنَعَ ثُمَّ اصْفَرَّ ثُمَّ اضْمَحَلَّ وَتَحَطَّمَ. وَالْمَقْصُودُ بِالتَّمْثِيلِ هُوَ النَّبَاتُ، وَإِنَّمَا ابتدئ بـ { غَيْثٍ } تصويرا لِلْهَيْئَةِ مِنْ مَبَادِئِهَا لِإِظْهَارِ مَوَاقِعِ الْحُسْنِ فِيهَا، لِأَنَّ ذَلِكَ يَكْتَسِبُ مِنْهُ الْمُشَبَّهُ حُسْنًا.

{ **أَعْجَبَ الْكُفَّارَ** } عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: " أَنَّ الْكُفَّارَ: الزُّرَّاعُ "، جَمْعُ كَافِرٍ وَهُوَ الزَّارِعُ لِأَنَّهُ يَكْفُرُ الزَّرِيعَةَ بِتُرَابِ الْأَرْضِ، وَالْكَفْرُ بِفَتْحِ الْكَافِ السَّتْرُ، أَيْ: سَتْرُ الزَّرِيعَةِ، وَإِنَّمَا أُوثِرَ هَذَا الِاسْمُ هُنَا، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى { يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ } [الْفَتْحِ:29]، قَصْدًا لِلتَّوْرِيَةِ بِالْكُفَّارِ الَّذِينَ هُمُ الْكَافِرُونَ بِاللَّهِ لِأَنَّهُمْ أَشَدُّ إِعْجَابًا بِمَتَاعِ الدُّنْيَا إِذْ لَا أَمَلَ لَهُمْ فِي شَيْءٍ بَعْدَهُ.

وَقَالَ جَمْعٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ: الْكُفَّارُ جَمْعُ الْكَافِرِ بِاللَّهِ لِأَنَّهُمْ قَصَرُوا إِعْجَابَهُمْ عَلَى الْأَعْمَالِ ذَاتِ الْغَايَاتِ الدُّنْيَا دُونَ الْأَعْمَالِ الدِّينِيَّةِ، فَذِكْرُ الْكُفَّارِ تَلْوِيحٌ إِلَى أَنَّ الْمَثَلَ مَسُوقٌ إِلَى جَانِبِهِمْ أَوَّلًا.

النَّبَاتُ: اسْمُ مَصْدَرِ نَبَتَ، قَالَ تَعَالَى { وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا } [نوح:17]، وَهُوَ هُنَا أُطْلِقَ عَلَى النَّابِتِ مِنْ إِطْلَاقِ الْمَصْدَرِ عَلَى الْفَاعِلِ وَهُوَ كَثِيرٌ، وَأَصْلُهُ أَنْ يُرَادَ بِهِ الْمُبَالَغَةُ، وَقَدْ يَشِيعُ فَيَزُولُ قَصْدُ الْمُبَالَغَةِ بِهِ.

{ **ثُمَّ يَهِيجُ** } تَضَافَرَتْ كَلِمَاتُ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى تَفْسِيرِ يَهِيجُ بِـ (يَيْبَسُ) أَوْ يَجِفُّ، وَلَمْ يَسْتَظْهِرُوا بِشَاهِدٍ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مِنْ مَعَانِي الْهِيَاجِ الْجَفَافَ. وَقَدْ قَالَ الرَّاغِبُ: " يُقَالُ: هَاجَ الْبَقْلُ، إِذَا اصْفَرَّ وَطَابَ "، وَفِي الْأَسَاس للزمخشري: " مِنَ الْمَجَازِ هَاجَ الْبَقْلُ، إِذَا أَخَذَ فِي الْيُبْسِ.

فَالْوَجْهُ أَنَّ الْهِيَاجَ: الْغِلَظُ وَمُقَارَبَةُ الْيُبْسِ، لِأَنَّ مَادَّةَ الْهِيَاجِ تَدُلُّ عَلَى الِاضْطِرَابِ وَالثَّوَرَانِ وَسُمِّيَتِ الْحَرْبُ الْهَيْجَاءُ. وَالزَّرْعُ إِذَا غَلُظَ يَكُونُ لِحَرَكَتِهِ صَوْتٌ فَكَأَنَّهُ هَائِجٌ، أَيْ: ثَائِرٌ، وَذَلِكَ ابْتِدَاءُ جَفَافِهِ، وَذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى { كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ } [الْفَتْح:29].

{ **ثُمَّ يَهِيجُ** } عُطِفَتْ جُمْلَةُ يَهِيجُ بِـ (ثُمَّ) لِإِفَادَةِ التَّرَاخِي الرُّتَبِي لِأَنَّ اصْفِرَارَ النَّبَاتِ أَعْظَمُ دَلَالَةٍ عَلَى التَّهَيُّؤِ لِلزَّوَالِ، وَهَذَا هُوَ الْأَهَمُّ فِي مَقَامِ التَّزْهِيدِ فِي مَتَاعِ الدُّنْيَا.

{ **فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا** } وَعُطِفَت هذه بِـ (الْفَاءِ) لِأَنَّ اصْفِرَارَ النَّبْتِ مُقَارِبٌ لِيُبْسِهِ.

{ **ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً** } هذه كَعَطْفِ { ثُمَّ يَهِيجُ }.

الْحُطَامُ: (بِضَمِّ الْحَاءِ) مَا حُطِّمَ، أَيْ: كُسِّرَ قِطَعًا.

وَهَذَا التَّمْثِيلُ مَعَ كَوْنِهِ تَشْبِيهُ هَيْئَةٍ مُرَكَّبَةٍ بِهَيْئَةٍ مِثْلِهَا هُوَ صَالِحٌ لِلتَّفْرِيقِ وَمُقَابَلَةُ أَجْزَاءِ الْهَيْئَةِ الْمُشَبَّهَةِ بِأَجْزَاءِ الْهَيْئَةِ الْمُشَبَّهِ بِهَا؛ فَيُشَبَّهُ أَوَّلُ أَطْوَارِ الْحَيَاةِ وَإِقْبَالِهَا بِالنَّبَاتِ عَقِبَ الْمَطَرِ، وَيُشَبَّهُ النَّاسُ المنتفعون بِإِقْبَالِ الدُّنْيَا بِنَاسٍ زُرَّاعٍ، وَيُشَبَّهُ اكْتِمَالُ أَحْوَالِ الْحَيَاةِ وَقُوَّةَ الْكُهُولَةِ بِهِيَاجِ الزَّرْعِ، ويُشَبَّه ابْتِدَاءُ الشيخوخة ثُمَّ الْهَرَمِ بِاصْفِرَارِ الزَّرْعِ وَتَهَيُّئِهِ لَلْفَنَاءِ، وَيُشَبَّهُ زَوَالُ مَا كَانَ لِلْمَرَءِ مِنْ قُوَّةٍ وَمَالٍ بِتَحَطُّمِ الزَّرْعِ.

{ **وَفِي الْآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانٌ وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ** }.

كَانَ ذِكْرُ حَالِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مُقْتَضِيًا ذِكْرَ مُقَابِلِهِ عَلَى عَادَةِ الْقُرْآنِ، وَالْخَبَرُ مُسْتَعْمَلٌ فِي التَّحْذِيرِ وَالتَّحْرِيضِ بِقَرِينَةِ السِّيَاقِ، وَلِذَلِكَ لَمْ يُبَيِّنْ أَصْحَابُ الْعَذَابِ وَأَصْحَابُ الْمَغْفِرَةِ وَالرِّضْوَانِ لِظُهُورِ ذَلِكَ.

{ **وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانٌ** } كِنَايَةٌ عَنِ النَّعِيمِ لِأَنَّ النَّعِيمَ قِسْمَانِ مَادِّيٌّ وَرُوحَانِيٌّ، فَالْمَغْفِرَةُ وَالرِّضْوَانُ أَصْلُ النَّعِيمِ الرُّوحَانِيِّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى { وَرِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ } [التَّوْبَة:72]. وَهُمَا يَقْتَضِيَانِ النَّعِيمَ الْجِسْمَانِيَّ.

{ **وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ** } عَطَفٌ عَلَى { وَفِي الْآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ } لِلْمُقَابَلَةِ بَيْنَ الْحَالَيْنِ زِيَادَةً فِي التَّرْغِيبِ وَالتَّنْفِيرِ. وَالْكَلَامُ عَلَى تَقْدِيرِ مُضَافٍ، أَيْ: وَمَا أَحْوَال الْحَيَاة الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ.

وَالْحَصْرُ ادِّعَائِيٌّ بِاعْتِبَارِ غَالِبِ أَحْوَالِ الدُّنْيَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى غَالِبِ طَالِبِيهَا.

الْغُرُورُ: الْخَدِيعَةُ، أَيْ: إِظْهَارُ الْأَمْرِ الضَّارِّ الَّذِي يَحْتَرِزَ الْعَاقِلُ مِنْهُ فِي صُورَةِ النَّافِعِ الَّذِي يَرْغَبُ فِيهِ.

{ **مَتاعُ الْغُرُورِ** } الإِضَافَةُ عَلَى مَعْنَى لَامِ الْعَاقِبَةِ، أَيْ: مَتَاعٌ صَائِرٌ لِأَجْلِ الْغُرُورِ بِهِ، أَيْ: آيِلٌ إِلَى أَنَّهُ يَغُرُّ النَّاظِرِينَ إِلَيْهِ فَيُسْرِعُونَ فِي التَّعَلُّق بِهِ.

{ **سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** } [21].

فَذْلَكَةٌ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى { يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ يَسْعى نُورُهُمْ } [12] إِلَى هُنَا، فَذَلِكَ مَسُوقٌ مَسَاقَ التَّرْغِيبِ فِيمَا بِهِ تَحْصِيلُ نَعِيمِ الْآخِرَةِ وَالتَّحْذِيرِ مِنْ فَوَاتِهِ وَمَا يَصْرِفُ عَنْهُ مِنْ إِيثَارِ زِينَةِ الدُّنْيَا، وَلِذَلِكَ فُصِلَتِ الْجُمْلَةُ وَلَمْ تُعْطَفْ، وَاقْتُصِرَ فِي الْفَذْلَكَةِ عَلَى الْجَانِبِ الْمَقْصُودِ تَرْغِيبُهُ دُونَ التَّعَرُّضِ إِلَى الْمُحَذَّرِ مِنْهُ لِأَنَّهُ الْمَقْصُودُ.

{ **سابِقُوا** } إِلْهابٌ لِلنُّفُوسِ بِصَرْفِ الْعِنَايَةِ بِأَقْصَى مَا يُمْكِنُ مِنَ الْفَضَائِلِ، كَفِعْلِ مَنْ يُسَابِقُ غَيْرَهُ إِلَى غَايَةٍ فَهُوَ يَحْرِصُ عَلَى أَنْ يَكُونَ الْمُجَلِّي، وَلِأَنَّ الْمُسَابَقَةَ كِنَايَةٌ عَنِ الْمُنَافَسَةِ.

{ **مَغْفِرَةٍ** } التَّنْكِيرُ لِقَصْدِ التَعْظِيمِ وَلِتَكُونَ الْجُمْلَةُ مُسْتَقِلَّةً بِنَفْسِهِا، وَإِلَّا فَإِنَّ الْمَغْفِرَةَ سَبَقَ ذِكْرُهَا فِي قَوْلِهِ تعالى { وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ } [20]، فَكَانَ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ أَنْ يُقَالَ: سَابِقُوا إِلَى الْمَغْفِرَةِ. والمَعْنَى: أَكْثِرُوا مِنْ أَسْبَابِهَا وَوَسَائِلِهَا.

الْعَرْضُ: مُسْتَعْمَلٌ فِي السّعَةِ وَلَيْسَ مُقَابل الطّول، لِظُهُورِ أَنَّهُ لَا طَائِلَ فِي ذَلِكَ، وَهَذَا كَقَوْلِه تَعَالَى { وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ } [فصلت:51].

{ **عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَالْأَرْضِ** } أَيْ: مَجْمُوعُ عَرْضَيْهِمَا، لِقَصْدِ تَقْرِيبِ الْمُشَبَّهِ بِأَقْصَى مَا يَتَصَوَّرُهُ النَّاسُ فِي الِاتِّسَاعِ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ تَحْدِيدَ ذَلِكَ الْعَرْضِ وَلَا أَنَّ الْجَنَّةَ فِي السَّمَاءِ، حَتَّى يُقَالَ: فَمَاذَا بَقِيَ لِمَكَانِ جَهَنَّمَ. وَتَقَدَّمَ مِنْ مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ تعالى { سارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ } [آلِ عِمْرَانَ:133].

{ **أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ** } ظَاهِرُ الْقَوْلِ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَهَا وَأَعَدَّهَا، وَتَمَسَّكَ بِهَذَا الظَّاهِرِ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ الْجَنَّةَ مَخْلُوقَةٌ الْآنَ، وَأَمَّا الَّذِينَ نَفَوْا ذَلِكَ فَاسْتَنَدُوا إِلَى أدلّة أخرى.

وَعُلِمَ مِنْ الْقَوْلِ أَن غَيرهم لَا حَظَّ لَهُمْ فِي الْجَنَّةِ، لِأَنَّ مَعْنَى إِعْدَادِ شَيْءٍ لِشَيْءٍ قَصْرُهُ عَلَيْهِ.

{ **رُسُلِهِ** } الْجَمْعُ هُنَا يَشْمَلُ كُلَّ أُمَّةٍ آمَنُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِمُ الَّذِي أَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ، وَلَيْسَ يَلْزَمُهَا أَنْ تُؤْمِنَ بِرَسُولٍ أُرْسِلَ إِلَى أُمَّةٍ أُخْرَى وَلَمْ يَدْعُ غَيْرَهَا إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ.

{ **ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** } الْإِشَارَةُ إِلَى الْمَذْكُورِ مِنَ الْمَغْفِرَةِ وَالْجنَّة.

{ **مَا أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** [22] **لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلى مَا فاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ** [23] }.

<u>لَمَّا جَرَى ذِكْرُ الْجِهَادِ</u> آنِفًا بِقَوْلِهِ تعالى { لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقاتَلَ } [10]، وَقَوْلِهِ تعالى { وَالشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ } [19]، <u>وَجَرَى ذِكْرُ الدُّنْيَا</u> فِي قَوْلِهِ تعالى { وَمَا الْحَياةُ

الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ } [20]، وَكَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ مِمَّا تَحْدُثُ فِيهِ الْمَصَائِبُ، وَجَرَى مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِالنَّبَاتِ، وَكَانَ ذَلِكَ مَا يَعْرِضُ لَهُ الْقَحْطُ وَالْجَوَائِحِ، أُتْبِعَ ذَلِكَ بِتَسْلِيَةِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَا يُصِيبُهُمْ. وَلَعَلَّ الْمُسْلِمِينَ قَدْ أَصَابَتْهُمْ شِدَّةٌ فِي إِحْدَى الْمَغَازِي أَوْ حَبْسُ مَطَرٍ أَو نَحْو ذَلِكُم مِمَّا كَانَ سَبَبَ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ.

والمعنى عَلَى نَحْوِ مَا وَقَعَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتٌ بَلْ أَحْياءٌ وَلكِنْ لَا تَشْعُرُونَ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَراتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ } [الْبَقَرَة:154-156].

{ **مَا أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ** } الـ (مَا) نَافِيَةٌ، وَ(مِنْ) زَائِدَةٌ فِي النَّفْيِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى نَفْيِ الْجِنْسِ قَصْدًا لِلْعُمُومِ. وَمَفْعُولُ أَصابَ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: مَا أَصَابَكُمْ أَوْ مَا أَصَابَ أَحَدًا.

{ **فِي الْأَرْضِ** } إِشَارَةٌ إِلَى الْمَصَائِبِ الْعَامَّةِ كَالْقَحْطِ وَفَيَضَانِ السُّيُولِ وَمَوَتَانِ الْأَنْعَامِ وَتَلَفِ الْأَمْوَالِ.

{ **وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ** } إِشَارَةٌ إِلَى الْمَصَائِبِ اللَّاحِقَةِ لِذَوَاتِ النَّاسِ مِنَ الْأَمْرَاضِ وَقَطْعِ الْأَعْضَاءِ وَالْأَسْرِ فِي الْحَرْبِ وَمَوْتِ الْأَحْبَابِ وَمَوْتِ الْمَرْءِ نَفْسِهِ. وَتَكْرِيرُ حَرْفِ النَّفْيِ فِي الْمَعْطُوفِ عَلَى الْمَنْفِيِّ لِقَصْدِ الِاهْتِمَامِ بِذَلِكَ الْمَذْكُورِ بِخُصُوصِهِ، فَإِنَّ الْمَصَائِبَ الْخَاصَّةَ بِالنَّفْسِ أَشَدُّ وَقْعًا عَلَى الْمُصَابِ.

{ **إِلاَّ فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها** } اسْتِثْنَاءٌ مِنْ أَحْوَالٍ مَنْفِيَّةٍ بِـ (مَا)، إِذِ التَّقْدِيرُ: مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا وَهي مُثْبَتَةٌ فِي كتاب.

الْكِتَابُ: مَجَازٌ عَنْ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى، وَوَجْهُ المشابهة عدم قبوله التَّبْدِيلِ وَالتَّغْيِيرِ وَالتَّخَلُّفِ. وَمِنْ ذَلِكَ عِلْمُهُ وَتَقْدِيرُهُ لِأَسْبَابِ حُصُولِهَا وَوَقْتِ خَلْقِهَا وَتَرَتُّبِ آثَارِهَا.

وَهَذَا الْكَلَامُ يَجْمَعُ الْإِشَارَةَ إِلَى مَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَضَعَ نِظَامَ هَذَا الْعَالَمِ عَلَى أَنْ تَتَرَتَّبَ الْمُسَبِّبَاتُ عَلَى أَسْبَابِهَا، وَقَدَّرَ ذَلِكَ وَعَلِمَهُ، وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ تعالى { وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتابٍ } [فاطر:11].

الْبَرْءُ: (بِفَتْحِ الْبَاءِ) الْخَلْقُ وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى (**الْبَارِئُ**)، وَضَمِيرُ النَّصْبِ فِي { نَبْرَأَها } عَائِدٌ إِلَى الْأَرْضِ أَوْ إِلَى الْأَنْفُسِ.

{ **إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** } رَدٌّ عَلَى أَهْلِ الضَّلَالِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَبَعْضِ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ لَا يُثْبِتُونَ لِلَّهِ عُمُومَ الْعِلْمِ وَيُجَوِّزُونَ عَلَيْهِ الْبَدَاءَ وَتَمَشِّي الْحِيَلِ. وَلِأَجْلِ قَصْدِ الرَّدِّ عَلَى الْمُنْكِرِينَ أُكِّدَ الْخَبَرُ بِـ { إِنَّ }.

{ **لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلى مَا فاتَكُمْ** } وَالتَّعْلِيلُ بِلَامِ الْعِلَّةِ وَ(كَيْ) مُتَعَلِّقٌ بِمُقَدَّرٍ دَلَّ عَلَيْهِ هَذَا الْإِخْبَارُ الْحَكِيمُ، أَي: أَعْلَمْنَاكُمْ بِذَلِكَ لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ. لِأَنَّ مَنْ أَيْقَنَ أَنَّ مَا عِنْدَهُ مِنْ نعْمَة دنيوية مَفْقُود يَوْمًا لَا مَحَالَةَ لَمْ يَتَفَاقَمْ جَزَعُهُ عِنْدَ فَقْدِهِ لِأَنَّهُ قَدْ وَطَّنَ نَفْسَهُ عَلَى ذَلِكَ.

وَفِعْلُ الْفَوَاتِ مُشْعِرٌ بِأَنَّ الْفَائِتَ قَدْ سَعَى الْمُفَوَّتُ عَلَيْهِ فِي تَحْصِيلِهِ ثُمَّ غُلِبَ عَلَى نَوَالِهِ بِخُرُوجِهِ عَنْ مكْنَتِهِ.

{ **وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ** } تتميم لِلْقَوْلِ السَّابِقِ، فَإِنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْكَلَامِ أَنْ لَا يَأْسَوْا عِنْدَ حُلُولِ الْمَصَائِبِ.

وَالْفَرَحُ الْمَنْفِيُّ هُوَ الشَّدِيدُ مِنْهُ الْبَالِغُ حَدَّ الْبَطَرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي قِصَّةِ قَارُونَ { إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ } [الْقَصَص:76]. وَقَدْ فَسَّرَهُ التَّذْيِيلُ مِنْ قَوْلِهِ:

{ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ } وَالْمعْنَى: أَخْبَرْتُكُمْ بِذَلِكَ لِتَكُونُوا حُكَمَاءَ بُصَرَاءَ فَتَعْلَمُوا أَنَّ لِجَمِيعِ ذَلِكَ أَسْبَابًا وَعِلَلًا، وَأَنَّ لِلْعَالَمِ نِظَامًا مُرْتَبِطًا بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَأَنَّ الْآثَارَ حَاصِلَةٌ عَقِبَ مُؤْثِرَاتِهَا لَا مَحَالَةَ، وَأَنَّ إِفْضَاءَهَا إِلَيْهَا بَعْضُهُ خَارِجٌ عَنْ طَوْقِ الْبَشَرِ وَمُتَجَاوِزٌ حَدَّ مُعَالَجَتِهِ وَمُحَاوَلَتِهِ، فَإِذَا رَسَخَ ذَلِكَ فِي عِلْمِ أَحَدٍ لَمْ يَحْزَنْ عَلَى مَا فَاتَهُ مِمَّا لَا يَسْتَطِيعُ دَفْعَهُ، وَلَمْ يَغْفُلْ عَنْ تَرَقُّبِ زَوَالِ مَا يَسُرُّهُ إِذَا كَانَ مِمَّا يَسُرُّهُ.

وَمَنْ لَمْ يَتَخَلَّقْ بِخُلُقِ الْإِسْلَامِ يَتَخَبَّطُ فِي الْجَزَعِ إِذَا أَصَابَهُ مُصَابٌ وَيُسْتَطَارُ خُيَلَاءً وَتَطَاوُلًا إِذَا نَالَهُ أَمْرٌ مَحْبُوبٌ، فَيَخْرُجُ عَنِ الْحِكْمَة فِي الْحَالين.

وَلَيْسَ مَعْنَى ذَلِكَ أَنْ يَتْرُكَ السَّعْيَ لِنَوَالِ الْخَيْرِ وَاتِّقَاءِ الشَّرِّ قَائِلًا: إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْأُمُورَ كُلَّهَا فِي الْأَزَلِ. وَقَدْ قَالَ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلَّذِينَ قَالُوا أَفَلَا نَتَّكِلُ: **" اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ "**.

{ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ } [24].

{ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ } يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ابْتِدَاءُ كَلَامٍ عَلَى الِاسْتِئْنَافِ، لِأَنَّ الْكَلَامَ الَّذِي قَبْلَهُ خُتِمَ بِالتَّذْيِيلِ بِقَوْلِهِ تعالى { وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ } [23]، فَيَكُونُ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ مُبْتَدَأً وَخَبَرُهُ مَحْذُوفًا يَدُلُّ عَلَيْهِ جَوَابُ الشَّرْطِ وَهُوَ { فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ }. وَالتَّقْدِيرُ: فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْهُمْ وَحَامِدٌ لِلْمُنْفِقِينَ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُتَّصِلًا بِمَا قَبْلَهُ عَلَى طَرِيقَةِ التَّخَلُّصِ فَيَكُونُ { الَّذِينَ يَبْخَلُونَ } بَدَلًا مِنْ { كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ}، أَوْ خَبَرًا لِمُبْتَدَإٍ مَحْذُوفٍ هُوَ ضَمِيرُ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ. تَقْدِيرُهُ: هُمُ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ.

{ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ } الْمُرَادُ بِهِم: الْمُنَافِقُونَ، وَقَدْ وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِمِثْلِ هَذِهِ الصِّلَةِ فِي [النِّسَاءِ:37]، وَأَمْرُهُمُ النَّاسَ بِالْبُخْلِ هُوَ الَّذِي حَكَاهُ اللَّهُ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ تعالى { هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا } [المُنَافِقُونَ:7]، أَي: عَلَى الْمُؤْمِنِينَ.

{ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ } تَذْيِيلٌ لِأَنَّ مَنْ يَتَوَلَّ يَعُمُّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَغَيْرَهُمْ فَإِنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ، أَيْ: فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَفِي النَّفَقَاتِ الْوَاجِبَةِ، قَدْ تَوَلَّوْا عَنْ أَمْرِ اللَّهِ.

الْغَنِيُّ: الْمَوْصُوفُ بِالْغِنَى، أَيْ: عَدَمُ الِاحْتِيَاجِ. وَلَمَّا لَمْ يُذْكَرْ لَهُ مُتَعَلِّقٌ كَانَ مُفِيدًا الْغِنَى الْعَامَّ.

الْحَمِيدُ: وَصْفُ مُبَالَغَةٍ، أَيْ: كَثِيرُ الْحَمْدِ لِلْمُنْفِقِينَ، عَلَى نَحْوِ قَوْلِهِ تَعَالَى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ } [الْمَائِدَة:54]. فَيَكُونُ مِنْ أَمْثِلَةِ الْمُبَالَغَةِ، لِأَنَّ اللَّهَ يُثِيبُ عَلَى فِعْلِ الْخَيْرِ ثَوَابًا جَزِيلًا وَيُثْنِي عَلَى فَاعِلِهِ ثَنَاءً جَمِيلًا فَكَانَ بِذَلِكَ كَثِيرُ الْحَمْدِ.

وقِيل: الْحَمِيدُ بمَعْنَى الْمَحْمُودِ فَيَكُونُ فَعِيلًا بِمَعْنَى مَفْعُولٍ.

وَقَدْ حَمَلَهُ البعض عَلَى كِلَا الْمَعْنيين، وَهُوَ الْحَقُّ.

وَقَصَرَهُ الْغَزَالِيُّ فِي (الْمَقْصِدِ الأَسْنَى) عَلَى مَعْنَى: الْمَحْمُودِ.

{ **لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَالْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ** } [25].

اسْتِئْنَاف ابتدائي ناشئ عَمَّا تَقَدَّمَ مِنَ التَّحْرِيضِ عَلَى الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ الله وَعَن ذكر الْفَتْحِ وَعَنْ تَذْيِيلِ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تعالى { وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ } [24]، وَهُوَ إِعْذَارٌ لِلْمُتَوَلِّينَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ لِيَتَدَارَكُوا صَلَاحَهُمْ بِاتِّبَاعِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالتَّدَبُّرِ فِي هَدْيِ الْقُرْآنِ، وَإِنْذَارٌ لَهُمْ إِنْ يَرْعَوُوا وَيَنْصَاعُوا إِلَى الْحُجَّةِ السَّاطِعَةِ بِأَنَّهُ يَكُونُ تَقْوِيمُ عِوَجِهِمْ بِالسُّيُوفِ الْقَاطِعَةِ، وَهُوَ مَا صُرِّحَ لَهُمْ بِهِ فِي قَوْلِهِ تعالى { لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجاوِرُونَكَ فِيها إِلَّا قَلِيلًا مَلْعُونِينَ أَيْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا } [الْأَحْزَاب:61/60]، وَقَوْلِهِ تعالى { يَا أَيُّهَا النَّبِيءُ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ } [التَّحْرِيم:9]، لِئَلَّا يَحْسَبُوا أَنَّ قَوْلَهُ السابق { وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ } [24]، مُجَرَّدَ مُتَارَكَةٍ فَيَطْمَئِنُّوا لِذَلِكَ.

{ **لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا** } تَأْكِيدُ الْخَبَرِ بِلَامِ الْقِسْمِ وَحَرْفِ التَّحْقِيقِ رَاجِعٌ إِلَى مَا تَضَمَّنَهُ الْخَبَرُ مِنْ ذِكْرِ مَا فِي إِرْسَالِ رُسُلِ اللَّهِ وَكُتُبِهِ مِنْ إِقَامَةِ الْقِسْطِ لِلنَّاسِ، وَمِنَ التَّعْرِيضِ بِحَمْلِ الْمُعْرِضِينَ عَلَى السَّيْفِ إِنِ اسْتَمَرُّوا عَلَى غَلْوَائِهِمْ. فَالتَّأْكِيدُ مَبْنِيٌّ عَلَى تَنْزِيلِ السَّامِعِينَ مَنْزِلَةَ مَنْ يُنْكِرُ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَ رُسُلًا قَبْلَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِأَنَّ حَالَهُمْ فِي التَّعَجُّبِ مِنْ دَعْوَاهُ الرِّسَالَةَ كَحَالِ مَنْ يُنْكِرُ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَ رُسُلًا مِنْ قَبْلُ. وَقَدْ تَكَرَّرَ مِثْلُ هَذَا فِي مَوَاضِعَ مِنَ الْقُرْآنِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى { قُلْ قَدْ جاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّناتِ } [آل عمران:183].

{ **رُسُلَنا** } الجَمْعُ هُنَا لِإِفَادَةِ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ، وَأَنَّ مُكَابَرَةَ الْمُنَافِقِينَ عَمَايَةٌ عَنْ سُنَّةِ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ.

الْبَيِّنَاتُ: الْحُجَجُ الدَّالَّةُ عَلَى أَنَّ مَا يَدْعُونَ إِلَيْهِ هُوَ مُرَادُ اللَّهِ، وَالْمُعْجِزَاتُ دَاخِلَةٌ فِي الْبَيِّنَاتِ.

{ **الْكِتابَ** } التَعْرِيفُ تَعْرِيفُ الْجِنْسِ، أَيْ: وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ كُتُبًا، أَيْ: مِثْلَ الْقُرْآنِ.

إِنْزَالُ الْكِتَابِ: تَبْلِيغٌ بِوَاسِطَةِ الْمَلَكِ مِنَ السَّمَاءِ.

إِنْزَالُ الْمِيزَانِ: تَبْلِيغُ الْأَمْرِ بِالْعَدْلِ بَيْنَ النَّاسِ.

الْمِيزَانُ: مُسْتَعَارٌ لِلْعَدْلِ بَيْنَ النَّاسِ فِي إِعْطَاءِ حُقُوقِهِمْ لِأَنَّ مِمَّا يَقْتَضِيهِ الْمِيزَانُ وُجُودَ طَرَفَيْنِ يُرَادُ مَعْرِفَةُ تَكَافُئِهِمَا، قَالَ تَعَالَى { وَإِذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ } [النِّسَاء:58]. وَهَذَا الْمِيزَانُ تُبَيِّنُهُ كُتُبُ الرُّسُلِ، فَذِكْرُهُ بِخُصُوصِهِ لِلِاهْتِمَامِ بِأَمْرِهِ لِأَنَّهُ وَسِيلَةُ انْتِظَامِ أُمُورِ الْبَشَرِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى { إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللَّهُ } [النِّسَاء:105].

وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّ اللَّهَ أَلْهَمَهُمْ وَضْعَ آلَاتِ الْوَزْنِ لِأَنَّ هَذَا لَيْسَ مِنَ الْمُهِمِّ، وَهُوَ مِمَّا يَشْمَلُهُ مَعْنَى الْعَدْلِ فَلَا حَاجَةَ إِلَى التَّنْبِيهِ عَلَيْهِ بِخُصُوصِهِ.

{ **لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ** } يَتَعَلَّقُ بِقَوْلِهِ تعالى { وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ }.

الْقِيَامُ: مَجَازٌ فِي صَلَاحِ الْأَحْوَالِ وَاسْتِقَامَتِهَا لِأَنَّهُ سَبَبٌ لِتَيْسِيرِ الْعَمَلِ، وَتَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى { وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ } [الْبَقَرَةِ:3].

الْقِسْطُ: الْعَدْلُ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ، فَهُوَ أَعَمُّ مِنَ الْمِيزَانِ الْمَذْكُورِ لِاخْتِصَاصِهِ بِالْعَدْلِ بَيْنَ مُتَنَازِعَيْنِ، وَأَمَّا الْقِسْطُ فَهُوَ إِجْرَاءُ أُمُورِ النَّاسِ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ الْحَقُّ، فَهُوَ عَدْلٌ عَامٌّ. وَاللَّفْظُ مَأْخُوذٌ فِي الْعَرَبِيَّةِ مِنْ لَفْظِ (قِسْطَاس) اسْمُ الْعَدْلِ بِلُغَةِ الرُّومِ، فَهُوَ مِنَ الْمُعَرَّبِ. وَالْبَاءُ لِلْمُلَابَسَةِ، أَي: يَكُونُ أَمْرُ النَّاسِ مُلَابِسًا لِلْعَدْلِ وَمُمَاشِيًا لِلْحَقِّ.

إِنْزَالُ الْحَدِيدِ: مُسْتَعَارٌ لِخَلْقِ مَعْدَنِهِ، كَقَوْلِهِ تعالى { وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ } [الزمر:6].

أَيْ: خَلَقَ لِأَجْلِكُمْ، وَذَلِكَ بِإِلْهَامِ الْبَشَرِ اسْتِعْمَالَهُ فِي السِّلَاحِ وَفِي غَيْرِهِ. وَتَقَدَّمَ ذِكْرُ الْحَدِيدِ وَمَعْدِنِهِ وَصِنَاعَتِهِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى { آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ } [الْكَهْفِ:96].

الْبَأْسُ: الضُّرُّ. وَالْمُرَادُ بَأْسُ الْقَتْلِ وَالْجَرْحِ بِآلَاتِ الْحَدِيدِ.

الْمَنَافِعُ: ما يحصل بالغلب كالغنائم، ومن المنافع ما يصنعه الناس من أدوات تسهّل عيشهم.

{ **وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ** }.

{ **مَنْ يَنْصُرُهُ** } نَصْرُ النَّاسِ الله هُوَ نَصْرُ دِينِهِ، وَأَمَّا اللَّهُ فَغَنِيٌّ عَنِ النَّصْرِ.

{ **وَرُسُلَهُ** } أَيْ: مَنْ يَنْصُرُ الْقَائِمِينَ بِدِينِهِ. وَيَدْخُلُ فِيهِ نَصْرُ شَرَائِعِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَهُ، وَنَصْرُ وُلَاةِ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ الْقَائِمِينَ بِالْحَقِّ. وَأَعْظَمَ رَجُلٍ نَصَرَ دِينَ اللَّهِ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ فِي قِتَالِهِ أهل الرِّدَّة، رَضِي الله عَنهُ.

{ **بِالْغَيْبِ** } يَتَعَلَّقُ بِـ { يَنْصُرُهُ }، أَيْ: يَنْصُرُهُ نَصْرًا يَدْفَعُهُ إِلَيْهِ دَاعِي نَفْسِهِ دُونَ خَشْيَةِ دَاعٍ يَدْعُوهُ إِلَيْهِ، أَوْ رَقِيبٍ يَرْقُبُ صَنِيعَهُ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالدِّفَاعِ عَنِ الدِّينِ بِمَحْضِ الْإِخْلَاصِ.

{ **إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ** } تَعْلِيلٌ لِجُمْلَةِ { أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَالْمِيزانَ }، أَيْ: لِأَنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيز فِي شؤونه الْقُدْسِيَّةِ، فَكَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ رُسُلُهُ أَقْوِيَاءَ أَعِزَّةً، وَأَنْ تَكُونَ كُتُبُهُ مُعَظَّمَةً مُوَقَّرَةً، وَإِنَّمَا يَحْصُلُ ذَلِكَ فِي هَذَا الْعَالَمِ الْمَنُوطَةِ أَحْدَاثُهُ بِالْأَسْبَابِ الْمَجْعُولَةِ بِأَنْ يَنْصُرَهُ الرُّسُلُ وَأَقْوَامٌ مُخْلِصُونَ لِلَّهِ يُعِينُوا عَلَى نَشْرِ دِينِهِ وَشَرَائِعِهِ.

الْقَوِيُّ: الْمُتَّصِفُ بِالْقُوَّةِ، قَالَ تَعَالَى { ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ } [الذاريات:58]، وَتَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تعالى { إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ } [الْأَنْفَال:52].

الْعَزِيزُ: الْمُتَّصِفُ بِالْعِزَّةِ، وَتَقَدَّمَتْ فِي قَوْلِهِ تعالى { فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [الْبَقَرَة:209].

{ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً وَإِبْراهِيمَ وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتاب فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ** } [26].

مَعْطُوفٌ عَلَى جُمْلَةِ { **لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ** } [25]، عَطَفَ الْخَاصَّ عَلَى الْعَامِّ لَمَّا أُرِيدَ تَفْصِيلٌ لِإِجْمَالِهِ تَفْصِيلًا يُسَجِّلُ بِهِ انْحِرَافَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْعَرَبِ وَالضَّالِّينَ مِنَ الْيَهُودِ عَنْ مَنَاهِجِ أَبَوَيْهِمَا: نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ.

قَالَ تَعَالَى فِي شَأْنِ بَنِي إِسْرَائِيلَ { ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كانَ عَبْداً شَكُوراً } [الْإِسْرَاء:3].

وَالْعَرَبُ لَا يَنْسَوْنَ أَنَّهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ نُوحٍ، كَمَا قَالَ النَّابِغَةُ يَمْدَحُ النُّعْمَانَ بْنَ الْمُنْذِرِ:

فَأَلْفَيْتَ الْأَمَانَةَ لَمْ تَخُنْهَا كَذَلِكَ كَانَ نُوحٌ لَا يَخُونُ

{ **وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ** } كَنُبُوَّةِ هُودٍ وَصَالِحٍ وَتُبَّعٍ، وَنُبُوَّةِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَشُعَيْبٍ وَيَعْقُوبَ.

{ **وَالْكِتابَ** } مَا كَانَ بِيَدِ ذُرِّيَّةِ نُوحٍ وَذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي فِيهَا أُصُولُ دِيَانَتِهِمْ مِنْ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمَا حَفِظُوهُ مِنْ وَصَايَاهُ وَوَصَايَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ.

الْفِسْقُ: الْخُرُوجُ عَنِ الِاهْتِدَاءِ، وَمِنَ الْفَاسِقِينَ: الْمُشْرِكُونَ مِنْ عَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ لُوطٍ وَالْيَمَنِ وَالْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ وَهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ نُوحٍ، وَمِنْ مَدْيَنَ وَالْحِجَازِ وَتِهَامَةَ وَهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ.

وَالْمُرَادُ: مَنْ أَشْرَكُوا قَبْلَ مَجِيءِ الْإِسْلَامِ لِقَوْلِهِ { ثُمَّ قَفَّيْنا عَلى آثارِهِمْ بِرُسُلِنا وَقَفَّيْنا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ } [27].

{ **ثُمَّ قَفَّيْنا عَلى آثارِهِمْ بِرُسُلِنا وَقَفَّيْنا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها مَا كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللَّهِ فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ** } [27].

{ **ثُمَّ** } للتراخي الرتبي لِأَنَّ بَعْثَةَ رُسُلِ اللَّهِ الَّذِينَ جَاءُوا بَعْدَ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمَنْ سَبَقَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا أَعْظَمُ مِمَّا كَانَ لَدَى ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ قَبْلَ إِرْسَالِ الرُّسُلِ الَّذِينَ قَفَّى اللَّهُ بِهِمْ، إِذْ أُرْسِلُوا إِلَى أُمَمٍ كَثِيرَةٍ مِثْلِ عَادٍ وَثَمُودَ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَفِيهِمْ شَرِيعَةٌ عَظِيمَةٌ وَهِيَ شَرِيعَةُ التَّوْرَاةِ.

التَّقْفِيَةُ: إِتْبَاعُ الرَّسُولِ بِرَسُولٍ آخَرَ، مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْقَفَا لِأَنَّهُ يَأْتِي بَعْدَهُ، فَكَأَنَّهُ يَمْشِي عَنْ جِهَةِ قَفَاهُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَقَفَّيْنا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ } [الْبَقَرَة:87].

الْآثَارُ: جَمْعُ الْأَثَرِ، وَهُوَ مَا يَتْرُكُهُ السَّائِرُ مِنْ مَوَاقِعِ رِجْلَيْهِ فِي الْأَرْضِ، قَالَ تَعَالَى { فَارْتَدَّا عَلى آثارِهِما قَصَصًا } [الْكَهْف:64].

{ **عَلى آثارِهِمْ** } ضَمِيرُ الْجَمْعِ عَائِدٌ إِلَى نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَذُرِّيَّتِهِمَا الَّذِينَ كَانَت فيهم النبوّة وَالْكِتَابُ، فَأَمَّا الَّذِينَ كَانَت فيهم النبوّة فَكَثِيرُونَ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَانَ فِيهِمِ الْكِتَابُ فَمِثْلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَ(عَلَى) لِلِاسْتِعْلَاءِ.

وَأَصْلُ (قَفَّى عَلَى أَثَرِهِ) يَدُلُّ عَلَى قُرْبِ مَا بَيْنَ الْمَاشِيَيْنِ، أَيْ: حَضَرَ الْمَاشِي الثَّانِي قَبْلَ أَنْ يَزُولَ أَثَرُ الْمَاشِي الْأَوَّلِ، وَشَاعَ ذَلِكَ حَتَّى صَارَ قَوْلُهُمْ: عَلَى أَثَرِهِ، بِمَعْنَى بَعْدَهُ بِقَلِيلٍ أَوْ مُتَّصِلًا شَأْنُهُ بِشَأْنِ سَابِقِهِ.

وَهَذَا تَعْرِيفٌ لِلْأُمَّةِ بِأَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَ رُسُلًا كَثِيرِينَ عَلَى وَجْهِ الْإِجْمَالِ، وَهُوَ تَمْهِيدٌ لِلْمَقْصُودِ مِنْ ذِكْرِ الرَّسُولِ الْأَخِيرِ الَّذِي جَاءَ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَهُوَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

{ **وَقَفَّيْنا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ** } فِي إِعَادَة فعل { قَفَّيْنا } وَعَدَمِ إِعَادَةِ { عَلى آثارِهِمْ } إِشَارَةٌ إِلَى بُعْدِ الْمُدَّةِ بَيْنَ آخِرِ رُسُلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَيْنَ عِيسَى، فَإِنَّ آخِرَ رُسُلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ يُونُسُ بْنُ مَتَّى أُرْسِلَ إِلَى أَهْلِ نِينَوَى أَوَّلِ الْقَرْنِ الثَّامِنِ قَبْلَ الْمَسِيحِ فَلِذَلِكَ لَمْ يَكُنْ عِيسَى مُرْسَلًا عَلَى آثَارِ مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الرُّسُلِ.

الْإِنْجِيلُ: (بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ وَفَتْحِهَا) مُعَرَّبٌ، هُوَ الْوَحْيُ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى عِيسَى وَكَتَبَهُ الْحَوَارِيُّونَ فِي أَثْنَاءِ ذِكْرِ سِيرَتِهِ. وتَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي [آلِ عِمْرَانَ:3].

{ **وَجَعَلْنا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً** } أي: أَنَّ تَعَالِيمَ الْإِنْجِيلِ الَّذِي آتَاهُ اللَّهُ عِيسَى أَمَرَتْهُمْ بِالتَّخَلُّقِ بِالرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ فَعَمِلُوا بِهَا، أَوْ أَنَّ ارْتِيَاضَهُمْ بِسِيرَةِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَرْسَخَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِهِمْ.

ذَلِكَ أَنَّ عِيسَى عليه السلام بُعِثَ لِتَهْذِيبِ نُفُوسِ الْيَهُودِ وَاقْتِلَاعِ الْقَسْوَةِ مِنْ قُلُوبِهِمُ الَّتِي تَخَلَّقُوا بِهَا فِي أَجْيَالٍ طَوِيلَةٍ، قَالَ تَعَالَى { ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَهِيَ كَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً } [الْبَقَرَةِ:74].

الرَّأْفَةُ: الرَّحْمَةُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِدَفْعِ الْأَذَى وَالضُّرِّ فَهِيَ رَحْمَةٌ خَاصَّةٌ، وَتَقَدَّمَتْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ } [الْبَقَرَةِ:143]، وَفِي قَوْلِهِ تعالى { وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ } [النُّورِ:2].

الرَّحْمَةُ: الْعَطْفُ وَالْمُلَايَنَةُ، وَتَقَدَّمَتْ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ.

فَعَطْفُ الرَّحْمَةِ عَلَى الرَّأْفَةِ مِنْ عَطْفِ الْعَامِّ عَلَى الْخَاصِّ لِاسْتِيعَابِ أَنْوَاعِهِ بَعْدَ أَنِ اهْتَمَّ بِبَعْضِهَا.

الرَّهْبَانِيَّةُ: اسْمٌ لِلْحَالَةِ الَّتِي يَكُونُ الرَّاهِبُ مُتَّصِفًا بِهَا فِي غَالب شؤون دينه، وَالْيَاء فِيهَا يَاءُ النِّسْبَةِ إِلَى الرَّاهِبِ عَلَى غَيْرِ قِيَاسٍ لِأَنَّ قِيَاسَ النَّسَبِ إِلَى الرَّاهِبِ الرَّاهِبِيَّةُ، وَالنُّونُ فِيهَا مَزِيدَةٌ لِلْمُبَالَغَةِ فِي النِّسْبَةِ كَمَا زِيدَتْ فِي قَوْلِهِمْ: رُوحَانِيٌّ، وَنَصْرَانِيٌّ.

الرَّاهِبُ: الَّذِي نُسِبَتْ إِلَيْهِ الرَّهْبَانِيَّةُ فَهُوَ وَصْفٌ عُومِلَ مُعَامَلَةَ الِاسْمِ، وَهُوَ العابد من النَّصَارَى الْمُنْقَطِعِ لِلْعِبَادَةِ، وَهُوَ وَصْفٌ مُشْتَقٌّ مِنَ الرَّهَبِ: الْخَوْفِ، لِأَنَّهُ شَدِيدُ الْخَوْفِ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ تَعَالَى أَو من مُخَالَفَةِ دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ. وَيَلْزَمُ هَذِهِ الْحَالَةَ فِي عُرْفِ النَّصَارَى الْعُزْلَةُ عَنِ النَّاسِ تَجَنُّبًا لِمَا يَشْغَلُ عَنِ الْعِبَادَةِ وَذَلِكَ بِسُكْنَى الصَّوَامِعِ وَالْأَدْيِرَةِ وَتَرْكِ التَّزَوُّجِ تَجَنُّبًا لِلشَّوَاغِلِ، وَرُبَّمَا أَوْجَبَتْ بَعْضُ طَوَائِفِ الرُّهْبَانِ عَلَى الرَّاهِبِ تَرْكَ التَّزَوُّجِ غُلُوًّا فِي الدِّينِ.

فَالرَّاهِبُ يَمْتَنِعُ مِنَ التَّزَوُّجِ خِيفَةَ أَنْ تَشْغَلَهُ زَوْجُهُ عَنْ عِبَادَتِهِ، وَيَمْتَنِعُ مِنْ مُخَالَطَةِ الْأَصْحَابِ خَشْيَةَ أَنْ يُلْهُوهُ عَنِ الْعِبَادَةِ، وَيَتْرُكُ لَذَائِذَ الْمَآكِلِ وَالْمَلَابِسِ خَشْيَةَ أَنْ يَقَعَ فِي اكْتِسَابِ المَال الْحَرَام، وَلِأَنَّهُم أَرَادُوا التَّشَبُّهَ بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا وَتَرْكِ التَّزَوُّجِ، فَلِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

{ **ابْتَدَعُوهَا** }، أَيْ: أَحْدَثُوهَا، فَإِنَّ الِابْتِدَاعَ الْإِتْيَانُ بِالْبِدْعَةِ وَالْبِدَعِ وَهُوَ مَا لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفًا، أَيْ: أَحْدَثُوهَا بَعْدَ رَسُولِهِمْ، فَإِنَّ الْبِدْعَةَ مَا كَانَ مُحْدَثًا بَعْدَ صَاحِبِ الشَّرِيعَةِ.

وَنَصبُ { رَهْبانِيَّةً } عَلَى طَرِيقَةِ الِاشْتِغَالِ. وَالتَّقْدِيرُ: وَابْتَدَعُوا رَهْبَانِيَّةً، وَلَيْسَ مَعْطُوفًا عَلَى رَأْفَةً وَرَحْمَةً، لِأَنَّ هَذِهِ الرَّهْبَانِيَّةَ لَمْ تَكُنْ مِمَّا شَرَعَ اللَّهُ لَهُمْ فَلَا يَسْتَقِيمُ كَوْنُهَا مَفْعُولًا لِـ { جَعَلْنا }. وَإِنَّمَا عُطِفَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ عَلَى جُمْلَةِ { وَجَعَلْنا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ } لِاشْتِرَاكِ مَضْمُونِ الْجُمْلَتَيْنِ فِي أَنَّهُ مِنَ الْفَضَائِلِ الْمُرَادِ بِهَا رضوَان الله.

<u>وَالْمعْنَى</u>: وَابْتَدَعُوا لِأَنْفُسِهِمْ رَهْبَانِيَّةً مَا شَرَعْنَاهَا لَهُمْ وَلَكِنَّهُمُ ابْتَغَوْا بِهَا رِضْوَانَ اللَّهِ فَقَبِلَهَا اللَّهُ مِنْهُمْ، لِأَنَّ سِيَاقَ حِكَايَةِ ذَلِكَ عَنْهُمْ يَقْتَضِي الثَّنَاءَ عَلَيْهِمْ فِي أَحْوَالِهِمْ. وَلَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ جَمِيعُهُمُ اخْتَرَعَ أُسْلُوبَ الرَّهْبَانِيَّةِ وَلَكِنْ قَدْ يَكُونُ بَعْضُهُمْ سَنَّهَا وَتَابَعَهُ بَقِيَّتُهُمْ.

{ **مَا كَتَبْنَاها عَلَيْهِمْ** } مُبَيِّنَةٌ لِجُمْلَةِ { ابْتَدَعُوهَا }.

{ **إِلَّا ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللَّهِ** } احْتِرَاسٌ، وَهُوَ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ. أَيْ: كَتَبُوهَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ طَلَبًا لِرِضْوَانِ اللَّهِ.

<u>وَأَمَّا تَرْكُ الْمَسِيحِ التَّزَوُّجَ</u> فَلَعَلَّهُ لِعَارِضٍ آخَرَ أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ لِأَجْلِهِ، وَلَيْسَ تَرْكُ التَّزَوُّج من شؤون النُّبُوّةِ فَقَدْ كَانَ لِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ أَزْوَاجٌ، قَالَ تَعَالَى { وَجَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَذُرِّيَّةً } [الرَّعْد:38].

وَكَانَ الِانْقِطَاعُ عَنِ اللَّذَائِذِ وَإِعْنَاتِ النَّفْسِ مِنْ وُجُوهِ التَّقَرُّبِ فِي بِعْضِ الشَّرَائِعِ الْمَاضِيَةِ بَقِيَتْ إِلَى أَنْ أَبْطَلَهَا الْإِسْلَامُ. من ذلك حَدِيثِ النَّذْرِ فِي (الْمُوَطَّأِ): " أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى رَجُلًا قَائِمًا فِي الشَّمْسِ صَامِتًا فَسَأَلَ عَنْهُ فَقَالُوا: نَذَرَ أَنْ لَا يَتَكَلَّمَ وَلَا يَسْتَظِلَّ وَأَنْ يَصُومَ يَوْمَهُ فَقَالَ: " **مُرُوهُ فَلْيَتَكَلَّمْ وليستظل وليتمّ صَوْمه إِنَّ اللَّهَ عَنْ تَعْذِيبِ هَذَا نَفْسَهُ لَغَنِيٌّ** ".

وَقَدْ مَضَى قَوْلُهُ تَعَالَى { فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا } [مَرْيَمَ:26]، وَلَا تَنَافِي بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ، لِأَنَّ أَسْبَابَ الرهبانية قد تَتَعَدَّد بِاخْتِلَافِ الْأَدْيَانِ.

<u>وَفِي الآية حُجَّةٌ لِانْقِسَامِ الْبِدْعَةِ إِلَى مَحْمُودَةٍ وَمَذْمُومَةٍ</u> بِحَسَبِ انْدِرَاجِهَا تَحْتَ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَشْرُوعِيَّةِ فَتَعْتَرِيهَا الْأَحْكَامُ الْخَمْسَةُ كَمَا حَقَّقَهُ الشِّهَابُ الْقَرَافِيُّ وَحُذَّاقُ الْعُلَمَاءِ. وَأَمَّا الَّذِينَ حَاوَلُوا حَصْرَهَا فِي الذَّمِّ فَلَمْ يَجِدُوا مَصْرِفًا. وَقَدْ قَالَ عُمَرُ لَمَّا جُمِعَ النَّاسُ عَلَى قَارِئٍ وَاحِدٍ فِي قِيَامِ رَمَضَانَ: "نِعْمَتِ الْبِدْعَةُ هَذِهِ".

{ **فَمَا رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها** } أَيْ: فَتَرَتَّبَ عَلَى الْتِزَامِهِمُ الرَّهْبَانِيَّةَ أَنَّهُمْ، مَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا.

وَظَاهِرُ الْآيَةِ أَنَّ جَمِيعَهُمْ قَصَّرُوا تَقْصِيرًا مُتَفَاوِتًا، أي: قَصَّرُوا فِي أَدَاءِ حَقِّهَا.

وَفِي الكَلَامِ إِشْعَارٌ بِأَنَّ مَا يَكْتُبُهُ اللَّهُ عَلَى الْعِبَادِ مِنَ التَّكَالِيفِ لَا يَشُقُّ عَلَى النَّاسِ الْعَمَلُ بِهِ.

الرَّعْيُ: الْحِفْظُ، أَيْ: مَا حَفِظُوهَا حَقَّ حِفْظِهَا، وَاسْتُعِيرَ الْحِفْظُ لِاسْتِيفَاءِ مَا تَقْتَضِيهِ مَاهِيَّةُ الْفِعْلِ.

وَمَجْمُوعُ الْجُمَلِ الثَّلَاثِ اسْتِطْرَادٌ وَاعْتِرَاضٌ، وَالْكَلَامُ فيها مَسُوقٌ مَسَاقَ اللَّوْمِ عَلَى تَقْصِيرِهِمْ فِيمَا الْتَزَمُوهُ.

{ **فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ** } تَفْرِيعٌ عَلَى جُمْلَةِ { وَجَعَلْنا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً } وَمَا بَيْنَهُمَا اسْتِطْرَادٌ.

{ **الَّذِينَ آمَنُوا** } الْمُتَّصِفُونَ بِالْإِيمَانِ الْمُصْطَلَحِ عَلَيْهِ فِي الْقُرْآنِ، وَهُوَ تَوْحِيدُ اللَّهِ تَعَالَى وَالْإِيمَانُ بِرُسُلِهِ فِي كُلِّ زَمَانٍ، أَي: الَّذِينَ لَمْ يَخْلِطُوا مُتَابَعَتَهُمْ إِيَّاهُ بِمَا يُفْسِدُهَا مِثْلُ الَّذِينَ اعْتَقَدُوا إِلَهِيَّةَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْ بُنُوَّتَهُ لِلَّهِ،

وَنَحْوُهُمْ مِنَ النَّصَارَى الَّذِينَ أَدْخَلُوا فِي الدِّينِ مَا هُوَ مُنَاقِضٌ لِقَوَاعِدِهِ وَهُمْ كَثِيرٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:

{ **وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ** } أَيْ: وَكَثِيرٌ مِنَ الَّذِينَ الْتَزَمُوا دِينَهُ خَارِجُونَ عَنِ الْإِيمَانِ، فَالْمُرَادُ بِالْفِسْقِ مَا يَشْمَلُ الْكُفْرَ وَمَا دُونَهُ مِثْلُ الَّذِينَ بَدَّلُوا الْكِتَابَ وَاسْتَخَفُّوا بِشَرَائِعِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبارِ وَالرُّهْبانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } [التَّوْبَة:34].

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [28].

الْغَالِبُ فِي الْقُرْآنِ أَنَّ { الَّذِينَ آمَنُوا } لَقَبٌ لِلْمُؤْمِنِينَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَكِنْ لَمَّا وَقَعَ هُنَا عَقِبَ قَوْلِهِ تعالى { فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ } [27]، أَيْ: مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ،

<u>احْتَمَلَ</u> أَنْ يَكُونَ مُسْتَعْمَلًا اسْتِعْمَالَهُ اللَّقَبِيَّ، أَعْنِي: كَوْنَهُ كَالْعِلْمِ بِالْغَلَبَةِ عَلَى مُؤْمِنِي مِلَّةِ الْإِسْلَامِ.

<u>وَاحْتَمَلَ</u> أَنْ يَكُونَ قَدِ اسْتُعْمِلَ اسْتِعْمَالَهُ اللُّغَوِيَّ الْأَعَمَّ، أَعْنِي: مَنْ حَصَلَ مِنْهُ إِيمَانٌ، وَهُوَ هُنَا مَنْ آمَنَ بِعِيسَى. <u>وَالْأَظْهَرُ أَنَّ هَذَيْنِ الِاحْتِمَالَيْنِ مَقْصُودَانِ</u> لِيَأْخُذَ خُلَّصُ النَّصَارَى مِنْ هَذَا الْكَلَامِ حَظَّهُمْ، وَهُوَ دَعْوَتُهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَسْتَكْمِلُوا مَا سَبَقَ مِنِ اتِّبَاعِهِمْ عِيسَى، فَيَكُونُ الْخُطَّابُ مُوَجَّهًا إِلَى الْمَوْجُودِينَ مِمَّنْ آمَنُوا بِعِيسَى، أَيْ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا خَالِصًا بِشَرِيعَةِ عِيسَى اتَّقُوا اللَّهَ وَاخْشَوْا عِقَابَهُ وَاتْرُكُوا الْعَصَبِيَّةَ وَالْحَسَدَ وَسُوءَ النَّظَرِ وَآمِنُوا بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَأَمَّا احْتِمَالُ أَنْ يُرَادَ بِالَّذِينَ آمَنُوا الْإِطْلَاقُ اللَّقَبِيُّ فَيَأْخُذُ مِنْهُ الْمُؤْمِنُونَ من أَهْلُ الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِشَارَةً بِأَنَّهُمْ لَا يَقِلُّ أَجْرُهُمْ عَنْ أَجْرِ مُؤْمِنِي أَهْلِ الْكِتَابِ لِأَنَّهُمْ لَمَّا آمَنُوا بِالرُّسُلِ السَّابِقِينَ أَعْطَاهُمُ اللَّهُ أَجْرَ مُؤْمِنِي أَهْلِ مِلَلِهِمْ، وَيَكُونُ قَوْلُهُ { وَآمِنُوا } مُسْتَعْمَلًا فِي الدَّوَامِ عَلَى الْإِيمَانِ كَقَوْلِهِ تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} [النِّسَاءِ:136].

{ **يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ** } وَمَعْنَى إِيتَاءِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَهْلِ مِلَّةِ الْإِسْلَامِ كِفْلَيْنِ مِنَ الْأَجْرِ: أَنَّ لَهُمْ مِثْلَ أَجْرَيْ مَنْ آمَنَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ. وَيَشْرَحُ هَذَا حَدِيثُ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ الَّذِي فِيهِ : " **مَثَلُ الْمُسلمين وَالْيَهُود والنصار كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ أُجَرَاءَ يَعْمَلُونَ لَهُ، فَعَمِلَتِ الْيَهُودُ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ، وَعَمِلَتِ النَّصَارَى مِنَ الظُّهْرِ إِلَى الْعَصْرِ عَلَى قِيرَاطٍ، ثُمَّ عَمِلَ الْمُسْلِمُونَ مِنَ الْعَصْرِ إِلَى الْغُرُوبِ عَلَى قِيرَاطَيْنِ،** قَالَ فِيهِ: **وَاسْتَكْمَلُوا أَجْرَ الْفَرِيقَيْنِ كِلَيْهِمَا** ".

أَي: اسْتَكْمَلُوا مِثْلَ أَجْرِ الْفَرِيقَيْنِ، أَيْ: أَخَذُوا ضِعْفَ كُلِّ فَرِيقٍ.

الْكِفْلُ: النَّصِيبُ. وَأَصْلُهُ: الْأَجْرُ الْمُضَاعَفُ، وَهُوَ مُعَرَّبٌ مِنَ الحبشية كَمَا قَالَه أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ، أَيْ: يُؤْتِكُمْ أَجْرَيْنِ عَظِيمَيْنِ، وَكُلُّ أَجْرٍ مِنْهُمَا هُوَ ضِعْفُ الْآخَرِ مُمَاثِلٌ لَهُ فَلِذَلِكَ ثُنِّيَ كِفْلَيْنِ، كَمَا يُقَالُ: زَوْجٌ، لِأَحَدِ الْمُتَقَارِبَيْنِ، وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ { رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ } [الْأَحْزَاب:68]، وَقَوْلِهِ تعالى { يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ } [الْأَحْزَاب:30].

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ **" ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أُجُورَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِي، وَاتَّبَعَنِي، وَصَدَّقَنِي فَلَهُ أَجْرَانِ ... "**.

{ **مِنْ رَحْمَتِهِ** } يَتَعَلَّقُ بِـ { يُؤْتِكُمْ }، وَ(من) ابتدائية مجازيا، أَيْ: ذَلِكَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِكُمْ.

وَهَذَا فِي جَانِبِ النَّصَارَى مَعْنَاهُ لِإِيمَانِهِمْ بِمُحَمَّدٍ وَإِيمَانِهِمْ بِعِيسَى، أَيْ: مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَإِكْرَامِهِ، وَإِلَّا فَإِنَّ الْإِيمَانَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاجِبٌ عَلَيْهِمْ كَإِيمَانِهِمْ بِعِيسَى وَهُوَ مُتَمِّمٌ لِلْإِيمَانِ بِعِيسَى وَإِنَّمَا ضُوعِفَ أَجْرُهُمْ لِمَا فِي النُّفُوسِ مِنَ التَّعَلُّقِ بِمَا تَدِينُ بِهِ فَيَعْسُرُ عَلَيْهَا تَرْكُهُ.

وَأَمَّا فِي جَانِبِ الْمُسْلِمِينَ فَهُوَ إِكْرَامٌ لَهُمْ لِئَلَّا يَفُوقَهُمْ بَعْضُ مَنْ آمَنَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ النَّصَارَى.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ رَحْمَتِهِ صِفَةً لِـ { كِفْلَيْنِ } وَتَكُونُ (مِنْ) بَيَانِيَّةً، وَالْكَلَامُ عَلَى حَذْفِ مُضَاف، تَقْدِيره: من أثر رَحمته، وَهُوَ ثَوَابُ الْجَنَّةِ وَنَعِيمُهَا.

{ **وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ** } تَمْثِيلٌ لِحَالَةِ الْقَوْمِ الطَّالِبِينَ رِضَى اللَّهِ تَعَالَى وَالْفَوْزِ بِالنَّعِيمِ، الْخَائِفِينَ مِنَ الْوُقُوعِ فِي ضِدِّ ذَلِكَ، بِحَالَةِ قَوْمٍ يَمْشُونَ فِي طَرِيقٍ بِلَيْلٍ يَخْشَوْنَ الْخَطَأَ فِيهِ فَيُعْطَوْنَ نُورًا يَتَبَصَّرُونَ بِهِ الثَّنَايَا فَيَأْمَنُونَ الضَّلَالَ فِيهِ. وَالْمَعْنَى: وَيُيَسِّرْ لَكُمْ دَلَالَةً تَهْتَدُونَ بِهَا إِلَى الْحَقِّ.

وَجَمِيعُ أَجْزَاءِ هَذَا التَّمْثِيلِ صَالِحَةٌ لتكون استعارات مُفْرَدَة، وَهَذَا أَبْلَغُ أَحْوَالِ التَّمْثِيلِ، وَقد عُرف فِي الْقُرْآن تَشْبِيهُ الْهُدَى بِالنُّورِ، وَالضَّلَالِ بِالظُّلْمَةِ، وَالْبُرْهَانِ بِالطَّرِيقِ، وَإِعْمَالِ النَّظَرِ بِالْمَشْيِ، وَشَاعَ ذَلِكَ بَعْدَ الْقُرْآنِ فِي كَلَامِ أُدَبَاءِ الْعَرَبِيَّةِ.

{ **وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } جَزَاءَ امْتِثَالِهِمْ مَا أُمِرُوا بِهِ، أَيْ: يَغْفِرْ لَكُمْ مَا فَرَطَ مِنْكُمْ مِنَ الْكفْر والضلال.

{ لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ } [29].

{ **أَهْلُ الْكِتابِ** } لَقَبٌ فِي الْقُرْآنِ لِلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ لَمْ يَتَدَيَّنُوا بِالْإِسْلَامِ لِأَنَّ الْمُرَادَ بِالْكِتَابِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِذَا أُضِيفَ إِلَيْهِ (أَهْلُ)، فَلَا يُطْلَقُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ: أَهْلُ الْكِتَابِ، وَإِنْ كَانَ لَهُمْ كِتَابٌ، فَمَنْ صَارَ مُسْلِمًا مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى لَا يُوصَفُ بِأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي اصْطِلَاحِ الْقُرْآنِ، وَلِذَلِكَ لَمَّا وُصِفَ عَبْدُ

اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ فِي الْقُرْآنِ وُصِفَ بِقَوْلِهِ تعالى { وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ } [الرَّعْد:43]، وَقَوْلِهِ تعالى { وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى مِثْلِهِ } [الْأَحْقَاف:10].

{ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ } لَمَّا دَعَا اللَّهُ الَّذِينَ اتَّبَعُوا الْمَسِيحَ إِلَى الْإِيمَانِ بِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَوَعَدَهُمْ بِمُضَاعَفَةِ ثَوَابِ ذَلِكَ الْإِيمَانِ، أَعْلَمَهُمْ أَنَّ إِيمَانَهُمْ يُبْطِلُ مَا يَنْتَحِلُهُ أَتْبَاعُ الْمَسِيحِيَّةِ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الْفَضْلِ وَالشَّرَفِ لِأَنْفُسِهِمْ بِدَوَامِهِمْ عَلَى مُتَابَعَةِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيُغَالِطُوا النَّاسَ بِأَنَّهُمْ إِنْ فَاتَهُمْ فَضْلُ الْإِسْلَامِ لَمْ يَفُتْهُمْ شَيْءٌ مِنَ الْفَضْلِ بِاتِّبَاعِ عِيسَى مَعَ كَوْنِهِمْ لَمْ يُغَيِّرُوا دِينَهُمْ.

{ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ } تَذْيِيلٌ يَعُمُّ الْفَضْلَ الَّذِي آتَاهُ اللَّهُ أَهْلَ الْكِتَابِ الْمُؤْمِنِينَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَغَيْرَهُ مِنَ الْفَضْلِ.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المجادِلة

سُمِّيت هذه السورة في كتب التفسير وفي المصاحف وكتب السنّة (**سورة المجادلة**) - بكسر الدال أو بفتحه - ووجه هذه التسمية أنّها افتُتحت بقضية مجادلة امرأة (أوس بن الصامت) لدى النبيّ صلى الله عليه وسلم في شأن مظاهَرة زوجها.

ولم يذكر المفسِّرون ولا شارحو كتب السنّة ضبطه بكسر الدال أو فتحها. وكسر الدال أظهر لأنّ السورة افتتحت بذكر التي تجادل في زوجها فحقيقة أن تضاف إلى صاحبة الجدال، وهي التي ذكرها الله بقوله { الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا } [1].

وتُسمَّى (**سورة قد سمع**) وهذا الاسم مشتهر في الكتاتيب في تونس.

وسُمِّيت في مصحف أُبَيّ بن كعب (**سورة الظهار**).

وهي مدنية، قال ابن عطية بالإجماع. وفي تفسير القرطبي عن عطاء: أنّ العشر الأولى منها مدني وباقيها مكّيّ. وفيه عن الكلبي أنّها مدنية إلّا قوله تعالى { مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ } [7] نزلت بمكّة.

وهي السورة المائة وثلاث من عِداد نزول سور القرآن، نزلت بعد سورة المنافقين وقبل سورة التحريم. والذي يظهر أنّ سورة المجادلة نزلت قبل سورة الأحزاب لأنّ الله تعالى قال فيها { وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ } [الأحزاب:4]، وذلك يقتضي أن تكون هذه الآية نزلت بعد إبطال حكم الظهار بما في سورة المجادلة، لأن قوله تعالى { وَمَا جَعَلَ } يقتضي إبطال التحريم بالمظاهرة.

وآيها في عَدِّ أهل المدينة وأهل مكة إحدى وعشرون، وفي عد أهل الشام والبصرة والكوفة اثنتان وعشرون.

أغراض السورة

*/ الحكم في قضية مظاهرة أوس بن الصامت من زوجه خولة.

*/ إبطال ما كان في الجاهلية من تحريم المرأة إذا ظاهر منها زوجها، وأنّ عملهم مخالف لما أراده الله.

*/ تخلّص من ذلك إلى ضلالات المنافقين ومنها مناجاتهم بمرأى المؤمنين ليُغيظوهم ويُحزنوهم، ومنها موالاتهم اليهود، وحلفهم على الكذب.

*/ التعرّض لآداب مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم. وشرع التصدّق قبل مناجاته.

*/ الثناء على المؤمنين في مجافاتهم اليهود والمشركين. وأنّ الله ورسوله وحزبهما هم الغالبون.

{ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ } [1].

افتتحت آيات أحكام الظهار بذكر سبب نزولها تنويها بالمرأة التي وجَّهت شكواها إلى الله تعالى بأنّها لم تُقصِّر في طلب العدل في حقّها وفي بنيها. ولم ترض بعنجهية زوجها وابتداره إلى ما ينثر عقد عائلته دون تبصُّر ولا رويّة، وتعليما لنساء الأمّة الإسلامية ورجالها واجب الذود عن مصالحها.

تلك هي قضية المرأة خولة أو خُويلة (مصغّرا) أو جميلة بنت مالك بنت ثعلبة أو بنت دُلَيْج (مصغّرا) العَوْفية وربّما قالوا: الخزرجيّة، وهي من بني عوف بن مالك بن الخزرج، من بطون الأنصار، مع زوجها أوس بن الصامت الخزرجي، أخي عبادة بن الصامت.

قيل: إنّ سبب حدوث هذه القضية أنّ زوجها رآها وهي تصلي وكانت حسنة الجسم، فلمَّا سلَّمت أرادها فأبت فغضب وكان قد ساء خُلُقُه فقال لها: أنت عليَّ كظهر أمّي.

قال ابن عباس وكان هذا في الجاهلية تحريما للمرأة مؤبّدا. أي: وعمل به المسلمون في المدينة بعلم من النبيّ صلى الله عليه وسلم وإقراره الناس عليه فاستقر مشروعا.

فجاءت خولة رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكرت له ذلك، فقال لها: " **حَرُمْتِ عليه** "، فقالت للرسول صلى الله عليه وسلم: إنّ لي صبية صغارا إن ضممتهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إلي جاعوا، فقال: " **ما عندي في أمرك شيء** "، فقالت: يا رسول الله ما ذكر طلاقا. وإنّما هو أبو ولدي وأحبّ الناس إليّ، فقال: " **حَرُمْتِ عليه** "، فقالت: أشكو إلى الله فاقتي ووجدي. كلَّما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **حَرُمْتِ عليه** " هتفت وشكت إلى الله، فأنزل الله هذه الآيات.

وهذا الحديث رواه أبو داود في كتاب الظهار مجملا بسند صحيح. وأمّا تفصيل قصّته فمن روايات أهل التفسير وأسباب النزول يزيد بعضها على بعض، وكلّها متّفقة على أنّ المرأة المجادلة هي خولة أو خويلة أو جميلة، وعلى أنّ زوجها أوس بن الصامت.

{ **قَدْ** } أصله حرف تحقيق للخبر، فهو من حروف توكيد الخبر ولكن الخطاب هنا للنبيّ صلى الله عليه وسلم وهو لا يخامره تردّد في أنّ الله يعلم ما قالته المرأة التي جادلت في زوجها، فتعيَّن أنّ الحرف هنا مستعمل في التوقّع، أي: الإشعار بحصول ما يتوقّعه السامع.

قال في الكشّاف: " لأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم والمجادِلة كانا يتوقّعان أن يسمع الله لمجادلتها وشكواها وينزل في ذلك ما يفرّج عنها ".

{ **سَمِعَ اللَّهُ** } معناه الاستجابة للمطلوب بقرينة دخول { قد } التوقّعيّة عليه فإنّ المتوقَّع هو استجابة شكواها.

{ **الَّتِي تُجَادِلُكَ** } استُحضرت المرأة بعنوان الصلة تنويها بمجادلتها وشكواها لأنّها دلّت على توكّلها الصادق على رحمة ربّها بها وبأبنائها وبزوجها.

المجادَلَة: الاحتجاج والاستدلال، وتقدّمت في قوله تعالى { يجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ } [الأنفال:6].
{ **فِي زَوْجِهَا** } أي: في شأن زوجها وقضيّته، كقوله تعالى { يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ } [هود:74].
الاشتكاء: مبالغة في الشكوى وهي ذكر ما آذاه، يقال: شكى وتشكَّى واشتكى وأكثرها مبالغة: اشتكى. والأكثر أن تكون الشِكاية لقصد طلب إزالة الضرّ الذي يُشتكى منه بحكمٍ أو نصرٍ أو إشارة بحيلة خلاص.
{ **وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا** } في موضع الحال من ضمير { تُجَادِلُكَ }. وجيء بصيغة المضارع لاستحضار مقارنة علم الله لتحاورهما زيادة في التنويه بشأن ذلك التحاور.
والسماع هنا مستعمل في معناه الحقيقي المناسب لصفات الله، إذ لا صارف يصرف عن الحقيقة. وكون الله تعالى عالما بما جرى من المحاورة معلوم لا يراد من الإخبار به إفادة الحكم، فتعيَّن صرف الخبر إلى إرادة الاعتناء بذلك التحاور والتنويه به وبعظيم منزلته لاشتماله على ترقّب النبيّ صلى الله عليه وسلم ما ينزل عليه من وحي، وترقّب المرأة الرحمة، وإلّا فإنّ المسلمين يعلمون أنّ الله عالم بتحاورهما.
التحاور: تفاعل من حار، إذا أجاب، فالتحاور حصول الجواب من جانبين فاقتضت مراجعةً بين شخصين.
{ **إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** } تذييل لجملة { وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا }، أي: أنّ الله عالم بكل صوت وبكل مرئي. وتكرير اسم الجلالة في موضع إضماره ثلاث مرّات لتربية المهابة وإثارة تعظيم منّته تعالى ودواعي شكره.

{ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ } [2].
الآية بمنزلة البيان لجملة { قدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا } [1]، لأنّ فيها مخرجا ممّا لحق بالمجادِلة من ضرٍّ بظهار زوجها، وإبطالًا له.
{ **يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ** } قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب { يَظَّهَّرُونَ }. ومعناه أن يقول الرجل لزوجه: أنت عليَّ كظهر أمّي. وكان هذا قولا يقولونه في الجاهلية يريدون به تأبيد تحريم نكاحها وبت عصمته. قال المفسّرون وأهل اللغة: كان الظهار طلاقا في الجاهلية يقتضي تأبيد التحريم.
وأحسب أنّه كان طلاقا عند أهل يثرب وما حولها لكثرة مخالطتهم اليهود ولا أحسب أنّه كان معروفا عند العرب في مكة وتهامة ونجد وغيرها، ولم أقف على ذلك في كلامهم. وحسبك أن لم يُذكر في القرآن إلّا في المدني، هنا وفي سورة الأحزاب. والذي يلوح لي أنّ أهل يثرب ابتدعوا هذه الصيغة للمبالغة في التحريم.

{ **مِنْكُمْ** } الخطاب يجوز أن يكون للمسلمين، فيكون ذكر هذا الوصف للتعميم بيانًا لمدلول الصلة من قوله تعالى { الَّذِينَ يَظْهَرُونَ } لئلَّا يُتوهَّم إرادة معيَّن بالصلة. و(من) بيانية كشأنها بعد الأسماء المبهمة، فعُلم أنّ هذا الحكم تشريع عام لكل مُظَاهِرٍ. وليس خصوصيّة لخولة ولا لأمثالها من النساء ذوات الخصاصة وكثرة الأولاد.

{ **مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ** } خبر عن { الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ }، أي: ليس أزواجهم أمّهات لهم. وهذا تمهيد لإبطال أثر صيغة الظهار في تحريم الزوجة، بما يشير إلى أنّ الأمومة حقيقية ثابتة لا تُصنع بالقول، إذ القول لا يبدّل حقائق الأشياء، كما قال تعالى { ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ } [الأحزاب:4]. أي: فالتحريم بالظهار أمر باطل لا يقتضيه سبب.

{ **إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ** } واقعة موقع التعليل لجملة { مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ }، وهو تعليل للمقصود من هذا الكلام. أعني: إبطال التحريم بلفظ الظهار، إذ كونهنّ غير أمهاتهم ضروري لا يحتاج إلى التعليل.

{ **وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً** } زيد صنيعهم ذمًّا توبيخًا لهم على صنيعهم، أي: هو مع كونه لا يوجب تحريم المرأة هو قول منكر، أي: قبيح لما فيه من تعريض حرمة الأم بتخيُّلات شنيعة تخطر بمخيلة السامع عندما يسمع قول المظاهر: أنت عليّ كظهر أمي.

{ **وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ** } كناية عن عدم مؤاخذتهم بما صدر منهم من الظهار قبل هذه الآية، إذ كان عذرهم أنّ ذلك قول تابعوا فيه أسلافهم وجرى على ألسنتهم دون تفكّر في مدلولاته.

وأمّا بعد نزول هذه الآية فمذهب المالكية: أنّ حكم إيقاعه الحرمة كما صرّح به ابن راشد القفصي في اللباب.

وقال ابن الفرس: هو حرام لا يحلّ إيقاعه.

وأقوال فقهاء الحنفية تدلّ على أنّ الظهار معصية، ولم يصفه أحد من المالكية ولا الحنفية بأنّه كبيرة.

العفوّ: كثير العفو، والعفو عدم المؤاخذة بالفعل، أي: عفوٌّ عن قولهم الذي هو منكر وزور.

الغفور: كثير الغفران، والغفران الصفح عن فاعل فعل من شأنه أن يعاقبه عليه. فذكْر وصف {غفور} بعد وصف (عفو) تتميم لتمجيد الله، إذ لا ذنب في المظاهرة حيث لم يسبق فيها نهي.

وتأكيد الخبر في قوله تعالى { وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ } لمشاكلة تأكيد مقابله في قوله تعالى { وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً }.

وقد أومأ قوله تعالى { وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ } إلى أنّ مراد الله في هذا الحكم التوسعة عل الناس، فعلمنا أنّ مقصد الشريعة الإسلامية أن تدور أحكام الظهار على محور التخفيف والتوسعة، فعلى هذا الاعتبار يجب أن يجري الفقهاء فيما يفتون. ولذلك لا ينبغي أن تُلاحظ فيه قاعدة الأخذ بالأحوط ولا قاعدة سدّ الذريعة، بل يجب أن نسير وراء ما أضاء لنا قوله تعالى { وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ }.

وقد قال مالك في (المدونة): " لا يُقَبِّل المظاهر ولا يُباشر ولا ينظر إلى صدر ولا إلى شعر ".

وقال الباجي في (المنتقى): فمن أصحابنا من حمل ذلك على التحريم ومنهم من حمله على الكراهية لئلا يدعوه إلى الجماع. وبه قال الشافعي وعبد الملك.

قلتُ: وهذا هو الوجه، لأنّ القرآن ذكر المسيس وهو حقيقة شرعية في الجماع.

والمقصود من هذه الآية إبطال تحريم المرأة التي يظاهر منها زوجها. وتحميق لأهل الجاهلية.

وجعل الله الكفارة فدية لذلك وزجرا ليكف الناس عن هذا القول. ومن هذا المعنى قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" من قال لصاحبه: تعال أقامرْك فليتصدق "**، أي: من جرى ذلك عن لسانه بعد أن حرّم الله الميسر.

{ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } [3].

عطف على جملة السابقة أعيد المبتدأ فيها للاهتمام بالحكم والتصريح بأصحابه، وكان مقتضى الكلام أن يقال: فإن يعودوا لما قالوا فتحرير رقبة.

{ **ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا** } عطف على جملة { يُظَاهِرُونَ }، و{ ثُمَّ } للتراخي الرتبي تعريضا بالتخطئة لهم إن عادوا إلى ما كانوا يفعلونه في الجاهلية بعد أن انقطع ذلك بالإسلام.

العَوْدُ: الرجوع إلى شيء تركه وفارقه صاحبه. وأصله: الرجوع إلى المكان الذي غادره، وهو هنا مجازي.

الظاهر من القول أنّهم يعودون لما نطقوا به من الظهار. وهذا يقتضي أنّ المظاهر لا يكون مظاهرا إلّا إذا صدر منه لفظ الظهار مرة ثانية بعد أولى، غير أنّ الحديث الصحيح في قضية المجادلة يدفع هذا الظاهر لأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لأوس بن الصامت: **" أعتق رقبة "**، كما سيأتي من حديث أبي داود، فتعيّن أنّ التكفير واجب على المظاهر من أوّل مرّة ينطلق فيها بلفظ الظهار.

فيكون المعنى: ثم يريدون العود إلى ما حرّموا على أنفسهم فعليهم كفّارة قبل أن يعودوا.

وتلك هي قضية سبب النزول لأنّ المرأة ما جاءت مجادلة إلّا لأنّها علمت أنّ زوجها المظاهر منها لم يرد فراقها، كما يدلّ عليه الحديث المروي في ذلك في كتاب أبي داود عن خُويلة بنت مالك بن ثعلبة قالت: " ظاهر مني زوجي أوس بن الصامت فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم أشكو إليه و رسول الله يجادلني ويقول: **" اتقي الله، فإنّه أبن عمّك ؟ "** فما برحت حتّى نزل القرآن. فقال: **" يعتق رقبة "**. قلت: لا يجد. قال:**" فيصوم شهرين متتابعين "**. قلت: إنّه شيخ كبير ما به من صيام. قال: **" فليطعم ستين مسكينا "**. قلت: ما عنده شيء يتصدّق به. فأُتِيَ ساعتئذ بعَرَق من تمر، قلت: يا رسول الله فإني أعينه بعرق آخر. قال: **" قد أحسنت اذهبي فأطعمي بهما عنه ستين مسكينا وارجعي إلى أبن عمك "**.

وفُهم من قوله تعالى { ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا } أنّ من لم يرد العود إلى امرأته لا يخلوا حاله:
فإمّا أن يريد طلاقها فله أن يوقع عليها طلاقا آخر لأنّ الله أبطل أن يكون الظهار طلاقا.
وإمّا أن لا يريد طلاقا ولا عودا. فهذا قد صار ممتنعا من معاشرة زوجه مُضِرًّا بها فله حكم الإيلاء الذي في قوله تعالى { لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ } [البقرة:226]. وقد كانوا يجعلون الظهار إيلاء كما في قصة سلمة بن صخر البياضي.
{ **فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا** } تحصل من هذا أنّ كفّارة الظهار شُرعت إذا قصد المظاهر الاستمرار على معاشرة زوجه، تحلة ما قصده من التحريم، وتأديبا له على هذا القصد الفاسد والقول الشنيع.
{ **مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا** } والكفَّارة قبل أن يمس زوجه مس استمتاع، وهو كناية عن الجماع في اصطلاح القرآن، كما في قوله تعالى { وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ } [البقرة:237].
{ **ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ** } اسم الإشارة عائد إلى تحرير رقبة.
الوعظ: التذكير بالخير والتحذير من الشر بترغيب أو ترهيب، أي: فرضُ الكفّارة تنبيه لكم لئلّا تعودوا إلى الظهار. ولم يسم الله ذلك كفّارة هنا وسمَّاها النبيّ صلى الله عليه وسلم كفّارة كما في حديث سلمة بن صخر البياضي في جامع الترمذي.
فالمظاهر ممنوع من الاستمتاع بزوجته المظاهر منها، أي: ممنوع من علائق الزوجية، وذلك يقتضي تعطيل العصمة ما لم يكفِّر لأنه ألزم نفسه ذلك، فإن استمتع بها قبل الكفّارة فليتب إلى الله وليستغفر وتتعين عليه الكفارة ولا تتعدَّد الكفارة بسبب الاستمتاع قبل التكفير، لأنّه سبب واحد فلا يضرّ تكرّر مسبّبه، وإنّما جُعلت الكفَّارة زجرا، ولذلك لم يكن وطأ المظاهر امرأته قبل الكفارة زنى.
وقد روى أبو داود والترمذي حديث سلمة بن صخر البياضي أنّه ظاهر من امرأته ثم وقع عليها قبل أن يكفِّر فأمره النبيّ صلى الله عليه وسلم بكفارة واحدة، وهو قول جمهور العلماء.
وتفاصيل أحكام الظهار في صيغته وغير ذلك مفصَّلة في كتب الفقه.
{ **وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** } تذييل لجملة { ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ }، أي: والله عليم بجميع ما تعملونه.

{ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [4].

{ **فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً** } رخصة لمن لم يجد عتق رقبة أن ينتقل إلى صيام شهرين متتابعين، لأنّه لمَّا لم يجد رقبة يعتاض بفكّها عن فك عصمة الزوجة نُقل إلى كفارةٍ فيها مشقّة النفس بالصبر على لذة الطعام والشراب، ليدفع ما التزمه بالظهار من مشقة الصبر على ابتعاد حليلته، فكان الصوم درجة ثانية قريبة من درجة تحرير

الرقبة في المناسبة.

{ **مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا** } أعيد القيد للدلالة على أنّه لا يكون المسّ إلّا بعد انقضاء الصيام فلا يظنّ أنّ مجرّد شروعه في الصيام كاف في العود إلى الاستمتاع.

وصريح الآية أنّ تتابع الصيام شرط في التكفير وعليه فلو أفطر في خلاله دون عذر وجب عليه إعادته.

ولا يمس امرأته حتّى يُتِمّ شهرين متتابعين، فإن مسّها في خلال الشهرين أثم ووجب عليه إعادتهما.

وقال الشافعي: إذا كان الوطء ليلا لم يبطل التتابع لأنّ الليل ليس محلا للصوم، وهذا هو الجاري على القياس وعلى مقتضى حديث سلمة بن صخر.

{ **فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ** } أي: لعجزه أو ضعفه رخَّص الله أن ينتقل إلى إطعام ستين مسكينا عوضا عن الصيام، فالإطعام درجة ثالثة يدفع عن ستين مسكينا ألم الجوع عوضا عما كان التزامه على نفسه من مشقة الابتعاد عن لذَّاته، وإنّما حُدِّدت بستين مسكينا إلحاقا لها بكفارة فطر يوم من رمضان عمدا بجامع أنّ كليهما كفارة عن صيام. فكانت الكفَّارة متناسبة مع المُكَفَّر عنه مرتبة ترتيبا مناسبا.

{ **فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً** } أُجمِل مقدار الطعام في الآية اكتفاء بتسميته إطعاما، فيُحمل على ما يقصده الناس من الطعام وهو الشبع الواحد، كما هو المتعارف في فعل طعم. فحمله علماؤنا على ما به شبع الجائع، فيقدَّر في كلّ قوم بحسب ما به شبع معتاد الجائعين.

ولم يذكر مع الإطعام قيد { مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا } اكتفاء بذكره مع تحرير الرقبة وصيام الشهرين ولأنّه بدل عن الصيام ومجزأ لمثل أيام الصيام. هذا قول جمهور الفقهاء.

ثُمّ إن وقع المسيس قبل الكفارة أو قبل إتمامها لم يترتب على ذلك إلّا أنّه آثم إذ لا يمكن أن يترتَّب عليه أثر آخر، وهذا ما بيَّنه حديث سلمة بن صخر الذي شكا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم أنَّه وقع على امرأته بعد أن ظاهر منها، فأمره بأن لا يعود إلى مثل ذلك حتّى يُكفِّر. وهذا قول جمهور الفقهاء.

المسكين: شديد الفقر، وتقدّم في [التوبة:60].

وقد أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بكفاّرة سلمة بن صخر من أموال بيت المال فحقّ على ولّاة الأمور أن يدفعوا عن العاجز كفّارة ظهاره فإن تعذّر ذلك فالظاهر أنّ الكفارة ساقطة عنه، وأنّه يعود إلى مسيس امرأته.

{ **ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ** } الإشارة إلى ما ذُكر من الأحكام. أي: لتؤمنوا إيمانا كاملا بالامتثال لما أمركم الله ورسوله فلا تشوبوا أعمال الإيمان بأعمال أهل الجاهلية. وهذا زيادة في تشنيع الظهار، وتحذير للمسلمين من إيقاعه فيما بعد. أو أنّ ذلك الخلاص من حرج الفراق بالكفارة لتيسير الإيمان عليكم، فهذا في معنى قوله تعالى { وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ } [الحج:78].

{ **وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ** } الإشارة إلى ما أشير إليه بـ { ذلك }، وجيء له باسم الإشارة التأنيث نظرا للإخبار عنه بلفظ { حُدُودُ }، ومثله قوله تعالى { تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا } [البقرة:229].

{ **وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ** } تتميم لجملة { ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ }، أي: ذلك الحكم، وهو إبطال التحريم بالظهار، حكم الإسلام. وأمّا ما كانوا عليه فهو من آثار الجاهلية فهو سنّة قوم لهم عذاب أليم على الكفر وما تولَّد منه من الأباطيل. فالظهار شرع الجاهلية ولم يكن من الحنيفية. وهذا كقوله تعالى { إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ } [التوبة:37].

{ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ } [5].

{ **إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** } لمّا جرى ذكر الكافرين وجرى ذكر حدود الله، وكان في المدينة منافقون من المشركين، نُقِل الكلام إلى تهديدهم وإيقاظ المسلمين للاحتراز منهم.

المحادّة: المشاقة والمعاداة، وقد أوثر هذا الفعل هنا لوقوع الكلام عقب ذكر حدود الله، فإن المحادَّة مشتقة من الحدِّ، لأنّ كلّ واحد من المتعادِيَيْن كأنّه في حدّ مخالف لحدّ الآخر.

الكبت: الخزي والإذلال وفعل { كُبِتُوا } مستعمل في الوعيد أي: سيُكْبتون، فعبَّر عنه بالماضي تنبيها على تحقيق وقوعه لصدوره عمّن لا خلاف في خبره مثل قوله تعالى { أَتَى أَمْرُ اللَّهِ } [النحل:1]، ولأنّه مؤيَّد بتنظيره بما وقع لأمثالهم { كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ }. وقرينة ذلك تأكيد الخبر بـ { إنَّ }، لأنّ الكلام لو كان إخبارا عن كبت وقع لم يكن ثَمَّ مقتضى لتأكيد الخبر، إذ لا ينازع أحد فيما وقع.

{ **وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ** } معترضة بين جملة { إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ } وجملة { وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ }، أي: لا عذر لهم في محادّتهم، فإنّ مع الرسول صلى الله عليه وسلم آيات القرآن بَيِّنَةٌ على صدقه.

{ **وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ** } عطف على جملة { كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ }، أي: لهم بعد الكبت عذاب مهين في الآخرة. وتعريف { لِلْكَافِرِينَ } تعريف الجنس ليستغرق كل الكافرين.

{ **مُهِينٌ** } لمناسبة وعيدهم بالكبت الذي هو الذل والإهانة.

{ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } [6].

{ **يَوْمَ** } يجوز أن يكون ظرفا متعلّقا بالكون المقدَّر في خبر المبتدأ من { لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ } [5]، ويجوز أن يكون متعلّقا بـ { مُهِينٌ }، ويجوز أن يكون منصوبا على المفعول به لفعل تقديره: اذكر، تنويهًا بذلك اليوم وتهويلا عليهم، وهذا كثير في أسماء الزمان التي وقعت في القرآن. وقد تقدّم في قوله

تعالى { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً } [البقرة:30]
{ **يَبْعَثُهُمُ** } ضمير الجمع عائد إلى { الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ / وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } [5]. ولذلك أُتِي بلفظ الشمول، وهو { **جَمِيعًا** }، حالا من الضمير.

{ **فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا** } تهديد بفضح نفاقهم يوم البعث. وفيه كناية عن الجزاء على أعمالهم.

{ **أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ** } في موضع الحال من { بِمَا عَمِلُوا }. والمقصود من الحال هو ما عطف عليه من قوله تعالى { وَنَسُوهُ } لأنّ ذلك محلُّ العبرة.

{ **وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** } تذييل. و**الشهيد**: العالم بالأمور المشاهدة.

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [7].

استئناف ابتدائي هو تخلُّص من قوله تعالى { أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ } [6]، إلى ذكر علم الله بأحوال المنافقين وأحلافهم اليهود. فكان المنافقون يناجي بعضهم بعضا ليُرِيَ للمسلمين مودة بعض المنافقين لبعض، فإنّ المنافقين بتناجيهم يظهرون أنّهم طائفة أَمْرُها واحد وكلمتها واحدة، وهم وإن كانوا يُظهرون الإسلام يحبُّون أن تكون لهم هيبة في قلوب المسلمين يتّقون بها بأسهم إن اتهموا بعضهم بالنفاق أو بدرت من أحدهم بادرة تنمّ بنفاقه، فلا يُقدم المؤمنون على أذاه لعلمهم بأنّ له بطانة تدافع عنه.

وكان المسلمون يومئذ على توقّع حرب مع المشركين في كل حين فيتوهّمون أن من مناجاة المتناجين حديث عن قرب العدو أو عن هزيمة للمسلمين في السرايا التي يخرجون فيها، فنزلت هذه الآيات لإشعار المنافقين بعلم الله بماذا يتناجون، وأنه مُطلع رسوله صلى الله عليه وسلم على دخيلتهم ليكفّوا عن الكيد للمسلمين.

فهذه الآية تمهيد لقوله تعالى { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى } [8].

{ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ** } من الرؤية العلمية لأنّ علم الله لا يُرى. والتقدير: ألم تر الله عالما.

{ **مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ** } يعمُّ المبصَرات والمسموعات، فهو أعمّ من قوله تعالى { وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } [6]، لاختصاصه بعلم المشاهدات، لأنّ الغرض المفتتح به هذه الجملة هو علم المسموعات.

{ **مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ** } إلى آخرها، بدل البعض من الكل، فإنّ معنى قوله تعالى {إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ}، وقوله تعالى { إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ } وقوله تعالى { إِلَّا هُوَ معهُمْ }، أنّه مطّلع على ما يتناجون فيه فكأنّه تعالى نَجِيٌّ معهم. أي: ما يكون تناجي ثلاثة من الناس إلّا الله مطلع عليهم كرابع لهم، ولا خمسة إلّا كسادس

لهم، ولا أدنى ولا أكثر إلّا هو كواحد منهم.

النجوى: أسم مصدر ناجاه، إذا سارَّه.

والمقصود من هذا الخبر الإنذار والوعيد، وتخصيص عددَي الثلاثة والخمسة بالذكر لأنّ بعض المتناجين الذين نزلت الآية بسببهم كانوا حلفا بعضها من ثلاثة وبعضها من خمسة.

{ **أَيْنَ مَا كَانُوا** } أي: في أيّ مكان كانوا فيه، ونظيره قوله تعالى { وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ } [الحديد:4].

{ **ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ** } { ثُمَّ } للتراخي الرتبي، لأنّ إنباءهم يوم القيامة بما تكلّموا وما عملوه في الدنيا أدلّ على سعة علم الله من علمه بحديثهم في الدنيا.

وفي هذا وعيد لهم بأنّ نجواهم إثم عظيم، وفيه تحذير من يشاركهم.

{ **إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** } تذييل لجملة { ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا } فأغنت { إِنَّ } غناء فاء السببية.

وتأكيد الجملة للاهتمام، وإلّا فإنّ المخاطَب لا يتردّد في ذلك. وهذا التعريض بالوعيد يدلّ على أنّ النهي عن التناجي كان سابقا على نزول هذه الآية والآيات بعدها.

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ } [8].

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ }.

إن كانت هذه الآية والآيتان اللتان بعدها نزلت مع الآية التي قبلها، حسبما يقتضيه ظاهر ترتيب التلاوة، كان قوله تعالى { نهُوا عَنِ النَّجْوَى } مؤذنا بأنّه سبق نَهْيٌ عن النجوى قبل نزول هذه الآيات. وهو ظاهر قول مجاهد وقتادة: نزلت في قوم من اليهود والمنافقين نهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التناجي بحضرة المؤمنين فلم ينتهوا فنزلت، فتكون الآيات الأربع نزلت لتوبيخهم، وهو ما اعتمدناه آنفا.

وإذا كانت نزلت بعد الآية التي قبلها بفترة كان المراد النهي الذي أشار إليه قوله تعالى { ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ } [7]. فيكون المراد بـ { الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى } الذين عُنوا بقوله تعالى { مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ } [7].

{ **أَلَمْ تَرَ** } الاستفهام تعجيبي مراد به توبيخهم حين يسمعونه. والرؤية بصرية بقرينة تعديتها بحرف (إلى).

{ **النَّجْوَى** } تعريف العهد لأنّ سياق الكلام في نوع خاص من النجوى. وهي النجوى التي تحزن الذين آمنوا كما ينبئ عنه قوله تعالى { إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا } [10].

ويجوز أن يكون النهي عن جنس النجوى في أوّل الأمر يعمّ كلّ نجوى بمرأى من الناس سدًّا للذريعة.

قال الباجي في (المنتقى): " روي أنّ النهي عن تناجي اثنين أو أكثر دون واحد أنّه كان في بدء الإسلام فلمّا فشا الإسلام وآمن الناس زال هذا الحكم لزوال سببه ".

وفي الموطأ حديثٌ أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " **إذا كان ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون واحد**".

زاد في رواية مسلم: " **إلّا بإذنه فإنّ ذلك يُحزنه** ".

وأُلحِق بالتناجي أن يتكلّم رجلان بلغة لا يعرفها ثالث معهما.

{ **ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ** } { ثُمَّ } للتراخي الرتبي لأنّ عودتهم إلى النجوى بعد أن نهوا عنه أعظم من ابتداء النجوى لأنّ ابتداءها كان إثما لما اشتملت عليه نجواهم من نوايا سيّئة نحو النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين فأمّا عودتهم إلى النجوى بعد أن نُهوا عنها فقد زادوا به تمرُّدا على النبيّ صلى الله عليه وسلم ومشاقّة للمسلمين.

{ **يَعُودُونَ** } صيغة المضارع دالة على التجدّد، أي: يُكرِّرون الفعل بحيث يريدون بذلك العصيان وقلّة الاكتراث بالنهي.

{ **لِمَا نُهُوا عَنْهُ** } عُدِل عن الإتيان بضمير النجوى إلى الموصول وصلته لما تؤذن به الصلة من التعليل لما بعدها من الوعيد بقوله تعالى { حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ }، على ما في الصلّة من التسجيل على سفههم.

{ **وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ** } قرأ الجمهور { يَتَنَاجَوْنَ } بصيغة التفاعل من ناجى المزيد.

الإثم: المعصية، وهو ما يشتمل عليه تناجيهم من كلام الكفر وذمّ المسلمين.

{ **العُدوان** } (بضمّ العين) الظلم وهو ما يدبّرونه من الكيد للمسلمين.

معصية الرسول: مخالفة ما يأمرهم به، ومن جملة ذلك أنّه نهاهم عن النجوى. وفي ذلك دلالة على أنّهم منافقون لا يهود، لأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ما كان ينهى اليهود عن أحوالهم. وهذا يردُّ قول من تأوّل الآية على اليهود وهو قول مجاهد وقتادة، بل الحقّ ما في ابن عطية عن ابن عباس أنّها نزلت في المنافقين.

{ وإِذَا جاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ }

بعد أن ذكر حالهم في اختلاء بعضهم ببعض ذكر حال نيّاتهم الخبيثة عند الحضور في مجلس النبيّ صلى الله عليه وسلم، فكانوا إذا دخلوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم يُخفتون لفظ (السلام عليكم) لأنّه شعار الإسلام ولما فيه من معنى السلامة يعدلون عن ذلك ويقولون: (أنعِم صباحا)، وهي تحية العرب في الجاهلية. نقله ابن عطية عن ابن عباس.

{ **بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ** } أي: بغير لفظ السلام، فإن الله حيَّاه بذلك بخصوصه في قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً } [الأحزاب:56]. وحيّاه به في عموم الأنبياء بقوله تعالى { قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى } [النمل: 59]، وتحية الله هي التحيّة الكاملة.

وليس المراد من هذه الآية ما ورد في حديث: " أن اليهود كانوا إذا حيّوا النبيّ صلى الله عليه وسلم قالوا: السامُ عليك، وأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يرد عليهم بقوله: " **وعليكم** ". فإنّ ذلك وارد في قوم معروف أنّهم من اليهود. وما ذكر أول هذه الآية لا يليق حمله على أحوال اليهود، كما علمت آنفا، ولو حمل ضمير { جَاءُوكَ } على اليهود لزم عليه تشتيت الضمائر.

فهذه الآية في أحوال المنافقين، وهذا مثل ما كان بعضهم يقول للنبيّ صلى الله عليه وسلم { رَاعِنَا } [البقرة:104]، تعلَّموها من اليهود وهم يريدون التوجيه بالرعونة، فأنزل الله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [البقرة:104]، ولم يُرد منه نهي اليهود.

{ **يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ** } يقول بعضهم لبعض، نحو قوله تعالى { ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً } [النور:12]. ويجوز أن يكون المراد في مجامعهم.

{ **لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ** } أي: هَلَّا يُعذّبنا الله بسبب كلامنا الذي نتناجى به، أي: يقولون ما معناه لو كان محمدا نبيًّا لعذبنا الله بما نقوله من السوء فيه ومن الذمّ. فإنّ { لولا } للتحضيض مستعملة هنا كناية عن جحد نبوّة النبيّ صلى الله عليه وسلم، أي: لو كان نبيًّا لغضب الله علينا فلعذّبنا الآن بسبب قولنا له.

وهذا خاطر من خواطر أهل الضلالة المتأصّلة فيهم، وهي توهّمهم أنّ شأن الله تعالى كشأن البشر في إسراع الانتقام والاهتزاز ممّا لا يرضاه من المعاندة. وفي الحديث " **لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله، يدعون له ندًّا وهو يرزقهم** ".

على أنّهم لجحودهم بالبعث والجزاء يحسبون أنّ عقاب الله تعالى يظهر في الدنيا. وهذا من الغرور، قال تعالى { وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ } [فصلت:23]، ولذلك قال تعالى ردًّا على كلامهم:

{ **حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ** } أي: كافيهم من العذاب جهنم فإنّها العذاب.

{ **يَصْلَوْنَهَا** } أصلها: يصلون بها، فضُمِّن معنى يذوقونها أو يحسّونها، وقد تكرّر هذا الاستعمال في القرآن.

{ **فَبِئْسَ الْمَصِيرُ** } تفريع على الوعيد بشأن ذم جهنم.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } [9].

استئناف ابتدائي، خطاب للمنافقين الذين يُظهرون الإيمان فعاملهم الله بما أظهروه وناداهم بوصف

الإيمان، كما قال تعالى { مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُم } [المائدة:41]. نبّههم إلى تدارك حالهم بالإقلاع عن آثار النفاق، على عادة القرآن من تعقيب التخويف بالترغيب.

ذلك أنّ المنافقين كانوا يعملون بعمل أهل الإيمان إذا لقوا الذين آمنوا فإذا رجعوا إلى قومهم غلب عليهم الكفر فكانوا في بعض أحوالهم مقاربين الإيمان بسبب مخالطتهم للمؤمنين. ولذلك ضرب الله لهم مثلا بالنور في قوله تعالى { كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا } [البقرة:20]. وهذا هو المناسب لقوله تعالى { فَلا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ } ، ويكون قوله تعالى { وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ } تنبيها على ما يجب عليهم إن كانوا متناجين لا محالة.

<u>ويجوز أن تكون خطابا للمؤمنين الخُلَّص</u> بأن وجَّه الله الخطاب إليهم تعليما لهم بما يحسُن من التناجي وما يقبح منه بمناسبة ذمّ تناجي المنافقين، فلذلك ابتدئ بالنهي عن مثل تناجي المنافقين، وإن كان لا يصدر مثله من المؤمنين، تعريضا بالمنافقين، مثل قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزّىً لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا } [آل عمران: 156]، ويكون المقصود من الكلام هو قوله تعالى { وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى } تعليما للمؤمنين.

{ **إِذَا تَنَاجَيْتُمْ** } يشير التقييد إلى أنّه لا ينبغي التناجي مطلقا ولكنّهم لمّا اعتادوا التناجي حُذِّروا من غوائله، وإلّا فإن التقييد مستغنى عنه بقوله { فَلا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ } وهذا مثل ما وقع في حديث النهي عن الجلوس في الطرقات من قوله صلى الله عليه سلم: **" فإن كنتم فاعلين لا محالة فاحفظوا حقّ الطرقات "**.

{ **فَلا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ** } الإثم والعدوان ومعصية الرسول تقدّمت [8].

{ **وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** } الأمر هنا مستعمل في الإباحة كما اقتضاه قوله تعالى { إِذَا تَنَاجَيْتُمْ }.

البرّ: ضد الإثم والعدوان، وهو يعم أفعال الخير المأمور بها في الدين.

{ **التَّقْوَى** } الامتثال، وتقدّمت في قوله تعالى { هُدىً لِلْمُتَّقِينَ } [البقرة:2].

{ **الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** } تذكير بيوم الجزاء. فالمعنى: الذي إليه تحشرون فيجازيكم.

{ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } [10].

تسلية للمؤمنين وتأنيس لنفوسهم يُزَال به ما يلحقهم من الحزن لمشاهدة نجوى المنافقين. فالجملة استئناف ابتدائي اقتضته مناسبة النهي عن النجوى، على أنّها قد تكون تعليلا لتأكيد النهي عن النجوى.

{ **النَّجْوَى** } تعريف العهد لا محالة. أي: نجوى المنافقين الذين يتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول صلى الله عليه وسلم.

{ **إِنَّمَا** } قصر موصوف على صفة و { من } ابتدائية، أي: قصر النجوى على الكون من الشيطان، لأنّ الأغراض التي يتناجون فيها من أكبر ما يوسوس الشيطان لأهل الضلالة بأن يفعلوه ليحزن الذين آمنوا بما يتطرَّقهم من خواطر الشر بالنجوى، وهذه العلّة ليست قيدا في الحصر فإنّ للشيطان عللا أخرى مثل إلقاء المتناجين في الضلالة، والاستعانة بهم على إلقاء الفتنة، وغير ذلك من الأغراض الشيطانية.

وقد خُصَّت هذه العلة بالذكر لأنّ المقصود تسلية المؤمنين وتصبُّرهم على أذى المنافقين، ولذلك عُقِّب بقوله تعالى { وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً } ليطمئن المؤمنون بحفظ الله إيّاهم من ضرّ الشيطان. وهذا نحو قوله تعالى { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ } [الحجر:42].

{ **لِيَحْزُنَ** } قرأ نافع وحده { لِيُحْزِنَ } (بضم الياء وكسر الزاي) فيكون { الَّذِينَ آمَنُوا } مفعولا. وقرأه الباقون (بفتح الياء وضم الزاي) مضارع حزن، فيكون { الَّذِينَ آمَنُوا } فاعلا.

{ **وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ** } معترضة. وضمير الرفع المستتر في قوله تعالى { بِضَارِّهِمْ } عائد إلى { الشيطان }. والمعنى: أنّ الشيطان لا يضرُّ المؤمنين بالنجوى أكثر من أن يحزنهم. فهذا كقوله تعالى { لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً } [آل عمران:111].

أو يكون الضمير عائدا إلى النجوى بتأويله بالتناجي، أي: ليس التناجي بضار المؤمنين لأنّ أكثره ناشئ عن إيهام حصول ما يتّقونه في الغزوات.

{ **شَيْئًا** } انتصب على المفعول المطلق، أي: شيئا من الضرّ. ووقوعه في سياق النفي يفيد عموم نفي كلّ ضرّ من الشيطان. ويجوز أن يكون عموم { شَيْئًا } مرادا به الخصوص، أي: ليس بِضَارِّهِمْ شيئا مما يوهمه تناجي المنافقين. والمعنى: أنّ التناجي يوهم الذين آمنوا ما ليس واقعا فأعلمهم الله أنّ لا يحزنوا بالنجوى لأنّ الأمور تجري على ما قدره الله.

{ **إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ** } الاستثناء من عموم { شَيْئًا } الواقع في سياق النفي، أي: إلَّا ضرا ملابسا لإذن الله في أن يُسلّط عليهم الشيطان ضرّه فيه، أي: ضر وسوسته.

وأستعير الإذن لما جعله الله في أصل الخلقة من تأثر النفوس بما يُسوِّل إليها. وهو معنى قوله تعالى { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ } [الحجر:42] فإذا خلَّى الله بين الوسوسة وبين العبد يكون اقتراب العبد من المعاصي الظاهرة والباطنة في كل حالة يبتعد فيها المؤمن عن مراقبة الأمر والنهي الشرعيين، ولهذا ذُيِّل بقوله تعالى

{ **وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** } لأنّهم إذا توكَّلوا على الله توكلا حقا بأن استفرغوا وسعهم في التحرز من كيد الشيطان واستعانوا بالله على تيسير ذلك لهم فإنّ الله يحفظهم من كيد الشيطان، قال تعالى { وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ } [الطلاق:3]. وتقديم الجار والمجرور للاهتمام بمدلول هذا المتعلّق.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } [11].

فُصِل بين آيات الأحكام المتعلّقة بالنجوى بهذه الآية مراعاة لاتحاد الموضوع بين مضمون هذه الآية ومضمون التي بعدها في أنّهما يجمعهما غرض التأدّب مع الرسول صلى الله عليه وسلم، وتلك المراعاةُ أَوْلَى من مراعاة اتحاد سياق الأحكام.

ففي هذه الآية أدب في مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم، والآية التي بعدها تتعلق بالأدب في مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وأُخِّرت تلك عن آيات النجوى العامة إيذانا بفضلها دون النجوى التي تضمنتها الآيات السابقة، فاتحاد الجنس في النجوى هو مسوغ الانتقال من النوع الأوّل إلى النوع الثاني، والإيماء إلى تميُّزها بالفضل هو الذي اقتضى الفصل بين النوعين بآية أدب المجلس النبوي.

وأيضا قد كان للمنافقين نيّة مكر في قضية المجلس كما كان لهم نيّة مكر في النجوى، وهذا ممَّا أنشأ مناسبة الانتقال من الكلام على النجوى إلى ذكر التفسُّح في المجلس النبوي الشريف.

روي عن مقاتل أنّه قال: كان النبيّ صلى الله عليه وسلم في الصُّفَّة، وكان في المكان ضيق في يوم الجمعة فجاء ناس من أهل بدر فيهم ثابت بن قيس بن شماس قد سُبِقوا في المجلس فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يُفسح لهم، وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يكرم أهل بدر، فقال لمن حوله: هُمَّ يا فلان [أي: قم]، بعدد الواقفين من أهل بدر، فشقّ ذلك على الذين أقيموا، وغمز المنافقون وقالوا: ما أنصف هؤلاء، وقد أحبُّوا القرب من نبييهم فسبقوا إلى مجلسه، فانزل الله هذه الآية تطييبا لخاطر الذين أقيموا، وتعليما للأمّة بواجب رعي فضيلة أصحاب الفضيلة منها، وواجب الاعتراف بمزيّة أهل المزايا، قال تعالى { وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ } [النساء:32]، وقال تعالى { لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى } [الحديد:10].

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } خطاب لجميع المؤمنين يعمّ من حضروا المجلس الذي وقعت فيه حادثة سبب النزول وغيرهم ممَّن عسى أن يحضر مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم.

{ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ } ابتدئت الآية بالأمر بالتفسّح، لأنّ إقامة الذين أقيموا إنّما كانت لطلب التفسيح، فإناطة الحكم إيماء إلى علّة الحكم.

{ إِذَا قِيلَ لَكُمْ } حذف فاعل القول لظهوره، أي: إذ قال لكم الرسول تفسَّحوا فافسحوا.

التفسّح: التوسّع وهو تفعُّل من فسَحَ له (بفتح السين مخففة) إذ أوجد له فسحة في مكان، وفَسُحَ المكان، من باب كرُم، إذ صار فسيحا.

{ الْمَجَالِسِ } التعريف يجوز أن يكون تعريف العهد، وهو مجلس النبيّ صلى الله عليه وسلم.

أي: إذ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لكم ذلك، لأن أمره لا يكون إلّا لمراعاة حق راجح إلى غيره.

المجلس: مكان الجلوس. وكان مجلس النبيّ صلى الله عليه وسلم بمسجده والأكثر أن يكون جلوسه بالمكان المسمَّى بـ (الروضة) وهو ما بين منبر النبيّ صلى الله عليه وسلم وبيته.

ويجوز أن يكون التعريف تعريف الجنس.

{ **يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ** } مجزوم في جواب قوله تعالى { فَافْسَحُوا }، وهو وعد بالجزاء على الامتثال لأمر التفسّح من جنس الفعل إذ جعلت توسعة الله على الممتثل جزاء على امتثاله الذي هو إفساحه لغيره.

وحُذف متعلّق { يفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ } ليعمّ كلّ ما يتطلّب الناس الإفساح فيه، بحقيقته ومجازه، في الدنيا والآخرة؛ من مكان أو رزق أو جنة عرضها السماوات والأرض، على حسب النيّات.

والآية لا تدلّ إلّا على الأمر بالتفسّح إذ أمر به النبيّ صلى الله عليه وسلم ولكن يُستفاد منها أنّ تفسّح المؤمنين بعضهم لبعض في المجالس محمود مأمور به وجوبا أو ندبا لأنه من المكارمة والإرفاق. فهو من مكمّلات واجب التَّحاب بين المسلمين. وإن كان فيه كلفة على صاحب البقعة يضايقه فيها غيره، فهي كلفة غير معتبرة إذا قوبلت بمصلحة التَّحاب وفوائده، وذلك ما لم يُفْضِ إلى شدّة مضايقة أو مضرّة أو إلى تفويت مصلحة من سماع أو نحوه مثل مجالس العلم و الحديث وصفوف الصلاة.

وروي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **أحبكم إليَّ ألينكم مناكب في الصلاة** ". قال مالك ما أرى الحكم إلّا يطّرد في مجالس العلم ونحوها غابر الدهر.

وأَفْهَمَ لفظُ التفسّح أنّه تجنّبٌ للمضايقة والمراصَّة بحيث يفوت المقصود من حضور ذلك المجلس أو يحصل ألم للجالسين. وقد أرخص مالك في التخلّف عن دعوة الوليمة إذ كثر الزحام فيها.

{ **وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا** } الآية عطف على { إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ }.

{ **انْشُزُوا** } أمر من نشز إذا نهض من مكانه، يقال: نَشَزَ ينشُز إذا ارتفع، لأنّ النهوض ارتفاع من المكان الذي استقرّ فيه. ومنه نشوز المرأة من زوجها مجازا عن بُعدها عن مضجعها.

والنشوز أخص من التفسيح من وجه، فهو من عطف الأخصّ من وجه على الأعمّ منه للاهتمام بالمعطوف، لأنّ القيام من المجلس أقوى من التفسيح مع القعود. فذُكر النشوز لئلّا يُتوهم وأنّ التفسيح المأمور به تفسيح من قعود، لا سيما وقد كان سبب النزول الأمر بالنشوز.

ومن المفسرين من فسر النشوز بمطلق القيام من مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم سواء كان لأجل التفسيح أو لغير ذلك ممّا يُؤمر بالقيام لأجله. روي عن ابن عباس وقتادة والحسن: " إذا قيل انشزوا إلى الخير وإلى الصلاة فانشزوا ".

{ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** } جواب الأمر في قوله { فَانْشُزُوا }. وعد بالجزاء على الامتثال للأمر الشرعي. ولمّا كان النشوز ارتفاعا عن المكان الذي كان به كان جزاؤه من جنسه.

{ **الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ** } ضمير خطاب للذين نودوا بـ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا }. و(من) تبعيضية. أي: يرفع الله درجات الذين امتثلوا. والتقدير: يرفع الله الذين استجابوا للأمر بالنشوز إذا كانوا من المؤمنين، أي: دون من يضمّه المجلس من المنافقين. وكان مقتضى الظاهر أن يقال: يرفع الله الناشزين منكم فاستُحضروا بالموصول بصلة الإيمان لما تؤذن به الصلة من الإيماء إلى علّة رفع الدرجات لأجل امتثالهم أمر القائل { انشزوا }، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم، أن كان لإيمانهم.

{ **وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ** } عطف الخاص على العام لأنّ غشيان مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم إنّما هو لطلب العلم من مواعظه وتعليمه، أي: والذين أوتوا العلم منكم أيّها المؤمنون، فإقامة الجالسين في المجلس لأجل إجلاس الذين أوتوا العلم من رفع درجاتهم في الدنيا. ولعلّ البدريين الذين نزلت الآية بسبب قصتهم كانوا من الصحابة الذين أوتوا العلم.

<u>ويجوز</u> أنّ بعضا من الذين أمروا بالقيام كان من أهل العلم فأقيم لأجل رجحان فضيلة البدريين عليه، فيكون في الوعد للذي أقيم من مكانه برفع الدرجات استئناس له بأن الله رافع درجته.

<u>وقال عبد الله بن مسعود</u> وجماعة من أهل التفسير: إنّ قوله تعالى { الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ } كلام مستأنف وتم الكلام عند قوله { منكم }. قال ابن عطية: ونصب { دَرَجَاتٍ } بفعل مضمر هو الخبر عن المبتدأ، والتقدير: جعلهم.

{ **دَرَجَاتٍ** } التنكير للإشارة إلى أنواعها من درجات الدنيا ودرجات الآخرة. والدرجات مستعارة للكرامة.

{ **وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** } تذييل، أي: الله عليم بأعمالكم ومختلف نيّاتكم من الامتثال. كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" لا يُكْلَمُ أحد في سبيل الله والله أعلم بمن يُكْلَمُ في سبيله "**.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [12].

استئناف ابتدائي عاد به إلى ذكر بعض أحوال النجوى وهو من أحوالها المحمودة. والمناسبة هي قوله تعالى { وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى } [9]. فهذه الصدقة شرعها الله تعالى وجعل سببها مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم، فذُكرت عقب آي النجوى لاستيفاء أنواع النجوى من محمود ومذموم.

وقد اختلف المتقدِّمون في سبب نزول هذه الآية، وحكمة مشروعية صدقة المناجاة. فنُقلت عن أبن عباس وقتادة وجابر بن زيد وزيد بن أسلم ومُقاتل أقوال في سبب نزولها متخالفة، ولا أحسبهم يريدون منها إلّا حكاية أحوال للنجوى كانت شائعة. وأمسك مجاهد فلم يذكر لهذه الآية سببا.

<u>وكانت عبارات الأقدمين تجري على التسامح فيطلقون على أمثلة الأحكام وجزئيّات الكليات اسم أسباب النزول</u>، كما ذكرناها في المقدّمة الخامسة من مقدِّمات هذا التفسير.

والذي يظهر لي: أنّ هذه الصدقة شرعها الله وفرضها على من يجد ما يتصدّق به قبل مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم وأسقطها عن الذين لا يجدون ما يتصدَّقون به. وجعل سببها ووقتها هو وقت توجُّههم إلى مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان المسلمون حريصين على سؤال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أمور الدين كل يوم فشرع الله لهم هذه الصدقة كل يوم لنفع الفقراء نفعا يوميا، وكان الفقراء أيامئذ كثيرين بالمدينة منهم أهل الصُّفَّة ومعظم المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم.

والأظهر أنّ هذه الصدقة شُرعت بعد الزكاة فتكون لحكمة إغناء الفقراء يومًا فيومًا، لأنّ الزكاة تُدفع في رؤوس السنين وفي مُعيَّن الفصول فلعل ما يصل إلى الفقراء منها يستنفدونه قبل حلول وقت الزكاة القابلة.

{ **نَاجَيْتُمُ** } مستعمل في معنى إرادة الفعل.

{ **بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ** } معناه: قبل نجواكم بقليل، وهي استعارة تمثيلية جرت مجرى المثل للقرب من الشيء قبيل الوصول إليه. تشبيه معقول بمحسوس. ويستعمل في قرب الزمان بتشبيه الزمان بالمكان، كما هنا.

{ **ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ** } الإشارة إلى التقديم المفهوم من { فَقَدِّمُوا }. تعريف بحكمة الأمر بالصدقة قبل نجوى الرسول صلى الله عليه وسلم ليرغب فيها الراغبون.

{ **خَيْرٌ** } يجوز أن يكون اسم تفضيل، أصله: أخير، أي: ذلك أشد خَيْرِيَّة لكم من أن تناجوا الرسول صلى الله عليه وسلم بدون تقديم صدقة، وإن كان في كلٍّ خير. كقوله تعالى { وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ } [البقرة:271].

ويجوز أن يكون اسما مقابل الشرّ، أي: تقديم الصدقة قبل النجوى فيه خير لكم، وهو تحصيل رضى الله تعالى في حين إقبالهم على رسوله صلى الله عليه وسلم فيحصل من الانتفاع بالمناجاة ما لا يحصل مثله بدون تقديم الصدقة.

{ **أَطْهَرُ** } اسم تفضيل، أي: أشدّ طهرا، والطهر هنا معنوي، وهو طهر النفس وزكاؤها، لأنّ المتصدّق تتوجّه إليه أنوار ربانية من رضى الله عنه فتكون نفسه زكية. قال تعالى { تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا } [التوبة:103]. ومنه سُمِّيت الصدقة زكاة.

وصفة هذه الصدقة أنّها كانت تُعطى للفقير حين يعمد المسلم إلى الذهاب إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ليناجيه.

{ **فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } إعذار للعاجزين، أي: فإن لم تجدوا ما تتصدّقون به قبل النجوى غفر الله لكم المغفرة التي كانت تحصل لكم لو تصدّقتم، لأنّ من نوى أن يفعل الخير وعجز كان له أجر على نيّته.

{ **أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** } [13].

الخطاب لطائفة من المؤمنين قادرين على تقديم الصدقة قبل المناجاة وشق عليهم ذلك أو ثقل.

قال المفسِّرون: إنّ هذه الآية ناسخة للتي قبلها، أسقطت وجوب تقديم الصدقة لمن يريد مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وروي ذلك عن ابن عباس، واستبعده ابن عطية.

{ **أَأَشْفَقْتُمْ** } الاستفهام مستعمل في اللوم على تجهُّم تلك الصدقة مع ما فيها من فوائد لنفع الفقراء. وقد عُلم من الاستفهام التوبيخي أنّ بعضًا لم يفعل ذلك.

الإشفاق: توقّع حصول ما لا يبتغيه، والمفعول هو { أَنْ تُقَدِّمُوا }، أي: من أن تقدِّموا، أي: أأشفقتم عاقبة ذلك.

{ **فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ** } تجاوز وتخفيف.

{ **فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا** } الـ (فاء) لتفريع ما بعدها على الاستفهام التوبيخي. و(إذا) ظرفية مفيدة للتعليل، أي: فحين لم تفعلوا فأقيموا الصلاة. وما تتعلق به (إذ) محذوف دلّ عليه قوله تعالى { وتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ }، تقديره: خفَّفنا عنكم وأعفيناكم من أن تقدِّموا صدقة قبل مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم.

{ **وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ** } معترضة.

{ **فأَقِيمُوا الصَّلاةَ** } الـ (فاء) عاطفة على كلام مقدّر: وحافظوا على التكاليف الأخرى وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله. أي: فذلك لا تسامح فيه. قيل لهم ذلك لئلَّا يحسبوا أنّهم كلَّما ثقُل عليهم فعل ما كُلِّفوا به يُعفوْن منه.

{ **وَآتُوا الزَّكَاةَ** } وإذ قد كانت الزكاة المفروضة سابقة على الأمر بصدقة النجوى، على الأصحّ، كان الأمر مستعملا في طلب الدوام مثل فعل { فَأَقِيمُوا }.

{ **وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** } تذييل لجملة { فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ }، وهو كناية عن التحذير من التفريط في طاعة الله ورسوله.

{ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ [14] أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [15]** }.

مستأنفة استئنافا ابتدائيا لأنّها عود إلى الغرض الذي سيقت فيه آيات { إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ } [5]، بعد أن فُصل بمستطردات كثيرة بعده. وهذه حالة أخرى من أحوال أهل النفاق، هي تولّيهم اليهود مع أنّهم ليسوا من أهل ملّتهم، لأنّ المنافقين من أهل الشرك.

{ **أَلَمْ تَرَ** } الاستفهام تعجبي، مثل قوله تعالى { أَتَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى } [8]. ووجه التعجيب من

حالهم أنّهم تولَّوا قوما من غير جنسهم وليسوا في دينهم، ما حملهم على تولِّيهم إلا اشتراك الفريقين في عداوة الإسلام والمسلمين.

{ **قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ** } هم اليهود وقد عُرفوا بما يرادف هذا الوصف في القرآن في قوله تعالى { غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ } [الفاتحة:7].

{ **مَا هُمْ** } الضمير يحتمل أن يعود إلى { الَّذِينَ تَوَلَّوْا } وهم المنافقون، فتكون جملة { مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلا مِنْهُمْ } حالا من { الَّذِينَ تَوَلَّوْا }، أي: ما هم مسلمين ولا يهود. ويجوز أن يعود الضمير إلى { قَوْمًا }، أي: قوما ليسوا مسلمين ولا مشركين بل هم يهود.

{ **وَلَا مِنْهُمْ** } وكذلك الضمير هنا يحتمل الأمرين على التعاكس، وكلا الاحتمالين واقعٌ ومرادٌ على طريقة الكلام الموجَّه، تكثيرا للمعاني مع الإيجاز، فيفيد التعجُّب من حال المنافقين أن يتولَّوا قوما أجانب عنهم.

{ **وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ** } عطف على { تَوَلَّوْا }، وجيء به مضارعا للدلالة على تجدُّده، ولاستحضار الحالة العجيبة في حين حلفهم على الكذب للتنصَّل ممَّا فعلوه.

الكذب: هي الأخبار التي يخبرون بها عن أنفسهم في نفي ما يصدر منهم في جانب المسلمين.

{ **وَهُمْ يَعْلَمُونَ** } في موضع الحال، وذلك أدخل في التعجيب لأنّه أشنع من الحلف على الكذب لعدم التثبُّت في المحلوف عليه.

أشار هذا إلى ما كان يحلفه المنافقون للنبيّ صلى الله عليه وسلم وللمسلمين إذا كُشفت بعض مكائدهم، ومن ذلك قول الله تعالى فيهم { وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ } [التوبة:56]، وقوله تعالى { يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ } [التوبة:62]، وقوله تعالى { يحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ } [التوبة:74].

قال السُدّي ومُقاتل: نزلت في (عبد الله بن أُبَي) و(عبد الله بن نبتل) كان أحدهما، وهو عبد الله بن نبتل، يجالس النبيّ صلى الله عليه وسلم، ويرفع أخباره إلى اليهود ويسبّ النبيّ صلى الله عليه وسلم فإذا بلغه خبره أو اطلعه الله عليه جاء فاعتذر وأقسم أنّه ما فعل.

{ **إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } تعليل لإعداد العذاب لهم، أي: أنّهم عملوا فيما مضى أعمالا سيّئة متطاولة متكرِّرة، كما يؤذن بها المضارع من قوله تعالى { يَعْمَلُونَ }.

{ **يَعْلَمُونَ / يَعْمَلُونَ** } بينهما الجناس المقلوب قَلْب بعض.

{ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ } [16].

مستأنفة استئنافا بيانيًّا عن جملة { وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } [14]، لأنّ ذلك يثير سؤال سائل أن يقول ما ألجأهم إلى الحلف على الكذب، فأجيب بأنّ ذلك لقضاء مآربهم وزيادة مكرهم.

ويجوز أن تُجعل الجملة خبرا ثانيا، وتكون داخلة في التعليل.

الجُنَّة: الوقاية والسترة، من جنَّ، إذا أستتر. أي: وقاية من شعور المسلمين بهم ليتمكّنوا من صد كثير ممن يريد الدخول في الإسلام عن الدخول فيه لأنّهم يختلقون أكذوبات ينسبونها إلى الإسلام، وذلك معنى التفريع بالفاء في قوله تعالى { فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ الله }.

{ **فَصَدُّوا** } يجوز أن يكون متعدّيا، وحذف مفعوله لظهوره، أي: فصدوا الناس عن الإسلام بالتثبيط وإلصاق التهم والنقائص بالدين. ويجوز أن يكون الفعل قاصرا، أي: فصدّوا هم عن سبيل الله.

{ **فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ** } تفريع، ليُعلم أنَّ ما اتخذوا من إيمانهم جُنَّة سبب من أسباب العذاب.

وقد وُصف العذاب أوّل مرة بشديد، { أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً } [15]، وهو الذي يجازون به على تولِّيهم قوما غضب الله عليهم وحلفهم على الكذب، ووصف هنا بـ { مُهِينٌ } لأنّه جزاء على صدِّهم الناس عن سبيل الله. وهذا معنى شديد العذاب لأجل عظيم الجرم، كقوله تعالى { الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ } [النمل:88]. وهو عذاب واحد فيه الوصفان. وكُرِّر ذكره إبلاغا في الإنذار والوعيد، فإنّه مقام تكرير، مع تحسينه باختلاف الوصفين.

{ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [17].

مناسب لقوله تعالى { اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً } [16]، فكما لم تَقِهِمْ أيمانهم العذابَ لم تُغْنِ عنهم أموالُهم ولا أنصارُهم شيئا يوم القيامة.

وكان المنافقون من أهل الثراء بالمدينة، وكان ثراؤهم من أسباب إعراضهم عن قبول الإسلام لأنّهم كانوا أهل سيادة فلم يرضوا أن يصيروا في طبقة عموم الناس. فكانوا يفخرون على المسلمين بوفرة الأموال وكثرة العشائر وذلك في السنة الأولى من الهجرة. وكان عبد الله بن أُبَي بن سلول مهيَّأ لأن يملِّكوه على المدينة قبيل إسلام الأنصار، ومن أقوله الشاهدة على نفاقه { لَئِن رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ } [المنافقون:8]، يريد بالأعز فريقه وبالأذل فريق المسلمين.

فآذنهم الله بأنّ أموالهم وأولادهم لا تغنى عنهم ممّا توعَّدهم الله به من المذلّة في الدنيا والعذاب في الآخرة، قال تعالى { لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً } [الأحزاب:60]. وإذ لم تغن عنهم من الله في الدنيا فإنّها أجدر بأن لا تغني عنهم من عذاب الآخرة شيئا.

{ **مِنَ اللَّهِ شَيْئًا** } أي: من بأس الله أو من عذابه. وحذف مثل هذا كثير في الكلام. وتقديره ظاهر.

ويُلقَّب هذا الاستعمال عند علماء أصول الفقه بإضافة الحكم إلى الأعيان على إرادة أشهر أحوالها، نحو ما في قوله تعالى { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ } [المائدة:3]، أي: أكلها.

{ **أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** } في موضع العلّة لجملة { لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً }، أي: لأنّهم أصحاب النّار. وصاحب الشيء ملازمه فلا يفارقه. إذ قد تقرّر من قوله تعالى { أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً } [15]، ومن قوله تعالى { فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ } [16] أنّهم لا محيص لهم عن النار، فكيف تُغنى عنهم أموالهم وأولادهم شيئا من عذاب النار. فإنّ اسم الإشارة { **أُولَئِكَ** } في مثل هذا الموقع ينبِّه على أنّ المشار إليه صار جديرا بما يرد بعد اسم الإشارة من أجل الأخبار التي أخبر بها عنه قبل اسم الإشارة.

{ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ } [18].

متصل بقوله تعالى { يَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ - إلى قوله - اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً } [14-16].

{ **يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً** } تقدّم الكلام على نظيره عند قوله تعالى { وَيوَم يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا } [6]، أي: اذكر يوم يبعثهم الله.

{ **فَيَحْلِفُونَ لَهُ** } إشارة إلى ما حكاه الله عنهم في قوله تعالى { ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ } [الأنعام:23].

{ **كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ** } التشبيه في صفة الحلف، وهي قولهم: إنّهم غير مشركين، وفي كونه حلفا على الكذب وهم يعلمون، ولذلك سمَّاه تعالى فتنة في [الأنعام:23].

{ **وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ** } أي: يظنّون يومئذ أنّ حلفهم يفيدهم.

{ **شَيْءٍ** } حُذفت الصفة لظهور معناها من المقام، أي: على شيء نافع، كقوله تعالى { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ } [المائدة: 68]. وقول النبيّ صلى الله عليه وسلم لمّا سئل عن الكُهَّان: " **ليسوا بشيء** ".

وهذا يقتضي توغُّلهم في النفاق ومرونتهم عليه وأنّه باق في أرواحهم بعد بعثهم، لأنّ نفوسهم خرجت من عالم الدنيا متخلقة به، فإنّ النفوس إنّما تكتسب تزكية أو خبثا في عالم التكليف. وفي حديث جابر بن عبد الله عن مسلم أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: " **يُبعث كلّ عبد على ما مات عليه** ".

{ **أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ** } تذييل جامع لحال كذبهم الذي ذكره الله بقوله { وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ } [14]. فالمراد أنّ كذبهم عليكم لا يماثله كذب، حتّى قُصرت صفة الكاذب عليهم بضمير الفصل { هُمُ }، وهو قصر ادعائي للمبالغة لعدم الاعتداد بكذب غيرهم. وأُكِّد ذلك بحرف التوكيد توكيدا لمفاد الحصر الادعائي، وبأداة الاستفتاح المقتضية استماله السمع لخبرهم لتحقيق تمكّن صفة الكذب منهم.

{ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ } [19].

استئناف بياني، لأنّ ما سيق من وصفهم بانحصار صفة الكذب فيهم يثير سؤال السامع أن يطلب السبب الذي بلغ بهم إلى هذه الحال الفظيع فيُجاب بأنّه استحواذ الشيطان عليهم وامتلاكه زمام أنفسهم يصرِّفها كيف يريد.

الاستحواذ: الاستيلاء والغلب، وهو استفعال من حاذ حَوذا، إذا حاط شيئا وصرَّفه كيف يريد، يقال: حاذ العير إذا جمعها وساقها غالبا لها. فاشتقوا منه استفعل للذي يستولي بتدبير ومعالجة، ولذلك لا يقال استحواذ إلّا في استيلاء العاقل لأنّه يتطلّب وسائل استيلاء. ومثله استولى. والسين والتاء للمبالغة في الغلب.

والأحوذي: القاهر للأمور الصعبة. وقالت عائشة: كان عمر أحوذيًّا نسيج وحده.

وتقدَّم الكلام على الاستحواذ عند قوله تعالى { قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } [النساء:141].

النسيان: مراد منه لازمه وهو الإضاعة وترك المنسي، لقوله تعالى { كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى } [طه: 126].

{ ذِكْرَ اللَّهِ } يُطلق الذكر على نطق اللسان، ويُطلق على التذكُّر بالعقل. وقد يُخصّ الثاني بضمّ الذال. وهو هنا مستعمل في صريحه وكنايته، أي: مستعمل في لازمه وهو العبادة والطاعة، لأنّ المعنى أنّه أنساهم توحيد الله بكلمة الشهادة والتوجُّه إليه بالعبادة. والذي لا يتذكَّر شيئا لا يتوجَّه إلى واجباته.

{ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ } نتيجة وفذلكة لقول تعالى { اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ }، فإنّ الاستحواذ يقتضي أنَّه صيَّرهم من أتباعه. واسم الإشارة لزيادة تمييزهم لئلا يُتردَّد في أنّهم حزب الشيطان.

{ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ } واقعة موقع التفرُّع والتسبُّب على جملة {أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ}، فكان مقتضى الظاهر أن يقال: فإنّ حزب الشيطان هم الخاسرون، فعُدِل عن ذلك إلى حرف الاستفتاح تنبيها على أهمية مضمونها وأنّه مما يحق العناية باستحضاره في الأذهان مبالغة في التحذير من الاندماج فيهم، والتلبس بمثل أحوالهم المذكورة آنفا.

وزيد هذا التحذير اهتماما بتأكيد الخبر بحرف { إِنَّ } وبصيغة القصر { هُمُ }، إذ لا يتردّد أحد في أنّ حزب الشيطان خاسرون فإنّ ذلك من القضايا المسلَّمة بين البشر، فلذلك لم تكن هذه المؤكدات لرد الإنكار وإنّما لتحذير المسلمين أن تغرّهم حبائل الشيطان وتروق في أنظارهم بزَّة المنافقين وتخدعهم أيْمَانهم الكاذبة.

{ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ [20] كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ [21] }.

موقع هذه الآية بعد ما ذُكر من أحوال المنافقين يشبه موقع آية { إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } [5] فالذين يحادّون الله ورسوله المتقدِّم ذكرهم المشركون المعلنون بالمحادّة، وأمَّا المحادُّون المذكورون في هذه الآية فهم المُسِرُّون للمحادَّة المتظاهرون بالموالاة، وهم المنافقون.

فالجملة استئناف بياني بيَّنت شيئا من الخسران الذي قُضِي به على حزب الشيطان الذين هم في مقدَّمته. وبهذا تكتسب هذه الجملة معنى بدل البعض من مضمون جملة { أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ } [19]، لأنّ الخسران يكون في الدنيا والآخرة، وخسران الدنيا أنواع أشدُّها على الناس المذلّة والهزيمة. والمعنى: أنّ حزب الشيطان في الأذلِّين المغلوبين.

{ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ } إظهار في مقام الإضمار فمقتضى الظاهر أن يقال: إنّهم في الأذلين، فأُخْرِج الكلامُ على خلاف مقتضى الظاهر إلى الموصولية لإفادة مدلول الصلة أنّهم أعداء الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وإفادة الموصول تعليل الحكم الوارد بعده وهو كونهم أذلّين لأنّهم أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهم أعداء الله القادر على كل شيء، فعدوُّه لا يكون عزيزا.

{ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ } مفاد حرف الظرفية أنّهم كائنون في زمرة القوم الموصوفين بأنّهم أذلُّون، أي: شديدو المذلّة، ليتصورهم السامع في كل جماعة يرى أنّهم أذلُّون، فيكون هذا النظم أبلغ من أن يقال أولئك هم الأذلُّون.

واسم الإشارة تنبيه على أنّ المُشار إليهم جديرون بما بعد اسم الإشارة من الحكم بسبب الوصف الذي قبله.

{ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي } علَّة لجملة { أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ }، أي: لأنّ الله أراد أن يكون رسوله صلى الله عليه وسلم غالبا لأعدائه وذلك من آثار قدرة الله التي لا يغلبها شيء. وقد كتب لجميع رسله الغلبة.

{ كَتَبَ اللَّهُ } الكتابة استعيرت لمعنى: قضى الله ذلك وأراد وقوعه في الوقت الذي علمه وأراده، فهو محقَّق الوقوع لا يتخلَّف مثل الأمر الذي يراد ضبطه وعدم الإخلال به فإنّه يُكتب.

{ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ } تعليل لجملة { لَأَغْلِبَنَّ } لأن الذي يُغالب الغالب مغلوب.

{ لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [22].

ليس يلزم أن يكون للآية سبب نزول فإنّ ظاهرها أنّها متّصلة المعنى بما قبلها وما بعدها من ذمّ نفاقهم وموالاتهم اليهود، فما ذُكر فيها من قصص لسبب نزولها فإنّما هو أمثلة لمقتضى حكمها.

{ لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ } افتتاح الكلام بهذا التركيب يثير تشويقا إلى معرفة حال هؤلاء القوم وما سيساق في شأنهم من حكم. والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم. والمقصود منه أمره بإبلاغ المسلمين أنّ مُوَادة من يُعْلم أنّه مُحَادّ الله ورسوله هي ممّا ينافي الإيمان ليكُفَّ عنها من عسى أن يكون متلبِّسا بها.

فالكلام من قبل الكناية عن السعي في نفي وجدان قوم هذه صفتهم.

المُوَادة: أصلها حصول المودّة في جانبين. والنهي هنا إنّما هو عن مودة المؤمن الكافرين لا عن مقابلة الكافر المؤمنين بالمودة، وإنّما جيء بصيغة المفاعلة هنا اعتبارا بأنّ شأن الود أن يجلب ودا مقابلا.

{ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ } مبالغة في نهاية الأحوال التي قد يُقدم فيها المرء على الترخُّص فيما نُهي عنه بعلّة قرب القرابة.

ورُتِّبت أصناف القرابة في هذه الآية على طريقة التدلّي من الأقوى إلى من دونه لئلَّا يُتوهَّم أنّ النهي خاص بمن تقوى فيه ظِنَّة النصيحة له والائتمار بأمره.

{ عَشِيرَتَهُمْ } عشيرة الرجل قبيلته الذين يجتمع معهم في جَدٍّ غير بعيد.

وقد أخذ العلماء من هذه الآية أنّ أهل الإيمان الكامل لا يوادّون من فيه معنى من محادة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بخرق سياج شريعته عمدا والاستخفاف بحرمات الإسلام.

{ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }.

الإشارة إلى القوم الموصوفين سابقا. والجملة مستأنفة استئنافا بيانيًا لأنّ الأوصاف السابقة ووقوعها عقب ما وصف به المنافقون من محادة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وما توعَّدهم الله به أنّه أعدّ لهم عذابا شديدا ولهم عذاب مهين، وأنّهم حزب الشيطان، وأنّهم الخاسرون، ممّا يستشرف بعده السامع إلى ما سيخبر به عن المتّصفين بضد ذلك. وهم المؤمنون الذين لا يوادُّون من حادّ الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

{ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ } هذه نظير قوله السابق { كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي } [21]. وهي التقدير الثابت الذي لا تتخلّف آثاره، أي: هم المؤمنون حقًّا الذين زيَّن الله الإيمان في قلوبهم فاتبعوا كماله وسلكوا شُعَبه.

التأييد: التقوية والنصر. وتقدّم بيانه عند قوله تعالى { وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ } في سورة [البقرة:87]، أي: أنّ تأييد الله إيَّاهم قد حصل وتقرَّر بالإتيان بفعل الماضي للدلالة على الحصول وعلى التحقّق والدوام.

{ بِرُوحٍ مِنْهُ } عنايته ولطفه.

{ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ } رضي الله عنهم حاصل من الماضي ومحقّق الدوام فهو مثل الماضي في قوله { وَأَيَّدَهُمْ }، ورضاهم عن ربهم كذلك حاصل في الدنيا بثباتهم على الدين ومعاداة أعدائه، وحاصل في المستقبل بنوال رضا الله عنهم ونوال نعيم الخلود.

{ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } كالقول في { أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ } [19]. وحرف التنبيه يحصل منه تنبيه المسلمين إلى فضلهم. وتنبيه من يسمع ذلك من المنافقين إلى ما حبا الله به المسلمين من

خير الدنيا والآخرة لعلّهم يغبطونهم فيخلصون الإسلام. وشتان بين الحزبين.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحشر

اشتُهرت تسمية هذه السورة (**سورة الحشر**). وبهذا الاسم دعاها النبيّ صلى الله عليه وسلم.

روى الترمذي عن معقل بن يسار قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" من قال حين يصبح ثلاث مرّات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر"**، أي: الآيات التي أوّلها { هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ } [22] إلى آخر السورة.

ووجه تسميتها بذلك وقوع لفظ { الْحَشْرِ } [2] فيها. ولكونها ذُكر فيها حشر بني النضير من ديارهم، أي: من قريتهم المسمّاة الزهرة قريبا من المدينة. فخرجوا إلى بلاد الشام إلى أريحا وأذرعات، وبعض بيوتهم خرجوا إلى خيبر، وبعض بيوتهم خرجوا إلى الحيرة.

وفي صحيح البخاري عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس سورة الحشر، قال: قل بني النضير. فابن عباس يسمّيها (**سورة بني النضير**). ولعلّه لم يبلغه تسمية النبيّ صلى الله عليه وسلم إيَّاها سورة الحشر أو قال ذلك على التخيير. ووجه تسميتها بذلك فلأنّ قصّة بني النضير ذُكرت فيها.

وهي مدينة بالاتفاق.

وهي الثامنة والتسعون في عداد نزول السور عند جابر بن زيد. نزلت بعد سورة البيّنة وقبل سورة النصر.

وكان نزولها عقب إخراج بني النضير من بلادهم سنة أربع من الهجرة.

وعدد آيها أربع وعشرون باتفاق العادّين.

أغراض السورة

*/ وقع الاتفاق على أنّها نزلت في شأن بني النضير ولم يُعيِّنوا ما هو الغرض الذي نزلت فيه. ويظهر أن المقصد منها حكم أموال بني النضير بعد الانتصار عليهم، كما سنبيِّنه في تفسير الآية الأولى منها.

*/ أنّ ما في السماوات وما في الأرض ملك لله، وهو دال على تنزيهه، وأنَّه الغالب المدبِّر.

*/ ذكر نعمة الله على ما يسَّر من إجلاء بني النضير مع ما كانوا عليه من المنعة والحصون والعدّة. وتلك آية من آيات تأييد رسول الله صلى الله عليه وسلم وغلبته على أعدائه.

*/ ذكر ما أجراه المسلمون في أموالهم، وأحكام ذلك وتعيين مستحقّيه من المسلمين.

*/ تعظيم شأن المهاجرين والأنصار والذين يجيئون بعدهم من المؤمنين.

*/ كشف دخائل المنافقين ومواعيدهم لبني النضير أن ينصروهم، وكيف كذّبوا وعدهم.

*/ أنحى على بني النضير والمنافقين بالجبن وتفرّق الكلمة، وتنظير حال تغرير المنافقين لليهود بتغرير الشيطان للذين يكفرون بالله، وتنصُّله من ذلك يوم القيامة، فكان عاقبة الجميع الخلود في النار.

*/ أمر المؤمنين بالتقوى والحذر من أحوال أصحاب النار، والتذكير بتفاوت حال الفريقين.

*/ بيان عظمة القرآن وجلالته واقتضائه خشوع أهله.

*/ تخلَّل ذلك إيماء إلى حكمة شرائع انتقال الأموال بين المسلمين بالوجوه التي نظّمها الإسلام بحيث لا تشقّ على أصحاب الأموال.

*/ الأمر باتباع ما يُشرِّعه الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم.

*/ خُتمت بصفات عظيمة من الصفات الإلهية وأنّه { يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [24]، تزكية لحال المؤمنين وتعريضا بالكافرين.

{ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [1].

افتتاح السورة بالإخبار عن تسبيح ما في السماوات والأرض لله تعالى تذكير للمؤمنين بتسبيحهم لله تسبيح شكر على ما أنالهم من فتح بلاد بني النضير، فكأنّه قال: سبّحوا لله كما سبَّح له ما في السماوات والأرض.

وفيه تعريض بأولئك الذين نزلت السورة فيهم بأنّهم أصابهم ما أصابه لتكبّرهم عن تسبيح الله حقّ تسبيحه بتصديق رسوله صلى الله عليه وسلم، إذ أعرضوا عن النظر في دلائل رسالته أو كابروا في معرفتها.

والقول في لفظ هذه الآية كالقول في نظيرها في [الحديد:1].

{ سَبَّحَ لِلَّهِ } أوثر الأخبار عن التسبيح بالفعل الماضي لأنّ المخبَر عنه تسبيح شكر عن نعمة مضت قبل نزول السورة وهي نعمة إخراج بني النضير.

{ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } والتي في أوّل سورة الحديد فيها { مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } لأنّ فاتحة سورة الحديد تضمَّنت الاستدلال على عظمة الله تعالى وصفاته وانفراده بخلق السماوات والأرض فكان دليل ذلك هو مجموع ما احتوت عليه السماوات والأرض من أصناف الموجودات فجُمع ذلك كلّه في اسم واحد هو { ما } الموصولة التي صلتها قوله تعالى { فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }.

وأمَّا فاتحة سورة الحشر فقد سيقت للتذكير بمنّ الله تعالى على المسلمين في حادثة أرضية، وهي خذلان بني النضير، فناسب فيها أن يُخص أهل الأرض باسم موصول خاص بهم، وهي (ما) الموصولة الثانية التي صلتها { في الأرض } ، وعلى هذا المنوال جاءت فواتح سور الصف والجمعة والتغابن كما سيأتي في مواضعها.

{ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ } [2].

{ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا }

يجوز أن تُجعل الجملة استئنافا ابتدائيا لقصد إجراء هذا التمجيد على اسم الجلالة لمّا يتضمّنه من باهر تقديره، ولما يؤذن به ذلك من التعريض بوجوب شكره على ذلك الإخراج العجيب.

ويجوز أن تُجعل علّةً لما تضمَّنه الخبر عن تسبيح ما في السماوات وما في والأرض من التذكير للمؤمنين والتعريض بأهل الكتاب والمنافقين الذين هم فريقان ممّا في الأرض، فإنّ القصة التي تضمّنتها فاتحة السورة من أهم أحوالهما.

ويجوز أن تُجعل مبيّنةً لجملة { وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [1]، لأنّ هذا التسخير العظيم من آثار عزّه

وحكمته.

وعلى كلّ الوجوه فهو تذكير بنعمة الله على المسلمين وإيماء إلى أن يشكروا الله على ذلك، وتمهيد للمقصود من السورة، وهو قسمة أموال بني النضير.

{ **هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ** } تعريف جزأي الجملة بالضمير والموصول يفيد قصر صفة إخراج الذين كفروا من ديارهم عليه تعالى وهو قصر ادعائي لعدم الاعتداد بسعي المؤمنين في ذلك الإخراج.

{ **مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا** } تتنزّل منزلة التعليل لجملة القصر.

{ **وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ** } عطف على العلّة، أي: وهم ظنّوا أنّ المسلمين لا يغلبونهم. وإنّما لم يقل: وظنوا أن لا يخرجوا. مع أنّ الكلام على خروجهم، استغناء عن ذكر المظنون بذكر علّة الظنّ. والتقدير: وظنوا أن لا يخرجوا لأنّهم تمنعهم حصونهم، أي: ظنّوا ظنًّا قويا معتمدين على حصونهم.

{ **الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ** } **بنو النضير**، وهم قبيلة من اليهود استوطنوا بلاد العرب هم وبنو عمّهم قريظة، ويهود خيبر، وكان يقال لبني النضير وبني قريظة: الكاهنان، لأنّ كل فريق منها من ذرّيّة هارون وهو كاهن الملّة الإسرائيلية. والكهانة: حفظ أمور الديانة بيده ويد أعقابه.

وقصة استيطانهم بلاد العرب أنّ موسى عليه السلام كان أرسل طائفة من أسلافهم لقتال العماليق المجاورين للشام وأرض العرب فقصّروا في قتالهم وتوفي موسى قريبا من ذلك. فلمّا علموا بوفاة موسى رجعوا على أعقابهم إلى ديار إسرائيل في أريحا فقال لهم قومهم: أنتم عصيتم أمر موسى فلا تدخلوا بلادنا، فخرجوا إلى جزيرة العرب وأقاموا لأنفسهم قرى حول يثرب المدينة وبنوا لأنفسهم حصونا وقرية سمَّوها (الزَّهرة).

وكانت حصونهم خمسة سيأتي ذكر أسمائهما في آخر تفسير الآية، وصاروا أهل زرع وأموال. وكان فيهم أهل الثراء مثل السموأل بن عاديا، وكعب بن الأشرف، وأبن أبي الحُقيق.

وكان بينهم وبين الأوس والخزرج حلف ومعاملة. وكان من بطون أولئك اليهود بنو النضير وقريظة وخيبر.

{ **الَّذِينَ كَفَرُوا** } وُسِمُوا بذلك لأنّهم كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم تسجيلا عليهم بهذا الوصف الذميم. وقد وصفوا بذلك في قوله تعالى { وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ } [البقرة:89].

{ **مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ** } (من) بيانية لأنّ المراد بأهل الكتاب هنا خصوص اليهود. وصفوا بـذلك لئلّا يُظَنَّ أنَّ المراد بـ { الَّذِينَ كَفَرُوا } المشركون بمكة أو بقية المشركين بالمدينة.

وتفصيل القصة التي أشارت إليها الآية على ما ذكر جمهور أهل التفسير. أنّ بني النضير لمّا هاجر المسلمون إلى المدينة جاءوا فصالحوا النبيّ صلى الله عليه وسلم على أن لا يكونوا عليه ولا له،

ويقال: أنّ مصالحتهم كانت عقب وقعة بدر لمّا غلب المسلمون المشركين لأنّهم توسَّموا أنّه لا تهزم لهم راية، فلما غُلب المسلمون يوم أُحُد نكثوا عهدهم وراموا مصالحة المشركين بمكة، إذ كانوا قد قعدوا عن نصرتهم يوم بدر، كدأب اليهود في موالاة القويّ، فخرج كعب بن الأشرف وهو سيد بني النضير في أربعين راكبا فحالفوا المشركين عند الكعبة على أن يكونوا عونا لهم على مقاتلة المسلمين، فلمّا أوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك أمر محمد بن مسلمة أن يقتل كعب بن الأشرف فقتله.

وذكر ابن إسحاق سببا آخر وهو أنّه لمّا انقضت وقعة بئر معونة في صفر سنة أربع كان عمرو بن أمية الضمري أسيرا عند المشركين فأطلقه عامر بن الطفيل. فلما كان راجعا إلى المدينة أقبل رجلان من بني عامر، وكان لقومهما عقد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونزلا مع عمرو بن أمية، فلمّا ناما عدا عليهما فقتلهما، وهو يحسب أنّه يثأر بهما من بني عامر الذين قتلوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ببئر معونة، ولمَّا قدم عمرو ابن أمية أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما فعل فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" لقد قتلت قتيلين ولآدِيَنَّهُما "**، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني النضير يستعينهم في دِيَّةِ ذينك القتيلين، إذ كان بين بني النضير وبين بني عامر حلف، وأضمر بنو النضير الغدر برسول الله صلى الله عليه وسلم وأطلعه الله عليه فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين بالتهيؤ لحربهم.

ثم أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم المسلمين بالسير إليهم في (ربيع الأوّل في سنة أربع من الهجرة) فسار إليهم هو والمسلمون وأمرهم بأن يخرجوا من قريتهم فامتنعوا وتنادوا إلى الحرب ودسّ إليهم عبد الله بن أبَي بن سلول أن لا يخرجوا من قريتهم وقال: إن قاتلكم المسلمون فنحن معكم لننصرنَّكم وإن أُخرجتم لنخرُجنّ معكم فدَرِّبُوا على الأزقة (أي: سدوا منافذ بعضها لبعض ليكون كل درب منها صالحا للمدافعة) وحصّنوها، ووعدهم أنّ معه ألفين من قومه وغيرهم، وأنّ معهم قريظة وحلفاءهم من غطفان من العرب.

فحاصرهم النبيّ صلى الله عليه وسلم وانتظروا عبد الله بن أبي بن سلول وقريظة وغطفان أن يقدموا إليهم ليردُّوا عنهم جيش المسلمين فلمَّا رأوا أنّهم لم يُنجدوهم قذف الله في قلوبهم الرعب فطلبوا من النبيّ صلى الله عليه وسلم الصلح فأبى إلّا الجلاء عن ديارهم، وتشارطوا على أن يخرجوا ويحمل كل ثلاثة أبيات منهم حمل بعير مما شاؤوا من متاعهم، فجعلوا يخربون بيوتهم ليحملوا معهم ما ينتفعون به من الخشب والأبواب. فخرجوا فمنهم من لحق بخيبر، وقليل منهم لحقوا ببلاد الشام في مدن (أريحا وأذرعات) وخرج قليل منهم إلى الحيرة.

{ **لِأَوَّلِ الْحَشْرِ** } لام التوقيت وهي التي تدخل على أول الزمان المجعول ظرفا لعمل. وهي بمعنى (عند). فالمعنى: أنّه أخرجهم عند مبدإ الحشر المقدّر لهم.

الحشر: جمع ناس في مكان، كقوله تعالى { وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِين يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ } [الشعراء:36/37]. والمراد به هنا: جمعهم للخروج، وهو بهذا المعنى يرادف الجلاء. وليس المراد به حشر يوم القيامة إذ لا مناسبة له هنا.

وفي جعل هذا الإخراج وقتا { لِأَوَّلِ الْحَشْرِ } إيذان بأن حشرهم يتعاقب حتّى يكمل إخراج جميع اليهود، وذلك ما أوصى به النبيّ صلى الله عليه وسلم قبيل وفاته إذ قال: **" لا يبقى دينان في جزيرة العرب "**. وقد أنفذه عمر بن الخطاب حين أجلى اليهود من جميع بلاد العرب.

وقيل: وُصف الحشر بالأوّل لأنّه أوّل جلاء أصاب بني النضير، فإنّ اليهود أجلوا من فلسطين مرتين، مرة في زمن (بختنصر) ومرة في زمن (طيطس) سلطان الروم، وسَلِم بنو النضير ومن معهم من الجلاء لأنّهم كانوا في بلاد العرب. فكان أوّل جلاء أصابهم هذا الجلاء.

{ **وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ** } أي: كان ظنّ المسلمين وظنّ أهل الكتاب متواردين على تعذر إخراج بني النضير من قريتهم بسبب حصانة حصونهم.

وكان اليهود يتّخذون حصونا يأوون إليها عندما يغزوهم العدو مثل حصون خيبر. وكان لبني النضير ستة حصون: [الكُتَيْبَة / الوَطِيح / السُلالم / النَّطَاة / الوَخْدة / شَقّ].

ونظم الجملة على هذا النظم دون أن يقال: وظنُّوا أن حصونهم مانعتهم ليكون الابتداء بضميرهم مشيرا إلى اغترارهم بأنفسهم أنّهم في عزّة ومنعة.

{ **فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَار** } تفريع على مجموع جملتي { مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ } اللتين هما تعليل للقصر في قوله تعالى {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ}.

{ **فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا** } تمثيل، مُثِّل شأن الله حين يَسَّر أسباب استسلامهم بعد أن صمَّموا على الدفاع وكانوا أهل عِدَّة وعُدَّة، ولم يطل حصارهم، بحال من أخذ حذره من عدوّه وأحكم حراسته من جهاته فأتاه عدوُّه من جهة لم يكن قد أقام حراسة فيها. وهذا يشبه التمثيل الذي في قوله تعالى { وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ } [النور:39].

الاحتساب: مبالغة في الحُسْبان، أي: الظنّ.

القذف: الرمي باليد بقوة. واستعير للحصول على العاجل، أي: حصل الرعب في قلوبهم دفعة دون سابق تأمّل ولا حصول سبب. والمعنى: وجعل الله الرعب في قلوبهم فأسرعوا بالاستسلام. وقذف الرعب في قلوبهم هو حال من { فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا } فتخصيصه بالذكر للتعجيب من صنع الله، وعطفه عطف خاص على عام للاهتمام.

{ **الرُّعْبَ** } شدّة الخوف والفزع. وهذا معنى قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" نُصرت بالرعب "**.

{ **يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ** } حال من الضمير المضاف إليه { قُلُوبِهِمُ }. والمقصود: التعجيب من اختلال أمورهم.

الإخراب والتخريب: إسقاط البناء ونقضه. و**الخراب**: تهدّم البناء.

وأشارت الآية إلى ما كان من تخريب بني النضير بيوتهم ليأخذوا منها ما يصلح من أخشاب وأبواب.

{ **بِأَيْدِيهِمْ** } هو تخريبهم البيوت بأيديهم، حقيقة في الفعل.

{ **وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ** } إسناد التخريب الذي خرَّبه المؤمنون إلى بني النضير مجاز عقلي باعتبار أنّهم سبَّبوا تخريب المؤمنين لما تركوه. فالمعنى: وكانوا سببا في خراب بيوتهم بأيدي المؤمنين.

والتخريب حقيقي بالنسبة لكلا المتعلّقين.

{ **فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ** } أي: اعتبروا بأن كان تخريب بيوتهم بفعلهم.

الاعتبار: النظر في دلالة الأشياء على لوازمها وعواقبها وأسبابها. وهو افتعال من العبرة، وهي الموعظة. وتقدّم في قوله تعالى { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ } [يوسف:111].

والخطاب موجَّه إلى غير معيَّن. ونودي أولوا الأبصار بهذه الصلة ليشير إلى أنّ العبرة بحال بني النضير واضحة مكشوفة لكل ذي بصر ممّن شاهد ذلك.

{ وَلَوْلا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ } [3].

{ **وَلَوْلا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا** } جملة معترضة ناشئة عن جملة { هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ } [2]، أي: أخرجهم الله من قريتهم عقابا لهم على كفرهم وتكذيبهم للرسول صلى الله عليه وسلم ولو لم يعاقبهم الله بالجلاء لعاقبهم بالقتل والأسر لأنّهم استحقّوا العقاب. فلو لم يقذف في قلوبهم الرعب حتّى استسلموا لعَاقَبهم بجوع الحصار وفتح ديارهم عنوة، فعُذّبوا قتلا وأسرا.

{ **لَوْلَا** } حرف امتناع لوجود، تفيد امتناع جوابها لأجل وجود شرطها، أي: وجود تقدير الله جلاءهم سبب لانتفاء تعذيب الله إيَّاهم في الدنيا.

وإنّما قدّر الله لهم الجلاء دون التعذيب في الدنيا لمصلحة اقتضتها حكمته، وهي أن يأخذ المسلمون أرضهم وديارهم وحوائطهم دون إتلاف من نفوس المسلمين ممّا لا يخلو منه القتال.

{ **كتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ** } قدّر لهم تقديرا كالكتابة في تحقيق مضمونه.

الجلاء: الخروج من الوطن بنيّة عدم العود.

{ **وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّار** } عطف على جملة { وَلَوْلا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ }، أو على جملة { هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا } [2]، وليس عطفا على جواب { لولا }، فإنّ عذاب النار حاقّ عليهم وليس منتفيا. والمقصود الاحتراس من توهُّم أنّ الجلاء بدل من عذاب الدنيا ومن عذاب الآخرة.

{ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } [4].

الإشارة إلى جميع ما ذُكر من إخراج الذين كفروا من ديارهم، وقذف الرعب في قلوبهم، وتخريب بيوتهم، وإعداد العذاب لهم في الآخرة.

المُشاقّة: المخاصمة والعداوة، قال تعالى **{** وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ **}** [النحل:27].

وقد كان بنو النضير ناصبوا المسلمين العداء بعد أن سكنوا المدينة وأَضْرَوْا المنافقين وعاهدوا مشركي أهل مكّة كما علمت آنفا.

{ وَرَسُولَهُ } عطف اسم الرسول صلى الله عليه وسلم على اسم الجلالة في الجملة الأولى لقصد تعظيم شأن الرسول صلى الله عليه وسلم ليعلموا أنّ طاعته طاعة لله لأنّه إنّما يدعو إلى ما أمره الله بتبليغه، ولم يُعطف اسم الرسول صلى الله عليه وسلم في الجملة الثانية استغناء بما عُلم من الجملة الأولى.

{ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } تذييل، أي: شديد العقاب لكلّ من يشاققه من هؤلاء وغيرهم.

{ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ } [5].

استئناف ابتدائي أفضى به إلى المقصد من السورة عن أحكام أموال بني النضير، وإشارةُ الآية إلى ما حدث في حصار بني النضير، وذلك أنّهم قبل أن يستسلموا اعتصموا بحصونهم فحاصرهم المسلمون وكانت حوائطهم خارج قريتهم، وكانت الحوائط تسمى (البُوَيْرَة) فعمد بعض المسلمين إلى قطع بعض النخيل، قيل: بأمر من النبيّ صلى الله عليه وسلم، وقيل، بدون أمره ولكنّه لم يغيّره عليهم.

قيل: كان ذلك ليوسّعوا مكانا لمعسكرهم، وقيل: لتخويف بني النضير ونكايتهم، وأمسك بعض الجيش عن قطع النخيل وقالوا: لا تقطعوا ممَّا أفاء الله علينا. وقد ذُكر أن النخلات التي قطعت ست نخلات أو نخلتان.

فقالت اليهود: يا محمد ألست تزعم أنّك نبيّ تريد الصلاح أفمن الصلاح قطع النخل وحرق الشجر، وهل وجدت فيما أنزل عليك إباحة الفساد في الأرض، فأنزل الله هذه الآية.

<u>والمعنى</u>: أن ما قطعوا من النخل أريد به مصلحة إلجاء العدو إلى الاستسلام وإلقاء الرعب في قلوبهم وإذلالهم بأن يروا أكرم أموالهم عرضة للإتلاف بأيدي المسلمين.

جعل الله القطع والإبقاء كليهما بإذنه، أي: مرضياً عنده، فأطلق الإذن على الرضى على سبيل الكناية، أو أطلق إذن الله على إذن رسوله صلى الله عليه وسلم، إن ثبت أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أذن بذلك ابتداء، ثم أمر بالكف عنه.

قال مجاهد: إنّ القطع والامتناع كان اختلافا بين المسلمين، وأنّ الآية نزلت بتصديق من نهى عن قطعه، وتحليل من قطعه من الإثم.

{ **مِنْ لِينَةٍ** } بيان لما في قوله تعالى { مَا قَطَعْتُمْ }. و**اللينة**: النخلة ذات الثمر الطيب تطلق اسم اللينة على كلّ نخلة غير العجوة والبرنيّ، في قول جمهور أهل المدينة وأئمة اللغة. وتمر اللينة يُسمَّى اللون.
وإيثار { لِينَةٍ } على نخلة لأنّه أخف، ولذلك لم يرد لفظ نخلة مفردا في القرآن.
وذُكر في كتب السيرة أنّ بعض نخل بني النضير أحرقه المسلمون، ولم يذكر القرآن الحرق، فلعلّ خبر الحرق ممَّا أُرجِف به فتناقله بعض الرواة، أو أنّ النخلات التي قُطعت أحرقها الجيش للطبخ أو للدفء.
{ **قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا** } جيء بالحال لتصوير هيئتها وحسنها. وفيه إيماء إلى أنّ ترك القطع أولى.
الأصول: القواعد. والمراد هنا: سوق النخل، قال تعالى { أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ } [ابراهيم:24].
{ **فَبِإِذْنِ اللَّهِ** } الفاء مزيدة في خبر المبتدأ لأنّه اسم موصول، واسم الموصول يعامل معاملة الشرط كثيرا إذا ضُمِّن معنى التسبُّب.
{ **وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ** } من عطف العلّة على السبب وهو { فَبِإِذْنِ اللَّهِ }، لأنّ السبب في معنى العلّة، ونظيره قوله تعالى { وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ } [آل عمران:166].
<u>المعنى</u>: ليهين بني النضير فيروا كرائم أموالهم بعضها مخضود وبعضها بأيدي أعدائهم. فذلك عزة للمؤمنين وخزي للكافرين.
{ **الْفَاسِقِينَ** } هنا: يهود بني النضير. وعدل عن الإتيان بضميرهم، كما أتي بضمائرهم من قبل ومن بعد، لأنّ الوصف المشتقّ يُؤذن بسبب ما اشتُق منه في ثبوت الحكم، أي: ليُخزيهم لأجل الفسق.
الفسق: هنا الكفر.

{ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [6].

<u>يجوز</u> أن تكون عطفا على جملة { مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ } [5]، فتكون امتنانا وتكملة لمصارف أموال بني النضير. <u>ويجوز</u> أن تكون عطفا على مجموع ما تقدّم، عطف القصة على القصة والغرض على الغرض للانتقال إلى التعريف بمصير أموال بني النضير لئلّا يختلف المسلمون في قسمته. ولبيان أن ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم في قسمة أموال بني النضير هو عدل، إن كانت الآية نزلت بعد القسمة.
{ **مَا أَفَاءَ اللَّهُ** } هو ما تركه بنو النضير من الأرض والنخل والنقض والحطب.
الفيء: معروف في اصطلاح الغزاة، ففعل أفاء: أعطى الفيء، فالفيء في الحروب والغارات ما يظفر به الجيش من متاع عدوّهم، وهو أعمّ من الغنيمة. ولم يتحقَّق أئمة اللغة في أصل اشتقاقه، <u>فيكون الفيء بقتال ويكون بدون قتال</u>، وأمّا الغنيمة فهي ما أخذ بقتال.
{ **فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ** } هو <u>بصريحه</u> امتنان على المسلمين بأنّ الله ساق لهم أموال بني

النضير دون قتال، مثل قوله تعالى { وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ } [الأحزاب:25]. ويفيد مع ذلك كنايةً لازم الخبر، وهو أنّه ليس لهم سبب حقٍّ فيه.

والمعنى: فما هو من حقّكم، أو لا تسألوا قسمته لأنّكم لم تنالوه بقتالكم، ولكنّ الله أعطاه رسوله صلى الله عليه وسلم نعمة منه بلا مشقّة ولا نصب.

الإيجاف: نوع من سير الخيل. وهو سير سريع بإيقاع، وأريد به الركض للإغارة لأنّه يكون سريعا.

الركاب: اسم جمع للإبل التي تُركب. والمعنى: ما أغرتم عليه بخيل ولا إبل.

{ **وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ** } استدراك على النفي الذي في قوله تعالى { فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ } لرفع توهُّم أنَّه لا حقّ فيه لأحد. والمراد: أنّ الله سلط عليه رسوله صلى الله عليه وسلم. فالرسول أحقّ به.

والتركيب يفيد قصرا معنويا، كأنّه قيل: فما سلَّطكم الله عليهم ولكنّ سلَّط عليهم رسوله صلى الله عليه وسلم. فتكون الآية تبيينا لما وقع في قسمة فيء بني النضير. ذلك أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقسمه على جميع الغزاة ولكن قسمه على المهاجرين سواء كانوا ممَّن غزوا معه أم لم يغزوا إذ لم يكن للمهاجرين أموال. فأراد أن يكفيهم ويكفي الأنصار ما منحوه المهاجرين من النخيل. ولم يعط منه الأنصار إلّا ثلاثة لشدة حاجتهم وهم أبو دجانة سِماك، وسهل بن حنيف، والحارث بن الصَمَّة. وأعطى سعد بن معاذ سيف أبي الحُقيق، وكلُّ ذلك تصرف باجتهاد الرسول صلى الله عليه وسلم لأنّ الله جعل تلك الأموال له.

قيل نزلت الآية بعد أن قُسمت أموال بني النضير، فكانت بيانا بأنَّ ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم حقّ، أمره الله به، أو جعله إليه.

وقيل نزلت قبل القسمة، إذ روي أنّ سبب نزولها أنّ الجيش سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم تخميس أموال بني النضير مثل غنائم بدر فنزلت هذه الآية.

قال أبو بكر بن العربي: لا خلاف بين العلماء [...] أنّها خاصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم يضعها حيث يشاء. وبذلك قال عمر بن الخطاب بمحضر عثمان، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير، وسعد، وهو قول مالك، فيما روى عنه ابن القاسم وابن وهب، قال: كانت أموال بني النضير صافية لرسول الله صلى الله عليه وسلم، واتفقوا على أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يخمِّسها.

واختُلف في القياس عليها كلّ مال لم يُوجف عليه، قال ابن عطية: " قال بعض العلماء: وكذلك كلّ ما فتح الله على الأئمة ممّا لم يُوجَف عليه فهو لهم خاصة ".

{ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } [7].

{ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ }.

جعل جمهور العلماء هذه الآية ابتداء كلام، أي: على الاستئناف الابتدائي، وأنّها قُصد منها حكم غير الحكم الذي تضمَّنته الآية التي قبلها. ومن هؤلاء مالك، وهو قول الحنفية، فجعلوا مضمون الآية التي قبلها أموال بني النضير خاصة، وجعلوا هذه إخبارا عن حكم الأفياء التي حصلت عند فتح قرى أخرى بعد غزوة بني النضير، مثل قريظة (سنة خمس)، وفدك (سنة سبع)، ونحوهما فعيَّنته هذه الآية للأصناف المذكورة فيها. ولا حقّ في ذلك لأهل الجيش، وهذا الذي يجري على وفاق كلام عمر في قضائه بين العباس وعلي.

وهو الذي يقتضيه تغيير أسلوب التعبير بقوله هنا { مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ **مِنْ أَهْلِ الْقُرَى** } بعد أن قال في التي قبلها { وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ **مِنْهُمْ** } [6]، فإنّ ضمير { مِنْهُمْ } راجع لبني النضير لا محالة. وعليه يجوز أن تكون هذه الآية نزلت بعد مدّة فإنّ فتح القرى وقع بعد فتح بني النضير بنحو سنتين.

ومن العلماء من جعل هذه الآية تكملة وبيانا للآية التي قبلها، أي: بيانا للإجمال الواقع في قوله تعالى { فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ } [6]، لأنّ الآية التي قبلها اقتصرت على الإعلام بأنّ الجيش لا حق له فيه، ولم تبيّن مستحقِّه، فبيَّن الله له هنا مستحقِّيه من غير الجيش. فموقع هذه الآية من التي قبلها موقع عطف البيان. ولذلك فصلت.

وممّن قال بهذا الشافعي، وعليه جرى تفسير صاحب الكشّاف. ومقتضى هذا أن تكون أموال بني النضير ممّا يخمّس، ولم يرو أحد أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمَّسها بل ثبت ضدّه، وعلى هذا يكون حكم أموال بني النضير حكما خاصا، أو تكون هذه الآية ناسخة للآية التي قبلها إن كانت نزلت بعدها بمدّة.

{ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ } ولا يختصّ جعله للرسول بخصوص ذات الرسول صلى الله عليه وسلم بل مثله فيه أئمة المسلمين.

{ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى } تعريف العهد، وهي قرى معروفة عُدَّت منها (قريظة / فدك / قرى عُرينة / اليُنْبُع / وادي القُرى / الصفراء)، فُتحت في عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم، واختلف الناس في فتحها أكان عنوة أو صلحا أو فيئا. والأكثر على أنّ فدك كانت مثل النضير.

وتقييد الفيء بفيء القرى جرى على الغالب لأنّ الغالب أن لا تفتح إلّا القرى لأنّ أهلها يُحاصَرون فيستسلمون ويعطون بأيديهم إذا اشتد عليهم الحصار، فأمّا النازلون بالبوادي فلا يُغلبون إلّا بعد إيجاف

وقتال فليس لقيد { مِنْ أَهْلِ الْقُرَى } مفهوم عندنا.

وقد اختلف الفقهاء في حكم الفيء الذي يحصل للمسلمين بدون إيجاف، تفصيله في كتب الفقه.

وهذه الآية اقتضت أنّ صنفا ممّا أفاء الله على المسلمين لم يجعل الله فيه نصيبا للغزاة، وبذلك تحصُل معارضة بين مقتضاها وبين قصر آية [الأنفال:41]، التي لم تجعل لمن ذكروا في هذه الآية إلّا الخمس، فقال جمع من العلماء: إنّ آية الأنفال نسخت حكم هذه الآية. وقال جمع: هذه الآية نسخت آية الأنفال.

على أنّ سورة الأنفال سابقة في النزول على سورة الحشر لأنّ الأنفال نزلت في غنائم بدر وسورة الحشر نزلت بعدها بسنتين.

قال القرطبي: اتفقوا على أنّ تخميس الغنائم هو الذي استقرّ عليه العمل، أي: بفعل النبيّ صلى الله عليه وسلم، وبالإجماع.

وليس يبعد عندي أن تكون القرى التي عنتها آية الحشر فُتحت بحالة متردّدة بين مجرد الفيء وبين الغنيمة، فشُرع لها حكم خاص بها، وإذ قد كانت حالتها غير منضبطة تعذّر أن نقيس عليها، ونُسخ حكمها واستقر الأمر على انحصار الفتوح في حالتين: حالة الفيء المجّرد وما ليس مجرّد فيء. وسقط حكم آية الحشر بالنسخ أو بالإجماع. والإجماع على مخالفة حكم النص يعتبر ناسخا لأنّه يتضمن ناسخا.

{ **فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ** } تقدّم ما هو المراد من ذكر اسم الله تعالى في عِداد من لهم المغانم والفيء والأصناف المذكورة في هذه الآية، تقدّم بيانا في [الأنفال:41].

{ **كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ** } تعليل لما اقتضاه (لام التمليك) من جعله ملكا لأصناف كثيرة الأفراد، أي: جعلناه مقسوما على هؤلاء لأجل أن لا يكون الفيء دُولة بين الأغنياء من المسلمين، أي: لئلّا يتداوله الأغنياء ولا ينال أهلَ الحاجة نصيب منه.

والمقصود من ذلك إبطال ما كان معتادا بين العرب قبل الإسلام من استئثار قائد الجيش بأمور من المغانم وهي: المرباع، والصفايا، وما صالح عليه عدوه دون قتال، والنشيطة والفضول.

المرباع: ربع المغانم كان يستأثر به قائد الجيش.

الصفايا: النفيس من المغانم الذي لا نظير له فتعذّر قسمته، كان يستأثر به قائد الجيش.

ما صالح عليه عدوّه دون قتال: وهو ما أعطاه العدو من المال إذا نزلوا على حكم أمير الجيش.

النشيطة: ما يصيبه الجيش في طريقه من مال عدوّهم قبل أن يصلوا إلى موضع القتال.

الفضول: ما يبقى بعد قسمة المغانم ممّا لا يقبل القسمة على رؤوس الغزاة مثل بعير وفرس.

وقد أبطل الإسلام ذلك كلّه فجعل الفيء مصروفا إلى ستة مصارف راجعة فوائدها إلى عموم المسلمين لسد حاجاتهم العامة والخاصة، فإنّ { فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ } إنّما يجعله الله لما يأمر به رسوله صلى الله عليه وسلم. وجُعل الخمس من المغانم كذلك لتلك المصارف.

وقد بدا من هذا التعليل أنّ من مقاصد الشريعة أن يكون المال دُولة بين الأمّة الإسلامية على نظام محكم

في انتقاله من كل مال لم يسبق عليه ملك لأحد مثل. وقد بيَّنتُ ذلك في الكتاب الذي سمّيته (مقاصد الشريعة الإسلامية).

الدُّولة (بضم الدال): ما يتداوله المتداولون. والتداول: التعاقب في التصرّف في شيء. وخصَّها الاستعمال بتداول الأموال. و**الدَّولة** (بفتح الدال): النوبة في الغلبة والملك. ولذلك أجمع القرّاء المشهورون على قراءتها في هذه الآية بضم الدال.

{ **بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ** } الخطاب للمسلمين لأنّهم الذين خوطبوا في ابتداء السورة بقوله تعالى { مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا } [2] ثم قوله تعالى { مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ } [5] وما بعده.

{ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** } اعتراض ذُيّل به حكم فيء بني النضير إذ هو أمر بالأخذ بكل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وممّا جاءت به هذه الآيات في شأن فيء بني النضير. والقصد من هذا التذييل إزالة ما في نفوس بعض الجيش من حزازة حرمانهم ممّا أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم من أرض بني النضير.

الإيتاء: مستعار لتبليغ الأمر إليهم، جُعل تشريعه وتبليغه كإيتاء شيء بأيديهم، كما قال تعالى { خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ } [البقرة:63]، واستعير الأخذ أيضا لقبول الأمر والرضى به والعمل.

وهذه الآية جامعة للأمر باتباع ما يصدر من النبيّ صلى الله عليه وسلم من قول وفعل.

{ **وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** } تحذير من المخالفة بأمرهم بتقوى الله فيما أمر به على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم. وعطفُ الأمر بالتقوى على الأمر بالأخذ بالأوامر وترك المنهيَّات يدلّ على أنّ التقوى هي امتثال الأمر واجتناب النهي.

{ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } [8].

بدل ممّا أشار إليه قوله تعالى { وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ } [7]، بدل بعض من كل. وأوّل فائدة في هذا البدل التنبيه على أنّ ما أفاء الله على المسلمين من أهل القرى المعنيَّة في الآية لا يجري قسمه على ما جرى عليه قسم أموال بني النضير التي اقتُصر في قسمها على المهاجرين وثلاثة من الأنصار ورابع منهم، فكأنّه قيل: ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل <u>للفقراء منهم لا مطلقا</u>، يدخل في ذلك المهاجرون والأنصار والذين آمنوا بعدهم.

<u>ومن العلماء والمفسرين من جعل</u> جملة { لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ } ابتدائية على حذف المبتدأ. والتقدير ما أفاء الله على رسوله للمهاجرين الفقراء إلى آخر ما عطف عليه، فتكون هذه مصارف أخرى للفيء.

<u>ومنهم من جعلها</u> بحذف حرف العطف على طريقة التعداد، كأنّه قيل: فلله وللرسول، إلى آخره، ثم قيل: { لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ }.

فعلى هذين القولين ينتفي كونها قيد للجملة التي قبلها.

{ **الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ** } تنبيه على أنّ إعطاءهم مُراعًى فيه جبر ما نُكبوا به من ضياع الأموال والديار، ومراعى فيه إخلاصهم وأنّهم دائمون على نصر دين الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

{ **أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** } تذييل، واسم الإشارة لتعظيم شأنهم وللتنبيه على أنّ استحقاقهم وصف الصادقين لأجل ما سبق اسم الإشارة من الصفات، وهي أنّهم أُخرجوا من ديارهم وأموالهم وابتغاؤهم فضلا من الله ورضوانا ونصرهم الله ورسوله.

{ **هُمُ الصَّادِقُونَ** } مفيدة القصر، لأجل ضمير الفصل، وهو قصر ادّعائي للمبالغة في وصفهم بالصدق الكامل كأنّ صدق غيرهم ليس صدقا في جانب صدقهم.

{ وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [9].

{ **وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ** } الأظهر أنّها عطف على { الْمُهَاجِرِينَ } [8]، أي: الأنصار.

التبوّء: اتخاذ المباءة وهي البقعة التي يبوء إليها صاحبها، أي: يرجع إليها بعد انتشاره في أعماله.

الدّار: تطلق على البلاد، وأصلها موضع القبيلة من الأرض. وأطلقت على القرية، قال تعالى في ذكر ثمود

{ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ } [الأعراف:78]، أي: في مدينتهم، وهي حجر ثمود.

والتعريف هنا للعهد لأنّ المراد بالدّار: يثرب، والمعنى: الذين هم أصحاب الدار.

{ **وَالْإِيمَانَ** } في موقعها غموض إذ لا يصحّ أن يكون مفعول لفعل { تَبَوَّأُوا }.

قيل: يُجعل الكلام استعارة مكنية بتشبيه الإيمان بالمنزل، وجعل إثبات التبوُّء تخييلا، فيكون فعل {تَبَوَّأُوا} مستعملا في حقيقته ومجازه.

وجمهور المفسّرين جعلوا المعطوف عاملا مقدَّرا يدل عليه الكلام، وتقديره: واخلصوا الإيمان.

وقيل: الواو للمعيّة، و{ الْإِيمَانَ } مفعول معه. وعندي أنّ هذا أحسن الوجوه، وإن قلّ قائلوه.

وهو، على كلّ الوجوه، يفيد الثناء عليهم بأنّ دار الهجرة دار مؤمنين لا يماثلها يومئذ غيرها.

وفي ذكر الدار، وهي المدينة، مع ذكر الإيمان إيماء إلى فضيلة المدينة بحيث جُعل تبوُّؤهم المدينة قرين الثناء عليهم بالإيمان، ولعلّ هذا هو الذي عناه مالك رحمة الله فيما رواه عنه ابن وهب قال: سمعت مالكا يذكر فضل المدينة على غيرها من لآفاق. فقال: " إنّ المدينة تُبُوِّئت بالإيمان والهجرة وإنّ غيرها من القرى افتُتحت بالسيف، ثم قرأ { وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ } ".

{ **يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ** } حال من الذين { تَبَوَّأُوا }، وهذا ثناء عليهم بما تقرَّر في نفوسهم من أخوّة الإسلام إذ أحبُّوا المهاجرين، وشأن القبائل أن يتحرّجوا من الذين يهاجرون إلى ديارهم لمضايقتهم.

وقد أسكنوا المهاجرين معهم في بيوتهم ومنحوهم من نخيلهم، وحسبك الأخوة التي آخى النبيّ صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار.

{ **وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا** } أريد بالوجدان الإدراك العقلي.

الحاجة: في الأصل اسم مصدر الحَوْج، وهو الاحتياج، أي: الافتقار إلى شيء، وتطلق على الأمر المحتاج إليه من إطلاق المصدر على اسم المفعول، وهي هنا مجاز في المأرب والمراد، وإطلاق الحاجة إلى المأرب مجاز مشهور ساوى الحقيقة، كقوله تعالى { وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ } [غافر:80]، وكقوله تعالى { إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا } [يوسف:68].

المعنى: أنّهم لا يخامر نفوسهم تشوّف إلى أخذ شيء ممّا أوتيه المهاجرون من فيء بني النضير.

{ **وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ** }

الايثار: ترجيح شيء على غيره بمكرمة أو منفعة.

والمعنى: يؤثرون على أنفسهم في ذلك اختيارا منهم، وهذا أعلى درجة ممّا أفاده قوله تعالى { وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا } فلذلك عُقِّب به، ولم يُذكر مفعول { يؤثرون } لدلالة { مِمَّا أُوتُوا } عليه.

ومن أمثلة إيثارهم المهاجرين ما روي في الصحيح أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم دعا الأنصار ليقطع لهم قطائع بنخل البحرين فقالوا: لا إلّا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها.

ومن أمثلة إيثار الواحد منهم على غيره منهم ما رواه البخاري عن أبي هريرة قال: أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أصابني الجَهد. فأرسل في نسائه فلم يجد عندهنّ شيئا فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" ألا رجل يُضيف هذا الليلة رحمه الله "** فقام رجل من الأنصار هو أبو طلحة فقال: أنا يا رسول الله فذهب إلى أهله فقال لامرأته: هذا ضيف رسول الله لا تدَّخريه شيئا، فقالت: والله ما عندي إلّا قوت الصبية. قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوِّميهم وتعالى فأطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة. فإذا دخل الضيف فإذا أهوى ليأكل فقومي إلى السراج تري أنّك تصلحينه فأطفئيه وأريه أنّا نأكل. فقعدوا وأكل الضيف. قيل: نزلت هذه الآية في قصّة أبي طلحة وقيل غير ذلك.

{ **وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ** } في موضع الحال.

الخصاصة: شدة الاحتياج.

{ **وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** } تذييل، والواو اعتراضية، فإنّ التذييل من قبيل الاعتراض في آخر الكلام على الرأي الصحيح. وتذييل الكلام بذكر فضل من يوقون شح أنفسهم بعد قوله تعالى { وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ } يشير إلى أنّ إيثارهم على أنفسهم حتّى في حالة الخصاصة هو سلامة من شح الأنفس، فكأنّه قيل: لسلامتهم من شح الأنفس.

الشُّحّ (بضم الشين وكسرها): غريزة في النفس بمنع ما هو لها، وهو قريب من معنى البخل. وأضيف في هذه الآية إلى النفس إشارة إلى أنّه غريزة لا تسلم منها نفس.

وفي الحديث في بيان أفضل الصدقة: **" أن تصَدَّق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى"**.

والنفوس تتفاوت في هذا المقدار، فإذا غلب عليها بمنع المعروف والخير فذلك مذموم ويتفاوت ذمّه بتفاوت ما يمنعه.

{ **فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** } اسم الإشارة لتعظيم هذا الصنف من الناس. وصيغة القصر، المؤدَّاة بضمير الفصل، للمبالغة لكثرة الفلاح الذي يترتَّب على وقاية شح النفس.

{ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ } [10].

عطف على { وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ } [9]، على التفسيرين المتقدمين؛

فأمّا على رأي من جعلوا { وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ } [9] معطوفا على { لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ } [8] جعلوا {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ } فريقا من أهل القرى، وهو غير المهاجرين والأنصار بل هو من جاء إلى الإسلام بعد المهاجرين والأنصار. والمجيء مستعمل في الدخول في الإسلام، وهذا فريق ثالث، وهؤلاء هم الذين ذُكروا في قوله تعالى { وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ } [التوبة:100] أي: اتبعوهم في الإيمان.

{ **جَاءُوا** } صيغة الماضي للتغليب، لأنّ من العرب وغيرهم من أسلموا بعد الهجرة مثل غِفارة، ومُزينة، وأسلم، ومثل عبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، فكأنّه قيل: الذين جاؤوا ويجيئون، بدلالة لحن الخطاب.

والمقصود من هذا: زيادة دفع إيهام أن يختصّ المهاجرون بما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم من أهل القرى كما اختصَّهم النبيّ صلى الله عليه وسلم بفيء بني النضير.

وقد شملت هذه الآية كلّ من يوجد من المسلمين أبد الدهر. ذكر القرطبي: أنّ عمر دعا المهاجرين والأنصار واستشارهم فيما فتح الله عليه وقال لهم: تثبَّتوا الأمر وتدبَّروه ثمّ اغدوا عليّ فلما غدو عليه قال: قد مررت بالآيات التي في سورة الحشر وتلا { مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى - إلى قوله - أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } [8/7]. قال: ما هي لهؤلاء فقط وتلا { وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ - إلى قوله - رَؤُوفٌ رَحِيمٌ } ثم قال: ما بقى من أهل الإسلام إلّا وقد دخل في ذلك ".

وهذا ظاهر في الفيء، وأمّا ما فُتح عنوة فمسألة أخرى ولعمر بن الخطاب في عدم قسمته سواد العراق بين الجيش الفاتحين له عمل آخر، وهو ليس غرضنا. ومحله كتب الفقه والحديث.

والذين جعلوا قوله تعالى { وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ } [9]، كلاما مستأنفا، وجعل { يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ } [9] خبرا عن اسم الموصول، جعلوا قوله { وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ } كذلك مستأنفا.

{ **يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا** } في موضع الحال من { وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ }. بيَّن الله للذين جاؤوا من

بعدهم ما يُكسبهم فضيلة ليست للمهاجرين والأنصار، وهي فضيلة الدعاء لهم بالمغفرة وانطواء ضمائرهم على محبَّتهم وانتفاء البغض لهم.

الغِل (بكسر الغين): الحسد والبغض، أي: سألوا الله أن يطهِّر نفوسهم من الغل والحسد للمؤمنين السابقين على ما أُعطُوه من فضيلة صحبة النبيّ صلى الله عليه وسلم، وما فُضِّل به بعضهم من الهجرة وبعضهم من النصرة.

وقد دلت الآية على أنّ حقًّا على المسلمين محبة المهاجرين والأنصار وتعظيمهم، وأن يذكروهم بخير.

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } [11].

أُعقِب ذكر ما حلَّ ببني النضير وما اتصل به من بيان أسبابه، ثم بيان مصارف فيئهم وفيء ما يُفتح من القرى بعد ذلك، بذكر أحوال المنافقين مع بني النضير وتغريرهم بالوعود الكاذبة ليعلم المسلمون أنّ النفاق سجيَّة في أولئك لا يتخلّون عنه ولو في جانب قوم هم الذين يودُّون أن يظهروا على المسلمين.

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا } الجملة استئناف ابتدائي، والاستفهام مستعمل في التعجيب من حال المنافقين، فبُني على نفي العلم بحالهم كناية عن التحريض على ايقاع هذا العلم كأنّه يقول: تأمَّل الذين نافقوا في حال مقالتهم لإخوانهم ولا تترك النظر في ذلك فإنّه حال عجيب.

{ الَّذِينَ نَافَقُوا } هم فريق من بني عوف من الخزرج من المنافقين سُمِّي منهم عبد الله بن أبَي بن سلول، وعبد الله بن نبتل، ورفاعة بن زيد، ورافعة بن تابوت، وأوس بن قيضي، ووديعة بن أبي قوتل، أو ابن قوقل، وسويد (لم ينسب) وداعس (لم ينسب)، بعثوا إلى بني النضير حين حاصرهم جيش المسلمين يقولون لهم: أثبتوا في معاقلكم فإنّا معكم.

{ يقولون } في موضع المفعول الثاني. والتقدير: ألم ترهم قائلين. وجيء بالفعل المضارع لقصد تكرّر ذلك منهم، أي: يقولون ذلك مؤكِّدينه ومكرِّرينه.

{ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ } المراد بنو النضير، وإنّما وصفهم بالإخوة لهم لأنّهم كانوا متّحدين في الكفر برسالة محمد صلى الله عليه وسلم. وفي الوصف بذلك إيماء إلى أنَّ جانب الأخوة بينهم هو الكفر إلّا أنّ كفر المنافقين كفر الشرك وكفر إخوانهم هو الكفر برسالة محمد صلى الله عليه وسلم.

{ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ } اللام موطِّئة للقسم، أي: قالوا لهم كلاما مؤكَّدا بالقسم.

{ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً } معطوفة على جملة { لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ } فهي من المقول لا من المقسم عليه، وقد أعربت عن المؤكَّد، لأنّ بني النضير يعلمون أن المنافقين لا يطيعون الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين فكان المنافقون في غنية عن تحقيق هذا الخبر.

{ **فِيكُمْ** } في شأنكم، أي: في ضرّكم. ونظيره قوله تعالى {فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ} [المائدة:52]، أي: في الموالاة لهم.

{ **وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ** } لنُعِينَنَّكُم في القتال. والنصر يطلق على الإعانة على المعادي.

{ **وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ** } أعلم الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأنّهم كاذبون في ذلك، بعد ما أعلمه بما اقسموا عليه تطمينا لخاطره، لأنّ الآية نزلت بعد إجلاء بني النضير وقبل غزو قريظة لئلا يتوجّس الرسول صلى الله عليه وسلم خيفة من بأس المنافقين، وسمَّى الله الخبر شهادة لأنّه خبر عن يقين بمنزلة الشهادة التي لا يتجازف المخبر في شأنها.

{ لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ } [12].

{ **لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ** } بيان لجملة { وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } [11]. واللام موطِّئة للقسم، وهذا تأكيد من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أنّهم لن يضرُّوه شيئا لكيلا يعبأ بما بلغه من مقالتهم.

{ **لَئِنْ أُخْرِجُوا / وَلَئِنْ قُوتِلُوا** } الضميران عائدان إلى { الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ } [الحشر:11]، أي: الذين لم يُخرجوا ولما يُقاتلوا وهم قريظة وخيبر، أمّا بنو النضير فقد أخرجوا قبل نزول هذه السورة فهم غير معنيين بهذا الخبر المستقبل. والمعنى: لئن أخرج بقية اليهود في المستقبل لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا في المستقبل لا ينصرونهم. وقد سلك في هذا البيان طريق الإطناب. فإنّ قوله تعالى { وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } [11] جمع ما في هاتين الجملتين فجاء بيانه بطريقة الإطناب لزيادة تقرير كذبهم.

{ **وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ** } ارتقاء في تكذيبهم على ما وعدوا به إخوانهم، و(الواو) واو الحال.

{ **وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ** } هنا لإرادة وقوع الفعل بقرينة قوله تعالى { لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ }، والمعنى: أنّه لو فُرض أنّهم أرادوا نصرهم فإنّ أمثالهم لا يُترقَّب منهم الثبات في الوغى فلو أرادوا نصرهم وتجهَّزوا معهم لفرُّوا عند الكريهة، وهذا كقوله { لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ } [التوبة:47].

{ **ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ** } { ثُمَّ } للتراخي الرتبي، كما هو شأنها في عطف الجمل، فإنّ انتفاء النصر أعظم رتبة في تأييس أهل الكتاب من الانتفاع بإعانة المنافقين فهو أقوى من انهزام المنافقين إذا جاؤوا لإعانة أهل الكتاب في القتال. وضمير { لا يُنْصَرُونَ } عائد إلى الذين كفروا من أهل الكتاب، إذ الكلام جار على وعد المنافقين بنصر أهل الكتاب. والمقصود: تثبيت رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين وتأمينهم من بأس أعدائهم.

{ **لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ** } [13].

لمّا كان المقصود من ذكر وهن المنافقين في القتال تشديد نفس النبيّ صلى الله عليه وسلم وأنفس المؤمنين حتّى لا يرهبوهم ولا يخشوا مساندتهم لأهل حرب المسلمين أحلاف المنافقين؛ قريظة وخيبر، أُعقِب ذلك بإعلام المؤمنين بأنّ المنافقين وأحلافهم يخشون المسلمين خشية شديدة وُصفت شدَّتها بأنّها أشدّ من خشيتهم الله تعالى، وذلك منتهى الخشية. والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم ومن معه من المسلمين.

والمقصود: تشديد نفوس المسلمين ليعلموا أنّ عدوَّهم مُرْهَب منهم، وذلك ممّا يزيد المسلمين إقداما في محاربتهم، إذ ليس سياق الكلام للتسجيل على المنافقين واليهود قلّة رهبتهم لله.

{ **فِي صُدُورِهِمْ** } الضمير عائد إلى { الَّذِينَ نَافَقُوا } و{ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ } [11]، إذ ليس اسم أحد الفريقين أولى بعود الضمير إليه، مع صلاحية الضمير لكليهما، ولأنّ المقصودين بالقتال هم يهود قريظة وخيبر وأمّا المنافقون فكانوا أعوانا لهم.

{ **مِنَ اللَّهِ** } هو المفضَّل عليه، وهو على حذف مضاف، أي: من رهبة الله. وهذا تركيب غريب النسج بديعه. والمألوف في أداء مثل هذا المعنى أن يقال: لرهبتهم منكم في صدورهم أشد من رهبتهم من الله، فحُوِّل عن ذلك، ليتأتّى الابتداء بضمير المسلمين اهتماما به وليكون متعلّق الرهبة ذوات المسلمين لتوقّع بطشهم، وليتأتّى التمييز المحوَّل عن الفاعل لما فيه من خصوصية الإجمال مع التفصيل، وليتأتّى حذف المضاف في تركيب { مِنَ اللَّهِ }، إذ التقدير: من رهبة الله، لأنّ حذفه لا يحسُن إلّا إذا كان موقعه متصلا بلفظ { رَهْبَةً }، إذ لا يحسن أن يقال: لرهبتهم أشد من الله.

فاليهود والمنافقون من شأنهم أن يخشوا الله؛ أمّا اليهود فلأنّهم أهل دين فهم يخافون الله ويحذرون عقاب الدنيا وعقاب الآخرة. وأمّا المنافقون فهم مشركون وهم يعترفون بأنّ الله تعالى هو الإله الأعظم، وأنّه أولى الموجودات بأن يُخشى لأنّه رب الجميع، وهم لا يثبتون البعث والجزاء فخشيتهم الله قاصرة على خشية عذاب الدنيا من خسف وقحط واستئصال ونحو ذلك.

{ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ** } وإذ قد حصلت البشارة من الخبر عن الرعب الذي في قلوبهم ثُنِيَ عنان الكلام إلى مذمّة هؤلاء الأعداء من جرّاء كونهم أخوف للناس منهم لله تعالى بأنّ ذلك من قلة فقه نفوسهم، ذلك أنهم تبعوا دواعي الخوف المشاهد وذهلوا عن الخوف المُغيَّب عن أبصارهم، وهو خوف الله.

والجملة معترضة بين البيان ومبيّنه.

الفقه: فهم المعاني الخفيّة، وتقدّم عند قوله تعالى { فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً } [النساء:78].

{ **لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ** } [14].

{ **لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ** } بدل اشتمال من جملة { لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ } [13]، لأنّ شدّة الرهبة من المسلمين تشتمل على شدّة التحصّن لقتالهم إيّاهم، أي: لا يقدرون على قتالكم إلّا في هاته الأحوال.

{ **لا يُقَاتِلُونَكُمْ** } الضمير المرفوع عائد إلى { الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ } [11].

{ **جَمِيعًا** } الراجح أن يكون بمعنى كلّهم، كقوله تعالى { إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً } [المائدة:48]، فيكون للشمول، أي: اليهود والمنافقون.

{ **إِلَّا فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ** } استثناء حقيقي من عموم الأحوال، أي: لا يقاتلونكم كلّهم إلّا في حال الكون في قرى محصّنة.

{ **مُحَصَّنَةٍ** } ممنوعة ممَّن يريد أخذها، بأسوار أو خنادق.

{ **قُرَى** } بالقصر جمع قرية.

{ **جُدُرٍ** } بضمَّتين في قراءة الجمهور جمع جِدار. وقرأه ابن كثير وأبو عمرو { جدار } على الإفراد.

{ **بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ** } استئناف بياني، لأنّ الإخبار عن أهل الكتاب وأنصارهم بأنّهم لا يقاتلون المسلمين إلّا في قرى محصّنة، المفيد أنّهم لا يتَّفقون على جيش واحد متساندين فيه، ممّا يثير في نفس السامع أن يسأل عن موجب ذلك مع أنّهم متّفقون على عداوة المسلمين. فيُجاب بأنّ بينهم بأسا شديدا وتدابرا، فهم لا يتّفقون.

{ **بَأْسُهُمْ** } افتتحت به الجملة للاهتمام بالإخبار عنه بأنّه { بَيْنَهُمْ } وليس بأسهم على المسلمين، وفيه تهكُّم.

{ **تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً** } استئناف عن جملة { بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ }، لأنّه قد يسأل السائل: كيف ذلك ونحن نراهم متّفقين؟ فأُجيب بأنّ ظاهر حالهم حال اجتماع واتحاد وهم في بواطنهم مختلفون.

والخطاب لغير معيَّن لأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لا يحسب ذلك.

وهذا تشجيع للمسلمين على قتالهم والاستخفاف بجماعتهم.

وفي الآية تربية للمسلمين ليحذروا من التخالف والتدابر ويعلموا أنّ الأمة لا تكون ذات بأس على أعدائها إلّا إذا كانت متّفقة الضمائر يرون رأيا متماثلا في أصول مصالحها المشتركة، وإن اختلفت في خصوصياتها، التي لا تنقض أصول مصالحها، ولا تفرّق جامعتها، وأنّه لا يكفي في الاتحاد توافق الأقوال ولا التوافق على الأغراض إلّا أن تكون الضمائر خالصة من الإحن والعداوات.

القلوب: العقول والأفكار، وإطلاق القلب على العقل كثير في اللغة.

{ **شَتَّى** } جمع شتيت بمعنى مفارق، بوزن فَعْلَى مثل قتيل وقتلى، شُبِّهت العقول المختلفة مقاصدها بالجماعات المتفرّقين في جهات، في أنّها لا تتلاقى في مكان واحد.

والمعنى: أنّهم لا يتفقون على حرب المسلمين.

{ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ** } إشارة إلى ما ذُكر من أنّ بأسهم بينهم ومن تشتت قلوبهم، أي: ذلك مسبَّب على عدم عقلهم، إذ انساقوا إلى إرضاء خواطر الأحقاد والتشفِّي بين أفرادهم وأهملوا النظر في عواقب الأمور واتباع المصالح، فأضاعوا مصالح قومهم.

{ **قَوْمٌ** } تقدم غير مرة أنّ إسناد الحكم إلى عنوان قوم يؤذن بأنّ ذلك الحكم كالجبلّة المقوِّمة للقوميّة.

{ **لا يَعْقِلُونَ** } أوثرت هنا هذه الصفة وفي الآية التي قبلها { لا يَفْقَهُونَ } [13] لأنّ معرفة مآل التشتّت في الرأي وصرف البأس إلى المشارك في المصلحة من الوهن والفتّ في ساعد الأمّة معرفة مشهورة بين العقلاء، فإهمالهم سلوك ذلك جعلهم سواء مع من لا عقول لهم، فكانت هذه الحالة شقوة لهم حصلت منها سعادة للمسلمين.

{ **كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** } [15].

خبر مبتدأ محذوف دلّ عليه هذا الخبر، فالتقدير: مثلهم كمثل الذين من قبلهم قريبا، أي: حال أهل الكتاب الموعود بنصر المنافقين كحال الذين من قبلهم قريبا.

والمراد: أنّ حالهم المركبة من التظاهر بالبأس مع إضمار الخوف من المسلمين، ومن التفرّق بينهم وبين إخوانهم من أهل الكتاب، ومن خذلان المنافقين إيّاهم عند الحاجة، ومن أنّهم لا يقاتلون المسلمين إلّا في قرى محصنة أو من وراء جدر، كحال الذين كانوا من قبلهم في زمن قريب وهم بنو النضير، فإنّهم أظهروا الاستعداد للحرب وأبَوْا الجلاء، فلم يحاربوا إلّا في قريتهم إذ حصّنوها وقبعوا فيها حتّى أعياهم الحصار فاضطرُّوا إلى الجلاء ولم ينفعهم المنافقون ولا إخوانهم من أهل الكتاب.

الوبال: أصله وَخَامة المرعى، يقال: كلأ وبيل، إذا كان مرعى خضرا تهش إليه الإبل فيحبطها ويمرضها أو يقتلها، فشُبِّهوا في إقدامهم على حرب المسلمين مع الجهل بعاقبة تلك الحرب بإبل ترامت على مرعى وبيل فهلكت، فكان ذكر { ذَاقُوا } مع { وَبَالَ } إشارة إلى هذه الاستعارة.

{ **أَمْرِهِمْ** } شأنهم وما دبَّروه وحسبوا له حسابه، وذلك أنّهم أوقعوا أنفسهم في الجلاء وترك الديار. أي: ذاقوا سوء أعمالهم في الدنيا.

{ **وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** } عائد إلى { الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ }، أي: زيادة على ما ذاقوه من عذاب الدنيا بالجلاء وما فيه من مشقة على الانفس والأجساد لهم عذاب أليم في الآخرة على الكفر.

{ **كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ** [16] **فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ** [17] }.

الوجه أنّ هذا المثل متّصل بقوله تعالى {وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [15]، كما يُفصح عنه قوله في آخره { فكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ }، أي: مثلهم في تسبيبهم لأنفسهم عذاب الآخرة كمثل الشيطان إذ يوسوس للإنسان بأن يكفر ثم يتركه ويتبرَّأ منه فلا ينتفع أحدهما بصاحبه ويقعان معا في النار.

{ **كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ** } حال من ضمير { وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [15]، أي: في الآخرة.

{ **الشَّيْطَانِ** } تعريف الجنس، وكذلك تعريف { **لِلْإِنْسَانِ** }، والمراد به الإنسان الكافر.

{ **إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ** } قول الشيطان هذا هو ما في قوله تعالى { وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ } [إبراهيم:22].

فالمعنى: إذ قال للإنسان في الدنيا اكفر فلمّا كفر ووافى القيامة على الكفر قال الشيطان يوم القيامة { إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ }، أي: قال كلّ شيطان لقرينه من الإنس ذلك طمعا في أن يكون منجيه من العذاب.

{ **فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا** } من تمام المثل. أي كان عاقبتهما الخسران معا. وكذلك تكون عاقبة الفريقين الممثَّلين أنّهما خائبان فيما دبَّرا وكادا للمسلمين.

{ **وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ** } تذييل، والإشارة الى ما يدلّ عليه { فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ } من معنى.

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** } [18].

انتقال من الامتنان على المسلمين بما يسرُّ من فتح قرية بني النضير بدون قتال، وما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم منهم، ووصف ما جرى من خيبتهم وخيبة أملهم في نصرة المنافقين، ومن الإيذان بأنّ عاقبة أهل القرى الباقية كعاقبة أسلافهم. وكذلك موقف أنصارهم معهم، الى الأمر بتقوى الله شكرا له على ما منح وما وعد من صادق الوعد، فإنّ الشكر جزاء العبد عن نعمة ربّه إذ لا يستطيع جزاء غير ذلك.

{ **وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ** } لمّا كان ما تضمَّنته السورة من تأييد الله إيّاهم وفيض نعمه عليهم كان من منافع الدنيا، أعقبه بتذكيرهم بالإعداد للآخرة، أي: لتتأمل كل نفس فيما قدَّمته للآخرة.

والجملة عطف أمر على أمر آخر، وهي معترضة بين جملة { اتَّقُوا اللَّهَ } وجملة { إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}. { **نَفْسٌ** } إظهار في مقام الإضمار لأنّ مقتضى الظاهر: وانظروا ما قدمتم، فعدل عن الإضمار

لقصد العموم، أي: لتنظروا وتنظر كلّ نفس. والتنكير أيضا لتأكيد العموم.

التقديم: مستعار للعمل الذي يُعمل لتحصيل فائدته في زمن آت.

{ **لِغَدٍ** } اطلق على الزمن المستقبل مجازا لتقريب الزمن المتقبل من البعيد لملازمة اقتراب الزمن لمفهوم الغد، لأنّ الغد هو اليوم الموالي لليوم الذي فيه المتكلّم فهو أقرب أزمنة المستقبل. وهذا المجاز شائع في كلام العرب، في لفظ غد وأخواته.

والتنكير للتعظيم والتهويل، أي: لغد لا يُعرف كنهه.

واللام لام العلة، أي: ما قدَّمته لأجل يوم القيامة، أي: لأجل الانتفاع به.

{ **وَاتَّقُوا اللَّهَ** } الإعادة ليُبنى عليه { إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ }، فيحصل الربط بين التعليل والمعلَّل إذ وقع بينهما فصل { وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ } وإنّما أعيد بطريق العطف لزيادة التأكيد فإنّ التوكيد اللفظي يؤتى به تارة معطوفا، وذلك أنّ في العطف إيهام أن يكون التوكيد يجعل كالتأسيس لزيادة الاهتمام بالمؤكد.

ويجوز أن يكون { اتَّقُوا اللَّهَ } المذكور أوّلا مراد به التقوى بمعنى الخوف من الله وهي الباعثة على العمل ولذلك أردف بقوله تعالى { وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ }، ويكون { اتَّقُوا اللَّهَ } المذكور ثانيا مراد به الدوام على التقوى الأولى، أي: ودوموا على التقوى.

{ **إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** } تعليل للجث على تقوى الله وموقع { إِنَّ } فيها موقع التعليل. وإظهار اسم الجلالة في مقام الإضمار لتكون الجملة مستقلّة بدلالتها أتم استقلال، فتجري مجرى الأمثال، ولتربية المهابة في نفس المخاطبين.

{ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } [19].

بعد أن أمر المؤمنين بتقوى الله وإعداد العُدَّة للآخرة، أعقبه بهذا النهي تحذيرا عن الإعراض عن الدين والتغافل عن التقوى، وذلك يفضي الى الفسوق. وجيء في النهي بنهيهم عن حالة قوم تحقَّقت فيهم هذه الصلة ليكون النهي عن إضاعة التقوى مصوَّرا في صورة محسوسة.

وهذا الإعراض مراتب قد تنتهي إلى الكفر الذي تلبَّس به اليهود وإلى النفاق الذي تلبَّس به فريق ممَّن أظهروا الإسلام في أوّل سني الهجرة.

{ **كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ** } ظاهر الموصول أنّه لطائفة معهودة، فيحتمل أن يراد بـهم المنافقين لأنّهم كانوا مشركين ولم يهتدوا للتوحيد بهدى الإسلام فعُبِّر عن النفاق بنسيان الله لأنّه جهل بصفات الله من التوحيد والكمال. وعُبِّر عنهم بالفاسقين في قوله تعالى { نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } [التوبة:67]، فتكون هذه الآية ناظرة إلى تلك.

ويحتمل أن يكون المراد بهم اليهود لأنّهم أضاعوا دينهم ولم يقبلوا رسالة عيسى عليه السلام وكفروا

بمحمد صلى الله عليه وسلم. فالمعنى: نسوا دين الله وميثاقه الذي واثقهم به، قال تعالى { وأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ } [البقرة:41/40].

وإظهار اسم الجلالة، دون أن يقال: نسوه، لاستفظاع هذا النسيان.

{ **فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ** } أي: لمّا أعرضوا عن الهدى بكسبهم وارادتهم عاقبهم الله بأن خلق فيهم نسيان أنفسهم.

{ **أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** } القصر المستفاد من ضمير الفصل قصر ادعائي للمبالغة في وصفهم بشدّة الفسق حتّى كأنّ فسق غيرهم ليس بفسق في جانب فسقهم. واسم الإشارة للتشهير بهم بهذا الوصف.

والجملة مستأنفة استئنافا بيانيًّا لبيان الإبهام الذي أفاده قوله تعالى { فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ }، كأن السامع سأل: ماذا كان إثر إنساء الله إيّاهم أنفسهم؟ فأجيب بأنّهم بلغوا بسبب ذلك منتهى الفسق في الأعمال السيّئة حتّى حقّ عليهم أن يقال: إنّه لا فسق بعد فسقهم.

الفسق: الخروج من المكان الموضوع للشيء، فهو صفة ذمّ غالبا لأنّه مفارقة للمكان اللائق بالشيء، ومنه قيل: فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها. فالفاسقون هم الآتون بفواحش السيّئات، وأعظمها الإشراك.

{ لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ } [20].

تذييل لجملة { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ } [18]. لأنّه جامع لخلاصة عاقبة الحالين: حال التقوى والاستعداد للآخرة، وحال نسيان ذلك وإهماله، ولكلا الفريقين عاقبة عمله. ويشمل الفريقين وأمثالهم.

والجملة أيضا فذلكة لما قبلها من حال المتّقين والذين نسوا الله ونسوا أنفسهم لأنّ ذكر مثل هذا الكلام بعد ذكر أحوال المتحدَّث عنهم يكون في الغالب للتعريض بهم، فمعنى الآية كناية عن كون المؤمنين هم أصحاب الجنة، وكون الذين نسوا الله هم أهل النار، فتضمَّنت الآية وعدا للمتقين ووعيدا للفاسقين.

{ **لا يَسْتَوِي** } المراد من نفي الاستواء، في مثل هذا، الكناية عن البون بين الشيئين. وتعيين المفضَّل من الشيئين موكول إلى فهم السامع من قرينة المقام.

{ **أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ** } القصر المستفاد من ضمير الفصل قصر ادّعائي لأنّ فوزهم أبدي، فاعتبر فوز غيرهم ببعض أمور الدنيا كالعدم.

{ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } [21].

لمّا حذَّر المسلمين من الوقوع في مِهواة نسيان الله التي وقع فيها الفاسقون، وتوعَّد الذين نسوا الله بالنار، وبيَّن حالهم بأنّ الشيطان سوّل لهم الكفر. وكان القرآن دالا على مسالك الخير ومحذِّرا من مسالك الشرّ، وما وقع الفاسقون في الهلكة إلّا من جرّاء إهمالهم التدبَّر فيه، وذلك من نسيانهم الله تعالى، انتقل الكلام إلى التنويه بالقرآن وهديه البيِّن الذي لا يصرف الناسَ عنه إلّا أهواءُهم ومكابرتُهم، وكان إعراضهم عنه أصل استمرار ضلالهم وشركهم، ضرب لهم هذا المثل تعجيبا من تصلُّبهم في الضلال.

وفي هذا الانتقال إيذان بانتهاء السورة لأنّه انتقال بعد طول الكلام في غرض فتح قرى اليهود وما ينال المنافقين من جرّائه من خسران في الدنيا والآخرة.

{ **لَوْ أَنْزَلْنَا** } إنزال القرآن مستعار للخطاب به. عُبِّر عنه بالإنزال على طريقة التبعية تشبيها لشرف الشيء بعلو المكان، ولإبلاغه للغير بإنزال الشيء من علوّ.

{ **هَذَا الْقُرْآنُ** } إشارة إلى المقدار الذي نزل منه، وهو ما عرفوه وتلَوه وسمعوا تلاوته.

وفائدة الإتيان باسم إشارة القريب التعريض لهم بأنّ القرآن غير بعيد عنهم. وأنّه في متناولهم ولا كلفة عليهم في تدبُّره ولكنّهم قصدوا الإعراض عنه.

{ **عَلَى جَبَلٍ** } المراد حقيقة الجبل، لأنّ الكلام فرض. فالجبل مثال لأشد الأشياء صلابة وقلّة تأثّر بما يقرعه.

{ **لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ** } الخطاب لغير معيّن فيعمّ كلّ من يسمع هذا الكلام.

والرؤية بصرية، وهي منفية لوقوعها جوابا لحرف { لَوْ } الامتناعية.

الخشوع: التطأطؤ والركوع، أي: لرأيته ينزل أعلاه إلى الأرض.

التصدّع: التشقّق، أي: لتزلزل وتشقق من خوفه الله تعالى. ضُرب التصدّع مثلا لشدة الانفعال والتأثّر لأنّ منتهى تأثر الأجسام الصلبة أن تنشقّ وتتصدّع، إذ لا يحصل ذلك لها بسهولة.

والمعنى: لو كان المخاطب بالقرآن جبلا، وكان الجبل يفهم الخطاب لتأثر بخطاب القرآن تأثرا ناشئا من خشية الله.

{ **وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ** } تذييل لأنّ ما قبلها سيق مساق المثل فذُيِّل بأنّ الأمثال التي يضربها الله في كلامه مثل المثل أراد منها أن يتفكَّروا فإنّ لم يتفكروا بها فقد سُجِّل عليهم عنادهم ومكابرتهم.

{ **تِلْكَ** } الإشارة إلى مجموع ما مرَّ على أسماعهم من الأمثال الكثيرة، وتقدير الكلام: ضربنا هذا مثلا.

{ **نَضْرِبُهَا** } ضرب المثل سوقه، أُطلق عليه الضرب بمعنى الوضع، كما يقال: ضرب بيتا، وتقدّم بيان ذلك عند قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا } [البقرة:26].

{ **هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ** } [22].

لمّا تكرَّر في هذه السورة ذكر اسم الله وضمائره وصفاته أربعين مرة؛ منها أربع وعشرون بذكر اسم الجلالة وست عشرة مرة بذكر ضميره الظاهر، أو صفاته العلية.

وكان ما تضمّنته السورة **دلائل** على عظيم قدرة الله وبديع تصرّفه وحكمته، وا**عتبار** بعظيم قدرة الله إذ أيّد النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين ونصرهم على بني النضير، ذلك النصر الخارق للعادة، **وذِكر** ما حلّ بالمنافقين أنصارهم، وأنّ ذلك لأنّهم شاقوا الله ورسوله، وذلك بالثناء على المؤمنين بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم الذين نصروا الدين، ثم الأمر بطاعة الله والاستعداد ليوم الجزاء، والتحذير من الذين أعرضوا عن كتاب الله ومن سوء عاقبتهم، وخُتم ذلك بالتذكير بالقرآن الدال على الخير، والمعرِّف بعظمة الله المقتضية شدّة خشيته، **عُقِّب** ذلك بذكر طائفة من عظيم صفات الله ذات الآثار العديدة في تصرفاته المناسبة لغرض السورة، زيادة في تعريف المؤمنين بعظمته المقتضية للمزيد من خشيته، وبالصفات الحسنى الموجبة لمحبّته، وزيادة في إرهاب المعاندين المعرضين من صفات بطشه وجبروته.

ولذلك ذكر في هذه الآيات الخواتم للسورة من صفاته تعالى ما هو مختلف التعلق والآثار للفريقين.

وفي غضون ذلك كلّه دلائل على بطلان إشراكهم به أصنامهم.

{ **هُوَ** } مبتدأ واسم الجلالة { **اللَّهُ** } خبر عنه و{ **الَّذِي** } صفة لاسم الجلالة. والضمير عائد إلى اسم الجلالة في قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ } [18].

وكان مقتضى الظاهر الاقتصار على الضمير دون ذكر اسم الجلالة لأنّ المقصود الإخبار عن الضمير بـ { الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ } وبما بعد ذلك من الصفات العليَّة، فالجمع بين الضمير وما يساوي مُعاده اعتبار بأنّ اسم الجلالة يجمع صفات الكمال، لأنّ أصله الإله ومدلول الإله يقتضي جمع صفات الكمال.

ويجوز أن يُجعل ضمير الشأن ويكون الكلام استئنافا قُصد منه تعليم المسلمين هذه الصفات ليتبصَّروا فيها، وللردّ على المشركين إشراكهم بصاحب هذه الصفات معه أصنافا ليس لواحد منها شيء من مثل هذه الصفات، ولذلك خُتمت طائفة منها بجملة { سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ } [23]، لتكون ختاما لهذه السورة الجليلة التي تضمَّنت مِنَّةً عظيمة، وهي مِنَّة الفتح الواقع والفتح الميسَّر في المستقبل.

وليعلم المشركون والكافرون من اليهود أنّهم ما تعاقبت هزائمهم إلّا من جرّاء كفرهم.

ولما كان شأن هذه الصفات عظيما ناسب أن تُفتتح الجملة بضمير الشأن، فيكون اسم الجلالة مبتدأ و{ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} خبر، والجملة خبر عن ضمير الشأن.

{ **الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ** } ابتدئ في هذه الصفات العليَّة بصفة الوحدانية، وهي الأصل فيما يتبعها من الصفات. ولذلك كثر في القرآن ذكرها عقب اسم الجلالة كما في آية الكرسي [البقرة:255]، و[آل عمران:2].

{ **عَالِمُ الْغَيْبِ** } ثُني بهذه الصفة لأنّها التي تقتضيها صفة الإلهية، إذ علم الله هو العلم الواجب، وهي تقتضي جميع الصفات.

{ **الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ** } ومن متعلّقات علمه أمور الغيب لأنّه الذي فارق به علمُ الله تعالى علمَ غيره، وذُكر معه علم الشهادة للاحتراس من توهّم أنّه يعلم الحقائق الكلية فقط، كما ذهب إليه فريق من الفلاسفة الأقدمين. والتعريف في { الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ } للاستغراق الحقيقي.

{ **هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ** } ضمير فصل يفيد قصر الرحمة عليه تعالى لعدم الاعتداد برحمة غيره لقصورها، قال تعالى { وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ } [الأعراف:156]. وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" جعل الله الرحمة في مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا وأنزل في الأرض جزءا واحدا. فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق حتّى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه ".**

وقد تقدم الكلام على { الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } [الفاتحة:3].

ووجه تعقيب صفة عموم العلم بصفة الرحمة أنّ عموم العلم يقتضي أن لا يغيب عن علمه شيء من أحوال خلقه وحاجتهم إليه، فهو يرحم المحتاجين إلى رحمته ويهمل المعاندين إلى عقاب الآخرة، فهو رحمان بهم في الدنيا. وقد كثر إتباع اسم الجلالة بصفتي { الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } في القرآن، كما في الفاتحة.

{ **هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ** } [23].

{ **هُوَ** } القول فيه كالقول في نظيره في الجملة الأولى. وهذا تكرير للاستئناف، لأنّ المقام مقام عظيم وهو من مقامات التكرير، وفيه اهتمام بصفة الوحدانيّة.

{ **الْمَلِكُ** } الحاكم في النّاس، ولا مَلِكَ على الإطلاق إلّا الله تعالى، وأمّا وصف غيره بالملك فهو بالإضافة إلى طائفة معينة من الناس. وعُقِّب وصف الرحمة بوصف { الْمَلِكُ } للإشارة إلى أنّ رحمته فضل وأنّه مطلق التصرّف، كما وقع في سورة الفاتحة.

{ **الْقُدُّوسُ** } (بضم القاف في الأفصح وقد تفتح القاف)، وعُقِّب بهذا الوصف بعد { الْمَلِكُ } للاحتراس، إشارة إلى أنّه منزَّه عن نقائص الملوك المعروفة.

{ **السَّلامُ** } مصدر بمعنى المسالمة، وُصف الله تعالى به على طريقة الوصف بالمصدر للمبالغة، أي: ذو السلامة، وهي أنّه تعالى سالَمَ الخلق من الظلم والجور.

وفي الحديث: **" إنّ الله هو السلام ومنه السلام ".**

وهذا احتراس أيضا، للدلالة على العدل في معاملته الخلق.

{ **الْمُؤْمِنُ** } اسم فاعل من آمن الذي همزته للتعدية، أي: جعل غيره آمنا. فالله هو الذي جعل الأمان في غالب أحوال الموجودات، إذ خلق نظام المخلوقات بعيدا عن الأخطار والمصائب، وإنّما تعرض

للمخلوقات المصائب بعوارض تتركّب من تقارن أو تضاد أو تعارض المصالح.

إتمام للاحتراس من توهّم وصفه تعالى بـ { الْمَلِكُ } أنّه كالملوك المعروفين بالنقائص. فأفيد أولا نزاهة ذاته بوصف { الْقُدُّوسُ }، ونزاهة تصرّفاته الظاهرة عن الجور والظلم بوصف { السَّلامُ }، ونزاهة تصرّفاته المغيَّبة عن الغدر والكيد بوصف { الْمُؤْمِنُ }.

{ **الْمُهَيْمِنُ** } الرقيب بلغة قريش، والحافظ في لغة بقية العرب. واختُلف في اشتقاقه:

فقيل: مشتق من أمن الداخل عليه همزة التعدية فصار ءامن، وأنّ وزن الوصف (مُؤَيْمِن) قلبت همزته هاء. وقيل: أصله هيمن بمعنى: رقب، كذا في لسان العرب وعليه فالهاء أصلية ووزنه مُفَيْعِل.

وفي (المقصد الأسنى في شرح الأسماء الحسنى) للغزالي: " القائم على خلقه بأعمالهم وأرزاقهم، وإنّما قيامه عليهم باطلاعه واستيلائه وحفظه. والإشراف [الذي هو الاطلاع] يرجع إلى العلم، والاستيلاء يرجع إلى كمال القدرة، والحفظ يرجع إلى الفعل ".

وتعقيب { الْمُؤْمِنُ } بـ { الْمُهَيْمِنُ } لدفع توهّم أن تأمينه عن ضعف أو عن مخافة.

{ **الْعَزِيزُ** } الذي لا يُغلب، ولذلك فُسِّر بالغالب.

{ **الْجَبَّارُ** } : القاهر المُكْرِه غيره على الانفعال بفعله، فالجبّار من أمثلة المبالغة لأنّه مشتق من أجبره. فالله جبّار كل مخلوق على الانفعال لما كوّنه عليه، لا يستطيع مخلوق اجتياز ما حدّه له في خلقته، وكذلك هو جبّار للموجودات على قبول ما أراده بها وما تعلَّقت به قدرته عليها.

وإذا وصف الإنسان بالجبّار كان وصف ذمّ لأنّه يشعر بأنّه يحمل غيره على هواه، ولذلك قال تعالى { إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ } [القصص:19].

{ **الْمُتَكَبِّرُ** } شديد الكبرياء، أي: العظمة والجلالة. وأصل صيغة (التفعّل) أن تدلّ على التكلّف لكنها استُعملت هنا في لازم التكلُّف وهو القوّة، لأنّ الفعل الصادر عن تأنّق وتكلّف يكون أتقن.

ووجه ذكر هذه الصفات الثلاث { الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ } عقب صفة { الْمُهَيْمِنُ }، أنّ جميع ما ذُكر آنفا من الصفات لا يؤذن إلّا باطمئنان العباد لعناية ربّهم بهم وإصلاح أمورهم، وأنّ صفة { الْمُهَيْمِنُ } تؤذن بأمر مشترك فعُقِّبت بصفة { الْعَزِيزُ } ليعلم الناس أنّ الله غالب لا يعجزه شيء. واتبعت بصفة { الْجَبَّارُ } الدالة على أنّه مُسخِّر المخلوقات لإرادته، ثم صفة { الْمُتَكَبِّرُ } الدالة على أنّه ذو الكبرياء يصغر كلّ شيء دون كبريائه، فكانت هذه الصفات في جانب التخويف كما كانت قبلها في جانب الإطماع.

{ **سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ** } ذُيِّلت هذه الصفات بتنزيه الله تعالى عن أن يكون له شركاء.

{ **يُشْرِكُونَ** } الضمير عائد إلى معلوم من المقام وهم المشركون الذين لم يزل القرآن يقرعهم بالمواعظ.

{ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [24].

{ **هُوَ** } القول فيه وفي تكرير الجملة كالقول في التي سبقها. فإن كان ضميرُ الغيبة ضميرَ شأن فالجملة بعده خبر عنه، وإن كان عائدا على اسم الجلالة المتقدّم فاسم الجلالة بعده خبر عنه و { الْخَالِقُ } صفة.

{ **اللَّهُ الْخَالِقُ** } تفيد الجملة قصرا بطريق تعريف جزأي الجملة، أي: هو الخالق لا شركاؤهم. وهذا إبطال لإلهية ما لا يخلق. قال تعالى { أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ } [النحل:17].

{ **الْخَالِقُ** } اسم فاعل من الخلق، وأصل الخلق في اللغة إيجاد شيء على صورة مخصوصة. وتقدّم عند قوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام { أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ } [آل عمران:49].

ويطلق الخلق على معنى أخص من إيجاد الصور وهو ايجاد ما لم يكن موجودا. كقوله تعالى { وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ } [قّ: 38].

وهذا هو المعنى الغالب من اطلاق اسم { الْخَالِقُ }.

{ **الْبَارِئُ** } اسم فاعل من **بَرَأَ** مهموزا. قال في الكشّاف: " المميّز لما يوجده بعضه من بعض بالأشكال المختلفة ". وهو مغاير لمعنى الخالق بالخصوص. وفي الحديث: **" من شرّ ما خلق وذرأ وبرأ "**.

ومن كلام علي رضي الله عنه: " لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ".

{ **الْمُصَوِّرُ** } : مكوّن الصور لجميع المخلوقات ذوات الصور المرئيّة.

وإنّما ذُكرت هذه الصفات متتابعة { الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ } لأنّ من مجموعها يحصل تصوّر الإبداع الإلهي للإنسان؛ فابتدئ بالخلق الذي هو الإيجاد الأصلي، ثمّ بالبرء الذي هو تكوين جسم الإنسان ثمّ بالتصوير الذي هو إعطاء الصورة الحسنة، كما أشار إليه قوله تعالى { الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ } [الانفطار:8/7]، وقوله تعالى { الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ } [آل عمران:6].

ووجه ذكرها عقب الصفات المتقدمة، الإشارة إلى تصرّفه في البشر بالإيجاد على كيفية البديعة ليثير داعية شكرهم على ذلك. ولذلك عُقّبت بجملة { يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }.

{ **لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى** } تذييل لما عُدِّد من صفات الله تعالى، أي: له جميع الأسماء الحسنى التي بعضها الصفات المذكورة آنفا.

{ **الْأَسْمَاءُ** } المراد الصفات، عُبِّر عنها بالأسماء لأنّه متّصف بها على ألسنة خلقه، ولكونها بالغة منتهى حقائقها بالنسبة لوصفه تعالى بها فصارت كالإعلام على ذاته تعالى. وتقدّم قوله تعالى { وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا } [الأعراف:180].

{ **يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } في موضع الحال من ضمير { لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } يعني أنّ اتصافه بالصفات الحسنى يضطرّ من في السماوات والأرض من العقلاء على تعظيمه بالتسبيح والتنزيه عن النقائص، فكلّ صنف يبعثه علمه ببعض أسماء الله على أن ينزّهه ويسبّحه

بقصد أو بغير قصد.

{ **وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } عطف على جملة الحال وأوثر هاتان الصفتان لشدّة مناسبتهما لنظام الخلق.

وفي هذه الآية ردّ العجز على الصدر لأنّ صدر السورة مماثل لآخرها.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الممتحنة

عُرفت هذه السورة في كتب التفسير وكتب السنة وفي المصاحف بـ (**سورة الممتحنة**).

قال القرطبي: والمشهور على الألسنة النطق في كلمة (الممتحِنة) بكسر الحاء، وهو الذي جزم به السهيلي. ووجه التسمية أنّها جاءت فيها آية امتحان إيمان النساء اللاتي يأتين من مكّة مهاجرات إلى المدينة، وهي آية { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ - إلى قوله - بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ } [10]. فوصف الناس تلك الآية بالممتحِنة لأنّها شرعت الامتحان. وأضيفت السورة إليها.

وروي بفتح الحاء، على اسم المفعول، قال ابن حجر: وهو المشهور، أي: المرأة الممتحَنة، على أنّ التعريف تعريف العهد، والمعهود أوّل امرأة امتحنت في إيمانها، وهي (أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط) امرأة عبد الرحمان بن عوف.

وهذه السورة مدنية بالاتفاق.

واتفق أهل العدد على **عَدِّ آيها ثلاث عشرة آية**. وآياتها طوال.

وهذه السورة قد **عُدَّت الثانية والتسعين** في تعداد نزول السور عند جابر بن زيد نزلت بعد سورة المائدة وقبل سورة النساء.

أغراض السورة

*/ تحذير المؤمنين من اتخاذ المشركين أولياء لأنّهم كفروا بالدين الحقّ وأخرجوهم من بلادهم.

*/ الرخصة في حسن معاملة الكفرة الذين لم يقاتلوا المسلمين قتال عداوة في دين ولا أخرجوهم من ديارهم.

*/ حكم المؤمنات اللائي يأتين مهاجرات واختبار صدق إيمانهن وأن يُحفظنّ من الرجوع إلى دار الشرك ويُعوَّض أزواجهنّ المشركون ما أعطوهن من المهور، ويقع التَّراد كذلك مع المشركين.

*/ مبايعة المؤمنات المهاجرات ليُعرف التزامهنّ لأحكام الشريعة الإسلامية.

*/ تحريم تزوّج المسلمين المشركات.

*/ النهي عن موالاة اليهود وأنّهم أشبهوا المشركين.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ } [1].

اتفق المفسّرون وثبت في صحيح الأحاديث أنّ هذه الآية نزلت في قضية الكتاب الذي كتب به حاطب بن أبي بلتعة حليف بني أسد بن عبد العُزَّى من قريش. وكان حاطب من المهاجرين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أهل بدر.

وحاصل القصة: أنّ رسول الله كان قد تجهّز قاصدا مكة، قيل: لأجل العمرة عام الحديبية، وهو الأصح، فقدمت أيامئذ من مكة إلى المدينة امرأة تُسَّمى (سارة) مولاة لأبي عمرو بن صيفي بن هاشم بن عبد مناف وكانت على دين الشرك، فقالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: كنتم الأهل والموالي والأصل والعشيرة وقد ذهب الموالي (تعني من قُتل من مواليها يوم بدر). وقد اشتدّت بي الحاجة فقدمت عليكم لتعطوني وتكسوني فحثّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على إعطائها، فكسوها وأعطوها وحملوها، وجاءها حاطب بن أبي بلتعة فأعطاها كتابا لتبلّغه إلى من كتب إليهم من أهل مكة يخبرهم بعزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخروج إليهم، وآجرها على إبلاغه فخرجت.

وأوحى الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم بذلك، فبعث عليًّا والزبير والمقداد وأبا مرثد الغنوي، وكانوا فرسانا، وقال: انطلقوا حتّى تأتوا روضة خاخ، فإنّ بها ظعينة ومعها كتاب من حاطب إلى المشركين فخذوه منها وخلُّوا سبيلها. فخرجوا تتعادى بهم خيلهم حتّى بلغوا روضة خاخ فإذا هم بالمرأة. فقالوا: أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي كتاب، فقالوا: لتخرجنّ الكتاب أو لتلقِينَّ الثياب (يعنون أنّهم يجرِّدونها) فأخرجته. فأتوا به النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: " يا حاطب ما هذا "؟ قال: لا تعجل عليّ يا رسول الله، فإنّي كنت امرأ ملصقا في قريش وكان لمن كان معك من المهاجرين قرابات يحمون بها أهليهم فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن اتخذ فيهم يدا يحمون بها قرابتي (يريد أمه وإخوته)، ولم أفعله كفرا ولا ارتدادا عن ديني ولا رضى بالكفر بعد الإسلام. فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **"صَدَق"**. فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" إنّه قد شهد بدرا وما يدريك لعلّ الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم "**. وقال: **" لا تقولوا لحاطب إلّا خيرا "** فأنزل الله تعالى { أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ }.

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** } وُجِّه الخطاب بالنهي إلى جميع المؤمنين تحذيرا من إتيان فعل حاطب.

العدوّ: ذو العداوة، وهو فعول بمعنى فاعل من: عدا يعدو. قال تعالى { **فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي** } [الشعراء:77].

والمعنى: لا تتخذوا أعدائي وأعداءكم أولياء. والمراد العداوة في الدين، فإنّ المؤمنين لم يبدأوهم بالعداوة

وإنما أبدى المشركون عداوة المؤمنين انتصارا لشركهم. وقد كان مشركو العرب متفاوتين في مناواة المسلمين، فإنّ خُزاعة كانوا مشركين وكانوا موالين النبيّ صلى الله عليه وسلم.

الاتخاذ: افتعال من الأخذ، صيغ الافتعال للمبالغة في الأخذ المجازي فأطلق على التلبّس والملازمة. وتقدّم في قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ } [النساء:71]، ولذلك لزمه ذكر حال بعد مفعوله لتدلّ على تعيين جانب المعاملة من خير أو شرّ. فعومل هذا الفعل معاملة صَيَّر. وتقدّم عند قوله تعالى { أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً } [الأنعام:74].

{ **تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ** } في موضع الحال من ضمير { لا تَتَّخِذُوا }، للتعجيب من إلقائهم إليهم بالمودة . أو في موضع الصفة لـ { أَوْلِيَاءَ }، أو بيان لمعنى أتخاذهم أولياء.

الإلقاء: حقيقته رمي ما في اليد على الأرض. واستعير لإيقاع الشيء بدون تدبّر في موقعه، أي: تصرفون إليهم مودّتكم بغير تأمّل. قال تعالى { فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ } [النحل:86].

{ **وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ** } حال من ضمير { إِلَيْهِمْ } أو من { عَدُوِّي }.

وما جاءكم من الحق: هو القرآن والدين فذكر بطريق الموصولية ليشمل كل ما أتاهم به الرسول صلى الله عليه وسلم على وجه الإيجاز، مع ما في الصلة من الإيذان بتشنيع كفرهم بأنّه كفر بما ليس من شأنه أن يكفر به طُلَّاب الهدى، فإنّ الحق محبوب مرغوب.

{ **جَاءَكُمْ** } تعدية (جاء) إلى ضمير المخاطبين، وهم الذين آمنوا، لأنّهم الذين انتفعوا بذلك الحق وتقبَّلوه فكأنّه جاء إليهم لا إلى غيرهم، وإلّا فإنّه جاء لدعوة الذين آمنوا والمشركين، فقبله الذين آمنوا ونبذه المشركون.

وفيه إيماء إلى أنّ كفر الكافرين به ناشئ عن حسدهم الذين آمنوا قبلهم.

وفي ذلك أيضا إلهاب القلوب المؤمنين ليحذروا من موالاة المشركين.

{ **يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُم** } حال من ضمير { كَفَرُوا }، أي: لم يكتفوا بكفرهم بما جاء من الحق، فتلبَّسوا معه بإخراج الرسول صلى الله عليه وسلم وإخراجكم من بلدكم لأنّكم آمنتم بالله ربكم.

{ **يُخْرِجُونَ** } المضارع لتصوير الحالة، لأنّ الجملة لمّا وقعت حالا من ضمير { وَقَدْ كَفَرُوا } كان إخراج الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين في تلك الحالة عملا فظيعا، فأريد استحضار تلك صورة.

الإخراج: أريد به الحمل على الخروج بإتيان أسباب الخروج من تضييق على المسلمين وأذى لهم. وأُسند الإخراج إلى ضمير العدو كلّهم لأنّ جميعهم كانوا راضين بما يصدر من بعضهم من أذى المسلمين. وربما أغرَوا به سفهاءهم، ولذلك فالإخراج مجاز في أسبابه، وإسناده إلى المشركين إسناد حقيقي. وهذه الصفات بمجموعها لا تنطبق إلّا على المشركين من أهل مكة، ومجموعها هو عليه النهي عن موادّتهم.

{ **أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ** } جيء بصيغة المضارع لإفادة استمرار إيمان المؤمنين، وفيه إيماء إلى الثناء

على المؤمنين بثباتهم على دينهم، وأنّهم لم يصدَّهم عنه ما سبَّب لهم الخروج من بلادهم.

{ **إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي** } شرط ذُيِّل به النهي من قوله تعالى { لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ }. وهذا مقام يُستعمل في مثله الشرط بمنزلة التتميم لما قبله دون قصد تعليق ما قبله بمضمون فعل الشرط، بل يُقصد تأكيد الكلام الذي قبله بمضمون فعل الشرط فيكون كالتعليل لما قبله، فتكون صيغة الشرط مرادا بها التحذير بطريق المجاز المرسل في المركَّب، لأنّ معنى الشرط يلزمه التردُّد غالبا.

ولهذا يؤتى بمثل هذا الشرط إذا كان المتكلِّم واثقا بحصول مضمونه متحقِّقا صحة ما يقوله قبل الشرط. ومنه كثير في القرآن. ويغلب أن يكون فعل الشرط في مثله فعل (كون) إيذانا بأنّ الشرط محقق الحصول.

والمراد بالخروج: الخروج من مكة مهاجَرة إلى المدينة. فالخطاب خاص بالمهاجرين.

{ **جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي** } مصدران منصوبان على المفعول لأجله.

{ **تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ** } يجوز أن تكون الجملة بيانا لجملة { تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ }، أو بدل اشتمال منها، فإنّ الإسرار إليهم بالمودة ممّا اشتمل عليه الإلقاء إليهم بالمودة.

والخبر مستعمل في التوبيخ والتعجيب؛ فالتوبيخ مستفاد من إيقاع الخبر عقب النهي المتقدّم، والتعجيب مستفاد من تعقيبه بجملة { وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ }، أي: كيف تظنّون أنّ إسراركم إليهم يخفى علينا ولا نُطلع عليه رسولنا.

الإسرار: التحدث والإخبار سرًّا.

{ **تُسِرُّونَ** } يجوز أن يكون المفعول محذوفا يدل عليه السياق، أي: تخبرونهم أحوال المسلمين سرًّا.

وجيء بصيغة المضارع لتصوير حالة الإسرار إليه تفظيعا لها. والباء في { بِالْمَوَدَّةِ } للسببية، أي: تخبرونهم سرا بسبب المودة، أي: بسبب طلب المودّة لهم، كما هو في قضية كتاب حاطب.

ويجوز أن يكون { بِالْمَوَدَّةِ } في محل المفعول، والباء زائدة لتأكيد المفعولية.

{ **وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ** } في موضع الحال من ضمير { تُسِرُّونَ }، أو معترضة.

وهذا مناط التعجيب من فعل المعرَّض به، وهو حاطب بن أبي بلتعة.

وتقديم { أَخْفَيْتُمْ } لأنّه المناسب لقوله تعالى { وَأَنَا أَعْلَمُ }، ولموافقته للقصة.

{ **أَعْلَمُ** } اسم تفضيل والمفضّل عليه معلوم من قوله تعالى { تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ }. فالتقدير: أعلم منهم ومنكم بما أخفيتم وما أعلنتم.

{ **بِمَا** } الباء متعلِّقة باسم التفضيل وهي بمعنى المصاحبة.

{ **وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ** } عطف على جملة النهي في قوله { لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ }، عُطف على النهي التوعُّد على عدم الانتهاء بأنّ من لم ينته عمَّا نُهي عنه هو ضال عن الهدى.

{ **يَفْعَلْهُ** } ضمير الغيبة عائد إلى (الاتخاذ) المفهوم من فعل { لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي }، أي: ومن يفعل ذلك بعد هذا النهي والتحذير فهو قد ضلّ عن سواء السبيل.

{ **سَوَاءَ السَّبِيلِ** } مستعار لأعمال الصلاح والهدى لشبهها بالطريق المستوي الذي يُبلِّغ من سلكه إلى بغيته ويقع من انحرف عنه في هلكة. والمراد به هنا ضلّ عن الإسلام وضل عن الرشد.

وهو وعيد للذين يفعلون مثل ما فعل حاطب بعد أن بلغهم النهي والتحذير والتوبيخ والتفظيع لعمله.

{ إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ} [2].

تفيد هذه الجملة معنى التعليل لمفاد قوله تعالى { فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ } [1] باعتبار بعض ما أفادته الجملة، وهو الضلال عن الرشد، فإنّه قد يخفى ويُظنُّ أنّ في تطلُّب مودة العدو فائدة، كما هو حال المنافقين المحكي في قوله تعالى { الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } [النساء:141]، فقد يُظنُّ أنّ موالاتهم من الدهاء والحزم رجاء نفعهم إن دالت لهم الدولة، فبيَّن الله لهم خطأ هذا الظنّ، وأنَّهم لو أخذوهم وتمكَّنوا منهم { **إِنْ يَثْقَفُوكُمْ** } لكانوا أعداء لهم، وذلك لشدّة الحنق على ما لقوا من المسلمين من إبطال دين الشرك وتحقير أهله وأصنامهم.

{ **يَكُونُوا** } مشعر بأنّ عداوتهم قديمة وأنّها تستمر.

البسط: مستعار للإكثار، لما شاع من تشبيه الكثير بالواسع والطويل، وتشبيه ضدِّه، وهو القبض، بضدّ ذلك، فبسط اليد الإكثار من عملها. والمراد به هنا: عمل اليد الذي يضرّ مثل الضرب والتقييد والطعن، وعمل اللسان الذي يؤذي مثل الشتم والتهكّم، ودلّ على ذلك قوله تعالى { بِالسُّوء }.

{ **وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ** } حال من ضمير { يَكُونُوا }، أي: وهم قد ودُّوا من الآن أن تكفروا فكيف لو يأسرونكم، فجملة الحال دليل على معطوف مقدّر على جواب الشرط كأنّه قيل: إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء إلى آخره، ويردُّوكم كفارا، وليست الجملة معطوفة على جملة الجواب، لأنّ محبَّتهم أن يكفر المسلمون محبّة غير مقيَّدة بالشرط، ولذلك وقع فعل { وَدُّوا } ماضيا، ولم يقع مضارعا مثل الأفعال الثلاثة قبله { يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ } ليُعلم أنّه ليس معطوفا على جواب الشرط.

{ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } [3].

تخلُّص من تبيين سوء عاقبة موالاة أعداء الدين في الحياة الدنيا، إلى بيان سوء عاقبة تلك الموالاة في الآخرة، ومناسبة حسُن التخلُّص قوله تعالى { وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ } [2] الدال على معنى: أنّ وِدادتهم كُفْرَكُمْ من قبل أن يثقفوكم تنقلب إلى أن يُكرهوكم على الكفر حين يثقفوكم، فلا تنفعكم ذوو أرحامكم مثل

الأمهات والإخوة الأشقاء، ولا أولادكم، ولا تدفع عنكم عذاب الآخرة. وزاد ذلك حُسْنًا أنَّ ما اعتذر به حاطب ابن أبي بلتعة أنّه أراد أن يتّخذ عند المشركين يدا يحمون بها قرابته أي: أمّه وإخوته. ولذلك ابتدئ في نفي النفع بذكر الأرحام لموافقة قصة حاطب.

فالجملة مستأنفة استئنافا بيانيا ولولا ذلك لجاءت معطوفة بالواو على التي قبلها.

{ **أَرْحَامُكُمْ** } والمراد ذوو الأرحام على حذف مضاف لظهور القرينة.

{ **وَلا أَوْلادُكُمْ** } تتميم لشمول النهي قومّا لهم أبناء في مكّة.

{ **يَوْمَ الْقِيَامَةِ** } ظرف يتنازعه كل من فعل { لَنْ تَنْفَعَكُمْ }، وفعل { يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ }. إذ لا يلزم تقدّم العاملين على المعمول المتنازع فيه إذا كان ظرفا، لأنّ الظروف تتقدّم على عواملها. وأن أبيت هذا التنازع فقل هو ظرف { لَنْ تَنْفَعَكُمْ } واجعل لـ { يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ } ظرفا محذوفا دلّ عليه المذكور.

{ **يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ** } الفصل هنا التفريق، وليس المراد به القضاء.

والمعنى: يوم القيامة يُفرّق بينكم وبين ذوي أرحامكم وأولادكم، فريق في الجنة وفريق في السعير، قال تعالى { يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ } [عبس:37/34].

وقرأ الجمهور { يُفْصَلُ بَيْنَكُمْ } ببناء الفعل للمجهول مخفّفا. وقرأه عاصم ويعقوب { يَفْصِلُ } بالبناء للفاعل، وفاعله ضمير عائد إلى الله لعلمه من المقام، وقرأه حمزة والكسائي وخلف { يُفَصِّلُ } (مشدّد الصاد مكسورة) مبالغة في الفصل، والفاعل ضمير يعود إلى الله المعلوم من المقام، وقرأه ابن عامر { يُفَصَّلُ } (بضم التحتية وتشديد الصاد مفتوحة) مبنيا للنائب من فصَّل المشدّد.

{ **وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** } وعيد ووعد.

{ **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ** } [4].

صدر هذه الآية يفيد تأكيدا لمضمون جملة { إِنْ يَثْقَفُوكُمْ } [2] وجملة { لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ } [3]، لأنّها بما تضمَّنته من أن الموجَّه إليهم التوبيخ خالفوا الأسوة الحسنة تقوِّي إثبات الخطأ المستوجب للتوبيخ.

ذلك أنّه بعد الفراغ من بيان خطأ من يوالي عدو الله بما يجرُّ إلى أصحابه من مضار في الدنيا وفي الآخرة تحذيرا لهم من ذلك، انتقل إلى تمثيل الحالة الصالحة بمثال من فعل أهل الإيمان الصادق والاستقامة القويمة وناهيك بها أسوة.

{ **قَدْ كَانَتْ** } هذا الافتتاح لتأكيد الخبر، فإنّ {قد} مع فعل الكون يراد بهما التعريض بالإنكار على المخاطب ولومه في الإعراض عن العمل بما تضمَّنه الخبر، كقوله تعالى { لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ } [قّ:22]، توبيخا على ما كان منهم في الدنيا من إنكار للبعث.

الإسوة (بكسر الهمزة وضمّها): القدوة التي يُقتدى بها في فعل ما. وقرأ الجمهور { إِسْوَةٌ } بكسر الهمزة، وقرأه عاصم بضمّها. وتقدَّمت في قوله تعالى { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رسول الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ } [الأحزاب:21].

{ **حَسَنَةٌ** } وصف للمدح، لأنّ كونها حسنة قد عُلم من سياق ما قبله وما بعده.

{ **فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ** } حرف { فِي } مستعار لقوّة الملابسة، إذ جُعل تلبُّس إبراهيم والذين معه بكونهم أسوة حسنة، بمنزلة تلبّس الظرف بالمظروف في شدّة التمكُّن من الوصف.

وإبراهيم عليه السلام مثل في اليقين بالله والغضب له، عرف ذلك العرب واليهود والنصارى من الأمم، وشاع بين الأمم المجاورة من الكنعانيين والأراميين.

{ **وَالَّذِينَ مَعَهُ** } عطفٌ ليتمَّ التمثيلُ لحال المسلمين مع رسولهم صلى الله عليه وسلم بحال إبراهيم عليه السلام والذين معه. أي: أن يكون المسلمون تابعين لرضى رسولهم صلى الله عليه وسلم كما كان الذين مع إبراهيم عليه السلام. والمراد بـ { الَّذِينَ مَعَهُ } الذين آمنوا به واتبعوا هديه وهم زوجه سارة وابن أخيه لوط ولم يكن لإبراهيم أبناء حينها، فضمير { إِذْ قَالُوا } عائد إلى إبراهيم والذين معه فهم ثلاثة.

{ **بُرَآءُ** } بهمزتين بوزن فعلاء، جمع بريء، مثل كريم وكرماء. وبريء فعيل بمعنى فاعل، من بريء من شيء إذا خلا منه، سواء بعد ملابسته أو بدون ملابسة.

{ **إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ** } المراد هنا: التبرُّؤ من مخاطبتهم وملابستهم.

{ **وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ** } من الأصنام التي تعبدونها من دون الله، والمراد: برآء من عبادتها.

{ **كَفَرْنَا بِكُمْ** } وما عطف عليها، بيان لمعنى جملة { إِنَّا بُرَآءُ }، وضمير { بِكُمْ } عائد إلى مجموع المخاطبين من قومهم مع ما يعبدونه من دون الله، ويُفَسَّر الكفر بما يناسب المعطوف.

{ **وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً** } أي: أحدثنا معكم العداوة ظاهرة لا مواربة فيها، أي: ليست عداوة في القلب خاصة بل هي عداوة واضحة علانية بالقول والقلب. وهو اقصى ما يستطيعه أمثالهم من درجات تغيير المنكر، وهو التغيير باللسان إذ ليسوا بمستطيعين تغيير ما عليه قومهم باليد لقلتهم وضعفهم.

بدا: ظهر ونشأ.

{ **الْعَدَاوَةُ** } المعاملة بالسوء والاعتداء. و{ **الْبَغْضَاءُ** } نفرة النفس، والكراهيةُ.

وقد تطلق إحداهما في موضع الأخرى إذا افترقتا، فذِكرهما معا هنا مقصود به حصول الحالتين في أنفسهم: حالة المعاملة بالعدوان، وحالة النفرة والكراهية، أي: نسيء معاملتكم ونضمر لكم الكراهية حتّى تؤمنوا بالله وحده دون إشراك.

{ **إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ** } الأظهر أنّ هذه الجملة معترضة بين جُمل حكاية مقال إبراهيم والذين معه، وجملة { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ } [6].

والاستثناء منقطع إذ ليس هذا القول من جنس قولهم { إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ }، فإنَّ قول إبراهيم لأبيه {لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ} رفق بأبيه وهو يغاير التبرُّؤ منه، فكان الاستثناء في معنى الاستدراك عن قوله تعالى { إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ } الشامل لمقالة إبراهيم معهم لاختلاف جنسي القولين.

وفائدة الاستدراك هنا التعريض بخطإ حاطب ابن أبي بلتعة، أي: إن كنتم معتذرين فليكن عذركم في مواصلة أعداء الله بأن تودُّوا لهم مغفرة كفرهم باستدعاء سبب المغفرة وهو أن يهديهم الله إلى الدين الحقّ كما قال إبراهيم لأبيه { لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ }.

{ **وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ** } إكمال لجملة ما قاله إبراهيم لأبيه، وإذ كان المقصود من الاستثناء مجرّد وعده بالاستغفار له، فبُنِيَ عليه ما هو من بقية كلامه لما فيه من الدلالة على أنّ الاستغفار له قد لا يقبله الله. و(الواو) يجوز أن يكون للحال أو للعطف. والمعنى متقارب، ومعنى الحال أوضح، وهو تذييل.

{ **أَمْلِكُ** } هنا القدرة، وتقدّم في قوله تعالى { قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً } [المائدة:17].

{ **مِنْ شَيْءٍ** } عام للمغفرة المسؤولة وغيرها مما يريده الله به.

{ **رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ** } <u>الأظهر أن يكون هذا من كلام إبراهيم</u> وقومه، وجملة { إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ } إلى آخرها، معترضة بين أجزاء القول، فهو ممّا أمر المسلمون أن يأتسوا به، وبه يكون الكلام شديد الاتصال مع قوله تعالى { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ } [6].

<u>ويحتمل أن يكون تعليما للمؤمنين</u> أن يقولوا هذا الكلام ويستحضروا معانيه ليجري عملهم بمقتضاه فهو على تقدير أمر بقول محذوف. والمقصود من القول العمل به، فإنّ الكلام يُجدِّد المعنى في نفس المتكلِّم به، ويُذَكِّر السامع. وهذا تتميم لما أوصاهم به من مقاطعة الكفّار بعد التحريض على الائتساء بإبراهيم ومن معه.

{ **رَبَّنَا** } إعادة النداء إظهار للتضرّع مع كل دعوة من الدعوات الثلاث.

{ **عَلَيْكَ / إِلَيْكَ / إِلَيْكَ** } تقديم المجرور على هذه الأفعال لإفادة القصر، وهو قصر بعضه ادعائي وبعضه حقيقي كما تصرف إليه القرينة.

{ **تَوَكَّلْنَا** } القول في معنى التوكّل تقدَّم عند قوله تعالى { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } [آل عمران:159]

الإنابة: التوبة، وتقدَّمت عند قوله تعالى { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ } [هود:75].

{ **رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } [5].

الفتنة: اضطراب الحال وفساده، وهو اسم مصدر فتجيء بمعنى المصدر، كقوله تعالى { وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ

الْقَتْلِ } [البقرة:191]، وتجيء وصفا للمفتون والفاتن.

ومعنى جعلهم فتنة للذين كفروا: جعلهم مفتونين يفتنُهم الذين كفروا، فيصدُق ذلك بأن يتسلّط عليهم الذين كفروا فيُفتنون، كما قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ } [البروج:10]. ويصدُق أيضا بأن تختلّ أمور دينهم بسبب الذين كفروا، أي: بمحبَّتهم والتقرّب منهم، كقوله تعالى: حكاية عن دعاء موسى { إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ } [الأعراف:155].

وعلى الوجهين فالفتنة من إطلاق المصدر على اسم المفعول. وتقدّم في قوله تعالى { رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } [يونس:85].

{ **لِلَّذِينَ كَفَرُوا** } اللام على الوجهين للملك، أي: مفتونين مسخَّرين لهم.

ويجوز عندي: أن تكون { فِتْنَةً } مصدرا بمعنى اسم الفاعل، أي: لا تجعلنا فاتنين، أي: سبب فتنة للذين كفروا، أي: فيزدادوا كفرا.

{ **وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا** } أعقبوا دعواتهم التي تعود إلى إصلاح دينهم في الحياة الدنيا بطلب ما يُصلح أمورهم في الحياة الآخرة وما يوجب رضى الله عنهم في الدنيا، فإنّ رضاه يفضي إلى عنايته بهم بتيسير أمورهم في الحياتين. وللإشعار بالمغايرة بين الدعوتين عُطفت هذه بالواو ولم تعطف التي قبلها.

{ **إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } تعليل للدعوات كلّها، فإنّ التوكل والإنابة والمصير تناسب صفة { الْعَزِيزُ } إذ مثله يعامل بمثل ذلك، وطلبَ أن لا يجعلهم فتنة باختلاف معانيه يناسب صفة { الْحَكِيمُ }، وكذلك طلب المغفرة، لأنّهم لمّا ابتهلوا إليه أن لا يجعلهم فتنة للكافرين وأن يغفر لهم رأوا أنّ حكمته تناسبها إجابة دعائهم لما فيه من صلاحهم وقد جاؤوا سائلينه.

{ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** } [6].

تكرير قوله آنفا { قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ } [4]، أعيد لتأكيد التحريض والحثّ على عدم إضاعة الائتساء بهم، وليُبنى عليه قوله تعالى { لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ }.

{ **لَقَدْ** } قُرن هذا التأكيد بلام القَسَم مبالغة في التأكيد.

{ **كَانَ** } لم تتصل به تاء تأنيث مع أنّ اسمها مؤنث اللفظ لأنّ تأنيث (أسوة) غير حقيقي، ولوقوع الفصل بين الفعل ومرفوعه بالجار والمجرور.

الإسوة: تقدّم ذكرها واختلاف القراء في همزتها، في قوله تعالى { قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ } [4].

{ **لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ** } بدل من ضمير الخطاب في قوله تعالى { لَكُمْ } وهو شامل لجميع المخاطبين للتذكير بأنّ الإيمان بالله واليوم الآخر يقتضي تأسّيهم بالمؤمنين السابقين، وهم إبراهيم والذين معه.

والقصد هو زيادة الحثّ على الائتساء بإبراهيم ومن معه، وليترتّب عليه قوله تعالى:
{ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ } تحذير من العود لما نُهوا عنه.
{ يَتَوَلَّ } مضارع تولَّى، فيجوز أن يكون ماضيه بمعنى الإعراض، أي: من لا يرجو الله واليوم الآخر ويعرض عن نهي الله فإنّ الله غنيّ عن امتثاله. ويجوز عندي أن يكون ماضيه من التولِّي بمعنى اتخاذ الوليّ، أي: من يتّخذ عدو الله أولياء فإنّ الله غني عن ولايته، كما في قوله تعالى { وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ } [المائدة:51].
{ هُوَ الْغَنِيُّ } ضمير الفصل توكيد للحصر الذي أفاده تعريف الجزأين، وهو حصر ادّعائي لعدم الاعتداد بغنى غيره ولا بحمده، أي: هو الغني عن المتولّين، لأنّ النهي عمَّا نهوا عنه إنّما لفائدتهم لا يفيد الله شيئا، فهو الغنيّ عن كل شيء.
{ الْحَمِيدُ } تتميم، أي: الحميد لمن يمتثل أمره ولا يُعرض عنه، أو الحميد لمن لا يتخذ عدوّه وليًّا، على نحو قوله تعالى { إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ } [الزمر:7].

{ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [7].

اعتراض وهو استئناف متّصل بما قبله من أوّل السورة خوطب به المؤمنون تسلية لهم على ما نُهوا عنه من مواصلة أقربائهم، بأن يرجوا من الله أن يجعل قطيعتهم آيلة إلى مودّة بأن يُسْلِمَ المشركون من قرابتهم، وقد حقّق الله ذلك يوم فتح مكة بإسلام أبي سفيان والحارث ابن هشام وسهيل بن عمرو وحكيم بن حزام.
{ عَسَى } فعل مقاربة وهو مستعمل هنا في رجاء المسلمين ذلك من الله، أو مستعملة في الوعد مجرّدة عن الرجاء. قال في الكشّاف: " كما يقول الملك في بعض الحوائج عسى أو لعلّ فلا تبقى شبهة للمحتاج في تمام ذلك ".
{ مِنْهُمْ } عائد إلى العدو من قوله تعالى { لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ } [1].
{ اللَّهُ قَدِيرٌ } تذييل. والمعنى: أنّه شديد القدرة على أن يُغيّر الأحوال فيصير المشركون مؤمنين صادقين وتصيرون أوِدَّاء لهم.
{ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } عطف على التذييل ، أي: يغفر لمن أنابوا إليه منهم ويرحمهم.

{ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } [8].

استئناف هو منطوق لمفهوم الأوصاف التي وُصف بها العدو في قوله تعالى { وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ } [1]، وقوله تعالى { إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ } [2]، المسوقة مساق التعليل للنهي عن اتخاذ عدو الله أولياء، استثنى الله أقواما من المشركين غير مضمرين العداوة للمسلمين وكان دينهم شديد المنافرة مع دين الإسلام.

فالآية، من وجه، بيانٍ لمعنى العداوة المجعولة علّة للنهي عن الموالاة ، وهي من وجه، أخرى تخصيص للنهي بخصوص أعداء الدين الذين لم يقاتلوا المسلمين لأجل الدين ولم يُخرجوا المسلمين من ديارهم.

وعلى الوجهين فالجملة قد أخرجت من حكم النهي القوم الذين لم يقاتلوا في الدين ولم يخرجوا المسلمين من ديارهم. فدخل في حكم الآية أصناف؛ وهم حلفاء النبيّ صلى الله عليه وسلم مثل خُزاعة، وبني الحارث بن كعب عبد مناة بن كنانة، ومزينة، كان هؤلاء كلّهم مظاهرين النبيّ صلى الله عليه وسلم ويحبون ظهوره على قريش، ومثل النساء والصبيان من المشركين.

وقد جاءت قُتيلة (بالتصغير، ويقال لها: قتلة، مكبرا) بنت عبد العزى من بني عامر بن لؤي من قريش، وهي أم أسماء بنت أبي بكر الصديق، إلى المدينة زائرة ابنتها، وقتيلة يومئذ مشركة، في المدّة التي كانت فيها المهادنة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين كفّار قريش بعد صلح الحديبية، وهي المدة التي نزلت فيها هذه السورة، فسألت أسماء رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتصل أمّها؟

قال: **" نعم صلي أمك "**. وقد قيل: إنَّ هذه الآية نزلت في شأنها.

{ أَنْ تَبَرُّوهُمْ } بدل اشتمال من { الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ }، لأنّ وجود ضمير الموصول في المبدل، وهو الضمير المنصوب في { أَنْ تَبَرُّوهُمْ }، يجعل برَّ المسلمين بهم ممّا تشتمل عليه أحوالهم. فدخل في الذين لم يقاتلوا المسلمين في الدين نفر من بني هاشم منهم العباس بن عبد المطلب.

البرُّ: حسن المعاملة والإكرام. وهو يتعدَّى بحرف الجرّ، يقال: بَرَّ به، فتعديته هنا بنفسه على نزع الخافض.

القِسط: العدل. وضُمِّن { وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ } معنى (تُفْضُوا) فعدي بـ (إلى) وكان حقّه أن يعدى باللام. على أنّ (اللام / إلى) يتعاقبان كثيرا في الكلام.

{ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } تذييل، أي: يحبّ كل مقسط.

ويؤخذ من هذه الآية جواز معاملة أهل الذمّة بالإحسان، وجواز الاحتفاء بأعيانهم.

{ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } [9].

فذلكة لما تقدّم وحصرٌ لحكم الآية المتقدّمة. وهي تؤذن بانتهاء الغرض المسوق له الكلام من أوّله.

{ **إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ** } قصر قلب لردّ اعتقاد من ظنّ أو شك في جواز صلة المشركين على الإطلاق. والذين تحقَّقت فيهم هذه الصفات يوم نزول الآية هم مشركو أهل مكة.

{ **أَنْ تَوَلَّوْهُمْ** } بدل اشتمال من { الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ }.

{ **وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ** } شرط، وجيء في جواب الشرط باسم الإشارة لتمييز المشار إليهم زيادة في إيضاح الحكم.

المظاهرة: المعاونة. وذلك لأنّ أهل مكة فريقان؛ منهم من يأتي بالأسباب التي لا يحتمل المسلمون معها البقاء بمكة، ومنهم من يعين على ذلك ويغري عليه.

{ **فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** } قصر ادعائي، أي: أنّ ظلمهم لشدة ووقوعه بعد النهي الشديد والتنبيه على الأخطاء والعصيان ظلمٌ لا يُغفر، لأنّه اعتداء على حقوق الله وحقوق المسلمين، وعلى حقّ الظالم نفسه.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [10].

لا خلاف في أن هذه الآيات نزلت عقب صلح الحديبية، وقد علمتَ أنَّا رجَّحنا أنّ أوّل السورة نزلت قبل هذه، وأنّ كتاب حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين كان عند تجهّز رسول الله صلى الله عليه وسلم للحديبيّة.

<u>ومناسبة ورود هذه الآية بعد ما قبلها</u>، أنّ النهي عن موالاة المشركين يتطرّق إلى ما بين المسلمين والمشركين من عقود النكاح والمصاهرة، فقد يكون المسلم زوجا لمشركة وتكون المسلمة زوجا لمشرك فتحدث في ذلك حوادث لا يستغني المسلمون عن معرفة حكم الشريعة في مثلها.

وقد حدث عقب الصلح الذي انعقد بين النبيّ صلى الله عليه وسلم وبين المشركين في الحديبية سنة ست مجيء (أبي جندل بن عمرو يوسف) في الحديد وكان مسلما موثَّقا في القيود عند أبيه بمكّة فانفلت وجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في الحديبية وكان من شروط الصلح أنّ من أتى محمّدا من قريش بغير إذن وليّه ردّه عليهم، ومن جاء قريشا ممّن مع محمد لم يردّوه عليه فردَّه النبيّ صلى الله عليه وسلم.

ولمّا رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة هاجرت (أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط) هاربة من زوجها عمرو بن العاص، وجاءت (سبيعة الأسلمية) مهاجرة هاربة من زوجها صيفي بن الراهب أو مسافر المخزومي، وجاءت (أميمة بنت بشر) هاربة من زوجها ثابت بن الشمراخ وقيل: حسان بن الدحداح. وطلبهنّ أزواجهنّ، فجاء بعضهم إلى المدينة، جاء زوج سبيعة الأسلمية يطلب ردها إليه وقال: إن طينة الكتاب الذي بيننا وبينك لم تجفّ بعد، فنزلت هذه الآية، فأبى النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يردَّها إليه، ولم يرد واحدة إليهم وبقين بالمدينة، فتزوج أم كلثوم بنت عقبة زيد بن حارثة. وتزوّج سبيعة عمر رضي الله عنه، وتزوّج أميمة سهل بن حنيف.

وجاءت زينب بنت النبيّ صلى الله عليه وسلم مسلمة، ولحق بها زوجها أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بعد سنين مشركا ثمّ اسلم في المدينة فردّها النبيّ صلى الله عليه وسلم إليه.

<u>قيل</u>: إنّ الصلح صُرّح فيه بأنّ من جاء إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم من غير إذن وليّه من رجل أو امرأة يُرد إلى وليّه. فإذا صحّ ذلك كان صريحا وكانت الآية ناسخة لما فعله النبيّ صلى الله عليه وسلم.

<u>والذي في سيرة ابن إسحاق</u> من رواية ابن هشام خَلِيٌّ من هذا التصريح.

وروي أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال للذين سألوه إرجاع النساء المؤمنات، وطلبوا تنفيذ شروط الصلح: **" إنّما الشرط في الرجال لا في النساء "** فكانت هذه الآية تشريعا للمسلمين فيما يفعلونه إذا جاءهم المؤمنات مهاجرات. وقد أذهل الله المشركين عن الاحتياط في شرطهم ليكون ذلك رحمة بالنساء المهاجرات إذ جعل لهن مخرجا، وتأييدا لرسوله صلى الله عليه وسلم.

الامتحان: الاختبار. والمراد اختبار إيمانهنّ.

{ **اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ** } معترضة، أي: أنّ الله يعلم سرائرهنّ ولكن عليكم أن تختبروا ذلك بما تستطيعون من الدلائل.

{ **فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ** ...} تفريع ما قبل الاعتراض، أي: إن حصل لكم العلم بأنّهنّ مؤمنات غير كاذبات في دعواهنّ. وهذا الالتحاق هو الذي سُمّي (المبايعة) في الآية الآتية { يَا أَيُّهَا النبيّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ } [12].

وفي صحيح البخاري عن عائشة أنّ رسول الله كان يمتحن من هاجر من المؤمنات بهذه الآية { يَا أَيُّهَا النبيّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ - إلى قوله - غَفُورٌ رَحِيمٌ } [12].

وزاد ابن عباس فقال: كانت الممتحنة أن تُستحلف أنّها ما خرجت بُغضا لزوجها، ولا رغبة من أرض إلى أرض، ولا التماس دنيا، ولا عشقا لرجل مِنَّا، ولا بجريرة جرتها بل حبا لله ولرسوله والدار الآخرة، فإذا حلفت بالله الذي لا إله إلا هو على ذلك أعطى النبيّ صلى الله عليه وسلم زوجها مهرها ولم يردَّها. وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يأمر عمر بن الخطاب بتولّي تحليفهن، فإذا تبيّن إيمان المرأة لم يردّها النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى دار الكفر كما هو صريح الآية.

{ **لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ** } موقعها موقع البيان والتفصيل للنهي في قوله تعالى { فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ } تحقيقا لوجوب التفرقة بين المرأة المؤمنة وزوجها الكافر.

{ **وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا** } أي: ما أعطوه من المهور، والعدول عن إطلاق اسم المهور والأجور على ما دفعه المشركون لنسائهم اللائي أسلمن من لطائف القرآن، لأنّ أولئك النساء أصبحن غير زوجات. فألغي إطلاق اسم المهور على ما يدفع لهم.

{ **وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ** } تنبيه على خصوص قوله تعالى { إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ } لئلّا يُظنّ أنّ ما دُفع للزوج السابق مُسقط استحقاق المرأة المهر ممَّن يروم تزوّجها، ومعلوم أنّ نكاحها بعد استبرائها بثلاثة أقراء.

{ **وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ** } نهى الله المسلمين عن إبقاء النساء الكوافر في عصمتهم، وهنّ النساء اللائي لم يخرجن مع أزواجهنّ لكفرهنّ، فلمّا نزلت هذه الآية طلق من كان لهم أزواج بمكة نساءهم.

فطلّق عمر امرأتين له بقيتا بمكة مشركتين، وهما: قريبة بنت أبي أميّة، وأم كلثوم بنت عمرو الخُزاعية.

{ **الْكَوَافِرِ** } المشركات. وهن موضوع هذه التشريعات لأنّها في حالة واقعة فلا تشمل الآية النهي عن بقاء المرأة المسلمة في عصمة زوج مشرك وإنّما يؤخذ حكم ذلك بالقياس.

{ **وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا** } عطف على قوله تعالى { وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا } وهو تتميم لحكمه، أي: كما تعطونهم مهور أزواجهم اللائي فررن منهم مسلمات، فكذلك إذا فرَّت إليهم امرأة مسلم كافرة تسألون المشركين إرجاع مهرها إلى زوجها المسلم الذي فرت منه، وهذا إنصاف بين الفريقين، والأمر للإباحة.

{ **وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا** } لمّا كُرِّرَ عقب قوله { وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ } علمنا أنّ المراد جمع مضمون الجملتين، أي: إذا أعطوا ما عليهم أعطوهم ما عليكم وإلّا فلا.

{ **ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** } أي: هذا حكم الله، وهو عدل بين الفريقين، إذ ليس لأحد أن يأخذ بأحد جانبيه ويترك الآخر.

{ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** } تذييل يشير إلى أنّ هذا حكم يقتضيه علم الله بحاجات عباده وتقتضيه حكمته إذ أعطى كلّ ذي حقّ حقّه.

<u>وقد كانت هذه الأحكام</u> التي في هذه الآيات، من الترادِّ في المهور، شرعا في أحوال مخصوصة اقتضاها اختلاط الأمر بين أهل الشرك والمؤمنين وما كان من عهد المهادنة بين المسلمين والمشركين في أوائل أمر الإسلام، <u>خاصا بذلك الزمان بإجماع أهل العلم</u>، قاله ابن العربي والقرطبي وأبو بكر الجصاص.

{ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ } [11].

عطف على جملة { وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ } [10] فإنّها لمّا ترتَّب على نزولها إباء المشركين من أن يردّوا إلى أزواج النساء، اللائي بقين على الكفر بمكة واللائي فررن من المدينة والتحقن بأهل الكفر بمكة، مهورهم التي كانوا أعطوها، عُقِّبت بهذه الآية لتشريع ردّ تلك المهور من أموال المسلمين فيما بينهم.

روي أنّ المسلمين كتبوا إلى المشركين يعلمونهم بما تضمَّنته هذه الآية من التراد بين الفريقين فامتنع المشركون من دفع مهور النساء اللاتي ذهبن إليهم فنزلت الآية.

الفوت: أصله المفارقة والمباعدة، والتفاوت: التباعد. والفوت هنا مستعار لضياع الحقّ. وضُمِّن { فَاتَكُمْ } معنى الفرار فعدّي بحرف (إلى)، أي: فررن إلى الكفار.

{ **شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ** } أي: بعض من أزواجكم، وأريد بـ { شَيْءٌ } تحقير الزوجات اللائي أبين الإسلام.

{ **عَاقَبْتُمْ** } صيغة تفاعل من العُقْبة (بضم العين وسكون القاف) وهي النوبة، أي: مصير أحد إلى حال كان فيها غيره. وأصلها في ركوب الرواحل والدواب أن يركب أحد عُقبة وآخر عُقبة.

شُبِّه ما حُكم به على الفريقين من أداء هؤلاء مهور نساء أولئك، ومن أداء أولئك مهور نساء هؤلاء، مماثلة بمركوب يتعاقبون فيه.

المعنى: إن فرت بعض أزواجكم ولحقت بالكفّار وحصل التعاقب بينكم وبين الكفار فعقَّبتم على أزواج الكفار وعقَّب الكفار على أزواجكم وأبى الكفّار من دفع مهور بعض النساء اللائي ذهبن إليهم، فادفعوا أنتم لمن حرمه الكفار مهر امرأته، أي: ما هو حقه، واحتجزوا بذلك على الكفار.

{ **ذَهَبَتْ** } مجاز مثل فعل { فَاتَكُمْ } في معنى عدم القدرة عليهنّ.

وقد أعطى النبيّ صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب، وعياض بن أبي شدّاد الفهري، وشماس بن عثمان، وهشام بن العاص، مهور نسائهم اللاحقات بالمشركين من الغنائم.

{ **مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا** } أن يكون المهر المعطى مساويا لما كان أعطاه زوج المرأة من قبل لا نقص فيه.

وأشارت الآية إلى نسوة من نساء المهاجرين لم يسلمن وهن ثمان نساء:

*/ أم الحكم بنت أبي سفيان كانت تحت عياض بن شدّاد.

*/ فاطمة بنت أبي أمية (ويقال: قريبة) وهي أخت أم سلمة كانت تحت عمر بن الخطاب.

*/ أم كلثوم بنت جرول كانت تحت عمر.

*/ بَروع (بفتح الباء) بنت عقبة كانت تحت شماس بن عثمان

*/ شبهة بنت غيلان.

*/ عبدة بنت عبد العزى كانت تحت هشام بن العاص، وقيل تحت عمرو بن عبد.

*/ هند بنت أبي جهل كانت تحت هشام بن العاص.

*/ أروى بنت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب كانت تحت طلحة بن عبيد الله.

{ **وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ** } تذييل، تحريض للمسلمين على الوفاء بما أمرهم الله وأن لا يصدَّهم عن الوفاء ببعضه معاملة المشركين لهم بالجور وقلة النصفة، فأمر بأن يؤدي المسلمون لإخوانهم مهور النساء اللائي فارقوهن ولم يرض المشركون بإعطائهم مهورهنّ، ولذلك أُتبِع اسم الجلالة بوصف { الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ }، لأنّ الإيمان يبعث على التقوى، والمشركون لمّا لم يؤمنوا بما أمر الله انتفى منهم وازع الإنصاف، أي: فلا تكونوا مثلهم.

والجملة الاسمية في الصلة للدلالة على ثبات إيمانهم.

{ يَا أَيُّهَا النبيّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [12].

هذه تكملة لامتحان النساء المتقدّم ذكره في قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ } [10]. وبيان لتفصيل آثاره. فكأنّه يقول: فإن علمتموهنّ مؤمنات فلا ترجعوهنّ إلى الكفار وبيّنوا لهنّ شرائع الإسلام. وآية الامتحان عقب صلح الحديبية في شأن من هاجرن من مكة إلى المدينة بعد الصلح وهنّ: (أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط / سبيعة الأسلمية / أميمة بنت بشر / زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم).

روى البخاري ومسلم عن عائشة: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمتحن من هاجر من المؤمنات بهذه الآية { يَا أَيُّهَا النبيّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ - إلى قوله - غَفُورٌ رَحِيمٌ }، فمن أقرّ بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله: " **قد بايعتك** ".

{ **إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ** } أي: قدمن عليك من مكة، فهي على وِزان قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ } [10]. قال ابن عطية: كانت هذه البيعة ثاني يوم الفتح على جبل الصفا. وأجرى النبيّ صلى الله عليه وسلم هذه البيعة على نساء الأنصار أيضا. روى البخاري عن أم عطية قالت: بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ علينا { أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً }.

<u>وأجرى هذه المبايعة على الرجال أيضا</u>. ففي صحيح البخاري عن عبادة بن الصامت قال كنَّا عند النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: " **أتبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تسرقوا** "، وقرأ آية النساء (أي: النازلة بخطاب النساء في سورة الممتحنة) **فمن وَفَّى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فهو كفّارة له، ومن أصاب منها شيئا فستره الله فهو إلى الله إن شار عذّبه وإن شاء غفر له** ".

وقد شملت الآية التخلّي عن خصال كانت شائعة في الجاهلية.

{ **لَا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ** } المراد أمران: أحدهما الوأد الذي كان يفعله أهل الجاهلية، وثانيهما إسقاط الأجنة وهو الإجهاض. وأسند القتل إلى النساء وإن كان بعضه يفعله الرجال لأن النساء كن يرضين به أو يسكتن عليه.

البهتان: الخبر المكذوب الذي لا شبهة لكاذبه فيه لأنّه يبهت من ينقل عنه.

الافتراء: اختلاق الكذب، أي: لا يختلقن أخبارا بأشياء لم تقع.

{ **بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ** } يتعلّق بـ { يَأْتِينَ }، وهذا من الكلام الجامع لمعان كثيرة باختلاف محامله من حقيقة ومجاز وكناية.

{ **وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ** } تعميم للنهي. جامع لكلّ ما يخبر به النبيّ صلى الله عليه وسلم ويأمر به ممّا يرجع إلى واجبات الإسلام.

المعروف: هو ما لا تنكره النفوس. والمراد هنا المعروف في الدين، فالتقييد به إمّا لمجرد الكشف، فإنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لا يأمر إلّا بالمعروف، وإمّا لقصد التوسعة عليهنّ في أمر لا يتعلّق بالدين، كما فعلت بريرة إذ لم تقبل شفاعة النبيّ صلى الله عليه وسلم في إرجاعها زوجها مغيثا.

وورد في أخبار أنّه نهاهنّ عن تبرج الجاهلية وعن أن يحدّثن الرجال الذين ليسوا بمحرم، فقال عبد الرحمان بن عوف يا نبي الله إنّ لنا أضيافا وإنّا نغيب، قال رسول الله: **" ليس أولئك عنيت "**.

وعن ابن عباس: نهاهنّ عن تمزيق الثياب وخدش الوجوه وتقطيع الشعور والدعاء بالويل والثبور، أي: من شؤون النياحة في الجاهلية.

{ **فَبَايِعْهُنَّ** } جواب { إذا }، أي فأقبل منهن ما بايعنك عليه، لأنّ البيعة عنده من جانبين ولذلك صيغت لها صيغة المفاعلة.

{ **وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } أي: فيما فرط منهن في الجاهلية ممّا خُصَّ بالنهي في شروط البيعة وغير ذلك.

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ** } [13].

بعد أن استقصت السورة إرشاد المسلمين إلى ما يجب في المعاملة مع المشركين، جاء في خاتمتها الإرشاد إلى المعاملة مع قوم ليسوا دون المشركين في وجوب الحذر منهم وهم اليهود، فالمراد بهم غير المشركين إذ شُبّه يأسهم من الآخرة بيأس الكفّار، فتعين أنّ هؤلاء غير المشركين، لئلا يكون من تشبيه الشيء بنفسه.

{ **قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ** } هذه صفة تكرّر في القرآن إلحاقها باليهود كما جاء في سورة الفاتحة. فتكون

هذه الآية مثل قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ } [المائدة:57].

وذكر الواحدي في أسباب النزول : أنّها نزلت في ناس من فقراء المسلمين يعملون عند اليهود ويواصلونهم ليصيبوا بذلك من ثمارهم، وربما أخبروا اليهود بأحوال المسلمين عن غفلة فنبّههم الله إلى أن لا يتولّوهم.

اليأس: عدم توقّع الشيء، فإذا عُلّق بذات كان دالا على عدم توقّع وجودها. وإذ قد كان اليهود لا ينكرون الدار الآخرة كان معنى يأسهم من الآخرة محتملا أن يراد به الإعراض عن العمل للآخرة فكأنّهم في إهمال الاستعداد لها آيسون منها، وهذا في معنى قوله تعالى في شأنهم { أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ } [البقرة:86].

{ **كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ** } وجه الشبه شدّة الإعراض وعدم التفكّر في الأمر.

ويجوز أن يكون { مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ } بيانا للكفّار، أي: الكفار الذين هلكوا ورأوا أن لا حظّ لهم في خير الآخرة، فشُبّه إعراض اليهود عن الآخرة بيأس الكفار من نعيم الآخرة، ووجه الشبه تحقُّق عدم الانتفاع بالآخرة.

ويحتمل أن يكون يأسهم من الآخرة أطلق على حرمانهم من نعيم الحياة الآخرة. فالمعنى: قد أيأسناهم من الآخرة على نحو قوله تعالى { وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي } [العنكبوت:23].

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الصَّف

اشتهرت هذه السورة باسم (**سورة الصَّف**) وكذلك سُمِّيت في عصر الصحابة.

وبذلك عُنْوِنَت في صحيح البخاري وفي جامع الترمذي، وكذلك كُتب اسمها في المصاحف وفي كتب التفسير. ووجه التسمية وقوع لفظ { صَفًّا } [4] فيها، وهو صف القتال، فالتعريف باللام تعريف العهد.

وذكر السيوطي في الإتقان: أنّها تُسمَّى (**سورة الحواريّين**) ولم يسنده، لذكر الحواريّين فيها. ولعلَّها أوّل سورة نزلت ذكر فيها لفظ الحواريّين.

وهي مدنية عند الجمهور، وعن ابن عباس ومجاهد وعطاء أنّها مكّية ودرج عليه في الكشّاف والفخر.

وقال ابن عطية: الأصح أنّها مدنية ويُشبه أن يكون فيها المكّي.

واختُلف في سبب نزولها، وهل نزلت متتابعة أو متفرقة متلاحقة.

وفي جامع الترمذي عن عبد الله بن سلام قال: قعدنا نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذاكرنا فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحبّ إلى الله لعملناه، فأنزل الله تعالى { سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ} [2/1]، قال عبد الله بن سلام: فقرأها علينا رسول الله. [أخرجه الحاكم وأحمد في مسنده وابن أبي حاتم].

فهذا يقتضي أنّهم قيل لهم { لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ } قبل أن يُخلفوا ما وعدوا به، فيكون الاستفهام مستعملا مجازا في التحذير من عدم الوفاء بما نذروه ووعدوا به.

وعن علي بن طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ } قال: كان ناس من المؤمنين قبل أن يُفرض الجهاد يقولون: لوددنا أنّ الله عز وجل دلَّنا على أحبّ الأعمال إليه فنعمل به، فأخبر الله أنّ أحب الأعمال: إيمان به وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقرُّوا به. فلمّا نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين وشق عليهم. فأنزل الله سبحانه وتعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ }. وهذا المروي عن ابن عباس أوضح وأوفق بنظم الآية، والاستفهام فيه للتوبيخ واللوم وهو المناسب لقوله بعده { كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ } [3].

وهي السورة الثامنة والمائة في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد. نزلت بعد سورة التغابن وقبل سورة الفتح. وكان نزولها بعد وقعة أحد.

وعدد آيها أربع عشرة آية باتفاق أهل العدد.

أغراض السورة

*/ التحذير من إخلاف الوعد والالتزام بواجبات الدين.

*/ التحريض على الجهاد في سبيل الله والثبات فيه، وصدق الإيمان.

*/ الثبات في نصرة الدين.

*/ الائتساء بالصادقين مثل الحواريين.

*/ التحذير من أذى الرسول صلى الله عليه وسلم تعريضا باليهود مثل كعب بن الأشرف.

*/ ضرب المثل لذلك بفعل اليهود مع موسى وعيسى عليهما السلام.

*/ التعريض بالمنافقين.

*/ الوعد على إخلاص الإيمان والجهاد بحسن مثوبة الآخرة والنصر والفتح.

{ **سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } [1].

مناسبة هذه الفاتحة لما بعدها من السورة بيان أنّ الكافرين محقوقون بأن تقاتلوهم لأنّهم شذّوا عن جميع المخلوقات فلم يسبّحوا الله ولم يصفوه بصفات الكمال إذ جعلوا له شركاء في الإلهية. وفيه تعريض بالذين أخلفوا ما وعدوا بأنّهم لم يؤدّوا حق تسبيح الله، لأنّ الله مستحقٌّ لأن يوفى بعهده في الحياة الدنيا، وأنّ الله ناصر الذين آمنوا على عدوّهم.

وتقدم الكلام على نظير هذه الآية في أوّل سورة الحشر وسورة الحديد.

{ **الْعَزِيزُ** } إيماء إلى أنّه الغالب لعدوّه، فما كان لكم أن ترهبوا أعداءه فتفرّوا منهم عند اللقاء.

{ **الْحَكِيمُ** } إن حُملت الصفة على معنى المتّصف بالحكمة، أنّ الموصوف بالحكمة لا يأمركم بجهاد العدو عبثا ولا يترك نصركم. وإن حُملت على معنى المُحْكِم للأمور فكذلك.

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ** [2] **كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ** [3] }.

ناداهم بوصف الإيمان تعريضا بأنّ الإيمان من شأنه أن يزع المؤمن عن أن يخالف فعله قوله في الوعد بالخير.

{ **لِمَ تَقُولُونَ** } الاستفهام عن العلّة مستعمل هنا في إنكار أن يكون سبب ذلك مرضيا لله تعالى، أي: أنّ ما يدعوهم إلى ذلك هو أمر منكر، وذلك كناية عن اللوم والتحذير من ذلك.

<u>فيجوز</u> أن يكون القول الذي قالوه وعدا وعدوه ولم يفوا به. <u>ويجوز</u> أن يكون خبرا أخبروا به عن أنفسهم لم يطابق الواقع. وقد مضى استيفاء ذلك في الكلام على صدر السورة.

وهذا كناية عن تحذيرهم من الوقوع في مثل ما فعلوه يوم أُحُد بطريق الرمز، وكناية عن اللوم على ما فعلوه يوم أحد بطريق التلويح.

وتعقيب الآية بقوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً } [4]. يؤذن بأنّ اللوم على وعد يتعلّق بالجهاد في سبيل الله. وبذلك يلتئم معنى الآية مع حديث الترمذي في سبب النزول.

<u>وفيه تعريض بالمنافقين</u> إذ يظهرون الإيمان بأقوالهم وهم لا يعملون أعمال أهل الإيمان بالقلب ولا بالجسد.

{ **كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ** } بيان للجملة السابقة، تصريحا بالمعنى المُكَنَّى عنه بها.

الكبر: مستعار للشدّة لأنّ الكبير فيه كثرة وشدّة في نوعه.

المَقْتُ: البغض الشديد. وهو هنا بمعنى اسم المفعول. وانتصب على التمييز لجهة الكبر. وهو تمييز نسبة.

<u>ونظم هذا الكلام بطريقة الإجمال ثم التفصيل</u> بالتمييز لتهويل هذا الأمر في قلوب السامعين لكون الكثير

منهم بمظنّة التهاون في الحيطة منه حتّى وقعوا فيما وقعوا يوم أحُد. ففيه وعيد على تجدّد مثله.

{ **عِنْدَ اللَّهِ** } وزيد المقصود اهتماما بأن وصف المقت بأنّه عند الله، أي: مقت لا تسامح فيه.

{ **مَا لا تَفْعَلُونَ** } الـ { مَا } في الموضعين موصولة، وهي بمعنى لام العهد، أي: الفعل الذي وعدتم أن تفعلوه وهو أحب الأعمال إلى الله أو الجهاد. فاقتضت الآية أنّ الوعد في مثل هذا يجب الوفاء به لأنّ الموعود به طاعة فالوعد به من قبيل النذر المقصود منه القربة فيجب الوفاء به.

{ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ** } [4].

هذا جواب على تمنّيهم معرفة أحبّ الأعمال إلى الله، كما في حديث عبد الله بن سلام عند الترمذي المتقدّم، وما قبله توطئة له على أسلوب الخطب ومقدّماتها.

الصّفّ: عدد من أشياء متجانبة منتظمة الأماكن، فيطلق على صفّ المصلين، وصفّ الملائكة، وصفّ الجيش في ميدان القتال. فهو هنا كناية عن الانتظام والمقاتلة عن تدبّر. وأمّا حركات القتال فتعرض بحسب مصالح الحرب في اجتماع وتفرّق وكرّ وفرّ.

المرصوص: المتلاصق بعضه ببعض. والتشبيه في الثبات وعدم الانفلات وهو الذي اقتضاه التوبيخ السابق في قوله تعالى { لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ } [2].

{ **وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** } [5].

موقع هذه الآية هنا خفي المناسبة. فيجوز أن تكون الجملة معترضة استئنافا ابتدائيا انتقل به من النهي عن عدم الوفاء بما وعدوا الله عليه إلى التعريض بقوم آذوا النبيّ صلى الله عليه وسلم بالقول أو بالعصيان أو نحو ذلك، فيكون الكلام موجَّها إلى المنافقين، فقد وُسِموا بأذى الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ } [الأحزاب:57]. وقوله تعالى { وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [التوبة:61]، وقوله تعالى {وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النبيّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ } [التوبة:61]. وعلى هذا الوجه فهو اقتضاب نقل به الكلام من الغرض الذي قبله لتمامه إلى هذا الغرض، أو تكون مناسبة وقعه في هذا الموقع حدوث سبب اقتضى نزوله، من أذى قد حدث لم يطّلع عليه المفسّرون ورواة الأخبار. والواو على هذا الوجه عطف غرض على غرض، وهو المُسمَّى بعطف قصة على قصة.

ويجوز أن تكون الجملة من تتمّة الكلام الذي قبلها ضرب الله مثلا للمسلمين لتحذيرهم من إتيان ما يؤذي رسوله صلى الله عليه وسلم ويسوؤه من الخروج عن جادة الكمال الديني، مثل عدم الوفاء بوعدهم في

الإتيان بأحب الأعمال إلى الله تعالى، وأنذرهم من أن يكون ذلك سببا للزيغ والضلال كما حدث لقوم موسى لمَّا آذوه.

وعلى هذا الوجه فالمراد بأذى قوم موسى إيّاه: عدم توخي طاعته ورضاه، فيكون ذلك مشيرا إلى ما حكاه الله عنه من قوله تعالى { يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ - إلى قوله - قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ } [المائدة:24/21]. فإنّ قولهم ذلك استخفاف برسولهم يدل عليه قوله عقبه { قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ } [المائدة:25].

وقد يكون وصفهم في هذه الآية بقوله { وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } ناظرا إلى وصفهم بذلك مرتين في آية سورة المائدة، في قوله تعالى { فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ } [المائدة:25] وقوله تعالى { فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ } [المائدة:26].

فيكون المقصود الأهم من القصة هو ما تفرّع على ذكرها من قوله تعالى { فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ }. ويناسب أن تكون هذه الآية تحذيرا من مخالفة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم وعبرة بما عرض لهم من الهزيمة يوم أحُد لمّا خالفوا أمره من عدم ثبات الرماة في مكانهم.

{ **إِذْ** } متعلّقة بفعل محذوف تقديره: اذكر، وله نظائر كثيرة في القرآن، أي: اذكر لهم أيضا وقت قول موسى لقومه، أو اذكر لهم مع هذا النهي وقت قول موسى لقومه.

{ **يَا قَوْمِ** } ابتداء كلام موسى عليه السلام بهذا النداء تعريض بأنّ شأن قوم الرسول أن يطيعوه بله أن لا يؤذوه. ففي النداء بوصف { قَوْمِ } تمهيد للإنكار في قوله { لِمَ تُؤْذُونَنِي }.

{ **لِمَ تُؤْذُونَنِي** } الاستفهام للإنكار، أي: إنكار أن يكون للإذاية سبب.

{ **وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ** } جاءت جملة الحال مصادفةً المحلَّ من الترقِّي في الإنكار.

{ **قَدْ** } لتحقيق معنى الحالية، أي: وعلمهم برسالته عن الله أمر محقّق لما شاهدوه من دلائل رسالته.

والإتيان هنا بعد { قد } بالمضارع للدلالة على أنّ علمهم بذلك متجدّد بتجدد الآيات والوحي.

الزيغ: الميل عن الحق، أي: لمّا خالفوا ما أمرهم رسولهم جعل الله في قلوبهم زيغا، أي: تمكَّن الزيغ من نفوسهم فلم ينفكُّوا عن الضلال.

{ **وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** } تذييل، أي: وهذه سنة الله في الناس، فكان قوم موسى الذين آذوه من أهل ذلك العموم.

{ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرائيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ} [6].

عطف على جملة { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ } [5]، فعلى الوجه الأوّل في موقع التي قبلها فموقع هذه مساو له. وأمّا على الوجه الثاني في الآية السابقة فإنّ هذه مسوقة مساق التتميم لقصة موسى بذكر مثال آخر لقومٍ حادوا عن طاعة رسول الله إليهم من غير إفادة تحذير للمخاطبين من المسلمين، وللتخلُّص إلى ذكر إخبار عيسى بالرسول الذي يجيء بعده.

{ يَا بَنِي إِسْرائيلَ } ناداهم بذلك لأنّ بني إسرائيل بعد موسى اشتهروا بعنوان { بَنِي إِسْرائيلَ } ولم يطلق عليهم عنوان: قوم موسى، إلّا في مدّة حياة موسى خاصة، فإنّهم إنّما صاروا أمّة وقوما بسببه وشريعته. فأمّا عيسى فإنّما كان مرسلا بتأييد شريعة موسى، والتذكير بها وتغيير بعض أحكامها، ولأنّ عيسى حين خاطبهم لم يكونوا قد اتّبعوه ولا صدّقوه فلم يكونوا قوما له خالصين.

{ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ } تقدّم القول في معناها في [آل عمران:50] وفي [المائدة:46].

والمقصود من تنبيههم على هذا التصديق حين ابتداءهم بالدعوة تقريب إجابتهم واستنزال طائرهم لشدّة تمسّكهم بالتوراة واعتقادهم أنّ أحكامها لا تقبل النسخ، وأنّها دائمة. ولذلك لمّا ابتدأهم بهذه الدعوة لم يزد عليها ما حُكِيَ عنه في [آل عمران:50] من قوله { وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ }، فيُحمل ما هنالك على أنّه خطاب واقع بعد أوّل الدعوة، فإنّ الله لم يوح إليه أوّل مرة بنسخ بعض أحكام التوراة.

وكذلك شأن التشريع أن يلقى إلى الأمة تدريجا كما في حديث عائشة في صحيح البخاري أنّها قالت: " إنّما أنزل أوّل ما أنزل منه (أي: القرآن) سورة من المفصّل فيها ذكر الجنة والنار حتّى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو أنزل أوّل شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا نترك الخمر أبدا، ولو نزل: لا تزنوا: لقالوا: لا ندع الزنى أبدا. لقد نزل بمكة على محمد صلى الله عليه وسلم وإنّي لجارية ألعب { بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ } [القمر:46]، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلّا وأنا عنده ".

التبشير: الإخبار بحادث يسرّ، وأطلق هنا على الإخبار بأمر عظيم النفع لهم، لأنّه يلزمه السرور الحق، فإنّ مجيء الرسول إلى الناس نعمة عظيمة.

ووجه إيثار هذا اللفظ الإشارة إلى ما وقع في الإنجيل من وصف رسالة الرسول الموعود به بأنّها بشارة الملكوت: " ويكرّز ببشارة الملكوت هذه في كل المسكونة " [إنجيل متى، الإصحاح: 24، فقرة:11].

وإنّما أخبرهم بمجيء رسول من بعده لأنّ بني إسرائيل لم يزالوا ينتظرون مجيء رسول من الله يخلِّصهم من براثن المتسلّطين عليهم وهذا الانتظار ديدنهم، وهم موعودون لهذا المخلِّص لهم على لسان أنبيائهم

بعد موسى. فكان وعد عيسى به كوعد من سبقه من أنبيائهم، وفاتحهم به في أوّل الدعوة اعتناء بهذه الوصية.

وفي الابتداء بها تنبيه على أن ليس عيسى هو المخلّص المنتظر، وأن المنتظر رسول يأتي من بعده وهو محمد صلى الله عليه وسلم.

{ **اسْمُهُ أَحْمَدُ** } يجري على جميع ما تحمله هذه الجملة من المعاني.

اسم: استعماله في كلام العرب ثلاثة استعمالات:

الأوّل: أن يكون بمعنى المُسَمَّى.

الثاني: أن يكون الاسم بمعنى شُهرة في الخير.

الثالث: أن يطلق على لفظ جعل دالا على ذات لتميّز من كثير من أمثالها، وهذا هو العَلَم.

ونحن نجري على أصلنا في حمل ألفاظ القرآن على جميع المعاني التي يسمح بها الاستعمال الفصيح كما في المقدمة التاسعة من مقدمات هذا التفسير، فنحمل (الاسم) في قوله { اسْمُهُ أَحْمَدُ } ما يجمع بين هذه الاستعمالات الثلاثة، أي: مسمَّاه أحمد، وذِكره أحمد، وعَلَمه أحمد،

أحمد: يجوز أن نحمله على ما لا يأباه واحد من استعمالات (اسم) الثلاثة إذا قرن به وهو:

*/ أنّ { أحمد } اسم تفضيل يجوز أن يكون مسلوب المفاضلة معنيا به القوة فيم هو مشتق منه، أي: الحمد، وهو الثناء، فيكون أحمد هنا مستعملا في قوة مفعولية الحمد، أي: حمد الناس إيّاه، وهذا مثل قولهم. العود أحمد، أي: محمود كثيرا. أي: أنّ مُسَمَّى هذا الرسول ونفسه موصوفة بأقوى ما يُحمد عليه محمود، فيشمل ذلك جميع صفات الكمال النفسانية والخُلُقية والخَلْقية والنسبية والقومية، وغير ذلك ممّا هو معدود من الكمالات الذاتية والغرضية.

*/ والوصف ب {أحمد} على المعنى الثاني في الاسم. أن سمعته وذكره في جيله والأجيال بعده موصوف بأنّه أشد ذكر محمود وسمعة محمودة. وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم: " **أنا حامل لواء الحمد يوم القيامة** ". وأن الله يبعثه مقاما محمودا.

*/ ووصف {أحمد} بالنسبة إلى المعنى الثالث في الاسم رمز إلى أنّه اسمه العلم يكون بمعنى: أحمد، فإنّ لفظ محمد اسم مفعول من حمد المضاعف الدال على كثرة حمد الحامدين إيّاه، كما قالوا: فلان ممدّح، إذا تكرّر مدحه من مادحين كثيرين. فاسم محمد يفيد معنى: المحمود حمدا كثيرا، ورمز إليه بأحمد.

{ **فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ** } هو مناط الأذى.

{ **جَاءَهُمْ** } المتبادر أن يعود ضمير الرفع إلى عيسى، وأن يعود ضمير النصب إلى الذين خاطبهم عيسى. والتقدير: فكذَّبوه، فلمَّا جاءهم بالمعجزات قالوا هذا سحر أو هو ساحر.

ويحتمل أن يكون ضمير الرفع عائدا إلى رسول يأتي من بعدي. وضمير النصب عائدا إلى لفظ { بَنِي إِسْرائيلَ }، أي: غير الذين دعاهم عيسى عليه السلام. أي: فلمّا جاءهم الرسول الذي دعاه عيسى باسم

أحمد بالبيِّنات، أي: دلائل انطباق الصفات الموعود بها قالوا هذا سحر أو هذا ساحر مبين.

وحصل أذاهم بهذا القول لكلا الرسولين.

فالجملة على هذا الاحتمال تحمل على أنّها اعتراض بين المتعاطفات وممهِّدة للتخلُّص إلى مذمّة المشركين وغيرهم ممَّن لم يقبل دعوة محمد صلى الله عليه وسلم.

{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلامِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [7].

كانت دعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم مماثلة دعوة عيسى عليه السلام وكان جواب الذين دعاهم إلى الإسلام من أهل الكتابين والمشركين مماثلا لجواب الذين دعاهم عيسى عليه السلام. فلمّا أُدْمِج في حكاية دعوة عيسى بشارته برسول يأتي من بعده ناسب أن يُنقل الكلام إلى ما قابل به قوم الرسول الموعود رسولهم فلذلك ذُكر في دعوة هذا الرسول دين الإسلام، فوصفوا بأنّهم أظلم الناس تشنيعا لحالهم.

{ وَمَنْ أَظْلَمُ } المراد من هذا الاستفهام هم الذين كذَّبوا النبيّ صلى الله عليه وسلم. ولذلك عطف هذا الكلام بالواو دون الفاء لأنّه ليس مفرَّعا على دعوة عيسى عليه السلام.

وقد شمل هذا التشنيع جميع الذين كذَّبوا دعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم من أهل الكتابين والمشركين. والمقصود الأول هم أهل الكتاب.

والاستفهام إنكاري، أي: لا أحد أظلم من هؤلاء.

وإنّما كانوا أظلم الناس؛ لأنّهم ظلموا الرسول صلى الله عليه وسلم بنسبته إلى ما ليس فيه إذ قالوا: هو ساحر، وظلموا أنفسهم إذ لم يتوخّوا لها النجاة، فيَعرضوا دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم على النظر الصحيح حتّى يعلموا صدقه، وظلموا ربّهم إذ نسبوا ما جاءهم من هديه وحجج رسوله صلى الله عليه وسلم إلى ما ليس منه فسمُّوا الآيات والحجج سحرا، وظلموا الناس بحملهم على التكذيب وظلموهم بإخفاء الأخبار التي جاءت في التوراة والإنجيل مثبتة صدق رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم.

{ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ } جُعل افتراؤهم الكذب على الله لأنّهم كذّبوا رسولا يخبرهم أنّه مرسل من الله فكانت حرمة هذه النسبة تقتضي أن يُقبلوا على التأمّل والتدبّر فيما دعاهم إليه ليصلوا إلى التصديق، فلمَّا بادروها بالإعراض وانتحلوا للداعي صفات النقص كانوا قد نسبوا ذلك إلى الله دون توقير.

فأمّا أهل الكتاب فجحدوا الصفات الموصوفة في كتابهم، كما قال تعالى فيهم { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ } [البقرة:140]. وذلك افتراء.

وأمّا المشركون فإنّهم افتروا على الله إذ قالوا { مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ } [الأنعام:91].

{ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلامِ } لجملة الحال موقع متين هنا، أي: فعلوا ذلك في حين أنّ الرسول يدعوهم إلى ما فيه خيرهم، فعاضوا الشكر بالكفر.

{ **الْإِسْلامِ** } علم للدين الذي جاء به النبيّ صلى الله عليه وسلم، وهو جامع لما فيه خير الدنيا والآخرة فكان ذكر هذا الاسم في الجملة الحالية زيادة في تشنيع حال الذين أعرضوا عنه، أي: وهو يُدعى إلى ما فيه خيره وبذلك حق عليه وصف { أَظْلَمُ }.

{ **وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** } تأييس لهم من الإقلاع عن هذا الظلم، أي: أنّ الذين بلغوا هذا المبلغ من الظلم لا طمع في صلاحهم لتمكّن الكفر منهم حتّى خالط سجاياهم، ولذلك أُقحم لفظ { الْقَوْمَ } للدلالة على أنّ الظلم بلغ حدَّ أن صار من مقومات قوميّتهم.

وهذا يعم المخبر عنهم وأمثالهم الذين افتروا على عيسى، ففيها معنى التذييل.

{ **يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** } [8].

استئناف بياني ناشئ عن الإخبار عنهم بأنّهم افتروا على الله الكذب في حال أنّهم يُدعون إلى الإسلام، لأنّه يثير سؤال سائل عمّا دعاهم إلى هذا الافتراء. فأُجيب بأنّهم يريدون أن يخفوا الإسلام عن الناس ويعوقوا انتشاره، ومُثِّلت حالتهم بحالة نفر يبتغون الظلام للتلصُّص أو غيره ممّا يراد فيه الاختفاء.

والتقدير: يريدون عوق ظهور الإسلام كمثل قوم يريدون إطفاء النور، فهذا تشبيه الهيئة بالهيئة تشبيه المعقول بالمحسوس.

{ **لِيُطْفِئُوا** } هذه اللام الزائدة، وتفيد التأكيد. وأصلها لام التعليل، ذُكرت علّة فعل الإرادة عوضا عن مفعوله بتنزيل المفعول منزلة العلّة. ويكثر وقوع هذا اللام بعد مادة الإرادة ومادة الأمر. وقد سماها بعض أهل العربية: لام (أنْ) لأنّ معنى (أن) المصدرية ملازم لها. وتقدّم الكلام عليها عند قوله تعالى { يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ } [النساء:26]. فلذلك قيل: إنّ هذه اللام بعد فعل الإرادة مزيدة للتأكيد.

{ **نُورَ اللَّهِ** } إضافة نور إلى اسم الجلالة إضافة تشريف، أي: نورا أوقده الله، أي: أوجده وقدره فما ظنّكم بكماله.

{ **وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ** } إخبار بأنّهم لا يبلغون مرادهم وأنّ هذا الدين يبلغ تمام الانتشار، والجملة الاسمية تفيد ثبوت هذا الإتمام. وفي الحديث " **والله لَيَتِمَّنَّ هذا الأمر حتّى يسيرَ الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلّا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون** ".

التمام: هو حصول جميع ما للشيء من كيفية أو كمية، فتمام النور: حصول أقوى شعاعه، وإتمامه إمداد آلته بما يُقوّي شعاعه.

{ **وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** } حالية و { لو} وصلية، وهي تدل على أن مضمون شرطها أجدر ما يظن أن لا يحصل عند حصوله مضمون الجواب.

{ **الْكَافِرُونَ** } يشمل جميع الكافرين بالإسلام من المشركين وأهل الكتاب وغيرهم، ولكن غلب اصطلاح القرآن على تخصيص وصف الكافرين بأهل الكتاب ومقابلتهم بالمشركين أو الظالمين.

{ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ } [9].

هذا زيادة تحدٍّ للمشركين وأحلافهم من أهل الكتاب، فيه تقوية لمضمون قوله تعالى { وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ } [8]، وفيه معنى التعليل للجملة التي قبله.

{ هوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ } قصر إضافي لقلب زعم الكافرين أنّ محمدا صلى الله عليه وسلم أتى من قبل نفسه، أي: الله لا غيره أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق.

{ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ } تعليل، إعلام بأنّ الله أراد ظهور هذا الدين وانتشاره كيلا يطمعوا أن يناله ما نال دين عيسى عليه السلام من القمع والخفت في أوّل أمره.

الإظهار: النصر ويطلق على التفضيل والإعلاء المعنوي.

{ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ } تعريف الجنس المفيد للاستغراق، أي: ليُعلي هذا الدين الحق على جميع الأديان، وينصر أهله على أهل الأديان الأخرى الذين يتعرَّضون لأهل الإسلام.

{ الدِّينِ } مستعمل في كلا معنييه: المعنى الحقيقي وهو الشريعة. والمعنى المجازي وهو أهل الدين، كما تقول: دخلت قرية كذا وأكرمتني. فإظهار الدين على الأديان بكونه أعلى منها تشريعا وآدابا، وأصلح بجميع الناس. وإظهار أهله على أهل الأديان بنصر أهله على الذين يشاقونهم في مدة ظهوره حتّى يتم أمره ويستغني عمّن ينصره.

وقد تمّ وعد الله وظهر هذا الدين وملك أهله أمما كثيرة ثم عرضت عوارض من تفريط المسلمين في إقامة الدين على وجهه فغلبت عليهم أمم، فأمّا الدين فلم يزل عاليا مشهودا له من علماء الأمم المنصفين.

{ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ } خُصَّ المشركون بالذكر هنا إتماما للذين يكرهون إتمام هذا النور، وظهور هذا الدين على جميع الأديان.

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ [10] تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ [11] يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [12] } .

هذا تخلّص إلى الغرض الذي افتُتحت به السورة من قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ - إلى قوله - كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ } [2-4]. فبعد أن ضُربت لهم الأمثال، وانتقل الكلام من مجال إلى مجال، أعيد خطابهم هنا بمثل ما خوطبوا به بقوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ } [2]، أي: هل أدلّكم على أحب العمل إلى الله لتعملوا به كما طلبتم.

{ **هَلْ أَدُلُّكُمْ** } الاستفهام مستعمل في العرض مجازا لأن العارض قد يسأل المعروض عليه ليعلم رغبته في الأمر المعروض، كما يقال: هل لك في كذا؟ أو هل لك إلى كذا؟ والعرض هنا كناية عن التشويق إلى الأمر المعروض، وهو دلالته إيّاهم على تجارة نافعة.

{ **أَدُلُّكُمْ** } الظاهر أن الضمير المستتر عائد إلى الله تعالى لأنّ ظاهر الخطاب أنّه موجَّه من الله تعالى إلى المؤمنين. ويجوز أن يُجعل الضمير إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم على تقدير قول محذوف، وعلى اختلاف الاحتمال يختلف موقع قوله الآتي { وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ } [13].

{ **عَلَى تِجَارَةٍ** } أطلق على العمل الصالح لفظ التجارة على سبيل الاستعارة لمشابهة العمل الصالح التجارةَ في طلب النفع من ذلك العمل ومزاولته والكدِّ فيه، وتقدّم في قوله تعالى { فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ } [البقرة:16].

{ **تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** } وصف التجارة بأنّها تنجي من عذاب أليم، تجريد للاستعارة لقصد الصراحة بهذه الفائدة لأهميتها، وليس الإنجاء من العذاب من شأن التجارة فهو من مناسبات المعنى الحقيقي للعمل الصالح.

{ **تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ** } مستأنفة استئنافا بيانيا لأنّ ذكر الدلالة مجمل والتشويق الذي سبقها ممّا يثير في أنفس السامعين التساؤل عن هذا الذي تدلنا عليه وعن هذه التجارة.

وإذ قد كان الخطاب لقوم مؤمنين فإنّ فعل { تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } مع { وَتُجَاهِدُونَ } مراد به: تجمعون بين الإيمان بالله ورسوله وبين الجهاد في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، تنويها بشأن الجهاد.

وفي التعبير بالمضارع إفادة الأمر بالدوام على الإيمان وتجديده في كل آن، وذلك تعريض بالمنافقين وتحذير من التغافل عن ملازمة الإيمان وشؤونه. وأمّا { وَتُجَاهِدُونَ } فإنّه لإرادة تجدّد الجهاد إذا استنفروا إليه.

{ **يَغْفِرْ** } الجزم تنبيه على أن { تُؤْمِنُونَ / وَتُجَاهِدُونَ } وإن جاءا في صيغة الخبر فالمراد الأمر لأنّ الجزم إنّما يكون في جواب الطلب لا في جواب الخبر.

{ **ذَلِكُمْ** } الإشارة إلى الإيمان والجهاد بتأويل: المذكور: خير.

{ **خَيْرٌ لَكُمْ** } هذا ليس اسم تفضيل الذي أصله أخير ووزنه: أفعل، بل هو اسم لضدّ الشرّ.

{ **إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** } تعريض لهم بالعتاب على تولّيهم يوم أحُد بعد أن قالوا: لو نعلم أيّ الأعمال أحبّ إلى الله لعملناه، فنُدِبوا إلى الجهاد فكان ما كان منهم، كما تقدّم في أول السورة، فنزلوا منزلة من يُشكّ في علمهم بأنّه خير لعدم جريهم على موجب العلم.

المساكن الطيبة: هي القصور التي في الجنة، قال تعالى { وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً } [الفرقان:10].

خُصَّت المساكن بالذكر هنا لأنّ في الجهاد مفارقة مساكنهم، فوعدوا على تلك المفارقة المؤقتة بمساكن أبدية.

{ **وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ** } [13].

{ **وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ** } عطف على جملة { يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ } [12]،عطف الاسمية على الفعلية. وجيء بالاسمية لإفادة الثبوت والتحقّق.

{ **أُخْرَى** } مبتدأ خبره محذوف دلّ عليه قوله { لَكُمْ } من قوله تعالى { يَغْفِرْ لَكُمْ }. والتقدير: أخرى لكم. ولك أن تجعل الخبر قوله تعالى { نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ }. وجيء به وصفا مؤنثا بتأويل نعمة، أو فضيلة، أو خصلة، ممّا يؤذن به قوله تعالى { يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ } إلى آخره، كقوله تعالى { وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا } [الفتح:21].

{ **تُحِبُّونَهَا** } إشارة إلى الامتنان عليهم بإعطائهم ما يحبّون في الحياة الدنيا قبل إعطاء نعيم الآخرة. وهذا نظير قوله تعالى { فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا } [البقرة:144].

{ **نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ** } بدل من { أُخْرَى }، ويجوز أن يكون خبرا عنه. والمراد به النصر العظيم، وهو نصر فتح مكة فإنّه كان نصرا على أشد أعدائهم الذين فتنوهم وآذوهم وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم وألّبوا عليهم العرب والأحزاب، وراموا تشويه سمعتهم، وقد انضم إليه نصر الدين بإسلام أولئك الذين كانوا من قبل أئمة الكفر ومساعير الفتنة، فأصبحوا مؤمنين إخوانا، وصدق الله وعده بقوله تعالى { عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً } [الممتحنة:7]، وقوله تعالى { وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً } [آل عمران:103].

{ **مِنَ اللَّهِ** } ذكر اسم الجلالة يجوز أن يكون إظهارا في مقام الإضمار على احتمال أن يكون ضمير التكلّم في قوله تعالى { هَلْ أَدُلُّكُمْ } [10] كلاما من الله تعالى، ويجوز أن يكون جاريا على مقتضى الظاهر إن كان الخطاب أُمِر به رسول الله صلى الله عليه وسلم بتقدير: قل.

{ **قَرِيبٌ** } وصف للتعجيل بالمسرّة. وهذه الآية من معجزات القرآن الراجعة إلى الإخبار بالغيب.

{ **وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ** } يجوز أن تكون عطفا على مجموع الكلام الذي قبلها ابتداء من قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ } [10]، على احتمال أنّ ما قبلها كلام صادر من جانب الله تعالى، عطف غرض على غرض، فيكون الأمر من الله لنبيّه صلى الله عليه وسلم بأن يبشّر المؤمنين.

وأمّا على احتمال أن يكون قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ } إلى آخره، مسوقا لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يقوله، بتقدير قول محذوف، أي: قل يا أيّها الذين آمنوا هل أدلّكم، فيكون الأمر في { وَبَشِّرِ } التفاتا من قبيل التجريد. والمعنى: وأُبشِّر المؤمنين.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ } [14].

هذا خطاب آخر للمؤمنين تكملة لما تضمّنه الخطاب بقوله تعالى { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ - إلى قوله - وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } [11/10]، الذي هو المقصود من ذلك الخطاب، فجاء هذا الخطاب الثاني تذكيرا بأُسْوَة عظيمة من أحوال المخلصين من المؤمنين السابقين وهم أصحاب عيسى عليه السلام مع قلّة عددهم وضعفهم.

{ **كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ** } هذا أمر بنصر الدين غير النصر الذي بالجهاد، لأنّ ذلك تقدّم التحريض عليه في قوله تعالى { تُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ } [11]، ووعدهم عليه بأن ينصرهم الله. فهذا النصر المأمور به هنا نصر دين الله الذي آمنوا به بأن يبثّوه ويثبتوا على الأخذ به دون اكتراث بما يلاقونه من أذى من المشركين وأهل الكتاب، قال تعالى { لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [آل عمران:186].

وهذا هو الذي شُبِّه بنصر الحواريين دين الله الذي جاء به عيسى عليه السلام، فإنّ عيسى لم يجاهد من عاندوه، ولا كان الحواريون ممّن جاهدوا ولكنه صبر وصبروا حتّى أظهر الله دين النصرانية وانتشر في الأرض ثم دب إليه التغيير حتى جاء الإسلام.

الأنصار: جمع نصير، وهو الناصر شديد النصر.

والتشبيه بدعوة عيسى ابن مريم للحواريين وجواب الحواريين تشبيه تمثيل، أي: كونوا عند ما يدعوكم محمد صلى الله عليه وسلم إلى نصر الله كحالة قول عيسى ابن مريم للحواريين واستجابتهم له. والتشبيه لقصد التنظير والتأسي فقد صدق الحواريون وعدهم وثبتوا على الدين ولم تزعزعهم الفتن والتعذيب.

{ **مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ** } قول عيسى استفهام لاختبار انتدابهم إلى نصر دين الله معه.

{ **إِلَى اللَّهِ** } الانتهاء المجازي، أي: متوجهين إلى الله، شُبِّه دعاؤهم إلى الدين وتعليمهم الناس ما يرضاه الله لهم بسعي ساعين إلى الله. ففي حرف { إِلَى } استعارة تبعية، ولذلك كان الجواب المحكي عن الحواريين مطابقا للاستفهام إذ قالوا { نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ }، أي: نحن ننصر الله على من حاده وشاقه. أي: ننصر دينه.

{ **الْحَوَارِيُّونَ** } جمع حَوَاريّ (بفتح الحاء وتخفيف الواو) وهي كلمة معرّبة عن الحبشية (حواريا) وهو الصاحب الصفي، وليست عربية الأصل ولا مشتقة من مادة عربية.

والحواريون اسم أطلقه القرآن على أصحاب عيسى الاثني عشر، ولا شك أنّه كان معروفا عند نصارى

العرب أخذوه من نصارى الحبشة. ولا يُعرف هذا الاسم في الأناجيل.

وقد سَمَّى النبيّ صلى الله عليه وسلم الزبير بن العوام حواريه على التشبيه بأحد الحواريين فقال: **" لكل نبي حواري وحواريَّ الزبير "**. وتقدّم في قوله تعالى { قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ } [آل عمران:52].

واعلم أن مقالة عيسى عليه السلام المحكية في هذه الآية غير مقالته المحكية في آية آل عمران فإن تلك موجَّهة إلى جماعة بني إسرائيل الذين أحس منهم الكفر لما دعاهم إلى الإيمان به. أما مقالته المحكية هنا فهي موجهة للذين آمنوا به طالبا منهم نصرته لقوله تعالى { كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ }، فلذلك تعيّن اختلاف مقتضى الكلامين المتماثلين.

{ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ } فُرِّع على قول الحوارين { نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ } الإخبار بأنّ بني إسرائيل افترقوا طائفتين طائفة آمنت بعيسى وما جاء به، وطائفة كفرت بذلك.

والمقصود من الكلام التوطئة لقوله تعالى **{ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ }**

التأييد: النصر والتقوية.

والمقصود من هذا الخبر وعد المسلمين الذين أمروا أن يكونوا أنصار الله بأن الله مؤيّدهم على عدوهم.

العدو: يطلق على الواحد والجمع، قال تعالى { وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ } [الكهف:50]، وتقدم عند قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ } [الممتحنة:1].

الظاهر: الغالب، يقال: ظهر عليه، أي: غلبه، وظهر به: غلب بسببه، أي: بإعانته. قال تعالى { وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ } [التحريم: 4].

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الجمعة

سُمِّيت هذه السورة عند الصحابة وفي كتب السنّة والتفاسير (**سورة الجمعة**) ولا يُعرف لها اسم غير ذلك. وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: " كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فَأُنْزِلَتْ عليه سُورَةُ الجُمُعَةِ { وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ } [3]، قالَ لَهُ رَجُلٌ: مَن هُمْ يا رَسولَ اللَّهِ؟ فَلَمْ يُرَاجِعْهُ حتَّى سَأَلَ ثَلَاثًا، وفينَا سَلْمَانُ الفَارِسِيُّ، وضَعَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَدَهُ علَى سَلْمَانَ، ثُمَّ قالَ: **لو كانَ الإيمَانُ عِنْدَ الثُّرَيَّا، لَنَالَهُ رِجَالٌ - أوْ رَجُلٌ - مِن هَؤُلَاءِ** " .

ووجه تسميتها وقوع لفظ { الْجُمُعَةِ } فيها [9]، وهو اسم لليوم السابع من أيام الأسبوع في الإسلام.

وقال ثعلب: إنّ قريشا كانت تجتمع فيه عند قُصي بدار الندوة. ولا يقتضي في ذلك أنّهم سمُّوا ذلك اليوم الجمعة. ولم أر في كلام العرب قبل الإسلام ما يُثبت أنّ اسم الجمعة أطلقوه على هذا اليوم.

وقد أطلق اسم { الجُمُعَةِ } على الصلاة المشروعة فيه على حذف المضاف لكثرة الاستعمال. وفي حديث ابن عمر أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " **إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الجُمُعَةَ، فَلْيَغْتَسِلْ** " [متفق عليه].

ووقع في كلام عائشة: " كانَ النَّاسُ يَنْتابُونَ يَومَ الجُمُعَةِ مِن مَنازِلِهِمْ والعَوالِيِّ، فَيَأْتُونَ في الغُبارِ يُصِيبُهُمُ الغُبارُ والعَرَقُ، فَيَخْرُجُ منهمُ العَرَقُ، فأتَى رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إنْسانٌ منهمْ وهو عِندِي، فقالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: **لو أنَّكُمْ تَطَهَّرْتُمْ لِيَومِكُمْ هذا** " [البخاري].

وفي كلام أنس: " كنّا نَقِيل بعد الجمعة ". ومن كلام ابن عمر:

"...وكانَ لا يُصَلِّي بَعْدَ الجُمُعَةِ حتَّى يَنْصَرِفَ، فيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ " [البخاري]. ، أي: من المسجد.

ومن كلام سهل بن سعد: " ما كنا نقيل ولا نتغدى إلّا بعد الجمعة ".

فيحتمل أنّ يكون لفظ الجمعة الذي في اسم هذه السورة معنيًّا به صلاة الجمعة، لأنّ في هذه السورة أحكاما لصلاة الجمعة. ويحتمل أن يراد به يوم الجمعة لوقوع لفظ يوم الجمعة في السورة في آية صلاة الجمعة.

وهي مدنية بالاتفاق.

ويظهر أنّها **نزلت سنة ست** وهي سنة خيبر، فظاهر حديث أبي هريرة الذي أشرنا إليه آنفا أنّ هذه السورة نزلت بعد فتح خيبر، لأنّ أبا هريرة أسلم يوم خيبر. وظاهره أنّها نزلت دفعة واحدة، فتكون قصّة ورود العير من الشام هي سبب نزول السورة، وسيأتي ذكر ذلك.

وكان فرض صلاة الجمعة متقدّما على وقت نزول السورة فإنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم فرضها في خطبة خطب بها للناس، وصلّاها في أوّل يوم جمعة بعد يوم الهجرة في دار لبني سالم بن عوف.

وثبت أنّ أهل المدينة صلّوها قبل قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة كما سيأتي. فكان فرضها ثابتا بالسنة قولا وفعلا. وما ذُكر في هذه السورة من قوله تعالى { إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسَعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ } [9] ورد مورد التأكيد لحضور صلاة الجمعة وترك البيع، والتحذير من الانصراف عند الصلاة قبل تمامها كما سيأتي.

وقد **عُدَّت هذه السورة السادسة بعد المائة** في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد، نزلت بعد سورة التحريم وقبل سورة التغابن.

وعدت آيها إحدى عشرة آية باتفاق العادين من قرّاء الأمصار.

أغراض السورة

*/ التنويه بجلال الله تعالى.

*/ التنويه بالرسول صلى الله عليه وسلم. وأنّه رسول إلى العرب ومن سيلحق بهم. وأنّ رسالته فضل من الله

*/ ذمّ اليهود لأنّهم حسدوا المسلمين على تشريفهم بهذا الدين. ومن جملة ما حسدوهم عليه ونقموه أن جعل يوم الجمعة اليوم الفاضل في الأسبوع بعد أن كان يوم السبت، وهو المعروف في تلك البلاد.

*/ إبطال زعمهم أنّهم أولياء الله.

*/ التحذير من التخلّف عن صلاة الجمعة والأمر بترك ما يشغل عنها في وقت أدائها. وتوبيخ قوم انصرفوا عنها لمجيء عير تجارة من الشام، وذلك أول أغراضها وما نزلت لأجله، وما قبله كالمقدّمة.

{ **يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ** } [1].

افتتاح السورة بالإخبار عن تسبيح أهل السماوات والأرض لله تعالى براعة استهلال لأنّ الغرض الأوّل من السورة التحريض على شهود الجمعة والنهي عن الأشغال التي تشغل عنها وزجر فريق من المسلمين انصرفوا عنها حرصا على الابتياع من عير وردت المدينة في وقتها.

{ **يُسَبِّحُ** } المضارع للتنبيه على أنّ أهل السماوات والأرض يُجدِّدون تسبيح الله ولا يفترون عنه.

ومعاني هذه الآية تقدَّمت مفرّقة في أوائل سورة الحديد وسورة الحشر. سوى أنّ هذه السورة جاء فيها فعل التسبيح مضارعا وجيء به في سواها ماضيا لمناسبة فيها وهي:

أنّ الغرض منها التنويه بصلاة الجمعة والتنديد على نفر قطعوا عن صلاتهم وخرجوا لتجارة أو لَهْوٍ، فمناسبٌ أن يُحكى تسبيح أهل السماوات والأرض بما فيه دلالة على استمرار تسبيحهم وتجدّده تعريضا بالذين لم يُتمِّوا صلاة الجمعة.

ومعاني صفات الله تعالى المذكورة هنا تقدمت في [الحشر:24/23]. ومناسبة الجمع بين هذه الصفات هنا أنّ العظيم لا ينصرف عن مجلسه من كان عنده إلّا عند انفضاض مجلسه أو إيذانه بانصرافهم.

{ **الْقُدُّوسِ** } المُنزَّه عن النقص وهو يُرغب في حضرته.

{ **الْعَزِيزِ** } يعتز الملتفون حوله. فمفارقتهم حضرته تفريط في العزّة.

{ **الْحَكِيمِ** } إذا فارق أحد حضرته فاته في كلّ آن شيء من الحكمة، كما فات الذين انفضّوا إلى العير ما خطب به النبيّ صلى الله عليه وسلم إذ تركوه قائما في الخطبة.

{ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ** } [2].

استئناف بياني ناشئ عن إجراء الصفات المذكورة آنفا على اسم الجلالة إذ يتساءل السامع عن وجه تخصيص تلك الصفات بالذكر من بين صفات الله تعالى فكأنّ الحال مقتضيا أن يُبيَّن شيء عظيم من تعلّق تلك الصفات بأحوال خلقه تعالى إذ بعث فيهم رسولا يُطهّر نفوسهم ويزّكيهم ويعلمهم؛

فصفة { الْمَلِكِ } تعلَّقت بأن يَدبِّر أمر عباده ويصلح شؤونهم.

وصفة { الْقُدُّوسِ } تعلَّقت بأن يُزكِّي نفوسهم.

وصفة { الْعَزِيزِ } اقتضت أن يُلحق الأميين من عباده بمراتب أهل العلم ويُخرجهم من ذلّة الضلال فينالوا عزّة العلم وشرفه.

وصفة { الْحَكِيمِ } اقتضت أن يُعلِّمهم الحكمة والشريعة.

{ **هُوَ** } ابتداء الجملة بضمير اسم الجلالة لتكون جملة اسمية فتفيد تقوية هذا الحكم وتأكيده، أي: أنّ النبيّ

صلى الله عليه وسلم مبعوث من الله لا محالة.

{ **فِي الْأُمِّيِّينَ** } للظرفية، أي: ظرفية الجماعة ولأحد أفرادها. ويُفهم من الظرفية معنى الملازمة، أي: رسولا لا يفارقهم فليس مارا بهم. والمعنى: أنّ الله أقام رسوله بين العرب يدعوهم وينشر رسالته إلى جميع الناس من بلاد العرب، فإنّ دلائل عموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم معلومة من مواضع أخرى من القرآن، كما في قوله تعالى { قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً } [الأعراف:158]، وفي قوله تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً } [سبأ:28].

{ **الْأُمِّيِّينَ** } العرب، لأنّ وصف الأمّيّة غالب على الأمّة العربية يومئذ.

{ **رَسُولاً مِنْهُمْ** } أي: لم يكن غريبا عنهم، كما بعث لوطا إلى أهل سلوم، ولا كما بعث يونس إلى أهل نينوى، وبعث اليأس إلى أهل صيدا من الكنعانيين الذين يعبدون بعل. فـ (من) تبعيضية. أي: رسولا من العرب.

وهذه مِنَّة موجَّهة للعرب ليشكروا نعمة الله على لطفه بهم، فإنّ كون رسول القوم منهم نعمة زائدة على نعمة الإرشاد والهدي، وهذا استجابة لدعوة إبراهيم إذ قال { رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ } [البقرة:129]. فتذكيرهم بهذه النعمة استنزال لطائر نفوسهم وعنادهم، وفيه تورّك عليهم إذ أعرضوا عن سماع القرآن.

فإنّ كون الرسول منهم وكتابه بلغتهم هو أعون على تلقِّي الإرشاد منه إذ ينطق بلسانهم، وبحملهم على ما يصلح أخلاقهم ليكونوا حملة هذا الدين إلى غيرهم.

الأمّيّون: الذين لا يقرؤون الكتابة ولا يكتبون، وهو جمع أمّيٌّ نسبة إلى الأمّة، يعنون بها أمّة العرب لأنّهم لا يكتبون إلّا نادرا، فغلبت هذا التشبيه في الإطلاق عند العرب حتّى صارت تطلق على من لا يكتب ولو من غيرهم، قال تعالى في ذكر بني إسرائيل { وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ } [البقرة:78].

وأوثر التعبير به هنا توركا على اليهود لأنّهم كانوا يقصدون به الغض من العرب ومن النبيّ صلى الله عليه وسلم جهلا منهم، فيقولون: هو رسول الأمّيّين وليس رسولا إلينا.

وقد قال ابن صيّاد للنبيّ صلى الله عليه وسلم، لما قال له " **أتشهد أنّي رسول الله** " : أشهد أنّك رسول الأمّيّين. وكان ابن صيّاد متدينا باليهودية لأنّ أهله كانوا حلفاء لليهود.

وكان اليهود ينتقصون المسلمين بأنّهم أمّيّون، قال تعالى { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ } [آل عمران:75] فتحدّى الله اليهود بأنّه بعث رسولا إلى الأمّيّين وبأنّ الرسول أمّيّ، وأعلمهم أنّ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، كما في آخر الآية، وأنّ فضل الله ليس خاصا باليهود ولا بغيرهم.

وقد قال تعالى من قبل لموسى { وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ } [القصص:6/5].

ووصف الرسول بأنّه منهم، أي: من الأمّيّين، شامل لمماثلته لهم في الأمّيّة وفي القوميّة. وهذا من إيجاز القرآن البديع.

وفي وصف الرسول الأمّيّ بأنّه يتلو على الأمّيّين آيات الله، أي: وحيه، ويزكّيهم ويعلمهم الكتاب، أي: يلقّنهم إيّاه، ويعلّمهم الحكمة، في كل هذه الأوصاف تحدّ بمعجزة الأمّيّة في هذا الرسول صلى الله عليه وسلم.

وابتدئ بالتلاوة، لأنّ أوّل تبليغ الدعوة بإبلاغ الوحي، وثُنّي بالتزكية لأنّ ابتداء الدعوة بالتطهير من الرجس المعنوي وهو الشرك، وما يعلق به من مساوي الأعمال والطباع، وعُقّب بذكر تعليمهم الكتاب، لأنّ الكتاب بعد إبلاغه إليهم تُبيّن لهم مقاصده ومعانيه، كما قال تعالى { لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ } [النحل:44]، وقال تعالى { فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ } [القيامة:19/18]. وتعليم الحكمة هو غاية ذلك كلّه لأنّ من تدبّر القرآن وعمل به وفهم خفاياه نال الحكمة، قال تعالى { وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ } [البقرة:231]، ونظيرها قوله تعالى { لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ } [آل عمران:164].

{ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ } في موضع الحال من الأمّيّين، أي: ليست نعمة إرسال هذا الرسول إليهم قاصرة على رفع النقائص عنهم وعلى تحليتهم بكمال علم آيات الله وزكاة أنفسهم وتعليمهم الكتاب والحكمة بل هي أَجَلُّ من ذلك إذ كانت منقذة لهم من ضلال مبين كانوا فيه، وهو ضلال الإشراك بالله. وإنّما كان ضلالا مبينا لأنّه أفحش ضلال وقد قامت على شناعته الدلائل القاطعة، أي: فأخرجهم من الضلال المبين إلى أفضل الهدى.

{ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [3].

{ وَآخَرِينَ } يقتضي المغايرة لما يقابله، فيقتضي أنّه صادق على غير الأمّيّين، أي: غير العرب، والرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن بين غير العرب، فتعيّن أن لا يُعطف { وَآخَرِينَ } على { الْأُمِّيِّينَ } لئلّا يتعلّق بفعل { بَعَثَ } مجرور (في) ولا على الضمير في قوله { مِنْهُمْ } كذلك.

فهو إمّا معطوف على الضمير في { عَلَيْهِمْ } من قوله { يَتْلُو عَلَيْهِمْ } [2]، والتقدير: يتلو على آخرين، وإذا كان يتلو عليهم فقد عُلم أنّه مرسل إليهم، لأنّ تلاوة الرسول صلى الله عليه وسلم لا تكون إلّا تلاوة تبليغ لما أوحى به إليه.

وإمّا أن يُجعل مفعولا معه والواو للمعيّة، ويتنازعه الأفعال الثلاثة وهي (يتلو، ويزكّي، ويُعلّم).

والتقدير: يتلو على الأميين آياتنا ويزكّيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة مع آخرين. وجملة { وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ } [2] معترضة بين المعطوف والمعطوف عليها، أو بين الضمائر والمفعول معه.

{ **وَآخَرِينَ** } جمع آخر وهو المغاير في وصف ممّا دل عليه السياق. وإذ قد جُعل { آخَرِينَ } هنا مقابلا للأميين كان مرادا به آخرون غير الأميين، أي: من غير العرب.

فلو حملنا المغايرة على المغايرة بالزمان أو المكان، أي: مغايرين للذين بُعث فيهم الرسول، وجعلنا قوله تعالى { مِنْهُمْ } بمعنى أنّهم من الأميين، وقلنا: أريد وآخرين من العرب غير الذين كان النبيّ صلى الله عليه وسلم فيهم، أي: عربا آخرين غير أهل مكة، وهم بقية قبائل العرب، ناكده ما روى البخاري ومسلم والترمذي، يزيد أخرهم على الأولين، عن أبي هريرة قال: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فَأُنْزِلَتْ عليه سُورَةُ الجُمُعَةِ { وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ } [3]، قالَ: قُلتُ: مَن هُمْ يا رَسولَ اللَّهِ؟ فَلَمْ يُرَاجِعْهُ حتَّى سَأَلَ ثَلَاثًا، وفينَا سَلْمَانُ الفَارِسِيُّ، وضَعَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَدَهُ علَى سَلْمَانَ، ثُمَّ قالَ: **لو كانَ الإيمَانُ عِنْدَ الثُّرَيَّا، لَنَالَهُ رِجَالٌ - أوْ رَجُلٌ - مِن هَؤُلَاءِ** " [البخاري]. وهذا وارد مورد التفسير.

والذي يلوح أنّه تفسير بالجزئي على وجه المثال ليفيد أنّ { وَآخَرِينَ } صادق على أمم كثيرة منها أمّة فارس، وأمّا شموله لقبائل العرب فهو بالأولى لأنّهم ممّا شملهم لفظ الأمّيّين.

{ **مِنْهُمْ** } لنا أن نجعل (من) تبعيضية، فيكون المعنى: وآخرين من الضالين يتلو عليهم آيات الله ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة، ولنا أن نجعل (من) اتصالية، والمعنى: وآخرين يتّصلون بهم ويصيرون في جملتهم، ويكون قوله { مِنْهُمْ } موضع الحال، وهذا الوجه يناسب قوله تعالى { لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ } لأنّ اللحوق هو معنى الاتصال.

{ **لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ** } في موضع الحال، وينشأ عن هذا المعنى إيماء إلى أنّ الأمم التي تدخل في الإسلام بعد المسلمين الأولين يصيرون مثلهم، وينشأ منه أيضا رمز إلى أنّهم يتعرّبون لفهم الدين والنطق بالقرآن.

وهذه بشارة غيبية بأنّ دعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم ستبلغ أمما ليسوا من العرب.

وفي الآية دلالة على عموم رسالة النبيّ صلى الله عليه وسلم لجميع الأمم.

{ **لَمَّا** } تقتضي أنّ المنفي بها مستمر الانتفاء إلى زمن التكلّم. والمعنى: أنّ آخرين هم في وقت نزول هذه الآية لم يدخلوا في الإسلام ولم يلتحقوا بمن أسلم من العرب وسيدخلون في أزمان أخرى.

{ **وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } تذييل للتعجيب من هذا التقدير الإلهي لانتشار هذا الدين في جميع الأمم.

{ **الْعَزِيزُ** } لا يغلب قدرته شيء، و{ **الْحَكِيمُ** } الذي تأتي أفعاله عن قدر محكم.

{ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ } [4].

الإشارة إلى جميع المذكور من إرسال محمد صلى الله عليه وسلم بالآيات والتزكية وتعليم الكتاب والحكمة، والإنقاذ من الضلال، ومن إفاضة هذه الكمالات على الأمّيّين الذين لم تكن لهم سابقة علم ولا

كتاب، ومن لحاق أمم آخرين في هذا الخبر، فزال اختصاص اليهود بالكتاب والشريعة، وهذا أجدع لأنفهم إذا حالوا أن يجيء رسول أمّيّ بشريعة إلى أمّة أمّيّة فضلا عن أن تلتحق بأمّته أمم عظيمة. وهذا تمهيد لما سيأتي.

{ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [5].

بعد أن تبيَّن أنّه تعالى آتى فضله قوما أمّيّين أعقبه بأنّه قد آتى فضله أهل الكتاب فلم ينتفع به هؤلاء الذين قد اقتنعوا من العلم بأن يحملوا التوراة دون فهم. فالمراد اليهود الذين قاوموا دعوة محمد صلى الله عليه وسلم وظاهروا المشركين.

وقد ضرب الله لهؤلاء مثلا بحال حمار يحمل أسفارا لا حظ له منها إلّا الحمل دون علم ولا فهم. ذلك أنّ علم اليهود بما في التوراة أدخلوا فيه ما صيَّره مخلوطا بأخطاء وضلالات، ومُتَّبعا فيه هوى نفوسهم وما لا يعدو نفعهم الدنيوي، ولم يتخلَّقوا بما تحتوي عليه من الهدى والدعاء إلى تزكية النفس، وقد كتموا ما في كتبهم من العهد باتباع النبيّ الذي يأتي لتخليصهم من ربقة الضلال، فهذا وجه ارتباط هذه الآية بالآيات التي قبلها، وبذلك كانت هي كالتتمّة لما قبلها.

{ **حُمِّلُوا** } عُهد بها إليهم وكُلِّفوا بما فيها فلم يفوا بما كُلِّفوا، يقال: حَمَّلت فلانا أمر كذا فاحتمله.

قال تعالى { إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً } [الأحزاب:72].

وإطلاق الحمل وما تصرَّف منه على هذا المعنى استعارة، بتشبيه إيكال الأمر بحمل الحمل على ظهر الدابة، وبذلك كان تمثيل حالهم بحال الحمار يحمل أسفارا تمثيلا للمعنى المجازي بالمعنى الحقيقي.

{ **ثُمَّ** } للتراخي الرتبي، فإنّ عدم وفائهم بما عُهد إليهم أعجب من تحمّلهم إيّاه.

{ **يَحْمِلُ أَسْفَاراً** } في موضع الحال من الحمار أو في موضع الصفة، لأنّ تعريف الحمار هنا تعريف جنس فهو معرفة لفظا نكرة معنى، فصحّ في الجملة اعتبار الحالية والوصف.

{ **بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ** } تذييل، التمثيل السابق مقصود منه تشنيع حالهم وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس المتعارف، ولذلك جيء بهذا التذييل.

{ **بِئْسَ** } فعل ذمّ، أي: ساء حال الذين كذَّبوا بكتاب الله، فهم قد ضمُّوا إلى جهلهم بمعاني التوراة تكذيبا بآيات الله وهي القرآن.

{ **مَثَلُ الْقَوْمِ** } فاعل { بِئْسَ }، وأغنى هذا الفاعل عن ذكر المخصوص بالذمّ لحصول العلم بأنّ المذموم هو حال القوم المكذِّبين.

{ **وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** } تذييل إخبارا عنهم بأنّ سوء حالهم لا يُرجى لهم منه انفكاك لأنّ الله

حرمهم اللطف والعناية لظلمهم بالاعتداء على الرسول صلى الله عليه وسلم بالتكذيب دون نظر، وعلى آيات الله بالجحد دون تدبّر.

{ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [6].

أعقب تمثيل حال جهلهم بالتوراة بذكر زعم من آثار جهلهم بها إبطالا لمفخرة مزعومة عندهم أنّهم أولياء الله وبقية الناس ليسوا مثلهم. وذلك أصل كانوا يجعلونه حجّة على أنّ شؤونهم أفضل من شؤون غيرهم. ومن ذلك أنّهم كانوا يفتخرون بأنّ الله جعل لهم السبت أفضل أيام الأسبوع وأنّه ليس للأمّيّين مثله فلمّا جعل الله الجمعة للمسلمين اغتاظوا.

{ **قُلْ** } هذا الافتتاح للاهتمام.

{ **الَّذِينَ هَادُوا** } هم الذين كانوا يهودا، وتقدّم وجه تسمية اليهود يهودا عند قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا } [البقرة:62]. ويجوز أن يكون { هَادُوا } بمعنى تابوا لقول موسى عليه السلام بعد أن أخذتهم الرجفة { إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ } [الأعراف:156].

{ **إِنْ زَعَمْتُمْ** } جيء بـ (إن) الشرطية التي الأصل فيها عدم الجزم بوقوع الشرط مع أنّ الشرط هنا محقَّق الوقوع، إذ قد اشتهروا بهذا الزعم وحكاه القرآن عنهم في قوله تعالى { وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ } [المائدة:18]، للإشارة إلى أنّ زعمهم هذا لمّا كان باطلا بالدلائل كان بمنزلة الشيء الذي يُفرض وقوعه كما يُفرض المستبعد وكأنّه ليس واقعا، على طريقة قوله تعالى { أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ } [الزخرف:5]، ويفيد ذلك توبيخا بطريق الكناية.

والمعنى: إن كنتم صادقين في زعمكم فتمنّوا الموت. وهذا إلجاء لهم حتّى يلزمهم ثبوت شكّهم فيما زعموه.

{ **فَتَمَنَّوُا** } الأمر مستعمل في التعجيز كناية عن التكذيب، مثل قوله تعالى { قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [آل عمران:93].

ووجه الملازمة بين الشرط وجوابه أنّ الموت رجوع الإنسان بروحه إلى حياة أبدية تظهر فيها آثار رضى الله عن العبد أو غضبه ليجزيه على حسب فعله. والنتيجة الحاصلة من هذا الشرط تحصل أنّهم مثل جميع الناس في الحياتين الدنيا والآخرة وآثارهما، واختلاف أحوال أهلهما، فيُعلم من ذلك أنّهم ليسوا أفضل من الناس. وهذا ما دلّ عليه قوله تعالى { وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ } [المائدة:18].

وبهذا يندفع ما قد يعرض للناظر في هذه الآية من المعارضة بينها وبين ما جاء في الأخبار الصحيحة من النهي عن تمنّي الموت. وما روي أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: **" من أحبّ لقاء الله أحبّ الله**

لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه "، فقالت عائشة: إنّا نكرة الموت فقال لها: **" ليس ذلك "**.

ذلك أنّ شأن المؤمنين أن يكونوا بين الرجاء والخوف من الله، وليسوا يتوهَّمون أنّ الفوز مضمون لهم كما توهم اليهود.

فما تضمّنته هذه الآية حكاية عن حال اليهود الموجودين يومئذ، وهم عامة غلبت عليهم الأوهام والغرور بعد انقراض علمائهم، فهو حكاية عن مجموع قوم.

{ وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ } [7].

اعتراض بين جملتي القولين قُصد به تحدّيهم لإقامة الحجّة عليهم أنّهم ليسوا أولياء لله. وليس المقصود من هذا معذرة لهم من عدم تمنّيهم الموت، وإنّما المقصود زيادة الكشف عن بطلان قولهم { نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ } [المائدة:18]، وإثبات أنّهم في شك من ذلك كما دلّ عليه استدلال القرآن عليهم بتحقُّقهم أنّ الله يعذّبهم بذنوبهم في قوله تعالى { وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ } [المائدة:18].

{ **بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ** } الباء سببيّة متعلّقة بفعل { يَتَمَنَّوْنَهُ } المنفي، فما قدّمت أيديهم هو سبب انتفاء تمنّيهم الموت. و(ما) موصولة وعائد الصلة محذوف وحذفه أغلبي في أمثاله.

{ **أَيْدِيهِمْ** } مجاز في اكتساب الأعمال، لأنّ اليد يلزمها الاكتساب غالبا.

وما صدق (ما قدمته أيديهم) سيّئاتهم ومعاصيهم بقرينة المقام. وتقدّم نظير هذه الآية عند قوله تعالى { وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ } [البقرة:95].

التقديم: أصله جعل الشيء مقدّما، أي: سابقا غيره في مكان يقع فيه غيره. واستعير هنا لما سلف من العمل.

{ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ** } أي: عليم بأحوالهم وبأحوال أمثالهم من الظالمين، فشمل لفظ الظالمين اليهود.

وقد وُصف اليهود بالظالمين في آيات كثيرة، كقوله تعالى { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ } [البقرة:140].

والمقصود أنّ إحجامهم عن تمنّي الموت لما في نفوسهم من خوف العقاب على ما فعلوه في الدنيا، فكُنِّي بعلم الله بأحوالهم عن عدم انفلاتهم من الجزاء عليها، ففي هذا وعيد لهم.

{ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [8].

تصريح بما اقتضاه التذييل من الوعيد وعدم الانفلات من الجزاء عن أعمالهم ولو بعد زمان وقوعها لأنّ طول الزمان لا يؤثر في علم الله نسيانا، إذ هو عالم الغيب والشهادة.

وموقع هذه الجملة موقع بدل الاشتمال من جملة { فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [6].

{ **الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ** } وصف لـ { الْمَوْتَ } للتنبيه على أنّ هلعهم من الموت خطأ.

الإنباء بما كانوا يعملون: كناية عن الحساب عليه، وهو تعريض بالوعيد.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ [9] فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ [10].

هذه الآيات هي المقصود من السورة وما قبلها مقدِّمات وتوطئات لها، كما ذكرناه آنفا. وقد تقدّم ما حكاه الكشاف من أنّ اليهود افتخروا على المسلمين بالسبت فشرع الله للمسلمين الجمعة. فهذا وجه اتصال هذه الآية بالآيات الأربع التي قبلها.

{ **لِلصَّلاةِ** } لام التعليل، أي: نادى مناد لأجل الصلاة من يوم الجمعة، فعُلم أنّ النداء هنا هو أذان الصلاة.

الجُمُعة: بضم الجيم وضم الميم في لغة جمهور العرب وهو لغة أهل الحجاز، وبنو عقيل بسكون الميم.

والتعريف في { لِلصَّلاةِ } تعريف العهد وهي الصلاة المعروفة الخاصة بيوم الجمعة. وقد ثبتت شرعا بالتواتر ثم تقرَّرت بهذه الآية، فصار دليل وجوبها في الكتاب والسنة المتواترة وإجماع الأمّة.

وكانت صلاة الجمعة مشروعة من أوّل أيام الهجرة. روي عن ابن سيرين أنّ الأنصار جمعوا الجمعة قبل أن يقدم النبيّ صلى الله عليه وسلم المدينة، قالوا: إنّ لليهود يوما يجتمعون فيه وللنصارى يوم مثل ذلك فتعالوا فلنجتمع حتّى نجعل يوما لنا نذكر الله ونصلي فيه. وقالوا: إنّ لليهود السبت وللنصارى الأحد فاجعلوه يوم العَروبة. فاجتمعوا إلى أسعد بن زرارة فصلَّى بهم يومئذ ركعتين وذكرهم.

وروى البيهقي عن الزهري أنّ مصعب بن عمير كان أوّل من جمع الجمعة بالمدينة قبل أن يقدمها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويتعيّن أن يكون ذلك قد علم به النبيّ صلى الله عليه وسلم، ولعلّهم بلغهم عن النبيّ صلى الله عليه وسلم حديث فضل يوم الجمعة وأنّه يوم المسلمين.

فمشروعية صلاة الجمعة والتجميع فيه إجابة من الله تعالى رغبة المسلمين مثل أجابته رغبة النبيّ صلى الله عليه وسلم استقبال الكعبة المذكورة في قوله تعالى { قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } [البقرة:144].

وأمّا أول جمعة جمعها النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال أهل السير: كانت في اليوم الخامس للهجرة، لأنّ رسول الله قدم المدينة يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول فأقام بقباء ثم خرج يوم الجمعة إلى المدينة فأدركه وقت الجمعة في بطن واد لبني سالم بن عوف كان لهم فيه مسجد، فجمع بهم في ذلك المسجد، وخطب فيه أوّل خطبة خطبها بالمدينة، وهي طويلة ذكر نصّها القرطبي في تفسيره.

وقولهم: " فأدركه وقت الجمعة "، يدلّ على أنّ صلاة الجمعة كانت مشروعة يومئذ وأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان عازما أن يصلّيها بالمدينة فضاق عليه الوقت فأداها في مسجد بني سالم، ثم صلّى الجمعة القابلة في مسجده بالمدينة وكانت جمعة المسجد النبوي بالمدينة الثانية بالأخبار الصحيحة.

وتقرر أنّ **يوم الجمعة** اليوم السابع من أيام الأسبوع في الإسلام وهو الذي كان يسمى في الجاهلية **عَروبة**. قال بعض الأئمة: ولا تدخل عليه اللام. قال السهيلي: معنى العروبة الراحة فيما بلغني عن بعض أهل العلم. وهو قبل يوم السبت وقد كان يوم السبت عيد الأسبوع عند اليهود وهو آخر أيام الأسبوع. وقد فُرضت عليهم الراحة فيه عن الشغل بنص التوراة فكانوا يبتدئون عدد أيام الأسبوع من يوم الأحد وهو الموالي للسبت وتبعهم العرب في ذلك لأسباب غير معروفة ولذلك سمَّى العرب القدماء يوم الأحد (أول).

فأيام الأسبوع عند العرب في القديم هي: [أول / أَهْون / جُبَار / دُبار / مُؤْنِس / عَروبة / شِيار].

ثم أحدثوا أسماء لهذه الأيام هي: [الأحد / الاثنين / الثلاثاء (بفتح المثلثة الأولى وبضمها) / الإربعاء (بكسر الهمزة وكسر الموحدة) / الخميس / عروبة أو الجمعة (في قول بعضهم) / السبت].

وأصل السبت القطع، سمي سبتا عند الإسرائيليين لأنّهم يقطعون فيه العمل، وشاع ذلك الاسم عند العرب.

وليس في التوراة ذكر أسماء للأيام. وفي سفر التكوين منها ذُكرت أيام بدء الخلق بأعدادها أول وثان الخ، وأنّ الله لم يخلق شيئا في اليوم الذي بعد اليوم السادس. وسمته التوراة سبتا.

قال السهيلي: قيل أوّل من سَمَّى يوم عروبة الجمعة كعب بن لؤي جدُّ أبي قُصي. وكان قريش يجتمعون فيه إلى كعب. قال: وفي قول بعضهم. لم يسم يوم عروبة يوم الجمعة إلّا مذ جاء الإسلام.

جعل الله يوم الجمعة للمسلمين عيدَ الأسبوع فشرع لهم اجتماع أهل البلد في المسجد وسماع الخطبة ليعلموا ما يهمهم في إقامة شؤون دينهم وإصلاحهم.

وصلاة الجمعة هي صلاة ظهر يوم الجمعة، وليست صلاة زائدة على الصلوات الخمس فأسقط من صلاة الظهر ركعتان لأجل الخطبتين. روي عن عمر بن الخطاب أنّه قال: وإنّما قُصِّرت الجمعة لأجل الخطبة.

وأحسب أنّ ذلك تخفيف على الناس إذ وجبت عليهم خطبتان مع الصلاة فكانت كلّ خطبة بمنزلة ركعة وهذا سبب الجلوس بين الخطبتين للإيماء إلى أنّهما قائمتان مقام الركعتين ولذلك كان الجلوس خفيفا.

غير أن الخطبتين لم تعطيا أحكام الركعتين فلا يضرّ فوات إحداهما أو فواتهما معا ولا يجب على المسبوق تعويضهما ولا سجود لنقصهما عند جمهور فقهاء الأمصار.

وجعلت القراءة في الصلاة جهرا مع أنّ شأن صلوات النهار إسرار القراءة لفائدة إسماع الناس سورا من القرآن كما أُسْمِعوا الخطبة، فكانت صلاة إرشاد لأهل البلد في يوم من كلّ أسبوع.

وأحكام صلاة الجمعة مفصّلة في كتب الفقه.

{ **إِذَا نُودِيَ** } الأذان المعروف وهو أذان الظهر. ورد في الصحيح عن السائب بن يزيد قال: كان النداء يوم الجمعة إذا جلس الإمام على المنبر على عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر فلمّا كان عثمان وكثر الناس بالمدينة زاد أذانا على الزوراء (الزوراء: موضع بسوق المدينة). وإنّما زاده عثمان ليسمع النداء من في أطراف المدينة.

والذي يظهر من تحقيق الروايات أنّ هذا الأذان الثاني يؤذن به عقب الأذان الأول، لأنّ المقصود حضور الناس للصلاة في وقت واحد، ووقع في بعض عبارات الروايات والرواة أنّه كان يؤذن بأذان الزوراء أولا ثمّ يخرج الإمام فيؤذن بالأذان بين يديه.

قال ابن العربي في العارضة : " لمّا كثر الناس في زمن عثمان زاد النداء على الزوراء ليشعر الناس بالوقت فيأخذوا بالإقبال إلى الجمعة ثم يخرج عثمان فإذا جلس على المنبر أذِّن الثاني الذي كان أوّلا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يخطب، ثم يؤذن الثالث يعني به الإقامة ".

وسمَّى الإقامة أذانا مشاكلة أو لأنّها إيذان بالدخول في الصلاة كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **بيْنَ كُلِّ أذَانَيْنِ صَلَاةٌ** - ثَلَاثًا - (أي: قال هذا القولَ ثَلاثَ مرَّاتٍ) **لِمَن شَاءَ** " [البخاري]. يعني بين الأذان والإقامة.

فتوهّم كثير من أهل الأمصار أنّ الأذان لصلاة الجمعة ثلاث مرات لهذا تراهم يؤذنون في جوامع تونس ثلاثة أذانات وهو بدعة.

{ **مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ** } و{ مِنْ } هنا تبعيضية، فإنّ يوم الجمعة زمان تقع فيه أعمال كثيرة منها الصلاة المعهودة فيه، فنزل ما يقع في الزمان بمنزلة أجزاء الشيء. ويجوز كون { مِنْ } للظرفية.

السعي: أصله الاشتداد في المشي. وأطلق هنا على المشي بحرص عدم التأخّر مجازا.

{ **إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ** } فُسّر بالصلاة وفُسّر بالخطبة. قال أبو بكر بن العربي: "والصحيح أنّه الجميع أوّله الخطبة ".

قلت: وإيثار { ذِكْرِ اللَّهِ } هنا دون أن يقول: إلى الصلاة، كما في قوله تعالى { فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ } لتتأتَّى إرادة الأمرين؛ الخطبة والصلاة. وفيه دليل على وجوب الخطبة في صلاة الجمعة، وشرطيته على الجملة.

وتفصيل أحكام التخلّف عن الخطبة ليست مساوية للتخلف عن الصلاة إلّا في أصل حرمة التخلّف عن حضور الخطبة بغير عذر.

{ **وَذَرُوا الْبَيْعَ** } نهوا عن البيع لأنّه الذي يشغلهم، ولأنّ سبب نزول الآية كان لترك فريق منهم الجمعة إقبالا على عير تجارة وردت، كما سيأتي في قوله تعالى { وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا } [11].

ومثل البيع كلّ ما يشغل عن السعي إلى الجمعة. واختلفوا في نسخ العقود التي انعقدت وقت الجمعة.

قال مالك في المدونة: إنّ البيع الواقع في وقت صلاة الجمعة بين من تجب عليهم الجمعة يُفسخ.

وقال الشافعي: لا يُفسخ. وجعله كالصلاة في الأرض المغصوبة، وهو قول أبي حنيفة أيضا.

وأمّا النكاح المعقود في وقت الجمعة: ففي العتبية عن ابن القاسم: لا يُفسخ. ولعله اقتصر على ما ورد النهي عنه في القرآن ولم ير القياس موجبا لفسخ المقيس. وكذلك قال أئمة المالكية: لا تُفسخ الشركة والهبة والصدقة الواقعة في وقت الجمعة وعلَّلوا ذلك بندرة وقوع أمثالها بخلاف البيع.

وخطاب الآية لجميع المؤمنين، فدلّ على أنّ الجمعة واجبة على الأعيان. وشذّ قوم قالوا: إنها واجبة على الكفاية.

{ **ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** } الإشارة إلى المذكور، أي: ما ذكر من أمر بالسعي إليها، وأمر بترك البيع حينئذ، أي: ذلك خير لكم ممّا يحصل لكم من البيوعات.

{ **خَيْرٌ** } اسم تفضيل أصله: أخير، حُذفت همزته لكثرة الاستعمال. والمفضَّل: الصلاة، أي: ثوابها. والمفضَّل عليه محذوف لدلالة الكلام عليه، تقديره: منافع البيع للبائع والمشتري.

{ **فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ** } تنبيه على أنّ لهم سعة من النهار يجعلونها للبيع ونحوه من ابتغاء أسباب المعاش فلا يأخذوا ذلك من وقت الصلاة.

{ **فَانْتَشِرُوا / وَاذْكُرُوا اللَّهَ** } الأمر للإباحة.

{ **فَضْلِ اللَّهِ** } اكتساب المال والرزق.

{ **وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** } احتراس من الانصباب في أشغال الدنيا انصبابا يُنسي ذكر الله، أو يشغل عن الصلوات، فإنّ الفلاح في الإقبال على مرضاة الله تعالى.

{ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ } [11].

عطف على جملة { وذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسَعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ } [9]، عطف التوبيخ على ترك المأمور به بعد ذكر الأمر، وسُلكت في المعطوفة طريقة الالتفاف للخطاب إيذانا بأنّهم أحرياء أن يُصرف للخطاب عنهم فحرموا من الحضور. ومقتضى الظاهر أن يقال: وإذا رأيتم تجارة أو لهوا فلا تنفضوا إليها. ومن مقتضيات تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر هنا أن يكون هذا التوبيخ غير

شامل لجميع المؤمنين فإنّ نفرا منهم بقوا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم حين خطبته.

وفي الصحيح عن جابر بن عبد الله قال: بيْنَما نَحْنُ نُصَلِّي مع النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذْ أقْبَلَتْ عِيرٌ تَحْمِلُ طَعَامًا، فَالْتَفَتُوا إلَيْهَا حتَّى ما بَقِيَ مع النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلَّا اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا، فَنَزَلَتْ هذِه الآيَةُ { وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وتَرَكُوكَ قَائِمًا } [البخاري].

وقد ذكروا في روايات أخرى أنّه بقي مع النبيّ صلى الله عليه وسلم أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمان بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح، وسعيد بن زيد، وبلال، وعبد الله بن مسعود، وعمار بن ياسر، وجابر بن عبد الله، فهؤلاء أربعة عشر.

وذكر الدارقطني في حديث جابر: أنّه قال ليس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلّا أربعون رجلا.

وعن مجاهد ومقاتل: كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يخطب فقدم دحية بن خليفة الكلبي بتجارة فتلقاه أهله بالدفوف فخرج الناس.

وقال جابر بن عبد الله: كانت الجواري إذا نُكحن يمرّرن بالمزامير والطبل فانفضوا إليها، فلذلك قال الله تعالى { وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً }، فقد قيل إنّ ذلك تكرّر منهم ثلاث مرات، فلا شك أن خروجهم كان تارة لأجل مجيء العير وتارة لحضور اللهو.

الانفضاض: مطاوع فضَّه إذا فرَّقه، وغلب إطلاقه على غير معنى المطاوعة. قال تعالى { هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا } [المنافقون:7].

{ **وَتَرَكُوكَ قَائِماً** } تفظيع لفعلهم إذ فرَّطوا في سماع وعظ النبيّ صلى الله عليه وسلم، أي: تركوك قائما على المنبر. وهذه الآية تدل على وجوب حضور الخطبة في صلاة الجمعة إذ لم يقل: وتركوا الصلاة.

{ **قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ** } أمر الله نبيّه صلى الله عليه وسلم أن يعظهم بأنّ ما عند الله من الثواب على حضور الجمعة خير من فائدة التجارة ولذّة اللهو. وكذلك ما أعد الله من الرزق للذين يؤثرون طاعة الله من وسائل الارتزاق جزاء لهم على إيثارهم جزاء في الدنيا قبل جزاء الآخرة.

{ **وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ** } تذييل، لأنّ الله يرزق الرزق لمن يرضى عنه سليما من الأكدار والآثام، ولأنّه يرزق خير الدنيا وخير الآخرة، ليس غير الله قادرا على ذلك، والناس في هذا المقام درجات لا يعلمها إلّا الله وهو العالم بالسرائر.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المنافقون

سُمِّيت هذه السورة في كتب السنَّة وكتب التفسير { **سورة المنافقين** } اعتبارا بذكر أحوالهم وصفاتهم فيها. ووقع هذا الاسم في حديث زيد بن أرقم عند الترمذي قوله: " فلمَّا أصبحنا قرأَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ سُورَةَ المُنافقينَ ". وروى الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة فيحرّض بها المؤمنين، وفي الثانية بسورة المنافقين فيُقرع بها المنافقين.

ووقع في صحيح البخاري وبعض كتب التفسير تسميتها (**سورة المنافقون**) على حكاية اللفظ الواقع في أوّلها، وكذلك ثبت في كثير من المصاحف المغربية والمشرقية.

وهي مدنية بالاتفاق.

واتفق العادون على عد آيها **إحدى عشرة آية**.

وقد **عُدّت الثانية بعد المائة** في عِداد نزول السور عند جابر بن زيد، نزلت بعد سورة الحج وقبل سورة المجادلة.

ورجَّح أهل المغازي وابن العربي في العارضة وابن كثير: <u>أنّها نزلت في غزوة بني المصطلق وهو الأظهر</u>. لأن قول عبد الله بن أبي بن سلول: ليخرجن الأعز منها الأذل، يناسب الوقت الذي لم يضعف فيه شأن المنافقين، وكان أمرهم كل يوم في ضعف، وكانت غزوة تبوك في آخر سني النبوّة وقد ضعف أمر المنافقين.

وسبب نزولها ما روي عن زيد بن أرقم أنّه قال: كنا في غزاة فَكَسَع [كسع ضربه على دُبره، وكان ذلك لخصومة في حوض ماء شربت منه ناقة الأنصاري] رجل من المهاجرين رجلا جُهَنِيًّا حليفا للأنصار فقال الجُهني: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين: فسمع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " **ما بال دعوى الجاهلية** "، قالوا: كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار فقال: " **دعوها فإنّها مُنتنة** "، (أي: اتركوا دعوة الجاهلية: يا آل كذا)، فسمع هذا الخبر عبد الله بن أبَي فقال: أقد فعلوها أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجنّ الأعزّ منها الأذل. وقال: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتّى ينفضّوا من حوله، قال زيد بن أرقم: فسمعت ذلك فأخبرت به عمّي فذكره للنبيّ صلى الله عليه وسلم فدعاني فحدثته فأرسل رسول الله إلى عبد الله بن أبَي وأصحابه فحلفوا ما قالوا، فكذَّبني رسول الله وصدَّقه، فأصابني همّ لم يصبني مثله، فقال عمّي ما أردت إلّا أن كذّبك رسول الله، (وفي رواية: إلى أنّ كذبك)، فلما أصبحنا قرأ رسول الله سورة المنافقين وقال لي: "إن الله قد صدَّقك ".

أغراض السورة

*/ فضح أحوال المنافقين بِعَدِّ كثير من دخائلهم وتولّد بعضها عن بعض: من كذب، وخَيْس بعهد الله، واضطراب في العقيدة، ومن سفالة نفوس في أجسام تغرّ وتُعجب، ومن تصميم على الإعراض عن طلب الحق والهدى، وعلى صدّ الناس عنه.

*/ كان كلّ قسم من آيات السورة المفتتح بـ { إذا } خُصّ بغرض من هذه الأغراض.

*/ خُتمت بموعظة المؤمنين وحثّهم على الإنفاق والادخار للآخرة قبل حلول الأجل.

{ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ } [1].

لمّا كان نزول هذه السورة عقب خصومة المهاجر والأنصاري، ومقالة عبد بن أُبَي في شأن المهاجرين. تعيَّن أنّ الغرض من هذه الآية التعريض بكذب عبد الله بن أبَي وبنفاقه، فصيغ الكلام بصيغة تعمّ المنافقين لتجنّب التصريح بالمقصود على طريقة قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" ما بال أقوامٍ يشترطون شروطًا ليست في كتابِ اللهِ، ما كان من شرطٍ ليس في كتابِ اللهِ فهو باطلٌ وإن كان مئةَ شرطٍ، كتابُ اللهِ أحقُّ، وشرطُ اللهِ أوثقُ "** [ابن القيّم / أعلام الموقّعين]. ومراد النبيّ صلى الله عليه وسلم مولى بريرة لمّا أراد أن يبيعها لعائشة أم المؤمنين واشترط أن يكون الولاء له.

{ **قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ** } ابتدئ بتكذيب من أريد تكذيبه في ادعائه الإيمان بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم، وإن لم يكن ذلك هو المقصود، إشعارا بأنّ الله أطلع رسوله صلى الله عليه وسلم على دخائلهم، وهو تمهيد لما بعده من قوله تعالى { وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ }، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم أن المنافقين قالوا: نشهد إنك لرسول الله. <u>فيجوز</u> أن يكون قولهم { نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ } محكيًّا بالمعنى لأنّهم يقولون عبارات كثيرة تفيد معنى أنّهم يشهدون بأنّه رسول الله، مثل نطقهم بكلمة الشهادة. <u>ويجوز</u> أن يكونوا توطؤوا على هذه الكلمة كلّما أعلن أحدهم الإسلام، وهذا أليق بحكاية كلامهم بكلمة { قالوا } دون نحو: زعموا. <u>فالمعنى</u>: إنّك تعلم أنّهم يقولون نشهد إنّك لرسول الله.

{ **نَشْهَدُ** } خبر مؤكّد، لأنّ الشهادة الإخبار عن أمر مقطوع به إذ هي مشتقة من المشاهدة، أي: المعاينة. والمعاينة أقوى طرق العلم، ولذلك كثر استعمال: أشهد ونحوه من أفعال اليقين في معنى القسم.

المنافقون: جمع منافق وهو الذي يُظهر الإيمان ويُسِرّ الكفر، وقد مضى القول فيه مفصلا عند قوله تعالى { هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } [آل عمران:119].

{ **إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ** } بيان لجملة { نَشْهَدُ }.

{ **وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ** } معترضة بين الجملتين المتعاطفتين وهذا الاعتراض لدفع إيهام من يسمع جملة { وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ }، وهذا من الاحتراس.

{ **وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ** } إعلام النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين بطائفة مبهمة شأنهم النفاق ليتوسَّموهم ويختبروا أحوالهم، وقد يتلقَّى النبيّ صلى الله عليه وسلم بطريق الوحي تعيينهم أو تعيين بعضهم.

{ **وَاللَّهُ يَشْهَدُ** } مشاكلة حتّى يكون إبطال خبرهم مساويا لإخبارهم.

الكذب: مخالفة ما يفيده الخبر للواقع في الخارج، أي: الوجود.

فمعنى كون المنافقين كاذبون هنا أنّهم كاذبون في إخبارهم عن أنفسهم بأنّهم يشهدون بأنّ محمدا صلى الله عليه وسلم رسول الله لأنّ خبرهم ذلك مخالف لما في أنفسهم.

{ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [2].

استئناف بياني لأنّ تكذيب الله تعالى إيّاهم في قولهم للنبيّ صلى الله عليه وسلم { نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ } [1]، يثير في أنفس السامعين سؤالا عن أيْمانهم لدى النبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّهم مؤمنون به وأنّهم لا يضمرون بُغضه، فأخبر الله عنهم بأنّهم اتخذوا أيْمانهم تقيَّة يتَّقون بها.

وقد وصفهم الله بالحلف بالأيمان الكاذبة في آيات كثيرة من القرآن.

الجُنَّة: ما يُستتر به ويُتَّقى، ومنه سُمّيت الدرع جُنَّة.

وليس هذا خاصا بحلف عبد الله بن أبَي، ولذلك فالوجه حمل ضمائر الجمع في قوله تعالى { اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ } على حقيقتها، أي: اتخذ المنافقون كلّهم أيمانهم جُنّة، أي: تلك شنشنة معروفة فيهم.

{ **فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ** } تفريع على الحلف الكاذب، لأنّ اليمين الفاجرة من كبائر الإثم لما فيها من الاستخفاف بجانب الله تعالى، ولأنّهم لمّا حلفوا على الكذب ظنّوا أنّهم قد أمنوا اتهام المسلمين إيّاهم بالنفاق فاستمروا على الكفر والمكر بالمسلمين وذلك صد عن سبيل الله، أي: إعراض عمّا أمر الله به.

{ **إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } تذييل لتفظيع حالهم عن السامع.

سَاءَ: من أفعال الذم تلحق ببئس.

{ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ } [3].

جملة في موضع العلّة لمضمون جملة { اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً } [2].

{ **ذَلِكَ** } الإشارة إلى مضمون قوله تعالى { إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [2].

أي: سبب إقدامهم على الأعمال السيّئة، المتعجّب من سوئها، هو استخفافهم بالأيمان ومراجعتهم الكفر مرة بعد أخرى فرسخ الكفر في نفوسهم فتجرَّأت على الجرائم وضَرِيَتْ بها حتّى صارت قلوبهم

كالمطبوع عليها أن لا يخلُص إليها الخير.

{ **بِأَنَّهُمْ آمَنُوا** } خبر عن اسم الإشارة، والباء للسببية.

{ **ثُمَّ كَفَرُوا** } للتراخي الرتبي، فإنّ إبطان الكفر مع إظهار الإيمان أعظم من الكفر الصريح. وأنّ كفرهم أرسخ فيهم من إظهار إيمانهم. ويجوز أن يراد مع ذلك التراخي في الزمن وهو المهلة.

فإسناد فعل { آمنوا } إليهم مع الإخبار عنهم قبل ذلك بأنّهم كاذبون في قولهم { نشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ } [1]، مستعمل في حقيقته ومجازه، فإنّ مراتب المنافقين متفاوتة في النفاق وشدّة الكفر؛

فمنهم من آمنوا لمّا سمعوا آيات القرآن أو لاحت لهم أنوار من النبيّ صلى الله عليه وسلم ثمّ رجعوا إلى الكفر للوم أصحابهم عليهم أو لإلقائهم الشك في نفوسهم. ولعلّ الذين تابوا وحسن إسلامهم من هذا الفريق. فهؤلاء إسناد الإيمان إليهم حقيقة.

ومنهم من خالجهم خاطر الإيمان فتردَّدوا وقاربوا أن يؤمنوا ثم نكصوا على أعقابهم فشابه أوّل حالهم المؤمنين حين خطور الإيمان في قلوبهم.

ومنهم من أظهروا الإيمان كذبا وهذا هو الفريق الأكثر. وليس ما أظهروه في شيء من الإيمان، وقد قال الله تعالى في مثلهم { وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ } [التوبة:74] فسمّاه إسلاما ولم يسمِّه إيمانا. ومنهم الذين قال الله تعالى فيهم { قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا} [الحجرات:14]. وإطلاق الإيمان على مثل هذا الفريق مجاز بعلاقة الصورة، وهو كإسناد فعل { يَحْذَرُ } في قوله تعالى { يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ } [التوبة:64].

ولو حُمل المنافقون على واحد معين وهو عبد الله بن أبَي جاز أن يكون ابن أبي آمن ثم كفر فيكون إسناد { آمَنُوا } حقيقة وتكون { ثُمَّ } للتراخي في الزمان.

{ **فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ** } تفريع على قوله تعالى { آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا }، فصار كفرهم بعد الإيمان على الوجوه السابقة سببا في سوء أعمالهم بمقتضى باء السببية، وسببا في انتفاء إدراكهم الحقائق النظرية بمقتضى فاء التفريع.

الفقه: فهم للحقائق الخفية.

والمعنى: أنهم لا يدركون دلائل الإيمان حتّى يعلموا أحقِّيته.

{ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ } [4].

{ **وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ** } هذا انتقال إلى وَصْح بعض أحوالهم التي لا يُبْرِزونها إذا جاؤوا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ولكنّها تبرز من مشاهدتهم، فكان الوَصْح الأول مُفتتحا بـ { إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ } [1] وهذا مفتتحا بـ { إِذَا رَأَيْتَهُمْ }.

{ **وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ** } معطوفة على جملة { فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ} [3] واقعة موقع الاحتراس والتتميم لدفع إيهام من يغرّه ظاهر صورهم. أُتبِع انتفاء فقه عقولهم بالتنبيه على عدم الاغترار بحسن صورهم فإنّها أجسام خالية عن كمال الأنفس. وتفيد مع الاحتراس تنبيها على دخائلهم.

والخطاب لغير معيّن يشمل كلّ من يراهم ممّن يُظنّ أن تغرّه صورهم فلا يدخل فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّ الله قد أطلعه على أحوالهم وأوقفه على تعيينهم.

{ **أَجْسَامُهُمْ** } الظاهر أنّ المراد بضمير الجمع واحد معيّن أو عدد محدود إذ يبعد أن يكون جميع المنافقين أحاسن الصور. وعن ابن عباس كان ابن أبَي جسيما صحيحا صبيحا ذلق اللسان.

أجسام: جمع جِسْم وهو ما يقصد بالإشارة إليه، أو ما له طول وعرض وعمق. وتقدّم في قوله تعالى { وزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ } [البقرة:247].

{ **وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ** } معترضة بين جملة { وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ } الخ، وبين جملة { كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ}.

المراد بالسماع هنا: الإصغاء إليهم لحسن إبانتهم وفصاحة كلامهم.

{ **كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ** } مستأنفة استئنافا بيانيا جوابا عن سؤال ينشأ عن وصف حسن أجسامهم وذلاقة كلامهم، فإنّه في صورة مدح فلا يناسب ما قبله من ذمّهم فيترقّب السامع ما يرد بعد هذا الوصف.

ويجوز أن تكون الجملة حالا من ضميري الغيبة في قوله تعالى { رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ }.

ومعناه: أنّ حسن صورهم لا نفع فيه لأنفسهم ولا للمسلمين.

{ **خُشُبٌ** } جمع خَشَبة، وهو جمع نادر لم يحفظ إلّا في ثمرة.

{ **مُسَنَّدَةٌ** } التي سُنِدت إلى حائط أو نحوه، أي: أميلت إليه فهي غليظة طويلة قوية لكنّها غير منتفع بها في سقف ولا مشدود بها جدار. شُبِّهوا بالخشب المسندة تشبيه التمثيل في حسن المرأى وعدم الجدوى.

أي: أنّ أجسامهم المُعجب بها ومقالهم المُصْغى إليه خاليان عن النفع كخلوّ الخشب المسنّدة عن الفائدة.

{ **يحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ** } بمنزلة بدل البعض من مضمون جملة { كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ }.

أي: من مخالفة باطنهم المشوّه للظاهر المموَّه، أي: هم أهل جبن في صورة شجعان.

الصيحة: المرّة من الصياح، أي: هم لسوء ما يضمرونه للمسلمين من العداوة لا يزالون يتوجّسون خيفة من أن ينكشف أمرهم عند المسلمين، فهم في خوف وهلع إذا سمعوا صيحة مهما كان مأتاها.

{ **هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ** } يجوز أن تكون استئنافا بيانيا ناشئا عن جملة { يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ } لأنّ تلك الجملة لغرابة معناها تثير سؤالا عن سبب هلعهم وتخوّفهم من كلّ ما يُتخيَّل منه بأس المسلمين، فيُجاب بأنّ ذلك لأنّهم أعداء ألدّاء للمسلمين ينظرون للمسلمين بمرآة نفوسهم فكما هم يتربَّصون بالمسلمين الدوائر ويتمنّون الوقيعة بهم في حين يُظهرون لهم المودة كذلك يظنُّون بالمسلمين التربّص بهم وإضمار البطش بهم.

ويجوز أن تكون الجملة بمنزلة العلّة لجملة { يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ } على هذا المعنى أيضا.

وعلى كل التقادير فنظم الكلام واف بالغرض من فضح دخائلهم.

{ **الْعَدُوُّ** } تعريف الجنس الدال على معيَّن لكمال حقيقة العدو فيهم، لأنّ أعدى الأعادي العدو المتظاهر بالموالاة. وعلى هذا المعنى رُتِّب عليه الأمر بالحذر منهم. والعدو اسم يقع على الواحد والجمع.

المراد: الحذر من الاغترار بظواهرهم الخلّابة لئلّا يُخلص المسلمون إليهم بسرّهم ولا يتقبلوا نصائحهم.

والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم ليبلِّغه المسلمين فيحذروهم.

{ **قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ** } تذييل، فإنّه جمع على الإجمال ما يغني عن تعداد مذامِّهم، كقوله تعالى { أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ } [النساء:63]، مسوق للتعجيب من حال توغّلهم في الضلالة والجهالة.

{ **قَاتَلَهُمُ اللَّهُ** } اصلها دعاء بالإهلاك والاستئصال ولكنّها غلب استعمالها في التعجّب أو التعجيب من سوء الحال الذي جرّه صاحبه لنفسه، مثل قولهم: ثكلته أمّه، وويل أمّه. واستعمال ذلك في التعجّب مجاز مرسل للملازمة بين بلوغ الحال في السوء وبين الدعاء على صاحبه بالهلاك وبين التعجّب من سوء الحال.

{ **أَنَّى** } هنا اسم استفهام عن المكان. وأصله ظرف مكان وكثر تضمينه معنى الاستفهام في استعمالاته، وقد يكون للمكان المجازي فيُفسَّر بمعنى (كيف)، كقوله تعالى { قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا } [آل عمران:165]، وقوله تعالى { أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى } [الدخان:13]. والاستفهام هنا مستعمل في التعجيب على وجه المجاز المرسل لأنّ الأمر العجيب من شأنه أن يُستفهم عن حال حصوله. فالجملة بيان للتعجيب الإجمالي المفاد بجملة { قَاتَلَهُمُ اللَّهُ }.

{ **يُؤْفَكُونَ** } يُصرفون يقال: أَفَكَه، إذا صرفه وأبعده، والمراد: صرفهم عن الهدى، أي: كيف أمكن لهم أن يصرفوا أنفسهم عن الهدى، أو كيف أمكن لمضلِّيهم أن يصرفوهم عن الهدى مع وضوح دلائله.

وتقدم نظير الآية في [التوبة:30].

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ } [5].

هذا حالهم في العناد ومجافاة الرسول صلى الله عليه وسلم والإعراض عن التفكّر في الآخرة، بله الاستعداد للفوز فيها. وهذه ثالث الأغراض من بيان مختلف أنواع أحوالهم، وقد ابتدأت بـ { **إِذَا** } كما ابتدئ الغرضان السابقان: { إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ } [1]، و{ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ } [4].

{ **قِيلَ لَهُمْ** } القائل لهم ذلك يُحتمل أن يكون بعض المسلمين وعظوهم ونصحوهم، ويُحتمل أنّه بعض منهم اهتدى وأراد الإنابة. قيل: المقول له هو عبد الله بن أُبَي بن سلول.

{ **تَعَالَوْا** } طلب من المخاطب بالحضور عند الطالب، وأصله فعل أمر من التعالي، وهو تكلّف العلو، أي: الصعود، وتنوسي ذلك وصار لمجرّد طلب الحضور، فلزم حالة واحدة فصار اسم فعل، وتقدّم عند

قوله تعالى { قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ } [الأنعام:151].

والمعني: اذهبوا إلى رسول الله وسلوه الاستغفار لكم. وهذا يدل دلالة اقتضاء على أنّ المراد توبوا من النفاق وأخلصوا الإيمان وسلوا رسول الله ليستغفر لكم ما فرط منكم، فكان الذي قال لهم ذلك مطّلعا على نفاقهم، وهذا كقوله تعالى { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ } [البقر:13]. وليس المراد من الاستغفار الصفح عن قول عبد الله بن أبَي: ليُخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ. لأنّ ابن أبي ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبرّأ من أن يكون قال ذلك، ولأنّه لا يلتئم مع قوله تعالى { لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ } [6].

لَيُّ الرؤوس: إمالتها إلى جانب غير وِجاه المتكلّم. إعراضا عن كلامه، أي: أبوا أن يستغفروا لأنّهم ثابتون على النفاق، أو لأنّهم غير راجعين فيما قالوه من كلام بذيء في جانب المسلمين، أو لئلّا يُلزَموا بالاعتراف بما نسب إليهم من النفاق.

{ **رَأَيْتَهُمْ** } الخطاب لغير معيَّن، أي: ورأيتهم يا من يراهم حينئذ.

{ **وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ** } حال من ضمير { يَصُدُّونَ }، أي: يصدُّون صدّ المتكبّر عن طلب الاستغفار.

{ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } [6].

{ **سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ** } جملة معترضة بين حكاية أحوالهم نشأت لمناسبة قوله تعالى { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ } [5].

واعلم أن تركيب: سواء عليه أكذا أم كذا، ونحوه مماّ جرى مجرى المثل فيلزم هذه الكلمات مع ما يناسبها من ضمائر المخبر عنه. ومدلوله استواء الأمرين لدى المجرور بحرف (على)، ولذلك يُعقَّب بجملة تبيّن جهة الاستواء كجملة { لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ }. ومثاله جملة { لا يُؤْمِنُونَ } التي تبيّن جهة الاستواء من قوله تعالى { وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ } [يس:10].

{ **سَوَاءٌ** } اسم بمعنى مساو يعامل معاملة الجامد في الغالب فلا يتغيّر خبره، نقول: هما سواء، وهم سواء.

{ **عَلَيْهِمْ** } و(على) هنا للاستعلاء المجازي الذي هو التمكُّن والتلبُّس، فتؤوَّل إلى معنى (عند)، كما في قوله تعالى { قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ } [الشعراء:136].

{ **أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ** } الهمزة أصلها همزة استفهام، وهو استفهام مجازي مستعمل كناية عن قلّة الاعتناء بكلا الحالين بقرينة لفظ سواء، ولذلك يُسمّي النحاة هذه الهمزة (همزة التسوية). وتقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ } [البقرة:6].

المعنى: سواء عندهم استغفارك لهم وعدمه.

{ **لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ** } معترضة بين جملة { سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ } وجملة { هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ } [7]، وهي وعيد لهم وجزاء على استخفافهم بالاستغفار من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

{ **إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** } تعليل لانتفاء المغفرة لهم بأنّ الله غضب عليهم فحرمهم اللطف والعناية.

{ **هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ** } [7].

{ **هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا** } هذا أيضا من مقالاتهم في مجامعهم وجماعتهم يقولونها لإخوانه الذين كانوا ينفقون على فقراء المسلمين تظاهرا بالإسلام، كأنّهم يقول بعضهم لبعض: تظاهر بالإسلام بغير الإنفاق.

وقد جاء في الأحاديث الصحيحة أنّ قائل هذه المقالة عبد الله بن أُبَي بن سلول كما تقدّم في طالعة تفسير هذه السورة، فإسناد هذا القول إلى ضمير المنافقين لأنّهم تقبَّلوه منه إذ هو رأس المنافقين، أو فشا هذا القول بينهم.

وموقع الجملة الاستئناف الابتدائي المُعرب عن مكرهم وسوء طواياهم انتقالا من وصف إعراضهم عند التقرّب من الرسول صلى الله عليه وسلم، إلى وصف لون آخر من كفرهم وهو الكيد للدين في صورة النصيحة.

{ **هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ** } افتتحت الجملة بضميرهم الظاهر دون الاكتفاء بالمستتر في { يَقُولُونَ } معاملة لهم بنقيض مقصودهم، فإنّهم ستروا كيدهم بإظهار قصد النصيحة ففضح الله أمرهم بمزيد التصريح، أي: قد عُلم أنكم تقولون هذا. وفي إظهار الضمير أيضا تعريض بالتوبيخ، كقوله تعالى { أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ } [ص:60]. وليكون للجملة الاسمية إفادة ثبات الخبر، وليكون الإتيان بالموصول مشعرا بأنّهم عُرفوا بهذه الصلة. وصيغة المضارع في { يَقُولُونَ } يُشعر بأنّ هذه المقالة تتكرّر منهم لقصد إفشائها.

{ **مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ** } من كانوا في رعايته مثل أهل الصُفَّة ومن كانوا يلحقون بالمدينة من الأعراب العُفاة أو فريق من الأعراب كان يموّنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بني المصطلق.

روى البخاري عن زيد بن أرقم قال: خرجنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم في سفر أصاب الناس فيه شدّة فقال عبد الله بن أُبي: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتّى ينفضّوا من حوله ". وهذا كلام مكر لأنّ ظاهره قصد الرفق برسول الله صلى الله عليه وسلم من كلفة إنفاق الأعراب الذين ألمُّوا به في غزوة بني المصطلق، وباطنه إرادة إبعاد الأعراب عن تلقّي الهدى النبوي، وعن أن يتقوّى بهم المسلمون.

{ **رَسُولَ اللَّهِ** } يظهر أنّه صدر من عبد الله بن أُبي ومن معه من المنافقين بهذا اللفظ إذا كانوا قالوا ذلك

جهرا في ملإ المسلمين، إذ هم يتظاهرون ساعتئذ بالإسلام.

{ **حَتَّى** } مستعملة في التعليل بطريقة المجاز المرسل لأنّ معنى (حتّى) انتهاء الفعل المذكور قبلها، إذ ينتهي الفاعل عن الفعل إذا بلغها، فهي سبب للانتهاء وعلّة له، وليس المراد: فإذا انفضّوا فأنفقوا عليهم.

الانفضاض: التفرّق والابتعاد.

{ **وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ** } عطف على جملة { هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ } إبطال لمكر المنافقين فيما قصدوه من قولهم المتظاهرين بأنَّهم قصدوا به نصح المسلمين، أي: لو تمشَّت حيلتهم على المسلمين فأمسكوا هم وبعض المسلمين عن إنفاق الأعراب ومن يأوون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من العُفاة، فإنّ الرسول صلى الله عليه وسلم لا يقطع عنهم الإنفاق وذلك دأبه، كما دلّ عليه حديث عمر بن الخطاب: أنّ رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" ما عندي شيء ولكن ابتع عليَّ فإذا جاءني شيء قضيته "**. فقال عمر: يا رسول الله ما كلَّفك الله ما لا تقدر عليه، فكره النبيّ صلى الله عليه وسلم قول عمر. فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالا. فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعُرف في وجهه البشر لقول الأنصاري ثم قال: **" بهذا أمرت "** [الترمذي / كتاب الشمائل].

{ **وَلِلَّهِ** } اللام للملك، أي: التصرُّف في ذلك ملك لله تعالى. ولمّا كان الإنفاق على فقراء المسلمين مما يُعِين على ظهور الدين الذي أرسل الله به رسوله صلى الله عليه وسلم كان الإخبار بأنّ الخزائن لله كناية عن تيسير الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم حصول ما ينفق منه. وذلك من زكوات المسلمين وغنائم الغزوات، وما فتح الله عليه من البلاد بخيراتها، وما أفاء الله عليه بغير قتال.

خزائن: جمع خِزانة. وهي البيت الذي يُخزَّن فيه الطعام، قال تعالى { قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ } [يوسف:55]. وتطلق على الصندوق الكبير الذي يُخزَّن فيه المال على سبيل التوسع، وعلى بيوت الكتب وصناديقها، ومن هذا ما جاء في حديث الصرف من الموطأ: " حتّى يحضر خازني من الغابة ".

{ **خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ** } مقار أسباب حصول الأرزاق من غيوم وأشعة الشمس والرياح الصالحة، فيأتي ذلك بتوفير الثمار والحبوب وخصب المرعى وتزايد النتاج.

خزائن الأرض: ما فيها من زروع وخيرات، وما أخفت من الكنوز، وفيه إشارة إلى ما يفتح الله لرسوله صلى الله عليه وسلم من البلاد.

{ **وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ** } استدراك لرفع ما يُتوهَّم من أنّهم حين قالوا {لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ} قالوه عن بصيرة. والمعنى: أنّهم لا يدركون دقائق المدركات وخفاياها.

{ **يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُون** } [8].

استئناف ثان على أسلوب التعداد والتكرير ولذلك لم يُعطف. ومثله يكثر في مقام التوبيخ. وهذا وصف لخبث نواياهم إذ أرادوا التهديد وإفساد إخلاص الأنصار وأُخوَّتهم مع المهاجرين بإلقاء هذا الخاطر في نفوس الأنصار بذرا للفتنة والتفرقة وانتهازًا لخصومة طفيفة حدثت بين شخصين من موالي الفريقين.

وهذا القول المحكي هنا صدر عن عبد الله بن أُبَي بن سلول حين كَسَع [كسع ضربه على دُبره، وكان ذلك لخصومة في حوض ماء شربت منه ناقة الأنصاري] حليفُ المهاجرين حليفَ الأنصار، كما تقدّم في سبب النزول.

{ **يَقُولُونَ** } صيغة المضارع في حكاية هذه المقالة لاستحضار الحالة العجيبة.

{ **إِلَى الْمَدِينَةِ** } هي مدينتهم المعهودة وهي يثرب.

{ **الْأَعَزُّ** } قويّ العزّة وهو الذي لا يُقهر ولا يُغلب. والعزّة تحصل بوفرة العدد وسعة المال والعُدَّة.

أراد فريق الأنصار، فإنّهم أهل المدينة وأهل الأموال وهم أكثر عددا من المهاجرين، فأراد: ليخرجنّ الأنصارُ من مدينتهم من جاءها من المهاجرين.

{ **وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ** } أبطل الله كلامهم، وهو جواب بالطريقة التي تُسمَّي (القول بالموجب) في علم الجدل، وهي ممّا يُسمَّى بـ (التسليم الجدلي) في علم آداب البحث.

<u>المعنى</u>: إنّ كان الأعزُّ يُخرج الأذلَّ فإنّ المؤمنين هم الفريق الأعزّ. وعزّتهم بكون الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم وبتأييد الله رسوله صلى الله عليه وسلم وأولياءه، لأنّ عزّة الله هي العزّة الحقّ المطلقة.

{ **وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ** } تقديم المسند على المسند إليه لقصد القصر وهو قصر قلب، أي: العزة لله ولرسوله وللمؤمنين لا لكم كما تحسبون.

{ **وَلِرَسُولِهِ** } إعادة اللام مع أنّ حرف العطف مغن عنها لتأكيد عزّة الرسول صلى الله عليه وسلم وأنّها بسبب عزّة الله ووعده إيّاه، وإعادة اللام أيضا في قوله تعالى { وَلِلْمُؤْمِنِينَ } للتأكيد أيضا، إذ قد تخفى عزّتهم وأكثرهم في حال قلّة وحاجة.

{ **وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ** } الاستدراك هنا نظير الاستدراك السابق { وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ } [7]. وعدل عن الإضمار وقد سبق اسمهم في نظيرها قبلها لتكون الجملة مستقلّة الدلالة بذاتها فتسير سير المثل.

{ **لا يَعْلَمُونَ** } نُفي عنهم هنا العلم تجهيلا بسوء التأمّل في أمارات الظهور والانحطاط، فلم يفطنوا للإقبال الذي في أحوال المسلمين وازدياد سلطانهم يوما فيوما وتناقص من أعدائهم، فإنّ ذلك أمر مشاهد.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } [9].

انتقال من كشف أحوال المنافقين المسوق للحذر منهم والتحذير من صفاتهم. إلى الإقبال على خطاب المؤمنين بِنَهْيِهم عمّا شأنه أن يشغل عن التذكّر لما أمر الله ونهى، ثم الأمر بالإنفاق في سبيل الله ومصالح المسلمين وجماعتهم وإسعاف آحادهم، لئلا يستهويهم قول المنافقين { لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ } [7]، والمبادرة إلى ذلك قبل الموت الذي لا يُدرى وقت حلوله، وهو تمهيد لقوله بعده { وأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ }. فالمناسبة لهذا الانتقال هو حكاية مقال المنافقين ولذلك قُدّم ذكر الأموال على ذكر الأولاد لأنّها أهم بحسب السياق.

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** } نودي المخاطبون بطريق الموصول لما تؤذن به الصلة من التهمُّم لامتثال النهي.

{ **أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ** } خُصّ الأموال والأولاد بتوجّه النهي عن الاشتغال بها اشتغالا يلهي عن ذكر الله، لأنّ الشغل بهما أكثر من الشغل بغيرهما. وقدّمت الأموال لأنّها ممّا يكثر إقبال الناس على إنمائها والتفكير في اكتسابها بحيث تكون أوقات الشغل بها أكثر من أوقات الشغل بالأولاد. وأمّا ذكر الأولاد فهو إدماج لأنّ الاشتغال بأحوالهم والشفقة عليهم وقضاء الأوقات في التأنس بهم من شأنه أن ينسي عن تذكر أمر الله ونهيه في أوقات كثيرة.

{ **ذِكْرِ اللَّهِ** } مستعمل في معنييه الحقيقي والمجازي. فيشمل الذكر باللسان كالصلاة وتلاوة القرآن، والتذكّر بالعقل كالتدبّر في صفاته. قال عمر بن الخطاب: أفضل من ذكر الله باللسان ذكر الله عند أمره ونهيه.

{ **وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** } دليل على قول علماء أصول الفقه: (النهي اقتضاء كف عن فعل).

{ **ذَلِكَ** } إشارة إلى اللهو عن ذكر الله بسبب الأموال والأولاد.

{ **فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** } أفاد ضمير الفصل قصر صفة الخاسر على الذين يفعلون الذي نهوا عنه، وهو قصر ادعائي للمبالغة في اتّصافهم بالخسران كأنّ خسران غيرهم لا يُعدُّ خسرانا بالنسبة إلى خسرانهم.

{ **فَأُولَئِكَ** } إشارة إليهم للتنبيه على أنّهم استحقّوا ما بعد اسم الإشارة بسبب ما ذُكر قبلها: اللهو عن ذكر الله.

{ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ } [10].

هذا إبطال ونقض لكيد المنافقين حين قالوا { لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ} [7]، وهو يعمّ الإنفاق

على الملتفّين حول رسول الله صلى الله عليه وسلم والإنفاق على غيرهم، فكانت الجملة كالتذييل.

{ **أَنْفِقُوا** } مستعمل في الطلب الشامل للواجب والمستحب، فإنّ مدلول صيغة (افعل) مطلق الطلب، وهو القدر المشترك بين الوجوب والندب.

{ **مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ** } إشارة إلى أنّ الإنفاق المأمور به شكر الله على ما رزق، فإنّ الشكر صرف العبد ما أنعم الله به عليه فيما خُلق لأجله، ويُعرف ذلك من تلقاء الشريعة.

{ **مِنْ** } للتبعيض، أي: بعض ما رزقناكم، وهذه توسعة من الله على عباده، وهذا البعض منه ما هو معيّن المقدار مثل مقادير الزكاة وصدقة الفطر. ومنه ما هو بحسب الطاقة كنفقة الحج والجهاد ونفقات العيال الواجبة، ومنه ما يتعين بتعيّن سببه كالكفارات، ومنه ما وكّل للناس تعيينه ممّا ليس بواجب كالصدقات.

وفي الحديث: " **الصدقة تطفئ الخطايا كما يطفئ الماء النار** ".

{ **مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ** } ذكّر الله المؤمنين بما في الإنفاق من الخير بأنّ عليهم أن يكثروا منه ما داموا مقتدرين قبل الفوت، وذلك حين يحسّ المرء بحالة تؤذن بقرب الموت ويُغْلَب على قواه فيسأل الله أن يؤخِّر موته ويشفيه ليأتي بكثير ممّا فرّط فيه من الحسنات.

{ **لَوْلَا** } حرف تحضيض، والتحضيض الطلب الحثيث المضطر إليه، ويُستعمل أيضا للعرض والتوبيخ والتنديم والتمنّي على المجاز أو الكناية، وتقدّم عند قوله تعالى { فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ } [يونس:98].

{ **أَخَّرْتَنِي** } حقّ الفعل بعد { لَوْلَا } أن يكون مضارعا وإنّما جاء ماضيا هنا لتأكيد إيقاعه في دعاء الداعي حتى كأنّه قد تحقق، وقرينة ذلك ترتيب فعلي { فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ } عليه.

{ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } [11].

{ **وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا** } اعتراض في آخر الكلام، تذكيرا للمؤمنين بالأجل. فالأجل هو المدّة المعيّنة لحياته لا يؤخَّر عن أمده. وهذا سر عظيم لا يعلم حكمة تحديده إلّا الله تعالى.

النفس: الروح، سُمِّيت نفسا أخذا من **النَّفَس** (بفتح الفاء) وهو الهواء الذي يخرج من الأنف والفم من كل حيوان ذي رئة، فسُمِّيت النفس لأنّ النفس يتولّد منها.

ويجوز أن يراد بالنفس الذات، أي: شخص الإنسان وهو من معاني النفس. كما في قوله تعالى { أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ } [المائدة:45].

{ **إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا** } مجيء الأجل حلول الوقت المحدّد للانفصال بين الروح والجسد، وهو ما علمه الله من طاقة البدن للبقاء حيًّا بحسب قواه وسلامته من العوارض المهلكة.

وهذا إرشاد من الله للمؤمنين ليكونوا على استعداد للموت في كل وقت، فربّما تعذّر عليه التدارك بفجأة الفوات، أو وهن المقدرة.

{ **وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** } عطف على جملة { لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ } [9]، أو تذييل والواو

اعتراضية. ويفيد بناء الخبر على الجملة الاسمية تحقيق علم الله بما يعمله المؤمنون. ولما كان المؤمنون لا يخامرهم شك في ذلك كان التحقيق والتقوّي راجعا إلى لازم الخبر وهو الوعد والوعيد، والمقام هنا مقامهما، لأنّ الإنفاق المأمور به منه الواجب والمندوب. وفعلهما يستحق الوعد. وترك أوّلهما يستحق الوعيد.

{ **خَبِيرٌ** } إيثار هذا الوصف دون: عليم، لما تؤذن به مادة (خبير) من العلم بالأمور الخفيّة، ليفيد أنّه تعالى عليم بما ظهر من الأعمال وما بطن، مثل أعمال القلب التي هي العزائم والنيات.

وإيقاع هذه الجملة بعد ذكر ما يقطعه الموت من ازدياد الأعمال الصالحة إيماء إلى أنّ حيلولة الموت دون إتمامها لا يُرْزِئ المؤمن ثوابها لأنّ المؤمن إذا اعتاد حزبا أو عزم على عمل صالح ثم عرض له ما منعه منه أنّ الله يعطيه أجره.

ومن هذا القبيل: أنّ من هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، كما في الحديث الصحيح.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة التغابن

سُمِّيت هذه السورة (**سورة التغابن**) ولا تُعرف بغير هذا الاسم، ولم ترد تسميتها بذلك في خبر مأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. ووجه التسمية وقوع لفظ { التَّغَابُنِ } [9] فيها ولم يقع في غيرها من القرآن.

وهي مدنية في قول الجمهور وعن الضحّاك هي مكية. وروى الترمذي عن عكرمة عن ابن عباس: " أن تلك الآيات نزلت في رجال أسلموا من أهل مكة وأرادوا الهجرة فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم ". وقال مجاهد: نزلت في شأن عوف الأشجعي كما سيأتي.

وهي معدودة **السابعة والمائة في ترتيب نزول السور** نزلت بعد سورة الجمعة وقبل سورة الصف بناء على أنّها مدنية.

وعدد آيها ثمان عشرة.

أغراض السورة

*/ التذكير بأنّ من في السماء ومن في الأرض يسبّحون لله، أي: يُنزهونه عن النقائص تسبيحا متجدِّدا.

*/ أنّ الملك لله وحده فهو الحقيق بإفراده بالحمد لأنّه خالق الناس كلّهم.

*/ تحذيرهم من إنكار رسالة محمد صلى الله عليه وسلم.

*/ الإعلام بأنّ الله عليم بالظاهر والخفيّ في السماوات والأرض فلا يجري أمر إلّا على ما اقتضته حكمته.

*/ أنحى عليهم إنكار البعث وبيّن لهم عدم استحالته وهدَّدهم بأنّهم يلقون حين يبعثون جزاء أعمالهم، فإن أرادوا النجاة فليؤمنوا بالله وحده وليصدّقوا رسوله صلى الله عليه وسلم والكتاب الذي جاء به ويؤمنوا بالبعث فإنّهم إن آمنوا كُفِّرت عنهم سيِّئاتهم وإلّا فجزاؤهم النار خالدين فيها.

*/ تثبيت المؤمنين على ما يلاقونه من ضرّ أهل الكفر بهم فليتوكّلوا على الله في أمورهم.

*/ تحذير المؤمنين من بعض قرابتهم الذين تغلغل الإشراك في نفوسهم تحذيرا من أن يثبطوهم عن الإيمان والهجرة.

*/ عرَّض لهم بالصبر على أموالهم التي صادرها المشركون.

*/ أمرهم بإنفاق المال في وجوه الخير التي يُرضون بها ربّهم، وبتقوى الله والسمع له والطاعة.

{ **يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } [1].

لمّا كان جُلّ ما اشتملت عليه هذه السورة إبطال إشراك المشركين وزجرهم عن دين الإشراك بأسره وعن تفاريعه التي أعظمها إنكارهم البعث وتكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم وتكذيب القرآن، وتلك أصول ضلالهم، ابتدئت السورة بالإعلان بضلالهم وكفرانهم المنعم عليهم، فإنّ ما في السماوات والأرض يُسبح لله تعالى عن النقائص: إمّا بلسان المقال والحال مثل الملائكة والمؤمنين بقولهم واستقامتهم، وإمّا بلسان الحال مثل دلالة حال الاحتياج إلى الإيجاد والإمداد، كحاجة الحيوان إلى الرزق وحاجة الشجرة إلى المطر، وما يشهد به حال جميع تلك المخلوقات من أنّها مربوبة لله تعالى ومسخّرة لما أراده منها، وكل تلك المخلوقات لم تنقض دلالة حالها بنقائض كفر مقالها، فلم يخرج عن هذا التسبيح إلّا أهل الضلال من الإنس والشياطين.

وهذا يفيد ابتداءً تقرير تنزيه الله تعالى وقوّة سلطانه ليزداد الذين آمنوا إيمانا، ويكون لهم تعليما وامتنانا.

ويفيد ثانيا، بطريق الكناية، تعريضا بالمشركين الذين لم ينزّهوه ولا وقَّروه فنسبوا إليه شركاء.

{ **يُسَبِّحُ** } جيء بالفعل مضارعا للدلالة على تجدّد ذلك التسبيح ودوامه، وسبق نظيره في فاتحة سورة الجمعة، وجيء به في فواتح (الحديد / الحشر / الصف) بصيغة الماضي للدلالة على أنّ التسبيح قد استقرّ في قديم الأزمان، فحصل من هذا التفنّن في فواتح هذه السور كلا المعنيين، زيادة على ما بيّنّاه من المناسبة الخاصة بسورة الجمعة، وما في هاته السورة من المناسبة بين تجدّد التسبيح والأمر بالعفو عن ذوي القربى والأمر بالتقوى بقدر الاستطاعة، والسمع والطاعة، لكي لا يكتفي المؤمنون بحصول إيمانهم ليجتهدوا في تعزيزه بالأعمال الصالحة.

{ **وَمَا فِي الْأَرْضِ** } إعادة { مَا } الموصولة لقصد التوكيد اللفظي.

وفي هذه الجملة تنويه بإقبال أهل السماوات والأرض على تسبيح الله وتجديد ذلك التسبيح.

{ **لَهُ الْمُلْكُ** } استئناف واقع موقع التعليل والتسبّب لمضمون تسبيح ما في السماوات وما في الأرض، فإنّ ملابسة جميع الموجودات لدلائل تنزيه الله تعالى عن الشركاء وعن النقائض لا مقتضى لها إلّا انفراده بتملّكها وإيجادها وما فيها من الاحتياج إليه وتصرّفه فيها تصرّف المالك المتفرّد في ملكه.

وتقديم المسند على المسند إليه لإفادة تخصيصه بالمسند إليه، وهو قصر ادعائي مبني على عدم الاعتداد بما لغير الله من ملك لنقصه وعدم خلوّه عن الحاجة إلى غيره.

{ **وَلَهُ الْحَمْدُ** } مضمونها سبب لتسبيح ما في السماوات وما في الأرض، إذ التسبيح من الحمد، فلا جرم أن كان حمد ذوي الإدراك مختصا به تعالى فهو الحقيق بالحمد والتسبيح. وهو قصر ادعائي أيضا لعدم الاعتداد بحمد غيره. ومقتضى المقام تسفيه أحلام المشركين في عبادتهم غيره، لأنّ الشكر أيضا مقصور عليه تعالى لأنّه المنعم الحق بنعم لا قبل لغيره بإسدائها، قال تعالى { وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ }

[النحل:53]، كما تقدّم في تفسير أول سورة الفاتحة.

{ **وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } معطوفة على اللتين قبلها وهي بمنزلة التذييل لهما والتبيين لوجه القصرين فيهما، فإنّ القدير على كل شيء هو صاحب الملك الحق وهو المختصّ بالحمد الحق.

وفي هذا التذييل وعد للشاكرين، ووعيد وترهيب للمشركين.

{ **قَدِيرٌ** } الاقتصار على ذكر هذا الوصف لأنّ المخلوقات التي تسبّح الله دالة على صفة القدرة أولا، لأنّ من يشاهد المخلوقات يعلم أنّ خالقها قادر.

{ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } [2].

تقرير لما أفاده قوله تعالى { يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } [1]، وتخلُّص للمقصود منه على وجه التصريح بأنّ الذين أشركوا بالله قد كفروا بنعمته وبخلقهم زيادة على جحدهم دلائل تنزُّهه تعالى عن النقص الذي اعتقدوه له. ولذلك قُدِّم { فَمِنْكُمْ كَافِرٌ }، لأنّه الشقّ المقصود بهذا الكلام تعريضا وتصريحا.

{ **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ** } الخطاب لجميع الناس، وأفاد تعريف الجزأين قصر صفة الخالقية على الله تعالى، وهو قصر حقيقي قُصد به الإشارة بالكناية بالرد على المشركين إذ عمدوا إلى عبادة أصنام يعلمون أنّها لم تخلقهم فما كانت مستحقّة لأن تعبد، لأنّ العبادة شكر.

{ **فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ** } الفاء عاطفة على جملة {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ} وليست عاطفة على فعل {خَلَقَكُمْ}، وهي للتفريع في الوقوع دون تَسبب. ونظيره قوله تعالى { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ } [الحديد:26] ومثل هذا التفريع يستتبع التعجيب من جري أحوال بعض الناس على غير ما يقتضيه الطبع.

{ **فَمِنْكُمْ كَافِرٌ** } هي المقصود من التفريع، وهو تفريع في الحصول.

{ **وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ** } تتميم وتنويه بشأن أهل الإيمان ومضادّة حالهم لحال أهل الكفر، ومقابلة الحال بالحال.

{ **وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** } تتميم واحتراس واستطراد:

فهو تتميم لما يكمِّل المقصود من تقسيمهم إلى فريقين لإبداء الفرق بين الفريقين في الخير والشر وهو عليم بذلك وعليم بأنّه يقع، وليس الله مغلوبا على وقوعه ولكن حكمته وعلمه اقتضيا ذلك.

ولبعض البيان نقول: خلق الله الناس وأودع فيهم العقول التي تتوصَّل بالنظر السليم من التقصير وشوائب الهوى وغشاوات العناد إلى معرفة الله على الوصف اللائق به، وخلق فيهم القدرة على الأعمال الصالحة وغيرها المسمّاة عند الأشعري بالكسب وعند المعتزلة بقدرة العبد، والخلاف في التعبير. وأرشدهم إلى الصلاح وحذّرهم من الفساد، والله عالم بما يكتسبه كلّ واحد، ولو شاء لصرف مقترف الفساد عن فعله ولكنّه أوجد نُظما مرتبطا بعضها ببعض ومنتشرة، فقضت حكمته بالحفاظ على تلك النظم الكثيرة بأن لا

يعوق سيرها في طرائقها ولا يُعطِّل عملها لأجل إصلاح أشخاص هم جزء من كلٍّ، لأنّ النظم العامة أعمّ فالحفاظ على اطرادها أصلح وأرجح، فلا تتنازل إرادة الله وقدرته إلى التدخّل في أفعال العباد، بل جعل، بحكمته، بين الخلق والكسب حاجزا هو نظام تكوين الإنسان بما فيه من إرادة وإدراك وقدرة، وقد أشار إلى هذا هنا بقوله تعالى { وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }، أي: هو بصير به من قبل أن تعملوه، وبعد أن عملتموه.

{ **بَصِيرٌ** } أريد به العالم عِلْمَ انكشاف لا يقبل الخفاء، فهو كعلم المشاهدة، وهذا إطلاق شائع في القرآن لاسيما إذا أُفردت صفة (بصير) بالذكر ولم تذكر معها صفة (سميع).

واصطلح بعض المتكلمين على أن صفة البصيرة: العالم بالمرئيات. وقال بعضهم: هي تعلّق العلم الإلهي بالأمور عند وقوعها. والحق أنّها استعمالات مختلفة.

وهو احتراس من أن يُتوهَّم من تقسيمهم إلى فريقين أنّ ذلك رضى بالحالين، كما حُكي عن المشركين في قوله تعالى { وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ } [الزخرف:20].

وهو استطراد بطريق الكناية به عن الوعد والوعيد.

{ **بِمَا تَعْمَلُونَ** } يشمل أعمال القلوب كالإيمان، وهي المقصود ابتداء هنا.

{ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ } [3].

{ **خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ** } استئناف بياني ناشئ عن قوله تعالى { مِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ } [2]، يُبيِّن أنّ انقسامهم إلى قسمي الكافرين والمؤمنين نشأ عن حياد فريق من الناس عن الحقّ الذي أقيم عليه خلق السماوات والأرض، لأنّ الحقّ أن يؤمن الناس بوجود خالقهم، وبأنّه واحد وأن يُفردوه بالعبادة فذلك الذي أراده الله من خلقهم، قال تعالى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } [الذاريات:56]، وقال تعالى { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ } [الروم:30]، فمن حاد عن الإيمان ومال إلى الكفر فقد حاد عن الحقّ والفطرة.

{ **بِالْحَقِّ** } معترض بين جملة { خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } وجملة { وَصَوَّرَكُمْ }، إيماء إلى إثبات البعث والجزاء لأنّ قوله تعالى {بِالْحَقِّ } متعلق بفعل { خَلَقَ } تعلق الملابسة المفاد بـ (الباء)، أي: خلقا ملابسا للحقّ، والحقُّ ضدّ الباطل، ألا ترى إلى قوله تعالى { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ - إلى قوله - رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً } [آل عمران:191/190]. والباطل ما صدقه هنالك هو العبث، لقوله تعالى { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ } [الدخان:39/38]. فيكون { بِالْحَقِّ } هنا ضد العبث والإهمال.

وفيه رمز إلى الجزاء وهو وعيد ووعد، لأنّ ملابسة الحق لخلق السماوات والأرض يلزم أن تكون ملابسة عامة مطّردة، لأنّه لو اختلّت ملابسة حال من أحوال مخلوقات السماوات للحقّ لكان ناقضا لمعنى

ملابسة خلقها للحق، فكان نفي البعث للجزاء على أعمال المخلوقات موجبا اختلال تلك الملابسة في بعض الأحوال. وتخلُّف الجزاء عن الأعمال في الدنيا مشاهد إذ كثيرا ما نرى الصالحين في كرب ونرى أهل الفساد في نعمة، فلو كانت هذه الحياة الدنيا قصارى حياة المكلّفين لكان كثير من أهل الصلاح غير لاق جزاء على صلاحه، وانقلب أكثر أهل الفساد متمتّعا بإرضاء خباثة نفسه ونوال مشتهياته. ولزيادة الإيقاظ لهذا الإيماء عُطف عليه قوله تعالى { وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ }، وكل ذلك توطئة إلى قوله { زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا } [7].

{ **وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُم** } إدماج امتنان على الناس بأنّهم مع ما خلقوا عليه من ملابسة الحق على وجه الإجمال، وذلك من الكمال وهو ما اقتضته الحكمة الإلهية، فقد خُلقوا في أحسن تقويم إذ كانت صورة الإنسان مستوفية الحسن متماثلة فيه. ولا تعتور الإنسان نقائص في صورته إلّا من عوارض تعرض في مدة تكوينه أو من عوارض تعرض له في مدة حياته فتشوّه بعض محاسن الصور.

{ **وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ** } عطف على جملة { وَصَوَّرَكُمْ } لأنّ التصوير يقتضي الإيجاد فأعقب بالتذكير بأنّ بعد هذا الإيجاد فناءً ثم بعثا للجزاء. أي: ومرجعكم إليه، يعني بعد الموت، وهو مصير الحشر للجزاء.

المصير: مصدر ميمي لفعل **صار** بمعنى رجع وانتهى، ولذلك يُعدَّى بحرف الانتهاء.

وتقديم { إِلَيْهِ } للرعاية على الفاصلة مع إفادة الاهتمام بتعلق ذلك المصير بتصرف الله المحض. وليس مرادا بالتقديم قصر لأنّ المشركين لا يصدِّقون بهذا المصير من أصله بله أن يدَّعوا أنّه مصير إلى غيره حتّى يُرَدّ عليهم بالقصر.

والجملة أشد ارتباطا بجملة { خلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ } منها بجملة {وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ}.

{ يعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } [4].

كانوا ينفون الحشر بعلّة أنّه إذا تفرّقت أجزاء الجسد لا يمكن جمعها ولا يحاط بها، { وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ } [السجدة:10]، فكانت هذه الآية دحضا لشبهتهم، أي: أنّ الذي يعلم ما في السماوات والأرض لا يُعجزه تفرّق أجزاء البدن إذا أراد جمعها، والذي يعلم السر في نفس الإنسان، والسرّ أدقّ وأخفى من ذرَّات الأجساد المتفرقة، لا تخفى عليه مواقع تلك الأجزاء الدقيقة، قال تعالى { أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ } [القيامة:4/3].

{ **وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ** } المقصود من الآية كما يقتضيه الاقتصار عليه في تذييله بقوله تعالى { وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } ولم يذكر أنّه عليم بأعمال الجوارح لأنّ الخطاب للمشركين في مكة على الراجح، وذلك قبل ظهور المنافقين.

{ **وَمَا تُعْلِنُونَ** } تتميم للتذكير بعموم تعلّق علمه تعالى بالأعمال.

{ **يعْلَمُ / وَيَعْلَمُ** } إعادة الفعل للتنبيه على العناية بهذا التعلّق الخاص للعلم الإلهي بعد تعلقه العام تنبيهًا على الوعيد والوعد بوجه خاص.

{ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** } تذييل لجملة { وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ } لأنّه يعلم ما يُسِرُّه جميع الناس من المخاطبين وغيرهم.

{ **ذَاتِ الصُّدُورِ** } أي: المكتومة فيها. والتقدير: بالنوايا والخواطر التي مقرّها الصدور. وتقدم بيانه عند قوله تعالى { إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } [الأنفال:43].

{ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [5].

<u>انتقال من التعريض الرمزي</u> بالوعيد الأخروي في قوله تعالى { وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } [2]، وقوله تعالى { وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ } [3]، وقوله تعالى { وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ } [4]، <u>إلى تعريض أوضح</u> منه بطريق الإيماء إلى وعيد لعذاب دنيوي وأخروي معا، وهذا الإيماء بضرب المثل بحال أمم تلقّوا رسلهم بمثل ما تلقى به المشركون محمد صلى الله عليه وسلم، تحذيرا لهم من أن يحلّ بهم مثل ما حلّ بأولئك.

والجملة ابتدائية لأنّها عَدٌّ لصنف ثان من أصناف كفرهم وهو إنكار الرسالة. والخطاب موجَّه للمشركين الذين حالهم كحال من لم يبلغهم نبأ الذين كفروا مثل كفرهم، مثل عاد وثمود ومدين وقوم إبراهيم.

{ **أَلَمْ يَأْتِكُمْ** } الاستفهام تقريري، والتقريري يؤتى معه بالجملة منفية توسعة على المقرَّر إن كان يريد الإنكار حتى إذا أقرّ لم يستطع بعد إقراره إنكارا لأنّه قد أعذر له من قبل بتلقينه النفي، وقد تقدّم كثيرا.

الذوق: مجاز في مطلق الإحساس والوجدان، شُبِّه ما حلّ بهم من العذاب بشيء ذي طعم كريه يذوقه من حلّ به ويبتلعه، لأنّ الذوق باللسان أشد من اللمس باليد أو الجلد.

<u>المعنى</u>: أحسوا العذاب في الدنيا إحساسا مكينا.

الوبال: السوء وما يُكره.

الأمر: الشأن والحال.

{ **وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** } المراد به عذاب الآخرة، لأنّ العطف يقتضي المغايرة.

{ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ } [6].

ارتقاء في التعريض إلى ضرب منه قريب من الصريح، وهو المسمَّى في الكناية بالإشارة.

كانت مقالة الذين من قبل مماثلة لمقالة المخاطبين، فإذا كانت هي سبب ما ذاقوه من الوبال فيوشك أن يذوق مماثلوهم في المقالة مثل ذلك الوبال. فهذا عَدٌّ لكفر آخر من وجوه كفرهم وهو تكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم وتكذيبهم بالقرآن، فإنّ القرآن بيّنة من البيّنات لأنّه معجزة.

{ **ذَلِكَ** } اسم الإشارة عائد إلى المذكور من الوبال والعذاب الأليم.

{ **بِأَنَّهُ** } الباء للسببية في موقع العلة. والضمير ضمير الشأن لقصد تهويل ما يُفسِّر الضمير، وهو جملة { كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ } إلى آخرها.

{ **أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا** } استفهام إنكار وإبطال، فهم أحالوا أن يكون بشر مثلهم يهدون بشرا أمثالهم، وهذا من جهلهم بمراتب النفوس البشرية ومن يصطفيه الله منها ويخلقه مضطلعا بتبليغ رسالته إلى عباده. كما حكاه الله عنهم { وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ } [الفرقان:7]، وجهلوا أنّه لا يصلح لإرشاد الناس إلّا من هو من نوعهم، قال تعالى { قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً } [الإسراء:95].

البشر: اسم جنس للإنسان يصدق على الواحد، قال تعالى { قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ } [الكهف:110]، ويقال على الجمع كما هنا. وتقدّم في قوله تعالى { وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً } [يوسف [31].

{ **فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا** } لمّا أحالوا أن يكون البشر أهلا لهداية بشر مثله جعلوا ذلك كافيا في إعراضهم عن قبول القرآن والتدبّر فيه.

التولّي: أصله الانصراف عن المكان الذي أنت فيه، وهو هنا مستعار للإعراض عن قبول دعوة رسلهم، وتقدّم عند قوله تعالى { ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ } [البقرة:64].

{ **وَاسْتَغْنَى اللَّهُ** } من فعل **غَنِيَ**، فالسين والتاء للمبالغة، كقوله تعالى { أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى } [عبس:5].

و(الواو) واو الحال، أي: والحال أنّ الله غني عنهم من زمن مضى، فإنّ غنى الله عن إيمانهم مقرَّر في الأزل، قال تعالى { إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ } [الزمر:7].

<u>ويجوز أن يراد</u>: واستغنى الله عن إعادة دعوتهم لأنّ فيما أظهر لهم من البيّنات على أيدي رسلهم ما هو كاف لحصول التصديق بدعوة رسلهم لولا المكابرة فلذلك عجّل لهم العذاب.

وعلى الوجهين متعلق {َاسْتَغْنَى } محذوف دل عليه قوله تعالى { فَكَفَرُوا }، وقوله تعالى { بِالْبَيِّنَاتِ }، والتقدير: واستغنى الله عن إيمانهم.

{ **وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ** } تذييل، أي: غنيّ عن كلّ شيء فيما طلب منهم، حميد لمن امتثل وشكر.

{ **زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** } [7].

هذا ضرب ثالث من ضروب كفر المشركين المخاطبين بقوله تعالى { أَلَمْ يَأْتِكُمْ } [5]، وهو كفرهم بإنكارهم البعث والجزاء. لذلك تضمَّنت الجملة تصريحا بإثبات البعث. والجملة ابتدائية.

والكلام موجّه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم بقرينة قوله { قُلْ بَلَى }. وليس هذا من الإظهار في مقام الإضمار، ولا من الالتفات بل هو ابتداء غرض مخاطب به غير من كان الخطاب جاريا معهم.

الزعم: القول الموسوم بمخالفة الواقع خطأ، فمنه الكذب الذي لم يتعمّد قائله أن يخالف الواقع في ظنّ سامعه. ويطلق على الخبر المستغرب المشكوك في وقوعه. وتقدّم الكلام على فعل (زعم) في قوله تعالى { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ } [النساء:60].

{ **الَّذِينَ كَفَرُوا** } المراد بـهم هنا المشركون من أهل مكة ومن على دينهم.

{ **أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا** } اجتلاب حرف { لَنْ } لتأكيد النفي، إذ كانوا موقنين بانتفاء البعث.

{ **قُلْ بَلَى وَرَبِّي** } جيء إبطال زعمهم مؤكّدا بالقسم لينقض نفيهم بأشدّ منه، فأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّ يبلّغهم عن الله أنّ البعث واقع، وخاطبهم بذلك تسجيلا عليهم أن لا يقولوا ما بلغنا ذلك.

والجملة معترضة بين جملة { زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا } وجملة { فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ } [8].

{ **ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ** } ارتقاء في الإبطال. و{ ثُمَّ } للتراخي الرتبي، فإنّ إنباءهم بما عملوا أهم من إثبات البعث، إذ هو العلة للبعث.

الإنباء: الإخبار، وإنباؤهم بما عملوا كناية عن محاسبتهم عليه وجزائهم عمّا عملوه، فإنّ الجزاء يستلزم علم المجازَى بعمله الذي جوزي عليه، فكان حصول الجزاء بمنزلة إخباره بما عمله، كقوله تعالى { إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا } [لقمان:23].

وهذا وعيد وتهديد بجزاء سيّئٍ لأنّ المقام دليل على أن ّعملهم سيّئ، وهو تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم وإنكار ما دعاهم إليه.

{ **وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** } تذييل، والواو اعتراضية. واسم الإشارة إمّا عائد إلى البعث المفهوم من قوله تعالى { لَتُبْعَثُنَّ }، وإمّا عائد إلى معنى المذكور من مجموع قوله تعالى { لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ }.

{ **يَسِيرٌ** } لأنّ الكلام لردّ إحالتهم البعث بعلّة أن أجزاء الجسد تفرّقت فيتعذّر جمعها فذُكِّروا بأنّ العسير في متعارف الناس لا يعسر على الله، نظير قوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ } [الروم: 27].

{ **فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** } [8].

من جملة المأمور رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يقوله.

{ **فَآمِنُوا** } الفاء فصيحة تفصح عن شرط مقدّر، والتقدير: فإذا علمتم هذه الحجج وتذكّرتم ما حلّ بنظرائكم من العقاب وما ستنبّؤون به من أعمالكم فآمنوا بالله ورسوله والقرآن.

{ **وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا** } المراد القرآن، وُصِف بأنّه نور على طريقة الاستعارة، لأنّه أَشْبَهَ النور في إيضاح المطلوب باستقامة حجّته وبلاغته، قال تعالى { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِينًا } [النساء:174].

وأشبه النور في الإرشاد إلى السلوك القويم، وفي هذا الشبه الثاني تشاركه الكتب السماوية، قال تعالى { إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ } [المائدة:44].

{ **الَّذِي أَنْزَلْنَا** } قرينة الاستعارة، لأنّه من مناسبات المشبَّه لاشتهار القرآن بين الناس كلّهم بالألقاب المشتقّة من الإنزال والتنزيل، عرف ذلك المسلمون والمعاندون. وهو إنزال مجازي أريد به تبليغ مراد الله إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ } [البقرة:4]، وفي آيات كثيرة.

وفي قوله { الَّذِي أَنْزَلْنَا } التفات من الغيبة إلى المتكلّم لزيادة الترغيب في الإيمان بالقرآن تذكيرا بأنّه منزَّل من الله، لأنّ ضمير التكلّم أشد دلالة على معاده من ضمير الغائب، ولتقوية داعي المأمور.

{ **وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** } تذييل لجملة { فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ }، يقتضي وعدا إن آمنوا ووعيدا إن لم يؤمنوا.

وفي ذكر اسم الجلالة إظهار في مقام الإضمار لتكون الجملة مستقلّة جارية مجرى المثل والكَلِم الجوامع، ولأنّ الاسم الظاهر أقوى دلالة من الضمير لاستغنائه عن تطلب المعاد. وفيه تربية المهابة.

الخبير: العليم، وجيء هنا بهذه الصفة دون: البصير، لأنّ ما يعلمونه منه محسوسات ومنه غير محسوسات كالمعتقدات، ومنها الإيمان بالبعث، فعُلِّق بالوصف الدال على تعلُّق العلم الإلهي بالموجودات كلّها، بخلاف قوله فيما تقدم { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } [2]، فإنّ لكفر الكافرين وإيمان المؤمنين آثارا ظاهرة محسوسة فعُلِّقت بالوصف الدال على تعلُّق العلم الإلهي بالمحسوسات.

{ **يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [9] وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ [10]** }.

{ **يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ** } متعلّق بفعل { ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ } [7]، الذي هو كناية عن تجازون على

تكذيبكم بالبعث، فيكون من تمام ما أُمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بأن يقوله لهم ابتداء من قوله تعالى { قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ } [7].

{ **يَجْمَعُكُمْ** } الضمير المستتر عائد إلى اسم الجلالة في قوله تعالى { وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } [8].

والمعنى: يجمع المخاطبين والأمم من الناس كلهم، كقوله تعالى { هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ } [المرسلات:38]. ويجوز أن يراد الجمع الذي في قوله تعالى { أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ } [القيامة:3]، فيكون زيادة تحقيق للبعث الذي أنكروه.

{ **لِيَوْمِ الْجَمْعِ** } اللام يجوز أن يكون للتعليل، أي: يبعثكم لأجل أن يجمع الناس كلّهم للحساب، فمعناه غير معنى الذي في { يَجْمَعُكُمْ }. فليس هذا من تعليل الشيء بنفسه بل هو من قبيل التجنيس.

ويجوز أن يكون اللام بمعنى (في)، على نحو قوله تعالى { لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ } [االأعراف:178]، وقوله تعالى { يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي } [الفجر:24] وقول العرب: مضى لسبيله، أي في طريقه.

والأحسن عندي أن يكون اللام للتوقيت، التي بمعنى (عند)، كما في قوله تعالى { أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ } [الاسراء:78]. وهو استعمال يدلّ على شدّة الاقتراب. ويفيد هنا: أنّهم مجموعون في الأجل المعيّن دون تأخير، ردًّا على قولهم { أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا } [7]، فيتعلق قوله { لِيَوْمِ الْجَمْعِ } بفعل { يَجْمَعُكُمْ }.

{ **ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ** } اعتراض بين جملة { ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ } [7] بمتعلّقها، وبين جملة { وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ }، اعتراضا يفيد تهويل هذا اليوم تعريضا بوعيد المشركين بالخسارة.

{ **ذَلِكَ** } الإتيان باسم الإشارة في مقام الضمير لقصد الاهتمام بتمييزه أكمل تمييز مع ما يفيد اسم إشارة البعيد من علو المرتبة، على نحو ما تقدّم في قوله تعالى { ذَلِكَ الْكِتَابُ } [البقرة:2].

{ **التَّغَابُنِ** } مصدر (غَابَنَهَ) من باب المفاعلة الدالة على حصول الفعل من جانبين أو أكثر.

والغبن أن يعطى البائعَ ثمنا لمبيعه دون حقّ قيمته التي يعوَّض بها مثْلُه. فالغبن يؤول إلى خسارة البائع في بيعه، فلذلك يطلق الغبن على مطلق الخسران مجازا مرسلا. فليست مادة التغابن هنا مستعملة في حقيقتها إذ لا تعارض حتى يكون فيه غبن بل هو مستعمل في معنى الخسران على وجه المجاز المرسل.

وصيغة التفاعل حملها جمهور المفسّرين على حقيقتها، من حصول الفعل من جانبين ففسّروها أنّ أهل الجنة غبنوا أهل النار إذ أهل الجنة أخذوا الجنة وأهل جهنم أخذوا جهنم قاله مجاهد وقتادة والحسن.

فيكون في الآية مجازا وتشبيه وتمثيل، فالمجاز في مادة الغبن، والتمثيل في صيغة التغابن، وهو تشبيه مركب بمنزلة التشبيه البليغ إذ التقدير: ذلك يوم مثل التغابن.

وحمل قليل من المفسّرين صيغة التفاعل على معنى الكثرة وشدّة الفعل فتكون استعارة، أي: خسارة للكافرين إذ هم مناط الإنذار. وهذا في معنى قوله تعالى { أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ } [البقرة:16].

فصيغة التفاعل مستعملة مجازا في كثرة حصول الغبن. والكلام تهديد للمشركين بسوء حالتهم في يوم الجمع.

{ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً}

معطوفة على جملة { فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ } [8] وهو تفصيل لما أجمل في قوله تعالى { وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } [7]، الذي هو تذييل.

{ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً } جملة شرطية والفعل بعدها مستقبل، أي: من يؤمن من المشركين بعد هذه الموعظة نكفّر عنه ما فرط من سيّئاته.

{ صَالِحاً } انتصب على الصفة لمصدر وهو مفعول مطلق محذوف تقديره: عملا صالحا.

{ سَيِّئَاتِهِ } المراد هنا الكفر وما سبقه من الأعمال الفاسدة.

تكفير السيّئات: العفو عن المؤاخذة بها وهو مصدر كفَّر مبالغة في كَفَر. وغلب استعماله في العفو عمّا سلف من السيّئات، وأصله: استعارة الستر للإزالة، مثل الغفران أيضا.

{ يُكَفِّرْ / يُدْخِلْهُ } قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر { نُكَفِّرْ / نُدْخِلْهُ } بنون العظمة على الالتفات من الغيبة إلى التكلّم لأنّ مقام الوعد مقام إقبال فناسبه ضمير المتكلّم. وقرأهما الباقون بياء الغيبة على مقتضى الظاهر لأنّ ضمير الجلالة يؤذن بعناية الله بهذا الفريق.

{ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } تذييل.

{ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا } أي: كفروا وكذّبوا من قبلُ واستمروا على كفرهم وتكذيبهم فلم يستجيبوا لهذه الدعوة فثبت أنّهم أصحاب النار. ولذلك جيء في جانب الخبر عنهم بالجملة الاسمية الدالة على الثبات لعراقتهم في الكفر والتكذيب.

{ أُولَئِكَ } جيء لهم باسم الإشارة لتميزهم تمييزا لا يلتبس معه غيرهم بهم، مع ما يفيده اسم الإشارة من أن استحقاقهم لملازمة النار ناشئ عن الكفر والتكذيب بآيات الله، وهذا وعيد.

{ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } اعتراض تذييلي لزيادة تهويل الوعيد.

{ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [11].

استئناف انتُقل إليه بعد أن تُوعِّد المشركون بما يحصل لهم من التغابن يوم يجمع الله الناس يوم الحساب. ويشبه أن يكون استئنافا بيانيا لأنّ تهديد المشركين بيوم الحساب يثير في نفوس المؤمنين التساؤل عن الانتصاف من المشركين في الدنيا على ما يلقاه المسلمون من إضرارهم بمكة، فإنّهم لم يكفّوا عن أذى المسلمين وإصابتهم في أبدانهم وأموالهم والفتنة بينهم وبين أزواجهم وأبنائهم. فأنبأهم الله بما يسلّيهم عن ذلك بأنّ الله عالم بما ينالهم.

قال القرطبي: قيل سبب نزولها أنّ الكفار قالوا: لو كان ما عليه المسلمون حقًّا لصانهم الله عن المصائب.
{ **مُصِيبَةٍ** } اختصت المصيبة في استعمال اللغة بما يلحق الإنسان من شرٍّ وضرٍّ، وإن كان أصل فعلها يقال لما يصيب الإنسان مطلقا، ولكن غلب إطلاق فعل أصاب على لحاق السوء.
وقد قيل في قوله تعالى { مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ} [النساء:79]، أنّ إسناد الإصابة إلى الحسنة من قبيل المشاكلة.
وتأنيثها لتأويلها بالحادثة كما في قوله تعالى {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا} [آل عمران:165].
الإذن: أصله إجازة الفعل لمن يفعله، وأطلق على إباحة الدخول إلى البيت، لأنّه مشتق من أذن له إذا سمع كلامه. وهو هنا <u>مستعار لتكوين أسباب الحوادث</u>. وهي من آثار صنع الله في نظام هذا العالم من ربط المسبَّبات بأسبابها مع علمه بما تفضي إليه تلك الأسباب.
فلمّا كان هو الذي أوجد الأسباب وأسباب أسبابها، وكان قد جعل ذلك كلّه أصولا وفروعا بعلمه وحكمته، أطلق على ذلك التقدير والتكوين لفظ الإذن، والمشابهة ظاهرة، وهذا في معنى قوله تعالى { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا } [الحديد:22].
ومقتضى هذه الاستعارة تقريب حقيقة التقلُّبات الدنيوية إلى عقول المسلمين باختصار العبارة لضيق المقام عن الإطناب في بيان العلل والأسباب، ولأنّ أكثر ذلك لا تبلغ إليه عقول عموم الأمّة بسهولة.
<u>والقصد من هذا تعليم المسلمين الصبر</u> على ما يغلبهم من مصائب الحوادث لكيلا تُفَلَّ عزائمهم ولا يهنوا ولا يلهيهم الحزن عن مهمّات أمورهم وتدبير شؤونهم، كما في قوله { لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ } [الحديد:23].
ولذلك أعقبه هنا بقوله تعالى:
{ **وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ** } أي: يهد قلبه عندما تصيبه مصيبة، فحُذف هذا المتعلّق لظهوره من السياق، قال تعالى { وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ } [آل عمران:140/139].
<u>المعنى</u>: أنّ المؤمن مرتاض بالأخلاق الإسلامية متّبع لوصايا الله تعالى فهو مجاف لفساد الأخلاق من الجزع والهلع يتلقّى ما يصيبه من مصيبة بالصبر والتفكّر في أنّ الحياة لا تخلوا من عوارض مؤلمة أو مكدّرة، قال تعالى { وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ } [البقرة:157/155]، أي: أصحاب الهدى الكامل، لأنّه هدى متلقًّى من التعاليم الإلهية الحق المعصومة من الخطل، كقوله هنا { يَهْدِ قَلْبَهُ }.
والخبر إيماء إلى الأمر بالثبات والصبر عند حلول المصائب لأنّه يلزم من هدى الله قلب المؤمن عند المصيبة ترغيب المؤمنين في الثبات والتصبّر عند حلو المصائب، فلذلك ذيل بجملة:
{ **وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** } تذييل للجملة التي قبلها وارد على مراعاة جميع ما تضمّنته من أنّ المصائب

بإذن الله، ومن أنّ الله يهدي قلوب المؤمنين للثبات عند حلول المصائب، ومن الأمر بالثبات والصبر عند المصائب، أي: يعلم جميع ذلك. وفيه كناية عن مجازاة الصابرين بالثواب، لأنّ فائدة علم الله التي تهمّ الناس هو التخلّق ورجاء الثواب ورفع الدرجات.

{ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ } [12].

عطف على جملة { وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ } [11]، لأنّها تضمَّنت أنّ المؤمنين متهيّؤون لطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فيما يدعوانهم إليه من صالح الأعمال، كما يدلّ عليه تذييل الكلام بقوله تعالى { وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } [13]، ولأنّ طلب الطاعة فرع عن تحقّق الإيمان، كما في حديث معاذ أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لمّا بعثه إلى اليمن قال له: **" إنك ستأتي قوما أهل كتاب فأوّل ما تدعوهم إليه فادعهم إلى أن يشهدوا أنّ لا إله إلا الله وأنّ محمدا رسول الله فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة ...".**

{ **فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ** } تفريع، تحذير من عصيان الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

التولِّي: حقيقته الانصراف عن المكان المستقر فيه، مستعار هنا للعصيان وعدم قبول دعوة الرسول، تشنيعا له ومبالغة في التحذير منه، ومثله في خطاب المؤمنين { وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ } [محمد:38]، وقوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ } [الأنفال:20].

{ **رَسُولِنَا** } التعريف بالإضافة لقصد تعظيم شأنه، بأنّه صلى الله عليه وسلم رسول ربّ العالمين. وهذا الضمير التفات من الغيبة إلى التكلّم يفيد تشريف الرسول صلى الله عليه وسلم.

{ **فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ** } قصر الرسول صلى الله عليه وسلم على كون واجبه البلاغ، قصر موصوف على صفة. وهو قصر قلب تنزيلا لهم، في حالة العصيان المفروض، منزلة من يعتقد أنّ الله لو شاء لألجأهم إلى العمل بما أمرهم به إلهابا لنفوسهم بالحثّ على الطاعة.

{ **الْبَلاغُ الْمُبِينُ** } أي: الواضح، عُذر للرسول صلى الله عليه وسلم بأنّه بلّغ ما أمر به على الوجه الأكمل قطعا لمعذرتهم عن عدم الامتثال.

{ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } [13].

{ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ** } جملة معترضة بين جملة { وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ } [12] وجملة { وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ }.

{ **اللَّهُ** } افتتاح الجملة باسم الجلالة إظهار في مقام الإضمار، لاستحضار عظمة الله تعالى بما يحويه اسم الجلالة من معاني الكمال، ولتكون الجملة مستقلّة بنفسها فتكون جارية مجرى الأمثال والكلم الجوامع.

واسم الجلالة مبتدأ وجملة { لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ } خبر. وهذا تذكير للمؤمنين بما يعلمونه. أي: من آمن بأن الله لا إله إلّا هو كان حقًّا عليه أن يطيعه وأن لا يعبأ بما يصيبه في جانب طاعة الله من مصائب وأذى.

ويجوز أن تكون الجملة في موقع التعليل لجملة { وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ } [12].

{ **وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** } عطف على { وَأَطِيعُوا اللَّهَ } [12]، فهو في معنى: وتوكلوا على الله، فإنّ المؤمنين يتوكّلون على الله لا على غيره وأنتم مؤمنون فتوكّلوا عليه.

{ **وَعَلَى اللَّهِ** } تقديم المجرور لإفادة الاختصاص، أي: أنّ المؤمنين لا يتوكَّلون إلّا على الله.

{ **فَلْيَتَوَكَّلِ** } جيء بصيغة أمر المؤمنين بالتوكّل على الله، دون غيره من الأفعال، ربطا على قلوبهم وتثبيتا لنفوسهم كيلا يأسفوا من إعراض المشركين وما يصيبهم منهم، وأنّ ذلك لن يضرّهم.

وفيه إيذان بأنّهم لا يخالفون أمر الله، وذلك يغيظ الكافرين.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [14].

إقبال على خطاب المؤمنين بما يفيدهم كمالا ويجنِّبهم ما يفتنهم.

أخرج الترمذي عن ابن عباس أنّ رجلا سأله عن هذه الآية فقال: " هؤلاء رجال من أهل مكّة أسلموا وأرادوا أن يأتوا النبيّ صلى الله عليه وسلم فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم، فلما أتوا النبيّ صلى الله عليه وسلم (أي: بعد مدّة وجاء معهم أزواجهم وأولادهم) ورأوا الناس قد فقهوا في الدين (أي سبقوهم بالفقه في الدين لتأخّر هؤلاء عن الهجرة) فهمّوا أن يعاقبوهم على ما تسبَّبوا لهم حتّى سبقهم الناس إلى الفقه في الدين، فأنزل الله هذه الآية ". وهو الذي اقتصر عليه الواحدي في أسباب النزول، ومقتضاه أنّ الآية مدنية.

وعن عطاء بن يسار وابن عباس أيضا، أن هذه الآية نزلت بالمدينة في شأن عوف بن مالك الأشجعي كان ذا أهل وولد فكان إذا أراد الغزو بكوا إليه ورقَّقوه وقالوا: إلى من تدعنا، فيرقّ لهم فيقعد عن الغزو. وشكا ذلك إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية في شأنهم.

والمناسبة بينها وبين الآية التي قبلها أنّ كلتيهما تسلية على ما أصاب المؤمنين من غمّ من معاملة أعدائهم إيّاهم، ومن انحراف بعض أزواجهم وأولادهم عليهم.

أيقظت هذه الآية المؤمنين لئلا يغرّهم أهل قرابتهم فيكون ضرّهم أشدّ عليهم، وفي هذا الإيقاظ مصلحة للدين وللمسلمين، ولذلك قال تعالى { فَاحْذَرُوهُمْ }، ولم يأمر بأن يضرّوهم، وأعقبه بقوله { وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ }، جمعا بين الحذر وبين المسالمة، وذلك من الحزم.

{ **عَدُوّاً لَكُمْ** } وصف من العداوة بوزن فعول بمعنى فاعل فلذلك لزم حالة الإفراد والتذكير إذا كان وصفا، وقد مضى ذلك عند قوله تعالى { فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ } [النساء [92]. فأمّا إذا أريد منه

معنى الإسميّة فيطابق ما أجري عليه، قال تعالى { يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً } [الممتحنة:2].

{ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } عُطفت على قوله { فَاحْذَرُوهُمْ }، عَطفَ الاحتراس لأنّه إذا كان العفو مطلوبا محبوبا إلى الله تعالى، وهو لا يكون إلّا بعد حصول الذنب، فإنّ عدم المؤاخذة على مجرّد ظنّ العداوة أجدر بالطلب.

العفو: ترك المعاقبة على الذنب بعد الاستعداد لها. ولو مع توبيخ.

الصفح: الإعراض عن المذنب، أي: ترك عقابه على ذنبه دون التوبيخ.

الغفر: ستر الذنب وعدم إشاعته.

وحذف متعلق الأفعال الثلاثة لظهور أن المراد من أولادكم وأزواجكم فيما يصدر منهم ممّا يؤذيكم.

ويجوز أن يكون حذف المتعلّق لإرادة عموم الترغيب في العفو.

وإنّما يعفو المرء ويصفح ويغفر عن المذنب إذا كان ذنبه متعلقا بحق ذلك المرء.

وهذه الأفعال المذكورة هنا مطلقة وفي أدلة الشريعة تقييدات لها.

{ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } دليل جواب الشرط المحذوف المؤذن بالترغيب في العفو والصفح والغفر، فالتقدير: وأن تعفوا وتصفحوا وتغفروا يحبّ الله ذلك منكم لأنّ الله غفور رحيم.

{ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ } [15].

تذييل، لأنّ فيه تعميم أحوال الأولاد بعد أن ذكر حال خاص ببعضهم. وأُدمج فيه الأموال لأنّها لم يشملها طلب الحذر ولا وصف العداوة. ووجه إدماج الأموال هنا أنّ المسلمين كانوا قد أصيبوا في أموالهم.

وجُرّد التذييل عن ذكر الأزواج هنا اكتفاء لدلالة فتنة الأولاد عليهن بدلالة فحوى الخطاب. وفصلت هذه الجملة عن التي قبلها لأنّها اشتملت على التذييل والتعليل وكلاهما من مقتضيات الفصل.

{ إِنَّمَا } قصر موصوف على صفة، وهو قصر ادعائي للمبالغة في كثرة ملازمة هذه الصفة للموصوف إذ يندر أن تخلو أفراد هذين النوعين، وهما أموال المسلمين وأولادهم، عن الاتصاف بالفتنة لمن يتلبّس بهما.

{ فِتْنَةٌ } للمبالغة. والمراد: أنهم سبب فتنة سواء سعوا في فعل الفتن أم لم يسعوا. فإنّ الشغل بالمال والعناية بالأولاد فيه فتنة.

الفتنة: اضطراب النفس وحيرتها من جرّاء أحوال لا تلائم من عرضت له، وتقدّم عند قوله تعالى { وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ } [البقرة:191].

أخرج أبو داود عن بريدة قال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخطب يوم الجمعة حتّى جاء الحسن والحسين يعثران ويقومان فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنبر فأخذهما وجذبهما ثم قرأ { إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ }. وقال: " **رأيت هذين فلم أصبر** "، ثم أخذ في خطبته.

{ **وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ** } عطف على الجملة السابقة، كناية عن الجزاء عن تلك الفتنة لمن يصابر نفسه على مراجعة ما تسوّله من الانحراف عن مرضاة الله إن كان في ذلك تسويل. أي: والله يؤجركم عليها.

{ **فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** } [16].

{ **فَاتَّقُوا اللَّهَ** } الفاء فصيحة وتفريع على ما تقدّم، أي: إذا علمتم هذا فاتقوا الله فيما يجب من التقوى في معاملة الأولاد والأزواج ومصارف الأموال، فلا يصدّكم حبّ ذلك والشغل به عن الواجبات، ولا يُخرجكم الغضب ونحوه عن حدِّ العدل المأمور به، ولا حبّ المال عن أداء حقوق الأموال طلبا وإنفاقا. فالأمر بالتقوى شامل للتحذير المتقدّم وللترغيب في العفو. والخطاب للمؤمنين.

وحُذف متعلّق { فَاتَّقُوا } لقصد تعميم ما يتعلّق بالتقوى من جميع الأحوال المذكورة وغيرها، وبذلك يكون هذا الكلام كالتذييل لأنّ مضمونه أعم من مضمون ما قبله.

{ **مَا اسْتَطَعْتُمْ** } تأكيد الأمر بالتقوى، لأنّه قد يعرض لصاحبها التقصير في إقامتها حرصا على إرضاء شهوة النفس في كثير من أحوال تلك الأشياء.

{ **مَا** } مصدرية ظرفية، أي: مدّة استطاعتكم، ليعمّ الأزمان كلّها ويعمّ الأحوال، فلا يتخلّوا عن التقوى في شيء من الأزمان. فليس في القول تخفيف ولا تشديد ولكنه عدل.

روى البخاري عن جابر بن عبد الله قال: بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فلقّنني: " **فيما استطعت** ". وعن ابن عمر: كنّا إذا بايعنا النبيّ صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة يقول لنا: " **فيما استطعت** ".

{ **وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا** } عطف على { فَاتَّقُوا اللَّهَ } من عطف الخاص على العام للاهتمام به، ولأنّ التقوى تتبادر في ترك المنهيّات فإنّها مشتقّة من (وَقَى). فكان التصريح اهتماما بكلا الأمرين لتحصل حقيقة التقوى الشرعية وهي اجتناب المنهيّات وامتثال المأمورات.

والأمر بالسمع أمر بتلقِّي الشريعة والإقبال على سماع مواعظ النبيّ صلى الله عليه وسلم وذلك وسيلة التقوى قال تعالى { فَبَشِّرْ عِبَادِ لَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ } [الزمر:18/17].

{ **وَأَنْفِقُوا** } تخصيص بعد تخصيص، فإنّ الإنفاق ممّا أمر الله به فهو من المأمورات. وصيغة الأمر تشتمل الواجب والمندوب، ففيه التحريض على الإنفاق بمرتبتيه، وهذا من الاهتمام بالنزاهة من فتنة المال التي ذُكرت في قوله تعالى { إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ } [15].

{ **خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ** } انتصب { خَيْرًا } على الصفة لمصدر محذوف دل عليه { أَنْفِقُوا }. والتقدير: إنفاقا خيرا لأنفسكم. أي: الإنفاق خير لكم من الإمساك.

{ **وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** } تذييل. و{ مَنْ } اسم شرط وهي من صيغ العموم: أي: كل

من يوق شح نفسه، وهذا حُبٌّ اقتضاه حرص أكثر الناس على حفظ المال وادخاره والإقلال من نفع الغير به وذلك الحرص يُسمَّى الشُّحُّ. والمعنى: أنّ الإنفاق يقي صاحبه من الشح المنهي عنه، فإذا يُسِّر على المرء الإنفاق فيما أمر الله به فقد وُقي شُحَّ نفسه وذلك من الفلاح.

{ **شُحَّ نَفْسِهِ** } إضافة { شُحَّ } إلى النفس للإشارة إلى أنّ الشّحّ من طباع النفس فإنّ النفوس شحيحة بالأشياء المحبَّبة إليها، قال تعالى { وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ } [النساء:128].

وفي الحديث لما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أفضل الصدقة قال: **" أن تصدَّق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى. وأن لا تدع حتّى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان ".**

{ **فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** } لمّا كان ذلك فلاحا عظيما جيء في جانبه بصيغة الحصر بطريقة تعريف المسند، وهو قصر جنس المفلحين على جنس الذين وُقوا شحّ أنفسهم، وهو قصر ادعائي للمبالغة في تحقّق وصف المفلحين فيهم حتّى نزل فلاح غيرهم بمنزلة العدم.

وتقدم نظيره { وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [الحشر:9].

{ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ [17] عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [18] }.

استئناف بياني ناشئ عن قوله تعالى { وَأَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ } [16]، فإنّ مضاعفة الجزاء على الإنفاق مع المغفرة خير عظيم، وبهذا الموقع يعلم السامع أنّ القرض أطلق على الإنفاق المأمور به إطلاقا بالاستعارة، والمقصود الاعتناء بفضل الإنفاق المأمور به اهتماما مكرَّرا.

فبعد أن جُعل خيرا جُعل سببَ الفلاح وعُرّف بأنّه قرض من العبد لربه، وكفى بهذا ترغيبا وتلطّفا في الطلب إذ جُعل المنفق كأنّه يعطي الله تعالى مالا، وذلك من معنى الإحسان في معاملة العبد ربّه، وقد بيّنه النبيّ صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل إذ قال جبريل للنبيّ عليهما الصلاة والسلام: أخبرني عن الإحسان فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" الإحسان أن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك ".**

أي: أن يستشعر العبد أن امتثال أمر ربه بالإنفاق المأمور به منه كأنّه معاملة بين مقرض ومستقرض.

وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى { مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً } [البقرة:24].

المضاعفة: إعطاء الضِعف وهو مثل الشيء في الذات أو الصفة. وتَصْدُق بمثل وبعدّة أمثال، كما قال تعالى { أَضْعَافاً كَثِيرَةً } [البقرة:245].

{ **وَيَغْفِرْ لَكُمْ** } جُعل الإنفاق سببا للغفران، كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" الصدقة تطفئ الخطايا كما يطفئ الماء النّار ".**

الشكور: فعول بمعنى فاعل، مبالغة، أي: كثير الشكر. وأطلق (الشكر) على الجزاء بالخير على فعل الصالحات تشبيها لفعل المتفضل بالجزاء بشكر المنعم عليه على نعمة، ولا نعمة على الله فيما يفعله عباده من الصالحات، فإنّما نفعها لأنفسهم، ولكن الله تفضّل بذلك حثًّا على صلاحهم فرتَّب لهم الثواب بالنعيم على تزكية أنفسهم، وتلطَّف لهم فسمَّى ذلك الثواب شكرا وجعل نفسه شاكرا.

{ **حَلِيمٌ** } تنبيها على أنّ ذلك من حلمه بعباده دون حقّ لهم عليه سبحانه.

{ **عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } تتميم للتذكير بعظمة الله تعالى مع مناسبتها للترغيب والترهيب اللذين اشتملت عليهما الآيات السابقة كلّها، لأنّ العالم بالأفعال ظاهرها وخفيها لا يُفيت شيئا من الجزاء عليها بما رتَّب لها، ولأنّ { **الْعَزِيزُ** } لا يعجزه شيء.

{ **الْحَكِيمُ** } فعيل بمعنى: المحكِم، أي: المتقن في صنعه ومعاملته، فلا يدع معاملة الناس بما تقتضيه الحكمة من وضع الأشياء مواضعها ونوط الأمور بما يناسب حقائقها.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الطلاق

شاع تسميتها في المصاحف وفي كتب التفسير وكتب السنّة (**سورة الطلاق**) ولم ترد تسميتها بهذا في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم موسوم بالقَبول.

وهي مدنية بالاتفاق.

وعدد آيها **اثنتا عشرة آية** في عدد الأكثر. وعدَّها أهل البصرة إحدى عشرة آية.

وهي معدودة **السادسة والتسعين في ترتيب نزول السور** عند جابر بن زيد، نزلت بعد سورة الإنسان وقبل سورة البيّنة.

وسبب نزولها ما رواه مسلم عن طريق ابن جريج عن أبي الزبير أنّه سمع عبد الرحمان بن أيمن يسأل ابن عمر كيف ترى في الرجل طلق امرأته حائضا فقال طلق ابن عمر امرأته حائضا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأل عمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: **" ليُراجعها "**، فردّها، وقال: **" إذا طهرت فليطلّق أو ليمسك"**. قال ابن عمر وقرأ النبيّ { يَا أَيُّهَا النبيّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ } [1].

وظاهر قوله: وقرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم... الخ. أنّها نزلت عليه ساعتئذ.

قال الواحدي عن السدي: أنّها نزلت في قضية طلاق ابن عمر.

وعن قتادة أنّها نزلت بسبب أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم طلّق حفصة ولم يصح.

وجزم أبو بكر بن العربي بأنّ شيئا من ذلك لم يصح وأنّ الأصح أنّ الآية نزلت بيانا لشرع مبتدأ.

أغراض السورة

*/ أحكام الطلاق وما يعقبه من العدّة والإرضاع والإنفاق والإسكان. تتميما للأحكام المذكورة في البقرة.

*/ الإيماء إلى حكمة شرع العدّة والنهي عن الإضرار بالمطلقات والتضييق عليهنّ.

*/ الإشهاد على التطليق وعلى المراجعة.

*/ إرضاع المطلقة ابنها بأجر على أبيه. والأمر بالائتمار والتشاور بين الأبوين في شأن أولادهما.

*/ الوعدُ بأنّ الله يؤيِّد من يتّقي الله ويتّبع حدوده ويجعل له من أمره يسرا ويكفّر عنه سيئاته.

*/ أنّ الله وضع لكلّ شيء حكمه لا يعجزه تنفيذ أحكامه.

*/ الموعظة بحال الأمم الذين عتوا عن أمر الله ورسله.

*/ حث للمسلمين على العمل بما أمرهم به الله ورسوله لئلّا يحقّ عليهم وصف العتوّ عن الأمر.

*/ تشريف وحي الله تعالى بأنّه منزّل من السماوات وصادر عن علم الله وقدرته تعالى.

{ يَا أَيُّهَا النبيّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا } [1].

{ **يَا أَيُّهَا النبيّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ** } توجيه الخطاب إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم أسلوب من أساليب آيات التشريع المهتم به فلا يقتضي ذلك التخصيص، لأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم الذي يتولى تنفيذ الشريعة وتبيين أحوالها.

فإن كان التشريع الوارد يشمله ويشمل الأمّة جاء الخطاب مشتملا على ما يفيد ذلك مثل صيغة الجمع في قوله هنا { إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ }، وإن كان التشريع خاصا بالرسول صلى الله عليه وسلم جاءت بما يقتضي ذلك، نحو قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ } [المائدة:67].

فالأحكام المذكورة في هذه السورة عامة للمسلمين.

{ **إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ** } ظاهر كلمة { إِذَا } أنّها للمستقبل وهذا يؤيّد ما قاله أبو بكر بن العربي من أنّها شرع مبتدأ، وقال غيره يجوز أن يكون المراد إذا طلقتم في المستقبل فلا تعودوا إلى مثل ما فعلتم ولكن طلّقوهن لعدّتهن، أي: في أطهارهن كما سيأتي.

وتعليق { طَلَّقْتُمُ } بـ (إذا) الشرطية مشعر بأنّ الطلاق خلاف الأصل في علاقة الزوجين التي قال الله فيها { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً } [الروم:21].

{ **فَطَلِّقُوهُنَّ** } تكرير الفعل لمزيد الاهتمام به، كقوله تعالى { وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً } [الفرقان:72].

{ **لِعِدَّتِهِنَّ** } لام التوقيت وهي بمعنى (عند). ومنه قوله تعالى { أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ } [الإسرا:78].

ولمّا كان مدخول اللام هنا غير زمان عُلم أنّ المراد الوقت المضاف إلى عدَّتهن، أي: وقت الطهر.

وفائدة ذلك أن يكون إيماء إلى حكمة هذا التشريع وهي أن يكون الطلاق عند ابتداء العدّة، وإنّما تبتدأ العدة بأوّل طهر من أطهار ثلاثة لدفع المضرة عن المطلقة بإطالة انتظار تزويجها لأنّ ما بين حيضها إذا طلقت فيه وبين طهرها أيّام غير محسوبة في عدّتها.

والآية تدلّ على إباحة التطليق بدلالة الإشارة لأنّ القرآن لا يقدِّر حصول فعل محرم من دون أن يبيِّن منعه.

والطلاق مباح لأنّه قد يكون حاجيًّا لبعض الأزواج، فقد يحدث بينهما تخالف في بعض نواحي المعاشرة قد يكون شديدا ويعسر تذليله، فيملّ أحدهما ولا يوجد سبيل إلى إراحتهما من ذلك إلّا التفرقة بينهما فأحلّه الله، ولكنّه ما أحلّه إلّا لدفع الضرّ فلا ينبغي أن يُجعل الإذن فيه ذريعة للنكاية من أحد الزوجين بالآخر أو من ذوي قرابتهما، أو لمجرّد التبديل. ولذلك قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **أبغض الحلال إلى الله**

الطلاق ".

واختلف العلماء في أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم طلَّق، وجزم به الخطابي في شرح سنن أبي داود ولم يثبت تطليق النبيّ صلى الله عليه وسلم بحديث صحيح، والمروي في ذلك خبران:

أوّلهما ما رواه ابن ماجه عن سويد بن سعيد وعبد الله بن عامر بن زراره ومسروق بن المرزبان بسندهم إلى ابن عباس عن عمر بن الخطاب أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم طلق حفصة ثم راجعها. والمعروف في الصحيح عن عمر بن الخطاب أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم آلى من نسائه فقال الناس طلق رسول الله نساءه. قال عمر: فقلت يا رسول الله أطلقت نساءك، قال: **" لا آليت منهن شهرا ".** فلعلّ أحد رواة الحديث عن ابن عباس عبر عن الإيلاء بلفظ التطليق وعن الفيئة بلفظ راجع.

ثانيهما حديث الجونيّة أسماء أو أميمة بنت شُراحيل الكِندية، في الصحيح: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوّجها وأنّه لمّا دخل يبني بها قالت له: أعوذ بالله منك، فقال: **" قد عذت بمعاذ ألحقي بأهلك "،** وأمر أبا أسيد الساعدي أن يكسوها ثوبين وأن يُلحقها بأهلها. والأشبه أنّ هذا طلاق وأنّه كان على سبب سؤالها فهو مثل التخيير الذي قال الله تعالى فيه { يَا أَيُّهَا النبيّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا } [الأحزاب:28].

{ **لِعِدَّتِهِنَّ** } عُلم منها أنّهنّ النساء المدخول بهنّ لأنّ غير المدخول بهنّ لا عدّة لهنّ إجماعا [الأحزاب:49].

{ **وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ** } الأمر بضبط أيام العدّة والإتيان على جميعها وعدم التساهل فيها لأنّ التساهل فيها ذريعة إلى أحد أمرين. إمّا التزويج قبل انتهائها فربّما اختلط النسب، وإمّا تطويل المدّة على المطلقة، وذلك تضييق.

وإمّا فوات أمد المراجعة إذا كان المطلِّق قد ثاب إلى مراجعة امرأته.

الإحصاء: معرفة العدّ وضبطه. وهو مشتق من الحَصَى وهي صغار الحجارة لأنّهم كانوا إذا كثرت أعداد شيء جعلوا لكلّ معدود حصاة ثم عدوا ذلك الحصى، قال تعالى { وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً } [الجن:28].

{ **الْعِدَّةَ** } التعريف للعهد فإنّ الاعتداد مشروع من قبل كما علمته آنفا، والكلام على تقدير مضاف لأنّ المُحصى أيّام العدّة.

والمخاطب بضمير { وَأَحْصُوا } هم المخاطبون بضمير { إِذَا طَلَّقْتُمُ } فيأخذ كل من يتعلق به هذا الحكم حظّه من المطلّق والمطلّقة، ومن يطّلع على مخالفة ذلك من المسلمين وخاصة ولّاة الأمور فإنّهم الأولى بإقامة شرائع الله في الأمّة وبخاصة إذا رأوا تفشّي الاستخفاف بما قصدته الشريعة. وقد بيّنّا ذلك في باب مقاصد القضاء من كتاب (مقاصد الشريعة).

{ **وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ** } اعتراض بين جملة { وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ } وجملة { لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ }.

وحذف متعلّق { اتَّقُوا اللَّهَ } ليعمّ جميع ما يُتّقى الله فيه، فيكون هذا من قبيل الاعتراض التذييلي، وأوّل ما يُقصد بأن يُتَّقى الله فيه ما سيق الكلام لأجله.

والمراد: التحذير من التساهل في أحكام الطلاق والعدّة. وذلك أنّ أهل الجاهلية لم يكونوا يقيمون للنساء وزنا وكان قرابة المطلَّقات قلما يدافعن عنهنّ، فتناسى الناس تلك الحقوق وغمصوها، فلذلك كانت هذه الآيات شديدة اللهجة في التحدّي، وعُبِّر عن تلك الحقوق بالتقوى وبحدود الله.

{ **رَبَّكُمْ** } لزيادة الحرص على التقوى أُتبع اسم الجلالة بهذا الوصف للتذكير بأنّه حقيق بأن يُتَّقي غضبه.

{ **لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ** } استئناف أو حال من الضمير في قوله تعالى { أَحْصُوا الْعِدَّة }، أي: حالة كون العدّة في بيوتهن، ويجوز أن تكون بدل اشتمال من مضمون جملة { أَحْصُوا الْعِدَّة } لأنّ مكثهنّ في بيوتهنّ في مدّة العدّة يحقّق معنى الإحصاء.

{ **مِنْ بُيُوتِهِنَّ** } في إضافة البيوت إلى ضمير النساء إيماء إلى أنّهنّ مستحقّات المكث في البيوت مدّة العدة، وهذا ما يُسمَّى في الفقه ملك الانتفاع دون العين، ولأنّ بقاء المطلَّقات في البيوت اللاتي كنّ فيها أزواجا استصحاب لحال الزوجية، إذ الزوجة هي المتصرّفة في بيت زوجها ولذلك يدعوها العرب ربّة البيت. وللمطلَّقة حكم الزوجة ما دامت في العدة إلّا في استمتاع المطلِّق.

{ **وَلا يَخْرُجْنَ** } عطف على جملة { لا تُخْرِجُوهُنَّ }، نهي لهنّ عن الخروج، فإنّ المطلِّق قد يخرجها فترغب المطلَّقة في الخروج لأنّها تستثقل البقاء في بيت زالت عنه سيادتها فنهاهنّ الله عن الخروج.

فإذا كان البيت مكترى سكنته المطلقة وكراؤه على المطلِّق وإذا انتهى أمد كرائه فعلى المطلِّق تجديده إلى انتهاء عدّة المطلقة.

وهذا الترتّب بين الجملتين يشعر بالسببية وأنّ لكلّ امرأة معتدّة حقّ السكنى في بيت زوجها مدّة العدّة لأنّها معتدّة لأجله، أي: لأجل حفظ نسبه وعرضه.

ولذلك قال مالك وجمهور العلماء بوجوب السكنى للمطلقة المدخول بها سواء كان الطلاق رجعيا أو بائنا وقال ابن أبي ليلى: لا سكنى إلا للمطلقة الرجعية.

{ **إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ** } استثناء، يحتمل أن يرجع إلى الجملتين اللتين قبله، كما هو الشأن فيه إذا ورد بعد جمل، على أصح الأقوال لعلماء الأصول. ويحتمل أن يرجع إلى الأخيرة منهما. وهو استثناء من عموم الأحوال التي اقتضاها عموم الذوات في قوله { لا تُخْرِجُوهُنَّ / وَلا يَخْرُجْنَ }.

فالمعنى: إلّا أن يأتين بفاحشة فأخرجوهنّ أو ليخرجن، أي: يباح لكم إخراجهنّ وليس لهن الامتناع من الخروج، وكذلك عكسه.

الفاحشة: الفعلة شديدة السوء، بهذا غلب إطلاقها في عُرف اللغة، فتشمل الزنى، كما في قوله { وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ } [النساء15]. وتشمل غيره من الأعمال ذات الفساد، كما في قوله تعالى { وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا} [الأعراف:28]، وقوله تعالى { قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ

مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ } [الأعراف[33].

قال ابن عطية: " قال بعض الناس الفاحشة متى وردت في القرآن معرفة فهي الزنى أو ما يشبهه، كما في قوله تعالى { وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ } [االأعراف:80] ومتى وردت منكرة فهي المعاصي ".

{ **مُبَيِّنَةٍ** } قرأ الجمهور (بكسر الياء التحتية)، أي: هي تُبيِّن لمن تبلغه أنّها فاحشة عظيمة، فإسناد التبيين إليها مجاز باستعارة التبيين للوضوح، وقرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم { مَبَيَّنَةٍ } بفتح التحتية، أي كانت فاحشة بيَّنتها الحجّةُ. ومحمل القراءتين واحد.

وقد اختلفوا في المراد من الفاحشة هنا وفي معنى الخروج لأجلها:

فعن ابن مسعود وابن عباس والشعبي والحسن وزيد بن أسلم والضحاك وعكرمة وحماد والليث بن سعد وأبي يوسف: أنّ الفاحشة الزنى، قالوا ومعاد الاستثناء الإذن في إخراجهن، أي: ليقام عليهنّ الحد.

وفُسِّرت بالبذاء على الجيران والإحماء أو على الزوج بحيث أنّ بقاء أمثالهن في جوار أهل البيت يفضي إلى تكرّر الخصام فيكون إخراجها من ارتكاب أخف الضررين، ونسب هذا إلى أبي بن كعب لأنّه قرأ: إلّا أن يَفْحُشن عليكم (أي: الاعتداء بكلام فاحش). وروي عن ابن عباس أيضا واختاره الشافعي.

وفسرت الفاحشة بالمعصية من سرقة أو سب أو خروج من البيت. ونسب إلى ابن عباس أيضا وابن عمر، وقاله السدي وأبو حنيفة.

وعن قتادة الفاحشة: النشوز، أي: إذا طلقها لأجل النشوز فلا سكنى لها.

قال مالك: وليس للمرأة أن تنتقل من موضع عدّتها بغير عذر. رواه الباجي في المنتقى.

وأمّا تحديد منع خروج المعتدة من بيتها فلا خلاف في أنّ مبيتها في غير بيتها حرام. وأمّا خروجها نهارا لقضاء شؤون نفسها فجوّزه مالك والليث بن سعد وأحمد للمعتدّة مطلقا.

والذي تخلَّص لي أنّ حكمة السكنى للمطلقة أنّها حفظ الأعراض، فإنّ المطلَّقة يكثر التفات العيون لها وقد يتسرّب سوء الظنّ إليها فيكثر الاختلاف عليها ولا تجد ذا عصمة يذبّ عنها فلذلك شرعت لها السكنى ولا تخرج إلّا لحاجياتها، فإذا طرأ على الأحوال ما أوقعها في المشقة أو أوقع الناس في مشقة من جرّائها أُخرجت من ذلك المسكن وجرى على مكثها في المسكن الذي تنتقل إليه ما يجري عليها في مسكن مطلِّقها.

ومن الحِكم أنّ المطلَّقة قد لا تجد مسكنا لأن غالب النساء لم تكن لهنّ أموال وإنّما هنّ عيال على الرجال فلمّا كانت المعتدّة ممنوعة من التزوّج كان إسكانها حقًّا على مفارقها، استصحابا للحال، حتّى تحلّ للتزوّج فتصير سكناها على من يتزوّجها.

ويزاد في المطلَّقة الرجعيّة قصد استبقاء الصلة بينها وبين مطلِّقها لعلّه أن يراجعها.

فهذا مجموع علل فإذا تخلّفت واحدة منها لم يتخلّف الحكم لأنّ الحكم المعلّل بعلتين فأكثر لا يبطله سقوط

بعضها بخلاف العلة المركّبة إذا تخلف جزء منها.

{ **وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ** } معترضة بين جملة { لا تُخْرِجُوهُنَّ } وجملة {لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً}، أريد بهذا الاعتراض المبادرة بالتنبيه إلى إقامة الأحكام المذكورة من أوّل السورة إقامةً لا تقصير فيها ولا خيرة لأحد في التسامح بها، وخاصة المطلَّقة والمطلِّق أن يحسبا أن ذلك من حقِّهما انفرادا أو اشتراكا.

{ **تِلْكَ** } الإشارة إلى الجمل المتقدّمة باعتبار معانيها بتأويل القضايا.

الحدود: جمع حَدّ وهو ما يَحُد، أي: يمنع من الاجتياز إلى ما ورائه للأماكن التي لا يحبون الاقتحام فيها، إمّا مطلقا مثل حدود الحمى، وإمّا لوجوب تغيير الحالة مثل حدود الحَرَم لمنع الصيد، وحدود المواقيت للإحرام بالحج والعمرة.

{ **حُدُودُ اللَّهِ** } الإضافة للتشريف والتعظيم.

{ **وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ** } عطف على جملة { وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ }، فهو تتميم وهو المقصود من التذييل. والمعنى: من يتعدّ شيئا من حدود الله فقد ظلم نفسه، وجيء بهذا الإطناب لتهويل أمر هذا التعدّي.

وذلك منه ظلم لها في الدنيا بتعريض النفس لعواقب سيّئة تنجرّ من مخالفة أحكام الدين، لأنّ أحكامه صلاح للناس فمن فرّط فيها فاتته المصالح المنطوية هي عليها. قال تعالى { مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [المائدة:6].

ومنه ظلم للنفس في الآخرة بتعريضها للعقاب المتوعَّد به على الإخلال بأحكام الدين، قال تعالى { أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ } [الزمر:56-58]، فإن للمؤمنين حظا من هذا الوعيد بمقدار تفاوت ما بين الكفر ومجرّد العصيان.

{ **لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا** } هذه الجملة تعليل لجملة { فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ } وما أُلحق بها ممّا هو إيضاح لها وتفصيل لأحوالها. ولذلك جاءت مفصولة عن الجمل التي قبلها.

ويجوز كونها بدلا من جملة { وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ } بدل اشتمال لأنّ ظلم النفس بعضه حاصل في الدنيا وهو مشتمل على إضاعة مصالح النفس عنها.

وقد سُلك في هذه الآية مسلك الترغيب في امتثال الأحكام المتقدّمة بعد أن سلك في شانها مسلك الترهيب من مخالفتها.

فمن مصالح الاعتداد ما في مدّة الاعتداد من التوسيع على الزوجين في مهلة النظر في مصير شأنهما بعد الطلاق، فقد يتضح لهما أو لأحدهما متاعب وأضرار من انفصام عروة المعاشرة بينهما فيُعَدّ ما أضجرهما من بعض خلقهما شيئا تافها بالنسبة لما لحقهما من أضرار الطلاق فيندم كلاهما أو أحدهما

فيجدا من المدّة ما يسع للسعي بينهما في الإصلاح.

والمقصود الإشارة إلى أهم ما في العدة من المصالح وهو ما يحدثه الله من أمر بعد الطلاق.

{ **لا تَدْرِي** } الخطاب لغير معيّن جارٍ على طريقة القصد بالخطاب إلى كلّ من يصلح للخطاب ويهمّه أمر الشيء المخاطب به.

{ **أَمْراً** } التنكير للتنويع. أي: أمرا موصوفا بصفة محذوفة، أي: أمرا نافعا لهما.

وهذا الأمر هو تقليب القلوب من بغض إلى محبّة، ومن غضب إلى رضى، ومن إيثار تحمّل المخالفة في الأخلاق مع المعاشرة على تحمُّل آلام الفراق وخاصة إذا كان بين المتفارقين أبناء، أو من ظهور حمل بالمطلقة بعد أن لم يكن لها أولاد. على أنّ في الاعتداد والإسكان مصالح أخرى كما علمته آنفا.

{ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً [2] وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً [3] }.

{ **فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ** } تفريع على جميع ما تقدّم من أحكام العدّة معطوف على جملة { وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ } [1]، لأنّ إحصاءها بحفظ مدّتها واستيعاب أيّامها، فإذا انتهت المدّة فقد أعذر الله لهما، والزيادة عليها إضرار بأحدهما أو بكليهما، وفائدة الآجال الوقوف عند انتهائها.

{ **فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ** } بلوغ الأجل أصله انتهاء المدّة المقدّرة له، كما يؤذن به معنى البلوغ الذي هو الوصول إلى المطلوب، على تشبيه الأجل المعيّن بالمكان المسير إليه.

وقد استُعمل البلوغ في هذه الآية في مقاربة ذلك الانتهاء مبالغة في عدم التسامح فيه، وهذا الاستعمال مجاز آخر لمشابهة مقاربة الشيء بالحصول فيه والتلبّس به، وقرينة المجاز هنا هو لفظ الأجل لأنّه لا تُتصور المراجعة بعد بلوغ الأجل لأنّ في ذلك رفع معنى التأجيل. ومنه قوله تعالى { وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ } [البقرة:231].

الإمساك: اعتزام المراجعة، عُبِّر عنه بالإمساك للإيماء إلى أنّ المطلَّقة الرجعيّة لها حكم الزوجة فيما عدا الاستمتاع، فكأنّه لمّا راجعها قد أمسكها أن لا تفارقه، فكأنّه لم يفارقها لأنّ الإمساك هو الضنّ بالشيء وعدم التفريط فيه، ومنه قوله تعالى { أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ } [الأحزاب:37].

{ **أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ** } ومن أجل تلك النكتة التي في الإمساك جُعل عدم الإمساك فراقا جديدا.

{ **فَأَمْسِكُوهُنَّ / أَوْ فَارِقُوهُنَّ** } الأمر للإباحة، و(أو) فيه للتخيير.

{ **بِمَعْرُوفٍ** } الباء للملابسة، أي: ملابسة كلّ من الإمساك والفراق للمعروف.

ويُفهم من القيد أنّه إن كان إمساك دون المعروف فهو غير مأذون فيه وهو الإمساك الذي كان يفعله أهل الجاهلية، أن يطلّق الرجل امرأته فإذا قاربت انتهاء عدّتها راجعها أياما ثمّ طلقها، يفعل ذلك ثلاثا ليطيل عليها من العدة فلا تتزوج عدة أشهر إضرار بها. وقد تقدّم هذا عند قوله تعالى { وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ - إلى قوله - وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا } [البقرة:231].

المعروف: هو ما تعارفه الأزواج من حسن المعاملة في المعاشرة وفي الفراق.

<u>فالمعروف في الإمساك</u>: حسن اللقاء والاعتذار لها عمّا فرط والعود إلى حسن المعاشرة.

<u>والمعروف في الفراق</u>: كفّ اللسان عن غيبتها وإظهار الاستراحة منها.

والمعروف في الحالين من عمل الرجل لأنّه هو المخاطب بالإمساك أو الفراق. وأمّا المعروف الذي هو من عمل المرأة فمقرّر من أدلة أخرى، كقوله تعالى { وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ } [البقرة:228].

<u>وتقديم الإمساك على إمضاء المفارقة</u>، إيماء إلى أنّه أرضى لله تعالى وأوفق بمقاصد الشريعة.

{ **وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ** } ظاهر وقوع هذا الأمر بعد ذكر الإمساك أو الفراق، أنّه راجع إلى كليهما لأنّ الإشهاد جُعل تتمة للمأمور به في معنى الشرط للإمساك أو الفراق، لأنّ هذا العطف يشبه القيد وإن لم يكن قيدا، وشأن الشروط الواردة بعد جمل أن تعود إلى جميعها.

{ **أَشْهِدُوا** } ظاهر صيغة الأمر الدلالة على الوجوب فيترتب من هذين أن يكون الإشهاد على المراجعة وعلى بت الطلاق واجبا على الأزواج لأنّ الإشهاد يرفع أشكالا من النوازل، وهو قول ابن عباس وأخذ به يحيى بن بكير من المالكية والشافعي في أحد قوليه، وابن حنبل في أحد قوليه، وروي عن عمران بن حصين وطاووس وإبراهيم وأبي قلابة وعطاء.

<u>وقال الجمهور</u> الإشهاد المأمور به الإشهاد على المراجعة دون بت الطلاق. وهو أحد قولي الشافعي وأحمد ونسبه إسماعيل بن حماد من فقهاء المالكية ببغداد إلى مالك وهو ظاهر مذهب ابن بكير.

<u>وقيل هو مستحب</u>، وهو قول أبي حنيفة، والمشهور عن مالك فيما حكاه ابن القصار، ولعلّ مستند هذا القول عدم جريان العمل بالتزامه بين المسلمين في عصر الصحابة وعصور أهل العلم، وقياسه على الإشهاد بالبيع فإنّهم اتفقوا على عدم وجوبه.

<u>واتفق الجميع على أنّ هذا الإشهاد ليس شرطا في صحة المراجعة أو المفارقة</u> لأنّه إنّما شُرع احتياطا لحقّهما وتجنّبا لنوازل الخصومات، خوفا من أن يموت فتدّعي أنّها زوجة لم تطلق، أو أن تموت هي فيدعي هو ذلك. على أن جعل الشيء شرطا لغيره يحتاج إلى دليل خاص غير دليل الوجوب لأنّه قد يتحقق الإثم بتركه ولا يبطل بتركه ما أمر بإيقاعه معه.

ولكلّ تلك المسائل تفاصيل محلّها كتب الفروع ولا يتعلق بالآية إلّا ما جعله أهل العلم دليلا على المراجعة.

{ **وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ** } عطف على { وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ }. والخطاب موجّه لكلّ من تتعلّق به الشهادة من الشهود عليهم والشهود، كلٌّ يأخذ بما هو حظّه من هذين الخطابين.

إقامة الشهادة: الإقامة مستعارة لإيقاع الشهادة مستوفية ما يجب فيها شرعا ممّا دلّت عليه أدلة الشريعة، وهذه استعارة شائعة، وتقدّم عند قوله تعالى { وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ } [البقرة:282].

{ **لله** } أي: لأجل الله وامتثال أمره، لا لأجل المشهود له، ولا لأجل المشهود عليه، ولا لأجل منفعة الشاهد. وتقدّم بعض هذا عند قوله تعالى { وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا } [البقرة:282].

{ **ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ** } الإشارة إلى جميع ما تقدّم من الأحكام التي فيها موعظة للمسلمين، من قوله تعالى { وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ } [1] إلى قوله تعالى { وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ }.

الوعظ: التحذير ممّا يضرّ والتذكير الملّين للقلوب، وتقدّم عند قوله تعالى { ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ } [البقرة: 232]، وعند قوله تعالى { يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ } [النور:17].

{ **وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ** } اعتراض بين جملة { وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ} وجملة { وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ } [4]، فإنّ تلك الأحكام لمّا اعتُبرت موعظة بقوله تعالى { ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ } أعقب ذلك بقضيّة عامة، وهي أنّ تلك من تقوى الله تعالى، على عادة القرآن من تعقيب الموعظة والترهيب بالبشارة والترغيب.

ولمّا كان أمر الطلاق غير خال من حرج وغمّ يعرض للزوجين، وأمر المراجعة لا يخلو في بعض أحواله من تحمُّل أحدهما لبعض الكره من الأحوال التي سبَّبت الطلاق، أعلمهما الله بأنّه وعد المتّقين الواقفين عند حدوده أن يجعل لهم مخرجا من الضائقات.

شُبِّه ما هم فيه من الحرج بالمكان المغلق على الحال فيه وشُبِّه ما يمنحهم الله به من اللطف وإجراء الأمور على ما يلائم أحوالهم بجعل منفذ في المكان المغلق { مَخْرَجًا }.

{ **وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ** } أُتبع الوعد بجعل المخرج للمتقين بالوعد بمخرج خاص وهو مخرج التوسعة في الرزق. وأُعلم أنّ هذا الرزق لطف من الله، والله أعلم كيف يهيّئ له أسبابا غير مترقبة.

ذكر الواحدي في أسباب النزول أنّها نزلت في شأن (عوف بن مالك الأشجعي) إذ أسر المشركون ابنه سالما فأتى عوف النبيّ صلى الله عليه وسلم وشكا إليه ذلك، وأنّ أمّه جزعت، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **اتق الله واصبر** "، وأمره وزوجته أن يُكثرا قول: لا حول ولا قوة إلّا بالله، فغفل المشركون عن الابن فساق عنزا كثيرة من عنز المشركين وجاء بها المدينة، فنزلت الآية.

فيجوز أن يكون نزولها في أثناء نزول هذه السورة فصادفت الغرضين، ويكون ذلك من قبيل معجزات القرآن.

{ **وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** } تكملة للتي قبلها، فإنّ تقوى الله سبب تفريج الكرب والخلاص من

المضائق.

{ **حَسْبُهُ** } وصف بمعنى كاف. وأصله اسم مصدر أو مصدر.

{ **إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ** } في موضع العلّة لجملة { وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ } أي: لا تستبعدوا وقوع ما وعدكم الله حين ترون أسباب ذلك مفقودة، فإنّ الله إذا وعد وعدا فقد أراده وإذا أراد الله أمرا يسَّر أسبابه.

والبلوغ مجاز مشهور في الحصول على المراد. و**الأمر** هنا بمعنى الشأن.

{ **قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا** } لهذه الجملة موقع تتجلى فيه صورة من صور إعجاز القرآن في ترتيب مواقع الجمل بعضها بعد بعض كما نبَّهتُ عليه في مواقع سلفت:

<u>فهذه الجملة لها موقع الاستئناف البياني</u> ناشئ عمّا اشتملت عليه جمل { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً - إلى قوله - إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ }، لأنّ استعداد السامعين لليقين بما تضمّنته تلك الجمل متفاوت، فقد يستبعد بعض السامعين تحقُّق الوعد لأمثاله أو يتردّد يقينه، فيقول: أين أنا من تحصيل هذا؟ لانعدام وسائله لديه، فيتملّكه اليأس. فهذا الاستئناف البياني وقع عقب الوعد تذكيرا بأنّ الله عَلِم مواعيده وهيّأ لها مقادير حصولها لأنّه جعل لكل شيء قدرا.

<u>ولها موقع التعليل</u> لجملة { وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ } [1]، فإنّ العدّة من الأشياء، فلمّا أمر الله بإحصاء أمرها علّل ذلك بأنّ تقدير مدة العدة جعله الله، فلا يسوغ التهاون فيه.

<u>ولها موقع التذييل</u> لجملة { وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ } [1]، أي: الذي وضع تلك الحدود قد جعل لكلّ شيء قدرا لا يعدوه كما جعل الحدود.

<u>ولها موقع التعليل</u> لجملة { فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ } [2]، لأنّ المعنى: إذا بلغن القدر الذي جعله الله لمدّة العدّة فقد حصل المقصد الشرعي الذي أشار إليه قوله تعالى { لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً } [1].

<u>فالمعنى</u>: فإن لم يحدث الله أمر المراجعة فقد رفق بكم وحط عنكم امتداد العدّة.

<u>ولها موقع التعليل</u> لجملة { وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ } [2]، فإن الله جعل الشهادة قدرا لرفع النزاع.

{ **لِكُلِّ شَيْءٍ** } لكل موجود، أي: لكل حادث، فالشيء الموجود سواء كان ذاتا أو معنى من المعاني، قال تعالى { وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ } [القمر:52].

القدر: مصدر قَدَره (بتخفيف الدال) المتعدّي إلى مفعول، الذي معناه وضع فيه بمقدار كمية ذاتية أو معنوية تُجعل على حسب ما يتحمّله المفعول. فقدر كل مفعول ما تتحمّله طاقته واستطاعته من أعمال، أو تتحمّله مساحته من أشياء، أو يتحمّله وعيه لما يكُدُّ به ذهنه من مدارك وأفهام.

ومن فروع هذا المعنى ما في قوله تعالى { لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا } [البقرة:286]. وقوله تعالى هنا { لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا } [7].

ومن جزئيّات معنى القدر ما يسمى التقدير: مصدر قدّر (المضاعف) إذا جعل شيئا أو أشياء على مقدار معيّن مناسب لما جُعل لأجله، كقوله تعالى { وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ } [سبأ:11].

{ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا [4] ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا [5] }.

{ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ } عطف على قوله تعالى { فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ} [1]، فإنّ العدّة هنالك أريد بها الإقراء فأشعر ذلك أن تلك المعتدّة ممّن لها أقراء، فبقي بيان اعتداد المرأة التي تجاوزت سنّ المحيض أو التي لم تبلغ سنّ من تحيض، وهي الصغيرة. وكلتاهما يصدق عليها أنّها آيسة من المحيض، أي: في ذلك الوقت.

اليأس: عدم الأمل. أي: يئسن من المحيض سواء كان اليأس منه بعد انقطاعه، أو كان بعدم ظهوره، أي: لم يكن انقطاعه لمرض أو إرضاع.

وسنّ انقطاع الحيض يختلف تحديده باختلاف الذوات والأقطار كما يختلف سن الابتداء.

والمقصود من الآية بيّن وهي مخصِّصة لعموم قوله تعالى { وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ } [البقرة:228]. وقد نزلت سورة الطلاق بعد سورة البقرة.

{ إِنِ ارْتَبْتُمْ } خَفِيَ مفاد الشرط وما هو متصل به. وللعلماء فيه طريقتان:

الطريقة الأولى: مشى أصحابها إلى أنّ مرجع اليأس غير مرجع الارتياب باختلاف المتعلّق، فروى أشهب عن مالك أنّ الله تعالى لمّا بيّن عدّة ذوات القروء وذوات الحمل، (في سورة البقرة)، وبقيت اليائسة والتي لم تحض ارتاب أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم في أمرهما فنزلت هذه الآية. ومثله مروي عن مجاهد. وروى الطبري خبرا عن أبي بن كعب أنّه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اعتداد هاتين اللتين لم تذكرا في سورة البقرة، فنزلت هذه الآية.

فالريبة على هذه الطريقة تكون مرادا بها ما حصل من التردّد في حكم هؤلاء المطلقات فتكون جملة الشرط معترضة بين المبتدإ، وهو الموصول، وبين خبره وهو جملة { فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ }.

الطريقة الثانية: مشى أصحابها إلى أن مرجع اليأس ومرجع الارتياب واحد، وهو حالة المطلقة من المحيض، وهو عن عكرمة وقتادة وابن زيد وبه فسر يحيى بن بكير وإسماعيل بن هاد من المالكية ونسبه ابن لبابة من المالكية إلى داود الظاهري.

وهذا التفسير يمحِّض أن يكون المراد من الارتياب حصول الريب في حال المرأة. وعلى هذا فجملة الشرط وجوابه خبر عن { اللَّائِي يَئِسْنَ }، أي: إن ارتبن هنّ وارتبتم أنتم لأجل ارتيابهن.

وفي تفسير القرطبي: قال عكرمة وقتادة: " من الريبة المرأة المستحاضة التي لا يستقيم لها الحيض في أوّل الشهر مرارا، وفي الأشهر مرة أي بدون انضباط ". ونقل الطبري مثل هذا الكلام عن الزهري وابن زيد. **فيجب أن يُصار إلى هذا الوجه في تفسير الآية**. والمرأة إذا قاربت وقت اليأس لا ينقطع عنها الحيض دفعة واحدة بل تبقى عدة أشهر ينتابها الحيض غِبًّا بدون انتظام ثم ينقطع تماما.

{ **وَأُولاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ** } معطوفة على جملة { وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ } فهي إتمام العدّة المجمل في قوله تعالى { وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ } وتقدير الكلام: وأولات الأحمال من المطلقات أجلهن أن يضعن حملهنّ.

فحصل بهذه الآية مع التي قبلها تفصيل لأحوال المطلقات وحصل أيضا بيان إجمال آية [البقرة:228].

{ **وَأُولاتُ** } اسم جمع لـ (ذات) بمعنى: صاحبة. وذات: مؤنث ذو. ولا مفرد له من لفظه، كما لا مفرد للفظ (أولو).

وجُعلت عدة المطلقة الحامل منهاة بوضع الحمل لأنّه لا أدلّ على براءة الرحم منه، إذ الغرض الأوّل من العدة تحقُّق براءة الرحم. وضُمَّ إلى ذلك غرض آخر وهو ترقّب ندم المطلِّق وتمكينه من تدارك أمره بالمراجعة، فلمّا حصل الأهم ألغي ما عداه رعيا لحق المرأة في الانطلاق من حرج الانتظار، على أنّ الحمل قد يحصل بالقرب من الطلاق فألغي قصد الانتظار تعليلا بالغالب دون النادر.

وبهذا التفسير لا تتعارض هذه الآية مع آية عدة المتوفى عنها { وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً } [البقرة:234] لأنّ تلك شأن المتوفّى عنهنّ وهذه في شأن المطلقات.

من أجل ذلك كانت الآية دالة على أنّ عدّة الحامل وضع حملها سواء كانت معتدّة من طلاق أم كانت معتدة في وفاة.

{ **وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً** }.

تكرير للموعظة وهو اعتراض. والقول فيه كالقول في قوله تعالى { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ } [3/2]. والمقصود موعظة الرجال والنساء على الأخذ بما في هذه الأحكام ممّا عسى أن يكون فيه مشقّة على أحد بأنّ على كلٍّ أن يصبر لذلك امتثالا لأمر الله، فإنّ الممتثل، وهو مسمَّى المتّقي، يجعل الله له يسرا فيما لحقه من عسر.

الأمر: الشأن والحال. والمقصود: يجعل له من أمره العسير في نظره يسرا.

اليسر: انتفاء الصعوبة، أي: انتفاء المشاق والمكروهات.

والمقصود: تحقيق الوعد باليسر فيما شأنه العسر لحثّ الأزواج على امتثال ما أمر الله به الزوج من

الإنفاق في مدّة العدّة ومن المراجعة وترك منزله لأجل سكناها إذا كان لا يسعهما، وما أمر المرأة من تربّص أمد العدّة وعدم الخروج ونحو ذلك.

{ **ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ** } الإشارة إلى الأحكام المتقدّمة من أوّل السورة. وهذه الجملة معترضة بين المتعاطفتين.

{ **أَمَرَ اللَّهُ** } حكمه وما شرعه لكم، كما في قوله تعالى { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا } [الشورى:52].

إنزاله: إبلاغه إلى الناس بواسطة الرسول صلى الله عليه وسلم أطلق عليه الإنزال تشبيها لشرف معانيه وألفاظه بالشيء الرفيع لأنّ الشريف يُتخيّل رفيعا. وهو استعارة كثيرة في القرآن.

والكلام كناية عن الحثّ على التهمّم برعايته والعمل به وبعث الناس على التنافس في العلم به.

{ **وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً** } أعيد التحريض على العمل بما أمر الله بالوعد بما هو أعظم من الأرزاق وتفريج الكرب وتيسر الصعوبات في الدنيا، وذلك هو تكفير للسيّئات وتوفير الأجور. والجملة معطوفة على الجملة المعترضة فلها حكم الاعتراض. وجيء بالوعد من الشرط لتحقيق تعليق الجواب على شرطه.

{ **أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى** } [6].

{ **أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ** } هذه الجملة وما ألحق بها من الجمل إلى قوله تعالى { وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ } [8] تشريع مستأنف فيه بيان لما أُجمل في الآيات السابقة، فتتنزّل من اللاتي قبلها منزلة البيان لبعض، وبدل الاشتمال لبعض، وكل ذلك موجب للفصل.

{ **أَسْكِنُوهُنَّ** } الضمير المنصوب عائد إلى النساء المطلّقات كلّهن، وبذلك يشمل المطلقة الرجعية والبائنة والحامل، وجمهور أهل العلم قائلون بوجوب السكنى لهن جميعا.

قال أشهب: قال مالك يخرج عنها إذا طلّقها وتبقى هي في المنزل. وروى ابن نافع قال مالك: فأمّا التي لم تبن فإنها زوجة يتوارثان والسكنى لهنّ لازمة لأزواجهنّ. وقال قتادة وابن أبي ليلى وإسحاق وأبو ثور وأحمد بن حنبل: لا سكنى للمطلقة طلاقا بائنا. ومتمسَّكهم في ذلك ما روته فاطمة بنت قيس: أنّ زوجها طلقها ثلاثا وأن أخا زوجها منعها من السكنى والنفقة، وأنّها رفعت أمرها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها: " **إنما السكنى والنفقة على من له عليها الرجعة** ". وهو حديث غريب لم يعرفه أحد إلّا من رواية فاطمة بنت قيس. ولم يقبله عمر بن الخطاب. فقال: لا نترك كتاب الله وسنة نبيّنا لقول امرأة لا

ندري لعلها نسيت أو شُبِّه عليها. وأنكرته عائشة عليها.

{ **مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ** } أي: في البيوت التي تسكنونها، أي: لا يُكلَّف المطلّق بمكان للمطلقة غير بيته ولا يمنعها السكنى ببيته. وهذا تأكيد لقوله تعالى { لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ } [1]. فإذا كان المسكن لا يسع مبيتين متفرقين خرج المطلق منه وبقيت المطلقة، كما تقدّم فيما رواه أشهب عن مالك.

{ **مِنْ وُجْدِكُمْ** } و{مِنْ} هنا بدل مطابق، وهو بيان لقوله { مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ }، فإنّ مسكن المرء هو من وجده.

الوُجد: (مثلث الواو) هو الوسع والطاقة. وقرأه الجمهور بضم الواو. وقرأه روح عن يعقوب بكسرها.

{ **وَلا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ** } أُتبع الأمر بإسكان المطلقات بنهيٍ عن الإضرار بهنّ في شيءٍ مدّة العدّة من ضيق محلٍّ أو تقتير في الإنفاق، أو مراجعة يعقبها تطليق لتطويل العدّة عليهنّ قصدا للنكاية والتشفّي، كما تقدّم عند قوله { وَلا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً } [البقرة:231]. أو للإلجاء إلى افتدائها من مراجعته بخلع.

المضارّة: الإضرار القوي، فكأنّ المبالغة راجعة إلى النهي لا إلى المنهي عنه، أي: هو نهي شديد، كالمبالغة في قوله تعالى { وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ } [فصلت:46]، فهي مبالغة في النفي، ومثله كثير في القرآن.

{ **لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ** } التضييق هنا مجازي، وهو الحرج والأذى. والـ (لام) لتعليل الإضرار، وهو قيد جرى على غالب ما يعرض للمطلقين من مقاصد أهل الجاهلية، كما تقرّر في قوله تعالى { وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا } [البقرة:231]، وإلّا فإنّ الإضرار بالمطلّقات منهيٌّ عنه وإن لم يكن لقصد التضييق عليهن.

{ **وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ** } ظاهر نظم الآية يقتضي أنّ الحوامل مستحقّات الإنفاق دون بعض المطلقات أخذا بمفهوم الشرط، وقد أخذ بذلك الشافعي والأوزاعي وابن أبي ليلى.

ومن لم يأخذ بالمفهوم قالوا: <u>الآية تعرضت للحوامل تأكيدا للنفقة</u> عليهنّ لأنّ مدة الحمل طويلة فربما سئم المطلِّق الإنفاق، فالمقصود من هذه الجملة هو الغاية التي بقوله { حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ } وجعلوا للمطلقة غير ذات الحمل الإنفاق. وبه أخذ أبو حنيفة والثوري. ونسب إلى عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود. <u>وهذا الراجح</u>، وليس للشرط مفهوم وإنّما الشرط مسوق لاستيعاب الإنفاق جميع أمد الحمل.

{ **فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى** }

لمّا كان الحمل ينتهي بالوضع انتقل إلى بيان ما يجب لهنّ بعد الوضع فإنّهنّ بالوضع يصرن بائنات فتنقطع أحكام الزوجية فكان السامع بحيث لا يدري هل يكون إرضاعها ولدها حقًّا عليها كما كان في

زمن العصمة أو حقًّا على أبيه فيعطيها أجر إرضاعها كما كان يعطيها النفقة لأجل ذلك الولد حين كان حملا.

وهذه الآية مخصِّصة لقوله تعالى { وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ } [البقرة:233].

{ **لَكُمْ** } أَفْهَمَ أنّ إرضاع الولد بعد الفراق حقٌّ على الأب وحده لأنّه كالإنفاق.

والأم ترضع ولدها في العصمة تبعا لإنفاق أبيه عليها عند مالك، خلافا لأبي حنيفة والشافعي إذ قالا: لا يجب الإرضاع على الأمّ حتّى في العصمة، فلما انقطع إنفاق الأب عليها بالبينونة تمحضت إقامة غذاء ابنه عليه، فإن أرادت أن ترضعه فهي أحقّ بذلك، ولها أجر الإرضاع وإن أبت فعليه أن يطلب ظئرا لابنه، فإن كان الطفل غير قابل ثدي غير أمّه وجب عليها إرضاعه ووجب على أبيه دفع أجرة رضاعه.

الائتمار: التشاور والتداول في النظر. وأصله مطاوع (أمره) لأنّ المتشاورين يأمر أحدهما الآخر فيأتمر الآخر بما أمره. ومنه تسمية مجامع أصحاب الدعوة أو النحلة أو القصد الموحد مؤتمرا لأنّه يقع الاستئمار فيه، أي: التشاور وتداول الآراء.

{ **وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ** } خطاب للرجال والنساء الواقع بينهم الطلاق ليتشاوروا في أمر إرضاع الأم ولدها. وما يبذله الأب لها من الأجرة على ذلك. وقُيِّد الائتمار بالمعروف، أي: ائتمرا بما هو متعارف عليه بين الناس، أي: معتادٌ مقبولٌ، فلا يشتطّ الأب في الشحّ ولا تشتطّ الأمّ في الحرص.

{ **وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى** } عتاب وموعظة للأب والأم بأن ينزل كل منهما نفسه منزلة ما لو اجتُلبت للطفل ظئر، فلا تسأل الأم أكثر من أجر أمثالها، ولا يشحّ الأب عما يبلغ أجر أمثال أم الطفل.

ولا يسقط حق الأمّ إذا وجد الأب من يرضع له مجانا، لأنّ الله قال { فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى } وإنّما يقال أرضعت له، إذا استؤجرت لذلك. وتقدّم في قوله تعالى { وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ } [البقرة:233].

التعاسر: صدور العسر من الجانبين. وهو تفاعل من قولهم: عسرتُ فلانا، إذا أخذته على عسره، ويقال: تعاسر البيّعان إذا لم يتفقا.

{ **تَعَاسَرْتُمْ** } اشتد الخلاف بينكم ولم ترجعوا إلى وفاق، أي: فلا يبقى الولد بدون رضاعة.

{ **فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى** } سين الاستقبال مستعمل في معنى التأكيد، وهذا المعنى ناشئ عن جعل علامة الاستقبال كناية عن تجدّد ذلك الفعل في أزمنة المستقبل تحقيقا لتحصيله.

وهذا الخبر مستعمل كناية أيضا عن أمر الأب باستئجار ظئر للطفل بقرينة تعليق { لَهُ } بقوله تعالى { فَسَتُرْضِعُ }.

فاجتمع فيه ثلاث كنايات: كناية عن موعظة الأب، وكناية عن موعظة الأم، وكناية عن أمر الأب بالاسترضاع لولده.

{ **لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا** } [7].

تذييل لما سبق من أحكام الإنفاق على المعتدّات والمرضعات بما يعمّ ذلك. ويعمّ كلّ إنفاق يطالب به المسلم من مفروض ومندوب، أي: الإنفاق على قدر السعة.

الإنفاق: كفاية مؤونة الحياة من طعام ولباس وغير ذلك ممّا يُحتاج إليه.

السعة: هي الجِدَة من المال أو الرزق.

{ **مِنْ سَعَتِهِ** } (من) هنا ابتدائية، لأنّ الإنفاق يصدر عن السعة في الاعتبار، وهي ليست كالتي في قوله تعالى { وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } [الأنفال:3]، لأنّ النفقة هنا ليست بعضا من السعة، وهي هناك بعض الرزق.

{ **وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ** } جُعل رزقه مقدورا، أي: محدودا بقدر معين وذلك كناية عن التضييق. يقال: قدر عليه رزقه، إذا قتَّره، قال تعالى { اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ } [الرعد:26]. أي: من كان في ضيق من المال فلينفق بما يسمح به رزقه. وهذا مجمل هنا تفصيله في أدلة أخرى من الكتاب والسنة والاستنباط.

الرزق: اسم لما ينتفع به الإنسان في حاجاته من طعام ولباس ومتاع ومنزل. سواء كان أعيانا أو أثمانا. ويطلق الرزق كثيرا على الطعام، كما في قوله تعالى { عِنْدَهَا رِزْقاً } [آل عمران:37].

ولم يختلف العلماء في أنّ النفقات لا تتحدّد بمقادير معيّنة لاختلاف أحوال الناس والأزمان والبلاد.

{ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا** } تعليل لقوله تعالى { وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ} لأنّ مضمون هذه الجملة قد تقرّر بين المسلمين من قبل في قوله تعالى { لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا } [البقرة:286]، وهي قبل سورة الطلاق. والمقصود منه إقناع المنفَق عليه بأن لا يطلب من المنفِق أكثر من مقدرته.

{ **سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً** } تكملة للتذييل، فإنّ قوله تعالى { لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا } يناسب مضمون جملة { لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ }، وقوله { سَيَجْعَلُ اللَّهُ } تناسب مضمون { وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ }. وهذا الكلام خبر مستعمل في بعث الترجّي وطرح اليأس عن المعسر من ذوي العيال.

{ **وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا [8] فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا [9] أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا [10] رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا [11]** }.

{ **وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا** }

لما شُرعت للمسلمين أحكام كثيرة من الطلاق ولواحقه، وكانت كلّها تكاليف قد تُحجم بعض الأنفس عن إيفاء حقّ الامتثال لها تكاسلا أو تقصيرا، رُغِّب في الامتثال لها بقوله تعالى { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً } [2] وقوله تعالى { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً } [4]، وقوله تعالى { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا } [5]، وقوله تعالى { سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا } [7].

وحذّر الله الناس في خلال ذلك من مخالفتها بقوله تعالى { وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ } [1]، وقوله تعالى { ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ } [2]، أعقبها بتحذير عظيم من الوقوع في مخالفة أحكام الله ورسله، فذكَّر المسلمين، بما حلّ بأقوام من عقاب عظيم على قلّة اكتراثهم بأمر الله ورسله لئلّا يسلكوا سبيل التهاون بإقامة الشريعة، فيُلقي بهم ذلك في مهواة الضلال.

وهذا الكلام مقدِّمة لما يأتي من قوله تعالى { فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ } وما بعدها، فالجملة معطوفة على مجموع الجمل السابقة عطف غرض على غرض.

{ **كَأَيِّنْ** } اسم لعدد كثير مبهم يفسّره ما يميّزه بعده من اسم مجرور بـ (من). وهي بمعنى كم الخبرية. وتقدّم عند قوله تعالى { وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ } [آل عمران:146].

والمقصود من إفادة التكثير هنا تحقيق أنّ العذاب الذي نال أهل تلك القرى شيء ملازم لجزائهم على عتوّهم عن أمر ربّهم ورسله فلا يتوهَّم متوهِّم أنّ ذلك مصادفة في بعض القرى وأنّها غير مطّردة في جميعهم.

{ **مِنْ قَرْيَةٍ** } المراد أهلها، نظير قوله تعالى { وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا } [يوسف:82]. وإنّما أوثر لفظ القرية هنا، دون الأمّة ونحوها، لأنّ في اجتلاب هذا اللفظ تعريضا بالمشركين من أهل مكّة ومشايعة لهم بالنذارة، ولذلك كثر في القرآن ذكر أهل القرى في التذكير بعذاب الله، نحو قوله تعالى { وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا } [الأعراف:4].

{ **عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا** } في موضع الخبر لـ { كَأَيِّنْ }، والمعنى: الإخبار بكثرة ذلك باعتبار ما فُرّع عليه

من قوله { فَحَاسَبْنَاهَا }، فالمفرَّع هو المقصود من الخبر.

العُتوّ: (ويقال: العُتِيّ) تجاوز الحدّ في الاستكبار والعناد. وضُمِّن معنى الإعراض فعدِّي بحرف {عَنْ}.

{ **فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا** } المحاسبة مستعملة في الجزاء على الفعل بما يناسب شدّته من شديد العقاب، تشبيها لتقدير الجزاء بإجراء الحساب بين المتعاملين، وهو الحساب في الدنيا، ولذلك جاء بصيغة الماضي. أي: فجازيناها على عتوّها جزاء يكافئ طغيانها.

{ **وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا** } عطف العذاب على الحساب مؤذن بأنّه غيره، فالحساب فيما لقوه قبل الاستئصال من المخوّفات وأشراط الإنذار مثل القحط والوباء، والعذاب هو ما تُوعِّدوا به.

<u>ولك أن تجعل الحساب على حقيقته</u>، ويراد به حساب الآخرة. وشدّته قوة المناقشة فيه والانتهار على كل سيئة يحاسبون عليها. <u>والعذاب: عذاب جهنم</u>، ويكون الفعل الماضي { فَحَاسَبْنَاهَا / وَعَذَّبْنَاهَا } مستعملا في معنى المستقبل تشبيها للمستقبل بالماضي في تحقق وقوعه، كقوله تعالى { أَتَى أَمْرُ اللَّهِ } [النحل:1].

النكر: (بضمتين، وبضم فسكون) ما ينكره الرأي من فظاعة كيفيّته إنكارا شديدا.

{ **فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا** } الفاء لتفريع { فَحَاسَبْنَاهَا } و { وَعَذَّبْنَاهَا }.

الذوق: هنا الإحساس مطلقا، وهو مجاز مرسل.

الوبيل: صفة مشبّهة. يقال: وَبُلَ (بالضم) المرعى، إذا كان كلأه وخيما ضارا لما يرعاه.

الأمر: الحال والشأن، وإضافة الوبال إلى الأمر من إضافة المسبّب إلى السبب، أي: ذاقوا الوبال الذي تسبب لهم فيه أمرهم وشأنهم الذي كانوا عليه.

{ **وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا** } وعاقبة الأمر: آخره وأثره. وهو يشمل العاقبة في الدنيا والآخرة.

وشُبِّهت عاقبتهم السوأى بخسارة التاجر في بيعه في أنّهم لمّا عتوا حسبوا أنّهم أرضوا أنفسهم بإعراضهم عن الرسل وانتصروا عليهم فما لبثوا أن صاروا بمذلّة، كما يخسر التاجر في تجره.

{ **أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا** } بدل اشتمال من جملة { وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا } أو بدل بعض من كلّ. والمراد عذاب الآخرة لأنّ الإعداد التهيئة وإنّما يُهيَّأ الشيء الذي لم يحصل.

<u>وإن جعلت الحساب والعذاب المذكورين آنفا حساب الآخرة وعذابها</u>، كما تقدّم، فجملة { أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً } استئنافا لبيان أنّ ذلك متزايد غير مخفَّف منه، كقوله { فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا } [النبأ:30].

{ **فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا** } هذا التفريع هو المقصود على التكاليف السابقة وخاصة على قوله تعالى { وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ } [1]، وهو نتيجة ما مُهّد له به من قوله تعالى { وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ }.

{ **أُولِي الْأَلْبَابِ** } في نداء المؤمنين بهذا الوصف إيماء إلى أنّ العقول الراجحة تدعو إلى تقوى الله، لأنّها كمال نفساني، ولأنّ فوائدها حقيقية دائمة، ولأنّ بها اجتناب المضار في الدنيا والآخرة، قال تعالى { أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } [يونس:63/62].

{ **أُولِي** } معناه ذوي، وتقدّم بيانه عند قوله تعالى { وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ } [4].
{ **الَّذِينَ آمَنُوا** } بدل من { أُولِي الْأَلْبَابِ }، وهذا الاتباع يومئ إلى أنّ قبولهم الإيمان عنوان على رجاحة عقولهم. والإتيان بصلة الموصول إشعار بأنّ الإيمان سبب للتقوى وجامع لمعظمها ولكن للتقوى درجات هي التي أُمروا بأن يحيطوا بها.
{ **قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** } في هذه الجملة معنى العلّة للأمر بالتقوى، لأنّ إنزال الكتاب نفع عظيم لهم مستحقّ شكرهم عليه.
{ **قَدْ** } تأكيد الخبر للاهتمام به وبعث النفوس على تصفّح هذا الكتاب والاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم.
الذكر: القرآن. وقد سُمِّي بالذكر في آيات كثيرة لأنّه يتضمّن تذكير الناس بما هم في غفلة عنه من دلائل التوحيد وما يتفرَّع عنها من حسن السلوك، ثمّ تذكيرهم بما تضمَّنه من التكاليف، وبيَّنَّاه عند قوله تعالى { وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ } [الحجر:6].
وإنزال القرآن تبليغه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بواسطة الملك، واستعير له الإنزال لأنّ الذكر مشبَّه بالشيء المرفوع في السماوات، كما تقدّم في [الحجر:6]، وفي آيات كثيرة.
{ **إِلَيْكُمْ** } جُعل إنزال الذكر إلى المؤمنين لأنّهم الذين انتفعوا به وعملوا بما فيه فخصِّصوا هنا من بين جميع الأمم، لأنّ القرآن أنزل إلى الناس كلّهم.
{ **رَسُولًا** } بدل اشتمال من { ذِكْرًا }، لأنّ بين القرآن والرسول محمد صلى الله عليه وسلم ملازمة وملابسة فإنّ الرسالة تحقَّقت له عند نزول القرآن عليه. وهذا كما أُبدل { رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ } [البينة:2] من قوله تعالى { حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ } [البينة:1]. <u>ويجوز</u> أن يكون مفعولا لفعل محذوف يدلّ عليه { أَنْزَلَ اللَّهُ } وتقديره: وأرسل إليكم رسولا، ويكون حذفه إيجازا، إلّا أنّ الوجه السابق أبلغ وأوجز.
{ **لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** } جُعلت علّة إنزال الذكر إخراج المؤمنين الصالحين من الظلمات إلى النور، وإن كانت علّة إنزاله إخراج جميع الناس من ظلمات الكفر وفساد الأعمال إلى نور الإيمان والأعمال الصالحات، نظرا لخصوص الفريق الذي انتفع بهذا الذكر اهتماما بشأنهم.
{ **وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا** } عطف على الأمر بالتقوى والتنويه بالمتقين والعناية بهم. وجيء بهذا الوعد على امتثالهم بالنعيم الخالد بصيغة الشرط للدلالة على أنّ ذلك نعيم مقيّد حصوله لراغبيه بأن يؤمنوا ويعملوا الصالحات.
{ **صَالِحًا** } نعت لموصوف محذوف دل عليه { يَعْمَلْ }، أي: عملا صالحا، وهو نكرة في سياق الشرط تفيد العموم كإفادته في سياق النفي. <u>فالمعنى</u>: ويعمل جميع الصالحات، أي: المأمور بها أمرا جازما.

{ **قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً** } حال من الضمير المنصوب في { يُدْخِلْهُ } ولذلك فذكر اسم الجلالة إظهار في مقام الإضمار لتكون الجملة مستقلّة بنفسها.

الرزق: كلّ ما يُنتفع به، وتنكيره هنا للتعظيم، أي: رزقا عظيما.

{ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا** } [12].

اسم الجلالة خبر مبتدأ محذوف تقديره: هو الله. والجملة على هذا الوجه مستأنفة استئنافا ابتدائيا.

بعد أن جرى ذكر شؤون من عظيم شؤون الله تعالى ابتداء من قوله تعالى { وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ } [1] إلى هنا، فقد تكرّر اسم الجلالة وضميره والإسناد إليه زهاء ثلاثين مرّة، فاقتضى المقام عقب ذلك أن يُزاد تعريف الناس بهذا العظيم، ولمّا صار البساط مليئا بذكر اسمه صحّ حذفه عند الإخبار عنه إيجازا.

{ **الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ** } الموصول صفة لاسم الجلالة وقد ذُكرت هذه الصلة لما فيها من الدلالة على عظيم قدرته تعالى، وعلى أنّ الناس، وهم من جملة ما في الأرض، عبيده، فعليهم أن يتّقوه، ولا يتعدّوا حدوده، ويحاسبوا أنفسهم على مدى طاعتهم إيّاه فإنّه لا تخفى عليه خافية، وأنّه قدير على إيصال الخير إليهم إن أطاعوه وعقابهم إن عصوه.

وفيه تنويه بالقرآن لأنّه من جملة الأمر الذي يتنزّل بين السماء والأرض.

{ **سَبْعَ سَمَاوَاتٍ** } تقدّم القول فيها غير مرّة، وهي سبع منفصل بعضها عن الآخر لقوله تعالى { أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً } [نوح:15].

{ **وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ** } عطف على { سَبْعَ سَمَاوَاتٍ } وهو يحتمل وجهين أظهرهما: أن يكون المعطوف قوله { مِنَ الْأَرْضِ } على أن يكون المعطوف لفظ الأرض ويكون حرف { من } مزيدا للتوكيد.

والتقدير: وخلق الأرض، ويكون قوله تعالى { مِثْلَهُنَّ } حالا من { الأرض }.

ومماثلة الأرض للسماوات في دلالة خلقها على عظيم قدرة الله تعالى، أي: أنّ خلق الأرض ليس أضعف دلالة على القدرة من خلق السماوات لأنّ لكلّ منهما خصائص دالة على عظيم القدرة.

وفي إفراد لفظ { الْأَرْضِ } دون أن يؤتى به جمعا كما أتي بلفظ السماوات إيذان بالاختلاف بين حاليهما.

{ **يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ** } أمرُ الله بالتكوين أو بالتكليف يُبلَّغ إلى الذين يأمرهم الله به من الملائكة ليبلِّغوه. أو لمن يأمرهم الله من الرسل ليبلِّغوه عنه، أو من الناس ليعملوا بما فيه، كلّ ذلك يقع فيما بين السماء والأرض.

{ **لِتَعْلَمُوا** } لام (كي) وهي متعلّقة بـ { خَلَقَ }. والعلم هنا صادق على علمين: علم يقيني مستند إلى أدلّة يقينية مركّبة من الدلالة الحسية والعقلية، وعلم ظنّي مستند إلى الأدلة الظنية والقرائن. وكلا العلمين موصِل إلى الاستدلال في الاستدلال الخَطابي.

والمعنى: أنّ ممّا أراده الله من خلقه السماوات والأرض، أن يعلم الناس قدرة الله على كلّ شيء وإحاطة علمه بكلّ شيء. لأنّ خلق تلك المخلوقات العظيمة وتسخيرها وتدبير نظامها في طول الدهر يدلّ أفكار المتأمِّلين على أنّ مبدعها يقدر على أمثالها فيستدلّوا بذلك على أنّه قدير على كلّ شيء لأنّ دلالتها على إبداع ما هو دونها ظاهرة، ودلالتها على ما هو أعظم منها، وإن كانت غير مشاهدة، فقياس الغائب على الشاهد يدلّ على أن خالق أمثالها قادر على ما هو أعظم.

وأيضا فإنّ تدبير تلك المخلوقات بمثل ذلك الإتقان المشاهد في نظامها، دليل على سعة علم مبدعها وأحاطته بدقائق ما هو دونها، وأنّ من كان علمه بتلك المثابة لا يُظنّ بعلمه إلّا الإحاطة بجميع الأشياء.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة التحريم

سُمِّيت (**سورة التحريم**) في كتب السنّة وكتب التفسير.

ووقع في رواية أبي ذر الهروي لصحيح البخاري تسميتها باسم (**سورة اللِّمَ تُحَرِّم**)، وكذلك في الإتقان، على حكاية جملة { لِمَ تُحَرِّمُ } [1]، وجعلها بمنزلة الاسم وإدخال لام تعريف العهد على ذلك اللفظ.

واتفق أهل العدد على أنّ **عدّة آيها اثنتا عشرة**.

وهي مدنية. قال ابن عطية: بإجماع أهل العلم وتبعه القرطبي. وقال في الإتقان عن قتادة: إنّ أوّلها إلى تمام عشر آيات، وما بعدها مكي.

وهي معدودة الخامسة بعد المائة في عداد نزول سور القرآن نزلت بعد سورة الحجرات وقبل سورة الجمعة. ويدلّ قوله تعالى { قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ } [2] أنّها نزلت بعد سورة المائدة كما سيأتي.

وسبب نزولها حادثتان حدثتا بين أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم.

إحداهما: ما ثبت في الصحيح عن عائشة أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان شرب عسلا عند إحدى نسائه، اختُلف في أنّها زينب بنت جحش، أو حفصة، أو أم سلمة، أو سودة بنت زمعة، والأصح أنّها زينب. فعلمت بذلك عائشة فتواطأت هي وحفصة على أنّ أيّتهما دخل عليها تقول له: إنّي أجد منك ريح مغافير، أكلت مغافير؟ والمغافير صمغ شجر العُرفط وله رائحة مختمرة وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يكره أن توجد منه رائحة، وإنّما تواطأتا على ذلك غيرة منهما أن يحتبس عند زينب زمانا يشرب فيه عسلا. فدخل على حفصة فقالت له ذلك، فقال: " **بل شربت عسلا عند فلانة ولن أعود له** "، أراد بذلك استرضاء حفصة في هذا الشأن وأوصاها أن لا تخبر بذلك عائشة، لأنّه يكره غضبها، فأخبرت حفصة عائشة فنزلت الآيات.

هذا أصح ما روي في سبب نزول هذه الآيات.

الثانية: ما رواه ابن القاسم في المدوّنة عن مالك عن زيد بن أسلم قال: حرّم رسول الله أم إبراهيم جاريته فقال: " **والله لا أطؤك** " ثم قال: " **هي عليَّ حرام** "، فأنزل الله تعالى { يَا أَيُّهَا النبيّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ } [1]. وتفصيل هذا الخبر ما رواه الدارقطني عن ابن عباس وهو حديث ضعيف.

أغراض السورة

*/ ما تضمّنه سبب نزولها أنّ أحدا لا يُحرّم على نفسه ما أحلّ الله له لإرضاء أحد، إذ ليس ذلك بمصلحة له ولا للذي يسترضيه، فلا ينبغي أن يُجعل كالنذر إذ لا قربة فيه.

*/ تنبيه نساء النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى أنّ غيرة الله على نبيّه أعظم من غيرتهنّ عليه وأسمى مقصدا. وأنّ الله يطلعه على ما يخصّه من الحادثات.

*/ أنّ من حلف على يمين فرأى حنثها خيرا من برّها أن يُكفِّر عنها ويفعل الذي هو خير. وقد ورد التصريح بذلك في حديث وفد عبد القيس عن رواية أبي موسى الأشعري، وتقدّم في سورة التوبة.

*/ تعليم الأزواج أن لا يكثرن من مضايقة أزواجهنّ فإنّها ربما أدت إلى الملال فالكراهية فالفراق.

*/ موعظة الناس بتربية بعض الأهل بعضا ووعظ بعضهم بعضا.

*/ أُتبع ذلك بوصف عذاب الآخرة ونعيمها وما يفضي إلى كليهما من أعمال الناس صالحاتها وسيِّئاتها.

*/ ذُيِّل ذلك بضرب مَثَلين من صالحات النساء وضدّهنّ، لما في ذلك من العظة لنساء المؤمنين ولأمهاتهم.

{ يَا أَيُّهَا النبيّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [1].

افتتاح السورة بخطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم بالنداء تنبيه على أنّ ما سيُذكر بعده ممّا يهتمّ به النبيّ صلى الله عليه وسلم والأمّة، ولأنّ سبب النزول كان من علائقه.

{ **لِمَ تُحَرِّمُ** } الاستفهام مستعمل في معنى النفي، أي: لا يوجد ما يدعو إلى أن تحرّم على نفسك ما أحلّ الله لك، ذلك أنّه لمّا التزم عدم العود إلى ما صدر منه التزاما بيمين أو بدون يمين أراد الامتناع منه في المستقبل قاصدا بذلك تطمين أزواجه اللائي تمالأن عليه لفرط غيرتهنّ، أي: ليست غيرتهنّ ممّا تجب مراعاته في المعاشرة إن كانت فيما لا هضم فيه لحقوقهنّ.

وهذا يومئ إلى ضبط ما يُراعى من الغيرة وما لا يُراعى.

{ **تُحَرِّمُ** } مستعمل في معنى: تجعل ما أُحلّ لك حراما، أي: تحرّمه على نفسك، كقوله تعالى { إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرائيلُ } [آل عمران:93]. وقرينته قوله هنا { مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ }.

وليس معنى التحريم هنا نسبة الفعل إلى كونه حراما، كما في قوله تعالى { قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ } [الأعراف:32]، فإن التفعيل يأتي بمعنى التصيير.

{ **مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ** } في الإتيان بالموصول لما في الصلة من الإيماء إلى تعليل الحكم وهو أنّ ما أحلّه الله لعبده ينبغي له أن يتمتّع به ما لم يعرض له ما يوجب قطعه من ضرّ أو مرض، لأنّ تناوله شكر لله واعتراف بنعمته والحاجة إليه.

{ **تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ** } عذر للنبيّ صلى الله عليه وسلم فيما فعله من أنّه أراد به خيرا وهو جلب رضا الأزواج، فأنبأه الله أنّ هذا الاجتهاد معارَض بأنّ تحريم ما أحل الله له يفضي إلى قطع كثير من أسباب شكر الله عند تناول نعمه، وأنّ ذلك ينبغي إبطاله في سيرة الأمّة.

مع الإشعار بأنّ مثل هذه المرضاة لا يُعبأ بها، لأنّ الغيرة نشأت عن مجرّد معاكسة بعضهنّ بعضا، وذلك ممّا يختلّ به حسن المعاشرة بينهنّ.

{ **وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } تذييل، استئناس للنبيّ صلى الله عليه وسلم من وحشة هذا الملام، أي: والله غفور رحيم لك، مثل قوله تعالى { عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ } [التوبة:43].

{ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ } [2].

استئناف بياني بيَّن الله به لنبيّه صلى الله عليه وسلم أنّ له سعة في التحلُّل ممّا التزم تحريمه على نفسه، وذلك فيما شرع الله من كفّارة اليمين، فأفتاه الله بأن يأخذ برخصته في كفارة اليمين المشروعة للأمّة كلّها.

ومن آثار حكم هذه الآية ما قاله النبيّ صلى الله عليه وسلم لوفد عبد القيس بعد أن استحملوه وحلف أن لا يحملهم، إذ ليس عنده ما يحملهم عليه، فجاءه ذود من إبل الصدقة فقال لهم: **" وإنّي والله لا أحلف على**

يمين فأرى غيرها خيرا منها إلّا كفرت عن يميني وفعلت الذي هو خير ".

{ **قَدْ** } افتتاح الخبر بحرف التحقيق لتنزيل النبيّ صلى الله عليه وسلم منزلة من لا يعلم أن الله فرض تحلّة الأيمان بآية الكفارة بناء على أنّه لم يأخذ بالرخصة تعظيما للقسم. فأعلمه الله أن الأخذ بالكفارة لا تقصير عليه فيه، فإنّ في الكفّارة ما يكفي للوفاء بتعظيم اليمين بالله.

{ **فَرَضَ** } عَيَّن، ومنه قوله تعالى { نَصِيباً مَفْرُوضاً } [النساء:7]. ويقال: فرض له في العطاء.

والمعنى: قد بيّن الله لكن تحلّة أيمانكم.

واعلم أنّه إن كان النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يصدر منه في تلك الحادثة إلّا أنّه التزم أن لا يعود لشرب شيئا عند بعض أزواجه في غير يوم نوبتها، أو كان وعد أن يحرّم مارية على نفسه بدون يمين، على الرواية الأخرى. كان ذلك غير يمين فكان أمر الله إياه بأن يكفّر عن يمينه لأنّ ذلك يجري مجرى اليمين، لأنّه إنّما وعد لذلك تطمينا لخاطر أزواجه فهو التزام لهن، فكان بذلك ملحقا باليمين وبذلك أخذ أبو حنيفة. ولم يره مالك يمينا ولا نذرا، فقال في الموطأ : " ومعنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم **"من نذر أن يعصي الله فلا يعصه "** أن ينذر الرجل أن يمشي إلى الشام أو إلى مصر ممّا ليس لله بطاعة، إن كلّم فلانا، فليس عليه في ذلك شيء إن هو كلّمه، لأنّه ليس لله في هذه الأشياء طاعة، فإن حلف فقال: والله لا آكل هذا الطعام ولا ألبس هذا الثوب فإنّما عليه كفارة يمين ".

{ **تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ** } عند مالك هي: جعل الله ملتزِم مثل هذا في حلٍّ من التزامِ ما التزمه.

وعند أبي حنيفة هي ما شرعه الله من الخروج من الأيمان بالكفّارات وإن كان النبيّ صلى الله عليه وسلم صدر منه يمين عند ذلك على أن لا يعود فتحلة اليمين هي الكفارة عند الجميع.

وقد اختُلف هل كفّر النبيّ صلى الله عليه وسلم عن يمينه تلك.

{ **وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ** } تذييل لجملة { قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ } .

المَوْلَى: الوليّ، وهو الناصر ومتولّي تدبير ما أضيف إليه، وهو هنا كناية عن الرؤوف والميسّر، كقوله تعالى { يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ } [البقرة:185].

{ **وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** } عطف على السابقة، أي: العليم بما يصلحكم فيحملكم على الصواب والرشد والسداد وهو الحكيم فيما يشرّعه، أي: يجري أحكامه على الحكمة. وهي إعطاء الأفعال ما تقتضيه حقائقها دون الأوهام والتخيّلات.

واختلف فقهاء الإسلام فيمن حرَّم على نفسه شيئا ممّا أحل الله له على أقوال كثيرة محلّها كتب الفقه.

{ وَإِذْ أَسَرَّ النبيّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ } [3].

هذا تذكير وموعظة بما جرى في خلال تينك الحادثتين ثُنّي إليه عنان الكلام بعد أن قُضي ما يهمّ من

التشريع للنبيّ صلى الله عليه وسلم بما حرَّم على نفسه من جرَّائهما.

وهو معطوف على جملة { يَا أَيُّهَا النبيّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ } [1] بتقدير: واذكر.

وقد أعيد ما دلَّت عليه الآية السابقة ضمنا بما تضمَّنته هذه الآية بأسلوب آخر ليُبنى عليه ما فيه من عبر ومواعظ وأدب، ومكارم وتنبيه وتحذير.

وإنّما نبَّأها النبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّه علم إفشاءها الحديث بأمر من الله ليبني عليه الموعظة والتأديب فإنّ الله ما أطلعه على إفشائها إلّا لغرض جليل.

{ **وَإِذْ أَسَرَّ النبيّ** } الواو عاطفة قصّة على قصّة لأنّ قصّة إفشاء حفصة السرّ غير قصّة تحريم النبيّ صلى الله عليه وسلم على نفسه بعض ما أحلّ له.

{ **أَسَرَّ** } أخبر بما يراد كتمانه عن غير المخبَر، أو سأله عدم إفشاء شيء وقع بينهما وإن لم يكن إخبارا، وذلك إذا كان الخبر أو الفعل يراد عدم فشوّه فيقوله صاحبه سرا. والسرّ ضدّ الجهر، قال تعالى { وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ } [التغابن:4]. فصار { أَسَرَّ } يطلق بمعنى الوصاية بعدم الإفشاء، أي: عدم الإظهار. قال تعالى { فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ } [يوسف:77].

{ **إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ** } ولم يختلف أهل العلم في أنّ التي أسرّ إليها النبيّ صلى الله عليه وسلم الحديث هي حفصة ويأتي أنّ التي نبّأتها حفصة هي عائشة. وفي الصحيح عن ابن عباس قال: مكثت سنة وأنا أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية فما أستطيع أن أسأله هيبة له حتّى خرج حاجًّا فخرجت معه فلمّا رجع ببعض الطريق قلت: يا أمير المؤمنين من اللتان تظاهرتا على رسول الله من أزواجه؟ فقال: تلك حفصة وعائشة وساق القصّة بطولها.

وعدل عن ذكر اسمها ترفعا عن أن يكون القصد معرفة الأعيان وإنّما المراد العلم بمغزى القصة وما فيها ممّا يُجتنب مثله أو يُقتدى به. وكذلك طي تعيين المنبَّأة بالحديث وهي عائشة.

وذُكرت حفصة بعنوان أزواجه للإشارة إلى أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم وضع سرّه في موضعه لأنّ أولى الناس بمعرفة سرّ الرجل زوجه. وفي ذلك تعريض بملامها على إفشاء سرّه لأن واجب المرأة أن تحفظ سرّ زوجها إذا أمرها بحفظه أو كان مثله ممّا يجب حفظه.

{ **حَدِيثًا** } هو ما حصل من اختلاء النبيّ صلى الله عليه وسلم بجاريته مارية وما دار بينه وبين حفصة وقوله لحفصة: " **هي عليّ حرام ولا تخبري عائشة** "، وكانتا متصافيتين، وأطلع الله نبيّه صلى الله عليه وسلم على أنّ حفصة أخبرت عائشة بما أسرّ إليها.

وأصل إطلاق الحديث على الكلام مجاز لأنّه مشتق من الحدثان فالذي حدث هو الفعل ونحوه.

نبَّأ: بالتضعيف مرادف أنبأ بالهمز ومعناهما: أخبر، وقد جمعتهما هذه الآية.

{ **وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ** } أطلعه عليه، وهو مشتقّ من الظهور بمعنى التغلّب. استعير الإظهار إلى الإطّلاع، لأنّ إطلاع الله نبيّه صلى الله عليه وسلم على السرّ الذي بين حفصة وعائشة كان غلبة له عليهما فيما

دبّرتاه. فالإظهار هنا من الظهور بمعنى الانتصار، وليس هو من الظهور ضدّ الخفاء، لأنّه لا يتعدّى بحرف (على).

وهذا تنبيه إلى عناية الله برسوله صلى الله عليه وسلم وانتصاره له، لأنّ إطلاعه على ما لا علم له به ممَّا يهمّه، عناية ونصح له.

{ **عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ** } ومفعول { عَرَّفَ } الأوّل محذوف لدلالة الكلام عليه، أي: عرّفها بعضه، أي: بعض ما أطلعه الله عليه، وأعرض عن تعريفها ببعضه.

وإنّما عرّفها النبيّ صلى الله عليه وسلم بذلك ليوقفها على مخالفتها واجب الأدب من حفظ سر زوجها.

وإعراض الرسول صلى الله عليه وسلم عن تعريفها ببعضه الآخر من كرم خلقه صلى الله عليه وسلم في معاتبة المُفشية وتأديبها إذ يحصل المقصود بأن يُعلم بعض ما أفشته.

قال سفيان: ما زال التغافل من فعل الكرام، وقال الحسن: ما استقصى كريم قط.

{ **قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا** } الاستفهام حقيقي، ولك أن تجعله للتعجيب من علمه بذلك.

وفي هذا كفاية من تيقّظها بأن إفشاءها سرّ زوجها زلّة خُلقية عظيمة حجبها عن مراعاتها شدّة الصفاء لعائشة، وفرط إعجابها بتحريم مارية لأجلها، فلم تتمالك عن أن تبشّر به خليلتها ونصيرتها ولو تذكّرت لتبيّن لها أن مقتضى كتم سر زوجها أقوى من مقتضى إعلامها خليلتها، فإنّ أواصر الزوجية أقوى من أواصر الخلّة وواجب الإخلاص لرسول الله أعلى من فضيلة الإخلاص للخلائل.

{ **قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ** } إيثار هذين الوصفين هنا دون الاسم العلم لما فيهما من التذكير بما يجب أن يعلمه الناس من إحاطة الله تعالى علما وخبرا بكلّ شيء.

{ **الْعَلِيمُ** } قوي العلم، وهو في أسمائه تعالى دال على أكمل العلم، أي: العلم المحيط بكل معلوم.

{ **الْخَبِيرُ** } أخصّ من العليم لأنّه مشتقٌّ من خبر الشيء إذا أحاط بمعانيه ودخائله، ولذلك يقال: خبرته، أي: بلوته وتطلعتُ بواطن أمره. قال الغزالي في المقصد الأسنى: " العلم إذا أضيف إلى الخفايا الباطنة سُمِّي خبرة وسُمِّي صاحبها خبيرا ".

{ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ } [4].

التفات من ذكر القصّتين إلى موعظة من تعلَّقت بهما، فهو استئناف خطاب وجّهه الله إلى حفصة وعائشة، لأنّ إنباء النبيّ صلى الله عليه وسلم بعلمه بما أفشته القصد منه الموعظة والتحذير والإرشاد إلى رأب ما انثلم من واجبها نحو زوجها. وإذ قد كان ذلك إثما، لأنّه إضاعة لحقوق الزوج وخاصة بإفشاء سره، ذكَّرها بواجب التوبة منه.

وخطاب التثنية عائد إلى المنبِّئة والمنبَّأة؛ فأمّا المنبِّئة فأمرها بالتوبة ظاهر، وأمّا المنبَّأة فلأنها شريكة لها

في تلقي الخبر السرّ، وكان عليها أن تنهاها عن ذلك أو أن تخبر زوجها.

التوبة: الندم على الذنب، والعزم على عدم العودة إليه وسيأتي الكلام عليها في هذه السورة.

{ **صَغَتْ** } مالت، ومنه سُمِّي سماع الكلام إصغاء لأنّ المستمع يميل سمعه إلى من يكلّمه، وتقدّم عند قوله تعالى { وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ } [الأنعام:113]. وفيه إيماء إلى أنّ فيما فعلتاه انحرافا عن أدب المعاشرة الذي أمر الله به وأنّ عليهما أن تتوبا ممّا صنعتاه ليقع بذلك صلاح ما فسد من قلوبهما.

{ **قُلُوبُكُمَا** } صيغة الجمع مستعملة في الاثنين طلبا لخفّة اللفظ عند إضافته إلى ضمير المثنى كراهية اجتماع مثنيين، فإنّ صيغة التثنية ثقيلة لقلّة دورانها في الكلام. فلما أُمن اللبس ساغ التعبير بصيغة الجمع عن التثنية.

{ **وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ** } هو ضدّ { إِنْ تَتُوبَا }، أي: وإن تُصرَّا على العود إلى تألُّبكما عليه فإن الله مولاه ...

المظاهرة: التعاون، يقال: ظاهره، أي: أيّده وأعانه. قال تعالى { وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً } [التوبة:4]. ولعلّ أفعال المظاهر ووصف ظهير كلّها مشتقّة من الاسم الجامد، وهو **الظهر**، لأنّ المعين والمؤيّد كأنّه يشدّ ظهر من يعينه. وقريب من هذا فعل عضد، لأنّهم قالوا: شد عضُده.

{ **فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ** } الجملة قائمة من مقام جواب الشرط معنًى، لأنّها تفيد معنى: يتولّى جزاءكما على المظاهرة عليه، لأنّ الله مولاه. وفي هذا الحذف مجال تذهب فيه نفس السامع كلّ مذهب من التهويل.

{ **هُوَ** } ضمير الفصل يفيد القصر على تقدير حصول الشرط، أي: إن تظاهرتما متناصرتين عليه فإنّ الله هو ناصره لا أنتما، أي: وبطل نصركما الذي هو واجبكما إذ أخللتما به.

{ **وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ** } عطف للتنويه بشأن رسول الوحي من الملائكة وشأن المؤمنين الصالحين. وفيه تعريض بأنّهما تكونان على تقدير حصول هذا الشرط { وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ }، من غير الصالحين.

{ **صَالِحُ** } مفرد أريد به معنى الفريق الصالح أو الجنس الصالح من المؤمنين، كقوله تعالى {فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ} [الحديد:26]. والمراد بـ { صَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ } المؤمنون الخالصون من النفاق والتردّد.

{ **وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ** } عطف على التي قبلها، والمقصود منه تعظيم هذا النصر بوفرة الناصرين تنويها بمحبة أهل السماء للنبيّ صلى الله عليه وسلم وحسن ذكره بينهم، فإنّ ذلك ممّا يزيد نصر الله إيّاه شأنا.

وفي الحديث: " **إذا أحبّ الله عبدا نادى جبريل إنّي قد أحببت فلانا فأحبَّه فيحبُّه جبريل ثم ينادي جبريل في أهل السماء إنّ الله قد أحبَّ فلانا فأحبّوه فيحبُّه أهل السماء ثم يوضع له القبول في أهل الأرض** ". فالمراد بأهل الأرض هنا المؤمنون الصالحون منّهم لأنّ الذي يحبّه الله يحبّه لصلاحه والصالح لا يحبّه أهل الفساد والضلال. فهذه الآية تفسيرها ذلك الحديث.

{ **بَعْدَ ذَلِكَ** } اسم الإشارة فيه للمذكور، أي: بعد نصر الله وجبريل وصالح المؤمنين. وكلمة { بَعْدُ } هنا

بمعنى (مع) فالبعدية هنا بعدية في الذكر، كقوله تعالى { عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ } [القلم:13].

وفائدة ذكر الملائكة بعد ذكر تأييد الله وجبريل وصالح والمؤمنين أنّ المذكورين قبلهم ظاهرة آثار تأييدهم؛ بوحي الله للنبيّ صلى الله عليه وسلم بواسطة جبريل، ونصره إيّاه بواسطة المؤمنين، فنبَّه الله المرأتين على تأييد آخر غير ظاهرةٍ آثاره وهو تأييد الملائكة بالنصر، مثل ما كان في يوم بدر، وغيره من الاستغفار.

فلا يتوهّم أحد أنّ هذا يقتضي تفضيل نُصرة الملائكة على نصرة جبريل، بله نُصرة الله تعالى.

{ **ظَهِيرٌ** } وصف بمعنى المظاهر، أي المؤيّد وهو مشتق من الظهر، كما تقدّم آنفا.

{ **أَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ / وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ / ظَهِيرٌ** } في الجمع بينها من محسّنات الجناس.

{ **عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا** } [5].

ليس هذا ممّا يتعلّق بالشرط في قوله تعالى { وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ } [4] بل هو كلام مستأنف عدل به إلى تذكير جميع أزواجه بالحذر من أن يضيق صدره عن تحمّل أمثال هذا الصنيع فيفارقهنّ، لتُقْلِع المتلبّسة وتَحْذَر غيرها. فالجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا عُقِّبت بها جملة { إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا } [4] التي أفادت التحذير من عقاب في الآخرة إن لم تتوبا ممّا جرى منهما، أفاد هذا الإيماء إلى التحذير من عقوبة دنيوية لهم يأمر الله فيها نبيّه صلى الله عليه وسلم، وهي عقوبة الطلاق، مع ما يحصل من المؤاخذة في الآخرة، ولذلك فصلت هذه الجملة عن التي قبلها لاختلاف الغرضين.

{ **عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ** } إيجاز بحذف ما يترتب عليه إبدالهن من تقدير: إن فارقكن. فالتقدير: عسى أن يطلقكنّ هو، وإنما يطلّق بإذن ربّه، أن يبدّله ربّه بأزواج خير منكنّ.

{ **عَسَى** } هنا مستعملة في التحقيق، وإيثارها هنا لأنّ هذا التبديل مجرّد فرض وليس بالواقع لأنّهنّ لا يُظنّ بهنّ عدم الارعواء عمّا حُذِّرن منه.

{ **خَيْرًا مِنْكُنَّ** } تذكير لهنّ بأنّهنّ ما اكتسبن التفضيل على النساء إلّا من فضل زوجهنّ عند الله.

وهذه الآية إلى قوله { خَيْراً مِنْكُنَّ } نزلت موافقة لقول عمر لابنته حفصة رضي الله عنهما مثل هذا اللفظ. وهذا من القرآن الذي نزل وفاقا لقول عمر أو رأيه تنويها بفضله. وقد وردت في حديث في الصحيحين واللفظ للبخاري عن عمر قال: وافقت ربي في ثلاث: قلت: يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلّى، فنزلت { وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى } [البقرة:125]، وقلت: يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمّهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله أية الحجاب. وبلغني معاتبة النبيّ بعض نسائه فدخلت عليهنّ فقلت: إن انتهيتنّ أو ليبدّلنَّ الله رسوله خيرا منكنّ، فأنزل الله {عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ }.

وهي موعظة بأن يأذن الله له بطلاقهنّ وأنّه تصير له أزواج خير منهنّ.

المسلمات: المتّصفات بالإسلام. و**المؤمنات**: المصدّقات في نفوسهن.

القانتات: القائمات بالطاعة أحسن قيام. وتقدّم القنوت في قوله تعالى { وقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ } [البقرة:238]. وقوله تعالى { وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ } [الأحزاب:31].

وفي هذا الوصف تعريض لما وقع من تقصير إحداهنّ في ذلك فعاتبها الله وأيقظها للتوبة.

التائبات: المقلعات عن الذنب إذا وقعن فيه. وفيه تعريض بإعادة التحريض على التوبة من ذنبهما التي أمرتا بها بقوله تعالى { إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ } [4].

العابدات: المقبلات على عبادة الله.

وهذه الصفات تفيد الإشارة إلى فضل هذه التقوى.

السائحات: المهاجرات، وإنّما ذُكر هذا الوصف لتنبههنّ على أنّهنّ إن كنّ يَمْتُنَّ بالهجرة فإنّ المهاجرات غيرهنّ كثير.

{ **مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ** } فيه مُحسِّن الكلام المتزن.

وهذه الصفات انتصبت على أنّها نعوت لـ { أَزْوَاجًا }، ولم يعطف بعضها على بعض بالواو، لأجل التنصيص على ثبوت جميع تلك الصفات لكلّ واحدة منهنّ، ولو عُطفت بالواو لاحتمل أن تكون الواو للتقسيم، أي: تقسيم الأزواج إلى من يثبت لهنّ بعض تلك الصفات دون بعض، ألا ترى أنّه لما أريدت إفادة ثبوت إحدى صفتين دون أخرى من النعتين الواقعين بعد ذلك كيف عطف بالواو، قوله { وأبكارا } لأنّ الثيّبات لا يوصفن بأبكار، والعكس كذلك.

{ **ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا** } وجه هذا التفصيل في الزوجات المقدَّرات لأنّ لكلتا الصفتين محاسنها عند الرجال. فما اعتزت واحدة من أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم بمزية إلّا وقد أنبأها الله بأن سيبدّله خيرا منها في تلك المزيّة أيضا.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } [6].

كانت موعظة نساء النبيّ صلى الله عليه وسلم مناسبة لتنبيه المؤمنين لعدم الغفلة عن موعظة أنفسهم وموعظة أهليهم وأن لا يصدّهم استبقاء الود بينهم عن إسداء النصح لهم وإن كان في ذلك بعض الأذى.

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** } هذا نداء ثانٍ موجَّه إلى المؤمنين بعد استيفاء المقصود من النداء الأوّل، نداء النبيّ صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى { يَا أَيُّهَا النبيّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ } [1]. وُجّه الخطاب إلى المؤمنين ليتأسّوا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم في موعظة أهليهم.

{ **قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا** } عُبِّر عن الموعظة والتحذير بالوقاية من النار على سبيل المجاز لأنّ

الموعظة سبب في تجنّب ما يفضي إلى عذاب النار، أو على سبيل الاستعارة بتشبيه الموعظة بالوقاية من النار على وجه المبالغة في الموعظة.

{ **نَارًا** } التنكير للتعظيم، وأجرى عليها وصف بجملة { **وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ** } زيادة في التحذير لئلّا يكونوا من وقود النار. وتذكيرا بحال المشركين الذي في قوله تعالى { إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ } [الأنبياء:98]. وتفظيعا للنار إذ يكون الحجر عوضا لها عن الحطب.

{ **الْحِجَارَةُ** } جمع الحجر على غير قياس فإنّ قياسه أحجار.

{ **عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ** } زيادة في تهويل النار. ومعنى { عَلَيْهَا } أنّهم موكلون بها. فالاستعلاء المفاد من حرف (على) مستعار للتمكّن، كما تقدّم في قوله تعالى { أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ } [البقرة:5].

{ **غِلاظٌ** } جمع غليظ وهو المتّصف بالغلظة. وهي صفة مشبّهة وفعلها مثل كَرُم. وهي هنا مستعارة لقساوة المعاملة، كقوله تعالى { وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ } [آل عمران:159].

{ **شِدَادٌ** } جمع شديد. والشدّة (بكسر الشين) حقيقتها قوّة العمل المؤذي، والموصوف بها شديد.

والمعنى: أنّهم أقوياء في معاملة أهل النار الذين وكّلوا بهم: يقال: اشتد فلان على فلان، أي: أساء معاملته، ويقال: اشتدّت الحرب، واشتدّت البأساء. والشدّة من أسماء البؤس والجوع والقحط.

{ **لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ** } ثناء عليهم أعقب به وصفهم بأنّهم غلاظ شداد تعديلا لما تقتضيانه من كراهية نفوس الناس إيّاهم، وهذا مؤذن بأنّهم مأمورون بالغلظة والشدّة في تعذيب أهل النار.

{ **وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** } تصريح بمفهوم { لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ } دعا إليه مقام الإطناب في الثناء عليهم، مع ما في هذا التصريح من استحضار الصورة البديعة في امتثالهم لما يؤمرون به. وقد عطف هذا التأكيد عطفا يقتضي المغايرة تنويها بهذه الفضيلة لأنّ فعل المأمور أوضح في الطاعة من عدم العصيان.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [7].

هو من قول الملائكة الذين على النار. وذِكر هذه المقالة هنا استطراد يفيد التنفير من جهنّم بأنّها دار أهل الكفر، كما قال تعالى { فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} [البقرة:24]، وإلّا فإنّ سياق الآية تحذير للمؤمنين من الموبقات في النار.

{ **إِنَّمَا** } قصر الجزاء على مماثلة العمل المجرى عليه قصرَ قلبٍ لتنزيلهم منزلة من اعتذر وطلب أن يكون جزاؤه أهون ممّا شاهده.

الاعتذار: افتعال مشتقّ من العذر. ومادة الافتعال فيه دالة على تكلّف الفعل مثل الاكتساب والاختلاق.

العذر: الحجّة التي تبرّئ صاحبها من تبعة عمل ما. وليس لمادة الاعتذار فعل مجرّد دال على إيجاد العذر وإنّما الموجود عَذَرَ بمعنى قبِل العُذر، وتقدّم عند قوله تعالى { وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ } [التوبة:90].

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النبيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [8].

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا** } أعيد خطاب المؤمنين وأعيد نداؤهم، وهو النداء الثالث. والذي قبله نداء للواعظين. وهذا نداء للموعوظين وهذا الأسلوب من أساليب الإعراض المهتم بها.

{ **تُوبُوا إِلَى اللَّهِ** } أُمر المؤمنون بالتوبة من الذنوب إذا تلبَّسوا بها، لأنّ ذلك من إصلاح أنفسهم، بعد أن أمروا بأن يجنِّبوا أنفسهم وأهليهم ما يزجّ بهم في عذاب النار، لأنّ اتقاء النار يتحقّق باجتناب ما يرمي بهم فيها، وقد يذهلون عمّا فرط من سيّئاتهم فهدوا إلى سبيل التوبة التي يمحون بها ما فرط من سيّئاتهم. وهذا ناظر إلى ما ذُكر من موعظة امرأتي النبيّ صلى الله عليه وسلم بقوله { إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ } [4].

التوبة: العزم على عدم العود إلى العصيان مع الندم على ما فرط منه فيما مضى. وتقدّمت عند قوله تعالى { فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ } [البقرة:37]. وعند قوله تعالى { إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ } [النساء:17]. وتعديتها بحرف (إلى) لأنّها في معنى الرجوع، لأنّ تاب أخو ثاب.

{ **تَوْبَةً نَصُوحًا** } استعارة وليس من المجاز العقلي إذ ليس المراد نصوحا صاحبها. جُعلت التوبة التي لا تردّد فيها ولا تخالطها نيّة العودة إلى العمل المتوب منه بمنزلة الناصح لغيره. وإنما لم تلحق وصف (نصوح) هاء التأنيث، المناسبة لتأنيث الموصوف به، لأنّ فعولا بمعنى فاعل يلازم الإفراد والتذكير.

النصح: الإخلاص في العمل والقول، أي: الصدق في إرادة النفع بذلك.

{ **عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ** } الرجاء المستفاد من فعل { عَسَى } مستعمل في الوعد الصادر عن المتفضِّل على طريقة الاستعارة. لأنّه لمّا كانت التوبة عزما على عدم العودة إلى الذنب، وكان ذلك العزم دالّا على زكاء النفس جعل الله جزاءه أن يمحو عنه ما سلف من الذنوب تفضّلا من الله، فذلك معنى الرجاء المستفاد من { عَسَى }.

تكفير السيئات: غفرانها، وهو مبالغة في كَفَر المخفّف المتعدي الذي هو مشتق من الكَفْر، أي: الستر.

{ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النبيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }

{ **يَوْمَ** } ظرف متعلّق بـ { يُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ }، وهو تعليق تخلّص إلى الثناء على الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه. وهو يوم القيامة، وهذا الثناء عليهم بانتفاء خزي الله عنهم تعريض بأنّ الذين لم يؤمنوا معه يخزيهم الله يوم القيامة. وذكر النبيّ صلى الله عليه وسلم مع الذين آمنوا لتشريف المؤمنين.

الخزي: هو عذاب النّار، وحكى الله عن إبراهيم عليه السلام قوله { وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ } [الشعراء:87]. على أنّ انتفاء الخزي يومئذ يستلزم الكرامة إذ لا واسطة بينهما، كما أشعر به قوله تعالى { فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ } [آل عمران:185].

{ **الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ** } الصلة إيذان بأنّ سبب انتفاء الخزي عنهم هو إيمانهم. ومعية المؤمنين مع النبيّ صلى الله عليه وسلم صحبتهم. وفيها دليل على المغفرة لجميعهم.

{ **نُورُهُمْ** } الضمير عائد إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه.

وإضافة نور إلى ضمير (هم) مع أنّه لم يسبق إخبار عنهم بنور لهم ليست إضافة تعريف إذ ليس المقصود تعريف النور وتعيينه ولكن الإضافة مستعملة هنا في لازم معناها وهو اختصاص النور بهم في ذلك اليوم بحيث يميّزه الناس من بين الأنوار يومئذ.

سعي النور: امتداده وانتشاره. شُبِّه ذلك باشتداد مشي الماشي وذلك أنّه يحفّ بهم حيثما انتقلوا تنويها بشأنهم.

{ **بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ** } خُصَّ بالذكر من الجهات الأمامُ واليمينُ لأنّ النور إذا كان بين أيديهم تمتّعوا بمشاهدته وشعروا بأنّه كرامة لهم، ولأنّ الأيدي هي التي تُمسك بها الأمور النفيسة، وبها بايعوا النبيّ صلى الله عليه وسلم على الإيمان والنصر. وهذا النور نور حقيقي يجعله الله للمؤمنين يوم القيامة. والباء للملابسة، ويجوز أن تكون بمعنى (عن). وقد تقدّم نظير هذا في [الحديد:12].

{ **يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } حال من ضمير { نُورُهُمْ }، وظاهره أن يكون حالا مقارنة، أي: يقولون ذلك في ذلك اليوم، ودعاؤهم طلب للزيادة من ذلك النور، فيكون ضمير { يَقُولُونَ } عائد إلى جميع الذين آمنوا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم يومئذ، أو يقول ذلك من كان نوره أقلّ من نور غيره ممّن هو أفضل منه يومئذ، فيكون ضمير { يَقُولُونَ } على إرادة التوزيع على طوائف الذين آمنوا في ذلك اليوم.

إتمام النور: إدامته أو الزيادة منه على الوجهين المذكورين آنفا، وكذلك طلب المغفرة لهم هو لطلب الدوام. وذلك كله أدب مع الله وتواضع له مثل ما قيل في استغفار النبيّ صلى الله عليه وسلم في اليوم سبعين مرّة.

{ **إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } تذييل مشعر بتعليل الدعاء، كناية عن رجاء إجابته لهم.

{ يَا أَيُّهَا النبيّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } [9].

لمّا أُبلغ الكفّار ما سيحلّ بهم في الآخرة تصريحا بقوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ } [7] وتعريضا بقوله تعالى { يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النبيّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ } [8]، أمر رسولَه صلى الله عليه وسلم بمسمع منهم بأن يجاهدهم ويجاهد المستترين لكفرهم بظاهر الإيمان نفاقًا، حتّى إذا لم تؤثِّر فيهم الموعظة بعقاب الآخرة يخشون أن يُسلَّط عليهم عذاب السيف في العاجلة.

وإنّما أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بذلك لأنّ الكفّار تألّبوا مع المنافقين بعد هجرة النبيّ صلى الله عليه وسلم فاتخذوهم عيونا لهم وأيدي يدسُّون بها الأذى للنبيّ صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين.

فهذا نداء ثان للنبيّ صلى الله عليه وسلم يأمره بإقامة صلاح عموم الأمّة بتطهيرها من الخبثاء بعد أن أمره بإفاقة من عليهما الغفلة عن شيء من واجب حسن المعاشرة مع الزوج.

{ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ } جهاد الكفر ظاهر، وأمّا عطف { الْمُنَافِقِينَ } عليهم فيقتضي أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم مأمور بجهاد المنافقين، وكان حال المنافقين ملتبسا إذ لم يكن أحد من المنافقين معلِنا بالكفر ولا شُهد على أحد منهم بذلك ولم يُعيِّن الله لرسوله صلى الله عليه وسلم منافقا يوقن بنفاقه وكفره أو أطلعه إطلاعا خاصا، ولم يأمره بإعلانه بين المسلمين كما يؤخذ ذلك من أخبار كثيرة في الآثار، فتعين تأويل العطف: <u>إمّا بأن يكون فعل { جَاهِدِ } مستعملا في حقيقته ومجازة</u> وهما الجهاد بالسيف والجهاد بإقامة الحجّة والتعريض للمنافق بنفاقه، فإنّ ذلك يطلق عليه الجهاد مجازا كما في قوله صلى الله عليه وسلم: " **رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر"**، وقوله للذي سأله الجهاد فقال له: " **ألك أبوان ؟** " قال: نعم، قال: " **ففيهما فجاهد** ".

<u>وعندي أن يكون المراد من العطف إلقاء الرعب في قلوب المنافقين</u> ليشعروا بأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالمرصاد منهم فلو بدت من أحدهم بادرة يُعلم منها نفاقه عومل معاملة الكافر في الجهاد بالقتل والأسر فيحذروا ويكفّوا عن الكيد للمسلمين خشية الافتضاح، فتكون هذه الآية من قبيل قوله تعالى { لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً } [الأحزاب:61/60].

الغلظة: حقيقتها صلابة الشيء وهي مستعارة هنا للمعاملة بالشدّة بدون عفو ولا تسامح، أي: كن شديدا في إقامة ما أمر الله به في شأنهم. وتقدّم عند قوله تعالى { وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً } [التوبة:123].

المأوى: المسكن، وهو مفعل من أوى إذا رجع، لأنّ الإنسان يرجع إلى مسكنه.

{ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ } [10].

أعقب جملة { يَا أَيُّهَا النبيّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ } [9] المقصود منها تهديدهم بعذاب السيف في الدنيا وإنذارهم بعذاب الآخرة، وما قارن ذلك من مقابلة حالهم بحال المؤمنين، بأن ضرب مثلين للفريقين بنظيرين في حاليهما لتزداد الموعظة وضوحا ويزداد التنويه بالمؤمنين استنارة.

وقد تقدّمت فائدة ذكر الأمثال في قوله تعالى { مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً } [البقرة:17].

ضرب المثل: إلقاؤه وإيضاحه، وتقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا } [البقرة:26].

فالجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا. وهذا المثل لا يخلوا من تعريض بحثِّ زَوْجَيْ النبيّ صلى الله عليه وسلم على طاعته، وبأنّ رضى الله تعالى يتبع رضى رسله.

فالمعنى: أنّ الله جعل حالة هاتين المرأتين عظة وتنبيها للذين كفروا، أي: ليُذكّرهم بأنّ الله لا يصرفه عن وعيده صارف فلا يحسبوا أنّ لهم شفعاء عند الله، ولا أنّ مكانهم من جوار بيته وعمارة مسجده وسقاية حجيجه تصرف غضب الله عنهم، فإن هم أقلعوا عن هذا الحسبان أقبلوا على التدبّر في النجاة من وعيده بالنظر في دلائل دعوة القرآن وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم، فلو كان صارف يصرف الله عن غضبه لكان أولى الأشياء بذلك مكانة هاتين المرأتين من زوجيها رسولي ربّ العالمين.

ومناسبة ضرب المثل بامرأة نوح وامرأة لوط دون غيرهما من قرابة الأنبياء نحو أبي إبراهيم وابن نوح عليهما السلام لأنّ ذكر هاتين المرأتين لم يتقدّم، لتكون في ذكرهما فائدة مستجدة، وليكون في ذكرهما عقب ما سبق من تمالؤ أُمَّي المؤمنين على زوجهما صلى الله عليه وسلم تعريض لطيف بالتحذير من خاطر الاعتزاز بغناء الصلة الشريفة عنهما في الوفاء بحقّ ما يجب من الإخلاص للنبيّ صلى الله عليه وسلم ليكون الشبه في التمثيل وأقوى.

فعن مقاتل: يقول الله سبحانه لعائشة وحفصة لا تكونا بمنزلة امرأة نوح وامرأة لوط في المعصية وكونا بمنزلة امرأة فرعون ومريم.

{ امْرَأَتَ نُوحٍ } قصة امرأة نوح لم تذكر في القرآن في غير هذه الآية والذي يظهر أنّها خانت زوجها بعد الطوفان وأنّ نوحا لم يعلم بخونها لأنّ الله سمى عملها خيانة.

وقد ورد في سفر التكوين من التوراة ذكر امرأة نوح مع الذين ركبوا السفينة وذكر خروجها من السفينة بعد الطوفان ثم طوي ذكرها لمّا ذكر الله بركته نوحا وبنيه وميثاقه معهم فلم تذكر معهم زوجه. فلعلّها كفرت بعد ذلك، أو لعلّ نوحا تزوّج امرأة أخرى بعد الطوفان لم تذكر في التوراة.

{ وَامْرَأَتَ لُوطٍ } حديث امرأة لوط ذُكر في القرآن مرّات، من ذلك في [الأعراف:83].

{ **كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ** } يقال: فلانة كانت تحت فلان، أي: كانت زوجا له. والتحتية هنا مجاز في معنى الصيانة.

وقد ظهر أنّ المراد بالعبدين نوح ولوط، وإنّما خُصَّا بوصف عبدين صالحين مع أنّ وصف النبوّة من وصف الصلاح تنويها بهذا الوصف ليعظم شأن الصالحين كما في قوله تعالى { وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ} [الصافات:112]. ولتكون الموعظة سارية إلى نساء المسلمين في معاملتهنّ أزواجهنّ، مع ما في ذلك من تهويل الأذى لعباد الله الصالحين وعناية ربّهم بهم ومدافعته عنهم.

{ **فَخَانَتَاهُمَا** } الخيانة والخون ضدّ الأمانة وضدّ الوفاء، وذلك تفريط المرء ما أوتمن عليه. وقد جمعها قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [لأنفال:27].

{ **فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا** } انتصب { شَيْئًا } على المفعولية المطلقة لـ { يُغْنِيَا }، لأنّ المعنى: شيئا من الغنى، وتنكير { شَيْئًا } للتحقير. وتقدّم في قوله تعالى { إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً } [الجاثية:19].

{ **مَعَ الدَّاخِلِينَ** } زيادة لإفادة مساواتهما في العذاب لغيرهما من الكفرة الخونة. وذلك تأييس من أن ينتفعا من حظوة زوجهما.

{ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } [11].

لمّا ضُرب المثل { لِلَّذِينَ كَفَرُوا} [10] أُعقب بضرب مثل {لِلَّذِينَ آمَنُوا } لتحصل المقابلة فيتّضح مقصود المثلين معا، وجريا على عادة القرآن في إتباع الترهيب بالترغيب.

{ **امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ** } هي امرأة فرعون الذي أُرسِل إليه موسى، وهو (منفتاح الثالث) وليست امرأة فرعون التي تبنّت موسى حين التقطته من اليم، لأن ذلك وقع في زمن فرعون (رمسيس الثاني) وكان بين الزمنين ثمانون سنة. ولعل امرأة فرعون هذه كانت من بنات إسرائيل تزوّجها فرعون فكانت مؤمنة برسالة موسى عليه السلام، أو تكون هداها الله إلى الإيمان كما هدى الرجل المؤمن من آل فرعون الذي تقدّم ذكره في [غافر:28]. وسماها النبيّ صلى الله عليه وسلم آسية في قوله: **" كَمُل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلّا مريم ابنة عمران وآسية امرأة فرعون "** [البخاري].

{ **إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ** } ظاهر قولها مؤذن بأنّ فرعون وقومه صدُّوها عن الإيمان به وزينوا لها أنّها إن آمنت بموسى تضيّع ملكا عظيما وقصرا فخيما، أو أنّ فرعون هدّدها بالقتل.

{ **وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ** } أرادت بعمل فرعون ظلمه، أي: نجّني من تبعة أعماله.

القوم الظالمون: هم قوم فرعون. وظلمهم: إشراكهم بالله.

{ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ } [12].

عطف على { امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ }، أي: وضرب الله مثلا للذين آمنوا مريم ابنة عمران، فضرب مَثَلين في الشر ومَثَلين في الخير.

ومريم ابنة عمران تقدّم الكلام على نسبها وكرامتها في [آل عمران:35-37] وغيرها، وقد ذكرها الله باسمها في عدّة مواضع من القرآن. قال ابن التلمساني في شرح الشفاء لعياض: لم يذكر الله امرأة في القرآن باسمها إلّا مريم للتنبيه على أنّها أَمَة الله إبطالا لعقائد النصارى.

الإحصان: جعل الشيء حصينا، أي: لا يُسلك إليه. ومعناه: منعت فرجها عن الرجال.

{ **فَنَفَخْنَا فِيهِ** } أي: جزيناها على إحصان فرجها، أي: بأن كَوَّن الله فيه نبيًّا بصفة خارقة للعادة، فَخُلِّد بذلك ذكرها في الصالحات.

النفخ: مستعار لسرعة إبداع الحياة في المكوَّن في رحمها.

{ **مِنْ رُوحِنَا** } إضافة الروح إلى ضمير الجلالة لأنّ تكوين المخلوق الحيّ في رحمها كان دون الأسباب المعتادة، أو أريد بالروح الملك الذي يؤمر بنفخ الأرواح في الأجنّة، فعلى الأوّل تكون (من) تبعيضية، وعلى الثاني تكون ابتدائية، وتقدّم قوله تعالى { فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا } [الأنبياء:91].

تصديقها: يقينها بأنّ ما أبلغ إليها الملكُ من إرادة الله.

{ **كَلِمَاتِ رَبِّهَا** } هي الكلمات التي ألقاها إليها بطريق الوحي.

{ **وَكُتُبِهِ** } قرأ الجمهور { وَكِتَابِهِ }، وقرأه حفص وأبو عمرو ويعقوب { وَكُتُبِهِ } بصيغة الجمع، أي: آمنت بالكتب التي أنزلت قبل عيسى وهي التوراة و الزبور وكتب الأنبياء من بني إسرائيل، والإنجيل إن كان قد كتبه الحواريون في حياتها. ويجوز أن يراد بـ { كُتُبِهِ }، ما أراده الله وقدّره أن تحمل من دون مسّ رجل إيّاها، من باب وكان كتابا مفعولا.

القانت: المتمحِّض للطاعة. والمراد بالقانتين هنا المكثرون من العبادة. والمعنى: أنّها كانت سليلة قوم صالحين، أي: فجاءت على طريقة أصولها في الخير والعفاف. وهذا إيماء إلى تبرئتها ممّا رماها به القوم.

وغُلِّبت صيغة جمع الذكور ولم يقل: من القانتات، جريا على طريقة التغليب.

ونكتته هنا الإشارة إلى أنّها في عداد أهل الإكثار من العبادة، وأنّ شأن ذلك أن يكون للرجال لأنّ نساء بني إسرائيل كنّ معفيات من عبادات كثيرة.

وفي ذكر { وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ } إيماء إلى ما أوصى الله به أمّهات المؤمنين بقوله تعالى { وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ } [الأحزاب:31].

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الملك

سمَّاها النبيّ صلى الله عليه وسلم (**سورة تبارك الذي بيده الملك**) في حديث رواه الترمذي عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" أنَّ سورة من القرآن، ثلاثون آية، شفعت لرجل حتَّى غُفر له، وهي (سورة تبارك الذي بيده الملك) "**. [قال الترمذي هذا حديث حسن]. فهذا تسمية للسورة بأوّل جملة فيها.

وسُمِّيت أيضا (**تبارك الملك**) في عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم وبسمع منه، فيما رواه الترمذي عن ابن عباس: أنّ رجلا من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم قال له: ضربت خبائي على قبر وأنا لا أحسب أنّه قبر فإذا فيه إنسان (أي: دفين فيه) يقرأ سورة (تبارك الملك) حتّى ختمها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"هي المانعة هي المُنْجية تنجيه من عذاب القبر"** [حديث حسن غريب].

والشائع في كتب السنّة وكتب التفسير وفي أكثر المصاحف تسمية هذه السورة (**سورة الملك**) وكذلك ترجمها الترمذي، وكذلك عنونها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه.

وأخرج الطبراني عن ابن مسعود قال: " كنَّا نسمِّيها على عهد رسول الله المانعة "، أي: أخذا من وصف النبيّ صلى الله عليه وسلم إيّاها بأنّها المانعة المنجية كما في حديث الترمذي، وليس بالصريح في التسمية.

وهي مكية قال ابن عطية والقرطبي: <u>باتفاق الجميع.</u>

وهي السادسة والسبعون في عداد نزول السور نزلت بعد سورة المؤمنون وقبل سورة الحاقة.

وآيها إحدى وثلاثون في عد أهل الحجاز وفي عد غيرهم ثلاثون.

أغراض السورة

الأغراض التي في هذه السورة جارية على سَنن الأغراض في السور المكية.

*/ ابتدأت بتعريف المؤمنين معاني من العلم بعظمة الله تعالى وتفرّده بالملك الحقّ، والنظر في إتقان صنعه الدال على تفرّده بالإلهيّة فبذلك يكون في تلك الآيات حظّ لعظة المشركين.

*/ التذكير بأنّه سبحانه أقام نظام الموت والحياة لتظهر في الحالين مجاري أعمال العباد في ميادين السبق إلى أحسن الأعمال ونتائج مجاريها. وأنّه الذي يجازي عليها.

*/ انفراده بخلق العوالم خلقا بالغا غاية الإتقان فيما تراد له.

*/ الأمر بالنظر في ذلك وبالإرشاد إلى دلائله الإجمالية، وتلك دلائل على انفراده بالإلهية.

*/ التحذير الناس من كيد الشياطين، والارتباق معهم في ربقة عذاب جهنم.

*/ أنّ في اتّباع الرسول صلى الله عليه وسلم النجاة وفي تكذيبه الخسران.

*/ تنبيه المعاندين للرسول صلى الله عليه وسلم إلى علم الله بما يحوكونه للرسول ظاهرا وخفية، بأنّ علم الله محيط بمخلوقاته.

*/ التذكير بمنّة خلق العالم الأرضي، ودقّة نظامه، وملاءمته لحياة الناس، وفيها سعيهم ومنها رزقهم.

*/ الموعظة بأنّ الله قادر على إفساد ذلك النظام فيصبح الناس في كرب وعناء، ليتذكّروا قيمة النعم بتصوّر زوالها.

*/ ضرب لهم مثلا في لطفه تعالى بهم بلطفه بالطير في طيرانها.

*/ أيَّسهم من التوكّل على نصرة الأصنام أو على أن ترزقهم رزقا.

*/ فظَّع لهم حالة الضلال التي ورَّطوا أنفسهم فيها.

*/ وبَّخ المشركين على كفرهم نعمة الله تعالى وعلى وقاحتهم في الاستخفاف بوعيده وأنّه وشيك الوقوع بهم.

*/ وبَّخهم على استعجالهم موت النبيّ صلى الله عليه وسلم ليستريحوا من دعوته.

*/ أوعدهم بأنّهم سيعلمون ضلالهم حين لا ينفعهم العلم، وأنذرهم بما قد يحلّ بهم من قحط وغيره.

{ **تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } [1].

افتُتحت السورة بما يدلّ على منتهى كمال الله تعالى افتتاحا يؤذن بأنّ ما حوته يحوم حول تنزيه الله تعالى عن النقص الذي افتراه المشركون لمّا نسبوا إليه شركاء في الربوبية والتصرّف معه، والتعطيل لبعض مراده. ففي هذا الافتتاح براعة الاستهلال كما تقدّم في طالع سورة الفرقان.

{ **تَبَارَكَ** } فعل يدلّ على المبالغة في وفرة الخير وهو في مقام الثناء يقتضي العموم بالقرينة، أي: يفيد أنّ كلّ وفرة من الكمال ثابتة لله تعالى بحيث لا يتخلّف نوع منها عن أن يكون صفة له تعالى.

وصيغة تفاعل تدلّ على تكلّف الفعل، وترد كناية عن قوة الفعل وشدّته. وتقدّم عند قوله تعالى { تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } [الأعراف:54].

وهو مشتق من **البركة**، وهي زيادة الخير ووفرته، وتقدّمت عند قوله تعالى { وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ } [هود:48].

وهذا الكلام يجوز أن يكون مرادا به مجرّد الإخبار عن عظمة الله تعالى وكماله، ويجوز أن يكون مع ذلك إنشاء ثناء على الله أثناه على نفسه، وتعليما للناس كيف يثنون على الله ويحمدونه كما في قوله تعالى { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [الفاتحة]، إمّا على وجه الكناية بالجملة عن إنشاء الثناء، وإمّا باستعمال الصيغة المشتركة بين الإخبار والإنشاء في معنييها، ولو صيغ بغير هذا الأسلوب لما احتمل هذين المعنيين، وقد تقدّم في قوله تعالى { تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ } [الفرقان:1].

{ **الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ** } جُعل المسند إليه اسم موصول للإيذان بأنّ معنى الصلة، ممّا اشتهر به، كما هو غالب أحوال الموصول، فصارت الصلة مغنية عن الاسم العلم لاستوائهما في الاختصاص به، إذ يعلم كلّ أحد أن الاختصاص بالملك الكامل المطلق ليس إلّا لله.

{ **بِيَدِهِ** } الباء يجوز أن تكون بمعنى (في)، مثل الباء التي تدخل على أسماء الأمكنة نحو { وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ} [آل عمران:123]. فالظرفية هنا مجازية مستعملة في معنى إحاطة قدرته بحقيقة الملك. والملك على هذا اسم للحالة التي يكون صاحبها مَلِكا. ويكون التعريف تعريف الجنس الذي يشمل جميع أفراد الجنس، وهو الاستغراق، فما يوجد من أفراده فرد إلّا وهو ممّا في قدرة الله، فهو يعطيه وهو يمنعه.

و{ بِيَدِهِ } على هذا الوجه استعارة للقدرة والتصرّف، كما في قوله { وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ } [الذريات:47].

ويجوز أن تكون الباء للسببية، ويكون { الْمُلْكُ } اسما فيأتي في معناه ما قُرِّر في الوجه المتقدّم.

{ **بِيَدِهِ الْمُلْكُ** } تقديم المسند وهو { بِيَدِهِ } على المسند إليه لإفادة الاختصاص، أي: الملك بيده لا بيد غيره. وهو قصر ادعائي مبني على عدم الاعتداد بملك غيره، لأنّه معرَّض للزوال، وملك الله هو الملك الحقيقي، قال تعالى { فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ } [طه:114].

{ **وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } معطوفة على جملة { بِيَدِهِ الْمُلْكُ } التي هي صلة الموصول، وهي تعميم

بعد تخصيص لتكميل المقصود من الصلة، إذ أفادت الصلة عموم تصرفه في الموجودات، وأفادت هذه عموم تصرفه في الموجودات والمعدومات، بالإعدام للموجودات والإيجاد للمعدومات.
{ **شَيْءٍ** } ما يصحّ أن يُعلم ويُخبر عنه. وهذا هو الإطلاق الأصلي في اللغة. وقد يُطلق (الشيء) على خصوص الموجود بحسب دلالة القرائن والمقامات.

{ **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ** } [2].
صفة لـ { الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ } [1]، فلمّا شمل قوله تعالى { وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [1] تعلّق القدرة بالموجود والمعدوم أُتبع بوصفه تعالى بالتصرّف الذي منه خلق المخلوقات وأعراضها، لأنّ الخلق أعظم تعلّق القدرة بالمقدور لدلالته على صفة القدرة وعلى صفة العلم.
{ **الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ** } أوثر ذكر الموت والحياة لما يدلّان عليه من العبرة بتداول العرضين المتضادّين على معروض واحد، وللدلالة على كمال صنع الصانع، فالموت والحياة عرضان يعرضان للموجود من الحيوان، والموت يُعِدّ الموجود للفناء، والحياة تُعِدُّ الموجود للعمل للبقاء مدّة.
فليس ذكر خلق الموت والحياة تفصيلا لمعنى الملك بل هو وصف مستقل.
الحياة: قوة تتبع اعتدال المزاج النوعي لتفيض منها سائر القوى.
الموت: كيفيّة عدميّة، هو عدم الحياة عمّا شأنه أن يوصف بالحياة أو الموت، أي: زوال الحياة عن الحي. فبين الحياة والموت تقابل العدم والمَلَكة.
<u>خلق الحياة</u>: خلق الحيّ، لأنّ قوام الحيّ هو الحياة، ففي خلقه خلق ما به قوامه.
<u>خلق الموت</u>: إيجاد أسبابه، وإلّا فإنّ الموت عدم لا يتعلّق به الخلق بالمعنى الحقيقي، ولكنّه لمّا كان عرضا للمخلوق عُبّر عن حصوله بالخلق تبعا، كما في قوله تعالى { وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ } [الصافات:96].
وفي ذكرهما تخلُّص إلى ما يترتّب عليهما من الآثار التي أعظمها العمل في الحياة والجزاء عليه بعد الموت، وذلك ما تضمّنه قوله { لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً }.
أي: أنّه خلق الموت والحياة ليكون منكم أحياء يعملون الصالحات والسيئات، ثم أمواتا يَخْلُصون إلى يوم الجزاء فيجزون على أعمالهم بما يناسبها. ولكون هذا هو المقصود الأهم من هذا الكلام قُدّم الموت على الحياة. ولا أشك في أن بناء هذا العالم على ناموس الموت والحياة له حكمة عظيمة يعسر إدراكها.
{ **لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** } معترضة بين الموصولين. واللام في { لِيَبْلُوَكُمْ } لام التعليل، أي: في خلق الموت والحياة حكمة أن يبلوكم. وتعليل فعل بعلّة لا يقتضي انحصار علله في العلّة المذكورة، فإنّ الفعل الواحد تكون له علل متعدّدة فيُذكر منها ما يستدعيه المقام.
البلوى: الاختبار وهي هنا مستعارة للعلم، أي: ليعلم علم ظهور، أو مستعارة لإظهار الأمر الخفي، فجُعل

إظهار الشيء الخفي شبيها بالاختبار.

{ **أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** } مرتبطة بـ { لِيَبْلُوَكُمْ }، وعندي أنّ أفضل الوجوه أن تَجعل الجملة مستأنفة وتَجعل الوقف على قوله تعالى { لِيَبْلُوَكُمْ }، ويكون الاستفهام مستعملا في التحضيض على حسن العمل.

{ **أَحْسَنُ** } تفضيل، أي: أحسن عملا من غيره، فالأعمال الحسنة متفاوتة في الحسن إلى أدناها، فأمّا الأعمال السيئة فإنّها مفهومة بدلالة الفحوى، لأنّ البلوى في أحسن الأعمال تقتضي البلوى في السيئات بالأولى. ففي قوله تعالى { لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً } إيجاز.

{ **وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ** } تذييل لجملة { لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً } إشارة إلى أنّ صفاته تعالى تقتضي تعلّقا بمتعلّقاتها لئلّا تكون معطّلة في بعض الأحوال والأزمان فيفضي ذلك إلى نقائضها.

{ **الْعَزِيزُ** } الغالب الذي لا يعجز عن شيء، وذكره مناسب للجزاء المستفاد من قوله تعالى { لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً}، أي: ليجزيكم جزاء العزيز، فعُلم أنّ المراد الجزاء على المخالفات والنكول عن الطاعة. وهذا حظ المشركين الذين شملهم ضمير الخطاب في قوله تعالى { لِيَبْلُوَكُمْ }.

{ **الْغَفُورُ** } الذي يُكرم أولياءه ويصفح عن فلتاتهم، فهو مناسب للجزاء على الطاعات وكناية عنه، قال تعالى { وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى } [طه:82]. فهو إشارة إلى حظّ أهل الصلاح من المخاطبين.

{ **الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ** [3] **ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ** [4] }.

صفة ثانية لـ { الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ }، أُعقِب التذكير بتصرّف الله بخلق الإنسان وأهمّ أعراضه { الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ } بذكر خلق أعظم الموجودات غير الإنسان وهي السماوات، ومفيدة وصفًا من عظيم صفات الأفعال الإلهية ولذلك أعيد فيها اسم الموصول { الَّذِي } لتكون الجمل الثلاث جارية على طريقة واحدة.

{ **سَبْعَ سَمَاوَاتٍ** } تكرّر ذكرها في القرآن. والظاهر أنّ المراد بها الكواكب التي هي مجموع النظام الشمسي ما عدا الأرض، كما تقدّم عند قوله تعالى { فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ } [البقرة:29]، فإنّها هي المشاهدة بأعين المخاطبين، فالاستدلال بها استدلال بالمحسوس.

الطباق: يجوز أن يكون مصدر طابق، وُصفت به السماوات للمبالغة، أي: شديدة المطابقة، أي: مناسبة بعضها لبعض في النظام.

ويجوز أن تكون { طِبَاقاً } جمع طَبَق، والطبق: المساوي في حالة ما، ومنهم قولهم في المثل وافق شِنٌّ طَبَقة.

والمعنى: أنّها مرتفع بعضها فوق بعض في الفضاء السحيق، أو المعنى: أنّها متماثلة في بعض الصفات مثل التكوير والتحرّك المنتظم في أنفسها وفي تحرّك كل واحدة منها بالنسبة إلى تحرك بقيتها بحيث لا

ترتطم ولا يتداخل سيرها.

{ **مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ** } تقرير لقوله تعالى { خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً }، فإنّ نفي التفاوت يُحقِّق معنى التطابق، أي: التماثل. والمعنى: ما ترى في خلق السماوات تفاوتا.

التفاوت: بوزن التفاعل: شدّة الفوت، والفوت: البعد، وليست صيغة التفاعل فيه لحصول فعل من جانبين ولكنّها مفيدة للمبالغة. ويقال: تفوَّت الأمر أيضا، وقيل: إن تفوَّت، بمعنى: حصل فيه عيب.

وهو هنا مستعار للتخالف وانعدام التناسق، لأنّ عدم المناسبة يشبه البعد بين الشيئين تشبيه معقول بمحسوس.

والخطاب لغير معيّن، أي: لا ترى أيّها الرائي تفاوتا.

والمقصود منه التعريض بأهل الشرك إذ أضاعوا النظر والاستدلال بما يدلّ على وحدانية الله تعالى بما تشاهده أبصارهم من نظام الكواكب، وذلك ممكن لكلّ من يبصر، قال تعالى { أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ } [ق:6].

{ **الرَّحْمَنِ** } التعبير بهذا الوصف دون اسم الجلالة إيماء إلى أنّ هذا النظام ممّا اقتضته رحمته بالناس لتجري أمورهم على حالة تلائم نظام عيشهم، لأنّه لو كان فيما خلق الله تفاوت لكان ذلك التفاوت سببا لاختلال النظام فيتعرّض الناس بذلك لأهوال ومشاق، قال تعالى { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ } [الأنعام:97]، وقال تعالى { هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } [يونس:5].

وأيضا في ذلك الوصف تورُّك على المشركين إذ أنكروا ذلك الاسم { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً } [الفرقان:60].

{ **فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ** } تفريع، والتفريع للتسبُّب، أي: انتفاء رؤية التفاوت جُعل سببا للأمر بالنظر ليكون نفي التفاوت معلوما عن يقين دون تقليد للمخبر.

رجع البصر: تكريره، والرَجع: العود إلى الموضع الذي يُجاء منه. فالمعنى: أعد النظر، أي: أعد رؤية السماوات وأنّها لا تفاوت فيها، إعادة تحقيق وتبصّر. والخطاب كما السابق لغير معين.

{ **فَارْجِعِ** } صيغة الأمر مستعملة في الإرشاد للمشركين مع دلالته على الوجوب للمسلمين، فإنّ النظر في أدلة الصفات واجب لمن عرض له داع إلى الاستدلال.

البصر: مستعمل في حقيقته. والمراد به البصر المصحوب بالتفكّر والاعتبار بدلالة الموجودات على الموجد.

{ **هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ** } الاستفهام تقريري ووقع بـ (هل) لأنّها تفيد تأكيد الاستفهام إذ هي بمعنى (قد) في الاستفهام، وفي ذلك تأكيد وحثّ على التبصّر والتأمّل.

الفطور: جمع **فَطْر** (بفتح الفاء وسكون الطاء)، وهو الشق والصدع، أي: لا يسعك إلّا أن تعترف بانتفاء

الفطور في نظام السماوات، فتراها ملتئمة محبوكة لا ترى في خلالها انشقاقا، ولذلك كان انفطار السماء وانشقاقها علامة على انقراض هذا العالم ونظامه الشمسي، قال تعالى { وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا } [النبأ:19]، وقوله { إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ } [الانشقاق:1]، وقوله تعالى { إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ } [الانفطار:1].

{ **ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ** } عطفٌ دالٌّ على التراخي الرتبي كما هو شأن (ثُمَّ) في عطف الجمل، فإنّ مضمون الجملة المعطوفة أهم وأدخل في الغرض من مضمون الجملة المعطوف عليها، لأنّ إعادة النظر تزيد العلم بانتفاء التفاوت في الخلق رسوخا ويقينا.

{ **كَرَّتَيْنِ** } تثنية كَرَّة وهي المرّة، وعُبِّر عنها هنا بالكَرَّة مشتقة من (الكَرِّ) وهو العَود لأنّها عود إلى شيء بعد الانفصال عنه. وإيثار لفظ كرّتين في هذه الآية دون مرادفه نحو (مرّتين وتارتين) لأنّ كلمة كرَّة لم يغلب إطلاقها على عدد الاثنين، فكان إيثارها في مقام لا يُراد فيه اثنين <u>أظهر في أنّها مستعملة في مطلق التكرير</u>، وهذا من خصائص الإعجاز. ألا ترى أنّ مقام إرادة عدد الزوج كان مقتضيا تثنية مرة في قوله تعالى { الطَّلاقُ مَرَّتَانِ } [البقرة:229] لأنه أظهر في إرادة العدد، إذ لفظ مرّة أكثر تداولا.

وأصل استعمال التثنية في معنى التكرير أنّهم اختصروا بالتثنية تعداد ذكر الاسم تعدادا مشيرا إلى التكثير. وقريب من هذا القبيل قولهم: وقع كذا غير مرّة، أي مرات عديدة.

الانقلاب: الرجوع، يقال: انقلب إلى أهله، أي: رجع إلى منزله، قال تعالى { وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ } [المطففين:31]. وإيثار فعل { يَنْقَلِبْ } هنا دون: يرجع، لئلّا يلتبس فعل { ارْجِعِ } المذكور قبله. وهذا من خصائص الإعجاز نظير إيثار كلمة { كَرَّتَيْنِ } كما ذكرناه آنفا.

الخاسئ: الخائب، أي: الذي لم يجد ما يطلبه. وتقدّم عند قوله تعالى { فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ } [البقرة:29].

الحسير: الكليل، وهو كَلَل ناشئ عن قوّة التأمّل والتحديق مع التكرير، أي: يرجع البصر غير واجد في خلق الله أيّ فطور.

{ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ } [5].

انتقل من دلائل انتفاء الخلل عن خلقه السماوات، إلى بيان ما في إحدى السماوات من إتقان الصنع، فهو ممّا شمله عموم الإتقان في خلق السماوات السبع، وذِكْره من ذكر بعض أفراد العام، كذِكر المثال بعد القاعدة الكليّة. فدقائق السماء الدنيا أوضح دلالة على إتقان الصنع لكونها نصب أعين المخاطبين، ولأنّ من بعضها يحصل تخلُّص إلى التحذير من حيل الشياطين وسوء عواقب أتباعهم.

{ **وَلَقَدْ** } تأكيد الخبر بـ (قد) لأنّه نتيجة الاستفهام التقريري المؤكد بـ (هل) أخت (قد) في الاستفهام.

{ **زَيَّنَّا** } ذكر التزيين إدماج للامتنان في أثناء الاستدلال، أي: زيّنّاها لكم، مثل الامتنان في قوله تعالى { وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ } [النحل:6]. والمقصد: التخلُّص إلى ذكر رجم الشياطين ومنه إلى وعيدهم ووعيد متّبعيهم.

{ **السَّمَاءَ الدُّنْيَا** } تقدّم الكلام على السماء الدنيا، ولماذا وصفت بالدنيا، وعن الكواكب في [الصافات:6].

{ **بِمَصَابِيحَ** } سُمِّيت النجوم هنا مصابيح على التشبيه على حسن المنظر، فهو تشبيه بليغ. والتنكير للتعظيم.

الرجوم: جمع رجم وهو اسم لما يُرجم به، أي: ما يرمي به الرامي من حجر ونحوه، تسمية للمفعول بالمصدر مثل الخلق بمعنى المخلوق في قوله تعالى { هَذَا خَلْقُ اللَّهِ } [لقمان:11].

والذي جُعل رجوما للشياطين هو بعض النجوم التي تبدو مضيئة ثم تلوح منقضَّة، وتُسمَّى الشهب، ومضى القول عليها في [الصافات:10].

{ **لِلشَّيَاطِينِ** } هي التي تسترق السمع فتطردها الشهب، كما تقدّم في [الصافات:10].

{ **وَأَعْتَدْنَا** } أصلها أعددنا أي: هيّأنا، قُلبت الدال الأولى تاء لتقارب مخرجيها ليتأتّى الإدغام طلبا للخفّة.

{ **السَّعِيرِ** } اسم صيغ على مثال فعيل بمعنى مفعول من: سَعَر النار، إذا أوقدها، أي: أعددنا للشياطين عذابَ طبقةٍ أشدّ طبقات النار حرارة وتوقُّدا، فإنّ جهنم طبقات.

{ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } [6].

هذا تتميم لئلّا يُتوهَّم أنّ العذاب أُعِدَّ للشياطين خاصة، والمعنى: ولجميع الذين كفروا بالله عذاب جهنّم، فالمراد عامة المشركين. ولأجل ما في الجملة من زيادة الفائدة غايرت الجملة التي قبلها فلذلك عُطفت عليها. وتقديم المجرور للاهتمام بتعلّقه بالمسند إليه والمبادرة به.

{ **وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** } حال أو معترضة لإنشاء الذمّ، وحُذف المخصوص بالذمّ لدلالة ما قبل { بِئْسَ } عليه. والتقدير: وبئس المصير عذاب جهنّم. والمعنى: بئست جهنّم مصيرا للذين كفروا.

{ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ [7] تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنْ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ [8] قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ كَبِيرٍ [9] }.

{ **إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ، تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنْ الْغَيْظِ** } الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا لبيان ذمّ مصيرهم في جهنم، أي: من جملة مذام مصيرهم مذمّة ما يسمعونه فيها من أصوات مؤلمة مخيفة.

{ **إِذَا** } ظرف متعلق بـ { سَمِعُوا } يدل على الاقتران بين زمن الإلقاء وزمن سماع الشهيق.

الشهيق: تردّد الأنفاس في الصدر لا تستطيع الصعود لبكاء ونحوه، أطلق على صوت التهاب نار جهنّم الشهيق تفظيعا له.

{ **وَهِيَ تَفُورُ** } حال من ضمير { فِيهَا }. و**تفور**: تغلي وترتفع ألسنة لهيبها.

{ **تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ** } خبر ثان عن ضمير { وَهِيَ } مُثّلت حالة فورانها وتصاعد ألسنة لهيبها ورطمها ما فيها والتهام من يلقون إليها، بحال مغتاظ شديد الغيظ لا يترك شيئا ممّا غاظه إلّا سلط عليه ما يستطيع من الأضرار. ونظير هذه الاستعارة قوله تعالى { فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ } [الكهف:77]، إذ مُثِّل الجدار بشخص له إرادة.

{ **تَمَيَّزُ** } أصله تتميَّز، أي: تنفصل، أي: تتجزأ أجزاء، تخييلا لشدّة الاضطراب بأن أجزاءها قاربت أن تتقطّع، وهذا كقولهم: غضب فلان فطارت منه شقة في الأرض وشقة في السماء.

{ **الْغَيْظِ** } أشدّ الغضب.

{ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ، قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ }

أُتبع وصف ما يجده أهل النار عند إلقائهم فيها من فضائع أهوالها بوصف ما يتلقّاهم به خزنة النار.

فالجملة استئناف بياني أثاره وصف النار عند إلقاء أهل النار فيها إذ يتساءل السامع عن سبب وقوع أهل النار فيها فجاء بيانه بأنّه تكذيبهم رسل الله، مع ما انضم إلى ذلك من وصف ندامة أهل النار على ما فرط منهم من تكذيب رسل الله وعلى إهمالهم النظر في الدعوة والتدبّر فيها.

{ **أُلْقِيَ / سَأَلَهُمْ** } جيء بالفعلين ماضيين لأنّ أكثر ما يقع الفعل بعد { كُلَّمَا } أن يكون بصيغة الماضي، لأنّها لمّا شابهت الشرط استوى الماضي والمضارع لظهور أنّه للزمن المستقبل، فأوثر فعل الماضي لأنّه أخف.

الفوج: الجماعة، أي: جماعة ممّن حقّ عليهم الخلود، وتقدّم عند قوله تعالى { وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً } [النمل:83].

{ **سَأَلَهُمْ / يَأْتِكُمْ** } جيء بالضمائر العائدة إلى الفوج ضمائر جمع لتأويل الفوج بجماعة أفراده، كما في قوله تعالى { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا } [الحجرات:9].

خزنة النار: الملائكة الموكل إليهم أمر جهنّم، وهو جمع **خازن**: للموكل بالحفظ. وأصل الخازن: الذي يخزن شيئا، أي: يحفظه في مكان حصين، فإطلاقه على الموكلين مجاز مرسل.

{ **أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ** } بيان لجملة { سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا }. والاستفهام للتوبيخ والتنديم ليزيدهم حسرة.

النذير: المنذر، أي: رسول منذر بعقاب الله.

{ **قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ** } معترضة بين كلام خزنة جهنم اعتراضا

يشير إلى أنّ الفوج قاطع كلام الخزنة بتعجيل الاعتراف بما وبّخوهم عليه، وذلك من شدّة الخوف.
وفصلت الجملة لوجهين؛ لأنّها اعتراض، ولوقوعها في سياق المحاورة. وكان جوابهم جواب المتحسّر المتندِّم، فابتدأوا الجواب دفعة بحرف (بلى) المفيد نقيض النفي في الاستفهام، فهو مفيد معنى: جاءنا نذير. ولذلك كان قولهم { قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ } مؤكِّدا لما دلّت عليه { بَلَى } ، وهو من تكرير الكلام عند التحسّر، مع زيادة التحقيق بـ { قَدْ } وذلك التأكيد هو مناط الندامة والاعتراف بالخطأ.
{ **إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ** } الأظهر أنّها بقية كلام خزنة جهنّم، فَصل بينها وبين ما سبقها من كلامهم اعتراض جواب الفوج الموجَّه إليهم الاستفهام التوبيخي، كما ذكرناه آنفا، ويؤيِّد هذا إعادة فعل القول في حكاية بقية كلام الفوج في قوله تعالى { وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ }، لانقطاعه بالاعتراض الواقع خلال حكايته.

{ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ } [10].

أعيد فعل القول للإشارة إلى أنّ هذا كلام آخر غير الذي وقع جوابا على سؤال خزنة جهنم، وإنّما هذا قول قالوه في مجامعهم في النّار تحسُّرا وتندُّما، فهو من قبيل قوله تعالى { حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا } [الأعراف:38].
{ **لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ** } يريدون سمعا خاصا وعقلا خاصا، فانتفاء السمع بإعراضهم عن تلقِّي دعوة الرسل مثل ما حكى الله عن المشركين { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ } [فصلت: 26]، وانتفاء العقل بترك التدبّر في آيات الرسل ودلائل صدقهم فيما يدعون إليه.
ولا شك أنّ أقل الناس عقلا المشركون لأنّهم طرحوا ما هو سبب نجاتهم لغير معارض يعارضه في دينهم، إذ ليس في دين أهل الشرك وعيد على ما يخالف الشرك من معتقدات، ولا على ما يخالف أعمال أهله من الأعمال، فكان حكم العقل قاضيا بأن يتلقّوا ما يدعوهم إليه الرسل من الإنذار للامتثال، إذ لا معارض له في دينهم لولا الإلف والتكبّر.
ويؤخذ في هذه الآية أنّ قوام الصلاح في حسن التلقّي وحسن النظر، وأنّ الأثر والنظر، أي: القياس، هما أصلا الهدى.
{ **نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ** } ووجه تقديم السمع على العقل، لأنّ العقل بمنزلة الكلي والسمع بمنزلة الجزئي، ورعيا للترتيب الطبيعي لأنّ سمع دعوة النذير هو أوّل ما يتلقّاه المنذَرون، ثم يُعمِلون عقولهم في التدبير فيها.
{ **أَوْ** } للتقسيم، وهو تقسيم باعتبار نوعي الأحوال التي تقتضي حسن الاستماع تارة إذا ألقي إليها إرشاد، وحسن التفهّم والنظر تارة إذا دعيت إلى النظر من داع غير أنفسها، أو من دواعي أنفسها، قال تعالى { الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ } [الزمر:18].

{ **فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ** } [11].

السُّحق: اسم مصدر معناه البعد، وهو هنا نائب عن الإسحاق لأنّه دعاء بالإبعاد، فهو مفعول مطلق نائب عن فعله، أي: أسحقهم الله إسحاقا، ويجوز أن يراد من هذا الدعاء التعجّب من حالهم كما يقال: قاتله الله.

{ **فَسُحْقاً** } الفاء للتسبُّب، أي: فهم جديرون بالدعاء عليهم بالإبعاد أو جديرون بالتعجّب من بعدهم عن الحق أو عن رحمة الله تعالى. ويحتمل أيضا أن يقال لهم ذلك يوم الحساب عقب اعترافهم، تنديما يزيدهم ألما في نفوسهم فوق ألم الحريق في جلودهم.

{ **لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ** } يعمّ المخاطبين بالقرآن وغيرهم، فكان هذا الدعاء بمنزلة التذييل لما فيه من العموم تبعا للجمل التي قبله.

{ **إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ** } [12].

اعتراض يفيد استئنافا بيانيا جاء على سَنن أساليب القرآن من تعقيب الرهبة بالرغبة، فلمّا ذُكر ما أعِدَّ للكافرين المعرضين عن خشية الله أعقبه بما أعدّ للذين يخشون ربّهم بالغيب من المغفرة والثواب، للعلم بأنّهم يترقَّبون ما يميّزهم عن أحوال المشركين.

{ **لَهُمْ مَغْفِرَةٌ** } قدَّم المغفرة تطمينا لقلوبهم لأنّهم يخشون المؤاخذة على ما فرط منهم من الكفر قبل الإسلام ومن اللمم ونحوه، ثم أُعقبت بالبشارة بالأجر العظيم، فكان الكلام جاريا على قانون تقديم التخلية، أو تقديم دفع الضرّ على جلب النفع. وتقديم المسند على المسند إليه ليأتي تنكير المبتدأ، ولإفادة الاهتمام، وللرعاية على الفاصلة وهي نكت كثيرة. والتنكير للتعظيم.

{ **وَأَجْرٌ كَبِيرٌ** } الكبير هنا بمعنى العظيم، نظير ما تقدّم آنفا في قوله تعالى { إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ} [9].

{ **وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** [13] **أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** [14] }.

عطف على الجملة السابقة عطف غرض على غرض، وهو انتقال إلى غرض آخر لمناسبة حكاية أقوالهم في الآخرة بذكر أقوالهم في الدنيا، وهي الأقوال التي كانت تصدر منهم بالنيل من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان الله يُطلع رسوله على أقوالهم فيخبرهم النبيّ صلى الله عليه وسلم بها، فقال بعضهم لبعض: أسرُّوا قولكم كي لا يسمعه ربّ محمد، فأنزل الله { وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ }، كذا روي عن ابن عباس.

{ **وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ** } صيغة الأمر مستعملة في التسوية، كقوله تعالى { فَاصْبِرُوا أَوْ لا

تَصْبِرُوا } [الطور:16]، وهذا غالب أحوال صيغة افعل إذا جاءت معها (أو).

{ **إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** } تعليل للتسوية المستفادة من صيغة الأمر بقرينة المقام وسبب النزول، أي: فسواء في علم الله الإسرار والإجهار لأنّ علمه محيط بما يختلج في صدور الناس بله ما يسرُّون به من الكلام، ولذلك جيء بوصف { عَلِيمٌ }، إذ العليم من أمثلة المبالغة وهو القويّ علمه.

{ **ذَاتِ الصُّدُورِ** } ما يتردّد في النفس من الخواطر والتقادير والنوايا على الأعمال.

{ **أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ** } استئناف بياني ناشئ عن قوله تعالى { إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } بأن يسأل سائل منهم: كيف يعلم ذات الصدور، والمعروف أنّ ما في نفس المرء لا يعلمه غير نفسه؟ فأجيبوا بأنّه خالق أصحاب تلك الصدور، فكما خلقهم وخلق نفوسهم جعل اتصالا لتعلّق علمه بما يختلج فيها، وليس ذلك بأعجب من علم أصحاب الصدور بما يدور في خلدها.

فالآية دليل على عموم علمه تعالى، ولا دلالة فيها على أنّه تعالى خالق أفعال العباد، للانفكاك الظاهر بين تعلّق العلم وتعلّق القدرة.

{ **وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** } الأحسن أن تُجعل عطفا على جملة { أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ } لتفيد تعليما للناس بأنّ علم الله محيط بذوات الكائنات وأحوالها، فبعد أن أنكر ظنّهم انتفاء علم الله بما يسرُّون، أعلمهم أنّه يعلم ما هو أعم من ذلك وما هو أخفى من الإسرار من الأحوال.

{ **اللَّطِيفُ** } العالم بخبايا الأمور والمدبّر لها برفق وحكمة.

{ **الْخَبِيرُ** } العليم الذي لا تعزب عنه الحوادث الخفيّة التي من شأنها أن يخبر الناس بعضهم بعضا بحدوثها، فلذلك اشتق هذا الوصف من مادة الخبر، وتقدّم عند قوله تعالى { لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ } [الأنعام:103]، وعند قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ } [لقمان:16].

{ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ } [15].

استئناف فيه عود إلى الاستدلال، وإدماج للامتنان، فإنّ خلق الأرض التي تحوي الناس على وجهها أدلّ على قدرة الله تعالى وعلمه من خلق الإنسان إذ ما الإنسان إلّا جزء من الأرض أو كجزء منها، قال تعالى { مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ } [طه:55]، فلمّا ضرب لهم بخلق أنفسهم دليلا على علمه الدال على وحدانيته شفَّعه بدليل خلق الأرض التي هم عليها، مع المِنَّة بأنّه خلقها هيّنة لهم صالحة للسير فيها مخرجة لأرزاقهم، وذُيّل ذلك بأن النشور منها، وأنّ النشور إليه لا إلى غيره.

{ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ** } قصر قلب بتنزيل المخاطبين منزلة من يعتقد أنّ الأصنام خلقت الأرض، لأنّ اعتقادهم إلهيتها يقتضي إلزامهم بهذا الظنّ الفاسد وإن لم يقولوه.

{ **ذَلُولًا** } الذلول من الدواب المنقادة المطاوعة، مشتق من (الذلّ) وهو الهوان والانقياد، فعول بمعنى فاعل يستوي فيه المذكر والمؤنث، وتقدّم في قوله تعالى { إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ } [البقرة:71].

استعير الذلول للأرض في تذليل الانتفاع بها مع صلابة خلقها تشبيها بالدابة المسوسة المرتاضة.

المناكب: تخييل للاستعارة لزيادة بيان تسخير الأرض للناس، فإنّ المنكب هو ملتقى الكتف مع العضد، جعل المناكب استعارة لأطراف الأرض أو لسعتها.

{ **فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا** } صيغة الأمر مستعملة في معنى الإدامة تذكيرا بما سخَّر الله لهم من المشي في الأرض امتنانا بذلك.

{ **وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ** } مناسبته أنّ الرزق من الأرض. والأمر مستعمل في الإدامة أيضا للامتنان، وبذلك تمت استعارة الذلول للأرض، لأنّ فائدة تذليل الذلول ركوبها والأكل منها. فالمشي على الأرض شبيه بركوب الذلول، والأكل ممّا تنبته الأرض شبيه بأكل الأنعام. وجمع المناكب تجريد للاستعارة لأنّ الذلول لها منكبان والأرض ذات متسعات كثيرة.

{ **وَإِلَيْهِ النُّشُورُ** } تتميم وزيادة عبر، استطراد لمناسبة ذكر الأرض فإنّها مثوى الناس بعد الموت. والتعريف للجنس فيعمُّ، أي: كلّ نشور، ومنه نشور المخاطبين فكان قوله تعالى { وَإِلَيْهِ النُّشُورُ } بمنزلة التذييل.

{ أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ } [16].

انتقال من الاستدلال إلى التخويف، لأنّه لمّا تقرَّر أنّه خالق الأرض ومذلِّلها للناس، وتقرَّر أنّهم ما رعوا خالقها حقَّ رعايته فقد استحقُّوا غضبه وتسليط عقابه بأن يصير مشيهم في مناكب الأرض إلى تجلجل في طبقات الأرض. فالجملة معترضة والاستفهام إنكار وتوبيخ وتحذير.

{ **مَنْ فِي السَّمَاءِ** } اسم موصول وصلته صادق على موجود ذي إدراك كائن في السماء. وظاهر وقوع هذا الموصول عقب جمل { هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً - إلى قوله - وَإِلَيْهِ النُّشُورُ } [15] أنّ الإتيان بالموصول من قبيل الإظهار في مقام الإضمار، وأنّ مقتضى الظاهر أن يقال: أأمنتموه أن يخسف بكم الأرض، فيتأتّى أنّ الإتيان بالموصول لما تؤذن به الصلة من عظيم تصرّفه في العالم العلوي الذي هو مصدر القوى والعناصر وعجائب الكائنات، فيصير قوله تعالى { مَنْ فِي السَّمَاءِ } من قبيل المتشابه الذي يعطي ظاهره معنى الحلول في مكان، وذلك لا يليق بالله.

وقد أولوه بمعنى: من في السماء عذابه أو قدرته أو سلطانه، على نحو تأويل قوله تعالى { وَجَاءَ رَبُّكَ } [الفجر:22] وأمثاله، وخُصّ ذلك بالسماء لأنّ إثباته لله تعالى ينفيه عن أصنامهم.

ولكن هذا الموصول غير مكين في باب المتشابه لأنّه مجمل قابل للتأويل بما يحتمله { مَنْ } أن يكون ما

صدقه مخلوقات ذات إدراك مقرّها السماء وهي الملائكة، فيصح أن تصدق (مَنْ) على طوائف من الملائكة الموكلين بالأمر التكويني في السماء والأرض، قال تعالى { يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ } [الطلاق:12]. ويصحّ أن يراد باسم الموصول مَلَك واحد معيّن وظيفته فعل هذا الخسف، فقد قيل: إنّ جبريل هو الملك الموكل بالعذاب.

وإسناد فعل { يَخْسِفَ } إلى الملائكة أو إلى واحد منهم حقيقة لأنّه فاعل الخسف، قال تعالى حكاية عن الملائكة { قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ - إلى قوله - إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ} [العنكبوت:31-41]. والمعنى: توبيخهم على سوء معاملتهم ربّهم كأنّهم آمنون من أن يأمر الله ملائكته بأن يخسفوا الأرض بالمشركين.

الخسف: انقلاب ظاهر السطح من بعض الأرض باطنا وباطنه ظاهرا، وهو شدّة الزلزال. وفعل خسف يستعمل قاصرا ومتعدّيا وهو من باب ضرب، وتقدّم عند قوله تعالى { أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ } [النحل:45].

{ **فَإِذَا هِيَ تَمُورُ** } فُرّع على الخسف المهدَّد به أن تمور الأرض، تفريع الأثر على المؤثِّر، لأنّ الخسف يُحدث المور، فإذا خُسفت الأرض فاجأها المور لا محالة، لكن نظم الكلام جرى على ما يناسب جعل التهديد بمنزلة حادث وقع فلذلك جيء بعده بالحرف الدال على المفاجأة لأنّ حق المفاجأة أن تكون حاصلة زمن الحال لا الاستقبال.

المور: الارتجاج والاضطراب، وتقدّم في قوله تعالى { يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً } [الطور:9].

{ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ } [17].

{ **أَمْ** } لإضراب الانتقال من غرض إلى غرض، وهو انتقال من الاستفهام الإنكاري التعجيبي إلى آخر مثله باعتبار اختلاف الأثرين الصادرين عن مفعول الفعل المستفهم عنه، اختلافا يوجب تفاوتا بين كنهي الفعلين وإن كانا متّحدين في الغاية، فالاستفهام الأوّل إنكار على أمنهم الذي في السماء من أن يفعل فعلا أرضيا.

والاستفهام الواقع من { أَمْ } إنكار عليهم أن يأمنوا من أن يُرسَل عليهم من السماء حاصب، وذلك أمكن لمن في السماء وأشدّ وقعا على أهل الأرض.

{ **مَنْ فِي السَّمَاءِ** } تقدّم في الآية قبلها ما يُغني.

{ **أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا** } إرسال الحاصب غير مخبر بحصوله وإلّا لَمَا تخلَّف لأنّ خبر الله لا يتخلّف، وإنّما هو تهديد وتحذير، فإنّهم ربّما آمنوا وأقلعوا فسلموا من إرسال الحاصب عليهم، ولكن لمّا أريد تحقيق هذا التهديد شُبّه بالأمر الذي وقع فكان تفريع صيغة الإخبار على هذا مؤذنا بتشبيه المهدّد به بالأمر الواقع على طريقة التمثيلية المكنية، وجملة { فَسَتَعْلَمُونَ } قرينتها، لأنّها من روادف المشبّه به.

{ **فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ** } تفريع على الاستفهام الإنكاري كتفريع جملة { فَإِذَا هِيَ تَمُورُ }، أي: فحين يُخسف بكم أو يُرسل عليكم حاصب تعلمون كيف نذير.

{ **كَيْفَ نَذِيرِ** } استفهام معلّق فعل (تعلمون) عن العمل، وهو استفهام للتهديد والتهويل، والجملة مستأنفة.

{ **نَذِيرِ** } حُذفت ياء المتكلّم تخفيفا وللرعي على الفاصلة. والنذير مصدر بمعنى الإنذار.

وقُدِّم التهديد بالخسف على التهديد بالحاصب لأنّ الخسف من أحوال الأرض، والكلام على أحوالها أقرب هنا، ولأنّ إرسال الحاصب عليهم جزاء على كفرهم بنعمة الله التي منها رزقهم في الأرض المشار إليه بقوله تعالى { وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ } [15].

{ **وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ** } [18].

بعد أن وجَّه الله إليهم الخطاب تذكيرا واستدلالا وامتنانا وتهديدا وتهويلا ابتداء من قوله تعالى { وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ } [13] التفت عن خطابهم إلى الإخبار عنهم بحالة الغيبة، تعريضا بالغضب عليهم بما أتوه من تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم، فكانوا جديرين بإبعادهم عن الحضور للخطاب، ومع ذلك لم يقطع توجيه التذكير إليهم والوعيد لعلَّهم يتدبّرون في أنّ الله لم يدَّخرهم نصحا.

فالجملة عطف على جملة { أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا } [17] لمناسبة أنّ ممّا عُوقب به بعض الأمم المكذِّبين من خسف أو إرسال حجارة من السماء، وهم قوم لوط، ومنهم من خُسف بهم مثل أصحاب الرسّ.

ضرب الله لهم مثلا بأمم من قبلهم كذَّبوا الرسل فأصابهم من الاستئصال ما قد علموا أخباره لعلَّهم أن يتّعظوا بقياس التمثيل إن كانت عقولهم لم تبلغ درجة الانتفاع بأقيسة الاستنتاج، فإنّ المشركين من العرب عرفوا آثار عاد وثمود وتناقلوا أخبار قوم نوح وقوم لوط وأصحاب الرسّ.

{ **فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ** } فُرّع استفهاما تقريريا وتنكيريا، وهو كناية عن تحقيق وقوعه وأنّه وقع في حال فظاعة.

{ **نَكِيرِ** } ياء المتكلّم محذوفة تخفيفا. والمعنى: كيف رأيتم أثر نكيري عليهم؟ فاعلموا أن نكيري عليكم صائر بكم إلى مثل ذلك.

{ **أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ**} [19].

عطف على جملة { هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا } [15] استرسالا في الدلائل على انفراد الله تعالى بالتصرّف في الموجودات، وقد انتقل من دلالة أحوال البشر وعالمهم، إلى دلالة أحوال العجماوات، وهي

أحوال الطير في نظام حركاتها في حال طيرانها.

{ **أَوَلَمْ يَرَوْا** } الاستفهام إنكاري، نزلوا منزلة من لم ير هاته الأحوال في الطير لأنّهم لم يعتبروا بها ولم يهتدوا إلى دلالتها على انفراد خالقها بالإلهية.

واشتمل التذكير بعجيب خلقة الطير في طيرانها على ضرب من الإطناب لأنّ الأوصاف الثلاثة المستفادة من قوله تعالى { فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ } تصوّر صورة حركات الطيران للسامعين فتنبّههم لدقائق ربّما أغفلهم عن تدقيق النظر فيها نشأتهم بينها.

وهذا الإطناب مخالف لما في نظير هذه الآية في قوله تعالى { أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ } [النحل:79]. وذلك بحسب ما اقتضاه اختلاف المقامين، فسورة النحل نزلت قبل سورة الملك، فلما أوقِظت عقولهم فيها للنظر إلى ما في خلقة الطير من الدلائل فلم يتفطّنوا سُلك في هذه السورة مسلك الإطناب بزيادة ذكر أوصاف ثلاثة:

<u>الوصف الأول</u>: { **فَوْقَهُمْ** } فإنّ جميع الدواب تمشي على الأرض والطير كذلك، فإذا طار الطائر انتقل إلى حالة عجيبة مخالفة لبقية المخلوقات وهي السير في الجو بواسطة تحريك جناحيه، وذلك سرُّ قوله تعالى { يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ } [الأنعام:38] بعد قوله تعالى { وَلا طَائِرٍ }، لقصد تصوير تلك الحالة.

<u>الوصف الثاني</u>: { **صَافَّاتٍ** } وهو وصف بوزن اسم الفاعل مشتق من الصفِّ، وهو كون أشياء متعددة متقاربة الأمكنة وباستواء، وهو قاصر ومتعدٍّ، يقال: صَفُّوا بمعنى اصطفُّوا، ويقال: صفَّهم إذا جعلهم مستوين في الموقف. كما حكى الله عن الملائكة { وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ } [الصافات:165].

وعن ابن عباس في الجنائز: " مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقبر منبوذ ... فصفَّنا خلفه وكبّر ". فالطائر إذا طار بسط جناحيه فظهر ريشه مصطفًّا، فكان ذلك الاصطفاف من أثر فعل الطير فوُصفت به، وتقدّم عند قوله تعالى { وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ } [النور:41].

<u>الوصف الثالث</u>: { **يَقْبِضْنَ** }، والقبض ضدّ البسط. والمراد به هنا ضدّ الصف المذكور قبله، ومفعوله المحذوف هنا هو عين المحذوف في المعطوف عليه، أي: قابضات أجنحتهن حين يدنينها من جنوبهن.

{ **مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ** } مبيّنة لجملة { أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ } وما فيها من استفهام إنكار، أي: كان حقّهم أن يعلموا أنّهنّ ما يمسكهن إلّا الرحمان، إذ لا ممسك لها ترونه، كقوله تعالى { وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ } [الحج:65].

ومعنى إمساك الله إيّاها: حفظها من السقوط على الأرض بما أودع في خلقتها من الخصائص في خفّة عظامها وقوّة حركة الجوانح، وما خلقه من شكل أجسادها المُعين على نفوذها في الهواء، فإنّ ذلك كلّه بخلق الله إيّاها مانعا لها من السقوط.

{ **الرَّحْمَنُ** } إيثار هذا اسم هنا دون الاسم العلم بخلاف ما في سورة النحل { أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ } [79]، لعلّه للوجه الذي ذكرناه آنفا في خطابهم بطريقة الإطناب، لأنّه

من جملة عنادهم إنكارهم اسم (الرحمان) فلمّا لم يرعووا عمّا هم عليه ذُكر وصف (الرحمان) في هذه السورة أربع مرّات.

{ **إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ** } تعليل لمضمون {مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ}، أي: أمسكهنّ الرحمان لعموم علمه وحكمته، ولا يمسكهنّ غيره لقصور علمه أو انتفائه.

والقصر الإضافي المستفاد من تقديم { بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ } على متعلّقه هو قصر قلب ردا على من يزعمون أنّه لا يعلم كل شيء، كالذين قيل لهم { وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ } [13].

البصير: العليم، مشتق من البصيرة، فهو هنا غير الوصف الذي هو من الأسماء الحسنى في نحو: السميع البصير، وإنّما هو هنا من باب قولهم: فلان بصير بالأمور، وقوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} [غافر:44]، فهو خبر لا وصف ولا مُنَزَّل منزلة الاسم.

{ **أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ** } [20].

(**أَمْ**) منقطعة وهي للإضراب الانتقالي من غرض إلى غرض، فبعد استيفاء غرض إثبات الإلهية الحقّ لله تعالى بالوحدانية وتذكيرهم بأنّهم مفتقرون إليه، انتقل إلى إبطال أن يكون أحد يدفع عنهم العذاب الذي توعَّدهم الله به، فوُجِّه إليهم استفهام أن يدلُّوا على أحد من أصنامهم أو غيرها يقال فيه: هذا هو الذي ينصر من دون الله، فإنّهم غير مستطيعين تعيين أحد لذلك.

وهذا الكلام ناشئ عن قوله تعالى { أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ } [16]، فهو مثله معترض بين حجج الاستدلال. والاستفهام المصرّح به بعد (أَمْ) مستعمل في التعجيز عن التعيين فيؤول إلى الانتفاء.

{ **أَمَّنْ** } كتب في المصحف بميم واحدة بعد الهمزة وهما ميم (أم) وميم (من) المدغمتين بجعلهما كالكلمة الواحدة، كما كتب { عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ } [النبأ:1]، ولا تقرأ إلّا بميم مشدّدة، إذ المعتبر في قراءة القرآن الرواية دون الكتابة، وإنّما يكتب القرآن للإعانة على مراجعته.

{ **هَذَا** } الإشارة مشار بها إلى مفهوم { جُنْدٌ } مفروض في الأذهان استُحضر للمخاطبين، فجُعل كأنّه حاضر في الخارج يشاهده المخاطَبون، فيطلب المتكلِّمُ منهم تعيينه، وقريب من ذلك قوله تعالى { مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ } [البقرة:255].

{ **الَّذِي هُوَ جُنْدٌ** } صفة لاسم الإشارة، و { لَكُمْ } صفة لـ { جُنْدٌ }، و{ يَنْصُرُكُمْ } جملة في موضع الحال من { جُنْدٌ } أو صفة ثانية.

ويجوز أن يكون اسم الإشارة مشارا به إلى جماعة الأصنام المعروفة عندهم الموضوعة في الكعبة وحولها الذي اتخذتموه جندا، فمن هو حتى ينصركم من دون الله. فتكون (من) استفهامية مستعملة في التحقير، واسم الإشارة صفة لاسم الاستفهام مبيّنة له.

{ **مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ** } اعتراض، يجوز أن يكون ظرفا مستقرّا في موضع الحال من الضمير المستتر في

{ يَنْصُرُكُمْ }. أي: مَن مستطيع غير الله يدفع عنكم السوء، على نحو قوله تعالى { أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا } [الانبياء: 43]، فتكون { مِنْ } زائدة مؤكِّدة للظرف، وهي تزاد مع الظروف غير المتصرّفة.
{ **الرَّحْمَنِ** } التكرير عقب الآية السابقة للوجه الذي ذكرنا في إيثار هذا الوصف هناك.
{ **إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ** } تذييل، أي: ذلك شأن الكافرين كلّهم، وهم أهل الشرك من المخاطبين وغيرهم، أي: في غرور من الغفلة عن توقّع بأس الله تعالى، أو في غرور من اعتمادهم على الأصنام كما غرّ الأمم السالفة دينهم بأنّ الأوثان تنفعهم وتدفع عنهم العذاب فلم يجدوا ذلك منهم وقت الحاجة، فكذلك سيقع لأمثالهم، قال تعالى { وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا } [محمد:10]، وقوله تعالى { أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ } [القمر:43].
{ **الْكَافِرُونَ** } التعريف للاستغراق. وليس المراد به كافرون معهودون حتّى يكون من وضع المظهر موضع الضمير.
{ **فِي** } الظرفية مجازية مستعملة في شدّة التلبس بالغرور حتّى كأنّ الغرور محيط بهم إحاطة الظرف.
الغرور: ظنّ النفس وقوع أمر نافع لها بمخائل تتوهَّمها، وهو بخلاف ذلك أو هو غير واقع. وتقدم في قوله تعالى { لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ } [آل عمران:196]، وقوله تعالى { يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا } في [الأنعام: 112]، وقوله تعالى { فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا } [فاطر:5].
<u>المعنى</u>: ما الكافرون في حال من الأحوال إلّا في حال الغرور، وهذا قصر إضافي لقلب اعتقادهم أنّهم في مأمن من الكوارث بحماية آلهتهم.

{ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ } [21].
{ **أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ** } انتقال آخر، والكلام على أسلوب قوله تعالى { أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ } [20]، وهذا الكلام ناظر إلى قوله تعالى { وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ } [15] على طريقة اللف والنشر المعكوس.
{ **الَّذِي يَرْزُقُكُمْ** } جيء بالصلة فعلا مضارعا لدلالته على التجدّد، لأنّ الرزق يقتضي التكرار إذ حاجة البشر إليه مستمرّة.
الرزق: ما ينتفع به الناس، ويُطلق على المطر، وعلى الطعام، كما تقدّم في قوله تعالى { وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً } [آل عمران:37].
{ **أَمْسَكَ رِزْقَهُ** } الضميران عائدان إلى لفظ { الرَّحْمَنِ } من قوله تعالى { مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ } [20].
{ **بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ** } استئناف بياني وقع جوابا عن سؤال ناشئ عن الدلائل والقوارع والزواجر والعظات والعبر المتقدّمة ابتداء من قوله تعالى { الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ } [2] إلى هنا، فيُقدّر سائل أن

يقول: لعلَّهم نفعتهم الآيات والنذر، واعتبروا بالآيات والعبر، فأجيب بإبطال ظنّه بأنّهم لجّوا في عتوّ ونفور.

{ **بَلْ** } للإضراب أو الإبطال عمّا تضمَّنه الاستفهامان السابقان، أو للانتقال من غرض التعجيز إلى الإخبار عن عنادهم.

{ **لَجُّوا** } يقال: لجّ في الخصومة، أي: اشتد في النزاع والخصام، أي: استمروا على العناد.

العُتوّ: التكبّر والطغيان.

النفور: الاشمئزاز من الشيء والهروب منه.

المعنى: اشتدّوا في الخصام متلبسين بالكبر عن اتباع الرسول حرصا على بقاء سيادتهم، وبالنفور عن الحق لكراهية ما يخالف أهواءهم وما ألفوه من الباطل.

{ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } [22].

هذا مثل ضربه الله للكافرين والمؤمنين أو لرجلين: كافر ومؤمن، لأنّه جاء مفرَّعا على قوله تعالى { إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ } [20] وقوله تعالى { بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ } وما اتصل به من الكلام الذي سيق مساق الحجّة عليهم بقوله تعالى { أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ } [20]، وقوله تعالى {أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ } [21].

وذلك ممّا اتفق عليه المفسّرون على اختلاف مناحيهم ولكن لم يعرّج أحد منهم على بيان كيف يتعيَّن التمثيل الأول للكافرين والثاني للمؤمنين حتّى يظهر وجه إلزام الله المشركين بأنّهم أهل المثل الأوّل مثل السوء، فإذا لم يتعيّن ذلك من الهيئة المشبّهة لم يتّضح إلزام المشركين بأنّ حالهم حال التمثيل الأوّل، فيخال كلٌّ من الفريقين أنّ خصمه هو مضرب المثل السوء. ويُتوهَّم أنّ الكلام ورد على طريقة الكلام المنصف نحو قوله تعالى { وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } [سبأ:24]، وذلك ينبو عنه المقام هنا لأنّ الكلام هنا وارد في مقام المحاجّة والاستدلال، وهنالك في مقام المتاركة أو الاستنزال.

والذي انقدح لي: أنّ التمثيل جرى على تشبيه حال الكافر والمؤمن بحالة مشي إنسان مختلفة، وعلى تشبيه الدين بالطريق المسلوكة كما يقتضيه قوله تعالى {عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }. فلا بد من اعتبار مشي المُكِب على وجهه مشيا على صراط معوجّ.

{ **يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ** } تشبيه لحال المشركين في تقسّم أمره بين الآلهة طلبا للذي ينفعه منها، بحال السائر قاصدا أرضا معيّنة ليس لها طريق جادة فهو يتتبّع طرقا ملتوية وتلتبس عليه ولا يوقن بالطريقة التي تبلِّغ إلى مقصده فيبقى حائرا متوسّما يتعرّف آثار أقدام الناس وأخفاف الإبل.

{ **أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً** } تشبيه لحال الذي آمن بربٍّ واحد، الواثق بنصر ربه وتأييده وبأنّه مصادف للحقّ، بحال الماشي في طريق جادة واضحة لا ينظر إلّا إلى اتجاه وجهه، فهو مستو في سيره.

وقد حصل في الآية إيجاز حذف إذ استغني عن وصف الطريق بالالتواء في التمثيل الأوّل لدلالة مقابلته بالاستقامة في التمثيل الثاني.

المُكِب: اسم فاعل من أكبَّ، إذا صار ذا كَبٍّ، فالهمزة فيه أصلها لإفادة المصير في الشيء مثل همزة: أقشع السحاب، إذا دخل في حالة القشع، ومنه قولهم: أنفض القوم إذا هلكت مواشيهم، وأرملوا إذا فني زادهم، وهي أفعال قليلة فيما جاء فيه المجرّد متعدّيا والمهموز قاصرا.

{ **أَهْدَى** } مشتقّ من الهدى، وهو معرفة الطريق وهو اسم تفضيل مسلوب المفاضلة لأنّ الذي يمشي مكبا على وجهه لا شيء عنده من الاهتداء، فهو من باب قوله { قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ } [يوسف: 33]. ومثل هذا لا يخلو من تهكّم أو تمليح بحسب المقام.

السَّويّ: شديد الاستواء، فعيل بمعنى فاعل، قال تعالى { أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيًّا } [مريم:43].

{ **قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ** } [23].

هذا انتقال من توجيه الله تعالى الخطاب إلى المشركين للتبصير بالحجج والدلائل، وما تخلَّل ذلك من الوعيد أو التهديد، إلى خطابهم على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ما سيُذكر، تفنّنا في البيان وتنشيطا للأذهان، حتّى كأنّ الكلام صدر من قائلَين، وترفيعا لقدر نبيّه صلى الله عليه وسلم بإعطائه حظًّا من التذكير معه، كما قال تعالى { فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ } [الدخان: 58].

والانتقال هنا إلى الاستدلال بفروع المخلوقات بعد الاستدلال بأصولها، ومن الاستدلال بفروع أعراض الإنسان بعد أصلها، فمن الاستدلال بخلق السماوات والأرض والموت والحياة، إلى الاستدلال بخلق الإنسان ومداركه.

{ **قُلْ هُوَ** } سيُتبع هذا الأمر بالقول بخمسةٍ مثلِه بطريقة التكرير بدون عاطف اهتماما بما بعد كلّ أمر من مقالة يُبلِّغها إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم. والضمير {هو} عائد إلى الرحمان من قوله تعالى { مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ } [20].

{ **هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ** } إلى آخره، قصر إفراد بتنزيل المخاطبين، لشركهم، منزلة من يعتقد أنّ الأصنام شاركت الله في الإنشاء وإعطاء الإحساس والإدراك.

الإنشاء: الإيجاد.

{ **السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ** } إفراد { السَّمْعَ } لأنّ أصله مصدر، أي: جعل لكم حاسَّة السمع، وأمّا { الْأَبْصَارَ } فهو جمع البصر بمعنى العين، وقد تقدّم وجه ذلك عند قوله تعالى { خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ } [البقرة:7].

{ **الأفئدة** } القلوب، والمراد بها العقول، وهو إطلاق شائع في استعمال العرب.

{ **قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ** } حال من ضمير المخاطَبين، أي: أنعم عليكم بهذه النعم في حال إهمالكم شكرها.

{ **قَلِيلًا** } في معنى النفي والعدم. وهذا الإطلاق من ضروب الكناية والاقتصاد في الحكم على طريقة التمليح، وتقدّم عند قوله تعالى { فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ } [البقرة:88]، وقوله تعالى { فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا } [النساء: 46].

{ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } [24].

{ قُلْ } إعادة فعل الأمر من قبيل التكرير المشعر بالاهتمام بالغرض المسوقة فيه تلك الأقوال.

الذرء: الإكثار من الموجود، فهذا أخصّ من قوله تعالى { هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ }، أي: هو الذي كثَّركم على الأرض، كقوله تعالى { هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا }، أي: أعمركم إيّاها.

{ **هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ** } القول في صيغة القصر مثل القول في قوله تعالى { هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ } [23].

{ **وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** } أي: بعد أن أكثركم في الأرض فهو يزيلكم بموت الأجيال، فكُنِّي عن الموت بالحشر، لأنّهم قد علموا أنّ الحشر الذي أُنذِروا به لا يكون إلّا بعد البعث والبعث بعد الموت.

وقد أُدمج في ذلك تذكيرهم بالموت الذي قد علموا أنّه لابد منه، وإنذارهم بالبعث والحشر.

وتقديم المعمول للاهتمام والرعاية على الفاصلة، وليس للاختصاص لأنّهم لم يكونوا يدَّعون الحشر أصلا فضلا عن أن يدّعوه لغير الله.

{ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [25] قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ [26] }.

لمّا لم تكن لهم معارضة للحجّة التي في قوله تعالى {هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ - إلى قوله - هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ } [24/23] انحصر عنادهم في مضمون قوله تعالى { وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } [24]، فإنّهم قد جحدوا البعث وأعلنوا بجحده وتعجَّبوا من إنذار القرآن به، وقال بعضهم لبعض { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ } [سبأ:7-8]، وكانوا يقولون { وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [سبأ:29] واستمروا على قوله، فلذلك حكاه الله عنهم بصيغة المضارع المقتضية للتكرير.

{ **الْوَعْدُ** } مصدر بمعنى اسم المفعول، أي: متى هذا الوعد؟ فيجوز أن يراد به الحشر المستفاد من قوله تعالى { وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } [24]، فالإشارة إليه بقوله { هَذَا } ظاهرة، ويجوز أن يراد به وعد آخر بنصر المسلمين، فالإشارة إلى وعيد سمعوه.

{ **مَتَى هَذَا الْوَعْدُ** } الاستفهام مستعمل في التهكّم لأنّ من عادتهم أن يستهزئوا بذلك، قال تعالى { فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ } [الاسراء:51].

{ **إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } ضمير الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين لأنّهم يلهجون بإنذارهم بيوم الحشر، وتقدّم نظيره في [سبأ:29].

{ **قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ** } أمر الله رسوله بأن يجيب سؤالهم على ظاهر الاستفهام عن وقت الوعد، بأن وقت هذا الوعد لا يعلمه إلا الله. وذلك على خلاف مرادهم، على طريقة الأسلوب الحكيم

{ **الْعِلْمُ** } لام التعريف للعهد، وهي عوض عن المضاف إليه، أي: العلم بهذا الوعد. وهذا قصر حقيقي.

{ **وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ** } قصر إضافي، أي: ما أنا إلّا نذير بوقوع هذا الوعد لا علم لي بوقته.

المبين: اسم فاعل من أبان المتعدِّي، أي: مبين لما أمرت بتبليغه.

{ **فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ** } [27].

{ **فَلَمَّا** } الفاء فصيحة لأنّها اقتضت جملة محذوفة تقديرها: فحلّ بهم الوعد فلمّا رأوه ...، و(**لَمَّا**) حرف توقيت، أي: سيئت وجوههم في وقت رؤيتهم الوعد.

{ **رَأَوْهُ** } الفعل مستعمل في المستقبل، وجيء به بصيغة الماضي لشبهه بالماضي في تحقُّق الوقوع، مثل قوله تعالى { أَتَى أَمْرُ اللَّهِ } [النحل:1]، لأنّه صادر عمّن لا إخلاف في أخباره، فإنّ هذا الوعد لم يكن قد حصل حين نزول الآية بمكّة سواء أريد بالوعد الوعد بالبعث كما هو مقتضى السياق أم أريد به وعد النصر، بقرينة قوله تعالى { وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [25]، فإنّه يقتضي أنّهم يقولونه في الحال وأنّ الوعد غير حاصل حين قولهم لأنّهم يسألون عنه بـ { مَتَى }.

ونظير هذا الاستعمال قوله تعالى { فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً } [النساء:41]، وقوله تعالى { وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاءِ} [النحل: 89]، إذ جمع في الآيتين بين فعل { نَبْعَثُ } مضارعا وفعل { وَجِئْنَا } ماضيا.

<u>وأصل المعنى</u>: فإذا يرونه تُساء وجوه الذين كفروا، فعدل عن ذلك إلى صوغ الوعيد في صورة الإخبار عن أمر وقع فجيء بالأفعال الماضية.

وضمير { رَأَوْهُ } عائد إلى { الْوَعْدُ } [25]، بمعنى: رأوا الموعود به.

الزُّلْفة: (بضم الزاي) اسم مصدر زَلِف إذا قرب. وهذا إخبار بالمصدر للمبالغة، أي: رأوه شديد القرب منهم، أي: أخذ ينالهم.

{ **سِيئَتْ** } بني للنائب، أي: ساء وجوههم ذلك الوعد. وأسند حصول السوء إلى الوجوه لتضمينه معنى كلحت، أي: سوء شديد تظهر آثار الانفعال منه على الوجوه.

{ **وَقِيلَ** } أي: لهم. والقائل ملائكة المحشر أو خزنة جهنّم، فعدل عن تعيين القائل، إذ المقصود المقول دون القائل، فالحذف من الإيجاز.

{ **تَدَّعُونَ** } بتشديد الدال مضارع ادَّعى. وقد حذف مفعوله لظهوره من قوله تعالى { وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [25]، أي: تدَّعون أنّه لا يكون.

{ **بِهِ تَدَّعُونَ** } تقديم المجرور على العامل للاهتمام بإخطاره وللرعاية على الفاصلة.

{ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** } [28].

هذا تكرير ثانٍ لفعل { قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ } [23].

كان من بذاءة المشركين أن يجهروا بتمنّي هلاك رسول الله صلى الله عليه وسلم وهلاك من معه من المسلمين، وقد حكى القرآن عنهم { أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ } [الطور:30]، وحكى عن بعضهم { وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ } [التوبة:98]، وكانوا يتآمرون على قتله، قال تعالى { وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ } [الأنفال:30]، فأمره الله بأن يعرّفهم حقيقة تدحض أمانيَّهم، وهي أنّ موت أحد أو حياته لا يغني عن غيره ما جرَّه إليه عمله، وقد جرَّت إليهم أعمالهم غضب الله ووعيده فهو نائلهم حيي الرسول صلى الله عليه وسلم أو بادره المنون، قال تعالى { فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ، أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ } [الزخرف:41-42]، وقال تعالى { وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ } [الانبياء:34]، وقال تعالى { إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ } [الزمر:30]، أي: المشركين، وقد تكرر هذا المعنى وما يقاربه في القرآن.

فقد يكون نزول الآيات السابقة صادف مقالة من مقالاتهم هذه فنزلت هذه الآية في أثنائها، وقد يكون نزولها لمناسبة حكاية قولهم { مَتَى هَذَا الْوَعْدُ } [25] بأن قارنه كلام بذيء، مثل أن يقولوا: أَبَعْدَ هلاكك يأتي الوعد.

{ **أَرَأَيْتُمْ** } الاستفهام إنكاري أنكر اندفاعهم إلى أمنيات ورغائب لا يجتنون منها نفعا ولكنّها ممّا تمليه عليهم النفوس الخبيثة من الحقد والحسد. والرؤيا علمية، وفعلها معلَّق عن العمل فلذلك لم يرد بعده مفعولاه، فتقدير الكلام: أرأيتم أنفسكم ناجين من عذاب أليم إن هلكت وهلك من معي، فهلاكنا لا يدفع عنكم العذاب.

الإهلاك: الإماتة، ومقابلة { أَهْلَكَنِيَ } بـ { رَحِمَنَا } يدلّ على أنّ المراد: أو رحمنا بالحياة، فيفيد أنّ الحياة رحمة، وأن تأخير الأجل من النعم.

{ **مَنْ مَعِيَ** } معيّة مجازية، وهي الموافقة والمشاركة في الاعتقاد والدين، كما في قوله تعالى { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ } [الفتح: 29]، وقوله تعالى { وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ } [التحريم:8].

{ **أَوْ رَحِمَنَا** } سمَّى الحياة رحمة له ولمن معه، لأنّ في حياته نعمة له وللناس ما دام الله مقدِّرا حياته، وحياة المؤمن رحمة لأنّه تكثر له فيها بركة الإيمان والأعمال الصالحة.

{ **فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** } الاستفهام إنكاري، أي: لا يجيرهم منه مجير، أي: أظننتم أن تجدوا مجيرا لكم إذا هلكنا، فذلك متعذِّر فماذا ينفعكم هلاكنا.

{ **الْكَافِرِينَ** } جميع الكافرين فيشمل المخاطبين.

{ **عَذَابٍ أَلِيمٍ** } هو ما عُبِّر عنه بالوعد في الآية قبلها. وتنكير { عَذَابٍ } للتهويل.

{ **قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ** } [29].

هذا تكرير ثالث لفعل { قُلْ } من قوله تعالى { قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ } [23].

وجاء هذا الأمر بقول يقوله لهم بمناسبة قوله تعالى { أَوْ رَحِمَنَا } [الملك: 28] فإنّه بعد أن سوَّى بين فرض إهلاك المسلمين وإحيائهم في أنّ أيّ الحالين فُرض لا يجيرهم معه أحد من العذاب، أعقبه بأنّ المسلمين آمنوا بالرحمان، فهم مظنّة أن تتعلَّق بهم هذه الصفة فيرحمهم الله في الدنيا والآخرة، فيعلم المشركون علم اليقين أيّ الفريقين في ضلال حين يرون أثر الرحمة على المسلمين وانتفاءه عن المشركين في الدنيا وخاصة في الآخرة.

{ **هُوَ** } ضمير عائد إلى الله تعالى الواقع في الجملة قبله، أي: الله هو الذي وَصْفُهُ { الرَّحْمَنُ } فهو يرحمنا، وأنّكم أنكرتم هذا الاسم فأنتم أحرياء بأن تُحرموا آثار رحمته.

وبهذه التوطئة يقع الإيماء إلى جانب المهتدي والجانب الضال من قوله تعالى { فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ } لأنّه يظهر بادئ تأمّل أنّ الذين في ضلال مبين هم الذين جحدوا وصف { الرَّحْمَنُ }.

{ **عَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا** } تقديم المعمول لإفادة الاختصاص، أي: توكَّلنا عليه دن غيره تعريضا بمخالفة حال المشركين إذ توكَّلوا على أصنامهم، أو نسوا التوكُّل على الله باشتغالهم بالتوجّه إلى الأصنام.

وإنّما لم يقدَّم معمول { آمَنَّا } عليه فلم يقل: به آمنا، لأنّه لم يكن المقصود في إيراده نفي الإشراك وإثبات التوحيد، إذ الكلام في الإهلاك والإنجاء المعبَّر عنه بـ { رَحِمَنَا }، فجيء بجملة { آمَنَّا } على أصل مجرّد معناها دون قصد الاختصاص، بخلاف قوله تعالى { وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا } لأن التوكل يقتضي منجيا وناصرا، والمشركون متوكِّلون على أصنامهم وقوَّتهم وأموالهم، فقيل: نحن لا نتَّكل على ما أنتم متوكِّلون عليه، بل على الرحمان وحده توكَّلنا.

{ **فَسَتَعْلَمُونَ** } معلق عن العمل لمجيء الاستفهام بعده.

{ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ** } [30].

إيماء إلى أنّهم يترقَّبهم عذاب الجوع بالقحط والجفاف، فإنّ مكة قليلة المياه ولم تكن بها عيون ولا آبار قبل زمزم، كما دلّ عليه خبر تعجّب القافلة من جرهم التي مرت بموضع مكة حين أسكنها إبراهيم عليه السلام هاجر بابنه إسماعيل ففجر الله لها زمزم، ولمحت القافلة الطير تحوم حول مكانها فقالوا: ما عهدنا

بهذه الأرض ماء. ثم حفر ميمون بن خالد الحضرمي بأعلاها بئرا تسمى (بئر ميمون) قُبيل البعثة، وكانت بها بئر أخرى تُسمَّى (الجَفر) لبني تيم بن مُرَّة، وبئر تُسمَّى (الجَم) ذكرها ابن عطية، ولعلّ هاتين البئرين الأخيرتين لم تكونا في عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم. فماء هذه الآبار هو الماء الذي أنذروا بأنّه يصبح غورا.

وهذا الإنذار نظير الواقع في قوله تعالى { إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ - إلى قوله - لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [القلم:17-33].

الغور: مصدر غارت البئر، إذا نزح ماؤها فلم تنله الدلاء. وأصل الغور: ذهاب الماء في الأرض.

{ **فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ** } استفهام إنكاري، أي: لا يأتيكم أحد بماء معين، أي: غير الله.

وقد أصيبوا بقحط شديد بعد خروج النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وهو المشار إليه في سورة الدخان. ومن المعلوم أنّ انحباس المطر يتبعه غور مياه الآبار لأنّ استمدادها من الماء النازل على الأرض، قال تعالى { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ } [الزمر:21].

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة القلم

سُمِّيت هذه السورة في معظم التفاسير وفي صحيح البخاري سورة (**نُ وَالْقَلَمِ**) على حكاية اللفظين الواقعين في أوّلها.

وترجمها الترمذي في جامعه وبعض المفسّرين سورة (**ن**) بالاقتصار على الحرف المفرَد الذي افتتحت به مثلما سُمِّيت سورة (ص) وسورة (ق).

وفي بعض المصاحف سُمِّيت (**سورة وَالْقَلَمِ**)، وكذلك رأيت تسميتها في مصحف مخطوط بالخط الكوفي في القرن الخامس.

وهي مكية، قال ابن عطية: لا خلاف في ذلك بين أهل التأويل.

وذكر القرطبي عن الماوردي: أنّ ابن عباس وقتادة قالا: أوّلها مكي، وفي الإتقان عن السخاوي أن بعض آياتها مدنيّ.

وهذه السورة عدّها جابر بن زيد **ثانية السور نزولا،** قال: نزلت بعد (سورة العلق) وبعدها (سورة المزمل) ثمّ (سورة المدّثر)، والأصحّ حديث عائشة أنّ أوّل ما أُنزل سورة العلق ثم فتر الوحي ثم نزلت سورة المدّثر.

وفي تفسير القرطبي: أنّ معظم السورة نزل في الوليد بن المغيرة وأبي جهل.

واتفق العادون على عدِّ **آيها اثنتين وخمسين.**

أغراض السورة

*/ الإيماء بالحرف الذي في أوّلها إلى تحدّي المعاندين بالتعجيز عن الإتيان بمثل سور القرآن وهذا أوّل التحدّي الواقع في القرآن إذ ليس في سورة العلق ولا في المزمل ولا في المدّثر إشارة إلى التحدّي.

*/ ابتُدئت بخطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم تأنيسا له وتسلية عمّا لقيه من أذى المشركين.

*/ إبطال مطاعن المشركين في النبيّ صلى الله عليه وسلم.

*/ إثبات كمالاته في الدنيا والآخرة وهديه وضلال معانديه وتثبيته.

*/ حكمة الله تعالى في تعليم الإنسان الكتابة، فتضمّن تشريف حروف الهجاء والكتابة والعلم لتهيئة الأمّة لخلع دثار الأمّيّة عنهم وإقبالهم على الكتابة والعلم لتكون الكتابة والعلم سببا لحفظ القرآن.

*/ ثمّ أنحى على زعماء المشركين مثل أبي جهل والوليد بن المغيرة بمذمَّات كثيرة وتوعَّدهم بعذاب الآخرة وببلايا في الدنيا بأن ضرب لهم مثلا بمن غرّهم عزُّهم وثراؤهم، فأزال الله ذلك عنهم وأباد نعمتهم.

*/ أنّ آلهتهم لا يغنون عنهم شيئا من العذاب في الدنيا ولا في الآخرة.
*/ قابل ذلك بحال المؤمنين المتّقين وأنّ الله اجتباهم بالإسلام.
*/ وعظهم بأنَّ ما هم فيه من النعمة استدراج وإملاء جزاء كيدهم. وأنّهم لا معذرة لهم فيما قابلوا به دعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم من طغيانهم، ولا حرج عليهم في الإنصات إليها.
*/ أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالصبر في تبليغ الدعوة وتلقّي أذى قومه، وأن لا يضجر في ذلك ضجرا عاتب الله عليه نبيّه يونس عليه السلام.

{ نُ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ [1] مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ [2] وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ [3] وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ [4] }.

{ **نُ** } افتتاح هذه السورة بأحد حروف الهجاء جار على طريقة أمثالها من فواتح السور ذوات الحروف المقطّعة المُبيَّنة في سورة البقرة، وهذه أوّل سورة نزلت مفتتحة بحرف مُقطّع من حروف الهجاء.
ورسموا حرف { نُ } بصورته التي يرسم بها في الخط، وهي مسمًّى اسمه الذي هو (نون) بنون بعدها واو ثم نون. وكان القياس أن تُكتب الحروف الثلاثة لأنّ الكتابة تبع للنطق والمنطوق به هو اسم الحرف لا ذاته.
وإنّما يُقرأ باسم الحرف لا بهجائه كما تقدّم في أوّل سورة البقرة.
{ **وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ** } يجري القَسَم هنا على سَنن الأقسام الصادرة في كلام الله تعالى أن تكون بأشياء معظَّمة دالة على آثار صفات الله تعالى.
{ **الْقَلَمِ** } المقسَم به، قيل: هو ما يُكَنَّى عنه بالقلم من تعلُّق علم الله بالموجودات الكائنة والتي ستكون، أو هو كائن غيبي لا يعلمه إلّا الله. وعن مجاهد وقتادة: أنّه القلم الذي في قوله تعالى { الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ } [العلق:5/4].
قلتُ: وهذا هو المناسب لقوله تعالى { وَمَا يَسْطُرُونَ } في الظاهر، وهو الذي يقتضيه حال المشركين المقصودين بالخطاب الذين لا يعرفوا إلّا القلم الذي هو آلة الكتابة.
ومن فوائد هذا القَسَم أنّ هذا القرآن كتاب الإسلام، وأنّه سيكون مكتوبا مقروءا بين المسلمين، ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه بكتابة ما يوحى به إليه. وتعريف { الْقَلَمِ } تعريف الجنس.
فالقَسَم بالقلم لشرفه بأنه يُكتب به القرآن وكُتبت به الكتب المقدسة وتكتب به كتب التربية ومكارم الأخلاق والعلوم وكل ذلك ممّا له حظ شرف عند الله تعالى. وهذا يرجِّحه أنّ الله نوّه بالقلم في أوّل سورة نزلت من القرآن الكريم { اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ } [العلق:3-5].
{ **مَا يَسْطُرُونَ** } هي السطور المكتوبة بالقلم. ويجوز أن يكون قَسَمًا بالأقلام التي يُكتب بها الوحي النازل على الرسول صلى الله عليه وسلم، { وَمَا يَسْطُرُونَ } قَسَمًا بكتابتهم، فيكون قسما بالقرآن.

{ **يَسْطُرُونَ** } مضارع سَطَرَ، يقال: سطر إذا كتب كلمات عدّة تحصل منها صفوف من الكتابة. وأصله مشتق من السطر وهو القطع، لأنّ صفوف الكتابة تبدو كأنّها قِطَع.

ومن فسّر { الْقَلَمِ } بمعنى تعلّق علم الله تعالى بما سيكون جعل ضمير { يَسْطُرُونَ } راجعا إلى الملائكة فيكون السطر رمزا لتنفيذ الملائكة ما أمر الله بتنفيذه حين تلقّي ذلك، أي: يكتبون ذلك للعمل به أو لإبلاغه من بعضهم إلى بعض على وجه لا يقبل الزيادة ولا النقصان، فشُبِّه ذلك الضبط بضبط الكاتب.

وأوثر القسم بالقلم والكتابة للإيماء إلى أنّ باعث الطاعنين على الرسول صلى الله عليه وسلم واللامزين له بالجنون، إنّما هو ما أتاهم به من الكتاب.

{ **مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ** } المقسَم عليه نفي أن يكون النبيّ صلى الله عليه وسلم مجنونا، والخطاب له بهذا تسلية له لئلّا يُحزنه قول المشركين لمّا دعاهم إلى الإسلام: هو مجنون، وذلك ما شافهوا به النبيّ صلى الله عليه وسلم وحكاه الله عنهم في آخر هذه السورة { وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ } [51].

والمقصود من نفي الجنون عنه إثبات ما قصد المشركون نفيه وهو أن يكون رسولا من الله لأنّهم لمّا نفوا عنه صفة الرسالة وضعوا موضعها صفة الجنون، فإذا نفي ما زعموه فقد ثبت ما ادّعاه.

{ **بِنِعْمَةِ رَبِّكَ** } جملة معترضة والباء متعلّقة بمحذوف يدلّ عليه المقام، وتقديره: أنّ ذلك بنعمة ربّك. وتقدّم نظيره في قوله تعالى { فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا َمَجْنُونٍ } [الطور:29].

{ **وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ** } لمّا ثبّت الله رسوله صلى الله عليه وسلم فدفع بهتان أعدائه أعقبه بإكرامه بأجر عظيم على ما لقيه من المشركين، مؤكدا ذلك بحرف { إِنَّ } وبلام الابتداء وبتقديم المجرور. وهذا الأجر هو ثواب الله في الآخرة وعناية الله به ونصره في الدنيا.

{ **مَمْنُونٍ** } يجوز أن يكون مشتقًّا من مَنَّ المعطِي على المعطَى إذا عَدَّ عليه عطاءه وذكره له. والمَنّ من الأذى، قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى } [البقرة:264].

ويجوز أن يكون مشتقًّا من قولهم: مَنَّ الحبلَ، إذا قطعه. أي: أجرا غير مقطوع عنك، وهو الثواب المتزايد كلّ يوم، أو أجرا أبديا في الآخرة. ولهذا كان لإيثار كلمة { مَمْنُونٍ } هنا من الإيجاز بجمع معنيين بخلاف قوله تعالى { عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ } [هود:108]، لأنّ ما هنا تكرمة للرسول صلى الله عليه وسلم.

{ **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ** } بعد أن آنس نفس رسوله صلى الله عليه وسلم بالوعد عاد إلى تسفيه قول الأعداء فحقَّق أنه متلبّس بخلق عظيم وذلك ضدّ الجنون.

{ **عَلَى** } للاستعلاء المجازي المراد به التمكّن، كقوله تعالى { إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ } [النمل:79]، وقوله تعالى { إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } [الزخرف:43]، وقوله تعالى { إِنَّكَ لَعَلَى هُدىً مُسْتَقِيمٍ } [الحج:67].

الخُلق: طباع النفس، وأكثر إطلاقه على طباع الخير إذا لم تُتبع بنعت، وقد تقدّم عند قوله تعالى { إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ } [الشعراء:137].

العظيم: رفيع القدر، وهو مستعار من ضخامة الجسم، وشاعت هذه الاستعارة حتّى ساوت الحقيقة.

وفي حديث عائشة: " أنّها سُئلت عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: كان خلقه القرآن ".

أي: ما تضمّنه القرآن من إيقاع الفضائل والمكارم والنهي عن أضدادها.

<u>الخلق العظيم</u>: واعلم أنّ جماع الخلق العظيم، الذي هو أعلى الخلق الحسن، هو التديّن، ومعرفة الحقائق، وحلم النفس، والعدل، والصبر على المتاعب، والاعتراف للمحسن، والتواضع، والزهد، والعفّة، والعفو، والجود، والحياء، والشجاعة، وحسن الصمت، والتؤدة، والوقار، والرحمة، وحسن المعاملة والمعاشرة.

والأخلاق كامنة في النفس ومظاهرها تصرّفات صاحبها في كلامه، وطلاقة وجهه، وثباته، وحكمه، وحركته وسكونه، وطعامه وشرابه، وتأديب أهله ومَن لنظره، وما يترتَّب على ذلك من حرمته عند الناس وحسن الثناء عليه والسمعة.

وأمّا مظاهرها في رسول الله صلى الله عليه وسلم ففي ذلك كلّه، وفي سياسته أمّته.

{ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُون [5] بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ [6] }.

الفاء للتفريع على قوله تعالى { مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ } [2]، باعتبار ما اقتضاه قوله تعالى { بِنِعْمَةِ رَبِّكَ } من إبطال مقالة قيلت في شأنه، قالها أعداؤه في الدين، ابتدأ بإبطال بهتانهم، وفُرِّع عليه أنَّهم إذا نظروا الدلائل وتوسَّموا الشمائل علموا أيّ الفريقين المفتون؛ أهم مفتونون بالانصراف عن الحقّ والرشد، أم هو باختلال العقل كما اختلقوا.

{ **وَيُبْصِرُونَ** } هو المقصود ولكن أدمج فيه قوله تعالى { فَسَتُبْصِرُ } ليتأتّى بذكر الجانبين إيقاعُ كلامٍ منصف، أي: داع إلى الإنصاف، على طريقة قوله تعالى { وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ } [سبأ:24]، لأنّ القرآن يبلغ مسامعهم ويُتلى عليهم.

{ **فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُون** } بمعنى البصر الحسِّي. وروي عن ابن عباس: أنّ معناه فستعلم ويعلمون، فجعله مثل استعمال فعل الرؤيا في معنى الظنّ، فلعلّه أراد تفسير حاصل المعنى.

<u>فالمعنى</u>: سترى ويرون رأي العين أيّكم المفتون، <u>فإذا كان بمعنى العلم</u> فإنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قد رأى ذلك، فالسين في قوله تعالى { فَسَتُبْصِرُ } للتأكيد، وأمّا المشركون فسيرون ذلك، أي يعلمون آثار فتونهم وذلك فيما يرونه يوم بدر ويوم الفتح.

<u>وإن كان بمعنى البصر الحسِّي</u> فالسين والتاء في كلا الفعلين للاستقبال.

{ **يُبْصِرُونَ** } الضمير عائد إلى معلوم مقدّر عند السامع وهم المشركون القائلون: هو مجنون.

{ **بِأَييِّكُمُ** } و(أَيْ) اسم مبهم يُتعرَّف بما يضاف هو إليه، ويظهر أنّ مدلوله فرد أو طائفة متميّز، فهذا

مدلوله في جميع مواقعه. وله مواقع كثيرة في الكلام، فقد يُشرب معنى الموصول، ومعنى الشرط، ومعنى الاستفهام، ومعنى التنويه بكامل، ومعنى المعرّف بـ (ال) إذا وصل بندائه. وهو في جميع ذلك يفيد شيئا متميّزا عما يشاركه في طائفته المدلولة بما أضيف هو إليه.

{ **بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ** } معناه: أيُّ رجل، أو أيُّ فريق منكم المفتون. فـ (أي) في موقعه هنا اسم في موقع المفعول لـ { فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُون }، أو متعلّق به تعلّق المجرور.

وقد تقدّم استعمال (أَيْ) في الاستفهام عند قوله تعالى { فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ } [الأعراف:185].

{ **الْمَفْتُونُ** } اسم مفعول وهو الذي أصابته فتنة، فيجوز أن يراد بها الجنون، فإنّ الجنون يُعدّ في كلام العرب من قبيل الفتنة، يقولون للمجنون: فتنته الجنّ، ويجوز أن يراد ما يصدق على المضطرب في أمره، المفتون في عقله حيرة وتقلقلا. وتكون الباء في قوله { بِأَييِّكُمُ } على هذا الوجه مزيدة لتأكيد تعلّق الفعل بمفعوله، والأصل: أيّكم المفتون. ويجوز أن تكون الباء للظرفية. والمعنى: في أيّ الفريقين منكم يوجد المجنون، فيكون تعريضا بأبي جهل والوليد ابن المغيرة وغيرهما من مدبري السوء على دهماء قريش بهذه الأقوال.

{ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } [7].

تعليل لجملة { فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُون، بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ } باعتبار ما تضمَّنته تلك من التعريض بأنّ الجانب المفتون هو الجانب الضال عن سبيل الله. وعموم من ضل عن سبيله وعموم المهتدين يجعل هذه الجملة، مع كونها كالدليل، هي أيضا من التذييل.

وهذا الانتقال تضمّن وعدا ووعيدا، بإضافة السبيل إلى الله، ومقابلة من ضلَّ عنه بالمهتدين. وهو بعد هذا كلّه تمهيد وتوطئة لقوله تعالى { فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ } [8].

{ فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ [8] وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ [9] }.

تفريع على الآية السابقة ، باعتبار ما تضمَّنته من أنّه على هدى، وأنّ الجانب الآخر في ضلال السبيل، فإنّ ذلك يقتضي المشادّة معهم وأن لا يلين لهم في شيء، فإنّ أذاهم إيّاه آلَ إلى محاربة الحق والهدى، وتصلبٍ فيما هم عليه من الضلال عن سبيل الله فلا يستأهلون به لينا ولكن يستأهلون إغلاظا.

روي عن الكلبي وزيد بن أسلم والحسن بألفاظ متقاربة تحوم حول أنّ المشركين ودُّوا أن يمسك النبيّ صلى الله عليه وسلم عن مجاهرتهم بالتضليل والتحقير فيمسكوا عن أذاه، ويصانع بعضهم بعضا فنهاه الله عن إجابتهم لما ودُّوا.

الطاعة: قَبول ما يُبتغى عمله، ووقوع فعل { تُطِعِ } في حيز النهي يقتضي النهي عن جنس الطاعة لهم فيعمّ كل إجابة لطلب منهم، فالطاعة هنا مراد بها المصالحة والملاينة، كما في قوله تعالى { فَلا تُطِعِ

الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً } [الفرقان:52]، أي: لا تلن لهم.
{ **الْمُكَذِّبِينَ** } اختير تعريفهم بوصف المكذِّبين دون غيره من طرق التعريف لأنّه بمنزلة الموصول في الإيماء إلى وجه بناء الحكم، وهو حكم النهي عن طاعتهم فإنّ النهي عن طاعتهم لأنّهم كذَّبوا رسالته.
{ **وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ** } بيان لمتعلّق الطاعة المنهي عنها، ولذلك فُصلت ولم تعطف.
{ **وَدُّوا** } أحبُّوا. وليس المراد أنّهم ودُّوا ذلك في نفوسهم فأطلعَ الله عليه رسوله صلى الله عليه وسلم لعدم مناسبته لقوله تعالى { فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ }. وورد في كتب السيرة أنّ المشركين تقدّموا للنبيّ صلى الله عليه وسلم بمثل هذا العرض ووسَّطوا في ذلك عمَّه أبا طالب وعتبة بن ربيعة.
{ **تُدْهِنُ** } من الإدْهان وهو الملاينة والمصانعة، وحقيقة الفعل أن يُجعل لشيء دهنا إمّا لتليينه وإمّا لتلوينه، ومن هذين المعنيين تفرَّعت معاني الإدهان. أي: ودُّوا منك لو تواجههم بحسن المعاملة فيواجهونك بمثلها.

{ **وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ** } [10].
إعادة فعل النهي عن الطاعة لمن هذه صفاتهم للاهتمام بهذا الأدب فلم يُكتفَ بدخول أصحاب هذه الأوصاف في عموم المكذِّبين، ولا بتخصيصهم بالذكر بمجرد عطف الخاص على العام بأن يقال: ولا كلّ حلّاف، بل جيء في جانبهم بصيغة نهي أخرى مماثلة للأولى. وليفيد تسليط الوعيد الخاص، وهو في مضمون قوله تعالى { سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ } [16]، على أصحاب هذه الصفات الخاصة زيادة على وعيد المكذِّبين.
{ **كُلَّ** } موضوعة لإفادة الشمول والإحاطة لأفراد الاسم التي تضاف هي إليه، فهي هنا تفيد النهي العام عن طاعة كلّ فرد من أفراد أصحاب هذه الصفات التي أضيف إليها { كُلَّ } بالمباشرة وبالنعوت.
ولا يفهم منه أنّ النهي منصبّ إلى طاعة من اجتمعت فيه هذه الصفات، بل المراد النهي عن طاعة كلّ موصوف بخصلة من هذه الخصال بله من اجتمع له عدة منها.
قال جمع من المفسّرين: المراد بـ { حَلَّافٍ مَهِينٍ } الوليد بن المغيرة، وقال بعضهم: الأخنس بن شريق، وقال آخرون: الأسود بن عبد يغوث، ومن المفسِّرين من قال المراد: أبو جهل.
وإنّما عنوا أنّ المراد التعريض بواحد من هؤلاء، وإلّا فإن لفظ { كُلَّ }، المفيد للعموم، لا يسمح بأن يراد النهي عن واحد معيّن، وأمّا هؤلاء فلعلّ أربعتهم اشتركوا في معظم هذه الأوصاف فهم ممّن أريد بالنهي عن إطاعته ومن كان على شاكلتهم من أمثالهم.
وذكرت عشر خلال من مذامهم التي تخلّقوا بها:
{ **حَلَّافٍ** } المكثر من الأيمان على وعوده وأخباره، وأحسب أنّه أريد به الكناية عن عدم المبالاة بالكذب وبالأيمان الفاجرة، فجُعلت صيغة المبالغة كناية عن تعمّد الحنث.

{ **مَهِينٍ** } هذه خصلة ثانية. نعت لـ { حَلَّافٍ }، وكذلك بقية الصفات إلى { زَنِيمٍ } [13]، فهو نعت مستقل. وبعضهم جعله قيدا لـ { حَلَّافٍ } وفسر المَهين بالكذَّاب، أي: في حلفه. والراجح عدم التقييد.

المَهين: (بفتح الميم) فعيل من **مَهُنَ** بمعنى حَقُرَ وذَلَّ، فهو صفة مشبّهة، وهو فعيل بمعنى فاعل. أي: لا تطع الفاجر الحقير. وقد يكون بمعنى ضعيف الرأي والتمييز، وكلّ ذلك من المهانة.

{ **هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ** } [11].

{ **هَمَّازٍ** } كثير الهمزة. وأصل الهمز: الطعن بعود أو يد، وأطلق على الأذى بالقول في الغيبة على وجه الاستعارة وشاع ذلك حتّى صار كالحقيقة، وفي التنزيل { وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ } [الهمزة:1]. وصيغة المبالغة راجعة إلى قوّة الصفة.

{ **مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ** } الذي يَنِمُّ بين الناس، ووصفه بالمشَّاء للمبالغة.

المشي: استعارة لتشويه حاله بأنّه يتجشَّم المشقَّة لأجل النميمة، مثل ذكر السعي في قوله تعالى { وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً } [المائدة: 33]. ذلك أنّ أسماء الأشياء المحسوسة أشدّ وقعا في تصوّر السامع من أسماء المعقولات، فذكر المشي بالنميمة فيه تصوير لحال النمَّام. ويدلّ لذلك أنّه وقع مثله في قول النبيّ صلى الله عليه وسلم " **وأمّا الآخر فكان يمشي بالنميمة** ".

النميم: اسم مرادف للنميمة، وقيل: النميم جمع نميمة، أي: اسم جمع لنميمة إذا أريد بها الواحدة.

{ **مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ** } [12].

{ **مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ** } هذه مذمّة خامسة، والمنّاع: شديد المنع. والخير: من أسماء المال، قال تعالى { وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ } [العاديات:8] وقال تعالى { إِنْ تَرَكَ خَيْراً } [البقرة:180]. أي: شحيح

والمراد بمنع الخير: منعه عمَّن أسلم من ذويهم وأقاربهم، يقول الواحد منهم لمن أسلم من أهله أو مواليه: من دخل منكم في دين محمد لا أنفعه بشيء أبدا، وهذه شنشنة عُرفوا بها من بعد، قال الله تعالى في شن المنافقين { هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا } [المنافقون:7].

وأيضا مِن منعهم للخير أنّ أهل الجاهلية كانوا يعطون العطاء للفخر والسمعة فلا يعطون الضعفاء، قال تعالى { وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ } [الفجر:18]. قيل: كان الوليد ابن المغيرة ينفق في كلّ حجّة عشرين ألفا يطعم أهل منى، ولا يعطي المسكين درهما واحدا.

{ **حَلَّافٍ، هَمَّازٍ، مَشَّاء، مَنَّاعٍ** } روعي تماثل الصيغة وهو ضرب من مُحسِّن الموازنة.

{ **مُعْتَدٍ أَثِيمٍ** } هما مَذمَّتان سادسة وسابعة، قرن بينهما لمناسبة الخصوص والعموم.

الاعتداء: مبالغة في العدوان، فالافتعال فيه للدلالة على الشدّة.

الأثيم: كثير الإثم، فعيل من أمثلة المبالغة، قال تعالى { إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ }

[الدخان:44/43]. والمراد بالإثم هنا ما يُعَدُّ خطيئة وفسادا عند أهل العقول والمروءة وفي الأديان المعروفة.

{ **عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ** } [13].

هما مَذمَّتان ثامنة وتاسعة.

العُتُلّ: (بضمتين وتشديد اللام) اسم وليس بوصف لكنّه يتضمَّن معنى صفة لأنّه مشتقّ من العَتْل (بفتح فسكون)، وهو الدفع بقوّة، قال تعالى { خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ } [الدخان:47]، ولم يُسمع عاتل. وفُسِّر العُتُل بشديد الخلقة، وبالأكول الشروب، وبالغشوم الظلوم، وبكثير اللحم المختال.

وهو على هذا التفسير إتْباع لصفة { مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ } [12]، أي: يمنع السائل ويدفعه ويغلظ له، على نحو قوله تعالى { فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ } [الماعون:2].

{ **بَعْدَ ذَلِكَ** } معترضة، والظرف خبر لمحذوف تقديره: هو بعد ذلك. أي: علاوة على ما عُدِّدَ له من الأوصاف هو سيِّئ الخِلقة سيِّئ المعاملة، فالبعدية هنا بعدية في الارتقاء في درجات التوصيف المذكورة، فمفادها مفاد التراخي الرتبي، كقوله تعالى { وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا } [النازعات:30].

<u>ويجوز</u> اتصال { بَعْدَ ذَلِكَ } بقوله تعالى { زَنِيمٍ } على أنّه حال منها.

الزنيم: اللصيق، وهو من يكون دَعِيًّا في قومه ليس من صريح نسبهم: إمّا بمغمز في نسبه، وإمّا بكونه حليفا في قوم أو مولى، مأخوذ من (الزَّنَمة) وهي قطعة من أذن البعير لا تنزع بل تبقى معلقة بالأذن علامة على كرم البعير. والزنَمتان بُضعتان في رقاب المعز.

<u>قيل</u>: أريد بالزنيم الوليد بن المغيرة لأنّه ادّعاه أبوه بعد ثمان عشرة سنة من مولده.

<u>وقيل</u>: أريد الخنس بن شَريق لأنّه كان من ثقيف محالف قريشا وحل بينهم.

وأيًّا ما كان فإنّ المراد به خاص، فدخوله في المعطوف على ما أضيف إليه { كُلَّ } [10]، إنّما هو على فرض وجود أمثال هذا الخاص وهو ضرب من الرمز كما يقال: ما بال أقوام يعملون كذا، ويُراد واحد معيّن

{ **أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ** [14] **إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ** [15] }.

يتعلّق القول بفعل { قَالَ } بتقدير لام التعليل محذوفة قبل { أَنْ }. والمراد: كلّ من كان ذا مال وبنين من كبراء المشركين، كقوله تعالى { وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ } [المزمل:11]. وقيل: أريد به الوليد بن المغيرة إذ هو الذي أختلق أن يقول في القرآن { أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ }. وكان الوليد بن المغيرة ذا سعة من المال كثير الأبناء وهو المعني بقوله تعالى { ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً، وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً، وَبَنِينَ شُهُوداً - إلى قوله - إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ } [المدثر:11-25].

والوجه أن لا يختصّ هذا الوصف به، وأن يكون تعريضا به.
الأساطير: جمع أسطورة وهي القصّة، والأسطورة كلمة معرّبة عن الرومية كما تقدّم عند قوله تعالى { يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } [الأنعام:25].
وخُتمت الأوصاف المحذَّر عن إطاعة أصحابها بوصف التكذيب ليُرجع إلى صفة التكذيب التي انتُقل الأسلوب منها من قوله تعالى { فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ } [8].

{ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ } [16].

استئناف بياني جوابا لسؤال ينشأ عن الصفات الذميمة التي وصفوا بها أن يسأل السامع: ما جزاء أصحاب هذه الأوصاف من الله على ما أتوه من القبائح والاجتراء على ربّهم؟
{ **سَنَسِمُهُ** } ضمير المفرد الغائب عائد إلى كلّ حلّاف باعتبار لفظه وإن كان معناه الجماعات، فإفراد ضميره كإفراد ما أضيف إليه { كُلَّ } [10] من الصفات التي جاءت بحالة الإفراد.
المعنى: سنسم كل هؤلاء على الخراطيم، وقد علمت آنفا أن ذلك تعريض بمعيّن بصفة قوله { أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}، وبأنه ذو مال وبنين. ومعظم المفسّرين على أنّ المعني بهذا الوعيد هو الوليد بن المغيرة.
{ **الْخُرْطُومِ** } أريد به الأنف. والظاهر أنّ حقيقة الخرطوم الأنف المستطيل كأنف الفيل والخنزير ونحوهما. وقال الزمخشري: وفي لفظ الْخُرْطوم استخفاف وإهانة، يقتضي أن إطلاقه على أنف الإنسان مجاز مرسل.
الوَسْم: للإبل ونحوها، جُعل سِمة لها أنّها من مملوكات القبيلة أو المالك المعيّن.
{ **سَنَسِمُهُ** } تمثيل تتبعه كناية عن التمكّن منه وإظهار عجزه. فالمعنى: سنعامله معاملة يعرف بها أنه عبدنا وأنهّ لا يغني عنه ماله وولده منا شيئا.
وذكر الخرطوم فيه جمع بين التشويه والإهانة فإنّ الوسم يقتضي التمكّن وكونه في الوجه إذلالا وإهانة، وكونه على الأنف أشد إذلالا. والتعبير عن الأنف بالخرطوم تشويه، والضرب والوسم ونحوهما على الأنف كناية عن قوة التمكّن وتمام الغلبة وعجز صاحب الأنف عن المقاومة لأنّ الأنف أبرز ما في الوجه وهو مجرى النفس، ولذلك غلب ذكر الأنف في التعبير عن إظهار العزة في قولهم: شمخ بأنفه، وهو أشمُّ الأنف. وعُبِّر عن ظهور الذلة والاستكانة بكسر الأنف، وجدعه، ووقوعه في التراب في قولهم: رغم أنفه.
وقيل: هذا وعيد بتشويه أنفه يوم القيامة، مثل قوله { يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ } [آل عمران: 106]. وجُعل تشويهه يومئذ في أنفه لأنّه إنّما بالغ في عداوة الرسول والطعن في الدين بسبب الأنفة والكبرياء.

{ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ [17] وَلا يَسْتَثْنُونَ [18] فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ [19] فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ [20] فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ [21] أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ [22] فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ [23] أَنْ لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ [24] وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ [25] }.

{ **بَلَوْنَاهُمْ** } ضمير الغائبين يعود إلى { الْمُكَذِّبِينَ } في قوله تعالى { فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ } [8]. والجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا دعت إليه مناسبة قوله تعالى { أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ، إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } [14-15]، فإن الازدهار والغرور بسعة الرزق المفضيين إلى الاستخفاف بدعوة الحق وإهمال النظر في كنهها ودلائلها قد أوقع من قديم الزمان أصحابهما في بطر النعمة وإهمال الشكر فجرَّ ذلك عليهم شرّ العواقب، فضرب الله للمشركين مثلا بحال أصحاب هذه الجنَّة لعلّهم يستفيقون من غفلتهم وغرورهم.

كما ضُرب المثل بقريب منه في [الكهف:32]، وضرب مثلًا بقارون في [القصص:76].

البلوى: حقيقتها الاختبار وهي هنا تمثيل بحال المبتلى في إرخاء الحبل له بالنعمة ليشكر أو يكفر، فالبلوى المذكورة هنا بلوى بالخير، فإنّ الله أمدّ أهل مكة بنعمة الأمن، ونعمة الرزق، وجعل الرزق يأتيهم من كل جهة، ويسَّر لهم سبل التجارة في الآفاق بنعمة الإيلاف برحلة الشتاء ورحلة الصيف، فلمّا أكمل لهم النعمة بإرسال رسول منهم ليكمل لهم صلاح أحوالهم ويهديهم إلى ما فيه النعيم الدائم فدعاهم وذكَّرهم بنعم الله أعرضوا وطغوا ولم يتوجَّهوا بالنظر إلى النعم السالفة ولا النعمة الكاملة التي أكملت لهم النعم.

ووجه المشابهة بين حالهم وحال أصحاب الجنّة هنا هو الإعراض عن طلب مرضاة الله وعن شكر نعمته. وهذا التمثيل تعريض بالتهديد بأن يلحقهم ما لحق أصحاب الجنة من البؤس بعد النعم والقحط بعد الخصب.

وهذه القصة المضروب بها المثل قصة معروفة بينهم وهي أنّه كانت ببلد يقال له (ضَرَوَان) من بلاد اليمن بقرب صنعاء. وقيل: ضروان اسم هذه الجنة، وكانت جنّة عظيمة غرسها رجل من أهل الصلاح والإيمان من أهل الكتاب، قاله ابن عباس ولم يبيّن من أيّ أهل الكتاب هو.

قيل: كان يهوديا، لأنّ أهل اليمن كانوا تديَّنوا باليهودية في عهد بلقيس كما قيل، أو بعدها بهجرة بعض جنود سليمان، وكانت زكاة الثمار من شريعة التوراة كما في [سفر اللاويين، الإصحاح:26].

وكان ذلك الرجل الصالح يُدخل معه المساكين ليأخذوا من ثمرها، فكان يعيش منها اليتامى والأرامل والمساكين، وكان له ثلاثة بنين، فلمّا توفّي الأب وصارت لأولاده، وكانوا أشحة أو كان بعضهم شحيحا وبعضهم دونه، تمالؤوا على حرمان اليتامى والمساكين والأرامل، وقالوا: لنغدونَّ إلى الجنة قبل انبلاج

الصباح، قبل أن يأتي المساكين. فبيَّتوا ذلك وأقسموا، ولعلَّهم أقسموا ليُلزموا أنفسهم بتنفيذ ما تداعوا إليه. وهذا يقتضي أنَّ بعضهم كان متردِّدا في موافقتهم على ما عزموا عليه وأنّهم ألجموه بالقسم وهذا الذي يلتئم مع قوله تعالى { قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ } [28].

فلما جاءوا جنتهم وجدوها مسودّة قد أصابها ما يشبه الاحتراق، فلما رأوها بتلك الحالة علموا أنّ ذلك أصابهم دون غيرهم لعزمهم على قطع ما كان ينتفع به الضعفاء وأنابوا إلى الله رجاء أن يعطيهم خيرا منها.

الصرم: قطع الثمرة وجذاذها.

{ **مُصْبِحِينَ** } داخلين في الصباح، أي: في أوائل الفجر.

{ **لا يَسْتَثْنُونَ** } أي: لا يستثنون من الثمر شيئا للمساكين، أي: أقسموا ليصرمنّ جميع الثمر ولا يتركون منه شيئا. <u>وقيل معناه</u>: { لا يَسْتَثْنُونَ } لإيمانهم بأن يقولوا إن شاء الله، كما قال تعالى { وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ } [الكهف: 24/23]. ووجه تسميته استثناء أن أصل صيغته فيها حرف الاستثناء وهو (إلا)، على تقدير: إلّا أن يشاء الله.

وعلى هذا التفسير يكون قوله تعالى { وَلا يَسْتَثْنُونَ } من قبيل الإدماج، أي: لمبلغ غرورهم بقوة أنفسهم صاروا إذا عزموا على فعل شيء لا يتوقعون له عائقا. والجملة في موضع الحال.

والتعبير بالفعل المضارع لاستحضار حالتهم العجيبة من بخلهم على الفقراء والأيتام.

وعلى الروايات كلّها يُعلم أنّ أهل هذه الجنّة لم يكونوا كفارا، فوجّه الشبه بينهم وبين المشركين المضروب لهم هذا المثل، هو بطر النعمة والاغترار بالقوّة.

{ **فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ** } الطواف: المشي حول شيء من كل جوانبه، يقال: طاف بالكعبة، وأريد هنا تمثيل حالة الإصابة لشيء كلّه بحال من يطوف بمكان، قال تعالى { إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ } [لأعراف:201].

وعدِّي { فَطَافَ } بحرف (على) لتضمينه معنى: تسلّط أو نزل.

{ **طَائِفٌ** } لم يُعيَّن جنس الطائف لظهور أنّه من جنس ما يصيب الجنّات من الهلاك، ولا يتعلَّق غرض بتعيين نوعه لأنَّ العبرة في الحاصل به، فإسناد فعل طاف إلى { طائف } بمنزلة إسناد الفعل المبني للمجهول كأنّه قيل: فطِيف عليها وهم نائمون.

وتنوين { طَائِفٌ } للتعظيم، أي: أمر عظيم، وقد بيّنه بقوله تعالى { فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ }، فهو طائف سوء.

{ **مِنْ رَبِّكَ** } أي جائيا من قبل ربك. يعني: أنّه عذاب أرسل إليهم عقابا لهم على عدم شكر النعمة.

{ **فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ** } عُجل العقاب لهم قبل التلبُّس بمنع الصدقة، لأنّ عزمهم على المنع وتقاسمهم عليه حقق أنّهم مانعون صدقاتهم فكانوا مانعين.

وإذ كان عقاب أصحاب هذه الجنة دنيويا لم يكن في الآية ما يدلُّ على أنَّ أصحاب الجنة منعوا صدقة واجبة.

الصَّريم: قيل: هو الليل، والصريم من أسماء الليل ومن أسماء النهار لأن كل واحد منهما ينصرم عن الآخر.

وقيل: الصريم: الرماد الأسود بلغة جذيمة أو خزيمة.

وقيل: الصريم: اسم رملة معروفة باليمن لا تُنبت شيئا.

وإيثار كلمة الصريم هنا لكثرة معانيها وصلاحية جميع تلك المعاني لأن تراد في الآية.

وبين { لَيَصْرِمُنَّهَا / كَالصَّرِيمِ } الجناس.

{ **فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ** } الفاء للتفريع على { أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ }، أي: فلمّا أصبحوا تنادموا لإنجاز ما بيَّتوا عليه أمرهم.

التنادي: أن ينادي بعضهم بعضا وهو مشعر بالتحريض على الغدو إلى جنتهم مبكِّرين.

{ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ }

الغدو: الخروج ومغادرة المكان في غدوة النهار، أي: أوّله.

{ **إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ** } ليس بشرط تعليق ولكنّه مستعمل في الاستبطاء، فكأنّهم لإبطاء بعضهم في الغدوِّ قد عدل عن الجذاذ ذلك اليوم.

{ **عَلَى حَرْثِكُمْ** } (على) هنا مستعملة في تمكّن الوصول إليه، كأنه قيل: اغدوا تكونوا على حرثكم، أي: مستقرين عليه. ويجوز أن يُضمَّن فعل الغدو معنى الإقبال.

الحرث: شق الأرض بحديدة ونحوها ليوضع فيها الزريعة أو الشجر وليزال منها العشب.

ويُطلق الحرث على الجنّة لأنّهم يتعاهدونها بالحرث لإصلاح شجرها، وهو المراد هنا، كقوله تعالى { وَحَرْثٌ حِجْرٌ } [الأنعام:138]، وتقدّم في قوله تعالى { وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ } [آل عمران:14].

التخافت: تفاعل من خفت إذا أسر الكلام.

{ **أَنْ لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ** } تفسير لفعل { يَتَخَافَتُونَ }. وتأكيد فعل النهي بنون التوكيد لزيادة تحقيق ما تقاسموا عليه.

{ **وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ** } في موضع الحال بتقدير (قد)، أي: انطلقوا في حال كونهم غادين قادرين.

الحرد: يطلق على المنع وعلى القصد القويّ، أي: السرعة، وعلى الغضب والحنق.

وفي إيثار كلمة { حَرْدٍ } في الآية نكتة من نكت الإعجاز المتعلق بشرف اللفظ ورشاقته من حيث المعنى، ومن جهة تعلّق المجرور به بما يناسب كل معنى من معانيه.

فإذا حُمل الحرد على معنى السرعة والقصد كان { عَلَى حَرْدٍ } متعلِّقا بـ { غَدَوْا }، مبيّنا لنوع الغدو،

أي: غدوا غُدُوَّ سرعة واعتناء، فتكون { عَلَى } بمعنى (باء المصاحبة)، والمعنى: غدوا بسرعة ونشاط، ويكون { قَادِرِينَ } حالا من ضمير { غَدَوْا } حالا مقدَّرة، أي: مقدِّرين أنّهم قادرون على تحقيق ما أرادوا.

وفي الكلام تعريض بأنّهم خابوا، دلّ عليه قوله بعده { فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ } [26]، وقوله قبله { فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ } [19].

وإذا أريد بالحرد الغضب والحنق، كان { عَلَى حَرْدٍ } متعلّقا بـ { قَادِرِينَ } وتقديمه للحصر، أي: غدوا لا قدرة لهم إلّا على الحنق والغضب على المساكين لأنّهم يقتحمون عليهم جنّتهم كلّ يوم فتحيَّلوا عليهم بالتبكير إلى جذاذها، أي: لم يقدروا إلّا على الغضب والحنق ولم يقدروا على ما أرادوه من اجتناء ثمر الجنّة.

{ **فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ** [26] **بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ** [27] **قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ** [28] **قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ** [29] **فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ** [30] **قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ** [31] **عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ** [32] }.

أي: استفاقوا من غفلتهم ورجعوا إلى أنفسهم باللائمة على بطرهم وإهمال شكر النعمة التي سيقت إليهم، وعلموا أنّهم أُخذوا بسبب ذلك، قال تعالى { وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } [لأعراف:168].

والمقصود التعريض للمشركين بأن يكون حالهم في تدارك أمرهم وسرعة إنابتهم كحال أصحاب هذه الجنة إذ بادروا بالندم وسألوا الله عوض خير.

{ **قَالُوا** } يقتضي أنّهم قالوه جميعا، أي: اتفقوا على إدراك سبب ما أصابهم.

{ **إِنَّا لَضَالُّونَ** } أي: علموا أنّهم كانوا في ضلال عن طريق الشكر، فالضلال مجاز. والتأكيد فيه إيذان بالتحسّر والتندّم.

{ **بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ** } إضراب للانتقال إلى ما هو أهم بالنظر لحالهم، إذ بيَّتوا حرمان المساكين من فضول ثمرتهم فكانوا هم المحرومين من جميع الثمار، فالحرمان الأعظم قد اختُص بهم، لأنّه لمّا أُبرز الضمير وقُدِّم كان تقديمه مؤذنا بمعنى الاختصاص، أي: القصر، وهو قصر إضافي.

{ **أَوْسَطُهُمْ** } أفضلهم وأقربهم إلى الخير، وهو أحد الإخوة الثلاثة. والوسط: يطلق على الأَخْيَر الأفضل، قال تعالى { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً } [البقرة:143]، وقال تعالى { حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى} [البقرة:238]، ويقال: هو من سِطة قومه، وأعطني من سِطة مالك.

{ **أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ** } الاستفهام تقريري، و{ لَوْلَا } حرف تحضيض.

{ **تُسَبِّحُونَ** } تنزيه الله عن أن يُعصى أمره في شأن إعطاء زكاة ثمارهم.

{ **قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ** } كان جوابهم يتضمَّن إقرارا بأنّه وعظهم فعصوه، ودلّوا على ذلك بالتسبيح حين ندمهم على عدم الأخذ بنصيحته. والتسبيح مقدّمة الاستغفار من الذنب، قال تعالى { فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً } [النصر:3].

{ **إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ** } إقرار بالذنب، والتأكيد لتحقيق الإقرار والاهتمام به. ويفيد حرف التأكيد تعليلا للتسبيح. وحُذف مفعول { ظَالِمِينَ } ليعمّ ظلمهم أنفسهم بما جرّوه على أنفسهم من سلب النعمة، وظلم المساكين بمنعهم من حقِّهم في المال.

{ **فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ** } لمّا استقرّ حالهم على المشاركة في منع المساكين حقّهم أخذ بعضهم يلوم بعضا على ما فرط من فعلهم. صوّرت الآية هذه الحالة والتقاذف الواقع بينهم بهذا الإجمال البالغ غاية الإيجاز، ألا ترى أنّ إقبال بعضهم على بعض يصوّر حالة تشبه المهاجمة والتقريع، وأن صيغة (التلاوم) مع حذف متعلّقها تصوّر في ذهن السامع صورا من لوم بعضهم على بعض.

{ **قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ** } الراجح أن تكون مبيِّنة لجملة { يَتَلاوَمُونَ }، أي: يلوم بعضهم بعضا بهذا الكلام، فتكون خبرا مستعملا في التقريع على طريقة التعريض بغيره والإقرار على نفسه، مع التحسُّر والتندُّم بما أفاده { يَا وَيْلَنَا }.

الإقبال: حقيقته المجيء إلى الغير من جهة وجهه، وهو مشتقّ من القُبُل وهو ما يبدو من الإنسان من جهة وجهة ضد الإدبار، وهو هنا تمثيل لحال العناية باللوم.

اللوم: إنكار متوسط على فعل أو قول، وهو دون التوبيخ وفوق العتاب، وتقدّم عند قوله تعالى { فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ } [المؤمنين:6].

الطغيان: تجاوز الحدّ المتعارف في الكِبر والتعاظم، والمعنى: إنّا كنّا طاغين على حدود الله.

{ **عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ** } ثم استأنفوا عن ندامتهم وتوبتهم رجاءهم من الله أن يتوب عليهم فلا يؤاخذهم بذنبهم في الآخرة ولا في الدنيا فيمحو عقابه في الدنيا محوا كاملا بأن يعوِّضهم عن جنّتهم بجنة أخرى خيرا منها.

{ **إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ** } بدل من جملة الرجاء، أي: هو رجاء مشتمل على رغبة إليه بالقبول والاستجابة.

والتأكيد للاهتمام بهذا التوجّه.

والمقصود من الإطناب في قولهم، بعد حلول العذاب بهم، تلقين الذين ضُرب لهم هذا المثل بأنّ في مَكْنتهم الإنابة إلى الله بنبذ الكفران لنعمته إذ أشركوا به.

{ **كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** } [33].

رجوع إلى تهديد المشركين المبدوء من قوله تعالى { إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ } [17]، فالكلام فذلكة وخُلاصة لما قبله وهو استئناف ابتدائي.

{ **كَذَلِكَ الْعَذَابُ** } المشار إليه هو ما تضمَّنته القصة من تلف جنّتهم وما أحسُّوا به عند رؤيتها على تلك الحالة، وتندُّمهم وحسرتهم، أي: مثل ذلك المذكور يكون العذاب في الدنيا، فقوله { كَذَلِكَ } مسند مقدّم و{ الْعَذَابُ } مسند إليه. وتقديم المسند للاهتمام بإحضار صورته في ذهن السامع.

والتعريف في { الْعَذَابُ } تعريف الجنس وفيه توجيه بالعهد الذهني، أي: عذابكم الموعود مثل عذاب أولئك.

{ **وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ** } دال على أنّ المراد بقوله تعالى { كَذَلِكَ الْعَذَابُ } عذاب الدنيا.

{ **لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** } الضمير عائد إلى ما عاد إليه ضمير الغائب في قوله تعالى { بَلَوْنَاهُمْ } [17]، وهم المشركون، فإنّهم كانوا ينكرون عذاب الآخرة فهُدّدوا بعذاب الدنيا، ولا يصحّ عوده إلى { أَصْحَابَ الْجَنَّةِ} [17]، لأنّهم كانوا مؤمنين بعذاب الآخرة وشدَّته.

{ **إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ** } [34].

استئناف بياني لأنّ من شأن ما ذُكر من عذاب الآخرة للمجرمين أن ينشأ عنه سؤال في نفس السامع بقول: فما جزاء المتقين؟ وقد أشعر بتوقّع هذا السؤال قوله بعده { أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ } [35].

وتقديم المسند على المسند إليه للاهتمام بشأن المتّقين ليسبق ذكر صفتهم العظيمة ذكر جزاءها.

{ **لِلْمُتَّقِينَ** } اللام للاستحقاق.

{ **عِنْدَ رَبِّهِمْ** } العندية هنا عندية كرامة واعتناء.

{ **جَنَّاتِ النَّعِيمِ** } الإضافة تُفيد أنهّا عُرفت به فيُشار بذلك إلى ملازمة النعيم لها.

{ **أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ [35] مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ** [36] }.

فاء التفريع تقتضي أنّ هذا الكلام متفرَّع على ما قبله من استحقاق المتّقين جنات النعيم، ومقابلته بتهديد المشركين بعذاب الدنيا والآخرة، ولكن ذلك غير مصرّح فيه بما يناسب أن يتفرَّع عليه هذا الإنكار والتوبيخ فتعيَّن تقدير إنكار من المعرَّض بهم ليتوجه إليهم هذا الاستفهام، وهو ما أشرنا إليه من توقّع أو وقوع سؤال. والاستفهام وما بعده من التوبيخ، والتخطئة، والتهكّم على إدلالهم الكاذب، مؤذن بأنّ ما أُنكر عليهم ووُبِّخوا عليه وسُفِّهوا على اعتقاده كان حديثا قد جرى في نواديهم أو استسخروا به على المسلمين في معرض جحود أن يكون بعثٌ، وفرضهم أنّه على تقدير وقوع البعث والجزاء لا يكون للمسلمين مزيّة

وفضل عند وقوعه.

وعن مقاتل: لمّا نزلت آية { إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ } [34] قالت قريش: إن كان ثمّة جنة نعيم فلنا فيها مثل حظنا وحظهم في الدنيا.

{ **أَفَنَجْعَلُ** } الهمزة للاستفهام الإنكاري، فُرّع إنكار التساوي بين المسلمين والكافرين على ما سبق من اختلاف جزاء الفريقين، فالإنكار متسلّط على ما دار بين المشركين من القول عند نزول الآية السابقة أو عند نزول ما سبقها من آي القرآن التي قابلت بين جزاء المؤمنين وجزاء المشركين كما يقتضيه صريحا قوله تعالى { مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ - إلى قوله - إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ } [36-39].

وإنكار جعل الفريقين متشابهين كناية عن إعطاء المسلمين جزاء الخير في الآخرة وحرمان المشركين منه، لأنّ نفي التساوي وارد في معنى التضاد في الخير والشر في القرآن وكلام العرب، قال تعالى { أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لا يَسْتَوُونَ } [السجدة:18]، وقال تعالى { لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ } [الحشر:20]، وقال تعالى { أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ } [ص:28].

وإذا انتفى أن يكون للمشركين حظ في جزاء الخير انتفى ما قالوه من أنّهم أفضل حظا في الآخرة من المسلمين، كما هو حالهم في الدنيا، بطريق فحوى الخطاب.

{ **أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ** } كلام موجّه إلى المشركين وهم المقصود بـ { الْمُجْرِمِينَ }، عُبّر عنهم بطريق الإظهار دون ضمير الخطاب لما في الوصف من المقابلة، ليكون في الوصفين إيماء إلى سبب نفي المماثلة بين الفريقين.

{ **مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ** } ضمير الخطاب ليس التفاتا عن ضمائر الغيبة من قوله تعالى { وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ } [9]، وقوله تعالى { إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ } [17]، وإنّما تغيّر الضمير إلى ضمير الخطاب تبعا لتغيّر توجيه الكلام، لأنّ شرط الالتفات أن يتغيّر الضمير في سياق واحد.

{ **مَا لَكُمْ** } استفهام إنكاري لحالة حكمهم، وهو مبتدأ وخبر، وتقدّم في قوله تعالى { قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } [البقرة:246].

{ **كَيْفَ تَحْكُمُونَ** } استفهام إنكاري ثانٍ في موضع الحال من ضمير { لَكُمْ }، أي: انتفى أن يكون لكم شيء في حال حكمكم.

{ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ [37] إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ [38] }.

إضراب انتقال من توبيخ إلى احتجاج على كذبهم.

{ **أَمْ لَكُمْ** } الاستفهام المقدَّر مع {أَمْ} إنكار لأن يكون لهم كتاب، إنكارا مبنيًّا على الفرض وإن كانوا لم يدّعوه.

وحاصل هذا الانتقال، والانتقالات الثلاثة بعده وهي: { أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا } [39]، { سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ } [40]، { أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ } [41]، أنّ حكمكم هذا لا يخلو من أن يكون سنده كتابا سماويا نزل من لدنَّا، وإمّا أن يكون سنده عهدا منَّا بأنا نعطيكم ما تقترحون، وإمّا أن يكون لكم كفيل علينا، وإمّا أن يكون تعويلا على نصر شركائكم.

{ **لَكُمْ كِتَابٌ** } تقديم { لَكُمْ } على المبتدأ { كِتَابٌ }، لأنّه نكرة وتنكيره مقصود للنوعيّة، فكان التقديم لازما.

{ **كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ** } ضمير { فِيهِ } عائد إلى { كِتَابٌ } ويتعلّق المجرور بفعل { تَدْرُسُونَ }. جُعلت الدراسة العميقة بمزيد التبصّر في ما يتضمّنه الكتاب بمنزلة الشيء المظروف في الكتاب، كما تقول: لنا درس في كتاب سيبويه.

وفي هذا إدماج بالتعريض بأنّهم أمّيّون ليسوا أهل كتاب وأنّهم لمّا جاءهم كتاب لهديهم وإلحاقهم بالأمم ذات الكتاب كفروا نعمته وكذَّبوه، قال تعالى { لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ } [الانبياء:10]، وقال تعالى { أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ } [الأنعام:157].

{ **إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ** } في موضع مفعول { تَدْرُسُونَ } على أنّها محكي لفظها، أي: تدرسون هذه العبارة، أي: تدرسون جملة { إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ }. ويكون { فِيهِ } توكيدا لفظيا لنظيرها من قوله تعالى { فِيهِ تَدْرُسُونَ }، قصد من إعادتها مزيد ربط الجملة بالتي قبلها.

{ **تَخَيَّرُونَ** } أصله تتخيَّرون بتاءين، حُذفت إحداهما تخفيفا.

التخيُّر: تكلّف الخير، أي: تطلّب ما هو أخير. والمعنى: إنّ في ذلك الكتاب لكم ما تختارون من خير الجزاء.

{ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ } [39].

{ أَمْ } للانتقال إلى دليل آخر وهو نفي أن يكون مستند زعمهم عهدا أخذوه على الله لأنفسهم أن يعاملهم يوم القيامة بما يحكمون به لأنفسهم، فالاستفهام اللازم تقديره بعد { أَمْ } إنكاري و{ بَالِغَةٌ } مؤكِّدة.

البالغة: أصلها الواصلة إلى ما يُطلب بها، وذلك استعارة لمعنى مغلَّظة، شُبِّهت بالشيء البالغ إلى نهاية سيره، وذلك كقوله تعالى { قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ } [الأنعام:149].

{ **عَلَيْنَا** } صفة ثانية لـ { أَيْمَانٌ }، أي: أقسمناها لكم لإثبات حقّكم علينا.

{ **إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ** } صفة ثالثة لـ { أَيْمَانٌ }، أي: أيمان مؤبّدة لا تحلّة منها.

فحصل من الوصفين أنّها عهود مؤكّدة ومستمرَّة طول الدهر، فليس يوم القيامة منتهى الأخذ بتلك الأيمان بل هو تنصيص على التأبيد، كما في قوله تعالى { وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ } [الاحقاف:5].

{ **إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ** } أي: ما تأمرون به دون مراجعة.

{ **سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ** } [40].

استئناف بياني عن جملة { أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ } [39]، لأنّ الأيمان، وهي العهود، تقتضي الكفلاء عادة، فلمّا ذُكر إنكار أن يكون لهم عهود، كُمل ذلك بأن يطلب منهم أن يعيّنوا من هم الزعماء بتلك الأيمان.

{ **أَيُّهُمْ** } الاستفهام مستعمل في التهكّم زيادة على الإنكار عليهم.

الزعيم: الكفيل، وقد جُعل الزعيم أحدا منهم زيادة في التهكّم.

{ **أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ** } [41].

{ **أَمْ** } إضراب انتقالي ثالث إلى إبطال مستند آخر مفروض لهم في سند قولهم: إنَّا نُعطى يوم القيامة مثل ما يُعطى المسلمون أو خيرا منه، وهو أن يُفرض أنّ أصنامهم تنصرهم وتجعل لهم حظًّا من الخير.

{ **شُرَكَاءُ** } التنكير في حيز الاستفهام المستعمل في الإنكار يفيد انتفاء أن يكون أحد من الشركاء يقدر على نفعهم، فيعمّ أصنام جميع قبائل العرب المشترك في عبادتها بين القبائل، والمخصوصة ببعض القبائل.

{ **فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ** } تفريع على نفي أن تنفعهم آلهتهم، فتعيَّن أن أمر { فَلْيَأْتُوا } للتعجيز.

{ **بِشُرَكَائِهِمْ** } الإضافة لإبطال صفة الشركة في الإلهية عنهم، أي: ليسوا شركاء في الإلهية إلّا عند هؤلاء، فإن الإلهية الحقّ لا تكون نسبية بالنسبة إلى فريق أو قبيلة. ومثل هذا الإطلاق كثير في القرآن ومنه قوله تعالى { قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ } [أعراف:195].

{ **يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ** [42] **خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ** [43] }.

<u>يجوز</u> أن يكون الكلام متعلِّقا بقوله تعالى { فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ } [41]، أي: فليأتوا بالمزعومين يوم القيامة. وهذا من حسن التخلُّص إلى ذكر أهوال القيامة عليهم.

<u>ويجوز</u> أن يكون استئنافا متعلِّقا بمحذوف تقديره: اذكر يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود...، للتذكير بأهوال ذلك اليوم.

{ **يَوْمَ** } على كلا الوجهين في التعلق فالمراد به يوم القيامة.

{ **يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ** } مَثَلٌ لشدّة الحال وصعوبة الخطب والهول، وأصله أنّ المرء إذا هلع أن يسرع في المشي ويُشمِّر ثيابه فيكشف عن ساقه، كما يقال: شمَّر عن ساعد الجدّ. فإذا قالوا: كشف المرء عن ساقه فهو كناية عن هول أصابه. وإذا قالوا: كشف الأمر عن ساق، فقد مثَّلوه بالمرأة المروَّعة.

وكذلك كشفت الحرب عن ساقها، كل ذلك تمثيل إذ ليس ثمة ساق.

والمعنى: يوم تبلغ أحوال الناس منتهى الشدّة والروع. قال ابن عباس: يُكشف عن ساق: عن كرب وشدّة، وهي أشد ساعة في يوم القيامة.

{ **وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ** } ليس عائدا إلى المشركين مثل ضمير { إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ } [17]، إذ لا يساعد قوله تعالى { وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ }، فإن المشركين لم يكونوا في الدنيا يُدْعَوْن إلى السجود. فالوجه أن يكون عائدا إلى غير مذكور، أي: ويدعى مدعوون، فيكون تعريضا بالمنافقين بأنّهم يحشرون مع المسلمين، ويُمتحن الناس بدعائهم إلى السجود ليتميَّز المؤمنون الخلَّص عن غيرهم تميز تشريف، فلا يستطيع المنافقون السجود فيفتضح كفرهم.

قال القرطبي عن قيس بن السكن عن عبد الله بن مسعود: " فمن كان يعبد الله مخلصا يخر ساجدا له ويبقى المنافقون لا يستطيعون كأنّ في ظهورهم السفافيد ".

فيكون الكلام إدماجا لذكر بعض ما يحصل من أحوال ذلك اليوم.

{ **إِلَى السُّجُودِ** } أي: إلى سجود الضراعة والخضوع لأجل الخلاص من أهوال الموقف.

{ **فَلا يَسْتَطِيعُونَ** } لسلب الله منهم الاستطاعة، ليعلموا أنّهم لا رجاء لهم في النجاة.

والذي يدعوهم إلى السجود الملائكة الموكلون بالمحشر بأمر الله تعالى، كقوله تعالى { يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ - إلى قوله - مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ } [القمر:6-8]، أو يدعو بعضهم بعضا بإلهام من الله تعالى، وهو نضير الدعوة إلى الشفاعة في الأثر المروي: " فيقول بعضهم لبعض لو استشفعنا إلى ربّنا حتى يريحنا من موقفنا هذا ".

{ **خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ** } هيئة النظر بالعين بذلّة وخوف، استعير له وصف { خَاشِعَةً } لأنّ الخاشع يكون مطأطئا مختفيا.

{ **تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ** } حال ثانية من ضمير { يَسْتَطِيعُونَ }، أي: تحلّ بهم وتقترب منهم بحرص على التمكّن منهم. رَهِقَ من باب فرح، قال تعالى { تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ } [عبس:41].

{ **وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ** } معترضة بين ما قبلها وما تفرَّع عنها، أي: كانوا في الدنيا يُدعون إلى السجود لله وحده وهم سالمون من مثل الحالة التي هم عليها في يوم الحشر. والواو للحال وللاعتراض.

السلامة: انتفاء العلل والأمراض.

{ **فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ** [44] **وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ** [45] }.

الفاء لتفريع الكلام الذي عطفته على الكلام الذي قبله لكون الأوّل سببا في ذكر ما بعده، فبعد أن استُوفي الغرض من موعظتهم ووعيدهم وتزييف أوهامهم أُعقب بهذا الاعتراض تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم بأنّ الله تكفَّل بالانتصاف من المكذِّبين ونصره عليهم.

{ **فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ** } ونحوه، يفيد تمثيلا لحال مفعول (ذر) في تعهُّده بأن يُكفى مؤونة شيء دون استعانة بصاحب المؤونة بحال من يرى المخاطب قد شرع في الانتصار لنفسه ورأى أنّه لا يبلغ بذلك مبلغ مفعول (ذر) لأنّه أقدر من المعتدَى عليه في الانتصاف من المعتدي فيتفرَّغ له ولا يطلب من صاحب الحق إعانة له على أخذ حقِّه، ولذلك يؤتى بفعل يدلّ على طلب الترك ويؤتى بعده بمفعول معه، ومنه قوله تعالى { وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ } [المزمل:11]، وقوله تعالى { ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً } [المدثر:11].

وقال السهيلي في (الروض الأنف) في قوله تعالى { ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً } [المدثر:11] : " فيه تهديد ووعيد "، أي: دعني وإيّاه فسترى ما أصنع، وهي كلمة يقولها المغتاظ إذا اشتد غيظه وغضبه، وكره أن يُشفع لمن اغتاظ عليه. فمعنى الكلام: لا شفاعة في هذا الكافر.

{ **بِهَذَا الْحَدِيثِ** } يجوز أن يراد به القرآن، وتسميته حديثا لما فيه من الإخبار عن الله تعالى، وما فيه من أخبار الأمم وأخبار المغيَّبات، وقد سُمِّي بذلك في قوله تعالى { فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ } [الأعراف:185]، وقوله تعالى { أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ، وَتَضْحَكُونَ } [النجم:59-60]، وقوله تعالى { أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ } [الواقعة:81]. واسم الإشارة على هذا، للإشارة إلى مقدَّر في الذهن ممَّا سبق نزوله من القرآن.

ويجوز أن يكون المراد الإخبار عن البعث وهو ما تضمَّنه قوله تعالى { يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ } [42]. ويكون اسم الإشارة إشارة إلى ذلك الكلام، والمعنى: حسبك إيقاعا بهم أن تكل أمرهم إليَّ فأنا أعلم كيف أنتصف منهم فلا تشغل نفسك بهم وتوكّل عليَّ. وفيه تعريض بالتهديد للمكذِّبين لأنّهم يسمعون هذا الكلام. وهو وعد للنبيّ صلى الله عليه وسلم بالنصر، ووعيد لهم بانتقام في الدنيا لأنّه تعجيل لتسلية الرسول.

{ **سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ** }، بيان لمضمون { فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ } باعتبار أنّ الاستدراج والإملاء يعقبهما الانتقام، فكأنّه قال: سنأخذهم بأعمالهم فلا تستبطئ الانتقام فإنّه محقَّق وقوعه ولكن يؤخَّر لحكمة تقتضي تأخيره.

الاستدراج: استنزال الشيء من درجة إلى أخرى في مثل السلّم، وكأنّ أصل السين والتاء فيه للطلب، أي: محاول التنقل في الدرج، والقرينة تدل على إرادة النزول، إذ التنقل في الدرج يكون صعودا ونزولا. ثمّ شاع إطلاقه على معاملة حسنة لمسيءٍ إلى إبّانٍ مقدَّر.

{ **سَنَسْتَدْرِجُهُمْ** } نون المتكلّم المشارك، والمراد الله وملائكته الموكلون بتسخير الموجودات وربط أحوال بعضها ببعض على وجه يتم به مراد الله، فالاستدراج تعلُّق تنجيزي لقدرة الله فيحصل بواسطة الملائكة الموكلين، كما قال تعالى { إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ } [الأنفال:12].

{ **مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ** } أي: أنّ استدراجهم المفضي إلى حلول العقاب بهم يأتيهم من أحوال وأسباب لا يتفطّنون إلى أنّها مفضية بهم إلى الهلاك، وذلك أجلب لقوّة حسرتهم عند حدوث المصائب بهم.

{ **وَأُمْلِي** } مضارع أَمْلَى، مقصور، بمعنى: أمهل وأخَّر، وهو مشتق من المَلَا مقصورا، وهو الحين والزمن، ومنه قيل لليل والنهار: المَلَوان، فيكون أملى بمعنى: <u>طول في الزمان</u>، ومصدره إملاء.

{ **لَهُمْ** } لام التبيين، وهي التي تبيّن اتصال مدخولها لخفاء فيه.

الإملاء: هو علم الله بتأجيل أخذهم. وتعلُّق العلم ينفرد به الله فلذلك جيء معه بضمير المفرد، عكس { سَنَسْتَدْرِجُهُمْ }، وحصل في هذا الاختلاف تفنُّن في الضميرين.

ونظير هذه الآية قوله تعالى { وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ، وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ } [الأعراف:182-183].

باعتبار أنهما وعد للنبي صلى الله عليه وسلم بالنصر وتثبيت له بأنّ استمرار الكافرين في نعمة إنّما هو استدراج وإملاء، وضرب يشبه الكيد، وأن الله بالغ أمره فيهم، وهذا كقوله تعالى { لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ، مَتَاعٌ قَلِيلٌ } [آل عمران: 197/196].

{ **إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ** } إطلاق الكيد على إحسان الله لقوم مع إرادة إلحاق السوء بهم إطلاق على وجه الاستعارة لمشابهته فعل الكائد من حيث تعجيل الإحسان وتعقيبه بالإساءة.

{ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ } [46].

إضراب آخر للانتقال إلى إبطال آخر من إبطال معاذيرهم في إعراضهم عن استجابة دعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم، <u>فإنّه بعد</u> أن نفى أن تكون لهم حجّة تؤيّد صلاح حالهم. أو وعد لهم بإعطاء ما يرغبون، أو أولياء ينصرونهم، <u>عُطف الكلام</u> إلى نفي أن يكون عليهم ضرّ في إجابة دعوة الإسلام، استقصاء لقطع ما يُحتمل من المعاذير بافتراض أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم سألهم أجرا على هديه إيّاهم فصدَّهم عن إجابته ثقل غرم المال على نفوسهم.

{ **أَمْ تَسْأَلُهُمْ** } الاستفهام الذي تؤذن به { أَمْ } استفهام إنكار لفرض أن يكون ذلك ممَّا يخامر نفوسهم، فرضا اقتضاه استقراء نواياهم من موانع الإقبال على دعوة الخير والرشد.

{ **فَهُمْ** } الفاء للتفريع والتسبُّب، أي: فيتسبَّب على ذلك أنّك شققت عليهم فيكون ذلك اعتذارا منهم عن عدم قبول ما تدعوهم إليه.

المَغْرَم: ما يُفرض على المرء أداؤه من ماله لغير عوض ولا جناية.
المُثْقَل: الذي حُمل عليه شيء ثقيل، وهو هنا مجاز في الإشفاق.

{ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ } [47].

جاءت الإبطالات السالفة متعلِّقة بما يُفرض لهم من المعاذير التي هي من قبيل مستندات من المشاهدات، وانتُقل الآن إلى إبطال من نوع آخر، وهو إبطال حجّة مفروضة يستندون فيها إلى علم شيء من المعلومات المغيَّبات عن الناس. وهي ممّا استأثر الله بعلمه، وهو المعبَّر عنه بالغيب، كما تقدّم في قوله تعالى { الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ } [البقرة:3]، وقد استقرَّ عند الناس كلّهم أنّ أمور الغيب لا يعلمها إلّا الله أو من أطلع من عباده على بعضها.

والكلام هنا على حذف مضاف، أي: أعندهم علم الغيب، كما قال تعالى { أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى } [النجم:35].

{ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ } أي: أنّه حصل في علمهم ومكنتهم، أي: باطلاع جميعهم عليه أو بإبلاغ كبرائهم إليهم وتلقّيهم ذلك منهم. وتقديم { عِنْدَهُمُ } على المبتدأ، وهو معرفة، لإفادة الاختصاص، أي: صار علم الغيب عندهم لا عند الله.

{ فَهُمْ يَكْتُبُونَ } أي: يفرضون ويعيّنون، كقوله تعالى { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى } [البقرة:178]، وقوله تعالى { كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ } [النساء:24]. أي: فهم يفرضون لأنفسهم أنّ السعادة في النفور من دعوة الإسلام ويفرضون ذلك على الدهماء من اتباعهم.

{ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ [48] لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ [49] فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ [50].

تفريع على ما تقدّم من إبطال مزاعم المشركين ومطاعنهم في القرآن والرسول صلى الله عليه وسلم، وما تبعه من تكفُّل الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بعاقبة النصر، وذلك أن شدَّته على نفس النبيّ صلى الله عليه وسلم من شأنها أن تُدخل عليه يأسا من حصول رغبته ونجاح سعيه، ففُرِّع عليه تثبيته وحثّه على المصابرة واستمراره على الهدي. وتعريفه بأن ذلك التثبيت يرفع درجته في مقام الرسالة ليكون من أولي العزم، فذكَّره بمثل يونس عليه السلام إذ استعجل عن أمر ربه، فأدَّبه الله ثم اجتباه وتاب عليه وجعله من الصالحين، تذكيرا مرادا به التحذير.

{ لِحُكْمِ رَبِّكَ } المراد هنا أمره، وهو ما حمَّله إيَّاه من الإرسال والاضطلاع بأعباء الدعوة. وهذا الحكم هو المستقرأ من آيات الأمر بالدعوة التي أوّلها { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ - إلى قوله - وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ }

[المدثر:1-7]، فهذا هو الصبر المأمور به في هذه الآية أيضا. ولا جرم أنّ الصبر يستدعي عدم الضجر. وقد كانت مؤاخذة يونس عليه السلام على ضجره من تكذيب قومه وهم أهل نِينْوَى، كما تقدم في [الصافات:139-148].

صاحب الحوت: هو يونس بن متّى، وتقدّم ذكره عند قوله تعالى {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ - إلى قوله - وَيُونُسَ} [الأنعام:84-86]

الصاحب: الذي يصحب غيره، أي: يكون معه في بعض الأحوال أو في معظمها، وإطلاقه على يونس لأنّ الحوت التقمه ثم قذفه فصار (صاحب الحوت) لقبا له.

{ **إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ** } جملة حالية، أي: في حالة وقت ندائه ربه، فإنّه ما نادى ربّه إلّا لإنقاذه من كربه الذي وقع فيه بسبب مغاضبته وضجره من قومه.

المكظوم: المحبوس المسدودة عليه، يقال: كَظَم الباب أغلقه، وكظم النهر إذا سدّه.

<u>والمعنى</u>: نادى في حال حبسه في بطن الحوت.

{ **لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ** } استئناف بياني ناشئ عن مضمون النهي من قوله تعالى { وَلا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ }، لأنّه يتضمَّن التحذير من الوقوع في كرب من قبيل كرب يونس.

التدارك: تفاعل من الدرك بالتحريك وهو اللحاق، وهو هنا مستعمل في مبالغة إدراك نعمة الله إيّاه.

النبذ: الطرح والترك.

العراء (ممدودا): الفضاء من الأرض الذي لا نبات فيه ولا بناء.

<u>المعنى</u>: لنبذه الحوت أو البحر بالفضاء الخالي.

<u>والمعنى</u>: أنّ الله أنعم عليه بأن أنبت عليه شجرة اليقطين كما في [الصافات:146].

{ **لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ** } أُدمج فضل التوبة والضراعة إلى الله، وأنّه لولا توبته وضراعته إلى الله وإنعام الله عليه نعمة بعد نعمة لقذفه الحوت من بطنه ميّتا أو حيا منبوذا بالعراء لا يجد إسعافا، أو لنجى بعد لأي والله غاضب عليه، فهو مذموم عند الله مسخوط عليه. وهي نعم كثيرة عليه.

{ **فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ** } تفريع، للإخبار بأنّ الله اجتباه وجعله من الصالحين.

{ **الصَّالِحِينَ** } المفضّلون من الأنبياء، وقد قال إبراهيم عليه السلام { رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} [الشعراء:83]. وذلك إيماء إلى أنّ الصلاح هو أصل الخير ورفع الدرجات، وقد تقدّم في قوله تعالى { كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ } [التحريم:10].

قال ابن عباس: ردّ الله إلى يونس الوحي وشفَّعه في نفسه وفي قومه.

{ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ [51] وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ [52] }.

عطف على جملة { فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ } [44]، عرَّف الله رسوله صلى الله عليه وسلم بعض ما تنطوي عليه نفوس المشركين نحوه من الحقد والغيظ وإضمار الشر عندما يسمعون القرآن.

الزَلَق: (بفتحتين) زلل الرِجل من ملاسة الأرض، وتقدّم في قوله تعالى { فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً } [الكهف:40].

ولمّا كان الزلق يفضي إلى السقوط غالبا أطلق الزلق وما يشتق منه على السقوط على وجه الكناية، ومنه قوله هنا { لَيُزْلِقُونَكَ }، أي: يسقطونك ويصرعونك.

قلتُ: وعلى جميع الوجوه فقد جُعل الإزلاق بأبصارهم على وجه الاستعارة المكنية، شُبِّهت الأبصار بالسهام ورُمز إلى المشبَّه به بما هو من روادفه وهو فعل { لَيُزْلِقُونَكَ }، وهذا مثل قوله تعالى { إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا } [آل عمران:155].

{ **يَكَادُ** } جاء بصيغة المضارع للدلالة على استمرار ذلك في المستقبل.

{ **سَمِعُوا** } جاء ماضيا لوقوعه مع { لَمَّا }، وللإشارة إلى أنّه قد حصل منهم ذلك وليس مجرّد فرض.

{ **وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ** } حكاية لكلامهم بينهم، والضمير منصرف إلى من يتحدثون عنه في غالب مجالسهم، وهو عائد إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم

<u>المعنى</u>: يقولون ذلك اعتلالا لأنفسهم إذ لم يجدوا في الذكر الذي يسمعونه مدخلا للطعن فيه فانصرفوا إلى الطعن في صاحبه صلى الله عليه وسلم بأنّه مجنون <u>لينتقلوا من ذلك إلى أن الكلام الجاري على لسانه لا يوثق به</u> ليصرفوا دهماءهم عن سماعه، فلذلك أبطل الله قولهم { إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ } بقوله { وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ }.

وفي قوله تعالى { وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ } مع قوله في أوّل السورة { مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ } [2] مُحسِّن رد العجز على الصدر.

{ **وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ** } إبطال لقولهم { إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ } لأنّهم قالوه في سياق تكذيبهم بالقرآن فإذا ثبت أن القرآن ذكر بطل أن يكون مبلغه مجنونا. وهذا من قبيل الاحتباك إذ التقدير: ويقولون إنه لمجنون وإن القرآن كلام مجنون، وما القرآن إلا ذكر وما أنت إلا مذكّر.

الذكر: التذكير بالله، والجزاء هو أشرف أنواع الكلام لأنه فيه صلاح للناس.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحاقة

سُمِّيت (**سورة الحاقة**) في عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم.

روى أحمد بن حنبل أنّ عمر ابن الخطاب قال: خرجت يوما بمكة أتعرّض لرسول الله قبل أن أُسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد الحرام فوقفت خلفه فاستفتح سورة الحاقة فجعلت أعجب من تأليف القرآن، فقلت: هذا والله شاعر، (أي: قلت في خاطري)، فقرأ { وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ } [41] قلت: كاهن، فقرأ { وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ، تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [43/42] إلى آخر السورة، فوقع الإسلام في قلبي كلّ موقع.

وباسم (**الْحَاقَّةُ**) عُنونت في المصاحف وكُتب السنّة وكُتب التفسير. ووجه التسمية وقوع هذه الكلمة في أوّلها ولم تقع في غيرها من سور القرآن.

وهي مكية بالاتفاق. ومقتضى الخبر المذكور عن عمر بن الخطاب أنّها نزلت في السنة الخامسة قبل الهجرة فإنّ عمر أسلم بعد هجرة المهاجرين إلى الحبشة وكانت الهجرة إلى الحبشة سنة خمس قبل الهجرة.

وقد **عُدَّت السابعة والسبعين** في عداد ترتيب النزول. نزلت بعد سورة تبارك وقبل سورة المعارج.

واتفق العادون من أهل الأمصار على عَدِّ **آيها إحدى وخمسين آية.**

أغراض السورة

*/ تهويل يوم القيامة. وتهديد المكذِّبين بوقوعه.

*/ تذكيرهم بما حلّ بالأمم التي كذَّبت به من عذاب في الدنيا ثم عذاب الآخرة.

*/ أدمج في ذلك أنّ الله نجَّى المؤمنين من العذاب، وفي ذلك تذكير بنعمة الله على البشر إذ أبقى نوعهم بالإنجاء من الطوفان.

*/ وصف أهوال من الجزاء، وتفاوت الناس يومئذ فيه، ووصف فظاعة حال العقاب على الكفر.

*/ التنويه بالقرآن. وتنزيه الرسول صلى الله عليه وسلم عن أن يكون قد ادّعى الرسالة.

*/ تنزيه الله تعالى عن أن يُقرّ من يتقوّل عليه. وتثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم.

*/ إنذار المشركين بتحقيق الوعيد الذي في القرآن.

{ **الْحَاقَّةُ** [1] **مَا الْحَاقَّةُ** [2] **وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ** [3] }.

{ **الْحَاقَّةُ** } صيغة فاعل من: حقَّ الشيء، إذا ثبت وقوعه، والهاء فيها لا تخلو عن أن تكون هاء تأنيث فتكون وصفا لموصوف مقدّر مؤنث اللفظ، أو أن تكون هاء مصدر على وزن فاعلة مثل الكاذبة للكذب، والخاتمة للختم، والباقية للبقاء، وأصلها تاء المرّة، ولكنها لما أريد المصدر قُطع النظر عن المرّة مثل كثير من المصادر التي على وزن فَعْلة غير مُراد به المرة، مثل قولهم: ضربة لازب.

وعلى الوجهين فيجوز أن يكون المراد بالحاقة المعنى الوصفي، أي: حادثة تَحِقُّ أو حَقٌّ يَحِقُّ.

ويجوز أن يكون المراد بها لقبًا ليوم القيامة. روي ذلك عن ابن عباس وأصحابه وهو الذي درج عليه المفسّرون، فلُقّب بذلك يوم القيامة لأنّه يوم مُحقَّق وقوعه، كما قال تعالى {وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ} [الشورى:7]، أو لأنَّه تحقّ فيه الحقوق ولا يُضاع الجزاء، قال تعالى { وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا } [النساء:77]، وقال تعالى { فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ } [الزلزلة:8/7].

وإيثار هذه المادة وهذه الصيغة يسمح باندراج معانٍ صالحة بهذا المقام، فيكون ذلك من الإيجاز البديع، لتذهب نفوس السامعين كلّ مذهب ممكن من مذاهب الهول والتخويف بما يحق حلوله بهم.

ويجوز أيضا أن تكون { الْحَاقَّةُ } وصفا لموصوف محذوف تقديره: الساعة الحاقّة، أو الواقعة الحاقّة، فيكون تهديدا بيوم أو وقعة يكون فيها عقاب شديد للمعرَّض بهم، مثل يوم بدر، وأنّ ذلك حقّ لا ريب في وقوعه.

أو وصفا لكلمة الله التي حقّت على المشركين من أهل مكة، قال تعالى { وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ } [غافر:6]، أو التي حقّت للنبيّ صلى الله عليه وسلم أن ينصره الله، قال تعالى { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ، وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ، فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ } [الصافات:171-174].

ويجوز أن تكون مصدرا بمعنى الحقّ، فيصح أن يكون وصفا ليوم القيامة بأنّه حقّ، كقوله تعالى { وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ } [الأنبياء:97]، أو وصفا للقرآن كقوله تعالى { إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ } [آل عمران:62].

وافتتاح السورة بهذا اللفظ ترويع للمشركين.

{ **مَا** } اسم استفهام مستعمل في التهويل والتعظيم، كأنّه قيل: أتدري ما الحاقة؟ أي: ما هي الحاقة؟ أي: شيء عظيم الحاقة.

{ **مَا الْحَاقَّةُ** } إعادة اسم المبتدأ في الجملة الواقعة خبرا عنه تقوم مقام ضميره في ربط الجملة المخبر بها. وهو من الإظهار في مقام الإضمار لقصد ما في الاسم من التهويل. ونظيره في ذلك قوله تعالى { وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ } [الواقعة:27].

{ **وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ** } يجوز أن تكون معترضة بين جملة { مَا الْحَاقَّةُ } وبين جملة { كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ } [4]. ويجوز أن تكون الجملة معطوفة على جملة { مَا الْحَاقَّةُ }.

{ **مَا** } الثانية استفهامية، والاستفهام بها مُكَنًّى به عن تعذُّر إحاطة علم الناس بكنه الحاقّة لأنّ الشيء الخارج عن الحدّ المألوف لا يُتصوّر بسهولة فمن شأنه أن يُتساءل عن فهمه.

{ **وَمَا أَدْرَاكَ** } الخطاب لغير معيّن. والمعنى: الحاقة أمر عظيم لا تدركون كنهه.

وهذا التركيب ممّا جرى مجرى المثل فلا يُغيَّر عن هذا اللفظ. واستعمال { مَا أَدْرَاكَ } غير استعمال { مَا يُدْرِيكَ } في قوله تعالى { وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً } [الأحزاب:63]، وقوله تعالى { وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ } [الشورى:17].

عن ابن عباس: كلّ شيء من القرآن من قوله { مَا أَدْرَاكَ } فقد أدراه وكل شيء من قوله { وَمَا يُدْرِيكَ } فقد طوي عنه. وقد روي هذا أيضا عن سفيان ابن عيينة وعن يحيى بن سلام.

وقال الراغب: كلّ موضع ذُكر في القرآن من قوله { وَمَا أَدْرَاكَ } فقد عُقِّب ببيانه، نحو قوله تعالى { وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ } [القارعة:11/10]، وقوله تعالى { وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ } [القدر:3/2]، وقوله تعالى { وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ، يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً } [الانفطار:19/18]، وقوله تعالى { وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ، كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ } [الحاقة:3-4].

{ **كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ** } [4].

إن جعلتَ قوله تعالى { وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ } [3] نهاية كلام فموقع هذه الآية وما اتصل بها استئناف، وهو تذكير لمّا حلّ بثمود وعاد لتكذيبهم بالبعث والجزاء تعريضا بالمشركين من أهل مكّة بتهديدهم أن يحقّ عليهم مثل ما حلّ بثمود وعاد، فإنّهم سواء في التكذيب بالبعث وعلى هذا تكون الآيات السابقة توطئة له وتمهيدا لهذه الموعظة العظيمة استرهابا لنفوس السامعين.

وإن جعلتَ الكلام متصلا ببعضه وعيَّنتَ لفظ { الْحَاقَّةُ } يوم القيامة، كانت هذه الجملة خبرا ثالثا عن { الْحَاقَّةُ }. والمعنى: الحاقة كذَّبت بها ثمود وعاد، فكان مقتضى الظاهر أن يؤتى بضمير { الْحَاقَّةُ }، فيقال: كذَّبت ثمود وعاد بها، فعدل إلى إظهار اسم { الْقَارِعَةِ } لأنّها مرادفة { الْحَاقَّةُ }، في أحد محملي اللفظة، وهذا كالبيان للتهويل الذي في قوله تعالى { وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ } [3].

{ **ثَمُودُ وَعَادٌ** } ابتدئ بثمود وعاد في الذكر من بين الأمم المكذِّبة لأنّهما أكثر الأمم المكذِّبة شهرة عند المشركين من أهل مكّة لأنّهما من الأمم العربية ولأنّ ديارهما مجاورة شمالا وجنوبا.

القارعة: اسم فاعل من قَرَعَه، إذا ضربه ضربا قويًّا، وسُمِّيت المواعظ التي تنكسر لها النفس قوارع لما فيها من زجر الناس عن أعمال السيّئة. ويقال للتوبيخ تقريع.

ووصف { السَّاعَةِ } أو { الْقِيَامَةِ } بذلك مجاز عقلي من إسناد الوصف إلى غير ما هو له بتأوُّل لملابسته

ما هو له إذ هي زمان القرع، قال تعالى { الْقَارِعَةُ، مَا الْقَارِعَةُ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ، يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ } [القارعة:1-4].

{ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ } [5].

ابتدئ بذكر ثمود لأنّ العذاب الذي أصابهم من قبيل القرع إذ أصابتهم الصواعق المسمَّاة في بعض الآيات بالصيحة. ولأنّ منازل ثمود كانت في طريق أهل مكة إلى الشام في رحلتهم فهم يرونها، قال تعالى { فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا } [النمل:52]، ولأنّ الكلام على مهلك عاد أنسب فأخِّر لذلك أيضا.

{ **ثَمُودُ** } أمّة من العرب البائدة العاربة، وهم أنساب عاد. وثمود: اسم جدّ تلك الأمّة ولكن غلب إلى الأمّة فلذلك منع من الصرف للعلمية، والتأنيث باعتبار الأمّة أو القبيلة. وتقدّم ذكر ثمود عند قوله تعالى { وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً } [الأعراف:73].

الطاغية: الصاعقة في قول ابن عباس وقتادة: نزلت عليهم صاعقة أو صواعق فأهلكتهم. وإنَّما سمِّيت الصاعقة أو الصيحة { بِالطَّاغِيَةِ } لأنّها كانت متجاوزة الحال المتعارف في الشدّة، فشُبِّه فعلها بفعل الطاغي المتجاوز الحدّ في العدوان والبطش.

{ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ [6] سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ [7] }.

الصَّرصر: الشديدة، يكون لها صوت كالصّرير، وقد تقدّم عند قوله تعالى { فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ } [فصلت:16].

العاتية: شديدة العصف، وأصل العُتُو والعُتِيّ: شدّة التكبُّر. استعارة للشيء المتجاوز الحدّ المعتاد تشبيها بالتكبُّر الشديد في عدم الطاعة والجري على المعتاد.

التسخير: الغصب على عمل، واستعير لتكوين الريح الصرصر تكوينا متجاوزا المتعارف في قوّة جنسها فكأنَّها مكرهة عليه.

{ **عَلَيْهِمْ** } لتضمين { سَخَّرَهَا } معنى أرسلها.

{ **حُسُومًا** } يجوز أن يكون جمع حاسم، مثل قعود جمع قاعد، غُلِّب فيه الأيام على الليالي لأنّها أكثر عددا إذ هي ثمانية أيام وهذا له معان:

المعنى الأوّل: أن يكون المعنى: يتابع بعضها بعضا، أي: لا فصل بينها، كما يقال: صيام شهرين متتابعين. قيل: الحسوم مشتقّ من حسم الداء بالمكواة إذ يكوى ويتابع الكيّ أياما، فيكون إطلاقه استعارة. ولعلَّها من مبتكرات القرآن.

المعنى الثاني: أن يكون من الحسم وهو القطع، أي: حاسمة مستأصلة. ومنه سُمِّي السيف حساما لأنّه يقطع، أي: حَسَمَتْهُمْ فلم تُبق منهم أحدا.

وعلى هذين المعنيين فهو صفة لـ { سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ }، أو حال منها.

المعنى الثالث: أن يكون حسوم مصدرا كالشُّكور والدُّخول، فينتصب على المفعول لأجله، وعامله {سَخَّرَهَا}، أي: سخرها عليهم لاستئصالهم وقطع دابرهم.

وكل هذه المعاني صالح لأن يُذكر مع هذه الأيام، فإيثار هذا اللفظ من تمام بلاغة القرآن وإعجازه.

وقد سمَّي أصحاب الميقات من المسلمين أيامًا ثمانيةَ منصَّفة بين أواخر فبراير وأوائل مارس معروفة في عادة نظام الجو بأن تشتد فيها الرياح غالبا، أيام الحسوم على وجه التشبيه، وزعموا أنّها تقابل أمثالها من العام الذي أصيبت فيه عاد بالرياح، وهو من الأوهام.

{ **فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ** } تفريع على { سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ }. وهذا أسلوب في حكاية الأمور العظيمة الغائبة تُستحضر فيه تلك الحالة كأنَّها حاضرة ويُتخيل في المقام سامع حاضر شاهد مُهْلَكهم أو شاهَدَهم بعده، وكلا المشاهدتين منتف في هذه الآية، فيُعتبر خطابا فرضيا، فليس هو بالتفات ولا هو من خطاب غير المعيَّن، وقريب منه قوله تعالى { وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ } [الشورى:45]، وقوله تعالى { وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً } [الانسان:20].

{ **الْقَوْمَ** } التعريف للعهد الذِّكري، والقوم: القبيلة، وهذا تصوير لهلاك جميع القبيلة.

{ **فِيهَا** } الضمير عائد إلى الليالي والأيام.

{ **صَرْعَى** } جمع صريع وهو الملقى على الأرض ميتا.

{ **كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ** } شُبِّهوا بأعجاز نخل، أي: أصول النخل، و**عجز النخلة**: هو الساق التي تتصل بالأرض، وهو أغلظ النخلة وأشدّها .

وجه التشبيه بها أنّ الذين يقطعون النخل إذا قطعوه للانتفاع بأعواده في إقامة البيوت، انتقوا منه أصوله لأنّها أغلظ وأملأ وتركوها على الأرض حتّى تيبس وتزول رطوبتها ثم يجعلوها عمدا وأساطين.

{ **فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ** } [8].

تفريع على مجموع قصّتي ثمود وعاد، فهو فذلكه لما فُصِّل من حال إهلاكهما، وذلك من قبيل الجمع بعد التفريق، فيكون في أوّل الآية جمع ثم تفريق ثم جمع، وهو كقوله تعالى { وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى، وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى } [النجم:51]، أي: فما أبقاهما.

والخطاب لغير معيَّن.

{ **لَهُمْ** } اللام يجوز أن تُجعل لشبه الملك، أي: باقية لأجل النفع. ويجوز أن يكون اللام بمعنى (من) مثل قولهم: سمعت له صراخا.

الباقية: إمّا اسم فاعل على بابه، والهاء: إما للتأنيث بتأويل نفس، أي: فما ترى منهم نفس باقية، أو بتأويل فرقة، أي: ما ترى فرقة منهم باقية.

ويجوز أن تكون { بَاقِيَةٍ } مصدرا على وزن فاعلة، مثل ما تقدّم في الحاقة، أي: فما ترى لهم بقاء، أي: هلكوا عن بكرة أبيهم.

{ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ [9] فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً [10] }.

عطف على جملة { كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ } [4].

جُمع في الذكر هنا أمم تقدّمت قبل بعثة موسى عليه السلام إجمالا وتصريحا، وخُصّ منهم بالتصريح قوم فرعون والمؤتفكات لأنّهم من أشهر الأمم ذكرا عند أهل الكتاب المختلطين بالعرب والنازلين بجوارهم، فمن العرب من يبلغه بعض الخبر عن قصّتهم.

وفي عطف هؤلاء على ثمود وعاد في سياق ذكر التكذيب بالقارعة إيماء إلى أنّهم تشابهوا في التكذيب بالقارعة كما تشابهوا في المجيء بالخاطئة وعصيان رسل ربّهم، فحصل في الكلام احتباك.

{ **وَجَاءَ فِرْعَوْنُ** } المراد به الفرعون الذي أرسل إليه موسى عليه السلام وهو (منفتاح الثاني).

{ **وَمَنْ قَبْلَهُ** } شمل أمما كثيرة منها قوم نوح وقوم إبراهيم.

المؤتفكات: قرى قوم لوط الثلاث، وأريد بالمؤتفكات سكّانها وهم قوم لوط خُصُّوا بالذكر لشهرة جريمتهم ولكونهم كانوا مشهورين عند العرب، إذ كانت قراهم في طريقهم إلى الشام، قال تعالى { وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ، وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ } [الصافات:138/137]، وقال تعالى { وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا } [الفرقان:40].

ووصفت قرى قوم لوط بـ { الْمُؤْتَفِكَاتِ } جمع مؤتفكة اسم فاعل أئتفك مطاوع أَفَكَه، إذا قَلَبه، فهي المنقلبات، أي: قلبها قالب، أي: خُسف بها، قال تعالى { جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا } [هود:82].

الخاطئة: إمّا مصدر بوزن فاعلة، وهاؤه هاء المرّة الواحدة، فلمّا استُعمل مصدرا قُطع النظر عن المرّة، كما تقدّم في قوله تعالى { الْحَاقَّةُ } [1]، وهو مصدر خَطِئَ: إذا أذنب. والذنب: الخِطْء (بكسر الخاء).

فالمعنى: جاء كلّ منهم بالذنب المستحق للعقاب.

{ **فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً** } تفريع للتفصيل، نظير التفريع في قوله تعالى { كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ } [القمر:9] في أنّه تفريع بيان على المبيَّن.

{ **عَصَوْا** } يجوز أن يرجع ضمير إلى { فِرْعَوْنُ }، باعتباره رأس قومه، فالضمير عائد إليه وإلى قومه. ويكون { رَسُولَ رَبِّهِمْ } موسى عليه السلام. وتعريفه بالإضافة لما في لفظ المضاف إليه من الإشارة إلى تخطئتهم في عبادة فرعون وجعلهم إيَّاه إلها لهم.

ويجوز أن يرجع الضمير إلى { فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ }. و يكون { رَسُولَ رَبِّهِمْ } هو الرسول المرسل إلى كلّ قوم من هؤلاء. فإفراد { رَسُولَ } مراد به التوزيع على الجماعات، أي: رسول الله لكلّ جماعة منهم، والقرينة ظاهرة، وهو أجمل نظما من أن يقال: فعصوا رسل ربّهم، لما في الإفراد من التفنُّن في صيغ الكلم من جمع وإفراد تفاديا مع تتابع ثلاثة جموع، لأن صيغ الجمع لا تخلوا من ثقل لقلة استعمالها.

الأخذ: مستعمل في الإهلاك، وقد تقدّم عند قوله تعالى { أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ } [الأنعام:44].

{ **أَخْذَةً** } واحدة من الأخذ، فيراد بها أخذ فرعون وقومه بالغرق، كما في قوله تعالى { فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ} [القمر:42]، وإذا أعيد ضمير الغائب إلى { فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ } كان إفراد الآخذة كإفراد { رَسُولَ رَبِّهِمْ }، أي: أخذنا كلّ أمّة منهم أخذة.

الرابية: اسم فاعل من ربا يربو إذا زاد، فلما صيغ منه وزن فاعلة، قلبت الواو ياء لوقوعها متحرّكة أثر كسرة. واستعير الرُّبُو هنا للشدّة، كما تستعار الكثرة للشدّة في نحو قوله تعالى { وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً } [الفرقان:14].

{ **أَخْذَةً رَابِيَةً** } إهلاك الاستئصال، أي: ليس في إهلاكهم إبقاء قليل منهم.

{ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ [11] لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ [12] }.

لمّا شمل قوله تعالى { وَمَنْ قَبْلَهُ } [9] قوم نوح، وهم أوّل الأمم كذّبوا الرسل، حُسن اقتضاب التذكير بأخذهم لما فيه من إدماج امتنان على جميع الناس الذين تناسلوا من الفئة الذين نجّاهم الله من الغرق ليُتخلَّص من كونه عظة وعبرة إلى التذكير بأنّه نعمة، وهذا من قبيل الإدماج.

وقد بُني على شهرة مهلك قوم نوح اعتباره كالمذكور في الكلام فجُعل شرطا لـ { لَمَّا }، أي: في ذلك الوقت المعروف بطغيان الطوفان.

الطغيان: مستعار لشدّته الخارقة للعادة تشبيها له بطغيان الطاغي على الناس تشبيه تقريبٍ، فإنّ الطوفان أقوى شدّة.

{ **حَمَلْنَاكُمْ** } استعارة، وأصل الحمل وضع جسم فوق جسم لنقله.

وإسناد الحمل إلى اسم الجلالة مجاز عقلي بناء على أنّه أوحى إلى نوح بصنع الحاملة ووضع المحمول، قال تعالى { فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ } [المؤمنون:27].

{ **الْجَارِيَةِ** } صفة لمحذوف وهو السفينة، وقد شاع هذا الوصف حتّى صار بمنزلة الاسم، قال تعالى { وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ } [الرحمن:24].

{ **لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ** } ذكر إحدى الحِكَم والعلل لهذا الحمل، وهي حكمة تذكير البشر

به على تعاقب الإعصار ليكون لهم باعثا على الشكر، وعظة لهم من أسواء الكفر، وليتناقلوه.
{ **أُذُنٌ** } المراد آذان واعية. وعموم النكرة في سياق الإثبات لا يستفاد إلّا بقرينة التعميم، كقوله تعالى { وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ } [الحشر:18].
الوعي: العلم بالمسموعات، أي: ولتعلم خبرها أذن موصوفة بالوعي، أي: من شأنها أن تعي.
وهذا تعريض بالمشركين إذ لم يتّعظوا بخبر الطوفان والسفينة التي نجا بها المؤمنون فتلقّوه كما يتلقّون القصص الفكاهية.

{ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ [13] وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً [14] فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ [15] وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ [16] وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ [17] يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ [18] }.
الفاء لتفريع ما بعدها على التهويل الذي صُدِّرت به السورة من قوله تعالى { الْحَاقَّةُ، مَا الْحَاقَّةُ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ } [1-3]، فعُلم أنّه تهويل لأمر العذاب الذي هُدِّد به المشركون من أمثال ما نال أمثالهم في الدنيا، ومن عذاب الآخرة الذي ينتظرهم، فلمّا أتمَّ تهديدهم بعذاب الدنيا فُرِّع عليه إنذارهم بعذاب الآخرة الذي يحلّ عند القارعة التي كذَّبوا بها كما كذَّبت بها ثمود وعاد، فحصل من هذا بيان للقارعة بأنّها ساعة البعث، وهي الواقعة.
{ **الصُّورِ** } قرن ثَور يُقَعَّر ويُجعل في داخله سداد يسدّ بعض فراغه حتّى إذا نُفخ فه انضغط الهواء فصوَّت صوتًا قويًّا، وكانت الجنود تتخذه لنداء بعضهم بعضا عند إرادة النفير أو الهجوم، وتقدّم عند قوله تعالى { وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ } [الأنعام:73].
<u>النفخ في الصور</u>: عبارة عن أمر التكوين بإحياء الأجساد للبعث، مُثِّل الإحياء بنداء من خلال النفخ.
{ **نَفْخَةٌ** } مصدر نَفَخَ مقترن بهاء دالة على المرّة، أي: الوحدة. فهو في الأصل مفعول مطلق، أو تقع على النيابة عن الفاعل للعلم بأنّ فاعل النفخ الملك الموكل بالنفخ بالصور، وهو إسرافيل.
{ **وَاحِدَةٌ** } تأكيد لإفادة الوحدة من صيغة الفعلة تنصيصًا على الوحدة المفادة من التاء.
والتنصيص على هذا للتنبيه على التعجيب من تأثّر جميع الأجساد البشرية بنفخة واحدة دون تكرير تعجيبا عن عظيم قدرة الله ونفوذ أمره، لأنّ سياق الكلام من مبدأ السورة تهويل يوم القيامة، فتعداد أهواله مقصود.
{ **نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ** } تأكيد معنى النفخ وتأكيد معنى الوحدة، فليس المراد بوصفها بـ { وَاحِدَةٌ } أنّها غير متبعة بثانية، فقد جاء في آيات أخرى أنّهما نفختان، بل <u>المراد أنّها غير محتاج حصول المراد منها إلى تكرّرها</u>، كناية عن سرعة وقوع الواقعة، أي: يوم الواقعة. فتكون هذه النفخة هي الأولى وهي المؤذنة

بانقراض الدنيا ثم تقع النفخة الثانية التي تكون عند بعث الأموات.

{ **وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً** } في موضع الحال، لأنّ دكَّ الأرض والجبال قد يحصل قبل النفخ في الصُّور لأنّ به فناء الدنيا.

{ **حُمِلَتِ** } أي: أزيلت من أماكنها بأن أُبعدت الأرض بجبالها عن مدارها المعتاد فارتطمت بأجرام أخرى في الفضاء { فَدُكَّتَا }. شُبِّهت هذه الحالة بحمل الحامل شيئا ليلقيه على الأرض، ويجوز أن يكون من تصرّف الملائكة الموكلين بنقض نظام العالم.

الدكّ: دقٌّ شديدٌ يكسر الشيء المدقوق.

{ **نُفِخَ / حُمِلَتِ / فَدُكَّتَا** } بُنيت الأفعال للمجهول لأنّ الغرض متعلّق ببيان المفعول لا الفاعل، وفاعل تلك الأفعال إمّا الملائكة أو ما أودعه الله من أسباب تلك الأفعال، والكلّ بإذن الله وقدرته.

{ **فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ** } مشتملة على جواب (إذا)، أعني قوله تعالى { وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ }.

{ **فَيَوْمَئِذٍ** } تأكيد لمعنى { فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ... }، لأنّ تنوين (يومئذٍ) عوض عن جملة تدلّ عليها جملة { نُفِخَ فِي الصُّورِ - إلى قوله - دَكَّةً وَاحِدَةً } ، أي: فيوم إذ نفخ في الصور وقعت الواقعة، وهو تأكيد لفظي بمرادف المؤكَّد، فإن المراد بـ (يوم) مطلق الزمان كما هو الغالب في وقوعه مضافا إلى (إذا).

{ **وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ** } أي: تحقَّق ما كان متوقَّعا وقوعُه، لأنّهم كانوا يُتوعَّدون بواقعة عظيمة، فيومئذ يتحقَّق ما كانوا يُتوعَّدون به. وعُبِّر عنه بالفعل الماضي تنبيها على تحقيق حصوله. والمعنى: فحينئذ تقع الواقعة.

{ **الْوَاقِعَةُ** } هنا مرادفة للحاقّة والقارعة، فذكرها إظهار في مقام الإضمار لزيادة التهويل وإفادة ما تحتوي عليه من الأحوال التي تنبئ عنها موارد اشتقاق أوصاف الحاقة والقارعة والواقعة.

وقد صار علما بالغلبة في اصطلاح القرآن على يوم البعث، قال تعالى { إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ، لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ } [الواقعة:2/1]

{ **وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ** } يجوز أن يكون الفعل معطوفا على جملة { نُفِخَ فِي الصُّورِ }، فيكون ملحقا بشرط (إذا)، وتأخير عطفه لأجل ما اتصل بهذا الانشقاق من وصف الملائكة المحيطين بها، ومن ذِكر العرش الذي يحيط بالسماوات والأرض، وذِكر حَمَلته.

ويجوز أنّ تكون الجملة في موضع الحال بتقدير: وقد انشقت السماء.

انشقاق السماء: فتح منافذ في محيطها، قال تعالى { وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلًا، الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا } [الفرقان:26/25]. ثمّ يحتمل أنّه الذي في قوله تعالى { فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ } [الرحمن:37]، ويحتمل أنّه غيره.

{ **وَاهِيَةٌ** } ضعيفة ومتفرّقة، ويستعار الوَهْي للسهولة وعدم الممانعة، يقال: وَهِي عزمه، إذا تسامح

وتساهل، وفي المثل: أوهى من بيت العنكبوت، يُضرب لعدم نهوض الحجّة.

{ **فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ** } يفيد التقييد أنّ الوهي طرأ عليها بعد أن كانت صلبة بتماسك أجزائها وهو المُعبَّر عنه في القرآن بـ (الرتق)، كما عُبِّر عن الشق بـ (الفتق)، أي: فهي يومئذ مطروقة مسلوكة.

والوهي قريب من الوهن، والأكثر أنّ الوهي يوصف به الأشياء غير العاقلة، والوهن يوصف به الناس.

والمعنى: أنّ الملائكة يتردَّدون إليها صعودا ونزولا خلافا لحالها من قبل.

{ **وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا** } حال من ضمير { فَهِيَ }.

{ **الْمَلَكُ** } أصله الواحد من الملائكة، وتعريفه هنا تعريف الجنس وهو في معنى الجمع، أي: جماعة من الملائكة، أو جميع الملائكة إذا أريد الاستغراق، واستغراق المفرد أصرح في الدلالة على الشمول، ولذلك قال ابن عباس: الكتاب أكثر من الكتب، ومنه قوله تعالى { قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي } [مريم:4].

الأرجاء: النواحي بلغة هذيل، واحدها رجا مقصورا وألفه منقلبة عن الواو.

والمعنى: أنّ الملائكة يعملون في نواحي السماء ينفِّذون إنزال أهل الجنة بالجنة وسوق أهل النار إلى النار.

{ **عَرْشَ رَبِّكَ** } اسم لما يحيط بالسماوات وهو أعظم من السماوات. والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم. وإضافة عرش إلى الله إضافة تشريف مثل إضافة الكعبة إليه في قوله { وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ } [الحج:26]، والله منزه من الجلوس على العرش وعن السكنى في بيت.

{ **فَوْقَهُمْ** } الضمير يعود إلى { الْمَلَكُ }. ويتعلق بـ { يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ }، وهو تأكيد لما دلّ عليه قوله تعالى { وَيَحْمِلُ } من كون العرش عاليا، فهو بمنزلة القيدين.

{ **ثَمَانِيَةٌ** } الذين يحملون العرش: ثمانية من الملائكة، فقيل: ثمانية شخوص، وقيل: ثمانية صفوف، وقيل: غير ذلك. وهذا من أحوال الغيب التي لا يتعلّق الغرض بتفصيلها، إذ المقصود من الآية تمثيل عظمة الله تعالى وتقريب ذلك إلى الأفهام كما قال في غير آية.

ولعل المقصود بالإشارة إلى ما زاد على الموعظة، هو تعليم الله نبيّه صلى الله عليه وسلم شيئا من تلك الأحوال بطريقة رمزية يفتح عليه بفهم تفصيلها، ولم يُرد تشغيلنا بعلمها.

وكأنّ الداعي إلى ذكرهم إجمالا هو الانتقال إلى الإخبار عن عرش الله لئلّا يكون ذكره اقتضابا بعد ذكر الملائكة.

{ **يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ** } مستأنفة، أو هي بيان لجملة { فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ }، أو بدل اشتمال منها. والخطاب لجميع الناس بقرينة المقام وما بعد ذلك من التفصيل.

{ **يَوْمَئِذٍ** } تكريره أربع مرات لتهويل ذلك اليوم الذي مبدؤه النفخ في الصور ثمّ يعقبه ما بعده ممّا ذُكر في الجمل بعده.

العرض: أصله إمرار الأشياء على من يريد التأمّل منها، مثل عرض السلعة على المشتري، وأطلق هنا

كناية عن لازمه وهو المحاسبة، مع جواز إرادة المعنى الصريح.

{ **لا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ** } لا تخفى على الله ولا على ملائكته. وتأنيث { خَافِيَةٌ } لأنّه وصف لموصوف مؤنث يقدَّر بالفعلة من أفعال العباد، أو يقدَّر بنفس، أي: لا تختبئ من الحساب نفس أيّ أحد، ولا يلتبس كافر بمؤمن، ولا بار بفاجر.

{ **مِنْكُمْ** } صفة لـ { خَافِيَةٌ } قُدِّمت علية فتكون حالا.

{ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَأُوا كِتَابِيَهْ [19] إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ [20] فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ [21] فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ [22] قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ [23] كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ [24] }.

{ **فَأَمَّا** } الفاء تفصيل ما يتضمّنه { تُعْرَضُونَ } [18]، إذ العرض عرض للحساب والجزاء، فإيتاء الكتاب هو إيقاف كلّ واحد على صحيفة أعماله. و(أمَّا) حرف تفصيل وشرط وهو يفيد مفاد (مهما يكن من شيء).

{ **فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ** } دلّ على كلام محذوف للإيجاز تقديره: فيؤتى كلّ أحد كتاب أعماله، فأمّا من أوتي كتابه ...، على طريقة قوله تعالى { أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ } [الشعراء:63].

{ **بِيَمِينِهِ** } الباء للمصاحبة أو بمعنى (في). وإيتاء الكتاب باليمين علامة على أنّه إيتاء كرامة وتبشير، قال تعالى { وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ، فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ} [الواقعة:28/27]، ثم قال تعالى { وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ، فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ } [الواقعة:42/41].

والعرب يذكرون التناول باليمين كناية عن الاهتمام بالمأخوذ والاعتزاز به، قال الشمَّاخ:

إذا ما رايةٌ رُفعت لمجد ... تلقَّاها عَرابة باليمين

{ **فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَأُوا كِتَابِيَهْ** } جواب شرط (أمّا)، وهو مغني عن خبر المبتدأ، وهذا القول قول ذي بهجة وحبور يبعثان على اطلاع الناس على ما في كتاب أعماله من جزاء، في مقام الاغتباط والفخار.

{ **هَاؤُمُ** } اسم فعل أمر بمعنى: خذ، وبمعنى: تعال.

{ **اقْرَأُوا** } بيان للمقصود من اسم الفعل من قوله {هَاؤُمُ }. والخطاب للصالحين من أهل المحشر.

{ **كِتَابِيَهْ** } أصله كتابيَ بتحريك ياء المتكلّم على أحد وجوه في ياء المتكلّم إذا وقعت مضافا إليها وهو تحريك أحسب أنه يقصد به إظهار إضافة المضاف إلى تلك الياء للوقوف.

{ **كِتَابِيَهْ** / حِسَابِيَهْ / مَالِيَهْ / سُلْطَانِيَهْ } لأنّ هذه الكلمات وقعت فواصل، والفواصل مثل الأسجاع تعتبر بحالة الوقف مثل القوافي، فلو قيل: اقرأوا كتابي إني ظننت أني ملاق حسابي، سقطت فاصلتان وذلك تفريط في محسّنين.

{ **إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ** } الجملة في موقع التعليل للفرح والبهجة التي دلّ عليها قوله تعالى { هَاؤُمُ اقْرَأوا كِتَابِيَهْ } وبذلك يكون حرف (إن) لمجرد الاهتمام وإفادة التسبّب.

أُطلق الظنّ هنا على معنى اليقين، وهو أحد معنييه. وعن الضحّاك: كلّ ظنّ في القرآن من المؤمن فهو يقين ومن الكافر فهو شك.

حقيقة الظنّ: علم لم يتحقَّق؛ إمّا لأنّ المعلوم به لم يقع بعد ولم يخرج إلى عالم الحسّ، وإمّا لأنّ علم صاحبه مخلوط بشك. وبهذا يكون إطلاق الظنّ على المعلوم المتيقّن إطلاقا حقيقيًّا. وتقدّم عند قوله تعالى { وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ } [الأعراف:66] وقوله تعالى { وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ } [التوبة:118].

المعنى: إنّي علمت في الدنيا أنّي ألقى الحساب، أي: آمنت بالبعث. وهذا الخبر مستعمل كناية عن استعداده للحساب بتقديم الإيمان والأعمال الصالحة ممّا كان سبب سعادته.

{ **فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ** } موقع التفريع على ما تقدّم من إيتائه كتابه بيمينه وما كان لذلك من أثر المسرّة والكرامة في الحشر، فتكون الفاء لتفريع ذكر هذه الجملة على ذكر ما قبلها. ولك أن تجعلها بدل اشتمال من جملة { فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَأوا كِتَابِيَهْ }، فإنّ ذلك القول اشتمل على أنّ قائله في نعيم. وإعادة الفاء مع الجملة من إعادة العامل في المبدل منه مع البدل للتأكيد، كقوله تعالى { تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا } [المائدة:114].

العيشة: حالة العيش وهيئته.

{ **رَاضِيَةٍ** } مجاز عقلي لملابسة العيشة حالة صاحبها، ملابسة الصفة لموصوفها. والراضي هو صاحب العيشة، والعيشة ليست راضية ولكنّها لحسنها رضي صاحبها، فوصفها بـ { رَاضِيَةٍ } من إسناد الوصف إلى غير ما هو له، وهو من المبالغة لأنّه يدل على شدة الرضى بسببها حتّى سرى إليها.

{ **فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ** } بدل اشتمال من جملة { فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ }.

العلو: الارتفاع، وهو من محاسن الجنّات لأنّ صاحبها يشرف على جهات من متسع النظر ولأنّه يبدو له كثير من محاسن جنته حين ينظر إليها من أعلاها، وذلك من زيادة البهجة والمسرّة، لأن جمال المناظر من مسرات النفس ومن النعم. وجوَّزوا أن يُراد علوّ القدر، مثل فلان ذو درجة عالية، أي: مقام رفيع.

القطوف: جمع قِطْف (بكسر القاف وسكون الطاء)، وهو الثمر، سُمِّي بذلك لأنّه يُقطف، وأصله فعل بمعنى مفعول مثل ذبح.

{ **دَانِيَةٌ** } أي: قربها من أيدي المتناولين، لأنّ ذلك أهنأ إذ لا كلفة فيه، قال تعالى { وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً } [الانسان:14].

{ **كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ** } مقول قول محذوف، وهو ومقوله في موضع صفة لـ { جَنَّةٍ }. إذ التقدير: يقال للفريق الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم حين يستقرون في الجنة: كلوا واشربوا...

ويجوز أن تكون الجملة خبرا ثانيا عن الضمير في قوله تعالى { فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ }.
وإنَّما أفردت ضمائر الفريق الذي أوتي كتابه بيمينه فيما تقدّم ثم جاء الضمير ضمير جمع عند حكاية خطابهم لأنّ هذه الضمائر السابقة حُكيت معها أفعال ممّا يتلبَّس بكلّ فرد من الفريق عند إتمام حسابه.
وأمّا ضمير { كُلُوا وَاشْرَبُوا } فهو خطاب لجميع الفريق بعد حلولهم في الجنّة، كما يدخل الضيوف إلى المأدبة فيحيّي كلّ داخل منهم بكلام يخصّه فإذا استقرُّوا أقبل عليهم مضيفهم بعبارات الإكرام.
{ **هَنِيئًا** } يجوز أن يكون فعيلا بمعنى فاعل إذا ثبت له الهناء، فيكون منصوبا على النيابة عن المفعول المطلق لأنّه وصفه، وإسناد الهناء للأكل والشرب مجاز عقلي لأنّهما متلبسان بالهناء للآكل والشارب.
ويجوز أن يكون اسم فاعل من غير الثلاثي بوزن ما للثلاثي. والتقدير: مهنِّئًا، أي: سبب هناء.
ويجوز أن يكون فعيلا بمعنى مفعول، أي: مَهْنِيئًا به.
{ **بِمَا أَسْلَفْتُمْ** } في موضع الحال من ضمير { كُلُوا وَاشْرَبُوا }، والباء للسببية.
الإسلاف: جعل الشيء سلفا، أي: سابقا.
والمراد أنّه مقدّم سابق لإبَّانه ليُنتفع به عند الحاجة إليه، ومنه اشتُق السُّلَف للقرض، والإسلاف للإقراض.
{ **الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ** } الماضية البعيدة مشتق من الخلو وهو الشغور والبعد.

{ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ [25] وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ [26] يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ [27] مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ [28] هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ [29] }.
هذا قسيم { مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ }، فالقول في إيتاء كتابه بشماله قد عُرف وجهه ممّا تقدّم.
{ **فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ** } يتمنّى كلّ من أوتي كتابه بشماله أنّه لم يؤت كتابه لأنّه علم من الاطلاع على كتابه أنّه صائر إلى العذاب.
{ **وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ** } في موضع الحال من ضمير { لَيْتَنِي }. وهو مقابل قول الذي أوتي كتابه بيمينه { إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ }. وجملة الحال معترضة بين جملتي التمني.
ويجوز أن يكون عطفا على التمنّي، أي: يا ليتني لم أدر ما حسابيه، أي: نتيجته، وهذا وإن كان في معنى التمنّي الذي قبله فإعادته تكرير لأجل التحسُّر والتحزُّن.
{ **يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ** } تمنٍّ آخر ولم يُعطف على التمنّي الأوّل لأنّ المقصود التحسُّر والتندُّم.
{ **لَيْتَهَا** } الضمير عائد إلى معلوم من السياق، أي: ليت حالتي أو ليت مصيبتي كانت القاضية.
القاضية: الموت، وهو معنى قوله تعالى { وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً } [النبأ:40].
{ **مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ** } ثمّ أخذ يتحسَّر على ما فرَّط من الخير في الدنيا بالإقبال على ما لم يجده في العالم الأبدي، أي: يقول ذلك من كان ذا مال وذا سلطان من ذلك الفريق، فما ظنّك بحسرة من اتّبعوهم

واقتدوا بهم إذا رأوهم كذلك. وفي هذا تعريض بسادة مشركي العرب مثل أبي جهل وأميّة بن خلف، قال تعالى { وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ } [المزمل:11].

{ **هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ** } أي: عدم الانتفاع به يومئذ، فهو هلاك مجازي. وضُمِّن { هَلَكَ } معنى (غاب) فعُدِّي بـ (عن)، أي: لم يحضرني سلطاني الذي عهدته.

{ **كِتَابِيَهْ / حِسَابِيَهْ / مَالِيَهْ / سُلْطَانِيَهْ** } القول في هاءاتها تقدّم سابقا.

{ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ [30] ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ [31] ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ [32] إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ [33] وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ [34] فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ [35] وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ [36] لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ [37] }.

{ **خُذُوهُ** } مقول لقول محذوف موقعه في موقع الحال من ضمير { فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ }. والتقدير: يقال: خذوه. ومعلوم من المقام أنّ المأمورين بأن يأخذوه هم الملائكة الموكلون بسَوق أهل الحساب إلى ما أُعِدّ لهم.

الأخذ: الإمساك باليد.

غُلُّوه: أمر من غَلَّه إذا وضعه في الغُل، وهو القيد الذي يُجعل في عنق الجاني أو الأسير، فهو فعل مشتقّ من اسم جامد. وعُطف بفاء التعقيب لإفادة الإسراع بوضعه في الأغلال عقب أخذه.

{ **ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ** } { ثُمَّ } هنا للتراخي الرتبي لأنّ مضمون الجملة المعطوفة بها أشدّ في العقاب من أخذه ووضعه في الأغلال.

صَلَّى: مضاعف تضعيف تعدية، لأنّ صَلِيَ بالنار معناه أصابه حرقها أو تدفّأ بها، فإذا عُدِّي قيل: أصلاه نارا، وصلَّاه نارا.

{ **ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ** } { ثُمَّ } هنا كذلك للتراخي الرتبي بالنسبة لمضمون الجملتين قبلها، لأنّ مضمون هذه أعظم من مضمون { فَغُلُّوهُ }.

{ **فَاسْلُكُوهُ** } دلّ على إدخالهم الجحيم، فكان إسلاكه في تلك السلسلة أعظم من مطلق إسلاكه الجحيم.

يقال: سلكه، إذا أدخله في شيء، أي: اجعلوه في الجحيم مكبَّلا في أغلاله.

وتقديم { الْجَحِيمَ } على عامله لتعجيل المساءة مع الرعاية على الفاصلة وكذلك تقديم { فِي سِلْسِلَةٍ } على عامله.

{ **سِلْسِلَةٍ** } اسم لمجموع حِلق من حديد داخل بعضها في بعض تُجعل لوثاق شخص كي لا يزول من مكانه، وتقدّم في قوله تعالى { إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ } [غافر:71].

{ **ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً** } صفة { سِلْسِلَةٍ }، وهذه الصفة وقعت معترضة بين المجرور ومتعلّقه للتهويل

على المشركين المكذِّبين بالقارعة، وليست الجمل مما خوطب به الملائكة الموكلون بسوق المجرمين إلى العذاب، ولذلك فعدد { سَبْعُونَ } مستعمل في معنى الكثرة على طريقة الكناية، مثل قوله تعالى { إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ } [التوبة:80].

الذرع: كيلُ طول الجسم بالذراع، وهو مقدار من الطول مُقدَّر بذراع الإنسان، وكانوا يقدِّرون بمقادير الأعضاء مثل الذراع، والأصبع، والأنملة، والقدم، وبالأبعاد التي بين الأعضاء مثل الشبر، والفتر، والرَّتَب (بفتح الراء والتاء)، والعَتَب، والبَصْم والخُطوة.

{ **إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ** } في موضع العلّة للأمر بأخذه وإصلائه الجحيم.

{ **الْعَظِيمِ** } وصف الله بالعظيم هنا إيماء إلى مناسبة عظم العذاب للذنب إذ كان الذنب كفرانا بعظيم فكان جزاء وفاقا.

الحضُّ على الشيء: أن يطلب من أحد فعل شيء ويُلِحَّ في ذلك الطلب.

ونفي حضِّه على طعام المسكين يقتضي بطريق الفحوى أنّه لا يُطعم المسكين من ماله، فالمعنى: لا يطعم المسكين ولا يأمر بإطعامه، وقد كان أهل الجاهلية يطعمون في الولائم، والميسر، رياء وسمعة. ولا يطعمون الفقير إلّا قليل منهم.

وإذ قد جُعل عدم حضه على طعام المسكين جزء علّة لشدّة عذابه، علمنا من ذلك موعظة للمؤمنين زاجرة عن منع المساكين حقَّهم في الأموال وهو الحقّ المعروف في الزكاة والكفّارات وغيرها.

{ **فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ** } من تمام الكلام الذي ابتدئ بقوله تعالى { خُذُوهُ }، وتفريع عليه.

والمقصود منه أن يسمعه من أوتي كتابه بشماله فييأس من أن يجد مدافعا يدفع عنه بشفاعة، وتنديمٌ له على ما أضاعه في حياته من التزلّف إلى الأصنام وسدنتها وتمويههم عليه أنّه يجدهم عند الشدائد.

وهذا وجه تقييد نفي الحميم بـ { الْيَوْمَ } تعريضا بأنّ أحمائهم في الدنيا لا ينفعونهم يوم القيامة، كما قال تعالى { ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ } [الأنعام:22]، وقوله تعالى على لسانهم { فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا } [لأعراف:53] وغير ذلك ممّا تفرّق في آي القرآن.

الحميم: القريب، وهو هنا كناية عن النصير، إذ المتعارف عند العرب أنّ أنصار المرء هم عشيرته وقبيلته.

{ **وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ** } عطف على { حَمِيمٌ }.

الغِسلين: (بكسر الغين) ما يدخل في أفواه أهل النار من المواد السائلة من الأجساد وماء النار ونحو ذلك ممّا يعلمه الله.

{ **الْخَاطِئُونَ** } أصحاب الخطايا يقال: خَطِئَ: إذا أذنب. والمعنى: لا يأكله إلّا هو وأمثاله من الخاطئين.

والتعريف للدلالة على الكمال في الوصف، أي: المرتكبون أشدّ الخطأ وهو الإشراك.

{ **فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ [38] وَمَا لَا تُبْصِرُونَ [39] إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ [40] وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ [41] وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ [42] تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ [43]** }.

الفاء هناء لتفريع إثبات أنّ القرآن منزَّل من عند الله، ونفي ما نسبه المشركون إليه، تفريعًا على ما اقتضاه تكذيبهم بالبعث من التعريض بتكذيب القرآن الذي أخبر بوقوعه، وتكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم القائل إنّه موحى به إليه من الله تعالى.

ابتدئ الكلام بالقسم تحقيقا لمضمونه على طريقة الأقسام الواردة في القرآن، وقد تقدّم الكلام عليها عند قوله تعالى { وَالصَّافَّاتِ صَفّاً } [الصافات:1]. وضمير { أُقْسِمُ } عائد إلى الله تعالى.

{ **فَلَا أُقْسِمُ** } صيغة تحقيق قسم، وأصلها أنّها امتناع من القسم امتناع تحرّج من أن يحلف بالمُقسم به خشية الحنث، فشاع استعمال ذلك في كلّ قسم يُراد تحقيقه، كقوله تعالى { لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ } [القيامة:1].

ومن المفسّرين من اعتبر حرف (لا) في هذا القسم إبطالا لكلام سابق وأنّ فعل { أُقْسِمُ } بعده مستأنف.

{ **بِمَا تُبْصِرُونَ، وَمَا لَا تُبْصِرُونَ** } جمع الله في هذا القَسَم كلّ ما الشأن أن يُقسم به من الأمور العظيمة؛ من صفات الله تعالى ومن مخلوقاته الدالة على عظيم قدرته.

<u>ممّا يبصرون:</u> الأرض والجبال والبحار والنفوس البشرية والسماوات والكواكب.

<u>ما لا يبصرون:</u> الأرواح والملائكة وأمور الآخرة.

{ **إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ** } ضمير { إنَّه } عائد إلى القرآن المفهوم من ذكر الحشر والبعث، فإنّ ذلك ممّا جاء به القرآن، ومجيئه بذلك من أكبر أسباب تكذيبهم به.

<u>والمراد بـ { رَسُولٍ كَرِيمٍ } محمد صلى الله عليه وسلم</u> كما يقتضيه عطف قوله تعالى { وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ } [44]، وهذا كما وُصف موسى عليه السلام في قوله تعالى { وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ } [الدخان:17]. وإضافة { قَوْلِ } إلى { رَسُولٍ } لأنّه الذي بلّغه فهو قائله، والإضافة لأدنى ملابسة، وإلّا فالقرآن جعله الله تعالى وأجراه على لسان النبيّ صلى الله عليه وسلم، كما صدر من جبريل بإيحائه بواسطته، قال تعالى { فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ } [مريم:97].

<u>ويجوز أن يراد ب { رَسُولٍ كَرِيمٍ } جبريل عليه السلام،</u> كما أريد به في [التكوير:19].

{ **رَسُولٍ** } فيه إيذان بأنّ القول قول مرسِله، أي: الله تعالى. وقد أُكّد هذا المعنى بقوله تعالى عقبه { تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ }.

{ **كَرِيمٌ** } وُصف الرسول بذلك لأنّه الكريم في صنفه، أي: النفيس الأفضل، مثل قوله تعالى { إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ } [النمل:29].

{ **وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ، وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ** } كُنِّي بنفي أن يكون قول شاعر أو قول كاهن عن تنزيه النبيّ صلى الله عليه وسلم عن أن يكون شاعرا أو كاهنا.

خُصّ هذان بالذكر دون قولهم: افتراه، أو هو مجنون، لأنّ الوصف بكريم كاف في نفي أن يكون مجنونا أو كاذبا، إذ ليس المجنون ولا الكاذب بكريم، فأمّا الشاعر والكاهن فقد كانا معدودين عندهم من أهل الشرف.

{ **قَلِيلًا** } في قوله تعالى { قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ }، وقوله تعالى { قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ } مراد به انتفاء ذلك من أصله على طريقة التلميح القريب من التهكّم، كقوله تعالى { فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً } [النساء:46].

{ **تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ** } خبر ثان عن اسم (إن) وهو تصريح بعد الكناية.

ولك أن تجعل الجملة استئنافا بيانيا، لأنّ القرآن لمّا وُصف بأنّه { قَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ }، ونُفي عنه أن يكون قول شاعر أو قول كاهن، ترقَّب السامع معرفة كنهه، فبُيِّن بأنّه منزَّل من ربّ العالمين على الرسول الكريم ليقوله للناس ويتلوه عليهم.

{ **تَنْزِيلٌ** } وصف بالمصدر للمبالغة.

{ **رَبِّ الْعَالَمِينَ** } عُبِّر عن الجلالة بهذا الوصف دون اسمه العلم للتنبيه على أنّه ربُّ المخاطبين، وربُّ الشعراء والكُهّان الذين كانوا بمحلّ التعظيم والإعجاب عندهم، نظير قول موسى لفرعون { قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ } [الشعراء:26].

{ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ [44] لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ [45] ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ [46] فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ [47] }.

هذه الجملة عطف على جملة { فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لا تُبْصِرُونَ } [39/38]، فهي مشمولة لما أفادته الفاء من التفريع على ما اقتضاه تكذيبهم بالبعث من تكذيبهم القرآن ومن جاء به.

فمفاد هذه الجملة استدلال ثان على أنّ القرآن مُنزَّل من عند الله تعالى على طريقة المذهب الكلامي، بعد الاستدلال الأوّل المستند إلى القَسَم والمؤكِّدات، على طريقة الاستدلال الخطابي.

وهو استدلال بما هو مقرَّر في الأذهان من أنّ الله واسع القدرة، وأنّه عليم فلا يقدر أحد على أن يقول عنه كلاما لم يقله، أي: لو لم يكن القرآن منزل من عندنا، ومحمد ادّعى أنّه منزّل منّا، لما أقررناه على ذلك، ولعجّلنا بإهلاكه. فعدم هلاكه صلى الله عليه وسلم دال على أنّه لم يتقوَّله على الله، فإنّ { لَوْ } تقتضي انتفاء مضمون شرطها لانتفاء مضمون جوابها.

فحصل من هذا الكلام غرضان مهمان:

أحدهما: زيادة إبطال لمزاعم المشركين أنّ القرآن شعر أو كهانة إبطالا جامعا لإبطال النوعين، أي: ويوضِّح مخالفة القرآن لهذين النوعين من الكلام أنّ الآتي به ينسبه إلى وحي الله، وما علمتم شاعرا ولا

كاهنا يزعم أنّ كلامه من عند الله.

ثانيهما: إبطال زعم لهم لم يسبق التصريح بإبطاله هنا، وهو قول فريق منهم (افْتَرَاهُ)، أي: نسبه إلى الله افتراء وتقوّله على الله، قال تعالى { أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لاَ يُؤْمِنُونَ } [الطور:33]، فبيَّن لهم أنّه لو افترى على الله لما أقرَّه على ذلك.

ثم أنّ هذا الغرض يستتبع غرضا آخر وهو تأييسهم من أن يأتي بقرآن لا يخالف دينهم ولا يسفِّه أحلامهم وأصنامهم، قال تعالى { قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ } [يونس:15].

التقوُّل: نسبة قول لمن لم يقله. صيغة دالة على التكلُّف، لأنّ الذي ينسب إلى غيره قولا لم يقله يتكلّف ويختلق ذلك الكلام، ولكونه في معنى كذب عُدِّي بـ (على).

{ **بَعْضَ** } اسم يدل على مقدار من نوع ما يضاف هو إليه، وهو هنا منصوب على المفعول به لـ {تَقَوَّلَ}.

{ **الأقاويل** } جمع أقوال الذي هو جمع قول، أي: بعضا من جنس الأقوال التي هي كثيرة، فلكثرتها جيء لها بجمع الجمع الدال على الكثرة، أي: ولو نسب إلينا قليلا من أقوال كثيرة صادقة، يعني: لو نسب إلينا شيئا قليلا من القرآن لم ننزِّله لأخذنا منه باليمين.

{ **لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ** } لأخذناه بقوّة، أي: دون إمهال، فالباء للسببية.

اليمين: اليد اليمنى، كُنِّي بها عن الاهتمام بالتمكّن من المأخوذ، لأنّ اليمين أقوى عملا من الشمال لكثرة استخدامها، فنسبة التصرّف إليها شهيرة.

{ **الْوَتِينَ** } عِرق معلّق به القلب ويُسَّمى النياط، وهو الذي يسقي الجسد بالدم، ولذلك يقال له: نهر الجسد، وهو إذا قطع مات صاحبه، وهو يقطع عند نحر الجزور.

فقطع الوتين من أحوال الجزور ونحرها، فشُبِّه عقاب من يُفرض تقوُّله على الله بجزور تنحر فيقطع وتينها. ولم أقف على أنّ العرب كانوا يكنُّون عن الإهلاك بقطع الوتين، فهذا من مبتكرات القرآن.

{ **فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ** } شديد الاتصال بما استتبعه فرض التقوُّل من تأييسهم من أنّ يتقوَّل على الله كلاما لا يسوؤهم، ففي تلك الحالة، لا يستطيع أحد منكم أو من غيركم أن يحجز عنه ذلك العقاب.

فمعنى هذه الآية يحوم حول معنى قوله تعالى { وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا، وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا، إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا } [الاسراء:73-75].

{ **مِنْكُمْ** } الخطاب للمشركين.

{ **أَحَدٍ** } مفرد أُخبِر عنه بـ { حَاجِزِينَ } جمعا لأنّه هنا وإن كان لفظه مفردا فهو في معنى الجمع، لأنّه إذا كان بمعنى ذات أو شخص لا يقع إلّا في سياق النفي فيفيد العموم.

الحجز: الدفع والحيلولة، أي: لا أحد منكم يحجزنا عنه. والضمير عائد إلى { رَسُولٍ كَرِيمٍ } [40].

وهذه الآية دليل على أنّ الله تعالى لا يُبقي أحدا يدّعي أنّ الله أوحى إليه كلاما يبلِّغه إلى الناس، وأنّه يعجِّل بهلاكه.

{ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ } [48].

عطف على { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ } [40]، والضمير عائد إلى القرآن الذي تقدّم ضميره هناك.
لمَّا أُبطِل طعنهم في القرآن بأنّه قول شاعر، أو قول كاهن أُعقِب ببيان شرفه ونفعه، إمعانا في إبطال كلامهم بإظهار الفرق البيّن بينه وبين شعر الشعراء وزمزمة الكهان، إذ هو تذكرة.
التذكرة: اسم مصدر التذكير وهو التنبيه إلى مغفول عنه.
{ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ } إخبار بالمصدر للمبالغة في الوصف.
المعنى: أنّه مذكِّر للناس بما يغفلون عنه من العلم بالله وما يليق بجلاله لينتشلهم من هوّة التمادي في الغفلة. فالقرآن في ذاته تذكرة لمن يريد أن يتذكّر سواء تذكر أم لم يتذكر، وقد تقدّم تسمية القرآن بالذكر والتذكير في آيات عديدة منها قوله تعالى { وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ } [الحجر: 6].
{ لِلْمُتَّقِينَ } المؤمنون، فإنّهم المتّصفون بتقوى الله لأنّهم يؤمنون بالبعث والجزاء دون المشركين. ولأنّهم الذين أدركوا مزيَّته. فالقرآن كان هاديا إيّاهم للإيمان، كما قال تعالى { هُدًى لِلْمُتَّقِينَ } [البقرة:2].
فالقرآن تذكرة للمتقين في الماضي والحال والمستقبل، فإنّ الإخبار عنهم باسم المصدر يتحمّل الأزمنة الثلاثة إذ المصدر لا إشعار له بوقت بخلاف الفعل وما أشبهه.

{ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ [49] وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ [50] }.

هاتان جملتان مرتبطتان، وأولاهما تمهيد وتوطئة للثانية، وهي معترضة بين التي قبلها والتي بعدها، والثانية منها معطوفة على جملة { وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ } [48]، فكان تقديم الجملة الأولى على الثانية اهتماما بتنبيه المكذِّبين إلى حالهم، وكانت أيضا بمنزلة التتميم لجملة { وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ } [48].
المعنى: إنّا بعثنا إليكم الرسول بهذا القرآن ونحن نعلم أنّه سيكون منكم مكذِّبون له وبه، وعِلْمنا بذلك لم يصرفنا عن توجيه التذكير إليكم وإعادته عليكم { لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ } [الأنفال:42]، فقوبلت صفة القرآن التي تنفع المتقين بصفته التي تضر بالكافرين على طريقة التضاد، فبين الجملتين المتعاطفتين مُحسِّن الطباق.
الحسرة: الندم الشديد المتكرّر على شيء فائت مرغوب فيه، ويقال لها التلهّف، اشتُقت من الحسر وهو الكشف لأنّ سببها ينكشف لصاحبها بعد فوات إدراكه ولا يزال يعاوده.
فالقرآن حسرة على الكافرين، أي: سبب حسر عليهم في الدنيا لأنّه فضح تُرَّهاتهم ونقض عماد دينهم الباطل وكشف حقارة أصنامهم، وهو حسرة عليهم في الآخرة لأنّهم يجدون مخالفته سبب عذابهم، ويقفون

على اليقين بأنّ ما كان يدعوهم إليه هو سبب النجاح لو اتّبعوه، لا سيما وقد رأوا حسن عاقبة الذين صدّقوا به.

المكذِّبون: هم الكافرون. وإنّما عدل عن الإتيان بضميرهم إلى الاسم الظاهر لأنّ الحسرة تعمّ المكذبين يومئذ والذين سيكفرون به من بعد.

{ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ } [51].

عطف على { وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ } [50]، فيحتمل أن يكون الضمير عائدا على القرآن لأنّ هذه من صفات القرآن، ويحتمل أن يكون مرادا به المذكور، وهو كون القرآن حسرة على الكافرين، أي: أنّ ذلك حقٌّ لا محالة، أي: هو جالب لحسرتهم في الدنيا والآخرة.

{ **لَحَقُّ الْيَقِينِ** } يجوز أن يكون من إضافة الموصوف إلى الصفة، أي: إنّه لَلْيقينُ الحقّ، لا يشك في كونه كذلك إلّا من غُشي على بصيرته. وهذا أولى من جعل الإضافة من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: لليقين الحقّ، أي: الحق الذي لا تعتريه شبهة.

واعلم أنّ (حق اليقين)، و(عين اليقين)، و(علم اليقين) وقعت في القرآن.

فحق اليقين وقع في هذه السورة وفي [الواقعة:95]. وعلم اليقين وعين اليقين وقعا في [التكاثر:5،7]، وهذه الثلاثة إضافتها من إضافة الصفة إلى الموصوف أو من إضافة الموصوف إلى الصفة كما ذكرنا.

{ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ } [52].

تفريع على جميع ما تقدّم من وصف القرآن وتنزيهه على المطاعن وتنزيه النبيّ صلى الله عليه وسلم عمّا افتراه عليه المشركون، وعلى ما أيَّده الله به من ضرب المثل للمكذِّبين به بالأمم التي كذّبت الرسل، فأُمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بأن يُسبح الله تسبيح ثناء وتعظيم شكرا له على ما أنعم به عليه من نعمة الرسالة وإنزال هذا القرآن عليه.

{ **بِاسْمِ رَبِّكَ** } واسم الله هو العَلَم الدال على الذات. والباء للمصاحبة، أي: سبح الله تسبيحا بالقول لأنّه يجمع اعتقاد التنزيه والإقرار به وإشاعته.

التسبيح: التنزيه عن النقائص بالاعتقاد والعبادة والقول، فتعيَّن أن يجري في التسبيح القولي اسم المنزّه، فلذلك قال { فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ } ولم يقل: فسبّح ربك العظيم.

وتسبيح المُنعِم بالاعتقاد والقول هما مستطاع شكر الشاكرين إذ لا يبلغ إلى شكره بأقصى من ذلك.

وروي أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما نزلت هذه الآية: **" اجعلوها في ركوعكم "**.

واستحبّ التزام ذلك جماعة من العلماء، وكره مالك التزام ذلك لئلا يُعد واجبا فرضا.

وتقدّم نظير هذه الآية في آخر [الواقعة:96].

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المعارج

سُمِّيت هذه السورة في كتب السنّة وفي صحيح البخاري و جامع الترمذي، وفي تفسير الطبري، وعند ابن عطية وعند ابن كثير (**سورة سأل سائل**). وكذلك رأيتها في بعض المصاحف المخطوطة بالخط الكوفي بالقيروان في القرن الخامس.

وسُمِّيت في معظم المصاحف المشرقية والمغربية وفي معظم التفاسير (**سورة المعارج**).

وذُكر في الإتقان أنّها تُسمَّى (**سورة الواقع**).

وهذه الأسماء الثلاثة مقتبسة من كلمات وقعت في أوّلها، وأخصُّها بها جملة { سَأَلَ سَائِلٌ } [1]، لأنّها لم يرد مثلها في غيرها من سور القرآن، إلّا أنّها غلب عليها اسم (سورة المعارج) لأنّه أخف.

وهي مكية بالاتفاق. وشذّ من ذكر أن آية { وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ } [24] مدنية.

وهي السورة الثامنة والسبعون في عِداد نزول سور القرآن عند جابر بن زيد، نزلت بعد سورة الحاقة وقبل سورة النبأ.

وعَدَّ جمهور الأمصار **آيها أربعا وأربعين.** وعدّها أهل الشام ثلاثا وأربعين.

أغراض السورة

*/ تهديد الكافرين بعذاب يوم القيامة.

*/ إثبات ذلك اليوم ووصف أهواله.

*/ وصف شيء من جلال الله فيه.

*/ تهويل دار العذاب، وهي جهنم. وذكر أسباب استحقاق عذابها.

*/ مقابلة ذلك بأعمال المؤمنين التي أوجبت لهم دار الكرامة، وهي أضداد صفات الكافرين.

*/ تثبيت النبيّ صلى الله عليه وسلم. وتسليته على ما يلقاه من المشركين.

*/ وصف كثير من خصال المسلمين التي بثَّها الإسلام فيهم.

*/ تحذير المشركين من استئصالهم وتبديلهم بخير منهم.

{ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ [1] لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ [2] مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ [3] }.

كان كفّار قريش يستهزئون فيسألون النبيّ صلى الله عليه وسلم: متى هذا العذاب الذي تتوعّدنا به، ويسألونه تعجيله، قال تعالى { وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [يونس:48]، وقال تعالى { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ } [الحج:47]، وكانوا أيضا يسألون الله أن يوقع عليهم عذابا إذا كان القرآن حقًّا من عنده، قال تعالى { وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [الأنفال:32]

<u>قيل</u>: إنّ السائل شخص معيَّن هو النضر بن الحارث.

<u>وقيل</u>: كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يسأل الله أن يعينه على المشركين بالقحط.

والسؤال مستعمل في معنيي الاستفهام عن شيء والدعاء، على أنّ استفهامهم مستعمل في التهكّم والتعجيز.

{ سَأَلَ } قرأ الجمهور بإظهار الهمزة. وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر { سَالَ } بتخفيف الهمزة ألفا.

{ سَأَلَ سَائِلٌ } بمنزلة سُئل، لأنّ مجيء فاعل الفعل اسم فاعل من لفظ فعله لا يفيد زيادة علم بفاعل الفعل، فالعدول عن أن يقول: سُئل بعذاب، إلى قوله { سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ }، لزيادة تصوير هذا السؤال العجيب.

{ بِعَذَابٍ } من بلاغة القرآن تعدية { سأل } بالباء ليصلح الفعل لمعنى الاستفهام والدعاء والاستعجال، لأنّ الباء تأتي بمعنى (عن) وهو من معاني الباء الواقعة بعد فعل السؤال نحو { فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا } [الفرقان:59].

وجعل في الكشّاف تعدية فعل سأل بالباء لتضمينه معنى عُني واهتم. وقد علمت احتمال أن يكون سأل بمعنى استعجل، فيكون تعديته بالباء كما في قوله تعالى { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ } [العنكبوت:53]، وقوله تعالى { يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا } [الشورى:18].

{ وَاقِعٍ } وصف العذاب بأنّه واقع، وما بعده من أوصافه إلى قوله تعالى { إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا } [6]، إدماج معترض ليفيد تعجيل الإجابة عمّا سأل عنه سائل، بكلا معنيي السؤال، لأنّ السائل سأل عن عذاب غير موصوف، أو الداعي دعا بعذاب غير موصوف، فحُكي السؤال مجملا ليُرتَّب عليه وصفه بهذه الأوصاف والتعلُّقات، فينتقل إلى ذكر أحوال هذا العذاب وما يحفُّ به من الأهوال.

أي: أعلمهم أنّ العذاب الذي استهزأوا به واقع لا يدفعه عنهم تأخّر وقته.

{ لِلْكَافِرِينَ } اللام لشبه الملك، أي: عذاب من خصائصهم، كما قال تعالى { فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ } [البقرة:24].

{ مِنَ اللَّهِ } يتنازع تعلّقه وصفا { وَاقِعٍ } و{ دَافِعٌ }. و{ مِنَ } للابتداء المجازي على كلا التعلّقين مع اختلاف العلاقة بحسب ما يقتضيه الوصف المتعلّق به.

{ **ذِي الْمَعَارِجِ** } إجراء هذا الوصف على اسم الجلالة لاستحضار عظمة جلاله ولإدماج الإشعار بكثرة مراتب القرب من رضاه وثوابه، فإنّ المعارج من خصائص منازل العظماء، قال تعالى { لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ } [الزخرف:33]. وليكون من هذا الوصف تخلُّص إلى ذكر يوم الجزاء الذي يكون فيه العذاب الحقّ للكافرين.

المعارج: جمع مِعْرَج (بكسر الميم وفتح الراء) وهو ما يُعرج به، أي: يُصعد من سلم ومدرج.

{ **تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ** } [4].

اعتراض لبيان أنّ المعارج منازل من الرفعة الاعتبارية ترتقي فيها الملائكة وليست معارج يُعرج إليه فيها، أي: فهي معارج جعلها الله للملائكة، فالله مُعْرَج إليه بإذنه لا عارج، وبذلك الجَعْل وُصف الله بأنّه صاحبها، أي: جاعلها، ونظيره قوله تعالى { ذُو الْعَرْشِ } [غافر:15].

{ **الرُّوحُ** } هو جبريل عليه السلام الموكل بإبلاغ إرادة الله تعالى وإذنه، وتخصيصه بالذكر لتمييزه بالفضل على الملائكة. ونظير هذا قوله تعالى { تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا } [القدر:4]، أي: في ليلة القدر.

ويطلق على ما به حياة الإنسان وتصريف أعماله، وهو المذكور في قوله تعالى { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي } [الإسراء:85]. فيجوز أن يُراد بالروح هنا أرواح أهل الجنّة على اختلاف درجاتها في المعارج.

{ **إِلَيْهِ** } الضمير عائد إلى الله على تأويل مضاف، على طريقة تعلّق بعض الأفعال بالذوات.

{ **فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ** } وهذا العروج كائن يوم القيامة، والمقدار تقريب لنهاية عظمة تلك المنازل، وارتقاء أهل العالم الأشرف إليها وعظمة يوم وقوعها.

{ **فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا** } [5].

اعتراض مُفرَّع: إمّا على ما يومئ إليه { سَأَلَ سَائِلٌ } من أنّه سؤال استهزاء، فهذا تثبيت للنبيّ صلى الله عليه وسلم، وإمّا على أنّه دعاء فيكون كالتطمين.

الصبر الجميل: الصبر الحسن في نوعه وهو الذي لا يخالطه شيء ممّا ينافي حقيقة الصبر، وقد مضى قوله تعالى عن يعقوب عليه السلام { فَصَبْرٌ جَمِيلٌ } [يوسف:18].

{ **إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا** [6] **وَنَرَاهُ قَرِيبًا** [7] }.

تعليل لجملتي { سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ } [1] ولجملة { فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا } [5]، أي: سألوا استهزاء

لأنّهم يرونه محالا وعليك بالصبر لأنّا نعلم تحقُّقه، أي: وأنت تثق بأنّه قريب، أي: محقَّق الوقوع.

وفي الكلام تجهيل لهم إذا اغترُّوا بما هم فيه من الأمن ومسالمة العرب لهم ومن الحياة الناعمة فرأوا العذاب الموعود بعيدا، إن كان في الدنيا فلأمنهم، وإن كان في الآخرة فلإنكارهم البعث.

{ **بَعِيدًا** } هنا كناية عن معنى الإحالة، لأنّهم لا يؤمنون بوقوع العذاب الموعود به، ولكنّهم عبَّروا عنه ببعيد تشكيكا للمؤمنين، فقد حكى الله عنهم أنّهم قالوا { أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ } [ق:3].

{ **قَرِيبًا** } هنا كناية عن تحقُّق الوقوع على طريق المشاكلة التقديرية والمبالغة في التحقيق.

{ **بَعِيدًا / قَرِيبًا** } بينهما مُحسِّن الطباق.

{ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ [8] وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ [9] وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا [10] يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ [11] وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ [12] وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ [13] وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيه [14] كَلَّا إِنَّهَا لَظَى [15] نَزَّاعَةً لِلشَّوَى [16] تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى [17] وَجَمَعَ فَأَوْعَى [18] }.

{ **يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ** } يجوز أن يتعلَّق بفعل { تَعْرُجُ }، وأنّ يتعلَّق بـ { يَوَدُّ الْمُجْرِمُ } قُدِّم عليه للاهتمام بذكر اليوم، فيكون قوله تعالى { يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ } ابتداء الكلام.

{ **الْمُهْلِ** } : دردي الزيت.

<u>المعنى</u>: تشبيه السماء في انحلال أجزائها بالزيت، وهذا كقوله تعالى { فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ } [الرحمن:37].

العِهن: الصوف المصبوغ، قيل المصبوغ مطلقا، وقيل المصبوغ ألوانا مختلفة.

{ **وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا** } لشدّة ما يعتري الناس من الهول، فمن شدّة ذلك أن يرى الحميم حميمه في كرب وعناء فلا يتفرغ لسؤاله عن حاله لأنّه في شاغل عنه، فحُذف متعلّق { يَسْأَلُ } لظهوره من المقام ومن قوله تعالى { يُبَصَّرُونَهُمْ }، أي: يُبصر الأخلّاء أحوال أخلّائهم من الكرب فلا يسأل حميم حميما.

الحميم: الخليل الصديق.

{ **يُبَصَّرُونَهُمْ** } مضارع بصَّره بالأمر إذا جعله مبصرا له، أي: ناظرا، فأصله: يُبصرون بهم.

<u>استئناف بياني</u> لدفع احتمال أن يقع في نفس السامع أنّ الأحماء لا يرى بعضهم بعضا لأنّ كلّ أحد في شاغل، فأجيب بأنّهم يُكشف لهم عنهم ليروا ما هم فيه من العذاب، فيزدادوا عذابا فوق العذاب.

<u>ويجوز أن تكون الجملة في موضع الحال</u>، أي: لا يسأل حميم حميما في حال أنّ كلّ حميم يبصر حميمه، يقال له: انظر ماذا يقاسي فلان.

{ **يَوَدُّ** } يحب، أي: يتمنّى، وذلك إمّا بخاطر يخطر في نفسه عند رؤية العذاب، وإمّا بكلام يصدر منه،

نظير قوله تعالى { وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا } [النبأ:40]، وهذا هو الظاهر، أي: يصرخ الكافر يومئذ فيقول: افتدي من العذاب ببنيَّ وصاحبتي وفصيلتي، فيكون ذلك فضيحة له يومئذ بين أهله.

{ **الْمُجْرِمُ** } الذي أتى الجرم، وهو الذنب العظيم، أي: الكفر لأنّ الناس في صدر البعثة صنفان كافر ومؤمن.

{ **لَوْ يَفْتَدِي** } و{ لَوْ } مصدرية فما بعدها في حكم المفعول لـ { يَوَدُّ }.

الافتداء: إعطاء الفداء، وهو ما يُعطَى عوضا لإنقاذ من تَبِعة، قول تعالى { وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ } [البقرة:85]، وقوله تعالى { وَلَوْ افْتَدَى بِهِ } [آل عمران:91].

{ **مِنْ** } تفيد الابتداء المجازي لتضمين فعل يفتدي معنى يتخلَّص.

{ **يَوْمِئِذٍ** } هو { يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ } فإن كان قوله تعالى { يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ } متعلقا بـ { يَوَدُّ } فقوله

{ يَوْمِئِذٍ } تأكيد لـ { يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ }، وإن كان متعلقا بقوله { تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ } فقوله { يَوْمِئِذٍ } إفادة لكون ذلك اليوم هو يوم يودّ المجرم لو يفتدي من العذاب بمن ذكر بعده.

{ **وَصَاحِبَتِهِ** } زوجه.

الفصيلة: الأقرباء الأدنون من القبيلة، وهم الأقرباء المفصول منهم، أي: المستخرَج منهم. ولم يُذكر الأبوان لدخولهما في الفصيلة، قصدا للإيجاز.

الإيواء: الضم والانحياز. قال تعالى { آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ } [يوسف:69].

{ **وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً** } أي: ويفتدي بمن في الأرض، أي: ومن له في الأرض ممّا يعزّ عليه من أخلّاء وقرابة ونفائس الأموال ممّا شأن الناس الشحّ ببذله والرغبة غي استبقائه، على نحو قوله تعالى { فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ } [آل عمران:91].

{ **ثُمَّ يُنْجِيه** } كان الظاهر أن يعطف بالفاء وهو الأكثر في مثله كقوله تعالى { وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً } [النساء:89]، وقوله تعالى { وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ } [القلم:9]، فعدل عن عطفه بالفاء هنا إلى عطفه بـ { ثُمَّ } للدلالة على شدّة اهتمام المجرم بالنجاة بأية وسيلة.

ومتعلّق { يُنْجِيه } محذوف يدل عليه قوله تعالى { مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ }.

{ **كَلَّا** } حرف ردع وإبطال لكلام سابق، ولا يخلو من أن يُذكر بعده كلام، وهو هنا لإبطال ما يخامر المجرم من الوِدادة، نُزّل منزلة الكلام لأنّ الله مطّلع عليه، أو لإبطال ما يتفوّه به من تمنّي ذلك. فالتقدير: يقال له كلّا، أي: لا افتداء ولا إنجاء.

{ **إِنَّهَا لَظَى** } استئناف بياني ناشئ عمّا أفاده حرف { كَلَّا } من الإبطال. وضمير { إِنَّهَا } عائد إلى ما يشاهده المجرم قبالته من مرأى جهنم فأُخبر بأنّ ذلك لظى. ولما كان { لَظَى } مقترنا بألف التأنيث أنّث الضمير باعتبار تأنيث الخبر واتبع اسمها بأوصاف، والمقصود التعريض بأنّها أُعِدّت له.

{ **لَظَى** } علم منقول من اسم اللهب، جعل عَلَما لـ (جهنم)، قُرن بألف تأنيث تنبيها بذلك التغيير على نقله إلى العلمية.

{ **نَزَّاعَةً لِلشَّوَى** } وقرأ الجمهور { نَزَّاعَةٌ } بالرفع، فهو خبر ثان عن (إنَّ) إن جُعل الضمير ضميرا عائدا إلى النار المشاهدة، أو هو خبر عن { لَظَى } إن جُعل الضمير ضمير القصة وجعل { لَظَى } مبتدأ. وقرأ حفص بالنصب على الحال، فيتعيّن أنّ الضمير ليس ضمير القصة. والتعريض هو هو.

النزّاعة: المبالغة في النزع وهو الفصل والقطع.

الشَّوَى: اسم جمع شَواة (بفتح الشين وتخفيف الواو)، وهي العضو غير الرأس مثل اليد والرجل فالجمع باعتبار ما لكل أحد من شوى، وقيل الشواة: جلدة الرأس، فالجمع باعتبار كثرة الناس.

{ **تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى، وَجَمَعَ فَأَوْعَى** } إمّا خبر ثان حسب قراءة { نَزَّاعَةٌ } بالرفع، وإمّا حال على القراءتين.

{ **تَدْعُو** } يجوز أن يكون الدعاء غير حقيقة بأن يُعتبر استعارة مكنية، شُبِّهت { لَظَى } في انهيال الناس إليها بضائفٍ لمأدُبة، على طريقة التهكُّم. ويكون { مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى وَجَمَعَ فَأَوْعَى } قرينة، أو تجريدا، أي: من أدبر وتولى عن الإيمان بالله. وفيه الطباق لأنّ الإدبار والتولِّي يضادان الدعوة في الجملة.

ويكون { تَدْعُو } مشتقا من الدُّعوة المضمومة الدال.

ويجوز أن يكون {تَدْعُو} مستعملا حقيقة، والذين يدعون هم الملائكة الموكلون بجهنّم، وإسناد الدعاء إلى جهنم إسنادا مجازيا لأنّها مكان الداعين أو لأنّها سبب الدعاء. أو جهنم تدعوا حقيقة بأن يخلق الله فيها أصواتا تنادي الذين تولوا أن يردوا عليها فتلتهمهم.

{ **مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى، وَجَمَعَ فَأَوْعَى** } جنس الموصوفين بأنّهم أدبروا وتولّوا وجمعوا، وهم المجرمون الذين يودُّون أن يفتدوا من العذاب يومئذ. وهذه الصفات خصائص المشركين، وهي من آثار دين الشرك التي هي أقوى باعث لهم على إعراضهم عن دعوة الإسلام.

الإدبار: ترك شيء في جهة الوراء، لأنّ الدُّبر هو الظهر، فأدبر: جعل شيئا وراءه بأن لا يعرج عليه أصلا أو بأن يُقبل عليه ثم يفارقه.

التولّي: الإدبار عن الشيء والبعد عنه، وأصله مشتقّ من الوَلاية وهي الملازمة، قال تعالى { فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } [البقرة:144]، ثم قالوا: ولَّى عنه، أرادوا اتخذ غيره وليًّا، أي: ترك ولايته إلى ولاية غيره، مثل ما قالوا: رغب فيه ورغب عنه، فصار (وَلِيَ) بمعنى: أدبر وأعرض، قال تعالى { فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا } [النجم:29]، أي: عامله بالإعراض عنه.

ففي التولِّي معنى إيثار غير المتولَّى عنه، ولذلك يكون بين التولِّي والإدبار فرق، وباعتبار ذلك الفرق كان العطف، أي: تدعو من ترك الحق وتولَّى عنه إلى الباطل. وهذه دقيقة من إعجاز القرآن.

ولذلك يكون { أَدْبَرَ } مستعارا لعدم قبول القرآن ونفي استماع دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم، وحال

الذين قال الله فيهم { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ } [فصلت:26].
ويكون { تَوَلَّى } مستعارا للإعراض عن القرآن بعد سماعه وللنفور عن دعوة الرسول، كما قال تعالى { وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ } [الأنفال:31].
وكلا الحالين حال كفر ومحقّة للعذاب، وهما مجتمعتان في جميع المشركين.
والمقصود من ذكرهما معا تفظيع أصحابهما، وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون متعلّقهما متّحدا يتنازعه كلا الفعلين، ويقدّر بنحو: عن الحقّ. ويجوز أن يُقدَّر لكلّ فعل متعلّق هو أشد مناسبة لمعناه، فقدّر البيضاوي: أدبر عن الحق، وتولَّى عن الطاعة، أي: لم يقبل الحق وهو الإيمان، وأعرض عن طاعة الرسول بعد سماع دعوته، وعن قتادة عكسه: أدبر عن طاعة الله وتولَّى عن كتاب الله.
{ **وَجَمَعَ فَأَوْعَى** } مرتَّب ثانيهما على أولهما، فيدل ترتيب الثاني على الأوّل أنّ مفعول { جَمَعَ } المحذوف هو شيء ممّا يوعى، أي: يُجعل في وعاء. أي: المال فكنزه ولم ينفع به المحاويج.
ومنه جاء فعل (أَوْعَى) إذا شحّ. وفي الحديث: **" ولا تُوعِي فيوعَى عليك "**.
وفي قوله تعالى { جَمَعَ } إشارة إلى الحرص، وفي قوله تعالى { فَأَوْعَى } إشارة إلى طول الأمل.
وعن قتادة: كان جَموعا للخبيث، وهذا تفسير حسن، أي: بأن يُقدَّر لـ { جَمَعَ } مفعول يدلّ عليه السياق، أي: وزاد على إدباره وتولّيه أنّه جمع الخبائث. وعليه يكون { فَأَوْعَى } مستعارا لملازمته ما فيه من خصال الخبائث واستمراره عليها فكأنّها مختزنة لا يفرّط فيها.

{ **إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا [19] إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا [20] وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا [21]** }.
معترضة بين { مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى، وَجَمَعَ فَأَوْعَى } [18/17] وبين الاستثناء { إِلَّا الْمُصَلِّينَ ...} [22].
وهي تذييل لجملة { جَمَعَ فَأَوْعَى } تنبيها على خصلة تخامر نفوس البشر فتحملهم على الحرص لنيل النافع وعلى الاحتفاظ به خشية نفاذه، لما فيهم من خُلق الهلع. وهذا تذييل لومٍ وليس في مَساقة عذر لمن جمع فأوعى، ولا هو تعليل لفعله. والمقصود من التذييل هو قوله تعالى { وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا }، وأمّا قوله { إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا } فتمهيد وتتميم لحالتيه.
{ **إِنَّ** } موقع حرف التوكيد ما تتضمَّنه الجملة من التعجيب من هذه الخصلة البشرية، فالتأكيد لمجرّد الاهتمام بالخبر ولفت الأنظار إليه والتعريض بالحذر منه.
{ **الْإِنْسَانَ** } المراد جنس الإنسان لا فرد معيَّن، كقوله { إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى، أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى } [العلق:7]، وقوله تعالى { خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ } [الأنبياء:37]، ونظائر ذلك كثيرة في القرآن.
هلوع: فعول مثال مبالغة للاتصاف بالهلع. والهلع لفظ غامض من غوامض اللغة، والذي استخلصته من تتبع استعمالات كلمة الهلع أنّ الهلع: قلّة إمساك النفس عند اعتراء ما يُحزنها أو ما يسرّها أو عند توقّع ذلك والإشفاق منه. وأمّا الجزع فمن آثار الهلع.

{ **خُلِقَ هَلُوعًا** } أي: أنّ الهلع طبيعة كامنة فيه، تظهر عند ابتداء شعوره بالنافع والضار، فهو من طباعه المخلوقة كغيرها من طباعها البشرية. وليس في تعلق الحال بعاملها دلالة على قصر العامل عليها، ولا في اتصاف صاحب الحال بالحال دلالة على أنّه لا صفة له غيرها، فقد تكون للشيء الحالة وضدها باختلاف الأزمان والدواعي، وبذلك يستقيم تعلق النهي عن حال مع تحقيق تمكّن ضدها من المنهي، لأنّ عليه أن يُروِّض نفسه على مقاومة النقائص وإزالتها عنه. وإذ ذكر الله الهلع هنا عَقِب مذمة الجمع والإيعاء، فقد أشعر بأنّ الإنسان يستطيع أن يكف عن هلعه إذا تدبَّر في العواقب، فيكون في قوله تعالى { خُلِقَ هَلُوعاً } كناية عن تمكُّن ذلك الخُلق منه وغلبته على نفسه.

وقد جعل الله للإنسان عقلا وحكمة إن هو أحسن استعمالها نَخَلَت صفاته، وثقَّفت من قناته، ولم يُخْلِه من دعاة إلى الخير يصفون له كيف يَريض جامح نفسه، وكيف يوفِّق بين إدراكه وحسّه، وهؤلاء هم الرسل والأنبياء والحكماء.

فإذا أخبر عن الإنسان بشدّة تلبّسه ببعض النقائص، وجعل ذلك في قالب أنّه جُبل عليه، فالمقصود من ذلك: إلقاء تبعة ذلك عليه لأنّه فرّط في إراضة نفسه على ما فيها من جبلّة الخير، وأرخى لها العنان إلى غاية الشر، وفرَّط في نصائح الشرائع والحكماء.

وإذا أُسنِد ما يأتيه الإنسان من الخير إلى الله تعالى فالمقصود: التنبيه إلى نعمة الله عليه بخلق القوّة الجالبة للخير فيه، ونعمة إرشاده وإيقاظه إلى الحقّ، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى { مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ } [النساء:79] عقب قوله تعالى { قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاَءِ الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا } [النساء:78]. وفي هذا المجال زلَّت أفهام المعتزلة، وحلكت عليهم الأجواء، ففكَّروا وقدَّروا وما استطاعوا مَخْلَصا وما قَدَروا.

{ **الشَّرُّ** } الأذى، مثل المرض والفقر.

{ **الْخَيْرُ** } ما ينفع الإنسان ويلائم رغباته، مثل الصحة والغنى.

الجَزُوع: شديد الجزع، وهو ضدّ الصبر.

المَنُوع: كثير المنع لمّا عنده من الخير.

{ **إِذَا** } في الموضعين ظرفان يتعلّقان كلّ واحد بما اتصل به.

{ إِلَّا الْمُصَلِّينَ [22] الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ [23] وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ [24] لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ [25] وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ [26] وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ [27] إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ [28] وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ [29] إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ [30] فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ [31] وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ [32] وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ [33] وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ [34] أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ [35] }.

استثناء منقطع ناشئ عن الوعيد المبتدأ، من قوله تعالى { يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ } [11].

فالمعنى على الاستدراك، والتقدير: لكن المصلّين الموصوفين بكَيْت وكيت، أولئك في جنّات مكرمون.

وهذه صفات ثمان هي من أشعار المسلمين، فعُدل عن إحضارهم بوصف المسلمين إلى تعداد خصال من خصالهم إطنابا في الثناء عليهم، لأنّ مقام الثناء مقام إطناب، وتنبيها على أنّ كلّ صلة من هذه الصلات الثمان هي من أسباب الكون في الجنّات.

{ **الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ** } أي: مواظبون على صلاتهم لا يتخلّفون عن أدائها ولا يتركونها.

وفي إضافة (صلاة) إلى ضمير { الْمُصَلِّينَ } تنويه باختصاصها بهم. ومجيء الصلة جملة اسمية لقصد إفادتها الثبات.

{ **الَّذِينَ** ...} إعادة اسم الموصول مع الصلات المعطوفة لمزيد العناية بأصحاب تلك الصلات.

{ **وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ** } تسمية ما يعطونه من أموالهم من الصدقات باسم { حَقٌّ } للإشارة إلى أنّهم جعلوا السائل والمحروم كالشركاء لهم في أموالهم من فرط رغبتهم من مواساة إخوانهم، إذ لم تكن الصدقة يومئذ واجبة، ولم تكن الزكاة قد فُرضت.

{ **حَقٌّ مَعْلُومٌ** } أي: أنّه يعلمه كل واحد منهم ويحسبونه، ويعلمه السائل والمحروم بما اعتاد منهم.

ومجيء الصلة جملة اسمية لإفادة ثبات هذه الخصلة فيهم وتمكّنها منهم.

السائل: هو المستعطي.

{ **الْمَحْرُومِ** } الذي لا يسأل الناس تعفُّفا مع احتياجه فلا يتفطن له كثير من الناس فيبقى كالمحروم.

وأصل المحروم: الممنوع من مرغوبه، وتقدّم في قوله تعالى { وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ } [الذاريات:19]. وهذه الصفة مضادة صفة الكافرين المتقدّمة في قوله تعالى { وَجَمَعَ فَأَوْعَى } [18].

{ **وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ** } هو الإيمان بوقوع البعث والجزاء. وهذا الوصف مقابل وصف الكافرين بقوله تعالى { إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا } [6].

ولمّا كان التصديق من عمل القلب ولا يُتصور أن يكون فيه تفاوت أتي بالجملة الفعلية على الأصل في صلة الموصول، وأوثر فيها الفعل المضارع لدلالته على الاستمرار.

{ **مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ** } هذا مقابل قوله تعالى في حقّ الكافرين {سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ، لِلْكَافِرِينَ} [2/1]، لأنّ سؤالهم سؤال مستخف بذلك ومحيله.

الإشفاق: توقّع حصول المكروه وأخذ الحذر منه.

وصوغ الصلة بالجملة الاسمية لتحقيق وثبات اتصافهم بهذا الإشفاق لأنّه من المغيَّبات، فمن شأن كثير من الناس التردُّد فيه.

{ **إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ** } معترضة، أي: غير مأمون لهم، وهذا تعريض بزعم المشركين الأمن إذ قالوا { وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ } [الشعراء:138].

{ **وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ** ...} هذا مقابل قوله تعالى في تهويل حال المشركين يوم الجزاء { وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا } [10]، إذا أخص الأحِمَّاء بالرجل زوجه، فقُصد التعريض بالمشركين بأنّ هذا الهول خاص بهم بخلاف المسلمين فإنّهم هم وأزواجهم يحبرون لأنّهم اتقوا الله في العفة من غير الأزواج.

وتقدم نظير هذا في [المؤمنين:6/5]، أي: ليس في المسلمين سفاح ولا زنى ولا مخالة ولا بغاء، ولذلك عُقِّب بالتفريع بقوله تعالى { **فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ** }.

العادي: المفسد، أي: هم الذين أفسدوا فاختلطت أنسابهم وتطرقت الشكوك إلى حصانة نسائهم، ودخلت الفوضى في نظم عائلاتهم، ونشأت بينهم الإحن من الغيرة.

{ **وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ** } ذُكر رعي الأمانات والعهد لمناسبة وصف ما يَوَدُّ الكافر يوم الجزاء أن يفتديه من العذاب بفصيلته التي تؤويه، فيذهب منه رعي العهود التي يجب الوفاء بها للقبيلة، وحسبك من تشويه حاله أنّه قد نكث العهود التي كانت عليه لقومه.

والقول في اسمية الصلة كالقول في الذي قبله.

الرعي: الحفظ والحراسة. وأصله رعي الغنم والإبل.

{ **وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ** } ذُكر لمناسبة ذكر رعي الأمانات إذ الشهادة من جملة الأمانات لأنّ حقّ المشهود له وديعة في حفظ الشاهد، فإذا أدَّى شهادته فكأّنه أدى أمانة لصاحب الحق المشهود له.

ولذلك كان أداء الشهادة إذا طولب به الشاهد واجبا عليه، قال تعالى { وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا } [البقرة:282].

القيام بالشهادة: الاهتمام بها وحفظها إلى أن تؤدَّى.

والقول في اسمية جملة الصلة للغرض الذي تقدّم، لأنّ أداء الشهادة يشقّ على الناس إذ قد يكون المشهود عليه قريبا أو صديقا، وقد يثير الشهادة على المرء إحنة منه وعداوة.

{ **وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ** } ثناء عليهم بعنايتهم بالصلاة من أن يعتريها شيء يخلّ بكمالها، لأنّ مادة المفاعلة هنا للمبالغة في الحفظ، فالمحافظة راجعة إلى استكمال أركان الصلاة وشروطها وأوقاتها. وإيثار الفعل المضارع لإفادة تجدّد ذلك الحفاظ وعدم التهاون به. وبذلك تعلم أنّ هذه الجملة

ليست مجرّد تأكيد لجملة { الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ } [23]، بل فيها زيادة معنى مع حصول الغرض من التأكيد بإعادة ما يفيد عنايتهم بالصلاة في كلتا الجملتين.

وفي الأخبار النبوية أخبار كثيرة عن فضيلة الصلاة، وأنّ الصلوات تكفر الذنوب، كحديث: **" ما يدريكم ما بلغت به صلاته "**.

وقد حصل بين آخرى هذه الصلات وبين أولاها مُحسّن ردّ العجز على الصدر.

{ **أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ** } لمّا أجريت عليهم هذه الصفات الجليلة أُخبر عن جزائهم عليها بأنّهم مكرمون في الجنّة. وجيء باسم الإشارة للتنبيه على أنّهم استحقوا ما بعد اسم الإشارة من أجل ما سبقه.

الإكرام: التعظيم وحسن اللقاء، أي: هم من جزائهم بنعيم الجنات يُكرمون بحسن اللقاء والثناء، قال تعالى { وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ، سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد: 24/23]، وقال تعالى { وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ } [التوبة:72].

{ **فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ** [36] **عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ** [37] **أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ** [38] **كَلاَّ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ** [39] **فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ** [40] **عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ** [41] }.

{ **فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ، عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ، أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ كَلاَّ** } فُرّع استفهام إنكاري وتعجيبي من تجمُّع المشركين إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم مستهزئين بما يسمعون من وعد المؤمنين بالجنة ووعيد المشركين بعذاب جهنم. فُرّع ذلك على ما أفاده في قوله { أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ } [35].

<u>قال الواحدي والبغوي وابن عطية وصاحب الكشّاف</u>: كان المشركون يجتمعون حول النبيّ صلى الله عليه وسلم ويستمعون كلامه ويكذّبونه ويستهزئون بالمؤمنين، ويقولون: لئن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلندخلنّها قبلهم وليكوننّ لنا فيها أكثر ممّا لهم. فأنزل الله هذه الآية.

{ **فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا** } أيُّ شيء ثبت للذين كفروا في حال كونهم عندك، أو في حال إهطاعهم إليك.

وقد تقدّم عند قوله تعالى { قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا } [البقرة:246].

وهذا التركيب في قوله تعالى { فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ - إلى قوله - جَنَّةَ نَعِيمٍ } يجوز أن يكون استعارة تمثيلية شُبّه حالهم في إسراعهم إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم بحال من يُظنّ بهم الاجتماع لطلب الهدى والتحصيل على المغفرة ليدخلوا الجنة، لأنّ الشأن أن لا يلتفّ حول النبيّ صلى الله عليه وسلم إلا طالبوا الاهتداء بهديه.

والاستفهام على هذا مستعمل في أصل معناه لأنّ التمثيلية تجري في مجموع الكلام مع بقاء كلماته على

حقائقها. ويجوز أن يكون الكلام استفهاما مستعملا في التعجيب من حال إسراعهم ثمّ تكذيبهم واستهزائهم.
الإهطاع: مدّ العنق عند السير، كما تقدّم في قوله تعالى { مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ } [القمر:8].
{ **قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ** } تقديم الظرف للاهتمام به لأنّ التعجيب من حالهم في حضرة النبيّ صلى الله عليه وسلم أقوى لما فيهم من الوقاحة.
{ **عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ** } المقصود: كثرة الجهات، أي: واردين إليك.
والتعريف في { الْيَمِينِ / الشِّمَالِ } تعريف الجنس أو الآلف واللام عوض عن المضاف إليه. والمقصود في ذكر اليمين والشمال: الإحاطة بالجهات، فاكتفي بذكر اليمين والشمال لأنهما الجهتان اللتان يغلب حلولهما.
{ **عِزِينَ** } حال من { الَّذِينَ كَفَرُوا }. وعزين: جمع عِزَة (بتخفيف الزاي)، وهي الفرقة من الناس، وأصله (عِزْوَة) بوزن كِسوة.
{ **أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ** } بدل اشتمال عن جملة { فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ }، لأنّ التفافهم حول النبيّ صلى الله عليه وسلم شأنه أن يكون لطلب الهدى والنجاة، فشُبِّه حالهم بحال طالبي النجاة والهدى فأُورد استفهام عليه.
{ **كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ** } تصوير لحالهم بأنّها حال جماعة يريد كل واحد منهم أن يدخل الجنة لتساويهم، يرون أنفسهم سواء في ذلك، ففي الكلام تقوية التهكُّم بهم.
{ **كَلاَّ** } كلمة ردع، بُنِيَ على التهكّم ما يبطل ما فُرض لحالهم، أي: لا يكون ذلك. وذلك انتقال من المجاز إلى الحقيقة، ومن التهكّم بهم إلى توبيخهم دفعا لتوهُّم من يتوهَّم أنّ الكلام السابق لم يكن تهكّما.
وهنا تمّ الكلام على إثبات الجزاء.
{ **إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ، عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ** }.
كلام مستأنف استئنافا ابتدائيا للانتقال من إثبات الجزاء إلى الاحتجاج على إمكان البعث لشبهتهم الباعثة على إنكاره، وهو الإنكار الذي ذُكر إجمالا بقوله تعالى المتقدّم آنفا { إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً، وَنَرَاهُ قَرِيباً } [7/6]، فاحتجّ عليهم بالنشأة الأولى، كما قال تعالى { وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلاَ تَذكَّرُونَ } [الواقعة:62].
{ **إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ** } خبر مستعمل في لازم معناه وهو إثبات إعادة خلقهم بعد فنائهم.
فهذا من تمام الخطاب الموجَّه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم. والمقصود منه أن يبلغ إلى أسماع المشركين.
{ **إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ** } التأكيد لتنزيلهم فيما صدر منهم من الشبهة الباطلة منزلة من لا يعلمون أنّهم خلقوا من نطفة وكانوا معدومين.

{ **مِمَّا يَعْلَمُونَ** } هو ما يعلمه كلّ أحد من أنّه كُوِّن في بطن أمّه من نطفة وعلقة، ولكنهم علموا هذه النشأة الأولى فألهاهم التعوّد بها عن التدبر في دلالتها على إمكان إعادة المكون منها بتكوين آخر.

وعُدل عن أن يقال: إنّا خلقناهم من نطفة، كما في قوله تعالى { إِنَّا خَلَقْنَا الإنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ } [الإنسان:2]، وقوله تعالى { أَوَلَمْ يَرَ الإنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ } [يس:77]، وغيرها من آيات كثيرة، عُدل عن ذلك، إلى الموصول في قوله { مِمَّا يَعْلَمُونَ } توجيها للتهكّم بهم إذ جادلوا وعاندوا، وعِلْم ما جادلوا فيه قائم بأنفسهم وهم لا يشعرون، كقوله تعالى { وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ } [الواقعة:62].

{ **فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ، عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ** } تصريح عن إمكان إعادة الخلق بعد الكناية عنه. والجملة تفريع على قوله تعالى { إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ } والتقدير: فإنّا لقادرون.

والقسم بالله بعنوان ربوبيّته المشارق والمغارب معناه: ربوبيّته العالم كلّه لأنّ العالم منحصر في جهات شروق الشمس وغروبها.

{ **الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ** } الجمع باعتبار تعدّد مطالع الشمس ومغاربها في فصول السنة، فإنّ ذلك مظهر عجيب من مظاهر القدرة الإلهية والحكمة الربانية لدلالته على عظيم صنع الله.

ولذلك لم يذكر في القرآن قسم بجهة غير المشرق والمغرب.

وتقدّم القول في دخول حرف النفي مع (لا أقسم) عند قوله تعالى { فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ، وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ } [الحاقة:39/38]، وقوله تعالى { فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ } [الواقعة:75].

{ **عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ** } يحتمل معنيين:

المعنى الأوّل: وهو المناسب للسياق، أن يكون المعنى على أن نبدِّلهم خيرا منهم، أي: نُبدِّل ذواتهم خلقا خيرا من خلقهم الذي هم عليه اليوم. والخيرية في الإتقان والسرعة ونحوهما وإنّما كان خلقا أتقن من النشأة الأولى لأنّه خلق مناسب لعالم الخلود، وكان الخلق الأوّل مناسبا لعالم التغيّر والفناء، وعلى هذا الوجه يكون { نُبَدِّلَ} مضمَّنًا معنى: نعوّض.

المعنى الثاني: أن نبدِّل هؤلاء بخير منهم، أي: بأمّة خير منهم، والخيرية في الإيمان، فيكون { نُبَدِّلَ } على أصل معناه، ويكون هذا تهديدا لهم بأن يستأصلهم ويأتي بقوم آخرين، كما قال تعالى { إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ } [إبراهيم:19]، وقوله تعالى { وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ } [محمد:38]. وفي هذا تثبيت للنبيّ صلى الله عليه وسلم وتذكير بأنّ الله عالم بحالهم.

{ **وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ** } تذييل، والمسبوق مستعار للمغلوب عن أمره، شُبِّه بالمسبوق في السير، وقد تقدّم في قوله تعالى { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ } [العنكبوت:4].

أي: ما نحن بعاجزين على ذلك التبديل بأمثالكم كما في قوله تعالى { عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ } [الواقعة:61].

{ **فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ** [42] **يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ** [43] **خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ** [44] }.

تفريع على ما تضمَّنه قوله تعالى { فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ } [36] من إرادتهم بفعلهم ذلك وقولهم: إنّنا ندخل الجنة، الاستهزاء بالقرآن والنبيّ صلى الله عليه وسلم. وبعد إبطاله إجمالا وتفصيلا فُرّع عن ذلك أمر الله رسولَه بتركهم للعلم بأنّهم لم يُجْدِ فيهم الهدي والاستدلال، وأنّهم مصرُّون على العناد والمناواة.

{ **فَذَرْهُمْ** } أمر بترك ما أهمَّ النبيّ صلى الله عليه وسلم من عنادهم وإصرارهم على الكفر مع وضوح الحجج على إثبات البعث.

{ **يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا** } لمّا كان أكبر أسباب إعراضهم وإصرارهم على كفرهم هو خوضهم ولعبهم كُنِّي به عن الإعراض. والجملتان حالان من الضمير الظاهر في قوله تعالى { فَذَرْهُمْ }. وتلك الحال قيد للأمر. والتقدير: فذر خوضهم ولعبهم ولا تحزن لعنادهم وإصرارهم.

وتعدية فعل (ذر) إلى ضميرهم من قبيل توجه الفعل إلى الذات. والمراد توجُّهه إلى بعض أحوالها التي لها اختصاص بذلك الفعل.

وقد يُتوسَّل من الأمر بالترك إلى الكناية عن التحقير وقلّة الاكتراث.

وبهذا تعلم أنّ قوله تعالى { فَذَرْهُمْ } لا علاقة له بحكم القتال، ولا هو من الموادعة ولا هو منسوخ بآيات السيف، كما توهّمه بعض المفسّرين.

الخوض: الكلام الكثير، والمراد خوضهم في القرآن وشأن النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين.

اللعب: الهزل والهُزء، وهو لعبهم في تلقي الدعوة الإسلامية وخروجهم عن حدود التعقُّل والجَدّ في الأمر، لاستطارة رشدهم حسدا وغيظا وحنقا.

{ **حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ** } { حَتَّى } متعلقة بـ { ذَرْهُمْ }، لما فيه من معنى: أمهلهم وانتظرهم، فإنّ اليوم الذي وُعدوه هو يوم النشور حين يُجَازَوْن على استهزائهم وكفرهم، فلا يكون غاية لـ { يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا}. فالغاية هنا كناية عن دوام تركهم.

{ **يُلاقُوا** } قرأ الجمهور بألف بعد اللام، من الملاقاة، و قرأ أبو جعفر بدون ألف من اللقاء. وهو مجاز على كل تقدير: فعلى قراءة الجمهور هو مجاز من جهتين لأنّ اليوم لا يَلقى ولا يُلقى. وعلى قراءة أبي جعفر هو مجاز من جهة واحدة، لأنّ اللقاء إنّما يقع بين الذوات.

{ **يَوْمَهُمُ** } إضافة (يوم) إلى ضميرهم لأدنى ملابسة.

{ **يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ** } بدل من { يَوْمَهُمُ } وليس ظرفا. وضمير { يَخْرُجُونَ } عائد إلى المشركين

المُخبر عنه بالأخبار السابقة.

الخروج: بروز أجسادهم من الأرض.

الأجداث: جمع جَدَث وهو القبر.

النَّصْب: (بفتح فسكون) الصنم، ويقال: نُصُب (بضمتين)، ووجه تسميته نصبا أنّه يُنصب للعبادة.

{ **يُوفِضُونَ** } مضارع أوفض، إذا أسرع وعدا في سيره، أي: كأنّهم ذاهبون إلى صنم، شُبِّه إسراعهم يوم القيامة إلى الحشر بإسراعهم في الدنيا إلى الأصنام لزيارتها، لأنّ لهذا الإسراع اختصاصا بهم، وفي هذا التشبيه إدماج لتفظيع حالهم في عبادة الأصنام، وإيماء إلى أنّ إسراعهم يوم القيامة جزاء على إسراعهم للأصنام في الدنيا.

خشوع الأبصار: استعارة للنظر إلى أسفل من الذلّ، كما قال تعالى { يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ } [الشورى:45]، وقال تعالى { خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنْ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ } [القمر:7].

الخشوع: أصله ظهور الطاعة أو المخافة على الإنسان.

الرهق: الغشيان، أي: التغطية بساتر، وهو استعارة هنا لأنّ الذلّة لا تغشى.

{ **ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ** } فذلكه لما تضمَّنته السورة في أوّل أغراضها من قوله تعالى { بِعَذَابٍ وَاقِعٍ - إلى قوله - فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ } [1-4]، وهي مفيدة مع ذلك تأكيد جملة {حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ} وفيها مُحسّن رد العجز على الصدر.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة نوح

بهذا الاسم سُمِّيت هذه السورة في المصاحف وكتب التفسير، وترجمها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه (**سورة إنا أرسلنا نوحا**). ولعلّ ذلك كان الشائع في كلام السلف.

وهي مكية بالاتفاق.

وعُدَّت الثالثة والسبعين في ترتيب نزول السور، نزلت بعد نزول أربعين آية من سورة النحل وقبل سورة الطور.

وعَدَّ العادون بالمدينة ومكة **آيها ثلاثين آية**، وعدّها أهل البصرة والشام تسعا وعشرين آية، وعدّها أهل الكوفة ثمانا وعشرين آية.

أغراض السورة

*/ أعظم مقاصد السورة ضرب المثل للمشركين بقوم نوح، وهم أوّل المشركين الذين سُلط عليهم عقاب في الدنيا، وهو أعظم عقاب (الطوفان).

*/ فيها تفصيل كثير من دعوة نوح عليه السلام إلى توحيد الله ونبذ عبادة الأصنام وإنذاره قومه بعذاب أليم واستدلاله لهم ببدائع صنع الله تعالى وتذكيرهم بيوم البعث.

*/ تصميم قومه على عصيانه وعلى تصلّبهم في شركهم.

*/ تسمية الأصنام التي كانوا يعبدونها.

*/ دعوة نوح على قومه بالاستئصال.

*/ أشارت إلى الطوفان.

*/ دعاء نوح بالمغفرة له وللمؤمنين، وبالتبار للكافرين كلّهم.

*/ تخلَّل ذلك إدماج وعد المطيعين بسعة الأرزاق وإكثار النسل ونعيم الجنة.

{ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [1].

افتتاح الكلام بالتوكيد للاهتمام بالخبر، إذ ليس المقام لردّ إنكار منكر، ولا دفع شكّ عن متردّد في هذا الكلام. وكثيرا ما يفتتح بلغاء العرب أوّل الكلام بحرف التوكيد لهذا الغرض وربّما جعلوا (إن) داخلة على ضمير الشأن في نحو قوله تعالى { إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِإِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ، أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ } [النمل:30-31].

نوح عليه السلام: مضى ذكره في [آل عمران:33]. وتقدّم أنّ هذا الاسم غير عربي.

{ **أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ** } مضمون ما أرسل به نوح إلى قومه، فـ { أَنْ } تفسيرية لأنّها وقعت بعد { أَرْسَلْنَا }، وفيه معنى القول دون حروفه. وعُدل عن أن يُقال له: أنذر الناس إلهابا لنفسه ليكون شديد الحرص على ما فيه نجاتهم من العذاب، فإنّ فيهم أبناءه وقرابته وأحبّته.

القوم: الجماعة من الناس الذين يجمعهم موطن واحد أو نسب واحد برجالهم ونسائهم وأطفالهم.

{ **مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** } أي: أنّه يخوّفهم غضب الله تعالى عليهم إذ عبدوا الأصنام ولم يتّقوا الله ولم يطيعوا ما جاءهم به رسوله، فأمره الله أن ينذرهم عذابا يأتيهم من الله ليكون إنذاره مقدَّما على حلول العذاب. وهذا يقتضي أنّه أُمر بأن يُعْلمهم بهذا العذاب.

{ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ [2] أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ [3] يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ [4] }.

{ **قَالَ يَا قَوْمِ** } لم تعطف بالفاء التفريعية على الجملة السابقة لأنّها في معنى البيان لجملة { أَنْذِرْ قَوْمَكَ } [1] لدلالتها على أنّه أنذر قومه بما أمره الله أن يقوله لهم، تنبيها على مبادرة نوح لإنذار قومه في حين بلوغ الوحي إليه. ولك أن تجعل الجملة استئنافا بيانيا لجواب سؤال سائل: ماذا فعل نوح حين أرسل الله إليه.

{ **يَا قَوْمِ** } افتتاح دعوته قومه بالنداء لطلب إقبال أذهانهم، ونداؤهم بعنوان: أنّهم قومه، تمهيد لقبول نصحه إذ لا يريد الرجل لقومه إلّا ما يريد لنفسه.

{ **إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ** } تصدير دعوته بحرف التوكيد لأنّ المخاطبين يتردّدون في الخبر.

النذير: المنذر، غير جار على القياس، وهو مثل بشير. وحذف متعلّق { نَذِيرٌ } لدلالة قوله تعالى { أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ } عليه. والتقدير: إنّي لكم نذير بعذاب أليم إن لم تعبدوا الله ولم تتقوه ولم تطيعوني.

المبين: يجوز أن يكون من أبان المتعدّي الذي مجرّده (بان). أي: موضِّح، أو من أبان القاصر. أي: واضح لكم أنّي نذير، لأنّي لا أجتني من دعوتكم فائدة من متاع لدنيا وإنّما فائدة ذلك لكم، وهذا مثل

قوله { وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ } [الشعراء:110/109].

{ لَكُمْ نَذِيرٌ } التقديم للاهتمام، بتقديم ما دلت عليه (اللام) من كون النذارة لفائدتهم لا لفائدته.

فجمع في صدر دعوته خمسة مؤكّدات، وهي: النداء، وجعل المنادى لفظ { يَا قَوْمِ } المضاف إلى ضميره، وافتتاح كلامه بحرف التأكيد، واجتلاب لام التعليل، وتقديم مجرورها.

{ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ } { أن } هنا تفسيرية لأنّ وصف { نَذِيرٌ } فيه معنى القول دون حروفه، وأمرهم بعبادة الله لأنّهم أعرضوا عنها ونسوها بالتمحُّض لأصنامهم، وكان قوم نوح مشركين كما دلّ عليه قوله تعالى { فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ } [يونس:71].

وبذلك كان تمثيل حال المشركين من العرب بحال قوم نوح تمثيلا تاما.

اتقاء الله: اتقاء غضبه، فهذا من تعليق الحكم باسم الذات. والمراد: حال من أحوال الذات، من باب { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ } [المائدة:3] أي: أكلها.

طاعتهم لنوح: هي امتثالهم لما دعاهم إليه من التوحيد.

قال المفسّرون: لم يكن في شريعة نوح إلّا الدعوة إلى التوحيد، فليس في شريعته أعمال تطلب الطاعة فيها. لكن لم تخل شريعة إلهية من تحريم الفواحش مثل قتل الأنفس وسلب الأموال، فقوله { يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ } ينصرف بادئ ذي بدء إلى ذنوب الإشراك اعتقادا وسجودا.

{ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ } جُزم في جواب الأوامر الثلاثة { اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ }، أي: إن تفعلوا ذلك يغفر الله لكم من ذنوبكم. وهذا وعد بخير الآخرة.

{ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى } وعد بخير دنيوي يستوي الناس في رغبته، وهو طول البقاء، فإنّه من النعم العظيمة، لأنّ في جبلّة الإنسان حبّ البقاء في الحياة على ما فيها من عوارض ومكدِّرات.

التأخير: ضدّ التعجيل، وقد أطلق التأخير على التمديد والتوسيع من أجل الشيء.

الأجل المسمَّى: الأجل المعيَّن بتقدير الله عند خلقه كلّ أحد منهم، فالتنوين في { أَجَلٍ } للجنس، وهو صادق على آجال متعدّدة بعدد أصحابها، كما في قوله تعالى { وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ } [الحج:5].

{ مُسَمًّى } مُحدَّد مُعيَّن، وهو ما في قوله تعالى { وَأَجَلٌ مُسَمّىً عِنْدَهُ } [الأنعام:2].

فمعنى هذه الآية نظير معنى آية { وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى } [هود:3]، وهي على لسان محمد صلى الله عليه وسلم.

{ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } يحتمل أن تكون الجملة تعليلا للربط الذي بين الأمر وجزائه من قوله تعالى { أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ - إلى قوله – وَيُؤَخِّرْكُمْ ...}، أي: أنّ الوقت الذي عيَّنه الله لحلول العذاب بكم إن لم تعبدوه ولم تطيعون إذا جاء إبَّانه، باستمراركم على الشرك، لا ينفعكم الإيمان ساعتئذ.

كما في قوله تعالى { فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ } [يونس:98]. فيكون هذا حثًّا على التعجيل بعبادة الله وتقواه.

الأجل: الذي في قوله تعالى { إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ } غير الأجل الذي في قوله تعالى { وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى } ويناسب ذلك قوله عقبه { لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } المقتضي أنّهم لا يعلمون هذه الحقيقة المتعلقة بآجال الأمم المعينة لاستئصالهم، وأمّا عدم تأخير آجال الأعمار عند حلولها فمعلوم للناس مشهور في كلام الأولين. { **أَجَلَ اللَّهِ** } في إضافة { أَجَلَ } إلى اسم الجلالة إيماء إلى أنّه ليس الأجل المعتاد بل هو أجل عيَّنه الله إنذارا لهم ليؤمنوا بالله.

<u>ويحتمل أن تكون استئنافا بيانيا</u> ناشئا عن تحديد غاية تأخيرهم إلى أجل مسمًّى فيسأل السامع في نفسه عن علة تنهية تأخيرهم بأجل آخر فيكون أجل الله غير الأجل الذي في قوله تعالى { إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى }.

<u>ويحتمل أن تكون الجملة تعليلا لكلا الأجلين</u>: الأجل المفاد من قوله { مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [1]، فإنّ لفظ { قَبْلِ } يؤذن بأنّ العذاب موقَّت بوقت غير بعيد، فله أجل مبهم غير بعيد، والأجل المذكور بقوله تعالى { وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى }، فيكون أجل الله صادقا على الأجل المسمّى، وهو أجلّ كل نفس من القوم. وإضافته إلى الله إضافة كشف، أي: الأجل الذي عيَّنه الله وقدَّره لكلّ أحد.

وبهذا تعلم أنّه لا تعارض بين قوله تعالى { وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى } وبين قوله تعالى { إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ }.

{ **لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** } في إقحام فعل { كُنْتُمْ } قبل { تَعْلَمُونَ } إيذان بأنّ علمهم بذلك منتفي لوقوعه شرطا لحرف { لَوْ }، محقَّق انتفاؤه. وجواب { لَوْ } محذوف دلّ عليه قوله تعالى { لا يُؤَخَّرُ }. والتقدير: لأيقنتم أنّه لا يؤخَّر.

{ **قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا** [5] **فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا** [6] }.

{ **قَالَ** } جُرّد الفعل هنا من العاطف لأنّه حكاية جواب نوح عن قول الله له { أَنْذِرْ قَوْمَكَ } [1]، عومل معاملة الجواب الذي يُتلقى به الأمر على الفور على طريقة المحاورات، <u>تنبيها على مبادرة نوح بإبلاغ الرسالة</u> إلى قومه وتمام حرصه في ذلك، كما أفاده قوله تعالى { لَيْلاً وَنَهَارًا } وحصول يأسه منهم، فجعل مراجعته ربّه بعد مدّة بمنزلة المراجعة في المقام الواحد بين المتحاورين.

ولك أن تجعل جملة { قَالَ رَبِّ ...} مستأنفة استئنافا بيانيا، لأنّ السامع يترقّب معرفة ماذا أجاب قوم نوح دعوته، فكان في هذه الجملة بيان ما يترقّبه السامع، مع زيادة مراجعة نوح ربّه تعالى.

وهذا الخبر مستعمل في لازم معناه وهو <u>الشكاية والتمهيد لطلب النصر عليهم</u> لأنّ المخاطب به عالم بمدلول الخبر. وذلك ما سيفضي إليه بقوله تعالى { وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا } [26].

وفائدة حكاية ما ناجى به نوح ربّه إظهار توكّله على الله، وانتصار الله له، والإتيان على مهمّات من العبرة بقصته، بتلوين لحكاية أقواله وأقوال قومه وقول الله له. وتلك ثمان مقالات هي:

1- { أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ } [1].

2- { قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ } [2].

3- { قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي } [5].

4- { فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا } [10].

5- { قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي } [21].

6- { وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلالًا } [24].

7- { وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ } [26].

8- { رَبِّ اغْفِرْ لِي } [28].

{ **لَيْلًا وَنَهَارًا** } جعل دعوته مظروفة في زمني الليل والنهار للدلالة على حرصه على إرشادهم.

{ **فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائي إِلَّا فِرَارًا** } أي: أن دعائي لهم لم يزدهم إلّا بعدا عمّا دعوتهم إليه من عبادة الله وطاعتي، فالفرار مستعار لقوّة الإعراض.

{ **إِلَّا فِرَارًا** } استثناء الفرار من عموم الزيادات استثناء منقطع. والتقدير: فلم يزدهم دعائي قربا من الهدى ولكن زادهم فرارا، كما في الآية حكاية عن صالح عليه السلام { فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ } [هود:63].

وتصدير كلام نوح بالتأكيد لإرادة الاهتمام بالخير.

{ **وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا** } [7].

{ **كُلَّمَا** } مركبة من كلمتين؛ (كلّ) اسم يدلّ على استغراق أفراد ما تضاف هي إليه، و(ما) المصدرية وهي حرف يفيد أنّ الجملة بعده في تأويل مصدر.

المعنى: أنّهم لم يُظهروا أيّ رغبة في الإصغاء إلى دعوته، ولم يتخلّفوا عن الإعراض والصدود عن دعوته طرفة عين. وتقدّم عند قوله تعالى { كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ } [البقرة:20].

{ **دَعَوْتُهُمْ** } حُذف المتعلّق لدلالة ما تقدّم عليه من قوله تعالى { أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ } [3].

والتقدير: كلّما دعوتهم إلى عبادتك وتقواك وطاعتي فيما أمرتهم به.

{ **لِتَغْفِرَ لَهُمْ** } لام التعليل، جُعلت الدعوة معلّلة بمغفرة الله لهم لأنّها دعوة إلى سبب المغفرة وهو الإيمان بالله وحده وطاعة أمره على لسان رسوله. وفي ذلك تعريض بتحميقهم وتعجّب من خُلقهم إذ يعرضون عن الدعوة لما فيه نفعهم، فكان مقتضى الرشاد أن يسمعوها ويتدبّروها.

{ **جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ** } خبر (إن) والرابط ضمير { دَعَوْتُهُمْ }.

أُطلق اسم الأصابع على الأنامل على وجه المجاز المرسل بعلاقة البعضية، فإنّ الذي يُجعل في الأذن الأنملة لا الأصبع كلّه، فعُبّر عن الأنامل بالأصابع للمبالغة في إرادة سد المسامع، بحيث لو أمكن لأدخلوا الأصابع كلّها، وتقدّم في قوله تعالى { يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنْ الصَّوَاعِقِ } [البقرة:19].

استغشاء الثياب: جعلُها غشاء، أي: غطاء على أعينهم، تعضيدا لسد آذانهم بالأصابع لئلا يسمعوا كلامه ولا ينظروا إشاراته، وأكثر ما يطلق الغشاء على غطاء العينين، كقوله تعالى { وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ } [البقرة:7].

{ **اسْتَغْشَوْا** } السين والتاء للمبالغة.

فيجوز أن يكون حقيقة بأن يكون ذلك من عادات قوم نوح إذا أراد أحد أن يُظهر كراهية لكلام من يتكلّم معه أن يجعل إصبعيه في أذنيه ويجعل من ثوبه ساترا لعينيه.

ويجوز أن يكون تمثيلا لحالهم في الإعراض عن قبول كلامه ورؤية مقامه بحال من يسُدُّ سمعه بأنملَتيه ويحجب عينيه بطرف ثوبه.

الإصرار: تحقيق العزم على فعل، وهو مشتق من (الصرّ) وهو الشدّ على شيء والعقد عليه، وتقدّم عند قوله تعالى { وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا } [آل عمران:135].

وحذف متعلّق { أَصَرُّوا } لظهوره، أي: أصرُّوا على ما هم عليه من الشرك.

{ **وَاسْتَكْبَرُوا** } مبالغة في تكبّروا، أي: جعلوا أنفسهم أكبر من أن يأتمروا لواحد منهم، { مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ } [هود:27].

{ **اسْتِكْبَارًا** } التأكيد الفعل بمفعوله المطلق للدلالة على تمكّن الاستكبار. والتنوين للتعظيم.

{ **ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا** [8] **ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا** [9] **فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا** [10] **يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا** [11] **وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا** [12] }.

ارتقى في شكواه واعتذاره بأنّ دعوته كانت مختلفة الحالات في القول من جهر وإسرار.

{ **ثُمَّ** } تفيد، في عطفها الجمل، أنّ مضمون الجملة المعطوفة أهم من مضمون المعطوف عليها، لأنّ اختلاف

كيفية الدعوة ألصق بالدعوة من أوقات إلقائها.

جهار: اسم مصدر جهر، وهو هنا وصف لمصدر { دَعَوْتُهُمْ }، أي: دعوة جهارا.

{ **ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا** } ارتقى، فذكر أنّه جمع بين الجهر والإسرار، لأنّ الجمع بين

الحالتين أقوى في الدعوة وأغلظ من إفراد إحداهما.

{ **أَعْلَنْتُ لَهُمْ** } تأكيد لقوله { دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا } ذُكر ليُبنى عليه عطف { وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا }.

المعنى: أنّه توخَّى ما يظنُّه أوغل إلى قلوبهم من صفات الدعوة، فجهر حينما يكون الجهر أجدى، مثل مجامع العامة، وأسرّ للذين يظنّهم متجنّبين لوم قومهم عليهم، وبذلك تكون ضمائر الغيبة في قوله { دَعَوْتُهُمْ }، وقوله تعالى { أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ } موزّعة على مختلف الناس.

{ **فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ** } فصَّل دعوته بفاء التفريع. فهذا القول هو الذي قال لهم ليلا ونهارا وجهارا وإسرارا. والمعنى: آمنوا إيمانا يكون استغفارا لذنبكم، فإنّكم إن فعلتم غفر الله لكم.

{ **إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا** } علَّل دعوته لهم بالاستغفار بأنّ الله موصوف بالغفران صفة ثابتة تعهد الله بها لعباده المستغفرين. وأفاد كمال غفرانه بصيغة المبالغة.

{ **يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا** } كان الكلام السابق وعدا بخير الآخرة، فرُتِّب عليه وعد بخير الدنيا بطريق جواب الأمر.

وكانوا أهل فلاحة فوعدهم بنزول المطر الذي به السلامة من القحط، وبالزيادة في الأموال والبنين.

الإرسال: مستعار للإيصال والإعطاء، وتعديته بـ { عَلَيْكُمْ } لأنّه إيصال من علوٍ كقوله تعالى { وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ } [الفيل:3].

{ **السَّمَاءَ** } هنا المطر، ومن أسماء المطر السماء. وفي حديث الموطأ والصحيحين عن زيد بن خالد الجهني أنّه قال: صلّى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل ...".

المدرار: كثيرة الدُّر والدُّرور، وهو السيلان، يقال: درَّت السماء بالمطر، وسماء مدرار.

أموال: جمع مال وهو يشمل كلّ مَكسب يبذله المرء في اقتناء ما يحتاج إليه.

{ **وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ** } المراد بالجنات النخيل والأعناب، لأنّ الجنات تحتاج إلى السقي.

{ **وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا** } إعادة فعل (يجعل) بعد (واو) العطف للتوكيد اهتماما بشأن المعطوف، لأنّ الأنهار قوام الجنّات، وتسقي المزارع والأنعام.

وفي هذا دلالة على أنّ الله يجازي عباده الصالحين بطيب العيش، قال تعالى { وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ } [الأعراف:96]، وقال تعالى { وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا } [الجن:16].

{ **مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا [13] وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا [14]** }.

بدَّل خطابه مع قومه من طريقة النصح والأمر إلى طريقة التوبيخ. أي: فلا عذر لكم في عدم توقيره.

{ **لا تَرْجُونَ لِلَّهِ** } في موضع الحال من ضمير المخاطبين. والرجاء: هو ترقّب الأمر.

الوقار: على المتعارف هو العظمة المقتضية للإجلال.

قال ابن عباس وسعيد بن جبير وأبو العالية وعطاء بن أبي رباح وبن كيسان: ما لكم لا ترجون ثوابا من الله ولا تخافون عقابا. وهذا يقتضي أن يكون الكلام كناية تلويحية عن حثّهم على الإيمان بالله، الذي يستلزم رجاء ثوابه وخوف عقابه، لأنّ من رجا تعظيم الله إيّاه آمن به وعبده وعمل الصالحات.

{ **وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا** } حال من ضمير { لَكُمْ } أو ضمير { تَرْجُونَ }، أي: في حال تحقُّقكم أنّه خلقكم أطوارا.

فأمّا أنّه خلقهم فمُوجِب للاعتراف بعظمته لأنّه مُكوِّنهم وصانعهم فحقّ عليهم الاعتراف بجلاله.

وأمّا كون خلقهم أطوارا فلأنّ الأطوار التي يعلمونها دالة على رفقه بهم في ذلك التطوّر. فذلك تعريض بكفرهم النعمة، ولأنّ الأطوار دالة على حكمة الخالق وعلمه وقدرته.

فإنّ تطوّر الخلق من طور النطفة إلى طور الجنين إلى طور خروجه طفلا إلى طور الصبا إلى طور بلوغ الأشد إلى طور الشيخوخة إلى طور الموت، كلّ ذلك والذات واحدة، فهو دليل على تمكّن الخالق من كيفيّات الخلق والتبديل في الأطوار، وهم يدركون ذلك بأدنى التفات الذهن، فكانوا محقوقين بأن يتوصَّلوا به إلى معرفة عظمة الله وتوقّع عقابه لأنّ الدلالة على ذلك قائمة بأنفسهم.

الأطوار: جمع طَوْر (بفتح فسكون)، والطور: التارة، وهي المرّة من الأفعال أو من الزمان، فأريد من الأطوار هنا ما يحصل في المرات والأزمان من أحوال مختلفة، فهو تعدّد بالنوع لا بالتكرار.

{ **أَطْوَارًا** } انتصب على الحال من ضمير المخاطبين، أي: تطوَّر خلقهم.

{ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا [15] وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا [16] }.

إن كان هذا من حكاية كلام نوح عليه السلام لقومه، كما جرى عليه كلام المفسّرين، كان تخلُّصا من التوبيخ والتعريض إلى الاستدلال عليهم بآثار وجود الله ووحدانيّته وقدرته، ممّا في أنفسهم من الدلائل، إلى ما في العالم منها. فقد نبّههم على النظر في أنفسهم أوّلا، لأنّها أقرب ما يحسّونه ويشعرون به، ثم على النظر في العالم وما سُوِّي فيه من العجائب الشاهدة على الخالق العليم القدير.

وإن كان من خطاب الله تعالى للأمّة، وهو ما يسمح به سياق السورة من الاعتبار بأحوال الأمم الماضية المساوية لأحوال المشركين، كان هذا الكلام اعتراضا للمناسبة.

{ **أَلَمْ تَرَوْا** } الهمزة للاستفهام التقريري مُكَنًّى به عن الإنكار عن عدم العلم بدلائل ما يرونه.

والرؤية بصرية، ويجوز أن تكون علمية، أي: ألم تعلموا.

{ **كَيْفَ** } انتصب على المفعول به لـ { تَرَوْا }، فهي هنا مجرّدة عن الاستفهام متمحِّضة للدلالة على الكيفية، أي: الحالة. والمعنى: ألستم ترون هيئة وحالة خلق الله السماوات.

السماوات: هنا هي مدارات بمعنى الكواكب، فإنّ لكلّ كوكب مدارا قد يكون هو سماؤه.
{ **سَبْعَ سَمَاوَاتٍ** } يجوز أن يكون وصف { سَبْعَ } معلوما للمخاطبين من قوم نوح، أو من أمّة الدعوة الإسلامية بأن يكونوا علموا ذلك من قبل. ويجوز أن يكون تعليما للمخاطبين على طريقة الإدماج.
{ **طِبَاقًا** } بعضها أعلى من بعض، وذلك يقتضي أنّها منفصل بعضها عن بعض.
{ **وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا** } والقمر كائن في السماء المماسة للأرض وهي المسمَّاة بالسماء الدنيا.
والإخبار عن القمر بأنه نور مبالغة في وصفه بالإنارة، بمنزلة الوصف بالمصدر.
{ **وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا** } هو بتقدير: وجعل الشمس فيهنّ سراجا. والشمس من الكواكب.
السراج: المصباح الزاهر نوره الذي يوقد بفتيلة في الزيت.
وفي جعل القمر نورا إيماء إلى أنّ ضوء القمر ليس من ذاته، فإنّ القمر مظلم وإنّما يضيء بانعكاس أشعة الشمس على ما يستقبلها من وجهه بحسب اختلاف ذلك الاستقبال من تبعّض وتمام، وهو أثر ظهوره هلالا ثم اتساع استنارته إلى أن يصير بدرا، ثم ارتجاع ذلك إلى أن يكون المُحاق.
وجعلت الشمس سراجا لأنّها ملتهبة وأنوارها ذاتية فيها صادرة عنها مثل أنوار السراج.
وقد اجتمع في الآية استدلال وامتنان.

{ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا [17] ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا [18] }.

أنشأ الاستدلالُ بخلق السماوات حضورَ الأرض في الخيال فأعقبَ نوح به دليله السابق، استدلالا بأعجب ما يرونه من أحوال ما على الأرض، وهو حال الموت والإقبار، ومهَّد لذلك ما يتقدَّمه من إنشاء الناس.
وأدمجَ في ذلك تعليمهم بأنّ الإنسان مخلوق من عناصر الأرض مثل النبات، وأعلمهم بأنّ بعد الموت حياة أخرى.
{ **أَنْبَتَكُمْ** } أُطلق على معنى: أنشأكم، للمشابهة بين إنشاء الإنسان وإنبات النبات من حيث أنّ كليهما تكوين، كما قال تعالى { وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا } [آل عمران:37]، أي: أنشأها.
{ **نَبَاتًا** } اسم من أنبت، عومل معاملة المصدر فوقع مفعولا مطلقا لـ { أَنْبَتَكُمْ } للتوكيد، ولم يجر على قياس فعله فيقال: إنباتا، لأنّ نباتا أخف فلمّا تسنّى الإتيان به، لأنّه مستعمل فصيح، لم يعدل عنه إلى الثقيل كمالا في الفصاحة. وأمّا { إِخْرَاجًا } فلم يعدل عنه إلى: خروجا، لعدم ملاءمته لألفاظ الفواصل قبله المبنية على ألف.
فكما تُعدُّ مخالفتها في القافية عيبا كذلك تعدّ المحافظة عليها في الأسجاع والفواصل كمالا.
{ **ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا** } أُدمِج الإنذار بالبعث في خلال الاستدلال، ولكونه أهم رتبة في الاستدلال عليهم بأصل الإنشاء عُطفت الجملة بـ { ثُمَّ } الدالة على التراخي الرتبي، لأنّ المقصود من

الجملة هو فعل { يُخْرِجُكُمْ }، وأمّا قوله { ثُمَّ يُعِيدُكُمْ } فهو تمهيد له.
{ **إِخْرَاجًا** } أُكِّد { يُخْرِجُكُمْ } بالمفعول المطلق لرد إنكارهم البعث.

{ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا [19] لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا [20] }.

هذا استدلال وامتنان، ولذلك عُلِّق بفعل { جَعَلَ } مجرورٌ بلام التعليل وهو { لَكُمْ } أي: لأجلكم.
البساط: ما يُفرش للنوم عليه والجلوس من ثوب أو زربيَّة، فالإخبار عن الأرض ببساط تشبيه بليغ، أي: كالبساط. ووجه الشبه تناسب سطح الأرض في تعادل أجزاءه بحيث لا يوجع أرجل الماشين ولا يُقِضُّ جُنوب المضطجعين، وليس المراد أنّ الله جعل حجم الأرض كالبساط لأنّ حجمها كروي.
وقد نبّه على ذلك بالعلّة الباعثة في قوله { لَكُمْ }، والعلّة الغائبة في قوله { لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا } وحصل من مجموع العلَّتين الإشارة إلى جميع النعم التي تحصل للناس من تسوية سطح الأرض، مثل الحرث والزرع، وإلى نعمة خاصة وهي السير في الأرض، وخُصَّت بالذكر لأنّها أهمّ، لاشتراك كل الناس في الاستفادة منها.
السبل: جمع سبيل وهو الطريق، أي: لتتخذوا لأنفسكم سبلا من الأرض تهتدون بها في أسفاركم.
الفجاج: جمع فج: الطريق الواسع، وأكثر ما يطلق على الطريق بين جبلين.

{ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا [21] وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا [22] وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا [23]}.

<u>هذه الجملة بدل</u> من جملة { قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي } [5] بدل اشتمال، لأنّ حكاية عصيان قومه إيّاه ممّا اشتملت عليه حكاية أنّه دعاهم.
فيحتمل أن تكون المقالتان في وقت واحد جاء فيه نوح إلى مناجاة ربّه بالجواب عن أمره له بقوله { أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [1]، فتكون إعادة فعل { قَالَ } من قبيل ذكر عامل المبدل منه في البدل، للربط بين كلاميه لطول الفصل بينهما.
ويحتمل أن تكون المقالتان في وقتين جمعها القرآن حكاية لجوابيه لربّه، فتكون إعادة فعل { قَالَ } لما ذكرنا مع الإشارة إلى تباعد ما بين القولين.
<u>ويجوز أن تكون الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا</u> لأنّ ما سبقها من قوله تعالى { قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي } [5] إلى هنا، ممّا يثير عجبا من حال قومه المحكي، بحيث يتساءل السامع عن آخر أمرهم، فابتدئ ذكر ذلك بهذه الجملة وما بعدها إلى قوله تعالى { أَنْصَارًا } [25]. وتأخير هذا عن قوله تعالى { قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا} [5] ارتقاء في التذمّر منهم، لأنّ هذا حكاية حصول عصيانهم بعد تقديم

الموعظة إليهم بقوله تعالى { يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا - إلى قوله - سُبُلاً فِجَاجًا } [11-20].
{ قَالَ نُوحٌ } إظهار اسم { نُوحٌ } مع القول الثاني، دون إضمار، لبعد معاد الضمير.
{ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي } هذا الخبر مستعمل في لازم معناه. وتأكيد الخبر بـ (إنّ) للاهتمام بما استعمل فيه من التحسّر والاستنصار.
{ وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا } ثُمَّ ذُكر أنّهم أخذوا بقول الذين يصدُّونهم عن قبول دعوة نوح، أي: اتبعوا سادتهم وقادتهم. وعدل عن التعبير عنهم بالكبراء ونحوه إلى الموصول لما تؤذن به الصلة من بطرهم نعمة الله عليهم بالأموال والأولاد. فقلبوا النعمة عندهم موجب خسار وضلال.
الخَسار: مستعار لحصول الشر من وسائل شأنها أن تكون سبب خير، كخسارة التاجر من حيث أراد الربح.
المكر: إخفاء العمل أو الرأي الذي يُراد به ضرّ الغير، أي: مكروا بنوح والذين آمنوا معه بإضمار الكيد لهم حتّى يقعوا في الضرّ، قيل كانوا يدبّرون الحيلة على قتل نوح وتحريش الناس على أذاه وأذى أتباعه.
{ كُبَّارًا } مبالغة، أي: كبيرا جدا، وهو وارد بهذه الصيغة في ألفاظ قليلة مثل طُوَّال، أي: طويل جدا، وعُجَّاب، أي: عجيب أشدّ العجب، وحُسَّان، أي: فائق الحسن، وجُمَّال، أي: جميل جدًّا، وقُرَّاء لكثير القراءة.
{ وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا } أي: قال بعضهم لبعض.
{ وَدًّا / سُوَاعًا / يَغُوثَ / يَعُوقَ / نَسْرًا } هذه أصنام قوم نوح، وبهذا تعلم أن أسماءها غير جارية على اشتقاق الكلمات العربية. روى البخاري عن ابن عباس: " ود وسواع وغوث ويعوق ونسر: أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلمَّا هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أنصِبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا وسمُّوها بأسمائهم ففعلوا، فلم تُعبد حتّى إذا هلك أولئك وتنسَّخ العلم عُبدت ".
وقد وُجودت هذه الأسماء في قبائل العرب إلى زمن البعثة المحمدية. وهذا مروي في صحيح البخاري عن ابن عباس: " صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح إلى العرب ". فالرَّاجح أن يكون العرب سمُّوا عليها ووضعوا لها صورا.
<u>وبيان ذلك</u>: أنّ أصنام قوم نوح قد دثرت وغمرها الطوفان وأن أسماءها بقيت محفوظة عند الذين نجوا مع نوح من المؤمنين فكانوا يذكرونها ويعظون ناشئتهم بما حل بأسلافهم من جراء عبادة تلك الأصنام، فبقيت تلك الأسماء يتحدَّث بها العرب الأقدمون في أثارات علمهم وأخبارهم، فجاء عمر بن لُحَي الخُزاعي الذي أعاد للعرب عبادة الأصنام فسمَّى لهم الأصنام بتلك الأسماء وغيرها.
{ وَلَا تَذَرُنَّ } أعيد فعل النهي لقصد التوكيد، ولم يُسلك طريق الإبدال.
تكرير (لا) النافية في قوله تعالى { وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ } لتأكيد النفي الذي في قوله تعالى { لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ } وعدم إعادة (لا) مع قوله تعالى { وَيَعُوقَ وَنَسْرًا } لأنّ الاستعمال جارٍ على أن لا يُزاد في

التأكيد على ثلاث مرات.

{ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلالًا } [24].

{ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا } عطف على { وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ } أي: أضلُّوا، بقولهم هذا وبغيره من تقاليد الشرك، كثيرا من الأمّة بحيث ما آمن مع نوح إلّا قليل.

{ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلالًا } يجوز أن تكون الجملة تتمّة كلام نوح متّصلة بحكاية كلامه السابق، فتكون (الواو) عاطفة جزء جملة مقولة لفعل { قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي } [21] على جزئها الذي قبلها عطف المفاعيل بعضها على بعض. ختم نوح شكواه إلى الله بالدعاء على الضالين.

ويجوز أن تكون الجملة غير متّصلة بحكاية كلامه في قوله تعالى { قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي } [21]، بل هو حكاية كلام آخر له صدر في موقف آخر، فتكون (الواو) عاطفة جملة مقولة قول على جملة مقولة قول آخر، أي نائبة عن فعل قال.

{ الظَّالِمِينَ } المراد بهم قومه الذين عصوه، فكان مقتضى الظاهر التعبير عنهم بالضمير فعدل عن الإضمار إلى الإظهار لما يؤذن به هذا الوصف من استحقاقهم الحرمان من عناية الله بهم لظلمهم، أي: إشراكهم بالله، فالظلم هنا الشرك، قال تعالى { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان:13].

الضلال: مستعار لعدم الاهتداء إلى طرائق المكر الذي خشي نوح غائلته في قوله { وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا } [22]، أي: حل بيننا وبين مكرهم، ولا تزدهم إمهالا في طغيانهم علينا إلّا أن تُضلِّلهم عن وسائله، فيكون الاستثناء من تأكيد الشيء بما يشبه ضدّه.

أو أراد إبهام طرق النفع عليهم حتّى تنكسر شوكتهم وتلين شكيمتهم نظير قول موسى عليه السلام { رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الأَلِيمَ } [يونس:88].

وليس المراد بالضلال الضلال عن طريق الحقّ والتوحيد لظهور أنّه ينافي دعوة نوح قومه إلى الاستغفار والإيمان بالبعث، فكيف يسأل الله أن يزيدهم منه.

ويجوز أن يكون الضلال أطلق على العذاب المسبَّب عن الضلال، أي: في عذاب يوم القيامة، وهو عذاب الإهانة والآلام.

{ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا } [25].

الراجح أن تكون جملة معترضة بين مقالات نوح عليه السلام وليست من حكاية قول نوح، فهي إخبار من الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم بأنّه قدَّر النصر لنوح والعقاب لمن عصوه قبل أن يسأله نوح استئصالهم، فإغراق قوم نوح معلوم للنبيّ صلى الله عليه وسلم وإنّما قُصد إعلامه بسببه.

والغرض من الاعتراض التعجيل بتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما يلاقيه من قومه ممّا

يماثل ما لاقاه نوح من قومه، على نحو قوله تعالى { وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ } [إبراهيم:42].

{ **مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ** } قُدِّم على عامله لإفادة القصر، أي: أغرقوا فأدخلوا نارا من أجل مجموع خطيئاتهم لا لمجرد استجابة دعوة نوح التي ستُذكر عقب هذا، ليُعلم أن الله لا يُقرّ عباده على الشرك بعد أن يرسل إليهم رسولا، وإنّما تأخّر عذابهم إلى ما بعد دعوة نوح لإظهار كرامته عند ربّه بين قومه، ومسرّة له وللمؤمنين معه، وتعجيلا لما يجوز تأخيره.

الخطيئات: مراد بها الإشراك، وتكذيب الرسول، وأذاه، وأذى المؤمنين معه، والسخرية منه حين توعَّدهم بالطوفان، وما ينطوي عليه ذلك كلّه من الجرائم والفواحش.

{ **أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا** } فيه مُحسّن الطباق، لأنّ بين النار والغرق، المشعر بالماء، تضادا.

{ **فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا** } تفريع، تعريض بالمشركين من العرب الذين كانوا يزعمون أنّ الأصنام تشفع لهم وتدفع عنهم الكوارث، يعني في الدنيا لأنّهم لا يؤمنون بالبعث، أي: كما لم تنصر الأصنام عبدتها من قوم نوح كذلك لا تنصركم أصنامكم.

{ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا [26] إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا [27] }.

عطف على قوله تعالى { قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي } [21]، أعقبه بالدعاء عليهم بالإهلاك والاستئصال بأن لا يُبقي منهم أحدا.

{ **وَقَالَ نُوحٌ** } أعيد الفعل لوقوع الفصل بين أقوال نوح بجملة { مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ } [25]، أوبها وبجملة { وَلاَ تَزِدْ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلاَلاً } [24]. وقُرنت بـ (واو) العطف لتكون مستقلّة فلا تتبع جملة { إِنَّهُمْ عَصَوْنِي } للإشارة إلى أنّ دعوة نوح حصلت بعد شكايته تلك.

{ **لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ** } الأرض هنا، يجوز أن يراد بها جميع الكرة الدنيوية، وأن يراد أرض معهودة للمتكلّم والمخاطب، كما في قوله تعالى { قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ } [يوسف:55]، يعني أرض مصر. ويحتمل أن يكون البشر يومئذ منحصرين في قوم نوح، ويجوز خلافه، وعلى هذه الاحتمالات ينشأ احتمال أن يكون الطوفان قد غمر جميع الكرة الأرضية، واحتمال أن يكون طوفانا قاصرا على ناحية كبيرة من عموم الأرض، والله أعلم. وتقدّم عند تفسير قوله تعالى { فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ } [الأعراف:64].

{ **دَيَّارًا** } اسم مخصوص بالوقوع في النفي يعمّ كل إنسان، وهو اسم من وزن فَيْعَال مشتق من اسم الدار.

ديّار: من يحلّ بدار القوم، كناية عن إنسان.

{ **إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ** } تعليل لسؤاله أن لا يترك الله على الأرض أحدا من الكافرين، يريد أنّه

خشي أن يُضلُّوا بعض المؤمنين وأن يلدوا أبناء ينشأون على كفرهم.

{ **وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا** } أي: أنّ أولادهم ينشأون فيهم فيلقّنونهم دينهم ويصدُّون نوحا عن أن يرشدهم.

<u>المعنى</u>: ولا يلدوا إلّا من يصير فاجرا كفّارا عند بلوغه سنّ العقل.

الفاجر: المتّصف بالفجور، وهو العمل شديد الفساد.

الكفّار: مبالغة في الموصوف بالكفر.

أي: إلّا من يجمع بين سوء الفعل وسوء الاعتقاد، قال تعالى { أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ } [عبس:42].

{ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا } [28].

جعل الدعاء خاتمة مناجاته، فابتدأ بنفسه ثم بأقرب الناس به وهما والداه، ثم عمّم أهله وذويه المؤمنين، فدخل أولاده وبنوه والمؤمنات من أزواجهم، وعبَّر عنهم بمن دخل بيته كناية عن سكناهم معه. ثم عمّم المؤمنين والمؤمنات، ثم عاد بالدعاء على الكفرة بأن يحرمهم الله النجاح.

{ **دَخَلَ بَيْتِيَ** } المراد به دخول مخصوص وهو الدخول المتكرّر. ومنه سُمِّيت بطانة المرء دخيلته ودُخْلَته.

التبار: الهلاك والخسار، فهو تخصيص للظالمين من قومه بسؤال استئصالهم بعد أن شملهم وغيرهم بعموم قوله { لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا } [26].

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الجنّ

سُمِّيت في كتب التفسير وفي المصاحف التي رأيناها، ومنها مصحف بالخط الكوفي مكتوب بالقيروان في القرن الخامس (**سورة الجنّ**). وكذلك ترجمها الترمذي في كتاب التفسير من جامعه، وترجمها البخاري في كتاب التفسير (**سورة قل أوحي إليَّ**).ووجه التسميتين ظاهر.

ولم يذكرها في الإتقان في عداد السور التي لها أكثر من اسم.

وهي مكية بالاتفاق. ويظهر أنّها نزلت في حدود سنة عشر من البعثة. ففي الصحيحين وجامع الترمذي من حديث ابن عباس أنّه قال: انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ بنخلة، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، وأنّه استمع فريق من الجنّ إلى قراءته فرجعوا إلى طائفتهم فقالوا { إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا } [1]، وأنزل الله على نبيّه { قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنْ الْجِنِّ } [1].

وذكر ابن إسحاق أنّ نزول هذه السورة بعد سفر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف يطلب النصرة من ثقيف، أي: وذلك يكون في سنة عشر بعد البعثة، وسنة ثلاث قبل الهجرة.

وقد **عُدَّت السورة الأربعين** في نزول السور نزلت بعد الأعراف وقبل يس.

واتفق أهل العدد على عَدِّ **آيها ثمانًا وعشرين.**

أغراض السورة

*/ إثبات كرامة للنبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّ دعوته بلغت إلى جنس الجنّ، وفهمهم ما يدعوا إليه من التوحيد والهدى، وعلمهم بعظمة الله وتنزيهه عن الشريك والصاحبة والولد.

*/ إبطال عبادة ما يُعبَد من الجن.

*/ إبطال الكهانة وبلوغ علم الغيب إلى غير الرسل الذين يُطلعهم الله على ما يشاء.

*/ إثبات أنّ لله خلقًا يُدعون الجن وأنّهم أصناف منهم الصالحون ومنهم دون ذلك بمراتب، وتضليل الذين يقولون على الله ما لم يقله، والذين يعبدون الجن، والذين ينكرون البعث.

*/ إثبات أنّ الجن لا يفلتون من سلطان الله. وتعجُّبهم من الإصابة برجوم الشهب المانعة من استراق السمع.

*/ ما أوحى الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم في شأن القحط الذي أصاب المشركين لشركهم.

*/ إنذارهم بأنّهم سيندمون على تألّبهم على النبيّ صلى الله عليه وسلم، ومحاولتهم منه العدول عن الطعن في دينهم.

{ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا [1] يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا [2] }.

{ قُلْ } افتتاح السورة بالأمر بالقول يشير إلى أنّ ما سيُذكر بعده حدثٌ غريب وخاصة بالنسبة للمشركين الذين هم مظنّة التكذيب به، كما يقتضيه قوله تعالى { كَمَا ظَنَنتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا } [7] حسبما يأتي.

أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يُعلِم المسلمين وغيرهم بأنّ الله أوحى إليه وقوع حدث عظيم في دعوته أقامهُ الله تكريما لنبيّه وتنويها بالقرآن، وهو أن سخَّر بعضًا من النوع المسمَّى جِنًّا لاستماع القرآن، وألهمهم أو علَّمهم فهم ما سمعوه، واهتداءهم إلى مقدار إرشاده إلى الحق والتوحيد وتنزيه الله والإيمان بالبعث والجزاء، فكانت دعوة الإسلام في أصولها بالغة إلى عالم من العوالم المغيَّبة.

وعالَم الجنّ، بحسب ما يُستخلص من ظواهر القرآن ومن صحاح الأخبار النبوية وحَسَنها، نوع من الموجودات اللطيفة غير الكثيفة، الخفيّة عن حاسة البصر والسمع، منتشرة في أمكنة مجهولة ليست على سطح الأرض ولا في السماوات بل هي في أجواء غير محصورة. وهي موجودات روحانية مخلوقة من عنصر ناري ولها حياة وإرادة وإدراك خاص بها لا يُدرى مداه. وهذه المجرّدات الناريّة جنس من أجناس الجواهر تحتوي على الجنّ وعلى الشياطين، فهما نوعان لهذا الجنس، لها إدراكات خاصة وتصرفات محدودة، وهي مُغيَّبة عن الأنظار مُلْحَقة بعالم الغيب لا تراها الأبصار ولا تدركها أسماع الناس إلّا إذا أوصل الله الشعور بحركاتها وإرادتها إلى البشر على وجه المعجزة خرقا للعادة لأمر قضاه الله وأراده.

وبتعاضد هذه الدلائل وتناصرها، وإن كان كلّ واحد منها لا يعدوا أنّه ظنّي الدلالة وهي ظواهر القرآن، أو ظنّي المتن والدلالة وهي الأحاديث الصحيحة، حصل ما يقتضي الاعتقاد بوجود موجودات خفيّة تُسمَّى الجن فتُفسَّر بذلك معاني آيات من القرآن وأخبار من السنّة.

وليس ذلك ممّا يدخل في أصول عقيدة الإسلام، ولذلك لم نكفِّر منكري وجود موجودات معيّنة من هذا النوع إذ لم تثبت حقيقتها بأدلة قطعية، بخلاف حال من يقول: إنّ ذكر الجن لم يُذكر في القرآن بعد علمه بالآيات.

وأمّا ما يروى في الكتب من أخبار جزئية في ظهورهم للناس وإتيانهم بأعمال عجيبة فذلك من الروايات الخيالية.وإنَّا لم نلق أحدا من أثبات العلماء الذين لقيناهم من يقول: إنه رأي أشكالهم أو آثارهم، وما نجد تلك القصص إلّا على ألسنة الذين يسرعون إلى التصديق بالأخبار أو تغلب عليهم التخيُّلات.

فظهور الجنّ للنبيّ صلى الله عليه وسلم تارات كما في حديث الجنّي الذي تفلت ليفسد عليه صلاته هو من معجزاته، مثل رؤيته الملائكة ورؤيته الجنة والنار في حائط القبلة.

وقد مضى ذكر الجن عند قوله تعالى { وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ } [الأنعام:100]، وقوله تعالى { وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْأِنْسِ } [الأعراف:179].

{ **قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ** } الذين أُمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم أنّه أوحي إليه بخبر الجن هم جميع الناس الذين كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يبلّغهم القرآن من المسلمين والمشركين، أراد الله إبلاغهم هذا الخبر لما له من دلالة على شرف هذا الدين وشرف كتابه وشرف من جاء به، وفيه إدخال مَسرَّة على المسلمين، وتعريض بالمشركين إذ كان الجن قد أدركوا شرف القرآن وفهموا مقاصده وهم لا يعرفون لغته ولا يدركون بلاغته فأقبلوا عليه، والذين جاء بلسانهم وأدركوا خصائص بلاغته أنكروه وأعرضوا عنه.

{ **أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا** } إيماء إلى أنّه صلى الله عليه وسلم ما علم بذلك إلّا بإخبار الله إيَّاه بوقوع هذا الاستماع، فالآية تقتضي أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم لم يعلم بحضور الجن لاستماع القرآن قبل نزول هذه الآية.

وأمّا قوله تعالى { وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ } [الأحقاف:29]، فتذكير بما في هذه الآية أو هي إشارة إلى قصّة أخرى رواها عبد الله بن مسعود وهي في صحيح مسلم في أحاديث القراءة في الصلوات ولا علاقة لها بهذه الآية.

وتأكيد الخبر الموحى بحرف (أنّ) للاهتمام به ولغرابته.

النفر: الجماعة من واحد إلى عشرة، وأصله في اللغة لجماعة من البشر فأطلق على جماعة من الجن على وجه التشبيه إذ ليس في اللغة لفظ آخر، كما أطلق رجال في قوله { يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنْ الْجِنِّ } [6].

{ **فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا** } قالوه لبعض منهم لم يحضر لاستماع القرآن، ألهمهم الله أن ينذروهم ويرشدوهم إلى الصلاح، قال تعالى { وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنْ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ، قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا } [الأحقاف:30/29].

فيكون ذلك تكريما لهذا الدين أن جعل الله له دعاة من الثقلين.

{ **قُرْآنًا عَجَبًا** } وصف بالمصدر للمبالغة في قوّة المعنى، أي: يُعجب منه، أي: أنّه بديع فائق في مفاده.

وقد حصل لهم العلم بمزايا القرآن بانكشاف وهبهم الله إيّاه على وجه خرق العادة كرامة للرسول صلى الله عليه وسلم وللقرآن.

{ **يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا** } والإيمان بالقرآن يقتضي الإيمان بمن جاء به وبمن أنزله ولذلك قالوا هذا الكلام.

{ **الرُّشْدِ** } (بضم الراء وسكون الشين، أو يقال بفتح الراء وفتح الشين) هو الخير والصواب والهدى.

{ **وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا** } أي: ينتفي ذلك في المستقبل. وهذا يقتضي أنّهم كانوا مشركين.

{ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا } [3].

هذا محكي عن كلام الجن، قرأه الجمهور بكسر همزة { إِنَّهُ } على اعتباره معطوفا على قولهم { إِنَّا

سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا }، إذ يجب كسر همزة (إنّ) إذا حكيت بالقول. وقرأه ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص وأبو جعفر وخلف بفتح الهمزة { أَنَّهُ } على أنّه معطوف على الضمير المجرور بالباء في قوله تعالى { فَآمَنَّا بِهِ }،

أي: آمنا بأنّه تعالى جَدّ ربنا.

التعالي: شدّة العلو، جُعل شديد العلو كالمتكلِّف العلو لخروج علوّه عن غالب ما تعارفه الناس، فأشْبَه التكلُّف.

الجَد: (بفتح الجيم) العظمة والجلال، وهذا تمهيد وتوطئة لقوله تعالى { **مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا** } لأنّ اتخاذ الصاحبة للافتقار إليها لأنسها وعونها والالتذاذ بصحبتها، وكل ذلك من آثار الاحتياج، والله تعالى الغني المطلق، وتعالى جدّه بغناه المطلق، والولد، كذلك، يُرغب فيه للاستعانة والأنس به.

وجملة { مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا } بدل اشتمال من جملة { تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا }.

والاقتصار في بيان تعالي جَدّ الله على انتفاء الصاحبة عنه والولد ينبئ بأنّه كان شائعا في علم الجن ما كان يعتقده المشركون أنّ الملائكة بنات الله من سَرَوات الجن، وما اعتقاد المشركين إلّا ناشئ عن تلقين الشيطان وهو من الجن، ولأن ذلك مما سمعوه من القرآن مثل قوله تعالى سبحانه { أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ } [الأنعام:101].

{ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا } [4].

السَّفيه: هنا جنس، وقيل: أرادوا به إبليس، أي: كان يلقّنهم صفات الله بما لا يليق بجلاله. أي: كانوا يقولون على الله شططا قبل نزول القرآن بتسفيههم في ذلك.

الشطط: مجاوزة الحدّ وما يخرج عن العدل والصواب، وتقدّم في قوله تعالى { وَلاَ تُشْطِطْ } [ص:22].

والمراد بالشطط إثبات ما نفاه قوله تعالى { وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا } [2] وقوله تعالى { مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا } [3].

{ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا } [5].

{ **وَأَنَّا** } <u>على قراءة الفتح</u> هو عطف على المجرور بالباء في قوله تعالى { فَآمَنَّا بِهِ } [2] فالمعنى: وآمنّا، فإنّما ظننّا ذلك فأخطأنا في ظنّنا.

<u>وعلى قراءة كسر</u> { وَإِنَّا } هو من المحكي بالقول، ومعناه: الاعتذار عمّا اقتضاه قولهم { فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا } [2]، من كونهم كانوا مشركين لجهلهم وأخذهم قول سفهائهم، يحسبونهم لا يكذبون على الله.

وتأكيد المظنون بـ { لَنْ } المفيدة لتأبيد النفي، يفيد أنّهم كانوا متوغِّلين في حسن ظنّهم بمن ضلّلوهم. ويدل

على أنّ الظنّ هنا بمعنى اليقين وهو يقين مخطئ.
وفي هذه الآية إشارة إلى خطر التقليد في العقيدة، وأنّها لا يجوز فيها الأخذ بحسن الظن بالمقلَّد (بفتح اللام) بل يتعيّن النظر واتهام رأي المقلَّد حتّى ينهض دليله.

{ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا } [6].

المقصود من الكلام هو قوله تعالى { فَزَادُوهُمْ رَهَقاً } وأمّا ما سبقه، فهو تمهيد لما بعده.
{ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ } إطلاق الرجال على الجن عن طريق التشبيه والمشاكلة لوقوعه مع رجال من الإنس، فإنّ الرجل اسم للذكر البالغ من بني آدم.
العوذ: الالتجاء إلى ما يُنجي من شيء يضرّ، قال تعالى { وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ } [المؤمنون:97].
<u>فإذا حُمل العَوذ على حقيقته</u> كان المعنى: أنّه كان رجال يلتجئون إلى الجن ليدفع الجن عنهم بعض الأضرار. فوقع تفسير ذلك بما كان يفعله المشركون في الجاهلية إذا سار أحدهم في مكان قفر ووحش أو تعزَّب في الرعي، إذ كانوا يتوهَّمون أنّ الجن تسكن القفر، ويخافون تعرّض الجن والغيلان لهم وعبثها بهم في الليل فكان الخائف يصيح بأعلى صوته: يا عزيز هذا الوادي إنّي أعوذ بك من السفهاء الذين في طاعتك، فيخال أنّ الجنّي الذي بالوادي يمنعه، قالوا: وأوّل من سنّ ذلك لهم قوم من أهل اليمن ثم بنو حنيفة ثم فشا ذلك في العرب، وهي أوهام وتخيلات.
وزعم أهل هذا التفسير أن معنى { فَزَادُوهُمْ رَهَقاً } أنّ الجن كانوا يحتقرون الإنس بهذا الخوف فكانوا يكثرون من التعرض لهم والتخيّل إليهم فيزدادون بذلك مخافة.
<u>والذي أختارُه في معنى الآية</u>: أنّ العوذ هنا هو الالتجاء إلى الشيء والالتفاف حوله. وأنّ المراد: أنّه كان قوم من المشركين يعبدون الجن اتقاء شرّها. ومعنى { فَزَادُوهُمْ رَهَقًا } فزادتهم عبادتهم إياهم ضلالا.
الرهق: الذل، ويطلق على الإثم.

{ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا } [7].

المعنى: أنّ رجالا من الإنس ظنّوا، أن الله لا يبعث أحدا. والتأكيد للاهتمام بالخبر.
{ كَمَا ظَنَنْتُمْ } معترضة بين { ظَنُّوا } ومعموله، <u>فيجوز</u> أن تكون من القول المحكي، يقوله الجن بعضهم لبعض، يُشبِّهون كفَّارهم بكفّار الإنس.
<u>ويجوز أن تكون من كلام الله تعالى</u> المخاطَب به المشركون الذي أمر رسوله بأن يقوله لهم.
البعث: يحتمل بعث الرسل ويحتمل بعث الأموات للحشر.
والإخبار عن هذا فيه تعريض بالمشركين بأنّ فساد اعتقادهم تجاوز عالم الإنس إلى عالم الجن.

{ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا [8] وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا [9] }.

{ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ } التأكيد لغرابة الخبر باعتبار ما يليه من قوله تعالى { وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ }

اللمس: حقيقة الجسّ باليد، ويطلق مجازا على اختبار أمر، لأنّ إحساس اليد أقوى إحساس، فشُبِّه به الاختبار عن طريق الاستعارة، كما أطلق مرادفه وهو المس على الاختبار.

{ مُلِئَتْ } مستعمل في معنى كثُر فيها. وحقيقة الملء عَمْر فراغ المكان أو الإناء بما يحلّ فيه. أطلق هنا على كثرة الشهب والحُرّاس على وجه الاستعارة.

الحرس: اسم جمع للحُرَّاس ولا واحد له من لفظه مثل خَدَم، وإنّما يعرف الواحد منه بالحَرَسِيّ.

{ حَرَسًا شَدِيدًا } وُصف بشديد، وهو مفرد، نظرا إلى لفظ حرس، كما يقال: السلف الصالح، ولو نُظر إلى ما يتضمَّنه من الآحاد لجاز أن يقال: شِداد.

الشُّهب: جمع شِهاب وهو القطعة التي تنفصل عن بعض النجوم فتسقط في الجو أو في الأرض أو البحر وتكون مضاءة عند انفصالها ثم يزول ضوؤها. وتُسمَّى الواحد منها عند علماء الهيئة (نَيْزَكًا) باسم الرمح القصير، وقد تقدَّم الكلام عليها في [الصافات:10].

<u>المعنى</u>: إنّنا اختبرنا حال السماء لاستراق السمع فوجدناها كثيرة الحُرّاس من الملائكة وكثيرة الشهب للرجم. فليس في الآية ما يؤخذ منه أنّ الشهب لم تكن قبل بعث النبيّ صلى الله عليه وسلم كما ظنّه الجاحظ، فإنّ العرب ذكروا تساقط الشهب في بعض شعرهم في الجاهلية. نعم يؤخذ منها أنّ الشهب تكاثرت في مدّة الرسالة المحمّدية حفظا للقرآن من دسائس الشياطين، كما دلّ عليه قوله عقبه { وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً } وسيأتي بيان ذلك.

وهذا الكلام توطئة وتمهيد لقولهم بعده { وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ...}، إذ المقصود أن يخبروا من لا خبر عنده من نوعهم بأنّهم قد تبيَّنوا سبب شدّة حراسة السماء وكثرة الشهب.

{ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا } هذا من تمام قولهم { وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً }. وإنّما أعيد معه كلمة { وَأَنَّا } للدلالة على أنّ الخبر الذي تضمَّنه هو المقصود وأن ما قبله للتوطئة له، فالإعادة توكيد لفظي.

القعود: حقيقته الجلوس، وهو ضدّ القيام. وهو هنا مجاز في ملازمة المكان زمنا طويلا، لأنّ ملازمة المكان من لوازم القعود، ومنه قوله تعالى { وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ } [التوبة:5].

{ نَقْعُدُ مِنْهَا } ضمير { مِنْهَا } للسماء. و(من) تبعيضية، أي: من ساحاتها، وهو متعلِّق بـ { نَقْعُدُ }.

المقاعد: جمع مقعد وهو مَفْعل، للمكان الذي يقع فيه القعود، وأُطلق هنا على مكان الملازمة.

{ **لِلسَّمْعِ** } لام العلة، أي: لأجل السمع، أي: لأن نسمع ما يجري في العالم العلوي من تصاريف الملائكة بالتكوين والتصريف. ولعلّ الجن منساقون إلى ذلك بالجبلّة كما تنساق الشياطين إلى الوسوسة.

{ **فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا** } الفاء تفريع على محذوف دلّ عليه فعل { كُنَّا } وترتب الشرط وجزائه عليه. وتقديره: كنا نقعد منها، أي: من السماء، مقاعد للسمع فنستمع أشياء فمن يستمع الآن لا يتمكّن من ذلك. وجيء بصيغة الشرط وجوابه في التفريع لأنّ الغرض تحذير إخوانهم من التعرّض للاستماع لأنّ المستمع يتعرّض لأذى الشهب.

والجن لا تنفكّ عن ذلك لأنّهم منساقون إليه بالطبع مع ما ينالهم من أذى الرجم والاحتراق، شأن انسياق المخلوقات إلى ما خُلقت له، لاحتمال ضعف القوّة المفكّرة في الجن بحيث يغلب عليها الشهوة، ونحن نرى البشر يقتحمون الأخطار والمهالك تبعا للهوى.

{ **شِهَابًا** } في سياق الشرط يفيد العموم، لأنّ سياق الشرط بمنزلة سياق النفي في إفادة عموم النكرة.

الرَّصَد: اسم جمع راصد وهو الحافظ للشيء، وهو وصف لـ { شِهَابًا }، أي: شُهبا راصدة. ووصفها بالرصد استعارة، شُبِّهت بالحُرَّاس الراصدين.

وهذا إشارة إلى انقراض الكهانة إذ الكاهن يتلقى من الجنّيّ أنباء مجملة بما يتلقّفه الجنّيّ من خبر الغيب تلقُّف اختطاف ناقصا، فيكمله الكاهن بحدسه بما يناسب مجاري أحوال قومه وبلده. وفي الحديث: " **فيزيد على تلك الكلمة مائة كذبة** ". وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكُهّان فقال: " **ليسوا بشيء** ".

أخرج البخاري عن ابن عباس قال: كان الجن يستمعون الوحي (أي: وحي الله إلى الملائكة بتصاريف الأمور) فلمّا بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مُنعوا، قالوا: ما هذا إلّا لأمر حدث فضربوا في الأرض يتحسَّسون السبب فلما وجدوا رسول الله قائما يصلي بمكة قالوا: هذا الذي حدث في الأرض فقالوا لقومهم: { إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا } [1]، وأنزل على نبيّه { قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنْ الْجِنِّ } [1]، وإنّما أوحي إليه قول الجن ".

{ وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا } [10].

المعنى على قراءة الكسر { وَإِنَّا }، ظاهر. وعلى قراءة الفتح { وَأَنَّا } يكون المعنى: وآمنا بأنّا انتفى علمنا بما يراد بالناس. أي: لأنّهم كانوا يسترقون علم ذلك فلمّا حُرست السماء انقطع علمهم بذلك.

وهذه نتيجة ناتجة عن قولهم { وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ } [9].

وهذا تمهيد لما سيقولونه بعد ذلك { وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ } [11]، ثم قولهم { وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ } [12]، ثم قولهم { وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ - إلى قوله - فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا } [13-15].

{ **أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ** } أسند فعل إرادة الشر إلى المجهول ولم يسند إلى الله تعالى مع أنّ مقابله أسند إليه في قوله تعالى { أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً }، جريا على واجب الأدب مع الله تعالى في تحاشي إسناد

الشرّ إليه.

الرَّشَد: إصابة المقصود النافع وهو وسيلة للخير، فلهذا الاعتبار جُعل مقابلا للشر.

{ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا } [11].

ظهرت عليهم آثار التوفيق فعلموا أنّهم أصبحوا فريقين؛ فريق صالحون وفريق ليس بذلك، وهم يعنون بالصالحين أنفسهم وبمن دون الصلاح بقية نوعهم.

{ **وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ** } فلمّا قاموا مقام دعوة إخوانهم إلى اتّباع طريق الخير لم يصارحوهم بنسبتهم إلى الإفساد بل أُلهِموا وقالوا منَّا الصالحون، ثم تلطّفوا فقالوا: ومنَّا دون ذلك. وهذا من بليغ العبارات في الدعوة والإرشاد إلى الخير.

{ **دُونَ** } اسم بمعنى تحت، وهو ضد فوق ولذلك كثر نصبه على الظرفية المكانية، أي: في مكان منحط من الصالحين. والتقدير: ومنّا فريق في مرتبة دونهم. والظرفية هنا مجازية.

{ **كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا** } تشبيه بليغ، شُبِّه تخالف الأحوال والعقائد بالطرائق تفضي كلّ واحدة منها إلى مكان لا تفضي إليه الأخرى.

{ **طَرَائِقَ** } جمع طريقة، والطريقة هي الطريق، ولعلّها تختص بالطريق الواسع الواضح لأنّ التاء للتأكيد مثل دار ودارة، ومثل مقام ومقامة، ولذلك شُبِّه بها أفلاك الكواكب في قوله تعالى { وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ } [المؤمنون:17].

{ **قِدَدًا** } وصف، وهو اسم جمع قِدَّة (بكسر القاف وتشديد الدال) والقِدَّة: القطعة من جلد ونحوه المقطوعة طولا كالسير. شُبِّهت الطرائق في كثرتها بالقدد المقتطعة من الجلد.

<u>المعنى</u>: أنّهم يدعون إخوتهم إلى وحدة الاعتقاد باقتفاء هدى الإسلام، فالخبر مستعمل في التعريض بذم الاختلاف بين القوم، وأنّ عليهم أن يتّحدوا ويتطلّبوا الحق ليكون اتحادهم عليه.

وليس المقصود منه فائدة الخبر لأنّ المخاطبين يعلمون ذلك، والتوكيد بـ (إنّ) متوجه إلى المعنى التعريضي.

{ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا } [12].

{ **وَأَنَّا** } اختلاف القرّاء فيها كسابقاتها، والتقدير: وآمنا بأن لن نعجز الله في الأرض.

{ **ظَنَنَّا** } تأكيد لفظي لفعل (آمنا) المقدّر بحرف العطف، لأنّ الإيمان يقين، وأطلق الظنّ هنا على اليقين، وهو إطلاق كثير.

هذا تنبيه لإخوانهم أنّ عقاب الله لا يُفلت منه أحد استحقّه، وقدّموا ذلك على الأمر بالإيمان الذي سيأتي في قوله تعالى { وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى } [13]. لأنّ درء المفاسد مقدّم على جلب المصالح، والتخلية

مقدّمة على التحلية. وفيه تحذير لإخوانهم اعتقاد الشرك ووصف الله بما لا يليق به، لأنّ الاعتقاد الباطل لا يقرّه الإدراك المستقيم بعد تنبيهه لبطلانه، وقد جعل الله هذا النفر من الجن نذيرا لإخوانهم ومرشدا إلى الحق الذي أرشدهم إليه القرآن.

وهذا لا يقتضي أنّ الجنّ مكلّفون بشرائع الإسلام. وأمّا قوله تعالى { وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنْ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا } [الأعراف:179]، فقد أشار إلى أنّ عقابهم على الكفر والإشراك، أو أريد بالجن الشياطين، فإنّ الشياطين من جنس الجن.

الإعجاز: جعلُ الغير عاجزا، أي: غير قادر عن أمر بذكر مع ما يدلّ على العجز، وهو هنا كناية عن الإفلات والنجاة.

{ **فِي الْأَرْضِ** } يؤذن بأنّ المراد بـ (الهرب) في قوله تعالى { وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً } الهرب من الرجم بالشهب. أي: لا تطمعوا أن تسترقوا السمع فإنّ رجم الشهب في السماء لا يخطئكم.

ابتدأوا الإنذار من عذاب الدنيا استنزالا لقومهم.

ويجوز أن يكون { أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ } بمعنى مغالب، كقوله تعالى { فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ } [النحل:46] أي: لا يغلبون قدرتنا، ويكون { فِي الْأَرْضِ } مقصودا به تعميم الأمكنة، كقوله تعالى { وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ } [العنكبوت:22]، أي: في أيّ مكان كنتم. والمراد: أنّا لا نغلب الله بالقوّة. ويكون قوله تعالى { وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا }، بمعنى الإفلات. والهرب مجاز في الانفلات ممّا أراد الله إلحاقه بهم من الرجم والاحتراق.

{ **وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ بَخْساً وَلا رَهَقًا** } [13].

المقصود من الآية قوله تعالى { فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ بَخْساً وَلا رَهَقًا }، وما قبله توطئة له.

بعد أن ذكَّروا قومهم بعذاب الله في الدنيا، أو اطمأنُّوا بتذكُّر ذلك في نفوسهم، عادوا إلى ترغيبهم في الإيمان بالله وحده، وتحذيرهم من الكفر بطريق المفهوم.

{ **لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى** } أريد بالهدى القرآن، إذ هو المسموع لهم، ووصفوه بالهدى للمبالغة في أنّه هاد.

{ **يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ** } أي: بوجوده وانفراده بالإلهية، كما يُشعر به إحضار اسمه بعنوان الربّ، إذ الربّ هو الخالق.

{ **فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ بَخْساً وَلا رَهَقاً** } يجوز أن تكون من القول المحكي عن الجن. ويجوز أن تكون كلاما من الله موجَّها للمشركين، وهي معترضة بين الجملتين المتعاطفتين.

البخس: الغبن في الأجر ونحوه.

الرهق: الإهانة.

أي: لا يخشى أن يُبخس في الجزاء على إيمانه ولا أن يهان. وفُهم منه أنّ من لا يؤمن يُهان بالعذاب.

{ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا [14] وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا [15] }.

{ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ } المقصود بالعطف قوله تعالى { فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً } وما قبله توطئة له، أي: أصبحنا بعد سماع القرآن منّا المسلمون، أي: الذين اتبعوا ما جاء به الإسلام، ومنَّا القاسطون، أي: الكافرون المعرضون، وهذا تفصيل لقولهم { وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ } [11].

{ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا، وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا } الظاهر أن هذا خارج عن الكلام المحكي عن الجن، وأنّه كلام من جانب الله تعالى لموعظة المشركين من الناس، فهو في معنى التذييل.

فالتفريع تفريع كلام على كلام وليس تفريع معنى الكلام على معنى الكلام الذي قبله.

التّحرّي: طلب الحَرَا (بفتحتين) مقصورا واويا، وهو الشيء الذي ينبغي أن يُفعل، يقال: بالحَرِيِّ أن تفعل كذا، وأَحْرَى أن تفعل.

{ رَشَدًا } الرَّشَد: الهدى والصواب، وتنوينه للتعظيم.

<u>المعنى</u>: أنّ من آمن بالله فقد توخَّى سبب النجاة وما يحصل به الثواب لأنّ الرشَد سبب ذلك.

القاسط: اسم فاعل قَسَط، أي: جار، فهو كالظلم. يراد به هنا ظلم المرء نفسه بالإشراك.

{ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا } شُبِّه حلول الكافرين في جهنم بحلول الحطب في النار على طريقة التمليح والتحقير.

وإقحام فعل (كانوا) لتحقيق مصيرهم إلى النار، حتّى كأنّهم كانوا كذلك من زمن مضى.

{ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا [16] لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا [17] }.

أتفق القرّاء العشرة على فتح همزة { أَلَّوِ اسْتَقَامُوا }، والجملة معطوفة على جملة { أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ } [1]، و(الواو) من الحكاية لا من المحكي، فمضمونها شأن ثان ممَّا أوحي إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم وأمره الله أن يقوله للناس.

والتقدير: وأوحي إليَّ أنّه لو استقام القاسطون فأسلموا لما أصابهم الله بإمساك الغيث.

{ اسْتَقَامُوا } الضمير <u>يجوز</u> أن يعود إلى القاسطين بدون اعتبار القيد بأنّهم من الجن، وهو من عود الضمير إلى اللفظ مجردا عن ما صدقه، كقولك: عندي درهم ونصفه، أي: نصف درهم آخر.

<u>ويجوز</u> أن يكون عائدا إلى غير مذكور في الكلام ولكنه معروف من المقام، إذ السورة مسوقة للتنبيه على عناد المشركين وطعنهم في القرآن، فضمير { اسْتَقَامُوا } عائد إلى المشركين.

ولا يُناسب أن يُعاد على القاسطين من الجن إذ لا علاقة للجنّ بشرب الماء.

{ **الطَّرِيقَةِ** } الطريق، ولعلّها خاصة بالطريق الواسع الواضح، كما تقدّم في قوله { كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا } [11].

الاستقامة على الطريقة: تمثيل لهيئة المتّصف بالسلوك الصالح والاعتقاد الحق بهيئة السائر سيرا مستقيما على طريقة. ولذلك فالتعريف في { الطَّرِيقَةِ } للجنس لا للعهد.

{ **لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا** } وعد بالجزاء على الاستقامة في الدين جزاءً حسنا في الدنيا يكون عنوانا على رضى الله تعالى وبشارة بثواب الآخرة، قال تعالى { مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [النحل:97].

الغَدَق: (بفتح الغين المعجمة وفتح الدال) الماء الغزير الكثير.

وفي هذا إنذار بأنّه يوشك أن يمسك عنهم المطر فيقعوا في القحط والجوع وهو ما حدث بعد هجرة النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ودعائه عليهم بسنين كسني يوسف، فإنّه دعا بذلك في المدينة في القنوت، كما في حديث الصحيحين عن أبي هريرة، وقد بيَّنَّا ذلك في سورة الدخان. وقد كانوا يوم نزول هذه الآية في بحبوحة من العيش وفي نخيل وجنّات.

وبذلك يتناسب التعليل بالإفتان في قوله تعالى { لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ } مع الجملة السابقة، إذ يكون تعليلا لما تضمَّنه معنى إدامة الإسقاء، فإنّه تعليل للإسقاء الموجود حين نزول الآية وليس تعليلا للإسقاء المفروض في جواب (لو) لأنّ جوابها منتف فلا يصلح لأنّ يُعلَّل به، وإنّما هم مفتونون بما هم فيه من النعمة، فأراد الله أن يوقظ قلوبهم بأنّ استمرار النعمة عليهم فتنة لهم فلا تغرّنّهم.

{ **لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ** } لام التعليل ظرف مستقر في موضع الحال من { مَاءً غَدَقًا }.

{ **وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا** } إنذار صريح تأكيد للكناية به المأخوذة من قوله { وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ }. أي: فإن أعرضوا سلكنا بهم مسالك العذاب.

{ **عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ** } العدول عن الإضمار إلى الإظهار، دون أن يقول: عن ذكرنا، أو عن ذكري، لاقتضاء الحال الإيماء إلى وجه بناء الخبر، فإنّ المُعرض عن ربّه الذي خلقه وأنشأه ودبّره حقيق بأن يُسلك عذابا صعدا.

السَّلْك: حقيقته الإدخال، وفعله قاصر ومتعد، يقال: سلكه فسلك. وتقدّم عند قوله تعالى { كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ } [الحجر:12].واستعمل السَّلك هنا في معنى شدّة وقوع الفعل على طريق الاستعارة، وهي استعارة عزيزة. والمعنى: نعذّبه عذابا لا مصرف عنه.

{ **عَذَابًا** } انتصب على نزع الخافض وهو حرف الظرفية (في)، وهي ظرفية مجازية تدلّ على أنّ العذاب إذا حل به يحيط به إحاطة الظرف بالمظروف.

الصَّعَد: الشاق الغالب، وكأنّه جاء من مصدر صَعِد، إذا علا وأرتفع.

{ **وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُو مَعَ اللَّهِ أَحَدًا** } [18].

اتفق القرّاء العشرة على فتح الهمزة في { وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ } فهي معطوفة على مرفوع { أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنْ الْجِنِّ } [1]، ومضمونها ممّا أوحي به إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم وأمر بأن يقوله.

<u>المعنى</u>: قل أوحي إلي أن المساجد لله. والتقدير: أوحي إلي اختصاص المساجد بالله، فهي معالم التوحيد.

وذهب الخليل أنّ الكلام على حذف لام جر قبل {أَنَّ } ، فالمجرور مقدّم على متعلقه للاهتمام. والتقدير: ولأنّ المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا.

<u>والمقصود هنا هو المسجد الحرام</u> لأنّ المشركين كانوا وضعوا فيه الأصنام وجعلوا الصنم (هبل) على سطح الكعبة، قال تعالى { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا } [البقرة:114].

وهذا توبيخ للمشركين على اعتدائهم على حق الله وتصرّفهم فيما ليس لهم أن يغيّروه، قال تعالى { وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ } [الأنفال:34].

وإنَّما عُبِّر في هذه الآية وفي آية { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ } [البقرة:114] بلفظ { مَسَاجِدَ } ليدخل الذين يفعلون مثل فعلهم معهم في هذا الوعيد، أو لتعظيم المسجد الحرام.

{ **فَلا تَدْعُو مَعَ اللَّهِ أَحَدًا** } فُرّع على اختصاص كون المساجد بالله النهي عن أن يدعوا مع الله أحدا، وهذا إلزام لهم بالتوحيد بطريق القول بالموجب، لأنّهم كانوا يزعمون أنّهم أهل بيت الله فعبادتهم غير الله منافية لزعمهم ذلك.

{ **وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا** [19] **قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا** [20] }.

هذا ممّا أوحى الله به. معطوف على جملة { أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ } [1]، أي: وأوحى الله إليَّ اقتراب المشركين من أن يكونوا لبدا على عبد الله لمّا قام يدعو ربَّه.

{ **لَمَّا قَامَ** } اجتهد في الدعوة إلى الله، كقوله تعالى { إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } [الكهف:14]. وتقدّم عند قوله تعالى { وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ } [البقرة:3].

{ **عَبْدُ اللَّهِ** } هو محمد صلى الله عليه وسلم، وضع الاسم الظاهر موضع المضمر، إذ مقتضى الظاهر أن يقال: وأنّه لما قُمتَ تدعو الله كادوا يكونون عليك، أو لمّا قمتُ أدعو الله كادوا يكونون عليّ. ولكن عدل إلى الاسم الظاهر لقصد تكريم النبيّ صلى الله عليه وسلم بوصف { عَبْدُ اللَّهِ } لما في هذه الإضافة من التشريف.

{ **كَادُوا يَكُونُونَ** } الضميران عائدان إلى المشركين المُنبئ عنهم المقام غيبةً وخطابًا ابتداء من قوله

تعالى { وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ - إلى قوله - فَلا تَدْعُو مَعَ اللَّهِ أَحَدًا } [18].

{ **لِبَدًا** } (بكسر اللام وفتح الموحدة) اسم جمع: لِبْدة، وهي ما تلبَّد بعضه على بعض ومنه لبدة الأسد، للشعر المتراكم في رقبته.

والكلام على التشبيه، أي: كاد المشركون يكونون مثل اللبد متراصين ملتفّين حولك، وهو التفاف غيظٍ وغضبٍ وهمٍّ بالأذى، كما يقال: تألَّبوا عليه.

{ **قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا** } بيان لجملة { يَدْعُوهُ }. والجملة تفيد قصرا، أي: لا أدعو غيره. { **وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا** } عطف لتأكيد مفهوم القصر، وأصله أن لا يُعطف فعطفه لمجرّد التشريك للعناية باستقلاله بالإبلاغ.

{ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا [21] قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا [22] إِلَّا بَلاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا [23] }.

{ **قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا، قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا، إِلَّا بَلاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ** } هذا استئناف ابتدائي، وهو انتقال من ذكر ما أوحي به إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى توجيه خطاب مستأنف إليه، فبعد أن حُكي في هذه السورة ما أوحى الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم ممّا خفي عليه من الشؤون المتعلّقة به من اتّباع متابعين وإعراض معرضين، انتقل إلى تلقينه ما يُردّ به على الذين أظهروا له العناد والتورُّك.

{ **لا أَمْلِكُ لَكُمْ** } أي: لا أقدر قدرةً لأجلكم على ضرٍّ ولا نفعٍ. وتقدّم عند قوله تعالى { وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ } [الممتحنة:4].

الضرّ: إشارة إلى ما يتورَّكون به من طلب إنجاز ما يتوعَّدهم به من النصر عليهم.

{ **وَلَا رَشَدًا** } تتميم.

وفي الكلام احتباك، لأنّ الضرّ يقابله النفع، والرَّشَد يقابله الضلال، فالتقدير: لا أملك لكم ضرّا ولا نفعا ولا ضلالا ولا رشدا.

الرَّشَد: (بفتحتين) مصدر رُشد، والرُّشْد (بضم فسكون): الاسم، وهو معرفة الصواب، وتقدّم قريبا في قوله تعالى { يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ } [2].

{ **قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا** } جملتان معترضتان بين المستثنى منه والمستثنى، وهو اعتراض ردٍّ لما يحاولونه منه أن يترك ما يؤذيهم فلا يذكر القرآن إبطال معتقدهم وتحقير أصنامهم، قال تعالى { وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ

هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } [يونس:15].

الملتحد: اسم مكان الالتحاد، والالتحاد: المبالغة في اللحد، وهو العدول إلى مكان غير الذي هو فيه، والأكثر أن يطلق ذلك على اللجأ، أي: العياذ بمكان يعصمه. والمعنى: لن أجد مكانا يعصمني.

{ **مِنْ دُونِهِ** } حال من { مُلْتَحَدًا } أي: ملتحدا غير داخل من ملكوته، وذلك متعذِّر، ولهذا جاء لنفي وجدانه حرف { لَنْ } الدال على تأبيد النفي.

{ **إِلَّا بَلاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ** } استثناء منقطع من { ضَرًّا وَلَا رَشَدًا }، وليس متصلا لأنّ الضُّرّ والرَّشَد المنيفين هما الضرّ والرشد الواقعان في النفس بالإلجاء.

ويجوز أن يكون مع ذلك استثناء من { مُلْتَحَدًا } ، أي بتأويل { مُلْتَحَداً } بمعنى: مَخلص أو مَأمن. وهذا الاستثناء من أسلوب تأكيد الشيء بما يشبه ضدّه.

البلاغ: اسم مصدر بلَّغ، أي: أوصل الحديث أو الكلام، ويطلق على الكلام المبلَّغ، من إطلاق المصدر على المفعول، مثل قوله تعالى { هَذَا خَلْقُ اللَّهِ } [لقمان:11]. أي: إلَّا كلاما أبلِّغه من القرآن الموحى من الله.

{ **وَرِسَالاتِهِ** } جمع رسالة: وهي ما يرسل من كلام أو كتاب. فالرسالات بلاغ خاص بألفاظ مخصوصة، فالمراد منها هنا تبليغ القرآن.

{ **وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا** } لمّا كان قوله تعالى { قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا } [20] إلى هنا، كلاما متضمِّنا أنّهم أشركوا وعاندوا الرسول صلى الله عليه وسلم حين دعاهم إلى التوحيد واقترحوا عليه ما توهَّموه تعجيزا له من ضروب الاقتراح، أُعقِب ذلك بتهديدهم ووعيدهم بأنّهم إن داموا على عصيان الله ورسوله سيلقون نار جهنم، لأنّها مصير كلّ من يعصي الله ورسوله.

{ **حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا** } [24].

كانوا مشركو مكة إذا سمعوا آيات الوعد بنصر الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين في الدنيا والآخرة، وآيات الوعيد لهم بالانهزام وعذاب الآخرة وعذاب الدنيا استسخروا من ذلك وقالوا { وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ } [سبأ:35]، ويقولون { مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [السجدة:28]، ويقولون { مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ } [يس:48]، وقالوا { رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ } [ص:16]، فهم مغرورون بالاستدراج والإمهال فلذلك عُقِّب وعيدهم بالغاية المفادة من { حتّى }، فالغاية هنا متعلِّقة بمحذوف يدلّ عليه الكلام من سخرية الكفار من الوعيد واستضعافهم المسلمين في العَدد والعُدد، فإنّ ذلك يُفهم منه أنّهم لا يزالون يحسبون أنّهم غالبون فائزون، حتّى إذا رأوا ما يوعدون تحقّقوا إخفاق آمالهم.

{ **فَسَيَعْلَمُونَ** } الفعل معلَّق عن العمل بوقوع الاستفهام بعده، وهو استعمال كثير في التعليق لأنّ الاستفهام بما فيه من الإبهام يكون كناية عن الغرابة بحيث يسأل الناس عن تعيين الشيء بعد البحث عنه.

{ **مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا** } ضُعف الناصر وَهَنٌ لهم من جهة وهَن أنصارهم، وقلّة العَدد وَهَنٌ لهم من جانب أنفسهم، وهذا وعيد لهم بخيبة غرورهم بالأمن من غلب المسلمين في الدنيا، فإنّهم كانوا يقولون { نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ } [القمر:44]. وقالوا { نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا } [سبأ:35].

{ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا [25] عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا [26] إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا [27] لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا [28] }.

كان المشركون يكثرون أن يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم { مَتَى هَذَا الْوَعْدُ } [يس:48]، و{ عَنْ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا } [الأعراف:187]، وتكرّرت نسبة ذلك إليهم في القرآن، فلمّا قال الله تعالى { حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا } [24] عُلم أنّهم سيعيدون ما اعتادوا قوله من السؤال عن وقت الوعيد فأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يعيد عليهم ما سبق من جوابه.

{ **قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ** } الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا، لأنّ القول المأمور بأن يقوله جواب لسؤالهم المقدَّر.

الأمد: الغاية وأصله في الأمكنة. ومنه قول ابن عمر في حديث الصحيحين: " أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سابق بين الخيل التي لم تضمَّر وجعل أمدها ثنية الوداع "، أي: غاية المسابقة.

ويُستعار الأمد لمدّة من الزمان معينة، قال تعالى { فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ } [الحديد:16]، وهو كذلك هنا. ومقابلته بـ { أَقَرِيبٌ } يفيد أن المعنى أن يجعل له أمدا بعيدا.

{ **عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا** } في موضع العلّة لجملة { إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ }.

أي: هو عالم الغيب، والضمير المحذوف عائد إلى قوله { رَبِّي } [20].

{ **الْغَيْبِ** } مصدر غاب إذا استتر وخفي عن الأنظار، وتعريفه تعريف الجنس.

{ **عَالِمُ الْغَيْبِ** } إضافة صفة { عَالِمُ } إلى { الْغَيْبِ } تفيد العلم بكلّ الحقائق المغيَّبة سواء كانت ماهيات أو أفرادا، فيشمل المعنى المصدري للغيب مثل علم الله بذاته وصفاته، ويشمل الأمور الغائبة بذاتها مثل الملائكة والجنّ، ويشمل الذوات المغيَّبة عن علم الناس مثل الوقائع المستقبلة التي يُخبر عنها أو التي لا يُخبر عنها، فإيثار المصدر هنا لأنّه اشمل لإحاطة علم الله بجميع ذلك. وتقدّم عند قوله تعالى { الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ } [البقرة:3]. وفي الجملة معنى القصر، أي: هو عالم الغيب لا أنا.

{ **فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا** } تفريع على معنى تخصيص الله تعالى بعلم الغيب، فالفاء لتفريع حكم على

حكم والحكم المُفرَّع إتمام للتعليل وتفصيل لأحوال عدم الاطلاع على غيبه. المعنى: لا يُطلع ولا يُنبئ به.
{ **يُظْهِرُ** } أقوى من يُطلع، لأنّه من الظهور وهو المشاهدة. ولتضمينه معنى: يُطلع، عدّي بحرف {عَلَى}.
ووقوع الفعل في حيّز النفي يفيد العموم، وكذلك وقوع مفعوله وهو نكرة في حيّزه يفيد العموم.
وحرف { عَلَى } مستعمل في التمكّن من الاطلاع على الغيب، وهو كقوله { وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ } [التحريم:3].

{ **إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ** } استثناء، والإتيان بالموصول والصلة لقصد ما تؤذن به الصلة من الإيماء إلى تعليل الخبر، أي: يطلع الله بعض رسله لأجل ما أراده الله من الرسالة إلى الناس، فيُعلم من هذا الإيماء أنّ الغيب الذي يطلع الله عليه الرسل هو من نوع ما له تعلّق بالرسالة، وهو غيب ما أراد الله إبلاغه إلى الخلق أن يعتقدوه أو يفعلوه، وما له تعلّق بذلك من الوعد والوعيد من أمور الآخرة، أو أمور الدنيا، وما يؤيّد به الرسل عن الإخبار بأمور مغيبة، كقوله تعالى { غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ، فِي بِضْعِ سِنِينَ } [الروم: 2-4].

أي: إلّا الرسل الذين ارتضاهم، أي اصطفاهم، ويشمل الملائكة المرسلين إلى الرسل لإبلاغ وحي إليهم مثل جبريل عليه السلام.

ولا تشمل الآية ما قد يحصل لبعض الصالحين من شرح صدر بالرؤيا الصادقة، ففي الحديث: " **الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوّة** "، أو بالإلهام، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **قد كان يكون في الأمم قبلكم محدَّثون فإن يكن في أمتي منهم أحد فإن عمر بن الخطاب منهم**" رواه مسلم. قال مسلم: قال ابن وهب: تفسير محدَّثون: ملهَمون.

وقد قال مالك في الرؤيا الحسنة: أنّها تَسُر ولا تغُر، يريد لأنّها قد يقع الخطأ في تأويلها.

{ **فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا** }

السَّلْك: حقيقته الإدخال كما في قوله تعالى { كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ } [الحجر:12].

وأطلق السلك هنا على الإيصال المباشر تشبيها له بالدخول في الشيء بحيث لا مصرف له عنه، كما تقدّم آنفا في قوله تعالى { وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا } [17].

شُبِّه اتصال الملائكة بالرسول وحراستهم إيّاه بشيء داخل في أجزاء جسم. وهذا من جملة الحفظ الذي حفظ الله به ذكره في قوله تعالى { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [الحجر:9].

{ **مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ** } كناية عن جميع الجهات، ومن تلك الكناية يُنتقل إلى كناية أخرى عن السلامة من التغيير والتحريف.

الرَّصَد: اسم جمع كما تقدّم آنفا في قوله تعالى { يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا } [9]. وانتصب { رَصَدًا } على أنّه مفعول به لفعل { يَسْلُكُ }.

{ **لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ** } ويتعلق { لِيَعْلَمَ } بقوله { يَسْلُكُ }، أي: يفعل الله ذلك لِيَبْلُغَ الغيبُ إلى الرسول كما أرسل إليه لا يخالطه شيء ممّا يلبِّس عليه الوحي.

{ **وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا** } الواو واو الحال أو اعتراضية لأنّ مضمونها تذييل لجملة { لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ }، أي: أحاط بجميع ما لدى الرسل من تبليغ وغيره، وأحاط بكل شيء ممّا عدا ذلك.

{ **أَحْصَى** } عُبِّر عن العلم بالإحصاء على طريق الاستعارة تشبيها لعلم الأشياء بمعرفة الأعداد، لأنّ معرفة الأعداد أقوى، وقوله تعالى { عَدَدًا } ترشيح للاستعارة.

العدد: بالفك اسم لمعدود، وبالإدغام مصدر عدّ.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المُزَّمِّل

ليس لهذه السورة إلّا أسم (**سورة المُزَّمِّل**) عُرفت بالإضافة لهذا اللفظ الواقع في أوّلها، فيجوز أن يراد حكاية اللفظ، ويجوز أن يراد به النبيّ صلى الله عليه وسلم موصوفا بالحال الذي نودي به في قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ } [1].

قال ابن عطية: هي **في قول الجمهور مكية،** إلّا قوله تعالى { إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ } [20] إلى نهاية السورة، فذلك مدني. وحكى القرطبي مثل هذا عن الثعلبي.

وقال في الإتقان: إنّ استثناء قوله { إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ } إلى آخر السورة، يردُّه ما أخرجه الحاكم عن عائشة: " نزل بعد نزول صدر السورة بسنة، وذلك حين فُرض قيام الليل في أوّل الإسلام قبل فرض الصلوات الخمس ". يعني وذلك كله بمكة.

والروايات تظاهرت على أن قوله تعالى { إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ } إلى آخر السورة، نزل مفصولا عن نزول ما قبله بمدّة مختلف في قدرها، فقالت عائشة نزل بعد صدر السورة بسنة. ومثله روى الطبري عن ابن عباس، وقال الجمهور: نزل صدر السورة بمكة ونزل { إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ } إلى آخرها بالمدينة.

<u>فالظاهر أنّ الأصحّ</u> أنّ نزول { إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ } إلى آخر السورة <u>نزل بالمدينة</u> لقوله تعالى { وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } [20]، إن لم يكن ذلك إنباء بمغيب على وجه المعجزة.

والروايات عن عائشة مضطربة، لأنّ الرسول صلى الله عليه وسلّم لم يبن بعائشة إلّا في المدينة.

واختُلف في عَدِّ هذه السورة في ترتيب نزول السور، والأصحّ التي تضافرت عليه الأخبار الصحيحة: أنّ أوّل ما نزل سورة العلق واختلف فيما نزل بعد سورة العلق. والراجح سورة المدّثر. فيحتمل أن تكون القلم ثالثة والمزمل رابعة، ويحتمل أن تكون المزمل هي الثالثة والقلم رابعة.

والأصح أن سبب نزول { يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ } ما في حديث جابر بن عبد الله الآتي عند قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ }.

وعُدَّت آيها في عَدِّ أهل المدينة **ثمان عشرة آية،** وفي عَدِّ أهل البصرة تسع عشرة وفي عَدِّ من عداهم عشرون.

أغراض السورة

*/ الإشعار بملاطفة الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بندائه بوصفه بصفة تزمُّله.

*/ الأمر بقيام النبيّ صلى الله عليه وسلم غالب الليل والثناء على طائفة من المؤمنين حملوا أنفسهم على ذلك.

*/ تثبيت النبيّ صلى الله عليه وسلم بتحمّل إبلاغ الوحي.

*/ الأمر بإدامة إقامة الصلاة وأداء الزكاة وإعطاء الصدقات.

*/ أمره بالتمحُّض للقيام بما أمره الله من التبليغ، وبأن يتوكّل عليه.

*/ أمره بالإعراض عن تكذيب المشركين.

*/ تكفل الله له بالنصر عليهم وأنّ جزاءهم بيد الله.

*/ الوعيد لهم بعذاب الآخرة.

*/ وعظهم بمّا حلّ بقوم فرعون لمّا كذبوا رسول الله إليهم.

*/ ذكر يوم القيامة ووصف أهواله.

*/ نسخ قيام معظم الليل بالاكتفاء بقيام بعضه رعيا للأعذار الملازمة.

*/ الوعد بالجزاء العظيم على أفعال الخيرات.

*/ المبادرة بالتوبة، وأُدمِج في ذلك أدب قراءة القرآن وتدبّره.

*/ أنّ أعمال النهار لا يغني عنها قيام الليل.

وفي هذه السورة مواضع عويصة وأساليب غامضة فعليك تدبّرها.

{ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ [1] قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا [2] نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا [3] أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا [4] }.

افتتاح الكلام بالنداء، إذ كان المخاطَب واحدا ولم يكن بعيدا، يدلّ على الاعتناء بما سيلقى إليه من كلام.

والأصل في النداء أن يكون باسم المنادَى العَلَم إذا كان معروفا عند المتكلِّم فلا يعدل عن الاسم العلم إلى غيره من وصف أو إضافة إلّا لغرض يقصده البلغاء؛ من تعظيم وتكريم، نحو { يَا أَيُّهَا النبيّ } [الأنفال:64]، أو تلطّف وتقرّب، نحو: يا بني، ويا أبت، أو قصد تهكّم، نحو قوله تعالى { وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ } [الحجر:6].

فإذا نودي المنادَى بوصف هيئته من لِبسه أو جلسة أو ضجعة كان المقصود في الغالب التلطّف به والتحبُّب إليه ولهيئته، ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب، وقد وجده مضطجعا في المسجد وقد علق تراب المسجد بجنبه: **" قم أبا تراب "**، وقوله لحذيفة بن اليمان يوم الخندق: **" قم يا نومان "**، وقوله لعبد الرحمن بن صخر الدوسي وقد رءاه حاملا هرّة صغيرة في كمّه: **" يا أبا هريرة "**.

{ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ } نداء النبيّ بذلك نداء تلطّف وارتفاق، ومثله قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ } [المدثر:1].

{ الْمُزَّمِّلُ } اسم فاعل من تَزَمَّل، إذا تلفَّف بثوبه كالمقرور، أو مريد النوم، وهو مثل المدّثر في مآل المعنى وإن كان بينهما اختلاف في أصل الاشتقاق، فالتزمُّل مشتقّ من معنى التلفّف، والتدثّر مشتق من معنى اتخاذ الدثار للتدفُّؤ. و{ الْمُزَّمِّلُ } أصلها المُتَزَمِّل، أدغمت التاء في الزاي بعد قلبها (زايًا) لتقاربهما.

التزمّل: أصله مشتق من الزَّمْل (بفتح فسكون) وهو الإخفاء، ولا يعرف لـ (تزمَّل) فعل مجرّد في معناه فهو من (التفعّل) الذي تنوسي منه معنى التكلّف للفعل، وأريد في إطلاقه معنى شدّة التلبّس، وكثر مثل هذا في الاشتمال على اللباس؛ فمنه التزمّل ومنه التعمّم والتأزّر والتقمّص.

قال الزهري وجمهور المفسّرين: إنّه التزمّل الذي جرى في قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: " زمِّلوني زمِّلوني " حين نزل من غار حراء بعد أن نزل عليه قوله تعالى { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ } [العلق:1] الآيات، كما في حديث عروة عن عائشة في كتاب بدء الوحي من صحيح البخاري وإن لم يذكر في ذلك الحديث نزول هذه السورة حينئذ، وعليه فهو حقيقة في فعل التزمّل ولكنّه متأخّر في زمن المناداة بذلك.

وقيل: هو ما في حديث جابر بن عبد الله قال: لما اجتمعت قريش في دار الندوة فقالوا: سمُّوا هذا الرجل اسما تصدر الناس عنه (أي: صفوه وصفا تتفق عليه الناس) فقالوا: كاهن، وقالوا: مجنون، وقالوا: ساحر، فصدر المشركون على وصفه بساحر، فبلغ ذلك النبيّ صلى الله عليه وسلم فحزن وتزمّل في ثيابه وتدثر، فأتاه جبريل فقال: { يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ }، { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ }.

وسيأتي في سورة المدثر: أن سبب نزولها رؤيته الملك جالسا على كرسي بين السماء والأرض فرجع إلى خديجة يرجف فؤاده فقال دثروني، فيتعيّن أنّ سبب ندائه بـ { يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ } كان عند تزمّله عندما

اغتم من وصف المشركين إيّاه بالجنون.

وقيل: هو تزمّل للاستعداد للصلاة فنودي { يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا } وهذا مروي عن قتادة. وقريب منه عن الضحاك، وهي أقوال متقاربة.

فنداء النبيّ صلى الله عليه وسلم بوصف { الْمُزَّمِّلُ } باعتبار حالته وقت ندائه، وليس المزّمّل معدودا من أسماء النبيّ صلى الله عليه وسلم، قال السهيلي: ولم يعرف به وذهب بعض الناس إلى عده من أسمائه.

{ **قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا** } فعل { قُمِ } منزَّل منزلة اللازم فلا يحتاج إلى تقدير متعلّق لأنّ القيام هنا مراد به الصلاة، فهذا القيام مغاير للقيام المأمور به في سورة المدثر بقوله تعالى { قُمْ فَأَنذِرْ } [المدثر:2]، فإنّ ذلك بمعنى الشروع كما يأتي هنالك.

{ **اللَّيْلَ** } زمن الظلمة من بعد العشاء إلى الفجر. وأنتصب على الظرفية، فاقتضى الأمر بالصلاة في جميع وقت الليل، ويُعلم استثناء أوقات قضاء الضرورات من إغفاء بالنوم ونحوه من ضرورات الإنسان.

قيام الليل: لقب في اصطلاح القرآن والسنة للصلاة فيه ما عدا صلاة المغرب والعشاء ورواتبهما.

وأمر الرسول بقيام الليل أمر إيجاب، وهو خاص به لأنّ الخطاب موجّه إليه وحده مثل السور التي سبقت نزول هذه السورة، وأمّا قيام الليل للمسلمين فهم اقتدوا فيه بالرسول صلى الله عليه وسلم كما سيأتي في قوله تعالى { إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ - إلى قوله - وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ } [20].

قال الجمهور: وذلك قبل أن تُفرض الصلوات الخمس. ولعلّ حكمة هذا القيام الذي فُرض على الرسول صلى الله عليه وسلم في صدر رسالته هو أن تزداد به سريرته زكاء يقوّي استعداده لتلقي الوحي حتّى لا يحرجه الوحي كما ضغطه عند نزول الآيات الأولى من سورة العلق. كما ورد في حديث البخاري:

" **فغطَّني حتّى بلغ مني الجَهد** ". ويدلّ لهذه الحكمة قوله تعالى عقبه { إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً } [5].

وقد كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يتحنَّث في غار حِراء قبيل بعثته بإلهام من الله تعالى، فالذي ألهمه ذلك قبل أن يوحى إليه يجدر بأن يأمره به بعد أن أوحى إليه.

وقد استمر وجوب قيام الليل على رسوله صلى الله عليه وسلم بعد فرض الصلوات الخمس تعظيما لشأنه بكثرة الإقبال على مناجاة ربّه في وقت فراغه من تبليغ الوحي وتدبير شؤون المسلمين، وهو وقت الليل، كما يدلّ عليه قوله { وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً } [الإسراء:79].

فكان هذا حكما خاصا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم، وقد ذكره الفقهاء في باب خصائص النبيّ صلى الله عليه وسلم ولم يكن واجبا على غيره ولم تفرض على المسلمين صلاة قبل الصلوات الخمس.

وإنّما كان المسلمون يقتدون بفعل النبيّ صلى الله عليه وسلم، وهو يقرّهم على ذلك، فكانوا يرونه لزاما عليهم، وقد أثنى الله عليهم بذلك في آيات كثيرة كقوله تعالى { تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ } [السجدة:16]، وسيأتي ذلك عند قوله تعالى { إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَي اللَّيْلِ } [20].

{ **إِلَّا قَلِيلًا** } استثناء من { **اللَّيْلَ** }، أي: إلّا قليلا منه، فلم يتعلّق إيجاب القيام عليه بأوقات الليل كلّها.

{ **نِصْفَهُ** } بدل من { قَلِيلًا } بدلا مطابقا، وهو تبيين لإجمال { قَلِيلًا } فجعل القيام هنا النصف أو أقل منه بقليل. وفائدة هذا الإجمال الإيماء إلى أنّ الأولى أن يكون القيام أكثر من مدّة نصف الليل، وأنّ جعله نصف الليل رحمة ورخصة للنبيّ صلى الله عليه وسلم، ويدلّ ذلك تعقيبه بقوله:

{ **أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا** } أي: انقص من النصف قليلا، فيكون زمن قيام الليل أقل من نصفه، وهو حينئذ قليل فهو رخصة من الرخصة.

{ **أَوْ زِدْ عَلَيْهِ** } عود إلى الترغيب في أن تكون مدّة القيام أكثر من نصف الليل ولذلك لم يُقيَّد { أَوْ زِدْ عَلَيْهِ } بمثل ما قُيِّد به { أَوِ انْقُصْ مِنْهُ }، لتكون الزيادة على النصف متسعة.

وقد ورد في الحديث أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أخذ بالعزيمة فقام حتّى تورَّمت قدماه وقيل له في ذلك: إنّ الله غفر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر فقال: " **أفلا أكون عبدا شكورا** ".

{ **وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا** } يجوز أن يكون متعلقا بقيام الليل، أي: رتّل قراءتك في القيام.

ويجوز أن يكون أمرا مستقلًّا بكيفية قراءة القرآن جرى ذكره بمناسبة الأمر بقيام الليل، وهذا أولى، لأنّ القراءة في الصلاة تدخل في ذلك. وقد كان نزول هذه السورة في أوّل العهد بنزول القرآن فكان جملة القرآن حين نزول هذه السورة سورتين أو ثلاث سور. فأُمِر النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يقرأ القرآن بمهل وتبيين.

الترتيل: جعل الشيء مرتَّلا، أي: مفرَّقا، وأصله من قولهم: ثغر مرتَّل، وهو المفلج الأسنان، أي: المفرّق بين أسنانه تفريقا قليلا.

وأريد بترتيل القرآن ترتيل قراءته، أي: التمهل في النطق بحروف القرآن حتّى تخرج من الفم واضحة مع إشباع الحركات التي تستحق الإشباع. ووصفت السيدة عائشة الترتيل فقالت: " لو أراد السامع أن يعدّ حروفه لعدّها، لا كسردِكم هذا ".

وفائدة هذا أن يرسخ حفظه ويتلقّاه السامعون فيعلق بحوافظهم، ويتدبّر قارئه وسامعه معانيه كي لا يسبق لفظ اللسان عمل الفهم.

{ **تَرْتِيلًا** } أكِّد هذا الأمر بالمفعول المطلق لإفادة تحقيق صفة الترتيل.

{ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا } [5].

تعليل للأمر بقيام الليل وقع اعتراضا بين جملة { قُمْ اللَّيْلَ } [2] وجملة { إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا} [6]، وهو جملة مستأنفة استئنافا بيانيا لحكمة الأمر بقيام الليل بأنّها تهيئة نفس النبيّ صلى الله عليه وسلم ليحمل شدّة الوحي، وفي هذا إيماء إلى أنّ الله يسَّر عليه ذلك، كما قال تعالى { إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ} [القيامة:17]، فتلك مناسبة وقوع هذه الجملة عقب جملة { قُمْ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلًا } [2].

فهذا إشعار بأنّ نزول هذه الآية كان في أوّل عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم بنزول القرآن، فلمّا قال له

{ وَرَتِّلْ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا } [4] أُعقِب ببيان علّة الأمر بترتيل القرآن.

الإلقاء: حقيقته رمي الشيء من اليد إلى الأرض وطرحه، ويقال: شيء لَقَى، أي: مطروح.

استعير الإلقاء هنا للإبلاغ دفعة على غير ترقّب.

{ **قَوْلًا ثَقِيلًا** } هو ثقل مجازي لا محالة، مستعار لصعوبة حفظه لاشتماله على معان ليست من معتاد ما يجول في مدارك قومه فيكون حفظ ذلك القول عسيرا على الرسول الأمّي تنوء الطاقة عن تلقِّيه.

وأشعرت الآية أنّ ثقله متعلّق ابتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم. قال ابن عباس: " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحي ثقل عليه وتربَّد له جلده "، أي: تغير بمثل القشعريرة.

وقالت عائشة: " رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليَرفَضُّ عَرَقًا ".

ويُستعار ثقل القول لاشتماله على معان وافرة يحتاج العلم بها لدقة النظر وذلك لكمال هديه ووفرة معانيه. وحسبك أنّه حوى من المعارف والعلوم ما لا يفي العقل بالإحاطة به، فكم غاصت فيه أفهام العلماء من فقهاء ومتكلّمين وبلغاء ولغويين وحكماء، فشابه الشيء الثقيل في أنّه لا يقوى الواحد على الاستقلال بمعانيه.

وتأكيد هذا الخبر بحرف التأكيد للاهتمام به وإشعار الرسول صلى الله عليه وسلم بتأكيد قربه واستمراره، ليكون وروده أسهل عليه من ورود الأمر المفاجئ.

{ **إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا** } [6].

تعليل لتخصيص زمن الليل بالقيام فيه، فهي مرتبطة بجملة { قُمْ اللَّيْلَ } [2].

والمعنى: أنّ في قيام الليل تزكية وتصفية لسرّك وارتقاء بك إلى المراقي الملكية.

{ **نَاشِئَةَ** } وصف من النشء: وهو الحدوث. وقد جرى هذا الوصف هنا على غير موصوف، وأضيف إلى الليل إضافة على معنى (في)، وجُعل من أقوم القيل، فعُلم أنّ فيه قولا، وقد سبقه الأمر بقيام الليل وترتيل القرآن، فتعيّن أن موصوفه المحذوف هو صلاة، أي: الصلاة الناشئة في الليل.

ووصف الصلاة بالناشئة لأنّها أنشأها المصلِّي فنشأت بعد هدأة الليل، وإذا كانت الصلاة بعد نوم فمعنى النشء فيها أقوى. ولذلك فسَّرتها عائشة بالقيام بعد النوم. وفسّرها ابن عباس بصلاة الليل كلّها واختاره مالك.

وإيثار لفظ { **نَاشِئَةَ** } في هذه الآية دون غيره من نحو: قيام، أو تهجّد، لأجل ما يحتمله من هذه المعاني.

{ **هِيَ أَشَدُّ** } ضمير الفصل هنا لتقوية الحكم لا للحصر.

{ **وَطْئًا** } قرأ جمهور العشرة بفتح الواو وسكون الطاء بعدها همزة، و**الوطء**: أصله وضع الرِّجل على الأرض، وهو هنا مستعار لمعنى يناسب أن يكون شأنا للصلاة بالليل.

فيجوز أن يكون الوطء استعير لفعل من أفعال المصلِّي على نحو إسناد المصدر إلى فاعله.

أي: واطئا أنت، فهو مستعار لتمكّن المصلِّي من الصلاة في الليل بتفرُّغه لها وهدوء باله من الأشغال النهارية تمكُّن الواطئ على الأرض، فهو أمكن للفعل. أي: **أشد وقعا**، وبهذا فسّره جابر بن زيد والضحّاك وقاله الفرّاء.

ويجوز أن يكون الوطء مستعارا لحالة صلاة الليل وأثرها في المصلي، أي: **أشدّ أثر خير** في نفسه وأرسخ خيرا وثوابا، وبهذا فسره قتادة.

الأقوم: الأفضل في القويم الذي هو عدم الاعوجاج والالتواء. واستعير { أَقْوَمُ } هنا للأفضل والأنفع.

قِيلًا: القول، وأريد به قراءة القرآن لتقدم قوله { إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلًا } [5].

المعنى: أنّ صلاة الليل أعون على تذكّر القرآن والسلامة من نسيان بعض الآيات، وأعون على المزيد من التدبّر. قال ابن عباس: { وَأَقْوَمُ قِيلًا }: أدنى من أن يفقهوا القرآن. وقال قتادة: أَحْفظ للقراءة.

{ إِنَّ لَكَ فِي النَّـهَارِ سَبْحاً طَوِيلًا } [7].

فصلُ هذه الجملة دون عطف على ما قبلها يقتضي أنّ مضمونها ليس من جنس حكم ما قبلها، فليس المقصود تعيين صلاة النهار، إذ لم تكن الصلوات الخمس قد فرضت يومئذ على المشهور.

فالذي يبدو أنّ موقع هذه الجملة موقع العلّة لشيء ممّا في جملة {إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا} [المزمل:6] وذلك دائر بين:

أن يكون تعليلا لاختيار الليل لفرض القيام فيه، فيفيد تأكيدا للمحافظة على قيام الليل، لأنّ النهار لا يغني غناءه. فيتحصّل من المعنى: قم الليل لأنّ قيامه أشد وقعا وأرسخ قولا، لأن النهار زمن فيه شغل عظيم لا يترك لك خلوة بنفسك. وشغل النبيّ صلى الله عليه وسلم في النهار بالدعوة إلى الله وإبلاغ القرآن وتعليم الدين ومحاجّة المشركين وافتقاد المؤمنين المستضعفين، فعُبِّر عن جميع ذلك بالسبح الطويل.

وبين أن يكون تلطُّفا واعتذارا عن تكليفه بقيام الليل، وفيه إرشاد إلى أنّ النهار ظرف واسع لإيقاع ما عسى أن يكلِّفه قيام الليل من فتور بالنهار لينام بعض النهار وليقوم بمهامه فيه.

ويجوز أن يكون تعليلا لما تضمَّنه قوله تعالى { أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا } [3]، أي: إن نقصت من نصف الليل شيئا لا يَفُتْكَ ثواب عمله، فإنّ لك في النهار متَّسعا للقيام والتلاوة، مثل قوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا } [الفرقان:62].

وقد ثبت أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يصلِّي في النهار من أوّل البعثة قبل فرض الصلوات الخمس، كما دلّ عليه قوله تعالى { أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى } [العلق:10/9]. وقد تقدّم في سورة الجن أنّ استماعهم القرآن كان في صلاة النبيّ صلى الله عليه وسلم بأصحابه في نخلة في طريقهم إلى عكاظ.

ويظهر أن يكون كل هذا مقصودا لأنّه ممّا تسمح به دلالة كلمة { سَبْحًا طَوِيلًا }، وهي من بليغ الإيجاز.

السبح: أصله العوم، أي: السلوك بالجسم في ماء كثير، وهو مستعار هنا للتصرّف السهل المتسع الذي

يشبه حركة السابح في الماء. وفسّر ابن عباس السبح بالفراغ، أي: لينام في النهار. وقال ابن وهب عن ابن زيد: فراغا طويلا لحوائجك فافرغ لدينك في الليل.

الطويل: وصف من الطول، وهو ازدياد امتداد القامة أو الطريق أو الثوب على مقادير أكثر من أمثاله. فالطول من صفات الذوات، وشاع وصف الزمان به، يقال: ليل طويل، وفي الحديث **" الشتاء ربيع المؤمن قصُر نهاره فصامه وطال ليله فقامه "**.

{ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا [8] رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا [9] }.

عطف على { قُمْ اللَّيْلَ } [2]. وقُصد بإطلاق الأمر { اذْكُرِ } دون تعيين زمان إلى إفادة تعميمه، أي: اذكر اسم ربك في الليل وفي النهار، كقوله تعالى { وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا } [الإنسان:25].

{ **اسْمَ رَبِّكَ** } إقحام كلمة { اسم } لأنّ المأمور به ذكر اللسان وهو الجامع للتذكّر بالعقل، لأن الألفاظ تجري على حسب ما في النفس، ألا ترى إلى قوله تعالى { وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنْ الْقَوْلِ } [الأعراف:205].

التبتُّل: شدّة البتل، الانقطاع، وهو هنا انقطاع مجازي، أي: تفرُّغ البال والفكر إلى ما يرضي الله، فكأنّه انقطع عن الناس وانحاز إلى جانب الله فعدّي بـ (إلى) الدالة على الانتهاء.

والمراد بالانقطاع المأمور به انقطاع خاص وهو الانقطاع عن الأعمال التي تمنعه من قيام الليل ومهام النهار في نشر الدعوة ومحاجّة المشركين ولذلك قيل { وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ }، أي: إلى الله، فكل عمل يقوم به النبيّ صلى الله عليه وسلم من أعمال الحياة فهو لدين الله.

وليس هو التبتّل المفضي إلى الرهبانية وهو الإعراض عن النساء وعن تدبير أمور الحياة لأنّ ذلك لا يلاقي صفة الرسالة. وفي حديث سعد في الصحيح: "ردَّ رسول الله على عثمان ابن مظعون التبتّل ولو أذن له لاختصينا "، يعني ردَّ عليه استشارته في الإعراض عن النساء.

ومن أكبر التبتّل إلى الله الانقطاع عن الإشراك، وهو معنى الحنيفية، ولذلك عُقِّب قوله تعالى { وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا } بقوله تعالى { رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ }.

<u>خلاصة المعنى</u>: أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم مأمور أن لا تخلو أوقاته عن إقبال على عبادة الله ومراقبته والانقطاع للدعوة لدين الحق، وإذ قد كان النبيّ صلى الله عليه وسلم من قبل غير غافل عن هذا الانقطاع بإرشاد من الله، كما ألهمه التحنّث في غار حراء ثم بما أفاضه عليه من الوحي والرسالة، فالأمر في قوله تعالى { وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ } مراد به الدوام على ذلك.

على أنّ القرآن الذي أنزل أوّلا أكثره إرشاد للنبيّ صلى الله عليه وسلم إلى طرائق دعوة الرسالة فلذلك كان غالب ما في السور الأُوَل منه مقتصرا على سَنّ التكاليف الخاصة بالرسول صلى الله عليه وسلم.

{ **رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ** } وصف الله بذلك لمناسبة الأمر بذكره في الليل وذكره في النهار وهما وقتا ابتداء غياب الشمس وطلوعها، وذلك يُشعر بامتداد كلّ زمان منهما إلى أن يأتي ضدّه. فيصحّ أن يكون المشرق والمغرب جهتي الشروق والغروب فيكون لاستيعاب جهات الأرض، أي: رب جميع العالم.

ويصحّ أن يُراد بهما وقتا الشروق والغروب، أي: مبدأ ذينك الوقتين ومنتهاهما، كما يقال: سبحوا الله كل مشرق شمس، وكما يقال: صلاة المغرب.

{ **لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا** } عُقّب وصف الله بـ { رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ } بالإخبار عنه أو بوصفه بأنّه لا إله إلا هو، لأنّ تفرُّده بالإلهية بمنزلة النتيجة لربوبية المشرق والمغرب. فلمّا كانت ربوبيّته للعالم لا يُنازع فيها المشركون أُعقِبت بما يقتضي إبطال دعوى المشركين تعدّد الآلهة، تعريضا بهم في أثناء الكلام، وإن كان الكلام مسوقا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ **فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا** } تفريع، وإذا كان الأمر باتخاذ وكيلا مسبَّبا عن كونه لا إله إلا هو كان ذلك في قوّة النهي عن اتخاذ وكيل غيره، إذ ليس غيره بأهل لاتخاذه وكيلا.

الوكيل: الذي تُوكَل إليه الأمور، أي: تُفوَّض إلى تصرُّفه، ومن أهم التفويض أمر الانتصار لمن توكَّل عليه. فإنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لمّا بلغه قول المشركين فيه اغتم لذلك، وقد روي أنّ ذلك سبب تزمّله من موجدة الحزن فأمره الله بأن لا يعتمد إلّا عليه، وهذا تكفُّل بالنصر ولذلك عُقّب بقوله تعالى:

{ وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا } [10].

عطف على قوله تعالى { فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا } [9]، لأنّ الصبر على الأذى يستعان عليه بالتوكّل على الله.

{ **يَقُولُونَ** } الضمير عائد إلى المشركين، ولم يتقدَّم له مُعاد فهو من الضمائر التي استغني عن ذكر معادها لأنّه معلوم للسامعين، كما تقدّم غير مرة، ولأنّه سيأتي عقبه قوله تعالى { وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ } [11] فيبيّنه.

وقد مضى في السور التي نزلت قبلُ مقالات أذى من المشركين لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛

ففي سورة العلق، { أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى، عَبْدًا إِذَا صَلَّى } [9-10]. قيل هو أبو جهل تهدَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم لئن صلى في المسجد الحرام ليفعلن ويفعلن. وفيها قوله تعالى { إِنَّ الإنسَانَ لَيَطْغَى، أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى } [7/6]. قيل: هو الأخنس بن شريق تنكّر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن كان حليفه.

وفي سورة المدّثّر، { ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا - إلى قوله - إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ } [11-25]، قيل: قائل ذلك الوليد بن المغيرة.

وفي سورة القلم، { مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ - إلى قوله - فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ، بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ } [2-6]، وقوله تعالى { وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ - إلى قوله - قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ } [10-15] ردا لمقالاتهم. فلذلك أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالصبر على ما يقولون.

{ **هَجْرًا جَمِيلًا** } هو الحسن في نوعه، فإنّ الأحوال والمعاني منها حسن ومنها قبيح في نوعه. ومن هذا المعنى قوله تعالى { فَصَبْرٌ جَمِيلٌ } [يوسف:18]، وقوله تعالى { فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا } [المعارج:5].

فالهجر الجميل هو الذي يقتصر صاحبه على حقيقته، وهو ترك المخالطة فلا يقرنها بجفاء آخر أو أذى.

أمر الله رسوله بهجر المشركين هجرا جميلا، أي: أن يهجرهم ولا يزيد على هجرهم سبًّا أو انتقاما.

وليس الهجر منسحبا على الدعوة للدين فإنّها مستمرة، لأنّها تبليغ عن الله تعالى.

{ **وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا** } [11].

القول فيه كالقول في قوله تعالى { فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ } [القلم:44]، أي: دعني وإيَّاهم، أي: لا تهتم بتكذيبهم ولا تشتغل بتكرير الردّ عليهم فأنا أكفيكهم.

{ **الْمُكَذِّبِينَ** } انتصب على المفعول معه، والواو واو المعية. والمكذِّبون هم من عناهم بضمير { يَقُولُونَ } و{ اهْجُرْهُمْ }، وهم المكذِّبون للنبيّ صلى الله عليه وسلم من أهل مكّة، فهو إظهار في مقام الإضمار لإفادة أنّ التكذيب هو سبب هذا التهديد.

{ **أُولِي النَّعْمَةِ** } توبيخ لهم بأنّهم كذَّبوا لغرورهم وبطرهم بسعة حالهم، وتهديد لهم بإزالة ذلك التنعّم. وفي هذا الوصف تعريض بالتهكّم، لأنّهم كانوا يعدّون سعة العيش ووفرة المال كمالا، وكانوا يعيّرون الذين آمنوا بالخصاصة، قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ، وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ } [المطففين:30/29]، وقال تعالى { وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ } [محمد:12].

{ **النَّعْمَةِ** } هنا بفتح النون باتفاق القرّاء. وهي اسم للترفّه، وجمعها أنعُم (بفتح الهمزة وضم العين).

وأمّا النِعمة (بكسر النون) فاسم للحالة الملائمة لرغبة الإنسان من عافية، وأمن ورزق، ونحو ذلك من الرغائب. وجمعها: نِعَم (بكسر النون وفتح العين).

وجعلهم ذوي النَّعمة للإشارة إلى أنّ قصارى حظهم في هذه الحياة الانطلاق في العيش بلا ضيق، والإقبال على لذيذ الطعوم ولذائذ الانبساط إلى النساء والخمر والميسر، وهم معرضون عن كمالات النفس ولذّة الاهتداء والمعرفة، قال تعالى { أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا } [الفرقان:44].

التمهيل: الإمهال الشديد، والإمهال: التأجيل وتأخير العقوبة، وهو مترتِّب في المعنى على قوله { وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ }، أي: وانتظر أن ننتصر لك، كقوله تعالى { وَلاَ تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ } [الأحقاف:35].

{ **قَلِيلًا** } وصف لمصدر محذوف، أي: تمهيلا قليلا. وانتصب على المفعول المطلق.

{ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا [12] وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا [13] يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا [14] }.

تعليل لجملة { وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ } [11]، أي: لأنّ لدينا ما هو أشد عليهم من ردّك عليهم، وهذا التعليل أفاد تهديدهم بأنّ هذه النِقم أُعدّت لهم، لأنّها لمّا كانت من خزائن نقمة الله تعالى كانت بحيث يضعها الله في المواضع المستأهلة لها.

وهم قد بدّلوا نعمة الله كفرا، فأعدّ الله ما يكون عليهم في الحياة الأبدية ضدًّا لأصول النعمة التي خُوِّلوها، فبطروا بها وقابلوا المُنْعِم بالكفران.

الأنكال: مقابل كفرانهم بنعمة الصحة والمقدرة، لأنّ الأنكال القيود.

الجحيم: هو نار جهنم، مقابل ما كانوا عليه من لذة الاستظلال والتبرّد.

{ **وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ** } مقابل ما كانوا منهمكين فيه من أطعمتهم الهنيئة.

الغُصَّة: (بضم الغين) اسم لأثر الغَصّ في الحلق، وهو تردّد الطعام والشراب في الحلق بحيث لا يُسيغه الحلق من مرض أو حزن وعَبرة.

{ **وَعَذَابًا أَلِيمًا** } مقابل ما في النَّعمة من ملاذ، فإنّ الألم ضدّ اللذة.

{ **أَنْكَالًا / جَحِيمًا / طَعَامًا / عَذَابًا** } تنكير هذه الأجناس الأربعة لقصد تعظيمها وتهويلها.

الرجف: الزلزلة والاضطراب، والمراد: الرجف المتكرّر المستمر، وهو الذي يكون به انفراط أجزاء الأرض وانحلالها.

{ **وَكَانَتْ الْجِبَالُ** } جيء بفعل { كَانَتْ } للإشارة إلى تحقيق وقوعه حتّى كأنّه وقع في الماضي.

ووجه مخالفته لأسلوب { تَرْجُفُ } أنّ صيرورة الجبال كُثُبا أمر عجيب غير معتاد، فلعله يستبعده السامعون وأمّا رجف الأرض فهو معروف. إلّا أن هذا الرجف الموعود به أعظم.

الكثيب: الرمل المجتمع كالربوة، أي: تصير حجارةُ الجبال دُقاقا.

مهيل: اسم مفعول من هال الشيء هيلا، إذا نثره وصبَّه.

{ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا [15] فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا [16] }.

نُقل الكلام إلى مخاطبة المشركين بعد أن كان موجَّها إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم.

<u>والمناسبة</u> لذلك التخلُّص إلى وعيدهم بعد أن أمره بالصبر على ما يقولون وهجرهم هجرا جميلا.

فالكلام استئناف ابتدائي، ولا يُعد هذا الخطاب من الالتفات لأنّ الكلام نُقل إلى غرض غير الذي كان قبله. والمقصود من هذا الخبر التعريض بالتهديد أن يصيبهم مثل ما أصاب أمثالهم ممّن كذّبوا الرسل. وهذا أوّل مثل ضربه الله للمشركين للتهديد بمصير أمثالهم على قول الجمهور في نزول هذه السورة.
واختير لهم ضرب المثل بفرعون مع موسى عليه السلام، لأنّ الجامع بين حال أهل مكة وحال أهل مصر في سبب الإعراض عن دعوة الرسول هو مجموع ما هم عليه من عبادة غير الله، وما يملأ نفوسهم من التكبّر والتعاظم على الرسول المبعوث إليهم، بزعمهم أنّ مثلهم لا يطع مثله، كما حكى الله تعالى عنهم قولهم { فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ } [المؤمنون:47]، وقد قال أهل مكة { لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } [الزخرف:31].
وقد تكرّر في القرآن ضرب المثل بفرعون لأبي جهل، وهو زعيم المناوين للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤلِّبين عليه وأشد صناديد قريش كفرا.
{ **إِنَّا أَرْسَلْنَا** } تأكيد الخبر لأنّ المخاطبين منكرون أنّ الله أرسل إليهم رسولا.
{ **رَسُولًا** } نُكِّر لأنّهم يعلمون المعنِيَّ به في هذا الكلام، ولأنّ مناط التهديد والتنظير ليس شخص الرسول صلى الله عليه وسلم بل هو صفة الإرسال.
{ **شَاهِدًا عَلَيْكُمْ** } المراد بالشهادة هنا: الشهادة بتبليغ ما أراده الله من الناس، وبذلك يكون وصف {شَاهِدًا} موافقا لاستعمال الوصف باسم الفاعل في زمن الحال، أي: هو شاهد عليكم الآن بمعاودة الدعوة والإبلاغ.
وأمّا شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم يوم القيامة فهي شهادة بصدق المسلمين في شهادتهم على الأمم بأنّ رسلهم أبلغوا إليهم رسالات ربّهم، وذلك قوله تعالى { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا } [البقرة:143].
{ **إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا** } تنكير { رَسُولًا } هنا لأنّ الاعتبار بالإرسال لا بشخص المرسل.
{ **فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ** } التفريع إيماء إلى أنّ ذلك هو الغرض من هذا الخبر، وهو التهديد بأن يحلّ بالمخاطبين لمّا عصوا الرسول صلى الله عليه وسلم مثل ما حلّ بفرعون.
{ **فَعَصَى فِرْعَوْنُ** } في إظهار اسم فرعون دون أن يؤتى بضميره للنداء عليه بفظاعة عصيانه الرسول.
{ **الرَّسُولَ** } لمّا أعيد ذكر الرسول المرسل إلى فرعون جيء به معرَّفا بلام العهد وهو العهد الذكري، أي: الرسول المذكور آنفا، فإنّ النكرة إذا أعيدت معرَّفة باللام كان مدلولها عين الأولى.
الأخذ: مستعمل هنا في الإهلاك مجازا لأنّه لمّا أزالهم من الحياة أشبه فعله أخذ الآخذ شيئا من موضعه وجعله عنده.
الوبيل: فعيل صفة مشبّهة من وبُل المكان، إذا وخم هواؤه أو مرعى كلئه.

قال زهير:

إلـى كَـلَإٍ مُـسْـتَـوْبِـلٍ مُـتـوَخِّـمِ

وهو هنا مستعار لسيّء العاقبة شديد السوء، وأريد به الغرق الذي أصاب فرعون وقومه.

{ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا [17] **السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا** [18] }.

{ **فَكَيْفَ** } الاستفهام مستعمل في التعجيز والتوبيخ، وهو متفرّع بالفاء على ما تضمَّنه الخطاب السابق من التهديد على تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم، وما أدمج فيه من التسجيل بأن الرسول صلى الله عليه وسلم شاهد عليهم، فليس بعد الشهادة إلَّا المؤاخذة بما شهد به. وقد انتقل بهم من التهديد بالأخذ في الدنيا، المستفاد من تمثيل حالهم بحال فرعون مع موسى، إلى الوعيد بعقاب أشدّ وهو عذاب يوم القيامة.

وقد نشأ هذا الاستفهام عن اعتبارهم أهل اتعاظ وخوف من الوعيد بما حلّ بأمثالهم ممّا شأنه أن يثير فيهم تفكيرا في النجاة من الوقوع فيما هُدِّدوا به، وأنّهم إن كانوا أهل جلادة على تحمّل عذاب الدنيا فماذا يصنعون في اتقاء عذاب الآخرة.

{ **إِنْ كَفَرْتُمْ** } فعل الشرط مستعمل في معنى الدوام على الكفر، لأنّ ما يقتضيه الشرط من الاستقبال قرينة على إرادة معنى الدوام من الفعل، وإلّا فإنّ كفرهم حاصل من قبل نزول هذه الآية.

{ **يَوْمًا** } منصوب على المفعول به لـ { تَتَّقُونَ }. واتقاء اليوم اتقاء ما يقع فيه من عذاب على الكفر.

{ **يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا** } وصف لليوم باعتبار ما يقع فيه من الأهوال والأحزان، لأنّه شاع أنّ الهمّ ممّا يسرع به الشيب، فلما أريد وصف هَمِّ ذلك اليوم بالشدة البالغة أقواها أسند إليه بشيب الولدان، الذين شعرهم في أول سواده. وهذه مبالغة عجيبة، وهي من مبتكرات القرآن فيما أحسب، لأنّي لم أر هذا المعنى في كلام العرب.

{ **السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ** } صفة ثانية لـ { يَوْمًا }. والباء بمعنى (في). وهو ارتقاء في وصف اليوم بحدوث الأهوال فيه، فإنّ انفطار السماء أشدّ هولا ورعبا ممّا كُنِّي عنه بجملة { يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا }.

أي: السماء على عظمها وسمكها تنفطر لذلك اليوم فما ظنّكم بأنفسكم وأمثالكم من الخلائق فيه.

الانفطار: التشقّق الذي يحدث في السماء لنزول الملائكة وصعودهم، كما تقدّم في قوله تعالى { تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ } [المعارج:4].

وذكر انفطار السماء في ذلك اليوم زيادة في تهويل أحواله لأنّ ذلك يزيد المهدَّدين رعبا، وإن لم يكن انفطار السماء من آثار أعمالهم ولا له أثر في زيادة نكالهم.

{ **السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ** } وصف بصيغة التذكير مع أنّ السماء في اللغة من الأسماء المعتبرة مؤنثة في الشائع. قال الفرّاء: السماء تذكّر على التأويل بالسقف لأنّ أصل تسميتها سماء على أصل التشبيه بالسقف.

وقيل: إذا كان الاسم غير حقيقي التأنيث جاز إجراء وصفه على التذكير فلا تلحقه هاء التأنيث.

ولعلّ العدول في الآية عن الاستعمال الشائع في الكلام الفصيح في إجراء السماء على التأنيث، إلى التذكير إيثارا لتخفيف الوصف لأنّه لمّا جيء به بصيغة (منفعل) بحرفي زيادة، وهما (الميم والنون) كانت الكلمة معرّضة للثقل إذا ألحق بها حرف زائد آخر ثالث، وهو هاء التأنيث، فيحصل فيها ثقل يُجنَّبه الكلام البالغ غاية الفصاحة، ألا ترى أنّها لم تجر على التذكير في قوله تعالى { إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ } [الإنفطار:1]، إذ ليس في الفعل إلّا حرف مزيد واحد وهو النون إذ لا اعتداد بهمزة الوصل لأنّها ساقطة في حالة الوصل، فجاءت بعدها تاء التأنيث.

{ **كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا** } صفة أخرى لـ { يَوْمًا }، وهذا الوصف إدماج للتصريح بتحقيق وقوع ذلك اليوم بعد الإنذار به، الذي هو مقتضٍ لوقوعه بطريق الكناية، استقصاءً في إبلاغ ذلك إلى علمهم وفي قطع معذرتهم.

{ **إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا** } [19].

تذييل، أي: تذكرة لمن يتذكّر، فإن كان من منكري البعث آمن به، وإن كان مؤمنا استفاق من بعض الغفلة التي تعرض للمؤمن فاستدرك ما فاته. وبهذا العموم الشامل لأحوال المتحدَّث عنهم وأحوال غيرهم كانت الجملة تذييلا.

{ **إِنَّ هَذِهِ** } الإشارة إلى الآيات المتقدّمة من قوله تعالى { إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ } [15].

وتأكيد الكلام بحرف التأكيد لأنّ المواجَهين به ابتداءً هم منكرون كون القرآن تذكرة وهدى، فإنّهم كذَّبوا بأنّه من عند الله ووسموه بالسحر وبالأساطير، وذلك من أقوالهم التي أُرشِد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصبر عليها، قال تعالى { وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ } [10].

التذكرة: اسم لمصدر الذُّكر (بضم الذال)، الذي هو خطورة الشيء في البال، فالتذكرة: الموعظة، لأنّه تذكّر الغافل عن سوء العواقب. وهذا تنويه بآيات القرآن وتجديد للتحريض على التدبّر فيه والتفكر، على طريقة التعريض.

{ **فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا** } تحريض صريح، تفريع على التحريض التعريضي، أي: من كان يريد أن يتّخذ إلى ربّه سبيلا فقد تهيّأ له اتخاذ السبيل إلى الله بهذه التذكرة، فلم تبق للمتغافل معذرة.

{ **مَنْ شَاءَ** } الإتيان بالموصول من قبيل التحريض لأنّه يقتضي أن هذا السبيل موصول إلى الخير فلا حائل يحول بين طالب الخير وبين سلوك هذا السبيل إلّا مشيئته، لأنّ قوله تعالى { إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ } قرينة على ذلك. ومن هذا القبيل قوله تعالى { وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ } [الكهف:29].

فليس ذلك إباحة للإيمان والكفر ولكنّه تحريض على الإيمان، وما بعده تحذير من الكفر.

ولذلك قال ابن عطية: ليس معناه إباحة الأمر وضدّه بل يتضمّن معنى الوعد والوعيد.

{ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [20].

{ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْ الْقُرْآنِ }.

من هنا يبتدئ ما نزل من هذه السورة بالمدينة كما تقدّم ذكره في أوّل السورة.

وصريح هذه الآية ينادي على أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل قبل نزول الآية وأنّ طائفة من أصحابه كانوا يقومون عملا بالأمر الذي في أوّل السورة من قوله تعالى { قُمْ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً } [2]، فتعيَّن أنّ هذه الآية نزلت للتخفيف عنهم جميعا لقوله فيها { فَتَابَ عَلَيْكُمْ }، فهي ناسخة للأمر الذي في أوّل السورة.

ولا ينبغي أن يُطال القول في أنّ القيام الذي شرع في صدر السورة كان قياما واجبا على النبيّ صلى الله عليه وسلم خاصة، وأنّ قيام من قام من المسلمين معه بمكة إنّما كان تأسّيا به وأقرهم النبيّ صلى الله عليه وسلم عليه.

{ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ } افتتاح الكلام بهذا يُشعر بالثناء عليه لوفائه بحقّ القيام الذي أمر به.

وتأكيد الخبر بـ { إِنَّ } للاهتمام به، وهو كناية عن أنّه أرضى ربّه بذلك، وتوطئة للتخفيف، ليُعلم أنّه تخفيف رحمة وكرامة، ولإفراغ بعض الوقت من النهار للعمل والجهاد.

حيث لم تزل تكثر بعد الهجرة أشغال النبيّ صلى الله عليه وسلم بتدبير مصالح المسلمين وحماية المدينة وتجهيز الجيوش ونحو ذلك، فلم تبق في نهاره من السعة ما كان له فيه أيام مقامه بمكة، فظهرت حكمة الله في التخفيف عن رسوله صلى الله عليه وسلم من قيام الليل الواجب منه والرغيبة.

وفي حديث علي بن أبي طالب أنّه سئل عن النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا آوى إلى منزله فقال: " كان إذا آوى إلى منزله جزَّأ دخوله ثلاثة أجزاء: جزءًا لله، وجزءًا لأهله، وجزءًا لنفسه، ثم جزَّأ جزأه بينه وبين الناس، فيرد ذلك بالخاصة على العامة ولا يدَّخر عنهم شيئا، فمنهم ذو الحاجة ومنهم ذو الحاجتين ومنهم ذو الحوائج فيتشاغل بهم ويشغلهم فيما يصلحهم والأمة، من مسألته عنهم وإخبارهم بالذي ينبغي لهم ".

{ **يَعْلَمُ** } إيثار المضارع للدلالة على استمرار ذلك العلم وتجدّده، وذلك إيذان بأنّه بمحلّ الرضى منه.

{ **أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ** } هذه أحوال مختلفة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم بالليل تابعة لاختلاف أحوال الليالي والأيام في طول بعضها وقصر بعض، وكلّها داخلة تحت التخيير الذي في قوله تعالى { قُمْ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً - إلى قوله - أَوْ زِدْ عَلَيْهِ } [2-4]. وبه تظهر مناسبة تعقيب هذه الجملة بالجملة المعترضة، وهي جملة { وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَار }. أي: قد علمها الله كلّها وأنبأه بها.

{ **أَدْنَى** } أصله أقرب، من الدنو، استعير للأقل، لأنّ المسافة التي بين الشيء والأدنى منه قليلة، وكذلك يستعار (الأبعد) للأكثر.أي: تقوم في زمان يُقدَّر أقل من ثلثي الليل وذلك ما يزيد على نصف الليل وهو ما اقتضاه قوله تعالى { أَوْ زِدْ عَلَيْهِ } [4].

{ **طَائِفَةٌ** } عطف على اسم { إِنَّ } بالرفع، وهو وجه جائز إذا كان بعد ذكر خبر { إنّ } لأنّه يُقدَّر رفعه حينئذ على الاستئناف. وهو من اللطائف إذا كان اتصاف الاسم والمعطوف بالخبر مختلفا، فإنّ بين قيام النبيّ صلى الله عليه وسلم وقيام الطائفة التي معه تفاوتا في الحكم والمقدار.

{ **مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ** } وصف للـ { طَائِفَةٌ }، فإنّ كان المراد بالمعية المعية الحقيقية، أي: المصاحبة في عمل ممّا سيق له الكلام، أي: المصاحبين لك في قيام الليل، لم يكن في تفسيره تعيين لناس بأعيانهم.

ففي حديث عائشة في صحيح البخاري:" أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى ذات ليلة في المسجد فصلّى بصلاته ناس ثم صلى من القابلة فكثر الناس ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة أو الرابعة فلم يخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلمّا أصبح قال: **"قد رأيت الذي صنعتم ولم يمنعني من الخروج إليكم إلّا أنّي خشيت أن تُفرض عليكم"** ، وذلك في رمضان ".

وإن كانت المعيّة معيّة مجازية، وهي الانتساب والصحبة والموافقة، فقد عدَّدنا منهم: عبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمرو، وسلمان الفارسي، وأبا الدرداء، وزينب بنت جحش، وعبد الله بن عمر، والحولاء بنت تُوَيت الأسدية، فهؤلاء ورد ذكرهم مفرَّقا في أحاديث التهجّد من صحيح البخاري.

{ **وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ** } معترضة بين جملتي { إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ } وجملة {عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ}. أي: قد علمها الله كلّها وأنبأه بها. كما أشرنا آنفا.

{ **عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ** } يجوز أن تكون خبرا ثانيا عن { أَنَّ } بعد الخبر في قوله تعالى { إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ }. ويجوز أن تكون استئنافا بيانيا لما ينشأ عن جملة { إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ } من ترقُّب السامع لمعرفة ما مُهِّد له بتلك الجملة، فبعد أن شكرهم على عملهم خفَّف عنهم منه.

{ **تُحْصُوهُ** } الضمير المنصوب عائد إلى القيام المستفاد من قوله تعالى { أَنَّكَ تَقُومُ }.

الإحصاء: حقيقته معرفة عدد شيء معدود، مشتقّ من اسم الحصى جمع حصاة لأنّهم كانوا إذا عدُّوا شيئا كثيرا جعلوا لكل واحد حصاة وهو هنا مستعار للإطاقة. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: **" استقيموا ولن تحصوا "**. أي: ولن تطيقوا تمام الاستقامة، أي: فخذوا منها بقدر الطاقة.

{ **فَتَابَ عَلَيْكُمْ** } تفريع، وفعل (تاب) مستعار لعدم المؤاخذة قبل حصول التقصير، لأنّ التقصير متوقَّع فشابه الحاصل.

وقد نسخت هذه الآية تحديد مدّة قيام الليل بنصفه أو أزيد أو أقل ثلثه، وأصبح التحديد بالمقدار المتيسِّر من غير ضبط، أمّا حكم ذلك القيام فهو على ما تقدّم شرحه.

{ **عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا** }.

بدل اشتمال من جملة { عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ }، وهذا تخفيف آخر لأجل أحول أخرى اقتضت التخفيف.

وهذه حكمة أخرى لنسخ تحديد الوقت في قيام الليل وهي مراعاة أحوال طرأت على المسلمين من ضروب ما تدعو إليه حالة الجماعة الإسلامية. وذكر من ذلك ثلاثة أضرب هي أصول الأعذار:

<u>الضرب الأول</u>: أعذار اختلال الصحة، وقد شملها قوله تعالى { أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى }.

<u>الضرب الثاني</u>: الأشغال التي تدعو إليها ضرورة العيش في تجارة وصناعة وحراثة وغير ذلك، وقد أشار إليها قوله تعالى { وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ }. وفضل الله: هو الرزق.

<u>الضرب الثالث</u>: أعمال لمصالح الأمة، وأشار إليه بقوله تعالى { وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ }، ودخل في ذلك حراسة الثغور والرباط بها، وتدبير الجيوش، وما يرجع إلى نشر دعوة الإسلام من إيفاد الوفود وبعث السفراء.

وقد كان بعض الصحابة يتأوّل من هذه الآية فضيلة التجارة والسفر للتجر حيث سوَّى الله بين المجاهدين والمكتسبين المال الحلال، يعني أنّ الله ما ذكر هذين السببين لنسخ تحديد القيام إلّا تنويها بهما، ودقائق القرآن ولطائفه لا تنحصر.

{ **يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ** } يسيرون في الأرض. وحقيقة الضرب: قرع جسم بجسم آخر، وسُمِّي السير في الأرض ضربا في الأرض لتضمين فعل { يَضْرِبُونَ } معنى يسيرون، فلذلك عُدِّي بحرف (في). وتقدّم عند قوله تعالى { وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ } [النساء:101].

{ **يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ** } طلب الرزق، قال تعالى { لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ } [البقرة:198]، أي: التجارة في مدّة الحج.

{ **فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ** } أي: من القرآن. وقد نيط مقدار القيام بالتيسير على جميع المسلمين وإن اختلفت الأعذار.

{ **وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ** } تذكير بأنّ الصلوات الواجبة هي التي تحرصون على إقامتها وعدم التفريط فيها، كما قال تعالى { إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا } [النساء:103].

وفي هذا التعقيب بعطف الأمر بإقامة الصلاة إيماء إلى أنّ في الصلوات الخمس ما يرفع التبعة عن

المؤمنين وأنّ قيام الليل نافلة لهم، وفيه خير كثير.

{ **وَآتُوا الزَّكَاةَ** } تتميم لأنّ الغالب أنّه لم يَخْلُ ذكر الصلاة من قرن الزكاة معها، حتّى استنبط أبو بكر رضي الله عنه من ذلك أنّ مانع الزكاة يُقاتل عليها، فقال لعمر رضي الله عنه: **" لأقاتلنّ من فرّق بين الصلاة والزكاة ".**

{ **وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا** } إقراض الله هو الصدقات غير الواجبة، شُبِّه إعطاء الصدقة للفقير بقرض يُقرضه الله، لأنّ الله وعد على الصدقة بالثواب الجزيل فشابه حال معطي الصدقة، مستجيبا رغبة الله فيه، بحال من أقرض مستقرِضًا في أنّه حقيق بأن يُرجع إليه ما أقرضه، وذلك في الثواب الذي يُعطاه يوم الجزاء.

{ **حَسَنًا** } ووصف القرض بالحسن يفيد الصدقة المراد بها وجه الله تعالى والسالمة من المنّ والأذى.

وتقدّم قوله تعالى { مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً } [البقرة:245]، وقوله تعالى { إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ } [التغابن:17].

{ **وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا** } تذييل لما سبق من الأمر في قوله تعالى { فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا }، فإنّ قوله تعالى { مِنْ خَيْرٍ } يعم جميع فعل الخير.

وفي الكلام إيجاز حذف. تقدير المحذوف: وافعلوا الخير، وما تقدّموا لأنفسكم منه تجدوه عند الله، فاستغني عن المحذوف بذكر الجزاء على الخير.

تقديم الخير: فعله في الحياة الدنيا.

الخير: هو ما وصفه الدين بالحسن ووعد على فعله بالثواب.

{ **تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ** } يجدوا جزاءه وثوابه، وهو الذي قصده فاعله، فكأنّه وجد نفس الذي قدّمه، وهذا استعمال كثير في القرآن والسنّة أن يُعبَّر عن عوض الشيء وجزائه باسم المعوَّض عنه والمجازَى به، ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم في الذي يكنز المال ولا يؤدي حقّه: **" مُثِّل له يوم القيامة شجاعًا أقرع يأخذ بِلِهْزَمتيه يقول: أنا مالك أنا كنزك ".**

{ **خَيْرًا** } اسم تفضيل، أي: خيرا ممّا تقدِّمونه، إذ ليس المراد أنكم تجدونه من جنس الخير، بل المراد مضاعفة الجزاء، لما دلّ عليه قوله تعالى { إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ } [التغابن:17].

{ **وَأَعْظَمَ أَجْرًا** } عطف على { خَيْرًا }. والمعنى: أنّ أجره خير وأعظم ممّا قدمتموه.

{ **وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } يجوز أن تكون الواو للعطف فيكون معطوفا على جملة { وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ ...}، فيكون لها حكم التذييل إرشادًا لتدارك ما عسى أن يعرض من التفريط في بعض ما أمره الله بتقديمه من خير، فإنّ ذلك يشمل الفرائض التي يقتضي التفريط في بعضها توبة منه.

ويجوز أن تكون الواو للاستئناف وتكون الجملة استئنافا بيانيًّا ناشئا عن الترخيص في ترك بعض القيام إرشادا من الله لما يسُدُّ مَسَدَّ قيام الليل، الذي يعرض تركه، بأن يستغفر المسلم ربّه إذا انتبه من أجزاء الليل، وهو مشمول بقوله تعالى { وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } [الذاريات:18]، وقول النبيّ صلى الله عليه وسلم:

" ينزل ربّنا كل ليلة [هذا من المتشابه، وتأويله: أنّه ينزل رضاه على عباده] **إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فاستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له"**. وقال صلى الله عليه وسلم: **" من تعارَّ**[التعارُر: التقلّب على الفراش ليلا بعد نوم حين يتنبّه النائم فيبدل جنبا عوض جنب] **من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، الحمد لله وسبحان الله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة لا بالله العلي العظيم، ثم قال اللهم اغفر لي أو دعا استجيب له ".**

{ **إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } تعليل للآمر بالاستغفار، أي: لأنّ الله كثير المغفرة شديد الرحمة.

والمقصود من هذا التعليل الترغيب والتحريض على الاستغفار بأنّه مرجو الإجابة. وفي الإتيان بالوصفين الدالين على المبالغة في الصفة إيماء إلى الوعد بالإجابة.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المُدَّثِّر

تُسمَّى في كتب التفسير (**سورة المُدَّثِّر)**، وكذلك سُمِّيت في المصاحف التي رأيناها ومنها مصاحف كُتبت في القيروان في القرن الخامس.

وأريد بالمُدَّثِّر النبيّ صلى الله عليه وسلم موصوفا بالحالة التي نُودي بها، كما سُمِّيت بعض السور بأسماء الأنبياء الذين ذكروا فيها.

وهي مكية حكى الاتفاق على ذلك ابنُ عطية والقرطبي، ولم يذكرها الاتقان في السور التي بعضها مدني.

قيل: إنّها ثانية السور نزولا، وإنّها لم ينزل قبلها إلّا سورة العلق.

عن جابر بن عبد الله، وهو يحدّث عن فترة الوحي، أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: **" فبينا أنا أمشي سمعت صوتا من السماء فنُوديت فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي فلم أر شيئا فرفعت رأسي فإذا المَلَك الذي جاءني بحِراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فُجِئْتُ منه رعبا فأتيت خديجة فقلت: دثّروني فدثّروني "** زاد غير ابن شهاب من روايته **" فدثروني وصبوا علي ماء باردا "**.

فأنزل الله { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ– إلى قوله - وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ } [1-5] ثم حمي الوحي وتتابع ".

ولا شك أنّ سورة المدثر نزلت قبل المزمل وأنّ عناد المشركين كان قد تزايد بعد نزول سورة المدثر فكان التعرّض لهم في سورة المزمل أوسع.

<u>وفترة الوحي</u> مُختلف في مدّتها اختلافا كثيرا فقيل كانت سنتين ونصفا، وقيل: أربعين يوما، وقيل: خمسة عشر يوما، <u>والأصح أنّها كانت أربعين يوما</u>. فيظهر أنّ المدثر نزلت في السنة الأولى من البعثة وأنّ الصلاة فرضت عقب ذلك كما يشعر به ترتيب ابن إسحاق في سوق حوادث سيرته.

وعَدَّ أهل المدينة في عدّهم الأخير الذي أرسَوْا عليه وأهلُ الشام **آيها خمسًا وخمسين**، وعَدَّها أهل البصرة والكوفة وأهل المدينة في عدّهم الأول الذي رجعوا عنه ستًا وخمسين.

أغراض السورة

*/ تكريم النبيّ صلى الله عليه وسلم والأمر بإبلاغ دعوة الرسالة.

*/ إعلان وحدانية الله بالإلهية.

*/ الأمر بالتطهّر الحسي والمعنوي.

*/ نبذ الأصنام.

*/ الإكثار من الصدقات.

*/ الأمر بالصبر.

*/ إنذار المشركين بهول البعث.

*/ تهديد من تصدَّى للطعن في القرآن وزعم أنّه قول البشر.

*/ وصف أهوال جهنم.

*/ الرد على المشركين الذين استخفُّوا بجهنم وزعموا قلة عدد حفظتها.

*/ تحدِّي أهل الكتاب بأنّهم جهلوا عدد حفظتها.

*/ تأييسهم من التخلُّص من العذاب.

*/ تمثيل ضلالهم في الدنيا.

*/ مقابلة حالهم بحال المؤمنين أهل الصلاة والزكاة والتصديق بيوم الجزاء.

{ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ [1] قُمْ فَأَنْذِرْ [2] }.

نودي النبيّ صلى الله عليه وسلم بوصفه في حالة خاصة تلبَّس بها حين نزول السورة، وهي أنّه لمّا رأى المَلَك بين السماء والأرض فَرَق من رؤيته فرجع إلى خديجة فقال: **دثّروني دثّروني،** أو قال: **زمّلوني،** أو قال: **زمّلوني دثّروني،** (على اختلاف الروايات) فدثَّرته، فنزلت { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ }.

وقد مضى عند قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ } [المزمل:1] ما في هذا النداء من التكرمة والتلطّف.

{ **الْمُدَّثِّرُ** } اسم فاعل من تدثَّر، إذا لبس الدثار، فأصله المتدثِّر أدغمت التاء في الدال لتقاربهما في النطق.

الدِثار: (بكسر الدال) الثوب الذي يُلبس فوق الثوب الذي يلبس مباشِرا للجسد الذي يُسمَّى شِعارا. وفي الحديث: **" الأنصار شِعار والناس دِثار ".**

فالوصف بـ { الْمُدَّثِّرُ } حقيقة، وقيل هو مجاز على معنى: المدّثّر بالنبوّة، كما يقال ارتدى بالمجد وتأزّر به، على نحو ما قيل في قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ }. أي: يا أيّها اللابس خلعة النبوة ودثارها.

{ **قُمْ فَأَنْذِرْ** } القيام المأمور به ليس مستعملا في حقيقته لأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يكن حين أوحي إليه بهذا نائما ولا مضطجعا، ولا هو مأمور بأن ينهض على قدميه وإنّما هو مستعمل في الأمر بالمبادرة والإقبال والتهمّم بالإنذار مجازا أو كناية.

وشاع هذا الاستعمال في فعل القيام حتّى صار معنى الشروع في العمل من معاني مادة القيام مساويا للحقيقة، وجاء بهذا المعنى في كثير من كلامهم، وعدّ ابن مالك في (التسهيل) فعل قام من أفعال الشروع.

{ **فَأَنْذِرْ** } تفريع يُبيِّن المراد من الأمر بالقيام.

المعنى: يا أيّها المدّثّر من الرعب لرؤية مَلَك الوحي لا تخف وأقبل على الإنذار.

<u>والظاهر أنّ هذه الآية أوّل ما نزل في الأمر بالدعوة</u> لأنّ سورة العلق لم تتضمَّن أمرا بالدعوة. وصدر سورة المزمل تضمَّن أنّه مسبوق بالدعوة لقوله تعالى فيه { إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ }

[المزمل:15]، وقوله تعالى { وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ } [المزمل:11]. وإنّما كان تكذيبهم بعد أن أبلغهم أنّه رسول من الله إليهم.

{ **فَأَنْذِرْ** } ابتدئ بالأمر بالإنذار لأنّ الإنذار يجمع معاني التحذير من فعل شيء لا يليق وعواقبه، فالإنذار حقيق بالتقديم قبل الأمر بمحامد الفعال، لأنّ التخلية مقدّمة على التحلية، ودرء المفاسد مقدّم على جلب المصالح، ولأنّ غالب أحوال الناس يومئذ محتاجة إلى الإنذار والتحذير.

والمفعول محذوف لإفادة العموم، أي: أنذر الناس كلّهم، وهم يومئذ جميع الناس ما عدا خديجة رضي الله عنها فإنّها آمنت فهي جديرة بالبشارة.

{ **وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ** } [3].

{ **وَرَبَّكَ** } انتصب على المفعولية لفعل (كَبِّر) قُدِّم على عامله لإفادة الاختصاص، أي: لا تُكبّر غيره، وهو قصر إفراد، أي: دون الأصنام. و(الواو) عطفت الجملة على جملة { قُمْ فَأَنْذِرْ } [2].

وتكبير الربّ تعظيمه، وهو تكبير مجازي بتشبيه الشيء المعظّم بشيء كبير في نوعه بجامع الفضل على غيره في صفات مثله.

فالمعنى: صف ربّك بصفات التعظيم، وهذا يشمل تنزيهه عن النقائص، فيشمل توحيده بالإلهية وتنزيهه عن الولد، ويشمل وصفه بصفات الكمال كلها.

ويشمل هذا المعنى أن يقول: (الله أكبر)، لأنّه إذا قال هذه الكلمة أفاد وصف الله بأنّه أكبر من كل كبير، أي: أجلّ وأنزه من كل جليل، ولذلك جُعلت هذه الكلمة افتتاحا للصلاة.

وأحسب أن في ذكر التكبير إيماء إلى شرع الصلاة، التي أولها التكبير، وخاصة اقترانه بقوله تعالى { وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ } [4]، فإنه إيماء إلى شرع الطهارة، فلعلّ ذلك إعداد لشرع الصلاة.

فالظاهر أنّ الله فرض عليه الصلاة عقب هذه السورة، وهي غير الصلوات الخمس، فقد ثبت أنّه صلى في المسجد الحرام.

{ **وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ** } [4].

هو في النظم مثل نظم { ورَبَّكَ فَكَبِّرْ }، أي: لا تترك تطهير ثيابك. وتقديم { ثِيَابَكَ } للاهتمام.

وللثياب إطلاق صريح وهو ما يلبسه اللابس، وإطلاق كنائي فيُكَنَّى بالثياب عن ذات صاحبها.

وللتطهير إطلاق حقيقي وهو التنظيف وإزالة النجاسات، وإطلاق مجازي وهو التزكية، قال تعالى { إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا } [الأحزاب:33].

والمعنيان صالحان في الآية فتُحمل عليهما معا فتحصل أربعة معان، لأنّه مأمور بالطهارة الحقيقية لثيابه، إبطالا لما كان عليه أهل الجاهلية من عدم الاكتراث بذلك. وقد وردت أحاديث في ذلك يقوّي

بعضها بعضا وأقواها ما رواه الترمذي: " **إنّ الله نظيف يحب النظافة** ". [وقال: هو غريب]. والطهارة لجسده بالأولى. ومناسبة التطهير بهذا المعنى لأنّه يُعطف على { ورَبَّكَ فَكَبِّرْ }، لأنّه لمّا أُمر بالصلاة أُمر بالتطهّر لها لأنّ الطهارة مشروعة للصلاة. وليس في القرآن ذكر طهارة الثوب إلّا في هذه الآية في أحد محاملها. والمعنى المركَّب من الكنائي والمجازي هو الأعلق بإضافة النبوّة عليه.

وفي كلام العرب: فلان نقيّ الثياب.

{ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ } [5].

{ الرُّجْزَ } يقال بكسر الراء وضمّها، وهما لغتان فيه والمعنى واحد عند جمهور أهل اللغة.

وقال أبو العالية والربيع والكسائي: الرجز بالكسر العذاب والنجاسة والمعصية، وبالضم الوثن.

ويُحمل الرجز هنا على ما يشتمل الأوثان وغيرها من أكل الميتة والدم.

وتقديم { الرُّجْزَ } على فعل (اهجر) للاهتمام في مهيع الأمر بتركه.

الهَجر: ترك المخالطة وعدم الاقتراب من الشيء. والهَجر هنا كناية عن ترك التلبّس بالرجز.

والأمر بهجر الرجز يستلزم أن لا يعبد الأصنام وأن ينفي عنها الإلهية.

{ وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ } [6].

مناسبة عطف هذه الآية على الأمر بهجر الرجز أنّ المنّ في العطية من خُلق أهل الشرك، فلمّا أمره الله بهجر الرجز نهاه عن أخلاق أهل الرجز نهيًا يقتضي الأمر بالصدقة والإكثار منها بطريق الكناية، فكأنّه قال: وتصدّق وأكثر من الصدقة ولا تمنن، أي: لا تعد ما عطيته كثيرا فتُمسك عن الازدياد فيه، أو تتطرّق إليك ندامة على ما أعطيت.

{ تَسْتَكْثِرُ } السين والتاء للعَدِّ، أي بِعَدِّ ما أعطيته كثيرا.

وهذا من بديع التأكيد لحصول المأمور به جُعلت الصدقة كالحاصلة، أي: لأنّها من خُلقه صلى الله عليه وسلم إذ كان أجود الناس، وقد عُرف بذلك من قبل رسالته لأن الله هيَّأه لمكارم الأخلاق، فقد قالت له خديجة في حديث بدء الوحي: " إنّك تحمل الكَلَّ وتُكسب المعدوم ".

ففي هذه الآية إيماء إلى التصدُّق، كما كان فيها إيماء إلى الصلاة، كعادة القرآن في الجمع بينهما.

المَنُّ: تذكير المنعِم المنعَم عليه بإنعامه.

الاستكثار: عَدُّ الشيء كثيرا، أي: لا تستعظم ما تعطيه.

{ **وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ** } [7].

تثبيت للنبيّ صلى الله عليه وسلم على ما تحمُّل ما يلقاه من أذى المشركين وعلى مشاق الدعوة.

الصبر: ثبات النفس وتحمّلها المشاق والآلام ونحوها.

ويُعدَّى فعل الصبر إلى اسم الذي يتحمَّله الصابر بحرف (على)، يقال: صبر على الأذى. ويتضمَّن معنى الخضوع للشيء الشاق فيُعدَّى إلى اسم ما يتحمّله الصابر بـ (اللام)، ومناسبة المقام ترجّح إحدى التعديتين، فلا يقال: اصبر على الله، ويقال: اصبر على حكم الله، أو لحكم الله.

{ **لِرَبِّكَ** } يجوز أن تكون اللام لتعدية فعل الصبر على تقدير مضاف. أي: اصبر لأمره وتكاليف وحيه، كما قال تعالى { وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا } [الطور:48]، وقوله تعالى { فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا } [الإنسان:24]. وترك ذكر المضاف لتذهب النفس إلى كلّ ما من شأنه أن يتعلّق بالمخاطب.

ويجوز أن تكون اللام للتعليل، وحُذف متعلّق فعل الصبر، أي: اصبر على أذاهم لأجل ربّك، فيكون في معنى: إنّه يصبر توكُّلًا على أنّ الله يتولّى جزاءهم، وهذا مبني على أنّ سبب نزول السورة ما لحق بالنبيّ صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين.

وتقديم { لِرَبِّكَ } للاهتمام بالأمور التي يصبر لأجلها مع الرعاية على الفاصلة.

{ **قُمْ فَأَنْذِرْ** -إلى قوله - **وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ** } هذه ست وصايا أوصى الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم في مبدأ رسالته، وهي من جوامع كلامه، أراد الله بها تزكية رسوله وجعلها قدوة لأمته.

{ **فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ** [8] **فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ** [9] **عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ** [10] }.

الفاء لتسبّب هذا الوعيد عن الأمر بالإنذار في قوله تعالى { فَأَنْذِرْ } [2]، أي: فأنذر المنذَرين وأنذرهم وقت النقر في الناقور. ويجوز أن يكون معطوفا على { فَاصْبِرْ } [7]، بناء على أنّه أمر بالصبر على أذى المشركين.

{ **نُقِرَ** } أي: صُوِّت، أي: صوّت مصوّتٌ.

{ **النَّاقُورِ** } البوق الذي يُنادَى به الجيش ويُسمَّى الصور، وهو قرن كبير. وتقدّم ذكره في [الحاقة:13].

{ **فَذَلِكَ** } الفاء لجواب { إِذَا } لأنّه يتضمَّن معنى شرط. والإشارة إلى مدلول { فَإِذَا نُقِرَ }، أي: فذلك الوقت يوم عسير.

{ **يَوْمَئِذٍ** } بدل من اسم الإشارة وقع لبيان اسم الإشارة على نحو ما يُبيَّن بالاسم المعروف بـ (ال)، في نحو قوله تعالى { ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ } [البقرة:2].

{ **يَوْمٌ عَسِيرٌ** } باعتبار ما يحصل فيه من العسر على الحاضرين، فهو وصف مجازي عقلي، لأنّ العسير ما يقع فيه من الأحداث.

{ **عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ** } تأكيد لمعنى { عَسِيرٌ } بمرادفه.

وأشار الزمخشري إلى أنّ فائدة هذا التأكيد يشعر به لفظ { غَيْرُ } من المغايرة، فيكون تعريضا بأنّ له حالة أخرى، وهي اليسر، أي: على المؤمنين، ليجمع بين وعيد الكافرين وإغاظتهم، وبشارة المؤمنين.

{ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا [11] وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا [12] وَبَنِينَ شُهُودًا [13] وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا [14] ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ [15] كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا [16] }.

لمّا جرى ذكر الكافرين في قوله تعالى { فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ } [10/9]، وأُشير إلى ما يلقاه الرسول صلى الله عليه وسلم من الكافرين بقوله تعالى { وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ } [7]، انتقل الكلام إلى ذكر زعيم من زعماء الكافرين ومدبّر مطاعنهم في القرآن ودعوة الرسول صلى الله عليه وسلم.

والكلام استئناف يؤذن بأنّ حدثا كان سببا لنزول هذه الآية عقب الآيات التي قبلها، وذلك حين فشا في مكة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عاوده الوحي بعد فترة وأنّه أُمِر بالإنذار، ويدلّ على هذا ما رواه ابن إسحاق أنّه اجتماع نفر من قريش فيهم أبو لهب، وأبو سفيان، والوليد بن المغيرة، والنضر بن الحارث، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، والمُطعِم بن عَدِي. فقالوا: إنّ وفود العرب ستقدم عليكم في الموسم وهم يتساءلون عن أمر محمد وقد اختلفتم في الإخبار عنه. فمن قائل يقول: مجنون وآخر يقول: كاهن، وآخر يقول: شاعر، وتعلم العرب أنّ هذا كلّه لا يجتمع في رجل واحد، فسمُّوا محمد باسم واحد تجتمعون عليه وتُسمِّيه العرب به فقام رجل منهم فقال: شاعر، فقال الوليد بن المغيرة: سمعت كلام أبي الأبرص، وأمية بن أبي الصلت، وعرفتُ الشعر كلّه، وما يشبه كلام محمد كلام شاعر، فقالوا: كاهن فقال الوليد: ما هو بزمزمة الكاهن ولا بسجعه. والكاهن يصدق ويكذب وما كذب محمد قط، فقام آخر فقال: مجنون، فقال الوليد: لقد عرفنا الجنون فإنّ المجنون يُخْنَق فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته، فقالوا: ساحر، قال الوليد: لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثه ولا عقده، وانصرف الوليد إلى بيته فدخل عليه أبو جهل فقال: ما لك يا أبا عبد شمس أصبأت؟ فقال الوليد: فكرت في أمر محمد وإنّ أقرب القول فيه أن تقولوا: ساحر جاء بقول هو سحر، يفرّق به بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته. فقال ابن إسحاق: فأنزل الله في الوليد بن المغيرة قوله تعالى { ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا }.

وقع الاتفاق على أنّ هذا القول صدر عن (الوليد بن المغيرة) وأنّه المعنيّ بقوله تعالى { وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا }. فإن كان قول الوليد صدر منه بعد نزول صدر هذه السورة فجملة { ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا } مستأنفة استئنافا ابتدائيا والمناسبة ظاهرة، وإن كان قوله هو سبب نزول السورة، كان متّصلا بقوله تعالى { وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ } [7]، على أنّه تعليل للأمر بالصبر بأنّ الله يتولّى جزاء هذا القائل، وما بينهما اعتراض، ويؤيّد هذا أن ابتداء الوحي كان في رمضان وأن فترة الوحي دامت أربعين يوما على الأصح،

فيكون قد أشرف شهر ذي القعدة على الانصرام فتلك مدّة اقتراب الموسم فاخذ المشركون بالاستعداد لما يقولونه للوفود إذا استخبروهم خبر النبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ **ذَرْنِي** } تصدير الجملة بهذا الفعل إيماء إلى أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم كان مهتمًّا ومُغتمًّا مما اختلقه الوليد بن المغيرة، فاتصاله بقوله تعالى { وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ } يزداد وضوحا.

وفي الفعل من التهديد والوعيد ما تقدّم بيانه عند قوله تعالى { فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ } [القلم:44].

{ **وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا** } جيء بالموصول وصلته لإدماج تسجيل كفران الوليد النعمة في الوعيد والتهديد.

الوحيد: المنفرد عن غيره في مكان أو حال ممّا يدل عليه سياق الكلام، وهو فعيل من وَحُد، إذا انفرد.

وكان الوليد بن المغيرة يلقب في قريش بالوحيد لتوحُّده وتفرُّده باجتماع مزايا له لم تجتمع لغيره من طبقته وهو كثرة الولد وسعة المال، ومجده ومجد أبيه من قبله، وكان مرجع قريش في أمورهم لأنّه كان أسنّ من أبي جهل وأبي سفيان، فلما اشتهر بلقب الوحيد كان هذا الكلام إيماء إلى الوليد بن المغيرة المشتهر به.

وجاء هذا الوصف بعد فعل { خَلَقْتُ } لينصرف إلى ما يصلح لأن يقارن فعل { خَلَقْتُ }، أي: أوجدته وحيدا عن المال والبنين والبسطة، فغُيِّر الوصف عن غرض المدح والثناء إلى غرض الافتقار إلى الله الذي هو حال كل مخلوق، فتكون من قبيل قوله تعالى { وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا} [النحل:78].

{ **وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا** } عطف على السابق، من عطف الخاص على العام.

الممدود: اسم مفعول من مدّ الذي بمعنى: أطال، بأن شُبِّهت كثرة المال بسعة مساحة الجسم، أو من مَدَّ الذي بمعنى: زاد في الشيء من مثله، كما يقال: مد الوادي النهر. أي: مالا مزيدا في مقداره.

وكان الوليد من أوسع قريش ثراء. وعن ابن عباس: كان مال الوليد بين مكة والطائف من الإبل والغنم والعبيد والجواري والجنان، وكانت غلة ماله ألف دينار. أي: في السنة.

{ **وَبَنِينَ شُهُودًا** } وامتن الله عليه بنعمة البنين ووصفهم بشهود جمع شاهد، أي: حاضر، أي: لا يفارقونه بل مستأنس بهم، وكانوا يشهدون معه المحافل، فكانوا فخرا له، قيل: كان له عشرة بنين وقيل ثلاثة عشر ابنا، والمذكور منهم سبعة، وهم: (الوليد بن الوليد / خالد / عمارة / هشام / العاصي / قيس أو أبو قيس / عبد شمس وبه يُكَنَّى).

{ **وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا** } التمهيد هنا مستعار لتيسير أموره ونفاذ كلمته في قومه بحيث لا يعسر عليه مطلب ولا يستعصي عليه أمر. ووقع التأكيد بالمصدر على المفعولية المطلقة ليُتوسل بتنكيره لإفادة تعظيم ذلك التمهيد. وقد يكون التأكيد لرفع احتمال المجاز.

التمهيد: مصدر مَهَّد الدال على قوّة المهد. والمهد: تسوية الأرض وإزالة ما يُقِضُّ جنب المضطجع

عليها، ومَهْدُ الصبي تسمية بالمصدر.

وهذا الامتنان توطئة لتوبيخه وتهديده بسوء في الدنيا وبعذاب النار في الآخرة.

{ **ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ** } و{ ثُمَّ } هنا للتراخي الرتبي، أي: وأعظم من ذلك أنّه يطمع في الزيادة من تلك النعم.

الطمع: طلب الشيء العظيم، وجُعل متعلّق طمعه زيادة ممّا جعل الله له لأنّهم لم يكونوا يسندون الرزق إلى الأصنام، أو لأنّه طمع في زيادة النعمة غير متذكّر أنّها من عند الله، فيكون إسناد الزيادة إلى ضمير الجلالة إدماجا بتذكيره بأنّ ما طمع فيه هو من عند الذي كفر هو بنعمته فأشرك به.

ولهذه النكتة عدل عن أن يقال: يطمع في الزيادة، أو يطمع أن يُزاد.

{ **كَلَّا** } ردع وإبطال لطمعه في الزيادة من النعم وقطع لرجائه.

والمقصود إبلاغ هذا إليه مع تطمين النبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّ الوليد سيُقطع عنه مدد الرزق لئلّا تكون نعمته فتنة لغيره من المعاندين فيغريهم حاله بأنّ عنادهم لا يضرّهم، لأنّهم لا يحسبون حياة بعد هذه، كما حكى الله من قول موسى عليه السلام { رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الأَلِيمَ } [يونس:88].

وفي هذا الإبطال والردع إيذان بأنّ كفران النعمة سبب لقطعها، قال تعالى { لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ } [إبراهيم:7].

ولهذا قال الشيخ ابن عطاء الله: من لم يشكر النعم فقد تعرّض لزوالها، ومن شكرها فقد قيّدها بعقالها.

{ **إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً** } يجوز أن تكون هذه الجملة تعليلا للردع والإبطال، أي: لأن شدّة معاندته لآياتنا كانت كفرانا للنعمة فكانت سببا لقطعها عنه، إذ قد تجاوز حد الكفر إلى المناواة والمعاندة.

فإنّ الكافر يكون منعَما عليه على المختار، وهو قول الماتريدي والمعتزلة خلافا للأشعري، والخلاف لفظي.

ويجوز أن تكون مستأنفة ويكون الوقف عند قوله تعالى { كَلَّا }.

العنيد: شديد العناد، وهو المخالفة للصواب، وهو فعيل من: عَنَدَ يَعْنِد، إذا نازع وجادل الحقَّ البيِّن.

وعناده: هو محاولته الطعن في القرآن ومحاولته للتمويه بأنّه سحر، مع تحقُّقه بأنّه ليس كذلك.

{ **سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا** [17] **إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ** [18] **فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ** [19] **ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ** [20] **ثُمَّ نَظَرَ** [21] **ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ** [22] **ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ** [23] **فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ** [24] **يُؤْثَرُ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ** [25] }.

{ **سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا** } معترضة بين { إِنَّهُ كَانَ لِآياتنَا عَنِيدًا } وبين { إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ } ، قُصد بهذا الاعتراض تعجيلُ الوعيد له مساءة له، وتعجيلُ المسرّة للنبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ **إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ** } مُبيِّنة لجملة { إِنَّهُ كَانَ لِآياتنَا عَنِيداً } فهي تكملة وتبيين لها.

الإرهاق: الإتعاب وتحميل ما لا يطاق، وفعله رَهِقَ، قال تعالى { وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا } [الكهف:73].

الصَّعود: العقبة شديدة التصعّد الشاقة على الماشي، وهي فَعول مبالغة من صَعِد. فإنّ العقبة صَعْدة، فإذا كانت عقبة أشدّ تصعُّدا من العقبات المعتادة قيل لها: صعود.

{ **سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا** } تمثيل لضد الحالة المجملة في قوله تعالى { وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً }، أي: سينقلب حاله من حال راحة وتنعّم إلى حالة سوأى في الدنيا ثم إلى العذاب الأليم في الآخرة، وكلّ ذلك إرهاق له.

وقد وُزّع وعيده على ما تقتضيه أعماله، فإنّه لمَّا ذُكر عناده، وهو من مقاصده السيّئة الناشئة عن محافظته على رئاسته وعن حسده النبيّ صلى الله عليه وسلم، وذلك من الأغراض الدنيوية، عُقِّب بوعيده بما يشمل عذاب الدنيا ابتداء. ولمَّا ذُكر طعنه في القرآن بقوله { إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ } وإنكاره أنّه وحي من الله بقوله { إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ }، أُردِف بذكر عذاب الآخرة بقوله تعالى { سَأُصْلِيهِ سَقَرَ } [26].

{ **إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ** ...}، بدل من جملة { كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا } [16]، بدل اشتمال.

{ **فَكَّرَ** } أي: أعمل فكره وكرَّر نظر رأيه ليبتكر عذرا يموّهه ويروِّجه على الدهماء في وصف القرآن ليزيل منهم اعتقاد أنّه وحي أوحي به إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ **قَدَّرَ** } يراجع ويعيد النظر فيما يخطر بباله، أو ما يقوله غيره في وصف القرآن والرسول صلى الله عليه وسلّم. كما تقدّم سابقا في الحديث.

{ **فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ** } كلام معترض بين { إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ } وبين { ثُمَّ نَظَرَ } وهو إنشاء شتم مُفرَّع على الإخبار عنه بأنّه فكَّر وقدَّر، لأنّ الذي ذُكر يوجب الغضب عليه. فالفاء لتفريع ذمّه عن سيّئ فعله. والداعي إلى الاعتراض هو التعجيل بفائدة الكلام للاهتمام بها.

{ **فَقُتِلَ** } دعاء عليه بتعجيل موته لأنّ حياته حياة سيّئة. والدعاء مستعمل في التعجيب من حاله والرثاء له، كقوله تعالى { قَاتَلَهُمْ اللَّهُ } [التوبة:30].

{ **ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ** } تأكيد لنظيره المفرَّع بالفاء. والتأكيد يُكسب الكلام قوّة. وهذا كقوله تعالى { كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ، ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ } [النبأ:5/4].

{ **كَيْفَ قَدَّرَ** } في الموضعين متّحد المعنى، وهو اسم استفهام دال على الحالة التي يبينها متعلّق { كَيْفَ }. والاستفهام موجَّه إلى سامع غير معيَّن، وهو استفهام مستعمل في التعجيب المشوب بالإنكار على وجه المجاز المرسل.

{ **ثُمَّ نَظَرَ، ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ، ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ** } عطف على { وقَدَّرَ } وهي ارتقاء متوال فيما اقتضى التعجيب من حاله والإنكار عليه. فالتراخي تراخي رتبة لا تراخي زمن لأنّ نظره وعبوسه وبسره وإدباره واستكباره مُقارِنة لتفكيره وتقديره.

النظر: هنا نظر العين ليكون زائدا على ما أفاده { فَكَّرَ وَقَدَّرَ }. والمعنى: نظر في وجوه الحاضرين يستخرج آراءهم في انتحال ما يصفون به القرآن.

عبس: قطَّب وجهه لمَّا استعصى عليه ما يصف به القرآن، ولم يجد مغمزا مقبولا.

{ **بَسَرَ** } معناه كَلَحَ وجهُه وتغيَّر لونه خوفا وكَمَدًا حين لم يجد ما يشفي غليله من مطعن في القرآن لا تردُّه العقول، قال تعالى { وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ، تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ } [القيامة:25/24].

الإدبار: يجوز أن يكون مستعارا لتغيير التفكير الذي كان يفكِّره ويقدِّره يائسا من أن يجد ما فكَّر في انتحاله فانصرف إلى الاستكبار والأنفة من أن يشهد للقرآن بما فيه من كمال اللفظ والمعنى.

ويجوز أن يكون مستعارا لزيادة إعراضه عن تصديق النبيّ صلى الله عليه وسلم، كقوله تعالى { ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى } [النازعات:22]، حكاية عن فرعون.

{ **إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ** } صيغة الحصر مشعرة بأنّ استقراء أحوال القرآن بعد السبر والتقسيم أنتج له أنّه من قبيل السحر، فهو قصر تعيين لأحد الأقوال التي جالت في نفسه، لأنّه قال: ما هو بكلام شاعر ولا بكلام كاهن ولا بكلام مجنون، كما تقدّم في خبره.

{ **يُؤْثَرُ** } أي: مروي عن الأقدمين.

{ **إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ** } بدل اشتمال من جملة { إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ } لأنّ السحر يكون أقوالا وأفعالا فهذا من السحر القولي. والجملة بمنزلة النتيجة لما تقدّم، لأنّ مقصوده من ذلك أنّ القرآن ليس وحيا من الله.

{ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ [26] وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ [27] لَا تُبْقِي وَلا تَذَرُ [28] لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ [29] عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ [30] }.

{ **سَأُصْلِيهِ سَقَرَ** } مستأنفة استئنافا بيانيا ناشئا عن قوله تعالى { إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ } [18] إلى آخر الآيات، فذُكر وعيده بعذاب الآخرة .ويجوز أن تكون بدلا من جملة { سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً } [17].

الإصلاء: جعل الشيء صاليا، أي: مباشرا حرَّ النار. وفعل صَلِيَ يُطلق على إحساس حرارة النار،

ويطلق على الاحتراق بالنار، قال تعالى { سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ } [المسد:3]، وقال تعالى { فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى لاَ يَصْلاَهَا إِلاَّ الأَشْقَى } [الليل:15/14]، وقال تعالى { وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا } [النساء:10].

والأكثر إذا ذُكر لفعل هذه المادة مفعول ثان من أسماء النار أن يكون الفعل بمعنى الإحراق كقوله تعالى { فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا } [النساء:30]. ومنه قوله هنا { سَأُصْلِيهِ سَقَرَ }.

سقر: عَلَم لطبقة من جهنم، وجرى كلام جمهور المفسّرين بما يقتضي أنّهم يفسّرون سقر بما يرادف جهنم.

{ **وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ** } جملة حالية من { سَقَرُ }، وهذا تهويل لحالها.

{ **لا تُبْقِي** } بدل اشتمال من التهويل الذي أفادته جملة { وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ }، فإنّ من أهوالها أنّها تهلك كل من يصلاها. والجملة خبر ثان عن سقر. وحُذف المفعول لقصد العموم، أي: لا تبقي منهم أحدا، أو لا تبقي من أجزائهم شيئا.

{ **وَلا تَذَرُ** } عطف على { لا تُبْقِي } فهي في معنى الحال. أي: لا تترك من يلقى فيها. وهذه كناية عن إعادة حياته بعد إهلاكه، كما قال تعالى { كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ } [النساء:56].

{ **لَوَّاحَةٌ** } خبر ثالث عن { سَقَرُ }. فَعَّالة، من اللَّوح وهو تغيير الذات من ألم ونحوه.

{ **لِلْبَشَرِ** } <u>يكون</u> جمع بشرة، وهي جلد الإنسان، أي: تُغيّر ألوان الجلود فتجعلها سوداء، <u>ويكون</u> اسم جمع للناس، لا واحد له من لفظه.

{ **عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ** } خبر رابع عن { سَقَرُ }. أي: على حراستها، فـ (على) للاستعلاء المجازي بتشبيه التصرّف والولاية بالاستعلاء، كما يقال: فلان على الشرطة، أو على بيت المال، أي: يلي ذلك.

والمعنى: أنّ خزنة سقر تسعة عشر ملكا.

<u>قال جمع</u>: إن عدد تسعة عشر: هم نقباء الملائكة الموكلين بجهنم.

<u>وقيل</u>: تسعة عشر صنفا من الملائكة. وقيل: تسعة عشر صفًّا.

<u>والذي أراه</u>: أنّ الملائكة التسعة عشر موزَّعون على دركات سقر لكلّ درك ملك. قال تعالى { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ } [النساء:145]. فإنّ الكفر أصناف.

{ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ } [31].

روى الطبري عن ابن عباس وجابر بن زيد: أنّ أبا جهل لمّا سمع قوله تعالى {عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ} [30]، قال لقريش: ثكلتكم أمهاتكم إنّ ابن أبي كبشة يخبركم أنّ خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدَهْم [الجماعة الكثيرة، ويقال: الدهماء] أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم؟ فقال الله تعالى { وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً }، أي: ما جعلناهم رجالا فيأخذ كل رجل رجلا، فمن ذا يغلب الملائكة ". وقيل: قائل ذلك غيره.

{ **أَصْحَابَ النَّارِ** } خزنتها، وهم المتقدّم ذكرهم بقوله تعالى { عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ } [30].

{ **إِلَّا مَلائِكَةً** } الاستثناء من عموم الأنواع، أي: ما جعلنا خزنة النار من نوع إلّا من نوع الملائكة.

وصيغة القصر تفيد قلب اعتقاد أبي جهل وغيره ما توهَّموه أو تظاهروا بتوهُّمه أنّ المراد تسعة عشر رجلا.

{ **وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا** } تتميم في إبطال توهّم المشركين حقارة عدد خزنة النار، وهو كلام جار على تقدير الأسلوب الحكيم، إذ الكلام قد أثار في النفوس تساؤلا عن فائدة جعل خزنة جهنم تسعة عشر وهلّا كانوا آلافا ليكون مرآهم أشد هولا على أهل النار، أو هلّا كانوا ملكا واحدا فإنّ قوى الملائكة تأتي كل عمل يسخِّرها الله له، فكان جواب هذا السؤال: أنّ هذا العدد قد أظهر لأصناف الناس مبلغ فهم الكفار للقرآن. والتقدير: وما جعلنا ذكر عدّتهم إلّا فتنة للذين كفروا، ولاستيقان الذين أوتوا الكتاب، وازدياد الذين آمنوا إيمانا، واضطراب الذين في قلوبهم مرض، فيظهر ضلال الضالين واهتداء المهتدين. فالله جعل عدّة خزنة النار تسعة عشر لحكمة أخرى، غير ما ذُكر هنا، يعلمها الله.

{ **لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ** } علّة ثانية لفعل { وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً }.

الاستيقان: قوّة اليقين، فالسين والتاء فيه للمبالغة. والمعنى: ليستيقنوا صدق القرآن حيث يجدون هذا العدد مصدِّقا لما في كتبهم.

{ **الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ** } اليهود حين يبلغهم ما في القرآن من مثل ما في كتبهم أو أخبارهم. فقد كان اليهود يتردّدون على مكة في التجارة ويتردّد عليهم أهل مكة للميرة في خيبر وقريظة ويثرب فيسأل بعضهم بعضا عمّا يقول محمد صلى الله عليه وسلم ويودّ المشركون لو يجدون عند اليهود ما يكذِّبون به أخبار القرآن ولكن ذلك لم يجدوه ولو وجدوه لكان أيسر ما يطعنون به في القرآن.

وليس في هذا ما يُلجئ إلى اعتبار هذه الآية نازلة بالمدينة كما روي عن قتادة، لأنّ المراجعة بين

المشركين واليهود في أخبار القرآن مألوفة من وقت كون النبيّ صلى الله عليه وسلم في مكة.
والاستيقان من شأنه أن يعقبه الإيمان إذا صادف عقلا بريئا من عوارض الكفر كما وقع لعبد الله بن سلام، وقد لا يعقبه الإيمان لمكابرة أو حسد أو إشفاق من فوات جاه أو مال، كما كان شأن كثير من اليهود الذين قال الله فيهم { يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } [البقرة:146]، ولذلك اقتصرت الآية على حصول الاستيقان لهم.
{ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا } أي: أنّهم يؤمنون به في جملة ما يؤمنون به من الغيب، فهي زيادة كمية لا كيفية، لأنّ حقيقة الإيمان التصديق والجزم وذلك لا يقبل الزيادة، وبمثل هذا يكون تأويل كلّ ما ورد في زيادة الإيمان من أقوال الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمّة.
{ وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ } عطف على { لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ }، أي: لينتفي عنهم الريب لأنّه إيقان عن دليل. وإن كان الفريقان في العمل بعلمهم متفاوتين، فالمؤمنون علموا وعملوا، والذين أوتوا الكتاب علموا وعاندوا فكان علمهم حجّة عليهم وحسرة في نفوسهم.
والمقصود من ذكره التمهيد لذكر مكابرة الذين في قلوبهم مرض والكافرين في سوء فهمهم لهذه العدّة تمهيدا بالتعريض قبل التصريح.
{ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا } أي: ليقولوا هذا القول إعرابا عمّا في نفوسهم من الطعن في القرآن غير عالمين بتصديق الذين أوتوا الكتاب.
واللام لام العاقبة، مثل التي في قوله تعالى { فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا } [القصص:8].
المرض في القلوب: هو سوء النيّة في القرآن والرسول صلى الله عليه وسلم، وهؤلاء هم الذين لم يزالوا في تردّد بين أن يسلموا وأن يبقوا على الشرك مثل الأخنس بن شريق والوليد بن المغيرة، وليس المراد بالذين في قلوبهم مرض المنافقون، لأنّ المنافقين ما ظهروا إلّا في المدينة بعد الهجرة والآية مكية.
{ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ } استفهام إنكاري، فإنّ (ما) استفهامية، و(ذا) أصله اسم إشارة فإذا وقع بعد (ما) أو (من) الاستفهاميتين أفاد معنى (الذي)، فيكون تقديره: ما الأمر الذي أراده الله بهذا الكلام. أرادوا تكذيب أن يكون هذا وحيا من عند الله.
{ بِهَذَا } الإشارة إلى قوله تعالى { عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ } [30].
المثل: الوصف، أي: بهذا العدد، أي: ما الفائدة في هذا العدد دون غيره؟
وتقدم نظير هذا عند قوله تعالى { وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا } [البقرة:26].
{ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ } اسم الإشارة عائد إلى ما تضمّنه الكلام المتقدّم من قوله تعالى { لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ - إلى قوله – مَثَلًا } بتأويل ما تضمّنه الكلام بالمذكور.
أي: مثل ذلك الضلال الحاصل للذين في قلوبهم مرض وللكافرين، والحاصل للذين أوتوا الكتاب بعد أن استيقنوا فلم يؤمنوا، يُضِلُّ الله من يشاء أن يضله من عباده، ومثل ذلك الهدى الذي اهتداه المؤمنون

فزادهم إيمانا مع إيمانهم، يهدي الله من يشاء.
والغرض من هذا التشبيه تقريب المعنى المعقول، وهو تصرّف الله تعالى بخلق أسباب الأحوال العارضة للبشر، إلى المعنى المحسوس المعروف في واقعة الحال، تعليما للمسلمين وتنبيها للنظر في تحصيل ما ينفع نفوسهم.
وإسناد الإضلال إلى الله تعالى باعتبار أنّه موجد الأسباب الأصلية في الجبلّات، واقتباس الأهواء وارتباط أحوال العالم بعضها ببعض، ودعوة الأنبياء والصلحاء إلى الخير، ومقاومة أيمة الضلال لتلك الدعوات، تلك الأسباب التي أدلَّت بالضالين إلى ضلالهم وبالمهتدين إلى هداهم. وكلٌّ من خلق الله.
{ **وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ** } كلمة جامعة لإبطال التخرُّصات التي يتخرَّصها الضالون ومرضى القلوب عند سماع الأخبار عن عالم الغيب وأمور الآخرة.
ونفي العلم هنا نفي للعلم التفصيلي بأعدادها وصفاتها وخصائصها بقرينة المقام، فإنّ العلم بعدد خزنة جهنم قد حصل للناس بإعلام من الله لكنّهم لا يعلمون ما وراء ذلك.
الجنود: جمع جند وهو اسم لجماعة الجيش، واستعير هنا للمخلوقات التي جعلها الله لتنفيذ أمره لمشابهتها الجنود في تنفيذ المراد.
{ **رَبِّكَ** } إضافة (ربّ) إلى ضمير النبيّ صلى الله عليه وسلم إضافة تشريف، وتعريض بأنّ من شأن تلك الجنود أنّ بعضها يكون به نصر النبيّ صلى الله عليه وسلم.
{ **وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ** } فيه معان كثيرة أعلاها أن يكون هذا تتمّة لقوله تعالى { وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا } على أن يكون جاريا على طريقة الأسلوب الحكيم، أي: أنّ النافع لكم أن تعلموا أن الخبر عن خزنة النار بأنّهم تسعة عشر فائدته أن يكون ذكرى للبشر ليتذكَّروا دار العقاب بتوصيف بعض صفاتها، لأنّ في ذكر الصفة عونا على زيادة استحضار الموصوف، فغرض القرآن الذكرى، وقد اتخذه الضالون ومرضى القلوب لهوا وسخرية ومراء.
{ **هِيَ** } الضمير على هذا الوجه راجع إلى { عِدَّتَهُمْ }، ويحتمل أن يرجع الضمير إلى { سَقَرُ }، وإنّما تكون { ذِكْرَى } باعتبار الوعيد بها وذكر أهوالها.

{ **كَلَّا وَالْقَمَرِ** [32] **وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ** [33] **وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ** [34] **إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ** [35] **نَذِيرًا لِلْبَشَرِ** [36] **لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ** [37] }.
{ **كَلَّا** } حرف ردع وإبطال. والغالب أن يقع بعد كلام من متكلّم واحد أو من متكلّم وسامع، مثل قوله تعالى { قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ، قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِي } [الشعراء:62/61].
فيفيد الردع عمّا تضمَّنه الكلام المحكي قبله. ومنه قوله تعالى { كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ } [مريم:79].
ويجوز تقديمه على الكلام إذا أريد التعجيل بالردع والتشويق إلى سماع ما بعده.

وهو هنا محتمل لأن يكون إبطالا لما قبله من قولهم { مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا } [31]، فيكون ما بينهما اعتراضا ويكون قوله تعالى { وَالْقَمَرِ } ابتداء كلام، فيحسُن الوقوف على { كَلَّا }.

ويحتمل أن يكون حرف إبطال مقدَّما على الكلام الذي بعده من قوله تعالى { إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ } تقديمُ اهتمامٍ لإبطال ما يجيء بعده من مضمون قوله تعالى { نَذِيرًا لِلْبَشَرِ }، أي: فلم ينتذر أكثرهم، على نحو معنى قوله تعالى { وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى } [الفجر:23]. فيحسُن أن توصل في القراءة بما بعدها.

{ **وَالْقَمَرِ، وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ، وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ** } الواو المفتتح بها هذه الجملة واو القسم، يجوز أن يكون تذييلا لما قبله مؤكِّدا لما أفادته {كَلَّا} من الإنكار والإبطال لمقالتهم في شأن عدّة خزنة النار، فتكون جملة { إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ } تعليلا لذلك الإنكار ويكون ضمير { إنَّها } عائد إلى { سَقَرَ } [26]، أي: هي جديرة بأن يُتذكَّر بها، فلذلك كان من لم يتذكَّر بها حقيقا بالإنكار عليه وردعه. وجملة القسم على هذا الوجه معترضة بين الجملة وتعليلها.

ويحتمل أن يكون القسم صدرا للكلام الذي بعده وجملة { إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ } جواب القسم، والضمير راجع إلى { سَقَرَ }، أي: أنّ سقر لأعظم الأهوال.

وهذه ثلاثة أيمان لزيادة التأكيد، فإنّ التأكيد اللفظي إذا أكِّد بالتكرار يُكرَّر ثلاث مرات غالبا.

أقسم بمخلوق عظيم، وبحالين عظيمين من آثار قدرة الله تعالى، ومناسبة القسم بها أنّ هذه الثلاثة تظهر بها أنوار في خلال الظلام فناسبت حالي الهدي والضلال من قوله تعالى { كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ }، ومن قوله تعالى { وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ }. ففي هذا القسم تلويح إلى تمثيل حال الفريقين من الناس عند نزول القرآن بحال اختراق النور في الظلمة.

إدبار الليل: اقتراب تقضِّيه عند الفجر.

إسفار الصبح: ابتداء ظهور ضوء الفجر.

{ **إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ** } أجريت الجملة مجرى المثل.

{ **لَإِحْدَى** } أي: أنَّها المتوحِّدة المتميِّزة من بين الكُبر في العظم لا نظير لها، كما يقال: هو أحد الرجال، يراد أنّه متوحِّد فيهم بارز ظاهر، كما تقدّم في قوله تعالى { ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا } [11].

{ **الْكُبَرِ** } جمع الكُبرى في نوعها، جمعوه هذا الجمع على غير قياس.

{ **نَذِيرًا لِلْبَشَرِ** } انتصب { نَذِيرًا } على الحال من ضمير { إِنَّهَا }، أي: إنّها لعُظمى العظائم في حال إنذارها للبشر، وكفى بها نذيرا.

النذير: المنذر، وأصله وصف بالمصدر، والمصدر إذا وُصف به أو أُخبر به يلزم الإفراد والتذكير. وقد كثر الوصف بـ (النذير) حتّى صار بمنزلة الاسم للمنذر.

{ **لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ** } بدل مفصَّل من مجمل من قوله { لِلْبَشَرِ } ، وأعيد حرف الجر مع

البدل للتأكيد، كقوله تعالى { تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا } [المائدة:114].

المعنى: إنّها نذير لمن شاء أن يتقدّم إلى الإيمان والخير لينتذر بها، ولمن شاء أن يتأخَّر عن الإيمان والخير فلا يرعوي بنذارتها. لأنّ التقدّم مشي إلى جهة الأمام، فكأنَّ المخاطَب يمشي إلى جهة الداعي إلى الإيمان، وهو كناية عن قبول ما يدعو إليه، وبعكسه التأخُّر. وحذف متعلّق { يَتَقَدَّمَ / يَتَأَخَّرَ } لظهوره من السياق.

ويجوز أن يُقدَّر: لمن شاء أن يتقدّم إلى سقر، بالإقدام على الأعمال التي تقدّمه إليها، أو يتأخَّر عنها بتجنب ما من شأنه أن يقرّبه منها.

{ **لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ** } تعليق { نَذِيرًا } بفعل المشيئة إنذار لمن لا يتذكر بأنّ عدم تذكُّره ناشئ عن عدم مشيئته فتبعته عليه لتفريطه. وتقدّم قوله تعالى { إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا } [المزمل:19].

{ **مِنْكُمْ** } التفات من الغيبة إلى الخطاب لأنّ مقتضى الظاهر أن يقال: لمن شاء منهم، أي: من البشر.

{ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ [38] إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ [39] فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ [40] عَنِ الْمُجْرِمِينَ [41] مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ [42] قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ [43] وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ [44] وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ [45] وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ [46] حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ [47] فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ [48] }.

استئناف بياني يُبيّن للسامع عَقِبَى الاختيار الذي في قوله تعالى { لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ } [37]، أي: كل إنسان رهن بما كسب من التقدّم أو التأخّر أو غير ذلك، فهو على نفسه بصيرة ليكسب ما يفضي به إلى النعيم أو إلى الجحيم.

{ **كُلُّ نَفْسٍ** } هنا مراد به خصوص أنفس المنذَرين من البشر، فهو من العام المراد به الخصوص بالقرينة، أي: قرينة ما تعطيه مادة رهينة من معنى الحبس والأسر.

{ **بِمَا كَسَبَتْ** } الباء للمصاحبة لا للسببية.

رهينة: خبر عن { كُلُّ نَفْسٍ }، وهو بمعنى مرهونة.

الرَّهن: الوثاق والحبس ومنه الرهن في الدَّين، وقد يطلق على الملازمة والمقارنة، ومنه: فَرَسا رهان، وكلا المعنيين يصح الحمل عليه هنا على اختلاف الحال. وإنّما يكون الرَّهن لتحقيق المطالبة بحق يُخشى أن يتفلَّت من المحقوق به، فالرهن مشعر بالأخذ بالشدّة، ومنه رهائن الحرب الذين يأخذهم الغالب من القوم المغلوبين ضمانا لئلَّا يخيس القوم بشروط الصلح.

وظاهر هذا أنّه كلام منصف وليس بخصوص تهديد أهل الشر.

{ **إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ** } استثناء منقطع. وهم أهل الخير جُعلت علاماتهم في الحشر بجهات اليمين في مناولة الصحف وفي موقف الحساب وغير ذلك. فاليمين هو جهة أهل الكرامة في الاعتبار، وجُعلت علامة أهل الشر الشمال في تناول صحف أعمالهم وفي مواقفهم وغير ذلك.

{ **فِي جَنَّاتٍ** } يجوز أن يكون متعلّقا بقوله تعالى { يَتَسَاءَلُونَ }، قُدِّم للاهتمام، و{ يَتَسَاءَلُونَ } حال من { أَصْحَابَ الْيَمِينِ }، وهو مناط التفصيل الذي جيء لأجله بالاستثناء المنقطع.

ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف تقديره: هم في جنّات. والجملة استئناف بياني لمضمون جملة الاستثناء ويكون { يَتَسَاءَلُونَ } حالا من الضمير المحذوف.

{ **يَتَسَاءَلُونَ** } يجوز أن يكون على ظاهر صيغة التفاعل للدلالة على صدور الفعل من جانبين، أي: يسأل أصحاب اليمين بعضهم بعضا عن شأن المجرمين، وتكون جملة { مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ } بيانا لجملة { يَتَسَاءَلُونَ }. وضمير الخطاب في قوله تعالى { سَلَكَكُمْ } يؤذن بمحذوف. والتقدير: فيسألون المجرمين ما سلككم في سقر، وليس التفاتا.

ويجوز أن تكون الصيغة مستعملة في معنى تكرير الفعل، أي: يكثر سؤال كلّ أحد منهم سؤالا متكرّرا، أو هو من تعداد السؤال لأجل تعداد السائلين.

{ **مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ** } أصل معنى سلكه أدخله بين أجزاء شيء حقيقة، ومنه جاء سِلك العِقد، واستعير هنا للزجّ بهم، وتقدّم في قوله تعالى { كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ } [الحجر:12]، وفي قوله تعالى { يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا } [الجن:17]. والمعنى: ما زجّ بكم في سقر.

فإن كان السؤال على حقيقته والاستفهام مستعملا في أصل معناه كان الباعث على السؤال: **إمّا** نسيان ما كانوا علموه في الدنيا من أسباب الثواب والعقاب، **وإمّا** أن يكون سؤالا موجَّها من بعض أصحاب اليمين إلى ناس كانوا يظنّونهم من أهل الجنة فرأوهم في النار، من المنافقين أو المرتدّين بعد موت أصحابهم، فيكون المراد بأصحاب اليمين بعضهم وبالمجرمين بعضهم، وهذا مثل ما في قوله تعالى { وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ، قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنْ الْيَمِينِ } [الصافات:28/27]، وقوله تعالى { قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ، يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنْ الْمُصَدِّقِينَ - إلى قوله - فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ } [الصافات:51-55].

وإن كان السؤال ليس على حقيقته وكان الاستفهام مستعملا في التنديم أو التوبيخ فعموم أصحاب اليمين وعموم المجرمين على حقيقته.

{ **قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ، وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ، وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ** }

أجاب المجرمون بذكر أسباب الزجّ بهم في النار لأنّهم ما ظنُّوا إلّا ظاهر الاستفهام، فذكروا أربعة أسباب هي أصول الخطايا وهي:

*/ أنّهم لم يكونوا من أهل الصلاة، فحرموا أنفسهم من التقرّب إلى الله.

*/ أنّهم لم يكونوا من المطعمين المساكين، وذلك اعتداء على ضعفاء الناس بمنعهم حقّهم في المال.

*/ أنّهم كانوا يخوضون خوضهم المعهود الذي لا يعدو عن تأييد الشرك وأذى الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين.

*/ أنّهم كذَّبوا بالجزاء فلم يتطلَّبوا ما ينجيهم.

وهذا كناية عن عدم إيمانهم، سلكوا بها طريق الإطناب المناسب لمقام التحسّر والتلهّف على ما فات، فكأنّهم قالوا: لأنّا لم نكن من المؤمنين، لأنّ أهل الإيمان اشتهروا بأنّهم أهل الصلاة، وبأنّهم في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم، وبأنّهم يؤمنون بالآخرة وبيوم الدين ويصدِّقون الرسل. وتلك الخصال جمعها قوله تعالى { هُدىً لِلْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ } [البقرة:2-4].

{ **وَكُنَّا نَخُوضُ** } أصل الخوض الدخول في الماء، ويُستعار كثيرا للمحادثة المتكرِّرة، وقد اشتهر إطلاقه في القرآن على الجدال واللجاج غير المحمود، قال تعالى { ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ } [الأنعام:91]. وباعتبار مجموع الأسباب الأربعة في جوابهم فضلا عن معنى الكناية، لم يكن في الآية ما يدلّ للقائلين بأنّ الكفار مخاطبون بفروع الشريعة.

يوم الدين: يوم الجزاء والحساب.

{ **الْيَقِينُ** } اسم مصدر يَقِنَ كفرح، إذا علم علما لا شك معه ولا تردُّد.

{ **حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ** } استعارة لحصوله بعد إن لم يكن حاصلا، شُبِّه الحصول بعد الانتفاء بالمجيء بعد المغيب. والمعنى: حتَّى حصل لنا العلم بأنَّ ما كُنَّا نكذِّب به ثابت. فالجملة على هذا الوجه غاية لجملة { نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ }.

<u>ويطلق اليقين أيضا على الموت</u> لأنّه معلوم حصوله لكلّ حيّ، فيجوز أن يكون مرادا هنا، كما في قوله تعالى { وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ } [الحجر:99]. فتكون جملة { حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ } غاية للجمل الأربع التي قبلها من قوله { لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ– إلى قوله - بِيَوْمِ الدِّينِ }، والمعنى: كنّا نفعل ذلك مدّة حياتنا كلّها.

وفي الآية إشارة إلى أنّ المسلم الذي أضاع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة مستحق حظا من سقر على مقدار إضاعته وعلى ما أراد الله من معادلة حسناته وسيّئاته، وظواهره وسرائره، وقبل الشفاعة وبعدها.

{ **فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ** } حرم الله هؤلاء المجرمين الكافرين أن تنفعهم الشفاعة. وفيه إيماء إلى ثبوت الشفاعة لغيرهم يوم القيامة على الجملة، وتفصيلها في صحاح الأخبار.

{ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ [49] كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ [50] فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ [51] }.

{ **مَا لَهُمْ** } استفهام مستعمل في التعجيب من غرابة حالهم بحيث تجدر أن يستفهم عنها المستفهمون، وهو مجاز مرسل بعلاقة الملازمة، و{ لَهُمْ } خبر عن { مَا } الاستفهامية. والتقدير: ما ثبت لهم.

{ **التَّذْكِرَةِ** } جيء بالاسم الظاهر دون أن يؤتى بضميره، نحو أن يقال: عنها معرضين، لئلا يختصّ الإنكار والتعجيب بإعراضهم عن تذكرة الإنذار بسقر، بل المقصود التعميم لإعراضهم عن كلّ تذكرة وأعظمها تذكرة القرآن، كما هو المناسب للإعراض، قال تعالى { إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ } [التكوير:27].

{ **مُعْرِضِينَ** } حال من ضمير { لَهُمْ }، أي: يُستفهم عنهم في هذه الحالة العجيبة.

{ **كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَة** } شُبِّهت حالة إعراضهم المتخيَّلة بحالة فرار حمر نافرة.

الحُمُر: جمع حمار، وهو الحمار الوحشي، وهو شديد النفار. وهذا من تشبيه المعقول بالمحسوس.

{ **مُسْتَنْفِرَة** } السين والتاء للمبالغة في الوصف، مثل: استكمل واستجاب واستنبط، أي: نافرة نفارا قويًّا.

{ **قَسْوَرَةٍ** } قيل: هو اسم جمع قَسْور وهو الرامي. وهذا تأويل جمهور المفسرين عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد وغيرهما. وقيل: هو الأسد، وهذا مروي عن أبي هريرة وزيد بن أسلم، وقال ابن عباس: إنّه الأسد بالحبشية، فلعلّه أراد أنّه ليس في أصل العربية.

وإيثار هذا لفظ هنا لصلاحيته للتشبيهين مع الرعاية على الفاصلة.

{ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً } [52].

إضراب انتقالي لذكر حالة أخرى من أحوال عنادهم، إذ قال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية وغيرهما من كفّار قريش للنبيّ صلى الله عليه وسلم: لا نؤمن لك حتّى يأتي إلى كل رجل منا كتاب فيه من الله إلى فلان بن فلان، وهذا من أفانين تكذيبهم بالقرآن أنّه منزَّل من الله.

{ **صُحُفًا** } جُمعت إمّا لأنّهم سألوا أن تأتي كلّ واحد منهم صحيفة باسمه، وإمّا لكونهم جماعة متّفقين، فكأنّ الصحف جميعها جاءت لكلّ امرئ منهم.

{ **مُنَشَّرَةً** } مبالغة في منشورة، المفتوحة المقروءة، أي: لا نكتفي بصحيفة مطوية لا نعلم ما كتب فيها. وفي حديث الرجم: فنشروا التوراة.

{ كَلَّا بَلْ لا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ } [53].

{ **كَلَّا** } إبطال لظاهر كلامهم ومرادهم منه وردع عن ذلك، أي: لا يكون لهم ذلك.

{ **بَلْ لا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ** } ثمّ أضرب على كلامهم بإبطال آخر بحرف الإضراب { بَلْ }، أي: ليس ما قالوه إلّا تنصُّلًا، فلو أُنزل عليهم كتاب ما آمنوا، وهم لا يخافون الآخرة، أي: لا يؤمنون بها، فكُنِّي عن عدم الإيمان بالآخرة بعدم الخوف منها، لأنّهم لو آمنوا بها لخافوها.

{ **كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ** [54] **فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ** [55] **وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ** [56] }.

{ **كَلَّا** } ردع ثان مؤكِّد للردع الذي قبله، أي: لا يؤتون صحفا منشورة ولا يوزَعون إلَّا بالقرآن.

{ **إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ** } تعليل للردع عن سؤالهم أن تنزل عليهم صحف منشّرة، بأنّ هذا القرآن تذكرة عظيمة، وهذا كقوله تعالى { وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ، أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [العنكبوت:51/50].

{ **إِنَّهُ** } الضمير للقرآن، وهو معلوم من المقام، ونظائر ذلك كثيرة في القرآن. وتنكير { تَذْكِرَةٌ } للتعظيم.

{ **فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ** } تفريع، وهذا تعريض بالترغيب في التذكّر، أي: التذكّر طوع مشيئتكم فإن شئتم فتذكَّروا. ونظيره قوله تعالى { إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا } [المزمل:19].

{ **ذَكَرَهُ** } الضمير الظاهر يجوز أن يعود إلى ما عاد إليه ضمير { إِنَّهُ } وهو القرآن.

ويجوز أن يعود إلى الله تعالى وإن لم يتقدّم، لأنّه مستحضر من المقام.

{ **وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ** } معترضة في آخر الكلام. أي: أنّ تذكّر من شاءوا أن يتذكروا لا يقع إلّا مشروطا بمشيئة الله. وقد تكرَّر هذا في القرآن تكرُّرا ينبّه على أنّه حقيقة واقعة، كقوله تعالى { وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ } [التكوير:29] وقال هنا { كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ }.

فعلمنا أنّ للناس مشيئة هي مناط التكاليف الشرعية والجزاء في الدنيا والآخرة، وهي المُعبَّر عنها عند أهل التحقيق من المتكلمين **بالكسب** كما حققه الأشعري، وعند المعتزلة **بالقدرة الحادثة**، وهما عبارتان متقاربتان، وأنّ لله تعالى المشيئة العظمى التي لا يمانعها مانع ولا يقسرها قاسر، فإذا لم يتوجَّه تعلُّقها إلى إرادة أحد عباده لم يحصل له مراد.

وهذه المشيئة هي المُعبَّر عنها **بالتوفيق** إذا تعلّقت بإقدار العبد على الداعية إلى الطاعة وامتثال الوصايا الربانية، و**بالخذلان** إذا تعرّضت بتركه في ضلالة الذي أوبقته فيه آراؤه الضالة وشهواته الخبيثة.

وإذا تعلقت بانتشال العبد من أوحال الضلال وبإنارة سبيل الخير لبصيرته سُمّيت **لطفا**، مثل تعلّقها بإيمان عمر بن الخطاب وصلاحه بعد أن كان في عناد. وهذا تأويل قوله تعالى { فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ } [الأنعام:125].

وهذا حاصل ما يتمخَّض من الجمع بين أدلة الشريعة المقتضية أنّ الأمر لله، والأدلة التي اقتضت المؤاخذة على الضلال، وتأويلها الأكبر في قوله تعالى { وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُل كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا، مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ } [النساء:79/78].

ولله في خلقه سر جعل بينهم وبين كنهه حجابا، ورمز إليه بالوعد والوعيد ثوابا وعقابا.

{ **هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ** } جملة واقعة في موقع التعليل لمضمون جملة { فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ } تقوية

للتعريض بالترغيب في التذكّر، والتذكُّر يفضي إلى التقوى.

فالمعنى: فعليكم بالتذكُّر واتقوا الله تعالى لأنّ الله هو أهل التقوى.

{ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى } يفيد قصر مستحقّ الاتّقاء على الله تعالى، وأنّ غيره لا يستحق أن يُتَّقى.

كما قال تعالى { وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ } [الأحزاب:37].

فإمّا أن يكون قصرا إضافيا للردّ على المشركين الذين يخشون غضب الأصنام ويطلبون رضاها.

أو يكون قصرا ادعائيا لتخصيصه تعالى بالتقوى الكاملة الحق، وإلَّا فإنّ بعض التقوى تكون واجبة لبعض المتعلّقات، كتقوى حقوق ذوي الأرحام، في قوله تعالى { وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ } [النساء:1]. وقد يقال: إنّ ما ورد الأمر به من التقوى في الشريعة راجع إلى تقوى الله، وهذا من متمّمات القصر الادعائي.

أهل الشيء: مستحقّه. وأصله: أنّه ملازم الشيء وخاصته وقرابته وزوجه، ومنه { فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ } [هود:81].

أهل المغفرة: أي: أنّ المغفرة من خصائصه سبحانه، وأنّه حقيق بأن يغفر لفرط رحمته وسعة كرمه وإحسانه.

وهذا تعريض بالتحريض للمشركين أن يقلعوا عن كفرهم بأنّ الله يغفر لهم ما أسلفوه، قال تعالى { قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ } [الأنفال:38]، وبالتحريض للعصاة أن يقلعوا عن الذنوب، قال تعالى { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } [الزمر:53].

{ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ } أعيدت كلمة { أَهْلُ } في الجملة المعطوفة دون أن يقال: والمغفرة، للإشارة إلى اختلاف المعنى بين الأولى والثانية.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة القيامة

عُنونت هذه السورة في المصاحف وكتب التفسير وكتب السنّة بـ (**سورة القيامة**) لوقوع القسم بيوم القيامة في أوّلها، ولم يُقسم به فيما نزل قبلها من السور.

وهي مكية بالاتفاق.

وعُدَّت الحادية والثلاثين في عداد نزول سور القرآن. نزلت بعد سورة القارعة وقبل سورة الهمزة.

وعدد آيها عند أهل العدد من معظم الأمصار **تسعًا وثلاثين آية**، وعدَّها أهل الكوفة أربعين.

أغراض السورة

*/ إثبات البعث.

*/ التذكير بيوم القيامة وذكر أشراطه.

*/ إثبات الجزاء على الأعمال التي عملها الناس في الدنيا.

*/ اختلاف أحوال أهل السعادة وأهل الشقاء، وتكريم أهل السعادة.

*/ التذكير بالموت وأنّه أوّل مراحل الآخرة.

*/ الزجر عن إيثار منافع الحياة العاجلة على ما أُعدَّ لأهل الخير من نعيم الآخرة.

{ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ [1] وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ [2] أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ [3] بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ [4] }.

افتتاح السورة بالقَسَم مؤذن بأنّ ما سيُذكر بعده أمر مهم لتستشرف له نفس السامع، كما تقدّم في عدّة مواضع من أقسام القرآن.

وكون القَسَم بيوم القيامة براعة استهلال لأنّ غرض السورة بيوم القيامة.

وفيه أيضا كون المقسَم به هو المقسم على أحواله تنبيها على زيادة مكانته عند المقسِم. كما تقدّم عند قوله تعالى { حم، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا } [الزخرف:1-3]

{ **لَا أُقْسِمُ** } صيغة قَسَم، أُدخل حرف النفي على فعل { أُقْسِمُ } لقصد المبالغة في تحقيق حرمة المقسَم به. أي: ولا أقسم بأعزّ منه عندي، وذلك كناية عن تأكيد القسم، وتقدّم عند قوله تعالى { فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ } [الواقعة:75].

وفيه مُحسِّن بديعي من قبيل ما يُسمَّى تأكيد المدح بما يشبه الذم. وهذا لم نذكره في ما مضى ولم يذكره أحد.

{ **بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ** } القَسَم به باعتباره ظرفا لما يجري فيه من عدل الله وإفاضة فضله، وما يحضره من الملائكة والنفوس المباركة. وتقدّم الكلام على (يوم القيامة) غير مرة، منها قوله تعالى { وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ } [البقرة:85].

{ **وَلَا أُقْسِمُ** } تأكيد للجملة المعطوف عليها.

{ **بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ** } تعريف الجنس، أي: الأنفس اللّوّامة. والمراد نفوس المؤمنين.

اللَّوَّامَةِ: مبالغة، لأنّها تكثر لوم صاحبها على التقصير في التقوى والطاعة. وهذا اللوم هو المُعبَّر عنه في الاصطلاح بالمحاسبة، ولومها يكون بتفكيرها وحديثها النفسي.

قال الحسن: " ما يُرى المؤمن إلّا يلوم نفسه على ما فات ويندم؛ على الشرّ لِمَ فعله، وعلى الخير لِمَ لَمْ يستكثر منه ". فهذه نفوس خيّرة حقيقة أن تُشرَّف بالقَسَم بها، وما كان يوم القيامة إلّا لكرامتها.

والمراد اللوّامة في الدنيا لوما تنشأ عنه التوبة والتقوى، وليس المراد لوم الآخرة، إذ { يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي } [الفجر:24].

{ **أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ، بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ** } يؤخذ منه جواب القسم لأنّه دليل الجواب، إذ التقدير: لَنجمعنّ عظام الإنسان، أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه.

{ **الْإِنْسَانُ** } تعريف الجنس، ووقوعه في سياق الإنكار الذي هو في معنى النفي يقتضي العموم، وهو عموم عرفي منظور فيه إلى غالب الناس يومئذ، إذ كان المؤمنون قليلا. فالمعنى: أيحسب الإنسان الكافر.

{ **أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ** } قال القرطبي: نزلت في عدي بن ربيعة (الصواب: ابن أبي ربيعة) قال للنبيّ صلى

الله عليه وسلم: يا محمد حدّثني عن يوم القيامة فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عدي: " لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك، أوَ يجمع الله العظام "، فنزلت هذه الآية.

والرأي أنّ سبب النزول لا يُخصِّص { الْإِنْسَانُ } بهذا السائل.

{ **أَلَّنْ** } مركّبة من حرف (أن) المفتوحة الهمزة المخفّفة النون وحرف (لن) الدال على تأكيد النفي، لحكاية اعتقاد المشركين استحالة جمع العظام بعد رمامها وتشتّتها.

العظام: كناية عن الجسد كلّه، وإنّما خُصَّت بالذكر لحكاية أقوالهم { مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ } [يّس:78] وقولهم { أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ } [الاسراء:49]، وقولهم { أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً} [النازعات:11]. فهم احتجُّوا باستحالة قبول العظام للإعادة بعض البلى، على أنّ استحالة إعادة اللحم والعصب والفؤاد بالأولى. فإثبات إعادة العظام اقتضى أنّ إعادة بقية الجسم مساو لإعادة العظم، وفي ذلك كفاية من الاستدلال مع الإيجاز.

{ **بَلَى** } حرف إبطال للنفي الذي دلّ عليه { أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ }، فمعناه: بل تُجمع عظامه.

{ **قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ** } عدل في متعلّق { قَادِرِينَ } عن أن يقال: قادرين على جمع عظامه إلى قادرين على أن نسوّي بنانه لأنّه أوفر معنى وأوفق بإرادة إجمال كيفية البعث والإعادة.

التسوية: تقويم الشيء وإتقان الخلق، قال تعالى { وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا } [الشمس:7]، وقال في هذه السورة { فَخَلَقَ فَسَوَّى } [38]. وأريد بالتسوية هنا إعادة خلق البنان مقوّمة متقنة، فالتسوية كناية عن الخلق لأنّها تستلزمه، فإنّه ما سُوّي إلّا وقد أعيد خلقه، قال تعالى { الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى } [الأعلى:2].

البنان: أصابع اليدين والرجلين أو أطراف تلك الأصابع. وهو اسم جمع بَنانة.

{ **بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ** } [5].

إضراب انتقالي إلى ذكر حال آخر من أحوال فجورهم، فموقع الجملة بعد { **بَلْ** } بمنزلة الاستئناف الابتدائي للمناسبة بين معنى الجملتين، أي: لمَّا دُعُوا إلى الإقلاع عن الإشراك وما يستدعيه من الآثام وأُنذروا بالعقاب عليه يوم القيامة كانوا مصمِّمين على الاسترسال في الكفر.

{ **يُرِيدُ الْإِنْسَانُ** } يجوز أن يكون إخبارا عمّا في نفوس أهل الشرك من محبّة الاسترسال فيما هم عليه من الفسق والفجور. ويجوز أن يكون استفهاما إنكاريا موافقا لسياق ما قبله من قوله تعالى { أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ }، وأعيد لفظ { الْإِنْسَانُ } إظهارا في مقام الإضمار لأنّ المقام لتقريعه والتعجيب من ضلاله.

الفجور: فعل السوء الشديد، ويطلق على الكذب، ومنه وصفت اليمين الكاذبة بالفاجرة، فيكون (**فَجَرَ**) بمعنى كذب وزنا ومعنى، فيكون قاصرا ومتعدّيا مثل فعل كذب (مُخفّف الذال).

{ **لِيَفْجُرَ** } اللام هنا هي اللام التي يكثر وقوعها بعد مادتي الأمر والإرادة نحو قوله تعالى { وَأُمِرْتُ

لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ } [الشورى:15]، وقوله تعالى { يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ } [النساء:26]

أمام: أصله اسم الذي هو قبالة من أضيف هو إليه وهو ضدّ خلف، ويطلق مجازا على الزمان المستقبل.

قال ابن عباس: يُكذِّب بيوم الحساب.

{ **أَمَامَهُ** } يجوز أن يعود الضمير إلى الإنسان، أي: في مستقبله، فيمضي قُدما راكبا رأسه لا يقلع عمّا هو فيه من الفجور فينكر البعث فلا يزع نفسه عن الفجور. وإلى هذا المعنى نحا ابن عباس وأصحابه.

ويجوز أن يكون { أَمَامَهُ } أطلق على اليوم المستقبل مجازا. وإلى هذا نحا ابن عباس في رواية عنه، وعبد الرحمن بن زيد، ويكون { يَفْجُرَ } بمعنى يُكذِّب، أي: يُكذِّب باليوم المستقبل.

{ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ } [6].

يجوز أن تكون هذه الجملة متّصلة بالتي قبلها على أنّها بدل اشتمال منها، لأنّ إرادته الاسترسال على الفجور يشتمل على التهكّم بيوم البعث، أو على أنّها بدل مطابق على تفسير { لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ } [5] بالتكذيب بيوم البعث. ويجوز أن تكون مستأنفة للتعجيب من حال سؤالهم عن وقت يوم القيامة، وهو سؤال استهزاء لاعتقادهم استحالة وقوعه.

{ **أَيَّانَ** } اسم استفهام عن الزمان البعيد، لأنّ أصلها: أيّ آن كذا، بمعنى (متى). وتقدّم عند قوله تعالى { يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا } [الأعراف:187].

{ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ [7] وَخَسَفَ الْقَمَرُ [8] وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ [9] يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ [10] كَلَّا لا وَزَرَ [11] إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ [12] يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ [13] }.

عُدل عن أن يُجابوا بتعيين وقتٍ ليوم القيامة إلى أن يُهدَّدوا بأهواله، لأنّهم لم يكونوا جادّين في سؤالهم، فكان من مقتضى حالهم أن يُنذروا بما يقع من الأهوال عند حلول هذا اليوم، مع تضمين تحقيق وقوعه.

فإنّ كلام القرآن إرشاد وهدي لا يترك فرصة للهدي والإرشاد إلّا انتهزها.

وهذا تهديد في ابتدائه جاء في صورة التعيين لوقت يوم القيامة إيهاما بالجواب عن سؤالهم كأنّه حمل لكلامهم على خلاف الاستهزاء، على طريقة الأسلوب الحكيم.

وفيه تعريض بالتوبيخ على أن فرّطوا في التوقّي من ذلك اليوم واشتغلوا بالسؤال عن وقته. وقريب منه ما روي أنّ رجلًا من المسلمين سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: متى الساعة؟ فقال له: **" ماذا أعددت لها"**. فإن هذه الأحوال المذكورة في الآية ممّا يقع عند حلول الساعة وقيام القيامة فكان ذلك شيئا من تعيين وقتها بتعيين أشراطها.

{ **فَإِذَا** } الفاء لتفريع الجواب عن السؤال.

{ **بَرِقَ الْبَصَرُ** } قرأه الجمهور بكسر الراء، ومعناه: دُهِش وبُهِت، يقال: بَرِق يَبْرَق فهو بَرِقٌ، من باب فرح، فهو من أحوال الإنسان. وإنّما أسند في الآية إلى البصر على سبيل المجاز العقلي تنزيلا له منزلة مكان البرق لأنّه إذا بهت شخَص بصره.

وقرأه نافع وأبو جعفر بفتح الراء من البريق بمعنى اللمعان، أي: لمع البصر من شدّة شخوصه، ومضارعه يبرُق (بضم الراء). وإسناده إلى البصر حقيقة.

ومآل معنى القراءتين واحد وهو الكناية عن الفزع والرعب، كقوله تعالى { وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا } [الانبياء:97].

{ **الْبَصَرُ** } التعريف للجنس المراد به الاستغراق، أي: أبصار الناس كلّهم من الشدّة الحاصلة في ذلك الوقت، على أنّهم متفاوتون في الرعب الحاصل لهم على تفاوتهم فيما يُعرضون عليه من طرائق منازلهم.

{ **وَخَسَفَ الْقَمَرُ** } أريد به انطماس نوره انطماسا مستمرًّا. فليس هذا الخسوف المعتاد.

{ **وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ** } التصاق القمر بالشمس، ويكون ذلك بسبب اختلال الجاذبية التي وضع الله عليها النظام الشمسي.

{ **يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ** } طُوي التصريح بأنّ ذلك حلول يوم القيامة اكتفاء بذكر ما يدلّ عليه، وهو قولهم { أَيْنَ الْمَفَرُّ }، فكأنّه قيل: حل يوم القيامة وحضرت أهواله يقول الإنسان يومئذ أين المفرّ؟ ثم وقع تأكيد ذلك بقوله تعالى { إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ }.

{ **الْإِنْسَانُ** } هو المتحدَّث عنه من قوله تعالى { أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ } أي: يقول الإنسان الكافر.

{ **يَوْمَئِذٍ** } ظرف متعلّق بـ { يَقُولُ }، وذكره، مع أنّ قوله تعالى {إِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ...} مغن عنه، للاهتمام بذكر ذلك اليوم الذي كانوا ينكرون وقوعه ويستهزئون فيسألون عن وقته، وكذلك للتصريح بأنّ حصول هذه الأحوال الثلاثة في وقت واحد.

{ **الْمَفَرُّ** } (بفتح الميم وفتح الفاء) مصدر، والاستفهام مستعمل في التمنّي.

{ **كَلَّا** } ردع وإبطال لما تضمَّنه الاستفهام السابق { أَيْنَ الْمَفَرُّ } من الطمع في أن يجد للفرار سبيلا.

الوزر: المكان الذي يلجأ إليه للتوقِّي من إصابة مكروه مثل الجبال والحصون.

{ **كَلَّا لا وَزَرَ** } يجوز أن يكون كلاما مستأنفا من جانب الله تعالى جوابا لمقالة الإنسان، أي: لا وزر لك، فينبغي الوقف على { الْمَفَرُّ }. ويجوز أن يكون من تمام مقالة الإنسان، أي يقول: أين المفر؟ ويجيب نفسه بإبطال طمعه، فيقول: { كَلَّا لا وَزَرَ }، أي لا وزر لي، وذلك بأن نظر في جهاته فلم يجد إلّا النّار، كما ورد في الحديث، فيحسُن على هذا الوجه أن يُوصل { أَيْنَ الْمَفَرُّ } بجملة { كَلَّا لا وَزَرَ }.

{ **إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ** } كلام من جانب الله تعالى خاطب به النبيّ صلى الله عليه وسلم في الدنيا بقرينة قوله تعالى { يَوْمَئِذٍ }، فهو اعتراض وإدماج للتذكير بمُلك ذلك اليوم.

{ **إِلَى رَبِّكَ** } تقديم المجرور لإفادة الحصر، أي: إلى ربك لا إلى ملجأ آخر. وهذا كقوله تعالى { وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ } [آل عمران:28]. وإضافة (ربّ) إلى ضمير النبيّ صلى الله عليه وسلم إيماء إلى أنّه ناصره بالانتقام من الذين لم يقبلوا دعوته.

{ **الْمُسْتَقَرُّ** } مصدر ميمي من (استقرّ) إذا **قرَّ** في المكان ولم ينتقل، والسين والتاء للمبالغة في الوصف.

{ **يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ** } مستأنفة استئنافا بيانيا أثاره قوله تعالى { إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ }، أو بدل اشتمال من مضمون تلك الجملة، أي: إلى الله مصيرهم وفي مصيرهم يُنبَّأون بما قدَّموا وما أخَّروا.

{ **الْإِنْسَانُ** } ينبغي أن يكون المراد به الكافر جريا على سياق الآيات السابقة لأنّه المقصود بالكلام، وإن كان كل إنسان يُنبأ يومئذ بما قدّم وأخَّر؛ من أهل الخير ومن أهل الشرّ، قال تعالى { يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ } [آل عمران:30].

<u>واختلاف مقامات الكلام يمنع من حمل ما يقع فيها من الألفاظ على محمل واحد</u>، فإنّ في القرآن فنونا من التذكير لا تلزم طريقة واحدة. وهذا ممّا يغفل عن مراعاته بعض المفسّرين في حملهم معاني الآيات المتقاربة المغزى على محامل متماثلة.

وتَنْبِئَةُ الإنسان بما قدم وأخر كناية عن مجازاته على ما فعله؛ إن خيرا فخير وإن سوءا فسوء. فكان الإنباء من لوازم الجزاء، قال تعالى { قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ } [التغابن:7]، ويحصل في ذلك الإنباء تقريع وفضح لحاله.

{ **قَدَّمَ وَأَخَّرَ** } أي: ما فعله وما تركه، ممَّا أُمر بفعله أو نُهي عنه.

ومن دعاء النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" فاغفر لي ما قدَّمت وما أخَّرت، وما أسررت وما أعلنت "**.

{ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ [14] وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ [15] }.

إضراب انتقالي، وهو للترقِّي من مضمون { يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ } إلى الإخبار بأنّ الكافر يعلم ما فعله، لأنّهم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، إذ هو قرأ كتاب أعماله فقال { يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ، وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ } [الحاقة:26/25]، وكذلك يقولون { يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا } [الكهف: 49].

وقال تعالى { اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا } [الاسراء:14].

{ **بَصِيرَةٌ** } الراجح من نظم قوله تعالى { بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ }أن يكون بمعنى مبصر شديد المراقبة، أي: الإنسان بصير بنفسه. وعُدِّي بحرف (على) لتضمينه معنى المراقبة، وهو معنى قوله في

الآية الأخرى { كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا } [الاسراء:14]. وهاء { بَصِيرَةٌ } تكون للمبالغة، مثل هاء علَّامة ونسَّابة، أي: الإنسان عليم بصير قويّ العلم بنفسه يومئذ.

{ **وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ** } في موضع الحال من المبتدأ وهو الإنسان. و{ **لَوْ** } هذه وصلية، كما تقدّم عند قوله تعالى { فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ } [آل عمران:91].

المعنى: هو بصيرة على نفسه حتى في حال إلقائه معاذيره.

الإلقاء: مراد به الإخبار الصريح على وجه الاستعارة، وقد تقدّم عند قوله تعالى { فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ } [النحل:86].

المعاذير: اسم جمع معذرة، وليس جمعا لأنّ حقّه أن يجمع على معاذر، ومثله: المناكير، اسم جمع منكر. وعن الضحاك أن معاذير هنا جمع مِعذار (بكسر الميم) وهو الستر بلغة اليمن، فيكون الإلقاء مستعملا في المعنى الحقيقي، أي: الإرخاء. وتكون الاستعارة في المعاذير بتشبيه جحد الذنوب كذبا بإلقاء الستر على الأمر المراد حجبه.

المعنى: أنّ الكافر يعلم يومئذ أعماله التي استحق العذاب عليها ويحاول أن يتعذّر وهو يعلم أن لا عذر له ولو أفصح عن جميع معاذيره.

{ **مَعَاذِيرَهُ** } جمع معرّف بالإضافة يدل على العموم. فمن هذه المعاذير قولهم { رَبِّ ارْجِعُونِ، لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ } [المؤمنون:100/99]، ومنها قولهم { مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ } [المائدة: 19]، وقولهم { هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا } [لأعراف: 38]، ونحو ذلك من المعاذير الكاذبة.

{ **لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ** [16] **إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ** [17] **فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ** [18] **ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ** [19] }.

هذه الآية وقعت هنا معترضة، وسبب نزولها ما رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس أنّه قال: " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه القرآن يُحرِّك به لسانه، يريد أن يحفظه مخافة أن يتفلَّت منه، أو من شدّة رغبته في حفظه، فكان يلاقي من ذلك شدّة، فأنزل الله تعالى { لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ }. قال: جَمْعَه في صدرك ثم تقرأه، فإذا قرأناه فاتَّبع قرآنه، قال: فاستمع له وأنصت، ثم إنّ علينا لنبيّنه بلسانك، أي: أن تقرأه ".

<u>فلمّا نزل هذا الوحي في أثناء هذه السورة، ولم يكن سورة مستقلة، كان ملحقا بها، وواقعا بين الآي التي نزل بينها</u>. وهذا ما لا خلاف فيه بين أهل الحديث وأيمة التفسير.

<u>والذي يلوح لي في موقع هذه الآية هنا</u> دون أن تقع فيما سبق نزوله: أنّ سور القرآن حين كانت قليلة كان النبيّ صلى الله عليه وسلم لا يخشى تفلُّت بعض الآيات عنه فلمَّا كثرت السور فبلغت زهاء ثلاثين، حسب ما عدّه سعيد بن جبير في ترتيب نزول السور، صار النبيّ صلى الله عليه وسلم يخشى أن ينسى بعض

آياتها، فلعلّه صلى الله عليه وسلم أخذ يحرّك لسانه بألفاظ القرآن عند نزوله احتياطا لحفظه، وذلك من حرصه على تبليغ ما أنزل إليه بنصه، فأمره الله أن لا يكلِّف نفسه ذلك. فالنهي عن تحريك لسانه نهي رحمة وشفقة.

فيكون وقوع هذه الآيات هنا مثل وقوع قوله تعالى { وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ } [مريم:64] في سورة مريم، وقوله تعالى { حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى } [البقرة:238] في أثناء أحكام الزوجات.

{ **بِهِ** } الضمير عائد على القرآن كما هو المعروف في آيات كثيرة.

{ **فَإِذَا قَرَأْنَاهُ** } أي: إذا قرأه جبريل عنّا، أسندت القراءة إلى ضمير الجلالة على طريقة المجاز العقلي، والقرينة واضحة.

{ **فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ** } أي: أنصت إلى القراءة.

{ **قُرْآنَهُ** } في الموضعين مصدر بمعنى القراءة، مثل الغفران والفرقان.

{ **عَلَيْنَا** } في الموضعين للتكفُّل والتعهُّد.

{ **ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ** } و{ ثُمَّ } هنا للتراخي في الرتبة، أي: التفاوت في رتبة الجملة المعطوف عليها وهي قوله تعالى { إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ }، وبين رتبة الجملة المعطوفة وهي { إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ }.

ومعنى الجملتين: أنّ علينا جمع الوحي وأن تقرأه، وفوق ذلك أن تبيّنه للناس بلسانك، أي: نتكفّل لك بأن يكون جمعه وقرآنه بلسانك، أي: عن ظهر قلب لا بكتابة تقرأها بل أن يكون محفوظا في الصدور بيّنا لكل سامع، لا يتوقّف على مراجعة ولا على إحضار مصحف من قُرب أو بُعد.

{ **بَيَانَهُ**} البيان هنا بيان ألفاظه وليس بيان معانيه، لأنّ بيان معانيه ملازم لورود ألفاظه.

وقد احتجّ بهذه الآية الذين يرون جواز تأخير البيان عن المبيَّن متمسكين بأن { ثُمَّ } للتراخي، وهو مُتمسَّك ضعيف لأنّ التراخي الذي أفادته { ثُمَّ } إنّما هو تراخ في الرتبة لا في الزمن، ولأنّها قد عطفت مجموع الجملة ولم تعطف لفظ { بَيَانَهُ } خاصة.

{ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ [20] وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ [21] }.

رجوع إلى مهيع الكلام الذي بُنيت عليه السورة، كما يرجع المتكلّم إلى وصل كلامه بعد أن قطعه عارض.

{ **كَلَّا** } ردع وإبطال. يجوز أن يكون إبطالا لما سبق في قوله تعالى { أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ - إلى قوله - وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ } [3-15]، فأعيد { كَلَّا } تأكيدا لنظيره ووصلا للكلام بإعادة آخر كلمة منه. والمعنى: أنّ مزاعمهم باطلة.

{ **بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ** } إضراب أبطالي يُفصِّل ما أجمله الردّ بـ { كَلَّا } من إبطال ما قبلها وتكذيبه، أي: لا معاذير لهم في نفس الأمر ولكنّهم أحبّوا العاجلة، أي: شهوات الدنيا، وتركوا الآخرة، والكلام مُشعر

بالتوبيخ، ومناط التوبيخ هو حبّ العاجلة مع نبذ الآخرة، فأمّا لو أحبّ أحدٌ العاجلة وراعى الآخرة، أي: جرى على الأمر والنهي الشرعيين لم يكن مذموما. قال تعالى فيما حكاه عن الذين أوتوا العلم من قوم قارون { وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا } [القصص:77].

ويجوز أن يكون إبطالا لما تضمَّنه قوله تعالى { وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ }، فهو استئناف ابتدائي. والمعنى: أنّ معاذيرهم باطلة ولكنّهم يحبون العاجلة ويذرون الآخرة، أي: آثروا شهواتهم العاجلة ولم يحسبوا للآخرة حسابا. والضمير عائد إلى { الْأِنْسَانُ } في قوله تعالى { بَلِ الْأِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ } [القيامة:14]، جاء ضمير جمع لأنّ الإنسان مراد به الناس المشركون.

{ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ [22] إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ [23] وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ [24] تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ [25] }.

{ **يَوْمَئِذٍ** } المراد به يوم القيامة الذي تكرّر ذكره بمثل هذا ابتداء من قوله تعالى { يَقُولُ الْأِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ } [10] وأعيد مرتين [13/12].

والجملة المقدّرة المضاف إليها (إذ) والمعوَّض عنها بالتنوين تقديرها: يوم إذ بَرَق البصر.

وقد حصل من هذا تخلُّص إلى إجمال حال الناس يوم القيامة بين أهل سعادة وأهل شقاوة.

فالوجوه الناضرة وجوه أهل السعادة والوجوه الباسرة وجوه أهل الشقاء، وذلك بيّن من كلتا الجملتين.

وقد علم الناس المعني بالفريقين ممّا سبق نزوله من القرآن، كقوله تعالى { وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ، تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ، أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ } [عبس:40-42]. فعُلم أنّ أصل أسباب السعادة الإيمان بالله وحده وتصديق رسوله صلى الله عليه وسلم، وأنّ أصل أسباب الشقاء الإشراك بالله وتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم.

وقد تضمّن صدر هذه السورة ما ينبئ بذلك، كقوله تعالى { أَيَحْسَبُ الْأِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ } [3]، وقوله تعالى { بَلْ يُرِيدُ الْأِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ } [5].

{ **وُجُوهٌ** } التنكير للتنويع والتقسيم، كقوله تعالى { فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ } [الشورى:7].

{ **نَاضِرَةٌ** } الموصوفة بالنَضْرة (بفتح النون وسكون الضاد)، هي حسن الوجه من أثر النعمة والفرح.

وكُنِّي بنضرة الوجوه عن فرح أصحابها ونعيمهم، قال تعالى في أهل السعادة { تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ } [المطففين:24]، لأنّ ما يحصل في النفس من الانفعالات يظهر أثره.

{ **إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** } أخبر عنها خبرا ثانيا. وتقديم المجرور على عامله للاهتمام بهذا العطاء العجيب وليس للاختصاص لأنّهم يرون بهجات كثيرة في الجنة.

{ **نَاظِرَةٌ** } ظاهر اللفظ أنّه من نظر بمعنى: عاين ببصره، إعلانا بتشريف تلك الوجوه أنّها تنظر إلى جانب الله تعالى نظرا خاصا لا يشاركها فيه من يكون دون رتبتهم، فهذا معنى الآية بإجماله ثابت بظاهر

القرآن وقد أيّدته الأخبار الصحيحة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم.

فقد روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة أنّ أناسا قالوا: يا رسول الله هل نرى ربّنا يوم القيامة؟ قال: **" هل تضارُّون في رؤية الشمس والقمر إذا كانت صحوا؟** قلنا: لا. قال: **" فإنّكم لا تضارُّون في رؤية ربكم يومئذ إلّا كما تضارُّون في رؤيتهما "**. وفي رواية: **" فإنكم ترونه كذلك "**.

وروى البخاري عن جرير بن عبد الله قال: كنّا جلوسا عند النبيّ صلى الله عليه وسلم إذ نظر إلى القمر ليلة البدر قال: **" إنكم سترون ربّكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته،** وربما قال: **سترون ربكم عيانا.**

وروى مسلم عن صهيب بن سنان عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: **" إذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ يقول الله تعالى: تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيِّض وجوهنا، ألم تدخلنا الجنة وتُنجِّينا من النار، فيكشف الحجاب فما يعطون شيئا أحبّ إليهم من النظر إلى ربهم "**.

فدلالة الآية على أنّ المؤمنين يرون بأبصارهم رؤية متعلِّقة بذات الله على الإجمال دلالة ضمنية لاحتمالها تأويلات تأوّلها المعتزلةُ بأنّ المقصود رؤية جلاله وبهجة قدسه التي لا تُخوّل رؤيتها لغير أهل السعادة.

ويلحق هذا بمتشابه الصفات، وإن كان مقتضاه ليس إثبات صفة، ولكنه يؤول إلى الصفة ويستلزمها بأنّه آيل إلى اقتضاء جهة للذات، ومقدار يُحاط بجميعه أو ببعضه، إذا كانت الرؤية بصرية فلا جرم أن يُعد الوعد برؤية أهل الجنة ربّهم تعالى من قبيل المتشابه.

ولعلماء الإسلام في ذلك أفهام مختلفة:

فأمّا صدر الأمّة وسلفها فإنّهم جروا على طريقتهم التي تخلَّقوا بها في سيرة النبيّ صلى الله عليه وسلم من الإيمان بما ورد من هذا القبيل على إجماله، وصرف أنظارهم عن التعمّق في حقيقته، وإدراجه تحت أحد أقسام الحكم العقلي، وقد سمعوا هذا ونظائره كلّها أو بعضها أو قليلا منها، فما شغلوا أنفسهم به ولا طلبوا تفصيله، ولكنّهم انصرفوا إلى ما هو أحقّ بالعناية، وهو التهمُّم بإقامة الشريعة وبثِّها وتقرير سلطانها، مع الجزم بتنزيه الله تعالى على اللوازم العارضة لتلك الصفات، جاعلين إمامهم المرجوع إليه في كل هذا قوله تعالى { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } [الشورى:11]، أو ما يقارب هذا، من دلائل التنزيه الخاصة، مثل قوله تعالى { لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ } [الأنعام:103]. مع اتفاقهم على أنّ عدم العلم بتفصيل ذلك لا يقدح في عقيدة الإيمان.

فلما نبغ في علماء الإسلام تطلُّب معرفة حقائق الأشياء، وألجأهم البحثُ العلمي إلى التعمُّق في معاني القرآن ودقائق عباراته وخصوصيات بلاغته، لم يروا طريقة السلف مقنعة لإفهام أهل العلم من الخلف لأنّ طريقتهم في العلم طريقة تمحيص وهي اللائقة بعصرهم، وقارن ذلك ما حدث في فرق الأمّة الإسلامية من النِّحل الاعتقادية، وإلقاء شُبَه الملاحدة من المنتمين إلى الإسلام وغيرهم، وحَدَا بهم ذلك

إلى الغوص والتعمّق لإقامة المعارف على أعمدة لا تقبل التزلزل، ولدفع شُبُه المتشكِّكين وردِّ مطاعن الملحدين، فسلكوا مسالك الجمع بين المتعارضات من أقوال ومعان وإقرار كل حقيقة في نصابها، وذلك بالتأويل الذي يقتضيه المقتضي ويعضده الدليل.

فسلكت جماعات مسالك التأويل الإجمالي بأن يعتقدوا تلك المتشابهات على إجمالها ويوقنوا بالتنزيه عن ظواهرها ولكنّهم لا يفصّلون صرفها عن ظواهرها بل يجملون التأويل، وهذه الطائفة تدعى السلفية لقرب طريقتها من طريقة السلف في المتشابهات، وهذه الجماعات متفاوتة في مقدار تأصيل أصولها تفاوتا جعلها فرقا فمنهم الحنابلة، والظاهرية، والخوارج الأقدمون غير الذين التزموا طريقة المعتزلة، ومنهم أهل السنّة الذين كانوا قبل الأشعري، مثل المالكية وأهل الحديث، الذين تمسّكوا بظواهر ما جاءت به الأخبار الصحاح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم مع التقييد بأنّها مُؤَوَّلة عن ظواهرها بوجه الإجمال.

وقد غلا قوم من الآخذين بالظاهر مثل الكرَّامية والمشبِّهة فأُلحقوا بالصنف الأوّل.

ومنهم فرق النُّظَّارين في التوفيق بين قواعد العلوم العقلية وبين ما جاءت به أقوال الكتاب والسنة وهؤلاء هم المعتزلة، والأشاعرة، والماتردية .فأقوالهم في رؤية أهل الجنة ربهم ناسجة على هذا المنوال:

فالمعتزلة نفوها وتأوّلوا الأدلة بنحو المجاز والاشتراك وتقدير محذوف، لمعارضتها الأصول القطعية عندهم، فرجَّحوا ما رأوه قطعيا وألغَوْها.

والأشاعرة أثبتوها وراموا الاستدلال لها بأدلة تفيد القطع وتبطل قول المعتزلة ولكنّهم لم يبلغوا من ذلك المبلغ المطلوب.

وما جاء به كّل فريق من حجاج لم يكن سالما من اتجاه نقوض ومعارضات، وكذلك ما أثاره كل فريق على مخالفيه من معارضات لم يكن خالصا، فطال الأخذ والرد. ولم يحصل طائل ولا انتهى إلى حد.

ويحسن أن نفوّض كيفيتها إلى علم الله تعالى كغيرها من المتشابه الراجع إلى شؤون الخالق تعالى.

وهذا معنى قول سلفنا (**إنّها رؤية بلا كيف**) وهي كلمة حق جامعة، وإن اشمأزَّ منها المعتزلة.

هذا ما يتعلّق بدلالة الآية على رؤية أهل الجنّة ربّهم وأمّا ما يتعلّق بأصل جواز رؤية الله تعالى فقد مضى القول فيها عند قوله تعالى { قَالَ لَنْ تَرَانِي } [الأعراف:143].

{ **نَاضِرَةٌ/ نَاظِرَةٌ** } جناس محرَّف قريب من التام.

{ **وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ** } هذا نوع ثان من وجوه الناس يومئذ، وهي وجوه أهل الشقاء.

{ **يَوْمَئِذٍ** } أعيد اللفظ تأكيدا للاهتمام بالتذكير بذلك اليوم.

{ **بَاسِرَةٌ** } كالحة من تيقُّن العذاب، وتقدّم عند قوله تعالى { ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ } [المدثر:22].

{ **تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ** } استئناف بياني لبيان سبب بُسُورها.

{ **فَاقِرَةٌ** } داهية عظيمة، وهو نائب فاعل { يُفْعَلَ بِهَا } ولم يقترن الفعل بعلامة التأنيث لأنّ مرفوعه ليس مؤنثا حقيقيا، مع وقوع الفصل بين الفعل ومرفوعه، وكلا الأمرين يسوّغ ترك علامة التأنيث.

المعنى: أنّهم أيقنوا بأن سيلاقوا دواهي لا يُكتنه كنهها.

{ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ [26] وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ [27] وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ [28] وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ [29] إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ [30] }.

{ **كَلَّا** } ردع ثانٍ على قول الإنسان { أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ } [6]، وهو ردع على ما تضمّنه الردع الذي في قوله تعالى { كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ } [20] من إيثار العاجلة على الآخرة. ومعناه زجر عن إحالة البعث، فإنّه واقع غير بعيد، فكلّ أحد يشاهده حين الاحتضار للموت، كما يؤذن به قوله تعالى { إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ}.

أُتبع توصيف أشراط يوم القيامة المباشرة لحلوله بتوصيف أشراط حلول التهيُّؤ الأوّل للقائه من مفارقة الحياة الأولى. فحالة الاحتضار هي آخر أحوال الحياة الدنيا يعقبها مصير الروح إلى تصرّف الله تعالى مباشرة.

عن المغيرة بن شعبة: " يقولون: القيامة القيامة، وإنّما قيامة أحدهم موته ".

وعن علقمة أنّه حضر جنازة فلما دُفن قال: " أمّا هذا فقد قامت قيامته ".

{ **إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ** } متعلّق بالكون الذي يُقدَّر في الخبر، وهو قوله تعالى { إِلَى رَبِّكَ }.

المعنى: المساق يكون إلى ربّك إذا بلغت التراقي.

{ **إِذَا** } ظرف مضمَّن معنى الشرط، وهو منتصب بجوابه { إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ }.

{ **بَلَغَتِ** } الضمير راجع إلى غير مذكور في الكلام ولكنه معلوم، فإنّ فعل { بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ } يدلّ أنّها روح الإنسان. والتقدير: إذا بلغت الروح أو النفس.

{ **التَّرَاقِيَ** } جمع تَرْقُوَة، وهي ثُغرة النحر، ولكلّ إنسان ترقوتان عن يمينه وعن شماله. فالجمع هنا مستعمل في التثنية لقصد تخفيف اللفظ وقد أُمِن اللبس، لأنّ في تثنية ترقوة شيئا من الثقل لا يناسب أفصح كلام، وهذا مثل ما جاء في قوله تعالى { فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا } [التحريم:4].

{ **بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ** } أي: أنّ الروح بلغت الحنجرة حيث تخرج الأنفاس الأخيرة فلا يُسمع صوتها إلّا في جهة الترقوة، وهي آخر حالات الاحتضار، ومثله قوله تعالى { فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ } [الواقعة:83].

{ **وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ** } أي: قال قائل: من يرقي هذا رُقْيات لشفائه؟ أي: سأل أهل المريض عن وجدان أحد يرقي، والبحث عن عارف برقية المريض عادة عربية ورد ذكرها في حديث السريّة الذين أتوا على حي من أحياء العرب إذ لدغ سيد ذلك الحي فعرض لهم رجل من أهل الحي، فقال: هل فيكم من راق؟ رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري وعبد الله بن عباس في الرقيا بفاتحة الكتاب.

الرُّقْيَا: (بالقصر، ويقال بهاء تأنيث) هي كلام خاص، معتقَد نفعه، يقوله قائل عند المريض واضعا يده في وقت القراءة على موضع الوجع من المريض أو على رأسه، أو يكتبه الكاتب في خرقة، أو ورقة

وتعلّق على المريض، وكانت من خصائص التطبُّب، يزعمون أنها تشفي من صَرَع الجنون ومن ضُرِّ السموم ومن الحمى. ويختصّ بمعرفتها ناس يزعمون أنّهم يتلقَّونها من عارفين، فلذلك سَمَّوا الراقي ونحوه عَرَّافا.

وأصل الرُّقية: ما ورثه العرب من طلب البركة بأهل الصلاح والدعاء إلى الله، فأصلها وارد من الأديان السماوية، ثم طرأ عليها سوء الوضع عند أهل الضلالة فألحقوها بالسحر أو بالطبّ، ولذلك يخلطونها من أقوال ربما كانت غير مفهومة، ومن أشياء كأحجار أو أجزاء من عظم الحيوان أو شعره، فاختلط أمرها. وقد جاء في الإسلام الاستشفاء بالقرآن والدعوات المأثورة المتقبَّلة من أربابها، وذلك من قبيل الدعاء.

{ **وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ** } الضمير المستتر في { ظَنَّ } عائد إلى الإنسان في قوله تعالى { بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ } [5]، أي: الإنسان الفاجر.

الظّنّ: العلم المقارب لليقين.

{ **أَنَّهُ** } ضمير شأن، أي: وأيقن أنّه فراق الحياة.

{ **وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ** } إن حُمل على ظاهره، فالمعنى: التفاف ساقَي المحتضر بعد موته، إذ تُلَفُّ الأكفان على ساقيه ويقرن بينهما في ثوب الكفن. فالتعريف عوض عن المضاف إليه. وهذا نهاية وصف الحالة التي تهيَّأ بها لمصيره إلى القبر الذي هو أوّل مراحل الآخرة.

ويجوز أن يكون ذلك تمثيلا، فإنّ العرب يستعملون الساق مثلا في الشدّة وجِدّ الأمر تمثيلا بساق الساعي أو الناهض لعمل عظيم، يقولون: قامت الحرب على ساق. وتقدّم في قوله { يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ } [القلم:42]. فيكون المعنى: طرأت مصيبة على مصيبة.

{ **إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ** } بيان للردع وتقريب لإبطال الاستبعاد المحكي عن منكري البعث، بقوله تعالى { يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ } [6].

{ **إِلَى رَبِّكَ** } تقديمه على متعلّقه للاهتمام به لأنّه مناط الإنكار منهم. والخطاب التفات عن طريق خطاب الجماعة في قوله تعالى { كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ } [20]، لأنّه لمّا كان خطابا لغير معين حسُن التفنُّن فيه.

{ **الْمَسَاقُ** } تعريف الجنس الذي يعمّ الناس كلّهم بما فيهم الإنسان الكافر المردود عليه. ولك أن تُعبِّر عن (اللام) بأنّها عوض عن المضاف إليه، أي: مساق الإنسان الذي يسأل { أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ } [6].

{ **الْمَسَاقُ** } مصدر ميمي لـ (ساق)، وهو تسيير ماش أمام مُسيِّره إلى حيث يريد مُسيِّره، وضده القَوْد. وهو هنا مجاز مستعمل في معنى الإحضار والإيصال إلى حيث يلقى جزاء ربّه.

وسُلك في الآيات مسلك الإطناب لتهويل حالة الاحتضار على الكافر، وفي ذلك إيماء إلى أنّ الكافر يتراءى له مصيره في حالة احتضاره، وقد دلّ عليه حديث عبادة بن الصامت في الصحيح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: **" من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه "**، قالت عائشة: " إنَّا نكره الموت ". قال: **" ليس ذاك ولكن المؤمن إذا حضره الموتُ بُشِّر برضوان الله**

وكرامته فليس شيء أحبّ إليه ممّا أمامه، فأحبّ لقاء الله وأحبّ الله لقاءه، وإنَّ الكافر إذا حُضِرَ بُشّر بعذاب الله وعقوبته فليس شيء أكره إليه ممّا أمامه، فكره لقاء الله وكره الله لقاءه".

{ فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى [31] وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى [32] ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى [33] أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى [34] ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى [35] }.

تفريع على قوله تعالى { يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ } [6]. والضمير عائد إلى الإنسان في قوله تعالى { أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ } [3]، أي: لجهله البعث لم يستعد له.

ويجوز أن يكون الفاء تفريعا وعطفا على قوله تعالى { إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ } [30]، أي: فقد فارق الحياة وسيق إلى لقاء الله خاليا من العُدَّة لذلك اللقاء.

وفي الكلام، على كلا الوجهين، حذف يدلّ عليه السياق تقديره: فقد علم أنّه قد خسر وتندّم على ما أضاعه من الاستعداد لذلك اليوم. وقد ورد ذلك في قوله تعالى { كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا، وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا، وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى، يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي } [الفجر:21-24].

{ **صَدَّقَ** } مشتقّ من التصديق، أي: تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن وهو المناسب لقوله تعالى { وَلَكِنْ كَذَّبَ }. والمعنى: فلا آمن بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

وفاعل { صَدَّقَ } والأفعال المذكورة بعده ضمائر عائدة على الإنسان المتقدّم ذكره.

{ **وَلا صَلَّى** } عطف على نفي التصديق تشويهًا له بأن حاله مبائن لأحوال أهل الإسلام.

والمعنى: فلم يؤمن ولم يسلم.

{ **لَكِنْ** } المخفَّف النون بالأصالة، هو حرف استدراك، أي: نقض لبعض ما تضمنته الجملة التي قبله؛ إمّا لمجرّد توكيد المعنى بذكر نقيضه، مثل قوله تعالى { وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ } [الأحزاب:5]، وإمّا لبيان إجمال في النفي الذي قبله، نحو { مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ } [الأحزاب:40].

{ **وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى** } معطوفة على جملة { فَلا صَدَّقَ }، أفادت معنيين:

أحدهما: توكيد قوله تعالى { فَلا صَدَّقَ } بقوله تعالى { كَذَّبَ }.

ثانيهما: زيادة بيان معنى { فَلا صَدَّقَ } بأنّه تولّى عمدا، لأنّ عدم التصديق له أحوال.

{ **كَذَّبَ** } حُذف المفعول ليشمل كلّ ما كذّب به المشركون، والتقدير: كَذَّب الرسولَ والقرآنَ وبالبعث، وتولّى عن الاستجابة لشرائع الإسلام.

التولّي: الإعراض عن دعوته إلى النظر والتدبُّر في القرآن.

{ **يَتَمَطَّى** } يتمطَّط، لأنّ المتبختر يمد خطاه، وهي مشية المعجَب بنفسه. والمعنى: أنّه أهمل الاستعداد

للآخرة ولم يعبأ بدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم وذهب إلى أهله مُزْدَهِيًا بنفسه غير مفكِّر في مصيره.

وهنا انتهى وصف الإنسان المكذِّب.

{ **أَوْلَى لَكَ** } وعيد، وهي كلمة توعُّد تجري مجرى المثل في لزوم هذا اللفظ لكن تلحقه علامات الخطاب والغيبة والتكلّم، والمراد به ما يراد بقولهم: ويل لك. أي: دعاء بأن يكون المكروه أدنى شيء منه.

{ **لَكَ** } الكاف خطاب للإنسان المصرَّح به غير مرة في الآيات السابقة بطريق الغيبة إظهارا وإضمارا، وعدل هنا عن طريق الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات لمواجهة الإنسان بالدعاء، لأنّ المواجهة أوقع في التوبيخ، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: أولى له.

{ **فَأَوْلَى** } تأكيد لـ { أَوْلَى لَكَ }، جيء فيه بفاء التعقيب للدلالة على أنّه يُدعى عليه بأن يعقبه المكروه ويعقب بدعاء آخر.

{ **ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى** } تأكيد للدعاء عليه ولتأكيده السابق.وجيء بحرف { ثُمَّ } لعطف الجملة دلالة على أنّ هذا التأكيد ارتقاء في الوعيد، وتهديد بأشدّ ممّا أفاده التهديد وتأكيده، كقوله تعالى { كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ، ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ } [التكاثر:4/3].

وأحسب أن المراد من التهديد كلّ إنسان كافر كما يقتضيه أوّل الكلام من قوله تعالى { أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ - إلى قوله - بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ } [3-14]، وما أبو جهل إلّا من أوّلهم، وأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم توعده باللفظ الذي أنزله الله تهديدا لأمثاله.

وكلمات المتقدّمين في كون الشيء سبب نزول شيء من القرآن كلمات فيها تسامح.

{ **أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى** } [36].

استئناف ابتدائي عاد به الكلام إلى الاستدلال على إمكان البعث، فارتبط بقوله تعالى { أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ } [3]. فكأنّه قيل: أيحسب أن لن نجمع عظامه وأن نتركه في حالة العدم.

والاستفهام إنكاري مثل الذي سبقه في قوله تعالى { أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ } [3].

الترك: أصل المعنى مفارقة الشيء اختياريا، ويطلق مجازا على إهمال أحد شيئا وعدم عنايته بأحواله وبتعهّده، وهو هنا مستعمل في المعنى المجازي.

{ **يُتْرَكَ** } بُني الفعل للنائب إيجازا لأجل العلم بالفاعل من قوله السابق { أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ }.

{ **سُدًى**} (بضم السين والقصر) اسم بمعنى المهمل. ويقال: سَدًى (بفتح السين، والضم أكثر) وهو اسم يستوي فيه المفرد والجمع يقال: إبل سُدًى، وجمل سُدًى. ويُشتق منه فعل فيقال: أسدى إبله وأسديتُ إبلي.

جاء ذكر { سُدًى } هنا على طريقة الإدماج فيما سبق له الكلام، إيماء إلى أن مقتضى حكمة خلق الإنسان أن لا يتركه خالقه بعد الموت فلا يحييه ليجازيه على ما عمله في حياته الأولى.

فإن الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم وأبدع تركيبه ووهبه القوى العقلية ليستعملها في منافع لا تنحصر أو في ضد ذلك من مفاسد جسيمة، لا يليق بحكمته أن يهمله مثل الحيوان فيجعل الصالحين كالمفسدين والطائعين لربهم كالمجرمين، وهو العليم القدير المتمكّن بحكمته وقدرته أن يجعل إليه المصير، فلو أهمله لفاز أهل الفساد في عالم الكساد، ولم يلاق الصالحون من صلاحهم إلّا الأنكاد.

وعن الشافعي: " لم يختلف أهل العلم بالقرآن فيما علمت أنّ السدى الذي لا يُؤمر ولا يُنهى ".

وقد تبيّن من هذا أن قوله { أَنْ يُتْرَكَ سُدًى } كناية عن الجزاء لأنّ التكليف في الحياة الدنيا مقصود منه الجزاء في الآخرة.

{ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى [37] ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى [38] فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى [39] أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى [40] }.

استئناف هو علّة وبيان للإنكار المسوق للاستدلال بقوله تعالى { أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى } [36]، الذي جُعل تكريرا وتأييدا لمضمون قوله تعالى { أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ } [3]. أي: أنّ خلق الإنسان من مادة ضعيفة وتدرُّجه في أطوار كيانه دليل على إثبات القدرة على إنشائه إنشاء ثانيا بعد تفرّق أجزائه واضمحلالها. قال تعالى { كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ } [الانبياء:104].

وهذا البيان خاص بأحد معنيي الترك في الآية السابقة، وهو تركه دون إحياء، وأكتُفي ببيان هذا عن بيان المعنى الآخر (تركه بدون جزاء على أعماله)، لأنّ فائدة الإحياء أن يجازَى على عمله.

فالإنسان خُلق من ماء وطُوِّر أطوارا حتّى صار جسدا حيًّا تام الخلقة والإحساس فكان بعضه من صنف الذكور وبعضه من صنف الإناث، فالذي قدر على هذا الخلق البديع لا يُعجزه إعادة خلق كل واحد كما خلقه أوّل مرة بحكمة دقيقة وطريقة أخرى لا يعلمها إلّا هو.

النطفة: القليل من الماء، سُمِّي بها ماء التناسل، وتقدم في [فاطر:11].

{ **يُمْنَى** } قرأ الجمهور { تُمْنَى } على أنّه وصف لـ { نُطْفَةً }. وقرأه حفص ويعقوب بالتحتية على أنّه وصف { مَنِيٍّ }. قال كثير من المفسّرين معناه: تراق. وفسّرها بعضهم: بمعنى تُخلق، من قولهم: منى الله الخلق، أي: خلقهم. والأظهر قول بعض المفسّرين أنّه مضارع أَمْنَى الرجل، فيكون كقوله تعالى { أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ} [الواقع:58].

العلقة: القطعة الصغيرة من الدم المتعقِّد.

{ **ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً** } عُطف بحرف (ثمّ) للدلالة على التراخي الرتبي، فإنّ كونه علقة أعجب من كونه نطفة، لأنّه صار علقة بعد أن كان ماء.

{ **فَخَلَقَ فَسَوَّى** } لأنّ العلقة يعقبها أن تصير مضغة إلى أن يتمّ خلق الجسد وتنفخ فيه الروح.

والضمير عائد إلى {رَبِّكَ} [30].

التسوية: جعل الشيء سواء، أي: مُعدَّلًا مُقوَّمًا، قال تعالى { فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ } [البقرة:29]، وقال تعالى { الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى } [الأعلى:2]. أي: فجعله جسدا من عظم ولحم.

{ **فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى** } عُقِّب ذلك بخلقه ذكرا أو أنثى زوجين، ومنهما يكون التناسل أيضا.

{ **أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى** } واقعة موقع النتيجة من الدليل لأنّ خلق جسم الإنسان من عدم وهو أمر ثابت بضرورة المشاهدة، أحقّ بالاستبعاد من إعادة الحياة إلى الجسم بعد الموت، سواء بقي الجسم غير ناقص أو نقص بعضه أو معظمه، فهو إلى بث الحياة فيه وإعادة ما فني من أجزائه أقرب من إيجاد الجسم من عدم.

{ **أَلَيْسَ** } الاستفهام إنكار للمنفي إنكارَ تقرير بالإثبات، وهذا غالب استعمال الاستفهام التقريري أن تقع على نفي ما يراد إثباته ليكون ذلك كالتوسعة على المقرَّر إن أراد إنكارًا، كناية عن ثقة المتكلّم بأنّ المخاطَب لا يستطيع الإنكار.

<u>وقد جاء في هذا الختام بمُحسِّن رد العجز على الصدر</u>، فإنّ السورة افتتحت بإنكار أن يحسب المشركون استحالة البعث، وتسَلْسَلَ الكلام في ذلك بأفانين من الإثبات والتهديد والتشريط والاستدلال، إلى أن أفضى إلى استنتاج أنّ الله قادر على أن يحيي الموتى، وهو المطلوب الذي قُدِّم في قوله تعالى { أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ، بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ } [4/3].

{ **الْمَوْتَى** } التعميم بعد جريان أسلوب الكلام عل خصوص الإنسان الكافر أو خصوص كافر معين، يجعل جملة { أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى } تذييلا.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الإنسان

سُمِّيت في زمن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم (**سورة هل أتى على الإنسان**).

روى البخاري في باب القراءة في الفجر من صحيحه عن أبي هريرة قال: "كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يقرأ في الفجر بـ { ألم } السجدة و{ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ }".

واقتصر صاحب الإتقان على تسميتها (**سورة الإنسان**)، عند ذكر السور المكية والمدنية، ولم يذكرها في عداد السور التي لها أكثر من اسم.

وتُسَّمى (**سورة الدهر**) في كثير من المصاحف.

واختُلف فيها، فقيل هي مكية، وقيل مدنية، وقيل بعضها مكي وبعضها مدني.

فعن أبن عباس وابن أبي طلحة وقتادة ومقاتل: هي مكية، وهو قول ابن مسعود، لأنّه كذلك رتّبها في مصحفه فيما رواه أبو داود. وعلى هذا اقتصر معظم التفاسير، ونسبه الخفاجي إلى الجمهور.

وروى مجاهد عن أبن عباس: أنّها مدنية، وهو قول جابر بن زيد، وحُكي عن قتادة أيضا.

والأصحّ أنّها مكية، فإنّ أسلوبها ومعانيها جارية على سنن السور المكية، ولا أحسب الباعث على عدّها في المدني إلّا ما روي من أنّ آية { يُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ } [8] نزلت في إطعام علي أبن أبي طالب بالمدينة مسكينا ليلة، ويتيما أخرى، وأسيرا أخرى، ولم يكن للمسلمين أسرى بمكة، حملا للفظ أسير على معنى أسير الحرب، أو ما روي انّه نزل في أبي الدحداح وهو أنصاري.

وكثيرا ما حملوا نزول الآية على مُثل تنطبق عليها معانيها فعبَّروا عنها بأسباب.

وعدَّها جابر بن زيد الثامنة والتسعين في ترتيب نزول السور. وقال: نزلت بعد سورة الرحمان وقبل سورة الطلاق. وهذا جريٌ على ما رآه أنّها مدنية.

فإذا كان الأصح أنّها مكية، أخذا بترتيب مصحف ابن مسعود، **فتكون الثلاثين أو الحادية والثلاثين** وجديرة بأن تُعدّ قبل سورة القيامة أو نحو ذلك، حسبما ورد في ترتيب أبن مسعود.

واتفق العادون على عدِّ **آيها إحدى وثلاثين**.

أغراض السورة

*/ التذكير بأنّ كل إنسان كُوِّن بعد أن لم يكن فكيف يقضي باستحالة إعادة تكوينه بعد عدمه.

*/ إثبات أنّ الإنسان محقوق بإفراد الله بالعبادة شكرا لخالقه، ومحذَّر من الإشراك به.

*/ إثبات الجزاء، مع شيء من وصف ذلك الجزاء بحالتيه، والإطناب في وصف جزاء الشاكرين.

*/ أُدمج في خلال ذلك الامتنان على الناس بنعمة الإيجاد ونعمة الإدراك، والامتنان بما أعطيه الإنسان من التمييز بين الخير والشر، وإرشاده إلى الخير بواسطة الرسل، فمن الناس من شكر نعمة الله ومنهم من كفرها فعبد غيره.

*/ تثبيت النبيّ صلى الله عليه وسلم على القيام بأعباء الرسالة والصبر على ما يلحقه في ذلك، والتحذير من أن يلين للكافرين.

*/ الإشارة إلى أنّ الاصطفاء للرسالة نعمة عظيمة يستحق الله الشكر عليها بالاضطلاع بما اصطفاه له.

*/ الأمر بالإقبال على ذكر الله والصلاة في أوقات من النهار.

{ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا } [1].

استفهام تقريري، والاستفهام من أقسام الخطاب، وهو هنا موجَّه إلى غير معيَّن، ومستعمل في تحقيق الأمر المقرّر به على طريق الكناية، لأنّ الاستفهام طلب الفهم، والتقرير يقتضي حصول العلم بما قُرِّر به. وذلك إيماء إلى استحقاق الله أن يعترف الإنسان له بالوحدانية في الربوبية إبطالا لإشراك المشركين.

وتقديم هذا الاستفهام لما فيه من تشويق إلى معرفة ما يأتي بعده من الكلام.

فالجملة تمهيد وتوطئة للجملة التي بعدها، وهي قوله تعالى { إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ } [2].

{ **هَلْ** } حرف يفيد الاستفهام ومعنى التحقيق، وقال جمعٌ: أصل (هل) أنّها في الاستفهام مثل (قد) في الخبر. وقد تقدّم بيان ذلك عند قوله تعالى { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ } [البقرة:210].

<u>المعنى</u>: هل يُقرُّ كل إنسان موجود أنّه كان معدوما زمانا طويلا، فلم يكن شيئا يُذكر، أي: لم يكن يُسمَّى ولا يُتحدَّث عنه بذاته. وهم لا يسعهم إلَّا الإقرار بذلك، لذلك اكتُفي بتوجيه هذا التقرير إلى كلّ سامع.

{ **الْإِنْسَانِ** } التعريف للاستغراق، مثل قوله تعالى { إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا } [العصر:3/2]. أي: هل أتى على كلّ إنسان حين كان فيه معدوما.

الحين: مقدار مُجمل من الزمان يطلق على ساعة وعلى أكثر.

{ **الدَّهْرِ** } الزمان الطويل، أو الزمان المقارن لوجود العالم الدنيوي.

{ **لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا** } <u>يجوز أن تكون الجملة نعتا</u> لـ { حِينٌ } بتقدير ضمير رابط بمحذوف لدلالة لفظ { حِينٌ } على أنّ العائد مجرور بحرف الظرفية حذف مع جاره. التقدير: لم يكن <u>فيه</u> الإنسان شيئا مذكورا، أي: كان معدوما في زمن سبق.

<u>ويجوز أن تكون الجملة حالا</u> من { الْإِنْسَانِ } ، وحذف العائد كحذفه في تقدير النعت.

الشيء: اسم للموجود.

المذكور: المعيَّن الذي هو بحيث يُذكر، أي: يُعبَّر عنه بخصوصه، ويُخبر عنه بالأخبار والأحوال.

{ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا } [2].

استئناف بياني مُترتِّب على التقرير الذي دلّت عليه الآية السابقة، لما فيها من التشويق.

والتقرير يقتضي الإقرار بذلك لا محالة لأنّه معلوم بالضرورة، فالسامع يتشوّف لما يرد بعد هذا التقرير، فقيل له: إنّ الله خلقه بعد أن كان معدوما فأوجد نطفة كانت معدومة ثم استخرج منها إنسانا، فثبت تعلق الخلّق بالإنسان بعد عدمه.

وتأكيد الكلم بحرف (إنّ) لتنزيل المشركين منزلة من ينكر أنّ الله خلق الإنسان، لعدم جريهم على موجب العلم حيث عبدوا أصناما لم يخلقوهم.

{ **الْإِنْسَانَ** } المراد به هنا مثل ما أريد به سابقا، أي: كلّ نوع الإنسان.
أُدمج في ذلك كيفية خلق الإنسان من نطفة، لما في تلك الكيفية من دقائق العلم الإلهي والقدرة والحكمة.
{ **نُطْفَةٍ** } تقدّم معنى النطفة في [القيامة:37].
{ **أَمْشَاجٍ** } مشتق من المشْج وهو الخلط، أي: نطفة مخلوطة، قال تعالى { سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ } [يّس:36]، وذلك تفسير معنى الخلط الذي أشير إليه هنا.

والصيغة ظاهرها صيغة جمع وعلى ذلك حملها الفراء وابن السكيت والمبرد، فهي إمّا جمع مِشْج (بكسر فسكون)، أي: ممشوج، أي مخلوط. أو جمع مَشَج (بفتحتين)، أو جمع مَشِج (بفتح فكسر).
وصف النطفة بالجمع باعتبار ما تشتمل عليه النطفة من أجزاء مختلفة الخواص، فلذلك يصير كل جزء من النطفة عضوا، ووصف النطفة بجمع الاسم للمبالغة، أي: شديدة الاختلاط.
والوجه ما ذهب إليه صاحب الكشاف: أنّها مفرد.
{ **نَبْتَلِيهِ** } في موضع الحال من الإنسان وهي حالة مقدَّرة، أي: مريدين ابتلاءه بعد بلوغه طور العقل والتكليف. وقد وقعت هذه الحال معترضة بين جملة { خَلَقْنَا } وبين { فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا }، لأنّ الابتلاء، أي: التكليف الذي يظهر به امتثاله أو عصيانه، إنّما يكون بعد هدايته إلى السبيل الخير، فكان مقتضى الظاهر أن يقع { نَبْتَلِيهِ } بعد جملة { إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ } [3]، ولكنّه قُدّم للاهتمام بهذا الابتلاء الذي هو سبب السعادة والشقاوة. وجيء بجملة { إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ } بيانا لجملة { نَبْتَلِيهِ } تفنُّنا في نظم الكلام.
الابتلاء: حقيقته الاختبار لتُعرف حال الشيء، وهو هنا كناية عن التكليف بأمر عظيم، لأنّ الأمر العظيم يظهر تفاوت المكلَّفين به في الوفاء بإقامته.
{ **فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا** } تفريع على خلقه { مِنْ نُطْفَةٍ }، وذلك إشارة إلى ما خلقه الله له من الحواس التي كانت أصل تفكيره وتدبيره، ولذلك جاء وصفه بالسميع البصير بصيغة المبالغة، ولم يقل فجعلناه: سامعا مبصرا، لأنّ سمع الإنسان وبصره أكثر تحصيلا وتمييزا في المسموعات والمبصرات من سمع وبصر الحيوان، فبالسمع يتلقّى الشرائع ودعوة الرسل، وبالبصر ينظر في أدلة وجود الله وبديع صنعه. وهذا تخلُّص إلى ما ميَّز الله به الإنسان من جعله تجاه التكليف وأتباع الشرائع، وتلك خصيصة الإنسان التي بها ارتكزت مدنيَّته وانتظمت جامعاته، ولذلك أُعقِبت هذه الجملة بقوله تعالى { إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ }.

{ **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا** } [3].
استئناف بياني لبيان ما نشأ عن جملة { نَبْتَلِيهِ }، ولتفصيل جملة { فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا }، وتخلُّص إلى الوعيد على الكفر، والوعد على الشكر.

{ **السَّبِيلَ** } الطريق الجادة.

هداية السبيل: تمثيل لحال المرشِد إلى ما فيه النفع بواسطة الرسل إلى العقائد الصحيحة والأعمال الصالحة، التي هي سبب فوزه بالنعيم الأبدي، بحال من يدلُّ السائر على الطريق المؤدية إلى مقصده من سيره. وهذا التمثيل ينحلّ إلى تشبيهات أجزاء الحالة المركَّبة المشبَّهة بأجزاء الحالة المشبَّه بها:

فالله تعالى كالهادي، والإنسان يشبه السائر المتحيّر في الطريق، وأعمال الدين تشبه الطريق، وفوز المتتبِّع لهدي الله يشبه البلوغ إلى المكن المطلوب.

وفي هذا نداءٌ على أنّ الله أرشد الإنسان إلى الحق وأنّ بعض الناس أدخلوا على أنفسهم ضلال الاعتقاد ومفاسد الأعمال، فمن برَّأ نفسه من ذلك فهو الشاكر وغيره الكفور.

وتأكيد الخبر بـ (إنَّ) للردّ على المشركين الذين يزعمون أنّ ما يدعوهم إليه القران باطل.

{ **إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا** } حالان من ضمير الغَيْبة في { هَدَيْنَاهُ }، وهو ضمير { الْإِنْسَانَ } [2].

{ **إِمَّا** } حرف تفصيل، وهو حرف بسيط عند الجمهور. وقال سيبويه: هو مركَّب من حرف (إن) الشرطية و(ما) النافية. المعنى: إنَّا هديناه السبيل، فإن أخذ بالهدى كان شاكرا وإن أعرض كان كفورا.

{ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا } [4].

أريد التخلُّص إلى جزاء الفريقين الشاكر والكفور.

الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا، لأنّ قوله تعالى { إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا } [3] يثير تطلُّع السامعين إلى معرفة آثار هذين الحالين، فابتدأ بجزاء الكافر، لأنّ ذكره أقرب.

وأُكِّد الخبر عن الوعيد لإدخال الروع عليهم لأنَّ المُتوعِّد إذا أكَّد كلامه فقد آذن بأنَّه لا هوادة له في وعيده.

{ **أَعْتَدْنَا** } أصلها أعَدَدْنا (بدالين)، أي: هيَّأنا للكافرين. قال تعالى { وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً } [يوسف:31].

السلاسل: القيود المصنوعة من حلق الحديد، يُقيَّد بها الجُناة والأسرى.

الأغلال: جمع غُل (بضم الغين)، حلقة كبيرة من حديد توضع في رقبة المقيَّد، وتناط بها السلسلة.

قال تعالى { إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ } [غافر:71]. فالأغلال والسلاسل توضع لهم عند سوقهم إلى جهنم.

السعير: النار المُسعَّرة، أي: التي سعَّرها الموقِدون بزيادة الوقود ليشتدّ التهابها. فهو في الأصل وصف بمعنى اسم المفعول جُعل عَلَما على جهنم. وتقدّم عند قوله تعالى { كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا } [الإسراء:97].

{ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا [5] عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا [6] }.

هذا استئناف بياني ناشئ عن الاستئناف الذي قبله، من قوله تعالى { إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلَا } [4]. فإنّ من عرف ما أُعِدَّ للكفور من الجزاء يتطلَّع إلى معرفة ما أُعِدَّ للشاكر من الثواب.

وأُخِّر تفصيله عن تفصيل جزاء الكفور مع أنّ { شَاكِرًا } مذكور قبل { كَفُورًا }، على طريقة اللف والنشر المعكوس، ليتَّسع المجال لإطناب الكلام على صفة جزاء الشاكرين وما فيه من الخير والكرامة، تقريبًا للموصوف من المشاهدة المحسوسة.

والتأكيد لدفع إنكار المشركين أن يكون المؤمنون خيرا منهم في عالم الخلود، ولإفادة الاهتمام بهذه البشارة بالنسبة إلى المؤمنين.

{ **الْأَبْرَارَ** } هم الشاكرون، عُبِّر عنهم بالأبرار زيادة في الثناء عليهم.

الأبرار: جمع بَرٌّ (بفتح الباء)، وجمع بار أيضا، والبار أو البرّ المكثر من البِرّ (بكسر الباء) وهو فعل الخير، ولذلك كان (**البَرُّ**) من أوصاف الله تعالى { إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ } [الطور:28]. ووصف بَرٌّ أقوى من بَارٌ في الاتصاف بالبِرّ، ولذلك يقال: الله بَرٌّ، ولم يقل: الله بار. ويُجمع بَرٌّ على بررة.

{ **يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ** } ابتُدئ في وصف نعيمهم بنعيم لذّة الشرب من خمر الجنّة، لما للذّة الخمر من الاشتهار بين الناس، وكانوا يتنافسون في تحصيلها.

الكأس: (بالهمز) الإناء المجعول للخمر، فلا يُسمَّى كأسا إلَّا إذا كان فيه خمر، وقد تُسمَّى الخمر كأسا على وجه المجاز المرسل بهذا الاعتبار كما سيجيء قريبا { وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا } [17].

{ **كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا** } إقحام فعل { كَانَ } في جملة الصفة لإفادة أنّ ذلك مزاجها لا يفارقها، إذ كان معتاد الناس في الدنيا ندرة ذلك المزاج لغلاء ثمنه وقلّة وجدانه.

المِزاج: (بكسر الميم) ما يُمزج به غيرُه، أي: يُخلط، وكانوا يمزجون الخمر بالماء إذا كانت معتَّقة شديدة.

الكافور: زيت يستخرج من شجرة تشبه الدِّفْلَى تنبت في بلاد الصين وجاوة، يتكوّن فيها إذا طالت مدّتها نحوا من مائتي سنة، فيُغلَّى حطبها ويُستخرج منه زيت يُسمَّى الكافور. وإذا نُقع حطب شجرة الكافور في الماء صار نبيذا يتخمّر فيصير مسكرا. والكافور أبيض اللون ذكي الرائحة منعش.

قيل: إنّ المزاج هنا مراد به الماء، والإخبار عنه بأنّه كافور من قبيل التشبيه البليغ، أي: في اللون أو ذكاء الرائحة. ويُحتمل أن يكونوا يمزجون الخمر بماء فيه الكافور أو بزيته، ولعلّ ذلك كان من شأن أهل الترف لأنّ الكافور ثمين وهو معدود في العطور. فيكون { مِزَاجُهَا } على حقيقته.

{ **عَيْنًا** } انتصب عن البدل من { كَافُورًا } أي: ذلك الكافور تجري به عين في الجنة من ماء محلول فيه أو من زيته، مثل قوله تعالى { وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى } [محمد:15].

{ **يَشْرَبُ بِهَا** } عُدِّي الفعل بالباء، وهي باء الإلصاق، لأنّ الكافور يُمزج به شرابهم. فالتقدير: عينا يشرب عباد الله خمرهم بها، أي: مصحوبا بمائها. وذهب الأصمعي إلى أنّ الباء هنا بمعنى (من) التبعيضية.

{ **عِبَادُ اللَّهِ** } مراد بهم: الأبرار. وهو إظهار في مقام الإضمار للتنويه بهم بإضافة عبوديتهم إلى الله تعالى إضافة تشريف.

التفجير: فتح الأرض عن الماء، أي: استنباط الماء الغزير. وأطلق هنا على الاستقاء منها بلا حَدّ ولا نضوب فكان كلّ واحد يُفجِّر لنفسه ينبوعا، وهذا من الاستعارة.

وأُكِّد فعل { يفجرونها تفجيرا } ترشيحا للاستعارة.

{ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا } [7].

اعتراض بين جملة { يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ ...} [5] وبين جملة { وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ ...} [15]. وهذا الاعتراض استئناف بياني هو جواب عن سؤال من شأن الكلام السابق أن يُثيره في نفس السامع المغتبِط بأن ينال مثل ما نالوا من النعيم والكرامة في الآخرة. فيهتم بأن يفعل مثلما فعلوا، فذُكر بعض أعمالهم الصالحة التي هي من آثار الإيمان، مع التعريض لهم بالاستزادة منها في الدنيا.

والكلام إخبار عنهم صادر في وقت نزول هذه الآيات، بعضه وصف لحالهم في الآخرة، وبعضه وصف لبعض حالهم في الدنيا الموجب لنوال ما نالوه في الآخرة.

{ **يُوفُونَ بِالنَّذْرِ** } تقديره: كانوا يوفون بالنذر. وليست الجملة حالا من { الْأَبْرَارَ } [5]وضميرهم، لأنّ الحال قيد لعاملها، فلو جُعلت حالا لكانت قيدا لـ { يَشْرَبُونَ } [5]، وليس وفاؤهم بالنذر بحاصل في وقت شربهم من خمر الجنة بل هو بما أسلفوه في الحياة الدنيا.

{ **يُوفُونَ** } جيء بصيغة المضارع للدلالة على تجدُّد وفائهم بما عقدوا عليه ضمائرهم من الإيمان والعمل الصالح، وذلك مشعر بأنّهم يكثرون نذر الطاعات وفعل القربات، ولولا ذلك لما كان الوفاء بالنذر موجبا الثناء عليهم.

الوفاء: أداء ما وجب على المؤدِّي وافيا دون نقص ولا تقصير فيه.

النذر: ما يعتزمه المرء ويعقد عليه نيَّته. والمراد به هنا: ما عقدوا عليه عزمهم من الإيمان والامتثال، وهو ما استحقوا به صفة { الْأَبْرَارَ } [5].

ويجوز ما ينذرونه من فعل الخير المتقرَّب به إلى الله، أي: ينشئون النذور بها ليوجبوها على أنفسهم.

{ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا } عطف على { يُوفُونَ بِالنَّذْرِ }،لأنّهم لمّا وُصِفوا بالعمل بما ينذرونه أتبع ذلك بذكر حُسْن نيّتهم وتحقُّق إخلاصهم في أعمالهم، لأنّ الأعمال بالنيّات، فجُمع لهم بهذا صحة الاعتقاد وحسن الأعمال.

{ وَيَخَافُونَ يَوْمًا } مجاز عقلي، لأنّهم إنّما يخافون ما يجري في ذلك اليوم من الحساب والجزاء على الأعمال السيّئة بالعقاب، فعُلِّق فعل الخوف بزمان الأشياء المخوفة.

وصيغة المضارع دالة على تجدّد خوفهم شرّ ذلك اليوم، على نحو قوله تعالى { يُوفُونَ بِالنَّذْرِ }.

{ كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا } وصف مشعر بعِلَّة خوفهم إيّاه. فالمعنى: أنّهم يخافون شر ذلك اليوم فيتجنَّبون ما يفضي بهم إلى شرّه من الأعمال المتوعَّد عليها بالعقاب.

{ كَانَ } للدلالة على تمكُّن الخبر من المخبر عنه، وإلّا فإنّ شرّ ذلك اليوم ليس واقعا في الماضي وإنّما يقع بعد مستقبل بعيد، ويجوز أن يُجعل ذلك من التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي تنبيها على تحقُّق وقوعه.

الشر: هنا العذاب والجزاء السوء.

المستطير: هو اسم فاعل من استطار القاصر، والسين والتاء للمبالغة، وأصله طار، مثل استكبر.

والطيران هنا مجازي مستعار لانتشار الشيء وامتداده، تشبيها له بانتشار الطير في الجو، ومنه قولهم: الفجر المستطير، وهو الفجر الصادق الذي ينتشر ضوءه في الأفق. ويقال: استطار الحريق إذ انتشر وتلاحق.

{ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا [8] إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا [9] إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا [10] }.

خَصِّص الإطعام بالذكر لما في إطعام المحتاج من إيثاره على النفس، كما أفاد قوله تعالى { عَلَى حُبِّهِ }.

والتصريح بلفظ الطعام مع أنّه معلوم من فعل { يُطْعِمُون } توطئة ليُبنى عليه الحال وهو { عَلَى حُبِّهِ }، فإنّه لو قيل: ويطعمون مسكينا ويتيما وأسيرا لفات ما في قوله { عَلَى حُبِّهِ } من معنى إيثار المحاويج على النفس، على أنّ ذكر الطعام بعد { يُطْعِمُون } يفيد تأكيدا مع استحضار هيئة الإطعام حتّى كأنّ السامع يشاهد الهيئة.

فالمعنى: أنّهم يطعمون طعاما هم محتاجون إليه.

المسكين: المحتاج.

اليتيم: فاقد الأب وهو مظنّة الحاجة، لأنّ أحوال العرب كانت قائمة على اكتساب الأب للعائلة بكدحه فإذا فُقد الأب تعرضت العائلة للخصاصة.

الأسير: إذ قد كانت السورة كلّها مكية قبل عزّة المسلمين، فالمراد من الأسير العبد من المسلمين إذ كان المشركون قد أجاعوا عبيدهم الذين أسلموا مثل بلال وعمّار وأمّه.

والعبودية تنشأ من الأسر فالعبد أسير، ولذلك يقال له العاني أيضا، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" فُكُّوا العاني "** وقال عن النساء: **" إنّهنّ عَوان عندكم "**.

وبهذا تعلم أن لا شاهد في هذه الآية لجعل السورة نزلت بالمدينة وفي الأسارى الذين كانوا في أسر المسلمين في غزوة بدر.

{ **إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا** } مقول قول محذوف تقديره: يقولون لهم، أي: للذين يطعمونهم، فهو في موضع الحال من ضمير { يُطْعِمُون }، وجملة {لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا} مبيّنة لمضمون جملة { إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ }.

المعنى: إنّهم يقولون ذلك لهم تأنيسا لهم ودفعا لانكسار النفس الحاصل عند الإطعام، أي: ما نطعمكم إلّا استجابة لما أمر الله، فالمطعم لكم هو الله.

وعن مجاهد أنّه قال: ما تكلّموا به ولكن علِمه الله فأثنى به عليهم.

الجزاء: ما هو عوض عن العطية من خدمة وإعانة.

الشُكور: مصدر بوزن الفُعول كالقُعود والجُلوس. والمراد ذكرهم بالمزيّة.

{ **إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا** } الجملة واقعة موقع التعليل لمضمون جملة { لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا }. فهي مقولٌ لقولٍ يقولونه في نفوسهم أو ينطق به بعضهم مع بعض.

والكلام على طريقة اللف والنشر المعكوس والداعي إلى عكس النشر مراعاة حسن تنسيق النظم ليكون الانتقال من ذكر الإطعام إلى ما يقولونه للمطعَمين، والانتقال من ذكر خوف يوم الحساب إلى بشارتهم بوقاية الله إيّاهم من شرّ ذلك اليوم وما يلقونه فيه من النضرة والسرور والنعيم.

{ **عَبُوسًا** } صفة لـ { يَوْمًا }، والمعنى: نخاف عذاب يوم هذه صفته، ففيه تأكيد الخوف بتكرير متعلّقه ومرجع التكرير إلى كونه خوف الله لأنّ اليوم يوم عدل الله وحكمه.

العبوس: صفة مشبّهة لمن هو شديد العبس، أي: كُلُوح الوجه وعدم انطلاقه، ووصف اليوم بالعبوس على معنى الاستعارة، شُبِّه اليوم الذي تحدث فيه حوادث تسوؤهم برجُل شرس الأخلاق عبوسا في معاملته.

القمطرير: الشديد الصعب من كلّ شيء. وعن ابن عباس القمطرير المُقبِض بين عينيه، مشتق من قمطر القاصر: إذا اجتمع، أو قمطر المتعدّي: إذا شَدَّ القربة بوكاء ونحوه.

والجمهور جعلوا { قَمْطَرِيرًا } وصف { يَوْمًا }، ومنهم من جعلوه وصف { عَبُوسًا }، أي: شديد العبوس.

وهذه الآية تعمّ جميع الأبرار وعلى ذلك التحم نسجها، وقد تلقّفها القصّاصون والدعاة ووضعوا لها قصصا مختلفة وجاؤوا بأخبار موضوعة وأبيات مصنوعة، فمنهم من زعم أنّ هذه الآية نزلت في علي

بن أبي طالب وفاطمة رضي الله عنهما، في قصة طويلة ذكرها الثعلبي والنقاش وساقها القرطبي بطولها ثم زيّفها. وذُكر عن الحكيم الترمذي أنّه قال في نوادر الأصول: هذا حديث مزوَّق مزيَّف.
وقيل نزلت في مطعم بن ورقاء الأنصاري، وقيل في رجل غيره من الأنصار، وقد استوفى ذلك كلّه القرطبي في تفسيره فلا طائل تحت اجتلابه، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله أهل لأن ينزل القرآن فيهم إلّا أنّ هذه الأخبار ضعيفة موضوعة.

{ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا [11] وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا [12] مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا [13] وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا [14] }.

تفريع على قوله تعالى { يُوفُونَ بِالنَّذْرِ - إلى قوله – قَمْطَرِيرًا } [7-10]. وفي هذا التفريع تلوين للحديث عن جزاء الأبرار وأهل الشكور، وهذا برزخ للتخلُّص إلى عَود الكلام على حسن جزاءهم أنّ الله وقاهم شرّ ذلك اليوم، وهو الشرّ المستطير المذكور آنفا، وقاهم إيّاه جزاء على خوفهم منه، وأنّه لقّاهم نظرة وسرورا جزاء على ما فعلوا من خير.
{ **بِمَا صَبَرُوا** } ادماج جامع لأحوال التقوى والعمل الصالح كلّه، لأنّ جميعه لا يخلوا عن تحمّل النفس لترك محبوب أو فعل ما فيه كُلفة، ومن ذلك إطعام الطعام على قلّته واحتياجهم.
{ **وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا** } جعل لهم نضرة، وهي حسن البشرة، وذلك يحصل من فرح النفس ورفاهية العيش قال تعالى { وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ } [القيامة:22].
{ **فَوَقَاهُمُ / وَلَقَّاهُمْ** } بينهما الجناس المحرَّف.
{ **وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا** } عطف على جملة { فَوَقَاهُمُ } وجملة { وَلَقَّاهُمْ } لتماثل الجمل الثلاث في الفعلية و صيغة الماضي، وهما مُحسِّنان من مُحسِّنات الوصل.
الحرير: اسم لخيوط من مفرزات دودة مخصوصة، وتقدّم في [فاطر:33].والمراد هنا: ما ينسج منه.
وكان الجزاء برفاهية العيش إذ جعلهم في أحسن المساكن وهو الجنّة، وكساهم أحسن الملابس وهو الحرير الذي لا يلبسه إلّا أهل فرط اليسار، فجمع لهم حسن الظرف الخارج وحسن الظرف المباشر وهو اللباس.
{ **مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ** } حال من ضمير الجمع في { جَزَاهُمْ }، أي: هم في الجنة متكئون على الأرائك.
الاتكاء: جلسة بين الجلوس والاضطجاع يستند فيها الجالس على مرفقه وجنبه ويمد رجليه، وكانت من شعار الملوك وأهل البذخ، ولهذا قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **أمّا أنا فلا آكل متكئا** ". وتقدّم ذلك عند

قوله تعالى { وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً } [يوسف:31].
{**الْأَرَائِكِ** } جمع أريكة: سرير عليه وسادة له حَجَلة (ستر يُنصب فوق السرير ليقي الحرّ والشمس). وقيل: كلّ ما يُتوسَّد ويُفترش ممّا له حشو يُسمَّى أريكة وإن لم تكن له حَجَلة، وفي الإتقان عن ابن الجوزي: أنّ الأريكة السرير بالحبشية.
{ **لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا** } حال ثانية من ضمير الغائب في { جَزَاهُمْ } أو صفة { جَنَّةً }. ونفي رؤية الشمس كناية عن نفي وجود الشمس الذي يلزمه انتفاء حرّ شعاعها، فهو من الكناية التلويحية.
الزمهرير: اسم للبرد القوي في لغة الحجاز.
المعنى: أنّ هواء الجنة معتدل لا ألم فيه بحال.
{ **وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا** } انتصب { دَانِيَةً } عطفا على { مُتَّكِئِينَ }، لأنّ هذا حال سببي من أحوال المتكئين، أي: ظلال شجر الجنة قريبة منهم. وإذ لم يُعهد وصف الظل بالقرب يظهر أنّ دنو الظلال كناية عن تدلّي الأدواح التي من شأنها أن تُظلِّل الجنات في معتاد الدنيا، ولكن الجنّة لا شمس فيها فيُستظلّ من حرّها، فتعيَّن أنّ التركيب مَثَلٌ يُطلق على تدلّي أفنان الجنة.
المعنى: أنّ أدواح الجنة قريبة من مجالسهم وذلك ممّا يزيدها بهجة وحسنا، وهو في معنى قوله تعالى { قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ } [الحاقة:23].
{ **وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا** } أي: سُخِّرت لهم قطوف تلك الأدواح وسُهِّلت لهم بحيث لا التواء فيها ولا صلابة تُتعب قاطفها بل يجتنونها بأسهل تناول.
{ **ذُلِّلَتْ** } استعير للتيسير، كما يقال: فرس ذلول: أي: مِطواع لراكبه، وبقرة ذلول، أي ممرَّنة على العمل.
القطوف: جمع قِطْف، وهو العنقود من التمر أو العنب. وضمير { قُطُوفُهَا } عائد إلى { جَنَّةً } أو إلى { ظِلالُهَا } باعتبار الظلال كناية عن الأشجار.
{ **تَذْلِيلًا** } مصدر مؤكِّد، أي: تذليلا شديدا منتهيًا.

{ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا [15] قَوَارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا [16] }.

عطف على جملة { يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ ...} [5]، كما اقتضاه التناسب بين جملة { يَشْرَبُونَ } وجملة { يُطَافُ عَلَيْهِمْ } في الفعلية والمضارعية، وذلك من أحسن أحوال الوصل. عاد الكلام إلى صفة مجالس شرابهم.
وهذه الجملة بيان لما أُجمِل في تلك، وإنّما عُطفت عليها لما فيها من مغايرة مع الجملة المعطوف عليها من صفة آنية الشراب، فلهذه المناسبة أُعقب ذكر مجالس أهل الجنة ومتكآتهم.

الطواف: مشي مكرَّر حول شيء أو بين أشياء، فلمّا كان أهل المتكأ جماعة كان دوران السقاء بهم طوافا.
الآنية: جمع إناء ممدودا بوزن أفعلة مثل وعاء وأوعية.
الإناء: يُطلق على كلّ وعاء يقصد للاستعمال والمداولة للأطعمة والأشربة ونحوهما سواء كان من خشب أو معدن أو فخار أو أديم أو زجاج، يوضع فيه ما يُشرب أو يُؤكل، أو يطبخ فيه، والظاهر أنّه لا يطلق على ما يُجعل للخزن فليست القربة بإناء، والكأس إناء والكوز إناء والإبريق إناء والصحفة إناء.
{ **مِنْ فِضَّةٍ** } وصفت هنا بأنّها من فضة، وبأنّها من ذهب في قوله تعالى { يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ } [الزخرف:71]. أي: تأتيهم آنيتهم من فضة في بعض الأوقات ومن ذهب في أوقات أخرى، لأنّ للذهب حسنا وللفضة حسنا فجعلت آنيتهم من المعدنين النفيسين لئلّا يفوتهم ما في كلٍّ من الحسن والجمال، أو يطاف عليهم بآنية من فضة وآنية من ذهب متنوعة متزاوجة لأنّ ذلك أبهج منظرا، مثاله قوله تعالى في مرّة { وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ } [21]، و قوله تعالى في مرة أخرى { يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ } [الكهف:31]. وكلّ ذلك لإدخال المسرّة على أنفسهم بحسن المناظر.
الأكواب: جمع كُوب: كوز لا عروة له ولا خرطوم، وتقدّم في [الزخرف:71]. وعطفُ { أَكْوَابٍ } على { بِآنِيَةٍ } من عطف الخاص على العام لأنّ الأكواب تحمل فيها الخمر لإعادة ملء الكؤوس.
القوارير: جمع قارورة، وأصل القارورة إناء شَبَه كوز. والغالب أنّ اسم القارورة للإناء من الزجاج، ويطلق على ما كان من زجاج وإن لم يكن إناء، كما في قوله تعالى { قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ } [النمل: 44].
{ **وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا** } تشبيه بليغ، والمعنى: إنّها مثل القوارير في شفيفها، والقرينة قوله تعالى { مِنْ فِضَّةٍ }، أي: هي من جنس الفضة في لون القوارير.
{ **قَوَارِيرَا** } الثاني، <u>يجوز</u> أن يكون تأكيدا لفظيا لنضيره لزيادة تحقيق أنّ لها رقة الزجاج. <u>ويجوز</u> أن يكون تكريرا لإفادة التصنيف، فيكون التكرير مثل ما في قوله تعالى { وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا } [الفجر:22].
{ **قَوَارِيرَا، قَوَارِيرَا** } كتبتا في المصحف بألف التي هي علامة تنوين. وقرأ نافع والكسائي وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر {قواريرًا} الأول والثاني منونين، وقرأ ابن عامر وأبو عمرو وحمزة وحفص عن عاصم بترك التنوين فيهما لمنع الصرف وعدم مراعاة الفواصل ولا المزاوجة.
{ **قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا** } <u>يجوز أن يكون ضمير الجمع</u> عائدا إلى { الْأَبْرَارَ } [5]، أو { عِبَادُ اللَّهِ } [6] الذي عادت إليه الضمائر المتقدّمة في قوله تعالى { يُفَجِّرُونَهَا } [6]، و{ يُوفُونَ } [7] إلى آخر الضمائر، فيكون معنى التقدير رغبتهم أن تجيء على وفق ما يشتهون.
<u>ويجوز أن يكون الضمير عائدا</u> إلى نائب الفاعل المحذوف المفهوم من بناء { يُطَافُ } للنائب، أي: الطائفون عليهم بها قدّروا الآنية والأكواب، أي: قدّروا ما فيها من الشراب على حسب ما يطلبه كل شارب منهم.

{ **تَقْدِيرًا** } مفعول مطلق مؤكِّد لعامله للدلالة على وفاء التقدير وعدم تجاوزه المطلوب ولا تقصيره عنه.

{ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا [17] عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا [18] }.

أُتبع وصف الآنية ومحاسنها بوصف الشراب. والقول في إطلاق الكأس على الإناء أو على ما فيه كالقول في نظيره المتقدّم في قوله تعالى { إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا } [5].

ومعنى الآية أنّ هذه سقية أخرى، أي: مرّة يشربون من كأس مزاجها الكافور ومرة يسقون كأسا مزاجها الزنجبيل.

زنجبيل: كلمة معرّبة وأصلها بالكاف الأعجمية عوض الجيم. قال الجواليقي والثعالبي: هي فارسية، وهو اسم لجذور تكون في الأرض كالجزر لونها إلى بياض لها نبات له زهر، وهي ذات رائحة عطرية طيبة وطعمها شبيه بطعم الفلفل. وقد عرفه العرب وذكره شعراء العرب في طيب الرائحة.

أي: يمزجون الخمر بالماء المنقوع فيه الزنجبيل لطيب رائحته وحس طعمه.

{ **عَيْنًا** } انتصب على البدل من { زَنْجَبِيلًا }، كما تقدّم في قوله تعالى { كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً، عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ } [6/5].

<u>ومعنى كون الزنجبيل عينا</u>: أنّ منقوعة أو الشراب المستخرج منه كثير كالعين، على نحو قوله تعالى { وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ } [محمد:15]، أي: هو كثير جدا وكان يُعرف في الدنيا بالعزّة.

{ **تُسَمَّى** } أي: أنّها توصف بهذا الوصف حتّى صار كالعَلَم لها، كما قال تعالى { لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى } [النجم:27]، أي: يصفونهم بأنّهم إناث، ومنه قوله تعالى { هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا } [مريم: 65]، أي: لا مثيل له.

<u>ومن المفسِّرين من جعل التسمية على ظاهرها</u> وجعل { سَلْسَبِيلًا } علما على هذه العين، وهو أنسب بقوله تعالى { تُسَمَّى }.

{ **سَلْسَبِيلًا** } وصف، قيل: مشتق من السلاسة وهي السهولة واللين، فيقال: ماء سلسل، أي: عذب بارد، قيل زيدت فيه (الباء) و(الياء) في أصل الوضع على غير قياس.

<u>وعندي</u> أنّ هذا الوصف رُكِّب من مادتي (السلاسة) و(السبالة)، يقال: سبلت السماء، إذا أمطرت، فسبيل فعيل بمعنى مفعول لإرادة سهولة شربه ووفرة جريه. وهذا من الاشتقاق الأكبر وليس اشتقاق تصريفي.

{ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُورًا } [19].

هذا طواف آخر غير طواف السقاة المذكور آنفا بقوله تعالى { وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ ...} [15].

{ **وِلْدَانٌ** } جمع وليد، يطلق الوليد على الصبي مجازا مشهورا بعلاقة ما كان، لقصد تقريب عهده

بالولادة، وأحسن ما يُتَّخذ للخدمة الولدان لأنّهم أخف حركة وأسرع مشيا ولأنّ المخدوم لا يتحرَّج إذا أمرهم أو نهاهم.

{ **مُخَلَّدُونَ** } وصفوا بذلك للاحتراس ممَّا يوهمه اشتقاق { وِلْدَانٌ } من أنّهم يشبُّون ويكتهلون، أي: لا تتغير صفاتهم فهم ولدان دوما، وإلّا فإنّ خلود الذوات في الجنّة معلوم فما كان ذكره إلّا لأنّه تخليد خاص.

{ **إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ** } خطاب لغير معيَّن، أي: إذا رآه الرائي.

{ **لُؤْلُؤاً مَنْثُورًا** } شُبِّهوا باللؤلؤ المنثور تشبيها مقيَّدًا فيه المشبَّه بحال خاص، لأنَّهم شُبِّهوا به في حسن المنظر مع التفرّق.

{ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا } [20].

الخطاب لغير معيَّن.

{ **ثَمَّ** } إشارة إلى المكان ولا يكون إلّا ظرفا، والمشار إليه هنا ما جرى ذكره، أعني الجنة المذكورة في قوله تعالى { وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً } [12].

{ **رَأَيْتَ** } الفعل الأول، منزَّل منزلة اللازم، يدلّ على حصول الرؤية فقط لا تعلُّقها بمرئي، أي: إذا وُجِّهت نظرك. و{ رَأَيْتَ } الثاني جواب { إِذَا }، أي: إذا فتحت عينك ترى نعيما.

{ **وَمُلْكًا كَبِيرًا** } تشبيه بليغ، أي: مثل أحوال الملك الكبير.وفائدة هذا التشبيه تقريب المشبَّه لمدارك العقول.

{ **كَبِيرًا** } مستعار للتعظيم، وهو زائد على النعيم بما فيه من رفعة وتذليل للمصاعب.

{ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا} [21].

هذه أشياء من شعار الملوك في عرف الناس زمانئذ، فهذا مرتبط بقوله تعالى { وَمُلْكًا كَبِيرًا } [20].

{ **سُنْدُسٍ خُضْرٌ** } إضافة بيانية، مثل: خاتم ذهب، وثوب خز. أي: منه. ولون الأخضر أمتع للعين، وكان من شعار الملوك. والظاهر أنّ السندس كان لا يُصبغ إلّا أخضر اللون.

السندس: الديباج الرقيق. و**الإستبرق**: الديباج الغليظ.

وتقدّما عند قوله تعالى { وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ } [الكهف:31]، وهما معرَّبان.

<u>المعنى</u>: أنّ فوقهم ثيابا من الصنفين يلبسون هذا وذاك جمعا بين محاسن كليهما، وهي أفخر لباس الملوك وأهل الثروة.

الأساور: جمع سِوار، وهو حَلْي شكله أسطواني فارغ الوسط يلبسه النساء في معاصمهنّ ولا يلبسه الرجال إلّا الملوك، وقد ود في الحديث ذكر سواري كسرى.

<u>المعنى</u>: أنّ حال رجال أهل الجنة حال الملوك، ومعلوم أنّ النساء يتحلَّينَ بأصناف الحلي.

{ **مِنْ فِضَّةٍ** } وفي سورة الكهف وصفت الأساور بأنّها { مِنْ ذَهَبٍ } في قوله تعالى { يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ } [الكهف:31]، أي: مرّة يُحلون هذه ومرة الأخرى، أو يحلونهما جميعا، كما ذكرناه في تفسير قوله تعالى { قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ } [16].

{ **وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا** } هذا احتراس ممّا يوهمه شربهم من الكأس الممزوجة بالكافور والزنجبيل من أن يكون فيها ما في أمثالها المعروفة في الدنيا من الغَول وسوء القول والهذيان، فعُبِّر عن ذلك بكون شرابهم طهورا، بصيغة المبالغة في الطهارة وهي النزاهة من الخبائث، أي: منزَّها عمَّا في غيره من الخباثة والفساد.

{ **وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ** } أسند سقيهم إلى ربّهم إظهارا لكرامتهم، أي: هو من أمر بسقيهم.

{ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا } [22].

هذا الكلام مقول قول محذوف قرينته الخطاب، إذ ليس يصلح لهذا الخطاب، ممّا تقدم من الكلام، إلّا أن يكون المخاطَبون هم الأبرار الموصوف نعيمهم. والتقدير: يقال: لهم، أو يقول لهم ربّهم.

{ **هَٰذَا** } الإشارة إلى ما يكون حاضرا لديهم من ألوان النعيم الموصوف فيما مضى من الآيات.

والمقصود من ذلك الثناء عليهم بما أسلفوا من تقوى الله وتكرمتهم بذلك وتنشيط أنفسهم بأنّ ما أُنعم به عليهم هو حقّ لهم جزاء على عملهم.

{ **كَانَ لَكُمْ** } إقحام فعل { كَانَ } للدلالة على تحقيق كونه جزاء لا مَنًّا عليهم بما لم يستحقّوا، فإنّ من تمام الإكرام عند الكِرام أن يُتبعوا كرامتهم بقول ينشط له المُكْرَم ويزيل عنه ما يعرض من خجل ونحوه، أي: هو جزاء حقًّا لا مبالغة في ذلك.

{ **وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا** } علاوة على إيناسهم بأنّ ما أُغدق عليهم كان جزاء لهم على ما فعلوا، أُخبروا بأنّ سعيهم، الذي كان النعيم جزاء عليه، هو سعي مشكور، أي: مشكور ساعيه، فأسند المشكور إلى السعي على طريقة المجاز العقلي مثل قولهم: سيل مُفعم.

ولك أن تجعل { مَشْكُورًا } مفعولا حقيقة عقلية لكن على طريقة الحذف والإيصال، أي: مشكورا عليه.

{ **كَانَ** } كإقحام نظيره آنفا.

{ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا** [23] **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا** [24] }.

استئناف للانتقال من الاستدلال على ثبوت البعث بالحجّة والترهيب والوعيد للكافرين به، والترغيب والوعد للمؤمنين به بمرهِّبات ومرغِّبات هي من الأحوال التي تكون بعد البعث، فلمَّا استوفى ذلك ثُني عِنان الكلام إلى تثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم والربط على قلبه لدفاع أن تلحقه آثار الغمّ على تصلّب قومه في كفرهم وتكذيبهم بما أُنزل عليه ممّا شأنه أن يوهن العزيمة البشرية، فذكَّره الله بأنّه هو الذي نزَّل عليه الكتاب لئلَّا يعبأ بتكذيبهم.

وفي إيراد هذا، بعد طول الكلام في أحوال الآخرة، قضاء لحقّ الاعتناء بأحوال الناس في الدنيا، فابتدئ بحال أشرف الناس وهو الرسول صلى الله عليه وسلم، ثمّ بحال الذين دعاهم الرسول صلى الله عليه وسلم بين من { يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ } [27] و{ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا } [29]، فأدخلهم في رحمته.

وتأكيد الخبر بـ (إنّ) للاهتمام به.

{ **إِنَّا نَحْنُ** } تأكيد الضمير المتّصل بضمير منفصل لتقرير مدلول الضمير تأكيدا لفظيا للتنبيه على عظمة ذلك الضمير ليفضي بع إلى زيادة الاهتمام بالخبر. وهذا من الكناية الرمزية.

{ **نَزَّلْنَا** } إيثار هذا الفعل الدال على تنزيله منجَّما آياتٍ وسورًا تنزيلًا مفرّقًا إدماج للإيماء إلى أنّ ذلك كان من حكمة الله تعالى التي أومأ إليها تأكيد الخبر بـ (إن) وتأكيد الضمير المتصل بالضمير المنفصل، فأجتمع فيه تأكيد على تأكيد وذلك يفيد مفاد القصر. فالمعنى: ما نزَّل عليك القرآن إلّا { نَحْنُ }.

وفيه تعريض بالمشركين الذين قالوا { لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً } [الفرقان:32]، فجعلوا تنزيله مفرَّقا شبهة في أنّه ليس من عند الله.

{ **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ** } فُرِّع على هذا التمهيد أمره بالصبر على أعباء الرسالة وما يلقاه فيها من أذى المشركين، وشَدُّ عزيمته أن لا تخور. وعدِّي الفعل باللام لتضمين الصبر معنى الخضوع والطاعة للأمر الشاق، وقد يُعدَّى بحرف (على)، كما قال تعالى { وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ } [المزمل:10]. ومناسبة مقام الكلام تُرجِّح إحدى التعديتين.

{ **لِحُكْمِ رَبِّكَ** } سُمِّي ذلك حكمًا لأنّ الرسالة من عند الله لا خيرة للمرسَل في قبولها والاضطلاع بأمورها، ولأنّ ما يحفُّ بها من مصاعب إصلاح الأمّة وحملها على ما فيه خيرها في العاجل والآجل، وتلقِّي أصناف الأذى في خلال ذلك حتّى يُتِمَّ ما أمر الله به، كلّ ذلك كالحكم على الرسول بقبول ما يبلغ منتهى الطاقة.

{ **وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا** } لمّا كان من رغباتهم أن يترك تحقير دينهم وأصنامهم، وربما عرضوا عليه المصاهرة وبذل المال، أُعقِب أمره بالصبر بأن نهاه عن أن يطيعهم في تلك الرغبات.

ومن تلك الرغبات؛ طرد ضعفاء المؤمنين من المجلس، والإتيان بقرآن غير هذا أو تبديله بما يشايع

أحوالهم، وأن يكف عن تحقير آلهتهم، والجهر بصلاته، فحذَّره الله من الاستماع إلى قولهم.
والمقصود من هذا النهي تأييسهم من استجابته لهم.
الطاعة: امتثال الطلب بفعل المطلوب وبالكف عن المنهي عنه.
{ **آثِمًا أَوْ كَفُورًا** } كان مقتضى الظاهر أن يقول: ولا تطعهم، أو ولا تطع منهم أحدا، فعدل عنه إلى الإشارة بالوصفين إلى أنّ طاعتهم تفضي إلى ارتكاب إثم أو كفر.
والآثم والكفور متلازمان فكان ذكر أحد الوصفين مغنيا عن الآخر ولكن جُمع بينهما لتشويه حال المتّصف بهما، قال تعالى { وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ } [البقرة:276].
وفي ذكر هذين الوصفين إشارة أيضا إلى زعيمين من زعماء الكفر والعناد وهما عتبة بن ربيعة، والوليد بن المغيرة، لأنّ العتبة اشتهر بارتكاب المآثم والفسوق، والوليد اشتهر بشدة الشكيمة في الكفر والعتو.
قيل: عرض عتبة على النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يرجع عن دعوة الناس إلى الإسلام ويزوّجه ابنته، وكانت من أجمل نساء قريش. وعرض الوليد علية أن يعطيه من المال ما يرضيه ويرجع عن الدعوة، وكان الوليد من أكثر قريش مالا، وهو الذي قال الله في شأنه { وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا } [المدثر:12].
فيكون في إيثار هذين الوصفين بالذكر إدماج لذمّهما والتلميح لقصّتهما.

{ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا [25] وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا [26] }.
أي: أقبل على شأنك من الدعوة إلى الله وذكر الله بأنواع الذكر. وهذا إرشاد إلى ما فيه عون له على الصبر على ما يقولون.
{ **اذْكُرِ**} الأمر مستعمل في مطلق الطلب من وجوب ونفل.
{ **اسْمَ رَبِّكَ** } يشمل تبليغ الدعوة ويشمل عبادة الله في الصلوات المفروضة والنوافل ويشمل الموعظة بتخويف عقابه ورجاء ثوابه.
{ **بُكْرَةً وَأَصِيلًا** } المراد استغراق أوقات النهار، أي: لا يصدَّك إعراضهم عن معاودة الدعوة وتكريرها طرفي النهار. ويدخل في ذكر الله الصلوات، مثل قوله تعالى { وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ، وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } [هود:115/114] وكذلك النوافل التي هي من خصائص النبيّ صلى الله عليه وسلم بين مفروض منها وغير مفروض.
{ **بُكْرَةً** } هي أوّل النهار، { **وَأَصِيلًا** } عشيا.
{ **وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ** } وهذا خاص بصلاة الليل فرضا ونفلا، كما تقدّم في قوله تعالى { قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً } [المزمل:2].
{ **وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا** } جملة معطوفة على جملة { مِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ }، فتعيَّن أنّ التسبيح التنفُّل.

التسبيح: التنزيه بالقول وبالاعتقاد، ويشمل الصلوات والأقوال الطيبة والتدبّر في دلائل صفات الله وكمالاته، وغلب إطلاق مادة التسبيح على الصلاة النافلة، قال تعالى { وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ } [الطور:48]، أي: من الليل. وعن عبد الملك بن حبيب: { وَسَبِّحْهُ } هنا صلاة التطوّع في الليل.

{ **طَوِيلًا** } صفة { لَيْلًا } وحيث وُصف الليل بالطول بعد الأمر بالتسبيح فيه، عُلم أنّ { لَيْلًا } أريد به أزمان الليل لأنّه مجموع الوقت المقابل للنهار، فتعيّن أن وصف الطول تقييد للأمر بالتسبيح، أي: سبحه أكثر الليل، فهو في معنى قوله تعالى { قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا - إلى قوله - أَوْ زِدْ عَلَيْهِ } [المزمل:2-4].

وهذه الآية جاءت على وفق قوله تعالى { وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ } [الحجر:98/97]، وقوله تعالى { وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا، رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا، وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ } [المزمل:8-10].

{ إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلًا [27] }.

تعليل للنهي عن إطاعتهم في قوله تعالى { وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا } [24]، أي: لأنّ خُلُقهم الانصباب على الدنيا مع الإعراض عن الآخرة، إذ هم لا يؤمنون بالبعث.

{ **إِنَّ** } موقعها موقع التعليل وهي بمنزلة فاء السببية، كما نبّه عليه الشيخ عبد القاهر.

{ **هَؤُلاءِ** } إشارة إلى حاضرين في ذهن المخاطَب لكثرة الحديث عنهم.

وقد استقريت من القرآن أنّه إذا أطلق { هَؤُلاءِ } دون سبق ما يكون مشارا إليه فالمقصود به المشركون.

{ **يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ** } صيغة المضارع تدل على تكرّر ذلك، أي: أنّ ذلك دأبهم وديدنهم لا يشاركون مع حب العاجلة حبّ الآخرة. والمتعلّق مضاف محذوف، تقديره: نعيم أو منافع، لأنّ الحب لا يتعلّق بذات الدنيا.

{ **الْعَاجِلَةَ** } صفة لموصوف محذوف معلوم من المقام تقديره: الحياة العاجلة، أو الدار العاجلة.

وكثر في القرآن إطلاق العاجلة على الدنيا، كقوله تعالى { كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ } [القيامة:21/20]، فشاع بين المسلمين تسمية الدنيا بالعاجلة.

وفي إيثار ذكر الدنيا بوصف العاجلة توطئة للمقصود من الذمّ لأنّ وصف العاجلة يؤذن بأنّهم آثروها لأنّها عاجلة. وفي ذلك تعريض بتحميقهم إذ رضوا بالدون لأنّه عاجل وليس ذلك من شيم أهل التبصّر.

{ **وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا** } واقع موقع التكميل لمناط ذمّهم وتحميقهم لأنّهم لو أحبّوا الدنيا مع الاستعداد للآخرة لما كانوا مذمومين، قال تعالى حكاية لقول الناصحين لقارون { وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا } [القصص:77]. وهذا نظير قوله تعالى { يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ } [الروم:7]، إذ كان مناط الذمّ فيه هو أن قصروا أنفسهم على علم أمور الدنيا مع الإعراض عن العلم بالآخرة.

{ **وَيَذَرُونَ** } صيغة المضارع تقتضي أنّهم مستمرّون على ذلك، وهو متجدّد فيهم ومتكرّر لأنّهم لا يؤمنون بحلول ذلك اليوم.

اليوم الثقيل: هو يوم القيامة، وصف بالثقيل على وجه الاستعارة لشدّة ما يحصل فيه من المتاعب والكروب فهو كالشيء الثقيل الذي لا يُستطاع حمله. قال تعالى { ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [لأعراف:187]، وقال تعالى { إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا } [المزمل:5].

{ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا } [28].

لمَّا كان الإخبار عنهم بأنّهم { وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلًا } [27] يتضمَّن أنّهم يُنكرون وقوع ذلك اليوم، كما قدّمناه، وكان الباعث لهم على إنكاره شبهة استحالة إعادة الأجساد بعد بلاها وفنائها، وكان الكلام السابق مسوقا مساق الذمّ لهم والإنكار عليهم، جيء هنا بما هو دليل للإنكار عليهم وإبطال لشبهتهم ببيان إمكان إعادة خلقهم، يُعيده الذي خلقهم أوّل مرّة، كما قال تعالى { فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ } [الاسراء:51]، وغير ذلك من الآيات الحائمة حول هذا المعنى.

{ **نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ** } افتتاح الجملة بالمبتدأ المخبر عنه بالخبر الفعلي، لإفادة تقوّي الخبر وتحقيقه بالنظر إلى المعنيّين بهذا الكلام وإنّ لم يكن خطابا لهم ولكنهم هم المقصود منه. وتقوية الحكم بناء على تنزيلهم منزلة من يشك في أنّ الله خلقهم حيث لم يجرؤوا على موجب العلم فأنكروا أنّ الله يعيد الخلق بعد البلى، فكأنّهم يُسندون الخلق الأول لغيره. وهذا التقوّي هنا مشعر بأنّ كلاما يعقبه هو مصب التقوّي.

الشدّ: الإحكام وإتقان ارتباط أجزاء الجسد بعضها ببعض بواسطة العظام والأعصاب والعروق إذ بذلك يستقل الجسم.

الأسر: الربط وأطلق هنا على الإحكام والإتقان على وجه الاستعارة.

والمعنى: أحكمنا ربط أجزاء أجسامهم فكانت مشدودا بعضها على بعض.

{ **وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا** } تقوي الحكم السابق يترتّب عليه أنّه إذا شاء بدّل أمثالهم بإعادة أجسادهم، فلذلك لم يحتج إلى تأكيد هذه الجملة استغناء بتولّد معناها عن معنى التي قبلها، وإن كان هو أولى بالتقوية على مقتضى الظاهر.

{ **وَإِذَا شِئْنَا** } اجتلاب { إِذَا } في هذا التعليق لأنّ شأنها أن تفيد اليقين بوقوع ما قُيّد بها بخلاف حرف (إن) فهو إيماء إلى أنّ حصول هذه المشيئة مستقرَب الوقوع. فيجوز أن يكون هذا بمنزلة النتيجة لقوله { نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ }، ويُحمل الشرط على التحقّق. ويجوز أن يكون قوله تعالى { وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا } تهديدا لهم على إعراضهم وجحودهم للبعث، أي: لو شئنا لأهلكناهم وخلقنا خلقا آخر مثلهم، كقوله تعالى { إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ } [ابراهيم:19].

وقد تقدّم نظيره في قوله تعالى { عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ } [الواقعة:61]، ومنه قوله تعالى { إِنَّا لَقَادِرُونَ

عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ } [المعارج [40-41] فالتقدير: بدّلنا منهم.
الأمثال: جمع مثل وهو المماثل في ذات أو صفة، فيجوز أن يراد أمثالهم في أشكال أجسادهم وهو التبديل الذي سيكون في المعاد. ويجوز أن يراد أمثالهم في أنّهم أمم. وعلى الوجه الأول فهو يدل على أنّ البعث يحصل بخلق أجسام على مثال الأجساد التي كانت في الحياة الدنيا للأرواح التي كانت فيها.
{ **تَبْدِيلًا** } انتصب على المفعول المطلق الموكِّد لعامله، للدلالة على أنّه تبديل حقيقي، وللتوصُّل بالتنوين إلى تعظيمه وعجوبته.

{ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا } [29].

استئناف ابتدائي للانتقال من بسط التذكير والاستدلال إلى فذلكة الغرض وحوصلته، إشعارا بانتهاء المقصود وتنبيها إلى فائدته، ووجه الانتفاع به، والحثّ على التدبّر فيه، واستثمار ثمرته، وباعتبار ما تفرَّع عن هذه الجملة من قوله تعالى { فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا } يقوى موقع الفذلكة للجملة.
{ **إِنَّ** } تأكيد، لأنّ حال المخاطَبين عدم اهتمامهم بها فهم ينكرون أنّها تذكرة.
{ **هَذِهِ** } الإشارة إلى الآيات المتقدّمة أو إلى السورة، ولذلك أتي باسم الإشارة المؤنث.
التذكرة: مصدر ذكَّره، مثل التزكية، أي: كلَّمَه كلاما يُذَكِّره به ما عسى أن يكون نسيه. أطلقت هنا على الموعظة بالإقلاع عن عمل سيّئ والإقبال على عمل صالح، وعلى وضوح الخير والشر لمن تذكّر، بتشبيه حالة المُعرِض عن الخير المشغول عنه بحالة الناسي له، لأنّ شأنه ألّا يفرِّط فيه إلّا من كان ناسيا، لما فيه من نفع له.
{ **فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا** } فُرِّع علي التذكرة الحثّ على سلوك سبيل مرضاة الله. أي: ليس بعد هذه التذكرة إلّا العمل بها إذا شاء المتذكِّر أن يعمل بها.
{ **فَمَنْ شَاءَ** } حثّ على المبادرة بذلك، لأنّ مشيئة المرء في مكنته فلا يمنعه منها إلّا سوء تدبيره.
وهذا حث وتحريض فيه تعريض للمشركين بأنّهم أبوا أن يتذكّروا عنادا وحسدا.
اتخاذ السبيل: سلوكه، عُبِّر عن السلوك بالاتخاذ على وجه الاستعارة، لأنّ السبيل مستعار هنا لسبب الفوز بالنعيم والزلفى.
{ **إِلَى رَبِّهِ** } أي: سبيلا مُبَلِّغة إلى الله، أي: إلى إكرامه.
وهذه السبيل هي التوبة، فالتائب مثل الذي كان ضالا فاهتدى إلى الطريق التي يرجع منها إلى مقصده.
وقد تقدم نظير هذه الآية في [المزمل:19].

{ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا } [30].

لما ناط اختيارهم سبيل مرضاة الله بمشيئتهم أعقبه بالتنبيه إلى الإقبال على طلب مرضاة الله للتوسُّل

برضاه إلى تيسير سلوك سبل الخير لهم، لأنّهم إذا كانوا منه بمحل الرضى والعناية لطف بهم ويسَّر لهم ما يعسُر على النفوس من المصابرة على ترك الشهوات المهلكة، قال تعالى { فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى } [الليل:7]، فإذا لم يسعوا إلى مرضاة ربّهم وَكَلَهم إلى أحوالهم التي تعوَّدوها، وهو الذي أفاده قوله تعالى { فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى } [الليل:10]، أي: نتركه وشأنه فتتيسَّر عليه العسرى، أي: تلحق به بلا تكلّف ومجاهدة.

{ **وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ** } يجوز أن تكون عطفا على جملة { فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً } [29]، أو حالا من { مَنْ يَشَاءُ } [31]، وهي على كلا والوجهين تتميم واحتراس.

{ **تَشَاءُونَ** } حُذف المفعول لإفادة العموم، عموم الأحوال والأزمنة، أي: ما تشاءون شيئا في وقت من الأوقات أو في حال من الأحوال.

{ **إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا** } عُلِّل ارتباط حصول مشيئتهم بمشيئة الله، بأنّ الله عليم حكيم، أي: عليم بوسائل إيجاد مشيئتهم الخير، حكيم بدقائق ذلك ممَّا لا تبلغ إلى معرفة دقائقه بالكنه عقول الناس.

{ **كَانَ** } يدلّ على أن وصفه تعالى بالعلم والحكمة وصف ذاتي، لأنّهما واجبان له.

وبهذا بطل مذهب الجبرية لأنّ الآية أثبتت مشيئة للناس وجعلت مشيئة الله شرطا فيها، لأنّ الاستثناء في قوّة الشرط، فللإنسان مشيئته لا محالة.

وأمّا مذهب المعتزلة فغير بعيد من قول الأشعري إلّا في العبارة بالخلق أو بالكسب، وعبارة الأشعري أرشق وأعلق بالأدب مع الله الخالق.

{ **يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** } [31].

يجوز أن تكون الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا ناشئا عن جملة { وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ } [30]، إذ يتساءل السامع على أثر مشيئة الله في حال من اتخذ إلى ربه سبيلا ومن لم يتخذ إليه سبيلا، فيُجاب بأنّه يُدخل في رحمته من شاء أن يتّخذ إليه سبيلا، وأنّه أعدَّ لمن لم يتّخذ إليه سبيلا عذابا أليما، وأولئك هم الظالمون.

ويجوز أن تكون الجملة خبر { إِنَّ } في قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ } [30] وتكون جملة { كَانَ عَلِيماً حَكِيماً } [30] معترضة بين اسم { إِنَّ } وخبرها، أو تكون حالا، وهي على التقديرين منبئة بأنّ إجراء وصفي العليم الحكيم على اسم الجلالة مراد به التنبيه على أنّ فعله كلّه، من جزاء برحمة أو بعذاب، جار على حسب علمه وحكمته.

{ **الظَّالِمِينَ** } انتصب على أنّه مفعول لفعل محذوف يدلّ عليه المذكور، على طريقة الاشتغال، والتقدير: أوْعدَ الظالمين، أو كافأ، أو نحو ذلك ممَّا يُقدِّره السامع مناسبا للفعل المذكور بعده.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المرسلات

لم ترد لها تسمية صريحة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم. وسُمِّيت في عهد الصحابة سورة (**والمرسلات عُرفًا**)، ففي حديث عبد الله بن مسعود في الصحيحين قال: " بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غارٍ بمنى إذ نزلت عليه سورة والمرسلات عرفا فإنّه ليتلوها وإنّي لأتلقاها من فيه، وإنّ فَاهُ لرطبٌ بها إذ خرجت علينا حيّة ... ".

وفي الصحيح عن ابن عباس قال: قرأت سورة والمرسلات عرفا فسمعتني أم الفضل (امرأة العباس) فبكت وقالت: بُنَيَّ أذكرتني بقراءتك هذه السورة أنّها لآخر ما سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها في صلاة المغرب ".

وسُمِّيت (**سورة المرسلات**)، روى أبو داود عن ابن مسعود: " كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يقرأ النظائر السورتين في ركعة؛ الرحمن والنجم في ركعة، واقتربت والحاقة في ركعة " ثم قال: " وعم يتساءلون والمرسلات في ركعة ".

واشتهرت في المصاحف باسم (**المرسلات**)، وكذلك في التفاسير وفي صحيح البخاري.

وهي مكية عند جمهور المفسّرين من السلف، وذلك ظاهر حديث ابن مسعود المذكور آنفا، وهو يقتضي أنّها من أوائل سور القرآن نزولا لأنّها نزلت والنبيّ صلى الله عليه وسلم مختفٍ في غارٍ بمنى مع بعض أصحابه.

وهي السورة الثالثة والثلاثون في عِداد ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد.

وأتفق العادُّون على عَدِّ **آيها خمسين**.

أغراض السورة

*/ الاستدلال على وقوع البعث عقب فناء الدنيا ووصف بعض أشراط ذلك.

*/ الاستدلال على إمكان إعادة الخلق بما سبق من خلق الإنسان وخلق الأرض.

*/ وعد منكريه بعذاب الآخرة ووصف أهواله.

*/ التعريض بعذاب لهم في الدنيا كما استؤصلت أمم مكذِّبة من قبل. ومقابلة ذلك بجزاء الكرامة للمؤمنين.

*/ إعادة الدعوة إلى الإسلام والتصديق بالقرآن لظهور دلائله.

{ **وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا [1] فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا [2] وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا [3] فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا [4] فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا [5] عُذْرًا أَوْ نُذْرًا [6] إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ [7]** }.

قَسَم بمخلوقات عظيمة دالة على عظيم علم الله تعالى وقدرته.

والمقصود من هذا القسم تأكيد الخبر، وفي تطويل القسم تشويق السامع لتلقِّي المقسَم عليه.

فيجوز أن يكون المراد بموصوفات هذه الصفات نوعا واحدا، ويجوز أن يكون نوعين أو أكثر من المخلوقات العظيمة. ومشى صاحب الكشاف على أنّ المقسّم بها كلّهم ملائكة.

{ **وَالْمُرْسَلاتِ** } قال ابن مسعود وأبو هريرة ومقاتل وأبو صالح والكلبي ومسروق: هي الملائكة. وقال ابن عباس وقتادة: هي الرياح.

فإذا جعل وصفا للملائكة كان المعنيّ بهم المرسلين إلى الرسل والأنبياء مثل جبريل في إرساله بالوحي وغيره من الملائكة الذين يبعثهم الله إلى بعض أنبيائه بتعليم أو خبر أو نصر، كما في قوله تعالى عن زكريا { فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ } [آل عمران:39]، أو المرسلين بتنفيذ أمر الله بالعذاب مثل المرسلين إلى قوم لوط.

{ **عُرْفًا** } حال مفيدة معنى التشبيه البليغ، أي: مثل عرف الفرس في تتابع الشعر بعضه ببعض، وهو صالح لوصف الملائكة ولوصف الريح.

{ **فَالْعَاصِفَاتِ** } قال الجمهور: الرياح، ولم يحك الطبري فيه مخالفا، وقال القرطبي: الملائكة.

{ فَالْعَاصِفَاتِ } تفريع على { الْمُرْسَلاتِ }، أي: تُرسَل فتعصف، والعصف يطلق على قوّة هبوب الريح، فإن أريد بالمرسلات وصف الرياح فالعصف حقيقة، وإن أريد بالمرسلات وصف الملائكة فالعصف تشبيه لنزولهم في السرعة بشدّة الريح، وذلك في المبادرة في سرعة الوصول بتنفيذ ما أمروا به.

{ **عَصْفًا** } مؤكِّد للوصف تأكيدا لتحقيق الوصف، إذ لا داعي لإرادة رفع احتمال المجاز.

فالأرجح أنّ المرسلات والعاصفات صفتان للرياح، وأنّ ما بعدها صفات للملائكة، والواو الثانية للعطف وليست حرف قسم. ومناسبة الجمع بين هذين الجنسين في القسم أنّ كليهما من الموجودات العلوية لأنّ الأصل في العطف بالواو أن يكون المعطوف بها ذاتا غير المعطوف عليه.

{ **وَالنَّاشِرَاتِ** } قال ابن عباس والضحاك وأبو صالح: الملائكة. وقال ابن مسعود ومجاهد: الرياح.

النشر: حقيقته ضدّ الطي، ويكثر استعماله مجازا في الإظهار والإيضاح وفي الإخراج.

إذا جُعل وصفا للملائكة جاز أن يكون نشرهم الوحي، أي: تكرير نزولهم لذلك، وأن يكون النشر كناية عن الوضوح، أي: بالشرائع البيّنة.

وإذ جُعل وصفا للرياح فهو نشر السحاب في الأجواء، فيكون عطفه بالواو دون الفاء للتنبيه على أنّه معطوف على { الْمُرْسَلاتِ } لا على { فَالْعَاصِفَاتِ }، لأنّ العصف حالة مضرّة والنشر حالة نفع.

{ **نَشْرًا** } القول في تأكيده وتنوينه كالقول في { عَصْفًا }.

{ **فَالْفَارِقَاتِ** } الفرق: التمييز بين الأشياء، فإذا كان وصفا للملائكة فهو **صالح للفرق الحقيقي** مثل تمييز أهل الجنة عن أهل النار يوم الحساب، وتمييز الأمم المعذَّبة في الدنيا عن الذين نجّاهم الله من العذاب، مثل قوم نوح عن نوح، وعاد عن هود، وقوم لوط عن لوط وأهله عدا امرأته، **وصالح للفرق المجازي**، وهو أنّهم يأتون بالوحي الذي يفرق بين الحق والباطل، وبين الإيمان والكفر.

وإن جُعل وصفا للرياح فهو من آثار النشر، أي: فرقُها جماعات السُّحب على البلاد.

ولتفرُّع الفرق بمعنييه عن النشر بمعاينة عطف (الفارقات) على { النَّاشِرَاتِ } بالفاء.

{ **فَرْقًا** } تأكيد بالمفعول المطلق، كما أُكِّد ما قبله في قوله تعالى { عَصْفًا } و{ نَشْرًا }، وتنوينه كذلك.

{ **فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا** } لم يختلف أهل التأويل أنّهم الملائكة الذين يبلّغون الوحي وهو الذكر.

الإلقاء: مستعار لتبليغ الذكر من العالم العلوي إلى أهل الأرض بتشبيهه بإلقاء شيء من اليد إلى الأرض. وإلقاء الذكر تبليغ المواعظ إلى الرسل ليبلّغوها إلى الناس وهذا الإلقاء متفرّع على الفرق لأنّهم يخصُّون كلّ ذكر بمن هو محتاج إليه، فذكر الكفار بالتهديد والوعيد بالعذاب، وذكر المؤمنين بالثناء والوعد بالنعيم.

وهذا معنى قوله تعالى:

{ **عُذْرًا أَوْ نُذْرًا** } انتصبا على بدل الاشتمال من { ذِكْرًا }. و{ أَوْ } هنا للتقسيم.

العذر: الإعلام بقبول إيمان المؤمنين بعد الكفر، وتوبة التائبين بعد الذنب.

النذر: اسم مصدر أنذر، إذا حذَّر.

{ **إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ** } جواب لقسم وزيدت تأكيدا بـ (إنَّ) لتقوية تحقيق وقوع الجواب.

{ **إِنَّمَا** } كلمتان هما (إنَّ) التي هي حرف تأكيد و(ما) الموصولة، وليست هي (إنّما) التي هي أداة حصر، والتي (ما) فيها زائدة. وقد كتبت هنا متصلة، لأنّهم لم يكونوا يفرّقون في الرسم بين الحالتين، والرسم اصطلاح، ورسم المصحف سنّة في المصاحف ونحن نكتبها مفصولة في التفسير وغيره.

{ **تُوعَدُونَ** } هو البعث للجزاء، وهم يعلمون الصلة فلذلك جيء في التعبير عنه بالموصولية (ما توعدون).

والخطاب للمشركين، أي: ما توعَّدكم الله به من العقاب بعد البعث واقع لا محالة وإن شككتم فيه أو نفيتموه.

الواقع: الثابت، وأصل الواقع الساقط على الأرض فاستعير للشيء المحقّق تشبيها بالمستقرّ.

{ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ [8] وإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ [9] وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ [10] وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ [11] لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ [12] لِيَوْمِ الْفَصْلِ [13] وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ [14] }.

الفاء للتفريع على قوله تعالى { إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ } [7]، لأنّه لمّا أفاد وقوع البعث وكان المخاطبون ينكرونه ويتعلَّلون بعدم التعجيل بوقوعه، بيَّن لهم ما يحصل قبله زيادة في تهويله عليهم، والإنذار بأنّه مؤخَّر إلى أن تحصل تلك الأحداث العظيمة، وفيه كناية رمزية على تحقيق وقوعه لأنّ الإخبار عن أمارات حلول ما يوعدون يستلزم التحذير من التهاون به، ولذلك خُتمت هذه الأخبار بقوله تعالى { وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ }.

{ **فَإِذَا / وإِذَا / وَإِذَا / وَإِذَا** } كرِّرت الكلمة في أوائل الجمل المعطوفة على هذه الجملة بعد حروف العطف مع إغناء حرف العطف عن إعادتها، كما في قوله تعالى { فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ، وَخَسَفَ الْقَمَرُ، وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، يَقُولُ الْإِنْسَانُ } [القيامة:7-10]، لإفادة الاهتمام بمضمون كلّ جملة من هذه الجمل ليكون مضمونها مستقلًّا في جعله علامة على وقوع ما يوعدون.

طمس النجوم: زوال نورها. ونور معظم ما يلوح للناس من النجوم سببه انعكاس أشعة الشمس عليها حين احتجاب ضوء الشمس على الجانب المظلم من الأرض، فطمس النجوم يقتضي طمس نور الشمس.

{ **وإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ** } أي: تفرّق ما كان ملتحما من هيكلها، يقال: فرج الباب إذا فتحه. والفُرجة: الفتحة في الجدار ونحوه. وهذا كما في قوله تعالى { إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ } [الانشقاق:1].

النسف: قلع أجزاء الشيء بعضها عن بعض وتفريقها، مثل الهدم.

نسف الجبال: دكّها ومصيرها ترابا مفرَّقا، كما قال تعالى { وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا } [المزمل:14].

{ **طُمِسَتْ / فُرِجَتْ / نُسِفَتْ** } بناء هذه الأفعال الثلاثة بصيغة المبني للمجهول لأنّ المقصود الاعتبار بحصول الفعل لا بتعيين فاعله، على أنّه من المعلوم أنّ فاعلها هو الله تعالى إذ لا يقدر عليه غيره.

{ **وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ** } عطف على الجمل المتقدّمة فهي تقييد لوقتٍ حادث يحصل، وهي ممّا جُعل مضمونها علامة على وقوع ما يوعدون به فيلزم أن يكون مضمونها مستقبل الحصول.

<u>وفي نظم هذه الجملة غموض ودقّة.</u>

{ **إِذَا** } شأنها أن تكون لمستقبل الزمان، فهذا التوقيت للرسل سيكون في المستقبل، وهو علامة على أن ما يوعدون يحصل مع العلامات الأخرى.

{ **أُقِّتَتْ** } أصله (وُقِّتت)، يقال: وقَّت وقتًا، إذا عيَّن وقتا لعمل ما، مشتقًّا من الوقت وهو الزمان.

وإذا كان { إِذَا } ظرفا للمستقبل وكان تأجيل الرسل قد حصل قبل نزول هذه الآية، تعيَّن تأويل { أُقِّتَتْ } على معنى: حان وقتها، أي: الوقت المُعيَّن للرسل، وهو الوقت الذي أخبرهم الله بأن ينذروا أممهم بأنّه يحل في المستقبل غير المعين، ويدل عليه قوله تعالى { لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ لِيَوْمِ الْفَصْلِ }، فإنّ التأجيل يفسر التوقيت.

فعن ابن عباس: { أُقِّتَتْ } جُمعت، أي: ليوم القيامة، قال تعالى { يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ } [المائدة:109]، وقوله تعالى { فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا} [النساء:41].

وعن مجاهد والنخعي: أُجِّلت. قال أبو علي الفارسي: أي: جُعل يوم الدين والفصل لها وقتا.

قال في الكشاف: " والوجه أن يكون معنى { أُقِّتَتْ } بلغت ميقاتها الذي كانت تنتظره يوم القيامة ".

وهذا صريح في أنّه يقال: وقّت بمعنى أحضر في الوقت المعيّن.

{ **لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ، لِيَوْمِ الْفَصْلِ** } استئناف، والذي يظهر لي أن تكون (أي) موصولة دالة على التعظيم والتهويل، وهو ما يُعبَّر عنه بالدال على معنى الكمال، وتكون صفة لموصوف محذوف يدلّ عليه ما أضيفت إليه (أي)، وتقديره: ليوم أيّ يوم، أي: ليوم عظيم. ويكون معنى { أُقِّتَتْ } حضر ميقاتها الذي وُقِّت لها، وهو قول ابن عباس: جُمعت.

{ **لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ** } لام التعليل، أي: جمعت لأجل اليوم الذي أجِّلت إليه، وجملة { أُجِّلَتْ } صفة ليوم، وحذف العائد لظهوره، أي: أجّلت إليه.

{ **لِيَوْمِ الْفَصْلِ** } بدل من { لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ }، أي: أُحضرت الرسل ليوم عظيم هو يوم الفصل.

{ **الْفَصْلِ** } تمييز الحق من الباطل بالقضاء والجزاء، إذ بذلك يزول الالتباس والاشتباه والتمويه الذي كان لأهل الضلال في الدنيا فتتضح الحقائق على ما هي عليه في الواقع.

{ **وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ** } في موضع الحال من يوم الفصل. والأصل: وما أدراك ما هو، وإنّما أظهر اسم صاحب الحال في مقام الإضمار لتقوية استحضار يوم الفصل قصدا لتهويله.

{ **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ** } [15].

حمل هذه الجملة على نظائرها الآتية في هذه السورة يقتضي أن تُجعل استئنافا لقصد تهديد المشركين الذين يسمعون القرآن، وتهويل يوم الفصل في نفوسهم ليحذروه، وهو متصل في المعنى بجملة { إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ } [7] اتصال أجزاء النظم، فموقع جملة { وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ } ابتداء الكلام، وموقع جملة { إِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ} [8] التأخُّر، وإنّما قُدِّمت لتؤذن بمعنى الشرط. وقد حصل من تغيير النظم على هذا الوجه أن صارت جملة { وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ } بمنزلة التذييل، فحصل في هذا النظم أسلوب رائع، ومعانٍ بدائع. وبعض المفسرين جعل هذه الجملة جواب (إذا). والتقدير: إذا حصل كذا وكذا حلّ الويل للمكذبين، وهو كالبيان لقوله تعالى { إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ }، فيحصل تأكيد الوعيد.

والجملة صالحة لمعنى الخبرية ولمعنى الإنشاء لأنّ تركيب (ويل له) يُستعمل إنشاء بكثرة.

الويل: أشدّ السوء والشرّ.

وعلى الوجه الأول يكون المراد بالمكذِّبين الذين كذّبوا بالقرآن، وعلى الوجه الثاني يكون المراد بالمكذِّبين جميع الذين كذّبوا الرسل وما جاؤوهم به. وبذلك العموم أفادت الجملة مفاد التذييل.

{ **أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ** } [16].

استئناف بخطاب موجَّه إلى المشركين الموجودين الذين أنكروا البعث، معترض بين أجزاء كلام المخاطب به أهل الشرك في المحشر، ويتضمَّن استدلالا على المشركين الذين في الدنيا، بأنّ الله انتقم من الذين كفروا بيوم البعث من الأمم سابقهم ولاحقهم ليحذروا أن يحلّ بهم ما حلّ بأولئك الأولين والآخرين. والاستفهام للتقرير استدلالا على إمكان البعث بطريقة قياس التمثيل.

الإهلاك: الإعدام والإماتة. وإهلاك الأوّلين له حالتان حالة غير اعتيادية تنشأ عن غضب الله تعالى، وهو إهلاك الاستئصال مثل إهلاك عاد وثمود، وحالة اعتيادية وهي ما سنّ الله عليه نظام هذا العالم من حياة وموت. وكلتا الحالتين يصحّ أن تكون مرادا هنا؛

فأمّا الحالة غير الاعتيادية فهي تذكير بالنظر الدال على أنّ الله لا يرضى عن الذين كذَّبوا بالبعث.

وأمّا الحالة الاعتيادية فدليل على الذي أحيا الناس يميتهم فلا يتعذّر أن يعيد إحياءهم.

{ **الْأَوَّلِينَ** } الموصوفون بالأوّليّة، أي: السبق في الزمان، وهذا يُقِرُّ به كل جيل منهم مسبوق بجيل كفروا. فالتعريف للعهد، والمراد بهم جميع أمم الشرك الذين كانوا قبل مشركي عصر النبوّة.

{ **ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ** [17] **كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ** [18] }.

{ **ثُمَّ** } للتراخي الرتبي، لأنّ التهديد أهم من الإخبار عن أهل المحشر، لأنّه الغرض من سوق هذا كلّه، ولأنّ إهلاك الآخرين اشدّ من إهلاك الأوّلين لأنّه مسبوق بإهلاك آخر.

{ **كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ** } في موقع البيان لجملة { أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ، ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ } [17/16]، وهو كالتذييل يُبيِّن سبب وقوع إهلاك الأوّلين، وأنّه سبب لإيقاع الإهلاك بكل مجرم، أي: تلك سنة الله في معاملة المجرمين فلا محيص لكم عنها.

{ **كَذَلِكَ** } الإشارة إلى الفعل المأخوذ من { نَفْعَلُ }، أي: مثل ذلك الفعل نفعل.

{ **بِالْمُجْرِمِينَ** } إيماء إلى أنّ سبب عقابهم بالإهلاك هو إجرامهم. وهو من ألقاب المشركين في اصطلاح القرآن، قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ } [المطففين:29]، وسيأتي في [46].

{ **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ** } [19].

تقرير لنظيره المتقدّم تأكيدا للتهديد وإعادة لمعناه. والتهديد من مقامات التكرير.

{ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ [20] فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ [21] إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ [22] فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ [23] }.

تقرير أيضا يجري فيه ما تقدّم في قوله تعالى { أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ } [16]، جيء به على طريقة تعداد الخطاب في مقام التوبيخ والتقريع.

وكلّ من التقرير والتقريع في مقتضيات ترك العطف لشَبَهه بالتكرير في أنّه تكرير معنى وإن لم يكن تكرير لفظ، والتكرير شبيه بالأعداد المسرودة فكان حقّه ترك العطف فيه.

وقد جاء هنا التقرير على ثبوت الإيجاد بعد العدم إيجادا متقنا دالا على كمال الحكمة والقدرة ليفضيَ بذلك التقرير إلى التوبيخ على إنكار البعث والإعادة، وإلى إثبات البعث بإمكانه بإعادة الخلق كما بدئ أوّل مرة، وكفى بذلك مرجِّحًا لوقوع هذا الممكن، لأنّ القدرة تجري على وفق الإرادة بترجيح جانب إيجاد الممكن على عدمه.

{ **مِنْ** } للابتداء، لأنّ تكوين الإنسان نشأ من ذلك الماء.

الماء: هنا هو ماء الرجل.

المَهين: الضعيف، فعيل من مَهُنَ، إذا ضعف، وميمه أصلية وليس هو من مادة هان.

وهذا الوصف كناية رمزية عن عظيم قدرة الله تعالى إذ خلق من هذا الماء الضعيف إنسانا شديد القوّة.

وجُعل خلق الإنسان من ماء الرجل لأنّه لا يتم تخلُّقه إلّا بذلك الماء إذا لاقى بويضات الأم في الرحم. فاقتصرت الآية على ما هو مشهور بين الناس لأنّهم لا يعلمون أكثر من ذلك.

{ **فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ** } تفصيل لكيفية الخلق على سبيل الإدماج مع مناسبته لأنّ له دخلا في تبيين إمكان الإعادة، إذ شديد القدرة لا يعجزه شيء، ولذلك ذُيِّل بقوله تعالى { فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ }.

القرار: محل القرور والمكث.

{ **مَكِينٍ**} صفة لـ { قَرَارٍ }، أي: مكان متمكّن في ذلك، فهو فعيل من مَكُنَ مكانة: إذا ثبت ورسخ.

{ **قَرَارٍ مَكِينٍ** } مجاز عقلي، أي: مكين الحال والمستقر فيه. فالتقدير: مكين فيه. والمراد: الرحم.

القَدَر: (بفتح الدال) المقدار المعيَّن المضبوط، والمراد: مقدار من الزمان، وهو مدّة الحمل.

وقرأ نافع والكسائي وأبو جعفر { فَقَدَّرْنَا } بتشديد الدال، وقرأه الباقون بالتخفيف، وهما بمعنى واحد.

{ **فَقَدَرْنَا** } الفاء للتفريع على قوله تعالى { فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ، إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ }، أي: جعلناه في الرحم إلى انتهاء أمد الحمل، فقدرنا أطوار خلقكم حتّى أخرجناكم أطفالا.

{ **فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ** } الفاء للتفريع على { فَقَدَرْنَا }، أي: تفريع إنشاء ثناء، أي: فدلّ تقديرنا على أنّ تقديرنا تقدير أفضل قادر، وهذا تنويه بذلك الخلق العجيب.

{ **الْقَادِرُونَ** } اسم فاعل من قدر اللازم إذا كان ذا قُدرة، وبذلك يكون الكلام تأسيسا لا تأكيدا، أي، فنعم القادرون على الأشياء.

وعلامة الجمع للتعظيم مثل نون { فَقَدَرْنَا } فإنّ القدرة لما أتت بما هو مقتضى الحكمة كانت قدرة جديرة بالمدح.

{ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ } [24].
هو نحو ما تقدّم في نظيره الموالي هو له.

{ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا [25] **أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا** [26] **وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا** [27] }.
جاء هذا التقرير على سَنَن سابقيه في عدم العطف لأنّه على طريقة التكرير للتوبيخ، وهو تقرير لهم بما أنعم الله به عليهم من خلق الأرض بما فيها من منافع لهم، كما قال تعالى { مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ } [النازعات:33]
ومحل الامتنان هو قوله تعالى { أَحْيَاءً }، وأمّا قوله تعالى { وَأَمْوَاتًا } فتتميم وإدماج.
كفات: اسم للشيء الذي يُكْفَت فيه، أي: يُجمع ويُضم فيه، فهو اسم جاء على صيغة الفِعال من كَفَتَ، إذا جمع، ومنه سُمِّي الوعاء: كفاتا، كما سُمِّي ما يعي الشيء: وعاء، وما يضم الشيء: الضِّمام.
وهذا تقرير لهم بالاعتراف بالأحوال المشاهدة في الأرض الدالة على تفرّد الله تعالى بالإلهية.
{ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا } التنوين للتعظيم مرادا به التكثير ولذلك لم يؤت بهما معرّفين باللام، وفائدة ذكر هذين الجمعين ما في معنييهما من التذكير بالحياة والموت.
وقد تصدى الكلام لإثبات البعث بشواهد ثلاثة:
الأوّل: بحال الأمم البائدة في انقراضها [16].
الثاني: بحال تكوين الإنسان [20].
الثالث: مصير الكلّ إلى الأرض [25].
وفي كل ذلك إبطال لإحالتهم وقوع البعث لأنّهم زعموا استحالته فأُبطلت دعواهم بإثبات إمكان البعث فإنّه إذا ثبت الإمكان بطلت الاستحالة فلم يبق إلّا النظر في أدلة ترجيح وقوع ذلك الممكن.
وفي الآية امتنان بجعل الأرض صالحة لدفن الأموات، وقد ألهم الله لذلك ابن آدم حين قتل أخاه، كما تقدّم ذكره في [المائدة:31].
فيؤخذ من الآية وجوب الدفن في الأرض إلّا إذا تعذّر ذلك، كالذي يموت في سفينة بعيدة عن مراسي الأرض أو لا تستطيع الإرساء، أو يُخاف تعفّن الجثة فإنّها يرمى بها في البحر وتثقَّل بشيء لترسب إلى غريق الماء. وعليه فلا يجوز إحراق الميت كما يفعل مجوس الهند، وكان يفعله بعض الرومان، ولا

وضعه لكواسر الطير كما كان يفعل مجوس الفرس، وكان أهل الجاهلية يتمدَّحون بالميت الذي تأكله السباع أو الضباع وهو الذي يموت في فلاة.

الرواسي: أي: جبالا رواسي، أي: ثوابت في الأرض. وهذا امتنان بخلق الجبال لأنّهم كانوا يأوون إليها وينتفعون بما فيها من كلأ وشجر، قال تعالى { وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا، مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ } [النازعات:33/32].

الشامخات: المرتفعات. والتنوين للتعظيم لدلالة ذلك على عظيم القدرة.

{ **وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا** } عُطف لمناسبة ذكر الجبال لأنّها تنحدر منها المياه تجري في أسافلها، وهي الأودية، وتقرّ في قرارات وحياض وبُحيرات.

الفرات: العذب وهو ماء المطر.

{ **مَاءً فُرَاتًا** } التنوين كذلك للتعظيم لدلالة ذلك على عظيم القدرة.

{ **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ** } [28].

تكرير للتوبيخ والتقريع مثل نظيرة الواقع ثانيا في هذه السورة.

{ **انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ** [29] **انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ** [30] **لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ** [31] }.

هذا خطاب للمكذِّبين في يوم الحشر، فهو مقول قول محذوف دلَّ عليه صيغة الخطاب بالانطلاق دون وجود مخاطب يؤمر به الآن. والضمير المقدَّر مع القول المحذوف عائد إلى المكذِّبين، أي: يقال للمكذِّبين.

{**انْطَلِقُوا** } الأمر مستعمل في التسخير لأنّهم تنطلق بهم ملائكة العذاب قسرا.

{ **مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ** } هو جهنم، وعُبِّر عنها بالموصول وصلته لمّا تتضمَّنه الصلة من النداء على خطئهم وضلالهم.

{ **انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ** } بدل اشتمال أو مطابق من جملة { انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ }. وأعيد الفعل على طريقة التكرير لقصد التوبيخ أو الإهانة والدفع.

{ **إِلَى ظِلٍّ** } دخان جهنم لكثافته، فعُبِّر عنه بالظل تهكُّما بهم لأنّهم يتشوَّقون ظلا يأوون إلى برده.

الشُّعَب: اسم جمع شعبة وهي الفريق من الشيء والطائفة منه، أي: ذي ثلاث طوائف، وأريد بها طوائف من الدخان، فإنّ النار إذا عظم اشتعالها تصاعد دخانها من طرفيها ووسطها لشدة انضغاطه في خروجه منها.

الظليل: القوي في ظلاله، اشتقّ له وصف من اسمه لإفادة كماله فيما يراد منه، مثل: لَيْلٌ أَلْيَلُ، وشِعْرٌ شَاعِرٌ. أي: ليس هو مثل ظل المؤمنين الذي في قوله تعالى { وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا } [النساء:57]. وفي هذا تحسير لهم، وهو في معنى قوله تعالى { وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ، لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ } [الواقعة:44/43].

الإغناء: جعل الغير غنيًّا، أي: غير محتاج في ذلك الغرض، وتعديته بـ (من) على معنى البدلية، أو لتضمينه معنى: يُبْعِد، ومثله قوله تعالى { وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ } [يوسف:67].

وبذلك سُلب عن هذا الظل خصائص الظلال، لأنّ شأن الظل أن ينفِّس عن الذي يأوي إليه ألم الحر.

{ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ [32] كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ [33] }.

يجوز أن يكون هذا من تمام ما يقال للمكذِّبين الذين قيل لهم { انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ } [29].

ويجوز أن يكون اعتراضا في أثناء حكاية حالهم، أو في ختامه.

{ إِنَّهَا } الضمير عائد إلى جهنم التي دلّ عليها قوله تعالى { مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ }.

وإجراء تلك الأوصاف في الإخبار عنها لزيادة الترويع والتهويل.

وتأكيد الخبر بـ (إنّ) للاهتمام به لأنّهم حينئذ لا يشكّون في ذلك سواء رأوه أو أخبروا به.

الشرر: اسم جمع شَرَرة: القطعة المشتعلة من دقيق الحطب يدفعها لهب النار في الهواء من شدة الالتهاب.

القصر: البناء العالي. والتعريف فيه للجنس، أي: كالقصور، لأنّه شُبِّه به جمع، أي: كلّ شررة كقصر، وهذا تشبيه في عظم حجمه.

{ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ } تشبيه الشرر في حجمه ولونه وحركته في تطايره بجمالات صفر.

الجِمالات: جمع جِمالة وهي اسم جمع طائفة من الجمال، أي: تشبه طوائف من الجمال متوزّعة فرقا، وهذا تشبيه مركّب لأنّه تشبيه في هيئة الحجم مع لونه مع حركته.

الصُّفرة: لون الشرر إذا ابتعد عن لهيب ناره.

{ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ } [34].

تكرير لقصد تهديد المشركين الأحياء، والقول فيه كالقول في نظيره الواقع ثانيا في هذه السورة.

{ هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ [35] وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ [36] }.

إن كانت الإشارة على ظاهرها كان المشار إليه هو اليوم الحاضر وهو يوم الفصل، فتكون الجملة من تمام ما يقال لهم في ذلك اليوم بعد قوله تعالى { انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ } [29]، فيكون في

الانتقال من خطابهم بقوله تعالى { انْطَلِقُوا } إلى إجراء ضمائر الغيبة عليهم، التفات يزيده حسنا أنّهم قد استحقُّوا الإعراض عنهم بعد إهانتهم بخطاب { انْطَلِقُوا }.

وهذا الوجه أنسب بقوله تعالى بعده { هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ } [38]، وموقع الجملة على هذا التأويل موقع تكرير التوبيخ الذي أفاده قوله تعالى { انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ }، وهو من جملة ما يقال لهم في ذلك اليوم، واسم الإشارة مستعمل في حقيقته للقريب.

وإن كانت الإشارة إلى المذكور في اللفظ، وهو يوم الفصل المتحدَّث عنه بأنّ فيه الويل للمكذبين، كان هذا الكلام موجَّها إلى الذين خوطبوا بالقرآن كلّهم، إنذارا للمشركين منّهم، وإنعاما على المؤمنين، فكانت ضمائر الغيبة جارية على أصلها وكانت عائدة على المكذِّبين من قوله تعالى { وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ } [34]، وتكون الجملة معترضة بين { انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ }، وجملة { هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ } [38]. ويكون اسم الإشارة، الذي هو إشارة إلى القريب، مستعمل في مشار إليه بعيد باعتبار قرب الحديث عنه، على ضرب من المجاز أو التسامح.

{ وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ } عطف على جملة { لا يَنْطِقُونَ }، أي: لا يؤذن لهم في الاعتذار. فالاعتذار هو المقصود بالنفي، وجُعل نفي الإذن لهم توطئة لنفي اعتذارهم.

ولا تعارض بين هذه الآية وبين الآيات التي جاء فيها ما يقضي أنّهم يعتذرون، نحو قوله تعالى { قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ } [غافر:11]، لأنّ وقت انتفاء نطقهم يوم الفصل، وأمّا نطقهم المحكي في قوله تعالى { رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ } فذلك صراخهم في جهنم بعد انقضاء يوم الفصل. وبنحو هذا أجاب ابن عباس نافع بن الأزرق حين قال نافع: إنّي أجد في القرآن أشياء تختلف عليَّ، قال الله تعالى { وَلا يَتَسَاءَلُونَ } [المؤمنون: 101]، وقال تعالى { وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ } [الصافات:27]، فقال ابن عباس: لا يتساءلون في النفخة الأولى، حين نُفخ في الصور فصُعق من في السماوات ومن في الأرض فلا يتساءلون حينئذ، ثمّ في النفخة الثانية أقبل بعضهم على بعض يتساءلون.

{ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ } [37].

تكرير لتهديد المشركين متّصل بقوله تعالى { هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ }، على أوّل الوجهين في موقع ذلك، أو هو وارد لمناسبة قوله تعالى { هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ } على ثاني الوجهين المذكورين فيه، فيكون تكريرا لنظيره الواقع بعد قوله تعالى { انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ - إلى قوله - صُفْرٌ } [29-33]، اقتضى تكريره عقبه أنَّ جملة { هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ }، تتضمَّن حالة من أحوالهم يوم الحشر لم يسبق ذكرها.

{ **هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ** [38] **فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ** [39] }.

تكرير لتوبيخهم بعد جملة { انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ }، شُيّع به القول الصادر بطردهم وتحقيرهم، فإنّ المطرود يُشيَّع بالتوبيخ، فهو ممّا يقال لهم يومئذ، ولم تعطف بالواو لأنّها وقعت موقع التذييل للطرد، وذلك من مقتضيات الفصل سواء كان التكرير بإعادة اللفظ والمعنى، أم كان بإعادة المعنى والغرض.

{ **هَذَا** } الإشارة إلى المشهد الذي يشاهدونه من حضور الناس والحساب لفصل القضاء بالجزاء.

{ **يَوْمُ الْفَصْلِ** } إخبار عن اسم الإشارة باعتبار أنَّهم يتصوَّرون ما كانوا يسمعون في الدنيا من محاجّة عليهم لإثبات يوم يكون فيه الفصل، وكانوا ينكرون ذلك اليوم، فصارت صورة ذلك اليوم حاضرة في تصوّرهم دون إيمانهم به، فكانوا الآن متهيّئين لأن يوقنوا بأنّ هذا هو اليوم الذي كانوا يوعدون بحلوله.

{ **جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ** } بيان للفصل بأنّه الفصل في الناس كلّهم لجزاء المحسنين والمسيئين، فلا جرم جُمع في ذلك اليوم الأولون والآخرون، قال تعالى { قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ } [الواقعة:50/49].

والمخاطبون بضمير { جَمَعْنَاكُمْ } المشركون الذين سبق الكلام لتهديدهم وهم المكذِّبون بالقرآن، لأنّ عطف { وَالْأَوَّلِينَ } على الضمير يمنع من أن يكون الضمير لجميع المكذِّبين مثل الضمائر التي قبله، لأنّ الأوَّلين من جملة المكذِّبين فلا يقال لهم { جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ }، فتعيّن أن يختصّ بالمكذبين بالقرآن.

<u>المعنى</u>: جمعناكم والسابقين قبلكم من المكذبين.

أريد توقيفهم يومئذ على صدق ما كانوا ينذرون به في الحياة الدنيا من مصيرهم إلى ما صار إليه أمثالهم، في قوله تعالى { أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ } [16].

{ **فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ** } تخلُّص إلى توبيخ الحاضرين على ما يكيدون به للرسول صلى الله عليه وسلم وللمسلمين، قال تعالى { إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا، وَأَكِيدُ كَيْدًا، فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا } [الطارق:15-17]. وأن كيدهم زائل وأنّ سوء العقبى عليهم.

والأمر للتعجيز، والشرط للتوبيخ والتذكير بسوء صنيعهم في الدنيا، والتسجيل عليهم بالعجز عن الكيد يومئذ حيث مُكِّنوا من البحث عمَّا عسى أن يكون لهم من الكيد فإذا لم يستطيعوه بعد ذلك فقد سُجِّل عليهم العجز، وهذا من العذاب الذي يُعذَّبونه، إذ هو من نوع العذاب النفساني وهو أوقع على العاقل من العذاب الجسماني.

{ **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ** } [40].

تكرير للوعيد والتهديد وهو متّصل بما قبله كاتصال نظيره المذكور آنفا.

{ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ** [41]**وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ** [42] **كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** [43] **إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ** [44] }.

يجوز أن يكون هذا ختام الكلام الذي هو تقريع للمشركين حكي لهم فيه نعيم المؤمنين الذي لا يشاهدونه لبعدهم عن مكانه، فيُحكى لهم يومئذ فيما يقال لهم ليكون ذلك أشدّ حسرة عليهم وتنديما لهم على ما فرَّطوا فيه ممَّا بادر إليه المتّقون المؤمنون ففازوا، فيكون متّصلا بقوله تعالى { انْطَلِقُوا ...} [29].

ويجوز أن يكون هذا ابتداء كلام مستأنف انتقل به إلى ذكر نعيم المؤمنين المتّقين تنويها بشأنهم وتعريضا لترغيب المشركين الموجودين في الإقلاع عن التكذيب لينالوا كرامة المتقين.

{ **الْمُتَّقِينَ** } التعريف للاستغراق.

{ **فِي** } للظرفية، وهي ظرفية حقيقية بالنسبة للظلال، لأنّ المستظل يكون مظروفا في الظل، وظرفية مجازية بالنسبة للعيون والفواكه، تشبيها لكثرة ما حولهم من العيون والفواكه بإحاطة الظروف.

{ **ظِلالٍ** } جمع ظل، وهي ظلال كثيرة لكثرة شجر الجنة، ولأنّ كلّ واحد منهم ظلّا يتمتّع فيه.

{ **وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ** } التبعيض الذي دلّ عليه حرف (من) تبعيض من أصناف الشهوات لا من أصناف الفواكه، فأفاد أنّ تلك الفواكه مضمومة إلى ملاذٍ أخرى مما اشتهوه.

{ **كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } مقول قول محذوف، والتقدير: مقولًا لهم كلوا واشربوا. والمقصود من ذلك القول كرامتهم بعرض تناول النعيم عليهم، كما يفعله المضيِّف بضيوفه، فالأمر مستعمل في العرض.

{ **هَنِيئًا** } دعاء تكريم، كما يقال للشارب أو الطعام: هنيئا مريئا، كقوله تعالى { فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا } [النساء:4]. { **بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } الباء للسببية، أي: كلوا واشربوا بسبب ما كنتم تعملون في الدنيا من الأعمال الصالحة، وذلك من إكرامهم بأن جُعل ذلك الإنعام حقا لهم.

{ **إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ** } يجوز أن تكون ممّا يقال للمتقين بعد أن قيل لهم { كُلُوا وَاشْرَبُوا ...}، مسوقة إليهم مساق زيادة الكرامة بالثناء عليهم، أي: هذا النعيم الذي أنعمت به عليكم هو سنتنا في جزاء المحسنين.

ويجوز أن تكون الجملة موجَّهة إلى المكذِّبين الموجودين بعد أن وُصف لهم ما ينعم به المتقون، قُصد منها التعريض بأنّ حرمانهم من مثل ذلك النعيم هم الذين قضوا به على أنفسهم إذ أبوا أن يكونوا من المحسنين، تكملة لتنديمهم وتحسيرهم.

وموقع الجملة على كلا الاعتبارين موقع التعليل لما قبلها على كلا التقديرين فيما قبلها، ومن أجل الإشعار بهذا التعليل افتتحت بـ (**إِنَّ**) مع خلو المقام عن التردّد في الخبر إذ الموقف يومئذ موقف الصدق والحقيقة، فلذلك كانت (إنَّ) متمحِّضة لإفادة الاهتمام بالخبر، وحينئذ تصير مُغنيةً غِناءَ فاء التسبّب وتفيد مُفاد التعليل والربط.

{ **كَذَلِكَ** } الإشارة إلى النعيم المشاهد إن كانت الجملة موجهة إلى { الْمُتَّقِينَ }، أو الإشارة إلى النعيم الموصوف في قوله تعال { فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ }، إن كانت الجملة موجَّهة إلى المكذِّبين.
والجملة على كل تقدير تفيد معنى التذييل بما اشتملت عليه من شبه عموم { كَذَلِكَ }، ومن عموم {الْمُحْسِنِينَ}، فاجتمع فيها التعليل والتذييل.

{ **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ** } [45].

هي على الوجه الأوّل في جملة { إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ } تكرير لنظائرها. وأمّا على الوجه الثاني من الجملة فهي متّصلة بتلك الجملة لمقابلة ذكر نعيم المؤمنين المُطْنَب في وصفه بذكر ضدّه للمشركين بإيجاز حاصل من كلمة { وَيْلٌ } لتحصل مقابلة الشيء بضدّه، ولتكون هذه الجملة تأكيدا لنظائرها.

{ **كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ** } [46].

خطاب للمشركين الموجودين الذين خوطبوا بقوله تعالى { إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ } [7]، وهو استئناف ناشئ عن قوله تعالى { إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ } [44]، إذ يثير في نفوس المكذِّبين المخاطَبين بهذه القوارع ما يكثر خُطُوره في نفوسهم من أنّهم في هذه الدنيا في نعمة محقَّقة وأنّ ما يوعدون به غير واقع فقيل لهم:
{ **كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا** } الأمر مستعمل في الإمهال والإنذار، أي: ليس أكلكم وتمتُّعكم بلذات الدنيا بشيء لأنّه تمتع قليل ثم مأواكم العذاب الأبدي، قال تعالى {لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ، مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ } [آل عمران:197/196].
{ **إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ** } خبر مستعمل في التهديد والوعيد بالسوء، أي: أنّ إجرامكم مُهْوٍ بكم إلى العذاب.

{ **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ** } [47].

هو مثل نظيره المذكور ثانيا في هذه السورة. ويزيد على ذلك بأنّ له ارتباطا خاصا بجملة { كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا } لما في { تَمَتَّعُوا قَلِيلًا } من الكناية عن ترقّب سوء عاقبة لهم، فيقع قوله تعالى { وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ } موقع البيان لتلك الكناية، أي: كلوا وتمتعوا قليلا الآن وويل لكم يوم القيامة.

{ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ** } [48].

يجوز أن يكون عطفا على قوله تعالى { لِلْمُكَذِّبِينَ } [47]، والتقدير: والذين إذا قيل لهم اركعوا لا يركعون، فإنّ (ال) الداخلة على الأوصاف المشتقة بمنزلة اسم الموصول غالبا.

ويجوز أن يكون عطفا على جملة {كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا } [46]، والانتقال من الخطاب إلى الغيبة التفات.
وعلى كلا الوجهين فهو من الإدماج ليُنعى عليهم مخالفتهم المسلمين في الأعمال الدالة على الإيمان الباطن، فهو كناية عن عدم إيمانهم، لأنّ الصلاة عماد الدين.
ويجوز أن يكون عطفا على قوله تعالى { إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ } [46].
وعلى الوجوه كلّها يفيد تهديدهم لأنّه معطوف على التكذيب أو على الإجرام، وكلاهما سبب للتهديد بجزاء السوء في يوم الفصل.
وليس في الآية دليل على أنّ الكفار مخاطبون بفروع الشريعة.

{ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ } [49].

هذه الجملة مثل نظيرها الموالية هي له، إذ يجوز أن تكون متصلة بقوله تعالى { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ } [48]، ويكون التعبير بـ (المكذّبين) إظهار في مقام الإضمار لقصد وصفهم بالتكذيب.
وتفيد مع ذلك تقرير او تأكيدا لنظيرها المذكور ثانيا في هذه السورة.

{ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ } [50].

الفاء فصيحة تنبئ عن شرط مقدّر، تقديره: إن لم يؤمنوا بهذا القرآن فبأي حديث بعده يؤمنون، وقد دلّ على تعيين هذا المقدَّر ما تكرَّر من { وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ }، فإنّ تكذيبهم بالقرآن وما جاء فيه من وقوع البعث.
{ **فَبِأَيِّ** } الاستفهام مستعمل في الإنكار التعجيبي من حالهم، أي: إذا لم يصدِّقوا بالقرآن مع وضوح حجّته فلا يؤمنون بحديث غيره. والمقصود أنّ القرآن بالغ الغاية في وضوح الدلالة ونهوض الحجّة.
{ **بَعْدَهُ** } الراجح أن يُجعل صفة حديث فهو ظرف مستقر، والمراد بالبعدية: تأخر الزمان، ويُقدَّر معنى بالغ أو مسموع، أي: بعد بلوغ القرآن أو سماعه، سواء كان حديثا موجودا قبل نزول القرآن، أو حديثا يوجد بعد القرآن. فليس المعنى أنّهم يؤمنون بحديث جاء قبل القرآن، مثل التوراة والإنجيل وغيرهما من المواعظ والأخبار، بل المراد أنّهم لا يؤمنون بحديث غيره بعد أن لم يؤمنوا بالقرآن لأنّه لا يقع إليهم كلام أوضح دلالة وحجّة من القرآن.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النبأ

سُمِّيت هذه السورة في أكثر المصاحف وكتب التفسير وكتب السنّة (**سورة النبأ**) لوقوع كلمة (النبأ) في أوّلها. وسُمِّيت في بعض المصاحف وفي صحيح البخاري وفي تفسير ابن عطية والكشّاف (**سورة عمّ يتساءلون**). وفي تفسير القرطبي سمَّاها (**سورة عمّ**)، تسمية لها بأوّل جملة فيها.

وتُسمَّى (**سورة التساؤل**) لوقوع { يَتَسَاءَلُون } في أوّلها. وتُسمَّى (**سورة المعصرات**) لقوله تعالى فيها { وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا } [14].

وهي مكية بالاتفاق.

وعُدَّت السورة الثمانين في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد ، نزلت بعد سورة المعارج وقبل سورة النازعات.

روي عن ابن عباس: " كانت قريش تجلس، لمّا نزل القرآن، فتتحدّث فيما بينها فمنهم المصدق ومنهم المكذِّب به فنزلت { عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ } ".

وعن الحسن: " لمّا بُعث النبيّ صلى الله عليه وسلم جعلوا يتساءلون بينهم فأنزل الله {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ } [2/1]، يعني الخبر العظيم ".

وعدَّ آيها أصحاب العدد من أهل المدينة والشام والبصرة **أربعين**. وعَدَّها أهل مكة وأهل الكوفة إحدى وأربعين آية.

أغراض السورة

*/ وصف خوض المشركين في شأن القرآن وما جاء به ممّا يخالف معتقداتهم.

*/ إثبات البعث.

*/ تهديدهم على استهزائهم.

*/ إقامة الحجّة على إمكان البعث بخلق المخلوقات التي هي من أعظم من خلق الإنسان بعد موته، وبالخلق الأوّل للإنسان وأحواله.

*/ وصف الأهوال الحاصلة عند البعث من عذاب الطاغين مع مقابلة ذلك بوصف نعيم المؤمنين.

*/ صفة يوم الحشر إنذارا للذين جحدوا به، والإيماء إلى أنّهم يعاقبون بعذاب قريب قبل عذاب يوم البعث

*/ أدمج في ذلك أنّ علم الله تعالى محيط بكلّ شيء، ومن جملة الأشياء أعمال الناس.

{ **عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ [1] عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ [2] الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ [3]** }.

افتتاح الكلام بالاستفهام عن تساؤل جماعة عن نبأ عظيم افتتاح تشويق ثمّ تهويل لما سيذكر بعده، فهو من الفواتح البديعة لما فيها من أسلوب عزيز غير مألوف، ومن تشويق بطريقة الأجمال ثم التفصيل المحصّلة لتمكُّن الخبر الآتي بعده في نفس السامع أكمل تمكّن.

{ **عَمَّ** } لفظ مركّب من كلمتين هما حرف (عن) الجار، و(ما) التي هي اسم استفهام بمعنى: أيّ شيء، ويتعلّق { عَمَّ } بفعل { يَتَسَاءَلُونَ } فهذا مركّب. وأصل ترتيبه: يتساءلون عن ما، فقُدِّم اسم الاستفهام لأنّه لا يقع إلّا في صدر الكلام المستفهَم به.

وقد جرى الاستعمال الفصيح على أنّ (ما) الاستفهامية إذا دخل عليها حرف الجر يُحذف الألف تفرقة بينها وبين (ما) الموصول ة.فلمّا كان حرف الجر الذي قبل (ما) مختوما بنون والتقت النون مع الميم، والعرب ينطقون بالنون الساكنة التي بعدها ميم ميما ويدغمونها فيها، جرى رسمهم على كتابة الكلمة محذوفة النون تبعا للنطق.

التساؤل: تفاعل وحقيقة صيغة التفاعل تفيد المشاركة، وترد أيضا لإفادة تكرّر وقوع ما اشتقت منه. وتجيء لإفادة قوّة صدور الفعل من الفاعل، وذلك إمّا كناية أو مجازا، ومحمله في الآية على جواز الاحتمالات الثلاثة وذلك من إرادة المعنى الكنائي مع المعنى الصريح، أو من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، وكلا الاعتبارين صحيح في الكلام البليغ فلا وجه لمنعه.

فيجوز أن تكون مستعملة في حقيقتها بأن يسأل بعضهم بعضا سؤال متطلع للعلم، لأنّهم حينئذ لم يزالوا في شك من صحة ما أنبئوا به ثم استقر أمرهم على الإنكار.

ويجوز أن تكون مستعملة في المجاز الصوري يتظاهرون بالسؤال وهم موقنون بانتفاء وقوع ما يتساءلون عنه، فيكونون قصدوا بالسؤال الاستهزاء.

والموجَّه إليه الاستفهام من قبيل خطاب غير المعيَّن.

{ **يَتَسَاءَلُونَ** } يجوز أن يكون الضمير ضمير جماعة الغائبين مرادا به المشركون ولم يسبق لهم ذكر في هذا الكلام ولكن ذكرهم متكرّر في القرآن فصاروا معروفين بالقصد من بعض ضمائره وإشاراته المبهمة، كالضمير في قوله تعالى { حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ } [ص:32]، يعني الشمس، وفي قوله تعالى { كَلاَّ إِذَا بَلَغَتْ التَّرَاقِي } [القيامة:26]، يعني الروح.

ويجوز أن يكون ضمير جماعة المخاطبين، وهذا إن جعلتَ الكلام من باب الالتفات.

{ **عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ** } لمّا كان الاستفهام مستعملا في غير طلب الفهم حسُن تعقيبه بهذا الجواب المستعمل بيانا لما أريد بالاستفهام من الإجمال لقصد التفخيم فبُيِّن جانب التفخيم، ونظيره قوله تعالى { هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ. تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ } [الشعراء:222/221].

النبأ: الخبر، قيل مطلقا فيكون مرادفا للفظ الخبر. وقال الراغب: " النبأ الخبر ذو الفائدة العظيمة يحصل به علم أو غلبة ظنّ ولا يقال للخبر نبأ حتّى يتضمّن هذه الأشياء الثلاثة ويكون صادقا ". وهذا فرق حسن فلا يقال: للخبر عن الأمور المعتادة نبأ، وذلك ما تدل عليه موارد استعمال لفظ النبأ في كلام البلغاء.

وتقدّم عند قوله تعالى { وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ } [الأنعام:34]، وقوله تعالى { قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ، أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ } [ص:68/67].

العظيم: حقيقته كبير الجسم، ويستعار للأمر المهم، لأنّ أهمية المعنى تُتخيّل بكبر الجسم في أنّها تقع عند مدركها كمرأى الجسم الكبير، وشاعت هذه الاستعارة حتّى ساوت الحقيقة.

ووصف { النَّبَإِ } بـ { الْعَظِيمِ } هنا زيادة في التنويه به لأنّ كونه واردا من عالم الغيب زاده عِظَم أوصافٍ وأهوالٍ، فوصف النبأ بالعظيم باعتبار ما وُصف فيه من أحوال البعث في ما نزل من القرآن قبل هذا. ونظيره قوله تعالى { قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ، أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ } [ص:67-68].

{ **النَّبَإِ** } تعريف الجنس، فيشمل كلّ نبأ عظيم أنبأهم الرسول صلى الله عليه وسلم به، وأوّل ذلك إنباؤه بأن القرآن كلام الله، وما تضمّنه القرآن من إبطال الشرك، ومن إثبات بعث الناس يوم القيامة.

وما يروى عن بعض السلف من تعيين نبأ خاص يُحمل على التمثيل.

{ **الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ** } الضمير يجري فيه الوجهان المتقدّمان في قوله تعالى { يَتَسَاءَلُونَ }.

واختلافهم في النبأ اختلافهم فيما يصفونه به، كقول بعضهم { إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ } [الأنعام:25] وقول بعضهم: هذا كلام مجنون، وقول بعضهم: هذا كذب، وبعضهم: هذا سحر.

وهم أيضا مختلفون في مراتب إنكاره، فمنهم من يقطع بإنكار البعث، مثل الذين حكى الله عنهم بقوله { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ، أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ } [سبأ: 7-8]، ومنهم من يشكّون فيه كالذين حكى الله عنهم بقوله تعالى { قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ } [الجاثية:32] على أحد التفسيرين.

وجيء بالجملة الاسمية لتفيد أنّ الاختلاف في أمر هذا النبأ متمكّن منهم ودائم فيهم لدلالة الجملة الاسمية على الدوام والثبات.

{ **فِيهِ مُخْتَلِفُونَ** } تقديم المجرور للاهتمام به وللإشعار بأنّ الاختلاف ما كان من حقّه أن يتعلّق به، مع ما في التقديم من الرعاية على الفاصلة.

{ **كَلَّا سَيَعْلَمُونَ** } [4].

{ **كَلَّا** } حرف ردع وإبطال لشيء يسبقه غالبا في الكلام يقتضي ردع المنسوب إليه وإبطال ما نسب إليه، وهو هنا ردع للذين يتساءلون عن النبأ العظيم، على ما يحتمله التساؤل من المعاني المتقدّمة، وإبطال لما تضمّنته جملة { يَتَسَاءَلُونَ } من تساؤل معلوم للسامعين.

والكلام وإن كان إخبارا عنهم فإنّهم المقصودون به، فالردع موجَّه إليهم بهذا الاعتبار.
{ **سَيَعْلَمُونَ** } زيادة في إبطال كلامهم بتحقيق أنّهم سيوقنون بوقوعه ويعاقبون على إنكاره، فهما عِلمان يحصلان لهم بعد الموت: علم بحق وقوع البعث، وعلم في العقاب عليه. ولذلك حذف المفعول ليعم.
فتضمَّن هذا الإبطال وما بعده إعلاما بأنّ يوم البعث واقع، وتضمّن وعيدا وقع تأكيده بحرف الاستقبال الذي شأنه إفادة تقريب المستقبل.
ومن محاسن هذا الأسلوب في الوعيد أنّ فيه إيهاما بأنّهم سيعلمون جواب سؤالهم الذي أرادوا به الإحالة والتهكّم، وصوَّروه في صورة طلب الجواب.

{ **ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ** } [5].
{ **ثُمَّ** } للترتيب الرتبي، وهو أنّ مدلول الجملة التي بعدها أرقى رتبة في الغرض من مضمون الجملة التي قبلها، ولمّا كانت الجملة التي بعد { ثُمَّ } مثل الجملة التي قبلها تعيَّن أنّها لارتقاء في الوعيد والتهديد.
والضمير في الموضعين يجري على نحو ما تقدّم في ضمير { يَتَسَاءَلُونَ } وضمير { فِيهِ مُخْتَلِفُونَ }.

{ **أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا** } [6].
لمّا كان أعظم نبأ جاءهم به القرآن إبطال إلهية أصنامهم وإثبات إعادة خلق أجسامهم، وهم الأصلان اللذان أثارا تكذيبهم بأنّه من عند الله، وتألّبهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وترويجهم تكذيبه، جاء هذا الاستئناف بيانا لإجمال قوله تعالى { عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ، الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ }. وسيجيء بعده تكملته بقوله تعالى { إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا } [17].
وجمع الله لهم في هذه الآيات [6-16] للاستدلال على الوحدانية بالانفراد بالخلق. وعلى إمكان إعادة الأجساد للبعث بعد البلى بأنّها لا تبلغ مبلغ أيجاد المخلوقات العظيمة.
ولكون الجملة في موقع الدليل لم تعطف على ما قبلها.
والكلام موجَّه إلى منكري البعث وهم الموجَّه إليهم الاستفهام، فهو من قبيل الالتفات لأنّ توجيه الكلام في قوة ضمير المخاطب بدليل عطف { وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا } [8] عليه.
{ **أَلَمْ نَجْعَلِ** } الاستفهام تقريري، وهو تقرير على النفي، كما هو غالب صيغ الاستفهام التقريري أن يكون بعده نفي والأكثر كونه بحرف (لم)، وذلك النفي كالإعذار للمقرَّر إن كان يريد أن ينكر.
ولا يسعهم إلّا الإقرار به، قال تعالى { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ } [لقمان:25].
جعل الأرض: خلقها على تلك الحالة، لأنّ كونها مهادا أمر حاصل فيها من ابتداء خلقها.
المِهاد: (بكسر الميم) الفراش الممهّد الموطّأ. وفي القاموس: إنّ المهاد يراد به المهد الذي يُجعل للصبي.

وعلى كلٍّ فهو تشبيه للأرض به إذ جُعل سطحها ميسَّرا للجلوس عليها والاضطجاع وبالأحرى المشي، وذلك دليل على إبداع الخلق والتيسير على الناس، فهو استدلال يتضمَّن امتنانا الغرض منه تذكيرهم بفضل الله عليهم لعلّهم أن يرعَوُوا عن المكابرة ويُقبلوا على النظر فيما يدعوهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم. وفي ذلك الامتنان إشعار بحكمة الله تعالى إذ جعل الأرض ملائمة للمخلوقات التي عليها.

ومناسبة ابتداء الاستدلال على إمكان البعث بخلق الأرض أنّ البعث هو إخراج أهل الحشر من الأرض فكانت الأرض أسبق شيء إلى ذهن السامع عند الخوض في أمر البعث، أي: بعث أهل القبور.

{ **وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا** } [7].

عطف على الآية السابقة، فالواو عاطفة { الْجِبَالَ } على { الأَرْضَ }، وعاطفة { أَوْتَادًا } على { مِهَادًا }.

الأوتاد: جمع وَتِد (بفتح الواو وكسر المثناة الفوقية). والوتد: عود غليظ شيئا، أسفله أدق من أعلاه يُدق في الأرض لتُشدَّ به أطناب الخيمة، وللخيمة أوتاد كثيرة على قدر اتساع دائرتها.

والإخبار عن الجبال بأنّها أوتاد على طريقة التشبيه البليغ، أي: كالأوتاد.

ومناسبة ذكر الجبال دعا إليها ذكر الأرض وتشبيهها بالمهاد الذي يكون داخل البيت، فلمّا كان البيت من شأنه أن يخطر ببال السامع من ذكر المهاد، شُبهت جبال الأرض بأوتاد البيت.

وأيضا فإنّ كثرة الجبال الناتئة على وجه الأرض قد يخطر في الأذهان أنّها لا تناسب جعل الأرض مهادا فكان تشبيه الجبال بالأوتاد مُستملَحًا بمنزلة حسن الاعتذار.

على أنّ غالب سكان الأرض وخاصة العرب لهم منافع جمّة في الجبال؛ فمنها مسايل الأودية، وقرارات المياه في سفوحها، ومراعي أنعامهم، ومستعصمهم في الخوف، ومراقب الطرق المؤدية إلى ديارهم إذا طَرَقها العدو. ولذلك كثر ذكر الجبال مع ذكر الأرض.

{ **وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا** } [8].

معطوف على التقرير الذي في قوله تعالى { أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا } [6].

وعُبِّر هنا بفعل الخلق دون الجعل لأنّه تكوين ذواتهم فهو أدقّ من الجعل.

<u>وضمير الخطاب للمشركين</u> الذين وجِّه إليهم التقرير السابق [6]، وهو التفات من طريق الغيبة إلى طريق الخطاب. وجيء بالفعل هنا وما بعده في صيغة الماضي لأنّ مفاعيل فعل (خلقنا) وما عطف عليه ليست مشاهدة لهم.

وقد أعقب الاستدلال بخلق الأرض وجبالها بالاستدلال بخلق الناس للجمع بين إثبات التفرّد بالخلق وبين الدلالة على إمكان إعادتهم، والدليل في خلق الناس على الإبداع العظيم، الذي الخلق الثاني من نوعه، أمكن في نفوس المستدل عليهم، قال تعالى { وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ } [الذاريات:21].

الأزواج: جمع زوج وهو اسم للعدد الذي يُكرَّر تكريرة واحدة. ثم غلب الزواج على كلّ من الذكر وأنثاه من الإنسان والحيوان. فالذكر زوج لأنثاه والأنثى زوج لذكرها، وتقدّم عند قوله تعالى { وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ } [البقرة:35].

وفي الآية إيماء إلى ما في ذلك الخلق من حكمة إيجاد قوة التناسل من اقتران الذكر بالأنثى، وهو مناط الإيماء إلى الاستدلال على إمكان إعادة الأجساد، فإنّ القادر على إيجاد هذا التكوين العجيب ابتداء، بقوّة التناسل، قادر على أيجاد مثله بمثل تلك الدقّة أو أدق.

وفيه استدلال على عظيم قدرة الله وحكمته، وامتنان على الناس بأنّه خلقهم، وأنّه خلقهم بحالة تجعل لكلّ واحد من الصنفين ما يصلح لأن يكون له زوجا ليحصل التعاون والتشارك في الأنس والتنعُّم، قال تعالى { وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا } [الأعراف:189].

وفي ذلك حمل لهم على الشكر بالإقبال على النظر فيما بلغ إليهم عن الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، وتعريض بأنّ إعراضهم عن قبول الدعوة الإسلامية ومكابرتهم فيما بلغهم من ذلك كفران للنعمة.

{ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا } [9].

انتُقل من الاستدلال بخلق الناس إلى الاستدلال بأحوالهم، وخُصّ منها الحالة التي هي أقوى أحوالهم المعروفة شبها بالموت الذي يعقبه البعث، وهي حالة متكرِّرة لا يخلون من الشعور بما فيها من العبرة، لأنّ تدبير نظام النوم وما يطرأ عليه من اليقظة أشبه حال بحال الموت وما يعقبه من البعث.

{ **جَعَلْنَا** } أوثر هذا الفعل لأنّ النوم كيفيّة يناسبها فعل الجعل لا فعل الخلق المناسب للذوات.

{ **نَوْمَكُمْ** } الإضافة ليست للتقييد لأنّ نوم الحيوان كلّه سبات، ولكن الإضافة لزيادة التنبيه للاستدلال، أي: أنّ دليل البعث قائم بَيِّن في النوم الذي هو من أحوالكم، وأيضا لأنّ في وصفه بـ { سُبَاتًا } امتنانا، والامتنان خاص بهم، قال تعالى { هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ } [يونس:67].

السُّبَات: أسم مصدر بمعنى السَّبَت، أي: القطع، أي: جعلناه لكم قطعا لعمل الجسد، بحيث لا بد للبدن منه، وإلى هذا أشار ابن الاعرابي وابن قتيبة إذ جعلا المعنى: وجعلنا نومكم راحة. وأوثر هذا اللفظ لما فيه من الإشعار بالقطع عن العمل ليقابله قوله تعالى { وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا } [11].

ويُطلق السبات على النوم الخفيف، وليس مرادا هنا إذ لا يستقيم أن يكون المعنى: وجعلنا نومكم خفيفا.

وفي هذا امتنان على الناس بخلق نظام النوم فيهم لتحصل لهم راحة من أتعاب العمل الذي يكدحون له في نهارهم، فالله تعالى جعل النوم حاصلا للإنسان بدون اختياره، بحيث لو تعلّقت رغبة أحد بالسهر لا بد له من أن يغلبه النوم وذلك لطف بالإنسان بحيث يحصل له ما به منفعة مداركه قسرا عليه لئلّا يتهاون به.

{ **وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا** } [10].

من إتمام الاستدلال الذي قبله وما فيه من المنّة، لأنّ كون الليل لباسا حالة مهيّئة للنوم ومُعِينة على هنائه والانتفاع به، لأنّ الليل ظلمة عارضة وبتلك الظلمة تحتجب المرئيَّات عن الإبصار فيعسر المشي والعمل والشغل وينحط النشاط فتتهيّأ الأعصاب للخمول ثم يغشاها النوم فيحصل السبات بهذه المقدّمات العجيبة، فلا جرم كان نظام الليل آية على انفراد الله تعالى بالخلق وبديع تقديره، وكان دليلا على أنّ إعادة الأجسام بعد الفناء غير متعذِّرة عليه تعالى.

{ **لِبَاسًا** } يجوز أن يكون اللباس محمولا على معنى الاسم وهو المشهور في إطلاقه، أي: ما يلبسه الإنسان من الثياب، فيكون وصف الليل به على تقدير كاف التشبيه على طريقة التشبيه البليغ، أي: جعلنا الليل للإنسان كاللباس له، فيجوز أن يكون وجه الشبه هو التغشية. وتحته ثلاثة معان:

المعنى الأوّل: أنّ الليل ساتر للإنسان كما يستره اللباس.

المعنى الثاني: المشابهة في الرفق باللابس والملاءمة لراحته، فلمّا كان الليل راحة للإنسان وكان محيطا بجميع حواسه وأعصابه شُبِّه باللباس في ذلك.

المعنى الثالث: الوقاية، فالليل يقي الإنسان من الأخطار والاعتداء عليه، فقد كان العرب لا يغير بعضهم على بعض في الليل وإنّما تقع الغارة صباحا.

{ **وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا** } [11].

لمُا ذُكر خلق نظام الليل قُوبل بخلق نظام النهار.

النَّهار: الزمان الذي يكون فيه ضوء الشمس منتشرا على جزء كبير من الكرة الأرضية. وفيه عبرة بدقّة الصنع وإحكامه إذ جعل نظامان مختلفان منشؤهما سطوع نور الشمس واحتجابه فوق الأرض، وهما نعمتان للبشر مختلفتان في الأسباب والآثار؛ فنعمة الليل راجعة إلى الراحة والهدوء، ونعمة النهار راجعة إلى العمل والسعي.

{ **مَعَاشًا** } لمّا كان معظم العمل في النهار لأجل المعاش أُخبر عن النهار بأنّه معاش. وقد أشعر ذكرُ النهار بعد ذكر كلّ من النوم والليل بملاحظة أنّ النهار ابتداء وقت اليقظة التي هي ضد النوم فصارت مقابلتهما بالنهار في تقدير: وجعلنا النهار واليقظة فيه معاشا، ففي الكلام اكتفاء دلّت عليه المقابلة، وبذلك حصل بين الجمل الثلاث مطابقتان من المُحسِّنات البديعة لفظا وضمنا.

المعاش: يطلق مصدر عاش إذا حيي، فالمعاش: الحياة، ويطلق اسما لما به عيش الإنسان من طعام وشراب، على غير قياس. والمعنيان صالحان للآية؛

إذ يكون المعنى: وجعلنا النهار حياة لكم، شُبِّهت اليقظة فيه بالحياة.

أو يكون المعنى: وجعلنا النهار معيشة لكم، والإخبار عنه بأنّه معيشة مجاز أيضا بعلاقة السببية لأنّ النهار سبب للعمل الذي هو سبب لحصول المعيشة، وذلك يقابل جعل الليل سباتا بمعنى الانقطاع عن العمل، قال تعالى { وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ } [القصص:73].

{ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا } [12].

ناسب بعد ذكر الليل وانهار، وهما من مظاهر الأفق المُسمَّى سماء، أن يُتبَع ذلك، وما سبقه من خلق العالم السفلي، بذكر خلق العوالم العلوية.

البناء: مصدر بنى، فبيت المدر مبنيّ، والخيمة مبنيّة. والبناء يستلزم الإعلاء على الأرض، فليس الحفر بناء، ولا نقر الصخور في الجبال بناء.

{ **بَنَيْنَا** } استعير الفعل هنا لمعنى: خلقنا ما هو عال فوق الناس، لأنّ تكوينه عاليا يشبه البناء.

{ **فَوْقَكُمْ** } إيماء إلى وجه الشبه وليس ذلك تجريدا للاستعارة لأنّ الفوقية لا تختص بالمبنيّات، مع ما فيه من تنبيه النفوس للاعتبار والنظر في تلك السبع الشداد.

{ **سَبْعًا شِدَادًا** } السماوات، فهو من ذكر الصفة وحذف الموصوف للعلم به، كقوله تعالى { حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ } [الحاقة:11]، ولذلك جاء الوصف باسم العدد المؤنث، إذ التقدير: سبع سماوات.

فيجوز أن يراد بالسبع الكواكب السبعة المشهورة بين الناس يومئذ وهي: (زحل / المشتري / المريخ / الشمس / الزهرة / عطارد / القمر). وهذا ترتيبها بحسب ارتفاع بعضها فوق بعض.

وهذا المحمل هو الأظهر لأنّ العبرة بها أظهر لأنّ المخاطبين لا يرون السماوات السبع ويرون هذه السيارات ويعهدونها دون غيرها من السيّارات التي اكتشفها علماء الفلك من بعد. فأمّا الأرض فقد عُدَّت أخيرا في الكواكب السيّارة وحذف القمر من الكواكب لتبيّن أن حركته تابعة لحركة الأرض، إلّا أنّ هذا لا دخل له في الاستدلال لأنّه وقع بما هو معلوم مسلم يومئذ، والكلّ من صنع الله.

ويجوز أن يراد بالسماوات السبع طبقات علوية يعلمها الله تعالى، وقد اقتنع الناس منذ القدم بأنّها سبع.

{ **شِدَادًا** } جمع شديدة، وهي الموصوفة بالشدّة، والشدّة: القوة.

المعنى: أنّها متينة الخلق قوية الأجرام لا يختل أمرها ولا تنقص على مرّ الأزمان.

{ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا } [13].

ذكر السماوات يناسبه ذكر أعظم ما يشاهده الناس في فضائها وذلك الشمس، ففي ذلك، مع العبرة بخلقها، عبرة في كونها على تلك الصفة مِنّة على الناس باستفادتهم من نورها فوائد جمّة.

{ **جَعَلْنَا** } أوثر دون: خلقنا، لأنّ كونها سراجا وهّاجا حالة من أحوالها، وإنّما يعلق فعل الخلق بالذوات.

السراج: حقيقته المصباح الذي يُستضاء به، وهو إناء يُجعل فيه زيت وفي الزيت خرقة مفتولة تُسمَّى

(النُّبالة) تُشعل بنار فتضيء ما دام فيها بلل الزيت.

والكلام على التشبيه البليغ والغرض تقريب صفة المُشبَّه إلى الأذهان، كما تقدم في [نوح:16].

وزيد ذلك التقريب بوصف السراج بالوهّاج، أي: شديد السَّنَا.

الوهَّاج: أصله شديد الوَهَج (بفتح الواو وفتح الهاء، ويقال بفتح الواو وسكون الهاء) وهو الاتّقاد.

يقال: وَهَجَت النار إذا اضطرمت اضطراما شديدا. ويطلق الوهاج على المتلألئ المضيء وهو المراد هنا، لأنّ وصف وهّاج أجري على سراج، أي: سراجا شديد الإضاءة، ولا يقال: سراج ملتهب.

قال الراغب: الوَهَج حصول الضوء والحر من النار. فيكون التعبير عن الشمس بالسراج في هذه الآية هو موقع التشبيه.

المعنى: وجعلنا في السبع الشداد سراجا وهّاجا، على نحو قوله تعالى { أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا } [نوح:16/15].

{ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا [14] لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا [15] وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا [16] }.

استدلال بحالة أخرى من الأحوال التي أودعها الله تعالى في نظام الموجودات، وتلك حالة إنزال ماء المطر من الأسحبة على الأرض فتُنبت الأرض به سنابل حب وشجرا وكلأ، وتلك كلّها فيها حياة قريبة من حياة الإنسان والحيوان، وهي حياة النَّماء، فيكون ذلك دليلا للناس على تصوّر حالة البعث بعد الموت بدليل. ومناسبة الانتقال من ذكر السماوات إلى ذكر السحاب والمطر قويّة.

والمشار إليه هنا قد صُرِّح به في مواضع من القرآن، كقوله تعالى { وَنَزَّلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ، وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ، رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ } [ق:9-11].

ففي الآية استدلالان؛ بإنزال الماء من السحاب، واستدلال بالإنبات، وفيها مِنَّة على المعرضين على النظر في دلائل صنع الله التي هي دواعٍ لشكر المُنعِم بها.

المُعْصِرات: السحابات التي تحمل ماء المطر. والعرب تقول: إنّ الله تعالى إذا جعل السحاب ركاما جاء بالريح عَصَرَ بعضُه بعضًا فيخرج الودق منه.

الثَّجَّاج: المُنْصَبُّ بقوّة، وهو فعّال من ثَجَّ القاصر إذا انصبّ، يقال ثَجَّ الماء، إذا انصبّ بقوة.

{ **لِنُخْرِجَ** } دون نحو: لنُنْبِتَ، لأنّ المقصود الإيماء إلى تصوير كيفية بعث الناس من الأرض إذ ذلك المقصد الأول من هذا الكلام، ألا ترى أنّه لمّا كان المقصد الأوّل من الآية في سورة (ق) هو الامتنان جيء بفعل { فَأَنْبَتْنَا }، ثُمّ أتبع بالاستدلال به على البعث بقوله تعالى { كَذَلِكَ الْخُرُوجُ } [ق:11].

الحَبّ: اسم جمع حبة وهي البزرة. والمراد بالحَب هنا: الحَب المقتات للناس مثل: الحنطة، والشعير، والسُّلت، والذرة، والأرز، والقُطنية، وهي الحبوب التي هي ثمرة السنابل ونحوها.

النبات: أصله اسم مصدر نبت الزرع، قال تعالى { وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنْ الأَرْضِ نَبَاتًا } [نوح:17].
والمراد به هنا: النبات الذي لا يُؤكل حبّه بل الذي يُنتفع بذاته، وهو ما تأكله الأنعام والدواب مثل التبن والقرط والحشيش وغير ذلك.
{ **وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا** } جُعلت الجنات مفعولا لـ { لِنُخْرِجَ } على تقدير مضاف، أي: نخل جنات أو شجر جنات، لأنّ الجنّات جمع جنّة وهي قطعة من الأرض المغروسة نخلا أو نخلا وكرما، أو بجميع الشجر المثمر مثل التين والرمّان، كما جاء في مواضع من القرآن.
ووجه إيثار لفظ { جَنَّاتٍ } أنّ فيه إيماء إلى إتمام المنّة لأنّهم كانوا يحبُّون الجنّات والحدائق لما فيها من التنعُّم بالظلال والثمار والمياه وجمال المنظر، ولذلك أتبعت بوصف { أَلْفَافًا } لأنّه يزيدها حسنا.
ألفاف: اسم جمع لا واحد له من لفظه، أي: كلّ جنّة ملتفّة الشجر بعضه ببعض.
فوصف الجنة بألفاف مبني على المجاز العقلي لأنّ الالتفاف في أشجارها. ولعلّه من مبتكرات القرآن إذا لم أر شاهدا عليه من كلام العرب قبل القرآن.

وبهذا الاستدلال والامتنان خُتمت الأدلة التي أقيمت لهم على انفراد الله تعالى بالإلهية [الآيات:6-16]، وتضمَّنت الإيماء إلى إمكان البعث وما أدمج فيها من المنن عليهم عساهم أن يذكروا النعمة فيشعروا بواجب شكر المنعِم، وينظروا فيما بلغهم عنه من الإخبار بالبعث والجزاء فيصرفوا عقولهم للنظر في دلائل ذلك.
وقد ابتدئت هذه الدلائل بدلائل خلق الأرض وحالتها، **وجالت** بهم الذكرى على أهمّ ما على الأرض من الجماد والحيوان، **ثُمَّ** ما في الأفق من أعراض الليل والنهار، **ثُمّ** تصاعد بهم التجوال بالنظر في خلق السماوات وبخاصة الشمس، **ثُمّ** نزل بهم إلى دلائل السحاب والمطر فنزلوا معه إلى ما يخرج من الأرض من بدائع الصنائع ومنتهى المنافع فإذا هم ينظرون من حيث صدروا، وذلك من رد العجز على الصدر.

{ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا [17] يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا [18] }.

هذا بيان لما أجمله قوله تعالى {عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ، الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ } [3/2]، وهو المقصود من سياق الفاتحة التي افتتحت بها السورة، وهيَّأت للانتقال مناسبة ذكر الإخراج من قوله تعالى { لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً ...} [15]، لأنّ ذلك شُبِّه بإخراج أجساد الناس للبعث، كما قال تعالى { فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ - إلى قوله - كَذَلِكَ الْخُرُوجُ } [ق:9-11].
{ **إِنَّ** } أُكِّد الكلام بحرف التأكيد لأنّ فيه إبطالا لإنكار المشركين وتكذيبهم بيوم الفصل.
{ **يَوْمُ الْفَصْلِ** } يوم البعث للجزاء. وتقدّم غير مرة أُخراها في [المرسلات:14].

الفصل: التمييز بين الأشياء المختلطة، وشاع إطلاقه على التمييز بين المعاني المتشابهة والملتبسة، فلذلك أطلق على الحكم، وقد يضاف إليه فيقال: فصل القضاء، لأنّ القضاء يُميّز الحق من الظلم.

فالجزاء على الأعمال فصل بين الناس بعضهم من بعض.

وأوثر التعبير عنه بيوم الفصل لإثبات شيئين:

أحدهما: أنّه بيَّن ثبوت ما جحدوه من البعث والجزاء، وذلك فصل بين الصدق وكذبهم.

ثانيهما: القضاء بين الناس فيما اختلفوا فيه، وما اعتدى به بعضهم على بعض.

{ **كَانَ مِيقَاتًا** } إقحام فعل { كَانَ } لإفادة أنّ توقيته متأصِّل في علم الله لما اقتضته حكمته تعالى، التي هو أعلم بها، أنّ استعجالهم به لا يقدّمه على ميقاته.

الميقات: مِفْعَال مشتقّ من الوقت، والوقت: الزمان المحدّد في عمل ما، ولذلك لا يستعمل لفظ وقت إلّا مقيدا بإضافة أو نحوها، نحو وقت الصلاة.

أي: كان ميقاتا للبعث والجزاء. فكونه { مِيقَاتًا } كناية تلويحية عن تحقيق وقوعه إذ التوقيت لا يكون إلّا بزمن محقّق الوقوع ولو تأخَّر وأبطأ. 0وهذا رد لسؤالهم تعجيله وعن سبب تأخيره، سؤالا يريدون منه الاستهزاء بخبره.

والمعنى: ليس تكذيبكم به ممّا يحملنا على تغيير إبّانه المحدّد له، ولكن الله مستدرجكم مدّة.

وفي هذا إنذار لهم بأنّه لا يدرى لعله يحصل قريبا، قال تعالى { لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً } [الأعراف:187]، وقال تعالى { قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا } [الإسراء:51].

{ **يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ** } بدل من { يَوْمَ الْفَصْلِ }. وفائدة هذا البدل حصول التفصيل لبعض أحوال الفصل وبعض أهوال يوم الفصل.

الصور: البوق. وهو قرن ثور فارغ الوسط مضيق بعض فراغه، ويُتّخذ كذلك من الخشب أو من النحاس، ينفخ فيه النافخ فيخرج منه الصوت قويًّا لنداء الناس إلى الاجتماع، وأكثر ما ينادى به الجيش.

{ **يُنْفَخُ** } بني الفعل إلى النائب لعدم تعلّق الغرض بمعرفة النافخ وإنّما الغرض معرفة هذا الحادث العظيم وصورة حصوله.

النفخ في الصور: يجوز أن يكون تمثيلا لهيئة دعاء الناس وبعثهم إلى الحشر بهيئة جمع الجيش.

ويجوز أن يكون هذا النفخ معبَّرا به عن أمر التكوين الخاص، وهو تكوين الأجساد بعد بلاها وبث أرواحها في بقاياها. وقد ورد في الآثار أنّ الملك الموكل بهذا النفخ هو إسرافيل، وقد تقدّم ذلك غير مرة.

{ **فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا** } العطف بالفاء لإفادة تعقيب النفخ بمجيئهم إلى الحساب، وحُذف ما يحصل بين النفخ في الصور وبين حضورهم لزيادة الإيذان بسرعة حصول الإتيان.

الإتيان: الحضور بالمكان الذي يمشي إليه الماشي، فالإتيان هو الحصول.

{ **أَفْوَاجًا** } حال من ضمير { فَتَأْتُونَ }.

الأفواج: جمع فَوْج: الجماعة المتصاحبة من أناس مقسَّمين باختلاف الأغراض، فتكون الأمم أفواجا، ويكون الصالحون وغيرهم أفواجا، قال تعالى { كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا } [الملك:8].

{ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا } [19].

جملة هي حال من ضمير { فَتَأْتُونَ }، والتقدير: وقد فتحت السماء، أي: قد حصل النفخ قبل ذلك أو معه. ويجوز أن تكون معطوفة على جملة { يُنْفَخُ فِي الصُّورِ }، فيعتبر { يَوْمَ } مضافا إلى هذه الجملة، على حد قوله تعالى { وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ } [الفرقان:25]. والتعبير بالفعل الماضي على هذا الوجه لتحقيق وقوع هذا التفتيح حتّى كأنّه قد مضى وقوعه.

فتح السماء: انشقاقها بنزول الملائكة من بعض السماوات، التي هي مقرُّهم، نزولًا يحضرون به لتنفيذ أمر الجزاء، كقوله تعالى { وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلاَئِكَةُ تَنزِيلاً الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ } [الفرقان:26].

{ **وَفُتِحَتِ** } قرأ نافع وابن عامر وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب { وَفُتِّحَتِ } بتشديد الفوقية، وهو مبالغة في فعل الفتح بكثرة الفتح أو شدّته إشارة إلى أنّه فتح عظيم. وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وخلف بتخفيف الفوقية على أصل الفعل، ومجرّد تعلّق الفتح بالسماء مشعر بأنّه فتح شديد.

وفي الفتح عِبرة لأنّ السماوات كانت ملتئمة فإذا فسد التئامها كان معه انخرام نظام العالم الفاني.

قال تعالى { إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ - إلى قوله – يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاَقِيهِ } [الإنشقاق:1-6].

{ **فَكَانَتْ أَبْوَابًا** } تفريع، و{ كَانَتْ } هنا بمعنى: صارت، أي: صارت ذات أبواب.

{ **أَبْوَابًا** } تشبيه بليغ، أي: كالأبواب، وحينئذ لا يبقى حاجز بين سكان السماوات وبين الناس، كما تقدّم في قوله تعالى { تَعْرُجُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ } [المعارج:4].

والإخبار عن السماء بأنّها أبواب جرى على طريق المبالغة للدلالة على كثرة المفاتح فيها حتّى كأنّها هي أبواب، وقريب منه قوله تعالى { وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا } [القمر:12].

{ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا } [20].

التسيير: جعلُ الشيء سائرا، أي: ماشيا. وأطلق هنا على النقل من المكان، أي: نقلت الجبال وقلعت من مقارِّها بسرعة بزلازل أو نحوها، كما دلّ عليه قوله تعالى { يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتْ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا } [المزمل:14]، حتّى كأنّها تسير من مكان إلى آخر، وهو نقل يصحبه تفتيت كما دلّ عليه تعقيبه بقوله { فَكَانَتْ سَرَابًا } لأنّ ظاهر التعقيب أنّ لا تكون معه مهلة، أي: فكانت كالسراب في أنّها لا شيء.

السراب: ما يلوح في الصحاري ممّا يشبه الماء وليس بماء ولكنّه حالة في الجو القريب تنشأ من تراكم أبخرة على سطح الأرض. وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا } [النور:39].

{ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا [21] لِلْطَّاغِينَ مَآبًا [22] لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا [23] }.

يجوز أن تكون الجملة في موضع خبر ثان لـ { إِنَّ } من قوله تعالى { إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا } [17]. ودخول حرف (إنّ) في خبر (إنّ) يفيد تأكيدا على التأكيد. كقوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } [الحج:17].

وتكون الجملة من تمام ما خوطبوا به بقوله تعالى { يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا } [18].

والتعبير بـ { لِلْطَّاغِينَ } إظهار في مقام الإضمار للتسجيل عليهم بوصف الطغيان.

ويجوز أن تكون مستأنفة استئنافا بيانيا عن جملة { إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا } [17] وما لحق بها، لأنّ ذلك ممّا يثير في نفوس السامعين تطلُّب ماذا سيكون بعد تلك الأهوال فأجيب بمضمون قوله تعالى { إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا } وعليه فليس في قوله تعالى { لِلْطَّاغِينَ } تخريج على خلاف مقتضى الظاهر.

{ **جَهَنَّمَ** } ابتدئ بذكر جهنم لأنّ المقام مقام تهديد إذ ابتدئت السورة بذكر تكذيب المشركين بالبعث.

جهنّم: اسم لدار العذاب في الآخرة. قيل: هو اسم معرَّب، فلعلَّه معرَّب عن العبرانية أو عن لغة أخرى سامية، وقد تقدَّم عند قوله تعالى { فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ } [البقرة:206].

المرصاد: مكان الرصد، أي: الرقابة. والمعنى: أنّ جهنم موضع يرصد منه الموكلون بها، ويترقَّبون من يُلقى إليها من أهل الطغيان، كما يترقَّب أهل المرصاد من يأتيه من عدو.

ويجوز أن يكون مرصاد مصدرا على وزن المفعال، أي: رصدا. والإخبار به عن جهنّم للمبالغة حتّى كأنّها أصل الرصد، أي: لا تُفلت أحدا ممَّن حقَّ عليهم دخولها.

ومتعلَّق { مِرْصَادًا } محذوف دلّ عليه قوله تعالى { لِلْطَّاغِينَ مَآبًا }. والتقدير: مرصادا للطاغين، وهذا أحسن، لأنّ قرائن السورة قصار، فيحسن الوقف عند { مِرْصَادًا } لتكون قرينة.

{ **كَانَتْ مِرْصَادًا** } أقحم { كَانَتْ } للدلالة على أنّ جعلها مرصادا أمر مقدّر لها، كما تقدّم في قوله تعالى { إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا } [17]. وفيه إيماء إلى عدل الله تعالى حيث أعدّ في أزله عقابا للطاغين.

{ **لِلْطَّاغِينَ** } متعلّق بـ { مَآبًا } قُدِّم عليه لإدخال الروع على المشركين الذين بشركهم طغوا على الله، وهذا أحسن كما علمت آنفا. ولك أن تجعله متعلِّقا بـ { مِرْصَادًا }، أو متنازعا فيه بين { مِرْصَادًا } و{ مَآبًا }.

الطغيان: تجاوز الحدّ في عدم الاكتراث بحق الغير والكبر، والتعريف فيه للعهد، فالمراد به المشركون المخاطبون بقوله تعالى { فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا } [18]. فهو إظهار في مقام الإضمار لقصد الإيماء إلى سبب

جعل جهنم لهم، لأنّ الشرك أقصى الطغيان إذ المشركون بالله أعرضوا عن عبادته ومتكبِّرون على رسوله صلى الله عليه وسلم حيث أنفوا من قبول دعوته، وهم المقصود من معظم ما في هذه السورة، كما يُصرِّح به قوله تعالى { إِنَّهُمْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَابًا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا } [28/27].

هذا وأنّ المسلمين المستخفِّين بحقوق الله، أو المعتدين على الناس بغير حق، لهم حظ من هذا الوعيد بمقدار اقترابهم من حال أهل الكفر.

{ مَآبًا } مكان الأوب وهو الرجوع، أطلق على المقر والمسكن إطلاقا أصله كناية ثم شاع استعماله فصار اسما للموضع الذي يستقرّ به المرء.

اللابث: المقيم بالمكان. وانتصب { لاَبِثِينَ } على الحال من الطاغين.

أحقاب: جمع حُقُب (بضمّتين)، وهو زمن طويل نحو الثمانين سنة، وتقدّم في قوله { أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا } [الكهف:60]. وجمعه هنا مراد به الطول العظيم، فجاءت هذه الآية على المعروف الشائع في الكلام كناية به عن الدوام دون انتهاء، أي: الخلود.

وليس فيه دلالة على أنّ لهذا اللبث نهاية حتّى يحتاج إلى دعوى نسخ ذلك بآيات الخلود، وهو وهم لأنّ الأخبار لا تُنسخ، أو يحتاج إلى جعل الآية لعصاة المؤمنين، فإنّ ذلك ليس من شأن القرآن المكي الأول إذ قد كان المؤمنون أيامئذ صالحين مخلصين مجدِّين في أعمالهم.

{ لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا [24] إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا [25] جَزَاءً وِفَاقًا [26] }.

<u>يجوز</u> أن تكون الجملة حالا ثانية من { لِلْطَّاغِينَ } [22]، أو حالا أولى من الضمير في { لاَبِثِينَ } [23]، وأن تكون خبرا ثالثا لـ { كَانَتْ مِرْصَادًا } [21]. وضمير { فِيهَا } على هذه الوجوه عائد إلى { جَهَنَّمَ }.

<u>ويجوز أن تكون صفة</u> لـ { أَحْقَابًا } [23]، أي: لا يذوقون في تلك الأحقاب بردا ولا شرابا إلّا حميما وغساقا. فضمير { فِيهَا }، على هذا الوجه، عائد إلى الأحقاب.

الذَّوق: حقيقته إدراك طَعْم الطعام والشراب. ويُطلق على الإحساس بغير الطعوم مجازيا. وشاع في كلامهم: ذاق الألم، وعلى وجدان النفس، كقوله تعالى { لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ } [المائدة:95]. وقد أستُعمل هنا في معنييه حيث نصب { بَرْدًا } و { شَرَابًا }.

البرد: ضدّ الحرّ، وهو تنفيس للذين عذابهم الحر، أي: لا يُغاثون بنسيم بارد.

الشراب: ما يُشرب، والمراد به الماء الذي يزيل العطش.

الحميم: الماء الشديد الحرارة.

الغسَّاق: قرأه الجمهور بتخفيف السين. وقرأه حمزة والكسائي وحفص بتشديد السين وهما لغتان فيه. ومعناه الصديد الذي يسيل من جروح الحرق وهو المُهل، وتقدما في [ص:57].

{ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا } استثناء من { بَرْدًا } و{ شَرَابًا }، على طريقة اللف والنشر المرتَّب، وهو استثناء

منقطع لأنّ الحميم ليس من جنس البرد في شيء إذ هو شديد الحر. ولأنّ الغسّاق ليس من جنس الشراب.

{ **جَزَاءً** } منصوب على الحال من ضمير { يَذُوقُونَ }، أي: حالة كون ذلك جزاء، أي: مجازى به.

{ **وِفَاقًا** } مصدر وافق وهو مؤوَّل بالوصف، أي: موافقا للعمل الذي جوزوا عليه، وهو التكذيب بالبعث وتكذيب القرآن، كما دلّ عليه التعليل بعده بقوله تعالى:

{ **إِنَّهُمْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَابًا** [27] **وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا** [28] }.

موقع هذه الجملة موقع التعليل لجملة { إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا - إلى قوله - جَزَاءً وِفَاقًا } [21-26]، ولذلك فُصلت. وضمير { إِنَّهُمْ } عائد إلى { لِلْطَّاغِينَ } [22].

وحرف (إِنَّ) للاهتمام بالخبر وليست لرد الإنكار إذ لم ينكر أحد أنّهم لا يرجون حسابا وأنّهم مكذِّبون بالقرآن، وشأن (إنّ) إذا قُصد بها مجرّد الاهتمام أن تكون قائمة مقام فاء التفريع مفيدة للتعليل.

فالجملة معترضة بين ما قبلها وبين جملة { فَذُوقُوا } [30].

{ **كَانُوا** } دال على أنّ انتفاء رجائهم الحساب وصف متمكِّن من نفوسهم.

{ **لاَ يَرْجُونَ حِسَابًا** } نفي لرجائهم وقوع الجزاء. وجيء بالفعل مضارعا للدلالة على استمرار انتفاء ما عُبر عنه بالرجاء، وذلك لأنّهم كلَّما أعيد لهم ذكر يوم الحساب جدَّدوا إنكاره وكرروا شبهاتهم على نفي إمكانه لأنّهم قالوا { إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ } [الجاثية:32].

الرجاء: أشتهر في ترقّب الأمر المحبوب، والحساب ليس خيرا لهم حتّى يُجعل نفي ترقّبه من قبيل نفي الرجاء فكان الظاهر أن يُعبّر عن ترقُّبه بمادة (التوقّع) الذي هو ترقُّب الأمر المكروه،

<u>فيظهر أنّ وجه العدول</u>، أن الله لمّا أخبر عن جزاء الطاغين وعذابهم تلقّى المسلمون ذلك بالمسرّة وعلموا أنّهم ناجون ممّا سيلقاه الطاغون فكانوا مترقِّبين يوم الحساب ترقّب رجاء، فنفي رجاء يوم الحساب عن المشركين جامع بصريحه معنى عدم إيمانهم بوقوعه، وبكنايته رجاء المؤمنين وقوعه.

ومن المفسِّرين من فسّر { يَرْجُونَ } بمعنى: يخافون، وهو تفسير بحاصل المعنى، وليس تفسيرا للفظ.

الحساب: العَدُّ، أي: عدّ الأعمال والتوقيف على جزائها، أي: لا يرجون وقوع حساب على أعمال العباد يوم الحشر.

{ **وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا** } عطف على { لاَ يَرْجُونَ }، أي: وإنّهم كذبوا بآياتنا، أي: بآيات القرآن.

<u>والمعنى</u>: كذَّبوا ما اشتملت عليه الآيات من إثبات الوحدانية ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم.

ولكون تكذيبهم بذلك قد استقر في نفوسهم ولم يتردَّدوا فيه <u>جيء في جانبه بالفعل الماضي</u> لأنّهم قالوا { قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ } [فصلت:5].

كِذَّاب: مصدر كَذَّب. وأوثر هذا المصدر هنا دون التكذيب لمراعاة التماثل في فواصل هذه السورة، فإنّها

على نحو ألف التأسيس في القوافي، والفواصل كالأسجاع ويحسُن في الأسجاع ما يحسّن في القوافي.
{ **كِذَّابًا** } أنتصب على أنّه مفعول مطلق مؤكِّد لعامله لإفادة شدّة تكذيبهم بالآيات.

{ **وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا** } [29].

اعتراض بين الجمل التي سيقت مساق التعليل وبين جملة { فَذُوقُوا } [30]. وفائدة هذا الاعتراض المبادرة بإعلامهم أنّ الله لا يخفى عليه شيء من أعمالهم فلا يدع شيئا من سيّئاتهم إلّا يحاسبهم عليه.
{ **كُلَّ** } نُصب على المفعولية لـ { أَحْصَيْنَاهُ } على طريقة الاشتغال بضميره.
الإحصاء: حساب الأشياء لضبط عددها، فالإحصاء كناية عن الضبط والتحصيل.
{ **كِتَابًا** } انتصب على المفعولية المطلقة لـ { أَحْصَيْنَاهُ }. والتقدير: إحصاء كتابة، فهو مصدر بمعنى الكتابة، وهو كناية عن شدّة الضبط لأنّ الأمور المكتوبة مصونة عن النسيان والإغفال.

{ **فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا** } [30].

الفاء للتفريغ والتسبّب على جملة { إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا } [21] وما أتصل بها، ولمّا غُيّر أسلوب الخبر إلى الخطاب بعد أن كان جاريا بطريق الغيبة، ولم يكن مضمون الخبر ممّا يجري في الدنيا فيُظنّ أنّه خطاب تهديد للمشركين، فالتقدير: فيقال لهم ذوقوا، إلى آخره، ولهذا فليس في ضمير الخطاب التفات فالمفرَّع بالفاء هو فعل القول المحذوف.
{ **فَذُوقُوا** } الأمر مستعمل في التوبيخ والتقريع.
{ **فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا** } فُرّع على { فَذُوقُوا } ما يزيد تنكيدهم وتحسيرهم بإعلامهم بأنّ الله سيزيدهم عذابا فوق ما هم فيه.
الزيادة: ضمُّ شيء إلى غيره من جنس واحد أو غرض واحد، قال تعالى { وَلاَ تَزِدْ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا } [نوح:28].، أي: لا تزدهم على ما هم فيه من المساوي إلّا الإهلاك.
{ **إِلَّا عَذَابًا** } يجوز أن تكون زيادة نوع آخر من العذاب، كقوله تعالى { زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ العَذَابِ } [النحل:88]. ويجوز أن تكون زيادة من نوع ما هم فيه من العذاب بتكريره في المستقبل.

{ **إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا [31]حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا [32] وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا [33] وَكَأْسًا دِهَاقًا [34] لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا [35] جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا [36]** }.

جرى هذا الانتقال على عادة القرآن في تعقيب الإنذار بالتبشير. انتُقل من ترهيب الكافرين بما سيلاقونه إلى ترغيب المتّقين فيما أُعد لهم في الآخرة من كرامة ومن سلامة ممّا وقع فيه أهل الشرك.

فالجملة متصلة بجملة { إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا، لِلْطَّاغِينَ مَآبًا } [22/21] وهي مستأنفة استئنافا ابتدائيا بمناسبة مقتضى الانتقال.

{ **إِنَّ** } افتتاحها بحرف التأكيد للدلالة على الاهتمام بالخبر لئلّا يشك فيه أحد. وتقديم خبرها على اسمها للاهتمام به تنويها بالمتقين.

{ **لِلْمُتَّقِينَ** } المؤمنون الذين آمنوا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم واتبعوا ما أمرهم به واجتنبوا ما نهاهم عنه، لأنّهم المقصود من مقابلتهم بالطاغين المشركين.

المفاز: مكان الفوز، وهو الظفر بالخير ونيل المطلوب. ويجوز أن يكون مصدرا ميميًّا بمعنى الفوز، وتنوينه للتعظيم. والمراد: الجنة ونعيمها. وأوثرت كلمة { مَفَازًا } على كلمة: الجنّة، لأنّ في اشتقاقه إثارة الندامة في نفوس الطاغين.

{ **حَدَائِقَ** } بدل من { مَفَازًا }، بدل بعض من كلّ باعتبار أنّه بعض من مكان الفوز، أو بدل اشتمال باعتبار معنى الفوز.

الحدائق: جمع حديقة وهي الجنّة من النخيل والأشجار ذوات الساق المحوطة بحائط أو جدار أو حضائر.

الأعناب: جمع عنب، وهو اسم يُطلق على شجرة الكرم ويطلق على ثمرها.

الكواعب: جمع كاعب، وهي الجارية التي بلغت سن خمس عشرة سنة ونحوها. ووصفت بكاعب لأنّها تكعَّب ثديُها، أي: استدار ونتأ. ولمّا كان كاعب وصفًا خاصًا بالمرأة لم تلحقه هاء التأنيث.

الأتراب: جمع تِرْب وهو المساوي غيره في السن، وأكثر ما يطلق على الإناث. قيل مشتق من الترائب وهي ضلوع الصدر فإنها متساوية. وتقدّم في قوله تعالى { عُرُبًا أَتْرَابًا } [الواقعة:37].

فيجوز أن يكون وصفهم بالأتراب بالنسبة بينهنّ في تساوي السن لزيادة الحسن، أي: لا تفوت واحدة منهنّ غيرها. ويجوز أن يكون هذا الوصف بالنسبة بينهن وبين أزواجهن لأنّ ذلك أحبّ إلى الرجال في معتاد أهل الدنيا، لأنّه أوفق بطرح التكلّف بين الزوجين.

الكأس: إناء معدّ لشرب الخمر، وهو اسم مؤنّث تكون من زجاج ومن فضة ومن ذهب.

وقد يطلقون على الخمر اسم الكأس. وعدل عن صيغة الجمع لأنّ كأسا بالإفراد أخف من أكؤس وكؤوس ولأنّ هذا المركّب جرى مجرى المثل.

دِهاق: اسم مصدر دَهَق من باب جعل، أو اسم مصدر أدهق، ولكونه في الأصل مصدرا لم يقترن بعلامة تأنيث.والدهق والإدهاق: ملء الإناء من كثرة ما صُب فيه.

{ **كَأْسًا دِهَاقًا** } يجري مجرى المثل، قال عكرمة: قال ابن عباس: سمعت أبي في الجاهلية يقول: اسقنا كأسا دهاقا، أي: دون تقتير.

{ **لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا** } يجوز أن يكون الضمير المجرور عائدا إلى الكأس، فتكون (في) للظرفية المجازية بتشبيه تناول الندامى للشراب من الكأس بحلولهم في الكأس على طريق المكنية،

أو تكون (في) للتعليل، كما في الحديث: **"دخلت امرأة النار في هِرّة"**، أي: من أجل هرّة.
والمعنى: لا يسمعون لغوا ولا كذابا منها أو عندها، فتكون الجملة صفة ثانية لـ { كَأْسًا }.
والمقصود: أنّ خمر الجنة سليمة ممّا تسبّبه خمر الدنيا من آثار العربدة من هذيان، وكذب وسباب.
ويجوز أن يعود ضمير { فِيهَا } إلى { مَفَازًا } باعتبار تأويله بالجنّة لوقوعه في مقابلة { جَهَنَّمَ }.
أي: لا يسمعون في الجنة الكلام السافل ولا الكذب.
اللغو: الكلام الباطل والهذيان وسقط القول الذي لا يورد عن رويّة ولا تفكير.
الكِذَّاب: تقدّم معناه آنفا.
{ **جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا** } الجزاء هنا المُجازى به وهو الحدائق والجنّات والكواعب والكأس.
الجزاء: إعطاء شيء عوضا على عمل.
{ **مِنْ** } ابتدائية، أي: صادرا من لدن الله، وذلك تنويه بكرم هذا الجزاء وعظم شأنه.
{ **رَبِّكَ** } إضافة رب إلى ضمير المخاطب، مرادًا به النبيّ صلى الله عليه وسلم، للإيماء إلى أنّ جزاء المتقين بذلك يشتمل على إكرام النبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّ إسداء هذه النعم إلى المتقين كان لأجل أيمانهم به وعملهم بما هداهم إليه.
{ **عَطَاءً** } ووصف الجزاء بعطاء، وهو أسم لما يُعطى، أي: يُتفضَّل به بدون عوض، للإشارة إلى أنّ ما جوزوا به أوفر ممّا عملوه.
{ **حِسَابًا** } اسم مصدر حسَب يحسُب، إذا عَدَّ أشياء. وجميع ما تصرَّف من مادة حسب متفرّع عن معنى العدّ وتقدير المقدار، أي: هو جزاء كثير مُقدَّر على أعمالهم. والتنوين فيه للتكثير. والوصف باسم المصدر للمبالغة وهو بمعنى المفعول. وهذا مقابل ما وقع في جزاء الطاغين من قوله تعالى { جَزَاءً وِفَاقًا } [26].
والحساب مجمل هنا يبيّنه قوله تعالى { مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا } [الأنعام:160]، وقوله تعالى { مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ } [البقرة:261].

{ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا } [37].
قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر برفع { رَبُّ } ورفع { الرَّحْمَنُ }، وقرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب بخفضهما، وقرأه حمزة والكسائي وخلف بخفض { رَبِّ } ورفع {الرَّحْمَنُ }.
فأمّا قراءة رفع الاسمين فـ { رَبُّ } خبر مبتدأ محذوف وهو ضمير يعود على قوله تعالى { مِنْ رَبِّكَ } [36]، و{الرَّحْمَنُ } خبر ثانٍ.

وأمّا قراءة جر الاسمين فهي جارية على أنّ { رَبِّ السَّمَاوَاتِ } نعت لـ { رَبِّكَ } من قوله تعالى {جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ} [36] و{ الرَّحْمَنِ }، نعت ثانٍ.

الرَّبُّ: المالك المتصرّف بالتدبير ورعي الرفق والرحمة.

{ **السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } المراد: مُسمّاها مع ما فيها من الموجودات، لأنّ اسم المكان قد يراد به ساكنه، كما في قوله تعالى { فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا } [الحج:45]، فإنّ الظلم من صفات سكّان القرية لا صفة لذاتها، والخواء على عروشها من أحوال ذات القرية لا من أحوال سكّانها، فكان إطلاق القرية مرادا به كلا المعنيين.

{ **وَمَا بَيْنَهُمَا** } ما في الجو من المكوّنات حية وغيرها من أسحبة وأمطار وموجودات سابحة في الهواء.

{ **مَا** } موصولة وهي من صيغ العموم، وقد استفيد من ذلك تعميم ربوبيته على جميع المصنوعات.

{ **الرَّحْمَنِ** } خُصَّ بالذكر دون غيره من الأسماء الحسنى لأنّ في معناه إيماء إلى أنّ ما يفيضه من خير على المتقين في الجنة هو عطاء رحمان بهم.

وفي ذكر هذه الصفة الجليلة تعريض بالمشركين إذ أنكروا اسم الرحمان الوارد في القرآن كما حكى الله عنهم بقوله تعالى { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَانِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَانُ } [الفرقان:60].

{ **لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا** } يجوز أن تكون هذه الجملة حالا من { مَا بَيْنَهُمَا } لأنّ ما بين السماوات والأرض يشمل ما في ذلك من المخلوقات العاقلة، أو المزعوم لها العقل مثل الأصنام، فيُتوهَّم أنّ من تلك المخلوقات من يستطيع خطاب الله ومراجعته. فيكون الغرض من ذكر هذا إبطال اعتذار المشركين حين استشعروا شناعة عبادتهم الأصنام التي شهَّر القرآن بها، فقالوا { هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ } [يونس:18]، وقالوا { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى } [الزمر:3].

ويجوز أن تكون استئنافا ابتدائيا لإبطال مزاعم المشركين أو للاحتراس، لدفع توهّم أنّ ما تُشعر به صلة رب من الرفق بالمربوبين في تدبير شؤونهم يُسيغ إقدامهم على خطاب الرب.

الخطاب: الكلام الموجّه لحاضر لدى المتكلِّم أو كالحاضر، المتضمِّن إخبارا أو طلبا أو إنشاء مدح أو ذم.

{ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلاَئِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَانُ وَقَالَ صَوَابًا } [38].

{ **يَوْمَ** } متعلِّق بقوله تعالى { لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا }، أي: لا يتكلّم أحد يومئذ إلّا من أذن له الله.

القيام: الوقوف، وهو حالة الاستعداد للعمل الجدّ، وهو من أحوال العبودية الحقّ التي لا تُستحق إلّا لله تعالى. وفي الحديث: **"من أحبَّ أن يتمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار"**، أي: لأنّ ذلك من الكبرياء المختصة بالله تعالى.

الروح: اختُلف في المراد منه اختلافا أثاره عطف الملائكة عليه؛

فقيل: هو جبريل. وتخصيصه بالذكر قبل ذكر الملائكة المعطوف عليه لتشريف قدره بإبلاغ الشريعة.

وقيل: أرواح بني آدم. واللام لتعريف الجنس: فالمفرد معها والجمع سواء. والمعنى: يوم تحضر الأرواح لتودع في أجسادها.

وعليه يكون فعل { يَقُومُ } مستعملا في حقيقته ومجازه.

{ **وَالْمَلاَئِكَةُ** } عطف على { الرُّوحُ }، أي: ويقوم الملائكة صفًّا.

الصَّفّ: اسم للأشياء الكائنة في مكان بجانب بعضها بعضا كالخط. وقد تقدَّم في قوله تعالى { ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا } [طه:64]، وفي قوله تعالى { فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ } [الحج:36]، وإنّما يصطفّ الناس في المقامات التي يكون فيها أمر عظيم، فصفّ الملائكة تعظيم لله وخضوع له.

{ **لَا يَتَكَلَّمُونَ** } مؤكِّدة لجملة { لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا } أعيدت بمعناها لتقرير المعنى إذ كان المقام حقيقا، فالتقرير لقصد التوصُّل به إلى الدلالة على إبطال زعم المشركين شفاعة أصنامهم لهم عند الله، وهي دلالة بطريق الفحوى، فإنّه إذا نُفي تكلُّمهم بدون إذن نفيت شفاعتهم، إذ الشفاعة كلام من له وجاهة وقبول عند سامعه.

وضمير { يَتَكَلَّمُونَ } عائد إلى ما عاد إليه ضمير { يَمْلِكُونَ } [37].

{ **إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَانُ وَقَالَ صَوَابًا** } استثناء من ضمير { لَا يَتَكَلَّمُونَ } المؤكِّد لضمير { لاَ يَمْلِكُونَ }.

الإذن: اسم للكلام الذي يفيد إباحة فعل للمأذون، وهو مشتقّ من: أَذِنَ له، إذا استمع إليه، قال تعالى { وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ } [الإنشقاق:2]، أي: استمعت وأطاعت لإرادة الله.

أَذِنَ: فعل مشتق من اسم الأذن وهي جارحة السمع، فأصل معنى أذن له: أمال أُذُنَه، أي: سَمْعَه إليه.

ثم استعمل في لازم السمع وهو الرضى بالمسموع، فصار أَذِن بمعنى رضي بما يُطلب منه أو ما شأنه أن يطلب منه، وأباح فعله.

ومتعلّق { أَذِنَ } محذوف دلّ عليه { لاَ يَتَكَلَّمُونَ } ، أي: من أذن له في الكلام.

والمعنى: أنّ من يريد التكلّم لا يستطيعه أو تعتريه رهبة فلا يُقدم على الكلام حتّى يستأذن الله.

وقد أشار إلى هذا قوله تعالى { وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنْ ارْتَضَى } [الأنبياء:28]، أي: لمن علموا أنّ الله ارتضى قبول الشفاعة فيه، وهم يعلمون ذلك بإلهام هو من قبيل الوحي.

{ **الرَّحْمَانُ** } إطلاق هذه الصفة على مقام الجلالة إيماء إلى أنّ إذن الله لمن يتكلم في الكلام أثر من آثار رحمته لأنه أذن فيما يحصل به نفع لأهل المحشر من شفاعة أو استغفار.

{ **وَقَالَ صَوَابًا** } مستعمل في معنى المضارع، أي: ويقول صوابا، فعُبّر عنه بالماضي لإفادة تحقق ذلك، أي: في علم الله. يجوز أن تكون في موضع الحال من اسم الموصول، أي: وقد قال المأذون له في الكلام صوابا. ويجوز أن تكون عطفا على جملة { أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَانُ }، أي: وإلّا من قال صوابا، فعُلم أنّ من لا يقول الصواب لا يؤذن له.

{ **ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا** } [39].

استئناف ابتدائي كالفذلكة لما تقدّم من وعيد ووعد، وإنذار وتبشير، سيق مساق التنويه بـ { يَوْمُ الْفَصْلِ } الذي ابتدئ الكلام عليه من قوله تعالى { إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا } [17]. والمقصود التنويه بعظيم ما يقع فيه من الجزاء بالثواب والعقاب وهو نتيجة أعمال الناس.

{ **الْيَوْمُ الْحَقُّ** } يجوز أن يراد به الثابت الواقع، كما في قوله تعالى { وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ } [الذاريات:6]، وقوله تعالى آنفا { إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا }. وهذا مثل ما في قوله تعالى { وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ } [الأنبياء:97].

ويجوز أن يراد بالحق ما قابل الباطل، أي: العدل وفصل القضاء، فيكون وصف اليوم به على وجه المجاز العقلي، إذ الحقّ يقع فيه واليوم ظرف له، قال تعالى { يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ } [الممتحنة:3].

ويجوز أن يكون الحق بمعنى الحقيق بمسمَّى اليوم، لأنّه شاع إطلاق اسم اليوم على اليوم الذي يكون فيه نصر قبيلة على أخرى مثل: يوم حليمة، ويوم بُعاث. والمعنى: ذلك اليوم الذي يحق له أن يقال: يوم. فيكون كقوله تعالى { ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ } [التغابن:9]، فهو يوم انتقام الله من أعدائه الذين كفروا نعمته وأشركوا به عبيده في الإلهية.

{ **فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا** } تفريع بفاء الفصيحة لإفصاحها عن شرط مقدّر ناشئ عن الكلام السابق. والتقدير: فإذا علمتم ذلك كلّه فمن شاء اتخاذ مآب عند ربه فليتخذه، أي: فقد بان لكم ما في ذلك اليوم من خير وشر فليختر صاحب المشيئة ما يليق به للمصير في ذلك اليوم.

وهذا التفريع من أبدع الموعظة بالترغيب والترهيب عند ما تسنح الفرصة للواعظ من تهيؤ النفوس لقبول الموعظة.

الاتخاذ: مبالغة في الأخذ، أي: أَخَذَ أخذًا، فالتاء فيه ليست للمطاوعة الحقيقية بل هي مجاز وصارت بمنزلة الأصلية. وهنا بمعنى الاكتساب والجعل.

{ **إِلَى رَبِّهِ** } دلّ على أنّه مآب خير، لأنّ الله لا يرضى إلّا بالخير.

المآب: يكون اسم مكان من آب إذا رجع، فيُطلق على المسكن لأنّ المرء يؤوب إلى مسكنه، ويكون مصدرا ميميا وهو الأوب: الرجوع، كقوله تعالى { إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ } [الرعد:36]، أي: رجوعي.

{ **إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا** } [40].

{ **إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا** } اعتراض بين { مَآبًا } [39] وبين { يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ }.

والمقصود من هذه الجملة الإعذار للمخاطبين بقوارع هذه السورة بحيث لم يبق بينهم وبين العلم بأسباب النجاة وضدها شبهة ولا خفاء. فالخبر مستعمل في قطع العذر وليس مستعملا في إفادة الحكم لأنّ كون ما

سبق إنذارا أمر معلوم للمخاطبين.

وافتتح الخبر بحرف التأكيد للمبالغة في الإعذار بتنزيلهم منزلة من يتردّد في ذلك.

الإنذار: الإخبار بحصول ما يسوء في مستقبل قريب. وعُبِّر عنه بالفعل الماضي لأنّ أعظم الإنذار قد حصل بما تقدم من قوله تعالى {إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا لِلطَّاغِينَ مَآبًا - إلى قوله - فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا} [21-30].

{ **قَرِيبًا** } قرب العذاب مستعمل مجازا في تحقّقه وإلّا فإنّه بحسب العرف بعيد، قال تعالى { إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا } [المعارج:7/6]. أي: لتحقُّقه فهو كالقريب.

على أنّ العذاب يصدق بعذاب الآخرة وهو ما تقدّم الإنذار به، ويصدق بعذاب الدنيا من القتل والأسر في غزوات المسلمين لأهل الشرك. وعن مقاتل: هو قتل قريش ببدر.

{ **يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا** } <u>يجوز</u> أن يتعلّق بفعل { اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا } [39]، فيكون { يَوْمَ يَنظُرُ } ظرفًا لغوًا متعلّقا بـ { أَنذَرْنَاكُمْ }.

<u>ويجوز أن يكون بدلا</u> من { يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلاَئِكَةُ صَفًّا } [38]، لأنّ قيام الملائكة صفًّا حضور لمحاسبة الناس وتنفيذ فصل القضاء عليهم، وذلك حين ينظر المرء ما قدمت يداه.

{ **يَنظُرُ** } <u>يجوز أن يكون من نظر العين</u>، والمعنى: يوم يرى المرء ما قدَّمت يداه. والمعنى: حصول جزاء عمله له. فإطلاق النظر هنا على الوجدان على وجه المجاز المرسل بعلاقة الإطلاق، ونظيره قوله تعالى { لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ } [الزلزلة:6].

<u>ويجوز أن يكون من نظر الفكر</u>، وأصله مجاز شاع حتّى لحق بالمعاني الحقيقية.

<u>ويجوز أن يكون من الانتظار</u>، كقوله تعالى { هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ } [الأعراف:53].

المرء: اسم للرجل، إذ هو اسم مؤنثه امرأة. والتعريف تعريف الجنس المفيد للاستغراق. والاقتصار على المرء جري على غالب استعمال العرب.

<u>المراد</u>: ينظر الإنسان، من ذكر أو أنثى، ما قدّمت يداه. وهذا يُعلم من استقراء الشريعة الدال على عموم التكاليف للرجال والنساء إلّا ما خُصَّ منها بأحد الصنفين.

التقديم: تسبيق الشيء والابتداء به.

{ **مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ** } ما أسلفه من الأعمال في الدنيا من خير أو شر، فلا يختصّ بما عمله من السيئات، فقد قال تعالى { يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ } [آل عمران:30].

والقول إمّا مجاز مرسل بإطلاق اليدين على جميع آلات الأعمال، وإمّا أن يكون بطريقة التمثيل بتشبيه هيئة العامل لأعماله المختلفة بهيئة الصانع للمصنوعات بيديه.

ولا يحسُن أن يجعل ذكر اليدين من التغليب لأنّ خصوصية التغليب دون خصوصية التمثيل.

{ **وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا** } خُصَّ بالذكر من عموم المرء الإنسان الكافر الذي يقول { يَا لَيْتَنِي

كُنتُ تُرَابًا } لأنّ السورة أُقيمت على إنذار منكري البعث، فكان ذلك وجه تخصيصه بالذكر، أي: يوم يتمنّى الكافر أنّه لم يخلق من الأحياء فضلا عن أصحاب العقول المكلَّفين بالشرائع، أي: يتمنّى أن يكون أقلّ شيء ممّا لا إدراك له وهو التراب، وذلك تلهّف وتندّم على ما قدّمت يداه من الكفر.

وقد كانوا يقولون { أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ } [الإسراء:98] فجعل الله عقابهم بالتحسّر وتمنِّي أن يكونوا من جنس التراب.

وهذه الآية جامعة لما جاء في السورة من أحوال الفريقين، وفي آخرها ردّ العجز على الصدر من ذكر أحوال الكافرين الذين عُرفوا بالطاغين، وبذلك كان ختام السورة بها براعة مقطع.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النازعات

سُمِّيت في المصاحف وأكثر التفاسير (**سورة النازعات**) بإضافة سورة إلى النازعات بدون واو، جُعل لفظ (النازعات) عَلَمًا عليها لأنّه لم يُذكر في غيرها. وعُنونت في كتاب التفسير من صحيح البخاري وفي كثير من كتب المفسّرين بسورة (**والنازعات**) بإثبات الواو، على حكاية أوّل ألفاظها.
وقال سعد الله (الشهير بسعدي) والخفاجي: إنّها تُسمَّى (**سورة الساهرة**) لوقوع لفظ (الساهرة) في أثنائها [الآية:14]، ولم يقع في غيرها من السور. وقالا: تُسمَّى (**سورة الطامة**) لوقوع لفظ الطامة في [الآية:34]، ولم يقع في غيرها. ولم يذكرها صاحب الإتقان في عداد السور التي لها أكثر من اسم.
وهي مكّيّة بالاتفاق.

وهي معدودة الحادية والثمانين في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة النبأ وقبل سورة الانفطار.

وعدد آيها خمس وأربعون عند الجمهور، وعدّها أهل الكوفة ستا وأربعين آية.

أغراض السورة

*/ إثبات البعث والجزاء، وإبطال إحالة المشركين وقوعه.

*/ تهويل يومه وما يعتري الناس حينئذ من الوهل.

*/ عُرِّض بأنّ نكرانهم إيّاه منبعث عن طغيانهم فكان الطغيان صادا لهم عن الإصغاء إلى الإنذار بالجزاء فأصبحوا آمنين في أنفسهم غير مترقِّبين حياة بعد هذه الحياة الدنيا.

*/ تمثيل طغيانهم بطغيان فرعون وإعراضه عن دعوة موسى عليه السلام.

*/ الاستدلال على إمكان البعث بأنّ خلق العوالم وتدبير نظامه أعظم من إعادة الخلق.

*/ أدمج في ذلك إلفات إلى ما في خلق السماوات والأرض من دلائل على عظيم قدرة الله تعالى.

*/ وأدمج فيه امتنان بما في خلق هذا العالم من فوائد يجتنونها، وأنّه إذا حلّ عالم الآخرة وانقرض عالم الدنيا جاء الجزاء على الأعمال بالعقاب والثواب.

*/ كشف عن شبهتهم في إحالة البعث باستبطائهم إيّاه وجعلهم ذلك أمارة على انتفائه، فلذلك يسألون الرسول صلى الله عليه وسلم عن تعيين وقت الساعة سؤال تعنُّت، وأن شأن الرسول أن يذكِّرهم بها وليس شأنه تعيين إبّانها.

*/ أنّها يوشك أن تحلّ فيعلمونها عيانا وكأنّهم مع طول الزمن لم يلبثوا إلّا جزءا من النهار.

{ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا [1] وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا [2] وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا [3] فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا [4] فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا [5] يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ [6] تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ [7] قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ [8] أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ [9] }.

ابتدئت بالقسم بمخلوقات ذات صفات عظيمة قَسَمًا مُراد منه تحقيق ما بعده من الخبر، وفي هذا القَسَم تهويل المُقْسَم به.

{ **النَّازِعَاتِ / النَّاشِطَاتِ / السَّابِحَاتِ / السَّابِقَاتِ / الْمُدَبِّرَاتِ** } هذه الأمور الخمسة المقسَم بها جموع جرى لفظها على صيغة الجمع بألف وتاء لأنّها في تأويل جماعات تتحقّق فيها الصفات المجموعة.

فتلك صفات لموصوفات محذوفة تدلّ عليها الأوصاف الصالحة لها.

فيجوز أن تكون صفات لموصوفات من نوع واحد له أصناف تميّزها تلك الصفات.

ويجوز أن تكون صفات لموصوفات مختلفة الأنواع بأن تكون كل صفة خاصيَّة من خواص نوع من الموجودات العظيمة قوامه بتلك الصفة.

والذي يقتضيه غالب الاستعمال أنّ المتعاطفات بالواو صفات مستقلّة لموصوفات مختلفة أنواع أو أصناف، أو لموصوف واحد له أحوال متعدّدة، وأنّ المعطوفات بالفاء صفات متفرّعة عن الوصف الذي عطفت عليه بالفاء، فهي صفات متعدِّدة متفرِّع بعضها عن بعض لموصوف واحد فيكون قَسَمًا بتلك الأحوال العظيمة باعتبار موصوفاتها.

وأحسن الوجوه على الجملة أنّ كلّ صفة ممَّا عطف بالواو مرادا بها موصوف غير المراد بموصوف الصفة الأخرى، وأنّ كل صفة عُطفت بالفاء أن تكون حال أخرى للموصوف المعطوف بالواو كما تقدّم.

وهذا الإجمال مقصود لتذهب أفهام السامعين كلّ مذهب ممكن، فتكثر خطور المعاني في الأذهان، وتتكرَّر الموعظة والعبرة باعتبار وقع كلّ معنى في نفس له فيها أشد وقع، وذلك من وفرة المعاني مع إيجاز الألفاظ.

النازعات: وصف مشتق من النزع، ومعاني النزع كثيرة كلّها ترجع إلى الإخراج والجذب، فمنه حقيقة ومنه مجاز.

فيحتمل أن يكون { النَّازِعَاتِ } جماعة من الملائكة وهم الموكَّلون بقبض الأرواح، فالنزع هو إخراج الروح من الجسد، منه قولهم في المحتضر: هو في النزع. وروي هذا عن علي وابن مسعود وابن عباس ومجاهد ومسروق وابن جبير والسدي.

أقسم الله بالملائكة لأنّها من أشرف المخلوقات، وخصَّها بهذا الوصف، الذي هو من تصرُّفاتها، تذكيرا للمشركين إذ هم في غفلة عن الآخرة وما بعد الموت، ولأنّهم شديدٌ تعلُّقهم بالحياة، كما قال تعالى لمّا ذكر اليهود { وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا } [البقرة:96].

ففي القسم بملائكة قبض الأرواح عظة لهم وعبرة. والقسم على هذا الوجه مناسب للغرض الأهم من السورة وهو إثبات البعث، لأنّ الموت أوّل منازل الآخرة، فهذا من براعة الاستهلال.

{ **غَرْقًا** } اسم مصدر أغرق، وأصله إغراقا، جيء به مجرَّدا عن الهمزة فعومل معاملة المصدر الثلاثي المتعدِّي. مفعول مطلق للنازعات، أي: نزعا غرقا، أي: مغرقا، أي: تنزع الأرواح من أقاصي الأجساد.

ويجوز أن تكون { النَّازِعَاتِ } صفة للنجوم، أي: تنزع من أفق إلى أفق، أي: تسير، يقال: ينزع إلى الأمر الفلاني، أي: يميل ويشتاق. و{ غَرْقًا } على هذا الوجه، تشبيه لغروب النجوم بالغرق في الماء. قاله الحسن وقتادة وأبو عبيدة وابن كيسان والأخفش، وهو على هذا متعيّن لأن يكون مصدر (غَرِقَ) وأنّ تسكين عينه تخفيف. والقسم بالنجوم في هذه الحالة لأنّها مظهر من مظاهر القدرة الربانية، كقوله تعالى { وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى } [النجم:1].

{ **النَّاشِطَاتِ** } يجوز أن تكون الموصوفات بالنشاط، وهو قوة الانطلاق للعمل كالسير السريع. ويطلق النشاط على سير الثور الوحشي وسير البعير لقوّة ذلك، فيكون الموصوف إمّا الكواكب السيّارة على وجه التشبيه لدوام تنقّلها في دوائرها، وإمّا إبل الغزو، وإمّا الملائكة التي تسرع إلى تنفيذ ما أمر الله به من أمر التكوين، وكلاهما على وجه الحقيقة.

وعن ابن عباس: الملائكة تُنْشِط نفوس المؤمنين، وعنه هي نفوس المؤمنين تَنشط للخروج.

وأيًّا ما كان فعطفها على { النَّازِعَاتِ } عطف نوع على نوع أو عطف صنف على صنف.

{ **نَشْطًا** } مصدر جاء على مصدر (فَعَلَ) المتعدِّي، فتعيّن أنّ { النَّاشِطَاتِ } فاعلات النشط فهو متعدّ. وقد يكون مفضيا لإرادة النشاط الحقيقي لا المجازي. ويجوز أن يكون التأكيد لتحقيق الوصف لا لرفع احتمال المجاز.

{ **السَّابِحَاتِ** } صفة من السبح المجازي، وأصل السبح العَوم، وهو تنقّل الجسم على وجه الماء مباشرة، وهو هنا مستعار لسرعة الانتقال، فيجوز أن يكون المراد الملائكة السائرين في أجواء السماوات وآفاق الأرض، وروي عن علي بن ابي طالب.

ويجوز أن يراد خيل الغزاة حين هجومها على العدو سريعة كسرعة السابح في الماء.

وقيل: النجوم، وهو جار على قول من فسَّر النازعات بالنجوم.

{ **سَبْحًا** } مصدر مؤكِّد لإفادة التحقيق مع التوسل إلى تنوينه للتعظيم.

{ **فَالسَّابِقَاتِ** } العطف بالفاء يؤذن بأنّ هذه الصفة متفرّعة عن التي قبلها، لأنّهم يعطفون بالفاء الصفات التي من شأنها أن يتفرَّع بعضها عن بعض، كما تقدّم في قوله تعالى { وَالصَّافَّاتِ صَفًّا، فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا، فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا } [الصافات:1-3]. فلذلك فهي السابقات من السابحات.

السبق: تجاوز السائر من يسير معه ووصوله إلى المكان المَسير إليه قبله. ويطلق السبق على سرعة الوصول من دون وجود سائر مع السابق، قال تعالى { فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ } [البقرة:148]، وقال تعالى

{ أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ } [المؤمنون:61].

ويطلق السبق على الغلب والقهر، ومنه قوله تعالى { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا } [العنكبوت:4].

{ **فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا** } يصلح للحمل على هذه المعاني على اختلاف محامل وصف السابحات بما يناسب كل احتمال على حياله، بأن يراد السائرات سيرا سريعا فيما تعمله، أو المبادرات.

{ **فَالْمُدَبِّرَاتِ** } الموصوفة بالتدبير.

التدبير: جَوَلان الفكر في عواقب الأشياء، وبإجراء الأعمال على ما يليق بما توجد له.

فإن كانت السابحات جماعات الملائكة، فمعنى تدبيرها تنفيذ ما نيط بعُهدتها على أكمل ما أذنت به.

وإن كانت السابحات خيل الغزاة، فالمراد بالتدبير: تدبير مكائد الحرب من كر، وفر، وغارة، وقتل.

وإسناد التدبير إلى السابحات على هذا الوجه مجاز عقلي لأنّ التدبير للفرسان وإنما الخيل وسائل.

{ **أَمْرًا** } الأمر: الشأن والغرض المهم، وتنوينه للتعظيم، وإفراده لإرادة الجنس، أي: أمورا.

{ **يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ، تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ، قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ، أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ** } جواب القسم، وصريح الكلام موعظة. والمقصود منه لازمه وهو وقوع البعث، لأنّ القلوب لا تكون إلّا في أجسام.

ولم تقرن جملة الجواب بلام جواب القسم لبعد ما بين الجواب وبين القسم لطول جملة القسم، فيظهر لي من استعمال البلغاء أنّه إذا بعد ما بين القسم وبين الجواب لا يأتون بلام القسم في الجواب، ومن ذلك قوله تعالى { وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ - إلى - قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ } [البروج:1-4]. ومثله كثير في القرآن فلا يؤتى بلام القسم في جوابه إلّا إذا كان الجواب مواليا لجملة القسم، نحو قوله تعالى { وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ } [الأنبياء:57]، وقوله تعالى { فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } [الحجر:92].

{ **يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ** } هو يوم القيامة لأنّه قد عُرف بمثل هذه الأحوال في آيات كثيرة ممّا سبق نزوله، مثل قوله تعالى { إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ } [الواقعة:4]، فكان في هذا الجواب تهويل ليوم البعث وفي طيّه تحقيق وقوعه، فحصل إيجاز في الكلام جامع بين الإنذار بوقوعه والتحذير ممَّا يجري فيه.

وقُدِّم الظرف على متعلّقه لأنّه الأهم في جواب القسم، والمقصود إثبات وقوعه، ثمّ أُكِّد ذلك الظرف في الأثناء بقوله تعالى { يَوْمَئِذٍ } الذي هو يوم ترجف الراجفة، فحصلت عناية عظيمة بهذا الخبر.

الرجف: الاضطراب والاهتزاز. وظاهر كلام أهل اللغة أنّه فعل قاصر ولم أر من قال: إنه يستعمل متعدّيا، فلذلك يجوز أن يكون إسناد { تَرْجُفُ } إلى { الرَّاجِفَةُ } حقيقيا.

{ **الرَّاجِفَةُ** } الأرض لأنّها تضطرب وتهتز بالزلازل التي تحصل عند فناء العالم الدنيوي والمصير إلى العالم الأخروي، قال تعالى { يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ } [المزمل:14]، وقال تعالى { إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا } [الواقعة:4]. وحينئذ فمعنى { تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ }: أنّ رجفة أخرى تتبع الرجفة السابقة لأنّ صفة { الرَّاجِفَةُ } تقتضي وقوع رجفة، فالرادفة رجفة ثانية تتبع الأولى.

ويجوز أن يكون إسناد { تَرْجُفُ } إلى { الرَّاجِفَةُ } مجازا عقليا، أطلق { الرَّاجِفَةُ } على سبب الرجف. فيكون المراد بـ { الرَّاجِفَةُ }: الصيحة والزلزلة التي ترجف الأرض بسببها، جُعلت هي الراجفة مبالغة، كقولهم: عيشة راضية، وهذا هو المناسب لقوله تعالى { تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ }، أي: تتبع تلك الراجفة.

ويجوز أن يكون الرجف مستعارا لشدّة الصوت، فشبِّه الصوت الشديد بالرجف وهو التزلزل. وتأنيثها على هذا لتأويلها بالواقعة أو الحادثة.

{ **تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ** } التالية، يقال: ردِف بمعنى تبع، والرديف: التابع لغيره، قال تعالى { أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ } [الأنفال:9]. أي: تتبع الرجفة الأولى ثانية، فالمراد: رادفة من جنسها، وهما النفختان اللتان في قوله تعالى { وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ } [الزمر:68].

{ **قُلُوبٌ** } التنكير للتكثير، أي: قلوب كثيرة، ولذلك وقع مبتدأ وهو نكرة لإرادة النوعية.

والمراد: قلوب المشركين الذين كانوا يجحدون البعث، فإنّهم إذا قاموا فعلموا أنّ ما وعدهم الرسول صلى الله عليه وسلم به حق توقَّعوا ما كان يُحذِّرهم منه من عقاب إنكار البعث والشرك وغير ذلك من أحوالهم. فأمّا قلوب المؤمنين فإنّ فيها اطمئنانا متفاوتا بحسب تفاوتهم في التقوى.

والخوف يومئذ وإن كان لا يخلو منه أحد إلّا أنّ أشدَّه خوف الذين يوقنون بسوء المصير ويعلمون أنّهم كانوا ضالين في الحياة الدنيا.

الواجفة: المضطربة من الخوف، يقال: وَجَفَ وَجَفًا، ووجيفا، ووجوفا، إذا اضطرب.

{ **أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ** } خبر ثان عن { قُلُوبٌ }، أي: أبصار أصحاب القلوب.

الخشوع: حقيقته الخضوع والتذلُّل، وهو هيئة للإنسان، ووصف الأبصار به مجاز في الانخفاض والنظر من طرف خفي من شدّة الهلع والخوف من فظيع ما تشاهده من سوء المعاملة، قال تعالى { خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ } [القمر:7]، ومثله قوله تعالى { وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ } [القيامة:24].

{ **يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ** [10] **أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً** [11] }.

إمّا استئناف ابتدائي بعد جملة القسم وجوابه، لإفادة أنّ هؤلاء هم الذين سيكونون أصحاب القلوب الواجفة والأبصار الخاشعة يوم ترجف الراجفة.

وإمّا استئناف بياني لأنّ القسم وما بعده من الوعيد يثير سؤالا في نفس السامع عن الداعي لهذا القسم فأجيب بـأنّهم كانوا { يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ }، أي: ينكرون البعث، ولذلك سُلك في حكاية هذا القول أسلوب الغيبة شأن التحدُّث عن غير حاضر.

{ **يَقُولُونَ** } ضمير عائد إلى معلوم من السياق وهم الذين شُهروا بهذه المقالة ولا يخفون على المطّلع على أحوالهم ومخاطباتهم وهم المشركون في تكذيبهم بالبعث. وحُكي مقالهم بصيغة المضارع لإفادة أنّهم مستمرّون عليه، وأنّه متجدِّد فيهم لا يرعوون عنه. وهذه المقالة صادرة منهم وهم في الدنيا.

والمُساق إليه الكلام كلّ من يتأتّى منه سماعه من المسلمين وغيرهم.

ويجوز أن يكون الكلام مسوقا إلى منكري البعث على طريقة الالتفاف.

{ **أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ** } كانت عادتهم أن يلقوا الكلام الذي ينكرون فيه البعث بأسلوب الاستفهام إظهارا لأنفسهم في مظهر المتردِّد السائل لقصد التهكُّم والتعجُّب من الأمر المستفهم عنه.

المردود: الشيء المُرَجَّع إلى صاحبه بعد الانتفاع به مثل العارية، أي لمُرْجَعون إلى الحياة، أي: إنّا لمبعوثون من قبورنا.

{ **الْحَافِرَةِ** } الحالة القديمة، يعني الحياة. وإطلاقات { الْحَافِرَةِ } كثيرة في كلام العرب لا تتميّز الحقيقة منها عن المجاز، والأظهر ما في الكشاف: يقال: رجع فلان إلى حافرته، أي: في طريقه التي جاء فيها فحفرها، أي: لأن قدميه جعلتا فيها أثرا مثل الحفر.

وجوّز أن يكون على المجاز العقلي كقولهم: عيشة راضية، أي راض عائشُها، ويقولون: رجع إلى الحافرة، تمثيلا لمن كان في حالة ففارقها، ثم رجع إليها. فصار: رجع في الحافرة.

{ **أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً** } الظرف (إذا) هو مناط التعجُّب وادعاء الاستحالة، أي: إذا صرنا عظاما بالية فكيف نرجع أحياء. والظرف متعلِّق بـ { لَمَرْدُودُونَ }.

{ **أَإِذَا** } بهمزتين، في قراءة الجمهور، إحداهما مفتوحة همزة الاستفهام والثانية مكسورة هي همزة (إذا). والاستفهام إنكاري مؤكِّد للاستفهام الأوّل للدلالة على أنّ هذه الحالة جديرة بزيادة إنكار الإرجاع إلى الحياة بعد الموت، فهما إنكاران لإظهار شدة إحالته.

{ **نَخِرَةً** } صفة مشتقة من قولهم: نخر العظم، إذا بلي فصار فارغ الوسط كالقصبة. والتأنيث لأنّ موصوفه جمع تكسير، فوصفه يجري على التأنيث في الاستعمال.

{ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ } [12].

{ **قَالُوا** } بدل اشتمال من جملة { يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ } [10]. وأعيد فعل القول لمقاصد منها الدلالة على أنّ قولهم هذا في غرض آخر غير القول الأول، فالقول الأوّل قصدهم منه الإنكار والإبطال، والقول الثاني قصدوا منه الاستهزاء والتورُّك لأنّهم لا يؤمنون بتلك الكَرَّة، فوصفهم إيَّاها بـ { خَاسِرَةٌ } من باب الفرض والتقدير، أي: لو حصلت كَرّة لكانت خاسرة.

{ **قَالُوا** } عُبّر عن قولهم هذا بصيغة الماضي على عكس { يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ } [10]، لأنّ هذه المقالة قالوها استهزاء فليست ممّا يتكرّر منهم بخلاف قولهم { أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ } فإنّه حجُّة ناهضة في زعمهم، فهذا ممّا يتكرَّر منهم في كلّ مقام.

{ **تِلْكَ** } إشارة إلى الرَّدَّة المستفادة من { لَمَرْدُودُونَ }.

{ **إِذًا** } جواب للكلام المتقدّم، والتقدير: إذن تلك كرّة خاسرة، فقُدِّم { تِلْكَ } على حرف الجواب للعناية

بالإشارة.

الكَرَّة: الواحدة من الكَرّ، وهو الرجوع بعد الذهاب، أي: رجعة.

الخسران: أصله نقص مال التجارة التي هي لطلب الربح، استعير هنا لمصادفة المكروه غير المتوقّع. ووصف الكرّة بالخاسرة مجاز عقلي للمبالغة لأنّ الخاسر أصحابها.

والمعنى: إنّا إذن خاسرون لتكذيبنا وتبيُّن صدق الذي أنذرنا بتلك الرجعة.

{ **فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ** [13] **فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ** [14] }.

الفاء فصيحة للتفريع على ما يفيده قولهم { أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ، أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً } [11/10] من إحالتهم الحياة بعد الفناء. فالتقدير: فلا عجب في ذلك فما هي إلّا زجرة واحدة فإذا أنتم حاضرون في الحشر.

{ **فَإِنَّمَا** } القصر حقيقي لتأكيد الخبر بتنزيل السامع منزلة من يعتقد أنّ زجرة واحدة غير كافية في إحيائهم.

{ **هِيَ** } ضمير القصة. واختير الضمير المؤنث ليحسن عوده إلى { زَجْرَةٌ }. وهذا من أحسن استعمالاته.

الزجرة: المرّة من الزجر، وهو الكلام الذي فيه أمر أو نهي في حالة غضب. يقال: زجر البعير، إذا صاح له لينهض أو يسير، وعُبِّر بها هنا عن أمر الله بتكوين أجساد الناس الأموات تصويرا لما فيه من معنى التسخير لتعجيل التكوُّن. وفيه مناسبة لإحياء ما كان هامدا كما يُبعث البعير البارك بزجرة ينهض بها سريعا خوفا من زاجره، وقد عُبِّر عن ذلك بالصيحة في قوله تعالى { يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ } [ق:42]، وهو الذي عُبِّر عنه بالنفخ في الصور.

{ **وَاحِدَةٌ** } تأكيد لما في صيغة المرّة من معنى الوحدة لئلّا يُتوهَّم أنّ إفراده للنوعية، وهذه الزجرة هي النفخة الثانية التي في قوله تعالى { وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ } [الزمر:68]، وهي الرادفة التي تقدّم ذكرها آنفا، وإنّما أريد بكونها واحدة أنّها لا تُتبع بثانية لها، وقد وُصفت بواحدة في [الحاقة:13] بهذا الاعتبار.

{ **فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ** } الفاء للتفريع على جملة { إِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ }. و(إذا) للمفاجأة، أي: الحصول دون تأخير، فحصل تأكيد معنى التفريع الذي أفادته الفاء. والجمع بين المفاجأة والتفريع أشدّ ما يُعبَّر به عن السرعة مع إيجاز اللفظ.

الساهرة: الأرض المستوية البيضاء التي لا نبات فيها يُختار مثلها لاجتماع الجموع ووضع المغانم. وأريد بها أرض يجعلها الله لجمع الناس للحشر.

المعنى: أنّ الله يأمر بأمر التكوين بخلق أجساد تحلّ فيها الأرواح التي كانت في الدنيا فتحضر في موقف الحشر للحساب بسرعة.

{ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى [15] إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى [16] اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى [17] فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى [18] وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى [19] }.

هذه الآيات، والتي بعدها [20-26]، اعتراض بين جملة { فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ، فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ } [14/13] وبين جملة { أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا } [27]، الذي هو الحجّة على إثبات البعث ثم الإنذار بما بعده. استطراد دعت إليه مناسبة التهديد لمنكري ما أخبرهم به الرسول صلى الله عليه وسلم من البعث لتماثل حال المشركين في طغيانهم على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بحال فرعون وقومه، وتماثل حال الرسول صلى الله عليه وسلم مع قومه بحال موسى عليه السلام مع فرعون، ليحصل من ذكر قصة موسى تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وموعظة للمشركين وأئمتهم مثل أبي جهل وأمية بن خلف وأضرابهما، لقوله في آخرها { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى } [26].

{ هَلْ أَتَاكَ } استفهام صوري يُقصد من أمثاله تشويق السامع إلى الخبر من غير قصد إلى استعلام المخاطب عن سابق علمه بذلك الخبر، كناية عن أهميّة الخبر بحيث إنّه ممّا يتساءل الناس عن علمه.

ولذلك لا تستعمل العرب في مثله من حروف الاستفهام غير (هل). والاستفهام معها حاصل بتقدير همزة استفهام. والخطاب لغير معيَّن، فالكلام موعظة ويتبعه تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم.

{ أَتَاكَ } أي: بلغك، استعير الإتيان لحصول العلم تشبيها للمعقول بالمحسوس كأنّ الحصول مجيء إنسان. **الحديث**: الخبر، وأصله فعيل بمعنى فاعل من حدث الأمر إذا طرأ وكان، أي: الحادث من أحوال الناس وإنّما يُطلق على الخبر بتقدير مضاف لا يُذكر لكثرة الاستعمال، تقديره: خبر الحديث، أي: خبر الحادث.

{ إِذْ } اسم زمان، واستعمل هنا في الماضي، وهو بدل من { حَدِيثُ مُوسَى } بدل اشتمال، لأنّ حديثه يشتمل على كلام الله إيّاه وغير ذلك. وأضيف { إِذْ } إلى جملة { نَادَاهُ رَبُّهُ }.

المعنى: هل أتاك خبر زمان نادى فيه موسى ربّه.

الواد: المكان المنخفض بين الجبال.

المقدّس: المطهَّر. والمراد به التطهير المعنوي، وهو التشريف والتبريك لأجل ما نزل فيه من كلام الله دون توسّط ملك، وذلك تقديس خاص، ولذلك قال الله له في الآية الأخرى { فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ } [طه:12].

طُوى: واد في جانب جبل الطور في برية سينا في جانبه الغربي.

وقرأ الجمهور { طُوَى } بلا تنوين على أنّه ممنوع من الصرف للعَلَمية والتأنيث بتأويل البقعة، وقرأه ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف منوَّنا باعتباره اسم واد مذكّر اللفظ.

{ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ } بيان لجملة { نَادَاهُ رَبُّهُ }.

فرعون: لقب ملك القبط بمصر في القديم، وهو اسم معرَّب عن اللغة العبرانية، ولم يُطلقه القرآن إلّا على ملك مصر الذي أرسل إليه موسى، وأطلق على الذي في زمن يوسف اسم الملك. وتقدّم عند قوله تعالى { ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأِهِ } [الأعراف:103].

{ **إِنَّهُ طَغَى** } تعليل للأمر { اذْهَبْ }، ولذلك افتُتحت بحرف (إنّ) الذي هو للاهتمام ويفيد مفاد التعليل.

الطغيان: إفراط التكبّر، وتقدّم عند قوله تعالى { لِلطَّاغِينَ مَآبًا } [النبأ:22].

{**فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى، وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى** } عرض وترغيب، قال تعالى { فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى } [طه:44]

{ **هَلْ لَكَ** } تركيب جرى مجرى المثل فلا يُغيَّر عن هذا التركيب لأنّه قُصد به الإيجاز، يقال: هل لك إلى كذا؟ وهل لك في كذا؟ وهو كلام يقصد منه العرض.

{ **لَكَ** } خبر مبتدأ محذوف تقديره: هل لك رغبة في كذا؟ فحذف (رغبة) واكتُفي بدلالة حرف (في) عليه، وقالوا: هل لك إلى كذا؟ على تقدير: هل لك ميل إلى كذا؟ فحذف (ميل) لدلالة (إلى) عليه.

{ **تَزَكَّى** } أصله: تتزكّى بتاءين مضارع تزكَّى مطاوع زكَّاه، أي: جعله زكيّا.

الزكاة: الزيادة، وتُطلق على الزيادة في الخير النفساني، قال تعالى { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا } [الشمس:10/9]، وهو مجاز شائع ساوى الحقيقة ولذلك لا يحتاج إلى قرينة.

<u>المعنى</u>: حثُّه على أن يستعدّ لتخليص نفسه من العقيدة الضالة التي هي خبث مجازي في النفس فيقبل إرشاد من يرشده إلى ما به زيادة الخير.

{ **وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى** } أي: إن كان فيك استعداد نفسي للتزكية يكن إرشادي إياك نافعا لك.

الهداية: الدلالة على الطريق الموصل إلى المطلوب إذا قَبِلها المَهْدي.

{ **إِلَى رَبِّكَ** } ذكر له الإله الحق بوصف { رَبِّكَ } إلطافا في الدعوة إلى التوحيد وتجنّبا لاستطارة نفسه نفورا، لأنّه لا يُعرف في لغة فرعون اسم الله تعالى، ولو عرَّفه له باسمه في لغة إسرائيل لنفر لأنّ فرعون كان يعبد آلهة باطلة، فكان في قوله { إِلَى رَبِّكَ }، وفرعون يعلم أنّ له ربًّا، إطماع له أن يرشده موسى إلى ما لا ينافي عقائده فيُصغي إليه سمعه.

الخشية: الخوف، فإذا أطلقت في لسان الشرع يراد بها خشية الله تعالى، ولهذا نُزِّل فعلها هنا منزلة اللازم فلم يذكر له مفعول لأنّ المَخْشِيَّ معلوم، مثل فعل الإيمان في لسان الشرع يقال: آمن فلان، وفلان مؤمن، أي: مؤمن بالله ووحدانيَّته.

وتفريع { فَتَخْشَى } على { أَهْدِيَكَ } إشارة إلى أنّ خشية الله لا تكون إلّا بالمعرفة، قال تعالى { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ } [فاطر:28]، أي: العلماء به، أي: يخشاه خشية كاملة لا خطأ فيها ولا تقصير.

وفي الاقتصار على ذكر الخشية إيجاز بليغ لأنّ الخشية ملاك كلّ خيّر. وفي جامع الترمذي عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **" من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل".**

{ **فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى** [20] **فَكَذَّبَ وَعَصَى** [21] **ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى** [22] **فَحَشَرَ فَنَادَى** [23] **فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى** [24] }.

{ **فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى** } الفاء فصيحة وتفريع على محذوف يقتضيه قوله { اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ } [17]. والتقدير: فذهب فدعاه فكذَّبه فأراه الآية الكبرى، وذلك لأنّ قوله تعالى { إِنَّهُ طَغَى } [17] يؤذن بأنّه سيلاقي دعوة موسى بالاحتقار والإنكار، لأنّ الطغيان مظِنَّة ذينك، فعرض موسى عليه إظهار آية تدلّ على صدق دعوته لعلّه يوقن، كما قال تعالى { قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ، قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِين، فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ } [الشعراء:32/30] فتلك هي الآية الكبرى المراد هنا.

الآية: حقيقتها العلامة والأمارة، وتُطلق على الحجّة المثبِتة لأنّها علامة على ثبوت الحق، وتُطلق على معجزة الرسول لأنّها دليل على صدق الرسول وهو المراد هنا.

{ **فَكَذَّبَ وَعَصَى** } لم يتردّد ولم يتمهّل حتّى ينظر في الآيات بل بادر إلى التكذيب والعصيان دلالة على شدة عناده ومكابرته.

المراد بعصيانه: عصيان أمر الله أن يوحِّده، أو أن يطلق بني إسرائيل من استعبادهم وتسخيرهم للخدمة.

{ **ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى** } عطفها بـ { ثُمَّ } للدلالة على التراخي الرتبي، كما هو شأنها في عطف الجمل، أي: أنّه ارتقى من التكذيب والعصيان إلى ما هو أشدّ وهو الإدبار والسعي وادّعاء الإلهية لنفسه، أي: بعد أن فكَّر مليًّا لم يقتنع بالتكذيب والعصيان فخشي أنّه إن سكت ربّما تروج دعوة موسى بين الناس فأراد الحيطة لدفعها وتحذير الناس منها.

الإدبار: حقيقته المشي إلى الجهة التي هي خلف الماشي بأن يكون متوجِّها إلى جهة ثم يتوجَّه إلى جهة تعاكسها. وهو هنا مستعار للإعراض عن دعوة الداعي، مثل قول النبيّ صلى الله عليه وسلم لمسيلمة لمّا أبى الإيمان: **"ولئن أدبرت ليعقِرنَّك الله "**.

السعي: حقيقته شدّة المشي، وهو هنا مستعار للحرص والاجتهاد في أمره الناس بعدم الإصغاء لكلام موسى، وجمع السحرة لمعارضة معجزته إذ حسبها سحرا، كما قال تعالى { فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ } [طه:60].

{ **فَحَشَرَ فَنَادَى، فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى** } مبيّنة للعمل الذي سعى إليه فرعون.

{ **فَحَشَرَ** } عطف على جملة { يَسْعَى } لأنّ فرعون بذل حرصه ليُقنع رعيّته بأنّه الربُّ الأعلى خشية شيوع دعوة موسى لعبادة الربّ الحق. وحُذف المفعول لظهوره، لأنّ الذين يُحشرون هم أهل مدينته.

الحشر: جمع الناس، وهذا الحشر هو المبيَّن في قوله تعالى { قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ، يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ } [الشعراء:37/36].

{ **فَنَادَى**} عطف بالفاء لإفادة أنّه أعلن هذا القول لهم بفور حضورهم لفرط حرصه على إبلاغهم ذلك.

النداء: حقيقته جهر الصوت بدعوة أحد ليحضر. ويُطلق النداء على رفع الصوت دون طلب حضور

مجازا مرسلا بعلاقة اللزوم. وحُذف المفعول لظهوره، وهم أهل مدينته.

وإسناد الحشر والنداء إلى فرعون مجاز عقلي لأنّه لا يباشر بنفسه حشر الناس ولا نداءهم ولكن يأمر أتباعه وجنده، وإنّما أسند إليه لأنّه الذي أمر به.

{ **فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى** } تذكير قومه بمعتقدهم فيه، فإنّهم كانوا يعتبرون ملك مصر إلهًا، لأنّ الكهنة يخبرونهم بأنّه أبن (آمون رع) الذي يجعلونه إلها ومظهره الشمس.

والجملة بدل من جملة { فَنَادَى } بدلا مطابقا بإعادة حرف العطف (الفاء).

ويجوز أن تكون عطفا على جملة {يَسْعَى} على أن يكون فرعون أمر بهذا القول في أنحاء مملكته، وليس قاصرا على إعلانه في الحشر الذين حشرهم حول قصره.

{ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى } [25].

مفرَّعة عن الجمل التي قبلها، أي: كان ما ذُكر من تكذيبه وعصيانه وكيده سببا لأن أخذه الله، وهذا هو المقصود من القصة وهو مناط موعظة المشركين وإنذارهم، مع تسلية النبيّ صلى الله عليه وسلم وتثبيته.

الأخذ: حقيقته التناول باليد، ويُستعار كثيرا للمقدرة والغلبة، كما قال تعالى { فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ } [القمر:42]، وقال تعالى { فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً } [الحاقة:10]. والمعنى: فلم يفلت من عقاب الله.

وورود الفعل بصيغة الماضي، مع أنّ عذاب الآخرة مستقبل ليوم الجزاء، مراعا فيه أنّه لمّا مات ابتدأ يذوق العذاب حين يرى منزلته التي سيؤول إليها يوم الجزاء كما ورد في الحديث.

النكال: اسم مصدر نكَّل به تنكيلا. والنكال: إيقاع أذى شديد على الغير مع التشهير بذلك، بحيث يرُد ويَصرِف من يشاهده على أن يأتي بمثل ما أتى به المنكَّل به، فهو مشتقّ من النُّكُول وهو النكوص والهروب، قال تعالى { فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا } [البقرة:66].

وانتصب { نَكَالَ } على المفعولية المطلقة لفعل { فَأَخَذَهُ } مبيِّن نوع الأخذ بنوعين منه.

فالنكال في الأولى هو الغرق، والنكال في الآخرة هو عذاب جهنم.

وتقديم { الْآخِرَةِ } على { الْأُولَى } في الذكر لأنّ أمر الآخرة أعظم.

{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى } [26].

بيان لمضمون جملة { هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى } [15]. والآية حوصلة وفذلكة لما تقدّم من القصة.

العبرة: الحالة التي ينتقل الذهن من معرفتها إلى معرفة عاقبتها أو عاقبة أمثالها. وهي مشتقة من العَبْر، وهو الانتقال من ضفة واد أو نهر إلى ضفته الأخرى. والمراد بالعبرة هنا: الموعظة.

والتنوين للتعظيم، لأنّ في هذه القصة مواعظ كثيرة؛ فهي مَثُلات للأعمال وعواقبها، ومراقبة الله وخشيته، وما يترتَّب على ذلك وعلى ضدّه من خير وشر في الدنيا والآخرة.

{ **لِمَنْ يَخْشَى** } أي: من تخالط نفسه خشية الله، لأنّ الذين يخشون الله هم أهل المعرفة الذين يفهمون دلالة الأشياء على لوازمها وخفاياها، قال تعالى { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ } [فاطر:28]، وقال تعالى { وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ } [العنكبوت:43].

الخشية: تقدّمت قريبا في قوله تعالى { وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى } [19].

وفي هذا تعريض بالمشركين بأنّهم ليسوا بأهل للانتفاع بمثل هذا، كما لم ينتفع بمثله فرعون وقومه.

وفي القصة تعريض بسادة قريش من أهل الكفر مثل أبي جهل بتنظيرهم بفرعون، وتنظير الدهماء بالقوم الذين حشرهم فرعون ونادى فيهم بالكفر، وقد علم المسلمون مضرب هذا المثل فكان أبو جهل يوصف عند المسلمين بفرعون هذه الأمّة.

{ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا [27] رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا [28] وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا [29] }.

انتقال من الاعتبار بأمثالهم من الأمم، الذي هو تخويفٌ وتهديدٌ على تكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم، إلى إبطال شبهتهم على نفي البعث، وهي قولهم { أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ } [10]، وما أعقبوه به من التهكُّم المبني على توهّم إحالة البعث.

{ **أَأَنْتُمْ** } وإذ قد فرضوا استحالة عودة الحياة إلى الأجسام البالية إذ مثّلوها بأجساد أنفسهم إذ قالوا { أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ } [10] جاء إبطال شبهتهم بقياس خلق أجسادهم على خلق السماوات والأرض، فالخطاب موجَّه إلى المشركين الذين عُبِّر عنهم آنفا بضمائر الغيبة من قوله تعالى { يَقُولُونَ - إلى قوله - فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ } [10-14]، وهو التفات من الغيبة إلى الخطاب.

والاستفهام تقريري. والمقصود من التقرير إلجاؤهم إلى الإقرار بأنّ خلق السماء أعظم من خلقهم، أي: من خلق الإنسان، وهم يعلمون أنّ الله هو خالق السماء فلا جرم أنّ الذي قدر على خلق السماء قادر على خلق الإنسان مرة ثانية، فينتج ذلك أنّ إعادة خلق الأجساد بعد فنائها مقدورة لله تعالى، قال تعالى { لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } [غافر:57].

{ **أَشَدُّ** } اسم تفضيل، والمفضَّل عليه محذوف يدلّ عليه قوله تعالى { أَمِ السَّمَاءُ }. والمعنى هنا: أصعب.

{ **خَلْقًا** } مصدر منتصب على التمييز لنسبة الأشدِّيَّة إليهم.

{ **السَّمَاءُ** } الأنسب أن يراد السماء الدنيا التي تلوح فيها أضواء النجوم، فتعريفه تعريف العهد، وهي الكرة الفضائية المحيطة بالأرض ويبدو فيها ضوء النهار وظلمة الليل، فيكون الاستفهام التقريري مبنيا على ما هو مشاهد لهم، لقوله تعالى بعده { وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا } فلا حاجة إلى التأويل.

{ **بَنَاهَا** } يجوز أن تكون الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا لبيان شدّة خلق السماء، ويجوز أن تكون بدل اشتمال من قوله تعالى { أَمِ السَّمَاءُ }، لأنّه في تقدير: أم السماء أشدّ خلقا.

البناء: جَعْلُ بيت أو دار من حجارة، أو آجر أو أدم، مقامة على دعائم.

بناء السماء: خلقها، استعير له فعل البناء لمشابهتها البيوت في الارتفاع.

{ **رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا** } مبيِّنة لجملة { بَنَاهَا } أو بدل اشتمال منها. وسُلك طريق الإجمال ثم التفصيل لزيادة التصوير.

السَّمْك: الرفع في الفضاء، كما اقتصر عليه الراغب، سواء اتصل المرفوع بالأرض أو لم يتصل بها، وهو مصدر سَمَكَ.

الرَّفْعُ: جعل جسم مرتفعا وهو مرادف للسَّمك، فتعدية فعل { رَفَعَ } إلى { سَمْكَهَا } للمبالغة في الرفع، أي: رفع رفعها، وهو من قبيل قولهم: ليل أَلْيَلْ.

التسوية: التعديل وعدم التفاوت، وهي جعل الأشياء سواء، أي: متماثلة. وأصلها أن تتعلّق بأشياء وقد تتعلق باسم شيء واحد على معنى تعديل جهاته ونواحيه، ومنه قوله هنا { فَسَوَّاهَا }، أي: عدَّل أجزاءها وذلك بأن أتقن صنعها فلا ترى فيها تفاوتا.

{ **فَسَوَّاهَا** } الفاء للتعقيب. وتسوية السماء حصلت مع حصول سمكها، فالتعقيب فيه مثل التعقيب في قوله تعالى { فَنَادَى، فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى } [24/23].

{ **وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا** } معطوفة على جملة { بَنَاهَا } وليست معطوفة على { رَفَعَ سَمْكَهَا } لأنّ إغطاش وإخراج الضحى ليس ممّا يُبيَّن به البناء.

الإغطاش: جعله غاطشًا، أي: ظلاما. يقال: غَطَشَ الليل، أي: أظلم. أي: جعل ليلها ظلاما، مبالغة كالتي في قوله تعالى { رَفَعَ سَمْكَهَا }. من باب قولهم: ليل أليل.

إخراج الضحى: إبراز نور الضحى، وأصل الإخراج النقل من مكان، واستعير للإظهار استعارة شائعة.

الضحى: بروز ضوء الشمس بعد طلوعها وبعد احمرار شعاعها، فالضحى هو نور الشمس الخالص.

يدل لذلك قوله تعالى { وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا } [الشمس:1]، أي: نورها الواضح.

وسُمِّي به وقته على تقدير مضاف، كما في قوله تعالى { وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى } [طه:59].

وإنّما جُعل إظهار النور إخراج لأنّ النور طارئ بعد الظلمة، إذ الظلمة عدم وهو أسبق، والنور محتاج إلى السبب الذي ينيره.

{ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا [30] أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا [31] وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا [32] }.

انتقل الكلام من الاستدلال بخلق السماء إلى الاستدلال بخلق الأرض لأنّ الأرض أقرب إلى مشاهدتهم وما يوجد على الأرض أقرب إلى علمهم بالتفصيل أو الإجمال القريب من التفصيل.

{ **وَالْأَرْضَ** } قُدِّم الاسم على فعله وفاعله فانتصب على طريقة الاشتغال. وذلك من أجل الاهتمام بدلالة خلق الأرض وما تحتوي عليه.

{ **دَحَاهَا** } من الدَّحْو والدَّحْيُ، يقال: دَحَوْتُ ودَحَيْتُ: البسط والمد بتسوية. أي: خلقها مبسوطة مسوّاة.
{ **بَعْدَ ذَلِكَ** } الإشارة إلى ما يفهم من قوله تعالى { بَنَاهَا، رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا } [28/27]، أي: بعد أن خلق السماء خلق الأرض مدحوّة.
والبعدية ظاهرها تأخّر زمان حصول الفعل، وهذه الآية أظهر في الدلالة على أنّ الأرض خُلقت بعد السماوات، وهو قول قتادة ومقاتل والسدي، وهو الذي تؤيّده أدلة علم الهيئة. وتقدّم عند قوله تعالى { هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ } [البقرة:29].
ويجوز أن تكون البعدية مجازا في نزول رتبة ما أضيف إليه { بَعْدَ } عن رتبة ما ذكر قبله.
{ **أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا** } بدل اشتمال من جملة { دَحَاهَا } لأنّ المقصد من دحوها تيسير الانتفاع بها. ولا يصح جعل جملة { أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا } إلى آخرها بيانا لجملة { دَحَاهَا } لاختلاف معنى الفعلين.
المَرْعَى: مَفْعَل من رعى يرعى، وهو هنا مصدر ميمي أطلق على المفعول، أي: أخرج منها ما يُرعى.
الرعي: حقيقته تناول الماشية الكلأ والحشيش.
فالاقتصار على المرعى اكتفاء عن ذكر ما تخرجه الأرض من الثمار والحبوب، لأنّ ذكر المرعى يدلّ على لطف الله بالعجماوات فيُعرف منه أنّ اللطف بالإنسان أحرى بدلالة فحوى الخطاب، والقرينة على الاكتفاء قوله تعالى بعده { مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ } [33].
{ **وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا** } يجوز أن يكون النصب على طريقة نصب { وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا }.
ويجوز أن يكون عطفا على { مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا }، ويكون المعنى: وأخرج منها جبالها، فتكون (ال) عوضا عن المضاف إليه، فإنّ الجبال قطع من الأرض ناتئة على وجه الأرض.
إرساء الجبال: إثباتها في الأرض. يقال: رست السفينة، إذا شُدَّت إلى الشاطئ. ويوصف الجبل بالرسو حقيقة كما في (الأساس) للزمخشري.

{ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ } [33].

المتاع: يُطلق على ما يُنتفع به مدّة، ففيه معنى التأجيل. وهو هنا اسم مصدر متَّع، أي: إعطاء للانتفاع زمانا، وتقدّم بيانه عند قوله تعالى { وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ } [الأعراف:24].
{ **مَتَاعًا** } انتصب على النيابة عن الفعل. والتقدير: متّعناكم متاعا.
{ **لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ** } لام التقوية، لأنّ المصدر فرع في العمل عن الفعل، وهو راجع إلى خلق الأرض والجبال، وذلك في الأرض ظاهر، وأمّا الجبال فلأنّها مُعْتَصَمَهم من عدوّهم، وفيها مراعي أنعامهم حيث تكون مأمونة من الغارة عليها على غِرَّة. وهذا إدماج الامتنان في الاستدلال لإثارة شكرهم حقّ النعمة بأن يعبدوا المنعِم وحده ولا يشركوا بعبادته غيره.

{ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى [34] يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإنسَانُ مَا سَعَى [35] وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى [36] فَأَمَّا مَنْ طَغَى [37] وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا [38] فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى [39] وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى [40] فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى [41] }.

<u>يجوز أن يكون التفريع على الاستدلال</u> الذي تضمّنه قوله تعالى { أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ...} [27]، فإنّ إثبات البعث يقتضي الجزاء، إذ هو حكمته. وإذا اقتضى الجزاء كان على العاقل أن يعمل لجزاء الحُسنى ويجتنب ما يوقع في الشقاء، وأن يهتمّ بالحياة الدائمة فيؤثرها، فلذلك فُرِّع على دليل إثبات البعث تذكير بالجزاءين، وإرشاد إلى النجدين.

وإذا قد قُدِّم قبل الاستدلال تحذير إجمالي بقوله تعالى { يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ } [6]، جيء عقب الاستدلال بتفصيل ذلك التحذير مع قرنه بالتبشير لمن تحلَّى بضدّه، فلذلك عُبِّر عن البعث ابتداء بـ { الرَّاجِفَةُ } لأنّها مبدؤه، ثم بـ { زَجْرَةٌ }، وأخيرا بـ { الطَّامَّةُ الْكُبْرَى } لما في هذين الوصفين من معنى يشمل الراجفة وما بعدها من الأهوال إلى أن يستقرّ كلّ فريق في مقرّه.

ومن تمام المناسبة للتذكير بيوم الجزاء وقوعه عقب التذكير بخلق الأرض، والامتنان بما هيَّأ منها للإنسان متاعا له، للإشارة إلى أنّ ذلك ينتهي عندما يحين يوم البعث والجزاء.

<u>ويجوز أن يُجعل التفريع على</u> قوله تعالى { فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ } [14/13]، فإنّ الطّامّة هي الزجرة. ومناط التفريع هو ما عقبه من التفصيل بقوله تعالى {فَأَمَّا مَنْ طَغَى ...}، إذ لا يلتئم تفريع الشيء على نفسه.

{ **إِذَا** } ظرف للمستقبل، والفعل الماضي بعده لزيادة تحقيق ما يفيده (إذا) من تحقّق الوقوع.

المجيء: هنا مجاز في الحصول والوقوع لأنّ الشيء الموقَّت المؤجَّل بأجل يُشبه شخصا سائرا إلى غاية، فإذا حصل ذلك المؤجّل عند أجله فكأنّه السائر قد بلغ المكان المقصود.

الطَّامَّة: الحادثة، أو الوقعة التي تَطِمُّ، أي: تعلو وتغلب، بمعنى تفوق أمثالها من نوعها، مأخوذ من طم الماء، إذا غمر الأشياء. وهذا الوصف يؤذن بالشدّة والهول، إذ لا يقال مثله إلّا في الأمور المهولة.

{ **الْكُبْرَى** } مبالغة في تشخيص هولها، فكان هذا أصرح الكلمات لتصوير ما يقارن الحادثة من الأهوال.

الطامة الكبرى: القيامة، وقد وُصفت بأوصاف عديدة في القرآن مثل: الصاخة، والقارعة، والراجفة.

{ **يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإنسَانُ مَا سَعَى** } بدل من جملة { إِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى } بدا اشتمال، لأنّ ما أضيف إليه { يَوْمَ } هو من الأحوال التي يشتمل عليها زمن مجيء الطامة، وهو يوم القيامة ويوم الحساب.

تذكّر الإنسان ما سعاه: أن يُوقف على أعماله في كتابه لأنّ التذكُّر مطاوع ذكَّره. والتذكُّر يقتضي سبق النسيان وهو انمحاء المعلوم من الحافظة. أي: يُعرض عليه عمله فيعترف به، إذ ليس المقصود من التذكّر إلّا أثره، وهو الجزاء فكُنِّي بالتذكّر عن الجزاء، قال تعالى { اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ

حَسِيبًا } [الإسراء:14].

{ **وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ** } إظهارها لأهلها. وجيء بالفعل المضاعف لأجل الإرهاب. وبني الفعل للمجهول لعدم الغرض ببيان مُبَرِّزها، إذ الموعظة في الإعلام بوقوع إبرازها يومئذ.

الجحيم: جهنم. ولذلك قُرن فعله بتاء التأنيث لأنّ جهنم مؤنثة في الاستعمال، أو هو بتأويل النار.

والجحيم كلّ نار عظيمة في حفرة عميقة.

{ **لِمَنْ يَرَى** } أي: لكلّ راء، فالفعل منزَّل منزلة اللازم لأنّ المقصود لمن له بصر.

{ **فَأَمَّا مَنْ طَغَى** } الفاء رابطة لجواب (إذا)، لأنّ جملة { مَنْ طَغَى } إلى آخرها، جملة اسمية ليس فيها فعل يتعلّق به (إذا) فلذلك تُجلب (الفاء) لربط الجواب.

(**أمَّا**) حرف تفصيل وشرط لأنّها في معنى: مهما يكن شيء.

الطغيان: المراد هنا: طغى على أمر الله، كما دلّ عليه قوله تعالى { وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ }. وقُدِّم ذكر الطغيان على إيثار الحياة الدنيا لأنّ الطغيان من أكبر أسباب إيثار الحياة الدنيا فلما كان مسبَّبا عنه ذُكِر عقبه مراعاة للترتب الطبيعي.

الإيثار: تفضيل شيء على شيء في حال لا يتيسّر فيها الجمع بين أحوال كلّ منهما.

{ **الْحَيَاةَ الدُّنْيَا** } المراد: حظوظها ومنافعها الخاصة بها، أي: التي لا تشاركها فيها حظوظ الآخرة، فالكلام على حذف مضاف، تقديره: نعيم الحياة.

ويُفهم من فعل الإيثار أنّ معه نبذًا لنعيم الآخرة. ويرجع إيثار الحياة الدنيا إلى إرضاء هوى النفس.

وإنّما يُعرف كلا الحظّين بالتوقيف الإلهي كما عُرف الشرك وتكذيب الرسل والاعتداء على الناس والبطر والصلف وما يستتبعه ذلك من الأحوال الذميمة.

فأمّا الأخذ بحظوظ الحياة الدنيا التي لا يُفيت الآخذ بها حظوظ الآخرة فذلك غير مذموم، وهو مقام كثير من عباد الله الصالحين حكاه الله تعالى عن صالحي بني إسرائيل من قولهم لقارون { وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا } [القصص:77].

{**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ** } مقابل قوله تعالى { مَنْ طَغَى }، لأنّ الخوف ضد الطغيان.

{ **مَقَامَ رَبِّهِ** } مجاز عن الجلال والمهابة، وأصل المقام مكان القيام. قال تعالى { ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي } [إبراهيم:14]، وقال تعالى { وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ } [الرحمن:46]، وذلك من قبيل الكناية المطلوب بها نسبة إلى المُكَنَّى عنه، فإنّ خوف مقام الله مراد به خوف الله.

{ **وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى** } مقابل قوله تعالى { وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا }.

{ **وَنَهَى النَّفْسَ** } مستعار للانكفاف عن تناول ما تحبّه النفس من المعاصي والهوى، فجُعلت نفس الإنسان بمنزلة شخص آخر يدعوه إلى السيّئات وهو ينهاه عن هذه الدعوة. والتعريف تعريف العهد.

{ **الْهَوَى** } ما تهواه النفس، فهو مصدر بمعنى المفعول مثل الخلق بمعنى المخلوق، فهو ما ترغب فيه قوى النفس الشهوية والغضبية ممّا يخالف الحق والنفع الكامل. وشاع الهوى في المرغوب الذميم.
ولذلك قيل في قوله تعالى { وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ } [القصص:50] أنّ { بِغَيْرِ هُدًى} حال مؤكِّدة ليست تقييدا، إذ لا يكون الهوى إلّا بغير هدى. وتعريف { الهَوَى } تعريف الجنس.
{ **الْمَأْوَى** } التعريف في الأول والثاني تعريف العهد، أي: مأوى من طغى، ومأوى من خاف مقام ربّه.
المأوى: اسم مكان من أوى، إذا رجع، فالمراد به: المقرّ والمسكن، لأنّ المرء يذهب إلى قضاء شؤونه ثمّ يرجع إلى مسكنه.

{ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا [42] فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا [43] إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا [44] إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا [45] }.

لا جرم لما قُضي حق الاستدلال على إمكان البعث بإقامة الدليل وضرب الأمثال، وعُرِّض بعقاب الذين استخفّوا بها في قوله تعالى { فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى } [34]، كان ذلك مثارا لسؤالهم أن يقولوا: هل لمجيء هذه الطامة الكبرى وقت معلوم؟ فكان الحال مقتضيا هذا الاستئناف البياني قضاء لحق المقام وجوابا عن سابق الكلام.
{ **يَسْأَلُونَكَ** } ضمير الرفع عائد إلى المشركين أصحاب القلوب الواجفة والذين قالوا { أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ } [10]. وحكي الفعل بصيغة المضارع للدلالة على تجدّد هذا السؤال وتكرّره.
الساعة: هي الطامة، فذكر الساعة إظهار في مقام الإضمار لقصد استقلال الجملة بمدلولها مع تفنّن في التعبير عنها بهذين الاسمين { الطَّامَّةُ / السَّاعَةِ }.
{ **أَيَّانَ مُرْسَاهَا** } جملة مبيّنة للسؤال.
{ **أَيَّانَ** } اسم يُستفهم به عن تعيين الوقت. والاستفهام مستعمل في الاستبعاد كنايةً، وهو أيضا كناية عن الاستحالة.
الإرساء: جعل السفينة عند الشاطئ لقصد النزول منها. واستعير الإرساء للوقوع والحصول تشبيها للأمر المغيَّب حصوله بسفينة ماخرة البحر لا يعرف وصولها إلّا إذا رست، وعليه فـ { أيَّان } ترشيح للاستعارة، وتقدّم نظير هذه في [الأعراف:187].
{ **فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا** } واقع موقع الجواب عن سؤالهم عن الساعة باعتبار ما يظهر من حال سؤالهم عن الساعة من إرادة تعيين وقتها وصرف النظر عن إرادتهم به الاستهزاء، فهذا الجواب من تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، تنبيها له على أنّ الأولى به أن يهتم بغير ذلك، وهو مضمون قوله تعالى { إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا }. وهذا ما يُسمَّى بالأسلوب الحكيم. ونظيره ما روي في الصحيح أنّ رجلا سأل النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الساعة فقال له: **" ماذا أعددت لها؟ "**.

أي: كان الأولى لك أن تصرف عنايتك إلى الاستكثار من الحسنات إعدادا ليوم الساعة.

والخطاب وإن كان موجَّها إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فالمقصود بلوغه إلى مسامع المشركين فلذلك اعتُبر اعتبار جواب عن كلامهم، وذلك مقتضى فصل الجملة عن التي قبلها شأن الجواب والسؤال.

{ **فِيمَ** } تركيب من (ما) اسم استفهام بمعنى: أي شيء؟ مستعملة في التعجيب من سؤال السائلين عنها ثمّ توبيخهم. و(في) للظرفية المجازية. وحذف ألف (ما) لوقوعها بعد حرف الجر مثل قوله تعالى { عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ } [النبأ:1]. و{ فِيمَ } خبر مقدّم و{ أَنْتَ } مبتدأ، و{ مِنْ ذِكْرَاهَا } إمّا متعلّق بالاستقرار الذي في الخبر أو هو حال من المبتدأ.

وتقديم { فِيمَ } على المبتدأ للاهتمام به ليفيد أنّ مضمون الخبر هو مناط الإنكار.

الذكرى: اسم مصدر الذكر، والمراد به هنا الذكر اللساني.

{ **إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا** } في موقع العلّة للإنكار الذي اقتضاه قوله تعالى { فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا } ولذلك فُصلت، وفي الكلام تقدير مضاف، والمعنى: إلى ربك علم منتهاها.

وتقديم المجرور على المبتدأ لإفادة القصر، أي: لا إليك، وهذا قصر صفة على موصوف.

المنتهى: أصله مكان انتهاء السير، ثم أطلق على المصير لأنّ المصير لازم للانتهاء، قال تعالى { وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى } [النجم:42]، ثمّ تُوسّع فيه فأطلق على العلم، أي: لا يعلمها إلّا الله.

{ **إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا** } استئناف بياني ناشئ عن جملة { فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا } وهو أن يسأل السامع عن وجه إكثار النبيّ صلى الله عليه وسلم ذكرها وأنّها قريبة، فأجيب بأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم حظّه التحذير من بغتتها. ولذلك تكرّر في القرآن تبرئة النبيّ صلى الله عليه وسلم من علم وقتها ومن علم الغيب على العموم، كما في قوله تعالى { قُلْ لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ } [الأنعام:50].

{ **إِنَّمَا** } قصر المخاطب على صفة الإنذار، أي: تخصيصه بحال الإنذار، وهو قصر موصوف على صفة، فهو قصر إضافي، أي: بالنسبة إلى ما اعتقدوه فيه من كونه مطّلعا على الغيب.

{ **مُنذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا** } في إضافة { مُنذِرُ } إلى { مَنْ يَخْشَاهَا } أو نصبه به أيجاز حذف، تقديره: منذرها فينتذر من يخشاها، وقرينة ذلك حالية للعلم المتواتر من القرآن بأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان ينذر جميع الناس لا يخُصّ قوما دون آخرين، فإنّ آيات الدعوة من القرآن ومقامات دعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم لم تكن إلّا عامة، ولا يُعرف من يخشى الساعة إلّا بعد أن يؤمن المؤمن.

فتعيَّن أنّ المراد: أنّه لا ينتفع بالإنذار إلّا من يخشى الساعة ومن عداه تمرّ الدعوة بسمعه فلا يأبه بها، فكان ذكر { مَنْ يَخْشَاهَا } تنويها بشأن المؤمنين وإعلانا لمزيّتهم وتحقيرا للذين بقوا على الكفر.

{ كَأَنَّـهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَـهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا } [46].

جواب عما تضمَّنه قوله تعالى { يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا } [42] باعتبار ظاهر حال السؤال من طلب المعرفة بوقت حلول الساعة واستبطاء وقوعها الذي يرمون به إلى تكذيب وقوعها، فأجيبوا على طريقة الأسلوب الحكيم، أي: إن طال تأخُّر حصولها فإنّها واقعة وأنّهم يوم وقوعها كأنّهم ما لبثوا إلّا بعض يوم.

العشية: مُعبَّر بها عن مدّة يسيرة من زمان طويل على طريقة التشبيه، وهو مستفاد من قوله { كَأَنَّهُمْ }، فهو تشبيه حالهم بحالة من لم يلبث إلّا عشية، وهذا التشبيه مقصود منه تقريب معنى التشبيه من المتعارف.

{ أَوْ ضُحَاهَا } تخيير في التشبيه، على نحو قوله تعالى { أَوْ كَصَيِّبٍ مِنْ السَّمَاءِ } [البقرة [19].

وفي هذا العطف زيادة في تقليل المدّة لأنّ حصّة الضحى أقصر من حصة العشية.

وإضافة (ضحى) إلى ضمير {عَشِيَّةً } جرى على استعمال عربي شائع في كلامهم. قال الفراء: أضيف الضحى إلى العشية، وهو اليوم الذي يكون فيه، على عادة العرب يقولون: آتيك الغداة أو عشيتها. ومسوغ الإضافة أنّ الضحى أسبق من العشية، فصار ضحى ذلك اليوم يعرف بالإضافة إلى عشية اليوم، فالعشية أقرب والضحى أسبق.

وفي هذه الإضافة أيضا رعاية على الفواصل التي هي على حرف الهاء المفتوحة من { أَيَّانَ مُرْسَاهَا }.

وبانتهاء هاته السورة انتهت سور طوال المفصل التي مبدؤها سورة الحجرات.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة عبس

سُمِّيت هذه السورة في المصاحف وكتب التفسير وكتب السنّة (**سورة عبس**).

ولم يذكرها صاحب (الإتقان) في السور التي لها أكثر من اسم.

وهي مكّيّة بالاتفاق.

وعُدَّت الرابعة والعشرين في ترتيب نزول السور. نزلت بعد سورة (النجم) وقبل سورة (القدر).

وعدد آيها عند العادِّين من أهل المدينة وأهل مكة وأهل الكوفة **اثنان وأربعون**، وعند أهل البصرة إحدى وأربعون وعند أهل الشام أربعون.

وهي أولى السور من أواسط المُفَصَّل.

أغراض السورة

*/ تعليم رسول الله صلى الله عليه وسلم الموازنة بين مراتب المصالح ووجوب الاستقراء لخفِيَّاتها.

*/ الإشارة إلى اختلاف الحال بين المشركين المعرضين عن هدي الإسلام وبين المسلمين المقبلين عليه.

*/ التذكير بإكرام المؤمنين وسموّ درجتهم عند الله تعالى.

*/ الثناء على القرآن وتعليمه لمن رغب في علمه.

*/ وصف شدّة الكفر من صناديد قريش بمكابرة الدعوة التي شغلت النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الالتفات إلى رغبة ابن أمّ مكتوم.

*/ الاستدلال على إثبات البعث، وهو ممّا كان يدعوهم إليه حين حضور ابن أمّ مكتوم.

*/ الإنذار بحلول الساعة والتحذير من أهوالها وبما يعقبها من ثواب المتّقين وعقاب الجاحدين.

*/ التذكير بنعمة الله على المنكرين عسى أن يشكروه.

*/ التنويه بضعفاء المؤمنين وعلوّ قدرهم ووقوع الخير من نفوسهم والخشية، وأنّهم أعظم عند الله من أصحاب الغنى الذين فقدوا طهارة النفس، فهم لذلك أحرياء بالتحقير والذم، وأنّهم أصحاب الكفر والفجور.

{ **عَبَسَ وَتَوَلَّى [1] أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى [2] وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى [3] أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى [4]** }.

افتتاح هذه السورة بفعلين متحمِّلين لضمير لا معاد له في الكلام تشويق لما سيورَد بعدهما، والفعلان يُشعران بأنّ المحكي حادث عظيم، فأمّا الضمائر فيبين إبهامها قوله تعالى { فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى } [6]، وأمّا الحادث فيتبيَّن من ذكر الأعمى ومَن استغنى.

وسبب نزول هذه الآيات إلى قوله تعالى { بَرَرَةٍ } [16]، ما رواه مالك في الموطأ مرسلا عن هشام بن عروة عن أبيه أنّه قال: أُنزلت { عَبَسَ وَتَوَلَّى } في ابن أمّ مكتوم جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل يقول: يا محمد استدنني، وعند النبيّ صلى الله عليه وسلم رجال من عظماء المشركين، فجعل النبيّ صلى الله عليه وسلم يعرض عنه ويُقبل على الآخر، فأنزلت {عَبَسَ وَتَوَلَّى }.

ورواه الترمذي مسندا عن عروة عن عائشة بقريب من هذا، وقال الترمذي هذا حديث حسن غريب.

وروى الطبري عن ابن عباس: أنّ ابن أمّ مكتوم جاء يستقرئ النبيّ صلى الله عليه وسلم آية من القرآن. ومثله عن قتادة.

وقال الواحدي وغيره: " كان النبيّ صلى الله عليه وسلم حينئذ يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل، والعباس بن عبد المطلب، وأُبيّ بن خلف، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن المغيرة، والنبيّ صلى الله عليه وسلم يُقبل على الوليد بن المغيرة يعرض عليهم الإسلام.

{ **الأَعْمَى** } لا خلاف في أنّ المراد **ابن أمّ مكتوم**. قيل: اسمه عبد الله وقيل: اسمه عمرو، وهو ابن قيس بن زائدة من بني عامر بن لؤي من قريش.

وأمُّه عاتكة وكُنيت أمَّ مكتوم لأنّ ابنها عبد الله ولد أعمى، والأعمى يُكنّى عنه بمكتوم. ونُسب إلى أمّه لأنّها أشرف بيتا من بيت أبيه، لأنّ بني مخزوم من أهل بيوتات قريش فوق بني عامر بن لؤي.

أسلم قديما وهاجر إلى المدينة قبل مقدّم النبيّ صلى الله عليه وسلم إليها.

وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يحبُّه ويكرمه وقد استخلفه على المدينة في خروجه إلى الغزوات ثلاث عشرة مرة، وكان مؤذن النبيّ صلى الله عليه وسلم هو وبلال بن رباح.

وفيه نزلت هذه السورة وآية {غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ } [النساء:95].

وتوفي بالقادسية في خلافة عمر بعد سنة أربع عشرة أو خمسة عشرة.

العُبوس: تقطيب الوجه وإظهار الغضب. ويقال: رجل عَبوس (بفتح العين)، أي: متقطّب. قال تعالى { إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا } [الإنسان:10].

التولِّي: أصله تحوّل الذات من مكانها، ويُستعار لعدم اشتغال المرء بكلام يلقى إليه أو جليس يحلّ عنده، وهو هنا مستعار لعدم الاشتغال بسؤال سائل ولعدم الإقبال على الزائر.

{ **الأَعْمَى** } عَبّر عن ابن أم مكتوم بذلك ترقيقا للنبيّ صلى الله عليه وسلم ليكون العتاب ملحوظا فيه أنّه

لمّا كان صاحب ضَرارة فهو أجدر بالعناية به، لأنّ مثله يكون سريعا إلى انكسار خاطره.

ولمّا كان صدور ذلك من الله لنبيّه صلى الله عليه وسلم لم يشأ الله أن يفاتحه بما يتبادر منه أنّه المقصود بالكلام، فوجَّهه إليه على أسلوب الغيبة ليكون أوّل ما يقرع سمعه باعثا على أن يترقّب المعنيَّ من ضمير الغائب فلا يفاجئه العتاب، وهذا تلطّف من الله برسوله صلى الله عليه وسلم. ونظير هذا قوله تعالى { عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ } [التوبة:43].

ويظهر أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم رجا من ذلك المجلس أن يُسلموا فيُسلم بإسلامهم جمهور قريش أو جميعهم، فكان دخول ابن أم مكتوم قطعا لسلك الحديث، إذ جَعَل يقول للنبيّ صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله استدنني، علّمني، أرشدني، ويناديه ويكثر النداء والإلحاح، فظهرت الكراهية في وجه الرسول صلى الله عليه وسلم لعلّه لقطعه عليه كلامه وخشيته أن يفترق النفر المجتمعون.

وفي رواية الطبري أنّه أستقرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم آية من القرآن.

{ **وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى، أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى** } في موضع الحال.

{ **مَا يُدْرِيكَ** } مركّبة من (ما) الاستفهامية وفعل الدراية المقترن بهمزة التعدية، أي: ما يجعلك داريا، أي: عالما. ومثله ما في قوله تعالى { وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ } [الحاقة:3].

والاستفهام في هذه التراكيب مراد منه التنبيه على مغفول عنه.

{ **يَزَّكَّى** } أصله يتزكَّى، قلبت التاء زايا لتقارب مخرجيهما قصدا ليتأتّى الإدغام، وكذلك شأن { يَذَّكَّرُ }.

التزكّي: مطاوع زكّاه، أي: يحصل أثر التزكية في نفسه. وتقدّم في [النازعات:18].

<u>المعنى</u>: انظر فقد يكون تزكِّيه مرجوًّا، أي: إذا أقبلت عليه بالإرشاد زاد الإيمان رسوخا في نفسه وفعل خيرات كثيرة ممّا ترشده إليه فزاد تزكية.

{ **أَوْ يَذَّكَّرُ** } عطف على { يَزَّكَّى }، أي: تحصل الذكرى في نفسه بالإرشاد لما لم يكن يعلمه، أو تذكّر لما كان في غفلة عنه.

التذكّر: حصول أثر التذكير، فهو خطور أمر معلوم في الذهن بعد نسيانه إذ هو مشتق من الذُكر بالضمّ.

{ **فَتَنْفَعَهُ** } قرأ الجمهور { فَتَنْفَعُهُ } بالرفع عطفا على { يَذَّكَّرُ }. وقرأه عاصم بالنصب في جواب { لَعَلَّهُ يَزَّكَّى }.

{ **الذِّكْرَى** } القرآن لأنّه يُذكِّر الناس بما يغفلون عنه، قال تعالى { وَمَا هُوَ إلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ } [القلم:52].

{ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى [5] فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى [6] }.

تقدّم الكلام على { **أَمَّا** } في [النازعات:37] أنّها بمعنى: مهما يكن شيء.

والمقصود: فأنت تحرص على التصدّي له برغم استغنائه، أي: إعراضه.

الاستغناء: عدُّ الشخص نفسه غنيًّا في أمر يدلّ عليه السياق، فالسين والتاء للحسبان، أي: حسب نفسه

غنيًّا. وأكثر ما يُستعمل الاستغناء في التكبّر والاعتزاز بالقوّة.

{ مَنِ اسْتَغْنَى } من عدّ نفسه غنيًّا عن هديك بأن أعرض عن قَبوله. وليس المراد من استغنى بالمال إذ ليس المقام في أيثار صاحب مال على فقير.

{ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى } الإتيان بضمير المخاطب مُظهَرا قبل المسند الفعلي يجوز أن يكون للتقوّي، كأنّه قيل: تتصدّى له تصدّيًا، فمناط العتاب هو التصدّي القويّ.

وهذا الذي تصدّى النبيّ صلى الله عليه وسلم لدعوته وعرض القرآن عليه هو، على أشهر الأقوال المروية عن سلف المفسرين، الوليد بن المغيرة المخزومي.

التّصدّي: التعرّض، أطلق هنا على الإقبال الشديد مجازا.

{ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى } [7].

جملة معترضة بين جملة { أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى } [5] وجملة { وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى } [8].

المعنى: عدم تزكِّيه ليس محمولا عليك، أي: لست مُؤاخَذا بعدم اهتدائه حتّى تزيد من الحرص على ترغيبه في الإيمان ما لم يُكلِّفك الله به. وهذا رفق من الله برسوله صلى الله عليه وسلم.

{ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى [8] وَهُوَ يَخْشَى [9] فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى [10] }.

عطف على جملة { أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى } [5] اقتضى ذكره قصد المقابلة مع المعطوف عليها مقابلة الضدّين إتماما للتقسيم. والمراد: هو ابن أمّ مكتوم، فحصل بمضمون هذه الجملة تأكيد لمضمون { عَبَسَ وَتَوَلَّى، أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى } [2/1].

السعي: شدّة المشي، كُنِّي به عن الحرص على اللقاء، فهو مقابل لحال من استغنى، لأنّ استغناءه استغناء المُمْتَعِضِ عن التصدِّي له.

{ وَهُوَ يَخْشَى } في موضع الحال، وحذف المفعول لظهوره، لأنّ الخشية في لسان الشرع تنصرف إلى خشية الله تعالى. واختير الفعل المضارع لإفادته التجدُّد.

{ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى } القول فيها كالقول في { فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى } [6].

والعبرة في هذه الآيات أنّ الله تعالى زاد نبيّه صلى الله عليه وسلم علما عظيما من الحكمة النبويّة، ورفع درجة علمه إلى أسمى ما تبلغ إليه عقول الحكماء رعاة الأمم، فنبَّهه إلى أنّ في معظم الأحوال أو جميعها نواحي صلاح ونفع قد تخفى لقلّة اطرادها، ولا ينبغي ترك استقرائها عند الاشتغال بغيرها، ولو ظنّه الأهم، وأن ليس الإصلاح بسلوك طريقة واحدة للتدبير بأخذ قواعد كلّيّة منضبطة تشبه قواعد العلوم يطبقها في الحوادث ويُغضي عمّا يُعارضها، بل شأن مُقوّم الأخلاق أن يكون بمثابة الطبيب بالنسبة إلى الطبائع والأمزجة، فلا يجعل لجميع الأمزجة علاجا واحدا بل الأمر يختلف باختلاف الناس.

فالتزكية الحق هي المحور الذي يدور عليه حال ابن أمّ مكتوم وحال المشرك من حيث إنّها مرغوبة للأول ومزهود فيها من الثاني، وهي مرمى اجتهاد رسول الله صلى الله عليه وسلم لتحصيلها للثاني والأمن على قرارها للأوّل، بإقباله على الذي يتجافى عن دعوته، وإعراضه عن الذي يعلم من حاله أنّه متزكٍّ بالإيمان.

والحاصل أن الله تعالى أعلم رسوله صلى الله عليه وسلم أنّ ذلك المشرك الذي محَّضه نصحه لا يُرجى منه صلاح، وأنّ ذلك المؤمن الذي استبقى العناية به إلى وقت آخر يزداد صلاحا تفيد المبادرة به، لأنّه في حالة تلهّفه على التلقّي من رسول الله صلى الله عليه وسلم أشدّ استعدادا منه في حين آخر.

فهذه الحادثة منوال ينسج عليها الاجتهاد النبوي إذا لم يرد له الوحي ليعلم أنّ من وراء الظواهر خبايا، وأنّ القرائن قد تستر الحقائق.

ونظير هذا ما ضربه الله لموسى عليه السلام من المثل في ملاقاة الخضر، وما جرى من المحاورة بينهما، وقول الخضر لموسى عليه السلام { وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا } [الكهف:68]، ثمّ قوله له { ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا } [الكهف:82] .

وقد سبق مثله في الشرائع السابقة كقوله في قصة نوح عليه السلام { قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ } [هود:46]، وقوله لإبراهيم عليه السلام { لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ } [البقرة:124].

والأظهر عندي أن مناط العتاب الذي تؤتيه لهجة الآية والذي روي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ثبوته من كثرة ما يقول لابن أم مكتوم: **" مرحبا بمن عاتبني ربي لأجله "**، إنّما هو عتاب على العبوس والتولّي، لا على ما حفّ بذلك من المبادرة بدعوة، وتأخير إرشاد، لأنّ ما سلكه النبيّ صلى الله عليه وسلم في هذه الحادثة من سبيل الإرشاد لا يستدعي عتابا إذ ما سلك إلّا سبيل الاجتهاد القويم، لأنّ المقام الذي أقيمت فيه هذه الحادثة تقاضاه إرشادان لا محيص من تقديم أحدهما على الآخر، هما: إرشاد كافر إلى الإسلام عساه أن يُسلم، وإرشاد مؤمن إلى شُعب الإسلام عساه أن يزداد تزكية.

فمناط المعاتبة هو العبوس للمؤمن بحضرة المشرك الذي يستصغر أمثال ابن أمّ مكتوم، فما وقع في خلال هذا العتاب من ذكر حال المؤمن والكافر إنّما هو إدماج لأنّ في الحادثة فرصة من التنويه بسموّ منزلة المؤمن لانطواء قلبه على أشعة تؤهّله لأن يستنير بها ويفيضها على غيره، جمعا بين المعاتبة والتعليم، على سَنن هدي القرآن في المناسبات.

{ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ [11] فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ [12] فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ [13] مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ [14] بِأَيْدِي سَفَرَةٍ [15] كِرَامٍ بَرَرَةٍ [16] }.

{ **كَلَّا** } إبطال، وقد تقدّم ذكرها في [مريم:79]، وتقدّم قريبا في [النبأ:4]. وهو هنا إبطال لما جرى في الكلام السابق ولو بالمفهوم، كما في قوله تعالى { وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى } [3]. ولو بالتعريض أيضا كما

في قوله تعالى { عَبَسَ وَتَوَلَّى } [1].
وعلى التفسير الذي اخترناه ينصرف الإبطال إلى { عَبَسَ وَتَوَلَّى } خاصة.
ويجوز أن يكون تأكيدا لقوله تعالى { وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى } [7] على التفسيرين، أي: لا تظن أنّك مسؤول عن مكابرته وعناده فقد بلّغت ما أُمرت بتبليغه.
{ إِنَّهَا تَذْكِرَة، فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَه، فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ، مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ، بِأَيْدِي سَفَرَةٍ، كِرَامٍ بَرَرَةٍ }.
استئناف بعد حرف الإبطال، وهو استئناف بياني لأنّ ما تقدّم من العتاب ثمّ ما عقبه من الإبطال يثير في خاطر الرسول صلى الله عليه وسلم الحيرة في كيف يكون العمل في دعوة صناديد قريش إذا لم يتفرَّغ لهم، أو يثير في نفسه مخافة أن يكون قصَّر في شيء من واجب التبليغ.
{ **إِنَّهَا** } الضمير عائدة إلى الدعوة التي تضمَّنها قوله تعالى { فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى } [6].
ويجوز أن يكون المعنى: أنّ هذه الموعظة تذكرة لك وتنبيه لما غفلت عنه وليست ملاما وإنّما كما يعاتب الحبيب حبيبه.
{ **إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ** } يجوز عندي أن يكون استئنافا ابتدائيا موجَّها إلى من كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يدعوه قُبيل نزول السورة، فإنّه كان يعرض القرآن على الوليد بن المغيرة ومن معه، وكانوا لا يستجيبون إلى ما دعاهم ولا يصدِّقون بالبعث، فتكون { كَلَّا } إبطالا لما نعتوا به القرآن من أنّه أساطير الأوّلين أو نحو ذلك. فيكون ضمير { إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ } عائدا إلى الآيات التي قرأها النبيّ صلى الله عليه وسلم عليهم في ذلك المجلس، ثمّ أعيد عليها الضمير بالتذكير للتنبيه على أنّ المراد آيات القرآن.
ويؤيِّد هذا الوجه قوله تعالى عقبه { قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ...} [17]، حيث ساق لهم أدلة إثبات البعث.
فكان تأنيث الضمير نكتة خصوصية لتحميل الكلام هذه المعاني.
التذكرة: اسم لما يُتذكّر به الشيء إذا نُسي. قال الراغب: وهي أعمّ من الدلالة والأمارة، قال تعالى { فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ }. وتقدّم نظيره في [المدثر:49].
{ **فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ** } معترضة بين قوله تعالى { إِنَّهَا تَذْكِرَة } وقوله تعالى { فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ }.
والفاء لتفريع مضمون الجملة على جملة { إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ }، فإنّ الجملة المعترضة تقترن بالفاء إذا كان معنى الفاء قائما، فالفاء من جملة الاعتراض، أي: هي تذكرة لك بالأصالة وينتفع بها من شاء أن يتذكّر على حسب استعداده، أي: يتذكّر بها كلّ مسلم، كقوله تعالى { وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ } [الزخرف:44].
وفي الكلام تعريض بأنّ موعظة القرآن نافعة لكلّ أحد تجرّد عن العناد والمكابرة، فمن لم يتّعظ بها فلأنّه لم يشأ أن يتّعظ. وهذا كقوله تعالى { إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا } [النازعات:45]، وقوله تعالى { لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ } [التكوير:28]، وقوله تعالى { وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ } [الحاقة:48] ونحوه كثير، وقد تقدّم قريب منه في قوله تعالى { فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا } [الإنسان:29].
{ **ذَكَرَهُ** } يجوز أن يعود الضمير الظاهر إلى { تَذْكِرَةٌ } لأنّ ما صدقها القرآن الذي كان النبيّ صلى الله

عليه وسلم يعرضه على صناديد قريش قبيل نزول هذه السورة. أي: فمن شاء ذكر القرآن وعمل به.
ويجوز أن يكون الضمير عائدا إلى الله تعالى، فإنّ إعادة ضمير الغيبة على الله تعالى دون ذكر معاده في الكلام كثير في القرآن، فهو ملحوظ لكل سامع للقرآن، إي: فمن شاء ذكر الله وتوخَّى مرضاته.
والذكر على كلا الوجهين: الذكر بالقلب، وهو توخِّي الوقوف عند الأمر والنهي.
والذي اقتضى الإتيان بالضمير وكونه ضمير مذكر مراعاة الفواصل وهي { تَذْكِرَةٌ، مُطَهَّرَةٍ، سَفَرَةٍ، بَرَرَةٍ }.
{ **تَذْكِرَةٌ / ذَكَرَهُ** } هو من الذكر القلبي الذي مصدره بضم الذال في الغالب.
الصحف: جمع صحيفة، وهي قطعة من أديم أو ورق أو خرقة يكتب فيها الكتاب، وقياس جمعها صحائف، وأمّا جمعها على صحف فمخالف للقياس، وهو الأفصح ولم يرد في القرآن إلّا صُحف، وسيأتي في [الأعلى:18]، وتطلق الصحيفة على ما يكتب فيه.
فيكون المراد بالصحف الأشياء التي كُتب فيها القرآن من رقوق وقراطيس، وأكتاف، ولخاف، وجريد. فقد روي أنّ كتّاب الوحي كانوا يكتبون فيها، كما جاء في خبر جمع أبي بكر للمصحف حين أمر بكتابته في رقوق أو قراطيس، ويكون إطلاق الصحف عليها تغليبا، ويكون حرف { فِي } للظرفية الحقيقية ويكون المراد بـ { سَفَرَةٍ } جمع سافر، أي: كاتب. وروي هذا عن ابن عباس.
قال الزجّاج: وإنما قيل للكتاب سِفر (بكسر السين) وللكاتب سافر لأنّ معناه أنّه يُبيِّن الشيء ويوضِّحه، يقال: أسفر الصبح، إذا أضاء.
فتكون أوصافها بـ { مُكَرَّمَةٍ، مَرْفُوعَةٍ، مُطَهَّرَةٍ } محمولة على المعاني المجازية وهي معاني الاعتناء بها، كما قال تعالى { قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ } [النمل:29]، وتشريفها كما قال تعالى { إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ } [المطففين:18]، وقدسيّة معانيها، كما قال تعالى { وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ } [البقرة:129]،
ويجوز أن يراد بالصحف كتب الرسل مثل التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم عليه السلام، فتكون هذه الأوصاف تأييدا للقرآن بأنّ الكتب الإلهية السابقة جاءت بما جاء به كما قال تعالى { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى } [الشورى:13]، وقوله تعالى { إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى، صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى } [الأعلى:19/18].
{ **مُكَرَّمَةٍ** } عناية الله بها.
{ **مَرْفُوعَةٍ** } أنّها من العالم العلوي.
{ **مُطَهَّرَةٍ** } مقدسة مباركة.
{ **بِأَيْدِي سَفَرَةٍ** } يجوز أن يكون جمع سافر، مثل كاتب وكتبة، فالمناسب لهذا الوجه أن يكون السفرة كتّاب القرآن من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو أنّ يكون المراد قرّاء القرآن.

ويجوز أن يكون اسم جمع سفير، وهو المرسل في أمر مهم، فهو فعيل بمعنى فاعل، وقياس جمعه سفراء وتكون (في) للظرفية المجازية. والمناسب لهذا الوجه أن يكون محمله الرسل.

{ **بِأَيْدِي** } المراد: حفظُهم إيّاه إلى تبليغه، فمُثِّل حال الملائكة بحال السفراء الذين يحملون الرسائل.

وإمّا أن يراد: الرسل الذين كانت بأيديهم كتبهم مثل موسى وعيسى عليهما السلام.

وإمّا أن يراد كتّاب الوحي مثل عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعمر، وعثمان، وعلي، وعامر بن فهيرة.

وكان بعض المسلمين يكتب ما يتلقّاه من القرآن ليدرسه، مثل ما ورد في حديث إسلام عمر بن الخطاب من عثوره على سورة طه مكتوبة عند أخته أم جميل فاطمة زوج سعيد بن زيد.

{ **كِرَامٍ** } ممّا وصف به الملائكة في آيات أخرى، كقوله تعالى { كِرَامًا كَاتِبِينَ } [الإنفطار:11].

{ **بَرَرَةٍ** } جمع بَرّ، وهو الموصوف بكثرة البرور. والغالب في اصطلاح القرآن أنّ البررة الملائكة والأبرار الآدميون. ووَرَد صفة للملائكة في الحديث الصحيح: **" الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة "**.

وهذا تنويه بشأن القرآن، لأنّ التنويه بالآيات الواردة في أوّل هذه السورة من حيث إنّها بعض القرآن، فأثني على القرآن بفضيلة أثره في التذكير والإرشاد، وبرفعة مكانته، وقدس مصدره، وكرم قراره، وطهارته، وفضائل حملته ومبلِّغيه، فإنّ تلك المدائح عائدة إلى القرآن بطريق الكناية.

{ **قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ** [17] **مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ** [18] **مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ** [19] **ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ** [20] **ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ** [21] **ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ** [22] }.

استئناف ابتدائي نشأ عن ذكر من استغنى، فإنّه أريد به معيّن واحد أو أكثر، وذلك يُبيّنه ما وقع من الكلام الذي دار بين النبيّ صلى الله عليه وسلم وبين صناديد المشركين في المجلس الذي دخل فيه ابن أمّ مكتوم.

والمناسبة وصف القرآن بأنّه تذكرة لمن شاء أن يتذكّر، وإذ قد كان أكبر دواعيهم على التكذيب بالقرآن أنّه أخبر عن البعث وطالبهم بالإيمان به كان الاستدلال على وقوع البعث أهمّ ما يُعتنى به في هذا التذكير وذلك من أفنان قوله تعالى { فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ } [عبس:12].

{ **قُتِلَ** } أصله دعاء بالقتل. قال في الكشّاف: دعاء عليه، وهذا من أشنع دعواتهم.

والدعاء بالسوء من الله تعالى مستعمل في التحقير والتهديد لظهور أنّ حقيقة الدعاء لا تناسب الإلهية لأنّ الله هو الذي يتوجَّه إليه الناس بالدعاء.

وبناء الفعل للمجهول متفرّع على استعماله في الدعاء، إذ لا غرض في قاتل يقتله، وكثر في القرآن مبنيًّا للمجهول، نحو قوله تعالى { فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ } [المدثر:19].

{ **الإِنْسَانُ** } يجوز أن يكون تعريف الجنس فيفيد استغراق جميع أفراد الجنس، وهو استغراق حقيقي، وقد

يُراد به استغراق معظم الأفراد لعدم الاعتداد بالقليل من الأفراد، ويُسمَّى الاستغراق العرفي في اصطلاح علماء المعاني، ويُسمَّى (العام المراد به الخصوص) في اصطلاح علماء الأصول.
والقرينة هنا ما بُيِّن به كفر الإنسان من قوله تعالى { مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ - إلى قوله - ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ }، فيكون المراد من { الإِنْسَانُ } المشركين المنكرين البعث.
قال مجاهد: ما كان في القرآن { قُتِلَ الإِنْسَانُ } فإنّما عني به الكافر.
ويجوز أن يكون تعريف العهد لشخص معيّن من الإنسان يُعيِّنه خبر سبب النزول، فقيل: أريد به أمية بن خلف، وكان ممَّن حواه المجلس الذي غشيه ابن أمّ مكتوم، وعندي أنّ الأولى أن يكون أراد به الوليد بن المغيرة.
{ **مَا أَكْفَرَهُ** } تعليل لإنشاء الدعاء عليه دعاء التحقير والتهديد. وهذا تعجيب من شدّة كفر هذا الإنسان.
لأنّه كفر بوحدانية الله، وبقدرته على إعادة خلق الأجسام بعد الفناء، وبإرساله الرسول، وبالوحي إليه صلى الله عليه وسلم، وهو كفر قوي لا يقبل التزحزح، ومستمرّ لا يقلع عنه مع تكرّر التذكير والإنذار.
وهذه الجملة بلغت نهاية الإيجاز وأرفع الجزالة، ولم يُسمع مثلها قبلها، فهي من جوامع الكلم القرآنية.
وحذف المتعلق لظهوره، وتقديره: ما أكفره بالله.
{ **مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ** } بيان لجملة { قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ }، لأنّ مفاد هذه الجملة الاستدلال على إبطال إحالتهم البعث وذلك الإنكار من أكبر أصول كفرهم.
وجيء في هذا الاستدلال بصورة سؤال وجواب للتشويق إلى مضمونه، ولذلك قرن الاستفهام بالجواب عنه على الطريقة المتقدِّمة في قوله تعالى { عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، عَنْ النَّبَإِ الْعَظِيمِ } [النبأ:2/1].
والاستفهام صوري، وجُعل المستفهَم عنه تعيين الأمر الذي خلق به الإنسان، لأنّ المقام هنا ليس لإثبات أنّ الله خلق الإنسان، بل المقام لإثبات إمكان إعادة الخلق بتنظيره بالخلق الأوّل على طريقة قوله تعالى { أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ } [ق:15]، أي: كما كان خلق الإنسان أوّل مرة من نطفة يكون خلقه ثاني مرة من كائن ما، ونظيره قوله تعالى { فَلْيَنظُرْ الإنسَانُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ، إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ } [الطارق:5-8]
{ **خَلَقَهُ** } الضمير المستتر عائد إلى الله تعالى المعلوم من فعل الخلق لأنّ المشركين لم يكونوا ينكرون أنّ الله خالق الإنسان.
{ **مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ** } قُدِّم الجار والمجرور، لما في تقديمه من التنبيه للاستدلال على عظيم حكمة الله تعالى إذ كوَّن أبدع مخلوق معروف من أهون شيء وهو النطفة.
وإنّما لم يُستغن عن إعادة فعل { خَلَقَهُ } في جملة الجواب لزيادة التنبيه على دقة ذلك الخلق البديع.
فذكر فعل { خَلَقَهُ } الثاني في أسلوب المساواة، ليس بإيجاز وليس بإطناب.
النطفة: الماء القليل، وهي فُعلة بمعنى مفعولة كقولهم: قُبضة حَب، وغُرفة ماء. وغلب إطلاق النطفة

على الماء الذي منه التناسل، فذُكرت النطفة لتعيّن ذكرها لأنها مادة خلق الحيوان للدلالة على أن صنع الله بديع فإمكان البعث حاصل. وليس في ذكر النطفة هنا إيماء إلى تحقير أصل نشأة الإنسان لأنّ المقام هنا للدلالة على خلق عظيم وليس مقام زجر المتكبر.

{ **فَقَدَّرَهُ** } تفريع على فعل { خَلَقَهُ } بفاء التفريع لأنّ التقدير هنا إيجاد الشيء على مقدار مضبوط منظّم، كقوله تعالى { وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا } [الفرقان:2]، أي: جعل التقدير من آثار الخلق لأنّه خلقه متهيّئا للنماء وما يلابسه من العقل والتصريف وتمكينه من النظر بعقله.

وهذا التفريع وما عطف عليه إدماج للامتنان من خلال الاستدلال.

{ **ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ** } حرف { ثُمَّ } للتراخي الرتبي، لأنّ تيسير سبيل العمل الإنساني أعجب في الدلالة على بديع صنع الله، لأنّه أثر العقل، وهو أعظم ما في خلق الإنسان، وهو أقوى في المِنَّة.

{ **السَّبِيلَ** } الطريق، وهو مستعار لما يفعله الإنسان من أعماله وتصرُّفاته تشبيها للأعمال بطريق يمشي فيه الماشي، تشبيه المحسوس بالمعقول. وتقديمه على فعله للاهتمام بالعبرة، وفيه رعاية للفواصل.

التيسير: التسهيل، كقوله تعالى { وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ } [القمر:17] أي: لذكر الناس.

{ **ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ** } عُطف كذلك على { يَسَّرَهُ } بحرف التراخي الرتبي، فإنّ انقراض تلك القوى العقلية والحسية بالموت، بعد أن كانت راسخة زمنا ما، انقراض عجيب، وهذا إدماج للدلالة على عظيم القدرة.

{ **أَمَاتَهُ** } صيغة الماضي مستعملة في حقيقته وهو موت من مات، ومجازه وهو موت من سيموتون، لأنّ موتهم في المستقبل محقّق.

وإسناد الإماتة إلى الله تعالى حقيقة عقلية بحسب عرف الاستعمال. وهذا إدماج للامتنان في خلال الاستدلال، كما أدمج { فَقَدَّرَهُ، ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ } فيما سبق.

{ **فَأَقْبَرَهُ** } جعله ذا قبر، وهو أخصّ من معنى قبره، أي: أنّ الله سبّب له أن يُقبر.

الإقبار: تهيئة القبر. فالمعنى: أنّ الله جعل الناس ذوي قبور. وإسناد الإقبار إلى الله تعالى مجاز عقلي لأنّ الله ألهم الناس الدفن، كما في قصّة دفن أحد ابني آدم أخاه بإلهام تقليده لفعل غراب.

وهذه كلّها دلائل على عظيم قدرة الله تعالى، وهم عدّوها قاصرة على الخلق الثاني، وهي تتضمّن منن على الناس في خلقهم وتسويتهم وإكمال قواهم أحياء، وإكرامهم أمواتا بالدفن لئلّا يكون الإنسان كالشيء اللَّقي يجتنب بنو جنسه القرب منه، ويهينه التقام السباع وتمزيق مخالب الطير والكلاب، فمحلّ المنّة في قوله تعالى { ثُمَّ أَمَاتَهُ } هو فيما فُرّع عليه بالفاء بقوله تعالى { فَأَقْبَرَهُ } وليست الإماتة وحدها منّة.

وفي الآية دليل على أنّ وجوب دفن أموات الناس بالإقبار دون الحرق بالنار كما يفعل مجوس الهند، ودون الإلقاء لسباع الطير في ساحات في الجبال محوطة بجدران دون سقف، كما كان يفعله مجوس الفرس، وكما كان يفعله أهل الجاهلية بموتى الحروب والغارات في الفيافي إذ لا يوارونهم بالتراب.

وأبطل الإسلام ذلك، فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم دفن شهداء المسلمين يوم أحد في قبور مشتركة،

ووارى قتلى المشركين ببدر في قليب.

{ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ } رجوع إلى إثبات البعث، وهي كالنتيجة عقب الاستدلال.

{ **إِذَا شَاءَ** } معترض بين جملة { أَمَاتَهُ } وجملة { أَنْشَرَهُ } لردّ توهُّم المشركين أنّ عدم التعجيل بالبعث دليل على انتفاء وقوعه في المستقبل، و(إذا) ظرف للمستقبل، فالفعل الماضي بعدها مؤوَّل بالمستقبل.

المعنى: ثم حين يشاء ينشره، أي: ينشر هذا حين تتعلق مشيئته بإنشاره.

{ **أَنْشَرَهُ** } بعثه من الأرض. وأصل النشر إخراج الشيء المخبّأ، يقال: نشر الثوب، إذ أزال طيّه، ونشر الصحيفة، إذا فتحها ليقرأها. ومنه الحديث: " فنشروا التوراة ".

وأمّا الإنشار بالهمزة فهو خاص بإخراج الميّت من الأرض حيا وهو البعث، فيجوز أن يقال: نشر الميّت.

وفي قوله تعالى { إِذَا شَاءَ } رد لشبهتهم إذ كانوا يطلبون تعجيل البعث تحدِّيا وتهكُّما ليجعلوا عدم الاستجابة بتعجيله دليلا على أنّه لا يكون، فأعلمهم الله أنّه يقع عندما يشاء الله وقوعه لا في الوقت الذي يسألونه لأنّه موكول إلى حكمة الله، واستفادة إبطال قولهم من طريق الكناية.

{ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ } [23].

{ **كَلَّا** } حرف ردع وزجر عن كلام سابق أو لاحق، وليس فيما تضمَّنه ما سبقها ولا فيما بعدها ما ظاهره أن يُزجر عنه ولا أن يُبطل، فتعيّن المصير إلى تأويل موردها.

فالوجه في موقعها هنا أنّه يجوز أن تكون زجرا عمّا يُفهم من قوله تعالى { ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ } [22] المُكَنّى به عن فساد استدلالهم بتأخيره على أنّه لا يقع، فيكون الكلام على هذا تأكيدا للإبطال الذي في قوله تعالى

{ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ } [11] باعتبار معناه الكنائي إن كان صريح معناه غير باطل، فقوله تعالى { إِذَا شَاءَ } مؤذن بأنّه الآن لم يشأ وذلك مؤذ بإبطال أن يقع البعث عندما يسألون وقوعه، أي: أنَّا لا نشاء إنشارهم الآن وإنّما ننشرهم عندما نشاء ممّا قدّرنا أجله عند خلق العالم الأرضي.

وتكون جملة { لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ } تعليلا للردع، أي: الإنسان لم يستتمّ ما أجلّ الله لبقاء نوعه في هذا العالم من يوم تكوينه فلذلك لا يُنشر الآن، ويكون المراد بالأمر في قوله تعالى { مَا أَمَرَهُ } أمر التكوين، أي لم يستتم ما صدر به أمر تكوينه حين قيل لآدم { وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ } [البقرة:36].

ويجوز أن يكون زجرا عمّا أفاده قوله تعال { لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ } وقُدّمت { كَلَّا } في صدر الكلام الواردة لإبطاله للاهتمام بمبادرة الزجر.

{ **لَمَّا** } حرف نفي يدل على نفي الفعل في الماضي مثل (لم) ويزيد بالدلالة على استمرار النفي إلى وقت التكلُّم، كقوله تعالى { وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ } [الحجرات:14].

والمقصود أنّه مستمرّ على عدم قضاء ما أمره الله ممّا دعاه إليه.
القضاء: فعل ما يجب على الإنسان كاملا، لأنّ أصل القضاء مشتقّ من الإتمام فتضمّن فعلا تاما، أي: لم يزل الإنسان الكافر معرضا عن الإيمان الذي أمره الله به، وعن النظر في خلقه من نطفة ثم تطور أطوارا إلى الموت، قال تعالى { فَلْيَنظُرْ الإنسَانُ مِمَّ خُلِقَ } [الطارق:5]، وما أمره من التدبّر في القرآن ودلائله ومن إعمال عقله في الاستدلال على وحدانية الله تعالى ونفي الشرك عنه. ومن الدلائل نظره في كيفية خلقه فإنّها دلائل قائمة بذاته فاستحق الردع والزجر.
{ **أَمَرَهُ** } الضمير المستتر عائد إلى ما عادت عليه الضمائر المستترة في { خَلَقَهُ، فَقَدَّرَهُ، يَسَّرَهُ، فَأَقْبَرَهُ، أَنْشَرَهُ }.

{ فَلْيَنْظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ [24] أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا [25] ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا [26] فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا [27] وَعِنَبًا وَقَضْبًا [28] وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا [29] وَحَدَائِقَ غُلْبًا [30] وَفَاكِهَةً وَأَبًّا [31] مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ [32] }.

إمّا مفرَّع على قوله تعالى { لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ } [23]، فيكون ممّا أمره الله به من النظر، وإمّا على قوله تعالى { مَا أَكْفَرَهُ } [17]، فيكون هذا النظر مما يُبطل ويزيل شدّة كفر الإنسان.
والفاء مع كونها للتفريع تفيد معنى الفصيحة، إذ التقدير: إن أراد أن يقضي ما أمره فلينظر إلى طعامه، أو إن أراد نقض كفره فلينظر إلى طعامه.
وهذا استدلال آخر على تقريب كيفية البعث انتقل إليه في معرض الإرشاد إلى تدارك الإنسان ما أهمله، وكان الانتقال من الاستدلال بما في خلق الإنسان من بديع الصنع من دلائل قائمة بنفسه في آية { مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ } [18] إلى الاستدلال بأحوال موجودة في بعض الكائنات الشديدة الملازمة لحياة الإنسان ترسيخا للاستدلال، وتفنّنا فيه، وتعريضا بالمنّة على الإنسان في هذه الدلائل، ومن نعمة النبات الذي به بقاء حياة الإنسان وحياة ما ينفعه من الأنعام.
{ **إِلَى طَعَامِهِ** } تعدية فعل النظر هنا بحرف { إلى } تدلّ على أنّه من نظر العين، إشارة إلى أنّ العبرة تحصل بمجرد النظر في أطواره. والمقصود التدبّر فيما يشاهده الإنسان من أحوال طعامه بالاستدلال بها على إيجاد الموجودات من الأرض. وجعل المنظور إليه ذات الطعام مع أنّ المراد النظر إلى أسباب تكوّنه وأحوال تطوره إلى حالة انتفاع الإنسان به وانتفاع أنعام الناس به. وذلك من أسلوب إناطة الأحكام بأسماء الذوات، فأمر الله الإنسان بالتفكير في أطوار تكوّن الحبوب والثمار التي بها طعامه، وقد وُصف له تطوّر ذلك ليتأمّل ما أودع إليه في ذلك من بديع التكوين، سواء رأى ذلك ببصره أم لم يره.
{ **الإنسَانُ** } هو الإنسان المذكور في قوله تعالى { قُتِلَ الإنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ } [17] وإنّما جيء باسمه

الظاهر دون الضمير كما في قوله تعالى { مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ } [18]، لأنّ ذلك قريب من معاده وما هنا ابتداء كلام فعُبِّر فيه بالاسم الظاهر للإيضاح.

وأدمج في ذلك منّة عليه بالإمداد بالغذاء الذي به إخلاف ما يضمحلّ من قوته.

فالتقدير: فلينظر الإنسان إلى خلق طعامه وتهيئة الماء لإنمائه وشق الأرض وإنباته وإلى انتفاعه به وانتفاع مواشيه في بقاء حياتهم.

الصَّب: إلقاء صبرة متجمِّعة من أجزاء مائعة أو كالمائعة في وعاء غير الذي كانت فيه، يقال: صَبَّ الماء في الجرّة، وصب الدراهم في الكيس.

الشق: الإبعاد بين ما كان متصلا، والمراد هنا شقّ سطح الأرض بخرق الماء فيه أو بآلة كالمحراث والمسحاة، أو بقوة حر الشمس.

{ **صَبَبْنَا، شَقَقْنَا، فَأَنْبَتْنَا** } إسنادها إلى ضمير الجلالة لأنّ الله مقدِّر نظام الأسباب المؤثِّرة في ذلك، ومُحكم نواميسها ومُلهم الناس استعمالها. فالإسناد مجاز عقلي. وقد شاع في { صَبَبْنَا / أَنْبَتْنَا} حتّى ساوى الحقيقة العقلية.

{ **صَبًّا / شَقًّا** } انتصبا على المفعول المطلق للتأكيد وليتأتى تنوينه، لما في التنكير من الدلالة على التعظيم، وتعظيم كل شيء بما يناسبه، وهو تعظيم تعجّب.

{ **فَأَنْبَتْنَا** } الفاء للتفريع والتعقيب وهو في كلّ شيء بحسبه.

الحَب: أريد منه المقتات للإنسان، وتقدّم في قوله تعالى { كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ } [البقرة:261].

العنب: ثمر الكرم، ويُتخذ منه الخمر والخل، ويؤكل رطبا، ويُتّخذ منه الزبيب.

القضب: الفِصْفِصَة الرطبة، سُمِّيت قضبا لأنّها تُعلف للدواب رطبة فتقضب، أي: تُقطع مرة بعد أخرى ولا تزال تخلُف ما دام الماء ينزل عليها، وتُسمّى القت.

الزيتون: الثمر الذي يُعصر منه الزيت المعروف.

النخل: الشجر الذي ثمرته التمر.

الحدائق: جمع حديقة وهي الجنة من نخل وكرم وشجر وفواكه، وعطفها على النخل من عطف الأعم على الأخص، ولأنّ في ذكر الحدائق إدماجا للامتنان بها لأنّها مواضع تنزّههم.

وإنّما ذُكر النخل دون ثمرته، وهو التمر، خلافا لما قرن به من الثمار والفواكه والكلأ، لأنّ منافع شجر النخيل كثيرة لا تقتصر على ثمره، فهم يقتاتون ثمرته من تمر ورطب وبسر، ويأكلون جماره، ويشربون ماء عود النخلة إذا شُق عنه، ويتخذون من نوى التمر علفا لإبلهم، وكل ذلك من الطعام، فضلا عن اتخاذهم البيوت والأواني من خشبه، والحصر من سعفه، والحبال من ليفه، فذكر اسم الشجرة الجامعة لهذه المنافع أجمع في الاستدلال بمختلف الأحوال وإدماج الامتنان بوفرة النعم.

الغُلب: جمع غلباء، وهي مؤنث الأغلب، وهو غليظ الرقبة، يُوصف به الإنسان والبعير، وهو هنا

مستعار لغلظ أصول الشجر فوصف الحدائق به، إمّا على تشبيه الحديقة في تكاثف أوراق شجرها والتفافها بشخص غليظ الأوداج فتكون استعارة، وإمّا على تقدير محذوف، أي: غلب شجرها، فيكون نعتا سببيا وتكون الاستعارة في تشبيه كل شجرة بامرأة غليظة الرقبة، وذلك من محاسن الحدائق لأنّها تكون قد استكملت قوّة الأشجار، كما في قوله تعالى { وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا } [النبأ:16].

وخصت الحدائق بالذكر لأنّها مواضع التنزّه، ولأنّها تجمع أصنافا من الأشجار.

الفاكهة: الثمار التي تؤكل للتفكّه لا للاقتيات، مثل الرُّطب والعنب الرَّطب والرمان واللوز.

الأب: بفتح الهمزة وتشديد الباء: الكلأ الذي ترعاه الأنعام.

روي أنّ أبا بكر الصديق سئل عن الأب: ما هو؟ فقال: " أيّ سماء تظلّني، وأيّ أرض تقلّني إذا قلت في كتاب الله ما لا علم لي به "، وروي أنّ عمر بن الخطاب قرأ يوما على المنبر { فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا - إلى قوله – وَأَبًّا } فقال كل هذا قد عرفناه فما الأب؟ ثمّ رفع عصا كانت في يده وقال: هذا لعمر الله هو التكلّف فما عليك يا ابن أم عمر أن لا تدري ما الأب، ابتغوا ما بُيِّن لكم من هذا الكتاب فاعملوا به، وما لم تعرفوه فكلوه إلى ربّه.

والذي يظهر لي في انتفاء علم الصديق والفاروق بمدلول الأب، وهما من خلص العرب، لأحد سببين:

إمّا لأن هذا اللفظ كان قد تنوسي من استعمالهم فأحياه القرآن لرعاية الفاصلة، فإنّ الكلمة قد تشتهر في بعض القبائل أو في بعض الأزمان وتنسى في بعضها مثل اسم السكين عند الأوس والخزرج، فقد قال أنس بن مالك ما كنا نقول إلّا المُدية حتّى سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر أن سليمان عليه السلام قال: **" إيتوني بالسكين اقسِم الطفل بينهما نصفين "**.

وإمّا أنّ كلمة الأب تطلق على أشياء كثيرة منها النبت الذي ترعاه الأنعام، ومنها التبن، ومنها يابس الفاكهة، فكان إمساك أبي بكر وعمر عن بيان معناه لعدم الجزم بما أراد الله منه على التعيين، وهل الأب مما يرجع إلى قوله تعالى { مَتَاعًا لَكُمْ } أو إلى قوله تعالى { وَلأَنْعَامِكُمْ }.

{ مَتَاعًا لَكُمْ } حال من المذكورات يعود إلى جميعها على قاعدة ورود الحال بعد مفردات متعاطفة، وهذا نوع من التنازع.

المتاع: ما يُنتفع به زمنا ثم ينقطع، وفيه لف ونشر مشوّش، والسامع يُرجع كلّ شيء من المذكورات إلى ما يصلح له لظهوره. وهذه الحال واقعة موقع الإدماج أدمجت الموعظة والمنّة في خلال الاستدلال.

{ **فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ** [33] **يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ** [34] **وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ** [35] **وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ** [36] **لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ** [37] **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ** [38] **ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ** [39] **وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ** [40] **تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ** [41] **أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ** [42] }.

الفاء للتفريع على اللوم والتوبيخ في قوله تعالى { قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ } [17] وما تبعه من الاستدلال على المشركين من قوله تعالى { مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ - إلى قوله - أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا } [18-25]، ففُرِّع على ذلك إنذار بيوم الجزاء، مع مناسبة وقوع هذا الإنذار عقب التعريض والتصريح بالامتنان في قوله تعالى { إِلَى طَعَامِهِ } [24]، وقوله تعالى { مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ } [32] على نحو ما تقدّم في قوله تعالى { فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى } [النازعات:34].

المجيء: مستعمل في الحصول مجازا، شُبِّه حصول يوم الجزاء بشخص جاء من مكان آخر.

الصّاخّة: صيحة شديدة من صيحات الإنسان تصخّ الأسماع، أي تصِمّها. يُقال: صخَّ يصخ، قاصرا ومتعدّيا، ومضارعه يصُخ (بضم عينه) في الحالين. فالصّاخّة صارت في القرآن عَلَما بالغلبة على حادثة يوم القيامة وانتهاء هذا العالم، وتحصُل صيحات منها أصوات تزلزل الأرض واصطدام بعض الكواكب بالأرض مثلا، ونفخة الصور التي يُبعث عندها الناس.

{ **يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ** } بدل من { إِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ } بدلا مطابقا.

الفرار: الهروب للتخلّص من مخيف.

{ **مِنْ أَخِيهِ** } حرف (من) هنا <u>يجوز</u> أن يكون بمعنى التعليل الذي يُعدَّى به فعل الفرار إلى سبب الفرار حين يقال: فرّ من الأسد، وفرّ من العدو، وفرّ من الموت، <u>ويجوز</u> أن يكون بمعنى المجاوزة مثل (عن).

وكون أقرب الناس للإنسان يفر منهم يقتضي هول ذلك اليوم بحيث إذا رأى ما يحل من العذاب بأقرب الناس إليه توهّم أنّ الفرار منه ينجيه من الوقوع في مثله.

ورُتِّبت أصناف القرابة في الآية حسب الصعود من الصنف إلى من هو أقوى منه تدرّجا في تهويل ذلك اليوم. فابتدئ بالأخ لشدّة اتصاله بأخيه من زمن الصبا فينشأ بذلك إلف بينهما يستمرّ طول الحياة، ثمّ ارتقي من الأخ إلى الأبوين وهما أشدّ قربا لأبنيهما، وقُدِّمت الأم في الذكر لأنّ إلف ابنها بها أقوى منه بأبيه، وللرعي على الفاصلة، وانتُقل إلى الزوجة والبنين وهما مجتمع عائلة الإنسان وأشدّ الناس قربا به وملازمة. وإنما ذكرت الزوجة بوصف الصاحبة الدال على القرب والملازمة دون وصف الزوج لأنّ المرأة قد تكون غير حسنة العشرة لزوجها فلا يكون فراره منها كناية عن شدّة الهول.

والأقرب أنّ هذا فرار المؤمن من قرابته المشركين خشية أن يؤاخذ بتبعتهم إذ بقوا على الكفر.

{ **لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ** } مستأنفة استئنافا ابتدائيا لزيادة تهويل اليوم. وتقديم الخبر على المبتدأ ليتأتى تنكير { شَأْنٌ } الدال على التعظيم، لأنّ العرب لا يبتدئون بالنكرة في جملتها إلّا بمسوّغ من

المسوّغات، ومنها تقديم الخبر على المبتدأ.

الإغناء: جعل الغير غنيًّا، أي: غير محتاج لشيء في غرضه. وأصل الإغناء والغنى: حصول النافع المحتاج إليه، قال تعالى { وَمَا أُغْنِي عَنكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ } [يوسف:67]. وقال تعالى { مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ } [الحاقة:28]. وقد استُعمل هنا في معنى الإشغال، والإشغال أعم، إيماء إلى أنّ المؤمنين يشغلهم عن قرابتهم المشركين فرط النعيم ورفع الدرجات، كما دلّ عليه قوله عقبه { وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ }.

{ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ** } جواب (إذا)، أي: إذا جاءت الصّاخّة كان الناس صنفين صنف وجوههم مسفرة وصنف وجوههم مغبَّرة.

وقُدِّم هنا ذكر وجوه أهل النعيم على وجوه أهل الجحيم خلاف قوله في [النازعات:37] { فَأَمَّا مَنْ طَغَى } ثم قوله تعالى { وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ } [النازعات:40]، لأنّ هذه السورة أقيمت على عماد التنويه بشأن رجل من أفاضل المؤمنين والتحقير لشأن عظيم من صناديد المشركين فكان حظ الفريقين مقصودا مسوقا إليه الكلام وكان حظّ المؤمنين هو المُلتفت إليه ابتداء، وذلك في قوله تعالى { وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ...} [3]، ثم قوله تعالى { أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى } [6/5].

وأمّا سورة النازعات فقد بُنيت على تهديد المنكرين للبعث ابتداء من قوله تعالى { يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ، تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ، قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ } [النازعات:6-8] فكان السياق للتهديد والوعيد وتهويل ما يلقونه يوم الحشر، وأمّا ذكر حظ المؤمنين يومئذ فقد دعا إلى ذكره الاستطراد على عادة القرآن من تعقيب الترهيب بالترغيب.

{ **وُجُوهٌ / وَوُجُوهٌ** } التنكير للتنويع، وذلك مسوّغ وقوعهما مبتدأ.

{ **يَوْمَئِذٍ** } الإعادة لتأكيد الربط بين الشرط وجوابه ولطول الفصل بينهما، والتقدير: وجوه مسفرة يوم يفر المرء من أخيه.

المسفرة: ذات الإسفار: النور والضياء، يقال: أسفر الصبح، إذا ظهر ضوء الشمس في أفق الفجر، أي: وجوه متهلّلة فرحا وعليها أثر النعيم.

{ **ضَاحِكَةٌ** } كناية عن السرور.

{ **مُسْتَبْشِرَةٌ** } معناه فرحة، والسين والتاء فيه للمبالغة، ويقال: بشر، أي: فرِح وسُرَّ، قال تعالى { قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلاَمٌ } [يوسف:19]، أي: يا فرحتي.

وإسناد الضحك والاستبشار إلى الوجوه مجاز عقلي لأنّها محل ظهور الضحك والاستبشار، فهو من إسناد الفعل إلى مكانه، ولك أن تجعل الوجوه كناية عن الذوات، كقوله تعالى { وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ } [الرحمن:27].

الغَبَرة: (بفتحتين) الغبار كلّه، والمراد هنا أنّها معفَّرة بالغبار إهانة من أثر الكبوات.

{ **تَرْهَقُهَا** } تغلب عليها وتعلوها.

الْقَتَرة: (بفتحتين) شبه دخان يغشى الوجه من الكرب والغم، كذا قال الراغب، وهو غير الغبرة، كما تقتضيه الآية لئلا يكون من الإعادة.

وهذه وجوه أهل الكفر، يُعلم ذلك من سياق هذا التنويع، وقد صرّح بذلك بقوله تعالى:

{ **أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ** } زيادة في تشهير حالهم الفظيع للسامعين.

{ **أُولَئِكَ** } جيء باسم الإشارة لزيادة الإيضاح تشهيرا بالحالة التي سبَّبت لهم ذلك.

{ **هُمُ** } ضمير الفصل هنا الإفادة التقوى.

وأُتبِع وصف { الْكَفَرَةُ } بوصف { الْفَجَرَةُ } مع أنّ وصف الكفر أعظم من وصف الفجور لما في معنى الفجور من خساسة العمل، فذُكر وصفاهم الدالان عن مجموع فساد الاعتقاد وفساد العمل.

وغياب العاطف يفيد أنّهم جمعوا بين الكفر والفجور.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة التكوير

لم يثبت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّه سمَّاها تسمية صريحة.

وفي حديث الترمذي عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم **" من سرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنّه رأيُ عين فليقرأ إذا الشمس كوّرت، وإذا السماء انفطرت، وإذا السماء انشقت "**. وليس هذا صريحا في التسمية لأنّ صفة يوم القيامة ليست في جميع هذه السورة بل هي في الآيات الأول منها.

وعُنونت في صحيح البخاري وفي جامع الترمذي (**سورة إذا الشمس كوّرت**)، وكذلك عنونها الطبري.

وأكثر التفاسير يسمُّونها (**سورة التكوير**) وكذلك في المصاحف وهو اختصار لمدلول { كُوِّرَتْ }.

وتُسمَّى (**سورة كوّرت**) تسمية بحكاية لفظ وقع فيها.

ولم يعدّها في (الإتقان) مع السور التي لها أكثر من اسم.

وهي مكية بالاتفاق.

وهي معدودة **السابعة** في عداد نزول سور القرآن، نزلت بعد سورة الفاتحة وقبل سورة الأعلى.

وعدد آيها **تسع وعشرون.**

أغراض السورة

*/ تحقيق الجزاء صريحا.

*/ إثبات البعث وابتُدئ بوصف الأهوال التي تتقدّمه وأنتُقل إلى وصف أهوالٍ تقع عقبه.

*/ التنويه بشأن القرآن الذي كذّبوا به لأنّه أوعدهم بالبعث زيادة لتحقيق وقوع البعث إذ رَمَوا النبيّ صلى الله عليه وسلم بالجنون، والقرآن بأنّه يأتيه به شيطان.

{ **إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ [1] وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ [2] وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ [3] وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ [4] وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ [5] وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ [6] وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ [7] وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ [8] بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ [9] وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ [10] وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ [11] وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ [12] وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ [13] عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ [14]** }.

{ **إِذَا** } افتتاح مشوِّق، لأنّ { إِذَا } ظرف يستدعي متعلّقا، ولأنّه أيضا شرط يؤذن بذكر جواب بعده، فإذا سمعه السامع ترقَّب ما سيأتي بعده فيتمكّن من نفسه كمال تمكّن، وخاصة بالإطناب بتكريره.

فإعادة كلمة { إِذَا } بعد واو العطف في هذه الجمل المتعاطفة إطناب، وهذا الإطناب اقتضاه التهويل.

وفي الإعادة إشارة إلى أنّ مضمون كلّ جملة من هذه الجمل الثنتي عشرة مستقل بحصول مضمون جملة الجواب عند حصوله، بقطع النظر عن تفاوت زمان حصول الشروط. وجواب الشروط الاثني عشر هو قوله تعالى { عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ } وتتعلّق به الظروف المُشربة معنى الشرط.

وصيغة الماضي في الجمل الثنتي عشرة الواردة شروطا لـ { إذا } مستعملة في معنى الاستقبال تنبيها على تحقّق وقوع الشرط.

تكوير الشمس: فساد جرمها بحيث يختلّ تركيبها فيختلّ نظام سيرها. ومن قولهم: كوّر العمامة، إذا أدخل بعضها في بعض ولفّها، وقريب من هذا الإطلاق إطلاق الطيّ في قوله تعالى { يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ } [الأنبياء:104].

وفُسّر { كُوِّرَتْ } بمعنى غُوِّرت. رواه الطبري عن ابن جبير، وقال: هي كلمة معربة عن الفارسية وأن أصلها بالفارسية كُور بِكُرْ (بضم الكاف الأولى وسكون الراء الأخيرة).

{ **وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ** } وإذا زال ضوء الشمس انكدرت النجوم لأنّ معظمها يستنير من انعكاس نور الشمس عليها.

الانكدار: مطاوع كدَّره المضاعف على غير قياس، أي: حصل للنجوم انكدار من تكدير الشمس لها حين زال عنها انعكاس نورها.

الكُدرة: ضد الصفاء، كتغيّر لون الماء ونحوه.

وفُسِّر الانكدار بالتساقط والانقضاض. ومعنى تساقطها تساقط بعضها على بعض واصطدامها بسبب اختلال نظام الجاذبية الذي جعله الله لإمساكها إلى أمد معلوم.

{ **وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ** } انتقالها من أماكنها بارتجاج الأرض وزلزالها. وتقدّم في [النبأ:20].

العِشار: جمع عُشَراء وهي الناقة الحامل إذ بلغت عشرة أشهر لحملها فقاربت أن تضع حملها، لأنّ النوق تحمل عاما كاملا، والعِشار أنفس مكاسب العرب.

{ **عُطِّلَتْ** } تُركت لا يُنتفع بها. والكلام كناية عن ترك الناس أعمالهم لشدّة الهول.

وعلى هذا الوجه يكون ذلك من أشراط الساعة في الأرض فيناسب { وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ }.

ويجوز أن تكون العشار مستعارة للأسحبة المحمَّلة بالمطر، شُبِّهت بالناقة العُشَراء. وهذا غير بعيد من الاستعمال، فهم يطلقون مثل هذه الاستعارة للسحاب.

ومعنى تعطيل الأسحبة أن يَعْرض لها ما يحبس مطرها عن النزول، أو معناه أنّ الأسحبة الثقال لا تتجمّع ولا تحمل ماء، فيكون المعنى: تعطيل تكوُّنها، فيتوالى القحط على الأرض فيهلك الناس والأنعام.

وعلى هذا الوجه فذلك من أشراط الساعة العلوية فيناسب تكوير الشمس وانكدار النجوم.

{ **الْوُحُوشُ** } جمع وحش وهو الحيوان البري غير المتأنّس بالناس.

{ **حُشِرَتْ** } جمعها في مكان واحد، أي: مكان من الأرض عند اقتراب فناء العالم. فقد يكون سبب حشرها طوفانا يغمر الأرض من فيضان البحار فكلّما غمر جزءا من الأرض فرّت وحوشه حتّى تجتمع في مكان واحد طالبة النجاة من الهلاك، ويُشعر بهذا عطف { وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ } عليه.

وذكر هذا بالنسبة إلى الوحوش إيماء إلى شدّة الهول، فالوحوش التي من طبعها نُفرة بعضها عن بعض تتجمّع في مكان واحد لا يعدو شيء منها على الآخر من شدّة الرعب.

وليس هذا الحشر الذي يُحشر الناس به للحساب بل هذا حشر في الدنيا وهو المناسب لما عُدّ معه من الأشراط، وروي معناه عن أبي بن كعب.

{ **وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ** } فيضانها، قال تعالى { وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ } [الطور:6]. والمراد: تجاوز مياهها معدّل سطوحها واختلاط بعضها ببعض، قال تعالى { وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ } [الانفطار:3].

يقال: سجَّر مضاعفا وسَجَر مخفَّفا. قرأه الجمهور مشدّدا.

{ **وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ** } شروع في ذكر الأحوال الحاصلة في الآخرة يوم القيامة وقد أنتُقل إلى ذكرها لأنّها تحصل عقب الستة التي قبلها وابتدئ بأوّلها وهو تزويج النفوس.

التزويج: جعل الشيء زوجا لغيره بعد أن كان كلاهما فردا، والتزويج أيضا: جعل الأشياء أنواعا متماثلة قال تعالى { وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ } [الرعد:3]، لأنّ الزوج يطلق على النوع والصنف من الأشياء.

النفوس: جمع نفس، والنفس يُطلق على الروح، قال تعالى { يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ } [الفجر:27-28]، وقال تعالى { أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمْ } [الأنعام:93].

وتطلق النفس على ذات الإنسان، قال تعالى { وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ } [الأنعام:151]، وقال تعالى { فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ } [النور:61] أي: فليسلِّم الداخل على أمثاله من الناس.

فيجوز أن يكون معنى النفوس هنا الأرواح: أي: تزوّج الأرواح بالأجساد المخصّصة لها فيصير الروح زوجا مع الجسد بعد أن كان فردا لا جسم له في برزخ الأرواح، وكانت الأجساد بدون أرواح حين يعاد

خلقها. وهذا هو البعث وهو المعنى المتبادر أوّلا، وروي عن عكرمة.

ويجوز أن يكون المعنى: وإذا الأشخاص نوّعت وصنّفت فجُعلت أصنافا: المؤمنون والصالحون، والكفّار والفجّار، قال تعالى { وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاَثَةً، فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ، وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ، وَالسَّابِقُونَ } [الواقعة:7-10].

ولعلّ قصد إفادة هذا التركيب لهذين المعنيين هو مقتضى العدول عن ذكر ما زُوّجت النفوس به.

وأوّل منازل البعث اقتران الأرواح بأجسادها، ثم تقسيم الناس إلى مراتبهم للحشر، كما قال تعالى { ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ } [الزمر:68]، ثم قال تعالى { وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا } [الزمر:71]، ثم قال تعالى { وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا } [الزمر:73].

{ وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ } بمناسبة ذكر تزويج النفوس بالأجساد خُصَّ سؤال الموؤودة بالذكر دون غيره ممّا يُسأل عنه المجرمون يوم الحساب. ذلك لأنّ إعادة الأرواح إلى الأجساد كان بعد مفارقتها بالموت، والموت إمّا بعارض جسدي، من انحلال أو مرض، وإمّا باعتداء عدواني من قتل أو قتال، وكان من أفظع الاعتداء على إزهاق الأرواح من أجسادها اعتداء الآباء على نفوس أطفالهم بالوأد، فإنّ الله جعل في الفطرة حرص الآباء على استحياء أبنائهم، وجعل الأبوين سبب إيجاد الأبناء، فالوأد أفظع أعمال أهل الشرك.

وسؤال الموؤودة سؤال تعريضي مراد منه تهديد وائدها ورعبه بالعذاب.

الوأد: دفن الطفلة وهي حية: قيل هو مقلوب آداه، إذا أثقله، لأنّه إثقال الدفينة بالتراب.

قال في الكشّاف: " كان الرجل إذا وُلدت له بنت فأراد أن يستحييها البسها جبة من صوف أو شعر ترعى له الإبل والغنم في البادية، وإن أراد قتلها تركها حتّى إذا كانت سداسية يقول لأمّها طيّبيها وزيّنيها حتى أذهب بها إلى أحمائها، وقد حفر لها بئرا في الصحراء فيبلغ بها البئر فيقول لها: انظري فيها ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتّى تستوي البئر بالأرض. وقيل: كانت الحامل إذا أقربت حفرت حفرة فتمخّضت على رأس الحفرة فإذا ولدت بنتا رمت بها في الحفرة، وإن ولدت ابنا حبسته ".

وكانوا يفعلون ذلك خشية من إغارة العدو عليهم فيسبي نساءهم ولخشية الإملاق في سني الجدب لأنّ الذكر يحتال للكسب بالغارة وغيرها والأنثى عالة، قال تعالى { وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ } [الإسراء:31] وقال تعالى { وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ، يَتَوَارَى مِنْ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ } [النحل:58-59].

وإذ قد فشا فيهم كراهية ولادة الأنثى فقد نما في نفوسهم بغضها فتحرّكت فيها الخواطر الإجرامية فالرجل يكره أن تولد له أنثى لذلك، وامرأته تكره أن تولد لها أنثى خشية من فراق زوجها إيّاها.

وقد توارثت هذا الجهل أكثر الأمم على تفاوت بينهم فيه.

ومن آثار هذا الشعور حرمان البنات من أموال آبائهن بأنواع من الحيل مثل وقف أموالهم على الذكور

دون الإناث، وقد قال مالك: إنّ ذلك من سنة الجاهلية، ورأى ذلك الحبس باطلا، وكان كثير من أقرباء الميّت يلجئون بناته إلى إسقاط حقّهنّ في ميراث أبيهنّ لإخوتهنّ في فور الأسف على موت أبيهن فلا يمتنعن من ذلك ويرين الامتناع من ذلك عارا عليهن فإن لم يفعلن قطعهن أقرباؤهن.

وتعرف هذه المسألة في الفقه بهبة بنات القبائل. وبعضهم يعدّها من الإكراه.

ولم يكن الوأد معمولا به عند جميع القبائل، قيل: أوّل من وأد البنات من القبائل ربيعة، وكانت كِندة تئد البنات، وكان بنو تميم يفعلون ذلك. ولم يكن الوأد في قريش البتة.

وكان صعصعة بن ناجية جد الفرزدق من بني تميم يفتدي من يعلم أنّه يريد وأد بنته من قومه بناقتين عُشَراوين.

{ **بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ** } في توجيه السؤال إلى الموؤودة في ذلك الحشر إدخال الروع على من وأدها، وجعل سؤالها عن تعيين ذنب أوجب قتلها للتعريض بالتوبيخ والتخطئة للذي وأدها وليكون جوابها شهادة على من وأدها فيكون استحقاقه العقاب أشدّ وأظهر.

(**أي**) اسم استفهام يُطلب به تميز شيء من بين أشياء تشترك معه في حال. والاستفهام تقريري، وإنّما سئلت عن تعيين الذنب الموجب قتلها دون أن تُسأل عن قاتلها لزيادة التهديد لأنّ السؤال عن تعيين الذنب مع تحقّق الوائد الذي يسمع ذلك السؤال أن لا ذنب لها إشعار للوائد بأنّه غير معذور فيما صنع بها.

{ **وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ** } نشر الصحف حقيقته فتح طيّات الصحيفة، أو إطلاق التفافها لتُقرأ كتابتها. وتقدّم في قوله تعالى { أَنْ يُؤْتَى صُحُفاً مُنَشَّرَةً } [المدثر:52]، وعند قوله تعالى { كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُورًا } [الإسراء:13].

المراد: صحف الأعمال، وهي إمّا صحف حقيقية مخالفة للصحف المألوفة، وإمّا مجازية أطلقت على أشياء فيها إحصاء أعمال الناس، وقد تقدّم غير مرة.

الكشط: إزالة الإهاب عن الحيوان الميّت، وهو أعم من السلخ لأنّ السلخ لا يقال إلّا في إزالة إهاب البقر والغنم دون إزالة إهاب الإبل فإنّه كشط ولا يقال سلخ.

الظاهر أنّ المراد إزالة تقع في يوم القيامة لأنّها ذُكرت في أثناء أحداث يوم القيامة بعد قوله تعالى { وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ، وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ } وقوله تعالى { وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ }.

فالظاهر أنّ السماء تبقى منشقّة منفطرة تعرج الملائكة بينها وبين أرض المحشر حتّى يتمّ الحساب فإذا قُضي الحساب أزيلت السماء من مكانها، فالسماء مكشوطة والمكشوط عنه هو عالم الخلود، ويكون { كُشِطَتْ } استعارة للإزالة.

ويجوز أن يكون هذا من الأحداث التي جُعلت أشراطا للساعة وأخِّر ذكره لمناسبة ذكر نشر الصحف لأنّ الصحف تنشرها الملائكة، وهم من أهل السماء، فيكون هذا الكشط من قبيل الانشقاق في قوله تعالى { إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ } [الإنشقاق:1]، والانفطار في قوله تعالى { إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ - إلى قوله - عَلِمَتْ نَفْسٌ

مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ} [الإنفطار:1-5]، ومن قبيل الطي في قوله تعالى { يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ } [الأنبياء:104] لأنّ ظاهره اتصال طي السماء بإعادة الخلق.

وتصير الأشراط التي تحصل قبل البعث سبعة والأحداث التي تقع بعد البعث خمسة.

الجحيم: أصله النار ذات الطبقات من الوقود من حطب ونحوه بعضها فوق بعض، وصار عَلَما بالغلبة على جهنّم دار العذاب في الآخرة في اصطلاح القرآن.

تسعيرها أو إسعارها: إيقادها، أي: هُيِّئت لعذاب مَن حق عليهم العذاب.

{ **وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ** } قوبلت الجحيم بالجنة دار النعيم، واسم الجنة عَلَم بالغلبة على دار النعيم.

{ **أُزْلِفَتْ** } قُرِّبت، والزلفى: القرب، أي: جُعلت الجنّة بالقرب من محشرهم بحيث لا تعب عليهم في الوصول إليها وذلك كرامة لهم.

وأعلم أن تقديم المسند إليه في الجمل الثِّنتي عشرة المفتتحات بكلمة { إذا }، والإخبار عنه بالمسند الفعلي مع إمكان أن يقال: إذا كورت الشمس وإذا انكدرت النجوم، كما في قوله تعالى { فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ } [الرحمن:37]، أنّ ذلك التقديم لإفادة الاهتمام بتلك الأخبار المجعولة علامات ليوم البعث توسلا بالاهتمام بأشراطه إلى الاهتمام به وتحقيق وقوعه.

وأنّ إطالة ذكر تلك الجمل تشويق للجواب الواقع بعدها بقوله تعالى:

{ **عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ** } يتنازع التعلق به كلمات { إِذَا } المتكرّرة.

وعن عمر بن الخطاب أنّه قرأ أوّل هذه السورة فلمّا بلغ { عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ } قال: لهذا أجريت القصة. أي: هو جواب القسم.

{ **عَلِمَتْ** } أي: أنّها تُعلم بما أحضرت فتعلمه.

{ **نَفْسٌ** } نكرة في سياق الشرط مراد بها العموم، أي: علمت كل نفس ما أحضرت ، نظيره قوله تعالى { يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ } [آل عمران:30].

الإحضار: جعل الشيء حاضرا. وما أحضرته هو ما أسلفته من الأعمال. ولمّا كانت الأعمال تظهر آثارها من ثواب وعقاب يومئذ عُبِّر عن ظهور آثارها بالإحضار لشبه به، كما يُحضر الزاد للمسافر، ففي فعل { أَحْضَرَتْ } استعارة.

ويطلق على ذلك الإعداد، كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم للذي سأله متى الساعة: **" ماذا أعددت لها "**.

وأُسند الإحضار إلى النفوس لأنّها الفاعلة للأعمال التي يظهر جزاؤها يومئذ، فهذا الإسناد من إسناد فعل الشيء إلى سبب فعله، فحصل هنا مجازان: مجاز لغوي، ومجاز عقلي.

<u>المعنى</u>: حصول اليقين بما لم يكن لها من علم من حقائق الأعمال التي كان علمها بها أشتاتا: بعضه معلوم على غير وجهه، وبعضه معلوم صورته مجهولة عواقبه، وبعضه مغفول عنه. فنزل العلم الذي كان حاصلا للناس في الحياة الدنيا منزلة عدم العلم.

{ **فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ [15] الْجَوَارِ الْكُنَّسِ [16] وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ [17] وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ [18] إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ [19] ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ [20] مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ [21]** }.

الفاء لتفريع القسم وجوابه على الكلام السابق للإشارة إلى أنّ ما تقدّم من الكلام هو بمنزلة التمهيد لما بعد الفاء، فإنّ الكلام السابق أفاد تحقيق وقوع البعث والجزاء، وهم قد أنكروه وكذّبوا القرآن الذي أنذرهم به، فلما قُضي حق الإنذار به وذكْر أشراطه فُرّع عنه تصديق القرآن الذي أنذرهم به وأنّه موحى به من الله.

{ **فَلَا أُقْسِمُ** } إيقاع القسم، وقد عُدَّت (لا) زائدة، وتقدّم عند قوله تعالى { فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ } [الواقعة:75].

والقسم لتأكيد الخبر وتحقيقه، وأدمج فيه أوصاف الأشياء المُقسم بها للدلالة على تمام قدرة الله تعالى.

الْخُنَّسِ: جمع خانسة، وهي التي تخنس، أي: تختفي، يقال: خنست البقرة والظبية، إذا اختفت في الكِناس.

الجواري: جمع جارية، وهي التي تجري، أي: تسير سيرا حثيثا.

{ **الْكُنَّسِ** } جمع كانسة، يقال: كَنَسَ الظبي، إذا دخل كِناسه (بكسر الكاف) وهو البيت الذي يتّخذه للمبيت.

وهذه الصفات أريد بها صفات مجازية لأنّ الجمهور على أنّ المراد بموصوفاتها الكواكب، وُصِفْنَ بذلك لأنّها تكون في النهار مختفية عن الأنظار، فشُبّهت بالوحشية المختفية في شجر ونحوه، وكذلك الكواكب، لأنّها لا تُرى في النهار لغلبة شعاع الشمس على أفقها وهي مع ذلك موجودة في مطالعها.

وشُبّه طلوع الكوكب بخروج الوحشية من كناسها، وشُبّه تنقّل مرآها للناظر بجري الوحشية عند خروجها من كناسها صباحا، وشُبّه غروبها بعد سيرها بكنوس الوحشية في كناسها، وهو تشبيه بديع.

فكان قوله تعالى { بِالْخُنَّسِ } استعارة وكان { الْجَوَارِ الْكُنَّسِ } ترشيحين للاستعارة.

وقد حصل من مجموع الأوصاف الثلاثة ما يشبه اللغز يُحسب به أنّ الموصوفات ظباء أو وحوش لأنّ تلك الصفات حقائقها من أحوال الوحوش. والألغاز طريقة مستملحة عند بلغاء العرب وهي عزيزة في كلامهم.

{ **وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ** } عطف على القَسَم بـالكواكب لمناسبة جريان الكواكب في الليل، ولأنّ تعاقب الليل والنهار من أجلّ مظاهر الحكمة الإلهية في هذا العالم.

{ **عَسْعَسَ** } عسعس الليل عَسْعاسًا وعسعسة، قال مجاهد عن ابن عباس: أقبل بظلامه، وقال مجاهد أيضا عن ابن عباس: أدبر ظلامه. قال المبرّد والخليل هو من الأضداد يقال: عسعس، إذ أقبل ظلامه، وعسعس، إذا أدبر ظلامه. وبذلك يكون إيثار هذا الفعل لإفادته كلا حالين صالحين للقَسَم بهما.

{ **وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ** } أي: انشقاق ضوئه لمناسبة ذكر الليل، ولأنّ تنفّس الصبح من مظاهر بديع النظام الذي جعله الله في هذا العالم.

التنفّس: حقيقته خروج النَفَسِ من الحيوان، أستعير لظهور الضياء مع بقايا الظلام، أو لأنّه إذا بدا الصباح أقبل معه نسيم فجُعل ذلك كالتنفّس له على طريقة المكنية بتشبيه الصبح بذي نفس.

{ **إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ** } ضمير { إِنَّهُ } عائد إلى القرآن ولم يسبق له ذكر ولكنّه معلوم من المقام في سياق الإخبار بوقوع البعث فإنّه ممّا أخبرهم به القرآن وكذّبوا به لأجل ذلك.

الرسول الكريم: يجوز أن يراد به جبريل عليه السلام، وصف جبريل برسول لأنّه مرسل من الله إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم بالقرآن. وإضافة (قول) إلى { رَسُولٍ } لأدنى ملابسة، بأنّ جبريل يُبلّغ ألفاظ القرآن إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فيحكيها كما أمره الله تعالى، فهو قائلها، أي: صادرة منه ألفاظه.

وفي التعبير عن جبريل بوصف { رَسُولٍ } إيماء إلى أنّ القول الذي يبلّغه هو رسالة من الله مأمور بإبلاغها كما هي.

قال ابن عطية: " وقال آخرون الرسول هو محمد صلى الله عليه وسلم في الآية كلّها "، ولم يُعيّن اسم أحد ممّن قالوا هذا.

ووُصِف { رَسُولٍ } بخمسة أوصاف:

الوصف الأوّل: { **كَرِيمٍ** } وهو النفيس في نوعه.

الوصفان الثاني والثالث: { **ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ** }.

القوّة: حقيقتها مقدرة الذات على الأعمال العظيمة التي لا يُقدر عليها غالبا. ومن أوصافه تعالى (القوي). وضدّها الضعف، قال تعالى { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً } [الروم:54].

وتطلق القوّة مجازا على ثبات النفس على مرادها والإقدام ورباطة الجأش. قال تعالى { يَا يَحْيَى خُذْ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ } [مريم:12]، وقال تعالى { خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ } [البقرة:63].

وصف جبريل بذلك يجوز أن يكون شدّة المقدرة، كما وُصِف بذلك في قوله تعالى { ذُو مِرَّةٍ } [النجم:6]، ويجوز أن يكون من القوّة المجازية، وهي الثبات في أداء ما أرسل به، كقوله تعالى { عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى } [النجم:5]، لأنّ المناسب للتعليم هو قوّة النفس.

وأمّا إذا كان المراد محمد صلى الله عليه وسلم فوصفه بـ { ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ } يراد بها المعنى المجازي وهو الكرامة والاستجابة له.

المكين: فعيل، صفة مشبّهة من مكُن (بضم الكاف) مكانة إذا علت رتبته عند غيره، قال تعالى في قصة يوسف مع الملك { فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ } [يوسف:54].

{ **عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ** } توسيطه بين { ذِي قُوَّةٍ } و{ مَكِينٍ } ليتنازعه كلا الوصفين على وجه الإيجاز، أي: هو ذو قوّة عند الله، أي: جعل الله مقدرة جبريل تخوّله أن يقوم بعظيم ما يوكله الله به، وهو ذو مكانة عند الله وزُلفى.

{ **عِنْدَ** } عندية تعظيم وعناية، فهي للمكان المجازي الذي هو بمعنى الاختصاص والزُلفى.

{ **ذِي الْعَرْشِ** } عُدل على اسم الجلالة لتمثيل حال جبريل ومكانته عند الله بحالة الأمير الماضي في تنفيذ

أمر الملك وهو بمحل الكرامة لديه.

وأمّا بالنسبة إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فللإشارة إلى عظيم شأنه إذ كان ذا قوة عند أعظم موجود شأنا.

الوصف الرابع: { **مُطَاعٍ** } أن يطيعه من معه من الملائكة كما يطيع الجيش قائدهم.

أو النبيّ صلى الله عليه وسلم مطاع: أي: وجوب طاعة ما يأمر به.

{ **ثَمَّ** } اسم إشارة إلى المكان، والمشار إليه هو المكان المجازي الذي دلّ عليه قوله { عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ }.

الوصف الخامس: { **أَمِينٌ** } الذي يحفظ ما عُهد له به حتّى يؤدّيه دون نقص ولا تغيير.

{ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ } [22].

عطف على جملة { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ } [19] فهو داخل في خبر القسم جوابا ثانيا عن القسم.

فبعد أن أثنى الله على القرآن بأنّه قول رسول مرسل من الله، وكان قد تضمّن ذلك ثناء على النبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّه صادق فيما بلّغه عن الله تعالى، أعقبه بإبطال بهتان المشركين فيما اختلقوه على النبيّ صلى الله عليه وسلم من قولهم { مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ } [الدخان:14]، وقولهم { أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ } [سبأ:8]، فأبطل قولهم إبطالا مؤكّدا ومؤيّدا، فتأكيده بالقسم وبزيادة الباء بعد النفي، وتأييده بما أومأ إليه وصفة بأنّ الذي بلّغه صاحبهم، فإنّ وصف صاحب كناية عن كونهم يعلمون خلقه وعقله ويعلمون أنّه ليس بمجنون، إذ شأن الصاحب أن لا تخفى دقائق أحواله على أصحابه.

المعنى: نفي أن يكون القرآن من وساوس المجانين، فسلامة مبلّغه من الجنون تقتضي سلامة قوله عن أن يكون وسوسة.

ويجري على ما تقدّم من القول بأنّ المراد بـ { رَسُولٍ كَرِيمٍ } [19] النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم أن يكون قوله تعالى { صَاحِبُكُمْ } هنا إظهارا في مقام الإضمار للتعريض بأنّه معروف عندهم بصحة العقل وأصالة الرأي.

الصاحب: حقيقته ذو الصحبة، وهي الملازمة في أحوال التجمّع والانفراد للمؤانسة والموافقة، ومنه قيل للزوج: صاحبة، وللمسافر مع غيره صاحب. قال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام { يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ } [يوسف:39]. وقد يتوسَّعون في إطلاقه على المخالط في أحوال كثيرة ولو في الشرّ.

المعنى: أن الذي تخاصمونه وتكذِّبونه وتصفونه بالجنون ليس بمجنون وأنّكم مخالطوه وملازموه وتعلمون حقيقته، فما قولكم ذلك إلّا لقصد البهتان وإساءة السمعة.

{ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ } [23].

عطف على جملة السابقة، والمناسبة بين الجملتين أنّ المشركين كانوا إذا بلغهم أنّ الرسول صلى الله

عليه وسلم يخبر أنّه نزل عليه جبريل بالوحي من وقت غار حِراء فما بعده استهزأوا وقالوا: إنّ ذلك الذي يتراءى له هو جنّيّ، فكذَّبهم الله بنفي الجنون عنه ثم بتحقيق أنّه إنّما رأى جبريل القوي الأمين.
{ **رَآهُ** } ضمير الرفع عائد إلى صاحب من قوله تعالى { وَمَا صَاحِبُكُمْ } وضمير النصب عائد إلى { رَسُولٍ كَرِيمٍ } [19]، وسياق الكلام يُبيّن معاد الرائي والمرئي.
الأفق: الفضاء الذي يبدو للعين من الكرة الهوائية بين طرفي مطلع الشمس ومغربها من حيث يلوح ضوء الفجر ويبدو شفق الغروب، وهو يلوح كأنه قبة زرقاء. والمعنى: رآه ما بين السماء والأرض.
{ **الْمُبِينِ** } وصف الأفق، أي: للأفق الواضح البيّن.
والمقصود من هذا الوصف نعت الأفق الذي تراءى منه جبريل للنبيّ عليهما الصلاة والسلام بأنّه أفق واضح بيّن لا تشتبه فيه المرئيّات، وجُعلت تلك الصفة علامة على أنّ المرئي ملك وليس بخيال.
وقد وصف النبيّ عليه الصلاة والسلام الملك الذي رآه عند نزول سورة المدثر بأنّه على كرسي جالس بين السماء والأرض.

{ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ } [24].

الضمير عائد إلى { صَاحِبُكُمْ } [22] كما يقتضيه السياق، فإنّ المشركين لم يدَّعوا أنّ جبريل ضنين على الغيب، وإنّما ادّعوا ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم ظلما وزورا، ولقرب المعاد.
{ **الْغَيْبِ** } ما غاب عن عيان الناس، أو عن علمهم وهو تسمية بالمصدر. والمراد ما أستأثر الله بعلمه إلّا أن يطلع عليه بعض أنبيائه، ومنه وحي الشرائع، والعلم بصفات الله تعالى وشؤونه، ومشاهدة ملك الوحي، وتقدّم في قوله تعالى { الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ } [البقرة:3].
{ **بِضَنِينٍ** } كُتبت في مصاحف الأمصار بضاد ساقطة كما اتفق عليه القراء. قال الطبري: هو ما عليه مصاحف المسلمين متفقة وإن اختلفت قراءتهم به.
وقد اختلف القرّاء في قراءته فقرأه نافع وابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر وخلف وروح عن يعقوب بالضاد، وهي القراءة الموافقة لرسم المصحف الإمام. وقرأه الباقون بالظاء المشالة.
والضاد والظاء حرفان مختلفان والكلمات المؤلفة من أحدهما مختلفة المعاني غالبا.
ولا شك أنّ الذين قرأوه بالظاء المشالة من أهل القراءات المتواترة قد رووه متواترا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، ولذلك فلا يقدح في قراءتهم كونها مخالفة لجميع نسخ مصاحف الأمصار لأنّ تواتر القراءة أقوى من تواتر الخط، إن اعتبر للخط تواتر.
وقد اعتذر أبو عبيدة عن اتفاق مصاحف الإمام على كتابتها بالضاد مع وجود الاختلاف فيها بين الضاد والظاء في القراءات المتواترة، بأن قال: " ليس هذا بخلاف الكتاب لأنّ الضاد والظاء لا يختلف خطهما في المصاحف إلّا بزيادة رأس إحداهما على رأس الأخرى فهذا قد يتشابه ويتدانى ".

فأمّا معنى ضنين: فهو البخيل الذي لا يعطي ما عنده، مشتق من الضَّن، مصدر ضَنَّ، إذا بخل، ومضارعه بالفتح والكسر.

فيجوز أن يكون على معناه الحقيقي، أي: وما صاحبكم ببخيل، أي: بما يوحى إليه وما يخبر به عن الأمور الغيبية، طلبا للانتفاع بحيث لا ينبئكم عنه إلّا بعوض تعطونه، وذلك كناية عن نفي أن يكون كاهنا أو عرافا يتلقى الأخبار عن الجن، قال تعالى { وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ، وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} [الحاقة:41-42]، فأقام لهم الفرق بين حال الكُهّان وحال النبيّ صلى الله عليه وسلم بالإشارة إلى أنّ النبيّ لا يسألهم عوضا عمّا يخبرهم به، من قبيل قوله تعالى { قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ } [الفرقان:57]، وقوله تعالى { قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا } [الأنعام:90] ونحو ذلك.

ويجوز أن يكون "ضنين" مجازا مرسلا في الكتمان بعلاقة اللزوم، لآنّ الكتمان بخل بالأمر المعلوم للكاتم، أي: ما هو بكاتم ما يوحى إليه، وذلك أنّهم كانوا يقولون { وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ } [الإسراء:93]، وقالوا { ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ } [يونس:15].

وأمّا معنى ظنين: فهو فعيل بمعنى مفعول مشتق من الظنّ بمعنى التهمة، أي: مظنون. ويراد إنّه مظنون به سوء، أي: أن يكون كاذبا فيما يُخبر به عن الغيب، وكثر حذف مفعول ظنين بهذا المعنى في الكلام حتّى صار الظن يطلق بمعنى التهمة فعدِّي إلى مفعول واحد. وأصل ذلك أنّهم يقولون: ظنّ به سوءا.

{ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ } [25].

عطف على { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ } [19]، وهذا رجوع إلى ما أقسم عليه من أنّ القرآن قول رسول كريم، بعد أن استطرد بينهما بتلك المستطردات الدالة على زيادة كمال هذا القول، بقدسيّة مصدره ومكانة حامله عند الله وصدق متلقّيه منه عن رؤيا محقَّة لا تخيّل فيها، فكان التخلّص إلى العود لتنزيه القرآن بمناسبة ذكر الغيب في قوله تعالى { وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ } [24].

فإنّ القرآن من أمر الغيب الذي أوحي به إلى محمد صلى الله عليه وسلم، وفيه كثير من الأخبار عن أمور الغيب؛ الجنة والنار ونحو ذلك.

وهذا إبطال لقول المشركين فيه: إنّه قول كاهن، فإنّهم كانوا يزعمون أنّ الكُهّان تأتيهم الشياطين بأخبار الغيب. وفي حديث فترة الوحي ونزول سورة الضحى: أنّ حمَّالة الحطب امرأة أبي لهب، وهي أم جميل بنت حرب، قالت للنبيّ صلى الله عليه وسلم: أرى شيطانك قد قلاك.

{ رَجِيمٍ } فعيل بمعنى مفعول، أي: مرجوم. والمرجوم: المُبعد الذي يتباعد الناس من شرّه فإذا أقبل عليهم رجموه، فهو وصف كاشف للشيطان لأنّه لا يكون إلّا متبرَّأ منه.

{ **فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ** } [26].

معترضة بين جملة { وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ } [25] وقوله تعالى { إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ } [27]. والفاء لتفريع التوبيخ والتعجيز على الحجج المتقدِّمة المثبِتة أنّ القرآن لا يجوز أن يكون كلام كاهن وأنه وحي من الله بواسطة الملك.

(**أين**) اسم استفهام عن المكان، وهو استفهام إنكاري عن مكان ذهابهم، أي: طريق ضلالهم، تمثيلا لحالهم في سلوك طرق الباطل بحال من ظل الطريق الجادة فيسأله السائل منكرا عليه سلوكه.

ويجوز أن يكون الاستفهام مستعملا في التعجيز عن طلب طريق يسلكونه إلى مقصدهم من الطعن في القرآن.

المعنى: أنّه قد سُدَّت عليكم طرق بهتانكم إذ اتضح بالحجّة الدامغة بطلان ادعاءكم أنّ القرآن كلام مجنون أو كلام كاهن، فماذا تدَّعون بعد ذلك.

وقد أرسلت الجملة مثلا، ولعلّه من مبتكرات القرآن، وكنت رأيت في كلام بعضهم: أين يذهب بك، لمن كان في خطأ وعماية.

{ **إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ** [27] **لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ** [28] }.

بعد أن أفاقهم من ضلالتهم أرشدهم إلى حقيقة القرآن بقوله تعالى { إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ }، وهذه الجملة تتنزل منزلة المؤكِّدة لجملة { وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ } [25] ولذلك جُرِّدت على العاطف.

{ **إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ** } القصر المستفاد من النفي والاستثناء يفيد قصر القرآن على صفة الذكر، أي: لا غير ذلك، وهو قصر إضافي قُصد منه إبطال أن يكون قول شاعر، أو قول كاهن، أو قول مجنون، فمن جملة ما أفاده القصر نفي أن يكون قول شيطان رجيم.

الذكر: اسم يجمع معاني الدعاء والوعظ بحسن الأعمال والزجر عن الباطل وعن الضلال، أي: ما القرآن إلّا تذكير لجميع الناس ينتفعون به في صلاح اعتقادهم، وطاعة الله ربّهم، وتهذيب أخلاقهم، وآداب بعضهم مع بعض، والمحافظة على حقوقهم، ودوام انتظام جماعتهم، وكيف يعاملون غيرهم من الأمم.

فإن قلتَ: القرآن يشتمل على أحاديث الأنبياء والأمم وهو أيضا معجزة لمحمد صلى الله عليه وسلم فكيف قُصر على كونه ذكرا.

قلتُ: القصر الإضافي لا يُقصد منه إلّا تخصيص الصفة بالموصوف بالنسبة إلى صفة أخرى خاصة. ولك أن تجعل القصر حقيقيا مفيدا قصر القرآن على الذكر دون غير ذلك من الصفات، فإنّ ما اشتمل عليه من القصص والأخبار مقصود به الموعظة والعبرة كما بيَّنتُ ذلك في المقدمة السابعة.

وأمّا إعجازه فله مدخل عظيم في التذكير لأنّ إعجازه دليل على أنّه ليس بكلام من صنع البشر، وإذا عُلم ذلك وقع اليقين بأنّه حق.

{ **لِلْعَالَمِينَ** } يعمّ كلّ البشر لأنّهم مدعوون للاهتداء به ومستفيدون ممّا جاء فيه.

{ **لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ** } بدل من { لِلْعَالَمِينَ } بدل بعض من كل، وأعيد مع البدل حرف الجر العامل مثله في المبدل منه لتأكيد العامل، كقوله تعالى { وَمِنْ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ } [الأنعام:99]. وفائدة هذا الإبدال التنبيه على أنّ الذين تذكّروا بالقرآن وهم المسلمون قد شاؤوا الاستقامة لأنفسهم فنصحوا أنفسهم، وهو ثناء عليهم.

الاستقامة: مستعارة لصلاح العمل الباطني وهو الاعتقاد، والظاهري وهو الأفعال والأقوال، تشبيها للعمل بخط مستقيم تشبيه معقول بمحسوس.

ثم إن الذين لم يشاؤوا أن يستقيموا هم الكافرون بالقرآن وهم المسوق لهم الكلام، ويلحق بهم على مقادير متفاوتة كلّ من فرّط بالاهتداء بشيء من القرآن من المسلمين.

وفي هذه الآية إشارة بيّنة على أنّ من الخطأ أن يوزن حال الدين الإسلامي بميزان أحوال بعض المسلمين أو معظمهم، كما يفعله بعض أهل الأنظار القاصرة من الغربيين وغيرهم إذ يجعلون وجهة نظرهم التأمّل في حالة الأمم الإسلامية ويستخلصون من استقرائها أحكاما كلية في كنه الديانة الإسلامية.

وهذه الآية صريحة في إثبات المشيئة للإنسان العاقل فيما يأتي ويدع، وأنّه لا عذر له إذا قال: هذا أمر قُدِّر، وهذا مكتوب عند الله، فإنّ تلك كلمات يضعونها في غير محالها، وبذلك يبطل قول الجبرية، ويثبت للعبد كسب أو قدرة على اختلاف التعبير بين الأشاعرة والمعتزلة.

{ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } [29].

يجوز أن تكون تذييلا أو اعتراضا في آخر الكلام. ويجوز أن تكون حالا. والمقصود التكميل والاحتراس في معنى لمن شاء منكم أن يستقسم، وتقدّم قوله تعالى { إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ، فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا، وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا } [الإنسان:29-30].

والفرق بينهما أنّ في هذه الآية وُصف الله تعالى بـ { رَبُّ الْعَالَمِينَ } وهو مفيد التعليل لارتباط مشيئة من شاء الاستقامة من العالمين لمشيئة الله، ذلك لأنّه رب العالمين فهو الخالق فيهم دواعي المشيئة وأسباب حصولها المتسلسلة وهو الذي أرشدهم للاستقامة على الحق، وبهذا الوصف ظهر مزيد الاتصال بين مشيئة الناس الاستقامة بالقرآن وبين كون القرآن ذكرا للعالمين.

وأما آية سورة الإنسان فقد ذيلت بقوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا } [الإنسان:30]، أي: فهو بعلمه وحكمته ينوط مشيئته لهم الاستقامة بمواضع صلاحيتهم لها، فيفيد أن من لم يشأ أن يتخذ إلى ربه سبيلا قد حرمه الله تعالى من مشيئته الخير بعلمه وحكمته، كناية عن شقائهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الانفطار

سُمِّيت هذه السورة (**سورة الانفطار**) في المصاحف ومعظم التفاسير.

وسُمِّيت في بعض التفاسير (**سورة إذا السماء انفطرت**) وبهذا الاسم عنونها البخاري في كتاب التفسير.

ولم يعدّها صاحب الإتقان مع السور ذات أكثر من اسم، وهو الانفطار.

ووجه التسمية وقوع جملة { إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ } [1] في أوّلها فعُرفت بها.

وهي مكية بالاتفاق.

وهي معدودة **الثانية والثمانين** في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة النازعات وقبل سورة الانشقاق.

وعدد آيها **تسع عشرة آية**.

أغراض السورة

*/ إثبات البعث، وذكر أهوالٍ تتقدّمه.

*/ إيقاظ المشركين للنظر في الأمور التي صرفتهم عن الاعتراف بتوحيد الله تعالى وعن النظر في دلائل وقوع البعث والجزاء.

*/ الإعلام بأنّ الأعمال محصاة. وبيان جزاء الأعمال خيرها وشرّها.

*/ إنذار الناس بأن لا يحسبوا شيئا ينجيهم من جزاء الله إيّاهم على سيّء أعمالهم.

{ **إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ** [1] **وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ** [2] **وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ** [3] **وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ** [4] **عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ** [5] }.

{ **إِذَا** } افتتاح مشوّق لما يرد بعدها من متعلّقها الذي هو جواب ما في (إذا) من معنى الشرط، كما تقدّم في أوّل سورة التكوير، سوى أنّ الجمل المتعاطفة المضاف إليها هي هنا أقل من اللاتي في سورة التكوير لأنّ المقام لم يقتض تطويل الإطناب كما اقتضاه المقام في سورة التكوير، وإن كان في كلتيهما مقتض الإطناب، لكنّه متفاوت لأنّ سورة التكوير من أوّل السور نزولا كما علمت آنفا.

وأمّا سورة الانفطار فبينها وبين سورة التكوير أربع وسبعون سورة تكرّر في بعضها إثبات البعث والجزاء والإنذار وتقرّر عند المخاطبين فأغنى تطويل الإطناب والتهويل.

{ **انفَطَرَتْ** } مطاوع فطر، إذا جعل الشيء مفطورا، أي: مشقوقا ذا فطور، وتقدّم في [الملك:3].

وهذا الانفطار: انفراج يقع فيما يُسمَّى بالسماء وهو ما يشبه القبّة في نظر الرائي تسير فيه الكواكب في أسمات مضبوطة تُسمَّى بالأفلاك تُشاهد بالليل.

والظاهر أنّ هذا الانفطار هو المعبّر عنه بالانشقاق في سورة الانشقاق، وهو حدث يكون قبل يوم البعث وأنّه من أشراط الساعة لأنّه يحصل عند إفساد النظام الذي أقام الله عليه حركات الكواكب وحركة الأرض، وذلك يقتضيه قرنه بانتثار الكواكب وتفجّر البحار وتبعثر القبور.

وأمّا الكشط الذي تقدّم في قوله تعالى { وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ } [التكوير:11] فذلك عَرَض آخر يعرض للسماوات يوم الحشر، فهو من قبيل قوله تعالى { وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلاَئِكَةُ تَنزِيلًا } [الفرقان:25].

الانتثار: مطاوع النثر ضد الجمع وضد الضم، فالنثر هو رمي أشياء على الأرض بتفرّق.

وأمّا التفرّق في الهواء فإطلاق النثر عليه مجاز، قال تعالى { فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا } [الفرقان:23].

<u>فانتثار الكواكب</u> مستعار لتفرّق هيئات اجتماعها المعروفة في مواقعها، أو مستعار لخروجها من دوائر أفلاكها وسُمُوتها فتبدو مضطربة في الفضاء بعد أن كانت تلوح كأنّها قارة.

{ **وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ** } انطلاق مائها من مستواه وفيضانه على ما حولها من الأرضين كما يتفجّر ماء العين حين حفرها، وبذلك التفجير يعم الماء على الأرض فيهلك ما عليها ويختل سطحها.

{ **بُعْثِرَتْ** } انقلب باطنها ظاهرها، يقال: بعثر المتاع إذا قلب بعضه على بعض.

<u>وبعثرت القبور</u>: حالة من حالات الانقلاب الأرضي والخسف خُصَّت بالذكر من بين حالات الأرض لما فيها من الهول باستحضار حالة الأرض وقد ألقت على ظاهرها ما كان في باطن المقابر.

{ **انْفَطَرَتْ، انْتَثَرَتْ، فُجِّرَتْ، بُعْثِرَتْ** } صيغة الماضي مستعمله في المستقبل تشبيها لتحقيق وقوع المستقبل بحصول الشيء في الماضي.

{ **عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ** } جواب لما في { إذا } من معنى الشرط، ويتنازع التعلّق به جميع ما

ذُكر من كلمات { إذا } الأربع. وهذا العلم كناية عن الحساب على ما قدّمت النفوس وأخّرت.
والعلم يتحقّق بإدراك ما لم يكن معلوما من قبل وبتذكّر ما نسي لطول المدّة عليه، كما تقدّم في قوله تعالى { عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ } [التكوير:14].
{ **نَفْسٌ** } مراد به العموم على نحو ما تقدّم في [التكوير:14].
{ **مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ** } هو ما عملته في أوّل العمر، وما عملته في آخر مدة الحياة، أو المراد بالتقديم المبادرة بالعمل، والمراد بالتأخير مقابله وهو ترك العمل. والمقصود: تعميم التوقيف على جميع ما عملته، ومثله قوله تعالى { يُنَبَّأُ الإنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ } [القيامة:13].
وهذا وعيد بالحساب على جميع أعمال المشركين، وهم المقصود بالسورة كما يشير إليه قوله تعالى بعد هذا { بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ } [9]، ووعد للمتقين، ومختلط لمن عملوا عملا صالحا وآخر سيّئا.

{ يَا أَيُّهَا الإنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ [6] الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ [7] فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ [8] }.

استئناف ابتدائي لأنّ ما قبله بمنزلة المقدّمة له لتهيئة السامع لتلقي هذه الموعظة، لأنّ ما سبقه من التهويل والإنذار يهيّئ النفس لقبول الموعظة إذ الموعظة تكون أشدّ تغلغلا في القلب حينئذ لِما يشعر به السامع من انكسار نفسه ورقة قلبه فيزول عنه طغيان المكابرة والعناد.
{ **يَا أَيُّهَا** } النداء للتنبيه تنبيها يشعر بالاهتمام بالكلام لسماعه، فليس النداء مستعملا في حقيقته إذ ليس مرادا به طلب إقبال ولا هو موجّه لشخص معيّن أو مجموعة معيّنة بل مثلُه يجعله المتكلِّم موجَّهًا لكلّ من يسمعه بقصد أو بغير قصد.
{ **الإِنسَانُ** } تعريف الجنس، وعلى ذلك حمله جمهور المفسّرين، أي: ليس المراد إنسانا معينا، وقرينة ذلك سياق الكلام مع قوله تعالى عقبه { بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ، وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ } [9-10].
وهذا العموم مراد به الذين أنكروا البعث بدلالة وقوعه عقب الإنذار بحصول البعث ويدلّ على ذلك قوله تعالى بعده { بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ } [9].
{ **مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ** } و{ مَا } هنا استفهامية عن الشيء الذي غرّ المشرك فحمله على الإشراك بربّه وعلى إنكار البعث. والاستفهام مجاز في الإنكار والتعجيب من الإشراك بالله، أي: لا موجب للشرك وإنكار البعث إلّا أن يكون ذلك غرورا.
الغرور: الإطماع بما يتوهَّمه المغرور نفعا وهو ضر.
{ **بِرَبِّكَ** } إيثار تعريف الله بوصف (ربّك) دون ذكر اسم الجلالة لما في معنى الرب من الملك والإنشاء والرفق، ففيه تذكير للإنسان بموجبات استحقاق الربّ طاعة مربوبه، فهو تعريض بالتوبيخ.
{ **الْكَرِيمِ** } إجراء وصف الكريم دون غيره من صفات الله للتذكير بنعمته على الناس ولطفه بهم فإنّ

الكريم حقيق بالشكر والطاعة.

{ **فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ** } الوصف الثالث الذي تضمَّنته الصلة جامع لكثير ما يؤذن به الوصفان الأوَّلان فإنّ الخلق والتسوية والتعديل وتحسين الصورة من الرفق بالمخلوق، وهي نعم عليه، وجميع ذلك تعريض بالتوبيخ على كفران نعمته بعبادة غيره.

وتعداد الصلات وإن كان بعضها قد يُغني عن ذكر البعض، فإنّ التسوية حالة من حالات الخلق، وقد يُغني ذكرها عن ذكر الخلق كقوله تعالى { فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ } [البقرة:29]، ولكن قُصد إظهار مراتب النعمة. وهذا من الإطناب المقصود به التذكير بكلّ صلة والتوقيف عليها بخصوصها.

الخلق: الإيجاد على مقدار مقصود.

التسوية: جعل الشيء سويًّا، أي: قويما سليما.

التعديل: التناسب بين أجزاء البدن مثل تناسب اليدين، والرجلين، والعينين، وصورة الوجه فلا تفاوت بين متزاوجها، ولا بشاعة في مجموعها. وكذلك موضع الأعضاء الباطنة.

{ **فِي أَيِّ صُورَةٍ** } { فِي } هنا للظرفية المجازية التي هي بمعنى الملابسة، أي: خلقك فسوّاك فعدلك ملابسا صورة عجيبة.

{ **أَيِّ** } أصلها للاستفهام عن تمييز شيء عن مشاركيه في حاله، كما تقدّم في قوله { مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ } [عبس:18]. والاستفهام بها كثيرا ما يراد بها الكناية عن التعجب أو التعجيب من شأن ما أضيفت إليه، لأنّ الشيء إذا بلغ من الكمال والعظمة مبلغا قويّا يُتساءل عنه ويُستفهم عن شأنه، ومن هنا نشأ معنى دلالة (أي) على الكمال.

ويجوز أن يتعلّق بقوله تعالى { رَكَّبَكَ } فيكون الوقف على قوله تعالى { فَعَدَلَكَ } ويكون قوله تعالى { مَا شَاءَ } معترضا بين { فِي أَيِّ صُورَةٍ } وبين { رَكَّبَكَ }.

والمعنى على الوجهين: في صورة أيّ صورة، أي: في صورة كاملة بديعة.

{ **مَا شَاءَ رَكَّبَكَ** } بيان لجملة { فَعَدَلَكَ }.

{ **كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ** } [9].

{ **كَلَّا** } ردع عمّا هو غرور بالله أو بالغرور ممّا تضمَّنه قوله تعالى { مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ } [6] من حصول ما يغرّ الإنسان بالشرك، ومن إعراضه عن نعم الله تعالى بالكفر، أو من كون حالة المشرك كحالة المغرور. <u>والمعنى</u>: إشراكك بخالقك باطل وهو غرور، أو كالغرور.

{ **بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ** } إضراب انتقالي من غرض التوبيخ والزجر على الكفر إلى ذكر جرم فظيع آخر، وهو التكذيب بالبعث والجزاء ويشمله التوبيخ بالزجر بسبب أنّه معطوف على توبيخ وزجر.

<u>ويجوز</u> أن يكون { كَلَّا } إبطالا لوجود ما يغرّ الإنسان أن يشرك بالله، أي: لا عذر للإنسان في الإشراك

بالله إذ لا يوجد ما يغرّه به. ويكون قوله تعالى { بَلْ تُكَذِّبُونَ } إضرابا إبطاليا، وما بعد { بَلْ } بيانا لما جرَّأهم على الإشراك وأنّه ليس غرورا إذ لا شبهة لهم في الإشراك حتّى تكون الشبهة كالغرور، ولكنّهم أصرّوا على الإشراك لأنّهم حسبوا أنفسهم في مأمن من تبعته فاختاروا الاستمرار عليه.

وعلى هذا الوجه يكون فيه إشارة إلى أنّ إنكار البعث هو جماع الإجرام، ونظير هذه قوله تعالى { فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ، وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لاَ يَسْجُدُونَ، بَلْ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ } [الانشقاق:20-22].

وفي صيغة المضارع إفادة أنّ تكذيبهم بالجزاء متجدّد لا يقلعون عنه، وهو سبب استمرار كفرهم.

وفي المضارع أيضا استحضار حالة هذا التكذيب استحضارا يقتضي التعجيب من تكذيبهم لأنّ معهم من الدلائل ما لحقِّه أن يُقلع تكذيبهم بالجزاء.

الدين: الجزاء.

{ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ [10] كِرَامًا كَاتِبِينَ [11] يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ [12] }.

عطف على جملة { تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ } [9] تأكيدا لثبوت الجزاء على الأعمال. وأكِّد الكلام بحرف { إِنَّ } ولام الابتداء لأنّهم ينكرون ذلك إنكارا قويًّا.

{ **لَحَافِظِينَ** } صفة لمحذوف تقديره: لملائكة حافظين، أي: مُحْصين غير مضيِّعين لشيء من أعمالكم.

وأجري على الملائكة الموكلين بإحصاء أعمالهم أربعة أوصاف هي: (الحفظ / الكرم / الكتابة / العلم بما يعلمه الناس).

وابتدئ منها بوصف الحفظ لأنّه الغرض الذي سيق لأجله الكلام الذي هو إثبات الجزاء على جميع الأعمال، ثم ذُكرت بعده صفات ثلاث بها كمال الحفظ والإحصاء، وفيها تنويه بشأن الملائكة الحافظين.

فأمّا الحفظ: فهو هنا بمعنى الرعاية والمراقبة، وهو بهذا المعنى يتعدَّى إلى المعمول بحرف الجرّ (على) لتضمّنه معنى المراقبة. والحفيظ: الرقيب، قال تعالى { اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ } [الشورى:6].

وهذا الاستعمال هو غير استعمال الحفظ المعدَّى إلى المفعول بنفسه فإنّه بمعنى الحراسة، نحو قوله تعالى { يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ } [الرعد:11]. فالحفظ بهذا الإطلاق يجمع معنى الرعاية والقيام على ما يوكل إلى الحفيظ، والأمانة على ما يوكل إليه.

وأمّا وصف الكرم: فهو النفاسة في النوع، كما تقدّم في قوله تعالى { قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ } [النمل:29]. فالكرم صفتهم النفسية الجامعة للكمال في المعاملة وما يصدر عنهم من الأعمال.

وأمّا صفة الكتابة: فمراد بها ضبط ما وكِّلوا على حفظه ضبطا لا يتعرّض للنسيان ولا للإجحاف ولا للزيادة، فالكتابة مستعارة لهذا المعنى.

وأمّا صفة العلم بما يفعله الناس: فهو الإحاطة بما يصدر عن الناس من أعمال وما يخطر ببالهم من تفكير ممّا يُراد به عمل خير أو شر، وهو الهَمُّ. وطريق علمهم ممّا فطر الله عليه الملائكة الموكلين بذلك.

{ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ [13] وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ [14] يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ [15] وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ [16] }.

فصلت هذه الجملة عن التي قبلها لأنّها استئناف بياني جواب عن سؤال يخطر في نفس السامع يثيره قوله تعالى { بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ، وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ } [9-10]، لتشوُّف النفس إلى معرفة هذا الجزاء ما هو؟ وإلى معرفة غاية إقامة الملائكة لإحصاء الأعمال ما هي؟ فبُيّن ذلك بقوله تعالى { إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ }.

وأيضا تتضمّن هذه الجملة تقسيم أصحاب الأعمال، فهي تفصيل لجملة { يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ } [12].

وجيء بالكلام مؤكَّدا بـ { إنَّ } ولام الابتداء ليساوي البيان مبيَّنه في التحقيق ودفع الإنكار.

{ **الأَبْرَارَ** } جمع بَرٌّ (بفتح الباء) وهو التقيّ. وهو فعل بمعنى فاعل مشتق من بَرّ يبِرّ. وإنّما سُمِّي التقي بَرًّا لأنّه بَرَّ ربّه، أي: صدَّقه ووفَّى له بما عهد له من الأمر بالتقوى.

{ **لَفِي نَعِيمٍ** } الظرفية مجازية لأنّ النعيم أمر اعتباري لا يكون ظرفا حقيقة، شُبِّه دوام التنعّم لهم بإحاطة الظرف بالمظروف بحيث لا يفارقه.

النعيم: اسم ما ينعم به الإنسان.

{ **وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ** } كُرِّر التأكيد مع الجملة المعطوفة للاهتمام بتحقيق كونهم في جحيم لا يطمعوا في مفارقته.

{ **الْفُجَّارَ** } جمع فاجر، وهو المتّصف بالفجور، وهو ضد البرور. والمراد هنا: المشركون، لأنّهم الذين لا يغيبون عن النار طرفة عين وذلك هو الخلود.

ونحن أهل السنة لا نعتقد الخلود في النار لغير الكافر. فأمّا عصاة المؤمنين فلا يُخلَّدون في النار وإلّا لبطلت فائدة الإيمان.

{ **لَفِي جَحِيمٍ** } الظرفية حقيقية.

الجحيم: صار عَلَما بالغلبة على جهنّم، وقد تقدّم في [التكوير:12] وفي [النازعات:36].

{ **يَصْلَوْنَهَا** } صفة لـ { جَحِيمٍ }، أو حال من { الْفُجَّارَ }، أو حال من الجحيم.

صَلْيُ النار: مسُّ حرّها للجسم، وحقيقته الإحساس بحر النار المؤلم، فإذا أريد التدفِّي قيل: اصطلى.

{ **يَوْمُ الدِّينِ** } ظرف لـ { يَصْلَوْنَهَا } وذُكر لبيان أنّهم يصلونها جزاء عن فجورهم، لأنّ الدين الجزاء، ويوم الدين يوم الجزاء، وهو من أسماء يوم القيامة.

{ **وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ** } عطف على جملة { يَصْلَوْنَهَا }، أي: وهم خالدون فيها.

وجيء بالجملة الاسمية دون أن يقال: وما يغيبون عنها، أو ما يفارقونها، لإفادة الاسمية الثبات سواء في الإثبات أو النفي. وزيادة الباء لتأكيد النفي.

{ **عَنْهَا** } تقديمه على متعلّقه للاهتمام بالمجرور، وللرعاية على الفاصلة.

{ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ } [17].

يجوز أن تكون حالية، ويجوز أن تكون معترضة إذا جُعل { يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا } [19] بدلا من { يَوْمُ الدِّينِ }، المنصوب على الظرفية.

{ مَا أَدْرَاكَ } تركيب مركَّب من (مَا) الاستفهامية وفعل الدراية المعدَّى بالهمزة فصار فاعله مفعولا زائدا على مفعولي درى. والاستفهام مستعمل كناية عن تعظيم أمر اليوم وتهويله، والمقصود أنّه لا تصل إلى كنهه دراية دار.

{ مَا يَوْمُ الدِّينِ } الاستفهام الثاني حقيقي، أي: سؤال سائل عن حقيقة يوم الدين.

ومثل هذا التركيب مما جرى مجرى المثل فلا يُغيَّر لفظه، وتقدم عند قوله تعالى { وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ } [الحاقة:3].

{ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ } [18].

تكرير للتهويل تكريرًا يؤذن بزيادته، أي: تجاوز حدّ الوصف والتعبير، فهو من التوكيد اللفظي.

وقُرن هذا التوكيد بحرف { ثُمَّ } الذي شأنه إذا عطف جملة على أخرى أن يفيد التراخي الرتبي، أي: تباعد الرتبة في العظمة والتهويل، فالتراخي فيها هو الزيادة.

{ يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ } [19].

{ يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا } بيان للتهويل العظيم المجمل الذي أفاده قوله تعالى { وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ، ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ } [17-18]، إذ التهويل مُشعر بحصول ما يخافه المُهوَّل لهم فاتبع ذلك بزيادة التهويل مع التأييس من وجدان نصير أو معين.

<u>المعنى</u>: لا تقدر نفس على شيء لأجل نفس أخرى، أي: لنفعها، لأنّ شأن لام التعليل أن تدخل على المنتفع بالفعل عكس (على) فإنّها تدخل على المتضرّر، كما في قوله تعالى { لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ } [البقرة:286]، وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ } [الممتحنة:4].

{ نَفْسٌ لِنَفْسٍ } عموم الأولى والثانية في سياق النفي يقتضي عموم الحكم في كلّ نفس.

{ شَيْئًا } اسم يدل على جنس الموجود، وهو متوغِّل في الإبهام يفسّره ما يقترن به في الكلام من تمييز أو صفة أو نحوهما، أو من السياق، ويُبيّنه هنا ما دلَّ عليه فعل { لاَ تَمْلِكُ } ولام العلة، أي: شيئا يغني عنها وينفعها، كما في قوله تعالى { وَمَا أُغْنِي عَنكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ } [يوسف:67].

وهذا يفيد تأييس المشركين من أن تنفعهم أصنامهم يومئذ، كما قال تعالى { وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمْ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ } [الأنعام:94].

{ **وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ** } تذييل، والتعريف في { الأَمْرُ } للاستغراق.

الأمر: هنا بمعنى التصرّف والأذن، وهو واحد الأوامر، أي: لا يأمر إلّا الله. ويجوز أن يكون الأمر مرادفا للشيء، فتغيير التعبير للتفنُّن.

{ **لِلَّهِ** } أفادت لام الاختصاص مع عموم الأمر أنّه لا أمر يومئذ إلّا لله وحده. وليس في هذا التركيب صيغة حصر ولكنّه آيل إلى معنى الحصر على نحو ما تقدّم في قوله تعالى { الْحَمْدُ لِلَّهِ }.

وفي هذا الختام ردّ العجز على الصدر لأنّ أوّل السورة ابتدئ بالخبر عن بعض أحوال يوم الجزاء وختمت السورة ببعض أحواله.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المطفِّفين

سُمِّيت هذه السورة في كتب السنّة وفي بعض التفاسير (**سورة ويل للمطفِّفين**)، وكذلك ترجمها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه، والترمذي في جامعه.

وسُمِّيت في كثير من كتب التفسير والمصاحف (**سورة المطفِّفين**) اختصارا.

ولم يذكرها في (الإتقان) في عداد السور ذوات أكثر من اسم وسماها (سورة المطففين) وفيه نظر.

وقد أختُلف في كونها مكية أو مدنية أو بعضها مكي وبعضها مدني.

فعن ابن مسعود والضحاك ومقاتل في رواية عنه: أنّها مكية، وعن ابن عباس في الأصح عنه وعكرمة والحسن والسدي ومقاتل في رواية أخرى عنه: أنّها مدنية، قال: وهي أوّل سورة نزلت بالمدينة.

وقال الكلبي وجابر بن زيد: نزلت بين مكة والمدينة فهي لذلك مكية، لأنّ العبرة في المدني بما نزل بعد الهجرة على المختار من الأقوال لأهل علم القرآن. والقول بأنّها نزلت بين مكة والمدينة قول حسن.

ومن اللطائف أن تكون نزلت بين مكة والمدينة لأنّ التطفيف كان فاشيا في البلدين.

وقد حصل من اختلافهم أنّها: إمّا آخر ما أنزل بمكة، وإمّا أوّل ما أنزل بالمدينة.

والذي نختاره: أنّها نزلت قبل الهجرة لأنّ معظم ما اشتملت عليه التعريض بمنكري البعث.

فكانت مقدّمة لإصلاح أحوال المسلمين في المدينة مع تشنيع أحوال المشركين بمكة ويثرب بأنّهم الذين سنُّوا التطفيف. وما أنسب هذا المقصد بأن تكون نزلت بين مكة والمدينة لتطهير المدينة من فساد المعاملات التجارية قبل أن يدخل إليها النبيّ صلى الله عليه وسلم لئلّا يشهد فيها منكرا عامًّا.

وهي معدودة السادسة والثمانين في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة العنكبوت وقبل سورة البقرة.

وعدد آيها **ست وثلاثون**.

أغراض السورة

*/ التحذير من التطفيف في الكيل والوزن وتفظيعه بأنّه تحيّل على أكل مال الناس في حال المعاملة.

*/ أنّ ذلك ممّا سيحاسبون عليه يوم القيامة.

*/ تهويل ذلك اليوم بأنّه وقوف عند ربهم ليفصل بينهم وليجازيهم على أعمالهم المحصاة عند الله.

*/ وعيد الذين يُكذِّبون بيوم الجزاء، والذين يُكذِّبون بأنّ القرآن منزَّل من عند الله.

*/ حال الأبرار أهل الإيمان ورفع درجاتهم وإعلان كرامتهم بين الملائكة وذكر صور من نعيمهم.

*/ وصف حال الفريقين في هذا العالم الزائل، إذ كان المشركون يسخرون من المؤمنين ويلمزونهم ويستضعفونهم، وكيف انقلب الحال في العالم الأبدي.

{ **وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ [1] الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ [2] وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ [3]** }.

{ **وَيْلٌ** } افتتاح السورة باسم الويل مؤذن بأنّها تشتمل على وعيد. واللفظ من براعة الاستهلال، ومثله قوله تعالى { تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ } [المسد:1].

الويل: كلمة دعاء بسوء الحال، وهي في القرآن وعيد بالعقاب وتقريع، وتقدّم عند قوله تعالى { فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ } [البقرة:79].

التطفيف: النقص عن حق المقدار في الموزون أو المكيل، وهو مصدر طفف إذ بلغ الطُّفافة.

والطُّفاف (بضم الطاء وتخفيف الفاء) ما قصر عن ملء الإناء من شراب أو طعام، ويقال: الطَّف (بفتح الطاء دون هاء تأنيث)، وتطلق هذه الثلاثة على ما تجاوز حرف المكيال ممّا يُملأ به، وإنّما يكون شيئا قليلا زائدا على ما ملأ الإناء، فمن ثَمَّ سُمِّيت طُفافة، أي: قليل زيادة.

وفعله طفَّف، كأنّهم راعوا في صيغة التفعيل معنى التكلّف والمحاولة لأنّ المُطفِّف يحاول أن ينقص الكيل دون أن يشعر به المُكتال، ويقابله الوفاء. وهو من عمل المتصدِّين للتجر يغتنمون حاجة الناس إلى الابتياع منهم وإلى البيع لهم، لأنّ التجّار هم أصحاب رؤوس الأموال وبيدهم المكاييل والموازين.

وكان أهل مكة تجّارا، وكان في يثرب تجّار أيضا وفيهم اليهود مثل أبي رافع، وكعب بن الأشرف تاجرَيْ أهل الحجاز، وكانت تجارتهم في التمر والحبوب، وكان أهل مكة يتعاملون بالوزن لأنّهم يتّجرون في أصناف السلع ويزنون الذهب والفضة، وأهل يثرب يتعاملون بالكيل.

واجتمعت كلمة المفسّرين على أنّ أهل يثرب كانوا من أخبث الناس كيلا. وكان ممّن اشتهر بالتطفيف في المدينة رجل يُكنَّى أبا جُهينة، واسمه عمرو، كان له صاعان يأخذ بأحدهما ويعطي بالآخر.

{ **الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ** } إدماج، مسوقة لكشف عادة ذميمة فيهم هي الحرص على توفير مقدار ما يبتاعونه بدون حقّ لهم فيه، والمقصود الجملة المعطوفة عليها وهي جملة { وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ } فهم مذمومون بمجموع ضمّ الجملتين.

الاكتيال: افتعال من الكيل، وهو يُستعمل في تسلُّم ما يكال على طريقة استعمال أفعال: ابتاع، وارتهن، واشترى، فهو مطاوع كال، كما أنّ ابتاع مطاوع باع، وارتهن مطاوع رهن، واشترى مطاوع شرى، قال تعالى { فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ } [يوسف:63] أي: نأخذ طعاما مكيلا.

وحقّ فعل اكتال أن يتعدَّى إلى مفعول واحد هو المكيل، فيقال: اكتال فلان طعاما مثل ابتاع، ويُعدّى إلى ما زاد على المفعول بحرف الجر مثل (من) الابتدائية، فيقال: اكتال طعاما من فلان، وإنّما عُدِّي هنا بحرف (على) لتضمين { اكْتَالُوا } معنى التحامل، أي: إلقاء المشقة على الغير وظلمه.

{ **اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ** } اشتروا من الناس ما يباع بالكيل، فحذف المفعول لأنّه معلوم في فعل { اكْتَالُوا } أي: اكتالوا مكيلا.

{ **يَسْتَوْفُونَ** } جواب { إذا }، و**الاستيفاء**: أخذ الشيء وافيا، فالسين والتاء فيه للمبالغة.
{ **وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ** } ومعنى كالوهم باعوا للناس مكيلا فحُذف المفعول لأنّه معلوم.
{ **كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ** } الواوان عائدان إلى اسم الموصول والضميران المنفصلان عائدان إلى الناس.
وتعدية الفعلين إلى الضميرين على حذف لام الجر. وأصله: كالوا لهم ووزنوا لهم، كما حُذفت اللام في قوله تعالى { وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ } [البقرة:233]، أي: تسترضعوا لأولادكم. وهو حذف كثير مثل قولهم: نصحتك وشكرتك، أصلهما نصحت لك وشكرت لك.
{ **يُخْسِرُونَ** } يوقعون الذين كالوا لهم أو وزنوا لهم في الخسارة، والخسارة النقص من المال في التبايع.
وهذه الآية تحذير للمسلمين من التساهل في التطفيف، وذمّ للمشركين من أهل المدينة وأهل مكة.
وحسبهم أنّ التطفيف يجمع ظلما واختلاسا ولؤما، والعرب كانوا يتعيَّرون بكلّ واحد من هذه الخلال متفرقة ويتبرّؤون منها، ثم يأتونها مجتمعة، وناهيك بذلك أفنا.

{ **أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّـهُمْ مَبْعُوثُونَ** [4] **لِيَوْمٍ عَظِيمٍ** [5] **يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** [6].
استئناف ناشئ عن الوعيد والتقريع لهم بالويل على التطفيف وما وصفوا به من الاعتداء على حقوق المبتاعين.
والهمزة للاستفهام التعجيبي بحيث يسأل السائل عن علمهم بالبعث، وهذا يُرجّح أنّ الخطاب في قوله تعالى
{ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ } [1] موجّه إلى المسلمين. ويرجع الإنكار والتعجب من ذلك إلى إنكار فعل التطفيف.
فأمّا المسلمون الخلّص فلا شك أنّهم انتهوا عن التطفيف بخلاف المنافقين.
الظّنّ: مستعمل في معناه الحقيقي المشهور وهو اعتقاد وقوع شيء اعتقادا راجحا على طريقة قوله تعالى { إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ } [الجاثية:32].
{ **أُولَئِكَ** } في العدول عن الإضمار إلى اسم الإشارة لقصد تمييزهم وتشهير ذكرهم في مقام الذم، ولأنّ الإشارة إليهم بعد وصفهم بـ (المطففين) تؤذن بأنّ الوصف ملحوظ في الإشارة فيؤذن ذلك بتعليل الإنكار.
{ **لِيَوْمٍ عَظِيمٍ** } لام التوقيت، مثل قوله تعالى { أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ } [الإسراء:78].
وفائدة لام التوقيت إدماج الردّ على شبهتهم الحاملة لهم على إنكار البعث باعتقادهم أنّه لو كان بعث لبعثت أموات القرون الغابرة، فأومأ قوله تعالى { لِيَوْمٍ } أنّ للبعث وقتا معيَّنا يقع عنده لا قبله.
{ **عَظِيمٍ** } باعتبار عظمة ما يقع فيه من الأهوال، فهو وصف مجازي عقلي.
{ **يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** } بدل من { لِيَوْمٍ عَظِيمٍ } بدلا مطابقا. والمعنى: أنّهم يكونون قياما، فالتعبير بالمضارع لاستحضار الحالة.
{ **لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** } اللام للأجل، أي: لأجل ربوبيته وتلقّي حكمه.

قال في الكشاف: " وفي هذا الإنكار، والتعجيب، وكلمة الظنّ، ووصف اليوم بالعظيم، وقيام النّاس فيه لله خاضعين، ووصف ذاته بـ { رَبِّ الْعَالَمِينَ }، بيان بليغ لعظيم الذنب وتفاقم الإثم في التطفيف وفيما كان مثل حاله من الحيف وترك القيام بالقسط والعمل على السويّة ".

ولمّا كان الحامل على التطفيف احتقارهم أهل الجلب من أهل البوادي فلا يقيمون لهم ما هو شعار العدل والمساواة، كان التطفيف لذلك منبئا عن إثم احتقار الحقوق، وذلك قد صار خُلقا لهم حتّى تخلّقوا بمكابرة دعاة الحق، وقد أشار إلى هذا التنويه قوله تعالى { وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ، أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ، وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ } [الرحمن:7-9]، وقوله حكاية عن شعيب { وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ } [الشعراء:183/182].

{ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ [7] وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ [8] كِتَابٌ مَرْقُومٌ [9] }.

{ **كَلَّا** } إبطال وردع لما تضمّنته جملة { أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ } [4] من التعجيب من فعلهم التطفيف، والمعنى: كلّا بل هم مبعوثون لذلك اليوم العظيم ولتلقّي قضاء رب العالمين.

{ **إِنَّ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ، كِتَابٌ مَرْقُومٌ** } استئناف ابتدائي بمناسبة ذكر يوم القيامة. وهو تعريض بالتهديد للمطففين بأن يكون عملهم موجبا كتبه في كتاب الفجّار.

{ **الْفُجَّارَ** } غلب على المشركين ومن عسى أن يكون متلبّسا بالتطفيف بعد سماع النهي عنه من المسلمين الذي ربما كان بعضهم يفعله في الجاهلية.

والتعريف للجنس مراد به الاستغراق، أي: جميع المشركين فيعم المطففين وغير المطففين، فوصف الفجار هنا نظير ما في قوله تعالى { أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ } [عبس:42].

وشمول عموم الفجار لجميع المشركين المطففين منهم وغير المطففين يعنى به أنّ المطففين منهم المقصود الأول من هذا العموم، لأنّ ذكر هذا الوصف والوعيد عليه عقب كلمة الردع عن أعمال المطففين قرينة على أنّ الوعيد موجه إليهم.

{ **كِتَابَ** } المكتوب، أي: الصحيفة وهو هنا يحتمل شيئا تُحصى فيه الأعمال، ويحتمل أن يكون كناية عن إحصاء أعمالهم وتوقيفهم عليها.

{ **سِجِّينٍ** } حروف مادته من حروف العربية، وصيغته من الصيغ العربية، فهو لفظ عربي، ومن زعم أنّه معرب فقد أغرب. وقد اختُلف في معناه على أقوال أشهرها وأولاها أنّه علم لواد في جهنم، صيغ بزنة فعيل من مادة السجن للمبالغة مثل: الملك الضلّيل، ورجل سكّير، سُمّي ذلك المكان سجّينا لأنّه أشدّ الحبس لمن فيه فلا يفارقه، وهذا الاسم من مصطلحات القرآن لا يُعرف في كلام العرب من قبل.

فيكون المعنى على ظاهر الظرفية: أنّ كتب أعمال الفجار مودعة في مكان اسمه {سِجِّينٍ} أو وصفه {سِجِّينٍ} وذلك يؤذن بتحقيره، أي: تحقير ما احتوى عليه من أعمالهم المكتوبة، وعلى هذا حمله كثير من

المتقدّمين.

وإن حُملت الظرفية على غير ظاهرها، كانت كناية رمزية عن كون الفجّار في سجّين.

{ **وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ** } معترضة بين جملة { إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ } وجملة { كِتَابٌ مَرْقُومٌ } وهو تهويل لأمر السجّين تهويل تفظيع لحال الواقعين فيه، وتقدّم { مَا أَدْرَاكَ } [الانفطار:17].

{ **كِتَابٌ مَرْقُومٌ** } خبر عن ضمير محذوف يعود إلى { كِتَابَ الفُجَّارِ }. والتقدير: هو كتاب مرقوم.

المرقوم: المكتوب كتابة بيّنة تشبه الرقم في الثوب المنسوج. وهذا الوصف يفيد تأكيد ما يفيده لفظ { كِتَابَ }، سواء كان اللفظ حقيقة أو مجازا.

{ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ [10] الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ [11] وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ [12] إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ [13] }.

{ **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ** } يجوز أن تكون مبيّنة لمضمون جملة {أَلّا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ، لِيَوْمٍ عَظِيمٍ} فإنّ قوله تعالى { يَوْمَئِذٍ } يفيد تنوينه جملة محذوفة جعل التنوين عوضا عنها تقديرها: يوم إذ يقوم الناس لرب العالمين ويل فيه للمكذبين.

ويجوز أن تكون ابتدائية وبين المكذِّبين بيوم الدين والمطففين عموم وخصوص وجهي، فمن المكذِّبين من هم مطفّفون ومن المطففين مسلمون وأهل كتاب لا يُكذبون بيوم الدين، فتكون هذه الجملة إدماجا لتهديد المشركين المكذِّبين بيوم الدين وإن لم يكونوا من المطففين.

{ **الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ** } أعيد ذكر المكذّبين مفصّلا ببيان متعلَّق التكذيب، وهو { بِيَوْمِ الدِّينِ }، لزيادة تقرير تكذيبهم في أذهان السامعين منهم، ومن غيرهم من المسلمين وأهل الكتاب، فالصفة هنا للتهديد وتحذير المطفّفين المسلمين من أن يستخفّوا بالتطفيف فيكونوا بمنزلة المكذّبين بالجزاء عليه.

{ **وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ، إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ** } أي: أنّ تكذيبهم به جهل بحكمة الله تعالى في خلق الله وتكليفهم، إذ الحكمة من خلق الناس تقتضي تحسين أعمالهم وحفظ نظامهم. فلذلك جاءتهم الشرائع آمرة بالصلاح وناهية عن الفساد. ورُتِّب لهم الجزاء على أعمالهم الصالحة بالثواب والكرامة، وعلى أعمالهم السيئة بالعذاب والإهانة. قال تعالى { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ، فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ } [المؤمنون:116/115].

وصيغة القصر، من النفي والاستثناء، تفيد قصر صفة التكذيب بيوم الدين على المعتدين الآثمين الزاعمين القرآن أساطير الأولين.

فهو قصر صفة على موصوف وهو قصر حقيقي لأنّ يوم الدين لا يُكذِّب به إلّا غير المتدينين المشركون والوثنيون وأضرابهم ممّن جمع الأوصاف الثلاثة، وأعظمها التكذيب بالقرآن.

وأمّا زعم القرآن أساطير الأوّلين فهو مقالة المشركين من العرب وهم المقصود ابتداء وأمّا غيرهم ممّن لم يؤثر عنهم هذا القول فهم متهيّئون لأنّ يقولوه، أو يقولوا ما يساويه، أو يؤول إليه، لأنّ من لم يُعرض عليه القرآن منهم لو عُرض عليه لكذَّب به تكذيبا يساوي اعتقاد أنّه من وضع البشر.

ولك أن تجعل القصر ادعائيا ولا تلتفت إلى تنزيل من لم يقل ذلك في القرآن.

وقد ذُكر للمكذِّبين بيوم الدين ثلاثة أوصاف وهي: (معتد / أثيم / يقول إنّ الآيات أساطير الأولين).

الاعتداء: الظلم، والمعتدي: المشرك والكافر بما جاءه من الشرائع لأنّهم اعتدوا على الله بالإشراك، وعلى رسله بالتكذيب، واعتدوا على دلائل الحق فلم ينظروا فيها أو لم يعملوا بها.

الأثيم: مبالغة في الآثم، أي: كثير الإثم.

{ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } صفة لمعتد أو حال منه.

الآيات: هنا القرآن وأجزاؤه لأنّها التي تتلى وتقرأ.

الأساطير: جمع أسطورة وهي القصّة، والأكثر أن يراد القصة المخترعة التي لم تقع، ولعلّ الكلمة معرَّبة عن الرومية، وتقدّم عند قوله تعالى { يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } [الأنعام:25].

الأوّلين: الأمم السابقة، لأنّ، الأوّل يطلق على السابق على وجه التشبيه بأنّه أوّل بالنسبة إلى ثان بعده وإن كان هو قد سبقته أجيال.

وقد كان المشركون يصفون القرآن بذلك لِما سمعوا فيه من القصص التي سيقت إليهم مساق الموعظة والاعتبار، فحسبوها من قصص الأسمار. واقتصروا على ذلك دون ما في أكثر القرآن من الحقائق العالية والحكمة، بهتانا منهم.

وممّن كانوا يقولون ذلك النضر بن الحارث وكان قد كتب قصة رستم وإسفنديار وجدها في الحيرة فكان يُحدِّث بها في مكة ويقول: أنّا أحسن حديثا من محمد فإنّما يُحدِّثكم بأساطير الأولين. وليس المراد في الآية خصوصه لأنّ كلمة { كُلُّ مُعْتَدٍ } ظاهر في عدم التخصيص.

{ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [14] كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ [15] ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ [16] ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ [17] }.

{ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ، كَلَّا } اعتراض بالردع وبيان له، لأنّ { كَلَّا } ردع لقولهم أساطير الأوّلين، أي: أنّ قولهم باطل. وحرف { بَلْ } للإبطال، تأكيدا لمضمون { كَلَّا } وبيانا وكشفا لما حملهم على أن يقولوا في القرآن ما قالوا، وأنّه ما أعمى بصائرهم من الرَّين.

الرَّين: الصدأ الذي يعلو حديد السيف والمرآة، ويقال في مصدر الرَّين الرَّان، مثل العيب والعاب.

وأصل فعله أن يُسند إلى الشيء الذي أصابه الرين، فيقال: ران السيف وران الثوب، إذا أصابه الرين.

ولما فيه من معنى التغطئة التغطية أطلق على التغطية فجاء منه فعل ران بمعنى غشي، فقالوا: ران النعاس على فلان، ورانت الخمر على عقل فلان. والمعنى: غطّت على قلوبهم أعمالُهم أن يدخلها فهم القرآن.

{ **قُلُوبِهِمْ** } العقول ومحالُّ الإدراك. وهذا كقوله تعالى { خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ } [البقرة:7].

{ **مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** } ما عملوه سالفا من سيّئات أعمالهم وجُماحهم عن التدبّر في الآيات حتّى صار الإعراض والعناد خُلقا متأصِّلا فيهم فلا تفهم عقولهم دلالة الأدلة على مدلولاتها.

روى الترمذي عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه قال: **" إنّ العبد إذا أخطأ خطيئة نُكتت في قلبه نكتة سوداء فإذا هو نزع واستغفر الله وتاب صُقِل قلبه فإن عاد زيد فيها حتّى تعلو على قلبه وهو الرّان الذي ذكر الله في كتابه** { كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } " [حسن صحيح].

{ **يَكْسِبُونَ** } صيغة المضارع دون الماضي لإفادة تكرّر ذلك الكسب وتعدّده في الماضي.

{ **كَلَّا** } الثانية تأكيد للأولى زيادة في الردع ليصير توبيخا.

{ **إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ، ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ، ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ** }

جمل معطوفة اشتملت على أنواع ثلاثة من الويل وهي: (الإهانة / العذاب / التقريع مع التأييس من الخلاص من العذاب).

فأمّا الإهانة: فهو ما في قوله تعالى { عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ } ، والحجب هو الستر، ويُستعمل في المنع من الحضور لدى الملك ولدى سيد القوم، وكلا المعنيين مراد هنا لأنّ المكذبين بيوم الدين لا يرون الله يوم القيامة حين يراه أهل الإيمان، ويوضِّح هذا المعنى قوله في حكاية أحوال الأبرار { عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ } [23]، وكذلك أيضا لا يدخلون حضرة القدس، قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ } [الأعراف:40].

وأمّا العذاب: فهو ما في قوله تعالى { ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ }. وقد عُطفت جملته بحرف { ثُمَّ } الدالة على التراخي الرتبي، وهو ارتقاء في الوعيد لأنّه وعيد بأنّهم من أهل النار وذلك أشد من خزي الإهانة.

{ **لَصَالُوا** } جمع صال وهو الذي مسّه حرّ النار، وتقدّم في [الانفطار:15].

وأمّا التقريع مع التأييس من التخفيف: فهو مضمون جملة { ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ }، فعطف الجملة بحرف { ثُمَّ } اقتضى تراخي مضمون الجملة على مضمون التي قبلها، أي بُعد درجته في الغرض المسوق له الكلام. وبُني الفعل { **يُقَالُ** } للمجهول لعدم تعلّق الغرض بمعرفة القائل والمقصد هو القول.

{ **هَذَا** } اقتضى اسم الإشارة أنّهم صاروا إلى العذاب.

{ **الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ** } الإخبار عن العذاب بذلك يفيد أنّه العذاب الذي تكرَّر وعيدهم به وهو يكذِّبونه، وذلك هو الخلود، وهو درجة أشد في الوعيد، وبذلك كان مضمون الجملة أرقى رتبة في الغرض من مضمون الجملة المعطوفة هي عليها. وجيء باسم الموصول ليذكروا تكذيبهم به في الدنيا تنديما وتحزينا.

أو يكون قوله تعالى { ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ } إشارة إلى جواب مالك خازن جهنم المذكور في قوله تعالى { وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ، لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ } [الزخرف:78/77].

{ **بِهِ تُكَذِّبُونَ** } تقديم { بِهِ } للاهتمام بمعاد الضمير مع الرعاية على الفاصلة.

{ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ [18] وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ [19] كِتَابٌ مَرْقُومٌ [20] يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ [21] }.

{ **كَلَّا** } ردع وإبطال لما تضمّنه ما يقال لهم { هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ } [17]، فيجوز أن تكون الكلمة ممّا قيل لهم مع جملة { هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ } ردعا لهم، فهي من المحكي بالقول.

ويجوز أن تكون معترضة من كلام الله في القرآن ابطالا لتكذيبهم المذكور.

{ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ، كِتَابٌ مَرْقُومٌ، يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ }

يظهر أنّ هذه الآيات من الحكاية وليست من الكلام المحكي، فإنّ هذه الجملة بحذافرها تشبه جملة { إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ...} [7] أسلوبا ومقابلة. فالوجه أن يكون مضمونها قسيما لمضمون شبيهها فتحصُل مقابلة وعيد الفجار بوعد الأبرار، ومن عادة القرآن تعقيب الإنذار بالتبشير والعكس، لأنّ الناس راهب وراغب فالتعرض لنعيم الأبرار إدماج اقتضته المناسبة وإن كان المقام من أوّل السورة مقام إنذار.

ويكون المتكلّم بالوعد والوعيد واحدا وجَّه كلامه للفجّار الذين لا يظنون أنّهم مبعوثون، وأعقبه بتوجيه كلام للأبرار الذين هم بضد ذلك، فتكون هذه الآيات معترضة متصلة بحرف الردع على أوضح الوجهين المتقدّمين فيه.

الأبرار: جمع بَرّ (بفتح الباء)، وهو الذي يعمل البِرّ، وتقدّم في [الانفطار:13].

{ **إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ** } القول في الكتاب ومظروفيّته كالقول في { إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ...} [7].

علّيّون: جمع عِلِّيٍّ، وعِلِّيٌّ على وزن فِعِّيل من العلو، وهو زنة مبالغة. وعن الفراء أن { عِلِّيِّينَ } لا واحد له، ولكنّه علم على مكان الأبرار في الجنة. واشتُق هذا الاسم من العلو، وهو علو اعتباري، أي: رفعة في مراتب الشرف والفضل.

{ **يَشْهَدُهُ** } يطّلعون عليه، أي: يُعْلَن به عند المقرّبين، وهم الملائكة، وهو إعلان تنويه بصاحبه.

{ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ [22] عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ [23] تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ [24] يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ [25] خِتَامُهُ مِسْكٌ، وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ [26] وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ [27] عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ [28] }.

مضمون هذه قسيم لمضمون جملة { إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ...} [15]. ولذلك جاءت على نسيج نظم قسيمتها افتتاحا وتوصيفا وفصلا، وهي مبيّنة لجملة { إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ } [18]، فموقعها موقع البيان أو موقع بدل الاشتمال.

على أنّه يجوز أن تكون من الكلام الذي يقال لهم وهو المحكي بقوله تعالى { ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ } [17] فيكون تحسيرا وتنديما على تفريطهم في الإيمان.

وذكر الأبرار بالاسم الظاهر دون ضميرهم تنويها بوصف الأبرار.

{ **عَلَى الأَرَائِكِ** } أي: متكئون عليها.

الأرائك: جمع أريكة، وتقدّم عند قوله تعالى { مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ } [الإنسان:13].

{ **يَنظُرُونَ** } في موضع الحال من الأبرار. وحذف المفعول، إمّا لدلالة ما تقدّم عليه من قوله تعالى في ضدّهم { إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ } [15] والتقدير: ينظرون إلى ربّهم، وإمّا لقصد التعميم، أي: ينظرون كلّ ما يبهج نفوسهم ويسرّهم بقرينة مقام الوعد والتكريم.

النضرة: البهجة والحُسن.

{ **نَضْرَةَ النَّعِيمِ** } من إضافة المسبَّب إلى السبب، أي: النضرة والبهجة التي تكون لوجه المسرور الراضي، إذ تبدو على وجهه ملامح السرور.

{ **يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ** } خبر رابع عن الأبرار أو حال ثالثة منه.

{ **يُسْقَوْنَ** } للدلالة على أنّهم مخدومون. وذلك من تمام الترفّة ولذة الراحة.

الرحيق: اسم للخمر الصافية الطيّبة.

المختوم: المسدود إناؤه.

{ **خِتَامُهُ مِسْكٌ** } جُعل ختام خمر الجنّة بعجين المسك عوضا عن طين الختم.

المسك: مادة حيوانية ذات عَرف طيب مشهور طيبه وقوّة رائحته، وهذه المادة تتكون في غدة مملوءة دما تخرج في عنق صنف من الغزال في بلاد التيبيت من أرض الصين فتبقى متصلة بعنقه إلى أن تيبس فتسقط فيلتقطها طلّابها ويتَّجرون فيها. وهي جلدة في شكل فأر صغير ولذلك يقولون: فأرة المسك.

وقيل: آخر شربه مسك، أي: طعم المسك بمعنى نكهته.

{ **وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ** } معترضة بين جملة { خِتَامُهُ مِسْكٌ } وجملة { وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ }.

وتقديم المجرور لإفادة الحصر، أي: وفي ذلك الرحيق فليتنافس الناس لا في رحيق الدنيا الذي يتنافس فيه

أهل البذخ ويجلبونه من أقاصي البلاد وينفقون فيه الأموال.

التنافس: تفاعل من **نَفِسَ** عليه بكذا إذا شحّ به عليه ولم يره أهلا له، وهو من قبيل الاشتقاق من الشيء النفيس، وهو الرفيع في نوعه المرغوب في تحصيله.

مزاجه: ما يُمزج به. وأصله مصدر مازج بمعنى مزج.

{ **تَسْنِيمٍ** } عَلَم لعين في الجنة، منقول من مصدر سنَّم الشيء إذا جعله كهيئة السَّنام. ووجهوا هذه التسمية بأنّ هذه العين تصب على جنانهم من علو فكأنّها سنام.

المقرَّبون: هم الأبرار، أي: فالشاربون من هذا الماء مقرَّبون.

{ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ [29] وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ [30] وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ [31] وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاَءِ لَضَالُّونَ [32] وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ [33] فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ [34] عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ [35]}.

دلّ السياق على أنّ هذا الكلام حكاية قول ينادى به يوم القيامة من حضرة القدس على رؤوس الأشهاد، للتنديم والتشميت، كما اقتضته خلاصته من قوله تعالى { فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ...}. والمقصود في ذكره أنّه بعد أن ذكر حال المشركين على حِدة، وذكر حال المسلمين على حِدة، أعقب بما فيه صفة لعاقبة المشركين في معاملتهم للمؤمنين في الدنيا ليعلموا جزاء الفريقين معا.

{ **إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا** } الافتتاح بصورة الكلام المؤكَّد لإفادة الاهتمام بالكلام وذلك كثير في افتتاح الكلام المراد إعلانه ليتوجّه بذلك الافتتاح جميع السامعين إلى استماعه للإشعار بأنّه خبر مهم.

{ **الَّذِينَ أَجْرَمُوا** } المشركون من أهل مكّة وخاصة صناديدهم. وهم: أبو جهل، والوليد بن المغيرة، وعقبة بن أبي معيط، والعاص بن وائل، والأسود ابن عبد يغوث، والعاص بن هشام، والنضر بن الحارث، كانوا يضحكون من عمار بن ياسر، وخباب بن الأرت، وبلال، وصهيب، ويستهزئون بهم.

والتعبير عنهم بذلك إظهار في مقام الإضمار على طريقة الالتفات، إذ مقتضى الظاهر أن يقال لهم: إنّكم كنتم من الذين آمنوا تضحكون.

الإجرام: ارتكاب الجرم وهو الإثم العظيم، وأعظم بالإجرام الكفر.

{ **كَانُوا مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ** } يؤذِن التركيب بأنّ ذلك صفة ملازمة لهم في الماضي.

{ **يَضْحَكُونَ** } صيغة المضارع للدلالة على تكرّر ذلك منهم وأنّه ديدن لهم.

التغامز: تفاعل من الغمز ويطلق على جس الشيء باليد جسًّا مكينًا. وفي حديث عائشة: **" لقد رأيتني ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي وأنا مضطجعة بينه وبين القبلة فإذا أراد أن يسجد غمز رجليَّ**

فقبضتهما ."

<u>ويُطلق الغمز على تحريك الطرف</u> لقصد تنبيه الناظر لما عسى أن يفوته النظر إليه من أحوال في المقام. وكلا الإطلاقين يصح حمل المعنى في الآية عليه.

<u>والمعنى</u>: وإذا مرّ المؤمنون بالذين أجرموا وهم في مجالسهم يتغامز المجرمون حين مرور المؤمنين، أو وإذا مرّ الذين أجرموا بالذين آمنوا وهم في عملهم وفي عسر حالهم يتغامز المجرمون حين مرورهم.

وإنّما يتغامزون من دون إعلان السخرية بهم اتقاء لتطاول المؤمنون عليهم بالسب لأنّ المؤمنين قد كانوا كثيرا بمكة حين نزول هذه السورة، فكان هذا دأب المشركين في معاملتهم، وهو الذي يُقرعون به يوم القيامة.

الانقلاب: الرجوع إلى الموضع الذي جيء منه. يقال: انقلب المسافر إلى أهله، وفي دعاء السفر: **" أعوذ بك من كآبة المنقلب "**. وأصله مستعار من قَلَب الثوب، إذا صرفه من وجهه إلى وجه آخر.

أهل الرجل: زوجه وأبناؤه، وذكر الأهل هنا لأنّهم ينبسط إليهم بالحديث فلذلك لم يقل: إلى بيوتهم.

<u>والمعنى</u>: وإذا رجع الذين أجرموا إلى بيوتهم وخلصوا مع أهلهم تحدّثوا أحاديث الفكاهة معهم بذكر المؤمنين وذمّهم.

{ **انقَلَبُوا فَكِهِينَ** } تكرير الفعل من النسج الجزل في الكلام، وذلك لما في إعادة الفعل من <u>زيادة تقرير</u> معناه في ذهن السامع لأنّه ممّا ينبغي الاعتناء به، <u>ولزيادة تقرير</u> ما في الفعل من إفادة التجدّد.

{ **فَكِهِينَ** } اسم فاعل فاكه وهو من فكه من باب فرح إذا مزح وتحدّث فأضحك، والمعنى: فاكهين في التحدث عن المؤمنين.

{ **وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ** } حكت ما يقوله الذين أجرموا في المؤمنين إذا شاهدوهم.

<u>يجوز</u> كونه إعلانا على مسامع المؤمنين لعلّهم يرجعون عن الإسلام إلى الكفر، <u>ويجوز</u> كونه كلاما يقوله بعضهم لبعض إذا رأوا المؤمنين، كما يفكهون بالحديث عن المؤمنين في خلواتهم.

{ **لَضَالُّونَ** } مرادهم فساد الرأي، لأنّ المشركين لا يعرفون الضلال الشرعي. أي: هؤلاء سيّئوا الرأي إذ اتبعوا الإسلام وانسلخوا عن قومهم، وفرَّطوا في نعيم الحياة طمعا في نعيم بعد الموت.

{ **وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ** } في موضع الحال، أي: لمزوهم بالضلال في حال أنّهم لم يرسلهم مرسل ليكونوا موكلين بأعمالهم. والخبر مستعمل في التهكّم بالمشركين، أي: لم يكونوا مقيَّضين للرقابة عليهم والاعتناء بصلاحهم.

فمعنى الحفظ هنا الرقابة ولذلك عدّي بحرف (على) ليتسلّط النفي على الإرسال والحفظ.

وتقديم المجرور على متعلَّقه للاهتمام بمفاد حرف الاستعلاء وبمجروره، مع الرعاية على الفاصلة.

{ **فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ** } أفادت فاء السببية أنّ استهزاءهم بالمؤمنين في الدنيا كان سببا في جزائهم بما هو من نوعه في الآخرة، إذ جعل الله الذين آمنوا يضحكون من المشركين.

{ **فَالْيَوْمَ** } التقديم للاهتمام به لأنّه يوم الجزاء العظيم الأبدي.

{ **مِنْ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ** } التقديم للاهتمام بالمضحوك منهم تعجيلا لإساءتهم عند سماع هذا التقريع.

{ **عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ** } مفعول { يَنظُرُونَ } محذوف دلّ عليه قوله تعالى { مِنْ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ } تقديره: ينظرونهم، أي: يشاهدون المشركين في العذاب والإهانة.

{ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ } [36].

فذلكه لما حُكي من اعتداء المشركين على المؤمنين وما ترتّب عليه من الجزاء يوم القيامة.

فالمعنى: فقد جوزي الكفّار بما كانوا يفعلون، وهذا من تمام النداء الذي يعلق به يوم القيامة.

{ **هَلْ** } الاستفهام تقريري وتعجّب من عدم إفلاتهم منه بعد دهور. والخطاب بهذا الاستفهام موجَّه إلى غير معيَّن بل إلى كل من يسمع ذلك النداء يوم القيامة. وهذا من مقول القول المحذوف.

{ **ثُوِّبَ** } أُعطي الثواب، يقال: ثوَّبه كما يقال: أثابه، إذ أعطاه ثوابا.

الثواب: هو ما يجازى به من الخير على فعل محمود، فاستعماله في جزاء الشر هنا استعارة تهكّمية. من قبيل قوله تعالى { فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [الإنشقاق:24].

{ **مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** } موصول وهو مفعول ثان لفعل { ثُوِّبَ }، إذ هو من باب أعطى. وليس الجزاء هو ما كانوا يفعلونه بل عُبِّر عنه بهذه الصلة لمعادلته شدّة جرمهم على طريقة التشبيه البليغ، أو على حذف مضاف تقديره: مثل، ويجوز أن يكون على نزع الخافض وهو باء السببية، أي: بما كانوا يفعلون.

وفي هذه الجملة مُحسِّن براعة المقطع لأنّها جامع لما اشتملت عليه السورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الانشقاق

سُمِّيت في زمن الصحابة (**سورة إذا السماء انشقت**).

ففي الموطأ عن أبي سلمة: " أنّ أبا هريرة قرأ بهم إذا السماء انشقت فسجد فيها، فلمّا انصرف أخبرهم أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سجد فيها ". فضمير (فيها) عائد إلى { إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ } [1] بتأويل السورة، وبذلك عنونها البخاري والترمذي، وكذلك سمَّاها في الإتقان، ولم يذكرها مع السور ذوات الأكثر من اسم.

وسمَّاها المفسِّرون وكتَّاب المصاحف (**سورة الانشقاق**) باعتبار المعنى.

وهي مكّية بالاتفاق.

وقد عُدَّت الثالثة والثمانين في تعداد نزول السور نزلت بعد سورة الانفطار وقبل سورة الروم.

وعَدَّ آيها خمسا وعشرين أهل العدد بالمدينة ومكة والكوفة، وعدَّها أهل البصرة والشام ثلاثا وعشرين.

أغراض السورة

*/ ابتدئت بوصف أشراط الساعة وحلول يوم البعث.

*/ اختلاف أحوال الخلق يومئذ بين أهل نعيم وأهل شقاء.

{ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ [1] وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ [2] وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ [3] وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ [4] وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ [5] يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاَقِيهِ [6] }.

{ **إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ** } قُدِّم الظرف على عامله وهو { كَادِحٌ } للتهويل والتشويق إلى الخبر، وأوّل الكلام في الاعتبار: يا أيّها الإنسان إنك كادح إذا السماء انشقت ....

{ **إِذَا** } ظرف للزمان المستقبل، والفعل المضافة إليه { إذا } مؤوَّل بالمستقبل وصيغ بالماضي للتنبيه على تحقّق وقوعه.

{ **السَّمَاءُ** } قُدِّم المسند إليه على المسند الفعلي، دون أن يقال: إذا انشقت السماء، لإفادة تقوّي الحكم.

انشقّت: مطاوع شقَّها، أي: حين يشق السماء شاقٌّ فتنشق.

الانشقاق: هذا هو الانفطار الذي تقدَّم في قوله تعالى { إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ } [الإنفطار:1]، وهو انشقاق يلوح للناس في جو السماء، فهو انشقاق يقع عند اختلال نظام هذا العالم.

{ **أَذِنَتْ** } أي: استمعت، وفعل أذِن مشتقّ من اسم جامد وهو اسم الأُذْن، آلة السمع في الإنسان، يقال أذن له كما يقال: استمع له، أي: أصغى إليه أذنه.

وهو هنا مجاز مرسل في التأثّر لأمر الله التكويني بأن تنشقّ. وليس هو باستعارة تبعية ولا تمثيلية.

{ **لِرَبِّهَا** } التعبير بهذا الوصف لما يؤذن به من المُلك والتدبير.

{ **وَحُقَّتْ** } جملة معترضة بين المعطوفة والمعطوف عليها. والمتعلِّق محذوف دل عليه فعل { وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا }، أي: وحُقَّت بذلك الانقياد والتأثّر، يقال: حُقَّ فلان بكذا، أي توجّه عليه حقٌّ. ولمّا كان فاعل توجيه الحق غير واضح تعيينه غالبا، كان فعل حُقَّ بكذا، مبنيا للمجهول، ومرفوعه بمعنى اسم المفعول، فيقال: حقيق عليه كذا، كقوله تعالى { حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لاَ أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ } [الأعراف:105].

<u>والمعنى</u>: هي محقوقة بأن تأذن لربّها، لأنَّها لا تخرج عن سلطان قدرته وإن عظم سمكها واشتد خلقها وطال زمان رتقها، فما ذلك كلّه إلّا من تقدير الله لها، فهو الذي إذا شاء أزالها.

{ **وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ** } القول فيها مثل القول في جملة { إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ } في تقديم المسند إليه.

مدّ الأرض: بسطها، وظاهر هذا أنّها يُزال ما عليها من جبال، كما قال تعالى { وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا، فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا، لاَ تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلاَ أَمْتًا } [طه:105-107].

ومن معاني المدّ أن يكون ناشئا عن اتساع مساحة ظاهرها.

{ **وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا** } صالح للحمل على ما يناسب هذه الاحتمالات في مدّ الأرض، ومُحتمِل لأنّ تنقذف من باطن الأرض أجزاء أخرى يكون لانقذافها أثر في إتلاف الموجودات مثل البراكين واندفاع الصخور العظيمة وانفجار العيون إلى ظاهر الأرض فيكون طوفان.

{ **تَخَلَّتْ** } أي: أخرجت ما في باطنها فلم يبق منه شيء، لأنّ فعل تخلَّى يدلّ على قوّة الخلوّ عن شيء، لما في مادة التفعّل من الدلالة على تكلّف الفعل، كما يقال تكرّم فلان إذا بالغ في الإكرام.

والمعنى: أنّه لم يبق ممّا في باطن الأرض شيء، قال تعالى { وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا } [الزلزلة:2].
{ **وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ** } تقدّم الكلام على نظيره آنفا.
{ **يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاَقِيهِ** } جواب { إِذَا } باعتبار ما فُرّع عليه من قوله تعالى { فَمُلاَقِيهِ }، أي: لأنّ المعطوف الأخير بالفاء في الأخبار هو المقصود ممّا ذكر معه.
فالمعنى: إذا السماء انشقت وإذا الأرض مُدَّت لاقَيْتَ ربك أيّها الإنسان بعد كدحك لملاقاته، فكان قوله تعالى { إِنَّكَ كَادِحٌ } إدماجا بمنزلة الاعتراض أمام المقصود.
وجوّز المبرّد أن يكون جواب { إذا } محذوفا دلّ عليه قوله تعالى { فَمُلاَقِيه }، والتقدير: إذا السماء انشقت إلى آخره، لاقيت أيها الإنسان ربك.
{ **يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ** } الخطاب لجميع الناس، فاللام لتعريف الجنس وهو للاستغراق، كما دل عليه التفصيل في قوله تعالى { فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ - إلى قوله - كَانَ بِهِ بَصِيرًا } [7-15].
والمقصود الأوّل من هذا وعيد المشركين لأنّهم الذين كذّبوا بالبعث. فالخطاب بالنسبة إليهم زيادة للإنذار، وهو بالنسبة إلى المؤمنين تذكير وتبشير.
وقيل: أريد إنسان معين، فقيل: هو الأسود بن عبد الأسد، وقيل أبي بن خلف.
الكدح: ظاهر كلام الراغب أنّ حقيقته: إتعاب النفس في العمل والكدّ. وتعليق مجروره في هذه الآية بحرف (إلى) تؤذن بأنّ المراد به عمل ينتهي إلى لقاء الله، فيجوز أن يُضمَّن { كَادِحٌ } معنى ساعٍ.
لأنّه لمّا آل سعيه وكدحه إلى الموت جُعل كدحه إلى ربه.
{ **كَدْحًا** } منصوب على المفعولية المطلقة لتأكيد { كَادِحٌ } المضمَّن معنى ساعٍ إلى ربّك.
{ **فَمُلاَقِيهِ** } ضمير النصب عائد إلى الربّ، أي: فملاق ربّك، أي: لا مفرّ لك من لقاء الله.

{ **فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ [7] فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا [8] وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا [9] وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ [10] فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا [11] وَيَصْلَى سَعِيرًا [12] إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا [13] إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ [14] بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا [15]** }.
هذا تفصيل الإجمال الذي في قوله تعالى { إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاَقِيهِ } [6]، أي: رجوع جميع الناس إلى الله، فمن أوتي كتابه بيمينه فريق من الناس هم المؤمنون، ومن أوتي كتابه وراء ظهره فريق آخر وهم المشركون، كما دل عليه قوله تعالى { إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ}، وبين منتهاهما مراتب، وإنّما جاءت هذه الآية على اعتبار تقسيم الناس يومئذ بين أتقياء ومشركين.
الكتاب: صحيفة الأعمال، جُعل إيتاؤه إيّاه بيمينه شعارا للسعادة، لما هو متعارف من أنّ اليد اليمنى

تتناول الأشياء الزكية، وهذا في غريزة البشر نشأ عن كون الجانب الأيمن من الجسد أقدر وأبدر للفعل فارتكز في النفوس أنّ البركة في الجانب الأيمن، حتّى سَمُّوا البركة والسعادة يُمْنًا، ووسموا ضدَّها بالشؤم وتقدّم عند قوله تعالى { قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ } [الصافات:28]، وقوله تعالى { فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ، وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ } [الواقعة [9/8].

{ **بِيَمِينِهِ** } الباء للملابسة أو المصاحبة، أو هي بمعنى (في)، وهي متعلّقة بـ { أُوتِيَ }.

سَوْفَ: أصله لحصول الفعل في المستقبل، والأكثر أن يراد به المستقبل البعيد وذلك هو الشائع، ويُقصد به في الاستعمال البليغ تحقّق حصول الفعل واستمراره، ومنه قوله تعالى { قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي } [يوسف:98]، وهو هنا مفيد للتحقيق، والاستمرار بالنسبة إلى فعل ينقلب إلى أهله مسرورا، وهو المقصود من هذا الوعد. وقد تقدّم عند قوله تعالى { فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا } [النساء:30].

الحساب اليسير: هو عرض أعماله عليه دون مناقشة فلا يطول زمنه فيُعجَّل به إلى الجنة، وذلك إذا كانت أعماله صالحة، فالحساب اليسير كناية عن عدم المؤاخذة.

{ **وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا** } أي يرجع. والانقلاب: الرجوع إلى المكان الذي جيء منه، وقد تقدّم قريبا في [المطففين:31].

الأهل: العشيرة من زوجة وأبناء وقرابة.

تمثيل لحال المحاسَب حسابا يسيرا في المسرّة والفوز والنجاة بعد العمل الصالح في الدنيا، بحال المسافر لتجارة حين يرجع إلى أهله سالما رابحا، لما في الهيّئة المشبَّه بها من وفرة المسرة بالفوز والسلامة.

{ **وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ** } هو الكافر. والمعنى: أنّه يؤتى كتابه بشماله كما تقتضيه المقابلة بـ { مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ }، وذلك أيضا في قوله تعالى { وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ } [الحاقة:25] ، أي: يُعطى كتابه من خلفه فيأخذه بشماله تحقيرا له، ويُناول له من وراء ظهره إظهارا للغضب عليه.

{ **فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا** } المراد بالدعاء هنا النداء، أي: ينادي الثبور، بأن يقول: يا ثبوري، أو يا ثبورَا، كما يقال: يا ويلي ويا ويلتنا. والنداء بمثل هذه الكلمات مستعمل في التحسّر والتوجّع.

الثبور: الهلاك وسوء الحال، وهي كلمة يقولها من وقع في شقاء.

{ **وَيَصْلَى** } قرأه نافع وبن كثير وبن عامر والكسائي بتشديد اللام مضاعف صلّاه إذا أحرقه. وقرأه أبو عمرو وعاصم وحمزة وأبو جعفر ويعقوب وخلف { وَيَصْلَى } بفتح التحتية وتخفيف اللام، مضارع صَلِيَ اللازم، إذا مسَّته النار، كقوله تعالى { يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ } [الإنفطار:15].

{ **سَعِيرًا** } انتصب على نزع الخافض بتقدير: يُصَلَّى بسعير.

{ **إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا** } مستعمل في التعجيب من حالهم كيف انقلبت من ذلك السرور الذي كان لهم في الحياة الدنيا. وهذه الجملة معترضة.

{ **إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ** } موقع التعليل لمضمون جملة { وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ...}.
وحرف (إنَّ) فيها مغن عن فاء التعليل، فالمعنى: يصلى سعيرا لأنّه ظنّ أن لن يحور، أي: لن يرجع إلى الحياة بعد الموت، أي: لأنّه يُكذِّب بالبعث. يقال: حار يحور، إذا رجع إلى المكان الذي كان فيه، ثم أطلق إلى الرجوع إلى حالة كان فيها بعد أن فارقها، وهو المراد هنا وهو من المجاز الشائع في إطلاق الرجوع عليه في قوله تعالى { ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ } [يونس:23]، وقوله تعالى { إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ } [الطارق:8]، وسُمِّي يومُ البعث يومَ المعاد.
{ **لَنْ** } جيء بهذا الحرف الدال على تأكيد النفي وتأييده لحكاية جزمهم وقطعهم بنفيه.
{ **بَلَى** } يُجاب به الكلام المنفي لإبطال نفيه، وأكثر وقوعه بعد الاستفهام عن النفي نحو { أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى } [الأعراف:172]، ويقع بعد غير الاستفهام أيضا نحو قوله تعالى { زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ } [التغابن:7].
{ **إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا** } مبيِّنة للإبطال الذي أفاده حرف { بَلَى } على وجه الإجمال.
المعنى: إنّ ربه عليم بمآله. وتأكيد ذلك بحرف { إنّ } لردّ إنكاره البعث الذي أخبر الله به على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، فآل المعنى الحاصل من حرف الإبطال ومن حرف التأكيد إلى معنى: أنّ ربه بصير به، وأمّا هو فغير بصير بحاله، كقوله تعالى { وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ } [البقرة:216].
وفيه إشارة إلى حكمة البعث للجزاء لأنّ ربّ الناس عليم بأحوالهم فمنهم المصلح ومنهم المفسد فليس من الحكمة أن يذهب المفسد بفساده، وأن يُهمل صلاح المصلح، فجعل الله الحياة الأبدية وجعلها للجزاء على ما قدم صاحبها في حياته الأولى.
{ **بَصِيرًا** } أطلق البصر هنا على العلم التام بالشيء.
وتقديم المجرور على متعلَّقة للاهتمام بهذا المجرور، أي: بصير به لا محالة. مع مراعاة الفواصل.

{ **فَلاَ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ** [16] **وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ** [17] **وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ** [18] **لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ** [19] }.
الفاء لتفريع القسم وجوابه، على التفصيل الذي في قوله تعالى { فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ...} [7-15]، فإنّه اقتضى أنَّ ثَمَّة حسابا وجزاء بخير وشر، فكان هذا التفريع فذلكة وحوصلة لما فُصِّل من الأحوال، وكان أيضا جمعا إجماليا لما يعترض في ذلك من الأهوال.
لا أقسم: تقدّم أنّه يراد منه أقسم، وتقدّم وجه القسم بهذه الأحوال والمخلوقات عند قوله تعالى { فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ } [التكوير:15].
ومناسبة الأمور المقسَم بها هنا للمقسَم عليه لأنّ الشفق والليل والقمر تخالط أحوالا بين الظلمة وظهور

النور معها، أو في خلالها، وذلك مناسب لما في قوله تعالى { لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ } من تفاوت الأحوال التي يتخبّط فيها الناس يوم القيامة أو في حياتهم الدنيا.

أو من ظهور أحوال خير في خلال أحوال شرّ، أو انتظار تغيّر الأحوال إلى ما يرضيهم، إن كان الخطاب للمسلمين خاصة كما سيأتي.

ولعلّ ذكر الشفق إيماء إلى أنّه يُشبه حالة انتهاء الدنيا، لأنّ غروب الشمس مثل حالة الموت، وأنّ ذكر الليل إيماء إلى شدّة الهول يوم الحساب، وذكر القمر إيماء إلى حصول الرحمة للمؤمنين.

الشفق: اسم للحمرة التي تظهر في أفق مغرب الشمس اثر غروبها، وهو ضياء من شعاع الشمس إذا حجبها عن عيون الناس بعض جرم الأرض، واختُلف في تسمية البياض الذي يكون عقب الاحمرار شفقا.

{ **وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ** } الـ (ما) مصدرية، ويجوز أن تكون موصولة على طريقة حذف العائد المنصوب.

الوسق: جمع الأشياء بعضها على بعض، فيجوز أن يكون المعنى وما جمع ممّا كان منتشرا في النهار من ناس وحيوان فإنّها تأوي في الليل إلى مآويها، وذلك ممّا جعل الله في الجبلّة من طلب الأحياء السكون في الليل، قال تعالى { وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ } [القصص:73] وذلك من بديع التكوين، فلذلك أقسم به قسما أدمجت فيه منّة.

وقيل: ما وسقه الليل: النجوم، لأنّها تظهر في الليل، فشُبِّه ظهورها فيه بوسق الواسق أشياء متفرّقة. وهذا أنسب بعطف القمر عليه.

اتساق القمر: اجتماع ضيائه، وهو افتعال من الوسق بمعنى الجمع، كما تقدّم آنفا، وذلك في ليلة البدر، وتقييد القَسَم به بتلك الحالة لأنّها مظهر نعمة الله على الناس بضيائه.

{ **لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ** } نُسج نظمها نسجا مجملا لتوفير المعاني التي تذهب إليها أفهام السامعين، فجاءت على أبدع ما يُنسج عليه الكلام الذي يرسل إرسال الأمثال من الكلام الجامع، البديع النسج الوافر المعنى، ولذلك كثرت تأويلات المفسّرين لها.

{ **لَتَرْكَبُنَّ** } حقيقته متعذّرة هنا وله من المعاني المجازية المستعملة في الكلام أو التي يصح أن تراد في الآية عدّة، منها الغلب والمتابعة، والسلوك، والاقتحام، والملازمة، والرفعة.

وأصل تلك المعاني إمّا استعارة وإمّا تمثيل يقال: ركب أمرا صعبا وارتكب خطأ.

{ **طَبَقٍ** } حقيقتها أنّها اسم مفرد للشيء المساوي شيئا آخر في حجمه وقدره، يقال: طابق النعل النعل. اسم على وزن فَعَل إمّا مشتقّ من المطابقة، كاشتقاق الصفة المشبهة ثم عوامل معاملة الأسماء.

ويطلق اسما مفردا للغطاء الذي يُغطَّى به، ومنه قولهم في المثل: وافق شنٌّ طبقة، أي: غطاءه، وهذا من الحقيقة لأن الغطاء مساو لما يغطِّيه.

ويطلق الطبق على الحالة لأنّها ملابسة لصاحبها كملابسة الطبق لما طبق عليه.

ويطلق اسما مفردا أيضا على شيء متخذ من أدم أو عود ويؤكل عليه وتوضع فيه الفواكه ونحوها، وكأنّه سُمِّي طبقا لأنَّ أصله يُستعمل غطاء الآنية فتوضع فيه أشياء.

ويطلق اسم جمع لطبقة، وهي مكان فوق مكان آخر معتبر مثله في المقدار إلّا أنّه مرتفع عليه، وهذا من المجاز يقال: أتانا طبق من الناس، أي: جماعة.

فقيل المعنى: لتركبن حالا بعد حال، رواه البخاري عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم.

والأظهر أنّه تهديد بأهوال القيامة، أي: لتلاقنّ هولا اعظم من هول، كقوله تعالى { زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ العَذَابِ } [النحل:88].

وقيل: { لَتَرْكَبُنَّ } منزلة بعد منزلة، وروي عن ابن زيد وسعيد بن جبير، أي: لتصيرنّ من طبق الدنيا إلى طبق الآخرة.

وقيل: من كان على صلاح دعا إلى صلاح آخر ومن كان على فساد دعاه إلى فساد فوقه، لأنّ كلّ شيء يجر إلى شكله، أي: فتكون الجملة اعتراضا بالموعظة وتكون { عَنْ } على هذا على حقيقتها للمجاوزة، والتنوين للتعظيم.

ويحتمل أن يكون الركوب مجازا في السير بعلاقة الإطلاق، أي: لتحضرنّ للحساب جماعات بعد جماعات، على معنى قوله تعالى { إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ } [القيامة:30]، وهذا تهديد لمنكريه.

{ فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ [20] وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لاَ يَسْجُدُونَ [21] }.

يجوز أن يكون التفريع على ما ذُكر من أحوال من أوتي كتابه وراء ظهره، وأعيد عليه ضمير الجماعة لأنّ المراد بـ (من) الموصولة كلّ من تحق فيه الصلة. والمعنى: فما لهم لا يخافون أهوال يوم لقاء الله فيؤمنوا.

ويجوز أن يكون مفرَّعا على قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الإنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاَقِيهِ } [6]، أي: إذا تحقَّقت ذلك فكيف لا يؤمن بالبعث الذين أنكروه. وجيء بضمير الغيبة لأن المقصود من الإنكار والتعجّب خصوص المشركين، لأنّ العناية بموعظتهم أهم، فالضمير التفات.

ويجوز أن يكون تفريعا على قوله تعالى { لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ } [19]، فيكون مخصوصا بالمشركين باعتبار أنّهم أهم في هذه المواعظ. والضمير أيضا التفات.

والاستفهام مستعمل في التعجيب من عدم إيمانهم وفي إنكار انتفاء إيمانهم لأنّ شأن الشيء العجيب المنكر أن يُسأل عنه، فاستعمال الاستفهام في معنى التعجيب والإنكار مجاز بعلاقة اللزوم.

{ لاَ يُؤْمِنُونَ } المتعلَّق محذوف يدلّ عليه السياق، أي: بالبعث والجزاء. ويجوز تنزيل الفعل منزلة اللازم، أي: لا يتصفون بالإيمان، أي: ما سبب أن لا يكونوا مؤمنين.

المعنى: التعجيب والإنكار من عدم إيمانهم مع ظهور دلائل صدق ما دُعوا إليه وأنذروا به.

{ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ } ظرف قُدِّم على عامله للاهتمام به وتنويه شأن القرآن.

وقراءة القرآن عليهم قراءته قراءة تبليغ ودعوة، وقد كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يعرض عليهم القرآن جماعات وأفرادا، وقد قال له عبد الله بن أبي بن سلول: " لا تَغْشَنا به في مجالسنا "، وقرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم القرآن على الوليد بن المغيرة، كما ذكرناه في سورة عبس.

السجود: مستعمل بمعنى الخضوع والخشوع، كقوله تعالى { وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ } [الرحمن:6]، وقوله تعالى { يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ } [النحل:48]. أي: إذا قرئ عليهم القرآن لا يخضعون لله ولمعاني القرآن وحجّته، ولا يؤمنون بحقيقته، ودليل هذا المعنى مقابلته بقوله تعالى { بَلْ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ} [22].

<u>وليس في هذه الآية ما يقتضي أن عند هذه الآية سجدة</u>، والأصح من قول مالك وأصحابه أنّها ليست من سجود القرآن خلافا لأبن وهب من أصحاب مالك، فإنّه جعل سجودات القرآن أربع عشرة.

قال مالك في الموطأ، بعد أن روى حديث أبو هريرة: " الأمر عندنا أنّ عزائم السجود إحدى عشرة سجدة ليس في المفصّل منها شيء".

وقال أبو حنيفة والشافعي: سجدات التلاوة أربع عشرة بزيادة سجدة سورة النجم وسجدة سورة الانشقاق وسجدة سورة العلق.

وقال أحمد: هن خمس عشرة سجدة بزيادة السجدة في آخر الآية من سورة الحج، ففيها سجدتان عنده.

{ بَلْ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ } [22].

<u>يجوز أنّه إضراب انتقالي</u> من التعجيب من عدم إيمانهم، وإنكار عليهم إلى الإخبار عنهم بأنّهم مستمرّون على الكفر والطعن في القرآن، فالكلام ارتقاء في التعجيب والإنكار.

فلذلك عُبِّر عنه بالفعل المضارع الذي يُستروح منه استحضار الحالة. وفيه دلالة على حدوث التكذيب منهم وتجدّده، أي: بل هم مستمرون على التكذيب.

<u>ويجوز أن يكون إضرابا إبطاليا</u>، أي: لا يوجد ما لأجله لا يؤمنون ولا يصدِّقون بالقرآن بل الواقع بضد ذلك فإنّ بواعث الإيمان من الدلائل متوفرة ودواعي الاعتراف بصدق القرآن والخضوع لدعوته متظاهرة ولكنّهم يُكذِّبون، أي: يستمرون على التكذيب عنادا وكبرياء، ويومئ إلى ذلك قوله تعالى { وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ }.

{ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ } [23].

اعتراض بين جملة { بَلْ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ } [22] وجملة { فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [24]، وهو كناية عن الإنذار والتهديد بأنّ الله يجازيهم بسوء طوّيتهم.

{ بِمَا يُوعُونَ } بما يضمرون في قلوبهم من العناد مع علمهم بأنّ ما جاء به القرآن حقّ ولكنّهم يُظهرون

التكذيب به ليكون صدودهم عنه مقبولا عند أتباعهم وبين مجاوريهم.

الإيعاء: أصله جعل الشيء وعاء، والوِعاء (بكسر الواو) الظرف لأنّه يُجمع فيه، ثم شاع إطلاقه على جمع الأشياء لئلّا تفوت وصارا مشعرا بالتقتير، ومنه قوله تعالى { وَجَمَعَ فَأَوْعَى } [المعارج:18].

وفي الحديث: **" لا تُوعي فيُوعي الله عليك "**.

واستعمل في هذه الآية في الإخفاء، لأنّ الإيعاء يلتزم الإخفاء، فهو هنا مجاز مرسل.

{ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [24].

تفريع على جملة { بَلْ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ } [22].

{ **فَبَشِّرْهُمْ** } مستعار للإنذار والوعيد على طريقة التهكّم، لأنّ حقيقة التبشير: الإخبار بما يسر وينفع، فلمّا عُلِّق بالفعل عذاب أليم كانت قرينة التهكّم كنارٍ على عَلَم.

{ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ } [25].

يجوز أن يكون الاستثناء متصلا، **إمّا** على أنّه استثناء من الضمير في قوله تعالى { لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ } [19]، جريا على تأويله بركوب طباق الشدائد والأهوال يوم القيامة. **وإمّا** على أنّه استثناء من ضمير الجمع في { فَبَشِّرْهُمْ } [24]، والمعنى إلّا الذين يؤمنون من الذين هم مشركون الآن، كقوله تعالى { إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا } [البقرة:160]. وفعل { آمَنُوا } على هذا الوجه مراد به المستقبل.

وقيل هو استثناء منقطع من ضمير { فَبَشِّرْهُمْ } فهو داخل في التبشير المستعمل في التهكّم زيادة في إدخال الحزن عليهم. فحرف { إِلَّا } بمنزلة (لكن).

{ **لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ** } استئناف بياني كأن سائلا سأل: كيف حالهم يوم يكون أولئك في عذاب أليم؟

والأجر غير الممنون هو الذي يُعطاه صاحبه مع كرامة بحيث لا يعرَّض له بمنّة.

المعنى: أن أجرهم سرور لهم لا تشوبه شائبة كدر فإنّ المنَّ ينغِّص الإنعام، قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى } [البقرة:264].

ويجوز أن يكون بمعنى غير مقطوع، يقال: مننتُ الحبل، إذا قطعته، قال تعالى { وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ، لاَ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ } [الواقعة:33/32].

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة البروج

روى أحمد عن أبي هريرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم: " كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج ". وهذا ظاهر في أنّها تُسمَّى (**سورة السماء ذات البروج**) لأنّه لم يحك لفظ القرآن، إذ لم يذكر الواو.

وأخرج أحمد أيضا عن أبي هريرة: "أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أن يُقرأ في العشاء بالسماوات"، أي: السماء ذات البروج والسماء والطارق.

وسُمِّيت في المصاحف وكتب السنة وكتب التفسير (**سورة البروج**).

وهي مكية باتفاق.

ومعدودة **السابعة والعشرين** في تعداد نزول السور نزلت بعد سورة الشمس، وسورة التين.

وآيها **اثنتان وعشرون** آية.

أغراض السورة

*/ ابتدئت بضرب المثل للذين فتنوا المسلمين بمكّة بأنّهم مثل قوم فتنوا فريقا ممن آمن بالأخدود، ليكون المثل تثبيتا للمسلمين وتصبيرا لهم على أذى المشركين، وتذكيرهم بما جرى على سلفهم في الإيمان.

*/ إشعار المسلمين بأنّ قوّة الله عظيمة فسيلقى المشركون جزاء صنيعهم ويلقى المسلمون النعيم الأبدي والنصر.

*/ التعريض للمسلمين بكرامتهم عند الله تعالى.

*/ ضرب المثل بقوم فرعون وبثمود وكيف كانت عاقبة أمرهم.

*/ التنويه بشأن القرآن.

{ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ [1] وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ [2] وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ [3] قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ [4] النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ [5] إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ [6] وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ [7] وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ [8] الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [9] }.

في افتتاح السورة بهذا القَسَم تشويق إلى ما يرد بعده، وإشعار بأهمية المقسَم عليه، وهو مع ذلك يلفت ألباب السامعين إلى الأمور المقسَم بها، لأنّ بعضها من دلائل عظيم القدرة الإلهية المقتضية تفرّد الله تعالى بالإلهية وإبطال الشريك، وبعضها مُذكِّر بيوم البعث الموعود، ورمز إلى تحقيق وقوعه، إذ القسَم لا يكون إلّا بشيء ثابت الوقوع، وبعضها، بما فيه من الإبهام، يوجِّه أنفس السامعين إلى تطلُّب بيانه.

والقسم بالسماء، بوصف ذات البروج، يتضمَّن قسما بالأمرين معا لتلتفت أفكار المتدبِّرين إلى ما في هذه المخلوقات وهذه الأحوال من دلالة على عظيم القدرة وسعة العلم الإلهي إذ خلقها على تلك المقادير المضبوطة لينتفع بها الناس في مواقيت الأشهر والفصول.

وأمّا مناسبة القسم باليوم الموعود فلأنّه يوم القيامة باتفاق أهل التأويل لأنّ الله وعد بوقوعه، قال تعالى { ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ } [المعارج:44]، مع ما في القسم به من إدماج الإيماء إلى وعيد أصحاب القصة المقسم على مضمونها، ووعيد أمثالهم المعرَّض بهم.

ومناسبة القسم بـ { شَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ }، على اختلاف تأويلاته، هي قريبة من مناسبة القسم باليوم الموعود، ويقابله في المقسَم عليه قوله تعالى { وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ }.

البروج: اسم منقول من اسم البرج بمعنى القصر لأنّ الشمس تنزله، أو منقول من البرج بمعنى الحصن.

والبرج السماوي يتألف من مجموعة نجوم قريب بعضها من بعض لا تختلف أبعادها أبدا. وإنّما سُمِّي برجا لأنّ المصطلحين تخيّلوا أنّ الشمس تحلّ فيه مدة فهو كالقصر، أو الحصن، ولمّا وجدوا كل مجموعة منها يخال منها شكل لو أحيط بخط مفروض لأشبه محيطها محيط صورة تخيلية لبعض الذوات من حيوان أو نبات أو آلات، ميَّزوا بعض تلك البروج من بعض بإضافته إلى اسم ما تشبهه تلك الصورة تقريبا فقالوا: برج الثور، برج الدلو.

وهذه البروج هي في التحقيق: سموت تقابلها الشمس في فلكها مدّة شهر كامل من أشهر السنة الشمسية يوقِّتون بها الأشهر والفصول بموقع الشمس نهارا في المكان الذي تطلع فيه نجوم تلك البروج ليلا، وقد تقدّم عند قوله تعالى { تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا } [الفرقان:61].

{ **وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ** } يوم القيامة باتفاق أهل التأويل لأنّ الله وعد بوقوعه، قال تعالى { ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ } [المعارج:44].

{ **شَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ** } مراد بهما النوع. فالشاهد: الرائي، أو المخبر بحقٍّ لإلزام منكره. والمشهود: المرئي أو المشهود عليه بحقٍ. وحذف متعلّق الوصفين لدلالة الكلام عليه.

الشاهد: يجوز أن يكون حاضر ذلك اليوم الموعود من الملائكة، قال تعالى { وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ } [ق:21]. ويجوز الرسل والملائكة. وهو ما في قوله تعالى { فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيدًا } [النساء:41].

ويجوز أن يكون الشاهد الله تعالى، ويؤيّده قوله تعالى { وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } [9].

المشهود: الناس المحشورون للحساب، وهم أصحاب الأعمال المعرَضون للحساب. لأنّ العرف في المجامع أنّ الشاهد فيها: هو السالم من مشقتها وهم النظّارة الذين يطلعون على ما يجري في المجمع، وأنّ المشهود: الذي يطّلع الناس على ما يجري عليه.

جواب القسم:

قيل: محذوف لدلالة قوله تعالى { قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ } عليه، والتقدير أنّهم ملعونون كما لُعن أصحاب الأخدود.

قال الزجّاج: جواب القسم هو { إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ } [12]، أي: والكلام بينهما اعتراض قُصد به التوطئة للمقسم عليه، وتوكيد التحقيق الذي أفاده القسَم بتحقيق ذكر النظير.

وقال الفراء: الجواب { قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ } أي: فيكون { قُتِلَ } خبرا لا دعاء ولا شتما. والتقدير: لقد قُتل أصحاب الأخدود، فيكون المراد من أصحاب الأخدود الذين ألقوا فيه وعُذِّبوا فيه، كقوله تعالى { يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ } [يوسف:39]. ويتعيّن على قول الفرّاء أن يكون الخبر مستعملا في لازم معناه من الإنذار للذين يفتنون المؤمنين بأن يحلّ بهم ما حل بفاتني أصحاب الأخدود.

وقيل: الجواب هو جملة { إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ } [البروج:10] فيكون الكلام الذي بينهما اعتراضا وتوطئة.

{ **قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ** } صيغته تشعر بأنّه إنشاء شتم لهم شتم خزي وغضب، وهؤلاء لم يُقتلوا، فالفعل ليس بخبر بل شتم، نحو قوله تعالى { قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ } [الذاريات:10]. وقولهم: قاتله الله.

وصدوره من الله يفيد معنى اللعن، ويدلّ على الوعيد لأنّ الغضب واللعن يستلزمان العقاب على الفعل الملعون لأجله.

وقيل هو دعاء على أصحاب الأخدود بالقتل، كقوله تعالى { قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ } [عبس:17]، والقتل مستعار لأشد العذاب، كما يقال: أهلكه الله، أي أوقعه في أشد العناء.

وأيًّا ما كان فالجملة معترضة بين القسم وما بعده.

{ **أَصْحَابُ** } يعمّ الآمرين بجعل الأخدود والمباشرين لحفره وتسعيره، والقائمين على إلقاء المؤمنين فيه. واختلف الرواة في تعيين القصة، وفي تعيين المراد منها في هذه الآية، وأصح الروايات ما رواه مسلم

والترمذي عن صهيب: أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قصّ هذه القصة على أصحابه.

وليس فيما روي تصريح بأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ساقها تفسيرا لهذه الآية، والترمذي ساق حديثها في تفسير سورة البروج.

والروايات كلّها تقتضي أنّ المفتونين بالأخدود قوم اتبعوا النصرانية في بلاد اليمن على أكثر الروايات، أو في بلاد الحبشة على بعض الروايات، وذُكرت فيها روايات متقاربة تختلف بالإجمال والتفصيل، والترتيب، والزيادة، والتعيين.

وعن مقاتل كان الذين اتخذوا الأخاديد في ثلاث من البلاد: في نجران، وبالشام، وبفارس.

أمّا الذين بالشام فـ (انطانيوس الرومي)، وأمّا الذي بفارس فهو (بختنصر)، والذي بنجران فهو (يوسف ذو نواس).

والقصة التي في سيرة ابن إسحاق على أنّها جرت في نجران من بلاد اليمن:

أنّه كان ملك وهو (ذو نواس) له كاهن أو ساحر. وكان للساحر تلميذ اسمه (عبد الله بن الثامر) وكان يجد في طريقه إذا مشى إلى الكاهن صومعة فيها راهب كان يعبد الله على دين عيسى عليه السلام ويقرأ الإنجيل اسمه (فَيْمِيُون)، أصله من غسان من الشام ثم ساح فاستقر بنجران، وكان منعزلا عن الناس مختفيا في صومعته، وظهرت لعبد الله في قومه كرامات. وكانت كلّما ظهرت له كرامة دعا من ظهرت لهم إلى أن يتّبعوا النصرانية، فكثر المتنصِّرون في نجران وبلغ ذلك الملك ذا نواس، وكان يهوديا، وكان أهل نجران مشركين يعبدون نخلة طويلة، فقتل الملك الغلام وقتل الراهب وأمر بأخاديد وجُمع فيها حطب وأُشعِلت، وعرض أهل نجران عليها فمن رجع عن التوحيد تركه ومن ثبت قذفه في النار.

وقصص الأخاديد كثيرة في التاريخ، والتعذيب بالحرق طريقة قديمة، ومنها: نار إبراهيم عليه السلام.

{ **الأُخْدُودِ** } بوزن أفعول وهو صيغة قليلة الدوران غير مقيسة، وقد يكون هذا الوزن مع هاء تأنيث مثل أعجوبة، وأطروحة، وأضحوكة.

{ **النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ** } بدل من الأخدود بدل اشتمال أو بعض من كل لأنّ المراد بالأخدود الحفير بما فيه.

الوَقود: (بفتح الواو) اسم ما توقد به النار من حطب ونفط ونحوه.

{ **ذَاتِ الْوَقُودِ** } : أنّها لا يخمد لهبها لأنّ لها وقودا يُلقى فيها كلَّما خبت.

{ **إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ** } يتعلق بفعل { قُتِلَ }، أي: لعنوا وغضب الله عليهم حين قعدوا على الأخدود.

{ **هُمْ** } الضمير عائد إلى أصحاب الأخدود، فإن الملك يحضر تنفيذ أمره ومعه ملأه، أو أريد بهم المأمورون من الملك.

وعلى احتمال أن يكون المراد بـ { أَصْحَابُ الأُخْدُودِ } المؤمنين المعذَّبين فيه، فالقعود حقيقة و(على) للاستعلاء الحقيقي، أي: قاعدون على النار بأن كانوا يحرِّقونهم مربوطين بهيئة القعود.

{ **وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ** } أعيد ضمير { هُمْ } ليتعيَّن أن يكون عائدا إلى بعض أصحاب

الأخدود. وضمير { يَفْعَلُونَ } يجوز أن يعود إلى { أَصْحَابُ الأُخْدُودِ }، فمعنى كونهم شهودا على ما يفعلونه: أنّ بعضهم يشهد لبعض عند الملك بأنّ أحدا لم يفرّط فيما وكِّل به من تحريق المؤمنين، فضمائر الجميع وصيغته موزعة.

ويجوز أن يعود الضمير إلى ما تقتضيه دلالة الاقتضاء من تقسيم أصحاب الأخدود إلى أمراء ومأمورين شأن الأعمال العظيمة، فلمّا أخبر عن أصحاب الأخدود بأنّهم قعود على النار عُلم أنّهم الموكلون بمراقبة العمال. فعُلم أنّ لهم أتباعا من سعَّارين ووَزَعَة، فهُم مُعاد ضمير يفعلون.

وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون { شُهُودٌ } جمع شاهد بمعنى مخبر بحق، وأن يكون بمعنى حاضر ومراقب، لظهور أن أحدا لا يشهد على فعل نفسه.

والجملة في موضع الحال من ضمير { إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ }، كأنّه قيل: قعود شاهدين على فعلهم بالمؤمنين على الوجهين المتقدّمين في معاد ضمير { مَا يَفْعَلُونَ }، وفائدة هذه الحال تفظيع ذلك القعود وتعظيم جرمه إذ كانوا يشاهدون تعذيب المؤمنين لا يرأفون في ذلك ولا يشمئزّون.

{ **وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ** } في موضع الحال، والواو واو الحال أو عاطفة على الحال التي قبلها. والمقصود التعجيب من ظلم أهل الأخدود أنّهم يأتون بمثل هذه الفظاعة لا لجرم من شأنه أن يُنقم من فاعله.

{ **الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ، الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ** } إجراء الصفات الثلاث على اسم الجلالة لزيادة تقرير أنّ ما نقموه منهم ليس من شأنه أن يُنقم، بل هو حقيق بأن يُمدحوا به لأنّهم آمنوا بربٍّ حقيقٍ بأن يؤمَن به لأجل صفاته التي تقتضي عبادته ونبذ ما عداه لأنّه ينصر مواليه ويثيبهم، ولأنّه يملكهم.

{ **وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** } تذييل بوعيد للذين أتخذوا الأخدود وبوعد الذين عُذِّبوا في جنب الله، ووعيد لأمثال أولئك من كفار قريش وغيرهم من كلّ من تصدُّوا لأذى المؤمنين، ووعد المسلمين الذين عذبهم المشركون مثل بلال وعمار وصهيب وسمية.

{ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ } [10].

إن كان هذا جوابًا للقَسَم، على قول بعض المفسّرين كما تقدّم، كان ما بين القَسَم وما بين هذا كلاما معترضا يُقصد منه التوطئة لوعيدهم بالعذاب والهلاك بذكر ما توعَّد به نظيرهم.

وإن كان الجواب في قوله تعالى { قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ } [4] كانت الآية بمنزلة الفذلكة لما أقسم عليه، إذ المقصود بالقسم وما أقسم عليه هو تهديد الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات من مشركي قريش.

{ **إِنَّ** } تأكيد الخبر للردّ على المشركين الذين ينكرون أن تكون عليهم تبعة من فتن المؤمنين.

والذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات: هم مشركو قريش وليس المراد أصحاب الأخدود لأنّه لا يلاقي قوله

تعالى { ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا }، إذ هو تعريض بالترغيب في التوبة.

الفَتْنُ: المعاملة بالشدّة والإيقاع في العناء الذي لا يجد منه مخلصا إلّا بعناء أو ضرّ أخف أو حيلة، وتقدّم عند قوله تعالى { وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ } [البقرة:191].

وقد عُدَّ من الذين فتنوا المؤمنين أبو جهل رأس الفتنة ومِسْعَرها، وأمية بن خلف وصفوان بن أمية، والأسود بن عبد يغوث، والوليد بن المغيرة، وأمُّ أنمار، ورجل من بني تيم.

والمفتنون: عُدَّ منهم بلال بن رباح كان عبدا لأمية بن خلف فكان يعذّبه، وأبو فُكيهة كان عبدا لصفوان بن أمية، وخباب بن الأرت كان عبد لأمُّ أنمار، وعمار بن ياسر، وأبوه ياسر، وأخوه عبد الله كانوا عبيدا لأبي حذيفة بن المغيرة فوكَّل بهم أبا جهل، وعامر بن فهيرة كان عبدا لرجل من بني تيم.

والمؤمنات المفتونات منهن: حمامة أم بلال أَمَةُ أمية بن خلف. وزِنّيرة، وأمُّ عُنَيْس كانت أمَة للأسود بن عبد يغوث، والنهدية وابنتها كانتا للوليد بن المغيرة، ولطيفة، ولُبينة بنت فهيرة كانت لعمر بن الخطاب قبل أن يسلم، وسُميّة أم عمار بن ياسر كانت لعم أبي جهل.

وفُتِن ورجع إلى الشرك الحارث بن ربيعة بن الأسود، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة، وعليّ بن أمية بن خلف، والعاصي بن المنبّه بن الحجاج.

{ **وَالْمُؤْمِنَاتِ** } عطف للتنويه بشأنهنّ لئلّا يُظنّ أنّ هذه المزية خاصة بالرجال، ولزيادة تفظيع فعل الفاتنين بأنّهم اعتدوا على النساء، والشأن أن لا يُتعرَّض لهنّ بالغلظة.

{ **ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا** } معترضة، و{ ثُمَّ } فيها للتراخي الرتبي لأنّ الاستمرار على الكفر أعظم من فتنة المؤمنين. وفيه تعريض للمشركين بأنّهم إن تابوا وآمنوا سلموا من عذاب جهنم.

{ **فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ** } دخول الفاء في خبر (إنّ) لأنّ اسمها وقع موصولا والموصول يُضمَّن معنى الشرط في الاستعمال كثيرا. فتقدير: إنّ الذين فتنوا المؤمنين ثمّ إن لم يتوبوا فلهم عذاب جهنّم.

{ **وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ** } عطف في معنى التوكيد اللفظي لجملة { لَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ }. واقترانها بواو العطف للمبالغة في التأكيد بإيهام أنّ من يريد زيادة تهديدهم بوعيد آخر فلا يجد أعظم من الوعيد الأوّل. مع ما بين عذاب جهنم وعذاب الحريق من اختلاف في المدلول وإن كان مآل المدلولين واحدا. وهذا ضرب من المغايرة يُحسِّن عطف التأكيد.

على أنّ الزجَ بهم في جهنم عذاب قبل أن يذوقوا عذاب حريقها لما فيه من الخزي والدفع بهم في طريقهم قال تعالى { يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا } [الطور:13]، فحصل بذلك اختلاف ما بين الجملتين.

ويجوز أن يراد بالثاني مضاعفة العذاب لهم، كقوله تعالى { الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ العَذَابِ } [النحل:88].

{ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ** } [11].

يجوز أن يكون استئنافا بيانيا ناشئا عن قوله تعالى { ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا } المقتضي أنّهم إن تابوا لم يكن لهم عذاب جهنم، فيتشوَّفُ السامع إلى معرفة حالهم أمقصورة على السلامة من عذاب جهنم أو هي فوق ذلك، فأُخبر بأنّ لهم جنّات، فإنّ التوبة الإيمان، فلذلك جيء بصلة { آمَنُوا } دون تابوا، ليدلّ على أنّ الإيمان والعمل الصالح هو التوبة من الشرك الباعث على فتن المؤمنين.

ويجوز أن يكون اعتراضا بين جملة { إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ } [10] وجملة { إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ } [12] اعتراضا بالبشارة في خلال الإنذار لترغيب المنذَرين في الإيمان، ولتثبيت المؤمنين على ما يلاقونه من أذى المشركين، على عادة القرآن في إرداف الإرهاب بالترغيب.

{ **ذَلِكَ** } الإشارة إلى المذكور من اختصاصهم بالجنّات والأنّهار.

{ **الْكَبِيرُ** } مستعار للشديد في بابه.

{ **إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ** } [12].

الجملة علّة لمضمون قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ - إلى قوله - وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ } [10]، أي: لأنّ بطش الله شديد على الذين فتنوا الذين آمنوا به. فموقع { إِنَّ } في التعليل يغني عن فاء التسبّب.

البطش: الأخذ بعنف وشدّة، ويستعار للعقاب المؤلم الشديد كما هنا.

وبطش الله: يشمل تعذيبه إيّاهم في جهنّم ويشمل ما قبله ممّا يقع في الآخرة وما يقع في الدنيا، قال تعالى { يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ } [الدخان:16].

ووُجِّه الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّ بطش الله بالذين فتنوا المؤمنين فيه نصر للنبيّ صلى الله عليه وسلم وتثبيت له.

{ **إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ** } [13].

تصلح لأن تكون استئنافا ابتدائيا انتُقل به من وعيدهم بعذاب الآخرة إلى توعُّدهم بعذاب في الدنيا يكون من بطش الله، لأنّه أوقع في قلوب المشركين إذ هم لا يصدِّقون بالبعث.

وتصلح لأن تكون تعليلا لجملة { إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ } [12]، لأنّ الذي يبدئ ويعيد قادر على إيقاع البطش الشديد في الدنيا وهو الإبداء، وفي الآخرة إعادة البطش.

وتصلح لأن تكون إدماجا للاستدلال على إمكان البعث، أي: أنّ الله يبدئ الخلق ثم يعيده فيكون كقوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ } [الروم:27].

يبدئ: مرادف يبدأ، يقال: بدأ وأبدأ. فليست همزة (أبدأ) للتعدية.

{ **هُوَ يُبْدِئُ** } ضمير الفصل للتقوّي، أي: لتحقيق الخبر، ولا موقع للقصر هنا. إذ ليس في المقام ردّ على من يدعي أن غير الله يبدئ ويعيد.

{ **يُبْدِئُ وَيُعِيدُ** } حُذف مفعولا الفعلين لقصد عموم تعلّق الفعلين بكلّ ما يقع ابتداء ويعاد بعد ذلك، فشمل بدأ الخلق وإعادته وهو البعث، وشمل البطش الأوّل في الدنيا والبطش في الآخرة، وشمل إيجاد الأجيال وإخلافها بعد هلاك أوائلها. وفي هذه الاعتبارات من التهديد للمشركين محامل كثيرة.

{ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ [14] ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ [15] فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ [16] }.

جملة معطوفة على جملة { إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ } [12]، ومضمونها قسيم لمضمون تلك.

لأنّه لمّا أفيد تعليل مضمون جملة { إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ ...} [10]، ناسب أن يُقابَل بتعليل مضمون جملة { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ ...} [البروج:11]، فعُلِّل بهذه الجملة، فهو يغفر للذين تابوا وآمنوا وعملوا الصالحات ما فرط منهم وهو يحب التوابين ويودُّهم.

{ **الْوَدُودُ** } فَعول بمعنى فاعل مشتق من الودّ وهو المحبة فمعنى الودود: المُحِب، وهو من أسمائه تعالى، أي: أنّه يحب مخلوقاته ما لم يحيدوا عن وصايته. والمحبة التي يوصف الله بها مستعملة في لازم المحبة في اللغة تقريبا للمعنى المتعالي عن الكيف، وهو من معنى الرحمة، وقد تقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ } [هود:90].

{ **ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ** } لمَّا ذكر الله من صفاته ما تعلُّقه بمخلوقاته، بحسب ما يستأهلونه من جزاء، أعقب ذلك بصفاته الذاتية، على وجه الاستطراد والتكملة، تنبيها للعباد إلى وجوب عبادته لاستحقاقه العبادة لجلاله، كما يعبدونه لاتقاء عقابه ورجاء نوال ثوابه.

{ **الْعَرْشِ** } اسم لعالَم يحيط بجميع السماوات، سُمِّي عرشا لأنّه دال على عظمة الله تعالى، كما يدلّ العرش على أن صاحبه من الملوك.

{ **الْمَجِيدُ** } العظيم القويّ في نوعه.

{ **فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ** } تذييل، صفة جامعة لعظمته الذاتية وعظمة نعمه.

{ **فَعَّالٌ** } صيغة المبالغة للدلالة على الكثرة في الكمية والكيفية.

الإرادة: هنا هي المُعرَّفة عندنا بأنّها صفة تُخصِّص الممكن ببعض ما يجوز عليه، وهي غير الإرادة بمعنى المحبة، مثل ما في قوله تعالى { يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ } [البقرة:185].

{ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ [17] فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ [18] }.

متصل بقوله تعالى { إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ } [12]، فالخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم للاستدلال على

كون بطشه تعالى شديدا ببطشين بطشَهُما بفرعون وثمود، بعد أن علَّل ذلك بقوله تعالى { إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ } [13]، فذلك تعليل، وهذا تمثيل ودليل.

{ **هَلْ** } الاستفهام مستعمل في إرادة لتهويل حديث الجنود بأن يُسأل عن علمه. وفيه معنى التعجيب.

وفيه تعريض للمشركين بأن قد يحلّ بهم ما حل بأولئك، قال تعالى { وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى - إلى قوله - فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى } [النجم:50-55].

الإتيان: مستعار لبلوغ الخبر، و**الحديث**: الخبر، وتقدّم في [النازعات:15].

{ **الْجُنُودِ** } جمع جند وهو العسكر المتجمَّع للقتال. وأطلق على الأمم التي تجمَّعت لمقاومة الرسل، كقوله تعالى { جُندٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنْ الأَحْزَابِ } [ص:11].

{ **فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ** } بدل مطابق من الجنود لأنّه أريد العبرة بهؤلاء.

فرعون: اسم لملك مصر من القبط، وتقدّم عند قوله تعالى { ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ } [الأعراف:103]. والكلام على حذف مضاف لأنّ فرعون ليس بجند ولكنه مضاف إليه الجند. فحذف المضاف لنكتة المزاوجة بين اسمين علمين مفردين في الابدال من الجنود.

{ **ثَمُودَ** } تخصيص ثمود بالذكر من بقية الأمم التي كذّبت الرسل من العرب مثل عاد وقوم تبّع، ومن غيرهم مثل قوم نوح وقوم شعيب. لما اقتضته الفاصلة السابعة الجارية على حرف الدال، فإنّ ذلك لمّا استقامت به الفاصلة ولم يكن في ذكره تكلّف كان من محاسن نظم الكلام إيثاره.

وتقدَّم ذكر ثمود عند قوله تعالى { وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا } [الأعراف:73]. وهو اسم عربي ولكن يطلق على القبيلة التي ينتهي نسبها إليه فيُمنع من الصرف بتأويل القبيلة كما هنا.

{ **بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ** [19] **وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ** [20] }.

إضراب انتقالي إلى إعراضهم عن الاعتبار بحال الأمم الذين كذّبوا الرسل وهو أنّهم مستمرّون على التكذيب منغمسون فيه.

{ **فِي تَكْذِيبٍ** } حذف المتعلّق لظهوره من المقام، إذ التقدير: أنّهم في تكذيب بالنبيّ صلى الله عليه وسلم، وبالوحي المنزّل إليه، وبالبعث.

{ **وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ** } عطف على الجملة السابقة. تمثيل لحال انتظار العذاب إيّاهم وهم في غفلة عنه بحال من أحاط به العدو من ورائه وهو لا يعلم.

وليس المراد هنا إحاطة علمه تعالى بتكذيبهم إذ ليس له كبير جدوى.

والخبر مستعمل في الوعيد والتهديد.

{ **بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ** [21] **فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ** [22] }.

إضراب إبطال لتكذيبهم، لأنّ القرآن جاءهم بدلائل بيّنة فاستمرارهم على التكذيب ناشئ عن سوء اعتقادهم صدق القرآن إذ وصفوه بصفات النقص من مثل (أساطير الأولين / إفك مفترى / قول كاهن / قول شاعر)، فكان التنويه به جامعا لإبطال جميع ترَّهاتهم على طريقة الإيجاز.

{ **قُرْآنٌ** } مصدر قرأ على وزن فعلان الدال على كثرة المعنى مثل الشكران والقربان. وهو من القراءة وهي تلاوة كلام صدر في زمن سابق لوقت تلاوة تاليه بمثل ما تكلّم به متكلِّمه، سواء كان مكتوبا في صحيفة أم كان مُلقَّنا لتاليه، ولذلك لا يقال لنقل كلام أنّه قراءة إلّا إذا كان كلاما مكتوبا أو محفوظا.

فالإخبار عن الوحي المنزَّل على محمد صلى الله عليه وسلم باسم قرآن إشارة عرفية إلى أنّه موحى به تعريض بإبطال ما اختلقه المكذِّبون: أنّه أساطير الأولين أو قول كاهن أو نحو ذلك.

المجيد: العظيم في نوعه، كما تقدّم في قوله تعالى { ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ } [15].

ومُجِّد القرآن لأنّه أعظم الكتب السماوية وأكثرها معاني وهديا ووعظا، ويزيد عليها ببلاغته وفصاحته وإعجازه البشر عن معارضته.

{ **فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ** } صفة أخرى للقرآن بأنّه مودع في لوح.

اللوح: قطعة من خشب مستوية تُتَّخذ ليُكتب فيها.

وليس في الآية أكثر من أنّ اللوح أودع فيه القرآن، فجعل الله القرآن مكتوبا في لوح علوي كما جعل التوراة مكتوبة في ألواح وأعطاها موسى عليه السلام، قال تعالى { وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ } [الأعراف:145]، وقال تعالى { وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ } [الأعراف:150]، وقال تعالى { وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ } [الأعراف:154]، وأمّا لوح القرآن فجعله محفوظا في العالم العلوي.

واقتضت هذه الآية أنّ القرآن كلّه مسجّل فيه.

وجاء في قوله تعالى { إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ } [الواقعة:78/77] وهو ظاهر في أنّ اللوح المحفوظ، والكتاب المكنون شيء واحد.

ولم يثبت حديث صحيح في ذكر اللوح ولا في خصائصه وكلّ ما هنالك أقوال معزوّة لبعض السلف لا تُعرف أسانيد عزوها

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الطارق

روى أحمد بن حنبل عن أبي هريرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم " كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج والطارق". فسمَّاها أبو هريرة: (**السماء والطارق**).

وسميت في كتب التفسير وكتب السنة وفي المصاحف (**سورة الطارق**) لوقوع هذا اللفظ في أوّلها.

وهي مكية بالاتفاق نزلت قبل سنة عشر من البعثة.

أخرج أحمد بن حنبل عن خالد بن أبي جبل العدواني أنّه أبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم في مشرق ثقيف وهو قائم على قوس أو عصا حين أتاهم يبتغي عندهم النصر فسمعته يقول { وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ } حتى ختمها، قال: " فوعيتها في الجاهلية ثم قرأتها في الإسلام ".

وعددها في ترتيب نزول السور **السادسة والثلاثين**. نزلت بعد سورة البلد وقبل سورة القمر.

وهي سبع عشرة آية

أغراض السورة

*/ إثبات إحصاء الأعمال والجزاء عليها.

*/ إثبات إمكان البعث بنقض ما أحاله المشركون ببيان إمكان إعادة الأجسام.

*/ أدمج في ذلك التذكير بدقيق صنع الله وحكمته في خلق الإنسان.

*/ التنويه بشأن القرآن. وصدق ما ذُكر فيه من البعث.

*/ تهديد المشركين الذين ناووا المسلمين.

*/ تثبيت النبيّ صلى الله عليه وسلم ووعده بأنّ الله منتصر له غير بعيد.

{ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ [1] وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ [2] النَّجْمُ الثَّاقِبُ [3] إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ [4] }.

افتتاح السورة بالقَسَم تحقيق لما يُقسَم عليه وتشويق إليه، كما تقدّم في سوابقها.

ووقع القَسَم بمخلوقين عظيمين فيهما دلالة على عظيم قدرة خالقهما هما: السماء، والنجوم، أو نجم عظيم منها معروف، أو ما يبدو انقضاضه من الشهب كما سيأتي.

{ **وَالطَّارِقِ** } وصف مشتق من الطروق، وهو المجيء ليلا، لأنّ عادة العرب أنّ النازل بالحي ليلا يطرق شيئا من حجر أو وتد إشعارًا لرب البيت أنّ نزيلًا نزل به، لأنّ نزوله يقضي بأن يضيّفوه، فأطلق الطروق على النزول ليلا مجازا مرسلا فغلب الطروق على القدوم ليلا.

{ **مَا أَدْرَاكَ** } استفهام مستعمل في تعظيم الأمر، وتقدّم عند قوله تعالى { وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ } [الشورى:17]، وعند قوله تعالى { وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ } [الحاقة:3].

{ **النَّجْمُ** } خبر عن ضمير محذوف تقديره: هو، أي: الطارق النجم الثاقب.

الثقب: خرق شيء ملتئم، وهو هنا مستعار لظهور النور في خلال ظلمة الليل. شُبِّه النجم بمسمار أو نحوه، وظهور ضوئه بظهور ما يبدو من المسار من خلال الجسم الذي يثقبه.

وأحسب أن استعارة الثقب لبروز شعاع النجم في ظلمة الليل من مبتكرات القرآن ولم يرد في كلام العرب قبل القرآن. وقد سبق قوله تعالى { فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ } [الصافات:10].

{ **النَّجْمُ الثَّاقِبُ** } التعريف في { النَّجْمُ } يجوز أن يكون تعريف الجنس، فيستغرق جميع النجوم استغراقا حقيقيا وكلّها ثاقب، فكأنّه قيل، والنجوم، إلّا أنّ صيغة الإفراد في قوله تعالى { الثَّاقِبُ } ظاهر في إرادة فرد معيّن من النجوم.

ويجوز أن يكون التعريف للعهد إشارة إلى نجم معروف يُطلق عليه اسم النجم غالبا، أي: والنجم الذي هو طارق. ويناسب أن يكون نجما يطلع في أوائل ظلمة الليل وهي الوقت المعهود لطروق الطارقين من السائرين.

ولعل الطارق هو النجم الذي يُسمَّى الشاهد، وهو نجم يظهر عقب غروب الشمس، وبه سُمِّيت صلاة المغرب صلاة الشاهد. روى النسائي أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: **" إنّ هذه الصلاة** (أي: صلاة العصر) **فُرضت على من كان قبلكم فضيعوها [...] ولا صلاة بعدها حتّى يطلع الشاهد ".**

وقيل: أريد بالطارق نوع الشهب، لأنّ الشهاب ينقضّ فيلوح كأنّه يجري في السماء كما يسير السائر الذي أدركه الليل. فالتعريف في لفظ { النَّجْمُ } للاستغراق، وخُصَّ عمومه بوقوعه خبرا عن ضمير {الطَّارِقُ}.

{ **إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ** } جواب القسم، جُعل كناية تلويحية رمزية عن المقصود. وهو إثبات البعث، فهو كالدليل على إثباته، فإنّ إقامة الحافظ تستلزم شيئا يحفظه وهو الأعمال خيرها وشرّها، وذلك يستلزم إرادة المحاسبة عليها والجزاء بما تقتضيه، وذلك يستلزم أنّ الجزاء مؤخّر إلى ما بعد هذه الحياة

إذ المُشاهَد تخلُّف الجزاء في هذه الحياة بكثرة، فلو أُهمل الجزاء لكان إهماله منافيا لحكمة الإله الحكيم مبدع هذا الكون، كما قال تعالى { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا } [المؤمنون:115]، وهذا الجزاء المؤخّر يستلزم إعادة حياة للذوات الصادرة منها الأعمال.

فهذه لوازم أربعة بها كانت الكناية تلويحية رمزية.

وقد حصل مع هذا الاستدلال إفادة أنّ على الأنفس حفظة فهو إدماج.

الحافظ: هو الذي يحفظ أمرا ولا يهمله ليترتّب عليه غرض مقصود.

وقد تضمّن هذا الجواب زيادة على إفادته تحقيق الجزاء إنذارا للمشركين بأنّ الله يعلم اعتقادهم وأفعالهم وأنّه سيجازيهم على ذلك.

{ **فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ [5] خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ [6] يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ [7]**}.

الفاء لتفريع الأمر بالنظر في الخلقة الأولى، على ما أريد من قوله تعالى { إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ } [4]، وهو إثبات البعث الذي أنكروه على طريقة الكناية التلويحية الرمزية كما تقدّم آنفا.

التقدير: فإن رأيتم البعث محالا فلينظر الإنسان ممَّ خلق ليعلم أنّ الخلق الثاني ليس بأبعد من الخلق الأوّل.

النظر: هنا نظر العقل، وهو التفكّر المؤدّي إلى علم شيء بالاستدلال.

{ **الْإِنْسَانُ** } مراد به خصوص منكر البعث، كما علمت من مقتضى التفريع في قوله تعالى { فَلْيَنْظُرِ }.

{ **مِمَّ خُلِقَ** } الاستفهام مستعمل في الإيقاظ والتنبيه إلى ما يجب علمه، كقوله تعالى { مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ } [عبس:18] فالاستفهام هنا مجاز مرسل مركّب.

وحذف ألف (ما) الاستفهامية على طريقة وقوعها مجرورة.

{ **خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ** } ولكون الاستفهام غير حقيقي أجاب عنه المتكلِّم بالاستفهام على طريقة قوله تعالى { عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ} [النبأ:2/1]

{ **دَافِقٍ** } خارج بقوة وسرعة، والأشهر أنّه يقال على نطفة الرجل.

{ **يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ** } أُطنِب في وصف هذا الماء الدافق لإدماج التعليم والعبرة بدقائق التكوين ليستيقظ الجاهل الكافر، ويزداد المؤمن علما ويقينا.

{ **يَخْرُجُ** } الخروج مستعمل في ابتداء التنقّل من مكان إلى مكان ولو بدون بروز، فإنّ بروز هذا الماء لا يكون من بين الصلب والترائب.

الصُّلب: العمود العظمي الكائن في وسط الظهر، وهو ذو الفقرات.

الترائب: جمع تريبة، ويقال: تَريب. ومحرَّر أقوال اللغويين فيها أنّها عظام الصدر.

والترائب تضاف إلى الرجل وإلى المرأة، ولكن أكثر وقوعها في كلامهم في أوصاف النساء.

وهذا مخاطبة للناس بما يعرفون يومئذ بكلام مجمل مع التنبيه على أنّ خلق الإنسان من ماء الرجل وماء

المرأة بذكر الترائب، لأنّ الأشهر أنّها لا تطلق إلّا على ما بين ثديي المرأة.

{ **إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ** [8] **يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ** [9] **فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ** [10] }.

استئناف بياني ناشئ عن قوله تعالى { فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ } [5] لأنّ السامع يتساءل عن المقصد من هذا الأمر بالنظر في أصل الخلقة. وإذ قد كان ذلك النظر نظر استدلال فهذا الاستئناف البياني له يتنزّل منزلة نتيجة الدليل، فصار المعنى: إنّ الذي خلق الإنسان من ماء دافق قادر على إعادة خلقه بأسباب أخرى، وبذلك يتقرّر إمكان إعادة الخلق ويزول ما زعمه المشركون من استحالة تلك الإعادة.

{ **إِنَّهُ** } الضمير عائد إلى الله تعالى وإن لم يسبق ذكر لمعاد، ولكن بناء الفعل للمجهول في قوله تعالى { خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ } [6]، يؤذن بأنّ الخالق معروف لا يحتاج إلى ذكر اسمه.

{ **رَجْعِهِ** } الضمير عائد إلى { الْإِنْسَانُ } [5]. وأسند الرجع إلى ضمير دون سلوك طريقة البناء للمجهول لأنّ المقام مقام إيضاح وتصريح بأنّ الله هو فاعل ذلك.

الرجع: مصدر رجعه المتعدّي. ولا يقال في مصدر رجع القاصر إلّا الرجوع.

{ **يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ** } متعلّق بـ { رَجْعِهِ }، أي: يُرجعه يوم القيامة.

السرائر: جمع سريرة وهي ما يُسرّه الإنسان ويخفيه من نواياه وعقائده.

بَلو السرائر: اختبارها وتمييز الصالح منها عن الفاسد، وهو كناية عن الحساب عليها والجزاء.

وبلو الأعمال الظاهرة والأقوال مستفاد بدلالة الفحوى من بلو السرائر.

{ **فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ** } تفريع، لأنّ قوله تعالى { يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ } مؤذن بأنّ الله عليم بما يستره الناس من الجرائم، ومشعر بالمؤاخذة على العقائد الباطلة والأعمال الشنيعة.

والضمير عائد إلى { الْإِنْسَانُ } [5]، والمقصود المشركون من الناس لأنّهم المسوق لأجلهم هذا التهديد.

أي: فما للإنسان المشرك من قوّة يدفع بها عن نفسه وما له من ناصر يدافع عنه.

{ **وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ** [11] **وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ** [12] **إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ** [13] **وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ** [14] }.

استئناف ابتدائي، بعد أن تبيَّن الدليل على إمكان البعث أُعقِب بتحقيق أنّ القرآن حقّ وأنّ ما فيه قولٌ فصلٌ إبطالًا لما مُوِّه عليهم من أنّ أخباره غير صادقة، إذ قد أخبرهم بإحياء الرِّمم البالية.

أعيد القَسَم بـ { السَّمَاءِ } كما في أوّل السورة، وذُكر هنا من أحوال السماء ما له مناسبة بالمُقْسَم عليه، وهو الغيث الذي به صلاح الناس، فإنّ إصلاح القرآن للناس كإصلاح المطر. وفي الحديث: " **مَثَلُ ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا ...**".

{ **ذَاتِ الرَّجْعِ** } في اسم الرجع مناسبة لمعنى البعث في قوله تعالى { إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ } [8]، وفيه

مُحسِّن الجناس التام. وفي مُسمَّى الرجع، وهو المطر المعاقب لمطر آخر، مناسبة لمعنى البعث، فإنّ البعث حياة معاقبة بحياة سابقة.

{ **وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ** } عطف في القَسَم، لأنّ بذكر الأرض إتمام المناسبة بين المقسم والمقسم عليه، كما علمت من المثل الذي في الحديث.

الصدع: الشق، وهو مصدر بمعنى المفعول، أي: المصدوع عنه، وهو النبات الذي يخرج من شقوق الأرض، قال تعالى { أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا، ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا، فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا، وَعِنَبًا وَقَضْبًا، وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا } [عبس:25-29].

الفصل: مصدر بمعنى التفرقة، والمراد أنّه يفصل بين الحق والباطل، أي: يُبيّن الحق ويُبطل الباطل. والإخبار بالمصدر للمبالغة، أي: إنّه لقول فاصل.

{ **وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ** } عطف أعقب به الثناء على القرآن ردًّا على المشركين إذ كانوا يزعمون أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم جاء يهزل إذ يخبر بأن الموتى سيَحْيَون، يريدون تضليل عامتهم حين يسمعون قوارع القرآن وإرشاده وجزالة معانيه، يختلقون لهم تلك المعاذير ليصرفوهم عن أن يتدبّروا القرآن، وهو ما حكاه الله عنهم في قوله تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ } [فصلت:26]، فالهزل على هذا الوجه هو ضد الجد، أعني المزح واللعب.

ومثل هذه الصفة إذا وردت في الكلام البليغ لا محمل لها إلّا إرادة التعريض وإلّا كانت تقصيرا في المدح لا سيما إذا سبقتها محمدة من المحامد العظيمة.

ويجوز أن يطلق الهزل على الهذيان.

{ **إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا** [15] **وَأَكِيدُ كَيْدًا** [16] }.

استئناف بياني ينبئ عن سؤال سائل يعجب من إعراضهم عن القرآن مع أنّه قولٌ فصلٌ، ويعجب من معاذيرهم الباطلة مثل قولهم: هو هزل أو هذيان أو سحر، فبُيّن للسامع أنّ عملهم ذلك كيد مقصود. فهم يتظاهرون بأنّهم ما يصرفهم عن التصديق بالقرآن إلّا ما تحقّقوه من عدم صدقه، وهو إنّما يصرفهم عن الإيمان به الحفاظ على سيادتهم فيضلِّلون عامتهم بتلك التعلُّلات الملفَّقة.

ويجوز أن يكون الكلام موجَّها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم تسلية له على أقوالهم. أي: إنَّما يدَّعون أنّه هزل لقصد الكيد وليس لأنّهم يحسبونك كاذبا، على نحو قوله تعالى { فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ } [الأنعام: 33].

الكيد: إخفاء قصد الضرّ وإظهار خلافه، فكيدهم مستعمل في حقيقته. وأمّا الكيد المسند إلى ضمير الجلالة فهو مستعمل في الإمهال مع إرادة الانتقام عند وجود ما تقتضيه الحكمة من إنزاله بهم، وهو استعارة

تمثيلية، شُبِّهت هيئة إمهالهم وتركهم، مع تقدير إنزال العقاب بهم، بهيئة الكائد يخفي إنزال ضرّه ويظهر أنّه لا يريده، وحسَّنها مُحسِّن المشاكلة.

{ **فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا** } [17].

الفاء لتفريع الأمر بالإمهال على مجموع الكلام السابق من قوله تعالى { إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ } [13]، بما فيه من صريح وتعريض وتبيين ووعد بالنصر، أي: فلا تستعجل لهم بطلب إنزال العقاب فإنّه واقع بهم.

التمهيل: مصدر مهَّل بمعنى أمهل، وهو الإنظار إلى وقت معيَّن أو غير معيَّن.

{ **فَمَهِّلِ / أَمْهِلْهُمْ** } الجمع بينهما تكرير للتأكيد لقصد زيادة التسكين، وخُولف بين الفعلين في التعدية مرة بالتضعيف وأخرى بالهمز لتحسين التكرير.

{ **الْكَافِرِينَ** } المراد بهم ما عاد عليه ضمير { إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا } [15]، فهو إظهار في مقام الإضمار للنداء عليهم بمذّمة الكفر، فليس المراد جميع الكافرين بل أريد الكافرون المعهودون.

{ **رُوَيْدًا** } تصغير رُود (بضم الراء بعدها واو)، ولعلّه اسم مصدر، وأمّا قياس مصدره فهو رَوْد (بفتح الراء وسكون الواو)، وهو المَهْل وعدم العجلة. وهو مصدر مؤكِّد لفعل { أَمْهِلْهُمْ }.

ويجوز أن يكون { رُوَيْدًا } هنا اسم فعل للأمر، كما في قولهم: رويدك، أي: تصبّر ولا تستعجل نزول العذاب بهم، فيكون كناية عن الوعد بأنّه واقع لا محالة.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأعلى

وردت تسميتها في السنّة (**سورة سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى**)، ففي الصحيحين عن جابر بن عبد الله قال: قام معاذ فصلّى العشاء الآخرة فطوَّل فشكاه بعض من صلَّى خلفه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال النبيّ: " **أفتَّان أنت يا معاذ، أين كنت عن سبّح اسم ربك الأعلى والضحى** ".

وفي صحيح البخاري عن البراء بن عازب قال: " ما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة حتّى قرأت سبّح اسم ربك الأعلى في سور مثلها ".

وروى الترمذي عن النعمان بن بشير: " أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في العيد ويوم الجمعة سبِّح اسم ربك الأعلى وهل أتاك حديث الغاشية. "

وسمَّاها أكثر المفسِّرين وكُتّاب المصاحف (**سورة الأعلى**) لوقوع صفة الأعلى فيها دون غيرها.

وهي مكية في قول الجمهور، وحديث البراء بن عازب الذي ذكرناه آنفا يدلّ عليه.

وعن ابن عمر وابن عباس أنّ قوله تعالى { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى } [15/14]، نزل في صلاة العيد وصدقة الفطر، أي: فهما مدنيتان.

وما اشتملت عليه من المعاني يشهد لكونها مكية، وحسبك بقوله تعالى { سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى } [6].

وهي معدودة ثامنة في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد نزلت بعد سورة التكوير وقبل سورة الليل.

فهي من أوائل السور، وقوله تعالى { سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى } ينادي على ذلك.

وعدد آيها **تسع عشرة آية** باتفاق أهل العدد.

أغراض السورة

*/ اشتملت على تنزيه الله تعالى والإشارة إلى وحدانيّته لانفراده بخلق الإنسان وخلق ما في الأرض.

*/ تأييد النبيّ صلى الله عليه وسلم وتثبيته على تلقّي الوحي.

*/ أنّ الله معطيه شريعة سمحة وكتابا يتذكّر به أهل النفوس الزكيّة الذين يخشون ربّهم، ويُعرض عنه أهل الشقاوة الذين يؤثرون الحياة الدنيا ولا يعبأون بالحياة الأبدية.

*/ أنَّ ما أوحي إليه يصدِّقه ما في كتب الرسل من قبله، وذلك كلّه تهوين لما يلقاه من إعراض المشركين.

{ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى [1] الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى [2] وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى [3] وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى [4] فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى [5] }.

الافتتاح بأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بأن يُسبّح اسم ربه بالقول، يؤذن بأنّه سيلقي إليه عقبه بشارة وخيرا له، وذلك قوله تعالى { سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى } [6]، ففيه براعة استهلال.

التسبيح: التنزيه عن النقائص، وهو من الأسماء التي لا تضاف لغير اسم الله تعالى، وهو من المعاني الدينية، فأشبه أنّه منقول من العبرانية، وتقدّم عند قوله تعالى { وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ } [البقرة:30].

فتسبيح اسم الله النطق بتنزيهه، في الخُويصة وبين الناس، بذكر يليق بجلاله من العقائد والأعمال كالسجود والحمد. ويشمل ذلك استحضار الناطق بألفاظ التسبيح معاني تلك الألفاظ.

وأمّا تفكّر العبد في عظمة الله تعالى وترديد تنزيهه في ذهنه فهو تسبيح لذات الله ومسمَّى اسمه، ولا يُسمَّى تسبيح اسم الله، لأنّ ذلك لا يجري على لفظ من أسماء الله تعالى.

فهذا مناط الفرق بين استعمال { سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ } واستعمال { وَسَبِّحْهُ } ومآل الإطلاقين في المعنى واحد لأنّ كلا الإطلاقين مراد به الإرشاد إلى معرفة أنّ الله منزه عن النقائص.

{ **اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى** } تعريف { اسْمَ } بالإضافة إلى { رَبِّكَ } دون تعريفه بالإضافة إلى علم الجلالة نحو: سبح اسم الله، لِما يشعر به وصف (ربّ) من أنّه الخالق المدبّر.

{ **رَبِّكَ** } الإضافة إلى ضمير الرسول صلى الله عليه وسلم لتشريفه، وأن يكون له حظ زائد على التكليف بالتسبيح.

{ **الأَعْلَى** } هذه الصفة وما بعدها من الصلات الدالة على تصرفات قدرته، للإيماء إلى موجب الأمر بتسبيح اسمه بأنّه حقيق بالتنزيه استحقاقا لذاته، ولوصفه بصفة أنّه خالق المخلوقات خلقا يدلّ على العلم والحكمة وإتقان الصنع، وبأنّه أنعم بالهدى والرزق الذين بهما استقامة حال البشر في النفس والجسد.

وأوثرت الصفات الثلاث الأول لِما لها من المناسبة لغرض السورة كما سنبيّنه.

{ **الأَعْلَى** } اسم يفيد الزيادة في صفة العُلوّ، أي: الارتفاع. والارتفاع معدود في عرف الناس من الكمال فلا يُنسب العلو بدون تقييد إلّا إلى شيء غير مذموم في العرف، ولذلك إذا لم يذكر مع وصف الأعلى مفضَّل عليه أفاد التفضيل المطلق، كما في وصفه تعالى هنا. وهو مجاز عن الكمال التام الدائم.

ولم يُعد وصفه تعالى { الأَعْلَى } في عداد الأسماء الحسنى، لأنّ أسماء الله توقيفية فلا يُعدّ من صفات الله تعالى بمنزلة الاسم إلّا ما كثر إطلاقه إطلاق الأسماء.

<u>وهذا الوصف هو ملاك القانون في تفسير صفات الله تعالى ومحاملها</u> على ما يليق بوصف الأعلى.

وقد جُعل من قوله تعالى { سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى } دعاء السجود في الصلاة، إذ ورد أن يقول الساجد: سبحان ربي الأعلى، ليقرن أثر التنزيه الفعلي بأثر التنزيه القولي.

{ **الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى** } اشتملت على وصفين؛ وصف الخلق، ووصف تسوية الخلق، وحُذف المفعول،

فيجوز أن يُقدَّر عاما، وهو ما قدَّره جمهور المفسِّرين، وروي عن عطاء، أي: خلق كلّ مخلوق، فيكون كقوله تعالى حكاية عن قول موسى { رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى } [طه:50].

ويجوز أن يُقدَّر خاصا، أي: خلق الإنسان، كما قدّره الزجّاج، أو خلق آدم، كما روي عن الضحّاك، بقرينة قرن فعل { خَلَقَ } بفعل (سَوَّى)، قال تعالى { فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي } [الحجر:29].

{ **فَسَوَّى** } عطف الجملة بالفاء دون الواو للإشارة إلى أنّ مضمونها هو المقصود من الصلة وأنّ ما قبله توطئة له. والفاء للتفريع في الذكر باعتبار أنّ الخلق مقدّم في الاعتبار على التسوية، وإن كان حصول التسوية مقارنا لحصول الخلق.

التسوية: تسوية ما خلقه، فإن حُمِل على العموم، فالتسوية أن جعل كلّ جنس ونوع من الموجودات معادلا، أي: مناسبا للأعمال التي في جبلَّته.

التقدير: وضع المقدار وإيجاده في الأشياء في ذواتها وقواها، يقال: قدَّر بالتضعيف وقَدَر بالتخفيف.

المقدار: أصله كمية الشيء التي تضبط بالذرع أو الكيل أو الوزن أو العدّ، واطلق هنا على تكوين المخلوقات على كيفيّات منظّمة مطَّردة من تركيب الأجزاء الجسدية الظاهرة مثل اليدين، والباطنة مثل القلب، ومن إيداع القوى العقلية كالحس والاستطاعة وحيل الصناعة.

{ **وَالَّذِي قَدَّرَ / وَالَّذِي أَخْرَجَ** } إعادة اسم الموصول مع إغناء حرف العطف عن تكريره، للاهتمام بكلّ صلة من هذه الصلات وإثباتها لمدلول الموصول، وهذا من مقتضيات الإطناب.

{ **فَهَدَى** } مثل عطف { فَسَوَّى } ، فإن حُمل { خَلَقَ } و { قَدَّرَ } على عموم المفعول كانت الهداية عامة. وعطف { فَهَدَى } على { قَدَّرَ } عطف المسبَّب على السبب، أي: فهدى كلّ مقدَّرٍ إلى ما قدَّر له، فهداية الإنسان وأنواع جنسه من الحيوان، الذي له الإدراك والإرادة، هي هداية الإلهام إلى كيفية استعمال ما قدَّر فيه من المقادير والقوى فيما يناسب استعماله فيه، فكلّما حصل شيء من آثار ذلك التقدير حصل بأثره الاهتداء إلى تنفيذه.

فالله لمّا قدّر للإنسان أن يكون قابلا للنطق والعلم والصناعة بما وهبه من العقل وآلات الجسد هداه لاستعمال فكره لما يُحصِّل له ما خُلق له، ولمّا قدّر النحل لإنتاج العسل ألهمها أن ترعى النور والثمار وألهمها بناء الجِبْح وخلاياه.

{ **وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى** } تذكير لخلق جنس النبات من شجر وغيره. واقتُصر على بعض أنواعه، وهو الكلأ، لأنّه معاش السوائم التي ينتفع الناس بها. وإيثار كلمة { الْمَرْعَى } دون لفظ النبات، لما تُشعر به مادة الرعي من نفع الأنعام به ونفعها للناس الذين يتخذونها، مع رعاية الفاصلة.

الغُثاء: (بضم الغين المعجمة وتخفيف المثلثة، ويقال بتشديد المثلثة) وهو اليابس من النبت.

الأحوى: الموصوف بالحُوَّة (بضم الحاء وتشديد الواو)، وهي من الألوان: سمرة تقرب من السواد.

{ **فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى** } هذا الوصف مع ما سبقه من الأوصاف إيماء إلى تمثيل حال القرآن وهدايته وما اشتمل عليه من الشريعة التي تنفع الناس بحال الغيث الذي ينبت به المرعى فتنتفع به الدواب والأنعام.

وقد جاء بيان هذا الإيماء وتفصيله بقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" مثل ما بعثني الله به من الهدى كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقيّةٌ قَبِلَت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ...".**

ويجوز أن يكون المقصود إدماج العبرة بتصاريف ما أودع الله في المخلوقات من مختلف الأطوار من الشيء إلى ضدّه، للتذكير بالفناء بعد الحياة، كما قال تعالى { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ } [الروم:54]، للإشارة إلى أنّ مدّة نضارة الحياة للأشياء تشبه المدّة القصيرة، ويكون ذلك من قبيل قوله تعالى { إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حتّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ } [يونس:24].

{ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى [6] إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى [7] }.

قد عرفت أنّ الأمر بالتسبيح في قوله تعالى { سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى } [1] بشارة إجمالية للنبيّ صلى الله عليه وسلم بخير يحصل له، فهذا موقع البيان الصريح بوعده بأنّه سيعصمه من نسيان ما يقرئه فيُبلِّغه كما أوحي إليه ويحفظه من التفلّت عليه، ولهذا تكون هذه الجملة استئنافا بيانيا لأنّ البشارة تنشئ في نفس النبيّ صلى الله عليه وسلم ترقُّبًا لوعد بخير يأتيه، فبشّره بأنّه سيزيده من الوحي.

وقد ثبت في الصحيح عن ابن عباس: " أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يعالج من التنزيل شدّة إذا نزل جبريل، وكان ممّا يحرك شفتيه ولسانه، يريد أن يحفظه ويخشى أن يتفلّت عليه، فقيل له: { لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ } [القيامة:17/16] ".

قال: " فكان إذا أتاه جبريل أطرق فإذا ذهب قرأه كما قرأ جبريل، كما وعده الله ".

وسورة القيامة نزلت بعد سورة الأعلى، فتعيّن أنّ قوله تعالى { سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى } وعد من الله بعونه على حفظ جميع ما يوحى إليه.

{ **سَنُقْرِئُكَ** } تمهيد للمقصود الذي هو { فَلا تَنْسَى } وإدماج للإعلام بأنّ القرآن في تزايد مستمر، فإذا كان قد خاف من نسيان بعض ما أوحي إليه على حين قلّته فإنّه سيتتابع ويتكاثر فلا يخش نسيانه فقد تكفّل له عدم نسيانه مع تزايده..

والالتفات بضمير المتكلّم المعظّم لأنّ التكلُّم أنسب بالإقبال على المبشّر.

وإسناد الإقراء إلى الله مجاز عقلي لأنّه جاعل الكلام المقروء وآمر بإقرائه.

النسيان: عدم خطور المعلوم السابق في حافظة الإنسان برهة أو زمانا طويلا.

{ **إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ** } الاستثناء مفرَّع من فعل { تَنْسَى }، و{ مَا } موصولة هي المستثنى. والتقدير: إلّا الذي شاء الله أن تنساه. والمقصود بهذا أن بعض القرآن ينساه النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا شاء الله أن ينساه. وذلك نوعان:

النوع الأوّل: وهو أظهرهما، أنّ الله إذا شاء نسخ تلاوة بعض ما أنزل على النبيّ صلى الله عليه وسلم أمره بأن يترك قراءته، فأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم المسلمينَ بأن لا يقرؤوه حتّى ينساه النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمون. وهذا مثل ما روي عن عمر أنّه قال: كان فيما أنزل (الشيخ والشخة إذا زنيا فارجموهما) قال عمر: لقد قرأناها، وأنّه كان فيما أنزل (لا ترغبوا عن آبائكم فإنّ كفرا بكم أن ترغبوا عن آبائكم).

النوع الثاني: ما يعرض نسيانه للنبيّ صلى الله عليه وسلم نسيانا مؤقّتا كشأن عوارض الحافظة البشرية ثم يُقيِّض الله له ما يذكِّره به. ففي صحيح البخاري عن عائشة قالت: " سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم رجلا يقرأ من الليل بالمسجد فقال: " **يرحمه الله فقد أذكرني كذا وكذا آية أسقطتهن أو كنت أُنسيتها من سورة كذا وكذا** ". وفيه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أسقط آية في قراءته في الصلاة فسأله أبي بن كعب أنسخت؟ فقال: " **نسيتها** ".

{ **إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى** } معترضة وهي تعليل لجملة { فَلا تَنْسَى، إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ }، فإنّ مضمون تلك الجملة ضمان الله لرسوله صلى الله عليه وسلم حفظ القرآن من النقص العارض.

ومناسبة الجهر وما يخفى أن ما يقرؤه الرسول صلى الله عليه وسلم من القرآن هو من قبيل الجهر، وما ينساه فيُسقطه حين القراءة فهو من قبيل الخفي.

{ **وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى** } [8].

عطف على { سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى } [6]، من عطف الأعمّ على الأخصّ في المآل، وإن كان مفهوم الجملة السابقة مغايرا لمفهوم التيسير لأنّ مفهومها الحفظ والصيانة ومفهوم المعطوفة تيسير الخير له.

التيسير: جعل العمل يسيرا على عامله.

اليسرى: مؤنث الأيسر، وصيغة فُعلى تدل على قوة الوصف لأنّها مؤنث أفعل.

والموصوف محذوف، وسياق الكلام الذي قبله يهدي إلى أن يكون الموصوف المقدَّر الشريعة، فإنّ خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم في القرآن مراعى فيه وصفه أنّه رسول فلا جرم أن يكون أوّل شؤونه هو ما أرسل به وهو الشريعة. أي: نهيّئك للأمور اليسرى في أمر الدين وعواقبه، من تيسير حفظ القرآن لك وتيسير الشريعة التي أرسلت بها، وتيسير الخير لك في الدنيا والآخرة.

فاشتمل الكلام على تيسيرين: تيسير ما كُلِّف به النبيّ صلى الله عليه وسلم، أي: جعله يسيرا مع وفائه بالمقصود منه، وتيسير النبيّ صلى الله عليه وسلم للقيام بما كُلِّف به.

المعنى: وعد الله إيّاه بأنّه يسَّره لتلقي أعباء الرسالة فلا تشق عليه ولا تحرجه تطمينا له، إذ كان في أوّل أمر إرساله مشفقا أن لا يفي بواجباتها. أي: أنّ الله جعله قابلا لتلقّي الكمالات وعظائم تدبير الأمّة التي من شأنها أن تشقّ على القائمين بأمثالها.

ومن آثار هذا التيسير ما ورد في الحديث: " أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما خُيِّر بين أمرين إلّا اختار أيسرها " ، وقوله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: **" إنّما بُعثتم ميسِّرين لا مُعسِّرين "**.

{ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى [9] سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى [10] وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى [11] الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى [12] ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى [13] }.

بعد أن ثبَّت الله رسوله صلى الله عليه وسلم تكَّفل له ما أزال فَرَقه من أعباء الرسالة وما اطمأنت به نفسه من دفع ما خافه من ضعف عن أدائه الرسالة على وجهها. أعقب ذلك بأن أمره بالتذكير، أي: التبليغ.

{ **فَذَكِّرْ** } الفاء للتفريع على ما تقدّم، والأمر مستعمل في طلب الدوام. والمفعول محذوف لقصد التعميم، أي: فذكِّر الناس.

الذكرى: اسم مصدر التذكير، وتقدّم في [عبس:4].

{ **إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى** } معترضة بين الجملتين المعلَّلة وعلَّتها، وهذا الاعتراض منظور فيه إلى العموم الذي اقتضاه حذف مفعول { فَذَكِّرْ }، أي: فدم على تذكير الناس كلهم إن نفعت الذكرى جميعهم، أي: وهي لا تنفع إلا البعض، وهو الذي يؤخذ من قوله تعالى { سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى }.

والشرط في قوله تعالى { إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى } ليس متعلقًا بالجملة ولا تقييدا لمضمونها، إذ ليس المعنى: فذكّر إذا كان للذكرى نفع حتّى يُفهم منه بطريق مفهوم المخالفة أن لا تذكِّر إذا لم تنفع الذكرى، بل المراد فذكِّر الناس كافة إن كانت الذكرى تنفع جميعهم، فالشرط مستعمل في التشكيك، فالدعوة عامة وما يعلمه الله من أحوال الناس في قبول الهدى وعدمه أمر استأثر الله بعلمه، فالله لم يخص بالدعوة من يُرجى منهم الإيمان. والواقع يكشف المقدور. وهذا معنى قول ابن عباس: " تنفع أوليائي ولا تنفع أعدائي ".

{ **سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى** } استئناف بياني ناشئ عن قوله تعالى { فَذَكِّرْ } وما لحقه من الاعتراض بقوله تعالى { إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى } المشعر بأن التذكير لا ينتفع به جميع المذكِّرين.

يذَّكّر: مطاوع ذكَّره. وأصله: يتذكَّر.

{ **مَنْ يَخْشَى** } جنس لا فرد معيَّن، أي: سيتذكّر الذين يخشون.

الخشية: الخوف، وتقدّم في قوله تعالى { لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى } [طه:44].

والخشية ذات مراتب وفي درجاتها يتفاضل المؤمنون.

التجنُّب: التباعد، وأصله تفعُّل لتكلّف الكينونة بجانب من شيء. كناية عن طلب البعد.

أي: يتباعد عن الذكرى الأشقى.

{ **الأَشْقَى** } تعريف الجنس، أي: الأشقَوْن.

الأشقى: هو شديد الشقوة، والشقوة والشقاء في لسان الشرع الحالة الناشئة في الآخرة عن الكفر من حالة الإهانة والتعذيب. فالأشقى: هو الكافر لأنّه أشد الناس شقاء في الآخرة لخلوده في النار.

وعندنا أنّ من عُلِم إلى موته مؤمنا فليس بشقي.

ومن المفسّرين من حمله على العهد فقال: أريد به الوليد بن المغيرة، أو عتبة بن ربيعة.

{ **الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى** } لأنّ إطلاق { الأَشْقَى } في هذه الآية في صدر مدة البعثة المحمدية فكان فيه من الإبهام ما يحتاج إلى البيان فأُتبِع بوصف يُبيّنه.

{ **مَنْ يَخْشَى / الْأَشْقَى** } المقابلة تؤذن بأنّ { الأَشْقَى } من شأنه أن لا يخشى فهو سادر في غروره منغمس في لهوه فلا يتطلّب لنفسه تخلّصا من شقائه.

{ **الْكُبْرَى** } وصف النار بذلك للتهويل والإنذار، والمراد بها جهنم.

{ **ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى** } عطف على جملة { يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى } فهي صلة ثانية.

{ **ثُمَّ** } للتراخي الرتبي تدلّ على أنّ معطوفها متراخي الرتبة في الغرض المسوق له الكلام، وهو شدّة العذاب، فإنّ تردّد حاله بين الحياة والموت، وهو في عذاب الاحتراق، عذاب أشدّ.

{ **لا يَمُوتُ** } لا يزول عنه الإحساس، فإنّ الموت فقدان الإحساس، وهي ممّا يؤكِّد اعتبار تراخي الرتبة في هذا التنكيل.

{ **وَلا يَحْيَى** } تعقيب للاحتراس، لدفع توهّم أن يراد بنفي الموت عنهم أنّهم استراحوا من العذاب.

أي: لا يحيى حياة خالصة من الآلام.

وليس هذا من قبيل نفي وصفين لإثبات حالة وسط بين حالتيهما لأنّ ذلك لا طائل تحته.

<u>ويجوز</u> أن نجعل نفي الحياة كناية عن نفي الخلاص بناء على أنّ لازم الإحراق الهلاك ولازم الحياة عدم الهلاك.

{ **لَا يَمُوتُ / لَا يَحْيَى** } مُحسّن الطباق لأجل التضاد الظاهر.

{ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى [14] وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى [15] }.

استئناف بياني لأنّ ذكر { مَنْ يَخْشَى } وذكر { الْأَشْقَى } يثير استشراف السامع لمعرفة أثر ذلك، <u>فابتُدئ بوصف أثر الشقاوة</u> فوصف { الْأَشْقَى } بأنّه { يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى } [12]، وأخِّر ذكر ثواب الأتقى تقديما للأهم في الغرض، وهو بيان جزاء الأشقى الذي يتجنب الذكرى، وبقي السامع ينتظر أن يعلم جزاء من يخشى ويتذكّر، فلما وُفِّي حق الموعظة والترهيب استُؤنف الكلام لبيان المثوبة والترغيب.

{ **قَدْ أَفْلَحَ** } جمعت أنواع الخير، فإنّ الفلاح نجاح المرء فيما يطمح إليه، فهو يجمع معنيي الفوز والنفع وذلك هو الظفر بالمبتغى من الخير، وتقدّم في قوله تعالى { وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [البقرة:5].

والإتيان بالفعل الماضي للتنبيه على المحقَّق وقوعه في الآخرة، واقترانه بحرف { قَدْ } لتحقيقه، كما في قوله تعالى { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ } [المؤمنون:1]، وقوله تعالى { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا } [الشمس:9]، لأنّ الكلام موجّه إلى الأشقَيْن الذين تجنّبوا الذكرى إثارة لهمَّتهم في الالتحاق بالذين خشوا فأفلحوا.

{ **مَنْ تَزَكَّى** } المراد هنا عين المراد بـ { سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى } فقد عُرِّف هنا بأنّه الذي ذكر اسم ربّه.

تزكّى: عالَجَ أن يكون زكيّا، أي: بذل استطاعته في تطهير نفسه وتزكيتها، كما قال تعالى { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا } [الشمس:10/9]. وأصل ذلك هو التوحيد والاستعداد للأعمال الصالحة.

وقُدِّم التزكّي على ذكر الله والصلاة لأنه أصل العمل، فإنّه إذا تطهرت النفس أشرقت فيها أنوار الهداية فعلمت منافعها وأكثرت من الإقبال عليها. والمراد هنا تزكّى بالإيمان.

{ **ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ** } يجوز أن يكون من الذِّكر اللساني (بكسر الذال)، فيكون كلمة { اسْمَ رَبِّهِ } مرادا بها ذكر أسماء الله بالتعظيم، مثل قول: لا إله إلا الله، وقول: الله أكبر، وسبحان الله ونحو ذلك على ما تقدّم في قوله تعالى { سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى } [1].

ويجوز أن يكون من الذُّكر (بضم الذال) وهو حضور الشيء في النفس الذاكرة والمفكّرة، فتكون كلمة { اسم } مقحمة لتدل على شأن الله وصفات عظمته، فإنّ أسماء الله أوصاف كمال.

{ **فَصَلَّى** } تفريع على { ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ }، لأنّ الذكر بمعنييه يبعث الذاكر على تعظيم الله تعالى والتقرّب إليه بالصلاة التي هي خضوع وثناء.

وقد رُتِّبت هذه الخصال الثلاث في الآية على ترتيب تولّدها؛ فاصلها إزالة الخباثة النفسية من عقائد باطلة وحديث النفس بالمضمَرات الفاسدة وهي المشار إليها بقوله تعالى { تَزَكَّى }، ثم استحضار معرفة الله بصفات كماله وحكمته ليخافه ويرجوه وهو المشار إليه بقوله تعالى { وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ }، ثم الإقبال على طاعته وعبادته وهو المشار إليه بقوله تعالى { فَصَلَّى }، والصلاة تشير إلى العبادة وهي في ذاتها طاعة وامتثال، قال تعالى { إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ } [العنكبوت:45].

{ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا [16] وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى [17] }.

الخطاب موجّه للمشركين بقرينة السياق، وهو التفات.

{ **بَلْ** } حرف إضراب، إضراب عن حكاية أحوال الفريقين بالانتقال إلى توبيخ أحد الفريقين، وهو الفريق الأشقى، فالخطاب موجّه إليهم على طريقة الالتفات.

ويجوز أن يكون الاضراب إبطالا لما تضمَّنه قوله تعالى { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى } [14]، من التعريض للذين شقُوا بتحريضهم على طلب الفلاح لأنفسهم ليلتحقوا بالذين يخشَون ويتزكَّون.

فالمعنى: بل أنتم تؤثرون منافع الدنيا على حظوظ الآخرة، وهذا كما يقول الناصح لشخص يظن أنه لا ينتصح: لقد نصحتك وما أظنك تفعل.

الإيثار: اختيار شيء من بين متعدد. أي: تؤثرون الحياة الدنيا بعنايتكم واهتمامكم.

ولم يُذكر المؤثَر عليه لأن { الْحَيَاةَ الدُّنْيَا } تدل عليه، أي: لا تتأمَّلون فيما عدا حياتكم هذه، فالمشركون لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكِّروا بالحياة الآخرة وأُخبروا بها لم يعيروا سمعهم ذلك وجعلوا ذلك من الكلام الباطل، وهذا مورد التوبيخ.

واعلم أن للمؤمنين حظًّا من هذه الموعظة على طول الدهر، وذلك حظ مناسب لمقدار ما يفرّط فيه أحدهم ممَّا ينجيه في الآخرة إيثارا لما يجتنيه من منافع الدنيا، فأمّا الاستكثار من منافع الدنيا مع عدم إهمال أسباب النجاة في الآخرة فذلك ميدان للهمم وليس ذلك بمحلّ ذمّ، قال تعالى { وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا } [القصص:77].

{ **وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى** } عطف على جملة التوبيخ، لأنّ هذا الخبر يزيد إنشاء التوبيخ توجيها وتأييدا بأنّهم في إعراضهم عن النظر في دلائل حياة آخرة قد أعرضوا عمّا هو خير وأبقى.

{ **وَأَبْقَى** } اسم تفضيل، أي: أطول بقاء، وفي حديث النهي عن جر الإزار: **" وليكن إلى الكعبين فإنّه أتقى وأبقى ".**

{ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى [18] صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى [19] }.

تذييل للكلام وتنويه به بأنّه من الكلام النافع الثابت في كتب إبراهيم وموسى عليهما السلام، قُصد به الإبلاغ للمشركين الذين كانوا يعرفون رسالة إبراهيم ورسالة موسى، ولذلك أكِّد هذا الخبر.

{ **هَذَا** } إشارة إلى مجموع قوله تعالى { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى - إلى قوله – وَأَبْقَى } [14-17]، فإنّ ما قبل ذلك من أوّل السورة، ليس ممّا ثبت معناه في صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام.

{ **لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى** } معنى الظرفية أنّ مماثله في المعنى مكتوب في الصحف الأولى.

الصحف: جمع صحيفة على غير قياس، لأنّ قياس جمعه صحائف.

{ **الْأُولَى** } صيغة تفضيل، وصف للصحف. والمراد بالأوّلية في وصف الصحف سبق الزمان بالنسبة إلى القرآن، لا التي لم يسبقها غيرها، لأنه قد روي أنّ بعض الرسل قبل إبراهيم أنزلت عليهم صحف.

فهو كوصف (عاد) بـ { الْأُولَى } في قوله تعالى { وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى } [النجم:50].

وفي حديث البخاري: **" إنّ ممّا أدرك الناس من كلام النبوّة الأولى إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت ".**

{ **صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى** } بدل من { الصُّحُفِ الْأُولَى }.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الغاشية

سُمِّيت في المصاحف والتفاسير (**سورة الغاشية**)، لوقوع لفظ { الْغَاشِيَةِ } في أوّلها.

وكذلك عنونها الترمذي في كتاب التفسير من جامعه.

وثبت في السنّة تسميتها { **هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ** }، ففي الموطأ أنّ الضحّاك بن قيس سأل النعمان بن بشير بمَ كان رسول الله يقرأ في الجمعة مع سورة الجمعة؟ قال: { هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ }. وهذا ظاهر في التسمية، وبذلك عنونها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه.

وهي مكية بالاتفاق.

وهي معدودة **السابعة والستين** في عداد نزول السور نزلت بعد سورة الذاريات وقبل سورة الكهف.

وآياتها ست وعشرون.

أغراض السورة

*/ تهويل يوم القيامة وما فيه من عقاب قومٍ مشوَّهةٍ حالتُهم، ومن ثواب قومٍ ناعمةٍ حالتهم.

*/ الإنكار على قوم لم يهتدوا بدلالة مخلوقات من خلق الله، وهي نصب أعينهم، على تفرّده بالإلهية.

*/ إمكان إعادته بعض مخلوقاته خلقا جديدا بعد الموت يوم البعث.

*/ تثبيت النبيّ صلى الله عليه وسلم على الدعوة إلى الإسلام وأن لا يعبأ بإعراضهم.

*/ أنّ وراءهم البعث، فهم راجعون إلى الله فهو مجازيهم على كفرهم وإعراضهم.

{ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ } [1].

الافتتاح بالاستفهام عن بلوغ خبر الغاشية مستعمل في التشويق إلى معرفة هذا الخبر لما يترتّب عليه من الموعظة.

{ هَلْ } تفيدة معنى (قد)، استفهام صوري يُكنَّى به عن أهمية الخبر بحيث شأنه أن يكون بلغ السامع، وتقدّم نظيره في قوله تعالى { وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ } [صّ:21].

الإتيان: يطلق على فشو الحديث.

الحديث: الخبر المتحدَّث به وهو فعيل بمعنى مفعول، أو الخبر الحاصل بحدثان. وتقدّم في [النازعات:15].

{ الْغَاشِيَةِ } مشتقّة من الغشيان وهو تغطية متمكّنة، وهي صفة أريد بها حادثة القيامة، سُمِّيت غاشية على وجه الاستعارة لأنّها إذا حصلت لم يجد الناس مفرًّا من أهوالها فكأنّها غاشٍ يغشى على عقولهم.

ويطلق الغشيان على غيبوبة العقل، فيجوز أن يكون وصف الغاشية مشتقا منه.

الغاشية: هنا عَلَم بالغلبة على ساعة القيامة كما يؤذن بذلك قوله عقبه { وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ }، أي: يوم الغاشية.

{ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ [2] عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ [3] تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً [4] تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ [5] لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ [6] لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ [7] }.

الجملة بيان لحديث الغاشية كما يفيده الظرف { يَوْمَئِذٍ }، فإنّ ما صدقه هو يوم الغاشية.

{ وُجُوهٌ } التنكير قُصد منه النوع، كناية عن أصحابها، إذ يُكنَّى بالوجه عن الذات، كقوله تعالى { وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرَامِ } [الرحمن:27].

وأوثرت الوجوه بالكناية عن أصحابها هنا، وفي مثل هذا المقام، لأنّ حالة الوجوه تنبئ عن حالة أصحابها إذ الوجه عنوان عمّا يجده صاحبه من نعيم أو شقوة. كقوله تعالى { وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ } [عبس:38].

و{ خَاشِعَةٌ / عَامِلَةٌ / نَاصِبَةٌ } أخبار ثلاثة عن { وُجُوهٌ }، والمعنى: أناس خاشعون...

ويجوز أن يُجعل إسناد (الخشوع والعمل والنصب) إلى { وُجُوهٌ } من قبيل المجاز العقلي.

{ يَوْمَئِذٍ } يتعلق بـ { خَاشِعَةٌ } قُدِّم على متعلّقة للاهتمام بذلك اليوم.

{ خَاشِعَةٌ } ذليلة، قال تعالى { وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ } [الشورى:45].

العاملة: المكلّفة العَمَل من المشاق يومئذ.

ناصبة: من النصب وهو التعب.

{ **خَاشِعَةٌ / عَامِلَةٌ / نَاصِبَةٌ** } أوثرت هذه الأوصاف تعريضا بأهل الشقاء بتذكيرهم بأنّهم تركوا الخشوع لله والعمل بما أمر به والنصب في القيام بطاعته، فجزاؤهم خشوع مذلّة، وعمل مشقّة، ونصب إرهاق.
{ **تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً** } خبر رابع عن { وُجُوهٌ }، ويجوز أن تكون حالا، يقال: صَلِيَ يَصْلَى، إذ أصابه حرُّ النار، وعليه فذكر { نَارًا } بعد { تَصْلَى } لزيادة التهويل والإرهاب، وليجري عليه وصف { حَامِيَةً }.
{ **حَامِيَةً** } وصف النار بذلك لإفادة تجاوز حرّها المقدار المعروف، قال تعالى { نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ } [الهمزة:6].
{ **تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ** } خبر خامس عن { وُجُوهٌ }، أو هو حال من ضمير { تَصْلَى }، لأنّ ذكر الاحتراق بالنار يُحْضِر في الذهن تطلُّب إطفاء حرارتها بالشراب فجُعل شرابهم من عين آنية.
{ **آنِيَةٍ** } يقال: أَنَى إذا بلغ شدّة الحرارة، ومنه قوله تعالى { يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ } [الرحمن:44].
{ **لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ** } ذكر السقي يُخْطِر في الذهن تطلُّب معرفة ما يُطعَمونه، فجيء به خبرا سادسا أو حالا من ضمير { تُسْقَى }. أي: يطعَمون طعام إيلام وتعذيب لا نفع فيه لهم ولا يدفع عنهم ألما.
الضريع: يابس الشِّبْرِق (بكسر الشين المعجمة وسكون الموحدة وكسر الراء) وهو نبت ذو شوك إذا كان رطبا فإذا يبس سُمِّي ضريعا وحينئذ يصير مسموما، وهو مرعى للإبل ولحمر الوحش إذا كان رطبا.
شُبِّه طعام أهل النار بالضريع في سوء طعمه وسوء مغبّته.
وقيل: الضريع اسم سَمَّى القرآن به شجرا في جهنم، وأنّ هذا الشجر هو الذي يسيل منه (الغسلين) الوارد في قوله تعالى { فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ، وَلا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ } [الحاقة: 36/35].
وعليه فحرف { مِنْ } للابتداء، أي: ليس لهم طعام إلّا ما يخرج من الضريع والخارج هو الغسلين.
ويحصل بذلك الجمع بين الآيتين.
{ **لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ** } وُصف طعام أهل النار بذلك لتشويهه وأنّه تمحَّض للضرّ.
السِّمَن: (بكسر السين وفتح الميم) وفرة اللحم والشحم، يقال: أسمنه الطعام.
الإغناء: الإكفاء ودفع الحاجة.

{ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ [8] لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ [9] فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ [10] }.

حقّ الجملة أن تعطف على جملة { وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ } [2] بالواو لأنّها مشاركة لها في حكم البيان لحديث الغاشية، كما عُطفت جملة { وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ } [عبس:40] على جملة { وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ } [عبس:38].
ووجه الفصل التنبيه على أنّ المقصود من الاستفهام في { هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ } [1] الإعلام بحال المعرَّض بتهديدهم وهم أصحاب الوجوه الخاشعة، فلمّا حصل ذلك الإعلام وتم المقصود، جاءت الجملة بعدها مفصولة لأنّها جُعلت استئنافا بيانيا جوابا عن سؤال مقدّر: هل من حديث الغاشية ما هو مغاير لهذا

الهول؟ ولهذا النظم صارت هذه الجملة بمنزلة الاستطراد والتتميم، لإظهار الفرق بين حالي الفريقين، ولتعقيب النذارة بالبشارة.

فأمّا الجملتان اللتان في سورة عبس فلم يتقدمهما إبهام لأنّهما متّصلتان معا بالظرف وهو { فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ } [عبس:33].

{ **وُجُوهٌ** } القول في تنكيرها، والمراد بها، والإخبار عنها بما بعدها، كالقول في الآيات التي سبقتها.

{ **نَاعِمَةٌ** } خبر عن { وُجُوهٌ }. يجوز أن يكون مشتقًّا من نَعُمَ (بضم العين) ينعُم الذي مصدره نعُومة وهي اللين وبهجة المرأى وحسن المنظر. ويجوز أن يكون مشتقا من نعِم (بكسر العين) ينعَم، إذا كان ذا نعمة، أي: حسن العيش والترف.

{ **لِسَعْيِهَا** } يتعلّق بقوله { رَاضِيَةٌ }، و{ رَاضِيَةٌ } خبر ثان عن { وُجُوهٌ }.

السعي: العمل الذي يسعاه المرء ليستفيد منه. وعُبِّر به هنا مقابل قوله تعالى في ضدّه { عَامِلَةٌ } [3].

الرضى: ضد السخط، أي: هي حامدة ما سعته في الدنيا من العمل الذي هو امتثال ما أمر الله به.

{ **فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ** } خبر ثالث عن { وُجُوهٌ }.

الجنّة: أريد به مجموع دار الثواب الصادقُ بجنات كثيرة، أو أريد به الجنس.

{ **عَالِيَةٍ** } وصف لزيادة الحسن لأنّ أحسن الجنّات ما كان في المرتفعات، قال تعالى { كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ } [البقرة:265]، وهذا وصف شامل لحسن موقع الجنّة.

{ لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً } [11].

صفة ثانية لـ { جَنَّةٍ } [10]، تُرك عطفها على الصفة التي قبلها لأنّ النعوت المتعدّدة يجوز أن تُعطف ويجوز أن تُفصل دون عطف.

اللاغية: مصدر بمعنى اللغو مثل الكاذبة للكذب. أي: لا يُسمع فيها لغو، أو هو وصف لموصوف مقدَّر التأنيث، أي: كلمة لاغية، ووصف الكلمة بذلك مجاز عقلي لأنّ اللاغي صاحبها.

اللغو: الكلام الذي لا فائدة له، وهذا تنبيه على أنّ الجنّة دار جد وحقيقة فلا كلام فيها إلّا لفائدة، لأنّ النفوس فيها تخلصت من النقائص كلها فلا ينطقون إلّا ما يزيد النفوس تزكية.

ابتدئ في تعداد صفات الجنة بصفتها الذاتية وهو كونها عالية. وثُني بصفة تنزيهها عمّا يُعدّ من نقائص مجامع الناس ومساكن الجماعات وهو الغوغاء واللغو. وهذا وصف للجنة بحسن سكّانها.

{ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ } [12].

صفة ثالثة لـ { جَنَّةٍ } [10]. فالمراد جنس العيون. وهذا وصف للجنة باستكمالها محاسن الجنات، قال تعالى { أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا } [الاسراء:91].

وإنّما لم تعطف على التي قبلها لاختلافهما بالفعلية في الأولى والاسمية في الثانية، وذلك الاختلاف من مُحسِّنات الفصل، ولأنّ السابقة مقصود منها التنزّه عن النقائص وهذه مقصود منها إثبات بعض المحاسن.

{ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ [13] وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ [14] وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ [15] وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ [16] }.

صفة رابعة لـ { جَنَّةٍ } [10].

{ **فِيهَا** } أعيد دون أن يُعطف { سُرُرٌ } على { عَيْنٌ } عطف المفردات لأن عطف السرر على { عَيْنٌ } يبدو نابيا عن الذوق لعدم الجامع بين عين الماء والسرر في الذهن لولا أن جمعها الكون في الجنّة.

وهذا وصف لمحاسن الجنة بمحاسن أثاث قصورها.

{ **سُرُرٌ** } جمع سرير، وهو ما يُجلس عليه ويُضطجع فيسع الإنسان المضطجع. ويُتّخذ من خشب أو حديد له قوائم ليكون مرتفعا عن الأرض.

{ **مَرْفُوعَةٌ** } ولمّا كان الارتفاع عن الأرض مأخوذا في مفهوم السُرُر كان هذا الوصف لتصوير حسنها.

{ **أَكْوَابٌ** } جمع كُوب، وهو إناء للخمر له ساق ولا عروة له.

{ **مَوْضُوعَةٌ** } أي: لا تُرفع من بين أيديهم، كناية عن عدم انقطاع لذّة الشراب طعما ونشوة.

النمارق: جمع نُمْرُقة، وهي الوسادة التي يتكئ عليها الجالس والمضطجع.

{ **مَصْفُوفَةٌ** } أي: جعل بعضها قريبا من بعض صفا، أي: أينما أراد الجالس أن يجلس وجدها.

{ **زَرَابِيُّ** } : جمع زَرْبِيَّة، وهي البساط أو الطُّنفسة المنسوج من الصوف الملون الناعم يفرش في الأرض للزينة والجلوس عليه لأهل الترف واليسار.

المبثوثة: المنتشرة على الأرض، كناية عن الكثرة.

وقد قوبلت صفات وجوه أهل النار بصفات وجوه أهل الجنة:

*/ قوبلت صفات { خَاشِعَةٌ / عَامِلَةٌ / نَاصِبَةٌ } بصفات { نَاعِمَةٌ، لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٍ }.

*/ قوبل قوله تعالى { تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً } [4] بقوله تعالى { فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ } [10].

*/ قوبل قوله تعالى { تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ } [5] بقوله تعالى { فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ } [12].

*/ قوبل شقاء عيش أهل النار الذي أفاده قوله تعالى { لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ، لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ } [7/6]، بمقاعد أهل الجنّة المشعرة بترف العيش من شراب ومتاع.

وهذا وعد للمؤمنين بأنّ لهم في الجنة ما يعرفون من النعيم في الدنيا، لأنّ الأرواح ترتاح بمألوفاتها فتُعطاها، فيكون نعيم أرواح الناس في كلّ عصر ومن كلّ مصر في الدرجة القصوى ممّا ألفوه، وممّا كانوا يتمتّعون به في الدنيا، ثم يزادون من النعيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

{ أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْأِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ [17] وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ [18] وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ [19] وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ [20] }.

لمّا تقدم التذكير بيوم القيامة ووصف حال أهل الشقاء، وكان قد تقرَّر فيما نزل من القرآن أنّ أهل الشقاء هم أهل الإشراك بالله، فُرّع على ذلك إنكار عليهم إعراضهم عن النظر في دلائل الوحدانية.

{ **أَفَلا يَنْظُرُونَ** } الفاء تفريع التعليل على المعلَّل، لأنّ فظاعة ذلك الوعيد تجعل المقام مقام استدلال على أنّهم محقوقون بوجوب النظر في دلائل الوحدانية التي هي أصل الاهتداء إلى تصديق ما أخبرهم به القرآن من البعث والجزاء، وإلى الاهتداء إلى أن منشئ النشأة الأولى عن عدم، بما فيها من عظيم الموجودات كالجبال والسماء، لا يُستبعد في جانب قدرته إعادة إنشاء الإنسان بعد فنائه، وهو دون تلك الموجودات العظيمة الأحجام، فكان إعراضهم عن النظر مجلبة لما يحلّ بهم من الشقاوة يوم الغاشية.

وما وقع بين هذا التفريع وبين المفرَّع عنه من قوله تعالى { وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ...} [8-16] كان في موقع الاعتراض.

{ **أَفَلا** } الهمزة للاستفهام الإنكاري إنكارا عليهم إهمال النظر في دقائق صنع الله في بعض مخلوقاته.

النظر: نظر العين المفيد الاعتبار بدقائق المنظور، وتعديته بحرف (إلى) تنبيه على إمعان النظر، فإنّ قولهم نظر إلى كذا أشد في توجيه النظر من نظر كذا، كما قال تعالى { فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ } [الأحزاب:19]، وقوله تعالى { إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ } [القيامة:23].

ولزيادة التنبيه على إنكار هذا الإهمال قُيّد فعل { يَنْظُرُونَ } بالكيفيات المعدودة في قوله تعالى { كَيْفَ خُلِقَتْ / كَيْفَ رُفِعَتْ / كَيْفَ نُصِبَتْ / كَيْفَ سُطِحَتْ }، أي: لم ينظروا إلى دقائق هيئات خلقها.

وقد عُدَّت أشياء أربعة هي من الناظرين عن كثب لا تغيب عن أنظارهم، وعُطف بعضها على بعض، فكان اشتراكها في مرآهم جهة جامعة بينها بالنسبة إليهم، فإنّهم المقصودون بهذا الإنكار والتوبيخ، فالذي حسَّن اقتران الإبل مع السماء والجبال والأرض في الذكر هنا هو أنّها تنتظم في نظر جمهور العرب.

{ **الإبل** } اسم جمع للبُعران لا واحد له من لفظه، وقد تقدّم في قوله تعالى { وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا } [الأنعام:146].

{ **كَيْفَ خُلِقَتْ** } بدل اشتمال من الإبل. والمعنى والتقدير: أفلا ينظرون إلى الإبل هيئة خلقها.

فالإبل أموالهم ورواحلهم، ومنها عيشهم ولباسهم ونسج بيوتهم وهي حمّالة أثقالهم، وقد خلقها الله خلقا عجيبا بقوة قوائمها ويسر بروكها لتيسير حمل الأمتعة عليها، وجعل أعناقها طويلة قوية ليمكنها النهوض بما عليها من الأثقال بعد تحميلها أو بعد استراحتها في المنازل والمبارك، وجعل في بطونها أمعاء تخزن الطعام والماء بحيث تصبر على العطش إلى عشرة أيام في السير في المفاوز مما يهلك فيما دونه غيرها.

{ **وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ** } نُقل بهم إلى التدبّر في عظيم خلق السماء إذ هم ينظرونها نهارهم وليلهم في إقامتهم وظعنهم، يرقبون أنواء المطر ويشيمون لمع البروق، ويتعرَّفون من النجوم ومنازل الشمس

أوقات الليل والنهار ووجهة السير.

{ **وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ** } أُتبع ذكر السماء بذكر الجبال، وكانت الجبال منازل لكثير منهم. ينزلون سفوحها ليكونوا أقرب إلى الاعتصام بها عند الخوف، ويتّخذون فيها مراقب للحراسة.

النَّصب: الرفع، أي: كيف رُفعت، وهي مع ارتفاعها ثابتة راسخة لا تميل.

{ **وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ** } نزل بأنظارهم إلى الأرض، وهي تحت أقدامهم وهي مرعاهم ومفترشهم، وقد سطحها الله، أي: خلقها ممهّدة للمشي والجلوس والإضطجاع.

سُطحت: سوِّيت، يقال سطح الشيء إذا سوَّاه، ومنه سطح الدار.

{ **خُلِقَتْ / رُفِعَتْ / نُصِبَتْ / سُطِحَتْ** } بُنيت الأفعال الأربعة إلى المجهول للعلم بفاعل ذلك.

{ **فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ** [21] **لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ** [22] **إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ** [23] **فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ** [24] }.

{ **فَذَكِّرْ** } الفاء فصيحة تفريع على محصَّل ما سبق من أوّل السورة الذي هو التذكير بالغاشية وما اتصل به من ذكر إعراضهم وإنذارهم، رُتِّب على ذلك أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالدوام على تذكيرهم، وأنّه لا يؤيّسه إصرارهم على الإعراض وعدم ادِّكارهم بما ألقي إليهم من المواعظ، وتثبيته بأنّه لا تبعة عليه من عدم إصغائهم إذ لم يُبعث مُلْجِئًا لهم على الإيمان.

فالأمر مستعمل في طلب الاستمرار والدوام.

{ **إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ** } تعليل للأمر بالدوام على التذكير مع عدم إصغائهم.

{ **إِنَّمَا** } قصر إضافي، أي: أنت مذكِّر لست وكيلا على تحصيل تذكُّرهم. وهذا تطمين لنفسه الزكية.

{ **لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ** } بدل اشتمال من جملة القصر باعتبار جانب النفي الذي يفيده القصر.

المصيطر: المُجْبِر المُكْرِه. يقال: (صيطر / سيطر) والأشهر بالصاد. وتقدم في قوله تعالى { أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ } [الطور:37].

ونفي كونه مصيطرا عليهم خبر مستعمل في غير الإخبار لأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم يعلم أنّه لم يُكلَّف بإكراههم على الإيمان، فالخبر بهذا النفي مستعمل <u>كناية عن التطمين برفع التبعة عنه</u>.

{ **عَلَيْهِمْ** } تقديمه على متعلّقه للرعاية على الفاصلة.

{ **إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ، فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ** } معترض بين السابقة واللاحقة، والمقصود من هذا الاعتراض الاحتراس من توهُّمهم أنّهم أصبحوا آمنين من المؤاخذة على عدم التذكُّر.

{ **إِلَّا** } للاستثناء المنقطع وهو بمعنى الاستدراك. <u>والمعنى</u>: لكن من تولَّى عن التذكّر ودام على كفره يعذِّبه الله العذاب الشديد.

الأكبر: مستعار للقوّي المتجاوز حدّ أنواعه.

{ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ [25] ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ [26] }.

تعليل لجملة { لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ } [22]، أي: لست مُكلَّفا بجبرهم عل التذكّر والإيمان لأنَّا نحاسبهم حين رجوعهم إلينا في دار البقاء.

{ إِلَيْنَا } نُقل الكلام من أسلوب الغيبة في قوله { فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ } [24]، إلى أسلوب التكلّم على طريقة الالتفات.

الإياب: (بتخفيف الياء) الأوب، أي: الرجوع إلى المكان الذي صدر عنه. أطلق على الحضور في حضرة القدس يوم الحشر تشبيها له بالرجوع إلى المكان الذي خرج منه. كما قال تعالى { يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ } [الفجر:28/27].

{ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ } عُطفت بحرف { ثُمَّ } لإفادة التراخي الرتبي، فإنّ حسابهم هو الغرض من إيابهم وهو أوقع في تهديدهم على التولّي.

{ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ } أي: أنّ حسابهم لتأكُّده في حكمة الله يشبه الحق الذي فرضه الله على نفسه.

وهذه الجملة هي المقصود من التعليل. وفي ذلك إيذان بأنّ تأخير عقابهم إمهال فلا يحسبوه انفلاتا من العقاب.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفجر

لم يُختلف في تسمية هذه السورة (**سورة الفجر**) بدون الواو، في المصاحف والتفاسير وكتب السنّة.

وهي مكية باتفاق.

وقد عُدَّت **العاشرة** في عداد نزول السور. نزلت بعد سورة الليل وقبل سورة الضحى.

وعدد آيها **اثنتان وثلاثون** عند أهل العدد بالمدينة ومكة، وهي ثلاثون عند أهل العدد بالكوفة والشام، وعند أهل البصرة تسع وعشرون.

أغراض السورة

*/ ضرب المثل لمشركي أهل مكة في إعراضهم عن قبول رسالة ربّهم بمثل عاد وثمود وقوم فرعون.

*/ إنذارهم بعذاب الآخرة.

*/ تثبيت النبيّ صلى الله عليه وسلم، مع وعده باضمحلال أعدائه.

*/ إبطال غرور المشركين من أهل مكّة إذ يحسبون أنّ ما هم فيه من النعيم علامة على أنّ الله أكرمهم وأنّ ما فيه المؤمنون من الخصاصة علامة على أنّ الله أهانهم.

*/ أنّهم أضاعوا شكر الله على النعمة فلم يواسوا ببعضها على الضعفاء، وما زادتهم إلّا حرصا على التكثّر منها.

*/ أنّهم يندمون يوم القيامة على أن لم يقدِّموا لأنفسهم من الأعمال ما ينتفعون به يوم لا ينفع نفس إلّا إيمانها وتصديقها بوعد ربّها.

{ **وَالْفَجْرِ** [1] **وَلَيَالٍ عَشْرٍ** [2] **وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ** [3] **وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ** [4] }.

القَسَم بهذه الأزمان من حيث إنّ بعضها دلائل بديع صنع الله وسعة قدرته فيما أوجد من نظام يُظاهر بعضه بعضا، من ذلك وقت الفجر الجامع بين انتهاء ظلمة الليل وابتداء نور النهار، ووقت الليل الذي تمحَّضت فيه الظلمة. وهي مع ذلك أوقات لأفعال من البر وعبادة الله وحده، مثل الليالي العشر، والليالي الشفع، والليالي الوتر. والمقصد من تطويل القسم التشويق إلى المقسَم عليه. وقَسَم الله تعالى متمحِّض لقصد التأكيد. ولذلك فالقَسَم تعريض بتحقيق حصول المقسم عليه بالنسبة للمنكرين.

والكلام موجَّه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم كما دل عليه قوله تعالى { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ } [6] وقوله تعالى { إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ } [14].

{ **الْفَجْرِ** } اسم لوقت ابتداء الضياء في أقصى المشرق من أوائل شعاع الشمس، وهو مظهر عظيم من مظاهر القدرة الإلهية وبديع الصنع. وهو وقت مبارك للناس إذ عنده تنتهي الحالة الداعية إلى النوم الذي هو شبيه الموت، ويأخذ الناس في ارتجاع شعورهم وإقبالهم على ما يألفونه من أعمالهم النافعة لهم.

فالتعريف تعريف الجنس وهو الأظهر لمناسبة عطف { وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ }.

ويجوز أن يراد فجر معين، فيكون التعريف تعريف العهد.

قيل: أريد وقت صلاة الصبح من كل يوم، وهو عن قتادة.

وقيل: فجر يوم النحر وهو الفجر الذي يكون فيه الحجيج بالمزدلفة وهذا عن ابن عباس وعطاء وعكرمة.

{ **وَلَيَالٍ عَشْرٍ** } ليس في ليالي السنة عشر ليال متتابعة عظيمة مثل عشر ذي الحجة التي هي وقت مناسك الحج، ففيها يكون الإحرام ودخول مكة وأعمال الطواف، وفي ثامنتها ليلة التروية، وتاسعتها ليلة عرفة، وعاشرتها ليلة النحر. فتعيّن أنّها الليالي المرادة بليال عشر. وهو قول ابن عباس وابن الزبير.

وكانت الليالي العشر معيَّنة من الله تعالى في شرع إبراهيم عليه السلام ثم غُيِّرت مواقيتها بما أدخله أهل الجاهلية على السنة القمرية من النَّسِيّ فاضطربت السنين المقدسة، إلى أن أوحى الله إلى نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم في سنة عشر من الهجرة عام حجّة الوداع، بأنّ أشهر الحجّ في تلك السنة وافقت ما كانت عليه السنة في عهد إبراهيم عليه السلام فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم في خطبته في حجة الوداع: " **إنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض**".

وهذا التغيير لا يرفع بركة الأيام الجارية فيها المناسك قبل حجّة الوداع لأنّ الله عظّمها لأجل ما يقع فيها من مناسك الحج إذ هو عبادة لله خاصة.

فأوقات العبادات تعيين لإيقاع العبادة فلا شك أنّ للوقت المعيَّن لإيقاعها حكمة علمها الله تعالى، ولذلك غلب في عبارات الفقهاء وأهل الأصول إطلاق اسم السبب على الوقت لأنّهم يريدون بالسبب المعرّف بالحكم ولا يريدون به نفسَ الحكمة. ولكن إذا اختلفت أو اختلطت لم يكن ذلك بقاض بسقوط العبادات المعيَّنة لها.

الشفع: ما يكون ثانيا لغيره، و**الوتر**: الشيء المفرد، وهما صفتان لمحذوف.

{ **وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ** } التعريف يؤذن بأنّهما معروفان، وبأنّهما الشفع والوتر من الليالي العشر.

فعن جابر بن عبد الله عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **أنّ الشفع يوم النحر** "، ذلك لأنّه عاشر ذي الحجة، وأنّ الوتر يوم عرفة رواه أحمد بن حنبل والنسائي، وعلى هذا التفسير فذكر الشفع والوتر تخصيص لهذين اليومين بالذكر للاهتمام، بعد شمول الليالي العشر لهما.

{ **وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ** } عطف على { لَيَالٍ عَشْرٍ } عطف الأعم على الأخص، أو عطف على { الْفَجْرِ } بجامع التضاد. وأقسم به لما أنّه مظهر من مظاهر قدرة الله وبديع حكمته.

يسري: يمضي سائرا في الظلام، أي: إذا انقضى منه جزء كثير، شُبِّه تقضِّي الليل في ظلامه بسير السائر في الظلام، وهو السُّرَى، كما شُبِّه في قوله تعالى { وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ } [المدثر:33]، وقوله تعالى { وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى } [الضحى:2]، أي: تمكّن ظلامه واشتد.

وتقييد { اللَّيْلِ } بظرف { إِذَا يَسْرِ } لأنّه وقت تمكّن ظلمة الليل فحينئذ يكون الناس أخذوا حظّهم من النوم فاستطاعوا التهجّد، قال تعالى { إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا } [المزمل:6]، وقال تعالى { وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ } [الانسان: 26].

{ **هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ** } [5].

جملة معترضة بين القسم وبين ما بعده من جوابه أو دليل جوابه، كما في قوله تعالى { وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ } [الواقعة: 76].

{ **هَلْ** } الاستفهام تقريري، وأصل (هل) أن تدلّ على التحقيق إذ هي بمعنى (قد).

{ **ذَلِكَ** } اسم الإشارة عائد إلى المذكور ممّا أقسم به.

{ **قَسَمٌ** } التنكير للتعظيم، أي: قَسَم كاف ومقنع للمُقسَم له، إذا كان عاقلا أن يتدبّر بعقله.

الحِجر: العقل، لأنّه يحجر صاحبه عن ارتكاب ما لا ينبغي، كما سُمِّي عقلا لأنّه يعقل صاحبه عن التهافت، كما يعقل العقال البعيرَ عن الضلال.

{ **لِذِي حِجْرٍ** } لام التعليل، أي: قسم لأجل ذي عقل يمنعه من المكابرة فيعلم أنّ المُقسِم بهذا القَسَم صادق فيما أقسم عليه.

{ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ [6] إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ [7] الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ [8] وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ [9] وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ [10] الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ [11] فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ [12] فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ [13] إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ [14]** }.

لا يصلح هذا أن يكون جوابا للقسم ولكنّه؛ إمّا دليل الجواب إذ يدلّ على أنّ المقسَم عليه من جنس ما فُعل بهذه الأمم الثلاث وهو الاستئصال الدال عليه قوله تعالى { فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ }،

فتقدير الجواب: ليصُبَنَّ ربك على مكذِّبيك سوط عذاب كما صبّ على عاد وثمود وفرعون.

وإمّا تمهيد للجواب ومقدّمة له إن جعلتَ الجواب قوله تعالى { إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ }، وما بينه وبين الآيات السابقة اعتراض جُعل كمقدّمة لجواب القسم.

والمعنى: أنّ ربك لبالمرصاد للمكذِّبين لا يخفى عليه أمرهم، فيكون تثبيتا للنبيّ صلى الله عليه وسلم، كقوله تعالى { وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ } [ابراهيم:42].

{ **أَلَمْ تَرَ** } الاستفهام تقريري، والمخاطب به النبيّ صلى الله عليه وسلم تثبيتا له ووعدا بالنصر، وتعريضا للمعاندين بالإنذار بمثله.

الرؤية: يجوز أن تكون علمية، تشبيها للعلم اليقيني بالرؤية في الوضوح والانكشاف، لأنّ أخبار هذه الأمم شائعة مضروبة بها المُثُل فكأنّها مشاهدة.

ويجوز أن تكون بصرية، والمعنى: ألم تر آثار ما فعل ربك بعاد.

{ **فَعَلَ رَبُّكَ** } عُدل عن اسم الجلالة إلى التعريف بإضافة (ربّ) إلى ضمير المخاطب لما في ذلك من الإشعار بالولاية والتأييد، ولما تؤذن به إضافته إلى ضمير المخاطَب من إعزازه وتشريفه.

وقد ابتُدئت الموعظة بذكر عاد وثمود لشهرتهما بين المخاطبين وذُكر بعدهما قوم فرعون لشهرة رسالة موسى عليه السلام بين أهل الكتاب ببلاد العرب وهم يحدِّثون العرب عنها.

{ **بِعَادٍ** } أريد الأمّة لا محالة، قال تعالى { وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ } [هود:59].

{ **إِرَمَ** } اسم بن سام بن نوح وهو جَدّ عاد، لأنّ عادا هو ابن عوص بن إرم. فهو عطف بيان لـ { بِعَادٍ }، للإشارة إلى أنّ المراد { بِعَادٍ } القبيلة التي جدّها الأدنى هو عاد بن عوص بن إرم.

وهم عاد الموصوفة بـ { الْأُولَى } في قوله تعالى { وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى } [النجم:50]، لئلّا يُتوهَّم أنّ المُتحدَّث عنهم قبيلة أخرى تسمى عادا أيضا كانت تنزل مكة مع العماليق يقال: إنهّم بقية من عاد الأولى.

{ **ذَاتِ الْعِمَادِ** } وصف لعاد، و{ ذَاتِ } وصف مؤنّث لأنّ المراد بعاد القبيلة.

العماد: عود غليظ طويل يقام عليه البيت يُرْكَزُ في الأرض تُقام عليه أثواب الخيمة أو القبة ويُسمَّى دَعامة، وهو هنا مستعار للقوّة تشبيها للقبيلة القويّة بالبيت ذات العماد.

ويجوز أن يكون المراد الأعلام التي بنوها في طرقهم ليهتدي بها المسافرون، المذكورة في قوله تعالى

{ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ } [الشعراء:128].

أي: قد أهلك الله قوما هم أشد من القوم الذين كذّبوك، قال تعالى { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً } [غافر82]، وقال تعالى { وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ } [محمد:13].

{ **الَّتِي** } صادق على (عاد) بتأويل القبيلة.

{ **لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا** } أريد خلق أجسادهم، فقد روي أنّهم كانوا طوالا شدادا أقوياء، وكانوا أهل عقل وتدبير، والعرب تضرب المثل بأحلام عاد، ثم فسدت طباعهم بالترف فبطروا النعمة.

{ **فِي الْبِلادِ** } الظاهر أنّ لام التعريف هنا للاستغراق العرفي، أي: في بلدان العرب وقبائلهم.

{ **ثَمُودَ** } مُنع من الصرف لأنّ المراد به الأمّة المعروفة.

{ **الَّذِينَ جَابُوا** } وصف باسم الموصول لجمع المذكر دون أن يقال: التي جابت الصخرة، بتأويل القوم. عُدل عن تأنيثه في الوصف تفنُّنا في الأسلوب.

{ **جَابُوا** } قطعوا، أي: نحتوا الصخر واتخذوا فيه بيوتا، كما قال تعالى { وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا } [الشعراء:149]، وقد قيل: إنّ ثمود أوّل أمم البشر نحتوا الصخر والرخام.

{ **الصَّخْرَ** } الحجارة العظيمة.

الواد: اسم لأرض كائنة بين جبلين منخفضة، ومنه سُمِّي مجرى الماء الكثير وادا.

وفيه لغتان: أن يكون آخره دالا، وأن يكون آخره ياء ساكنة.

{ **بِالْوَادِ** } هنا عَلَم بالغلبة على منازل ثمود، ويقال له: <u>وادي القرى</u>، بإضافته إلى القرى التي بنتها ثمود، ويُسَمّى أيضا <u>الحِجْر</u>، ويقال لها حِجر ثمود، وهو واد بين خيبر وتيماء في طريق الماشي من المدينة إلى الشام، ونزله اليهود لما نزلوا بلاد العرب، ونزله من العرب (قضاعة / جهينة / عُذرة / بَلِيّ).

وغزاه النبيّ صلى الله عليه وسلم وفتحه سنة سبع فأسلم من فيه من العرب وصولحت اليهود على جزية.

{ **فِرْعَوْنَ** } المراد هو وقومه.

{ **ذِي الْأَوْتَادِ** } لأنّ مملكته كانت تحتوي على الأهرام التي بناها أسلافه، لأنّ صورة الهرم على الأرض تشبه الوتد المدقوق، <u>ويجوز أن يكون الأوتاد مستعارا للتمكُّن والثبات</u>، أي: ذي قوّة، على نحو قوله تعالى { ذَاتِ الْعِمَادِ }. وتقدّم عند قوله تعالى { كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ } [صّ:12].

{ **الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ** } <u>يجوز</u> أن يكون شاملا لجميع المذكورين عاد وثمود وفرعون. <u>ويجوز</u> أن يكون نعتا لفرعون وقومه.

الطغيان: شدّة العصيان والظلم. ومعنى طغيانهم في البلاد أنّ كلّ أمّة من هؤلاء طغوا في بلدهم، والجمع على اعتبار التوزيع.

الفساد: سوء حال الشيء ولحاق الضرّ به، قال تعالى { وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ

الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ } [البقرة: 205]. وضدّ الفساد الصلاح، قال تعالى { وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا } [الأعراف: 56].

{ **فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ** } وكان ما أكثروه من الفساد سببا في غضب الله عليهم، والله لا يحب الفساد، فصب عليهم العذاب.

الصَّبُّ: حقيقته إفراغ ما في الظرف، وهو هنا مستعار لحلول العذاب دفعة وإحاطته بهم، كما يُصبُّ الماء على المغتسِل أو يُصبُّ المطر على الأرض، فوجه الشبه مركَّب من السرعة والكثرة. ونظيره استعارة الإفراغ في قوله تعالى { رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا } [البقرة: 250]. ونظير الصب قولهم: شنّ عليهم غارة. وكان العذاب الذي أصاب هؤلاء عذابا مفاجئا قاضيا:

فأمّا عاد فرأوا عارض الريح فحسبوه عارض مطر فما لبثوا حتّى أطارتهم الريح كلّ مطير.

وأمّا ثمود فقد أخذتهم الصيحة.

وأمّا فرعون فحسبوا البحر منحسرا فما راعهم إلّا وقد أحاط بهم.

السوط: آلة ضرب تُتخذ من جلود مضفورة تُضرب بها الخيل للتأديب ولتحملها على المزيد من الجري.

{ **سَوْطَ عَذَابٍ** } من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: صبّ عليهم عذابا سوطا، أي: كالسوط في سرعة الإصابة، فهو تشبيه بليغ.

{ **إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ** } تذييل وتعليل لإصابتهم بـ { سَوْطَ عَذَابٍ }، إذا قُدِّر جواب القسم محذوفا.

ويجوز أن تكون جواب القسم كما تقدّم آنفا.

فعلى كون الجملة تذييلا تكون تعليلا لجملة { فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ } تثبيتا للنبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّ الله ينصر رسله، وتصريحا للمعاندين بما عرَّض لهم به من توقّع معاملته إيّاهم بمثل ما عامل به المكذِّبين الأوّليين، أي: أنّ الله بالمرصاد لكلّ طاغ مفسد.

وعلى كونها جواب القسم تكون كناية عن تسليط العذاب على المشركين، إذ لا يُراد من الرصد إلّا دفع المعتدي من عدو ونحوه، وهو المقسَم عليه وما قبله اعتراضا تفنُّنا في نظم الكلام، إذ قُدِّم على المقصود بالقسم ما هو استدلال عليه، وهو أسلوب من أساليب الخطابة إذ يُجعل البيان والتنظير بمنزلة المقدّمة ويُجعل الغرض المقصود بمنزلة النتيجة والعلة.

{ **فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ / إِنَّ رَبَّكَ** } العدول عن ضمير المتكلِّم أو اسم الجلالة في الموضعين إيماء إلى أنّ فاعل ذلك ربُّه الذي شأنه أن ينتصر له.

المرصاد: المكان الذي يترقَّب فيه الرصد، أي: الجماعة المراقبون شيئا، وصيغة مِفعال تأتي للمكان وللزمان كما تأتي للآلة، فمعنى الآلة هنا غير محتمل، فهو هنا إمّا للزمان أو المكان، إذ الرصد الترقّب. والتعريف للجنس وهو يفيد عموم المتعلّق، أي: بالمرصاد لكل فاعل، فهو تمثيل لعموم علم الله بما يكون

من أعمال العباد وحركاتهم، بحال اطلاع الرصد على تحركات العدو والمغيرين، وهذا المثل كناية عن مجازاة كلّ عامل بما عمله ويعمله، إذ لا يُقصد الرصد إلّا للجزاء على العدوان.

{ فَأَمَّا الْأِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ [15] وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ [16] كَلَّا بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ [17] وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ [18] وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا [19] وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا [20] }.

{ فَأَمَّا الْأِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ، وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ، كَلَّا }

{ **فَأَمَّا** } دلّت (الفاء) على أنّ الكلام الواقع بعدها متصل بما قبلها ومتفرّع عليه لا محالة. ودلّت (أمّا) على معنى: مهما يكن من شيء، وذلك أصل معناها ومقتضى استعمالها، فقوي بها ارتباط جوابها بما قبلها. وقد تقدّم ذكرها عند قوله تعالى { فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ } [البقرة:26].

ذلك أنّ الكلام السابق اشتمل على وصف ما كانت تتمتع فيه الأمم المُمثَّل بها ممّا أنعم الله عليها به من النعم، وهم لاهون عن دعوة رسل الله، ومعرضون عن طلب مرضاة ربهم، فعُقِّب ذكر ما كانوا عليه وما جازاهم الله به عليه من عذاب في الدنيا، باستخلاص العبرة، وهو تذكير المشركين بأنّ حالهم مماثل لحال أولئك ترفا وطغيانا وبطرا، وتنبيهُهم على خطاهم إذ كان لهم من حال الترف والنعمة شبهة توهَّموا بها أنّ الله جعلهم محل كرامة. فحصروا جزاء الخير في الثروة والنعمة وقصروا جزاء السوء على الخصاصة وقتر الرزق. وقد تكرّر في القرآن التعرُّض لإبطال ذلك، كقوله تعالى { أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ، نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ } [المؤمنون:56/55].

وجعلوا هذا الغرور مقياسا لمراتب الناس فجعلوا أصحاب الكمال أهل المظاهر الفاخرة، ووصموا بالنقص أهل الخصاصة وضعفاء الناس، لذلك لمّا أتى الملأ من قريش ومن بني تميم وفزارة للنبيّ صلى الله عليه وسلم وعنده عمّار، وبلال، وخباب، وسالم مولى أبي حذيفة، وصُبيح مولى أُسيد، وصُهيب، في أناس آخرين من ضعفاء المؤمنين، قالوا للنبيّ أطردهم عنك فلعلّك إن طردتهم أن نتبعك.

وقالوا لأبي طالب: لو أنّ ابن أخيك طرد هؤلاء الأعبُدَ والحلفاء كان أعظم له في صدورنا وأدلى لاتّباعنا إيّاه. وفي ذلك نزل قوله تعالى { وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ } [الأنعام:52].

{ **الْأِنْسَانُ** } تعريفه تعريف الجنس ولكنّه استغراق عرفي مراد به الناس المشركون، لأنّهم الغالب على الناس المتحدَّث عنهم، وذلك الغالب في إطلاق لفظ الإنسان في القرآن المكي، كقوله تعالى { كَلَّا إِنَّ الْأِنْسَانَ لَيَطْغَى، أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى } [العلق:7/6]، وقوله تعالى { أَيَحْسَبُ الْأِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ }

[القيامة:3]، وقوله تعالى { لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ، أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ } [البلد:4-5]، ونحو ذلك، ويدل لذلك هنا قوله تعالى { يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى } [23].

الابتلاء: الاختبار ويكون بالخير وبالضرّ، لأنّ في كليهما اختبارا لثبات النفس وخُلق الأناة والصبر، قال تعالى { وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً } [الانبياء:35]، والأشهر أنّه الاختبار بالضرّ، وقد استعمل في هذه الآية في المعنيين.

الإكرام: ما يُوصَل إلى الإنسان من نفع لا تلحق فيه غضاضة ولا مذلّة، وأن يكون شيئا كريما، أي: شريفا، قال تعالى { بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ } [الانبياء:26]، أي: جعلهم كراما.

{ **وَنَعَّمَهُ** } صريح في أنّ الله يُنعم على الكافرين إيقاظا لهم ومعاملة بالرحمة. أي: جعله في طيب عيش. والذي عليه المحقِّقون من المتكلّمين أنّ الكافر مُنعّم عليه في الدنيا، وهو قول الماتريدي والباقلاني. وهذا مما أختلف فيه الأشعري والماتريدي، والخلاف لفظي.

{ **فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ** } أعطاه بقدر محدود، ومنه التقتير، وكلّ ذلك كناية عن القلّة، ويقابله بسط الرزق، قال تعالى { وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ } [الشورى: 27].

{ **رِزْقَهُ** } الهاء يجوز أن تعود إلى { الْإِنْسَانُ }، ويجوز أن تعود إلى { رَبُّهُ }.

الإهانة: المعاملة بالهُون وهو الذلّ.

{ **فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ / فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ** } جوابان لـ (أمّا) الأولى والثانية، أي: يطَّرد قول الإنسان هذه المقالة كلّما حصلت له نعمة وكلّما حصل له تقتير رزق.

{ **فَيَقُولُ** } أوثر الفعل المضارع في الجوابين لإفادة تكرّر ذلك القول وتجدّده.

{ **كَلَّا** } حرف زجر عن قول الإنسان { رَبِّي أَكْرَمَنِ } عند حصول النعمة، وقوله { رَبِّي أَهَانَنِ } عندما يناله تقتير، لأنّ كلّ قول منهما صادر عن تأوّل باطل، أي: ليست حالة الإنسان في هذه الحياة الدنيا دليلا على منزلته عند الله تعالى. وإنّما يُعرف مراد الله بالطرق التي ارشد الله إليها بواسطة رسله وشرائعه، قال تعالى { قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا - إلى قوله - فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا } [الكهف:103-105].

فرُبّ رجل في نعمة في الدنيا هو مسخوط عليه، ورُبَّ أشعث أغبر مطرود بالأبواب لو أقسم على الله لأبرَّه.

{ بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ، وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ، وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمًّا، وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا}.

{ **بَلْ** } إضراب انتقالي. ومناسبة الانتقال المقابلة لمضمون { فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ } من جهة ما توهَّموه أنّ نعمة مالهم وسعة عيشهم تكريم من الله لهم، فنبَّههم الله على أنّهم إن أكرمهم الله فإنّهم لم يكرموا عبيده شُحًّا بالنعمة، إذ حرموا أهل الحاجة من فضول أموالهم، وإذ يستزيدون من المال ما لا يحتاجون إليه.

ولاستيلائهم على الأموال التي يتركها الآباء لأبنائهم الصغار.
وقد كانت الأموال في الجاهلية يتداولها رؤساء العائلات.
{ **لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ** } استئناف كما يقتضيه الإضراب، فهو إمّا استئناف ابتداء كلام، وإمّا اعتراض بين { كَلَّا } وأختها كما سيأتي.
إكرام اليتيم: سدّ خلته وحسن معاملته لأنّه مظنّة الحاجة لفقد عائله، والبرّ به لأنّه مظنّة انكسار الخاطر لشعوره بالفقد.
اليتيم: الصبي الذي مات أبوه، وتعريفه للجنس، أي: لا تكرمون اليتامى، وكذلك تعريف { الْمِسْكِينِ }.
{ **وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ** } نفي الحضّ على طعام المسكين نفي لإطعامه بطريق الأولى، وهي دلالة فحوى الخطاب، أي: لقلة الاكتراث بالمساكين لا ينفعونهم ولو نفع وساطة، بله أن ينفعوهم بالبذل.
{ **طَعَامِ** } يجوز أن يكون اسما بمعنى المطعوم، بالتقدير: ولا يحضون على إعطاء طعام المسكين، ويجوز أن يكون اسم مصدر أطعم. والمعنى: ولا تحضّون على إطعام الأغنياء المساكين.
{ **الْمِسْكِينِ** } الفقير، وتقدّم في [التوبة:60].
وقد حصل في الآية احتباك لأنّهم لما نُفي إكرامهم اليتيم وقوبل بنفي أن يحضّوا على طعام المسكين، عُلم أنّهم لا يحضُّون على إكرام أيتامهم، أي: لا يحضون أولياء الأيتام على ذلك.
وقرأ الجمهور { وَلا تَحُضُّونَ } مضارع حَضَّ، وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف {تَحَاضُّونَ} مضارع حاضَّ بعضهم بعضا، وأصله تتحاضُّون، أي: تتمالؤون على ترك الحضّ على الإطعام.
{ **وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمًّا** } أشعر قوله تعالى { تَأْكُلُونَ } بأنّ المراد التراث الذي لا حق لهم فيه، ومنه يظهر وجه إيثار لفظ التراث دون أن يقال: وتأكلون المال، لأنّ التراث مال مات صاحبه وأكلُه يقتضي أن يستحق ذلك المال عاجز عن الذب عنه لصغر أو أنوثة.
الأكل: مستعار للانتفاع بالشيء انتفاعا لا يُبقي منه شيئا. وأحسب أنّ هذه الاستعارة من مبتكرات القرآن إذ لم أقف على مثلها في كلام العرب.
التراث: المال الموروث، أي: الذي يُخلفه الرجل بعد موته لوارثه. والتعريف عوض عن المضاف إليه. أي: تراث اليتامى، وكذلك كان أهل الجاهلية يمنعون النساء والصبيان من أموال مورثيهم.
اللَّمُّ: الجمع، ووصف الأكل به وصف بالمصدر للمبالغة، أي: أكلا جامعا مال الوارثين إلى مال الآكل، كقوله تعالى { وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ } [النساء: 2].
الجم: الكثير، يقال: جَمَّ الماءُ في الحوض، إذا كثُر، وبئر جَموم: كثيرة الماء.
{ **حُبًّا جَمًّا** } أي: حبًّا كثيرا، ووصف الحبّ بالكثرة مراد به الشدّة، لأنّ الحبّ معنى من المعاني النفسية لا يوصف بالكثرة التي هي وفرة عدد أفراد الجنس. فالجمّ مستعار لمعنى القويّ الشديد، أي: حبًّا مفرطا،

وذلك محل ذمّ حب المال، لأنّ إفراط حبّه يوقع في الحرص على اكتسابه بالوسائل غير المشروعة.

{ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا [21] وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا [22] وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى [23] يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي [24] فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ [25] وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ [26] }.

استئناف ابتدائي انتُقل به من تهديدهم بعذاب الدنيا الذي في قوله تعالى { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ...} [6] إلى الوعيد بعذاب الآخرة. فإن استخفّوا بما حلّ بالأمم قبلهم، أو أمهِلُوا فأُخِّر عنهم العذاب في الدنيا فإنّ عذابًا لا محيص لهم عنه ينتظرهم يوم القيامة حين يتذكّرون قسرا فلا ينفعهم التذكُّر، ويندمون ولا ينفعهم الندم.

والمقصود من هذا الكلام هو قوله تعالى { فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ }، وقوله تعالى { يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ } [27]، وأمّا ما سبق فهو توطئة وتشويق لسماع ما يجيء بعده، وتهويل لشأن ذلك اليوم.

{ **كَلَّا** } زجر وردع عن الأعمال المعدودة قبله، وهي عدم إكرامهم اليتيم وعدم حضّهم على طعام المسكين، وأكلهم التراث الذي هو مال غيرهم، وعن حب المال حبًّا جمًّا.

الدك: الحَطم والكسر.

{ **إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ** } المراد بالأرض الكرة التي عليها الناس، ودكّها حطمها وتفرّق أجزائها، وذلك بما يحدثه الله فيها من زلازل، كما في قوله تعالى { إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا } [الزلزلة:1].

{ **دَكًّا دَكًّا** } <u>يجوز</u> أن يكون أوّلهما منصوبا علي المفعول المطلق المؤكِّد لفعله، ولعلّ تأكيده هنا لأنّ هذه الآية أوّل آية ذُكر فيها دك الأرض، وإذ قد كان أمرا خارقا للعادة كان المقام مقتضيا تحقيق وقوعه حقيقة دون مجاز ولا مبالغة، فأكِّد مرّتين هنا ولم يؤكَّد نظيره في قوله تعالى { فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً } [الحاقة:14].

{ **دَكًّا** } الثاني منصوب على التوكيد اللفظي للأوّل لزيادة تحقيق إرادة مدلول الدك الحقيقي.

<u>ويجوز</u> أن يكون مجموع المصدرين في تأويل مفرد منصوب على المفعول المطلق المبيِّن للنوع.

وتأويله: أنّه دكٌّ يعقب بعضه بعضا، كما تقول: قرأت الكتاب بابا بابا. وهذا الوجه أوفى بحق البلاغة، فإنّه معنى زائد على التوكيد والتوكيد حاصل بالمصدر الأوّل.

{ **وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا** } إسناد المجيء إلى الله إمّا مجاز عقلي، أي: جاء قضاؤه، وإمّا استعارة بتشبيه ابتداء حسابه بالمجيء.

وأمّا إسناده إلى المَلَك فإمّا حقيقة، أو على معنى الحضور، وأيًّا ما كان فاستعمال جاء من استعمال اللفظ في مجازه وحقيقته، أو في مجازيه.

المَلَك: اسم جنس وتعريفه تعريف الجنس فيرادفه الاستغراق، أي: والملائكة.

الصف: مصدر صفّ الأشياء إذا جعل الواحد حذو الآخر، ويُطلق على الأشياء المصفوفة، ومنه قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا } [الصف:4]، وقوله تعالى { فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا } [طه:64].

{ **صَفًّا** } الأوّل حال من { الْمَلَكُ }، و{ صَفًّا } الثاني لم يختلف المفسّرون في أنّه من التكرير المراد به الترتيب والتصنيف، أي: صفا بعد صف، أو صنفا من الملائكة دون صنف.

{ **وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ** } أي: أُحضِرت جهنم وفُتحت أبوابها، فكأنّها جاء بها جاءٍ.

والمعنى: أُظهرت لهم جهنم، قال تعالى { حتّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا } [الزمر:71]، وقال تعالى { وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى } [النازعات:36].

وإنّما اقتُصر على ذكر جهنّم لأنّ المقصود في هذه السورة وعيد الذين لم يتذكّروا وإلّا فإنّ الجنة أيضا مُحْضَرة يومئذ، قال تعالى { وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ } [الشعراء:91/90].

{ **يَوْمَئِذٍ** } الأوّل متعلّق بفعل { جِيء }، والتقدير: وجيء بجهنّم يوم تُدكّ الأرض دكّا دكّا...

{ **يَوْمَئِذٍ** } الثاني بدل من { إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ }، والمعنى: يوم تُدكّ الأرض دكّا ... يتذكّر الإنسان.

{ **يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ** } هو الإنسان الكافر، وهو الذي تقدّم ذكره في قوله تعالى { فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ } [15]، فهو إظهار في مقام الإضمار لبعد معاد الضمير.

{ **وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى** } معترضة بين جملة { يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ } وجملة { يَقُولُ ...}.

{ **أَنَّى** } اسم استفهام بمعنى: أين له الذكرى؟ وهو استفهام مستعمل في الإنكار والنفي، والكلام على حذف مضاف، والتقدير: وأين له نفع الذكرى؟

{ **يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي** } يجوز أن يكون قولا باللسان تحسُّرًا وتندُّمًا، فتكون الجملة حالا من { الْإِنْسَانُ }، أو بدل اشتمال من جملة { يَتَذَكَّرُ }، فإنّ تذّكره مشتمل على تحسُّر وندامة.

ويجوز أن يكون قوله في نفسه فتكون الجملة بيانا لجملة { يَتَذَكَّرُ }.

{ **يَا لَيْتَنِي** } حرف النداء للتنبيه اهتماما بهذا التمنّي.

{ **قَدَّمْتُ** } المفعول محذوف للإيجاز.

{ **لِحَيَاتِي** } اللام تحتمل معنى التوقيت، أي: قدّمت في حياتي التي قبل الموت. وتحتمل أن يكون اللام للعلّة، أي: قدمت الأعمال الصالحة لأجل أن أحيا في هذه الدار الحياة الكاملة السالمة من العذاب.

{ **فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ، وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ** } الفاء رابطة للجملة بجملة { إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ } لِما في (إِذَا) من معنى الشرط. أي: يُعذَّب عذابا هو أشد عذاب يعذّبه العصاة، أي: عذابا لا نظير له في أصناف العذاب، على معنى قوله تعالى { فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ } [المائدة:115].

{ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ [27] **ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً** [28] **فَادْخُلِي فِي عِبَادِي** [29] **وَادْخُلِي جَنَّتِي** [30] }.

لما استوفى المقام ما اقتضاه من الوعيد والتهديد والإنذار خُتم الكلام بالبشارة للمؤمنين الذين تذكّروا بالقرآن واتّبعوا هديه، على عادة القرآن في تعقيب النذارة بالبشارة والعكس، فإن ذلك يزيد رغبة الناس في فعل الخير ورهبتهم من أفعال الشرّ.

واتصال هذه الآية بالآيات التي قبلها يقتضي أنّ هذا الكلام يقال في الآخرة. فهو مقول قول محذوف هو جواب { إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ } [21]، وما بينهما مستطرَد واعتراض.

فهذا قول يصدر يوم القيامة من جانب القدس من كلام الله تعالى أو من كلام الملائكة:

<u>فإن كان من كلام الله تعالى</u>، كان قوله تعالى { إِلَى رَبِّكِ } إظهارا في مقام الإضمار بقرينة تفريع { فَادْخُلِي فِي عِبَادِي } عليه. ونكتة هذا الإظهار ما في وصف (ربّ) من الولاء والاختصاص، وما في إضافته إلى ضمير النفس المخاطبة من التشريف لها.

<u>وإن كان من قول الملائكة</u>، فلفظ { رَبِّكِ } جرى على مقتضى الظاهر، وعطف { فَادْخُلِي فِي عِبَادِي } عطف تلقين يصدر من كلام الله تعالى تحقيقا لقول الملائكة { ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ }.

النفس: <u>تطلق على الذات كلّها</u>، كما في قوله تعالى { وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ } [الأنعام:151]، وقوله تعالى { أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ } [الزمر:56].

<u>وتطلق على الروح</u> التي بها حياة الجسد كما في قوله تعالى { إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ } [يوسف:53].

وعلى الإطلاقين توزَّع المعاني.

{ **الْمُطْمَئِنَّةُ** } اسم فاعل من اطمأنّ إذا كان هادئا غير مضطرب ولا منزعج، <u>فيجوز</u> أن يكون من سكون النفس بالتصديق لما جاء به القرآن دون تردّد ولا اضطراب بال، فيكون ثناء على هذه النفس، <u>ويجوز</u> أن يكون من هدوء النفس بدون خوف ولا فتنة في الآخرة.

{ **ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ** } الرجوع إلى الله مستعار للكون في نعيم الجنة التي هي دار الكرامة عند الله.

الراضية: التي رضت بما أُعْطِيَته من كرامة، وهو كناية عن إعطائها كلّ ما تطمح إليه.

المرضية: اسم مفعول وأصله: مَرضيًّا عنها، فوقع فيه الحذف والإيصال فصار نائب فاعل بدون حرف الجر، والمقصود من هذا الوصف زيادة الثناء مع الكناية عن الزيادة في إفضاء الإنعام، لأنّ المرضي عنه يزيده الراضي عنه من الهبات والعطايا فوق ما رضي به هو.

{ **فَادْخُلِي فِي عِبَادِي، وَادْخُلِي جَنَّتِي** } تفريع على هذه البشرى الإجمالية، فهو تفصيل بعد الإجمال لتكرير إدخال السرور على أهلها.

<u>المعنى</u>: ادخلي في زمرة عبادي. والمراد العباد الصالحون بقرينة مقام الإضافة، وهذا كقوله تعالى

{ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ } [العنكبوت:9].

فالظرفية حقيقة وتؤول إلى معنى المعيَّة كقوله تعالى { فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النبيّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا } [النساء:69].

{ **جَنَّتِي** } إضافة تشريف كقوله تعالى { فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ } [القمر:55].

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة البلد

سُمِّيت هذه السورة في ترجمتها عن صحيح البخاري (**سورة لا أقسم**)، وسُمِّيت في المصاحف وكتب التفسير (**سورة البلد**). وهو إمّا على حكاية اللفظ الواقع في أوّلها، وإمّا لإرادة البلد المعروف وهو مكة.

وهي مكية، وحكى الزمخشري والقرطبي الاتفاق عليه واقتصر عليه معظم المفسّرين.

وقد عُدَّت **الخامسة والثلاثين** في عدد نزول السور، نزلت بعد سورة ق وقبل سورة الطارق.

وعدد آيها **عشرون آية**.

أغراض السورة

*/ التنويه بمكة، وبمُقام النبيّ صلى الله عليه وسلم بها، وبركته فيها وعلى أهلها.

*/ التنويه بأسلاف النبيّ صلى الله عليه وسلم من سكّانها الذين كانوا من الأنبياء مثل إبراهيم وإسماعيل، أو من أتباع الحنيفية مثل عدنان ومُضر.

*/ التخلّص إلى ذمّ سيرة أهل الشرك. وإنكارهم البعث. وما كانوا عليه من التفاخر المبالغ فيه، وما أهملوه من شكر النعمة على الحواس، ونعمة النطق، ونعمة الفكر، ونعمة الإرشاد فلم يشكروا ذلك بالبذل في سبل الخير، وما فرّطوا فيه من خصال الإيمان وأخلاقه.

*/ وعيد الكافرين وبشارة الموقنين.

{ **لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ** [1] **وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ** [2] **وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ** [3] **لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ** [4] }.

ابتدئت بالقسم تشويقا لِما يرد بعد، وأُطيلت جملة القسم زيادة في التشويق.

{ **لَا أُقْسِمُ** } معناه: أقسم. وقد تقدّم ذلك غير مرّة منها ما في [الحاقة:38]. وتقدّم القول في هل حرف النفي مزيد أو هو مستعمل في معناه كناية عن تعظيم أمر المقسَم به.

{ **بِهَذَا** } الإشارة مع بيانه بالبلد إلى حاضر في أذهان السامعين كأنّهم يرونه لأنّ رؤيته متكرّرة لهم، وهو مكة، ومثله ما في قوله تعالى { إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ } [النمل:91]. وفائدة اسم الإشارة تمييز المقسَم به أكمل تمييز لقصد التنويه به.

البلد: جانب من متسع من أرض عامرة كانت، كما هو الشائع، أم غامرة.

{ **وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ** } معترضة بين المتعاطفات المقسَم بها. والمقصود من الاعتراض يختلف باختلاف محمل معنى { وَأَنْتَ حِلٌّ }:

فيجوز أن يكون { حِلٌّ } اسم مصدر أَحَلَّ، أي: أباح ، فالمعنى وقد جعلك أهل مكة حلالا بهذا البلد، الذي يحرُم أذى صيده وعضد شجره، يحلُّون قتلك وإخراجك، قاله شرحبيل بن سعد [أبو معاوية تابعي توفي سنة 123]. والمعنى التعريض بالمشركين في عدوانهم وظلمهم الرسول صلى الله عليه وسلم في بلد لا يظلمون فيه أحدا. والمناسبة، ابتداء القسم بمكة الذي هو إشعار بحرمتها المقتضية حرمة من يحلّ بها، أي: فهم يحرِّمون أن يتعرَّضوا بأذى للدواب ويعتدون على رسول جاءهم برسالة من الله.

ويجوز أن يكون { حِلٌّ } اسما مشتقا من الحلّ وهو ضد المنع، أي: الذي لا تبعة عليه فيما يفعله. قاله مجاهد والسدي، أي: ما صنعت فيه من شيء فأنت في حلّ، أو أنت في حلّ ممّن قاتلك أن تقاتله.

فهذا الاعتراض تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم قُدِّمت له قبل ذكر إعراض المشركين عن الإسلام، ووعد بأنّه سيمكّنه منهم.

وعلى كلا الوجهين في محمل صفة { حِلٌّ } هو خصوصية للنبيّ صلى الله عليه وسلم، وقد خصَّصه النبيّ صلى الله عليه وسلم بيوم الفتح فقال: **" وإنّما أحلّت لي ساعة من نهار ".**

وحكى ابن عطية عن بعض المتأوّلين: أنّ معنى { وَأَنْتَ حِلٌّ } أنّه حال، أي: ساكن بهذا البلد. وجعله ابن العربي قولا ولم يعزه إلى قائل، وحكاه القرطبي والبيضاوي، وهو يقتضي أن تكون جملة { وَأَنْتَ حِلٌّ } في موضع الحال من ضمير { أُقْسِمُ } فيكون القسم بالبلد مقيدا باعتبار بلد محمد صلى الله عليه وسلم.

وهو تأويل جميل لو ساعد عليه ثبوت استعمال {حل} بمعنى: حال، أي: مقيم في مكان، فإنّ هذا لم يرد في كتب اللغة

(الصحاح / اللسان / القاموس / مفردات الراغب)، ولم يُعرّج عليه صاحب الكشاف.

{ **بِهَذَا الْبَلَدِ** } التكرير إظهار في مقام الإضمار لقصد تجديد التعجيب. ولقصد تأكيد فتح ذلك البلد العزيز عليه، والشديد على المشركين أن يخرج عن حوزتهم.

{ **وَالِدٍ** } تنكير تعظيم، إذ لا يحتمل غير ذلك في سياق القسَم. فتعيّن أن يكون المراد والدا عظيما.

والذي يناسب القسم بهذا البلد أن يكون المراد به إبراهيم عليه السلام، فإنّه الذي اتخذ ذلك البلد لإقامة ولده إسماعيل وزوجه هاجر، كما في قوله تعالى { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ } [إبراهيم:35]، ثم قال { رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ } [إبراهيم:37]. وإبراهيم والد سكّان ذلك البلد الأصليين، قال تعالى { مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ } [الحج:78]، ولأنّه والد محمد صلى الله عليه وسلم.

{ **وَمَا وَلَدَ** } موصول وصلة، والضمير المستتر عائد إلى { وَالِدٍ }. والمقصود: وما ولده إبراهيم من الأبناء والذرّيّة. وذلك مخصوص بالذين اقتفوا هديه، فيشمل محمد صلى الله عليه وسلم.

وفي هذا تعريض بالتنبيه للمشركين من ذرية إبراهيم بأنّهم حادوا عن طريقة أبيهم من التوحيد والصلاح والدعوة إلى الحق وعمارة المسجد الحرام، قال تعالى { إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النبيّ

وَالَّذِينَ آمَنُوا } [آل عمران:68].

{ **مَا** } عُدل عن (من) مع أنّها أكثر استعمالا في إرادة العاقل، وهو مراد هنا، لأنّ (ما) أشد إبهاما، فأريد تفخيم أصحاب هذه الصلة، ونظيره قوله تعالى { وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ } [آل عمران:36]، يعني مولودا عجيب الشأن. ولأنّ قوّة الإبهام في (ما) أنسب بإرادة الجماعة دون واحد معيّن.

{ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ** } جواب القسم وهو الغرض من السورة.

{ **الإِنسَانَ** } الراجح أن يراد به الجنس، وهو الأظهر وقول جمهور المفسرين، فالتعريف فيه تعريف الجنس، ويكون المراد به خصوص أهل الشرك لأنّ قوله تعالى { أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ...} [5] لا يليق إلّا بأحوال غير المؤمنين، فالعموم عموم عرفي، أي: غالب الناس يومئذ، إذ لم يكن المسلمون إلّا نفرا قليلا. ولذلك كثر في القرآن إطلاق الإنسان مرادا به الكافرون من الناس.

الخلق: إيجاد ما لم يكن موجودا، ويطلق على إيجاد حالة لها أثر قوي في الذات، كقوله تعالى { يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ } [الزمر:6]، وقوله تعالى { وَإِذْ تَخْلُقُ مِنْ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ } [المائدة:110]. فهو جَعْل يُغيّر ذات الشيء.

الكَبَد: التعب والشدّة، والذي يلتئم مع السياق ويناسب القسم أنّ الكبد التعب الذي يلازم أصحاب الشرك من اعتقادهم تعدّد الآلهة، واضطراب رأيهم في الجمع بين ادعاء الشركاء لله تعالى وبين توجُّههم إلى الله بطلب الرزق وبطلب النجاة إذا أصابهم ضرّ، ومن إحالتهم البعث بعد الموت مع اعترافهم بالخلْق الأوّل. فقوله تعالى { لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ } ليس مقصودا وحده بل هو توطئة لقوله تعالى { أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ } [5]. والمقصود إثبات إعادة خلق الإنسان بعد الموت للبعث والجزاء الذي أنكروه، وابتدأهم القرآن بإثباته في سور كثيرة من السور الأولى.

فوزان هذا التمهيد وزان التمهيد بقوله تعالى { لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ} [التين:5/4] بعد القسم بقوله تعالى { وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ...} [التين:1].

{ **فِي كَبَدٍ** } الظرفية مستعملة مجازا في الملازمة، ونظيره قوله تعالى { بَلْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلاَلِ الْبَعِيدِ، أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ } [سبأ:9/8].

{ **أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ** } [5].

بدل اشتمال من جملة { لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ } [4]. والاستفهام مستعمل في التوبيخ والتخطئة. والضمير راجع إلى الإنسان لا محالة.

المعنى: أيحسب أن لن نقدر عليه بعد اضمحلال جسده فنعيده خلقا آخر. فهو في طريقة القسم والمقسم عليه شبيه بقوله تعالى { لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ - إلى قوله - أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ، بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ } [القيامة:1-4]. أي: كما خلقناه أوّل مرّة في نصب من أطوار الحياة كذلك نخلقه

خلقا ثانيا في كبد من العذاب في الآخرة لكفره.

{ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا [6] أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ [7] }.

أُعقبت مساوي نفسه بمذام أقواله، وهو التفخُّر الكاذب والتمدُّح بإتلاف المال في غير صلاح. وقد كان أهل الجاهلية يتبجَّحون بإتلاف المال ويعدُّونه منقبة لايذانه بقلّة اكتراث صاحبه به.

{ **يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا** } في موضع الحال من { الإِنْسَانَ } [4]. وذلك من الكبد.

{ **لُبَدًا** } بضم اللام وفتح الموحدة في قراءة الجمهور، وهو جمع (لُبدة) وهي ما تلبّد من صوف أو شعر، أي: تجمّع والتصق بعضه ببعض.

{ **أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ** } بدل اشتمال من الجملة السابقة، لأنّ قوله { أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا } يصدر منه وهو يحسب أنّ كذبه قد راجَ على جميع الناس، وهو لا يخلوا من ناس يطّلعون على كذبه.

قال زهير: ومهما تكن عند امرئ من خليقة ... وإن خالها تخفى على الناس تُعلم

والاستفهام إنكار وتوبيخ، وهو كناية عن علم الله تعالى بدخيلته، وأنّ افتخاره بالكرم باطل.

{ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ [8] وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ [9] وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ [10] }.

تعليل للإنكار والتوبيخ في قوله تعالى { أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ } [5] أو قوله تعالى { أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ } [7]، أي هو غافل عن قدرة الله تعالى وعن علمه المحيط بجميع الكائنات الدال عليهما أنّه خلق مشاعر الإدراك التي منها العينان، وخلق آلات الإبانة وهي اللسان والشفتان، فكيف يكون مفيض العلم على الناس غير عالم بأحوالهم، قال تعالى { أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ } [الملك:14].

والاستفهام يجوز أن يكون تقريريا وأن يكون إنكاريا.

{ **عَيْنَيْنِ** } الاقتصار عليهما لأنّهما أنفع المشاعر، ولأنّ المعلَّل إنكار ظنّه أن لم يره أحد.

{ **وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ** } ذكرهما معا لأنّ الإبانة تحصل بهما.

ومن دقائق القرآن أنّه لم يقتصر على اللسان ولا على الشفتين خلاف عادة كلام العرب أن يقتصروا على أحدهما، يقولون: ينطق بلسان فصيح، ويقولون: لم ينطق ببنت شفة، أو لم ينبس ببنت شفة، لأنّ المقام مقام استدلال فجيء فيه بما له مزيد تصوير لخلق آلة النطق.

{ **وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ** } أُعقب ما به اكتساب العلم وما به الإبانة عن المعلومات، بما يرشد الفكر إلى النظر والبحث، فاستكمل الكلام أصول التعلُّم والتعليم.

الهداية: الدلالة على الطريق المبلِّغة إلى المكان المقصود. واستعيرت الهداية هنا للإلهام الذي جعله الله في الإنسان يدرك به الضار والنافع.

النجد: الأرض المرتفعة ارتفاعا دون الجبل. واستعير النجدان للخير والشر.

{ **فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ [11] وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ [12] فَكُّ رَقَبَةٍ [13] أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ [14] يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ [15] أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ [16] ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ [17]** }.

{ **فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ** } يجوز أن يكون تفريع إدماج بمناسبة قوله تعالى { وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ } [10]، أي: هديناه الطريقين فلم يسلك النجد الموصل إلى الخير.

ويجوز أن يكون تفريعا على جملة { يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا } [6] وما بينهما اعتراضا، وتكون الجملة استفهاما حُذف منه أداته، وهو استفهام إنكار. والمعنى: أنّه يدّعي ويتفاخر بإهلاك مال كثير في الفساد من ميسر وخمر ونحو ذلك، أفلا أهلكه في القُرَب والفضائل بفك الرقاب وإطعام المساكين في زمن المجاعة، فإنّ الإنفاق في ذلك لا يخفى على الناس خلافا لما يدّعيه من إنفاق.

{ **الْعَقَبَةُ** } أطلق على العمل الموصل للخير، لأنّ عقبة النجد أعلى موضع فيه.

الاقتحام: الدخول العسير في مكان أو جماعة كثيرين، يقال: اقتحم الصف، وهو افتعال للدلالة على التكلّف مثل اكتسب. شُبّه تكلُّف الأعمال الصالحة باقتحام العقبة في شدّته على النفس ومشقّته، قال تعالى { وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا } [فصلت:35].

وأفاد نفي الاقتحام أنّه عدل عن الاهتداء إيثارا للعاجل على الآجل ولو عزم وصبر لاقتحم العقبة.

والكلام مسوق مساق التوبيخ على عدم اهتداء هؤلاء للأعمال الصالحة مع قيام أسباب الاهتداء من الإدراك والنطق.

{ **وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ** } حال من العقبة الأولى للتنويه بها وأنّها لأهميتها يسأل عنها المخاطَب: هل أعْلَمَه مُعْلِم ما هي؟ أي: لم يقتحم العقبة في حال جدارتها بأن تُقتحم. وهذا التنويه يفيد التشويق إلى معرفة المراد من العقبة.

{ **مَا أَدْرَاكَ** } الخطاب لغير معيّن لأنّ هذا بمنزلة المَثَل.

{ **فَكُّ رَقَبَةٍ** } بيان للعقبة، والتقدير: هي فك رقبة.

الفكّ: أخذ الشيء من يد من احتاز به. وأطلق الفك على تخليص المأخوذ في أسر أو ملك، لمشابهة تخليص الأمر العسير بالنزع من يد القابض الممتنع.

الرقبة: مراد بها الإنسان، من إطلاق اسم الجزء على كلّه، مثل إطلاق رأس وعين ووجه، وإيثار لفظ الرقبة هنا لأن المراد ذات الأسير أو العبد.

وهذه الآية أصل من أصول التشريع الإسلامي وهو تشوّف الشارع إلى الحرية، وقد بسطنا القول في ذلك في كتاب (أصول النظام الاجتماعي في الإسلام).

المسغبة: الجوع، وهي مصدر على وزن المفعلة مثل المحمدة والمرحمة من سَغِبَ سَغَبًا إذا جاع.

{ **يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ** } أي: يوم مجاعة. وذلك زمن البرد وزمن القحط. ووجه تخصيصه بالإطعام فيه أنّ الناس في زمن المجاعة يشتد شحَّهم بالمال خشية امتداد زمن المجاعة والاحتياج إلى الأقوات. فالإطعام في ذلك الزمن أفضل.

اليتيم: الشخص الذي ليس له أب، وهو دون البلوغ، ووجه تخصيصه بالإطعام أنّه مظنّة قلّة الشبع لصغر سنه وضعف عمله وفقد من يعوله. فلذلك رُغِّب في إطعامه وإن لم يصل حدّ المسكنة والفقر.

{ **ذَا مَقْرَبَةٍ** } أي: مقربة من المُطعِم، لأنّ هذا الوصف يؤكِّد إطعامه، لأنّ في كونه يتيما إغاثة له بالإطعام، وفي كونه ذا مقربة صلة للرحم.

المسكين: الفقير، وتقدّم عند قوله تعالى { وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ } [البقرة:184].

{ **ذَا مَتْرَبَةٍ** } صفة لـ { مِسْكِينًا }، جُعلت المتربة علامة على الاحتياج بحسب العرف.

المتربة: مصدر بوزن مفعلة أيضا وفعله تَرِبَ يقال: ترب، إذا نام على التراب، أي: لم يكن له ما يفترشه على الأرض، وهو في الأصل كناية عن شدّة الاحتياج.

{ **ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ** } عطفها على الجمل المسوقة للتوبيخ والذم يفيد أنّ هذا الصنف من الناس أو هذا الإنسان المعيّن لم يكن من المؤمنين، وأنّه ملوم على ما فرَّط فيه لانتفاء إيمانه، وأنّه لو فعل شيئا من هذه الأعمال الحسنة ولم يكن من الذين آمنوا ما نفعه عمله شيئا لأنّه قد انتفى عنه الحظ الأعظم من الصالحات، كما دلَّت عليه { ثُمَّ } من التراخي الرتبي فهو مؤذن بأنّه شرط في الاعتداد بالأعمال.

وعن عائشة أنّها قالت: يا رسول الله إن أبن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم الطعام ويفك العاني ويعتق الرقاب ويحمل على إبله لله (أي: يريد التقرب) فهل ينفعه ذلك شيئا؟ قال: **" لا، إنّه لم يقل يومًا: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين "**.

ويُفهم من الآية بمفهوم صفة الذين آمنوا أنّه لو عمل هذه القُرَب في الجاهلية وآمن بالله حين جاء الإسلام لكان عمله ذلك محمودا. وقد جاء ذلك صريحا في حديث حكيم بن حزام في الصحيح قال: قلت: يا رسول الله أرأيت أشياء كنت أتحنَّث (أتعبد) بها في الجاهلية من صدقة أو عتاقة وصلة رحم فهل فيها من أجر فقال لي النبيّ: **" أسلمت على ما سلف من خير"**. يعني أنّ دخوله في الإسلام أفاد إعطاء ثواب على أعماله كأنّه عملها في الإسلام.

{ **مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا** } الصيغة أدلّ على ثبوت الإيمان من الوصف بمؤمن، لأنّ صفة الجماعة أقوى من أجل كثرة الموصوفين بها، كما في قوله تعالى { قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ } [البقرة:67].

{ **آمَنُوا** } حُذف المتعلَّق للعلم به، أي: آمنوا بالله وحده وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ودين الإسلام.

{ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ } خُصَّ بالذكر من أوصاف المؤمنين بهذه الصفات لأنّ ذلك أشرف صفاتهم بعد الإيمان، فإنّ الصبر ملاك الأعمال الصالحة كلّها لأنّها لا تخلو من كبح الشهوة النفسانية وذلك من الصبر.

والمرحمة ملاك صلاح الجامعة الإسلامية، قال تعالى { رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ } [الفتح:29]. والتواصي بالرحمة فضيلة عظيمة، وهو أيضا كناية عن اتصافهم بالمرحمة لأنّ من يوصي بالمرحمة هو الذي عرف قدرها وفضلها، فهو يفعلها قبل أن يوصي بها، كما تقدّم في قوله تعالى { وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ } [الفجر:18].

وفي الكلام تعريض بأنّ أهل الشرك ليسوا من أهل الصبر ولا من أهل المرحمة، وقد صُرِّح بذلك في قوله تعالى { وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ - إلى قوله - وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا } [فصلت:33-35]، وقوله تعالى { بَل لاَ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ، وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ } [الفجر:17/18].

{ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ [18] وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ [19] عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ [20] }.

لمّا نُوِّه بالذين آمنوا أُعقِب التنويه بالثناء عليهم وبشارتهم مُفْتَتَحًا باسم الإشارة لتميزهم أكمل تمييز لإحضارهم بصفاتهم في ذهن السامع، مع ما في اسم الإشارة من إرادة التنويه والتعظيم.

{ الْمَيْمَنَةِ } جهة اليمين، فهي مَفْعَلة للمكان، مأخوذة من فعل يَمَنَه إذا كان على يمينه، أو مأخوذة من يَمَنَه الله يُمْنًا، إذا باركه، وإحدى المادتين مأخوذة من الأخرى.

وسُمِّي أهل الجنة { أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ }، و{ أَصْحَابُ الْيَمِينِ } [الواقعة:27]، وسُمِّي أهل النار { أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ } و{ أَصْحَابُ الشِّمَالِ } [الواقعة:41].

{ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ } أي: أصحاب الكرامة عند الله. و**{ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ }** أي: هم محقَّرون.

وذلك كناية مبنيَّة على عرف العرب يومئذ في مجالسهم. ولا ميمنة ولا مشأمة على الحقيقة، لأنّ حقيقة الميمنة والمشأمة تقتضيان حيّزا لمن تنسب إليه الجهة.

{ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ } تتميم لما سيق من ذمّ الإنسان المذكور آنفا إذ لم يُعقَّب ذمه هنالك بوعيده عِناية بالأهم وهو ذكر حالة أضداده ووعدهم، فلمّا قُضي حق ذلك ثُنِيَ العنان إلى ذلك الإنسان، فحصل من هذا النظم البديع مُحسِّن ردّ العجز على الصدر. ومُحسِّن الطباق بين الميمنة والمشأمة.

{ هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ } ضمير الفصل لتقوية الحكم وليس للقصر، إذ قد استفيد القصر من ذكر الجملة المضادة للتي قبلها وهي { أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ }.

{ **مُؤْصَدَةٌ** } اسم مفعول من أوصد الباب بالواو. ويقال: أأصد بالهمز وهما لغتان، قيل الهمز لغة قريش وقيل معناه جعله وصيدة. والوصيدة: بيت يُتّخذ من الحجارة في الجبال لحفظ الإبل.

فقرأ الجمهور { مُوصَدَةٌ } بواو ساكنة بعد الميم من أوصد بالواو، وقرأه أبو عمرو وحمزة وحفص عن عاصم ويعقوب وخلف بهمزة ساكنة بعد الميم من ءاصد الباب، بهمزتين بمعنى وَصَده.

{ **عَلَيْهِمْ** } متعلق بـ { مُؤْصَدَةٌ }، وقُدِّم على عامله للاهتمام بتعلّق الغلق عليهم تعجيلا للترهيب.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الشمس

سُمِّيت هذه السورة في المصاحف وفي معظم كتب التفسير (**سورة الشمس**) بدون واو، وكذلك عنونها الترمذي في جامعه.

وعنونها البخاري سورة (**والشمس وضحاها**) بحكاية لفظ الآية، وكذلك سُمِّيت في بعض التفاسير وهو أولى أسمائها لئلَّا تلتبس على القارئ بسورة إذا الشمس كوّرت، المسمّاة (سورة التكوير).

ولم يذكرها في (الإتقان) مع السور التي لها أكثر من اسم.

وهي مكية بالاتفاق.

وعُدَّت **السادسة والعشرين** في عدد نزول السور، نزلت بعد سورة القدر، وقبل سورة البروج.

وآياتها **خمس عشرة** آية في عدد جمهور الأمصار، وعدّها أهل مكة ست عشرة آية.

أغراض السورة

*/ تهديد المشركين بأنّهم يوشك أن يصيبهم عذاب بإشراكهم وتكذيبهم برسالة محمد صلى الله عليه وسلم كما أصاب ثمودًا بإشراكهم وعتوِّهم على رسول الله إليهم.

*/ مُهّد لذلك بالتنبيه على أنّ تزكية النفس سبب الفلاح. وأنّ التقصير في إصلاحها سبب الفجور والخسران.

*/ قُدِّم لذلك تأكيد الخبر بالقسم بأشياء معظَّمة، وذُكر من أحوالها ما هو دليل على بديع صنع الله تعالى الذي لا يشاركه فيه غيره، فهو دليل على أنّه المنفرد بالإلهية والذي لا يستحق غيره الإلهية، وخاصة أحوال النفوس ومراتبها في مسالك الهدى والضلال والسعادة والشقاء.

{ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا [1] وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا [2] وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا [3] وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا [4] وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا [5] وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا [6] وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا [7] فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا [8] }.

القسم لتأكيد الخبر، والمقصود بالتأكيد هو ما في سوق الخبر من التعريض بالتهديد والوعيد بالاستئصال.

والواوات الواقعة بعد الفواصل واوات قسم.

وكلّ من: (الشمس / القمر / السماء / الأرض / نفس الإنسان) من أعظم مخلوقات الله ذاتًا ومعنًى الدالةِ على بديع حكمته وقويّ قدرته.

وكذلك كلّ من: (الضحى / تلو القمر الشمس / النهار / الليل) من أدق النظام الذي جعله الله تعالى.

الضحى: الوقت الذي ترتفع فيه الشمس متجاوزة مشرقها بمقدار ما يُخيَّل للناظر أنّه طول رمح.

التُّلُو: التبع، وأريد به خلف ضوئه في الليل ضوء الشمس، أي: إذا ظهر بعد مغيبها فكأنّه يتبعها في مكانها، وهذا تلو مجازي. وهو أيضا يضيء في أكثر ليالي الشهر، جعله الله عوضا عن الشمس في عدة ليال في الإنارة.

وفي الآية إشارة إلى أنّ نور القمر مستفاد من نور الشمس، أي: من توجّه أشعة الشمس إلى ما يقابل الأرض من القمر، وليس نيّرا بذاته، وهذا إعجاز علمي من إعجاز القرآن.

{ **وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا** } الضمير المؤنث في { جَلَّاهَا } ظاهره أنّه عائد إلى الشمس، أي: أنّ النهار هو وقت ظهور الشمس. فإسناد التجلية إلى النهار مجاز عقلي، والقسم إنّما هو بالنهار لأنّه حالة دالة على دقيق نظام العالم الأرضي.

وقيل: الضمير عائد إلى الأرض، أي: أضاء الأرض فتجلّت للناظرين.

وابتدئ القسم بالشمس وأضوائها الثلاثة الأصلية والمنعكسة لأنّ الشمس أعظم النيّرات التي يصل نور شديد منها للأرض، ولِما في حالها وحال أضوائها من الإيماء إلى أنّها مَثَل لظهور الإيمان بعد الكفر وبثّ التقوى بعد الفجور، فإنّ الكفر والمعاصي تُمثَّل بالظلمة، والإيمان والطاعات تُمثَّل بالضياء، قال تعالى { وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ } [المائدة:16].

{ **وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا** } أُعقِب القَسَمُ بالنهار بالقَسَم بالليل لأنّه مقابل وقت النهار فهو وقت الإظلام.

الغشي: التغطية وليس الليل بمغطٍّ للشمس على الحقيقة ولكنّه مسبَّب عن غشي نصف الكرة الأرضية لقرص الشمس ابتداء من وقت الغروب وهو زمن لذلك الغشي. فإسناد الغشي إلى الليل مجاز عقلي من إسناد الفعل إلى زمنه أو إلى مُسبَّبه. وتقييد القسم بالليل بوقت تغشيته تذكيرا بالعبرة بحدوث حالة الظلمة بعد حالة النور.

وقيل: ضمير المؤنث في { يَغْشَاهَا } عائد إلى الأرض، على نحو ما قيل في { وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا }.

{ **وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا** } تشبيه لرفعها فوق الأرض كالبناء.

السماء: آفاق الكواكب، قال تعالى { وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ } [المؤمنون:17].

طَحْوُ الأرض: بسطها وتوطئتها للسير والجلوس والاضطجاع، يقال: طحا يطحو ويطحي طحوًا وطحيًا. وهو مرادف (دحا) في [النازعات:30].

النفس: ذات الإنسان، كما تقدّم عند قوله تعالى { يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ } [الفجر:27]، والتنكير للنوعية أي: جنس النفس، فيعم كل نفس عموما بالقرينة على نحو قوله تعالى { عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ } [الإنفطار:5].

تسوية النفس: خلقها سواء، أي: غير متفاوتة الخلق، وتقدّم عند قوله تعالى { الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ } [الانفطار:7]. فالتسوية حاصلة من وقت تمام خلقة الجنين من أوّل أطوار الصبا إذ التسوية تعديل الخلقة

وإيجاد القوى الجسدية والعقلية ثم تزداد كيفية القوى فيحصل الإلهام.

{ **فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا** } عطف على { سَوَّاهَا }، فهو مُقسَم به، وعُطف بالفاء لأنّ الإلهام ناشئ عن التسوية.

الإلهام: مصدر ألهم، وهو فعل متعدّ بالهمزة ولكن المجردَ منه مُمات. وهو مشتق من اللَّهْم وهو البلع دفعة. ويطلق الإلهام إطلاقا خاصا على حدوث علم في النفس بدون تعليم ولا تجربة ولا تفكير فهو علم يحصل من غير دليل سواء ما كان منه وجدانيا، كالانسياق إلى المعلومات الضرورية والوجدانية، وما كان منه عن دليل كالتجريبيات والأمور الفكرية النظرية.

والإلهام اسم قليل الورود في كلام العرب ولم يذكر أهل اللغة شاهدا له من كلامهم. ولذلك فهذا اللفظ إن لم يكن من مبتكرات القرآن يكن ممّا أحياه القرآن، لأنّه اسم دقيق الدلالة على المعاني النفسية.

وإيثار هذا الفعل هنا ليشمل جميع علوم الإنسان.

المعنى هنا: أنّ من آثار تسوية النفس إدراك العلوم الأولية والإدراك الضروري المدرَّج ابتداء من الانسياق الجِبِلِّي نحو الأمور النافعة، كطلب الرضيع الثدي أول مرّة، ومنه اتقاء الضار كالفرار ممّا يُكره، إلى أن يبلغ ذلك إلى أوّل مراتب الاكتساب بالنظر العقلي، وكلّ ذلك إلهام.

وتعدية الإلهام إلى الفجور والتقوى في هذه الآية مع أنّ الله أعلم الناس بما هو فجور وما هو تقوى بواسطة الرسل باعتبار أنّه لولا ما أودع الله في النفوس من إدراك المعلومات على اختلاف مراتبها لما فهموا ما تدعوهم إليه الشرائع الإلهية، فلولا العقول لما تيسَّر إفهام الإنسان الفجور والتقوى، والعقاب والثواب.

{ **فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا** } تقديم الفجور على التقوى مراعى فيه أحوال المخاطبين بهذه السورة، وهم المشركون، وأكثر أعمالهم فجور ولا تقوى لهم، والتقوى صفة أعمال المسلمين وهم قليل يومئذ.

{ **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا** [9] **وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا** [10] }.

يجوز أن تكون الجملة جواب القَسَم، وأنّ المعنى تحقيق فلاح المؤمنين وخيبة المشركين، كما جُعل في سورة الليل جواب القسم قوله تعالى { إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى، فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى ...} [5/4].

وتكون جملة { كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا } [11] في موقع الدليل لمضمون جملة { وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا }، أي: خاب كخيبة ثمود.

ويجوز أن تكون جملة معترضة بين القسم والجواب لمناسبة ذكر إلهام الفجور والتقوى، أي: أفلح من زكّى نفسه واتّبع ما ألهمه الله من التقوى، وخاب من اختار الفجور بعد أن أُلهِم التمييز بين الأمرين بالإدراك والإرشاد الإلهي.

وتكون الجملة توطئة لجملة الجواب { كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا } [11]. فإنّ ما أصاب ثمودا كان من خيبتهم

لأنّهم دسَّوا أنفسهم بالطغوى.

{ **قَدْ أَفْلَحَ / وَقَدْ خَابَ** } الفلاح: النجاح بحصول المطلوب، والخيبة ضده، أي: أن يُحرم الطالب ممّا طلبه. والمقصود هنا الفلاح في الآخرة والخيبة فيها. وقُدِّم الفلاح على الخيبة لمناسبته للتقوى، وأُردِف بخيبة من دَسَى نفسه لتهيئة الانتقال إلى الموعظة بما حصل لثمود من عقاب على ما هو أثر التدسية. فالإنسان يرغب في الملائم النافع، فمن الناس من يطلب ما به النفع والكمال الدائمان، ومن الناس من يطلب ما فيه عاجل النفع والكمال الزائف، فالأوّل قد نجح فيما طلبه فهو مُفلح، والثاني يُحصِّل نفعًا عارضًا زائلًا وكمالًا موقتا ينقلب انحطاطًا، فذلك لم ينجح فيما طلبه فهو خائب، وقد عُبِّر عن ذلك هنا بـ (الفلاح / الخيبة)، كما عُبِّر عنه في مواضع أخر بـ (الربح / الخسارة).

التزكية: الزيادة من الخير.

{ **دَسَّاهَا** } حال بينها وبين فعل الخير. وأصل فعل دسَّى: دسَّ، إذا أدخل شيئا تحت شيء فأخفاه، فأبدلوا الحرف المضاعف ياء طلبا للتخفيف.

وفي هذه الآيات مُحسِّن الطباق غير مرة، فقد ذُكرت أشياء متقابلة متضادة مثل: (الشمس / القمر)، و(النهار / الليل)، و(التجلية / الغشي)، و(السماء / الأرض)، و(البناء / الطحو)، و(الفجور / التقوى)، و(الفلاح / الخيبة)، و(التزكية / التدسية).

{ **كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا** [11] **إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا** [12] **فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا** [13] **فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا** [14] **وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا** [15] }.

إن كانت جملة { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ...} [9] معترضة كانت هذه جوابا للقسم باعتبار ما فُرِّع عليها بقوله تعالى { فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ }، أي: حقا لقد كان ذلك لذلك، ولام الجواب محذوف تخفيفا.

<u>والمقصود</u>: التعريض بتهديد المشركين الذين كذّبوا الرسول طغيانا هم يعلمونه من أنفسهم، كما كذَّبت ثمود رسولهم طغيانا، وذلك هو المحتاج إلى التأكيد بالقسم، **لأنّ** المشركين لم يهتدوا إلى أن ما حلّ بثمود من الاستئصال كان لأجل تكذيبهم رسول الله إليهم، فنبَّههم الله بهذا ليتدبَّروا، **أو** لتنزيل علم من علم ذلك منهم منزلة الإنكار لعدم جري أمرهم على موجب العلم، فكأنّه قيل: أقسم ليصيبكم عذاب كما أصاب ثمود. ولقد أصاب المشركين عذاب السيف بأيدي الذين عادوهم وآذوهم وأخرجوهم.

{ **كَذَّبَتْ** } المفعول محذوف لدلالة قوله تعالى بعده { فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ }، والتقدير: كذّبوا رسول الله.

{ **ثَمُودُ** } تقدّم ذكر ثمود ورسولهم صالح عليه السلام في سورة [الأعراف:73-78].

{ **بِطَغْوَاهَا** } الباء للسببية، أي: كانت طغواها سبب تكذيبهم رسول الله إليهم.

الطغوى: اسم مصدر يقال: طغا طغوا وطغيانا، والطغيان: فرط الكِبْر، وتقدّم عند قوله تعالى { وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } [البقرة:15]، وفيه تعريض بتنظير مشركي قريش في تكذيبهم بثمود في أنّ سبب

تكذيبهم هو الطغيان والتكبّر عن اتّباع من لا يرون له فضلا عليهم، { وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } [الزخرف:31].

{ **إِذِ** } ظرف للزمن الماضي يتعلّق بـ { طَغْوَاهَا }، قُدِّم عن موقعه بعد قوله تعالى { فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ } لأنّ انبعاث أشقاها لعقر الناقة جزئي من جزئيات طغواهم، ففي تقديمه قضاء لحق هذا الاتصال، ولإفادة أنّ انبعاث أشقاهم لعقر الناقة كان عن إغراء منهم إيّاه، وأنّه وقع بعد أن قال لهم رسول الله { نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا }.

انبعث: مطاوع بعث، فالمعنى: إذ بعثوا أشقاهم فانبعث.

أشقاها: أشدّها شِقوة، وعني به رجل منهم سمّاه المفسّرون (قُدَار بن سالف)، وزيادته عليهم في الشقاوة بأنّه الذي باشر الجريمة وإن كان عن ملإٍ منهم وإغراء.

{ **فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ** } الفاء عاطفة على { كَذَّبَتْ } فتفيد الترتيب والتعقيب كما هو الغالب فيها. ويكون معنى الكلام: كذّبوا رسول الله فتحدّاهم بآية الناقة وحذَّرهم من التعرض لها بسوء ومن منعها شربها في نوبتها من السقيا.

{ **نَاقَةَ اللَّهِ** } انتصب على التحذير، والتقدير: احذروا ناقة الله. والمراد: التحذير من أن يؤذوها.

وإضافة { نَاقَةَ } إلى اسم الجلالة لأنّها آية جعلها الله على صدق رسالة صالح عليه السلام ولأنّ خروجها لهم كان خارقا للعادة.

السُّقيا: اسم مصدر سقى، وهو معطوف على التحذير، والمراد التحذير من أن يسقوا إبلهم من الماء الذي في يوم نوبتها.

{ **فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا** } هذا تكذيب ثان، وهو تكذيبهم بما اقتضاه التحذير من الوعيد. والإنذار بالعذاب إن لم يحذروا الاعتداء على تلك الناقة، وهو المصرَّح به في قوله تعالى { وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [الأعراف:73].

العقر: جرح البعير في يديه ليبرك على الأرض من الألم فيُنحر في لبته، فالعقر كناية مشهورة عن النحر لتلازمهما.

{ **فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا** } المراد بهذه الدمدمة صوت الصاعقة والرجفة التي أُهلكوا بها، قال تعالى { فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ } [الحجر:73]، وإسناد ذلك إلى الله مجاز عقلي لأن الله هو خالق الصيحة وكيفياتها.

<u>وقال أكثر المفسرين</u>: دمدم عليهم أطبق عليهم الأرض، يقال: دَمَّم عليه القبر، إذا أطبقه.

{ **فَسَوَّاهَا** } تفريع على { فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ }، أي: فاستَووا في إصابتها لهم.

ومن فسَّروا { فَدَمْدَمَ } بمعنى أطبق عليهم الأرض قالوا: معنى { فَسَوَّاهَا }: جعل الأرض مستوية عليهم لا تظهر فيها أجسادهم ولا بلادهم، وجعلوا ضمير المؤنث عائدا إلى الأرض، فيكون كقوله تعالى { لَوْ

تُسَوَّى بِهِمْ الأَرْضُ } [النساء:42].

{ **فَسَوَّاهَا / وَمَا سَوَّاهَا** } بينهما مُحسِّن الجناس التام.

العُقبى: ما يحصل عقب فعل من الأفعال من تبعة لفاعله أو مثوبة. أخبر الله أنّه الغالب الذي لا يقدر مغلوبُه على أخذ الثأر منه، وهذا كناية عن تمكّن الله من عقاب المشركين وأنّ تأخير العذاب عنهم إمهال لهم وليس عن عجز، فجملة { فَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا } تذييل للكلام وإيذان بالختام.

ويجوز أن يكون قوله تعالى { فَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا } تمثيلا لحالهم في الاستئصال بحال من لم يترك من يثأر له، فيكون المثل كناية عن هلاكهم عن بكرة أبيهم لم يبق منهم أحد.

وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر { فَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا } بفاء العطف تفريعا على { فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ }. وهو مكتوب بالفاء في مصاحف المدينة ومصحف الشام. وقرأ الباقون من العشرة { وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا } بواو العطف أو الحال، وهي كذلك في مصاحف أهل مكة وأهل البصرة والكوفة، وهي رواية قرّائها.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الليل

سُمِّيت هذه السورة في معظم المصاحف وبعض كتب التفسير (**سورة الليل**) بدون واو.

وسُمِّيت في معظم كتب التفسير (**سورة والليل**) بإثبات الواو، وعنونها البخاري في صحيحه والترمذي في جامعه سورة (**والليل إذا يغشى**).

وهي مكية في قول الجمهور، واقتصر عليه كثير من المفسّرين.

وحكى ابن عطية عن المهدوي أنّه قيل: إنّها مدنية، وقيل: بعضها مدني، وكذلك ذكر الأقوال في الإتقان، وأشار إلى أنّ ذلك لِما روي من سبب نزول قوله تعالى { فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى } [5]، إذ روي أنّها نزلت في أبي الدحداح الأنصاري، وهو حديث غريب.

وعُدَّت التاسعة في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة الأعلى وقبل سورة الفجر.

وعدد آيها **عشرون**.

أغراض السورة

*/ بيان شرف المؤمنين وفضائل أعمالهم ومذمّة المشركين ومساويهم وجزاء كلٍّ.

*/ أن الله يهدي الناس إلى الخير، فهو يجزي المهتدين بخير الحياتين والضّالين بعكس ذلك.

*/ أنه أرسل رسوله صلى الله عليه وسلم للتذكير بالله وما عنده فينتفع من يخشى فيفلحُ، ويصدف عن الذكرى من كان شقيًّا، فيكون جزاؤه النار الكبرى.

*/ أدمج في ذلك الإشارة إلى دلائل قدرة الله تعالى وبديع صنعه.

{ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى [1] وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى [2] وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى [3] إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى [4] }.

افتتاح الكلام بالقسم جار على أسلوب السورتين قبل هذه، وغرض ذلك ما تقدّم آنفا.

ومناسبة المُقسَم به للمُقسَم عليه أنّ سعي الناس منه خير ومنه شرّ، وهما يُماثلان النور والظلمة، وأنّ سعي الناس ينبثق عن نتائج منها النافع ومنها الضار، كما يُنتج الذكر والأنثى ذرّيّة صالحة وغير صالحة.

{ **وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى** } خُصَّ بالذكر ما في الليل من الدلالة من حالة غشيانيه الجانب الذي يغشاه من الأرض. ويغشى فيه الموجودات فتعمّها ظلمته فلا تبدو للناظرين، لأنّ ذلك أقوى أحواله.

وحذف مفعول { يَغْشَى } لتنزيل الفعل منزلة اللازم لأنّ العبرة بغشيانه كلّ ما تغشاه ظلمته.

{ **وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى** } خُصّ بالذكر من أحوال النهار حالة تجليته عن الموجودات وظهوره على الأرض. وأسند التجلِّي إلى النهار مدحا له بالاستنارة التي يراها كلّ أحد ويحسّ بها حتّى البصراء.

التجلّي: الوضوح، وتجلِّي النهار: وضوح ضيائه، فهو بمعنى قوله تعالى { وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا } [الشمس:1].

{ **يَغْشَى / تَجَلَّى** } تقدم بيانها عند قوله تعالى { وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا } [الشمس:4/3]. وفي القسم بالليل والنهار التنبيه على الاعتبار بهما في الاستدلال على حكمة نظام الله في هذا الكون وبديع قدرته. وابتدئ في هذه السورة بذكر الليل ثم ذكر النهار عكس ما في سورة الشمس لأنّ هذه السورة نزلت قبل سورة الشمس بمدة وهي سادسة السور وأيّامئذ كان الكفر مخيّما على الناس إلّا نفرا قليلا، وكان الإسلام قد أخذ في التجلي فناسب تلك الحالة تمثيلها بحالة الليل حين يعقبه ظهور النهار، ويتّضح هذا في جواب القسم بقوله تعالى { إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى - إلى قوله - إِذَا تَرَدَّى } [4-11].

{ **وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى** } و(ما) هنا مصدرية، أقسم الله بأثر من آثار قدرته وهو خلق الزوجين وما يقتضيه من التناسل.

الذكر والأنثى: صنفا أنواع الحيوان. والمراد: خصوص خلق الإنسان وتكوّنه من ذكر وأنثى، كما قال تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى } [الحجرات:13]، لأنّه هو المخلوق الأرفع في عالم الماديات وهو الذي يدرك المخاطبون أكثر دقائقه، بخلاف تكوّن نسل الحيوان، فإنّ الإنسان يدرك بعض أحواله ولا يُحصي كثيرا منها.

{ **إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى** } جواب القسم. والمقصود من التأكيد بالقسم قوله تعالى { وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى} [11].

السعي: حقيقته المشي القوي الحثيث، وهو مستعار هنا للعمل والكَدّ.

شتَّى: جمع شتيت على وزن فَعْلَى، مثل قتيل وقتلى، مشتقّ من الشتِّ وهو التفرّق الشديد يقال: شتَّ جمعهم، إذا تفرقوا. وأريد به هنا التنوّع والاختلاف في الأحوال. وهو استعارة أو كناية عن الأعمال المتخالفة، لأنّ التفرّق يلزمه الاختلاف.

{ **إِنَّ سَعْيَكُمْ** } الخطاب لجميع الناس من مؤمن وكافر.

{ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى [5] وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى [6] فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى [7] وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى [8] وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى [9] فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى [10] وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى [11] }.

{ **فَأَمَّا** } تفريع وتفصيل للإجمال في قوله تعالى { إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى } [4]، فحرف (أمّا) يفيد الشرط والتفصيل، والمحتاج للتفصيل هنا هو السعي المذكور، ولكن جُعل التفصيل بيان الساعين لأنّ المهم هو

اختلاف أحوال الساعين ويلازمهم السعي، وهذا تفنُّن من أفانين الكلام الفصيح يحصل منه معنيان.

{ **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى** } يعمّ كل من يفعل الإعطاء ويتقي ويصدِّق بالحسنى.

روي أن هذا نزل بسبب أنّ أبا بكر اشترى بلالا من أمية بن خلف وأعتقه لينجيه من التعذيب.

وقيل: نزلت في قضية أبي الدحداح مع رجل منافق. وهو حديث غريب.

وهذه الخلال الثلاث من خلال الإيمان:

{ **أَعْطَى** } حُذف المفعول لأنّ فعل الإعطاء إذا أريد به إعطاء المال بدون عوض، ينزل منزلة اللازم لاشتهار استعماله في إعطاء المال، ولذلك يُسمَّى المال الموهوب عطاء. ولذلك قوبل في الشق الآخر بقوله تعالى { **بَخِلَ** } ولم يذكر له متعلّق لأنّه أريد به البخل بالمال.

{ **اتَّقَى** } وكذلك حُذف المفعول لأنّه يُعلم أنّ المقدَّر: اتقى الله. وقوبل في الشق الآخر بقوله { **اسْتَغْنَى** }، فيراد به الاستغناء عن امتثال أمر الله ودعوته لأنّ المُصرَّ على الكفر المعرضَ عن الدعوة يعدّ نفسه غنيًّا عن الله مكتفيا بولاية الأصنام وقومه، فالسين والتاء للمبالغة في الفعل. وقد يراد به زيادة طلب الغنى بالبخل بالمال، فتكون السين والتاء للطلب. وهذه الخلال كناية عن كونه من المشركين.

{ **وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى** } الحُسنى: تأنيث الأحسن، فهي بالأصالة صفة لموصوف مقدّر، وتأنيثها مشعر بأنّ موصوفها المقدّر يعتبر مؤنث اللفظ، ويحتمل أمورا كثيرة: مثل المثوبة أو النصر أو العاقبة.

وقد يصير هذا الوصف علما بالغلبة، فقيل: الجنة، وقيل: كلمة الشهادة، وقيل: الصلاة، وقيل الزكاة.

وعلى الوجوه كلّها فالتصديق بها الاعتراف بوقوعها، ويُكنَّى به عن الرغبة في تحصيلها.

وحاصل الاحتمالات يرجع إلى الإيمان. ويتضمَّن أنّه يعمل الأعمال التي يحصل بها الفوز بالحُسنى.

ولذلك قوبل في الشق الآخر بقوله تعالى { **وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى** }.

{ **فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى / فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى** }

التيسير: جعلُ شيء يسيرَ الحصول، ومفعول { فَسَنُيَسِّرُهُ } هو الشيء الصعب الذي يُجعل يسيرا.

{ **لِلْيُسْرَى** } هي ما لا مشقّة فيه. وتأنيثها: إمّا بتأويل الحالة، أي: الحالة التي لا تشقّ عليه في الآخرة، وهي حالة النعيم، أو على تأويلها بالمكانة. وقد فُسِّرت اليسرى بالجنة عن زيد بن أسلم ومجاهد. ويحتمل اللفظ معاني كثيرة تندرج في معاني النافع الذي لا يشق على صاحبه، أي: الملائم.

العسرى: إمّا الحالة وهي حالة العسر والشدّة، وإمّا مكانته وهي جهنم، لأنّها مكان العسر والشدائد على أهلها، قال تعالى { فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ، عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ } [المدثر:10/9].

{ **فَسَنُيَسِّرُهُ** } أي: ندرِّجُه في عملي السعادة والشقاوة، وبه فسر ابن عطية.

وفي الآية مُحسِّن الجمع مع التقسيم، ومُحسِّن الطباق، أربع مرات: (أعطى / بخل - اتقى / استغنى - صدّق / كذّب - اليسرى / العسرى).

{ **وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى** } عطف على جملة { فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى } أي: سنعجِّل به إلى جهنم.

فالتقدير: إذا تردَّى فيها.

الترَدِّي: السقوط من علو إلى سفل، يعني: لا يُغني عنه ماله الذي بخل به شيئا من عذاب النار.

{ **مَا** } يجوز أن تكون نافية، والتقدير: وسوف لا يغني عنه ماله إذا سقط في جهنم.

وتحتمل أن تكون استفهامية، وهو استفهام إنكار وتوبيخ.

{ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى [12] وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى [13] }.

استئناف مقرِّر لمضمون الكلام السابق من قوله تعالى { فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى - إلى قوله - لِلْعُسْرَى} [5-10]، وذلك لإلقاء التبعة على من صار إلى العسرى بأنّ الله أعذر إليه إذ هداه بدعوة الإسلام إلى الخير فأعرض عن الاهتداء باختياره اكتساب السيِّئات.

{ **عَلَيْنَا** } حرف (على) إذا وقع بين اسم وما يدلّ على فعل يفيد معنى اللزوم، أي: لازم لنا هدى الناس، وهذا التزام من الله اقتضاه فضله وحكمته فتولَّى إرشاد الناس إلى الخير قبل أن يؤاخذهم بسوء أعمالهم.

فلقد هدى الله الإنسان بأن خلقه قابلا للتمييز بين الصلاح والفساد، ثمّ عزّز ذلك بأن أرسل إليه رسلا مبيِّنين لما قد يخفي أمره من الأفعال أو يشتبه على الناس فساده بصلاحه، ومنبِّهين الناس لما قد يغفلون عنه من سابق ما عملوه.

{ **وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى** } عطف على جملة { إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى } تتميم وتنبيه على أنّ تعهُّد الله لعباده بالهدى فضل منه وإلّا فإن الدار الآخرة ملكه والدار الأولى ملكه بما فيهما، قال تعالى { وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا } [المائدة:17]، فله التصرّف فيهما كيف يشاء.

وفي الآية إشارة عظيمة إلى أنّ أمور الجزاء في الأخرى تجري على ما رتَّبه الله وأعلم به عباده. وأنّ نظام أمور الدنيا وترتيب مسبباته على أسبابه أمرٌ قد وضعه الله تعالى وأمرَ بالحفاظ عليه وأرشد وهدى، فمن فرَّط في شيء من ذلك فقد استحق ما تسبَّب فيه.

{ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى [14] لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الأَشْقَى [15] الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى [16] وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى [17] الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى [18] وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى [19] إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى [20] وَلَسَوْفَ يَرْضَى [21] }.

يجوز أن تكون الفاء لمجرد التفريع الذكري إذا كان فعل (أنذرتكم) مستعملا في ماضيه حقيقة وكان المراد الإنذار الذي اشتمل عليه قوله تعالى { وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى - إلى قوله تعالى – تَرَدَّى } [8-11]. وهذه الفاء يشبه معناها معنى فاء الفصيحة لأنّها تدل على مراعاة مضمون الكلام الذي قبلها، وهو تفريع إنذار مفصَّل على إنذار مجمل.

ويجوز أن تكون الفاء للتفريع المعنوي فيكون فعل (أنذرتكم) مرادا به الحال وإنّما صيغ في صيغة الماضي لتقريب زمان الماضي من الحال كما في: قد قامت الصلاة. وهو تفريع على جملة { إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى } [12]. والمعنى: هديتكم فأنذرتكم إبلاغا في الهدى.

{ **نَارًا** } التنكير للتهويل.

{ **تَلَظَّى** } نعت. أي: تلتهب من شدّة الاشتعال. وهو مشتق من اللظى مصدر: لَظِيَتْ إذا التهبت. أصلها تتلظَّى بتاءين حُذفت إحداهما للاختصار.

{ **لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الأَشْقَى** } صفة ثانية أو حال من { نَارًا } بعد أن وُصفت.

{ **الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى** } زيادة في التنصيص على أنّهم المقصود بذلك، فإنّهم يعلمون أنّهم كذَّبوا الرسول صلى الله عليه وسلم وتولَّوا، أي: أعرضوا عن القرآن، وقد انحصر ذلك الوصف فيهم يومئذ، فقد كان الناس في زمن ظهور الإسلام أحد فريقين: إمّا كافر وإمّا مؤمن تقي، ولم يكن الذين أسلموا يغشون الكبائر لأنّهم أقبلوا على الإسلام بشراشرهم، ولذلك عطف { وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى ...} تصريحا بمفهوم القصر وتكميلا للمقابلة.

{ **وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى، الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى** } وصف { الأَتْقَى } بصلة { الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى } للإيذان بأن للصلة تسبُّبا في الحكم. كما الشأن في وصف { الأَشْقَى } بصلة { الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى }.

{ **الأَشْقَى / الأَتْقَى** } بينهما مُحسِّن الجناس المضارع.

المال: اسم جنس لما يختصّ به أحد الناس من أشياء ينتفع بذاتها أو بخراجها وغلتها مثل الأنعام والأرضين والآبار الخاصة والأشجار الخاصة. ويطلق عند بعض العرب، مثل أهل يثرب، على النخيل.

{ **يَتَزَكَّى** } الجملة حال من ضمير { يُؤْتِي }، وفائدة الحال التنبيه على أنّه يؤتي ماله بقصد النفع والزيادة من الثواب تعريضا بالمشركين اللذين يؤتون المال للفخر والرياء والمفاسد والفجور.

التزكِّي: تكلّف الزكاء، وهو النماء من الخير.

{ **وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى، إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى** } اتفق أهل التأويل على أنّ أوّل مقصود بهذه الصلة أبو بكر الصديق رضي الله عنه، لمّا اعتق بلالا قال المشركون: ما فعل ذلك أبو بكر إلّا ليد كانت لبلال عنده. وهو قول من بهتانهم يعلِّلون به أنفسهم كراهية لأن يكون أبو بكر فعل ذلك محبة للمسلمين، فأنزل الله تكذيبهم.

الابتغاء: الطلب بجد لأنّه أبلغ من البغي.

{ **وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى** } الوجه مستعمل مراد به الذات، كقوله تعالى { وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ } [الرحمن:27]. ومعنى ابتغاء الذات ابتغاء رضا الله.

{ **وَلَسَوْفَ يَرْضَى** } وعد بالثواب الجزيل الذي يُرضي صاحبه. وهذا تتميم لقوله تعالى { وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى }، لأنّ ذلك ما أفاد إلّا أنّه ناج من عذاب النار، لقصد المقابلة مع قوله تعالى { لاَ يَصْلاَهَا إِلَّا

الأَشْقَى }، فتُمِّم هنا بذكر ما أُعِدَّ له من الخيرات.

{ **لَسَوْفَ** } لتحقيق الوعد في المستقبل كقوله تعالى { قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي } [يوسف:98]. واللام لام الابتداء لتأكيد الخبر.

وهذه من جوامع الكلم لأنّها يندرج تحتها كلّ ما يرغب فيه الراغبون.

وبهذه السورة انتهت سور وسط المفصَّل.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الضحى

سُمِّيت هذه السورة في أكثر المصاحف وفي كثير من كتب التفسير وعند الترمذي (**سورة الضحى**) بدون الواو. وسُمِّيت في كثير من التفاسير وفي صحيح البخاري (**سورة والضحى**) بإثبات الواو.

ولم يبلغنا عن الصحابة خبر صحيح في تسميتها.

وهي مكية بالاتفاق.

وسبب نزولها ما ثبت في الصحيحين، يزيد أحدهما على الآخر، عن الأسود بن قيس عن جندب بن سفيان البَجَلي قال: دَمِيَتْ إصبع رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشتكى فلم يقم ليلتين أو ثلاثة فجاءت امرأة (وهي أم جميل بنت حرب زوج أبي لهب، كما في رواية عن ابن عباس، ذكرها ابن عطية) فقالت: يا محمد إنّي لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث. فأنزل الله: { وَالضُّحَى، وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى } [1-3].

وعُدَّت هذه السورة **حادية عشرة** في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة الفجر وقبل سورة الانشراح.

وعدد آيها **إحدى عشرة آية**.

وهي أوَّل سورة في قصار المفصَّل.

أغراض السورة

*/ إبطال قول المشركين إذ زعموا أن ما يأتي من الوحي للنبيّ صلى الله عليه وسلم قد انقطع عنه.

*/ زاده بشارة بأنّ الآخرة خير له من الأولى، على معنيين في الآخرة والأولى.

*/ أنّه سيعطيه ما فيه رضاه. وذلك يغيض المشركين.

*/ ذكَّره الله بما حفَّه به من ألطافه وعنايته في صباه وفي فتوّته وفي وقت اكتهاله.

*/ أمره بالشكر على تلك النعم بما يناسبها، مع نفع لعبيده، وثناء على الله بما هو أهله.

{ وَالضُّحَى [1] وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى [2] مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى [3] }.

القَسَم لتأكيد الخبر ردًّا على زعم المشركين أنّ الوحي انقطع عن النبيّ صلى الله عليه وسلم حين رأوه لم يقم الليل بالقرآن بضع ليال. فالتأكيد تعريض بالمشركين، وأمّا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يتردَّد في وقوع ما يخبره الله بوقوعه.

{ وَالضُّحَى، وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى } ومناسبة هذا القسم أنّ الضحى وقت انبثاق نور الشمس فهو إيماء إلى

تمثيل نزول الوحي وحصول الاهتداء به، وأنّ الليل وقت قيام النبيّ صلى الله عليه وسلم بالقرآن وهو الوقت الذي كان يسمع فيه المشركون قراءته من بيوتهم القريبة من بيته أو من المسجد الحرام.

الضحى: تقدَّم بيانه عند قوله تعالى { وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا } [الشمس:1].

{ **إِذَا سَجَى** } قيد { اللَّيْلِ }. فلعلّ ذلك وقت قيام النبيّ صلى الله عليه وسلم، قال تعالى { قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا، نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا } [المزمل:2-3].

سَجَى: يقال: سجا الليل سَجْوًا، وسُجُوًّا، إذا امتد وطال مدة ظلامه مثل سجو المرء بالغطاء، إذا غُطِّي به جميع جسده.

{ **مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى** } جواب القسم، وجواب القسم إذا كان جملة منفية لم تقترن باللام.

التوديع: تحية من يريد السفر. واستعير في الآية للمفارقة بعد الاتصال تشبيها بفراق المسافر في انقطاع الصلة، حيث شُبِّه انقطاع صلة الكلام بانقطاع صلة الإقامة، والقرينة إسناد ذلك إلى الله الذي لا يتصل بالناس اتصالا معهودا.

وهذا نفي لأن يكون الله قطع عنه الوحي.

{ **وَمَا قَلَى** } عطف على جملة جواب القسم، للإتيان على إبطال مقالتي المشركين إذ قال بعضهم: ودَّعه ربه، وقال بعضهم: قلاه ربه، يريدون التهكُّم. القَلْي والقِلَى: البغض الشديد.

<u>الظاهر أنّ هذه السورة نزلت عقب فترة ثانية فتر فيها الوحي</u>، بعد الفترة التي نزلت إثرها سورة المدثر.

فعن ابن عباس وابن جريج: " احتبس الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسة عشر يوما أو نحوها. فقال المشركون: إنّ محمدا قد ودَّعه ربه وقلاه، فنزلت الآية ".

<u>واحتباس الوحي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وقع مرتين</u>:

أولاهما: قبل نزول سورة المدثر أو المزمل، أي بعد نزول سورتين من القرآن أو ثلاث، على الخلاف في الأسبق من سورتي المزمل والمدثر، وتلك الفترة هي التي خشي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون قد انقطع عنه الوحي، وهي التي رأى عقبها جبريل على كرسي بين السماء والأرض، كما تقدّم في تفسير سورة المدثر، وقد قيل: إنّ مدّة انقطاع الوحي في الفترة الأولى كانت أربعين يوما ولم يشعر بها المشركون لأنّها كانت في مبدإ نزول الوحي قبل أن يشيع الحديث بينهم فيه، وقبل أن يقوم النبيّ صلى الله عليه وسلم بالقرآن ليلا.

ثانيتهما: فترة بعد نزول نحو من ثمان سور، أي: السور التي نزلت بعد الفترة الأولى فتكون بعد تجمّع عشر سور، وبذلك تكون هذه السورة حادية عشرة فيتوافق ذلك مع عددها في ترتيب نزول السور.

والاختلاف في سبب نزول هذه السورة يدلّ على عدم وضوحه للرواة، فالذي نظنّه أن احتباس الوحي في هذه المرة كان لمدة نحو من اثني عشر يوما وأنّه ما كان إلّا للرفق بالنبيّ صلى الله عليه وسلم كي تستجمّ نفسه وتعتاد قوته تحمُّل أعباء الوحي، إذ كانت الفترة الأولى أربعين يوما ثم كانت الثانية اثنى عشر يوما

أو نحوها، فيكون نزول سورة الضحى هو النزول الثالث، وبهذا الوجه يُجمع بين مختلف الأخبار في سبب نزول هذه السورة وسبب نزول سورة المدثر.
{ **قَلَى** } حذف المفعول لدلالة { وَدَّعَكَ } عليه، وهو إيجاز لفظي لظهور المحذوف ومثله قوله { فَآوَى } [6]، { فَهَدَى } [7]، { فَأَغْنَى } [8].

{ **وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى** } [4].

عطف على جملة { وَالضُّحَى } [1] فهذا كلام مبتدأ به، والجملة معطوفة على الجمل الابتدائية وليست معطوفة على جملة جواب القسم. لمَّا نُفِي القِلى بُشِّر بأن آخرته خير من أولاه، وأنّ عاقبته أحسن من بَدْأته، وأنّ الله خاتم له بأفضل ممّا قد أعطاه في الدنيا وفي الآخرة.
الآخرة: مؤنّث الآخر، و{ **الأُولَى** } مؤنّث الأول.
وغلب لفظ الآخرة في اصطلاح القرآن على الحياة الآخرة وعلى الدار الآخرة، كما غلب لفظ الأولى على حياة الناس التي قبل انخرام هذا العالم.
فيجوز أن يكون المراد هنا من كلا اللفظين كلا معنييه، فيفيد أنّ الحياة الآخرة خير له من هذه الحياة العاجلة تبشيرا له بالخيرات الأبدية، ويفيد أن حالاته تجري على الانتقال من حالة إلى أحسن منها.
ويومئ ذلك إلى أنّ عودة نزول الوحي عليه هذه المرة خير من العودة التي سبقت، أي: تكفل الله بأن لا ينقطع عنه نزول الوحي من بعد.
{ **لَكَ** } لام الاختصاص، أي: خير مختص بك وهو شامل لكلّ ما له تعلّق بنفس النبيّ صلى الله عليه وسلم في ذاته وفي دينه وفي أمّته، فهذا وعد من الله بأن ينشر دين الإسلام وأن يُمكِّن لأمته.

{ **وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى** } [5].

عطف على جملة القَسَم، وحرف الاستقبال لإفادة أنّ هذا العطاء الموعود به مستمر لا ينقطع، كما في قوله تعالى { قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي } [يوسف:98]، وقوله تعالى { وَلَسَوْفَ يَرْضَى } [الليل:21].
{ **يُعْطِيكَ** } حذف المفعول الثاني ليعم كلّ ما يرجوه صلى الله عليه وسلم من خير لنفسه ولأمته، فكان مفاد هذه الجملة تعميم العطاء كما أفادت الجملة قبلها تعميم الأزمنة.
{ **رَبُّكَ** } التعريف بالإضافة دون اسم الله العَلَم لما يؤذن به لفظ (ربّ) من الرأفة واللطف، وللتوسُّل إلى إضافته إلى ضمير المخاطب لما في ذلك من الإشعار بعنايته برسوله وتشريفه.
{ **فَتَرْضَى** } جيء بفاء التعقيب لإفادة كون العطاء عاجل النفع بحيث يحصل به رضا المعطَى عند العطاء فلا يترقَّب أن يحصل نفعه بعد تربّص.
وهو وعد واسع الشمول لما أعطيه النبيّ صلى الله عليه وسلم من النصر والظفر بأعدائه يوم بدر ويوم

فتح مكة، ودخول الناس في الدين أفواجا، وما فُتح على الخلفاء الراشدين ومن بعدهم من أقطار الأرض.

{ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى [6] وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى [7] وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى [8] }.

استئناف مسوق مساق الدليل على تحقُّق الوعد، إي: هو وعد جار على سنن ما سبق من عناية الله بك من مبدإ نشأتك ولطفه في الشدائد باطراد بحيث لا يحتمل أن يكون ذلك من قبيل الصدف.

والمقصود من هذا إيقاع اليقين في قلوب المشركين بأنّ ما وعده الله به محقَّق الوقوع قياسا على ما ذكَّره به من ملازمة لطفه به فيما مضى، وهم لا يجهلون ذلك، عسى أن يُقلعوا عن العناد ويسرعوا إلى الإيمان. ويحصل مع ذلك المقصود امتنان على النبيّ صلى الله عليه وسلم وتقوية لاطمئنان نفسه بوعد الله تعالى إيَّاه.

{ **أَلَمْ يَجِدْكَ** } الاستفهام تقريري، وفعل { يَجِدْكَ } مضارع وَجَدَ بمعنى أَلْفَى وصادف، وهو الذي يتعدَّى إلى مفعول واحد ومفعوله ضمير المخاطب. والكلام تمثيل لحالة تيسير المنافع للذي تعسَّرت عليه بحالة من وجد شخصا في شدّة يتطلَّع إلى من يعينه أو يغيثه.

اليتيم: الصبي الذي مات أبوه، وقد كان أبو النبيّ صلى الله عليه وسلم توفي وهو جنين أو أوّل المدّة من ولادته.

الإيواء: مصدر أوى إلى البيت، إذا رجع إليه، فالإيواء: الإرجاع إلى المسكن، وقد أُطلق الإيواء على الكفالة وكفاية الحاجة مجازا أو استعارة.

<u>فالمعنى</u>: أنشأك على كمال الإدراك والاستقامة، وكنت على تربية كاملة مع أنّ شأن الأيتام أن ينشأوا على نقائص لأنّهم لا يجدون من يُعنى بتهذيبهم وتعهد أحوالهم الخُلُقية.

وفي الحديث: **" أدَّبني ربي فأحسن تأديبي".**

الضلال: عدم الاهتداء إلى الطريق الموصل إلى المكان المقصود سواء سلك السائر طريقا آخر يُبلِّغ إلى غير المقصود أم وقف حائرا لا يعرف أيّ طريق يسلك، وهو المقصود هنا، <u>لأنّ المعنى</u>: أنّك كنت في حيرة من حال أهل الشرك من قومك فأراكه الله غير محمود وكرَّهه إليك ولا تدري ماذا تتبع من الحق. فإنّ الله لمّا أنشأ رسوله صلى الله عليه وسلم على ما أراد من إعداده لتلقّي الرسالة، ألهمه أنّ ما عليه قومه من الشرك خطأ وألقى في نفسه طلب الوصول إلى الحق ليتهيّأ بذلك لقبول الرسالة عن الله تعالى.

وليس المراد بالضلال هنا اتباع الباطل، فإنّ الأنبياء معصومون من الإشراك قبل النبوّة باختلاف علمائنا، وإنّما اختلفوا في عصمتهم من نوع الذنوب الفواحش التي لا تختلف الشرائع في كونها فواحش. ولم يختلف أصحابنا أنّ نبيَّنا صلى الله عليه وسلم لم يصدر منه ما ينافي أصول الدين قبل رسالته، ولم يزل علماؤنا يجعلون ما تواتر من حال استقامته ونزاهته عن الرذائل قبل نبوّته دليلا من جملة الأدلة على رسالته، بل قد شافه القرآن به المشركين بقوله تعالى { فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ }

[يونس:16]، وقوله تعالى { أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ } [المؤمنون:69]، ولأنّه لم يؤثر أنّ المشركين أفحموا النبيّ صلى الله عليه وسلم فيما أنكر عليهم من مساوي أعمالهم بأن يقولوا: فقد كنت تفعل ذلك معنا.

العائل: الذي لا مال له، والفقر يُسمَّى عَيْلَة، قال تعالى { وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ } [التوبة:28]. وقد أغناه الله غناءين: أعظمهما غنى القلب إذ ألقى في قلبه قلّة الاهتمام بالدنيا، وغنى المال حين ألهم خديجة مقارضته في تجارتها.

{ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ [9] وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ [10] وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ [11] }.

{ **فَأَمَّا** } الفاء فصيحة. و(أمّا) تفيد شرطا مقدَّرا تقديره: مهما يكن من شيء، فكان مفادها مشعرا بشرط آخر مقدّر هو الذي اجتُلبت لأجله فاء الفصيحة، وتقدير نظم الكلام: إذ كنت تعلم ذلك وأقررت به فعليك بشكر ربك، وبيّن له الشكر بقوله تعالى { أَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ ...}.

وقد جُعل الشكر هنا مناسبا للنعمة المشكور عليها وإنّما اعتبر تقدير: إذا أردت الشكر، لأنّ شكر النعمة تنساق إليه النفوس بدافع المروءة في عرف الناس.

وقد قوبلت النِّعَم الثلاث المتفرَّع عليها هذا التفصيل بثلاثة أعمال تقابلها:

{ **فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ** } مقابل لقوله تعالى { أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى } [6]، أي: فكما آواك ربك وحفظك من عوارض النقص المعتاد لليتم، فكن أنت مكرما للأيتام رفيقا بهم، فجمع ذلك في النهي عن قهره، لأنّ أهل الجاهلية كانوا يقهرون الأيتام.

القهر: الغلبة والإذلال، وهو المناسب هنا، وتكون هذه المعاني بالفعل وتكون بالقول، قال تعالى { وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفًا } [النساء:5]، وتكون بالإشارة مثل عبوس الوجه.

فالقهر المنهي عنه هو القهر الذي لا يعامل به غير اليتيم في مثل ذلك، فأمّا القهر لأجل الاستصلاح كضرب التأديب فهو من حقوق التربية، قال تعالى { وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ } [البقرة:220].

{ **وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ** } مقابل قوله تعالى { وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى } [7]، لأنّ الضلال يستعدي السؤال عن الطريق، فالضال معتبر من صنف السائلين. والسائل عن الطريق قد يتعرّض لحماقة المسؤول. فجعل الله الشكر عن هدايته إلى طريق الخير أن يوسع باله للسائلين.

ولا يختصّ السائل بسائل العطاء بل يشمل كل سائل، وأعظم تصرفات الرسول صلى الله عليه وسلم إرشاد المسترشدين. روى الترمذي عن أبي سعيد الخدري أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " **إنّ الناس لكم تبع وإنّ رجالا يأتونكم من أقطار الأرض يتفقّهون فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرا** ".

قال هارون العبدي: كنا إذا أتينا أبا سعيد يقول: مرحبا بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم.

{ **السَّائِلَ** } تعريف الجنس فيعم كلّ سائل، أي: عمّا يُسأل النبيّ صلى الله عليه وسلم عن مثله.

فإن فُسِّر { السَّائِلَ } بسائل المعروف كان مقابل قوله تعالى { وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى } [8]. وكان قوله تعالى { وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ } مقابل قوله تعالى { وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى } [7].

النهر: الزجر بالقول مثل أن يقول: إليك عني.

ويستفاد من النهي عن القهر والنهر النهي عمّا هو أشدّ منهما في الأذى كالشتم والضرب والاستيلاء على المال وتركه محتاجا. وليس من النهر نهي السائل عن مخالفة آداب السؤال في الإسلام.

{ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ } مقابل قوله تعالى { وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى } [8]، فإنّ الإغناء نعمة، فأمره الله أن يظهر نعمة الله عليه بالحديث عنها وإعلان شكرها. وليس المراد نعمة خاصة وإنّما أريد الجنس فيفيد عموما في المقام الخطابي، أي: حدِّث بما أنعم الله به عليك من النعم، فحصل في ذلك الأمر شكر نعمة الإغناء، وحصل الأمر بشكر جميع النعم لتكون الجملة تذييلا جامعا.

والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم، فمقتضى الأمر في المواضع الثلاثة أن تكون خاصة به، وأصل الأمر الوجوب، فيُعلم أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم واجب عليه ما أمر به، وأمّا مخاطبة أمته بذلك فتجري على أصل مساواة الأمّة لنبيها فيما فُرض عليه ما لم يدل دليل على الخصوصية.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الشرح

سُمِّيت في معظم التفاسير وفي صحيح البخاري وجامع الترمذي (**سورة ألم نشرح**)، وسُمِّيت في بعض التفاسير (**سورة الشرح**)، وفي بعض التفاسير تسميتها (**سورة الانشراح**).

وهي مكية بالاتفاق.

وقد عُدَّت **الثانية عشرة** في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة الضحى بالاتفاق وقبل سورة العصر.

وعدد آيها ثمان.

أغراض السورة

*/ ذكر عناية الله تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم ولطفه به، وإزالة الغم والحرج عنه، وتيسير ما عسر عليه، وتشريف قدره. فمضمونها شبيه بأنّه حجّة على مضمون سورة الضحى تثبيتا له بتذكيره سالف عنايته به وإنارة سبيل الحق وترفيع الدرجة ليعلم أنّ الذي ابتدأه بنعمته ما كان ليقطع عنه فضله، وكان ذلك بطريقة التقرير بماضٍ يعلمه النبيّ صلى الله عليه وسلم.

*/ أُتبع ذلك بوعده بأنّه كلما عرض له عسر فسيجد من أمره يسرًا، كدأب الله تعالى في معاملته، فليتحمّل متاعب الرسالة ويرغب إلى الله عونه.

{ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ [1] وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ [2] الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ [3] وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ [4] }.

استفهام تقريري على النفي، والمقصود التقرير على إثبات المنفي. وهذا التقرير مقصود به التذكير لأجل أن يراعي هذه المنّة عندما يخالجه ضيق صدر ممّا يلقاه من أذى قوم يريد صلاحهم وإنقاذهم من النار ورفع شأنهم بين الأمم، ليدوم على دعوته العظيمة نشيطا غير ذي أسف ولا كمد.

الشرح: حقيقته فصل أجزاء اللحم بعضها عن بعض، ومنه الشريحة للقطعة من اللحم، ويطلق على انفعال النفس بالرضى بالحال المتلبّس بها. وتقدّم قوله تعالى { قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي } [طه:25].

{ صَدْرَكَ } الصدر مراد به الإحساس الباطني الجامع لمعنى العقل والإدراك. وشرح صدره كناية عن الإنعام عليه بكلّ ما تطمح إليه نفسه الزكية من الكمالات، وإعلامه برضى الله عنه وبشارته بما سيحصل للدين الذي جاء به من النصر.

هذا تفسير الآية بما يفيده نظمها واستقلالها عن المرويات الخارجية، ففسّرها ابن عباس بأنّ الله شرح قلبه بالإسلام، وعن الحسن قال، شرح صدره أن ملئ علما وحكما، وقال سهل بن عبد الله التستري: شرح

صدره بنور الرسالة، وعلى هذا الوجه حمله كثير من المفسرين ونسبه ابن عطية إلى الجمهور.

ويجوز أن يجعل الشرح شرحا بدنيا، فتكون الآية إشارة إلى مرويات في شق صدره صلى الله عليه وسلم شقا قدسيا، ففي بعض الروايات في الصحيحين أنّه كان في رؤيا النوم ورؤيا الأنبياء وحي، وفي بعضها أنّه كان يقظة وهو ظاهر ما في البخاري، وفي صحيح مسلم أنّه يقظة وبمرأى من غلمان أترابه.

واختلاف الروايات حمل بعض أهل العلم على القول بأنّ شق صدره الشريف تكرّر مرتين إلى أربع.

ولعل بعضها كان رؤيا وبعضها حسا. وليس في شيء من هذه الأخبار على اختلاف مراتبها ما يدل على أنّه الشرح المراد في الآية. وإذ قد كان ذلك الشق معجزة خارقة للعادة يجوز أن يكون مرادا وهو ما نحاه أبو بكر بن العربي في الأحكام.

{ **لَكَ** } لام التعليل، وهو يفيد تكريما للنبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّ الله فعل ذلك لأجله. وفي ذكر الجار والمجرور قبل ذكر المشروح سلوك طريقة الإبهام للتشويق.

الوزر: الحرج، و**وضعه**: حطُّه عن حامله، والكلام تمثيل لحال إزالة الشدائد والكروب بحال من يحط ثقلا عن حامله ليريحه من عناء الثقل.

المعنى: أنّ الله أزال عنه كلّ ما كان يتحرَّج منه من عادات أهل الجاهلية التي لا تلائم ما فطر الله عليه نفسه من الزكاء والسمو ولا يجد بدا من مسايرتهم عليه فوضع عنه ذلك حين أوحى إليه بالرسالة، وكذلك ما كان يجده في أوّل بعثته من ثقل الوحي فيسّره الله عليه بقوله تعالى { سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى - إلى قوله - وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى } [الأعلى:6-8].

{ **أَنقَضَ** } جعل الشيءَ ذا نقيض، والنقيض صوت صرير المَحْمَل والرَّحل وصوت عظام المفاصل، وفرقعة الأصابع، وفعله القاصر من باب نصر ويعدّى بالهمزة.

وإسناد { أَنقَضَ } إلى الوزر مجاز عقلي، وتعديته إلى الظهر تبع لتشبيه المشقة بالحمل، فالتركيب تمثيل لمُتجشّم المشاق الشديدة بالحَمولة المثقلة بالأحمال تثقيلا شديدا حتّى يُسمع لعظام ظهرها فرقعة وصرير، وهو تمثيل بديع لأنّه تشبيه مركب قابل لتفريق التشبيه على أجزائه.

{ **وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ** } جعل ذكره بين الناس بصفات الكمال، وذلك بما نزل من القرآن ثناء عليه وكرامة. وبإلهام الناس التحدّث بما جبله الله عليه من المحامد منذ نشأته.

ومن عظيم رفع ذكره أنّ اسمه مقترن باسم الله تعالى في كلمة الإسلام وهي كلمة الشهادة.

{ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا [5] إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا [6] }.

الفاء فصيحة تفصح عن كلام مقدّر يدل عليه الاستفهام التقريري هنا، أي: إذا علمت هذا وتقرّر، تعلم أن اليسر مصاحب للعسر، وإذ كان اليسر نقيض العسر كانت مصاحبة اليسر للعسر مقتضية نقض تأثير العسر ومبطلة لعمله، فهو كناية رمزية عن إدراك العناية الإلهية به فيما سبق، وتعريض بالوعد

باستمرار ذلك في كل أحواله.

وسياق الكلام وعد للنبيّ صلى الله عليه وسلم بأن يسَّر الله له المصاعب كلّما عرضت له، فاليسر لا يختلف عن اللحاق بتلك المصاعب، وذلك من خصائص كلمة { مَعَ } الدالة على المصاحبة.

{ **مَعَ** } المعيّة مستعارة لقرب حصول اليسر عقب حلول العسر أو ظهور بوادره، بقرينة استحالة المعنى الحقيقي للمعيّة. وبذلك يندفع التعارض بين هذه الآية وبين قوله تعالى { سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا } [الطلاق:7].

العسر: المشقة في تحصيل المرغوب والعمل المقصود.

اليسر: ضده وهو سهولة تحصيل المرغوب وعدم التعب فيه.

{ **يُسْرًا** } التنكير للتعظيم، أي: مع العسر العارض لك تيسيرا عظيما يغلب العسر، ويجوز أن يكون هذا وعد للنبيّ صلى الله عليه وسلم ولأمته لأنّ ما يعرض له من عسر إنّما يعرض له في شؤون دعوته للدين ولصالح المسلمين.

روى ابن جرير عن يونس ومعمر عن الحسن عن النبيّ أنّه لما نزلت هذه الآية { فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا } قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **ابشروا أتاكم اليسر لن يغلب عسر يسرين** "، فاقتضى أنّ الآية غير خاصة بالنبيّ صلى الله عليه وسلم بل تعمّه وأمته.

وفي الموطأ: " أنّ أبا عبيدة بن الجراح كتب إلى عمر بن الخطاب يذكر له جموعا من الروم وما يتخوّف منهم، فكتب إليه عمر: أمّا بعد فإنّه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزل شدة يجعل الله بعده فرجا وإنّه لن يغلب عسر يسرين ".

{ **إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا** } مؤكِّدة للجملة الأولى، وفائدة هذا التأكيد تحقيق اطراد هذا الوعد وتعميمه لأنّه خبر عجيب.

{ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ } [7].

تفريع على ما تقرّر من التذكير باللطف والعناية ووعده، وبتيسير ما هو عسير عليه في طاعته التي أعظمها تبليغ الرسالة دون ملل ولا ضجر.

الفراغ: خلو باطن الظرف أو الإناء، لأنّ شأنه أن يُظرف فيه.

وفراغ الإنسان. مجاز في إتمامه ما شأنه أن يعمله.

{ **فَرَغْتَ** } لم يَذكر هنا متعلّق، وسياق الكلام يقتضي أنّه لازم أعمال يعملها الرسول صلى الله عليه وسلم، كما أن مساق السورة في تيسير مصاعب الدعوة وما يحفّ بها. فالمعنى: إذا أتممت عملا من مهام الأعمال فأقبل على عمل آخر بحيث يعمر أوقاته كلها بالأعمال العظيمة. ومن هنا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند قفوله من إحدى غزواته: " **رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر** ".

{ **فَانصَبْ** } المقصود من الكلام، وأمّا قوله تعالى { فَإِذَا فَرَغْتَ } فتمهيد وإفادة لإيلاء العمل بعمل آخر في تقرير الدين ونفع الأمة. وهذا من صيغ الدلالة على تعاقب الأعمال.

{ **وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ** } [8].

عُطف على تفريع الأمر بالشكر على النعم أمرٌ بطلب استمرار نعم الله عليه، كما قال تعالى { لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ } [إبراهيم:7].

{ **إِلَى رَبِّكَ** } تقديمه على { فَارْغَبْ } لإفادة الاختصاص، أي: إليه لا إلى غيره تكون رغبتك.

الرغبة: طلب حصول ما هو محبوب، وأصله أن يُعدّى إلى المطلوب منه بنفسه، ويُعدّى إلى الشيء المطلوب بـ (في). ويقال: رغب عن كذا بمعنى صرف رغبته عنه بأن رغب في غيره.

وأمّا تعدية فعل { فَارْغَبْ } هنا بحرف { إلى } فلتضمينه معنى الإقبال والتوجّه تشبيها بسير السائر إلى من عنده حاجته، كما قال تعالى عن إبراهيم { وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي } [الصافات:99].

وحذف مفعول { فَارْغَبْ } ليعم كلّ ما يرغبه النبيّ صلى الله عليه وسلم، وهل يرغب النبيّ إلّا في الكمال النفساني وانتشار الدين ونصر المسلمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة التين

سُمِّيت في معظم كتب التفسير ومعظم المصاحف (**سورة والتين**) بإثبات الواو، تسمية بأوّل كلمة فيها.

وسمَّاها بعض المفسّرين (**سورة التين**) بدون الواو، وبذلك عنونها الترمذي وبعض المصاحف.

وهي مكية عند أكثر العلماء، قال ابن عطية: " لا أعرف في ذلك خلافا بين المفسّرين" .

ولم يذكرها في (الإتقان) في عداد السور المختلف فيها.

وعُدَّت **الثامنة والعشرين** في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة البروج وقبل سورة قريش.

وعدد آياتها **ثمان.**

أغراض السورة

*/ التنبيه بأنّ الله خلق الإنسان على الفطرة المستقيمة ليعلموا أنّ الإسلام هو الفطرة، كما في قوله تعالى { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا } [الروم:30].

*/ أنَّ ما يُخالف أصوله، بالأصالة أو بالتحريف، فسادٌ وضلالٌ، ومتَّبعي ما يُخالف الإسلام أهل ضلالة.

*/ التعريض بالوعيد للمكذِّبين بالإسلام.

*/ الإشارة بالأمور المُقسَم بها إلى أطوار الشرائع الأربعة إيماء إلى أنَّ الإسلام جاء مصدِّقا لها، وأنّ أصولها مشاركة لأصول دين الإسلام.

*/ التنويه بحسن جزاء الذين اتبعوا الإسلام في أصوله وفروعه.

*/ الامتنان على الإنسان بخلقه على أحسن نظام في جثمانه ونفسه.

{ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ [1] وَطُورِ سِينِينَ [2] وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ [3] لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ [4] ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ [5] }.

ابتداء الكلام بالقَسَم المؤكِّد يؤذن بأهمية الغرض المسوق له الكلام، وإطالة القسم تشويق إلى المقسَم عليه.

التين: ظاهره الثمرة المشهورة بهذا الاسم، فالقسم بها لأجل دلالتها إلى صفات إلهية، مع الإيذان بالمنّة على الناس إذ خلق لهم هذه الفاكهة التي تنبت في كل البلاد والتي هي سهلة النبات.

الزيتون: أيضا ظاهره الثمرة المشهورة، والقسم بها كالقسم بالتين من حيث إنّها دالة على صفات الله، مع الإشارة إلى نعمة خلق هذه الثمرة النافعة الصالحة التي تكفي الناس حوائج طعامهم وإضاءتهم.

<u>ولكن مناسبة</u> ذكر هذين مع { طُورِ سِينِينَ } ومع { الْبَلَدِ الأَمِينِ } تقتضي أن يكون لهما محمل أوفق

بالمناسبة، فروي عن ابن عباس أيضا تفسير التين بأنّه مسجد نوح الذي بني على الجودي بعد الطوفان. ولعل تسمية هذا الجبل التين لكثرته فيه.

والزيتون يطلق على مكان ظهور عيسى عليه السلام، لأنّه يكثر فيه الزيتون.

{ **طُورِ سِينِينَ** } فهو الجبل المعروف بـ (طور سينا).

الطور: الجبل بلغة النبط وهم الكنعانيون، وعُرف هذا الجبل ب { طُورِ سِينِينَ } لوقوعه في صحراء (سنين) وهي صحراء بين مصر وبلاد فلسطين.

وقيل: سنين اسم الأشجار بالنبطية أو بالحبشة، وقيل: معناه الحسن بلغة الحبشة.

وتقدّم عند قوله تعالى { وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ } [الطور:2/1].

{ **الْبَلَدِ الأَمِينِ** } مكّة، سُمِّي الأمين لأنّ من دخله كان آمنا، وايضا لأن ساكنه آمن، قال تعالى { وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ } [قريش:4].

{ **هَذَا** } الإشارة للتعظيم، ولأنّ نزول السورة في ذلك البلد فهو حاضر بمرأى ومسمع من المخاطبين، نظير قوله تعالى { لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ } [البلد:1].

وعلى ما تقدّم ذكره من المحملين الثانيين للتين والزيتون تتم المناسبة بين الأيْمَان، وتكون إشارة إلى موارد أعظم الشرائع الواردة للبشر:

فالتين إيماء إلى رسالة نوح، وهي أول شريعة لرسول.

والزيتون إيماء إلى مكان ظهور شريعة عيسى عليه السلام.

{ طُور سِينِينَ } إيماء إلى شريعة التوراة.

{ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ } إيماء إلى شريعة إبراهيم وشريعة الإسلام، فإنّ الإسلام جاء على أصول الحنيفية.

وبذلك يكون إيماء هذه الآية ما صُرِّح به في قوله تعالى { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى } [الشورى:13].

وفي ابتداء السورة بالقسم بما يشمل إرادة مهابط أشهر الأديان الإلهية براعة استهلال لغرض السورة وهو أنّ الله خلق الإنسان في أحسن تقويم، أي: خلقه على الفطرة السليمة مدركا لأدلة وجود الخالق ووحدانيّته. وفيه إيماء إلى أنّ ما خالف ذلك من النحل والملل قد حاد عن أصول شرائع الله كلّها بقطع النظر عن اختلافها في الفروع.

ويكفي في تقوُّم معنى براعة الاستهلال ما يلوح في المعنى من احتمال.

{ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ** } مع ما عطف عليه هو جواب القسم.

والقسم عليه يدل على أنّ التقويم تقويم خفي وأنّ الردّ ردٌّ خفي يجب التدبّر لإدراكه، كما سنبينه في قوله تعالى { فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ }. فلذلك ناسب أن يُحقَّق بالتوكيد بالقسم، لأنّ تصرّفات معظم الناس في عقائدهم جارية على حالة تشبه حالة من ينكرون أنّهم خلقوا على الفطرة.

الخلق: تكوين وإيجاد لشيء، وخلق الله جميع الناس هو أنّه خلق أصول الإيجاد، وأوجد الأصول الأولى في بدء الخليقة، كما قال تعالى { لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ } [ص:75]، وخلق أسباب تولّد الفروع من الأصول فتناسلت منها ذرّيّاتهم.

{ **الإِنسَانَ** } يجوز أن يكون تعريف الجنس. ويُحمل على معنى: خلقنا جميع الناس في أحسن تقويم.

ويجوز أن يكون التعريف تعريف الحقيقة، فلا يلاحظ فيه أفراد الجنس بل الملحوظ حالة الماهية في أصلها دون ما يعرض لأفرادها ممّا يُغير بعض خصائصها. ومنه التعريف الواقع في قوله تعالى { إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا } [المعارج:19].

التقويم: جعل الشيء في قَوام، أي: عدل وتسوية، وحُسن التقويم أكمله وأَلْيَقه بنوع الإنسان، أي: أحسن تقويم له، وهذا يقتضي أنّه تقويم خاص بالإنسان لا يشاركه فيه غيره من المخلوقات.

{ **فِي** } يفيد الظرفية المجازية المستعارة لمعنى التمكّن والملك، فهي مستعملة في معنى باء الملابسة أو لام الملك، وإنّما عدل عن أحد الحرفين الحقيقيين لهذا المعنى إلى حرف الظرفية لإفادة قوّة الملابسة أو قوة الملك مع الإيجاز.

فأفادت الآية أنّ الله كوّن الإنسان تكوينا ذاتيا متناسبا مع ما خُلق له نوعه من الإعداد لنظامه وحضارته، وليس تقويم صورة الإنسان الظاهرة هو المعتبر عند الله تعالى ولا جديرا بأن يُقسم عليه إذ لا أثر له في إصلاح النفس، وإصلاح الغير، وإصلاح في الأرض، ولأنّه لو كان هو المراد لذهبت المناسبة التي في القسم بالتين والزيتون وطور سنين والبلد الأمين. وإنّما هو متمّم لتقويم النفس، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **إنّ الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم** " [مسلم]. فإنّ العقل أشرف ما خُصّ به نوع الإنسان من بين الأنواع.

فالمرضي عند الله هو تقويم إدراك الإنسان ونظره العقلي الصحيح، لأنّ ذلك هو الذي تصدر عنه أعمال الجسد، إذ الجسم آلة خادمة للعقل.

وأمّا خلق جسد الإنسان في أحسن تقويم فلا ارتباط له بمقصد السورة ويظهر هذا كمال الظهور في قوله تعالى { ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ }، فإنّه لو حُمل الرد أسفل سافلين على مصير الإنسان في أرذل العمر إلى نقائص قوته، كما فسَّر به كثير من المفسّرين، لكان نبوّه عن غرض السورة أشدّ، وليس ذلك ممَّا يقع فيه تردد السامعين حتّى يحتاج إلى تأكيده بالقسم، ويدل ذلك قوله بعده { إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا } [6].

ولم يُعرّج المفسِّرون قديما وحديثا على تفسير التقويم بهذا المعنى العظيم فقصروا التقويم على حسن الصورة، أو على استقامة القامة.

سوى ما حكاه ابن عطية عن الثعلبي عن أبي بكر بن طاهر أنّه قال: " تقويم الإنسان عقله وإدراكه اللذان زيناه بالتمييز ". وما حكاه الفخر عن الأصم: أنّ { أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ } أكمل عقل وفهم وأدب وعلم وبيان.

وتفيد الآية أنّ الإنسان مفطور على الخير وأن في جبلّته جلب النفع والصلاح لنفسه وكراهة ما يظنّه

باطلا أو هلاكا.

ولهذا كان الأصل في الناس الخير والعدالة والرشد وحسن النية عند جمهور من الفقهاء والمحدِّثين.

{ **ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ** } معطوفة على جملة { خَلَقْنَا الإنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ }، فهي في حيّز القسم.

{ **ثُمَّ** } لإفادة التراخي الرتبي، كما هو شأنها في عطف الجمل، لأنّ الرد أسفل سافلين بعد خلقه محوطًا بأحسن تقويم عجيب لما فيه من انقلاب ما جُبل عليه، وتغيير الحالة الموجودة أعجب من إيجاد حالة لم تكن، ولأنّ هذه الجملة هي المقصود من الكلام لتحقيق أنّ الذين حادوا عن الفطرة صاروا أسفل سافلين.

{ **رَدَدْنَاهُ** } ضمير الغائب عائد إلى الإنسان فيجري فيه الوجهان المتقدّمان من التعريف.

الردّ: حقيقته إرجاع ما أُخذ من شخص أو نُقل من موضع إلى ما كان عنده، ويُطلق مجازا على تصيير الشيء بحالة غير الحالة التي كانت له، مجازا مرسلا بعلاقة الإطلاق عن التقييد كما هنا.

وإسناد الردّ إلى الله تعالى إسناد مجازي لأنّه يُكوِّن الأسباب العالية ونظام تفاعلها وتقابلها في الأسباب الفرعية، حتّى تصل إلى الأسباب المباشرة، على نحو إسناد مد وقبض الظل إليه تعالى في قوله { أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ - إلى قوله - ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا} [الفرقان:46/45].

{ **أَسْفَلَ** } اسم تفضيل، أي: أشدّ سفالة، وأضيف إلى { سَافِلِينَ }، أي: الموصوفين بالسفالة. فالمراد: أسفل سافلين في الاعتقاد بخالقه، بقرينة قوله تعالى { إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا } [6].

السفالة: حقيقتها انخفاض المكان، وتطلق مجازا شائعا على الخسّة والحقارة في النفس، فالأسفل الأشد سفالة من غيره في نوعه.

السافلون: هنا هم سفلة الاعتقاد، والإشراك أسفل الاعتقاد.

ويجوز أن يكون { أَسْفَلَ سَافِلِينَ } ظرفا، أي: مكانا أسفل ما يسكنه السافلون، وذلك هو دار العذاب، كقوله تعالى { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ } [النساء:145]. فالرد مستعار لمعنى الجعل في مكان يستحقّه، وإسناد الرد إلى الله تعالى على هذا الوجه حقيقي.

قال مالك: " أقبل عليّ يوما ربيعة فقال لي: من السفلة يا مالك؟ قلت: الذي يأكل بدينه، قال لي فمن سفلة السفلة؟ قلت :الذي يأكل غيره بدينه ".

{ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ } [6].

استثناء متصل من عموم الإنسان، فلمّا أُخبر عن الإنسان بأنّه رُدَّ أسفل سافلين ثمّ استُثني من عمومه الذين آمنوا بقي غير المؤمنين في أسفل سافلين.

المعنى: أن الذين آمنوا بعد أن رُدُّوا أسفل سافلين أيام الإشراك صاروا بالإيمان إلى الفطرة التي فطر الله الإنسان عليها فراجعوا أصلهم إلى أحسن تقويم.

{ **وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** } عطف، لأنّ عمل الصالحات من أحسن التقويم بعد مجيء الشريعة لأنّها تزيد

الفطرة رسوخا، وينسحب الإيمان على الأخلاق فيردَّها إلى فضلها ثمّ يهديها إلى زيادة الفضائل من أحاسنها، وفي الحديث الشريف: " **إنّما بُعثت لأتمّم مكارم الأخلاق** ".

وفي الكلام ثناء على المؤمنين بأنّ إيمانهم باعث لهم على العمل الصالح، وذلك حال المؤمنين حين نزول السورة، فهذا العطف عطف صفة كاشفة.

{ **فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ** } فُرِّع على معنى الاستثناء الإخبار بأنّ لهم أجرا عظيما، لأنّ الاستثناء أفاد بأنّهم ليسوا أسفل سافلين فأريد زيادة البيان لفضلهم وما أُعدَّ لهم.

{ **أَجْرٌ** } التنوين للتعظيم.

الممنون: الذي يُمَنُّ على المأجور به، أي: لهم أجر لا يشوبه كدر. ويجوز أن يكون مفعولا من مَنَّ الحبل، إذا قطعه، أي: أجر غير مقطوع.

{ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ [7] أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ [8] }.

تفريع على جميع ما ذُكر من تقويم خلق الإنسان ثم ردّه أسفل سافلين، لأنّ ما بعد (الفاء) من كلام مُسبَّب عن البيان الذي قبل الفاء، أي: فقد بان لك أنّ غير الذين آمنوا هم الذين ردوا إلى أسفل سافلين فمن يُكذِّب منهم بالدين الحق بعد هذا البيان.

<u>(**مَا**) يجوز أن تكون استفهامية</u>، والاستفهام توبيخي، <u>والخطاب للإنسان المذكور</u> في قوله تعالى { لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ } [4]. وضمير الخطاب التفات، ومقتضى الظاهر أن يقال: فما يكذِّبه، ونكتة الالتفات هنا أنّه أصرح في مواجهة الإنسان المكذِّب بالتوبيخ.

{ **يُكَذِّبُكَ** } أي: يجعلك مُكذِّبا، أي: لا عذر لك في تكذيبك بالدين. و(الدِّينِ) على هذا الوجه بمعنى الملّة أو الشريعة، كقوله تعالى { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ } [آل عمران:19].

<u>ويجوز أن تكون (ما) موصولة</u> وما صدقها المكذِّبُ، فهو بمعنى (من)، وهي في محل مبتدأ، <u>والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم</u>، والضمير المستتر في { يُكَذِّبُكَ } عائد إلى (ما) وهو الرابط للصلة بالموصول و(الباء) للسببية، أي: ينسبك للكذب بسبب ما جئت به من الإسلام، أو من إثبات البعث والجزاء.

كقوله تعالى { مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ } [الفاتحة:4]، وقوله تعالى { يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ } [الإنفطار:15].

{ **أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ** } الاستفهام تقريري.

<u>يجوز</u> أن تكون خبرا عن (ما) والرابط محذوف تقديره: بأحكم الحاكمين فيه.

<u>ويجوز</u> أن تكون الجملة دليلا عن الخبر المخبر به عن (ما) الموصولة وحُذف إيجازا اكتفاء بذكر ما هو كالعلة له، فالتقدير: الذي يُكذِّبك بالدين يتولَّى الله الانتصاف منه، أليس الله بأحكم الحاكمين.

{ **بِأَحْكَمِ** } <u>يجوز</u> أن يكون مأخوذا من الحكم، أي: أقضى القضاة. ومعنى التفضيل أنّ حكمه أسد وأنفذ. <u>ويجوز</u> أن يكون مشتقًّا من الحكمة. والمعنى: أنّه أقوى الحاكمين حكمة في قضائه بحيث لا يخالط حكمه

تفريط في شيء من المصلحة، وهي: إصابة الحق، وقطع دابر الباطل، وإلزام كلّ من يقضي عليه بالامتثال لقضائه والدخول تحت حكمه.

روى الترمذي وأبو داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" من قرأ منكم** { وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ } **فانتهى إلى قوله** { أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ } **فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين ".**

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة العلق

اشتُهرت تسمية هذه السورة في عهد الصحابة والتابعين باسم (**سورة اقرأ باسم ربك**).

رُوي في (المستدرك) عن عائشة: " أوّل سورة نزلت من القرآن اقرأ باسم ربك ".

ورُوي ذلك عن مجاهد والزهري، وبذلك عنونها الترمذي.

وعنونها البخاري: (**سورة اقرأ باسم ربك الذي خلق**).

وسُمِّيت في المصاحف ومعظم التفاسير (**سورة العلق**) لوقوع لفظ (العلق) في أوائلها.

ولم يذكرها في (الإتقان) في عِداد السور ذات أكثر من اسم.

وهي مكية باتفاق.

وهي أوّل سورة نزلت من القرآن الكريم، كما ثبت في الأحاديث الصحيحة الواضحة، ونزل أوّلها، إلى قوله تعالى { عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ } [5]، بغار حراء على النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو مجاور فيه في رمضان ليلة سبعة عشرة منه من سنة أربعين بعد الفيل. ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة عن عائشة، وفيه حديث عن أبي موسى الأشعري، وهو الذي قاله أكثر المفسّرين من السلف والخلف.

وعدد آيها في عدّ أهل المدينة ومكة **عشرون**، وفي عدّ أهل الشام ثمان عشرة، وفي عدّ أهل الكوفة والبصرة تسع عشرة.

أغراض السورة

*/ تلقين محمد صلى الله عليه وسلم الكلام القرآني وتلاوته إذ كان لا يعرف التلاوة من قبل.

*/ الإيماء إلى أنّ علمه بذلك مُيسَّر، لأنّ الله الذي ألهم البشر العلم بالكتابة قادر على تعليم من يشاء ابتداء. وفي ذلك إيماء إلى أنّ أمّته ستصير إلى معرفة القراءة والكتابة والعلم.

*/ توجيهه إلى النظر في خلق الله الموجودات وخاصة خلقه الإنسان خلقًا عجيبًا مستخرجًا من علقة.

*/ تهديد من كذَّب النبيّ صلى الله عليه وسلم وتعرَّض ليصُدّه عن الصلاة والدعوة إلى الهدى والتقوى.

*/ إعلام النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّ الله عالم بأمر من يناوؤونه وأنّه قامعهم وناصره.

*/ تثبيت الرسول على ما جاءه من الحق والصلاة والتقرّب إلى الله. وأن لا يعبأ بقوّة أعدائه.

{ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ [1] خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ [2] اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ [3] الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ [4] عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ [5]** }.

هذا أوّل ما أوحي به من القرآن إلى محمد صلى الله عليه وسلم لما ثبت عن عائشة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ممّا سيأتي قريبا. وفي هذا الافتتاح براعة استهلال للقرآن.

{ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ** } افتتاح السورة بهذه الكلمة { اقْرَأْ } إيذان بأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سيكون قارئا، أي: تاليا كتابا بعد أن لم يكن قد تلا كتابا من قبل، قال تعالى { وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ } [العنكبوت:48]. ولهذا قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لجبريل حين قال له اقرأ: " **ما أنا بقارئ** ".

{ **اقْرَأْ** } أمر بالقراءة. والقراءة نطق بكلام معيّن مكتوب أو محفوظ على ظهر قلب. وتقدّم في قوله تعالى { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } [النحل:98].

<u>والامر بالقراءة هنا</u>: أن يقول ما سيُملى عليه، والقرينة على أنّه أمر بقراءة في المستقبل القريب أنّه لم يتقدّم إملاء كلام عليه محفوظ فتُطلب منه قراءته، ولا سُلِّمت إليه صحيفة فيُطلب منه قراءتها، فهو كما يقول المعلم للتلميذ: أكتب، فيتأهّب لكتابة ما سيمليه عليه.

ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قولها: " حتّى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال: اقرأ. قال: **فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطّني حتّى بلغ مني الجَهد ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطّني الثانية حتّى بلغ مني الجَهد ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطّني الثالثة حتّى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال:** { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ – إلى قوله - مَا لَمْ يَعْلَمْ }".

وقد قالت فيه: " فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده "، أي: فرجع بالآيات التي أمليت عليه، أي: رجع حافظا لها.

وهو يدل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلقى ما أوحي إليه. وقرأه حينئذ، ويزيد ذلك إيضاحا قولها في الحديث: " فانطلقت به خديجة إلى ورقة بن نوفل، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك "، أي: اسمع القول الذي أوحي إليه. وهذا ينبئ بأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما قيل له بعد الغطّة الثالثة { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ...} قد قرأها وحفظها ساعتئذ.

{ **بِاسْمِ رَبِّكَ** } فيه وجوه:

<u>الأوّل</u>: أن يكون افتتاح كلام بعد جملة { اقْرَأْ }، وهو أوّل المقروء، أي: قل: باسم الله، فتكون الباء للاستعانة، فيجوز تعلّقه بمحذوف تقديره: ابتدئ. ويجوز أن يتعلق بـ { اقْرَأْ } الثاني فيكون تقديمه على معموله للاهتمام بشأن اسم الله. ومعنى الاستعانة باسم الله ذكر اسمه عند هذه القراءة، وهذا الوجه يقتضي أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: " باسم الله " حين تلقّى هذه الجملة.

الثاني: أن تكون الباء للمصاحبة ويكون المجرور في موضع الحال من ضمير { اقْرَأْ } الثاني مقدَّما على عامله للاختصاص، أي: اقرأ ما سيوحى إليك مصاحبا قراءتك اسم ربك. فالمصاحبة مصاحبة الفهم والملاحظة لجلاله، ويكون هذا إثباتا لوحدانية الله بالإلهية وإبطالا للنداء باسم الأصنام الذي كان يفعله المشركون يقولون: باسم اللات، باسم العزى، كما تقدّم في البسملة. فهذا أوّل ما جاء من قواعد الإسلام قد افتُتح به أوّل الوحي.

الثالث: أن تكون الباء بمعنى (على)، كقوله تعالى { مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ } [آل عمران:75]، أي: على قنطار. والمعنى: اقرأ على اسم ربك، أي: على إذنه، أي: أنّ الملك جاءك على اسم ربك، أي: مرسلا من ربك، فذكر (اسم) على هذا مُتعيّن.

{ **رَبِّكَ** } عُدل عن اسم الله العلم إلى هذه الصفة لما يؤذن وصف الرب من الرأفة بالمربوب والعناية به، مع ما يتأتَّى بذكره من إضافته إلى ضمير النبيّ صلى الله عليه وسلم إضافة مؤذنة بأنّه المنفرد بربوبيته عنده، ردًا على الذين جعلوا لأنفسهم أربابا من دون الله فكانت هذه الآية أصلا للتوحيد في الإسلام.

{ **الَّذِي خَلَقَ** } جيء في وصف الرب بطريق الموصل لأنّ في ذلك استدلالا على انفراد الله بالإلهية، لأنّ هذا القرآن سيُتلى على المشركين، وإذا كانت علة الإقبال على ذكر اسم الرب هي أنّه خالق دلّ ذلك على بطلان الإقبال على ذكر غيره الذي ليس بخالق. فلمّا كان المقام مقام ابتداء الإسلام دين التوحيد كان مقتضيا لذكر أدلّ الأوصاف على وحدانيّته.

وعدم ذكر مفعول لفعل { خَلَقَ } يجوز أن يكون لتنزيل الفعل منزلة اللازم، أي: الذي هو الخالق، وأن يكون حذف المفعول لإرادة العموم، أي: خلق كلّ المخلوقات.

{ **خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ** } يجوز أن تكون بدلا من جملة { الَّذِي خَلَقَ } بدلَ مفصَّل من مجمل إن لم يُقدَّر له مفعول، أو بدل بعض إن قُدَّر له مفعول عام، وسُلك طريق الإبدال لما فيه من الإجمال ابتداءً لإقامة الاستدلال على افتقار المخلوقات كلّها إليه تعالى لأنّ المقام مقام الشروع في تأسيس ملة الإسلام.

ففي الإجمال إحضار للدليل مع الاختصار مع ما فيه من إفادة التعميم ثم يكون التفصيل بعد ذلك لزيادة تقرير الدليل.

ويجوز أن تكون بيانا من { الَّذِي خَلَقَ } إذ قُدِّر لفعل { خَلَقَ } الأوّل مفعول دلّ عليه بيانه، فيكون تقدير الكلام: اقرأ باسم ربك الذي خلق الإنسان من علق.

{ **الإنسَانَ** } خُصَّ خلق الإنسان بالذكر من بين بقية المخلوقات لأنّه المطَّرد في مقام الاستدلال إذ لا يغفل أحد من الناس عن نفسه ولا يخلو من أن يخطر له خاطر البحث عن الذي خلقه وأوجده لذلك قال تعالى { وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ } [الذاريات:21].

وفيه تعريض بتحميق المشركين الذين ضلّوا عن توحيد الله تعالى مع أنّ دليل الوحدانية قائم في أنفسهم.

{ **مِنْ عَلَقٍ** } إشارة إلى ما ينطوي في أصل خلق الإنسان من بديع الأطوار والصفات التي جعلته سلطان

هذا العالم الأرضي.

العلق: اسم جمع عَلَقة وهي قطعة قدر الأنملة من الدم الغليظ الجامد الباقي رطبا لم يجف، سُمِّي بذلك تشبيها لها بدودة صغيرة تُسمَّى علقة، وهي حمراء داكنة تكون في المياه الحلوة، تمتص الدم من الحيوان إذا علق خرطومها بجلده وقد تدخل إلى فم الدابة وخاصة الخيل والبغال فتعلق بلهاته ولا يُتفطن لها.

المعنى: أن نطفة الذكر ونطفة المرأة بعد الاختلاط ومضي مدة كافية تصيران علقة، فقد أخذت في أطوار التكوّن، فجُعلت العلقة مبدأ الخلق ولم تُجعل النطفة مبدأ الخلق لأنّ النطفة اشتهرت في ماء الرجل فلو لم تخالطه نطفة المرأة لم تصر العلقة فلا يتخلّق الجنين، وفيه إشارة إلى أن خلق الإنسان من علق ثم مصيره إلى كمال أشُدِّه هو خلق ينطوي على قوى كامنة وقابليات عظيمة أقصاها قابلية العلم والكتابة.

وهذا من الإعجاز العلمي في القرآن.

{ **اقْرَأْ** } الأمر الثاني تأكيد للأول للاهتمام.

{ **وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** } جملة معطوفة على جملة { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ } فلها حكم الاستئناف، وهو استئناف بياني.

فإذا نظرتَ إلى الآية مستقلّة عما تضمّنه حديث عائشة في وصف سبب نزولها كان الاستئناف ناشئا عن سؤال يجيش في خاطر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقول كيف: أقرأ وأنا لا أحسن القراءة والكتابة، فأجيب بأن الذي علم القراءة بواسطة القلم، أي: بواسطة الكتابة، يُعلِّمك ما لم تعلم.

وإذا قرنتَ بين الآية وبين الحديث كان الاستئناف جوابا عن قوله لجبريل: " **ما أنا بقارئ** " فالمعنى: لا عجب في أن تقرأ وإن لم تكن من قبل عالما بالقراءة إذ العلم بالقراءة يحصل بوسائل أخرى مثل الإملاء والتلقين والإلهام. وقد علّم الله آدم الأسماء ولم يكن آدم قارئا.

{ **الأَكْرَمُ** } مصوغ للدلالة على قوّة الاتصاف بالكرم وليس مصوغا للمفاضلة، فهو مسلوب المفاضلة.

الكرم: التفضل بعطاء ما ينفع المعطي، ونعم الله عظيمة لا تُحصى ابتداء من نعمة الإيجاد.

{ **الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ** } مقتضى الظاهر: وعلَّم بالقلم، فعُدل عن الإضمار لتأكيد ما يُشعر به { رَبِّكَ } من العناية المستفادة من قوله تعالى { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ } وأنّ هذه القراءة شأن من شؤون الرب اختص بها عبده إتمامًا لنعمة الربوبية عليه.

ومفعولا { الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ } محذوفان دلّ عليهما قوله تعالى { بِالْقَلَمِ }، وتقديره: علَّم ناسا الكتابة.

وتخصيص هذه الصلة بالذكر وجعلها معترضة بين المبتدإ والخبر للإيماء إلى إزالة ما خطر ببال النبيّ صلى الله عليه وسلم من تعذّر القراءة عليه لأنّه لا يعلم الكتابة، إذ قال للملك: " **ما أنا بقارئ** ".

القلم: تقدّم عند قوله تعالى { إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ } [آل عمران:44].

{ **عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** } خبر عن قوله تعالى { وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ } وما بينهما اعتراض.

{ **الإِنسَانَ** } يجوز أن يكون تعريف الجنس فيكون ارتقاء في الإعلام بما قدَّره الله تعالى من تعليم الإنسان

بتعميم التعليم بعد تخصيص التعليم بالقلم. وفي ذلك اطمئنان لنفس النبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّ عدم معرفته الكتابة لا يحول دون قراءته لأنّ الله علم الإنسان ما لم يعلم، فالذي علّم القراءة لأصحاب المعرفة بالكتابة قادر على أن يعلِّمك القراءة دون سبق معرفة بالكتابة.

{ مَا لَمْ يَعْلَمْ } أشعر أنّ العلم مسبوق بالجهل، أي: فلا يؤيِّسنَّك من أن تصير عالما بالقرآن والشريعة أنّك لا تعرف قراءة ما يُكتب بالقلم.

وفي الآية إشارة إلى الاهتمام بعلم الكتابة وبأن الله يريد أن يُكتب للنبيّ صلى الله عليه وسلم ما ينزل عليه من القرآن فمن أجل ذلك أتخذ النبيّ صلى الله عليه وسلم كتَّابا للوحي من مبدإ بعثه.

وقد جمعت هذه الآيات الخمس أصول الصفات الإلهية؛ فوصف (الربّ) يتضمّن الوجود والوحدانية، ووصف { الَّذِي خَلَقَ } ووصف { الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ } يقتضيان صفات الأفعال، ووصف { الأَكْرَمُ } يتضمّن صفات الكمال والتنزيه عن النقائص.

{ كَلَّا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى [6] أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى [7] إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى [8] أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى [9] عَبْدًا إِذَا صَلَّى [10] }.

استئناف ابتدائي لظهور أنّه في غرض لا اتصال له بالكلام الذي قبله.

{ كَلَّا } حرف ردع وإبطال، وليس في الجملة التي قبلها ما يحتمل الإبطال والردع، فوجود { كَلَّا } في أول الجملة دليل على أنّ المقصود بالردع هو ما تضمّنه قوله تعالى { أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى، عَبْدًا إِذَا صَلَّى}.

ولمّا كان حق { كَلَّا } أن تقع بعد كلام لإبطاله والزجر عن مضمونه، فوقوعها هنا يقتضي أنّ معنى الكلام الآتي بعدها حقيق بالإبطال وبردع قائله.

روى مسلم عن أبي حازم عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: هل يَعْفِرُ محمد وجهه (أي: يسجد في الصلاة) بين أظهركم؟ فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأنّ على رقبته، فأتى رسول الله وهو يصلّي، زعم ليطأ على رقبته، فما فجأهم منه إلّا وهو ينكص على عقبيه ويتقِّي بيده. فقيل له: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: إنّ بيني وبينه لخندقا من نار وهولا وأجنحة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوا عضوا "**، قال: فأنزل الله (لا ندري في حديث أبي هريرة أو شيء بلغه)، { إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى }.

واختلفوا في أنّ هذه الآيات إلى أخر السورة نزلت عقب الخمس الآيات الماضية، وجعلوا ممّا يناكده ذكر الصلاة فيها، وفيما روي في سبب نزولها من قول أبي جهل، بناء على أنّ الصلاة فرضت ليلة الإسراء وكان الإسراء بعد البعثة بسنين:

فقال بعضهم: إنّها نزلت بعد الآيات الخمس الأولى من هذه السورة بمدّة، ونزل بينهن قرآن أخر، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإلحاقها.

والذي يُستخلص من مختلف الروايات في بدء الوحي وما عقبه من الحوادث أنّ الوحي فتر بعد نزول الآيات الخمس الأوائل من هذه السورة، وتلك الفترة الأولى التي ذكرناها في أوّل سورة الضحى، وهي فترة الوحي التي ذكرها ابن إسحاق بعد أن ذكر ابتداء نزول القرآن، ولكن أقوالهم اختلفت في مدّة الفترة. وليس تحديد مدّتها بالأمر المهم ولكن الذي يهم هو أنّا نوقن بأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان في مدّة فترة الوحي يرى جبرائيل ويتلقى منه وحيا ليس من القرآن.

وقال السهيلي في الروض الأنف: ذكر الحربي أنّ الصلاة قبل الإسراء كانت صلاة قبل غروب الشمس وصلاة قبل طلوعها.

فالوجه أن تكون الصلاة التي كان يصليها النبيّ صلى الله عليه وسلم غير الصلوات الخمس بل كانت هيئة غير مضبوطة بكيفية وفيها سجود، لقول الله تعالى { وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ } [العلق:19]، يؤديها في المسجد الحرام أو غيره بمرأى من المشركين، فعظم ذلك على أبي جهل ونهاه عنها.

فالوجه أن تكون هذه الآيات إلى بقية السورة قد نزلت بعد فترة قصيرة من نزول أوّل السورة حدثت فيها صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفشا فيها خبر بدء الوحي ونزول القرآن، جريا على أنّ الأصل في الآيات المتعاقبة في القراءة أن تكون قد تعاقبت في النزول إلّا ما ثبت تأخّره بدليل بيّن، وجريا على الصحيح الذي لا ينبغي الالتفات إلى خلافه من أنّ هذه السورة هي أوّل سورة نزلت.

{ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى، أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى } موقع المقدِّمة لما يرد بعده.

المعنى: أنّ ما قاله أبو جهل ناشئ عن طغيانه بسبب غناه، كشأن الإنسان.

{ الإِنسَانَ } التعريف للجنس، أي: من طبع الإنسان أن يطغى إذا أحس من نفسه الاستغناء، واللام مفيدة الاستغراق العرفي، أي: أغلب الناس في ذلك الزمان إلّا من عصمه خُلُقه أو دينه.

وتأكيد الخبر بحرف التأكيد { إِنَّ } ولام الابتداء { لَيَطْغَى } لقصد زيادة تحقيقه لغرابته حتّى كأنّه ممّا يُتوقّع أن يشك السامع فيه.

الطغيان: التعاظم والكبر.

{ أَنْ رَآهُ } متعلّق بـ (يطغى) بحذف لام التعليل، والتقدير: إنّ الإنسان ليطغى لرويته نفسه مستغنيا. وضمير { رَآهُ } المستتر المرفوع على الفاعلية، وضميره البارز المنصوب على المفعولية كلاهما عائد إلى الإنسان، أي: أن رأى نفسه استغنى.

الاستغناء: شدّة الغنى، فالسن والتاء فيه للمبالغة في حصول الفعل، مثل استجاب.

{ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى } معترضة بين المقدِّمة والمقصد، والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم.

أي: مرجع الطاغي إلى الله، وهذا موعظة وتهديد على سبيل التعريض لمن يسمعه من الطغاة، وتعليم

للنبيّ صلى الله عليه وسلم وتثبيت له، أي: لا يُحزنك طغيان الطاغي فإنّ مرجعه إليَّ، وهو موعظة للطاغي بأنّ غناه لا يدفع عنه الموت، والموت: رجوع إلى الله، كقوله تعالى { يَا أَيُّهَا الإنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاَقِيهِ } [الإنشقاق:6]. ومنتهى الطاغي إلى العذاب، قال تعالى { إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا، لِلْطَّاغِينَ مَآبًا } [النبأ:22/21]،

{ **الرُّجْعَى** } مصدر رَجَعَ على زنة فُعلى مثل البُشرى. وتقديم { إِلَى رَبِّكَ } للاهتمام بذلك.

{ **أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى، عَبْدًا إِذَا صَلَّى** } إلى آخرها هي المقصود من الردع الذي أفاده حرف { كَلَّا }، فهذه الجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا متصلا باستئناف جملة { إِنَّ الإنسَانَ لَيَطْغَى }.

{ **أَرَأَيْتَ** } كلمة تعجيب من حال، تقال للذي يُعلم أنّه رأى حالا عجيبة. والخطاب لغير معيَّن.

<u>والرؤية علمية</u>، أي: أعلمت الذي ينهى عبدا، والمستفهَم عنه هو ذلك العلم.

<u>ويجوز أن تكون بصرية</u> لأنّها حكاية أمر وقع في الخارج.

{ **الَّذِي يَنْهَى** } اتفقوا على أنّه أريد به أبو جهل، إذ قال قولا يريد به نهي النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يصلّي في المسجد الحرام فقال في ناديه: لئن رأيت محمدا يصلي في الكعبة لأطأنّ على عنقه. فإنّه أراد بقوله ذلك أن يبلغ إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم، فهو تهديد يتضمن النهي عن أن يصلّي في المسجد الحرام، ولم يُرو أنّه نهاه مشافهة.

وصيغة المضارع لاستحضار الحالة العجيبة وإلّا فإن نهيه قد مضى. والمنهي عنه محذوف يغني عنه تعليق الظرف بفعل { يَنْهَى }، أي: ينهاه عن صلاته.

{ **عَبْدًا** } المراد النبيّ صلى الله عليه وسلم. وإطلاق العبد هنا على معنى واحد من عباد الله، أي: شخص كما في قوله تعالى { بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ } [الإسراء:5]، أي: رجالا. وعدل عن التعبير عنه بضمير الخطاب لأنّ التعجيب من النهي عن الصلاة بقطع النظر عن المصلّي. فشموله لنهيه عن صلاة النبيّ صلى الله عليه وسلم أوقع.

{ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى [11] أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى [12] }.

تعجيب أخر، والتقدير: أرأيته إن كان العبد على الهدى أينهاه عن الهدى، أو إن كان العبد آمرا بالتقوى أينهاه عن ذلك. وفصلت الجملة لوقوعها موقع تكرير التعجيب من أحوال عديدة لشخص واحد.

<u>المعنى</u>: أنّ ذلك هو الظنّ به، فيُعجَّب المخاطب من ذلك، لأنّ من ينهى عن الصلاة وهي قربة إلى الله فقد نهى عن الهدى، ويوشك أن ينهي عن أن يأمر أحد بالتقوى.

{ **عَلَى الْهُدَى** } للاستعلاء المجازي وهو شدّة التمكّن من الهدى، كما تقدّم في قوله تعالى { أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ } [لقمان:5].

الضميران المستتران في فعلَي { كَانَ عَلَى الْهُدَى أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى } عائدان إلى { عَبْدًا } وإن كانت

الضمائر الحافة به عائدة إلى { الَّذِي يَنْهَى، عَبْدًا إِذَا صَلَّى } [10/9]، فإنّ السياق يَرُدُّ كلّ ضمير إلى معاده.

{ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى [13] أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى [14] }.

جملة مستأنفه للتهديد والوعيد على التكذيب والتولّي، أي: إذا كذّب بما يُدعى إليه وتولَّى أتظنّه غير عالم بأن الله مطّلع عليه.

{ **أَرَأَيْتَ** } المفعول الأوّل محذوف وهو ضمير عائد إلى { الَّذِي يَنْهَى } [9] والتقدير: أرأيته إن كذّب...

{ **إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى** } جملة شرطية جوابها جملة { أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى } كذا قدّر صاحب الكشاف، ولم يعتبر وجوب اقتران جملة جواب الشرط بالفاء إذا كانت الجملة استفهامية. ومن أوجب اقترانها بـ (الفاء) قالوا: يتعيّن تقدير جواب الشرط بما يدل عليه { أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى }، والتقدير: إن كذّب وتولى فالله عالم به، كناية عن توعّده، وتكون جملة { أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى } مستأنفة لإنكار جهل المكذِّب بأنّ الله سيعاقبه.

والكلام إيذان للنبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّ أبا جهل سيكذّبه حين يدعوه إلى الإسلام وسيتولّى، ووعد بأنّ الله سينتصف له منه.

{ **أَلَمْ يَعْلَمْ** } ضُمِّن الفعل معنى (يوقن) فلذلك عُدّي بالباء. والاستفهام إنكاري، أي: كان حقّه أن يعلم ذلك ويقي نفسه العقاب.

{ **بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى** } حذف المفعول ليعم كل موجود، والمراد بالرؤية المسندة إلى الله تعالى تعلّق علمه بالمحسوسات. والرؤية هنا كناية عن الوعيد بالعقاب.

{ كَلاَّ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ [15] نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ [16] }.

{ **كَلَّا** } أُكِّد الردع الأوّل بحرف الردع الثاني وفي آخر الجملة، وهو الموقع الحقيق لحرف الردع إذ كان تقديم نظيره في أول الجملة لما دعا إليه المقام من التشويق.

{ **لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ، نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ** } أُعقِب الردع بالوعيد على فعله إذا لم يرتدع وينته عنه. واللام موطئة للقسم، وجملة (لنسفعن) جواب القسم، وأمّا جواب الشرط فمحذوف دل عليه جواب القسم.

السَّفْع: القبض الشديد بجذب.

الناصية: مقدّم شعر الرأس. والأخذ من الناصية أخذ من لا يترك له تمكّن من الانفلات، فهو كناية عن أخذه إلى العذاب، وفيه إذلال لأنّهم كانوا لا يقبضون على شعر رأس أحد إلّا لضربه أو لجرّه.

والتعريف للعهد التقديري، أي: ناصية الذي ينهى عبدا إذا صلّى.

{ **نَاصِيَةٍ** } بدل من الناصية، وتنكيرها لاعتبار الجنس، أي: هي من جنس ناصية كاذبة خاطئة.
{ **خاطئة** } اسم فاعل من خَطِئ، إذا فعل خطيئة، أي: ذنبا، ووصف الناصية بالكاذبة والخاطئة مجاز عقلي. والمراد: كاذب وخاطئ صاحبها. ومُحسِّن هذا المجاز أنّ فيه تخييلا بأنّ الكذب والخِطْءَ باديان من ناصيته، فكانت الناصية جديرة بالسفع.

{ **فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ** [17] **سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ** [18] **كَلَّا لاَ تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ** [19] }.

{ **فَلْيَدْعُ نَادِيَه، سَنَدْعُ الزَّبَانِيَة، كَلَّا** } تفريع على الوعد. ومناسبة ذلك ما رواه الترمذي والنسائي عن ابن عباس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي عند المقام فمر به أبو جهل فقال: يا محمد ألم أنهك عن هذا، وتوعّده، فأغلظ له رسول الله، فقال أبو جهل: يا محمد بأيّ شيء تهدّدني؟ أما والله إنّي لأكثر أهل هذا الوادي ناديا، فأنزل الله تعالى { فَلْيَدْعُ نَادِيَه، سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ } يعني أنّ أبا جهل أراد بقوله ذلك تهديد النبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّه يغري عليه أهل ناديه.
النادي: اسم للمكان الذي يجتمع فيه القوم، يقال: ندا القومُ نَدْوًا، إذا اجتمعوا. والنَدوة بفتح النون الجماعة، ولا يطلق هذا الاسم على المكان إلا إذا كان القوم مجتمعين فيه. ويقال النادي لمجلس القوم نهارا، فأمّا مجلسهم في الليل فيُسمَّى المسامر، قال تعالى { سَامِرًا تَهْجُرُونَ } [المؤمنون:67].
واتخذ قُصي لندوة قريش دارا تُسمَّى (دار الندوة) حول المسجد الحرام وجعلها لتشاورهم ومهمّاتهم وفيها يُعقد على الأزواج.
ويُطلق النادي على الذين يجتمعون فيه، وهو معنى قول أبي جهل: إني لأكثر أهل هذا الوادي ناديا، أي: ناسا يجلسون إليَّ.
{ **فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ** } لام الأمر للتعجيز لأنّ أبا جهل هدد النبيّ صلى الله عليه وسلم بكثرة أنصاره وهم أهل ناديه فرد الله عليه بأن أمره بدعوة ناديه. وهذه الآية معجزة خاصة من معجزات القرآن، فإنّه تحدّى أبا جهل بهذا وقد سمع أبو جهل القرآن وسمعه أنصاره فلم يقدم أحد منهم على السطو على رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أنّ الكلام يلهب حميّته.
{ **سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ** } جواب الأمر التعجيزي، أي: فإن دعا ناديه دعونا لهم الزبانية.
الزبانية: جمع زَبَّاني، أو جمع زَبَنِيَة، وقيل: هو اسم جمع لا واحد له من لفظه مثل أبابيل. وهذا الاسم مشتق من الزبن وهو الدفع بشدة، يقال: ناقة زَبون إذا كانت تركل من يحلبها. فالزبانية الذين يزبِنون الناس، أي: يدفعونهم بشدّة. والمراد بهم <u>ملائكة العذاب</u>.
{ **كَلَّا** } ردع لإبطال ما تضمّنه قوله { فَلْيَدْعُ نَادِيَه }، أي: وليس بفاعل، وهذا تأكيد للتحدي والتعجيز.
{ **لاَ تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ** } هذا فذلكة للكلام المتقدّم من قوله تعالى { أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى، عَبْدًا إِذَا صَلَّى } [10/9]، أي: لا تترك صلاتك في المسجد الحرام ولا تخش منه.

{ **وَاسْجُدْ** } تأكيد قوله تعالى { لاَ تُطِعْهُ } اهتماما بالصلاة.

{ **وَاقْتَرِبْ** } عطف، للتنويه بما في الصلاة من مرضاة الله تعالى بحيث جُعل المصلّي مقتربا من الله.

الاقتراب: افتعال من القرب، عُبِّر بصيغة الافتعال لما فيها من معنى التكلّف والتطلّب، أي: اجتهد في القرب إلى الله بالصلاة.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة القدر

سُمِّيت هذه السورة في المصاحف وكتب التفسير وكتب السنّة (**سورة القدر**)، وسمّاها ابن عطية في تفسيره وأبو بكر الجصاص في أحكام القرآن (**سورة ليلة القدر**).

وهي مكية في قول الجمهور، وهو قول جابر بن زيد ويُروى عن ابن عباس. وعن ابن عباس أيضا والضحّاك أنّها مدنية ونسبه القرطبي إلى الأكثر. وقال الواقدي: هي أوّل سورة نزلت بالمدينة، ويرجّحه أن المتبادر أنّها تتضمن الترغيب في إحياء ليلة القدر وإنّما كان ذلك بعد فرض رمضان بعد الهجرة.

وقد عدّها جابر بن زيد **الخامسة والعشرين** في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة عبس وقبل سورة الشمس، فأمّا قول من قالوا إنّها مدنية فيقتضي أن تكون نزلت بعد المطففين وقبل البقرة.

وآياتها خمس في العدد المدني والبصري والكوفي، وست في العد المكي والشامي.

أغراض السورة

*/ التنويه بفضل القرآن وعظمته بإسناد إنزاله إلى الله تعالى.

*/ الرد على الذين جحدوا أن يكون القرآن منزّلا من الله تعالى.

*/ رفع شأن الوقت الذي أُنزل فيه، ونزول الملائكة في ليلة إنزاله.

*/ تفضيل الليلة التي توافق ليلة إنزاله من كل عام.

*/ تحريض المسلمين على تحين ليلة القدر بالقيام والتصدّق.

{ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ } [1].

{ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ } تنويه عظيم بالقرآن، فافتتحت الجملة بحرف (إنّ) وبالإخبار بالجملة الفعلية، وكلاهما من طرق التأكيد والتقوّي. ويفيد هذا التقديم قصرا، وهو قصر قلب للردّ على المشركين الذي نفوا أن يكون القرآن منزلا من الله تعالى.

وفي ضمير العظمة وإسناد الإنزال إليه تشريف عظيم للقرآن.

{ أَنزَلْنَاهُ } الإتيان بضمير القرآن دون الاسم الظاهر إيماء إلى أنّه حاضر في أذهان المسلمين لشدّة إقبالهم عليه، فكون الضمير دون سبق معاد إيماء إلى شهرته بينهم.

فيجوز أن يراد به القرآن كله، فيكون فعل (أنزلنا) مستعملا في ابتداء الإنزال لأنّ الذي أُنزل في تلك الليلة خمسُ الآيات الأُوَلُ من سورة العلق، ثم فتر الوحي ثم عاد إنزاله منجَّما ولم يكمل إنزال القرآن إلّا بعد نيف وعشرين سنة، ولكن لمّا كان جميع القرآن مقرَّرا في علم الله تعالى مقداره وأنّه ينزل على النبيّ

صلى الله عليه وسلم منجَّما حتّى يتم، كان إنزاله بإنزال الآيات الأول منه.
ويجوز أن يكون الضمير عائدا على المقدار الذي أنزل في تلك الليلة وهو الآيات الخمس من سورة العلق فإنّ كل جزء من القرآن يُسمَّى قرآنا. وعلى كلا الوجهين فالتعبير بالماضي في { أَنزَلْنَاه } لا مجاز فيه.
{ **فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ** } الآية صريحة في أنّ الآيات الأول من القرآن نزلت ليلا، وهو الذي يقتضيه حديث بدء الوحي في الصحيحين لقول عائشة فيه: " فكان يتحنّث في غار حراء الليالي ذوات العدد ".
ليلة القدر: اسم جعله الله لليلة التي ابتدئ فيها نزول القرآن، ويظهر أنّ أوّل تسميتها بهذا الاسم كان في هذه الآية ولم تكن معروفة عند المسلمين، وبذلك يكون ذكرها بهذا الاسم تشويقا لمعرفتها، ولذلك عُقِّب قوله تعالى { وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ } [2].
القدر: هنا بمعنى الشرف والفضل، كما قال تعالى { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ } [الدخان:3]، أي: ليلة القدر والشرف عند الله تعالى ممّا أعطاها من البركة، فجعلها مبدأ الوحي إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم.
وقد ثبت أنّ ابتداء نزول القرآن كان في شهر رمضان، قال تعالى { شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنْ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ } [البقرة:185]. وأكثر الروايات أنّ الليلة التي أنزل فيها القرآن على النبيّ صلى الله عليه وسلم كانت ليلة سبعة عشرة من رمضان.
ولا شك أنّ المسلمين كانوا يعلمون ذلك إذ كان نزول هذه السورة قبل نزول سورة البقرة بسنين إن كانت السورة مكية، أو بمدّة أقل من ذلك إن كانت السورة مدنية، فليلة القدر المرادة هنا كانت في رمضان وتأيَّد ذلك بالأخبار الصحيحة من كونها من ليال رمضان في كل سنة.
والمقصود من تشريف الليلة التي كان ابتداء إنزال القرآن فيها تشريف آخر للقرآن بتشريف زمان ظهوره، تنبيها على أنّه تعالى اختار لابتداء إنزاله وقتا شريفا مباركا.

{ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ } [2].

تنويه بطريق الإبهام المراد به أنّ إدراك كنهها ليس بالسهل لما ينطوي عليه من الفضائل الجمّة.
{ **وَمَا أَدْرَاكَ** } كلمة تقال في تفخيم الشيء وتعظيمه، وقد تقدّمت غير مرة منها قوله تعالى { وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ } [الانفطار:17]. والواو واو الحال.
{ **لَيْلَةُ الْقَدْرِ** } أعيد اسم الذي سبق قريبا على خلاف مقتضى الظاهر، فقُصِد الاهتمام بتعيينها، فحصل تعظيم ليلة القدر صريحا، وحصلت كناية عن تعظيم ما أنزل فيها، وأنّ الله اختار إنزاله فيها ليتطابق الشرفان.

{ **لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ** } [3]

بيان أوّلُ لشيء من الإبهام الذي في قوله تعالى { وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ } [2]، مثل البيان في قوله تعالى { وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ، فَكُّ رَقَبَةٍ، أَوْ إِطْعَامٌ } [البلد: 12-14]. فلذلك فصلت الجملة لأنّها استئناف بياني، أو لأنّها كعطف البيان.

{ **خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ** } هو بتضعيف فضل ما يحصل فيها من الأعمال الصالحة واستجابة الدعاء ووفرة ثواب الصدقات والبركة للأمة فيها، لأنّ تفاضل الأيام لا يكون بمقادير أزمنتها ولا بما يحدث فيها من حر أو برد، أو مطر، ولا بطولها أو بقصرها، فإن تلك الأحوال غير مُعتدٍّ بها عند الله تعالى، ولكنّ الله يعبأ بما يحصل من الصلاح للناس أفرادا وجماعات، وما يُعين على الحق والخير ونشر الدين.

وقد قال في فضل الناس { إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ } [الحجرات:13]، فكذلك فضل الأزمان إنما يقاس بما يحصل فيها لأنها ظروف للأعمال وليست لها صفات ذاتية.

{ **أَلْفِ** } يظهر أنّه مستعمل في وفرة التكثير كقولهم: واحد كألف، وعليه جاء قوله تعالى { يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ } [البقرة:96]

{ **شَهْرٍ** } جُعل تمييز عدد الكثرة هنا بالشهر للرعي على الفاصلة التي هي بحرف الراء.

{ **تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ** [4] **سَلامٌ هِيَ حتّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ** [5] }.

إذا ضُمّ هذا البيان الثاني لما في قوله تعالى { وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ } [2] من الإبهام التفخيمي حصل منها ما يدل دلالة بيّنة على أنّ الله جعل مثل هذه الفضيلة لكلّ ليلة من ليالي الأعوام تقع في مثل الليلة من شهر نزول القرآن كرامةً للقرآن، ولمن أنزل عليه، وللدين الذي نزل فيه، وللأمّة التي تتبعه.

<u>والتعبير بالفعل المضارع</u> في قوله تعالى { تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ } مؤذن بأنّ هذا التنزّل متكرّر في المستقبل بعد نزول هذه السورة. <u>وذكر نهايتها بطلوع الفجر</u> لا أثر له في بيان فضلها، فتعيَّن أنه إدماج للتعريف بمنتهاها ليحرص الناس على كثرة العمل فيها قبل انتهائها.

لا جرم أنّ ليلة القدر التي ابتدئ فيها نزول القرآن قد انقضت قبل أن يشعر بها أحد عدا محمد صلى الله عليه وسلم إذ كان قد تحنث فيها، وأنزل عليه أوّل القرآن آخرها، وانقلب إلى أهله في صبيحتها، فلولا إرادة التعريف بفضل الليالي الموافقة في كل السنوات لاقتصر على بيان فضل تلك الليلة الأولى ولما كانت حاجة إلى تنزّل الملائكة فيها، ولا إلى تعيين منتهاها.

<u>فينبغي أن تُعدّ ليلة القدر عيد نزول القرآن</u>. وحكمة إخفاء تعيينها إرادة أن يكرّر المسلمون حسناتهم في ليال كثيرة توخّيا لمصادفة ليلة القدر، كما أخفيت ساعة الإجابة يوم الجمعة.

هذا محصِّل ما أفاده القرآن في فضل ليلة القدر من كل عام ولم يُبيِّن أية ليلة هي، ولا من أي شهر، وقد

قال تعالى { شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ } [البقرة: 185] فتبيَّن أنّ ليلة القدر الأولى هي من ليالي شهر رمضان لا محالة.

وأصح ما يُعتمد في ذلك: أنّها من ليالي شهر رمضان من كل سنة وأنّها من ليالي الوتر كما دل عليه الحديث الصحيح: **" تحرّوا ليلة القدر في الوتر في العشر الأواخر من رمضان "**. والوتر أفضل الأعداد عند الله كما دل عليه حديث: **" إنّ الله وتر يحب الوتر "**.

وأنّها ليست ليلة معينة مطردة في كل السنين بل هي متنقلة في الأعوام. والجمهور على أنّها لا تخرج عن العشر الأواخر منه.

{ **تَنَزَّلُ** } أصله تتنزّل فحذفت إحدى التاءين اختصارا.

ونزول الملائكة إلى الأرض لأجل البركات التي تحفّهم.

{ **الرُّوحُ** } هو جبريل، أي: ينزل جبريل في الملائكة.

{ **بِإِذْنِ رَبِّهِمْ** } أي: أن هذا التنزّل كرامة أكرم الله بها المسلمين بأن أنزل لهم في تلك الليلة جماعات من ملائكته وفيهم أشرفهم، وكان نزول جبريل في تلك الليلة ليعود عليها من الفضل مثل الذي حصل في مماثلتها الأولى، ليلة نزوله بالوحي في غار حراء.

{ **مِنْ كُلِّ أَمْرٍ** } يجوز أن تكون { مِنْ } بيانية تبين الإذن من قوله تعالى { بِإِذْنِ رَبِّهِمْ }، أي: بإذن ربهم الذي هو في كل أمر. ويجوز أن تكون بمعنى (الباء)، أي: تتنزّل بكل أمر، كما في قوله تعالى { يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ } [الرعد:11]، أي: بأمر الله. ويجوز أن تكون للتعليل، أي: من أجل كلّ أمر أراد الله قضاءه بتسخيرهم.

{ **أَمْرٍ** } التنوين للتعظيم، أي: بأنواع الثواب على الأعمال في تلك الليلة. وهذا الأمر غير الأمر الذي في قوله تعالى { فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ } [الدخان:4].

واعلم أن موقع قوله تعالى { تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ - الى قوله - مِنْ كُلِّ أَمْرٍ } من جملة { لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ } [3] موقع الاستئناف البياني، أو موقع بدل الاشتمال لذلك فُصلت عن التي قبلها ولم تعطف عليها مع أنّهما مشتركان في كون كل واحدة منهما تفيد بيانا لجملة { وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ } [2].

{ **سَلامٌ هِيَ حتّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ** } بيان لمضمون { مِنْ كُلِّ أَمْرٍ }، وهو كالاحتراس، لأنّ تنزّل الملائكة يكون للخير ويكون للشر لعقاب مكذِّبي الرسل، قال تعالى { مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ } [الحجر:8]، وقال تعالى { يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ } [الفرقان:22].

وجُمع بين إنزالهم للخير والشر في قوله تعالى { إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ } لأنفال:12].

أي: تتنزل الملائكة ليلة القدر لتنفيذ أمر الخير للمسلمين الذين صاموا رمضان وقاموا ليلة القدر، فهذه بشارة.

السلام: مصدر أو اسم مصدر معناه السلامة، قال تعالى { قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ } [الانبياء:69]. ويُطلق السلام على التحية والمدحة، وفُسِّر السلام بالخير، والمعنيان حاصلان هنا:

فيشمل الغفران وإجزال الثواب واستجابة الدعاء بخير الدنيا والآخرة.

ويشمل التحية والقول الحسن، أي: ثناء الملائكة على أهل ليلة القدر، كدأبهم مع أهل الجنة، قال تعالى { وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ، سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ } [الرعد:24/23].

{ **سَلامٌ هِيَ** } التنكير للتعظيم. وتقديم المسند على المسند إليه لإفادة الاختصاص، أي: ما هي إلّا سلام. والقصر ادعائي لعدم الاعتداد بما يحصل فيها لغير الصائمين القائمين.

ثم يجوز أن يكون { سَلامٌ هِيَ } مرادا به الإخبار فقط.

ويجوز أن يراد بالمصدر الأمر، والتقدير: سلِّموا سلاما. والمعنى: اجعلوها سلاما بينكم، أي: لا نزاع ولا خصام. ويشير إليه ما في الحديث الصحيح: " **خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحى رجلان فرُفعت وعسى أن يكون خيرا لكم فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة** ".

{ **حتّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ** } غاية لما قبله من قوله تعالى { تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ - إلى قوله - سَلامٌ هِيَ }.

والمقصود من الغاية إفادة أنّ جميع أحيان تلك الليلة معمورة بنزول الملائكة والسلامة، والغاية للتأكيد على مدلول { لَيْلَةُ }، لأنّ الليلة قد تُطلق على بعض أجزائها كما في قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غُفر له ما تقدّم من ذنبه** "، أي: من قام بعضها.

{ **حتّى** } لإدخال الغاية، لبيان أنّ ليلة القدر تمتد بعد مطلع الفجر بحيث أنّ صلاة الفجر تُعتبر واقعة في تلك الليلة، لئلّا يُتوهّم أنّ نهايتها كنهاية الفطر بآخر جزء من الليل، وهذا توسعة من الله في امتداد الليلة إلى ما بعد طلوع الفجر.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة البيّنة

وردت تسمية هذه السورة في كلام النبيّ صلى الله عليه وسلم { **لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا** }.

روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لأبَيّ بن كعب: **" إنّ الله أمرني أن أقرأ عليك** { لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا } " قال: وسمَّاني لك؟ قال: **" نعم "**، فبكى.

فالحديث واضح أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم أراد السورة كلّها فسمّاها بأوّل جملة فيها.

وسُمِّيت هذه السورة في معظم كتب التفسير وكتب السنة سورة **{ لَمْ يَكُنِ }** بالاقتصار على أوّل كلمة منها، وهذا الاسم هو المشهور في تونس بين أبناء الكتاتيب. وسُمِّيت في أكثر المصاحف **(سورة القيّمة)** وكذلك في بعض التفاسير. وسُمِّيت في بعض المصاحف **(سورة البيّنة)**.

وذكر في الإتقان أنّها سُمِّيت في مصحف أبَي **(سورة أهل الكتاب)**، لقوله تعالى { لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ } [1]، وسُمِّيت **(سورة البريّة)** وسُمِّيت **(سورة الانفكاك)**. <u>فهذه ستة أسماء</u>.

واختُلف في أنّها مكية أو مدنية.

قال ابن عطية: الأشهر أنّها مكية وهو قول جمهور المفسّرين. وعكس القرطبي فنسب القول بأنّها مدنية إلى الجمهور. <u>وجزم البغوي وابن كثير بأنّها مدنية</u>، **وهو الأظهر** لكثرة ما فيها من تخطئة أهل الكتاب.

وقد **عُدَّت المائة وإحدى** في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الطلاق وقبل سورة الحشر، فتكون نزلت قبل غزوة بني النضير، وكانت غزوة النضير سنة أربع في ربيع الأوّل.

وعدد آياتها ثمان عند الجمهور، وعدَّها أهل البصرة تسع آيات.

أغراض السورة

*/ توبيخ المشركين وأهل الكتاب على تكذيبهم بالقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم.

*/ التعجيب من تناقض حالهم إذ هم ينتظرون أن تأتيهم البيّنة فلما أتتهم البيّنة كفروا بها.

*/ تكذيبهم في ادعائهم أن الله أوجب عليهم التمسّك بالأديان التي هم عليها.

*/ وعيدهم بعذاب الآخرة. والتسجيل عليهم بأنّهم شر البرية.

*/ الثناء على الذين آمنوا وعملوا الصالحات. ووعدهم بالنعيم الأبدي ورضى الله عنهم وإعطائهم ما يرضيهم.

*/ تخلّل ذلك تنويه بالقرآن وفضله على غيره باشتماله على ما في الكتب الإلهية، وما فيه من فضل وزيادة.

{ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حتّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ [1] رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً [2] فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ [3] }.

ذكر الفخر عن الواحدي أنّه قال: " هذه الآية من أصعب ما في القرآن نظما وتفسيرا وقد تخبّط فيها الكبار من العلماء ".

ووجه الإشكال في الآية: أنّ المشاهدة دلّت على أنّ الذين كفروا لم ينفكوا عن الكفر في زمن ما، وأنّ إتيان البيّنة مستقبَل وذلك لا يستقيم فإنّ البينة فُسِّرت بـ { رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ }، وإتيان الرسول وقع قبل نزول هذه الآيات بسنين، وهم مستمرُّون على ما هم عليه؛ هؤلاء على كفرهم، وهؤلاء على شركهم.

وإذ قد تقرّر وجه الإشكال وكان مظنونا أنّه ملحوظ للمفسرين إجمالا أو تفصيلا فقد تعيّن أنّ هذا الكلام ليس واردا على ما يتبادر من ظاهره في مفرداته أو تركيبه، فوجب صرفه عن ظاهره، إمّا بصرف تركيب الخبر عن ظاهر الإخبار إلى معنى مجازي للتركيب، وإمّا بصرف بعض مفرداته التي اشتمل عليها التركيب عن ظاهر معناها إلى معنى مجاز أو كناية.

ومراجع تأويل الآية تؤول إلى خمسة.

الأول: تأويل الجملة بأسرها بأن يؤوَّل الخبر إلى معنى التوبيخ والتعجيب.

الثاني: تأويل معنى { مُنْفَكِّينَ } بمعنى الخروج عن إمهال الله إيّاهم ومصيرهم إلى مؤاخذتهم.

الثالث: تأويل متعلّق { مُنْفَكِّينَ } بأنّه عن الكفر، أو عن الاتفاق على الكفر، أو منفكين عن الشهادة للرسول صلى الله عليه وسلم بالصدق قبل بعثته، أو منفكين عن الحياة، أي: هالكين.

الرابع: تأويل { حَتَّى } أنّها بمعنى (إن) الاتصالية. والتقدير: وإن جاءتهم البيّنة.

فالآيات وردت مورد إقامة الحجّة على الذين لم يؤمنوا من أهل الكتاب وعلى المشركين بأنّهم متنصّلون من الحق متعلّلون للإصرار على الكفر عنادا. فالكلام مسوق مساق نقل الأقوال المستغربة المضطربة الدالة على عدم ثبات آراء أصحابها، فهو من الحكاية لما كانوا يَعِدون به، فهو حكاية بالمعنى كأنّه قيل: كنتم تقولون لا نترك ما نحن عليه حتّى تأتينا البيّنة، وهذا تعريض بالتوبيخ.

وإذ اتضح موقع هذه الآية وانقشع أشكالها فلننتقل إلى تفسير ألفاظها.

{ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حتّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ } الخبر موجّه لكل سامع، ومضمونه قولٌ كان صدر من أهل الكتاب وأشتهر عنهم وعُرفوا به. وتقرّر تعلّل المشركين به لأهل الكتاب حين يدعونهم إلى اتّباع اليهودية أو النصرانية فيقولوا: لم يأتنا رسول كما أتاكم.

قال تعالى { وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ } [البقرة: 89].

وحاصل المعنى: أنّكم كنتم تقولون لا نترك ما نحن عليه من الدين حتّى تأتينا البيّنة، أي: العلامة التي وُعدنا بها.

{ **مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ** } قُدِّم أهل الكتاب على المشركين هنا، مع أنّ كفر المشركين أشد من كفر أهل الكتاب لأنّ لأهل الكتاب السبق في هذا المقام فهم الذين بثّوا بين المشركين شبهة انطباق البيّنة الموصوفة بينهم، فأيَّدوا المشركين في إنكار نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم بما هو أتقن من ترّهات المشركين، إذ كان المشركون أمّيين لا يعلمون شيئا من أحوال الرسل والشرائع، فلمّا صدمتهم الدعوة المحمّدية فزعوا إلى اليهود ليتلقّوا منهم ما يردُّون به تلك الدعوة، وخاصة بعدما هاجر النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى المدينة.

فالمقصود بالإبطال ابتداءً هو دعوى أهل الكتاب، وأمّا المشركون فتبع لهم.

الانفكاك: الإقلاع، وهو مطاوع فكَّه إذا فصله وفرّقه، ويُستعار لمعنى أقلع عنه ومتعلَّقه محذوف دلّ عليه وصف المتحدَّث عنهم بصلة { الَّذِينَ كَفَرُوا }، والتقدير: منفكين عن كفرهم وتاركين له، سواء كان كفرهم إشراكا بالله مثل كفر المشركين، أو كان كفرا بالرسول صلى الله عليه وسلم.

فهذا القول صادر من اليهود الذين في المدينة والقرى التي حولها ويتلقّفه المشركون بمكة الذين لم ينقطعوا عن الاتصال بأهل الكتاب منذ ظهرت دعوة الإسلام يستفتونهم في ابتكار مَخْلَص يتسلَّلون به عن ملام من يلومهم على الإعراض عن الإسلام، وكذلك المشركون الذين حول المدينة من الأعراب مثل جهينة وغطفان، ومن أفراد المتنصِّرين بمكة أو بالمدينة.

وقد حكى الله <u>عن اليهود</u> { وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ} [البقرة: 89]. <u>وعن النصارى</u> بقوله تعالى حكاية عن عيسى { وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ } [الصف:6].

وقال عن الفريقين { وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ } [البقرة: 109]، وحكى <u>عن المشركين</u> بقوله تعالى { فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى } [القصص:48].

ولم يختلف أهل الكتابين في أنّهم أُخِذ عليهم العهد بانتظار نبيٍّ ينصر الدين الحق، وجُعلت علاماته دلائل تظهر من دعوته:

<u>كقول التوراة</u>: " أقيم لهم نبيّا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه " [سفر التثنية].

<u>وقول الإنجيل</u>: " وأنا أطلب من الأب فيعطيكم معزّيًا آخر ليمكث معكم إلى الأبد (أي: شريعته، لأنّ ذات النبيّ لا تمكث إلى الأبد) روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنّه لا يرى ولا يعرفه " [يوحنا، الإصحاح:14، الفقرة: 6]، وقوله: " وأمّا المُعزّي الروح القدس الذي سيرسله الأب باسمي فهو يعلّمكم بكل شيء ويذكِّركم بكلّ ما قلته لكم " [يوحنا، الإصحاح:14، فقره:26].

وقوله: " ويقوم أنبياء كَذَبة كثيرون، (أي: بعد عيسى) ويُضلُّون كثيرين ولكن الذي يصبر إلى المنتهى (أي: يبقى إلى انقراض الدنيا وهو مؤوَّل في بقاء دينه) فهذا يخلِّص ويُكرِّز ببشارة الملكوت هذه في

كل المسكونة شهادة لجميع الأمم ثم يأتي المنتهى (أي: نهاية الدنيا) " [متّى، الإصحاح:24]، أي: فهو خاتم الرسل كما هو بيّن.

وكان أحبارهم قد أساؤوا التأويل للبشارات الواردة في كتبهم بالرسول المقفّي، وأدخلوا علامات يعرفون بها الرسول الموعود به هي من المخترعات الموهومة، فبقي من خَلْفَهم ينتظرون تلك المخترعات فإذا لم يجدوها كذَّبوا المبعوث إليهم.

{ **الْبَيِّنَةُ** } الحجّة الواضحة والعلامة على الصدق.

ولعلّ إيثار التعبير بها هنا لأنّها أحسن ما تُترَّجم به العبارة الواقعة في كتب أهل الكتاب ممّا يحوم حول معنى الشهادة الواضحة لكلّ متبصِّر كما وقع في إنجيل متّى لفظ " شهادة لجميع الأمم "، ولعلّ التزام هذه الكلمة هنا مرتين كان لهذه الخصوصية، وقد ذُكرت مع ذكر (الصحف الأولى) في قوله تعالى { وَقَالُوا لَوْلا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى } [طه:133].

والظاهر أنّ التعريف في { الْبَيِّنَةُ } تعريف العهد الذهني، وهو أن يراد معهود بنوعه لا بشخصه، كقولهم: ادخل السوق، لا يريدون سوقا معيّنة بل ما يوجد فيه ماهية سوق، ولذلك قال علماء البلاغة: إنّ المعرف بهذه اللام هو في المعنى نكرة، فكأنه قيل: حتّى تأتيهم بيّنة.

ويجوز أن يكون التعريف للعهد، أي: البيّنة التي هي وصايا أنبيائهم، فهي معهودة عند كل فريق منهم وإن اختلفوا في تخيُّلها وابتعدوا في توهُّمها بما تمليه عليه تخيّلاتهم واختلاقاتهم.

{ **رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ** } يجوز أن يكون الكلام انتهى عند قوله تعالى { حتّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ }، فيكون الوقف هناك ويكون قوله تعالى { رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ ...} جملة مستأنفة استئنافا بيانيا، أي: هي رسول من الله.

لأنّ ما في البيّنة من الإبهام يثير سؤال سائل عن صفة هذه البينة. وهي جملة معترضة بين جملة { لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا - إلى قوله - حتّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ } [1] وبين جملة { وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ } [4].

ويجوز أن يكون { رَسُولٌ } بدلا من { الْبَيِّنَةُ }، فيقتضي أن يكون من تمامه، فيكون من حكاية ما زعموه. أريد إبطال معاذيرهم وإقامة الحجّة عليهم بأنّ البيّنة التي ينتظرونها قد حَلّت ولكنّهم لا يتدبّرون أو لا ينصفون أو لا يفقهون، قال تعالى { فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ } [البقرة:89].

{ **يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً، فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ** } صفة ثانية أو حال، وهي إدماج بالثناء على القرآن، إذ الظاهر أنّ الرسول الموعود به في كتبهم لم يوصف بأنّه يتلو صحفا مطهرة.

التلاوة: إعادة الكلام دون زيادة عليه ولا نقص منه سواء كان كلاما مكتوبا أو محفوظا عن ظهر قلب.

ففعل { يَتْلُو } مؤذن بأنّه يقرأ عليهم كلاما لا تُبدَّل ألفاظه، وهو الوحي المنزَّل عليه.

الصحف: الأوراق والقراطيس التي تُجعل لأن يُكتب فيها، وتكون من رقٍّ أو جلد، أو من خِرَق.

وهذا إشارة إلى أنّ الله أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بكتابة القرآن في الصحف وما يشبه الصحف من أكتاف الشاء والخِرق والحجارة، وأنّ الوحي المنزَّل على الرسول سُمِّي كتابا في قوله تعالى { أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ

أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ } [العنكبوت:51] لأجل هذا المعنى.
وتعدية فعل { يَتْلُو } إلى { صُحُفًا } مجاز مرسل مشهور ساوى الحقيقة، وهو باعتبار كون المتلو مكتوبا.
وإنّما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو عليهم القرآن عن ظهر قلب ولا يقرأه من صحف.
فالمعنى: يتلو ما هو مكتوب في صحف، والقرينة ظاهرة وهي اشتهار كونه صلى الله عليه وسلم أمّيّا.
{ **مُطَهَّرَةً** } وصف مشتق من الطهارة المجازية، أي: كون معانيه لا لبس فيها ولا تشتمل على ما فيه تضليل، وهذا تعريض ببعض ما في أيدي أهل الكتاب من التحريف والأوهام.
الكتب: جمع كتاب، وهو فِعال اسم بمعنى المكتوب. والمراد أجزاء القرآن، أو سور فهي بمثابة الكتب.
القيّمة: المستقيمة، أي: شديدة القيام الذي هو هنا مجاز في الكمال والصواب، وهذا من تشبيه المعقول بالمحسوس، تشبيها بالقائم لاستعداده للعمل النافع، وضدّه العوج، قال تعالى { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا } [الكهف:1]، أي: لم يجعل فيه نقص الباطل والخطأ.
فالقيِّمة مبالغة في القائم، مثل: السيّد للسائد والميّت للمائت. وتأنيث الوصف لاعتبار كونه وصفا لجمع.

{ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ } [4].
ارتقاء في الإبطال وهو إبطال ثان لدعواهم بطريق النقض الجدلي المُسمَّى بالمعارضة وهو تسليم الدليل والاستدلال لما ينافي ثبوت المدلول، وهذا إبطال خاص بأهل الكتاب اليهود والنصارى.
فبعد أن أبطل زعمهم بقوله تعالى { رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً } [2] ارتقى إلى إبطال مزاعمهم إبطالا مشوبا بالتكذيب وبشهادة ما حصل في الأزمان الماضية.
والمعنى: كيف يزعمون أنّ تمسّكهم بما هم عليه من الدين مُغَيًّا بوقت أن تأتيهم البيّنة والحال أنّهم جاءتهم بيّنة من قبل وهي بيّنة عيسى عليه السلام فتفرّقوا في الإيمان به فنشأ من تفرّقهم حدوث ملتين اليهودية والنصرانية.
فالمراد بالبينة الثانية مجيء عيسى عليه السلام، فإنّ الله أرسله كما وعدهم أنبياؤهم أمثال إلياس واليسع وأشعياء. وقد كانوا منتظرين المخلّص، فلما جاءهم عيسى كذَّبوه، أي: فلا يُطمع في صدقهم فيما زعموا من انتظار البيّنة بعد عيسى وهم قد كذبوا ببيّنة عيسى، فتبيّن أن الجحود والعناد شنشنة فيهم معروفة.
ويكون المراد بـ { وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ } تفرق بني إسرائيل بين مكذِّب لعيسى ومؤمن به، وما أمن به إلّا نفر قليل من اليهود. وجُعل التفرّق كناية عن إنكار البيّنة لأنّ تفرّقهم كان اختلافا في تصديق بيّنة عيسى عليه السلام.

{ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ } [5].

هذا إبطال ثالث لتنصِّلهم من متابعة الإسلام بعلّة أنّهم لا يتركون ما هم عليه حتّى تأتيهم البيّنة وزعمهم أنّ البيّنة لم تأتهم. وهو إبطال بطريق القول بالموجب في الجدل، أي: إذا سلَّمنا أنكم مُوصَوْن بالتمسّك بما أنتم عليه لا تنفكون عنه حتّى تأتيكم البيّنة، فليس في الإسلام ما ينافي ما جاء به كتابكم، وهو عبادة الله وحده دون إشراك، وذلك هو الحنيفية، وهي دين إبراهيم الذي أخذ عليهم العهد به، فذلك دين الإسلام وذلك ما أُمرتم به في دينكم.

أي: وما أمروا في الإسلام إلّا بمثل ما أمرهم به كتابهم، فلا معذرة لهم في الإعراض عنه.

الاخلاص: التصفية والإنقاء، أي: غير مشاركين في عبادته معه غيره.

الدين: الطاعة، قال تعالى { قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي } [الزمر:14].

حنفاء: جمع حنيف، وهو لقب للذي يؤمن بالله وحده دون شريك، قال تعالى { قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [الأنعام:161]. وهذا الوصف تأكيد لمعنى { مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } مع التذكير بأنّ ذلك هو دين إبراهيم عليه السلام الذي مُلئت التوراة بتمجيده واتباع هديه.

إقامة الصلاة: من أصول شريعة التوراة كلّ صباح ومساء.

إيتاء الزكاة: مفروض في التوراة فرضا مؤكَّدا .

{ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ } اسم الإشارة متوجِّه إلى ما بعد حرف الاستثناء، أي: إلّا بعبادة الله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، أي: وذلك المذكور هو دين أهل الحق من الأنبياء وصالحي الأمم وهو عين ما جاء به الإسلام.

والمقصود إقامة الحجّة على أهل الكتاب وعلى المشركين تبعا لهم، بأنّهم أعرضوا عمّا هم يتطلّبونه، فإنّهم جميعا مقرّون بأنّ الحنيفية هي الحق، والمشركون يزعمون أنّهم يطلبون الحنيفية ويأخذون بما أدركوه من بقاياها ويزعمون أنّ اليهودية والنصرانية تحريف لها، فلذلك كان عامة العرب غير متهوّدين ولا متنصرين ويتمسَّكون بما وجدوا آباءهم عليه، وقلّ منهم من تهوَّدوا أو تنصَّروا، وذهب نفر منهم يتطلّبون آثار الحنيفية مثل زيد بن عمرو بن نفيل، وأمية بن أبي الصلت.

{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ } [6].

الجملة استئنافية ابتدائية. بعد أن أنحى على أهل الكتاب والمشركين معا، ثمّ خصّ أهل الكتاب بالطعن في

تعلّلاتهم والإبطال لشبهاتهم التي يُتابعهم المشركون عليها، أعقبه بوعيد الفريقين جمعا بينهما كما ابتدأ الجمع بينهما في أوّل السورة، لأنّ ما سبق من الموعظة والدلالة كاف في تدليل أنفسهم للموعظة.

{ **مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ** } قُدِّم أهل الكتاب على المشركين في الوعيد استتباعا لتقديمهم عليهم في سببه، كما تقدّم في أوّل السورة، ولأنّ معظم الردّ كان موجّها إلى أحوالهم، ولأنّه لو آمن أهل الكتاب لقامت الحجّة على أهل الشرك.

{ **فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا** } إخبار بما يحصل في المستقبل بقرينة مقام الوعيد، فإنّ الوعيد كالوعد يتعلّق بالمستقبل. وإن كان شأن الجملة الاسمية غير المقيّدة بما يُعيِّن زمان وقوعها أن تفيد حصول مضمونها في الحال، كما تقول: زيد في نعمة.

{ **أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ** } كالنتيجة لكونهم في نار جهنم خالدين فيها، فلذلك فصلت عن الجملة التي قبلها. وهو إخبار بسوء عاقبتهم في الآخرة.

{ **الْبَرِيَّةِ** } قرأه نافع وحده وابن ذكوان عن أبن عامر بهمز بعد الياء{ الْبَرِيئَةِ } فعيلة من برأ الله، إذا خلق. وقرأه بقية العشرة { الْبَرِيَّةِ } بياء تحتية مشدّدة دون همز على تسهيل الهمزة بعد الكسرة ياء وإدغام الياء الأولى في الياء الثانية تخفيفا. وإثبات الهمزة لغة أهل الحجاز، والتخفيف لغة بقية العرب.

{ **أُوْلَئِكَ هُمْ** } أُقحم اسم الإشارة بين اسم { إنَّ } وخبرها للتنبيه على أنّهم أحرياء بالحكم الوارد بعد اسم الإشارة من أجل الأوصاف التي قبله. وتوسيط ضمير الفصل لإفادة اختصاصهم بكونهم شر البريّة لا يشاركهم في ذلك غيرهم من فرق أهل الكفر.

{ **شَرُّ الْبَرِيَّةِ** } أي: أنّهم أشد الناس شرًّا.

وإنّما كانوا كذلك لأنّهم ضلُّوا بعد تلبُّسهم بأسباب الهدى، فأمّا أهل الكتاب فلأن لديهم كتابا فيه هدى ونور فعدلوا عنه، وأمّا المشركون فلأنّهم كانوا على الحنيفية فأدخلوا فيها عبادة الأصنام، ثم إنّهم أصرُّوا على دينهم بعد ما شاهدوا من دلائل صدق محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به القرآن من الإعجاز والإنباء بما في كتب أهل الكتاب، وذلك ممّا لم يشاركهم فيه غيرهم، فقد اجتنوا لأنفسهم الشر من حيث كانوا أهلا لنوال الخير، فحسرتهم على أنفسهم يوم القيامة أشد من حسرة من عداهم.

فكان الفريقان شرا من الوثنيين والزنادقة في استحقاق العقاب لا فيما يُرجى منهم من الاقتراب.

ولا يرد أنّ الشياطين أشد شرًّا منهم لما علمت أن اسم البريئة أعتبر إطلاقه على البشر.

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ [7] جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ [8] }.

قوبل حال الكفرة من أهل الكتاب وحال المشركين بحال الذين منوا بعد أن أشير إليهم بقوله تعالى { وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ } [5]، استيعابا لأحوال الفرق في الدنيا والآخرة وجريًا على عادة القرآن في تعقيب نِذارة المنذرين ببشارة المطمئنين، وما ترتَّب على ذلك من الثناء عليهم.

وقُدِّم الثناء عليهم على بشارتهم، على عكس نظم الكلام المتقدّم في ضدّهم، ليكون ذكر وعدهم كالشكر لهم على إيمانهم وأعمالهم، فإنّ الله شكور.

والجملة استئناف بياني ناشئ عن تكرّر ذكر الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين، فإنّ ذلك يثير في نفوس الذين آمنوا من أهل الكتاب والمشركين تساؤلا عن حالهم لعلّ تأخّر إيمانهم إلى ما بعد نزول الآيات في التنديد عليهم يجعلهم في انحطاط درجة، فجاءت هذه الآية مبيّنة أنّ من آمن منهم هو معدود في خير البريئة.

{ **أُوْلَئِكَ هُمْ** } القول في اسم الإشارة، وضمير الفصل والقصر كالقول في نظيره المتقدّم.

{ **جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ** } مبيّنة لجملة { أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ }.

{ **عِنْدَ رَبِّهِمْ** } ظرف وقع اعتراضا بين { جَزَاؤُهُمْ }، وبين { جَنَّاتُ عَدْنٍ } للتنويه بعظم الجزاء بأنّه مدَّخر لهم عند ربّهم تكرمة لهم لما في { عِنْدَ } من الإيماء إلى الحظوة والعناية، وما في لفظ { رَبِّهِمْ } من الإيماء إلى إجزال الجزاء بما يناسب عظم المضاف إليه { عِنْدَ }.

{ **جَنَّاتُ عَدْنٍ** } الإضافة لإفادة أنّها مسكنهم، لأنّ العدن الإقامة، أي: ليس جزاؤهم تنزُّها في الجنات.

{ **تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ** } بيان لمنتهى حسنها.

{ **خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا** } بشارة بأنّها مسكنهم الخالد.

{ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ** } حال من ضمير { خَالِدِينَ }، أي: خالدين خلودا مقارنا لرضى الله عنهم، فهم في مدة خلودهم فيها محفوفون بآثار رضا الله عنهم، وذلك أعظم مراتب الكرامة، قال تعالى { وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ} [التوبة:72]. ورضا الله تعلّق إحسانه وإكرامه لعبده.

{ **وَرَضُوا عَنْهُ** } الرضى هنا كناية عن كونهم نالهم من إحسان الله ما لا مطلب لهم فوقه. وزاده حُسْنَ وَقْعٍ ما فيه من المشاكلة.

{ **ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ** } تذييل آت على ما تقدّم من الوعد للذين آمنوا والوعيد للذين كفروا بُيِّن به سبب العطاء وسبب الحرمان وهو خشية الله تعالى بمنطوق الصلة ومفهومها.

{ **ذَلِكَ** } الإشارة إلى الجزاء المذكور في قوله تعالى { **جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ** } يعني أنّ السبب الذي أنالهم

ذلك الجزاء هو خشيتهم الله.

{ **رَبَّهُ** } في ذكر الرَّب هنا دون أن يقال: ذلك لمن خشي الله، تعريض بأنّ الكفّار لم يرعوا حقّ الربوبية إذا لم يخشوا ربهم فهم عبيد سوء.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الزلزلة

سُمُّيت هذه السورة في كلام الصحابة سورة { **إِذَا زُلْزِلَتِ** }. وكذلك عنونها البخاري والترمذي.

روى الواحدي في (أسباب النزول) عن عبد الله بن عمرو: " نزلت إذا زلزلت وأبو بكر قاعد فبكى، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **ما يبكيك يا أبابكر؟** " فقال: أبكاني هذه السورة، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **لو أنّكم لا تخطئون ولا تذنبون لخلق الله أمة بعدكم يخطئون ويذنبون ويستغفرون فيغفر لهم** ".

وفي حديث أنس بن مالك مرفوعا عند الترمذي: " { إِذَا زُلْزِلَتِ } تعدل نصف القرآن ".

وسُمِّيت في كثير من المصاحف ومن كتب التفسير (**سورة الزلزال**).

وسُمِّيت في مصحف بخط كوفي قديم من مصاحف القيروان (**زلزلت**) وكذلك سمّاها في الإتقان، وكذلك تسميتها في تفسير ابن عطية.

ولكن تسميتها (**سورة الزلزلة**) تسمية بالمعنى لا بحكاية بعض كلماتها.

واختُلف فيها، فقال ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وعطاء والضحاك هي مكية، وقال قتادة ومقاتل: مدنية ونسب إلى ابن عباس أيضا. **والأصح أنّها مكية**، واقتصر عليه البغوي وابن كثير ومحمد بن الحسن النيسابوري في تفاسيرهم.

عُدَّت الرابعة والتسعين في عداد نزول السور فيما روي عن جابر بن زيد ونظمه الجعبري، وهو بناء على أنّها مدنية، جعلها بعد سورة النساء وقبل سورة الحديد.

عدد آيها تسع عند جمهور أهل العدد، وعدّها أهل الكوفة ثماني.

أغراض السورة

*/ إثبات البعث وذكر أشراطه وما يعتري الناس عند حدوثه من الفزع.

*/ حضور الناس للحشر وجزائهم على أعمالهم من خير أو شر، وهو تحريض على فعل الخير واجتناب الشر.

{ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا [1] وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا [2] وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا [3] يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا [4] بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا [5] يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ [6] }.

{ **إِذَا** } افتتاح الكلام بظرف الزمان مع إطالة الجمل المضاف إليها الظرف تشويق إلى متعلَّق الظرف، إذ المقصود ليس توقيت صدور الناس أشتاتا ليروا أعمالهم بل الإخبار عن وقوع ذلك وهو البعث، ثم الجزاء، وفي ذلك تنزيل وقوع البعث منزلة الشيء المحقَّق المفروغ منه بحيث لا يهم الناس إلّا معرفة وقته وأشراطه، فيكون التوقيت كناية عن تحقيق وقوع الموقَّت.

{ **زُلْزِلَتِ** } حُرّكت تحريكا شديدا حتّى يُخيَّل للناس أنّها خرجت من حيّزها، لأنّ فعل زلزل مأخوذ من الزلل وهو زَلَق الرِّجلين. وتقدّم الكلام على الزلزال في [الحج:1].

وبني الفعل بصيغة النائب عن الفاعل لأنّه معلوم فاعله وهو الله تعالى.

{ **زِلْزَالَهَا** } انتصب على المفعول المطلق المؤكِّد لفعله إشارة إلى هول ذلك الزلزال.

{ **وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا** } إعادة لفظ الأرض إظهار في مقام الإضمار لقصد التهويل.

الأثقال: جمع ثِقْل وهو المتاع الثقيل، ويطلق على المتاع النفيس.

وإخراج الأرض أثقالها ناشئ عن انشقاق سطحها فتقذف ما فيها من معادن ومياه وصخر.

{ **الإِنسَانُ** } تعريف الجنس المفيد للاستغراق، أي: الناس الذين هم أحياء فزعوا وقال بعضهم لبعض، أو قال كلّ أحد في نفسه.

{ **مَا لَهَا** } استفهام عن الشيء الذي أصاب الأرض، أي: ما لها زلزلت هذا الزلزال؟ أي: ماذا ستكون عاقبته؟

{ **يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ...**} جواب { إِذَا }. واليوم يطلق على النهار مع ليله، فيكون الزلزال نهارا وتتبعه حوادث في الليل مع انكدار النجوم وانتشارها، وقد يُراد باليوم مطلق الزمان.

{ **تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا** } ضمير { تُحَدِّثُ } عائد إلى { الأَرْضُ }، والتقدير: يوم إذ تُزلزَل الأرض وتُخرج أثقالها يقول الناس: ما لها تُحدِّث أخبارها.

{ **أَخْبَارَهَا** } مفعول ثان لفعل { تُحَدِّثُ } وحُذف مفعوله الأول لظهوره، أي: تُحدِّث الإنسان.

التحديث: حقيقته أن يصدر كلام بخبر عن حدث. وورد في حديث الترمذي عن أبي هريرة قال: قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية { يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا } قال: " **أتدرون ما أخبارها ؟** "، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: " **فإنّ أخبارها أن تشهد على كلّ عبد أو أمة بما عمل على ظهرها، تقول: عمل يوم كذا وكذا، فهذه أخبارها** " .

{ **بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا** } يجوز أن يتعلّق بفعل { تُحَدِّثُ }، والباء للسببية، أي: تحدث أخبارها بسبب أنّ الله أمرها بذلك. ويجوز أن يكون بدلا من { أَخْبَارَهَا }، وأُظهرت الباء في البدل لتوكيد تعدية فعل { تُحَدِّثُ}.

{ **أَوْحَى لَهَا** } أمر التكوين، أي: أوجد فيها أسباب إخراج أثقالها، فكأنّه أَسَرَّ إليها بكلام، كقوله تعالى { وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا } [النحل:68]. وعُدِّي الفعل باللام لتضمينه معنى قال، كقوله تعالى { فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا } [فصلت:11]، وإلّا فإنّ حقّ { أَوْحَى } أن يتعدّى بحرف (إلى).

{ **يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا** } بدل من جملة { يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا }. والجواب هو فعل {يَصْدُرُ النَّاسُ} وقوله تعالى { يَوْمَئِذٍ } يتعلّق به، وقُدِّم على متعلقه للاهتمام. وهذا الجواب هو المقصود من الكلام لأنّ الكلام مسوق لإثبات الحشر والتذكير به والتحذير من أهواله، فإنّه عند حصوله يعلم الناس أنّ الزلزال كان إنذارا بهذا الحشر.

{ **يَصْدُرُ النَّاسُ** } حقيقته الخروج من محل اجتماعهم، يقال: صدر عن المكان إذا تركه وخرج منه، صُدُورًا وصَدَرًا. ومنه الصَّدَر عن الماء بعد الورد. فأطلق هنا على خروج الناس إلى الحشر جماعات، أو انصرافهم من المحشر إلى مأواهم من الجنة أو النار، تشبيها بانصراف الناس عن الماء بعد الورد.

أشتات: جمع شَتّ بفتح الشين وتشديد الفوقية وهو المتفرّق، والمراد: يصدرون متفرّقين جماعات كلٌّ إلى جهة بحسب أعمالهم وما عُيِّن لهم من منازل.

{ **لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ** } إشارة إلى أنّ تفرّقهم على حسب تناسب كل جماعة في أعمالها، أي: يصدرون لأجل تلقّي جزاء الأعمال التي عملوها في الحياة الدنيا فيقال لكل جماعة: انظروا أعمالكم ، أو انظروا مآلكم. فالرؤية بصريّة، والمرئي هو منازل الجزاء، ويجوز أن تكون الرؤية مستعملة في العلم بجزاء الأعمال، فإنّ الأعمال لا تُرى ولكن يظهر لأهلها جزاؤها.

{ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ [7] وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [8] }.

تفريع على قوله تعالى { لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ } [6] تفريع الفذلكة، انتقالا للترغيب والترهيب بعد الفراغ من إثبات البعث والجزاء، والتفريع قاض بأنّ هذا يكون عقب ما يصدر الناس أشتاتا.

المثقال: ما يُعرف به ثقل الشيء، وهو ما يُقدَّر به الوزن.

الذرة: النملة الصغيرة في ابتداء حياتها.

{ **مِثْقَالَ ذَرَّةٍ** } مثل في أقل القلّة، وذلك للمؤمنين ظاهر، وبالنسبة إلى الكافرين فالمقصود ما عملوا من شر، وأمّا بالنسبة إلى أعمالهم من الخير فهي كالعدم فلا توصف بخير عند الله لأنّ عمل الخير مشروط بالإيمان، قال تعالى { وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حتّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا} [النور:39].

{ **وَمَنْ يَعْمَلْ** } أعيد دون الاكتفاء بحرف العطف لتكون كلّ جملة مستقلّة الدلالة على المراد لتختص كل واحدة بغرضها من الترغيب أو الترهيب، فأهمية ذلك تقتضي التصريح والإطناب.

عن عبد الله بن مسعود أنّه قال: هذه أحكم آية في القرآن.

وقال كعب الأحبار: لقد أُنزل على محمد آيتين أحصتا ما في التوراة والإنجيل والزبور والصحف { فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ }.

وإذ قد كان الكلام مسوقا للترغيب والترهيب معا أوثر جانب الترغيب بالتقديم في التقسيم تنويها بأهل الخير.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة العاديات

سُمِّيت في المصاحف القيروانية العتيقة والتونسية والمشرقية (**سورة العاديات**) بدون واو، وكذلك في بعض التفاسير، فهي تسمية لما ذكر فيها دون حكاية لفظه.

وسُمِّيت في بعض كتب التفسير (**سورة والعاديات**) بإثبات الواو.

واختُلف فيها، فقال ابن مسعود وجابر بن زيد وعطاء والحسن وعكرمة: هي مكية.

وقال أنس بن مالك وابن عباس وقتادة: هي مدنية.

ذكر الواحدي في (أسباب النزول) عن مقاتل وعن غيره أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث خيلا سريّة (إلى بني كنانة وأمَّر عليها المنذر بن عمرو الانصاري) فأسهبت (أي: أمعنت في سهب وهي الأرض الواسعة) شهرا وتأخَّر خبرهم فارجف المنافقون وقالوا: قُتلوا جميعا، فأخبر الله عنهم بقوله تعالى

{ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا } [1] الآيات، إعلاما بأنّ خيلهم قد فعلت جميع ما في تلك الآيات.

قال في الإتقان: رواه الحاكم وغيره. وقال أبن كثير: حديث غريب جدا.

وعندي أنّ غرابة الحديث لا تناكد قبوله وهو مروي عن ثقات، إلّا أنّ في سنده حفص بن جميع وهو ضعيف. **فالراجح أنّ السورة مدنية.**

عُدَّت الرابعة عشرة في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد، على أنّها مكية، نزلت بعد سورة العصر وقبل سورة الكوثر.

وآيها إحدى عشرة.

أغراض السورة

*/ ذمّ خصال تفضي بأصحابها إلى الخسران في الآخرة، وهي خصال غالبة على المشركين والمنافقين، ويُراد تحذير المسلمين منها.

*/ وعظ الناس بأنّ وراءهم حسابا على أعمالهم بعد الموت ليتذكّره المؤمن ويُهدّد به الجاحد. وأُكِّد ذلك كلّه بأن افتُتح بالقسم، وأُدمج في القسم التنويه بخيل الغزاة أو رواحل الحجيج.

{ **وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا [1] فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا [2] فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا [3] فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا [4] فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا [5] إِنَّ الإنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ [6] وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ [7] وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ** [8] }.

{ **الْعَادِيَاتِ** } جمع العادية، وهو اسم فاعل من العَدْوِ وهو السير السريع يطلق على سير الخيل والإبل خاصة. وقد يوصف به سير الإنسان على التشبيه بالخيل. والتأنيث هنا لأنّه من صفات ما لا يعقل.

الضَّبْح: اضطراب النَّفَس المتردّد في الحنجرة دون أن يخرج من الفم، وهو من أصوات الخيل والسباع.

روى ابن جرير بسنده إلى ابن عباس قال: بينما أنا جالس في الحِجر جاءني رجل فسألني عن { الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا } فقلت له: الخيل حين تغير في سبيل الله ثم تأوي إلى الليل فيصنعون طعامهم ويورون نارهم، فانفتل عنّي فذهب إلى علي ابن أبي طالب وهو تحت سقاية زمزم فسأله عنها، فقال: سألت عنها أحد قبلي؟ قال : نعم، سألت ابن عباس فقال: الخيل تغزو في سبيل الله، قال اذهب فادعه لي، فلما وقفت عند رأسه، قال: تفتي الناس بما لا علم لك به، والله لكانت أوّل غزوة في الإسلام لبدر وما كان معنا إلّا فرسان، فرس للزبير وفرس للمقداد، فكيف تكون العاديات ضبحا، إنّما العاديات ضبحا الإبل من عرفة إلى المزدلفة ومن المزدلفة إلى منى. قال ابن عباس: فنزعت عن قولي ورجعت إلى الذي قال عليّ. وبمثل ما قال عليّ قال ابن مسعود وإبراهيم ومجاهد وعبيد بن عمير.

قال المبرّد وبعض أهل اللغة: من جعل { الْعَادِيَاتِ } للإبل جعل { ضَبْحًا } بمعنى ضبعا، يقال: ضبحت الناقة في سيرها وضبعت، إذا مدّت ضبعيها في السير وقال أبو عبيدة: ضبحت الخيل وضبعت، إذا عدت. وهو من قلب العين حاء.

{ **ضَبْحًا** } <u>يجوز</u> أن يجعل حالا من { الْعَادِيَاتِ } إذا أريد به الصوت الذي يتردّد في جوفها حين العدو، <u>أو يُجعل</u> مُبيِّنا لنوع العدو إذا كان أصله: ضبعا.

وعلى وجه أنّ المقسَم به رواحل الحجّ فالقسَم بها لتعظيمها بما تُعين به على المناسك. واختير القسم بها لأنّ السامعين يوقنون أن ما يُقسَم عليه بها محقّق، فهي معظمة عند الجميع من المشركين والمسلمين.

الموريات: التي توري، أي: توقد.

القدح: حك جسم على آخر ليقدح نارا، يقال: قدح فأورى.

{ **قَدْحًا** } انتصب على أنّه مفعول مطلق مؤكِّد لعامله. وكلّ من سنابك الخيل ومناسم الإبل تقدح إذا صكَّت الحجر الصوان نارا تُسمَّى نار الحُباحب. وذلك كناية عن الإمعان في العدو وشدّة السرعة.

<u>ويجوز</u> أن يراد قدح النيران بالليل حين نزولهم لحاجتهم وطعامهم.

المغيرات: اسم فاعل من: أغار، والإغارة تطلق على <u>غزو الجيش</u> دارا وهو أشهر إطلاقها، فإسناد الإغارة إلى ضمير { الْعَادِيَاتِ } مجاز عقلي فإنّ المغيرين راكبوها ولكن الخيل أو إبل أسباب ووسائل. وتطلق الإغارة على <u>الاندفاع في السير</u>.

{ **صُبْحًا** } ظرف زمان، فإذا فُسِّر { الْمُغِيرَاتِ } بخيل الغزاة فتقييد ذلك بوقت الصبح لأنّهم كانوا إذا غزوا لا يغيرون على القوم إلّا بعد الفجر، ولذلك كان منذر الحي إذا أنذر قومه بمجيء العدو نادى: يا صباحاه، قال تعالى { فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ } [الصافات:177].

وإذا فُسِّر { الْمُغِيرَاتِ } بالإبل المسرعات في السير، فالمراد: دفعها من مزدلفة إلى منى صباح يوم النحر، وكانوا يدفعون بكرة عندما تشرق الشمس.

{ **فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا** } أصعدن الغبار من الأرض من شدة عَدْوِهن، و**الإثارة**: الإهاجة، و**النقع**: الغبار.

{ **فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا** } أي: كنَّ وسط الجمع، يقال: وسط القوم، إذا كان بينهم.

فأمّا بالنسبة إلى الإبل فيتعيّن أن يكون قوله تعالى { جَمْعًا } بمعنى المكان المُسمَّى { جَمْعًا } وهو المزدلفة، فيكون إشارة إلى حلول الإبل في مزدلفة.

ومن بديع النظم وإعجازه إيثار هذه الكلمات دون غيرها لأنّها برشاقتها تحتمل أن يكون المقسَم به خيل الغزو ورواحل الحج.

{ **فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا** } الفاء العاطفة عاطفة على وصف { الْمُغِيرَاتِ }، وليست عاطفة على صفة مستقلة، مثل الصفات الثلاث التي قبلها، لأنّ إثارة النقع وتوسّط الجمع من آثار الإغارة صبحا، وليس مقسَما بهما أصالة وإنّما القَسَم بالأوصاف الثلاثة الأولى.

{ **فَأَثَرْنَ / فَوَسَطْنَ** } غُيِّر الأسلوب فجيء بهما فعلين ماضيين ولم يأتيا على نسق الأوصاف قبلهما بصيغة اسم الفاعل للإشارة إلى أنّ الكلام انتقل من القسم إلى الحكاية عن حصول ما ترتَّب على تلك الأوصاف الثلاثة ما قُصد منها من الظفر بالمطلوب الذي لإجله كان العدو، وهي الحلول بدار القوم الذين غزوهم، إذا كان المراد بـ { الْعَادِيَاتِ } الخيل، أو بلوغ تمام الحج بالدفع عن عرفة إذا كان المراد بـ { الْعَادِيَاتِ } رواحل الحجيج.

ومناسبة القسم بهذه الموصوفات دون غيرها؛

إن أريد رواحل الحجيج، هو أن يُصدِّق المشركون بوقوع المقسّم عليه، لأنّ القَسَم بشعائر الحجّ لا يكون إلّا بارا، حيث هم لا يصدِّقون بأنّ القرآن كلام الله ويزعمونه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم.

وإن أريد خيل الغزاة، فالقسم بها لأجل التهويل والترويع لإشعار المشركين بأنّ غارة تترقّبهم، وهي غزوة بدر، مع تسكين نفس النبيّ صلى الله عليه وسلم من التردّد في مصير السريّة التي بعث بها مع المنذر بن عمرو، إذا صحَّ خبرها، فيكون القسم بخصوص هذه الخيل إدماجا للاطمئنان.

{ **إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ** } جواب القسم.

الكنود: وصف من أمثلة المبالغة من كَنَدَ، ولغات العرب مختلفة في معناه: فهو في لغة مضر وربيعة: الكفور بالنعمة، وبلغة كِنانة: البخيل، وفي لغة كِندة وحضرموت: العاصي.

{ **الإِنسَانَ** } تعريف الجنس وهو يفيد الاستغراق غالبا، أي: أنّ في طبع الإنسان الكُنود لربه، أي: كفران

نعمته، وهذا عارض يعرض لكلّ إنسان على تفاوت فيه ولا يسلم منه إلّا الأنبياء وكُمَّل أهل الصلاح، لأنّه عارض ينشأ عن إيثار المرء نفسه وهو أمر في الجِبلّة لا تدفعه إلّا المراقبة النفسية وتذكُّر حق غيره. وبذلك قد يذهل أو ينسى حق الله، والعزائم متفاوتة في استطاعة مغالبته. فلذلك أيقظ الله له الناس ليَريضوا أنفسهم على إماتة هذا الخُلق من نفوسهم.

فالإنسان لا يخلو من أحوال مآلها إلى كفران النعمة، بالقول والقصد، أو بالفعل والغفلة، فالإشراك كنود، والعصيان كنود، وقلّة ملاحظة صرف النعمة فيما أعطيت لأجله كُنود.

ونظير الآية قوله تعالى { إِنَّ الإنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا } [المعارج:19]، وقوله تعالى { خُلِقَ الإنسَانُ مِنْ عَجَلٍ } [الأنبياء:37]، وقوله تعالى { إِنَّ الإنسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى } [العلق:7/6].

{ **لِرَبِّهِ** } لام التقوية، والتقديم لإفادة الاهتمام بمتعلّق هذا الكنود لتشنيع هذا الفعل بأنّه للرب الذي هو أحق الموجودات بالشكر، وأعظم ذلك شرك المشركين، ولذلك أكِّد الكلام بلام الابتداء الداخلة على خبر (إنّ) للتعجيب من هذا الخبر.

{ **وَإِنَّهُ عَلَى ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ** } الضمير عائد إلى الإنسان على حسب الظاهر الذي يقتضيه اتساق الضمائر واتحاد المتحدَّث عنه، وهو قول الجمهور.

وقال ابن عباس والحسن وسفيان: الضمير عائد إلى { رَبِّهِ }، أي: وأنّ الله على ذلك لشهيد، والمقصود أنّ الله يعلم ذلك في نفس الإنسان، وهذا تعريض بالتحذير من الحساب عليه. وهذا يسوّغه أن الضمير عائد إلى أقرب مذكور، ونقل عن مجاهد وقتادة كلا الوجهين، فلعلّهما رأيا جواز المحملين.

{ **عَلَى ذَٰلِكَ** } التقديم للاهتمام والتعجّب ومراعاة الفاصلة.

الشهيد: يُطلق على الشاهد وهو الخبر بما يُصدِّق دعوى مُدَّعٍ، ويُطلق على الحاضر ومنه جاء إطلاقه على العالِم الذي لا يفوته المعلوم، ويُطلق على المُقرِّ لأنّه شهد على نفسه.

{ **لَشَهِيدٌ** } إمّا بمعنى المُقرّ، كما في (أشهد أن لا إله إلا الله). والمعنى: أنّ الإنسان مُقِرٌّ بكُنوده لربه من حيث لا يقصد الإقرار، وذلك **في فلتات الأقوال،** مثل قول المشركين في أصنامهم { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى } [الزمر:3]. وهذا قول يلزمه اعترافهم بأنّهم عبدوا ما لا يستحق أن يعبد وأشركوا في العبادة الله، قال تعالى { وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ } [الأنعام:130]،

وفي فلتات الأفعال، كما يعرض للمسلم في المعاصي.

والمقصود في هذه الجملة تفظيع كنود الإنسان بأنّه معلوم لصاحبه بأدنى تأمّل في أقواله وأفعاله.

ويجوز أن يكون بمعنى عليم، ومتعلَّق (شهيد) محذوفًا دلّ عليه المقام، أي: عليم بأنّ الله ربّه.

ويكون قوله تعالى { عَلَى ذَٰلِكَ } بمعنى: مع ذلك، أي: مع ذلك الكنود هو عليم بأنّ ربّه مستحقّ للشكر والطاعة لا للكنود. كقوله تعالى { وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ } [البقرة:177].

{ **وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ** } أي: أنّ في خُلُق الإنسان الشُّحّ لأجل حبّه المال، أي: الازدياد منه، قال تعالى

{ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [الحشر:9]. وحبّ المال يبعث على منع المعروف. وكان العرب يُعيّرون بالبخل وهم مع ذلك يبخلون في الجاهلية بمواساة الفقراء والضعفاء ويأكلون أموال اليتامى ولكنّهم يسرفون في الإنفاق في مظان السُّمعة ومجالس الشرب وفي الميسر، قال تعالى { وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ، وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا } [الفجر:18-20].

الشديد: البخيل.

{ **لِحُبِّ الْخَيْرِ** } لام التعليل، و**الخير**: المال، قال تعالى { إِنْ تَرَكَ خَيْرًا } [البقرة:180]. وتقديمه على متعلّقه للاهتمام بغرابة هذا المتعلَّق ولمراعاة الفاصلة.

{ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ [9] وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ [10] }.

فُرِّع على الإخبار بكنود الإنسان وشُحِّه استفهام إنكاري عن عدم علم الإنسان بوقت بعثرة ما في القبور وتحصيل ما في الصدور، فإنّه أمر عجيب كيف يغفل عنه الإنسان.

وهمزة الاستفهام قُدِّمت على فاء التعريف لأنّ الاستفهام صدر الكلام.

{ **إِذَا** } وانتصب على الظرفية لمفعول { يَعْلَمُ } المحذوف اقتصارا، ليذهب السامع في تقديره كل مذهب ممكن قصدا للتهويل.

{ **يَعْلَمُ** } حُذف المفعولان ولا دليل في اللفظ على تعيين تقديرهما فيوكل إلى السامع تقدير ما يقتضيه المقام من الوعيد والتهويل، ويسمى هذا الحذف عند النحاة الحذف الاقتصاري.

بُعثر: معناه قُلب من سفل إلى علو، والمراد به إحياء ما في القبور من الأموات الكاملة الأجساد أو أجزائها، وتقدَّم بيانه عند قوله تعالى { وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ } [التكوير:4].

وحُصِّل: جُمِع وأُحْصِيَ.

ما في الصدور: هو ما في النفوس من ضمائر وأخلاق، أي: جُمع عدُّه والحسابُ عليه.

{ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ } [11].

جملة مستأنفة استئنافا بيانيا ناشئا عن الإنكار، أي: كان شأنهم أن يعلموا اطلاع الله عليهم، وأن يذكروه لأنّ وراءهم الحساب المدقَّق. وتفيد هذه الجملة مفاد التذييل.

{ **يَوْمَئِذٍ** } متعلّق بقوله تعالى { لَخَبِيرٌ }، أي: عليم.

الخبير: مُكَنًّى به عن المُجازي بالعقاب والثواب، بقرينة تقييده بـ { يَوْمَئِذٍ } لأنّ علم الله بهم حاصل من وقت الحياة الدنيا، وأمّا الذي يحصل من علمه بهم يوم بعثرة القبور، فهو العلم الذي يترتب عليه الجزاء.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة القارعة

اتفقت المصاحف وكُتب التفسير وكُتب السنَّة على تسمية هذه السورة (**سورة القارعة**) ولم يُرو شيء في تسميتها من كلام الصحابة والتابعين.

واتُّفق على أنّها مكية.

وعُدَّت الثلاثين في عِداد نزول السور، نزلت بعد سورة قريش وقبل سورة القيامة.

وآيها عشرٌ في عَدِّ أهل المدينة وأهل مكة، وثمان في عَدِّ أهل الشام والبصرة، وإحدى عشرة في عَدِّ أهل الكوفة.

أغراض السورة

*/ إثبات وقوع البعث وما يسبق ذلك من الأهوال.

*/ إثبات الجزاء على الأعمال وأنّ أهل الأعمال الصالحة المعتبرة عند الله في نعيم، وأهل الأعمال السيِّئة التي لا وزن لها عند الله في قعر الجحيم.

{ الْقَارِعَةُ [1] مَا الْقَارِعَةُ [2] وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ [3] }.

{ **الْقَارِعَةُ** } الافتتاح بهذا اللفظ افتتاح مهول، وفيه تشويق إلى معرفة ما سيُخبَر به.

وهو مرفوع إمّا على الابتداء و{ مَا الْقَارِعَةُ } خبره ويكون هنالك منتهى الآية.

فالمعنى: القارعة شيء عظيم هي. وهذا يجري على أنّ الآية الأولى تنتهي بقوله تعالى { مَا الْقَارِعَةُ }.

وإمّا أن يكون مستقلًّا بنفسه، وعُدَّ آية عند أهل الكوفة، فيُقدَّر خبرٌ عنه محذوف نحو: القارعة قريبة، أو يُقدَّر فعلٌ محذوف نحو: أتت القارعة، ويكون قوله تعالى { مَا الْقَارِعَةُ } استئنافا للتهويل، وجُعل آية ثانية عند أهل الكوفة.

القارعة: وصف من القرع وهو ضرب الجسم بآخر بشدّة لها صوت. وأطلق القرع مجازا على الصوت الذي يتأثّر به السامع تأثر خوف أو اتعاظ، يقال: قرع فلانا، أي: زجره وعنَّفه بصوت غضب.

وأطلقت { الْقَارِعَةُ } على الحدث العظيم وإن لم يكن من الأصوات، كقوله تعالى { وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ } [الرعد:31]. وقيل: تقول العرب: قَرَعت القومَ قارعة، إذا نزل بهم أمر فظيع، ولم أقف عليه فيما رأيت من كلام العرب قبل القرآن.

وتأنيثها لتأويلها بالحادثة أو الكائنة.

{ **الْقَارِعَةُ** } هنا مراد بها حادثة عظيمة. وجمهور المفسّرين على أنّ هذه الحادثة هي الحشر فجعلوا القارعة من أسماء يوم الحشر مثل القيامة، وقيل: أريد بها صيحة النفخة في الصور.

وعن الضحّاك: القارعة النار ذات الزفير، كأنّه يريد أنّها اسم جهنم.

{ **مَا الْقَارِعَةُ** } إعادة اللفظ إظهار في مقام الإضمار، عُدل عن أن يقال: القارعة ما هيه، لما في لفظ القارعة من التهويل والترويع. و{ مَا } استفهامية، والاستفهام مستعمل في التهويل على طريقة المجاز المرسل المركّب، لأنّ هول الشيء يستلزم تساؤل الناس عنه.

{ **وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ** } عطف على جملة { مَا الْقَارِعَةُ }، زيادة تهويل أمر القارعة و{ مَا } استفهامية صادقة على شخص، والتقدير: وأيّ شخص أدراك، وهو مستعمل في تعظيم حقيقتها وهولها لأنّ هول الأمر يستلزم البحث عن تعرّفه.

أدراك: هنا بمعنى أعلمك. والخطاب لغير معيَّن، أي: وما أدراك أيّها السامع.

{ **مَا الْقَارِعَةُ** } استفهام آخر مستعمل في حقيقته، أي: ما أدراك جواب هذا الاستفهام.

وتقدّم نظير هذا عند قوله تعالى { الْحَاقَّةُ، مَا الْحَاقَّةُ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ } [الحاقة:1-3]، وتقدّم بعضه عند قوله تعالى { وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ } [الانفطار:17].

{ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ [4] وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ [5] }.

{ **يَوْمَ** } مفعول فيه منصوب بفعل مضمر دل عليه وصف القارعة لأنه في تقدير: تقرع، أو دلّ عليه الكلام كلّه فيُقدَّر: تكون، أو تحصل، يوم يكون الناس كالفراش.

{ **يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ** } الجملة مع متعلّقها المحذوف بيان للإبهامين الذين في قوله تعالى { مَا الْقَارِعَةُ } [2]، وقوله تعالى { وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ } [3]. وليست الجملة خبرا عن { الْقَارِعَةُ } إذ ليس سياق الكلام لتعيين يوم وقوع القارعة. فالمقصود بهذا التوقيت زيادة التهويل بما أضيف إليه { يَوْمَ } من الجملتين المفيدتين أحوالا هائلة.

فحصل في هذه الآية تهويل شديد بثمانية طرق:

*/ الابتداء باسم القارعة، المؤذن بأمر عظيم.

*/ الاستفهام المستعمل في التهويل.

*/ الإظهار في مقام الإضمار أوّل مرة.

*/ الاستفهام عمّا يُنبئ بكنه القارعة.

*/ توجيه الخطاب إلى غير معيّن.

*/ الإظهار في مقال الإضمار ثاني مرة.

*/ التوقيت بزمان مجهول حصوله.

*/ تعريف ذلك الوقت بأحوال مهولة.

الفراش: فرخ الجراد حين يخرج من بيضه من الأرض يركب بعضه بعضا، وهو ما في قوله تعالى { **يَخْرُجُونَ مِنْ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ** } [القمر:7]. وقد يطلق الفراش على ما يطير من الحشرات، وهو إطلاق آخر لا يناسب سياق الآية.

المبثوث: المتفرّق على وجه الأرض. ووجه الشبه كثرة الاكتظاظ على أرض المحشر.

{ **وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ** } معترضة بين جملة { يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ } وجملة { فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ...} [6]. وهو إدماج لزيادة التهويل.

العهن: الصوف، وقيل: يختص بالمصبوغ الأحمر، أو ذي الألوان، لأنّ الجبال مختلفة الألوان بحجارتها ونبتها، قال تعالى { وَمِنْ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا } [فاطر:27].

المنفوش: المفرّق بعض أجزائه عن بعض ليُغزل أو تُحشى به الحشايا، ووجه الشبه تفرّق الأجزاء، لأنّ الجبال تندك بالزلازل ونحوها فتتفرّق أجزاء. وتقدّم قوله تعالى { وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ } [المعارج:9].

{ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ [6] فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ [7] وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ [8] فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ [9] وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ [10] نَارٌ حَامِيَةٌ [11] }.

تفصيل لما في قوله تعالى { يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ } [4] من إجمال حال الناس حينئذ، فذلك هو المقصود بذكر اسم الناس الشامل لأهل السعادة وأهل الشقاء، فلذلك كان تفصيله بحالين: حال حسن وحال فضيع.

{ **ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ** } كناية عن كونه بمحل الرضا من الله تعالى لكثرة حسناته، لأنّ ثقل الميزان يستلزم ثقل الموزون، وإنّما توزن الأشياء المرغوب في اقتنائها، وقد شاع عند العرب الكناية عن الفضل والشرف وأصالة الرأي بالوزن ونحوه، وبضد ذلك يقولون: فلان لا يقام له وزن، قال تعالى { فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا } [الكهف:105]، وهذا متبادر في العربية، فلذلك لم يُصرَّح في الآية بذكر ما يُثقل الموازين لظهور أنّه العمل الصالح.

العيشة: اسم مصدر العيش، كالخيفة اسم للخوف. أي: في حياة.

{ **رَاضِيَةٍ** } مجاز عقلي لأنّ الراضي صاحبها، فوصفت به العيشة لأنّها سبب الرضى أو زمان الرضى.

{ **فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ** } إخبار عنه بالشقاء وسوء الحال، فالأم هنا يجوز أن تكون مستعملة في حقيقتها. والكلام تمثيل لحال من خفَّت موازينه يومئذ بحال الهالك في الدنيا لأنّ العرب يُكنّون عن حال المرء بحال أمّه في الخير والشر لشدة محبتها ابنها فهي أشدّ سرورا بسروره وأشدّ حزنا بما يحزنه.

وهذا كقولهم في الدعاء: ثكلته أمّه.

ويجوز أن يكون { فَأُمُّهُ } مستعارا لمقرّه ومآله، لأنّه يأوي إليه كما يأوي الطفل إلى أمّه.

{ **هَاوِيَةٌ** } المكان المنخفض بين الجبلين الذي إذا سقط فيه إنسان أو دابة هلك، يقال: سقط في الهاوية.

وأريد بها جهنم، وقيل: هي اسم لجهنم، أي: فمأواه جهنم.

{ **وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ** } تهويل كما تقدّم آنفا.

{ **هِيَهْ** } الضمير عائد إلى { هَاوِيَةٌ } والهاء التي لحقت ياء (هي) هاء السكت، هي هاء تُجلب لأجل تخفيف اللفظ عند الوقف عليه. وقد تقدّم ذلك عند قوله تعالى { فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَأوا كِتَابِيَهْ } [الحاقة:19] وجمهور القرّاء أثبتوا النطق بهذه الهاء في حالتي الوقف والوصل.

{ **نَارٌ حَامِيَةٌ** } بيان لجملة { وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ }. ووصف { نَارٌ } بـ { حَامِيَةٌ } من قبيل التوكيد اللفظي لأنّ النار لا تخلو عن الحَمْي فوصفها به وصف بما هو معنى لفظ { نَارٌ }، فكان كذكر المرادف، كقوله تعالى

{ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ } [الهمزة:6].

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة التكاثر

سُمِّيت في معظم المصاحف ومعظم التفاسير (**سورة التكاثر**)، وكذلك عنونها الترمذي في جامعه، وهي كذلك معنونة في بعض المصاحف العتيقة بالقيروان. وسُمِّيت في بعض المصاحف (**سورة ألهاكم**) وكذلك ترجمها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه.

وهي مكية عند الجمهور، قال ابن عطية: هي مكية لا أعلم فيها خلافا.

وعن ابن عباس والكلبي ومقاتل: أنّها نزلت في مفاخرة جرت بين بني عبد مناف وبني سهم في الإسلام وكانوا من بطون قريش بمكة.

وفي الإتقان: المختار: أنّها مدنية. قال: ويدل له ما أخرجه ابن أبي حاتم أنّها نزلت في قبيلتين من الأنصار تفاخروا.

والذي يظهر من معاني السورة وغلظة وعيدها أنّها مكية وأنّ المخاطب بها فريق من المشركين لأن ما ذكر فيها لا يليق بالمسلمين أيّامئذ.

وقد **عُدَّت السادسة عشرة** في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة الكوثر وقبل سورة الماعون.

وعدد آيتها ثمان.

أغراض السورة

*/ التوبيخ على اللهو عن النظر في دلائل القرآن ودعوة الإسلام بإيثار المال والتكاثر به والتفاخر بالأسلاف، وعدم الإقلاع عن ذلك إلى أن يصيروا في القبور كما صار من كان قبلهم.

*/ الوعيد على ذلك.

*/ حثّهم على التدبّر فيما ينجيهم من الجحيم.

*/ أنّهم مبعوثون ومسؤولون عن إهمال شكر المنعم العظيم.

{ **أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ** [1] **حتّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ** [2] **كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ** [3] **ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ** [4]}

{ **أَلْهَاكُمُ** } أي: شغلكم عمّا يجب عليكم الاشتغال به، لأنّ اللهو شُغل يصرف عن تحصيل أمر مهم.

{ **التَّكَاثُرُ** } تفاعل في الكثْر، أي: التباري في الإكثار من شيء مرغوب في كثرته، فمنه تكاثر في الأموال، ومنه تكاثر في العدد من الأولاد والأحلاف للاعتزاز بهم، وقد فُسِّرت الآية بهما، قال تعالى { وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ } [سبأ:35].

روى مسلم عن عبد الله بن الشِّخِّير قال: انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول: { أَلْهَاكُمُ

التَّكَاثُرُ } قال: " **يقول ابن آدم مالي مالي، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلّا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدَّقت فأمضيت** ". فهذا جار مجرى التفسير لمعنى من معاني التكاثر اقتضاه حال الموعظة ساعتئذ وتُحتِّمه الآية.

والخطاب للمشركين بقرينة غلظة الوعيد بقوله تعالى { كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ، ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ }، وقوله تعالى { لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ } [6] إلى آخر السورة، ولأنّ هذا ليس من خلق المسلمين يومئذ.

والمراد سادتهم وأهل الثراء منهم لقوله تعالى { ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ } [8]، ولأنّ سادة المشركين هم الذين آثروا ما هم فيه من النعمة على التهمُّم بتلقي دعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم فتصدُّوا لتكذيبه وإغراء الدهماء بعدم الإصغاء له.

{ **حتّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ** } غاية، فيحتمل أن يكون غاية لفعل { أَلْهَاكُمُ }، كما في قوله تعالى { قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حتّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى } [طه:91]. أي: دام إلهاء التكاثر إلى أن زرتم المقابر، أي: استمر بكم طول حياتكم. والتعبير بالفعل الماضي في { زُرْتُمُ } لتنزيل المستقبل منزلة الماضي لأنّه مُحقَّق وقوعه، مثل قوله تعالى { أَتَى أَمْرُ اللَّهِ } [النحل:1].

ويحتمل أن تكون الغاية للمتكاثَر به الدال عليه التكاثر، أي: بكلّ شيء حتّى بالقبور تعدُّونها. وهذا يجري على ما روى مقاتل والكلبي أنّ بني عبد مناف وبني سهم تفاخروا بكثرة السادة منهم، كما تقدّم في سبب نزولها، فتكون الزيارة مستعملة في معناها الحقيقي، أي: زرتم المقابر لتعدُّوا القبور.

المقابر: جمع مقبرة، الأرض التي فيها قبور كثيرة.

{ **كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ** } التوبيخ الذي استُعمل فيه الخبر أُتبع بالوعيد على ذلك بعد الموت.

{ **كَلَّا** } حرف زجر وإبطال، زجر وإبطال لإنهاء التكاثر.

{ **سَوْفَ** } لتحقيق حصول العلم.

{ **تَعْلَمُونَ** } حذف المفعول لظهور أنّ المراد: تعلمون سوء مغبَّة لهوكم بالتكاثر عن قبول دعوة الإسلام.

{ **ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ** } تأكيد الزجر والوعيد، فهذا زجر ووعيد مماثل للأوّل لكن عطفه بحرف { ثُمَّ } اقتضى كونه أقوى من الأوّل، لأنّه أفاد تحقيق الأوّل وتهويله.

{ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ } [5].

أعيد الزجر ثالثَ مرة زيادة في إبطال ما هم عليه من اللهو عن التدبّر في أقوال القرآن لعلّهم يقلعون.

{ **تَعْلَمُونَ** } حُذف المفعول للوجه الذي تقدّم في { كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ }. وجواب { لَوْ } محذوف.

والجملة تهويل وإزعاج لأنّ حذف جواب { لَوْ } يجعل النفوس تذهب في تقديره كلّ مذهب ممكن.

والمعنى: لو تعلمون علم اليقين لتبيّن لكم حال مفظع عظيم، وهذا بيان لما في { كَلَّا } من الزجر.

والمضارع في قوله تعالى { لَوْ تَعْلَمُونَ } مراد به زمن الحال، أي: لو علمتم الآن علم اليقين لعلمتم أمرا

عظيما.

{ عِلْمَ الْيَقِينِ } إضافة بيانية فإنّ اليقين علم، أي: لو علمتم علما مطابقا للواقع لبان لكم شنيع ما أنتم فيه، ولكن علمهم بأحوالهم جهل مركَّب من أوهام وتخيُّلات، وفي هذا نداء عليهم بالتقصير في اكتساب العلم الصحيح. وهذا خطاب للمشركين الذين لا يؤمنون بالجزاء وليس خطابا للمسلمين.

{ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ [6] ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ [7] }.

{ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ } استئناف بياني لأنّ ما سبقه من الزجر والردع المكرّر ومن الوعيد المؤكَّد على إجماله يثير في نفس السامع سؤالا عمّا يُترقَّب من هذا الزجر والوعيد.

وليست الجملة جواب (لو) على معنى: لو تعلمون علم اليقين لكنتم كمن ترون الجحيم، أي: لترونَّها بقلوبكم، لأنّ نظم الكلام صيغة قَسَم بدليل قرنه بنون التوكيد.

والإخبار عن رؤيتهم الجحيم كناية عن الوقوع فيها.

{ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ } تأكيد لتحقيق الوعيد بمعناه الكنائي. وقد عُطف هذا التأكيد بـ { ثُمَّ } التي هي للتراخي الرتبي على نحو ما قرَّرناه آنفا في قوله تعالى { ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ } [4].

{ عَيْنَ الْيَقِينِ } اليقين الذي لا يشوبه تردّد. فلفظ عين مجاز عن حقيقة الشيء الخالصة غير الناقصة ولا المشابهة.

{ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ } [8].

أُعقب التوبيخ والوعيد على لهوهم بالتكاثر، بتهديد وتخويف من مؤاخذتهم على ما في التكاثر من نعيم تمتّعوا به في الدنيا ولم يشكروا الله عليه.

{ النَّعِيمِ } اسم لِما يلذ لإنسان ممّا ليس ملازما له، فالصحة وسلامة الحواس وسلامة الإدراك والنوم واليقظة ليست من النعيم، وشرب الماء وأكل الطعام والتلذّذ بالمسموعات وبرؤية المحاسن، من النعيم.

والنعيم أخصُّ من النِعمة (بكسر النون) ومرادف للنَعمة (بفتح النون). وتقدّم عند قوله تعالى { لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ } [براءة:21].

والخطاب موجه إلى المشركين على نسق الخطابات السابقة.

وهذا السؤال عن النعيم الموجَّه إلى المشركين هو غير السؤال الذي يُسأله كل مُنْعَم عليه فيما صرف فيه النعمة، فإنّ النعمة لمّا لم تكن خاصة بالمشركين، خلافا للتكاثر، كان السؤال عنها حقيقا بكل منعم عليه وإن اختلفت أحوال الجزاء المترتِّب على هذا السؤال.

ويؤيِّده ما ورد في حديث مسلم عن أبي هريرة قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فإذا هو بأبي بكر وعمر فقاما معه فأتى رجلا من الأنصار (أبو الهيثم بن التيهان واسمه مالك) فإذا هو ليس

في بيته. إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه ثم قال: الحمد لله ما أحد اليوم أكرم إضيافا منّي فانطلق فجاءهم بعذق فيه بُسر وتمر ورُطَب، وأخذ المدية فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" والذي نفسي بيده لتُسألنّ عن نعيم هذا اليوم يوم القيامة ..."**. أي: لتسألنّ عن شكر تلك النعمة، أراد تذكيرهم بالشكر في كل نعمة.

فهذا سؤال عن النعيم ثبت بالسنة وهو غير الذي جاء في هذه الآية.

وسؤال المؤمنين سؤال لترتيب الثواب على الشكر أو لأجل المؤاخذة بالنعيم الحرام.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة العصر

ذكر ابن كثير أنّ الطبراني روى بسنده عن عبيد الله بن حصين قال: " كان الرجلان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا التقيا لم يفترقا إلّا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر ".

وكذلك تسميتها في مصاحف كثيرة وفي معظم كتب التفسير، وكذلك هي في مصحف عتيق بالخط الكوفي من المصاحف القيروانية في القرن الخامس.

وسُمِّيت في بعض كتب التفسير وفي صحيح البخاري (**سورة والعصر**) بإثبات الواو على حكاية أوّل كلمة فيها.

وهي مكية في قول الجمهور. وعن قتادة ومجاهد ومقاتل أنّها مدنية. وروي عن ابن عباس.

ولم يذكرها صاحب (الإتقان) في عِداد السور المُختلف فيها.

وقد **عُدَّت الثالثة عشرة** في عداد نزول السور نزلت بعد سورة الشرح وقبل سورة العاديات.

وآيها ثلاث آيات. وهي إحدى سور ثلاث هنّ أقصر السور عدد آيات: هي والكوثر والنصر.

أغراض السورة

*/ إثبات الخسران الشديد لأهل الشرك ومن كان مثلهم من أهل الكفر بالإسلام بعد أن بلغت دعوته، وكذلك من تقلَّد أعمال الباطل التي حذَّر الإسلام المسلمين منها.

*/ إثبات نجاة وفوز الذين آمنوا وعملوا الصالحات والداعين منهم إلى الحق.

*/ فضيلة الصبر على تزكية النفس ودعوة الحق.

عن الشافعي: لو تدبّر الناس هذه السورة لوسعتهم. وفي رواية عنه: لو لم ينزل إلى الناس إلّا هي لكفتهم. وقال غيره: إنّها شملت جميع علوم القرآن.

{ وَالْعَصْرِ [1] إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ [2] إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ [3] }.

أقسم الله تعالى بالعصر قسما يُراد به تأكيد الخبر كما هو شأن أقسام القرآن.

{ **الْعَصْرِ** } القسم به باعتبار أنّه زمن يُذكِّر بعظيم قدرة الله تعالى في خلق العالم وأحواله، وبأمور عظيمة مباركة مثل الصلاة المخصوصة أو عصر معيَّن مبارك.

*/ وأشهر إطلاق لفظ العصر أنّه عَلَمٌ بالغَلَبة لوقتٍ ما بين آخر وقت الظهر وبين اصفرار الشمس، فمبدؤه إذا صار ظل الجسم مثله بعد القدر الذي كان عليه عند زوال الشمس ويمتد إلى أن يصير ظل

الجسم مِثْلَيْ قدره بعد الظل الذي كان له عند زوال الشمس. وذلك وقت اصفرار الشمس.

والعصر مبدأ العشيّ. ويعقبه الأصيل والاحمرار وهو ما قبل غروب الشمس.

فذلك وقت يؤذن بقرب انتهاء النهار، ويُذكِّر بخلقة الشمس والأرض، ونظام حركة الأرض حول الشمس، وهو من هذا الوجه كالقَسَم بالضحى وبالليل والنهار وبالفجر.

وفي ذلك الوقت يتهيأ الناس للانقطاع عن أعمالهم، فيُذكِّر بحكمة نظام المجتمع الإنساني وما ألهم الله في غريزته من دأب عن عمل ونظام لابتدائه وانقطاعه.

وفيه يتحفَّز الناس للإقبال على بيوتهم لمبيتهم والتأنّس بأهليهم وأولادهم. وهو من النعمة أو من النعيم، وفيه إيماء إلى التذكير بمَثَل الحياة حين تدنو آجال الناس بعد مضي أطوار الشباب والاكتهال والهرم.

وتعريفه باللام على هذه الوجوه تعريف العهد الذهني، أي: كل عصر.

*/ ويُطلق العصر على الصلاة الموقَّتة بوقت العصر. وهي صلاة معظَّمة. قيل: هي المراد بالوسطى في قوله تعالى { حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى } [البقرة:238].

وجاء في الحديث: **" من فاتته صلاة العصر فكأنّما وُتِرَ أهله وماله "**.

*/ ويُطلق العصر على مدّة معلومة لوجود جيل من الناس، أو ملك أو نبيّ، أو دين، ويُعيَّن بالإضافة، فيقال: عصر إبراهيم، وعصر الإسكندر، وعصر الجاهلية. فيجوز أن يكون مراد هنا هذا الإطلاق ويكون المعني به عصرَ النبيّ صلى الله عليه وسلم. قال الفخر: " فهو تعالى أقسم بزمانه في هذه الآية، وبمكانه في قوله تعالى { وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ } [البلد:2]، وبعمره في قوله تعالى { لَعَمْرُكَ } [الحجر:72] ".

ويجوز أن يراد عصر الإسلام كلّه، وهو خاتمة عصور الأديان لهذا العالم، وقد مثَّل النبيّ صلى الله عليه وسلم عصر الأمة الإسلامية بالنسبة إلى عصر اليهود وعصر النصارى بما بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس بقوله: **" مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر أجراء يعملون له إلى الليل فعملت اليهود إلى نصف النهار ثم قالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك وما عملنا باطل، واستأجر آخرين بعدهم فقال: أكملوا بقية يومكم ولكم الذي شرطت لهم فعملوا حتّى إذا كان حين صلاة العصر قالوا: لك ما عملنا باطل ولك الأجر الذي جعلت لنا، واستأجر قوما أن يعملوا بقية يومهم فعملوا حتّى غابت الشمس واستكملوا أجر الفريقين كليهما، فأنتم هم "**.

فلعلّ ذلك التمثيل النبوي له اتصال بالرمز إلى عصر الإسلام في هذه الآية.

ويجوز أن يُفسَّر العصر في هذه الآية بالزمان كلّه، قال ابن عطية: قال أُبَي بن كعب: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن العصر فقال: **" أقسم ربكم بآخر النهار "** .

وهذه المعاني لا يفي باحتمالها غير لفظ العصر.

ومناسبة القسم بالعصر لغرض السورة على إرادة عصر الإسلام ظاهرة، فإنّها بيّنت حال الناس في

عصر الإسلام بين من كفر به ومن آمن واستوفى حظه من الأعمال التي جاء بها الإسلام، ويُعرف منه حالُ من أسلموا وكان في أعمالهم تقصير متفاوت.

{ **الْإِنْسَانَ** } تعريف الجنس مراد به الاستغراق، وهو استغراق عرفي لأنّه يستغرق أفراد النوع الإنساني الموجودين في زمن نزول الآية وهو زمن ظهور الإسلام. ومخصوص بالناس الذين بلغتهم الدعوة في بلاد العالم على تفاوتها. ولمَّا استُثني منه الذين آمنوا وعملوا الصالحات بقي حكمه متحقِّقا في غير المؤمنين.

الخُسر: مصدر وهو ضد الربح في التجارة، استُعير هنا لسوء العاقبة لمن يظنُّ لنفسه عاقبةً حسنة، وتلك هي العاقبة الدائمة، وهي عاقبة الإنسان في آخرته من نعيم أو عذاب.

وقد تقدّم في قوله تعالى { فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ } [البقرة: 16]، وتكرّرت نظائره في القرآن آنفا وبعيدا.

{ **لَفِي خُسْرٍ** } ظرفية مجازية شُبِّهت ملازمة الخسر بإحاطة الظرف بالمظروف، فكانت أبلغ من أن يقال: إنّ الإنسان لخاسر.

ومجيء هذا الخبر على العموم مع تأكيده بالقسم وحرف التوكيد في جوابه، يفيد التهويل والإنذار بالحالة المحيطة بمعظم الناس.

{ **إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** } الاستثناء يُقرِّر الحكم تامًّا في نفس السامع، ويُبيِّن أنّ الناس فريقان: فريق يلحقه الخسران، وفريق لا يلحقه شيء منه، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لا يلحقهم الخسران.

ومن أكبر الأعمال الصالحات التوبة من الذنوب لمقترفيها، فمن تحقَّق فيه وصف الإيمان ولم يعمل السيِّئات أو عملها وتاب منها فقد تحقَّق له ضد الخسران وهو الربح المجازي، أي: حسن عاقبة أمره، وأمّا من لم يعمل الصالحات ولم يتب من سيِّئاته فقد تحقَّق فيه حكم المستثنى منه وهو الخسران.

وهذا الخسر متفاوت، فأعظمه وخالده الخسر المنجرّ عن انتفاء الإيمان بوحدانية الله وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم، ودون ذلك تكون مراتب الخسر متفاوتة بحسب كثرة الأعمال السيِّئة ظاهرها وباطنها، وما حدَّده الإسلام لذلك من مراتب الأعمال وغفران بعض اللَّمم إذا ترك صاحبه الكبائر والفواحش، وهو ما يفُسِّره قوله تعالى { إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ } [هود:114].

{ **الصَّالِحَاتِ** } تعريف الجنس مراد به الاستغراق، أي: عملوا جميع الأعمال الصالحة التي أمروا بعملها بأمر الدين. وعمل الصالحات يشمل ترك السيئات.

{ **وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** } عطف على عمل الصالحات، وإن كان ذلك من عمل الصالحات، عطف الخاص على العام للاهتمام به، لأنّه قد يُغفل عنه، يُظنّ أنّ العمل الصالح هو ما أثرُه عمل المرء في خاصته، فوقع التنبيه على أنّ من العمل المأمور به إرشادَ المسلم غيره ودعوته إلى الحق.

فالتواصي بالحق يشمل تعليم حقائق الهدي وعقائد الصواب وإراضة النفس على فهمها بفعل المعروف

وترك المنكر.

والتواصي بالصبر عطف على التواصي بالحق، عطف الخاص على العام أيضا وإن كان خصوصه خصوصا من وجه لأنّ الصبر تحمّل مشقة إقامة الحق وما يعترض المسلم من أذى بسبب ذلك.

وقد اشتمل قوله تعالى { وَتَوَاصَوْا بِالْحَقّ، وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ } على إقامة المصالح الدينية كلها، فالعقائد الإسلامية والأخلاق الدينية مندرجة في الحق، والأعمال الصالحة وتجنب السيئات مندرجة في الصبر. والتخلّق بالصبر ملاك فضائل الأخلاق كلّها، فإنّ الارتياض بالأخلاق الحميدة لا يخلو من حمل المرء نفسه على مخالفة شهوات كثيرة، ففي مخالفتها تعب يقتضي الصبر عليه حتّى تصير مكارم الأخلاق ملكة لمن راض نفسه عليها، كما قال عمرو بن العاص:

إذا المرءُ لم يترك طعاما يحبُّه ... ولم ينْهَ قلبًا غاويًا حيث يمَّما

فيوشك أن تُلفى له الدهرَ سُبَّةً ... إذا ذُكِرَتْ أمثالها تملأ الفما

وأفادت صيغة التواصي بالحق وبالصبر أن يكون شأن حياة المؤمنين قائما على شيوع التآمر بهما ديدنا لهم. وذلك يقتضي اتصاف المؤمنين بإقامة الحق وصبرهم على المكاره في مصالح الإسلام وأمّته لما يقتضيه عرف الناس من أنّ أحدا لا يوصي غيره بملازمة أمر إلّا وهو يرى ذلك الأمر خليقا بالملازمة، إذ قلَّ أن يُقدم أحد على أمر بحق هو لا يفعله أو أمر بصبر وهو ذو جزع، وقد قال تعالى توبيخا لبني إسرائيل

{ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ } [البقرة:44]، وقد تقدّم هذا المعنى عند قوله تعالى { وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ } في [سورة الفجر:18].

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الهمزة

سُمِّيت هذه السورة في المصاحف ومعظم التفاسير (**سورة الهمزة**) بلام التعريف. وعنونها في صحيح البخاري وبعض التفاسير (**سورة ويل لكل همزة**). وذكر الفيروز آبادي في (بصائر ذوي التمييز) أنَّها تُسمَّى (**سورة الحُطَمة**) لوقوع هذه الكلمة فيها.

وهي مكية بالاتفاق.

وعُدَّت الثانية والثلاثين في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة القيامة وقبل سورة المرسلات.

وآيها تسع بالاتفاق.

روي أنّها نزلت في جماعة من المشركين كانوا أقاموا أنفسهم للمز المسلمين وسبِّهم واختلاق الأحدوثات السيِّئة عنهم. وسُمِّي منهم: الوليد بن المغيرة المخزومي، وأمية بن خلف، وأبَي بن خلف وجميل بن معمر بن بني جُمَح (وهذا أسلم يوم الفتح وشهد حنينا) والعاص بن وائل من بني سهم. وكلّهم من سادة قريش. وسُمِّي الأسود بن عبد يغوث، والأخنسُ بن شَريق الثقفيان من سادة ثقيف من أهل الطائف.

وكل هؤلاء من أهل الثراء في الجاهلية والازدهاء بثرائهم وسؤددهم.

وجاءت آية السورة عامة فعمَّ حكمها المُسَمَّيْنَ ومن كان على شاكلتهم من المشركين ولم تذكر أسماءهم.

أغراض السورة

*/ وعيد جماعة من المشركين جعلوا همز المسلمين ولمزهم ضربا من ضروب أذاهم طمعا في أن يلجئهم الملل من أصناف الأذى إلى الانصراف عن الإسلام والرجوع إلى الشرك.

{ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ [1] الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ [2] يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ [3] كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ [4] وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ [5] نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ [6] الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ [7] }.

{ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ، الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ، يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ، كَلَّا }

{ **وَيْلٌ** } كلمة (ويل له) دعاء على المجرور اسمه باللام بأن يناله الويل، وهو سوء الحال كما تقدّم غير مرة منها قوله تعالى { فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ } في [البقرة:79].

والدعاء هنا مستعمل في الوعيد بالعقاب.

{ **لِكُلِّ** } تُشعر بأنّ المهدَّدين بهذا الوعيد جماعة، وهم الذين اتخذوا همز المسلمين ولمزهم ديدنا لهم.

هُمَزة: وصف مشتق من الهمز. وهو أن يعيب أحدٌ أحدًا بالإشارة بالعين أو بالشدق أو بالرأس بحضرته أو عند تولّيه، ويقال: هامز وهمَّاز، وصيغة فُعَلة يدل على كثرة صدور الفعل المصاغ منه.

وصف لمحذوف تقديره: ويل لكل شخص همزة.

لُمَزة: وصف مشتق من اللمز وهو المواجهة بالعيب، وصيغته دالة على كثرة صدور الفعل المصاغ منه حتّى أصبح الوصف مَلَكة لصاحبه.

وهذان الوصفان من معاملة أهل الشرك للمؤمنين يومئذ، ومن عامل من المسلمين أحدا من أهل دينه بمثل ذلك كان له نصيب من هذا الوعيد. فإنّها خصلة من خصال أهل الشرك.

{ **الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ** } نعت آخر لزيادة تشنيع صفتيه الذميمتين بصفة الحرص على المال. وإنّما ينشأ ذلك من بخل النفس والتخوّف من الفقر. ولم يعطف بالواو لأن ذكر الأوصاف المتعدِّدة للموصوف الواحد يجوز أن يكون بدون عطف.

المال: مكاسب الإنسان التي تنفعه وتكفي مؤونة حاجته من طعام ولباس، كالأنعام والأشجار ذات الثمار المثمرة. وقد غلب لفظ المال في كلّ قوم من العرب على ما هو كثير من مشمولاتهم، فغلب اسم المال بين أهل الخيام على الإبل. وهو عند أهل القرى الذين يتخذون الحوائط يغلب على النخل يقولون خرج فلان إلى ماله، أي: إلى جناته. وغلب عند أهل مكة على الدراهم لأنّ أهل مكة أهل تجر. وتقدّم في قوله تعالى { لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حتّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ } [آل عمران:92].

{**عَدَّدَهُ** } أكثر من عدِّه، أي: حسابه لشدّة ولعه بجمعه، فالتضعيف للمبالغة في (عَدَّ) ومعاودته.

<u>ويجوز</u> أن يكون بمعنى أكثر إعداده، أي: إعداد أنواعه، فيكون كقوله تعالى { وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ } [آل عمران:14].

{ **يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ** } <u>يجوز</u> أن تكون حالا من همزة فيكون مستعملا في التهكُّم عليه في حرصه على جمع المال وتعديده لأنّه لا يوجد من يحسب أن ماله يُخلده. <u>ويجوز</u> أن تكون الجملة مستأنفة والخبر مستعملا في الإنكار.

<u>معنى الآية</u>: أنّ الذين جمعوا المال يشبه حالهم حال من يحسب أنّ المال يقيهم الموت ويجعلهم خالدين، لأنّ الخلود في الدنيا أقصى متمنَّاهم إذ لا يؤمنون بحياة أخرى خالدة.

{ **كَلَّا** } إبطال لأن يكون المال مُخلِّدا لهم، وزجر عن التلبُّس بالحالة الشنيعة التي جعلتهم في حال من يحسب ذلك، أو إبطال للحرص في جمع المال جمعا يمنع به حقوق الله في المال.

{ **لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ** } استئناف بياني ناشئ عن ما تضمَّنته جملة { يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ } من التهكُّم والإنكار، وما أفاده حرف الزجر من معنى التوعّد. <u>والمعنى</u>: ليَهْلِكنَّ فليُنبَذَنَّ في الحطمة.

النبذ: الإلقاء والطرح، وأكثر استعماله في إلقاء ما يُكره.

الحُطمة: صفة بوزن فُعَلة، مثل ما تقدّم في الهمزة، أي: لينبذنّ في شيء يحطمه، أي: يكسره ويدقّه.

أريد بذلك جهنم، وإطلاق هذا الوصف على جهنم من مصطلحات القرآن. وليس في كلام العرب إطلاق هذا الوصف على النار.

{ **وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ** } في موضع حال من قوله تعالى { **الحُطَمَةِ** } والرابط إعادة لفظ الحُطمة، وذلك إظهار في مقام الإضمار للتهويل، كقوله تعالى { الْحَاقَّةُ، مَا الْحَاقَّةُ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ }.

{ **نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ** } جواب على جملة { وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ } مفيد مجموعهما بيان الحطمة ما هي، وموقع الجملة موقع الاستئناف البياني، والتقدير: هي نار الله.

{ **نَارُ اللَّهِ** } الإضافة للترويع، بأنّها نار خلقها القادر على خلق الأمور العظيمة.

{ **الْمُوقَدَةُ** } وصف، وهو اسم مفعول من: أوقد النار، إذا أشعلها وألهبها. يفيد أنّها لا يزول لهيبها. وهذا كما وُصفت نار الأخدود بذات الوَقود في [البروج:5].

{ **الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ** } وُصفت { نَارُ اللَّهِ } وصفا ثانيا.

الاطّلاع: يجوز أن يكون بمعنى الإتيان مبالغة في طلع، أي: الإتيان السريع بقوّة واستيلاء. والمعنى: التي تنفذ إلى الأفئدة فتحرقها.

وأن يكون بمعنى الكشف والمشاهدة، قال تعالى { فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ } [الصافات:55]، فيفيد أنّ النار تحرق الأفئدة إحراق العالم بما تحتوي عليه الأفئدة من الكفر.

{ **إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ** [8] **فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ** [9] }.

يجوز أن تكون صفة ثالثة لـ { نَارُ اللَّهِ } بدون عاطف، ويجوز أن تكون مستأنفة استئنافا ابتدائيا وتأكيدها بـ (إنّ) لتهويل الوعيد بما ينفي عنه احتمال المجاز أو المبالغة.

موصدة: اسم مفعول من أوصد الباب، إذا أغلقه غلقا مطبقا. ويقال: أأصد، بهمزتين إحداهما أصلية والأخرى همزة التعدية، ويقال: أصد الباب فعلا ثلاثيا، ولا يقال: وصد (بالواو) بمعنى أغلق.

ومعنى إيصادها عليهم: ملازمة العذاب واليأس من الإفلات منه كحال المساجين الذين أغلق عليهم الباب.

{ **فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ** } حال: إمّا من ضمير { عَلَيْهِمْ }، أي: في حال كونهم في عمد، أي: موثوقين في عمد. وإمّا من ضمير { إِنَّهَا }، أي: أنّ النار الموقدة في عمد، أي: متوسطة عمدا كما تكون نار الشواء.

{ **عَمَدٍ** } قرأه الجمهور بفتحتين على أنّه اسم جمع عمود، وقرأه حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وخلف (عُمُد) وهو جمع عمود كذلك، والعمود: خشبة غليظة مستطيلة.

الممدَّدة: الطويلة جدا، وهو اسم مفعول من مدَّده، إذا بالغ في مدِّه، أي: الزيادة فيه.

وكلّ هذه الأوصاف تقوية لتمثيل شدّة الإغلاظ عليهم بأقصى ما يبلغه متعارف الناس من الأحوال.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفيل

وردت تسميتها في كلام بعض السلف سورة { **أَلَمْ تَرَ** }. وكذلك عنونها البخاري. روى القرطبي في تفسير سورة قريش عن عمرو بن ميمون قال: صلَّيت المغرب خلف عمر ابن الخطاب فقرأ في الركعة الثانية { أَلَمْ تَرَ } و{ لِإِيلافِ قُرَيْشٍ }. وسُمِّيت في جميع المصاحف وكتب التفسير (**سورة الفيل**).

وهي مكية بالاتفاق.

وقد **عُدَّت التاسعة عشرة** في ترتيب نزول السور، نزلت بعد (سورة الكافرون) وقبل (سورة الفلق). وقيل قبل (سورة قريش).

وآيها خمس.

أغراض السورة

*/ التذكير بأنّ الكعبة حرم الله، وأنّ الله حماه ممّن أرادوا به سوءا أو أظهر غضبه عليهم فعذّبهم لأنّهم ظلموا بطمعهم في هدم مسجد إبراهيم وهو عندهم في كتابهم.

*/ تذكرة لقريش بأنّ فاعل ذلك هو رب ذلك البيت وأن لا حظ فيه للأصنام التي نصبوها حوله.

*/ تذكير قريش بما ظهر من كرامة النبيّ صلى الله عليه وسلم عند الله إذ أهلك أصحاب الفيل في عام ولادته.

*/ تثبيت النبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّ الله يدفع عنه كيد المشركين.

ولم يتكرَّر في القرآن ذكر إهلاك أصحاب الفيل خلافا لقصص غيرهم من الأمم لوجهين:

أحدهما: أنّ هلاك أصحاب الفيل لم يكن لأجل تكذيب رسول من الله.

ثانيهما: أن لا يتّخذ منه المشركين غرورا بمكانة لهم عند الله، كغرورهم بقولهم المحكي في قوله تعالى { أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ } [التوبة:19]، وقوله تعالى { وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ } [الأنفال:34].

{ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ } [1].

استفهام تقريري، وقد بيَّنَّا غير مرة أنّ الاستفهام التقريري كثيرا ما يكون على نفي المقرَّر بإثباته للثقة بأن المقرَّر لا يسعه إلّا إثبات المنفي.

والتقرير مستعمل مجازا في التكريم إشارة إلى أنّ ذلك كان إرهاصا للنبيّ صلى الله عليه وسلم، فيكون من باب قوله تعالى { لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ، وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ } [البلد:2/1]، وفيه مع ذلك تعريض بكفران قريش نعمة عظيمة من نعم الله عليهم إذ لم يزالوا يعبدون غيره.

والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم كما يقتضيه قوله تعالى { رَبُّكَ }. فمَهْيَع هذه الآية شبيه بقوله تعالى { أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى } [الضحى:6].

الرؤية: يجوز أن تكون مجازية مستعارة للعلم البالغ من اليقين حد الأمر المرئي لتواتر ما فعل الله بأصحاب الفيل بين أهل مكة وبقاء بعض آثار ذلك يشاهدونه.

قال أبو صالح: رأيت في بيت أم هانئ بنت أبي طالب نحوا من قفيزين من تلك الحجارة سودا مخططة بحمرة. وقال عتاب بن أسيد: أدركت سائس الفيل وقائده أعميين مقعدين يستطعمان الناس.

ويجوز أن تكون الرؤية بصرية بالنسب لمن تجاوز سنه نيفا وخمسين سنة عند نزول الآية ممن شهد حادث الفيل غلاما أو فتى مثل أبي قحافة وأبي طالب وأبي بن خلف.

{ **كَيْفَ** } للاستفهام، ويجوز أن يكون كيف مجرّدا عن معنى الاستفهام مرادا منه مجرّد الكيفية فيكون نصبا على المفعول به. وإيثاره دون غيره من أسماء الاستفهام أو الموصول، فلم يقل: ألم تر ما فعل ربك؟ أو الذي فعل ربك؟ للدلالة على حالة عجيبة يستحضرها من يعلم تفصيل القصة.

{ **رَبُّكَ** } جيء في تعريف الله سبحانه بوصف (ربّ) مضافا إلى ضمير النبيّ صلى الله عليه وسلم إيماء إلى أنّ المقصود من التذكير بهذه القصة تكريم النبيّ صلى الله عليه وسلم إرهاصا لنبوته.

أصحاب الفيل: الحبشة الذين جاؤوا مكة غازين مضمرين هدم الكعبة انتقاما من العرب من أجل ما فعله أحد بني كِنانة الذين كانوا أصحاب النسيء في أشهر الحج.

وكان خبر ذلك وسببه أنّ الحبشة قد ملكوا اليمن بعد واقعة الأخدود التي عذَّب فيها الملك ذو نواس النصارى، وصار أمير الحبشة على اليمن رجلا يقال له أبرهة، وأن أبرهة بنى كنيسة عظيمة في صنعاء دعاها (القَلِيس / القُلَيْس / القُلَّيْس)، وأراد أن يصرف حجّ العرب إليها دون الكعبة، فروي أنّ رجلا من بني فُقَيْم من بني كنانة، قصد صنعاء حتّى جاء القليس فأحدث فيها تحقيرا لها ليتسامع العرب بذلك، فغضب أبرهة وأزمع غزو مكة ليهدم الكعبة، وسار حتّى نزل خارج مكة ليلا بمكان يقال له (المُغَمَّس / ذوالغميس)، موضع قرب مكة في طريق الطائف، وأرسل إلى عبد المطلب ليحذِّره من أن يحاربوه وجرى بينهما كلام، وأمر عبد المطلب آله وجميع أهل مكة بالخروج منها إلى الجبال المحيطة بها خشية من معرّة الجيش إذا دخلوا مكة. فلمّا أصبح هيأ جيشه لدخول مكة وكان أبرهة راكبا فيلا وجيشه معه.

وقد قيل: إن جيش أبرهة لم يكن فيه إلّا فيل واحد. وقيل: كان فيه فيلة أخرى، قيل: ثمانية وقيل اثنا عشر. فبينا هو يتهيّأ لذلك إذ أصاب جنده داء عضال هو الجدري، ورأوا قبل ذلك طيرا ترميهم بحجارة لا تصيب أحدا إلّا هلك، وهي طير من جند الله، فهلك معظم الجيش وأدبر بعضهم، ومرض أبرهة فقفل راجعا إلى صنعاء مريضا، فهلك في صنعاء، وكفى الله أهل مكة أمر عدوِّهم.

وكان ذلك في شهر محرم الموافق لشهر شباط فبراير سنة 570م. وبعد هذا الحادث بخمسين يوما ولد النبيّ صلى الله عليه وسلم على أصح الأخبار، وفيها اختلاف كثير.

المعنى: ألم تعلم الحالة العجيبة التي فعلها الله بأصحاب الفيل، فهذا تقرير على إجمال يفسِّره ما بعده.

{ **أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ** [2] **وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ** [3] **تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ** [4] **فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ** [5] }.

هذه الجمل بيان لما في الآية الأولى من الإجمال. وسمَّى حربهم كيدا لأنّه عمل ظاهره الغضب من فعل الكناني الذي قعد في القليس وإنّما هو تعلّة تعلَّلوا بها لإيجاد سبب لحرب أهل مكة وهدم الكعبة لينصرف العرب إلى حج القليس في صنعاء فيتنصَّروا.

الكيد: الاحتيال على إلحاق ضر بالغير ومعالجة إيقاعه.

التضليل: جعل الغير ضالا، أي: لا يهتدي لمراده، وهو هنا مجاز في الإبطال وعدم نوال المقصود، لأنّ ضلال الطريق عدم وصول السائر.

في التضليل: ظرفية مجازية، استعير حرف الظرفية لمعنى المصاحبة الشديدة، أي: أبطل كيدهم بتضليل، والمعنى: أنه أبطله إبطالا شديدا إذ لم ينتفعوا بقوّتهم مع ضعف أهل مكة وقلّة عددهم. وهذا كقوله تعالى { وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ } [غافر:37] أي: ضياع وتلف.

وقد شمل تضليل كيدهم جميع ما حلّ بهم من أسباب الخيبة وسوء المنقلب.

{ **وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ** } يجوز أن تُجعل معطوفة على جملة { فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ } [1]، أي: وكيف أرسل عليهم طيرا من صفتها كيت وكيت. فبعد أن وقع التقرير على ما فعل الله بهم من تضليل كيدهم عُطف عليه تقرير بعلم ما سُلِّط عليهم من العقاب. ويجوز أن تُجعل الجملة عطفا على جملة { أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ }، فيكون داخلا في حيز التقرير الثاني بأنّ الله جعل كيدهم في تضليل، وخُصّ ذلك بالذكر لجمعه بين كونه مبطلا لكيدهم وكونه عقوبة لهم.

{ **طَيْرًا** } تنكيره للنوعية لأنّه نوع لم يكن معروفا عند العرب. روي عن عائشة: أنّها أشبه شيء بالخطاطيف، وعن غيرها أنّها تشبه الوطواط.

{ **أَبَابِيلَ** } جماعات. قال الرؤاسي والزمخشري: أحد أبابيل إبَّالة، ومنه قولهم في المثل: ضغث على إبّالة، وهي الحزمة الكبيرة من الحطب، وعليه فوصف الطير بأبابيل على وجه التشبيه البليغ.

{ **تَرْمِيهِمْ** } حال من { طَيْرًا }، وجيء بصيغة المضارع لاستحضار الحالة.

{ **بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ** } حجارة: اسم جمع حجر. وعن ابن عباس قال: طين في حجارة.

وقد أشار إلى أصل معناه قوله تعالى { لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ } [الذريات:33] مع قوله في آيات أخر { حِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ } فعُلم أنّه حجر أصله طين.

وجاء نظيره في قصة قوم لوط { وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ } [هود: 82]، وفي قوله تعالى { فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ } [الحجر:74] فتعيّن أن تكون الحجارة التي أرسلت على أصحاب الفيل من جنس الحجارة التي أمطرت على قوم لوط، أي: ليست حجرا صخريا ولكنها طين متحجّر، دلالة على أنّها مخلوقة لعذابهم.

قال ابن عباس: كان الحجر إذا وقع على أحدهم نفط جلده، فكان ذلك أول الجُدَري.

العصف: ورق الزرع وهو جمع عَصْفة. والعصف إذا دخلته البهائم فأكلته داسته بأرجلها وأكلت أطرافه وطرحته على الأرض بعد أن كان أخضر يانعا. وهذا تمثيل لحال أصحاب الفيل كيف صاروا متساقطين على الأرض هالكين.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة قريش

سُمِّيت هذه السورة في عهد السلف (**سورة لإيلاف قريش**)، قال عمرو بن ميمون الأودي: " صلى عمر بن الخطاب المغرب فقرأ في الركعة الثانية { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ } و { لِإِيلافِ قُرَيْشٍ } ". وهذا ظاهر في إرادة التسمية. ولم يعدَّها في (الإتقان) في السور التي لها أكثر من اسم.

وسُمِّيت في المصاحف وكتب التفسير (**سورة قريش**) لوقوع اسم قريش فيها ولم يقع في غيرها، وبذلك عنونها البخاري في صحيحه.

والسورة **مكية عند جماهير العلماء**. قال ابن عطية: بلا خلاف. ولم يذكرها في الإتقان مع السور المختلف فيها.

وقد **عُدَّت التاسعة والعشرين** في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة التين وقبل سورة القارعة.

وهي سورة مستقلّة بإجماع المسلمين. وجعلها أبّي بن كعب مع سورة الفيل سورة واحدة ولم يفصل بينهما في مصحفه بالبسملة، وهو ظاهر خبر عمرو بن ميمون عن قراءة عمر بن الخطاب. والإجماع الواقع بعد ذلك نقض ذلك.

وعدد آياتها أربع عند جمهور العادِّين. وعدّها أهل مكة والمدينة خمس آيات.

أغراض السورة

*/ أمر قريش بتوحيد الله تعالى بالربوبية تذكيرا لهم بنعمة أنّ الله مكَّن لهم السير في الأرض للتجارة برحلتي الشتاء والصيف لا يخشون عاديا يعدو عليهم.

*/ بأنّه أمَّنهم من المجاعات، وأمَّنهم من المخاوف لما وقر في نفوس العرب من حرمتهم لأنّهم سكّان الحرم وعُمّار الكعبة. وبما ألهم الناس من جلب الميرة إليهم من الآفاق المجاورة كبلاد الحبشة.

وردَّ القبائل، فلا يغير على بلدهم أحد، قال تعالى { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ } [العنكبوت:67]، فأكسبهم ذلك مهابة في نفوس الناس وعطفا منهم.

{ **لِإِيلافِ قُرَيْشٍ** [1] **إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ** [2] **فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ** [3] **الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ** [4] }.

افتتاح مُبدع إذ كان بمجرور بلام التعليل، وتقديم هذا المجرور للاهتمام به إذ هو من أسباب أمرهم بعبادة الله التي أعرضوا عنها بعبادة الأصنام.

وأصل نظم الكلام: لتعبُد قريشٌ ربَّ هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف، فلمّا اقتضى قصد الاهتمام بالمعمول تقديمه على عامله، تولّد من تقديمه معنى جعله شرطا لعامله فاقترن عامله بالفاء التي هي من شأن جواب الشرط، فالفاء الداخلة في قوله { فَلْيَعْبُدُوا } مؤذنة بأن ما قبلها في قوة الشرط. وهذا أسلوب من الإيجاز بديع.

الإيلاف: مصدر آلف بهمزتين بمعنى ألف وهما لغتان، والأصل هو ألف، وصيغة الإفعال فيه للمبالغة لأنّ أصلها أن تدلّ على حصول الفعل من الجانبين، فصارت تُستعمل في إفادة قوّة الفعل مجازا، ثم شاع ذلك في بعض الأفعال حتّى ساوى الحقيقة.

{ **لِإِيلافِ قُرَيْشٍ** } الإضافة على معنى إضافة المصدر إلى فاعله وحُذف مفعوله لأنّه هنا أطلق بالمعنى الاسمي لتلك العادة، فهي إضافة معنوية بتقدير اللام.

قريش: لقب الجد الذي يجمع بطون كثيرة وهو فِهر بن مالك بن النضر ابن كِنانة. ولُقِّب فِهر بلقب قريش بصيغة التصغير وهو على الصحيح تصغير (قَرْش) اسم نوع من الحوت قوي يعدو على الحيتان وعلى السفن. فجميع أهل مكة هم قريش وفيهم كانت مناصب أهل مكة في الجاهلية موزّعة بينهم. ولهم مناصب في أعمال الحج خاصة منها النسيء.

{ **إِيلافِهِمْ** } عطف بيان من { إِيلافِ قُرَيْشٍ } وهو من أسلوب الإجمال، فالتفصيل للعناية بالخبر ليتمكّن في ذهن السامع، ومنه قوله تعالى { لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ، أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ } [غافر:37/36].

الرِّحلة: اسم للارتحال، وهو المسير من مكان إلى آخر بعيد، ولذلك سُمِّي البعير الذي يسافر عليه راحلة.

{ **الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ** } من إضافة الفعل إلى زمانه الذي يقع فيه، فقد يكون الفعل مستغرقا لزمانه مثل قولك: سهر الليل، وقد يكون وقتا لابتدائه مثل صلاة الظهر. وظاهر الإضافة أنّ رحلة الشتاء والصيف معروفة معهودة، وهما رحلتان. فعطف { وَالصَّيْفِ } على تقدير مضاف، أي: ورحلة الصيف.

وهاتان الرحلتان هما رحلة تجارة وميرة كانت قريش تجهّزهما في هذين الفصلين من السنة؛ إحداهما في الشتاء إلى بلاد الحبشة ثم اليمن يبلغون بها بلاد حِمْير، والأخرى في الصيف إلى الشام يبلغون بها مدينة بُصرى من بلاد الشام.

وكان الذي سنّ لهم هاتين الرحلتين هاشم بن عبد مناف، وسبب ذلك أنّهم كانوا يعتريهم خصاصة فإذا لم يجد أهل بيت طعاما لقوتهم حمل رب البيت عياله إلى موضع معروف فضرب عليهم خباء وبقوا فيه حتّى يموتوا جوعا، ويُسمَّى ذلك (الاعتفار) فحدث أنّ أهل بيت من بني مخزوم أصابتهم فاقة شديدة

فهمّوا بالاعتفار فبلغ خبرهم هاشما، لأن أحد أبنائهم كان تربا لأسد بن هاشم، فقام هاشم خطيبا في قريش وقال: إنّكم أحدثتم حدثا تقلُّون فيه وتكثر العرب، وتذلُّون وتعزّ العرب، وأنتم أهل حرم الله والناس لكم تُبَّع ويكاد هذا الاعتفار يأتي عليكم، ثم جمع كلّ بني أب على رحلتين للتجارات فما ربح الغني قسمه بينه وبين الفقير من عشيرته حتّى صار فقيرهم كغنيهم.

ولم تزل الرحلتان من إيلاف قريش حتّى جاء الإسلام وهم على ذلك.

ومعنى الآية تذكير قريش بنعمة الله عليهم إذ يسَّر لهم ما لم يتأتَّ لغيرهم من العرب من الأمن من عدوان المعتدين وغارات المغيرين في السنة كلّها بما يسَّر لهم من بناء الكعبة وشرعة الحج، وأن جعلهم عُمَّار المسجد الحرام وجعل لهم مهابة وحرمة في نفوس العرب كلّهم في الأشهر الحرم وفي غيره، وعند القبائل التي تحرِّم الأشهر الحرم والقبائل التي لا تحرّمها مثل طيء وقضاعة وخثعم، فتيسَّرت لهم الأسفار في بلاد العرب من جنوبها إلى شمالها، ولاذ بهم أصحاب الحاجات يسافرون معهم، وأصحاب التجارات يحمِّلونهم سلعهم، وصارت مكة وسطا تُجلب إليها السلع من جميع البلاد العربية فتُوزَّع إلى طالبيها في بقية البلاد، فاستغنى أهل مكة بالتجارة، إذ لم يكونوا أهل زرع ولا ضرع فهم بواد غير ذي زرع، وكانوا يجلبون أقواتهم فيجلبون من بلاد اليمن الحبوب من بر وشعير وذرة وزبيب وأديم وثياب والسيوف اليمانية، ومن بلاد الشام الحبوب والتمر والزيت والزبيب والثياب والسيوف المشرفية، زيادة على ما ما أقيم لهم من مواسم الحج وأسواقه كما يشير إليه قوله تعالى { فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ }.

{ **فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ** } والعبادة التي أمروا بها عبادة الله وحده دون إشراك الشركاء معه في العبادة، لأنّ إشراك من لا يستحق العبادة مع الله، الذي هو الحقيق بها، ليس بعبادة، أو لأنّهم شُغلوا بعبادة الأصنام عن عبادة الله فلا يذكرون الله إلّا في أيام الحج، على أنّهم قد زاد بعضهم في التلبية بقولهم: لبيك لا شريك لك إلّا شريكا هو لك تملكه وما ملك.

{ **رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ** } أوثر هذا التركيب دون أن يقال: ربّهم للإيماء إلى أنّ البيت هو أصل نعمة الإيلاف وذلك إدماج للتنويه بشأن البيت الحرام وفضله.

البيت: معهود عند المخاطبين. والإشارة إليه لأنّه بذلك العهد كان كالحاضر في مقام الكلام. والبيت بهذا التعريف باللام صار علما بالغلبة على الكعبة. و(ربّ البيت) هو الله، والعرب يعترفون بذلك.

{ **الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ** } تعليل آخر للأمر بعبادة رب البيت الحرام، زيادة على نعمة تيسير التجارة لهم، وهما نعمة إطعامهم وأمنهم.

وهذه إشارة إلى ما يسّر لهم من ورود سفن الحبشة في البحر إلى جُدَّة تحمل الطعام ليبيعوه هناك. فكانت قريش يخرجون إلى جدّة بالإبل والحُمُر فيشترون الطعام على مسيرة ليلتين. وكان أهل تبالة وجُرش من بلاد اليمن المخصبة يحملون الطعام على الإبل إلى مكة، فكانوا في سعة من العيش بوفر الطعام في

بلادهم، كذلك يسَّر لهم إقامة الأسواق حول مكة في أشهر الحج وهي سوق مِجَنَّة، وسوق ذي المَجاز، وسوق عكاظ، فتأتيهم فيها الأرزاق ويتسع العيش.

وإشارة إلى ما ألقِي في نفوس العرب من حرمة مكة وأهلها فلا يريدهم أحد بتخويف.

وتلك دعوة إبراهيم عليه السلام إذ قال { رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ } [البقرة:126]، فلم يتخلّف ذلك عنهم إلّا حين دعا عليهم النبيّ صلى الله عليه وسلم بدعوته: **" اللهم اجعلها عليهم سنين كسنين يوسف "**، فأصابتهم مجاعة وقحط سبع سنين، وذلك أول الهجرة.

{ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ } و(من) في الموضعين للبدلية، أي: أطعمهم بدلا من الجوع وآمنهم بدلا من الخوف. وتنكير { جُوعٍ / خَوْفٍ } للنوعية لا للتعظيم إذ لم يحل بهم جوع وخوف من قبل.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الماعون

سُمِّيت هذه السورة في كثير من المصاحف وكتب التفسير (**سورة الماعون**) لورود لفظ الماعون فيها دون غيرها.

وسُمِّيت في بعض التفاسير (**سورة أرأيت**)، وكذلك في مصحف من مصاحف القيروان في القرن الخامس، وكذلك عنونها البخاري.

وهي مكية في قول الأكثر. وروي عن ابن عباس. وقال القرطبي عن قتادة: هي مدنية. وروي عن ابن عباس أيضا. وفي الإتقان: قيل: نزل ثلاثٌ أوّلها بمكة، أي: إلى قوله تعالى { الْمِسْكِينِ } [3]، وبقيّتها نزلت بالمدينة، أي: بناء على أنّ قوله تعالى { فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ } [4] إلى آخر السورة أريد بها المنافقون وهو مروي عن ابن عباس.

وعُدَّت السابعة عشرة في عداد نزول السور بناء على أنّها مكية، نزلت بعد سورة التكاثر وقبل سورة الكافرون.

وعُدَّت آياتها ستا عند معظم العادين.

أغراض السورة

*/ التعجيب من حال من كذَّبوا بالبعث وتفظيع أعمالهم من الاعتداء على الضعيف واحتقاره والإمساك عن إطعام المسكين، والإعراض عن قواعد الإسلام من الصلاة والزكاة لأنّه لا يخطر بباله أن يكون في فعله ذلك ما يجلب له غضب الله وعقابه.

{ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ [1] فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ [2] وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ [3]}.

الاستفهام مستعمل في التعجيب من حال المكذِّبين بالجزاء، وما أورثهم ذلك من سوء الصنيع. فالتعجّب من تكذيبهم بالدين وما تفرَّع عليه من دعّ اليتيم وعدم الحضّ على طعام المسكين، وقد صيغ هذا التعجيب في نظم مشوّق لأنّ الاستفهام عن رؤية من ثبتت له صلة الموصول يذهب بذهن السامع مذاهب شتّى من تعرُّف المقصد بهذا الاستفهام، فإنّ التكذيب بالدين شائع فيهم فلا يكون مثارا للتعجّب فيترقّب السامع ماذا يرد بعده وهو قوله تعالى { وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ }.

{ **أَرَأَيْتَ** } الرؤية بصرية يتعدّى فعلها إلى مفعول واحد، فإنّ المكذّبين بالدين معروفون وأعمالهم مشهورة، فنزلت شهرتهم بذلك منزلة الأمر المبصر المشاهد.

قيل: نزلت في أبي سفيان بن حرب قبل إسلامه بسبب أنّه كان ينحر كلّ أسبوع جزورا فجاءه مرة يتيم فسأله من لحمها فقرعه بعصا. وقيل: في أبي جهل كان وصيًّا على يتيم فأتاه عريانا يسأله من مال نفسه فدفعه دفعا شنيعا. والذين جعلوا السورة مدنية قالوا: نزلت في منافق لم يسمُّوه.

وهذه أقوال معزو بعضها إلى بعض التابعين ولو تعيَّنت لشخص مُعيَّن لم يكن سبب نزولها مُخَصِّصًا حكمها بمن نزلت بسببه.

{ **فَذَلِكَ / الَّذِي** } في إقحام اسم الإشارة واسم الموصول بعد الفاء زيادة تشويق حتّى تقرع الصلة سمع السامع فتتمكّن منه كمال تمكّن.

وأصل ظاهر الكلام أن يقال: أرأيت الذي يكذّب بالدين فيدعّ اليتيم ولا يحضّ على طعام المسكين.

{ **فَذَلِكَ** } الإشارة إلى الذي يكذِّب بالدين لتمييزه أكمل تمييز حتّى يتبصّر السامع فيه وفي صفته، أو لتنزيله منزلة الظاهر الواضح بحيث يشار إليه.

<u>فمعنى الآية</u>: عطف صفتي دعّ اليتيم، وعدم إطعام المسكين على جزم التكذيب بالدين.

وهذا يفيد تشويه إنكار البعث بما ينشأ عن إنكاره من المذام، وفي ذلك كناية عن تحذير المسلمين من الاقتراب من إحدى هاتين الصفتين بأنّهما من صفات الذين لا يؤمنون بالجزاء.

وهذا إيذان بأنّ الإيمان بالبعث والجزاء هو الوازع الحق الذي يغرس في النفس جذور الإقبال على الأعمال الصالحة التي يصير ذلك لها خُلُقا إذا شبَّت عليه، فزكت وانساقت إلى الخير بدون كلفة.

{ **يَدُعُّ** } يدفع بعنف وقهر، قال تعالى { يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا } [الطور:13].

الحضّ: الحثّ، وهو أن تطلب من غيرك فعلًا بتأكيد.

الطعام: اسم الإطعام، وهو اسم مصدر مضاف إلى مفعوله إضافة لفظية. ويجوز أن يكون الطعام مرادا به ما يُطعم، كما في قوله تعالى { فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ } [البقرة: 259]، فتكون إضافة طعام إلى المسكين معنوية على معنى اللام، أي: الطعام الذي هو حقّه على الأغنياء، ويكون فيه تقدير مضاف مجرور بـ (على)، تقديره: على إعطاء طعام المسكين.

{ **وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ** } كناية عن نفي الإطعام لأنّ الذي يشحّ بالحضّ على الإطعام هو بالإطعام أشح، كما تقدّم في قوله تعالى { وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ } [الفجر:18]، وقوله تعالى { وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ } [الحاقة:34].

المسكين: الفقير، ويطلق على شديد الفقر، وقد تقدّم عند قوله تعالى { إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ } [التوبة:60].

{ **يُكَذِّبُ / يَدُعُّ / يَحُضُّ** } جيء في هذه الأفعال بصيغة المضارع لإفادة تكرّر ذلك منه ودوامه.

{ **فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ [4] الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ [5] الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ [6] وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ [7]** }.

موقع الفاء صريح في اتصال ما بعدها بما قبلها من الكلام على معنى التفريع والترتيب والتسبُّب.

على القول أنّ السورة مكية بأجمعها يكون المراد بالمصلين عين المراد بالذي يُكذِّب بالدين، ويدعّ اليتيم، ولا يحضّ على طعام المسكين، فقوله تعالى { لِلْمُصَلِّينَ } إظهار في مقام الإضمار كأنّه قيل: فويل له على سهوه عن الصلاة، وعلى الرياء، وعلى منع الماعون، دعا إليه زيادة تعداد صفاته الذميمة.

فوصفهم بـ { لِلْمُصَلِّينَ } إذن تهكّم، والمراد عدمه، أي: الذين لا يصلُّون، أي: ليسوا بمسلمين، كقوله تعالى

{ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ، وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ } [المدثر:44/43]، وقرينة التهكّم وصفهم بـ { الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ }.

وعلى القول بأنّها مدنية أو أن هذه الآية وما بعدها منها مدنية يكون المراد بـ { الْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ } المنافقين. وروى هذا ابن وهب وأشهب عن مالك، فتكون الفاء قي قوله تعالى { فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ } لربطها بما قبلها لأنّ الله أراد ارتباط هذا الكلام بعضه ببعض.

واعلم أنّه إذا أراد الله إنزال شيء من القرآن ملحقا بشيء قبله جعل نظم الملحَق مناسبا لما هو متصل به، فتكون الفاء للتفريع. وهذه نكتة لم يسبق لنا إظهارها فعليك ملاحظتها في كلّ ما ثبت أنه نزل من القرآن ملحَقا بشيء نزل قبله.

{ **الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ** } يجوز أن يكون معناه الذين لا يؤدُّون الصلاة إلّا رياء فإذا خلوا تركوا الصلاة. ويجوز أن يكون معناه: الذين يصلُّون دون نيّة وإخلاص فهم في حالة الصلاة بمنزلة الساهي عمّا يفعل، فيكون إطلاق { سَاهُونَ } تهكُّما كما قال تعالى في المنافقين { يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا} [النساء:142].

السهو: حقيقته الذهول عن أمر سبق علمه، وهو هنا مستعار للإعراض والترك عن عمد استعارة تهكمية مثل قوله تعالى { وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ } [الأنعام: 41] أي: تعرضون عنهم، ومثله استعارة الغفلة للإعراض في قوله تعالى { بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ } [الأعراف:136].

وليس المقصود الوعيد على السهو الحقيقي عن الصلاة لأنّ حكم النسيان مرفوع على هذه الأمّة، وذلك ينادي على أن وصفهم بالمصلين تهكم بهم بأنّهم لا يُصلُّون.

{ **الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ** } أي: يقصدون أن يرى الناس أنّهم على حال حسن، وهم بخلافه، ليتحدَّث الناس لهم بمحاسن ما هم بموصوفين بها، ولذلك كثُر أن تُعطف السمعة على الرياء فيقال: رياء وسمعة.

{ **الْمَاعُونَ** } يُطلق على الإعانة بالمال، فالمعنى: يمنعون فضلهم أو يمنعون الصدقة على الفقراء.

فقد كانت الصدقة واجبة في صدر الإسلام بغير تعيين قبل مشروعية الزكاة.

وقال سعيد بن المسيب وابن شهاب: الماعون المال بلسان قريش.

وروى أشهب عن مالك: الماعون الزكاة.

ويُطلق على ما يستعان به على عمل البيت من آنية وآلات طبخ ونحو ذلك ممّا لا خسارة على صاحبه في إعارته وإعطاءه.

وعن عائشة: الماعون الماء والنار والملح.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الكوثر

سُمِّيت هذه السورة في جميع المصاحف التي رأيناها وفي جميع التفاسير أيضا (**سورة الكوثر**)، وكذلك عنونها الترمذي في جامعه. وعنونها البخاري في صحيحه سورة { **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ** }.

ولم يعدَّها في الإتقان مع السور التي ليس لها أكثر من اسم. ونقل سعد الله الشهير بسعدي في (حاشيته على تفسير البيضاوي) عن البقاعي أنّها تُسمَّى (سورة النحر).

وهل هي مكية أو مدنية؟ تعارضت الأقوال والآثار تعارضا شديدا.

فهي مكية عند الجمهور وأقتصر عليه أكثر المفسرين.

وعن الحسن ومجاهد وقتادة وعكرمة هي مدنية ويشهد لهم ما في صحيح مسلم عن أنس بن مالك: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه وقال: **أُنزلت عليَّ آنفا سورة،** فقرأ: **بسم الله الرحمن الرحيم** { إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ، إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ } ثم قال: **أتدرون ما الكوثر؟** قلنا الله ورسوله أعلم. قال: **فإنّه نهر وعدنيه ربي عز وجل، عليه خير كثير هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة ...".**

وأنس أسلم في صدر الهجرة فإذا كان لفظ (**آنفا**) في كلام النبيّ صلى الله عليه وسلم مستعملا في ظاهر معناه، وهو الزمن القريب، فالسورة نزلت منذ وقت قريب من حصول تلك الرؤيا.

والأظهر أنّ هذه السورة مدنية وعلى هذا سنعتمد في تفسير آياتها.

وعلى القول بأنّها مكية **عدُّوها الخامسة عشرة** في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة العاديات وقبل سورة التكاثر. وعلى القول بأنّها مدنية فقد قيل: إنّها نزلت في الحديبية.

وعدد آيها ثلاث بالاتفاق.

وهي أقصر سور القرآن عدد كلمات وعدد حروف، وأمّا في عدد الآيات فسورة العصر وسورة النصر مثلها ولكن كلماتها أكثر.

أغراض السورة

*/ بشارة النبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّه أُعطي الخير الكثير في الدنيا والآخرة. وأمره بأن يشكر الله على ذلك بالإقبال على العبادة.

*/ أنّ ذلك هو الكمال الحق، لا ما يتطاول به المشركون على المسلمين بالثروة والنعمة وهم مغضوب عليهم من الله تعالى لأنّهم أبغضوا رسوله، وغضب الله بَتْرٌ لهم إذا كانوا بمحلّ السخط من الله.

*/ أنّ انقطاع الولد الذكر ليس بترا لأنّ ذلك لا أثر له في كمال الإنسان.

{ **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ** [1] **فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ** [2] }.

افتتاح الكلام بحرف التأكيد للاهتمام بالخبر، والإشعار بأنّه شيء عظيم يستتبع التنويه بشأن النبيّ صلى الله عليه وسلم، كما تقدّم في قوله تعالى { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ } [القدر:1].

والكلام مسوق مساق البشارة وإنشاء العطاء لا مساق الإخبار بعطاء سابق.

وضمير العظمة مشعر بالامتنان بعطاء عظيم.

{ **الْكَوْثَرَ** } اسم في اللغة للخير الكثير، صيغ على زنة فوعل، وفسّره الزمخشري بالمفرط في الكثرة، وهو أحسن ما فسِّر به وأضبطه. وسُمِّي نهر الجنة كوثرا، كما في حديث مسلم عن أنس بن مالك المتقدّم.

وكلام النبيّ صلى الله عليه وسلم لا يقتضي حصر معاني اللفظ فيما ذكره.

وأريد من هذا الخبر بشارة النبيّ صلى الله عليه وسلم وإزالة ما عسى أن يكون في خاطره من قول من قال فيه: هو أبتر، فقوبل معنى الأبتر بمعنى الكوثر، إبطالا لقولهم.

{ **فَصَلِّ لِرَبِّكَ** } اعتراض والفاء للتفريع على هذه البشارة بأن يشكر ربّه عليها، فإنّ الصلاة أفعال وأقوال دالة على تعظيم الله والثناء عليه وذلك شكر لنعمته.

وناسب أن يكون الشكر بالازدياد ممّا عاداه عليه المشركون وغيرهم ممّن قالوا مقالتهم الشنعاء: إنّه أبتر، فإنّ الصلاة لله شكر له وإغاظة للذين ينهونه عن الصلاة، كما قال تعالى { أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى، عَبْدًا إِذَا صَلَّى} [العلق:10/9].

{ **لِرَبِّكَ** } العدول عن الضمير إلى الاسم الظاهر لما في لفظ الرب من الإيماء إلى استحقاقه العبادة لأجل ربوبيته فضلا عن فرط إنعامه. وإضافة (ربّ) إلى ضمير المخاطب لقصد تشريف النبيّ صلى الله عليه وسلم وتقريبه. وفيه تعريض بالمشركين بأنّهم يصلُّون للأصنام بالسجود لها والطواف حولها.

{ **وَانْحَرْ** } يتعيَّن أن في تفريع الأمر بالنحر مع الأمر بالصلاة على أنّ لمعنى الكوثر خصوصية تناسب الغرض الذي نزلت السورة له. ويظهر أنّ هذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن صد المشركين إيّاه عن البيت في الحديبية، فأعلمه الله تعالى بأنّه أعطاه خيرا كثيرا، أي: قدَّره له في المستقبل وعُبِّر عنه بالماضي لتحقيق وقوعه، فيكون معنى الآية كمعنى قوله تعالى { إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا } [الفتح:1]، فإنّه نزل في أمر الحديبية فقد قال له عمر بن الخطاب: أفتح هذا؟ قال: نعم.

وهذا يرجع إلى ما رواه الطبري عن قول سعيد بن جبير: أنّ قوله تعالى { فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ } أمر بأن يصلِّي وينحر هديه وينصرف من الحديبية.

وعطف { وَانْحَرْ } على { فَصَلِّ لِرَبِّكَ } يقتضي تقدير متعلِّقًا لدلالة ما قبله عليه، فالتقدير: وانحر له.

{ **إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ** } [3].

استئناف يجوز أن يكون استئنافا ابتدائيا. ويجوز أن تكون الجملة تعليلًا لحرف { إنَّ }، فإنّه إذا لم يكن

لرد الإنكار يكثر أن يفيد التعليل.

واشتمال الكلام على صيغة قصر وعلى ضمير غائب وعلى لفظ الأبتر مؤذن بأنّ المقصود به ردُّ كلام صادر من معيَّن، وحكايةُ لفظٍ مرادٍ بالردّ.

قال الواحدي: قال ابن عباس: " إنّ العاصي بن وائل السهمي رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد الحرام عند باب بني سهم فتحدَّث معه، وأناس من صناديد قريش في المسجد، فلمّا دخل العاصي عليهم قالوا له: من الذي كنت تتحدث معه؟ فقال: ذلك الأبتر، وكان قد توفي قبل ذلك عبد الله ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن مات ابنه القاسم، فانقطع بموت عبد الله الذكور من ولده صلى الله عليه وسلم يومئذ، وكانوا يصفون من ليس له ابن بأبتر، فأنزل الله هذه السورة ".

{ **الْأَبْتَرُ** } حقيقته المقطوع بعضه وغلب على المقطوع ذنبه من الدواب، ويستعار لمن نقص منه ما هو من الخير في نظر الناس، كما في الحديث: **" كلّ أمر ذي بال لا يُبدأ فيه باسم الله فهو أبتر".**

ومعنى الأبتر في الآية الذي لا خير فيه، وهو رد لقول العاصي بن وائل أو غيره في حق النبيّ صلى الله عليه وسلم فبهذا المعنى استقام وصف العاصي أو غيره بالأبتر دون المعنى الذي عناه هو، حيث لمز النبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّه أبتر، أي: لا عقب له، لأنّ العاصي بن وائل له عقب فابنه عمرو الصحابي الجليل، وابن ابنه عبد الله بن عمرو ابن العاص الصحابي الجليل ولعبد الله عقب كثير.

وهذا من الأسلوب الحكيم وهو تلقي السامع بغير ما يترقّب بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيها على أنّ الأحق غير ما عناه من كلامه، كقوله تعالى { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ } [البقرة:189]. وذلك بصرف مراد القائل عن الأبتر الذي هو عديم الابن الذكر إلى ما هو أجدر بالاعتبار وهو ناقص حظ الخير.

الشانئ: المُبغض، وهو فاعل من الشناءة وهي البغض، ويقال فيه: الشنآن، وهو يشمل كل مبغض له من أهل الكفر فكلهم بُتر من الخير ما دام فيهم شنآن للنبيّ صلى الله عليه وسلم، فأمّا من أسلموا منهم فقد أنقلب بغضهم محبة له واعتزازا به.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الكافرون

عُنونت هذه السورة في المصاحف التي بأيدينا، قديمها وحديثها، وفي معظم التفاسير (**سورة الكافرون**) على حكاية لفظ القرآن الواقع في أوّلها.

وعنونها البخاري سورة { **قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ** }.

قال في الكشاف والإتقان: وتُسمَّى هي وسورة { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ } بالمقشقشتين لأنّهما تقشقشان من الشرك أي: تُبرِئان منه يقال: قشقش، إذ أزال المرض.

وقد ذُكر أنّ سورة التوبة تُسمَّى المقشقشة لأنّها تقشقش، أي: تبرئ من النفاق، فيكون هذا مشتركا بين السور الثلاث فيحتاج إلى التمييز.

وهي مكية بالاتفاق في حكاية ابن عطية وابن كثير، وروي عن ابن الزبير أنّها مدنية.

وقد **عُدَّت الثامنة عشرة** في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة الماعون وقبل سورة الفيل.

وعدد آياتها ست.

أغراض السورة

<u>وسبب نزولها</u> فيما حكاه الواحدي في أسباب النزول وابن إسحاق في السيرة: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يطوف في الكعبة فاعترضه الأسود بن المطلب بن أسد، والوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل. وكانوا ذوي أسنان في قومهم فقالوا: يا محمد هَلُمَّ فلنعبد ما تعبد سنة وتعبد ما نعبد سنة فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيرا ممّا نعبد كنّا قد أخذنا بحظّنا منه، وإن كان ما نعبد خيرا ممّا تعبد كنت قد أخذت بحظك منه. فقال: **" معاذ الله أن أشرك به غيره "**، فأنزل الله فيهم { قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ } السورة كلها، فغدا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الحرام، وفيه الملأ من قريش، فقرأها عليهم فيئسوا منه عند ذلك، وإنّما عرضوا عليه ذلك لأنّهم رأوا حرصه على أن يؤمنوا فطمعوا أن يستنزلوه إلى الاعتراف بإلهية أصنامهم.

*/ بهذا يُعلم الغرض الذي اشتملت عليه السورة وأنّه تأييسهم من أن يوافقهم في شيء ممّا هم عليه من الكفر بالقول الفصل المؤكَّد في الحال والاستقبال، وأنّ دين الإسلام لا يخالط شيئا من دين الشرك.

{ **قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ** [1] **لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ** [2] **وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ** [3] }.

{ **قُلْ** } الافتتاح به للاهتمام بما بعد القول بأنّه كلام يُراد إبلاغه إلى الناس بوجه خاص، منصوص فيه على أنّه مرسل بقول يبلّغه، وإلّا فإنّ القرآن كلّه مأمور بإبلاغه.

والسور المفتتحة بالأمر بالقول خمس سور: سورة الجنّ، وسورة الكافرون، وسورة الإخلاص، والمعوذتان، فالثلاثُ الأُوَل لقول يبلّغه، والمعوذتان لقول يقوله لتعويذ نفسه.

{ **يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ** } النداء موجّه للأربعة الذين قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم: فلنعبد ما تعبد وتعبد ما نعبد، كما في خبر سبب النزول. والنداء لإقبال أذهانهم على ما سيلقى عليهم.

{ **الْكَافِرُونَ** } نودوا بهذا الوصف تحقيرا لهم وتأييدا لوجه التبرؤ منهم، وإيذانا بأنّه لا يخشاهم إذا ناداهم بما يكرهون ممّا يثير غضبهم، لأنّ الله كفاه إيّاهم وعصمه من أذاهم.

{ **لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ** } إخبار عن نفسه بما حصل منها. والمضارع يحتمل الحال والاستقبال فإذا دخل عليه (لا) النافية أفادت انتفاءه في أزمنة المستقبل، وهو قول جمهور أهل العربية.

ونفي عبادته آلهتهم في المستقبل يفيد نفي أن يعبدها في الحال بدلالة فحوى الخطاب، ولأنّهم ما عرضوا عليه إلّا أن يعبد آلهتهم بعد سنة مستقبلة.

{ **وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ** } جيء في جانب نفي عبادتهم لله بنفي اسم الفاعل الذي هو حقيقة في الحال، أي: ما أنتم بمغيّرين إشراككم الآن، لأنّهم عرضوا عليه لأن يبتدئوا هم فيعبدوا الرب الذي يعبده النبيّ صلى الله عليه وسلم سنة. وبهذا تعلم وجه المخالفة بين نظم الجملتين في أسلوب الاستعمال البليغ.

وهذا إخبار بأنّه يعلم أنّهم غير فاعلين ذلك من الآن بإنباء الله تعالى بذلك، فكان قوله هذا من دلائل نبوّته، نضير قوله تعالى { فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا } [البقرة:24]، فإنّ أولئك النفر الأربعة ماتوا على شركهم.

{ **مَا أَعْبُدُ** } هو الله تعالى، وعُبِّر بـ (ما) الموصولة لأنّها موضوعة للعاقل وغيره، فلا مانع من إطلاقها على العاقل إذا كان اللبس مأمونا. وقال السهيلي في (الروض الآنف): إنّ (ما) الموصولة يؤتى بها لقصد الإبهام لتفيد المبالغة في التفخيم، كقوله تعالى { وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا } [الشمس:5].

{ **وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ** } [4].

عطف على { وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ } [3]، عطف الجملة على الجملة لمناسبة نفي أن يعبدوا الله فأردف بنفي أن يعبد هو آلهتهم، وعطفه بالواو صارف عن أن يكون المقصود به تأكيد { لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ} فجاء به على طريقة { وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ } بالجملة الاسمية، للدلالة على الثبات.

لمّا نفى عن نفسه أن يعبد في المستقبل ما يعبدونه بقوله { لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ } كما تقدّم آنفا، صرَّح هنا بما تقتضيه دلالة الفحوى على نفي أن يعبد آلهتهم في الحال، بما هو صريح الدلالة على ذلك لأنّ المقام يقتضي مزيد البيان، لتأييسهم ممّا راودوه عليه، ولمقابلة كلامهم المردود بمثله في إفادة الثبات.

وحصل من ذلك تقرير المعنى السابق وتأكيده، تبعا لمدلول الجملة لا لموقعها.
{ مَا عَبَدْتُمْ } جيء بالفعل الماضي للدلالة على رسوخهم في عبادة الأصنام من أزمان مضت، وفيه رمز إلى تنزُّهه صلى الله عليه وسلم عن عبادة الأصنام من سالف الزمان.

{ وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ } [5].

عطف على الجملة السابقة لبيان تمام الاختلاف بين حالهم وحاله، وإخبار بأنّهم لا يعبدون الله إخبارا ثانيا، تنبيها على أنّ الله أعلمه بأنّهم لا يعبدون الله، وتقوية لدلالة هذين الإخبارين عن نبوّته صلى الله عليه وسلم، فقد أخبر عنهم بذلك فمات أولئك كلّهم على الكفر وكانت هذه السورة من دلائل النبوّة.
وقد حصل من ذكر هذه الجملة بمثل نظيرتها السابقة توكيد للجملة السابقة توكيدا للمعنى الأصلي منها، وليس موقعها موقع التوكيد لوجود واو العطف، فالواو هنا عاطفة جملة على جملة لأجل ما اقتضته جملة { وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ } من المناسبة.
ويجوز أن تكون الجملة تأكيدا لفظيا لنظيرتها السابقة بتمامها بما فيها من واو العطف في نظيرتها السابقة وتكون جملة { وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ } معترضة بين التأكيد والمؤكَّد.
والمقصود من التأكيد تحقيق تكذيبهم في عرضهم أنّهم يعبدون ربَّ محمد صلى الله عليه وسلم.

{ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ } [6].

تذييل وفذلكة للكلام السابق بما فيه من التأكيدات، وقد أرسل هذا الكلام إرسال المثل.
وقُدم في كلتا الجملتين المسند على المسند إليه ليفيد قصر المسند إليه على المسند.
الدين: العقيدة والملّة، وهو معلومات وعقائد يعتقدها المرء فتجري أعماله على مقتضاها، فلذلك سُمِّي دينا لأنّ أصل معنى الدين المعاملة والجزاء.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النصر

سُمِّيت هذه السورة في كلام السلف (**سورة إذا جاء نصر الله والفتح**). روى البخاري أنّ عائشة قالت: " لمّا نزلت سورة إذا جاء نصر الله والفتح ...". وهي معنونة في جامع الترمذي **(سورة الفتح)** لوقوع هذا اللفظ فيها. وسُمِّيت في المصاحف وفي معظم التفاسير (**سورة النصر**) لذكر نصر الله فيها. وعن ابن مسعود أنّها تُسمَّى (**سورة التوديع**) لما فيها من الإيماء إلى وداعه صلى الله عليه وسلم. يعني من الإشارة إلى اقتراب لحاقه بالرفيق الأعلى كما سيأتي عن عائشة.

وهي مدنية بالاتفاق.

واختُلف في وقت نزولها فقيل: نزلت منصرف النبيّ صلى الله عليه وسلم من خيبر، أي: في سنة سبع ، ويؤيّده ما رواه الطبري والطبراني عن ابن عباس: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة نزلت { إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ }، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" الله أكبر جاء نصر الله والفتح، وجاء نصرُ أهل اليمن "**، فقال رجل: يا رسول الله وما أهل اليمن؟ قال: **" قوم رقيقة قلوبهم، ليّنة طباعهم، الإيمان يمان والفقه يمان والحكمة يمانية "**. ومجيء أهل اليمن أوّل مرة هو مجيء وفد الأشعريين عام غزوة خيبر.

ولم يختلف أهل التأويل أنّ المراد بالفتح في الآية هو فتح مكة وعليه فالفتح مستقبل ودخول الناس في الدين أفواجا مستقبل أيضا وهو الأليق باستعمال { إِذَا }. ويُحمل قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" جاء نصر الله والفتح "** على أنّه استعمال الماضي في معنى المضارع لتحقُّق وقوعه، أو لأنّ النصر في خيبر كان بادرة لفتح مكة.

وعدَّها جابر بن زيد السورة **المائة والثلاث** في ترتيب نزول السور، وقال نزلت بعد سورة الحشر وقبل سورة النور. وهذا جار على رواية أنّها نزلت عقب غزوة خيبر. وعن ابن عباس أنّها آخر سورة نزلت. **وعدد آياتها ثلاث** وهي مساوية لسورة الكوثر في عدد الآيات إلّا أنّها أطول من سورة الكوثر عِدَّة كلمات، وأقصر من سورة العصر. وهاته الثلاث متساوية في عدد الآيات.

أغراض السورة

*/ الوعد بنصر كامل من عند الله أو بفتح مكة، والبشارة بدخول خلائق كثيرة في الإسلام بفتح وبدونه إن كان نزولها عند منصرف النبيّ صلى الله عليه وسلم من خيبر.

*/ الإيماء إلى أنّه حين يقع ذلك فقد اقترب انتقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الآخرة.

{ ذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ [1] وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا [2] فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا [3] }.

{ **إِذَا** } اسم زمان مبهم يتعيَّن مقداره بمضمون جملة يضاف إليها هو. يستعمل للزمن المستقبل غالبا. ولذلك يُضمَّن معنى الشرط غالبا، كما هنا، ويكون الفعل الذي تضاف إليه بصيغة الماضي لإفادة التحقُّق.

{ **جَاءَ** } مستعمل في معنى: حصل وتحقّق مجازا.

النصر: الإعانة على العدو. ونصر الله يعقبه التغلّب على العدو.

{ **نَصْرُ اللَّهِ** } الإضافة تشعر بتعظيم هذا النصر وأنّه نصر عزيز خارق للعادة اعتنى الله بإيجاد أسبابه.

{ **الْفَتْحُ** } امتلاك بلد العدو وأرضه لأنّه يكون بفتح باب البلد، كقوله تعالى { ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ } [المائدة: 23]، ويكون باقتحام ثغور الأرض ومحارسها.

وقد فتح المسلمون خيبر قبل نزول هذه الآية فتعيّن أنّ الفتح المذكور فيها فتح آخر و<u>هو فتح مكة</u> كما يُشعر به التعريف بلام العهد، وهو المعهود في قوله تعالى { إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا، لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا } [الفتح:3/1].

وقد كان فتح مكة يخالج نفوس العرب كلّهم؛ فالمسلمون كانوا يرجونه ويعلمون ما أشار به القرآن من الوعد، وأهل مكة يتوقّعونه، وبقية العرب ينتظرون ماذا يكون الحال بين أهل مكة وبين النبيّ صلى الله عليه وسلم ويتلوَّمون بدخولهم في الإسلام فتح مكة، يقولون: إن ظهر محمد على قومه فهو نبيّ.

{ **وَرَأَيْتَ النَّاسَ** } <u>يجوز أن تكون الرؤية علمية</u>، أي: وعلمت علم اليقين أنّ الناس يدخلون في دين الله أفواجا وذلك بالأخبار الواردة من آفاق بلاد العرب ومواطن قبائلهم وبمن يحضر من وفودهم. فتكون جملة { يَدْخُلُونَ } في محل المفعول الثاني لـ { رَأَيْتَ }.

<u>ويجوز أن تكون رؤية بصرية</u> بأن رأى أفواج وفود العرب يردون إلى المدينة يدخلون في الإسلام وذلك سنة تسع، وقد رأى النبيّ صلى الله عليه وسلم ببصره ما علم منه دخولهم كلهم في الإسلام بمن حضر معه الموقف في حجة الوداع، فقد كانوا مائة ألف من مختلف قبائل العرب، فتكون جملة { يَدْخُلُونَ } في موضع الحال من الناس.

{ **دِينِ اللَّهِ** } هو الإسلام لقوله تعالى { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ } [آل عمران:19]، وقوله تعالى { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا } [الروم:30].

{ **يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا** } مستعار للنطق بكلمة الشهادة والتزام أحكام الدين الناشئة عن تلك الشهادة. شُبِّه الدين ببيت. وانتصب { أَفْوَاجًا } على الحال من ضمير { يَدْخُلُونَ }.

الأفواج: جمع فوج وهو الجماعة الكثيرة، وتقدّم عند قوله تعالى { هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ } [ص:59].

{ **فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ** } جواب { إذا } باعتبار ما تضمَّنته من معنى الشرط.

قُرن التسبيح بالحمد بباء المصاحبة المقتضية أنّ التسبيح لاحق للحمد لأنّ باء المصاحبة بمعنى (مع).

فكان حمد الله على حصول النصر والفتح ودخول الناس في الإسلام شيئا مفروغا منه لا يحتاج إلى الأمر بإيقاعه لأنّ شأن الرسول صلى الله عليه وسلم أنّه قد فعله، وإنّما يحتاج إلى تذكيره بتسبيح خاص لم يحصل من قبل في تسبيحاته، وباستغفار خاص لم يحصل من قبل في استغفاره.

ويجوز أن يكون التسبيح المأمور به تسبيح ابتهاج وتعجّب من تيسير الله تعالى له ما لا يخطر ببال أحد، فإنّ (سبحان الله) ونحوه يُستعمل في التعجب.

{ **وَاسْتَغْفِرْهُ** } عطف الأمر باستغفار الله تعالى على الأمر بالتسبيح مع الحمد يقتضي أنّه من حيّز جواب { إِذَا }، وأنّه استغفار يحصل مع الحمد، مثل ما قُرِّر في { فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ }، فيدلّ على أنّه استغفار خاص، وهو التهيُّؤ للقاء الله، وأنّ حياته الدنيوية أوشكت على الانتهاء.

فكان هذا إيذانا باقتراب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بانتقاله من حياة تحمّل أعباء الرسالة إلى حياة أبدية في العلويات الملكية. والكلام من قبيل الكناية الرمزية وهي لا تنافي إرادة المعنى الصريح بأن يُحمل الأمر بالتسبيح والاستغفار على معنى الإكثار من قول ذلك.

وفي صحيح البخاري وغيره عن ابن عباس: " كان عمر يأذن لأهل بدر ويأذن لي معهم فوجد بعضهم من ذلك، فقال لهم عمر: إنّه من قد علمتم. قال: فأذن لهم ذات يوم وأذن لي معهم، فسألهم عن هذه السورة { إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ } فقالوا: أمر الله نبيّه إذا فتح عليه أن يستغفره ويتوب إليه فقال: ما تقول يا ابن عباس؟ قلت: ليس كذلك ولكن أخبر الله نبيّه حضور أجله فقال: { إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ }، فذلك علامة موتك؟ فقال عمر: ما أعلم منها إلّا ما تقول ".

وتقديم التسبيح والحمد على الاستغفار لأن التسبيح راجع إلى وصف الله تعالى بالتنزّه عن النقص، وهو يجمع صفات السلب، فالتسبيح متمحِّض لجانب الله تعالى، ولأنّ الحمد ثناء على الله لإنعامه، وهو أداء العبد ما يجب عليه لشكر المُنعِم، فهو مستلزم إثبات صفات الكمال لله التي هي منشأ إنعامه على عبده، فهو جامع بين جانب الله وحظ العبد، وأمّا الاستغفار فهو حظ للعبد وحده لأنّه طلبه الله أن يعفو عما يؤاخذه عليه.

وقد انتهى الكلام عند قوله تعالى { وَاسْتَغْفِرْهُ }. وقد روي أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان في قراءته يقف عند { وَاسْتَغْفِرْهُ } ثم يكمل السورة.

{ **إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا** } تذييل للكلام السابق كله وتعليل لما يقتضي التعليل فيه من الأمر باستغفار ربه باعتبار الصريح من الكلام السابق كما سيتبين لك.

توَّاب: مثال مبالغة من تاب عليه. وفعل تاب المتعدي بحرف (على) يطلق بمعنى وُفِّق للتوبة، وهذا الإطلاق خاص بما أسند إلى الله. فالمعنى: هو شديد القبول لتوبة عباده.

{ **تَوَّابًا** } مقتضى الظاهر أن يقال: إنّه كان غفارا، كما في قوله تعالى { **فَقُلْتُ** اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا } [نوح:10]، فيجري الوصف على ما يناسب قوله تعالى { وَاسْتَغْفِرْهُ }، فعُدل عن ذلك تلطفا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّ أمره بالاستغفار ليس مقتضيا إثبات ذنب له.

وروي في الصحيح عن عائشة قالت: ما صلى رسول الله صلّى الله عليه وسلم صلاة بعد أن نزلت عليه سورة { إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ } إلّا يقول: **" سبحانك ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي "** يتأوّل القرآن **"**. أي: يتأوّل الأمر في قوله { فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ } على ظاهره كما تأوّله في مقام آخر على معنى اقتراب أجله صلى الله عليه وسلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المسد

سُمِّيت هذه السورة في أكثر المصاحف (**سورة تبَّت**) وكذلك عنونها الترمذي في جامعه، وفي أكثر كتب التفسير، تسمية لها بأوّل كلمة فيها.

وسُمِّيت في بعض المصاحف وفي بعض التفاسير (**سورة المسد**). واقتصر في الإتقان على هذين.

وسمّاها جمع من المفسّرين (**سورة أبي لهب**) على تقدير: سورة ذكر أبي لهب.

وهي مكية بالاتفاق.

وعُدَّت السادسة من السور نزولا، نزلت بعد سورة الفاتحة وقبل سورة التكوير.

وعدد آيها خمس.

روي أنّ نزولها كان في السنة الرابعة من البعثة.

وسبب نزولها على ما في الصحيحين عن ابن عباس قال: صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم على الصفا فنادى **" يا صباحاه "** (كلمة ينادى بها للإنذار من عدو يُصبِّح القوم) فاجتمعت إليه قريش فقال: **" إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، أرأيتم لو أنّي أخبرتكم أنّ العدو ممسيكم أو مصبِّحكم أكنتم تصدقوني؟** قالوا: ما جرَّبنا عليك كذبا، فقال أبو لهب: تبًّا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فنزلت { تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ }.

أغراض السورة

*/ زجر أبي لهب على تلك المقولة، ووعيده على ذلك، ووعيد امرأته على انتصارها لزوجها، وبغضها النبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ } [1].

افتتاح السورة بـ (التّبات) مشعر بأنّها نزلت لتوبيخ ووعيد، فذلك براعة استهلال مثل ما تُفتتح أشعار الهجاء بما يؤذن بالذم والشتم، ومنه قوله تعالى { وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ } [المطففين:1].

التَّب: الخسران والهلاك، والكلام دعاء وتقريع لأبي لهب، دافع الله به عن نبيّه بمثال اللفظ الذي شتم به أبو لهب محمد صلى الله عليه وسلم، جزاءً وفاقًا.

{ **يَدَا** } إسناد التّب إلى اليدين لما روي من أنّ أبا لهب لمّا قال للنبيّ: تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا، أخذ بيده حجرا ليرميه به.

أبو لهب: هو عبد العُزّى بن عبد المطلب وهو عم النبيّ صلى الله عليه وسلم، وكنيته أبو عتبة تكنية باسم ابنه، وأمّا كنيته بأبي لهب في الآية فقيل كان يُكنَّى بذلك في الجاهلية لحسنه وإشراق وجهه.

فسمّاه القرآن بكنيته دون اسمه لأنّ فيها ما يتأتَّى به التوجيه بكونه صائرا إلى النار، لأنّ اللهب ألسنة النار إذا اشتعلت وزال عنها الدخان.

{ **وَتَبَّ** } إمّا معطوفة على جملة { تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ } عطف الدعاء على الدعاء إذا كان إسناد التبات إلى اليدين لأنّهما آلة الأذى بالرمي في الحجارة كما في الخبر، فأعيد الدعاء على جميعه إغلاظا له في الشتم والتقريع، وتفيد بذلك تأكيدا للجملة السابقة.

وإمّا أن تكون في موضع الحال، ولا تكون دعاء إنّما هي تحقيق لحصول ما دعي عليه به. فيكون الكلام قبله مستعملا في الذم والشماتة به أو لطلب الازدياد، ويؤيِّد هذا الوجه قراءة بن مسعود (وقد تبّ).

{ **مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ** } [2].

استئناف ابتدائي للانتقال من إنشاء الشتم والتوبيخ إلى الإعلام بأنّه آيس من النجاة من هذا التّبات، ولا يغنيه ماله، ولا كسبه. والتعبير بالماضي لتحقيق وقوع عدم الإغناء.

{ **مَا** } نافية، ويجوز أن تكون استفهامية للتوبيخ والإنكار.

المال: الممتلكات، وغلب على العرب إطلاقه على الإبل، وأهل المدينة وخيبر والبحرين يغلب عندهم على النخيل، وتقدّم عند قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ } [البقرة:29].

{ **وَمَا كَسَبَ** } موصول وصلته والعائد محذوف جوازا لأنّه ضمير نصب، والتقدير: وما كسبه، أي: ما جمعه. والمراد به: ما يملكه من غير النعم من نقود وسلاح وربْع وعروض وطعام.

روي عن ابن مسعود أنّ أبا لهب قال: إن كان ما يقول ابن أخي حقًّا فأنا افتدي نفسي يوم القيامة بمالي وولدي فأنزل الله { مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ }.

{ **سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ** } [3].

بيان لجملة { مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ }، أي: لا يُغني عنه شيء من عذاب جهنم. ونزل هذا القرآن في حياة أبي لهب وقد مات بعد ذلك كافرا، فكانت هذه الآية إعلاما بأنّه لا يسلم، وكانت من دلائل النبوّة.

يصلى نارا: يُشوى بها ويحسّ بإحراقها. وأصل الفعل: صَلاَهُ بالنار، إذا شواه ثم جاء منه صَلِيَ.

والسين للتحقيق، مثل قوله تعالى { قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي } [يوسف:98].

{ **ذَاتَ لَهَبٍ** } وُصفت النار بـذلك لزيادة تقرير المناسبة بين اسمه وبين كفره.

{ **وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ [4] فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ [5]** }.

أُعقِب ذمّ أبي لهب ووعيده بمثل ذلك لامرأته لأنّها كانت تشاركه في أذى النبيّ صلى الله عليه وسلم.

امرأته: هي أم جميل، واسمها أروى بنت حرب بن أمية وهي أخت أبي سفيان بن حرب.

{ **حَمَّالَةَ الْحَطَبِ** } وكانت تحمل حطب العضاه والشوك فتضعه في الليل في طريق النبيّ صلى الله عليه وسلم الذي يسلك منه إلى بيته ليعقر قدميه. فلما حصل لأبي لهب وعيد مقتبس من كنيته جُعل لامرأته وعيد مقتبس لفظه من فعلها، فأُنذرت بأنّها تحمل الحطب في جهنم ليوقد به على زوجها، وذلك خزي لها ولزوجها إذ جعل شدة عذابه على يد أحب الناس إليه. ويحتمل أنّه إيماء إلى تعليل تعذيبها بذلك.

{ **فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ** } صفة ثانية أو حال ثانية وذلك إخبار بما تُعامل به في الآخرة، أي: يُجعل لها حبل في عنقها تحمل فيه الحطب في جهنم لإسعار النار على زوجها جزاء مماثلا لعملها في الدنيا.

الجيد: العنق، وغلب في الاستعمال على عنق المرأة وعلى محلّ القلادة منه.

الحبل: ما تُربط به الأشياء. وتقدّم في قوله تعالى { وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا } [آل عمران:103].

المسد: ليف من ليف اليمن شديد، والحِبال التي تفتل منه تكون قوية وصُلبة.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الإخلاص

المشهور في تسميتها في عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم وفيما جرى من لفظه، وفي أكثر ما روي عن الصحابة تسميتها (**سورة قل هو الله أحد**).

روى الترمذي عن أبي هريرة، وروى أحمد عن أبي مسعود الأنصاري وعن أمِّ كلثوم بنت عقبة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **" قل هو الله أحد تعدل ثلثَ القرآن "**. وهو ظاهر في أنّه أراد تسميتها بتلك الجملة لأجل تأنيث الضمير من قوله (**تعدل**) فإنّه على تأويلها بمعنى السورة.

ويؤخذ من حديث البخاري ما يدل على أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **" الله الواحد الصمد ثلث القرآن "**، فذكر ألفاظا تخالف ما تقرأ به، ومحمله على إرادة التسمية.

وسُمِّيت في أكثر المصاحف وفي معظم التفاسير وفي جامع الترمذي (**سورة الإخلاص**)، واشتهر هذا الاسم لاختصاره وجمعه معاني هذه السورة.

وسُمِّيت في بعض المصاحف التونسية (**سورة التوحيد**) لأنّها تشتمل على إثبات أنّه تعالى واحد.

وفي الإتقان أنّها تُسمَّى (**سورة الأساس**) لاشتمالها على توحيد الله وهو أساس الإسلام.

وهي مكية في قول الجمهور، وقال قتادة والضحاك والسدي وأبو العالية والقرظي: هي مدنية، ونُسب كلا القولين إلى ابن عباس.

<u>ومنشأ هذا الخلاف الاختلاف في سبب نزولها:</u>

*/ روى الترمذي عن أُبَي بن كعب، وروى عُبيد العطار عن ابن مسعود، وأبو يعلى عن جابر بن عبد الله أنّ قريشا قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم: انسُب لنا ربك، فنزلت قل هو الله أحد إلى آخرها، فتكون مكية.

*/ وروى أبو صالح عن ابن عباس أنّ عامر بن الطفيل وأربَد بن ربيعة أخا لبيد أتيا النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال عامر: إلام تدعونا؟ قال: **" إلى الله "**، قال: صفه لنا أمن ذهب هو، أم من فضّة، أم من حديد، أم من خشب؟ (يحسب لجهله أنّ الإله صنم كأصنامهم من معدن أو خشب أو حجارة) فنزلت هذه السورة، فتكون مدنية، لأنّهما ما أتياه إلّا بعد الهجرة.

*/ وقال الواحدي أنّ أحبار اليهود (منهم حُيي بن أخطب وكعب بن الأشرف) قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم صف لنا ربك لعلّنا نؤمن بك، فنزلت.

والصحيح أنّها مكية فإنّها جمعت أصل التوحيد، وهو الأكثر فيما نزل من القرآن بمكة، ولعلّ تأويل من قال: إنها نزلت حينما سأل عامر بن الطفيل وأربد، أو حينما سأل أحبار اليهود: أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ عليهم هذه السورة، فظنّها الراوي نزلت ساعتئذ أو لم يضبط الرواة عنهم عبارتهم تمام الضبط.

وعلى الأصح من أنّها مكية **عُدَّت السورة الثانية والعشرون** في عداد نزول السور نزلت بعد سورة الناس وقبل سورة النجم.

وآياتها أربع عند أهل العدد بالمدينة والكوفة والبصرة، وعند أهل مكة والشام خمس.

أغراض السورة

*/ إثبات وحدانية الله تعالى.

*/ أنّه لا يُقصد في الحوائج غيره، وتنزيهه عن سمات المحدثات.

*/ إبطال أن يكون له ابن.

*/ إبطال أن يكون المولود إلها مثل عيسى عليه السلام.

{ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ } [1].

افتتاح هذه السورة بالأمر بالقول لإظهار العناية بما بعده. ولذلك الأمر في هذه السورة فائدة أخرى، وهي أنّها نزلت على سبب قول المشركين: انسُب لنا ربك، فكانت جوابا عن سؤالهم.

{ **هُوَ** } ضمير الشأن لإفادة الاهتمام بالجملة التي بعده، وإذا سمعه الذين سألوا تطلَّعوا إلى ما بعده.

ويجوز أن يكون { هُوَ } أيضا عائدا إلى (الربّ) في سؤال المشركين حين قالوا: انسُب لنا ربك.

{ **اللَّهُ** } اسمه تعالى العَلَم ابتُدئ به قبل إجراء الأخبار عليه ليكون ذلك طريق استحضار صفاته كلّها عند التخاطب بين المسلمين وعند المُحاجَّة بينهم وبين المشركين، فإنّ هذا الاسم معروف عند جميع العرب فمُسمَّاه لا نزاع في وجوده ولكنّهم كانوا يصفونه بصفات تنزَّه عنها.

{ **أَحَدٌ** } اسم بمعنى واحد. وأصل همزته الواو، فيقال: وَحَد كما يقال أحد. وهو صفة مشبهة، مثل حسن، تفيد تمكّن الوصف في موصوفها بأنّه ذاتي له، فلذلك أوثر { أَحَدٌ } هنا على واحد لأنّ واحد اسم فاعل لا يفيد التمكّن.

<u>فوصف الله بأنّه { أَحَدٌ } معناه</u>: أنّه منفرد بالحقيقة التي لوحظت في اسمه العلم وهي الإلهية المعروفة، فإذا قيل: { اللَّهُ أَحَدٌ } فالمراد أنّه منفرد بالإلهية. وإذا قيل: الله واحد، فالمراد أنّه واحد لا متعدّد فمن دونه ليس بإله. ومآل الوصفين إلى معنى نفي الشريك له تعالى في إلهيته.

فلمّا أريد في صدر البعثة إثبات الوحدة الكاملة لله تعليما للناس كلهم، وإبطالا لعقيدة الشرك وُصف الله في هذه السورة بـ { أَحَدٌ } ولم يوصف بـ (واحد) لأنّ الصفة المشبّهة نهاية ما يمكن به تقريب معنى وحدة الله تعالى إلى عقول أهل اللسان العربي المبين.

و قد فهم المسلمون هذا، فقد روي أنّ بلالا كان إذا عُذِّب على الإسلام يقول: أحد أحد. وكان شعار المسلمين يوم بدر: أحد أحد.

والمعنى: أنّ الله منفرد بالإلهية لا يشاركه فيها شيء من الموجودات. وهذا إبطال للشرك الذي يدين به أهل الشرك، وللتثليث الذي أحدثه النصارى المَلْكانية، وللثانوية عند المجوس، وللعدد الذي لا يُحصى عند البراهمة. فقوله تعالى { اللَّهُ أَحَدٌ } نظير قوله تعالى { إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ } [النساء:171].

{ اللَّهُ الصَّمَدُ } [2].

جملة ثانية محكيّة بالقول المحكي به جملة { اللَّهُ أَحَدٌ }، فهي خبر ثانٍ عن الضمير. والخبر المتعدِّد يجوز عطفه وفصله، وإنّما فُصلت عن التي قبلها لأنّ هذه الجمل مسوقة لتلقين السامعين. ولهذا الاعتبار وقع إظهار اسم الجلالة وكان مقتضى الظاهر أن يقال: هو الصمد.

{ الصَّمَدُ } السيّد الذي لا يُستغنى عنه في المهمّات، وهو سيد القوم المطاع فيهم. قال في الكشاف: وهو فعل بمعنى مفعول من: صمد إليه، إذا قصده، فالصمد المصمود في الحوائج.

قلت: ونظيره السند الذي تُسند إليه الأمور المهمة.

من صفات الله، والله هو الصمد الحق الكامل الصمدية على وجه العموم. فالصمد من الأسماء التسعة والتسعين في حديث أبي هريرة عند الترمذي. ومعناه: المفتقر إليه كل ما عداه، فالمعدوم مفتقر وجوده إليه والموجود مفتقر في شؤونه إليه.

{ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ } [3].

{ لَمْ يَلِدْ } خبر ثانٍ عن اسم الجلالة من قوله تعالى { اللَّهُ الصَّمَدُ }، أو حال من المبتدأ، أو بدل اشتمال من الجملة، لأنّ من يُصمد إليه لا يكون من حاله أن يلد، لأنّ طلب الولد لقصد الاستعانة به في إقامة شؤون الوالد وتدارك عجزه، ولذلك استُدل على إبطال قولهم { اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا } بإثبات أنّه الغني في قوله تعالى { قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ } [يونس:68].

فبعد أن أبطلت الآيةُ الأولى من هذه السورة تعدُّد الإله بالأصالة والاستقلال، أبطلت هذه الآية تعدُّد الإله بطريق تولُّد إله عن إله، لأنّ المتولِّد مساو لما تولَّد عنه. وهو برهان التمانع، ولأنّه لو تولَّد عن الله موجود آخر للزم انفصال جزء عن الله تعالى وذلك مناف للأحدية كما علمت آنفا.

{ وَلَمْ يُولَدْ } عطف على جملة { لَمْ يَلِدْ }، أي: ولم يلده غيره، وهي بمنزلة الاحتراس سدا لتجويز أن يكون له والد. وقُدِّم نفي الولد لأنّه أهم، إذ قد نسب أهل الضلالة الولد إلى الله تعالى ولم ينسبوا إليه والدا. وفيه الإيماء إلى أنّ من يكون مولودا مثل عيسى لا يكون إلها، لأنّه لو كان الإله مولودا لكان وجوده مسبوقا بعدم لا محالة وذلك محال لأنه لو كان مسبوقا بعدم لكان مفتقرا إلى من يخصِّصه بالوجود.

إبطال أن يكون الله والدا لمولود، أو مولودا من والد بالصراحة.

{ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ } [4].

في معنى التذييل للجمل التي قبلها لأنّها أعمّ من مضمونها، لأنّ تلك الصفات المتقدِّمة، صريحها وكنايتها وضمنيها، لا يشبهه فيها غيره، مع إفادتها انتفاء شبيه له فيما عداها مثل صفات الأفعال، كما قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ } [الحج:73].

والواو اعتراضية، وهي واو الحال.

الكُفُؤ: بتحقيق الهمزة وتسهيلها. ومعناه: المساوي والمماثل في الصفات.

{ **لَهُ كُفُوًا** } تقديم المجرور على متعلّقه للاهتمام باستحقاق الله نفي كفاءة أحد له.

{ **أَحَدٌ** } هنا بمعنى إنسان أو موجود، وهو من الأسماء النكرات الملازمة للوقوع في حيز النفي.

وحصل بهذا جناس تام مع قوله تعالى { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ }.

فضل هذه السورة

وردت في فضل هذه السورة أخبار صحيحة وحسنة استوفاها المفسّرون. وثبت في الحديث الصحيح في الموطأ والصحيحين من طرق عدّة: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **" قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن "**.

واختلفت التأويلات ويجمعها أربعة:

<u>الأول:</u> أنّها تعدل ثلث القرآن في ثواب القراءة، أي: تعدل ثلث القرآن إذا قرئ بدونها، حتّى لو كرَّرها القارئ ثلاث مرات كان له ثواب من قرأ القرآن كلّه.

<u>الثاني</u>: أنّها تعدل ثلث القرآن إذا قرأها من لا يحسن غيرها من سور القرآن.

<u>الثالث</u>: أنّها تعدل ثلث معاني القرآن باعتبار أجناس المعاني لأنّ معاني القرآن أحكام وأخبار وتوحيد، وقد انفردت هذه السورة بجمعها أصول العقيدة الإسلامية ما لم يجمعه غيرها.

وأقول: إنّ ذلك كان قبل نزول آيات مثلها مثل آية الكرسي.

<u>الرابع</u>: أنّها تعدل ثلث القرآن في الثواب مثل التأويل الأول ولكن لا يكون تكريرها ثلاث مرات بمنزلة قراءة ختمة كاملة.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفلق

سَمَّى النبيّ صلى الله عليه وسلم هذه السورة { **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ** }. روى النسائي عن عقبة بن عامر قال: اتبعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو راكب فوضعتُ يدي على قدمه فقلت: أقرئني يا رسول الله سورة هود وسورة يوسف، فقال: **" لن تقرأ شيئا أبلغ عند الله من** { قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ } و{ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ }. وهذا ظاهر في أنّه أراد سورة { قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ }.

وعنونها البخاري في صحيحه (**سورة قل أعوذ برب الفلق**) بإضافة سورة إلى أوّل جملة منها.

وجاء في بعض كلام الصحابة تسميتها مع سورة الناس (**المعوذتين**). روى أبو داود والترمذي وأحمد عن عقبة بن عامر قال: أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقرأ بالمعوِّذات، أي: آيات السورتين. وفي رواية: " بالمعوذتين في دبر كل صلاة ".

ولم يذكر أحد من المفسرين أن الواحدة منهما تُسمَّى المعوذة بالإفراد.

وسُمِّيت في أكثر المصاحف ومعظم كتب التفسير (**سورة الفلق**).

وفي القرطبي والكشاف: أنّها وسورة الناس تسمَّيان (**المقشقشتين**). أي: تبرِّئان من النفق.

فيكون اسم المقشقشة مشتركا بين أربع سور: هذه، وسورة الناس، وسورة التوبة، وسورة الكافرون.

<u>واختُلف فيها أمكية هي أم مدنية،</u> فقال جابر بن زيد والحسن وعطاء وعكرمة: مكية، ورواه كريب عن ابن عباس. وقال قتادة: هي مدنية، ورواه أبو صالح عن ابن عباس.

والأصح أنّها مكية لأنّ رواية كريب عن ابن عباس مقبولة بخلاف رواية أبي صالح عن ابن عباس.

وقد قيل: إنّ سبب نزولها والسورة بعدها: أنّ قريشا ندبوا، أي: ندبوا من اشتهر بينهم أنّه يصيب النبيّ صلى الله عليه وسلم بعينه فأنزل الله المعوذتين ليتعوّذ منهم بهما.

وعُدَّت العشرين في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة الفيل وقبل سورة الناس.

وعدد آياتها خمس بالاتفاق.

أغراض السورة

*/ تعليم النبيّ صلى الله عليه وسلم كلمات للتعوّذ بالله من شر ما يُتَّقى شرّه من المخلوقات الشريرة، والأوقات التي يكثر فيها حدوث الشر. فعلَّم الله نبيه هذه المعوّذة ليتعوّذ بها، وقد ثبت أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يتعوّذ بهذه السورة وأختها ويأمر أصحابه بالتعوّذ بهما، فكان التعوذ بهما من سنة المسلمين.

{ **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ** [1] **مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ** [2] }.

الأمر بالقول يقتضي المحافظة على هذه الألفاظ لأنّها التي عيّنها الله للنبيّ صلى الله عليه وسلم ليتعوَّذ بها فإجاباتها مرجوّة، إذ ليس هذا المقول مشتملا على شيء يُكلَّف به أو يُعمل حتّى يكون المراد: قل لهم كذا، كما في قوله تعالى { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ } [الإخلاص:1]، وإنّما هو إنشاء معنى في النفس تدلّ عليه هذه الأقوال الخاصة.

وقد روي عن ابن مسعود أنّه سأل النبيّ صلى الله عليه وسلم عن المعوذتين فقال: **" قيل لي: قل، فقلت لكم فقولوا "**. يريد بذلك المحافظة على هذه الألفاظ للتعوّذ، وإذ قد كانت من القرآن فالمحافظة على ألفاظها متعيّنة، والتعوّذ يحصل بمعناها وبألفاظها حتّى كلمة { قُلْ }.

{ **قُلْ** } الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم، وإذا قد كان قرآنا كان خطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم به يشمل الأمّة حيث لا دليل على تخصيصه به، فلذلك أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه بالتعوّذ بهذه السورة، ولذلك أيضا كان يعوّذ بهما الحسن والحسين، كما ثبت في الصحيح.

العَوذ: اللجأ إلى شيء يقي من يلجأ إليه ما يخافه، يقال: عاذ بفلان، وعاذ بحصن، ويقال: استعاذ، إذا سأل غيره أن يعيذه، قال تعالى { فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [الأعراف:200]. وعاذ من كذا، إذا صار إلى ما يعيذه منه، قال تعالى { فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } [النحل:98].

{ **الفلق** } الصبح، وهو فعل بمعنى مفعول. شُبِّه الليل بشيء مغلق ينفلق عن الصبح، وحقيقة الفلق الانشقاق عن باطن شيء، واستعير لظهور الصبح بعد ظلمة الليل. وهذا مثل استعارة (الإخراج) لظهور النور بعد الظلام في قوله تعالى { وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا } [النازعات:29]، واستعارة (السلخ) له في قوله تعالى { وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ } [يس:37].

رب الفلق: هو الله، لأنّه الذي خلق أسباب ظهور الصبح، وتخصيص وصف الله بأنّه رب الفلق دون وصف آخر لأنّ شرا كثيرا يحدث في الليل؛ من لصوص، وسباع، وذوات سموم، وتعذّر السير، وعسر النجدة، وبعد الاستغاثة واشتداد آلام المرضى، حتّى ظن بعض أهل الضلالة الليل إله الشرّ.

المعنى: أعوذ بفالق الصبح منجاة من شرور الليل، فإنّه قادر على أن ينجيني في الليل من الشر كما أنجي أهل الأرض كلهم بأن خلق لهم الصبح، فوُصف الله بالصفة التي فيها تمهيد للإجابة.

{ **وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ** } [3].

عطف أشياء خاصة هي ممّا شمله عموم { مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ } [2]، وهي ثلاثة أنواع من أنواع الشرور:

الأوّل: وقت يغلب وقوع الشر فيه وهو الليل.

الثاني: صنف من الناس أقيمت صناعتهم على إرادة الشرّ بالغير.

الثالث: صنف من الناس ذو خلق من شأنه أن يبعث على إلحاق الأذى بمن تعلَّق به.

{ وَمِنْ شَرِّ } أعيدت الكلمة بعد حرف العطف في هذه الجملة وفي الجملتين المعطوفتين عليها، مع أنّ حرف العطف مغنٍ عن إعادة العامل، قصدا لتأكيد الدعاء تعرُّضًا للإجابة.

وهذا من الابتهال فيناسبه الإطناب.

الغاسق: الليل إذا اشتدّت ظلمته، يقال: غَسَق الليل يغسِق، ذا أظلم، قال تعالى { إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ } [الإسراء:79]. فالغاسق صفة لموصوف محذوف لظهوره من معنى وصفه.

{ غَاسِقٍ } التنكير في مقام الدعاء يراد به العموم، لأنّ مقام الدعاء يناسب التعميم.

{ إِذَا وَقَبَ } أي: إذا اشتدت ظلمته، والتقييد بذلك الظرف لأنّ ذلك وقت يتحيَّنه الشطّار وأصحاب الدعارة والعبث، يقال: أغدر الليلُ، لأنّه إذا اشتد ظلامه كثر الغدر فيه، فعُبِّر عن ذلك بأنّه أغدر.

{ وَقَبَ } دخل وتغلغل في الشيء، ومنه الوَقْبة: اسم النقرة في الصخرة يجتمع فيها الماء، ووقبت الشمس غابت. خُصَّ بالتعوُّذ أشد أوقات الليل توقُّعا لحصول المكروه.

{ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ } [4].

هذا النوع الثاني من الأنواع الشرور، عُطف على شر الليل لأنّ الليل وقت يتحيّن فيه السحرة إجراء شعوذتهم لئلَّا يطّلع عليهم أحد.

النفث: نفخ مع تحريك اللسان بدون إخراج ريق فهو أقل من التفل، يفعله السحرة إذا وضعوا علاج سحرهم في شيء وعقدوا عليه عُقَدًا ثم نفثوا عليها.

{ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ } النساء الساحرات، وإنّما جيء بصفة المؤنث لأنّ الغالب عند العرب أن يتعاطى السحر النساء لأنّ نساءهم لا شغل لهن بعد تهيئة لوازم الطعام والماء والنظافة، فلذلك يكثر انكبابهن على مثل هاته السفاسف من السحر والتكهّن ونحو ذلك، فالأوهام الباطلة تتفشى بينهنّ، وكان العرب يزعمون أن الغول ساحرة من الجن.

{ الْعُقَدِ } جمع عقدة وهي ربط في خيط أو وتر يزعم السحرة أنّ سحر المسحور يستمر ما دامت تلك العقدة معقودة، ولذلك يخافون من حلّها فيدفنونها أو يخبئونها في محل لا يُهتدى إليه.

أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالاستعاذة من شر السحرة لأنّه ضمن له أن لا يلحقه شر السحرة، وذلك إبطال لقول المشركين في أكاذيبهم إنّه مسحور، قال تعالى { وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا } [الفرقان:8].

وجملة القول هنا: أنّه لما كان الأصح أنّ السورة مكية فإنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم مأمون من أن يصيبه شر النفاثات، لأنّ الله أعاذه منها.

السحر: بسطنا القول فيه عند قوله تعالى { يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ } [البقرة:102].

{ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ } [5].

عُطف شر الحاسد على شر الساحر المعطوف على شر الليل، لمناسبة بينه وبين المعطوف عليه مباشرة وبينه وبين المعطوف عليه بواسطته، فإنّ ممّا يدعو الحاسد إلى أذى المحسود أن يتطلَّب حصول أذاه لتوهّم أنّ السحر يزيل النعمة التي حسده عليها، ولأنّ ثوران وجدان الحسد يكثر في وقت الليل.

الحسد: إحساس نفساني مركَّب من استحسان نعمة في الغير مع تمنّي زوالها عنه.

وقد يُطلق اسم الحسد على الغبطة مجازا. والغبطة تمنّي المرء أن يكون له من الخير مثل ما لمن يروق حاله في نظره، وهو محمل الحديث الصحيح: **" لا حسد إلّا في اثنتين "**، أي: لا غبطة.

وقد كان الحسد أوّل أسباب الجنايات في الدنيا إذ حسد أحد ابني آدم أخاه على أن قُبل قرباه ولم يُقبل منه، كما قصه الله تعالى في [المائدة:27].

{ إِذَا حَسَدَ } تقييد الاستعاذة من شره بوقت الفعل لأنّه حينئذ يجيش الحسد في نفسه فتتحرك له الحيل والنوايا لإلحاق الضر به.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النّاس

تقدّم عند تفسير سورة الفلق أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم سمَّى سورة الناس { **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ** }.

وعنونها البخاري في صحيحه (**سورة قل أعوذ برب الناس**).

وفي مصاحفنا القديمة والحديثة المغربية والمشرقية تسمية هذه السورة (**سورة الناس**)، وكذلك أكثر كتب التفسير.

وهي مكية في قول الذين قالوا في سورة الفلق إنّها مكية، ومدنية في قول الذين قالوا في سورة الفلق إنّها مدنية. والصحيح أنّهما نزلتا متعاقبتين، فالخلاف في إحداهما كالخلاف في الأخرى.

وعلى الصحيح من أنّها مكية فقد **عُدَّت الحادية والعشرين** من السور، نزلت عقب سورة الفلق وقبل سورة الإخلاص.

وعَدُّ آيها ست آيات.

أغراض السورة

*/ إرشاد النبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّ يتعوَّذ بالله ربّه من شر الوسواس الذي يحاول إفساد عمله، وإفساد إرشاده، ويلقي في نفوس الناس الإعراض عن دعوته.

*/ وفي هذا الأمر إيماء إلى أنّ الله تعالى مُعيذُه من ذلك، فعاصمه في نفسه من تسلّط وسوسة الوسواس عليه، ومُتمِّم دعوته حتّى تعمّ في الناس.

*/ يتبع ذلك تعليم المسلمين التعوّذ بذلك، فيكون لهم من هذا التعوّذ ما هو حظّهم من قابلية التعرُّض إلى الوسواس، ومن السلامة منه بمقدار مراتبهم في الزلفى.

{ **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ [1] مَلِكِ النَّاسِ [2] إِلَهِ النَّاسِ [3] مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ [4] الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ [5] مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ [6]** }.

شابهت فاتحتها فاتحة سورة الفلق إلّا أنّ سورة الفلق تعوُّذ من شرور المخلوقات من حيوان وناس، وسورة الناس تعوُّذ من شرور مخلوقات خفية وهي الشياطين.

والقول في الأمر بالقول، وفي المقول، وفي أنّ الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم، والمقصود شموله أمته، كالقول في نظيره في سورة الفلق سواء.

{ **بِرَبِّ النَّاسِ** } التعريف بالإضافة إلى { النَّاسَ } دون غيرهم من المربوبين لأنّ الاستعاذة من شرٍّ يلقيه الشيطان في قلوب الناس فيَضلُّون ويُضلُّون، فالشرّ المستعاذ منه مَصبُّه إلى الناس، فناسب أن يُستحضر

المستعاذ إليه بعنوان أنّه ربّ من يُلقون الشرّ ومن يُلقى إليهم، ليصرف هؤلاء ويدفع عن الآخرين.

{ **بِرَبِّ النَّاسِ / مَلِكِ النَّاسِ / إِلَهِ النَّاسِ** } رُتِّبت أوصاف الله بالنسبة إلى الناس ترتيبا مدرَّجًا، فإنّ الله خالقهم، ثم هم غير خارجين عن حكمه إذا شاء أن يتصرف في شؤونهم، ثم زيد بيانا بوصف إلهيته لهم ليتبيّن أنّ ربوبيّته لهم وحاكميّته فيهم ليست كربوبيّة بعضهم بعضا وحاكميّة بعضهم في بعض.

{ **النَّاسِ** } اسم جمع للبشر جميعهم أو طائفة منهم، ولا يطلق على غيرهم على التحقيق.

{ **الْوَسْوَاسِ** } المُتكلِّم بالوسوسة، وهي الكلام الخفي. والتعريف تعريف الجنس.

وهو على معنييه المجازي والحقيقي؛ فيشمل الشياطين التي تُلقي في أنفس الناس الخواطر الشريرة، قال تعالى { فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ } [طه:121]، ويشمل كل من يتكلّم كلاما خفيًّا من الناس، وهم أصحاب المكائد والمؤامرات المقصود منها إلحاق الأذى أو إغراء بالضلال والإعراض عن الهدى.

لأنّ شأن مذاكرة هؤلاء بعضهم مع بعض أن تكون سرا لئلا يطّلع عليها من يريدون الإيقاع به، وهم الذين يتربَّصون برسول الله صلى الله عليه وسلم الدوائر ويغرون الناس بأذيته.

{ **الْخَنَّاسِ** } شديد الخنس وكثيره. والمراد أنّه صار عادة له. والخنس والخنوس: الاختفاء.

والشيطان يلقَّب بـ { الْخَنَّاسِ } لأنّه يتّصل بعقل الإنسان وعزمه من غير شعور منه، فكأنّه خنس فيه.

{ **الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ** } وصف لـ { الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ } لتقريب تصوير الوسوسة كي يتَّقيها المرء إذا اعترته لخفائها، وذلك بأن بُيّن أنّ مكان إلقاء الوسوسة هو صدور الناس وبواطنهم، فعُبِّر بها عن الإحساس النفسي، كما قال تعالى { وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ } [الحج:46]، وقال تعالى { إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ } [غافر:56]. وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" الإثم ما حاك في الصدر وتردّد في القلب"**.

وإطلاق فعل { يُوَسْوِسُ } على هذا العمل الشيطاني مجاز إذ ليس للشيطان كلام في باطن الإنسان. وأمّا إطلاقه على تسويل الإنسان لغيره عمل السوء فهو حقيقة.

{ **فِي صُدُورِ النَّاسِ** } تعلّق المجرور بفعل { يُوَسْوِسُ } بالنسبة لوسوسة الشيطان تعلّق حقيقي، وأمّا بالنسبة لوسوسة الناس فهو مجاز عقلي.

{ **مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ** } و{ مِنْ } هنا بيانية، بيَّنت { الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ } بأنّه جنس ينحلُّ باعتبار إرادة حقيقته ومجازه إلى صنفين: صنف من الجنة وهو أصله، وصنف من الناس، وما هو إلّا تبع وولي للصنف الأول، وجمع الله هذين الصنفين في قوله تعالى { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا } [الأنعام:112].

ووجه الحاجة إلى هذا البيان خفاءُ ما ينجرُّ من وسوسة نوع الإنسان، لأنّ الأمم اعتادوا أن يُحذِّرهم المصلحون من وسوسة الشيطان، وربما لا يخطر بالبال أنّ من الوسواس ما هو شر من وسواس الشياطين، وهو وسوسة أهل نوعهم، وهو أشد خطرا وهم بالتعوذ منهم أجدر، لأنّهم منهم أقرب وهو

عليهم أخطر، وأنّهم في وسائل الضر أدخل وأقدر.

وقُدِّم { الْجِنَّةِ } على { النَّاسِ } هنا لأنّهم أصل الوسواس، بخلاف تقديم الإنس على الجن في قوله تعالى { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإنسِ وَالْجِنِّ } [الأنعام:112] لأنّ خبثاء الناس أشد مخالطة للأنبياء من الشياطين، لأنّ الله عصم أنبياءه من تسلّط الشياطين على نفوسهم، قال تعالى { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ } [الحجر:42]. فإنّ الله أراد إبلاغ وحيه لأنبيائه فزكّى نفوسهم من خبث وسوسة الشياطين، ولم يعصمهم من لحاق ضر الناس بهم والكيد لهم لضعف خطره.

والله يكفينا شر الفريقين، وينفعنا بصالح الثقلين.

تم تفسير (سورة الناس) وبه تم تفسير القرآن العظيم.

يقول محمد الطاهر ابن عاشور: قد وفيت بما نويت، وحقق الله ما ارتجيت فجئت بما سمح به الجهد من بيان معاني القرآن ودقائق نظامه وخصائص بلاغته، ممّا اقتبس الذهن من أقوال الأئمة، واقتدح من زَنْدٍ لإنارة الفكر وإلهاب الهمَّة، وقد جئت بما أرجو أن أكون وفِّقت فيه للإبانة عن حقائق مغفول عنها، ودقائق ربما جَلَتْ وجوها ولم تَجْلُ كُنْهًا، فإن هذا منال لا يبلغ العقل البشري إلى تمامه.

وكان تمامه عصر يوم الجمعة الثاني عشر من شهر رجب عام ثمانين وثلاثمائة وألف (1308هـ).

بمنزلي ببلد المرسى شرقي مدينة تونس.

فكانت مدة تأليفه تسعا وثلاثين سنة وستة أشهر. وهي حقبة لم تخلو من أشغال صارفة، ومؤلفات أخرى أفنانها وارفة.

وأرجو منه تعالى لهذا التفسير أن ينجد ويغور، وأن ينفع به الخاصة والجمهور، ويجعلني به من الذين يرجون تجارة لن تبور.